روايات عالمية للجيب

السلسلة الكاملة

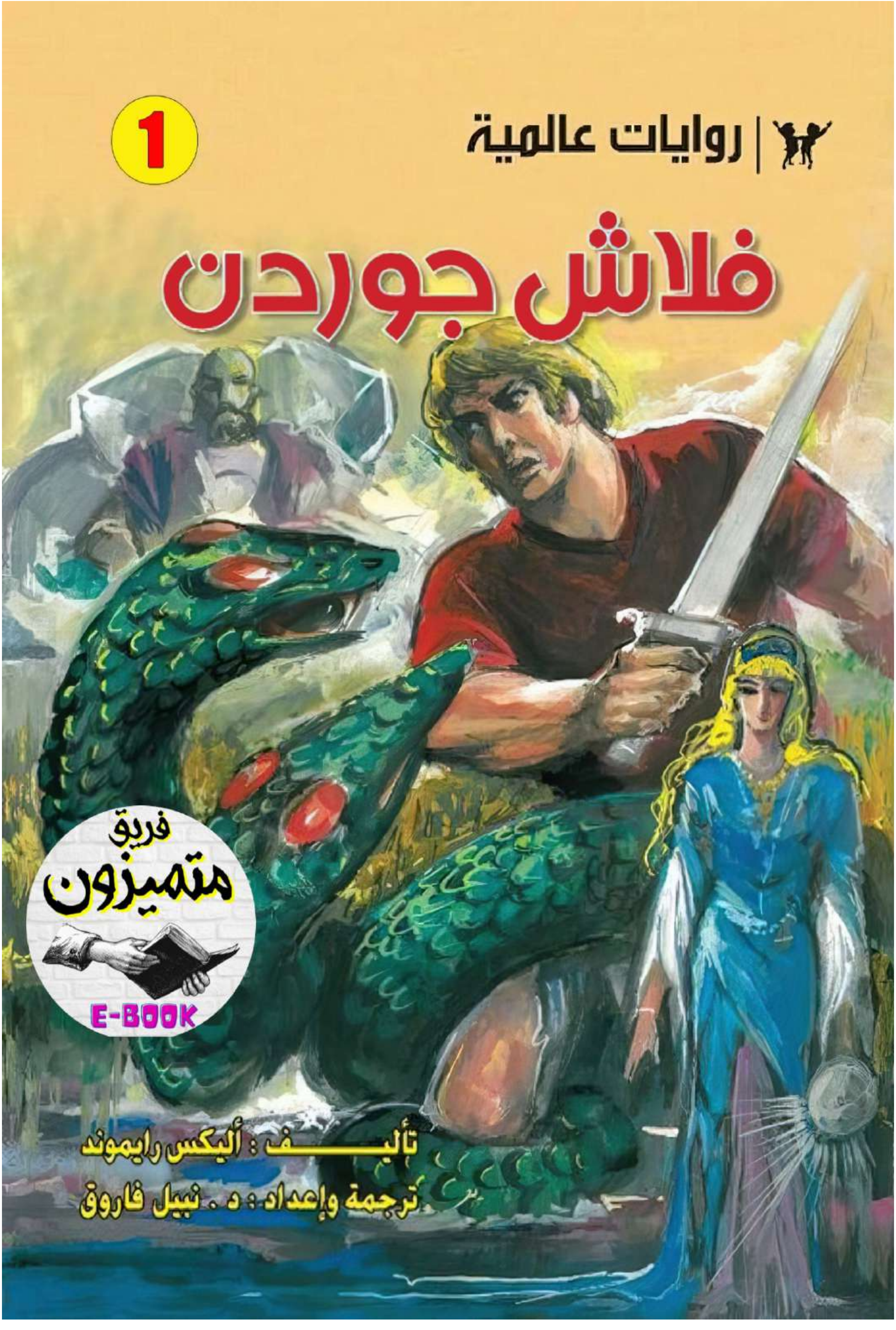
من (١) الى (٨٣)

بقلم:

د. نبيل فاروق

د. أحمد خالد توفيق




روايات عالمية
1
فلاش جوردن
فريق
متميزون
E-BOOK
تأليـــف : أليكس رايموند
ترجمة وإعداد : د . نبيل فاروق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (01)

فلاش جوردن

تأليف : أليكسن رايموند.
إعـداد: د. نبيـل فاروق.

سلسلة روايات عالمية للجيب ، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي ، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

1- نهاية العالم.

كانت ليلة هادئة دافئة، من ليالي (أغسطس)، استقل فيها عاشقان زورقا صغيرا، وتركاه ينساب في صمت وهدوء، على سطح واحدة من بحيرات (ميتشجن) الأمريكية، وقد أسندت الفتاة رأسها على صدر الفتى، وراحا يراقبان معًا النجوم الساطعة في السماء، وقد حمل وجهاهما مزيجا من السعادة والحب، وهمس الفتي في هيام:

ـ يا لها من نجوم رائعة، تبدو كعقد من لؤلؤ، علي جيد السماء!!

تنهدت الفتاة في عمق، وداعبت كف الفتى بأناملها الرقيقة، وهي تقول في همس حالم :

ـ بل هي مصابيح رقيقة، في فراغ الكون...

وأشارت إلى نجم أكثر تألقا، وهي تستطرد :

ـ وها هو ذا نجم الحب.

تطلع الفتى إلى حيث أشارت، وقال :

ـ عجبا !! كيف لم الحظ وجود هذا النجم الساطع من قبل؟

وضاقت عيناه، وهو يحدق في النجم باهتمام بالغ، مستطردا :

ـ يخيل إلى أن نجما آخر قد انفصل عنه.

اعتدلت الفتاة، وقالت في قلق :

ـ بل هي عدة نجوم أصغر حجما.. عجبًا!

لم أر مثل هذه الظاهرة الفريدة من قبل..

راحا يراقبان ـ في توتر ـ سيل النجوم الصغيرة الدقيقة، التي انفصلت عن النجم الأول، واندفعت نحو الأرض في سرعة

وانتشار كبيرين، حتى بدت كمظلة لامعة مضيئة، تظلل الأرض، والتصقت الفتاة بفتاها، وهي تقول في خوف :

ـ يا إلهي! ... أحد النجوم يتجه إلينا..

ضمها إلى صدره، وهو يغمغم :

ـ اطمئني يا عزيزتي.. إنه خداع بصرى فحسب و.

ولكن ارتجافة جسده منعته من إقناعها، والنجم يكبر ويقترب. ويزداد تألقا وضياء، حتى أضيئت السماء كلها بضوئه، وصرخت الفتاة في رعب

ـ إنه نيزك.

صرخ الفتي :

ـ لا بد أن نبتعد.. لابد.. لابد.. إنه يتجه إلى..

انقطعت عبارته مع ذلك الدوي الهائل، الذي صم آذان سكان المنطقة كلها، عندما ارتطم النيزك بالبحيرة، وسحق العاشقين وزورقهما سحقا، قبل أن يغوص في مياه البحيرة، التي راحت تفور وتغلى حوله وفوقه دقائق طويلة، ثم لم تلبث أن هدأت واستكانت، وعاد إلى المنطقة صمتها وظلامها، ومظلة النيازك تتألق في السماء وسط النجوم.. وتضرب نصف بقاع الأرض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ـ نيازك، وزلازل، وعواصف، وبراكين.. تماما كما قدرت . . .

غمغم العالم السوفيتي الأصل، الأمريكى الجنسية (هانز زوركوف) بهذه العبارة، وهو يراجع حسابات طويلة معقدة، ملأت ذلك اللوح الأسود المواجه له، قبل أن يلوح بكفه، ويهتف محنقا :

ـ وهؤلاء الأغبياء يرفضون تصديق نظريتى، ويتمسكون بعناد غبى..
تردد مساعده، قبل أن يقول :
ـ الواقع يا سيدي أنهم يصفونك أنت بالعناد.
التفت إليه (زوركوف) بحركة حادة، وبدا بلحيته وشاربه وشعره الأشعث أشبه بقرصان أشقر، من قراصنة العصور الوسطى، خاصة وهو يصرخ غاضبا :
ـ أنا.. يصفونني أنا بالعناد؟ !
تراجع المساعد في خوف، وهو يقول :
ـ هذه الحقيقة يا سيدي.. فأنت ترفض كل نظرياتهم، أو تجادلها على الأقل، ثم إنك قد اعتزلت العالم كله، في هذا المعمل الفريد وسط الأدغال و.
قاطعه (زوركوف) هادرا :
ـ لأنهم أغبياء متخلفون.. لا يرون ما هو أبعد من أنوفهم. لقد رفضوا نظرياتي الخاصة ببناء الصواريخ.. أليس كذلك؟ كيف يمكنك أن تصف هذا إذن؟
قالها وضغط زرا صغيرا في جدار معمله الخاص، فانزاح الحائط المقابل، كاشفا عن صاروخ متوسط الحجم، يحمل كبسولة فضاء بسيطة، استطرد (زوركوف) في حدة، وهو يشير إليها :
ـ انظر جيدا.... ها هو ذا صاروخ مثالى، لم يتكلف أكثر من ربع مليون دولار، ويحمل كبسولة خاصة، يمكنها أن تضم ثلاثة رواد فضاء..
ألا يكفيهم هذا.؟ ألا يكفيهم أني قد صنعت صاروخا، بأقل من عشر نفقة بناء أي صاروخ من صواريخهم؟ وأني أستخدم البنزين العادي وقودا له، بعد تحويله بأسلوبي الخاص إلى وقود نووى؟

غمغم المساعد، وقد راوده شعور بالندم، على إقحام نفسه في هذا الأمر :
لقد أبدوا استعدادهم لتفهم هذا، ودراسة صاروخك يا سيدى، ولكن نظريتك الأخيرة تبدو للجميع بعيدة عن الواقع و ٠٠
قاطعه (زوركوف) في ثورة :
ـ حتى انت؟ ! حتى أنت تقول إنها بعيدة عن الواقع؟ ! يا لك من غبى جاحد.. ألم تفهم سر ما يصيب العالم منذ أيام؟ ذلك السيل من النيازك الملتهبة، والبراكين التي تتفجر بغتة، بعد سكون قرون وقرون، والزلازل، والعواصف و.
قاطعه مساعده هذه المرة :
ـ يقول البعض إنها نهاية العالم.
صرخ (زوركوف):
ـ خطأ.
ثم قفز إلى جهاز قريب، وأشار إليه، مستطردا في انفعال :
ـ انظر إلى هذا الذي التقطته أجهزتنا.. إنها آثار شعاع خاص، يهبط من ذلك النجم الساطع، كلما أصابت الأرض كارثة من الكوارث.. ألا يعنى لك هذا شيئا؟
بدا القلق على وجه المساعد، وهو يغمغم :
ـ وما المفروض أن يعنيه بالضبط؟
رفع (زوركوف) ذراعيه عاليا، حتى بدا أشبه بممثل مسرحي مخضرم، يؤدي دور الملك (لير)، في مسرحية (شكسبير) الشهيرة، وهو يهتف :
- يعني أن هذا النجم مسكون بقوم أذكياء أشرار، يسعون إلى إحاطتنا بكل أنواع الكوارث والمصائب، واعتدل مرخيا ذراعيه، ومستطردا في صرامة :
- أو أنها طليعة غزو.. غزو من الفضاء الخارجي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هطلت الأمطار في غزارة، فوق ذلك المطار الصغير، في (لوس أنجلوس)، وهتفت (دايل)، مندوبة العلاقات العامة، لواحدة من أكبر الشركات الأمريكية، وهي تعدو تحت وابل المطر، متجهة إلى طائرة صغيرة، رابضة على أرض المطار :

- يا له من جو عجيب ! كيف تمطر الدنيا بكل هذه الغزارة. في منتصف أغسطس؟

امتدت يد من داخل الطائرة، تلتقط كفها، وتعاونها على الصعود، وصاحبها يقول في هدوء :

- إنها ليست الظاهرة الوحيدة المثيرة للقلق هنا.

صعدت داخل الطائرة الصغيرة، ونفضت الماء عن ثوبها، وهي تقول في حنق :

- صدقت.

ثم رفعت عينيها إلى صاحب اليد التي جذبتها داخل الطائرة، وتطلعت إليه في حيرة.

كان وسيما بحق رياضى القوام، أشقر الشعر. حليق الوجه، له عينان زرقاوان. في لون السماء الصحو، وكان يرتدي قميصًا أحمر اللون وسروالا أبيض، ويحمل على كتفه سترة جلدية سوداء، فابتسمت متمتمه :

. تبدو لي أشبه بتلفاز ملون حديث.

قال في بساطة :

- أما أنت. فتبدين لي فاتنة.

أدهشها أسلوبه المباشر، فقالت في صرامة :

ـ هل يحق للطيارين مغازلة الراكبات على طائراتكم؟

ابتسم وهو يقول :
- مطلقا.
قالت وهي تجلس على مقعدها، وتربط حزام المقعد حول وسطها في حزم :
- من المفيد أن تدرك هذا.
كادت تسترخي في مقعدها، لولا أن أضاف هو :
- ولكن هذا لا يمنع كونك فاتنة.
اعتدلت تتطلع إليه في دهشة واستنكار، فأضاف مبتسما بنفس البساطة :
إنك تمتلكين شعرا أسود اللون، يذكرنى بسماء بلا نجوم، وعينين سوداوين يتناسبان تماما مع شعرك الناعم الجميل، وأنفا وفما دقيقين، و.
هتفت في حدة :
- من سمح لك بأن تصفني هكذا؟
أشار إلى صدره، قائلا في هدوء :
- قلبي هذا.
عقدت حاجبيها في غضب، وهي تهتف :
- ألم تقل إن الطيارين لا يمكنهم
بترت عبارتها بغتة، عندما تراجع جسدها بغتة، ليرتطم بظهر مقعدها، وهتفت في دهشة :
- ما هذا؟
هز كتفيه في بساطة، قائلا :
- لا شيء.. فقط أقلعت الطائرة.
صرخت ذاهلة مستنكرة :
ـ أقلعت؟ ! كيف؟ من يقودها؟
قال ضاحكا :

ـ الطيار ٠٠ ومن غيره؟
حدقت في وجهه بدهشة، وقالت :
- من أنت إذن؟
حل حزام مقعده في هدوء، وهو يقول :
- (فلاش جوردن).. الظهير الأيسر لفريق الرجبي القومي الأمريكى.
ظلت تحدق في وجهه بنفس الدهشة لحظات، ثم قالت ساخطة :
وكيف سمحت لنفسك بمصاحبتي في طائرة خاصة يا سيد (جوردن)؟
هز كتفيه، قائلا :
- الجو سيئ كما ترين، ولقد تسبب في إلغاء رحلة طائرتي، ومن المحتم أن ألحق بفريقي في (مانهاتن).
هتفت محنقة :
وكيف سمحوا لك بركوب الطائرة؟
ضحك قائلا :
- كان هذا سهلا للغاية.. لقد أخبرتهم انى رئيسك في العمل.
صرخت :
- ماذا؟ ! كيف جرؤت على أن ٠٠
انقطعت عبارتها بغتة بارتجاجه قوية عنيفة، أصابت الطائرة، التي مالت فجأة على جانبها الأيسر، وراحت تهبط في سرعة مذهلة، جعلت (دايل) تصرخ في رعب :
ماذا حدث؟
ألقى (فلاش) نظرة عبر نافذة الطائرة المجاورة له، ثم التفت إلى (دايل)، وقال في حزم :
لقد تحطم جناح الطائرة الأيمن.
صرخت في رعب :

- وماذا سنفعل؟
تشبثت بالمقعد المقابل له، وانطلق نحو كابينة القيادة، وفتح بابها، وهتف في الطيارين، اللذين يبذلان أقصى جهدهما للسيطرة على الطائرة :
- ماذا حدث؟
أجابه أحدهما في توتر بالغ :
- لقد حطم نيزك جناح الطائرة، ونحن نبذل أقصى جهدنا للسيطرة عليها، و ..
صرخ الثاني بغتة :
- يا إلهي.. ما هذا؟
غمرهم فجأة ضوء ساطع رهيب، أغشى عينى (فلاش) لحظة..
ثم دوي الانفجار..
انفجار مكتوم مخيف، انتزع النيزك الآخر على أثره كابينة القيادة كلها، بطياريها، وكاد ينتزع معهما (فلاش جوردن)، لولا أن تراجع هذا الأخير في سرعة، وأغلق باب الكابينة خلفه، ثم التفت إلى (دايل)، التي بلغ رعبها مبلغه، دون أن ينبس ببنت شفة..
ولم تكن (دايل) تحتاج إلى تفسير، في مثل هذه اللحظة..
لقد أدركت أن الموقف بالنسبة إليها هو النهاية..
نهاية العالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



لولا أن تراجع هذا الأخير في سرعة ، وأغلق باب الكابينة خلفه ، ثم التفت إلى (دايل) ، التي بلغ رعبها مبلغه .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- إلى الفضاء.

لم يستغرق جمود (فلاش جوردن)، أمام ذلك الموقف، أكثر من ثانية واحدة، اندفع بعدها نحو مؤخرة الطائرة، قائلا:

- لابد من وجود مظلة هبوط في مكان ما هنا.

فتح باب صوان الطوارئ عنوة. ثم أردف في لهجة تحمل كل خيبة الأمل :

ـ كان حلما أجمل من أن يتحقق

هتفت (دايل) في رعب :

- ألم تجد مظلة؟

أسرع إليها، وهو يقول :

- يبدو أن ثقتهم في سلامة طائراتهم كانت أفضل مما ينبغي.

وانتزع (دايل) من مقعدها، وحملها بذراع واحدة، كما لو كانت طفلة صغيرة، وفتح باب الطائرة، وارتطم الهواء البارد بوجهيهما، وصرخت (دايل) في رعب، وهي تتطلع إلى الأدغال الممتدة أسفلهما :

لن نفلح يا (فلاش) .. لن نفلح.

قال في حزم، وهو يشير إلى بحيرة تقترب منها الطائرة في سرعة، وهي تنافس النيازك الملتهبة في هبوطها العنيف :

ـ من يدري؟

قالها وألقي جسده وجسدها خارج الطائرة، وأطلقت (دايل) صرخة مرعبة طويلة، لم يكتمها إلا ارتطام الجسدين بمياه البحيرة في قوة، وغوصهما داخلها، قبل أن يدفع (فلاش) المياه بذراعيه في قوة، ويصعد بوجهه ووجهها إلى سطح البحيرة.

وراحت (دايل) تسعل في قوة، محاولة طرد المياه، التي ملأت جوفها، مع ذلك الغوص المباغت في أعماق الماء في حين سبح بها (فلاش) نحو شاطئ البحيرة، وهو يقول :
- ينبغي أن يبدأ المرء تغيير مفاهيمه الآن، فلقد كنت أتصور قديما أن هذا لا يحدث إلا في أفلام السينما..
بلغا شاطئ البحيرة بعد دقائق، وألقت (دايل) جسدها فوقه، وهي تلهث في قوة، فابتسم (فلاش) قائلا :
- أظنك لا تعترضين الآن على ادعائي لركوب الطائرة الخاصة معك.
اعتدلت جالسة، وهي تقول في حدة :
- ولم لا تقول إنك المسؤول عن كل ما حدث؟
هتف في دهشة :
لماذا؟ هل أمتلك تلك النيازك؟
نهضت تحاول نفض المياه عن ثوبها عبثا، قائلة في حدة :
- لقد جلبت النحس للطائرة.
ثم لوحت بذراعيها، مستطردة في سخط :
- وأنا أحتاج إلى ثياب نظيفة جافة.
أشار إلى منزل قريب، وهو يقول :
- ربما نجد ما تحتاجين إليه هناك.
اتجها نحو ذلك المنزل الضخم، الذي يحتل مساحة واسعة وسط (الأدغال)، وقالت (دايل) في دهشة، وهي تملأ عينيها بمشهد المنزل :
- ترى أي مجنون هذا، الذي يقيم منزلا ضخما، وسط هذه الأحراش؟
ارتفع صوت صارم من خلفها، يقول :
- ألا تعلمين الجواب حقا؟

التفت الاثنان في دهشة، وتطلعا إلى (زوركوف)، الذي يصوب إليهما مسدسه في غضب وصرامة،
وحاول (فلاش) أن يحمل على شفتيه ابتسامة ودودا، وهو يقول :
- يؤسفنا أن تطفلنا عليك يا سيدي، ولكننا اضطررنا لذلك، بعد أن تعرضت طائرتنا لحادث طارئ و٠٠
قاطعه (زوركوف) في حدة :
- صه يا رجل ٠٠ لست أصدق حرفا واحدا مما تقول، أو مما ستقول، فمن الواضح أنك جاسوس.
وجذب إبرة مسدسه، مستطردا في صرامة :
- جاسوس سوفيتى.
هتف (فلاش)، وهو يبعد (دايل) عن مرمى النيران :
- ولكنني أمريكى قلبا وقالبا يا سيدى ٠٠ ألم تطالعك صورتي أبدا، في أية صحيفة رياضية؟ إني (فلاش جوردن).. الظهير الأيسر لفريق الرجبي القومي الأمريكى.
مط (زوركوف) شفتيه، وقال في ازدراء :
- رجبى؟ ! إني لم أحترم أبدا هذه اللعبة السخيفة.
ثم عاد يستطرد في حزم :
وهذا لن يمنعني من قتلكما في الواقع.
صاحت (دايل) في رعب :
- رويدك يا سيدي.. لسنا ننشد سوى بعض الثياب الجافة، وخريطة للخروج من هنا، وسننصرف على الفور، ونعدك بألا ترى وجهينا أبدا.
عقد (زوركوف) حاجبيه، وبدا وكأنه يدرس الأمر في عقله جيدا، قبل أن يغمغم في خفوت، وكأنما يفكر في صوت مسموع :

- الواقع أنني أحتاج إلى وجودكما، وخاصة بعد أن فر مساعدي الجبان من هنا، ورفض معاونتي في إطلاق صاروخي، و٠٠
بتر عبارته لحظات، ثم رفع عينيه إليهما، وقال في حزم :
- لا بأس وسأمنحكما فرصة العمر.
قال (فلاش) :
- إننا نفضل بعض الثياب الجافة.
هتف (زوركوف) :
- خطأ.. إنني أمنحكما فرصة المجد والخلود.. فرصة إنقاذ كوكب الأرض.
حدقت (دايل) في وجهه، كما لو كانت تحدق في وجه مجنون، في حين استطرد هو في حزم :
- هيا.. ادخلا ذلك المبنى إلى يساركما.
همست (دايل) في أذن (فلاش) وهما يدلفان إلى المبنى :
- يبدو لي أنه مجنون.
همس (فلاش) :
فلنطاوعه، حتى نجد فرصة للفرار، أو ابتلع الجزء الباقي من عبارته، وهو يحدق في ذلك الصاروخ المتوسط الحجم في حين هتفت (دايل) في ذهول :
- يا إلهي !! صاروخ؟ ! هنا؟ !
ابتسم (زوركوف) في زهو، كما لو أن ذهولهما قد راق له، وقال في صرامة :
- اصعدا إلى الداخل.
قال (فلاش) في توتر، وهو يعاون (دايل) على الصعود إلى الصاروخ :
هل تدعونا لمشاهدة تحفتك هذه؟

قال (زوركوف) في حزم، وهو يصعد خلفهما، مصوبا إليهما مسدسه :
ـ صه، واصعد و
لم تمض لحظات حتى ضمتهما كبسولة الصاروخ، فالقي (فلاش) نظرة سريعة على كل الأجهزة الحديثة، التي تزخر بها الكبسولة. وعلى المقاعد الثلاثة المواجهة لنافذة زجاجية كبيرة، وقال في توتر :
ـ رائع.. هيا نغادر المكان يا عزيزتي (دايل)، لا ينبغي لنا أن نلوث تحفة هذا العبقري..
ابتسم (زوركوف)، وهو يقول:
ـ إني لم آمركما بمغادرة المكان بعد.

وضغط زرا صغيرا، فأغلق باب الكبسولة آليا، واتجه (زوركوف) نحو لوحة أزرار، وراح يضغطها في هدوء، فقالت (دايل) في رعب، وهي تلتصق ب (فلاش)، وكأنها تبحث عن الحماية في جسده القوى :
ـ ماذا تنوي أن تفعل بنا يا سيدى؟
قال (زوركوف) في خيلاء :
لقد أخبرتكما.. إني أنوى منحكما فرصة العمر.
ارتجت الكبسولة في قوة، فور انتهائه من عبارته، مما جعل (دايل) تطلق شهقة رعب، دفعت (فلاش) إلى أن يقول في حدة :
ـ اسمع يا هذا.. أطلق علينا النار لو أردت، ولكن دعنا نغادر هذا المكان اللعين.
أطلق (زوركوف) ضحكة قصيرة، وقال وهو يلقى مسدسه جانبا :

- غادره أنت لو أردت، ولكن حذار.. لقد بدأ الصاروخ رحلته، ولن يتوقف قبل أن يبلغ ذلك الكوكب المجهول.
شحب وجه (دايل)، وهي تقول :
- كوكب ماذا؟
لوح (زوركوف) بذراعيه، وهو يقول :
- فليسجل التاريخ هذه اللحظة، التي بدأ فيها (زوركوف) رحلته لإنقاذ كوكب الأرض من الفناء.
صاح (فلاش) :
- ماذا فعلت بنا أيها المجنون؟
أشار (زوركوف) إلى المقاعد الثلاثة، وهو يقول في انفعال :
- لا وقت للحديث والشرح يا رجل.. فرصتكما الوحيدة في النجاة، أنت وزميلتك الفاتنة، أن يتخذ كل منكما مقعدا، ويربط نفسه إليه جيدا، وإلا سحقتكما انطلاقة الصاروخ.
جذبه (فلاش) من سترته في غضب، وضم قبضته هاتفا :
- أيها الوغد.. إنني ...
قاطعه (زوركوف)، دون أن يبدو عليه أثر للخوف :
- هيا.. لا وقت لذلك العبث.

بدا الأمر سخيفا ل (فلاش)، إلا أن (زوركوف) كان على حق تماما في قوله هذا، مما جعل (فلاش) يدفعه بعيدا، ثم يحمل (دايل)، ويضعها على أحد المقاعد الثلاثة، ويقفز إلى المقعد المجاور لها، قائلا :
- اربطي حزام مقعدك في قوة يا عزيزتي.. لم يدع لنا هذا الوغد فرصة أخرى .
قفز (زوركوف) على المقعد الثالث، وهو يهتف ضاحكا :

ـ ستفخر يوما بأنك قد صحبت هذا الوغد في رحلته التاريخية أيها ال (فلاش).
ترددت ضحكته داخل كبسولة الفضاء، في نفس اللحظة التي انطلق فيها الصاروخ، مخترقا قبة المبنى الزجاجية، ومنطلقا نحو الفضاء..
ونحو المجهول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الإمبراطور ··

لم يكد الصاروخ ينطلق مخترقا الغلاف الجوي الأرضي، حتى شعرت (دايل) بأطنان من الهواء تضغط على صدرها، فهتفت:

- (فلاش) ·· النجدة.. انى ..

تلاشت الكلمات في حلقها ، مع تلك الغيبوبة التي ألمت بها، وألقتها في ظلام عميق، وهتف(فلاش)، وهو يقاوم غيبوبة مماثلة :

- (دايل).. قاومى.. لعنة الله عليك يا (زوركوف).

ثم هوى بدوره في غيبوبة عميقة، انضم فيها إلى (دايل) و (زوركوف) ··

وواصل الصاروخ رحلته، متجاوزا الغلاف الجوي الأرضي، ومتجها إلى ذلك النجم الساطع بفضل أجهزة التوجيه الإليكترونية، ببرنامجها المعد مسبقا..

واستغرقت الرحلة يوما أرضيا كاملا، قضاه الثلاثة في غيبوبة كاملة، حتى بلغ الصاروخ مجال ذلك الجرم الفضائي، الذي أطلق عليه علماء الأرض اسم (النجم الساطع)، والذي لم يكن في واقع الأمر سوى كويكب صغير، أضيفت إليه أجهزة دفع بالغة القوة، جعلته في الفضاء، كما لو كان سفينة فضاء هائلة، تحيط بها هالة مبهرة من الضوء، واخترق صاروخ (زوركوف) المجال الجوي للكويكب، الذي يشبه كثيرا الغلاف الجوي الأرضي، بمركباته الغازية من الأكسجين وثاني أكسيد الكربون والنيتروجين والغازات الأخرى، وراح الصاروخ يهوى على سطح الكويكب كنيزك كبير، وقد احمر سطحه بفعل الحرارة الشديدة. الناجمة

عن احتكاكه بالهواء، والتهب على نحو مخيف، وبدا وكأنه سيرتطم بسطح الكوكب، وينفجر كقنبلة نووية كبيرة..
وفجأة انطلق من مكان ما شعاع عجيب، أحاط بالصاروخ، فتوقفت حركته على الفور، وتجمد في موضعه، ثم راح يسبح نحو النقطة التي انطلق منها الشعاع، في هدوء شديد، كما لو أن هذا الشعاع قد الغي تأثير جاذبية الكويكب تماما، بالنسبة للصاروخ..
وسبح الصاروخ نحو الهدف..



وسبح الصاروخ نحو الهدف ..
نحو قصر شاهق مهيب ، يبدو أشبه بقصور الأساطير القديمة ..

نحو قصر شاهق مهيب، يبدو أشبه بقصور الأساطير القديمة، حيث الفرسان، والدروع، والسيوف، والرماح..

وداخل القاعة التي ينطلق منها الإشعاع، وقفت امرأة نحيلة، قاسية الملامح، تشبه أهل الأرض تمام الشبه، في تكوينها وملامحها وبشرتها، تراقب قدوم الصاروخ بعينين باردتين، خاليتين من أية انفعالات، حتى عبر الصاروخ فتحة هائلة في

القاعة، واستقر في هدوء على قاعدة خاصة في منتصفها، فأصدرت أمرا مركزا مقتضبا، بلغة غير معروفة على كوكب الأرض، وهنا توقف الإشعاع، وأغلقت تلك الفتحة الهائلة بجدار معدنى صلب ..

واندفع عدد من الرجال داخل الصاروخ، وحملوا أجساد (زوركوف) و (فلاش) و(دايل) خارجه، ونقلوهم إلى أسطوانات شفافة خاصة، واقتربت تلك المرأة تتطلع إليهم، ثم ألقت أوامرها في سرعة، واتجهت إلى مقعد زجاجي خاص) وجلست فوقه في هدوء، وهى تراقب ما يفعله رجالها بعينيها الباردتين ..

وبعد ساعة تقريبا، استعاد (فلاش) وعيه، ورفع يده يتحسس جبهته، وهو يغمغم في ألم:

ـ أين أنا؟

أجابه صوت بارد كالثلج :

ـ أنت في إمبراطورية (منج) العظيم أيها الأرضي.

اعتدال في حركة حادة، وفتح عينيه عن آخرهما، وهو يحدق في المرأة، ذات الصوت البارد، وفي القاعة الواسعة التي تحيط به، والجنود الذين يصوبون إليه فوهات أسلحة عجيبة..

وهتف (فلاش) :

ـ أحلم هذا؟

أجابته المرأة :.

ـ بل حقيقة أيها الأرضي.

عقد حاجبيه، وهو يقول في توتر :

عجبا !! إنني أفهم كل حرف تفوهتِ به، على الرغم من أنك تتحدثين بلغة لم أسمعها قط !

ابتسمت ابتسامة باردة، وهي تقول :

ـ ألم تلحظ أنك أيضا تتحدث اللغة نفسها؟

هتف في دهشة :
ـ هذا صحيح، ولكن كيف حدث هذا؟
أجابته في لهجة أقرب إلى الزهو :
ـ لقد سحبنا صاروخكم إلى هنا، قبل أن يتحطم على سطح إمبراطورية (منج)، وفحصنا أجسادكم بوسائلنا الخاصة، ووجدنا أنكم تستطيعون العيش هنا دون مشاكل، حيث يتشابه جونا مع جوكم، كما منح الدفع كوكبنا قوة جاذبية تساوى الجاذبية على كوكبكم، ولم تكن هناك مشكلة سوى اللغة، لذا فقد استخدمنا المعلم الصناعي، لنلقنكم كل اللغات المستعملة على سطح كوكبنا، قبل أن تلتقوا بالإمبراطور.
غمغم في دهشة :
ـ الامبراطور؟ !
ثم بدا له أن السؤال لا يناسب الموقف الحالي، فقال في حدة :
ولكن أين (دايل) و (زوركوف)؟
أجابته في هدوء بارد :
ـ إلى جوارك.
التفت إلى الجانب الآخر، وتنهد في ارتياح، عندما رأى الاثنين يرقدان على منضدتين زجاجيتين إلى جواره، وسمع المرأة تقول :
سننتظر حتى يستعيدا وعيهما، ثم تذهبون جميعا إلى قلب الكون.
ردد في دهشة :
ـ قلب الكون؟ !
شبكت أصابع كفيها أمام وجهها، وهي تقول
في لهجة أقرب إلى الشماتة :
ـ إنه الاسم الذي نطلقه على البلاط الإمبراطوري.. بلاط الإمبراطور (منج) .

وارتفع أنفها في خيلاء، وهي تضيف :
- إمبراطور الكون كله ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت قاعة هائلة رهيبة، احتشدت بعشرات من الرجال، في مختلف الأشكال، وفي نهايتها عرش بلورى مهيب يجلس فوقه رجل أصلع الرأس ضيق العينين، له لحية وشارب دقيقان، وتبدو الصرامة في ملامحه، وهو يتطلع إليهم في صمت، قبل أن يشير إلى كرة فضية اللون، تسبح في الهواء، على مقربة من عرشه .. وفي هدوء، سبحت الكرة نحو الثلاثة، وتوقفت فوق رءوسهم، وارتفع من داخلها صوت معدنى يقول :
- الإمبراطور (منج) العظيم يأمركم بالمثول.
تشبثت (دايل) بذراع (فلاش)، وهي تقول في خوف :
- (فلاش).. قل لي إنه مجرد كابوس.. كابوس سخيف.
ربت على كتفها، مغمغما :
- كم أتمنى لو أنه كذلك يا عزيزتي.. كم أتمنى هذا.

أما (زوركوف)، فقد بدا مبهورا مشدوها، يتابع كل ما حوله في فضول شديد، لم يترك مكانا لذرة واحدة من الخوف، في نفس العالم، وهو يتبع الكرة الفضية اللامعة، مع (فلاش) و (دايل)، حتى صار الثلاثة على قيد أمتار ثلاثة من العرش الإمبراطوري البلوري، فانبعث نفس الصوت المعدني من الكرة، قائلا :
- غير مسموح بالاقتراب أكثر من هذا.
توقف الثلاثة، وهمست (دايل) في توتر :
- يا إلهي ! انظر يا (فلاش) .. هناك رجال ذوو أجنحة.. انظر..

ضغط كفها، قائلا :
ـ اصمتي.
راح الإمبراطور (منج) يراقبهم طويلا في اهتمام بالغ، ثم قال في صوت رهيب عميق :
ـ لماذا أنتم هنا؟
وقبل أن يبحث (فلاش) عن جواب دبلوماسي مناسب، اندفع (زوركوف) قائلا في حزم :
لننقذ كوكب الأرض.
رفع الامبراطور أحد حاجبيه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وهو يقول :
ـ تنقذون كوكبكم؟ !
واستند بمرفقه على ذراع عرشه، وأسند ذقنه إلى قبضته المضمومة، وهو يسأل (زوركوف) :
ـ ما عملك يا رجل؟
أشار (زوركوف) إلى صدره في اعتزاز، وهو يقول :
أنا أحد علماء الفضاء البارزين .
تراجع الامبراطور، واستعاد ابتسامته الساخرة، قائلا :
ـ آه . . عالم فضاء.
والتفت بغتة إلى (دايل)، وسألها :
ـ وماذا عنك؟
قالت في سرعة، تحمل نبرة خوف واضحة :
ـ اسمى (دايل) يا صاحب السمو الإمبراطوري، وأنا مندوبة علاقات عامة، لشركة أمريكية كبرى .
عقد حاجبيه، وهو يردد :
مندوبة علاقات عامة؟ !

نطقها وكأنه لم يسمع هذا المصطلح أبدا من قبل، ثم أدار عينيه إلى (فلاش) قائلا :
ـ وأنت؟ !؟
قبل أن يفتح (فلاش) فمه، لينطق حرفا واحدا، امتدت يد رقيقة تزيح الستار السميك، خلف العرش الإمبراطوري، ثم برزت من خلفها فتاة.. بل أجمل فتاة في الكون كله..
وفغر (فلاش) فاه مبهوتا مشدوها، وهو يحدق في تلك الفاتنة الساحرة، التي لم ير أجمل منها على الأرض كلها، على الرغم من شهرته، وكثرة معجباته.
والغريب أن (دايل) قد شعرت بشيء من الغيرة، جعلها تلكز (فلاش) بمرفقها، قائلة في حدة :
ـ سمو الإمبراطور ينتظر جوابك.
عجز عن رفع عينيه عن تلك الفاتنة، ثم لم يلبث أن غمغم :
ـ اسمي (فلاش جوردن) ٠٠ رياضى أمريكى معروف.

ابتسم الإمبراطور في خبث، ونقل بصره من وجه (فلاش) إلى وجه الفاتنة التي تقف خلف عرشه، والتي منحت (فلاش) ابتسامة عذبة ساحرة، ثم قال الإمبراطور وهو يعيد بصره إلى (فلاش) :
ـ هل راقت لك ابنتي (أورا)؟
هتف (فلاش) :
ـ إنها رائعة.
اتسعت ابتسامة (أورا) في حين عقدت (دايل) حاجبيها غضبا، وهي تغمغم :
ـ يا للرجال الأوغاد !
أدار (منج) عينيه إليها، وتأملها لحظة، ثم أشار إليها قائلا :

ـ سأمنحك شرفا لم أمنحه لأرضية من قبل. وابتسم وهو يخفض يده، مستطردا :
سأضمك إلى جوارى (منج) .
اتسعت عيناها في رعب، وتراجعت ملتصقة بـ (فلاش)، الذي عقد حاجبيه في صرامة، قائلا :
ـ انس هذا يا (منج) ٠٠ (دايل) تخصني.
ابتسم (منج) في سخرية، في حين سرت همهمة عجيبة في القاعة، أوقفها الإمبراطور بإشارة من يده، ثم قال في هدوء ساخر :
ـ من حسن حظك أنك غريب عن هنا، فلا أحد هنا يجرؤ على رفض أمر للإمبراطور (منج)، ولكنني أستطيع أن أغفر لك هذا.
ثم انعقد حاجباه بغتة، وهو يردف في صرامة :
ـ ولكنني لا أغفر أبدا لمن يخاطبني باسم (منج) مجردا.
والتفت إلى الرجال الذين يملئون القاعة واستطرد في حزم :
ـ اقتلوه.
شهقت (دايل) في ذعر، وتراجع (زوركوف) مبهوتا، في حين امتشق الرجال المحيطون بالقاعة سيوفهم
وحانت لحظة الانقضاض على (فلاش) ٠٠
وقتله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- تمرد..

هوى قلب (دايل) بين قدميها، واتسعت عيناها في رعب، وهي تحدق في السيوف المشهورة الحادة، التي التمعت نصالها تحت أضواء القاعة الإمبراطورية، وتراجع (زوركوف) في توتر ملحوظ في انعقد حاجبا (فلاش)، وهو يزيح (دايل) جانبا، ويقول:

- ابتعدي يا عزيزتي.. إنه أمر يخصني وحدي هذه المرة .

وفجأة ارتجت القاعة بصرخة قتالية هائلة، انطلقت من حناجر المقاتلين كلهم في آن واحد وانقض الجميع على (فلاش) ٠٠ وارتفعت السيوف لتهوي على عنقه وجسده ٠٠ وأطلقت (دايل) صرخة رعب ٠٠

وبغتة، دون سابق إنذار، تحرك (فلاش)..

تحرك على نحو لم يتوقعه شخص واحد، في (قلب الكون) كله..

لقد دار على عقبيه، واستغل كل مهاراته في الرجبي، وقفز قفزة واسعة، أوصلته إلى أول سلم العرش الإمبراطوري ٠٠

وأصابت الأرض بين قدميه دفقة، ولكنه لم يتوقف لينظر ما فعلته، وإنما قفز قفزة أخرى، أوصلته إلى العرش البلوري، ثم أحاط عنق (منج) بذراعه، وهو يهتف في حدة:

- حذار أن يتحرك أحدكم، أو يخطو خطوة واحدة، وإلا كسرت العنق السامي أمام أعينكم.

هبطت السيوف، وارتسم القلق في العيون، وبدت الدهشة على وجهي (دايل) و (زوركوف)، ولاحظت الأولى في حيرة أن ملامح الأميرة (أورا) لم تكن تشف عن القلق أو الخوف، بقدر ما تحمل لمحة الجذل واللهفة، وهي تراقب (فلاش)،

في حين بدا (منج) نفسه هادئا للغاية، وهو يشير إلى الكرة الفضية المعلقة، ويقول لرجل متشح بالسواد، يقف على مقربة من عرشه :

- هذا الحارس الآلي يحتاج إلى إعادة تقييم يا (جارد).. المفروض أن يقتل كل من يقترب من العرش بلا رحمة.

بدا الارتباك في صوت (جارد) هذا، وهو يجيب :

- لقد باغته الأرضي بموقفه يا صاحب السمو الإمبراطوري، ولقد أطلق الحارس الآلي عليه دفقة من أشعته، ولكن..

رفع (منج) كفه، قائلا في حزم :

- كفى.

ثم أضاف متحدثا إلى (فلاش) :

- ابعد ذراعك أيها الأرضي.. لا ينبغي أن تفعل هذا مع الإمبراطور.

وبدلا من أن يرفع ذراعه، شدد (فلاش) من ضغط عضلاته على رقبة (منج)، وهو يقول في حزم :



وبدلًا من أن يرفع ذراعه ، شدد (فلاش) من ضغط عضلاته
على رقبة (منج) ..

ـ لو أطعتك سيمزقني رجالك إربا يا صاحب السمو.
لوح (منج) بذراعه، وقال :
ـ لن يقتله أحدكم يا رجال.. هذا أمر إمبراطوري.
تردد (فلاش) لحظة، ثم قال :
ـ هل يمكنني أن أثق في كلمتك؟
قال (منج) في هدوء :

ـ الإمبراطور لا يتراجع في وعده أبدا.
أرخى (فلاش) ذراعه، وتراجع إلى الخلف خطوة واحدة، فمطت الأميرة (أورا) شفتيها، وهزت رأسها مغمغمة:
ـ غبي.
التفت إليها (فلاش) في حركة حادة، في حين رمقها والدها بنظرة صارمة، وقال :
ـ قلت إن الإمبراطور لا يخلف وعده قط.
ثم أشار إلى (فلاش) :
ـ اهبط.. لا أحد يقترب من العرش الإمبراطوري ..
هبط (فلاش) في درجات السلم في حذر، وهو يدير عينيه في وجوه الجميع، وخيل إليه أن الرجال ذوي الأجنحة يرمقونه في إعجاب وتقدير، في حين راح شاب وسيم، يرتدي ثيابا أشبه بثياب القراصنة القديمة، يتطلع إليه في برود مثير للشك، حتى صار (فلاش) بين رفيقيه، فأمسكت (دايل) ذراعه، وهي تهتف :
ـ حمدا لله يا (فلاش).. لقد تصورت أنهم سيقتلونك.
ارتسمت على شفتى (منج) ابتسامة ساخرة، وهو يغمغم :
ـ يا لهؤلاء الأرضيين !
ثم أضاف في حزم مباغت :
ـ اقبضوا عليه.
في هذه المرة منعت الدهشة (فلاش) من اتخاذ موقفه السابق، وقبل أن يخطو خطوة واحدة، كان رجال (منج) يحيطونه إحاطة السوار بالمعصم، وسيوفهم تكاد تحطم عنقه، وصاح (فلاش) في غضب:
ـ لقد وعدت يا (منج) .
لوح الإمبراطور بكفه في هدوء، وقال :

ـ لقد وعدتك أن أحدهم لن يقتلك، ولم أخلف وعدى.. إنهم يلقون القبض عليك فحسب.
ثم انعقد حاجباه، وهو يستطرد في حزم :
ـ وسيقتلك شخص آخر.
شهقت (دايل) في رعب، في حين اندفعت الأميرة (أورا) بغتة تقول :
ـ اتركه لي يا ابي.
أدار وجهه إليها في هدوء، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة، وهو يقول :
ـ هل يروق لك؟
أجابته في لهفة، وهي تتطلع إلى (فلاش) :
ـ أجل.
داعب (منج) ذقنه المدية لحظات، ثم لوح بكفه قائلا :
ـ فليكن .
ارتسمت ابتسامة ارتياح على شفتي (أورا)، ولكن (منج) استطرد في لهجة متشفية :
ـ سيتم إعدامه بالغاز إذن.
أطلقت (دايل) صرخة رعب مكتومة، وهتف (فلاش) في غضب :
ـ أيها الوغد. أما الأميرة (أورا) فقد انعقد حاجباها في غضب وسخط، وألقت نظرة مفعمة بالكراهية والبغض على والدها، قبل أن تشمخ بأنفها في اعتداد، وتندفع مختفية خلف الستار، الذي جاءت منه إلى القاعة، في حين استطرد (منج) :
ـ اما الفتاة، فليتم إعدادها لتزف إلى .
صرخت (دايل) :
ـ محال يا (منج) ٠٠ محال.

تابع دون أن يلتفت إلى اعتراضها :
ـ وهذا العالم الفضائي يتم تسليمه إلى (إيفلش)، لتنتزع من عقله كل الخرافات الأرضية.
صرخ (فلاش) والرجال يجذبونه بعيدا :
ـ أنت وغد يا (منج) .
ارتسمت ضحكة على شفتي (منج)، وهو ينهض من عرشه، ويتجه إلى ما خلف الستار، إيذانا بانتهاء المجلس الإمبراطوري، مرددا :
ـ أتوا لإنقاذ الأرض !! يا لغرور هؤلاء الأرضيين !
وانطلقت ضحكته مجلجلة، وهو يختفي خلف الستار، في حين راحت جواريه تجذبن (دايل)، التي صرخت :
ـ لا.. لا يا (فلاش).. لا..
ثم هوت فاقدة الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من دقة الموقف، لم يبد (زوركوف) ذرة واحدة من المقاومة، والحرس الإمبراطوري يقوده إلى تلك التي أطلق عليها (منج) اسم (إيفلش) ..
وكانت هي نفس المرأة، التي استقبلتهم، عندما فتحوا أعينهم لأول مرة، في البلاط الإمبراطوري، ولقد تطلعت إلى (زوركوف) في تشف واضح، وابتسمت ابتسامة شريرة، وهي تقول :
- إذن فأنت من نصيبي أنا .. عظيم.. انى أهوى العبث بعقول العلماء.
بدا لها موقف (زوركوف) عجيبا، وهو يسألها في فضول، لا يحوي ذرة واحدة من الخوف :
- ما الذي يعنيه الجميع بالعبث العقلي هذا؟ .. أهو مصطلح مجازى، أم أنها عملية علمية بالفعل؟
تطلعت إليه لحظات في شك وحيرة، ثم تراجعت في مقعدها الزجاجي، ولامست أظافر أصابعها الطويلة بعضها ببعض، وهي تقول:
- يا لفضول العلماء، ثم اعتدلت مستطردة :
- حسنا.. سأشرح لك كل شيء.
وقادته في بساطة إلى منضدة ناعمة الملمس، على الرغم من مظهرها الجاف، وقالت:
- إنها عملية بسيطة، تتم باستخدام شعاع خاص..
وأشارت إلى كرة شفافة، تعلو موضع الرأس في المنضدة، قبل أن تواصل :
- هذا الشعاع الخاص يؤثر في مراكز الحس في المخ، ويفقدها الذاكرة تماما.
داعب لحيته، وهو يغمغم :

ـ عجبا !! إنه يفعل ما يشبه غسيل المخ.
ابتسمت قائلة :
ـ بل أسوأ.. إنه ينتزع كل الذاكرة، ويستبعدها، بحيث يصير الشخص أشبه بوعاء فارغ، أو بطفل ولد توا، مما يتيح لنا بإعادة حشو ذاكرته بما يحلو لنا ولنصنع منه عبدا مطيعا.. وجنديا مخلصا من جنود إمبراطورنا العظيم.
داعب لحيته مرة أخرى، ثم قال في اهتمام :
ـ يلوح لي أنه توجد ثغرة بالغة الخطورة، في جهاز كم هذا.
رفعت أحد حاجبيها، وهي تقول في سخرية
ـ هل تراهن؟
سألها في اهتمام :
ـ هل لي الحق في هذا بالفعل؟
انعقد حاجباها في غضب، وهتفت تنادى الحراس، الذين هرعوا إليها على الفور، فقالت في صرامة :
ـ دعوه يرقد على المنضدة.
ابتسم (زوركوف)، وهو يقول :
ـ لم يكن الأمر يحتاج إلى الحراس.. سأصعد من تلقاء نفسي..
وفي هدوء، صعد إلى المنضدة، واسترخي فوقها قائلا :
ـ هيا دعينا نشاهد تلك التجربة الطريفة.
قالت في غضب :
. فليكن.
ضغطت زرا جانبيا، فسقطت حزمة من الأشعة، من الكرة الشفافة إلى رأس (زوركوف)..
ولم يكن الأمر أبدا كما تصور (زوركوف) ..
لقد كانت هناك آلام مبرحة..
آلام انتزاع ذاكرة..

ذاكرة عالم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5-ـ الاعدام..

بكت (دايل) كثيرا..

بكت كما لم تبك من قبل، وهي ترقد على فراش مخملى ناعم، في واحدة من حجرات (منج)، وجواري هذا الأخير يحطن بها في صمت وحيرة، وقد أدهشهن أن تنهمر كل هذه الدموع من عينى امرأة، اختارها الإمبراطور العظيم زوجة له، ونساء الامبراطورية كلها تحلمن بنيل هذا الشرف السامى.

واستجمعت إحداهن شجاعتها، ومالت نحو (دايل)، قائلة في تردد :

ـ ألا يروق لك أن تزفي إلى الإمبراطور؟

هتفت (دايل) في مرارة :

ـ فليذهب إمبراطوركم اللعين هذا إلى الجحيم .

تراجعن في ذعر، ورحن يشهقن في ارتياع، ويدرن أبصارهن فيما حولهن، قبل أن تهمس إحداهن في توتر :

ـ حذار أيتها الأرضية.. للإمبراطور عيون وآذان في كل مكان.

تلفنت (دايل) حولها في ذعر، إلا أن عينيها لم تريا شيئا، فمالت نحو واحدة من الجوارى وسألتها وهي تجفف دموعها :

ـ هل تعلمين ما الذي سيفعلونه بـ (فلاش)؟

غمغمت الجارية في حذر :

ـ أتقصدين ذلك الأرضي الأشقر؟

اعتدلت (دايل)، تقول في لهفة :

ـ نعم.. أقصده.

تنهدت الجارية، وقالت :

ـ إنهم سيعدمونه، في حجرة الغاز.

خفق قلب (دايل) في لوعة، وهتفت :
ـ رباه! مستحيل أن يفعلوا هذا بـ (فلاش).. مستحيل
وتشبثت بالجارية، مستطردة في رجاء :
ـ هل يمكنني رؤيته؟ أرجوك.
تلفتت الجارية حولها في ذعر، وهتفت :
ـ مستحيل يا سيدتي.. مستحيل.. رجال الحرس الإمبراطوري يقتلننا بلا رحمة، لو أننا فقط حاولنا .
تراخت أصابع (دايل) في ارتياع، فأزاحت الجارية يديها، وهي تستطرد في صوت مشفق خافت :
ـ يمكننا أن نعلم متى تم إعدامه على الأقل، فسيقرع (جرس القدر)، فور موت الأرضي.
اتسعت عينا (دايل) في هلع، وضمت قبضتيها إلى وجهها، وعادت الدموع تنهمر من عينيها، وهي تهتف :
ـ لا تجعله يقرع يا إلهي.. لا تجعله يقرع..
وانهمرت دموعها أكثر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان كل شيء مناسبا لحفل إعدام همجي..
الجو القاتم..
الغيوم الكثيفة..
الجموع المتشحة بالسواد..
و (منج) ..
وفي حزم، اقتاد خمسة من الحراس (فلاش) إلى حجرة زجاجية، تحوي داخلها مقعدا واحدا، قيدوه إليه في إحكام، ثم تراجعوا، مفسحين المجال لطبيب القصر الإمبراطوري الخاص..

وفحص الطبيب الإمبراطوري نبض (فلاش)،
وقلبه، ثم اختلس لحظة حجب فيها جسد (فلاش)
عن أنظار (منج)، ودس في فم بطلنا كبسولة دقيقة، وهو يقول في همس شديد الخفوت :
- اضغطها بأسنانك.
تطلع إليه (فلاش) في دهشة، فأضاف الطبيب في ارتباك :
- ستعاونك كثيرا.
أخفي (فلاش) الكبسولة تحت لسانه، وجال بخاطره أنها أشبه بكبسولات سم السيانيد، التي كان يضغطها طيارو الحرب، بأسنانهم، خشية الاعتقال، ثم لم يلبث أن رأي الأمر متساويا، فالموت بكبسولة سامة لن يصنع فارقا كبيرا، بالنسبة للموت بغاز سام ..

وفي هدوء ضغط الكبسولة بأسنانه، وشعر بسائل لزج مر المذاق، يسيل منها في حلقه، في نفس اللحظة التي تراجع فيها الطبيب، وأغلق باب الحجرة الزجاجية، مشيرا بيده إلى الجلاد ؛ ليبدأ تنفيذ الحكم..
وضغط الجلاد زرا خاصا ..
وانبعثت سحب الدخان داخل الحجرة الزجاجية
وشعر (فلاش) بالأدخنة تتصاعد إلى أنفه، وتتسلل إلى صدره، وبدأ جسده يرتعد في قوة، واختنقت أنفاسه، وتساءل عما تفعله تلك الكبسولة اللعينة، ثم راح يسعل في قوة..
وأظلمت الدنيا بغتة..
وساد سكون رهيب..
ثم بدت بقعة بعيدة من الضوء.
وخبا كل شيء .



وسقط رأس (فلاش) على صدره ، وسحب الغاز تنسحب
من الحجرة تدريجيًا ..

وسقط رأس (فلاش) على صدره، وسحب الغاز تنسحب من الحجرة تدريجيا، ثم أعلن مؤشر خاص يعلو الحجرة، أن الأسير قد لفظ أنفاسه الأخيرة ..
وقرعت أجراس خاصه، ميز رعاة (منج) من بينها ذلك الصوت الرهيب..
صوت (جرس القدر)..

صوت الموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف (زوركوف) خلف حاجز زجاجي، يراقب المشهد في جمود، وعيناه لا تحملان أية تعبيرات، ووقفت (إيفلش) إلى جواره، تراقبه في اهتمام، قبل أن تسأله في هدوء :

ـ هل أحزنك مصرع رفيقك؟

أجابها في لهجة أشبه بلهجة إنسان الى :

ـ ليس لي رفاق.

ابتسمت في ارتياح، وسألته:

ـ من أنت إذن؟

أجاب في صرامة :

ـ أنا رقم (٧٧٧) الجندي المخلص لمولانا الإمبراطور (منج) العظيم.

اتسعت ابتسامتها، وهي تقول :

ـ أين ولدت إذن؟

ـ في الكوكب الإمبراطوري .

ـ ماذا تعلمت؟

ـ أن أبذل حياتي في سبيل الإمبراطور وكوكبه.

ـ وماذا عن الأرض؟

ـ سأبذل أقصى جهدي لتدميرها، لو قاومت غزو مولاى لها.

هزت رأسها في إعجاب، وقالت :

ـ رائع.

ثم ضغطت زر جهاز اتصال خاص يجاورها، وهي تقول :

ـ أنا (إيفلش) يا (جارد).

وابتسمت مرة أخرى، وهي تتطلع إلى (زوركوف)، مستطردة :
ـ يبدو أننا قد ربحنا جنديا أرضيا مخلصا لمولانا الإمبراطور.
واتسعت ابتسامتها، وهي تضيف في زهو :
ـ كالمعتاد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هوى قلب (دايل) بين ضلوعها، مع قرع (جرس القدر)، وخيل إليها أن دموعها قد جفت تماما، حتى أنها لم تذرف دمعة واحدة، وإن بدت كالمصدومة، وهي تردد في أعماقها عبارة واحدة:
ـ هل مات (فلاش)؟
ـ هل انتهى أملها الوحيد في النجاة من هذه المصيدة اللعينة؟
ـ هل مات الرجل الذي أحبته؟ . .
توقفت لحظة عن التساؤل الأخير، وانطلقت في أعماقها تساؤلات أخرى ..
ـ هل أحبته حقا؟
جاء الجواب بأسرع مما تتوقع . .
ـ نعم.
ـ لقد أحبته . .
على الرغم من قصر معرفتهما الشديد، أحبته..
ودون أن تناقش موقفها ومنطقها، انبعثت في أعماقها رغبة قوية في الانتقام من الإمبراطور، الذي قتل حبيبها . .

ودون تردد، اتجه بصرها إلى الجارية الوحيدة في حجرة (منج)، والتي بقيت لتعاونها على ارتداء ملابس الزفاف، ووضعت أكبر قدر ممكن من النعومة في صوتها، وهي تقول لها :

ـ هلا ناولتني ذلك الدورق النحاسي يا عزيزتي؟
اطاعتها الجارية على الفور، وسألتها وهي تناولها الدورق:
ـ فيم ستستخدمينه يا مولاتي؟
أجابتها (دايل) في هدوء :
ـ سأرفعه هكذا، ثم أهوى به هكذا.
وهوت بالدورق على رأس الجارية، التي حدقت فيها لحظة في دهشة بالغة، ثم سقطت عند قدميها.. فاقدة الوعي.

ودون إضاعة لحظة أخرى، اندفعت خارج حجرة الإمبراطور، وهتفت :
ـ الأرضية تحاول الانتحار.. النجدة..
كانت ترتدي ثوبا مشابها لثوب جوارى الإمبراطور، وكان ذكر محاولة انتحار زوجة الإمبراطور المقبلة كافيا، ليندفع الحراس نحو الحجرة بلا تردد، تاركين (دايل) تعدو مبتعدة، وهم يتصورونها جارية تهرع لطلب النجدة..

ولم تتوقف (دايل)..
راحت تعدو.. وتعدو ․․ وتعدو، حتى بلغت ممرا جانبيا، انحرفت إليه لاهثة، ثم أطلقت شهقة..
لقد كان يقف أمامها شخص تعرفه ․․
(هانز زوركوف) ․․
سابقا ․․

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6 ـ الأميرة العاشقة..

تسللت الأميرة (أورا)، عبر أروقة ودهاليز معقدة، أسفل القصر الإمبراطوري، حتى بلغت قاعة رطبة ضيقة، استقبلها داخلها الطبيب، وهو يقول في توتر:

ـ هل رآك أحد؟

منحته واحدة من ابتساماتها الساحرة، وهى تقول :

ـ اطمئن .

ثم سألته في لهفة :

ـ أين هو؟

أشار إلى صندوق معدنى كبير، في ركن المكان، وقال :

ـ ها هو ذا ..

اندفعت نحو الصندوق، وفتحته في عجلة، وارتفع حاجباها، وهي تتطلع إلى جثمان (فلاش) المسجى داخله، وتنهدت مغمغمة :

ـ ما أوسمه !!

عقد الطبيب حاجبيه في ضيق، وقال في عصبية:

ـ هل تعلمين كم تجشمت من مخاطر، لأحقق نزوتك الجنونية هذه؟

منحته ابتسامة ساحرة أخرى، وقالت :

ـ كل ما أعلمه هو أنك أفضل من أحببت في قصر ابى .

تهللت أساريره، وهو يهتف :

ـ حقًا؟؟

هزت كتفيها في دلال، وهي تقول :

ـ الم تكن تعلم؟

أمسك كتفيها في انفعال شديد، وهتف في حرارة :
ـ (أورا).. انى ٠٠
قاطعته في هدوء :
الحقنة أولا.. هل نسيت الوقت؟
بدا عليه الضيق، وهو يقول :
ـ آه.. تذكرت.
وأخرج من جيبه محقنا دائريا، دفع ابرته في أحد عروق (فلاش)، ودفع إلى دماء هذا الأخير سائلا وردي اللون، قبل أن يعتدل قائلا :
ـ سيسير كل شيء على ما يرام.
داعبت أذنه بأناملها، وهي تهمس :
ـ كم أنت رائع !!
التفت إليها وقد تأججت عاطفته، وقال :
ـ (أورا) .. متى نلتقي؟
همست في حرارة :
ـ قريبا.. قريبا جدا
ثم اعتدلت، مضيفة في قلق :
ـ ولكن ينبغي أن تذهب الآن، قبل أن يفتقدك والدي.. هيا.
امتلأت نفسه بالخوف، عند ذكر والدها، وتلفت حوله هاتفا :
ـ صدقت.
وانطلق يغادر المكان في خطوات أقرب إلى العدو، فابتسمت هي خلفه في سخرية، وقالت :
ـ يا لك من رعديد !
ثم أدارت عينيها إلى حيث يرقد جثمان (فلاش)، مستطردة :
ـ ويا لك من صنديد؟

مالت على الجسد الساكن، وراحت تداعب وجنته الباردة بأصابعها في حنان، حتى سرت الدماء في وجه (فلاش)، وتأوه في خفوت، ثم فتح عينيه في بطء، وراح يتطلع إلى وجه (أورا) لحظات، قبل أن يعود لإغلاق عينيه، مغمغما :
ـ أهي الجنة؟
همست في حنان بالغ :
ـ سأجعل حياتك كلها جنة يا حبيبي.
فتح عينيه دفعة واحدة، وحدق في وجهها، ثم اعتدل جالسا، وهتف :
ـ (أورا)؟ ! عجبا !! ألم يكن من المفروض أن ألقى حتفي في حجرة الغاز؟
اتسمت قائلة :
ـ تلك الكبسولة ألغت التأثير القاتل للغاز، ولكنها لم تلغ الأعراض الجانبية للغاز القاتل للأسف، وعملها رائع؛ فهي تجعلك أشبه بالموتى، حتى نحقك بالعقار المضاد.
ابتسم مغمغما :
المهم هو أنني على قيد الحياة.
أحاطت عنقه بذراعيها، هامسة :
وأنك قد عدت إلى (أورا) .
تمتم وهو يبعد ذراعيها :
ـ حقا؟ !
ثم نهض يفرد عضلاته في صعوبة، فقالت وهى تراقب عضلاته المفتولة في اعجاب ثم تقول:
ـ أسرع، فمن الضروري أن نبتعد عن هذا المكان.
سألها في دهشة :
ـ إلى أين؟

قالت في حماس :
ـ إلى (بيرات).. الضيعة الخاصة بابن عمى الأمير (بارين) .
قال معترضا :
ـ أتعنين أن أترك (دايل) وحدها هنا؟
عقدت حاجبيها الرائعين في ضيق، وهي تقول :
ـ بل أعني أن تجد وسيلة أفضل من عنادك وعضلاتك لإنقاذها.
سألها وهو يحث الخطا إلى جوارها، عبر الممرات المعقدة :
لماذا ضيعة (بارين) بالذات؟
أجابت في عجلة :
لأنها المكان الوحيد الذي لن يخطر ببال أبي قط.
قال في دهشة :
ـ كنت أظن أن العكس هو المفروض ؛ لأن (بارين) هو ابن عمك.
ابتسمت وقالت :
ـ وهو أكثر الأمراء ولاء لأبي ؛ ولهذا بالذات لن يشك أبي في أنك تختفي في ضيعته، في حين سيخفيك (بارين) تأكيدا لحبه لى .
سألها :
ـ وهل تبادلينه هذا الحب؟
أطلقت ضحكة عابثة، وهي تقول :
ـ إنني أفضل أن يبقى قلبى حرا.
بلغا كبسولة فضاء مستديرة، فدلفت إليها، وأشارت ل (فلاش) أن يتبعها، ثم ضغطت أزرارها، وهي تقول :
ـ اربط حزام مقعدك جيدا.
ثم انطلقت قبل أن تسمح له بتنفيذ الأمر..
وهتف (فلاش)، وهو يتشبث بمقعده :
ـ أيتها المجنونة.

أطلقت ضحكة عابثة أخرى، وهي تقول :
الجنون هو أجمل متعة في الكون كله.
ربط حزام مقعده في صعوبة، وزفر في ضيق،
ثم سألها :
ـ كم ضيعة تضمها إمبراطورية أبيك؟
أجابت في هدوء :
ـ ثلاث .. واحدة يملكها (بارين)، والأخرى يملكها الصقور، بقيادة (هاوك) الأعور، والثالثة ملك لـ (فيشى)، وأبي يملك ويحكم الثلاثة.. ولكنه يعلم أن ضيعة (نست) وقائدها (هاوك) لا تدين له بولاء حقيقي، وإنما تدفع جزيته اتقاء لشره، كما أن (فيشى) ورجال ضيعته (أكوا) قوم مسالمون، لا يمكن الاعتماد عليهم في قتال، أما (بارين) فهو ابن عمى، ووريث العرش الإمبراطوري من بعد أبي، ثم استطردت بغتة :
ـ هل تحب قيادة هذه الكبسولة؟
سألها في دهشة :
ـ وهل من السهل أن أفعل؟
هتفت في حرارة :
ـ بالتأكيد.
وناولته ذراع القيادة، وهي تقول :
ـ الأمر أبسط مما يمكن أن تتصور.. الدفع إلى الأمام يقودك أماما، وإلى الخلف خلفا، وهكذا.. هيا هو حاول.
بدا له ذراع القيادة سلسا ناعما للغاية، تستجيب إلى لمساته في يسر وسهولة، حتى أنه هتف مبهورا :
ـ إنه رائع بحق.
ابتسمت مغمغمة :
ـ أرأيت؟

ثم زحفت بأصابعها إلى كفه، مستطردة في همس :
ـ كل شيء هنا رهن إشارتك.
تنحنح في حرج، وأسرع يميل بالحديث إلى وجهة أخرى، قائلا :
ـ متى نصل إلى (بيرات)؟
أطلقت ضحكة عابثة، وكأنما أدركت مقصده، وتراجعت في مقعدها، وقالت مبتسمة :
ـ لقد وصلنا تقريبا.
رأى امامه أدغالا كثيفة مظلمة، ووجد (أورا) تلتقط منه ذراع القيادة، قائلة :
ـ هناك سنجد وقتا كافيا لحديث طويل..
وغمزت بعينها في دلال، مستطردة :
ـ وحار.
وهبطت بالكبسولة وسط الأدغال الكثيفة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7 ـ الجاسوس..

لم تكد (دايل) تجد (زوركوف) أمامها، حتى هتفت:
ـ (زوركوف).. حمدا لله أن التقيت بك، ساعدني على الفرار من هذا المصير الأسود.
بدا لها جامد النظرات، أشبه برجل آلي، وهو يقول :
ـ بالطبع.. سأساعدك..
ثم أمسك كفها، وقادها إلى حجرة جانبية شبه مظلمة، وهي تسأله في حيرة وقلق :
ـ ماذا بك يا (زوركوف)؟
أجابها بنفس اللهجة الآلية :

- لا شيء.. اطمئنى.
وفي قاعة الأمن الرئيسية، كان (جارد) يقف إلى جوار (ديفلش)، أمام شاشة رصد كبيرة، وهذه الأخيرة تقول في ارتياح :
- يبدو أن العميل (٧٧٧) سيكون خير رجل أعددناه يا عزيزى (جارد).. أرأيت كيف تحرك للعمل وحده، فور رصدنا لفرار الأرضية، وكيف نجح في خداعها؟
مط (جارد) شفتيه، وقال :
- لم يعد بها بعد يا عزيزتى ٠٠ إنه يسير بها في أسلوب مقلق محير.
قالت في سخرية :
- إنه يكتسب ثقتها أولا أيها الغبي.
عادا يراقبان شاشة الراصد في اهتمام، وأمامهما بدت (دايل) قلقة، وهي، وهي تسأل (زوركوف) :



عادا يراقبان شاشة الراصد فى اهتمام ، وأمامهما بدت (دايل) قلقة ، وهى تسأل (زوركوف) :ـــ إلى أين تقودنى ؟

ـ إلى أين تقودني يا (زوركوف)؟

أجابها (زوركوف) بذلك البرود الآلي المثير :

ـ إنني أعرف طريق النجاة..

عاونها على الصعود داخل ناقل صاروخي صغير، يتسع لراكبين فحسب، ثم احتل مقعد القيادة، وأدار المحرك.

وأمام شاشة الراصد، قال (جارد) في اهتمام :

ما الذي يفعله بالضبط؟
تسلل الشك إلى صوت (ديفلش)، وهى تقول :
- لست أدري، إنه يتصرف على نحو مثير للشك والحيرة بالفعل، و..
بترت عبارتها، وابتلعت كلماتها، وغص بها حلقها، عندما اختلط صوت محرك الناقل الصاروخي، وهو ينطلق خارج القلعة، بضحكة مجلجلة رنانة، تحمل صوت (زوركوف)، وهو يهتف:
- ألم أقل لكم إنه توجد ثغرة في جهاز محو الذاكرة هذا؟
وانطلق الصاروخ مبتعدا، وهتف (جارد) :
- اللعنة..
ثم التفت إلى (ديفلش)، التي بدت شاحبة كالموتى وصرخ بها في غضب :
- لقد خدعك يا خبيرة الأمن..
واندفع نحو الباب، ملوحا بكفه، مستطردا في شماته:
- ترى ماذا يمكن أن يفعل بك الإمبراطور، عندما يعلم هذا؟
ازداد شحوبها على نحو مريع، ثم انتزعت من ثوبها قضيبا معدنيا، وضغطت أسنانها في غضب، وهي تقول :
ويحك أيها الوغد .
وبضغطة قوية، انطلقت من سلاحها أشعة متألقة، أصابت (جارد)، فاتسعت عيناه في الم ورعب، واحتبست في حلقه صرخة ضخمة، قبل أن يسقط جثة هامدة..
وفي هدوء تام، استدارت (ديفلش) إلى جهاز اتصال، وقالت :
- لقد فر العميل (٧٧٧)، بعد أن قتل الأميرال (جارد).. أعلنوا ضرورة تصفية العميل (٧٧٧) فور رؤيته..
أكرر..
فور رؤيته

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ـ مستحيل ..

نطق الأمير (بارين) تلك الكلمة بكل الغضب والحزم، قبل أن يلوح بيده في وجه (أورا)، مستطردا :

ـ إنك تطلبين مني المستحيل يا (أورا).. هذا الأرضي عدو لإمبراطورنا العظيم، وللإمبراطورية كلها، ولا يمكنني أن أخفيه هنا، مهما كان الثمن .

قالت في دلال أنثوي مثير :

ـ حتى ولو كان الثمن هو أنا.

بدا لحظة وكأنه سينفجر بالرفض، إلا أنه أطبق شفتيه لحظة، وهو يتطلع إلى فتنتها الطاغية، ثم قال في ضيق :

ـ (أورا).. ليس من اللائق أن تدفع ابنة (منج) وريث العرش إلى خيانة وطنه.

هزت كتفيها، قائلة

ـ أية خيانة في هذا؟ أنت تعلم ـ مثل الآخرين ـ أن والدى ديكتاتور مستبد، لا يتردد لحظة واحدة في قطع رأسك، على الرغم من كونك وريث عرشه الوحيد، لو لم ترق له تصفيفة شعرك، وهذا الأرضي ضحية من ضحايا استبداده.

قال في توتر :

ـ هذا لا يعنيني.. إنه خائن فحسب، وهذا كل ما أعلمه بشأنه.

تراجعت في غضب، وضربت الأرض بقدمها كالأطفال، وهي تهتف :

ـ فليكن دعه ينصرف إذن، أو سلمه لأبي، وأقسم بأرواح أجدادنا ألا ترى وجهى بعد اليوم قط.

كان من الواضح أنها قد وضعته في خيار صعب للغاية، وأن هذا يقلقه ويربكه في شدة، حتى أنه قد لوح بذراعه كلها في عصبية، ثم قال في حدة :

ـ اتركى لى فرصة للتفكير يا (أورا).. إن لدي متحدّ اليوم.. سأنهى أمره، وأعود لأخبرك قرارى.

تركهما وانصرف في عصبية واضحة، فسألها (فلاش) :

ـ ما مغزى ذلك التحدي، الذي يسعى إليه؟

مطت شفتيها، وهزت كتفيها قائلة :

ـ إنها لعبة همجية سخيفة، فلدينا هنا حيوان سام، يحيا في جحور مرتفعة عن الأرض، لها عدة فتحات للتمويه، وهو يرقد في واحدة تلك الفتحات عادة، ويترك الأخرى خالية، ولعبة التحدي البربرية هذه تعتمد على أن يضع كل من المتحدين قبضته في واحدة من الفتحات، والمهزوم هو من يقوده سوء الحظ إلى الفتحة التي يرقد فيها الحيوان السام، الذي ينفث فيه سمه، فيعانى من آلام مبرحة، وكأن أحشاءه تحترق، لثلاثة أيام كاملة، قبل أن يموت.

غمغم (فلاش) :

ـ يا للبشاعة !

هزت كتفيها مرة أخرى، في لا مبالاة، وأشارت إلى نافذة جانبية، وهي تقول :

يمكنك أن تشاهد لعبة (جو ناجون) هذه من هنا.

اقترب من النافذة بدافع الفضول، ورأى رجلا ممشوق القوام، مفتول العضلات، يقف أمام (بارين)، وبينهما قطعة متوسطة الطول من الحجر، تحوي عدة فتحات، دس (بارين) قبضته في إحداها بلا تردد، ثم انتزعها في هدوء، فتقدم

ذلك الرجل، ودس قبضته في فتحة أخرى، وتكرر المشهد ثلاث مرات في بطء، ثم دس الرجل قبضته داخل إحدى الفتحات، وأطلق صرخة ألم هائلة، وانتزع يده في عنف، ثم سقط على ركبتيه، وهو يتأوه في قوة، فتقدم إليه (بارين)، وقال في هدوء :
ـ ستتضاعف الآلام، وتصبح أشبه بنيران تلتهم الأحشاء، ويتضاعف العذاب في كل لحظة وكل لمسة، وتتمنى الموت ألف مرة، وأنت تعلم أنه ما من شفاء من هذا إلا الموت.
هتف الرجل، في لهجة تشف عن أنه يعاني عذابا رهيبًا:
ـ اقتلني.. أرجوك.. لا تتركني لكل هذا العذاب.
وفي هدوء، انتزع (بارين) سيفه، وأغمده في قلب الرجل، ثم انتزعه يقطر دما، في حين هوى الرجل جثة هامدة، وهتف (فلاش) :
ـ يا للبشاعة !
ثم التفت إلى (أورا)، التي استلقت في إغراء، على أريكة قريبة، واستطرد في حدة :
ـ إنها مجزرة بشعة.
هزت كتفيها في هدوء، وقالت :
ـ لقد كان نزالا عادلا.
هتف في حنق :
ـ أي عدل في هذا؟ لقد قتل (بارين) رجلا أعزل.
هزت كتفيها مرة أخرى، في لامبالاة كاملة وهي تقول :
ـ كان من الممكن أن يكون (بارين) هو الضحية.
بدا الغضب على وجهه لحظة، وهم بقول شيء ما، لولا أن دلف (بارين) إلى الحجرة في هذه اللحظة، وقال :
ـ هل كنتما تتحدثان عني؟
أطلقت (أورا) ضحكة خافتة، وسألته في دلال :

ـ هل اتخذت قرارك؟
تطلع إلى فتنتها لحظة، ثم عقد كفيه خلف ظهره، وقال :
ـ إنك تطلبين مني ألا أطرده من ضيعتى، والا أبلغ أباك بالأمر، أليس كذلك؟
قالت في هدوء :
- بلى.
ابتسم ابتسامة خبيثة، وهو يقول :
ـ فلتفصل بيننا الآلهة إذن.
وملأ عينيه بصورة (فلاش)، وهو يستطرد في شماتة :
ـ في لعبة (جو ناجون) .
وارتجف جسد (أورا) في خوف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8ـ الصقور ..

أطلق (زوركوف) ضحكة عالية مجلجلة، وهو ينطلق بالناقل الصاروخي الصغير، مبتعدا عن القصر الإمبراطوري، و (دايل) تهتف مبهورة:

ـ ولكن كيف فعلت هذا؟ كيف أمكنك أن تخدعهم وتحتفظ بذاكرتك، على الرغم من كل أجهزتهم الحديثة، التي لا نملك مثلها على الأرض ؟

هتفت في حماس وسعادة :

ـ اعترف أنهم يمتلكون تكنولوجيا متطورة للغاية، ولكنهم في غاية التخلف، بالنسبة لدراسة النفس البشرية، وإلا علموا أنه لا وجود لما يعرف باسم مراكز الذاكرة، إلا في الروايات الرخيصة، وأن الذاكرة هي خليط من كل ما نراه أو نسمعه أو نشمه أو نلمسه.. إنها حواسنا كلها.

سألته مشدوهة :

ـ ولكن كيف خدعتهم؟

ـ رحت أفتش عن كل ما يملأ ذاكرتى، وهم يسلبوني إياها يا عزيزتى ٠٠ موسيقى وادب.. حكم وأمثال، لقد كانت معركة بين أشعتهم وذكائي يا عزيزتي، ولقد انتصرت فيها أنا ٠٠ إن العقل البشري أقوى وأعقد مما يتصورون كثيرا .. أليس كذلك؟

أدهشه أن لزمت الصمت تماما، فهتف بها مكررا :

ـ أليس كذلك؟

أشارت أمامها، مغمغمة في انبهار :

ـ انظر.

التفت إلى حيث تشير، واتسعت عيناه في دهشة.

كان هناك عشرات من الرجال المجنحين يسدون الطريق أمام الناقل الصاروخي، مما جعله يهتف :

ـ اللعنة !

مع آخر حروف كلمته أطلق أحد المجنحين من سلاحه أشعة قوية، أصابت محرك الناقل، فاختل توازنه، وهوى في عنف، فصرخت (دايل) :

ـ لقد انتهينا.

ولكن الصقور أحاطوا بالناقل. في هبوطه، وانتزعوا سقفه، ثم حملوا (دايل) و (زوركوف) خارجه، قبل أن يهوى متحطما ..

وسرت قشعريرة في جسد (دايل)، وهي تتشبث بالرجل الصقر، الذي يحلق بها عاليا، وغمغمت :

ـ يبدو لي انني في فيلم خيالى.

أما (زوركوف)، فلقد اكتفى بتحسس منبت جناح الرجل الآخر، وقال :

ـ عجيبة هي حلقة التطور .

بعد ذلك، والصقور لم ينبس أحدهما بنت شفة بعد ذلك، والصقور يحلقون بهما مبتعدين، حتى لاح جسم هائل، أشبه بعش طائر ضخم، فهتفت (دايل) :

ـ أراهن أنها أرضهم.



هبط الصقور بـ (دايل) و (زوركوف) في ذلك العش الهائل ، عند قدمى رجل ضخم الجثة ..

هبط الصقور بـ (دايل) و (زوركوف) في ذلك العش الهائل، عند قدمي رجل ضخم الجثة، نبت في ظهره جناحان كبيران، وهو يستقر فوق عرش خاص من الريش، وقد أطلق شاربه ولحيته على نحو همجي، وأخفى عينه اليسرى بعصابة سميكة.
واعتدلت (دايل) واقفة، ونفضت غبارا وهميا عن ثوبها، وهي تقول :

ـ هل لي أن أعلم أين نحن؟
ابتسم الضخم، وقال :
ـ أنت هنا في ضيعتي (نست) أيتها الفاتنة الأرضية، وأنا (هاوك)، زعيم هؤلاء الصقور.
از دردت لعابها، وقالت :
ـ عظيم.. وهذا يعني أنك رجل شريف أمين، وأنك
قاطعتها ضحكته المجلجلة، وهو يقول:
. لا داعي لهذه المقدمة الفلسفية، دعينا نطرق الموضوع مباشرة.
قالت في جدة :
ـ لا بأس ٠٠ إننا نطالبك بإطلاق سراحنا.
قهقه (هاوك) ضاحكا مرة أخرى، وقال :
ـ يا له من مطلب !
ثم اعتدل مستطردا في سخرية :
ـ أتعلمين أيتها الفاتنة أن (منج) يطلب رأسك ورأس رفيقك هذا، ورفيقكما الأشقر، بأي ثمن؟
هتفت في دهشة :
ـ رفيقنا الأشقر؟ ! ماذا تعني؟ ألم يحصل (منج) على رأس (فلاش) المسكين بالفعل؟
هز (هاوك) رأسه نفيا، وقال :
ـ لا يا عزيزتى.. لقد نجا رفيقكما الأشقر من الموت، بمساعدة الفاتنة الإمبراطورية (أورا).
خفق قلب (دايل)، وهي تهتف :
٩٢

ـ هل نجا (فلاش) حقا؟ ! أخبرني بالله عليك، أهو على قيد الحياة؟
ثم أجهشت بكاء حار، جعل الجميع يتطلعون إليها في صمت مشفق، حتى قال (زوركوف) في حدة:
ـ يلوح لي أنك ورجالك لا تستحقون لقب (الصقور) هذا يا (هاوك).
هتف (هاوك) :
ـ ماذا؟
استطرد (زوركوف) بنفس الحدة :
ـ انكم تسخرون من غريبين أعزلين، وتحتملون طغيان (منج) واستبداده، كما لو أنكم مجموعة من العصافير الهزيلة.. يا للعار !
ران الصمت التام على المكان، والجميع يحدقون فيه في دهشة، قبل أن ينفجر (هاوك) ضاحكا، ويهبط من عرشه، ويربت على كتف (زوركوف) في حرارة، هاتفا :
ـ رائع أنت أيها الأرضي.. لقد أثارت كلماتك حماسى بالفعل..
ثم لوح بذراعيه، ورفرف بجناحيه، مستطردا في حماس :
ـ أعدوا الطعام والشراب للضيفين.. أريدهما أن يتغنيا بكرم ضيافة الصقور، حتى آخر رمق فيهما.
تشبثت به (دايل)، وهتفت ودموعها تبلل وجهها :
ـ أخبرني أولا بالله عليك أأنت واثق من نجاة (فلاش)؟
قهقه ضاحكا مرة أخرى، وقال :
ـ بل إن لدى مفاجأة أعظم أيتها الفاتنة.. ثم مال على أذنها، هامسا :
ـ إنني أعلم أين هو.
وجلجلت ضحكته مرة جديدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف (فلاش) و (بارين) على جانبى وكر الحيوان السام، الذي يحوي عدة فتحات، وراح كل منهما يمنح الآخر أكثر نظراته حزما وعنادا وصرامة، في حين هتفت (أورا) في غضب، وهى تقف بعيدا :

ـ لقد خدعتني يا (بارين) .. سأقتص منك لهذا.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي (بارين)، وهو يقول : -

ـ إنني لم أخلف وعدي لك قط يا عزيزتي .

صاحت :

ـ أيها اللعين.

تجاهلها هذه المرة، وهو يدير عينيه إلى (فلاش)، ويسأله في هدوء:

ـ هل نبدأ؟

ظل (فلاش) ثابتا صامتا، فأردف (بارين) ساخرا :

ـ أم أنك تشعر بالخوف؟

سأله (فلاش) في برود :

ـ هل تبدأ أم أبدأ أنا؟

ارتسمت نفس الابتسامة الساخرة على شفتى (بارين)، وهو يقول :

ـ أنت ضيفي .

وان صمت ثقيل لحظة، قبل أن يقول (فلاش) :

ـ لا بأس.

وضم قبضته، ودفعها داخل أول فتحة صادفته، ثم سحبها في هدوء، وهو يرمق (بارين) في تحد، فابتسم (بارين) قائلا:

ـ حظ حسن.

ثم أردف في جدية :

ولكنك لم تتردد لحظة واحدة، وهذا يثير الإعجاب حقا.

قال (فلاش) في برود :

ـ أخبرني أيها الأمير : هل ستقضي الوقت كله في الحديث، أم أنك ستؤدي دورك في اللعبة؟

تبادلا نظرة متحدية أخرى، ثم دفع (بارين) قبضته داخل فتحة أخرى، وسحبها في بطء وهدوء، وهو يبتسم في ظفر، قائلا :

ـ يا للخسارة ! لقد نجوت أنا أيها الأرضي .

قال (فلاش) في هدوء :

ـ من يدري أيها الأمير؟ اللعبة لم تنته بعد.

راقبتهما (أورا) في اهتمام، وعقلها يعقد مقارنة طويلة بينهما..

لقد بدا لها الاثنان في غاية الوسامة والقوة ..

وحارت أيهما تتمنى له الفوز..

وتعلقت عيناها بقبضة (فلاش)، التي بدت لها أشبه بمطرقة من الفولاذ، وهو يدفعها داخل فتحة جديدة، وغمغمت :

ـ لقد سئمت (بارين)، وأظن (فلاش) سيكون عينة جديدة طريفة .

لم تكد تنتهي من عبارتها، حتى انطلقت في المكان صرخة ألم، وانتزع أحد المتبارزين قبضته من وكر الحيوان المفترس في سرعة، ثم سقط على ركبتيه، وهو ينتحب في شدة ..

وخفق قلب (أورا) في عنف..

لقد كان الخاسر هو ذلك الذي وقع عليه اختيارها

كان (فلاش) ..
(فلاش جوردن) ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- المستنقع..

ارتفعت هامة (بارين) في ظفر، واتجه في خطوات واثقة قوية نحو (فلاش)، الذي راح يتأوه في ألم، ممسكا قبضته، وقال الأمير في صرامة واعتداد:

ستتضاعف الآلام في كل لحظة، وتشب النيران في أحشائك، ويتصاعد العذاب مع كل لمسة، حتى تتمنى الموت ألف مرة، و...

قاطعه (فلاش) في حدة :

- لعنة الله عليك يا (بارين).. الا يوجد ترياق لهذا السم؟

هز (بارين) رأسه نفيا، وقال في شماتة :

- مطلقا.

التفت (فلاش) إلى (أورا)، التي وقفت صامتة، والأسف يكسو ملامحها تماما، وهتف

في ألم :

- أهذا صحيح؟

أومأت برأسها إيجابا، وهي تقول :

- بكل أسف يا عزيزى (فلاش) .

وابتسم (بارين)، وهو يمتشق حسامه، قائلا :

- لا يوجد سوى حل واحد..

وفجأة تخلي (فلاش) عن أنينه واستسلامه، وهو ينقض على (بارين)، هاتفا :

- حقًا؟

وقبل أن يدرك أي من الحاضرين ما يحدث، كان (فلاش) قد طرح (بارين) أرضا بلكمة قوية، وانتزع منه حسامه، ثم وضع

نصله على رقبة الأمير، وهتف في صرامة :
ـ حركة واحدة صغيرة ويطير رأس أميركم .
ابتسمت (أورا) في جذل، وكأنما راق لها ما حدث، في حين هتف (بارين) في سخط :
ـ لقد كانت خدعة إذن.
هز (فلاش) كتفيه، وابتسم قائلا :
ـ بالطبع يا عزيزى (بارين).. إنني لم أجد مبررا في الواقع، ليلقى أحدنا مصرعه هكذا.
صاح (بارين) :
ـ أنت جبان.
أجابه (فلاش) :
ـ من يدري؟ .. ربما أنت الأحمق .
هتف (بارين) :
ـ أتظنك ستنجو من هنا؟
قال (فلاش) في حزم :
ـ يمكنني أن أحاول على الأقل.
صرخ (بارين) فجأة :
ـ محال.
وبمرونة مذهلة أزاح عنقه جانبا، ثم قفز واقفا على قدميه، وتراجع إلى الخلف في سرعة، صارخا :
ـ اقبضوا عليه يا رجال.
رأى (فلاش) سبعة رجال يندفعون نحوه، وسيوفهم مشهورة، فتراجع ملوحا بسيفه، وهو يهتف:
ـ حذار أن..
تعثر فجأة في حافة حادة، واختل توازنه وهوى متدحرجا على منحدر هابط ..

وهتفت (أورا) :
ـ يا للآلهة !! لقد سقط في أرض المستنقع.
ابتسم (بارين) وقال :
يا للمسكين ألم يكن من الأفضل له أن يلقى مصرعه بالسم أو السيف؟
واتسعت ابتسامته وهو يتجه نحو (أورا)، مستطردا :
ـ إنه سيندم بالفعل على هذا..
هتفت به (أورا) في غضب :
ـ لقد خدعتني يا (بارين).
ضحك قائلا :
ـ ولكنني أحبك يا (أورا) .
كانت تشعر بالغضب بالفعل ؛ لأنه سلبها ذلك الأرضي، الذي تاقت نفسها إليه، إلا أنها، ومع سقوط (فلاش) في أرض المستنقعات، لم يعد لديها سوى (بارين) ..
ولقد اعتادت أن تحرص على ما لديها جيدا ..
حتى يظهر البديل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تدحرج (فلاش) طويلا، هابطا ذلك المنحدر، قبل أن يستقر جسده على أرض عشبية رطبة، تمتلئ برائحة المستنقعات العطنة، فنهض يغمغم:
ـ اللعنة.. هذا أسوأ من السقوط في مباريات الرجبي.
كانت المنطقة شبه مظلمة ، إلا من أشعة خافتة، تتسلل من مصدر مجهول، واستغرق (فلاش) بضع دقائق، قبل أن تتضح له الصورة الكئيبة المفزعة.

صورة مستنقعات تمتد بلا نهاية..
وتمتم (فلاش) :
ترى أيهما أكثر رحمة، سم الحيوان، أم ذلك الجحيم؟
استدار يتطلع إلى ذلك المنحدر، الذي بدا له بلا نهاية، ثم حاول أن يتسلقه صاعدا، إلا أن الأعشاب اللزجة الرطبة التي تغطيه، جعلت ذلك مستحيلا، مما جعله يتنهد قائلا :
- لقد حسم الأمر إذن، لا مفر من عبور ذلك المجهول.

خاض المستنقع في حذر، وشعر بالارتياح ؛ لأن قراره لم يكن بعيدا، فراح يسير فيه في بطء، وهو يتحسس موضع قدميه جيدا، إلى أن اطمأن قلبه، فابتسم قائلا :
- يبدو أن المظهر أسوا كثيرا من المخبر، في هذا المكان.
ما إن انتهى من عبارته، حتى بدت له بقعة الماء أمامه وكأنها تغلي، وتتصاعد منها فقاعات ضخمة..
وتراجع (فلاش) في حذر..

وفجأة برز ذلك الشيء الرهيب.



وسبح الصاروخ نحو الهدف ..
نحو قصر شاهق مهيب ، يبدو أشبه بقصور الأساطير القديمة ..

شيء أشبه بثعبان هائل مخيف، له رأسان، بكل منهما ثلاثة أعين ضخمة رهيبة..

وبرزت الأنياب الحادة من الفكين..

وأطلق الوحش صرخة حادة رفيعة..

وانقض ..

انقض على (فلاش) ..

وبلا رحمة ..
فجأة انتبه (فلاش) إلى أن سيف (بارن) لا يزال في قبضته، فرفعه بكلتا قبضتيه، وأطلق صرخة رهيبة..
وهوي على أول عنق قابله ..

وأطلق الوحش صرخته الحادة الرفيعة، وهو يتراجع، وقد بتر السيف أحد عنقيه، وبقي رأس واحد بأنياب حادة قاتلة، وإلى جواره نافورة من الدم الأصفر العجيب..
وخشية أن يضيع أثر المفاجأة، هوى (فلاش) بالسيف مرة أخرى، ولكن الوحش تراجع هذه المرة، وراح يناور محاولا نيل (فلاش) من بقعة مكشوفة ..
ثم انقض مرة أخرى ..
وتراجع (فلاش)، وضرب بسيفه..
وتوقف الوحش بغتة، وراح يترنح، على الرغم من أن سيف (فلاش) لم يمس عنقه هذه المرة ..
وفجأة سقط الوحش جثة هامدة ..

وحدق (فلاش) في جثة الوحش، وتمتم :
ـ يا إلهي ! لقد فقد الكثير من الدماء، من العنق المقطوع .
زفر في ارتياح، ثم تطلع إلى المستنقعات الممتدة أمامه مغمغمًا:
ـ ترى كم وحشا مثل هذا ينتظرنا في تلك الأعماق؟
لم يكن أمامه. على الرغم من هذا ـ سوى المضي في طريقه ..
ولقد فعل..

واستغرق سيره الحذر قرابة الساعتين، حتى وطئت قدمه أخيرا أرضا متماسكة، فهتف :
ـ أخيرا.

والقى جسده فوق الأرض، التي بدت له رخوة أكثر مما تصور، وراح يلهث بعض الوقت، ثم أسبل عينيه مغمغما :
ـ كم أتوق إلى قليل من النوم.

انتفض جسده بغتة، عندما ترجرجت الأرض الرخوة أسفله، وهب محاولا الوقوف، ولكن عدة أذرع سوداء برزت من الأرض بغتة، وأحاطت به في قوة، وهو يحاول الفرار منها عبثا، وفشلت محاولاته تماما، وأيقن من أنه مقيد مشلول الحركة، فهتف بكل غضبه :
ـ اللعنة !

وفجأة ارتفعت من عند قدميه مخالب حادة، أشبه بمخالب سرطان البحر، ومالت نحو عنقه، وكأنها تهم ببتره من قاعدته..
وفي هذه المرة لم يكن هناك أمل..
مطلقًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 ـ صفقة..

ـ لقد عادت الأميرة (أورا) يا سمو الإمبراطور ٠٠

نطقت (ديفلش) هذه العبارة في لهجة خاصة تحمل الكثير من الترقب والتشفي، وهي تتطلع إلى (منج)، الذي ضاق ما بين حاجبيه في غضب، وهو يقول :

ـ وهل أعادت ذلك الأرضي، الذي ساعدته على الفرار؟

هزت (أورا) رأسها نفيا، وأجابت :

ـ لقد عادت وحدها يا صاحب السمو.

انتفض فوق عرشه غضبا، وهو يهتف :

ـ وحدها؟ !

ثم هب واقفا، وهو يصرخ :

ـ اجعلوها تعترف أين ذهبت به.. انتزعوا الاعتراف منها عنوة.

برقت عينا (ديفلش) في جذل، وهي تقول :

ـ ننتزع الاعتراف من أميرة يا صاحب السمو؟ !

شمخ بأنفه في غطرسة، وهو يقول :

ـ ومن (منج) نفسه لو لزم الأمر.

بدا من ملامحها أنها قد ابتهجت بالأمر، وهى تنحني انحناءة كبيرة، وتقول :

ـ سمعا وطاعة يا صاحب السمو.

لم تكد تستدير التنفيذ الأمر، حتى أضاف في لهجة أقرب إلى السخرية :

ـ ربما يخفف هذا من ذنبك يا (ديفلش)،

فلقد كان المفروض أن تنتزع لسانك، جزاء فشلك في تجنيد عالم الفضاء الأرضي.

احتقن وجهها لحظة، وتمتمت :
ـ عفوك يا مولاي
اندفعت تغادر (قلب الكون)، وهي تتمتم:
ـ ذلك اللعين المتغطرس .
واصلت اندفاعها، حتى بلغت قاعتها الخاصة، حيث رقدت (أورا) فوق منضدة معدنية باردة، وقد قيدت أطرافها إلى أطراف المنضدة في إحكام..
ولم تكد (أورا) تراها، حتى صرخت غاضبة :
ـ أيتها الحقيرة التعسة سيقتلك والدي شر قتلة، جزاء ما تفعلين بى .. ليس لك الحق في فعل هذا بأميرة، تسري في عروقها الدماء الإمبراطورية .
ابتسمت (ديفلش) في جذل وسخرية، وهي تقول :
ـ أعترف أنني قد فعلت هذا، قبل الحصول على إذن مسبق من والدك الإمبراطور يا سمو الأميرة، ولكنني كنت أعلم أنه لن يعترض، وأن قلبه لا يحمل ذرة واحدة من العواطف، حتى بالنسبة لابنته.
ثم مالت نحوها، مستطردة في صرامة :
ـ والآن أين (فلاش)؟
صرخت (أورا) :
ـ اذهبي إلى الجحيم.
تراجعت (ديفلش) برأسها، وأطلقت ضحكة عالية مجلجلة، ثم قالت:
ـ لست أدري من منا سيربح هذا الجحيم.
ثم استدارت إلى أحد حراسها، وقالت :
ـ أحضر شيئا من ديدان المستنقعات.
صرخت (أورا) :

ـ لا.. ليس ديدان المستنقعات.. لا..
أطلقت (ديفلش) ضحكة وحشية، وقالت وهي تتحسس عنق (أورا) الجميل :
ـ بل إنها أوامر والدك يا سمو الاميرة.. لقد أصر على معرفة مخبأ (فلاش جوردن) ٠٠ مهما كان الثمن.
انهارت (أورا)، وهي تهتف :
ـ سأخبره إذن.. سأخبركم بكل شيء.. ولكن لا تحضري تلك الديدان القذرة.
واعترفت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المخلب القاتل يهبط في هدوء، نحو عنق (فلاش)، الذي حاول عبثا التملص من الأذرع القوية، التي تحيط به، حتى بدت له النجاة مستحيلة، وبدا له الموت بردائه القاتم أمام عينيه.. وفجأة شق الهواء متألق، انغرز في المخلب القوي، الذي ترنح في قوة، ثم سقط إلى الخلف، وتراخت الأذرع المحيطة بجسد (فلاش) دفعة واحدة، فراح يدفعها بعيدا، ويتحرر منها في توتر ثم نهض يلتفت إلى منقذه المجهول، الذي هبط عليه بغتة، في اللحظة التي فتح فيها الموت فكيه، وأبرز أنيابه الحادة لالتهامه ولو أن دهشة (فلاش) بنجاته من المخلب القاتل تساوى قيراطا، فشخصية منقذه ضاعفت هذه الدهشة إلى آلاف الأفدنة..
لقد كان بالفعل آخر شخص يتوقع رؤيته في هذا الموقف بالذات..
كان (بارين) ٠٠

وفي دهشة بالغة، هتف (فلاش) :
- ولكن لماذا؟
مط الأمير (بارين) شفتيه، وهز كتفيه، قائلا :
- ربما لأنني درست الأمر جيدا.
ثم صوب إلى (فلاش) بندقية بدائية، تنتهي بقوس صغير، تعلق فيه سهم متألق آخر، وهو يستطرد :
- لقد علمت بعد سقوطك في (أرض الجحيم) أن الإمبراطور قد كشف أمر بقائك على قيد الحياة، وأنه يبحث عنك بكل غضبه وإصراره وعناده، وفكرت أن أبلغه بمصرعك في أرض المستنقعات، إلا أنني خشيت ألا يصدق هذا، خاصة وأن الشك أحد صفاته الأساسية. لذا فقد هبطت خلفك في الجحيم ..
وابتسم في سخرية، مضيفا
- لإحضار جثتك في الواقع.
ثم لوح بكفه، وأردف :
- ثم خطر ببالي أن إعادتك حيا سترضى الإمبراطور أكثر، فهو يستطيع هكذا إشباع جوعه إلى تمزيقك إربا، والانتقام منك شر انتقام .
تمتم (فلاش) في سخرية :
- يا لعطفك وشفقتك !!
ثم اعتدل مستطردا في صرامة :
- ولكن يؤسفني ألا أمنحك هذا الشرف.
قال (بارين) في حزم :
- لم تعد تمتلك القدرة على اتخاذ القرار يا صاح .
أجابه (فلاش) :
- هذا ما تظنه..

ثم استدار وواصل طريقه إلى داخل المستنقعات، فهتف به (بارين) في حدة :

. قف أيها الأرضي وإلا..

قاطعه (فلاش) دون أن يتوقف :

ـ وإلا ماذا؟ هل ستقتلني؟

تردد (بارين) لحظة، ثم قال في حزم :

ـ نعم .. سأقتلك.. إنني أفضل إرسال جثتك إلى الإمبراطور، بدلا من منحة فرصة ولو ضئيلة ـ للنجاة.

قال (فلاش) في عناد :

ـ إنني أفضل الموت أيضا.

بدا مزيج من الحزم والصرامة على وجه (بارين)، وهو يقول :

ـ فليكن.. أنت اخترت هذا

وصوب بندقيته ذات الأسهم البراقة إلى ظهر (فلاش) ..



عادا يراقبان شاشة الراصد فى اهتمام ، وأمامهما بدت (دايل) قلقة ، وهى تسأل (زوركوف) :ــ إلى أين تقودنى ؟

واندفعت سبابته تضغط الزناد .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 ـ الدمار ..

قبل أن يضغط (بارين) زناد بندقيته بجزء من الثانية، انغرز سهم براق آخر في البندقية، وانتزعها من يده، وألقى بها بعيدا، فشهق (بارين)، وهو يلتفت إلى مصدر السهم في حدة، ودفعت شهقته (فلاش) إلى أن يستدير إليه بدوره ..

واتسعت عيونهما في دهشة.. لقد كان هناك عشرات من الصقور يحيطون بهما من كل جانب، ويصوبون إليهما أسهمهم..

وهتف (بارين) في حنق :

ـ أي عبث هذا؟ كيف بلغتم ضيعتى (بيرات)، دون إذن مسبق ؟

لم يجب أحد الصقور بحرف واحد، وإنما اتجهوا نحو (بارين) و (فلاش)، وأمسكوهما في قوة، وخفقت الأجنحة في المستنقع..

ثم انطلقت الصقور وشعر (بارين) بدهشة بالغة، والصقور ينطلقون به عبر ممرات واسعة، تحيط بها أعشاب المستنقعات، وهتف :

كيف عرفتم هذه الطرق العجيبة؟

ومرة أخرى كان الجواب الوحيد الذي حظي به هو الصمت التام، إلا من صوت خفقات الأجنحة الضخمة.

ومضت نصف الساعة، والصقور يحلقون في ممرات المستنقعات، حتى بدت فتحة كبيرة في نهاية الممرات، يلوح فيها الضوء واضحا، وعبرها الصقور بحمليهما إلى السماء الصحو..

واستمر التحليق لنصف ساعة أخرى، قبل أن يحط الصقور في (نست)..
ولم يكد قدما (فلاش) يستقران على أرض (نست)، حتى سمع صوتا أنثويا يهتف :
ـ (فلاش) .
التفت بكيانه كله إلى (دايل)، التي ألقت نفسها بين ذراعيه، وراحت تهتف وقد أجهشت بالبكاء :
ـ لم أتصور أن أراك حيا مرة أخرى .
تحسس شعرها في حنان، وهو يقول :
ـ ولكن المعجزة حدثت يا عزيزتى ٠
ثم رفع عينيه إلى (زوركوف)، الذي ابتسم في مودة، وقال :
ـ يسعدني أنك على قيد الحياة.
ابتسم (فلاش) بدوره، وقال:
ـ شعور متبادل.
وهنا هتف (بارين) في غضب :
ـ هل أتينا إلى هنا لنشاهد موقفا عاطفيا سخيفا؟
قهقه (هاوك) ضاحكا، وقال :
ـ الواقع أني لم أتوقع قدومك قط يا عزيزى (بارين).. لقد أمرت رجالي بالبحث عن (فلاش) وإحضاره فحسب، ولقد أخبرنا أحد جواسيسنا لديك أنه قد سقط في المستنقع، فاتصلت بصديقي (فيشى)، الذي تعتبر مستنقعاتك جزءا من ضيعته، وسألته طريقا مختصرا إليها، ولقد منحني إياه بكل سرور.
هتف (بارين) غاضبا:
ـ سيجعلكما الإمبراطور تدفعان ثمن هذا.
قهقه (هاوك) ضاحكا، وهو يقول :
ـ ومن سيبلغ الإمبراطور بوجودك ووجود (فلاش) هنا؟

ابتسم (بارين) في سخرية، وقال :
ـ هذا يا رجل.
وأخرج من جيبه شيئا أشبه بقلم صغير، وهو يستطرد :
لقد قمت بتشغيل هذا الجهاز الخاص، فور أسر رجالك لي، وبواسطته استمعت العزيزة (ديفلش) إلى كل حرف تبادلناه منذ تلك اللحظة، وأيضا حددت موقعنا..
واتسعت ابتسامته الساخرة، وهو يستطرد :
ـ وأنت تعرف عزيزتنا (ديفلش) وإحساسها المرهف.
شحب وجه (هاوك)، وقال في عصبية :
انت تخدعنا.
قال (بارين) في هدوء :
ـ هل تراهن؟

وفجأة برزت عدة مقاتلات فضائية، راحت تمطر (نست) بقذائف إشعاعية مدمرة، كادت إحداها تصيب (بارين)، وسط حالة الهرج والمرج، التي سادت الضيعة، فصرخ هذا الأخير في قلم الإرسال :
ـ هل جننت يا (ديفلش) ٠٠؟ رجالك يطلقون النار على أيضا !
أجابته ضحكة ساخرة منها، وهي تقول :
ـ إنني عبدة مطيعة لسمو الإمبراطور أيها الأمير، ولقد أمر بتصفية الجميع، فيما عدا (دايل) وحدها.
صرخ (بارين) في غضب :
ـ لعنة الآلهة عليك وعلى الإمبراطور.
جاوبته ضحكتها الساخرة مرة أخرى، فألقى القلم، وضربه بقدمه في سخط، في حين ارتفع صوت (هاوك) صارخا:
ـ فلينج كل بنفسه يا رجال.

راح الصقور يحلقون مبتعدين، في حين بقي (بارين) و (فلاش) و (زوركوف) و (دايل) وحدهم، وهتف (فلاش) :
ـ لابد أن نحتمي بشيء ما ..
صاح (بارين) :
ـ ابحث عما تحتمي به، أما أنا فسأذهب.
انطلق يعدو مبتعدا، فصاح (فلاش) :
ـ هذا الوغد يعرف طريقا ما.. هيا نتبعه..
تبعوه ركضا، والأشعة المدمرة تلاحقهم، حتى قفز (بارين) داخل صاروخ صغير، ولحق به (زوركوف)، ومد يده إلى (دايل)، هاتفا :
ـ هلمى.
ولكن خيطا من الأشعة المدمرة حال بينها وبين الصاروخ الصغير، في حين صرخ (بارين) :
ـ لن ننتظر أحدا..
وانطلق بالصاروخ، و (زوركوف) يصرخ :
ـ توقف أيها الحقير.. لن تتركهما هنا.

ولكن الصاروخ ابتعد بالفعل، تاركا (فلاش) و (دايل) وحدهما في (نست)، وهتفت (دايل) :
ـ لقد انتهى أمرنا يا (فلاش).
هتف بها :
ـ ليس بعد .. هناك فجوة قريبة.. أظنها ستحوي شيئا ما في أعماقها.
انطلقا يعدوان نحو الفجوة، حتى بلغاتها، فصاح (فلاش) :
ـ أسرعي بالدخول أولا، قبل أن ..
قبل أن يتم عبارته دوى الانفجار على مقربة منهما، إثر خيط سميك من الأشعة المدمرة، ودفع التضاغط جسد (دايل) بعيدا،

في حين أسقط (فلاش) داخل الفجوة، فصرخت (دايل) :
ـ لا يا (فلاش).. لا.
ثم مادت بها الأرض، وراحت الرؤية تهتز أمامها تدريجيا، وخيل إليها أن واحدة من المقاتلات قد هبطت على مقربة منها ٠٠
ثم فقدت وعيها ٠٠

وفي هدوء، اقتربت منها (ديفلش)، التي هبطت بمقاتلتها، من جنودها، ومطت شفتيها في ازدراء، وهي تتطلع إليها، ثم قالت في حنق :
ـ لست أدري أي جمال يجده إمبراطورنا في تلك الأرضية.
ثم أشارت إلى رجالها، مستطردة :
ـ احملوها بعيدا
سألها أحد الرجال :
ـ وماذا سنفعل في (نست)؟
رفعت حاجبيها، وهي تقول في جذل :
ـ سننفذ أوامر سمو الإمبراطور..
وتألقت عيناها في شهوة، مع استطراداتها :
سننسفها نسفا ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صرخ (زوركوف) في غضب، وهو يجلس داخل الصاروخ الصغير، الذي ينطلق به (بارين)، عائدا إلى أرضه :
ـ يا لك من نذل جبان ! لقد تركت (فلاش) و (دايل) وحدهما وسط جنود (منج).
هتف به (بارين) محنقا :
ـ وهل كنت تتوقع مني أن أقاتل جنود (منج) ؟

صاح (زوركوف) :
ـ ولم لا؟ ألم يغدر بك، ويطلب من جنوده قتلك؟
ـ ضغط (بارين) أسنانه، وهو يقول في حنق"
ـ ذلك الوغد.
ثم أضاف في عصبية :
ـ سيدفع الثمن غاليا، عند عودتي إلى (بيرات).
قال (زوركوف) في سخرية متوترة :
ـ وهل تتوقع عودة هادئة إلى (بيرات)؟
سأله (بارين) في حدة :
ـ ماذا تعني؟
. أجابه في سخرية :
ـ أعني أن الإمبراطور الذي أمر بقتلك بلا رحمة أو تردد، لن يسمح لك بالعودة أميرا على ضيعتكم ووصيا لعرش تبغضه.
اتسعت عينا (بارين) في ذهول، وكأنما لم يكن يتوقع مثل هذه النتيجة، ثم لم يلبث أن عقد (حاجبيه)، هاتفا :
ـ آه لو فعل ذلك الوغد هذا !!
قال (زوركوف) في برود :
ـ سيفعله حتما.
ران عليهما الصمت لحظة، ثم اندفعت يد (بارين) إلى جهاز الاتصال في الصاروخ، وضغط أزراره في عصبية، وهو يقول :
ـ هنا الأمير (بارين).. أجب يا (داك)..
ـ هنا الأمير (بارين).

ظل الجهاز صامتا لحظات، فتمتم (بارين) في توتر :
ـ عجبا !! المفروض ألا يغادر (داك) حجرة الاتصالات أبدا.
غمغم (زوركوف) :

ـ هذا لو أنه ما تزال هناك حجرة اتصالات.. أو أن (داك) هذا ما زال على قيد الحياة.
تضاعف توتر (بارين)، وعاد يضغط الأزرار، قائلا في عصبية :
ـ من الأمير (بارين) إلى (داك).. أجب..
ـ أجب عليك اللعنة.
هتف (زوركوف) :
لو أن هذه ضيعتك، فلست أظنه يجيب رسالتك قط.
رفع (بارين) عينيه إلى حيث يشير (زوركوف)،
ثم اتسعت عيناه في ذعر ..
لقد كانت هناك سحابة من الدخان، ترتفع من
المنطقة التي تحتلها (بيرات) ..
وهتف (بارين) في غضب :
ـ اللعنة !
ثم أدار الصاروخ في حركة حادة، مما جعل (زوركوف) يهتف به :
ـ إلى أين؟
أجابه (بارين) في حدة :
ـ إلى حيث أجد (هاوك) وصقوره.
سأله في دهشة :
ـ وأين يمكن أن تجدهم؟ لقد فروا مثلنا من المذبحة، وسيسعون للاختفاء في مكان لا يعثر عليهم فيه الطاغية.
قال في حزم :
ـ أنا أعلم أين أجدهم.
ثم أردف في غضب :
ـ وماذا يمكن أن نفعل معا؟
وأدرك (زوركوف) أن الشعلة قد ارتفعت..
شعلة الثورة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12 ـ النيران ..

ضاقت عينا (منج)، وهو يتطلع إلى (دايل) في صمت، ثم لم يلبث أن لوح بكفه في هدوء، وتلاعبت أصابعه كلها، وهو يقول:
ـ لقد عدت أيتها الأرضية.
حاولت أن تعترض، أو أن تهاجمه، إلا أن حلقها غص بدموعها، فلاذت بالصمت التام، وهو يواصل :
ـ كان ينبغي أن تعلمي منذ البداية أنه من الحماقة عدم الانصياع لرغبات (منج) .
والتفت إلى (ديفلش)، وقال :
ـ أما أنت فسأغفر لك فشلك في تجنيد العالم الأرضي، مقابل استعادتك زوجتي المقبلة، وتخلصك من (فلاش جوردن) .
انحنت أمامه انحناءة كبيرة، وفمها يحمل ابتسامة واسعة، وقالت :
ـ وماذا عن الأميرة (أورا) يا صاحب السمو؟
مط شفتيه، وقال :
ـ اتركيها في سجنها بعض الوقت، سيكون هذا مفيدا لها .
قالت في خبث :
ـ ولكنها وريثتك الوحيدة الآن يا مولاي، بعد أن أصدرت أمرك بالقضاء على الأمير (بارين) .
قال ملوحا بكفه في لا مبالاة :
من يدري؟ قد لا نحتاج إليها.
ورمق (دايل) بنظرة خاصة، وهو يستطرد :
ـ قد أنجب وريثا جديدا.

انهمرت الدموع أكثر من عينى (دايل)، فابتسم هو في ظفر، وكأنما يروق له هذا، وقال:
- ضعوا حراسة مكثفة حول حجرة عروسى المقبلة هذه المرة، وحاصروها بشاشات المراقبة، وليقتلها الحراس بلا رحمة، لو تجاوزت حدود الحجرة..
ثم رفع رأسه، مستطردا :
- وليعلن الزفاف الإمبراطوري.. الليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبر (بارين) بصاروخه الصغير تلك الممرات الواسعة، في قلب المستنقعات، و (زوركوف) يقول حائرا :
- هل تتوقع حقا أن يختبئ (هاوك) ورجاله في هذا المكان القذر العفن؟
أجابه (بارين) في هدوء، وهو يبحث بعينيه فيما حوله :
- إنه المكان المناسب لهم، فلن يخطر ببال مخلوق واحد، حتى (ديفلش) نفسها، أن يبحث عنهم هنا، في (فيشى) نفسه، مالك ضيعة (أكوا) كلها، لا يقرب هذه المستنقعات فقط.
هز (زوركوف) رأسه، مغمغما :
- سيدهشني حقا أن تعثر عليهم.
أجابه (بارين) :
- استعد للدهشة إذن.. ها هم أولاء.
تحفز (هاوك) ورفاقه، عندما رأوا الصاروخ الصغير يندفع نحوهم، إلا أن تحفزهم ذهب، عندما حط الصاروخ أمامهم في هدوء، وهبط منه (بارين) و (زوركوف)، وهنا أطلق (هاوك) قهقهة عالية، وقال :

ـ مرحبا بكم في نادي المطرودين.
عقد (بارين) حاجبيه في ضيق، وقال :
ـ إننا هنا لنبحث هذا الأمر بالذات يا عزيزى (هاوك) .
هتف (هاوك) :
ـ أي أمر؟
جلس (بارين) إلى جواره، وهو يقول محتدا :
ـ إلى متى نحتمل طغيان (منج)؟
حدق (هاوك) في وجهه بدهشة، ثم هتف :
ـ إلى أن نملك مثل قواه.. ألم تفهم بعد السياسة التي يتبعها عمك الإمبراطور، ثم دان له حكم كوكبنا السيار؟ ألم يدهشك الفارق الحضاري بين قصره، بكل ما يحويه من تكنولوجيا، وبين الأسلحة البدائية، التي نستخدمها نحن؟ إنه يحتفظ لنفسه بكل الأوراق يا فتى .
هتف (زوركوف) في حدة:
ـ وهل هذا كاف للاستسلام؟ :
صاح (هاوك) :
ـ وماذا يمكننا أن نفعل؟ نلقي أجسادنا تحت عجلات كاسحاته، أم نواجه أشعته المدمرة بسهامنا، أو صدورنا العارية؟
ضرب (زوركوف) قبضته في راحته، وهو يقول :
ـ لابد من وجود وسيلة.
انبعث صوت بغتة من وسط المستنقعات، يقول :
ـ بالتأكيد.
استدار الجميع إلى مصدر الصوت، وهتف(زوركوف) :
ـ (فلاش) ؟؟ مستحيل !! لقد تصورت أنك قد لقيت مصرعك، بعد أن نسف هؤلاء الأوغاد (نست) نسفا اقترب (فلاش) في

هدوء، وقد بدا قميصه الأحمر وسرواله الأبيض في هيئة مزرية، من كثرة ما مر به من أهوال، و (هاوك) يهتف :
يبدو أن هذا الأرضي يمتلك أكثر من حياة .
أجاب (فلاش) :
ـ كان من الممكن أن ألقي حتفي بالفعل، لولا أن عثرت في الفجوة، التي سقطت فيها، على دراجة صاروخية صغيرة، أسرعت أستقلها، وساعدتني ملاحظاتي على إدارة محركها، فانطلقت بها على الفور إلى هنا، وانفجرت (نست) من خلفى.
سأله (بارين) في اهتمام :
ـ وكيف وصلت إلى هنا؟
ابتسم (فلاش)، وقال :
ـ يمكنك أن تقول إنني أمتلك ذاكرة جيدة.
ثم جلس إلى جوار (هاوك)، وأضاف في جدية :
ـ فلنعد الآن إلى الموضوع الأصلي، الذي قطعه حضورى ..
كنتم تبحثون عن الوسيلة المثلى لمحاربة (منج) .
هتف (هاوك) :
ـ لا توجد وسيلة لذلك .. صدقني.. إن (منج) هذا يملك كل وسائل الحرب والقتال...
إنه يملك أجهزة قادرة على إلقاء الصواعق، وإثارة الزلازل، وتفجير البراكين.. وأكثر من هذا.
غمغم (زوركوف) :
. لقد رأينا عينة من هذا على الأرض.
لوح (هاوك) بذراعه، هاتفا :
ـ إنه يمهد لغزوها وإخضاعها.
هتف (زوركوف) :
. محال.

هدأه (فلاش) بتربيته على كفه، وهو يقول :
ـ لا ينبغي أن يخيفنا هذا، فقد يمكننا تعويض فارق القوة بشيء من التخطيط والذكاء.
سأله (بارين) :
ـ كيف؟
التفت إليه (فلاش)، يسأله :
ـ قل لي أولا : بصفتك وريث العرش، الا تعرف طريقا سريا إلى داخل القصر؟
تردد (بارين لحظة، ثم قال :
هناك طريق بالفعل، ولكنه عبارة عن سرداب ضيق، يسمح بمرور فرد واحد على الأكثر، ولكن من يدخل إلى القصر سيتعرض لخطر الأسر والقتل.
قاطعه (فلاش) :
ـ إننا نحتاج إلى رجلين فحسب داخل القصر.
رفرف (هاوك) بجناحيه، وهو يسأله :
ـ من؟ ولماذا؟
التفت إليه (فلاش)، يقول :
الإجابة على الجزء الثاني هي أننا نحتاج إلى تدمير حجرة وأجهزة الأمن المتطورة داخل القصر، قبل أن نبدأ هجومنا، ثم إننا نحتاج إلى رمز قوى، تلتف حوله الإمبراطورية كلها، إذا ما لاح لنا النصر.
هرش (هاوك) لحيته الكثة، وقال :
ـ هذا يدفع إلى ذهنى اسمين لا ثالث لهما.
ثم أشار إلى (زوركوف)، قائلا :
هذا الأرضي، و . . .
صمت لحظة، ثم التفت إلى شخص آخر، مستطردا :

ـ والأمير (بارين) ٠
هتف (بارين) :
ـ أنا؟ !
أجابه (فلاش) :
ـ بالتأكيد يا (بارين).. أنت أفضل من يفعل هذا، فأنت الوحيد تقريبا، الذي يعرف تفاصيل القصر الإمبراطوري من الداخل، ثم إنك الوريث الشرعي للعرش، والوحيد الذي لن يشير اعتلاؤه العرش مشكلة، أو حيرة في نفوس الشعب، أما (زوركوف) فهو العالم الوحيد بيننا، الذي يستطيع فهم وإتلاف أجهزة الأمن داخل القصر.
ثم ابتسم قائلا :
. تتبقى لنا الخطوة الأولى.
سأله (بارين) :
ـ ما هي؟
أجابه في اهتمام :
ـ هل تملك جهاز إرسال آخر، يمكننا من خلاله استدعاء دورية من دوريات (منج)؟
أجابه على الفور :
نعم. أمتلك واحدا.
قال (فلاش) في ارتياح :
ـ عظيم.. سنستخدمه إذن لاستدعاء واحدة من الدوريات، ثم نستولي عليها، و.
قاطعه (هاوك) :
ـ قل لي أولا : متى يمكننا تنفيذ هذه الخطة؟
شرد (فلاش) بصره لحظة، ثم قال :

ـ لقد التقط جهاز الاتصال، في دراجتي الصاروخية دعوة من (منج) إلى شعبه، لحضور حفل الزفاف الإمبراطوري الليلة.
وصمت لحظة، ثم أضاف في حزم :
ـ وهذا يعنى أنا من المحتم أن نضرب ضربتنا الليلة.. وبلا تردد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13ـ الشرارة..

جرت استعدادات الزفاف الإمبراطوري على قدم وساق، في قاعة (قلب الكون)، وتابعت (ديفلش) كل الإجراءات في اهتمام، على الرغم من غيرتها من (دايل)، التي راقت في عيني الإمبراطور، وقرر أن يتخذها زوجة..

وقطع متابعتها أحد رجالها، وهو يقول :

ـ لقد تلقينا رسالة خاصة من إحدى دورياتنا يا سيدتي .

التقطت كرة الاتصال الشفافة من يده، وقالت عبرها :

ـ هنا القومندان (ديفلش).. ماذا لديكم؟

أجابها قائد الدورية :

ـ هنا الدورية رقم (١٧)، ولقد تلقينا اتصالا مجهولا بوجود المتمردين في منطقة قريبة.. هل نهاجم أم ننتظر؟

تفكرت في الأمر لحظات، ثم قالت :

ـ اتجهوا إلى تلك المنطقة في حذر، ولو كان الاتصال سليما، هاجموا على الفور، ثم استدركت في حزم :

ـ وسأتابع الموقف كله من حجرة الأمن.

أنهت الاتصال، وتوقفت قليلا في قلق، ثم قالت :

ـ نعم.. سأتابع الموقف هناك •

وفي نفس اللحظة كانت الدورية الطائرة تتقدم نحو المنطقة المنشودة، وقائدها يقول :

ـ توقفوا قليلا هنا، قبل أن نهبط في المنطقة.

سأله مساعده في قلق :

ـ أليس من الخطر أن توقف يا سيدى؟

أنت تعلم أن التوقف يضطرنا إلى رفع الحاجز الكهرومغناطيسي الخفي، و...

قاطعه قائده في حدة :

- ارفعه يا رجل.. من يمكن أن يهاجمنا، ونحن على ارتفاع خمسة آلاف قدم و...؟

بتر عبارته بغتة، واتسعت عيناه في ذهول، وهو يحدق في وجه (هاوك)، وأجنحته المرفرفة حوله، وهو يبتسم ابتسامة ضخمة، وسط شاربه ولحيته الكثين، ثم يصوب إليه بندقيته، ذات السهم المتألق..

صرخ القائد :

- أعيدوا الحاجز..

ولكن (هاوك) ضغط زناد بندقيته، وانطلق السهم المتألق يخترق قلب القائد، الذي أطلق شهقة قوية، وسقط جثة هامدة..



بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى ذهول ، وهو يحدق فى وجه (هاوك) ، وأجنحته المرفرفة حوله ..

وصرخ مساعد القائد :

- هجوم ٠٠ فليستعد الجميع.

ولكن الصقور كانوا قد أحاطوا بالدورية الطائرة، واقتحموها بلا تردد، وراحت سهامهم البراقة تنهال على صدور جنود (منج) ٠٠ ودارت معركة حامية الوطيس..

وعلى الرغم من الفارق الرهيب بين أسلحة الصقور وأسلحة رجال (منج)، إلا أن المفاجأة والبسالة في قلوب الصقور أمالتا كفة المعركة إليهم..

وقهقه (هاوك) ضاحكا، وهو يلوح ببندقيته، صائحًا :

ـ لقد ربحنا.. من كان يتصور هذا.؟؟ لقد ربحنا.

حمل أحد الصقور (فلاش) إلى داخل سفينة الدورية الطائرة، وهتف به (هاوك) :

ـ هل رأيت المعجزة أيها الأرضي؟ لقد ربحنا.

أجابه (فلاش) في حزم :

. ليس بعد يا قائد الصقور.. إنها الجولة الأولى فحسب..

ثم أسرع إلى مقعد القيادة، مستطردا :

والآن فليستعد جنودك للهجوم الكبير.. سننطلق نحو قصر (منج) مباشرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مسح (زوركوف) العرق المتصبب على وجهه، وهو يسير خلف (بارين)، عبر ذلك السرداب الضيق المنخفض السقف، وغمغم في توتر :

ـ كما لو أننا نعبر قبرا.

أجابه (بارين) في برود :

ـ من الممكن أن يصبح كذلك بالفعل..

ثم توقف عند باب في نهاية السرداب، وقال :

ـ والآن تأهب، فلا أحد يدري ماذا سنجد، على الجانب الآخر من هذا الباب..

دفع الباب في حركة واحدة سريعة، وقفز داخل حجرة واسعة، ولم يكد (زوركوف) يتبعه، حتى سمع صوتا يهتف :
- من أين أتيت؟
ورأى (بارين) ينقض على أحد حراس (منج)، ويطعنه في قلبه طعنة نجلاء، ثم يتركه يسقط مضرجا في دمائه.
وغمغم (زوركوف) :
- يا للبشاعة ! لقد قتلته دون أن يطرف لك جفن واحد.
قال (بارين) في برود :
- هل كنت تفضل أن يقتلنا هو؟
بدا الجواب سخيفا، فالتزم (زوركوف) الصمت، واكتفى بتتبع (بارين)، عبر شبكة من الطرق الطويلة المعقدة، ثم تناهى إلى مسامعه رنين أجراس، فسال (بارين) :
- ما هذا؟
أجابه (بارين) في هدوء :
- لقد بدأ حفل الزفاف الإمبراطوري.
هتف (زوركوف) :
- بدأ؟ ! يا لـ (دايل) المسكينة !! أسرع إذن يا فتى.. أسرع لننقذ رفيقتنا التعسة، قبل
أن تصبح زوجة لطاغية.
وتعالى رنين الأجراس مرة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دلفت (ديفلش) إلى حجرة الأمن، وسألت أحد رجالها في توتر :
- هل أرسلت الدورية أية رسائل؟
هز الرجل رأسه نفيا، وقال :

ـ ليس بعد ٠٠ ما زلنا ننتظر.
عقدت حاجبيها، وهي تقول :
ـ أي عبث هذا؟؟ كان ينبغي أن يرسلوا رسالة الآن.. لقد تركت حفل الزفاف الإمبراطوري خصيصا لأحظى بتلك الرسالة.
ثم هتفت في نفاذ صبر:
ـ صلني بالدورية.
ارتسمت على شاشة الراصد المواجهة لها صورة السفينة الدورية، وهي تعود طائرة إلى القصر، فضغطت زر الاتصال، وقالت :
ـ من (ديفلش) إلى الدورية رقم (١٧) ماذا حدث بشأن البلاغ المجهول.
أجابها صوت هادئ :
ـ لقد تحققنا منه، وثبت أنه بلاغ كاذب، ونحن في طريق العودة إلى القصر.
عقدت حاجبيها لحظات في توتر، ثم هتفت :
ـ يا للآلهة !! إنك لست قائد الدورية (١٧) إنني أعرف صاحب هذا الصوت جيدا..
أنت (فلاش) ٠٠ (فلاش جوردن) .
انقطع الاتصال على الفور، وصرخت (ديفلش) :
أطلقوا النار على سفينة الدورية، وأحيطوا القصر الإمبراطوري بحاجز الأشعة الواقية.
قال أحد رجالها في قلق :
ـ ولكن هذا سيثير قلق المدعوين والإمبراطور، وسيفسد حفل الزفاف الإمبراطوري.
هتفت في توتر :
ـ دع لي هذا.

وأمسكت جهاز اتصال خاص، وبذلت جهدا
للسيطرة على صوتها، وهي تقول في هدوء
ظاهرى :
ـ هنا (ديفلش) ‥ رجال الأمن كلهم يرسلون تحيتهم لسمو الإمبراطور (منج) إمبراطور الكون العظيم، وسنطلق أشعتنا الدفاعية في صورة متصلة، احتفالا بالزفاف السامى.

سمعت (دايل) هذا النداء يتردد في قاعة (قلب الكون)، وهي ترتدي ثوب زفافها إلى (منج)، وخفق قلبها، عندما رأت الأشعة الحامية تحيط بالقصر والأشعة الدفاعية تنطلق على نحو متصل، وأنبأها قلبها أن السبب الذي أوردته (ديفلش) لم يكن السبب الحقيقي.
وتسلل إليها شيء من الأمل.

صاح (هاوك)، عندما راحت الأشعة المدمرة تضرب جوانب سفينة الدورية، وتمر حولها في غزارة :
ـ لقد كشفوا أمرنا أيها الأرضي ‥ (ديفلش) اللعينة كشفت الأمر، ولم يعد هناك أمل بالنصر.
صاح (فلاش) في صرامة، وهو ينطلق بالسفينة نحو القصر :
ـ لا تحاول يا (هاوك).. إنني أفضل الموت، على التراجع الآن.
صرخ (هاوك) :
ـ أنت وشأنك.. تراجعوا يا رجال..
غادر هو ورجاله السفينة، وبقي (فلاش جوردن) وحده ‥
وبكل الحزم والإصرار، اخترق (فلاش) أحزمة الأشعة القاتلة، متجها نحو قصر (منج)..
ونحو الموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14 - الهجوم ..

أشار أحد رجال (ديفلش) إلى شاشة الراصد،
وهو يهتف مشدوها مبهورا :
يا للآلهة !! هذا الأرضي ينطلق نحو الحاجز الدفاعي، على الرغم من فيض الأشعة القاتلة من حوله .. إنه بالغ الشجاعة بحق.
قالت في غضب :
- أو بالغ الحماقة، فستتحطم سفينته على الحاجز الدفاعي، لو لم تنسفها أشعتنا القاتلة أولا.
ثم ضغطت عدة أزرار، وهي تستطرد في صرامة :
- وسأضاعف قوة الأشعة القاتلة.
ارتفع من خلفها صوت صارم يقول :
- ومن سيسمح لك يا (ديفلش)؟
استدارت إلى مصدر الصوت، مع الرجال الأربعة في حجرة الأمن، ولكن أربع طلقات
إشعاعية ألقت الرجال الأربعة إلى الجحيم، وانبعث صوت (زوركوف) يردد :
- يا للبشاعة !!
حدقت (ديفلش) في وجه (بارين)، الذي يحمل بندقية الأشعة القاتلة، وهتفت :
- (بارين)؟ كيف وصلت إلى هنا؟
أجابها في تشف :
- من السرداب القديم يا عزيزتي (ديفلش) هل تذكرينه؟ كنا نلعب عبره منذ زمن، كنا أنا و (أورا) وأنت أطفالا صغارا، وكان أبي هو امبراطور كوكبنا، قبل أن ينتزع (منج) اللعين هذا اللقب.

تراجعت مغمغمة في توتر :
ـ لا تحقد على يا (بارين).. لقد كنت أنفذ أوامر الإمبراطور فحسب.. هو الذي أمر بقتلك لا انا.
ابتسم في غيظ، قائلا :
ـ أعلم يا عزيزتي (ديفلش) .. أعلم أنك دائما البريئة المطيعة، التي لا ترتكب شيئا أو شرا، وإنما تطيع الأوامر فحسب.
صرخت :
ـ إنه عملى أيها الأمير.
رفع بندقيته إلى صدرها، وهو يهتف :
ـ وأنا أقيلك من عملك هذا يا (ديفلش).
أمسك (زوركوف) يده بغتة، وهتف مستنكرا :
ـ ويحك يا (بارين).. هل تقتل امرأة؟
هتف (بارين) في وجهه غاضبا :
ـ إنها لم تكن لتتردد في فعل هذا، لو أنها في موضعنا.
انطلق فجأة خيط من الاشعة ورأى المسدس الذي تمسكه بقبضتها، وارتفعت معه ضحكة (ديفلش) الشريرة، وهي تهتف :
ـ صدقت.
التفت إليها (زوركوف) في دهشة، في ألم، وهو يمسك كتفه، وقد سقطت بندقيته أرضا :
ـ أرأيت أيها الغبي؟
أطلقت (ديفلش) ضحكة أخرى عالية، وقالت :
ـ هذا يؤكد نظرية الإمبراطور (منج)، حول غزارة العواطف في قلوب الأرضيين.. إنه يؤكد أنها ستكون سبب هزيمتهم.
اعتدل (زوركوف)، وهو يقول في غضب :
ـ أيتها الأفعى اللعينة.
جاءت ضحكتها عالية مجلجلة هذه المرة، وهى تقول :

ـ لن يفيد هذا أيها الأرضي.. لقد هزمتكم تماما هذه المرة، فسيلقى الأشقر حتفه، عندما ترتطم سفينته بحاجز الأمن، أما أنتما فسوف ...
انقض (بارين) عليها فجأة، وهو يصرخ :
ـ البندقية يا (زوركوف).
ولكنها تفادت انقضاضته في رشاقة، وهوت على عنقه بضربة من قبضتها اليسرى أسقطته أرضا، ثم التفتت إليه في حركة حادة، وصوبت مسدسها إلى رأسه، وهي تقول في جذل :
ـ كم سيكون مشهد جمجمتك رائعا، عندما تخترقها الأشعة، وتنثر مخك خارجها، و...
أطلقت شهقة مباغتة، واتسعت عيناها في ألم عندما أصابت أشعة البندقية سلسلها الفقرية واستدارت (ديفلش) في ألم وذهول، تتطلع إلى (زوركوف)، الذي ألقى بندقية الأشعة من يده، متمتمًا:
ـ يا للبشاعة !
رددت (ديفلش) في ألم وذهول، ومسدسها يسقط من يدها أرضا :
ـ أنت؟ !
ثم أشارت إلى الشاشة، وقالت :
ـ ولكنني قتلت رفيقك على الأقل.
وأطلقت ضحكة قصيرة، ثم سقطت جثة هامدة،
فهتف (بارين) وهو ينهض :
. لقد أنقذت حياتى.
أشار (زوركوف) إلى شاشة الراصد، التي تبدو فيها سفينة (فلاش)، وقد أصابتها الأشعة، وراحت تندفع سلبيا نحو الحاجز الدفاعي، وهتف :

- المهمّ أن أنقذ (فلاش).
وقفز نحو أزرار الدفاع، في حين انطلق (بارين) نحو قاعة (قلب الكون)، طبقا للخطة المحدودة مسبقا.
لقد كانت خطة دقيقة..
وحاسمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سالت دموع القهر من عينى (دايل)، والقاضي الإمبراطوري يقرا مراسم الزفاف، في حين تقف هي إلى جوار (منج)، في ثوب زفاف مرصع باللؤلؤ والأحجار الكريمة..
كانت تشعر بمذلة وقهر لا مثيل لهما..
إنها ستزف إلى طاغية..
إلى أبشع رجل عرفته في عمرها كله..
إلى (منج) ..
وبكل برود وسخافة، التفت إليها (منج)، والقاضي ما زال يتلو مراسم الزفاف، وقال :
- هل يروق لك زوجك أيتها العروس؟
أشاحت بوجهها في مرارة وتأفف، فأطلق ضحكة فجة عالية، وقال للقاضي في غلظة:
- أسرع أيها القاضي، لست أطيق صبرا على إنجاب ولي العهد الرسمي.
وقهقه ضاحكا مرة أخرى، قبل أن يتجهم وجهه بغتة، ويقول :
ولكن لماذا أوقفت (ديفلش) الحاجز الدفاعي؟
توقف القاضي عن تلاوة المراسم، فالتفت إليه (منج) في حدة، هاتفا :

ـ لماذا توقفت؟
ارتجف القاضي، وهو يقول :
ـ تصورت أن سموك لست ..
قاطعه في غضب :
ـ لا تتوقف.. انه هذه المراسم السخيفة على الفور.
اندفع القاضي يقرأ في سرعة، حتى بلغ النقطة الأخيرة، فهتف بالإمبراطور :
ـ هل ترضي بها زوجة؟
أجابه (منج) في شراسة :
ـ نعم.. وهي أيضا تقبلني زوجا لها.
هتفت (دايل) :
ـ من قال هذا؟
ـ ولكن القاضي تجاهل هذا الاعتراض، وقال :
ـ هكذا أعلنكما زوجا وزوجة.
لم يكد يتمم عبارته، حتى صرخ رجل :
ـ سفينة فضاء تنقض علينا.
ساد الهرج والذعر لحظة، وصرخ (منج) :
ـ أطلقوا النار.
راح حراسه يطلقون النار على سفينة الدورية، التي تنقض على القصر، وأصاب أحدهم خزان وقودها، فصرخ :
ـ لقد أصبتها.
وانفجرت السفينة ..
انفجرت بدوي هائل، وصرخ (منج) في غضب :
ـ اين (ديفلش) اللعينة؟ لماذا أزالت حاجز الأمن؟
وفجأة اتسعت عيناه في ذهول..

لقد رأي دراجة صاروخية، تنطلق من وسط الانفجار، وعلى متنها رجل أشقر، عريض المنكبين، مفتول العضلات.
وصرخت (دايل) في سعادة :
- (فلاش)!!
أما (منج) فقد صرخ :
- اللعنة !. من أين جاء هذا الأرضي؟
ثم استطرد في صوت هادر :
- أقتلوه أيها الرجال.. سأمنح ضيعة (بيرات) لمن يقتله منكم.
ارتفع من مدخل القاعة صوت صارم يصرخ :
- ولكن أمير (بيرات) ما زال على قيد الحياة أيها الطاغية.
وفي نفس اللحظة اخترق عشرات الصقور نافذة القاعة الضخمة، وهم يطلقون صيحة هادرة مخيفة، أشبه بصيحة عشرات النسور، وهم ينقضون على فريسة دسمة..
وانطلقت السهام البراقة في كل مكان من (قلب الكون)..
وتراجع (منج) ذاهلا حانقا، وهو يهتف :
- اللعنة.
واندفع محاولا الفرار، عن طريق الباب الخاص خلف العرش الإمبراطوري، إلا أن (بارين) قفز يعترض طريقه، صائحا :
- إلى أين أيها الطاغية؟ لقد مضى عهد استبدادك.
صاح به (منج) في غضب :
- ابتعد يا (بارين) .. هذا أمر.
رفع (بارين) سيفه في وجه (منج)، وقال :
- لم يعد لك الحق في إصدار الأوامر يا (منج).
ارتسمت على شفتي (منج) ابتسامة ساخرة، وقال :
- هكذا؟
ثم استل سيفه بدوره، مستطردا :

ـ فلتكن شريعة الغاب إذن..
وتلاحم السيفان..
وفي نفس اللحظة هبط (فلاش) داخل القاعة، فأسرعت (دايل) ترتمي بين ذراعيه، وتبكى هاتفة :
ـ لقد انتهت مراسم الزواج يا (فلاش).. انني الآن زوجة لذلك الوغد (منج).
ضمها إلى صدره القوي، وهو يقول :
ـ من يدري يا عزيزتي؟ ٠٠ ربما صرت أرملته.
استتب الأمر لـ (هاوك) ورجاله، ووقف الجميع مع (فلاش) و (دايل)، يتطلعون إلى تلك المبارزة الرهيبة، التي دارت بين سيفى (منج) و (بارين) ٠٠



وصمتت القاعة تماما ، إلا من صليل السيوف وتقارعها ..

وصمتت القاعة تماما، إلا من صليل السيوف وتقارعها ٠٠
وفجأة قفز (منج) فوق العرش الإمبراطوري،
وانطلقت من أعماقه ضحكة عالية ساخرة، قبل أن يلقى سيفه، قائلا :

ـ خسرت أيها الفاشل.

هتف (بارين) :

ـ بل أنت الخاسر أيها الطاغية..
وأغمد سيفه في قلب (منج) ..
وشهق الجميع في ذهول ..
لقد تحطم السيف على صدر (منج) ..
(منج) الذي لا يقهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15ـ السقوط..

جلجلت ضحكة (منج) في القاعة، وأحاط به بريق خافت، وهو يقف فوق عرشه، هاتفا:

ـ إنه عرش (منج) الخاص أيها الأغبياء، وهو مجرد عرش بلورى عادى، لو جلس عليه (منج)، أما لو وقفت فوقه، فإنه يتحول فجأة إلى درع واق، يحيطه غلاف خفي، لا تخترقه حتى القنابل.

هتف (بارين) في غضب :

ـ وإلى متى ستظل هناك أيها الوغد؟

أطلق (منج) ضحكة أخرى، وقال :

ـ أكثر مما تتصور أيها الحقير..

ثم لوح بكفه، هاتفا :

ـ بعد خمس دقائق فحسب، سيختفي هذا العرش من هنا، وسينتقل بي إلى مكان سري، لا يعلمه سواى، وسوى الرجل الذي صنعه، وقتلته أنا بعدها، وفي ذلك المكان السري سأجد كل الأجهزة اللازمة لقتل كل مخلوق حي على ظهر الإمبراطورية لو أردت.

صاح (فلاش) :

ـ لابد من اختراق الحاجز، وقتل ذلك الحقير، قبل مضي هذه الدقائق الخمس.

صاح (منج) ساخرا :

ـ يا له من مطلب سخيف أيها الأرضي !!

ـ لا يوجد بينكم من يعلم كيف يمكن اختراق هذا الحاجز.

ارتفع من خلف العرش صوت أنثوي غاضب يقول :

. أنا أعرف.

التفت (منج) في حدة إلى الستائر خلف عرشه، ورأى الجميع الأميرة (أورا) تبرز من خلفها، وقد بدت شاحبة ذابلة، مهلهلة الثياب، وإلى جوارها (زوركوف)، الذي غمغم :
ـ لقد عثرت عليها سجينة، فأطلقت سراحها، وهتف (منج) :
ـ (أورا) ٠٠ إنني أبوكِ.
قالت في بغض واضح :
ـ أعلم أنك هو.. أنت ذلك الرجل الذي لم تمنعه عاطفة الأبوة من تعذيبى وسجني وإذلالى.
ثم التفتت إلى (بارين)، مستطردة :
ـ أنا أعلم كيف يمكن إخراجه من هنا.
صرخ (منج) :
ـ لا يا (أورا) ٠٠ لا.
ولكنها جذبت الستائر خلف العرش في قوة، وهي تهتف :
ـ هكذا.
تلاشى ذلك البريق الخافت المحيط بـ (منج) على الفور، وشحب وجه هذا الأخير، ورفع كفيه يحمي وجهه، صائحا :
ـ أيتها اللعينة !
وهنا قفز (بارين)، والتقط سيف (منج)، وصرخ :
ـ بسيفك أيها الطاغية.
ثم غرس السيف في قلب (منج) ٠٠
وأطلق (منج) صرخة رهيبة..
صرخة بدت وكأنها صرخة آلاف الشياطين، من قلب الجحيم ..
ثم حدث أغرب شيء في الخيال. لقد تلاشى (منج) ٠٠ تلاشى جسده تماما، تاركا خلفه حلة زفافه الخالية..
ومضت لحظة من الذهول، والجميع يحدقون في الحلة الخالية، ثم اندفع إليها (بارين)، وأمسكها هاتفا :

ـ أين ذهب؟
غمغم (زوركوف) في خفوت :
ـ ربما إلى الجحيم مباشرة.

وفجأة تراجع (بارين) في حركة حادة، وشهقت (أورا) في خوف..
لقد برز الحارس الآلي بغتة، من أحد أركان القاعة، وحلق في سمائها نحو (بارين) ..
إنه تلك الكرة الفضية، التي من المفروض أن تقتل، بلا رحمة، كل من يقترب من عرش (منج).
واحتبست الأنفاس في حلوق الجميع ..
وتجمد (بارين) في موقعه ..

وسبح الحارس الآلي، حتى بلغ (بارين)، وتوقع الجميع أن ينسفه بموجة من الأشعة القاتلة، إلا أن الآلي لم يلبث أن قال بصوته المعدني البارد :
ـ مات (منج).. عاش (بارين).
وتنفس الجميع الصعداء، في حين قهقه (هاوك) ضاحكا، ورفع سيفه مرددا :
ـ عاش (بارين).. إمبراطورنا الجديد
وبدأ عصر جديد ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16ـ الختام..

وقف (بارين) في ثيابه الإمبراطورية الجديدة، إلى جوار (فلاش) و (دايل) و (زوركوف)، امام صاروخ (زوركوف)، الذي حمل الثلاثة الأرض، وقال (بارين)، وهو يضع يده على كتف (فلاش):
لقد تحقق لنا العدل أخيرا، بفضلك أيها الأرضي.. لقد انتهى عهد (منج)، وسنبدأ عهدا جديدا، وأول ما سنفعله هو أن ندير صواريخنا الدافعة بعيدا عن أرضكم، ونرحل عنكم ؛ لنبحث مكان يناسبنا، في هذا الكون الفسيح.
صافحه (فلاش) في حرارة، وهو يقول :
ـ أتعشم أن تعثروا عليه.
ابتسم (بارين)، مغمغما :
ـ المهم أن نبحث في إخلاص.
هتف (زوركوف) :
ـ هيا بنا.. لقد اشتقت لأرضنا كثيرا.
ابتسم (بارين)، وقال :
ـ الوداع يا (فلاش).. سنذكرك دوما، وسنطلق اسمك على أول أطفالنا، أنا و (أورا).
ابتسم (فلاش) قائلا :
ـ الوداع يا سمو الامبراطور.
صعد الأرضيون الثلاثة إلى صاروخهم، وأخليت المنطقة تماما، وهتف (زوركوف) :
ـ الى الأرض.
وأطلق محرك الصاروخ، في حين تنهدت (دايل)، هاتفة :
ـ كانت رحلة أغرب من الخيال.

ضحك (فلاش) وقال :
ـ العجيب أنها لم تستغرق أكثر من بضعة أيام، يمكن عدها على أصابع اليد الواحدة
يا إلهي !! لقد بدت لي أشبه بدهر كامل .
ثم حدقت في النافذة، هاتفة :
ـ انظر يا (فلاش).
تطلع الثلاثة عبر النافذة، ورأوا وجه (هاوك) ذي العين الواحدة واللحية الكثة، وهو يلوح بكفه في مرح، ويخفق بأجنحته إلى جوار الصاروخ، ثم رأوه يشير إلى نقطة ما، فتتبعوا إشارته بأبصارهم، ورأوا الرجال الصقور يحلقون في سرب هائل، ثم يتجمعون على نحو منتظم، ليكتبوا اسم (فلاش) في السماء..
وهتفت (دايل) :
ـ يا لهم من أوفياء.
انطلق الصاروخ مغادرا مجال الكوكب، وعائدا إلى الأرض، فوضع (فلاش) يده حول كتف (دايل)، وقال :
ـ (دايل)؟؟ قبل أن تفقد الوعي، كالمعتاد في رحلات صديقنا (زوركوف) الفضائية أحب أن أسألك شيئا.
قالت مخلصة :
ـ سل ما بدا لك يا (فلاش).
مال على أذنها هامسا :
ـ هل تقبلينني زوجا؟
هتفت في سعادة :
ـ هل تسألني؟
ضمها إلى صدره هامسا في حب :
يا حبيبتى (دايل).
ابتعدت عنه في حركة حادة، وقالت :

ـ ولكن ينبغي أن أصارحك بأمر هام.
سألها في قلق :
ـ ما هو؟
أطلقت ضحكة مرحة، وهي تقول :
ـ إنني إمبراطورة سابقة، وأرملة إمبراطور سابق.
قهقه الثلاثة ضاحكين، والصاروخ ينطلق عائدا بهم إلى كوكب الأرض، وما زالت سماء الكوكب السيار تحمل بصقورها اسم البطل الأرضي..
اسم (فلاش جوردن) ..

(تمت بحمد الله)

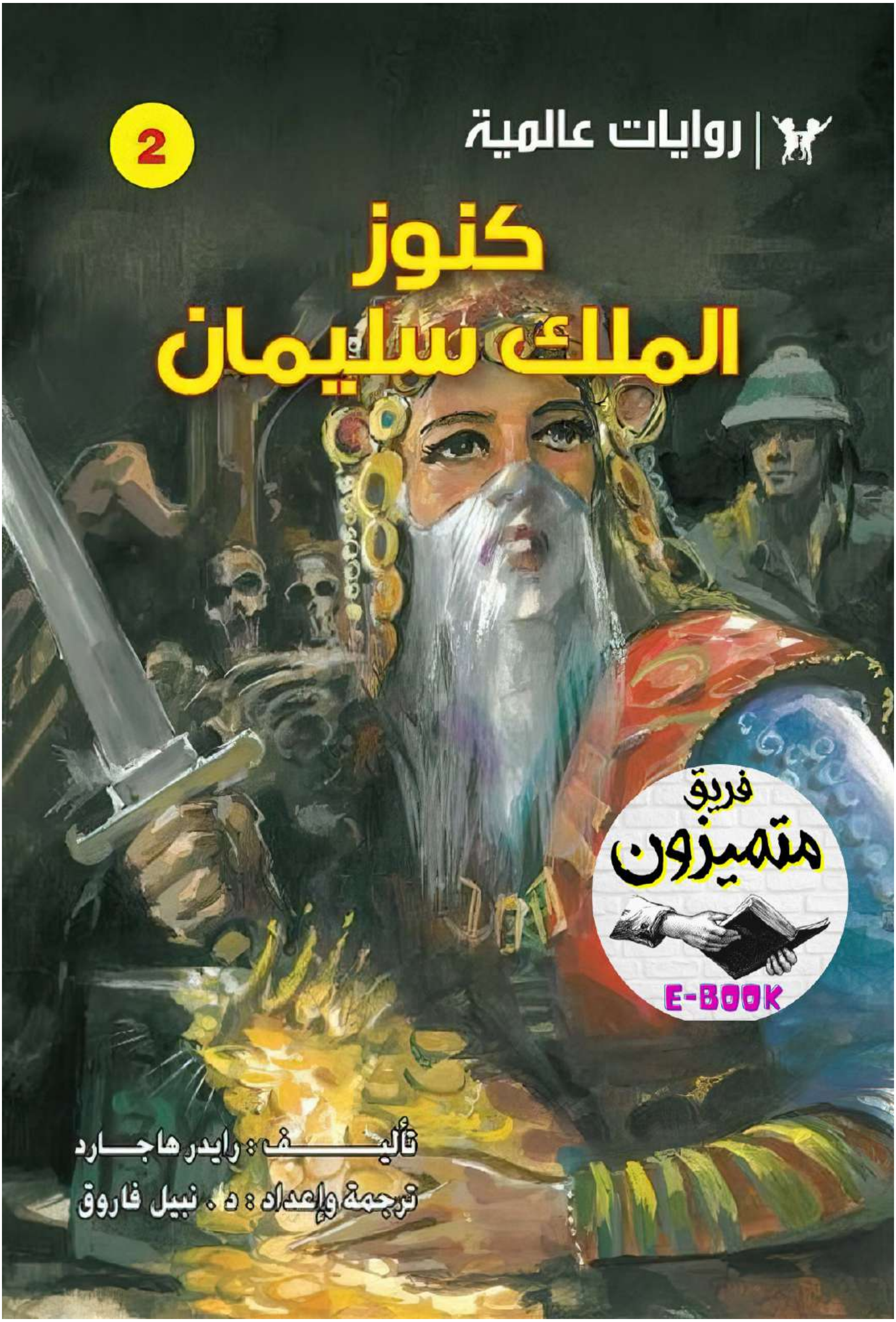
فلاش جوردن..
أفضل روايات الخيال العلمي، في النصف الأول من القرن العشرين، عندما بدأ الخيال في الانطلاق خارج حدود الكوكب، وبناء امبراطوريات وعوالم أخرى في الكون الفسيح، حيث الإثارة والمغامرات والرعب، في سبيل إنقاذ الأرض.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:


روايات عالمية
2
كنوز
الملك سليمان
فريق
متميزون
E-BOOK
تأليف : رايدر هاجارد
ترجمة وإعداد : د . نبيل فاروق

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (02)

كنوز الملك سليمان

تأليف: رايدر هاجارد.
ترجمة وإعـداد: د. نبيـل فاروق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

1- المعبود..

قصتي في الواقع عجيبة وغريبة، حتى أنني اتساءل، وأنا اخطها إليكم، عما إذا كانت قابلة للتصديق أم لا، فهى - على الرغم من حدوثها - تبدو أقرب إلى روايات الأساطير وخيالات الأدباء، بكل ما تذخر به من أحداث مثيرة، ومواقف مدهشة رهيبة، وبكل ما تحمله إلى مستمعيها وقرائها من روائح الشرق، وغموض الأدغال والبراري..

ثم أنني لست بالبطل الأسطوري المقدام، الذي يمكن أن تحاك حوله كل هذه المغامرات والأحداث، فلقد ولدت في (كمبرلاند)، من أب مزارع، اختار لنفسه زوجة من إحدى مقاطعات (ويلز)، مما أورثني حب الانتقال والأسفار، وملأ عروقى بدماء المغامرة والمجازفة..

ولا تجعل هذه المقدمة تبهرك، او تحبس انفاسك، او تدفعك إلى رسم صورة خيالية لى، أبدو فيها ممشوق القوام، مفتول العضلات، وسيم الملامح، فأنا - على العكس - هزيل نحيل، لى وجه يشبه وجه الجدي الأبيض، إلى حد دفع المصريين إلى أن يطلقوا عليّ اسم (الجدي الأبيض) بالفعل، عندما قضيت فترة أسيرا في سجونهم، بأمر خليفتهم..

ثم إن عمري الآن يناهز الخامسة والستين...

ولكن دعونا نعود إلى قصتى..

إنني طبيب من الطراز القديم، الذي لم يكن يعتمد على طرق العلاج الحديثة، ولم أكد ابلغ سن الشباب حتى رحت أغذي رغبتي في الانتقال، بالسفر إلى الشرق والغرب، حتى استقر بي المقام في (القاهرة)، مع حلول عيد ميلادي الأربعين، وفيها

رحت أمارس مهنتي، وتصورت أنني سأكتفي بممارستها حتى آخر يوم من عمرى، لولا أن التقيت بمستر (هيجز)، عالم الآثار الشهير..
ولهذا اللقاء قصة..
لقد دعيت يوما لتوقيع الكشف الطبي عليه، عندما أصيب بمرض التيفوئيد، وعلمت انه واحد من أشهر علماء الآثار في العالم، وانه يتحدث ما يقرب من خمس عشرة لغة، كما يمكنه قراءة اللغة الهيروغليفية بنفس البساطة التي يقرأ بها (جريدة التايمز)، وأنه قد أنفق آخر قرش يمتلكه على بحوثه في علم الآثار والتنقيب، فلم أتردد في معالجته مجانا، إلى أن شفي تماما، وقامت بيننا صداقة وثيقة، خاصة وانه كان في الثالثة والثلاثين من عمره، أى ان الفارق السنى بيننا لم يكن كبيرا..
وفي (القاهرة) ربطني الحب والزواج بفتاة قبطية، من إحدى أسر الصعيد، وسليلة للفراعنة الأمجاد، ونعمت معها بسعادة لا مثيل لها، على الرغم من احتفاظها بطابعها الشرقي، وانجبت لى ابنا واحدا، ثم أصابها الطاعون اللعين، فقضت نحبها، وتركت لي الطفل، الذي ابت الأقدار أن تترك لى لمحة من الحياة معه، وأصرت على أن تملأ كأس حزنى حتى حافته، فاختطف رجال (المهدى) ابني، وحطموا ما تبقى من نفسي تحطيما..
وبعدها سارت بي الحياة على نهج ثابت، ووتيرة حزينة، إلى أن فكرت يوما في زيارة وطنى، فسافرت إلى (لندن)، واتجهت من فورى لزيارة مستر (هيجز)، وهناك قادتني خادمته إلى حجرة مكتبه، حيث وجدت نفسي بين اكداس من التحف والمخطوطات والبرديات الفرعونية، وصناديق احتشدت ببقايا مومياوات واجزاء بشرية محنطة، ولم يكد (هيجز) نفسه يصل، حتى بدا لي شبيها بتلك الأشياء، وهو يرتدي معطفا أبيض اللون،

اتسخ كثيرا بأتربة وغبار العمل، وقد وخط الشيب فوديه، وبدا وكأنه قد تسلل إلى عينيه الباهتتين، وهتف وهو يصافحني في حرارة:
ـ يا للمفاجأة! (ريتشارد آدمز) بشحمه ولحمه!! اهو انت حقا؟
ابتسمت وانا اصافحه قائلا:
- يلوح لي أن كلمة شحمه هذه تحمل الكثير من المبالغة يا صديقي، والواقع أنني أردت مفاجأتك، فأخبرت خادمتك أنني مجرد صديق، ولم أذكر لها اسمى.
هات:
- مرحبا بك في أية لحظة يا صديقى دعني أقدم لك صديقي الكابتن (اورم)..
صافحت الشاب الذي قدمه لى، وهو ممشوق
القوام، عريض المنكبين، وسيم الملامح، هادىء الطباع، يبدو في الخامسة والعشرين تقريبا، و (هيجز) يستطرد في حماس:
- (أورم) هو أحد نوابغ اللغة العربية وعلم الآثار المصرية، ولقد تطوع في الجيش إبان حرب (البوير)، وأصيب ثلاث مرات..
تبادلت كلمات المجاملة مع (اورم)، وانهمك ثلاثتنا في أحاديث طويلة، استعدنا خلالها بعض الذكريات، أنا و (هيجز)، وتناولنا بعض الطعام والشراب، ثم أشعل (هيجز) غليونه، واسترخى في مجلسه، وهو يسألني في اهتمام:
- قل لي يا (آدمز): لماذا عدت إلى الوطن؟
اجبته في بساطة، وانا الوح بكفى:
- مجرد إجازة.
اعتدل في حركة سريعة، وانعقد حاجباه في اهتمام بالغ، وهو ينفث دخان غليونه، متطلعا إلى خاتم كبير من الذهب، يزينه

فص من الياقوت الأزرق في إصبعي، وقد نقشت عليه حروف قديمة، فسألته:
- هل يروق لك؟
اومأ برأسه إيجابا، ومد يده إليّ، فنزعت الخاتم، ووضعته في راحته، وراح يفحصه في اهتمام، ثم سألني:
- هل تعرف معنى تلك الحروف القديمة؟
هززت رأسي نفيا، فقرا الكلمات في هدوء:
- هدية من (سليمان) الحكيم إلى (بلقيس)، ابنة الملوك والحكمة والجمال.
ضحكت قائلا:
- يا له من تقليد طريف!! لقد ابتعت الخاتم من صائغ في (القاهرة)، بجنيه ونصف فحسب..
تطلع إليّ في شك، مغمغما:
- اتعني أنه مجرد خاتم مقلد؟ لا.. يبدو لي أنك تسخر مني فحسب، وإلا فمن صنعه مثقف للغاية، حتى يخط عليه هذه النقوش العبرانية الدقيقة..
ران الصمت علينا لحظة، ثم قلت:
- الواقع أنني قد حصلت عليه من سيدة تدعى (أم النجاشي)، وهي تدعي أنها حفيدة (سليمان) و(بلقيس).
راح يفحص الخاتم مرة أخرى في اهتمام، ثم دسه في أحد جيوب صدارة، وابتسم قائلا:
- أهذه هي القصة كلها؟
ألقيت نظرة جانبية على كابتن (اورم)، ثم اعتدلت قائلا في حزم:
- انا مستعد لأن أقص عليك القصة كلها، بشرط أن يقسم كابتن (اورم) بألا يعيد كلمة واحدة مما سيسمع على اذن أحد..
قال (اورم) في هدوء:

- ثق انني اهلّ لثقتك يا سيدى.
بعثت كلماته ولهجته الطمأنينة إلى نفسي، وبدأت أروي لهما، قائلا:
- حدث أن اعتقلني خليفة (مصر) خمسة اعوام كاملة، لخلاف بيني وبينه، ولم يكد يطلق سراحي حتي سعيت للبحث عن ابنى (رودريك)، الذي اختطفه رجال و(المهدي) قديما، ورحت اقضي عمرى متجولا في صحارى (افريقيا)، علّني أجد ولدى، وقد باعه هؤلاء الاوغاد كالرقيق، إلى إحدى القبائل أو أحد التجار، ولما كان ابني موسيقيا موهوبا، فقد كان تتبع خطواته أمرا ميسورا، ولقد علمت أنه قد راح يتنقل من قبيلة إلى أخرى، وقد اطلقوا عليه لقب (مطرب مصر)، لإتقانه العزف على آلاتهم الوطنية، وعلمت أنه يستقر الآن وسط قوم من أنصاف البرابرة، يحملون اسم قبائل (الفنج)، ويقيمون في وسط افريقيا، فتنكرت في زي تاجر عربى، وسافرت مع عدد من التجار إلى حيث (الفنج)، وهناك تسلقت حائط أحد معابدهم، في أثناء احد احتفالاتهم الدينية، واستمعت إلى غنائهم.. ولسعادتي ميزت صوت ولدي بينهم، وتعرفته على الرغم من ثوبه الأفريقي، والأعوام التي انقضت منذ فراقنا، ولحظتها غلبني انفعالى، ودفعني حنين الأبوة إلى أن أتناسى كل قواعد الحذر، وأصرخ مناديا باسم ابنى (رودريك)، وهنا ساد الهرج والمرج، ولحقني بعض (الفنج) في مخبئ، وانطلق عدد منهم نحوي، فغلبني الجبن، وأطلقت ساقي للرياح، ورحت أعدو بكل ما أملك من قوة، وقد ارتشق أحد السهام بين كتفى، غير مبال بزئير الأسود في الأدغال، ولا بالأحراش المظلمة، ولكن فجأة انقض اسد على جواد يجاورني، وأصابني بالرعب، وسقطت فاقد الوعي..
بدا الانفعال واضحا في صوت (هيجز)، وهو يسألني:

- وماذا حدث بعدها؟

اجبته:



استعدت وعيى بعد أسبوع كامل ، ووجدت نفسى أرقد فى شرفة واسعة لمنزل أنيق ..

- استعدت وعيي بعد اسبوع كامل، ووجدت نفسى ارقد في شرفة واسعة، وإلى جوارى حبشية حسناء، تعنى بجراحى، وتداوى الامي، وعلمت فيما بعد أن (الفنج) قد انتقموا من قافلة التجار العرب، الذين اندسست وسطهم، واحرقوها عن آخرها، وأن هؤلاء الذين انقذوني من الأسد هم أبناء قبيلة (اباتى)، التي تعيش في مدينة (المور)، وقد نالوا نصيبا موفورا من المدنية، ويبلغ تعدادهم ما يقرب من العشرين الف نسمة، وهم يحيون في رعب

دائم من (الفنج)، الذين يحملون لهم كراهية متوارثة، ويمتلكون حصنا عجيبا جبليا، ورثوه أيضا عن أجدادهم..
سألني (هيجز)، وقد ملأت اللهفة حواسه كلها:
- ثم ماذا؟
تنهدت قبل أن أقول:
- بذلت أقصى جهدي لحض (الأباتى) على إعداد حملة ضد (الفنج)؛ لإنقاذ ولدي من العبودية والرق، ولكنهم سخروا مني، وأعلنوا رفضهم التام لفكرتى، فلم أجد أمامي سوى ملكتهم (مجيدة)، ابنة الملوك والجمال والحكمة، وتظاهرت بالاهتمام بصحتها كطبيب، وافضيت إليها بفكرتي.. فترددت طويلا، ثم اخبرتني أن لـ (الفنج) معبودا على هيئة (ابي الهول)، ولكن راسه ليست على شكل رأس إنسان، وإنما هي رأس كبش ضخم، وهذا المعبود يدعى (هرمق).
تمتم (هيجز)، وهو يستمع في اهتمام:
- هذا يعني (إله الفجر)..
واصلت دون الالتفات إلى تعليقه:
- و(الفنج) يؤمنون إيمانا قاطعا بان تدمير هذا المعبود هو أمر بالرحيل عبر نهر الجنوب العظيم..
سألني (هيجز) في اهتمام بالغ:
- أى نهر هو؟
اجبته في اهتمام مشابه:
- لم تذكر اسمه، ولكنه أحد روافد نهر النيل حتما، أو أحد فروعه المهم انني قد اقترحت عليها السعي لهدم ذلك المعبود، فضحكت وأخبرتني أنه شديد الضخامة، في حجم جبل صغير، وليس من الهين هدمه بالأيدي، ثم إن رجالها قد فقدوا

الكثير من شجاعتهم وبأسهم، وأنهم قد استكانوا للعيش في أرضهم الخصبة، حتى يوافيهم الأجل وتطوى صحائفهم، ولما سألتها عما إذا كانت هي قانعة بكل هذا الخضوع والخنوع، اجابتني بأن الحزن يملأ قلبها وعقلها، ويؤرق نومها، ولكنها على اية حال امرأه، لا حول لها ولا قوة، ثم حاولت قلب الأمور، فراحت تغرينى بكنوز أجدادها المخبأة، و تعدني بجبل من الذهب والمجوهرات، لو انني سعيت لهدم ذلك المعبود، فأجبتها بأنني زاهد في المال والثروة، وكل ما أرغب فيه هو إنقاذ ولدي، الذي يحيا كعبد بين (الفنج)، فأصرت على موقفها، وعلى أنها لن تبذل جهدها أو رجالها في سبيل استعادة ولدي، قبل أن يتم هدم ذلك المعبود، وهنا رحت اشرح لها فوائد الديناميت، وقوته، وتأثيره، و خواص غيره من المتفجرات، فهتفت في حماس، تطالبني بالعودة إلى بلادي، وإحضار المواد اللازمة لهدم ذلك المعبود، واثنين أو ثلاثة لمعاونتى، وستمنحني كنوز الأجداد كلها، وتساعدني في استعادة وحيدى.

سألني (اورم):

- وماذا فعلت؟

أكملت أنا:

منحتني الملكة (مجيدة) الكثير من الذهب، وعددا من الرجال والجِمال، وسلكنا دروبا خفية، لا يعلم عنها (الفنج) شيئا، وقطعنا عدة أميال في الصحراء، حتى بلغنا (أسوان)، وهناك تركت الرجال والجمال منذ أسبوعين، وهرعت إلى هنا، لمعرفتي بمدى شغف صديقى (هيجز) بالآثار القديمة، وأردت أن أمنحك، إلى جوار الثروة، فرصة لتكون أول من يكشف مدنيات قديمة، ضاعت في غياهب المجهول، وكل ما اطلبه الآن هو أن

نجد رجلا خبيرا في المفرقعات، يأخذ على عاتقه مهمة هدم معبود (الفنج).
ابتسم (هيجز)، واشار بطرف غليونه إلى كابتن (اورم)، قائلا:
- الأمر أسهل مما تظن، فها هو ذا كابتن (اورم)، مهندس كيميائى، وخبير مفرقعات، إلى جانب إجادته التامة للغة العربية منذ صباه..
تطلعت إلى الكابتن، أسأله:
- هل ترضى بإقحام نفسك في مثل هذه المخاطرة؟
هز كتفيه، مجيبا في هدوء وبساطة:
- ليس لدي الآن ما يمنعني من هذا.
- ماذا تعني كلمة (الآن)؟
تخرج وجهه بحمرة خفيفة، لم تلبث أن تلاشت في سرعة، وهو يجيب:
- الواقع أنني كنت أتصور، حتى أمس فقط، أنني قد ورثت ثروة عظيمة، من عمٍ لى، توفي في جنوب أفريقيا)، واليوم علمت أنه كان قد تزوج من امرأة أدني منه مرتبة، على نحو سرى، وأنجب منها ولدا، هو وريثه الشرعي ولا شك، ولكن هذا ليس السبب الوحيد لرغبتي في ترك (إنجلترا)، وإنما السبب الحقيقي هو أن المرأة التي تصورت انها تحبني، وأنني سأصبح زوجا لها، قد صارحتني اليوم بأنها لن تتزوج ضابطا متقاعدا، ضاع أمله في ميراث عمه..
بدا لنا الموقف حساسا، فلم ننطق أنا و (هيجز) بتعليق واحد، احتراما لمشاعر الشاب، الذي صمت بدوره، فران على المكان صمت رهيب، قطعه (هيجز) اخيرا في صوت مرتفع، وكأنما يدير دفة الحديث بعيدا عن موطن أحزان (أورم):
- ما غرضك الحقيقي من هذا يا (آدمز)؟

اجبته في الم وانفعالّ:
- حاول أن تضع نفسك في مركزى، تصور ان ابنك الوحيد سجين مع قوم غلاظ النفوس، قساة القلوب وأنك قد عثرت عليه، بعد أن نضج واشتد عوده، فهل تتركه عبدا بينهم.
- اتنقذه بتعريض رقبتك للسيف؟
- الأبوة يا صديقي غريزة لا تقهر ولا تقارن، ثم إن (مجيدة) قد وعدتني بالمساعدة والمال، ولما صارحتها بأن أحدا لن يصدق قصتي، منحتني خاتمها للدلالة على صحة القصة، ومنحتني الذهب لشراء المال والعتاد، وسألتني الا يزيد عدد معاونىّ على ثلاثة، فهل ترغب في أن تكون أحدهم، ام ابحث عن غيرك؟
تطلع إلىّ في صمت، وهو يشعل غليونه، وينفث دخانه في بطء، ثم لم يلبث أن مال إلى الأمام بغتة، وسألني:
- الديك بعض الذهب الذي منحتك إياه ملكة (الأباتي)؟
قلت وانا افتح حقيبتي الصغيرة:
- ها هو ذا.
ناولته بعض الذهب، ففحصه في اهتمام، وبدا على ملامحه ان شكوكه قد تبددت، وهو يقول لـ (أورم):



ناولته بعض الذهب ، ففحصه فى اهتمام ، وبدا على ملامحه أن شكوكه قد تبددت ..

- ما دام يحتاج إلى ثلاثة معاونين، فلم لا نصطحب الجاويش (كويك)؟

ثم التفت إليّ مستطردا:

- إنه معاون الكابتن، منذ كانا معا في الجيش، وهو خبير العام ومتفجرات، ولقد كان ميكانيكيًا قبل الحرب، ثم إنه مخلص كتوم، متين البنيان..

وبسرعة، استدعى (أورم) الجاويش (كويك)، الذي بدا لي واضح القوة والبأس، وسأله الكابتن:

- ما رأيك في رحلة إلى وسط (افريقيا) يا (كويك)؟
ضرب (كويك) كعبيه بعضهما ببعض، شأن أى جندي محترف، وأجاب:
- لا رأى لى يا سيدى.. إنني اذهب حيث يأمر رئيسي، ثم إن المتفجرات هي أبسط الأشياء التي اجيدها.
اصابتنا الدهشة، وهتف (اورم) يسأله:
كيف علمت هذا؟
اجاب دون حتى ان يبتسم:
- ابواب المنازل القديمة هشة غير متماسكة يا سيدي، وصوت مستر (آدمز) ليس من الأصوات التي تحجبها الجدران..
انفجرنا ضاحكين، وقال (أورم):
- إذن فلست تمانع في مرافقتنا.. هل تدرك ما ستتعرض له من مخاطر وأهوال، وما ستواجهه من احتمال عدم العودة مطلقا؟
هز (كويك) راسه في بساطة، وقال:
ليس أحب إلى نفسي من المغامرة، ثم إننا سنبحث عن ثروة، وكل ما أطلبه هو أن أحصل على خمسة في المائة منها، لو عثرنا عليها..
هتفت في حماس:
- خذ عشرة في المائة..
أجاب في هدوء:
- تكفينى خمسة في المائة يا سيدى، ويمكننا أن نحرر عقدا بهذا.
وبالفعل تم تحرير العقد..
وبدأت المغامرة....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- القط..

ستة أسابيع مضت، ونحن نسير في لجة لا تنتهي من الرمال الصفراء، التي لم تطأها قبلنا قوافل البدو الرحل، والشمس تشرق كل صباح بضوئها الأحمر من خلف التباب الشرقية، وتختفي في المساء خلف الكثبان الغربية، ليصعد القمر، ويغمر بحر الرمال بضوئه الفضي الساحر..

واخيرا بدا لنا ذلك الجبل، الذي هو معبود (الفنج)، الذي يواجه مدينتهم (هرمق)، التي لا يتجاوز تعداد سكانها الخمسين ألف نسمة..

وأخبرنا (القط)، قائد قافلتنا، أن للجبال المحيطة بالمدينة مدخلا واحدا، على مسيرة ثمانية أيام إلى الشمال، وأنه لا سبيل لبلوغه هذه الأيام، حيث تعترضه - في هذا الوقت من السنة – بحيرة كبيرة، يفيض منها نهر (ايبور)، ويتفرع إلى فرعين، يحيطان بسهول (الفنج) كلها، ولكن هناك وسيلة أخرى لبلوغ المعبد المقام على صخور شامخة، الا وهي أن نترك الجمال والأحمال، ونتسلق الجبل..

وكان هذا مستحيلا..

ولم يكن من المجدى آن نبلغ ذلك المعبود، مخلفين وراءنا كل ما أحضرناه لتدميره؛ لذا فقد سألت (القط) في اهتمام:

- ما العمل إذن؟

هز كتفيه في لا مبالاة، وأجاب:

- ليس أمامنا سوى أن نسير ليلا ونختفي نهارا، فمن عادات (الفنج) أنهم سيقيمون حفلا رائعا للربيع في مدينتهم غدا، ومع الفجر ينتقلون إلى معبدهم؛ لتقديم القرابين لمعبودهم، وهم

يرفعون الحراسة في تلك الساعات، ليشاركهم الحراس احتفالاتهم؛ لذا فالوسيلة الوحيدة هي أن تبلغ اول طريق (المور)، مع ليلة الاحتفال بعيدهم، وسأخبر رجالى؛ لإرسال من يرشدنا إلى الطريق وسط الظلام.
- وكيف يمكنك إبلاغهم؟
- بإشارات الدخان.. سأحرق بعض الأعشاب، وسيتصور (الفنج) أنها نيران أحد صيادى المنطقة..
- اليس في ذلك مجازفة كبيرة؟
- مجازفة؟!! عجبا!! ما كنت اظن الإنجليز جبناء هكذا..
. وهنا انفجر (هيجز) غاضبا: جبناء؟! كيف تجرؤ على هذا القول ايها القذر.. انظر إلى هذا الجاويش.. إنه خادمنا، وأقلنا شأنا، ولكن ما بإصبعه الصغير من شجاعة يفوق ما تحمله منها قلوب قبيلتك كلها.
احتقن وجه (القط) غضبا، ورفع راسه قائلا في غلظة:
- انت تنطق هراء يا (هيجز)، ولكن قولك هذا سيتغير كثيرا، عندما تجد سيف (الفنج) فوق عنقك..
كاد (هيجز) يشتبك معه في حوار عنيف، إلا أن (أورم) تدخل قائلا:
كفى.. اظن أن لدينا من المتاعب ما يغنينا عن المزيد منها.
ثم التفت إلى (القط) مستطردا:
- لا داعي للشجار يا رجل.. إنك قائدنا في ساعات السلم، وانا القائد عندما يحتدم القتال، ونحن نسلمك قيادنا الآن، فقدنا اينما وحيثما شئت، وسنتبعك على الرحب والسعة..
ظهر الارتياح على وجه (القط)، وكأنما أعادت إليه كلمات (اورم) كرامته، في حين راح هذا الأخير يطمئن على الإبل والجياد، وذهبت أنا و (هيجز) و (كويك) إلى خيامنا، في محاولة منا

لاختلاس قدر من النوم، قبل أن تهاجمنا أسراب البعوض اللعينة، وقبل أن أنعم بقدر كاف من النوم، جاء الجاويش (كويك) ليوقظني مع مغيب الشمس، وليساعدني على حزم امتعتي، ووجدته يقول في قلق:
- لست اثق عادة في القط الذي يبرز مخالبه هكذا، فذلك الرجل يبدو لي ماكرا خبيثا، يكره البيض، ويتمنى لو نهلك قبل عودتنا من (المور).
كان هذا شعورى ايضا في الواقع، إلا انني رحت اعمل على تهدئة (كويك)، وانطلقنا جميعا نقطع طريقنا تحت جنح الظلام، حتى بلغنا خرائب المدينة المهجورة، المطلة على الهاوية، تحت صخور (المور)، مع تباشير الفجر، فحططنا الرحال، وجلسنا نستريح، وعندما اعتلت الشمس من السماء، أمكنني رؤية مدينة (هرمق) العظيمة، بمنظارى المقرب، على بعد خمسة عشر ميلا..
كانت مدينة كبيرة، منازلها كثيرة، ذات أسقف بيض، تحيط بها الحدائق من كل جانب، وشوارعها واسعة، واسواقها فسيحة، وحول المدينة جدار عال، ترتفع في اركانه ابراج عالية، وبينها بوابات كبيرة، وحول الجدار مراع ينبت فيها العشب الأخضر، وتنتشر فيها قطعان الماشية والأغنام والجياد، وعلى مقربة منها ما يشبه مدينات او قرى صغيرة، من المستحيل أن يشيدها او يقطنها الهمج أو البرابرة..
وبقينا في أماكننا، ننتظر قدوم الليل، لنكمل مسيرتنا نحو أرض (الفنج)، ورحت أراقب (القط)، وأنا أتذكر حديث (مجيدة) عنه.
قالت: «لا تخلو نفسي من الشك في أمره، ولكننى أستغل فيه دهاءه ومكره وجرأته، وعليك أن تتخذ كل الحذر منه، فلست أطمئن إليه إلا لأنني احتفظ بزوجته وأطفاله رهينة عندي،

وأعده بمكافأة ضخمة مغرية، لو ساعدكم على هدم معبد (الفنج)»
تذكرت كلماتها وأنا أتطلع إلى وجه (القط)، الذي يحمل كل ما يثير القلق في النفوس، حتى أن كلبنا الوديع (فرعون) كان يكرهه، وينبح في وجهه دوما، بل لقد حاول مرة ان يغرس أنيابه في ساقه، فبادله (القط) الكراهية، ولم تكد علبة (الاستركنين) تقع في يده، حتى غمس فيها قطعة من اللحم، والقاها إلى (فرعون)، الذي كاد يلتهمها بالفعل، لولا أن شك (هيجز) في ذلك التعاطف المباغت، فأسرع بفحص قطعة اللحم، ولم يكد يدرك مقصد (القط) حتى نشبت بينهما معركة بالأيدي، كادت تنقلب إلى معركة طاحنة بيننا وبين رجال (القط)، لولا أن تدخل الكابتن كالمعتاد، وأنهى الصراع، وجعلهما يتصافحان، ولكنني ظللت واثقا من أن نفس (القط) لم تهدأ تجاه (هيجز)، وأن حقده عليه سيتضاعف مع مرور الأيام..
توقفت عن اجترار الأفكار والذكريات مع مقدم الليل، حيث عاودنا السير، يتقدمنا دليل من (الأباتى)، يحفظ كل شبر في الطريق، وبعده كابتن (أورم) والجاويش (كويك)، يقودان الإبل المحملة بالمفرقعات والمتفجرات، وانا خلفهما للمراقبة والحراسة، وخلفي جمال القافلة الأخرى، ثم في المؤخرة يسير (هيجز) و (القط)، بصحبة اثنين من (الأباتي)..
ولقد أصر (القط) على السير في المؤخرة، حتى لا تنسب إليه أية أخطاء قد تقع فيها، وصحبه (هيجز)، ليدلل على صفاء نيته وطيب طويته تجاهه، وفجأة هطلت الأمطار في عنف، وراحت الرياح تزأر وتعوى، إلا أننا لم نتوقف وإنما واصلنا سيرنا في إصرار وصمت، طيلة ثلاث ساعات، حتى واجهتنا اضواء (هرمق)، وسمعنا همسا يدعونا للتوقف، ثم لم نلبث أن تبينا أن صاحبه

هو أحد الوطنيين من (الأباتى)، الذين أرسلهم (القط) لاستطلاع الطريق، وقد عاد ليخبرنا أن عددا من فرسان (الفنج). يسدون الطريق، وانه من الضروري أن نتوقف قليلا، حتى ينتقلوا إلى مكان آخر، ويفسحوا لنا السبيل..

واتجه (القط) إلى المقدمة، ليستطلع ما حدث، ولم يكد كلبنا (فرعون) يشتم رائحة عدوه، حتى انطلق ينبح في شراسة..

وانطلق (القط) يعدو، واضطربت الجمال لعدوه، وانطلقت تعدو بدورها..

وجفل قادة الجمال، عندما رأوا (القط) يقفز فوق أحد الجمال، ويركض به هاربا...

وهنا التفت إلينا فرسان (الفنج)، وهبط قلبي بين ساقى، عندما رأيتهم يرفعون مشاعلهم، ويتجهون إلينا..

وكانت لحظات مخيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ندر كيف فعلنا كل هذا..

لقد قفزنا كلنا فوق ظهور الجمال، وتركناها تعدو بنا بسرعة البرق، دون أن نحدد هدفنا او اتجاهنا..

لا ريب أن الذعر، ذلك الذي جعلنا نفعل كل هذا..

إنه أقوى محرك لمن هو في مثل موقعنا أو ظروفنا..

المهم أن الجمال راحت تعدو مبتعدة، ونحن نسلمها قيادتنا تماما، حتى خفت سرعتها، إلى أن راحت تسير تحت قباب عالية، وتوقفت كلها فجأة، فهبطنا عن ظهورها، وربطنا بعضها إلى بعض، وأوينا إلى برج عال، نتقى به الأمطار الغزيرة، وقد

اطمأنت قلوبنا إلى أن مطاردينا قد فشلوا في تتبع خطانا، فتراجعوا إلى مواقعهم..
لحظتها كشفنا اختفاء (هيجز)..
واصابنا هذا بالذعر..
إننا لم نلحظ هذا ونحن نعدو هاربين، ولم ننتبه حتى إلى ما حدث..
هل تبع (القط) في فراره، ام فشل في اعتلاء جمله مثلنا، فأوقع به فرسان (الفنج)؟!
حرنا في البحث عن الجواب، وغلبنا الحزن والنوم، فرحنا في سبات عميق، لم نستيقظ منه إلا عند الفجر، فوجدنا أن الأمطار قد انقطعت، وكشفت السماء الصافية، التي تتألق فيها بقايا النجوم، التي يبدو ضوء الشفق بريقها تدريجيا..
ورفع كابتن (اورم) راسه إلى أعلى، وهو يقول:
- تعالوا نستكشف ذلك المكان، ونصعد في هذا الدرج هنالك..
رحنا نصعد في درجات السلم المرتفع، حتى وجدنا أنفسنا على قمة أحد أبراج سور مدينة (هرمق)) تطل على واد فسيح يتوسطه تمثال حيوان بالغ الضخامة، يشبه تمثال (ابي الهول)، ووجدت نفسي أهتف في انفعال:
- إنه معبود (الفنج)
غمغم (اورم) في حزن:
- كم أتمنى لو أنني أنا الذي لقي مصرعه، بدلا من (هيجز)، حتى لا يحرم رؤية ذلك الأثر الهائل..
وصمت لحظات، ابتلع خلالها حزنه، قبل أن يضيف:
- هيا نهبط، فقد يمكننا الفرار، قبل أن ينقشع ضباب الفجر..
أجبته في انفعال:

- انتظر.. انظروا إلى تلك الصخرة هناك تلك التي تربض فوقها النسور، والتي يحيط بها الضباب إنها الصخرة البيضاء التي قال (القط) إنها بداية سلسلة الجبال، التي تنتهي في (المور) هيا نتجه إليها، فقد يكون هذا هو فرصتنا الوحيدة للنجاة..
هبطنا إلى حيث تركنا الجمال، ورحنا نفحص ابواب جدار (هرمق) الضخم، ووجدناها من النحاس والبرونز، وقد علاها الصدأ، وهي مغلقة من الداخل، وبها فجوات منتظمة، يستخدمها - ولا شك - فرسان (الفنج)، في إطلاق سهامهم على الأعداء وانحنيت لألقي نظرة عبر إحدى الفجوات..
ثم تراجعت في رعب..
لقد كان هناك بعض فرسان (الفنج)، يندفعون نحونا، والشر يطل من عيونهم، فصرخت مذعورا:
- الفرسان يهاجموننا..
انطلقت أعدو نحو الجمال، في حين راح (أورم) و (كويك) يصليان فرسان (الفنج) نيران بندقياتهما، حتى سقط نصف الفرسان صرعى، وفرّ النصف الآخر، إلا أننا لم نلبث أن فوجئنا بفريق آخر من الفرسان، يعتلي الأسوار، ويهاجمنا مطلقا علينا السهام في شراسة، فقال (كويك) في حزم:
ـ اتركوا لى أمرهم سألقن هؤلاء الأوغاد درسا.
قالها وتسلل في حذر نحو الأسوار، ورايته يدس أحد ألغامه في قاعدة السور، ثم يتراجع في خفية هاتفا:
- أسرعوا..
لم يكد يتم عبارته، حتى دوي انفجار رهيب، وسقط بعض (الفنج) قتلى، في حين جفلت جياد البعض الآخر، وراحت تعدو متزاحمة، في حين انطلقنا نحن على ظهور الجمال..
وصاح أحد (الأباتى) في ذعر:

- إنهم يطاردوننا..
التفت لأجد فريقا من (الفنج) يطاردنا، ولم أكد اعتدل حتى رأيت جيشا من الفرسان ينقض علينا.. لقد وقعنا بين المطرقة والسندان.
وهوى قلبى رعبا ويأسًا، لولا أن هتف كابتن (اورم):
- يا إلهي! هؤلاء الذين أمامنا ليسوا من (الفنج).
أسرعت اضع منظاري المقرب على عيني، وأتطلع إلى حيث يشير، فوقع بصري على اعلام (الأباتى) الخضراء، وعليها تلك الكتابات العبرانية، التي تتوسطها صورة عرش (سليمان)..
وأسرعنا نحو فرسان (الأباتى)، ولم نكد نبلغهم حتى برزت من بينهم امرأة في نقاب ابيض، وثوب ناصع البياض، وسألتني بلغتهم من القائد هنا؟
أشرت إلى (أورم)، الذي يكاد يسقط من فوق جمله، من شدة الإجهاد والإعياء، فخاطبته في لهجة تشف عن أصلها النبيل:
- ماذا حدث يا سيدى؟
سألها فيي حزم:
- هل لي أن أعلم أولا من أخاطب؟
رفعت راسها في اعتزاز، وهي تقول في ترفع:
- انا الملكة (مجيدة)، ابنة الملوك والحكمة والجمال، وشعاري على جبيني ينطق بصدقى..
ورفعت النقاب عن وجهها الفاتن الساحر..
وتراجع (اورم) مبهوتا..
بل مشدوها ومسحورا..
لقد رأى امامه حورية من حوريات الجنة..
رأى حفيدة (سليمان)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- السلطان..

. يمكن القول، دون أدنى قدر من المبالغة: أن (مجيدة) قد سحرت (أورم) تماما لقد رايته وقد نسى كل تعبه وإجهاده، وهو يحدق في وجهها الفاتن ها وجمالها الطاغي، قبل أن يتمتم مبهورا مشدوها:

- انا في حلم؟! آمراة هي أم حورية من حوريات الجنة؟

سألتني (مجيدة) في حيرة:

- ماذا يقول صاحبك؟

ترجمت لها حديثه بكل أمانة، فتضرج وجهها بحمرة الخجل، واسرعت تسدل النقاب على وجهها في حياء، فتنحنح الكابتن حرجا، واعتدل قائلا في حزم، بدا وكأنه محاولة للسيطرة على مشاعره:

يجب أن نعجِّل بالهجوم على (الفنج) قبل أن يستعيدوا جأشهم..

ولكن (مجيدة) أجابته في هدوء، باللغة العربية التي يجيدها (أورم):

- يجب أن أستشير مجلسى اولا.

ثم التفتت مستطردة في لهجة آمرة:

- اين عمي الأمير (جوشيا)؟

وتقدم نحوها فارس شاب، متين البنيان، يرتدي حلة شرقية ثمينة، ودرعا وخوذة كفرسان الغرب، وسألته (مجيدة):

- لقد تهدم جزء من السور كما ترى، أفتجدها فرصة مناسبة لغزو (الفنج)، أم أنه علينا أن ننتظر حتى يهاجمونا هم؟؟

حدق في وجهها بدهشة، وهتف مستنكرا:

- هل اصابك الجنون يا ابنة الملوك.. إننا لا نزيد على خمسمائة رجل، أما هم فعددهم يربو على العشرة آلاف.
هتفت غاضبة:
- ولكنني ارغب في مهاجمتهم، فمن يتبعني؟
صاح بعض رجالها يؤيد قولها، إلا أنها أضافت في مرارة:
- يؤسفني الا أستطيع هذا فعلا، فرجالي لم يخلقوا للحرب والقتال..
سرت همهمة غاضبة بين رجالها، واستلَّ عمها سيفه، هاتفا في صوت جهورى:
- انت تعرفين مدى شجاعتى وجرأتى، وتعلمين كم قتل هذا السيف من (الفنج) و...
قاطعه (اورم) في صرامة:
- اعد سيفك إلى غمده يا رجل..
بدا العناد على وجه الرجل لحظة، لولا أن ظهر ثلاثة من فرسان (الفنج) يتجهون إلينا، وقد أخفى أحدهم وجهه بقناع أبيض، به ثقوب للعينين والفم، فتراجع (الأباتى) في خوف وقلق، في حين بقيت (مجيدة) قوية متماسكة، وهي تقول في حزم:
- إنهم رسل (الفنج) دعنا نر ماذا يريدون..
اقبل الفرسان الثلاثة، حتى توقفوا أمامنا، وألقوا علينا التحية في ادب واحترام، ثم قال أحدهم:
- لقد أتينا يا (ام النجاشي) وابنة (سليمان)، لنتحدث إلى البيض الثلاثة الذين قتلوا العديد من رجالنا، وهدموا أحد أسوارنا، وأرسلوا البرق والرعد إلى صدور فرساننا.
سألته (مجيدة) في ترفّع:
- ماذا تريدون منهم؟
أجابها:

- لقد سقط رابعهم اسيرا لدينا، وحكم عليه كهنتنا بالموت، ولكننا مستعدون للإبقاء على حياته، كما فعلنا مع (مطرب مصر) وكاهن (هرمق)، مقابل أن ينضم البيض الثلاثة إلينا، لا إليكم..
قال (اورم) في حزم:
- إننا نشكر سلطانكم على عرضه هذا، ويؤسفنا ان اضطررنا لقتل عدد من رجاله، دفاعا عن أنفسنا، ونحن نعترف بأن (الأباتى) قوم جبناء، ولكن ملكتهم إمراه عظيمة، كبيرة القلب، ولقد وصلنا هنا على متن جمالها، وبغرض خدمتها، وهذا يضطرنا لرفض عرض سلطانكم، مع عظيم الأسف..
هز الرجل راسه متفهما، عندما استمع إلى رد (اورم)، ثم التفت إلى (مجيدة) يقول:
- سلطاننا العظيم (بارونج) يوجه إليك الدعوة نفسها، وانت تعلمين ما يحمله لك من احترام وتقدير وتوقير، وهو يدعوك إليه على الرحب والسعة، ويعدك بأن يضعك على رأس زوجاته، او يترك لك حرية الزواج بمن تشائين..
قال عبارته الأخيرة ورمق (أورم) بطرف خفي، وكأنما يعنيه بها بالذات، قبل أن يتابع:
- اتر كى قومك الجبناء وانضمي إلينا، يفتديك رجالنا بأرواحهم، فلقد أديت واجبك على خير ما يرام، ولولاك لصار شعبك ملكا لنا منذ سنوات، ونحن نعلم أنك قد لجأت إلى هؤلاء البيض؛ ليهدموا معبودنا بسحرهم، بعد أن وعدتهم بكنوز وذهب ملوكنا الأقدمين..
سألته (مجيدة) في خفوت:
- من اخبرك بهذا.. أهو اسيركم الأبيض؟
هز الرجل راسه نفيا في هدوء، وقال:

- لا يا (ام النجاشي)، بل هو (القط).. والآن ما جوابك يا زهرة (المور)؟
اعتدلت (مجيدة) في مجلسها، فوق صهوة جوادها، وبدت لي على ما أروع ما تكون ملكة، وهي تقول في حزم:
. لقد أقسمت بشرفي أن أحمي (المور) حتى النهاية.
ابتسم الرجل وقال:
- لن تحنثي بشرفك يا زهرة (المور).. سينقى ملكنا هذه المنطقة من الجبناء، ثم يوليك عليها مرة أخرى، فتصبحين ملكة على ارض تتيهين ببسالة فرسانها..
وفجأة رفع الفارس المقنع قناعه، وألقاه على الأرض بحركة سريعة، وبدت - لأول مرة – اساريره النبيلة، وبشرته النحاسية، ووجهه الذي يشف عن سنوات عمره المقاربة للخمسين، وقد أطلق لحيته، وتألقت قلادة فرعونية قديمة على صدره، فترّجل الفارسان الآخران عن جواديهما، وسجدا أمامه هاتفين:
(بارونج) ٠٠ (بارونج).
وأمام فيض الهيبة المتدفق من الرجل، لم نملك إلا أن نحييه في احترام بالغ، ولم يسع (مجيدة) سليلة الملوك إلا أن تنحني له، فرد تحيتنا برفع رمحه في عظمة وهيبة، قبل أن يقول:
- لقد سمعت يا (ام النجاشي) و (زهرة المور) ويا رجال الغرب ما قاله خادمى بأمر منى، ويؤسفني مطاردة رجالي لكم، فما يليق بفرقة كاملة الفرسان أن تطارد اربعة رجال، ولكنني أمد لكم يدى، وارجو سليلة الملوك أن تقبل صداقتى، فلست أحب أن أتورط في مقاتلة جيش ضئيل من الرعاديد، لا يستحق سوى الازدراء او الشفقة، وإلا فإنني سأنتقم لهدم معبدى ومعبودى شر الانتقام، وسيكون الأسير الأبيض كبش الفداء..
ضربت (مجيدة) مقدمة سرجها بقبضة يدها، وصاحت:

- محال يا (بارونج).. لن أخضع لكم واعبد معبودكم، متخلية عن دينى الحق، الذي آمن به (سليمان) وحفدته.. إنه من المستحيل أن تخضع عقيدة حقة لصنم قُدّ من حجر، أما رعيتى، التي اعترف بجبنها وخنوعها، فإنني أفضل لها موتا شريفا، على حياة هي الرق والعبودية والجحيم).. وانتقامك لمعبودك لا يهمني أو يردنى، ما دمت أحطمه في سبيل الله (سبحانه وتعالى)، خالقى وإلهى.. واذبحني لو أن هذا قدرى.
وصمتت لحظة، ثم أضافت في حزم:
- هذا جوابى كملكة لشعب يدين لها بالولاء، أما كإمراة، فأنا اشكر لك عواطفك وأدبك الجمّ..
ران الصمت لحظات، ثم سألها السلطان:
- أهذا جوابك النهائي؟
رفعت راسها في اعتزاز، وهي تقول:
- نعم وبقي ان أعلن هؤلاء الأصدقاء البيض انني أحلهم من وعدهم، فلا معنى لأن يلقوا بأيديهم في التهلكة، في سبيل حرب خاسرة، وأذكرك بأنك قد ضمنت لهم الحرية والإبقاء على حياتهم، لو انضموا إليك، وكذلك على حياة زميلهم الرابع، الذي تحتفظون به اسيرا، ثم إن لديك اسيرا آخر، تطلقون عليه اسم (مطرب مصر)، هو في الواقع ابن أحدهم، ولست اظنك تضن بالولد على والده..
توقفت منتظرة جواب السلطان، ولكنه بقى صامتا، يتطلع إليها، فالتفتت إلينا مستطردة:
- اذهبوا إليه ايها الأصدقاء، واشكر لكم رحلتكم الطويلة من أجلى، وسأرسل لكم هدية ضخمة من الذهب، وربما التقينا في حرب قريبة.. الوداع ايها الأصدقاء.

كان من الواضح انها ترقبنا من خلف نقابها في اهتمام شديد، وكأنها تنتظر معرفة ردود أفعالنا، وكذلك راح السلطان يراقبنا بنفس الاهتمام، متخللا شعر لحيته الكثة بأصابعه، حتى قال كابتن (اورم):

- يمكنني أن أتحدث عن نفسي، وعن الجاويش (كويك)، فأقيد نفسينا بالوعد الذي قطعناه للملكة، وار فض بكل اسف عرض السلطان، فنحن نرى أن هذه الملكة الشجاعة تناضل من أجل شعبها ودينها، ونحن نقدر كثيرا مثل هذه الحروب..

كان من المؤلم والمسير بالنسبة إلى أن اتخذ قرارى، فقد كان يعني التضحية تماما بولدي، من اجل التمسك بوعد لإمرأة تحكم شعبا من الجبناء، ولكن السلطان لم ينتظر جوابى، وإنما قال في اسف:

- كم تمنيت لو جاء جوابكم بغير هذا، ولكن يبدو انكم تحترمون الوعود كثيرا، وتضحون بكل مرخص وغال في سبيل ذلك على اية حال استودعكم الله، متمنيا لو أن (مجيدة) تحكم شعبا آخر، غير هذا القطيع من الجبناء، الذي لا يستحق شيئا من مزاياها العظيمة.

ثم مد يده إليها، قائلا:

- هاتى يدك يا (أم النجاشي).. سأعود بك إلى قومك..

ناولته كفها الرقيقة، فقادها في رفق إلى حيث قومها، ولم يكد يقترب منهم حتى انقض عليه بغتة العم (جوشيا) مشهرا سيفه، وخلفه بعض الرجال، وهو يصيح:



ولم يكد يقترب منهم حتى انقض عليه بغتة العم (جوشيا) مشهرًا سيفه ، وخلفه بعض الرجال ..

لقد وقعت يا (بارونج).. اخضع لنا أو نقتلك.
كان السلطان قد تخلى عن سلاحه، تعبيرا عن حسن نيته، وهو يقود (مجيدة) إلى قومها، لذا فقد احتقن وجهه غضبا، وهو يصيح:
- ايها الجبان الخنزير.. لو انني أحمل سيفى للقي أحدنا مصرعه حتما..
ثم التفت إلى (مجيدة)، مستطردا:

- هذا الخلق الوضيع يشف عن جبن، هو سر احتقارنا لشعبك هذا.. أترين كيف يحاربون رجلا أعزل؟
صرخت (مجيدة) في عمها حانقة:
- اخفض سلاحك هذا يا (جوشيا).. إنك تجلب لنا العار بأسلوبك المشين هذا..
ولكن (جوشيا) هتف في عناد:
- الصيد أثمن من ان اتركه بهذه البساطة..
مال الكابتن على اذني، هامسا:
- سأمنع هذه الخدعة القذرة، وسأطلق النار على راس (جوشيا) القذر هذا، لو همَّ بمس السلطان بأدنى سوء.
لم يكد الجاويش (كويك) يستمع إلى حديثنا حتى وضع الفكرة موضع التنفيذ على الفور، وأطلق النار بين قوائم جواد (جوشيا)..
وجفل الجواد مذعورا، وسقط (جوشيا) أرضا..
وفي غمرة الهرج الذي حدث، اندفعنا نحو السلطان، وأحطنا به وبجواده إحاطة السوار بالمعصم، حتى أخرجناه من وسط الحصار، وسلمناه إلى حارسيه، اللذين كاد قلباهما يتوقفان من شدة خوفهما على سلطانهما، الذي قال لنا في امتنان:
- إنني أدين لجرأتكم وشجاعتكم بحياتي، ثم نزع قلادته الفرعونية الذهبية القديمة، ووضعها حول عنق الجاويش (كويك)، وانطلق على جواده عائدا إلى حصنه، بصحبة حارسيه..
وهتفت (مجيدة) في صرامة:
- سنتخذ طريق العودة.
وكالكلاب المذعورة، وضع رجالها أذنابهم بين سيقانهم، وأطاعوها صاغرين..
وكان علينا أن نبدأ مرحلة جديدة..

ومخيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- مدينة الملكة..

لم نكن نتصور ابدا أن طريقنا من السهول إلى مرتفعات (المور) وعر على هذا النحو، فقد كان الصعود اشق مما يمكن تصوره بكثير، فالواضح أن هذا الطريق لم يصنعه بشر، وإنما صنعه تدفق المياه من المرتفعات إلى البحيرات، التي كانت تغطى فيما مضى السهول كلها، قبل أن تقتصر على مساحة محدودة من الماء، لا يتجاوز طولها الخمسة والعشرين كيلومترا، ولا يزيد اتساعها على الخمسين كيلومتر..

وهذا الطريق يتسع في بدايته، بحيث يسمح بسير ثلاثة جياد متجاورة، ثم لا يلبث أن يضيق، حتى يكاد لا يتسع إلا لجواد واحد، وترتفع على جانبي الطريق حوائط صخرية إلى عدة مئات من الأمتار، وتبدو السماء فوقها كشريط ازرق، وتعجز الشمس عن إلقاء ضوئها وسط ظلمة الممر، إلا لحظات معدودات، في منتصف النهار..

وبين حين وآخر يختفي أحد الجدارين، تاركا هوة سحيقة، تتجاوزها الجياد وهي ترتجف، عبر شريط الممر الضيق، هذا إلى جانب عشرات البوابات ونقاط الحراسة، التي تضافرت مع عوامل الطبيعة، لتمنع (الفنج) من غزو بلاد (الأباتى)، على الرغم من جبن وضعف الفئة الأخيرة..

وسار بنا الموكب المجيب، يتقدمه نبلاء (الأباتى) على صهوات جيادهم، تليهم فرقة مسلحة، تتوسطها الملكة (مجيدة)، ثم الحاشية والضباط، ونحن بينهم، وفي النهاية فرقة مسلحة أخرى، عليها حماية المؤخرة طيلة الوقت، حتى بلغنا بوابة (المور) في نهاية النهار..

وكان المشهد رائعا..
سلسلة من جبال تحيط بسهول واسعة ممتدة، تناثرت فيها المزروعات والنباتات وأشجار النخيل، وبينها أقيمت بيوت ومنازل متناثرة، تحيط بكل منها حديقة أنيقة، وعلى مدى البصر هناك بحيرة فضية، التفت حولها أكواخ الرعاة والزراع، على نحو يؤكد أن (الأباتى)، على الرغم من عيوبهم فلاحون وزراع مهرة..
واستقبلتنا جماهير المدينة استقبالا حافلا، وراحت تهتف بحياة الملكة والقواد، حتى بلغنا القصر الملكي، ذا القباب الذهبية، الذي أتيحت لى زيارته من قبل، ولم يكد يستقر بنا المقام فيه حتى سأل (جوشيا) (مجيدة) في غلظة:
- هل سيقيم ضيوفك في مساكن الحجاج بالمدينة الغربية؟
كان يتحدث بأسلوب استفزازي متعمد، إلا أن (مجيدة) بدت هادئة، وهي تجيبه في بساطة:
ـ لا يا عماه.. سيقيمون هنا في قصرى.. في جناح الضيوف.
احتقن وجهه غضبا، وهو يهتف مستنكرا:
- في قصركِ؟! محال.. محال.
سألته في ضيق:
- لماذا يا عماه؟
اجابها في سخط:
ـ انسيت أنك لم تتزوجي بعد، وانني لا أقيم بالقصر لأسهر على حمايتك؟
اجابته هي في حزم:
- لم أنس هذا أبدا، ولكنني أستطيع السهر على نفسي، وأرى أنه من الواجب أن يقيم ضيوفي في مكان آمن، إلى جوار أمتعتهم واذهب انت لتحصل على قدر من الراحة، وسأرسل لك طبيبي الخاص، ولا تنسى ان تشكر الله على نجاتك من المهالك..

امتقع وجه (جوشيا) لتلك السخرية المغلفة بإطار مهذب انيق، وبدا وكأنه سيجيب بعبارة فظة، لولا أن غادرت (مجيدة) المكان في خطوات سريعة، فضرب قبضته في الحائط في غيظ، وانصرف خلفها ناقما حاقدا، ولم ينس في انصرافه أن يرمق الجاويش (كويك) بنظرة قاسية، تشف عن حقده الخاص نحوه؛ لأنه المتسبب في وقوعه من فوق صهوة جواده، وإصابة ضلوعه بتلك الكدمات..

ولكن هذا لم يقلق (كويك) كثيرا.. لقد كان هناك أمر آخر يقلقه..

امر الكابتن (اورم)، الذي كان قد أصيب بجرح سطحى، في أثناء نسف سور (الفنج) إلا أن تلوث هذا الجرح قد أصابه بحمى، راحت تتزايد تدريجيا، حتى اشتدت وطأتها عليه مع بلوغنا القصر، فلم يكن منا إلا أن نقلناه إلى فراشه، ورحت اداويه بالماء واللبن، حتى يشفى من الحمى..

ولقد اهتمت الملكة (مجيدة) بأمره كثيرا، وارسلت تسأل عن صحته مرتين، طوال الليلة التي سهرتها إلى جواره، ولم تكد تشرق الشمس حتى اصطحبت طبيبها الخاص إلى حجرة (أورم)، وسألتني في قلق:

- هل سيحيا؟

اجبتها في خفوت:

- لا يمكنني البت في هذا الأمر حتى الآن، فأنا أخشى أن يصاب بالتسمم من تلوث الجرح..

أدهشني أن تمتمت في جزع:

- أنقذه أرجوك. ابذل ما بوسعك لأجله، وسأمنحك كل ما تطلب..

ثم انتبهت فجأة إلى لهفتها البالغة، فأضافت في خفوت:

- اغفر لي، فلقد نسيت انه صديقك، وأنك لا تدخر جهدا لمداواته.
طمأنتها قائلا:
- سأبذل أقصى جهدي يا مولاتى اطمئنى..
اما طبيبها، فقد راح يتبارى معي في وصف أنواع من الدواء والعلاج، لو تناول منها (أورم) جرعة واحدة لقضى نحبه على الفور، لولا أن رحت استبدل بها انا ادوية أخرى منطقية... ومرت ثلاثة ايام بطيئة، امتلأت فيها نفوسنا بالشك والقلق، إلا أن الكابتن لم يلبث أن تماثل للشفاء، ولم تقو الملكة على كتمان سعادتها وسرورها بذلك، وراحت تولى (أورم) المزيد من العطف والحنان، حتى أنه لم يكد يغادر فراشه سليما معافي، حتى راح يختلى بها كثيرا، ويتبادل معها الأحاديث الهامسة، مما أصابني بالقلق، فقلت له مرة:
- حذار يا صديقى من الخطر على شاب مثلك أن يوثق صلته بالملكة..
قهقه ضاحكا، وقال:
- اطمئن يا صديقى، فقوانين هذه المملكة تحتم زواج الملكة من أحد أقاربها، ومن المستحيل أن ترتبط بي انا.
ثم أضاف في جدية واهتمام:
- قل لي: هل بلغتك أخبار عن (هيجز) أو ولدك (رودريك)؟
قلت في ضيق:
- يلوح لي انه من الأجدى أن تبلغني انت ما لديك من اخبار، فأنت لصيق بالملكة، وتعلم عنها ما يجهله حتى عمها.
ابتسم وأجاب:
- لقد ابلغتني أن كليهما في صحة جيدة، وانهما يعاملان معاملة حسنة، ولكن السلطان (بارونج) يعتزم التضحية بـ (هيجز) بعد

اسبوعين، وانا اعتزم بذل حياتي، لو اقتضى الأمر، في سبيل منع هذا..
وصمت لحظة، ثم أضاف:
- وهذا هو محور احاديثى الهامسة مع (مجيدة)، بخلاف ما تصورت انت..
قلت في اهتمام:
- يجب أن نتحرك على الفور، فقد تم لك الشفاء، ولم يعد هناك مبرر للتلكؤ.
قال في حماس:
ـ سأبذل أقصى ما يمكنني لتخليص (هيجز)، حتى لو اقتضى الأمر أن أبدله بنفسي، عند سلطان (الفنج).
ومال عليّ، مستطردا بمزيد من الحماس:
استمع إليّ ستعقد. (مجيدة) مجلسها الأكبر بعد ثلاثة أيام، وستحاكم خلاله (القط)، وأغلب الظن أنها ستحكم عليه بالإعدام، وبعدها سنعرض ما لدينا، لنصل إلى قرار حاسم، واعتدل في حزم، مستطردا:
. ولنبدأ عملية الإنقاذ ومهما كان الثمن..
ودوت العمارة الأخيرة في رأسي..
(مهما كان الثمن.)
وارتجف جسدي في خوف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- الحياة والموت ..

لم يرق لي ابدًا ذلك الأسلوب، الذي حضرنا به مجلس الملكة، بعد مرور تلك الأيام الثلاثة..

لقد قادنا الحرس إلى المجلس، كما لو أننا نحن السجناء، ووجدنا المئات من (الأباتى) هناك، وقد جلسوا في صفوف منتظمة، امام (مجيدة)، التي جلست على عرش من ذهب، ينتهي ذراعاه برأسى اسدين، وهي ترتدي ثوبا من خيوط الفضة اللامعة، وتخفي وجهها بقناع موشى بنجوم فضية، وقد أحاطت قمة رأسها بدائرة من الذهب، تتوسطها ياقوتة حمراء ساطعة..

وعلى الرغم من جسدها الضئيل، بدت زهرة (المور) فاتنة، ساحرة، مهيبة، وقد وقف جنودها المدججين بالسلاح خلف عرشها، في حين أحاط بها قوادها وضباطها وقضاتها في ثيابهم الرسمية الأنيقة، وعدد من وصيفاتها في أبهى حللهن..

وطالت محاكمتنا، وأنكر (القط) التهم الموجهة إليه، وتم استدعاؤنا للشهادة، وفي النهاية صدر الحكم بإعدام (القط)، جزاء خيانته، ومصادرة ممتلكاته، وان تصبح زوجته واولاده عبيدا ارقاء..

كذلك صدر الحكم على كل من شارك (القط) في مؤامراته بالتجرد من الأملاك، والالتحاق بالجندية، وانتهت المحاكمة بين نحيب وعويل المتهمين وأقاربهم، وأصابتنا الدهشة من اساليب (الأباتى) واحكامهم، وهتف الكابتن مستنكرا:

- أى خير في أمة يعاقب مجرموها بالجندية بدلا من السجن.

غمغمت محاولا تهدئته:

- هكذا أساليبهم.

هز راسه في قوة، مستنكرا ومعترضا، إلا أنه لزم الصمت، ولم يشر إلى هذا الأمر مرة ثانية، حتى حانت الاستراحة، فتقدمت نحو سليلة الملوك، ووضعت خاتم (بلقيس) على وسادة حريرية، قدمها لها أحد ضباطها، وانا اقول:

- أيا سليلة الملوك وزهرة (المور).. يشرفني أن أعيد إليك خاتمك، الذي يحمل دلائل الثقة المتبادلة بيننا، والذي استطعت. بواسطته حمل زملائي وأصدقائي على اصطحابي في رحلتي إلى هذه الجهات النائية، إلى الحد الذي أوقع بأحدهم في اسر وعبودية (الفنج).

تناولت (مجيدة) الخاتم، والقت عليه نظرة سريعة، ثم أرته لكهنتها، قبل أن تقول في هدوء:

- شكرا لك أن اعدت هذا الكنز الأثري الغالي لي ولرعيتى ايها الطبيب..

ووضعت الخاتم في إصبعها، واستطردت:

- أنتم تعرفون قضيتنا أيها النبلاء.. (الفنج) يحيطون بنا، ويهددوننا بالويل والثبور وعظائم الأمور، وكما أخبرت الطبيب من قبل، إنني أسعى إلى هدم معبد (الفنج) ومعبودهم؛ لأن هذا – في عقيدتهم - نذير لهم بالهجرة من هذه الأرض إلى بلاد أخرى، طبقا لنبوءة وثنية قديمة..

قاطعها (اورم):

- معذرة يا زهرة (المور)، ولكنك سمعت مثلنا (بارونج)، سلطان (الفنج) يهدد بالانتقام لهدم معبده ومعبوده..

ترددت همهمة ذعر وفزع بين الحاضرين، إلا أن (مجيدة) ظلت على هدوئها، وهي تقول:

- والأقوال غير الأفعال، وهؤلاء الوثنيون يؤمنون بالنبوءة إيمانا مطلقا، وسيدفعهم هذا إلى الهجرة فور تهدم معبودهم، حتى

ولو شاء ملكهم غير هذا..
ثم اعتدلت، مستطردة:
- والآن.. هل تقسمون على خدمتى؟
مضت لحظة من الصمت، قبل أن يقول الكابتن:
- ينبغي أن نعرف المطلوب منا أولا..
قالت عالية الراس:
- اقسموا على خدمتى، والحرب من أجلي، والخضوع لقوانينى، وأن تبذلوا أقصى جهدكم لتدمير معبد (الفنج) ومعبودهم، ولكم بعد ذلك مطلق الحرية في البقاء أو الذهاب حيثما تشاءون مع مكافأة تبهر الأنفس..
ساد الصمت لحظات أخرى، بدا خلالها أن الكابتن يفكر في عمق، قبل أن يسأل في اهتمام:
- وأية مناصب سنشغلها لو فعلنا؟
اجابته في حزم:
- ستكون القائد الأعلى لهذه الحرب، وستختار انت المنصب الذي يعمل فيه زميلاك..
سرت زمجرة غاضبة بين قوادها، وارتفع من بينهم صوت يقول:
- أتعنين اننا سنضطر لطاعة هؤلاء الأجانب؟
التفتت إلى مصدر الصوت، وقالت في صرامة:
- نعم ستفعلون هذا، إلا إذا استطعتم إعداد تلك المواد المتفجرة واستخدامها، وهدم جزء من أسوار (هرمق) مثلهم هل تستطيع هذا يا عماه!!
عقد العم (جوشيا) حاجبيه، وصمت في غضب، في حين سأل الكابتن الملكة في اهتمام:
- لقد جعلتني قائدا على جنودك يا مولاتى، ولكن أخبرينى، هل سيطيعونني؟ هل يحمل كل منهم سلاحه؟ ثم من هم جنودك؟

تطلعت إليه لحظات في صمت، ثم اجابت في حزن:
- لا يمكنني منحك جوابا منطقيا، بالنسبة للسؤال الأول، فسيعود أمره إليك وحدك، أما بالنسبة للسؤالين الآخرين، فالواقع أنه كان لجداتى وأمهاتي جنود اشداء فيما مضى، أما الآن فجنودنا ضعفاء جبناء، والسلاح لا يكاد يكفي ثلثهم، وهو لا يعدو الرماح والسهام والأقواس، و.
اختنق صوتها في حلقها، حتى أنها لم تستطع اتمام حديثها، ثم لم تلبث أن انفجرت بغتة باكية وسط مجلسها، فسمعت الجاويش (كويك) إلى جوارى يتمتم:
- اللهم عاون هذه الملكة الوحيدة المنكوبة بشعبها..
وهنا نهض الأمير (جوشيا)، واتجه إليها، وركع امام عرشها، وهو يقول في صوت حمل الكثير من انفعاله:
- لماذا تحزنيننا بهذه العبارات يا سليلة الملوك؟ السنا في حمى (سليمان الحكيم)؟
تمتمت من وسط دموعها:
- (سليمان) لا يحمى إلا من يحمون أنفسهم..
أشار إلى صدره، قائلا:
- اليس لديك قواد شجعان؟ اليس لديك عمك وابن عمك؟
غمغمت في مرارة:
- وماذا يفعل القادة بلا جنود؟
قال في حدة:
لقد رايت بنفسك كيف كنت على وشك ذبح (بارونج)، لولا تدخل ضيوفك البيض..
انتفضت في مجلسها، وقالت في صرامة:
- وكنا سنخسر شرفنا أيضا يا عماه.
ثم رفعت ذراعها في حدة، هاتفة:

- لقد انفض المجلس، وليحضر الكاهن ليقسم البيض أمامه.
برز من خلف العرش رجل مهيب الطلعة، واضح الوقار، تلتمع تحت لحيته البيضاء الجواهر والأحجار الكريمة، ويحمل في يده أسطوانة ورقية ملفوفة، كتبت عليها كل قوانين (الأباتى)، منذ عهد (سليمان الحكيم)، ووضع الرجل الأسطوانة الورقية أمامنا، وطالبنا بإلقاء القسم، فقال الكابتن في حزم:
- قبل أن نقسم، نحب أن نؤكد أن ولاءنا الأول لوطننا ومليكنا، ثم إننا نريد تعهدا من الملكة بمساعدتنا على إنقاذ زميلنا الأستاذ (هيجز)، وابن الطبيب (رودريك)، الذي يطلقون عليه اسم (مطرب مصر).
أجابت الملكة بلا تردد:
- لكم هذا.
وعندئذ أقسمنا قسم الملكة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اعتدنا مع مرور الوقت نوم القيلولة، الذي يقدسه شعب (الأباتي) كثيرا، وفي يوم القسم، استيقظت في الرابعة عصرا، على صوت نباح (فرعون)، فنهضت استطلع الأمر، ووجدت امامى رجلا يرتجف خوفا من الكلب، فسألته في صرامة:
- من انت؟
اجابني في سرعة:
- إنني رسول الملكة، وهي تسال عما إذا كنتم ترغبون في مرافقتها إلى مكان لم تروه من قبل وافقته على الفور، والتقيت مع (أورم) و (كويك)، ورافقنا الرسول إلى فناء مهجور خلف القصر، حيث وجدنا الملكة في انتظارنا، مع ثلاث من وصيفاتها،

وعدد من الرجال يحملون المشاعل، ولم تكد ترانا حتى رفعت نقابها، وابتدرتنا قائلة:
- لا ريب أنكم قد رأيتم الكثير في حياتكم، عبر رحلاتكم المختلفة، ولكنني سأريكم اليوم أغرب شيء في حياتكم كلها..
تبعناها إلى بهو كبير، في نهايته باب ضخم، رفع الرجال مزاليجه، فعبرناه إلى ممر طويل، منحوت في الصخور، وأغلق الرجال الباب خلفنا، ومضينا في الممر حتى بلغنا مغارة..
بل هي أضخم مغارة رايتها أو سمعت بها من قبل..
وقالت (مجيدة)، وهي تلوح بمشعل في يدها:
- ها هو ذا كهف (المور)، الذي نعتقد أنه كان معقل اجداد (الفنج) فيما مضى، أما هذه الجدران والأطلال هناك، فقد كانت مخازنهم ومعابدهم، ولكن زلزالا حطم كل هذا، ودفعهم إلى الهجرة..
تبعناها ثانية إلى أعماق الكهف الهائل، ومشاعلنا تبدو داخله كنجوم خافتة، عاجزة عن تبديد ظلمته، من شدة ضخامته، حتى بلغنا مكانا به اطلال واعمدة متهدمة وتتوسطه عدة تماثيل محطمة، مغطاة بطبقة كثيفة، من الأتربة، لم تخف تماما شكلها الشبيه بـ (ابي الهول)، فتنهد (اورم)، وقال:
ـ ليت (هيجز) هنا..
وبعدها قادتنا (مجيدة) إلى نبع يتدفق في قوة، وقالت في اسف:
- كان (الفنج) يستخدمون هذا الكهف كمخزن للمؤن، في حالة الحصار، ولقد حاولت إقناع شعبي باستخدامه لهذا الغرض، ولكن كل من الكبار يتردد في التضحية ببعض إنتاجه كمخزون، وهكذا لن ينقذنا شيء من الموت جوعا، لو احتل (الفنج) سهولنا.

سارت امامنا ترينا إسطبلات الخيل، التي كان (الفنج) القدماء يحفظون فيها جيادهم وعرباتهم، ورحنا نعبر عدة ممرات، انتهت إلى طريق واسع، في نهايته جدار ابيض، لم يكد يراه أتباع الملكة حتى علا الرعب وجوههم، فتقدمت هي إلى الجدار، ونزعت منه حجرا كبيرا في سهولة، وقالت لوصيفاتها:
- كلكم تعتقدون أن هذا الجدار يسكنه الجن، وتحوم حوله الأرواح؛ لذا فسأتركم هنا في حراسة الرجال، وسأصحب الضيوف إلى داخله، لأثبت لكم خطأ هذا الوهم..
وتناولت يد (أورم)، وعبرت معه ثغرة الجدار في هدوء، وتبعتهما أنا والجاويش، فوجدنا أنفسنا في كهف آخر، ترتفع حرارته قليلا، وسألها الكابتن:
- ما هذا المكان؟
اجابته في هدوء:
مقبرة ملوك (المور) القدامى..
سرت في جسدى رهبة من وقع الجواب، ورحنا نسير وسط السكون، ووقع اقدامنا يبدو واضحا على الأرض الصلبة، والخفافيش تحوم حول ضوء المشاعل مضطربة خائفة، وترتطم بالجدران، حتى عبرنا المكان إلى ما يشبه ساحة قتال، في مواجهتها عرش ضخم من الحجارة، اتجهت إليه (مجيدة)، ورفعت مشعلها امامه، قائلة:
- انظروا..
بدت لنا كومة من العظام البشرية فوق العرش الحجري، يعلوها تاج من الذهب، وأمام العرش صولجان وخواتم وحلى من الذهب والمجوهرات، وحوله عدد ضخم من العظام والجماجم البشرية، أسفل كل منها الحلي التي كان يتزين بها أصحابها في الدنيا، وإلى جوارها أوان من الذهب، تكتظ بالحلي والقلادات

والأحجار الثمينة، واكوام من نقود فضية وذهبية قدّم عهدها، وبطل تداولها، ولما رأتنا (مجيدة) مدهوشين مشدوهين، اشارت إلى كل هذا، قائلة:
- الجالس على العرش هو الملك، وحوله ضباطه وحراسه ونساؤه، وقد ذبحوا إلى جوار جثته ليسهروا على رعايته في الحياة الأخرى، وهذه حليهم ومجوهراتهم..
ثم أشارت بيدها، مستطردة:
- هيا لتشاهدوا باقي الملوك.
ورفعت مشعلها أمامه، قائلة:



ورفعت مشعلها أمامه ، قائلة : ـــ انظروا .
بدت لنا كومة من العظام البشرية فوق العرش الحجرى ..

- انظروا.
بدت لنا كومة من العظام البشرية فوق العرش الحجري..
رحنا ننتقل من عرش إلى عرش، ومن كنز إلى كنز، حتى اصابنا السأم من تكرار المشاهد، ولم يثر انتباهي سوى آنية احتشدت بالات جراحية قديمة، وعلمت أن العظام التي أمامها هي عظام طبيب أحد الملوك، فملأت جيبى ببعض هذه الآلات القديمة، لمقارنتها بآلاتنا الحديثة، وشعرت (مجيدة) بما أصابنا من تعب وملل، فقالت:

- سنعود الآن، ولكن بقي أن تعلموا أن هذه الصخرة الضخمة امامنا هي الحاجز الذي يفصلنا عن معبود (الفنج)، ونحن نعجز عن اجتيازها، ولا نعلم إلى أي مدى تمتد.
عدنا أدراجنا بين العظام والجماجم، وفي طريق العودة سأل الكابتن الملكة:
- ولكن اين تدفنون موتاكم حاليا يا سيدتي؟
اجابته:
- في الخارج، فلم أكشف هذا المكان إلا منذ أعوام قليلة، ولكن بالنسبة إلى أتمنى أن أدفن في السهول، لأقضي حياتي الآخرة بين الحشائش والزهور..
وفجأة انطفأ المشعل الوحيد لدينا، وساد الظلام تماما وسط القبور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان موقفا مرعبا بحق، أن نجد أنفسنا وسط الموتى، في ظلام دامس، ولقد صاحت (مجيدة) مذعورة:
- يا إلهي!! نسينا أن نحضر مصباحا آخر، أسرعوا، فما زلنا بعيدين عن مدخل المغارة راحت تعدو ممسكة بيد الكابتن، وانا والجاويش نتعثر خلفهما، في محاولة للحاق بهما، وسمعنا الكابتن يهتف بنا:
- ابقيا في مكانكما، سنعود إليكما، ولكن أطلقا صيحة بين وقت وآخر، لنتعرف موقعكما في يسر..
اجابه الجاويش (كويك):
- سنفعل يا سيدى.

تردد صدى الأصوات من حولنا، فارتجف قلبي رعبا، وأطلق (كويك) ضحكة عصبية، وهو يقول:
- ليس للموتى أصوات.. إنما هو صدى أصواتنا..
حاولنا أن نبقى في اماكننا، كما أمرنا الكابتن) ولكن الرعب لم يمكّنا من هذا، فرحنا نتقدم في بطء، وارتطمت قدم الجاويش بجمجمة، وسقط أرضا، فأطلق صيحة رددت الجدران صداها، فانحبست أنفاسنا في رعب، وجلسنا نلهث لحظة، بدت لنا اشبه بدهر كامل، قبل أن يهتف (كويك):
- يا إلهي! لقد نسيت انني أحمل في جيبى علبة ثقاب..
اخرج العلبة من جيبه، وأشعل أحد أعوادها، ثم شهق مبهوتا..
لقد رأينا أمامنا مذبحا ذا درجات، لم ننتبه إليه من قبل، وعلى أول درجاته، كانت (مجيدة) بين ذراعي الكابتن، الذي انحنى على شفتيها، وألصق بهما شفتيه، وهي ترتكن برأسها على صدره، دون أن تبدو منهما حركة واحدة، وكأنما استحالا إلى تمثالين من الرخام ..
ثم سعل (كويك)، وهتف:
- كم يسعدني أن عثرنا عليكما يا كابتن..
يا إلهي! هل فقدت الملكة وعيها.. دعني أعاونك يا سيدى.
التفت إليه (اورم) كالذاهل، وحدق في وجهه لحظات في صمت، ثم بدا وكأنما يستيقظ مع (مجيدة) من سبات عميق، وهو يهتف:
- لا.. لا داعي لذلك ثم نهض يعاون الملكة على النهوض، وانطلقنا جميعا نجتاز الكهف إلى الخارج.. وعدنا إلى القصر..
وقبل أن نستسلم للنوم، قال (أورم) في لهجة حالمة:
- يا لها من رحلة رائعة في غياهب المجهول!

وياله من فارق رهيب بين الموتى القدامى، وسليلتهم المفعمة بالحياة والحب!!
بدا الى أنه من الأفضل أن أواجهه بالموقف بكل صراحة، فقلت:
- الواقع أنني قد تصورت، عندما أشعل (كويك) عود الثقاب، أنك و (مجيدة) كنتما...
ترددت في إتمام العبارة، فقال هو في حزم:
- لم تكن واهما.. لقد كنت أقبِّلها، فقد فجَّر الموقف والظلام عواطفنا المكبوتة ولم نستطع كتمان مشاعرنا..
لذت بالصمت لحظات، ثم غمغمت:
- يسعدني أن ربط الحب بينكما يا صديقي، ولكنني أخشى مغبة هذا..
قال كالحالم:
إنها أجمل غادة وقعت عليها عيناى، في الدنيا كلها يا (آدمز)..
لحظتها ايقنت من أنه لا فائدة.. لقد ربط الحب بينهما، ووقع وثيقة موتهما..
وارتجف قلبي بين ضلوعى..
وهوى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- الأسود..

لم نكن ننتهي من تناول إفطارنا في الصباح، حتى أتى رسول الملكة يدعونا لمقابلتها، فذهبنا إليها ونحن نتساءل عن سر دعوتها لنا، وعندما اجتزنا الممر الطويل، الذي يقود إلى بهو العرش، ملت على اذن (أورم)، وهمست في قلق:

- استحلفك بالخالق أن تلتزم بكل الحذر يا رجل، وأن تخفي مشاعرك تجاهها الآن، فسيراقبون وجهك كما يراقبون كلماتك.

تضرج وجهه قليلا، وغمغم:

- اطمئن.

تمتمت قلقا:

- كم أتمنى أن أفعل.

استقبلتنا الملكة باسمة الثغر، متهللة الأسارير، وقالت:

- لقد دعوتكم لسبب هام، فعندما هممنا بإعدام (القط) الخائن، تضرع لنا أن نبقي على حياته، حتى يمكنه أن يدلي إلينا بسعر هام خطير قد يساعدنا على إنقاذ زميلكم (هيجز).

هتفنا أنا والكابتن في آن واحد:

- كيف؟!

هزت راسها قائلة:

- لست أدري، ولكنني رأيت أنه من أن أرجىء قتله، حتى تستمعا منه إلى ما لديه..

وأشارت بيدها، ففتح باب جانبى، دلف منه (القط) ويداه مقيدتان خلف ظهره، وقدماه مربوطتان بسلسلة من الصلب، واندفع نحو الكابتن مستعطفا، ولكن الحراس دفعوه ارضا في عنف، وقالت الملكة في صرامة:

- ما الذي تريد أن تخبرنا به ايها الخائن، قبل أن تلقى جزاءك؟
قال وهو يرتجف:
- إنه سر بالغ الخطورة يا مولاتى، فهل أتحدث به امام الجميع؟؟
صمتت لحظة مفكرة، ثم قالت:
- لا.
وأمرت الحراس ومعظم الحاضرين بمغادرة المكان، ثم التفتت إلى (القط)، قائلة:
هات ما لديك..
ازدرد (القط) لعابه في صوت مسموع، وقال:
- الإنجليزي (هيجز) مسجون في المعبد الكبير..
سألته انا:
- كيف عرفت؟
أجاب:
- أنا أعلم هذا جيدا، وأستطيع ايضا أن أدلكم على طريق خفي إلى المعبد، يمكننا بواسطته أن ننقذ (هيجز) من سجنه.. لقد أطلقوا عليّ لقب (القط)؛ لأنني أتسلق الجدران في خفة ويسر، وعندما ألقى (الفنج) القبض عليّ، القوا بي طعاما للأسود، ولكنني نجوت بمعجزة، واستطعت الفرار، بعد أن أصابتني مخالب لبؤة بهذا الجرح في وجهى..
وراح يشرح ما ينبغي عمله، حتى هتف الأمير (جوشيا):
- إنني اعترض على أن تقحم مليكتنا نفسها في مثل تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر، والتي قد تنطوي على هلاك ودمار.
أجابته في هدوء:
- أشكر لك قلقك عليّ يا عماه، ولكن إصرارى على خوض هذه الرحلة لا يعود إلى رغبتي في إنقاذ الأبيض فحسب، وإنما إلى

وجود طريق سري إلى معبد (الفنج)، ينبغي لي أن أعرفه، وعلى الرغم من ذلك فأنا أوافقك على ضرورة ذهابي مع حماية او حراسة؛ لذا فأنا أرجو أن ترافقني في رحلتي..
ارتبك العم، وراح يلتمس الأعذار والأسباب، حتى قاطعته هي في حزم:
- لقد سنحت الفرصة لتثبت شجاعتك ومهارتك وجرأتك، التي طالما تحدثت عنها يا عماه.. إنك ستذهب معنا.. هذا أمر..
ولم يكن أمامه سوى القبول ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قادنا (القط)، عصر اليوم نفسه، عبر ممرات جبلية طويلة، إلى قمة جبلية، تشرف على هوة سحيقة، يبلغ عمقها الفين وخمسمائة متر تقريبا، ولا سبيل إلى بلوغ قاعدتها - حسبما رايت – حيث تكثر السهول، ولكن (القط) اتجه إلى جدار صخري، نبت العشب فوقه، وازاح منه حجرا كبيرا، فانكشفت لنا فجوة واسعة، تمتد إلى ممر طويل، وهو يقول:
لقد كشفت هذا الممر منذ كنت صبيا، وليتبعني فيه من يجد في نفسه الشجاعة الكافية، فهو شديد الوعورة والانحدار..
راح (جوشيا) يتضرع إلى (مجيدة) أن تتنازل عن فكرة خوض الممر، ولكنها اجابت في عناد واصرار:
- ولماذا أتردد أو أخاف، ومعنا خيرة رجالنا في تسلق الجبال، ثم إن الطبيب، الذي يبلغ عمره مثل عمر ابى، لم يتردد في المخاطرة، فكيف أفعل انا؟ هيا يا عمي.. لا تتردد..
اضطر (جوشيا) إلى رفقتنا مرغما، واتصلت الحبال بيننا جميعا، وتقدمنا (القط) والجاويش، ثم عدد من متسلقي الجبال،

يحملون السلالم والمصابيح والوقود والطعام وخلافه، ثم الملكة والكابتن و (جوشيا)، وخلفهم عدد آخر من متسلقي الجبال..
ورحنا نهبط درجا شديد الانحدار، انحنى إلى آخر اشد رطوبة عند الشرق، وكاد (جوشيا) يقتلني، عندما انزلقت قدمه، فتشبث بذراعيه في رقبتى خشية السقوط، وكاد يقتلني خنقا، لولا ان أسرع أحد متسلقي الجبال يبعده عني، فأصررت ان يتقدمني، حتى لا تتكرر المأساة..
وعندما بلغنا المنحدر الثالث، كان التعب قد بلغ من (جوشيا) ملفه، فأقسم الا يخطو خطوة واحدة، وفشلت محاولاتنا وتأكيدات (القط) في إقناعه بالعدول عن قسمه هذا، حتى قالت (مجيدة) في حزم:
- لا بأس، فلتبق في مكانك هذا حتى نعود، وليس هنالك ما تخشاه، فلن تهاجمك الوحوش..
تمتم في سخط:
- يا لك من إمراه لا قلب لها!! أتتركين عمك وحيدا، في هذا الجحر المسكون، في حين تتسلقين أنت الصخور كقطة مسعورة، مع جماعة الأجانب.. أما كان ينبغي أن تظلي إلى جوارى؟
هتفت في صرامة:
- ليقال إن سليلة الملوك قد جبنت عن الذهاب حيث ذهب الغرباء!! لا يا عماه.. لا وألف لا..
لم يسعه إزاء حزمها وصرامتها إلا أن يعود لمرافقتنا، وإن اضطر متسلقو الحبال لحمله طيلة الطريق، حتى بلغنا هضبة صغيرة، تسللت إليها طلائع الفجر الأولى، وانتشرت في أرجائها أشجار

وأعشاب وطحالب، نمت إلى جوار صخور ضخمة، اشارت إليها الملكة، قائلة:
ما هذا ايها (القط)؟
أجابها:
- إنه ظهر المعبود الكبير لـ (الفنج) يا سليلة الملوك.. إنه على هيئة أسد ضخم، وذلك العمود هو ذيله، وهذه الهضبة التي نقف عليها كانت فيما مضى نقطة مراقبة الكهنة (الفنج)، عندما كانوا يملكون ارض (المور) ايضا، وهناك جسر يهبطون منه إلى ذيل المعبود.
همست (مجيدة) إلى الكابتن:
- يبدو أنه يتصل بـ (الفنج) عبر هذا الطريق.
ثم سألت (القط):
- لماذا جئت بنا إلى هنا؟
أجابها:
- لننقذ الإنجليزي، فمن عادة (الفنج) أن يسمحوا للمسجونين بالتجوال عند الفجر والغروب، واري آن نهبط إلى ذيل المعبود، حتى نلتقي بالإنجليزي وننقذه، والأفضل أن يصحبني الكابتن، حتى لا يستريب (هيجز).
هتفت الملكة مستنكرة:
- أيها الأحمق.. اتتصور أن يخاطر الكابتن إلى هذا الحد؟
قال (القط) في خبث:
- هل تشكين في شجاعته؟
هتف به الكابتن:
- ويلك ايها الوغد! إياك أن تسيء إلى شجاعتي، ولكنك قد تر مى بذلك إلى مكيدة، تسلمني بها إلى (الفنج).
صاحت (مجيدة) بالكابتن:

- من الجنون أن تلقي بنفسك من الجبل، وانت توقن بأنك ستتهشم ارضا..
قال عمها في لهجة ساخرة:
ـ ولكننا سمعنا الكثير عن شجاعة الأجانب، فلم لا تمنحينهم الفرصة لإثبات هذا؟
التفتت إليه ثائرة حانقة، وقالت في حدة:
- اليس من الأفضل أن يثبت صاحب الدم النبيل أنه لا يخشى إتيان ما يقدم عليه الغرباء؟
شحب وجه عمها، وانكمش على نفسه في خوف، فابتسم (اورم) في سخرية، وانحنى ينزع حذاءه، وهو يقول:
- إنني أفضل السير بالجورب، في المناطق الوعرة، ولا يقلقنكم أمري، فلقد اعتدت المخاطرة منذ صباى..
غمغمت الملكة في قلق:
- ولكن هذا يفوق كل ما فعلت بالتأكيد
أما الجاويش (كويك)، فقد انحنى يخلع حذاءه بدوره، مما جعلني اساله في دهشة:
- ماذا تفعل؟
أجابني في حسم:
ـ سأرافق الكابتن.
قلت في عناد:
ـ بل سأرافقه أنا، فلست أقلكما استهانة بالمخاطر..
قاطعنا الكابتن صائحا:
- كفي.. أنا القائد هنا، وستطيعان أوامرى بلا مناقشة، وانا أمنعكما من مرافقتي..
وقالت الملكة:
فليرافقك أحد متسلقي الجبال إذن..

والتفتت إلى أحد رجالّها، قائلة:
- تعال يا (جافيت)، ورافق السيد، وأعدك أن أهب لك او اهب إلى ورثتك قطعة أرض كبيرة، لو اديت مهمتك كما ينبغي..
ألقينا سلما من الحبال إلى ذيل الأسد الحجري، ورحت أستطلع المنطقة بمنظاري المقرب، حتى لاح لى شبح ابيض عند راس المعبود، ورجحت أن يكون (هيجز)، إلا أنه لم يلبث أن رفع عقيرته بغناء شجيّ رخيم، جعلني أهتف في انفعال:
- إنه ولدي.. حمدا لله.. إنه لا يزال حيا.. آه لو نستطيع إنقاذه ايضا!!
وسات الدموع على وجهى، فربّت الجاويش (كويك) على ظهري، وهو يقول:
- اهدأ ايها الطبيب، ولتحمد الله على أنه ما زال يحمل رأسه على كتفيه..
ويبدو أن تهدئته هذه لم ترق لـ (القط)، فقد قال في برود:
- إنها ساعة إطعام الأسود المقدسة الآن، و (الفنج) يحتفظون بها داخل مغارة، عند قاعدة المعبد، ولابد أن نعمل على إنقاذ الاستاذ الليلة، فسيحتفلون بعيدهم، وسيقدمونه قربانا لآلهتهم عندما يصبح القمر بدرا.
قالها وحاول أن يهبط سلم الحبال، ولكن (مجيدة) صاحت:
- لا.. لن يعود هذا الخائن إلى أصدقائه (الفنج).. انزل انت اولا يا (جافيت)، وسيتبعك الكابتن..
راقبنا (جافيت) في قلق، وهو يهبط السلم، متحسسا مواضع قدميه في حذر، حتى بلغ الصخرة المنشودة، وهنا استدار الكابتن يصافحني ويصافح (كويك)، ثم انحني للملكة، التي شحب وجهها وبدا اضطرابها وحبها واضحين، وهي ترد تحية (اورم)، الذي اتجه إلى السلم وراح يهبط في شجاعة وثقة..

وفجأة انكسرت درجة السلم، التي يضع ثقله عليها..
وهوى من حالق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت لحظة وثبت فيها قلوبنا من بين ضلوعنا، ولهثت فيها الملكة المحبة بفؤاد مزقه الهلع وادمته اللوعة، وبدا لنا جميعا أن (أورم) قد انتهى..
ولكن شاء له القدر أن يحيا..
وبحركة سريعة، دفعته إليها غريزة البقاء، قفزت يده تتعلق بدرجة سليمة من درجات السلم، وتشبث بها في قوة، وراح يلهث من فرط الانفعال، في حين تنفسنا نحن الصعداء، وتمنيت لو لم يلحظ (جوشيا) دموع الارتياح والسعادة، التي سالت من عيني الملكة، ولكن زهرة (المور) لم تلبث أن جففت دموعها في سرعه، واعتدلت في وقفتها في حسم، وهي تواصل مراقبة الكابتن، الذي بلغ موضع (جافيت) فاحتضنه هذا الأخير في سعادة واضحة، وراح الاثنان يتسلقان المنحدر الصخري الأملس، حتى بلغا كتفي الأسد، وفي تلك اللحظة ظهر الأستاذ (هيجز)، وهو يسير الهويني ويدون شيئا ما في مفكرته، بكل البساطة والهدوء، وهنا تقدم إليه (أورم) وأمسك ذراعه في قوة، فالتفت إليه (هيجز)، وحدق في وجهه في ذهول، ثم انحنى الكابتن على أذنه، ورأيته يهمس بأمر ما، علمت فيما بعد أنه كان سؤالا عن موضع ابني (رودريك)، ثم رايت الأستاذ يلوح بيده في اهتمام، ويختفي خلف رأس المعبود، ومضت دقائق من السكون، ثم تناهت إلى أسماعنا أصوات وصيحات عالية، ورأينا الأستاذ يعدو بكل قواه صائحا في الكابتن و (جافيت):

- اهربا.. انجوا بنفسيكما من هؤلاء المتوحشين..
أسرع الكابتن و (جافيت) يتسلقان السلم، ورأى الكابتن بعض (الفني) يتسلقون خلفهما، فأخرج مسدسه، وأطلق النار على رءوس بعضهم، فسقطوا صرعى، ورأى الباقون مصرع زملائهم، فلاذوا بالفرار، وهم يطلقون صيحات مخيفة..
ولم يكد الكابتن يصعد إلينا حتى القى نفسه أرضا، وأخفى وجهه بين يديه في الم ومرارة، فربتت (مجيدة) على كتفه، وقالت في حنان:
- لماذا يا عزيزى؟! لقد كنت شجاعا صنديدا، وعدت إلينا حيا، وهذا يكفي.
هتف في مرارة:
- ولكنني تركت اخي وصديقي (هيجز) خلفي، وسيلقونه الليلة الأسود، ولقد أخبرني هذا بنفسه، وكان يكتب وصيته عندما لقيته..
لم تجد ما تجيبه به، فالتفتت إلى متسلق الجبال، وقالت:
- إنني فخورة بك يا (جافيت)، وسأجزل لك العطاء، واجعلك قائدا لتسلق الجبال..
تهللت أسارير (جافيت) في سعادة، في حين سألت أنا الكابتن:
- ماذا حدث مع (هيجز)؟
أجابني والحزن لم يفارق صوته بعد:
- لم أكد التقى بـ (هيجز) حتى سألته أن يرشدنا إلى موضع ولدك، ولكن الحراس رأوه يتحدث الينا، فكان ما كان.
ثم التفت إلى (القط)، وأمسكه من عنقه، قائلا في غضب مخيف:
- والآن حذار أن تكذبنا القول أيها الوغد، لقد اخبرتنا أنهم قد القوك طعاما لأسودهم، ولكنك نجوت، فكيف كان هذا؟

هتف (القط) في صوت مختنق:
ارفع يدك عن عنقي، وأقسم أن أخبرك بكل ما حدث.
ترك الكابتن عنق (القط)، الذي سعل في شدة، ثم أجاب:
لقد حملني (الفنج) إلى مكان إطعام الأسود والقوني بين اللحوم المقدمة لها، ثم رفعوا أبواب الأسود بسلاسل تجذب من أعلى، وانطلقت انا أعدو نحو التلال، في محاولة للنجاة، ولكن لبؤة تبعتني، وصفعتني على وجهي بمخالبها، التي تركت في وجهي هذا الأثر، ودفعني جنون الرغبة في الحياة إلى أن ألقى بنفسي في الهاوية، فرحت أنحدر فيها، وانا أتشبث في جدارها بأظافري، ولكن اللبؤة اللعينة أمسكت ساقي، وجذبتني بمخالبها وأنيابها إلى الخارج، ثم تراجعت لتثب على مرة أخرى..
إلا أنني رأيت حافة ناتئة بارزة، على جانب الهوة، فقفزت إليها بغتة، وأردت التعلق بها، ولكنها انهارت تحت ثقلى، وهويت إلى سرداب مظلم، بقيت فيه نهارين وليلتين، حتى عثرت على طريق للفرار..
رحنا ندرس الأمر طبقا لروايته، واستقر رأينا على أن يهبط الكابتن والجاويش وبعض متسلقي الجبال، إلى حيث يحتفظ (الفنج) بأسودهم، وأن يرافقهم (جافيت)، الذي تطوع باصطحابهم، وأنا أقف انا والبقية الباقية من متسلقي الجبال عند نهاية السلم، حتى إذا ما حان موعد إطعام الأسود وأعددنا بنادقنا، وتأهبنا للقتال..
وفي اللحظة المنشودة، ارتجفت نفسي، وانا اشاهد تلك السلة اللعينة، التي تحوي طعام الأسود، والأستاذ (هيجز)، وهي تهبط إلى حيث الأسود، التي صمم زئيرها الأذن، وهي تشم رائحة الطعام الآدمي الطازج...

ولم تكد السلة تلمس الأرض، حتى وثب منها (هيجز)، وبدا لحظة وكأنما سيطلق ساقيه للرياح فرارا، إلا أن كرامته - على الأرجح قد منعته من ذلك، فقد توقفت بغتة، وعقد ساعديه امام صدره، بعد أن أرخي قبعته على وجهه، ووقف ينتظر هجوم الأسود في بسالة ورفع (الفنج) باب مغارة الأسود، التي هبت لالتهام فريستها..

وفجأة انهالت عليها رصاصاتنا وأصيبت الأسود بالذهول، فتراجعت في ذعر في حين قفز (جافيت) إلى حيث الأستاذ، وجذبه إلى حيث السلم، فأفاق (الفنج) من ذهولهم، وانطلقوا يعدون خلفه، وقد جن جنونهم لضياع قربان الآلهة، ولكن رصاصات بنادقنا أعادت إليهم صوابهم، وجعلتهم يختبئون كالفئران المذعورة ا

حتى عاد إلينا الأستاذ، ونجونا جميعا في ليلة عيد معبود (الفنج) ويا لها من ليلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



وفجأة انهالت عليها رصاصاتنا ..
وأصيبت الأسود بالذهول ، فتراجعت فى ذعر ..

7- مفاوضة..

على الرغم من فرحتنا باستعادة (هيجز)، ظل قلبي يحمل الكثير من الحزن؛ لأننا لم نستعد ولدي (رودريك)، الذي ظل أسيرا لدى (الفنج)، ولقد جلس (هيجز) بيننا أشعث الشعر، مهلهل الثياب، وأخرج غليونه، الذي ما زال كمنظاره سليما صالحا، على الرغم مما مر به من أهوال، وراح يحشو الفليون ببعض ما أعرته إياه من تبغ، وراحت (مجيدة) تتطلع إليه في دهشة وحيرة، وكأنها لا تصدق أن هذا الرث صديق لنا، في حين سألني هو مبهورا:

- من هذه الحسناء الفاتنة؟

أخبرته أنها الملكة، فوقف احتراما، وهم بخلع قبعته على نحو غريزي، ثم لم يلبث أن انتبه إلى أنه قد فقدها في معمعته، فراح يتحدث معها بلغة عربية فصحى أدهشتها واثارت إعجابها، فرفعت حاجبيها الجميلتين، وغمغمت:

- تهنئاتى بنجاتك أيها الغريب، لا ريب أنها كانت تجربة شاقة..

هز رأسه مؤمنا، وقال:

- شاقة للغاية، وأنا عاجز في الواقع عن الشكر والاعتراف بجميل هؤلاء الأصدقاء والتفت إلى مستطردا: واطمئن بالنسبة لولدك يا (آدمز)، فهو في خير حال، ولقد أصبحنا صديقين حميمين، وسيتزوج ابنة السلطان (بارونج).. وهذا السلطان طيب القلب، كريم النفس، ولقد اعترض كثيرا على القائي للأسود، ولكنه عجز عن مواجهة سطوة كهنة المعبود، ولقد سمح لي بدراسة شعائرهم الدينية..

قاطعته في لهفة:

- وماذا قال ولدي؟
أجابني في بساطة:
- لقد أسعده كثيرا أن يعلم أنك تسعى إلى استعادته، وآلمه أن تلقى كل الهوان والعذاب في سبيل هذا، وهو شاب وسيم جميل، ما زال يجيد الإنجليزية، وإن غلبت عليها لهجة (الفنج)، وهو الآن رئيس مرتلي اناشيد المعبد، وسيتزوج ابنة السلطان قبيل اكتمال القمر في الشهر القادم بليلة واحدة، وستقام الاحتفالات في (هرمق)، وكنت أتمنى حضورها، و...
قاطعته مرة أخرى:
- وهل يحب هو ابنة سلطان (الفنج) هذه؟
هز راسه، مجيبا:
- إنه لم يرها في حياته كلها، ولكنه سمع عن جمالها وبساطتها، ولعل أبسط مزايا هذا الزواج، أنه سيضمن عدم إلقائه إلى الأسود.
اكتفيت منه بهذا القول، الذي جعلني أنام ليلتي قرير العين، حتى أيقظني (هيجز) في الصباح، وهو يقول:
- انهض أيها الكسول، وحدثني بكل ما لديك عن زهرة (المور).. الا ترى معي أن لعينيها سحرا عجيبا؟
جلست على فراشي قائلا:
- دع مشكلة سحر عينيها هذه لكابتن (اورم)، فهو يحبها..
- يحبها؟! إنني أمنحه كل الحق في هذا،
فلو أنني في مثل عمره، لغرقت في عشقها حتى أذني..
قلت في قلق:
- أخشى ما أخشاه أنها قد وقعت في حبه بدورها، وقد يعرضهما هذا للقتل، فهو يخالف قواعد (الأباتي) وعقيدتهم.
هز رأسه متفهما، وقال:

- يبدو أنك على حق.. سأتحدث إليه في الأمر جديا، فأنا في مثل عمر والده تقريبا.
قلت في انفعال:
فليكن، ولكن حذار أن تنتبه (مجيدة) إلى هذا.. حذار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دعتنا الملكة إلى مجلسها الكبير مرة أخرى هذا العصر، ولم نكد ندلف، حتى فتحت أبواب ضخمة في نهاية القاعة، وتقدم عبرها ثلاثة رسل من (الفنج)، تدلت لحاهم البيض على ملابسهم الناصعة، وهم ينحنون في أدب جم أمام (مجيدة) التي أسدلت نقابها على وجهها، دون أن يعيروا (جوشيا) أو الكهنة أية عناية أو اهتمام، ورفعت (مجيدة) كفها، قائلة:
- تكلموا.
- تقدم أحدهم خطوة، وقال: آيا سليلة الملوك وزهرة (المور).. إنني أحمل إليك رسالة شفهية من سلطاننا العظيم (بارونج)..
قالت في هدوء:
- هات ما لديك.
اعتدل وقال مرددا كلمات سلطانه:
- يا (ام النجاشي).. لقد استعنت بالغرباء لإلحاق الأذى بمعبودنا (هرمق)، وأنا خادمه، ولقد قتلوا بعض جنودى، وانتزعوا من المعبود قربانه وضحيته، وقتلوا بعض اسودنا المقدسة، وعددا من كهنة (هرمق)، كما ابلغني بعض جواسيسي انك تضمرين شرا لمعبودنا، لذا فانا ابلغك أنني سأبيد (الأباتي) عن آخرهم، بعد هذه الأفعال، وبعد أن أبقيت عليهم طويلا، ولقد اجلت زواج ابنتي من (مطرب مصر) بسبب أحزاني لما حدث، ولن يذهب

حزني، وتتزوج ابنتي، ويرتد حسامي إلى جرابه، إلا بعد أن أثأر لمعبودي، ولا أبقى على اثر لـ (الأباتى)، ولتعلمى أن المعبود (هرمق) قد تنبأ بعد مصرع وحوشه، وعلى لسان كهنته، أن راسي سيرقد على سهول (المور)، قبل موسم الحصاد، وهذا يعني أنني أو من يخلفني سينام على أرض (المور) قبيل أن يأتي الحصاد، وأمامك الآن أحد خيارين، إما أن تخضعي لي، فيسلم (الأباتى) جميعا، فيما عدا (جوشيا)، وعشرة آخرين، لأنه حاول اغتيالي بأسلوب لا يتفق مع الشرف، ولأن الآخرين لا يستحقون الموت بالسيف، أو أن تقاومى، فلا يسعني إلا أن أقتل كل رجالك، عدا الغرباء، وعدا (جافيت)، الذي استحق احترامي وتقديري، لما أثبته من جرأته، واستهانته بالموت، وفي الحالة الأخيرة ستسبي كل نساء (الأباتى)، فيما عدا (ام النجاشي)، ذات القلب الكبير.

انتهى الرسول من تلاوة الرسالة الشفهية، وصمت ينتظر الجواب، فأدارت (مجيدة) عينيها في وجوه مجلسها، ورأت الرعب المرتسم عليها، فقالت:

- ما رأيكم يا رجال مجلسي الموقر؟ لست أحب أن أنفرد بجواب يعني مصير شعب بأكمله.. ما رأيك يا عمي (جوشيا).. اتقبل ان تضحي برأسك ورؤوس عشرة من القادة، في سبيل السلام بيننا وبين (الفنج)؟

هتف (جوشيا) مستنكرا:

- أتقترح ملكة البلاد أن يشنق عمها، والأمير الأول لبلادها؟ هل توقع العشرة الآخرون أن يسمعوا هذا القول، من شفتي مليكتهم أجابته في هدوء:

- لست أقترح شيئا يا عماه، وإنما أسألك رأيك فيما يعرضه سلطان (الفنج).

صاح في غضب:
- أجيبيه عني وعن العشرة الآخرين، وعن كل (اباتى)، أننا نرفض هذا العرض، وأننا سنقاتل (الفنج)، ونبيدهم، ونهدم معبودهم ومعبدهم على رءوسهم، لنمهد بأحجاره طرقنا ونبنى معابدنا.. هل تسمعون يا رسل (الفنج)؟
تطلعوا إليه في استهتار وازدراء، وقال كبيرهم:
- نسمع، ويسرنا أن نسمع هذا القرار، فشعبنا يحب الحروب، ويفضل حسم خلافاته مع الآخرين بحد السيف، ولكن عليك أنت أن تعجل بالموت، قبل أن نحتل (المور)، فالمشنقة ليست وسيلة الموت الوحيدة عندنا كما تعلم..
شحب وجهه وهم ينحنون للملكة، ويغادرون المكان، وصاح غاضبا:
- هل ستسمحون لهم بالانصراف؟ لابد أن نقتلهم بعد أن هددوا وأهانوا أمير بلادكم، ولكن أحدا لم يرفع يده إلى رسل (الفنج)، الذين غادروا المكان حاملين القرار..
قرار الحرب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8 - القرار..

لم يكد رسل (الفنج) يغادرون المكان، حتى ساده صمت ثقيل رهيب، تحطم فجأة بجلبة أحدثها حديث رجال (الأباتي) المختلط، حيث راحوا يتحدثون جميعا في آن واحد، دون أن يصغى أحدهم إلى ما يقوله جاره، إلى أن برز الكاهن من وسط الجموع، وهتف يدعو الجميع للصمت، ثم راح يعلن أننا نحن سبب ما أصاب (الأباتى)، الذين عاشوا عمرهم كله في سلام، حتى لدغنا نحن جيراننا (الفنج)، واشعلنا نيران الغضب في نفوسهم، فثاروا وهاجموا وماجوا، وقرروا القضاء على (الأباتى) بلا رحمة..

وفي نهاية خطبته الحماسية الغاضبة، اقترح ترحيلنا من (المور)، حتى يستتب الهدوء من جديد، وعندئذ شاهدت (جوشيا) يهمس بأمر ما في اذن أحد أتباعه، الذي لم يلبث أن صاح:

- لا.. لو أننا طردناهم، فسيهرعون إلى (بارونج)، سلطان (الفنج)، بعد أن سبروا اغوارنا، وكشفوا أسرارنا، وصار بمقدورهم استغلالها ضدنا.. يجب أن نعدمهم على الفور..

ثم جرد حسامه في زهو، فقفز إليه الجاويش، وضرب رأسه بكعب مسدسه، وهو يقول في صرامة:

- أعد سيفك إلى غمده أيها الوغد.

ولدهشتنا أطاعه الرجل في خوف، فاندفعت الملكة تقول في انفعال:

- يا للعار! يا للخسة والنذالة! هؤلاء ضيوفي، تركوا أوطانهم وذويهم، وهبوا لمساعدتنا وخدمتنا، فهل نكافئهم على هذا بالقتل؟! ما الذي يجديه هذا؟ إن الحل الوحيد لنجاتنا من هذا

الموقف، هو أن نهدم معبد (الفنج) ومعبودهم على رءوسهم، ولتعلموا أن سلطان (الفنج)، على الرغم من عدائه لنا، رجل شريف، يحترم الشجاعة والشجعان، وستتضاعف نقمته علينا، لو قتلنا من يحمل لهم كل الاحترام، ولن يطفئ غضبته حينذاك - إلا القضاء على شعبنا كله، ولو وافقتم على اقتراح قتل الغرباء، فسأتنازل عن عرشى، ولتنتخبوا ملكة غيرى..

صاح أحد رجالها في جزع:

- هذا مستحيل!! أنت آخر السلالة النبيلة..

قالت في حزم

- اختاروا واحدة من دم غير نبيل، او انتخبوا ملكا يوافق على ذبح الضيوف، وإهدار شرف (الأباتى) وكرامتهم، واحتمال هذا العار إلى أبد الآبدين..

دفعت كلماتها الخوف إلى نفوس أعضاء مجلسها، فسألها أحدهم في قلق:

- ما حل المشكلة في رأيك إذن يا (أم النجاشي)؟

رفعت نقابها، وألقته على رأسها، وهي تقول في صرامة:

- الحل الوحيد هو أن تؤلفوا جيشا جرارا، ينضم إليه كل قادر على حمل السلاح، وليساعدكم الغرباء، ويقودكم إلى النصر، وإلا فلتقبلوا بالذبح، وبأن تروا نساءكم سبايا، وأن يمحى اسمكم من سجل الشعوب..

صاح أحدهم، وقد ملكه الحماس:

- كلا.. كلا..

هتفت بحماس أكبر:

- أنقذوا أنفسكم إذن، فما زال عددكم كبيرا ٠٠ تزودوا بالشجاعة مرة واحدة، وستجدون أنكم قادرون على احتلال (هرمق) نفسها قبل الحصاد.

ثم نهضت، وغادرت المجلس في عظمة ووقار..
وتركت القرار الأخير لشعبها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى قرار (الأباتى) إلى أن نبقى على راس جيشهم، وأن يطيعوا أوامرنا الحربية، على أن يكون لهم مجلس من القادة معنا، له رأى استشارى فحسب، وقد انساهم رعبهم من القتال كوننا غرباء، لا تنتمي إلى وطنهم بصلة..
وبدأت مهمة تكوين الجيش ..
وكانت أشق مهمة بذلناها في عمرنا كله..
لقد كان (الأباتى) قوما زراعيين، لا يمتون للحرب والقتال بأية صلة، ولقد اعتبروا جمعنا للجيش امرًا رهيبا، فراحوا يرشقوننا بالحجارة من نوافذ منازلهم وأكواخهم، ونحن نجمع الجيش، حتى لم نستطع جمع أكثر من خمسة آلاف رجل بشق الأنفس..
وكانت مهمة (كويك) الأساسية هي أن يعاون الكابتن طوال ست ساعات يوميا، على شق سرداب من نهاية مقبرة أجداد وملوك (الأباتى)، وأسفل الصخرة الضخمة التي تفصله عن المعبود وحتى التمثال نفسه..
وكانت مهمة شاقة بحق..
بل هي مستحيلة..
ثم تدخلت العناية الإلهية، وعثرا في أثناء حفر السرداب على نفق قديم، شديد الانحدار، يوصلهما إلى هدفهما، ولكن الزلازل القديمة كانت قد ردمت جزءا منه، وكان عليهما رفع الصخور، إلا أن الكابتن قال للملكة:

- أخشى ما اخشاه الا يؤدي بنا هذا إلا إلى مغارة الأسود، ثم إنه سيحتاج إلى ما يقرب من ستة أسابيع لرفع الصخور والأنقاض، في حين انني لا أميل إلى فكرة هدم المعبد والمعبود هذه، فهما جزء من جبل شاهق شامخ، وأشك في أن تنجح متفجراتنا في نسفه، والرأي عندي أن نجمع جيشا من (الأباتى)، ونهاجم مدينة (هرمق) في اثناء احتفالات عيد الحصاد، فلو أمكننا هدم أسوارها وأبوابها فسنستطيع مهاجمة المعبود، وهدم المعبد من الداخل..

استمعت إليه (مجيدة) في اهتمام، وصمتت طويلا مفكرة، ثم هزت رأسها، وقالت:

- سأستشير مجلسي ووزرائي..

قضيت ليلتها تستشير قادتها، ثم أتت تقول في سخرية مريرة:

- يقول أعضاء مجلسى الموقر إنها فكرة طائشة، ولا سبيل لتحقيقها، لأن (الأباتى) لا يلقون بأنفسهم في التهلكة عبثا، ثم إنهم يرون أن هدم المعبد والمعبود هو الوسيلة الوحيدة لإنهاء صراعنا مع (الفنج)؛ ولذلك فهم يأمرونكم بهدم المعبود والمعبد.

تطلعنا إليها في دهشة لعبارتها الأخيرة، فأضافت في مرارة:

- نعم إنهم يأمرونكم ولا يرجونكم؛ لأنهم يعتبرونكم في خدمتهم لمدة عام كامل، كما أقسمتم، وفي هذه الحالة يتحتم عليكم طاعة أوامرهم، فهذا ما ستنالون عليه أجركم.

بدا الغضب على وجه الكابتن، فاستدركت في سرعة:

- هذا ما قرره المجلس، وما أعلنه نيابة عنهم الأمير (جوشيا).

احتقن وجه (اورم)، وقال:

- وهل هذا رأيك أيضا يا سليلة الملوك؟

تنهدت وقالت:

- ليس أمامي سوى هذا، ما دام (الأباتى) يرفضون القتال..
ران الصمت لحظة، ثم قال الكابتن:
- لا بأس يا زهرة (المور).. سنبذل قصارى جهدنا، ولكن لا تلوموا إلا أنفسكم؛ لو انتهى الأمر على خلاف ما تحبون، فالنبوءات سلاح ذو حدين، ولست أتصور شعبا مقاتلا كـ (الفنج) يغادر بلاده هكذا، بعد هدم معبده ومعبوده، مهما قالت نبوءاته، دون أن يهدم بلادكم فوق رءوسكم.. ولكن ليكن ما شاء مستشاروك الشجعان.
صمت لحظة، وكأنما يدرس الأمر، ثم أضاف في حزم:
- أريد مائتين وخمسين من متسلقي الجبال) تحت قيادة (جافيت)، الذي عليه اختيارهم بنفسه، وسأتولى مع الجاويش (كويك) أمر المتفجرات، ومد الأسلاك في السرداب..
أجابته:
- ستحصل على ما تريد..
لم نكد ننصرف من مجلسها، حتى سمعنا (جوشيا) يقول:
- لقد ظهر الغرباء على حقيقتهم..
استدار إليه الكابتن في حركة حادة عنيفة، جعلته يتراجع مذعورا، في حين صاح الكابتن:
- حذار أن ينتهي الأمر إلى أن تظهر أنت على حقيقتك يا (جوشيا)، فهي أقل مما تتصور بكثير..
لم ينبس (جوشيا) بحرف واحد، ولم يجرؤ حتى على الاعتراض، وإنما انسحب وهو يهمهم بعبارات غاضبة مبهمة..
وعدنا نحن إلى العمل المتصل..
كان الكابتن والجاويش يتناوبان العمل ليلا ونهارا في السرداب، وكلبنا (فرعون) الصق بالكابتن من ظله، في رواحة وغدوه ثم حدث ما كنت أخشاه..

وكادت تقع المأساة..
كان ذلك ذات ليلة، خرج فيها الكابتن يلتمس بعض الراحة، من عناء العمل في السرداب، وعهد إلى الأستاذ بالإشراف على العمال بدلا منه، حتى يأتي الجاويش (كويك) لتسلم نوبتجيته، وكنت أنا مشغولا بإحباط عصيان بعض صغار الملاك من الجنود، الذين فروا من الجندية إلى حقولهم، لبيع محصولاتهم، وبعد أن انتهت الملكة من معاقبتهم سارت معي الهويني، حتى التقينا بالكابتن، فأمرت حراسها بالعودة إلى القصر، وسارت جنبا إلى جنب مع (أورم)، حتى اختفيا في أحد الأركان، وجلست انتظرهما في بقعة بعيدة، وقد شرد فكري في ولدي الأسير الحبيس، حتى تناهى إلى مسامعي وقع أقدام متسللة حذره، فأشعلت عودا من أعواد الثقاب، ليسقط الضوء على وجه أحد خدم الأمير (جوشيا):
ووجدت نفسي أرتجف..
وأتساءل: أكان ذلك الخادم في طريقه إلى حيث (اورم) و (مجيدة)، أم كان عائدا من هناك؟!
وبكل توترى صحت به:
- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟
هتف في انزعاج:
- الطبيب؟!
انطفأ عود الثقاب في تلك اللحظة، ولم أكد أشعل آخر، حتى كان الخادم قد اختفى، وكأنما انشقت الأرض وابتلعته، ولم أخبر الكابتن أو الملكة بما حدث إلا أنني لم أستطع كتمان مخاوفي عن (هيجز)، الذي عقد حاجبيه طويلا مفكرا، ثم قال:
- اغلب ظني انهم سيحاولون قتل الكابتن ومن الضروري أن نحذره من النوم بمفرده..

كان هذا في المساء، ولم تكد تشرق شمس الصباح التالي، حتى طرق (كويك) باب حجرتنا، وهو يقول في انزعاج واضح:
- الكابتن يريد رؤيتكما..
سأله (هيجز)، ونحن نرتدي ثيابنا على عجل:
- ماذا حدث؟
أجابه (كويك) في اقتضاب:
- ستريان بنفسيكما..
قطعنا شوطا طويلا في السرداب المظلم، حتى بلغنا أطلال معبد قديم، ورأينا على ضوء المصباح الذي أحمله شبح الكابتن، وهو يحمل مصباحا آخر، وإلى جواره جلس (فرعون) يهز ذيله مرحبا بنا، وتمتم الكابتن في خفوت:
- اتبعاني سأريكما شيئا..
قادنا إلى حجرة جانبية، أقام فيها فراشه وأشار إلى شيء مجاور للفراش، قائلا:
انظروا..
بدت لنا جثة رجل قتيل، وإلى جوارها خنجر ضخم ملوث بالدماء وتعرفنا على الفور ذلك القتيل، وهتفنا في صوت واحد:



بدت لنا جثة رجل قتيل ، وإلى جوارها خنجر ضخم ملوث بالدماء
وتعرفنا على الفور ذلك القتيل ..

(القط)؟!

قال الكابتن في حزم:

- لقد تسلل ليقتلني، ولكن (فرعون) انتبه إليه، وأيقظني نباحه، فنجوت من الموت بأعجوبة، واشتبكت مع (القط)، واضطررت لقتله.

غمغم (هيجز):

- لقد نال جزاءه.

ولم يكد الخبر يتناهى إلى (مجيدة)، حتى هرعت إلينا جزعة مذعورة، وتبعها (جوشيا) متظاهرا بالجزع والتعاطف، وإن لم

ينس أن يرمق (فرعون) بنظرة قاسية ناقمة..
ولم يكتف بالنظرة للأسف، ففي مساء اليوم نفسه مات (فرعون)..
مات مسموما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الخيانة..

منذ ذلك الحادث احاطتنا الملكة بنخبة مختارة من حراسها الأوفياء، وبرعاية فائقة، حتى أننا لم نكن نخطو خطوة واحدة من دون الحراس، وحتى طعامنا وشرابنا لم نكن نتناولهما قبل أن يتذوقهما شخص مسئول، حتى لا يكون مصيرنا كمصير (فرعون) المسكين..

وكان أكثرنا ضيقا وتبرما بتلك الحراسة المكثفة هي الملكة نفسها، وكذلك الكابتن، فعلى الرغم من أن الحراسة تكفل الا تقطع رقابنا في اثناء النوم، والا نقضي نحبنا بالسم، إلا أنها في الوقت نفسه تضع قيودا يصعب تجاوزها، بالنسبة للقاء العاشقين..

ولكن هذا لم يمنع من حدوث بعض الحوادث الغامضة المثيرة للشك..

فعندما كنا نجلس - ذات مرة - عند سطح التل، هوت فوقنا صخرة ضخمة، كادت تسحقنا سحقا، لولا أن ارتطمت بنتوء صغير في هبوطها، فانحرف مسارها، ونجونا بأعجوبة..

ومره أخرى، سقطت علينا بعض الرماح، ونحن نجول في الغابات، ولقي جواد (هيجز) مصرعه، إلا أننا لم نجد أثرا لمخلوق واحد في الأدغال كلها..

وذات يوم، هرع راعيا غنم إلى القصر الملكي، وقالا إنهما كانا يرعيان بعض الأغنام، بالقرب من الصخور الغربية، على مسيرة عدة كيلومترات، عندما فاجأهما خمسة عشر من جنود (الفنج)، وأحكموا وثاقهما، وقالوا لهما في سخرية:

- أبلغا المجلس والملكة والغرباء أنه من الأفضل أن يسرعوا بتدمير معبودنا، قبل أن تتحقق النبوءة، ويتم سحق (الأباتى)، وسبي نسائهم، واحتلال (المور).
ثم تركوهما موثقين، حتى حل رعاة الأغنام الآخرون وثاقهما، فأسرعوا إلى القصر لإبلاغ الرسالة..
وهرع فريق من الجيش إلى تلك البقعة، يتفقد المكان، ويبحث عن أي أثر تركه (الفنج) خلفهم، ولكن دون أن يسفر هذا عن شيء.
وتفجر عندئذ سؤال جديد..
أي طريق سلكه جنود (الفنج) إلى أرض (المور)، ليبلغوا رسالة سلطانهم؟!
والمؤسف أن الأمطار قد هطلت بعد هذا الحادث، ومحت أية آثار أقدام، قد يكون الأعداء قد خلفوها وراءهم..
ولم يعد أمامنا سوى افتراض واحد..
أن (الفنج) قد كشفوا طريقا خفيا بين (هرمق) و (المور)، وأنه سيكون وسيلتهم للتسلل إلى البلاد وغزوها مستقبلا..
وتضاعف الفزع في النفوس، مع انتشار القصة وانتقالها من فم إلى فم، وبدا الأمر أشبه بأمة حديثة، تخشى أن يهبط عليها العدو بغتة بالمظلات، ويحتل أرضها، وهي في سبات عميق..
وبسرعة تبخرت الثقة بالنفس، وانهار الزهو بأسوار (المور) الصخرية، وأنقلب الحديث إلى وصف جيوش (الفنج) المدربة، ولم يلبث الرعب أن ملأ النفوس، وارتفعت بعض الأصوات تطالب بمحاكمة مستشاري الملكة، الذين ساقوا البلاد إلى هذه الحالة من الضعف، بسياسة السلام الهزيلة، والعزوف عن الحروب..
وأفل نجم (جوشيا) كثيرا..

وبقدر ما هبط نجم (جوشيا)، ارتفع نجم (مجيدة)، التي طالما نادت بضرورة تكوين جيش قوى مدرب..
ولم يعد أمام شعب (الأباتي) المسكين سوى ان يتضرع إلى إلهه طالبا الرحمة، وسائلا إياه أن يمنحهم القوة على مواجهة أعدائهم..
وأصبحنا نحن أمل (الأباتي) الوحيد في النصر، وتضاعف احترامهم لنا مرات ومرات، حتى أن (جوشيا) نفسه صار ينحني لنا كلما لقينا، وصار الحفاظ على حياتنا هو الشغل الشاغل للجميع، فانقطعت المؤامرات والدسائس، أيا كان مصدرها، وواصلنا نحن العمل..
وأخيرا انتهينا من العمل الشاق، وتم إعداد كل شيء القتال، واتفقنا على إشعال فتيل الحرب ليلة اكتمال البدر، وهي الليلة التي أبلغنا جواسيسنا بأن السلطان سيقيم فيها حفل زواج ابني وابنته في (هرمق)، وأنه قد استعد لبدء الهجوم على المور، فور انتهاء مراسم حفل الزفاف..
وفي ذلك اليوم أعددنا كل شيء، فيما عدا سد الممر الذي يصل ما بين مغارة مقابر ملوك (الأباتى)، وتمثال إله (الفنج)، وكان الكابتن قد مد فيه كل أسلاك المتفجرات، وجعل نهاية الأسلاك جميعها في حجرته، حيث يضع فراشه، وحيث لقي (القط) مصرعه، وأقام حراسة مشددة على الحجرة، خشية حدوث أية خيانات..
وفي الرابعة تقريبا أتم العمال عملهم في الممر، وفجأة ظهر (جافيت) بادى الاضطراب، وبلغ موقعنا حول البطاريات الكهربية وهو يلهث، فهتف به الكابتن في قلق:
- ماذا حدث؟ هل كشف (الفنج) أمر الأسلاك وقطعوها؟
أجابه (جافيت) في انفعال:

- بل حدث ما هو أسوأ يا سيدى.. إن الأمير (جوشيا) يعمد خطة لاختطاف زهرة (المور) وسليلة الملوك
صعقنا الخبر، وهتف الكابتن غاضبا:
- ماذا تقول يا رجل؟ قص علينا الأمر كله.
التقط (جافيت) أنفاسه، وهو يقول:
- إن لي صديقا وقريبا - ولن أبوح باسمه يعمل في خدمة الأمير، ولقد شربنا معا اليوم بضعة اقداح من الخمر، حلت عقدة لسانه، فإذا به يخبرني مزهوا بوجود مؤامرة لاختطاف الملكة..
أمسكه (أورم) من كتفيه، وصاح به في قوة:
- متى وكيف؟
هز (جافيت) رأسه في انفعال، وقال:
لست أدري، هذا كل ما أمكنني معرفته.
ولكن ما الذي يدعوه لاختطافها؟
أجاب (جافيت):
- ليصبح أكبر رجل في (المور)
ران علينا صمت ثقيل، صنعته دهشتنا واستنكارنا لما سمعناه، وسأل الكابتن (جافيت) في انفعال:
- الم تعلم متى يتم ذلك تقريبا؟
تردد (جافيت) لحظة، ثم أجاب:
- بعد خمسة أيام تقريبا
تنهد الكابتن في ارتياح، وقال:
- السبت بعيد و الحمد لله.
ثم سأله مرة أخرى في اهتمام:
- قل لي يا (جافيت): هل صديقك هذا صادق دوما؟
هز (جافيت) رأسه نفيا، وقال:
- إنه يكذب أحيانا، ولكنني رأيت ضرورة اخباركم بما سمعت.

ربّت الكابتن على كتفه، وقّال:
- حسنا فعلت..
انصرف (جافيت) وتوتره يلازمه، في حين التفت إلينا (أورم)، وسألنا:
- ما رأيكم؟
أجابه (هيجز) في ضجر:
- إنها بعض الشائعات، التي تنتشر في كل مكان.
قلت بدورى:
- أوافقك على هذا يا هيجز، فلو أن صديق (جافيت) يعلم شيئا، لما اكتفي بهذا القول المبهم، ونصيحتى الا تذكروا الأمر ل (مجيدة)، حتى لا نثير قلقها بلا طائل..
هز الكابتن رأسه متفهما، ثم التفت إلى (كويك) يسأله:
أجابه (كويك) بلا تردد:
- لست أوافقهما إلا في ضرورة عدم إزعاج سليلة الملوك بذكر الأمر، ولكنني أثق في أن (جافيت) رجل أمين، وغريزته تؤكد له أن شيئا ما يحاك ضد مليكته.
سأله الكابتن في اهتمام:
- ماذا تقترح إذن، لو أن هذا صحيح؟
أمسك الجاويش عصا قصيرة، وراح يخط بها بعض الخطوط على ارض الحجرة، وهو يقول:
- هذا رسم تخطيطي لحجرة الملكة الخاصة، هنا حجرتها، وهنا مخدع الوصيفات والخادمات، ثم جدار مرتفع، يعقبه خندق عميق، ولكن هناك ممر بعرض مترين، يصل ما بين حجرة الحارس ومخدع الوصيفات، والرأي عندي أن نقضي ليلنا أنا والأستاذ في حجرة الحارس، منذ هذه الليلة، خشية أن يتم اختطافها قبل الأوان..

درس الكابتن الأمر لحظات في صمت، ثم قال في حزم:
- فليكن، ولكن ما رأى الأستاذ.
قال (هيجز):
اقتراح الجاويش رائع بحق،
وصمت لحظة ثم أضاف:
- معذرة لخروجي عن النقاش، ولكنني أحب أن أصعد إلى الصخرة، لأرقب ما يحدث، عندما تنشب المعركة..
هز الكابتن كتفيه، وقال:
- لن ترى سوى وميض والتماعات في الماء.. والأفضل أن تصحب الجاويش إلى حجرة الحارس، وتصطحبان معكما هاتف ميدان، حتى يمكنكما الاتصال بنا، وإبلاغنا بها يحدث أولا فأولا.
ضرب الجاويش كعبيه بعضهما ببعض، وقال:
- أية أوامر أخرى يا سيدى؟
قال الكابتن:
- لا يا (كويك).. أنت تعلم أنني سأشعل اللغم في تمام العاشرة، فلقد أبلغنا جواسيسنا أن حفل الزفاف سيقام بعد ظهور البدر بثلاث ساعات كاملة.
أيد (هيجز) حديثه قائلا:
- هذا صحيح لقد سمعتهم يؤكدون هذا، وانا في سجنى.
قال (أورم):
- لهذا السبب لن أشعل اللغم قبل العاشرة، مهما كانت الأسباب، حتى لا يصاب (رودريك) بأي ضرر، وعليكما أن تتصلا بي وبالطبيب في التاسعة والنصف..
تبادلنا التحية، وصحبت أنا (هيجز) و (كويك) إلى حجرة الحارس، وسألني (كويك) هامسا:
- أتؤمن بالحاسة السادسة أيها الطبيب؟

أجبته وأنا في حيرة من سؤاله:
- بالطبع لماذا تسال؟
ابتسم ابتسامة حزينة وقال:
- شيء ما في أعماقي ينبئني انني لن أراكم مرة أخرى بعد هذه الليلة، وأن نهايتى قد حانت..
حاولت تهدئته، قائلا:
- إنه بعض القلق يا (كويك)، و.
قاطعني في هدوء:
- عدنى، لو تحققت مخاوفي، أن تعنوا بأبناء أخي الراحل، وأن تخبروهم أن عمهم (صمويل كويك) قد قام بواجبه حتى النهاية..
شعرت في أعماقي بأن مخاوفه على حق، حتى أن صوتى قد ارتجف ارتجافة خفية، وأنا أقول في حزم:
- أعدك يا (كويك).
لم ينتبه (هيجز) إلى حديثنا، فقد كان مشغولا بالتطلع إلى معبود (الفنج)، الذي سيهوى قبل مطلع الفجر..
او نهوى نحن..
من يدري؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - المعجزة ..

عدت إلى الكابتن، الذي بقي وحيدا في حجرته الشبيهة بالكهف، وتركت (جافيت) يحرس الأسلاك، ولم يكد الكابتن يراني حتى ابتدرنى قائلا:

- قلبي يحدثني بأن (مجيدة) معرضة لشر مستطير، وأن قصة (جافيت) حقيقية، ولقد رجتني (مجيدة) أن تبقى الليلة في رفقتنا، ولكنني رفضت، خشية أن يصيبنا مكروه عند انفجار اللغم، فتصاب معنا، و.

ارتفع رنين الهاتف الميداني في تلك اللحظة فاختطف الكابتن سماعته في لهفة، وهتف:

- ماذا حدث؟

أجابه (هيجز) في بساطة:

- لا شيء، فقط أردت أن أخبركما أنني والجاويش في حجرة الحارس، ويبدو أن القصر خال تماما، إلا من ذلك الحارس، فلقد خرج الجميع لرؤية الألعاب النارية، حتى الوصيفات)

ولقد حاول الحارس منعنا من البقاء في حجرته، بحجة أن هذا يتعارض مع أوامر الأمير (جوشيا)، بشأن عدم اقتراب الغرباء من سليلة الملوك، ولكن (كويك) صفعه صفعة جعلته يعدو كالملدوغ، صارخا ومهددا بإبلاغ الأمير، و.

قطع حديثه بغتة، على نحو أقلقنا، فهتف به (أورم):

- ماذا حدث عندك؟

أجابنا صوته بعد لحظات:

- زهرة (المور) هنا، وتريد أن تتحدث إلى الكابتن بنفسها..

انسحبت في صمت، لأترك لهما لحظات، ينعمان فيها بمناجاة الحب والعشق، ليبدد كل منهما توتره ومخاوفه، وجلست خارج الحجرة صامتا، حتى فوجئت بـ (جافيت) يهرع إلى، وقد أخذ الرعب منه مأخذه فصحت به:
- ماذا أصابك؟ وهل قطعت الأسلاك؟
أجابني وهو يلهث رعبا:
- لا، وانما رأيت شبح أحد ملوك (المور) في الكهف..
أنهى (أورم) حديثه على الفور، وتبادلنا أنا وهو نظرة ذات مغزى، ثم هب يسال (جافيت):
- هل قال شيئا؟
اجابة (جافيت) وهو يرتعد:
- قال الكثير، ولكنني لم أفهم سوى القليل، فهو يتحدث بسرعة، وبلغة تختلف عن الفتي كثيرا، ولكن اظنه سألني كيف يجرؤ قومي على هدم معبوده، فأجبته بأنني مجرد خادم مطيع، وهنا قال بأن (هرمق) سيأتي إلى (المور)، ويصفى حسابه مع (الأباتى) والغرباء..
تبادلنا نظرة أخرى، وغمغم الكابتن:
أظنها مجرد أوهام ومخاوف..
تطلعت إلى ساعتي، وقلت في توتر:
- ليس لدينا وقت للتحقق منها، فقد بقيت دقائق ثلاث فحسب على العاشرة..
اتخذ كل منا مجلسه في سرعة، ونسينا أو تناسينا أمر ذلك الشبح، وراحت الثواني تمضي بنا كالدهور ا حتى صاح الكابتن:
- أربع ثوان.. ثلاث.. اثنتين.. واحدة..
ثم ضغط زر التفجر.
وانفتحت أبواب الجحيم على مصراعيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ارتجاجا لم اعهد مثله من قبل، القانا أرضا في عنف، ورأينا صخرة كبيرة تهوى لتسد الباب أمامنا، وسمعنا أخرى تسقط بالقرب منا، فتدك الأرض دكا، وانهالت الأتربة في غزارة، حتى هدأت الأمور، فنهضت التقط سماعة الهاتف..

وهنا تناهى إلى مسامعى دوى طلقات نارية عبر أسلاك الهاتف، وسمعت صوت (هيجز)، وأعقبه صوت (كويك) يصيح:

- اطمئن لقد أطلقت النار عليه، ولن يمكنه إطلاق سهم آخر..

وارتفع صوت (مجيدة) تهتف:

- أين الكابتن؟ أريد أن أتحدث إليه..

ناولت السماعة إلى (اورم) في سرعة، وسمعتها تستطرد:

- تعال بسرعة يا (أورم).. لقد هاجمنا رجال (جوشيا) أسرع قبل أن يفتكوا بنا، وان...

وهنا انقطع الاتصال، وأيقنا من أن أحدهم قد قطع أسلاك الهاتف، فألقي (أورم) السماعة من يده، وهتف:

- اللعنة!! يا للخسة والخيانة!!

ووثب إلى الباب كليث غاضب، وحاول أن يزحزح تلك الصخرة التي تعترضه في يأس، ثم لم يلبث أن راح يدور في الحجرة كالمجنون، ويضرب الصخرة بكتفيه، حتى صحت به:



ووثب إلى الباب كليث غاضب ، وحاول أن يزحزح تلك الصخرة التي تعترضه في يأس ..

- أتريد أن تقتل نفسك.. اهدأ واتركني أفكر..
ولكنه لم يبال بحديثي، وإنما هتف بـ (جافيت):
- أحضر هذه المنضدة إلى هنا يا (جافيت)، فهناك فراغ ضيق بين الصخرة والحافة العلوية للباب، ولعلني أستطيع عبوره.
نجحت فكرته بالفعل، وامكنه عبور تلك الفرجة، وتبعته أنا و (جافيت)، ورحنا نعدو نحن الثلاثة نحو القصر، ولم نكد نجتاز ردهته حتى رأينا بقع الدماء على الأرض، فصاح (أورم) في هلع:
- أسرعوا.. أسرعوا

عبرنا الممر الذي يوصل إلى مخدع سليلة الملوك، ووجدنا أنفسنا نسير فوق جثث ودماء، حتى بلغنا حجرة الحارس، فانعقدت ألسنتنا من هول المشهد..
كانت الحجرة مغطاة بجثث تسبح في بحر من الدماء، وكلها ترتدي الثياب الرسمية، التي اختارها (جوشيا) لجنوده، وعلى مقربة جلس (كويك) على مقعد، وهناك سوم يخترق ظهره في حين وقفت الملكة إلى جواره، تدلك وجهه بقطعة من القماش المبتل، وإلى جوارهما وقف (هيجز) والدماء تنزف من جراحه وخلفه ثلاث وصيفات يبكين ويفتحه..
ولم يكد بصر (كويك) يقع علينا، حتى ابتسم ابتسامة راضية، على الرغم من الدماء التي تغرقه من رأسه في غزارة، وأسلم الروح، وضم الكابتن (مجيدة) إليه، وهتف في ارتياع:
- ماذا حدث؟
أجابه (هيجز)، والحزن بثقل تقلبه وصوته:
- سمعنا دوي الانفجار في تمام العاشرة، ولم نكد نهم بالخروج، لرؤية ما حدث، حتى قدم (جوشيا) ؛ ليعلن تدمير (هرمق)، وطلب أن ترافقه سليلة الملوك إلى قصره لأسباب سياسية هامه، وأصرّ على ذلك إصرارا دفعنا إلى طرده، ولم يكد يغادرنا حتى انهالت علينا السهام، وانقض علينا جمع كبير، ينادي بضرورة قتلنا وانقاذ الملكة، ونشب عراك بيننا وبينهم، وابلى الجاويش بلاء حسنا، حتى ولى المهاجمون الأدبار، بعد أن أصابوا (كويك) بضربة سيف في رأسه، وعلى الرغم من إصابته راح يقاتل كالأسد، حتى اطمأن إلى سلامة الملكة، فارتمى خائر القوى، إلى أن خر صريعا أمامكما..
قال هذا ودموعه تنهمر في غزارة، فأخذنا نهدئ من نفسه، ونفوسنا تبكي الا وحسرة على كويك)، وحملنا جثة هذا الأخير

إلى مخدع الملّكة، التي أصرت على أن يوضع من دافع عنها حتى الموت على فراشها، وراحت تضمد جراح (أورم)، وهي تقول في توتر:
- لم نعد بمأمن هنا.. لقد فشلت مؤامرة عمي لاختطافي، ولكنه لن يلبث أن يعود بألف من اعوانه..
سألها الكابتن مستنكرا:
- ماذا تعنين؟ هل نهرب من (المور)؟
اجابته في يأس:
- وكيف لنا أن نفعل، ورجال (جوشيا) يحرسون الطريق، و (الفنج) ينتظرونكم في الخارج.. إن (الأباتي) يكرهونكم، وسيقتلونكم بلا تردد، بعد أن أتممتم ما أبقوا على حياتكم من أجله..
إنهم شعب ناكر للجميل، وخطئي أن دفعتكم للمجيء إلى هذا البلد العاق..
وانخرطت في بكاء حار، فجثا (جافيت) عند قدميها، وقال:
- أيا سليلة الملوك، استمعي إلى خادمك المخلص الأمين، فهناك على مسيرة خمسة كيلومترات، يوجد خمسمائة من رجالك المخلصين، يعملون تحت قيادتي، ويفتدونك بالروح والدم، فهلم نلحق بهم.. يمقتون (جوشيا) أشد المقت.
تطلعت (مجيدة) إلى الكابتن لحظات، وكأنها تسأله المشورة، ثم قالت:
- فكرة جيدة هلم بنا إلى هناك..
ولم تمض عشر دقائق حتى كنا نختفي في معاطف ثقيلة، وتختلط بالجموع المحتشدة، التي اجتمعت في الميدان الكبير، وراحت تشير إلى صخرة تتوسطه صخرة على شكل أسد..

وأمام ذهولنا ودهشتنا، بدا لنا معبود (الفنج) واضحا، وقد قذف به الانفجار إلى أرض (المور)، وبدا (جافيت) شديد الرعب، وهو يتطلع إلى هذا المشهد، فربت (هيجز) على كتفه، قائلا:

- لا ترتجف على هذا النحو يا رجل..

التفت إليه (جافيت)، وقال في ارتياع:

ألم تفهم ما يعنيه هذا يا سيدي؟ لقد حلت اللعنة على (الأباتي)، وبدلا من أن يرحل (الفنج) بعيدا، فانهم سيتبعون معبودهم إلى هنا.

وكان (جافيت) على حق..

لقد انعكست الآية، وصار على شعب (الأباتى) أن يقاتل من أجل حياته وحريته أو يموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- عودة الغائب..

لم نكد نبلغ موقع جيش (جافيت) الصغير، حتى لمسنا الفارق الهائل بين الفرق المنظمة، وسائر شعب (الأباتى)، فقد اعترضنا فور اقترابنا من موقع الجيش جندى حراسة، وشهر سيفه في وجوهنا، هاتفا في صرامة:

- توقفوا، واكشفوا عن شخصياتكم..

أجابه (جافيت) في هدوء:

- إنني رئيسك..

قال الحارس في حزم

- معذرة يا سيدي، ولكنني أصر على أن تكشفوا وجوهكم.

كشف (جافيت) وجهه للحارس، الذي حياه في احترام، وكشفنا وجوهنا بدورنا، فلم يكد الحارس يرى وجه (مجيدة) حتى خر ساجدا، وهو يهتف:

- لبيك يا (أم النجاشي) وسليلة الملوك..

اجابته في ترفع، شف عن طبيعة الدماء الملكية التي تسري في عروقها:

- استدع فرقتك كلها؛ لأبلغها أوامرى..

لم تمض دقيقة واحدة، حتى جثا أمامها خمسمائة رجل موفوري القوة والصحة، ثم انتظموا في صفوف منسقة ملتزمة، فوقفت هي امامهم تقول:

- أيها الرجال المخلصون، لم يكد معبود (الفنج) ينهار الليلة، حتى أتى عمي (جوشيا) ينشد قتلى، او سجني في قلعته عند البحيرة..

سرت همهمة غاضبة مستنكرة بين الجنود، فأضافت في حزم:

- الأسوأ هو أنني لم أكد أرفض ذلك، حتى اصطحب عمى ثلة من رجاله، لانتزاعي عنوة، ولكن الأجانب الذين يخدمونني هبوا لنجدتي، ودارت بينهم وبين جنود عمى معركة حامية الوطيس، نجح خلالها الأجانب في إجبار قوات عمى على الانسحاب، وعمي يجمع الآن أعوانه، ليعيد الكرة..
تعالى صياحهم إلى عنان السماء، وهم يهتفون:
- فداك دماؤنا وارواحنا يا سليلة الملوك، مرى نطع.. نحن رهن إشارتك يا زهرة (المور)..
ورفع أحد ضباطهم سيفه عاليا، وهو يهتف:
- فلنسحق رأس الأفعى..
ولكنها صاحت مستنكرة:
- أنشن حربا أهلية؟ أنشعل نيران الفتنة وسط شعب يواجه عدوا مشترك.. ثم كيف لكم بمواجهة جيش (جوشيا) الجرار؟
سألها الكابتن:
- ماذا تقترحين إذن؟
اعتدلت في اعتزاز، وهي تقول في حزم:
- أن نعود مع هذا الجيش الصغير إلى القصر، لنقف جميعا في مواجهة الأعداء.
غمغم (هيجز) في الم:
- من الأفضل أن نسرع إذن، فساقي تؤلمني للغاية، وأكاد أسقط نائما بين أيديكم..
رفعت (مجيدة) ذراعها، وهتفت:
- هيا يا رجال.. حلو الخيام، واستعدوا للسير.
لم تكد تتم عبارتها، حتى تناهت إلى مسامعنا جلبة، وأبصرنا رجلا يقوده بعض حراس الجيش الصغير إلينا، وخيل إلى في البداية أنه جاسوس، ثم لم ألبث أن انتبهت إلى ملابسه الغريبة،

وثوبه الفاخر، وتلك القلادة الذهبية، التي تزين عنقه، فرفعت عيني إلى وجهه، وانطلقت من أعماقي شهقة قوية، وانا أهتف:
- ولدي.. (رودريك)؟!
وفي اللحظة التالية كان كل منا بين ذراعي الآخر، يغمر وجه صاحبه بالقبلات، والتفّ حولنا الجميع في سعادة لعثوري أخيرا على ابني الضائع، وهتفت به في فرحة غامرة:
- كيف جئت إلى هنا؟
أجابني في سعادة:
- على قدمي يا والدي..
وهتف به (هيجز):
- كنا نحسبك قد تزوجت الليلة يا (رودريك).. اين زوجتك؟
أطلق (رودريك) تنهيدة حارة، تحمل الكثير من الخلاص والارتياح، وهو يقول:
- لم يتم الزواج لحسن حظي.. لقد سارت المراسم مسيرها الطبيعي، وبقي أن يضع
عصاه على رأسينا، ليعلننا زوجا وزوجة، وهنا أرعدت الدنيا، واهتزت الجبال، وساد الهرج والمرج، وراح (الفنج) يعدون في كل مكان، وهم يصرخون: «سحر الرجل الأبيض قتل معبودنا، الكاهن الأبيض الذي لم يبرح مكانه منذ الخليقة.. إنه سحر الرجل..»، وراح سلطان (الفنج) يشق ثوبه الملكي، ويصرخ: أجروا أيها الفنج..
هاجروا.. لا يجب أن يبقى واحد منا في هذه الأرض، بعد موت معبودنا. وراحت خطيبتي، ابنة السلطان، تشق ثيابها بدورها، وتلطم خديها، وراحت تعدو مع الجموع الراكضة نحو الشرق والجنوب، وقد اصيب الجميع بذعر هائل لم أر له مثيلا في

عمري كله، ولكنني انتهزت الفرصة، وانطلقت أنا نحو الغرب، وقادني ممر ضيق إلى هنا، فأمسك بي هؤلاء القوم..
ضممته مرة أخرى إلى صدري، وأنا أقول:
- مسكين انت يا ولدي استجرت من الرمضاء بالنار
سألني في دهشة:
- ماذا تعني يا أبي؟
اجبته في حزن:
- لقد تطاير رأس معبود (الفنج) مع الانفجار وهو يرقد الآن في سهول (المور)، وهذا يعني أن (الفنج) سيسعون إليه، وسنقع جميعا في قبضتهم.
هز رأسه، وقال:
- لست أظن هذا يا والدي، فـ (الفنج) يجهلون ما أصاب معبودهم، إلا أنه قد نسف نسفا، ولقد هجروا (هرمق) إلى الشرق، فور حدوث هذا، ولن يكفوا عن ابتعادهم، ما داموا يجهلون أن راس المعبود هنا..
درست كلماته في رأسي لحظات، ثم قلت:
- أرجو أن تكون محقا يا ولدي.. ارجو ذلك من أعماق قلبى..
ثم ابتسمت، مضيفا في حنان:
- والآن تعال أقدمك إلى سليلة الملوك..
استقبلته الملكة في حفاوة بالغة، وانحنى هو يلثم أصابعها، وهو يغمغم مفتونا:
- إنها أجمل إمراه رأيتها في عمري كله يا ابي..
ولم يكن أول من تفتنه الملكة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



ـــ والآن تعال أقدمك إلى سليلة الملوك .
استقبلته الملكة فى حفاوة بالغة .

عدنا أدراجنا إلى (المور)، على راس جيش (جافيت) الصغير، واعترضتنا حامية صغيرة، على مشارف المدينة، ولكن الملكة أعلنت عن شخصيتها، فافسح لنا رجال الحامية الطريق، وابتعدوا على صهوة جيادهم، يسبقوننا إلى المدينة.
ولم نكد نبلغ المدينة حتى فوجئنا بأن أخبار الأسير الأبيض، الذي عاد من بلاد (الفنج) على قدميه، قد سبقتنا، فأعلن (جافيت) أن (الفنج) قد هاجروا إلى الشرق، وهم يجهلون ما حدث لمعبودهم، وبددت هذه الأخبار حزن (الأباتى) وأشاعت

بينهم الفرح، وأطلقته من صدورهم فراحوا يرقصون ويهتفون في الطرقات، ويهنئون أنفسهم على شجاعتهم، التي دفعت (الفنج) للفرار من وجوههم والهجرة إلى الشرق!!

ومضينا نحن، وسط هذه الاحتفالات، إلى القصر، دون أن نلفت إلينا الأنظار، ولكن فجأة اعترضنا جيش ضخم، من ألف رجل، وصاح قائدهم في (جافيت):

- كيف غادرتم موقعكم؟ من أمركم بهذا؟

اجابة (جافيت) في حزم:

- أمرنى من لا املك مخالفة أوامره..

قال القائد في صرامة:

- لو أنك تقصد البيض فأنت خاسر، فلدينا أوامر من اميرنا وقائدنا (جوشيا) بإلقاء القبض عليهم.

قال (جافيت) في صوت جهورى:

- لقد أمرتني سليلة الملوك بحملهم إلى قصرها.

أجابه القائد في صرامة وحدة:

- سليلة الملوك لا تملك إصدار قرار ما لم يقره المجلس.

وهنا كشفت (مجيدة) النقاب عن وجهها وصاحت في غضب:

- اقبضوا على هذا القائد أيها الضباط، بأمر مليكتكم، واقطعوا رأسه، وأرسلوه إلى أميره (جوشيا)، الذي دفعه إلى هذا.

شحب وجه القائد، عندما رأى وجه (مجيدة)، والقى نفسه عن جواده، وركع عند قدميها يمسح وجهه في ذيل ثوبها مستغفرا، ولكنها قالت في حزم:

- هيا سنثأر لمقتل الجاويش.. نفذوا الأمر..

وفي اللحظة التالية كان الجيش الجرار يعود أدراجه في موكب حزين، حاملا رأس قائده، في حين صاحت (مجيدة) بجيش (جافيت):

هيا.. سنواصل مسيرنا نحو القصر.
بدت كأحسن ما تبدو الملكة، وهي تتقدم الجيش الصغير، في طريقها إلى القصر..
ولكن فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان..
لقد ارتد إلينا جيش الألف رجل..
ارتد مقاتلا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقول الأمثال إن الشدائد تبرز الرجال..
وهذا ما حدث بالضبط..
لقد كان جيش (جوشيا) ضعف تعداد جيش (جافيت)، ولكن رجال هذا الأخير كانوا من خيرة الرجال، ولقد تجلت شجاعتهم واستعداداتهم القتالية على الفور ..
ودار القتال حامي الوطيس لنصف الساعة فقط، وبعدها انطلق من تبقى من جيش (جوشيا) يولى الأدبار، وقد فقدوا نصف رجالهم، في حين لم يفقد جيش (جافيت) سوى خمسين رجلا فحسب..
ودخلنا القصر الملكي مع الفجر دخول الظافرين، ولكننا وجدنا بعض النيران تشتعل فيه، فأسرعنا نطفئها، حتى هدأت الأمور مع مشرق الشمس وعادت الملكة إلى عرشها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أتحدث ولدي (رودريك) في الصباح التالي، عندما جاء (جافيت) يدعونا لمقابلة سليلة
الملوك، فأسرعنا إليها، واستقبلتنا في صوت حزين

أسف، وهي تقول:
عبر أحد السهام نافذة حجرتي في الصباح حاملا رسالة من عمي (جوشيا)، يقول فيها:
«فلتسلم (أم النجاشي) لنا ضيوفها البيض، الذين أفسدوا عقلها، ودفعوها إلى إراقة دماء شعبها، وان تسلمنا معهم جيش (جافيت)، حتى نعفو عنها وعن الشعب، ونتخذها زوجة لنا، والا فسنعمل سيوفنا في رقاب الجميع بلا رحمة»
ثم رفعت راسها إلينا، وسألت:
- ما رأيكم؟
قال الكابتن:
- إننا بين المطرقة والسندان في الواقع، فإما أن يهاجمنا (جوشيا) وأعوانه، أو يحاصروننا حتى نموت جوعا..
غمغمت في شحوب:
- لقد نسيت أحد شروط هذا الفاجر يا كابتن..
وأشارت إلى الفقرة التي يطلب فيها (جوشيا) الزواج منها، ثم اعتدلت قائلة، وهي تبرز خطابا مكتوبا:
- على أية حال، لقد أجبت خطاب (جوشيا) بالفعل..
وراحت تقرا:
- يا شعبي الثائر ورعيتى المتمردة.. سلموني عمى (جوشيا) وأعضاء المجلس الذين تمردوا على حكمى، فأحاكمهم واعفو عن الآخرين، وإلا فإنه مع اكتمال القمر سيقع لبلاد (المور) ما وقع لبلاد (هرمق)، وهذا ما هبط به الوحي علىّ، ولتعلموا أن أملكم الوحيد في مليكتكم، وضيوفها البيض.
سألتها في دهشة:
- ماذا تعنين بالوحي الذي هبط عليك؟
أجابتني في هدوء:

- لقد غرقت في نوم عميق مع الفجر، وشاهدت في نومي امرأة سمراء، مهيبة وقور، عرفت فيها جدتي (بلقيس)، التي تطلعت إلى في مزيج من الحب والأسى، ثم أزاحت من أمامي ستار المستقبل، فرأيت البدر يتوسط السماء، وتحته بلاد (المور) اطلالا، وقد اكتظت شوارعها بالقتلى..

تمتم الأستاذ (هيجز):

- إنها مجرد نبوءة عبرانية قديمة..

فوجئت بولدى (رودريك) يقول:

- لقد انتهى عهد (الأباتى).

التفتنا إليه جميعا في دهشة، فاستطرد في جدية:

- لقد علمني كاهن قديم تفسير الأحلام، وهذا الحلم يعني نهاية شعب (الأباتى)، مع اكتمال القمر.

أما الكابتن، فقد واجه (مجيدة)، قائلا في قلق:

- هل تعلمين أن جوابك على رسالة عمك يعني اشعال حرب غير متكافئة؟

اجابته في هدوء، وهي تتطلع إلى حشود (الأباتى)، في الميدان المواجه لقصرها:

- من يعلم كيف تنتهي هذه الحرب؟

وبدا قولها أقرب إلى الصواب

نعم.. من يعلم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12 – الهزيمة..

لم تكن الحرب متكافئة بالفعل، فجيش (جافيت) لا يعدو سدس حجم جيش (جوشيا)، ثم أن المؤن في القصر لم تكن تكفي إلا لثلاثة أيام فقط، بالإضافة إلى أن أبواب القصر واثاثاته كانت مصنوعة في الغالب من الخشب، مما يجعل اشتعال الحرائق امرا متوقعا ميسورا، وعلى الرغم من ذلك فقد رحنا نحكم المزاليج، ونوزع الحراس على المنافذ والأبواب..

وطيلة الأيام الثلاثة التالية، حاول (الأباتى) اقتحام إحدى البوابات، إلا أننا أصليناهم نيران مسدساتنا وبنادقنا، وسهام رجال (جافيت)، حتى ولوا هاربين، وبعدها اكتفوا بمحاصرتنا حتى يغلبنا الجوع، ونضطر إلى التسليم..

وراودتنا فكرة أن نخرج إليهم ونقاتلهم، وكان من رأى (جافيت) أن الموت في ساحة المعركة أشرف منه على المشانق، ولم يؤيد هذا القول إلا ذلك الجوع الذي نهش امعاءنا، مع نفاد المؤن، فاتخذنا قرارا بالخروج لقتال (الأباتي) في الصباح التالي، مهما كانت النتائج..

ولكن القدر لم يمهلنا لنفعل..

لم تكد تشرق شمس الصباح التالي، حتى بدا لنا أن سيلا من الشهب يسقط على القصر، من قبة الصخرة المشرفة عليه، فهتف الكابتن:

- يا إلهي... أى شهب هذه؟

ثم لم يلبث أن صاح ملتاعا:

- رباه!! إنها أسهم مشتعلة.. اقرع ناقوس الخطر يا (آدمز).

وهوت الأسهم المشتعلة على القصر، وراحت النيران تندلع في كل ركن من القصر، واصابنا ذعر هائل، ونحن نعدو من بقعة إلى بقعة، وكلما أطفأنا ركنا اشتعل آخر، وأصابت النيران بعض الرجال، فراحوا يعدون في الم ورعب، كجمرات ملتهبة حية، وراحت وصيفات الملكة يصرخن ويعولن في رعب قاتل، وارتفع صوت (جوشيا) من الخارج، يهتف برجاله:

- اقتلوا من تشاءون، ولكن الويل كل الويل لمن يمس شعرة واحدة من راس سليلة الملوك..

هوت الضربات على الأبواب في عنف، وصاحت الملكة بوصيفاتها، تطلب منهن الفرار بأنفسهن، فأطعنها في ارتياح، في حين أمسك الكابتن بيد الملكة، وهتف:

- تعالوا.

صاحت في عناد:

- لا.. إنني أفضل الاحتراق حية، على تسليم نفسي لـ (جوشيا)..

صاح بها:

- لن نذهب إلى (جوشيا).. سنذهب إلى الكهف، حيث مقابر ملوك (الأباتى)، ففي نفق ضيق كهذا يستطيع أربعة رجال ببنادقهم صد آلاف (الأباتى) هيا يا (جافيت).

انطلقنا إلى الكهف، وعبرنا مغارة مقابر الملوك، واشار (جافيت) إلى السرداب الذي يربط ما بين الكهف ومغارة الأسود، وقال:

- يمكننا أن نفر من هنا..

اعترض (هيجز) في خوف:

- وما الفائدة؟ سنفر من (الأباتى) لنقع في ايدى (الفنج).

هتف ولدي (رودريك):

- لا.. لقد رحل كل (الفنج) عن (هرمق).

وافقنا على اقتراح (جافيت)، بناء على رأى (رودريك) ولكن هيهات..
كان السرداب قد انسد تماما بالأحجار والصخور، من جراء الانفجار، ولم يكن عددنا أو حالنا يصلح لرفعها، فأصابنا اليأس مرة أخرى، وخاصة مع ضعف المشاعل، وقرب انطفاء نيرانها..
ثم لفظت المشاعل انفاسها الأخيرة، وتركتنا في ظلام دامس، والجوع ينهش أمعاءنا
وفجأة هتف (جافيت)، وهو يجثو عند قدمى الملكة:
- آيا سليلة الملوك.. عبدك (جافيت) شجاع صنديد في ضوء الشمس وتحت النجوم، ولكنه هنا، وسط الجوع والظلام، أشد جبنا من (جوشيا).. ارجوك يا مليكتي، دعينا نعد إلى النور، ونسلم أنفسنا للأمر، فقد يعفو عنا، ويحفظ حياتنا..
هزت (مجيدة) راسها في صمت، فاتجه (جافيت) إلى الكابتن، مستطردا:
- أترضى يا سيدي أن تكون سبب مصرع سليلة الملوك جوعا وعطشا؟ الا يدفعك حبك لها إلى صونها من الهلاك؟
اجابه الكابتن في صوت ضعيف، بدا وكأنه ينبعث من أحد القبور:
- أنت على حق يا (جافيت).. أصغى إليه يا (مجيدة)، إننا سنموت بيد الجوع او بايدى (الأباتى)، أما أنت فخروجك من هنا يعنى نجاتك
حتما؛ لأن (جوشيا) أن يمسك بسوء.. هيا يا (مجيدة).. ارحلي.. ارحلي لتنجي بعمرك..
اجابته في انفعال، على الرغم من ضعفها وتهالكها:
- لا يا (أورم).. إنني أفضل الموت على الزواج من ذلك الفاسق (جوشيا).. وليمنحنى القدر فرصة أن أموت إلى جوارك.. مر

(جافيت) بالتزام الصمت، او اطرده من هنا، حتى لا يزعجني مرة أخرى..
ولم يعد (جافيت) إلى هذا الحديث بعدها..
ابدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قضينا في ذلك الكهف يومين كاملين، نهش خلالهما الجوع أمعاءنا، ولم يكف ذلك القدر الضئيل من المياه لمنحنا شيئا من الطاقة، ولقد اختفى (جافيت)، ولكن ذلك لم يلفت انتباهنا كثيرا، فقد أدركنا انه قد ذهب ليموت في مكان ما، وشعرنا أن الموت يحيط بنا كلنا مثله، وراح الضعف يحيط بى في شدة، واذكر أن آخر عود ثقاب اشعلته قد جعلني أرى الأستاذ (هيجز)، وهو يخط بضع كلمات على قبعته، وهو يظنها مفكرته، وقد ارتدى منظاره، على الرغم من الظلمة، وإلى جواره وقف (رودريك) ينشد بالعربية والإنجليزية، وعلى مقربة منهما رايت (مجيدة) تجلس إلى جوار (أورم)، وقد أحاطها هو بذراعيه في حنان، وأسندت هي رأسها إلى كتفه..
.. ثم غمر وجهى ضوء قوي..
وفقدت الوعي..
وفجأة استيقظت..
استيقظت لأجد نفسي في حجرة كبيرة، راقدا على فراش وثير، وإلى جوارى يرقد (هيجز) والكابتن و (رودريك)..
ثم دخل خدم (الأباتي) يحملون الطعام، وراحوا يطعموننا، ثم تركونا نعود إلى النوم..
وتساءلت عما يعنيه هذا..

اهو حلم؟
اهو امل بالنجاة؟
ولكن لا.
إن مذاق الحساء واللحم ما زال في فمي، وبين أسنانى..
إنها حقيقة إذن..
لقد نجونا..
لقد أخرجونا من الكهف، وحملونا إلى هذا المكان..
ولكن من فعل هذا؟
ولماذا؟
لماذا أبقوا على حياتنا..
لم أجد جوابا لكل هذه الأسئلة، ولم أحاول حتى أن ألقيها على خدم (الأباتى)، الذي أطعمونا الحساء واللحم خمس مرات في يوم واحد، حتى استعدنا عافيتنا، ورأيت (هيجز) يجلس على فراشه، ويحدق في وجهى، قائلا:
- انجونا، أم انه يوم الحساب؟
أجبته في خفوت:
- الأرجح أنه يوم الحساب..
عقد حاجبيه، وهو يقول:
- لو أننا وقعنا في أيدي (الأباتى)، فالجواب الأصح هو أننا في الجحيم..
ثم هتف بالكابتن:
- استيقظ يا (اورم).. لقد خرجنا من الكهف على أية حال
نهض الكابتن، وتطلع إلينا لحظة، ثم سألنا:
أين (مجيدة)؟
لم نملك جوابا لسؤاله، ولكن (رودريك) اجاب:

- لقد حملونا إلى خارج الكهف، وكان (جافيت) معهم.. ولقد رايتهم يحملون سليلة الملوك إلى جهة أخرى.
حاولنا هذه المرة أن نلقي بعض الأسئلة على الخدم، ولكنهم رفضوا رفضا باتا منحنا اية أجوبة، ولقد سمعت أحدهم يهمس لزميله، وهما يغادران الحجرة:
- متى تنتهي خدمتنا لهؤلاء الأوغاد البيض؟
أجابه زميله:
- سيقرر المجلس هذا، في غضون يوم أو يومين..
وعند الغروب سمعنا أصواتا تهتف أسفل النافذة:
- أعطونا الغرباء.. نريد الغرباء.. لقد سئمنا الانتظار..
فغمغم الأستاذ (هيجز):
- من المقلاة إلى النار مرة ثانية.
وبدا لي قوله أقرب ما يكون إلى الصواب...
لقد نجونا من الموت في الكهف "، لنقع في أيدي من يمقتوننا اشد المقت..
ولقد بقينا في هذا الكهف ثلاثة أيام، نعمنا فيها بأطايب الطعام والشراب، كالنعاج التي يتم تسمينها للذبح، وفي اليوم الرابع، وبعد أن انتهينا من تناول طعام الإفطار، اقتحم عدد من الجنود حجرتنا، بقيادة ضابط غليظ خشن الطباع، أخبرنا في شماتة أننا سنذهب إلى المجلس، لنحاكم امام سليلة الملوك، بتهمة قتل عدد من الرعية..
وذهبنا ونحن نجهل مصيرنا هذه المرة..
نجهله تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- المحاكمة..

مضينا إلى المجلس وسط حلقة من الجند، تعمل على حمايتنا من غضب الشعب، حيث راحت النساء يلوحن بقبضاتهن في وجوهنا، ويبصقن علينا، في حين رشقنا الأطفال بالحجارة، ووجوه الجميع تحمل كل الكراهية والتشفي والبغض، فسألني (رودريك)، وهو يدلك كتفه، بعد إصابته بحجر:

- لما يكرهونكم على هذا النحو يا والدي، على الرغم من كل ما اديتم لهم من خدمات؟

أجبته في حزن:

- لأن الملكة تحب أحدنا يا ولدي، ولأنهم يكرهون الأجانب، وككل الجبناء، سيسعون للانتقام منا، بعد أن أمنوا شر (الفنج)، وأصبحوا بلا حاجة لوجودنا..

غمغم في غضب:

- كم أتمنى أن يدرك (الفنج) خطأهم، ويعودا للثأر من هؤلاء الجبناء.

بلغنا مجلس الملكة الكبير في صعوبة، وبعد أن أصابنا بعض الحمى والحجارة واخترقنا صفوف وجموع النبلاء والكهنة والقادة، الذين راحوا يسخرون منا، ويعبرون عن شماتتهم ومقتهم، حتى وضعنا الحراس في المكان المخصص للمتهمين، إلى يسار عرش (مجيدة)، التي اخفى نقابها الموشى بالنجوم الفضية وجهها، وسمعت الكابتن يتنهد في ارتياح، وهو يقول:

- إنها بخير.

قال (هيجز) في حنق:

- كان ينبغي أن تتخذ مكانها إلى جوارنا، في قفص الاتهام، لا فوق العرش..
أشار إليه الكابتن بالصمت، ونهض ممثل الاتهام يتهمنا بأننا قد انتهزنا فرصة وجودنا على رأس جيش (المور)، لنثير حربا أهلية، ونشعل نيران الفتنة وسط شعب (الأباتى)، مما تسبب في إراقة دماء العديد من الأهالي بأيدي بعضهم البعض، إلى جوار من قتلناهم بأيدينا، ثم اختطفنا الملكة، وهربنا إلى مدينة الأرواح تحت الأرض، لولا أن كان بيننا (جافيت)، أحد رجالهم المخلصين، الذي كشف لهم عن مخبئنا..
وانتهى ممثل الاتهام من حديثه، فسألنا القاضي:
- هل هذا صحيح؟
نهض الكابتن نيابة عنا، وقال:
ليس هناك مجال لاتهامنا بقتل من سقطوا في ساحة القتال، فقد كنا ندافع عن حياتنا، ثم إننا لم نبدأ تلك الحرب الأهلية، بل بدأها اميركم..
سرت همهمة غاضبة وسط الحضور، ولكن الكابتن تجاهلها تماما، وهو يواصل حديثه في شجاعة:
- أما عن باقي الاتهامات، فسأترك لسليلة الملوك وحدها التحدث عنها، لأنها تعرف حقيقة ما حدث..
صاح بعض المتفرجين:
- لقد اعترفوا بجريمة القتل .. أصدروا الحكم بإعدامهم فورا..
نهض القضاة من مجالسهم، والتفوا حول (مجيدة)، يشاورونها في الأمر، وقضوا حولها بعض الوقت، ثم عادوا إلى مقاعدهم، فرفعت (مجيدة) يدها، وساد المكان صمت تام، قبل أن تقطعه. هي، قائلة في برود:

- لقد اعترفتم أيها الغرباء بإثارة حرب أهلية، أهدرت فيها دماء وأرواح بريئة طاهرة، وهذا لا يحتاج إلى ادلة او براهين، فدموع اليتامى والأرامل ودماء الشهداء تشهد بذلك، ثم تأتي جريمة اختطافي، واحتجازي في ارض الأرواح، لتضمنوا سلامتكم..
صعقنا حديثها، وعقد السنتنا في حلوقنا من فرط الذهول، في حين تابعت هي بنفس اللهجة الباردة:
- إنكم تستحقون ما هو شر من الموت، بسبب هذه الجرائم، ولكننا سنذكر لكم تدميركم لمعبود (الفنج)، وسنعفو عنكم بالنسبة للإعدام، ولكنني آمركم بالرحيل اليوم إلى بلادكم، بما لكم من متاع، وبما جلبتموه معكم من مقبرة الملوك، والويل لكم لو عدتم إلى هذه البلاد، ولتحمدوا الله؛ لأنكم وجدتم شعبنا كريما، أصر على التمسك بالاتفاق بين مجلسه وبين جماعة من البيض الغرباء، حتى لا يوصم بالتنازل عن شرفه يوما.. ارحلوا، ولا تدعونا نرى وجوهكم بعد اليوم.
هتف البعض مؤيدين، وصاح البعض الآخر غاضبا:
- لا.. لا.. يجب أن يقتلوا..
اشارت (مجيدة) بيدها في صرامة، فعاد الصمت يسود المكان، لتقول هي في حزم:
- حذار أن يصمكم التاريخ بأنكم شعب من القساة الجبناء، معدومى الشرف.. لقد دعونا حفنة من كلاب البيض لتصطاد لنا وحشا يحمل اسم (هرمق)، ولقد نجحوا في مهمتهم، وأحسنوا الصيد، ويستحقون أن نبقي على حياتهم، وان نمنحهم كومة العظام التي ارتضوها أجرا لهم، والتي يتصورون أنهم قد ربحوها بعرق الجبين، وما قيمة حفنة من العظام عند شعب عظيم مثلكم، لم يلوث ارضه بدماء كلاب بيض..
نقل حديثها الحماس إلى قلوب الجميع، فارتفع هتاف هادر:

- فليرحلوا.. اربطوهم إلى ظهور الجمال وليرحلوا بعيدا..
قالت في حزم:
- هذا ما سنفعله، ولكن لدي كلمة لكم يا شعبي.. لقد تصور بعضكم أو ظن أنني أحب أحد هؤلاء الكلاب البيض، ولكنكم نسيتم أنه هناك نوع من الكلاب لا يعمل إلا إذا ربّتنا على راسه..
وهذا ما فعلته مع أحد هؤلاء البيض، فقد رحت اربّت على راسه لاستغل علومه ومواهبه، وأدواته الجهنمية، التي هدمت معبود (الفنج)..
أتصورتم يا شعبي المجيد أن حفيدة (سليمان) و (بلقيس)، وابنة الملوك والحكمة، وزهرة (المور)، يمكنها أن تهبط من عرشها، وتمنح قلبها لغريب ضال، جاء يسعى خلف كنوز الملك (سليمان)؟ لا.. انني أرثي لحال هذا الغريب، الذي تصور يوما أنني قد أحببته، وأدعوه في الغد لحضور حفل زفافي إلى الرجل الذي وهبته نفسى..
ومدت يدها إلى (جوشيا)، الذي انحني يلثم أصابعها مزهوا فخورا، وتمتم ببضع كلمات لم تبلغ مسامعنا، وسط دوى القاعة بالهتاف والتصفيق، إلى أن علا صوت الكابتن كل الأصوات، وهو يقول:
- لقد سمعنا كل شيء..
ران الصمت على القاعة إثر صيحته، وتطلع إليه الجميع، فانخفض صوته، وهو يقول في حزم بارد:
- سمعنا حديثك يا سليلة الملوك، ونشكر لك اعترافك بخدماتنا، ومخاطراتنا بأرواحنا في سبيل هدم معبود (الفنج)، ونعترف بكرمك عندما تطلقين سراحنا، وتمنحيننا ما وعدت من مكافآت مقابل ذلك، وهذا دليل على كرم شعب (الأباتى)، الذي

سنذكره دوما، لو قدر لنا العودة إلى وطننا، ولكن لي رجاء أخير يا زهرة (المور).
مالت بجسدها إلى الأمام، وكأنما يهمها كثيرا أن تستمع إلى مطلبه، فقال في صوت قوي:
- أريد أن أرى وجهك لآخر مرة، دون نقاب لأتأكد من أن من استمع إليها هي نفسها سليلة الملوك، لا امرأة أخرى متنكرة في ثوبها وصوتها..
ران الصمت تماما بعد كلماته، واتجهت العيون كلها إلى حيث تجلس (مجيدة)، وكأنما تملكهم الشغف لمعرفة رد فعلها وجوابها، وفي بطء شديد، رفعت (مجيدة) نقابها وتراجع الكابتن في دهشة..
بل تراجعنا جميعا..
لقد بدت لنا (مجيدة) اخرى..
(مجيدة) الشاحبة الذابلة، وكأنها هيكل أو شبح امرأة..
وأدركنا جميعا لحظتها سر موقفها النبيل، ومدى معاناتها، وهي تلعبه ذلك الدور الهائل، مضحية بنفسها في سبيل إنقاذنا..
وهنا سقط الكابتن سقط مغشيا عليه، وكأنما لم يحتمل كل ذلك القدر من العواطف والانفعالات..
وكادت (مجيدة) تهوي خلفه، لولا أن تشبثت بذراعي عرشها، وبذلت أقصى جهدها لتبدو هادئة ساكنة، وهي تقول:
- لقد فقد وعيه لما لحقه من إهانات اتركوا لرفيقه الطبيب (آدمز) مهمة العناية به، وعندما يستعيد وعيه أخرجوهم من (المور)، وامنحوهم مؤن تكفى لأربعة ايام، ولا يمسهم أحد بأذى، حتى لا يقال إننا قد أطلقنا سراحهم لنقتلهم الما وجوعا بعيدا عن ابوابنا..

ولوحت بيدها معلنة انتهاء المجلس، ونهضت مغادرة المكان، وخلفها كهنتها وقوادها ووزراؤها..
وحمل بعض (الأباتي) الكابتن على محفة، وسمعت أحدهم يقول في سخرية:
- انظروا إلى ذلك الكلب الأبيض، الذي منّي نفسه بالحصول على زهرة (المور)، فلم يحصد سوى الندم والعار.. أظنه قد لقي حتفه كمدًا..
شاركه الباقون سخريته وتهكمه وشماتته حتى بلغنا سجننا، فرحت أعمل على إنعاش الكابتن حتى استعاد وعيه، وقال في هدوء:
- لقد رأيتم ما حدث يا رفاق، واستحلفكم بحق السماء الا يذكر أحدكم (مجيدة) بسوء، وألا يتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى..
وعدناه بتحقيق رغبته، في حين أشاح ولدي (رودريك) بوجهه، وابتسم ابتسامة غامضة، لم افهم مغزاها لحظتها، ولكنني لم اسأله، بل اكتفيت بأن تناولنا جميعا الطعام، ولم نكد ننتهي من تناوله حتى دخل ضابط من ضباط (الأباتى) إلى حجرتنا يأمرنا بالاستعداد للرحيل، وخلفه عدد من الجنود يلقون إلينا بملابسنا ومعاطف تقينا شر البرد القارس ليلا..
وأبدلنا بثيابنا ثيابا نظيفة، ثم خرجنا إلى حيث تنتظرنا بعض الجمال، أدركت عندما وقع بصرى عليها أنها من أجود أنواع الجمال، وقال الضابط في صرامة:
هيا ايها الغرباء.. راجعوا أمتعتكم، حتى لا تدَّعوا أننا قد سرقنا منكم شيئا.. ها هي ذخيرتكم والعابكم النارية، ولكننا لن نسلمها لكم قبل نهاية الطريق، وستتبعكم جمال تحمل صناديق العظام التي طلبتموها أجرا، وأخرى تحوي بعض الآثار، التي طلبها (هيجز).. ولقد أمرت الملكة الا تفتحوا هذه الصناديق قبل

بلوغكم (مصر)، حتى لا تجادلوا في أمر المكافأة أو قيمتها، والجمل الأخير يحمل طعامكم.. هيا.. لقد حان موعد رحيلكم..
امتطينا صهوات الجياد، ورافقنا الحراس حتى نهاية الطريق، حيث كانت تنتظرنا جماعة من الناقمين، الذين راحوا يمطروننا بأقذع الألفاظ، حتى أقصاهم الجند عنا، وألقي أحد هؤلاء الناقمين علينا بيضة فاسدة، تحطمت على انف (هيجز)، وسالت على وجهه، فراح يسب ساخطا ناقما، في حين انفجرت أنا ضاحكا للمشهد، وبددت ضحكتي جو الكتابة المخيم على الموقف، ثم لم تلبث أن اختنقت في حلقي، عندما وقع بصري على رجل في أبهى حلله، يمتطي جوادا أشهب، وينتظرنا ممتشقًا سيفه، وسط ثلة من رجاله..
كان أكثر شخص يبغضنا في هذا العالم..
الأمير (جوشيا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- الختام ..

. كان أول ما جال بخاطرنا، في تلك اللحظة، هو أن (جوشيا) يضمر لنا شرا، وانه ما وقف ينتظرنا خارج أبواب (المور)، إلا ليمزقنا إربا مع جنوده، إلا أنه اكتفي بابتسامة ساخرة، وهو ينحني في تهكم، قائلا:

- الوداع أيها الضيوف الأعزاء أرجو لكم رحلة طيبة آمنة..

ثم التفت إلى الكابتن، واستطرد:

- أما أنت أيها الوسيم، فسليلة الملوك تبلغك أنها تأسف، لأنك لن تشاهد حفل زفافها إليّ الليلة، فلقد خشيت أن يثور قومها لرؤيتك، فيقتلوك وتسيل دماؤك ليلة عرسنا، ولقد أرسلتني لأخبرك أنها تتمنى لو كنت قد وعيت الدرس، حتى لا تتصور لاحقا أن عطف صاحبة المصلحة عليك حب، فتفكر في عبارتها، واشرب الليلة نخب زهرة (المور) وزوجها الأمير (جوشيا)..

واجهة الكابتن في برود، وقال:

- من يدري على أي أمر تشرق شمس الغد يا (جوشيا).. العبرة دائما بخواتم الأمور، لا ببداياتها، وثق انه من عاش بالسيف مات به، وان حياتك التي بنيتها على الغدر ستنتهي بغدر، وأن من يضحك أخيرا يضحك كثيرا، وكان ينبغي أن تطلب مني الصفح عن شماتتك وشتائمك، التي انهلت بها على رءوس من لا يملكون القوة على الثأر والانتقام..

قال هذا وواصل طريقه ونحن خلفه، في حين سمعنا (جوشيا) من خلفنا يسأل أحد رجاله في دهشة:

- ما الذي يعنيه هذا الخنزير؟

ولكننا لم نتوقف، وواصلنا السير حتى ابتعدنا عن (جوشيا) ورجاله، وأبواب (المور)، وغابت كلها عن أبصارنا، فإذا بالأستاذ (هيجز) ينفجر ضاحكا، على نحو أثار دهشتنا، فسأله الكابتن:

- ماذا هناك؟

أوقف (هيجز) جمله، وهبط من على ظهره، واندفع إلى أحد الجمال المحملة بالصناديق، وهو يهتف:

- لا تسأل وأنت تجلس هناك وساعدني لنفتح أحد هذه الصناديق..

قال الكابتن في حذر:

- ولكن أوامر الملكة..

قاطعه في انفعال:

- دعك من هذا.. هيا وعاونى..

عاوناه جميعا على إنزال أحد الصناديق الثقيلة، وهتف هو في انفعال، وهو يزيل رتاج الصندوق:

- لن يمكنكم أن تتصوروا حجم المكافأة التي حصلنا عليها، والتي انتقيتها بنفسي من مقابر ملوك (المور).

فتحنا الصندوق، وتراجعنا مبهورين ..

كانت هناك أكوام من الذهب والمجوهرات والتحف الأثرية والأحجار الكريمة بمختلف انواعها..

والتمعت التحف والمجوهرات تحت أشعة الشمس الآفلة، وهتف (هيجز)، وهو يشير إلى الصناديق التي تحملها الجمال الأخرى:

- كل صندوق من هذه يحمل نفس الأشياء لقد منحتنا الملكة كنزا، مقابل ما فعلنا.. منحتنا كنوز الملك (سليمان)..

قلت في انفعال، وأنا أتطلع إلى الكنز:

- لا تنسوا نصيب الجاويش (كويك).. سيحصل على عشرة في المائة من كنوز الملك (سليمان)، وسنقدمها إلى أبناء شقيقه الراحل، وقع بصري في تلك اللحظة على وجه الكابتن، الذي بدا باردا، خاليا من الانفعالات، فبترت عبارتى؛ لأسأله في دهشة:
- الا يسعدك الحصول على كنوز الملك (سليمان)؟
أطلق من اعماق صدره تنهيدة حارة، وهز راسه وكتفيه، وهو يقول في اسف:
- ما فائدتها، وقد خسرت الكنز الحقيقي؟
ثم أدار ظهره لنا، وانصرف متجاهلا اكداس الذهب والمجوهرات..
لحظتها علمنا ما الذي يقصده بالكنز الحقيقي، وامتلأت رؤوسنا بصورة واحدة..
صورة الملكة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضت بنا القافلة في الصحراء، وقد تقدمتها أنا و (هيجز) لخبرتنا بدروب الصحاري، وسار الكابتن في الوسط، في حين بقى (رودريك) في المؤخرة، لسمعه الحاد، وخبرته في كبح جماح الجمال وقيادتها، وعبرنا مدينة (هرمق) العظيمة، وقد خلت من سكانها، وصارت أطلالا مهجورة، على الرغم من ان حقولها لا تزال مزهرة يانعة، وواصلنا سيرنا حتى بلغنا قرية مهجورة، فحططنا فيها الرجال، ورحنا نتناول طعامنا، مع مغيب الشمس ودار بيننا نقاش حول الطريق الذي ينبغي أن نتخذه، أننطلق إلى الشمال، أم نسلك الطريق القديم، بعد أن جفت مستنقعاته، وخرج (رودريك) لاستطلاع المنطقة، ثم عاد ليخبرنا انه قد وجد

آثارا تشير إلى أن جيشا عظيما من الفنج) قد غادر المدينة منذ ما لا يزيد على اثنتي عشرة ساعة على الأكثر..
ولقد أقلقنا هذا كثيرا، ورحنا نتساءل عما يعنيه هذا، حتى غلبنا النوم، فاستسلمنا إليه في عمق وقبيل الفجر أيقظني (رودريك)، وهو يقول:
- معذرة لإزعاجك يا أبي، ولكن هناك ظاهرة في السماء، أحب أن تشاهدها.
استيقظت وتطلعت إلى الشفق، حيث (المور)، وهالني ان أجد السماء هناك مضاءة، وكأننا في وسط النهار، فأسرعت إلى الكابتن، الذي لم يذق النوم، وهو يعلم أن حبيبته ستزف لأبشع رجل عرفه في حياته، فهب يحدق في المشهد بدوره، ثم قال في صوت هادئ:
- إن (المور) تحترق.
هتف (رودريك) في انفعال:
- لا ريب أن (الفنج) قد تسللوا عبر الطريق السري إلى (المور)، ولا شك أن (بارونج) قد ذبح (جوشيا)، أو قتله شر قتلة، قبل أن تزف إليه سليلة الملوك..
نامت عينا (اورم) بحزن عميق، دون أن ينبس ببنت شفة، في حين غمغمت أنا مشفقا:
- يا للملكة البائسة!! ترى ماذا أصابها؟
هز (هيجز) راسه، وقال:
- من يدري.. إنني معجب حقا بتلك الفاتنة.. يا للبائسة!!
وفجأة هتف (رودريك):
- هناك من يقتفي أثرنا..
أسرعنا إلى حيث يشير، ووقع بصرنا على شبح ملثم، يعتلي صهوة جواد متعب، فرفع (هيجز) بندقيته إليه، وقال في صرامة:

- من أنت؟
هبط الشبح عن جواده، وبدا لنا كصبي صغير اتجه نحو الكابتن، وقال في صوت أجش:
- إنني رسول أحمل رسالة للكابتن وناول الكابتن شيئا، ورأيت الكابتن يحدق في هذا الشيء مبهوتا، فألقيت نظرة على راحته، وهتفت:
- رباه!! إنه الخاتم.. خاتم (بلقيس)..
وصاح الكابتن في جزع:
- من اين اتيت بهذا الخاتم أيها الصبي؟ وماذا أصاب صاحبته؟
أجابه الصبي الملثم:
لقد ماتت ابنة الملوك التي عرفتها، ولم تعد بها حاجة لهذا الخاتم..
امتقع وجه الكابتن، وتراجع كالمصعوق، وانتقلت صاعقته إلينا، عندما أردف الصبي بصوت مألوف لأذاننا:
- ولكن (مجيدة) التي أحبتك ما زالت على قيد الحياة..
وانتزع الصبي اللثام، وشهقنا جميعا لقد كان (مجيدة) نفسها، التي رحنا نتطلع إليها في ذهول وصمت، قبل أن ترنو هي إلى حبيبها وتضيف:
- لم تعد بي حاجة إلى الخاتم، ما دمت سأبقى إلى جوارك.
ضمها (أورم) إلى صدره في لهفة وسعادة واشتياق..
الآن فقط نال الكنز الحقيقي..



وانتزع الصبي اللثام ، وشهقنا جميعًا ..
لقد كان (مجيدة) نفسها ، التي رحنا نتطلع إليها ..

كنز الملك (سليمان)

(تمت بحمد الله)

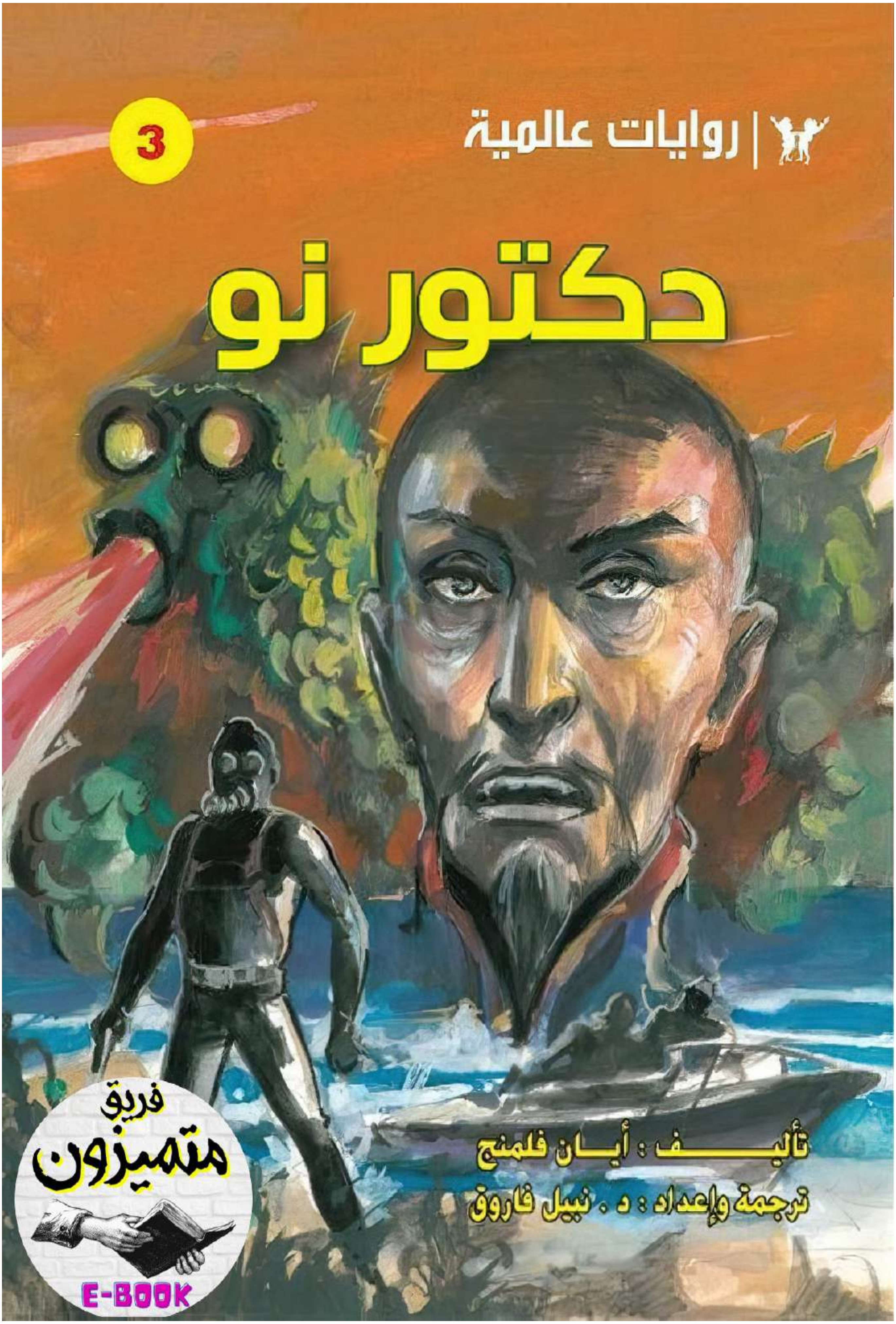
كنوز الملك سليمان
رائعة الأديب البريطاني (رايدار هاجارد)، التي يقفز فيها عبر عالم الخيال، إلى بلاد غامضة مجهولة، وسط أدغال أفريقيا، ليواجه مع أبطاله الأموال والأحداث المثيرة، في سبيل بلوغ تلك الكنوز الأسطورية.. (كنوز الملك سليمان).


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:


روايات عالمية
3
دكتور نو
تأليـــف : أيـان فلمنج
ترجمة وإعداد : د . نبيل فاروق
فريق
متميزون
E-BOOK

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (03)

دكتور نـــو

تأليف: آيـــــان فلمنج.
ترجمة وإعـداد: د. نبيـل فاروق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

1- جريمة..

توارى قرص الشمس الأحمر وراء الجبال، في تمام السادسة، مخلفا ظلا قانيا على شارع (ريتشموند)، وعلى أطراف أشجاره المرتفعة، التي تنتشر في حدائقه الغناء، وباستثناء حفيف أوراق تلك الأشجار، بدا الشارع ساكنا خاويا؛ فلقد ترك سكانه الأثرياء، من مديري الشركات والبنوك مكاتبهم، وعادوا إلى منازلهم في الخامسة كالمعتاد، تأهبا للسهرات شبه اليومية..

وشارع (ريتشموند) هذا هو أحد أفضل شوارع (جامايكا)، تصطف على جانبيه القصور المنيفة، ذات الطرز المعمارية المبهرة، التي تشف عن عظمة وثراء قاطنيه، وفي الركن الشرقي منه بناء كبير من طابقين، له شرفتان كبيرتان، ترتفعان على أعمدة رخامية ضخمة، وتمتد أمامه أرض سندسية خضراء، فرشت بالحصى الملونة، في نسق هندسي جميل، وتنتهي بساحات التنس الأنيقة لنادي الملكة، الذي يفخر بتاريخ من المآثر والانتصارات يبلغ نصف القرن، وعلى الرغم من عتاقة مظهره، إلا أنه لا يزال صالحا كأشهر نوادي الجزيرة المعروفة في البحر الكاريبي، تحتشد أمامه - كل ليلة - سيارات أصحاب الملايين، الذين يلتصقون بموائد القمار حتى منتصف الليل، ومن بينها سيارة القائد العام لقوات الدفاع في البحر الكاريبي، وسيارة المدعي العام لمدينة (كينجستون)، وأستاذ رياضيات معروف، وعدد من كبار سفراء وديبلوماسيي الدول الأجنبية..

ومع انتقال عقارب الساعة إلى السادسة والربع، راحت الحياة تدب تدريجيا في شارع الأثرياء، ومن أحد جوانبه، ظهر ثلاثة من المتسولين الصينيين، يتجهون نحو أربع سيارات متوقفة على

الجانب الآخر، وهم ينحنون في أدب جم، وعصيهم البيضاء تضرب أرض الشارع في رفق..
كان أولهم يخفي عينيه خلف منظار أزرق سميك، ويبدو وكأنما يمكنه أن يبصر بأفضل من الآخرين، وهو يمسك بيده وعاء صغيرا، ويضع يده الأخرى على كتف زميله الثاني، الذي وضع يده بدوره على كتف الثالث، وقد أغلقت عيون الثاني والثالث تماما، وبدا الثلاثة بثيابهم الرثة البالية أشبه بقطار بشرى متهالك، يمضي بلا صوت إلى جوار الإفريز، وكان مظهرهم وسط شارع الأثرياء يبدو مضجرا مثيرا للاشمئزاز والدهشة، والصفة الأخيرة بالذات تعود إلى أنهم لم يكونوا من الصينيين العاديين..
كانوا من الصينيين الزنوج!
و هذه الليلة بالذات كانت قاعة المقامرة بنادى الملكة مكتظة بالرواد، على رأسهم القائد العام (بيل تمبلار)، ومستر (سترانجوايز)، رئيس فرع المخابرات، الذي لم يلبث أن غادر القاعة، تاركا (بيل) مع رجلين آخرين، يتجاذبون أطراف الحديث، في انتظار عودته، حيث انطلق هو عائدا إلى مكتبه؛ لإنجاز بعض الأعمال العاجلة، وليبرق ببعض الأخبار الهامة إلى القيادة، ويتلقى تعليمات مسئولى القسم الثالث في (لندن)، الذين ينتظرون اتصالاته اللاسلكية الليلة هذه بفارغ الصبر..
وكانت هذه عادة من عادات (سترانجوايز) الثابتة: أن يغادر نادي الملكة في تمام السادسة والربع، فينطلق بسيارته لعشر دقائق، حتى يبلغ فيلته الأنيقة وسط جبال (كينجستون) الزرقاء، والتي تطل على الميناء، وهناك تستقبله سكرتيرته الآنسة (مارى تروبلود)، في حجرة خاصة، يوصدانها خلفهما في إحكام، ثم تجلس (مارى) أمام لوحة كهربية، تمتلىء بالأزرار والأرقام،

ويضع (سترانجوايز) سماعة خاصة على أذنيه، وبمعاونة (مارى)، يرسل رسائله اللاسلكية اليومية إلى رؤسائه.
و (سترانجوايز) هذا من القلائل الذين اشتهروا بالحزم والصرامة، والمقدرة الفذة على مجابهة أعتى الأمور، بالإضافة إلى قبضته الفولاذية، وكان فارع الطول، نحيفا، تخفي عينه اليمنى عصابة سوداء كبيرة، وهو سريع الحركة، دقيق الملاحظة، حاضر البديهة، وكان عقله منشغلا في تلك الفترة بالمهمة التي أسندها إليه مستر (م)، مدير المخابرات، منذ أسبوعين..
ولقد نجح (سترانجوايز) خلال هذين الأسبوعين في إماطة اللثام عن الكثير من الظلام والغموض في القضية، وكشف أشياء بالغة الخطورة، عن المجتمع الصيني، الذي يحيا في المدينة، ويسيطر عليها..
وفي ذلك اليوم، لمح (سترانجوايز) المتسولين الثلاثة، وهو يتجه إلى سيارته، المتوقفة أمام النادي، وأدرك ببديهته انهم سيعبرون به في سيرهم، فأخرج من جيب سترته قطعة كبيرة من النقد، ألقاها في الطبق النحاس الذي يمسك به أولهم فغمغم التسول:
- فليباركلك الله يا سيدى.
اتجه (سترانجوايز) في سرعة نحو سيارته، وهو يلقي نظرة دهشة أخيرة على المتسولين الثلاثة، وبدت له طرقات عصيهم، و هي تضرب الإفريز، أشبه بطنين عجيب..
وفجأة، استدار المتسولون الثلاثة في سرعة خاطفة، وتراجع اثنان منهما إلى الخلف، وبرزت مسدساتهم، وكل منها مصوب نحو نقطة محدودة من العمود الفقري لـ (سترانجوايز)..
وانطلقت ثلاث رصاصات..
وانتفض جسد (سترانجوايز) في عنف، وألقت به الضربة إلى الأمام، وأسقطته في قوة عند الإفريز، في اللحظة التي أشارت

فيها عقارب الساعة إلى السادسة وسبع عشرة دقيقة تماما..
وبسرعة انطلقت سيارة كبيرة من جانب الطريق، وحمل راكبوها، مع المتسولين الثلاثة، جسد (سترانجوايز)، في سرعة مذهلة، وألقوه داخل صندوق كبير، إلى جوار المقعد الخلفي، وأحاط المتسولين الثلاثة بالصندوق، وأخفوا جثة (سترانجوايز) بأرديتهم السوداء، ووضعوا على رءوسهم قبعات سوداء، وهم يلقون بعصيهم جانبا..
والتفت زعيم القتلة إلى السائق الصيني، الذي تبدو عليه العصبية، وقال بصوت جهوري آمر:
- انطلق بأقصى سرعة.
وتطلع إلى ساعته، مردفا والسيارة تنطلق كالصاروخ:
- تم قتل الرجل في الموعد المحدود تماما، ولم
تستغرق العملية أكثر من ثلاث دقائق.
وانطلقت السيارة نحو الجبال الزرقاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلعت (مارى تروبلود) إلى ساعة يدها في قلق، وهي تعبث في أزرار اللوحة الكهربية الكبيرة، فقد تخطت عقارب الساعة السادسة وثماني وعشرين دقيقة، أي أن (سترانجوايز) قد تأخر - لأول مرة - عشر دقائق كاملة، إلا أنها لم تلبث أن لمحت أنوار سيارة تقترب، فتنهدت في ارتياح..
ها هوذا في طريقه إليها..
أسرعت تلتقط سماعته الخاصة، وتضعها على مقعده المجاور لمقعدها، توفيرا للوقت، وتطلعت مرة أخرى إلى ساعتها في توتر، فسيبدأ الاتصال بينها وبين (لندن) بعد ثوان، وهي لا تدري

ماذا تفعل، لو لم يصل (سترانجوايز) في موعده، فلو أنها حاولت الرد بصفته، لانكشف امرها على الفور، ولتصور الرؤساء في (لندن) أن مكروها قد أصاب (سترانجوايز)، وأن الذي يتراسل معهم هو أحد الأعداء..
وفي السادسة والنصف تماما، ومع بدء الاتصال، سمعت (مارى) وقع أقدام تقترب، فتنهدت في ارتياح، وهي تسمع (لندن) تقول:
- هل تسمعني؟.. هل تسمعني؟
اقترب وقع الأقدام من الحجرة في سرعة، وأجابت (مارى):
- نعم أسمعك بوضوح تام.. أكرر.. أسمعك بـ..
بترت عبارتها بغتة، عندما سقطت ضربة قوية على كتفها، واستدارت في هلع، فوقع بصرها على رجل ضخم، يسد باب الحجرة، ويمسك بيده مسدسا ضخما..
ولم يكن هذا الرجل هو رئيسها (سترانجوايز)، بل كان صينيا من الزنوج..
وأطلقت (مارى) صرخة مدوية، ابتسم لها الصيني ابتسامة عريضة هادئة، وأطلق نحو صدر (مارى) ثلاث رصاصات، سقطت إثرها الفتاة جثة هامدة، وسقطت السماعات عن أذنيها، وارتفعت منها همهمة غامضة، توقفت في سرعة، مع اشتعال مصباح أحمر خاص، يشير إلى حدوث أمر ما في المحطة الخاصة..
وبكل الهدوء والاطمئنان غادر الصيني الحجرة، وعاد إليها حاملا كيسا كبيرا، دفع داخله جثة الفتاة، وسحبه إلى ردهة الفيلا، ثم عاد مرة ثالثة، وفتح خزانة كبيرة في ركن الحجرة، وأخرج منها كتب الشفرة، ألقاها وسط الحجرة، ثم انتزع الستائر، و غطي بها كومة الكتب التي صنعها، ورص حولها عدة أصابع من الديناميت، ثم أشعل النار في أثاث الفيلا، وفتح بابها على

مصراعيه، ليسمح للهواء بالتدفّق داخلها، وسحب الكيس الذي يحوي جثة (مارى) إلى الخارج في هدوء، فتقدم منه زميلاه، وحملا الكيس، وألقياه فوق جثة (سترانجوايز)، وانطلقت بهم السيارة مبتعدة،

ومن خلفهما اشتعلت النيران في الفيلا..

وعندما غاصت جثتا (ستراجوايز) و (مارى) في أعماق نهر (موناريزير فوار)، إلى الأبد، كانت النيران قد التهمت في شراهة كل أوراق الخدمة السرية في البحر الكاريبي..

وكانت الجريمة قد نجحت تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2 - رقم (007) ٠٠

جاء شهر مارس بعد ثلاثة أسابيع من هذا الحادث، حاملا معه أبشع عاصفة جليدية شهدتها (لندن) منذ سنوات طوال، وعلى الرغم من البرودة الشديدة، توقفت سيارة (رولزرويس) كبيرة أمام مبنى ضخم، في ساحة (ريجنت)، وهبط منها مستر (م)، مدير المخابرات البريطانية، وحبات الثلج تتساقط على وجهه في عنف، وبدلا من أن يحتمى منها بدخول المبني، راح يتحدث مع سائق سيارته في هدوء، ويطلب منه أن ينصرف باقي اليوم، ثم اتجه إلى المبنى، وحمله المصعد إلى مكتبه في الدور الثامن، حيث جلس أخيرا خلف مكتبه المكدس بالأوراق، داخل حجرته الدافئة، وضغط زرا صغيرا أمامه، وهو يقول:

- أريد كل البرقيات أولا يا مس (مونبني)، وبعدها اتصلي بسير (جيمس مولونى) في (سان مارى)، وأبلغي مدير المستخدمين أنني أريد مقابلة رقم (٠٠٧) بعد نصف ساعة، وأحضري ملف (سترانجوايز).

لم تمض إلا لحظات حتى كانت سكرتيرته مس (مونبنى) أمامه، حاملة مجموعة ضخمة من البرقيات، والملف المطلوب، وبعدها أضيء مصباح أصفر صغير على جهاز أمامه، فالتقط سماعة هاتفه، وقال:

- مرحبا يا سير (جيمس).. ألديك خمس دقائق اليوم؟

أجابه (جيمس):

- بل ست من أجلك أتريد مني أن أراقب وزيرا من وزراء صاحبة الجلالة؟

ابتسم (م)، وقال:

- لا.. ليس اليوم.. إنني أتحدث إليك بشأن الرجل الذي أفرجت عنه أمس..
هل يصلح للعمل مرة أخرى؟
أجابه (جيمس) في حماس:
بالتأكيد.. لقد شفيت ساقه، وهو الآن سليم معافي، ولكن الواقع أنك ترهق رجالك كثيرا يا مستر (م)، وينبغي أن تمنح ذلك الرجل عملا بسيطا هذه المرة، فلقد علمت أنه قد تعرض لأزمات مخيفة في الأعوام السابقة.
زمجر (م)، وهو يقول:
- إنه يحصل على أجر مرتفع، ولن يكون أول من حطمته المخاطر، ثم إنه ما زال يحتفظ بكل قوته.. لقد أرسلت إليك رجالا اجتازوا الأهوال، وفقد بعضهم كل شيء، في حين انتصر الآخرون بكل جدارة.
قال (جيمس) في ضيق:
- من السهل أن تتحدث هكذا، وأنت بعيد عن الألم، ولكن رجلك هذا تعرض لأبشع ألوان الألم والعذاب، ولا تتصور أن هذا لم يحدث، لمجرد أنه لم يفقد ضلعا أو طرفا من أطرافه، فلقد تعرض لآلام لا توصف.
غمغم (م):
- هذا صحيح، ولكن (بوند) يعمل بتهور، ولابد أن يدفع ثمن تهوره هذا.
ولما لم يكن يميل إلى أن يلقي الآخرون نصائحهم على أذنيه، خاصة ولو كان هؤلاء الآخرون، مثل سير (جيمس مولونى)، أعظم أطباء (إنجلترا)، لذا فقد أبدل الحديث في سرعة، مستطردا:
- هل سمعت عن رجل يدعى (بينزستينكرون)،

- لا.. من هو؟.
- إنه طبيب أمريكي، وضع كتابا عن مدى احتمال الجسد البشري للتعذيب، وقد أرسل إلى رجالنا في (واشنطن) نسخة من هذا الكتاب، وهو يحوي قائمة بالأعضاء التي يمكن أن يتخلى عنها جسم الإنسان، ويعمل بدونها.
والتقط من جيب سترته ورقة، تابع وهو يقرأ محتوياتها:
- ها هي ذي القائمة: الحويصلة الصفراء، والمرارة، واللوزتان، والزائدة الدودية، والطحال، وإحدى كليتيه، وإحدى رئتيه، ولتران من الدم، وخمسان من الكبد، وجزء ضخم من المعدة، ومتر ونصف من الأمعاء، وفص أمامي من المخ.
قال (جيمس) في حيرة:
- ولماذا لم يضف ذراعا أو ساقا؟ الواقع أنني لست أفهم ما ترمي إليه من سرد ذلك!!
أطلق (م) ضحكة طويلة، وقال:
- لست أستهدف شيئا يا سير (جيمس)، إنها مجرد قائمة طريفة لفتت انتباهي.. المهم أن رجلنا قد نجا بأعجوبة مما لاقاه من تعذيب، وحاول أن تحتفظ بالسر، فقد نويت إسناد مهمة بسيطة إليه بالفعل في (جامايكا)، وأظنه سيقضى وقتا طيبا هناك، يستريح فيه من معاناته السابقة، تحت شمس (جامايكا) الدافئة.. ما رأيك في هذا؟
أجابه (جيمس) في حذر:
- لست أحب التدخل في عملك يا مستر (م) ولكن حتى الشجاعة لها حدودها، وأنت تعامل رجالك كما لو كانوا من الخارقين، ولست أظنك ترغب في رؤيتهم ينهارون في اللحظة الأخيرة.. صحيح أن رجلك هذا من الطراز الفذ، ويمكنك أن تحصل منه على المزيد، حتى بوضعه الحالي، ولكنك تذكر

بالطبع ما قاله (موران)، في كتابه الطبي الجديد، عن مدى احتمال الجسد البشري للتعذيب، ومدى شجاعته.
غمغم (م):
- لا.. لست أذكر شيئا من هذا.
أجابه (جيمس):
- إنه يقول إن الشجاعة هي رأس مال الرجل، تستهلكها كثرة استخدامها، ويبدو أن رجلك قد استنفد معظم شجاعته قبيل الحرب.. صحيح ما يزال شجاعا صنديدا، ولكن لكل شيء حدوده.
لم ير (جيمس) ابتسامة (م) الغامضة، وهو يقول:
- لهذا السبب بالذات أرسله لقضاء إجازته في (جامايكا).. وبالمناسبة، هل أمكنك كشف طبيعة تلك المادة، التي دستها له الجاسوسة السلافية؟
أجاب سير (جيمس):
- لقد فعلنا هذا أمس فقط، وبعد ثلاثة أشهر من البحث المتواصل، بفضل طالب طب موهوب، أمكنه كشف تلك المادة المخدرة السامة، التي يستخدمها الجواسيس اليابانيون للانتحار، والتي لجأت إليها تلك الدولة السلافية، للقضاء على عملاء الدول الأخرى، وهذا السم يشل المراكز العصبية فورا، ويحمل الاسم العلمي (تترودوثوكسين)، وهو سم زعاف، يؤدي إلى ازدواج بصري سريع، ثم فقدان القدرة على الرؤية، فالموت بسبب شلل تام في الجهاز العصبي.
هتف (م):
- إذن فقد نجا رجلنا من الموت بأعجوبة.
- بل قل معجزة، لقد كانت فرصة نجاته واحدا

في المليون، لولا أن أسعفه زميله بهذه السرعة، وراح يبقيه بالتنفس الصناعي، حتى وصل الطبيب.. وبالمناسبة، ماذا أصاب تلك الجاسوسة السلافية؟

- لقد ماتت، ولا تخش على مريضك، فسيكون موضع رعايتنا وعنايتنا.. إلى اللقاء.

لم يكد (م) ينهي المحادثة، حتى تجهم وجهه، وراح يفحص البرقيات والأوراق العاجلة في ضجر، ويوزعها على خانات خاصة بالمكتب، حتى لم يتبق أمامه سوى ملف كبير، يحمل باللون الأحمر عبارة (سرى جدا)، وباللون الأسود في منتصفه (قسم البحر الكاريبي) ثم في أسفله، وبحروف صغيرة للغاية: (سترانجوايز) و (تروبلود)، وفجأة سطع مصباح صغير أمامه، فضغط (م) زرا خاصا، وقال:

- أهو رقم (٠٠٧)؟

أجابته سكرتيرته:

- إنه هو يا سيدى.

قال في اهتمام:

- دعيه يدخل على الفور، واطلبي من خبير الأسلحة الحضور بعد خمس دقائق.

اعتدل في مجلسه، عندما دلف (جيمس بوند) إلى حجرته، وهو يقول:

- صباح الخير يا سيدى.

صباح الخير يا (٠٠٧).. اجلس.

اتخذ (بوند) مقعدا وثيرا، يواجه مستر (م)، الذي بدا هادئا صامتا، يتأمل (جيمس بوند) بنظرة فاحصة، وينفث دخان غليونه الكثيف، قبل أن يقول:

- كيف حالك الآن يا (بوند)

- بخير حال يا سيدى، ومن حسن الحظ أنني هنا الآن، لأجيب السؤال.
- ما رأيك بشأن مهمتك الأخيرة.. ألديك معلومات جديدة؟
- لا يا سيدي، والواقع أنني الملوم بالنسبة لما أصابني؛ لأنني سمحت لتلك المرأة بالتغلغل في حياتى، على عكس قواعد العمل المعمول بها في مهنتنا.
- أعلم أن مسدسك قد تعطل ايضا يا (007).. قل لي: هل تحب أن تتخلى عن ذلك العمل الشاق، وتعود إلى الخدمة العامة؟
ألقي عليه (بوند) نظرة ساخطة، فالرقم الذي يحمله، مع صفرين إلى يساره، رقم خاص، يندر أن يحوز مثله رجل مخابرات في مثل عمره.، لذا فقد غمغم:
- لا يا سيدي.. لست أحب العودة إلى الخدمة العامة.
- لابد أن تبدل مسدسك إذن.
- ولكنني اعتدت مسدسى يا سيدي، وما أصابه يمكن أن يحدث لأي مسدس.
- لست أوافقك على هذا.. ثم إن هذا أمر.. المهم هو ما النوع الآخر الذي تفضله؟
ودون أن ينتظر جوابا من (بوند)، ضغط زر جهاز الاتصال، يسأل سكرتيرته:
- هل وصل خبير الأسلحة؟.. دعيه يدخل على الفور.
وعاد يلتفت إلى (بوند)، مستطردا:
- الماجور (بوثرويد) هو أعظم خبراء السلاح لدينا، وستدهشك خبرته حقا.
لم يكد يتم حديثه حتى دلف إلى الحجرة رجل قصير، ألقي التحية على مستر (م) في احترام، فقال الأخير بعد إجابة التحية:
- قل لي أيها الخبير: ما رأيك في (البيريتا) عيار 25؟

- إنه مسدس للسيدات يا سيدى.
ابتسم (م) وهو يلقي نظرة خبيثة على (بوند)، وقال:
- عجبا!.. ما الذي يدعوك إلى هذا القول؟
- السلاح السهل الاستعمال إلى هذا الحد، لا يصلح إلا للسيدات.
- وماذا لو أضيف إليه كاتم للصوت؟
- سيبقى بنفس سهولته يا سيدى، ثم إنني لا أنصح باستخدام كواتم الصوت، فهي ثقيلة، وقد تعلق بجيبك، وأنت في عجلة من أمرك، وعموما لست أحبذ استخدام (البيريتا 25) أبدا.
التفت (م) إلى (بوند)، وقال:
- هل من تعليق يا (007)؟
هز (بوند) كتفيه، وقال في عناد:
- بل أكثر من تعليق يا سيدى. لقد استخدمت هذا السلاح خمسة عشر عاما، دون أن يصاب بأي عطل، أو ينحرف عن هدفه قط، والمشكلة أنني قد اعتدت استخدام هذا النوع بالذات، على الرغم من استعمالى لعدة أسلحة أكبر، وما زلت أفضل (البيريتا 25)، وإن كنت أوافق على كون كواتم الصوت ثقيلة ومزعجة، ولكن المرء يضطر كثيرا لاستخدامها.
أجابه (م) في صرامة:
- تغيير السلاح يحتاج إلى تمرين، ولكن المرء لا يلبث أن يعتاد سلاحه الجديد.. ثم إن هذا قرار نهائي.. هيا.. قف، ليلقي عليك خبير الأسلحة نظرة فاحصة، يحدد لك بعدها السلاح الذي تستخدمه.
نهض (بوند) في مواجهة القصير، الذي دار حوله في اهتمام، وقال:
- دعني أرى سلاحك وغمده.



نهض (بوند) في مواجهة القصير، الذي دار حوله في
اهتمام، وقال:
- دعني أرى سلاحك وغمده..

ناوله (بوند) مسدسه، وجرابه الذي يعلق أسفل إبطه، وفحصهما الخبير فحصا دقيقا، قبل أن يقول له (م):
- أظنني أستطيع اختيار السلاح المناسب له يا سيدى.

سأله (م) في اهتمام:
- حسنا.. ماذا تقترح؟
أجابه الخبير:
- بعد فحص ما يقرب من خمسة آلاف نوع من الأسلحة الصغيرة، بدا لي أن أفضلها هو السلاح المعروف باسم (ولثر 7.65 مليمتر)، ولقد صنع بعد السلاح الياباني (م - 14)، والروسي (ثوكاريف).. وهو خفيف الزناد، يناسب كتف رقم (007) تماما، ويزيد وزنه عن (البيريتا) قليلا، ويمكنك الحصول على ذخيرته من أي مكان في العالم.. إنه السلاح المثالي.
التفت (م) إلى (بوند)، يسأله:
- هل من ملاحظات؟
أجابه (بوند):
- إنه سلاح ممتاز يا سيدى.. ترى ما رأى خبيرنا، بالنسبة لحمله؟
قال خبير الأسلحة:
- يمكنك تعليقه أسفل كتفك اليسرى مباشرة، بحيث تستطيع انتزاعه في جزء من الثانية، عند الخطر المفاجئ، وفي ثلاثة أخماس من الثانية، يمكنك قتل رجل يقف على قيد سبعة أمتار.
سأله (م):
- ألا يوجد سلاح أكبر قليلا؟
- واحد فقط يا سيدى، من طراز (سميث ووسون)، عيار 38، طوله 15 سم، ويزن ما يقرب من ثلثمائة جرام، ويتسع لخمس رصاصات فقط، لابد أن تكون قد تجاوزت مرحلة الخطر تماما، قبل أن تنفد هذه الرصاصات الخمس؛ لأن تعبئته مرة أخرى تحتاج إلى وقت أطول مما ينبغي في لحظات الخطر، ولكنه لا يلتصق بالملابس أبدا، و...

- حسنا.. حسنا.. إنني أفضل (سميث ووسون) هذا.. أرسل مسدسا من هذا النوع إلى (007)، وقم بتدريبه على استخدامه اليوم، وشكرا لك يا ماجور.
غادر خبير الأسلحة الحجرة، مخلفا صمتا رهيبا، قطعه تساقط حبات المطر على زجاج المكتب، و (بوند) يسترجع ذكرياته مع مسدسه، الذي لازمه طيلة خمسة عشر عاما، أنقذ حياته خلالها عشرات المرات، وكان له نعم الصديق المخلص، الذي يلازمه في أوقات الشدة، وراح يفكر في كل من أرداهم هذا المسدس، من رجال ونساء، في ظروف قاهرة، حتى قطع (م) أفكاره، قائلا:
- معذرة يا (بوند).. أعلم كم تحب سلاحك هذا، وكم تربطك به من ذكريات، ولكن حان وقت تقاعده، وخذها مني قاعدة.. لا تقامر أبدا بسلاحك، ولا تمنحه فرصة ثانية، كما أننى لا أستطيع المقامرة برجالي، في القسم ذى الصفرين، وأنت تدرك هذا.
- أدركه يا سيدى، ولست أناقش الأمر، ولكن يؤسفني بالطبع أن أرى سلاحي يذهب.
- لن نطيل في الحديث عنه إذن، فلدي أمر أكثر أهمية.. مهمة في (جامايكا) مجرد إجراءات عادية، تكتب عنها بعض التقارير.. ستفيدك شمس الكاريبي كثيرا، وستكون إجازة ممتعة.. هل يروق لك هذا النوع من العمل؟
درس (بوند) الأمر في ذهنه لحظة، وقال:
- تبدو لي مهمة روتينية عادية يا سيدى، ولكن لو أن هذه إرادتك فسوف..
قاطعه (م) في صرامة:
- نعم.. إنها إرادتى
ولم يعد هناك مفر من قبول المهمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3 – چوليوس نو ..

انتشر الظلام والبرد خارج مبنى المخابرات البريطانية، وضغط (م) زرًا كهربيا، أضيئت الحجرة بعده بضوء أصفر، انعكس على المكتب المبطن بجلد أحمر، فبدا أشبه بقطعة من الجمر الملتهب، وهو يناول (بوند) ملفا يحمل اسمى (سترانجوايز) و (تروبلود)، وهو يقول:

- لقد أرسلت في طلب رئيس المكتب، فهو يعلم أكثر كل تفاصيل تلك القصة المثيرة العنيفة.

لم تمض إلا لحظات حتى حضر الكولونيل رئيس المكتب، وصافح (بوند) في حرارة، لمعرفتهما السابقة، ثم أشار إليه (م) بالجلوس، وهو يقول:

- لقد أسندت قضية (سترانجوايز) إلى رقم (007)، وعلينا أن نمهد للأمر، قبل تعيينه في موضع الأول، وأريد أن يتسلم (007) منصب رئيس قسم الكاريبي خلال أسبوع واحد.. والآن هيا ندرس القضية.. أظنك تعرف (سترانجوايز) يا رقم (007)، فلقد عملتما معا في قضية الكنز، منذ خمسة أعوام، فماذا كان رأيك فيه؟..

- كان رجلا عظيما يا سيدى، من طراز رفيع وكنت أظنكم قد استبدلتم به غيره، فخمس سنوات في المناطق الحارة فترة طويلة للغاية.

- دعك من هذا، وأخبرني بانطباعاتك عن مساعدته (مارى تروبلود).. هل تعرفتها؟

- لا يا سيدى.

- ليس لدينا ما يدينها، فهي جميلة، وربما كان جمالها هو سبب هذه الجريمة، قل لي، هل كان (سترانجوايز) من ذلك النوع المغرم بالنساء؟
بدا (بوند) شديد الحرص، وهو يقول:
- من يدري.. ولكن ماذا أصابهما يا سيدي؟ هذا ما نبحث عنه.. لقد اختفى الاثنان فجأة، وبدون سابق إنذار، منذ ثلاثة أسابيع، ودمرت النيران فيلا (سترانجوايز)، ومحطة الإرسال، وكتب الشفرة كلها، ولقد عثرنا وسط الأطلال الباقية على جواز سفر الفتاة، ولكن هذا لا يعني شيئا، فمن السهل أن يقوم (سترانجوايز) بتزوير جوازي سفر، فهو رئيس مكتب الجوازات بالجزيرة، وربما هرب مع الفتاة إلى أمريكا الجنوبية مثلا.. وعلى أية حال، ما زال رجال الشرطة يفحصون قوائم جوازات السفر، دون أن يسفر هذا عن شيء، ولابد أنهما فرا بعد أن صبغت الفتاة شعرها، وأبدل (سترانجوايز) هيئته، فلا يمكنك الاعتماد على وسائل الأمن في مطارات تلك الجزر.. أليس كذلك يا رئيس المكتب؟
وافقه رئيس المكتب بإيماءة من رأسه، وقال:
- بلى، ولكن ما الذي يعنيه ذلك الاتصال الأخير؟
ودون أن ينتظر جوابا لسؤاله، التفت إلى (بوند)، مستطردا:
- لقد بدأ اتصالهما بنا في تمام السادسة والنصف بتوقيت (جامايكا) كالمعتاد، ويؤكد خبراؤنا أن الفتاة هي التي بدأت الاتصال هذه المرة، ثم اختفت بغتة، وحاولنا بعدها إعادة الاتصال مرات ومرات، ولكن بدا من الواضح أن أمرا غير طبيعي يحدث هناك، دون أن نتلقى ردا على إشاراتنا الحمراء والزرقاء، وعلى الفور طار رقم (258) من (واشنطن) إلى (جامايكا)، ولكن البوليس كان قد سبقه إلى هناك، وأكد حاكم الجزيرة أن

(سترانجوايز) كان يقع في مشاكل عاطفية، من آن إلى آخر، واستكان إلى ما استنتجه من هذا، دون أن يبذل مزيدا من التحريات، في حين قضي رقم (258) أسبوعا كاملا هناك، دون أن يجد دليلا واحدا جديدا، فكتب تقريره، وعاد إلى (واشنطن)، وبعدها لم تقدم الشرطة على جديد، ويمكننا أن نتفق مع الحاكم في استنتاجه، ولكن انقطاع الإرسال المفاجئ يقلقني، فلست أجد رابطا بين فرار عاشقين، وانقطاع الاتصال اللاسلكي على نحو مباغت، أضف إلى هذا أن (سترانجوايز) بدا طبيعيا للغاية، وهو يغادر النادي في موعده المعتاد، طبقا لأقوال أصدقائه، ثم إنه قد اختفى تاركا سيارته أمام النادي، ولو أنه ينتوى الفرار بالفعل، فلماذا لم يؤجل هذا حتى الصباح؟ أو حتى وقت متأخر من الليل، بعد أن يؤدي اتصاله المعتاد.. الواقع أن الأمر يبدو لي شديد التعقيد، على نحو يثير الحيرة.

أجاب (م) في صرامة:

- كل المحبين يقترفون أخطاء جسيمة، تشف عن الغباء، والجنون في بعض الأحيان، وإلا فهل لديك تعليلات أخرى؟.. بالنسبة إلى لست أجد دافعا واحدا للفرار على هذا النحو، باستثناء الدافع النسائي، فقسم الكاريبي هذا محط أنظار الدول الأخرى، إذ يسهل الاختفاء فيه؛ لبعده عن (لندن)، ولم يقم (سترانجوايز) بأي عمل كبير، منذ كان رقم (007) هناك.

ثم التفت إلى (بوند)، يسأله:

- ما رأيك بعد كل ما سمعته؟

- صحيح أنه لا يوجد سبب منطقي لفرار(سترانجوايز) على هذا النحو، ولكنني لا أجرؤ على اتهامه بالتورط في مشكلة غرامية، فالخدمة كانت دائما حياته كلها، ولن يقدم على خيانتها، مهما

كانت الأسباب، ولو أنه أراد الاعتزال، لسألك أن ترسل من يحل محله، ومن العسير أن أصدق فراره لأي سبب.
- شكرا يا رقم (007).. لقد دارت الأفكار نفسها في رأسي أيضا، فليس من المفضل أن يقفز المرء إلى النتائج، دون أن يزن الاحتمالات كلها.. هل لديك رأى آخر إذن؟
قال هذا وتراجع بمقعده منتظرا، فقد كانت هذه القضية تقلقه، وسط عشرات المشاكل الأخرى؛ لذا فقد قرر إسناد المهمة إلى (بوند)، لينطلق إلى (جامايكا)، ويضع حدا للحيرة، ولما لم يجد جوابا من (بوند) تمتم في حزم:
- حسنا.
أجاب (بوند) في حرص، ما دام الحديث يدور حول صديقه (سترانجوايز):
- ما آخر قضية عمل بها (سترانجوايز) يا سيدى؟.. هل أطلعكم على أمر ما، أو كلفه القسم الثالث البحث عن شيء محدود في الشهور الماضية.
هز (م) رأسه، وقال:
- لا شيء مطلقا.
أسرع رئيس المكتب يضيف:
باستثناء قضية الطيور.
تمتم (م) في لا مبالاة:
- إنها قضية لا صلة لها بموضوعنا، كلفتنا إياها حدائق الحيوان حسبما أذكر.
قال رئيس المكتب:
- لا يا سيدي.. بل جماعة (أودبون) الأمريكية، التي تسعى لحماية الطيور النادرة من الانقراض، ولقد وصلنا الطلب عن طريق سفيرنا في (واشنطن).

سأله (بوند) في اهتمام:
- اذكر لي طرفا من أعمال جمعية (أودبون) هذه يا سيدي، وأخبرني ما الذي طلبوه منا بالضبط؟
أجابه الرجل:
القصة كما نقلناها إلى (سترانجوايز)، في العشرين من يناير الماضي، هي أنه هناك طائر يعرف باسم (اللقلق الملعقى)، ولدينا هنا صورة له، وهو على هيئة طائر عريض المنقار، يحفر الطين بمنقاره القبيح، ولقد بدأ هذا الطائر في الانقراض منذ الحرب العالمية الثانية، حيث لم يزد عدد الموجود منه على مائتى طائر، معظمها في (فلوريدا) وحولها، ثم أبلغ شخص ما عن وجود مستعمرة كاملة منه في جزيرة تدعى (كراب كى)، بين (جامايكا) و (كوبا)، وتم العثور على الطيور بالفعل، وتبين أن الجزيرة مهجورة منذ ما يزيد على الخمسين عاما، فاستأجرت جماعة (أودبون) ركنا من الجزيرة لحماية هذه الطيور، وعينت حارسين لحمايتها، وأقنعت شركات الطيران بالامتناع عن التحليق فوقها خشية انزعاج الطيور وفرارها، فازدهرت المزرعة، وبلغ عدد الطيور ما يربو على خمسة آلاف طائر، ثم جاءت الحرب، وارتفع ثمن الجزيرة، وأقنع أحد الشبان الأذكياء حكومة (جامايكا) ببيعها، واشتراها ببضعة آلاف من الجنيهات، بشرط ألا يعكر صفو الركن الذي استأجرته جمعية (أودبون)، وكان هذا عام 1943، وبعدها أحضر الشاب عددا من العمال، وراح يعمل في الجزيرة بكل همة ونشاط.
سأله (بوند):
- ومن هذا الشاب؟
- رجل نصف ألمانى ونصف صيني، يطلق على نفسه اسم دكتور (نو)، واسمه الكامل هو (چوليوس نو).

- ألديك شيء عنه؟
- إنه يحتفظ بكل شيء سرا، ولم يره مخلوق واحد، منذ اشترى الجزيرة، وسارت الأمور على نحو هادئ، لا يلفت انتباه أحد، حتى عيد الميلاد السابق، عندما عاد أحد حارسى ركن جمعية (أودبون) إلى ساحل (جامايكا) بقارب صغير، وقد احترق معظم جسمه، ومات بعد أن ذكر قصة عجيبة خرافية، حول تنين هاجم المعسكر، وأمطره نيران من فمه، وقتل زميله، وحرق المعسكر، وكل أعشاش الطيور النادرة، وأنه هو قد نجا من الموت بأعجوبة، وراح يسبح بقارب صغير طيلة الليل، حتى بلغ الساحل.. ولقد تم إرسال تقرير بهذا إلى جمعية (أودبون)، فرفضت الاقتناع بالقصة، وأرسلت اثنين من رجالها الأشداء، للتحقيق في الأمر، ولكن طائرة الرجلين سقطت في أثناء هبوطها، وتحطمت، ولقيا مصرعهما، وأثار الأمر غضب وحفيظة محبي الطيور، وأمكنهم الحصول على إذن خاص بالاتصال بدكتور (نو)، الذي استقبل مندوبهم بحفاوة بالغة، وأبعده عن منطقة عمله، وصحبه إلى موضع سقوط الطائرة، التي تحولت إلى فتات، فاصطحب المندوب جثتي الرجلين عائدا إلى بلاده، في احتفال مهيب، جعل المندوب يشيد لدى عودته بكرم دكتور (نو) وحفاوته، واقتنع تماما بتفسير دكتور (نو) حول حادث المعسكر، حيث استنتج (نو) أن أحد الحارسين قد أصيب بجنون مفاجئ، جعله يقتل زميله، ويشعل النيران في المعسكر، وأصابته النيران وهو يسعى للفرار، وأكثر ما جعل التفسير يبدو منطقيا تلك البقعة الرهيبة، التي عاش فيها الحارسان قرابة عشرة أعوام، ولكن تقرير المندوب تضمن انخفاض عدد الطيور إلى حد كبير، ولم يكد هذا التقرير يبلغ الجمعية، حتى اتصل بنا

مسئولوها وطلبوا منا تحري الأمر، فحولنا الموضوع برمته إلى (سترانجوايز).. هذا هو كل شيء. تطلع (م) إلى (بوند)، وقال:
- أرأيت؟.. إنها إحدى هوايات المتعطلين والمسنين، الذين لا يتورعون عن الزج بالسياسيين وبنا في المشاكل، من أجل بعض الطيور النادرة والعجيبة..
وصمت لحظة ثم أضاف:
- المشكلة أن الجزيرة ملك خاص، وكل الجهات ترفض التدخل رسميا، فما الذي يمكننا عمله؟.. هل نرسل غواصة صغيرة إلى الجزيرة، وأحد رجالنا المدربين، للبحث عما أصاب بضعة طيور؟!
قال (بوند):
- هل يمكنني قراءة ملف الطيور هذا يا سيدي؟.. إنني أشعر بالحيرة؛ لأن أربعة رجال قد لقوا مصرعهم بسببها، وربما نضيف إليهما (سترانجوايز) و (تروپلود) أيضا.. صحيح أن الفكرة قد تبدو سخيفة ولكن..
قاطعه (م) في ضجر:
- خذ.. ها هو ذا الملف، فلدى يوم مثقل بالأعباء.
ثم أضاف في صرامة، عندما نهض (بوند) ملتقطا مسدسه الجديد:
- اترك هذا بدلا منه، وستحصل بدلا منه على مسدسين جديدين..
ولأول مرة في حياته شعر (بوند) بالكراهية تجاه (م)، وتساءل: لماذا يبدو هذا الرجل صارما عنيدا إلى هذا الحد؟.. ولماذا يعاقبه لمجرد أنه قد عرض حياته للخطر في مهمته الأخيرة.. ألأنه تعرض لهذا بسبب استهتاره هذه المرة.. أم..
بتر أفكاره، التي بدت له عديمة الجدوى، واعاد

مسدسه إلى مكتب (م)، قائلا:
- كما تأمر يا سيدى.
وانطلق ليبدأ مهمته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- صحفية..

حلقت طائرة ضخمة، من طراز (سوبر كونستليشن) فوق أراضي (كوبا) الخضراء، في طريقها إلى (جامايكا)، وراح (بوند) يتطلع إلى الجزيرة التي تبدو في الأفق، وإلى البحر المحيط بها، بألوانه المتباينة، ما بين الأزرق الداكن والسماوي الهادئ، ثم لم يلبث - مع اقتراب الطائرة - أن لمح المباني الصغيرة، والغابة الكثيفة على الجزيرة، التي أطلق عليها هنود قبائل (. أراوك) القديمة اسم (أرض التلال والأنهار)، وقد بدت له الجبال الزرقاء، وأضواء شارع (كنجستون) تتألق من خلفها، وذلك الميناء الكبير المجاور للمطار، والطائرة تهبط على ممر الهبوط المجاور للأبنية البيضاء الصغيرة..

وفي المطار، تطلع ضابط الجوازات إلى صورة (بوند)، وإلى خانة العمل، التي كتب فيها (تاجر استيراد وتصدير)، وسأل (بوند):

- في أية شركة تعمل؟
- الشركة العالمية للصادرات.
- وهل أتيت للعمل أو لقضاء إجازتك؟
- لقضاء إجازتي.
- أرجو لك إجازة سعيدة إذن يا سيدى.

تناول (بوند) جواز سفره، واتجه نحو الحاجز الذي يفصل منطقة الجمارك عن المنطقة المدنية، وهناك وقع بصره على رجل يرتدي نفس القميص الأزرق والسروال الكاكي، اللذين رآه (بوند) يرتديهما منذ خمس سنوات، فهتف:

- أوه.. (كواريل).

ابتسم الرجل الفارع الطول، ولوح بيده من خلف السور، محييا (بوند)، على طريقة الهنود الحمر:
- مرحبا يا كابتن.. كيف حالك؟
أجابه (بوند) في مرح:
- في خير حال يا رجل.. سأنهي إجراءات الجمارك في سرعة، ثم ألحق بك..
انتهت الإجراءات الجمركية في سرعة، وراح (بوند) يصافح (كواريل)، وهو يقول:
- لم تتغير كثيرا يا صديقى.. كيف صار أمر صيد السلاحف؟
- لا بأس يا كابتن.. أخبرني.. هل كنت مريضا؟
- هذا صحيح، ولقد شفيت منذ أسابيع، ولكن كيف علمت هذا؟
- معذرة يا كابتن، ولكن وجهك يحمل آثار ألم، لم يكن هناك في المرة السابقة.
- إنه أمر بسيط يا (كواريل)، وإن كنت أحتاج إلى دوائك الخاص.
لم يكد يتم عبارته حتى ظهرت بغتة صحفية شابة، التقطت لهما صورة سريعة، قبل أن تتجه نحوهما، قائلة:
- شكرا لكما.. أنا صحفية من جريدة (دايلى جلينر).. أنت مستر (بوند) أليس كذلك؟.. قل لي يا مستر (بوند): كم ستمضي من الوقت هنا؟
بدت تلك البداية غير مبشرة بالخير، بالنسبة لـ (بوند)، ولكنه أجاب في سرعة:
- إنها مجرد زيارة عابرة، وأنا واثق من أنك ستجدين شخصيات هامة على متن الطائرة.
- إنني أنشدك أنت يا مستر (بوند).. في أي فندق ستقيم؟

- فندق (ميرتل بنك).
- شكرا لك يا مستر (بوند).. أرجو أن تطيب لك الإقامة هنا.
تركها (بوند) وزميله، وغادرا المطار، وقال (بوند):
- هل رأيت هذه الفتاة من قبل في المطار؟
هز (كواريل) رأسه نفيا، وأجاب:
- لا أعتقد هذا، ولكن لجريدة (ديلى جلينر) عدد هائل من المصورات الصحفيات.
توتر (بوند) بحق هذه المرة، فلم يجد تفسيرا لتصويره بهذه السرعة، وهو لم يطأ أرض (جامايكا) منذ خمس سنوات، بالإضافة إلى أن اسمه قد محي تماما من سجلات عملية (العملاق الأسود)، ولكن توتره تحول بغتة إلى الدهشة، عندما وقع بصره على السيارة التي يقوده إليها (كواريل)، وهتف:
- كيف حصلت على هذه السيارة.. إنها سيارة (سترانجوايز)!!
أجابه (كواريل) في بساطة:
- إنها السيارة الوحيدة غير المشغولة، ولقد كلفونى استخدامها، ولكن لماذا أدهشك هذا كثيرا؟

تمتم (بوند):
- لا شيء.. لا شيء.
ودلف إلى المقعد الخلفي للسيارة، وهو يفكر في الأمر..
خطأ بالغ أن يستخدم سيارة (سترانجوايز)، التي ستثير اهتمام كل من يرغب في معرفة سر عودته إلى (جامايكا)، ولا ريب أنه هو المخطئ، بتسرعه وتهوره كالمعتاد، فهو الذي أرسل برقية إلى حاكم الجزيرة، يطلب منه فيها تكليف (كواريل) بالذات انتظاره في المطار، مع سيارة، ولقد فعل هذا لثقته في (كواريل)،

وفي قدرته على معاونته في قضية (سترانجوايز)، سواء انتهت إلى فضيحة أو مغامرة.. ولقد طلب أيضا حجز حجرة في فندق (بلومونتان)، وهذا خطأ جديد لأي رجل مخابرات محنك.. كان ينبغي أن يستقل واحدة من سيارات الأجرة إلى الفندق، ويتصل ب (كواريل) من هناك.. من أي فندق على نحو عشوائي بحت.. لقد اقترف عدة أخطاء في بداية مهمته، وأصبح محط اهتمام عدوه منذ اللحظة الأولى، ولا ينقصه سوى الإعلان عن قدومه على صفحات (ديلى جلينر)..

فجأة راودته فكرة كونه مراقبا..

أو هي غريزة المهنة..

وفي حذر اختلس النظر عبر زجاج السيارة الخلفي، فرأى سيارة تتبع سيارته، على بعد خمسين مترا، وقد أضاء قائدها المصابيح الصغيرة على عكس عادة سائقي (جامايكا)، فاعتدل قائلا ل (لكواريل) في حزم:

- في نهاية الطريق مفترق، يقود يساره إلى (كنجستون)، ويمينه إلى (مورانت)، انحرف في طريق (مورانت)، ثم توقف على جانب الطريق، وأطفئ الأنوار.

انطلق (كواريل) بغتة بأقصى سرعة، وانحرف يمينا عن المفترق، واطارات السيارة تطلق صريرا عاليا، ثم انتحى بالسيارة جانبا، وأطفأ أنوارها كلها..

ومن خلفهما ظهرت السيارة الأخرى، وقد انطلقت بأقصى سرعتها أيضا، وانحرفت في طريق (مورانت) بدورها، ثم توقفت، وتراجع قائدها إلى المفترق، ثم عاد ينطلق في طريق (كنجستون)، ولاحظ (بوند) أنها سيارة أمريكية كبيرة، لا يجلس بها سوى سائقها، ولكنه لم يتبادل مع (كواريل) حرفا واحدا، طيلة الدقائق العشر التالية، قبل أن يقول بغتة:

- هيا إلى طريق (كنجستون) يا (كواريل).. لقد كانت هذه السيارة تطاردنا، وافتح عينيك جيدا، فقد يكون سائقها قد انتبه إلى خدعتنا، وينتظرنا على جانب الطريق..
وفي أقل من ساعة، كانت سيارتهما تختلط بالسيارات الأخرى في (كنجستون)، ثم تتجاوزها عبر طريق التلال إلى شارع (جانكشن)، ثم إلى فندق (بلومونتان)، وعلى جانب الطريق، لمح (بوند) السيارة الأمريكية الكبيرة وهي تعود إلى (كنجستون).
ولم يشعر بالارتياح..
وفي الفندق، كانت حجرته فاخرة، تطل على الميناء، وقد قضى بعض الوقت في شرفتها، قبل أن يبدل ثيابه، ويصحب (كواريل) لتناول العشاء
في المدينة..
ولقد قاده (كواريل) إلى فندق يعرفه في المدينة، حيث اختار لهما مديره منضدة في موقع ممتاز، تحت شجرة نخيل كبيرة، تطل على الشاطئ، وقال (كواريل) عن المدير:
- إنه يدعى (بوسفار)، وهو صديقي منذ زمن، ويعلم كل ما يحدث هنا في (كنجستون)، ويمكنك أن تطرح عليه كل ما يملأ رأسك من أسئلة.. لقد ابتعنا قاربا معا، وذهب هو به إلى (كراب كى)؛ ليصطاد الأسماك، وسبح إلى حيث تكثر الصخور، ولكن أخطبوطا كبيرا هاجمه، واحتاج (بوسفلر) إلى قتال عنيف، حتى أمكنه اقتلاع أحد أذرع الأخطبوط، والفرار، وبعدها أصابه رعب من البحر، فاشتريت نصيبه في القارب، وعلى الرغم من ذلك فقد أثري هو بعد زمن قصير، وبقيت أنا فقيرا كما ترى.
- وما هي (كراب كى) هذه؟
- جزيرة مشئومه، يملكها صيني لحراسة الطيور النادرة، ولكنه يمنع اي مخلوق من الهبوط عليها، ويحيطها بعدد كبير من

الحراس، والأسلحة النارية، ورادار، وطائرة.. ولقد هبط العديد من أصدقائي هناك، ولكن أحدهم لم يعد ليروي شيئا عن الجزيرة، التي أصبحت تثير رعبي وخوفي.
أطلعه (بوند) خلال العشاء على جانب من قصة (سترانجوايز)، وأنصت إليه (كواريل) في اهتمام، ثم مال إلى الأمام وقال:
- يلوح لي أن (سترانجوايز) وصاحبته قد دسا أنفهما في شئون ذلك الصيني، صاحب الجزيرة، فتخلص منهما.
تطلع (بوند) إلى عينيه، وهو يسأله:
- ولماذا تقولها وكأنك تؤكدها؟
- ذلك الصيني يعشق جزيرته، ويصر على عزلته، وهو قوى صارم، لم يتردد في قتل أصدقائي كلهم؛ ليبعد الآخرين، ويمنعهم من تعكير صفو وحدته.
- لماذا؟
- للناس فيما يعشقون مذاهب، و...
قاطعه (بوند) بالتفاتة حادة مباغتة، جعلته يواجه الصحفية الصينية، التي التقطت له صورة المطار، وهي تستعد لالتقاط صورة أخرى له، وهو يتناول عشاءه، فهتف بـ (كواريل):
- إلى بهذه الفتاة.
هب (كواريل) من مقعده على الفور، واتجه نحو الفتاة، وألقي عليها التحية بابتسامة عريضة، وهو يقول، مادا كفه إليها، وكأنه يود مصافحتها:
- مساء الخير يا آنسة.
لم تكد تضع يدها في كفه، حتى جذبها إليه في عنف، فهتفت:
- إنك تؤلمني.
أجابها (كواريل) في صرامة:
- الكابتن يرغب في تناول كأس من الشراب معك.

قادها في عنف إلى حيث يجلس (بوند)، الذي قال في هدوء:
- مساء الخير يا عزيزتي، ما الذي تفعلينه هنا؟ ولماذا ترغبين في الحصول على صورة أخرى لي.
- لقد فسدت الصورة الأولى، وأردت التقاط أخرى ليلية.
- إذن فأنت حقا صحفية في (ديلى جلينر).. ما اسمك؟
- لن أخبرك.
لم تكد تنطق بالعبارة، حتى لوى (كواريل) ذراعها خلف ظهرها في عنف، فتأوهت، وأجابت:
- اسمى (آنابل شويك).



لم تكد تنطق بالعبارة، حتى لوى (كواريل) ذراعها خلف ظهرها في عنف

قال (بوند) لـ (كواريل):

- اطلب من (بوسفلر) المجيء.

هرع مدير المطعم إلى (بوند)، فسأله في صرامة:

- أرأيت هذه الفتاة من قبل؟
- إنها تأتي من حين لآخر يا سيدي.. أتحب أن أطردها؟
- لا.. إنها تريد التقاط صورة لي.. اتصل بـ (ديلى جلينر)، واسألهم.. هل لديهم صحفية باسم (أنابل شويك).
- سأفعل يا سيدى.
التفت (بوند) إلى الفتاة، وابتسم قائلا:
- لماذا لم تطلبي منه إنقاذك؟
لم تجب الفتاة بحرف واحد، فتابع:
- يؤسفني استخدام القوة، ولكن رئيسي في الشركة العالمية للتصدير أخبرني أن (كنجستون) تمتلئ بالشخصيات العجيبة، وأنت تبدين لي أحد تلك الشخصيات، وإنني أتساءل في الواقع عن سر اهتمامك بالحصول على صورتى.
- إنها مهنتي، كما سبق أن أخبرتك.
قبل أن يلقي عليها (بوند) سؤالا آخر، ظهر (بوسفلر)، وقال:
- لقد أيدت (ديلى جلينر) أقوالها يا سيدى، فهم يؤكدون هناك أن (آنابل شوبك) تعمل لديهم كصحفية هاوية، ويقولون إنها تلتقط صورا ممتازة.
شكره (بوند)، والتفت إلى الفتاة، قائلا:
- حسنا.. هذا لا يفسر إصرارك على التقاط صورتى، أو لحساب من تلتقطينها.
- لن تحصل مني على حرف واحد.
- حسنا.. استمر في لوي ذراعها في عنف يا (كواريل).
تأوهت الفتاة مرة أخرى، في حين تراجع (بوند) بمقعده، وراح يفكر في أن معرفة اسم من يسعى للحصول على صورته ستغنيه عن مشقة كبيرة، وستمنحه طرف خيط، لكشف سر قضية (سترانجوايز)..

وفي أثناء تفكيره، كان (كواريل)، يزيد من ضغطه على ذراع الفتاة، التي استجمعت قواها بغتة، وبصقت على وجه (كواريل)، الذي أحتقن وجهه في غضب، ولوي ذراعها في قسوة، جعلتها تتصبب عرقا، وتسب باللغة الصينية، فقال (بوند):
- هيا.. اعترفي وسنصبح صديقين، وينتهي هذا العذاب، و..
فجأة هوت الفتاة بشيء ما في يسراها على وجه (كواريل)، ورأى (بوند) الدماء تنزف من جبهة هذا الأخير، وبقايا مصباح التصوير يسقط من يد الفتاة، وسمع (كواريل) يهتف في غضب:
- إنها عنيدة، ولن نحصل منها على شيء.. هل أحطم يدها؟
لوح (بوند) بكفه، وقال:
- لا.. دعها وشأنها.
بدا له أنه من الواضح أن من خلف الفتاة قساة غلاظ القلوب، وإلا فما احتملت كل هذا العذاب لتخفي سرهم، وراح يتطلع إليها في تساؤل، عندما أطلق (كواريل) سراحها، وهو يقول في سخط:
- لقد شوهت وجهي، فإليك هذا.
وحطم كأسه، ودفعه في وجه الفتاة، التي أطلقت صرخة مكتومة، وانطلقت تعدو مبتعدة، وهي تصرخ:
- لن تفلتا منه.. سوف يقتلكما حتما.. حتما..
ودوت العبارة في رأس (بوند)..
دوت في شدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 - اختفاء..

لم يتوقف دوى العبارة في رأس (بوند)، حتى وهو يجلس في شرفة حجرته بالفندق، يتطلع إلى الجبال الزرقاء، والغابات التي تمتد سبعة كيلومترات، حتى (كنجستون)، وبدا له من الواضح أن (سترانجوايز) و (تروبلود) قد قتلا وأخفيت جثتاهما، وأن من قالها يعلم الآن أن (بوند) هو الموفد من الحكومة للتحرى عن حقيقة أمرهما؛ لذا فهو يبذل أقصى جهده للحصول على صورة لـ (بوند)، وعلى معرفة موقعه، ولا ريب أنه سيستتبع ذلك نوع من المراقبة الدقيقة، للتأكد من أن (بوند) لن يتوصل إلى دليل ما، أو طرف خيط يقوده إلى حل اللغز، ولا مانع من إبادته بحادث سيارة، أو حتى بالاغتيال في الطريق، لو توصل إلى شيء ما..

وتساءل: هل سينتقم العدو للفتاة؟.. من الغباء حقا أن يتباطأ كثيرا، في مثل هذه الظروف، ولو أنه هو في مكانه لتحرك في سرعة، وانتقم في قسوة.. ولكن من يكون هذا العدو؟.. لا ريب أنه دكتور (نو) .. (جوليوس نو).. الصيني الذي يمتلك (كراب كى)، والذي أثرى من تجارة الطيور النادرة، على الرغم من أن سجلات المخابرات كلها تخلو من معلومة واحدة عنه، على الرغم من أن أربعة رجال قد قتلوا بسبب جمعية (أودبون) هذه.. بل إن (كواريل) نفسه يخشى دكتور (نو)، وجزيرته المنيعة الحصينة، على الرغم من أن (كواريل) من فئة اعتادت مجابهة الخوف وهزيمته.. ثم ما سر هذه العزلة التامة لدكتور (نو)؟.. ولماذا يتكبد كل هذه النفقات الباهظة، لمنع الناس من بلوغ جزيرته؟ على أية حال، إنه سيلتقي بالحاكم في تمام العاشرة

صباحا، ليحصل على بعض المعلومات عن (نو)، وعن (كراب كى)..
انتزعه من أفكاره طرق خفيف على باب حجرته، ولم يلبث (كواريل) أن دلف إليها، وانضم إلى (بوند) في الشرفة، وقال (بوند):
- سأقضي اليوم كله مع الحاكم، وفي معهد (جامايكا)، ولن أحتاج إليك معي، ولكن هناك أعمال أريد منك أن تقوم بها، فيجب أن تتخلص من سيارة (سترانجوايز)، وتستأجر واحدة جديدة لمدة شهر كامل، ثم اذهب إلى الميناء، وحاول أن تعثر على رجلين يشبهاننا، وابتع لهما ملابس كملابسنا، واسألهما أن ينطلقا بسيارتنا إلى (مونتيجو)، على الحدود الإسبانية، ثم يودعان السيارة (جراج) (لايڤى) هناك، واتصل بـ (لايڤى)، واطلب منه أن يبقى السيارة حتى نذهب إليه.
- هذا يعني أنك تعد خطة ما.
- بالتأكيد.. امنح الرجلين عشرة جنيهات يوميا، وأخبرهما أنني ثري أمريكى، وأنني أرغب في أن يقود رجلان محترمان سيارتي، وأن يصلا بها إلى (لايڤى) في تمام السادسة صباحا، ودعهما ينطلقان بسيارة (سترانجوايز) بعد رفع غطائها، ثم احضر أنت بالسيارة الأخرى.
- سمعا وطاعة.
- قل لي: ألا يزال ذلك المنزل الصغير، الذي استخدمناه في زيارتي الأخيرة لصحراء ميناء (مورجان) قائما؟
- لست أدري يا كابتن!
- اذهب إذن إلى شركة (جراهام)، وحاول أن تستأجره، أو تستأجر أى منزل قريب، بأى ثمن، وأخبرهم أنني ثري أمريكي، وسأتصل أنا بأصحابه، بعد أن تحصل على المفتاح.. خذ.. هذه

مائتان من الجنيهات، واتصل بي لو أنك تريد مبلغا إضافيا.. إنك تعلم أين سأكون.
- هل من أوامر أخرى؟
- لا.. ولكن حاول ألا يتبعك أحد، والأفضل أن تترك السيارة، وتتم هذه المهمات على قدميك، وانتبه إلى كل صيني يحوم حولك، وسنلتقي غدا في السادسة والربع صباحا، لنذهب إلى الشاطئ الشمالي.
انطلق (كواريل) ليتم مهمته، في حين اتجه (بوند) إلى مكتب الحاكم، حيث تركه المسئولون ينتظر لربع ساعة، حتى لا يلفت انتباه أحد، ثم اسمحوا له بدخول حجرة الحاكم، الذي استقبله في بساطة، وابتدره قائلا:
- اجلس يا سيد (بوند).. لماذا طلبت رؤيتي؟
- بشأن قضية (سترانجوايز) يا سيدى.. وأظنك قد تلقيت برقية وزارة الخارجية.
- نعم.. ولكن ما الذي يمكنني تقديمه إليك؟.. لقد حفظنا القضية هنا.
- وما سبب حفظها يا سيدى؟.
- من المنطقي أن (سترانجوايز) قد فر مع الفتاة، فبعض زملائك يميلون إلى ملاحقة النساء، ولدينا هنا سجل بالفضائح الغرامية، يندى له الجبين، والأفضل أن ترسل لنا الحكومة رجالا أفضل، وأقترح أن يحل أحد رجال الشرطة محل (سترانجوايز)، فأنا أثق في رجال شرطة الجزيرة كثيرا.
- سأنقل رأيك إلى مسئولي الحكومة يا سيدى، وبخاصة إلى وزير الدفاع ووزير الخارجية، فلست أشك لحظة في كفاءة رجال الشرطة هنا.

- إنها مجرد ملاحظة يا مستر (بوند)، وسأتصل أنا بوزير الخارجية، عندما يستقر رأيي على أمر ما.. والآن هل تحب مقابلة أحد من رجالي؟
- أريد التحدث مع سكرتير المستعمرات يا سيدي.
- لماذا؟
- طلب مني رئيسي بحث أمر يتعلق ببعض المتاعب في مستعمرة (كراب كى) للطيور النادرة.
- لا بأس، سأطلب من مستر (بليدل سميث) رؤيتك على الفور.
ثم نهض يصافح (بوند)، مستطردا:
- إلى اللقاء يا مستر (بوند).. يسرني أن نتعاون معا، وإن كنت لم أر (كراب كى) هذه حتى الآن.
تمتم (بوند) منهيا اللقاء:
- ولا أنا يا سيدي.. ولا أنا.
أنهى (بوند) لقاءه مع الحاكم، واتجه إلى مكتب (بليدل سميث)، الذي لم يكد يراه حتى هتف:
- (بوند)؟!.. أهو أنت الذي شاركت في مغامرة الكنز هنا، منذ عدة سنوات؟!.. يا إلهي.. لقد وقع الملف في يدي منذ أيام.. هل أتيت لتشن حربا ثانية؟!
- لا.. لقد أتيت من أجل قضية (سترانجوايز)، ولكن أخبرني: كيف وقع الملف في يدك هذه الأيام؟
- دعني أتذكر.. آه.. لقد رأيته على مكتب سكرتيرتي الجديدة.. كانت تبحث عن تاريخ معين فيه، واسترعى الملف انتباهي.
- يبدو أن العديدين يهتمون بأمري، منذ بلغت (جامايكا).. حسنا.. أخبرني ما الذي تعرفه عن (كراب كى)، وعن دكتور (نو)؟

- الحديث عن هذا قد يستغرق ساعات، ولكنني سأطلب ملف (كراب كى)، فالطيور التي تحيا على تلك الجزيرة تتغذى على نوع خاص من أسماك الأنشوجة، والطائر الواحد يستهلك ما يقرب من سبعين سمكة في اليوم الواحد، ومن المفارقات الطريفة أن سكان (بيرو) كلها يستهلكون أربعة آلاف طن من هذه الأسماك في العام، في حين تستهلك طيور البحر خمسمائة الف طن منها، وتلقى على الجزيرة كمية هائلة من مخلفاتها، التي تحوى كميات من النترات.

- ولماذا لا تلقى الطيور، مخلفاتها في البحر؟

- لست أدري.. إنني أجهل ذلك حقا، ولكن الطيور تلقى مخلفاتها على الجزيرة منذ فجر التاريخ، حتى بلغت كمية مخلفاتها أطنانا وأطنانا، وعمل بعض المغامرين على نقل أطنان من هذه المخلفات، بعد أن كشفت الأبحاث أنها أفضل سماد عضوى عرفه التاريخ، وأثرى العشرات من هذه التجارة، على الرغم من حدوث عدة جرائم قتل مثيرة..

- وما شأن هذا بـ (كراب كى)؟

- كانت الجزيرة الوحيدة التي لم يصلها المغامرون بعد، ولقد انتبهت (بيرو) إلى هذه الثروة الطبيعية، فبدأت في تنظيمها، وحماية الجزر من عبث العابثين، وفرض رقابة شديدة على الطيور، وبدأت الكيماويات الألمانية تغزو العالم، فانصرف المغامرون عن الأسمدة الطبيعية، وانخفض سعرها بالتالي، وهنا تقدم (نو)، وابتاع منا الجزيرة، وأحضر عمالا كثيرين، وهم يعملون ليلا ونهارا حتى الآن، ولا ريب أنه يمتلك الآن ثروة هائلة، فهو يشحن المادة مباشرة إلى (أوربا) مرة كل شهر، ولقد فشلت تماما في معرفة أي سر من أسرار الجزيرة، فهي أشبه

بقلعة حصينة، يعمل فيها العمال تحت ظروف وسلطة جائرين، وعلى الرغم من ذلك فلا أحد يشكو، أو يتظلم.

- كم يساوي المكان في نظرك الآن؟

- لو وضعنا الطيور النادرة والأسمدة الطبيعة في الحساب، فيمكن أن يقال أن ثروته تقدر بمليونين ونصف مليون من الجنيهات على الأقل، و..

بتر عبارته مع دخول سكرتيرته الجديدة، فسألها في حدة:

- أين الملفات التي طلبتها؟

- معذرة يا سيدى.. لقد اختفت.

- ماذا؟.. من حصل عليها آخر مرة.

- الكابتن (سترانجوايز) يا سيدى.

- ولكنه أعادها إلى هنا، فما الذى حدث بعدها؟

- الملفات موجودة يا سيدي، ولكنها خالية.

عقد (بوند) حاجبيه، وهو يتطلع إلى الفتاة، فقد بات من الواضح أن كل المعلومات الخاصة به، وبعملية (العملاق الأسود) قد تسربت عبر هذه الفتاة بالذات..

ولم يكن هذا مجرد شك..

كان هناك دليل قوى، فالسكرتيرة الجديدة كانت مثل (أنابل شوبك) ودكتور (نو)..

كانت صينية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

---

6 - حشرة قاتلة..

تطرق الحديث بين (بوند) و (بليدل سميث) إلى موضوعات شتى، حول مائدة الطعام في نادي الملكة، وتحدث (سميث) عن ميل مواطن (جامايكا) للتراخي والتكاسل، على الرغم من ثراء موطنه، وعن اليهود والبرتغاليين، الذين نهبوا كنوز البلاد قديما، وفروا بها إلى (أوربا)، بعد أن سيطروا على الاقتصاد، وخربوا الضمائر والذمم، ثم انتقل الأمر إلى السوريين، الذين كونوا ثروات ضخمة، وسيطروا على المحال التجارية والفنادق لفترة طويلة، وجاء بعدهم الهنود، وأخيرا الصينيون، الذين سيطروا على مقاليد الأمور بذكائهم ودهائهم، وصاروا أقوى طائفة في (جامايكا) كلها، يمتلكون موارد الطعام والمغاسل الضخمة، ويصاهرون الزنوج، مما أدى إلى ظهور نسل صينى زنجى مولد، وسأله (بوند) بعد أن استمع إلى كل هذا:

- وهل سكرتيرتك هي إحدى الزنوج الصينيين؟

- نعم.. وهي فتاة لملاحة، تعتبر أكفأ موظفات المكتب، على الرغم من أنها لم تتسلم عملها إلا منذ ستة شهور فحسب.

- ولكن هل للصينيين من يرعى أمورهم؟.. أعني هل لهم رأس كبير؟

- حتى الآن لا، ولكن سيظهر حتما من يحتل هذا الدور

وتناول رشفة من كأسه، قبل أن يضيف:

- وأظن أن (نو) هذا سيكون الزعيم المنتظر.

ارتشف رشفة أخرى، ثم نهض قائلا:

- قلت إنك ستذهب إلى معهد (جامايكا).. هيا إذن، فسأقدمك لمديره، المسئول عن خرائط الجزر الغربية.

لم تمض إلا ساعة واحدة، حتى كان (بوند) يجلس أمام خريطة ضخمة لـ (كراب كى)، وضعت عام 1910، وبدا فيها أن مساحة الجزيرة لا تزيد على سبعين كيلومترا مربعا، يتجه ثلاثة أرباعها نحو الشرق، وسط مستنقعات وبحيرات ضحلة، ينساب منها نهر يصب في البحر، عند خليج صغير في الساحل الجنوبي، أما من ناحية الغرب، فالجزيرة ترتفع تدريجيا إلى خمسمائة قدم، ثم تنحدر إلى شاطئ البحر، دون أن يبدو على الخريطة كلها أثر لطريق أو منزل، وكانت المياه تحيط بها من كل جانب..

وبعد فترة كافية، طوى (بوند) الخريطة، وناولها للموظف المختص، وراوده شعور بالتعب والإرهاق، فعاد إلى فندقه ليستيقظ مبكرا.. وسأل موظف الاستقبال عن ورود أية رسائل، فأجابه الموظف:

- لم تصل سوى سلة من الفواكه، مرسلة من الحاكم، وهي في حجرتك يا سيدى.

- ومن أتي بها؟

- رجل من مكتب الحاكم.

اتجه (بوند) إلى حجرته، واستل مسدسه، وهو يدفع باب الحجرة بقدمه، فوقع بصره داخلها على سلة الفاكهة، وقد تعلق بها مظروف أبيض كتب فوقه:

- « مع تحيات الحاكم »..



اتجه (بوند) إلى حجرته، واستل مسدسه، وهو يدفع باب الحجرة بقدمه، فوقع بصره داخلها على سلة فاكهة

تطلع (بوند) إلى سلة الفاكهة لحظات، ثم ألصق أذنه بها في حذر، وأنصت لنصف دقيقة، ثم قلب محتويات السلة، وتأكد من أنها لا تحوى سوى الفاكهة، فالتقط ثمرة خوخ، وألقاها في

حوض الاستحمام في الحمام، ثم عاد إلى الحجرة، وفحص قفل الصوان في حذر، ثم فتحه، وتناول حقيبته، وراح يفحص آثار المسحوق الدقيق، الذي وضعه بين قفلى الحقيبة، ورأى من الآثار الخفيفة فوق المسحوق محاولة لفتح القفلين، ففتحهما بأسلوبه الخاص، وأخرج من الحقيبة عدة آلات دقيقة، عاد بها إلى الحمام، وتناول الخوخة، وراح يفحص كل سنتيمتر منها في دقة بالغة، حتى وقع بصره على ثقب دقيق في ركن منها، فابتسم وهو يعيدها إلى الحوض، ويتطلع في صمت إلى المرآة..
لقد بدأت الحرب إذن، وصحت نظريته حول مقتل (سترانجوايز) و (تروبلود)، لأنهما تدخلا في شأن ما من شئون (نو)..
وشعر بالامتنان للسكرتيرة التي أخفت المستند، وللصحفية التي حاولت التقاط صورته، فلقد قاده هذا إلى الحل..
لقد أطلق (نو) الرصاصة الأولى..
وحان دور (بوند)..
وفي هدوء عاد (بوند) إلى حجرته، وفحص كل حبات الفاكهة، ووجد في كل منها ثقبا دقيقا، فاتصل بخادم الحجرات، وطلب منه أن يحضر صندوقا وورقا وخيطا، ثم طلب (بليدل سميث) وسأله:
- هل لديكم هنا في (كنجستون) معمل للتحاليل.. عظيم.. لدى هنا صندوق صغير، أريد تحليل محتوياته على الفور، ودون ذكر اسمي، وسأشرح لك الأمر فيما بعد.. المهم أن تتصل بي في ڤيلا (الصحراء الفاتنة) في ميناء (مورجان).
أرسل الطرد إلى السكرتير العام للمستعمرات، بعد المحادثة مباشرة، ثم عاد إلى حجرته في السادسة، ولم يكد يبلغها حتى ارتفع رنين الهاتف، فالتقط سماعته في سرعة، وسمع (كواريل)

يقول إن كل شيء قد تم إعداده بمنتهى الدقة، وأنه (بوند) المحادثة، دون أن يضيف شيئا، وخرج إلى الشرفة يفكر في عمق..
هل يطلع الحاكم والسيد (م) على محاولة (نو) لقتله الليلة بوساطة الفاكهة المسمومة؟..
ألقي هذا الخاطر جانبا في سرعة، وأعاد حقيبته إلى الصوان، وأوصد باب الحجرة جيدا، وألقي جسده على الفراش، ولم يلبث أن غرق في سبات عميق..
واستيقظ (بوند) بغتة في الثالثة صباحا، على نباح عدة كلاب، لم تلبث أن صمتت، وساد هدوء عجيب في المكان، وراح ضوء القمر يلقي ظلالا ناعمة داخل الحجرة، وتساءل (بوند) عن السر في استيقاظه بغتة هكذا، على الرغم من أن نباح الكلاب أمر معتاد في هذه الناحية، وكاد يغادر فراشه، و..
وفجأة تجمد في مكانه، وهو يحدق في جسم يتحرك فوق جسده، متجها إلى ذقنه..
كانت حشرة من نوع ما..
حشرة مقززة، يبلغ طولها خمسة عشر سنتيمترا على الأقل، وتتحرك على جلده في بطء مثير، وهو يتابعها مسترجعا كل معلوماته عنها..
إنها حشرة سامة قاتلة، رآها يوما في أحد المتاحف، ولقد بلغت ركبته، في طريقها إلى رأسه..
وقرر (بوند) ألا يتحرك، أو حتى يتنفس، أو يرتعد، والحشرة تصعد من ساقه إلى وسطه، ثم تجر أرجلها العديدة المشعرة فوق معدته، وتواصل طريقها في بطء حتى بلغت قلبه، وخيل إليه أنها ستضرب ضربتها هناك، وتقتله على الفور، إلا أنها لم تلبث أن واصلت طريقها، حتى بلغت عنقه..

وهناك توقفت قليلا..
وبعد فترة بدت أشبه بدهر كامل، واصلت الحشرة اللعينة سيرها إلى ذقنه، وراحت تدور حول فمه، واتجهت نحو عينيه..
وأغلق (بوند) عينيه في بطء، فتوقفت الحشرة فوق جفنيه، وجال بخاطره أن يضربها بيده بعيدا، ولكن سيقانها الثابتة على وجهه جعلته يخشى أن تغرز مخالبها السامة في جسده، فتركها تواصل طريقها، حتى بلغت جبهته، ثم توقفت عند شعره، وازداد جسده تجمدا..
لقد راحت الحشرة تمتص حبات العرق عند منبت شعره، وهو يغذيها بمزيد من العرق، من شدة خوفه وتوتره..
وبدت له الثواني دهورا..
ثم تحركت الحشرة أخيرا..
انتقلت إلى شعره، ثم تجاوزته إلى الوسادة..
وفي هذه اللحظة بالذات قفز (بوند) خارج الفراش كالقذيفة، ودفع الحشرة بالوسادة أرضا..
وسحقها بقدمه في عنف..
ووقف يلهث من فرط الانفعال..
ها هو ذا (نو) ينتقل إلى الخط القتالى الثانى..
وها هي ذي المعركة تحتدم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- الى الهدف..

لم يكد (بوند) يلتقي بـ (كواريل) في الصباح التالي، حتى ابتدره قائلا:

- ما معلوماتك عن العناكب السامة هنا؟

- توجد منها عدة أنواع وحشية في (جامايكا)، يبلغ طول بعضها اثني عشر سنتيمترا أو يزيد، وهي شديدة الفتك، وتميل إلى الأخشاب الرطبة التالفة، ولا تجول إلا ليلا، ولكن لماذا تسأل؟ هل رأيت إحداها؟

- هل يمكن أن أرى إحداها في منزل عصري؟

- لا.. إلا إذا وضعت بفعل فاعل، فهذه الحشرات قذرة، يمكنك أن تعثر عليها في الأدغال وتحت الصخور، ولكن مستحيل أن تجدها في الأماكن النظيفة.

اكتفي (بوند) بهذا الحديث، وانتقل إلى نقطة أخرى، وهو يقول:

- هل رحل الرجلان في سيارة (سترانجوايز) هذا الصباح؟

- نعم.. وهما يشبهاننا إلى حد كبير، ولقد بذلت جهدا خرافيا، لاختيارها من وسط المئات.

انطلق (بوند) بالسيارة طويلا في صمت، وقد أطلق لأفكاره العنان، حتى قطع عليه (كواريل) حبل تفكيره، وهو يسأله:

- معذرة يا كابتن، ولكن ما خطوتنا التالية؟ لقد اختلط على الأمر.

- لم تخطر ببالي فكرة محدودة يا (كواريل).. كل ما في الأمر هو أنني أوافقك على أن (سترانجوايز) و (تروبلود) قد قتلا، وأن قاتلهما هو دكتور (نو) الصيني، الذي يمتلك (كراب كى)، فلا ريب أن (سترانجوايز) قد اقتحم عزلته، وعلم الكثير عن أسرار

الرجل وطيوره، و (نو) يكره من يقتحم عزلته، كما يعلم الجميع؛ ولهذا أرسلت الرجلين في زينا وسيارتنا إلى (مونتيجو)، في حين سنختفي في (الصحراء الفاتنة) عدة أيام.

- ثم ماذا؟

- ينبغي أن تعمل أولا على تدريبي على مواجهة الأخطار البحرية، كما فعلت في المهمة السابقة، وبعدها سنذهب معا لزيارة (كراب كى).. سنحوم حولها، ولن نقترب من حصن (نو)، بل سنتفقد معسكر الطيور وما أصابه، ولو وجدنا ما يريب، فسنتراجع ونعود مع كتيبة من الشرطة.

- الواقع أنه يبدو لي من الجنون أن تقتحم قلعة (نو) أو جزيرته، ولكن لا بأس، شريطة أن تؤمن على حياتي أولا، فلدى أسرة كبيرة هنا.

- أوافق يا (كواريل)، وسنجعل قيمة التأمين كبيرة جدا.. والآن كيف يمكننا الذهاب إلى (كراب كى)؟

- أفضل وسيلة هي قارب صغير، يتسلل في ليلة بلا قمر، وبلا رياح.. المهم هو أين تفضل الرسو؟

- على الساحل الشمالي، بالقرب من مصب النهر، وبعدها سنتبع النهر إلى البحيرة.

- وكم من الوقت سنمضيه هناك؟ لنعد ما يكفينا من طعام.

- ثلاثة أيام.. وسنحمل معنا أسلحة بيضاء وبعض أسلحة الطوارئ.

لم يتبادل الاثنان كلمة إضافية، حتى بلغا ميناء (ماريا)، وعبرا مدينة صغيرة بالقرب من ميناء (مورجان)، ثم تابعا سيرهما حتى فيلا (الصحراء الفاتنة)..

كان المكان المحيط بالفيلا هادئا ساكنا، ذكر (بوند) بمغامرة سابقة، وكانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة وربع، فانطلق (بوند) يسبح لمسافة نصف كيلومتر، ثم ركض على الشاطئ لكيلومتر كامل..
ومضت الأيام على هذه الوتيرة، سباحة وركض، حتى مضى الأسبوع الأول دون منغصات، اللهم إلا من خبر في (ديلى جلينر)، وبرقية من (سميث)..
قال الخبر إن سيارة (سترانجوايز) قد تعرضت لحادث قتل راكبيها، وأن الشرطة تناشد السائح الأمريكى مستر (بوند) التقدم إليها في أقرب فرصة، أما برقية (سميث) فقد قالت:
- « كل ثمرة احتوت على كمية من السيانيد تكفي لقتل جواد » (سميث).
وأحرق (بوند) البرقية تماما..
واستأجر (كواريل) قاربا، راحا يبحران به لثلاثة أيام، بقصد تجربته، وقال (كواريل) في حماس:
- بعد سبع ساعات من الإبحار، سنخفى الساري، ونجدف بالمجدافين، حتى لا يكشف رادار الجزيرة أمرنا.
وبدأت المغامرة..
بدأت في ليلة مظلمة، ساكنة الرياح، تمنطق فيها (بوند) بمسدسه، وحمل معه عشرين رصاصة إضافية، وانطلق القارب يشق صفحة المياه، في صمت تام..
وبعد تجديف عنيف لساعة كاملة، تجاوز القارب منطقة الصخور إلى المياه العميقة، ورفع (كواريل) شراعه، فراحت الرياح تدفعه إلى الأمام رويدا رويدا، تحت جنح الظلام..
ورأى (بوند) من خلفهما أضواء الميناء، والنجوم المتناثرة كمظلة فوقهما، وأدرك أن المسافة التي تفصلهما عن الجزيرة لا تتجاوز

الكيلومترات الثلاثة.
واتجه (بوند) بالقارب نحو النجم القطبي، الذي يتلألأ في السماء، وشعر بنشاط الأسماك، التى تتقافز نشطة حول القارب، وبدا له من المرعب أن تلك الأسماك هي أسماك الباراكودا والقرش، وان انقلاب القارب فجأة سيعني نهايته ونهاية (كواريل)..
ومرت الساعات بطيئة مرهقة، حتى استيقظ (كواريل) في الرابعة صباحا، وهو يقول:
- أشم رائحة أرض يا كابتن.
رأى (بوند) أمامه بالفعل جبلا عاليا، يحجب ضوء النجوم، وأبدل مكانه بسرعة مع (كواريل)، الذي أسرع ينزل الشراع، حتى يعجز الرادار عن تمييزها، وترك القارب يمرق وسط تيارات عنيفة، احتاجت منهما إلى كفاح مرير، حتى أمكنهما دخول النهر، وبلغا شاطئا أسود الرمال، تكون من حمم بركانية قديمة، فأخفيا القارب وسط أشجار البامبو، في دغل قريب، قبل أن ينبلج الفجر..
وهنا بلغ منهما التعب مبلغه..
وعلى الرغم من أن هذا يخالف كل قواعد الحكمة، فقد استغرقا في نوم عميق..
على أرض العدو..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- هنى..

أشارت عقارب ساعة (بوند) إلى العاشرة صباحا، عندما استيقظ من نومه، ولاح له شبح يتحرك فوق الرمال، على مقربة منه، فرفع عينيه بحركة حادة، وتطلع إليه من بين الأغصان..

واضطرب قلبه في قوة..

كانت أمامه فتاة توليه ظهرها وهي تتمنطق بحزام يتدلى منه خنجر كبير، إلى يمينها، وقد بدت بشرتها البيضاء واضحة، من خلال ثوب الاستحمام الذي ترتديه، وقد ارتكنت بجسدها كله على ساقها اليمني، تفحص شيئا ما في يدها بكل الاهتمام؛ وصورتها تبدو أشبه بحورية من حوريات البحر، بشعرها الأشقر الناعم الطويل المبتل، الذي التصقت خصلاته بوجهها وكتفيها..



كانت أمامه فتاة توليه ظهرها وهي تتمنطق بحزام يتدلى منه خنجر كبير، إلى يمينها..

وتساءل (بوند): كيف وصلت تلك الحسناء إلى هنا.. ولكن الجواب أتاه على هيئة قارب صغير، وقع بصره عليه راسيا بين الصخور، وآثار أقدام الفتاة تبدأ من عنده إلى حيث تقف..

أتعيش هذه الفتاة هنا؟ أم أنها قد أبحرت إلى الجزيرة؟

أهوال الليلة السابقة توحي إليه بأنها لم تبحر إليها حتما، ولكن كيف بلغتها؟ وما الذي تفعله فيها؟.
وفي ضجر ألقت الفتاة ما بيدها من محار، وراحت تطلق صفيرا خافتا، وهي تغنى:
- (ماريون).. (ماريون).. أنتظرك كل ليلة على الرمال الناعمة يا (ماريون)..
انتبهت فجأة إلى حفيف الأغصان خلفها، فهتفت:
- من هناك؟
. نهض (بوند) واقفا، ووضع يديه على جانبيه؛ ليؤكد لها أنه غير مسلح، وابتسم قائلا:
- أنا.. لا تخشى شيئا.. إنني مجرد عابر سبيل.
استلت الفتاة خنجرها بحركة حادة، إلا أن (بوند) لم يبال بهذا، وهو يتأمل حسنها الفتان، قبل أن تسأله هي في خشونة:
- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟
- أنا بريطاني عاشق للطيور.
- كم من الوقت راقبتني؟ وكيف وصلت إلى هنا؟
- عشر دقائق فحسب، ولن أجيب عن السؤال الثاني إلا بعد أن تخبريني من أنت؟
- أنا هنا أجمع المحار.
- هل أتيت في قارب مثلنا؟
- نعم.
- أين قاربك إذن؟
- ها هو ذا عند الصخور، أين قاربك أنت؟ وماذا تعني بصيغة الجمع؟

- لقد أتيت بصحبة صديق، ولقد أخفينا قاربنا بعيدا.
- ولكنني لم ألمح أثر قارب على الرمال.
- إننا حذران إلى حد ما، ولقد أخفينا آثار قاربنا.. على عكسك.. أخبريني: هل استخدمت شراعا لبلوغ الجزيرة؟
- نعم.. إنني أفعل هذا دوما.
- سيعلمون أنك هنا إذن، فلديهم رادار قوى.
- إنهم لم يلقوا القبض على بعد.
وانتزعت منظار الغوص، وهي تضيف:
- ما اسمك؟
مرت لحظة من الصمت، قبل أن يجيبها:
- (بوند).. (جيمس بوند).. ما اسمك أنت؟
- (رايدر).
- (رايدر) ماذا؟
- (هنيشيل رايدر).. لماذا تبتسم؟
- لا شئ.. إنه اسم رائع مثلك.
- بعضهم يطلق على اسم (هني).
- إنني سعيد بلقائك يا (هنى).
أشارت (هني) إلى المحار الملقي حولها، وقالت في خشونة:
- اسمع.. إياك أن تلمس هذه المحارات قبل أن أختفي.
قالتها وأسرعت نحو الصخور..
وفي هدوء اقترب (بوند) من المحار، والتقط واحدة، فحصها ليجدها ما زالت حية، ثم ألقاها في لامبالاة، وهو يتساءل..
هل خاطرت الفتاة بنفسها حقا، من أجل بضع محارات وقواقع بسيطة؟!..
استرجع عبارتها.. « انهم لم يلقوا القبض على بعد»، وتذكر الطريقة التي استلت بها خنجرها، في تحفز قتالى غريزى، ودارت

في ذهنه عشرات الأسئلة..
من هي؟.. من أين جاءت؟.. وأين تعيش؟
تناهى إلى مسامعه وقع أقدامها فوق الرمال، فالتفت ليجدها قد ارتدت ثوبا فضفاضا من القطن، وفوقه نطاقها ذو الخنجر الكبير، وعلى كتفها حقيبة من الكتان، وانحنت تجمع المحار والقواقع وتلقي بها في حقيبتها، فسألها في هدوء:
- أهي من الأنواع النادرة؟
جلست على الرمال، وتطلعت إليه لحظات، قبل أن تقول:
- أتعدني بأنك لن تخبر أى مخلوق بما سأخبرك به؟
- أعدك
- نعم إنها نادرة جدا، فالواحدة منها تساوي ثلاثة جنيهات في (ميامى)، وهذا النوع يسمى (الزهرة اليانعة)، ولقد عثرت في الصباح على ما كنت أبحث عنه، فالأنواع النادرة تكثر هنا، وإن كان العثور عليها عسيرا، حيث أنها تختفي وسط الصخور العميقة، ولكنني سأنبش وكرها كله اليوم.
- أعدك ألا أسرق منك شيئا.
- وماذا عن الطيور التي تعشقها؟
- إنها تشبه البجع الوردي، ولها مناقير ملعقية الشكل.
- أه.. لقد رأيت الألوف منها هنا، ولكن أظنك لن تجد شيئا، بعد أن أخافوها، ورحلت كلها.
بدا أنها قد أطمأنت إلى محدثها، فجلس (بوند) على مقربة منها، وهو يقول:
- حقا؟!.. وماذا حدث؟.. من أخاف الطيور حتى تهجر الجزيرة؟
هزت كتفيها، قائلة:
- لست أدرى بالتحديد، ولكن هنا رجل صينى يمقت الطيور مقتا شديدا، ولديه تنين نارى، يطارد الطيور ويخيفها، ولقد

تسبب هذا التنين في مصرع حارسي الطيور حسبما أظن..
كانت تتحدث في بساطة، وكأنها تشرح أمرا عاديا، وهي تتطلع بعيدا إلى البحر، فسألها (بوند):
- هل رأيت هذا التنين؟.. من أي نوع هو؟..
- نعم.. رأيته.. كنت أستكشف المكان بحثا عن أنواع نادرة من المحار، فاتجهت شمالا، وبلغت معسكر الحراسة وأعشاش الطيور، ووجدتها مخربة محترقة، ولما كان الليل قد تسلل إلى المكان، فقد قررت قضاء ليلتي هناك، والرحيل مع الفجر، وفي منتصف الليل استيقظت بغتة، ورأيت التنين على مقربة مني، وله عينان كبيرتان واسعتان، تشتعل فيهما النيران، وجناحان صغيران، وذيل مدبب، وله لون أسود ذهبي، ولقد مر أمامي بدوى رهيب، وأنا أختفي فوق شجرة قريبة، ورأيت الطيور تفر مذعورة، وهو يحرق أعشاشها بنيران من بين فكيه، وكان هذا أبشع ما رأيته في عمرى كله.
مالت إلى الخلف، وتطلعت إلى (بوند)، مستطردة:
- أراهن انك لا تصدقني.
- لا وجود لشيء يسمى التنين، في عصرنا هذا يا (هنى). لقد رأيت شيئا يشبهه، وإنني لأتساءل عن كنه هذا الشيء.
- ولماذا تقطع بعدم وجود التنين في العالم.. إنها جزيرة منعزلة، وربما تمكن التنين من العيش فيها، ومقاومة عوامل الانقراض.. ثم ما الذي تعلمه أنت عن مثل هذا الحيوان؟.. لقد قضيت أنا حياتى وسط الحيوانات والزواحف وحدي.. هل رأيت مداعبات النمس، أو رقص الأخطبوط؟.. هل تعرف طول لسان الطائر الطنان.. هل دللت يوما ثعبانا ساما، وربطت جرسا في عنقه، ليوقظك كل صباح؟.. هل شاهدت عقربا ينتحر بلسع نفسه بذيله السام؟.. هل تعلم أن حاسة الشم عند الغراب تؤهله لشم

رائحة سحلية نافقة، من مسافة كيلومترين؟.. أراهن أنك لا تعلم شيئا عن هذا.. إنما أنت مدنى مدلل كالآخرين.
- صحيح أنك تعلمين الكثير عن الأدغال والحيوانات يا (هني)، وصحيح أني لم أحيا حياة الغابة مثلك، ولكنني أعلم الكثير مما لا تعلمينه أنت.. أعلم مثلا أن ذلك الصينى، الذي يكره الطيور، لن يسمح لك بمغادرة الجزيرة هذه المرة.
- لماذا؟.. إنه لم يفعل هذا من قبل!!
- لأنني أنا المقصود هذه المرة.. لقد أنزلنا شراع قاربنا على مسافة ثلاثة كيلومترات من هنا، حتى لا يكشف الرادار أمرنا، ولقد كان الصيني ينتظر قدومنا، ولا ريب أن الرادار قد كشف شراع زورقك، وسيتصور أنه زورقنا نحن، وهذا يستدعي أن أوقظ زميلى.. إنه رجل ظريف من جزر (كايمان)، ويدعى (كواريل).
- يبدو أنني سأتسبب لكما في مشكلة، ولكن..
قاطعها (بوند):
- إنه مجرد سوء حظ لكلينا، فأنا واثق من أنهم قد فحصوا آثار أقدامك من قبل، وأدركوا أنك إنما تبحثين عن المحار؛ ولهذا لم يبالوا بك، أما بالنسبة لي فالأمر يختلف.. سيسعى هذا الصيني لاقتناصى بأي ثمن، وأخشى أن تدفعي أنت ثمرة هذا.. على أية حال، هذا يستلزم استشارة زميلى.. انتظري هنا.
اختفى داخل الدغل، وبحث في همة عن (كواريل)، الذي أخفى نفسه بين الأغصان تماما، وابتسم وهو يوقظه، وفرك (كواريل) عينيه، وهو يقول:
- صباح الخير يا كابتن.. لقد زارت الفتاة الصينية أحلامي.
- لدينا هنا فتاة من نوع آخر.

قص عليه كل ما حدث، وأخبره بضرورة تغيير الخطة، فغمغم (كواريل):
- أتعنى أن نستخدم الفتاة طعما لاصطياد (نو)، و..
بتر عبارته بغتة، ومد رقبته إلى الأمام، وبدا أشبه بكلب صيد متحفز، قبل أن يقول في انفعال:
- هيا.. بسرعة.
سأله (بوند):
- ماذا هناك؟
أشار (كواريل) إلى الشرق، وهتف في خوف واضح:
- إنهم في الطريق إلينا.. لقد بدأت عملية الصيد..
وكان على حق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- المطاردة..

عشر دقائق فقط، اختلفت بعدها المنطقة تماما..
اختفت كومة القواقع والمحار النادرة، وكذلك آثار الأقدام، وبدا الخليج ساكنا هادئا، تضرب الأمواج شاطئه في هدوء ورتابة، بعد أن قطع (كواريل) بضعة أغصان من (مانجروف)، وهو نبات يكثر في الأدغال المتاخمة للشواطىء، ومسح به رمال الشاطئ في حذر، وهو يتراجع إلى الخلف، بعد أن أخفي قارب (هني) جيدا، بين الأعشاب البحرية، وقطع الأخشاب القديمة، التي تلقيها الأمواج على الشاطئ..
ومع تراجعه بلغ (كواريل) لسانا بحريا صغيرا، حيث جلس (بوند) و (هني)، والتزم الثلاثة بالصمت المطبق، وهم يخفون ويخفضون حتى أنفاسهم.
ولقد عثر رجال (نو) على القارب الكبير الفاخر، ولكنهم لا يعلمون بعد كم عدد راكبيه؛ لذا فهم يبحثون عنهم بكل همة وحزم..

ولأول مرة رأى (بوند) الطيور الملعقية، وقد انطلقت من الشرق في سرب كبير، مغادرة ما تبقى من مستعمراتها، وباحثة عن غذائها من الأسماك الفضية، التي تسبح عادة على مقربة من سطح الماء، وراحت الطيور تنقض على الأسماك في هجمات متتالية سريعة، جعلت (هني) تهمس في أذن (بوند):
- طيور الصيني تلتهم إفطارها.
بدت في عبارتها وملامحها الهادئة، وكأنما لا يشغلها أمر المطاردة أبدا، فاكتفى (بوند) بالتربيت على كفها، في نفس اللحظة التي تناهى إلى مسامعه فيها صوت محرك زورق بخارى،

ولم يكد يدير عينيه إلى اللسان، حتى وقع بصره على الزورق المزود بصارية لاسلكي، وهو يقترب من الأغصان التي يختفي مع زميله والفتاة خلفها..



بدت في عبارتها وملامحها الهادئة، وكأنما لا يشغلها أمر المطاردة أبدًا فاكتفى (بوند) بالتربيت عليها..

وكان على الزورق ثلاثة رجال، يجلس أحدهم خلف عجلة قيادته، في حين يحمل الثاني جهازا أسود اللون، يتصل بسلك رفيع، ويرفع الثالث مدفعه الرشاش في تحفز..
وكان الثلاثة من الصينيين..
وراح الأول يفحص الشاطىء بمنظاره المقرب في اهتمام، وسمعه (بوند) يلقي ملاحظات قصيرة سريعة، و (بوند) يراقب اتجاه عينيه في حذر، ورأى الرجل يدير منظاره في الرمال، ثم ينقله إلى الصخور، ويتفحصها في إمعان، ثم يسلم المنظار لزميله، الذي تفحصها بدوره، ثم أعادها إليه، فأصدر الأول أوامره بالتوقف على الفور، وألقى المرساة، فتوقف القارب أمام مخبأ (بوند) و (هني) تماما..
وتطلع السائق بمنظاره مرة أخرى إلى حيث اختفى زورق (هني) بين الصخور، وهز رأسه علامة التأكيد، وقال (بوند) لنفسه سرا:
- لقد وقعنا في المصيدة حتما، فمن الواضح أن هؤلاء الرجال يجيدون عملهم كثيرا.
انتبه على صوت المدفع الرشاش يعد للإطلاق، وأزيز يرتفع من جهاز الرجل الثاني، قبل أن يرفع الجهاز إلى فمه، ويقول في حزم، وبلهجة أمريكية رصينة:
- حسنا أيها السادة.. اخرجوا من أماكنكم، ولن يصيبكم ضرر.. هيا.. أسرعوا.. لقد كشفنا أمركم، وعثرنا على القارب وسط الصخور.. اخرجوا وأيديكم مرفوعة فوق رءوسكم، ولن يصيبكم ضرر.
لم يجب (بوند) بحرف واحد، وبدا الصمت مطبقا، لولا هدير الأمواج، وهمس (بوند) في أذن (هني):
- اقتربى مني، واحفري بقدر ما تستطيعين.
ارتفع صوت الرجل مرة أخرى:

- هل تصرون على الانكار؟.. حسنا.. سنثبت لكم أنكم مخطئون.
انطلق إثر كلماته سيل من الرصاصات نحو أعواد البوص، وسمع (بوند) ورفيقته أزيز الرصاصات فوق رأسيهما، وانطلقت أسراب الطيور في ذعر، وارتفع صوت الرجل مرة ثالثة:
- لقد أنذرناكم.. أنتم الملومون.
وانهمرت الرصاصات كالمطر، من ناحية القارب المختفي، ومتجهة إلى مخبأ (بوند)، الذي همس في توتر:
- انبطحى أرضا.
اختفى الاثنان داخل حفرة صغيرة، حفراها بأظفارهما، وارتعدت (هني) في رعب حقيقى، والرصاصات تفتت الصخور، وتخترق الرمال، وتحفر طريقها نحوهما، وتطايرت أعواد البوص وكأنما يحصدها منجل آلي، ودوت الرصاصات في شراسة فوق الرءوس، وتسللت رائحة رطبة، إلى أنف (بوند)، وخيل إليه أن أعواد البوص كلها قد تطايرت، وأنه و (هني) قد أصبحا في العراء، قبل أن يتوقف انهمار الرصاصات، ويغرق الشاطىء
في صمت رهيب، اخترقه صوت الرجل وهو يقول:
- لا بأس.. سنعود لجمع أشلائكم، لو تبقى منكم شيء.. وسنحضر معنا الكلاب المتوحشة هذه المرة.
دار محرك الزورق مرة أخرى، وانطلق مبتعدا نحو الغرب، ورفع (بوند) رأسه في حذر، يتابع ابتعاد الزورق، والتفت إلى (هني)، فرأى وجهها مبللا بالدموع، وسمعها تقول:
- لماذا فعلوا بنا هذا؟.. لقد أصابني رعب هائل.. كادوا يقتلوننا.
أدهشه كل ذلك الرعب الذي يملأ نفسها، فلقد بدت له شديدة الإلمام بعالم الحيوان، قادرة على الذود عن نفسها ضد ملمات الطبيعة، ولكنها خالية الذهن تماما من الصراعات التي تدور بين البشربعضهم البعض..

وفي حنان غمغم:
- سيمر كل شيء على خير.. إنهم مجرد طغمة من الأشرار أرهبهم وجودنا، ويمكننا مواجهتهم بشيء من الحنكة والتكنيك.. هيا نبحث عن (كواريل)، ونرسم خطة الفرار.
نهضا يسيران في بطء، وبدا لهما (كواريل) يقترب، ولاح لهم قارب (هني)، وقد حولته الرصاصات إلى فتات، فصرخت الفتاة ملتاعة، وهدأ (كواريل) من روعها، وأفهمها أن زورقهما هو و (بوند) ما يزال سليما، مختفيا في منطقة آمنة، ثم التفت إلى (بوند)، قائلا:
- سوف يطلق هؤلاء الأوغاد كلابهم في أثرنا بعد قليل. إنها تزيد على العشرين، وكلها قوية مدربة، والأفضل أن نبدأ الفرار الآن.
أجابه (بوند) في حزم:
- ليس قبل أن أفحص الجزيرة يا (كواريل).. وسنصحب (هني) معنا.
تطلعت إليه (هني) في خوف، وقالت:
- كم من الوقت ستستغرق لفحص المكان؟
- سأحتاج إلى بعض الوقت، لمعرفة ماذا أصاب أعشاش الطيور ومستعمرتها، وبعدها سنغادر الجزيرة.. إنها الثانية عشرة الآن.. انتظري هنا، ولا تنصرفي قبل عودتنا.
احتاج هو و (كواريل) إلى ساعة كاملة، لاستخراج القارب من مخبئه، وملئوه بالحصى، حتى يختفي تماما بين الأعشاب، ومحوا آثار أقدامهما، وأكل الثلاثة بعض الثمار البرية، ثم اتخذوا طريقهم نحو مصب النهر، حتى بلغوا بحيرة كبيرة، وعبروها سباحة، والأسماك الفضية تتقافز حولهم على نحو مثير، حتى بلغوا لسانا ضيقا، اتسع بعده مجرى النهر، وبدا الطمي في أعماقه غرويا لزجا، واحتشدت حولهم أسراب البعوض تنهش

أجسادهم، والتيار يجرفهم نحو منعطف في النهر، فهتف (بوند):
- عليكما بالحذر الآن، وإلا كشفوا أمرنا.. سنسبح لكيلومتر واحد، وبعدها سنبلغ البحيرة، حيث تحيا الطيور..
وعند حقل من البوص المائى، توقفت القافلة الصغيرة، ورأى الثلاثة الجبل القريب، وقد تبعثرت حوله بضعة أكواخ، وحلقت على قمته أسراب الطيور..
كانت هذه مملكة دكتور (نو)، التي لم ير (بوند) مثيلا لها من قبل، وبدا له طريق يتجه من الجبل إلى البحيرة، وتسللت إلى أنفه رائحة الطيور، وأيقظه صوت (كواريل)، وهو يقول:
- لقد جاءوا.
رأى (بوند) سيارة تهبط الجبل، وخلفها عاصفة من الغبار، وراح يراقبها لعدة دقائق، حتى اختفت خلف أعواد البوص الممتدة إلى البحيرة، وبدا نباح الكلاب قادما من بعيد، وقال (كواريل):
- إنهم يتجهون نحو مصب النهر، فهم يعلمون أن النهر هو مهربنا الوحيد، وقد يأتون بالكلاب في زورق كبير.
قالت (هني):
- هكذا يفعلون، عندما يبحثون عني.. فقط أقتطع عودا من البامبو، وأغوص في الماء عند اقترابهم، وأغوص في الماء معتمدة عليه في التنفس.
ابتسم (بوند)، وقال لـ (كواريل):
- ابحث أنت عن أعواد البامبو، وسنبحث نحن عن مخبإ.
تبعته الفتاة إلى نفق عشبي، وقال في لهجة آمرة، وهو يعبر فتحة داخله:
- لا تحطمى هذه الاغصان.
عبرت الفتحة خلفه، وهتفت:

- إنه مخبأ رائع.
غمغم:
- بالتأكيد.
وتحسس مسدسه المبتل، وهو يتساءل: هل يمكنه أصطياد بعض الرجال والكلاب به، لو عثروا على المخبإ؟.. وراوده شعور بالخوف والرهبة، وسمع صفير (كواريل)، فأشار إليه أن يتقدم نحو المخبأ، فاتجه إليه (كواريل) حاملا عدة أعواد من البامبو، وجلس الثلاثة داخل المخبإ في صمت، والشمس تنحدر نحو المغيب في بطء، والصمت يسود المكان، إلا من نباح الكلاب.. ورائحة الخطر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- الأطلال..

هبط فريق المطاردة نحو النهر، يتقدمه رجلان صينيان، تجرى أمامهما الكلاب الضخمة، والأول يفرق الطيور أمامه بسوط رفيع، في حين يصرخ
الثاني:
- أراهنك أنهم يختبئون بين الأعشاب.
جذب كل منهما إبرة مسدسه، واتجها نحو الفتحة التي اختفى داخلها (بوند) ورفيقاه، وأمسك أحدهما برقبه أحد الكلاب، ودفع رأسه داخل الفتحة، وراح الكلب يشم الأعشاب، ويتقدم داخل الفتحة، دون أن يفعل ما هو أكثر من ذلك، إلا أنه قاوم في شدة، عندما أراد الرجل إبعاده عن الفتحة، و هوى الرجل عليه بالسوط، وأجبره على الابتعاد، وخفتت أصوات الكلاب تدريجيا، ولم تكد تتلاشى حتى ظهرت أعواد البامبو الثلاثة على السطح وتبعها ظهور (بوند) ورفيقيه، والأول يمسك مسدسه في تحفز..
وفجأة ندت حركة ما تحت الماء، ووضع (بوند) سبابته على شفتيه محذرا، ولكن (كواريل) أطلق سعالا خافتا، فرمقه (بوند) بنظرة صارمة، وهو يشير إلى تلك الحركة الغامضة، وعاد الثلاثة يغوصون إلى العمق، وارتفعت من أفواههم أعواد البامبو..
وفي العمق أسند (بوند) رأسه إلى الطين، وراح يفكر..
يبدو أن أحد كلاب المطاردة يسبح نحوهم الآن، وفرصة النجاة تتضاءل مع مرور الوقت، و..
وفجأة ضغط حذاء من الجلد على ذقنه، ولم يعد هناك مجال للتراجع..

وبحركة مباغتة عنيفة، دفع (بوند) عود البامبو بعيدا، وبرز فوق سطح البحيرة، ورأى أمامه رجلا ضخما، وهوت على ذراعه ضربة قوية، فألصق مسدسه بصدر الرجل الجاثم فوقه، وضغط الزناد..

ودوى الانفجار المكتوم، و هوى الرجل كشجرة سقطت من علو شاهق، ولاحظ (بوند) أنه صيني، واستدار فرأى (كواريل) و (هني) خلفه، وقد بلغ ذعر الأخيرة مبلغه، فغمغم:

- معذرة يا (هني)، كان هذا حتميا.

انطلقت القافلة الصغيرة مرة أخرى نحو الطريق الذي أتت منه، وأدرك (بوند)، بعد تلف ساعته بفعل المياه، أن الساعة قد اقتربت من الرابعة حتما، وشعر بتعب وإرهاق شديدين، و..

وفجأة انفجرت (هني) صارخة:

- أظن أنه قد حان الوقت لتخبرني بكل شيء.. لماذا يحدث كل هذا؟.. لماذا يسعى كل مخلوق لقتل الآخر؟.. لست أصدق قصتك عن الطيور.. إنها لا تتناسب مع مسدسك.

تنهد وقال:

- معذرة يا (هنى) لقد تورطت في أمرلا يعنيك، ومن سوء حظك أن دفعك القدر في طريقنا.. إنني أحارب هؤلاء القوم، الذين يسعون للقضاء على، وسأقص عليك كل شيء عند عودتنا إلى المعسكر ليلا.

- ماذا تعني؟.. أأنت رجل شرطة؟.. هل تسعى لإلقاء القبض على ذلك الصيني، مالك الجزيرة؟

- تقريبا.. أخبريني أولا.. كم تبقى لوصولنا إلى المعسكر؟.

- حوالي الساعة.

- أظنه مكان مثالي للاختباء.. أليس كذلك؟

- بلى.. إنهم يحتاجون إلى الدوران حول البحيرة كلها، ليصلوا إلى المعسكر، ويمكننا أن ننجو إلا إذا..
- إلا إذا ماذا؟
- إلا إذا أرسلوا التنين خلفنا.. إنه يستطيع السباحة بسرعة خرافية.. لقد رأيت هذا بنفسي.
- دعينا من التنين.. إنه لا يقلقني بقدر ما يقلقني وجود هؤلاء الأبالسة المسلحين.
- من السهل أن تقول هذا، قبل أن تراه.
قطع حديثهما ظهور (كواريل) من خلف بعض الأغصان، وهو يقول:
- لقد عثرت على مسدس كبير، لا ريب أنه قد سقط من أحد حراس مستعمرة الطيور.
راح (كواريل) يقود القافلة الصغيرة، التي صمدت للرياح العاتية اللافحة، وهي تشق طريقها نحو المعسكر والمستعمرة، وشعر (بوند) بالتهاب عينيه، وبألم في ذراعه، إثر إطلاقه النار على الصيني الضخم، وراودته رغبة ملحة في النوم، ولكنه كان يعلم أن الحصول على هذه المتعة أمر مستحيل في مثل هذه الظروف، ولاحظ أن النهر يزداد ضيقا، حتى صار مجرد مجرى صغير، بين صفين من أعواد البامبو المدببة، ثم لم يلبث أن اتسع، وصار بحيرة ضحلة كبيرة، وهنا اقترحت (هني) أن يتجهوا شرقا، عبر الأدغال العشبية..
وفجأة توقف (كواريل)، وراح يتطلع إلى أخدودين متوازيين، ظهرا في ارض المستنقع في وضوح، وبدا من الواضح أنهما أثر لشيء ما، جاء من التلال، وشق طريقه وسط الأدغال حتى البحيرة، فقالت (هني) في بساطة:
- هذا أثر التنين.

تجمد (كواريل) خوفا، في حين اقترب (بوند) من الآثار الواضحة، التي بدت على هيئة أقواس كبيرة، يتوسطها أثر عريض حديث العهد، وشعر (بوند) بالدهشة، و هو يتساءل عن ذلك الشيء، الذي ترك مثل هذا الأثر، وهمست (هني) في أذنه:



اقترب (بوند) من الآثار الواضحة، التي بدت على هيئة أقواس كبيرة، يتوسطها أثر عريض حديث العهد..

- صدقني إنه التنين.

غمغم (بوند):

- لو أنه ليس كذلك فهو شيء لم أره في حياتي كلها.

هتفت الفتاة في توتر:
- انظر الأعشاب العارية المحترقة.. إنها تبدو كما لو كانت عشا سابقا من أعشاش الطيور.
فحص (بوند) الأعشاب في اهتمام، وقال:
- إنها مهروسة هرسا!. لماذا هذه الأعشاب بالذات؟
امتدت آثار التنين الغامض حتى اختفت في الماء، واضطرت القافلة إلى تجاهل الأمر، وهي تواصل سيرها نحو هدفها، حتى بلغت منطقة كثيفة الأغصان، مع نهاية النهار، وبدء الظلام، ومع عبورهم تلك المنطقة الكثيفة، ظهر أمامهم كوخ محطم، بدا وكأنما تعرض لغارة جوية كاملة، أحالته إلى كومة من الأخشاب المحترقة، إلا أن بقاياه كانت تصلح على أية حال – كمأوى للثلاثة، الذين ألقوا أجسادهم المنهكة إلى جواره، والشمس تختفي خلف الجبال، ونقيق الضفادع يتصاعد في الجو..
وحولهم تناثرت آثار عجيبة، هي كومة من المرجان، وعدة أوان فارغة، وبقايا تركها حارسا المعسكر السابقان، وغمغم (بوند) في إرهاق:
- يمكنك أن تستريحي هنا يا (هني)، وسنلتقي بعد نصف ساعة لتناول العشاء.
غمغمت ساخرة:
- هل نرتدي ثياب السهرة؟
أجابها مبتسما:
- بالطبع، وسيعد لنا (كواريل) طعام العشاء، مما عثر عليه بين أنقاض الكوخ من علب محفوظة.
تركها واتجه نحو الرمال الخشنة، المجاورة لشاطىء البحيرة، واستلقي عليها في تراخ، وأطلق العنان لأفكاره..

لقد بدا كل شيء واضحا الآن..
إن دكتور (نو) لا يرغب في رفقة أحد.. لقد دمر مستعمرة الطيور، ودفعها إلى الفرار، وشن غارة رهيبة على معسكر (أودبون) وحارسيه، وهو يقتل في شراسة كل من يقترب من جزيرته..
ولكن لماذا؟..
الجواب على كل هذا الغموض يحتاج إلى إبلاغ المسئولين، والعودة إلى الجزيرة على متن مدمرة بحرية من الأسطول الملكي، واقتحامها عنوة، وكشف كل غموض وأسرار جزيرة دكتور (نو)..
بل كشف لغز دكتور (نو) نفسه..
وفجأة بدا له صوت شيء ما يسبح في الماء..
شيء قوي عنيف..
وعندما استل مسدسه، ارتفع من خلفه صوت (هني)، تقول:
- العشاء مُعَدّ..
وفي نفس اللحظة تلاشي الصوت المخيف..
تلاشى تماما، دون أن يترك خلفه سوى لغز جديد، يضاف إلى غموض هذه الجزيرة..
جزيرة دكتور (نو)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 - قصتها..

ساد الهدوء تماما، مع اقتراب عقارب الساعة من الثامنة مساء، وهب نسيم بارد، أنعش (بوند)، فأسبل جفنيه في صمت وهو يستلقي على رمال الشاطئ، إلى جوار (هنى)، التي راحت تتطلع إلى النجوم المتلألئة طويلا في صمت، قبل أن تهمس بغتة:

- (جيمس).. لقد وعدتني بسرد القصة كلها.

- ليس قبل أن أسمع قصتك.

- لا... اذكر لي قصتك أولا.

- حسنا.. أنا رجل أمن، ولقد أتيت إلى هنا مكلفا البحث عن اختفاء زميل لي يدعى (سترانجوايز)، مع سكرتيرته، و..

قص عليها القصة كلها بكل وضوح وصراحة، ثم أضاف:

- ومن الضروري أن نعود إلى (جامايكا) غدا، في زورقنا الصغير، ونطلع الحاكم على كل ما رأيناه، ونطالبه بإرسال فرقة كاملة، لإلقاء القبض على ذلك الصيني.. والآن ما قصتك؟

- قل لي أولا: ألا تقلق زوجتك من أسلوب عملك وحياتك هذا؟

- لست متزوجا، وشركات التأمين على الحياة وحدها تقلق بشأنى، و..

قاطعهما (كواريل)، وهو يقول:

- سأتولى نوبة الحراسة الأولى، حتى منتصف الليل، وسنغادر الجزيرة في الخامسة، قبل أن ينبلج الفجر.

تركهما وانصرف إلى الحراسة، في حين راحت (هنى) تروى لـ (بوند) قصة حياتها، قائلة:

- لم أغادر (جامايكا) مرة واحدة في حياتي كلها، وكنت أحيا بالقرب من ميناء (مورجان)، في منطقة تعرف باسم (الصحراء

الفاتنة)، وكان والدي يمتلك حقلا لقصب السكر، لقي حتفه فيه مع أمي، إثر حريق وتخريب متعمد، وأنا في الخامسة من عمرى، وعشت في كنف مربيتى السمراء، حتى ماتت وأنا في الخامسة عشرة، ومنذ ذلك الحين أحيا وحدي وسط خرائب وأطلال قصر والدي القديم، وحاول بعض الرجال إيذائى، ولكنني تعلمت كيف أواجههم وحدي.

- ربما جذبهم جمالك الأخاذ.

- هل تمزح؟.. ألم تر أنفي الأفطس؟

- عملية تجميل بسيطة تعيد إليه جماله.

- وأين لي بالمال، لإجراء جراحة التجميل.. لست أملك من الدنيا سوى حفنة من الجنيهات، أخفيها وسط أطلال قصر والدي، وثلاثة خناجر، وشبكة لصيد الأسماك، وعملية التجميل تحتاج إلى خمسمائة جنيه على الأقل.. المهم.. دعنا نعود إلى قصتي.. هل تذكر حديثى عن الزواحف والحشرات.. لقد بدأت علاقتي بها في أطلال قصر والدي، فلقد كانت تلجأ إليه كمأوي، وكانت مربيتى تخشاها، أما أنا فقد أحببتها، ورحت أعمل على رعايتها، والعجيب أنها قد ألفتني، ولم تعد مفترسة بالنسبة إلى، بل راحت تبحث عني، وتسهر على حراستى و حمايتى، وأنا أطعمها، وأهتم بشئونها، حتى علم الجميع تلك الصلة العجيبة، التي تربط بيني وبين الزواحف والحشرات السامة، وأصبحوا يخشونني كما لو كنت ساحرة شريرة.. وذات يوم حاول رجل يدعى (ماندر) الاعتداء على، فما كان مني إلا أن صفعته بكل قوتي، فأجاب هو صفعتى بلكمة حطمت أنفي، وتركني وانصرف، وانتظرت حتى حصاد قصب السكر، عندما عادت إلى الحشرات، و على رأسها عنكبوت سام، من نوع (الأرملة السوداء)، فأمسكت بها، وأودعتها صندوقا مغلقا بلا طعام، وتلك الأنثى

العنكبوتية من أشرس أنواع العناكب المفترسة، وأكثرها سما، ولقد حملتها في ليلة مظلمة إلى منزل (ماندر)، وأطلقتها نحو فراشه، وكان شخيره يهز الجو.
هتف (بوند):
- وماذا فعلت به؟
- قتلته.. مات متأثرا بسمها، بعد أسبوع من الألم والعذاب، ولكنني عشت في سلام بعد موته، وعلمت من دائرة المعارف أن الناس تهوى القواقع النادرة، فرحت أسعى إليها وأبيعها للمعاهد البحرية والهواة، وربحت من هذا مبلغا كبيرا، وقادني البحث يوما إلى (كراب كى)، وعثرت على ذلك النوع النادر من القواقع الوردية النادرة، التي عادت على بمبلغ ضخم، دفعني إلى البحث عن المزيد منها، مهما كان الثمن.
- لقد تصورت في البداية أنك صديقة لـ (نو)، ولكنني كنت مخطئا.
ابتسمت في ارتياح، وجفناها يتثاقلان، ثم لم تلبث أن راحت في نوم عميق، وكاد (بوند) يستسلم للنوم مثلها، لولا أن لمس (كواريل) كتفه في اللحظة ذاتها، وقال في رعب:
- هناك شيء يبرز من الماء..
وكانت ليلة رعب حقيقية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- التنين..

استيقظت (هنى) فزعة، مع تلك الانتفاضة التي ندت من جسد (بوند)، وهتفت مذعورة:

- ماذا حدث؟

ربت (بوند) على كتفها مطمئنا، وهو يقول:

- لا تتحركى من مكانك يا (هنى).. ابقى هنا وسأعود بعد قليل.

واتجه مع (كواريل) إلى الأعشاب، وراحا يتطلعان من خلفها إلى البحيرة..

وعلى بعد نصف كيلومتر منهما، رأيا شيئا يخرج من البحيرة، له عينان مشتعلتان، وفم يضخ لهيبا أزرق اللون، ثم ظهر جناحاه القصيران، وراح الشيء يصدر ضجيجا هائلا، وهو يتجه نحوهما بسرعة مخيفة، كزورق بخارى قوى، فهمس (كواريل) متوترا:

- يا له من حيوان رهيب!!

أجابه (بوند) في توتر بالغ:

- إنه أشبه بمحرك قوي، أو بدبابة برمائية، وأظنه سيهاجمنا بلا رحمة، وعلينا أن نبحث عن نقطة ضعف نهاجمه منها.. أظنها منطقيا كابينة القيادة، في تلك القبة الزجاجية.. صوب سلاحك إليها جيدا يا (كواريل)، وأطلق عليها النار على نحو متصل، وسأطلق أنا النار على مصابيحه عندما يقترب، وعلى إطاراته أيضا، فلا ريب أن له إطارات ضخمة كإطارات طائرة، ولا ريب أيضا أنهم سيواجهون رصاصاتنا بالمثل، فعليك أن تنسى أسطورة التنين الزائفة هذه تماما، وتحاول حماية (هنى) من الرصاصات، وسنأسر هذا الشيء، وننطلق به إلى الشاطئ.

صاح (بوند) بـ (هنى)، يطلب منها الاختباء في حفرة وسط الرمال لتفادي الرصاصات المتطايرة، واتخذ لنفسه موقعا يصلح لإطلاق النار، وأفهم رفيقه والفتاة أن هذا التنين مجرد خدعة سخيفة، لجأ إليها (نو) لإرهاب كل من تسول له نفسه التسلل إلى الجزيرة، وتضاعف توتره عندما صار التنين الآلى على قيد ثلثمائة متر منه، وأنواره البرتقالية تغمر الشاطئ، واللهب الأزرق يندفع من فمه، عبر جهاز صناعي، وبدا له ذلك التنين تحفة تكنولوجية رائعة، كانت كفيلة بإثارة رعبه هو نفسه، لولا صوت محركه الواضح..

ثم بدأ القتال..

بدأ بسيل من الرصاصات، انهمر من مسدس (كواريل) على القبة الزجاجية، التي صمدت أمام الطلقات على نحو عجيب، في حين تهشم مصباحا المقدمة، إثر رصاصتين أطلقهما (بوند)، فعم الظلام، وإن لم يمنع هذا التنين الآلى من التقدم بسرعته الجنونية، وكأن شيئا لم يحدث، وهنا راح (بوند) يطلق النار على الإطارات الضخمة، ولكن بلا جدوى، فلقد كانت الإطارات من معدن قوى، تغطيه طبقة من المطاط السميك..

واستدارت الآلة الجهنمية نحو النقطة التي يختفي عندها (كواريل)، وانطلق منها لسان من اللهب، أعقبته صرخة مدوية، ثم التفتت إلى حيث يختبيء (بوند)، وأطلقت لسانا آخر من النيران..

تجمد (بوند) في مكانه، وهو يحدق في الأسطوانة الحمراء، التي يندلع منها اللهب الأزرق، وسمع صوتا من داخل التنين الآلى يقول:

- اخرج إلى العراء مع لعبتك يا رجل، وإلا أحلناك إلى كتلة من الفحم مثل زميلك.

شعر (بوند) بـ (هنى) تلتصق به من الخلف، وجسدها يرتجف في رعب، ووقع في روعه أن (كواريل) قد لقي حتفه حرقا على نحو بشع، وبدا له ان الموت بأية وسيلة أخرى سيكون أقل ألما من الموت حرقا، فأمسك (هنى) في قوة، وخطا بها إلى العراء، وارتفع الصوت من داخل الآلة يقول:

- قفا هنا.. وألق سلاحك أو تحترق بنيراننا.

ألقي (بوند) مسدسه الجديد، و هو يسترجع ذكرى المسدس القديم، الذي كان حجمه يسمح بالمناورة في مثل هذه الظروف، وقال للفتاة، وهو يضغط كفها في رفق:

- اطمئنى يا (هنى).. سنجد مخرجا من هذا حتما.

رأى في تلك اللحظة رجلا يخرج من الآلة، ويبدو على ضوء اللهب المتراقص عملاقا قويا، له ملامح صينية واضحة، وهو يصوب إليهما مسدسا ضخما، وقد تدلى قيد حديدي من يده اليسرى، واقترب من (بوند)، قائلا في صرامة:

- اتجه نحوى يا رجل.. وببطء.

أطاعه (بوند)، فأحاط الرجل معصمى (بوند) بالقيد الحديدي، وهو يهمهم بكلمات تحمل نبرة الكراهية والرغبة في الثأر، وتركه (بوند) يتم عمله، ثم اتجه نحو البقعة التي لقي فيها (كواريل) حتفه، ليلقي نظرة أخيرة على جثته، ولكن رصاصة دوت تحت قدميه، جعلته يلتفت إلى العلاق الصيني، قائلا:

- أريد أن ألقي نظرة أخيرة على زميلي.

أطلق الصينى ضحكة وحشية ساخرة، وقال:

- فليكن.. سأمنحك دقيقتين ثم أشوى جسد الفتاة.

واصل (بوند) سيره نحو الأغصان المحترقة، ووقع بصره على أبشع مشهد يمكن رؤيته، فتمتم في مرارة، محدثا جثة رفيقه:

- آسف يا صديقي العزيز، ما كنت أحب لك تلك النهاية البشعة.

وعاد أدراجه إلى الصيني العملاق، الذي قاده مع (هنى) إلى داخل الآلة، وقال في خشونة:
- اجلسا أرضا، وإياكما ولمس أى شئ، وإلا حطمت أصابعكما تحطيما.
أطاعه الاثنان في استسلام، واتخذ الرجل مقعده إلى جوار السائق، وقال:
- هيا يا (سام).
انطلقت الآلة الجهنمية، وهمست (هنى) في رعب:
- إلى أين تظنهم يقودوننا يا (جيمس)؟
بدت له شاحبة ملتاعة هلعة، فتمتم:
- لست أدري.. ربما إلى حيث دكتور (نو)، ولكن لا تجعلي هذا يقلقك، وإذا قابلنا (نو) بالفعل، فلا تقولى شيئا، واتركي الحديث كله لي.. وبالمناسبة، أسلوب تصفيف شعرك يروق لي.
قالت في دهشة:
- كيف يمكنك أن تتحدث في مثل هذه الأمور الآن؟.. ولكن شكرا لك على أية حال، وسأحاول الالتزام بالشجاعة، ما دمت إلى جوارى.
حاول (بوند) خلال الحديث التخلص من الأغلال الحديدية، ولكنها بدت له قوية متينة، شديدة الإحكام، فكف عن المحاولة، وبدا له العملاق والسائق هادئين مطمئنين، وراودته فكرة أن ينقض عليهما من الخلف، وينهال عليهما ضربا بالأغلال، ولكنه لم يدر ماذا يفعل بعدها، ولا كيف يمكنه الفرار من أي لسان لهب يطلقاه خلفه لو فعل؛ لذا فقد استسلم لموقفه، وراح يفحص السيارة، التي بدت له أكبر من أية سيارة معروفة، وأنها لا تعدو كونها سيارة مدرعة، في ثوب تنين؛ لإثارة الخوف والفزع في النفوس، ولقد صممت بحيث يمكنها السير

على الرمال، وفي المستنقعات والبحيرات، وبدا له من دقة وروعة تصميمها وتنفيذها أن (نو) هذا عبقرية فذة جبارة، وأقلقه أن يفكر في المصير الذي يعده له رجل مثل هذا!.. إنه سيقتله حتما، فهذا ما فعله في كل من اخترق عزلته، ولكن ماذا عن (هني).. هل سيقتلها أيضا، أم سيحتفظ بها كجارية له، أو لأحد رجاله الأوغاد؟

انتبه في هذه اللحظة إلى أن السيارة قد عبرت البحيرة، وراحت تتخذ طريقها عبر الطريق الجبلي إلى المرتفع، ورأى أحد الرجلين يتطلع إليه، فقال في سخرية:

- ستحصل على قلادة ذهبية لعملك الرائع هذا..

قال الرجل في خشونة:

- اصمت وأغلق فمك الكبير.

همست (هنى):

- لماذا يكرهوننا إلى هذا الحد يا (جيمس)؟

- لاننا أثرنا الرعب في نفوسهم، ولم نرتجف خوفا منهم، وهذا يغيظهم كثيرا.

اكتفت (هنى) بتلك الإجابة المبهمة، وراحت الآلة تصعد المرتفع في إصرار، قبل أن ينبلج الصباح، وتهب تلك الرياح الحارة اللافحة، وترتفع في الجو رائحة المستنقع الخانقة، وتذكر (بوند) صديقه (كواريل)، الذي ذهب شهيد الواجب، وتذكر بوليصة التأمين الكبيرة، التي أصر على عملها قبيل انطلاقة مع (بوند)، ثم توقفت السيارة، ورأى (بوند) أحد الرجلين يتناول مكبرا للصوت ويقول:

- لقد ألقينا القبض على (لايمى) و الفتاة، ومات الآخر.. افتحوا الأبواب.

سمع (بوند) صرير باب حديدي ضخم يفتح، وعبرته الآلة، ثم توقفت خلفه، وهب هواء رطب، وشعر (بوند) بمن يسحبه خارج السيارة، ورأى بندقية مصوبة إلى صدره، وصوت صارم يقول:
- لا تتحرك.
كان هناك صيني يصوب إليه مسدسه، وآخر يهدد (هنى)، وبقى هو و(هنى) على هذا الحال لحظات، داخل الكوخ الذي بدا عبارة عن ورشة إصلاح و (جراج) كبير، حتى جاء حارس يقول:
- سنرسلهما إليه في الحال.
استدار أحد الحارسين إلى (بوند)، وقال:
- هيا.. تحركا.
أجابه (بوند) في لا مبالاة:
- بل تحرك أنت، وقل لهؤلاء القرود أن يبعدوا أسلحتهم عنا، فقد تنطلق منهم رصاصة عفوا، وهم يعبثون بدماهم هذه.
قال الرجل في غضب:
- سيكون من سوء حظك أن يترك أمرك لي، فستعرف حينئذ كيف أتعامل مع أمثالك.
ثم نقل بصره إلى (هنى)، وسأل رفاقه:
- ما رأيكم يا رفاق؟
أدرك (بوند) مغزى السؤال، فأسرع يقول:
- هيا يا رجال.. إن دكتور (نو) ينتظرنا.
كان لذكر اسمه (نو) سحرا عجيبا، فقد ارتبك الرجال، وأسرعوا يقودون (بوند) و (هنى) نحو باب في نهاية الكوخ، ودق رئيسهم جرس الباب مرتين فانفتح الباب، وقادهم إلى ممر طويل، انتهى إلى باب أنيق، توقف الرجال أمامه، وقال رئيسهم:

- إلى الأمام يا مستر (بوند).. أطرق الباب، وستستقبلك المضيفة، وتقوم بكل المطلوب.
تقدم (بوند) نحو الباب الأنيق مع (هنى) وسمع الباب الآخر يغلق خلفهما، فتوقف قائلا:
- البساط سميك وناعم.. أليس كذلك؟
ودون أن ينتظر جوابا، طرق الباب الأنيق في هدوء..
وانفتح الباب..
واتسعت عينا (بوند) و (هنى) إلى آخرهما..
لقد كان أمامهما مشهد مذهل..
مذهل جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13 - الروعة..

كل شيء في مقر (نو) كان رائعا، مبهرا، مذهلا..
غرفة الاستقبال فسيحة، مغطاة ببساط ضخم سميك، وتنبعث من أركانها أضواء رائعة، موزعة على نحو يشف عن ذوق مرهف رفيع، وإلى يمين (بوند) كان هناك مكتب ضخم، مغطى بمخمل أخضر، وفوقه جهاز لاسلكي، والهواء مكيف رقيق، والمكان يمتلىء بزهور ونباتات الظل، على نحو بالغ الروعة والأناقة، وهناك سيدتان صينيتان، انهمكت إحداهما في كتابة شيء ما، وأمسكت الأخرى الباب ليدخل (بوند) ورفيقته، وقد تملكهما انبهار كامل، وأبت السيدة الممسكة بالباب إلا أن تزيد من دهشتهما وانبهارهما، عندما قالت في كلمات رقيقة ناعمة مرحبة:
- يؤسفنا أن كنا نجهل موعد وصولكما.. فلقد أبلغونا أنكما ستصلان مساء أمس، ولقد انتظرناكما حتى وصلتما في موعد إفطار اليوم.. هيا املآ أوراقكما عند الأخت (روز)، وسأقودكما إلى حجرتيكما، لتحصلا على قدر من النوم، بعد المجهود الذي بذلتماه الليلة.
قادتهما إلى المكتب الذي تجلس خلفه السيدة الأخرى، وقدمت لهما عدة علب من السجائر الفاخرة، وهي تقول:
- هذه سجائر أمريكية، وهذه إنجليزية، وتلك تركية.،..
انتبهت فجأة إلى القيد في يدى (بوند).، فبترت عبارتها لتهتف مستنكرة:
- المفتاح يا أخت (روز).. لقد أكدت ألف مرة ألا يأتي الضيوف بأغلال في معاصمهم.

أسرعت الأخت (روز) تخرج مفتاحا كبيرا من درج مكتبها، فتحت به القيد الحديدي، ثم ألقته في سلة المهملات، فقال (بوند)، وهو يلتقط السيجارة:
- شكرا لك.
بدت (هنى) مأخوذة مشدوهة بما يحدث حولها، فابتسم لها (بوند)، وكأنما يبث فيها بعضا من شجاعته، وسمع (روز) تسأله:
- ما اسمك؟.
- (برايس).. (جون برايس).
- عنوانك؟
- جمعية حدائق الحيوان، (ريجنت بارك).. (لندن).
- الوظيفة؟
- متخصص في علم الطيور.
- الغرض من الزيارة؟
- أنا مندوب لجمعية (أودبون)، جئت لتفقد مستعمرة الطيور النادرة.
- وماذا عن زوجتك؟.. هل تهتم بالطيور أيضا؟
- بكل تأكيد.
- ما اسمها؟
- (هنشيبل).
- اسم جميل هو.. من أقرب إنسان إليك؟ هذا آخر سؤال.
أعطاها (بوند) الاسم الحقيقي لمستر (م) مدعيا أنه عمه، وأعطاها عنوانه بصفته المدير العام لشركة التصدير العالمية، فقالت (روز):
- شكرا يا مستر (برايس).. أتمنى لكما إقامة طيبة هنا.
وهنا ابتسمت الفتاة الأخرى (ليلى)، وقالت:

- نسيت أرقام الحجرتين أيتها الأخت (روز).
- الرابعة عشرة والخامسة عشرة.
- شكرا أيتها الأخت (روز).. اتبعنى يا مستر(برايس)، مع زوجتك.
قادتهما عبر ممر طويل، وهي تقول في لهجة أقرب إلى الاعتذار:
- أعلم أن الممر طويل، ولقد فكر الدكتور في تركيب ممر متحرك، ولكن مشاغله الكثيرة منعته من تنفيذ هذا.
غمغم (بوند):
- لا شك في هذا.
وتناول يد (هنى) في كفه، و (ليلى) تقودهما عبر الممر الطويل، المضاء على نحو بديع، وراح يجيب كل تعليقاتها في أدب جم، و هو يتساءل في أعماقه عن سر هذه الزيارة الشاذة، وعن هذا الاستقبال العجيب، الذي لم يتوقعه قط، وأدرك بغريزته أنه قد انتقل من الكوخ إلى أعماق الجبل، عبر هذا الممر، الذي يمتد غربا، وبدا له الهواء نقيا منعشا، لا أثر فيه للرطوبة أو العفونة، وبات من الواضح أن ثروة طائلة قد أنفقت لصنع هذا المخبإ الهندسي الرائع، وخيل إليه أن (ليلى) و (روز) تجهلان كل شيء عما يدور خارج الجبل تماما، ولقد قادتهما (ليلى) حتى نهاية الممر الطويل، وطرقت بابا يسد الطريق، ففتحته صينية أخرى، أنحنت في أدب جم، و (ليلى) تقول:
- ها هما ذان يا (ماى).. مستر (برايس) وزوجته، وهما متعبان للغاية، ويحتاجان إلى بعض الطعام والنوم العميق.
ثم التفتت إلى (بوند)، مستطردة:
- الآنسة (ماى) فتاة رائعة، ستتعهدكما برعايتها وعنايتها، مثلما تفعل مع كل الزبائن والضيوف، والمرضى.
وابتسمت (ماى) وهى تقول:
- أرجو لكما إقامة طيبة.، يا سيد ويا سيدة (برايس).

وقادتهما عبر ممر يحوي عدة حجرات، وفتحت غرفة تحمل رقم (14)، وأخرى تحمل رقم (15)، ودلفت إلى الأولى، فتتبعها (بوند) و (هني)، وكانت الحجرة رائعة الأثاث والرياش، ولكنها بلا نوافذ، وبلا مقابض الأبواب، وعلى الرغم من هذا، فقد هتف (بوند):
- حجرة رائعة، ما رأيك يا عزيزتي؟
تحاشت (هني) النظر إليه، وهي تقول:
- بلا شك.
دلفت إلى الحجرة في تلك اللحظة فتاة في مثل جمال (ماى)، تحمل صينية طعام، فتراجعت (ماى) قائلة:
- الآن أترككما في سلام، لقد أصدر دكتور (نو) أوامره بأن تتناولا بعض الطعام، ثم تخلدان للنوم، وستجدان الأجراس إلى جوار الفراش، والملابس في الصوان. والدكتور يدعوكما لتناول طعام العشاء على مائدته الليلة، فماذا أقول له؟
- أخبريه أننا نقبل دعوته الكريمة بالطبع.
غادرت (ماى) الحجرة، والتفت (بوند) نحو (هنى)، التي بدت مشدوهة، يدهشها كل ما يحدث حولها، فأطلق ضحكة عالية، وأمسك يدها الباردة كالثلج، وهو يقول:
- فلنتناول الطعام أولا، وليحدث ما يحدث بعدها.
أجابت محاولة اجتلاب الشجاعة:
- إننا في المصيدة يا (جيمس)، وليس أمامنا سوى تناول الطعام.
راح يفحص الحجرة في دقة، بحثا عن سلاح، ولكنه لم يعثر على شيء؛ فلم يكن بالحجرة سوى ساعة كهربية، والأبواب الخفيفة، التي ضغطها بكل قوته، فلم تستجب، ولم يعد أمامه بالفعل سوى تناول الطعام..

وعندما فعل، راودته رغبة شديدة في النوم، ورأى (هنى) تتجه إلى فراشها، وتذهب في سبات عميق..
وأدرك (بوند) أنه و (هني) قد تناولا مادة مخدرة مع الطعام، وحاول أن يقاوم رغبته الشديدة في النوم، و هو يزحف حتى الفراش زحفا، ولكنه لم يكد يلقى جسده فوقه، حتى ذهب بدوره في سبات عميق..
وبعد نصف الساعة تقريبا دلف رجل رفيع طويل إلى الحجرة في صمت، واتجه في بطء نحو فراش (هنى)، وانحنى يفحص الفتاة طويلا، ثم رفع غطاء الفراش عنها، واستكمل فحصها، على ضوء مصباح مثبت على صدره..
ولم تكن تلك اليد التي رفعت الغطاء عنها يدا بشرية..
كانت كلابة من الصلب.، تنتهي بخطاب ميكانيكى..
وبعد فترة من الفحص، أعاد الرجل الغطاء فوق الفتاة، ثم اتجه نحو (بوند)، وبدا وكأنما يفحص كل دقيقة من دقائقه، وكل خلجة من خلجاته، وفحص نبضه وقلبه و عضلات ذراعيه وساقيه، ثم فحص خطى الحياة و القدر في خطوط كفه، وأخيرا أعاد الغطاء على جسد (بوند)، وغادر الحجرة في خفة..
خفة فهد مفترس..



ثم اتجه نحو (بوند)، وبدا وكأنما يفحص كل دقيقة من دقائقه، وكل خلجة من خلجاته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- اللقاء..

راحت أسراب الطيور تحلق في سماء الجزيرة، وغطت قمة الجبل بمخلفاتها البيضاء، وهي تروح فوقها وتجيء، إيذانا ببدء موسم التزاوج والتكاثر، حيث تضع كل أنثى ثلاث بيضات كبيرة، ويبدأ جيل جديد..

وكانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة والنصف عصرا، عندما بدأ مائة عامل وعاملة رحلة عودتهم، بعد يوم من العمل الشاق، حفروا خلاله مائتى متر مكعب من مخلفات الطيور، وسط رائحة نشادر نفاذة، وغدا تصل سفينة نقل سماد الطيور، التي ينتظرها العمال بفارغ الصبر؛ للحصول على المكافآت، وكئوس الشراب، في تلك المناسبة التي لا تتكرر كثيرا..

وفي ذلك الوقت استيقظ (بوند)، وشعر بصداع شديد في رأسه، ووقع بصره على (هنى)، وقد استيقظت، وارتدت زيا صينيا، وراحت تختال به أمام المرآة، فضغط زرا مجاورا للفراش، طلبا لشيء من الطعام، وقد لاح له أن أحدا قد أزال بواقي طعام الإفطار.. ولقد استجابت (ماى) إلى نداء الجرس، وظهرت مع فتاتين جميلتين، طلب منهما (بوند) بعض الشاي، وسألهما أن يقوما بتهذيب شعر (هنى) وقص أظفارها، فأومأت (ماى) برأسها إيجابا، وسألته:

- الدكتور يسأل: هل يناسبك موعد في الثامنة إلا الربع لمقابلته؟

أجابها (بوند) في حماس:

- بالتأكيد.

ابتسمت في امتنان وهي تنصرف، تاركة الفتاتين للعناية ب (هنى)، وجلس (بوند) يراقب عملهما، وعيناه تتابعان المقصات الصغيرة وهي تعمل، حتى انتهيا من عملهما، واقترب موعد مقابلته مع (نو)، فارتدى بدوره زيا صينيا، وجلس صامتا، حتى وصلت (ماى)، فتبعها في هدوء، وهو يفكر في
عمق، حتى توقفت (ماي) عند باب مصعد، انفتح على مصراعيه من تلقاء نفسه، وبدا كل شيء لـ (بوند) متقنا، يشف عن ثراء (نو) الفاحش، و غمغم لـ (هني):
- أشعر بصداع شديد.
التصقت به، وهي تقول:
- أرجو أن يفارقك الصداع بسرعة يا (جيمس).
- شكرا يا عزيزتي.. حاولي الليلة ألا تبدى الكثير من الاهتمام بدكتور (نو)، وحاولي أن تكوني طبيعية، فالرجل مجنون حتما.
توقف بهما المصعد بعد عدة أمتار، وانفتح آليا، فبدت لهما حجرة مكتب ضخمة فاخرة، ازدحمت جدرانها بالكتب والمجلات، فيما عدا جدارا واحدا، صنع بأكمله من الزجاج، وبدت خلفه أسماك تسبح في نعومة وليونة، وفي أعلاه بدا قرار زورق وأمواج تضرب صفحة الزجاج، وفوقها قبة السماء الزرقاء.. وأدرك (بوند) أن الحجرة تحت مستوى الماء، وأن جدارها هذا مصنوع من زجاج سميك، فراح يحدق في المشهد مبهوتا، ورأى من خلف الزجاج سمكتين من أسماك القرش، اختفتا في سرعة، وأطفئت أنوار الحجرة كلها دفعة واحدة..
وتوقع (بوند) أن يظهر (نو) مع الظلام، ولكن شيئا من هذا لم يحدث، وعاد الجدار الزجاجي يجذب انتباه (بوند) مرة أخرى، وراح يتساءل كم تكلف صنع تلك المعجزة الهندسية، وكم تكلفت من أموال، وفجأة ارتفع من خلفه صوت يقول:

- مليونا من الدولارات..
استدار (بوند) و (هنى) يتطلعان إلى دكتور (نو)، بقامته الطويلة النحيلة، فابتسم هذا الأخير مستطردا:
- هذا هو السؤال الذي يدور برأس كل من يشاهد حائطى هذا.. كم تكلف من أموال.
تقدم (نو) نحوهما في بطء، وخيل إليهما أنه ينزلق، ولا يسير على قدمين، وكان من الواضح أنه طويل القامة على نحو بالغ، وأنه يفوق (بوند) بخمسة عشر سنتيمترا تقريبا، وكان أصلع تماما، أصفر البشرة، لا يشف وجهه عن عمره أبدا، له حاجبان أسودان، و عينان كبيرتان بلا أهداب وأنف صغير دقيق، يعلو فما واسعا، ولم تنجح الابتسامة الكبيرة في إخفاء صرامته وقسوته، وهو يقول:
- يؤسفني أن أعجز عن مصافحتكما، فلست أملك يدين.
وأبرز معصميه، وقد اتصلت بهما كلابتان من الصلب، رفع إحداهما في وجه (هنى)، مستطردا:
- للأسف.
ثم التفت إلى (بوند).، وقال:
- هل راقت لك مشاهدة أسماكى؟
أجابه (بوند):
- لست أظن المرء يمل أبدا الجلوس في حجرتك هذه يا سيدي.. أهنئك عليها.
قال (نو) في برود، وكأنما لم يسمع تعليق (بوند):
- هيا يا سيدى.. اجلس.. أمامنا وقت قصير وحديث طويل.
قالها وجلس على مقعد جلدى فاخر، وجلس (بوند) أمامه، في حين جلست (هنى) بينهما، ولمح (بوند) صينيا قصيرا يقف خلفه، مرتديا سروالا أسود وقيمصا أبيض، وقال (نو):

- إنه حارسي الخاص، وظهوره المفاجئ يعود إلى أنني أحمل جهازا سريا، يمكنني من استدعائه وقتما أشاء.. قل لي: أي شراب تفضل الفتاة؟

طلبت (هنى) أي مشروب مرطب، في حين طلب (بوند) كوكتيلا، فقال (نو):

- من الواضح أنك رجل يعرف هدفه تماما، ولكن ألا يحدث أن يسعى شخص ما نحو هدف محدود، فيناله غيره؟.. إنه مبدئي.. أعطني محورا للارتكاز، وأنا أحرك العالم كله.. ولكن دعنا من هذا الحديث الهامشي، ولنناقش ما يعنينا.

واعتدل، ومال إلى الأمام، وتطلع إلى وجه (بوند)، مستطردا:

- والآن ما رأيك في أن نكشف أوراقنا بكل صراحة، يا مستر (جيمس بوند)، يا رجل المخابرات البريطانية؟!

ورفع إحدى كلابتيه إلى أعلى، وقال:

- سأبدأ أنا، فأقول الصدق، وكل شيء غير الصدق، وعليك أن تحذو حذوى، ولكن حذار، فكلابتي تكشف الكذب بسرعة.

ارتشف (بوند) كأسه دفعة واحدة، وأدرك أنه لو صارح (نو) بقصة الطيور هذه فلن يصدقه هذا الأخير، لذا فقد ابتسم، وقال:

- فلتعلم أن عميلتك (تارو) في (كنجز هاوس) قد انكشف أمرها.

لم يبد أي اهتمام على وجه (نو)، فتابع (بوند):

- لقد فقدت يديك في الحرب، وكثيرون أصابهم هذا، ولكنك وحدك تستخدم كلابات قوية كهذه، وتضع عدسات في عينيك، بدلا من المنظار العادي، وعلى صدرك جهاز تستدعي به حارسك الخاص، ولست أشك في أنك تملك مجموعة أخرى من الألاعيب، ولكنك ما زلت بشريا مثلنا. تأكل وتنام، ولا داعي لمحاولة إبهارنا هذه.

- حديثك شجاع يا مستر (بوند)، وسأتغاضى بالطبع عن سخافته، على الرغم من أنني رجل يقدر الفن، وسأقص عليك قصة لم أقصها على مخلوق من قبل، لعل هذا يسرك أنت، والفتاة.
قال (بوند):
- لا شأن لي بالفتاة، لقد عثرت عليها تجمع المحار والقواقع على الشاطئ أمس، ولكن رجالك حطموا زورقها، فاضطررت لاصطحابها معي، والأفضل أن تطلق سراحها، وأؤكد لك أنها لن تنبس بحرف واحد.
ولكن (هنى) قالت في عناد:
- بل سأتكلم، وسأقول كل شيء، ولن أغادر المكان وحدي، بل سأبقى إلى جوارك.
قال (بوند) في صرامة:
- ومن قال إنني أريدك؟
قاطعهما (نو) في هدوء:
- لا داعي للجدال، ما من مخلوق يطأ جزيرتى ويعود سالما..
تطلع إليه (بوند) لحظة، ثم هز كتفيه، والتفت إلى (هنى)، وابتسم قائلا:
- لا بأس يا (هنى)، ستبقين معنا، ونستمع إلى هذا المجنون.
لم يبد علي (نو) أنه قد سمع العبارة، أو حتى أنه يهتم بها، فقد قال في هدوء ناعم مخيف:
- كل العظماء والفلاسفة والقادة مجانين، يدفعهم نوع من الجنون كالطاقة إلى الأمام.. وأنا مجنون بالقوة.. عاشق لها، ومن أجلها امتلكت هذا المكان، ومن أجلها جئت أنت إليه.
ملأ (بوند) كأسه مرة أخرى، وقال:

- هذا لا يدهشني يا دكتور (نو)، فمستشفيات الأمراض العقلية تزخر بأمثالك، ممن يتصورن أنفسهم ملوكا وأباطرة، ويحلمون بالقوة وهم رهناء محابسهم مثلك.
- القوة عرش كبير يا مستر (بوند).. لقد قال (كلوزفيتز) إن بناء القاعدة هو الذي يصنع القوة، و هذا ما فعلته أنا. ولست أذيع سرا، لو قلت إنني قد حققت المعجزة بعقلي الجبار، وإنه ما من مخلوق في العالم يملك قوتي وسطوتى، فحتى الملوك والأباطرة يعتمدون على جيوشهم وشعوبهم، أما أنا فأعتمد على نفسى اعتمادا كاملا، واحتفظ بقوتى على نحو لم يبلغه إنسان أو شيطان.
- إنه مجرد خداع قوة يا (نو)، فالممسك بمسدس قوي يمكنه أن يقتل من يقف أمامه فحسب.. أنت مجرد قاتل مثل عشرات القتلة، الذين ارتكبوا جرائمهم، دون أن تنالهم يد العدالة، ولكنهم لاقوا مصيرهم المحتوم في النهاية.. صدقني يا رجل.. القوة كلها مجرد لفظ مخادع.
- وكذلك الجمال يا مستر (بوند).. والثراء.. والموت.. وربما الحياة أيضا.. كلها أمور نسبية، وعبثك بالألفاظ لا يبهرني، فأنا أكثر منك معرفة بالفلسفة والمنطق، وثق أن حديثنا لن يبدل فلسفتي أو نظرتي للحياة؛ لذا استمع إلى قصتى فحسب.
صمت لحظة، ثم أضاف:
- كنت الابن الوحيد لرجل دين نظامى، وأم صينية من (بكين)، ولكنني تربيت في بيت خالتي، مفتقرا إلى رعاية الأب وحنان الأم، ولقد دفعني هذا إلى الانضمام لجماعات (التونج)، حيث المؤامرات والسرقات والقتل، حتى انهارت عصابات (التونج)، فهربت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعشت طويلا في (نيويورك)، وبناء على توصية من أحد كبار رجال (التونج) تم

تعييني كاتم أسرار، وأمينا لصندوق من صناديق المال يحوى مليونا من الدولارات، و عندما اشتعلت الحرب بين حزبى (التونج) (هيب سينجز) و (أون لى أونجز)، تحطم كل شيء ونهب، فسرقت المبلغ، واختفيت في حي (هارلم)، وكان ينبغي أن أغادر (أمريكا) كلها، فقد نشطت عصابات التونج في البحث عنى حتى عثروا على، وراحوا يعذبونني في قسوة، ويسألونني عن مخبأ الذهب، دون أن أمنحهم جوابا شافيا، فقطعوا يدي، وأطلقوا النار على قلبي وذهبوا ولقد أنقذني جهلهم بطبيعتي النادرة، حيث إن أحشائي كلها معكوسة، وقلبي في الناحية اليمني، وهي حالة نادرة، تحدث بنسبة واحد إلى المليون.. وساعد تمسكى بالحياة على شفائى، بعد شهور في المستشفى، ورحت أفكر في وسيلة للفرار خارج البلاد بالمليون دولار، وأتساءل عما ينبغي أن أفعله بها..

توقف (نو)، وأغمض عينيه طويلا، وكأنما يسترجع ذكريات عسيرة، وخطر ببال (بوند) أن يهاجمه ويقتله، إلا أن (نو) فتح عينيه مرة أخرى، وقال:

- وعندما غادرت المستشفى يا مستر (بوند)

كنت قد وضعت خطتي، فذهبت إلى أكبر تاجر طوابع في (نيويورك)، وابتعت مظروفا يحوي أكثر الطوابع ندرة في العالم، وكذلك فعلت في (لندن) و(باريس) و(زيورخ)، ورحت أبدل في هيئتى، فاقتلعت شعر رأسي من جذوره، وأجريت جراحة تجميل لأنفي الأفطس، فصار دقيقا، وارتديت كفين صناعيين من الشمع داخل قفازين، وأطلقت على نفسي اسم (جوليوس نو)، وأبدلت بمنظارى عدستين قويتين، ثم التحقت بكلية الطب في (ميلواكى)، وهناك.. بين المجلدات الضخمة والمعامل الكبيرة درست خصائص وأسرار الجسد البشري والعقل، ومدى احتمال

هذا الأخير، وبعدها بدأت تجاربي حوله، وبدأ السعي نحو القوة والسيطرة المطلقتين.
صمت لحظات، ثم أضاف:
- لن أثقل عليكما بحديث طويل.. لقد أنهيت دراستي، وطفت العالم حاملا لقب دكتور (نو)، لأن الأطباء يحظون باحترام الناس، وبالبعد عن الشبهات كثيرا، ورحت أبحث عن مركز قيادة بعيد عن أهوال الحرب، حتى عثرت على (كراب كي)، وابتعتها، وقضيت منها أربعة عشر عاما دون منغصات، ووجدت لدي ثروة من مخلفات الطيور لا تكلف قرشا واحدا، ولكنني كنت أحتاج إلى عمال، فاستقدمت مائة عامل وعاملة من (جامايكا)، وصنعت مجتمعا معزولا، يحصل العامل فيه على ضعف أجره خارجه، واستقدمت عددا من الصينيين و عائلاتهم لمراقبة العمال، وهم غلاظ القلوب يعتمد عليهم كثيرا، وبعدها أضفت إليهم المهندسين، وبدأ العمل في الجبل، وفيه صنعت قلعتي، ومستشفى كاملا لإجراء العمليات الجراحية، وحصنا حصينا، وخطوتي التالية هي أن أمد سلطاني إلى العالم أجمع.
جرع كأسه دفعة واحدة، قبل أن يواصل:
- الحادث الوحيد الذي كاد يعكر صفو حياتي هو ظهور الطائر الملعقي في الجزيرة يا مستر (بوند)، واهتمام حمقى جمعية (أودبون) به.. لقد تركتهم وشأنهم في البداية، ومنعت رجالي من الاتصال بحارسي المستعمرة، أو من يفد من علماء الطيور، وكذلك حذرت هؤلاء من الاقتراب من منطقتي، ولكن ذات يوم وصلني خطاب يقول: إن الطائر الملعقي هذا قد صار أندر الطيور في العالم على الإطلاق، وإن جمعية الحمقى هذه تنوي بناء فندق هنا، يرتاده محبو الطيور النادرة، وإن أفلاما سينمائية سيتم تصويرها، وما إلى ذلك.. تصور هذا يا مستر (بوند)!!..

بعد أن كافحت سنوات لأصنع قلعتى السرية، ينهار كل شيء بسبب مجموعة من العجائز، ترغب في مشاهدة بعض الطيور النادرة!!.. ولقد حاولت في البداية منع حدوث ذلك بكل الوسائل القانونية، وحاولت شراء المنطقة من جمعية (أودبون) بمبلغ ضخم للغاية، لكنهم رفضوا عرضى، وهنا رحت أدرس كل ما يتعلق بالطيور الملعقية، وعندئذ بدا لي الحل هلا ميسورا، فالطيور السخيفة يعتريها الخوف بسرعة، وهكذا صنعنا ذلك التنين، الذي بث الرعب في قلوب الطيور، وسحق المعسكر وحارسيه، وراحت الطيور تفر وتموت بالآلاف حتى وصلتني برقية تفيد وصول رجلين من جمعية (أودبون) على متن طائرة، ورأيت من الحكمة أن أوافق فوافقت، ودبرت حادثا أباد الطائرة، وحطمها تحطيما، واحتفلنا بالجثتين احتفالا مهيبا، ووجدنا تفسيرا منطقيا لحادث الطائرة، وآخر لمصرع حارسي مستعمرة الطيور، وهكذا عاد السلام إلى أرضى، وأظن جمعية (أودبون) ستقبل عرضي هذه المرة، وإلا فإنها ستتعرض إلى حرب شعواء، لن ينعم بها أحدهم قط.

قال (بوند):

- قصة طريفة، ولكن لماذا تخلصت من (سترانجوايز) والفتاة؟ ماذا فعلت بهما؟.

- إنهما يرقدان الآن في قرار نهر (موناريزرفوار)، فلقد بدأ (سترانجوايز) يشك في أعمالي، وكان لابد له من هذه النهاية مع سكرتيرته، وكان من الممكن أن أفعل الشيء نفسه معك، ولكنني علمت طبيعتك، من ذلك الملف الذي أخذناه من (كنجز هاوس)، وأدركت أن الذبابة ستلقي نفسها بإرادتها بين خيوط العنكبوت، وما إن ظهر قاربك على الرادار، حتى أدركت أنك قد وقعت، ورحت أستعد لاستقبالك.

- لم يكن رادارك محقا، فلقد التقط شراع قارب الفتاة، وأنا أؤكد لك للمرة الثانية أنه لا شأن لها بالأمر مطلقا.
- إنه سوء حظها إذن، فأنا أحتاج إلى فتاة بيضاء لتجربة صغيرة.. ولقد قلت لك من قبل يا مستر (بوند) إن الإنسان يحصل دوما على ما يريده.
تمنى (بوند) لحظتها لو يقتل (نو)، ولكنه شعر بعجزه عن هذا في الوقت الحالي، فلجأ إلى وسيلة أخرى، وهو يقول:
- لن يصاحبك الحظ دوما يا (نو).. هناك ملف خاص عنك، دونت فيه حادث الطائرة، ومصرع حارسي مستعمرة الطيور، وبه أسماء الآنسة (شوبك) و (تارو).. ودعني أخبرك بكل صراحة أن التعليمات قد صدرت في (جامايكا) لمهاجمة (كراب كى)، لو لم أعد خلال ثلاثة أيام.
لم يبد على وجه (نو) أي اهتمام بحديث (بوند)، الذي تابع:
- ومن أجل هذه الفتاة فقط سأتفاوض معك يا (نو). حسنا.. ما قولك في أن تعيدنا إلى (جامايكا) سالمين، ثم أمنحك أسبوعا كاملا لتغادر (كراب كى) بطائرتك، تاركا كل شيء خلفك؟
لم ينطق (نو) بحرف واحد، ولكن نظراته اتجهت إلى نقطة ما خلف (بوند)، وكذلك اتجهت نظرات (هنى) إلى النقطة نفسها في رعب..
والتفت (بوند) في حدة..
ورأى ما يتطلعان إليه..
كان يقف خلفه الحارس الخاص لدكتور (نو)، وإلى جواره رجل مفتول العضلات صارم الملامح..
لحظتها أدرك (بوند) الجواب..
جواب دكتور (نو)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- مخالب..

« العشاء معد يا سيدى.. ».
نطقها الحارس الخاص لـ (نو) في هدوء، يخالف الصرامة المرتسمة على ملامحه وملامح زميله، وتنفس (بوند) الصعداء، وتراخت عضلاته المتوترة، عندما قال (نو) في هدوء وبساطة:
- إنها التاسعة إذن.. هيا.. سنتم حديثنا حول المائدة.
لم يكد يتم عبارته حتى انزاح الحائط من خلف الحارس وزميله، وتبع (بوند) و (وهنى) (نو)، عبر الفجوة، إلى حجرة خشبية أنيقة، تتدلي من سقفها ثريا ضخمة، على هيئة شموع مشتعلة، وتحتها مائدة مستديرة، معدة لثلاثة أشخاص، وأرضها مفروشة ببساط أزرق سميك..
واتخذ (نو) مقعدا متوسطا، بحيث جلست (هنى) إلى يمينه، وجلس (بوند) إلى يساره، وبدت الحجرة - على الرغم من بساطتها – شديدة الجمال والذوق، على حد يكفل لها منافسة أفضل قاعات (هوليود)، وراح الحارسان يخدمان المجموعة الصغيرة في مهارة وسرعة، وسرى جو مرح في أثناء العشاء، على نحو جعل الأمر يبدو وكأنه دعوة بين أصدقاء قدامى، وتساءل (بوند) عما إذا كان حديثه قد وجد صدى في نفس (نو)، ثم تساءل عما سيفعله (نو) معه ومع الفتاة!.. هل سيقتلهما حقا؟!
لم يقلقه الأمر بقدر ما راح يدرسه، متسائلا عما إذا كانت (لندن) ستلتقط الخيوط التي أمسكها هو أم لا؟.. هناك على أية حال (بليدل سميث)، والفاكهة المسمومة، و... لا.. إن (نو) شديد الثقة بنفسه، وشديد المهارة في الوقت ذاته.. إنه سيجيب في بساطة: « لم أسمع قط عن (كواريل) أو (بوند)..

»، ولن يكون هناك مجال لتكذيبه.. أما بالنسبة لـ (هنى) فلن يربط مخلوق واحد بينها وبينه، ولن يبدو اختفاؤها عجيبا أو مثيرا.. سيظن الناس أنها قد غرقت في أثناء بحثها عن القواقع والمحارات النادرة، ومن المستحيل في الوقت نفسه أن يتنبأ بمصير (نو)، فالأمور الخاصة بهذا الرجل لا تزال مبهمة غير واضحة.

وحاول (بوند) أن يشغل (هنى) بالحديث عن الطيور والحشرات، وانتهز فرصة وجود سكين الخبز في يده، فأسقط كأسه عمدا، وفي غمرة الارتباك الوقتي، الذي أحدثه تحطم الكأس، واعتذار (بوند) الشديد، وتأسفه المبالغ فيه عما سببه من فوضى، رفع يده اليسرى، وترك السكين يسقط في كمه الواسع، ويستقر عند ضلوعه، وتظاهر بشد حزام الثوب الصيني دول وسطه، وثبت السكين أسفل الحزام في ارتياح..



رفع يده اليسرى، وترك السكين يسقط في كمه الواسع، ويستقر عند ضلوعه، وتظاهر بشد الحزام..

ولم يكد العشاء ينتهي حتى وقف الحارسان خلف (بوند) وزميله، وقد عقدا ساعديهما أمام صدرهما، وقال (نو) في جمود:

- هل راق لك طعام العشاء يا مستر (بوند)؟

التقط (بوند) سيجارة من صندوق سجائر (نو) الفضى، وأشعلها في هدوء، وهو يشتم رائحة الغدر مختلطة بدخانها، عبر صوت (نو)، وقرر أن يحصل على قداحة السجائر كسلاح آخر، وهو يقول:
- إنه عشاء ممتاز بحق.
ثم التفت إلى (هنى)، واستطرد وهو يخفى القداحة في مهارة:
- أليس كذلك؟
تمتمت (هنى) في قلق:
- هذا صحيح..
ابتسم لها للحظة، ثم التفت يسأل (نو):
- ماذا سيحدث الآن يا دكتور (نو)؟
- لقد فحصت اقتراحك من كل الوجوه يا مستر (بوند)، ولم أقبله شكلا أو موضوعا.
- قرار غير حكيم يا دكتور (نو).
- ربما يا مستر (بوند)، ولكنني أشك في أقوالك، فرجال مهنتك لا يلقون مثل هذه المقترحات، ومن المعتاد أن يبلغوا رؤساءهم تفاصيل ونتائج مهماتهم، ويبدو أنك تسرف في مطالعة القصص البوليسية يا مستر (بوند)، فالأمور لن تتعقد أبدا كما تظن.. ربما يصل رجال الشرطة والجيش، ويسألون: أين الرجل والفتاة؟.. ماذا؟.. رجل وفتاة؟!.. لست أدري شيئا عنهم.. هيا.. انصرفوا بسرعة، فليس لدي وقت أضيعه في تفاهات واتهامات جوفاء، لا تستند إلى أية أدلة مادية.. أعطوني دليلا واحدا.. مجرد دليل.. أرأيت يا مستر (بوند)؟.. الأمر أبسط من أن نلجأ إلى تعقيده.. والآن هل لديك سؤال آخر، أو كلمة تحب توجيهها إلى؟.. هيا.. الوقت يقصر كثيرا، وستصل سفينة الشهر غدا، وأنا أحتاج إلى قدر من النوم.

تطلع (بوند) إلى (هنى)، ورآها شاحبة كالموت، تحدق فيه في رجاء، وكأنما تستعطفه أن ينقذها، فقال:
- حسنا.. ماذا ينتظرنا؟.. ما الفصل الثاني؟.. كيف ستحصل على القوة؟
- آه.. أنت تشعر بالحيرة حتما يا مستر (بوند)، ولا يمكنك مقاومة عادة إلقاء الأسئلة، حتى و أنت قيد خطوة واحدة من الموت.. لا بأس يا مستر (بوند).. سأخبرك بكل ما ترغب في معرفته.. ستكون هذه الجزيرة منارة إشعاع الحضارة والمعرفة للعالم كله.. هل تعلم أن جزر (ترك)، التي تبعد عنا ثلثمائة كيلومتر، هي أهم مراكز اختبارات الصواريخ الموجهة؟.. لا شك أنك قد سمعت عن الصواريخ التي فقدت في الجو، والتي رفضت الإصغاء لأوامر التوجيه، وأبادت نفسها في الجو.. هل تعلم السبب المباشر لهذا الفشل يا مستر (بوند)؟. إنه جزيرة (كراب كى).
- أى قول هذا؟
- إنه قول عسير الفهم، ولكنه بسيط تكنولوجيا، فهناك طاقم من رجالي يتابع إطلاق الصواريخ، وطاقم آخر يختبيء مع معدات يفوق ثمنها المليون دولار، في باطن الجبل، ومهمته هي انتظار انطلاق الصواريخ، ثم إرسال موجة ذبذبة قوية تعوق طريقها، وتسقطها في الأطلنطي، بعد أن نصيبها نحن بجنون إليكتروني، ونحدد موضع سقوطها بمنتهى الدقة، ونتأكد من أننا نستطيع تبديل مسارها يوما، وتوجيهها نحو الهدف الذي نختاره لها.
- هل ستقتل نصف العالم لتحقيق أغراضك، وتبني مجدك الزائف يا دكتور (نو)؟.. أراهنك أن أول رصاصة تخترق صدرك

ستكون من أحد رجالك، بعد أن زرعت كل هذا الشر في نفوسهم.
- لست تفهم شيئا يا مستر (بوند).. إنك غبي وعنيد.. لقد عزلت أحد رجالي عن الآخرين، وكلهم يتصورون أنه قد مات، وهو يحمل نسخة من الشفرة التي نتصل بها بعملائنا في مركز إطلاق الصواريخ الموجهة، ومهمته مراقبة كل ما يدور هنا سرا، ويسلمني في كل مرة نسخة من الرسائل المتبادلة.. كل الرسائل، وحتى الآن لا توجد في الجو رائحة مؤامرة.
- لست أقلل من شأنك يا دكتور (نو)، فأنت رجل شديد الذكاء والحذر، كما يبدو واضحا، ولكن من عاش بالسيف مات بالسيف.. ودعني أؤكد لك أمرا.. إن القسم الذي أعمل في خدمته سينهض كالمارد، لو أصابني مكروه، أنا أو (هنى)، وسيحيل جزيرتك هذه إلى فتات.
- لا تحاول أن تلعب لعبة كبيرة يا مستر (بوند)، ولا تتوقع حدوث معجزة، فأنا مستعد لكل الأخطار والنتائج، ولقد أعددت لكل شيء عدته.. لقد وجدت الوسيلة للتحكم في مسار الصواريخ، وإسقاطها بالقرب من الجزيرة لدراسة تركيبها، بل تبديل مسارها إلى حيث أريد، وأنت تعلم كم سيسبب صاروخ ضخم موجه من خسائر، في الأرواح والمعدات.. والأدهى أن العدو مستعد دوما لدفع مبالغ باهظة، للوقوف على ما توصل إليه خصمه، في مجال الحرب والفضاء، وكم تظنه يدفع مقابل الصاروخ الواحد؟!.. خمسة ملايين؟.. عشرة؟.. تهديدك إذن لا يساوي شيئا أمام كل هذا يا مستر (بوند).
استمع إليه (بوند)، وهو يفكر في أنه سيلقي مصرعه بعد قليل، متخما بأسرار (نو)، وحصنه الحصين، فأسرع يرتشف ما تبقى من كأسه، وهو يقول:

- حسنا يا دكتور (نو).. لقد سئمت حديثك. كيف تود قتلنا.. بخنجر أم مسدس أم سم زعاف؟. هيا.. أخبرني بسرعة.
أربد وجه (نو)، واحتقن غضبا، وبإشارة منه أمسك حارساه بـ (بوند) و (هنى)، وأمسك (بوند) القداحة في قبضته بقوة، وابتسم لـ (هنى)، قائلا:
- معذرة يا عزيزتي.. يبدو أن حياتينا ستنتهيان الآن.
أطل الرعب واضحا من عيني الفتاة.، وهي تقول:
- هل سيؤلمني القتل؟
انفجر (نو) كالعاصفة:
- أشد الألم.. إنني أعشق إيلام الآخرين، وأقضي جل وقتي في دراسة قدرة الجسد البشري على احتمال الألم، وأقوم بتجاربي على كل من يوقعه القدر في طريقي، ويوما ما ستقود تجاربى العالم كله، إلى حضارة جديدة، مثلما فعلت تجارب الألمان على البشر قديما.. لقد أجريت تجربة يوما على امرأة زنجية، استغرقت خلالها ثلاث ساعات، قبل أن تقضى نحبها من شدة الرعب، وكنت أبحث عن فتاة بيضاء لإجراء التجربة نفسها، ولقد قادك القدر إلى..
جلس متطلعا إلى الفتاة المذعورة، وبدا وكأنما يتلذذ برعبها، وهو يستطرد:
- أنت تعلمين حتما ما أعنيه، فهذه الجزيرة تسمى (كراب كى)؛ لأنها تزدحم بما بعرف في (جامايكا) باسم (سرطان البحر الأسود)، وهو كائن بحرى يملك مخالب قوية حادة، و هو يزور الجزيرة بالآلاف، في مثل هذا الوقت من العام، على هيئة جيوش رهيبة مخيفة، تختفي بين شقوق المرجان، وتنشط في الليل بحثا عن طعام تفترسه، والليلة ستعثر على امرأة بيضاء بضة، وستمزقها بمخالبها شر ممزق.

أطلقت (هني) صرخة رعب هائلة، وبدت وكأنما ستفقد وعيها، فقاوم (بوند) عبثا ذراعي سجانه، وهو يصرخ:
- أيها الوغد الزنيم.. سأرسلك إلى الجحيم من أجل هذا.
ابتسم (نو) ابتسامته الواثقة، وهو يقول:
- لست أومن بوجود الجحيم يا مستر (بوند).. ولا تقلق بشأن صديقتك كثيرا، فنبض العروق يجذب (السرطان الأسود) عادة، وقد يبدأ في التهام قلب صديقتك أولا، فلا تتجشم عذابا طويلا، قبل أن تلقي مصرعها.
ثم أضاف عبارة باللغة الصينية، فحمل الحارس الآخر الفتاة، وكأنما هي دمية صغيرة، وغادر الحجرة، في حين تضاعف شعور (بوند) بالسكين الملتصق بمعدته، والقداحة المستقرة بين أصابعه، وتمنى لو يبدأ هجومه على (نو) الآن، وسمع هذا الأخير يقول:
- قلت لك إن القوة خادعة يا مستر (بوند)، ولكن دعنا من الفتاة الآن، ولنناقش مصيرك أنت.. إنني مغرم في الواقع بتشريح الجسد البشري، وبدراسة قدرة المرء على ممارسة شجاعته و احتمال آلامه، وهذا يحتاج إلى أن يواجه
المرء صراعا ما.. وهذا ما سيحدث لك.. سنجرى عليك تجربة فريدة، فأنت الآن قد تناولت طعاما جيدا، وحصلت على قدر كاف من النوم، وستبدأ الآن تجربة نادرة، لم يواجهها إنسان من قبل، وأعدك أن أقوم بتشريح جثتك في حال مصرعك، لمعرفة سبب فشلك في التجربة.
وفي هدوء، نهض (نو) من مقعده، واتجه نحو باب الحجرة، والتفت إلى (بوند) وقال في هدوء، وهو يسلط نظرة قوية على وجهه:
- حظا سعيدا يا مستر(بوند).

وأوصد الباب خلفه في إحكام..
وفي نفس اللحظة سمع (بوند) صوت خادم المصعد من خلفه يقول:
- هيا يا مستر (بوند).
وبكل هدوء اتجه (بوند) نحو المصعد، مع حارسه..
ونحو المجهول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16- التجربة..

توقف العامل أمام أزرار المصعد، حتى يخفي عن (بوند) اتجاهه، والدور الذي سيبلغه، ولكن (بوند) استنتج الجوابين بتقدير الحركة والمسافة، حتى توقف المصعد أمام ممر طويل مغطى بسجاد سميك، فسار (بوند) عبر الممر الطويل، وبدا له من الصوت المنبعث من خلف بعض الأبواب المغلقة، أنه قريب من حجرة الآلات، التي تدير كل هذا الوكر العجيب، وكانت الأبواب تحمل حروف الهجاء بالترتيب، ولم يكد حارسه يلمح الباب الذي يحمل الحرف (ك)، حتى دفع (بوند) داخل الحجرة المفتوحة..

ووجد (بوند) نفسه داخل زنزانة من الحجر، مطلية بطلاء رمادي، ليس بها سوى مقعد خشبي وضع عليه في عناية بالغة قميص (بوند) الأزرق وسرواله الداكن، وقال الحارس وهو يهم بإغلاق الباب:

- إنها نهاية المطاف.. اجلس حتى الموت، أو أوجد لنفسك مخرجا.

قال (بوند) في هدوء:

- ما رأيك في عشرة آلاف دولار، وتذكرة سفر مفتوحة، إلى أي مكان في الدنيا؟

ابتسم الحارس، وبدت أسنانه الصفراء واضحة، وهو يقول:

- لا يا سيدي.. إنني أفضل البقاء على قيد الحياة.

- يمكننا أن نفر من هنا معا.

صرخ الحارس:

- إليك عني.

وأغلق الباب في إحكام..
وراح (بوند) يدرس زنزانته جيدا..
لم تكن هناك سوى فتحة واحدة للتهوية، مغطاة بسلك مسميك، ولكنها تكفى لمرور جسده، وكانت ساعته تشير إلى العاشرة والنصف، وموعد خروج جيش السرطان الأسود يقترب، ومعه يقترب مصرع (هنى)، ومن المحتم أن يعمل هو بأقصى قوته وسرعته، لو أراد استعادتها على قيد الحياة..
وبسرعة خلع (بوند) الزي الصيني، وارتدى قميصه وسرواله، وأستل السكين، وراح يختبر قوتها بحفر الحائط الصخري، ثم وضعها بين أسنانه، وجذب المقعد إلى أسفل فتحة التهوية، ووقف فوقه، ومد أصابعه عن آخرها، حتى لمس السلك الذي يغطي الفتحة..
وفجأة شعر بصدمة قوية، دفعته بعيدا، وألقته أرضا في عنف..
كانت الأسلاك مكهربة..



عادا يراقبان شاشة الراصد فى اهتمام ، وأمامهما بدت (دايل) قلقة ،
وهى تسأل (زوركوف) :ـــ إلى أين تقودنى ؟

وراح (بوند) يهز رأسه في قوة، ليتخلص من أثر الصدمة الكهربية، ورأي أطراف أصابعه محروقة ملتهبة، إلا أن هذا لم

يثنه عن عزمه، فالتقط الزى الصيني، ومزقه تمزيقا، ثم صعد مرة أخرى إلى النافذة..
وبمعاونة القماش العازل، أمكنه انتزاع الغطاء الشبكي هذه المرة، فهبط ليجلس على مقعده، وراح يستخدم قدم المقعد كمطرقة، حتى صنع من الأسلاك رمحا حادا مدببا، ثم صعد فوق المقعد للمرة الثالثة، وتطلع عبر النافذة..
بدت له الفتحة كافية لمرور جسده، وعلى ضوء القداحة، وجدها تمتد على هيئة أنبوب طويل، يبدو وكأن لا نهاية له..
ودفع (بوند) جسده عبر الفتحة، وراح يزحف داخل الأنبوب، وأيقن على الفور، من رائحة الهواء النظيف، أنها فتحة هواء التكييف، وراح يكمل طريقه عبرها، وهو يتساءل أى هول ينتظره في نهايتها، إلا أنه لم يجد أمامه سوى نهاية الممر، وبداية اسطوانة ترتفع إلى أعلى، لمسافة عشرين مترا تقريبا، وينبعث داخلها ضوء قوي، وكأنها فوهة مدفع مصوبة إليه..
وتساءل (بوند) هل يمكنه تسلق الأسطوانة ذات الجدران الملساء أم لا؟
ودون أن يمنح نفسه فرصة للتفكير والتراجع، ألصق ظهره بجدار الأسطوانة الداخلي، وألصق قدميه العاريتين بالجدار المقابل، وراح يدفع جسده إلى أعلى في بطء مثير للتوتر..
ومضى الوقت بطيئا، و (بوند) يصعد مترا، ويهبط قليلا، ويتوقف بضع لحظات ليبرد الهواء عرقه، الذي يكاد يدفعه للانزلاق إلى أسفل بين حين وآخر، والسكين بين أسنانه، يضغطها في إحكام..
ثم ارتطم رأسه بقمة الأسطوانة..
لقد بلغ النهاية..
لا.. لقد رأى أمامه أنبوبا جديدا..

وبكل ما تبقى في جسده من قوة وإصرار، دفع جسده إلى الأمام، وسقط على وجهه داخل الأنبوب الجديد، ثم أسرع ينقلب على ظهره، وهو يلهث في شدة..
لم يكن يدرى لحظتها أين هو، ولكنه كان يحدق في نافذة زجاجية، هي مصدر ذاك الضوء، الذي يملأ المكان ويغمره تماما، و..
وفجأة انتفض جسده في قوة..
لقد رأى عينين تحدقان في وجهه.، عبر النافذة، ثم تختفيان في سرعة..
إنه أحد رجال (نو) حتما..
ذلك الوغد يتتبع خطواته إذن..
فليكن..
لا مجال للتراجع، على الرغم من هذا..
وبمزيد من الحزم، أمسك (بوند) السكين بين أسنانه، وراح يواصل طريقه إلى الأمام..
وراح الضوء يخفت تدريجيا، والحرارة ترتفع داخل الأنبوب، فأشعل (بوند) قداحته، وهو يتصبب عرقا، ومال مع الأنبوب يمينا، وخيل إليه أنه يميز رائحة معدن منصهر، وارتفعت حرارة الأنبوب تحته في شدة..
وبلا تردد، خلع (بوند) قميصه، ومزقه بالسكين إلى شرائح صغيرة، لفها حول يديه وقدميه، ورفع معدته عن أرضية الأنبوب الساخنة، وواصل زحفه في إصرار نحو الحرارة المرتفعة، على الرغم من الأدخنة المحيطة به، والعرق الغزير، الذي يلهب عينيه..
وراح يصرخ ألما كلما لمس جزء من جسده الأنبوب الملتهب، ولكنه لم يتوقف، وقرر أنه لن يستسلم أبدا، فصراخه يؤكد أنه

ما يزال حيا، وسيبذل أقصى جهده لحماية حياته..
وحياة (هنى)..
وفجأة لمست يده شيئا باردا، فاندفع يعبر عوازل من مادة (الاسبستوس)، وتبعها عبر منحنى آخر شديد الإظلام، يكفيه فيه أنه بارد كالثلج..
وفي استسلام ألقى (بوند) جسده أرضا، وعاد يلهث..
أخيرا عاد إلى الهواء البارد، بعد أن كاد يشوى حيا..
وانتعش (بوند) بعد قليل، ولاحت له بقعة ضوء من بعيد، فاستجمع قواه، وذهب إليها..
ومرة أخرى رأي نافذة زجاجية، وخلفها عينان ترقبانه..
وأسرع (بوند) يبتعد، وقد أثارت تلك المراقبة ثائرته، وجعلته يشعر وكأنه حيوان تجارب يرقبه أحد العلماء في شغف، عبر متاهة قاتلة..
وأخيرا رأى (بوند) القمر من بعيد.، في نهاية الأنبوب..
وبكل لهفته للنجاة، راح يزحف نحوه، وهو يمني نفسه بالخروج من هذا التيه القاتل، ويحاول إقناع نفسه بأنه كان سيلاقى ما هو أشد هولا، لو أنه مجرد مسافر عادى، سقطت طائرته وارتطمت بالأرض، و...
وفجأة لاحت له أجسام صغيرة تعبر بينه وبين صورة القمر، فأسرع يشعل قداحته، واختفت تلك الأجسام على الفور، وإن رأى على ضوء القداحة أن نهاية الأنبوب مغلقة بشبكة أخرى من الأسلاك السميكة..
ثم رأى تلك الأجسام الصغيرة في وضوح..
كانت عناكب حمراء بشعة، من النوع السام، يبلغ طول الواحدة منها سبعة سنتيمترات على الأقل، وكان هناك ما يقرب من

عشرين واحدة منها، تعترض طريقه إلى الخارج، وكان عليه أن يعثر على وسيلة لعبورها..
وأدرك بغتة أنه يحمل الوسيلة..
وأشعل (بوند) قداحته بأقصى قوتها، وصدر منها لسان من اللهب، جعل العناكب تتراجع، وتنكمش كلها في ركن قصي، وهنا أخرج الرمح الذي صنعه من أسلاك الشبكة الأولى، وراح يطعن العناكب واحدة بعد الأخرى، وثارت ثائرة العناكب السامة، وحاولت مهاجمته، فأطلق اللهب في وجوهها..
واستمر قتاله مع العناكب قرابة نصف الساعة، حتى قضى عليها كلها في النهاية..
وعندئذ مزق (بوند) الشبكة، وعبرها في سرعة..
ولكنها لم تكن نهاية المطاف..
لقد خدعه بصره..
لم يكن ذلك الضوء ضوء القمر، بل كان ضوء نافذة أخرى، تطل من خلفها عينان مراقبتان..
وهذه المرة استلقي (بوند)، وتظاهر بالموت..
وعلى الرغم من عينيه المغلقتين، كان يشعر بنظرات المراقب، الذي لم يلبث أن غادر موقعه في سرعة، وكأنما هرع ليبلغ (نو) أمر مصرع (بوند)..
وبسرعة واصل (بوند) تقدمه عبر الممر، الذي راح ينحدر تدريجيا، ويزداد انحدارا واتساعا..
وفجأة فقد (بوند) توازنه.، ووجد نفسه ينزلق عبر الممر في سرعة..
وفجأة أيضا عبره إلى الهواء الطلق..
ووجد نفسه يهوى من حالق..
نحو مصير مجهول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17 - أذرع الموت..

هوى (بوند) بكل ثقله عبر الهواء، وخيل إليه لحظات أن مصيره المحتم هو الموت سحقا، إلا أن عينيه لمحتا بغتة سطح الماء الفضي..

وبحركة غريزية تناول (بوند) السكين بين أسنانه، ومال برأسه إلى أسفل، ومد ذراعيه إلى الأمام..

وارتطم بالماء..

وغاص ما يقرب من ستة أمتار..

وفقد الوعي..

وفي بطء راح جسده يصعد إلى السطح تدريجيا، فأرسل مخه إشارة إلى أطرافه، واستعاد وعيه دفعة واحدة، فراح يضرب الماء بذراعيه وساقيه، صاعدا إلى أعلى..

وعندما صعد إلى سطح الماء، راح يسعل في شدة، إلا أنه لم يكد يلمح الشاطىء من بعيد حتى سبح نحوه على الفور، ولكن حاجزا من الأعمدة الحديدية اعترض طريقه، فتعلق به ليحصل على قدر من الراحة، وبدت له أضواء الفجر من بعيد، ولاحظ أن الماء أسفله عميق، وأن تلك الأعمدة ترتفع إلى علو مترين تقريبا، وتغوص إلى القرار..

وانتبه (بوند) إلى سرب من الأسماك يقترب منه، ويلتقط نقاطا صغيرة تسبح حوله، ثم انتبه فجأة إلى أن هذه النقاط السوداء هي دمه المتخثر..

نعم.. كانت الدماء تسيل من كتفه وركبته وقدميه، وكان ماء البحر يكوي جروحه، ويؤلمه..

وخشى لحظة أن تكون تلك الأسماك الصغيرة من الأسماك المفترسة، ولكنها تلتهم دمه فحسب، ولكن لو أن رائحة الدم قد جذبت الأسماك الصغيرة هكذا، فماذا عن (الباراكودا) وأسماك القرش؟..

بدا له أن الغرض الوحيد من إقامة هذا الحاجز من الأعمدة هو احتجاز الأسماك المفترسة، ومنعها من بلوغ البحر المفتوح، إلا أن هذا يمنعه من تسلق الحاجز، والعبور إلى الجانب الآخر منه، مهما كان الثمن..

لقد استنفذ (بوند) قواه تماما، واعتصرها اعتصارا، حتى ليكاد يستسلم للموت الآن، لولا رغبته العارمة في إنجاح مهمته، و إنقاذ (هنى)..

وفجأة تجمدت الدماء في عروقه..

لقد بدا الماء من تحته وكأنه يغلي، ثم برزت أمامه بغتة عينان كبيرتان..

إنها إذن مفاجاة (نو) الأخيرة..

الحلوى التي تأتي في نهاية الوجبات..

كان هذا الشيء أخطبوطا ضخما..

ذلك الحيوان، الذي قالت عنه الأساطير: إنه يلف أذرعته حول القوارب، ويجذبها معه إلى القرار..

وبسرعة راح (بوند) يتسلق الحاجز الحديدى.. لقد صار العبور إلى الناحية الأخرى محتما الآن..

وفي صبر وهدوء، راح الأخطبوط يراقبه، ثم مد إحدى أذرعته في بطء، وراح يتحسس بها ساق (بوند)، الذي يهبط من الناحية الأخرى من الحاجز، وكأنما يختبرها قبل الهجوم، ثم ارتفعت الذراع إلى وسط (بوند)، والتفت حوله..

وفي هذه اللحظة حلقت أسراب الطيور، وارتفع صوت باخرة الشحن الشهرية، إيذانا ببدء احتفالات عمال الجزيرة..
وفجأة التفت الذراع حول وسط (بوند)، وقفزت ذراع أخرى لتضربه في وجهه، ولكن (بوند) أبعد وجهه في الوقت المناسب، فارتطمت الذراع بالحاجز الحديدي، واعتصرت الأخرى وسط (بوند)، حتى كادت تنغرز فيه..
وبكل قواه، راح (بوند) يطعن، ويطعن، ثم استل الرمح من جسده، والذراع تكاد تشطره شطرين، وترك جسده ينزلق في سرعة، وغرس الرمح في عين الأخطبوط بكل قوته..
وتفجر البحر من حوله، وسقط في دوامة رهيبة، وتشبث بالحاجز الحديدي بكل قواه، حتى غمره الضوء، ووجد نفسه وحيدا، مغطى بالحبر الأسود، الذي أطلقه الحيوان في وجهه..
ولكن أين ذهب؟..
لم ينتظر ليأتيه الجواب، بل راح يسبح نحو الشاطئ الصخري بكل ما تبقى من قواه، وخيل إليه أنه يجر خلفه دبابة كاملة، حتى أنه لم يكد يبلغ الشاطئ حتى ارتمي فوقه كالقتيل، وكشف أنه مصاب بعدة جروح وقروح، في أنحاء شتى من جسده، إلا أن أعضاء جسده كلها سليمة، لم يفقد منها عضوا واحدا، أو يكسر طرف واحد..
وقرر (بوند) أن يواصل كفاحه، فلم يبق إلا القليل، ثم إن عليه أن يبذل أقصى جهده لإنقاذ (هنى)، والانتقام لمصرع (كواريل)، وتحطيم (نو) بجنونه وسطوته، قبل أن يعاني العالم كله من هلوسته و هذيانه..
ومن بعيد تناهى إلى مسامعه صوت العمال، وهم ينقلون مخلفات الطيور إلى السفينة، وبدت له السماء من فوقه صافية، تحوم فيها أسراب الطيور، واستنتج (بوند) أن الساعة

تقارب السادسة، وكاد يستسلم لقليل من النوم، لولا أن تناهى إلى مسامعه صوت قريب يقول:

- هيا.. انطلق.

وأعقبه صوت يهتف:

- لا بأس.

ثم تبعهما هدير آلة ضخمة، جعلت (بوند) يقفز من مكانه، ويهرع إلى مصدر الصوت، حيث أبرز رأسه في حذر، وراح ينعم النظر فيما أمامه..

كانت هذه هى الآلة التي تجمع المخلفات، وتذهب بها إلى حيث ترسو السفينة..

وهنا برزت الخطة في رأس (بوند)..

واشتعل حماس الصراع في أعماقه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18- الهجوم..

انتظر (بوند) حتى استرد أنفاسه، واستعاد بعض قواه، ثم دس السكين في حزامه من الخلف، واطمأن إلى وجوده، ثم راح يدرس موقفه من جديد..

على بعد عشرة أمتار منه فقط، تتحرك رافعة نقل مخلفات الطيور، يقودها رجل صيني واحد، في حين تبدو سفينة نقل المخلفات هادئة، خاوية، إلا من رجل واحد يقف على سطحها، إلى جوار عجلة قيادتها، في حجرة خاصة، على حين يبدو أن باقي طاقمها يختفي في قرارها، بعيدا عن ذاك الغبار الضار، المتطاير من مخلفات الطيور في أثناء نقلها، في حين كان هناك سير آلي ضخم، يهبط من قمة الجبل إلى حيث تقف الرافعة، وتتحرك فوقه أكياس من الخيش، تمتلىء بالمخلفات، ويتم تفريغها آليا، لتنقلها الرافعة إلى السفينة، وإلى يسار المرسى وقف دكتور (نو) من بعيد، يراقب ويباشر عملية النقل والشحن..

فقط رجل أو رجلان في موقع العمل، والباقي كله آلات اخترعها ذلك العبقري المجنون دكتور (نو)..

ولكن لا ريب أنه هناك عدد هائل من العمال فوق الجبل، يعملون على ملء أكياس الخيش بمخلفات الطيور، ومن الواضح أنه غير مسموح لهم بالاقتراب من هذا الجانب..

وراح (بوند) يختبر أرض المعركة، ويدرسها جيدا، ثم لم يلبث ثغره أن افتر عن ابتسامة ارتياح، وهو يتمتم:

- لابد من تنفيذ الخطة بسرعة، ودون إبطاء.. وستكون النتائج رائعة.

كان سائق الرافعة مندمجا في عمله تماما، حتى أنه لم يلحظ (بوند)، في حين كان (نو) يقف على بعد عشرين مترا أيضا، موليا ظهره إلى حيث يقف بطلنا..

وبغتة تحرك (بوند)..

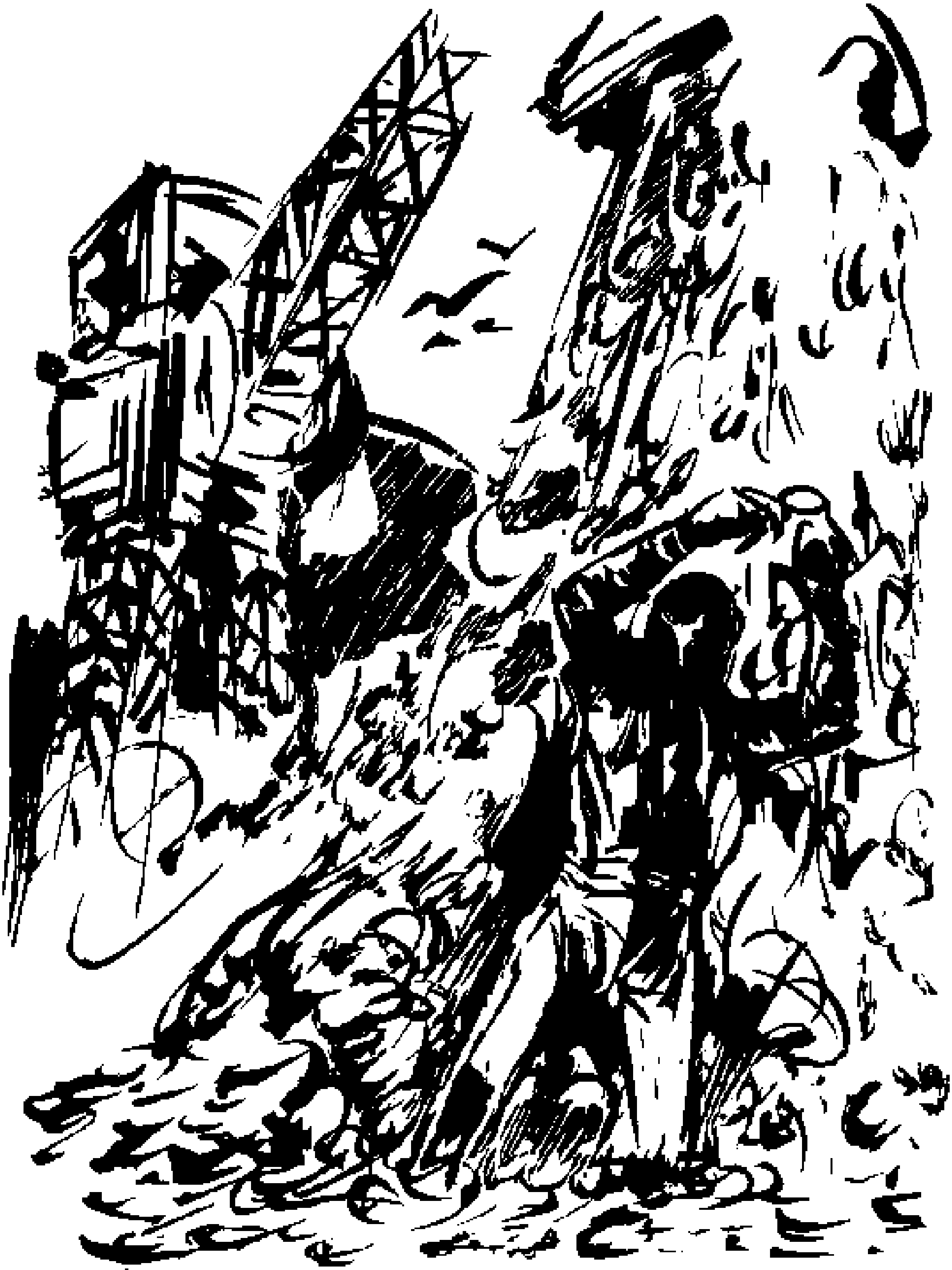
انطلق يعدو نحو الرافعة، وبخفة نمر التقط سكينه، وقفز يتسلق الرافعة في رشاقة، ثم هوى بخنجره على عنق قائدها الصيني، ولم ينتظر حتى ليسمع صرخة الألم، التي أطلقها الرجل، بل أزاحه عن مقعده، واحتل مكانه في لمح البصر وراح يواصل العمل في سرعة، كأن شيئا لم يتغير..

وتعلقت عيناه بـ (نو)، الذي بدا وكأنما ينادى شخصا ما، أو يتحدث فيما يشبه الهاتف بين يديه..

وفي حزم، أدار (بوند) الرافعة المحملة بمخلفات الطيور نحو (نو)..

وأفرغها..

أفرغها فوق الصيني العبقري، الذي فغر فاه في ذهول، وأطلق صرخة مفزعة، وراح يلوح بيديه في رعب، والمخلفات تهوى على رأسه..



وراح يلوح بيديه في رعب، والمخلفات تهوي على رأسه..

ثم صمت (نو)..

صمت بعد أن اختفى جسده كله تحت مخلفات الطيور..

ولم يتوقف (بوند)..

راح يعمل في مزيد من الهمة والنشاط، وجبل المخلفات يرتفع فوق جسد (نو).. ويرتفع.. ويرتفع..
وهنا أطلقت السفينة ثلاث صفارات متقطعة، ثم أتبعتها بواحدة طويلة متصلة..
وأدرك (بوند) أن ساعة الهرب قد حانت..
وبسرعة انحنى (بوند) ينتزع مسدس قائد الرافعة القتيل، ودسه في جيب سرواله، ثم قفز إلى الأرض، ولمح سلما يصعد إلى قمة الجبل، حيث تتم تعبئة المخلفات، وينتهي عقد القمة بباب حديدي، فاندفع يصعد في درجات السلم كالصاروخ، ودفع الباب، الذي استجاب له في بساطة، وقاده إلى نفق خافت الأضواء، يعبق برائحة النشادر، وعبره (بوند) بأقصى سرعته، دون أن يتساءل عما ينتظره في نهايته..
كان هدفه كله هو أن يجد حارسا، يمكنه أن ينتزع منه مكان (هنى)..
وفجأة اصطدم (بوند) بشخص ما، وقفزت قبضتان تعتصران عنقه، ولكن (بوند) مال بجسده كله إلى أسفل، وأمسك ساقي العملاق، الذي يعتصر عنقه، وجذبه في قوة، فسقط الرجل على ظهره، ودفعه (بوند) نحو السير المتحرك، فارتطم به الرجل، وأطلق صرخة مجلجلة في المكان كله، والسير يمزقه شر ممزق..
وفجأة انغرست أسنان حادة في كتف (بوند)، وشعر بأظفار قوية تمزق عضلاته، فأدار كفيه إلى ما خلف ظهره، وأمسك بالجسد الضئيل الصغير، ولم يكد يلتفت ليواجهه، حتى وجد نفسه يصرخ:
- (هنى)!!.. مستحيل!
هتفت (هني):
- (جيمس).. يا إلهي!.. (جيمس).

ثم ألقت نفسها بين ذراعيه، وتفجرت باكية، مستطردة:
- لست أصدق يا (جيمس).. أهو أنت حقا؟!.. أهو أنت؟!
ربت على كتفها مطمئنا، وهو يقول:
- لقد انتهى كل شيء يا عزيزتي.. لقد مات (نو)، وعلينا أن نغادر هذا النفق أولا، ثم نبادر بالفرار من الجزيرة كلها.. أخبريني: كيف وصلت إلى هنا؟
- إن نهاية هذا النفق قريبة، حيث يوجد نفق جانبى آخر، ينتهي بورشة الآلات.
- اتبعينى إذن.
راحا يعدوان عبر النفق، حتى بلغا نهاية النفق الجانبي، الذي يتشعب إلى ثلاث اتجاهات، وقبل أن يسال (بوند) (هنى) عن الاتجاه المناسب، سمع وقع أقدام تقترب في سرعة، فاستل مسدسه مغمغا:
- يبدو أننا سنضطر لقتلهم.
أجابته (هنى) في كراهية:
- إنهم يستحقون هذا.
صمت الإثنان، وتمالى صوت ثلاثة رجال يقتربون، وارتفع صوت أحدهم، و هو يقول:
- لقد ربحت الرهان يا (سام).
وقال الثاني:
- سنسحقهما سحقا.
أما الثالث فأطلق ضحكة عالية، قبل أن يقول:
- ليس قبل أن أنهي عملي مع الفتاة.
وهنا برز (بوند) من مخبئه، وقال:
- هذا لو أنك ستبقى حيا لتفعل.

التفت إليه الرجال الثلاثة في سرعة وذعر، واخترقت رصاصته رأس أولهم، قبل أن يدرك حتى ما حدث، وغاصت الرصاصة الثانية في معدة الثاني، في حين أطلق الثالث رصاصة مذعورة، مرقت فوق رأس (بوند)، الذي أطلق رصاصته الثالثة، فامسك الثالث عنقه، ودار حول نفسه في عنف، ثم هوى جثة هامدة..
وانطلقت رصاصات أخرى في الممر من بعيد، ولكن (بوند) و (هنى) لم يضيعا لحظة واحدة، بل انطلقا يعدوان بأقصى ما يمكنهما من قوة عبر النفق، وقد قرر (بوند) أن يقتل كل من يعترض طريقه بلا رحمة، فلقد كان أملهما الوحيد في النجاة هو بلوغ الورشة، والتنين الآلى..
وأطلقت (هنى) صرخة ألم، وهي تسقط أرضا، فانحنى (بوند) يعاونها على النهوض، وهو يسألها في قلق:
- هل أصابك مكروه؟
غمغمت في تهالك:
- إنني مرهقة منهكة فحسب.. امض أنت في طريقك وحدك.
حملها في حزم، غير آبه باعتراضاتها، حتى بلغا الورشة، فدفع (بوند) بابها بقدمه في عنف، ويده تمسك المسدس في تحفز، ولكن الورشة كانت خالية إلا من التنين الآلى، وتمنى (بوند) لحظتها لو أن خزان الآلة الجهنمية يمتلىء بالوقود..
وفجأة ارتفعت عدة أصوات من الخارج، ولم يجد (بوند) أمامه من مخبإ سوى التنين الآلي، فدلف إليه مع (هنى)، وأغلق بابه خلفهما في إحكام، ولاحظ أن مسدسه لم يعد يحوى سوى ثلاث رصاصات فحسب، وسمع الأصوات داخل الورشة، وأحدها يقول:
- كيف علمت أنهم كانوا يطلقون النار؟
- إنني أميز صوت الطلقات النارية جيدا.

- حسنا.. خذ هذه البندقية يا (جو)، وهذه لك يا (ليمى)، وهناك بعض القنابل تحت المنضدة، لا ريب أن شيئا قد حدث.. أخبرونى.. هل تفقد أحدكم الفتاة هذا الصباح؟
- لا يا سيدى.
- كيف يحدث هذا؟.. إن أمركم يدهشنى في الواقع.. هيا الآن إلى النفق، ولو رأى أحدكم (بوند)، فليطلق النار على ساقيه، فالقائد يريده حيا.
بدا وقع أقدامهم يبتعد داخل النفق، حتى تلاشى، وهنا أدار (بوند) محرك التنين الآلى، الذى استجاب بعد عدة محاولات..
وانطلقت الآلة الجهنمية تشق طريقها..
وساد الهرج والمرج..
وانطلق سيل من الرصاصات خلف التنين، واندفعت الكلاب المتوحشة إليه، فأطلق (بوند) ضحكة ساخرة، وقال:
- إنهم يدفعون الآن ثمن ما فعلوه بغيرهم.
توقف إطلاق النار بعد قليل، في حين واصلت الكلاب مطاردتها للتنين، وهنا أطلق (بوند) رصاصة على أحدها، فأراده قتيلا..
وتوقفت المطاردة تقريبا..
ولخمس دقائق كاملة، راحت السيارة الجهنمية تسير في صمت وهدوء، ثم لم يلبث (بوند) أن قطع حبل الصمت، قائلا:
- لقد نجونا يا (هنى).. سيعصف بهم الخوف، عندما يكشفون مصرع قائدهم الجهنمي.. وأظن الأذكياء منهم سيفرون إلى (كوبا)، وسينسون كل شيء عن (نو)، في غمرة اهتمامهم بأنفسهم.
ثم ابتسم وهو يسألها:
- ولكن كيف أمكنك الفرار من سرطان البحر الأسود؟.. لقد كنت شديد القلق عليك طيلة الوقت، وأخشى أن تلتهمك

الحيوانات البحرية، وتحرمني منك.
أطلقت (هني) ضحكة عذبة طويلة، وقالت:
- لقد تصور ذلك الوغد (نو)، أنه يفهم الحيوانات أكثر منى، ويبدو أنه يخشى سرطان البحر الأسود هذا كثيرا في أعماقه، أما أنا فلم أخشه، لأن تلك الحيوانات لا تهاجم أي شخص يستلقي هادئا، دون أن يثير خوفها وذعرها، ثم إنها لا تميل إلى اللحم، بل هي حيوانات نباتية تقريبا، وأظن تلك الزنجية التي استخدمها لتجربته الأولى قد ماتت من شدة الفزع، ولقد أحاطت بى سرطانات البحر بالمئات، ولكنني لم أهتم بها، فلقد اعتدت ملامسة الحشرات منذ صباى، ورحت أفكر فيك فحسب، حتى انبلج الصباح، وعادت السرطانات إلى أوكارها، وهنا نزعت الأوتاد التي تثبتني إلى الأرض، وعدت إلى المبنى حيث تسللت إلى حجرة الآلات والتقينا داخل النفق.
ابتسم (بوند) في حنان.، وربت على كتفها، قائلا:
- لقد نجونا على أية حال يا عزيزتي.. وانتهى كل شيء.
ومن بعيد، لاح لهما الساحل..
ساحل الحرية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19 - الختام..

حدق الحاكم في وجه (بوند) في ذهول، قبل أن يهتف في هلع وذعر:

- هل أنت واثق مما تقول؟!

كان من المفزع بالنسبة إليه أن يحدث كل هذا في مقاطعته، دون أن يدري به شيئا، ولقد أجابه (بوند) في صرامة:

- لقد عشت كل لحظة منه يا سيدى.

انهار الحاكم، وهو يقول:

- ستتسرب الأنباء إلى الصحافة حتما.. إلى كل الصحف العالمية.. سأرسل تقريرا عاجلا إلى وزير الخارجية، وأظنني أستطيع الاعتماد عليك.. أليس كذلك؟

لم ينبس (بوند) ببنت شفه، في حين تدخل قائد قوات الدفاع في البحر الكاريبي، وقال:

- عفوا يا سيدي الحاكم.. أظن مستر (بوند) لن يتصل إلا برؤسائه، ويمكننا أن نبدأ نحن بتطهير (كراب كى)، دون انتظار أوامر من (لندن)، و..

قاطعه الحاكم في لهفة:

أوافق يا (بريجادير).. أسرع، ولا تضيع لحظة واحدة، وسأقتفى أنا أثر رجال (نو) هنا، وسأرسل الغواصين إلى نهر (موناريزرفوار)، للبحث عن جثتي (سترانجوايز) و (تروبلود)، و...

شرد (بوند) بتفكيره، وهو يستمع إلى كل هذا، وترك جسده يسترخي في مقعده تماما..

واستعاد كل ما حدث..

اللقاء مع (هنى)..
مصرع (كواريل)..
(نو) وحصنه الحصين..
وتساءل في أعماقه عما إذا كان رجال (نو) قد استخرجوا جثة زعيمهم من تحت مخلفات الطيور، أم أنهم قد تركوها في غمرة ذعرهم وتعجلهم..
وانتزعه من شروده صوت السكرتير العام، وهو يذكر اسمه، ويضيف في اهتمام:
- لقد نجا من الموت بأعجوبة حقا، والواقع يا سيدي أننا نعجز عن منح الكابتن (بوند) حقه، فهو يستحق الثناء كله.. لقد أنجز ثلاثة أرباع المهمة وحده، ولم يعد أمامنا سوى إنجاز الربع الباقي، و..
كان الحاكم هو الذي يشرد بتفكيره هذه المرة، و هو يتخيل دور (بوند) في المهمة، ثم يحلم بعناوين صحف الصباح التالى، وهي تقول:
- « الحاكم يتخذ قرارا حاسما ».. « انقلبت جزيرة (نو) رأسا على عقب ».. « القوات البحرية الملكية تنقذ العالم من مجنون ».
وفجأة ضرب سطح مكتبه بقبضته هاتفا:
- لقد قررت.. فسيبدأ الأسطول غزو الجزيرة الآن..
وابتسم (بوند)..
فقط ابتسم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدت (هني) رائعة الجمال في تلك الليلة، في ردائها الأبيض الفضفاض، وهي تشعل بعض الشموع، وسط الأطلال المتبقية

من قصر والدها، وابتسم (بوند) عندما وقع بصره على المائدة الصغيرة، التي أعدت (هنى) فوقها طعام العشاء، وإلى الملاعق الفضية اللامعة فوقها، وقال:

- كنت أظنك معدمة يا (هنى).

أطلقت ضحكة صافية، وهي تقول:

- إنها كل ما تبقى لي من أيام المجد القديمة، ولقد قضيت اليوم كله في تنظيفها وتلميعها، فليس في كل يوم يحتفل المرء بنجاته من وحش مثل (نو).

أطلق (بوند) ضحكة صافية بدوره..

وراح الاثنان يتناولان طعام العشاء على ضوء الشموع، والهدوء يملأ نفسيهما..

لقد انتهت أيام الرعب..

وانتهى دكتور (نو)..

(تمت بحمد الله)

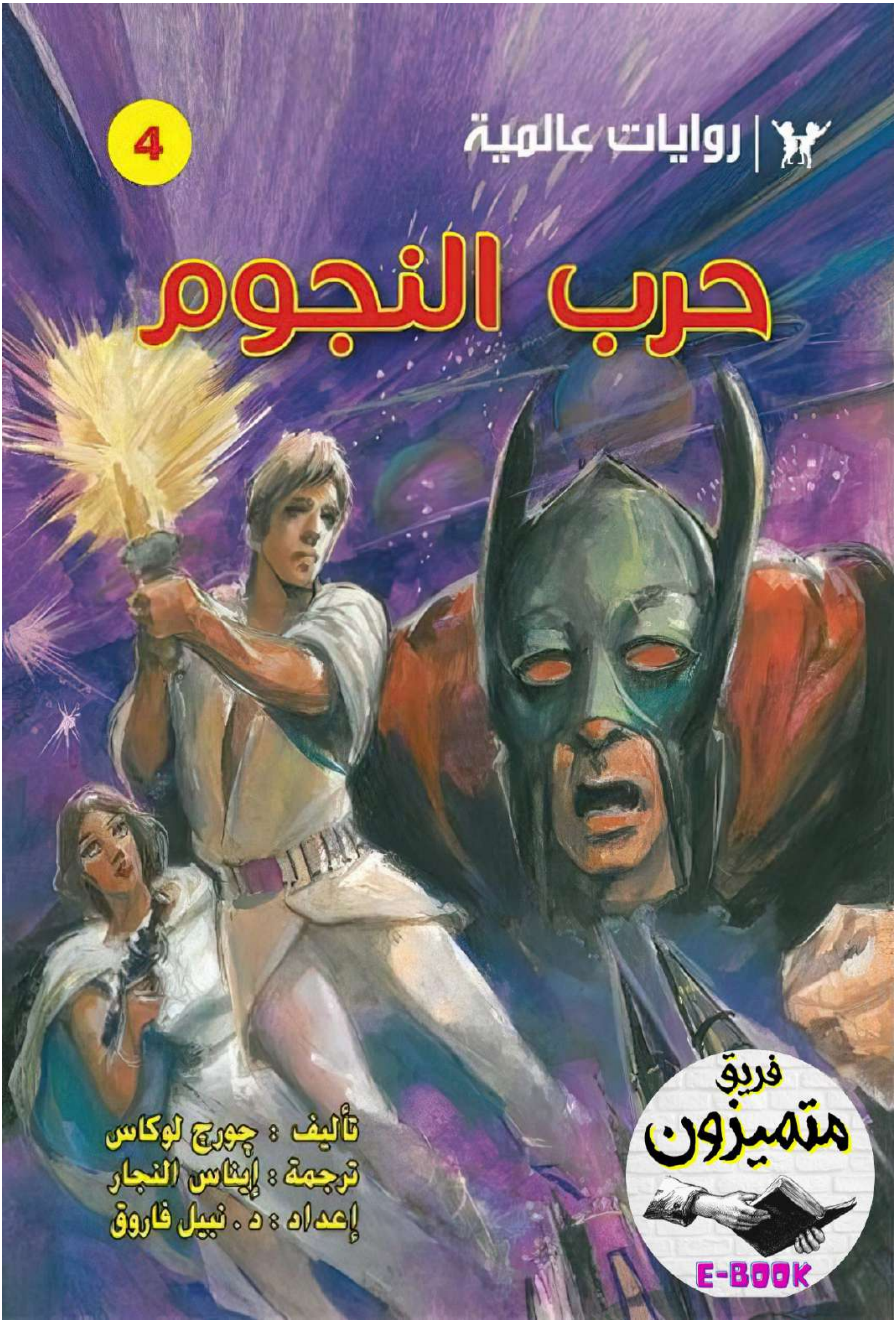
دكتور نو
واحدة من أروع روايات (أيان فلمنج)، رجل المخابرات البريطانية السابق، ومبتكر أشهر شخصية من شخصيات عالم المخابرات في العالم أجمع (جيمس بوند)، وفي هذه الرواية يواجه (بوند) واحداً من أعتى مجرمى الأرض، في جزيرة شيطانية منعزلة، تثير رعب كل سكان (جامايكا)، فلمن يكون النصر؟


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:


روايات عالمية
4
حرب النجوم
تأليف : چورج لوكاس
ترجمة : إيناس النجار
إعداد : د . نبيل فاروق
فريق
متميزون
E-BOOK

(كلمة مهمة) :

هذا العمل: (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (04)

حرب النجـوم

تأليف: جورج لوكاس.
ترجـمة: إيناس النجار
إعــداد: د. نبيــل فاروق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

مقدمة..

بعيدا..
في أعماق الفضاء والزمن..
في مجرة أخرى، وزمن آخر..
هناك كانت جمهورية الأساطير العظيمة، التي يحكمها مجلس النبلاء، ويحميها فرسان بواسل، يحملون لقب (فرسان جيدي)، والتي بلغت في زمانها ذروة ما يبلغه أي تطور..
ثم جاءت مرحلة الانهيار..
ومثلما يحدث في كل مكان وزمان، عندما بلغ الثراء والنفوذ ذروته، ظهر أصحاب النفوس الضعيفة والأطماع الكبيرة، وبدأ الفساد يسري في الجمهورية من الداخل وبات الانهيار وشيكا..
وكان لابد من اتخاذ الخطوة الأخيرة للإصلاح..
وفي محاولة أخيرة، تم انتخاب النبيل (بالبتين) رئيسا للجمهورية، بهدف القضاء على الفساد، وإعادة العدل والرخاء إلى الجمهورية، ولكن..
لم يكد الأمر يستتب ل(بالبتين)، حتى أعلن نفسه إمبراطورًا، وانقض على فرسان (الجيدي)، حماة العدالة بالمجرة، وقضى عليهم، وفرض ديكتاتوريته وسطوته على المجرة كلها..
وكما يحدث أيضا، في مثل هذه الظروف، برزت جماعة صغيرة ثائرة، متمردة، وقررت خوض أعنف وأعظم المعارك؛ لإعادة الحرية والعدالة..
ومن هنا تبدأ قصتنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- المهمة..

توهج كوكب (تاتوين)، وسط نظامه الشمسي المزدوج، حتى لقد بدا أشبه بشمس ثالثة، وهو يدور حول شمسيه (ج 1)، (ج ٢)، على نحو منتظم، جعل مناخه شديد الحرارة، وأرضه كلها تقريبا من الصحاري ذات الرمال الذهبية..

وفي مدار (تاتوين)، كانت مركبة فضائية من مراكب الثوار تراوغ في يأس، الأشعة المدمرة، التي تطلقها عليها سفينة فضائية حربية، من سفن الإمبراطور (بالبتين)، إلا أن مراوغتها لم تفلح طويلا، إذ لحقت بها السفينة الإمبراطورية، وأصابتها عدة إصابات متفرقة، ثم لم تلبث أن التحمت بها، واستعدت لغزوها..

ومع الاهتزازات الناجمة عن الانفجارات المتوالية، راح الآليان (أرتو ديتو) و (سي تريبيو) يتمايلان، وقد بدا التباين بينهما شديد الوضوح، في قامة (سي تريبيو) الطويلة وتركيبه الشبيه بالبشر، وقصر (أرتو ديتو) الشديد، وشكله الأشبه ببرميل ذي ثلاثة أرجل..

.. ثم إن (تريبيو) كان يمتلك مزية إضافية، ألا وهي قدرته على التحدث كالبشر..

وفي داخل مركبة الثوار، تطلع (ديتو) بعينه الواحدة إلى (تريبيو)، وهو يهتز في شدة، ويتخبط في جدران الردهة الطويلة، التي تضمها، فأدار (تريبيو) رأسه إليه، وقال:

- أسمعت؟.. إنهم يغلقون الممر، والمفاعل الرئيسي.. هذا جنون.. إنهم سيدمروننا حتما هذه المرة.

لم يعلق (ديتو) على هذا، وإنما انشغل بالتطلع إلى فتحة أعلى الحائط، وأطلق صفيرا منغوما، أدركت آلات (تريبيو) معناه على الفور، وأجاب هذا الأخير:

- ماذا يمكننا أن نفعل الآن؟.. لقد أغلقوا الممر.. لا يمكنني أن أصدق أننا نستسلم.

لم يكد يتم عبارته، حتى اندفع عدد من الجنود المسلحين عبر الردهة، والإرهاق يعلو وجوههم، وسرعان ما اختفوا في نهايته، فأضاف (تريبيو):

- لن ينجح قائدنا في الفرار هذه المرة.. يبدو أننا سنضطر إلى...

وقبل أن يتم جملته، توهج الممر بخيوط أشعة الليزر القاتلة، وبرز جنود الإمبراطورية، وهم يطاردون الثوار، ويقتلونهم بلا رحمة أو شفقة، واختلط الدخان بصراخ الجرحى، وأنين المصابين، ورنين قطع المعادن المتطايرة..

ثم دوى الانفجار..

انفجار رهيب، أطاح ب (تريبيو) و (آرتو)، وارتطم كلاهما بالجدران في عنف، ولكن دروع (آرتو) القوية حفظته سليما، في حين شعر (تريبيو) بتشوش في أجهزته، جعله يهتف في غضب:

- أنت الملوم يا (آرتو).. ما كان على أن استمع إلى رأيك.. كان ينبغي أن نبقى في أماكننا، وألا نأتي إلى هذه الردهة.. كان هذا قمة الغباء من برنامجك العتيق.

لم يبال (آرتو) بحديث زميله الآلي، ولا حتى بخيوط أشعة الليزر، التي تشق الهواء فوق رأسه، وإنما أطلق أزيزه المنغوم، الذي جعل (تريبيو) يهتف:

- هكذا؟!

وهنا دوي الانفجار الثاني، الذي اهتزت له جدران الردهة، وانتشرت في المكان رائحة كربونية كريهة، اقترنت بظهور عملاق

ضخم مخيف، يناهز طوله المترين، يرفل في عباءة سوداء، ويخفي وجهه بقناع رهيب من المعدن الأسود وبدا - وهو يعبر الردهة - وكأنما تهتز له الأرض في رهبة، وتنشر خطواته الخوف في كل مكان، وتحيط به هالة من الشر، أصابت رجاله قبل الثوار بالرعب، فراح الأولون يتراجعون في هيبة، في حين انهار الآخرون تماما، وقد أدركوا أنه بالرغم من قتامة ذلك الزى الأسود، إلا أنه يقل كثيرا عن سواد الأفكار، التي تملأ رأس هذا العملاق (دون قادر)، الذي عبر على قيد خطوة من (تريبيو)، ثم اختفى في نهاية الردهة، فنهض (تريبيو)، وتلفت حوله، هامسا:
- (آرتو).. أين أنت؟
لم تكن سحب الدخان قد انقشعت بعد، إلا أن (تريبيو) لمح شبح زميله الآلي، وقد بدا وكأن فتاة جميلة رشيقة تنحني نحوه، وتحرك يدها على صدره، وحاول (تريبيو) أن يتبين ملامح الفتاة، التي تربِّت على (آرتو)، إلا أن الغيوم لم تلبث أن تكاثفت مرة أخرى، فأسرع (تريبيو) نحو صاحبه، وهم بسؤاله عمن معه، إلا أنه وجده وحده، فتساءل في أعماقه عما إذا كان قد رأى هذه الفتاة حقا؟ أم أن الأمر لا يعدو كونه مجرد هلوسة.؟
هلوسة إليكترونية..
وراجعت أجهزة (تريبيو) الموقف كله، وتوصلت إلى أنها بالفعل مجرد هلوسة، نشأت من اضطراب شبكاته الداخلية، من أثر الارتطام، فقال بصوت مرتفع، وكأنما يحاول تبديد توتره.:
- أين كنت يا (آرتو)؟
ودون أن ينتظر جوابا، أو يشير إلى هلوسته الإليكترونية، تابع:
- إنهم سيعودون حتما مرة أخرى، ولن يصدقوا أننا مجرد آلات، لا تملك أية معلومات قيمة، وسيفكون أجزاءنا قطعة قطعة؛

لاستعمالها كقطع غيار لأشخاصهم الآلية، ومن الأسوأ أن يتصوروا أننا مبرمجين لقتالهم، فيدمرونا تدميرا، إلا إذا..
أدهشه أن تجاهله (آرتو) تماما، واتجه نحو نهاية الردهة فهتف:
- انتظر.. إلى أين تذهب.. ألم تكن تسمعني؟
أتبع هذا القول بسيل من الشتائم والسباب، بكل لغات الأرض، ثم انطلق يجري خلف صديقه..
نفس اللحظة، كان جنود الإمبراطورية قد جمعوا أسراهم من الثوار، خارج مركز التحكم، وساد بين الجميع صمت رهيب، وانهار بعض الثوار، الذين حافظوا على هذه اللحظة، عندما ظهر العملاق الأسود (دون ڤادر)، الذي اتجه مباشرة نحو أكبر الأسرى رتبة وأطبق بيده الضخمة على عنقه، ورفعه عن الأرض، فاحتقن وجه الضابط، وجحظت عيناه، إلا أنه لم ينبس ببنت شفة في حين برز أحد جنود الإمبراطورية من مركز التحكم، وقال:
- فحصنا كل المعلومات، وتم مسح جميع برامج الكمبيوتر يا سيدي، ولكننا لم نعثر على شيء.
وهنا اشتدت قبضة (دون ڤادر) على عنق الضابط، وهو يقول في صرامة وبرود:
- أين البيانات، التي حصلتم عليها؟
تلوى الضابط من الألم، وهو معلق من عنقه في الهواء، وقال في صوت مختنق متحشرج:
- لم تحصل على أية معلومات أو بيانات.. هذه المركبة في مهمة ديبلوماسية فقط.
ضغط (ڤادر) على عنق الضابط أكثر، وهو يقول:
- أين الشرائط.. هذه المركبة تحمل شعار منطقة (ألدران)، فهل تقلون أحد أفراد العائلة الملكية؟

ألقى سؤاله وهو يضغط ويضغط، وعينا الضابط تجحظان أكثر وأكثر..
ثم سمع الجميع صوت تهشم عظام رقبة الضابط، الذي سلبت الأصابع المعدنية روحه، قبل أن يلقيه (ڤادر) بعيدا في ازدراء، فيرتطم بالحائط، ويسقط جثة هامدة.
وفي برود تام، وبلا أدني ذرة من الرحمة أو الشفقة، تجاهل (ڤادر) الضابط الصريع، وألقى أوامره بتفتيش السفينة، وقلبها رأسا على عقب، بحثا عن هذه الشرائط، التي يسعى خلفها، ثم ختم حديثه بقوله:
- أما بالنسبة للركاب، فأريدهم على قيد الحياة.
وأسرع ضباطه ينفذون أوامره وهم يرتجفون، وكأنما يسعدهم مجرد ابتعادهم عنه، في نفس الوقت الذي كان فيه (أرتو) و (تريبيو) قد بلغا ممرا خاليا من الدخان، وقال الأخير:
- هأنذا أعدو خلفك، طوال نصف الساعة السابقة والآن ماذا علينا أن نفعل؟
لم يجب (آرتو)، وإنما امتد من داخله مخلب صغير، راح يفتح باب أحد قوارب الإنقاذ، المخصصة للبشر، ولم يكد يفتح الباب، حتى انطلق في الممر أزيز خافت، فتلفت (تريبيو) حوله في قلق، وهو يقول:
- ماذا تفعل يا (آرتو)؟... أنت تعلم أن هذا يخالف القانون، فهذا الزورق مخصص للبشر، ولا يحق للآليين ركوبه أو تشغيله.
ولكن (آرتو) كان قد أدار المحرك بالفعل، وهو يطلق صفيره الخاص، الذي جعل (تريبيو) يقول في قلق:
- مهمة؟!.. أية مهمة؟.. عم تتحدث؟!.. يبدو أنك قد فقدت كل دوائر المنطق داخلك.. لا.. لن أصحبك في مغامرات أخرى سأبقى هنا، وأجرب حظي مع الإمبراطوريين.

أطلق (آرتو) صفيرا عالياً غاضبا، فقال (تريبيو):
- لا.. لم أفقد عقلي.. أنت الذي يبدو كبرميل زيت بلا عقل، و..
دوت فجأة سلسلة من الانفجارات، بترت حديث (تريبيو)، وأطاحت بالجدار الخلفي للممر، وملأت المكان بالغبار والحطام وألسنة اللهب، فقفز (تريبيو) داخل قارب النجاة، وهو يهتف:
- أعلم أنني سأندم على هذا أشد الندم.
وفي هدوء، أغلق (آرتو) أبواب القارب، وانطلق به في الفضاء؛ لتنفيذ المهمة التي أسندت إليه..
المهمة الغامضة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتشر جنود الإمبراطورية في سفينة الثوار، يفتشون كل ركن فيها، تنفيذا لأوامر (دون ڤادر)، ولمح أحدهم جسما يتحرك، داخل تجويف صغير، في ركن أحد الممرات، فاستل سلاحه في سرعة، واقترب من التجويف في حذر، ثم لم يلبث أن رفع حاجبيه في دهشة..
كانت هناك فتاة بارعة الحسن، منكمشة داخل التجويف، وهي ترتجف في ثوبها الأبيض الفضفاض..
وبرقت عينا الجندي، وتألقتا في ظفر..



كانت هناك فتاة بارعة الحسن، منكمشة داخل التجويف، وهي ترتجف في ثوبها الأبيض الفضفاض..

لقد عثر على كشف خطير، وسينال عنه – ولا شك - مكافأة كبيرة من (دون قادر).

وبسرعة انتزع الجندي جهاز اللاسلكي الخاص به، وهم بإرسال رسالة بما حدث، إلى رئيسه العملاق الأسود، إلا أنه لم يكد

يحول وجهه عن الفتاة، حتى وثبت من مكمنها، واستلت مسدسا ليزريا من ثوبها، أطلقته عليه بلا تردد، ثم تحولت إلى الجنود الذين برزوا في اللحظة نفسها، من نهاية الردهة..
وأطلقت الفتاة أشعتها، ولكن الجنود تكاثروا عليها، وأمسكوا بها، وأسرعوا لتقديمها إلى (دون قادر)..
وأعلنت أجهزة الاتصال تمام القضاء على الثوار، فتنفس قائد الجنود الصعداء، إلا أن أحد جنوده أشار إلى نقطة صغيرة مضيئة، تبدو على شاشة راصد الفضاء الخارجي، وهو يقول:
- يبدو أن أحدهم قد نجا، فهناك أحد قوارب النجاة يسبح مبتعدا.
تطلع القائد إلى القراءات المرتسمة على الشاشة، ثم قال في هدوء:
- لا وجود لحياة على ظهر هذا القارب.. ربما انطلق بسبب عطب داخلي، أو أوامر إليكترونية خاطئة.
سأله الجندي:
- هل نطلق عليه النار؟
هز القائد رأسه نفيا، وابتسم في ثقة، وهو يقول:
- لا داعي.. المؤشرات تقول إنه زورق فارغ.. فلندخر قذائفنا.
لم يكن يدرك لحظتها أن ثمن هذا التجاهل سيكون غاليا غاليه جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- الأميرة..

من الأقوال المأثورة على كوكب (تاتوين)، أنه من الممكن أن تحترق عيناك، لو تطلعت طويلا إلى الوديان والسهول، بأكثر مما تحترق، لو تطلعت إلى شمس (تاتوين) مباشرة..

هذا لأن انعكاس الضوء على الرمال الساخنة يصنع وهجا شديدا، يلهب الأعين..

وعلى الرغم من هذا، لم يكن الكوكب مقفرا، وإنما نجحت الأمطار الصناعية في بث الحياة في هذه الصحراء..

وهناك، في وسط هذه الصحراء، كان يقف (لوك سكاي واكر)، منهمكا في إصلاح جهاز البخر الآلي دون جدوى، والعرق يتصبب منه في غزارة، ويسيل بين خصلات شعره الأشعث، ليختلط بالرمال والرياح، التي تملأ ملابسه الفضفاضة..

ومسح (لوك) عرقه، ورفع عينيه يبحث عبثا عن سحابة واحدة، في كبد السماء، إلا أن عينيه التقطتا بريقا واضحا، فأسرع يضع منظاره المقرب على عينيه، وتطلع به لحظات إلى النقطة، التي رأى عندها البريق، ثم قفز إلى سيارته الطائرة، وانطلق بها نحو مدينة (أنكورهيد)، التي تتكون من حيين: (تاتو – ١) و (تاتو - ٢)، ويقطنها عدد من المزارعين، في منشآت معدنية أو حجرية، وعندما بلغها كانت طرقها غير الممهدة خالية من المارة، يحتلها الذباب بأزيزه السخيف، فتوقف (لوك) عند محطة إصلاح أجهزة، يعمل بها شخص آلي قديم، واثنان من البشر، وملحق بها مطعم بسيط، ومتجر الألعاب الكمبيوتر، واندفع (لوك) نحو ثلاثة شبان، يرتدون زيا مشابها لزيه، وينهمكون في واحدة من ألعاب الكمبيوتر إلى الحد الذي منعهم من سماع صيحات

(لوك)، في حين انتبه إليها شخص آخر أكبر سنا، يرتدي زيا رسميا، فابتسم وهو يتطلع إلى (لوك)، قائلا:
- أهلا (لوك)
هتف (لوك) في حرارة:
- (بيجز)!!
واندفع يعانق الرجل في فرح، قبل أن يستطرد:
- متى عدت؟.. لقد فاجأتني رؤيتك.
أجابه (بيجز):
- عدت منذ فترة بسيطة، وتصورت أنني سأفاجئك هنا.
قالها وأطلق ضحكة عالية، في حين تطلع إليه (لوك) في انبهار، وهو يسأله:
من الواضح أن الأكاديمية الفضائية تناسبك يا (بيجز).. أخبرني.. هل تخرجت؟
أو ما (بيجز) برأسه إيجابا، وملأت ابتسامته وجهه، وهو يجيب:
- نعم.. لقد تخرجت، وعينت ملاحا على مركبة فضائية كما ترى.
قالها وأشار إلى ردائه الرسمي، الذي طالما فتن (لوك)، قبل أن يستطرد:
- لقد حضرت فقط لتوديع السذج من أمثالك، الذين يرتبطون بزراعة الأرض فقط.
شعر (لوك) بعض الضيق في أعماقه، إلا أنه لم يلبث أن قال في حماس:
- كدت أنسى ما أتيت من أجله.. اسمع.. هناك معركة تدور في فضاء كوكبنا.. لقد رأيت السفن الفضائية المتصارعة، وهي تلمع تحت الشمس.
أجابه أحد عاملي المحطة البشريين:

- لا ريب أنها واحدة من هلوساتك القديمة.
أصر (لوك) على اصطحابهم جميعا إلى الخارج، والتطلع عبر منظاره المقرب، فقال (بيجز)، وهو ينظر عبر المنظار:
- يلوح لي أنهما سفينتان فضائيتان، تقوم إحداهما بتموين الأخرى.
قال (لوك) في حماس:
- كلا. لقد رأيت انفجارات من قبل.. إنها معركة ولا شك.
هر عامل المحطة كتفيه، وقال:
- أظنك واهم يا (لوك)، فالثوار بعيدون جدا عن هنا، ولن تدخل الإمبراطورية حربا، بلا طائل.
وعاد الجميع إلى المحطة، وخلفهم (لوك)، ونظره معلق بالقضاء..
كان هناك شيء في أعماقه يخبره أن قدره معلق بهذا الذي يراه..
وكان على حق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحاط جنود الإمبراطورية بالفتاة، التي وقفت بينهم مرفوعة الهامة، على الرغم من قيود معصميها، ومن مظهر (دون ڤادر) الرهيب، وقناعه الأسود المخيف، الذي تتوهج من خلفه عيناه الحمراوان، وقالت في شجاعة:
- سيكون عليك أن تتحمل تبعة حماقتك وغبائك يا (دون ڤادر)؛ فهذه المركبة ديبلوماسية، ولن يمكنك تبرير فعلتك، أمام مجلس النبلاء.
قاطعها اللورد الأسود، وهو يقول في صرامة:

- لا تمارسي ألاعيبك معي أيتها الأميرة (ليا أورجانا).. أنت تعلمين أن مركبتكم قد مرت بمنطقة محرمة، متجاهلة أوامرنا بعدم الاقتراب منها، وأن جواسيسكم قد نقلوا إليها بيانات سرية، عبر أشعة خاصة، فلقد ألقينا القبض على هؤلاء الجواسيس، ولكنهم قتلوا أنفسهم قبل استجوابهم، وأريد أن أعلم ماذا حدث للمعلومات؟ وأين هي؟

قالت الأميرة في اعتداد:

- لست أدري عما تتحدث يا (ڤادر)، ولكنني أميرة ملكية، وعضو بمجلس النبلاء، وهذه المركبة ديبلوماسية، و...

قاطعها في حدة

- وأنك تعملين لحساب الثوار، وهذا يجعلك خائنة.

ثم أشار إلى رجاله في صرامة، مستطردا:

- خذوها إلى السجن، فلابد أن تتحدث قبل إعدامها..

سأفعل أي شيء؛ لمعرفة قاعدة الثوار.

قال قائد الجنود في توتر:

- لن تتكلم (ليا) قط.. أنا أعرفها جيدا، ومن الخطر سجنها هنا، فستقوم الدنيا ولا تقعد، لو علم والدها أو مجلس النبلاء بهذا، وأقترح إعدامها فورا.

هز (دون ڤادر) رأسه نفيا في حزم وعناد، وقال:

- ليس قبل أن تدلى بما لديها.

وصمت لحظة، ثم أضاف:

- أعلن أن هذه المركبة قد أصيبت بعطب فني، وانفجرت في الفضاء، ولقي كل من عليها مصرعه، ثم أنسف المركبة.

صمت لحظة أخرى، قبل أن يستطرد:

- وابحث مصير قارب النجاة، الذي انطلق من المركبة فقد يكون هذا بسبب عطل فني، أو... أو تخطيط دقيق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تطلع (تريبيو) إلى الرمال، التي تمتد من حوله إلى ما لا نهاية، وقال:

- ما هذا المكان، الذي هبطنا فيه.. لست أرى سوى هضاب وكثبان رملية في كل مكان.

لم يشعر بالامتنان تجاه (آرتو)؛ لأنه نجح في الهبوط بسلام، بل لم يكن الشك قد فارقه بعد، في أنه كان من الأفضل لهما عدم مغادرة مركبة الثوار، وخاصة وهو يتطلع إلى بحر الرمال، الذي يبذلان جهدا مضاعفا؛ للسير فوقه، والذي لم يصمما أبدا لمثله، ولقد راح يقول في غضب:

- لقد كتب على المعاناة، فلا أستريح أبدا.. أطرافي تكاد تسقط من أماكنها، بعد هبوطك الرائع بقارب النجاة.

لم تنطق أجهزة (آرتو) بحرف واحد، وإنما واصل سيره وسط الرمال، فأضاف (تريبيو):

- أين تظنك ذاهبا.. لست أرغب في السير إلى هذه الناحية: فيها صخور كثيرة، والناحية الأخرى أسهل.. لماذا تتصور أننا سنجد مستوطنات في هذا الاتجاه؟

أطلق (آرتو) صفيرا طويلا، واستمر في السير، فرد (تريبيو):

- لقد أتعبتني قراراتك الخاطئة هذه، التي تلبسها دائما ثوب العلم.

ثم دفع (آرتو) دفعة قوية، دحرجته فوق الرمال، واستطرد:

- سأذهب إلى الناحية الأخرى، وإياك أن تتبعني، أو تهتف بي لإنقاذك.

نهض (آرتو)، وأطلق صفيرا غاضبا، ثم استمر في السير، في نفس الاتجاه.
وسار (تريبيو) وحده عدة ساعات، دون أن يرى أدنى أثر لعشب أو حياة من أي نوع، حتى توقف، والتفت يتطلع إلى حيث اختفى (آرتو)، ثم اعترف بينه وبين نفسه، أنه من المحتمل أن يكون (آرتو) على حق، وبعدها راح يلعنه في أعماقه؛ لأنه لم يحاول إثناءه عن خوض الطريق الخاطئ وسمع (تريبيو) طقطقة في مفاصله، فجلس على الرمال، وراح ينظفها في هدوء، ليلحق بـ (آرتو)، و..
وفجأة لاح له ضوء قادم من بعيد، فنهض واقفا، وراح يلوح للسيارة القادمة بيديه، على الرغم من أنها كانت من طراز لم يره في حياته من قبل..
ولم يخطر بباله أن تكون هذه السيارة من طراز خاص..
طراز غير بشري..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سأل (بيجز) صاحبه (لوك)، وهما يسيران في الظل خارج محطة الإصلاح:
- إلى متى ستستمر في اللعب بطائرتك الصغيرة يا (لوك)؟.. أنا واثق أنك واحد من أفضل من عرفت من طيارين، ولكن هذه الطائرة الصغيرة مستهلكة تماما، ومن الخطر قيادتها.
قال (لوك) في ضيق:
- أنت تقول هذا، لأنك تقود الآن مركبة فضائية آلية، ولكنني مرتبط هنا بالأرض والزراعة، وكل الأمور هادئة كما ترى.
وتنهد في عمق، قبل أن يستطرد:

- كم أتمنى أن يأتي اليوم، الذي يمكنني فيه مغادرة هذا المكان، بصحرائه القاحلة، ورماله المهلكة، والالتحاق بالأكاديمية مثلك، ولكن عمي يطالبني بإرجاء هذا كل عام؛ لأنه يحتاج إلى مساعدتي.
قال (بيجز) في قلق واضح:
- أتعلم يا ر لوك). لم آت إلى هنا لوداعكم فقط، وإنما هناك أمر يثقل كاهلي، وأشعر بضرورة البوح به لأحد، وسأخبرك أنت بالسر، الذي لا يمكنني البوح به لوالديّ، فأنت أعز أصدقائي.
تلفت حوله، ثم مال نحو (لوك)، وأضاف في حزم:
- لقد تعرفت بعض مناهضي النظام، واتفقنا على أنه بمجرد قيادتنا للمركبات الفضائية سنفر بها، وننضم إلى الثوار.
بهت (لوك)، وهو يستمع من صديقه الأثير إلى هذا، وهتف في صوت خافت:
- هل ستنضم إلى الثورة المضادة؟!.. ولكن كيف؟
تلفّت (بيجز) حوله مرة أخرى في توتر، وقال:
- أخفض من صوتك يا صديقي، حتى لا يسمعنا أحد..
لقد تعرفت صديقا في (الأكاديمية)، يمكنه الاتصال بالثوار.
قال (لوك):
- لقد جننت ولا شك.. أماكن الثوار سرية للغاية، لا يعرفها أحد.. تماما مثل الأساطير، ويجب أن تحترس من هذا الصديق، فربما كان جاسوسا إمبراطوريا، يسعى للإيقاع بك.
قال (بيجز) في حزم:
- لقد حسمت أمري يا (لوك).. سأنضم للثوار، أو أقاتل وحدي.. المهم أن أطمئن إلى أنني في الجانب الصحيح.. لو أنك سمعت ما سمعته أنا، عن الفساد والعفن في أعماق جمهورية، كانت سيدة المجرة يوما، فلن يمكنك أن تبقى ساكنا.

تطلع إليه (لوك) لحظات، ثم قال
- أشعر أنني مقيد هنا يا (بيجز).. عمي يحتاج إلى مساعدتي، ليس في الزراعة فقط، ولكن لحمايته من غارات سكان الرمال المتوحشين، الذين يهاجمونه دائما للسرقة والنهب.. لقد وعدني أنه سيسمح لي بالذهاب إلى الأكاديمية في الموسم بعد القادم.
هز (بيجز) رأسه، وقال:
- وما جدوى الزراعة والعمل، لو أن الإمبراطورية تنوي مصادرة الأرض، ونهب إنتاجها، وجعلك مجرد أجير فيها؟ لا يا (لوك).. ينبغي أن تفرق بين الأهم والمهم.
قال (لوك) في لهجة، لم تنجح حتى في إقناعه هو:
- لا أعتقد أنهم سيفعلون هذا، فقد سبق أن أخبرتك أنهم لن يهتموا أبدا بكوكب صحراوي مثل (أنكور هيد).
أجابه (بيجز):
- لا يوجد أمر يبقى على حاله إلى الأبد يا (لوك)، ووجود الثوار وحده، هو الذي يحد من مطامع الإمبراطورية.
تميم (لوك) في مرارة:
- كم أتمنى أن أصحبك.. قل لي: هل ستبقى طويلا؟
هز (بيجز) رأسه نفيا، وقال:
- لا.. سأرحل غدا، ولكن من يدري يا (لوك)؟.. ربما نلتقي قريبا
قال (لوك) في حماس:
- سألتحق بالأكاديمية في الفصل القادم بإذن الله.
تصافحا في حرارة، ثم افترقا..
ولكن القدر كان يدخر لهما لقاءا قريبا..
قريبا جدا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من أغرب الظواهر في كوكب (تاتوين)، ظاهرة الضباب العجيب، التي عجز الجيولوجيون - حتى الآن – عن تفسيرها، حيث يرتفع من الأرض ضباب كثيف، في مناطق التقاء الرمال بالهضاب الصخرية، عندما تغرب شمسا (تاتوين)، ثم ينقشع الضباب مع شروق الشمسين..
ولكن هذا الضباب، أيا ما كانت أسبابه، لم يؤثر في (آرتو)، وهو يتسلق صخور الهضبة؛ ليبلغ سطحها، إلا أنه لم يلبث أن توقف، عندما انطلق في وجهه بغتة ضوء مبهر، أربك آلاته، وجعله يسقط متدحرجا على الصخور، حيث هاجمه ثلاثة لهم هيئة البشر، ولا يزيد طول الواحد منهم على طوله هو، في حركاته أشبه بحركات القوارض، منها بحركات البشر، وعندما وجدوه ساكنا، أحاطوا به في حذر، بعباءاتهم الطويلة، وعيونهم الصفراء المحمرة، ولغتهم الأشبه بحشرجة عجيبة مخيفة..
واسترجعت آلات (آرتو) أقوال علماء الأجناس، عن هؤلاء..
لقد كانوا يوما من البشر، ثم لم يعودوا كذلك وبسرعة، التف عدد كبير من أشباه البشر هؤلاء، حول (آرتو)، وتعاونوا على حمله، ونقله إلى زحّافة كبيرة، ترتفع عن الأرض بارتفاع قامة واحد منهم، وقد تهشمت أطرافها وبليت، من شدة قدمها، وكثرة ما عانته، وقام أحدهم بوضع فوهة أنبوب ضخم عند جسد (آرتو)، الذي امتصته قوة هائلة داخل الأنبوب، كما لو كان حبة بازلاء صغيرة، إلى داخل الزحافة، حيث وجد (آرتو) نفسه وسط دستة من الآليين من ذوي الأشكال والأحجام المختلفة، وكلهم أسرى في قلب الزحافة، التي امتطاها أشباه البشر، وانطلقوا بها مبتعدين..
وفجأة سمع (آرتو) صوتا محببا إلى آلاته، يقول:

- (ارتو ديتو).. أهو أنت.. نعم.. هو أنت بالتأكيد.
وتعانق (آرتو) مع (تريبيو)، وتناهت إلى مسامعهما أصوات محركات الزحافة، وهي تنطلق في بحر الرمال..
وشعرت آلاتهما بالخطر..
الخطر البالغ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الجبابرة..

التف أعضاء المجلس الإمبراطوري الثمانية، حول مائدة الاجتماعات اللامعة، ووقف الحراس الضخام على باب الحجرة الفسيحة، التي تسبح في أضواء خافتة، تنبعث من مائدة الاجتماعات نفسها، ومن الجدران المحيطة بها، في حين جلس الجنرال (تاج) على رأس المائدة..

كان أكبر المجموعة عمرا، وأكثرها نفوذا وثروة، وكان يبدو - كعادته - رشيقا، أنيقا، ناعما، كثعبان أرقط سام، ولقد بدأ هو الحديث بقوله:

- لن يهدأ لي بال، حتى نقضي على هؤلاء الثوار قضاء مبرما، فوجودهم يحنق سمو الإمبراطور غاية الحنق، خاصة وهم يمتلكون الآن جيشا صغيرا، من المعدات الحربية ومركبات الفضاء، والملاحين المدربين، مما يجعلهم بمثابة طعنة، في قلب الإمبراطورية.

نهض رجل، يحمل وجهه أثر جرح عميق، لم تنجح جراحات التجميل في إخفائه، وقال:

- ربما كانوا يشكلون خطورة على أسطولك الفضائي يا جنرال (تاج)، ولكن ليس على هذه المحطة الحربية، وعلى أية حال، فأنا واثق من أن (دون ڤادر) يدرك ما يواجهه، والوسيلة الوحيدة لإيقاف هذا التمرد، هي القضاء على الثوار في معاقلهم، حيث يدربون طياريهم، ويصلحون معداتهم.

قال (تاج):

- إنني اختلف معك في هذا، فأنا أعتقد أن السبب الرئيسي لبناء هذه المحطة، هو فرض نفوذ الإمبراطور وسيطرته و..

قاطعه فجأة صوت الباب يفتح، والحراس يقفون في انتباه، فالتفت مع الباقين إلى الباب، ورأوا الحاكم (تاركن)، بوجهه الشبيه بالصقر، وبصحبته (دون ڤادر)، يدلفان إلى المكان، ثم يتجه (تاركن) إلى رأس المائدة، ويقف إلى جواره (ڤادر)، ويقول الأخير في صوته البارد المخيف:

لم يعد لوجودكم ضرورة أيها السادة.. لقد أصدر الإمبراطور أوامره، بحل مجلس النبلاء، وبهذا ينتهي آخر أثر للجمهورية القديمة.

هوى القول الصفعة، على وجوه النبلاء الثمانية، وارتسم على وجوههم مزج عجيب من الدهشة والاستنكار والصدمة، قبل أن يهتف (تاج):

- كيف يمكن للإمبراطور أن...

قاطعه (ڤادر) في صرامة:

- إنه إجراء مؤقت، بسبب الظروف الطارئة، التي تمر بها الإمبراطورية، ولقد انتقلت سلطاتكم إلى حكام المقاطعات، وسيعاونهم الأسطول الإمبراطوري في فرض نفوذهم، على المقاطعات البعيدة.

قال (تاج) معترضا:

- وماذا عن الثوار؟

أجابه الحاكم (تاركن):

- حتى ولو جمعوا كل المعلومات عن هذه المحطة، وتصميماتها الفنية، فلن يجدوا فيها نقطة ضعف واحدة، يمكنهم استغلالها، هذا مع استحالة حصولهم على مثل هذه البيانات، مما يجعل أي هجوم منهم على هذه المحطة، أشبه بالانتحار، فلقد أصبحت هذه المحطة رمزا للقوة في المجرة كلها.

هوى (ڤادر) بقبضته الحديدية على المائدة، وهو يقول:

- لا تتباه كثيرا بهذا الرعب التكنولوجي، فما زالت هناك قوة، لن ينجح شخص واحد في التغلب عليها.. قوة الطبيعة
قال (تاج) في حدة:
- لا تحاول إرهابنا بذلك السحر الأسود، الذي مازلت تعتنقه، والذي لم ينجح بعد في استرجاعك للشريط الضائع أو كشفك معقل الثوار.
التفت إليه (ڤادر) في حركة سريعة عنيفة، وانقضت يده الحديدية على عنق (تاج)، وأطبقت عليه في قوة، حتى استحال وجه (تاج) إلى لون أزرق، و (ڤادر) يقول في صرامة:
يبدو أن ثقتك بي قد اهترت كثيرا يا عزيزي (تاج)..
أليس كذلك؟..
- أليس كذلك يا (تاج)؟
نهض (تاركن) من مقعده في توتر، وقال
- اتركه يا (ڤادر).... لا ينبغي أن نختلف فيما بيننا.
ألقى عليه (ڤادر) نظرة باردة، ثم ألقى (تاج) على كرسيه، فسقط عليه هذا الأخير يلهث، ويمسك عنقه في ألم، في حين أكمل (تاركن)، موجها حديثه إلى باقي النبلاء، ومحاولا تهدئة الموقف:
لقد وعد (دون ڤادر) بإخبارنا عن موقع الثوار، بعد تدشين هذه المحطة، لنعمل جميعا على سحقهم
والتقط نفسا عميقا، ثم استطرد:
- سحقهم عن آخرهم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المكان داخل زحافة الرمال قذرا، تفوح فيه رائحة زيوت التشحيم المحترقة، بالإضافة إلى ضيقه البالغ، الذي أجبر (تريبيو) على الوقوف منتصبا، خشية الاصطدام بالحائط أو بالأشخاص الآليين الآخرين، في حين أغلق (آرتو) كل أجهزة الاتصال لديه، حتى لا يسمع شكوى (تريبيو) المستمرة، وليريح نفسه من إجابته، واكتفى بالوقوف صامتا دون أدنى حركة، وسط قطع الخردة، بعد أن عرف من زملائه الآليين طبيعة سجانيه، الذين يطلق عليهم اسم (الچاوا)، ويقطنون ذلك المكان النائي في عزلة تامة، داخل عباءاتهم الثقيلة، وخلف أقنعة الرمال القبيحة، ويعيشون على سرقة الآلات، ومحاولة إصلاح التالف منها وبيعها..

وتوقفت المركبة فجأة، فأعاد (آرتو) تشغيل أجهزته، ورأى (الچاوا) يفتحون المركبة، وبأيديهم أسلحتهم، ثم يدفعون الآليين خارجا، في صف طويل، ووجد (تريبيو) نفسه يقف وسط الرمال، في ضوء النهار المبهر، أمام عدة قباب ذات مداخن بدائية، توحي بوجود من يقطنها من البشر، فراوده الأمل في أن يعود إلى خدمة بشر، بدلا من أن يصهره (الچاوا)..

ثم أطلق (آرتو) صفيرا، وهو يشير إلى اثنين من البشر، غادرا القباب..

كان أحدهما هو (أوين لارس) بقامته الممشوقة، وبشرته التي لوحتها الشمس، في حين كان الآخر هو (لوك)، الذي بدا - بالرغم من سنوات عمره العشرين - منحنيا، مكتئب الوجه، مشغول الذهن بذلك الحديث، الذي دار بينه وبين (بيجز)، في حين راح (أوين) يتحدث مع (الچاوا) بلغة غريبة، ثم راح يستعرض الأشخاص الآليين، حتى انتقى واحدا صغير الحجم، في مثل قامة (آرتو)، ولكنه مخصص للعمل في المزارع، فدفع

(الچاوا) ذلك الشخص الآلي خارج الصف، في حين واصل (أوين) استعراضه للآليين، حتى توقف أمام (تريبيو)، وتأمل قامته الطويلة، ولونه البرونزي، ثم سأله:
- ما تخصصك؟
أجابه (تريبيو) بصوته المعدني الرقيق:
- إنني متخصص في (البروتوكول)، وآداب اللياقة والتعامل.
لوح (أوين) بكفه، وقال:
- ومن يرغب في آلي يجيد (البروتوكول)؟
قال (تريبيو) في هدوء:
- أنت على حق يا سيدي.. في بلد له مثل هذا المناخ، لا توجد أدنى حاجة إلى (البروتوكول) أو اللياقة، ولكن هذا ليس تخصصي الوحيد، فبرنامجي يحوي أكثر من ثلاثين وظيفة، تتطلب فقط..
قاطعه (أوين) في ضجر
- أريد ألا يعرف اللغة المشتركة لليبيين، المختصين بأجهزة التبخير.
قال (تريبيو):
- هذه إحدى وظائفي يا سيدي.
هز(أوين) رأسه في ارتياح، والتفت إلى (لوك)، قائلا:
- خذ هذا الآلي مع الآخر إلى المخزن، واعمل على تنظيفهما، قبل حلول المساء سار (تريبيو) والآلي الآخر خلف (لوك)، في حين انهمك (أوين) في مساومة أحد (الچاوا) على سعرهما، وراح باقي (الچاوا) يعيدون الآليين إلى الزحافة وفجأة ارتفع صفير كالأنين، والتفت (لوك) خلفه، فرأى (أرتو) يغادر الصف، ويسير خلفه، و (الچاوا)
يمنعونه بالقوة، ثم ارتفع صوت أشبه بفرقعة عنيفة، وانفجر رأس الشخص الآلي الزراعي، الذي كان يصاحب (تريبيو)،

وراحت أجزاؤه تتناثر في الهواء، وتسقط على الرمال، فصاح (لوك):
- لقد انفجر الآلي الزراعي يا عماه
التفت (أوين) إلى (الچاوا)، وهتف في غضب:
- ما هذه الخردة، التي تبيعونني إياها؟
تعالى صياحه وصياح (الچاوا)، في نقاش حاد، في حين عاد (آرتو) يطلق صفيره الشبيه بالأنين، فانحنى (تريبيو) على أذن (لوك)، وقال:
- لو أردت رأيي يا سيدي، فـ (آرتو) هذا آلي ممتاز، ولا ينبغي أن تفوتك فرصة اقتنائه، وهم يجهلون إمكاناته الحقيقية، ولو أنك فقط أزلت هذا الغبار، الذي يغطي جسده، لبدت لك روعته.
لم يحتج (لوك) لأكثر من هذا، كي يتخذ قراره، فقال:
- لا تجادهم كثيرا يا عماه.. يمكننا أن نستبدل هذا بالآلي المحطم.
قالها وهو يشير إلى (آرتو)، فأسرع (الچاوا) يوافقون، تجنبا لغضب (أوين) وعداوته، ثم لم يلبث الأمر أن انتهى فنقدهم (أوين) الثمن، وعاد مع (لوك) و (آرتو) و(تريبيو) إلى مسكنه..
وفي حذر، انحنى (تريبيو) على (آرتو)، وقال:
- تذكر أنني أنا الذي أفسد الآلي الزراعي.. ومن أجلك.



كانت أمامه فتاة توليه ظهرها وهي تتمنطق بحزام يتدلى منه خنجر كبير، إلى يمينها..

أطلق (آرتو) صفيرا خافتا، ثم لاذ بعدها بالصمت، حتى دخل مع زميله خلف (لوك)، إلى مخزن يمتلئ بالآلات الزراعية القديمة، وراق الهدوء داخله للآليين كثيرا، ورأى (تريبيو) في وسط المخزن

حوضا كبيرا، تنبعث منه رائحة مثيرة، جعلته يتجه إليه بسرعة، فابتسم (لوك)، وقال:
- نعم.. هذا حوض التشحيم.. أعلم أنك تحتاج إلى أسبوع كامل داخله، ولكن يجب أن تكتفي ببضع ساعات.
ثم التفت إلى (آرتو)، الذي اتجه إليه، وفتح بابا في صدره، وكأنما يريه ما بداخله، فاستطرد (لوك):
- أما أنت، فلست أدري كيف أمكنك احتمال هذه الحالة حتى الآن.. إنك تحتاج إلى شحنك بالطاقة.
أطلق (آرتو) صفيرا، والتقط كابل الشحن من وحدة الطاقة، وثبته في صدره، في حين ألقى (تريبيو) نفسه داخل حوض التشحيم، وشغل (لوك) نفسه بعدد من الأعمال.
راح يؤديها بلا مبالاة، وذهنه مشغول بحديثه السابق مع زميله (بيجز)، حتى وجد نفسه يقول بصوت مسموع:
- لا فائدة.. سأظل مقيدا إلى هذه المزرعة اللعينة، و (بيجز) يقاتل إلى جوار الثوار، ضد الإمبراطورية انتبه (تريبيو) إلى حديثه، فغادر حوض التشحيم وجسده البرونزي يبرق في شدة، وقال:
- هل يمكنني مساعدتك يا سيدي؟
التفت إليه (لوك)، وقال:
- لست أعتقد هذا.. ليس قبل أن يسمح لي عمي بالخروج من كومة الرمال هذه.
وابتسم ابتسامة باهتة، واستطرد:
ثم لا داعي لمناداتي بلقب سيدي.. اسمي (لوك) فقط.
قال (تريبيو)
- وأنا (سي تريبيو)، متخصص في العلاقات الإنسانية، وهذا زميلي (آرتو ديتو).

قال (لوك)، وهو يفصل كابل الشحن عن صدر(آرتو):
. أهلا بكما هنا.
انتبه فجأة إلى شيء غريب في صدر (آرتو)، فانحنى يفحصه في اهتمام، ثم نهض يحضر بعض أدواته، وراح يعمل بها، داخل تجويف صدر (آرتو)، وهو يقول:
- يبدو أنكما قد واجهتما أحداثا كثيرة، فلقد وجدت هنا بعض المواد الكربونية، التي لم يسبق لي رؤيتها من قبل.
قال (تريبيو):
- لو عرفت الحقيقة لأدهشك أننا ما زلنا نعمل يا سيدي، فلقد اشتركنا مع الثوار ضد الإمبراطورية، ونحن الآن لاجئان.
هتف (لوك):
- لاجئان؟!.. إذن فلقد رأيت معركة حقيقية في السماء. هنا يا (تريبيو)، أخبرني بكل ما حدث.
أجابه (تريبيو):
- لقد شاركت في الكثير من المعارك يا سيدي، ولكن ليس بشكل مباشر، متخصص هو..
قاطعه (لوك) بخيبة أمل:
- أسنعود إلى هذا ثانية؟
ثم استدار يواصل عمله في صدر (آرتو)، وهو يقول:
- هناك شيء محشور بداخلك، ولكنني لست أدري ما هو.
راح يضغط بآلته على هذا الشيء في قوة، حتى انبعثت منه قرقعة قوية، جعلت (لوك) يتراجع في حركة حادة، في حين توهج صدر (آرتو) في قوة، ثم تكاثف هذا الوهج، وتشكل في سرعة على هيئة صورة هولوجرافية، ذات ثلاثة أبعاد، ترتفع حوالي ربع المتر وكانت صورة جميلة بحق، لفتاة فاتنة، صحبها صوت رقيق، يقول:

- (أوبي - وان - كنوبي).. ساعدني.. أنت الأمل الوحيد الباقي لي.
كانت الدهشة الأعظم من نصيب (تريبيو)، الذي هتف:
- من أين أتيت بهذه الصورة يا (آرتو)؟
راح (آرتو) يطلق صفيره، الذي ترجمه (تريبيو) على الفور إلى (لوك)، الذي استمع إليه في لهفة شديدة، والآلي يقول:
- يدعي (آرتو) أنه مجرد شريط قديم، كان محفوظا في ذاكرته، ولا ينبغي أن نعيره اهتماما.
لم يرق هذا الجواب لـ (لوك)، في حين استطرد (تريبيو):
- يخيل إلى أنها صورة لشخصية مهمة، كانت ضمن ركاب السفينة، التي دمرها الإمبراطوريون.
التفت (لوك) إلى (آرتو)، وسأله:
- هل توجد بقية هذا التسجيل؟.. أراهن أنه توجد له بقية.. هيا.. أسمعني إياها.
أطلق (آرتو) صفيرا عصبيا، وهو يتراجع، فقال (تريبيو):
- ما هذا السلوك يا (آرتو)؟.. السيد (لوك) هو سيدنا الجديد، ولابد لنا من طاعته.
كان يخشى في الواقع أن يغضب (لوك)، فيعيدهما مرة أخرى إلى قبيلة (الچاوا)، ويبدو أن (آرتو) قد أدرك سر قلق زميله، فقد أطلق صفيرا مترددا هذه المرة، فسأل (لوك) (تريبيو) في اهتمام:
- ماذا يقول هذه المرة؟
أجابه (تريبيو):
- يقول إن هذه الرسالة موجهة إلى (أوبي وان كنوبي)، وهو شخص يعيش على هذا الكوكب، وما معنا هو جزء من هذه الرسالة الخاصة.. وهذا يدهشني شخصيا، فلقد كان سيدنا السابق هو كابتن (كولتن)، ولم يسبق لي أن سمعت اسم (أوبي

وان كنوبي) هذا، ولكن بعد كل ما مر بنا من أحداث، لن أستبعد أبدا أن تصاب أجهزة (آرتو) بخلل ما.
قالها وهو يرمق (آرتو) بنظرة تحذير، لم ينتبه إليها (لوك)، الذي غمغم في تفكير:
- (أوبي وان كنوني)!! يبدو لي أني قد سمعت هذا الاسم قبلا.
ثم تهللت أساريره، وهو يهتف:
- ربما يعني الكهل (بن كنوبي).
سأله (تريبيو) في دهشة:
- أتعني أنه هناك شخص يحمل هذا الاسم بالفعل؟
قال (لوك):
- ليس تماما، لم أسمع أبدا باسم (أوبي وان) هذا، ولكن العجوز (بن) يعيش هنا، بالقرب من حدود بحر الرمال الغربي، وهو راهب عجوز، يقول عنه عمي (أوين) وأصحابه أنه ساحر، ولكنه - بحدود علمي - لم يمتلك أبدا شخصا آليا.
تطلع مرة أخرى إلى الصورة الهولوجرافية، التي تنبعث من (آرتو) وتابع:
- يبدو لي أن هذه الفتاة تواجه مشكلة ما، وينبغي أن نستمع إلى باقي رسالتها.
في هذه المرة لم يتراجع (آرتو)، عندما اقترب منه (لوك)، ولكنه أطلق صفيرا طويلا، ترجمه (تريبيو)، قائلا:
- يقول (آرتو) إنه عليك أن تفتح قفلا خاصا داخله، لا يمكنه هو التحكم فيه ذاتيا؛ لتسمع باقي الرسالة.
تطلع (لوك) داخل صدر (آرتو)، ثم اختار آلة مناسبة وراح يعمل بها في صدر (ارتو)..
وفجأة اختفت الصورة تماما..
وانتظر (لوك) بضع دقائق، ثم قال في توتر:

- حسنا.. أين الرسالة؟
أطلق (آرتو) صفيرا هادئا، فقال (تريبيو) في تردد:
- إنه يسأل: أية رسالة؟
هتف (لوك) في غضب:
- أية رسالة؟!.. ما الذي تعنيه بهذا السؤال السخيف الرسالة التي سمعنا جزءا منها الآن، والتي تختزنها في ذاكرتك الصدئة أيها العنيد المكابر.
اكتفى (آرتو) بإطلاق نغمات ناعمة، في حين قال (تريبيو) في تردد وقلق:
- معذرة يا سيدي.. ولكن يبدو أن جزء الطاعة داخله لم يعد يعمل.
بدا الغضب على وجه (لوك)، وهم بقول شيء ما، عندما ارتفع صوت امرأة من الطابق السفلى، تقول:
- أين أنت يا (لوك)؟.. العشاء جاهز.
أجابها (لوك):
- سآتي حالا يا عمتي (بيرو).
ثم التفت إلى (تريبيو)، وقال في حزم:
- سأعود بعد قليل.. حاول أن تقنع هذا العنيد بالتخلي عن مكابرته.
لم يكد (لوك) يغادر المخزن، حتى التفت (تريبيو) إلى صاحبه، وقال:
- أدر هذا الشريط بالله عليك، وإلا بحث هو عن وسيلة إدارته بنفسه، مما قد يعرض أجهزتك للتلف.
ولكن (آرتو) بقي على عناده..
كان يعلم أن ما يحمله قد يغير وجه هذا الكوكب..
بل وجه الكون كله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- الرمال..

وقفت العمة (بيرو) في المطبخ، تعد طبقا مثلجا كبيرا، له لون أزرق باهت، عندما تناهى إلى مسامعها ذلك الحديث التقليدي، بين (لوك) وزوجها (أوين)، حول رغبة الأول في الالتحاق بأكاديمية الفضاء، فتنهدت في أسف، فهي تعلم أن (لوك) لم يتقبل أبدا وجوده في المزرعة، وأسرعت تعود إلى حجرة الطعام، وتضع أمامهما طبق الحلوى؛ ليغيرا الحديث..

ولقد نجحت في هذا..

لقد شغلتهما الحلوى اللذيذة عن نقاشهما بالفعل، ثم قال(لوك):

- يبدو لي يا عمي (أوين) أن الآلي (آرتو) هذا مسروق.

صب (أوين) لنفسه كوبا من اللبن، وقال:

- (الچاوا) لا يسرقون.. إنهم فقط يلتقطون ما يعثرون عليه في الصحراء، وهم يخشون العقاب كثيرا.

- وارتشف رشفة من كوب اللبن، قبل أن يستطرد - ولكن لماذا تعتقد أنه مسروق؟ أجابه (لوك): - لأنه سليم تماما، وليس مثل الآليين، الذين يبيعهم (الچاوا) عادة، ثم إنه يشير إلى شخص يدعى (أوبي وان كنوبي).

سعل (أوين) في شدة، عندما بلغ (لوك هذه النقطة ولكنه لم ينبس ببنت شفة، فتابع (لوك):

- ربما يقصد (بن) العجوز - صحيح أن الاسم الأول يختلف، ولكن اللقب متشابه.

بقي (أوين) على صمته، فواصل (لوك):

- هل تعرف شخصا آخر، يحمل نفس الاسم يا عماه؟

أجابه (أوين) في عصبية:
- لا تذكر هذا الاسم أبدا.. إنه لا يجلب سوى المتاعب. ابق بعيدا عن هذا الساحر العجوز.
أسرعت العمة (بيرو) تقول:
- اهدأ يا (أوين)
ولكنه تابع في ثورة:
- هذا الأمر شديد الخطورة.. لقد سبق أن أخبرتك أن (كنوبي) هذا عجوز مجنون، وخطر على كل من يعرفه، ولا يهمني لو كان هذا الآلي ملكه، أو ملك أي كائن كان.. لقد دفعت ثمنا باهظا له، وهو ملكنا الآن، ولن أعود إلى هذا الحديث أبدا
ولكن (لوك) سأله في عناد:
- ولكن ماذا لو أنه ملك لشخص آخر، وأن هذا الـ (أوبي وان) يبحث عنه؟
هز (أوين) رأسه في أسف، وقال:
- لم يعد هناك وجود لـ (أوبي وان).. لقد مات في نفس الوقت، الذي مات فيه والدك.
تملّك الانفعال (لوك)، على الرغم من صوته الخافت، وهو يقول:
- إذن فقد كان هناك رجل يحمل هذا الاسم بالفعل.
أعاد هذا القول إلى (أوين) غضبه، فقال في حدة:
- قلت لك انس هذا الأمر تماما، وعليك أن تعد هذين الآليين للعمل في الصباح.. هل تفهم؟.. لقد دفعنا مدخراتنا كلها ثمنا لهما، ولولا اقتراب موسم الحصاد ما ابتعتهما حاول أن تتذكر هذا دائما.
قال (لوك):

- حسنا يا عماه، ما داما سيفيدانك إلى هذا الحد، سأقدم أوراق إلى أكاديمية الفضاء في العام القادم ارتسمت تكشيرة كبيرة على وجه (أوين)، ونظر إلى طبق الطعام في صمت، فاستطرد (لوك):
- إنك تمتلك عددا كافيا من الآليين الآن، وحالتهم جيدة و..
قاطعه (أوين) مزمجرا:
- الآليون لا يمكنهم أن يحلوا محل البشر بالكامل.. إنني أحتاج إليك في موسم الحصاد، ولدينا الفرصة لتحقيق ثروة عظيمة هذه المرة، وفيما بعد يمكننا استئجار بعض البشر...
اصبر يا (لوك).. اصبر وسيتحقق لك ما تريد.
نهض (لوك)، دون أن يكمل طعامه، وهو يقول:
- هذا ما سمعته منك في العام الماضي، عندما سافر (بيجز).
انزعجت عمته، وهتفت به:
- إلى أين يا (لوك)؟
أجابها وهو يغادر الحجرة:
- ليس إلى أي مكان.
ران الصمت الثقيل على حجرة الطعام، بعد انصراف (لوك)، ثم قالت العمة (بيرو):
- لا يمكنك أن تستبقى هذا الفتى إلى الأبد.. لقد التحق معظم أصدقائه بأعمال خارجية، وأنت تدرك رغبته الشديدة، في الالتحاق بالأكاديمية.
أجابها (أوين):
- سأحاول تحقيق رغبته في عام قادم، عندما يكون لدينا المال الكافي
قالت في جدة:
- (لوك) ليس مزارعا بطبعه، ولن يصبح كذلك مهما فعلت.. إنه في الواقع يشبه أباه.

قال (أوين) بكل القلق الكامن في أعماقه:
- هذا ما كنت أخشاه.
أما (لوك)، فقد غادر المكان متجها إلى المخزن، وتوقف قليلا يراقب غروب، شمسيي (تاتوين)، واحدة تلو الأخرى، خلف الكثبان البعيدة، والرمال المتوهجة بلون برتقالي بديع مع الغروب، ثم تابع طريقه إلى المخزن، وهناك توقف في دهشة، وهو يبحث عن (آرتو) و (تريبيو)، وهتف:
- أين أنتما؟
برز (تريبيو) من خلف طائرة (لوك) الصغيرة، فسأله (لوك):
- لماذا تختبئ عندك.. وأين (آرتو)
بدا (تريبيو) شديد الذعر واليأس، وهو يقول:
- أنا لم أفعل شيئا.. أرجوك لا تعاقبني.. لقد حاولت منعه، ولكنه لم يستجب.. لا ريب أن خللا قد أصاب أجهزته.. لقد تحدث عن مهمة لابد له من إنجازها، ثم..
قاطعه (لوك) في سرعة:
- أتعني أنه قد ذهب؟
أجابه (تريبيو):
- نعم يا سيدي.. لقد رحل.
شعر (لوك) بالتوتر، وهو يتصور موقف عمه، الذي أنفق آخر مدخراته في شراء هذين الآليين، ثم اندفع إلى الخارج بحثا عن (آرتو)، وهو يتساءل عن الأسباب، التي دعته للهرب هكذا، واعتلى تبة قريبة، ووضع منظاره على عينيه، وراح يبحث عن شيء معدني، له ثلاثة أرجل، وقد أصاب الجنون عقله الآلي، ثم لم يلبث أن غمغم في حنق:
- لا يوجد أدنى أثر له.. سيقتلني عمي حتما، إذا ما عرف هذا.
قال (تريبيو) الواقف إلى جواره:

- ألا يمكننا أن نبحث عنه؟
تلفت (لوك) حوله مرة أخرى، وقال:
- ليس قبل الصباح، فالابتعاد شديد الخطورة في الليل..
ليس بسبب (الجاوا)، وإنما بسبب سكان الرمال المتوحشين.. يا إلهي... لقد وضعني (آرتو) هذا في موقف شديد الحرج.
غمغم (تريبيو):
- هذا تخصصه، الذي يبرع فيه.
ولكن أعماقه الآلية كانت تعلم أن (آرتو) يقوم بمهمة خطيرة هذه المرة..
مهمة عمره كله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكد ينبلج الصباح، حتى راح (أوين) يهتف:
- (لوك).. (لوك).. أين يمكن أن يكون هذا الفتى؟.. لا أثر له في المنزل أو المخزن!!
دخل إلى المطبخ، حيث انهمكت العمة (بيرو) في تحضير الإفطار، وسألها في غضب:
- هل رأيت (لوك) هذا الصباح؟
أجابته:
- نعم.. لقد أخبرني أن لديه ما يفعله بالخارج، قبل أن يذهب إلى المزرعة، ولهذا انصرف مبكرا.
قال مستنكرا:
- قبل أن يتناول طعام الإفطار؟!.. وهل اصطحب الآليين الجديدين معه؟
أجابته في ضجر:

- يبدو هذا، فقد رأيت أحدهما يسير إلى جواره.
تطلع (أوين) إلى الصحراء الممتدة أمامه، وقال في حنق:
- وهل سأنتظر طويلا؟
لم يتلق من زوجته جوابا هذه المرة، ولم يكن يعلم أن انتظاره سيطول هذه المرة
سيطول كثيرا جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخرج الجندي الإمبراطوري وجهه، ذا القناع المعدني الأبيض، من قارب النجاة الضائع وسط الصحراء، وقال لزملائه خارجه:
- لا يوجد أي شيء.. لا شرائط ولا أحد أيضا.
التفت جندي اخر إلى الضابط الواقف بعيدا، وهتف:
- إنه قارب النجاة، الذي غادر سفينة الثوار يا سيدي، ولكنه خال تماما.
علق الضابط قائلا:
- ولكنه هبط واستقر على الرمال في سلام، وهذا يعني أنه كان هناك من يقوده.
جذب شيء ما انتباهه في شدة، فانحني يلتقطه من بين الرمال، وتفحصه قائلا:
- هذه قطعة من جسد شخص الى.
وتطلع مرة أخرى إلى بحر الرمال، الممتد إلى مالا نهاية، واستطرد:
- حسنا.. سنرى.
وبدت لهجته مخيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلق (لوك) بسيارته الطائرة فوق الرمال، في سرعة فائقة، ومهارة جعلته يتفادى الصخور والكثبان الرملية في يسر، وهو يقول لـ (تريبيو)، الجالس إلى جواره:

- إن (بن كنوبي) يعيش في هذه المنطقة، ولكن لا أحد يعلم أين بالضبط، وعلى أية حال، لست أظن أن (آرتو) قد وصل إلى هنا ماشيا على قدميه، وإلا فإننا قد تجاوزناه دون أن ننتبه إليه وسط الرمال، أو...

بتر عبارته بغتة، وأشار إلى نقطة ظهرت على شاشة الكمبيوتر، وهو يستطرد في اهتمام:

- انظر.. ربما كان (آرتو).

زاد من سرعة الطائرة، دون أن يدري أنه هناك عيون عديدة تراقبه..

عيون ليست بشرية، ولكنها أيضا ليست آلية..

ولا أحد يدري نوع هذه العيون، لأن أحدا لم يجرؤ قط على الاقتراب من أصحابها، الذين يحملون اسم (تاسكين أوكي)، ويطلق عليهم مزارعو (تاتوين) اسم سكان الرمال المتوحشين، ويعتقد بعض العلماء أنهم و (الچاوا) من أصل واحد، ولكن أحد الجنسين تطور عن الآخر، وهما يتشابهان أيضا في ارتداء الثياب الثقيلة، التي تقيهما أشعة الشمسين الحارقة، أما فيما عدا ذلك، فهما يختلفان تماما..

(الچاوا) يرتدون ثيابا محيكة ثقيلة، في حين يلف سكان الرمال أنفسهم بقطع من القماش والأربطة مثل المومياوات، ثم إن (الچاوا) قوم جبناء، يخشون كل شيء، في حين لا يهاب سكان الرمال شيئا، وهم عدوانيون، قساة القلوب بطبعهم ومن حسن

حظ الجميع أنهم مجرد شرذمة، تحيا على الأطراف النائية المهجورة من الصحراء، وإلا بات الكوكب كله في خطر منهم..
ويستخدم سكان الرمال في تنقلاتهم حيوان (البانتا)، وهو في حجم ديناصور صغير، له عينان صغيرتان لامعتان، ويغطى جسده فراء كثيف، وله صوت أشبه بفحيح الثعبان..
ولهذا كانت سيارة (لوك) بالغة السرعة، بالنسبة لـ (البانتا)، بالرغم من اتساع خطوة هذا الأخير..
وفجأة رأى (لوك) (آرتو) أمامه، فأوقف سيارته الطائرة، وقفز منها، ووضع سلاحه على كتفه، وتوقف (آرتو) فور رؤيته، فقال له (لوك):
- إلى أين تعتقد أنك ذاهب؟
أما (تريبيو)، فاندفع يقول:
- ما هذا يا (آرتو).؟ أنت تعلم أن السيد (لوك) هو صاحبك الحقيقي، ولا يمكنك تركه هكذا.. والآن هيا نعود، ولا نريد أن نسمع منك كلمة واحدة بعد هذا، عن (أوبي وان كنوبي) هذا، أو عن أية مهمة أخرى، ولابد أن تشكر السيد (لوك)؛ لأنه لم يقم بتفتيتك إلى مليون قطعة، و..
قاطعه (لوك):
- يكفي هذا.. لقد تأخر الوقت، هيا نعود، قبل أن يقلق عمي (أوين).
ولكن (آرتو) راح يطلق صفيرا عصبيا، ويقفز في توتر، فسأل (لوك):
- ما هذا؟
أجابه (تريبيو):
- (آرتو) يدعي وجود مخلوقات غريبة، غير مسجلة في ذاكرته، تقترب من الجنوب الشرقي.

شك (لوك) في أن تكون هذه خدعة جديدة من (آرتو)، ولكنه اتخذ الحذر، واستعد بسلاحه، خاصة وأنه قد ابتعد داخل الصحراء، إلى مدى لم يبلغه قط، ولم يسبق له أن واجهه، وسار في حذر متفحصا المكان، وخلفه (تريبيو)، وتسلق تلا صخريا صغيرا، ووضع منظاره فوق عينيه، وراح يديره فيما حوله، حتى لمح واحدا من حيوانات (البانتا) الضخمة، ولكن بدون راكبه، ثم لمح آخر على مقربة منه، فغمغم:

- أين راكباها؟

وفجأة اعترض طريق رؤيته جسم أسود ضخم، لم يكد يرفع منظاره عن عينيه، ويتطلع إليه، حتى تراجع في ذعر..

كان هناك عملاق أسود بالغ الضخامة، يقف أمامه، ويرفع فأسه إلى أعلى..

وتراجع (تريبيو) في ذعر، فسقط وتدحرج إلى أسفل، في حين هوى العملاق بفأسه على رأس (لوك)، الذي حاول صد الضربة ببندقيته، وتراجع محاولا الاحتماء، ولكن العملاق رفع فأسه مرة أخرى، وأطلق ضحكة رهيبة، شعر بعدها (لوك) بدوار شديد..

ثم سقط فاقد الوعي..

وحمل سكان الرمال جسد (لوك)، وألقوه فوق كومة رمال قرية، والتفوا حول السيارة، ينهبون ما فيها.

وفجأة ارتفع عواء رهيب من ناحية الغرب..

وتسمر سكان الرمال في أماكنهم..

وارتفع العواء مرة أخرى، فأصيب الجميع بفزع هائل، وراحوا يمتطون حيوانات (البانتا)، ويفرون في رعب، في حين ظل (آرتو) مختبئا في مكمن وسط الرمال، وقد اقتنعت دوائر منطقه الآلية بأن ما أفزع هؤلاء المتوحشين هو شيء مفترس بحق، ومن

الأفضل له أن يظل محتميا بالرمال منه، خشية ألا يميز بين الأجسام العضوية، التي يمكن أن تؤكل وجسده هو المعدني..
ثم ارتفع صوت كوقع أقدام، راح يتزايد تدريجيا، حتى ظهر من خلف التل القريب شبح متشح بالسواد، وراح يقترب من (لوك) الفاقد الوعي..
وأوقف (آرتو) آلاته كلها، واتفقت مشاعره الآلية كلها على شعور واحد..
الرعب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 - أوبي وان..

أعاد (آرتو) أجهزته كلها للعمل، وهو يتطلع إلى الشبح، الذي بدا طويل القامة، منفرج الأسارير، لا يحمل لمحة شر واحدة، وهو يقترب من (لوك) الفاقد الوعي..
وإلى حد كبير، شعرت آلات (آرتو) بالارتياح..
كان القادم كهلا، يرتدي عباءة قديمة، فوق ثوب فضفاض، محاط عند وسطه بأربطة من الجلد، وعلى كتفه آلة غربية، ووجهه يشف عن طول تعرضه لقسوة مناخ هذه المنطقة، من حرارة شديدة، ورطوبة وصقيع، فقد غارت التجاعيد في جبهته، وحول عينيه، اللتين تبرقان مثل بلور فيروزي، وانسدلت لحيته كثة بيضاء، وهو يبتسم ابتسامة وقور، ويتطلع إلى جسد (لوك)، الملقى إلى جوار مركبة الرمال..
وأدرك (آرتو) أن الفزع قد أصاب سكان الرمال عبثا،
وأن هذا الكهل لا يضمر الأذى لأي مخلوق، فتحرك في موضعه حركة بسيطة، جعلت الكهل يلتفت إليه، ويقول في صوت يحمل نبرة مرح:
- غادر مكمنك يا صغيري.. لا داعي للخوف.
شعر (آرتو) بالارتياح هذا الصوت، وبدا له أن وجود أي بشر أفضل كثيرا من البقاء محشورا، بين هاتين الصخرتين، فغادر مخبأه، ومشي تحت أشعة الشمسين إلى حيث يرقد (لوك)، وانحنى فوقه مطلقا صفيرا طويلا، يشف عن قلقه، فانحنى الكهل بدوره يفحص (لوك)، ومس جبهته بأنامل حانية، ثم أمسك معصمه، فارتجفت جفون (لوك)، مما حدا بالكهل للابتسام، وهو يقول:

- سيستعيد وعيه الآن.



فانحنى الكهل بدوره يفحص (لوك)، ومسّ جبهته بأنامل حانية، ثم أمسك معصمه، فارتجفت جفون (لوك)..

فتح (لوك) عينيه بالفعل، وتطلع حوله مغمغما:

- ماذا حدث؟

ربت الكهل على كتفه، وقال:
- لا تتحرك كثيرا يا ولدي، لقد واجهت موقفا عصيبا ومن حسن حظك أنك مازلت تحتفظ برأسك فوق كتفيك.
تطلع (لوك) إلى الكهل لحظات في حيرة، ثم بدا من تألق عينيه أنه قد تعرفه، فهتف:
- (بن كنوبي).. كم تسعدني رؤيتك.
ثم تذكر موقفه، فتلفت حوله في ذعر، باحثا عن سكان الرمال المتوحشين، ولكن الكهل ابتسم وسأله:
- ما الذي أتى بك إلى أطراف الصحراء يا فتى؟.. ألا تدرك خطر التجوال، في مثل هذه المناطق، بمفردك؟
اعتدل (لوك) جالسا في مكانه، وهو يقول، مشيرا إلى (آرتو):
- هذا الآلي الصغير، هو الذي أتى بي إلى هنا، فلقد بدا له أنه قد أصيب بالجنون، وهو يصر على البحث عن صاحبه السابق، والواقع أنني لم أر - في عمري كله - مثل هذا الإخلاص من آلي.. إنه يعتقد أن مالكه السابق يدعى (أوبي وان كنوبي)، وأنه لا بد له من البحث عنه.. أخبرني يا (بن).. أهذا الـ (أوبي وان) أحد أقاربك؟
تقطب جبين الكهل، وهو يقول:
- (أوبي وان كنوبي)؟!.. إنني لم أسمع هذا الاسم منذ زمن طويل.. طويل جدا.
قال (لوك):
- عمي (أوين) يقول إنه قد مات
أجابه الكهل في سرعة:
- لا.. ليس بعد.
نهض (لوك)، وهو يسأله في لهفة:
- أتعرفه إذن؟

ابتسم الكهل ابتسامة عريضة، جعلت تجاعيد وجهه تبدو أكثر عمقا، وهو يقول:
- وكيف لا أعرف نفسي يا فتى؟
حدق فيه (لوك) في ذهول، فاستطرد الرجل:
- صحيح أن أحدا لم يعد يناديني باسم (أوبي وان) هذا، منذ سنوات طوال، ولكنني أحب هذا الاسم.
أتتصور أنني لم أسمعه من قبل مولدك يا (لوك).
هتف (لوك):
- إذن فهذا الآلي ملكك بالفعل تطلع (اوبي وان) إلى (آرتو)، وأجاب في عمق:
- هذا هو الجزء العجيب في الأمر، فلست أذكر أبدا أنني امتلكت آليا مثل هذا.
ثم بدا وكأنما قد نفض الأمر كله عن عقله، وهو يستطرد في بساطة:
- على أية حال، يجب أن تبتعد عن هنا، فسيعود سكان الرمال حتما، وبأعداد كبيرة؛ لسرقة سيارتك.. هيا بنا.
قالها ووضع كفيه حول فمه، والتقط نفسا عميقا، ثم أطلق صيحة..
نفس الصيحة المخيفة، التي سمعها (آرتو) من قبل، والتي دفعت سكان الرمال للفرار..
ثم ابتسم (أوبي وان)، وقال:
- هيا.. سنركب سيارتك، ونترك هذا المكان في سرعة.
ولكن (آرتو) أطلق صفيرا أشبه بالأنين، واندفع مبتعدا عن السيارة، فأدرك (لوك) الأمر في سرعة، وهتف:
- أين (تريبيو)؟.. تعال معي يا بن).

أسرعا خلف (آرتو)، الذي قادهما إلى حافة فجوة عميقة، استقر داخلها (تريبيو)، وقد انكسرت ذراعه، وانفصلت عن جسده، فهبط (لوك) و (بن) إلى أسفل الفجوة، وراح (لوك) يهز (تريبيو)، ويهتف باسمه عدة مرات دون جدوى، ففتح صندوق الأزرار بصدره، وراح يضغطها أكثر من مرة، حتى سمع صوت آلات (تريبيو) تعمل، ورأى هذا الأخير يعتمد على ذراعه الأخرى، وينهض واقفا، وهو يقول:

- معذرة يا سيدي.. يبدو أني قد تعثرت.

قال (لوك) في ارتياح:

- من حسن الحظ أن دوائرك الآلية ما زالت تعمل.. هيا بنا.

حاول (تريبيو) أن يتبع سيده، إلا أنه لم يستطع التحرك في سهولة، فلم يكن من (لوك) و (أوبي وان) إلا أن راحا يدفعانه، ويجرانه، حتى أخرجاه من الفجوة الرملية و(آرتو) يراقب الموقف في صمت، حتى رفع (أوبي وان) أنفه إلى أعلى، وراح يتشمم الهواء في عمق، ثم قال في قلق:

- فلنسرع.. إنهم عائدون.

وأسرع الجميع إلى سيارة (لوك) الطائرة..

وبدأت الرحلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن منزل (أوبي وان) سوى كهف فسيح، يختفي عن الأنظار، وعلى الرغم من سمة التقشف الواضحة في حياة (أوبي وان)، كان كهفه بسيطا ومريحا، ليس للجسد فحسب، وانما للعقل أيضا، مما يعكس طبيعة صاحبه، الذي حرص أشدَّ الحرص، على إخفاء آثار السيارة، طوال الطريق إلى كهفه، وكأنما يحيا بالحذر والحرص دائما..

وعند الكهف، قضى (لوك) بضع ساعات، في إصلاح وتركيب ذراع (تريبيو) المكسورة، التي انخلعت من عند المفصل تماما - لحسن الحظ - مما جعل (لوك) ينجح في إعادتها إلى موضعها، وتوصيلها بالأسلاك السليمة، وإلا اضطر الأمر إلى إرسال (تريبيو) إلى واحدة من محطات الإصلاح الضخمة..

وفي نفس الوقت، كان (أوبي وان) يعمل في رأس (آرتو) وصدره المفتوح، حتى انتهى من عمله، فاعتدل وهو يقول:

- حسنا يا صغيري.. دعنا نستمع الآن إلى ما لديك.

انتبه (لوك)، فأسرع يتجه إلى حيث (أوبي وان) و(آرتو)، وهو يقول:

- لقد سبق لي أن رأيت جزءا من هذه الرسالة، و...

قبل أن يتم حديثه، كان (أوبي وان) قد ضغط زرا من أزرار (آرتو)، فتجسدت صورة الفتاة مرة أخرى، ولكن بشكل أكثر وضوحا وثباتا، فانحبست كلمات (لوك) في حلقه، وهو يتطلع إلى الفتاة مبهورا، في حين بدأت الرسالة تقول:

- جنرال (أوبي وان كنوبي).. أقدم لك نفسي، بالنيابة عن أسرة (ألدران) العالمية، واتحاد بعث الجمهورية القديمة.. اسمح لي أن أقطع عليك خلوتك بالصحراء، فقد طلب مني والدي (بيل أورجانا)، نائب الملك، ورئيس مجلس إدارة (الدران) أن ألجأ إليك.. منذ سنوات كنت تحارب من أجل الجمهورية القديمة، والآن يرجوك أبي أن تنضم إلينا مرة أخرى، في هذا الوقت الحرج، ويطلب منك السفر إلى (الدران)؛ لمقابلته.. أعتذر عن عدم حضوري بنفسي، فقد فشلت مهمتنا، وهذا اضطررت لنقل الرسالة إليك بهذه الوسيلة.. هناك معلومات هامة وحيوية للغاية وتفيد نجاح الثورة، وكلها مختزنة في ذاكرة الآلي (آرتو

ديتو)، وأبي وحده يستطيع استعادتها من ذاكرته.. أرجوك توجه فورا إلى (الدران) يا جنرال (أوبي وان).. وخذ معك هذا الآلي.
توقفت الفتاة لحظة، ثم أضافت في سرعة وانفعال:
- (أوبي وان كنوبي) ساعدني، فأنت أملي الوحيد.. سيأسرني عملاء الإمبراطورية الآن، ولكنهم لن ينجحوا في انتزاع معلومة واحدة مني.. كل المعلومات الآن في ذاكرة (ارتو ديتو)... لا تخذلنا يا (أوبي وان)... أرجوك.
انتهت الرسالة عند هذا الحد، وتلاشت صورة الفتاة، ورفع (آرتو) رأسه إلى (أوبي وان) في أمل، في حين شملت الدهشة (لوك)، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، فلم ينبس ببنت شفة، أما (أوبي وان) فقد ارتكن برأسه إلى حائط الكهف، وراح يدخن شيشة بدائية، وهو يفكر في عمق شديد، إلى أن أفاق (لوك) من دهشته، فتطلع إلى (أوبي وان)، وهو يقول لنفسه في خفوت بالغ:
أهذا هو الراهب العجوز، والساحر المجنون؟!
ثم ارتفع صوته، وهو يقول:
- جنرال (أوبي وان كنوبي) المحارب.. أهو أنت؟
أجابه (أوبي وان) في رصانة:
- نعم يا (لوك).. لقد كنت واحدا من فرسان (الجيدي).. تماما مثل والدك.
قال (لوك) في حيرة:
- ولكن عمي يقول: إن والدي كان ملاحا فضائيا.
ابتسم (أوبي وان)، وقال:
- لم يكن (أوين) يوافق أبدا على أفكار والدك، أو فلسفته في الحياة، فلقد ظل دائما يرى أنه من الأفضل أن يبقى والدك في المزرعة، وأن يعمل مزارعا طيلة عمره، ومن المؤكد أنه يخشى

معرفتك لحقيقة والدك، حتى لا تتأثر به، وتترك (أنكورهيد) والزراعة، كما فعل هو من قبل.
قال (لوك) في أسف:
- أتمنى لو أنني عرفت أبي أكثر، ولكنه مات في طفولتي.
صمت (لوك) لحظات، وقال:
- لقد كان قويا شجاعا، يمتلك إحساسا غريزيا بالقوة الطبيعية.. وكان صديقا عزيزا بحق، و..
بتر عبارته، وبدا لحظات كشيخ أثقل التعب كاهليه، إلا أنه لم يلبث أن استعاد بريق عينيه في سرعة، وقال في مرح:
- ولكنني سمعت أنك أيضا طيار ماهر.. إن المهارة في الطيران ليست شيئا موروثا بالطبع، ولكنني لست أشك في أنك قد ورثت الكثير عن والدك، والمزيج من الدراسة والعلم يصنع الكثير.. حتى البطة الصغيرة تتعلم العوم.
سأله (لوك) في دهشة:
- ما هي هذه البطة؟
ابتسم (أوي وان) وقال:
- لا تهتم كثيرا بهذا.. إنها طائر قديم منقرض.. المهم أنك قد تغيرت كثيرا، منذ رأيتك طفلا يا (لوك)، وصرت تشبه والدك.. لحظة يا فتى.. لدي هنا شيء تركه لك والدك، ولقد أردت دائما أن أعطيك إياه، ولكن عمك (أوين) كان يرفض هذا في إصرار، خشية أن تتهور، وتتبع مسار (أوبي وان) العجوز.
نهض (أوبي وان)، وفتح صندوقا كبيرا بالحائط، والتقط منه آلة صغيرة، ناولها إلى (لوك)، الذي راح يقلبها في يده في حيرة..
كانت عبارة عن قفاز صغير، به عدة أزرار، وخلية للطاقة، ومثبت فيها أسطوانة معدنية، مزينة بفصوص أشبه بمجوهرات صغيرة..

وضغط (لوك) أحد الأزرار، فانطلق من اليد شعاع أزرق، يبلغ طوله المتر تقريبا، فهتف (أوبي وان):
- احترس.. إنه من القوة بحيث يمكنه أن يخترق الحائط أو يذيب جسد إنسان.
أعاد (لوك) القفاز إلى جواره، في حين استطرد (أوبي وان):
- إنه سلاح فرسان (الجيدي)، الذين كانوا أعظم قوة في المجرة، لأكثر من ألف جيل، وكان الجميع يحترمهم ويجلهم؛ لمحافظتهم على العدل والسلام في الجمهورية القديمة.
شرد بصر (لوك)، وهو يتطلع إلى الفضاء، ثم التفت إلى (أوبي وان)، وسأله في بطء:
- كيف مات أبي؟
تردد (كنوبي) في الإجابة، ثم لم يلبث أن حسم أمره، وقال:
- لقد خانه أحد فرسان (الجيدي) وقتله.. إنه (دارت قادر).. المعروف الآن باسم (دون قادر).. ولقد كان أحد تلامذتي الأذكياء، ولكنني أعترف – للأسف - أنني قد فشلت في تعليمه.
نهض من مكانه، وراح يسير جيئة وذهابا في الكهف، وهو يتابع:
- لقد استغل (قادر) تدريباته، والقوة الكامنة في أعماقه للشر، ولمساعدة الأباطرة الفاسدين، الذين تولوا الحكم فيما بعد، وشارك في مؤامرة شريرة للقضاء على فرسان (الجيدي)، وتشتيتهم، وبعدها لم يجد من يعارضه.
وارتسم على وجهه تعبير عجيب، وهو يستطرد:
- لقد كان الفرسان على خلق، أكثر مما ينبغي، فوثقوا فيمن حولهم، وفي استقرار الإمبراطورية، ولم يدركوا أن الجسد قد يكون سليما معافى، ولكن الرأس يضعف، ويستشري فيه المرض، حتى تمكن الإمبراطور من السيطرة على كل شيء.. وكم أتمنى الآن أن أعرف ما يهدف إليه (قادر) في النهاية، فأعماقي تقول إنه

يعد الأمور لمخطط مبهم فظيع، فهذا قدر من يمتلك السلطة، وتحكمه قوى الشر، ثم إن (قادر) يدرك تلك القوة الطبيعية، التي تسود الكون من حولنا، و...
قاطعه (لوك):
- إنها المرة الثانية، التي تذكر فيها هذه القوة الطبيعية، فما هي؟
صمت (أوبي وان) لحظات، ثم أجاب:
- معذرة يا فتى.. أنسى أحيانا أني أتحدث مع شاب من جيل آخر.
والتقط نفسا عميقا، قبل أن يستطرد:
- القوة الطبيعية هي طاقة تملأ الكون من حولنا، ولقد حاول العلماء تفسيرها بأنها تنبعث من الأجسام الحية، وأن الإنسان البدائي علم بوجودها، ولكنه ظل يجهل كنهها وماهيتها لملايين السنين، والقلائل فقط من نجحوا في تنظيمها، وأطلق عليهم الآخرون اسم السحرة، والمشعوذين، وأسماء أسوأ من هذا، وهناك ندرة استطاعت الاستفادة من القوة، فلم يفهمهم أحد، وعاشوا غرباء بين الناس.
وفتح ذراعيه في الهواء، مستطردا:
. القوة تحيط بنا جميعا، وبعض الناس يؤمنون بأنها تحكم أفعالنا، واعتراف فرسان (الجيدي) بوجود هذه القوة، هو الذي منحهم نفوذهم الخاص ثم التفت إلى حيث يقف (لوك)، وأكمل في حزم:
- لابد لك من أن تتعلم التعامل مع القوة، إذا ما أردت أن تصحبني إلى (ألدران) يا (لوك).
فوجئ (لوك) بالقول، وقال:
- (ألدران).. ولكنني لا أعلم حتى أين (ألدران)؟!.. هذه.. ثم إن الوقت قد تأخر ولا بد لي من العودة إلى (أنكورهيد).

بدا وكأنما قد تذكر أمرا ما، وهو يلتفت بغتة إلى (آرتو)، مستطردا:
- أما بخصوص (آرتو)، فيمكنك الاحتفاظ به، وأعتقد أنه يرغب في هذا، وسأبحث أنا عن تبرير لعمى عند عودتي، وأرجو أن يقنعه هذا و...
اضطر لبتر عبارته، أمام نظرة (أوبي وان)، التي تجمع ما بين الحزن والصلابة، فقال هذا الأخير، وصوته يحمل نفس الانفعالين:
- أنا أحتاج إلى مساعدتك يا (لوك).. لقد صرت عجوزا، بالنسبة لمثل هذه المهام، وهذه المهمة بالغة الخطورة، ولقد سمعت ورأيت الرسالة بنفسك.
قال (لوك) في تردد:
- ولكني لا أستطيع الاشتراك في مهمة كهذه.. هناك واجب ينتظرني.. الحصاد وغيره.. حتى ولو استطاع عمي استئجار آخرين.. إنه واجبي.
لم يقنع بكل ما نطقه لسانه، فأضاف في عصبية:
- ثم إن هذا الأمر بعيد جدا عن هنا، وهو لا يخصني.
قال (أوي وان):
- إنك تتحدث كما لو كنت تتقمص شخصية عمك.
تنهد (لوك)، وقال:
- عمي؟!.. لست أدري كيف سأشرح له كل هذا!
أخفي (أوبي وان) ابتسامته، وهو يتطلع إلى (لوك).. كان يعرف أن قدر هذا الأخير قد تحدد..
تحدد من قبل أن يعلم حتى كيف مات أبوه..
تحدد عندما سمع ورأى الأميرة (أورجانا) الجميلة، وهي تتوسل طالبة المساعدة..

بل ربما تحدد من قبل حتى أن يولد..
من يدري؟..
وفي حزم، قال (أوبي وان):
- تذكر يا (لوك) أن عذاب شخص واحد ينعكس على الجميع، فلا توجد تفرقة في الظلم، وما لم نتصد له في الوقت المناسب، سيعم الجميع، سواء تجاهلوه أو تصدوا له.
ران عليهما الصمت طويلا، ثم قال (لوك) في خفوت:
- أستطيع أن أصحبك إلى (أنكورهيد)، ومنها يمكنك الذهاب إلى مطار (موسى أيزلي)؛ لتقلع إلي حيث تشاء.
أجابه (كنوبي) في هدوء:
- هذا يكفيني الآن.
ثم ابتسم، وأردف:
- وبعدها افعل ما ترى أنه واجبك.
وكان كمن يقرأ لوح القدر..
قدر (لوك)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الزنزانة صامتة مظلمة، صممت بشكل يمنح المسجون شعورا بالعجز والضعف..
وهذا ما شعرت به الأميرة (ليا اورجانا)، وهي تجلس في الزنزانة، التي لا يتسرب إليها شعاع واحد من الضوء، يمكنها من رؤية جدرانها المعدنية، أو سقفها المرتفع.
ثم سمعت صوت الباب السميك، ودلف الضوء إلى الزنزانة، تصحبه ثلة من جنود الإمبراطورية، يحملون أسلحتهم، واصطفوا على جانبي الزنزانة، كما لو كانوا يخشون سجينتهم

الضعيفة الرقيقة، التي أخفت هاتين الصفتين في أعماقها، وهي تلتصق بالحائط، وتتطلع إليهم في تحد، إلا أن تلك النظرة المتحدية لم تلبث أن ذابت في أعماقها، وتحولت إلى نظرة ياس ورهبة، عندما وقع بصرها على (دون ڤادر)، بزيه الأسود الرهيب، وهو يقف بباب الزنزانة، مع رجل ضئيل الحجم، تطل القسوة من كل ذرة في ملامحه الباردة..

وأشار (دون ڤادر) بيده، فدلف إلى الزنزانة آلي عجيب، يصدر عنه صوت أشبه بطنين سرب من النحل، وامتلأت نفس (ليا) برعب شديد، عندما خرجت من الآلة عدة أذرع، لم تر لها مثيلا من قبل، وتذكرت ما سمعته عن آلات التعذيب، التي تختزن في ذاكرتها المعدنية كل أنواع التعذيب الوحشي، التي عرفها الجنس البشري، والتي يستخدمها الإمبراطوريون في سجونهم، ورأت (ڤادر) والحاكم (تاركين) يتطلعان إليها في صمت، وكأنما يتركان لها الوقت الكافي لإدراك طبيعة هذه الآلة الجهنمية، واستيعاب هذا الكابوس البشع، قبل أن يقول (تاركين):

- والآن أيتها الأميرة (أورجانا).. أين قاعدة الثوار الرئيسية؟

تقدمت الآلة نحوها في بطء..

وانطلقت صرختها...

وكانت صرخة عذاب رهيبة..

رهيبة بحق..



لم تكد تنطق بالعبارة، حتى لوى (كواريل) ذراعها خلف ظهرها في عنف

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- الأشرار..

كانت سيارة (لوك) تنطلق عبر الصحراء، عندما أشار (أوبي وان) إلى الجنوب الغربي، قائلا:

- انظر يا (لوك).. هناك دخان.

ألقى (لوك) نظرة سريعة على النقطة، التي يشير إليها (أوبي وان)، وقال:

- لست أرى شيئا.

قال (أوبي وان):

- دعنا نذهب إلى هناك، على أية حال، فربما وجدنا من يحتاج إلى مساعدتنا.

انحرف (لوك) بالسيارة، إلى حيث يرى (أوبي وان) الدخان، ولم يمض وقت طويل، حتى رأى (لوك) الدخان الكثيف. الذي شعر به (أوبي وان) من قبل، ولم يكد يبلغ موضعه، حتى امتلأت نفسه بالمرارة والاشمئزاز..

كانت هناك أجساد عديدة محترقة، وإلى جوارها زحافة الرمال الضخمة، التي يمتلكها (الچاوا)، وقد بدت أشبه بحوت أسود محترق..

وهبط الجميع من السيارة، في موضع المذبحة، وقال (لوك):

- يبدو أن سكان الرمال هم الذين فعلوا هذا، فهناك آثار الأقدام (البانتا).

انحنى (كنوبي) يفحص الآثار، ثم أعتدل قائلا:

- ألم تلحظ شيئا غريبا، وسط هذه الآثار؟

أجابه ر لوك) على الفور:

- بالتأكيد، فالآثار توحي بأن (البانتا) يسير في أزواج، في حين يحرص سكان الرمال دائما على السير في خط طولي متابع، حتى يعجز الناظر إليهم عن تحديد عددهم بدقة.
أضاف (كنوبي):
- هناك أيضا ما أصاب الزحافة، والذي يعجز همج الرمال عن فعله.. فقط جنود الإمبراطورية يمكنهم هذا.
فحص (لوك) البقايا المتناثرة حوله، وقال:
- إنها نفس القبيلة، التي ابتاع منها عمي (آرتو) و (تريبيو)، ولكن لماذا يقتل الإمبراطوريون كل هؤلاء؟
قبل أن يسمع جوابا لسؤاله، امتلأت ملامحه بالقلق، وتابع:
- يا إلهي!!.. لو أن الإمبراطوريين قد اقتفوا آثار (آرتو) و (تريبيو) حتى هنا، فمن المحتم أنهم قد علموا من (الچاوا) من ابتاعهما، وهذا يقودهم إلى..
لم يتم عبارته، وإنما هتف:
- يا إلهي!!
واندفع يجرى نحو سيارته الطائرة، و (كنوبي) يصرخ من خلفه
- انتظر يا (لوك).. هذا بالغ الخطورة ولكن (لوك) قفز إلى سيارته، وانطلق بها بأقصى سرعة، تاركا (كنوبي) و (تريبيو) و (آرتو) خلفه، وسط المذبحة، ولم يكد يقترب من مزرعة عمه حتى هوى قلبه بين ضلوعه، ولم يدر كيف أوقف سيارته أمام المنزل، ولا كيف قفز منها، وأسرع نحو تلك الفجوات السوداء، التي تنبعث منها الأدخنة، والتي كانت يوما منزله..
وعجز عن الاقتراب أكثر من مرة..
كانت الحرارة والأدخنة تمنعانه، وتملآن عينيه بالدموع، وهو يصرخ:
- عمي (أوين).. عمتي (بيرو).

انطلق نحو المخزن، الذي يشتعل بدوره، وما أن اقتحمه حتى وقع بصره على جسدين متفحمين، انهارت أعصابه لرؤيتهما، فألقى نفسه على الرمال، ودفن وجهه فيها، وأطلق لدموعه العنان..

لقد أدرك الآن قضيته الحقيقية..

وأدرك الهدف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملأت الشاشة الهولوجرافية حائط الحجرة الواسعة كله، وهي تحمل صورة ثلاثية الأبعاد، لجزء صغير من المجرة، يحوي مليون نظام نجمي، في وضوح شديد، ووقف (دون ڨادر) يتطلع إليها، وحوله الحاكم (تاركين)، والأدميرال (موتي)، والجنرال (تاج)، وقد تناسى الجميع خلافاتهم،

في هذه اللحظة الحاسمة، وقال (موتي):

- انتهى الفحص الأخير بنجاح، والمحطة الآن جاهزة للعمل.

تجاهل (ڨادر) هذا القول تماما، وغمغم في خفوت، وكأنما يتحدث إلى نفسه:

- ما زالت تقاوم.. ما زالت تملك أمر نفسها.

ثم التفت إلى (تاركين)، وقال:

- لم ننتزع منها أية معلومة ذات أهمية، حتى هذه اللحظة.

أجابه (تاركين):

- لست أعتقد بصلاحية تلك الوسائل، التي تستخدمها.

قال (ڨادر) في خشونة:

- لقد أثبتت وسائلي صلاحيتها أكثر من مرة، ولكني أنتظر اقتراحاتك على أية حال.

قال (تاركين):
- في مثل هذا العناد، يكون من الأفضل أن تهدد شيئا آخر بهمها أمره، بدلا من تهديدها هي.
سأله (ڤادر):
- ماذا تعني؟
أجابه (تاركين):
- إننا نحتاج إلى تجربة هذه المحطة الجديدة عمليا، وقد يمكننا ضرب عصفورين بحجر واحد.
ثم التفت إلى (موتي)، وقال في حزم:
- مر رجالك بالتصويب على هدف واحد.
واكتسي صوته بصرامة مخيفة، وهو يستطرد:
- على (آلدران)..
ولم يتردد (موتي) في التنفيذ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما قفل (لوك) عائدا، إلى حيث ترك (كنوبي) والآليين، كانت سيارته تسير هذه المرة في بطء، وعندما أوقفها ظل جالسا داخلها، ولم يغادرها، فأدرك (كنوبي) ما حدث بنظرة واحدة إلى وجه (لوك)، وقال:
- إني أشاطرك حزنك يا (لوك)، ومن المؤكد أنك لم تكن تملك ما تفعله لهم، فلو كنت معهم لقاسمتهم مصيرهم، وكان الإمبراطوريون قد استعادوا (آرتو).
قال (لوك) في حسم:
- سأصحبك إلى (موسى أيزلى).. أريد أن أذهب معك إلى (ألدران).

وشرد بصره وسط الرمال، الممتدة أمامه إلى ما لا نهاية، وأضاف:
- أريد أن أصبح واحدا من فرسان (الجيدي) مثل أبي.. أريد أن..
ولكنه لم يستطع إتمام عبارته..
لقد احتبست الكلمات في حلقه..
وفي قلبه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من السهل أن ينخدع أي قادم جديد من ميناء (موسى أيزلى) الفضائي، فبالرغم من أنه يبدو صغيرا من الخارج، إلا أنه يمتد - في الواقع - إلى مسافة واسعة تحت مستوى الأرض، في حين تبدو شوارعه من الخارج مزدحمة بالناس، على عكس شوارع (أنكورهيد)، بالرغم من الرياح الحارة، ولكن كل مباني (موسى أيزلي) مصممة بحيث تتقي حرارة الشمسين الشديدة، ومعظمها مزود بحوائط مزدوجة، ينطلق داخلها تيار بارد، على الرغم من شكلها الخارجي البدائي..
وبينما يسير (لوك) بسيارته داخل شوارع (موسي أيزلى)، بصحبة الآليين و (كنوبي)، قال هذا الأخير:
- هذا الميناء الجوي يضم أسوأ نوعية من البشر، لا تجد لها مثيلا في (تاتوين) كله، وهي أفضل مكان يصلح لاختبائنا، حتى نجد سفينة فضاء، تنقلنا إلى (ألدران).
لمح (لوك) فرقة من جنود الإمبراطورية أمامه، وراوده خوف شديد: كاد يحمله على القفز خارج السيارة، والفرار عبر شوارع الميناء الفضائي، لولا أن شد (كنوبي) على يده في قوة، فالتفت إليه (لوك)، وهم بقول شيئ ما، إلا أن ابتسامة (أوبي وان) الهادئة بعثت بعض الطمأنينة في نفسه، فواصل طريقه في بطء، وهو

يتمنى أن يتخذ الجنود وجهة أخرى، ولكن أحد الجنود أشار إليه بيده، فلم يجد بدا من التوقف، وعاوده قلقه، وخاصة عندما راح المارة يتطلعون إليه في فضول، وركز الجنود اهتمامهم على (آرتو) و (تريبيو)، وسأله قائدهم في خشونة:

- منذ متى تمتلك هذين الآليين؟

تردد (لوك) لحظة، ثم أجاب:

- منذ ثلاثة أو أربعة مواسم.

وأضاف (كوبي) في هدوء:

- ونحن نعرضهما للبيع، لو أنكما ترغبان في شرائهما.

لم يعره الضابط اهتماما، وإنما انحني يفحص السيارة في عناية، قبل أن يسأل:

- هل جئتما من الجنوب؟

أجاب (لوك) في سرعة:

- لا.. لقد أتينا من الغرب، بالقرب من بلدة (بستين).

كرر الضابط

- (بستين)!...

ثم دار حول السيارة، يفحص مقدمتها، في حين حاول (لوك) الفرار بنظراته بعيدا، حتى انتهى الضابط من فحص السيارة، وعاد إلى (لوك)، وسأله على نحو عدواني:

- أين بطاقة هويتك؟

تصور (لوك) أن الضابط قد انتبه إلى فزعه وارتباكه، وكشف أمره، وأدرك ما سوف يحدث، عندما يطالع الضابط هويته و..

وفجأة انتبه إلى بريق عجيب، يطل من عيني (أوبي وان)، وهو يتطلع إلى عيني الضابط مباشرة، ويقول في هدوء عميق:

- أنت لا تحتاج لرؤية هويته.

تجمدت نظرات الضابط، وهو يكرر، وكأنما يردد درسا محفوظا:

- لست أحتاج إلى رؤية هويتك.
وبلطف شديد، همس (كنوبي):
- هذان ليسا الآليين، اللذين تبحثون عنهما.
كرر الضابط
- هذان ليسا الآليين، اللذين تبحث عنهما.
همس (كنوبي):
- يمكنه الآن أن ينصرف.
رد الضابط:
- يمكنك الآن أن تنصرف.
أسرع (لوك) يبتعد بسيارته عن فرقة الجنود، وحاول أن يلقي سؤالا ما على (كنوبي)، إلا أن هذا الأخير هز رأسه وابتسم، فابتلع (لوك) فضوله، وواصل ابتعاده عن المكان، وراح (أوبي وان) يقوده، عبر الشوارع الضيقة، وكأنه يحفظها عن ظهر قلب، حتى بلغوا حيا قديما، تداعت مبانيه، وامتلأت شوارعه بمخلوقات شتى، من مختلف الكواكب والأجناس، وأشار (كنوبي) إلى مقهى قديم، أوقف (لوك) سيارته أمامه، وقال وهم يغادرون السيارة:
- أظن أنه قد حان الوقت، لأسألك عما فعلته بالضابط الإمبراطوري، فقد دار بخلدي لحظة، أنه سيقتلنا جميعا.
ابتسم (كنوبي)، وقال:
- إنها القوة يا (لوك).. القوة التي تكمن في العقل، ويمكن استخدامها أحيانا؛ للتأثير على الآخرين، ولكن استعمالها دائما محفوف بالخطر.
هزّ (لوك) رأسه، دون أن يفهم، ثم لم يلبث أن تجاهل الأمر، وسأل:

- أتظننا نجد في هذا المقهى ملاحا فضائيا، يقبل حملنا إلى (ألدران)؟
أجابه (كنوبي):
- معظم ملاحي الفضاء يجتمعون هنا، ولكن احترس، فستجد به الكثير من الأشرار.
ومن الداخل، بدا الملهى معتما، خافت الإنارة، ربما لأن رواد هذا المقهى يكرهون ضوء الشمس، أو لأنهم لا يرغبون في أن يراهم أحد في وضوح..
وشعر (لوك) بدهشة بالغة، وهو يدير عينيه في رواد المقهى..
كانوا مزيجا من عدة جنسيات..
بعضهم له عين واحدة، والبعض الآخر له ألف عين، وهناك من تغطى جسده قشور وأصداف، ومن يغطيه الفراء..
مجموعة مدهشة من سكان مختلف الكواكب، اجتمعت كلها في مقهى واحد، تتردد فيه أحاديث بمختلف اللغات المفهومة وغير المفهومة..
وأشار (كنوبي) إلى ركن بعيد، اجتمع فيه عدد من المخلوقات، يتحدثون ويضحكون في صوت مرتفع، وقال:
- إنهم قراصنة على الأرجح.. انتظرني هنا يا (لوك).
اتجه إليهم (كنوبي)، وجلس يبادلهم الحديث، في حين فوجئ (لوك) بعملاق يمسك كتفه في قوة، ويشير إلى (آرتو) و (تريبيو)، قائلا في غلظة:
- أنت يا هذا.. إننا لا نخدم الآليين هنا، وعليهما أن ينتظرا في الخارج، فنحن نقدم المشروبات فقط، وليس زيوت الآلات.
ألقى (لوك) نظرة على (كنوبي)، الذي بدا منهمكا في الحديث مع القراصنة، ثم قال:
- حسنا.. اصحب (آرتو) إلى الخارج يا (تريبيو)،

وانتظرا عند السيارة.
قال (تريبيو)، وهو يطيع الأمر:
- كما تأمر يا سيدي، فلست أحتاج إلى الزيوت على أية حال.
شعر (لوك) بنظرات العداء، في عيون الجميع، فعاد يتطلع إلى (كنوبي)، فرآه يتحدث مع مخلوق ضخم، أشبه بالغوريلا، تبدو أسنانه الحادة كلما ابتسم، وكانت عيناه الصفراوان تلتمعان كالزجاج، وسط الفراء البني الناعم الذي يكسو جسده كله، فيما عدا حزام ما من الجلد، يحيط بوسطه، وتتدلى منه أسلحة مختلفة وكان من الواضح أن الجميع يخافون هذا الغوريلا ويخشونه، فيما عدا (كنوبي)، الذي يتحدث معه بلغة عجيبة، جعلت (لوك) يتساءل عن عدم اتجاه (أوبي وان) مباشرة إلى ملاح فضائي معتمد، إلا أنه لم يلبث أن طرح تساؤلاته جانبا، كما يفعل بكل ما يثير حيرته، من أفعال وأقوال (أوبي وان)، وجلس يحتسي شرابه في صمت وهدوء، حتى شعر بشيء يدفعه في ظهره بخشونة، فالتفت ليجد أمامه مخلوقا عجيبا، ذا عيون عديدة، وكان هذا المخلوق يتحدث إليه في سرعة وبكلمات لم يفهمها (لوك)، وإن أدرك من تلعثمها أن هذا المخلوق ثمل، فتجاهله، وأشاح بوجهه بعيدا عنه، إلا أنه فوجئ بشخص قصير، يضع يده على كتف المخلوق المتعدد العيون، ويقول:
- إنك لا تعجبه.
أدرك (لوك) أن هذا القصير يحاول إشعال معركة.
فاكتفي بأن قال في هدوء:
- يؤسفني هذا.
أضاف القصير في حدة:
- ولست تعجبني أيضا، ولا يروق لي اعتذارك.. إنك رجل ميت.

التفت (لوك)، ليجد أن جميع من بالمقهى قد تراجعوا، والتفوا حوله وحول خصميه، في حلقة واسعة، في حين شهر خصماه في وجهه أسلحة عجيبة، لا يدري حتى كنهها، وسرت في جسده موجة من التوتر، قطعها صوت (أوبي وان) الهادي، وهو يقول:
- لا ينبغي أن تتحديا هذا الفتى.. إنه أصغر من أن يواجهكما.. هيا.. إنني أدعو الجميع إلى شراب.
ولكن الوحش الضخم المتعدد العيون أطلق زمجرة وحشية مخيفة..
وانقض على (لوك)...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصابت لكمة الوحش (لوك)، وأطاحت به بعيدا، وأسقطته فوق مائدة، هوت معه بكل ما تحويه، وتعالت أصوات محذرة، عندما سحب الوحش مسدسه من وسطه وصوبه إلى (كنوبي)، قائلا:
بقي أن أزيحك أنت عن الـ..
قاطعه عامل البار في حدة:
- ليس في المقهى.
التفت الوحش إلى عامل البار، صارخا:
- اصمت أيها الـ...
ولكن (كنوبي) تحرك في سرعة، قبل أن يتم الوحش صيحته..
وبضغطة على زر صغير في حزامه، انطلق من حلية الحزام شعاع أزرق، قسم الوحش إلى نصفين، وبتر ذراع صديقه، وسقط الأثنان وسط بركة الدماء، وأسرع الجميع يتفرقون، في حين ظل (كنوبي) هادئا، وغمغم عامل البار في سخط:

اللعنة.!
ثم أمر اثنين من رجاله برفع الجثتين، وتنظيف المكان، وكأنما لم يحدث شيء، في حين عاد الجميع إلى أحاديثهم وشرابهم في بساطة، وإن بدت نظرتهم إلى (أوبي وان) مختلفة، على نحو أصاب (لوك) بدهشة بالغة، جعلته يستجيب لإشارة (كنوبي)، ويجلس إلى جواره في صمت حيث قدم له (كنوبي) الغوريلا الضخم، قائلا:
- هذا (تشوباكا).. مساعد ملاح فضائي، وسيأخذنا الآن لمقابلة الكابتن.
صمت لحظة، ثم استطرد في حزم:
- ومن يدري؟.. ربما وجدنا وسيلة للخلاص.. ربما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انشغل (آرتو) بالحديث مع آلي آخر، خارج المقهى، في حين وقف (تريبيو) إلى جوار سيارة ر لوك قلقا، يحدث نفسه قائلا:
- لماذا تأخرا هكذا.. لقد ذهبا لاستئجار مركبة، وليس أسطولا!
صمت بغتة، وأشار إلى (آرتو) ينبهه إلى اثنين من جنود الإمبراطورية، يدلفان إلى المقهى مع بشرى، وقال:
- هذا مقلق يا (آرتو).. مقلق للغاية.
في هذه اللحظة كان (لوك) يدخل مع (كنوبي) و (تشوباكا) إلى مقصورة خاصة، في ركن المقهى، يجلس داخلها رجل يكبر (لوك) بخمسة أعوام أو عشرة، يبدو جريئا شديد الثقة بنفسه، ولقد تحدث إليه (تشوباكا) بلغته، فهز الرجل رأسه يحييهما في لطف، ثم قال:

- إنك شديد المهارة في استخدام سلاحك أيها العجوز..
من النادر أن نرى شخصا بمثل مهارتك هذه الأيام.. أنا (هان سولو)، قائد السفينة الفضائية (فالكون).. و (تشو) يقول إنكما ترغبان في الإقلاع إلى (آلدران).
أجابه (كنوبي):
- هذا صحيح.
ثم استدرك في حزم:
- هذا لو أن سفينتك سريعة بما يكفي.
أجابه (سولو) في غضب:
- سريعة؟!.. إنك لن تجد أسرع من (فالكون)، في المجرة كلها.. حتى سفن الإمبراطورية تعجز عن اللحاق بها ثم هدأ بغتة، وهو يستطرد:
ولكن ما حمولتكم بالضبط؟
أجابه (كنوبي):
- نحن فقط.. أنا وهذا الفتى، واثنان من الآليين، ونحن نكره الفضول وكثرة الأسئلة.
اعتدل (سولو)، وهو يقول في اهتمام:
لا أسئلة؟.. لماذا؟.. أهناك مشكلة ما؟
قال (كنوبي) في حزم:
- يمكنك أن تقول إننا لا نريد مشاكل مع الإمبراطوريين.
صمت (سولو) لحظات، وهو يتأمل (كنوبي) و (لوك)، ثم قال:
في هذه الحالة سيكون الثمن أكبر.. عشرة آلاف، دون فضول أو تساؤلات.
هتف (لوك):
- عشرة آلاف؟!.. إننا نستطيع شراء سفينة خاصة بهذا الثمن.
قال (سولو) في حدة:

- ربما، ولكن هل يمكنكما قيادتها بنفس المهارة؟
أجابه (لوك) في تحد
- بالطبع، فأنا طيار ماهر، و..
بتر عبارته، عندما شعر بيد (كنوبي) تضغط ذراعه، وسمع هذا الأخير يقول:
- لسنا نملك هذا المبلغ الآن، ولكن يمكننا أن ندفع لك ألفين هنا، وخمسة عشر ألفا أخرى، عندما نبلغ (آلدران).
سأله (سولو):
- أيمكنك الحصول على مثل هذا المبلغ هناك؟
أجابه (كنوبي):
- بكل بساطة.. ثم إنك ستحصل على ألفين الآن قال (سولو)، وكأنما يحدث نفسه بصوت مسموع:
- سبعة عشر ألفا!!.. لا بأس.. لقد قبلت، أما بالنسبة لرغبتكم في تجنب الإمبراطوريين، فالأفضل أن تغادروا هذا المكان الآن، وسنلتقي غدًا، عند المرفأ رقم أربعة وتسعين.
في نفس اللحظة كان عامل البار يتحدث إلى الجنديين الإمبراطوريين، ثم لم يلبث أن أشار لهما إلى المقصورة، فاتجها إليها في حزم..
وحانت لحظة الخطر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7 - الفرار..

جلس (أرتو) في المقعد الخلفي للسيارة، في حين وقف (تريبيو) يراقب الطريق، خوفا من جنود الإمبراطورية
وقال (كنوبي):
- لو أن سفينة (سولو) سريعة، كما يقول، فمن المحتمل أن..
قاطعه (لوك):
- ولكن المبلغ، الذي عرضته عليه، ضخم للغاية يا (أوبي وان).
هز (كنوبي) كتفيه، وقال:
- لا يقلقني أمر الخمسة عشر ألفا، التي سيتسلمها، فور وصولنا إلى (آلدران)، ولكن ما يقلقني بالفعل هو مبلغ الألفين.. أخشى أنك ستضطر إلى بيع سيارتك يا (لوك).
كان (لوك) شديد التعلق بسيارته فيما مضى، أما الآن فقد ذهب تعلقه هذا، مع الأشياء التي ذهبت، والتي لم يعد يرغب في تذكرها، لذا فقد قال:
- لست أظنني أحتاج إليها الآن.
في نفس اللحظة كان (سولو) و(تشوباكا) يجلسان في مقصورة أخرى، داخل المقهى، وكان (سولو) يضحك قائلا:
- يالغباء هؤلاء الإمبراطوريين!! لقد غادرنا المقصورة جميعا، قبل أن يصلوا إليها.
أصدر (تشوباكا) صوتا أشبه بالزمجرة، وإن حمل رنة ضاحكة عجيبة، فتنهد (سولو)، وقال متابعا:
لقد جاءت هذه الصفقة في موعدها تماما يا (تشوي)، وأراهنك أن هذين الرجلين في مأزق حرج مع السلطات ولكنني لن ألقى أية أسئلة.. هيا إلى (فالكون)، سنعدّها للرحلة.

لم يكد يهم بالنهوض، حتى سمع صوتا من خلفه يقول:
- إلى أين يا (سولو)؟
التفت (سولو) إلى صاحب الصوت، الذي بدا في حجم مخلوق بشري، له عينان كبيرتان، رماديتا اللون، وسط وجه شديد الصفرة، ينبت في جمجمة ضخمة، كثيرة الأشواك، وازدرد (سولو) لعابه، وهو يقول:
- كنت في طريقي لمقابلة رئيسك في الواقع، فلقد حصلت على النقود، التي يدينني بها.



التفت (سولو) إلى صاحب الصوت، الذي بدا في حجم مخلوق بشري له عينان كبيرتان، رماديتا اللون..

قال المخلوق في غلظة:

- هذا ما سمعه منك أمس، وأمس الأول، والأسبوع الماضي.. والذي يليه، ولن أعود إليه بقصة سخيفة جديدة.

قال (سولو):
- ولكن النقود لدي بالفعل هذه المرة.
قال المخلوق في حزم:
- حسنا.. سآخذها الآن.
جلس (سولو) في بطء، وهو يتطلع إلى أصابع المخلوق الذي يصوب إليه مسدسه، وقال:
- إنها ليست معي هنا.. أخبر (جابا) أن..
قاطعه المخلوق:
- فات الوقت.. سيأخذ (جابا) سفينتك
قال (سولو) في غضب:
- سيكون عليه أن يقتلني أولا.
قال المخلوق في استهتار:
- لست أظن هذا يضايقه.. والآن هل ستأتي معي، أم أقتلك هنا.
ابتسم (سولو)، وقال:
- لست أظنهم يرحبون بقتيل آخر هنا.
قهقه المخلوق ضاحكا بصوت مختنق، وقال:
- لا.. لن يقلقهم هذا.. إنني أتمنى لحظة قتلك منذ زمن، و..
وفجأة سطع ضوء مبهر في المكان، مع فرقعة عالية، واختفى كل هذا في لحظة واحدة، وقد تلاشى عميل (جابا)، ولم تبق منه سوى بقعة لزجة، على أرض المقهى..
وفي هدوء، أخرج (سولو) يده من أسفل المائدة،
والدخان يتصاعد من سلاحه، ثم نهض مغادرا المقصورة، وهو يقول:
- (جابا) يختار دائما عملاء فاشلين، فليس من السهل قتلى.
ثم رمى رزمة نقدية إلى عامل البار، وهو يقول:
- نظف المكان.

لم يحاول أحد الحاضرين اعتراضه، وهو ينصرف؛ لأنهم كانوا يدركون جميعا أن عميل (جابا) قد أخطأ، عندما سمح لـ (سولو) بالجلوس، ويده مختفية تحت المائدة.
كانت هذه شريعتهم..
شريعة الغاب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكد فرقة الجنود الإمبراطورية تتجاوز بابا خشبيا قديما، حتى فتح الباب في بطء شديد، وظهر من فرجته وجه معدني وغمغم (تريبيو) في توتر:
- كان من الأفضل أن أذهب مع سيدي (لوك)، بدلا من الانتظار هنا معك.. لست أدري ما المشكلة بالضبط ولكن من المؤكد أنك السبب فيها.
أطلق (آرتو) صفيرا منغوما، فقال (تريبيو) في حدة:
- كن مهذبًا.
في نفس اللحظة كان (لوك) و (كنوبي) منهمكين في مساومة رجل، للحصول على سعر مناسب لسيارة (لوك)، والجميع حولهم مشغولون في عمليات مماثلة، حتى انتهت المساومة، فنقدهما الرجل الثمن، وتسلم السيارة، وقال (كنوبي):
- هذا المبلغ يكفي، ولدى أيضا مبلغ للمصاريف.
غادرا الشارع الرئيسي، واتجها إلى المرفأ الفضائي، دون أن ينتبها إلى ذلك الذي يرصدهما ويتبعهما منذ زمن لقد كان شبحا..
شبحا أسود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحاط (جابا) ورجاله بالسفينة (فالكون)، التي بدت أشبه بطبق طائر، يقع على الأرض، وتقدم منها (جابا)، وهو يهتف:
- اخرج يا (سولو).. إننا نحيط بك من كل جانب.
أتاه صوت (سولو) من خلفه، وهو يقول:
- عجبا!!.. كنت أظنك تنظر إلى الجهة العكسية.
قفز (جابا) ورجاله من أماكنهم، واستداروا يواجهون (سولو) و (تشوباكا)، و (سولو) يقول:
- إنني أنتظرك يا (جابا)، فلست ممن يفرون من خصومهم.
شعر (جابا) بالقلق أكثر، عندما لاحظ أن (سولو) و (تشوباكا) غير مسلحين، فلم يكن ذلك مألوفا، وفضل اتخاذ الحذر، حتى ينكشف الأمر، وقال:
- ولماذا تلجأ إلى الفرار يا عزيزي (هان). إنني لست خصمك كما تقول.. إنني منزعج، لأنك لم تعد إلى نقودي.
ولأنك قتلت عميلي في عنف.. ألسنا أصدقاء.
قال (سولو):
- ألهذا أرسلته لقتلى؟!
تظاهر (جابا) بالدهشة، وهو يهتف:
- قتلك!.. ولماذا أفعل هذا يا صديقي؟!.. إنك أفضل مهرب في الناحية، ولا يمكن الاستغناء عنك أبدا.. لقد كان عميلي يخبرك بتأخرك في السداد فحسب، ولم يكن ينوي قتلك أبدا.
قال (سولو) في صرامة:
- في المرة القادمة لا ترسل أحد الأغبياء.. تعال بنفسك لمقابلتي
اهتزت وجنتا (جابا)، وهو يهز رأسه، متصنعا الأسف، ويقول:
- لو أنك لم تلق بشحنة التوابل تلك يا (هان)!!.. ماذا يحدث لو أن كل طيار تخلص من البضائع، فور ظهور سفينة حربية

إمبراطورية؟ ثم قال: إنه مفلس، عندما أطالبه بسداد ثمنها.. ستكسد تجارتي وأفلس هكذا.. وأنا أعجز عن التسامح، عندما أتعرض للإفلاس.

قال (سولو):

- أتظنني تخلصت من تلك التوابل؛ لأنني كرهت رائحتها؟ لقد أردت تسليمها لك، ولكن ما باليد من حيلة.. اسمع.. لدى رحلة الآن، ويمكنني أن أمنحك ألفا،

والباقي بعد ثلاثة أسابيع، مع زيادة معقولة للفوائد ما رأيك؟

تفكّر (جابا) في هذا العرض قليلا، ثم قال لرجاله:

- حسنا.. اخفضوا أسلحتكم وتراجعوا يا رجال.

والتفت إلى (سولو)، مستطردا:

إنني أفعل هذا لأنك أفضل الجميع، ولأني أحتاج إليك يا (سولو)، ثم إنني صاحب روح عالية، وقلب متسامح، في مقابل فوائد قدرها عشرين في المائة من المبلغ، ولكن حذار أن تخدعني مرة أخرى، وإلا فسأضع ثمنا مرتفعا لرأسك، يمنعك من الاقتراب من هذه المجرة طيلة عمرك.. هل تفهمني؟

قال (سولو):

- لا تقلق يا (جابا).. سأدفع لك المبلغ.. ليس بسبب تهديدك السخيف هذا، وإنما لأن هذا يسعدني.

ثم أشار إلى (تشوباكا)، واتجه الاثنان نحو (فالكون)..

وبدأت جولة جديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسرع قائد السفينة الإمبراطورية الخطا، محاولا اللحاق بخطوات (دون ڤادر) الواسعة، وهو يلهث قائلا:

- التقارير التي وصلتنا تقول: إننا قاب قوسين أو أدنى من الآليين يا سيدي، وإننا سنوقع بهما قريبا.
قال (ڤادر)، وهو يفكر في عمق:
- ابذل أقصى جهدك، لاستعادة الآليين، فالأميرة تقاوم بهذه الضراوة، بأمل نجاح الآليين في الفرار منا، والاستفادة بالمعلومات التي لديها ضدنا.
وصمت لحظة، ثم أضاف في صرامة:
- وحتى ذلك الحين سننفذ معها خطة الحاكم (تاركين)، ولنر ماذا يكون.
كانت كلماته تقطر وحشية..
وغضبا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال (لوك)، وهو يشير إلى السفينة (فالكون):
- ها هو ذا المرفأ رقم أربعة وتسعين، وها هو ذا (تشوباكا) يشير إلينا في توتر، ولكن انظر إلى السفينة.. إنها قطعة من الخردة.. لن يمكنها الطيران إلى الفضاء الخارجي، فما بالك بالسفر إلى (ألدران)؟
لم ينتبه إلى ذلك الشبح الأسود، الذي يتتبعهما منذ فترة والذي أخرج من طيات ثيابه جهازا لاسلكيا، راح يتحدث عبره، في حين اقترب منها (سولو)، الذي بدا معتادا على ذلك الانطباع السيئ، الذي تحدثه سفينته في النفوس، وهو يقول في بساطة:
دعك من المظهر، فهذه السفينة يمكنها الانطلاق بسرعة الضوء، ولقد أجريت عليها بنفسي عدة تعديلات ويمكنها المناورة في الفضاء، وهي الآن من أفضل السفن المقاتلة.

هرش (لوك) رأسه، وهو يحاول رؤية السفينة بعين صاحبها بلا جدوى، ثم تذكر كلام (كنوبي)، ورأيه في عدم الحكم بالمظاهر، فلاذ بالصمت، ولكن فجأة رأي (تشوباكا) يندفع نحو (سولو)، ككتلة من الفراء الطائر، وأخذ يتحدث إليه في انفعال شديد، و (سولو) يتطلع إليه في هدوء، ويومئ برأسه بين حين وآخر، ثم أجابه بكلمة مقتضبة، بلغة (تشوباكا)، فأسرع هذا الأخير إلى السفينة، وهو يشير إليهم باتباعه، في حين قال (سولو) بنفس الهدوء:

- يبدو أننا سنضطر للرحيل في سرعة.

- أسرع الجميع إلى داخل السفينة، وحشر (تشوباكا) نفسه في كرسي ضخم، أمام لوحة القيادة، وراحت أصابعه تتحرك بسرعة مذهلة فوق الأزرار، وأسرع (لوك) و(كنوبي) يربطان نفسيهما في مقعدين، وهدير المحركات يرتفع، في حين خرج الشبح الأسود من مكمنه، خارج المرفأ، ليستقبل فرقة من الجنود، من ثمانية أفراد، وتحدث إلى قائدها، فرفع الجنود أسلحتهم، وفتحوا نيرانها على السفينة (فالكون)، فصرخ (سولو):

- أخرجنا من هنا بسرعة يا (تشوي).

وتعالى هدير محركات (فالكون)، واندفعت إلى الفضاء، وقائد الجنود يهتف في جهازه اللاسلكي:

- إنهم يفرون.. أرسلوا الطائرات المحاربة خلفهم.

وقبل أن يتم كلمته، كانت (فالكون) قد أصبحت نقطة مضيئة في الفضاء..

الفضاء البعيد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حل (لوك) و (كنوبي) أحزمة النجاة، ومر (سولو) أمامهما بخطواته السريعة الواثقة، واحتل مقعد القيادة إلى جوار (تشوباكا)، وراح يقرأ الأرقام التي تنقلها الشاشة أمامه، وأشار إلى عدة نقاط تتحرك على شاشة الرادار وقال:

- إنها ثلاث سفن مقاتلة.. من المؤكد أن هناك من لا يحب مسافرينا.. على أية حال، تعامل معها كما ينبغي، وسأضع برنامجا للقفز إلى سرعة الضوء.

- وقف (آرتو) خلف (سولو)، يراقب ما يفعله بالكمبيوتر أمامه، وراح (تاتوين) يبتعد في سرعة، ولكنها لم تكن سرعة كافية للفرار، من المقاتلات الإمبراطورية الثلاث، والتفت (سولو) إلى (كنوبي) و (لوك)، اللذين دلفا إلى كابينة القيادة، وقال:

- لدينا مقاتلتان أخريان، قادمتان من زوايا مختلفة.. إنهم يحاولون محاصرتنا، قبل أن نقفز إلى سرعة الضوء.. ماذا فعلتما لإثارتهم على هذا النحو؟

- تجاهل (لوك السؤال تماما، وهو يقول:

- الا يمكنك الفرار منها؟.. الم تقل إن (فالكون) هذه سريعة للغاية؟

قال (سولو) في حدة:

- لا تتحدث إلى هكذا يا فتى، وإلا وجدت نفسك تسبح في الفضاء.. إننا نواجه خمس مقاتلات إمبراطورية، ولكننا سننجح في الفرار، عندما نقفز إلى سرعة الضوء، ثم إنني أعرف بعض الخدع، التي ستدفع اليأس في نفوسهم.

ثم ابتسم لنفسه، مستطردا:

- ويا ليتني عرفت أنكم مطلوبون إلى هذا الحد.

سأله ر لوك) في تحد:

- هل كنت سترفض اصطحابنا؟
قال (سولو):
- ليس بالضرورة، ولكن من المؤكد أنني كنت سأطالب بزيادة المبلغ المتفق عليه.
كاد (لوك) ينطق شيئا ما، ولكن الفضاء تألق أمامه بضوء أحمر مبهر، جعله يحجب عينيه بكفيه، وكذلك فعل الجميع، وهتف (سولو):
- إنها قنبلة إمبراطورية، لم تصب سفينتنا لحسن الحظ..
لقد أصبح الموقف طريفا مسليا.
سأله (كنوبي) في هدوء، وكأنما الأمر لا يعنيه قط:
- متى يمكننا القفز؟
أجابه (سولو):
- عندما يشير الكمبيوتر إلى هذا، فما زلنا في نطاق جاذبية (تاتوين).. صحيح أننا نستطيع القفز إلى سرعة الضوء، دون انتظار تعليمات الكمبيوتر، ولكن هذا بالغ الخطورة، فقد تتفتت عجلة القيادة، أو نخترق نجما، أو ثقبا أسود، وتنتهي رحلتنا عند هذا الحد.
توالت الانفجارات الحمراء حول السفينة، و (سولو) يناورها في مهارة، حتى أضيئت شاشة الكمبيوتر، فقال:
- من الأفضل الجلوس الآن، فقد حانت اللحظة.
اتخذ الجميع أماكنهم، وغمغم (تريبيو) في حنق:
- أكانت هذه الرحلة ضرورية؟.. إني أكره دائما السفر في الفضاء.
وفي نفس اللحظة بدأ الكمبيوتر برنامجه..
وانطلقت السفينة بسرعة الضوء

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل الأدميرال (موتي) إلى حجرة الاجتماعات، وتطلع إلى حيث يقف الحاكم (تاركين)، أمام الشاشة المستديرة وانحني أمامه قليلا وقال:
- لقد دخلنا مجال (ألدران)، وننتظر تعليماتك.
التفت إليه (تاركين)، دون أن يتحدث، وضغط جرسا أمامه، فدخل اثنان من الجنود إلى القاعة، يحرسان الأميرة (ليا)، وخلفها (دون ڤادر)، وواجهها (تاركين)، قائلا:
- أنا..
قاطعته في سرعة:
- أعرف من أنت.. أنت الحاكم (تاركين).. لقد عرفتك من رائحتك الكريهة، فور دخولي.
قال (تاركين)، محاولا إخفاء غيظه:
- إنك جذابة فاتنة حتى النهاية.. لا يمكنك أن تدركي كم كان من الصعب على إصدار أمر بإعدامك، ولكنك لو كنت قد تعاونت معنا، لاختلفت الأمور حتما. لقد أخبرني (دون فادر) أنك مازلت صامدة، أمام أساليبنا التقليدية في الاستجواب.
قالت في جدة
- تقصد في التعذيب؟ لقد أدهشني أن تمتلك الجرأة على إصدار ذلك الأمر على مسئوليتك.
تنهد (تاركين)، قائلا:
- إنني رجل يقدس العمل، ويستمتع قليلا جدا بالحياة ويسعدني - قبل إعدامك - أن أدعوك لحفل صغير، نختبر فيه قوة هذه المحطة الحربية، ونعلن بداية عهد جديد، من عهود التفوق التكنولوجي الإمبراطوري.. إن هذه المحطة هي همزة الوصل،

التي سترتبط مليون مجرة سماوية بالإمبراطورية، ولن نبالي بعدها باتحاد كم الثوري، فبعد العرض، الذي ستشاهدينه الآن، لن يجرؤ مخلوق واحد على معارضتنا.. حتى مجلس النبلاء.
أجابته (ليا) في احتقار:
لا يمكنكم توحيد الإمبراطورية بالقوة، فالقوة لن تؤدي إلا إلى ثورة المجرات الأخرى.. إنك رجل غبي يا (تاركين)
قال (تاركين) في حدة:
- سيسرني كثيرا رؤية الوسيلة، التي سيعدمك بها (فادر)، ولكنني سأريك ما سأفعله أولا.. لقد رفضت إخبارنا بمكان معقل الثوار.. فليقاس (ألدران) بدلا منه إذن.
هتفت (ليا):
- لا.. لا يمكنك هذا.. إن (ألدران) كوكب مسالم، بلا جيش، أو..
قاطعها (تاركين)، وهو يقول بعينين لامعتين:
- أتفضلين مكانا أخر؟.. أين معقل الثوار إذن؟
هتفت (ليا):
- في (دانتوين).. إنهم في (دانتوين).
ابتسم (تاركين) في ظفر، وقال له (فادر):
- أرأيت كيف يمكنك انتزاع ما تشاء.. لو استخدمت الوسيلة المناسبة؟
ثم التفت إلى قائد المحطة، مستطردا في حزم:
- أتموا عملكم هنا، ثم نذهب إلى (دانتوين).. هيا.. ابدأ.
مضى بعض الوقت، قبل أن تعي (ليا) ما يعنيه هذا، فصاحت فزعة:
- ولكن لماذا؟
أجابها (تاركين) في برود:

- (دانتوين) بعيد، ونحن نحتاج إلى هدف في قلب الإمبراطورية، ليحدث تدميره الأثر المطلوب.
هتفت (ليا) في مرارة:
- ولكنك قلت..
قهقه (تاركين، ضاحكا، وقال:
- أنا لم أقل شيئا.. هيا.. اصحبوها إلى مركز المراقبة ودعوها تشاهد ما سيحدث جيدا
وأطلقت المحطة أسلحتها على الهدف..
على (ألدران).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- السقوط

أطلق (سولو) ضحكة عالية، بعد أن انتهى من قراءة أجهزته وعداداته، ثم التفت إلى الآخرين، قائلا:

- لا داعي للقلق الآن.. لن يتمكن الإمبراطوريون من تتبعنا، أو حتى معرفة مكاننا.. ألم أقل لكم إنه لا داعي للقلق.

لم يعلق أحدهم على قوله، فاستطرد في استياء:

- ألا أسمع كلمة شكر واحدة؟!.. إنني سأضطر إلى تزوير رخصة طيران جديدة، بعد ما فعلناه بالمقاتلات الإمبراطورية.

اكتفى (كنوبي) بهزة من رأسه، في حين التمعت عينا (تشوباكا)، وتوهجتا في سرور، إلا أن (آرتو) مد يده الطويلة، وعبث بأحد أزرار الكمبيوتر، فانفجر (تشوباكا) غاضبا، وانهال عليه بسيل من الشتائم غير المفهومة، ودخل معهما (تريبيو) في نقاش حاد، فتنهد (سولو) في ضجر، وراح يتطلع إلى (لوك)، الذي يقف رافعا سلاحه فوق رأسه، و(كنوبي) يوجهه، ويشرح له طريقة استخدامه، وهو يقول في لطف:

- لا يا (لوك).. حاول أن تجعل حركتك انسيابية خفيفة، وتذكر أن القوة تحيط بك، وتشع من داخلك في الوقت ذاته، وفرسان (الجيدي) يشعرون بالقوة، وكأنها شيء ملموس.

ابتسم (سولو) في سخرية، في حين سأل (لوك) (كنوبي) في اهتمام:

- أهي مجال الطاقة إذن؟

أجابه (كنوبي):

- إنها أكثر من مصدر للطاقة، فهي قوة لا نراها، ولكنها تحكم بعض مشاعرنا، ولم ينجح مخلوق واحد في فهم كنهها حتى

اليوم، وربما لن ينجح أحد أبدا.. ولكن دعنا من هذا، ولنحاول مرة أخرى.
ثم رمى كرة صغيرة، في حجم قبضة إنسان، تخرج منها أشواك رفيعة جدا، فتوقفت الكرة فوق رأس (لوك)، وراحت تدور حوله، وتهاجم (لوك) من زوايا شتى، وكلما استدار ليواجهها، توقفت على بعد متر منه، ثم هاجمته من جديد، حتى نجحت في لدغه بأشواكها، فسقط أرضا، وانفجر (سولو) ضاحكا، وقال:
- السحر والشعوذة لن يجدياك أبدا.
سأله (لوك)، وهو ينهض:
- ألا تثق في القوة؟
هز (سولو) كتفيه، وقال:
- لقد أمضيت عمري في الترحال من مجرة إلى أخرى، ولكنني لم أر شيئا يحمل هذا الاسم، ولا تتبع هذا العجوز كالأعمى، فقد يستغلك لأغراض في نفسه ابتسم (كنوبي) في هدوء، وقال:
- هيا نحاول مرة أخرى يا (لوك)، وحاول أن تفصل تفكيرك عن غريزتك.. اترك القوة داخلك تقودك، وامنع نفسك عن التفكير، عندما تقاتل، فالعين قد تخدع، ولكن القلب أبدا لا يخدع.
كان (لوك) يستمع إليه كالمسحور، عندما تسللت الكرة ذات الأشواك الرفيعة من خلفه، ودون أن يراها ر لوك)، أو حتى يسمع لها صوتا، دار على عقبيه في سرعة مذهلة، وأصابها بسلاحه في ضربة واحدة، فتوقفت في موضعها، ونظر إليها (لوك) في دهشة، في حين قال (كنوبي):
- أرأيت.. لقد نجح قلبك، فيما فشلت فيه عيناك..
والآن عليك أن تتعلم كيف تستحضر القوة، عندما تريدها.
ثم أحضر قناعا مغلقا، وضعه على رأس (لوك)، الذي لم يعد يرى شيئا، فقال:

- وكيف يمكنني إصابة هدف لا أراه؟
قال (كنوبي) في هدوء:
- لقد فعلت من قبل.
أجابه (لوك) في توتر:
- ستصيبني مرة أخرى.
- ليس إذا وثقت بقدرتك
- كيف؟
- دع الأمور تسير في مجراها، ولا تقاومها.
قالها وضغط زر الكرة مرة أخرى، فعادت تهاجم (لوك)، الذي حاول ضربها بسلاحه، دون أن يراها، إلا أن سرعته لم تكن كافية، فأصابته الكرة بشعاع أحمر، جعله يطلق صرخة ألم، وقال (كنوبي):
- استرخ وتحرر.. إنك تحاول استخدام عينيك وأذنيك.. لا تفعل هذا، وأطلق العنان لغريزتك.
تجمد (لوك) في مكانه، واندفعت الكرة نحوه مرة
أخرى، فالتفت إليها، ونجح في إصابتها هذه المرة، ثم سأل في اهتمام
- هل نجحت؟..
أجابه (كنوبي) مبتسما:
- لقد أخبرتك أنك تستطيع هذا، عندما تثق بشعورك الداخلي.
غمغم (سولو):
- إنني أسمي هذا حظا..
قال (كنوبي):
- لا يوجد شيء اسمه الحظ.
هز (سولو) كتفيه، وقال:
- التصرف مع كرة معدنية يختلف، عن التصرف مع شخص حي.

في هذه اللحظة انبعث ضوء متقطع من الشاشة، ونادى (تشوباكا) على (سولو)، الذي قال:
- إننا نقترب من (ألدران)، وسنبطئ سرعتنا تدريجيا.
لم يكن (لوك) يهتم كثيرا بالوصول إلى (ألدران)، وإنما قال في خفوت:
- أتعلم أني شعرت وكأنني أرى الكرة بالفعل، وهي تهاجمني.
أجابه (كنوبي) في صوت جاد:
- لقد خطوت خطوتك الأولى، نحو كون جديد.
كانت السفينة تهتز اهتزازا عنيفا في هذه اللحظة، وقد أحاط بها وهج أحمر رهيب، فاندفع (لوك) إلى كابينة القيادة، وسال (سولو) في قلق:
- ماذا يحدث؟
أجابه (سولو):
لقد انخفضت سرعتنا فجأة، ولكننا نواجه أسوأ عاصفة فلكية رأيتها في حياتي، وطبقا للأجهزة، نحن نسير في الطريق السلم، وهناك شيء واحد لا نجده..
صمت لحظة، ثم أضاف في حزم:
- (ألدران).
سأله (لوك) في دهشة:
- ماذا تعني؟
أجابه (سولو):
- سل الآلات.. لقد اختبرت الأجهزة ثلاث مرات وحصلت على نفس النتيجة.. لقد اختفى (ألدران) من خريطة الكون، ولا يوجد في موضعه سوى حطام.
وحسم الأمر وهو يستطرد:
- لقد تحطم (الدران) تماما.

هتف (لوك) في ذهول
- إنك تتحدث عن كوكب كامل، كيف..؟
قاطعه صوت (كنوبي) من خلفه يقول:
- إنها الإمبراطورية.
قال (سولو) في مرارة:
- أمر فظيع أن تقوم سلطة بشرية بإفناء شعب كوكب كامل.. ولكن كيف؟.. الأسطول الإمبراطوري كله يعجز عن هذا.. إنه يحتاج إلى قوة ضاربة لا مثيل لها.
انطلق فجأة أزيز من شاشة الرصد، وظهرت فوقها نقطة مضيئة، وقال (سولو):
- هناك سفينة تقترب.
قال (لوك):
- ربما هي سفينة ناجية و..
قاطعه (كنوبي) في حسم:
- إنها مدمرة إمبراطورية.
زمجر (تشوباكا)، عندما دوي انفجار شديد في الفضاء اهتزت له السفينة، فصاح (لوك):
- لقد تبعتنا.
قال (سولو في حدة:
- مستحيل أن تتبعنا من (تاتوين)!
راقب (كنوبي) شاشة الجهاز، وقال:
- إنها مقاتلة من طراز (تاي)، ذات المدى القصير.
هتف (سولو) في دهشة:
- ولكن من أين أتت؟
ولكنه لم يلبث أن طرح تساؤله هذا جانبا، وقال لـ (تشوباكا):
- اتبعها يا (تشوي)، ولا تتركها..

تطلع الجميع إلى الشاشة في صمت، ثم ظهر أمامهم فجأة نور مبهر، يقترب منهم في سرعة مدهشة، كما لو كان شمسا ضخمة، فقال (سولو):

- من المستحيل أن تنطلق مقاتلة صغيرة بهذه السرعة، وطبقا للأطلس الفضائي، لا توجد أقمار لـ (ألدران).. من المؤكد أنه توجد قاعدة فضائية للإمبراطورية هنا. وفجأة ظهرت أمامهم المحطة الفضائية الإمبراطورية الهائلة، فهتف (سولو):

- يا إلهي!!.. لم أتصور أبدا وجود محطة فضائية بهذه الضخامة، من المستحيل أن..

قاطعته فجأة صيحة من (كنوبي)، الذي راح يهتف في توتر، وعلى نحو لم يعهده فيه أحد من قبل:

- توقف يا (سولو).. ارجع بسرعة.. فلنخرج من هنا.

لم تكن لهجته تسمح بالنقاش، فالتفت (سولو) إلى (تشوباكا) في سرعة، وقال:

- هيا.. فلنخرج من هنا.

حاول (تشوباكا) أن يبتعد عن المحطة، ولكن (فالكون) راحت تهتز في قوة، كما لو كان هناك ما يقيدها، وزمجر (تشوباكا) في توتر، فقال (سولو):

- أطلقها بأقصى قوتها يا (تشوباكا).

كانت أجهزة (فالكون) تعمل بأقصى قوتها بالفعل، ولكن المحطة الإمبراطورية راحت تكبر وتضخم، حتى ملأت السماء كلها، وتطلع إليها (لوك) في هلع، وهو يقول:

- لماذا نطير نحوها؟

همس (كنوبي):

فائدة

في حين قال (سولو):

- إننا محبوسون داخل شعاع جاذب، لم أر مثيلا لقوته من قبل.. كل الأجهزة تعمل، ولكن دون فائدة، وسأضطر لإيقافها، قبل أن تحترق.
ثم أردف في صرامة:
- ولكنهم لن يأخذونا دون قتال.
ولكن (كنوبي) وضع يده على كتفه، وقال:
- لا تبدأ حربا تعجز عن الانتصار فيها.
لم يكد يتم عبارته، حتى ابتلعت المحطة (فالكون)..
وأغلقت أبوابها خلفها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف (ڤادر) يتطلع إلى خريطة المجرة الهائلة، التي لم تتغير كثيرا، باختفاء (ألدران)، الذي لم يكن أكثر من نقطة ميكروسكوبية صغيرة عليها، وإن كان (فادر) يشعر أنه لو نجح في تنفيذ خطته، لتغيرت هذه الخريطة تغييرا جوهريا، ويدرك أن (تاركين) و (موتي)، اللذين يتحدثان إلى جواره كالقرود، لا يمكنهما تصور ما يسعى لتحقيقه، ولكن ماذا ينتظر من شخصين محدودي الذكاء إلى هذا الحد؟ وكيف يمكنه مقارنتهما به.
باللورد الأسود.
إنه فقط يستفيد من شرورهما وخطورتهما، حتى يأتي اليوم الذي يزيحهما فيه عن طريقه، كما فعل ب (ألدران)..
والتفت (ڤادر) إلى (تاركين) و (موتي)، وشاركهما حديثهما، قائلا:
- إن نظام (ألدران) الدفاعي يماثل أي نظام أخر، في كواكب الإمبراطورية، مما يعني أننا قد نجحنا تماما.

هز (تاركين) رأسه موافقا، وقال:
- بالتأكيد.. سنبلغ مجلس النبلاء، وسنعد العدة للقضاء على معقل الثوار بالوسيلة نفسها، وما دمنا قد دمرنا مركز إمداد الثوار بالأسلحة والذخائر، وأقصد (ألدران)، فلن تقوم للثوار قائمة بعد الآن.
لم يكد يتم حديثه، حتى دخل أحد ضباطه إلى القاعة، وبدا شاحب الوجه، وهو يقول:
- سيدي الحاكم.. لقد هاجمت قواتنا (دانتوين)، ولكنها لم تجد هناك سوى بقايا قاعدة ثورية، يبدو أنها قد فجرت منذ زمن طويل.
احتقن وجه (تاركين) في شدة، وهتف محنقا - لقد خدعتنا الأميرة اللعينة.
أخفي قناع (ڤادر) ابتسامته، وهو يقول:
- لقد سبق أن أخبرتك أنها لن تخون الثورة أبدا، مالم تتصور أنها تستطيع القضاء علينا بوسيلة ما.
صاح (تاركين):
- أعدموها على الفور.
قال (ڤادر):
- اهدأ يا (تاركين).. إنك بهذا تقطع صلتنا الوحيدة بالثوار.. إننا نستطيع الاستفادة من الأميرة.
صاح به (تاركين):
- كيف؟.. أنت نفسك قلت: إنه لا سبيل لدفعها إلى الكلام.. إنني سأبحث عن معقل الثوار هذا، حتى لو..
قاطعه صوت جهاز اللاسلكي، يقول:
- لقد أسرنا سفينة فضائية صغيرة، كانت تحاول بلوغ (ألدران)، ويبدو أنها نفس السفينة، التي هربت من قبل، من (موسى

أيزلى)، فهي من نفس الطراز، وتحمل نفس العلامات.
نظر (تاركين) إلى (ڤادر) في حيرة وسأله:
- ما معنى هذا؟
أجابه (ڤادر):
- معناه أننا بسبيلنا إلى إنهاء آخر مشكلاتنا، فيبدو أن من حصلوا على التسجيلات يحاولون الاتصال بالأميرة (ليا).
وسنعاونهم على هذا.
لم يدرك (تاركين) ما يعنيه (ڤادر)، إلا أنه غمغم في توتر:
- حسنا.. سأترك لك العملية كلها.
ومرة أخرى أخفى قناع (ڤادر) ابتسامته..
لحسن الحظ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت (فالكون) في ميناء المحطة الإمبراطورية ساكنة، يحرسها ثلاثون جنديا، حتى وصل (ڤادر)، بصحبة أحد القادة، فقال له ضابط الجنود:
- لم نتلق ردا من السفينة يا سيدي
أجابه (ڤادر) في اقتضاب:
- اقتحموها.
تقدم الجنود نحو السفينة، في تشكيلات ثلاثية حذرة، وانتشروا داخلها، وتعالى وقع أقدامهم، داخل ممراتها وحجراتها الحالية، ثم أعلن الضابط أن السفينة خالية تماما وأن ملاحيها قد غادروها مسبقا، وتركوا للقيادة الآلية مهمة توجيهها إلى (ألدران)، فسأله (ڤادر):
- أهناك أي آليين؟

جاءه الجواب:
- لا شيء مطلقا يا سيدي.
قال في حزم:
- هذا لا يبدو مقنعا.. أرسلوا أجهزة الكشف إليها..
أريد فحص كل سنتيمتر منها.. وافعلوا هذا بأقصى سرعة.
ثم انصرف محنقا، وصرف الضابط جنوده، وانصرف خلفهم، وترك الجميع السفينة وحدها..
وبعد برهة، تحرك جزء من أرضية السفينة، وبرز منه رأسا (لوك) و (سولو)، وتلفتا حولهما، للتأكد من خلو السفينة، ثم قال (لوك):
- من حسن الحظ أن سفينتك تحوي مثل هذا المخبأ.
قال (سولو):
- أين كنت تظنني أخفى البضائع، التي أقوم بتهريبها؟
ثم تنهد وأضاف:
- ولست أدري كيف سيمكننا النجاة من هنا، مع وجود هذا الشعاع الماص، و.. برز رأس (كنوبي) من حفرة أخرى، وهو يقول:
- دع لي هذا.
في نفس الوقت، كان اثنان من الفنيين يقفان أمام حارسي الممر، وأحد الحارسين يقول لهما في ضجر:
- ها هي ذي السفينة، افحصا كل شبر منها، وأخبرانا إذا وجدنا شيئا.
دخل الفنيان إلى السفينة، وهما يحملان معداتهما الثقيلة، وبعد لحظات سمع الجنديان جلبة داخل السفينة، أعقبها صوت يقول:
- أيمكنكما الحضور لمساعدتنا؟

هز الجنديان رأسيهما، وتعجبا من سخافة الفنيين، ثم دلفا إلى السفينة، وهنا حدثت جلبة مماثلة، دون أن يسمعها أحد هذه المرة.
ومن حجرته، لمح الضابط المناوب خلو منطقة الحراسة من الجنديين، فاتجه إلى مكبر الصوت، وقال:
- (تي اتش اكس).. لماذا تركتها موقعكما؟
لم يتلق جوابا لدقيقة كاملة، فتسلل القلق إلى نفسه، وهم بتكرار النداء، إلا أنه لمح جنديا يخرج إلى الممر، ويشير إلى خوذته، إشارة تعني أن جهاز الاتصال لديه معطل، فهز الضابط رأسه في حنق، وقال:
- أجهزة الاتصال لدينا سيئة للغاية.
فتح باب حجرته؛ ليذهب إلى حيث الحارس، ولكنه لم يكد يفعل حتى تراجع في ذعر، وقد فوجئ بكتلة من الفراء تسد الباب..
وبضربة قوية من ذراع (تشوباكا)، سقط الضابط فاقد الوعي، في حين هب مساعده هلعا، وقبل أن تمتد يده إلى سلاحه، اخترق شعاع سلاح (سولو) قلبه، فسقط جثة هامدة، وأسرع (سولو) إلى الحجرة، وهو يرتدي زي جندي إمبراطوري، ولحق به (لوك)، في زي مماثل، وخلفهما (كنوبي) و (آرتو) و (تريبيو)، وتلفت (لوك) حوله، وهو يغلق الباب خلفهم، قائلا:
- لقد صنعنا ضجة كبيرة، ومن المؤكد أن المحطة كلها تعلم بوجودنا الآن.
قال (سولو) منتشيا بفوزه، حتى هذه اللحظة:
- دعهم يأتون جميعا.. إنني أميل إلى المواجهات المباشرة.. إنه أفضل من التسلل هكذا.
أجابه (لوك):

ربما أنك تسعى للموت المبكر، أما أنا فلا، وهذا التسلل هو الذي حافظ على حياتنا حتى الآن.
صمت (سولو)، وراح يتطلع إلى (كنوبي)، الذي جلس أمام جهاز كمبيوتر معقد، وراح يعمل عليه في سرعة، كما لو كان يعتاد هذا، منذ نعومة أظفاره، في حين انشغل (أرتو) و (تريبيو) جهاز آخر، حتى أطلق (أرتو) صفيرا مستمرا عاليا، وقال (كنوبي):
- صل (آرتو) بالكمبيوتر يا (لوك)، فيمكنه أن يحصل على المعلومات، من شبكة المحطة نفسها، وقد يمكنه معرفة موضع وحدة الطاقة، التي تدير الشعاع الجاذب.
سأله (لوك):
- ولماذا لانفصل الشعاع من هنا؟
قال (سولو) ساخرا:
- حتى يعيدوه إلى العمل، قبل أن نبتعد.. أليس كذلك؟
تمتم (لوك) في خجل:
- لم يخطر هذا ببالي.
قال (كنوبي) في هدوء:
- لابد لنا من تدمير الشعاع ومصدر طاقته، حتى يمكننا الفرار من هنا يا (لوك).
وضع (آرتو) ذراعه داخل الكمبيوتر، الذي نقل إليه كل ما لديه، حتى انتهى، وأطلق (آرتو) صفيرا، ترجمه (تريبيو)، قائلا:
- لقد عرف المكان يا سيدي، فالشعاع الجاذب متصل بالمفاعلات الرئيسية، في سبعة أماكن، و (آرتو) يحاول الآن معرفة المعلومات الهامة، المختزنة تحت عبارة سري للغاية.
ظهرت فجأة قراءات سريعة على الشاشة، عجز (لوك) عن متابعتها، في حين استوعبها (كنوبي) حتما، فقد قال:

- لن يمكنكم معاونتي في هذا الأمر.. هناك مهمة لابد من قيامي بها وحدي.
قال (لوك):
- أريد أن أذهب معك.
أجابه (كنوبي):
- لا.. الأمر يتطلب مهارات لم تكتسبها بعد.. انتظر هنا، وكن صبورا، وحافظ على الآليين، فلا بد من تسليمهما إلى الثوار، وإلا فسيكون الدمار مصير العديد من الكواكب، كما حدث مع (ألدران).. ثق في القوة يا (لوك).. وانتظر.
وألقى نظرة أخرى على الشاشة، ثم غادر المكان، فأطلق (تشوباكا) زمجرة مكتومة، وقال (سولو):
- أنت محق يا (تشوي).. هذا العجوز لا يحمل سوى المتاعب
قال (لوك) في حدة:
- جنرال (كنوبي) رجل عظيم.
لوح (سولو) بكفه، وقال:
- إنه لن يتمكن من إخراجنا من هنا.
سأله (لوك) في تحد:
- ألديك أفكار أفضل؟
قال (سولو) في حدة:
- أي شيء سيكون أفضل من الانتظار هنا، حتى يأتوا لقتلنا.
أطلق (آرتو) صفيرا حادا فجأة، وراح يتقافز في حدة، فالتفت (لوك) إلى (تريبيو)، يسأله:
- ماذا يقول؟
أجابه (تريبيو) في حيرة:
- لست أدري يا سيدي.. أنا أيضا لا أفهمه، فهو يقول:
لقد وجدتها.. إنها هنا.

سأله (لوك):
- من هذه التي وجدها؟
تحول (آرتو) إلى (لوك)، وواصل إطلاق صفيره، فأسرع (تريبيو) يترجمه قائلا:
- الأميرة (ليا).. تلك الفتاة في الرسالة الهولوجرافية المسجلة.
قال (سولو):
- أية أميرة؟.. وأية رسالة؟
تجاهله (لوك)، وهو يسأل (آرتو):
- وأين هي؟
راح (آرتو) يطلق صفيره، و (تريبيو) يترجم
- في الدور الخامس.. مبنى المعتقل (اا -٢٣).. وطبقا لهذه البيانات، فهي محكوم عليها بالموت البطيء.
صاح (لوك):
- لن نسمح بهذا.. لابد أن نفعل شيئا.
قال (سولو)، وقد ثارت ثائرته:
- أي أمر هذا، الذي تتحدثون فيه؟
أجابه (لوك) في سرعة:
إنها الأميرة، التي وضعت رسالة داخل (آرتو)، كان ينبغي أن توصلها إلى (ألدران)، ولابد لنا من مساعدتها.
قال (سولو):
- لا تندفع هكذا يا (لوك).. لقد طلب منا (كنوبي) العجوز أن ننتظره هنا..
وصحيح أني أمقت الانتظار، ولكنني لن أندفع أيضا وراء أمر غير معقول، في هذه المحطة اللعينة.
هتف (لوك):

ولكن (كنوبي) لم يكن يعلم أنها هنا، وأنا واثق أنه كان سيبدل خطته لو علم.. ولو أمكننا إيجاد وسيلة، لدخول هذا المعتقل، فقد..
قاطعه (سولو):

- ماذا؟.. لن أدخل أية معتقلات، في هذه المحطة قال (لوك) في حدة:
- ولكنهم سيعدمونها، وأنت قلت إنك تكره أن تنتظر حتى يأتوا لقتلك، فلماذا تتراجع عن هذا المبدأ الآن؟
قال (سولو):
- لم يكن بلوغ المعتقلات جزءا من خطتي، فوجودنا هنا قد ينتهي بنا إلى هذه المعتقلات، فلماذا نفعل هذا؟
هتف (لوك):
- إنهم سيعدمونها
أجابه (سولو) في حدة:
- هذا أفضل من إعدامي أنا.
هز (لوك) رأسه، وهو يقول:
- إنك لم ترها.. إنها جميلة جدا.
قال (سولو) في عناد:
- وكذلك الحياة، ولهذا لن أغامر بها.
أدرك (لوك) أن المادة وحدها هي التي تهم (سولو)، فأضاف:
- وهي أيضا غنية جدا، وذات نفوذ قوي، ولو أنقذناها ستنال حتما مكافأة ضخمة.
قال (سولو) ساخرا
- جائزة؟!.. ومن سيمنحنا هذه الجائزة.. حكومة (ألدران) الراحلة؟

هتف (لوك) في ثورة:
- أنت غبي يا (سولو)، مادام الإمبراطوريون يعتقلون (ليا)، ويريدون إعدامها، فهذا يعني أنها تشكل خطرا عليهم، وعلى من قام بتدمير (ألدران)، وعلى الإمبراطورية الظالمة كلها.. أتعلم من سيدفع لك مكافأتك، إذا ما أنقذت (ليا)، وما تحمله من معلومات؟.. مجلس النبلاء، والاتحاد، والثوار، وكل جهة كانت تتعامل مع (ألدران)، فقد تكون (ليا) هي الوريثة الوحيدة، الباقية على قيد الحياة من هذا النظام تطلع (لوك) في تردد إلى (تشوباكا)، الذي أجابه بزمجرة، جعلته يقول:
- فليكن.. سنحاول.. ما هي خطتك؟
أسقط في يد (لوك)، الذي بذل أقصى جهده؛ لإقناع (سولو) و (تشوباكا)، دون أن تكون لديه خطة محددة،
إلا أن نظره لم يلبث أن وقع على القيود الحديدية، في حزام (سولو)، فقال:
- أعطني هذه القيود الحديدية، وسأقيد معصمي (تشوباكا)، و..
أطلق (تشوباكا) زمجرة قوية، قفز لها (لوك)، قبل أن يستجمع شجاعته مرة أخرى، ويكمل في حزم:
سنتظاهر بأن (تشوباكا) أسيرنا، وأننا جنديان من جنود الإمبراطورية، و..
وكان عليهم أن يضعوا الخطة موضع التنفيذ..
وأن يواجهوا الخطر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- الوحش..

سار الجنديان المزيفان في طرقات المحطة، وهما يمتلئان قلقا وتوترا، وراح هذان الانفعالان يتضاعفان، كلما ازداد توغلهما في المحطة، خاصة وأن (تشوباكا) كان يلفت الانتباه جدا بجسده الضخم، المكسو بالفراء، حتى بلغ الثلاثة مجموعة من المصاعد الآلية، التي تتحرك بالأوامر الشفهية وبذل (لوك) جهدا؛ ليجعل صوته طبيعيا، وهو يصدر أوامره إلى المصعد، الذي حملهما إلى منطقة الاعتقال في لحظات، بدت لهم أشبه بدهر كامل، وهناك فوجئوا بأنهم أمام ممرات ضيقة، لها حوائط لامعة مصقولة، بها فتحات تهوية مركزية، والزنزانات على جانبي الحائط، ذات أبواب صماء، وأدرك (لوك) أنه من الضروري أن يتحركوا بسرعة، حتى لا يلفتوا نظر حراس المكان، ولكنه كان يجهل الاتجاه، الذي ينبغي لهم اتخاذه، وهمس له (سولو):

- إلى أين نتجه؟

همس (لوك) بدوره:

- لست أدري.. أعتقد أننا..

بتر عبارته بغتة، عندما اقترب منه ضابط طويل القامة وسأله في صرامة:

- إلى أين تذهبان بهذا الغول؟

زمجر (تشوباكا) في غضب، فلكزه (سولو) ليسكت، في حين وجد (لوك) نفسه يقول في سرعة:

- هذا السجين منقول إلى المبنى (تي إس 138).

قال الضابط في حيرة:

- عجبا!!.. لم يبلغني هذا.. سأتحرى الأمر.

اتجه نحو جهاز الاتصال، المثبت بالحائط، وشعر (لوك) بالقلق، وهو ينقل بصره بين أجهزة الإنذار، وآلات التصوير، والأبواب المكهربة، والحراس، ولكن (سولو) أشار إليه برأسه ثم خلع القيد الحديدي من يدي (تشوباكا)..
واهتزت جدران الممر بزمجرة (تشوباكا)، وهو ينتزع بندقية (سولو)، الذي تظاهر بالفزع، وهو يهتف:
- انتبهوا.. لقد أفلت السجين
وتراجع مع (لوك)، وانتزع كل منهما مسدسه، وتظاهرا بإطلاق النار على (تشوباكا)، ولكن طلقاتهما أصابت كل شيء إلا (تشوباكا)..
الات الإنذار والتصوير، ومراكز التحكم الكهربي، وحتى الحراس الثلاثة، الذين أصابهم الذهول، والضابط الذي انتبه إلى الخدعة، ولكن بعد فوات الأوان..
والتفت (سولو) إلى لوحة معلقة على الممر، وقال لـ (لوك):
- ستجد أميرتك في الزنزانة رقم (٢١٨٧).. أسرع إليها، وسنتولى أنا و (تشوي) كل شيء
أسرع (لوك) يبحث عن الزنزانة، في حين وقف (تشوباكا) أمام المصعد، واتجه (سولو) إلى جهاز الاتصال، وقال:
- كل شيء هادئ هنا.
ولكن الصوت، الذي انبعث من الجهاز، كان قلقا، وهو يسأل:
- ما الذي حدث؟.. لقد سمعنا ضجة.
أجابه (سولو) في هدوء:
- لقد عبث أحد الجنود في سلاحه، فانطلق دون قصد، ولكننا جميعا في خير حال..
صمت الصوت برهة، ثم قال صاحبه في حزم:
- سنرسل فرقة للتحري

قال (سولو):
- لا تفعلوا، فلدينا هنا تسرب رهيب بالغاز.
هتف الصوت:
- جندي أطلق سلاحه خطأ، وبعدها تسرب غاز؟!!..
ماذا يحدث لديك.. من المتحدث؟
تراجع (سولو) خطوة، وأطلق مسدسه على جهاز الاتصال، وهو يقول:
- كنت دائما أكره المحادثات الغبية.
ثم صاح في (لوك):
- أسرع يا (لوك).. سيرسلون فرقة أخرى.
ولكن (لوك) لم يسمعه، فقد عثر على الزنزانة المنشودة وراح يطلق مسدسه على رتاجها، حتى سقط، وبدت أمامه (ليا)، فهتف مبهورا:
- يا إلهي!!.. أنت أجمل كثيرا من صورتك.
ولكنها نظرت إليه في كبرياء، وقالت:
- ألست أقصر من أن تكون جنديا في صفوف الكوماندوز؟
انتبه إلى رداء جنود الإمبراطورية الذي يرتديه، فقال:
- لست أحد الجنود.. أنا (لوك سكاي ووكر)، وأنا هنا لإنقاذك، ومعي (أوبي وان)، والآليان.
حمل وجهها ذلك الأمل، الذي قفز إلى قلبها، وهي تهتف:
-- (أوبي وان)؟!.. أين هو؟.. أين (كنوبي)؟
أجابها (لوك):
- سأخبرك يا أميرتي.. سأخبرك بكل شيء..
ولكن الوقت لم يتسع لذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (دون ڤادر) يزرع القاعة جيئة وذهابا، عندما توقف بغتة، كما لو كان قد سمع مالم يسمعه الآخرون، وقال في بغض:
- إنه هنا
انزعج (تاركين) وسأله:
- أتقصد (أوبي وان كنوبي)؟!.. هذا مستحيل!. ما الذي يجعلك تقول هذا؟
أجابه (ڤادر):
- شعور جارف يجتاحني.. شعور لا يراودني إلا في وجود معلمي القديم.
قال (تاركين) في قلق:
- ولكنه مات.. أليس كذلك؟
صمت (ڤادر) لحظة، ثم قال:
- ربما.. لقد راودني هذا الشعور لحظة، ثم تلاشى.
تنهد (تاركين) في ارتياح وقال:
- لقد انتهى فرسان (الجيدي)، وانطفأت شعلتهم، منذ زمن طويل، وأنت يا صديقي الوحيد الباقي منهم.
ارتفع فجأة صوت، عبر جهاز الاتصال، يقول:
- لدينا طوارئ في مبنى المعتقل رقم (ا- ٢٣)
قفز (تاركين) من مكانه صارخا:
- الأميرة؟!
أما (ڤادر) فقال في حزم:
- إنه (أوبي وان).. لقد تحركت القوة في داخلي.
هتف (تاركين):
- فلنلحق به إذن.. قبل أن يهرب.
قال (ڤادر):

- لن يسعى (أوبي وان) أبدا للفرار.. إنه آخر وأعظم فرسان (الجيدي)، و..
صمت لحظة، ثم أكمل في صرامة:
- و (دون ڤادر) وحده، يمكنه أن يتصدى له..
وكان على حق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (لوك) و (ليا) يعدوان عبر الممر، عندما دوت أمامهم سلسلة من الانفجارات، فقد حاول الجنود بلوغ المعتقل، عن طريق المصعد، ولكن (تشوباكا) راح يصرعهم واحدا بعد الآخر، فنسف الجنود فجوة في الحائط، واندفعوا منها إلى المكان، فتراجع (سولو) و (تشوباكا)، حتى بلغا الممر، وقال (سولو) - (لوك):
- لن يمكننا الرجوع من الطريق نفسه.
قالت الأميرة في حدة:
- إذن فقد أغلقت أمامنا الطريق الوحيد للفرار.. إنه معتقل، وهم لا يجعلون له منافذ كافية.
قال (سولو) ساخرا:
- معذرة يا سمو الأميرة.. أتفضلين العودة إلى زنزانتك؟
أشاحت بوجهها دون أن تجيب، في حين قال (لوك)، وهو يخرج الجهاز اللاسلكي من حزامه:
- هناك طريق آخر حتما.
ثم قال عبر الجهاز:
- (تريبيو) لقد قطع علينا طريق العودة، أهناك طريق آخر؟
نقل إليه الجهاز صفر (آرتو)، ثم صوت (تريبيو)، وهو يقول:

- جميع الوحدات بالمحطة تعرف بوجودكم الآن، ولا يوجد طريق آخر.
هتف (لوك) بصوت مرتفع، حتى يسمعه (سولو)، وسط الضجيج:
- لا يوجد طريق آخر.
هتفت الأميرة في غضب:
- أي عبث هذا؟.. أتعنون أنكم قد أتيت إلى هنا، وأنتم تجهلون كيف يمكنكم مغادرة المكان و..
أشار (سولو) إلى (لوك)، وقال:
- سلى العقل المفكر.
اختطفت الأميرة مسدس (لوك)، واتجهت به نحو فجوة في الحائط، فهتف بها (لوك):
- ماذا تفعلين؟
أجابته في اعتداد:
- يبدو أنني سأتولى إنقاذ كم من هنا.. إنها فتحة القمامة.
أطلقت النار على باب الفتحة الصغيرة، وقفزت داخلها، واختفت، فأطلق (تشوباكا) زمجرة عنيفة، هز (سولو) رأسه بعدها، وقال:
- لا يا (تشوي).. لا تقطعها إربا، فلست واثقا بعد من مشاعري نحوها، ولكن هيا.. سنتبعها
قفز (تشوباكا) داخل الفتحة، وانحشر فيها، فدفعه (سولو) داخلها في قوة، وقفز خلفه، وتبعهما (لوك) في النهاية.
وتوقف الجنود أمام الفتحة، في انتظار الإمدادات؛ لثقتهم في أن القمامة ينتهي بها الأمر إلى حجرة خاصة.
ولقد بلغ أبطالنا هذه الحجرة، التي تنبعث منها رائحة كريهة، وقد امتلأت حتى ربعها بالقمامة، وتحرك (سولو) داخل الحجرة

في عصبية، ثم وجد بابا له رتاج معدني، فأسرع يطلق النار على الرتاج، الذي انكسر، وسقطت منه كمية ضخمة من القمامة، فقالت (ليا) في حنق:
- ألق مسدسك هذا، قبل أن تقتلنا.
أجابها في حدة:
- سمعا وطاعة يا صاحبة السمو.. لقد كنا نسيطر على الموقف تماما، قبل أن تقودينا إلى هذا السجن العفن.
وفجأة اختفى (لوك) من بينهم، وغاص وسط أكوام القمامة، فصاحت الأميرة:
- إنه وحش القمامة.. لقد أمسك (لوك).
طهر (لوك) لحظه، وهو يقاتل في عنف، وخرطوم أخضر عجيب يحيط بعنقه، ثم لم يلبث أن جذبه مرة أخرى إلى أسفل، فصاح (سولو):
أطلق النار يا (تشوباكا).
زمجر (تشوباكا) في حدة، فتابع (سولو):
- أنت على حق.. لست أرى ذلك الشيء.
ارتفع من حولهم فجأة صوت آلات، واقترب حائطان متقابلان من الحجرة عدة سنتيمترات..
ثم برز (لوك)، وقد تخلى عنه الوحش، فهتفت (ليا):
- ماذا حدث؟
حك (لوك) رقبته في قلق، وهو يقول:
- لقد تركني.. ربما لم ترق له رائحتي، عندما قارنها برائحة القمامة.
ارتفع صوت الآلات مرة أخرى، وراحت الجدران تقترب من بعضها البعض، فصاحت (ليا) في فزع:
- افعلوا شيئا.. حاولوا إيقاف هذا.

ولقد حاولوا..
ولكنهم لم ينجحوا
حتى (تشوباكا)، بقوته الرهيبة، عجز عن إيقاف تقدم الحوائط، فأسرع (لوك) يلتقط جهاز اللاسلكي، ويقول:
- (تريبيو).. (تريبيو).. أجب
ولكن ما من مجيب.
وبكل مرارته، قال (سولو):
- الشيء الوحيد المؤكد، بالنسبة لهذا الوضع، هو أننا ستصبح أكثر رشاقة.
ثم انتزع مسدسه، وراح يطلق النيران على الحوائط دون جدوى، في حين راح (لوك) يبذل محاولاته؛ للاتصال بـ (آرتو) و (تريبيو)، ومساحة الحجرة تتضاءل بسرعة، حتى غمغمت (ليا)، في صوت باك:
- انها النهاية
وفجأة ارتفع صوت ر تريبيو)، عبر جهاز الاتصال،
وهو ينول:
- هل تسمعني يا سيدي؟.. لقد واجهنا بعض الصعاب ولكن
قاطعه (لوك) في لهفة:
- اسكت يا (تريبيو)، واسمعني جيدا.. أوقفا كل حجرات القمامة في مبنى السجن، والطابق السفلي له.. هيا أسرعا توقفت الجدران على الفور، فهتف (لوك)
- شكرا يا (آرتو).. شكرا يا (تريبيو).. لقد أنقذتما حياتنا.
ثم قرأ رقم الكوة المجاورة له، وأضاف:
- والآن افتحا كرة الصيانة، الخاصة بالوحدة رقم (117891 - 1391)
انفتحت الكرة في نعومة..

وتجدد الأمل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - المبارزة..

امتدت شبكة الاتصالات من خندق عميق، يبلغ عمقه عدة كيلومترات، إلى عنان السماء، وراح (كنوبي) يعبر الممر المتعرج حولها في خفة، حتى بلغ لوحة كبيرة، تتشابك داخلها الأسلاك والكابلات، وفتحها في هدوء، وتطلع إلى كمبيوتر ضخم داخلها، تبرق فيه أزرار حمراء، وراحت أصابعه تعمل فيه بمهارة، حتى تحولت بعض الأنوار من الأحمر إلى الأزرق، فتنهد في ارتياح، وابتعد في خفة شبح، في نفس اللحظة التي ظهرت فيها فرقة من الجنود، قال قائدها، وهو يشير إلى اللوحة الكبيرة:

- عليكم بحراسة هذه المنطقة، حتى تنتهي حالة الطوارئ بالمحطة.

ولم ينتبه إلى (كنوبي) الذي يبتعد..

والذي حقق هدفه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سار أبطالنا الأربعة في ممر طويل، بعد مغادرتهم غرفة القمامة، حتى بلغوا نهايته، ووجدوا أنفسهم يقفون أمام نافذة كبيرة، أمكنهم رؤية سفينتهم تحتها مباشرة، والجنود يتجولون في الممر المؤدي إليها، فأخرج (لوك) جهاز اللاسلكي وقال:

- هل تسمعني يا (تريبيو)؟

مضت لحظة مقلقة من الصمت، قبل أن يجيب (تريبيو):

- إنني أسمعك يا سيدي لقد غيرنا موضعنا، فلقد اضطررنا لذلك، ونحن الآن بالقرب من المرفأ الرئيسي، أمام السفينة.

قال (لوك) في دهشة، وهو ينظر من النافذة:

- عجبا... لا يمكنني رؤيتكما.. يبدو أنكما تحتنا مباشرة.. استعدا، فسننضم إليكما.. أأنتما في أمان؟
أجابه (تريبيو):
- حتى الآن نعم، ولكنني قلق على المستقبل ابتسم (لوك) لتلك التعبيرات البشرية، التي يستخدمها (تريبيو)، في حين قال (سولو):
- أتمنى أن يكون الرجل العجوز قد نجح، في إبطال ذلك الشعاع الجاذب، فبلوغ السفينة، مع وجود هؤلاء الجنود، سيبدو أشبه بالطيران، عبر حلقة من النيران.
نقلت (ليا) نظرها من السفينة إلى وجه (سولو)، قبل أن تقول:
- هل وصلتم إلى هنا، في هذه الخردة؟
أراد (سولو) أن يخيبها بعبارة ساخطة، لولا أن ظهرت أمامهم فجأة فرقة من الجنود، فاستل (سولو) مسدسه، برد فعل غريزي، وأطلق النار على الجنود، وهو يصيح بعدة لغات.
فوجئ الجنود هذا الهجوم المباغت، فتراجعوا في فوضى وراحوا يعدون في الممر بلا نظام، واندفع (سولو) خلفهم، وهو يتف:
- ارجعوا إلى السفينة، وسألحق بكم.
صاح به (لوك):
- هل جننت.. إلى أين تذهب؟
ولكن (سولو) كان قد اختفى في منحنى آخر، فأطلق (تشوباكا) صيحة قوية، وأسرع خلف زميله، فوجد (لوك) نفسه وحيدا مع (ليا)، التي قالت:
-- يبدو أنني قد ظلمت صديقك، فما من شك في أنه شجاع جسور.
فقال (لوك):

- من المؤكد أنه غبي، ولست أدري ماذا نفعل، لو لقي مصرعه.. هيا.. سنبحث عن وسيلة للهبوط إلى حيث تقف السفينة.

في ذلك الوقت كان (سولو) يواصل عدوه خلف الجنود، الذين تبعثروا في رعب شديد، لم يكن له ما يبرره سوى ذلك التأثير النفسي، الذي أحدثه فيهم (سولو) بهجومه المباغت وصراخه، والذي ما زالت تحدثه نيرانه خلفهم ..

ولكن الجميع بلغوا طريقا مسدودا، اضطرهم للالتفات، ومواجهة (سولو)، الذي وجد نفسه بغتة أمام عشرة جنود، وأدرك فجأة دقة موقفه، ولكنه شعر بالدهشة؛ لأن الجنود لم يكونوا يتطلعون إليه، وإنما إلى (تشوباكا)، الذي جاء من خلفه على مهل، في مشهد رهيب مخيف.

وفجأة دار (سولو) على عقبيه، وانطلق يعدو، ولحق به (تشوباكا)، ثم الجنود العشرة..

وانعكست المطاردة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمسك (لوك) الأميرة (ليا) فجأة، ودفعها داخل تجويف مظلم بالممر، فهتفت به في غضب:

- ماذا تفعل أيها الـ...؟

كتم كلماتها بكفه، في نفس اللحظة التي عبرت فيها فرقة من الجنود الممر أمامهما، وراحت أجراس الإنذار تدق باستمرار، ثم قال (لوك):

- أملنا الوحيد هو أن نبلغ السفينة من الناحية الأخرى، فهم يعلمون أننا هنا.

سارا في الاتجاه العكسي، ولكنهما فوجئا بجنديين يعترضان طريقهما، فعادا أدراجهما عدوا إلى حيث فرقة الجنود، ولمحت (ليا) ممرا جانبا، فهتفت:
- هناك مخرج آخر.
أطلق (لوك) النار على الجنود، الذين يطاردونهما، ولحق بها داخل الممر، وراحا يعدوان داخله، حتى انتهى بهما إلى هوة عميقة، فهتف (لوك):
- يا إلهي!.. إنها النهاية.
أسرعت (ليا) تغلق آخر باب عبراه، قبل أن يبلغهما الجنود، فقال (لوك)، وهو ينظر إلى أعماق الهوة السحيقة:
- إننا نقف على نصف متر من الأرض فقط.
سمع الاثنان صوت الجنود، وهم يبلغون الباب، من الجانب الآخر، فالتفت (لوك) إلى الباب في سرعة، وأطلق نيران مسدسه على أزرار التحكم، ليمنع الجنود من فتح الباب من الجانب الآخر، ثم انتزع من الأزرار المحطمة سلكا طويلا اختبر صلابته جيدا، ثم ألقاه بكل قوته نحو الطرف الآخر للهوة، وراح يكرر محاولته عدة مرات، حتى تعلق طرف السلك في جزء بارز، وهنا ربط (لوك) الطرف الآخر للسلك حول وسطه، وأحاط وسط الأميرة بذراعيه، وقفز في الهواء..
وللحظات، عبر الاثنان الهوة السحيقة، ثم سقطا على الجانب الآخر، حيث أسرع (لوك) يحل السلك عن وسطه، ثم ركض مع الأميرة عبر الجزء الآخر من الممر، في نفس اللحظة، التي تهاوى فيها الباب الآخر..
لقد ربحا مهلة جديدة..
فقط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجح (كنوبي) في تجنب الجنود، وهو يعبر ممرات المحطة الضخمة، واحدا بعد الآخر، وتقدم ببطء نحو المرفأ، حيث استقرت السفينة، ولم يعد أمامه سوى منحنيين ليبلغها، وقد أدرك أن الآخرين قد اشتركوا في عمل ما، وأنهم لم يسقطوا في أيدي الإمبراطوريين بعد.
وفجأة غمره إحساس خاص..
شعور عجيب، لم يشعر بمثله منذ سنوات..
شعور الخطر..
وفجأة برز أمامه (دون ڤادر)، وقال:
- إنني أنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، يا (أوبي وان كنوبي).. لقد التقينا أخيرا، واكتملت الدائرة.. لقد شعرت بوجودك، قبل أن أراك.
كان صوته يشف عن نشوته بهذا اللقاء، فهز (كنوبي) رأسه، وقال:
- ما زال أمامك الكثير لتتعلمه يا (ڤادر)
قال (ڤادر):
- لست أنكر أنك قد علمتني الكثير فيما مضى، ولكنني الآن السيد.
أدرك (كنوبي) أنه لا فائدة من الحديث، وأن تلميذه ما زال يفتقر إلى المنطق، فشهر سلاحه، الشبيه بسيف من الليزر، وهو يتخذ وضع محارب وفارس من فرسان (الجيداي)، وبنفس الحركة الرشيقة، شهر (ڤادر) سيفه، ثم وقف الخصمان يتطلع كل منهما إلى عيني الآخر، وشعر (كنوبي) باضطراب في الرؤية، وبحبات العرق تلتصق بجبينه، مع صوت (ڤادر)، وهو يقول:

- لقد أصبحت ضعيفا عجوزا يا (أوبي وان)، وما كان لك أن تأتي إلى هنا.
أجابه (كنوبي):
- ما زلت تجهل الكثير عن القوة يا (ڤادر).
قالها وانقض فجأة على (ڤادر)..
وبدأت المبارزة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجح (سولو) و (تشوباكا) في الفرار من الجنود بمعجزة، واختبآ داخل ممر مظلم، لم يكد (سولو) يقطع بضعة أمتار منه، حتى وجد نفسه وجها لوجه، أمام (لوك) والأميرة (ليا)، فهتف:
- ما الذي أخركما هكذا؟
أجابته (ليا)، وهي تلهث:
- كنا نلعب مع بعض الرفاق.
وسأله (لوك):
- أتظن أن حالة السفينة جيدة، تصلح للإقلاع؟
أجابه (سولو):
- إنها تبدو لي كذلك، ولكن المشكلة الحقيقية هي في بلوغها.
هتفت (ليا) فجأة:
- انظروا.
نظر الجميع إلى حيث تشير، ورأوا (ڤادر) و (كنوبي) يخرجان من أحد الممرات، وهما يتبارزان بأسلوب الفرسان القدامى، في مشهد رائع مهيب، جعل حراس السفينة يغادرون مواقعهم في انبهار، ويلتفون حول المتبارزين، فقال (سولو):
- إنها فرصتنا.. هيا بنا.

والتفت (تريبيو) إلى (آرتو)، قائلا:
- هيا.. افصل نفسك عن هذا الكمبيوتر، فسنرحل.
اتجه الجميع إلى السفينة في حذر، في نفس الوقت الذي هوى فيه (ڤادر) بسيفه الليزري على رأس (كنوبي)، مستغلا تشتت انتباه هذا الأخير، بقدوم الجنود، ولكن (كنوبي) تفادي الضربة في مهارة، فقال (ڤادر):
- ما زلت تحتفظ بمهارتك يا (كنوبي).
راقب (كنوبي) المسافة، التي تفصله عن الجنود، وهو يتراجع قائلا:
- لن تنتصر أبدا يا (ڤادر)، فلو قتلتك أنا ستنتهي تماما في حين سأزداد أنا قوة، ولو قتلتني أنت.. حاول أن تفكر في كلماتي هذه.
هتف (ڤادر):
- لم تنسي فلسفتك أبدا أيها العجوز.
وهوى بسيفه على رأس (كنوبي) تماما..
وانشطر رداء (كنوبي) إلى نصفين..
ولكن (كنوبي) نفسه لم يكن داخله..
لقد اختفى..
تلاشي كما لو أنه لم يكن أبذا هناك.
وتراجع الجنود في رعب، وهم يشاهدون الرداء الخالي يسقط أرضا..
أما (لوك)، فقد أطلق صرخة هائلة، وهو يهتف باسم (كنوبي)، ثم راح يطلق النار على الجنود في ثورة، حتى أصابت نيرانه صندوق متفجرات، بالقرب من أحد الممرات. فانفجر في دوى شديد، وتطايرت الشظايا في كل مكان، وتراجع (ڤادر) والجنود، فاستدار (سولو) يدخل السفينة، ولكن (لوك) حاول أن يتبع (ڤادر)، فصاحت به ليا:

- لا فائدة يا (لوك).. هيا.. لقد انتهى الأمر.
تفجرت دموع (لوك)، وهو يهتف:
- لا.. مستحيل:
ولكنه سمع فجأة صوت (بن) يدوي في أذنه، وهو يقول:
- استمع إليها.
استدار في سرعة، ولكنه لم يجد أمامه سوى (ليا)، تشير إليه بالعودة، وتقول:
- هيا يا (لوك).. لا وقت لدينا.
أسرع ينضم إلى رفاقه داخل السفينة، وهو لا يدري أوهم أصابه أم أنه قد سمع حقا صوت (أوبي وان كنوني)..؟
. وفي حنان خلعت (ليا) عباءتها، ووضعتها على كتفيه، وهي تقول مواسية:
- لم تكن تستطيع عمل شيء.. لقد انتهى الأمر في سرعة.
غمغم في مرارة:
- لست أصدق أنه رحل.. لا يمكنني هذا.
لم يهتم (سولو) بهذا، وإنما جلس مع (تشوباكا) أمام أجهزة القيادة، وهو يقول:
- أرجو أن يكون ذلك العجوز قد نجح في إبطال الشعاع الجاذب، وإلا فستكون الرحلة قصيرة للغاية.
ضغط أزرار الانطلاق، فاندفعت (فالكون) عبر ممر الإطلاق، إلى الفضاء الخارجي، وهتف (سولو):
- لقد نجحنا.. لا شيء يعوق انطلاقنا.. لقد نجحنا.
زمجر (تشوباكا)، وهو يشير إلى الشاشة، فعقد (سولو) حاجبيه، وقال:
- أنت على حق يا (تشوي).. هناك وسيلة أخرى لإعاقتنا.
واكتسي صوته برنة عجيبة، وهو يستطرد:

- تدميّرنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 - الثوار..

اندفع (سولو) خارج كابينة القيادة، وهتف في (لوك):
- اتبعني يا فتى، فلم ينته المأزق بعد.
تطلع إليه (لوك) في شرود، وكأنه لا يراه، ولم يتحرك من مكانه، فقالت (ليا) في حدة:
- اتركه وشأنه.. ألا تدرك حزنه على مصرع العجوز؟
لم تكد تتم عبارتها حتى ارتجت السفينة بانفجار قوي، كاد يلقي (سولو) أرضا، لولا أن تشبث بقائم معدني صلب، وهو يهتف محنقا:
- وماذا في هذا؟.. لقد ضحي العجوز بحياته؛ ليمنحنا فرصة للنجاة.. أتحب أن تذهب تضحيته هباء يا (لوك)؟
رفع إليه (لوك) عينيه، وقد التمعتا على نحو عجيب، ودون أن ينطق حرفا ألقي عباءة (ليا) أرضا، ولحق بـ (سولو)، الذي ابتسم، وأشار إلى ردهة صغيرة، دلف إليها (لوك)، في حين دلف (سولو) إلى الردهة المقابلة..
وجد (لوك) نفسه داخل قبة شفافة، إلى جانب السفينة، وجلس أمام شاشة راصد، تحوي عدة أزرار، تتصل بالقذائف، وفجأة رأي مقاتلة من طراز (تالي) تسرع نحوه، ثم دارت فوقه، واختفت..
وبكل الإصرار أدار القبة إلى أعلى، وأطلق نيرانه على المقاتلة، وأصابها إصابة مباشرة، ورأى (سولو) يفجر مقاتلة أخرى، في نفس الوقت الذي تندفع فيه مقاتلتان أخريان نحو السفينة..
واستمر هجوم المقاتلات على السفينة..

واستمر (لوك) و (سولو) ينسفان مقاتلة تلو أخرى وإن لم يمنع هذا قذيفة صائبة من إصابة السفينة في منتصفها، إلا أن (آرتو) اتجه نحو النيران، التي اشتعلت في موضع الإصابة، وأطلق من رأسه سائلا رغويا، أطفأ النيران على الفور في نفس الوقت الذي دمر فيه (لوك) مقاتلة أخرى، ولوح بيده لـ (سولو) في ظفر، في حين ارتفع صوت الأميرة (ليا) عبر أجهزة الاتصال الخاصة، وهي تقول:

- ما زالت هناك مقاتلتان، ولقد أصابنا عطل في..

قاطعها (سولو):

- ما زالت (فالكون) صامدة.

ثم استطرد، وكأنما يتحدث مع جدران سفينته:

- أتسمعين يا سفينتي؟ لابد من الصمود.

قطع حديثه، عندما رأى مقاتلة تظهر أمامه فجأة، في نفس اللحظة التي أصاب فيها (لوك) المقاتلة الأخرى، فانفجرت، وتحولت إلى غبار فسفوري، ولم يكد قائد المقاتلة الأخيرة يرى هذا، حتى أسرع بالفرار، فهتفت (ليا) في سعادة:

- لقد نجحنا.. لقد نجحنا.

وردد الفضاء صيحتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل (ڤادر) إلى حجرة المراقبة، وقال في هدوء، للحاكم (تاركين)، الذي انشغل بمراقبة خريطة النجوم الهائلة:

- هل هربوا؟

أجابه (تاركين):

- لقد انتهوا حالا من القفز إلى سرعة الضوء، ولا ريب أنهم مهنئون أنفسهم الآن على نجاحهم وجرأتهم.
ثم التفت إلى (ڤادر)، مستطردا:
- لقد قمنا بمقامرة كبيرة، بناء على إصرارك يا (ڤادر).
أأنت واثق من أنك قد وضعت الرادار في سفينتهم، وأخفيته جيدا؟
ابتسم (ڤادر)، وهو يقول في ثقة:
- اطمئن أيها الحاكم.. إنه يوم تاريخي، شهد نهاية (الجيدي)، وسيشهد نهاية الثوار والاتحاد.
وأطلق ضحكته الهائلة المخيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (سولو) يفحص ما أصاب السفينة، عندما مرت (ليا) أمامه، فقال مزهوا بنفسه:
- ما رأيك يا عزيزتي؟ لقد أنقذناك في النهاية.
أجابته في هدوء:
- ليس إنقاذي هو المهم.. المهم أن نوصل تلك المعلومات، التي يختزنها (آرتو) في ذاكرته.
سألها:
- وما أهمية تلك المعلومات؟
شرد بصرها في الفضاء اللانهائي، وهي تجيب:
- إنها التصميمات الفنية الكاملة للمحطة الحربية، وكل ما أرجوه هو أن يؤدي فحص هذه التصميمات، إلى كشف موطن الضعف في المحطة، حتى يمكننا تدميرها بالكامل، فلابد لنا من أن نستمر.. إن الحرب لم تنته بعد.

قال (سولو):
- لقد انتهت بالنسبة لي، فأنا لم أفعل هذا من أجل الثورة.
فلست أهتم سوى بالمال، وليس بالسياسة، فأنا أستطيع العمل مع أية حكومة، ولم أقم بهذا من أجلك أيضا، بل أنتظر مكافأة كبيرة، نظير مخاطرتي بسفينتي ومخبئي.
قالت في حزن:
- لا تقلق بشأن جائزتك.. لو أن المال هو كل ما تحب فستحصل على الكثير منه.
تركته واتجهت إلى حيث (لوك)، وقالت:
- صديقك هذا شخص مادي للغاية، لست أظنه يهتم بأي شيء، أو أي شخص.
تطلع إليها (لوك) في صمت، حتى اختفت، ثم غمغم:
- ولكنني أنا أهتم.
ثم اتجه إلى حيث يجلس (سولو)، وسأله:
- ما رأيك فيها؟
ابتسم (سولو)، وقال:
- إنها رائعة، أتظن أنه من الممكن لأميرة مثلها، وشخص مثلي أن..؟
قاطعه (لوك):
- لا.
ثم أشاح بوجهه بعيدا..
لقد شعر بالغيرة..
الغيرة الشديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن كوكب (يافن) أبدا بالمكان الصالح لحياة البشر، فسطحه يكتظ بالأعاصير، التي تبلغ سرعتها ستمائة كيلو متر في الساعة، وتتصاعد منه غازات بركانية سامة، جعلته مصيدة موت لكل من يقترب منه..
وكانت أقمار (يافن) الثلاثة في مثل حجم الكوكب نفسه، وأحدها فقط يصلح للحياة، وسطحه غني بالنباتات والثروة الحيوانية، وعلى الرغم من هذا لم يصنفه العلماء أبدا ككوكب صالح للحياة، ربما لأن (يافن) وأقماره تقع كلها عند طرف المجرة، بعيدا عن كل الكواكب المأهولة، وعن كل صراعات البشر، أو بسبب الاندثار الغامض لسكانه، الذين انتهى أمرهم، قبل وصول أول بشر إلى كوكبهم، وتركوا خلفهم معبدا ضخما، يشبه الهرم، ويصعب على الناظر إليه أن يتصور أنهم مجرد شعب بدائي، لم ينجح أبدا في السفر عبر الكواكب..
وفي سماء (يافن)، راحت (فالكون) تدور، ثم هبطت أمام المعبد، الذي اختلف كثيرا عما تركه عليه سكان (يافن) القدامى، فقد حل المعدن محل الصخور، وتم حفر أدوار متعددة تحت الأرض، يتصل ببعضها البعض، عن طريق عدة مصاعد..
وبعد لحظات، دخلت الساحة السفلى من المعبد سيارة، لم تكد تتوقف حتى التف حولها عدد من البشر، خرجت إليهم (ليا) من السيارة، فتلقفها أحدهم في حرارة، وهو يقول:
- أأنت بخير؟ لقد ظننا أنك قد قتلت، عندما بلغنا أمر (ألدران)
أسرعت تقول:
- إنه تاريخ قديم يا كوماندور (ويللارد).. انظر إلى المستقبل فقط.. لقد انتهى (ألدران)، وعلينا أن نمنع حدوث مثل هذا مرة أخرى.. وليس لدينا وقت للحزن، فمن المؤكد أن المحطة الفضائية تتبعنا إلى هنا.

حاول (سولو) أن يعترض، إلا أنها أسكتته بنظرة صارمة، وهي تستطرد:
- هذا هو التفسير الوحيد، للسهولة البالغة، التي أمكننا بها الفرار.. لقد أرسلوا خلفنا ثمان مقاتلات فحسب، من طراز (تالي)، بالرغم من أنهم كانوا يستطيعون إرسال مائة، ومن الضروري أن تستخدموا المعلومات، المختزنة داخل (آرتو) الآلي هذا، لنجد نقطة ضعف في هذه المحطة، ونعد خطة للهجوم، فهذا أملنا الوحيد، للتغلب على هذه المحطة الهائلة.
عندئذ رأى (لوك) مشهدا عجيبا، فقد التف علماء الثوار حول (أرتو ديتو) وحملوه بكل رفق واحترام إلى الداخل، وأجلسوه في مقعد الشرف، وراحوا يستخرجون المعلومات من ذاكرته لعدة ساعات، ثم راحوا ينقلون كل الرسوم والجداول والتصميمات إلى كمبيوتر ضخم، راح يدرسها ويقيمها، و (سولو) يشعر بالقلق، وسط هذا الجو ويقف في جانب بعيد، متطلعا إلى (لوك)، الذي انضم إلى مقاتلي الثوار، برغم محاولة (سولو) لإثنائه عن هذا ووقف وسط المقاتلين رجل طويل، مهيب الطلعة، يدعى الجنرال (جان دودونا)، وانتظر حتى ساد الصمت تماما، ثم قال:
- أنتم تعلمون أننا نواجه لحظة حاسمة، فالمحطة الحربية الإمبراطورية تقترب من (يافن)، ولابد لنا من إيقافها وتدميرها، قبل أن تفعل هي بنا هذا، كما فعلته مع (ألدران)، ولكن حتى الوحوش الهائلة لها نقاط ضعفها، فلقد صممت المحطة لمواجهة هجوم شامل، من سفن حربية كبيرة، ولكن مقاتلة صغيرة قد تنجح في بلوغ شاشتها الدفاعية.
نهض أحد المقاتلين يسأله:
- معذرة يا سيدي، ولكن ما الذي يمكن أن تفعله مقاتلة صغيرة، ضد محطة بهذا الحجم؟ لست أعتقد مقاتلاتنا تصلح لهذا.

أجابه (دودونا):
- إن الإمبراطورية لم تعتقد هذا أيضا، وإلا صنعت شاشاتها أكثر دقة، فالتصميمات التي أحضرتها الأميرة (ليا)، تقول إنه هناك منفذ حراري صغير، ولكنه هام للغاية، وغير محصن كما ينبغي، فهو عبارة عن ممر أسطواني عمودي، ينزل مباشرة إلى المفاعل الرئيسي، الذي يمد المحطة بالطاقة، ولأن مهمة هذا الممر هي تفريغ الحرارة الزائدة، فمن المستحيل تغطيته، ولو أمكننا إصابة فتحته الرئيسية بقذيفة مباشرة، ستنشأ عن هذا سلسلة من الانفجارات، تؤدي إلى تدمير المحطة بالكامل.
سرت في القاعة همهمة شك، فاستطرد (دودونا):
- أعلم أن هذا لن يكون سهلا، فقطر الهدف مترين فحسب، ولابد من الهبوط عموديا، ثم الانحراف لتسعين درجة كاملة، وضرب المفاعل ضربة مباشرة، فصحيح أن الممر غير محصن بغطاء، ولكنه مزود بدروع إشعاعية، تجعل الوسيلة الوحيدة لإصابته هي طوربيد البروتون.
هبط الوجوم على وجوه الجميع، وغمغم طيار شاب، يجلس إلى جوار (لوك):
- هدف قطره متران فقط، ونحن ننطلق بأقصى سرعة، وبطوربيد بروتون؟!.. إن هذا مستحيل، حتى بالنسبة للكمبيوتر!
- قال (لوك): - ليس مستحيلا كما تتصور، فقد كنت أصطاد الحيوانات الصغيرة، التي يقل طولها كثيرا عن المترين، بطائرتي الصغيرة (تي - ١٩)، في بلدتي.
قال الطيار:
- عظم.. وهل كان هناك العشرات يطلقون النار عليك حينذاك؟
ثم هز رأسه. في أسي، واستطرد:

- مع وجود كل هذه الدفاعات في المحطة، لن يكون هذا سهلا أبدا
بدا وكأن (دودونا) يؤيد حديث الطيار (أنتيل)، وهو يقول، مشيرا إلى عدة نقاط مضيئة على الخريطة:
- هناك تركيز شديد لمدفعية مضادة للمقاتلات، عند هذا الموقع، وتذكروا أنه لابد من ضرب الهدف ضربة مباشرة، وسيقوم السرب الأصفر بتغطية الأحمر، والسرب الأخضر يغطي الأزرق في الهجوم الثاني..
- أتوجد أية أسئلة؟
نهض أحد المقاتلين يسأله:
- وماذا لو فشلت الضربة الأولى والثانية؟
ابتسم (دودونا) ابتسامة مريرة، وهو يقول:
- لن يكون هناك شيء بعدها.
هز المقاتل رأسه، وقد أدرك ما يعنيه هذا، وجلس في صمت، فكرر (دودونا):
- هل من أسئلة أخرى؟
ساد الصمت تماما هذه المرة، فأكمل:
- فليعد كل منكم مقاتلته إذن.. ولتصحبكم السلامة.
لقد بدأت المعركة..
نفسيا على الأقل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف (لوك) يراقب (سولو)، وهو ينقل عدة صناديق إلى (فالكون)، وانفعالات شتى تتصارع في نفسه، ف (سولو) مغرور

متهور، يعتد برأيه كثيرا، وهو في الوقت ذاته شجاع للغاية، مثقف، مرح، مما يجعله صديقا رائعا وفي خفوت سأله (لوك):
- هل حصلت على جائزتك؟
أجابه (سولو) بإيماءة إيجاب من رأسه، فاستطرد (لوك):
- وهل سترحل؟
أجابه (سولو):
- نعم، فلدى بعض الديون، التي تحتاج إلى السداد، ثم إنني لست غبيا، إلى الحد الذي يبقيني هنا.. لماذا لا تأتي أنت معنا؟
قال (لوك) في حدة:
- لماذا لا تنظر أنت حولك مرة واحدة، وترى شيئا غير نفسك؟.. أنت تعلم ما سيحدث هنا، وما سيقومون به..
إنهم يحتاجون إلى طيارين أكفاء مثلك، ولكنك تدير لهم ظهرك.
لم يبد الاستياء على وجه (سولو)، بل قال:
- وما جدوى الجائزة، لو لم أكن موجودا لأنفقها.. إن مهاجمة هذه المحطة الهائلة ليس ضربا من ضروب الشجاعة في رأيي..
إنه انتحار.
قال (لوك) في ضيق:
- ليكن.. اهتم بنفسك يا (هان)، فهذا ما تجيده..
أليس كذلك؟
رآه (سولو) ينصرف، فغمغم:
- اللعنة!
ثم التفت إلى (تشوباكا)، الذي أطلق زمجرة خافتة، وهتف به محنقا.
. إنني أعرف ما أريده أيها الغوريلا.. اهتم بعملك.
وراح يواصل نقل صناديق النقود إلى سفينته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التقى (لوك) بالأميرة (ليا)، عند مقاتلته الفضائية، وسألته الأميرة، وهي تشير إلى المقاتلة:

- أأنت واثق من أن هذا ما تريده؟

أومأ (لوك) برأسه إيجابا، وقال:

- نعم.. وأكثر من أي شيء آخر.

سألته:

- لماذا تبدو حزينا إذن؟

هز كتفيه، وقال:

- إنه (هان سولو).. لقد تصورت أنه سيغير رأيه، وينضم إلينا.

رفعت رأسها في اعتداد، وقالت كأميرة:

- على المرء أن يتبع طريقه الخاص، فالأولويات بالنسبة لـ (سولو).. تختلف عنها بالنسبة لنا.. كنت أتمنى مثلك ألا يكون الأمر كذلك، ولكن قلبي لا يطاوعني على لومه.

ثم أطرقت برأسها، واستطردت:

- هيا.. فلتصحبك السلامة.

تميم في شرود، وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- كم كنت أتمنى لو كان (أوبي وان) هنا الآن.

شعر بيد قوية تمسك ذراعه، وسمع صوتا مألوفا لأذنيه يهتف:

- (لوك).. كيف جئت إلى هنا؟.. لست أصدق نفسي.. هل ستطير معنا؟

عانق (لوك) صديقه في حرارة، وهو يهتف:

- بالطبع سأكون معكم يا (بيجز).

راحا يتضاحكان في مرح، وكأنهما قد نسيا تماما أمر المحطة، فاقترب منهما مقاتل طويل، وقال لـ (لوك):

- إني أعرفك يا فتي.. أنت (لوك سكاي ووكر).. لقد عرفت والدك أيضا، ولو أنك تمتلك مهارته، فستؤدي مهمتك على أكمل وجه.
هتف (بيجز):
- نعم يا (لوك) سنفعلها معا.
امتلأت نفس (لوك) بالثقة، بعد هذا الحديث القصير، واتجه إلى مقاتلته وقلبه ينبض بالحماس...
لقد بدأت المعركة الآن..
فعليا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- المعركة..

جلست الأميرة (ليا) صامتة، أمام شاشة مراقبة كبيرة، يظهر عليها (يافن) وأقماره، ووقف قادة الاتحاد خلفها، يتابعون الشاشة بدورهم، حتى ظهرت بقعة كبيرة حمراء، تتجه نحو أحد أقمار (يافن)، ووضع (دودونا) يده على كتف (ليا)، وهو يقول في توتر:

- إنها المحطة الحربية، وقد دخلت مجال (يافن).

في نفس اللحظة، كان مقاتلو الاتحاد داخل مقاتلاتهم الصغيرة، يحومون حول الكوكب، عندما نقلت إليهم أجهزة الاتصال صوت قائد السرب الأزرق، وهو يقول:

- استعدوا.. الهدف يقترب.

وأمامهم ظهر جسم لامع، يزداد لمعانه كلما اقترب من أقمار (يافن)، وتذكر الجميع - في هذه اللحظة – كل ما اقترفه الإمبراطوريون، في حق البشرية، وكل الأبرياء الذين راحوا ضحايا ظلمها وفسادها، الذي استشرى في ظل نظامها العفن، الذي لا يتم إلا ببقائه في السلطة، حتى لو سام شعبه العذاب، في سبيل هذا..

وانتقل صوت قائد السرب الأزرق، وهو يحذر أحد طياريه، قائلا:

- انتبه يا (ويدج).. لقد جنحت إلى الخارج.. عد إلى التشكيل.

أجابه (ويدج)، وهو يضبط وضعه، متابعا جهاز التحكم في المسار::

- معذرة يا سيدي.. جهاز التحكم الخاص بي ينحرف قليلا، سأستعمل الجهاز اليدوي.

قال القائد:
- لا بأس يا (ويدج)، والآن فليستعد الجميع للهجوم.
نقلت إليه الأجهزة أصوات الجميع، وهم يقولون:
- مستعدون.
وهنا قال القائد في حزم:
- نفذ.
ضغط كل منهم أزرار مقاتلته، فبرزت الأجنحة الإضافية وصار لكل مقاتلة أربعة أجنحة، تمنحها قوة ضاربة، وسهولة في المناورة، مع مزيد من الأسلحة..
وظهرت المحطة الإمبراطورية واضحة، وصار من السهل تمييز سطحها، بكل تضاريسه المعدنية، وتلاحقت أنفاس (لوك)، وهو يرى المحطة الرهيبة للمرة الثانية، وسمع القائد الأزرق يقول:
- إننا نمر في مستوى دفاعهم الخارجي.. انتبهوا جيدا.



وظهرت المحطة الإمبراطورية واضحة، وصار من السهل تمييز سطحها..

شحذ (لوك) حواسه كلها، وذهب عنه قلقه، وعاودته سكينة الفضاء الخارجي، والقائد يقول:

لقد نجحنا في اختراق هذا المستوى.. امنعوا كل الأصوات، حتى نصبح فوقهم تماما.. يبدو أنهم يستهينون بنا.

كانت المحطة تبدو أشبه بكوكب صناعي طائر، أدهش المقاتلين، الذين لم يروه من قبل، فقال (أنتيل):
- انظروا إلى حجم هذا الشيء.
أجابه القائد:
- كف عن ثرثرتك يا رقم اثنين أزرق.. والآن زيدوا من سرعتكم.
ضغط (لوك) الأزرار فوقه في حسم، ثم طالب الكمبيوتر بتحديد الهدف، في حين تحدث القائد الأزرق إلى الأحمر، عبر أجهزة الاتصال، قائلا:
- إننا نتخذ أماكننا الآن.. يمكنك التقدم.. الهدف ناحية اليسار، وسنعمل على شغلهم من جانبنا.
أجابه القائد الأحمر:
- نحن في طريقنا إلى الهدف يا (دتشي).. استعدوا للحلول محلنا، لو أصابنا مكروه.
قال القائد الأزرق
- سنعبر محورهم الأوسط، لنجذب نيران مدفعيتهم إلينا انطلقوا تصحبكم السلامة.
انطلقت أجهزة الإنذار داخل المحطة، التي انتهت أخيرا إلى هجوم عشرات السفن الصغيرة، فلم يكن الأدميرال (موتي) وقادته يتوقعون هجوما انتحاريا كهذا، إلا أنهم أسرعوا يوجهون أسلحتهم الدفاعية نحو المقاتلات الصغيرة.
وهبط (لوك) بطائرته رأسا، وهو يقول:
- هنا رقم خمسة أزرق.. أنا في طريقي إليهم.
اسمع صوت (بيجز) يقول.
- وأنا خلفك يا رقم خمسة.
انطلق (لوك) نحو سطح الخطة في ثبات، وأطلق قذائفه ورأى جزءا من السطح ينفجر، وتشب فيه نيران كبيرة، وحاول الارتفاع

بمقاتلته مرة أخرى، إلا أنه شعر هذه المرة بالفزع، عندما وجد أنه سيضطر للمرور أمام سلاح يجهل كنهه، وسمع (بيجز) يصرخ:
- ارتفع يا (لوك) وأسرع.
ولكنه رأى قنبلة من الغازات الملتهبة تندفع نحوه، فزاد من سرعة مقاتلته، واخترقها كالبرق، وهدأت أعصابه كثيرا، عندما فحص أجهزته، ووجد أن المقاتلة لم تصب بأضرار جدية، بالرغم من أن أجنحتها صارت سوداء داكنة، وتتابعت الانفجارات من حوله، وهو يدور في قوس واسع، و(بيجز) يسأله:
- كيف حالك؟
أجابه في مرح:
- لقد تغير لوفي بعض الشيء، ولكنني في خير حال.
أتاه صوت القائد الأزرق، وهو يقول في صرامة:
- كن أكثر حذرا يا رقم خمسة أزرق.. ليس من الجيد أن نفقد مقاتلا عبثا، في مثل هذه الظروف.
قال (لوك):
- سمعا وطاعة يا سيدي.
ولكنه عاد يهاجم..
لقد ذاق طعم القتال..
وأحبه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنقل (ڤادر) بين الحطام والفوضى داخل المحطة في حنق، واندفع إليه أحد القادة، وهو يقول في توتر:

- إنهم أكثر من ثلاثين مقاتلة يا (دون ڤادر)، وهم من الصغر والسرعة، بحيث تعجز مدافعنا الثابتة عن ملاحقتهم بدقة.
قال (ڤادر) في غضب:
- فليخرج جميع ملاحينا خلفهم.. أريد تدميرهم عن آخرهم.
ارتفعت أصوات أجهزة التنبيه داخل المحطة، وأسرع الملاحون إلى مقاتلاتهم، في نفس اللحظة، التي كان القائد الأزرق يقول فيها لـ (لوك):
- هناك قذائف عديدة، تنطلق من ذلك البرج المجاور لك يا (لوك)
هبط (لوك) بمقاتلته، وهو يقول:
- سأنهي أمره على الفور.
ذكره هذا بانقضاضه على فرائسه وصيدها، وهو يصيب البرج، وينسفه نسفا..
وفي نفس الوقت كان قادة الاتحاد يراقبون شاشتهم، وقد شملهم القلق والتوتر تماما، وانحني أحدهم على جهاز اتصال كبير، وهو يقول:
- فلتنتبه المقاتلات.. لقد أطلق العدو مقاتلاته نحوكم.
تطلع (لوك) إلى شاشتها في حيرة، وهو يقول:
- لست أرى شيئا.
قال له قائده الأزرق:
- ابحث عنهم ببصرك، وتذكر أنهم يستطيعون التشويش على كل أجهزتك، فيما عدا عينيك.
أدار (لوك) عينيه حوله هذه المرة، ورأي واحدة من المقاتلات الإمبراطورية تنقض على مقاتلة اتحادية، تعرفها على الفور، فهتف

- احترس يا (بيجز).. أحدهم خلفك ارتفع (بيجز) بمقاتلته، وهو يقول في توتر:
- لست أراه.. هل تراه أنت؟
لم يجب (لوك)، وإنما انطلق مقاتلته خلف المقاتل الإمبراطوري، الذي استعد لإطلاق قذيفته على مقاتلة (بيجز)، عندما نسفته قذيفة (لوك) نسفا، وهتف هذا الأخير:
- لقد أصبته.
في نفس اللحظة ارتفع صوت مقاتل اتحادي آخر، يهتف:
- لقد نسفت أحدهم.
فوجئ بقائده يقول:
- حسنا فعلت يا رقم ستة أزرق، ولكن احترس، هناك آخر خلفك.
قبل أن يلتفت رقم ستة إلى خصمه الجديد، كان هذا الخصم قد أصابه بقذيفة، سحقته سحقا..
وفي قمر الثوار، انقطعت الطاقة فجأة عن شاشة المراقبة، فساد الهرج لحظة، وهتفت (ليا):
- أديروا الأجهزة السمعية فقط.. سنكتفي بهذا، حتى يتم إصلاح العطب.
وامتلأ المكان بضجيج المعركة، وصوت القائد الأزرق وهو يقول:
- احترس يا رقم اثنين.. أمامك برجان مرتفعان.
أجابه (أنتيل):
- إنها نيران كثيفة للغاية يا سيدي.
وقال (بيجز):
- لم أر مثل هذه المدفعية في حياتي كلها.
عاد القائد الأزرق يقول:

- ارتفع يا (لوك).. هل تسمعني؟
أجابه (لوك):
- هناك هدف، أحاول التحقق منه يا سيدي
هبط (لوك) بجرأة مدهشة وسط النيران، متجاهلا المدافع المضادة، وانقض على برج استراتيجي، وكلل إصراره هذا بقذيفة نسفت البرج، وأطاحت به تماما، وصاح في ظفر:
- لقد أصبته، وسأتجه إلى الهف الثاني.
وفي قمر الاتحادين، سألت (ليا) (تريبيو) في توتر:
- لماذا يخاطر (لوك) هكذا؟
نقلت إليها الأجهزة السمعية صوت (بيجز)، وهو يقول:
- راقب ذيل مقاتلتك يا (لوك).. هناك مقاتلات تتجه إليك.
ارتفع (لوك) متخليا عن هدفه، ولكن المقاتلة الإمبراطورية واصلت مطاردته، حتى انقض عليها (ريدج)، وأمطرها بقذائفه، ونسفها، فقال (بيجز):
- إصابة جيدة يا (ويدج).. سأهاجم ذلك البرج هناك.. احم ظهري يا رقم أربعة.
قالها وانقض على البرج، ونسفه بقذيفة واحدة، ولكن أحد مدافع المحطة نسف رقم أربعة في الوقت نفسه.
وفي هذه اللحظة، كان قائد السرب الأحمر قد بلغ قطب المحطة مع سربه، وكان الهدوء يسود تلك البقعة، بسبب المعارك الجانبية، التي جذب بها السريان الأزرق والأخضر انتباه مقاتلات الإمبراطورية، فهبطت مقاتلات السرب الأحمر على نحو عمودي، ثم تحولت إلى الوضع الأفقي بزاوية حادة للغاية، وانطلقت عبر الممر الصناعي، والقائد الأحمر يقول:
- ها هو ذا الهدف يا فتيان.. انطلقوا نحوه، ولا تهتموا بغيره.

انتبه الإمبراطوريون إلى هذا الهجوم، فراحوا يمطرون مقاتلات السرب الأحمر بالقذائف، ولكن قائده قال في حسم:
- انخفضوا أكثر يا فتيان، واستعملوا الكمبيوتر لتحديد الهدف
أجابه رقم اثنين أحمر:
- سنفعل أيها القائد.
انقطع سيل القذائف فجأة، فقال القائد في قلق:
- لماذا أوقفوا القتال!.. أهي خدعة أخرى؟
أجابه رقم اثنين:
- ربما، أو أنها..
لم يتم عبارته؛ لأن قذيفة أصابت مقاتلته من أعلى وأطاحت به وبها، وهنا انتبه قائد السرب الأحمر، إلى مقاتلات الامبراطورية، التي تنطلق فوق الممر، واهتزت أعصابه بالرغم من خبرته القتالية الطويلة، وهو يهتف:
- لقد أوقعونا في مصيدة.. الممر ضيق، ولا مجال للمناورة.
هتف به أحد جنوده:
- لن نتخلى عن الهدف أبدا.
ولكن قذيفة أخرى أخرسته إلى الأبد.
وداخل مقاتلة إمبراطورية، ابتسم (ڤادر) في سخرية..
لقد انتبه إلى خطة الاتحاديين..
وخرج لإفسادها..
وبقذيفة أخرى أطاح بمركبة القائد الأحمر، الذي رأى النار تشتعل في مقاتلته، فغمغم في يأس:
- لا فائدة
وبعدها انفجرت مقاتلته، وتحولت إلى شظايا صغيرة..
وارتفع المقاتل (بوبس) في منحني صغير، وحاول الفرار، ولكن قذيفة من قذائف (دون فادر) أصابته، وهو يرسل رسالته

اللاسلكية، قائلا:
- هنا رقم خمسة أحمر.. إنهم يهاجموننا من أعلى.
أصابت القذيفة ذيل مقاتلته، في اللحظة نفسها، وراحت المقاتلة تهوى، والقائد الأزرق يخاطبها هاتفا:
- أأنت بخير، يا رقم خمسة أحمر؟
أجابه (بوبس) في مرارة:
- لقد خسرنا الجميع.. (تيري) و (دتش).. كلهم.. هؤلاء الأوغاد يأتون من الخلف، ولا مجال للمراوغة والمناورة في الممر.. إنه دوركم الآن.. الوداع يا (ديف).
وانفجرت مقاتلته..
وهنا هتف القائد الأزرق:
- إنه دورنا يا فتيان.
استعد الجميع للانطلاق نحو الهدف، ولكن أجهزة (لوك) أعلنته بوجود مقاتلة إمبراطورية خلفه حاول أن ناورها بكل مهارته، إلا أنها ظلت ممسكة بذيل مقاتلته، إلى أن سمع صوت (بيجز) يقول:
- لا تقلق يا صديقي، أنا في طريقي إليك.
وفجأة مرق (بيجز) أمامه، وباغت المقاتل الإمبراطوري بقذيفة علوية، سحقته سحقا، فهتف به (لوك):
- مناورة بارعة وجديدة يا صديقي.
وتبادلا إشارة النصر.
وفي قاعدة الثوار، انتهى (دودونا) من بحث الأمر، مع باقي القادة، ثم اتصل بالقائد الأزرق، قائلا:
- هنا القاعدة الرئيسية، تنادي القائد الأزرق.. اقسم رجالك إلى نصفين، واتخذ جناحين لك في أثناء الهجوم، وليستعد النصف الآخر للهجوم، لو فشلت أنت.

اتخذ القائد الأزرق لنفسه جناحين، وترك (لوك) و (ويدج) و (بيجز) كخط هجوم ثان.
وهبط القائد الأزرق إلى الممر، وراح ينطلق عبره بسرعة، وهتف بجناحيه:
- كمية الحطام هنا هائلة، وأخشى أن أكون قد أخطأت الممر، فلا توجد أية وسائل دفاعية.
أجابه رقم عشرة، المصاحب له:
- هذا غير مطمئن أبدا.
وفجأة ظهرت مقاتلة (دون قادر)، وانقضت على رقم اثني عشر، ونسفته، فهتف رقم عشرة:
- أطلق قذائفك على الهدف أيها القائد، بسرعة.
رأي القائد الهدف أمامه، فضغط زر إطلاق طوربيداته، وهو يقول في حسم:
- سأفعل.
ارتفع مع رقم عشرة، في اللحظة التي دوت فيها الانفجارات داخل الممر، وهتف رقم عشرة في فرحة هستيرية:
- لقد أصبنا الهدف.. لقد دمرناه.
سمع صوت قائده يقول في أسف:
- لا.. لم ننجح.. لقد أصبنا السطح الخارجي للبشر فحسب.
لم يحمل القدر لرقم عشرة خيبة الأمل فحسب، وإنما أرفقها بقذيفة أطلقها عليه (قادر)، وطحنه بها طحنا.
وبكل مرارته ويأسه، هتف القائد الأزرق:
- دورك يا رقم خمسة أزرق.. ابدأ هجومك، ولا تهبط حتى تصبح فوق الهدف تماما، فلن يكون ذلك هيئا، ولن..
رأى (لوك) وهجا شديدا أمامه، مع انقطاع صوت قائده، فهبط ليبدأ هجومه بالفعل، وهو يقول، وقد أدرك مدى صعوبة

الموقف:
- لقد فقدنا القائد.
ولكن هذا لم يوقفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نهضت (ليا) من مقعدها في عصبية، وسالت (دودونا) في توتر بالغ:
- ألابد لهم من الاستمرار؟
أجابها في خفوت:
- لا يوجد بديل.
قالت في قلق:
- ولكن من يجمعهم ويقودهم؟ لقد خسرنا القائدين.. الأحمر والأزرق.
لم يجبها أحد، فلاذت بدورها بالصمت.
الصمت الرهيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقت قذائف المحطة من كل مكان، محاولة اقتناص المقاتلات الاتحادية الثلاث، فقال (بيجز) متهكما:
- يبدو أننا نضايقهم كثيرا.
أما (ويدج)، فقال:
- البرج يظهر على شاشتي في وضوح، أهو صغير إلى هذا الحد.
لم يجب (لوك)، فقد كان يتفادى القذائف في مهارة، ثم حدد هدفه بوساطة الكمبيوتر، وأطلق الطوربيد..

ودوى الانفجار، ولكنه لم يصب الهدف، في حين ظهرت ثلاث مقاتلات إمبراطورية فوق أبطالنا، فصاح (لوك):
- (بيجز).. (ويدج).. تفرقا.
تفرقت المقاتلات الثلاث، إلا أن مقاتلات الإمبراطورية توجهت كلها نحو مقاتلة (لوك)، وراحت تطاردها في إصرار، و(لوك) يتفادى قذائف (فادر) في مهارة، جعلت هذا الأخير يقول في حنق:
- يبدو أن القوة تحمي هذا الفتى بشدة.. ولكن هيهات.. سأقضي عليه بنفسي.
ولكن (لوك) هبط في الممر مرة أخرى، وانطلق داخله هاتفا:
- (بيجز).. (ويدج).. أين انتما؟
رأى مقاتلة (ويدج) تهبط إليه، فشعر بالقلق، وهو يقول:
- ولكن أين (بيجز)؟
لم يكد يتم عبارته، حتى سمع صوت هذا الأخير يقول:
- هنا يا صديقي.
ومرقت مقاتلة (بيجز) فوقه، وهذا الأخير يلوح بكفه.
والعجيب أن مقاتلة (ڤادر) لم تكن هناك
لقد اختفت.
اختفت تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفع أحد ضباط الإمبراطورية إلى قاعة (تاركين)، الذي وقف يراقب الشاشة الهائلة، وهتف به في جزع:
- سيدي.. لقد أدركنا هدف هذه المقاتلات الصغيرة.

إنه يشكل خطرا بالغا على المحطة، هل ننسحب، أم نبدأ إجراءات إخلاء المحطة؟
صاح فيه (تاركين) في غضب:
إخلاء ماذا؟.. كيف تتحدث كالمهزوم، ونحن على شفا نصر ساحق أيها الضابط..؟ إننا سنسحق آخر معاقل الثوار سحقا.. اغرب عن وجهي.
غادر الضابط الحجرة، وقد أدرك حقيقة واحدة لقد أصيب الحاكم بالجنون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هبط (لوك) ورفيقاه مرة أخرى إلى النفق، وانطلقوا عبره، و(لوك) يضغط أزرار الكمبيوتر، المسئول عن تحديد الهدف.
وبدا الهدف بعيدا ولكن فجأة راحت المقاتلة تهتز على نحو غير طبيعي، فهتف(لوك):
- أسرع يا (آرتو).. هناك تخلخل بالغ الخطورة.
برز (آرتو) من ركن خفي بالمقاتلة، وراح يصلح هذا التخلخل في سرعة، في حين هتف (بيجز):
- إنهم يهاجموننا مرة ثانية يا (لوك).. أسرع يا صديقي.
واصل (لوك) انطلاقه نحو الهدف، وبرزت مقاتلة (ڤادر) في الأفق، مع مقاتلتين إمبراطوريتين أخريين، وصاح (بيجز):
- أسرع يا (لوك).. أسرع.
ولكن (ڤادر) صوب قذيفته بدقة مذهلة، وأطلقها في هدوء رهيب..
وانفجرت مقاتلة (بيجز)..
انفجرت متحولة إلى ملايين الشظايا الدقيقة..

وصرخ (ويدج):
- لقد فقدنا (بيجز).
لم يحب (لوك)..
فقط اغرورقت عيناه بالدموع..
ولكنه واصل طريقه..
كان هدفه أسمى من أن توقفه الأحزان..
كان مصير مجرة كاملة..
مصير جنس بشرى هائل..
مقاتلته، قال (ڤادر (للمقاتلتين الأخريين:
- سأنطلق خلف القائد، وعليكما بالثاني.
انبعثت شرارة أمام (ويدج) في لوحة القيادة، فقال في مرارة:
- لقد أصابني عطل يا (لوك)
هتف به (لوك):
ابتعد يا صديقي.. أسرع.
ارتفع (ويدج) بمقاتلته، وانطلق مبتعدا، وهو يغمغم:
- آسف يا (لوك).. آسف
وهنا انطلقت المقاتلات الإمبراطورية الثلاث خلف مقاتلة (لوك)، وحدد أحد المقاتلين المصاحبين لـ (ڤادر) هدفه، على شاشة جهازه، وقال في سخرية:
- الوداع أيها الاتحادي الأخير.
ولكن فجأة نسفت قذيفة مقاتلته، وحولتها إلى فتات..
وأصيب المقاتل الآخر بالذعر، وراح يتلفت حوله، بحثا عن ذلك الذي أصاب رفيقه، ثم لم يلبث أن شعر برعب هائل، عندما رأى خصمه..
لم يكن مقاتلة عادية، وإنما سفينة ضخمة، من سفن الشحن..
سفينة تحمل اسم (فالكون)..

وابتعد المقاتل الإمبراطوري في هلع، خشية أن ترتطم به سفينة الشحن، ولكن ابتعاده المفاجئ هذا جعل مقاتلته ترتطم بمقاتلة (ڤادر)، ثم تصطدم بجدار الممر، وتنفجر.
أما مركبة (ڤادر)، فقد فقَدَ هذا الأخير سيطرته على أجهزتها، بعد الارتطام، فراحت تدور حول نفسها، وتغيب في أعماق الفضاء.
ومن فوق (لوك)، ارتفع صوت (سولو) يقول:
- هيا يا صديقي.. لقد أصبح طريقك خاليا.. أطلق قذيفتك، ولنرحل من هنا.
لم تكن لدى (لوك) سوى قذيفة واحدة باقية، وكان يعلم أنها الفرصة الأخيرة، وعندما مد يده إلى جهاز الكمبيوتر، سمع من خلفه صوتا يقول:
- ثق في إحساسك يا (لوك)
انتفض وهو يتلفت خلفه..
كان هذا صوت (أوبي وان كنوبي)..
ولكن المقاتلة كانت خالية، إلا من (لوك) و(آرتو)..
وبالرغم من غرابة الأمر، إلا أن (لوك) أطاع، فأغلق الكمبيوتر، وأغمض عينيه، و.....
وأطلق قذيفته..
وخيل إليه أنه يخرج من حلم عجيب، عندما فتح عينيه، ووجد مقاتلته تنطلق بأقصى سرعتها، عائدة إلى (يافن)..
وقبل أن يتساءل عما حدث، جاءته النتيجة في وضوح من خلفه..
لقد انفجرت المحطة، كشمس صغيرة تشتعل..
وانتهت المعركة..
بالنصر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- الختام..

استقبل الثوار العائدين في سعادة غامرة، واستقبلوا (لوك) استقبال الأبطال، في حرارة بالغة، في حين وقف (تريبيو) يشرف على إخراج (آرتو) من مقاتلة (لوك)، وهو يهتف:

- (آرتو) يا صديقي.. تحدث إلي.. قل أي شيء.. هل تسمعني؟

ثم التفت إلى اثنين من الفنيين، وسألهما:

- أيمكنكما إصلاحه؟

تطلع أحدهما إلى (آرتو)، وقال:

- أظن ذلك

تبعهما (تريبيو)، وهما يحملان (آرتو) إلى ورشة الإصلاح، وهو يقول في شفقة:

- إنني مستعد لمنحه أي جزء يحتاج إليه، من دوائري وأجهزتي، عن طيب خاطر.

أما في الخارج، فقد التف الجميع حول (لوك) و(سولو) و(تشوباكا)، يهنئونهم على الفوز، وقال (لوك) لـ (سولو) في مرح:

- كنت أعلم أنك ستعود.. كنت واثقا من هذا، ولو لم تفعل لكنت أنا الآن في عداد الأموات.

قال (سولو) مبتسما:

- كان من الضروري أن أعود، فلم أكن لأترك طيارا من المزارع ينال كل الثناء وحده.

ضحك الجميع، واندفعت (ليا) إلى حيث (لوك) و(سولو)، وراحت تهنئهما في حرارة، في حين شرد (لوك) ببصره، وقد خيل إليه أنه يسمع تنهيدة ارتياح مألوفة.

تنهيدة (أوبي وان كنوبي)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امتلأت قاعة العرش، داخل المعبد القديم، بالبشر، لأول مرة منذ آلاف السنين، ووقف الجميع في أزيائهم الرسمية الزاهية، وارتفعت أعلام الكواكب المختلفة، التي كونت فيما بينها اتحاد الثوار، وفي نهاية القاعة جلست (ليا) على العرش، في ثوب أبيض هفهاف، ووقف أمامها (لوك) والجنرال (دودونا)، مع (سولو) و (تشوباكا)، ثم انضم إليهم (آرتو)، الذي بدا نظيفا لامعا، و (تريبيو) الذي شعر بالرهبة والسرور معا، ثم وقفت (ليا)، وتقدمت من (سولو)، وأحاطت عنقه بقلادة ذهبية كبيرة، ووقفت على أطراف أصابع قدميها، لتحيط عنق (تشوباكا) بأخرى، ووضعت ثالثة حول عنق (لوك)، وعندئذ تفجرت عواطف الجميع في صيحة رائعة، حملت كل حبهم وتقديرهم للأبطال الثلاثة..

أما (لوك)، فقد شعر أنه وحده الفائز، فبالرغم من أنه قد حصل على قلادة مشابهة لما حصل عليه (سولو) و(تشوباكا)، إلا أنه نال وحده جائزة أعظم.

إنها ابتسامة عذبة فاتنة..

ابتسامة الأميرة (ليان)، التي اعتبرها جائزته الكبرى في هذه الحرب..

حرب النجوم

(تمت بحمد الله)

حرب النجوم

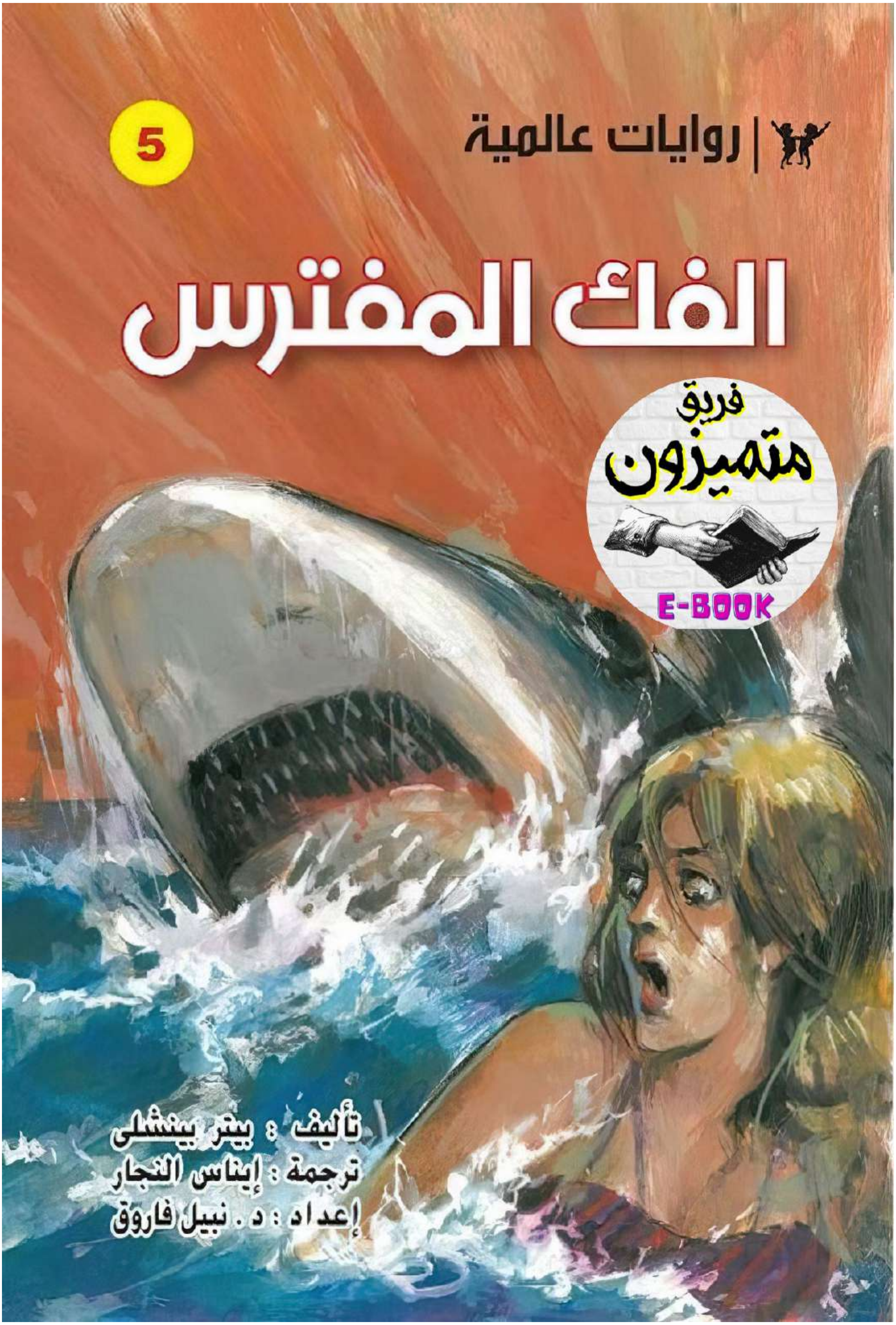
حرب طاحنة، تدور في زمن آخر، ومجرة أخرى، بين الإمبراطورية الغاشمة، والثوار، وفيها يلتقي (لوك) بالأميرة (ليا)، ويعبران الفضاء كله من أجل الحرب.. حرب النجوم.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:


روايات عالمية
5
الفك المفترس
تأليف : بيتر بينشلى
ترجمة : إيناس النجار
إعداد : د . نبيل فاروق

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

[انضم الى الجروب]

[انضم الى القناة]

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (05)

الفك المـفترس

تأليف: بيتر بينشلي.

ترجــمة: إيناس النجار

إعــداد: د. نبيــل فاروق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

1- ليل.. ودمـاء..

غمر السكون تلك الليلة، وانتشر الظلام فوق الأمواج المتلاحقة على رمال الشاطئ، وبدا مشهد البحر هادئا، لا يشفّ أبدا عما يدور في أعماقه، تحت سطحه الغامض، في ليلة من ليالي منتصف يونيو..

ولكن هناك.. في الأعماق، كانت تلك السمكة الهائلة تسبح وسط السكون، محّركة ذيلها الهلالي في حركات قصيرة ناعمة، وأسنانها منفرجة على نحو يسمح بتدفّق المياه فوق خياشيمها، وهي تعدّل مسارها كل فترة، بلا هدف أو مسار محدود، وحواسها لا تنقل إلى فمها البدائي أية أمور غير عادية، حتى ليخيَّل إليك أنها نائمة، لولا حركة ذيلها وزعانفها، التي تمليها غريزة موروثة، عبر ملايين السنين، لتضمن لها البقاء؛ إذ لم تكن تملك - كغيرها من الأسماك - كيس هواء تطفو به، ولا مراوح تخفق لدفع الماء المحَّمل بالأكسجين إلى خياشيمها..

كل هذا تفعله بحركتها الدائمة، التي لا تنقطع منذ مولدها، وحتى ترقد في القاع لتموت..

وفي حركتها الدائمة، لم تكن سمكة القرش تشعر بما يدور على الشاطئ، حيث غادر رجل وامرأة كوخهما الصيفي، وراحا يسيران على رمال الشاطئ، يضربان الأمواج بأقدامهما، ثم لم يلبثا أن استلقيا على الرمال، يتطلّعان إلى السماء الخالية من القمر، بنجومها اللامعة، ويتناجيان بعبارات عشق وهيام، حتى هبَّت المرأة واقفة، وسألت الرجل في حماس:

- ألا ترغب في السباحة قليلاً؟

أشار إليها بيده نافيًا، وأسبل عينيه في استرخاء، فأسرعت هي نحو البحر، وداعبت المياه الباردة بأطراف أصابع قدميها، قبل أن تهتف به مرة ثانية:
- أأنت واثق من عدم رغبتك في السباحة؟
تمتم وهو يسلم جسده للنعاس:
- تمامًا.
تراجعت هي إلى الخلف، ثم اندفعت تقفز داخل الماء، والأمواج تضرب قدميها، ثم لم تلبث أن ألقت نفسها فوق موجة قادمة، وراحت تسبح في نشوة واستمتاع..
وعلى بعد مائة متر من الشاطئ، استقبلت حواس السمكة تغيّرًا في إيقاع البحر..
صحيح أنها لم تر المرأة، ولم تستقبل رائحتها بعد، وإنما استقبلت شعيراتها العصبية ذبذبات آتية من اتجاه الشاطئ، فاتجهت نحوها في صمت، ولم تلبث أن عبرت أسفل المرأة، على عمق مترين، ثم تجاوزتها بعدة أمتار..
وشعرت المرأة بموجة مباغتة، ترفعها إلى أعلى، ثم تهبط بها إلى أسفل في بطء، فتوقَّفت عن السباحة، وانحبست أنفاسها في خوف، وراحت تتطلَّع إلى الشاطئ البعيد، محاولة استعادة بعض الطمأنينة، برؤية أضواء كوخها الصيفي، ثم لم تلبث أن عاودت السباحة في حذر، عائدة إلى الشاطئ..
ولكن سمكة القرش شمت رائحتها الآن، واستقبلت ذبذبات ضربات يديها على سطح الماء في وضوح، فأخذت تدور في حلقة واسعة، صاعدة إلى السطح، حتى شقت زعنفة ظهرها سطح البحر، وارتفع جسدها فوق المياه..
وعلى الرغم من أن المرأة لم تر سمكة القرش، إلا أن الخوف سرى في عروقها، ودفع كمية من الأدرينالين إلى دمائها، فراحت

تسبح بسرعة أكبر، محاولة بلوغ الشاطئ، الذي يبدو واضحًا من بعيد..



وعلى الرغم من أن المرأة لم تر سمكة القرش، إلا أن الخوف سرى في عروقها، ودفع كمية من الأدرينالين إلى دمائها..

وفجأة انقضت عليها سمكة القرش..

ارتفعت من تحت الماء كجبل هائل، وانفتح فكاها عن آخرهما، ثم انطبقت أسنانها على جذع المرأة، التي أطلقت صرخة رعب وألم هائلة، وحاولت أن تضرب الماء بقدميها، لتصعد إلى السطح، ولكن الأسنان الحادة كالمنشار جذبتها إلى أسفل، وغاصت بها في الأعماق، فكتمت المياه صراخها، و...

.. وارتفعت بقعة دماء كبيرة إلى السطح..

.. ثم عاد الهدوء..

∞∞∞∞∞

فتح الرجل عينيه، مستقبلًا أضواء الشفق الأولى، التي تنبئ بقرب شروق الشمس، وشعر ببعض البرد يسرى في أطرافه، وهو يرقد على رمال الشاطئ، وأدهشه أن استغرق في النوم على هذا النحو، فنهض يتثاءب، وانعقد حاجباه في غضب، لأن زوجته لم توقظه، قبل عودتها إلى الشاطئ، ثم شعر بالدهشة، عندما رأى حذاءها على مقربة منه، فحمله عائدًا إلى الكوخ، الذي ظلت أضواؤه مشتعلة طوال الليل، وسار على أطراف أصابعه، وهو يدلف إليه، ويلقي نظرة على حجرة معيشته الخالية، وقد تناثرت فيها الأكواب الفارغة، وأعقاب السجائر، ثم اتجه إلى حجرة النوم، وأدهشه أن وجدها خالية، لا أثر لزوجته فيها، فتطلّع إلى ساعته، وساوره القلق عندما وجد أنها تشير إلى الخامسة صباحًا، وراودته لأوَّل مرة فكرة وقوع مكروه ها، فسرت في جسده ارتجافة باردة، وهتف لنفسه في ذعر:

- ماذا لو أنها غرقت؟

كان هذا الخاطر يكفي لبث كل الرعب في عروقه، فاندفع مغادرًا حجرة النوم إلى حجرة نوم أخرى، يقيم فيها صاحب الكوخ

الأصلي وزوجته، وقرع بابها في انزعاج شديد، جعل صاحب الكوخ يهبّ من فراشه منزعجًا، ويندفع إليه، هاتفًا في غضب:
- (توم).. هل تعرف كم الساعة الآن؟
أجابه (توم) في توتر:
- أعلم يا (جاك)، ولكن (كريس) اختفت.
هتف (جاك):
- اختفت؟!.. ما الذي تعنيه بقولك هذا؟.. هل بحثت عنها في حجرة المعيشة، أو...
قاطعه (توم):
- لقد بحثت في كل مكان، وأخشى أنها قد.. قد..
ازدرد لعابه، في محاولة للسيطرة على تهيج أعصابه، قبل أن يكمل:
- قد غرقت.
ارتفع حاجبا (جاك) في ذعر ودهشة، ولم ينبس ببنت شفة، وإنما اندفع نحو الهاتف..
.. وبدأت عملية البحث..

∞∞∞∞∞∞

استغرق الشرطي (لين هندريكس) في قراءة رواية بوليسية مثيرة، وهو يجلس خلف مكتبه، في قسم شرطة (أميتي)، حتى أن جسده انتفض انتفاضة عجيبة، عندما ارتفع رنين الهاتف المجاور له بغتة، يشقّ سكون الفجر، فالتقط سمَّاعة الهاتف في شيء من السخط، ووضعها على أذنه قائلًا:
- هنا الشرطي (هندريكس)، في قسم شرطة (أميتي)، في خدمتكم.
أتاه صوت مضطرب، يقول:

- أنا (جاك فوت)، اقيم في شارع (أولد ميل).. أريد أن أبلغ عن سيّدة مفقودة.. لقد ذهبت للسباحة مع زوجها، في الواحدة صباحًا، ولم تعد بعد، و..
قاطعه (هندريكس) بلهجة رسمية:
- ما اسمها؟
- (كريستين واتكنز).
- العمر؟
- حوالي خمسة وعشرون عامًا.. زوجها يقول هذا.
- الطول والوزن؟
- طولها يقرب من مائة وستين سنتيمترًا، ووزنها حوالي الستين كيلو جرامًا.
- ما لون الشعر والعينين؟
وهنا شعر (جاك) بالسخط، فهتف:
- ما الذي يعنيه هذا بالله عليك؟.. إنني أتحدث عن سيّدة غرقت في البحر.
قال (هندريكس) في هدوء:
- ومن قال إنها غرقت؟.. أليس من المحتمل أنها قد هربت مثلًا؟
صاح (جاك):
- في ثوب الاستحمام؟!.. هل رأيت في حياتك كلها امرأة تهرب في الواحدة صباحًا، في ثوب استحمام؟!
بدا (هندريكس) شديد البرود، وهو يقول:
- هذا لا يحدث عادة في (أميتي)، ولكن كل شيء ممكن في الصيف، ففي أغسطس الماضي رقص بعض الشبان الطائشين أمام النادي، في ثياب يندى لها الجبين، والآن، ما لون الشعر والعينين؟

زفر (جاك) في حنق، وأجاب:
- شعرها ذهبي، وعيناها لهما لون عسلي فاتح.
قال (هندريكس) بهدوئه المثير:
- حسنًا يا مستر (فوت)، سنقوم باللازم، ونتصل بك فور توصّلنا إلى أي شيء.
وأنهي الاتصال في بساطة، وهو يتطلَّع إلى ساعته.
.. كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة وعشر دقائق، والرئيس لن يستيقظ من نومه قبل ساعة، وهو لا يحب أن يوقظه قبل موعده، من أجل بلاغ تقليدي عن غياب امرأة، ولكنه يخشى أن يغضب الرئيس لعدم إيقاظه، فالرئيس (برودي) رجل نادر، يمنح عمله الجزء الأكبر من وقته واهتمامه، ويصرّ دائما على ضرورة التحرك بسرعة، خشية أن يكون الوقت هو السبب الوحيد للفشل...
وهكذا حسم (هندريكس) أمره، ورفع سمَّاعة الهاتف، وطلب رقم الرئيس (برودي)، وانتظر لحظات، حتى سمع صوت الرئيس يقول بلهجة نصف ناعسة:
- من؟
أجابه في حرج:
- أنا (هندريكس) يا سيّدي.. يؤسفني إزعاجك في الخامسة والثلث، ولكن..
قاطعه (برودي) في ضيق:
- المهم أن يكون لديك سبب قوي لهذا.
أسرع (هندريكس) يجيب:
- بالطبع يا سيّدي.
وراح يقصّ عليه مضمون محادثة (جاك فوت)، وأضاف في اهتمام:

- لقد رأيت أن أتصل بك على الفور، فربما تحبّ القيام بإجراء خاص، قبل أن تخرج المربيات مع الأطفال في الصباح، فتفاجئهم جثة على الشاطئ.
قال (برودي) في ضيق:
- ولماذا لم تتصل بزميلك (كيمبل)؟
ثم لم يلبث أن زفر في ضيق، قائلًا:
- لا بأس.. أعلم أنه يغط الآن في نوم عميق، داخل سيارة شرطة، في مكان ما، لأنه يعمل صباحًا في بار.. حسنًا.. سأحتمل هذه المرة أيضًا، وسأذهب إلى (أولد ميل) لبحث ما حدث.. انتظرني في القسم.
وأعاد (برودي) سّماعة الهاتف، وتثاءب، ثم ألقي نظرة على زوجته، التي لم يوقظها رنين الهاتف، وابتسم وهو يداعب خصلات شعرها الناعمة في حنان، ثم نهض يحلق لحيته، ويتناول قدحًا من القهوة، وارتدي ثيابه الرسمية، ثم بدأ عمله.
.. وفي تمام السادسة والنصف، كان (برودي) يدخل شارع (أولد ميل)، تحت شمس ساطعة، في سماء صافية، وراح يفحص الشاطئ أمام الأكواخ، وشعر بالارتياح لعدم وجود جثث غرق، وألقي نظرة لا مبالية على بعض الأخشاب التي لفظها البحر، وعلى حزام الأعشاب الممتدّ بطول الشاطئ، وغمغم:
- من المؤكّد أنها لم تغرق، وإلا للفظها البحر هنا.
ظلّ يفحص الشاطئ في السابعة، دون أن يعثر على شيء، فاستقلّ سيارته عائدًا إلى قسم الشرطة، وبلغه في السابعة وعشر دقائق، واستقبله (هندريكس)، في اهتمام، وهو يسأله:
- هل عثرت على شيء أيها الرئيس؟
هزَّ (برودي) رأسه نفيًا، وأدهشه أن بدت خيبة الأمل على وجه (هندريكس)، وكأنما يؤسفه أن عاد رئيسه بلا جثة، فسأله:

- أم يعد (كيمبل) بعد؟.. أخشى أن يكون نائمًا، فسيكون من المؤسف أن يرى الناس، وهم في طريقهم إلى عملهم، رجل الشرطة نائمًا داخل سيارته.
ابتسم (هندريكس)، وقال:
- اطمئن يا سيّدي.. إنه يصل دائماً في تمام الثامنة.
لوَّح (برودي) بيده، وصبَّ لنفسه قدحًا من القهوة، حمله إلى مكتبه، وراح يرتشفه في بطء، وهو يطالع صحيفتي (نيويورك ديلي نيوز)، و(أميتي ليدر)، والأخيرة صحيفة محلّية، تظهر أسبوعيًا في الشتاء، ويوميًا في الصيف..
.. وفي تمام الثامنة حضر (كيمبل) مع بديل (هندريكس)، فاستعدّ الأخير للانصراف، عندما غادر (برودي) مكتبه، وقال له في هدوء:
- سأذهب الآن لرؤية (فوت).. هل تحب الذهاب معي؟
أجابه (هندريكس) في حماس:
- بالطبع، فأنا أحب معرفة ما انتهى إليه الأمر.
إصطحبه (برودي) في سيارته إلى كوخ (جاك فوت)، وعندما بلغاه ضحك (هندريكس)، وهو يقول:
- أراهنك أننا سنجدهم نائمين.. هل تذكر تلك السيّدة، التي اتصلت في الصيف الماضي، بعد منتصف الليل بقليل، وقالت: إنها قد فقدت مجوهراتها، وعندما عرضنا الذهاب إليها على الفور، اعترضت، وطالبتنا بالحضور في الصباح، لأنها تحتاج إلى النوم؟
أجابه (برودي)، وهو يغادر السيارة:
- سنرى.
لم يكد يقرع الباب حتى فتحه شاب وسيم، سألهما في قلق:
- هل عثرتما عليها؟.. أنا (توم كاسيدي).. ونحن في انتظاركم.

أجابه (برودي):
- لا يا مستر (كاسيدي).. لم نعثر عليها.. أنا الرئيس (برودي)، وهذا الضابط (هندريكس).. هل يمكننا الدخول؟
أفسح لهما الشاب في الطريق، قائلًا:
- بالطبع.. تفضّلا إلى حجرة المعيشة، وسأحضر مستر (فوت).
لم تمض خمس دقائق، حتى كان (برودي) قد عرف كل ما يمكنه معرفته، ثم قرر أن يفحص الشاطئ مرة أخرى، مع (هندريكس)، و (كاسيدي)، وعندما بلغا الموضع الذى رقد فيه (كاسيدي) على الشاطئ، قال (برودي):
- سنفحص الشاطئ من الجانبين.. اذهب أنت يا (هندريكس) إلى الشرق، وسأذهب أنا وأنت يا مستر (كاسيدي) إلى الغرب، ولتطلق صفارتك على الفور يا (هندريكس)، إذا ما عثرت على شيء ما.
انفصلا عند هذه النقطة، وخلع (هندريكس) حذاءه، وراح يضرب الأمواج بقدميه، وهو يسير على رمال الشاطئ شرقا، وتساءل عن آخر مرة سبح فيها وسط الأمواج، كما يفعل المصطافون، وابتسم وهو يتذكّر إحصائية قرأها يومًا، تقول إن نصف سكان (نيويورك) لم يشاهدوا في حياتهم تمثال الحرية، الذي يجذب آلاف السائحين إلى بلدتهم كل يوم، وراح يضرب الماء بقدميه أسرع وأسرع..
.. ثم فجأة جذب انتباهه تجمّع ضخم للأعشاب البحرية، فاتجه إليه في اهتمام، وخُيّل إليه وجود شيء ما أسفل هذه الأعشاب، فمدّ يده يزيحها جانبًا..
.. ولم يكن يفعل حتى اتسعت عيناه في رعب، وتراجع كالمصعوق، ثم انتزع صفارته من جيبه بأصابع مرتجفة، وراح يطلق صفيرًا طويلًا متصلًا..

.. ومن بعيد التقطت أذنا (برودي) الصفير، فانطلق يعدو مع (كاسيدي) شرقًا، وما أن وصلا إلى موضع (هندريكس)، ورأيا ما رآه ذلك المسكين، حي صرخ (كاسيدي) في ألم ورعب، وهتف:

- إنها هي.. إنها هي..

ثم انهار إلى جوار جثة زوجته..

.. أو ما تبقّى منها.

∞∞∞∞∞∞

2 – الصراع..

شعر (برودي) بآلام بشعة في معدته، وهو يقاوم بقايا الاشمئزاز في أعماقه، في أثناء كتابة تقرير الحادث، وخفتت تلك الآلام بعض الشيء، وعندما انتهى من كتابة التقرير، تاركًا خانة (سبب الوفاة) خالية، فأزاح الأوراق جانبًا، وارتشف رشفة أخرى من قدح القهوة، في محاولة لتخفيف توتر معدته، ولكن رنين الهاتف تصاعد، فالتقط سماعته وسمع صوت طبيب الشرطة يقول:

- أنا (كارل) يا (مارتن).. قل لي: هل لديك شك في وجود جريمة قتل، خلف حادث مصرع (كريس)؟

غمغم (برودي) في دهشة:

- جريمة قتل؟!

أجابه (كارل):

- إنه احتمال مستبعد بالطبع، ولكن قد يكون أي شخص مجنون قد استخدم فأسًا ومنشارًا، و..

أعاد الحديث إلى ذهن (برودي) ذكرى مشهد بقايا الجثة، وبدأت معدته تنقبض على نحو سخيف، فقاطع (كارل) قائلا:

- لا يا (كارل).. لا أعتقد هذا؛ فلا يوجد دافع أو سلاح جريمة، أو حتى مشتبه فيه.

صمت (كارل) لحظة، ثم قال في حزم:

- إنه قرش إذن يا (برودي).. قرش مجرم كبير، له أسنان رهيبة، فحتى رفاص عابرة محيطات لا يمكنه تمزيق الجثة هكذا.

قال (برودي) في توتر:

- قرش؟!.. هل أنت واثق يا (كارل)؟

أجابه (كارل) في حزم:
- سأذكر هذا في تقريري الرسمي، ما لم تكن لديك شكوك أخرى.
قال (برودي) في شرود:
- لا يا (كارل).. اكتب ما تراه مناسبًا.
وأنهى الاتصال وهو يشعر بتوتر بالغ..
.. إنه أكثر من يدرك مدى حساسية الأمر، في مثل هذا الوقت من العام، فهو الآن في بداية الصيف، وكل سكان (أميتي)، البالغ عددهم ألف شخص، يعتمدون في معيشتهم طيلة العام، على أشهر الصيف الثلاثة، حيث يفد ما يقرب من تسعة آلاف مصطاف إلى البلدة، فينعشون التجار، من أصحاب محال الأجهزة والأدوات الرياضية ومحطتي الوقود، والصيدلية، وإلا فما استطاعوا مواجهة الشتاء، أو حتى توفير الطعام لعائلاتهم، وصيف واحد سيء يحطِّم هذه البلدة الصغيرة، ويضاعف من عدد العائلات المطالبة بالإعانات الاجتماعية، بل قد يضطر بعض أصحاب المتاجر إلى إغلاق متاجرهم، والرحيل إلى بلدة أخرى، بحثا عن عمل.
باختصار صيف واحد فاشل يكفي لهجر (أميتى) كلها، وتحويلها إلى مدينة أشباح..
و(برودي) يدرك هذا جيّدًا، وكذلك يدركه (هاري ميدوز)، رئيس تحرير الجريدة المحلية (أميتي ليدر)، لذا فإنهما يتعاونان، (برودي) و (ميدوز)، لمنع أية عوامل، قد تتسبب في فشل أي موسم صيفي، ولو قام بعض شبان المصطافين بأعمال شغب في المدينة مثلًا، فإن (برودي) يمنح (ميدوز) كل التفاصيل، لينشرها في جريدته، مع ذكر الأسماء والأعمار، أما لو قام بالشغب بعض شباب (أميتي)، فالخبر يكون في العادة مقتضبًا،

بدون ذكر أسماء أو أعمار أو عناوين، مكتفيًا بالإشارة إلى أن شرطة (أميتي) قد تدخّلت لإنهاء مشكلة بسيطة في شارع كذا..
.. حتى سرقات المنازل في فترة الشتاء كان (ميدوز) يتجاهل نشرها، حتى لا يترك انطباعًا سيئًا لدى المصطافين، يمنعهم من قضاء الصيف التالي في (أميتي)، ويترك الأمر كله لـ (برودي)، لحله بوسائله الخاصة..
.. ولكن هذه المرة كان الأمر يختلف..
.. كانت هناك سمكة قرش في الجوار، تذوَّقت طعم اللحم البشرى، وهو لا يدرك إذا ما كانت ستستمرئ هذا، كما يحدث مع النمور، أم لا، إلا أنه يدرك تمامًا ضرورة إغلاق الشاطئ لمدة يومين؛ لمنع القرش من افتراس آخرين، ومنحه فرصة الابتعاد عن شاطئ (أميتى) قبل أن يبدأ الموسم الصيفي فعليًّا..
.. وفي هذه المرة كان يرغب في نشر الأمر..
.. وكان يعلم أن الأمر لن يكون أبدًا هيّنًا، فكل الشواهد - حتى الآن - تشير إلى صيف ضعيف، بالقياس إلى المواسم السابقة، فما زالت هناك عدة منازل لم تؤجر بعد، وخبر ظهور سمكة قرش مفترسة سيزيد الأمر سوءًا.. بل قد يؤدي إلى كارثة..
.. ولكنه لم يكن يستطيع تجاهل واجبه، والمخاطرة بعدد من الأرواح البريئة، لمجرَّد ظنه أن وفاة في منتصف يونيو يُمكن نسيانها بسرعة..
.. إنه لن يقامر بأرواح الآخرين..
.. وبسرعة حسم أمره، ورفع سمَّاعة الهاتف، وطلب رقم (ميدوز)، ولم يكد يسمع صوت هذا الأخير، حتى قال:
- (ميدوز).. هل يمكننا تناول الطعام معًا؟
أجابه (ميدوز):

- بالطبع.. إنني أنتظر مكالمتك.. قل لي: هل تحضر إلى مكتبي، أم أحضر أنا إلى مكتبك؟
قال (برودي) في حزم:
- سأحضر أنا إلى مكتبك.
اتصل بزوجته، وأخبرها أنه سيتناول الطعام في الخارج، ثم اتجه على الفور إلى مكتب (هاري ميدوز)، وعندما بلغه، كان (ميدوز) يقف بجسمه الضخم إلى جوار النافذة، يدخن ذلك السيجار الرخيص، الذي اعتاد تدخينه، فالتفت إلى (برودي)، وقال في مرح طبيعي:
- ارفع هذه الأوراق عن المقعد، واجلس.
جلس (برودي) على المقعد المقابل لمكتب (ميدوز)، الذي أخرج عددًا من الشطائر، راح يلتهم إحداها في استمتاع، وهو يقدم أخرى لـ (برودي)، الذي التهم شطيرته في بطء، وهو يقاوم احتجاج معدته، ثم قال:
- لا ريب أنك سمعت بأمر مصرع (كريس)، ولقد تحدَّثت مع (كارل)، و...
قاطعه (ميدوز):
- وأنا أيضًا.
تجاهل (برودي) هذه المقاطعة، وتابع:
- إنه يظن أن هذا يعود إلى سمكة قرش، ولو أنك رأيت الجثة مثلى لوافقته على هذا الرأي.
قال (ميدوز)، وهو يتناول شطيرته الرابعة في تلذذ:
- لقد رأيتها.
حدَّق (برودي) في شطيرة (ميدوز) في دهشة، فلم يكن يتصوَّر أبدًا أن شخصًا رأى جثة (كريس)، يمكنه أن يأكل بهذا النهم، إلا أنه أجبر نفسه على تجاهل هذا، وهو يقول:

- إذن فأنت توافقني.
أجابه (ميدوز) في بساطة، وهو يلتهم بقايا شطيرته الرابعة:
- بالطبع، ولكن هناك عدة أشياء تثير الريبة.
- مثل ماذا؟
- درجة برودة الماء، عند منتصف الليل مثلًا، فمن الضروري أن تفقد عقلك، قبل أن تسبح في ذلك الوقت.
- أو أن تكون مخمورًا.. وهذا هو الأرجح.
- ربّما.. لقد تحرّيت عن (فوت) على أية حال، وهو لا يتاجر في المخدرات، ولا شأن له بها حتمًا.
ونفض كفيه عن بقايا شطيرته، وهو يميل نحو (برودي)، مستطردًا:
- ولكنَّ هناك أمرًا آخر يثير حيرتي.
قال (برودي) في ضيق:
- لا تتماد كثيرًا في الأمر يا (ميدوز)، فمن الطبيعي أن يلقى البعض حتفهم غرقًا.
لوَّح (ميدوز) بكفه، وقال:
- لم أقصد هذا، ولكن يدهشني أن يأتينا قرش، والماء على هذه الدرجة من البرودة.
هزَّ (برودي) كتفيه، وقال:
- ربما هناك قروش تحب الماء البارد.. من يدرى؟
أجابه (ميدوز):
- هناك من يعرفون الكثير عن القروش، وهناك مثلًا قرش (جرينلاند)، الذي يعشق المياه الباردة، ولكنه لا يأتي إلى هنا قط، ثم إنه لا يهاجم البشر.. هل تعلم؟.. لقد عرفت الكثير عن القروش منذ الصباح، ولم أكد أرى ما تبقى من (كريس)، حتي اتصلت بشاب أعرفه، يعمل بمعهد (وودز هول) لعلوم

المحيطات، ووصفت له الجثة بدقة، فأكَّد لى أن نوعًا واحدًا من القروش يمكنه فعل هذا، وهو القرش الأبيض الضخم.. هناك أنواع أخرى تهاجم البشر، مثل قرش النمر، ورأس المطرقة، والماكوس، والقرش الأزرق، ولكن ذلك الشاب (مات هوبر) أخبرني أن القرش الوحيد، الذي يمكنه أن يبلغ الحجم الكافي، لقطع إمرة ناضجة إلى نصفين، هو القرش الأبيض الضخم، أو كما يطلقون عليه (قاتل البشر).. ثم إنه من الممكن أن يأتى القرش الأبيض الضخم إلى المياه الباردة.

أشعل (برودي) سيجارته، والتقط منها نفسًا عميقًا، وهو يقول:

- يبدو أنك قد بحثت الأمر جيدًا يا (ميدوز).

أجابه (ميدوز)، وهو يلتقط من المبرِّد علبة بيرة كبيرة:

- كان من الضروري أن أعرف جيدًا ما حدث، وأن أعرف كذلك احتمالات حدوثه.

سأله (برودي) في اهتمام:

- وهل عرفت؟

أومأ (ميدوز) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم.. ففرصة حدوث هذا مستحيلة تقريبًا، فـ (هوبر) يقول إن أفضل ما في القرش الأبيض هو ندرته، ومادامت لا توجد هنا مصانع تعليب أسماك، أو مذابح تلقي الدماء والأحشاء في البحر، فلن يبقى القرش طويلًا، ولا ريب أنه قد رحل الآن.

ثم رمق (برودي) بنظرة خاصة، وهو يستطرد:

- ولهذا فلا داعي لإقلاق الناس، بسبب أمر لن يتكرّر.

نفث (برودي) دخان سيجارته، وقال:

- إنها وجهة نظرك يا (هاري)، أما أنا فأرى أنه لا ضرر في إعلام الناس بما حدث بالفعل.

تنهَّد (ميدوز)، وقال:

- هذا صحيح من الناحية الصحفية، ولكن ماذا عن مصلحة أهل البلدة؟.. إنهم سيعلمون ما حدث بالطبع، ولكن ماذا عن المصطافين؟.. أنت تعلم موقف الإيجارات هذا العام، ولو نشرنا ما حدث، فقل على الموسم السلام.
أومأ (برودي) برأسه، وقال:
- أنا مثلك يا (هاري)، لا أرغب في إشاعة الرعب في المصيف، ولكن هناك احتمال، ولو واحد في المائة، أن نكون على خطأ، ولا يمكننا مواجهة هذا الاحتمال، على الرغم من ضآلته، فلو أننا تكتّمنا الأمر، ثم هاجم القرش شخصًا آخر، فلن نسامح أنفسنا أبدًا، ثم إن واجبي هو حماية الناس، ولو عجزت عن هذا فمهمتي هي تحذيرهم على الأقل: وهذا واجبك أيضًا.. والواقع يا (هاري) أنني أريد نشر الخبر، لأنني أريد إغلاق الشاطئ لمدة يومين فحسب، وهذا أفضل ما نفعله، فلم يفد المصطافون بعد، وما زال الماء باردًا، و...
قاطعه (ميدوز):
- لا يمكنني التدخل في عملك بالطبع يا (برودي)، ولكنني اتخذت قراري بالفعل، في الجزء الخاص بي.
- ماذا تعني بهذا؟
- أعنى أنه لن تكون هناك أية قصص، عن حادث (كريس).
- هكذا.. بكل بساطة؟!
- لم يكن ذلك قراري وحدي يا (مارتن)، وإن كنت أوافق عليه، صحيح انى رئيس تحرير هذه الجريدة، وأملك جزءًا منها، إلا أنه لا يكفي لمواجهة الضغوط.
عقد (برودي) حاجبيه، وهو يسأله:
- أية ضغوط؟
أطلق (ميدوز) زفرة من أعماق قلبه، وأجاب:

- لقد تلقيت ست مكالمات هاتفية هذا الصباح، من خمسة من كبار المعلنين في الجريدة.. صاحب مطعم، وفندق، واثنين من شركات السمسرة، ومتجر لبيع (الأيس كريم)، وكلهم قلقون من أمر النشر هذا، ولقد اتفقوا جميعًا على أنه ليس من مصلحة (أميتي) أن ننشر هذا.. ثم إن المكالمة السادسة كانت من مستر (كولمان) في (نيويورك)، وهو يمتلك خمسة وخمسين في المائة من أسهم (ليدر)، وقال إن أخبار ما حدث قد بلغته، وهو يأمرني بعدم النشر.

صمت (برودي) لحظات، ثم قال في حزم:

- فليكن يا (هاري).. لا تنشر شيئًا عن الحادث، أما أنا فسأغلق الشواطئ، وأضع بعض اللافتات التي توضح السبب.

هزَّ (ميدوز) رأسه، وقال:

- أنت حر في قرارك يا (مارتن)، ولكن تذكَّر أنك تحتّل هذه الوظيفة بالانتخاب، ومدة احتلالك لها لا تزيد على أربعة أعوام، مثل رئيس الجمهورية، و...

قاطعه (برودي) في غضب:

- هل هذا تهديد يا (هارى)؟

ابتسم (ميدوز)، وقال:

- أنت تعلم أنه ليس كذلك، ولكني أريد منك أن تدرك ما ستفعله، قبل أن تعبث بشريان حياة هؤلاء الذين انتخبوك.

كان بقوله هذا يضرب على الوتر الحساس في أعماق (برودي).. .. وتر الخوف..

∞∞∞∞∞

لم تمض عشر دقائق على وصول (برودي) إلى مكتبه، حتى حمل إليه جهاز الاتصال الداخلى صوت أحد رجاله، وهو يقول:
- السيِّد المحافظ هنا لرؤيتك يا سيّدي.
ابتسم (برودي)، وقال:
- أدخل سعادته.
كان يعرف المحافظ (لاري فوجان) جيدًا، فهو رجل وسيم، رمادي الشعر، مختلف مظهره كثيرًا عن مظهر الغالبية العظمى من سكان (أميتي)، فهو أنيق، رياضي القوام، ثم إنه ثرى، يمتلك واحدة من أكبر شركات سمسرة العقارات والمباني في (أميتي)..
.. والواقع أن (برودي) كان يميل كثيرًا لـ (فوجان)، على الرغم من أنه لا يراه كثيرًا، ولكنه يذكر له دعواته له ولزوجته إلى عشاء فاخر، في نهاية كل موسم، تسعد له كثيرًا زوجته (إلين)..
ولهذا أحسن (برودي) استقبال (فوجان) في حرارة، ودعاه إلى الجلوس على المقعد المقابل لمكتبه، ولقد بدا له (فوجان) شديد القلق، وهو يسأله:
- من أين لك سلطة إغلاق الشواطئ؟
هزَّ (برودي) كتفيه، وقال
- لست متأكّدًا من أنني أحوز هذه السلطة بالفعل، ولكن القانون يقول: إنني أستطيع اتخاذ أية إجراءات، أرى أنها ضرورية، في حالة الطوارئ، وهذا يحتم أن يعلن المجلس المنتخب حالة الطوارئ أوَّلًا.. أليس كذلك؟، وهذا يعني أن مسئوليتي الفعلية هي الحفاظ على سلامة الناس هنا، بغض النظر عن التعقيدات الإدارية، وأنا أرى ضرورة إغلاق الشاطئ لمدة يومين.
قال (فوجان) في عصبية:
- ولِكن هذا مستحيل.. سيكون هذا كما لو أننا نشنق أنفسنا.

تطلَّع إليه (برودي) لحظات في صمت، ثم قال في حسم:
- أعرف ما تقصده، وأنا أيضًا لا أريد إغلاق الشاطئ في بداية الموسم، ولكنك لا ترغب في أن يلقى آخرون مصرعهم.. أليس كذلك؟
لوّح (فوجان) بذراعه، هاتفًا:
- لن يلقى أحد مصرعه، وكل ما سيفعله إغلاق الشواطئ هو أن يجذب إلينا عشرات من محرري الصحف، في محاولة لمعرفة سبب ما حدث.
قال (برودي) في توتر:
- حتى لو حضروا فلن يجدوا ما يكتبونه، وسيكون هذا خير دعاية لنا.
هتف (فوجان):
- وماذا لو وجدوا شيئًا؟
ثم حاول السيطرة على أعصابه، وهو يستطرد:
- اسمع يا (مارتن).. لو أنك ترفض الاستماع إلى صوت العقل، فلتستمع إليَّ كصديق.. إنني أواجه ضغوطًا ضخمة، وعملي ليس سهلًا، بل يزخر بالمتاعب والتعقيدات، فافعل ما أطلبه منك مرة واحدة فقط، وسأعتبر ذلك جميلًا لا يُنسى.
تطلَّع إليه (برودي) لحظات، محاولًا استشفاف ما يعتمل في أعماقه، ثم لم يلبث أن قال في حزم:
- معذرة يا (فوجان).. لا يمكنني هذا، وإلا فسأكون قد أهملت وظيفتي..
قال (فوجان) في عصبية:
- ولو لم تفعله فلن تكون لديك وظيفة قريبًا.
صمت (برودي) لحظة، ثم قال:
- لا أظنك تمْتلك سلطة فصل أي شرطي من عمله.

قال (فوجان) في حدة:
- سترى أنني أستطيع، فميثاق مدينة (أميتى) يمنح المجلس المنتخب سلطة إقالتك.
قالها وهو يخرج من جيبه الميثاق، فقرأ (برودي) الفقرة التي أشار إليها، ثم اعتدل قائلًا:
- يبدو أنك لم تنتبه إلى تلك الفقرة جيدًا يا (فوجان)، فهي تحتم وجود سبب وجيه لفصلي.
قال (فوجان) متوترًا:
- لست أحب أن نبلغ هذا القدر يا (مارتن)، بل إنني لم أتصوّر أن يبلغ بنا النقاش هذه الدرجة، بل ظننت أنك ستوافق، فور معرفتك أن هذه رغبتي، ورغبة المجلس المنتخب.
- كله؟
- الأغلبية على الأقل.
- مثل من؟!
- لن أخبرك الأسماء، ولكن يكفي أن تعلم أن المجلس يساندني، وهو مستعد لإقالتك، ووضع آخر مكانك.
لم يسبق لـ (برودي) أبدًا أن رأى (فوجان) بهذا الوجه العدواني القبيح، ولقد أدهشه ذلك حقًا، ولكنه قال في هدوء:
- أهذا ما تريده حقًّا يا (فوجان)؟
شعر (فوجان) برائحة الظفر، فقال في حماس:
- نعم يا (مارتن)، وثق أنك لن تندم على هذا أبدّا.
هزَّ (برودي) رأسه، وقال:
- فليكن.. صحيح أن الأمر لا يروق لي، ولكنه رأي الجميع.
ابتسم (فوجان) في ارتياح، وهو ينهض لمغادرة المكتب قائلًا:
- شكرًا يا (مارتن).. لن ننسى لك هذا أبدًا.
سأله (برودي):

- وماذا عن (فوت) وضيوفه؟
لوَّح (فوجان) بكفه، قائلًا:
- سأقنعهم بالنظر إلى المصلحة العامة، فهي مصلحتهم أيضًا.. أليس كذلك؟ المصلحة العامة؟!..
.. لم يدرك (برودي) ما الذي يقصده الجميع بالمصلحة العامة، حتى وهو يجلس في مطبخ منزله، يراقب زوجته (إلين)، التي عادت من عملها بالمستشفى على التو، وراحت تعد بعض اللحم المفروم للعشاء، ثم لم يلبث أن سألها في اهتمام:
- هل بلغتك أخبار مصرع (كريس)؟
أجابته في أسف:
- نعم، ولكنها أوَّل مرة يحدث فيها هذا في المنطقة.. ولكن ماذا تنوي أن تفعل؟
قال في ضيق:
- لا شيء
سألته في دهشة:
- حقًا.. ألا يوجد ما يمكن أن تفعله؟
هزَّ رأسه مجيبًا:
- يوجد الكثير من الناحية النظرية، ولكن الجميع يرفضون اتخاذ أية إجراءات، ويؤكدون أن شيئًا لن يحدث، حتى (لاري فوجان).
هزَّت كتفيها، وقالت:
- ربما كانوا على حق، فـ (لاري) بعيد النظر، ولا ريب أنه يعرف القرار الأفضل، في مثل هذه الظروف.
مطَّ شفتيه في ضيق، وغمغم:
- ربما.
ولكنه كان يشعر في أعماقه أن الكارثة قادمة، وكان هذا إحساسه..

.. أو هي نبوءته.

∞∞∞∞∞

3- الهجوم المفترس..

ظلَّت الأمور هادئة صافية، طوال الأيام التالية وارتفعت الحرارة بعض الشيء، وهبّ النسيم اللطيف من الجنوب الغربي، فداعب أمواج البحر الناعمة، وبدأت أفواج المصيفين تفد إلى (أميتي)، في يوم الأحد، العشرين من يونيو، حيث حصلت المدارس الخاصة في (نيويورك) على إجازاتها الصيفية، وبدأت عقود المستأجرين، الذين يحتلون المصيف من منتصف يونيو، وحتى منتصف سبتمبر، من كل عام، وامتلأت شوارع (أميتي) بالناس، وازدحمت شواطئها بالبشر، وأعلن الصيف قدومه فوق أجسام موفورة الصحة، لطبقة من الأثرياء، الذين تعتمد عليهم (أميتى) في معيشتها، حتى العام التالي..

.. وراح الأطفال يلعبون ويلهون فوق الرمال، على حافة البحر، يبنون القلاع، ويتسابقون في مرح وسعادة..

.. ومن بين هؤلاء الأطفال كان هناك طفل في السادسة من عمره، راح يلقي ما جمعه من أصداف في الماء، قبل أن يتجه إلى أمه، ويرقد إلى جوارها على الرمال، مغمغمًا:

- ماما.. هل أنت نائمة؟

أجابته أمه، وهي تحجب الشمس بيدها عن عينيها:

- لا يا صغيري، ماذا تريد؟

- أشعر بالملل.

- كيف يمكنك أن تشعر بالملل، ولم نبلغ حتى شهر يوليو؟

- إنني أشعر بالملل فحسب، ولا أجد ما أفعله.

- أمامك الشاطئ كله لتلعب فوقه.

- أعلم هذا، وعلى الرغم منه أشعر بالملل.

- لماذا لا تلعب بالكرة؟
- مع من؟.. لا يوجد أحد هنا.
- الشاطئ يزدحم بالناس.. ابحث عن (هاريس)، أو (تومي).
- إنهما ليسا هنا.. لا أحد هنا، وأنا أشعر بالملل.. هل يمكنني السباحة؟
- لا يا (أليكس).. الماء مازال باردًا.
- كيف تعرفين هذا؟
- إنني أعرف فحسب، ولا يمكنك الذهاب وحدك.
- هل تأتين معي؟
- في الماء؟.. لا بالطبع.
- أريدك أن تراقبيني على الشاطئ فحسب.
- (أليكس).. ماما متعبة.. ألا يمكنك أن تجد شيئًا آخر تفعله؟
تنهَّد الصغير في يأس، وقال:
- هل يمكنني أن أستخدم المرتبة المطاطية؟.. لن أتعمّق، ولن أسبح.. فقط سأرقد فوقها.
اعتدلت الأم في ضجر، وألقت نظرة على السبَّاحين، الذين وقفوا على مسافات بعيدة من الشاطئ، والماء يبلغ خصورهم فحسب، في حين قال ابنها في حزن:
- لو أن أبي هنا لسمح لي بذلك.
قالت في صرامة:
- (أليكس).. ليست هذه هي الطريقة، التي ستجعلني أوافق على ما تريد.
ثم تنهَّدت وأضافت:
- ولكن لا بأس.. خذ المرتبة المطاطية، ولكن لا تسبح، ولا تتعمّق كثيرًا.
هتف في سعادة:

- أوافق.
وأسرع يحمل المرتبة المطاطية، ودفعها فوق سطح البحر، ثم ألقى جسده فوقها في سعادة، وراح يضرب الماء بيديه من الناحيتين، وهو يسبح موازيًا للشاطئ..
.. أو أنه كان يظن هذا..
.. لقد راح تيار خفيف يجذبه تدريجيًّا إلى الداخل، بعيدًا عن الشاطئ، إلى منطقة انحدار مفاجئ، يبلغ عمقها ما بين خمسة عشر إلى عشرين مترًا..
.. وهناك كانت السمكة العملاقة تسبح تحت السطح، وذيلها يتموَّج في ليونة، وعيناها تبحثان وسط ظلام القاع عن طعام..
.. وفجأة شعرت بالذبذبات..
.. كان الطفل راقدًا فوق المرتبة المطاطية يحرِّك ذراعيه في بطء، ويضرب الماء بقدميه في قوة، وهو يتطلّع في سعادة إلى أمه، التي بدت أقرب إلى النائمة، وهي ترقد فرق منشفتها، ثم لم يلبث أن انتبه إلى أنه يبتعد عن الشاطئ، وخشي أن تنتبه أمه أيضًا إلى هذا، فتأمره بالعودة إلى الشاطئ، لذا فقد زاد من سرعته، في محاولة لبلوغ الشاطئ، قبل أن تنتبه أمه..
.. وارتفعت السمكة الرهيبة نحو مصدر الذبذبات، وشعرت بمزيد من الضوء، وهي ترتفع، وزادت من سرعتها تدريجيًّا، مع ازدياد سرعة وقوة الذبذبات..
.. ثم توقف الطفل عن التجديف بقدميه، بعد أن أرهقه التعب، وترك ذراعيه يسترخيان على جانبي المرتبة المطاطية، فتوقفت الذبذبة، وارتبكت السمكة الهائلة، فتوقّفت، وراحت تدير رأسها في كل مكان، بحثًا عن مصدر الذبذبات، حتى عاد الطفل إلى ضرب الماء بذراعيه وقدميه مرة أخرى..

.. وهنا انقضت السمكة المخيفة، وانفتح الفكان عن آخرهما، و....

.. وانتهى الأمر بغتة..



وهنا انقضت السمكة المخيفة، وانفتح الفكان عن آخرهما، و...

.. وانتهى الأمر بغتة...

ثم غاصت السمكة في الماء بسرعة، كما ظهرت فوقه، حتى أن أحدًا لم ينتبه إلى ما حدث، فيما عدا رجلا كان يداعب ابنه في الماء، ولمح ما حدث بطرف عينه، فالتفت إليه في سرعة، ولكنه لم ير سوى منطقة اضطراب وأمواج على هيئة دائرة، مما جعله يهتف في قلق:

- هل رأيت هذا!؟.. هل رأيت هذا؟

سأله ابنه في حيرة، وهو ينظر إلى نفس النقطة، التي ينظر إليها هو:

- ماذا يا أبي؟.. رأيت ماذا؟

بدا الرجل شديد التوتر، وهو يلوِّح بذراعيه، قائلًا:

- هناك قرش.. أو حوت.. أو شيء ما.. شيء ضخم هائل.

التقطت أذنا أم الطفل تلك العبارة، وفتحت عينيها لترى الرجل وابنه يعدوان نحو الشاطئ، فاعتدلت تتساءل عما حدث، ثم لم تلبث أن تذكَّرت ابنها، فقفزت ببصرها إلى البحر، واتسعت عيناها في رعب، وصرخت:

- أليكس.

وكان هذا يكفي..

∞∞∞∞∞

ارتفع رنين الهاتف، في منزل (برودي)، فهتفت زوجته (إلين):

- سأجيب أنا.

قالتها دون أن تخطو خطوة واحدة نحو الهاتف كعادتها، فنهض هو من مقعده، والتقط سمَّاعة الهاتف، وقال:

- هنا الرئيس (برودي).

أتاه صوت أحد رجاله، يقول في توتر واضح:

- أنا (بيكسبي) يا سيّدي.. أظن أنه من الضروري أن تحضر إلى القسم على الفور.
سأله (برودي) في قلق:
- لماذا يا (بيكسبي)؟
تردَّد (بيكسبي)، على نحو يوحي أنه يفضِّل عدم الحديث هاتفيًّا، وقال:
- هنا امرأة.. في حالة هستيرية.
عاد (برودي) يسأل، وقد تضاعف قلقه:
- هستيرية؟!. لماذا؟
تردَّد (بيكسبي) مرة أخرى، قبل أن يجب:
- طفلها.. إنه.. أعني هناك.. على الشاطئ..
لم يكن (برودي) يحتاج إلى أن يكمل (بيكسبي) حديثه، فقد عاودته آلام معدته اللعينة، لتعلن له السبب، وامتلأت نفسه بمرارة لا حدّ لها، وهو يلقي اللوم على نفسه، وعلى (لاري فوجان) والمجلس اللعين..
.. لقد أراد اتخاذ الإجراءات اللازمة، وكان ينبغي أن يتجاهل ضغوطهم، وأن يقوم بواجبه، على الرغم من كل شيء..
.. ولكنه إنسان ضعيف.. غشاش.. مخدوع..
.. وسألته (إلين)، وهو ينهي المحادثة:
- ماذا حدث؟
أجابها في مرارة:
- لقد لقي طفل مصرعه.. تلك السمكة الملعونة التهمت ضحية أخرى.
هتفت (إلين) في هلع:
- يا إلهى.. لو كنت قد أغلقت الشاطئ، لما..

انتبهت فجأة إلى وقع ما ستقول عليه، فبترت عبارتها على الفور، إلا أنه أدرك ما تقصده، فغمغم في مرارة
- أعلم هذا.
قالها وانطلق إلى القسم على الفور، ولم يكد يبلغ موقف السيارات الخاص خلفه، حتى وجد (هاري ميدوز) هناك، ولقد فتح (ميدوز) باب سيارته، وجلس إلى جواره، وهو يقول:
- حظ سيء.. هل تعلم من بالداخل.. رجل من (التايمز)، واثنان من (نيوزداي)، وواحد من رجالى، وأم الطفل، والرجل الذي يقول إنه قد شاهد الحادث.
سأله (برودي) في توتر:
- وكيف وصل رجل الصحافة بهذه السرعة؟
هزَّ (ميدوز) رأسه، وقال:
- سوء الحظ، كما قلت لك.. لقد كان رجل (التايمز) على الشاطئ، وكذلك رجلا (نيوزداي)، فقد كانا ضيفين على بعض المصطافين، في عطلة نهاية الأسبوع، وعرفا الحادث خلال دقيقتين.
تنهَّد (برودي) في استسلام، وغمغم:
- ومتى حدث هذا؟
تطلَّع (ميدوز) إلى ساعته، وقال:
- منذ خمس عشرة أو عشرين دقيقة لا أكثر.
سأله (برودي):
- هل يعلمون شيئًا عن موضوع (كريس)؟
هزَّ (ميدوز) كتفيه، وقال:
- لست أدري.. مساعدي يعلم، ولكنه لن يتكلّم، أما الآخرين فلست أظن الوقت يكفى ليعرفوا شيئًا عن هذا.
غمغم (برودي):

- سيعلمون إن عاجلًا أو آجلًا.
تنهَّد (ميدوز)، وقال:
- سيضعني هذا في موقف حرج.
- أنت؟! لا تضحكني يا (ميدوز).
- إنني جاد يا (مارتن)، فلو عرف الآخرون بالقصة ستظهر (الليدر) بشكل سيئ.. أظنني مضطر لنشر قصة (كريس)؛ لحماية نفسى.
- وماذا ستقول عنها؟.. أعني كيف ستبرِّر عدم النشر؟
- لست أدري بعد.
- هل ستشير إلى (لاري فوجان)؟
- لن يمكنني هذا.
- وماذا عني؟
- لن أحملك المسئولية بالطبع، بل سأتصل بـ (كارل)، وسنحاول تدبير الأمر، و...
- وماذا عن الحقيقة؟
- الحقيقة؟!.. ماذا تعني؟
- أعني لماذا لا تذكر ما حدث بالفعل؟.. لماذا لا تقول: إنني أردت إغلاق الشاطئ وتحذير الناس، ولكن المجلس لم يوافق؟.. قل لهم: إنني جبان رعديد، لم أشأ المغامرة بوظيفتي، والقيام بواجبي كما ينبغي.. قل لهم: إن كل أصحاب النفوذ في (أميتى) قد تضافروا لمنع نشر الخبر، بحجة عدم إزعاج الناس بوجود سمكة قرش في الماء، تحب التهام الأطفال.
ربَّت (ميدوز) على كتفه، وقال في خفوت:
- لا تنهر يا (مارتن).. إنه لم يكن خطأ أحد منا بالتأكيد.. لقد اتخذنا قرارنا، وقامرنا، وخسرنا.. هذا كل شيء.
قال (برودي) في عصبية:

- عظيم.. هل تحب أن أذهب الآن إلى أم الطفل، وأعتذر لها بلباقة، على أننا لم نحسن استخدام ابنها كقطعة من النرد.
وغادر السيارة في غضب، وترك (ميدوز) يحاول انتزاع جسده الضخم منها، ثم يسرع الخطا خلفه، ثم توقّف فجأة، والتفت إليه، قائلًا في حدة:
- هل تعلم ما الذي أريد معرفته بالفعل يا (هاري)؟.. أريد معرفة صاحب القرار الحقيقي.. لقد خضعت أنا وأنت للقرار، وأعتقد أن (لاري فوجان) قد خضع له أيضًا.
- ولماذا تعتقد هذا؟
- لدى أسبابي.. قل لي: هل تعرف شيئًا عن شركاء (فوجان) في العمل؟
- إننا نعتقد أنه ليس له شركاء حقيقيون.
- أشك في هذا.. ولكن دعنا من هذه الفكرة الآن.
وصمت لحظة، ثم أضاف في حزم:
- أظن أنه من الأفضل أن تدخل من الباب الأمامي يا (هاري).. حفاظًا على المظاهر.
ودخل هو مكتبه من باب جانبي، ورفع بصره على أم الطفل، التي تجلس أمام المكتب، ممسكة منديلًا في يدها، ومرتدية روبًا قصيرًا فوق ثوب الاستحمام، وحافية القدمين..
.. وشعر (برودي) بعقدة ذنب هائلة، وهو يتطلّع إليها، ثم لم يلبث أن قدّم نفسه إليها في خفوت، ثم راح يلقى عليها الأسئلة التقليدية..
.. وأجابته السيّدة بأنها لم تر شيئًا، ولكنها لم تعثر على طفلها في البحر أو خارجه، وإنما عثرت على بقايا ممزّقة لمرتبته المطاطية، ثم جاء الرجل الذي شاهد ما حدث، ووصف ما ظنّ أنه شاهده، حتى سأله (برودي) على نحو مباشر:

- إذن فأنت لم تر ذلك القرش في وضوح.
تردَّد الرجل، وهو يقول:
- لا.. لست واثقًا من هذا.. ولكن ماذا يمكن أن يكون ما حدث؟
وفي روتينية، أجاب (برودي):
- هناك احتمالات كثيرة، كأن يخرج الهواء من المرتبة المطاطية، فيغرق الصبي، أو..
كان يعلم أنه يخدع نفسه قبل أن يخدعهم، لذا فقد جاءت عبارته متخاذلة، وأسعده أن قاطعته الأم هاتفة:
- ولكن (أليكس) يسبح جيّدًا.
وقال الشاهد:
- وماذا عن الصخب الذي أصاب سطح الماء؟
عاد (برودي) يقول في تخاذل:
- ربما فعل الطفل هذا، وهو يغرق.
قالت أم الطفل في حدة:
- دون أن يصرخ طالبًا النجدة، أو يطلق حتى صيحة واحدة؟!.
كان رأيها منطقيًا تمامًا، فغمغم (برودي):
- سنكشف ما حدث على أية حال.
سأله الرجل:
- ماذا تعني؟
أجاب بسرعة:
- الذين يغرقون في البحر يلفظهم البحر على الشاطئ، و...
بتر عبارته على الفور، عندما رأى ذلك الذعر، الذي ارتسم على وجه الأم، فتمتم وهو يلعن غباءه:
- إني آسف.
ولكن المرأة انخرطت فجأة في بكاء حاد، زاد من شعوره بالذنب والمرارة، فترك المرأة والرجل في مكتبه، وخرج إلى القسم، وهناك

وجد (ميدوز) يستند إلى الحائط، وهناك شاب يرتدي ثوب بحر، وفوقه قميص منقوش، رجّح هو أنه مندوب (التايمز)، كما كان هناك رجلان يجلسان على مقعد خشبي طويل، وقد انهمكا في الحديث، في حين وقف (نات) محرّر (الليدر) يتحدث مع (بيكسبي)، ولم يكد الجميع يلمحون (برودي) حتى توقّفوا عن الحديث، والتفتوا إليه، فبادرهم قائلًا:
- ما الذي يمكنني أن أفعله لكم؟
تقدم نحوه الشاب الوسيم، وقال:
- أنا (بيل وايتمان)، من (نيويورك تايمز)، ولقد كنت على الشاطئ.
سأله (برودي):
- وماذا رأيت؟
أسرع أحد مراسلي (نيوزداي) يقول:
- لا شيء.. لقد كنت هناك، ولم ير أحد شيئًا، فيما عدا ذلك الرجل في مكتبك.. هو وحده يقول: إنه قد رأي ما حدث.
قال (برودي):
- ولكنه ليس واثقًا مما رأى.
اندفع مندوب (التايمز) يقول:
- هل أنت على استعداد للتصريح بأن سبب الحادث سمكة قرش؟
هزَّ (برودي) رأسه نفيًا، وقال:
- لست مستعدًا للتصريح بشيء بعد، وأقترح أن تحذو حذوي، حتى نعرف الحقيقة.
قال الشاب في سخرية:
- وماذا تقترح أن نقول؟.. هل نشير إلى أنها حادثة اختفاء غامضة في البحر، مثلما يحدث في مثلث (برمودا) مثلًا؟

حاول (برودي) السيطرة على أعصابه، وهو يقول:
- اسمع يا مستر (وايتمان).. إننا لا نملك أية أدلة، والشاهد الوحيد يقول إنه رأى مجرَّد اضطراب على سطح الماء، ويظن أنه قد رأى شيئًا فضيًّا كبيرًا، ربما يكون سمكة قرش، وهو لم ير في حياته سمكة قرش حقيقية، وهذا يعني أن كل ما لدينا هو بلاغ عن طفل مفقود، من الممكن أن يكون قد غرق، أو اختطف، ولكن ليس...
بتر عبارته مع صرير إطارات سيارة تتوقَّف خارج القسم في عنف، ثم لم يلبث (هندريكس) أن اندفع إلى داخل القسم، وهو يرتدي ثوب استحمام، والماء ما يزال يقطر من جسده، وهتف:
- سيّدي.. لقد وقع حادث آخر..
التفت إليه مندوب (التايمز)، يسأله في سرعة:
- ومتى وقع الحادث الأوَّل؟
لم يشأ (برودي) منح (هندريكس) فرصة للتفكير أو الجواب، لذا فقد أسرع يقول:
- كنا نناقش أمر هذا الحادث الآن يا (ليونارد)، ولست أحب أن تتسرّع أنت أو غيرك باستنتاج غير منطقي، أو غيره، فمن الممكن أن يكون الطفل قد غرق، أو...
قاطعه (هندريكس) في انفعال شديد:
- طفل؟!.. أي طفل يا سيّدي.. إنه رجل.. رجل لقي مصرعه منذ خمس دقائق فحسب..

∞∞∞∞∞

حدَّق الجميع في وجه (هندريكس) في ذهول، في حين تملّك الانفعال الشديد هذا الأخير، فراح يهتف مستطردًا:

- لقد كان أمرًا بشعًا، رهيبًا.. كان ذلك المسكين يسبح على مقربة من الشاطئ، ثم أطلق صرخة عالية، واختفى رأسه تحت الماء، ثم برز مرة أخرى، وهو يقول شيئًا مبهمًا، وعاد يغوص في الماء، وراحت المياه تتناثر في عنف، ثم خرجت منها نافورة من الدم، وأخذت تلك السمكة اللعينة تهاجم مرات ومرات، ومرات.. يا إلهي!!.. إنها أضخم سمكة قرش رأيتها في عمري كله.. إن حجمها في حجم سيارة نقل كبيرة.. لقد حاولت إنقاذ الرجل، ولكن.. ولكن..

راح يلهث، أمام العيون المحدّقة فيه، ثم هزّ رأسه في مرارة، متابعًا:

- لقد رحلت السمكة، وتركت بقايا الرجل.. أقصد أشلاءه، و...

سأله (برودي):

- هل استدعيت سيارة إسعاف؟

هزَّ (هندريكس) رأسه نفيًا، في حين قال مراسل (التايمز) في حدة:

- سيارة إسعاف؟!.. ألا يبدو هذا كمن يُغلق الحظيرة، بعد رحيل الحصان؟

التفت إليه (برودي)، يقول في خشونة:

- اغلق فمك من فضلك.. (بيكسبي).. اطلب المستشفى، وأنت يا (ليونارد).. هل أنت في حالة تسمح بالعمل؟

هزَّ (هندريكس) رأسه إيجابًا، فقال (برودي):

- ارتد ملابسك إذن، وابحث عن بعض اللافتات لإغلاق الشاطئ.. أظنك ستجد هذه اللافتات في المخزن مع غيرها، ولو لم تجدها فاصنع بعضها بأية طريقة، المهم أن نُغلق تلك الشواطئ.. هل تفهم؟.. هذا هو المهم.

كان قرارًا حكيمًا، ولكن..

.. بعد فوات الأوان.

∞∞∞∞∞

4- الفضيحة..

لم يكد (برودي) يصل إلى مكتبه، في السابعة من صباح الاثنين، حتى سأل (هندريكس) عن صحف الصباح، ثم جلس خلف مكتبه، وأمسك عدد (نيويورك تايمز) في اهتمام، ورأى الخبر بحروف كبيرة إلى اليمين:

- قرش يقتل ضحيتين في (لونج ايلاند).. من (وليام - ف - وايتمان)، مراسل (نيويورك تايمز) - (أميتي) - ٢٠ يونيو: قتل قرش طفلًا في السادسة من عمره، ورجلًا في الخامسة والستين، في حادثين منفصلين، يفصلهما أقل من الساعة الواحدة، عند شاطئ مصيف (أميتي)، وعلى الرغم من عدم العثور على جثة الطفل (ألكسندر كيتز)، فالمسئولون يؤكدون إن القرش قد قتله، وهناك شاهد، هو (توماس واجير) من (نيويورك)، يقول: إنه رأى شيئًا ضخمًا فضي اللون، يبرز من الماء، ويمسك الولد والمرتبة، ويغوص بهما في لحظة واحدة، كما قال (كارل سانتوس)، مسئول التشريح في (أميتي)، إن آثار الدماء على المرتبة المطاطية تؤكِّد أن الطفل قد قُتِلَ، أما بالنسبة للضحية الثانية (موريس كاتر)، فقد كان هناك على الأقل خمسة عشر شاهدًا عند مصرعه، على بعد نصف كيلو متر تقريبًا، من مكان الحادث الأوَّل، و.....

وراح المقال يصف ما حدث بالتفصيل، ويضيف آراء علماء البحار، حول ندرة وجود القرش بالقرب من مثل هذه الشواطئ، وعن أنواع القروش، ولكن المقال لم يشر لحسن حظ (برودي) - إلى حادث (كريس)، مما خفّف من وقعه قليلًا عليه، إلا أنه لم يكد ينتهي من قراءته، حتى وجد (ميدوز) أمامه، يسأله:

- هل قرأت المقال؟
أزاح (برودي) المقال جانبًا، وهو يقول:
- نعم.. انتهيت منه على التو.. إنهم لم يذكروا حادث (كريس).
أجابه (ميدوز):
- ولكن أنا فعلت.
ثم ناول (برودي) نسخة من جريدة (أميتي ليدر)، التي نشرت حادث (كريس)، كإضافة إلى حادثي الشاطئ، ثم أشارت إلى أن المسئولين في المجلس المنتخب قرّروا إخفاء الأمر عن الناس، من أجل الصالح العام، وأضافت أن (برودي) أغلق الشاطئ، بعد الحادثين الأخيرين، وأنه لم يكن يجد جدوى في إغلاقه قبل هذا، وهنا هتف (برودي) في غضب:
- ما هذا يا (هاري)؟.. إنك بهذا تجعلني مسئولًا عن عدم إغلاق الشواطئ منذ البداية، على الرغم من معرفتك الحقيقة.
لوَّح (ميدوز) بيده، قائلًا:
- لم أجد غيرك، ف (فوجان) خارج المدينة، ولا داعي لنشر غسيلنا القذر على الناس، ثم انني نشرت رأي (مات هوبر)، خبير القروش، الذي أكّد استحالة حدوث هجوم آخر، وهذا يقلِّل من مسئوليتنا.
زفر (برودي) في ضيق، ثم سأله:
- وهل يظن (هوبر) هذا أن كل ذلك بفعل قرش واحد؟
- إنه غير واثق، ولكنه يرجِّح كونه قرشًا واحدًا.
- أنا أيضًا أرجِّح هذا، فلقد اتصلت أمس بحراس الشواطئ في (مونتوك)، وسألتهم إذا ما كانوا قد لاحظوا وجود أية قروش، فأكَّدوا أنهم لم يروا قرشًا واحدًا في منطقتهم، ولكنهم وعدوا بارسال قارب استطلاع، فعدت للاتصال بهم بعد ساعتين، وأكّدوا على أنهم جابوا المنطقة كلها، دون أن يروا قرشًا واحدًا،

ثم إن القروش التي قد تأتي إلى المنطقة صغيرة، أو متوسطة الحجم، لا تضايق الناس عادة، ولكن القرش الذي رآه (ليونارد) ليس كذلك حتمًا.
- هذا صحيح، ولهذا يقترح (هوبر) ألا نكتفى بإغلاق الشواطئ، وإنما ينبغي أن نسعي لاصطياده أيضًا.
- بماذا؟.. إنني لا أملك زورقًا للشرطة، والصيادون المحترفون يتقاضون مائة وخمسين دولارًا في اليوم على الأقل، و...
قاطعتهما ضجة خارج المكتب، تعالى خلالها صوت (بيكسبي) بلهجة اعتراض، أعقبه صوت امرأة غاضبة، ثم اقتحمت امرأة المكتب بغتة..
كانت أم الطفل (ألكسندر)، وهي تمسك نسخة من صحيفة ما، وظهر خلفها (بيكسبي)، يقول مرتبكًا:
- لقد حاولت منعها أيها الرئيس، ولكن..
نهض (برودي)، قائلًا:
- لا بأس.. تفضّلي يا مسز (كيتز).. هل هناك خدمة يمكنني..
قبل أن يكمل عبارته هوت المرأة على وجهه بالجريدة المطوية، في صفعة أذهلته بأكثر مما آلمته، ثم تركت السيَّدة الجريدة تسقط أرضًا، وهي تصرخ:
- إذن فقد كنت تعلم.. كانت هناك ضحية سابقة، ولم تحاول إنذارنا أو تحذيرنا.. يا لك من وغد.



قبل أن يكمل عبارته هوت المرأة على وجهه بالجريدة المطوية، في صفعة أذهلته بأكثر مما آلمته...

ارتفعت المرارة إلى حلق (برودي)، فقد كان هذا صحيحًا، على الرغم من أنه ليس كل الحقيقة، فابتلع مرارته، وقال:

- لم أكن أعلم بالضبط يا مسز (كيتز)، الواقع أن..

ولكنها قاطعته صارخة:

- أنت قتلت (أليكس).

راحت تعوي وتصرخ، على نحو سمعه الجميع حتمًا، في القسم، وموقف السيارات خارجه، والشارع، والشاطئ.. وكان من الواضح أنها كانت تبكي منذ فترة طويلة، ما يؤكِّد معرفة الجميع بما حدث، ولقد راحت تصرخ في هستيرية:

- أنت قتلته.. لن أغفر لك.. لن أتركك أبدًا.

حاول أن يلمس كتفها مهدّئًا، وهو يقول:

- رويدك يا سيّدتي.. امنحيني فرصة الشرح.

ولكنها ابتعدت عن يده، صارخة:

- ابعد يدك القذرة عنى.. لقد كنت تعلم.. عرفت ولم تتكلم، وتركت طفلًا جميلًا يلقى مصرعه.. طفلًا في السادسة من عمره.. ابني.. إنك رجل شرير.. شرير.

هتف (برودي):

- يكفي هذا يا مسز (كيتز).. أنت لا تعرفين الحقيقة.. سلى (ميدوز).

صرخت:

- سيؤيدك بالطبع، فهو صديقك.. وربما اتفقتما على قرار الكتمان معًا.. قل لى: كم ربحت من هذا؟

تراجع (برودي)، هاتفًا في فزع:

- ربحت؟!

صرخت:

- نعم.. من منحك رشوة كافية، حتى لا تتكلّم.. أخبرني، وسأدفع لك المزيد.. أخبرني لماذا لم تحاول إنذارنا؟.. لماذا؟

أجابها في مرارة:

- لأننا لم نتصوَّر أن يحدث هذا ثانية.

نطقها في سرعة واقتضاب، وكأنه يلقى ما لديه دفعة واحدة، وحدّقت المرأة في وجهه، وكأنها تبحث في ملامحه عن الحقيقة،

ثم لم تلبث ثورتها كلها أن تلاشت بغتة، كما لو كانت طاقتها قد نفدت، وتهالكت على أقرب مقعد إليها، وراحت تبكي بحرقة، ولكنها تركت في أعماق (برودي) جرحًا غائرا..
.. جرحًا لا يندمل..

∞∞∞∞∞∞∞

كانت مسز (كيتز) قد انصرفت منذ قليل، مع طبيب المستشفى، عندما تنهّد (برودي) في مرارة، وقال:
- الساعة لم تتجاوز التاسعة بعد، ولو استمرّ اليوم على هذه الوتيرة، فأظنني سأصاب بانهيار عصبي حاد.
قال (ميدوز):
- لا تأخذ ما قالته بمحمل الجد، فلقد كانت منهارة، و..
- أعرف يا (هاري).. أعرف.. ولكن المشكلة أن رأيها يتوافق مع رأيي في نفسى.
- لا يا (مارتن).. لا تلُم نفسك.
- أعلم أنني أستطيع إلقاء اللوم على (لاري فوجان)، أو حتى عليك أنت، ولكنني أعلم أني كنت أستطيع منع مصرع طفل ورجل، ولم أفعل شيئًا لذلك.
لم يكد يتمّ عبارته، حتى ارتفع أزيز جهاز الاتصال الداخلي إلى جواره، وأتاه صوت أحد رجاله يقول:
- إنه مستر (لاري فوجان) على الهاتف.
التقط (برودي) سمَّاعة الهاتف، وقال في لهجة تحمل مزيجًا من السخرية والمرارة:
- أهلًا يا (لاري).. هل قضيت إجازة ممتعة؟
أجابه (فوجان)، دون أن ينتبه إلى رنة السخرية في حديثه:

- نعم.. حتى الحادية عشرة مساءً فقط، حتى سمعت الأخبار، ولقد أردت الاتصال بك، ولكنني رأيت أنك قد قضيت يومًا عصيبًا، ولا داعي لأن أضيف المزيد إلى متاعبك.
قال (برودي) في ضجر:
- حسنًا فعلت.
إنني أشعر بالأسف يا (مارتن).
- حقًا؟
- بالتأكيد.. لقد اتصل بي اثنان من كبار المستأجرين، وأنهيا تعاقدهما معي، على الرغم من تهديدي لهما باللجوء إلى القضاء، ومازال لدي عشرون منزلًا لم تؤجّر بعد، خلال أغسطس، والناس يؤكدون أنهم لن يقضوا إجازتهم في (أميتي).
- أهذا هو كل ما يهمك يا (لاري)؟
- إنه عملي يا (مارتن).
- ابحث عن عمل آخر إذن، في هذا الموسم على الأقل، فلقد أغلقت الشاطئ.
- وإلى متى يستمرّ قرارك هذا؟
- بضعة أيام.. أو أسابيع.
- خطأ يا (مارتن).. هل تعلم أن الأسبوع القادم ينتهي الرابع من يوليو؟
- نعم.. أعلم.. وأعلم أنها إجازة للدولة كلها.
- عظيم.. لو أمكننا تحسين المصيف، في الرابع من يوليو، فسنستطيع إنقاذ (أغسطس) أيضًا.. أليس كذلك؟
- هل تساومني يا (لاري)؟
- لا.. لا.. إني أفكّر بصوت مرتفع.. أو أدعو الله بصوت عال.. المهم.. كيف ستعرف أن ذلك الشيء، قد رحل؟

- لم أستقرّ على الوسيلة بعد، ولكن أحد أصدقاء (ميدوز) خبير بأسماك القرش، وهو يؤكّد أنه بإمكاننا اصطياد السمكة.. ما رأيك في أن تمنحنا مائتي دولار، لنستأجر قارب (بن جاردنر) ليوم أو يومين؟ لست أدري إذا ما كان قد اصطاد قروشًا من قبل أم لا، ولكن يمكننا أن نحاول.
- نعم، يمكننا أن نحاول يا (مارتن).. أخبر (ميدوز) أنني سأحضر النقود.
أنهى (برودي) المحادثة، ثم التفت إلى (ميدوز)، وقال:
- عجبًا!!.. (لاري فوجان) هذا ثري للغاية، وعلى الرغم من هذا فهو يتحدّث عن المشكلة كما لو كانت مشكلة حياة أو موت.. تُرى هل لهذا علاقة بشركائه الغامضين؟
هزَّ (ميدوز) كتفيه، وقال:
- من يدري؟
عقد (برودي) حاجبيه، وهو يقول في توتر:
- نعم يا (هاري).. من يدري؟.. ولكنني أكاد أقسم أن (لاري) هذا يحجب خلفه سرًّا رهيبًا.
لم يجب (ميدوز)، وإنما بقي صامتًا، وشيء ما في أعماقه يرتجف، ويشعر أن (برودي) على حق..
.. على حق تمامًا..

∞∞∞∞∞∞

5- القارب..

انتشر الضباب بشدة، في صباح الخميس، حتى أن أشعة الشمس عجزت عن اختراقه طوال النهار، إلى أن بدأ يتبدَّد في الخامسة، فاستقل (هندريكس) سيارته، وخرج يتفقّد الشاطئ، ولقد أدهشه أن يجد سيارة الرئيس (برودي) هناك، ثم لم يلبث أن لمح الرئيس نفسه جالسًا عند الشاطئ يتطلّع بمنظاره المقرّب إلى البحر، متابعًا حركة قارب صغير، يتهادى فوق سطح الماء في بطء، فاتجه إليه يسأله:

- ماذا تفعل يا سيّدي الرئيس؟

أشار (برودي) إلى الزورق، قائلا

- إنني أحاول معرفة ما يفعله (بن جاردنر) في قاربه هناك، فالمفروض أنه يصطاد، ولكنني هنا منذ ساعة، ولم أر شيئًا يتحرّك على القارب قط.. انظر بنفسك.

تطلّع (هندريكس) عبر المنظار المقرّب إلى الزورق، ثم غمغم:

- هذا صحيح.. منذ متى وهو في البحر؟

- لقد أخبرني أمس أنه سيخرج للصيد في السادسة.

- هل خرج وحده؟

- لست أدري، ولكن الأمر يوحي بذلك.

- هل تحب أن نذهب ونتأكّد؟.. ما تزال أمامنا ساعتان، قبل غروب الشمس.

- وكيف سنذهب إلى هناك؟

- سأقترض قارب (تشيكرنج).. إن لديه قاربًا، من طراز (أكواسبورت).

شعر (برودي) بالتوتر، لمجرّد ذكر فكرة النزول إلى البحر، فمنذ طفولته كان البحر في نظره يمتلئ بالوحوش والكائنات المخيفة، ولكن واجبه دفعه إلى أن يقول:
- لا بأس.. ليس أمامنا خيار آخر، اذهب أنت لإحضار قارب، في حين سأسأل أنا زوجة (بن جاردنر)، فربما اتصل بها هو لاسلكيًّا.
وافترقا استعدادًا للقاء آخر..
.. في قلب البحر..

∞∞∞∞∞∞

عندما عاد (برودي) إلى المرفأ، كان (هندريكس) قد أعدّ الزورق، ولم يكد (برودي) يصعد إلى سطح الزورق، حتى سأله (هندريكس) في اهتمام:
- ماذا قالت زوجة (بن جاردنر)؟
- ولا كلمة.. قالت: إنها تحاول الاتصال به لاسلكيًّا منذ نصف الساعة، ولكنها تظن أنه قد أغلق جهاز اللاسلكي.
- أهو وحده؟
- نعم.. وحده تمامًا.
- هذا عجيب.
وهنا تدخَّل (ليونارد)، قائد الزورق، وقال:
- بل قل: إنه أعجب شيء بالنسبة لصياد، فلا أحد يغلق جهاز اللاسلكي، وهو في عرض البحر.
تبادل (برودي) مع (هندريكس) نظرة قلق، ثم قال:
- هيا يا (ليونارد).. انطلق بذلك الشيء.
قال (هندريكس) بشيء من الزهو:
- سأقوده أنا.
انطلقا بالزورق في سرعة ضايقت (برودي)، فقال في عصبية:

- أمن الضروري أن تنطلق بهذه السرعة؟
ابتسم (هندريكس)، وقال:
- هذا أفضل يا سيّدي.
لم يعترض (برودي) هذه المرة، وإنما راح يقاوم ذلك التوتر الذي يسري في عروقه، والذي تضاعف عندما اقتربا من قارب (بن جاردنر)، ووجداه راسيًا في المياه العميقة، فقال:
- لماذا يرسو (بن جاردنر) في منطقة عميقة كهذه؟
هزَّ (هندريكس) كتفيه دون أن يجيب، وأوقف الزورق إلى جوار قارب (بن جاردنر)، فازدرد (برودي) لعابه، وصعد إلى القارب، وهتف:
- هاي (بن).
لم يتلقّ جوابًا، فبدأ يبحث في القارب عن أي أثر للحياة، ولكنه لم يجد سوى دلو يمتلئ بأحشاء الأسماك والدماء، فسأل (هندريكس):
- ما هذا؟
أجابه (هندريكس):
- إنه طعم.. المفروض أن يلقيه في الماء، ليجذب القروش، ولكن من الواضح أنه لم يستخدم الكثير منه، و...
ارتفع من خلفهما فجأة صوت يقول:
- هنا (بريتي).. هل تسمعني يا (بن)؟
كان جهاز اللاسلكي هو مصدر الصوت، فقال (برودي) في توتر:
- إذن فجهاز اللاسلكي يعمل.
انتقل توتره إلى (هندريكس)، الذي قال
- ماذا حدث إذن؟.. إنه لا يمتلك زورق نجاة، ثم إنه يسبح كالسمكة، والقارب سليم يصلح للعمل، فماذا أصابه؟
أشار (برودي) إلى أربع فتحات في أرضية القارب، وقال:

- ما هذا؟
انحنى (هندريكس) يفحص الفتحات، ثم قال:
- إنه موضع حلقة المربط الصلب.. لقد انتزعت مساميرها الأربعة من مكانها بالقوة، فالخشب حولها مهترئ.. يا إلهى!.. أية قوة يمكنها انتزاع مثل هذا المربط؟
ارتجف (برودي)، وهو يتخيّل السبب، ثم اتجه إلى مؤخرة القارب، وتطلّع إلى الماء لحظات، ثم لم يلبث أن انحني يفحص خشب القارب في اهتمام، وهتف ب (هندريكس):
- انظر هنا.
أسرع إليه (هندريكس)، وتطلّع إلى عدد من الثقوب والفتحات العميقة، في الخشب، ثم إلى بقع من الدماء، حول تلك الثقوب، و (برودي) يقول:
- يا إلهي!.. هل يمكنك فحص هذه العلامات يا (هندريكس)؟
قال (هندريكس):
- نعم أيها الرئيس، ولكن عليك أن تمسك قدمي جيدًا.
أمسك (برودي) قدميه في قوة، ومال هو يفحص الثقوب، حتى لامس رأسه سطح الماء، فقال في قلق:
- لو جاء القرش الآن، لوجدني فريسة سهلة.



أمسك (برودي) قدميه في قوة، ومال هو يفحص الثقوب، حتى لامس رأسه سطح الماء..

ارتجف (برودي) وهو يقول:

- لا تذكر هذا.

صمت (هندريكس)، وهو يفحص الثقوب، ثم هتف:

- يا إلهى!.. ناولني مدية أيها الرئيس.
لم يكن من السهل أن ينتزع (برودي) مديته، وهو يمسك قدمي (هندريكس)، ولكنه بذل جهده حتى فعل، وناول المدية لـ (هندريكس)، الذي راح يعبث بها في الثقوب قليلًا، ثم قال بانفعال:
- هيا أيها الرئيس.. ارفعنى.
جذبه (برودي) ثانية إلى القارب، وسأله في لهفة:
- ماذا وجدت؟
ناوله (هندريكس) مثلثًا أبيض لامعًا، له حروف مشرشره كالمنشار، وهو يقول في توتر:
- إنها إحدى أسنان القرش يا سيّدي.. يبدو أن اللعين قد التهم (بن).
قال (برودي) بصوت مرتجف:
- وهل بقى لديك أدنى شك؟
ثم التقط نفسًا عميقا، وأضاف:
- هيا.. سنترك قارب (بن) هنا حتى الصباح، وسنعود الأن إلى الشاطئ.. هيا.
وكان يرتجف.
.. يرتجف بشدة..

∞∞∞∞∞∞

شعر (برودي) بدهشة بالغة، عندما بلغ الشاطئ ليجد (ميدوز) وشخصًا آخر في انتظاره، فهتف بـ (ميدوز):
- ألديك حاسة سادسة يا (هاري)؟
ابتسم (ميدوز)، وقال:

- إنه عملي.
ثم قدم رفيقه إلى (برودي)، قائلًا:
- هذا (مات هوبر)، الذي حدثتك عنه.
تطلَّع (برودي) في دهشة إلى (هوبر)، الذي بدا له أصغر سنًا مما كان يتوقّع، إذ كان في منتصف العشرينات، وسيمًا، برونزي اللون، أشقر الشعر، طويل القامة مثل (برودي) نفسه، ولكنه أكثر رشاقة وقوة، ولقد أضاف (ميدوز)، دون أن ينتظر تعليق (برودي):
- لقد استدعيته لمعاونتنا.
ثم أضاف في لهفة:
- ماذا وجدت في قارب (بن)؟
كاد (برودي) يخرج السنة من جيبه، إلا أنه لم يلبث أن تراجع، وقال:
- سأخبرك في القسم يا (ماري).
سأله (ميدوز):
- وهل سيبقى (بن) في عرض البحر طوال الليل؟ تنهّد (برودي)، وقال:
- نعم.. أعتقد هذا.
ثم أسرع إلى سيارته، وانطلق بها وحده، عائدًا إلى القسم، وبلغه قبل (ميدوز) و (هوبر)، فأمسك سمَّاعة الهاتف، واتصل بـ (سالى جاردنر) زوجة (بن)، التي لم تكد تسمع صوته، حتى سألته:
- أين (بن) يا (مارتن)؟
كان صوتها هادئًا، ولكنه أعلى من المعتاد، فأجابها:
- لست أدرى يا (سالي).
وهنا بدأ التوتر يسري في صوتها، وهو تقول:

- ماذا تعني بأنك لا تدري؟.. ألم تذهب إلى القارب؟
- بلى، ولكنه لم يكن هناك.
- (بن) أم القارب؟
- القارب كان في موضعه، ولكن بدون (بن).
- ماذا تعني؟
كانت قد بدأت تحتدّ في صوتها، وأسلوبها، وأدرك (برودي) أنها على وشك الانهيار، فقال لها، محاولًا جلب أكبر قدر من الهدوء إلى صوته:
- لحظة يا (سالي).
ثم نادي الضابط الواقف بالخارج، وقال:
- اتصل بمسز (جريس فيسنلي)، جارة (سالى جاردنر)، واطلب منها أن تذهب على الفور إلى منزل (سالي)، فهي تحتاج إلى شخص ما الآن، وسأخبرها أنا عن السبب فيما بعد.
دخل (ميدوز) و (هوبر) في هذه اللحظة، فأشار إليهما بالجلوس، وهو يتابع حديثه مع (سالي)، والتي سألته:
- هل بحثت داخل القارب؟
- نعم يا (سالي)، ولكنه لم يكن هناك.
- أين ذهب إذن؟.. إنه لن يغادر القارب وسط المحيط.. أليس كذلك؟
- بالطبع.
- إنه لم يسقط في الماء أيضًا، فلو فعل لصعد إلى السطح في بساطة.
- هل كان يمتلك زورقًا للنجاة يا (سالي)؟
- كلًا.
في هذه اللحظة سمع صوت (جريس) عبر الهاتف، ثم سألته (سالي) في دهشة:

- لماذا طلبت من (جريس) الحضور إلى هنا؟.
قالتها وانخرطت فجأة في بكاء حار، وكأنما أدركت حقيقة الموقف، أو اعترفت بها أخيرًا، وتناولت (جريس) سمَّاعة الهاتف، فشرح لها (برودي) الموقف في اختصار، وطلب منها عدم إخبار (سالي) بأمر القرش، ولكن (سالي) اختطفت سمَّاعة الهاتف وصاحت به:
- أنت المسئول يا (مارتن).. أنت طلبت منه اصطياد ذلك القرش.
شعر بالغضب من اتهامها هذه المرة، وقال في حدة:
- كفى يا (سالي).. لقد كان (بن) صيادًا محترفًا، يدرك ما يواجهه، ولقد وافق على أداء العمل، مقابل..
قاطعته صارخة:
- أنت المسئول.
- أنهيا المحادثة على الفور، فلم يكن مستعدًّا لمواجهة اتهام جديد، وتطلّع في توتر إلى (ميدوز) و (هوبر)، وقال الأوَّل:
- يبدو أن (بن) قد أصبح الضحية رقم أربعة.
غمغم (برودي):
- أعتقد هذا.
ثم أخبر (ميدوز) و (هوبر) عن كل ما حدث عند قارب (بن)، ثم ناول السنّ البيضاء لـ (هوبر)، الذي فحصها في اهتمام، و (برودي) يسأله:
- ما رأيك؟
أجابه (هوبر):
- إنه قرش أبيض، بالغ الضخامة.. يا إلى!.. كم يسعدني أن حضرت إلى هنا.. كان يمكنني أن أقضي حياتي كلها مع القروش، دون أن أرى قرشًا كهذا.

سأله (برودي):
- وكم يبلغ وزن هذه السمكة تقريبًا؟
مطَّ (هوبر) شفتيه، وهزّ كتفيه، قائلًا:
- حوالي ثلاثة أطنان.
أطلق (برودي) صفير دهشة، في حين التفت (ميدوز) إلى (هوبر)، وسأله:
ألديك فكرة عما يحتمل حدوثه؟
- من الواضح أن السمكة قتلته.
- كيف؟
- ربما سقط من على القارب، أو التفّ حبل الحربة حول قدمه، فسحبه القرش إلى الأعماق، أو هاجمه وهو منحن عند مؤخرة القارب، وهذا يفسّر وجود السنّ.
- ولكن لماذا هاجم القرش القارب.
- القروش ليست ذكية، والغرائز وحدها تحكم تفكيرها، مثل غريزة الجوع، والبحث عن الطعام.
- ولكن هذا ليس طعامًا.. إنه قارب طوله عشرة أمتار.
- بالنسبة للقرش لم يكن هذا قاربًا، بل مجرَّد شيء كبير يمكن أن يكون طعامًا.
- ولكنه لا يصلح كطعام.
- لن يعرف القرش هذا، حتى يجرِّب بنفسه، فالقرش الأبيض يختلف عن باقي الكائنات البحرية في أنه لا يخاف شيئًا، حتى ولو كان أكبر منه حجمًا، ويمكنه أن يهاجم كل شيء، وأي شيء تقريبًا.
سأله (برودي):
- هل لديك فكرة عن سبب بقائه هنا، طوال هذه الفترة؟.. معذرة، ولكن ينبغي أن أسألك أولًا عن مدى معلوماتك عن

المياه في المنطقة.
_ لقد نشأت هنا.
- هنا؟!.. في (أميتى)؟
- لا.. في (ساوث هامبتون).. لقد قضيت بها كل مواسم الصيف، طوال أيام الدراسة.
- كل مواسم الصيف؟!.. إذن فأنت لم تنشأ هنا فعليًّا.
كان يسعده أن يجد شيئًا يُميِّزه عن هذا الشاب، ولكن (هوبر) أجاب في بساطة:
- أعرف ما تقصده، ولكنني قضيت أوقاتًا كثيرة على هذا الشاطئ، وكتبت عنه بحثًا علميًّا، والواقع أن البيئة لا صلة لها ببقاء القرش أو انصرافه.
سأله (برودي)، وقد ضايقه أن يفقد كل مميزاته على هذا النحو:
- ما الذي يبقيه إذن؟
بدا جواب (هوبر) مخيفًا، وهو يقول:
- لا يمكنك العثور على جواب شاف.. أبدًا.
وتضاعف الخوف في أعماق (برودي).

∞∞∞∞∞∞∞

6- التوتر..

حدَّق (برودي) في وجه (هوبر) طويلًا، قبل أن يسأله في توتر:
- ماذا تعني بقولك هذا؟
أجابه (هوبر) في هدوء وبساطة:
- من المستحيل استنتاج أسباب وتصرفات القرش، فالقروش تأتي من الأفعال الشاذة ما يجعل الشاذ بالنسبة إليها طبيعيًّا، وأي شخص يغامر باستنتاج ما قد يقدم عليه القرش شخص أحمق.
غمغم (برودي) في توتر:
- عظيم.. لا يوجد ما يمكننا أن نستند إليه إذن.
هزَّ (هوبر) كتفيه، وقال
- يمكننا أن نحاول على الأقل، فهناك التغيرات في درجة حرارة المياه، أو التيارات البحرية، وغيرها، فلقد بقي هذا القرش في مكان واحد، ودائرة لا يزيد نصف قطرها على كيلو متر واحد، لمدة تزيد على الأسبوعين، فما الذين يعجبه في (أميتى) بالذات؟.. لماذا لم يهاجم أحدًا في (ساوث هامبتون)، أو (إيست هامبتون)؟
قال (ميدوز) مبتسمًا:
- (ميني إلدريدج)، رئيسة مكتب البريد تقول: إنها إرادة الله، وإننا نعاقب على خطايانا.
قال (هوبر):
- سيدهشك أن أوافقها على رأيها في الوقت الحالي، إلا أنني سآخذ في الوقت نفسه عينات من الماء، وسأحاول كشف

سلوك الأنواع الأخرى من الأسماك، وبالمناسبة، هل يمكنني أن أجد قاربًا؟
أجابه (برودي):
- يمكنك استخدام قارب (بن) المسكين، حتى أعمل على تسوية الأمر مع زوجته، ولكن هل تظن أنك قادر على اصطياد ذلك القرش؟
- إنني حتى لن أحاول، وأنا وحدي على الأقل.
- ماذا تريد أن تفعل إذن؟
- لست أدري، سأقرِّر فيما بعد.
- اسمع يا (هوبر).. إنني أريد القضاء على تلك السمكة، ولو لم تكن تستطيع هذا، فسنلجأ إلى شخص آخر.
قهقه (هوبر) ضاحكًا، وقال:
- إنك تتحدَّث كما لو كنت عضوًا في عصابة إجرامية.. من في رأيك يمكنه قتل مثل هذه السمكة؟
قال (برودي) في جدة:
- سنعثر على واحد حتمًا.. أخبرني يا (هاري): إنك تعرف كل ما يدور في المنطقة.. هل تعرف شخصًا يمكنه اصطياد ذلك القرش؟
فكّر (ميدوز) لحظات، ثم قال:
- ربما يوجد واحد، ولكنني لا أعرف الكثير عنه.. أظن أنه يدعى (كوينت)، وهو يعمل عند مرفأ خاص، بالقرب من (بروميد ايلاند)، وسأحاول معرفة المزيد عنه لو أردت.
قال (هوبر):
- اسمع أيها الرئيس، لا يمكنك أن تسعى للانتقام من سمكة.. إنها فكرة حقاء، فالسمكة مجرَّد مخلوق بلا عقل، يتبع غرائزه فحسب.

هتف (برودي) في غضب:
- اسمع يا هذا.. احتفظ بفلسفتك هذه لنفسك.. لقد قتلت تلك السمكة اللعينة رجلين وامرأة وطفلًا من (أميتي)، والجميع يطالبون بقتلها، ولن يهدأ لهم بال إلا عندما يرونها قتيلة، و....
قاطعه صوت أحد رجاله، عبر جهاز الاتصال الداخلى، وهو يقول:
- مكالمة لك أيها الرئيس، من مستر (فوجان).
التقط (برودي) سمَّاعة الهاتف، وهو يقول متهكمًا:
- عظيم.. هذا ما أحتاج إليه بالضبط.
ثم وضع السمَّاعة على أذنه، قائلًا:
- أنا (مارتن) يا (لاري).
أتاه صوت (فوجان) يقول في ود:
- كيف حالك يا (مارتن).. يبدو أنك تعمل لوقت متأخر.. لقد اتصلت بمنزلك، ولكنني لم أجدك هناك.
- هذا طبيعي يا (لاري)، فأنا المسئول عن الأمن هنا، وعن مصرع شخص كل عشرين دقيقة.
- لا تبالغ يا (مارتن).. لقد بلغتني أخبار (بن).
- ما الذي بلغك منها؟
- إنه مفقود.
- يبدو أن الأخبار تنتشر بسرعة.
- أأنت واثق من أن القرش هو السبب، في هذه المرة أيضًا؟
- لا يوجد تفسير آخر هذه المرة؟
- وماذا تنوي أن تفعل هذه المرة؟
كان صوت (فوجان) شديد التوتر هذه المرة، ولكن (برودي) أجابه في هدوء يُحسد عليه:

- سؤال جيد يا (لاري).. إننا نفعل كل ما بوسعنا لقد أغلقنا الشاطئ، و...
- هذا لا يكفي يا (مارتن).. هل جربت مرة أن تبيع بعض المنازل للأصحّاء، في مستعمرة للجزام؟
- لا يا (لاري).. لم أحاول هذا قط.
- أنت لا تدرك ما يحدث لى إذن.. في كل يوم يتصل بي بعض الناس؛ لإلغاء عقودهم في (أميتي)، ولم أنه تعاقدًا واحدًا منذ الأحد الماضي.
- وما المطلوب مني بالضبط؟
- يبدو أننا قد تسرّعنا بإغلاق الشاطئ يا (مارتن).
- هل تمزح يا (لاري)؟
- بالتأكيد لا يا (مارتن).. ما رأيك لو فتحنا الشاطئ في الرابع من يوليو؟.. إنه عيد الاستقلال، و...
- لقد فقدت عقلك حتمًا يا (لاري).. إني لن أفتح الشاطئ إلا بعد اصطياد تلك السمكة اللعينة وقتلها.
- وماذا عن الحواجز؟.. لقد أخبرني شخص ما أنهم يحمون الشواطئ في (أستراليا) بشبكات من الصلب.
شعر (برودي) بمزيج من الغضب والضجر والحنق، وخُيِّل إليه أن (فوجان) مخمور ولا شك، فقال محاولًا تمالك أعصابه:
- هل ترغب في مد أسلاك على امتداد ثلاث كيلومترات يا (لاري)؟.. لا بأس.. أرسل مليون دولار كبداية.
قال (فرجان) في توتر:
- وماذا عن دوريات الشواطئ؟.. يمكننا أن نستأجر بعض الأشخاص للقيام بدوريات منتظمة، و....
قاطعه (برودي) في غضب:
- تصبح على خير يا (لاري).

وأنهى المحادثة على الفور، فنهض (ميدوز) و(هوبر)، قائلين:
- أظن أنه من الأفضل أن ننصرف.
لم يعترض (برودي)، وإنما رافقهما إلى الخارج، ولكنه لم يكد يبلغ سيارتهما، حتى قال لـ (ميدوز):
- (هاري).. لقد نسيت قداحتك في مكتبي، تعال لتأخذها.
تبعه (ميدوز) في صمت، ولم يكد يدخل معه إلى المكتب، حتى أخرج قدَّاحته، وقال:
- إني لم أنسها يا (مارتن)، ما الذي تريد أن تقوله لي بالضبط؟
- أغلق (برودي) باب مكتبه، وقال:
- هل يمكنك أن تتحرّى عن شركاء (لاري فوجان)؟
تطلّع إليه (ميدوز) لحظة في صمت، ثم أجاب:
- يمكنني هذا بالطبع، ولكن لماذا؟
- إن (لاري) يحاول - منذ بداية الأمر - أن يُبقى الشاطئ مفتوحًا بأية وسيلة، على الرغم من كل ما يحدث، وهو يطالبني الآن بفتحه في الرابع من يوليو على الأقل، ولقد قال في مرة سابقة إن شركاءه يضغطون عليه، فمن هم هؤلاء الشركاء، الذين يعملون إرادتهم على محافظنا؟
- حسنًا يا (مارتن)، سأبذل قصارى جهدي لمعرفتهم، ولكن ينبغي أن تعرف أن الأمر لن يكون لطيفًا.
- كل الأمور لم تعد لطيفة هذه الأيام يا (هاري).. الجميع يشكون سوء الحال، وكساد تجارتهم وعملهم، ولن يضيف هذا الكثير إلى متاعبهم، بل ربما كان السبيل الوحيد للخروج من الأزمة.
- ربما يا (مارتن).. ربما.
تركه (برودي) ينصرف، وهو يدرك أن المواجهة قد صارت قريبة..

... قريبة للغاية..

∞∞∞∞∞



لم يكن إغلاق الشواطئ قرارًا سهلًا، كما تصوَّر (برودي)، فقد واجه رجلاه ، اللذان وضعهما على الشاطئ لتنفيذ القرار صعوبات بالغة..

لم يكن إغلاق الشواطئ قرارًا سهلًا، كما تصور (برودي)، فقد واجه رجلاه، اللذان وضعهما على الشاطئ لتنفيذ القرار، صعوبات بالغة في هذا الشأن، إذ أصرّ بعض الناس على السباحة، على الرغم من القرار، وأصر رجل على أن هذا حقه الدستوري، وأطلق كلبه خلف رجلي الشرطة، اللذين كادا يطلقان النار عليه، وخرج صبيان بزورقهما إلى البحر، وراحا يلقيان الدماء وأحشاء الدجاج فيه، مما جعل (برودي) يستعين بـ (هوبر) وقارب (بن)؛ لإعادتهما إلى الشاطئ، بالإضافة إلى عدة بلاغات كاذبة، ودعابات سمجة، حول ظهور القرش في أماكن مختلفة، حتى أن (برودي) كان يشعر بتوتر وإرهاق بالغين، عندما عاد إلى منزله في التاسعة، واستقبله أبناؤه الثلاثة (بيلي) و(مارتن) و(شون) بلا مبالاة، وهم يتابعون التلفاز في اهتمام بالغ، فابتسم وهو يقول:

- كيف حالكم يا أولاد؟

أجابه (بل)، دون أن يرفع عينيه عن التلفاز:

- بخير يا أبي.. أمي في الطابق العلوي، وتقول: إن عشاءك في المطبخ.

ذهب إلى المطبخ في بساطة كعادته، وراح يتناول عشاءه في صمت، ثم صعد إلى الطابق العلوي، ورأى (إلين) راقدة على الفراش، تطالع مجلة قديمة، ولقد ابتسمت لرؤيته، وسألته:

- هل كان يومك متعبًا؟

أجابها في تلقائية:

- كل الأيام متعبة الآن.

خلع ثيابه، وارتدي منامته، ورقد إلى جوارها، وهي تسأله:

- تُري ماذا ستفعل (سالي)، بعد رحيل (بن)؟

غمغم في تهالك:

- لست أدري.. قد يمكننا معاونتها بشكل ما.
قالت معترضة:
- كيف؟.. إننا نعاني من قلة الموارد هذا العام، و...
لم يستمع إلى باقي حديثها، لأنه لم يكن هناك..
.. كان يغرق في أعماق سبات..
.. سبات بلا قرار..

∞∞∞∞∞∞

مضت عطلة نهاية الأسبوع هادئة، كعطلات نهاية الخريف، وأدرك (برودي) أن سكان (أميتى) كلهم قد أصيبوا بإحباط لا حدّ له، وراح يتصوّر مرارتهم وحزنهم، وضايقه أن تضطره الظروف لاتخاذ قرار صارم كهذا، حتى التقى بـ (هوبر)، الذي قضى الأيام السابقة يجوب الشواطئ المجاورة، في قارب (بن)، ولم يكد يلتقي بـ (برودي)، حتى قال مبتسمًا:
- أكاد أجزم هذه المرة أن القرش قد رحل إلى المياه العميقة مرة أخرى.
سأله (برودي) في لهفة:
- ولماذا تظن هذا؟
- لا أثر له مطلقًا، ثم إنه هناك أنواع أخرى من الأسماك هنا، وكان المفروض أن تختفي في وجود القرش الأبيض.
- هل تعتبر ذلك مبرّرًا لإعادة فتح الشواطئ؟
- ربّما.
لم يكن هذا الجواب كافيًا بالنسبة لـ (برودي)، الذي يحتاج إلى أدلة قاطعة، قبل أن يتخذ قرارًا حاسمًا كهذا، لذا فقد هزّ رأسه، قائلًا:

- لن يقنعني هذا بإعادة فتح الشواطئ.
ابتسم (هوبر)، وقال:
- لو أردت رأيي، فأنت على حق.
- تطلَّع إليه (برودي) في دهشة، ثم لم يلبث أن ابتسم بدوره، قائلًا:
- يبدو أننا نتفق في الكثير يا (هوبر).
كان (هوبر) يروق له بالفعل، حتى أنه لم يعترض عندما اقترحت (إلين) دعوته لتناول العشاء، على الرغم من أنه يدرك أن (إلين) ستنتهز الفرصة لدعوة بعض الأصدقاء، وإقامة وليمة كبيرة، تلتهم جزءًا ضخمًا من موارده، لتزهو بهذا، فقد كان يرغب في إسعادها من حين لآخر..
.. ولقد حدث ما توقّعه؛ إذ دعت (ميدوز) وزوجته (دوردش)، وفتاة تدعى (ديزي ويكر)، وحمد (برودي) الله على أنها اكتفت بهذا العدد البسيط، وارتدى الثياب الأنيقة التي أعدّتها له في استسلام، وتطلَّع إليها مبتسمًا، وهي ترتدي ثوبًا رائعًا من الحرير الأزرق، وعقدًا من اللؤلؤ، ثم راحا ينتظران معًا ضيوفهما الأربعة..
.. وكان (هوبر) أوَّل من وصل، مرتديًا سروالًا من (الجينز)، وقميصًا أمر، ولقد بدا خجلًا بعض الشيء، وهو يقول:
- معذرة.. كان المفروض أن أرتدي شيئًا أكثر أناقة، ولكنني لم أتوقع أية دعوات هنا، لذا فقد..
قاطعه (برودي) مبتسمًا:
- إنك تبدو رائعًا.
ثم دعا أولاده لمصافحة (هوبر)، الذي صافحهم في حرارة، وسأله (بيلى) في شغف:
- أأنت واحد من علماء البحار؟

أجابه (هوبر):
- بل أنا متخصّص في حياة الأسماك فحسب.
سأله (مارتن) الصغير:
- هل ستصطاد القرش؟
هزَّ (هوبر) كتفيه، وقال:
- هذا لو أنه ما يزال هنا، فربما يكون قد رحل بعيدًا.
عاد يسأله في اهتمام:
وهل سبق لك اصطياد قروش أخرى؟
أجابه محاولًا تخفيف اهتمامه:
- بالطبع، ولكنها لم تكن كبيرة كهذا.
سأله (شون) فجأة:
- هل يضع القرش بيضًا؟
ضحك مجيبًا:
- سؤال جيد يا فتى.. القرش لا يضع بيضًا كبيض الدجاج بالطبع، ولكن بعض القروش تضع بيضًا بالفعل.
قالت (إلين) في حزم:
- كفى أسئلة أيها الصغار.. هيا يا (مات)، حاول أن تتجاهل أسئلتهم، فهي لا تنتهي أبدًا.
راحت تتحدّث مع (هوبر) حول أمور عامة، حتى وصل (ميدوز) وزوجته، ووصلت (ديزي ويكر) بعدهما، وبدا الحفل الصغير لطيفًا، وتحاشي الجميع خلاله الحديث عن القرش، أو حتى الإشارة إليه، خشية إفساد جو الحفل الجميل، ولكن (برودي) وحده لم يستطع الاندماج مع الآخرين، إذ كان هناك فكرة واحدة تملأ رأسه، وتسيطر على تفكيره تمامًا..
.. فكرة وجود ذلك القاتل في البحر..
.. القاتل المعروف باسم (القرش)..

.. القرش الدموي الرهيب.

∞∞∞∞∞

7- السر..

لم يكن (برودي) يتلقّى تلك المكالمة الهاتفية، من مكتب (فوجان)، في صباح الخميس، حتى أدرك على الفور أنها محاولة جديدة لإعادة فتح الشاطئ، في الرابع من يوليو، الذي يحين بعد يومين، وكان على حق في تفكيره هذا، إذ تلقّى دعوة لحضور اجتماع المجلس المنتخب، الذي يرأسه (فوجان) نفسه، وأدرك أنهم سيحاولون الضغط عليه أكثر، لاتخاذ قرار فتح الشاطئ، ولكنه لم يعترض على حضور الاجتماع، وإنما ذهب إلى هناك بمزيد من الإصرار، وقد قرَّر في أعماقه عدم التراجع عن قرار إغلاق الشواطئ، مادام مقتنعًا بأنه أفضل قرار ممكن، في الظروف الحالية..

.. وعندما وصل (برودي) إلى مكتب (فوجان)، استقبلته (جانيت) الحسناء، سكرتيرة (فوجان)، بابتسامة ساحرة كالمعتاد، وهي تقول:

- مرحبًا أيها الرئيس.. الجميع في انتظارك بالداخل.

اتجه إلى باب الحجرة مباشرة، ولكنها استوقفته لتسأله في مرح:

- قل لي أوَّلًا: هل تظن أن ذلك الشاب الوسيم (مات هوبر)، مرتبط عاطفيًا، في هذه الأيام؟

توقَّف ليسألها في دهشة:

- وأين رأيت (هوبر) هذا؟

أشارت إلى مكتب (فوجان)، قائلة:

- إنه هنا، في الداخل مع الجميع، وهو في الواقع وسيم جدًا.

سألها في حذر:

- في الداخل؟!.. وما الذي أتى به هنا؟

هزّت كتفيها، قائلة:
- ومن أدراني؟
أدرك أن وجود (هوبر) بالداخل يعني أنهم يعدّون العدة لمواجهته، وأنه سيواجه معركة شرسة وحده، فالجميع بالداخل من أنصار (فوجان)، ومن المؤكدّ أنهم قد ضمّوا إليهم (هوبر) لسبب ما، ولكن هذا لم يمنعه من الدخول إلى حجرة الاجتماعات، وإلقاء التحية على الجميع، ولقد بدا له (فوجان) مرهقًا، غائر العينين، شاحب الوجه، كما لو أنه لم يذق طعم النوم منذ شهر كامل، خاصة وهو يدعوه للجلوس بصوت متحشرج، قائلًا:
- اجلس يا (مارتن).. الآن يمكننا بدء الاجتماع.
جلس (برودي) في مقعده، وتابع (فوجان):
- أظنكم تعرفون جميعًا سبب اجتماعنا هنا، والواقع أنه هناك شخص واحد فقط نحتاج إلى إقناعه، بما اقتنعنا به جميعًا.
قال (برودي) في هدوء:
- تقصدني أنا بالطبع.
أومأ (فوجان) برأسه إيجابًا، وقال في توتر:
- حاول أن تنظر إلى الأمر من وجهة نظرنا يا (مارتن)، فالمدينة تموت، والناس يفقدون أعمالهم، والمتاجر تعجز عن فتح أبوابها، ولا أحد يستأجر المنازل وأكواخ الشاطئ، وكل يوم يمرّ علينا أشبه بمسمار جديد، ندقّه في نعشنا، واستمرار إغلاق الشاطئ يبدو كتصريح رسمي منا، نقول فيه للناس: مدينتنا تفتقر إلى الأمن والأمان.. لا تقتربوا منها.
قال (برودي):
- وماذا لو فتحنا الشواطئ في الرابع من يوليو، ثم لقي شخص آخر مصرعه؟

- إنها مخاطرة محسوبة، وكلنا نرى ضرورة القيام بها.
- لماذا؟
- أخبره أنت يا مستر (هوبر).
تنحنح (هوبر)، وقال:
- هناك عدة أسباب، فالقرش لم يظهر لمدة أسبوع كامل.
قال (برودي):
- وكذلك لم يسبح أحد طوال هذا الأسبوع.
- هذا صحيح، ولكنني أجوب البحر بحثًا عنه باستمرار، ولم أر أثرًا له خلال هذه المدة، ثم إن المياه تزداد دفئًا هذه الأيام، والقاعدة هي أن القرش الأبيض الضخم يفضِّل المياه الباردة، وإن كنت أعلم أنها ليست قاعدة.
- هل تعتقد أنه قد رحل إلى بحر الشمال؟
- أو عاد إلى عمق البحر، حيث الماء أكثر برودة، أو رحل إلى الجنوب.. لا يمكنك التنبؤ بما تفعله هذه الكائنات.
- بالضبط.. إنه رأيي أيضًا.. لا يمكنك التنبؤ، بل مجرَّد التخمين.
تدخَّل (فوجان)، قائلًا في عصبية:
- لا يمكنك أن تطلب ضمانًا يا (مارتن).
أجابه (برودي) بعصبية أكثر:
- قل هذا لـ (كريستين واتكنز)، أو مسز (كيتز).
لوَّح (فوجان) بكفه في ضجر، وقال:
- أعلم.. أعلم، ولكن لابد أن نفعل شيئًا، لا يمكننا الجلوس في انتظار معجزة، فالسماء لن ترسل لنا تقريرًا بابتعاد القرش، المفروض أن ندرس نحن الدلائل ونتخذ القرار المناسب.
قال (برودي):
- عظيم.. ماذا قال لكم أيضًا هذا الفتى العبقري.
قال (هوبر) في حدة:

- لقد طلبوا رأيي، ثم أنني خبير في هذه الأمور، ولم أر السمكة طوال أسبوع كامل، ولا خفر السواحل رأوها، ولا أحد يلقي الدماء أو القاذورات في الماء، ولا يوجد أي تغيير في الأحياء السمكية، فماذا تطلب من أدلة، بالإضافة إلى كل هذا؟
- وكذلك لم توجد أسباب في البداية، وأراهن أن أحداً لن يجد أسبابًا أو تفسيرات.
- أهو قدر إذن؟
- نعم.. لو أردت أن تقول هذا، ولا توجد ضمانات ضد القدر.. أليس كذلك يا (لاري)؟
قال (فوجان) في حنق:
- لست أدري ماذا تقصد يا (مارتن)، ولكن من المحتم أن تتخذ قرارًا.
قال (برودي) في حدة:
- لقد اتخذتم قراركم بالفعل.. أليس كذلك؟
- يمكنك أن تقول ذلك.
- وماذا لو لقي شخص آخر مصرعه؟.. من سيتحدَّث مع الزوج أو الزوجة أو الأم، ويقول بكل بساطة: لقد قامرنا وخسرنا؟
- لا تكن سلبيًا هكذا يا (مارتن).. لو جاء هذا الموقف، وأراهنك أنه لن يأتي، سنجد عندئذ ما نقوله.
- لا.. لقد أرهقني ذلك، ولن أحتمل بعد الآن نتائج أخطائكم.
- مهلًا يا (مارتن)، لا داعي للغضب.
- إني جاد فيما أقول.. لو أردتم سلطة فتح الشواطئ خذوها، ولكن خذوا معها المسئولية كاملة
- ماذا تعنى؟
- أعني أنه ما دمت رئيس الشرطة هنا، والمسئول عن أمن المواطنين، فلن يُفتح الشاطئ، قبل حسم الأمر تمامًا.

- اسمع يا (مارتن)، لو لم تصدر قرارك بفتح الشواطئ، فلن تبقى رئيسًا للشرطة في هذه المدينة، بل لن تجد حتى وظيفة ساع في مكتب البريد، وسيسعى أهل هذه المدينة لطردك منها شر طردة.. هل توافقوني أيها السادة؟
وافقه الجميع في حزم وحماس، ولكن (برودي) قال في بساطة:
- لن يعنيني هذا الأمر يا سادة.
كان من الواضح أنهم لن يتوقفوا عند هذا الحد، لولا أن ارتفع رنين الهاتف فوق مكتب (فوجان)، الذي التقط سماعة الهاتف، وقال في حدة:
- قلت أننا لا نريد إزعاجًا.
ثم صمت لحظات، استمع خلالها في اهتمام، قبل أن يقول:
- هذه المكالمة لك يا (برودي).
نهض (برودي)، قائلًا في حزم:
- سأتحدّث في الهاتف الخارجي.

غادر قاعة الاجتماعات في خطوات سريعة، والتقط سمَّاعة الهاتف الخارجي، وفي نفس اللحظة رفع (فوجان) سمَّاعة هاتف مكتبه، ووضعها على أذنه، غير مبال بأعضاء المجلس المنتخب، الذين تجاهلوا هذا الموقف الصريح، دون أن يحاول أحدهم منعه من التصنّت على مكالمة (برودي)، حتى (هوبر)، الذي رأى أن شئون (أميتى) الداخلية لا تعنيه، فلاذ بالصمت بدوره، في حين تلقّى (برودي) محادثة (ميدوز)، الذي قال في سرعة، ولهجة تشفّ عن خطورة ما لديه:
- أنا (هاري) يا (مارتن).. استمع إليَّ جيدًا، فأنا أعلم ضرورة عودتك إلى الاجتماع، وسأختصر بقدر الإمكان.. إن (لاري فوجان) في مأزق حرج، فهو مدين مبلغ كبير لرجل مهم، وهذا

يعود إلى فترة طويلة، فمنذ حوالي خمسة وعشرين عامًا، مرضت زوجة (لاري) مرضًا شديدًا، ولم يكن (لارى) يملك المال بعد، وكان يحتاج إلى المال بشدة، فأقرضه إياه رجل يدعى (تينو روسو).

- وما صلة هذا بما نحن فيه؟

- سأخبرك، فمنذ بضعة أشهر، وقبل أن يبدأ موضوع القرش هذا، تم تكوين شركة باسم (كاسكاتا ايستيت)، دون رأس مال عيني، ولكن هذه الشركة تبتاع كل الأراضي المحيطة بنا، منذ فترة طويلة، ولقد تضاعفت سرعة شرائها للأراضي، مع ظهور القرش، وكساد الأعمال، إذ هبطت الأسعار هبوطًا، لم يحدث منذ الحرب العالمية الثانية، وكل شيكات الشراء تحمل توقيع (لاري فوجان)، كرئيس لشركة (كاسكاتا)، أما نائب الرئيس فهو (تينو روسو)، الذي كتبت عنه (التايمز)، مشيرة إلى أنه زعيم إحدى أسر (المافيا) الخمس في نيويورك.

- يا للعين!!.. ولكن لماذا يسعى لفتح الشاطئ؟ ما الفائدة التي تعود إليه بذلك؟

- يبدو أنه قد أنفق كل ما لديه على شراء الأراضي، والسبيل الوحيد لعدم إفلاسه هو أن ترتفع الأسعار مرة أخرى، ليبدأ في جنى الأرباح، ببيع ما اشتراه من أراض خاصة وأنه لم يدفع ثمن كل الأراضي نقدًا، وإنما دفع مقدمات أثمانها فقط، والباقي بشيكات مؤجّلة، ولو لم ترتفع الأسعار فلن يمكنه سداد الشيكات، وسيفلس هو و(روسو)، وأعتقد أنه من الصعب على رجل مثل (روسو) قبول هذا، والسبيل الوحيد لمنع هذه الكارثة، هو أن ينجح (فوجان) في فتح الشاطئ، قبل الرابع من يوليو، فترتفع الأسعار، وينجح (فوجان) في بيع ما لديه، ويحصل

(روسو) على نصيبه، وهو النصف تقريبًا، أما لو قتل القرش شخصًا آخر فستكون نهاية (فوجان)، و...
قاطعهما فجأة صوت (فوجان)، وهو يصرخ عبر الهاتف:
- أنت كاذب يا (هاري)، ولو نشرت كلمة واحدة من هذا سأقاضيك حتى الموت.
ثم ألقى السمَّاعة في عنف، فقال (ميدوز) في غضب:
- أهذه هي نزاهة محافظنا؟
تجاهل (برودي) ما حدث، وسأل (ميدوز) في اهتمام:
- وماذا ستفعل يا (هاري)؟.. هل تنشر هذا؟
- ليس الآن، فلست أملك أية أدلة أو وثائق.
- ولكن لديك معلومات كافية.
- المعلومات لا تكفى يا (مارتن).
- وماذا عن أعضاء المجلس؟.. هل يشاركونه قذارته؟
- لا.. إنهم فقط يدينون له بخدمات سابقة.
- و (هوبر)؟.. إنه أيضًا يطالب بفتح الشاطئ.
- لست أظن (هوبر) يعلم شيئًا، فأنا نفسي لم أحصل على هذه المعلومات إلا منذ قليل.. المهم ماذا تنوي أنت أن تفعل؟
- - لقد استقلت تقريبًا، فلقد قلت لهم: إنهم يستطيعون أخذ وظيفتي لو أرادوا.
- لا.. لا تستقل، فنحن في حاجة إليك، ولو استقلت سيأتون بآخر يحتّل منصبك، ويتنازل عن نزاهته مقابل بضع دولارات.
- ماذا أفعل إذن؟
- لو كنت مكانك لفتحت الشواطئ.
- ماذا تعني يا (هاري)؟.. إن هذا ما يريدونه.
- ولديهم قرار خبير، وهذا يُخلي مسئوليتك، ومادامت ستضطر حتمًا إلى فتح الشاطئ، ان عاجلا أو آجلا، فافعل هذا الآن.

- مستحيل يا (هاري).. سأساعدهم بهذا على الحصول على الأرباح، والفرار.
- إنهم سيحصلون عليها، سواء فتحت الشواطئ، أو أزاحوك عن طريقهم، على الأقل يمكن للمدينة أن تنتعش، لو فتحت الشواطئ، أما لو لم تفعل، فربما خسرنا كل شيء. بما في ذلك أنت.
- حسنًا يا (هاري)، سأفكّر في الأمر، ولو كنت سأفتح الشواطئ، فسأفعل هذا بطريقتي.. شكرًا لمكالمتك على أي حال.
أنهى المحادثة، وعاد إلى قاعة الاجتماعات، وكان (فوجان) يوليه ظهره، وهو يقف أمام النافذة، ولم يكد يشعر بدخوله، حتى استدار إليه، قائلًا في صرامة:
- انتهي الاجتماع.
نهض أعضاء المجلس في ارتباك يوحي بأن عبارة (فوجان) قد صدمتهم، تمامًا كما صدمت (برودي)، ولكنهم غادروا المكان في صمت، ومعهم (هوبر)، في حين بقي (برودي) يواجه (فوجان) الذي انتظر حتى خلا المكان، إلا منه ومن (برودي). فقال في توتر:
- كنا دائمًا أصدقاء يا (مارتن). وأتعشم أن نظلّ كذلك.
- ما مدى صحة ما قاله (ميدوز)؟
- هذا شأني وحدي يا (مارتن)، ولا أستطيع التحدّث عنه.. كل ما يمكنني قوله هو أن رجلًا قدم إلى صنيعًا في الماضي، ويطالبني الآن برده.
- إذن فكل ما قاله صحيح.
بدت عينا (فوجان) مبللتين بالدموع، وهو يقول:
- أقسم لك إنني لم أكن أتصوَّر أن الأمر سيبلغ هذا الحد يا (مارتن).. لقد كان المبلغ كله هو عشرة آلاف دولار، ولقد

حاولت رده مرتين، ولكنهم رفضوا بإصرار، مؤكدين أنه مجرد هدية، إلا أنهم لم يعيدوا إلىَّ الإيصال الخاص بالنقود، والآن يطالبونني بدفع ما أنا مدين به، ولقد عرضت مائة ألف دولار، ولكنهم رفضوا، وطالبون بتسهيل بعض الاستثمارات، مقابل هذا.
- وبكم تدين لهم الآن؟
- ربما مليون أو مليونين.. أو حتى كل ما أملك.. هل يمكنك مساعدتي يا (مارتن)؟
- الوسيلة الوحيدة، التي يمكنني مساعدتك بها، هي الاتصال بالنائب العام، وشرح الأمر كله له، ويمكنك أن تدلي بشهادتك، ضد هؤلاء الأوغاد؛ للتخلص منهم.
- سيقتلونني قبل أن أعود إلى منزلي.
تطلع إليه (برودي) في إشفاق، وتساءل في أعماقه عن سر إصراره على عدم فتح الشاطئ.. أهي عقدة ذنب، أم خوف من سقوط ضحية جديدة؟..
.. وتنهَّد (برودي)، قبل أن يقول:
- حسنًا يا (لاري)، سأفتح الشواطئ.. ليس لمساعدتك، ولكن لأنني واثق من أني لو لم أفعل، لوجدت أنت وسيلة أخرى لفتحها.
هتف (فوجان):
- شكرًا يا (مارتن).. شكرًا جزيلًا.
قال (برودي) في صرامة
- مهلا يا (لاري)، أنا لم أنته من كلامي بعد.. صحيح أنني سأفتح الشواطئ، ولكنني سأتأكد من أن كل شخص يسبح يدرك احتمال وجود خطر.
- لا يمكنك فعل هذا، فهو مثل إغلاق الشواطئ تمامًا.

- بل يمكنني، وهذا ما سأفعله.
- ماذا؟.. هل ستضع لافتات تحذيرية، أم ننشر إعلانًا في الصحف، تقول فيه: إن الشاطئ مفتوح، ولكن حذار أن تقربوه؟
- لست أدري بالضبط ما سأفعله يا (لاري)، ولكن لا يمكنني أن أتصرّف كما لو أن شيئًا لم يحدث من قبل.
زفر (فوجان)، وقال:
- افعل ما يحلو لك يا (مارتن)، ولكن حاول أن تتصرّف بتعقّل.. ليس من أجلى، ولكن من أجل المدينة.
قال (برودي) في صرامة:
- نعم يا (لاري) سأفعله من أجل المدينة.
ثم غادر القاعة في حدة، وصفق بابها خلفه في عنف، دون أن يدري، إذا كان قراره هذا سينعش المدينة، أم...
.. أم سيقتله هو.

∞∞∞∞∞∞∞

8- الخطر..

منذ الساعات الأولى من صباح الرابع من يوليو، بدا من الواضح أن القلق ما يزال يسود كل النفوس، فعلى الرغم من الجو الصحو، والشمس الساطعة، وعشرات المصطافين، الذين يملكون الشاطئ، فإن أحدًا لم يجرؤ على الاقتراب من الماء، فيما عدا طفلين، سمح لهما والداهما بتبليل أقدامهما فقط، ثم لم تلبث الأم، بدافع الخوف أو الملل، أن طلبت منهما العودة إلى الشاطئ، وظلّ الموقف ساكنًا على هذا النحو، حتى الثانية عشرة ظهرًا، فاتصل (برودي) بـ (هندريكس) لاسلكيًا، وسأله:

- كيف الحال عندك؟

أجابه (هندريكس):

- إننا نسيطر على الموقف تمامًا، ولكنني لم أعد أفهم طبيعة هؤلاء البشر، هل تصدق أن بعضهم قد جمع أولاده، وجاء إلى هنا لمشاهدة القرش، كما لو كان فقرة من فقرات سيرك متجوِّل؟.. بل لقد استغلّ أحد المحتالين الموقف، وباع للعشرات تذاكر دخول للشاطئ، مكتوب عليها اسم (شاطئ القرش)، والجميع يصابون بالغضب، عندما أخبرهم أنهم يستطيعون دخول الشاطئ بدون رسوم.

قال (برودي) في غضب

- أرسل أحد رجالنا للبحث عن ذلك المحتال، وإلقاء القبض عليه.. هل من مشاكل أخرى؟

- لا يا سيِّدي.. هناك فقط بعض الأشخاص، من (التليفزيون)، ومعهم وحدة تصوير متنقّلة، يلتقون ببعض المصطافين.

- بشأن ماذا؟

- إنهم يسألونهم عما إذا كانوا يخشون السباحة أم لا.
- ومنذ متى يلتقون بالمصطافين؟
- منذ الصباح، ويبدو أنهم سيبقون وقتًا طويلًا، فلم يجرؤ شخص واحد على السباحة بعد.
- لا بأس يا (هندريكس)، فليبقوا، ما داموا لا يسببون أية مشكلات.
أنهى اتصاله مع (هندريكس) عند هذا الحد، وانتظر لحظات، ثم اتصل بـ (هوبر) على ظهر قارب (بن)، ولكن (هوبر) لم يجب على الفور، فشعر (برودي) بالقلق، وغمغم:
- ماذا حدث؟.. تُرى هل ستحمل قائمة ضحايا القرش اسم (مات هوبر)، أم...
قاطعه فجأة صوت (هوبر)، عبر جهاز اللاسلكي، يلهث قائلًا:
- معذرة.. لقد تأخّرت في الجواب؛ لأنني كنت في مؤخرة القارب، وتصورت أنني قد رأيت شيئًا.
جذب هذا القول انتباه (برودي) في شدة، فسأله في اهتمام بالغ:
- رأيت ماذا؟
- لا شيء.. أعتقد أنه لا شيء.. مجرَّد خداع نظر.
- وكيف بدا لك خداع النظر هذا؟
- ليس شيئًا محدودًا، بل مجرد خيال أو انعكاس لأشعة الشمس.. لا تهتمّ كثيرًا، سأكون أمام الشاطئ، بعد دقيقة أو دقيقتين.
أنهى (برودي) هذا الاتصال أيضًا، ووضع جهاز اللاسلكي في كيس صغير من البلاستيك، وتناول شطيرة، راح يلتهمها في بطء، وهو يراقب الشاطئ، ومرّ به الوقت بطيئًا للغاية، حتى أشارت عقارب الساعة إلى الثانية والنصف، وخلا الشاطئ تقريبًا من المصطافين، وكاد الملل يلتهم أعصابه التهامًا، عندما توقّفت إلى

جواره سيارة بيضاء، تحمل بحروف سوداء كبيرة عبارة (أخبار التليفزيون)، وهبط منها رجل، اتجه نحوه مباشرة، وسأله:
- أأنت الرئيس (برودي)؟.. أنا (بوب ميدلتون)، من القناة الرابعة.
أدرك (برودي) لماذا بدا له وجه الشاب مألوفًا، فقال:
- مرحبًا بك في (أميتي) يا (بوب).. ما الذي يمكنني تقديمه لك؟
- حديث عن القرش، وعن قرارك بإعادة فتح الشواطئ.
- لا بأس، وأين تحب إجراء هذا الحديث؟
- تحت. عند الشاطئ.. سأحضر فريق العمل، وسنستغرق بضع دقائق لإعداد كل شيء، وسأخبرك عندما نستعد.
- فليكن.. سأنتظر.
ترك رجال (التليفزيون) يستعدون لإجراء الحوار، وهبط يسير قليلًا على الشاطئ، وعندما اقترب من بعض الشبان، سمع أحدهم يقول:
- ما رأيكم.. ألدى أحدكم الشجاعة لفعل هذا؟.. سأدفع عشرة دولارات لمن يجرؤ على فعله.
اعترضت إحدى الفتيات، قائلة:
- كفى يا (لمبو).
وأدرك (برودي) بحاسة الشرطي في أعماقه، أنهم يتحدثون عن أمر خاص بالقرش، فتوقّف على مقربة منهم، وتظاهر بأنه لا يستمع إليهم، ولكنه أرهف سمعه جيدًا، ليسمع (لمبو) هذا يقول:
- ولم لا؟. إنه عرض جيد، ما دمتم تؤكدون أن ذلك القرش قد رحل.
قال صبي آخر في حدة:
- ولماذا لا تسبح أنت يا (لمبو)؟

قال (لمبو):
- لأنني صاحب العرض، ولا أحد منكم سيمنحني عشرة دولارات لو فعلت.
مضت لحظات صمت، قبل أن يقول أحدهم في حذر:
- عشرة دولارات نقدًا؟
أخرج (لمبو) من جيبه ورقة مالية، من فئة الدولارات العشرة، ولوَّح بها قائلًا:
- ها هي ذي.
سأله الفتى في اهتمام:
- وإلى أية مسافة ينبغي أن أسبح، لأحصل على هذه الورقة؟



أخرج (لمبو) من جيبه ورقة مالية، من فئة الدولارات العشرة، ولوَّح بها قائلًا: – ها هي ذي..

ابتسم (لمبو) قائلًا:

- مائة ياردة فقط.

سأله الفتي محتجًا:

- وكيف يمكنني تقدير هذه المسالة؟
أجابه (لمبو):
- بالتقريب.. اسبح فترة، ثم توقّف، وسأشير إليك بالعودة، لو كنت قد بلغت المسافة المطلوبة.
نهض الفتي قائلًا:
- موافق.
هتفت الفتاة:
- هل جننت يا (جيمي)؟.. لماذا تفعل هذا؟.. إنك لست محتاجًا إلى هذه الدولارات العشرة!!
لوَّح الفتي بكفه، وهو يتجه إلى الماء في حماس، هاتفًا:
- إنه اختبار شجاعة يا فتاتي.
شعر (برودي) بالقلق، وهو يتابع الصبي، الذي خاض الماء بحركة أقرب إلى العدو، ثم لم يلبث أن ألقى جسده وسط الأمواج، وراح يسبح مبتعدًا عن الشاطئ.
.. كان هذا يبعث في نفسه شعورًا مبهمًا بالخوف، ربما يعود إلى مخاوف طفولته عن البحر، أو إلى الأحداث السابقة، أو..
.. قاطعه فجأة هتاف خلفه:
- عد أيها الصبي.. عد.
توترت أعصابه كلها، وهو يلتفت في حركة سريعة إلى مصدر الصوت، ووقع بصره على (بوب ميدلتون)، وهو يعدو نحو الشاطئ، ملوَّحًا للصبي بيده، فسأله في توتر:
- ماذا حدث؟.. هل رأيت شيئًا؟
أجابه (ميدلتون):
- لا، ولكن هذا الشاب هو أوَّل من يسبح اليوم ونريد إجراء حديث معه.

لعن (برودي) في أعماقه هذا الأسلوب المستهتر غير المسئول، ووقف ساكنًا، يراقب الصبي، الذي عاد إلى الشاطئ، وابتسامة ضخمة تملأ وجهه، وهو يستمع إلى تعليمات (ميدلتون)، حول ما ينبغي قوله وفعله، أمام عدسات (التليفزيون)، حتى انتهى (ميدلتون) من حديثه، قائلًا:
- ومع نهاية الحديث انطلق إلى البحر، واسبح على الفور.. هل تفهم هذا؟
أجاب الشاب في حماس:
- بالطبع.
راح (ميدلتون) يجرى حديثه مع الشاب، في حين انتبه (برودي) فجأة إلى أن صوت قارب (بن) قد ارتفع فجأة فالتفت إلى البحر يتطلّع إليه، وبدا له سرعته أكبر من المعتاد بالفعل، فأخرج جهاز الاتصال اللاسلكي، واتصل بـ (هوبر)، وسأله في قلق:
- أهناك جديد يا (هوبر)؟
أجابه (هوبر)، وصوته يحمل هذه المرة رنة قلق واضحة:
- إنه ذلك الظلّ مرة أخرى يا (مارتن)، ولكنني لست واثقًا من ماهيته.
كان (ميدلتون) قد انتهى من حديثه مع الصبي - في أثناء ذلك - واندفع الصبي إلى البحر، فهتف به (برودي):
- عد أيها الصبي.. عد.
ولكن الصبي ظلّ يسبح إلى الداخل، في حين اتجه (ميدلتون) إلى (برودي)، يسأله:
- هل استجدّ جديد؟
تجاهله (برودي)، وهو يرفع جهاز الاتصال إلى فمه قائلًا:
- هناك صبي يسبح يا (هوبر)، على بعد ثلاثين أو أربعين ياردة.
لم يزد (هوبر) عن قوله:

- يا إلهي!
ثم انطلق نحو الصبي..
وهناك، في الأعماق، تحت قارب (بن)، كانت السمكة الرهيبة تتابع صوت محرّك القارب منذ فترة طويلة، وتصعد أحيانًا لمراقبته، في محاولة لتقييمه، دون أن تهاجمه، أو ترحل مبتعدة، ثم لم تلبث أن لاحظت اختلاف الصوت، عندما انطلق (هوبر) بالقارب نحو الفتى، فاستدارت في نعومة، وانطلقت تتبعه كالطائرة..
.. أما الصبي، فقد توقّف عن السباحة، وتطلّع إلى الشاطئ، ورأى (برودي) يشير إليه بالعودة، فابتسم الصبي في ظفر، وأدرك أنه قد ربح الرهان، فبدأ يسبح عائدًا إلى الشاطئ، في حين بدأت عيون بقية المصطافين تتابعه في شغف وقلق واهتمام، واقترب منه (هوبر) بالقارب، ثم توقف على قيد أمتار منه، خشية بلوغ منطقة الرمال الضحلة، فتوقّف الصبي عن السباحة بدوره، ورفع رأسه يقول:
- ماذا حدث؟
تف به (هوبر):
- لا شيء.. فقط واصل السباحة.. هيا.
عاد الصبى يسبح في قوة، وشعر بموجة من خلفه تدفعه إلى الأمام، ثم لم يلبث أن وقف على رمال القاع، وبلغ الماء كتفيه فحسب، فأخذ (برودي) يصيح:
- تعال بسرعة.. تعال.
قال الصبي في ضجر:
- حسنًا.. أنا قادم.
كان (هوبر) في هذه اللحظة يدير القارب، عائدًا إلى المنطقة العميقة، عندما لمح خطًا فضيًا يتحرّك في المياه الزرقاء، كما لو

كان جزءًا من حركة الأمواج، ثم لم يلبث أن أدرك طبيعته، فصرخ:
- التقطوا ما يحدث.. لا تضيِّعوا لحظة واحدة منه.
بدأ الصبي يتحرّك أسرع، ولم ينتبه إلى تلك الزعنفة الهائلة، التي ارتفعت فوق سطح الماء خلفه، كسلاح رمادي حاد، ولكن الجميع على الشاطئ رأوها، فارتفعت عدة شهقات، وهتف (ميدلتون):
- ها هو ذا يا (والتر).. هل تراه؟. هل التقطت صورته؟
أجابه المصوِّر في حماس:
- نعم.. إنه واضح تمامًا، فأنا استخدم عدسة التقريب.
أما (برودي) فقد اندفع داخل الماء، ومدّ يده إلى الصبي صائحًا:
- أعطني يدك.. أسرع.
كان الصبي فزعًا ملتاعًا، ولم تكد أصابعه تلمس يد (برودي)، حتى تشبث بها في قوة، فجذبه (برودي) إليه، وضمه إلى صدره، وخرجا من الماء يهرولان، في حين انخفضت الزعنفة الضخمة، وغاصت السمكة في الأعماق، وراح الصبي هتف مرتجفًا:
- أريد أن أعود إلى منزلي.
ربَّت (برودي) على ظهره، وهو يغمغم:
- ستعود بالطبع.. ستعود.
أما (ميدلتون)، فقد اندفع نحو (برودي)، وسأله:
- هل يمكنك إعادة هذا؟
سأله (برودي) في دهشة:
- إعادة ماذا؟
أجابه في جدية:
- ما قلته للفتى.. هل يمكنك إعادة قوله؟
صرخ فيه (برودي):

- اغرب عن وجهي.
ثم اتجه بالصبي إلى زملائه، وقال لـ (لمبو) في صرامة:
- أعد هذا الصبي إلى منزله، وأعطه دولاراته العشرة، فقد ربحها عن جدارة.
أومأ (لمبو) برأسه في شحوب، في حين التقط (برودي) جهاز الاتصال اللاسلكي، وضغط أحد أزراره، قائلًا:
- (هندريكس).. هل تسمعني؟
- نعم يا سيِّدي.. أسمعك جيدًا.. ماذا هناك؟
- تلك السمكة كانت هنا يا (هندريكس).. لو كان عندك من يسبح في الماء، فأخرجه على الفور، وامنع أي مخلوق من الاقتراب من الشاطئ، فالشاطئ مغلق رسميًا، منذ هذه اللحظة.
- سأنفذ الأمر على الفور يا سيّدي، هل أصيب أحد عندك؟
- لا لحسن الحظ، ولكننا كنا على وشك ذلك.
- حمدًا لله يا سيِّدي الرئيس.. حمدًا لله.
انتهى الاتصال، فاتجه (ميدلتون) إلى (برودي)، وقال في لهفة:
- هل يمكننا إجراء الحديث الآن؟
- لماذا؟.. لقد رأيت ما حدث مثلي تمامًا.
- سألقي عليك سؤالين فحسب.
تنهَّد (برودي) في ضجر، وعاد مع (ميدلتون) إلى حيث يقف فريق العاملين، وقال هذا الأخير:
- حسنًا.. هات ما لديك.
- بالنسبة للصبي.. هل تظن أنه كان حسن الحظ؟
- بالتأكيد، فقد كان من الممكن أن يلقي مصرعه.
- أتظن أنه نفس القرش؟
- لست أدري.. أظنه هو.
- ماذا ستفعل إذن؟

- سأغلق الشواطئ.. هذا كل ما يمكنني عمله الآن.
- إذن فأنت تُعلن أنه من الخطر السباحة الآن في (أميتي).
- نعم.. أنا أعلن هذا رسميًّا.
- وماذا يعني هذا بالنسبة لـ (أميتي)؟
- مشكلة يا مستر (ميدلتون).. مشكلة خطيرة.
- ولكن بم تشعر الآن، بالنسبة لموقفك السابق، وقرارك بإعادة فتح الشواطئ؟
- من حسن الحظ أن هذا لم يتسبَّب في إيذاء أحد، وهذا يكفى.
- هذا عظيم أيها الرئيس (برودي).. شكرًا لك.
ولم يكد المصوَّر (والتر) يغلق آلة التصوير، حتى تلاشت ابتسامة (ميدلتون)، وقال في سرعة:
- لقد اكتمل الموضوع يا (والتر).. هيا نراجع كل شيء.
وتركهما (برودي) ينصرفان مع فريق (التليفزيون) دون تعليق، فقد كان عقله مشغولًا بالقضية الأساسية..
.. قضية القرش..

∞∞∞∞∞∞

« لا يمكنني الجزم بأنه نفس القرش»
نطق (مات هوبر) هذه العبارة في تردّد، وهو يقف أمام (برودي) و (ميدوز)، ثم التقط نفسًا عميقًا، واستطرد:
- إنني لم أر السمكة جيًّدا اليوم، ولا أستطيع مقارنتها بأي شيء آخر، ولكن الاحتمال الأكبر أنها نفس السمكة، فليس من المعقول أن يتواجد قرشان من آكلي لحوم البشر عند شاطئ (أميتي)، في وقت واحد.

مطَّ (ميدوز) شفتيه، وكأنما لم يرق له هذا الجواب المتردِّد، ثم التفت إلى (برودي)، يسأله:
هل ستكتفي بإغلاق الشواطئ؟
- وماذا يمكنني أن أفعل أيضًا؟ لقد كنت أفضِّل أن يهاجمنا إعصار أو زلزال.. على الأقل ستكون له نهاية، أما هذا لماذا أشبه بمواجهة قاتل مجنون، يقتل من يحلو له، في الوقت الذي يحلو له، وأنت تعرف من هو، ولكنك لا تفهم يفعل هذا، ولا تستطيع حتى الإمساك به أو إيقافه.
- هل تذكر قول (ميني الدريدج)؟
- نعم.. لقد بدأت أعتقد أنها على حق.
- ولكن هذا لا يمنعنا من المحاولة.
- محاولة ماذا؟
- محاولة اصطياده مثلًا.
ران الصمت لحظة، بعد قول (ميدوز) الأخير، ثم قال (هوبر):
- نعم.. يمكننا أن نحاول ذلك، لو كانت لدينا المعدات اللازمة، فنلقى الطعم، و....
قاطعه (برودي) في أسى:
- أظن (بن جاردنر) يمكنه إخبارك عن مدى نجاح هذه الوسيلة.
قال (ميدوز) في حزم:
- هناك شخص يفوق (جاردنر) في هذا المجال.
سأله (برودي) في اهتمام:
- من هو؟
كان صوت (ميدوز) قويًّا، وهو يقول:
- كوينت.
ولاح بصيص من الأمل، في أعماق (برودي).

∞∞∞∞∞

9- (كوينت)..

« مستر (كوينت).. أنا (مارتن برودي)، رئيس شرطة (أميتي)، ولدينا هنا مشكلة عويصة».

نطق (برودي) هذه الكلمات عبر الهاتف في تردّد، وأتاه صوت (كوينت) يقول في مزيج عجيب من العمق والهدوء:

- لقد سمعت عنها.

التقط (برودي) أنفاسه، وازدرد لعابه، قبل أن يقول:

- كان القرش هنا اليوم أيضًا.

- هل أصيب أحد؟

- لا، ولكنه كاد يقتل أحد الصبية.

- سمكة بهذا الحجم، تحتاج حتمًا إلى الكثير من الطعام.

- هل رأيتها؟

- لا.. لقد بحثت عنها مرتين، ولكني لم أستطع قضاء وقتي كله في البحث، فلدي عملي.

- كيف عرفت حجمها إذن؟

- لقد سمعت ما يقال عنها، وقمت بتقدير هذا.. لابد أن تكون بالغة الضخامة.

- وهل يمكنك مساعدتنا؟

- لقد كنت أتوقّع أن تطلبني.

- هل يمكنك هذا؟

- هذا يتوقّف على استعدادك للإنفاق.

- سندفع لك القيمة المتعارف عليها يا مستر (كوينت)، و..

- هذا لا يصلح، فهذه مهمة خاصة.

- ماذا تعني؟

- أعني أن أجري في اليوم الواحد مائتي دولار، ولكن في هذه الحالة الخاصة ستدفعون الضعف.
- هذا غير ممكن.
- وداعا إذن.
كان أسلوبه فجًّا عنيفًا، ولكن (برودي) كان يحتاج إليه في شدة، لذا فقد هتف به:
- انتظر يا رجل.. لماذا لا نتفاهم؟
أجابه (كوينت)، في لهجة أقرب إلى السخرية:
- ليس لديك سبيل آخر.
قال (برودي) في حدة:
- من قال هذا؟.. هناك صيادون آخرون.
سمع (كوينت) يضحك ضحكة قصيرة غريبة جافة، قبل أن يقول:
- بالطبع.. ولقد سبق لك أن أرسلت واحدًا.. أرسل آخر، أو حتى نصف دستة، وسأنتظر حتى تلجأ إليَّ في النهاية، وعندئذ سيتضاعف المبلغ أكثر.
صمت (برودي) لحظة، ثم قال:
- إنني لا أطالبك بمعاملة خاصة، فأنت تعمل لتعيش، ولكن هذه السمكة تقتل الناس، وأنا أريد مساعدتك للتخلّص منها، فتعامل معي كما تتعامل مع زبائنك العاديين على الأقل.
- لا تحاول التأثير على مشاعري.. إنك تريد قتل السمكة، وأنا سأبذل قصارى جهدي من أجل هذا، مقابل أربعمائة دولار في اليوم الواحد.
- وهل سيمنحني المجلس هذا المبلغ؟
- حاول أن تقنعهم.
- لقد اتصل بي المحافظ (لاري فوجان) نفسه، وهو منهار، و...

- هذا شأنك وحدك.
- حسنًا.. وكم سيستغرق هذا الأمر؟
- يوم.. أسبوع.. شهر.. من يدرى؟.. ربما رحلت السمكة من تلقاء نفسها.
- ليت هذا يحدث.. لا بأس يا (كوينت).. ليس أمامي سوى الموافقة.
- فليكن، ولكني أحتاج إلى رجل لمساعدتي، فلقد فقدت زميلي، ولا يمكنني الخروج وحدي، لاصطياد مثل هذه السمكة.
- وكيف فقدت زميلك؟
- ترك العمل، بعد إصابته بانهيار عصبي.. هذا يحدث كثيرًا للعاملين في مجال الصيد.
- ولماذا لم يحدث لك؟
- ربما لأنني أذكى من الأسماك.
- أهذا يكفي؟
- إنني حي على الأقل.. المهم.. ألديك من يساعدني؟
- إنني مستعد.
لم يكد ينطقها حتى شعر بندم شديد، مع تلك الارتجافة التي مرت في جسده، لمجرّد القول، وشعر بالحنق من نفسه؛ بسبب لجوئه إلى (كوينت) هذا، ولكن (كوينت) لم يمنحه فرصة التفكير، وإنما سأله:
- هل تعرف الصيد؟
أجابه متوترًا:
- لا
- ولا السباحة؟
- وما شأن السباحة بالأمر؟

- عندما يسقط شخص ما في الماء، فتحويل القارب إليه يستغرق وقتًا، ما لم يكن يجيد السباحة، إلى الحد الكاف لبلوغ الزورق.
- لا تقلق بهذا الشأن.
- فليكن، ولكنني سأحتاج إلى شخص آخر، لديه دراية بالصيد، أو على الأقل بالقوارب.
تطلّع (برودي) إلى (هوبر)، ثم وضع يده على سمَّاعة الهاتف، وسأله:
- هل ترغب في المشاركة في هذه العملية؟
قال (هوبر):
- إنها عملية غير مدروسة، وليس لديه زميل، و..
قاطعه في حزم:
- هل تحب الذهاب أم لا؟
تنهد (هوبر)، وقال:
- ربما كانت هذه أكبر حماقة أرتكبها في حياتي، ولكن نعم.. سأذهب معكما، فلن أترك فرصة رؤية تلك السمكة تفوتني.
أبلغ (برودي) (كوينت) بموافقة (هوبر)، فقال (كوينت):
- عظيم.. سأنتظركما عند المرفأ الخاص بي، أمام قاربي (أوركا)، في السادسة من صباح الاثنين، وأحضرا معكما الطعام اللازم، والنقود، وستسلمني النقود نقدًا يومًا بيوم.
- لماذا؟
- قد تسقط من القارب، ولست أحب أن تغرق حاملًا نقودي.
لم يرق هذا الأسلوب أبدًا لـ (برودي)، ولكنه لم يعترض، وإنما أنهى الاتصال، ورفع رأسه إلى (هوبر)، قائلًا:
- السادسة من صباح الاثنين.
هزَّ (هوبر) رأسه موافقًا، في حين قال (ميدوز):

- هل أفهم من هذا أنك سترافقهما يا (مارتن)؟
أومأ (برودي) برأسه إيجابًا، وقال:
- إنه جزء من عملي يا (هاري).
- لا أعتقد أنه كذلك.
- لقد اتفقنا على هذا، على أية حال.
- لا بأس.. أتعشم إذن أن أراك مرة أخرى يا (مارتن).
تنهَّد (برودي)، وقال:
- صدقني يا (هاري).. أنا أتمنى هذا أكثر منك.
لم يدر لماذا تذكر (لاري فوجان) في هذه اللحظة، والدمار الذي حاق به، من جراء إعادة إغلاق الشاطئ فأضاف:
- إنه القدر يا (هاري).. قدري، وقدرنا جميعًا.
وانصرف دون أن يضيف حرفا واحدًا..

∞∞∞∞∞

لم يتصوَّر (برودي) في حياته كلها، أنه يمكن أن يواجه يومًا موقفًا كهذا، وهو يجلس فوق مقعد الصيد الدوار، المثبت بمسامير سميكة، في سطح قارب (كوينت)، ممسكًا قصبة صيد قوية، وإلى جواره يجلس (هوبر)، أمام عدة جرادل ممتلئة بالدم ومخلفات الأسماك، يغترف منها كل فترة كمية، يلقيها في الماء الساكن كالزيت، في حين وقف (كوينت) بقامته الفارهة وعضلاته المفتولة، ورأسه الأصلع، عند جسر خاص، يمتدّ من مقدّمة القارب، يراقب سطح الماء في انتباه كامل، على الرغم من انعكاس الشمس على سطح الماء، الذي يلهب عيني (برودي)، إلى الحد الذي دفعه لأن يقول:
- ألا ترتدي منظارًا شمسيًّا يا (كوينت)؟

أجابه (كوينت) في هدوء:
- مطلقًا.. إنني أحب رؤية الأشياء كما هي.. هذا أفضل.
- هل تمرّ عليك أيام كثيرة على هذه الوتيرة؟
- أية وتيرة؟
- أن تجلس طيلة النهار، دون أن يحدث شيء.
- أحيانًا.
- وهل يدفع لك الناس، حتى ولو لم يصطادوا شيئًا؟
- هذا هو المتبع، فمن المحتمل أن..
بتر عبارته بغتة، وحدَّق في الماء باهتمام بالغ، قبل أن يقول في حزم:
- لقد التقط شيء ما أحد الطعمين.
تطلَّع (برودي) إلى سطح الماء في اهتمام، ولكن كل شيء بدا له طبيعيًّا، فغمغم:
- أين؟
أجابه (كوينت):
- انتظر وسترى.
بدأ سلك أحد الشصين ينجذب داخل الماء، مصدرًا صوتًا معدنيًّا خفيفًا في بكرته، جعل قلب (برودي) يرتجف، وهو يقول:
- أهو القرش؟
أجابه (كوينت):
- يحتمل.. أمسك قصبة الصيد جيدًا، وعندما أهتف بك قم بتحريك المكبح، وصوّب عليه.
انتفض قلب (برودي)، لفكرة المواجهة المباشرة مع القرش، في حين هتف (كوينت):
- الآن.

أطلق (برودي) العنان لبكرة الخيط، ثم دفع ذراعًا صغيرة في أعلاها، ورأى قصبة الصيد تنثني كالقوس، وهبّ (هوبر) من موضعه، هاتفًا:

- سأسحبها أنا.

هتف به (كوينت) في غلظة:

- إياك أن تفعل.. ستنتزع الخطاف من فم السمكة لو فعلت.. لقد تصوَّرت أنك على دراية بالصيد.

لم يجب (هوبر)، وإنما عاد يجلس في مكانه، في حين أمسك (برودي) قصبة الصيد في قوة، وراح يلفّ السلك في بطء، كما علمه (كوينت)، وشعر بعضلاته تتصلّب من كثرة المجهود، فسأل (كوينت):

- أهو القرش؟

ابتسم (كوينت) قائلًا:

- بل هو مجرَّد تدريب صغير.. قرش أزرق، لا يتعدّى وزنه مائة وخمسين رطلًا.. تعال.. انظر.

مشى (برودي) إلى حافة القارب، وتطلع إلى القرش الأزرق الصغير، الذي راح يسبح في بطء حول القارب، وسمع (هوبر) يقول:

- إنه رائع الجمال.. أليس كذلك؟

أما (كوينت)، فقد صوَّب بندقيته إلى رأس القرش، وأطلق عليه ثلاث رصاصات سريعة، فهتف (برودي):

- لقد قتلته.



هبط الصقور بـ(دايل) و (زوركوف) في ذلك العش الهائل ، عند قدمي رجل ضخم الجثة ..

قال (كوينت)، وهو يجذب السلك، ليرفع القرش الصغير إلى الزورق:

- لا.. لقد أدرت رأسه قليلًا فحسب.

ثم أخرج خنجره، وشقّ به بطن القرش، وعاد يلقيه في الماء مرة أخرى، فهتف (برودي) في اشمئزاز:
- لماذا فعلت هذا؟
أجابه (كوينت) في سخرية:
- لتشاهد مشهدًا فريدًا، من حياة وطبيعة القروش.
سقط القرش الصغير في الماء، وراح يتلوّى، وينقض على أحشائه، ليلتهمها في شراسة، كما لو كانت أحشاء قرش آخر، ثم امتلأت المياه فجأة بعدد هائل من القروش، راحت تنهش جسد القرش المحتضر، حتى أتت عليه في لحظات، ثم اختفت بسرعة، و (برودي) يراقب هذا المشهد في ذهول، في حين تمتم (هوبر):
- يا إلهي!
أجابه (هوبر) في حدة:
- بالطبع.
أطلق (كوينت) ضحكة قصيرة، ثم اتجه إلى صندوق الثلج، وفتحه، ووضع طعمًا آخر في نهاية السلك، ثم ألقاه في الماء، وعاد إلى الجسر في صمت، لم يلبث أن شملهم جميعًا، إلى أن قال (برودي) فجأة:
- لو افترضنا أن القرش الأبيض الضخم قد جاء، ماذا سنفعل مبدئيًا؟
أجابه (كوينت) في هدوء:
- سنحاول أن نثير اهتمامه، ليبقى فترة طويلة، ونهاجمه بالحراب، وفي نهاية كل حربة برميل فارغ، ثم نتركه يجهد نفسه، والبرميل يجبره على البقاء قريبًا من السطح، حتى ينهار، فنقتله.
قال (هوبر):
- هذا لو اقترب من القارب إلى حد كاف.

ابتسم (كوينت) وقال:
- لدي وسيلة أخرى.
ثم غادر الجسر، واتجه نحو ثلاجة صغيرة، على سطح القارب، مستطردًا:
- إنني أحتفظ بطُعم خاص، سيغري حتى ملك القروش نفسه، بالسقوط في أيدينا.
وفتح الثلاجة، ليخرج منها درفيلًا صغيرًا ميتًا، ثُبِت في فمه خطاف كبير، وقال:
- ما من قرش يمكنه أن يقاوم وجبة كهذه.
هتف (هوبر):
- إنه مولود صغير.
غمز (كوينت) بعينه، قائلًا:
- بل أفضل من هذا.. إنه لم يكن قد وُلِد بعد.. لقد انتزعته من بطن أمه.
قال (هوبر) في عصبية.
- هل تعلم أن القانون يمنع اصطياد الدرافيل؟
قال (كوينت) في لا مبالاة:
- بالطبع.
ثم ألقى الدرفيل الصغير داخل الثلاجة مرة أخرى، وأغلقها في استهتار، فهتف (هوبر):
- لو أنني تقدمت بشكوى رسمية ضدك،....
انقضّ عليه (كوينت) فجأة، وقال في صرامة:
- سيصبح صيد القرش أكثر سهولة.
ثم أضاف في لهجة مخيفة:
- لأنني سأمنحه طعمًا أفضل من لحم الدرفيل.
ولم يعترض (هوبر) بعدها على أسلوب (كوينت)..

.. قط.

∞∞∞∞∞

10 - المواجهة..

لم يختلف اليوم الثاني كثيرًا عن اليوم الأول، إذ بدا البحر ساكنًا كالزيت، والتقط الطعم قرشًا أزرق أخر، فعل به (كوينت) مثلما فعل بالقرش السابق، ثم راح يؤدي بعض تدريبات الرماية ببندقيته، على علب البيرة الفارغة، حتى شعر (برودي) بالملل، فتجاهل قصبة الصيد بدوره، وراح يقرأ قصة بوليسية أحضرها معه هذه المرة، حتى سمع (كوينت) يقول في جذل:

- هناك سمكة (أبو سيف) تقترب.

مط (برودي) شفتيه، وترك (كوينت) يحاور سمكة (أبو سيف)، التي تجاهلت طُعمه تمامًا، وغاصت في الأعماق مبتعدة، فقال في سخط:

- ها هو ذا واحد من تلك الأيام، التي كنت تسألني عنها أيها الرئيس.

رفع إليه (برودي) رأسه، وسأله:

- أية أيام؟

أجابه (كوينت) في عصبية:

- الأيام التي لا نجد فيها شيئًا.

لم يكد ينطق عبارته حتى انجذب أحد سلكي قصبة الصيد، فهتف في انفعال:

- ها هو ذا صيد جيد.. هيا.. استعد أيها الرئيس، لرفع الذراع، وسحب الـ...

تلاشى انجذاب السلك بغتة، وبدا كما لو أنه قد تراخى دفعة واحدة، فسأل (برودي) في تردد:

- ما الذي يعنيه هذا؟

عقد (كوينت) حاجبيه في حيرة، وهو يقول:
- لست أدري.
ثم جذب السلك من الماء، ورفع حاجبيه في دهشة، عندما تدلى طرفه خاليًا من الطعم، ومن الخطاف نفسه، فأسرع يتحسس طرف السلك المقطوع، وأدار عينيه يتطلَّع إلى الماء لحظات، ثم قال في حسم:
- أظننا قد التقينا بصاحبكم.
قفز (برودي) من مكانه هاتفًا:
- ماذا؟
أما (هوبر)، فقال في انفعال:
- أحقًّا.. هذا رائع.. رائع جدًّا.
أشار (كوينت) بسبَّابته، قائلًا:
- إنني لم أره، ولكنني أراهن أنه هو، فلقد قضم هذا السلك قضمة واحدة، وبدون تردد.
سأله (برودي) في توتر:
- والآن ماذا نفعل؟
سننتظر حتى يبتلع الطعم الآخر، أو يظهر على السطح.
- ولماذا لا نستخدم الدرفيل الوليد؟
- ليس قبل أن أتأكّد من أنه هو.
خيَّم عليهم صمت تام، وهم يراقبون سطح الماء في شغف، ثم انجذب السلك الآخر بغتة، فانتفض قلب (برودي) في انفعال، وراح يراقب السلك مرتجفًا، إلى أن تراخى كسابقه، فهتف (كوينت):
- لقد فعلها اللعين مرة أخرى.
جذب الخيط الثاني، ورآه مقضومًا كسابقه، فقال في حماس:
- سأضع سلكا أكثر سمكاً.

سأله (برودي):
- ألن يمكنه قضمه؟
أجابه في جذل:
- يستطيع لو أراد، ولكني أحاول جذبه إلى السطح فحسب.
راح يثبت السلك الجديد في سرعة، في حين أخذ (هوبر) يلقي محتويات الدلاء من دماء وأحشاء في عصبية، حتى هتف فجأة:
- يا إلهي!
أسرع إليه (برودي) و (كوينت) يسألانه:
- ماذا حدث؟
أشار إلى المؤخرة اليمنى للقارب، قائلًا:
- انظرا.
لم يكد نظرهما ينتقل إلى حيث يشير، حتى اتسعت عينا (كوينت) في ذهول، وأطلق (برودي) شهقة فزع ودهشة؛ فهناك، على بعد ثلاثة أمتار فقط من مؤخرة القارب، كان رأس السمكة المثلث الشكل يظهر فوق سطح الماء في وضوح، وهي تتطلع إليهم بعينيها الشديدتى السواد، الخاليتين من أية تعبيرات، وفكاها المنفرجان يشبهان حافتي كهف معتم عميق، تحرس جانبيه أسنان مثلثة ضخمة حادة..
.. وواجهت السمكة الرجال الثلاثة لعشرة ثوان تقريبا، قبل أن يهتف (كوينت):
- أريد رمحًا.
وقفز محاولًا اختطاف أحد رماحه، في حين التقط (برودي) بندقيته في سرعة، في نفس الوقت الذي غاصت فيه السمكة في هدوء، فأطلق (برودي) الرصاص خلفها، دون أن يصيبها، ورأى ذيلها يختفي في الماء بليونة، فقال في خيبة أمل:
- لقد اختفى.

سمع من خلفه (هوبر) يهتف:
- رائع.. هذه السمكة فاقت كل تصوراتي.. إن عرض رأسها يبلغ مترًا ونصف المتر على الأقل.
هتف (كوينت)، وهو يضع (رمحين وبرميلين ولفتين ضخمتين من الحبال، عند مؤخرة القارب:
- هذا ممكن.
سأله (هوبر) في حماس:
- هل رأيت سمكة بهذا الحجم من قبل يا (كوينت)؟
- ليس بالضبط.
- كم يبلغ طولها في رأيك؟
- من الصعب التحديد.. عشرين قدمًا تقريبا، وربما أكثر.. لست أدرى.
- يا إلهي!.. كم أتمنى أن تعود.
سرت قشعريرة في جسد (برودي)، وهو يقول:
- هذا غريب.. غريب جدًا.. لقد بدا لي كما لو أنه يبتسم.
قال (كوينت):
- هكذا يبدون، عندما يفتحون فكوكهم، ولكن لا تقدّره بأكثر مما يستحق.. إنه مجرّد صندوق قمامة.
قال (هوبر) معترضًا:
- كيف يمكنك أن تقول هذا.. إن هذه السمكة قطعة من جمال الطبيعة.
هزَّ (كوينت) كتفيه، قائلًا:
- كلام فارغ.
ثم اتجه مرة ثانية إلى الجسر، فسأله (برودي) في توتر:
- هل سنستخدم الدرفيل؟
أجابه (كوينت)، وهو يراقب الماء في اهتمام:

- لا داعي.. لقد صعد إلى السطح مرة، وسيصعد مرة أخرى حتمًا.
وهنا سمع (هوبر) صوتًا من الخلف، فالتفت إلى المحيط، وهتف:
- انظروا.
كان يشير إلى زعنفة ظهر القرش الضخمة، التي ارتفعت فوق الماء، على بعد عشرة أمتار من القارب، والتي انطلقت تشقّ طريقها إليهما، يتبعها ذيل ضخم، يتلوّى يمينًا وشمالًا، في حركات منتظمة، فصرخ (برودي) في فزع:
- إنه يهاجم القارب.
أما (كوينت) فقد قفز يلتقط أحد رمحيه، ولكن السمكة غاصت فجأة أسفل الزورق، واختفت تحت سطح الماء، فهتف في سخط:
- أيها اللعين.. نبهني أنك قادم في المرة التالية.
ثم ضحك مستطردًا:
- المفروض أن أشعر بالامتنان له؛ لأنه لم يهاجم القارب.
والتفت إلى (برودي) مضيفًا:
- لقد أثّر في أعصابك قليلًا.. أليس كذلك؟
أجابه (برودي):
- بل كثيرًا.. إن هذا الشيء لا يبدو لي مجرَّد سمكة.. إنه أحد الوحوش المرعبة، التي تظهر في أفلام السينما.
قال (هوبر) في حماس:
- بل هو مجرَّد سمكة، ولكنها سمكة رائعة.. هل تدرك إلى أي حجم يمكن أن تصل تلك الأسماك؟ إن هذا القرش الذي رأيناه، يبلغ الستة، أو السبعة أمتار، فحسب، ولكنهم وجدوا في (أستراليا) قرشًا يبلغ طوله اثنى عشر مترًا.

اتسعت عينا (برودي) في ذهول، وهو يقول:
- حقًّا؟!
أما (كوينت)، فقد ردد في ازدراء:
- كلام فارغ.
ولكن (هوبر) تابع بنفس الحماس:
- لا تجعلا هذا يدهشكما، فهو ليس أضخم أحجام القروش، إذ عثر العلماء على هيكل قرش، يبلغ طوله ثلاثة وثلاثين مترًا، و...
قاطعه (برودي) في توتر:
- كفى يا (هوبر).
بدا الأسف على وجه (هوبر)، كما لو كان يسعد بشرح معلوماته للآخرين، في حين التقط (كوينت) ورقة وقلمًا، وراح ينظر إلى الشاطئ في اهتمام، ويدوّن بعض الأرقام على الورقة، فسأله (برودي):
- ماذا تفعل بالضبط؟
أجابه في هدوء:
- أحدّد موضعنا، حتى يمكننا العودة غدًا، إلى نفس المكان.
- وهل تظن أن القرش سينتظرنا هنا، حتى نعود إليه؟
- إننا لن نخسر شيئًا بالعودة.
- ولم لا نبقى، حتى يظهر مرة أخرى؟
- لأن الشمس ستغرب بعد قليل، والظلام يجعله في الموقف الأقوى، إذ لن ننتبه إلى قدومه، إلا بعد أن يلتهم أحدنا.
ارتجف جسد (برودي)، لسماع العبارة الأخيرة، وقال في خفوت:
- فليكن.. سنعود إليه في الغد.
وعندما اتخذ القارب طريق العودة، كانت هناك عين سوداء ضخمة تتابعه بلا أية تعبيرات..
.. على وعد بلقاء قريب..

∞∞∞∞∞∞

عقد (كوينت) حاجبيه في غضب، في الصباح التالي وهو يتطلَّع إلى قفص من الألومنيوم، على شكل مكعب طول ضلعه يناهز المترين، ويحوي داخله لوحة تحكّم وخزانات أكسجين، وقال في صرامة:

- لا.. لن تضع هذا الشيء على قاربي.

قال (هوبر) في هدوء

- ولم لا؟.. إنه خفيف الوزن، ويمكنني أن أضعه في أي ركن على القارب.

قال (كوينت) في عناد:

- لا.. سيحتلّ مساحة كبيرة.

غمغم (برودي):

- هذا ما يبدو لي.

وهتف (كوينت) في حدة

- ثم ما هذا الشيء؟

أجابه (هوبر) في إصرار:

- إنه قفص قروش، يستعمله الغواصون لحماية أنفسهم، عندما يغطسون في المحيط.. لقد طلبت إرساله من (وودز هول).

- وماذا تنوي أن تفعل به؟

- عندما نجد السمكة، أو تجدنا هي، أريد أن أنزل في هذا القفص لتصويرها، فلم يحصل أحد على صور لسمكة في هذا الحجم أبدًا.

- ليس على قاربي.

- ولِمَ لا؟

- لأن هذه حماقة.. هذا هو السبب، والرجل العاقل يعرف حدوده، وأنت تتعدّى حدودك.
- كيف تعرف هذا؟
- هذا يتعدّى إمكانيات أي رجل، فسمكة بهذا الحجم يمكنها أن تلتهم قفصك هذا في الإفطار.
- لن تفعل هذا.. قد تضربه بذيلها، أو برأسها، ولكنها لن تحاول أكله.
- ستفعل، خاصة عندما تجد داخله طُعمًا مغريًا مثلك.
- أشك في هذا.
- لا.. انس الموضوع تمامًا.
- اسمع يا (كوينت).. إنها فرصة نادرة لتصوير قرش حي، طوله ستة أمتار، يسبح في المحيط، ولن أتنازل عنها أبدًا.
ثم أضاف بلهجة مختلفة:
- ثم إنني سأدفع لك.. سأمنحك مائة دولار عدًا ونقدًا.. الآن.
مطّ (برودي) شفتيه في ضيق، في حين عقد (كوينت) حاجبيه، وقال:
- فليكن.. لو أراد أي غبي أن يقتل نفسه، فليس من حقي منعه من ذلك.
ناوله (هوبر) المائة دولار، وهو يبتسم في ارتياح، قائلًا:
- ستموت وقد حققت ثروة يا (كوينت).
قهقه (كوينت) ضاحكًا، وقال:
- أليست فكرة رائعة؟
لم يشاركهما (برودي) ضحكاتهما، إذ لم تكن فكرة قفص القروش هذه تروقه كثيرًا، وإن أدهشته خفة القفص العجيبة، وهو يحمله مع (هوبر) في بساطة إلى سطح الزورق، ولكنه لم

يتصوَّر فكرة هبوط أي شخص عاقل إلى الأعماق، مع وجود قرش بهذا الحجم هناك.

.. ومنذ الإبحار، وحتى بلغوا موضع اليوم السابق تقريبًا، لم ينطق (برودي) بكلمة واحدة، ثم لم يلبث أن سأل (كوينت):

- هل سنعود إلى نفس المكان؟

أجابه (كوينت) في هدوء:

- لقد اقتربنا منه كثيرًا.

- أتعتقد أن السمكة ستنتظرنا هناك؟

- لست أدري، ولكن ليس لدينا ما نفعله سوى هذا.

- هل تذكر أوَّل حديث هاتفي لنا؟ عندما قلت: إن سر نجاحك هو أنك أذكى من الأسماك؟

- هذا أمر طبيعي، فكل الأسماك كائنات متناهية الغباء.

- ألم تصادفك أبدا سمكة ذكية؟

- ليس بعد.

نطق (كوينت) الكلمة الأخيرة، وهو يبتسم ابتسامة ساخرة، فقال (برودي):

- ولكن تلك السمكة بدت لي أمس في منتهى الخبث، كما لو كانت تدرك تمامًا كل ما تفعله.

ضحك (كوينت)، وقال:

- إنك تقدّر الأسماك بأكثر مما تستحق بالفعل.

قال (برودي) في تحد:

- ولكن ألم تفشل يومًا في صيد سمكة ما؟

- بالتأكيد، ولكن هذا لا يعني أنها ذكية أو خبيثة، بل يعني فقط أنها لم تكن جائعة.

قالها وجذب ذراع التوقّف، فأبطأت سرعة القارب، حتى راح يتهادى مع الأمواج، وأخرج (كوينت) من جيبه ورقة البارحِة،

وراجع بياناتها في اهتمام، ثم أغلق مفتاح التشغيل، فتوقَّف المحرّك، وساد صمت ثقيل مفاجئ، قبل أن يقول هو لـ (هوبر):
- هيا يا (هوبر).. ابدأ في إلقاء المخلفات في الماء.
رفع (هوبر) غطاء أحد الدلاء، وراح يلقي الدماء وأحشاء الأسماك منه في البحر كل فترة، ثم لم يلبث أن شعر بالتعب والملل، فتوقّف عن فعل هذا، وران السكون على القارب فترة طويلة..
.. وفجأة قفز (هوبر) واقفًا، وصرخ:
- ها هو ذا.
وكان هذا إيذانًا بمواجهة جديدة..
.. ومخيفة.

∞∞∞∞∞

11- القفص..

شعر (برودي) بنبضاته تتسارع، وهو يتطلَّع إلى الزعنفة الرمادية المثلثة، وهي تشق المياه، يتبعها الذيل المنجلي، بضرباته القصيرة المنتظمة، على بعد عشرة أمتار من مؤخرة القارب، وازدرد (برودي) لعابه في توتر، وهو يسأل (كوينت):

- ماذا ستفعل؟

أجابه في انفعال:

- لا شيء.. حتى نرى ما سيفعله هو.

ثم التفت إلى (هوبر) مستطردًا:

- ألق المزيد من الدماء والأحشاء في الماء يا (هوبر) حتى نحضره إلى هنا.

وحمل برميلًا ورمحًا ولفة حبال إلى الجسر الصغير، في مقدّمة القارب، ووقف ينتظر في لهفة، ولكن القرش راح يدور حول القارب في بطء، دون أن يقترب لأكثر من عشرة أمتار، فقال (كوينت) في توتر:

- عجبًا!!.. لست أفهم هذا.. كان لابد وأن يأتي نحونا، ليستطلع الأمر على الأقل.

ثم اتجه إلى (برودي)، قائلًا:

- انزع الطعم من السلك يا (برودي)، والقه إليه في الماء بقوة، لتثير اهتمام ذلك الوغد.. هيا.

وراح هو أيضًا يضرب الماء برمحه، محاولًا إثارة أكبر قدر ممكن من الضجيج..

.. ولكن القرش لم يقترب.

.. وهنا قفز (كوينت) إلى الثلاجة الصغيرة، وانتزع منها الدرفيل الوليد، وهو يقول في حدة:

- حانت لحظة ذهابك أيها الصغير.

وراح يربط سلسلة قوية في فك الدرفيل، ورفعه في الهواء، وطعنه عدة طعنات، ثم ألقاه في الماء، وهو يقف بقدمه فوق السلسلة، ويحمل رمحه في تحفّز، فسأله (هوبر):

- لماذا تقف فوق السلسلة؟

أجابه في انفعال شديد:

- لا أريد أن يبتعد الدرفيل كثيرًا، حتى يمكنني طعن القرش بالحربة.

لم يقترب القرش على الفور، وإنما راح يدور حول القارب، على هيئة دوامة متناقصة، إلى أن صار يبعد عنه خمسة أمتار تقريبًا، فنزل ذيله تحت سطح الماء، وتراجعت زعنفته، وظهر بدلًا منها رأسه الضخم، بابتسامته المخيفة، وعينيه الشبيهتين بكهفين سحيقين..

.. وارتجف (برودي)، وهو يحدّق في العينين برعب، في حين أمسك (كوينت) الرمح في قوة، قائلًا:

- هيا.. اقتربي أيتها السمكة الجميلة، لترى ماذا أعددنا لك.



كانت أمامه فتاة توليه ظهرها وهي تتمنطق بحزام يتدلى
منه خنجر كبير، إلى يمينها..

مضت برهة أخرى، والسمكة معلقة في الماء على هذا النحو، ثم انزلقت فجأة بلا أدنى صوت، واختفت في الماء، فقال (برودي) في توتر:

- أين ذهب القرش؟
قال (كوينت)، وهو يصوِّب رمحه نحو الدرفيل العائم:
- اطمئن.. سيعود.
وفجأة اهتزّ القارب في قوة، ومال بشدة، واختلّ توازن (كوينت)، فوقع ظهره فوق الجسر، واهتزّ (برودي) في عنف، وراح مقعده يدور في سرعة، في حين اندفع (هوبر) يرتطم بحافة القارب العليا، وأخذ الحبل المربوط بالدرفيل يندفع وينجذب في قوة، جعلت خيوطه تتقطعّ، وخشب السطح المرتبط بها يقرقع ويتشقّق، ثم فجأة ارتدّ الحبل في عنف، وبدا طرفه مقطوعًا، بدون الدرفيل، فاندفع من بين شفتي (كوينت) سيل من الشتائم، في حين هتف (برودي):
- إنه يتصرَّف كما لو كان يعرف ما تحاول فعله.. لقد عرف أنه يستطيع أخذ الدرفيل، لو أفقدك توازنك.
هتف (كوينت) في غضب:
- ذلك اللعين.. إنني لم أر في حياتي سمكة تفعل هذا.
سأله (برودي):
- كيف تظنه تخلّص من الخطاف، دون أن يخلع المربط من مكانه؟
اتجه (كوينت) إلى حافة القارب، وأخذ يسحب الحبل الحديدي قائلًا:
- ربما قضم السلسلة، أو...
بتر عبارته ليهتف فجأة:
- يا إلهى!
أخرج السلسلة من الماء سليمة، ولكن الخطاف في نهايتها لم يعد ملتويًا، بل صار مستقيمًا تمامًا، وهتف (برودي):
- يا إلهي... لقد فعل هذا بفمه!

حدَّق (كوينت) في الخطاف المفرود في ذهول، وهو يقول:
- لقد فرده في سهولة.. ربما في ثانية أو ثانيتين.
شعر (برودي) برأسه يدور، وبجفاف في حلقه، وترنّح من شدة الرعب، الذي ملأ كيانه كله، وجلس على المقعد الدوار قبل أن تعجز قدماه عن حمله، في حين قال (هوبر)، الذي يقف في المؤخرة، محدّقاً في الماء:
- تُري أين ذهب؟
أجابه (كوينت)، وهو يعدّ الرمح مرة ثانية:
- إنه في مكان ما حولنا، ولم يشبعه الدرفيل بالطبع، وسيبحث عن المزيد من الطعام، وعلينا أن نجذبه بمزيد من الطعم.
راقبه (برودي) وهو يعد الطعم والرمح والحبال، وانتظر حتى انتهى (كوينت) من إعداد كل شيء، وجاء يجلس إلى جواره، فقال:
- من المؤكَّد أن درجة ذكاء هذه السمكة مرتفعة للغاية.
نطقها وهو يتمنى أن يعارضه (هوبر) أو (كوينت)، لتزيل معارضتهما شيئا من رعبه، إلا أن (كوينت) قال في توتر:
- لست أدري ما إذا كانت ذكية أم لا، ولكنها تفعل ما لم أر في حياتي سمكة تفعله.
لم ينبس (برودي) بعدها ببنت شفة، وهو يجلس صامتًا كرفيقيه، وثلاثتهم يتطلّعون إلى سطح الماء، وكل منهم يتوقّع أن تبرز الزعنفة العملاقة فجأة، إلى أن قال (هوبر) على نحو مباغت:
- فلننزل القفص إلى الماء.
ارتجف (برودي)، وهو يقول:
- هل جننت؟
أجابه (هوبر):

- لا.. إنني عاقل للغاية، فالقفص هو الوسيلة الوحيدة لاجتذابه.
صاح (برودي)
- وأنت داخله؟!
قال (هوبر):
- لا.. ليس في البداية.. سننزله فارغًا أوّلًا، لنرى رد فعله، ثم أهبط إليه بعد ذلك.
نهض (كوينت) قائلا:
- فكرة جيدة.
انكمش (برودي) في مقعده، وهو يراقبهما يعدان القفص للهبوط، ويربطان سقفه إلى القارب في إحكام، وتساءل مستنكرًا عن ذلك الجنون، الذي يدفع (هوبر) إلى التفكير في الهبوط إلى الماء، مع وجود وحش البحار هذا، ثم لم يلبث أن قال في حدة:
- أتظن أن هذا القفص سيدفعه إلى الخروج إلى السطح؟
أجابه (هوبر):
- أنا لم أقل هذا، ولكنه سيأتي لرؤيته على الأقل.
أنزل القفص مع (كوينت) تحت سطح الماء، وانتظر الجميع طويلًا، ولكن القرش لم يظهر قط، فهبط (هوبر) إلى أسفل القارب، وعاد حاملًا أدوات التصوير، فسأله (برودي) في جزع:
- ماذا ستفعل؟
- سأنزل تحت الماء، في القفص، فربما يغريه هذا بالمجيء.
- لقد فقدت عقلك تمامًا.. وماذا لو جاء بالفعل؟
- سألتقط له بعض الصور أوّلًا، ثم أحاول قتله.
- بماذا؟
رفع عصا رفيعة في يده، وأجاب:
- بهذه.
قهقه (كوينت) ضاحكًا، وقال:

- يمكنك على الأقل أن تدغدغه بها، حتى يموت ضحكاً.
قال (هوبر) في جدية:
- إنها ليست مجرَّد عصا.. إنها بندقية أعماق، تحوي قذيفة من الرصاص، لو أصابت المكان المناسب من أي كائن، مهما بلغت ضخامته، فستكفي لقتله.. والمكان المناسب، في مثل هذا القرش، هو المخ.
قال (كوينت) في هدوء:
- هذا لو لم يقتلك هو أوّلًا.
ثم مطّ شفتيه، مستطردًا:
- إنني أكره أن يبتلعني ديناصور يزن خمسة أطنان.
تطلّع إليه (هوبر) لحظة، ثم قال في برود:
- لاحظ أنك لم تنجح مع هذه السمكة يا (كوينت)، وأنها تلتهم ما تقدِّمه لها من طعم، دون أن تظفر منها بسن واحدة.
- سيصعد ذلك القرش إلى السطح، وسأظفر به.
- هذا لو أمكنك أن تحيا لقرن من الزمان.
- هل تحاول تعليمي مهنتي يا فتى؟
- لا، ولكنني أخبرك أن هذا القرش أكبر مما يمكنك صيده.
- هكذا؟!.. هل تعتقد أنك ستنجح، فيما يفشل فيه (كوينت).
- نعم.. أعتقد أنني أقدر منك على قتله.
- فليكن.. خذ فرصتك.
هتف (برودي) معترضًا:
- لا.. لا يمكننا أن نسمح له بالنزول في هذا الشيء.
ولكن (كوينت) أشار إلى القفص، قائلًا:
- هيا يا مستر (هوبر).. ادخل ذلك الشيء.
هتف (هوبر)، وهو يرتدي ثوب الغطس في سرعة:
- حالًا.

استعدّ للهبوط إلى القفص، وهو يقول لـ (برودي):
- راقب ما يحدث، واحمل بندقيتك، فقد يمكنك صيده، أما أنت يا (كوينت)..
قاطعه (كوينت) في صرامة:
- أعرف ما ينبغي فعله.
وعلى الرغم من غضب (كوينت)، فقد تعاون مع (برودي) على رفع القفص إلى السطح، وساعد (هوبر) على الدخول إليه، ثم أدلّاه مع (برودي) إلى ما تحت سطح الماء، ولم يكد القفص براكبه يختفي، حتى ارتجف (برودي)، وقال:
- أتظنه سينجو؟
أجابه (كوينت) باقتضاب مخيف:
- لا
وكان الجواب يكفي..

∞∞∞∞∞∞

امتلأت نفس (هوبر) بالسكينة والهدوء، عندما وجد نفسه في الأعماق، فهو منذ حداثته يعشق الغوص، ويجد فيه الشعور بالحرية والارتياح، وإن حُرِمَ من الشعورين هذه المرة، بسبب ذلك القفص الذي يحدّ من حريته، والقرش الذي يهدد أمنه وراحته..
.. وراح (هوبر) يدير عينيه فيما حوله، محاولًا اختراق حاجز عتمة الماء، بحثًا عن القرش، وتشبّث بآلة التصوير وبندقية الأعماق، وهو يتساءل عن ذلك القرش العجيب، الذي يخطّط ويدبّر، كما لو كان كائنًا ذكيًا عاملًا..
.. وفجأة وقع بصره عليه..

.. كان يرتفع نحوه من الأعماق في نعومة وهدوء، ودون أدنى مجهود، كما لو كان ملك الموت ينزلق نحو موعد مقدّر من قبل..

.. وتطلَّع إليه (هوبر) مبهورًا مأخوذًا، وراح يتأمل ألوانه الجميلة الزاهية، وهو يقترب منه في سكون رهيب، ثم يتجاوزه في عظمة ولا مبالاة، كما لو كان يستعرض قوته وضخامته..



وسبح الصاروخ نحو الهدف ..
نحو قصر شاهق مهيب ، يبدو أشبه بقصور الأساطير القديمة ..

.. وبلا وعي، مدّ (هوبر) يده في نشوة، يتحسسّ جانب القرش، الذي بدا لأصابعه باردًا، صلبًا، ناعمًا، وترك أصابعه تربّت عليه في سعادة، حتى أزاحها ذيله الضخم في قسوة، وابتعدت السمكة

في عظمة وخيلاء، ورأى (هوبر) فقاعات تبرز على السطح، وأدرك أنها رصاصات تنطلق خلف السمكة، فشعر بالضيق لأن رفيقيه يحاولان قتلها، قبل أن يلتقط لها مجموعة كافية من الصور، ولكنه رفع آلة التصوير السينمائية إلى عينيه، وتابع السمكة وهي تختفي في عتمة المياه، حتى لم يعد هناك أثر لها..

.. ثم رآها تستدير في بطء، وتتجه إليه، وخُيِّل إليه أنها تنطلق هذه المرة بسرعة أكبر، ثم لم يلبث أن أدرك أنها تنطلق بسرعة كبيرة بالفعل..

.. أدرك هذا فقط، عندما ارتطم رأسها بالقفص، وحطّم بعض قضبانه، وبدأ يعبرها إليه..

.. وسقطت آلة التصوير من يد (هوبر)، وخرج خرطوم الهواء من فمه، وهو يلتصق بالجانب البعيد من القفص، والسمكة تضربه برأسها، محاولة الوصول إليه، والتهامه..

.. وبدأ صدره يضيق احتياجًا للهواء..

.. ويضيق..

.. ويضيق..

.. ويضيق..

∞∞∞∞∞∞

ارتجف (برودي) رعبًا، وهو يصرخ:

- إنها تهاجمه.. تلك اللعينة تحاول قتله.. ساعدني يا (كوينت) على إرجاعه.

ولكن (كوينت) صاح في مرارة:

- لا فائدة.. اللعبة على تلك السمكة القذرة.

صاح به (برودي):

- ارمها برمحك يا (كوينت).. ارمها برمحك.

هتف (كوينت):

- لا أستطيع.. لابد أن تصعد إلى السطح.. هيا أيها الشيطان.. اصعد أيها اللعين.

لم يعره القرش انتباها هذه المرة، إذ كان يبذل أقصى جهده لتحطيم القفص، وانتزاع (هوبر) منه، ولكن هذا الأخير نجح في العثور على خرطوم الهواء، فوضعه في فمه، واختنق لحظة منه، ثم لم يلبث أن عاد يتنفس في ارتياح، ولكن ذلك الارتياح تلاشى مع مشهد أسنان القرش العملاقة، وهي تحاول التهامه، فتراجع ليلتصق بظهر القفص، وتذكّر فجأة بندقية الأعماق، ثم لم يلبث أن عضّ شفتيه قهرًا وندمًا، عندما لم يجدها في قبضته، ثم..

.. ثم أطبقت عليه أسنان القرش فجأة، وانغرست في جسده..

.. ورأى (هوبر) أمامه سحابة من الدم..

.. من دمه هو..

.. وكان هذا آخر ما رآه..

.. وفي أعلى صرخ (برودي):

- لقد أمسك به يا (كوينت).. افعل شيئًا.

قال (كوينت):

- لا فائدة يا (برودي).. لقد مات.

برز القرش على السطح، في نفس اللحظة، على بعد خمسة أمتار من القارب، وهو يمسك جثة (هوبر) بين أسنانه، فتراجع (برودي) كالمصعوق، في حين صاح به (كوينت)، وهو يرفع رمحه:

- أطلق النار يا (برودي).. أطلق النار.

ثم ألقى رمحه، ولكن السمكة غاصت في الماء بسرعة، فمرق الرمح من فوقها، وسقط في الماء، وصرخ (كوينت):

- أطلق النار يا (برودي).. أطلق بالله عليك.

وهنا فقط أطلق (برودي) النار، ولكن كل رصاصاته طاشت في الهواء، واختفى القرش في الماء بجثة (هوبر)..
.. ثم ساد السكون..
.. سكون رهيب مخيف، قطعه (برودي) بلهجة أقرب إلى البكاء، وهو يقول:
- ماذا سنفعل الآن؟.. يا إلهي!.. ماذا يمكننا أن نفعل؟.. الأفضل لنا أن نعود.
بدا (كوينت) جامدًا، وهو يقول في صرامة:
- سنعود مؤقتًا.
- مؤقتًا؟!.. ماذا تعني مؤقتًا هذه؟.. لم يعد أمامنا ما يمكننا القيام به.. إننا لن نهزم هذه السمكة اللعينة أبدًا.. إنها ليست سمكة عادية.
- هل هزمتك يا رجل؟
- نعم.. إنني أعترف بالهزيمة، فما يحدث يفوق طاقة البشر.
انعقد حاجبا (كوينت) في صرامة مخيفة، وهو يقول:
- لا.. سأقتل هذا الشيء.
- لن يمكنني الحصول على مزيد من النقود، بعدما حدث اليوم.
- احتفظ بنقودك يا رجل.. إنها لم تعد مسألة نقود.
- ماذا تعني؟
كان (كوينت) ينظر إلى البقعة التي اختفت عندها السمكة في مرارة، كما لو كان يتوقّع ظهورها مرة أخرى، وهو يقول في حزم عنيف:
- سأقتل هذه السمكة، شئت أم أبيت.. يمكنك البقاء في منزلك، ولكنني سأبذل قصارى جهدي لقتلها.
تطلع (برودي) إلى عيني (كوينت)، اللذين بدتا له عميقتين، شديدتي السواد، مثل عين السمكة، وتذكَّر (هوبر) فاعتدل قائلًا

في حزم:
- سأصحبك يا (كوينت).. سأصحبك في الجولة الأخيرة.
وكانت الجولة الأخيرة بالفعل، ولكن تُري لصالح من؟ البشر، أم الفك..
.. الفك المفترس؟

∞∞∞∞∞

12 - المواجهة الأخيرة..

(من الخطأ أن نقول إن (مارتن برودي) قد استيقظ في الخامسة، من صباح اليوم التالي، فصحيح أنه قد غادر فراشه في هذه الساعة، ولكن الواقع أنه لم يغمض له جفن طيلة الليلة، وهو يفكّر في كل ما حدث في اليوم السابق، وفيما يمكن أن يحدث له، أو لـ (كوينت)، في المواجهة القادمة..

.. كان يفكر في (إلين) والأولاد، وفيما سيواجههم لو لقي مصرعه هذه المرة، كما حدث لـ (هوبر) المسكين..

.. ثم اكتشف أنه لا جدوى من التفكير..

.. إنه القدر..

.. القدر الذي سيملى إرادته في النهاية، سواء قضي هو ليلته مفكرًا، أو نائمًا..

.. وفي هدوء، تسلل من الفراش، وانحنى يطبع قبلة وداع على جبين زوجته، ثم ارتدي ثيابه، وألقي نظرة على أطفاله في فراشهم. وغادر المنزل..

.. وعند نافذة سيارته وجد نسخة من جريدة الصباح، من (الليدر)، تحمل توقيع (هاري ميدوز)، أسفل جملة واحدة، تقول:

- اغفر لي يا (مارتن).

لم يفهم ما الذي تعنيه العبارة، فقرأ مقال (ميدوز) الافتتاحي، وفوجئ به يبدأ المقال بتأبين (هوبر)، ثم يقصّ القصة الحقيقية كلها على قرائه، مشيدًا بدور (برودي)، الذي قاتل منذ البداية لإغلاق الشاطئ، والذي دافع عن واجبه ومدينته خير دفاع،

وينهى المقال باعتذار عميق، من كل سكان (أميتي) لـ (برودي)، الذي تدفّقت عواطفه وهو يقرأ المقال، فغمغم:
- شكرا لك يا (هاري).
ثم تنهّد مستطردًا:
- وداع جيّد.. سيذكرني أهل المدينة بالخير على الأقل.
انطلق بسيارته إلى مرفأ (كوينت)، ووجد هذا الأخير ينتظره عند القارب، فأوقف سيارته، وقفز إلى القارب قائلًا:
- صباح الخير يا (كوينت).. الجو سيئ اليوم.
قال (كوينت) في حزم:
- فليكن.
أشار (برودي) إلى كتلة مغطاة، وسأل:
- ما هذا؟
أجابه (كوينت):
- خروف.
- لماذا؟
- طعم صغير لاصطياد ذلك الوغد.. هيا.. فك حبل المؤخرة، فسنبحر وحدنا هذه المرة.
- أعلم هذا.
نطقها (برودي) في أسي، وهو يحلّ حبل المؤخرة، وأبحر (كوينت) على الفور، وسط بحر هائج متلاطم الأمواج، أثار مزيدًا من قلق برودي ومخاوفه، حتى بلغ القارب المياه العميقة، باتجاه الجنوب الغربي، فهدأت الأمواج، وأصبحت الحركة منتظمة، ثم هدأ صوت المحرِّك، وتوقّف القارب، فقال (برودي):
- إننا لم نبلغ النقطة نفسها.
أجابه (كوينت):

- هذا صحيح.
- لماذا توقّفت إذن؟
- راودني إحساس غامض أنه هنا.. ما بين هنا و(أميتي).
- لماذا؟
- لا يوجد سبب لمثل هذه الأشياء.
- ولكننا وجدناه في منطقة أخرى، في المرتين السابقتين.
- خطأ.. هو الذي وجدنا.
- لست أفهمك يا (كوينت).. كنت تصرّ فيما مضى على أنه لا توجد سمكة ذكية، والآن تقول: إنها عبقرية.
- ليس إلى هذا الحد.
وصمت لحظة، ثم أضاف في حزم:
- ولكنني لست أظن أننا سننتظر طويلًا.
ثم أشار إلى دلو المخلفات الدموية، مستطردًا.
- هيا.. ألق الطعم لذلك الوغد.
واتجه هو نحو الخروف، فشق بطنه، وربط عنقه بحبل، وألقاه في الماء، على مقربة من القارب، ثم أعدّ برميلين ورمحين وحبلين كالسابق، وبعدها جلس قائلًا:
- والآن سنرى كم سننتظر ذلك الوغد؟
ظلّا صامتين ساكنين، حتى أشرقت الشمس، وشرد (برودي) بأفكاره بعيدًا، حتى التقت عيناه فجأة بالعينين السوداوين الباردتين..
.. ووجد نفسه يصرخ:
- يا إلهى!
كانت السمكة الهائلة تبرز برأسها هذه المرة على مسافة متر ونصف منه، كما لو أنها تبتسم ساخرة، وتتحداه، فقفز في رعب متراجعًا، وقد خيل إليه أنه يستطيع مد يده ولمس أنفها، من

هذه المسافة القصيرة، ورأى (كوينت) يهرع إلى الجسر، ولكن السمكة تحرّكت فجأة، وأطبقت بفكيها على الجسر، وراحت تهزه في عنف، كاد يلقى بـ (برودى) في الماء، وأسقط (كوينت) في قاع الزورق بالفعل، قبل أن تترك السمكة الجسر فجأة، وتغوص مختفية في الأعماق..

.. وصرخ (برودي):

- لقد كان ينتظرنا.

قال (كوينت) في حزم:

- أعرف ذلك.

- كيف أمكنه أن..

- لا يهم.. سنتمكّن منه الآن على أية حال.

- نتمكّن منه!.. ألم تر ما فعله بالقارب؟

- لقد هزه بقوة فحسب.

اهتزّ الحبل المربوط به الخروف، وانجذب في -قوة في هذه اللحظة - ثم لم يلبث أن ارتخى، فوقف (كوينت) متحفزًا، ورمحه في يده، وقال:

- لقد التهم الخروف، ولن تمرّ دقيقة حتى يعود.

سأله (برودي) في دهشة:

- ولماذا لم يأكله من أوّل مرة؟

ضحك (كوينت)، وقال:

- قلة ذوق وأدب.

ثم أضاف في صوت مرتفع:

- تعال أيها اللعين، وخذ ما تستحق.

بدا شديد الحماس والانفعال في الصباح، على نحو أدهش (برودي)، الذي لم يلبث أن صرخ، عندما اهتزّ القارب بعنف:

- ماذا يفعل؟

لم يجبه (كوينت)، وانما انحنى على حافة القارب، وصاح:
- اصعد أيها اللئيم.. أين ذهبت شجاعتك.. إنك لن تغرقني قبل أن أقضى عليك.
أجابه (برودي) في توتر:
- ما الذي تقصده بإغراقك؟
أجابه (كوينت) بلا مبالاة:
- إنه يحاول قضم قاع القارب؛ ليغرقنا.
ارتجف (برودي) في رعب، ثم اتسعت عيناه في شدة، عندما رأى الزعنفة المثلثة تبرز إلى السطح، ثم تندفع نحو القارب، و (كوينت) يصرخ:
- هيا.. تقدّم.. تقدّم بسرعة أيها الوغد.
كان يقف مفتوح الساقين، حاملًا حربته، ولم يكد القرش يقترب إلى مسافة أقدام قليلة، حتى رماه برمحه، الذي انغرس في ظهر القرش، قبل أن يصطدم القرش بالقارب، فيسقط هو أرضًا..
.. وراح الحبل المتصل بالرمح ينجذب في سرعة، حتى انتزع مع نهايته برميلًا، غاص به إلى الأعماق، فقال (كوينت):
- لقد أخذه معه إلى أسفل، ولكنه سيظهر بعد قليل، وسنرميه برمح ثان، وثالث، ورابع.. حتى يستسلم، ويقع في أيدينا.
انتقلت عدوى الحماس والثقة إلى (برودي)، الذى هتف في حرارة:
- لعنة الله عليك أيها القرش.
هتف (كوينت)، وهو يشير إلى الشمال:
- ها هو ذا قادم ثانية.
حمل الرمح الثاني، وانتظر حتى بلغ القرش القارب، وارتفع رأسه وفكه وزعنفته إلى أعلى، فأطلق رمحه على بطنه البيضاء هذه المرة وهتف:

- في هذا نهايتك أيها الشقي.
رأى (برودي) برميلًا آخر يسقط في الماء، ثم يبتعد مع البرميل الأوَّل، فهتف في حماس:
- انتصرنا.
ابتسم (كوينت) دون تعليق، فأضاف (برودي):
- هناك بعض الماء الذي يتسرّب داخل القارب بالطبع.
- لا تقلق.. سنضخ الماء ببساطة.
- هل انتهى الأمر إذن؟
- لا.. ليس بعد.
قالها (كوينت) وهو يشير إلى البرميلين الخشبيين، اللذين انطلقا خلف القارب، تجذبهما قوة السمكة الهائلة، فغمغم (برودي):
- لماذا يتبعنا؟. أما يزال يعتقدنا مجرّد طعام؟
أجابه (كوينت) في لهجة متوترة:
- لا، ولكنه يرغب في مقاتلتنا.
ولأوّل مرة، منذ معرفته إياه، رأى (برودي) (كوينت) يعبس في قلق..
.. لم يكن خائفًا أو منزعجًا، وإنما كان ينظر نظرة رجل اعتاد لعبة ما، ثم أخبروه في المباراة النهائية أن القواعد قد تغيَّرت بغتة..
.. (برودي) هو الذي شعر بالخوف، عندما رأى ذلك التغيير، في وجه (كوينت)، وسأله في تردد:
- هل سبق لك أن واجهت سمكة فعلت هذا؟
هزّ (كوينت) رأسه نفيًا، وقال:
- أبدًا.. إنهم قد يهاجمون القارب، ولكنهم يتوقفون فور إصابتهم بالرماح، لانشغالهم بالتخلّص من ذلك الشيء المغروس في أجسادهم.

كان القارب يبحر بسرعة متوسطة، ويناور مناورة بسيطة، في محاولة من (كوينت) للتخلّص من مطاردة القرش، ولكن البراميل استمرّت تتبعه في اصرار، فهتف (كوينت) أخيرًا في حنق:
- فليكن.. إذا كان يريد الحرب، فسنحاربه.
ثم أبطأ من سرعة القارب، وأسرع إلى الجسر، ممسكًا رمحًا ثالثا، وقد عاوده الحماس، وقال:
- حسنا يا آكل النفايات.. تعال.. واجه مصيرك.
استمرت البراميل في اندفاعها نحو القارب، وهتف (برودي) في شحوب:
- إنه يهاجمنا مباشرة.
ولكن البراميل اختفت فجأة تحت سطح الماء، وساد سكون مخيف، و (كوينت) يراقب الماء في توتر بالغ، إلى أن برزت البراميل مرة أخرى أمام مقدّمة القارب، فغمغم (كوينت):
- اللعنة!
واندفع من مكانه، محاولًا اتخاذ وضع أفضل للتصويب ثم ألقى الرمح.
.. واصطدمت السمكة بالقارب..
.. وعلى الرغم من فقدان (كوينت) لتوازنه مع الاصطدام، إلا أن رمحه أصاب السمكة، فوق العين اليمني تمامًا، ثم انجذب برميل ثالث، اندفع مع البرميلين الآخرين مبتعدًا، وهتف (كوينت):
- لقد أصبت رأسه هذه المرة.
ولكن البراميل الثلاثة اختفت تحت الماء بغتة، فاتسعت عينا (كوينت) في دهشة، وهتف في انفعال:
- مدهش.. هذه السمكة غير عادية.. كيف يمكنها الغوص بثلاثة رماح في جسدها، وثلاثة براميل تجذبها إلى أعلى؟!

ارتجف القارب فور انتهاء عبارته، وكأنه يرتفع من مكانه، وظهر برميلان بغتة على أحد جانبي القارب، وظهر البرميل الثالث على الجانب الآخر، ثم اختفت البراميل الثلاثة كلها دفعة واحدة، فهزّ (كوينت) رأسه، وقال لـ (برودي):

- اهبط إلى الكابينة، وانظر ما الذي فعله بنا هذا الوغد.

هبط (برودي) وهو يرتجف، ولم يكد بصره يقع على نافورة المياه، التي تندفع داخل الكابينة، حتى عاودته كل أحلام وكوابيس ومخاوف صباه، وغمغم في رعب:

- إننا نغرق.

وصعد إلى (كوينت)، قائلًا:

- الموقف سيئ للغاية.. هناك الكثير من المياه في الكابينة.

هزّ (كوينت) رأسه، ثم ناوله رمحه، وقال:

- من الأفضل أن أذهب لأري بنفسي.. خذ هذا الرمح، ولو ظهر ذلك اللعين وأنا بأسفل، اضربه به.

وقف (برودي) على المنصة يرتجف، وهو يحمل الرمح، ويتطلّع إلى البراميل الثلاثة، التي ظهرت مرة أخرى فوق السطح، دون حركة تذكر، وتمتم لنفسه في خوف:

- هل يمكن فعلًا أن نقتلك؟

انتفض عندما ارتفع صوت المحرّك بغتة، وألقي نظرة مذعورة على البراميل الثلاثة، التي بقيت هادئة على السطح، قائلًا حتى أتى (كوينت)، قائلًا:

- لقد ثقب القارب بالفعل، ولكن المضخّات تعمل جيدًا لإفراغ المياه، وسيمكننا سحب القرش إلى الشاطئ.

- هل يمكننا سحبه بالفعل؟

- نعم.. عندما يموت.

- ومتي يحدث هذا؟

- إنها مسألة وقت فحسب.
- وماذا ينبغي أن نفعل، حتى يحين هذا الوقت؟
- لا شيء.. فقط سننتظر.
مضت ثلاث ساعات وهم يتابعون البراميل الطافية، وهي تتحرَّك عشوائيًا فوق الماء.. في البداية كانت تختفي كل ربع ساعة تحت الماء، ثم تعود للارتفاع، ثم بدأ الاختفاء يقلّ، حتى أشارت عقارب الساعة إلى الحادية عشرة صباحًا، وأصبح النسيم لطيفًا، وكانت قد مرَّت ساعة كاملة، منذ ظهرت البراميل لآخر مرة فوق سطح الماء، دون أن تعاود الاختفاء، فقال (برودي) في أمل:
- هل مات؟
هزَّ (كوينت) رأسه نفيًا، وقال:
- أشكّ في هذا، ولكن ربما أوشك على الموت، ويمكننا الآن أن نُلقى حبلًا حول ذيله، ونسحبه حتى يغرق.
التقط لفة من الحبال، وربط أحد طرفيها في مربط حديدي قوى، ثم عقد الآخر على شكل خيمة دائرية، وحرَّك القارب نحو البراميل في بطء، وهو يستعد للابتعاد في سرعة، إذا ما هاجمه القرش، ولكن البراميل لم تتحرّك، فمدّ (كوينت) خطاف، والتقط حبل أحد البراميل، وقطع نقطة اتصاله بالبرميل، ثم تسلّق حافة القارب، ومرّر هذا الطرف على بكرة ملعقة في سارية القارب، ومنها إلى رافعة كهربائية أسفل السارية، ثم أدار محرّك الرافعة، فراحت تسحب الحبل في بطء، ثم لم يلبث القارب كله أن مال نحو الحبل المشدود في قوة، فهتف (برودي) في قلق:
- هل تحتمل الرافعة ثقله؟
أومأ (كوينت) برأسه إيجابًا، دون أن ينبس ببنت شفة، وهو يتابع الرافعة في قلق، وقد ارتفع منها أزيز قوى، وأخذ الحبل يرتجف في عنف..

.. ثم فجأة جذبت الرافعة الحبل في سرعة وسهولة، فهتف (برودي) في خوف:
- لقد انقطع الحبل.
ولأوّل مرة في حياته، رأى (برودي) الخوف في عيني (كوينت)، وهو يقول:
- اللعنة.. ذلك الوغد سينقضّ علينا.
ثم اندفع في ذعر حقيقي نحو المحرّك، محاولًا الابتعاد بالقارب، على نحو لم يعهده (برودي) فيه من قبل قط..
.. ولكن فجأة برزت السمكة الهائلة..
.. برزت رأسيًا كجبل هائل، حاجبًا الضوء عن عيني (برودي)، الذي أطلق شهقة رعب كبيرة، وهو يتطلّع إلى الزعانف الشبيهة بالأجنحة، وهي تميل إلى الأمام قبل أن يهوى القرش الرهيب بجسده كله على مؤخرة القارب، وتتحطم أخشاب القارب في عنف، وتتطاير في قوة..
.. وفي ثوان معدودة، وجد (برودي) و (كوينت) نفسيهما في الماء، الذي يبلغ وسطهما، واتسعت عينا (برودي) في رعب هائل، عندما رأى أسنان القرش على قيد متر واحد منه، وخُيل إليه أنه يرى صورته منعكسة على عينيها الضخمتين السوداوين، وسمع (كوينت) من خلفه يصرخ:
- اللعنة أيها الشيطان الأسود.. لقد أغرقت قاربي.
ورآه يحمل رمحًا في يده، ويطعن به بطن السمكة الأبيض، ورأى الدماء تتفجَّر من موضع الطعنة، وتغرق يد (كوينت) تمامًا، في نفس الوقت الذي ارتفعت فيه مقدّمة القارب إلى أعلى، وهو يغرق، ومالت مؤخرته إلى أسفل، فانزلقت عنها السمكة، والرمح منغرس في بطنها، وغاصت تحت الماء..
وفجأة فقد (كوينت) توازنه وصرخ:

- السكين يا (برودي).. السكين.
رآه (برودي) يرفع قدمه اليسرى، التي التف الحبل حولها وراح يجذبه منها إلى القاع خلف السمكة، فشهق (برودي) في ذعر، وراح يتلفت حوله بحثًا عن السكين حتى وجده مغروسًا في الخشب، عند الجانب الأيمن لحافة المركب، فدفع جسده محاولًا الوصول إليه، ولكن مقاومة المياه كانت قوية عنيفة، و(كوينت) يصرخ:
- السكين يا (برودي)..
كانت عيناه تحملان كل الفزع واليأس، وهو يمد يده إلى (برودي)، وحاول (برودي) أن يقفز للإمساك بيده، ولكن جسد (كوينت) اختفى فجأة تحت الماء..

.. وساد سكوت رهيب..
.. سكون مخيف، جمَّد الدماء في عروق (برودي)، الذي وصل الماء إلى كتفيه، واتسعت عيناه في رعب لا مثيل له، وذهول بلا حدود..
.. ها هي ذي كل مخاوف صباه وشبابه تتحوَّل إلى حقائق..
.. ها هو ذا غارق في وسط المحيط، يتشبّث بسارية المركب، وتحته في المياه العميقة وحش دموي هائل، لا يشبع أبدًا من الضحايا..
.. ثم ظهرت الزعنفة وخلفها ظهر الذيل، وانطلقت السمكة نحوه..
.. وصرخ (برودي) في رعب:
- ابتعدي أيتها اللعينة.. ابتعدي.
ولكن السمكة واصلت اقترابها، ورأى (برودي) الرأس الهائل المفلطح يرتفع فوق سطح الماء، وهوى قلبه خارج جسده،

فأخذ يصرخ في يأس، بلا أمل، وقد أغلق عينيه في انتظار عذاب هائل رهيب، لا يمكن تصوّره..

.. وشعر بالجسد البارد الصلب يلمسه، فأطلق صرخة هائلة مجلجلة..

.. ولكن شيئاً لم يحدث..

.. ظلت السمكة تلامسه في سكون، دون أن تفعل المزيد..

.. وبجسد يرتجف كعصفور مبتلّ، فتح (برودي) عينيه، ليعرف ما حدث..

.. ثم ارتجف..

.. لقد كانت عينا السمكة في مواجهته تمامًا..

.. ولكنها كانت خالية من الحياة..

.. وصرخ (برودي) غير مصدّق..

.. لقد لقيت السمكة اللعينة مصرعها..

.. أخيرًا نجح (كوينت) في قتلها.. قبل موته..

.. وفي بطء، راحت السمكة الرهيبة تتهاوى إلى الأعماق السحيقة المظلمة، وهي تجذب خلفها جثة (كوينت) المسكين..

.. ولدقائق طويلة، لم ينبس (برودي) ببنت شفة، حتى شعر بسارية المركب تغوص خلف القرش، فتركها وتعلّق بأحد البراميل الفارغة، السابحة فوق الماء..

.. وفي صمت، راح يدفع قدميه نحو الشاطئ، دون أن ينتابه الخوف هذه المرة..

.. لقد انتهى الكابوس..

.. في أعماق البحر..

(تمت بحمد الله)

الفك المفترس

لم يشهد رئيس الشرطة (برودي)، طوال عمله في مدينته (أميتي)، حادثة واحدة تثير اهتمام أي شرطي عادى، ثم فجأة ظهر ذلك القرش الرهيب، الذي نشر الفزع في الشاطئ كله، وراح يلتهم ضحاياه بلا رحمة..

وكان على (برودي) أن يواجه تحديًا حقيقيًا. لأول مرة في حياته كلها، متمثلًا في فك قاتل.. ومفترس..


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:


روايات عالمية
6
فوق
مستوى الشبهات
فريق
متميزون
E-BOOK
تأليف : هيلين ماكينز
ترجمة : إيناس النجار
إعداد : د . نبيل فاروق

(كلمة مهمة) :

هذا العمل: (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (06)

فوق مستوى الشبهات

تأليف: هيلين ماكينز.

ترجـمة: إيناس النجار

إعــداد: د. نبيــل فاروق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

1- الزيـــارة..

بدأ ذلك اليوم، من أيام شهر يونية، كأي يوم من أيام الصيف في (أكسفورد)، ومشت (فرانسيس مايلز) ببطء، متجهة إلى الكلية التي يعمل بها زوجها، وهي تنظر إلى أوراق الأشجار حولها، تتخللها أشعة شمس الخامسة بعد الظهر، فتمنحها ظلالا برونزية بديعة..
لقد تأخرت عن موعدها، وها هي ذي تسرع الخطا، وهي ترجو أن يكون مشغولا كعادته، فلا يشعر بملل الانتظار، ولكن من الصعب أن تسرع في يوم كهذا، فقد كانت تستمتع بالخضرة والورود من حولها، والمباني الحجرية القديمة التقليدية، وبمنظر بعض الشاب، وهم يلعبون الكرة فوق العشب الأخضر..
وتوقفت أمام نافذة إحدى المكتبات، التي تعرض كتاب (ريتشارد) الجديد، عن الشعر الإنجليزي، والذي لاقى نجاحا كبيرا، وابتسمت لنفسها في زجاج النافذة؛ لأفكارها التي لم تكن شاعرية على الإطلاق، فزيادة مبيعات الكتاب تعني قضاء عطلة

الصيف مرة أخرى على الجبال.. مرة أخرى.. ربما تكون أخر مرة.. من يدري؟..
ففي الماضي كان كل ما عليهم هو تقدير أي الجبال يريدون تسلقها، ثم يقضون الشتاء في كتابة المقالات؛ لمواجهة نفقات الرحلة بالقطار، ولكن الأمر كان يزداد صعوبة عاما بعد عام..
وتذكرت العطلات التي قضتها مع زوجها في مناطق (التيرول) و(الدلوميت).. تسلق الجبال صباحا، وقضاء المساء في فندق القرية؛ للاستمتاع بالغناء والرقص والحديث الشيق، والضحكات المبتهجة، ولكن الآن انتشرت الأزياء العسكرية في كل مكان، ولم يعد للنكات أي طعم، وأصبح الحديث مع الأجانب يؤدي في النهاية إلى الشجار.
لقد تناقشت مع (ريتشارد) في كل هذا مساء الأمس قبل النوم..
كان يريد رؤية أوربا مرة أخيرة تسودها حالة السلم، فما زالت هناك دول يمكن للمرء أن يتنفس فيها بحرية..
وجعلها الشعور بالخوف من أن ينتهي كل هذا تتثاقل في مشيتها، حتى بلغت الكلية، وهناك كان بواب الكلية واقفا عند البوابة، فقالت (فرانسيس)، وهي تحاول أن تبدو مبتهجة:
- كيف حال الطفل الجديد؟
قال بفخر:
- على ما يرام يا سيدتي.. مستر (مايلز) ينتظرك في حجرته.. لقد طلبني تليفونيا منذ برهة؛ ليسأل عنك سأبلغه بوصولك حالا.
تذكرت (فرانسيس)، وهي تصعد السلم، أنه قد تطوع في الجيش، بعد الاستيلاء على (براج)، في شهر مارس من ذلك العام، ودقت باب الحجرة الخشبي الثقيل، وفتح لها (ريتشارد)، وعلى وجهه ابتسامة، ثم أغلق الباب وراءها في حرص، وهو يقول:

- لدينا زائر يا (فرانس).
كان الزائر (بيتر).. (بيتر جولت)، ولقد ابتسم وهو يصافحها بكلتا يديه بحرارة قائلا:
- أهلا يا (فرانسيس).. تبدين مندهشة من رؤيتي.
- (بيتر): وكلنا كنا نظن أنك في (بوخارست).. متى عدت؟
. منذ أسبوعين أو ثلاثة.. لم يكن باستطاعتي الكتابة لكما لقد شرحت ذلك لـ (ريتشارد) قبل مجيئك.. لقد قصدت ألا أكتب لكما.. كما أنني لن أستطيع البقاء معكما.. سأنزل في فندق (منز).
نظرت (فرانسيس) إلى زوجها في دهشة، وقالت:
- ماذا في الأمر؟
ناولها (ريتشارد) كأس شراب، ثم ملأ كأس (بيتر) الفارغة قبل أن يقول بهدوء:
- (بيتر) واقع في ورطة.
- ورطة؟.. (بيتر)؟
وجلست على أقرب مقعد، وهي تبدو قلقة في جاذبية، وقال (بيتر) ليطمئنها بسرعة:
- لا تقلقي يا (فرانسيس) كل شيء أصبح على ما يرام الآن، ولكن كان لابد لي أن أعود
ثم ابتسم وأضاف:
- بسبب حالتي الصحية بالطبع.
قالت (فرانسيس) وقد اطمأنت:
- بالطبع
ولكنها كانت مازالت تنتظر إيضاحا، فقال (ريتشارد) بهدوء، وهو يضع منفضة سجائر أمامها:
- لقد اشتبك مع جاسوس.
قالت (فرانسيس):

- أرجو فقط أن تكون جاسوسة جميلة.. إذا كان على المرء أن يتورط في مثل هذه الأمور، فلابد من أن يستفيد من الأمر.
ونظرت بابتسامة إلى الشاب الأنيق أمامها، الذي وقف مستندا إلى المدفأة، والذي يبدو خجولا هادئا، مثل أي ديبلوماسي صغير في السفارة البريطانية، وقال (بيتر):
- للأسف كان جاسوسا وليس جاسوسة، وهو الذي تعرض لي وليس أنا.
- إنك تبدو سهل المراس في الحقيقة يا (بيتر).. هل كان يريد قتال؟
- لم يستطع ذلك فقد اهتمت (بوخارست) بالأمر ولكن أصدقاءه قد يظنون أنني حصلت على معلومات كثيرة، ويتابعون الأمر.. على كل حال لقد عدت الآن، وأنتظر أن تهدأ الأمور
شعرت (فرانسيس أنه هناك شيء آخر وراء هذه الزيارة، وقال (ريتشارد):
- تكلم الآن يا (بيتر)، فلا فائدة من الدبلوماسية مع) فرانسيس)؛ فإنها تستطيع أن تستشف ما وراءها.
شرب (بيتر) كأسه وهو ينظر إليها، كما لو كان يفكر في الطريقة التي يبدأ بها، ثم قال بجدية أعطته عمرا أكبر من عمره، وهو يتخير ألفاظه:
- أنا لم أعد أعمل في وزارة الخارجية، لقد أسندت إلى أعمال أخرى، ولهذا السبب أنا هنا الان.. إن هذه الزيارة لها سبب آخر، وليس أمامي وقت طويل.
أولا: لم أكن أريد أن يعرف أحد بعزمي على زيارتكما، لذلك لم أتصل بكما مسبقا، حتى أن البواب لا يعرف أنني معكما الآن.. لقد أخبرته أنني سأزور مستر (ميريك).. ذلك لأن لدي عملا لكما، وأرجو أن توافقا على القيام به.. لا أظن أنه سيكون خطيرا..

بل ربما يكون متعبا ومزعجا فقط، إذا ما اتبعتما التعليمات بدقة، إننا نحتاج إليكما؛ لأنكما فوق مستوى الشبهات، وتستطيعان التحرك بسهولة.
قال (ريتشارد):
- ما هو الأمر يا (بيتر)؟
. سأقول لكما، ولكن أرجو أن تستوعبا التفاصيل بدقة.. أن أحد أسباب اختياري لكما يا (ريتشارد) هو ذاكرتك القوية، فاستمع إلى بتركيز.
هز (ريتشارد) رأسه، واستطرد الأخر يقول:
- إنكما ستقومان برحلتكما الصيفية مثل كل عام، وتسافران عن طريق (باريس)، وهناك تقابلان شخصا معينا، ثم تستكملان الرحلة طبقا لتعليماته، وفي نهاية الرحلة ستتمكنان من إخبارنا بمعلومات معينة، نحتاج إليها بشدة، وإليكم التفاصيل..
عندما تصلان إلى (باريس) تصرفا كما تفعلان دائما، من النزول في نفس الفندق، والأكل في نفس المطاعم، وزيارة المتاحف والملاهي الليلية.. استمرا في ذلك بضعة أيام، مثل أي سائح، ثم ليلة يوم السبت اجلسا في مقهى (كافيه دي لابيه)، حول مائدة على الرصيف ناحية الشمال، وستضع (فرانسيس) وردة حمراء في شعرها.. لا تنظرا إلى أي شخص بالذات.. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة يقوم (ريتشارد) بإسقاط كأس النبيذ أمامه بطريقة طبيعية، وسيأتي (جرسون) المقهى ليمسح المنضدة، وسيكون هذا والوردة الحمراء هما الإشارة، فيقترب منكما رجل، فيقول أحدكما، مسز (روز) قالت لي إنه علينا أن نرى (......)، ثم يذكر اسم أي مكان قررتما رؤيته، وتظاهرا بالكلام معا بطريقة طبيعية، ولكن يجب أن تنتبها إلى الرقم الذي سيقوله الرجل خلال كلامه؛ لأن هذا هو مفتاح العملية كلها، ثم إذا ذهبتما في

اليوم التالي إلى المكان المحدد بعد ساعة واحدة بالضبط من الرقم المعطى لكما، سيتم الاتصال المطلوب مع الرجل، وستكون معه رسالة لكما..
هذا أسهل بكثير مما تتصوران، فإنه سيتعرفكما من وضع المنضدة، والوردة الحمراء، ثم سكب كأس النبيذ، ويكون أمام المنضدة في الوقت المناسب ليسمع اسم المكان المحدد، الذي اخترتماه في الجملة الصحيحة، ويقوم بتحديد وقت المقابلة في اليوم التالي.. هل فهمت كل ذلك يا (ريتشارد)؟
- نعم.. ولكن قبل أن نمضي أكثر من ذلك، لماذا اخترتنا بالذات؟.. فإننا سنكون مثل الهواة في هذه العملية، وقد لا نستطيع التصرف، ولابد أن لها أهمية بالنسبة لكم.. إنكم تحتاجون إلى شخص ذكي، واسع الحيلة، ولا أعرف إذا كانت لدي هذه القدرة، في هذا المجال بالذات.. أما بالنسبة ل (فرانسيس)...
وهز (ريتشارد) كتفيه فقط، دون أن يكمل العبارة، في حين بدا السرور على وجه (فرانسيس)، وقالت:
- كم أحبك يا عزيزي.. استمر يا (بيتر).
واصل (بيتر):
- عندما تصلكم الرسالة، ستكون مكتوبة بشفرة، وهذا أيضا أحد الأسباب التي اخترت (ريتشارد) من أجلها، إذ يمكنه التوصل إلى مغزاها، فعقليته مدربة على هذا النوع من العمل، وهذه الرسالة ستقودكما إلى عميل آخر، ثم يقوم بتوجيهكما إلى عميل ثالث، وهكذا من عميل لأخر حتى تصلا إلى رئيس المجموعة.. إنه آخر الخط، وهو الشخص الذي نقلق عليه، وهذه هي البيانات التي نريدها، وأعتقد أنكما ستجدان هذه الرحلة مثيرة، والآن سأقول لكما السبب فيها.

وابتسم ابتسامة خفيفة، ثم استطرد قائلا:
- لقد سمعتما بما يسمى (قطار الأنفاق في ألمانيا).. أليس كذلك؟ إنها شكل من أشكال المقاومة وتقوم بمساعدة رافضي النظام النازي، للهرب في سرية تامة، ومن ينظم ويخطط هذه العمليات هو رئيس جماعة العملاء، الذين ستقابلونهم، كما أنه أيضا يرسل لنا معلومات هامة جدا، نستفيد منها، ولكن منذ حوالي خمسة أسابيع لم تصل إلينا منه أية رسائل مفيدة، بل إن اثنين من التقارير التي أرسلها كانت مضللة بشكل خطير، ولحسن الحظ لدينا مصادر أخرى للمعلومات، مما جعلنا نشك في صحتها، ولم نتصرف أساسها، ولقد تزايدت شكوكنا عندما اختفى تماما من الوجود اثنان ممن ساعد على هروبهم ومن (ألمانيا)، ولم نجد لهما أدنى أثر.
وضعت (فرانسيس) كأسها، وانحنت إلى الأمام في انتباه شديد، في حين أمسك (ريتشارد) بسيجارة لم يشعلها، وقد ركزا أعينهما على (بيتر)، الذي تابع:
- ما نريد معرفته هو: أما يزال ذلك الرجل موجودا، وهل يقوم بإرسال معلومات خاطئة؛ لينبهنا إلى أن الأمور ليست على ما يرام، أم أنهم قاموا بتصفيته؟!..
لذلك فإن مهمتكم هي أن تتبعوا الطريق المرسوم لكما، عن طريق العملاء المختلفين، على أن تتصرفا دائما مثل السائح البسيط، حتى تصلا إليه، والمفتاح الوحيد الذي أعرفه هو أنه سيكون شخصا بريطاني الجنسية..
الإنجليزي الوحيد في سلسلة هؤلاء العملاء، ولا أستطيع معاونتكما بتحديد اسمه أو شكله، لأنه يغير ذلك دائما..
وعلى كل حال عدم معرفة ذلك سيسهل الأمر لكما، كما أنه الأفضل لنا جميعا..

وقد لا يبدو لكما أنه إنجليزي، عندما تلتقيان به، ولكن عندما تخبرانه بالدلائل التي يشير بها عليكما العميل الذي قبله، ستجدان أنه إنجليزي فعلا.
سأل (ريتشارد):
. ولكن لماذا هؤلاء العملاء المتعددون؟ لماذا لا يقوم العميل الأول في باريس بتوجيهنا إليه مباشرة؟
- هذه الخطة الذي قام بوضعها بنفسه.. لقد اخترعها لضمان سلامته، وقد أثبتت نجاحها إلى الآن، فإنهم كثيرا ما يعملون في أراض تحت الحكم النازي، وكل عميل يعرف فقط اسم وعنوان العميل الذي يليه، ويقومون بإرسال المعلومات عن طريق هذه السلسلة الطويلة، التي تبدأ بالعميل في (باريس)، ولا يستطيع أحد أتباع هذه السلسلة، إلا إذا عرف الطريقة المعقدة لمقابلة العميل في (باريس)، ولا يوجد إلا مصدران فقط يعرفان هذه البداية نحن أحدهما، والآخر في مثل حرصنا أيضا.
قال (ريتشارد):
- وماذا عن البيانات التي يرسلها لكم؟.. لابد أن لدية طريقة أخرى لها.
قال (بيتر):
- نعم، وهي طريقة أقصر بالطبع.. أعرف أنني قد أثرت اهتمامك يا (ريتشارد).. هل هناك أسئلة أخرى؟
- الخطة سليمة ومأمونة، فيما عدا شيئا واحدا..
وهو أنه إذا وقع الرئيس نفسه، فإن كل المعلومات التي ترسل له ستقع في أيدي النازي، ويمكنهم القبض على باقي العملاء؛ إذا اضطروه للاعتراف، كما أنهم بالطبع سيتوصلون إلى الأشخاص الذين يريدون مغادرة (ألمانيا).

- بالضبط.. وهذا هو السبب في مهمتكما.. وحتى الآن كانت خطته ناجحة، ولم يستطيعوا الوصول إليه، وتأكد من شيء واحد يا (ريتشارد).. إن هذا الشخص مدرب تماما، ولن يعترف بشيء، ولابد لنا من أن نعرف أنه ما يزال يعمل أم لا، قبل أن ينفجر البركان في أوروبا.. لابد أن تتأكد منه، قبل أن يحدث ذلك.

قال (ريتشارد):

- نعم.. أنت محق في هذا، ولكن مازلت أرى أنه من الأفضل إرسال شخص محترف في هذه المهمة.

رأى (بيتر) أن مناقشة (ريتشارد) له دلالة طيبة، فهو على الأقل لم يرفض القيام بالمهمة، فقال:

. لقد أرسلنا شخصا، وما زلنا لم نتلق منه شيئا، ولذلك اقترحت على رئيسي في العمل أن نحاول إرسال شخص غير متخصص، فاثنان من السياح يمكنهم التحرك دون شبهات، وتذكر أنك لست عميلا، ولا أريد منك أن تحاول التجسس، بأي شكل كان.. كل ما نريد معرفته هو ما إذا كان هناك شخص إنجليزي أم لا، وإذا تعقدت الأمور بأي شكل، فانسحب من الموضوع كلية..

إنكما تقومان برحلة الإجازة الصيفية في الخارج، مثل كل عام، وبمجرد أن يجد أحدكما ذلك الرجل، فإن مهمتكما تنتهي، وربما لا تجدانه بعد أن تصلا إلى العميل السادس في السلسلة، فإنه لا يستخدم أكثر من ستة، وستكونان في أمان بسبب عدم وضوح مفاتيح العملية، كما أنكما لستما من المحترفين.

سكت (ريتشارد)، و (بيتر جولت) يراقبه بعناية وعرف أنه قد وافق، ولو أن اعتراضه الوحيد هو أن (فرانسيس) ستكون معه في هذه المهمة. فقال (بيتر):

- عندما تنتهيان أرسل برقية إلى هذا العنوان في (جنيف).

وكتب بضع كلمات على ورقة، وأعطاها لـ (ريتشارد)، الذي ما يزال يبدو قلقا، وأضاف:
- من الأفضل أن تحفظ العنوان عن ظهر قلب، ثم تحرق الورقة، وإذا ما وجدت الرجل فأرسل برقية تقول: "سنصل يوم الإثنين أو الثلاثاء"، أو أي يوم يوافق اليوم الذي قابلتموه فيه فعلا، أما لو لم تجداه، فأرسل تقول: "أرجو إلغاء الحجز".. هل فهمت يا (ريتشارد)؟
- نعم.. تماما، ولكن ألا تظن أنه من الأفضل أن أذهب بمفردي؟ لا أريد أن أعرض (فرانسيس) لأية مخاطر.
نظرت (فرانسيس) إليه، وعرفت السبب في تردده، فقالت بصوت منخفض، ولكن بإصرار:
- (ريتشارد).. لن أبقى هنا وحدي.
قال (بيتر):
- أنا أيضا أوافق (فرانسيس)، فإنه منذ زواجكما لم تفترقا في أية رحلة، ومن الأفضل أن تفعلا ما تعودتما عليه، كما أن وجود (فرانسيس) معك سيجعلك تتصرف بحرص، مما يضمن لكما السلامة.. أعرف أن ذلك الأمر سيفسد لكما الإجازة، ولكن..
توقف (بيتر)، وأخذ ينظر إلى (ريتشارد) في انتظار قراره، في حين راح (ريتشارد) يحدق في الزهور الحمراء، المزروعة على حافة النافذة، وقال ببطء:
- الأمر ليس إفساد الإجازة، فيبدو أن إجازات الجميع ستفسد هذا العام.. أعتقد فقط أننا لن نستمتع.
أخذ (بيتر) قفازه ومظلته، وقال:
- إنني لم أختركما إلا لأنني متأكد من نجاحكما، وكذلك للأهمية القصوى لنا في هذا الأمر.. لقد كنت أتمنى أن أقوم بنفسي به، لولا أنهم قد كشفوا أمري في (بوخارست)، ويبحثون عنى الآن

لقد أخرتكما بما فيه الكفاية، وأعرف أنكما مدعوان إلى حفل مستر (فرام) الليلة.. لقد قابلته هذا الصباح أمام الفندق ودعاني أيضا.

قال (ريتشارد):

- ما هي المدة المحدودة لهذه العملية؟

- حوالي الشهر؛ فإنكما ستقضيان بضع ليال في كل مكان تذهبان إليه، حتى يبدو الأمر طبيعيا، وتذكرا أنني لا أريد أن يشكوا في أمركما، وابتعدا عن أية مخاطر.

أرجو أن يحفظكما الله.. إلى اللقاء يا (فرانسيس).. إلى اللقاء يا (ريتشارد).. سأراكما بخير عند عودتكما.

ثم أغلق الباب وراءه بهدوء، وساد الصمت في الغرفة.

كانت (فرانسيس) هي التي قطعت حبل الصمت، فقالت وهي تنظر إلى نفسها في مرآة حقيبتها الصغيرة:

- سنكون على ما يرام.. هيا بنا يا عزيزي فقد تأخرنا.. هل حفظت العنوان؟

- العنوان ليس مشكلة يا (فرانسيس).. إذا كان علينا أن ننسحب، فالآن فقط هو الوقت المناسب.

وقفت (فرانسيس) وهي تعدل رداءها، ثم قالت:

- متى سنبدأ؟.. بمجرد أن تنتهي من محاضراتك؟

نظر (ريتشارد) إلى زوجته الجميلة برهة، ثم تنهد وقام يلتقط ذراعها، وخرجا من الحجرة، وراحا يتحدثان في موضوعات أخرى، وهما في طريقها إلى أسفل، ولكن بقي في أعماقهما شيء واحد لم يمكنها كتمانه وإخماده..

الخوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- الحفلة..

كانت الحفلة في أوجها في منزل (فرام)، عندما وصل (فرانسيس) و (ريتشارد مايلز)، ووقفا عند الباب تأهبا لدخول المعمعة، عندما تقدم منهما مضيفهما ويداه محملتان بزجاجات الشراب، وقال:

- يسعدني حضوركما، وآسف على هذا الحشد المزعج.

ثم استدار ليرحب بوصول أشخاص آخرين، وعلى الرغم من أسلوبه كانت (فرانسيس) تعلم أنه مسرور، من كثرة المدعوين إلى حقله، والضوضاء الشديدة من حوله.



عادا يراقبان شاشة الراصد فى اهتمام ، وأمامهما بدت (دايل) قلقة ،
وهى تسأل (زوركوف) :ـــ إلى أين تقودنى ؟

وابتسمت (فرانسيس) لـ (ريتشارد)، قبل أن تدخل وسط خضم الناس، وتذوب بينهم، أما (ريتشارد) فقد تبين شخصين على

الأقل، كان يريد أن يقابلهما ويتحدث معهما، ولكن (بيتر جولت) لم يكن قد وصل بعد..
ووقفت (فرانسيس) في أحد الأركان، وفي الحال تقدم منها ثلاثة من الشباب، من اتجاهات مختلفة، وبدأوا في الحديث معها، كما يحدث في مثل هذه المناسبات المرحة، وتجنب الجميع الدخول في المواضيع السياسية، كما لو كان هناك اتفاق مسبق بينهم، فقد كانوا يشعرون أنها آخر مناسبة اجتماعية سيلتقون فيها مع بعضهم لمدة طويلة، وأرادوا أن تكون مناسبة سعيدة.
تناقشوا في الفن، ومعارض (لندن)، والمعالم المعمارية الشهيرة في (أوربا)، وكانت ذراع أحدهم (مايكل) مضمدة ومعلقة بالأربطة الطبية في عنقه، فقد أصيب بشظية في (برشلونة)، وهناك احتمال لبتر ذراعه، وذلك عندما كان في الفرقة الدولية هناك، ولكن الجميع تجنب الحديث عن ذلك، وسمعوا فجأة من يقول:
بلهجة (أكسفورد) المثقفة:
- كم أنا سعيد بالعودة إلى (أكسفورد)، والابتعاد عن متاعب الحياة.
كان المتكلم طويلا ووسيما بشكل ملحوظ، وفي وجهه ندبتان، واحدة في الصدغ، والأخرى في الذقن، من أثر جروح قديمة، مما أعطى وجهه الأشقر صفة خاصة وقال وهو يبتسم:
- مسز (مايلز).. جذابة كالمعتاد.
وانحنى في شدة وهو يصافحها. فقالت (فرانسيس):
- أهلا.. كيف حالك؟
ثم قامت بتقديم الأخرين:
- الهر (سيجردفون آشنهاوزن)، (جون كلارك)، سير (مايكل هامبتون)، (جورج ساندرسن).. لقد كان هر (فون آشنهاوزن)

زميل (ريتشارد) في الدراسة.
ابتسم الجميع بأدب، ولو أن الجو أصبح متوترا، على الرغم من المودة الظاهرة في صوت (فون آشنهاوزن)، إلا أن (فرانسيس) كانت تعرف أنه تحت ستار أدبه الواضح، فهو في الحقيقة لا يقدر الإنجليز، على الرغم من أنه قد تعلم في ثلاث جامعات، واحدة في (ألمانيا)، وواحدة في (انجلترا)، والثالثة في (أمريكا).
وأشعل (مايكل) سيجارة، فقد كانت لديه حساسية شديدة نحو الألمان، منذ ركله أحد الجنود خلال مشاهدته الاستعراض عسكري في (ليبزج)، منذ أربعة أعوام.
لمجرد أنه لم يقم برفع يده بالتحية في الوقت المناسب، أما الآخرون فقد حاولوا متابعة الحديث، وهم يرجون أن ينسحب الرجل من بينهم، ولكن ذلك لم يحدث، وحاولت (فرانسيس) أن تزيل التوتر فتكلمت عن الإجازة الصيفية.
كان الشباب سيقضون إجازتهم في (فرنسا)، أما (فون آشنهاوزن) فسيعود إلى (برلين) وقالت هي: إنها و (ريتشارد) يريدان التوجه إلى الجبال، مثل كل عام، وسألها (فون آشنهاوزن):
- أين بالضبط تريدان الذهاب؟
لقد كنا في (التيرول) العام الماضي، وأريد الذهاب إلى هناك أيضا هذا العام مرة أخرى، قبل أن ينفجر البركان.
كان صوتها ناعما وهي تتكلم، ولكن الألماني قال في برود:
- ماذا؟ في (انجلترا) لن يكون هناك حرب.. انظري إلى من حولك.
كان المعنى واضحا، حتى أن (مايكل) قال، وهو ينفض دخان سيجارته:
- هناك حد لكل شيء.. إلى اللقاء يا (فرانسيس)، لابد لي من الرحيل.. أتمنى لك رحلة سعيدة هذا الصيف.

وانسحب الآخرون أيضا، وبقي (فون آشنهاوزن)، وتخلصت (فرانسيس) من الحرج الذي تشعر به، وتذكرت أنه كان في الماضي شخصا ودودا مرحا، وكان له العديد من الأصدقاء، عندما كان في (أكسفورد)، وتساءلت في نفسها عن الدور الذي يقوم به الآن في (ألمانيا) الجديدة.. لقد كان يكره الحديث في السياسة من قبل.
حاولت أن تقول شيئا لبقا، ولكن الأمر كان صعبا في هذا الصيف، من عام ١٩٣٩ م، فالجميع لديهم الإحساس بجنسياتهم، وعلى أية حال فقد سبقها (فون آشنهاوزن)، وقال:
- أخشى أنني لم أرق لذلك الشاب، أكان ذلك لأنني ألماني، أم أن هذا هو أسلوبه المعتاد؟.. أشعر بالطبع أن هناك تغيرا في معاملة الناس لي.. منذ ست سنوات كانوا أكثر مودة نحوي..
وابتسم بشيء من الحزن، وهو يستطرد:
- في الحقيقة من المحزن أن يرى المرء الأفكار السيئة، التي يحكم بها الناس على بلده.. والسبب بالطبع هو الصحافة التي تضللهم.
قالت (فرانسيس):
- ولكن ألا ترى أنه من الغريب أن تسود الانتقادات، الموجهة إلى (ألمانيا) دولا كانت تعتبر في الوقت القريب من أصدقائها؟
ونظرت إليه بعينيها الزرقاوين الواسعتين، دون أن ترمش، فقال بعد لحظة:
- حتى أنت تغيرت.. من المؤسف أن أعود إلى (أكسفورد) لأجد نفسي هكذا وحيدا.
- ربما يرجع ذلك إلى التغيير الذي حدث لك، وليس لنا.
بدت عليه الدهشة، وقال:

- لا يا مسز (مايلز).. لا يمكن أن أكون قد تغيرت إلى هذه الدرجة، فما زلت أهتم بالموسيقى والأدب، ولم أصبح همجي التصرفات، أما من الناحية السياسية، فقد تطورت وأصبحت أكثر واقعية عن ذي قبل.. لقد رأيت الحماقات التي ترتكب باسم المثالية والفكر المجرد.
الناس تحتاج إلى قيادة قوية، حتى يتحقق لهم ما يريدون.. وفي البداية عليهم أن يتقبلوا السيئ مع الطيب، ولكن في النهاية سينسون الأشياء السيئة، عندما تتحقق لهم المزايا العظيمة.
كان حماسه يزداد وهو يتكلم فقالت (فرانسيس):
- تعتقد أنك لم تتغير على الرغم من أنك، تحت هذه القيادة التي تتحدث عنها، لا يمكن أن تقرأ إلا كتبا محدودة، وتستمع إلى موسيقى محدودة، ولا تنظر إلا إلى صور خاصة، ولا تصادق إلا أشخاصا بعينهم.. ألا يضع ذلك القيود على تفكيرك؟
- نعم.. إنه يضع القيود التي تجعلني لا أرى إلا الجيد فقط، وهو الأفضل للناس في النهاية.
- ومن الذي يحدد لك ما هو جيد وما هو سيئ؟
أهو حكمك الشخصي، وقد تعلمت في (هايدلبرج) و(أكسفورد) و (هارفارد)، أم هو حكم القائد الذي فرض نفسه عليكم، وهو لا يستطيع حتى أن يتكلم الألمانية دون أخطاء نحوية؟
لم يعجب كلامها (فون آشنهاوزن)، ولم يكن لديه رد حاضر، وكان صوتها ما يزال هادئا ناعما، وهي تضيف:
- أرأيت كيف أنك قد تغيرت.. هل تذكر الأستاذ القادم من (رودس)، والذي سبقك هنا.. رجل ذكي هادئ، وفي منتهى اللطف.. ماذا.. كان اسمه؟ (روتا).. أليس كذلك؟.. لقد كنت تعجب به وقتئذ، ولكن أين هو الآن؟ في (أورانينبرج) كما سمعت.

قال (فون آشنهاوزن) في لا مبالاة:
- إن كل هذا كلام عاطفي يا مسز (مايلز).. لقد حان الوقت ليرى البريطانيون حقيقة الأمر.. إن (أوروبا)الآن تفتقر إلى النظام والإجراءات الشديدة. لقد أصبحت (أوروبا) أكثر خطورة عنها منذ ست أو سبع سنوات.
- وما الذي جعلها كذلك؟
ضحك دون مرح، قبل أن يقول:
- إنك متحيزة تماما.. أظنك الآن ستلقين على محاضرة عن الادعاءات الشريرة لـ (ألمانيا)، وحقها في التوسع الطبيعي.
- على العكس من ذلك إنني أرى أن للجميع الحق في الحرية، سواء أكانوا من الألمان أو اليهود أو التشيك أو البولنديين.
امتلأ صوته بالغضب الشديد، وهو يقول:
- مثل هذه الأفكار هي التي أضعفت (بريطانيا)، في السنوات الخمس والعشرين الماضية.. كان في استطاعتها أن تحكم العالم كله، وبدلا من ذلك حولت الإمبراطورية إلى (كومنويلث) لا يقوم حتى بمساعدتها في الحرب، إذا كان عليها أن تحارب.. لقد تركت ثروات (الهند) دون استغلال، وحاولت فرض حكومة نيابية على الهنود، الذين كانوا سيرفضون ذلك، وقامت بمعاداة (إيطاليا) بفرض العقوبات عليها.. إنها تضعف من نفسها طوال الوقت، معتقدة أنها تقوم بعمل تحسينات فيما حولها.
"إنكم تتكلمون بجدية أكثر من اللازم في هذا الركن"
كان المتكلم (ريتشارد)، الذي اقترب منهما دون أن يشعرا، فقالت (فرانسيس):
- لقد كنت أستمع إلى محاضرة سياسية.
أدركت (فرانسيس) أن (ريتشارد) ينظر إلى خديها المتوهجين من فرط الانفعال، وابتسمت محاولة أن تحتفظ بهدوئها، كما

شعرت كذلك بأن (فون آشنهاوزن) يفعل ذلك أيضا، وأنه غير مرتاح للانطباع الذي تركه لديها، وكان في غاية الأدب وهو يصافحها، قبل أن يرحلا، وانحنى يحييهما وهو يقول:
- أرجو أن نتقابل مرة أخرى، ولا تقلقي يا مسز (مايلز)، ف (انجلترا) لن تحارب إنكم جميعا مسالمون هنا.. أرجو أن تمضيا رحلة سعيدة.
قال (ريتشارد):
- أرجو ذلك.
وابتسم وأمسك بذراع زوجته، وقادها نحو الباب ولوحا للمضيف في طريقهما إلى الخارج.. إلى الهدوء والهواء المنعش الطلق، وقال (ريتشارد) بصوت منخفض:
- لقد اتجهت إليك بأسرع ما يمكن، عندما رأيتك تتناقشين معه.. لقد كنت أعتقد أنك أعقل من الدخول في نقاش مع رجل نازي.. إنه نازي في رأيك أليس كذلك؟
- نعم.. وأظن أنه لم يكن يرغب في أن يبدو كذلك ولكنني أثرت غضبه.
- ما يهمني هو ما الذي قاله حتى تغضبي أنت؟
- هل كان ذلك واضحا؟
- بالنسبة لي نعم، ولكن لم يلاحظ ذلك أحد.. ما الذي أغضبك؟
- نقده لـ (بريطانيا).
- على أية حال، أرجو ألا تكوني قد أظهرت ذكاءك أمامه، في (بيتر) يريد منا أن نبدو مجرد أناس عاديين بسطاء.
اندهشت (فرانسيس) وقالت:
- ولكني كنت أظن أن هذه المهمة لن تبدأ الآن على الفور.
- ربما لا، ولكن (بيتر) لا يريد منا أن نتهاون.. إنه أيضا لم يحضر إلى الحفل.

- ربما غير رأيه.
- ربما.. أو ربما لأنه لا يريد أن يقابلنا مرة أخرى وهذا هو الأرجح.
كان صوت (ريتشارد) يتسم بالكآبة، وضغطت (فرانسيس) ذراعه، وهي تقول:
- ابتهج يا (ريتشارد) وإلا فستجعلني أقلق.
ابتسم (ريتشارد) في الحال، ولكن الشمس كانت قد اختفت، واختفت معها الظلال البرونزية على أوراق الشجر، وخلت الملاعب في طريقها من اللاعبين، وهما يسيران ببطء نحو المنزل، وقلباهما يخفقان في قوة، ورهبة..
وفي خوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3 - وداعا للأمان..

تم إعداد كل شيء بسرعة، ولم يبق سوى رحيل الطباخة (آني)، ذات الأصل الألماني، والتي بكت طويلا قبل رحيلها، وقالت: إن أختها حذرتها من العودة إلى (انجلترا) مرة أخرى، فإذا ما نشبت الحرب سيرجمونها هناك بالحجارة، ولقد أبدت (فرانسيس) دهشتها الفكرة، ولكن (ريتشارد) اكتفى بتهدئة (آني)، ومنحها مكافأة طيبة، ثم تركها تنصرف باكية في حرارة وهي تودعهما بكفيها في امتنان حزين، ولم تكد تنصرف، حتى تنهدت (فرانسيس)، وقالت:

- كنت أخشى هذه اللحظة.. الآن لم يعد أمامنا سوى الرحيل، حيث أضع الوردة الحمراء، وتسكب أنت كوب الشراب، حتى تثير دهشة وانتباه المقهى كله، ثم لا يحدث شيء، ونكتشف في النهاية أن الأمر كله مجرد مزاح ثقيل من (بيتر).

ضحك (ريتشارد)، وقال:

- مهما كان الأمر يا (فرانسيس)، فمن المؤكد أنها ليست نزهة.

سألته شاردة:

أتعتقد أنه ستكون هناك حرب حقيقية هذا الصيف؟

أجاب بعد لحظة من الصمت:

- الجميع بظنون هذا، ولقد سمعت أحدهم أمس يقول:

- إنه ما من شيء مضمون، فالأمر كله يتعلق بنزوة رجل واحد.

قالت في حنق:

- يا للسخافة!.. أيظن نفسه إلها؟

ربت على كتفها، وقال:

- لا فائدة من مناقشة مثل هذه الأمور.

لم ترد، ولكنها كانت توافقه على هذا القول..
لا فائدة من المناقشة..
المهم أن يبدأ العمل..
العمل الجاد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقف القطار في (دييب)، بعد عبور (المانش)، واسترخت (فرانسيس) في مقعدها، تراقب القادمين، وجلس أمامها (ريتشارد)، وقد أسند رأسه إلى ظهر المقعد، وأغلق عينيه، وغرق في صمت عميق..
وعندما بدأ القطار حركته، دلف إلى المقصورة شابان، وضعا حقائبهما فوق الرف، دون أن يتبادلا حرفا واحدا مع (فرانسيس) أو (ريتشارد)، وبدا من الواضح أنهما طالبان، مع حلتهما الرمادية الداكنة، المخططة بأقلام رفيعة بيضاء، والحذاء البني المصنوع من (الشمواه)، ورباط العنق الذي يحمل شعار الكلية، التي جاءا منها..
وفي البداية حاولت (فرانسيس) أن تستشف من زيهما وملامحهما شيئا ما، وقد بدا لها أن كل ما يحيط بها ينتمي إلى عالم الجاسوسية والإثارة، ولكنها لم تلبث أن شعرت بتثاقل في جفنيها، فلم تكن قد نامت أكثر من أربع ساعات في الليلة الماضية، ثم استيقظت فجأة، والقطار يتوقف، ورأت (ريتشارد) يناول أمتعتهما لأحد الحمالين فاعتدلت وسألته بصوت مبحوح:
- هل وصلنا؟
كان الطالبان قد انصرفا، ولم يبق سواهما، فأجابها مبتسما:
- نعم.. هل نعمت بنوم طيب؟

أجابته بالإيجاب، ثم لم يتبادلا حديثا آخر، حتى وصلا إلى ذلك الفندق الصغير، في قلب (باريس)، والذي قضيا فيه إجازتهما السابقة، وهناك سألته في اهتمام:

- هل تحدثت مع الشابين في القطار؟

أومأ برأسه إيجابا، وقال:

- نعم.. إنهما من جامعة (كامبردج)، وحديثهما مبهم بعض الشيء، ولكنها أشارا في حديثهما إلى (تشيكوسلوفاكيا)، ثم بترا حديثهما بغتة، وكأنهما لا يرغبان في الاستطراد، ولم أشأ سؤالهما عما يعنيه هذا.

كانت تعلم أنه من اللياقة ألا يفعل، ولكنها كانت تتمنى معرفة ما يعنيه حديثهما عن (تشيكوسلوفاكيا)، في هذا الوقت، فمطت شفتيها، وتنهدت، وهي تفتح النافذة وتتطلع إلى المبنى المقابل، و . . .

وفجأة لمحته..

لمحت ذلك الرجل الضئيل، الذي يراقبهما من حجرته بالمبنى المقابل..

وكان هذا يعني أن الخطر قد أعلن عن وجوده وبدأ جولته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى شهر (يونيو) مع نهاية الأسبوع الأول لهما في (باريس)، وكانا يستمتعان بإجازتهما فعليا، دون أن يلقيا بالا للرجل الضئيل، الذي انهمك في مراقبتهما طوال الوقت، مما منحه شعورا بأنه يبدد وقته معهما، وجعله يسخط على مهمته الروتينية السخيفة، التي كان يمكن أن تؤديها خادمة الفندق.. وكان هذا هو نفس شعور الرجل الثاني، المسئول عن مراقبتهما

بعد مغادرتهما الفندق والذي اهترأت قدماه، وهو يتبعهما من كنيسة إلى أخرى، ومن متحف إلى آخر ومن معرض إلى ثان، وهو الذي لا يهتم قط بالمتاحف والتاريخ..
أما الرجل الثالث، الذي يراقبهما في الفترة المسائية فقد كان أسعد حظا، إذ يتناول عشاءه في مطاعم جيدة، ويقضي سهراته في ملهى أو آخر وفي كل مساء، كانا يتناولان القهوة والشراب في (كافيه دي لابيه)، حتى أن مراقبهما لم يشعر بالدهشة، في ذلك المساء، عندما رآهما يذهبان إلى المقهى، وقد وضعت (فرانسيس) على رأسها قبعة بيضاء، بها وردة حمراء زاهية، ولم يسمع (فرانسيس)، وهي تهمس ل (ريتشارد):
- إلى متى ينبغي علينا الجلوس هنا؟
لم يجب (ريتشارد)، فقد كانت عيناه معلقتين بشيء ما خلفها، ثم فجأة انسكب قدح الشراب، الذي وضعه (ريتشارد) في حرص، على الطرف البعيد للمائدة، وانحنى رجل يلتقطه، بطريقة مكنتها من رؤية الساعة في معصمه، وقد لبسها بطريقة معكوسة، ورؤية الوقت الذي تشير إليه عقاربها..
وفي هدوء، شكره (ريتشارد) على إعادة القدح وأومأ الرجل برأسه في لا مبالاة، في حين أسرع الخادم ينظف المكان، وابتعد صاحب الساعة المعكوسة، ثم
اختفى وسط المارة، دون يلقي عليه (ريتشارد) أو
(فرانسيس) نظرة أخرى..
ولكنهما استقبلا الإشارة..
إشارة البدء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«لقد فتش أحدهم حجرتنا..».
همست (فرانسيس) لـ (ريتشارد) بهذه العبارة، وهي ترقد إلى جواره في الفراش، فسألها في صوت منخفض:
- ماذا لاحظت؟
أجابته:
- أنا أرتب دائما علب الكريم بطريقة خاصة، فوق علبة من الورق، تحوي بعض المناديل وقطع القطن وأدوات تجميل مختلفة، ولقد اختلف هذا الترتيب:
- سألها في خفوت:
- وهل اختفى شيء؟
أجابت في سرعة:
- مفكرة عناوين، أدون فيها عناوين محال تصفيف الشعر، والفنادق.
ضحك قائلا:
- فلنأمل أن تفيدهم.
ضحكت بدورها، وهمست:
- متى نرحل؟
أجاب في حسم:
- غدا.
أومأت برأسها موافقة في ارتياح، ثم دست رأسها في صدره، واستسلمت لنوم عميق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانا قد انتهيا من إعداد حقائبهما في الصباح، عندما أمسك (ريتشارد) كتابا صغيرا، وراح يقرؤه في اهتمام، فسألته

(فرانسيس):
ما هذا؟
أجابها وهو يغمز بعينه، في حركة خفية:
- دليل (ألمانيا).. ينبغي أن نعرف المكان الذي سنذهب إليه.. أليس كذلك؟
كانت واثقة من أن هذا الكتاب لم يكن هنا أمس، ولكنها لم تناقشه أو تسأله..
كانت واثقة من أن الرجل، صاحب الساعة المعكوسة، قد أرسل هذا الدليل بوسيلة أو بأخرى، ورأت (ريتشارد) يفحص كل صفحة من صفحاته جيدا، حتى عثر على علامة خفيفة بقلم رصاص، تكاد لا تظهر على شكل نجمة، في أحد الأقسام، أمام اسم (نورنبرج)، وأخرى أمام (مارينستراس)، وثالثة عند (أوجسبرك)، ورابعة، وخامسة.
ولم تمض ساعة، حتى كان قد حل الشفرة، وعلم أين ومتى يتم اللقاء الأول، فقال ل (فرانسيس) مبتسما:
- سنرحل على الفور، ولكن بعد أن أدخن غليوني أولا.
شعرت بالدهشة، لأنه لا يدخن غليونه عادة إلا بعد الغداء، ولكن دهشتها هذه لم تلبث أن تلاشت، عندما راح يقطع تلك الأوراق، التي تحوي العلامات الصغيرة، ويشعل فيها النيران وبدت الأدخنة المتصاعدة كما لو أنها أدخنة الغليون وعندما احترقت الأوراق عن آخرها، بدأت رحلتهم إلى (نورنبرج)..
لم تكن الرحلة قصيرة أو بسيطة، ولكنهما وصلا في ساعة متأخرة جدا إلى (نورنبرج)، وقادهما سائق سيارة الأجرة إلى فندق (كوينجزوف)، وهناك أبدت (فرانسيس) تبرمها من الأثاث الضخم، والأسقف العالية الحادة، ولكن (ريتشارد) ضحك قائلا:
- لا تكتئبي يا فتاتي.. ستشعرين بتحسن في الصباح.

وكان على حق، ففي الصباح التالي كانت تشعر بتحسن كبير، وخرجت مع (ريتشارد) إلى المدينة، التي كانت هادئة، ذات طراز قديم أنيق، يبعث الراحة في النفوس، لولا أصحاب القمصان البنية والأزياء العسكرية، الذين يتحركون في برود ورتابة، جعلاهما يشعران بالضجر، ثم لم يلبث (ريتشارد) أن بدأ يسترجع التعليمات، التي استخرجها من الدليل، فاستقل معها الترام إلى شارع (مارينستراس)، وهناك قطعا الشارع أكثر من مرة، وهما يبحثان عن أي متجر أو منزل، يحمل اسم (ا. فوجر)، حتى أمسك (ريتشارد) ذراع (فرانسيس) في قوة، وضغط يدها في انفعال، وهو يقودها إلى حانوت صغير، يبيع الكتب القديمة، وسمعته يقول:
- عظيم.
ودون أن تبدي هي انفعالا، أو تكشف ما تعصف به نفسها من الداخل - لاحظت لافتة الحانوت، التي تحمل اسم (مكتبة)، وإلى جوارها بحروف صغيرة (ا. فوجر)..
ودون تردد، دخلا إلى المكتبة القديمة، التي تكتظ بالكتب، التي تملأ الأرفف على حوائطها، من السقف إلى الأرض، وتحتل كذلك منضدتين كبيرتين، في منتصف المكان، في حين كانت هناك فتاة بيضاء، ترتدي منظارا طبيا، فوق عينيها الزرقاوين الباهتتين، رمقتهما بنظرة باردة، ولم تهتم حتى بالنهوض لاستقبالهما ولا بمساعدتهما، وهما يقلبان الكتب، حتى أخرج (ريتشارد) من جيبه ورقة مطبوعة، قدمها إليها قائلا:
- هل يمكنني العثور هنا على نسخة من هذا الكتاب؟.. إنه عن الشعر الغنائي الألماني، ولقد طبعه (توبنز) في (ليبزج)، عام 1836 م.

ألقت الفتاة نظرة باردة على الورقة، دون أي تعليق أو اهتمام، ثم قالت:
- ليس لدينا هذا الكتاب.
وجد نفسه يسألها في حدة:
- ألا يوجد أخر، يمكن التحدث إليه؟
مع صوته المرتفع ظهر رجل قصير ممتلئ، يرتدي قميصا فضفاضا، مسح جبهته بمنديل، ثم أغلق الباب الذي أتى منه خلفه، وقال:
- أظنني سمعت صوت زبائن.
كان قد غادر الحجرة، وأغلقها خلفه في سرعة، ولكن هذا لم يحجب رائحة الأوراق المحترقة، التي تصاعدت من حيث أتي، ولكن (ريتشارد) تظاهر بأنه لم ينتبه إلى هذا، وهو يقول:
- كنت أسأل عن كتاب في الشعر الغنائي الألماني.
وناول الورقة المطبوعة للرجل، الذي غمغم:
- كتاب عظيم بالفعل.. كانت لدي نسخة منه فيما مضى، ولكنني بعتها على الأرجح..
ثم أشار للفتاة، ذات المنظار الطبي، وقال:
. ابحثي عنه في الداخل يا (أوتيللي).
رمقته الفتاة بنظرة باردة، ثم اتجهت إلى مخزن جانبي، في حين انتحى الرجل و (ريتشارد) ركنا، وراحا يتحدثان في اهتمام، و (فرانسيس) تراقبهما في قلق، حتى عادت (أوتيللي)، فارتفع صوت الرجل، وهو يقول:
نعم.. أظنني بعتها.. (أوتيللي).. هل تذكرين كتابا صغيرا، له غلاف من الجلد الأحمر، اشتريته من البروفيسور (فارت)؟
هزت رأسها نفيا، وراحت تراقب (ريتشارد) والرجل في اهتمام، على الرغم من أنهما تحدثا ببساطة، وقال الرجل:

- سأبحث لك عن نسخة أخرى على أية حال.. عد مرة ثانية، وستجدني أو تجد (أوتيللي)، وربما عثرنا لك على نسخة من الكتاب، أو..
فجأة بتر عبارته، وتطلع من فوق كتفي (ريتشارد) إلى الطريق، ثم قال في سرعة، وهو يتحرك في خطوات سريعة نحو الحجرة التي أتى منها:
. معذرة.. إلى اللقاء.
كان وداعا مباغتا، أثار دهشة الجميع لحظات.. ثم ظهر السبب بغتة..
ظهر على هيئة ثلاثة من الرجال ضخام الجثة، اقتحموا الحانوت فجأة، بأحذيتهم العسكرية الثقيلة، ووجوههم الصارمة المتجهمة..
وأشارت (أوتيللي) بحركة سريعة إلى الحجرة الداخلية، فأخرج الثلاثة مسدساتهم، واندفعوا نحو الحجرة، ورفس أحدهم بابها بقدمه، ثم اندفعوا داخلها.
وارتجفت (فرانسيس)..
كانت تتوقع سيلا من الرصاصات، والدماء..
ولكن هذا لم يحدث..
كل ما حدث هو أن الرجال عادوا من الحجرة غاضبين، وهتفت أحدهم في حدة:
- أين هو؟
خبت ابتسامة (أوتيللي)، وظهر عليها الخوف، وهي تقول:
- لقد دخل هناك، ولا يوجد باب آخر.
صاح الرجل في غضب:
- ولكن توجد نافذة يا غبية.

انكمشت الفتاة في رعب، في حين التفت هو إلى (ريتشارد) و (فرانسيس)..
ولم تكن نظرته تحمل أدني شعور بالارتياح..
بل كانت تحمل الخطر..
كل الخطر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - حادثة (نورنبرج)..

مضت لحظات من صمت رهيب، والرجل يرمق ريتشارد) و (فرانسيس) بنظرات صارمة قاسية، قبل أن يسأل في غلظة:

- ما اسمكما؟

غمغمت (أوتيللي):

- زبائن.

أما (ريتشارد)، فقد رسم على وجهه دهشة مصطنعة، وراح يفسر للرجل كيف أنهما يبحثان عن كتاب قديم، عن الشعر الغنائي الألماني، و...، و... حتى شعر الألماني بالملل، فقال بنفس اللهجة الصارمة:

. فليكن.. هذا يكفي

ثم ضرب كعبيه ببعضهما البعض، ورفع يده، هاتفا:

- هايل (هتلر).

وهنا خفق قلب (فرانسيس) في عنف، وتساءلت عما سيفعله (ريتشارد)، للرد على هذه التحية الجافة، ولكن (ريتشارد) قال بابتسامة هادئة.

- إلى اللقاء.

خفض الرجل يده، وهو يقول في صرامة:

- لقد ألقيت عليك التحية الألمانية.

أجابه (ريتشارد) بنفس الابتسامة:

- وأنا أجبتها بالتحية الإنجليزية.. هذه هي أصول اللياقة.

مط الرجل شفتيه، ورمقهما بنظرة أخرى قاسية، ثم أشار إلى زميليه، وانصرف الثلاثة بنفس الخطوات الثقيلة العنيفة، وتنفست (فرانسيس) الصعداء.

لقد انتهت هذه المشكلة..
مؤقتا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت حجرتهما قد خضت لتفتيش سري كالمعتاد ولكنهما لم يبديا اهتماما هذه المرة، ورأت (فرانسيس) الأمريكي الذي دهست قدمه في الصباح، فتبادلت معه ابتسامة وتحية سريعة، ولكنه اتجه إليها، وصافحها ثم قدم نفسه إلى (ريتشارد)، قائلا:
- (هنري فان كورتلاند)، من (هاي تور) في (نيويورك).. وأنا صحفي، أجوب (أوروبا) في الوقت الحالي؛ لكتابة تقارير حول الدلائل المحتملة لنشوب حرب في المنطقة.
كان شابا وسيما، يوحي بالذكاء، ويتحدث في طلاقة واضحة، فرحب به (ريتشارد)، وجلس الثلاثة يتبادلون الحديث، حول احتلال الألمان لـ (براج)، واحتمالات نشوب الحرب، ومحاولة (أمريكا) للبقاء خارج الصراع، ثم نهض الأمريكي، واعتذر عن رغبته في الانصراف، بسبب ارتباطه بموعد آخر، وبعد انصرافه قالت (فرانسيس):
- إنه يتحدث بطلاقة.
هز (ريتشارد) كتفيه، وقال:
- من السهل أن يحاول المرء طويلا، عندما تكون بلاده على مسافة ثلاثة آلاف ميل، من منطقة الخطر.
ثم مال عليها فجأة، وهمس:
- ما رأيك في الذهاب إلى السينما؟
سألته في دهشة:
- وما المناسبة؟

بدا الجذل في ملامحه وصوته، وهو يقول:
- هناك رجلان يتبعانا منذ وصلنا إلى (نورنبرج) ولم يتناولا الطعام منذ الصباح، ولقد بدءا في تناوله منذ لحظة واحدة، وانصرافنا المباغت سيفقدهما شهيتهما ويثير حنقها وغضبهما.. ما رأيك؟
شاركته جذله، وهي تقول في حماس:
- هيا بنا.
ونهضا معا فجأة، على نحو حرصا على أن يبدو طبيعيا، وانصرفا إلى دار سينمائية قريبة، فأسرع الرجلان يتبعانهما في سخط، وقد اضطرا إلى التخلي عن طعامهما..
وراقت اللعبة ل (فرانسيس)، فراحت تنتقل من مقعد إلى آخر، داخل قاعة السينما، حتى تثير توتر الرجلين وحنقهما، حتى ضغط (ريتشارد) يدها، وطلب منها الكف عن هذا، قبل أن يثير الأمر شكوك وشبهات الرجلين.
وعندما غادرا السينما، كان الليل قد أسدل ستاره، وكان الرجلان قد أرهقا، من شدة الجوع والتعب والانفعال، وعندما أخفت (فرانسيس) ضحكتها في صدر (ريتشارد)، سمعت صوتا يقول:
- أنتما مرة أخرى.. يا لها من مصادفة سعيدة!
هتفت في جذل:
- (فان كورتلاند)؟!.. لم أتصور أبدا أن نلتقي مرة أخرى.
انضم إليهما (فان كورتلاند)، وراحوا يسيرون جنبا إلى جنب، وهم يعودون إلى مناقشتهم، حول الحرب والسياسة، و...

وفجأة تجمدت (فرانسيس) وهي تقول:
- ما هذا؟

كان هناك صراخ كالعويل، يأتي من شارع ضيق مظلم إلى يسارهم، فنظر بعضهم إلى البعض، وتمتم (ريتشارد):

- يبدو كما لو أنه محاولة قتل.



وسبح الصاروخ نحو الهدف ..
نحو قصر شاهق مهيب ، يبدو أشبه بقصور الأساطير القديمة ..

وهنا اندفع (فان كورتلاند) إلى الطريق، قائلا:
- انتظر هنا مع زوجتك، وسأذهب لرؤية ما يحدث.
لم يكد يتحرك، حتى ارتفع صوت صارم يقول:
- قف.. لا شأن لك بالأمر.. واصلوا سيركم.
التفت الجميع إلى رجلين ضخمي الجثة، غليظي الملامح، وقال (فان كورتلاند) في عصبية:
- هناك جريمة قتل تحدث هنا
أجابه أحدهما في غلظة:
- لا شأن لك بهذا.. إنه شارع يقطنه بعض المعارضين.. واصلوا سيركم.
مضت لحظة من الصمت، ثم قال (فان كورتلاند) في عصبية أكثر:
- هيا بنا.
ابتعدوا صامتين بعض الوقت، ثم قال (فان كورتلاند) في غضب:
- لقد أفسدوا ليلتنا.
ثم عادوا إلى صمتهم، حتى بلغوا الفندق، وتبادلوا عناوينهما، ثم انصرف الأمريكي، وصعد (ريتشارد) مع (فرانسيس) إلى حجرتهما، وقال هو في توتر:
- غدا نرحل من هنا.
وشعرت (فرانسيس) بالارتياح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح التالي رحلا إلى (ميونخ)، وقضيا نهارهما في التجول في المدينة بلا هدف، شأن أي سائحين عاديين، ثم قضيا ليلتين في

(ميونخ)، ورحلا بعدهما إلى (ميتنوالد)، حيث تسلقا الجبل لمسافة بسيطة، وابتاعا بعض معدات التسلق، ثم قضيا ليلتهما في فندق (فراو كوبلر)، التي تنتمي بشدة إلى الحزب النازي، وفي يوم الجمعة رحلا إلى (انز بروك)..
كانت المدينة جميلة بالفعل، وفي فندق (جاستون بوزون) استقبلهما موظف الاستقبال في برود متناه، ونقل بياناتهما في دفتره في صمت، ثم سلم أمتعتهما لشاب أسمر نحيل، يحمل اسم (جوهان) والعجيب أن (جوهان) هذا كان الشخص الودود الوحيد، الذي التقيا به، منذ وصلا إلى (ألمانيا)، وكان يبتسم دائما في ود وسعادة، حتى أنها قالت لـ (ريتشارد) مازحة:
- هناك شخص يبتسم.. لا ينبغي أن نفقد الأمل.
ولكن باستثناء (جوهان)، كان الجميع في غاية البرود والصرامة، فيما عدا موظف الاستقبال الضخم الجثة، والذي بدا متبلدا كسولا، وهو يتلقى منهما مفتاح حجرتهما، أو يعيده إليهما بعينين خاملتين نصف مغلقتين.
وفي ذات ليلة، لم يجدا الضخم في مكانه، وقبل أن يمد (ريتشارد) يده، ليلتقط المفتاح بنفسه، ظهر (جوهان)، وقد بدا نظيفا أنيقا، وقد ارتدي زيا عاديا، وخلع زي الفندق، وقال مبتسما، وهو يناولها المفتاح:
- معذرة.. لقد خرج الهر (كرونستاينر) منذ لحظات لتناول العشاء.
شكره (ريتشارد)، والتقط منه المفتاح، وبدا متهلل الأسارير، وهو يصعد مع (فرانسيس) إلى حجرتهما، حتى أنها سألته:
- ما الذي يجعلك سعيدا إلى هذا الحد؟
هم مبتسما:
- يلوح لي أنني أحسنت الاستنتاج، في أمر ما.

سألته في لهفة:
- أي أمر؟
وقبل أن يجيب، كان قد دس المفتاح في ثقب الباب وفتح حجرتهما، ثم وقف يتطلع داخلها بنفس الابتسامة، وإن تألقت عيناه في شدة، فالتفتت هي إلى حيث ينظر، واتسعت عيناها في دهشة..
كان هناك رجل ضخم، يقف داخل حجرتهما..
الهر (كرونستاينر)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يبد على (ريتشارد) أي أثر للدهشة، وهو يبتسم ويقول في هدوء:
- مساء الخير.
لاحظت (فرانسيس) أن (كرونستاينر) أيضا جعل صوته منخفضا، وهو يقول:
- جئت لأسلمكما فاتورة الحساب، ولأشرح لكما ما يستغلق على فهمكما من تفاصيلها، فالأجانب لا يفهمون عادة طرق الحساب الألمانية.
أدهشها أنه يبتسم في لطف، وأن (ريتشارد) وافقه قائلا:
هذا أفضل، فأنا أحب أن يكون كل شيء واضحا.
ناوله (كرونستاينر) ورقة عادية، تحمل اسم الفندق، وهو يقول:
- ها هي ذي الفاتورة.
تذكر (ريتشارد) (ا. فوجر)، عندما انتحى به جانبا، في مكتبته القديمة، وقال مؤكدا في حزم:
- لا تنس أبدا.. المالك اسمه (هانز).

وعلى الرغم من هذا كان اسم المالك واضحا، في بداية الفاتورة (رودلف كرونستاينر)، فقال (ريتشارد) في هدوء:
- عجبا!.. كنت أظن أن اسم المالك (هانز).
وهنا ارتسمت على شفتي (كرونستاينر) ابتسامة خفيفة، وهو يقول:
- الجميع يعلمون أن اسمه (رودلف).
ثم التقط الفاتورة من يد (ريتشارد) في لطف، وناوله أخرى، وهو يرمقه بنظرة ذات مغزى، قائلا:
- أتمنى لكما إقامة طيبة في (بيرتيسو).
قالها وانصرف مباشرة، فتطلعت (فرانسيس) إلى (ريتشارد)، وعيناها تحملان تساؤلا، أجاب عنه (ريتشارد) على الفور:
- سيروق لك تسلق الجبال في (بيرتيسو).. سنرحل إلى هناك غدا
لم تلق سؤالا آخر لقد فهمت الأمر بدورها، على الرغم من دهشتها، ولم يكن من الصحيح أن تتحدث إلى (ريتشارد)، مادامت غير واثقة من وجود أجهزة تنصت في حجرتهما، لذا فقد اغتسلت في هدوء، وأبدلت ثيابها، ثم هبطت مع (ريتشارد)، للتجول لآخر مرة في (انز بروك)، قبل رحيلهما إلى (بيرتيسو).
ومن المدهش أنهما التقيا مرة أخرى ب (فان كورتلاند)، وفجأة صاحت (فرانسيس) أيضا:
- انظر يا (ريتشارد).. إنه أحد الشابين، اللذين كانا بالقطار.
التقط الشاب صيحتها، وتضرج وجهه بحمرة الخجل، ثم صافحهم في تردد، وأصر (ريتشارد) على انضمامه إليهم، فجلس الشاب، وبدأ يتحدث معهم، وسرعان ما اندمج في مجتمعهم الصغير، وراح يروي لهم قصة صديقه، الذي كان يصحبه في القطار..

كان صديقه (توني) هذا يهتم بفتاة تشيكوسلوفاكية قابلها في (انجلترا) في الصيف الماضي، وبعد عودتها إلى (براج)، اختفى والدها في ظروف غامضة، ثم اختفت الفتاة أيضا، فسافر (توني) معه إلى هناك، حيث عاملوهما معاملة سيئة، دون أن يجد أدنى أثر للفتاة، وعندئذ قرر (توني) البقاء هناك، على أن يرحل (ثورنلي) إلى (ألمانيا)، لينتظر عودة (توني) مع فتاته.

وسأله (فان كورتلاند):

- وماذا لو لم يظهر، حتى نهاية الشهر؟

غمغم (ثورنلي) في توتر:

- عندئذ يكون شيء ما قد حدث، وسأضطر إلى العودة إلى (براج).

قال (فان كورتلاند) في حزم:

- سأذهب معك لو فعلت

تهللت أسارير (ثورنلي)، وهو يقول:

- حقا؟

أما (ريتشارد) فقال بسرعة:

. أما نحن، فسنرحل إلى (بيرتيسو) في الصباح.

تمتم (فان كورتلاند):

- ربما نلتقي هناك أيضا.

ولم تدر (فرانسيس) لحظتها لماذا شعرت بالخوف منه..

من (فان كورتلاند).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 - قطع الشطرنج..

كانت الرحلة إلى (بيرتيسو) قصيرة، وكانت القرية نفسها أنيقة وجميلة، ولها جاذبية خاصة، ولم يكد يستقر بهما المقام في الفندق، حتى قال (ريتشارد)، وهو يغمز بعينه:

- يقولون: إنه يوجد هنا أفضل ناحتي قطع الشطرنج.

تمتمت في آلية:

- حقا؟!..

لم تمض دقائق على عبارته، حتى كان يقودها إلى داخل متجر، يحوي آلات حفر وتقطيع الخشب، وعددا من قطع الشطرنج الخشبية، المنحوتة بدقة شديدة، وسأل (ريتشارد) صاحب المتجر عن ثمنها، وعندما وجد ثمنها معقولاً ومناسبا لجودتها، سأل الرجل:

- هل يمكنني الحصول على مجموعة كاملة، لأخذها معي إلى (انجلترا)؟

أجابه الرجل:

- بالطبع.. ولدي هنا مجموعة أكثر دقة وروعة، صنعت مثلها لأحد السادة هنا.

عرض عليها المجموعة الثانية، فشهقت (فرانسيس) انبهارا، وقال (ريتشارد)، وهو يتأمل القطع في إعجاب شديد:

- لاريب في أن السيد الذي صنعتها من أجله، هو أحد المتخصصين في قطع الشطرنج.

أجابه الرجل في حماس:

- الهر (مسبليرون)؟!.. إنه رجل ممتاز، ولديه مجموعة من القطع النادرة، بالغة الدقة والجمال.. لابد لكما من السعي لرؤية

ما لديه.
وافقه (ريتشارد) على قوله، فقد كان هذا بالضبط ما يسعى إليه.. أن يجد المبرر المنطقي لزيارة الدكتور (مسبليرون)، وتأكيدا لهذا، طلب من الرجل أن يصنع له مجموعة مماثلة، ومنحه نصف ثمنها مقدما، ثم غادر المتجر مع (فرانسيس)، التي سألته في لهفة:
- هل نذهب لزيارة (مسبليرون) هذا؟
هز رأسه نفيا، وقال:
- ليس بهذه السرعة.. سنقضي بعض الوقت في التنزه، وتسلق الجبال، شأن أي سائحين عاديين، وعندما تحين الفرصة المناسبة، سنذهب لزيارة (مسبليرون).
لم تناقشه (فرانسيس)، ولكنها راحت تتساءل في أعماقها بمنتهى اللهفة..
متى تحين تلك الفرصة المناسبة؟
متى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مفاجأة طريفة، أن يلحق بهما (ثورنلي) و (فان كورتلاند) في (بيرتيسو)، واستمتع الأربعة حتى نهاية الأسبوع بالسياحة وتسلق الجبال، وشعرت (فرانسيس) بالارتياح لفراو (شيكتل)، المسئولة بالفندق، التي روت لها قصة ابنتها، التي تزوجت أحد معارضي الحزب النازي، ثم اختفت مع زوجها فجأة، ودعتهما فراو (شيكتل) لحضور حفل شعبي في المساء، فوعدتها (فرانسيس) بالحضور، على الرغم من أن (ريتشارد) لم يكن يدري هل من الممكن أن يذهبا أم لا، فقد قرر أن يذهبا لزيارة منزل

الدكتور (مسبليرون) هذا الصباح، ولم يكن يدري ما الذي يمكن أن يقود إليه هذا..
ولم يكن هناك مجال للتراجع..
وبعد ساعات من بدء الصباح، كانا قد بلغا المنزل، الذي يرتفع وحده، في منطقة شبة معزولة، وقال ريتشارد):
- ابتسمي يا (فرانسيس).. لقد وصلنا.
ودق الباب الخارجي، وفتحت الباب امرأة طويلة، سألها (ريتشارد):
- هل يمكنني مقابلة الدكتور (مسبليرون)؟
همت المرأة بقول شي، ما، ولكن رجلا ظهر من خلفها، وأزاحها في خشونة، قال:
- نعم.. يمكنكما مقابلته.. تفضلا بالانتظار هنا، وسيأتي بعد قليل.
كانت مقابلة جافة غريبة، وشعرت (فرانسيس) أنها قد كرهت الرجل منذ النظرة الأولى، ولكنها انتظرت مع (ريتشارد)، في قاعة أنيقة، بها بيانو ضخم، اتجه إليه (ريتشارد) في هدوء، وأشار إلى النوتة الموسيقية التي تعلوه، والتي تحمل اللحن السري لهما، وقبل أن تعلق (فرانسيس)، ارتفع صوت يقول:
- يا لها من مصادفة!
التفتا إلى مصدر الصوت، وشهقت (فرانسيس) في دهشة، فالرجل الذي جاء لمقابلتهما لم يكن الدكتور (مسبليرون)، بل كان ألمانيا يعرفه كلاهما جيدا
كان (سيجرد فون آشنهاوزن)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (ريتشارد) هو أول من قطع حبل الصمت والدهشة، وهو يقول في لهجة بسيطة، بذل جهدا خارقا للسيطرة عليها:
- عجبا!.. لقد أتينا لمقابلة دكتور (مسبليرون)، أو بالأصح لرؤية مجموعة الشطرنج النادرة، التي يمتلكها، ولم نتوقع أبدا رؤيتك هنا ابتسم (فون آشنهاوزن)، وقال:
- ولقد التقيتما به.. إنه الاسم الذي أنتحله، عندما أقيم هنا.. ولكن لماذا لم تخبراني في حفل (أكسفورد)، أنكما تنويان القدوم إلى هنا؟
أجابته (فرانسيس) بسرعة:
- لم نكن نعلم أنك تقيم هنا، ثم إننا نتجول بلا برنامج مسبق، ولم نكن نعرف حتى أننا سنأتي إلى هنا.
رمقها (فون آشنهاوزن) بنظرة شك قصيرة، ثم لم يلبث أن استعاد ابتسامته المصطنعة بسرعة، وهو يقول:
- إنها مصادفة طريفة على أية حال.
لم يكد يتم عبارته، حتى سمع الجميع صوت ارتطام شيء ثقيل في الطابق العلوي، أعقبته خبطات متتابعة، ثم توقف الصوت فجأة، وارتسمت الدهشة على وجهي (ريتشارد) و (فرانسيس)، فقال (فون آشنهاوزن) بسرعة:
- إنه الكلب.. لقد حان موعد خروجه للنزهة، ولكنه عنيف في طريقة تذكيرنا بهذا.
تبادل (ريتشارد) و (فرانسيس) نظرة جانبية، ثم اتجهت (فرانسيس) إلى البيانو، وألقت نظرة على نوتته الموسيقية، وقالت:
- يا له من لحن جميل!
ثم فجأة، وبلا مقدمات، راحت تنشد ذلك اللحن بصوت مرتفع، وبدا التوتر الشديد على وجه (فون آشنهاوزن) وحارسه

الخاص..
ثم تكرر صوت الارتطام والطرقات أكثر عنفا هذه المرة..
وفي هدوء، توقفت (فرانسيس) عن الغناء، وقالت:
- أغنية جميلة.
تنفس (ريتشارد) الصعداء، وقال محاولا جذب انتباه (فون آشنهاوزن) بعيدا:
- ألديك مجموعة الشطرنج هنا؟
هل (فون آشنهاوزن) رأسه نفيا، وقال:
- لا.. ليست هنا للأسف.. لو عدت في الأسبوع القادم، فربما..
لم يتم عبارته، عندما ارتفع صوت الارتطام مرة ثانية، ورمق حارسه بنظرة خاصة، اندفع الحارس بعدها إلى الطابق الثاني، في حين تبادل (ريتشارد) و (فرانسيس) التحية مع (فون آشنهاوزن)، وانصرفا بسرعة، وواصلا سيرهما حتى بلغا الأشجار البعيدة، فقالت (فرانسيس) في توتر:
- الأمر لا يبدو لي طبيعيا.
جذبها (ريتشارد) جانبا، وهو يقول في حزم:
- بالطبع.. من هنا لا يمكنهم رؤيتنا من المنزل.. تعالي.
فوجئت به يضع بعض الطين على جوربيها، فهتفت معترضة:
- ماذا تفعل؟
- أجابها في سرعة:
- الجوارب الحمراء يمكن رؤيتها على بعد أميال، ومن المحتم أنهم سيحاولون تتبعنا.
سألته في ذعر:
- لماذا؟
أجاب متوترا:

- هذا الصوت الذي سمعناه هو صوت سقوط مقعد ثقيل على الأرض، والأرجح أنه هناك شخص مقيد فوقه، راح يضرب الأرض بقدميه، ليلفت انتباهنا إلى وجوده، وخاصة بعدما سمعك تنشدين اللحن السري.
سألته في لهفة:
- ومن هذا الشخص في رأيك؟
أجاب بلا تردد:
- (مسبليرون) الحقيقي.
شهقت مبهورة، ورأته يلوح بعصا التسلق، قائلا في حزم:
- لو أن استنتاجي صحيح، فسيرسلون حتما من يطاردنا. ثم استطرد مشيرا إلى ممر جبلي صغير أمامهما:
- هيا.. سنتخذ موقعا أفضل.
كان السير عبر الممر بالغ الصعوبة، والصخور حادة كالسكين، ولكن (فرانسيس) تتبعته، وهي تنعى جوربيها المتسخين، وكادا يبلغان نهاية المر، عندما قال ريتشارد) فجأة:
- يا إلهي!.. لقد بدأت المطاردة.
قالها وهو يشير إلى نقطة بعيدة، ظهر عندها (فون آشنهاوزن)، وحارسه الخاص، وكلب ضخم، في حجم أسد صغير، وكان (فون آشنهاوزن) وحارسه يتلفتان حولهما، بحثا عن شيء ما، في حين كان الكلب يتبعهما في سرعة ونشاط، وهمست (فرانسيس) في هلع:
- إنهما لم يعرفا مكاننا بعد.
تمتم (ريتشارد):
- لن يستغرق هذا وقتا طويلا.
رأت (فرانسيس) الرجلين ينفصلان، فيصعد (فون آشنهاوزن) نتوء التل في مهارة، في حين تقدم حارسه نحو المسطح، الذي

يختفيان عنده، وبصحبته الكلب، - ينبغي أن نسرع.
تقدم معها (ريتشارد) في سرعة، عبر الممر، وهما في سباق مع الحارس والكلب، اللذين لم ينتبها إلى وجودهما بعد، وراحت (فرانسيس) تلهث في شدة، من فرط التوتر والانفعال، و...
وفجأة انتهى الممر..
انتهى ليجدا نفسيهما أمام حافة رهيبة، على ارتفاع هائل من الأرض، وهتفت (فرانسيس) في ارتياع:
- لقد وقعنا في فخ.
لم تكد تتم عبارتها، حتى سمعت لهاث الكلب من خلفها، وسمعت (ريتشارد) يهتف:
- ارقدي على وجهك.
قفزت أرضا، ورأت الكلب ينقض عليها بأنيابه الحادة المخيفة..
وفقدت الأمل تماما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تدر (فرانسيس) في البداية ما حدث..
لقد خفضت رأسها، وشعرت بالكلب يشب فوقها، ويتجاوزها، ثم سمعته يطلق حشرجة رهيبة، مع صوت ارتطام بالأرض، فالتفتت خلفها، ورأت الكلب على الأرض، يلفظ أنفاسه الأخيرة وقد اخترق نصل حاد عنقه، في حين وقف (ريتشارد) يلهث، وهو يمسك عصاته، وقد انتزع من منتصفها شيئا أشبه بسيف طويل، فقالت مرتجفة:
- إنك لم تخبرني أن عصاتك تحوي هذا الشيء.
أجابها لاهثا:

- لم تأت ظروف مناسبة لأخبرك.
شعرت بالامتنان نحوه، ونهضت واقفة، ولكنها لم تكد تفعل، حتى سمعت صرخة تأتي من أسفلها، فنظرت تحتها، إلى الممر الجبلي السفلى، ورأت ذلك الحارس الخاص، وهو يرمقهما بنظرة شرسة وحشية، ويستل مسدسه ليصوبه إليهما..
ودون أن تدري، وبدافع من غريزة البقاء، اختطفت (فرانسيس) صخرة كبيرة، ورفعتها فوق رأسها، ثم ألقتها بكل قوتها على الحارس.



اختطفت (فرانسيس) صخرة كبيرة، ورفعتها فوق رأسها، ثم ألقتها بكل قوتها على الحارس..

وكانت مفاجأة حقيقية للحارس، الذي اختل توازنه، وسقط مسدسه، وراح يلوح بذراعيه، محاولا التشبث بشيء ما، ثم لم

يلبث أن أطلق رصاصة طاشت في الهواء، وهو يهوي من حالق، ويطلق صرخة مدوية.
وشحب وجه (فرانسيس) في شدة، ولكنها شعرت بيد ريتشارد تمسك بكفها، وبصوته يعيد إليها اطمئنانها وثقتها، وهو يقول:
. فلنعد بسرعة.. لا ريب أن (فون آشنهاوزن) قد سمع الرصاصة والصرخة.. لقد أصبح بقاؤنا مستحيلا.
عادا أدراجها عبر الممر، ثم اتخذا طريقا جديدا، وراحا يعدوان عبره في سرعة، حتى وصلا إلى الغابة، ثم اتجها نحو (بيرتيسو)، وهتفت (فرانسيس):
- انظر يا (ريتشارد).. إنهما (فان كورتلاند) و(ثورنلي).
لم يعلق (ريتشارد)، ولكنه اتجه مباشرة نحو (فان كورتلاند)، الذي هتف في دهشة، وهو يراهما على هذه الحال:
- ما الذي..؟
قاطعه (ريتشارد)، قائلا:
- أجلسها في السيارة، واستعد للانطلاق في أية لحظة.. إننا نحتاج إلى تعاونكما.. هل أنتما مستعدان لهذا؟
أجاب (ثورنلي) بحماس:
- بالتأكيد.
أجلس (ريتشارد) (فرانسيس) داخل السيارة، ثم انصرف بسرعة، متجها إلى الفندق، مصطحبا معه (ثورنلي)، في حين راحت (فرانسيس) تقول لـ (فان كورتلاند) في انفعال:
- لقد أنشدت اللحن، وسمعنا الرجل، وسمعنا صوت ارتطام، ثم طاردنا الكلب وأطلق الرجل علينا النار، و...
قاطعها (فان كورتلاند) في هدوء
- اهدئي يا سيدتي.. وقصي على كل شيء أعطاها قطعة من الشوكولاتة، راحت تلتهمها في نهم، وهي تروي له كل ما حدث

بالتفصيل، وجفناها يتثاقلان في بطء، ثم..
ثم راحت في نوم عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- فراو (شيكتل) تتدخل..

بينما (ريتشارد) و (بوب ثورنلى) يتجهان نحو المنزل، قام (ريتشارد) بإخباره بما حدث بطريقة مختصرة، ومثلما فعلت (فرانسيس)، كان حريصا على أن يكون مبهما، فيما يختص ب (مسبليرون)، ولكنه حكي ما حدث فوق الجبل، وإنقاذها له بالتفصيل، واستمع (ثورنلي) في صمت، وعندما انتهى (ريتشارد) من حكايته، التي حكاها بصوت منخفض، قال:
- خسارة أنك لم تتخلص من الشخص الآخر أيضا.
كان المنزل مثلما وصفه (فان كورتلاند).. صامتا كالقبر، وحاولا مع الباب الخارجي والنوافذ، ولكنها كانت محكمة الغلق، وكذلك الباب الخلفي، وهمس (ريتشارد):
- إنها تنام مبكرا.
- من؟
- الخادمة.. أو أنهم طردوها اليوم.
- ألا نستطيع كسر إحدى النوافذ؟
- لا.. قد تكون نائمة في غرفتها..
ثم أشار إلى نافذة وقال:
- هذه ربما هي الغرفة التي تريدها.. هل يمكنك التسلق؟
نظر (ثورنلي) إلى النافذة، وابتسم قائلا:
- سهل جدا.

ثم قفز إلى أعلى، وتسلق جانب المنزل، حتى وصل إليها، وأمسك بالإفريز، ثم رفع جسده ببطء، وعبر إلى الداخل لقد بدا كل شيء في منتهى البساطة، حتى من أنه الصعبة تصور الجهد التي قام به، واختفى في سكون، ووقف (ريتشارد) إلى جانب المنزل، وسمع صوت الشباك وهو يحاول فتحه، ثم جاءه صوت (بوب) بهمس:

- إنه مغلق، وعليه قضبان من الحديد.. سأحاول في حجرة أخرى.

واختفى شبحه، انتظر (ريتشارد) وقد بدت الدقائق مثل ساعات، ثم سمع صوت نافذة تفتح، وبدأ يلوم نفسه على أنه لم يحاول الصعود، حتى مع كتفه المتيبسة، وركبته المجروحة.. ما الذي يؤخر بوب؟

وفي اللحظة التي كان يفكر فيها في أسهل طريقة للصعود، سمع صوت (ثورنلي) بهمس من أعلى:

- هيا.. ساعدنا.

كان يسند رجلا آخر، حتى يمر من فوق الإفريز، ثم أنزله وهو يمسك معصميه، واستعد (ريتشارد) ليحمل الرجل عندما يسقط، وقال (ثورنلي) ونصفه إلى الخارج:

- أمسك.

أمسك (ريتشارد) جذع الرجل، وتدحرجا معا فوق الحشائش، ثم قفز (ثورنلي) بخفة وساعدها على الوقوف، وسأله (ريتشارد):

. هل أنت على ما يرام؟

قال الرجل، وهو يتمالك نفسه، وينظر من (ثورنلي) إلى (ريتشارد):

. نعم.. شكرا.. من منكما كان هنا بعد الظهر؟

قال (ريتشارد):

- أنا.
استدار الرجل نحو (ثورنلي)، وقال:
- هناك كوخ عند طرف الغابة، إلى جوار شجرتين طويلتين.
ونظر (ثورنلي) حيث أشار الرجل، الذي أضاف:
- في ذلك الكوخ جهاز لاسلكي ودراجة بخارية.. هل يمكنك تعطيلهما؟
قال (ريتشارد)، و (ثورنلي) يتجه نحو الكوخ:
- سننتظرك في السيارة.
ثم وضع ذراع الرجل حول كتفه، وأمسك بخصره، وسارا معا ببطء نحو السيارة..
كان من الصعب تحديد عمر الرجل، فقد يكون بين الثلاثين والخمسين، متوسط الطول، ونحيف جدا، له شعر في لون الفأر، ولا لون محدودا لعينيه، كما أن صوته عادي..
وسأله الرجل:
- لماذا كنت هنا بعد الظهر؟
- لقد جئنا من (انز بروك) للبحث عن (مسبليرون).
- وهل وجدته؟
- ليس هو من نبحث عنه.
- لماذا تتكلم بصيغة الجمع؟
- أعني أنا وزوجتي.
- تبدو وكأنك قد واجهت المصاعب.
- نعم.. لقد تركت زوجتي في السيارة.
. لديك سيارة؟.. حسن.
- وكذلك هناك رجل أمريكي.. صحفي.. ولكنه لا بأس به، ويمكن الوثوق به.
ابتسم الرجل، وهز رأسه، وقال:

- لا تثق بمن يعملون بالصحافة.. إنهم دائما يبحثون عن الأخبار.. إذا سأل عني، فاسمي (سميث)، الذي يساعد الهاربين من معسكرات الاعتقال.. هذا حقيقي على كل حال.. ومن الآخر؟..
- (طرزان) الأشقر.
- أعرف أخاه.
- سأكون سميث بالنسبة إليه أيضا.
ووصلا إلى نهاية الأشجار، ولم يسمع صوت أقدام من الغابة فوقهما..
مازالوا في أمان.
وتمنى أن يحضر (ثورنلي)، فقد كان ثقل الرجل ينهكه، ولكنه سأله:
- كيف تشعر الآن؟
- إنني أشعر بالتحسن.. أنا سعيد بالحرية مرة أخرى.
- كيف أمسكوا بك؟
- الرجل الذي تظاهر بأنه (مسبليرون)، كان من المفروض أنه يتعاون مع حركة المقاومة، بل إنه ساعد في هروب بعض الناس، ووصل إلى من خلالهم.. كيف كانت (نورنبرج) و (انزبروك)؟
- (نورنبرج) اضطر للهرب و (انز بروك) كانت لديه شكوك عن شيء ما.
ما الذي حدث للرجلين، اللذين كانا يسجناني في المنزل؟
- لقد تعقبانا فوق الجبل.. (فون آشنهاوزن) ربما يعود الآن، أما الآخر فقد سقط من أعلى.
قال الرجل، وهو ينظر إلى بعض الحروق في يديه:
- لا بأس.. والكلب؟
- مات أيضا.

ابتسم (سميث)، وقال:
- لقد قمت بمهمة جيدة.
عندما وصلا إلى الكوبري، لحق بهما (ثورنلي)، وقال:
- لقد كانت هناك أيضا دراجة الرجل الخنزير، وقد قمت بكسر عجلاتها أيضا.
نظر (ريتشارد) نحو الغابة والجبل، اللذين كان يكتنفهما الظلام الآن وقال لـ (سميث)
هل يمكنك الجري إذا ساعدناك؟
- سأحاول.
وحملاه فيما بينهما، وأخذا يجريان ويجرونه معهما، وسمعهم (فان كورتلاند)، وأدار محرك السيارة، وفتح الباب الخلفي استعدادا لهم، ووضعا (سميث) بالداخل، ودخلا وراءه، وفي الحال بدأت السيارة تنهب الأرض في طريقها إلى (بيرتيسو)، وانحنى (ريتشارد) إلى الأمام، ينظر إلى (فرانسيس)، وكانت ما تزال نائمة، وسأل:
- كيف حالها؟
قال الأمريكي، دون أن يدير رأسه:
- مدهشة.. ستكون على ما يرام عندما تصحو.
عاد (ريتشارد) بظهره إلى الوراء، وقد اطمأن عليها.
وفجأة ضحك (ثورنلي)، قائلا:
- انني لم أشعر بمثل هذه البهجة من مدة طويلة.
قال (ريتشارد):
- يسعدني أنك استمتعت بذلك.
فقال (سميث):
- وأنا كذلك لقد سرتني رؤيتك.
سأله (ريتشارد):

هل كنت مقيدا طوال الوقت؟
- نعم.. خصوصا عندما يقترب أي زائر من المنزل، وكانا يكمماني أيضا، وفي الليل يقيدون يدي في السرير، وفي النهار كان أحدهما يقوم على حراستي.
قال (ريتشارد):
- يسعدني أنك مازلت حيا.
قال (سميث)
- ذلك أنهم كانوا يريدون مني معلومات كثيرة، لن يستطيعوا معرفتها إذا مت، كما أنهم كانوا يريدون مواجهتي بمن يأتي بحثا عني، ويقع في الشرك.
- وماذا عن الخادمة.
- (ترودي) العجوز.. كانت خائفة، واضطرت للاستمرار في خدمتهما، ذلك أنهما هدداها هي وعائلتها، وكانا يحبسانها في حجرتها في الليل.
اقتربت السيارة من القرية، وقال (سميث): سر في الطرق المظلمة، وابتعد عن ذلك الفندق، الذي به حفل الرقص.
رأوا الأنوار حول المنصة خارج الفندق، وسمعوا صوت الموسيقى من خلال الأشجار، وسارت السيارة في الظلام، حتى وصلت إلى خلف سلسلة الفنادق، عند البحيرة، وسأل (سميث) بصوت هادئ:
- ماذا كنتم ستفعلون عندما تركتم القرية؟
- (فان كورتلاند) و (ثورنلي) كانا سيرحلان بالسيارة، أما أنا وزوجتي فكنا سنقوم بالتجول في القرية.
فقال (سميث) للأمريكي:
- هل دفعت حساب الفندق، وأخذت أمتعتك فعلا للرحيل؟..
قال (كورتلاند):

- نعم جميعها هنا يا كابتن.
- حسن.. يمكنك البقاء خارج الصورة إذن.
ثم قال ل (ريتشارد):
- أنت وزوجتك من الأفضل أن تتركا السيارة على بعد من الفندق، أو ربما من الأفضل أن تذهب أنت وحدك..
هل يمكنك أن تتذكر الأشياء التي ستحتاجها؟.. ولا تنس علبة أدوات التجميل، خصوصا طلاء الرموش، وكذلك أحضر بعض الملابس لي أيضا، والنقود.. هل هناك أكثر من مدخل للفندق؟ حتى يمكنك الدخول خلسة دون أن يراك أحد؟
- إننا نسكن فيلّا، وأظن أنه من الأفضل أن نذهب معا، فذلك يكون أسرع.
- أفضل.. سنذهب نحن بالسيارة إلى الطرف الجنوبي من طريق الساحل.. هناك بعض الأشجار، والأرض مغطاة بالحشائش، بالقرب من آخر فندق، سننتظر هناك، إن الليلة حالكة، ولن يرتفع القمر إلا بعد مرور بعض الوقت.
هز (ريتشارد) (فرانسيس) بلطف، وجلست تنظر حولها متحيرة، وقال (فان كورتلاند)، وهو يبتسم:
- اذهبي الآن مع (ريتشارد) وسننتظركما.. حظ سعيد.
قال (ريتشارد)، وهو يخرج من السيارة إلى الظلام الحالك:
. شكرا لك.
ووضع ذراعه حول (فرانسيس)، يساعدها على السير، ومضت السيارة في صمت.
كانت الفيلّا أمامهم على بعد بسيط، ولاح لهم ضوء بداخلها.. كان النور المنبعث من المطبخ، وكانت مجموعة الفنادق حولها صامتة، ولكن حجرات النوم كانت مضاءة، كما لو كان جميع النزلاء قد صعدوا للنوم، أما من كان سيذهب إلى الحفل، فلابد

أنه قد خرج؛ لأن الطريق كان خاليا أيضا، فدخلا إلى الفيلّا في سكون، وصعدا متسللين إلى حجرتهما، وقام (ريتشارد) بإغلاق النوافذ، وشد الستائر عليها، وأشعل شمعتين صغيرتين، حتى لا يظهر ضوء من الخارج، ونظرت (فرانسيس) نحو السرير، فقد كانت لديها رغبة شديدة في النوم، ولكنها رأت على حافته رداء تقليديا جميلا مزركشا، أشار له (ريتشارد) بتعجب، فقالت:

- فراو (شيكتل) أرادت أن أرتديه، وأنا ذاهبة إلى الحفل الراقص.

ثم خلعت جواربها المغطاة بالطين اليابس، وأحضر (ريتشارد) بعض الماء الدافئ المعطر، وقطعة من الإسفنج، وقال لها:

- امسحي وجهك وكتفيك.

وساعدها لتخلع ملابسها الممزقة، ثم قام بوضع قدميها في إناء به ماء دافئ لغسلهما، وسمعا دقة على الباب، وجاءهما صوت فراو (شيكتل)، تقول:

- هل يمكنني أن أدخل؟

نظرا إلى بعضهما في قلق، وفكر (ريتشارد) أنهما إذا استمرا صامتين، فربما تظن المرأة أنها أخطأت وترحل، ولكن الباب انفتح ببطء، فقام واقفا، ووقفت فراو (شيكتل) بالباب لتقول:

- آسفة.. اعذراني.

وكانت في طريقها للذهاب، عندما لاحظت ساق (ريتشارد) وهيئة (فرانسيس)، وهي تمسح جروحها بالماء، فدخلت وأغلقت الباب وراءها بسرعة في صمت، كان وجهها الطيب يملؤه القلق والخوف، وأمسكت بقطعة الإسفنج، وركعت على الأرض لتغسل قدمي (فرانسيس)، وهي تقول:

- لابد أن تغسل أنت رجلك يا هر (مايلز).. الجرح عميق.. سأحضر لك أيضا بعض الماء الدافئ.

قالت (فرانسيس):

- لا تفعلي من فضلك، فلا يوجد وقت.
ثم عضت على شفتيها، وهي تنظر إلى (ريتشارد)، فقد كان من السهل أن يزل اللسان، عندما تكون متعبة ومتوترة، ونظرت فراو (شيكتل) إليها، ولكنها لم تتكلم ثم جففت قدمي (فرانسيس) وساقيها بخفة شديدة، وقالت:
- هل توجد صبغة يود؟
ناولها (ريتشارد) الزجاجة، فوضعت قليلا على ركبة (فرانسيس)، ثم على كتفها المجروحة، وقالت:
- والآن نضع بعض بودرة الثلج فوق هذه الخدوش، فلا تظهر.
قالت (فرانسيس):
- لقد تهنا فوق الجبل.
قالت فراو (شيكتل)، وقد أعطت ظهرها لـ (ريتشارد)، الذي يبدل ملابسه:
- لقد عرفت أن شيئا قد حدث لكما.. وكان صديقاكما قلقين كذلك.. لقد رحلا منذ ساعات، والآن لن تذهبا بالطبع إلى الحفل.. كم كنت أتمنى أن أراك ترتدين هذا الثوب.
قالت (فرانسيس):
- وأنا أريد أن ألبسه أيضا، فقد نذهب إلى الحفل.
ونظرت إلى (ريتشارد)، فوجدته قد ارتدى قميصا نظيفا وشورتا، فهزت رأسها، وقالت ببطء:
- أعتقد أنكما في مشكلة.
ولم يتكلم (ريتشارد)..
كان يوزع نقوده، ودليله الجغرافي، وخطاب الضمان، وجواز السفر على جيوب سترته المصنوعة من التويد، وكان يفكر في كيفية مغادرة المنزل..
هل يقوم بتقييد وتكميم فراو (شيكتل)، وحبسها في الحجرة؟

ماذا يفعل؟
وقالت (فرانسيس)، وقد ارتدت الثوب، وصففت شعرها، ووضعت المساحيق على وجهها، ثم استدارت نحو فراو (شيكتل)، وهي تسوى بيدها المريلة فوق الثوب:
- إنه جميل جدا يا فراو (شيكتل).. إنني أخاف أن أفسده لو ارتديته.. ربما من الأفضل أن..
قالت فراو (شيكتل) بصوت حزين:
- لا.. إنه رداؤك الآن.. لا حاجة لي به.
كان (ريتشارد) يطوى حلة وقميصا ورباط رقبة وجوارب لـ (سميث)، فقالت:
- أنتما راحلان؟
قالت (فرانسيس)
- نعم.
- ستحتاجان طعاما للرحلة.. أهم هؤلاء النازيون؟
هزت (فرانسيس) رأسها.
. لقد عرفت ذلك، عندما حضر ذلك الرجل يبحث عنكما هذا المساء.. يجب ألا يمسكوا بكما، كما فعلوا مع ابنتي.. عندما تخرجان استعملا الباب الخلفي، من خلال المطبخ، وسأعد لكما الجبن والخبز، وأرجو أن ترحلا بسلام.
قال (ريتشارد):
- شكرا لك يا فرار (شيكتل).. أنت امرأة طيبة، وأرجوك، من أجل سلامتك، أن تتذكري أنك لم ترينا.. لقد سمعتينا فقط ندخل ونخرج، وظننت أننا ذهبنا إلى الحفل.. هل يمكنهم التعرف على هذا الثوب، وأنه يخصك؟
- لا.. هناك الكثير مثله.. وقد مضى وقت طويل منذ كانت ابنتي هنا.. سأراكما بعد دقيقتين، عند الباب الخلفي.

وخرجت، وأغلقت الباب وراءها في سكون.
قامت (فرانسيس) بوضع المنديل الملون على رأسها، وربطت طرفيه تحت ذقنها، ثم ارتدت السترة القصيرة، ونظرت إلى نفسها في المرآة راضية، ووضع (ريتشارد) لفة الملابس تحت إبطه، وأمسك بذراعها، وخرجا من الحجرة، وقد تركا حاجياتهما وراءهما، ونزلا السلم يتحسسان في الظلام، واتجها إلى المطبخ، حيث أعطتهما فراو (شيكتل) لفة كبيرة، دون أن تتكلم، ولكن أيديهم تشابكت بحرارة لحظة طويلة، قبل أن يذهبا، وسارا بسرعة فوق الحشائش، وفي ظلال الأشجار والمباني، فقد كان القمر يسطع بضوئه الفضي، ووصلا إلى الفندق الأخير على شاطئ البحيرة، وعبرا الطريق إلى مجموعة الأشجار التي حددها (سميث)، و (ريتشارد) يقاوم رغبته في الجري نحوها، ثم سمعا صوت محرك السيارة الذي يدور، وعادت إلى الخلف نحوهما، وامتدت الأيدي تجذبهما إلى الداخل، ثم اندفعت السيارة إلى الأمام، وقال (ثورنلي):
- أحسنتما.
وهز (سميث) رأسه بارتياح، وهو يتفقد الملابس التي أحضرها له (ريتشارد)، وسأل:
- وطلاء الرموش؟
قالت (فرانسيس):
- نعم.. وكذلك الطعام.
وفتحت لفة الطعام، وقامت بتوزيعه عليهم.
تغير الجو داخل السيارة، وكان (فان كورتلاند) يمازح (فرانسيس) وهما يأكلان، وعيناه على الطريق أمامه، وقام (ثورنلي) بإخراج المصباح اليدوي، حسب طلب (سميث)، وساعد (ريتشارد) (سميث) على خلع ملابسه، وتبادل النظر مع

(ثورنلي)، عندما خلع (سميث) قميصه، وشاهدا آثار التعذيب على ظهره، ولكن (سميث) لم يهتم، وكان يصفر سعيدا، وهو يرتدي ملابس (ريتشارد)، التي كانت واسعة عليه، ولكن لا بأس بها، ثم بدأ العمل في وجهه على ضوء المصباح في حين كان (ريتشارد) يمسك مرآة حقيبة (فرانسيس) الصغيرة، لينظر فيها (سميث)، وهو يستعمل صندوق التجميل الخاص ب (فرانسيس) بمهارة، في تغيير ملامحه، فقام بوضع المساحيق على وجهه، لإخفاء الكدمات وسوَّد حاجبيه مغيرا شكلهما، وظلل التجاعيد في وجهه، وأخذ يقص شعر رأسه بالمقص الصغير، ثم طلب من (ريتشارد) أن يضع طلاء الرموش الأسود، ويدهن له به شعر رأسه، كما لو كان دهانا للشعر؛ ذلك لأن راحتيه كانتا تؤلمانه، من الحروق التي بهما، وصفَّف شعره بعناية، ثم قام بوضع بعض بودرة الوجه على فودية، وكانت النتيجة أن تغير شكله تماما، وقال (ثورنلي)، وهو يبتسم:

- لن يعرفوك الآن أبدا، إلا إذا نظروا إليك من ظهرك.

وضحك (سميث) لأول مرة، وهو ينظف يديه، والتفتت (فرانسيس) تنظر إليه، وظلت محدقة به لا تصدق عينيها، حتى أن (كورتلاند) أيضا رفع عينيه عن الطريق لحظة لينظر إليه، وقال (سميث):

- لابد أن نقف قليلا، للتخلص من الملابس التي خلعتها

وخرج (ثورنلي) ومعه الملابس المهلهلة، واختفى في الظلام، وعاد بعد فترة، وعاودوا السير بالسيارة، وتذكر (ريتشارد) فجأة الماركات التجارية على ملابسه، التي أعطاها ل (سميث)، وقام بنزعها من أماكنها، ثم أعطى (سميث) عصاته أيضا، وقال:

- لا تفتحها إلا في مكان آمن، حتى يمكنك غسلها، فعليها دماء الكلب.. ثم ماذا عن جواز السفر؟

قال (سميث):
- لا تقلق يمكنني الحصول على جواز.. على فكرة عليك أن تتجه إلى هذا العنوان في (انز بروك) وسندبر لك ولزوجتك جوازات سفر.
وكتب العنوان على ورقة من مفكرة (ثورنلي)، وأعطاها إلى (ريتشارد)، وسأله (فان كورتلاند):
- هل لديك نقود؟
قال (سميث)، وهو يربت على جيبه:
- نعم هنا.
ونظر إلى (ريتشارد) نظرة العرفان بالجميل، وقالت فرانسيس) فجأة وبانفعال:
- (ريتشارد).. لقد تذكرت شيئا الآن.. ماذا عن حساب الفندق؟
وضحك الجميع، بما فيهم (سميث)، وقال (ريتشارد):
- لقد تركت نقودا تكفي في حقيبة ملابسي هناك.. إنهم يقومون بتفتيشها كما تعلمين.
كانت السيارة قد تخلت شوارع قرية (جينياك)، و (سميث) يراقب الطريق المظلم من النافذة، وقال لـ (فان كورتلاند):
- توقف عند تلك الناصية.. المحطة إلى اليسار منها.
ثم استدار نحو (ريتشارد)، قائلا:
- لقد سببت لك متاعب جمة، ولكن قد يخفف عنك أن تعرف أنني قد اكتشفت معلومات لها أهمية قصوى، وبصرف النظر عن إنقاذك لى، ستكون أنت السبب في وصولها إلى المكان الصحيح..
ثم قال لـ (فرانسيس):
- شكرا لك على أغنيتك.. إلى اللقاء.

وهدأت السيارة من سرعتها، ثم توقفت لحظة، ورأوا خياله يختلط بخيال الأشجار على جانبي الطريق..
كان يسير ببطء، متحاملا على عصا (ريتشارد)، وعلى رأسه قبعة (ريتشارد)، تكاد تخفي عينيه، واتجه نحو المحطة، في حين دارت السيارة إلى اليمين، في الطريق إلى (انز بروك)..
وإلى المجهول...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- (انزبروك) مرة أخرى..

كانت السيارة تنطلق بهم في سرعة، وأصبحوا على بعد أقل من نصف الساعة من (انزبروك)، وجلس ريتشارد يفكر في (سميث)، ويتساءل في نفسه إذا كان فعلا سيركب ذلك القطار، أو أنه هناك بيت صغير في مكان ما، قريب من المحطة، حيث يقطن أحد أصدقائه، على كل حال، لقد قاموا بكل ما في إمكانهم ويجب الآن أن يخرجه من تفكيره، وقال (فان كورتلاند):

- لقد كنت أفكر فيما سنفعل يا (هنري).. أعتقد أنه من الأفضل أن نحذو حذوه، ونترككما بمجرد أن تصل إلى أطراف (انزبروك)، عندئذ يمكنك أن تصل كما لو كان لم يحدث شيء، وأنك فقط قد واجهت بعض المشاكل في محرك السيارة، مما أخرك في الوصول.

قال (ثورنلي):

- ولكن ذلك لن يكون حلا جيدا بالنسبة لكما.

قال (ريتشارد):

سنتدبر أمرنا بطريقة أو بأخرى.. إذا حصلنا على جوازات السفر.

قال (كورتلاند):

- وبعض المال.. لن تستطيع التصرف إذا لم يكن معك ما يكفي من النقود.. الشيكات السياحية أو خطاب الضمان لا جدوى منها الآن، وذلك الرجل (سميث) أخذ كل ما معك.

- لا بأس.. فلا بد أنه فعل أكثر من ذلك لأناس آخرين كانوا في مشاكل.

قال (كورتلاند):

- ساعدوا بعضكم وسيساعدكم الله.. أليس كذلك؟..

هل لديك نقود يا (بوب)؟، وألقي بحافظته إلى المقعد الخلفي، والتقطها (ثورنلي)، وأخرج ما بها، وأضاف إليه نصيبه، وعد المجموع، ثم قال:

- إن ذلك يكفي فقط مصاريف جواز السفر، فهم يتقاضون مبالغ كبيرة لذلك، ستحتاج لأكثر من ذلك، يمكنني صرف شيك في البنك غدا، ولكن كيف أوصل لك النقود؟

قال (ريتشارد):

- اسمعا.. سنترككما على مشارف (انزبروك)، ونسير إلى ذلك العنوان، الذي أعطاه لي (سميث).. لقد حددت المكان في الدليل معي، ويمكننا أن نصل إليه.. إننا في ملابسنا هذه لن يتعرفنا أحد، سنكون كأي زوجين يسيران في ضوء القمر، أما أنتما فما يجب أن تقولاه هو أننا تركناكما بعد ظهر اليوم ولم نعد، وكان عليكما مغادرة (بيرتيسو)، لأن (هنري) عنده موعد عمل هام.

(هنري) حاول أن تقابل زميلك في العمل الليلة، عندما تصل (انزبروك).. اجلسا في مكان عام معروف، لتناول بعض المشروبات.

قال (كورتلاند)، وهو يبتسم

- إنني فعلا محتاج إلى ذلك.

تذكرا أنكما لا تعرفان بوجود منزل بنوافذ حمراء، أو أنكما تعرفان شيئا عنا، بعد أن غادرنا (بيرتيسو) عصر اليوم، وأنت يا (بوب)، عندما تحضر النقود، سيقوم أحدنا بمقابلتك غدا، حوالي الحادية عشرة صباحا، قد تقوم بذلك (فرانسيس)، فتتنكرها أفضل مني.. إن المحطة ليست مناسبة، فستكون حتما مراقبة، كما أن المطاعم أيضا خطرة.

وفكر قليلا، ثم أضاف:

- كنيسة (الفرنسيسكان) مكان مناسب، فهناك الكثير من السائحين يرتادونها صباح السبت، ويمكنك التجول حول ساحة الإمبراطور (ماكسميليان)، وأمسك في يدك مجلة أو جريدة، وضع النقود في ظرف داخل المجلة، وعندما ترى (فرانسيس) ادخل واجلس في الكنيسة نفسها، واختر مكانا معتما، وعندما تنتهي من تأملاتك غادر المكان، واترك المجلة في مكانك، عندئذ ستجلس (فرانسيس) في ذلك المكان.

أعاد (ثورنلي) هذه التعليمات على سمعهم، ليتأكدوا من أنه قد استوعبها جيدا، وقال (ريتشارد):

- عندما يكون لدينا جوازات السفر والنقود، سنعبر الحدود، وأقرب نقطة للعبور هي (بريز).

قال (كورتلاند) محذرا:

- إن بها حراسة مشددة.. الإيطاليون يحرسون جنوب (التيرول). ربما نحاول عن طريق الجبال، إذا كان القطار خطرا من الحدود السويسرية.

- ثم بعد ذلك؟

- نتجه إلى (باريس)

متى تظن أنكما ستكونان هناك؟

إذا واتانا الحظ، سنترك (انزبروك) يوم الأحد، وقد نكون في (باريس) في نهاية الأسبوع القادم، وسنترك لكما خبرا في القنصلية، وسنحتفل معا هناك.

قال (كورتلاند):

- أتمنى ذلك، ولكن لدي عمل... سأراكما في (انجلترا) بعد ذلك، في طريقي إلى وطني، فلدي عنوانكما، وعندئذ تخبراني بالقصة كلها.

قالت (فرانسيس):

- نعدك بذلك، ولابد أن تحضر لرؤيتنا.
ثم قال (كورتلاند):
- أكره أن أكون نذير شؤم، ولكن ماذا لو حدثت لكما مشاكل في (انزبروك)؟
سنتصل بك هاتفيا، وإذا لم نستطع عندئذ، فالأمر خطير، وأيضا بالنسبة لك لو ساعدتنا، لقد زججنا بك في مشاكل كافية.
سأنتهي من عملي هنا في منتصف النهار غدا، وسأكون خاليا لمدة يومين، وإذا ما احتجتما إلى، اتركا رسالة في الفندق، تقول: إن جريدة (التايمز) تطلبني في مهمة، وسأعرف أنها منكما، وسأخبر (بوب).
قال (ريتشارد):
- هناك أمر هام يا (هنري).. أرجوك أن ترسل برقية إلى (جنيف) صباح الغد، لا تنس ذلك.. أبرق بأن (الحجز لم يلغ، وسنصل يوم الجمعة)، واحفظ هذا العنوان.. هل حفظته؟ حسن ذلك مهم جدا.
وبدأت أنوار المدينة تلمع أمامهم، وفجأة قال (فان كورتلاند) بصوت هادئ:
- يؤسفني أن أقول إن هناك سيارة تتبعنا منذ مدة..
لقد لاحظت أنوارها، ولكنها مازالت بعيدة.. أخشى أن تكون لأصدقائكم.. سأبطئ عند الناحية القادمة.. استعدا.
قال (ريتشارد):
- لن نشكركما، إلا عندما نراكما في (باريس) أو (أكسفورد).. إلى اللقاء إذن.. لابد أن نلتقي.. وتذكر البرقية.
قالت (فرانسيس)، وهي تنزل من السيارة بسرعة:
- سنراكما.
ثم جرت مع (ريتشارد) ليختبئا في بعض الشجيرات،

حتى مرت السيارة التي تتبع (فان كورتلاند)، في طريقها إلى المدينة، وانتظرا بضع دقائق، حتى خلا الطريق تماما، ثم سارا في صمت، في ظلال الأشجار، ووصلا إلى منطقة المنازل بسهولة، ووجدا أمامهما شابا وفتاة، وقد تشابكت أيديهما وكان الشاب يتكلم والفتاة تضحك وهي تنظر إليه، وقال (ريتشارد):

- انظري.. سنفعل مثلهما.

وسارا بنفس الخطوة، محافظين على المسافة بينهما، ووضع (ريتشارد) ساعده حول خصر (فرانسيس) فضحكت، وقال (ريتشارد):

- هكذا.. تماما.

وضحكت (فرانسيس) مرة أخرى، وتبعاهما نحو الكوبرى فوق النهر، وأمام الكوبرى كانت هناك مساحة فضاء، حيث تتقاطع طرق أخرى، جاء منها آخرون من الشباب والفتيات، العائدين من تمشيتهم في ضوء القمر إلى (انزبروك)، كما كانت هناك بعض السيارات، التي أوقفها اثنان من الشرطة، عند اقترابها من الكوبري، نظر (ريتشارد) إلى (فرانسيس)، وقال لها بعض كلمات بالألمانية، وكان الشاب والفتاة أمامهما وهما يعبران الكوبرى، ونظر إليهما الشرطيان نظرة خاطفة، ثم أوليا اهتمامهما إلى سائق السيارة الواقفة أمامها، وبمجرد أن مرا من فوق الكوبرى، دخل (ريتشارد) و (فرانسيس) في أحد الطرق الفرعية، بعيدا عن النهر، ولكن الرحلة إلى المنزل الذي يريدانه كانت كالكابوس بالنسبة ل (فرانسيس)، فقد احتفظ (ريتشارد) بمشيته الهادئة، ليبدو أنهما عائدان إلى منزلها من تمشية مثل الأخرين، أما هي فكانت تشعر بعضلات ساقيها وظهرها يؤلمانها، وهي تجر قدميها، حتى وصلا إلى المنزل الذي أعطاهما (سميث) عنوانه، ودق (ريتشارد) الباب، بالطريقة التي أوضحها له (سميث)،

ووقفا ينتظران في الشارع الضيق المظّلم، وبدأ يتساءل إذا كان قد أخطأ العنوان، وأخذ يتذكر العنوان المكتوب على الورقة، والتعليمات التي فيها.. إنه يذكره جيدا..

ودق مرة أخرى، وفتح الباب بسرعة شديدة، وعرف أن شخصا ما كان واقفا وراء الباب، ينتظر الدقة الثانية.

وكان الظلام حالكا، ولم ير (ريتشارد) من فتح الباب، ولكنه قال في صوت هامس:

- هر (شولتز)؟

واتسعت فتحة الباب، وقال صوت امرأة:

- ادخل.

وبمجرد أن دخلا أغلق الباب بترباس ضخم وراءهما، وكان هناك ضوء ينبعث من الداخل، وقادتهما المرأة نحوه إلى حجرة صغيرة بسيطة، ووضع الرجل الجالس فيها جريدته، وأخذ ينظر إليها يتفحصهما دون أن يتكلم، وتكلم (ريتشارد) بالطريقة البافارية، وأمسك الرجل بالجريدة مرة أخرى، وقال:

- ولكن اسمي ليس (شولتز).

تعلقت عينا (ريتشارد) بصورة الرجل ذي الشارب المضحك، والشعر المدلى على جبينه، المعلقة أمامه على الحائط، وشعر بالعرق يتفصد من راحتيه، ثم أدرك أنه ما يزال ممسكا بالورقة الصغيرة في يده، فناولها للرجل، ونظر فيها، ثم ألقاها على المائدة، وسأل:

من الذي أعطاك هذه؟

- رجل من (بيرتيسو)

- هل كان اسمه (جيرولد)؟

- لا.. (مسبليرون).

- من أين قدمت؟

- من فوق الجبال.



تعلقت عينا (ريتشارد) بصورة الرجل ذي الشارب المضحك، والشعر المدلى على جبينه

نظر إليه الرجل، ثم إلى (فرانسيس)، التي كانت تنعس على أحد المقاعد، وقال:

ـ اجلس.
كان صوته الآن ودودا دافئا، وكذلك نظرة عينيه وقال:
- ارتح.. هل أنتما جائعان؟
هز (ريتشارد) رأسه، وفي الحال تركت المرأة مكانها وراء الباب، حيث كانت تقف، وخرجت إلى المطبخ، وسمع (ريتشارد) صوت الآنية وهي تضعها على الموقد، وقال الرجل مرة أخرى:
- ارتح الآن.. وكيف حال صديقنا من (بيرتيسو)؟
- إنه الآن على ما يرام.
- كان مريضا إذن.. هكذا ظننا، فلم نسمع عنه من مدة طويلة.. هذه أخبار طيبة.. وماذا عنك أنت؟ قلت إنك في حاجة إلى غرفة.. هل هناك شيء آخر؟
- المعتاد.
- هل ستترك بلادنا السعيدة؟
كان صوت الرجل مملوءا بالسخرية، وهو ينظر إلى الصورة المعلقة على الحائط، ثم قال:
- حسن يمكننا تدبير ذلك.. أين وكيف ستسافر؟
- إلى (إيطاليا).. ربما بالقطار.. وبأسرع ما يمكن.
- بالطبع هذا مفهوم.. يمكنكما أن تكونا أمريكيين، أو انجليزيين فإنكما تشبهانهما.. هل تتكلمان الانجليزية؟
هز (ريتشارد) رأسه بالنفي.
- إذن لابد أن تسافرا كألمان.. ما رأيك في وظيفة مهندس أو معلم... سأحضر لكما الملابس المناسبة،
ستدفع أكثر بالطبع، ولكن ذلك يستحق كل (فينيك) ستدفعه.
- كم ستتكلف العملية؟
- كم معك أنت؟
قال (ريتشارد):

. ثلاثمائة مارك فقط، ويمكننا الحصول على نقود إضافية لتذاكر القطار.
قال (شولتز)، وقد ارتاح لإجابة (ريتشارد):
- حسن جدا، ثلاثمائة مارك تكفي.
وقام من مكانه، ومشي نحو (فرانسيس)، وكان يعرج قليلا في مشيته.. كان في حوالي الأربعين، أصلع الرأس، ممتلئ القوام، ونظرت (فرانسيس) إليه شاحبة صامتة، ورأت نظرته المتفحصة من وراء منظاره السميك، والابتسامة الطيبة على فمه، وكان صوته حانيا وهو يقول:
- إنك تبدين خائفة مني.. لابد أن تختفي هذه النظرة الخائفة من عينيك.. في بعض الأحيان يبقى الناس عندنا هنا لمدة أسبوع، حتى تختفي تلك النظرة لابد أن تكوني سعيدة جدا ومبتهجة، عند عبورك للحدود، فأنت زوجة مهندس، يأخذك زوجك لقضاء إجازة في (فلورنسا) ولكن لابد أن نغير شعرك.. إنه أجل من اللازم.. (ليزا) جاءت المرأة من المطبخ، وهي تحمل وعاءين للحساء، يتصاعد منهما الدخان، وقال (شولتز):
- (ليزا).. أي لون تعطين لهذا الشعر؟ أسود؟
- لا.. ليس مع هاتين العينين الزرقاوين.. البني يكون طبيعيا أكثر.
- حسن.. اجعليه بنيا.. بنيا باهتا.. يمكننا أن نبدأ الليلة.. الصبغة والصور، وغدا يمكننا إحضار الملابس والأوراق، وبذلك تسافران غدا في الليل، والآن تناولا الطعام.
أعاد صحن الحساء الساخن الحياة إلى (فرانسيس)، ووضعت يديها الباردتين حوله، وشعرت بالدفاع يسرى إليها، ونظرت إلى الساعة على المنضدة.. كان الوقت يقترب من منتصف الليل، شعرت بالدفاع والأمان لأول مرة منذ ست ساعات.
كان الرجل يراقبها في فضول، وقال بلطف:

- كلي.. الحساء جيد أليس كذلك؟ ثم قال لـ (ريتشارد):
- لقد واجهتما المصاعب.
- نعم.
- هل ستستطيعان السفر غدا؟
ابتسم (ريتشارد)، وهو يعرف قوة إرادة (فرانسيس)، وقال:
- نعم.. سنكون على ما يرام.. يمكننا الاستمرار حتى نصل إلى (إيطاليا)، وبعدئذ.. لا يهم.
- عندما ذكرت (إيطاليا) فكرت أنه من الأفضل لكما أن تعبرا الجبال، فالخطر أقل، ولكن..
ونظر إلى (فرانسيس)، وإلى حالتها، وقال:
- أظن أن القطار مناسب لكما، وسنحاول جهدنا لنجعله آمنا.. هل أنت مستعدة يا (ليزا).. حسن جدا.
انتهى (ريتشارد) من الأكل، وبدأ الرجل يقص له شعره، في حين قامت المرأة بوضع بعض الآنية والزجاجات على المنضدة، وشعرت (فرانسيس) بعينيها تغمضان، وقال الرجل:
- إذا أمكن نقلها في هذا المقعد قبل أن تنام، ستقوم (ليزا) بالعمل في شعرها، ثم بعد ذلك تذهب للنوم في الدور العلوي.
انتقلت (فرانسيس) إلى ذلك المقعد، ووضعت رأسها على ظهره، وأغلقت عينيها، وهي تشعر بيدي المرأة فوق شعرها تبلله وعندما أيقظوها بعد فترة، رأت (ليزا) تنظر إليها بابتسامة كانت كافية، لتعد (فرانسيس) لما ستراه في المرآة الصغيرة، التي ناولتها إياها..
كان شعرها أسوأ مما توقعت.. بني باهت لا حياة فيه، وقد شُدّ إلى الوراء، وعقص خلف عنقها، كان.. (ريتشارد) أيضا يبتسم، ثم رأت رأسه وقد حلق شعره كله..
كان منظره غريبا..

وضحكت.
وكان الرجل يضع آلة تصوير فوق بعض الكتب على المنضدة، وقال مبتسما يشجعها:
- هذا أفضل.. الجميلات يجدن في العادة صعوبة في الهرب.. الآن أجلسي هنا معتدلة، وسننتهي من التصوير في الحال، وتذهبين للنوم.
كذلك قام بتصوير (ريتشارد)، وقد فتح عينيه بشدة، وذقنه إلى الأمام، مما أعطاه تعبيرا غريبا، وقال (شولتز) وهو يهز رأسه:
- حسن جدا.. هذا هو ما نريده، ثم تبعا المرأة إلى أعلى، على ضوء شمعة، وساعدها (ريتشارد) على خلع ملابسها، قبل أن تستغرق في النوم.
نوم عميق جدا.
.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- (فرانسيس) هي (فرانسيس)..

استيقظت (فرانسيس)، وهي تشعر بأنه هناك شيء عليها أن تفعله، ونظرت حولها في الحجرة الغريبة بدأت تتذكر ما حدث في الليلة السابقة، ووضعت يدها على شعرها، وجدته جاف الملمس خشنا، لم يكن ذلك حلما ف (ريتشارد) إلى جانبها، حليق الرأس مثل طفل يشكو من الحمى، وكان ما يزال نائما، وشعرت بنفسها يغلبها النعاس مرة أخرى، ثم وقع نظرها على حقيبة يدها، موضوعة على منضدة صغيرة، وتذكرت النقود وخرجت بسرعة من السرير، وهي خائفة أن تكون قد تأخرت على موعدها مع (بوب ثورنلي)، وبعد لحظات من الدوار الخفيف تمالكت نفسها..

لقد أفادها النوم بعمق، وتحسنت حالتها، ونظرت في ساعة (ريتشارد)، وعرفت أنه ما يزال أمامها وقت كاف، فاغتسلت، وارتدت ملابسها، ووضعت بعض المسحوق على وجهها، حتى تخفي لون بشرتها الوردي، ثم مسحته قليلا.. لقد تغير مظهرها بهذا الشعر البني الباهت، في لون الفأر، ولكن لا يمكن أن تغير من عينيها على كل حال، ومالم تقابل شخصا يعرفها جيدا فلن يستطيع أحد أن يظن أنها تلك الفتاة الإنجليزية الشقراء، التي لابد وأنهم وزعوا أوصافها، وسرَّحت شعرها، وعقدته من الخلف، كما فعلت المرأة (ليزا) بها أمس، وقبل أن تغادر الحجرة، فتحت دليل (ريتشارد)، وتأكدت من الطريق إلى كنيسة (الفرنسيسكان)، ثم أخذت معها بعض النقود الصغيرة، من جيب (ريتشارد)، حتى يمكنها دفع تذكرة الترام، وتذكرة الدخول

إلى الكنيسة إذا ما لزم ذلك، ثم قبلت (ريتشارد) بخفة على جبينه، ونزلت إلى أسفل.
كانت (ليزا) في حجرة المعيشة، وبدت عليها الدهشة لرؤيتها:
. لقد ظننت أنك ستنامين طوال الصباح.
- لا بد أن أخرج.
هزت المرأة رأسها محذرة، واستطردت هي تقول:
- لابد لي من الحصول على النقود لرحلتنا.
وافقت المرأة على ذلك، وقالت:
- اشربي بعض القهوة أولا.. سأحضر لك فنجانا.
وذهبت إلى المطبخ..
كانت (ليزا) مقبولة الشكل، وطيبة، ولكنها تتكلم بطريقة عملية، ولا تحب الثرثرة، وارتاحت (فرانسيس) لذلك؛ فقد كانت تخجل من لهجتها البافارية، وشربت القهوة، وهي تنظر من النافذة إلى حديقة متواضعة خلف المنزل، ثم قامت تريد الخروج، فقالت المرأة:
- ليس من هذا الطريق، اخرجي من هذا الباب، واعبري الفناء، ثم ادخلي من الباب الذي في نهاية الممر، وسيري داخل ذلك المنزل، وستجدين نفسك في محل أحذية... قولي فقط وأنت تمرين إن ليزا أرسلتك، وسيكون كل شيء على ما يرام.
- أرجوك أن تخبري زوجي أنني سأعود حوالي الثانية عشرة.
هزت المرأة رأسها، ثم وضعت على كتفي (فرانسيس) شالا من الصوف، وقالت:
- اتركي هذا في محل الأحذية.
ولم تنتظر حتى تشكرها (فرانسيس)، بل حملت أقداح القهوة، واتجهت إلى المطبخ، وبينما هي تدفع بابه، ابتسمت ابتسامة ودودا..

وحدث كل شيء كما قالت (ليزا) تماما، ولم يتوقف الحذّاء الجالس عن عمله لينظر إليها، وهي تضع الشال على منضدة إلى جانبه، كما لم يبد عليه أنه سمع كلماتها، وخرجت إلى الشارع من المحل، واختلطت بالمارة.
كانت الزوجات يحملن حقائب مشغولة من الخيط، ممتلئة بالخضراوات، والأطفال يتجمعون في فتحات أبواب المنازل، وهم يلعبون، ومشت وقد تزايدت ثقتها في نفسها إلى نهاية الشارع، وإذا تبعت قضيب الترام من هنا، فإنها ستصل بسهولة إلى شارع الكنيسة.. إن هذه الطريقة أطول، ولكنها آمنة، كما أن لديها وقتا كافيا..
مشت وسط زحام الناس، وشعرت بالأمان.. كانت مجرد فتاة أخرى ترتدي الزي الشعبي، وعند نهاية الشارع الضيق المؤدي إلى الميدان، الذي به الكنيسة كان زحام الناس شديدا، وحاولت (فرانسيس) أن تتجنب سيدتين ضخمتي الجثة، احتلتا فراغ الرصيف، وأفسحت لهما الطريق، ووقفت إلى جانب نافذة حانوت يعرض أحذية التسلق والأدوات الرياضية، ثم اصطدمت بفتاة تخرج من باب الحانوت، وكانت فتاة طويلة شقراء، وقد امتلأ زراعاها ببعض اللفائف، فتوقفت (فرانسيس) في دهشة، ثم تمتمت بكلمات اعتذار، ولكن الفتاة ظلت واقفة، وعيناها على وجه (فرانسيس)، التي أسرعت في طريقها، فقد كانت الفتاة هي (آني) خادمتهم، التي تبدو تماما مثلما كانت عندهم في (أكسفورد)، وقالت (فرانسيس) لنفسها، وهي تسير بسرعة:
- لقد نظرت إليها مباشرة أكثر من اللازم.. لقد عرفت عيني، أو ربما شعرت أنني أعرفها، ونظرت إلى نفسها في نافذة متجر اخر، ولم تجد هناك شبها كبيرا بما كانت عليه، ولكن عليها أن تراقب عينيها وطريقة مشيتها كذلك، وعليها أن تدق الأرض بكعبيها،

كما يفعلون هنا، وعندما وصلت إلى مكان الكنيسة، وكانت على وشك الدخول، نظرت وراءها..
كانت (آني) ما تزال هناك، وعندما نظرت (فرانسيس) تقدمت (آني) نحو الكنيسة أيضا، ندمت (فرانسيس) على هذه النظرة الثانية.. لقد كان ذلك غباء منها، وأسرعت فوق درجات سلم المبنى..
كان المكان يعج بزوار يوم السبت، ودفعت تذكرة الدخول.. على الأقل ذلك سيمنع (آني) من الدخول وراءها إلى الكنيسة، فإنها لم تكن تنفق أكثر من متطلباتها الضرورية فقط، عندما كانت في (أكسفورد)، ربما تظن الآن أنها قد أخطأت.
وعند ساحة الإمبراطور (مكسميليان)، رأت (ثورنلي)، وكان يقف أمام تمثال الملك (آرثر)، وفي يده مجلة، وشعرت بالراحة عند رؤيته.. إنه يبدو غير مبال بما يحدث حوله، وتجولت حول التماثيل الأخرى، كما كان يفعل الآخرون، ولم تنظر إليه وهي تمر من أمامه، وبعد أن انتهت من مشاهدتها لجميع التماثيل، دخلت إلى الكنيسة، وكان (ثورنلي) جالسا في الظل، واتجهت نحوه، فوقف ليدعها تمر، دون أن ينظر أحدهما إلى الأخر، وترك المجلة في مكانه ورحل، وجلست إلى جانبها، وثوبها الفضفاض يغطيها، وبعد عدة دقائق مدت يدها تحت الثوب لتأخذ المظروف الصغير من داخل المجلة، وتخفيه في راحتها، وانتهى الأمر، وخرجت إلى الشارع، ورفعت من على رأسها المنديل، وبينما هي تلفه حول كتفيها، وتربطه من الأمام، وضعت المظروف داخل صدرها، ولم تر أثرا لـ (بوب)، ولكن كانت (آني) هناك.. لقد تخلصت من لفائفها، وجلست في الميدان أمام الكنيسة..
لقد رأت (فرانسيس)، وأخذت تجري نحوها.

وعضت (فرانسيس) شفتها..
لقد كان هناك جنديان أمام الكنيسة، إذا حاولت تجنب (آني) ستلفت نظريهما، ولم يكن أمامها وقت للتصرف، فإنهما قد لاحظا (آني) وهي تجري.
وقالت (فرانسيس) بصوت فيه سعادة وحماس
- (آني).. لم أرك منذ أسابيع.. كيف حالك؟
نظرت (آني) إليها في دهشة بالغة، جعلتها لا تستطيع الكلام.. وكانت لهجة (فرانسيس) هي التي أدهشتها، فلم تكن هي الألمانية السليمة، التي كانت تتكلمها في (أكسفورد)، ووضعت (فرانسيس) يدها بسرعة على ذراع (آني)، وقادتها إلى الأمام، وهي تضغط عليها محذرة، وقالت:
- كيف حال أمك وأبيك؟
- في أحسن حال يا..
وزاد ضغط يد (فرانسيس) على ذراعها، مما جعلها تتوقف عن اللقب.
- وإخوتك؟
- على ما يرام.
كانا قد ابتعدا في أمان عن الجنديين، وابتسمت (فرانسيس)، وهي تقول:
- لا تنزعجي يا (آني).. كل شيء على ما يرام.
قادتها (آني) إلى الحديقة الصغيرة، عبر الميدان، وفي ظلال وهدوء الأشجار، قالت (آني)، وهي على وشك البكاء:
- يا إلهي يا سيدتي المحترمة.
- لا تقلقي يا (آني)، وأرجو ألا تناديني بذلك.
- لقد عرفت أنه هناك مشاكل حدثت لكما.
- كيف؟

- لقد عرفت أنكما كنتما هنا في (إنزبروك) منذ أسبوع.. هناك صديق لأخي يعمل في الفندق، الذي كنتما فيه.. كان يعرف أنني عشت في (أكسفورد)، وأخبرني عن اثنين من النزلاء الانجليز، اللذين قدما من أكسفورد)، فعرفت أنكما هنا.
- كان اسمه (جوهان).. أليس كذلك؟
تضرجت وجنتا (آني) بالاحمرار، وقالت:
- نعم.. عندما عرف أنني كنت أعيش معكما، جعلته يعدني بألا يخبر عائلتي عن وجودكما.
اندهشت (فرانسيس)، وقالت:
لماذا يا (آني)؟
بدا على (آني) التوتر، وقالت:
- أختي دائما لا تصدق ما أرويه عن (انجلترا) وعندما أحكي لها عن منزلكما وملابسكما تضحك غير مصدقة، وإذا كانت قد عرفت بإقامتكما في ذلك الفندق، كانت ستسخر مني.
- إننا أقمنا في ذلك الفندق يا (آني)؛ لأننا نحب المدينة القديمة.
قالت (آني):
- نعم.. أعرف.. وهذا هو ما قاله (جوهان) للبوليس اليوم.
توقفت (فرانسيس) لحظة، ثم قالت:
- (آني).. أخبريني بكل ما تعرفين.
- لقد رأيت (جوهان) صباح اليوم، فإننا نتقابل في العادة عندما أذهب إلى وسط المدينة بدراجتي.. اليوم مبكرا وصل الجستابو إلى الفندق، وأخذوا يفتشونه ويسألون عنكما خاصة.. (جوهان) قال:
- إنه لا يعرف غير أنكما من (أكسفورد)، وفي إجازة.
- وماذا عن صاحب الفندق؟

لقد ترك الفندق، بعد أن تلقى مكالمة هاتفية مساء أمس، ولم يره أحد من وقتها، لذلك كان (جوهان) هو المسئول، عندما جاء البوليس.
لم تتكلم (فرانسيس)، فإن مستر (سميث) يبدو أنه فكر في كل شيء، وقام بإخطار (كرونستاينر) في الوقت المناسب، ولكن الآن افتضح أمرهما هي و (ريتشارد)، ولن يصدقوا أنهما مجرد سائحين، ثم سألت (فرانسيس):
- هل البوليس يعرف أنك كنت عندنا في (أكسفورد)؟
- لا.. (جوهان) لم يقل ذلك قط.. لم يرد ذكر اسمي.
- آسفة أننا تقابلنا اليوم يا (آني).. من الأفضل أن أتركك الآن، فهناك خطورة عليك.
- ولكن يا سيدتي لابد أن أساعدك.. ماهي المشكلة؟
- يجب أن نرحل من (النمسا) فورا.
صمتت (آني) برهة، ثم قالت:
- (جوهان) يمكنه أن يقودكما عبر الجبال.
- إلى (ألمانيا)؟ ذلك أسوأ لنا.
- إنه أيضا يعرف جنوب (التيرول).. لقد ولد هناك..
لقد هرب عبر الجبال، عندما كان الإيطاليون يجندون النمساويين للحرب في (الحبشة).
- الحدود هناك عليها حراسة مشددة.
حاولت (فرانسيس) أن تتذكر ما قاله (شولتز) ليلة أمس، عندما كان يغلبها النعاس..
لقد نصح بعبور الجبال، أفضل من القطار.. إنها أيضا لا تفضل القطار، لأنه يكون أشبه بالمصيدة، وقالت (آني):
- ولكن هناك طرق لمن يعرف الجبال.. (جوهان) يعرفها.
ترددت (فرانسيس)، ولكنها قالت:

- لا يا (آني).. كما أن (جوهان) يجب ألا يتعرض للخطر من أجلنا.
- إنه سيقوم بذلك، لو طلبت منه.
- لا يا (آني).. لا تخبري أحدا أنك رأيتني، ولا حتى (جوهان).
كانت (آني) مازالت تفكر في طريقة، ثم قالت:
- لا يمكنني أن أطلب منك الحضور إلى منزلنا.. إن أختي تكره الإنجليز، على الرغم من أنها لا تعرف منهم أحدا، كما أن إخوتي لن يساعدوا؛ فإنهم خائفون مثل أبوي.
- شكرا جزيلا لك يا (آني)، ولكن لا تفكري أنت أيضا في مساعدتنا.
بدأت (آني) في البكاء، ونظرت إليها (فرانسيس) في أسى:
- أرجوك يا (آني) لا تبكي.. ستكون على ما يرام.
- أين سيدي؟
- إنه ينتظرني.. لابد لي من الرحيل الآن، والا سيقلق.
- أرجوك أن تخبريني بالعنوان، وعندما أفكر في خطة لكما، سأحضر عصر اليوم لأخبرك بها.
خطرت لـ (فرانسيس) فكرة، وقالت:
- تقولين ان (جوهان) يعرف طريقا جباليا؟ هل يمكنه رسم خريطة لنا، ثم تقومين أنت.. لا.. لا فائدة من إرسالها بالبريد، فقد يكون (شولتز) معروفا باسم آخر.. كيف إذن؟
قالت (آني):
- سأحضرها أنا لكما.
- إذن عليك بالحضور، عندما يحل الظلام.. هل يمكنك الخروج هذا المساء، دون أن يشك في ذلك أحد؟
- نعم فاليوم السبت، وأكون فيه مسئولة عن حانوت أخي، وفي العادة أتأخر في العودة إلى المنزل.

- ولا تخبري (جوهان) أن الخريطة لنا.. أرجوك يا (آني).. فإن ذلك أسلم الجميع.. هل تستطيعين أن تجدي سببا لطلبها منه؟
قالت (آني) إنها يمكنها التصرف مع (جوهان)، وأعادت على سمع (فرانسيس) العنوان الذي أخبرتها به، الليلة ستضع الخريطة من تحت الباب الخارجي لذلك المنزل، ثم تنسي ذلك العنوان للأبد.
وعدت بذلك، وكانت تبتسم مرة أخرى و (فرانسيس) تودعها، قبل أن تفارقها، كانت تبدو سعيدة لأنها ستقوم بمعاونتهما..
وعبرت (فرانسيس) الطريق، وكانت أيضا سعيدة بهذا الحل، إن هذه الخريطة ستكون مفيدة جدا، خاصة وأن القطار له خطورته.. إنهم يبحثون عنهما دون شك، وفكرت في (كرونستاينر).. سيراقبون القطارات وربما يفتشونها أيضا، أما بالنسبة لإعطاء (آني) العنوان، فإنها ستفي بوعدها، وهي غير مشتبه فيها.
لن يتبعها أحد، كما قد يفعلون مع (هنري) أو (بوب)..
كما أن (آني) لا تعرف أهمية المنزل.. إنه مجرد منزل ينزلون به بالنسبة لها، وهناك الكثير مثله في تلك المنطقة.
بدأ كل شيء يبدو سهلا، وإذا قام (هنري) بتوصيلهما إلى الحدود، سيتبعون الممر عبر الجبال، ويقابلون (هنري) فيما بعد في الناحية الأخرى.. الأمر أصبح بسيطا، وتخيلت نظرة الارتياح في عيني (ريتشارد)، عندما تقول له هذه الخطة، وشعرت بالسعادة، ونسيت أنها إذا كانت تتظاهر بشيء، فلا بد وأن تعيشه، وتنسى شخصيتها هي.
كان يجب عليها أن تكون فتاة نمساوية بسيطة، ولكنها في هذا الوقت كانت تستمتع بكونها (فرانسيس مايلز)،

ومشت بطريقتها، وخطوتها الخفيفة اللينة، إذا أسرعت لن تتأخر عن (ريتشارد)، وراها الرجل الجالس إلى منضدة عند نافذة المطعم، بالقرب من الأمريكي والإنجليزي.
رأي الفتاة النمساوية تمشي بهذه الطريقة المألوفة وانتبه فجأة إلى أن لون شعرها ووجهها مختلف، ولكن كان هناك شيء مألوف أيضا في الوجه وشكل العينين، ومرت من أمام المطعم، وعرف شكل الكتفين والساقين.. لقد رآهما أمس فقط، وهو يقف بباب المنزل ذي النوافذ الحمراء، وهي تسير مع زوجها يغادرانه، ولم يحاول التأكد من ظنه، حيث كان الإنجليزي والأمريكي يجلسان، فقد توقفا فجأة عن الكلام، وساد بينهما صمت متوتر، ونظر (فان كورتلاند) و (ثورنلي) إلى بعضهما، وقال (ثورنلي):
- لقد خرج.. يا إلهي!.. لقد تعرفها.
- هل أنت متأكد أنه ذلك الرجل؟
- (ريتشارد) وصفه لي بالضبط.. الندبات في وجهه، والشعر الأشقر، والسلسلة الذهبية حول معصمه.
قال (فان كورتلاند) في وجوم:
- إنه يرى الأمر مهما، لدرجة أن يتركنا وحدنا.
وقف (ثورنلي) فجأة، وقال:
. سأتبعه، وأتصل بك هاتفيا في الفندق، إذا استطعت معرفة المكان الذي سيأخذها إليه.. سأتصل بك على أية حال.. عليك أن تبقى في الفندق، وتنتظر مكالمة (ريتشارد).. لابد أنه سيتصل بك، عندما تتأخر (فرانسيس) في الوصول إليه.
وأسرع بالخروج، وقام الأمريكي بدفع الحساب وهو مكتئب فعلية فقط أن يذهب إلى الفندق، وينتظر المكالمات الهاتفية.. حسن جدا، ولكنه بالتأكيد شيء ممل.

سار (ثورنلي) وراء الرجل الألماني الطويل، وأمامهما الفتاة في الزي النمساوي، تمشي على بعد، لم يحاول الألماني الإمساك بها، بل كان يسير على بعد منها، حتى توصله إلى (ريتشارد)، وعبر (ثورنلي) إلى الناحية الأخرى من الشارع في حرص، ولكن إما أن الألماني لم يتوقع أن يتبعه أحد، أو أنه لا يهتم بذلك فلا شيء الآن يمكن أن يضع حدا للوصول إلى نهاية هذه المسرحية.. إنه يتحكم فيها الآن، ولكنه لم يأخذ في حسابه ذكاء ذلك الإنجليزي الهاوي..

ورأى (ثورنلي) عدة دراجات تقف خارج أحد المقاهي، وفي هدوء ركب إحداها، وجرى بها وراء (فرانسيس)، وفي الحال خرج ثلاثة من الشباب من المقهى، ركبوا دراجاتهم، وجروا وراءه، وهم يصرخون، مما أثار انتباه جميع المارة في الشارع وكذلك (فرانسيس)، فقد أبطأت من خطواتها، ثم دخلت فجأة في شارع جانبي ضيق، جرى الرجل الألماني، وكذلك كانت هناك سيارة سوداء تجاهلت جميع قواعد المرور، وأسرعت نحوه، وفوجئ بذلك (ثورنلي)، ولام نفسه لتصوره أن الألماني سيكون وحده، ورأي الألماني يصدر تعليماته بسرعة للسائق، وأسرعت السيارة في أحد الشوارع التي تؤدي الى مدخل الشارع الجانبي الضيق، الذي دخلته (فرانسيس)، وتردد (ثورنلي) يفكر في خطوته التالية، ولحق به الشباب الثلاثة الغاضبون، الذين يرتدون الزي السكري، فقال:

- آسف جدا.. كنت سأعيد الدراجة إليكم.. لقد ظننت أنني رأيت فتاة أعرفها، وأردت اللحاق بها، ولم يكن لدي وقت لأطلب الإذن منكم لاستعارة الدراجة.

ضحك أحد الفتية، ولكن صاحب الدراجة كان ما يزال غاضبا، حتى رأي النقود في يد (ثورنلي)، الذي قال في أدب:

- ذلك لأدفع ثمن استعمالي الدراجة وسأل الشاب الذي كان يبتسم:
- وأين هي الفتاة الآن؟
. لقد دخلت في هذا الشارع الضيق.
- ولكن هذا الشارع له مدخل آخر.. هيا معنا.. هناك وقت للحاق بها إذا أسرعنا.
وجد (ثورنلي) نفسه يسرع بالدراجة، وحوله الشباب الثلاثة، وكان الشاب الرومانسي بينهم سعيدا بما يقوم به، أما الآخران فقد كانا يريدان التحقق من هذه الرواية ووصلوا إلى مدخل الشارع الضيق من الناحية الأخرى، وكانت السيارة السوداء تقف هناك عند المدخل، وهي تستعد للسير، وكان ظهر السيارة ناحيتهم، وكان الألماني الطويل ذو الندبات في وجهه في طريقه للجلوس في المقعد الأمامي، إلى جانب السائق، وفي الخلف كان رأس (فرانسيس) يظهر بين اثنين من الأزياء العسكرية، فاختفى (ثورنلي) وراء الفتيان، وهم ينزلون من على دراجاتهم..
لقد توقفوا بمجرد أن رأوا السيارة المرسيدس المكشوفة، وكانوا ينظرون إليه نظرة غريبة، وسأله الرومانسي فيهم، وقد تغيرت لهجته تماما:
- هل هذه فتاتك؟
هر (ثورنلي) رأسه بالنفي، وعيناه متعلقتان برقم السيارة، التي كانت تسرع في طريقها.. وكانت تبدو عليه خيبة الأمل، وهو يقول:
- لا... ولكن من بعيد كان قوامها وساقاها مثل فتاتي.
كانت هذه الإجابة مثل النكتة بالنسبة لهم، وابتسم مرة أخرى الشاب وقال:

- من الأفضل لك أنها لم تكن هي، فتلك التي في السيارة ستواجه المصاعب في (درايكر)..
قاطعه الشاب الذي أخذ النقود، قائلا:
- إنك تتكلم أكثر من اللازم يا (فريتز).
وتوقف الثالث عن الضحك، وساد الجميع لحظة صمت، ثم قال (ثورنلي):
- ماذا لو تناولنا بعض أقداح البيرة معا؟ اعتذروا في صرامة، فقد كانت أمامهم اجتماعات بعد ظهر اليوم، وكذلك هناك استعراض عسكري، عليهم أن يرتبوا له، وأصبحوا جميعا يتكلمون بأهمية عظيمة، ثم ضربوا كعوبهم في بعضها، يحيونه قبل أن ينصرفوا، ولوح لهم (ثورنلي) بيده بطريقة مرحة، وهو يشكرهم مرة أخرى، وركبوا دراجاتهم، ولكنه لاحظ أن الفتى الصارم فيهم أخذ يراقبه، حتى راه يدخل المقهى الذي اقترحه عليهم، وظل (ثورنلي) به بضع دقائق، حتى يتأكد من أنهم تركوا الشارع، وحتي يكتب رقم السيارة الغريب، ولينظر في دليل الهاتف، ولكنه لم يجد أرقاما تحت اسم (درايكر)، وترك المقهى..
ربما عليه أن يحاول في مكتب البريد، سيقول إن لديه خطابا يريد أن يرسله..
ولكن لا..
لقد تذكر (براغ)..
ان مكتب البريد قد يكون خطرا..
ليس من السهل اقتفاء أثر السيارة، فذلك سيثير الشك بالتأكيد، وتذكر النظرة الغريبة على وجه الشباب الثلاثة، عندما رأوا السيارة، وكيف أنهم توقفوا بسرعة على بعد منها، ولكنه متأكد من أن الشاب، الذي كان يتكلم كثيرا قد عرف (فون آشنهاوزن)..

لقد كان ذلك واضحا..
وترك الشارع بأسرع ما يمكنه، واتجه إلى فندق (فان كورتلاند).. كانت المحلات مزدحمة من حوله، ورأي مكتبا للسياحة، فدخل.. وكان هناك عدد من الناس، يحجزون التذاكر لرحلات بعد ظهر ذلك اليوم، وقد وقفت أعداد منهم حول مناضد مختلفة، كل منها تختص بإحدى الرحلات السياحية، وبجانب المنضدة المكتوب عليها (برينر)، كان هناك رجل يقف في هدوء، يراقب ويسمع ما يدور.. إنها الرحلة الوحيدة القريبة من الحدود، ولاحظ (ثورنلي) أن هناك جمعا من الناس حول هذه المنضدة، وقرر أن يحاول..
اقترب من المكتب المكتوب عليه استعلامات، في نهاية الحجرة، والذي كانت تجلس إليه فتاة تقوم بإعطاء رجلين جداول للرحلات، وتتكلم معهما، وتقدم (ثورنلي) بشعره الأشقر، وسترته المصنوعة من التويد، وحذائه المطاطي، مما جعله يبدو متآلفا مع المكان، وانتظر حتى انتهى الرجلان من الحديث ورحلا، ثم اختار نفس الرحلة التي كانا يسألان عنها، وقالت الفتاة وهي تبتسم:
- (كيتزبول)؟.. إنها رحلة يحبها الجميع هذه الأيام.. ستجد كل البيانات في هذا الكتيب.
فتحة (ثورنلي)، ونظر في صفحاته الملونة، كما فعل الرجلان قبله، ثم نظر إلى الفتاة بابتسامة، وقال:
- مدهش.
بدا على وجه الفتاة السرور، وأضاف:
- والآن هل يمكن أن تدليني على مكان مكتب البريد؟.. لقد وصلت لتوي إلى (انزبروك)
- في شارع (مكسيميليان).

- هل هو بعيد عن هنا.. لدي موعد قد أتأخر عليه.
- بعيد نوعا ما.
- إن معي خطابا أريد إرساله على الفور، ولكن العنوان ليس معي.. على أنني أذكر أنه يبدأ بكلمة (دراي)
.. (درايكر)
- آه.. (درايكرتشن).. لقد كانت عندنا من قبل رحلات تذهب إليها، ولكن الآن لا.
كانت تنظر إليه في غرابة، ثم سألت:
- هل تعرف أحدا هناك؟
قال (ثورنلي)، وقد انتبه:
- لقد أعطوني هذا العنوان منذ عامين مضيا، ولكن صديقي سيكون هناك إلى الآن، فلم أسمع منه أنه رحل.
قالت الفتاة بصوت منخفض:
- هل كان ينتمي إلى الكنيسة؟
قال (ثورنلي):
- كان ما يزال يدرس وقتها.
كان من الواضح أن هذه الإجابة سليمة، فقد قالت الفتاة:
لقد تغير المكان الآن.
- ولكن سيقومون بإعادة توجيه الخطاب.. سأرسله اليوم بالبريد.. والآن بالنسبة لرحلة (كيتزبول).
أتنصحينني بالذهاب اليوم، أو يوم الاثنين؟
- اليوم سيكون المكان مزدحما.
- وهل يقوم الأوتوبيس من أمام هذا المكتب؟
- نعم من الناحية المقابلة من الشارع.. أرجو أن تمضي وقتا سعيدا هناك..

كانت الفتاة متعاونة، ومن النوع الذي يحب أن يرضى عملاءه، وشكرها (ثورنلي)، وخرج من المكتب، وهو ما يزال يتصفح الكتيب الذي أعطته له الفتاة، وكان الصف أمام منضدة (برينر) ما يزال طويلا، وذلك الرجل يتنصت على كل طلب..
وخرج (ثورنلي) إلى الشارع، وتنفس الصعداء، ثم وضع الكتيب في جيبه للذكرى، وعليه الآن التوجه إلى فندق (فان كورتلاند)، وتمنى أن يكون (ريتشارد) قد انتابه القلق فعلا على (فرانسيس)، وقام بالاتصال بـ (هنري).
على الأقل هم يعرفون الآن اسم المكان الذي أخذوها إليه..
لو أن هذا يفيد

9- الخطر..

استيقظ (ريتشارد) في الحادية عشرة، وفي الحال شعر بالقلق، وهو يرى السرير خاليا، وأخذ يلوم نفسه لأنه لم يستيقظ مبكرا، ليرى (فرانسيس) قبل خروجها، بل إنه كان من الأفضل أن يذهب هو في هذه المهمة.

وفي سرعة قام وحلق ذقنه بالماء البارد، وارتدى ملابسه، ونزل إلى أسفل، وعندما جلس وضعت أمامه (ليزا) قدحا من القهوة السوداء المرة، ولكنها ساعدت على أن يصفو ذهنه، وقالت له المرأة أن (فرانسيس) ستعود في الثانية عشرة، وأخذ يقرأ الجريدة الصباحية، وهو يحتسي القهوة، ولم يجد ذكرا لحادثه (بيرتيسو)..

إذن فهم يتسترون عليها مؤقتا.. وربما يحاول (فون آشنهاوزن) جهده الآن ليغير فشله إلى نجاح، قبل الإعلان عما حدث، حتى يتلافى الخطورة على نفسه إذا فشل، وعليه أن يمسك بهما، وإلا يواجه عواقب وخيمة، وهذا سيجعل بالتأكيد هروبهما صعبا، ثم هناك مسألة كرامته والانتقام، إنها من خصائص الشعب الألماني.

ومر الوقت، ومرت الساعة الثانية عشرة بوقت طويل، كانت المرأة متعاطفة معه، ولكنها هادئة، وقالت إنه لا داعي للقلق، فشوارع (انزبروك) صعبة بالنسبة للأجانب، وأكدت له مرة أخرى أن (فرانسيس) ستحضر، ولكن الساعة أصبحت الواحدة ظهرا، وبدأت المرأة تقلق أيضا، وتخاف على (شولتز)، وعلى نفسها، ولم يلمها (ريتشارد)، وسألها:

- هل يمكنني استعمال تليفون قريب من هنا؟

هزت رأسها، وأشارت له عبر الفناء الخلفي إلى منزل في الشارع الجانبي، وعندئذ رن جرس الباب، ونظرا إلى بعضهما، وقد اختلط الأمل والخوف في عيونهما.
واختفي (ريتشارد) وراء باب غرفة المعيشة، بحيث يمكنه أن يرى من خلال فتحة صغيرة، ورآها تفتح الباب قليلا، وأعطاها شخص ما مظروفا، ثم سمع صوتا مألوفا يقول:
- هل يمكنني رؤية الأستاذ البروفيسور؟
فوجئ (ريتشارد)
لا يمكن أن تكون هي.. لا يمكن..
ولكن الباب كان قد فتح أكثر، ولا يوجد شك..
وصاح:
- (آني)؟!.. ادخلي..
لم تتوقع المرأة ما حدث، حتى أن (آني) دخلت وعلى وجهها ابتسامة عريضة، قبل أن تتكلم، وأمسك (ريتشارد) ذراعها، وشدها داخل الحجرة، وقال ثانية:
- (آني).. كيف بالله جئت إلى هنا؟
كانت (آني) مسرورة من دهشته، مثلما كانت تشعر عندما كانت تفاجئه بفطيرة لذيذة في (أكسفورد)، وأخذت المظروف من يد المرأة، وأعطته إياه بفخر، وقال في نفسه:
- لا بد أنها رسالة من (فرانسيس).. إنها تنتظره في مكان ما..
وفتح المظروف متلهفا، ولكن كل ما رآه صفحة من الورق، عليها خريطة بدون كتابة، وقالت (آني) وهي تشير إلى دائرة صغيرة على الخريطة:
- هذه هي (بريز).. لقد ظننت أنه من الأفضل عدم كتابة الأسماء على الخريطة، وبدلا من ذلك تقوم بحفظها عن ظهر قلب، وذلك هو السبب في أنني طلبت مقابلتك.

نظر إليها (ريتشارد) بسرعة، وقال:
- كيف عرفت أننا بحاجة إلى هذه.. كيف عرفت عنواني هنا؟
- من سيدتي المحترمة.. ألم تخبرك؟
- متى رأيتها؟
- بعد أن خرجت من الكنيسة.
- في أي وقت كان ذلك؟
ظهر القلق على (آني)، وقالت - حوالي الثانية عشرة إلا ربعا، فقد وصلت إلى حانوت أخي بعد الثانية عشرة، وهذا هو الوقت الذي يحضر فيه (جوهان) ليراني أيام السبت، فأخي يذهب إلى الجبال كل يوم سبت وأحد، ذلك لأنه يعمل مرشدا في هذين اليومين، وأقوم أنا بمباشرة الحانوت في غيابه، وعندما حضر (جوهان) جعلته يرسم هذه الخريطة، وأحضرتها لك على الفور.. لقد قالت لي السيدة المحترمة: أن أحضرها في الليل، ولكن ذلك لأنها خائفة على فقط، ولكنني أحضرتها الآن، فربما تريد الرحيل فورا.. كذلك لم أخبر (جوهان) بشيء عنكما، ووعدته أن أخبره بالسبب فيما بعد.. سيكون فرحا؛ لأنه معجب بكما كثيرا.
جلس (ريتشارد) برهة، ورأت (آني) وجهه الشاحب، وقالت:
- ألم تخبرك سيدتي بكل ذلك؟ ما الأمر يا سيدي البروفيسور.. أليست هنا؟
قالت المرأة في وجوم: لا.. إنها لم تعد بعد. - ولكنها قالت: إن عليها أن تسرع.. لقد قالت: إنك ستقلق عليها لو.. أوه يا سيدي.
تملك (آني) الجزع، لدرجة أن (ريتشارد) وقف وأمسك بيدها..
إذن مخاوفه كانت في محلها، فبينما هو ينتظر في قلق، حدث شيء ما ل (فرانسيس).. لابد أن حدث شيء ما.. لو أمكنه فقط أن يتخلص من ذلك القلق الشديد.. ذلك ليس في مصلحتهما،

أن يقف هنا ممسكا يد (آني)، ولا يفعل شيئا.. لابد أن يفكر بسرعة.. لقد مرت ساعة على تأخيرها.. وفي توتر، قال:
- أخبريني يا (آني).. كيف تعرفت مسز (مايلز)؟
- لقد نظرت في عينيها، ووجدت أنها تعرفني، ثم كانت هناك طريقة سيرها، وشكل ساقيها لأنني أعرفها جيدا.
- إذن يمكن لشخص أخر يعرفها جيدا أن..
لم يستطع أن يكمل كلامه، وترك (آني) ومشى نحو النافذة، ووقف وظهره لهما، ينظر إلى الحديقة الصغيرة، وفكر في (فان كورتلاند) و (ثورنلي).. لابد أن يتصل بهما فورا.. ولابد أن يحتفظ بهدوئه، ويفكر في الأمر بموضوعية، حتى يجد حلا.. العواطف تعوق ذلك، والقلق قد يجعله يفقد (فرانسيس) للأبد.
واستدار لهما، وقال:
- (آني).. هل يمكنك أن تعودي إلى الحانوت وتنتظري هناك حتى يحضر إليك شخصان، أحدهما أمريكي، والآخر إنجليزي، لشراء أحذية للتسلق؟
سمعت (اتى) صوته الهادي في دهشة، ولكن ذلك قلل من خوفها، فإذا كان الهر بروفيسور يرى بعض الأمل، إذن هناك حتما أمل..
واستمعت إلى وصفه للرجلين اللذين سيحضران الشراء أحذية التسلق، وحفظت أسماءهما، والرسالة التي عليها أن تخبرهما بها.. "(هنجر برج).. الساعة الرابعة "..
ولم تتحمس (آني) لهذه الرسالة، فإن (هنجر برج) كانت كبيرة، وقد لا يجد بعضهم البعض، ولكنها أمنة بالنسبة لهم، وقد يمر وقت قبل أن يتقابلوا، وقالت:
- من الأفضل أن تقابلهم في الحانوت بنفسك، فإن ذلك يوفر الوقت، وهناك حجرة مخزن في ظهر الحانوت، لها مدخلها

الخاص، يمكنك أن تنتظر بها حتى يحضر أصدقاؤك.. إن أخي ليس هناك، و (جوهان) عليه أن يذهب إلى الفندق بمجرد عودتي للحانوت.. لقد تركته ليباشره حتى أعود من هنا، ولن يكون هناك أحد غيري بعد ذلك.
وسخرت من أي خطر قد تتعرض له، وإذا حدث شيء فإن (ريتشارد) سيكون مجرد زبون لا تعرفه، كما أنه هناك المدخل الخلفي، الذي يقود إلى أفنية وأزقة، ولو حدث خطر ما، فإنه هناك إمكانية الهرب، وشعر (ريتشارد) بأن ذلك الحل هو الأبسط والأسرع، وقبله مسرورا، وخرجت (آني) من الباب الخلفي، وقد وضعت الشال الذي أعطته لها (ليزا) على كتفيها، وانتظر هو دقيقتين أو ثلاثا، حتى تكون قد مرت من المنزل الآخر، وهو يأمل في يأس أن تعود (فرانسيس) فجأة، وكانت المرأة يبدو عليها القلق بوضوح، ولكنها برغم ذلك هادئة ومتعاطفة معه.
إن هر (شولتز) سيعود الآن، وقد أعدت له طعام الغداء على المائدة، ويمكنه أن ينصحهما، وقدمت له صحنا من الحساء، وقد وضعت فيه قطعا من الزلابية، لابد أن يأكلها، ولكن (ريتشارد) رفض في أدب، فقد كان القلق يمزق أحشاءه، وكانت عيناه على ساعته..
ثلاث دقائق كافية ل (آني).. وخرج وراءها، وقالت المرأة وراءه:
- قل: إن (ليزا) أرسلتك.
أتت جملة السر بمفعولها، وطلب له الحذاء رقم الهاتف، ثم تركه وحيدا ليتكلم، وسمع صوت (فان كورتلاند)، وشعر بالارتياح، وقال:
- (فان كورتلاند)؟
- نعم.. أنا.

وجاءت الكلمات بطلاقة.. قال (فان كورتلاند):
- نعم مجلة (التايمز).. أسف لأنني تأخرت في المقال، لقد عرفت أنك ستتصل بي لهذا التأخير الذي حدث.
- هل الأمر جاد؟
كان (فان كورتلاند) يعرف بما حدث، ووفر على (ريتشارد) شرح الموضوع، وقال:
- نعم.. الآن.
- حسن هناك مقال آخر، لابد أن يكتب.. أوجه الجمال في جبال (التيرول).. هل لديك معدات للتسلق؟
- ليس أكثر من قدميّ.
- إذا لم يكن لديك حذاء خاص.. احصل عليه بعد ظهر اليوم، فإن هذه مهمة عاجلة.. اذهب إلى محلات بيع الأدوات الرياضية.. هناك حانوت (شميت) أو (شبيجلبرجر) أو (رودي واتشر).. الأخير حانوت جيد.. ستجده في شارع (برجرابن)، بالقرب من شارع المتحف.
- حسن.. سأذهب هناك على الفور.. أرجو أن أراك قريبا
- سأراك قريبا.. أسرع في كتابة المقال.. لا تتأخر في هذا.
- بالطبع.. اعتمد علي.. سلامي وتحياتي لـ (جيوفري ردسون).
- وقبلاتي لـ (لوسي).
سمع (ريتشارد) ضحكة، في الهاتف، قبل أن يقطع المكالمة، وعاد إلى منزل (شولتز)، ليجده جالسا في غرفة المعيشة يأكل، ولم ير أثرا ل (ليزا)، وأشار له (شولتز) ليجلس في أحد المقاعد، ثم أشار إلى صحن الحساء، ولكن (ريتشارد) صب لنفسه بعض القهوة، وشربها دفعة واحدة، وقال:
- لابد لي من الرحيل حالا.. فإن زوجتي..
- أعرف.

ثم مسح (شولتز) شفتيه، وشرب بعض الماء، وتابع:
- أعرف.. (ليزا) أخبرتني.. إن أوراقك وملابسك كلها جاهزة.
وأشار إلى مظروف كبير، ولفافة من الورق الأصفر على منضدة قريبة..
كانت الوثائق تبدو مقنعة، والصور على ما يرام.
قال (شولتز):
- لقد انتهينا منها بسرعة، فقد دفعت لي.. أما تزال معك نقود؟
قال (ريتشارد):
. سألتقي ببعض أصدقائي.
- حسن.. حظ سعيد.
قال (ريتشارد) ببطء
- قد يكونون قبضوا على زوجتي، وقد يعرفون مكان هذا المنزل
شرب (شولتز) بعض الحساء، قبل أن يقول:
- لا تقلق لهذا.. لقد قررت تغيير عنواني.. لقد رأيت صديقك (كروستاينر) هذا الصباح، في مكان عملي.
لقد وصلته رسالة أمس، من صديقنا الذي كان في أن (بيرتيسو)، ونحن الآن سننتقل مرة أخرى.. إن (ليزا) تجمع أشياءنا الآن
وابتسم وهو يرى نظرة الارتياح على وجه (ريتشارد)، الذي استعد للرحيل، وسلم عليه بحرارة، ثم قال (شولتز) فجأة:
- تشجع.. الشجاعة هي سلاحنا الحقيقي.. يمكنك تنتصر إذا احتفظت بشجاعتك.
هر (ريتشارد) رأسه، وقال:
- آسف.. إذا كنا السبب في تغيير خططك.
- إنها دائما تتغير، ولكننا نستمر، ولا تقلق بشأن (كروستاينر).. إنه على ما يرام.. لقد تغير شكله منذ زيارته لي هذا الصباح.

ورجع برأسه إلى الوراء، وضحك مبتهجا، ثم عاد الى صحن الحساء، وقال:
- خسارة أن أترك هذه.
قابلت (ليزا) (ريتشارد) عند الباب، وقالت:
- لقد تركت هذه الأشياء في حجرة النوم.
ثم أعطته علبة أمواس الحلاقة، وحقيبة (فرانسيس)، وشكرها وهي تضمهما إلى اللفافة من الورق الأصفر، وقال (شولتز)، وهو يأكل آخر قطعة من الزلابية:
- بعد خمس دقائق سنرحل وراءك.. إلى اللقاء يا صديقي وتشجع.
وابتسمت له (ليزا) لأول وآخر مرة، وأغلق الباب وراءه، وكانت الساعة قد قاربت الثانية ظهرا..
ونبضات قلبه بلغت ذروتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- حلبة المنافسة..

كانت (انزبروك) في ذلك اليوم - السبت - تبدو وكأنها بأكملها في مسيرة عسكرية كانت الاستعراضات العسكرية، بمصاحبة موسيقى الآلات النحاسية، تتوالى وراء بعضها، وقد تجمهر الناس على جانبي الطريق لمشاهدتها، وحتى بعد مرورها استمروا في أماكنهم، في انتظار الاستعراض التالي، وسار (ريتشارد) مسرعا في الطرق الفرعية الضيقة التي هجرها الناس، حتى وصل إلى حانوت (رودي واشتر)، وكان المكان صامتا ساكا، وهو يفتح الباب الخلفي، ويدخل في سكون إلى الغرفة الصغيرة، التي وصفتها له (آني)، والتي تستعمل كمخزن، وأخذ يتحسس طريقه داخل الغرفة، وسط صفوف الصناديق وجلس على صندوق كبير، موضوع تحت نافذة عالية صغيرة في الحجرة، لا يمكن لأحد أن ينظر من خلالها إلا إذا وقف على سلم، وجلس ينتظر، وسمع أصواتا تصل إليه من الحانوت بالخارج، وضحكة (آني)..

كانت الأصوات بعيدة، ولا يمكن تفسيرها، مما أكد أنه هناك حجرة أخرى تفصل بين حجرة المخزن والحانوت الأمامي نفسه، حيث كانت (آني) تقوم بخدمة أحد الزبائن، ولم يره أحد ولم يسمع له صوتا عندما دخل، وإذا حدث أن نظر أحد داخل المخزن، فالصناديق المرصوصة تخفيه عن العيون.

وبدأ يشعر بالارتياح قليلا، ولكن البابين في جانبي الغرفة كانا يقلقانه، فقام وتفحص القفل على الباب الذي دخل منه، وأغلقه من الداخل، فذلك أفضل من احتمال دخول أحد عليه من هذه الناحية، ومن السهولة فتحه والهرب إلى الشارع الضيق، إذا حدثت أية مشاكل، وكان الباب الأخر هو الذي يؤدي

إلى الحجرة التي تفصل بين هذه وبين الحانوت، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا حياله حتى تظهر (آني)..
لقد سكتت الأصوات الآن، ولابد أن الزبون قد خرج ثم سمع صوت جرس، وعرف أنه ذلك الجرس المركب على الباب الخارجي، وقد تحرك مع الباب وهو يغلق وراء الزبون، ولابد أن (آني) قد أحضرت هذا الجرس معها من (انجلترا)، هدية منها لأخيها، وابتسم لسماعه هذا الرنين المألوف، في حوانيت شوارع (أكسفورد)، هنا في (انزبروك)، الذي يرن عندما تفتح أو تغلق الباب وسمع وقع أقدام (آني) تقترب، وفتح الباب في الحجرة المتوسطة، ووقفت (آني) تنظر في الضوء الخافت، وخرج من وراء الصناديق، فقالت:
- هل شعرت بدخولي؟



عادا يراقبان شاشة الراصد فى اهتمام ، وأمامهما بدت (دايل) قلقة ، وهى تسأل (زوركوف) :ـ إلى أين تقودنى ؟

- لا.. لقد كنت أحضر إلى هنا كل فترة، بعد خروج الزبائن؛ لأرى ما إذا كنت قد حضرت.. هل أغلقت الباب الآخر؟ حسن جدا.. سأغلق هذا الباب أيضا.. إن الغرفة التي في الوسط هي غرفة

قياس الملابس.. إذا دخل فيها أحد التزم الهدوء، وإذا سمعت صوتا عاليا، يريد فتح الباب، ويهزه، ويطلب مني المفتاح بغضب.. عندئذ ارحل على الفور..

وسمع صليل الجرس، وقالت (آني) في همس:

إن هذا الجرس مفيد جدا.

واستدارت تريد الخروج، ولكن (ريتشارد) أمسك ذراعها، عندما سمع صوتا مرحا ينادي في صوت عال، من مقدمة الحانوت:

- ألا يوجد أحد هنا؟

كان صوت (ثورنلي)، ثم سمع صوت (فان كورتلاند) يقول بالإنجليزية:

- هذا هو الحانوت.. فلننتظر قليلا أشار (ريتشارد) إلى (آني)، فخرجت لمقابلتهما، وسمعهما يطلبان منها أحذية للتسلق، ثم هدأت الأصوات، وسمع أقدامهما تتجه إلى حجرة المخزن، وبعد دخولهما أغلقت (آني) الباب عليهم، وتركتهم معا، وقال (فان كورتلاند):

- يا إلهي كم أنا سعيد برؤيتك.

وتساءل (ريتشارد):

- (فرانسيس)؟.. ماذا أصابها؟

قال (ثورنلي):

- لقد أمسكوا بها لسوء الحظ.. كان ذلك الوغد الأشقر ذو السوار في معصمه، هو الذي رآها، وعرفها.. لقد أخذوها إلى (درايكرتشن).. هذا كل ما استطعت معرفته.. وكذلك رقم السيارة المرسيدس السوداء.

وفتح الباب، ودخلت (آني)، وعلى ذراعها بعض ملابس التسلق، وأعطتها لـ (ثورنلي) و (فان كورتلاند)، وسألها (ريتشارد):

- أين (درايكرتشن) يا (آني)؟ هل هي قرية أو اسم لمنزل شهير؟ هل سمعت بها من قبل؟
قالت (آني) لـ (فان كورتلاند):
- إذا رن جرس الباب، ادخل إلى حجرة القياس، لقياس هذه الملابس أمام المرآة، وأغلق هذا الباب جيدا وراءك، وضع المفتاح على ذلك الرف العالي هناك ثم قالت ل (ريتشارد):
- الان نحن في أمان، أما بالنسبة لذلك المكان (درايكرتشن)، فلا يوجد غير واحد فقط بهذا الاسم، قريب من هنا، على بعد ساعتين.. إلى الجنوب من (انز بروك)، إذا تبعت طريق (برينر)، ستصل إلى جزيرة (برج) و (درايكرتشن) على يمينها.. سأحدد لك المكان على الخريطة كان (ريتشارد) قد فتح دليله الجغرافي وهي تتكلم، وأشارت (آني) بأصبعها، قائلة:
- هذا هو الطريق الذي يأخذك إلى (درايكرتشن)..
هذه هي.. مجموعة المربعات السوداء.
- إنها قرية.. لماذا لم يكتب اسمها؟
- إنها ليست قرية.. إنها بعض البيوت القليلة ودير وثلاث كنائس فقط، حيث كان يعيش بعض الرهبان.
- ومن الذي يعيش هناك الآن؟
بدا على (آنى) الحرج.. لم تكن متأكدة.. لقد سمعت إخوتها يتكلمون، ولكنهم لم يفسروا لها.. لقد أرسل أحد أصدقائهم إلى ذلك المكان.
وسأل (فان كورتلاند):
- هل هي معسكر للاعتقال؟
نفت (آني) ذلك بشدة.
- غير معقول.. إنهم يرسلون الصبية الى ذلك المكان، ليتعلموا فيه.. الصبية والشباب المختار.

بالطبع هناك شائعات كثيرة، ولكن لم يؤكدها أحد بالبحث فيها، فإن ذلك شيء خطر.
وسألها (فان كورتلاند) مرة أخرى:
- هل لذلك المكان أية علاقة بالجستابو؟
ظهر الخوف على وجه (آني).. لقد كانت هناك شائعات، وقد حدث أن قال ذلك (جوهان)، وهو يمزح أمام أحد أشقائها، وتشاجر معه..
شكرها (ريتشارد)، فقد كان ذلك هو كل ما تعرفه، أو تريد معرفته، وفي طريقها إلى الخروج أوقفها (ثورنلي)، وهو يطلعها على ورقة، صغيرة في يده وقال:
- إذا رأيت سيارة سوداء كبيرة، عليها هذه الأرقام، ماذا يكون رأيك؟
قالت (آني):
- سيارة خاصة؟!
- أهو البوليس السري؟!
هزت رأسها بالإيجاب، ثم خرجت إلى الحانوت، وقال (فان كورتلاند):
- علينا أن نتحرك بسرعة، فليس أمامنا ربما غير عشر دقائق، قبل أن يستطيعوا الوصول إلى مكاننا، فمن المؤكد أنهم استمعوا إلى مكالمتنا اليوم، وسيبحثون عنا في حوانيت الرياضة.. هيا بنا، قال (ريتشارد):
- شكرا لكما.. لولاكما لما كان هناك أمل.
وقال (فان كورتلاند)، وهو يوجه كلامه إلى (ثورنلي):
- تصور أنه كان يظن أنه سيتخلص منا في هذه المرحلة.. الأمر يحتاج الآن لجهودنا نحن الثلاثة لنجد (فرانسيس).
قال (ثورنلي) في هدوء:

- سنجدها.
لم يضيع (ريتشارد) وقتا، ونشر الخريطة أمامهما وقال:
- سنتقابل هنا.
وأشار إلى مكان التقاء الطريق بجزيرة (برج)، وأضاف:
- أحضرا سيارة، وضعا فيها جميع متعلقاتكما، وكذلك هذه اللفة.. إن بها ملابسنا التي سنرتديها في (إيطاليا).
قال (فان كورتلاند):
- لقد اتفقت فعلا مع صديقي من الإذاعة، على أن يبادل سيارته بسيارتي، إنه ذاهب إلى (فيينا) بعد ظهر اليوم، وهو موثوق به، ولن يتكلم، كما أخبرت الفندق بأنني أعتزم الرحيل، والعودة إلى (بيرتيسو)؛ لمقابلة أصدقاء لي هناك.
قال (ريتشارد)، وهو يشعر بالامتنان:
- حسن.. نتقابل بعد الساعة الرابعة، حتى يمكنني الوصول إلى ذلك المكان.. وأحضر معك بعض الشوكولاتة والسجائر.
قال (فان كورتلاند):
- إلى الرابعة والنصف إذن.
وتصافحوا بحرارة، قبل أن يعودا إلى الحانوت وانتظر (ريتشارد) حضور (آني)، وقالت وهي تدخل إلى المخزن في همس:
- إلى اللقاء يا سيدي البروفيسور.. أرجوك أن تتصل بي، وتخبرني عندما تجد السيدة.. أرجوك. قال (ريتشارد):
- نعم يا (آني).. سأفعل.
ماذا يمكنه أن يقول ليشكرها؟
وشعرت (آني) بذلك، وقالت:
- إنني أرد بعض ما فعلتموه معي في (أكسفورد)..
والآن أسرع يا سيدي.
قال ريتشارد)، وهو يصافحها بحرارة:

- إلى اللقاء يا (آني).
- إلى اللقاء.
وخرج بسرعة، وسار حتى وصل إلى الشارع الكبير المزدحم بالناس، ورأى (فان كورتلاند) و (ثورنلي) وقد غادرا الحانوت، وهما يحملان بعض اللفائف من المشتريات، ووقف حتى اختفيا عن نظره، وشعر فجأة بالجوع الشديد، ولكن النقود التي معه لا تكفي إلا للوصول إلى جزيرة (برج) بالترام، وشعر بالأمان بين زحام الناس حوله في الشوارع، ذلك أن (فون آشنهاوزن) هو الوحيد الذي يستطيع أن يتعرفه في (انز بروك).
و (فون أشنهاوزن) الآن معه (فرانسيس)، يلعب لعبة هامة بالنسبة له، وذلك هو السبب في أنه أخذها إلى (درايكرتشن)، ولم يقبض عليها رسميا، حتى يستخلص منها المعلومات التي تمكنه من التغلب على فشله، في القبض على (سميث).. إن (فرانسيس) تعرف كل ما يريد.. وسيحاول الحصول عليه.. وبأية وسيلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 - الاقتراب من (درايكرتشن)..

انطلق (فان كورتلاند) و (ثورنلي) مسرعين، وسط زحام الجماهير، وتوقفا مرتين.. مرة لشراء بعض البسكوت والشوكولاتة، والثانية لشراء البرتقال، وذهبا إلى الفندق لأخذ أمتعتهما، وقاما بإجراء مكالمتين هاتفيتين إحداهما لصديق (فان كورتلاند) من الإذاعة، لتحديد المكان والموعد الذي سيتقابلان فيه لتبادل سيارتيهما، والثانية لوكالة (كوك) للسياحة، لشحن الأمتعة الثقيلة إلى (جنيف) ب (سويسرا)، ثم قال (ثورنلي) فجأة، وقد تغير وجهه:

. لقد تسلمت خطابا هذا الصباح.

نظر إليه (فان كورتلاند)، وقد لاحظ نبرة صوته، وأضاف:

- سأخبرك بما فيه فيما بعد.. إنه من صديقي (توني)، يقول: إنه في طريقه إلى (انجلترا).

- والفتاة؟

هز (ثورنلي) رأسه، وقال:

- لا.. وحده.

- هل الأمر سيئ؟

- نعم.

ولم يزيدا في هذا الموضوع، واتجها إلى (الجراج)، الذي ترك فيه (هنري) السيارة، وجاء أحد الصبية بعد قليل، يحمل حقيبتين، وضعهما في السيارة، وانطلقا، وقال (فان كورتلاند) وهو يبتسم:

- هذه الطريقة أثبتت نجاحها، فقد تأكدت أنه لا يتبعنا أحد، فبعد أن دفعت الحساب قلت: إنني سأغادر الفندق إلى (بيرتيسو)، في حوالي الخامسة، وتظاهرت بالصعود إلى الحجرة

مرة ثانية، ولكنني في الحقيقة لحقت بك من السلم الآخر، وانضممنا إلى الجموع في الشارع، التي تنتظر مشاهدة الاستعراضات.. إن المدينة بأكملها في الشوارع، بسبب هذه المسيرات، التي لا أعرف لها سببا.

قال (ثورنلي):

- إنها تصيبني بالاكتئاب، ولا يستطيع أحد أن يفعل شيئا حيال هذا الحماس العسكري السائد، لا بالنقاش، ولا بالأعمال الصالحة.

ثم سكت، وأخذ يراقب (فان كورتلاند) وهو يقود السيارة..

كان توقيته سليما تماما، فإذا كان هناك من يتبع السيارة، فالمرور وزحامه القادم من الشوارع الفرعية سيجعله يفقدها..

ووصلا إلى مكان مقابلتهم مع صديق (فان كورتلاند)، وتم كل شيء بسرعة مذهلة في لحظات، ووجد (ثورنلي) نفسه يجلس في سيارة زرقاء قاتمة اللون، بعد أن تبادلا الحقائب، وانطلق الرجل الأخر الأمريكي النحيل بسيارة (فان كورتلاند) الزاهية اللون، ووقف (فان كورتلاند) يراقبه، حتى اختفى عن الأنظار قبل أن ينطلق هو أيضا في الطريق المضاد، وقال (فان كورتلاند):

- إنه شخص لا بأس به.. إننا مجرد اثنين من الأمريكيين، تبادلا سيارتيهما، وهو لا يعرف شيئا عن أي شيء، كما أنه قد ربح في عملية التبادل هذه.

ودارت السيارة حول (انز بروك) إلى الغرب، متجنبة بذلك الطريق الرئيسية، التي ما تزال مزدحمة، وقابلا في طريقهما عدة تشكيلات من الشباب، المرتدي للزي العسكري، يمشون وكأنهم جميعا على موعد في مكان ما، وفي الطريق المؤدي إلى جزيرة (برج)، والذي كان يقود أيضا إلى ممر (برينر)، كما قال (كورتلاند)، ومرت بهما ثلاث سيارات كبيرة سوداء، تجري

بسرعة وراء بعضها، وكانت جميعها تمتلئ عن آخرها بالجنود الجالسين منتصبي القامة، ووجوههم البيضاء لا ملامح لها، تحت غطاء الرأس العسكري، وصاح (ثورنلي) في انفعال شديد:
- إحدى هذه السيارات.. نعم.. إنها واحدة منها.
قال (فان كورتلاند)، وهو يبتسم لتلعثم زميله:
- ما الأمر؟
واحدة من هذه السيارات، هي نفسها السيارة التي رأيتها بعد ظهر اليوم، و(فرانسيس) جالسة فيها، ألا تفهم يا (هنري).. إنهم إذا كانوا قد غادروا (درايكرتشن)، سيكون الأمر أسهل بالنسبة لنا.
فكر (فان كورتلاند) قليلا في ذلك..
- قد يكون (بوب) على حق فيما يقول..
- الحظ يلعب دورا هاما في كل شيء، ومهما كانت الطريقة التي تعد بها خطتك، فلابد أن تترك مجالا قليلا للحظ..
وقال (كورتلاند)، وهو يبطئ من سرعة السيارة:
- لقد اقتربنا.
لقد قال (ريتشارد): إنه سينتظر عند المحطة، فأخذا يبحثان عنه، ويراقبان الطرق التي تؤدي إلى الغابات وعندما دارا مع الطريق، وابتعدا قليلا عن المحطة، ثم توقفت السيارة تماما، ونزل (ثورنلي) منها، خرج (ريتشارد) من وراء بعض الأشجار، وقال (فان كورتلاند) بصوت حاد من القلق:
. لقد بدأت أعتقد أننا لن نجدك.
ثم انطلق مرة أخرى، و (ريتشارد) يقول:
- آسف.. لقد نسيت أن أسألك عن لون السيارة، ولم أرد المخاطرة.. آسف.. كيف سارت الأمور؟
- طبقا للخطة.

- حسن.. أمامنا الآن حوالي خمس دقائق في هذا الطريق، ثم عشر دقائق في الطريق الذي ندخل فيه إلى اليمين، فقد قمت بدراسة الخريطة وأنا أنتظر، ثم بعد ذلك هناك طريق ضيق، أو مر يقودنا إلى (درايكرتشن) من الخلف.. ذلك أسلم من المخاطرة بالسير في الطريق المباشر إليها، قبل حلول الظلام، كما أننا لا نستطيع انتظار الظلام.. لا يوجد أمامنا وقت نظر (ثورنلي) إلى وجه (ريتشارد) الأبيض الصارم وكان يبدو منهكا، فقال:

- هل أكلت؟

هر (ريتشارد) رأسه، ثم أخذ قطعة الشوكولاتة، التي أعطاه إياها (ثورنلي) وأكلها، وعيناه على ساعته..

لم يكن يعرف أو يهتم بما يأكله، وكان يبدو على وشك الانهيار، وبدأ (ثورنلى) يدرك صعوبة الوقت الذي مر عليه، وهو ينتظرهما.. كان لابد ألا يتركاه وحده.

وقال (ريتشارد):

. هذا هو الممر الضيق.

ودخلت السيارة فيه، تاركة طريق (بربنر)، كان (ريتشارد) ما زال ينظر في ساعته، ورفع يده ليسكت (ثورنلي)، وقد كان على وشك الكلام، ثم أدرك (ثورنلي) أنه كان يقوم بتوقيت المسافة التي عليهم السير فيها، ثم قال:

- الآن

وترك (فان كورتلاند) الممر، ودخل فجأة في الغابة وقاد السيارة بحرص، حتى وقف بها فوق الحشائش، وهي مختفية عن الممر وراء بعض الشجيرات، وقد أدار مقدمتها نحو طريق (بربنر)، ثم سأل (فان كورتلاند):

- هل لدى أحد منكم مسدس؟ هز (ثورنلي) و (ريتشارد) رأسيهما نفيا، ثم أخرج (ثورنلي) مطواة كبيرة وبطارية، وابتسم (فان كورتلاند)، وقال:
- أما أنا فمعي مسدس.. سينفع إذا واجهتنا مشكلة وربت على جيبه، ثم غادروا السيارة، وأغلقها (فان كورتلاند)، ونظر الرجال الثلاثة بعضهم إلى البعض لحظات، ثم قاد (ريتشارد) الطريق، أعلى التل الذي تغطيه الشجيرات، وتسلقوا التل الصغير، حتى وصلوا إلى القمة، تخفيهم أشجار الصنوبر، ومن أعلى المنحدر استطاعوا رؤية قباب الكنائس الثلاث العالية في (درايكرتشن)، أخرج (ثورنلي) مطواته، وأشار لهما أن ينتظرا، واختفي في ناحية الطريق الذي صعدا منه، وهو يعلم الأشجار التي يقابلها، بقطع أحد أغصانها وكانت فكرة جيدة، فقد كان مكان القطع ابيض وخشنا وعندما عاد إليهما (ثورنلي) كان مسرورا، فقد استطاع أن يعرف طريق العودة إليهما بسرعة مدهشة، وكذلك فعل وهو يتبع (ريتشارد) خلال الأشجار، فأخذ يعلم بسكينه الاشجار، حتى لا يضلوا طريق العودة إلى السيارة، وساروا ببطء وخفة، دون أدنى صوت، حتى وصلوا إلى حافة الغابة، وكان ما يفصلهم الآن عن (درايكرتشن) هو الحافة ذات الانحدار الشديد، وحديقة ممتدة أمامهم، ورقدوا يراقبون الموقع في انتظار غروب الشمس.
كان القساوسة هم الذين بنوا تلك القلعة الصغيرة، والكنيسة الملحقة بها، وكذلك كنيستين صغيرتين، على بعد قليل من جانبي المبنى الرئيسي، وحول كل ذلك بعض الأكواخ، مما أعطى المنطقة شكل الهلال، الذي يحفه تجويف مستدير في التل على بعد، ومن ناحية الجنوب كانوا يرون الطريق الرئيسي، الذي يصل إلى وسط الهلال، والذي أضيف للموقع فيما بعد الاستيلاء

عليه من القساوسة، وأمامهم مباشرة كانت هناك حديقة للمطبخ خلف الكنيسة الصغيرة اليمنى، مزروعة بأنواع مختلفة من الخضراوات، تحيطها من ناحية التل شجيرات قصيرة من العنب الأحمر، ومن الناحية الأخرى سور من أشجار الفاكهة، يفصل بينها وبين حديقة الكنيسة الكبيرة المزروعة بالزهور الجميلة، وحتي يحجب منظر الخضراوات عن الناظرين.
وهمس (ريتشارد):
- علّموا هذا المكان.
ثم تقدموا بحرص تحت ستار الأشجار، نحو ظهر القلعة، ولم يكن هناك أثر لحياة أو حركة أو صوت، فيما عدا دخان يتصاعد من مدخنة هناك، ثم قال (ثورنلي) في همس:
- انتظر هنا، حتى أستكشف المكان.
وأخرج مفكرته من جيبه، ورسما رسما بسيطا للمباني والحدائق أمامه، وقال (ريتشارد)، وهو يذكر كيف قام (ثورنلي) بتسلق النافذة في (بيرتيسو):
- حسن.. سنراقب المكان من هنا.
أخذ (ثورنلي) يشرح الطريق الذي سيتبعه على الرسم.. سينزل عبر شجيرات العنب إلى حديقة الخضراوات، ثم يسير في الممر الذي يقود إلى ناحية أشجار الفاكهة المقابلة، حتى يصل إلى الجانب الأيمن القلعة من الخلف، حيث يتصاعد الدخان، وعندئذ يمكنه أن يعرف إذا كان هناك من يشغل ذلك الجزء من المبنى وإذا كان هناك مدخل خلفي للقلعة..
وانطلق (ثورنلي) في طريقه، و (فان كورتلاند) يتحسر على عدم وجود أسلحة كافية معهم، لمواجهة تلك القلعة المسلحة، ولكن قد يكون المكان خاليا، ولا داعي للحرص الشديد وإضاعة الوقت..

قد لا يوجد غير طباخ في المطبخ، الذي يتصاعد منه الدخان، و (فرانسيس) محبوسة في إحدى الغرف، وعليها حارس واحد، في حين يستمتع الأخرون بوقتهم في (انز بروك)، أو يبحثون عن (ريتشارد) هناك، ثم خطر له خاطر جعله يقطب جبينه في وجوم، وهو أن (فرانسيس) ليست هنا على الإطلاق، وعندئذ يضيع كل أمل في إنقاذها، وكان ذلك الخاطر يسيطر أيضا على تفكير (ريتشارد)، الذي أخذ يعد الأشجار حوله، محاولا إبعاده عن تفكيره بأي شكل..

وما من فائدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- الجنازة..

شعر (ثورنلي) بالحماس والإثارة يتملكانه، وهو يتقدم نحو الكنيسة الصغيرة، والأكواخ الصغيرة إلى جانبها، وتحرك بسرعة وثقة، وهو يعرف أنه في ظلال هذه الشجيرات لا يستطيع أحد رؤيته إلا من الخلف، وفي هذه الحالة فإنه سيراه حتى لو كان يتقدم بحرص وبطء، ولم يكن هناك وقت، ولا يمكن انتظار حلول الظلام؛ لأن القلعة قد تعود إليها الحياة فجأة، وتوقف وقد أرهف السمع، ولكن السكون كان يسود المكان، كما أن أبواب ونوافذ الأكواخ كانت مغلقة، ومع حرارة الجو لابد أنها خالية، ودخل إلى حديقة الخضراوات، وفي خفة القط عبر إلى ممر الشجيرات، الذي يقود إلى الناحية الأخرى وكان الممر يدور حتى يصل إلى القلعة نفسها، إلى باب جانبي صغير بها، يبدو أنه باب مطبخ، وتوقف لحظات يلتقط أنفاسه، فلم يكن يتوقع وجود ذلك الباب، وغاص بجسده داخل شجيرات الممر، وعندما وصل بالقرب من حائط القلعة، سمع فجأة أصوات رجلين يتحدثان.



وكان الرجلان يمشيان أمام القلعة، ويتكلمان وهما يدوران حولها..

كان متأكدا من أنهما اثنان فقط، وانحنى إلى أسفل في الطين، وهو يزيح بحرص شديد الأغصان أمامه، لينظر من بينها، وكان الرجلان يمشيان أمام القلعة، ويتكلمان وهما يدوران حولها.. في

أي لحظة الآن سيظهران أمامه، عند ركن المبنى، وسمع ضحكاتهما بوضوح، فقد كان وقع أقدامهما وأحذيتهما الثقيلة يقترب من ركن القلعة، كان أحدهما ما زال يضحك، كما لو كان قد سمع نهاية قصة مضحكة، وتوقفا قليلا عند نهاية الممر، الذي يمشيان عليه في ركن المبنى، ثم استدارا عائدين نحو واجهة القلعة، واختفيا عن عينيه، وتعجب (ثورنلي) من أنهما لم يسمع دقات قلبه العالية..

على كل حال لقد تبين أنه هناك اثنان منهم أمام القلعة، كما أنهما لم يكونا يقومان بالحراسة، فقد كانت هيئتهما وكلامهما لا تدل على ذلك، ولكنها مسلحان، فقد رأي المسدسات معلقة في أحزمتهما، ويبدو أنهما لا يتوقعان أي هجوم على القلعة، فهي أحد معاقلهم القوية، وبمجرد أن يأخذوا سجناءهم من بيوتهم، فالخوف الذي يثيره وجودهم في ذلك المكان يشل حركة كل من له صلة بهم، ولم يكن أحد يجرؤ على مجرد السؤال عمن أخذوه سجينا، فلماذا إذن القلق على شخص أجنبي، اختفى بهذه الطريقة؟؟
ابتسم (ثورنلي) في سخرية، وهو يعود مرة أخرى من حيث أتي، ولكن عندما وصل إلى نهاية الشجيرات، تساءل في نفسه: هل يعود، أو يحاول أن يرى من يوجد في ذلك المطبخ، حيث يتصاعد الدخان بشدة؟!..
هل يغامر، ويحاول الوصول إلى الباب.. إن الرجلين لابد أنهما وصلا في سيرهما إلى نهاية الممر، من الناحية الأخرى، وربما يعودان مرة أخرى.. لابد أن يتحرك الآن، ثم فتح الباب فجأة، ودخل (ثورنلي) في الحال وسط الشجيرات، وسمع صوتا حاذا يقول في غضب شديد، لرجل خرج من الباب إلى الممر:

- لا تضيع الوقت.. لقد سئمت وجودك هنا.. الجميع يقومون بعملهم، وأنت لا تعمل شيئا غير الأكل.. هيا اذهب بسرعة.
توقف الشاب، الذي خرج وهو يملأ فمه بقطعة كبيرة من الكعك، وقال:
- لا تتكلم معي.. إذا كنت قد تأخرت في إعداد الطعام، فهي مسئوليتك..
ثم سار وهو يقول لنفسه: إنه لا يكف عن طلب هذا وذاك مني.. (هيرمان) افعل هذا.. (هيرمان) اذهب وأحضر ذلك.. كما لو كان ليس لدي عمل آخر أقوم به.. كما لو كنت مجرد..
ولكنه لم يكمل كلامه، فقد انكفأ فجأة على وجهه، ووضع (ثورنلي) البطارية الكبيرة مرة أخرى في جيبه، وجر الرجل من قدميه إلى داخل الشجيرات ليخفيه عن العيون، وهو يقول في نفسه:
- خسارة لو كان قد كسر البطارية.
ثم أخذ قطعة كبيرة من الحجر، وضرب رأس الرجل بها مرتين، للتأكد من أنه لن ينطق، ثم أخرج منديله، وكمم فمه، واستعمل حزام الرجل ورباط عنقه، ليقيد يديه ورجليه المكان الوحيد الذي يمكن لأحد أن يرى منه هجومه على الرجل، هو من الغابة، وتمنى لو أن (ريتشارد) و (فان كورتلاند) رأيا ذلك.
وفعلا.. كانا قد شاهدا كل شيء، وهما قابعان في مكانهما، في انتظار خطوته التالية، وأخذ (ثورنلي) ينتظر عودة الجنديين.
لابد أنهما سيصلان إلى هذا الركن الآن ما الذي يؤخرهما؟..
أو هل تصور أن الدقائق قد مرت بسرعة لقلقه الشديد؟
ثم سمع وقع خطواتهما، وهي تتوقف وتدور مرة أخرى مبتعدة، ونظر إلى الرجل الملقي إلى جواره.. إنه لن يفيق إلا بعد وقت طويل.. طويل جدا.

وخرج إلى الممر، ولوح بذراعه.. لقد رأوه ووقف يراقب وهما ينزلان من مكانهما للحاق به..
إذا أسرعا سيتمكنان من ذلك، قبل عودة الجنديين كانا يتحركان بسرعة وفي سكون، ولقد وصلا إلى نهاية الشجر، ومثله وجدا الباب في نهاية الممر، وابتعدا عنه أيضا مثلما فعل، وتقدما من طريق الشجيرات، وعندما وصلا اليه وجداه يفحص مسدس الرجل، ثم وضعه في جيبه، وهمس (ثورنلي):
- هناك جنديان في مقدمة القلعة، وطباخ متعب في المطبخ، وهذا.
وأشار إليه بقدمه..
وقال (ريتشارد) هامسا:
- نعتني بالطباخ الآن.
هز (ثورنلي) رأسه، وقال:
- سيعود الجنديان في أية لحظة الآن.
وأشار لهما ليتبعاه، وقادهما إلى حيث كان يراقب الجنديين من قبل، واختبأوا دون حراك، فقد سمعوا الأصوات تقترب، وهم ينظرون خلسة من بين الأغصان، ونظر إلى ساعته ليقوم بتوقيت حركتهما، وفجأة انتبهوا ينظر بعضهم إلى البعض؛ فقد سمعوا صوتا عاليا يتكلم.
ثم صوت وقع الأحذية الألمانية الثقيلة، وهي تجري..
كان الصوت يصدر تعليمات، وكان في إمكانهم سماعه، ولكن لم يتبينوا الكلمات، ونظر (فان كورتلاند) متسائلا إلى (ريتشارد)، الذي هز رأسه.. لا لم يكن هذا الصوت صوت (فون آشنهاوزن).
إذن هناك أيضا شخص آخر.

وانتظروا مشدودي الأعصاب، وتلا صوت الأقدام الجارية على الأرض الحجرية ضوضاء دراجات بخارية وهي تعمل، ثم تنطلق بسرعة، وقال (فان كورتلاند)
- اثنان على ما أعتقد.
ثم خرجوا من بين الشجيرات، ورأوا الطريق الرئيسي إلى مدخل القلعة، وكانت الدراجتان البخاريتان قد مرتا فعلا من البوابة، وهما تنهبان الأرض، منطلقتين بعيدا عن القلعة، وقال (فان كورتلاند):
- أنا لا يعجبني ما يحدث.. إنه مجرد شعور، ولكن أعتقد أنه علينا أن نتصرف بسرعة.
ساعدهم قرب حلول الظلام، فتسلّلوا الواحد تلو الأخر، نحو حائط القلعة، ومشوا في ظلاله نحو باب المطبخ، وسمعوا صوت حركة داخله وأخرج (ثورنلي) المسدس من جيبه، وأمسك به من ماسورته، وفتح باب المطبخ، وخرج منه ضوء غمر الممر أمامه، ورأوا طرف مريلة الطباخ وهو يقول:
لقد سمعتك.. تعال الآن.. أين وجدت البقدونس؟..
وسط شجيرات العنب؟
وخرج من الباب، وهو يحدق أمامه في الظلام في الحديقة، ثم نادي:
- (هيرمان).. يا إلهي.. هل على أن أفعل كل شيء بنفسي؟
وارتفع صوته حادا وهو ينادي:
- (هيرمان).
ثم سقط إلى الأمام، وقد نزلت على رأسه مؤخرة المسدس بشدة.
كان رجلا ثقيلا، وتعاون الثلاثة في حملة إلى المطبخ، وأغلق (ثورنلي) الباب بالمفتاح، ثم وقف يحرس المدخل الآخر الوحيد

له، وهو باب يؤدي إلى دهليز، في حين ساعد (فان كورتلاند) (ريتشارد) على تكميم الرجل وتقييد يديه وقدميه، ثم ألقوه في المخزن الملحق بالمطبخ، وأغلقوا عليه بابه السميك، ووضع (ريتشارد) المفتاح في جيبه، وأشار لهما، فتبعاه في سكون إلى الدهليز، وهمس (ثورنلي):

- هناك غرفة تبدو مهمة.

نظر إليه (ريتشارد) باهتمام.. هل سمع شيئا عندما كان ينتظرهما؟.. صرخة؟ وأسرع الخطا..

كان الدهليز يؤدي إلى صالة المدخل الرئيسي.. صالة واسعة مربعة، بها سلم عريض يدور إلى أعلى الحوائط المغطاة بالخشب، وتوقف (ريتشارد) ينظر إلى (ثورنلي) مرة أخرى، فأشار إلى أعلى في الدور الأول، وصعدوا السلم ببطء وحرص، وهم يتوقعون أن يفتح الباب في أية لحظة، ويخرج منه سيل من القذائف، يجعلهم يلتصقون بالحائط، ولكن الباب لم يفتح فقد كان سميكا، ولم يسمعوا الأصوات من داخل الحجرة، إلا عندما اقتربوا منه.

سمعوا صوت رجل، ثم صوت رجل اخر، ثم صوت الرجل الأول مرة أخرى، ونظر (ريتشارد) إليهما، وهز رأسه.. إن هذا الصوت كان صوت (فون آشنهاوزن)، وكان يتكلم بالألمانية بصوت غاضب، مثلما كان صوت الرجل الآخر..

لم يكونا يتناقشان مع بعضهما، بل كان كلاهما يكلمان شخصا ثالثا بعنف وقسوة، وارتفع صوت (فون آشنهاوزن)، وأغلق (ريتشارد) عينيه..

كان يري أمامه الندبتين العميقتين في وجهه، ووصلت إليه كلماته متقطعة:

- ستأسفين على غباوتك.. استغلال إنسانيتي.. خلال ساعتين سيعود جنودي البرابرة كما تسمينهم، وسأقوم بتسليمك إليهم.. وإذا لم يُجْدِ ذلك.. الجستابو.. قاتلة وجاسوسة خطيرة.
وأصبح الصوت أوضح وهو يتكلم ببرود وقسوة:
ستكون أيام القادمة مرعبة، كما سنقبض على (مايلز)، ولن تنفعك غباوتك هذه ثم تكلم بالإنجليزية، وهذه المرة بسرعة محاولا الإقناع:
- تعرفين كيف كانت صلتي بك، وهذا هو السبب في أنني أحضرتك إلى هنا.. المفروض أن تكوني الآن في مقر الجستابو، ولكن تأكدي أنه على الرغم من كل شيء سأعرف ما أريد.. إذا تعاونت معي ستتذكرين هذه الأيام فيما بعد مثل مجرد حلم مزعج، وإلا فإن ما لقيتيه هنا لا يقارن بما سيحدث لك.. أنا لا أبالغ فيما أقول.. تكلمي أيتها الغبية، قبل أن ينفد صبري.. (كورت)، جرب معها طريقتك مرة أخرى، ربما تقتنع لقد سمعوا ما يكفي، وأشار (ريتشارد) برأسه نحو الباب، ووضع (فان كورتلاند) يده على المقبض يتحسسه..
لم يكن مغلقا، ودفعه بشدة، وفي لحظة كان هو و (ريتشارد) بالداخل، ووراءهما (ثورنلي)..
وكانت المفاجأة مذهلة..
وعلى ضوء الشموع بالغرفة رأوا (فون آشنهاوزن) يجلس على طرف مكتب كبير، وعيناه على الرجل الأخر، الواقف إلى جانب الفتاة المقيدة في المقعد، وفي لحظة كان (ريتشارد) قد دفعه من فوق المكتب، وانحنى فوقه، ويداه تضيق الخناق حول عنقه، ورقد ساكنا وهو يكاد يختنق، وشعرت (فرانسيس) باليد الحديدية تترك كتفها، وحاولت أن تبعد وجهها عن ضوء المصباح المتوهج أمامها، وقد سمعت صوت اندفاع الأقدام في

الغرفة، ولكن الضوء كان يخترق جفونها ويلهب عينيها، وكان هنالك صوت لكمات شديدة تصيب شخصا ما، وتأوهاته مع الضربات المتلاحقة، ثم سمعت صوتا يشتم بألفاظ نابية، وعرفت الصوت.. إنه (فان كورتلاند).. (هنري).. وحاولت بضعف شديد أن تتحرك في قيدها، من الحبال التي تنغرز في جسدها، ثم جاءها صوت (بوب) أيضا إلى جانبها، وسمعت المصباح يسقط، واختفى الضوء المتوهج، وتوقفت آلام الحبال في جسدها، وانحنت إلى الأمام، ولكن يدا قوية سندتها بلطف شديد، وكان صوت (بوب) بجانبها، يقول لها أن تتحرك ببطء، حتى تجرى الدماء في عروقها مرة أخرى، وألا تقلق وأنها على ما يرام.. كل شيء على ما يرام..

إذن لابد أن (ريتشارد) أيضا في أمان.. كانت تسمع صوت أنفاس الرجلين الذين يتصارعان أمامها، و (فان كورتلاند) يصوب لكماته للرجل (كورت)، وحاولت فتح عينيها، واستطاعت أن ترى وجه (ثورنلى) يتضح تدريجيا أمام عينيها، وهو يراقب (فان كورتلاند) في إعجاب وسرور، وكان الرجل يحاول أن يكسب لحظة، وأدرك (ثورنلي)، ولكن قبل أن يصيح محذرا، كان الرجل قد تفادي اللكمة، ووضع يده على جيبه الخلفي ليخرج مسدسه، رأى (فان كورتلاند) حركة يده في الوقت ذاته، وأمسك بمعصم الرجل، لفه بقوة، وانطلقت الرصاصة التدخل في الحائط الخشبي، وانتزع المسدس من يد الرجل، ولكنه سقط منه على الأرض، وتصارع الرجلان على الوصول إلى المسدس تحت أقدامهما، وفي اللحظة التي تمكن فيها الرجل الألماني من وضع يده فوق المسدس، بعد أن دفع (فان كورتلاند) دفعة قوية، انطلق مسدس (ثورنلي) أولا، ورقد الرجل إلى جانب مسدسه.

وسمعت (فرانسيس) (ثورنلي) يقول لها مرة أخرى بصوت هادي واضح:
- هل يمكنك أن تتماسكي الآن يا (فرانسيس)؟..سأعود إليك.
هزت رأسها، وهي تشاهده يساعد (فان كورتلاند) على الجلوس إلى جانب الحائط حيث سقط، وقال (ثورنلي):
- لقد جعلت لكماتك وجهه عجينة من الدماء.. لن يستطيع أحد التعرف عليه
ابتسم (فان كورتلاند)، وقال:
- كيف حال الآخر.. ذلك الكلب القذر هناك؟
جاءهم صوت (ريتشارد) يقول:
لقد فقد الوعي منذ دقيقة.. هل (فرانسيس) على ما برام؟
عاد (ثورنلي) إليها، وقال وهو يمسك بها برفق:
- تمهلي يا (فرانسيس).
وأمسك بالحبل الذي كان يقيدها ولفه، ثم رماه نحو المكتب، قائلا:
- ستحتاج إلى هذا.. سأكون معك في الحال.
وساعد (فرانسيس) لتسند ظهرها على المعقد، ونظر إلى الأمريكي.
كان على ما يرام.. لقد فرد ساقيه أمامه في بطء، وهو جالس مستند إلى الحائط، ويداه في جيبي صدريته، ونظر (ريتشارد) إلى (فون آشنهاوزن) الملقي أمامه وراء المكتب.. فاقد الوعي، ويداه مفرودتان، كل واحدة في ناحية، وأمسك الحبل بيد، ويده الأخرى ما زالت تقبض على عنق (فون آشنهاوزن)، ولكن يدا واحدة لم تكن تكفي..
وشعر بغلطته، في اللحظة التي أمسك بها الحبل، وفي أقل من ثانية، كان (فون آشنهاوزن) قد أطاح بالشمعدان المشتعل من

فوق المكتب، في وجه (ريتشارد) وبينما هو يتعثر من وقع الصدمة، ويمسح الشمع الساخن من جفنه الأيسر وصدغه، رأى (فون آشنهاوزن) وقد أخرج مسدسا من درج المكتب..
وسمع الطلقات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأت (فرانسيس) المسدس موجها نحوها ونحو (ثورنلي)، ودفعها (ثورنلي) بقوة شديدة، وهي تسمع صوت طلقتين، ولم تعرف هل أصابتها الطلقات في رأسها، أم أن ما تشعر به هو من صدى الصوت الشديد؟!.. وهوى (فون آشنهاوزن) من أمام المكتب ساقطا على الأرض، وكذلك هوى مسدسه من يده، ووقف (ريتشارد) حيث كان قد تعثر عند الشمعدان المشتعل، أما (ثورنلي)، فقد كان على ركبتيه إلى جوار (فرانسيس)، حيث دفعها ليحميها من الطلقات، وكان (فان كورتلاند) هو الوحيد الذي يبتسم ابتسامة عريضة، وهو يشير بارتياح بمسدسه، الذي ما زال يدخن، إلى جثة الألماني، وقال:
- لقد تعلمت منك بسرعة يا (بوب).
نظر بعضهم إلى البعض، وكانوا جميعا سالمين، ثم ضحك (ثورنلي) ضحكة قصيرة مرحة، والتقط (ريتشارد) المسدس، واتجه إلى (فرانسيس)، ووضع يده على وجهها، ورفعت ذراعيها إليه، وعندئذ شعرت بالألم الشديدة، ونظرت إلى ذراعها اليسرى بدهشة، وكانت مثل الطفل الذي يسقط، ولا يشعر بالألم، إلا عندما يرى الدماء..
كانت الدماء تسيل من ذراعها، من جرح غائر به، وهي تنظر إليه غير مصدقة، ثم شعرت بالألم الحقيقي مع نبض قلبها، وكان

(ريتشارد) إلى جانبها، ينظر إلى ذراعها، ولم يتكلم، وقال (ثورنلي):
- يا إلهي.. الإصابة من الناحية الداخلية للذراع، قريبة من صدرها.
وقام (فان كورتلاند) من مكانه وهو يعرج، ثم قالت (فرانسيس):
- أريد أن أشـ
ولم تستطع أن تكمل كلمة (أشرب)، وبدأت صورهم والحجرة أمامها تهتز في عينيها، ثم شعرت بـ (ريتشارد) يحاول أن يسقيها من زمزميته، ويضع في فمها أكثر مما تستطيع أن تبلعه، وقال أحدهم:
- ستكون على ما يرام.. انظر إلى ذراعها.
وأخرج (فان كورتلاند) منديله الأبيض وطواه، وذهب (ثورنلي) إلى المكتب، وعاد بزجاجة من شراب قوي، وقال:
- إنها لا تحتاج ذلك الآن.. لقد ذهب عنها الشعور بالدوخة، ولكنها متعبة.. متعبة جدا.
لو أمكنها فقط أن تخبرهم.. لابد أن تخبرهم الآن..
لو أنها فقط استطاعت أن تتذكر الأشياء في ترتيب سليم متسق ..
وأمسكت بيد (ريتشارد) و (ثورنلي) بسكب بعض الكحول على الجرح، وجاهدت لتتحكم في صوتها، وهي تنظر إلى (فان كورتلاند)، وقالت:
. لقد أوقفوا سيارتك في طريق (جينباخ)، وبها صديقك، وعادوا به إلى (انز بروك).. لقد اتصلوا تليفونيا هنا.. وهذا الرجل..
ونظرت إلى جثة (كورت) قبل أن تتابع:
- نزل إلى أسفل، وأرسل الجنديين إلى (انز بروك)..
إنهم يحاولون معرفة تحركاتك.

قال (فان كورتلاند):
- نعم.. إنهم يعرفون الآن ما حدث.. هذا يعني أن السيارة التي معنا أصبحت خطرة.
وأضاف وهو يتجه إلى المكتب:
- علينا أن نجد سيارة أخرى، أو نسافر بالقطار، أو إذا تأزم الأمر أن نتسلق الممر الجبلي معا.
ثم توقف فجأة. ومر بيده على شعره، وقال:
- على فكرة يا (ريتشارد).. ماذا يستعمل هؤلاء الألمان، عندما يريدون الدخول إلى البلد، دون فحص أمتعتهم؟
ودفع جثة (فون آشنهاوزن) بقدمه في احتقار، وحاولت (فرانسيس) أن تتذكر في جهد شديد.. لقد كان هناك شيء يناسب كل هذا، وكان (ريتشارد) يقول:
- الفرصة أصبحت ضعيفة أمامهم، ولكن يمكن لـ (كورتلاند) أن يفتش أدراج المكتب، وكان (هنري) يقوم فعلا بتفتيش جيوب (فون آشنهاوزن).. ولقد وجد
بعض المفاتيح، وقال (فان كورتلاند)، وهو يحاول فتح أدراج المكتب:
- هل تشمون شيئا يحترق؟
وفتح الدرج ليجد مجموعة من الأوراق، ونوتة الكتابة، وختم وخامة، وقال (ثورنلي)، وهو يمسك ذراع (فرانسيس)، في حين يقوم (ريتشارد) بتضميده:
- ربما يكون ذلك من الشمع، الذي سقط على السجادة.
كان (فان كورتلاند) يفحص الأوراق التي وجدها، ثم أطلق صفيرا خافتا من فمه، وقال:
- هذه أوراق هامة للغاية.
ثم نظر إلى السجادة، وقال:

- نعم.. النار أمسكت بها، وكذلك بسلة الأوراق المهملة.. إنها فكرة جيدة.. بالضبط مثل.. (الريجستاج).. كما يفعلون هم.
وفتحت (فرانسيس) عينيها، وقد شعرت برنة الابتهاج في صوته.. وفعلا.. كانت هناك شعلة نار في سلة الأوراق المهملة، وكان (فان كورتلاند) هناك عند المكتب، يقرأ الأوراق التي وجدها بهدوء تام وعدم مبالاة، ثم كان هناك فوق المكتب المظروف حيث ألقاه (فون آشنهاوزن) من قبل، قائلا إن النقود لن تساعدهم، وقالت:
النقود.. في المظروف على المكتب.. لقد فتشوني وأخذوها.
لم يتكلم (ريتشارد)، ولكنه ضغط أسنانه بشدة، ليتحكم في مشاعره، وحاولت (فرانسيس) أن تتذكر ما قاله لها، عندما وجد النقود.
لقد قال: إن النقود لن تفيدهم.. وقال شيئا مهما يمكن أن يفيد (فان كورتلاند)..
ثم انطلقت منها الكلمات بسرعة، وهي تتذكر:
- لقد قال: إنه حتى لو عبرتم الحدود.. أي حدود، فإنهم سيتبعونكم، ويعيدونكم مرة أخرى من (إيطاليا) أو (سويسرا).. أن لديه تلك السلطة، وأنتم لن تستطيعوا شيئا.. لقد أمسك في يده بعض الأوراق، وهو يلوح بها، ويخبط بها على المكتب، وهو ينظر إليّ.. لقد قال إنهم أمسكوا (كروستاينر)، وأن (هنري) و (بوب) قد اعترفا بكل شيء لينقذا نفسيهما، وأنهم يعرفون كل تحركاتنا الآن.
وتساءل (ثورنلي) عما قاما به غير ذلك، حتى يجبراها على الاعتراف، ورأي معصميها وملابسها الممزقة، وعلى كتفها علامات الحروق، وكان خدها الأيمن متورما أحمر اللون، وكذلك العلامات الزرقاء والكدمات في ساقيها.. ثم تذكر كلمات صديقه

توني عن (ماريا).. على الأقل (فرانسيس) ما زالت حية وسيشفي جسدها من جراحه..
لقد أنقذوها من أن تكون (ماريا) أخرى..
ثم تحرك نحو الباب.. وقال:
- سأكتشف المكان، وخاصة (الجراج).. لا تنتظروا طويلا هنا، فالنار تشتعل في المكان.
قال (فان كورتلاند)
-- (فرانسيس).. هل رأيت أين وضع تلك الأوراق التي كان يلوح بها لك؟
. لقد كان عند المكتب.: لابد أنها فيه.
وفكرت.. ربما كان يكذب، كما كذب بشأن الأشياء الأخرى.. إنه كان يخلط الحقيقة بالكذب بطريقة ماهرة، وراقبت (فان كورتلاند) وهو يبحث في المكتب، ثم ظهر عليه الارتياح وابتسم، وقال:
- حسن.. إننا قد نستفيد من ذلك جيدا.
ثم دق جرس التليفون، نظر إليه ثلاثتهم، كما لو كان ثعبان الكوبرا، وسار (ريتشارد) بسرعة نحو التليفون، ورفع السماعة، و (فرانسيس) و (فان كورتلاند) ينظران إليه، وقد حبسا أنفاسهما في توتر شديد، ولكن الألمانية التي تكلم بها في التليفون كانت بصوت (فون آشنهاوزن)، ونظر (فان كورتلاند) إلى (فرانسيس) وهز رأسه بارتياح، قبل أن يعاود كتابته في الأوراق أمامه..



أمسك (برودي) قدميه في قوة، ومال هو يفحص الثقوب، حتى لامس رأسه سطح الماء..

كانت سلة المهملات تشتعل جيدا، والسجادة كذلك تدخن، وقد احترقت فيها ثلاث بقع سوداء، حيث سقطت الشموع، وكانت الحجرة مضاءة الآن بضوء اللهب المشتعل في السلة، و

(ريتشارد) ينصت لقصة ما على الطرف الآخر، بعد أن تكلم برهة قصيرة، في لغة ألمانية متميزة، ثم قطع الإيضاحات المستفيضة، كما لو كان قد نفد صبره، وقام بإعطاء تعليماته.. إن الأمريكي لا فائدة ترجى منه.. والفتاة قد تكلمت، واتضح أنه لا يعرف شيئا على الإطلاق، وعليهم أن يطلقوا سراحه، بعد أن يعطيهم أوصاف سيارته، التي أبدلها بسيارة الأمريكي الآخر (فان كورتلاند)، ومعه الإنجليزي (ثورنلي)، في (سانت أنطون)، ليتمكنوا من اقتفاء أثرهم.. إنهم سيتقابلان مع (ريتشارد مايلز) في ذلك المكان غدا، ثم يتجهون لعبور الحدود السويسرية عليهم أن يراقبوا تلك الحدود جيدا وعاد (ريتشارد) ينصت، والرجل الآخر يتكلم، وكانت السنة اللهب المتصاعدة تضيء وجهه، وهو يركز في سماع ما يقول، ثم قال:

- نعم.. سأسمح لهم بالبقاء فترة أطول.. سأبقى أنا هنا مع (كورت)، حتى أنتهي من تحقيقاتي.. سأصل إلى (سانت أنطون) غدا صباحا.. حاولوا الإمساك بهم أحياء إذا أمكن.. إنني أعتمد عليكم.

وضع (ريتشارد) السماعة، وهو يفكر، ثم قال:

- ذلك سيجعلهم يطلقون سراح صديقك يا (هنري)، ويعطينا فترة نتصرف فيها.. الجنود قد انتهوا من الاستعراض بنجاح، وهم الان يتناولون طعامهم، قبل أن يذهبوا إلى اجتماع عام لقد سمحت لهم بالمشاركة فيه، ولن يعودوا قبل العاشرة مساء.. إن الجو أصبح حارا هنا.. أليس كذلك؟

وقف (فان كورتلاند)، وناوله الورقة، التي انتهى من وضع ختم (فون آشنهاوزن) عليها، وقال:

- ليس حارا بما يكفي، ولكنه سيكون كذلك عند الساعة العاشرة، مع بعض الإضافات من جانبنا.

وذهب إلى الناحية الأخرى من المكتب، ودفع السلة المشتعلة، لتسقط فوق السجادة..
كانت النار قد أمسكت في المكتب نفسه، في الجانب الذي كانت به السلة، وبدأت ترتفع النيران، وهو يجمع الأوراق التي في المكتب، ويضعها بالقرب من النار.
وطوى (ريتشارد) الورقة بحرص، ووضعها في جيبه، وهو يقول:
- إنها ممتازة يا (هنري).
وابتسم الأمريكي وهو يضع الشمعدان الأخر تحت الستائر ويفتح النوافذ.. لقد كان كل شيء سهلا.. كان عليه فقط أن يغير تغييرا بسيطا في الورقة لتناسب غرضهم.. إن هذه ميزة التعامل مع عدو منظم بطريقة روتينية.. إنك تستعير فقط طريقتهم.
ثم رمي الشمعة الأخيرة فوق الأريكة، التي عليها صف من الوسائد، وقال:
- تحركوا أيها الرفاق.
ثم أخذ سترتي الرجلين الألمانيين، وقبعتيهما من فوق المقعد وخرجوا جميعا، تاركين الباب مفتوحا على مصراعيه، ووقف (ريتشارد) وذراعه حول وسط (فرانسيس) يسندها، وينظر نظرة أخيرة، وكان تيار الهواء بين النافذة والباب يقوم بعمله جيدا، وقال (فان كورتلاند):
- إنها جنازة عظيمة لهؤلاء الفايكنج.
وساروا في صمت، ينزلون السلم، وهم يسمعون صوت ألسنة النيران تتأجج من ورائهم.
وتلتهم كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13 - ممر (برينر)..

وجدوا (ثورنلي) واقفا في انتظارهم في الظلام، إلى جوار سيارة كبيرة رسمية، وقال:
كانت هناك سيارة أخرى، وبعض الدراجات البخارية، وقد قمت باللازم، وعطلتهم جميعا.
وقال (ريتشارد)، وهو يضع (فرانسيس) داخل السيارة:
- حبيبتي.. لابد أن نحضر السيارة الأخرى، ومتاعنا الذي في داخلها.. سأحضر بعد قليل.
ثم قال لـ (ثورنلي):
- سنقابلك على بعد خمسة أميال جنوب هذا الطريق..
انتظرنا هناك.
هز (ثورنلي) رأسه، وأعطاه البطارية، وقال (فان كورتلاند)، وهو يلقي الملابس العسكرية داخل السيارة:
- ارتد هذه.. سنؤخرك فقط حوالي عشرين دقيقة.
تحركت السيارة الكبيرة، وسار الرجلان نحو الحديقة في الخلف، وعندما مروا من أمام باب المطبخ، تذكروا فجأة الطباخ المقيد بالداخل، وحاول (ريتشارد) دخول المطبخ، ولكنهم كانوا قد أغلقوا الباب من الداخل، ولم يستطيعا كسره، وقال (فان كورتلاند):
- إننا أغبياء لاهتمامنا به.
ثم جرى إلى واجهة القلعة، وفتح باب المطبخ من الداخل، وقال:
- لقد فقدنا بذلك خمس دقائق.

ثم حملا الرجل وهو فاقد الوعي إلى الشجيرات البعيدة، وأخذا يجريان بسرعة، حتى وصلا إلى الغابة المظلمة الساكنة، وكان الوقت ما يزال مبكرا، قبل أن يرتفع ضوء القمر، ووضع (ريتشارد) يده على الضوء الصادر من البطارية ليخفف منه، وهما يبحثان عن الممر، ويحاولان قياس المسافة إلى شكل ممتد أسود لا بد أنه شجيرات العنب، ثم عرفا طريقهما، ونظر كل منهما إلى الآخر في ارتياح، و (ريتشارد) يسلط الضوء على الأغصان، ليجد العلامات التي تركها سكين (ثورنلي)، واندفعا مسرعين، ينزلقان نحو الطريق، ووجدا السيارة هناك، وقال (فان كورتلاند):

- إننا متأخرون عشر دقائق على الأقل.

ولكن صوته كان مبتهجا، ووجد (ريتشارد) نفسه يشعر بالارتياح، والسيارة تهتز بهما في الطريق الوعر، ثم تسرع بعد ذلك في طريق (برينر)..

إن ما كان يبدو مهمة انتحارية منذ ثمان وأربعين ساعة فقط، قد تحقق بنجاح، والأمر الآن مجرد بضع دقائق، قبل أن يروا السيارة الكبيرة السوداء، وهي واقفة على جانب الطريق.

كانت النجوم قد بدأت تلمع في السماء، فوق (البرينر)، والرجل الواقف عند بوابة الجمرك يراقب الناحية الأخرى، والحاجز الأبيض الممتد باهتمام، وكان يتساءل عما حدث هذه المرة، فالألمان كانوا يعملون بنشاط، ويوقفون السيارات الخارجة من (ألمانيا)، وكذلك الداخلة إليها.. إنه شيء مزعج الانتظار هنا، وعيناك على الضوء، وأنت لا تعرف متى ستتقدم السيارة نحوك،.. في بعض الأحيان يستغرق الأمر دقائق معدودات، وفي أحيان أخرى أكثر من نصف ساعة..

وتساءل مرة أخرى عن السبب في ذلك؟.. إن هؤلاء الألمان لا يخبرونك بشيء إلا إذا كان أمرا غير مهم..
واستند على قدمه الأخرى، ونظر إلى المكتب المضاء وراءه، ونظر إليه الرجل الجالس على المكتب هناك، وسأله:
- هل هناك ما يحدث يا (كورادي)؟
اثنان مازالا واقفين هناك.
ابتسم الرجل الإيطالي الطويل النحيل، الجالس إلى المكتب بسخرية، وعاد إلى كتابته، في حين تنهد الآخر بصوت عال، ومشي ببطء نحو الحاجز.. إن هذا التوتر مثل ما يحدث اليوم دائما يزعجه، وسمع أصوات الآخرين، وهم يخرجون من المقهى في الشارع، وقال لنفسه في وجوم:
- إنه يحتاج إلى بعض القهوة أيضا.
وتوقف أمام المقهى اثنان من الموظفين، ونظرا إلى شارع القرية الخالي من الناس، وأضوائه الخافتة.. كان الضوء الوحيد ينبعث من باب مكتب الجمرك، وقال الشاب الصغير فيهما، وهو ينظر إلى البيوت القليلة المبعثرة، والمحطة التي تعوي فيها الرياح، وقال:
- هكذا المكان لا يحتمل.
قال الآخر:
- انتظر حتى تقضى فصل الشتاء هنا.. على الأقل لا يمكنك الشكوى الآن من كثرة العمل.. أصدقاؤنا في الناحية الأخرى يقومون بكل العمل لنا.
ثم أضاف:
- كان بإمكاننا شرب قدح آخر من القهوة.
ولكن صديقه الشاب كان قد مشي في الطريق، ووقف ينتظره، وعاد يقول:

- عندما تكون قد قضيت هنا مدة طويلة مثلي ستعرف إنه لا داعي على الإطلاق للاهتمام في يوم مثل هذا.. أقرباؤنا الألمان لن يتركوا لنا شيئا نصادره.

ونظر إليه الشاب بسخرية، فإن ذلك الرجل لو كانت لديه أية إمكانيات، لكان الآن في مكتب مريح، في مدينة هامة.. إن طريقته في الكلام عن الألمان، وانتقادهم بطريقة ماكرة ومضحكة في نفس الوقت، تدل على أنه محدود التفكير، ولكن فضوله تغلب على سخريته، وقال وقد اقتربا من مكتب الجمرك:

- هل هذا شيء مألوف؟

- كلما حاول أحدهم أن يهرب من أرض الآباء الحبيبة.

- ولكن من الغباء محاولة المرور من هذا الطريق.

- ليس هناك غير هذا الطريق، أو الجبال، أو القطار.. إن دوريات الحدود قد زاد عددها، والقطارات مراقبة ويتم تفتيشها.

قال الشاب بحدة:

- إنه تنظيم كفء للغاية.

هذا الغبي كان أيضا مكارا.. إنه يختار الفاظه بحيث لا تستطيع أن تكتب عنه تقريرا، وتبادل الرجل الإيطالي الطويل النحيل، الذي خرج من المكتب الابتسامات الساخرة مع الرجل الكبير في العمر، متجاهلا ملحوظة الآخر..

لقد كان كلاهما يشعران بالسأم، من هؤلاء الصغار وشعاراتهم، ورأوا أنوار السيارتين الصغيرتين تتحرك أخيرا، ووراءهما تقدمت سيارة كبيرة سوداء رسمية.

وبدا على وجه (كورادي) الاهتمام، وقال:

- إنهم لم يوقفوا هذه السيارة.. لقد قاموا بتحية من فيها رسميا.. من الأفضل عدم إيقافها هنا أيضا.. إنهم لا يحبون ذلك.

هز الرجل الطويل النحيل رأسه، وقال للشاب الصغير.

- اهتم أنت بها، ويمكنك مشاهدة بعض المنظمين الأكفاء، للتنظيمات ذات الكفاءة العالية.. ربما لديهم أيضا تصريح دبلوماسي.
لم يرد الشاب، وسار وهو يتظاهر بعدم المبالاة نحو السيارة الكبيرة، ولكنه يكاد يقفز من الاهتمام داخله.. إن (كورادي) على حق.. الألمان لا يحبون الانتظار.. ولوح له ذراع يرتدي حلة ضابط بورقة في يده، وسمع من يطلب التعجل بطريقة أمره، فأخذ الورقة.. لم يكن يتكلم الألمانية بطلاقة كما كان يتظاهر، ولكنه عرف أن تحيته لهم كانت جيدة.. لقد بدا مهتما بعمله تماما، وهو يأخذ الورقة، وينظر فيها بسرعة.. والتوقيع الذي عليها جعله يحبس أنفاسه.. كان بالسيارة أربعة أشخاص.. كل شيء مضبوط.. وشعر بنظرة الألماني الباردة إليه والفضول يكون من سوء الأدب.. وطوى الورقة بطريقة عملية.. السرعة والأدب.. ذلك سيثبت لهم أنه توجد كفاءة هنا أيضا.. ورفع يده بالتحية، والسيارة السوداء الكبيرة تنطلق عبر الحاجز المرتفع، واستدار نحو الآخرين.. لقد لاحظ أن (كورادي) قد حياهم أيضا.
ولكن الأغبياء الآخرين كانوا مشغولين بفحص وختم جوازات السفر، والإجابة بأدب ولطف على ثلاثة من الإنجليز الكبار في السن، وعندما انتهوا من السيارتين الصغيرتين وانطلقا في طريق القرية ببطء، استداروا وسألوا:
- حسن.. من كان في تلك السيارة؟
وتجاهل ابتساماتهم، وقال بهدوء مفتعل:
فوهرر (فون آشنهاوزن)، ومعه ثلاثة آخرون.. إن معهم تصريحا من..

ولكن الآخرين لم يهتموا، وعادوا إلى المكتب، أما الشاب الصغير فقد بقي في الخارج، ينظر إلى النجوم.

لقد كان يشعر بارتياح شديد لتلك الفرصة التي أثبت فيها كفاءته..

وبسعادة غامرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14 - نهاية الرحلة..

كانت الرحلة السريعة، في طريق (برينر) كابوسا مزعجا بالنسبة ل (فرانسيس).. لقد كانت تشعر بذراعها المتيبسة، والحروق في معصمها، التي يلفحها الهواء البارد، وكانت منهكة، وتشعر بالألم في عضلاتها المشدودة، وحاول (ثورنلي) بلطف شديد حمايتها من اهتزاز السيارة في الطريق الجبلي، وأمامهما كان يجلس (ريتشارد) و (فان كورتلاند)، في وجوم تحت قبعاتهما الألمانية، ولم تترك عينا (فان كورتلاند) الطريق، وكانت هناك خريطة مفرودة على ركبتي (ريتشارد)، وعلى الرغم من أنهم مروا من حدود (برينر) بسلام، لم يتركهم القلق ولا توتر أعصابهم، وأقنع (ثورنلي) (فرانسيس) بأن تأكل قليلا، وكان يهتم بها في لطف شديد، حتى أنها أكلت لتسعده فقط، وأدهشها أن يختفي شعورها بالغثيان والبرودة، التي كانت تنتشر في أطرافها، وبدأت تشعر بالتحسين والدفء يسري في أوصالها، ولكنها لم تستطع النوم، على الرغم من عبورهم الحدود بسلام، ومن رغبتها في أن تريح النبض المؤلم في مقلتيها.

ومضى الوقت، ومروا عبر الكثير من القرى، حتى وصلوا إلى (بلزانو)، واخترقوها أيضا مسرعين بسيارتهم، وبدأت تشعر بالارتياح، وتشعر بطعم البسكوت الجاف الذي تأكله.. لقد كان طعمه لذيذا، وكان الآخرون يأكلونه أيضا، وهي تنظر إليهم ويغالبها النعاس، وارتخت عضلاتها المشدودة، وراحت في سبات عميق..

ظنت في أول الأمر أن (فون آشنهاوزن) يمسك بكتفها، وينحني فوقها، ولكن قبضته لم تكن قوية أو مؤلمة، ولكنه (ريتشارد)..

(ريتشارد) يحاول أن يبتسم، وهو يقول:
- (فرانس):
ثم قبل وجنتها..
كانت السيارة قد توقفت في ظلال بعض الأشجار، وكان هواء الليل يهب في لطف، والسماء جميلة بنجومها المضيئة، وذراع (ريتشارد) حول وسطها، وفجأة تذكرت (بوب) و (هنري)، وهتفت:
- أين هما؟
إنها يغتسلان في جدول صغير هناك ليستعيدا نشاطهما، عندما ينتهيان سنذهب نحن.. يمكننا أن نبدل ملابسنا أيضا، (هنري) أحضر أمتعتنا معه في حقيبته.
نظرت (فرانسيس) إلى الأشجار، وقد أضاءها نور القمر، وقالت:
- لقد اتجهنا إلى الجنوب.
- نحن تقريبا بالقرب من (فيرونا).. الساعة الآن الواحدة، وكل شيء على ما يرام.
وقال صوت (فان كورتلاند):
- نعم.. كل شيء على ما يرام.. سأحضر الآن ملابسكما، وسيقودكما (بوب) إلى جدول الماء.



واتجها إلى الماء، وغسلا وجهيهما في الماء البارد..
كان الجرح في ذراعها، من أثر احتكاك الرصاصة به..

واتجها إلى الماء، وغسلا وجهيهما في الماء البارد كان الجرح في ذراعها، من أثر احتكاك الرصاصة به، قد نزف كثيرا، ورأى (ريتشارد) ألا ينزع عنه الضمادة، فمزق قطعة من قميص

(هنري)، الذي كانا يستعملاه كمنشفة، وربطها فوق المناديل الملوثة بالدمام، وكانت الملابس التي أحضروها لها عبارة عن معطف قديم رمادي اللون، له حزام حول الوسط، بيريه رمادي، وكذلك فستان وحذاء وجوارب ذات شكل عادي، غير ملفت للنظر، كذلك كانت ملابس (ريتشارد) الاشكل لها، قديمة مستعملة، وصففت (فرانسيس) شعرها، وحاولت إخفاء الكدمات في خدها على قدر الإمكان بيدها اليمنى، وكان من المستحيل أن ترتدي الفستان دون أن ينزف الجرح مرة أخرى، فساعدها (ريتشارد) لترتدي المعطف، وكان الحذاء كبيرا على قدميها، ولكن لحسن الحظ كانت له أشرطة لتربطه، ونظر كل منهما إلى الآخر، وبدت على وجهها ابتسامة، ثم عادا إلى السيارة، ومعهما الملابس التي خلعاها، والفستان الذي لم تستطع ارتداءه، وقال (ريتشارد) في مرح:

- يمكنكما أن تضحكا.

وضحك (ثورنلي) و (فان كورتلاند) على منظرهما، وقال (بوب):

- منظركما ليس سيئا في الحقيقة، فقد رأيت المئات مثلكما في شوارع (ألمانيا).

وقال (هنري):

- هناك ميزة في هؤلاء النازيين الملاعين.. إنهم يجعلونك تقدر السعادة البسيطة في الحياة الآمنة.

وقاد (ثورنلي) السيارة هذه المرة، وقاموا بالاتفاق على خطتهم الأخيرة.. يسافر (ريتشارد) و(فرانسيس) إلى (جرينوبل)، بجوازات السفر الألمانية، والتي عليها أختام دخول إيطاليا، كما أعدها لهما (شولتز)، وإذا قبلت محطة السكك الحديدية نقودها من الماركات، يسافران في الصباح الباكر، وإذا لم تقبل فعليهما الانتظار حتى تفتح البنوك أبوابها، في حين يقوم (فان كورتلاند)

و (ثورنلي) بقيادة السيارة خلال (لومباردي)، حتى يجعل ضوء النهار قيادة تلك السيارة خطرا، وعندئذ يتخلصان منها، ويتجهان إلى الحدود السويسرية، إذا لم يكونا قد وصلا إليها قبل طلوع النهار فقد كان (فان كورتلاند) واثقا من أنه يستطيع ذلك وقسموا الماركات فيما بينهم، ووضع (فان كورتلاند) الفستان وقميصين إضافيين لـ (ريتشارد)، وجوارب في حقيبة صغيرة لهما، ولم يستطيعوا التفكير في أكثر من ذلك، فالتفاصيل ستعتمد على حسن التصرف والحظ، وسيتقابلون في (باريس)، وأعطاهما (فان كورتلاند) عنوان فندق معين، وهو يقول:
- ذلك الفندق يديره أمريكي، يعيش هناك منذ الحرب الأخيرة.. ستكونان في أمان هناك.. فقط احتاطا وتصرفا بحرص، حتى تصلا إليه، وعندئذ سنحتفل معا.
كان يتكلم في ثقة وروح مرحة، ووجدت (فرانسيس) نفسها تضحك، ثم بدأت الدموع تسيل على خديها دون توقف، على الرغم من شعورها بالألم في عينيها، وقام (ثورنلي) بإدارة جهاز الراديو بالسيارة، وانسابت موسيقى خفيفة، وهي تبكي في صمت، ثم قال (فان كورتلاند):
- المباني قد بدأت في الظهور.. من الأفضل أن تستعدا.
كانت (فرانسيس) قد تحكمت في نفسها، ومسحت وجهها، ثم وضعت عليه قليلا من البودرة، وقالت:
- أنا مستعدة.. في أي وقت.. سنراكما في (باريس).
وابتسمت وهي تقول:
- آسفة جدا على ما حدث.. لقد تسببت في إفساد خططكما.
قال (فان كورتلاند):
- خططي كانت ستفسد على أية حال.
وأوقف (ثورنلي) السيارة، وقال:

. كذلك أنا.. ليس لدي خطط يا (فرانسيس).. لا تفكري في ذلك
لقد وصلني خطاب من (توني) مؤخرا..
- (توني)؟
- نعم.. إنه عائد إلى الوطن؛ ليتطوع في الجيش.
- والفتاه التي في (تشيكوسلوفاكيا)؟
شعرت (فرانسيس) في الحال بالحرج من سؤالها، وقال (ثورنلي)، وهو ينظر إلى أسفل
- لقد انتحرت.
وانحنت (فرانسيس) إلى الأمام، ولمست كتف (ثورنلي) بيدها اليمنى برهة، ثم كتف (فان كورتلاند)، وساعدها (ريتشارد) على الخروج من السيارة، ثم قال بصوت حاد، لم يندهشوا له:
- نعم.. لابد من التعاون الدولي.. هذه ليست النهاية بالنسبة لأي منا.. إنها مجرد البداية سادت لحظة صمت بينهم، ثم قام (ثورنلي) بتشغيل محرك السيارة مرة أخرى، وانطلقت السيارة في الظلام وأمسك (ريتشارد) الحقيبة الصغيرة في يده، وذراع (فرانسيس) الأيمن في يده الأخرى، وسارا ببطء في الشوارع المظلمة، يسترشدان ببعض الأنوار البسيطة المتفرقة، حتى شاهدا المحطة على بعد، وأمسكت (فرانسيس) بيد (ريتشارد)، وضغطت عليها..
١٩٧

إنها مطمئنة إلى النتائج؛ فلن يوقفهما أحد؛ لأنهما يبدوان مجرد سانحين عاديين..
وفوق مستوى الشبهات.

(تمت بحمد الله)

فوق مستوى الشبهات

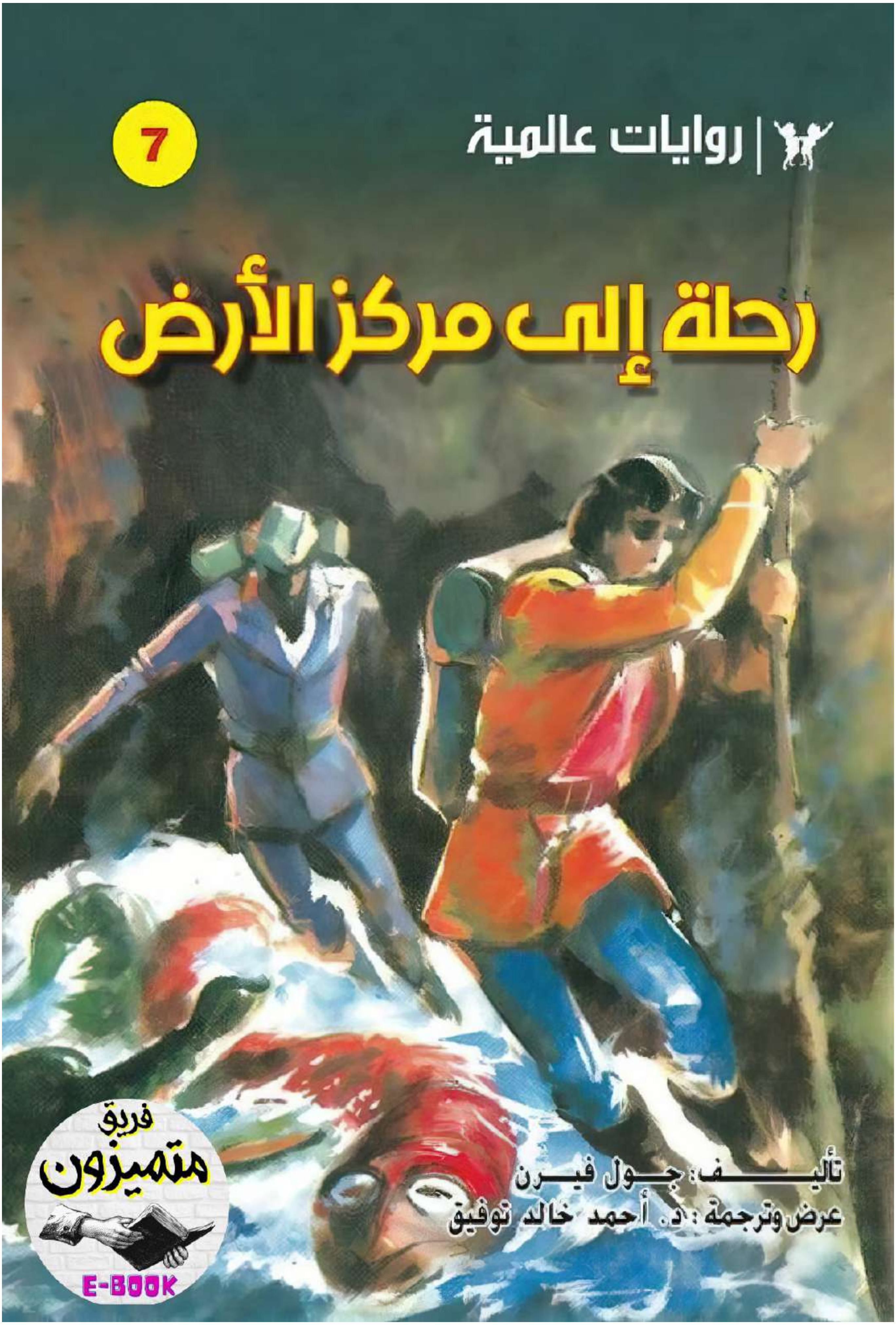
كان (هتلر) يجتاح (أوربا)، بجيوشه وأفكاره النازية، والعالم كله يجلس على حافة بركان، ويعلم أن الحرب آتية لاريب.. وكانت المهمة عسيرة ومعقدة، ولكنها تحتاج إلى اثنين من الهواة، ولهذا وقع الاختيار على (ريتشارد) و (فرانسيس)؛ لأنهما من طراز جديد، و.. وفوق مستوى الشبهات..


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:


روايات عالمية
7
رحلة إلى مركز الأرض
تأليف: جول فيرن
عرض وترجمة: د. أحمد خالد توفيق
فريق
متميزون
E-BOOK

(كلمة مهمة) :

هذا العمل: (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (07)

رحلة إلى مركز الأرض

بقلم: جول فيرن.

عرض وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..
د. نبيل فاروق

المؤلف..

إن هؤلاء الذين توترت أعصابهم مع (فيلياس فوج) الذي يحاول أن يدور حول العالم في ثمانين يوما وإلا فقد ثروته؛ والذين ارتجفوا وهم ينزلون في غواصة الكابتن (نيمو) على عمق عشرين ألف فرسخ تحت البحر.. والذين حبست أنفاسهم مغامرات

(ميشيل ستروجوف) رسول القيصر؛ والذين غرقوا في الحسابات المعقدة مع (ميشيل آردان) لمعرفة هل يمكنهم الوصول إلى القمر عبر فوهة مدفع أم لا...، كل هؤلاء يعرفون جيدا الأديب الفرنسي العبقري (جول فيرن)!
من هذا العبقري صانع الأحلام؟
• ولد (جول فيرن) في (نانت) بفرنسا عام 1828 م.. درس القانون وهوى الأدب، وكالعادة كانت للأدب الكلمة العليا.. وهكذا قدم بعض مسرحيات شعرية محدودة النجاح، ورواية تاريخية عاطفية (مارتن باز) لم يسمع بها أحد، على أن نجاحه تحقق حين قدم روايته (خمسة أسابيع في منطاد) التي حققت نجاحا غير عادي، وتوالت رواياته ذات الأسماء المدوية والتي جعلت منها السينما أحلاما ملموسة عالقة بالأذهان.. (مغامرات الكابتن هاتيرا).. (رحلة إلى قلب الأرض).. (من الأرض إلى القمر).. إلخ.... ثم توالت سلسلة رواياته المسماة (رحلات فوق العادة) والتي ضمت أسماء مثل (الجزيرة) (ميشيل ستروجوف).. (سيد العالم).. (عشرون ألف فرسخ تحت الماء).. إلخ
وقد قضى هذا الأديب العبقري حياته في رحلات لا تنتهي على ظهر يخت خاص به لأنه لم يحب في حياته - على حد قوله - سوى البحر والموسيقا والحرية.. ولا أظن أحدكم يخالفه الرأي...، ثم إنه توفي عام 1905 م، معلنا مصرع الخيال الساحر الذي بهرنا جميعا...، وكان عمره سبعة وسبعين عاما وقتها..
وكلما حقق الانسان فتحا جديدا كالصعود للقمر اكتشف في دهشة أن (جول فيرن) أو (هـ. ج. ويلز) او حتى رسوم (ليوناردو دافينشي) التي لم تنفذ قط، كلها تنبأت - بنظرة مستقبلية لا تخيب - بهذا الفتح إنها شفافية الفنان وإيمانه الكامل بملكات العقل البشري، بالإضافة إلى قدرته السحرية على الحلم..

إن كتاب الخيال العلمي أطفال كبار.. ولهذا يأخذ النقاد على كتاباتهم خلوها من البعد الإنساني.. وهذا شيء طبيعي بالنسبة لطفل يحلم...!..، لا أحد يطالبه أن يحلم بعمق، ولكن بإمتاع على أن هنالك ملحوظة أرجو ألا تقلل من حماس القارئ وانبهاره بهذه الرواية.. هي أنها لا يمكن أن تتحقق.. على الأقل بصورتها الحالية..!.. إن كاتبا مدققا ( ) في التفاصيل العلمية يؤكد أن هذا مستحيل لأن النزول في أعماق الأرض لمسافة ثمانية أمتار يزيد الضغط الجوي بمقدار 0.001 مما هو عليه وبالتالي على مسافة ثمانية واربعين كيلومترا - العمق الذي بلغه بطلا القصة - يكون الضغط الجوي أكبر بأربعمائة مرة.. وتزداد كثافة الهواء 315 مرة..، على أنهما خلال أحداث القصة وصلا إلى عمق 120 كيلومترا، وهو أمر مستحيل ولا يمكن أن يتحمله بشر. ويقول الكاتب إن أكبر عمق يستطيع الإنسان النزول إليه دون أن يصاب بأذى هو 8.9 كيلومتر حيث يتضاعف الضغط الجوي إلى ثلاثة أمثاله..

ملحوظة بسيطة نذكرها حرصا على الدقة لكننا لن نتركها تحرمنا من الاستمتاع بهذه الرواية الرائعة..!

د. أحمد خالد

∞∞∞∞∞∞

1- أوراق قديمة...

كان ذلك في يوم الأحد الرابع والعشرين من مايو عام ١٨٩٣ م، حين اندفع عمي - البروفسير (ليدنبروك) - إلى منزله الصغير رقم 19 الكائن في شارع (كونيش) بمدينة (هامبورج)..
كان أول ما فكرت فيه طاهيتنا (مارتا) هو أنها قد تأخرت في إعداد العشاء.. أما أنا فقد أدركت أن كارثة ستحدث إذا ما كان جائعا.. لأنه - بالفعل - أكثر الرجال نفاذًا للصبر في هذا العالم..
صرخت المرأة البائسة في هلع:
- لقد عاد السيد!!..
- بالفعل يا (مارتا).. وأعتقد للأسف أن العشاء لم يعدّ بعد.. فالساعة لم تتعدّ الواحدة والنصف..!
سألتني (مارتا) في حيرة..
- ولماذا عاد مبكرًا هكذا..؟
- سيحكى لنا بنفسه..
- ها هو ذا قادم.. سأعود للمطبخ.. وأرجو أن تسأله عن سر عودته المبكرة هذه.. وقل له إن العشاء ليس جاهزا..
هكذا وجدت نفسي وحيدا.. ولم أجد لدي أية رغبة في أن أفسر أي شيء لهذا البروفسير (فاقد الصبر)..؟
لهذا أزمعت أن أهرب إلى غرفتي.. حين اندفع عمي إلى المنزل..، وقبل أن أفهم شيئا رمى عصاه في ركن الغرفة وقبعته على المائدة.. وصرخ:
- (أكسل) اتبعني!!
وقبل أن أحرك ساكنا.. دوى صوته وقد اكتسب رنينا نافد الصبر إلى حد لا يوصف:

- ماذا؟.. أما زلت هنا؟
لهذا وثبت من مكاني خلف هذا الرجل المرعب الذي اتجه الى مكتبه.

∞∞∞∞∞∞

لم يكن (أوتو ليدنبروك) رجلا سيئًا..
إلا أنه كان كما لاحظتم رجلا شديد العصبية يستحيل إرضاؤه..، وكان أستاذا في الجامعة يعطي محاضرات في علم (الجيولوجيا) يفقد فيها أعصابه بشكل منتظم، ولم يكن يهتم كثيرا بما إذا كان طلبته يدرسون بجهد أو يفهمون أي حرف من كلامه أو ينجحون أو يرسبون... لا شيء من كل هذا.. كل ما كان يعنيه هو أنه يستمتع بمحاضراته.. على أنه - للأسف - كان يلاقي أحيانا صعوبات في نطق بعض المقاطع العلمية الطويلة التي تأبى الخروج من فمه..
والتي تؤذى قائلها وسامعها على السواء...، وبالطبع كان علم (الجيولوجيا) يزخر بهذه المقاطع الشنيعة نصف اللاتينية نصف اليونانية.. من ثم كان يفقد أعصابه كثيرا...!
وقد أدرك تلاميذه السحر الكامن في لحظات عصبيته هذه؛ لذا واظبوا - في خبث - على حضور محاضراته ليضحكوا..
على أن عمي - والحق يقال - كان رجل علم حقيقيا.. لو أنك ناولته صخرة.. أية صخرة.. سينظر لها.. ويتحسسها.. ويشمها ويقرعها مصغيا لصوت القرع، ثم يقول لك - في كل الحالات - أية صخرة هذه ومن أين جاءت.. من بين الستمائة نوع من الصخور التي يعرفها العلم حتى اليوم.؟.

وكان رجال العلم يثقون به ويستشيرونه في عديد من الأمور.. كان طويل القامة.. ناحلا يبدو وهو في الخمسين كأنه في الأربعين من العمر، وكانت عيناه الواسعتان تلتمعان خلف زجاج منظاره، على حين يذكرك أنفه الطويل الحاد بنصل السكين.. ذلك الأنف الذي شبهه الكثيرون بالمغناطيس، وزعموا أنه يجذب الأجسام الحديدية.. لكنني أستطيع أن أؤكد لك أن هذا لا يحدث عادة!
وكان عمي ثريا إلى حد ما.. وقد عشت معه في هذه الدار ونشأت معه وابنته (جروبين) والخادمة (مارتا) لأن أبوي قد توفيا..
يجب أن أعترف لك أنني أهيم حبا بعلم (الجيولوجيا) ولقد وجدت سعادة حقا في معاونة عمي في عمله ما بين الصخور والأحجار.. لقد كان يحبني حقا برغم أسلوبه العجيب في إظهار هذا الحب.. في الواقع كان رجلا لا يملك موهبة الانتظار.. يزرع الزهور ويجذب أوراقها كل صباح كي يعجل بنموها..!
لهذا.. وحين ناداني لم يكن أمامي سوى شيء واحد أفعله.. أن أركض كالملسوع إلى مكتبة..!
كان عمي جالسا في متحفه - أعني مكتبه – بين عينات الصخور المتراكمة هنا وهناك على (شيزلونج) كبير يمسك كتابا في يديه ويرمقه في إعجاب عظيم..
- يا له من كتاب!.. يا له من كتاب!
يجب هنا أن أذكر أن عمي كان عاشق كتب..
- لقد وجدت هذا الكنز صباح اليوم في مخزن كتب قديم.. - رائع!
قلتها دون أن أجد تفسيرا يبرر الروعة في كتاب بالٍ قديم غُلّف بجلد أصفر متسخ..
- هل تري؟.. إنه بحال جيدة.. يفتح ويغلق بسهولة.. وبرغم هذا فعمره ستة قرون!

وجدت من واجبي أن أقول شيئا ما أداري به لامبالاتي:
- وما هو عنوان هذا الكتاب الرائع؟
اسمه؟.. اسمه (هايمس كرينجالا) للكاتب الأيسلندي الأعظم (سنوري تورليسون).. ويحكي فيه تاريخ أمراء النرويج الذين حكموا (أيسلندا)..
والكتاب كله مكتوبا بحروف (رونية).. تلك الحروف رائعة الجمال التي كانت مستعملة في (أيسلندا)..!
وهنا سقطت لفافة صغيرة من الكتاب العتيق وثب عمي -كما يمكنك أن تتوقع- والتقطها..، كانت ورقة طولها خمس بوصات وعرضها ثلاث، خطت عليها حروف غريبة..
- إنها حروف (رونية) أيضا.. ولكن ما معناها؟...
كنت أومن أن هذه الحروف (الرونية) هي حروف اخترعها أناس موهوبون كي يزيدوا متاعب أولئك البؤساء الذين لديهم ما يكفي من المتاعب.. لهذا سررت لأن عمي لم يفهمها كان عمي خبير لغات.. لا أعني بهذا أنه يجيد الألفي لغة المستعملة في العالم، لكنه كان يعرف الكثير عن معظمها..، لهذا كانت هذه المشكلة قمينة بأن تفقده أعصابه..
في هذه اللحظة انفتح الباب.. وظهرت (مارتا) لتقول:
- العشاء على المائدة.
كان رد عمي هو سيل من السباب ألقاه على رأسها فولت الأدبار.. وتبعتها أنا إلى مقعدي المعتاد على مائدة الطعام انتظرت هنيهة، لكن عمي لم يأت.
لم أعتد منه أن يتأخر عن عمل هام كالعشاء.. وأي عشاء!.. عشاء هائل.. لهذا حرصت على أن آكل نصيبه مع نصيبي، على صوت عويل (مارتا) الطيبة التي توجست شرا من كل هذا:

- لم أر شيئا كهذا من قبل.. السيد (ليدنبروك) لم يأت للعشاء! لا أصدق ذلك.. ثمة شيء رهيب سيحدث!.. كارثة!
بالنسبة لي، كانت الكارثة هي أن يعلم عمي بما حدث لعشائه..، وكنت أوشك على الانتهاء حين دوي صوته كالرعد يناديني.. فطرت إلى مكتبه..
- اجلس ها هنا.. واكتب..
أمرني عمي، فامتثلت على الفور..
- سأمليك الحرف الروماني المقابل لكل حرف من هذه الحروف (الرونية).. وسنحاول أن نرى ما ينتج من كل ذلك.
بدأت أسطر مجموعة عجيبة من الكلمات التي لا معنى لها..، وما إن فرغت حتى تناول عمى الورقة وشرع يتأملها في حيرة..
- إنها ما يسمى بال (كربتوجرام).. حيث يتم خلط الحروف لتكوين كلمات بلا معنى لا تفهم إلا إذا أعدناها للترتيب الصحيح.
لم يبد لي كل هذا ذا معنى، لكنني كنت احكم من أن أصارحه بذلك..، كان عمي يؤمن أن هذه الورقة كتبها شخص ما، اقتني هذا الكتاب بعد تأليفه بأعوام عديدة..
وبالتفتيش عن اسمه.. في باطن الغلاف، استطاع أن يجده مكتوبا بحروف باهتة:
(آرنيه ساكنوسم)!.. هذا هو اسمه.. اسم العالم الذي اقتني هذا الكتاب منذ ثلاثة قرون...!،
أراهن أنه يخفي في هذه الشفرة تفاصيل كشف مذهل عرفه في عصره.. لابد أن الأمر كذلك...!
وأشار نحوي في لهفة:
- لن آكل ولن أنام حتى أحل طلاسم هذه الشفرة..
وكذا أنت يا (أكسل)!

∞∞∞∞∞∞

إن من يملك المفتاح يمكنه حل الشفرة.. ولكن أي مفتاح؟ كنت أنا شارد الذهن أرمق صورة (جرويبن) المعلقة على الحائط، وكانت ساعتئذ في (لاتونيا) في زيارة ما، كنت أنا و (جرويبن) نعشق بعضنا، في صبر وهدوء رزين.. وكنا قد تعاهدنا على الزواج، لكن عمى لم يدرك شيئا عن هذا، لأن (الجيولوجيا) جعلته عاجزا عن فهم أشياء كالحب.

كانت (جرويبن) شقراء جميلة، زرقاء العينين، فيها شيء من الصرامة في الواقع.. وكانت تحب (الجيولوجيا) مثل أبيها ومثلي.. وكم من ساعات عذبة قضيناها ندرس معا..... وحين نفرغ كنا نتنزه على شاطئ النهر، نتبادل كلمات حالمة.. ونضحك..

- لا معنى لهذا!

قالها عمي وهو يضرب المائدة بقبضته، مما أعادني لعالم الواقع.. كان غارقا في محاولات فاشلة لإعادة ترتيب الحروف.. وفي اللحظة التالية كان قد غادر الغرفة مندفعا نحو الشارع بأسرع ما استطاعت قدماه..

وسمعت (مارتا) صوت الباب يغلق بعنف هز البيت فصرخت:

- لقد ذهب...

- بالفعل..

- دون عشاء؟

- عزيزتي لن يحتاج السيد للأكل بعد اليوم.. ولن يأكل مخلوق في هذا البيت بعد اليوم.. فلن يُسمح له بذلك..

- إذن سنقضي جميعا من الجوع..!

وكان كلامها صحيحا أكثر مما تتوقعه.....

عدت للمكتب بقلب كئيب، وشرعت أنسق بعض الصخور مفكرا أين عساه يكون؟.. تخيلته يخطو في شوارع (لاتونيا) خطواته الواسعة آتيا بحركات عصبية.. قاطفا الأزهار.. ومفزعا للطيور البريئة..
أمسكت بالورقة، وعدت أحاول ترتيب الحروف مفترضنا أن اللغة اللاتينية هي ما كتبت به الشفرة أجهدت نفسي حتى أن الحروف بدأت تتطاير متداخلة في عقلي...، بدأت أحرك الهواء بالورقة.. وهنا تبدى لى بصيص من الفهم.. لقد وجدت الحل...!

∞∞∞∞∞∞

لقد كان البروفسير محقا في ترتيب الحروف، لكنه كان يحتاج لخطوة واحدة - مثل التي وجدتها بالصدفة- كي يجد حل اللغز، والآن يمكنني أن أقرا المكتوبة على الورقة باللغة اللاتينية..
وهنا انتابني الذعر!.. هل هذا صحيح حقا؟.. هل بلغت الشجاعة بأحدهم هذا الحد؟!.. لا.. لن أدع عمي يعرف، لأنه لن يكتفي بأن يعلم ما حدث، بل سيصمم على أن يرى بنفسه.. لن يقاوم الإغراء.. وسيذهب ويأخذني معه.. عندئذ لن نعود أبدا...، لو أنه تفحص الورقة وبدأ يحركها، كما فعلت، لربما عرف السر، يجب أن أحرقها!
اتجهت نحو المدفأة لألقي فيها بالورقة وهنا فتح الباب ودخل عمي..
استطعت بصعوبة أن أخفي الورقة معيدا إياها لموضعها. وجلس عمي يواصل محاولاته -الفاشلة حتما- في إعادة الترتيب لمدة ثلاث ساعات كاملة..
ومر الوقت مملا حتى غفوت في مقعدي.

صحوت في الصباح لأجده مازال يكافح المستحيل عيناه الحمراوان، ووجهه الشاحب، أخبراني بالكثير بدأت أشعر بالحسرة من أجله، خاصة وأنه كان منهمكا إلى درجة أنه نسي العصبية!..، لكن أسبابي كانت قوية.. إنني أعمل من أجل مصلحته.. ولهذا لن أنهي معاناته أبدا.. دعه يجد السير وحده إذا استطاع..

لكني لم أتوقع إلى أي مدى ذهب عمى..

حين استعدت (مارتا) للذهاب لجولتها المعتادة في السوق، لم تجد مفتاح الباب الأمامي.. وهنا فهمت.

لقد أخذه عمي، ليجعلنا نتضور جوعا عقابا لنا على عدم فهمه للشفرة!..، لقد صرنا سجينين مع عمي داخل المنزل إلى أن يجد حلا.

الساعة الثانية عشرة والجوع يمزقني.. لكني سأظل صامتا.

الساعة الثانية ظهرا.. بدأت أفقد صبري وبدأت أرى الأمور بشكل مختلف.. لربما لن يصدق عمى حرفا من المكتوب في الورقة.. سيعتبرها مزحة سخيفة.. بل إذا فرضنا أنه صدق المكتوب وصمم على القيام بهذه الرحلة، فمن الممكن دائما منعه.. أنا سأمنعه..

لا جدوى إذن من الموت جوعا..

على أن أخبره بالسر، لكن بشكل غير مفاجئ حتى لا أثير ريبته..

التقت عيناه بعيني في هذه اللحظة فلاحظ - بلا مراء - شيئا غير معتاد في نظراتي.. أمسك ذراعي بحدة ونظر الي ثانية، كأنما يسأل سؤالا.. ولم يكن باستطاعته أن يسألني سؤالا أكثر وضوحا..

حركت رأسي بمعنى " نعم.. لقد وجدت مفتاح الشفرة.."

هز راسه بمعنى " أنت معتوه "، فحركت راسي ثانية، مما جعل عينية تلتمعان، وقبضته تزداد إحكاما.
أخشى إن صارحته بالحقيقة، أن يهشمني، تعبيرا عن عرفانه بالجميل.
ناولته قطعة الورق التي عليها الكلمات التي أملاها على.. وهمست:
- اقرأها..!
- لكنها بلا معنى.
- ليس إذا قرأتها بالعكس من آخر حرف حتى أول حرف.
أصدر عمى صيحة فرح جنونية.. وبدأ يقرأ الورقة بصوت مرتجف بادئا من آخرها.. وكانت بلغة لاتينية رديئة حقا، لكنها واضحة..
" انزل من فوهة (يوكول) (سنيفل) الذي يمسه ظل (سكارتاريس) بنعومة قبل بداية شهر يوليو أيها المسافر الشجاع. وستصل إلى قلب الأرض كما فعلت أنا"
(آرنيه ساكنوسم)
ما إن قرأ عمي هذه الرسالة حتى وثب في الهواء كمن أصابه مس، وشرع يتقافز في الغرفة، ويركل قطع الأثاث.. بل - صدق أو لا تصدق - يطوح أحجاره الثمينة في الهواء ويتلقفها.. ثم بدأ يهدأ أخيرا.
- كم الساعة الآن؟
الثالثة بعد الظهر.
- إنني لم أتعش أمس.. أريد شيئا آكله حالا...! وبعدها..
- بعدها..؟
- سأعد أكبر حقائبي..!
- ولماذا؟

قال البروفسير - عديم الشفقة - وهو يهرع لغرفة الطعام:
- ولتعد أنت أيضا حقيبتك.
عند سماع هذه الكلمات غاص قلبي في قدمي..!!

∞∞∞∞∞∞∞

2- الرحلة...

برغم هلعي تظاهرت أمام عمي بأنني موافق.. أدرك أنه لن يصغي إلا لمنطق العلم.. وكان هذا المنطق في صفي.. رحلة لقلب الأرض!.. يا له من هراء!..، يمكنني أن أناقش هذا فيما بعد.. أما الآن فتناول الطعام هو مهمتي الأساسية.

وجلسنا نلتهم الطعام بينما عمي يثرثر ويمزح.. بل لقد ألقي - تخيل هذا - بعض الفكاهات، الأمر الذي لم أعتده من قبل.

وبعد أن فرغنا، دعاني إلى مكتبه..

قال لي وهو يجلس على المائدة:

- لقد قدمت لي الجواب يا (أكسل) في الوقت الذي كدت أيأس فيه، إنك لولد ذكي ولن أنسى صنيعك هذا ما حييت.

ثم أردف:

ليكن هذا السر بيننا.. ثمة علماء يغارون مني ويرغبون في سرقة هذه الرحلة.. لهذا لا ينبغي أن يعلموا شيئا عنها حتى نعود.

- هل انت واثق أن هناك الكثيرين ممن يرغبون في ذلك؟

- حتما.... من ذا الذي لا يرغب في كسب الشهرة والمجد؟

- هذا هو ما أعنيه.. لم لا تكون هذه المخطوطة مجرد دعابة حمقاء؟

كنت - بالتأكيد - غير موفق في كلمتي الأخيرة..

وتوقعت أن ينفجر في وجهي.. لكن ابتسامة وديعة تلاعبت على ثغره وقال:

- هذا هو ما سنتحقق منه بأنفسنا!

ابتلعت ريقي.. وقلت:

أريد أن أعرف معنى هذا الـ (يوكول) والـ (سنيفل) والـ (سكارتاريس).
- لا توجد صعوبة في ذلك.. من المصادفة أنني قد ابتعت هذه الخريطة الرائعة لـ (أيسلندا) من صديق لي في (لايبتزيش) وعليها يمكننا أن نرى ما نريد..
انظر إلى هذه الجزيرة وبراكينها تجد أن كلا منها يحمل اسم (يوكول) أما (سنيفل) فبركان ارتفاعه خمسة آلاف قدم على الساحل الغربي (لأيسلندا).. وهو الذي يقودنا لقلب الأرض.
- لكن هذا مستحيل.. لابد أن فوهته مليئة بالحمم والصخور الملتهبة.
- وماذا لو كان خامدا؟.. إن عدد البراكين النشطة في العالم لا يتجاوز ثلاثمائة.. أما البراكين الخامدة، فعددها يفوق ذلك بمراحل.، ومن بينها (سنيفل) الذي لم يعد أحد يسميه بركانا.
وما هو (سكارتاريس) هذا؟
تنهد عمي:
- لقد كان (ساكنوسم) خارق الذكاء.. لابد أن (سنيفل) له عدة فوهات؛ لذا احتاج الرحالة لتحديد أيها تقود لمركز الأرض..! ولذلك أخبرنا أنه في نهاية (يونيو) ترمي إحدى القمم - (سكارتاريس) - بظلها فوق الفوهة المطلوبة.. اليس هذا واضحا؟
أسقط في يدي - إذ من الواضح أن عمي يملك إجابة على كل سؤال، إلا أنني ظللت آمل أن أجد حججا علمية ضد الرحلة..
- إن العلم يؤكد أن هذه الرحلة مستحيلة.
أجاب عمى في سخرية:
- العلم يقول هذا؟.. آه.. يا له من شيء مزعج.

- ذلك العلم.. أليس محزنا أن يقول لك العلم إن الأشياء الممكنة مستحيلة..؟
- إن العلم يقول إنك كلما توغلت لأسفل ازدادت الحرارة.. حوالي درجة مئوية لكل سبعين قدما، ولما كان مركز الأرض يبعد أربعة آلاف ميل عن السطح، فلابد أن حرارته تبلغ عشرين ألف درجة، أي أن أصلب الصخور والمعادن تتحول إلى غاز ملتهب.. فكيف تريد أن تزور مكانا كهذا؟..
- إذن هي الحرارة التي تفزعك.. دعني أقل لك يا (أكسل) إن العلم لا يعرف شيئا أكيدا عن الأرض من زمن ليس بالبعيد، كنا نظن أنه كلما ابتعدت عن الأرض كلما انخفضت الحرارة.. الآن نحن نعرف أن الحرارة لا تنخفض في أي مكان بعيد عن الأرض أقل من أربعين أو خمسين درجة تحت الصفر.. لماذا لا يكون هذا الحال مع الحرارة؟.. أن تكون هناك نقطة لا ترتفع بعدها الحرارة مهما انخفضنا؟..، ثم إن هناك ملحوظة أخرى.. لو كانت حرارة المركز كما تصفها لانفجرت الأرض.. إن معظم علماء (الجيولوجيا) يؤمنون أن قلب الأرض لا يحوي غازات ولا ماء وإلا كان وزن الأرض أقل مرتين مما هي عليه.
- إنك تجعل الأرقام تثبت ما تريد..
- تثبت الحقائق يا بني.. لا تنكر أن عدد البراكين في تناقص مستمر، وهذا على عكس المتوقع لو كان قلب الأرض غازا ملتهبا..، وقتها ستتحرك قشرة الأرض كالبحر إبان المد والجزر تجاه القمر، ولكانت الزلازل تحدث طيلة الوقت.
كنت قد بدأت أتبين شيئا من الصواب في كلام عمي حين قال لي وهو يربت ظهري:
إنني أومن أن باطن الأرض ليس حارا.. لكن دعنا نر ذلك بأنفسنا.

∞∞∞∞∞∞

تركت عمي وبدأت أذرع شوارع (هامبورج) شارد الذهن ملتهب الوجدان، هل أنا مقتنع حقا أم أن كلماته هي التي زينت لي هذه الفكرة المجنونة..؟ هل ما سمعته كلام رجل معتوه، أم نبوءة عالم عبقري؟...

أين تبدأ الحقيقة وأين تنتهي؟!

كنت أسير عبر شاطئ النهر متجها للريف.. إلى (ألتونيا) ربما على أمل أن ألقي (جروبين) وبالفعل رأيتها في الطريق لدارها..



وسقط رأس (فلاش) على صدره ، وسحب الغاز تنسحب
من الحجرة تدريجيًا ..

صرَخَتْ في دهشة:

- (أكسل)... لقد جئت لتلقاني...؟

ولكن ما إن رأت وجهي حتى توجست شرا.

- ماذا حدث؟
حكيت لها القصة بأكملها فلم تعلق لدقيقة كاملة.. ثم قالت:
- (أكسل).. ستكون رحلة عظيمة..!
- ....!
- نعم.. رحلة تفخر بها.. وستجلب لك الشهرة.. لكم أتمنى لو جئت معكما، لكني فتاة معدومة الحيلة، ستزيد متاعبكما فقط.
لا يمكن أبدا فهم هؤلاء النسوة فهن إما أن يكن مثال الجبن، أو ذروة الشجاعة، ولا دخل للمنطق في هذا.
- لربما غيرت رأيك غدا..
- غدا - عزيزي - سأقول نفس الشيء..
سرنا متشابكي الأيدي دون مزيد من الكلام.. كنت منهكا من جراء الأحداث الأخيرة، إلا أنني واسيت نفسي بأن (يوليو) لم يزل بعيدا، ولم يزل من الممكن أن تقع أشياء وأشياء تجعل عمي يعدل عن هذه الرحلة المشؤومة.
- ولكن ما إن عدت للبيت حتى فوجئت بعمي يصرخ ويجري ما بين رجال يحملون البضائع للبيت.. وقد بدا على خادمتنا العجوز انها على حافة الجنون.
- هلم يا (أكسل)!.. تعال..... يا لك من مزعج.....
ألم تحزم حقائبك وترتب أوراقك بعد؟
أصابني الذهول.
- إذن نحن ذاهبان؟!
- حتما!.. ماذا تعنيه حين تذهب للنزهة وتهمل استعدادات السفر؟
- حقا ذاهبان؟!
- طبعا بعد غد في الصباح الباكر.

لم أحتمل سماع المزيد، فهرعت لغرفتي حين وجدت (جرويين) قد سبقتني.. وهتفت في حماس:
- إن أبي رجل علم حق لا يخيفه شيء.. ويجب عليك أن تكون فخورا به يا (أكسل). سينجح.. أنا واثقة.. ستصيران شهيرين، وستغدو رجلا حرا في كلامه.. حرا في افعاله.. حرا في...
وصمتت.. إلا إنني أدركت ما تعنيه.. شعرت بشيء من الحماس، إلا إنني حتى هذه اللحظة لم أكن قادرا على استيعاب فكرة الرحيل.. وفي كآبة أمسكت يد (جرويين) مقتادا إياها إلى مكتب عمي..
سالت عمى في تردد:
- عمي.. أريد أن أفهم لماذا العجلة..؟
- لماذا؟.. لضيق الوقت طبعا..
- لكن اليوم هو السادس والعشرون من (مايو)..
ولم تزل نهاية (يوليو)..
- وهل تظن أيها المعتوه أننا سنبلغ (أيسلندا) بهذه السرعة؟.. إن هناك سفينة واحدة بين (كوبنهاجن) و (رايكيافيك) في الثاني والعشرين من كل شهر.. ولو انتظرنا حتى (يونيو) سنصل إلى (رايكيافيك) متأخرين بعد أن يسقط ظل (سكارتاريس) على الفوهة.. يجب أن تبلغ (كوبنهاجن) بأقصى سرعة ممكنة.
وهكذا حزمت حقائبي بمعونة (جرويين) التي كانت هادئة، كأنني فقط ذاهب إلى المدينة المجاورة.. كيف أتركها.. كيف؟..
مر اليوم التالي في الاستعدادات والمزيد من المؤن والبضائع تتراكم في الدار..، ثم نمت كحجر على فراشي.. وكانت ليلة سوداء حلمت فيها بالبروفسير يجرني لأعمق أعماق الأرض.. وأنا أهوي.. أهوي.. أهوى في حفرة عميقة بلا قرار.

∞∞∞∞∞∞

وفي الخامسة صباحا ذهبت لغرفة الطعام لأجد عمي يلتهم إفطاره في عجلة.. كانت معدتي متقلصة والإنهاك يغزو بدني..، في الخامسة والنصف وصلت عربة لنقل متاعنا إلى محطة القطار كان عمي يودع (جرويبن) حين التفتت نحوي.. وهمست:
- عزيزي (أكسل).. أنت راحل الآن.. لكن عند عودتك ستجد زوجتك..
لم أستطع أن أقول شيئا سوى:
- وداعا يا حبيبتي (جرويبن).
وفي السادسة والنصف وصلنا المحطة.. وفي السابعة تحرك القطار...

∞∞∞∞∞∞

بعد وصولنا إلى (كيل) ركبنا القارب إلى (كوبنهاجن).. وكان عمي يوشك على الجنون ويكاد يدفع القارب إلى وجهته دفعا..، في (كوبنهاجن) توجهنا إلى متحف (الجيولوجيا) حيث قابلنا البروفسير (تومسون) الذي كان يعرف عمي.
ولقد أبدى الرجل لنا حفاوة واضحة، وشرع يفتش عن قارب يقلنا إلى (أيسلندا) حتى وجد واحدا اسمه (فالكيري) كان سيرحل في الثاني من (يونيو) إلى (ريكيافيك)..
شرعت أنا وعمي نستكشف المدينة.. كنت أنا كطفل منبهر بكل شيء، أما عمى فلم يبد اهتماما سوى ببرج كنيسة عال على الجزيرة التي تشكل الجزء الجنوبي الغربي من (كوبنهاجن).. لم

أجد ما يسترعي اهتمامي سوى أن برج الكنيسة شديد الارتفاع أكثر اللازم..

- هلم نصعد لأعلى.

قالها عمي وهو يجذبني خلفه.

- لكن هذا قمين بأن يثير لدى الدوار.. أنا لا أرتاح للمرتفعات.

- هذا سبب كافي للصعود.. يجب أن نعتاد الأماكن الشاهقة.

- لكن..

- هيا..!

وهكذا لم أجد بدا من الصعود.. درجة بدرجة.. مائة وخمسين درجة.. بعدها بدأت أشعر براسي يطفو وبأن البرج يهتز مع الريح.. اضطررت أن أزحف على ركبتيّ ويديّ مغلقا عينيّ بصرامة.. حتى وصلنا إلى القمة..

- انظر لأسفل.. يجب أن تعتاد ذلك..

فتحت عيني فرأيت المنازل كالألعاب.. وفوق رأسي تحركت السحب مارة عبر السماء لكنها بالنسبة لي كانت ثابتة.. خيل لي أن الأرض وبرج الكنيسة هما اللذان يتحركان..، وكنت أرى ساحل (السويد) من بعيد..

استمر هذا الدرس ساعة كاملة.. وحين سمح لي عمي أخيرا أن أنزل.. وحين لمست قدماي أرض الشارع ظننت لوهلة أنني قد فقدت القدرة على المشي إلى الأبد.

ولمدة خمسة أيام واظبنا على هذا العمل حتى أنني - بالرغم منى - بدأت أتعلم كيف أنظر لأسفل دون أن يصرعني دوار المرتفعات..

وهكذا صرنا مستعدين لركوب الـ (فالكيري) إلى (أيسلندا)..

استغرقت رحلتنا عشرة ايام عبر (السينور)..

ساحل السويد (سكاجن).. ثم بحر الشمال الرهيب..

بعدها عبرنا ساحل (اسكتلندا).. وجزر (فارو)، وفي اليوم الحادي عشر رأينا ساحل (أيسلندا)..
نظر عمي إلى الساحل الشمالي وأشار في لهفة إلى جبل عال له قمتان يغطيهما الجليد الأبدي.. وهتف:
- (سنيفل)... (سنيفل)!
ما إن نزلنا إلى الشاطئ حتى التقينا برجل حسن المحيا.. وكان هو حاكم (أيسلندا) البارون (ترامب) بنفسه.. وقد صافحه عمي وتبادل معه حديثا بالدانماركية لم أفهم منه حرفا بطبيعة الحال، إلا أنني استنتجت أن الحاكم يعد عمي بأن يبذل قصارى جهده للعون..
كما تعرفنا على رجل لطيف الشمائل هو السيد (فريدريكسون) مدرس العلوم في مدرسة (ريكيافيك) الذي قدم لنا غرفتين في داره كي نقيم فيهما.
قال عمي في سرور حين صرنا وحدنا:
- هلم يا (أكسل)!.. الأمور تسير على ما يرام، ولقد مر الجزء السيئ من رحلتنا..
. ماذا تعني؟
- لم يعد أمامنا سوى أن (نهبط)!
لربما كنت على حق.. ولكن كما سنهبط علينا أن نصعد..
- هذا لا يثير قلقي البتة.. سأذهب للمكتبة باحثا عن كتابات لـ (ساكنوسم) لأني - ولابد - واجد بعضها.
- ألن تتجول في البلدة أو لا؟
- نعم.. إن ما يهمني في (أيسلندا) ليس ما هو فوق الأرض بل ما تحتها!!
على أنه عاد بعد ساعات وقد بدت عليه مخايل الإحباط، لأنه لم يجد أية كتب لـ (ساكنوسم) هناك.

وأخبرنا مضيفنا السيد (فريدريكسون) أن الكنيسة قد اعتبرت ذاك الرحالة عدوا لها، وأحرقت كل كتاباته، الأمر الذي فسر لنا سر كتابته رسالته بالشفرة.
وهنا – لدهشتنا - اقترح السيد (فريدريكسن) على عمي أن يقوم باستكشاف البركان المسمى (سنيفل) لأهميته..!
- هل هو خامد؟
- نعم.. منذ خمسة قرون..
- حسن.. ربما كان من الواجب أن أذهب لأراه.. أ.. أقلت لي ما اسمه؟
- (سنيفل)..
كدت أنفجر ضحكا وأنا أشاهد عمي يتصنع الجهل ليداري لهفته المجنونة لرؤية البركان، خاصة والفرصة قد جاءته على طبق من الفضة، ودون إثارة الشكوك.
سأله السيد (فريدريكسن)..
- - كيف تنوي الوصول إليه؟
- بالبحر طبعا..
- مستحيل.. إن كل القوارب مشغولة بالصيد في الناحية الأخرى من الجزيرة، لهذا ينبغي الذهاب برا.
طريق طويل لكنه مسل.. وعندي لك دليل مأمون الجانب ويمكنك الاعتماد عليه.. إنه شخص ماهر ويتحدث الدانمركية بطلاقة..

∞∞∞∞∞

استيقظت في الصباح التالي على صوت عمي يتحدث الدانماركية مع أحدهم.. رجل طويل القامة متين البنيان وله وجه بسيط

قسيم..، كانت عيناه زرقاوين في حين تنسدل خصلات شعره الأحمر على كتفيه.. وكان الهدوء يشع من وجوده، كأنما لا يمكن لشيء في الكون أن يزعجه.
كان اسمه (هانز بايلكي).. دليلنا القادم في رحلتنا، وكان على النقيض من عمي في كل شيء، إلا أنهما لم يختلفا حول المادة والأتعاب بتاتا.. فواحد مستعد تماما لقبول أي أجر وواحد مستعد تماما لدفع أي أجر.. صفقة بسيطة جدا كما ترى.
تم الاتفاق على أن يقودنا (هانز) إلى قرية (ستالي) عند سفح البركان.. وكانت المسافة اثنتين وعشرين ميلا تلك المسافة التي قدر عمي أننا سنقطعها في يومين، إلا أنه حين أدرك أن الميل الدانمرك يساوي أربعة وعشرين ألف قدم، فهم أن الرحلة لن تقل عن أسبوع كامل!
وحصلنا على أربعة خيول.. إثنين لي ولعمي واثنين للمتاع، أما (هانز) فسيمشي كما عهده دائما، وقد رفض أن ينال أجرا قبل أن نصل..
- رجل طيب
قالها عمي وأردف:
- لكنه لا يدرك أي مجد ينتظره بعد رحلتنا!
- هل تعني أنه سينزل معنا إلى..؟
- نعم يا (أكسل)... إلى مركز الأرض...!

∞∞∞∞∞∞

3 - البركان...

قبل الرحيل بدأنا نرتب متاعنا والأشياء التي سنحملها معنا. وكان من بينها ما هو جدير بالذكر:

١- ترمومتر يمكنه القياس حتى مائة وخمسين درجة مئوية.. وقد بدا لي هذا أقل مما يجب وأكثر مما يجب..

أقل من درجة حرارة مركز الأرض كما أتوقعها.. وأكثر من أي حد يمكننا تحمله قبل أن نتحول لشواء!

٢ - جهاز بارومتر خاص لقياس الضغوط الهائلة التي ننتظرها..

٣- جهاز كرونومتر يرينا الزمن حسب موقع (هامبورج).

4- بوصلتان.

5 - مصباحان كهربائيان مأمونان وسهلا الحمل..

وكان معنا بندقيتان، لا أرى مبررا لحملهما.. وسلم من الحبال.. وفاس ومطرقة..، أما الطعام فكان في صورة مساحيق ولحم مقدد يكفينا نحو ستة شهور.

ولم نحمل ماء؛ لأن عمي كان واثقا من المياه الجوفية.

من الصعب أن أتذكر كل العجائب التي حملناها معنا.. إن عمي لم ينس شيئا حتى النقود... لقد حمل معه مبلغا كبيرا، كأنه كان يتوقع وجود محلات في مركز الأرض.

في الليلة الأخيرة ودعنا مضيفنا.. وفي الساعة السادسة صباحا، كان (هانز) ينتظرنا بهدوئه المعهود لنبدأ رحلتنا نحو المجهول.

∞∞∞∞∞

شرعت أتأمل معالم الطريق شاعرا بنشوة.. أي خطر هنالك؟..

كل ما عليّ هو أن أقطع هذا البلد العجيب.. وأتسلق بركانا خامدا.. وأنزل عبر فوهته مثلما فعل (ساكنوسم) الذي - وأنا واثق من هذا - وصل إلى قاع البركان فظن أنه وصل لمركز الأرض. هذا هو كل شيء.. إذن فلأنعمن برحلتي هذه ولا أعبأ بالباقي.

كان (هانز) يسبقنا في السير عبر حقول حاولت جهدها كي تكون خضراء، إلا أنها فشلت في الوصول إلا إلى اللون الأصفر.. ومن بعيد تتراءى الهضاب يكسوها الجليد.. الطريق يتعرج، لكن خيولنا تعرف أفضل الطرق للسير وتتحرك برشاقة وخفه.

- حصان طيب!.. حصان طيب!.. سترى يا (أكسل) أنه ما من شيء أكثر روعة من خيول (أيسلندا).

لا شيء يوقفها.. لا البرد ولا العواصف... فقط لا تضايقها.. دعها بحريتها وستقطع بك ثلاثين ميلا في اليوم.

- هذا يناسبنا.. ولكن ماذا عن دليلنا البائس؟

- لا عليك هؤلاء الرجال لا يشعرون بالأرض ولا يتعبون أبدا وحتى إذا ما تعب سأعيره جوادي وأمشي أنا.

∞∞∞∞∞∞

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهرا حين وصلنا إلي قرية تدعى (إيولبرج).. ومن هناك بدأنا نتبع طريقا ضيقا، ما بين البحر والمرتفعات.. في الساعة الرابعة عصرا صادفتنا عقبة.. هي لسان من البحر يتغلغل عبر اليابسة.. وكانت أمواجه تصطدم بالصخور الشامخة على جانبية، ولئن كانت جيادنا جيادا طيبة إلا أنني لم أدر كيف يمكنها العبور، قلت لنفسي:

- لو كانت ذكية حقا فلن تحاول أصلا..

إلا أن عمي لم ينتظر بل حاول العبور بحصانه أبي الحصان أن يتحرك.. قال له عمي (نعم) إلا أن الحصان قال (لا).. ازداد جنون الرجل وضرب الحصان الذي حاول أن يقذفه من على ظهره، ثم أنه وجد أن الأفضل أن ينحني على ركبتيه وينسل من تحت راكبه تاركا إياه واقفا على الأرض...

جن جنون عمى إلا أن (هانز) ربت على ظهره قائلا:

- فاريسا..

- قارب؟.. أين؟..

أشار (هانز) إلى قارب على مسافة منا..

- لماذا لم تقل ذلك.. فلنذهب لنأخذه..

- تيدفاتن..

- آه!.. يجب انتظار المد إذن..

وهكذا - في السادسة مساء وصلنا قرية (جاردار).. لم تكن السماء مظلمة، لأن الشمس لا تغيب عن السماء في (أيسلندا) طوال شهري يونيو ويوليو حتى في الليل.. وفي أحد الأكواخ قضينا ليلتنا لنعاود التحرك مع أول أنسام الفجر.

بدأ الاحساس بالوحشة يتزايد ونحن نجد السير.

لم تعد هناك أشجار ولا حيوانات.. فقط طير هنا أو هناك يحلق نحو الجنوب..

وفي قرية اسمها (الفتاناس) قضينا ليلة أخرى..

كان الإنهاك يقتلني، أما عمي فلم يشْكُ إطلاقا، مما أثار إعجابي.. أما عن (هانز) فكان ينظر للرحلة كلها على أساس أنها نزهة شيقة.



أخرج (لمبو) من جيبه ورقة مالية، من فئة الدولارات العشرة، ولوَّح بها قائلًا: - ها هي ذي..

واستمرت الرحلة عبر خليج (فاكسا) ثم (بودير).. وكان (هانز) قد اتفق مع عمي على أن ينال جزءا من أجره في كل مساء سبت؛ لذا – وكان اليوم السبت - نقده عمى الجزء الأول من الأجر..،

وشرعنا نواصل رحلتنا، بينما كان عمي يهمس ما بين أسنانه طيلة الوقت.
- آه!.. (سنيفل)... (سنيفل) العظيم... البوابة التي ستقودنا إلى مركز الأرض.. (ساكنوسم) !.. أيها العظيم.. نحن هنا..
وعلى هذا المنوال وصلنا إلى (ستابي)
صارح عمي (هانز) بأنه يزمع التسلق إلى البركان والنزول إلى القاع عبر فوهته مهما كان بعد هذا القاع..
لم يبد (هانز) فارقا، لأن كل الأماكن - كما يبدو ـ تتساوى عنده..، أما أنا فقد كان الهلع يقتلني..
لكن أوان التراجع قد فات منذ فارقنا (هامبورج).. إن الخاطر المريع الذي انتابني هو أننا قد نتسلق (سنيفل)..
وقد ننزل من فوهته.. وقد نصل لمركز الأرض كما فعل ذلك المخبول (ساكنوسم) لكن ما هو الضمان أن هذا البركان لن يثور ونحن فيه؟.. نعم هو نائم منذ عام ١٢٢٩.. ولكن هل هذا يثبت أنه لن يصحو غدا؟
لا أحب كثيرا - وأنت توافقني غالبا - فكرة أن أجد نفسي مقذوفا إلى عنان السماء في بحر من الحمم الملتهبة..
وهكذا أزمعت أن أفضى لعمي بمخاوفي، ولكن بشكل لا يوحي له أنني مذعور، بل أنني - فقط - أريد أن أتعلم أكثر عن رحلتنا.. إلا أنه لشدة دهشتي لم يثر وقال:
- لقد فكرت في ذلك كثيرا..
ماذا؟.. لكن هذا معناه.. كلا.. لن يتراجع هذا الرجل أبدا.. إن هذا أجمل من أن أفكر فيه..، إلا أنه أردف:
- إن البراكين لا تثور هكذا فجأة دون علامات إنذار، ولقد سألت الكثيرين هنا وهناك منذ وصلنا..

والنتيجة سلبية.. لم يعط (سنيفل) أية علامات تنذر بتجدد ثوراته.
ثم أنه أشار إلى بخار ساخن يخرج من بين الصخور (وهو الشيء الذي جعلني أميل لوجهة نظري المذعورة) وقال:
هذا البخار هو الدليل على صدق كلامي.. لن نخشى شيئا..
- ماذا تعني؟
- حين يوشك البركان على الانفجار؛ يخرج هذا البخار بقوة أكبر من الفوهة، وليس من بين الصخور... أما والبخار يخرج بقوته المعتادة من بين هذه الأحجار فلن يثور (سنيفل) في المستقبل القريب..!
لقد ربح عمي كالعادة ولم أعد سيد مصيري.
وهكذا.. في اليوم الثاني والعشرين من (يونيو) في التاسعة صباحا بدأنا رحلة التسلق إلى فوهة (سنيفل).

∞∞∞∞∞∞

يبلغ ارتفاع (سنيفل) خمسة آلاف قدما.. ولقد شرعنا نصعد سفحه واحدا خلف الآخر مما جعل تبادل الكلام مستحيلا.
كان الطريق يزداد صعوبة وينحدر لأعلى بزاوية أشد حدة.. إلا أن (هانز) كان يمشي في سلاسة، كما لو كانت الأرض مسطحة.. أحيانا كان يختفي عن عيوننا يمينا أو يسارا خلف صخرة كبيرة، وأحيانا كان يضع بعض الأحجار فوق بعضها، ليجعل منها علامات عند عودتنا..
كانت فكرة لا بأس بها لكنها كما عرفنا فيما بعد - لم تكن ذات نفع...

توقفنا بعد ثلاث ساعات لتناول بضع لقيمات والراحة، الأمر الذي لم يرق لعمى الذي التهم طعامه في عجلة ثم واصلنا المسير الذي غدا شديد الصعوبة، مما اضطرنا إلى السير في دروب متعرجة، وكان معنا ثلاثة حمالين من الوطنيين شرعوا يعاون بعضهم البعض بعصيهم.. أما عمى فكان يتنقل برشاقة وخفة، مما جعلني أدرك أن له باعا طويلا في تسلق الجبال.

إنها السابعة مساء.. وقد بلغنا ارتفاعا قدره ٣٢٠٠ قدم.. فوق سطح البحر.. الجليد من حولنا والبرد يتزايد، والريح تهب عاتية.. طلب عمي من (هانز) التوقف لكن دليلنا قال:

- اوففانفور

قال عمي مفسرا:

- إنه يبغى أن نواصل الصعود.. ولكن لماذا؟

- ميستور..

عندئذ هتف الحمالون جميعا في ذعر حقيقي.

- يا.. يا.. ميستور..!

- ماذا يعنون؟

وهنا أشار عمي إلى كتلة من الصخور والغبار البركاني تتطاير في الهواء عبر جانب الجبل.. وكانت هذه الكتلة تتجه نحونا - ما يسمونه باللغة الأيسلندية (ميستور) ولم يكن ثمة داع للمزيد من الكلام لأننا هرعنا خلف الجبل متوارين، على حين هوت هذه الكتلة على المكان الذي كنا به منذ دقائق.. ولولا تحذيرهم لغدونا غبارا تذروه الرياح..

∞∞∞∞∞

كانت الساعة في الحادية عشرة مساء حين وصلنا إلى القمة.. وكان البرد والجوع يمزقانني، بالإضافة إلى أن نقص الأوكسجين جعل التنفس مستحيلا.. وعند قدمي كانت شمس منتصف الليل ترسل أشعتها الواهنة فوق الجزيرة.
معا تناولنا وجبة بسيطة ثم غفونا.. لعله أفضل نوم حظيت به من زمن بعيد برغم برودة الجو. نوم بلا أحلام..
وفي الصباح أخبرنا (هانز) بالاسم الذي يطلقه سكان (أيسلندا) على القمة التي كنا فوقها.. الاسم الذي توقعته أنا وعمي..
كان اسمها (سكارتاريس)..!

∞∞∞∞∞∞

وبدأنا النزول من الفوهة..
كان اتساعها حوالي ثلاثة أميال.. ويمكنك أن تتخيل منظرها حين تملؤها النيران والصخور الملتهبة.. أما القاع - كما بدا لنا - فلم يكن ليزيد على خمسمائة قدم، لهذا كان الانحدار سهلا ويمكن السير عليه دون جهد..
سار (هانز) في المقدمة وتبعناه وقد ربطنا بعضنا بالبعض بحبل طويل حتى إذا ما انشقت الأرض الجليدية تحت قدمي أحدنا أنقذه الباقون، إلا أن (هانز) كان يتحسس الأرض بعصاه للاطمئنان قبل كل خطوة وهو يشعر بالدهشة من أنه لم تحدث مصائب حتى هذه اللحظة على عكس ما اعتاده..!
وصلنا لقاع البركان.. ومن فوق رؤوسنا لمحنا فوهته مرسومة على السماء مستديرة تامة الاستدارة.. ومن خلالها لمحنا قمة (سكارتاريس) تلتمع الشمس عليها..

أما في قاع البركان فكانت هناك ثلاث فتحات هي قسم المداخن التي منها كانت نيران البركان تنبثق.. وكانت كل منها تبلغ مائة قدم في اتساعها.. شعرت بالرجفة وأنا أرمقها، على حين انتابت البروفسير (ليدنبروك) حمى مفاجئة.. وشرع يركض بين الفتحات يرمقها ويفحصها ويحدث نفسه أمام نظرات (هانز) ورفاقه الذين جلسوا على الصخور بالطبع يحدثون أنفسهم أي مجنون هذا؟

وفجأة صرخ عمي..

- (أكسل)... (أكسل)... تعال هنا..

قالها وهو يرمق صخرة عملاقة تقف في وسط الفوهة.. فجريت لأرى ما هنالك..

- انظر!

وعلى الصخرة لمحت حروفا محفورة تقادم بها الزمن.. حروفا (رونيه) مألوفة بالنسبة لي.. الحروف التي تشكل ذلك الاسم الشنيع:

= (آرني ساكنوسم)!.. هل ما زلت متشككا؟!

أصابني الذهول.. وجلست فوق صخرة أنظر إلى لا شيء.. لم أدر متى أسلم (هانز) عينية للنعاس..

ولا متى فارقنا الرجال عائدين إلى (ستابي).. ولا متى غفوت انا..

وخلال نومي خيل إلى أن الجبل يهتز

∞∞∞∞∞∞∞

لم تشرق الشمس في الأيام التالية بسبب الغيوم.. كاد عمي يجن لأنه مالم تشرق الشمس فلن يسقط ظل (سكارتاريس) ليرينا

الفوهة المعنية بين الفتحات الثلاث.. فقط أربعة أيام أخرى وينتهي شهر (يونيو) ويتأجل مشروعنا إلى العام التالي..
كان هانز يرمقنا في فضول متسائلا - حتما - عن علة انتظارنا أما أنا فظللت أدعو الله سرا ألا تشرق الشمس هذا الشهر..
وفي اليوم الثامن والعشرين أشرقت الشمس.. وبدأت الهضاب - تستجم في ضوئها الأصفر البارد..، أخذ عمي يرمق ظل (سكارتاريس) يتحرك فوق قاع البركان ببطء.. ببطء..
ثم - في الثانية عشرة ظهرا - سقط الظل فوق الفتحة الوسطى.. الفتحة التي اختارها (ساكنوسم).
- إذن هذه هي...!.. هلم بنا...
وأشار عمي إلى (هانز)..
- فوروت..!.. إلى الأمام..!
الآن تبدأ الرحلة الحقيقية..
الآن تنتهي مرحلة الإنهاك لتبدأ مرحلة الصعاب..، لا تزل الفرصة متاحة لي كي أرفض.. لكن كيف أجرؤ على ذلك أمام (هانز) الذي لا يبدو على استعداد لأن يخاف شيئا؟.. كلا.. سأفكر في (جرويبن) التي تنتظر عودتي المظفرة.. ولأنزل بشجاعة عبر الفتحة.. لكن لا يجب أن أدع الدوار يتملكني لأنني فيما يبدو لم أتلق ما يكفي من الدروس في تلك الكنيسة بـ (كوبنهاجن)..
لم تكن جدران الفتحة التي سننزل منها ملساء.. كانت هنا وهناك صخور حادة تشبه درجات السلم إلا أنه لم يكن ثمة ما تتشبث به أيدينا.. لربما أفادنا حبل نربطه إلى الحافة، لكن كيف عسانا نحله حين نصل لأسفل؟..
وجد عمى فكرة بسيطة وذكية هي أن يدلى نصف الحبل إلى أسفل ثم يلف الحبل حول صخرة بارزة ويدلي النصف الآخر

ليلحق بزميله، وهكذا يكون على من يهبط على الحبل أن يستخدم النصفين معا كأنهما حبل واحد.. وعند الوصول إلى مكان يصلح للوقوف، فمن السهل جذب نصف واحد من نصفي الحبل لاستعادته بأكمله.. ونكرر العملية.

- والآن ليأخذ كل منكم ثلثا من المتاع ويربطه على ظهره...
- ولكن ماذا عن باقي الحبال والثياب؟
- ستعني هذه بنفسها..!
- ماذا تعنى..؟
- سترى..

وبمعونة (هانز) حزم عمي هذه الأشياء في حزمة كبيرة وقذفها إلى أسفل.. كان باستطاعتي سماع صوتها وهي تشق الهواء.. وصوتها يتضاءل.. يتضاءل حتى تلاشي نهائيا..

- هكذا..!.. والآن جاء دورنا..

والآن دعني أسألك بأمانة.. هل يمكن لأي شخص بكامل قواه العقلية ألا يموت هلعا في هذه الظروف؟!..

كيف أتحمل كل هذا؟

على كل حال.. بدأنا عملية النزول..

إلى مركز الأرض..

∞∞∞∞∞∞

4- أي ممر؟

بدأنا النزول على الحبل المزدوج متجاهلين الخطر المتمثل في ألا يتحمل هذا الحبل الرفيع ثقلنا معا..

شرعت أستعمل عصاي كوسيلة لتخفيف الضغط عن هذا الحبل، وبعد نصف ساعة وجدنا أنفسنا على صخرة كبيرة مسطحة تبرز من الجدار الرأسي..

نظرت إلى أسفل، لكنني لم أتمكن من رؤية أي شيء..

شرع (هانز) يعيد تعليق الحبل من جديد لنهبط المرحلة التالية التي يبلغ عمقها مائتي قدم.. وبالطبع - في أثناء هبوطنا لم أكن لأهتم بمعرفة نوعية الصخور التي نهبط عليها.. إلا أن عمي - بفضول علمي قاتل - شرع يتفحصها في اهتمام.. وقال:

- كلما تقدمنا آمنت أكثر أن باطن الأرض ليس حارا.. وعلى كل حال سوف نرى..

وكما اعتدت طيلة حياتي تجنبت إثارة حنقه.. ولهذا.. افترض أنني أوافقه على ما يقول.. واصلنا النزول.. وبعد ثلاث ساعات كاملة، لم يكن القاع ظاهرا لأعيننا بعد.. لكننا استمررنا في النزول لأسفل.. لأسفل، أزجي الوقت بعدّ المرات التي فككنا فيها الحبل وأعدنا تعليقه، لأعرف إلى أي عمق وصلنا.. وكان عددها أربع عشرة مرة استغرقت منا سبع ساعات، وبالتالي كنا على عمق ٢٨٠٠ قدم..

قال عمي وهو يلهث:

- لقد وصلنا.

- لأين؟

- لقاع البركان..

- إذن لا يوجد مخرج.. لقد انتهت رحلتنا..
- لابد أن هناك واحدا على يميننا.. لكن سنرى ذلك غدا، أما الآن فقد حان ميعاد النوم.. وبالطبع العشاء..
وهكذا فتحنا حقيبة والتهمنا بعض الطعام، ثم هيأنا أنفسنا كيفما اتفق، للنوم فوق الصخور..
استلقيت على ظهري وشرعت أرمق نجما يتألق عبر الفتحة التي نزلنا منها.. حتى غلبني النعاس..

∞∞∞∞∞

في الصباح أيقظنا ضوء النهار الخافت قادما من أعلى.. بالطبع لم يكن قويا، لكنه سمح لنا برؤية الموجودات..
قال عمي في مرح مرعب:
كيف حالك يا (أكسل)؟.. هل نعمت من قبل بليلة هادئة كهذه في دارنا العجوز بشارع (كونيشن)؟.. لا ضوضاء من أي نوع..
- بالطبع هادئة.. هادئة إلى حد مفزع..
صاح عمي:
- هلم.. هلم... إذا كنت تشعر بالرعب الآن فكيف ستشعر فيما بعد؟
إننا لم نتجاوز بوصة واحدة داخل الأرض!
- ماذا تعني؟؟
- أعني أننا لسنا حتى تحت مستوى البحر.. إننا فقط نزلنا المسافة التي صعدناها حين تسلقنا (سنيفل)..!!
- حقا؟
- طبعا.. انظر إلى (البارومتر)..
- إنه يشير إلى تسعة وعشرين بوصة..

س. هكذا.. هذا هو ضغط الهواء العادي.. وهذا يؤيد كلامي.. والآن دعنا نتناول وجبة إفطار جديرة برجال ينتظرهم عمل شاق..!
وأكلنا في صمت.. بعدها جلس عمي يدون قراءات (الكرونومتر) و (الترمومتر) و(البارومتر).. ثم قال:
- والآن يا (أكسل) هذه هي اللحظة بعينها التي سنبدأ فيها رحلتنا إلى قلب الأرض..
وأضاء الكشاف الكهربي وكذا فعل (هانز).. واتجه عمي نحو النفق الموجود على اليمين ودخلة..، وقبل أن أتبعهما رفعت عيني إلى السماء لأري - لآخر مرة في حياتي - ضوء النهار..
كانت الحمم هي التي صنعت هذا النفق لنفسها عام ١٢٢٩ حين ثار البركان آخر مرة.. وكانت جدرانه مغلفة بطبقة معدنية براقة، مما أكسبه جمالا لا يوصف..
- انظر لهذه الروعة يا عمي!
- آه!.. أنت تحبها يا (أكسل).. وإنني لأمل أن ترى أشياء أكثر روعة بالداخل.. فلنتقدم!
كان الأحرى أن يقول: فلتنزلق! لأن الممر كان منحدرا إلى حد لا يوصف، مما جعل من العسير حقا ألا تنزلق..
إلا أن الحرارة لم تزدد إلا أربع. درجات داخل النفق حتى بعد ساعتين من المشي وفي الثامنة مساء أمرنا عمي بالتوقف داخل أحد الجيوب الصخرية، فعلقنا مصباحينا على الصخور.
قد يظن القارئ أن الهواء كان ساكنا، لكنه كان في الواقع يتحرك.. وكنت أستشعر هبات من الريح لا أدري مصدرها، لأن الجوع والإنهاك كانا يمنعانني من التفكير الممنطق.. إن سبع ساعات من الانزلاق ليست بالأمر الهين.

كان القلق يمزقني.. إذ أننا قد اتينا على نصف مخزون المياه الذي نزلنا به، وكان عمي يعول على الينابيع الجوفية، ولكننا حتى هذه اللحظة لم نجد واحدا، لهذا رأيت أن ألفت نظره، فقال:
- هل هذا يثير قلقك؟
- حتما.. قلقي ودهشتي.. إن ما معنا من ماء لا يكاد يكفي خمسة أيام.
- لا تدع هذا يقلقك.. سنجد الماء وبكميات وافرة..
- متى؟
حين تفارق حوائط الحمم.. إن ماء الينابيع عاجز عن اختراقها
- وماذا لو ظلت هذه الحوائط لفترة طويلة؟.. من الواضح أننا لم ننزل كثيرا بعد.
- وماذا يوحي لك بهذا؟
- لأن الحرارة لم تزدد بعد سوى تسع درجات وهذا معناه أننا لم نهبط سوى 1225 قدما..
- هذا يا بني لو كانت قواعدك الحرارية سارية هنا..
إنني واثق تماما بحساباتي من أننا قد هبطنا عشرة آلاف قدم.. ولا شك في ذلك
إن كلام عمى صحيح بلا ريب.. فهو لا يخطئ في شيء كهذا، ومعنى ذلك أننا قد تجاوزنا اقصى عمق بلغة إنسان بـ 6000 قدم.. وكان ينبغي أن تكون الحرارة إحدى وثمانين درجة لا خمس عشرة..
وفي اليوم التالي واصلنا السير في الممر..
وفجأة توقف (هانز)..
لقد كان هناك ممران.. واحد أيمن وواحد أيسر..
وهذا معناه مشكلة.. فأيهما المطلوب..؟



وفجأة توقف (هانز).. لقد كان هناك ممران.. واحد أيمن وواحد أيسر.. وهذا معناه مشكلة..

لم يتردد عمي واختار أحدهما وشرعنا نمشي فيه..
كان هذا خطا لكننا لم نعرف ذلك إلا بعد أيام عديدة..

ولم يكن هذا الممر منحدرا بل يكاد يكون أفقيا.. لم أحب هذا الشعور.. وانتابني إحساس أن شيئا ما ليس على ما يرام، لكني كتمت عن عمي هذا الشعور.. لقد مضينا في الممر ستة أميال حقا لكننا لم نهبط أكثر من ميل واحد.

تناولنا العشاء في صمت ثم أخلدنا للنوم..

وفي الصباح واصلنا مسيرتنا عبر هذا الممر.. هذه المرة كنت واثقا تماما من أنه لا يهبط بل هو بالأحرى يصعد.. لابد أن الأمر كذلك لأنه - حين صارت الساعة العاشرة - كنت قد بلغت من التعب مبلغا كبيرا.. ولم يعد بإمكاني الاستمرار..

هتف عمي في نفاد صبر:

- ماذا دهاك يا (أكسل)؟.. لم لا تسرع؟

- يجب أن أتوقف.. لقد هدني التعب.

- ماذا؟.. بعد ثلاث ساعات في طريق منحدر؟

- منحدر نعم.. ولكن لأعلى!.. نحن نصعد، ولن يستغرق الأمر طويلا حتى نعود إلى (أيسلندا) ثم (كوبنهاجن) ثم دارنا في (هامبورج)!

إنه طريق جيد للعودة، لكنه لا يناسب تماما غرض الوصول لمركز الأرض..

لكن عمي هز راسه في لامبالاة، بمعنى أنه لا يريد أن يسمع أكثر.. وواصلنا مسيرتنا المنهكة عبر النفق..

في الساعة الثانية عشرة بدأت الجدران تتغير.. وبدلا من الحمم المتجمدة بدأت أرى صخورا غريبة منسقة في مجموعات منتظمة.. لا بد أنها كانت تنتمي للحقبة (السيلورية)..

هتفت في دهشة مناديا عمي وانا أشير إلى ما يحيط بنا من أحجار رملية وأحجار جيرية وإردواز:

- انظر يا عماه!

- ماذا؟
ها نحن أولاء قد فارقنا الحمم والجرانيت تحتنا ووصلنا إلى حيث حفريات الحيوانات والنباتات.. أي أننا نصعد.
- أتظن هذا حقا؟
توقعت أن يصرخ عجبا، إلا أنه استمر في السير دون تعليق..!
هل فهم مغزى كلماتي؟ هل هو غير راغب في الاعتراف بخطئه أم أنه يبغي اجتياز الممر حتى نهايته؟
على كل حال.. إذا ما كنت مصيبا سأرى حفريات نباتية وحيوانية تدعم وجهة نظري.. وبعد مائة خطوة رأيت على الحائط ما يؤكد أنني على حق.
هرعت إلى عمي لأريه الحفرية التي في يدي:
- أترى؟
- حسن.. هذه حفرية عادية وشائعة.. وعندي منها مئات في داري.
- لكنها تعني..
- نعم.. نعم.. تريد القول إننا اخترنا الممر الخطأ وأننا - كما تؤكد - نصعد بدلا من أن نهبط.. لكنني لن اتأكد من ذلك إلا عند نهاية الممر..
- أنت محق يا عمي.. محق تماما في حيطتك هذه.
ثم ابتلعت ريقي واردفت:
لكن هناك خطرا يتهددنا.. خطرا يتزايد في كل دقيقة.
- ماذا تعني..؟
- إن الماء يتناقص باستمرار..
قال عمي في برود:
- إذن سينشرب كميات أقل..!.. هذا هو كل شيء..

∞∞∞∞∞∞

لم يعد لدينا من الماء سوى ما يكفي ثلاثة أيام. وكنا ماضين في طريقنا بينما الأحجار لم تزل كما هي أحجارا رملية حمراء إن الأمر يتضح أكثر وأكثر.. إننا في الممر الخطا إلا أن البروفسير (ليدنبروك) لم يبد أية علامة تدل على الاهتمام.. إما أنه كان يتوقع أن يجد فجأة ممرا هابطا لأسفل.. وإما أنه كان يتوقع أن يجد سدّا في الممر من ثم نعود أدراجنا..

لكن شينا من هذين لم يحدث..

كان ظمئي يتزايد تدريجيا حين وجدت أحجارا سوداء على الجدار.. أحجارا لامعة تترك بصمات سوداء على يدي حين لمستها بالصدفة.. إنه فحم!

لكن عمي لم يهتم بالأمر كثيرا حين أخبرته.. وجلس يلتهم طعام العشاء في صمت..

كان ما شربناه كافيا بصعوبة ليروي ظمأنا وحين غرق عمي و (هانز) في النعاس ظللت راقدا على ظهري، أعد الساعات حتى الفجر.. وحتى بدأنا السير مرة أخرى..

وصلنا لكهف ضخم اتساعه مائة قدم، وارتفاعه خمسون قدما وجدرانه من الفحم.. وظللنا نمشي فيه حتى المساء دون أن نشعر للحظة واحدة أننا ندنو من مركز الأرض.

هل يمكنك أن تتخيل مدى نفاذ صبر عمي..؟

وفي السادسة مساء وصلنا لحائط رأسي بلا فتحات.. يسد الكهف.. لقد كانت هذه نهاية الرحلة!

- رائع..!

- صرخ عمي.

- على الأقل فهمنا أننا كنا في الطريق الخطا وأن (ساكنوسم) لم يصل هنا أبدا.. كل ما علينا الآن هو أن نعود أدراجنا لنأخذ النفق الآخر..!
- بالفعل.. لو بقيت لدينا قوة..!
- وما المشكلة؟
- المشكلة أننا غدا لن نجد قطرة ماء واحدة..!
وهنا - ولشدة الغرابة - ذكّر (هانز) عمي أن اليوم هو السبت وأن الوقت قد حان لأخذ الجزء الثاني من أجره...

∞∞∞∞∞∞

يجب أن نتحرك الآن بأقصى سرعة لا وقت نضيعه إذا ما كانت أمامنا ثلاثة أيام حتى نصل إلى نقطة تلاقي الممرين..
وكما قلت لك.. انتهى الماء في مساء اليوم الأول وبالطبع لا يمكنني أن أبين لك كم عانينا من الظمأ.. كم مرة هويت للأرض عاجزا عن الاستمرار، في حين يعينني عمي أو (هانز) على النهوض.. لكن الطريق - على الأقل- كان منحدرا لأسفل مما سهل رحلتنا وهكذا في يوم الأربعاء الثامن من (يوليو) – وصلنا إلى نقطة التلاقي، وقد صرعنا الظمأ والإجهاد، فارتميت على الأرض منهكا غارقا في النعاس..
- يا صغيري البائس!
قالها عمي وهو يحيطني بذراعه.. ولم أكن قد سمعته يتحدث بهذه الرقة والحنان.. وللغرابة لمحت الدموع تلتمع في عينيه..
- اشرب
قالها وهو يقربه زجاجة الماء من فمي.. هل جُن؟.. ماذا يعني؟...
- اشرب!..

نعم.. هذا ماء!.. مجرد جرعة لكنها أعادت الحياة لي..
- هي جرعة ماء.. الأخيرة.. هل تسمعني؟
الأخيرة.. كنت قد ادخرتها من أجلك.. من أجلك أنت.. ولكم قاومت نفسي كي لا أشربها!
سالت الدموع من عيني تأثرا..
- آه يا عمي... شكرا... شكرا..
أبعد عمي عينيه عن عيني وقد بدا عليه الخجل مني..
- والآن يا عمي.. لقد حان الوقت لنعود أدراجنا..!
- إذن فهذه الجرعة من الماء لم تزدك شجاعة..
- أصغ إلى يا عمي.. لم تزل العودة ممكنة.. أرجوك..
- أعود؟
وبدا لي في هذه اللحظة كأنه يحدث نفسه في الواقع:
- أعود بعد كل هذا العناء، وبعد أن صرنا قاب قوسين من النجاح؟
- ومن الموت.
- إذن غد وحدك أنت و (هانز).. اتركاني هنا لأنني لن أتراجع حتى لو كان على أن أقضي وحيدا.
هيا.. اذهب..!.. اذهب.
كان هذا مستحيلا بالطبع.. وظللنا نتجادل أمام (هانز) الذي شرع يرمقنا في لا مبالاة، وقد فهم من حركاتنا بالطبع أن هناك خلافا ما بيننا، وأن كل واحد منا يحاول إقناع الآخر باتخاذ طريق مختلف.. لكن الأمر لم يكن يعنيه كثيرا.. هو على استعداد أن يعود إذا ما طلب منه عمي ذلك كتابة.. وعلى استعداد أن يستمر إذا ما أراد عمى ذلك منه.. لكم وددت لو أنه استطاع أن يفهمني..!

اتجهت نحوه وشرعت أجذبه من يده مشيرا إلى اتجاه العودة ليفهم ما أريد... لكنه اكتفي بهز رأسه والإشارة نحو عمي قائلا:
- سيد!!
- سيد؟.. لكنه سيد مصيرك أنت.. يجب أن نعود وأن نأخذه معنا.
قال عمي في رزانة:
- اهدأ يا (أكسل) واصغ لما سأقول.. إننا لم نجد ماء في الممر الأول، والماء هو مشكلتنا الوحيدة، لذا سنحاول أن نجد حظا أفضل في الممر الثاني..
هززت رأسي لأقول شيئا إلا أنه قاطعني:
- اصغ للنهاية... بينما كنت راقدا فعلت ذلك الشيء الذي كان على أن أفعله من قبل.. مضيت أستكشف الممر.. إنني واثق أنه خلال ساعات سيقودنا إلى صخور يجري الماء بينها. إنه الطريق الذي اتخذه (ساكنوسم) من قبل وهو يحتاج إلى الماء مثلنا طبعا.. وحيث وجد هو الماء سنجده نحن..، لقد كان رجال (كولومبوس) يطالبونه بالعودة، لكنه طلب منهم ثلاثة أيام فقط.. وقبل أن تنتهي هذه الأيام الثلاثة كانوا قد اكتشفوا (أمريكا).. سأكون أنا (كولومبوس) هذا العالم لكني لن أطالب بثلاثة أيام بل بيوم واحد.. يوم واحد.. بعده سنعود أدراجنا.. فهل هذا كثير؟
بدا لي كلامه منطقيا.. فهززت رأسي موافقا:
- بارك الله في رجاحة عقلك وصبرك ..، إن الوقت ضيق لذلك دعنا نبدأ في الحال..

∞∞∞∞∞∞

5 - الرحلة تستمر..

شرعنا نجوب الممر الجديد يتقدمنا (هانز) كالعادة.. وما أن قطعنا مائة خطوة حتى رفع عمي مصباحه يتفقد الصخور.. وهتف:

- هذا هو الممر الصحيح.. لا أخطاء هذه المرة.. فإلى الأمام!

وفي الثامنة مساء لم نكن قد وجدنا أي أثر للماء كان الإجهاد والظمأ يقتلانني لكني تحاملت على نفسي إلى أن.. إلى أن فقدت كل القدرة لي على الاستمرار وهويت على الأرض صارخا:

- إنني أموت!.. إليّ.. إليّ!

عاد عمي وانحنى بجواري.. وسمعته يقول:

- هذا ينهي كل شيء..

غبت عن الوعي وحين أفقت وجدتهما جالسين جواري لا يتحركان فهل كانا نائمين؟.. كنت أعرف أنه ما من شيء يمكن عمله ولا شيء يعيننا.. هذا ينهي كل شي.. حقا.. لم يعد حتى ترف العودة متاحا، لأن ستة أميال من قشرة الأرض تعزلنا عن العالم الخارجي.. حتى لأكاد أشعر بثقلها فوق روحي..

وفي الظلام سمعت جلبة.. فتحت عيني ببطء لأرى (هانز) ينسل من المكان حاملا مصباحا إلى أين هو ذاهب؟.. حاولت أن أنادي.. أن أصرخ.. لكن صوتي خرج مخنوقا:

- (هانز) قد غادرنا!.. (هانز)!..

لكن هذه الكلمات لم تخرج من حنجرتي.. أهو يفر؟.. كلا.. لابد أنه يعتزم أمرا ما، لأنه يتوغل داخل الممر بدلا من الخروج منه، وتلك علامة طيبة.. هدأت قليلا لكني ظللت أتساءل عن سبب رحيله.. وتصارعت مئات الأفكار السوداء في رأسي حتى ظننت

أني جننت.. في النهاية سمعت صوت خطواته.. ولمحته عائدا حاملا مصباحه، ثم اتجه لعمي وهز كتفه برفق.. وقال:
- فاتّن..!
لم أكن أفهم الدانمركية، لكن رنين الكلمة كان مألوفا.. فصرخت:
- ماء!.. ماء!
صرخ عمي متسائلا:
- ماء؟.. هفار..؟
- نيدات..!
لقد فهمت... فجأة صرت أجيد الدانمركية.. الماء تحت!
وهكذا استرددنا نشاطنا وشرعنا نجدّ السير عبر الممر نصف ساعة كاملة ولا أثر للماء.. كاد أملي يموت لكن عمي طمأنني أن الماء قريب... وأن هناك نهرا يجري خلف الجدار بمحاذاتنا لأنه يسمع صوت الماء بوضوح..
ومر نصف ساعة آخر والأمل يلتمع أمام عيوننا والصوت يتعالى، ثم بدأ ينخفض!.. معنى هذا أن هذه هي أقرب النقاط للنهر ومن الحكمة ألا نتحرك أكثر..
في هذا المكان جلسنا نصغي لصوت الماء العذب المعذّب..!
لم ييأس (هانز) بل شرع يتنقل هنا وهناك يلصق أذنه بالجدار باحثا عن أعلى نقطة يسمع عندها خرير النهر..، ثم أمسك بالفأس وشرع يهشم الصخر.. يا له من ذكي!.. لم تكن لتخطر لي فكرة مماثلة أبدا.. لكنها خطرة.. خطرة.. فقد ينهار النفق كله فوقنا وقد ينبثق تيار جارف من مياه النهر يجتاح كل شيء.. ولكن ليكن ما يكون.. فلن نبالي بشيء.. نريد الماء ولا يعنينا ما يحدث بعد ذلك..
ساعة كاملة قضاها في الحفر وأنا وعمي نرمقه في نفاد صبر عاجزين عن مساعدته..

وفجأة انبثق تيار من الماء عبر الفتحة..!



وعلى الرغم من أن المرأة لم تر سمكة القرش، إلا أن الخوف سرى في عروقها، ودفع كمية من الأدرينالين إلى دمائها..

أطلق (هانز) صرخة ألم حين مسه الماء، وكذا أنا حين مددت يدي لأشرب.. لقد كان الماء يغلي..

- اللعنة!.. إنه ساخن.
- لا عليك.. سيبرد حالا.
وبعد دقائق أمكننا أن نشرب.. يا للروعة!...
لا يمكنني أن أشرح لك أية نشوة شعرت بها إلا إذا كنت قد جربت الحياة بدون ماء بضعة أيام.. كان الماء مجهول المصدر دافئا.. لكنه ماء!.. ولقد أعاد الحياة لنا حتى أنني ظللت أجرع منه دون حيطة.. وإن سألت عمي:
- طعمة كالحديد إلى حد ما..
- عظيم!.. هذا مفيد للصحة..
- هل أنت واثق؟
- طبعا.. هذا الماء آت من على عمق ستة أميال تحت الأرض أي أنه لم يلوث..، إن (هانز) يستحق أن نطلق اسمه على هذا النهر..
كان الماء مستمرا في التدفق مكونا مجري صغيرا عبر صخور الكهف.
وهكذا أسمينا هذا النهر (هانز باخ) بمعنى (تيار هانز).. إلا أن أقلنا اهتماما بهذا الشرف كان هو (هانز) نفسه الذي لم يتغير هدوءه المعهود.. ثم إنني قلت لعمي وأنا أحاول سد الثقب:
- يجب أن تمنع هذا الماء من التدفق بعد أن تملأ زجاجاتنا..
- ولمه..؟
- لأن...
وتوقفت لأنني لم أجد سببا منطقيا.. لهذا قال عمي:
- لندعه يتبعنا ويتدفق بشكل طبيعي، وسيكون مرشدنا عبر الممر، ويمدنا بالماء كلما احتجنا إليه..
- إنها فكرة رائعة،، وطالما ظل هذا المجرى يرافقنا فلا يوجد سبب يمنعنا من النجاح..

ضحك البروفيسور في مرح:
- هأنتذا تقترب من الصواب يا بنى!
. أنا لا أقترب من الصواب، بل وصلت إليه فعلا.. هيا بنا!
ليس قبل بضع ساعات من الراحة
لقد أنستني الحماسة أن الليل قد جاء، وهكذا أخلدنا للنوم أخيرا..

∞∞∞∞∞

حسين صحوت في الصباح دهشت للحظة من أنني لا أحس الظمأ، ثم تذكرت أحداث الليلة الماضية فهدأت بالا، وشرعت أتناول طعام الإفطار بمعنويات عالية.
كيف لا ينجح عمي إذا ما كان في حوزته دليل مثل (هانز) ورفيق رحلة مثلي؟.. إن كل ما علينا هو أن نستمر في النزول.. فأي شيء أهون من ذلك؟!..
في الممر واصلنا الرحلة. لكنه كان يتعرج ذات اليمين وذات اليسار، حتى أننا سرنا مسافة هائلة خلال يومين دون أن نهبط كثيرا في الواقع..
وفي يوم الجمعة - العاشر من يوليو - وجدنا حفرة هائلة تبدو بلا قاع عند أقدامنا، وقد أثار منظرها الرعب في قلبي لكن عمي سُرّ كثيرا لدى مرآها..
- رائع!.. ستأخذنا هذه مسافة هائلة لأسفل.. ولن تخيفنا الصخور البارزة من الجدران لأنها ستعمل كدرجات السلم..
كان النزول سهلا لأن الدرجات كانت منتظمة كأنما نحتت بيد إنسان، وكنا نتوقف من حين لآخر لتناول الطعام والشراب من المجرى المائي الذي غدا الآن يتساقط من أعلى علينا..

لقد هبطنا خمسة عشر ميلا تحت سطح الأرض حتى هذه اللحظة.. واليوم هو الثاني عشر من يوليو..
وحين أخبرني عمي أننا قطعنا - بحسب البوصلة - مائة وخمسين ميلا باتجاه الجنوب الشرقي شعرت بدهشة، وسالته:
- معنى هذا أننا لم نعد تحت (أيسلندا)..؟
- هل تعتقد هذا؟
- يمكننا التحقق من ذلك.
وأخذت الخريطة منه وقمت ببضع عمليات حسابية أكدت لي وجهة نظري..
لقد عبرنا (كيب بورتلاند) أي إننا الآن تحت البحر...!
- رائع!.. تخيل أية روعة!
أما أنا فلم أبتلع تماما فكرة أن أمشي تحت قاع البحر.
وعلى كل حال فالأمور تتساوى بالنسبة لنا سواء كنا تحت قاع الأطلنطي أو تحت هضاب (أيسلندا).. فلا فارق بين صخور وصخور لا نرى سواها.. لقد نسيت تماما كل شي عن النجوم والشمس والشوارع والبيوت..
وتستمر الرحلة..
إلى أن جاء اليوم الذي أخبرني فيه عمي أننا الآن على عمق ثمانية وأربعين ميلا.. فقلت في حيرة:
إن المسافة من سطح (أيسلندا)
إلى مركز الأرض هو 4750 ميلا... أليس كذلك؟
- بلى..
- لنقل إنها 4800 ميل.. ونحن قطعنا جزءا من مائة في عشرين يوما.. أي أن الرحلة ستستغرق ٢٠٠٠ يوم.. أي خمسة أعوام ونصف!! - لحظة يا عمي..
صمت عمى لحظة، ثم قال بغضب:

- من أدراك أن أرقامك صحيحة؟.. ماذا يؤكد لك أن تستمر الرحلة على نفس المنوال؟.. ثم إن هناك من سبقنا إلى هذا، وحيث نجح هو سننجح نحن.
- أتمنى ذلك ولكن من حقي أن..
- أن تخرس يا (أكسل) وتريحني من حماقتك!
وهكذا.. خرست.
قال عمي وهو يشير للبارومتر ليبعد تفكيري عن خواطري السوداء:
- انظر إلى هذه القراءة... ماذا تري؟
- أرى ضغطا جويا هائلا..؟
- وبرغم هذا لا نعاني منه، لأن أجسادنا قد اعتادته.. هل تشعر به؟
- مجرد ألم في أذني ([1]) لا أكثر..
- هذا لا شيء.. وسيزول بمجرد أن تتنفس بسرعة لدقيقة..
- نعم بالفعل!.. وهل لاحظت إلى أي حد غدا الصوت نقيا واضحا؟
- طبعا..
- إذن فالهواء يزداد ثقلا كلما نزلنا أكثر.. حتى يغدو وزنه كالماء.
- هذا محتم.
- إذن كيف نستطيع الحركة في هواء كهذا؟..
- سنملأ جيوبنا حجارة عندئذ..!.. هذا كل شيء..!
إن عمى - حقا - يملك إجابة مفحمة على كل سؤال.. لكن الحقيقة العلمية هي أن الهواء سيغدو صلبا في لحظة ما.. ومن الصعب أن أتخيل نفسي أتحرك في هواء صلب!.. لكنني لن أعاود الحديث عن (ساكنوسم) اللعين، الذي قام برحلته في

القرن السادس عشر قبل اختراع (البارومتر).. فكيف عرف أنه قد بلغ مركز الأرض حقا؟!

∞∞∞∞∞

لم يحدث شيء ذو بال في الأسبوعين التاليين لمحادثتنا هذه..
وفي اليوم السابع من أغسطس كنا على عمق تسعين ميلا تحت الأرض.. وكنت أسير في المقدمة..
وفجأة.. التفتُّ خلفي فوجدت نفسي وحيدا..!
قلت لنفسي:
. فليكن.. لقد أسرعت أكثر من اللازم، أو هما قد عثرا... فلأعد لهما ولحسن حظي أن الطريق ليس شديد الانحدار...
وبدأت أعود أدراجي.. ولكني - وبعد ربع ساعة - لم أجد أحدا.. ناديت فلم أسمع ردا...
وهنا بدا الهلع يتملكني...
فلتهدأ.. تجدهما ثانية.. لا يوجد طريقان وأنت كنت في المقدمة وبالتالي لن يكون عليك سوى أن تعود..
لا يوجد احتمال ثان... ومضيت عائدا نصف ساعة آخر دون جدوى.. لا صوت..
كلا.... لا أصدق لحظة أنني قد فقدت طريقي وأنني وحيد.. لا يوجد سوى ممر واحد.. وحتما سأجدهما إلا إذا كانا شاردي الذهن وعادا للبحث عني.. لكن حتى هذا يمكن التغلب عليه بأن أسرع قليلا ولكن.. هل حقا كنت أسبقهما؟.. بالطبع.. (هانز) كان خلفي ثم عمي..
إن الشكوك تغزو روحي.. لكنني لم أكن لأضل طريقي طالما أن مجرى الماء يجري جواري ويقودني..

قررت أن أغسل وجهي لأنتعش قليلا وانحنيت لأقبض كفى على الماء لكن يدي لم تمس سوى الجرانيت.....
ليس هناك مجرى مياه عند قدمي...!!
لا أستطيع هنا أن أصف ذعري..
لقد دفنت حيا.... سأموت جوعا وظمأً وبردا..
لا بد أن الممر قد تفرع في نقطة ما لم أشعر بها تتبعت أنا الاتجاه الخطأ على حين سار المجري في اتجاهه الصحيح حاملا معه صديقيّ..
ولكن كيف أعود.. لا أثر يهديني.. لقد فكرت مرارا ومرارا بلا جدوى.. أنا ضائع..... ضائع ويجب أن أترك كل أمل وبالطبع أستطيع أن أتخيل تعاسة عمي وهو يبحث عني بلا طائل.. عمي المسكين!، والآن - وقد ضعت تماما - شرعت أصلي داعيا الله أن يرأف بحالي أنا الذي لم أصل منذ أعوام..
وتدريجيا بدأ الذعر يفارق روحي..، والتعقل يعود... إن معي من الطعام والشراب ما يكفي لثلاثة أيام..
ومن الحماقة أن أنتظر الموت في مكاني..، فلأتحرك.. ولكن في أي اتجاه؟!... إلى أعلى بالطبع... هذا هو أملي في أن أجد نقطة التفرع.
وليكن شاغلي الأكبر أن أجد نهر (هانز باخ) مرة أخرى..

∞∞∞∞∞∞

ظللت نصف ساعة كاملا أسير صاعدا النفق محاولا أن أستعيد شكل الصخور أو أي شيء.. ثم فهمت أن النفق الذي أسير فيه لن يقودني لأي مكان.. لأنه مسدود.
هويت جوار الحائط مفترشا الصخور..

لا جدوى..... إن ميتة شنيعة تنتظرني لا محالة..
إن المصائب لا تأتي فرادى.. وها هو ذا مصباحي يضعف ويتراقص ضوؤه من جراء سقطتي.. والآن – في أية لحظة - سيولى الضوء للأبد تاركا إياي وحيدا في غبشة الظلام..
ها هو ذا..! لا ضوء..! دوت صرختي الملتاعة في الظلام.. الظلام البكر الأولى.. ظلام.. الظلام..
شرعت أجري.. أتحسس الصخور.. أصطدم بها أتعثر.. أنهض.. ألعق الدم السائل على وجهي.. أين أذهب؟.. وأين أنا؟..
ساعات لا حصر لها مرت على وأنا أتحرك كالذبابة في كل مكان، وفي النهاية خارت قواي وهويت - كجثة - جوار الحائط فاقدا إحساسي بالعالم كله..

∞∞∞∞∞

بدأت أفيق مدركا - في هلع – أنني لم أمت بعد...
وهنا سمعت ضوضاء تصطدم بأذني.. ثم تخفت وتبتعد..
من أين تأتي؟.. حتما من مكان ما تحت الأرض.. من انهيار صخري أو اصطدام غازات بعضها بالبعض وهنا عادت الضوضاء.. كأنها كلمات.. كلمات لا أعرف لها معنى لكنها كلمات.. وليست مجرد أصوات عشوائية..
اهتززت من فرط الانفعال..
هل هو خيال؟.. لا.. إنه شخص ما يتكلم لا شك في ذلك.
أكاد أسمع كلمة تتكرر.. كلمة كأنها تقول
(فورلوراد).. ما معناها؟ ومن يتحدث؟.. هل هو عمى أم (هانز)؟.. وهل يسمعانني ما دمت أسمعهما؟..
ناديت بأعلى صوتي:

- هنا... هنا ..
وانتظرت هنيهة منتظرا دون جدوى..
ظللت أنتقل جوار الحائط مصيخا السمع حتى وجدت نقطة يدوي الصوت كأوضح ما يكون.. (فورلوراد.. فورلوراد).. ثم سمت اسمي.. هذا صوت عمى حتما..
لا بد أن (فورلوراد) كلمة دانماركية يرددها (هانز)..
والآن.. لا وقت لدي أضيعه.. يجب أن أناديهما قبل أن يبتعدا..
لهذا صرخت بأعلى صوتي:
- عمي ليدنبروك!!..
يبدو أن الهواء بطيء في نقل الصوت هاهنا.. إن الهواء الثقيل هو السبب.. إنه ينقل الصوت أعلى، ولكن أبطأ مما على سطح الأرض..
- (أكسل)... أهذا أنت؟

....
- نعم!

....
- أين أنت؟

....
- ضائع في ظلام مدلهم
- (أكسل)!.. عزيزي.. كن شجاعا.. لا تتكلم...
لقد بحثنا عنك في كل مكان، وأطلقنا رصاص بندقيتينا علك تسمع.. لكننا لا نستطيع أن نتقابل.. ولا نعرف مكانك... لهذا.. سنعتمد على الصوت..

....
- عمي... هل معك ساعة الإيقاف؟

....

- نعم..

....

- خذها..... ناد اسمي واضغط زر التشغيل..

وبمجرد أن أسمع أنا صوتك سأنادي اسمك.. وهكذا تضغط الزر ثانية.. وسيكون الوقت الذي يستغرقه صوتك وصوتي في التنقل مقسوما على اثنين، هو الوقت الذي يستغرقه الصوت لقطع المسافة بيننا...

....

- مستعد؟

....

- نعم..

....

ووضعت أنني لصق الحائط.. وما إن سمعت كلمة (أكسل) حتى صرخت (ليدنبروك).. وانتظرت رد عمي:

- أربعون ثانية! أي أن المسافة بيننا يقطعها الصوت في عشرين ثانية.. وسرعة الصوت 1020 قدما في الثانية، أي أن المسافة بيننا تقترب من أربعة أميال.. ([2])

....

كدت أبكي من خيبة الأمل إلا أن عمي صاح:

- ليست مسافة مستحيلة يا (أكسل)..!

....

- لكن هل أصعد أم أهبط؟

....

- اهبط.. لأننا قد وصلنا إلى مكان واسع تجري عبره عدة ممرات... ولا بد أن الممر الذي أنت فيه يقود إلى هنا.. ازحف..

امش.. عبر الممر الزلق ولا بد أن تجدنا ننتظرك في النهاية.
- وداعا عمي وأرجو أن نلتقي ثانية لأنني لن أسمعكما متى غادرت هذا المكان.

....

حمدت الله على أن قاد خطاي إلى المكان الوحيد الذي يمكنني فيه أن أسمع عمي عن طريق ظاهرة صوتية معروفة تجعل الصوت العادي ينتقل بشكل أفضل..
لقد رأيت ظاهرة مماثلة في كاتدرائية (سان بول) في لندن.. وفي كهوف (صقلية) وممراتها قرب (سيراكوز)..
المهم الآن أن أبدأ الزحف.. إن الممر شديد الانحدار حتى أنني كنت أتدحرج على صخوره.. أتدحرج.. أتدحرج..
وفقدت وعيي حين اصطدم رأسي بصخرة حادة ولم أدر بشيء بعدها..



هبط الصقور بـ (دايل) و (زوركوف) في ذلك العش الهائل ، عند قدمي رجل ضخم الجثة ..

∞∞∞∞∞

6- بحر الأعماق

حين أفقت وجدت نفسي في مكان مظلم، وعمي يحدق في...
فتحت عيني، فصرخ في لهفة:
- إنه حي!.. حي.... حمدا لله على نجاتك!
ثم جاء (هانز). وبدا على وجهة الساكن تعبير قوي من الرضا.. وقال:
- جود داج.. (نهارك سعيد).
. ونهارك أنت أيضا سعيد يا (هانز)... والآن يا عماه.. أين نحن؟
- غدا يا (أكسل).. غدا.. فاليوم أنت مريض ورأسك جريح إلا أنني سأعني به.. فقط نم.. وغدا ستعرف كل ما ينبغي أن تعرفه..
على الأقل قل لي في أي يوم نحن وأية ساعة؟
- إنها الحادية عشر مساء يوم الأحد.. التاسع من أغسطس.. والآن نم.. فلن أجيب عن أسئلتك حتى الغد..

∞∞∞∞∞

.. عندما استيقظت من نومي كنت في كهف متسع رائع الجمال.. والأرض مغطاة برمل أبيض نظيف.. وثمة ضوء ما قادم من فتحة ضيقة.. وكان هناك صوت غامض كهدير موج البحر آت من بعيد..
هل أنا حقا متيقظ؟ أم ما زلت أحلم؟.. لا يمكن لحلم أن يبدو واقعيا إلى هذا الحد..
هل أنا على سطح الأرض؟
هل تخلى عمى - أخيرا - عن استكشاف الأرض..؟

كنت غارقا في هذه الأسئلة حين دخل عمي وحياني وأبدى سروره من أنني استعدت قواي.. ثم قدم لي طعام الإفطار.
- عمى.. هل أنا حقا بخير؟
- بالطبع.. لا شيء بك.
- ألسنا على سطح الأرض؟
- نعم ..
- إذن أنا قد جننت حتما إذ أرى ضوء النهار وأسمع الرياح.
- أهذا هو ما يقلقك؟
- طبعا... اشرح لي.
- لن أشرح شيئا لأني لا أملك تفسيرا.. سترى بنفسك أن علماء (الجيولوجيا) لا يعرفون أي شيء.. كل معلوماتهم غير دقيقة.
إذن.. لنذهب في الحال...
- كلا يا (أكسل).. إن الهواء الطلق سيؤذيك حتما..
- هواء طلق؟!
- بالطبع ويجب أن نبحر كذلك...
- نبحر؟!
وكان انفعالي قد وصل حدا لا يوصف مما جعل عمي يطلق سراحي، وقد أدرك أن منعي سيؤذيني أكثر من تركي أستريح..
في البدء كان الضوء ساطعا إلى حد أنني لم أر شيئا وحين فتحت عيني.. لم أستطع أن أفهم شيئا على الإطلاق.
- هذا بحر!
- قال عمي في هدوء:
- نعم.. بحر (ليدنبروك).. هكذا أسميته على اسمي.
كان أمامي بحر حقيقي له شاطئ حقيقي من الرمال البيضاء.. وريح هادئة تهبّ..، يترقرق كل هذا في ضوء أبيض هادئ بارد ليس مصدره القمر ولا مصدره الشمس.. فمن أين يأتي؟

وكانت هناك سماء تملؤها السحب فوق كل هذا لكنني كنت أدرك أنها ليست سماء حقيقية.. لابد أنه فوق هذه السحب يوجد سقف هائل من الجرانيت على ارتفاع لا يقل عن تسعة أميال..
وكان عمي - الذي اعتاد هذا المشهد - يقف ساكنا جواري.. على حين انحدر مجرى الماء (هانز باخ) رفيق رحلتنا ليصب في البحر، وكأنه قد اعتاد ذلك من بدء الخليقة..
- يحز في نفسي أن نفارقه الآن!..
- وماذا في ذلك؟.. إن مجاري المياه تتشابه كلها.
قالها عمي في نكران جميل واضح..
وهنا لمحت - على بعد خمسمائة خطوة - غابة... من الأشجار الشامخة.. ولكنها شديدة الغرابة.. أشجار بلا أوراق ولا تداعبها الريح.. دنوت منها لأعرف كنهها، فسمعت عمي يقول:
- إنه (عش الغراب)..!
على أننا على البعد لمحنا أشجارا أخرى من تلك التي عرفتها الأرض منذ ملايين السنين وتجهلها الآن.. بل ولمحنا عظاما لحيوانات مريعة كالتي عرفَتها منذ خمسين مليون سنة..
إن هذا الكهف متحف حقيقي..!
وجلست على صخرة أرمق منها هذا الساحل الممتد أمام عيني أكاد أتوقع أن أرى سفنا أو زورقا.. لكننا - بالطبع - كنا الشيء الوحيد الحي في هذا العالم السفلي.
ما هو هذا البحر؟.. إلى أين يمتد؟.. هل سنرى الجانب الآخر منه؟
في الصباح نزلت لأسبح في هذا البحر (المتوسط) وهو - بالمناسبة - اسم مناسب تماما له لأن (متوسط) تعني أنه يقع في وسط الأرض.. وعدت لأتناول إفطارا شهيا، حين قال عمي:

- هذا هو وقت المد..
- المد..؟
- طبعا.. إن هذا البحر لا يختلف عن باقي البحار..
وهو مضطر أن يستجيب لجذب الشمس والقمر.. إنها قوانين (الفيزياء) الصارمة..
- وما هو عمقنا الآن يا عمي؟
- مائة ميل.. وقد ابتعدنا ألفا وخمسين ميلا عن (أيسلندا)..
- إذن نحن الآن تحت (اسكوتلندا)؟
- حتما.. ومن الضروري أن نعبر هذه البحيرة باحثين عن ممر آخر نستكمل به رحلتنا..
- وكيف نعبرها؟.. هل توجد سفينة ما تنتظرنا؟
- لا سفن يا بني.. بل طوف قوي مريح..
- طوف؟.. ولكن من أين؟..
- إن (هانز) يصنعه الآن.
- (هانز)؟.. وكيف استطاع قطع الأشجار؟
- هو لم يحتج لذلك... اتبعني لترى وتقدمني عمى إلى مكان على الشاطئ خلف بعض الصخور لأجد (هانز) يعمل في بناء الطوف، الطوف الذي كان – لشدة دهشتي – على وشك الانتهاء الآن.. ومصنوعا من خشب عجيب الشكل.
- عمي.. أي نوع من الخشب هذا؟
- خشب حفري طبعا.. خشب تحجر بفعل مياه البحر..
- إذن هو ثقيل كالحجارة ولن يطفو..
دون كلمة أمسك عمي واحدة من هذه الأخشاب وألقى بها في الماء.. فهبطت.. ثم عادت تطفو في رزانة.
- هل اقتنعت؟
- لا أصدق لكني اقتنعت.

وانتهى الطوف في مساء اليوم التالي بفضل مهارة دليلنا.. وبعد نصف ساعة كان يسبح فوق مياه (بحر ليدنبروك)..

∞∞∞∞∞

شرعنا نمخر المياه و (هانز) يتحكم في اتجاهنا بوساطة دفة صغيرة اصطنعها لنا.. أما شراعنا فكان سجادة صغيرة علقناها على سارية صغيرة في منتصف الطوف..
كان الطوف متينا.. ولقد وضعنا عليه طعامنا وأجهزتنا ومتاعنا والكثير من الماء دون قلق أما الريح فكانت قوية بشكل غير عادي بسبب ثقل وزن الهواء، مما جعلنا نتحرك بسرعة تسعين ميلا في اليوم.. وتوقع عمي أننا سنصل سريعا إلى الجانب الآخر.. وطلب مني أن أدون يوميات تفصيلية عن اتجاه الريح وسرعتنا والمسافة التي نقطعها..

الجمعة 14 أغسطس:

الريح شمالية غربية.. لقد اجتزنا مسافة تسعين ميلا بعيدا عن الساحل.. لم تتغير شدة الضوء السحب في السماء لها لون الفضة.. درجة الحرارة اثنان وثلاثون درجة.
جرب (هانز) أن يربط قطعة من اللحم في سنارة ورماها بحبل إلى الماء.. وطفق ينتظر وهنا - ولدهشتنا - شرع شيء ما يجذب السنارة فجذبها (هانز) سريعا، وكانت هناك سمكة تتدلى منها.. سمكة لها رأس مسطح مستدير.. وليس لها أسنان ولا عينان ولا ذيل.. أما جسدها فمغطى برقائق عظمية سميكة..
- ما أغربها سمكة!
قال عمي، وهو يتأملها:

- بالفعل.. إنها سمكة منقرضة من ملايين السنين.. سمكة من العصر (الديفوني)... وإنها لمعجزة أن نجدها حية ترزق..
شرع (هانز) يجرب حظه مرارا.. وفي كل مرة يجد أسماكا أخرى كلها - أو كنا نظن أنها – منقرضة.. لكنها صالحة كي تدخل قائمة طعامنا بكل ترحاب..
إن هذا السمك الدليل يثير الرعب..
ألا يعني ذلك أن هناك احتمالا أن نلقي بين لحظة وأخرى واحدة من تلك الزواحف المريعة التي عرفتها الأرض من ملايين السنين؟!
بدأ هذا الهاجس ينغص على حياتي ويملأ لحظات شرودي بالكوابيس والوحوش المفزعة...

السبت 15 أغسطس:.

لم يتغير شيء.. وما من أرض على مرمى البصر .. عمي يكاد يجن غيظا.، وهو ما لم أفهمه.. إن الرحلة تمضي بسرعة وسلام، فماذا يضايقه؟..
- هل هناك شيء يا عمي؟
- بل لا شيء.. وهذا هو ما يضايقني..
- لكننا نتحرك بسرعة..
- نعم بسرعة.. لكن هذا البحر لن ينتهي.. ونحن لا نهبط.. أي أن كل هذا وقت ضائع..
- ولكننا نقتفى أثر (ساكنوسم)... و...
صرخ في عصبية:
- هذه هي المشكلة!.. هل حقا نحن في مسار (ساكنوسم)؟.. هل قابل هذا البحر؟.. هل عبره..؟.. لا دليل على ذلك.

قلت في هدوء:
- على كل حال لا داعي للقلق.. إن كل ما نراه جديد.. والرحلة تسير على ما يرام تماما..
- لكننا لا نهبط!!
وفي هذه اللحظة ذكرنا (هانز) أن هذا هو مساء السبت وأنه يجب أن يتقاضى أجر الأسبوع!

∞∞∞∞∞∞∞

الأحد 1 أغسطس:

كعادته حاول عمي أن يسبر عمق البحر.. أمسك بمعول ثقيل وربطه بالحبل وبدا يدلى به في الماء.. انتهى الحبل ولم يظهر أن هناك عمق لهذا البحر..!
إلا أن شيئا أثار قلقنا حين رفعنا الحبل.. إذ أشار (هانز) إلى علامات معينة على قبضة المعول الخشبية
- تاندر!
لم أفهم.. لكن عمي صاح:
- أسنان!

الاثنين 17 أغسطس:

لم تزل فكرة الأسنان لا تبرح خيالي.. ظللت أرمق البحر في قلق، ثم بدأت أتفحص الأسلحة لأطمئن على أنها بحالة جيدة.. لاحظ عمي ما أفعله فابتسم كأنه يقول: إننا نشترك في نفس الفكرة.. يجب أن تكون حذرين..

الثلاثاء 18 أغسطس:

جاء الليل أو بمعنى أدق شعرنا بحاجتنا للنوم استيقظت على صدمة مروعة.. لقد ارتفع الطوف بقوة ما.. ثم هوى فوق الأمواج مرة أخرى على بعد مائة قدم..
أشار (هانز) إلى جسم عملاق يتحرك علوا وهبوطا على مسافة منا.. فصرخت:
- إنه خنزير بحر عملاق!
قال عمي وهو ينظر في نفس الاتجاه:
- حقا.. وهناك سحلية مائية هائلة الحجم كذلك..
- وتمساح ضخم.. انظر إلى أسنانه...
- هناك حوت كذلك!.. إن الماء ينبثق من نافورته..
أدار (هانز) الدفة ليهرب من حديقة الحيوانات العملاقة هذه.. لكنه فوجئ بحيوانات أخرى آتية من الجهة اليسرى.. سلحفاة مائية.. وأفعى طولها ثلاثون قدما..
لقد غدا الهرب مستحيلا.. إن هذه المخلوقات تتحرك جيئة وذهابا حولنا.. ولا جدوى من إطلاق الرصاص لأن جلد هذه الأشياء لن يكون أقل سمكا من الدروع..
وهنا هز (هانز) رأسه.. وهتف:
- تقا...!
- يقول إنهما حيوانان فقط!
- إنه يهذي يا عمي..
- لا.. هو مصيب.. حيوانان أحدهما له فم خنزير بحر ورأس سحلية وأسنان تمساح وهو حيوان شنيع اسمه (إكثيوسوروس)..
- والآخر؟

- حيوان ذو جسم سلحفاة وعنق أفعى اسمه (بليسيوروس).. وهما على وشك الدخول في صراع.. نعم.. انظر !..
لقد التحم الحيوانان في صراع شرس لا يوصف.. وأخذت الأمواج تتحرك كالجبال نحونا، لكننا لم نكن تمالك سوى أن نتجمد في أماكننا.. ساعتين كاملتين من القتال المريع حتى تحرك الحيوانان غائصين تحت الماء غائبين عن عيوننا.
وفجأة انبثق (البليسيوروس) من تحت الماء...
الدم ينز من جروحه ورأسه تتمايل هنا وهناك.. ثم هوى فوق سطح الماء فاقد الحياة... أما الآخر فاختفى
هل مات؟... هل سيعود؟.. هل ينتظرنا تحت الأمواج في هذه اللحظة؟
لم نجد إجابة لهذه الأسئلة المفزعة..

∞∞∞∞∞∞

الأربعاء 19 أغسطس:

وقف (هانز) على قمة الصارية يرمق الأفق.. وقد بدا أن هناك ما يثير اهتمامه.. فقال عمي:
- إنه يرى شيئا ما..
- أظن هذا..
ثم إن (هانز) نزل إلينا وأشار نحو الجنوب..
- دير نير
- أسفل هناك؟.. فلنر ما يريد..
ونظر عمي في حيرة تجاه الجنوب.. ثم هتف:
- ثمة تيار مائي قوي.. نافورة تندلع من الماء إلى أعلى .
- أتراه وحشا آخر؟

- ربما..
- إذن دعنا نفر..
- كلا.. ليس قبل أن نرى ما هنالك..
وهكذا - مرغما بالطبع - شرعنا نقترب من هذه النافورة.. أي نوع من الحيوانات يمكنه ذلك؟..
وفي الثامنة مساء كنا قد اقتربنا جدا.. كان شيئا ضخما كالجبل وأمواج البحر ترتطم به والماء ينبثق منه إلى ارتفاع خمسمائة قدم، ثم يتساقط على شكل مطر فوق رؤوسنا..
- ما هذا يا عمي؟
لم يرد عمي.. في حين انتابني الهلع.. أي شيء هذا؟.. وهنا وقف (هانز) مشيرا إلى الخطر.. وصاح
وهو يبتسم في سخرية:
- هو لم!
صرخ عمي:
- جزيرة.... مجرد جزيرة، وهذا الماء نافورة طبيعية تنبثق منها.. وهي تبدو كجوت عملاق نائم..
وشرعنا ندور حول الجزيرة نتأملها.. وأسماها عمي باسمي.. ثم أمر (هانز) بمواصلة الرحيل

∞∞∞∞∞

الجمعة ٢١ أغسطس:

كنا الآن تحت انجلترا وعلى بعد ١٨٠٠ ميل من (أيسلندا).. بدأت الريح تزداد قسوة وبدا أن الجو يوشك على التبدل.. وبدأنا نشعر به مشحونا بالكهرباء.. والسحب قد اكتست لونا بنيا فيه شيء من الاخضرار والظلام يتزايد..

إنه نذير عاصفة..
لم يبد على عمى الاهتمام لأن مزاجه لم يكن ليتحمل مزيدا من الاكفهرار، وقد دمرت أعصابه تماما فكرة أن هذا البحر مستمر إلى الأبد..
السحب تضغط على صفحة البحر، كأنما لتريد تحطيمه..
- دعونا ننزل الشراع والصارية
_ كلا..!
صرخ عمي في جنون:
- أريد رؤية صخور الشاطئ حتى لو تهشم هذا الزورق إلى قطع صغيرة!

∞∞∞∞∞

7- بعض المصائب!...

لم يكد عمي يكمل عبارته حتى انهمر المطر مدرارا... وازداد الظلام.. وفجأة يرتفع الطوف لأعلى.. وتدفع الريح المجنونة شراعنا للأمام أسرع وأسرع.. فأشير لـ (هانز) بإشارات تقول له أن ينزله لأسفل.. قبل أن يتحطم..
- لا..!
يصرخ عمي.. فيرد (هانز) وهو يهز راسه موافقا عمي:
- نادي!
المطر ينهال على رءوسنا كالشلال.. والعاصفة في ذروة هياجها.. والرعد يزأر طيلة الوقت دون توقف..
الحرارة تزداد وتزداد.. والجو مشحون بالكهرباء.. والعاصفة لا تهدأ..
كانت ليلة رهيبة..

الاثنين 24 أغسطس:

العاصفة لم تهدأ لحظة.. رباه.. لكم نحتاج للراحة... لقد تركنا جزيرة (أكسل) منذ زمن طويل.. ربما يفصلنا عنها الآن ستمائة ميل..
ها هو ذا عمي يدنو ملي ويقول شيئا ما.. لكننا منذ ثلاثة أيام لا نسمع حرفا مما نقول لبعضنا.. حتى الصراخ في الأذن لا يجدي.. إلا أنني أعتقد أنه يقول:
- لقد ضعنا!.. انتهى أمرنا...
أشرت إلى الشراع بما معناه:
- دعنا ننزله الآن..

فهز رأسه بمعنى: فليكن، وهنا تهشمت صارية الشراع وطار هذا الأخير في الهواء.. وظهرت كرة نارية ملتهبة على حافة الطوف.. كرة لونها أبيض مزرق تتحرك ببطء شديد هنا وهناك..
وتجمد الدم في عروقنا لأنها لو لمست صندوق البارود ستكون النهاية.. إلا أنها تحركت ببطء نحو قدمي.. حاولت أن أجذب قدمي بعيدا عنها فلم أستطع..
وشممت رائحة غريبة في الهواء..
لماذا لا أستطيع تحريك قدمي وكأنها مقيدة إلى خشب الطوف؟
فهمت... لقد مغنطت هذه الكرة الكهربائية كل ما هو معدني على الطوف.. أسلحتنا.. أدواتنا.. حذائي الذي التصدق بقطعة حديد على خشبة الطوف..
وهنا - وقبل أن تلمس الكرة قدمي – انفجرت..

وغرقت في ضوء أبيض مفزع..
ثم ساد الظلام...

الثلاثاء 25 أغسطس:

لا بد أنني فقدت حواسي.. هل حقا ما زلنا في الماء؟... نعم.. مازلنا نندفع للأمام بسرعة مرعبة.. لا بد أننا الآن تحت... لا بل لا بد أننا فارقنا (أوربا) من زمن...
ثمة صخب.. كأنه زئير الأمواج إذ تصطدم بالصخور.. و
لم أدر ما حدث..
فقط شعرت أنني أُقذف إلى الشاطئ فوق الصخور الحادة.. ولولا ذراع (هانز) القوية لتهشمت على الشاطئ وجدت نفسي جوار عمى على حين عاد (هانز) إلى الطرف المهشم محاولا إنقاذ بعض متاعنا..



واتجها إلى الماء، وغسلا وجهيهما في الماء البارد..
كان الجرح في ذراعها، من أثر احتكاك الرصاصة به..

واحتجت إلى ساعة كاملة لأستعيد قدرتي على الكلام وكان (هانز) قد أعد لنا بعض الطعام إلا أني لم أستطع ابتلاع لقمة واحدة.. لقد حطمتني رحلة الثلاثة أيام دون توقف..

لقد انتهت العاصفة أخيرا..
وقف عمي يتأمل البحر الساكن.. وقال:
- آمل أنك قد نمت جيدا يا بني...!
إنه يتحدث كأننا ما زلنا في دارنا في شارع (كونيش).. آه..!.. لو أن العاصفة قد سارت بنا شرقا فلربما كنا الآن تحت (ألمانيا).. تحت (هامبورج) الحبيبة.. بل لربما تحت الشارع الذي تعيش فيه أجمل وأرق فتاة في الكون!.. وعندئذ لا يكون الفاصل بيني وبينها سوى ١٢٠ ميلا.. ١٢٠ ميلا من قشرة الأرض الصلبة!
قلت لعمي:
- تبدو سعيدا حقا اليوم..
بالطبع.. لقد وصلنا؟
- لنهاية.. الرحلة؟
- كلا.. بل لنهاية هذا البحر الشنيع.. سنعود للهبوط..!
تنحنحت، ثم سألته بكياسة:
- هل لي في سؤال يا عماه؟
- أي شيء..
- كيف سنعود؟!
- نعود؟.. نعود قبل أن نصل لنهاية الرحلة؟ كيف تفكر في ذلك؟ وعلى كل حال سنجد وقتها طريقا آخر أو نعود من نفس الطريق، وهو ما لا أراه أمرا مشوقا!
- عندئذ يجب أن نصلح الطوف؟
- طبعا.
- والمؤن.. هل ستكفينا....؟
- حتما.. إن (هانز) قد استنقذ لنا أكثرها..
الواقع أن هذا صحيح للأسف لقد فقدنا أسلحتنا لكننا ظللنا نملك (البارومتر) وهو ما رآه عمى أهم شيء في الرحلة لأنه دليلنا

الوحيد على عمقنا.. ومن دونه - كما قال - سنضل الطريق ونخرج من مكان ما في (أستراليا)....
كذلك أنقذ (هانز) البوصلة الكرونومتر.. والحبال.. والأطعمة أو ما تكفي منها لأربعة شهور.. وهي كمية رأي عمي أنها تكفي للذهاب والعودة، وإيلام وجبة عشاء فاخرة لزملائه في الجامعة.
وجلسنا نلتهم طعام الإفطار سألت عمى عما إذا كان بإمكانه تحديد مكاننا الآن فقال:
- ليس هذا سهلا.. لكن هناك طريقة حتما..
قلت محاولا التذكر..
- عند تلك الجزيرة..
- جزيرة (أكسل).. لا تخجل من تسميتها!
- حسن.. عند جزيرة (أكسل).. كنا قد عبرنا ٨١٠ ميلا من البحر وكنا على بعد ١٨٠٠ ميل من (أيسلندا)..
وفي العاصفة تحركنا بسرعة، 24 ميلا في اليوم لمدة ثلاثة أيام.. لم تقل سرعتنا عن ذلك.
- إذن نحن نبعد ٢٧٠٠ ميل عن (أيسلندا)... أي أننا تحت البحر الأبيض المتوسط.
- لنقول ذلك يجب أن تكون متأكدين من أن اتجاهنا لم يتغير.
- إذن.. فلنر البوصلة.
نهض عمى بنشاط إلى حيث رتب (هانز) المعدات واتجه إلى البوصلة ونظر إلى الإبرة للحظة.. ثم فرك عينيه وأعاد النظر.. وفي ذهول دفع رأسه نحوي.
كانت الإبرة تشير باتجاه الشاطئ وليس البحر.. أي أنها لا تشير إلى ما حسبناه الجنوب.. هززتها.. فحصتها.. لكنها كانت على ما يرام، وهذا يعني شيئا واحدا.. أن الرياح قد أعادتنا إلى الشاطئ الذي بدأنا الرحلة منه!!.. لقد عدنا إلى حيث بدأنا.

لم أر في حياتي رجلا أكثر إحباطا من عمي في البداية ولا أكثر منه جنونا بعدها.. سنعيد كل ما فعلناه بعد كل هذه الرحلة المرعبة..!

- أي حظ سيئ!.. الماء والنار والريح ضدي..! يفعلون كل ما في وسعهم كي يمنعوني..! ولكنهم لن يمنعوني أبدا.. سنرى من ينتصر.. الإنسان أم قوى الطبيعة!
قلت في كياسة:
- اسمعني يا عماه.. ثمة أشياء لا يستطيع الإنسان أن يفعلها.. ثمة أشياء مستحيلة وأشياء غير ممكنة، لكن من الحمق أن يجاهد الإنسان هذه الأشياء المستحيلة.. لسنا في موقف يسمح لنا بعبور البحر ثانية بطوف مهشم وشراع هو سجادة ودون دفة عندئذ تستطيع أية عاصفة أن تصنع بنا ما تريد..
وبالطبع لم يصغ عمي لحرف مما قلت... وصرخ:
- إلى الطوف!
شرعت أقاوم في جنون هذه الإرادة الصخرية دون جدوى... وكان (هانز) بفطرة لا تخيب - قد أعاد إصلاح الطوف.. ووضع معداتنا فوقه وأعد كل شيء لبداية جديدة..
ماذا أستطيع أن أفعل؟.. إن (هانز) يبدو وكأنه لا إرادة له إلا إرادة سيده.. لا أستطيع سوى الاستمرار قال عمي أنه يرغب في استكشاف هذا الساحل قبل الرحيل.. إننا قد عدنا لحيث بدأنا لكن - بالطبع – ليس لنفس البقعة.. ومن حقه حتما أن يرى هذا المكان - فلنذهب إذن..
سرنا نحو نصف ساعة قبل أن نصل لبعض المرتفعات.. نرمق كل شيء في اهتمام عظيم..، وهنا وجدنا عظاما كثيرة على

الأرض كأنها تحكي قصة الحياة كلها.. كأنه متحف كبير للحيوانات التي دبت على هذه الأرض يوما ثم انقرضت..
أما الشيء الغريب الذي لاحظته في سيرنا فهو أننا لا نترك ظلالا على الأرض... كأن الضوء الساطع الذي نراه لا يأتي من موضع بعينه.. بل من كل الاتجاهات..
وبعد أن سرنا نحو ميل وجدنا أنفسنا على حافة غابة لم تكن من عش الغراب تلك الغابة.. بل من أشجار لا أعرفها، ولم يكن لها لون.. وأوراقها تفتقر إلى الأخضر... أما أزهارها فكانت رمادية..
وفجأة تجمدنا في مكاننا...
خيل لنا أننا رأينا... بل هو كذلك... رأينا شكلا ضخما يجول تحت الأشجار.. كان فيلا هائل الحجم يكسوه شعر طويل.. (ماموث)!.. فيل عصر الجليد....
بل كان هناك العديد منها.. ما يقرب من العشرين فيلا يتحركون ببطء محطمين غصون الأشجار..
همس عمي:
- تعالوا نلق نظرة مدققة عليها..
- إن هذا خطر.. فليس معنا أسلحة.. ولو أنها رأتنا.. أنا لا أحسب إنسانا يجرؤ على الدنو منها.
- هل تقول: لا إنسان يا (أكسل)؟.. أظنك مخطئا لأنني أرى إنسانا قرب هذه الحيوانات!
لقد كان مصيبا، فعلى مسافة ربع ميل كان هناك رجل.. مريحا نفسه إلى جذع شجرة.. رجل حقيقي وإن كان حجمه يتناسب مع هذه الوحوش التي يعني بها.. وشعره يحاكي شعرها طولا..
ووقفنا جامدين كالتماثيل الحجرية..
لا يجب أن يرانا هذا الشيء.. يجب أن نفر..

جذبت كمّ عمى في لهفة كي نبتعد.. ولأول مرة في حياته سمح عمى لنفسه أن يستجيب لجذب كمه..
وابتعدنا..
ما زلت - حتى اليوم - أتساءل.. أي شيء أصدق وأي شيء أعتقد.. لا بد أن كل هذا كان وهما جماعيا..
من المستحيل أن يعيش إنسان في الأعماق السحيقة دون أن يعرف كل ما يدور على سطح الأرض..
المهم أننا فررنا كالمجانين قاصدين بحر (ليدنبروك)..

∞∞∞∞∞∞∞

تساءل عمي في حيرة وهو يعيد تأمل المكان:
- ما زلت أتساءل يا (أكسل).. هل حقا كنا هنا؟
- لست واثقا يا عماه.. أحيانا أظن أن هذه الأماكن مألوفة، وأحيانا أظن أنني لم أرها من قبل.
- لكننا لا بد واجدون آثارا تركها (هانز).. في أثناء صنعه الطوف.
- ها هو ذا.
وهرعت إلى شيء ملقى على الرمال والتقطته..
- انظر... سكين..
تأمل عمي السكين ثم سألني:
- (أكسل) يا بني.. هل هذه السكين تخصك؟..
- لا.. حسبتك أنت.
- بالطبع لا..
- إذن ربما هي سكين (هانز)..؟.. لا بد أنه فقدها وهو يصنع الطوف..

- لا.. حتى (هانز) لم تكن عنده سكين مماثلة.. ثم أن عمي هرش راسه مفكرا:

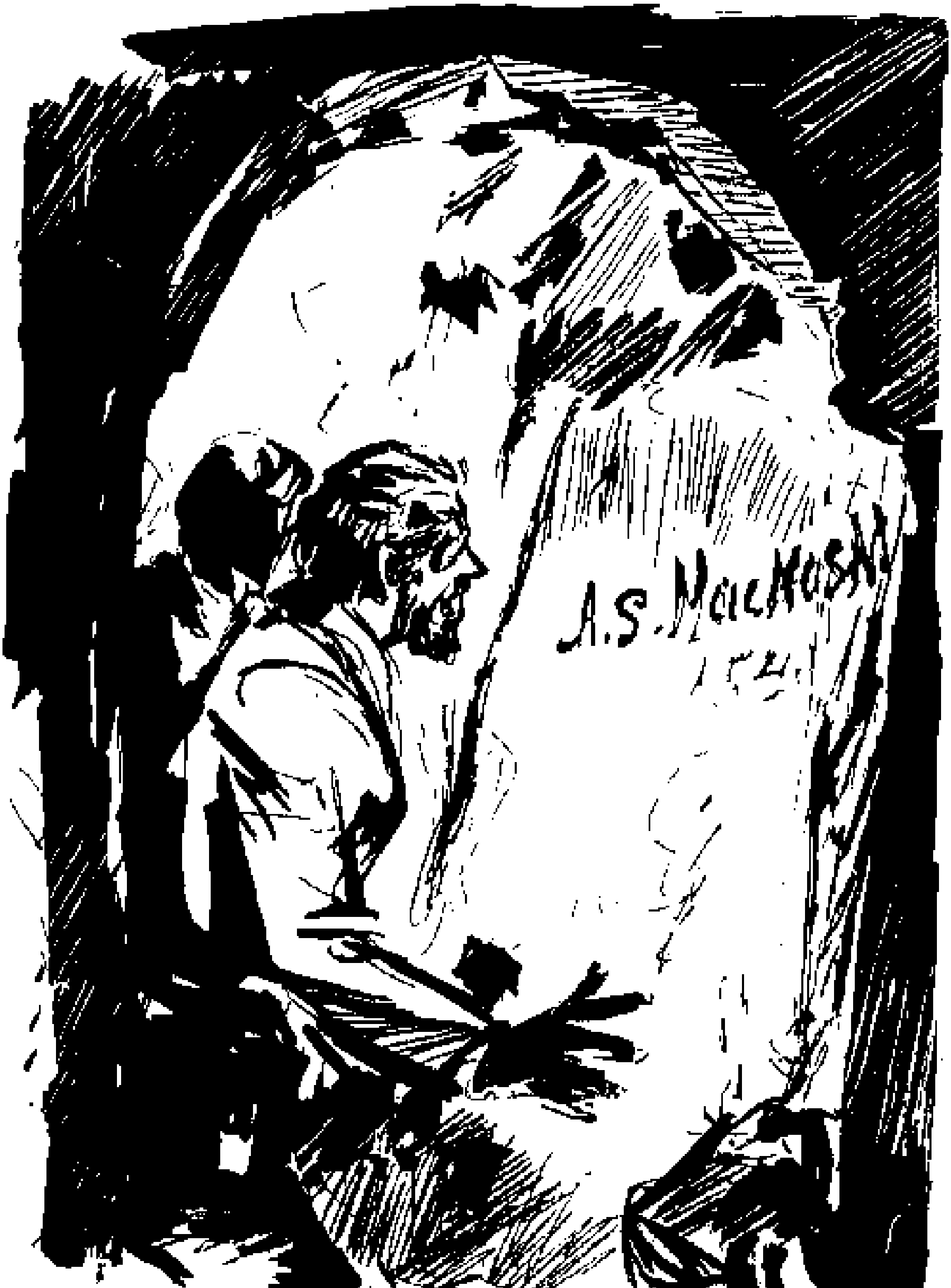
- إن هذه السكين لا تخص أحدنا.. ربما هي تعود إلى ثلاثمائة عام.. ربما هي تخص شخصا جاء هنا قبلنا وأراد أن يحفر اسمه على صخرة بهذه السكين..!

سرنا جوار الصخور نبحث هنا وهناك متفحصين كل شق.. وفجأة.. وبين حائطين من الصخور رأينا فتحة نفق مظلم كبير..

وعلى الجرانيت رأينا حروفا محفورة مألوفة لنا:

- أ. س.. (آرنيه ساكنوسم)!!

دائما وكعهدنا به - يعاود (ساكنوسم) الظهور..!



وفجأة.. وبين حائطين من الصخور رأينا فتحة نفق مظلم كبير..
وعلى الجرانيت رأينا حروفًا محفورة..

وهكذا وقفنا نرمق الحروف في انبهار هو أقرب إلى الجنون.. لقد وصل الرحالة العظيم!.. إلى هنا منذ ثلاثمائة عام.. وحفر اسمه

بل إن الأداة التي استعملها في يدي الآن.. وكل هذا حقيقي لا غبار عليه!!..
كان عمي يحدث نفسه وكأنما يتحدث إلى (ساكنوسم) نفسه:
- أيها الرجل العظيم!.. لم تنس شيئا.. يمكن أن يهدي من يأتون بعدك.. لم تنس شيئا.. وإنني لواثق أنني سأجد اسمك في مركز الأرض.. وسأترك اسمي هناك جوار اسمك..
كانت نار الحماس تلتهب في أعماقي..
إننا سننجح.. سننجح ولن يعوقنا شيء.. فلسنا أقل من هذا الرجل:
- إلى الأمام يا عماه.. إلى الأمام!!
- بل لأسفل يا بني.. لأسفل..!

∞∞∞∞∞∞

8- النهاية

صرخت في عمي بانبهار حقيقي:

- هل تدرك يا عمي أن المصادفات جميعا تعمل لصالحنا؟

. أتظن هذا يا (أكسل)؟

- حتى العاصفة قادتنا إلى الطريق الصحيح.. لقد قادتنا إلى حيث نجد اسم (ساكنوسم) وإلى حيث نجد بداية النفق الذي سلكه..

- الحق أقول لك يا (أكسل) إن حظنا حسن إلي حد كبير..

- ليس مهما أن نفهم ما سر حظنا.. فقط دعنا نستفد منه إلى أقصى حد.

- هذا صحيح.. و..

- سنعود للشمال يا عماه.. نستمر تحت أوروبا بدلا من المرور تحت أفريقيا.. سننزل.. ننزل.. ننزل.. قلت لي كم بقي على مركز الأرض؟

- فقط 4500 ميل..!

- فقط 4500 ميل؟.. هذا لا شيء.. فلنبدأ في الحال..!

وهكذا عدنا إلى الطوف حيث كان كل شيء معدا.. ورفعنا الشراع وبدأنا التحرك عبر الساحل قاصدين المكان الذي وجدنا السكين فيه..

في السادسة مساء وصلنا إلى فتحة النفق، فوثبت إلى الشاطئ صارخا:

- هيا بنا..

كان ارتفاع الفتحة خمسة أقدام.. هذا هو النفق الذي سيقودنا إلى مركز الأرض إذن.. هل هو منحدر لأسفل؟ أم هو مدخنة

رأسية؟ أم أننا سنمضي أيامنا ماشين في مستوى أفقي دون أن نهبط؟
وكانت الإجابة قريبة جدا..
كانت هنالك صخرة عملاقة تسد النفق على بعد خطوات ست من فتحته.. أي أن النفق قد انتهى!!
كانت خيبة أملنا لا توصف.. إذن كيف اجتاز (ساكنوسم) هذه العقبة؟ وأي شيء فعل؟..
كلا لا بد أن هذه الصخرة قد سدت النفق بعد عهد (ساكنوسم).. ومن ثم لا بد أن نعيد فتحه.. فلنستعمل المعاول..
- كلا.. إن هذه الصخرة أقوى من معاولنا.. ماذا عن البارود؟
قال عمي:
- هذا هو الحل.. بارود.. هاته يا (هانز)..
ذهب دليلنا الوفي إلى الطوف، ثم عاد لنا بالبارود ومعول يسمح لنا بعمل ثقب تدس فيه البارود في الصخرة.. خمسين رطلا..
وعند منتصف الليل كنا قد فرغنا..
- والآن لننتظر إلى غد..
- إلى غد؟
كنت أنا - لا عمى - قائل العبارة الأخيرة.. لأنني كنت أنا نافد الصبر وليس عمي الذي غدا أكثر ميلا للتريث في كل خطوة..
وهكذا لم أجد مفرا من الانتظار ست ساعات طويلة..

∞∞∞∞∞∞

إنه الثلاثاء السابع والعشرون من أغسطس..
يوم لا ينسى..

اليوم نسلم أنفسنا لقوى الريح والنار والماء كي تعنى بنا..
أشعلت الفتيل، ثم هرعت ألحق برفيقي على الطوف وابتعدنا بعيدا عن التأثير المرتقب للانفجار..
خمس دقائق.. أربع... ثلاث...
والآن فلتتهشمي يا صخور الجرانيت..

∞∞∞∞∞

ماذا حدث؟
لا أدري حقا.. لم أسمع صوت الانفجار لكني رأيت شكل الصخور يتبدل والفتحة تتسع.. واهتز البحر من تحتنا.. وصعدت موجة هائلة الحجم لأعلى حاملة طوفنا معها...
ارتفع الطوف ثم هبط.. ساد الظلام.. وشعرنا بالماء يحملنا إلى فتحة الممر.. حاولت أن أقول شيئا لعمى لكن زئير المياه كان أقوى مني.. عبر الظلام تحملنا الأمواج بسرعة مجنونة إلى مكان ما..
إننا نهبط..!.. إذن كانت هناك حفرة عميقة خلف الصخرة.. والآن يقودنا الماء من خلال هذه الحفرة لأسفل..
كم ساعة مرت علينا في هذا الحال؟.. ساعة.. ساعتان؟.. لا أحد يدري.. كل ما أذكره أننا كنا متلاصقين نمسك بأيدي بعضنا حتى لا يهوى أحدنا من فوق الطوف..
وكان الظلام دامسا لأن مصابيحنا تهشمت..
أخذت أنا وعمى نتبادل نظرات الهلع مديرين ظهرنا لاتجاه حركة الطوف حتى نتمكن من التنفس..
كان الطوف يسير بسرعة كأسرع قطار لم يخترعوه بعد.. إن (ساكنوسم) قد سلك هذا الطريق قبلنا ولكن دون البحر الهائل

الذي اصطحبناه معنا..
ومرت ساعات..
وبصعوبة بدأت أتبين أننا فقدنا كل متاعنا.. الحبال.. البارومتر.. كل شيء.. لم يبق لنا سوى البوصلة والكرونومتر.. وطعام ليوم واحد وطعام ليوم واحد - للأسف – وهذا يعني النهاية حتما..
لكن لماذا أخشى الموت جوعا في حين أنني أملك ترف الموت بمئات الأساليب والأشكال؟.. إننا سنموت غرقا أو تحطيما أو هلعا بالتأكيد قبل أن نموت جوعا...
إن سرعة الطوف تزداد.. وانحدار الماء يتزايد..
وفجأة شعرت بصدمة مروعة.. وتوقف الطوف.. بدأت المياه تنهمر حولنا.. ثم ساد الهدوء وشعرت بلذة التنفس..
كانت الساعة العاشرة ليلا..
ثم إنني سمعت صوت عمى في الظلام:
- نحن نصعد ...!
ماذا؟
- نصعد.. نصعد بسرعة عالية.. حاول أن تضيء المصباح الباقي.. هكذا.... كما توقعت تماما.. إنه بئر عرضه عشرون قدما.. والماء يرتفع ونحن معه..
- لأين؟..
- وكيف أعرف؟.. إن سرعتنا لن تقل عن اثني عشر قدما في الثانية.. أي تسعة أميال ونصف في الساعة
- ولكن.. هذا يعني أننا سنتهشم مالم توجد فتحة فوقنا.. قال عمي في رزانة:
- (أكسل).. إن موقفنا سيئ حتما لكنه ليس مستحيلا ما دمنا أحياء.. ولهذا علينا أن نفعل ما ينبغي
عمله

- وما هو؟
أن نصير أقوى.. نأكل..
- نأكل؟!!
والتقت عمى إلى (هانز) راطنا بالدانمركية بضع كلمات.. فهز هذا الأخير رأسه موافقا..
قلت لعمى:
- لم يبق لنا سوى قطعة من اللحم المقدد لثلاثتنا..
رفع عمي رأسه نحوي في يأس.. فقلت:
- أما زلت تظن أننا سننجو..؟
لم يرد.. وكيف يرد؟..
كنا نتضور جوعا لكن أحدنا لم يجرؤ على لمس وجبتنا الأخيرة..
كنا مستمرين في الصعود لكن حرارة الجو تزداد بين لحظة وأخرى..
فما معنى هذا؟..
قلت لعمى في تشف:
- إن خطر الموت سلقا يضاف إلى قائمة أسباب وفاتنا..!
مرة أخرى لم يرد عمي..
وفجأة قال:
- هلموا!.. دعونا نأكل فنحن بحاجة للصمود..
- أنت محق فلو متنا الآن لن نستفيد شيئا من هذا اللحم الجيد..
- نعم.. على الأقل سنلاقى نهايتنا بصحة لا بأس بها..
ومد عمي يده وقسم قطعة اللحم ثلاثة أقسام متساوية.. وهكذا نال كل منا رطلا.. وشرعت آكل في صعوبة كأني ألتهم حجرا.. أما (هانز) فظل على هدوئه وسكونه..
إنها الخامسة صباحا..

كنت غارقا في خواطري عن دارنا.. و (مارتا) الطيبة.. و... حبيبتي (جروبين).. أما عمى فكان منهمكا في فحص الصخور محاولا استنتاج موضعنا.. وقال:

- جرانيت!.. لم نزل على عمق كبير.. لكننا نصعد باستمرار.. لشد ما تبدل عمي... تارة لا يسعده سوى الهبوط وتارة لا يرضيه سوى الصعود.. لن أفهم هذا الرجل أبدا..!
إلا أن الشيء الذي أثار رعبي كان هو هذا التبدل المطرد في درجة حرارة الجدران الصخرية والماء.. لقد كان الماء يغلي وشرعت أتوقع مصيبة ما لا أدري كنهها..
شيء ما سيحدث.. شيء لا أستطيع تسميته...

∞∞∞∞∞

وحين نظرت إلى البوصلة وجدت إبرتها تهتز بلا هدف.. صخور الجرانيت على الجدران ترتجف.. وثمة صوت شبيه بانفجارات بعيدة.. يا للرعب!.. عمي... إننا في وسط زلزال.. أنا واثق من هذا فماذا تقول؟
- إنني اتوقع ما هو أفضل يا بني
- أعني انفجارا حمميا!
- ماذا؟.. إذن فنحن وسط بركان نشيط؟!
- بالطبع.. وأعتقد أن هذا حظ حسن!
هل فقد عقله؟.. حظ حسن؟.. وما سر ابتسامته الهادئة هذه؟
- ماذا تعني؟
- عمي.. نحن في فوهة بركان وسط الحمم والبخار الحارق والصخور الملتهبة وسيقذف بنا في عنان السماء.. وانت تقول حظ حسن!

- نعم.. هو أملنا الأخير في الصعود لسطح الأرض ألم تفهم بعد؟
- إذن فنحن نصعد.. تحت طوفان ماء يغلي وتحت الماء حمم تلتهب.. وبدلا من (سنيفل) الوادع الخامد هو ذا بركان نشط.. ولكن أين؟.. وما اسمه؟..

إننا سنخرج في الشمال.. هذا مؤكد.. فهل ستخرج في (أيسلندا) من فوهة (هيكلا) أو أي بركان آخر من البراكين السبعة التي توجد هناك؟..

إننا نصعد.. وهذا يعني نهاية رحلتنا إلى مركز الأرض..



إننا نصعد.. وهذا يعني نهاية رحلتنا إلى مركز الأرض..

وتحت الطوف لم يعد ماء.. بل كتلة ملتهبة لا أدري ما هي..
ثم - فجأة - توقف الطوف..
ماذا حدث؟.. أتراه قد اشتبك بالصخور؟ لكن لا..
حتى السائل الملتهب تحتنا قد توقف كذلك.. هذا غريب!

وفجأة عاد الطوف يصعد سريعا لمدة دقيقتين، ثم
توقف ثانية.. نظر عمي لساعة الإيقاف.. وقال:
- إذن هو من البراكين التي تتجدد ثورتها كل عشر دقائق..
وهنا عاد البركان لثورته.. وعدنا نرتفع بسرعة هائلة اضطرتنا للتشبث بالطوف.. ثم توقفنا..
كم من الوقت تكرر هذا المشهد؟.. لا أذكر.. فقط كنت أشعر بسرعتنا تتزايد والحرارة تشتد.. وبدأت أفقد
حواسي.. لقد هدّني التوتر والصدمات المتتالية..
حقا لا أذكر ما حدث بعد ذلك..
فقط ضوضاء لا تكف.. وطوف يدور حول نفسه فوق الحمم..
ثم وجه (هانز) يلتمع في ضوء النيران..

∞∞∞∞∞

حين أفقت كانت ذراع (هانز) القوية تمسك بي.. ولم أكن مصابا.. لكني كنت منهكا تماما.. تماما..
وكان (هانز) يمسك بي وبعمي جارا إيانا إلى مكان آمن.. مكان عرفنا فيه أن ما فوق رءوسنا ليس صخرا ولكن سماء!..
سماء حقيقية.....
لقد عدنا إلى سطح الأرض.. ولكن أين؟..
سالت (هانز)..
- هل هذه (أيسلندا)؟
هز (هانز) رأسه أن لا.. وهتف:
- ناي.
قال عمي في حيرة:

- بالفعل لا تبدو هذه مثل (أيسلندا): لا توجد ثلوج.. بل هي أقرب إلى قمة جبل أحرقتها أشعة الشمس.. وإنني لمندهش!
وفوق رءوسنا - على ارتفاع خمسمائة قدم - كانت فوهة البركان التي جئتا منها.. تنفجر منها الحمم والصخور كلما مرت عشر دقائق..، وعلى مسافة غير بعيدة تتراءى لأعيننا الحقول البعيدة.. وخضرة الغابات
حقا هي ليست (أيسلندا).
من مسافة شاسعة كنا نرى البحر الأزرق تسبح فيه سفن صغيرة غريبة المنظر..
- على كل حال ليس من الجميل أن نموت بصخرة تسقط فوقنا من هذا البركان الثائر بعد أن نجونا من الاحتراق داخله.. دعنا ننزل إلى الوادي وسنعرف مكائنا بسهولة عندئذ.. أضف لهذا أنني أموت جوعا وظمأً..
هكذا قال عمي.. كان كلامه مقنعا..
شرعنا نهبط المنحدر وأنا ما أزال أتساءل.. أين نحن؟ هل هو ساحل الهند أم جزر الملايو؟.. على كل حال يسرني أن أرى أن عمي سعيد برغم أننا لم نستطع الوصول إلى مركز الأرض كما أردنا..
وعند الوادي وجدنا غاية تنبت بها أشجار الفاكهة ووجدنا ماء.. فشربنا حتى ارتوينا.. واستحممنا..
وفجأة لمحنا طفلا بين الأشجار.. طفلا فقيرا ممزق الثياب يرمقنا بهلع حقيقي.. ثم حاول الهرب إلا أن (هانز) لحق به وحمله إلينا..
سأله عمي بالألمانية
- صديقي الصغير.. ما اسم هذا البلد؟
لا إجابة

أعاد عمى سؤاله بالإنجليزية فلم يتلق إجابة..
- إذن هذا البلد ليس ألمانيا ولا إنجلترا.. فلنجرب الإيطالية.... أ.. دوفي نوي سيامو؟
صرخ الطفل وهو يتملص من قبضة (هانز) ويجري بعيدا:
- (سترومبولي)!!
لم تعد لنا حاجة إليه الآن..!.. إذن نحن في جزيرة وسط البحر الأبيض.. والمرتفعات المحيطة بنا هي مرتفعات (كالابريا).. وإذن فالبركان هو بركان (إتنا)!!
أية رحلة رائعة قمنا بها!.. دخلنا في بركان وخرجنا من آخر يبعد عنه ثلاثة آلاف ميل..!.. بدأنا في بلد
الصقيع وخرجنا في أجمل بلدان الأرض...
اتفقنا على أن نمشي للبلدة على ألا نخبر الأهالي برحلتنا.. بل نزعم أننا بحارة غرقت سفينتهم ونبغي عونا
وهكذا تحركنا.. لكن عمي لم يكن راضيا أبدا وشرع يردد:
- لكن البوصلة كانت تشير إلى الشمال.. دوما إلى الشمال.. كيف؟ كيف؟
- لا تحاول البحث عن تفسير.. هكذا تريح وتستريح..
- يا لها من فكرة.. استاذ جامعة لا يستطيع أن يفسر شيئا كهذا؟ أي عجز..

∞∞∞∞∞∞

وهكذا تصل القصة إلى نهايتها أعلم أن أحدا لن يصدقها لكن هذا لا يضايقني.. إن الناس قد دأبوا على تكذيب كل ما لا يوافق ما يريدون تصديقه..

لقد أحسن أهل (سترومبولي) وفادتنا.. وقدموا لنا الطعام والملبس.. ثم إننا أقلعنا إلى (ميسينا) في الواحد والثلاثين من (أغسطس) ثم إلى (مارسيليا)..

ولم ينغص رحلتنا سوى هذا الموقف العجيب الذي تتمسك به بوصلتنا..

وفي التاسع من سبتمبر وصلنا إلى (هامبورج)!

لن أصف لك ذهول (مارتا) ولا غبطة (جرويبن) التي هتفت وهي تمسك يدي:

- أما قد غدوت شهيرا فلن تحتاج إلى فراقي ثانية وسرعان ما دوى خبر عودة البروفسير (ليدنبروك) في (هامبورج).. فقد كانت ثرثرة (مارتا) قد جعلت الجميع يعرفون بغرض رحلتنا.. وبالطبع لم يصدقها أحد.. أما وقد عدنا سالمين، فإن أحدا لم يعد يصدقها إطلاقا..!

إلا أن وجود (هانز) معنا جعلهم غير واثقين تماما من كذبنا.. وفي الجامعة ألقى عمي محاضرة عن رحلته..

وقدم للجامعة المخطوطة الأصلية التي كتبها (ساكنوسم) عن رحلته التي سبقنا فيها إلى باطن الأرض..

على أن عمي قد كسب أعداء كثيرين (وهذا محتم طبعا).. وزاد من ضيقنا ذلك اليوم الكئيب الذي أعلن (هانز) فيه عزمه على العودة إلى داره.. سألناه مرارا أن يبقى معنا.. لكنه كان يعاني من الحنين للوطن..

وقال لنا مودعا:

- فيرفال...!

لقد أحببنا هذا الرجل الشجاع الصموت كثيرا..

ولولاه لما حققنا نجاحا.. ولا ظللنا حيّين أنا وعمى..

ولسوف نذكره ما حيينا.. ولسوف أراه حتما يوما ما على أن سر البوصلة ظل غامضا..
وبالتالي لم يستطع عمي قط أن ينعم بثمار النجاح..
إلى أن جاء ذلك اليوم الذي كنت أتأمل فيه البوصلة حين فهمت على الفور ما حدث..
يا لها من مفاجأة!
ناديت عمى:
- انظر يا عماه.. البوصلة..... إنها الآن تشير نحو الجنوب بدلا من الشمال.
صرخ عمي في تعاسة:
- مستحيل!
تأملها!
وهنا فهم عمي الأمر برمته:
- فهمت كل شيء!.. حين واجهنا العاصفة الكهربية في بحر (ليدنبروك) تمغنطت البوصلة ضمن الأشياء التي تمغنطت.. وبالتالي حصلنا على قياسات خاطئة طيلة الوقت..
- بالفعل..
وانفجر عمي ضاحكا
- كانت دعابة.. دعابة كهربائية!!
ومنذ ذلك الحين غدا عمي أسعد الرجال.. ربما باستثناء رجل واحد وهو أنا..
لأن (جرويبن) كانت قد صارت زوجتي

(تمت بحمد الله)

كانت فكرة مجنونة خطرت لعمه، ولم يكن يملك سوى القبول.. سيقومان برحلة إلى مركز الأرض عبر فوهة بركان خامد..!..! إن أحدا لم يسبقهما إلى رحلة مماثلة.. هذا كل شيء ممكن.. كل كابوس حقيقة، وكل خطوة قد تكون الأخيرة
إن عشاق (جول فيرن) لن يدعوا هذه الرواية تفوتهم..


متميزون
للكتب النصية
E-Book

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

[Link – لينك القنـاة]

:الفهرس

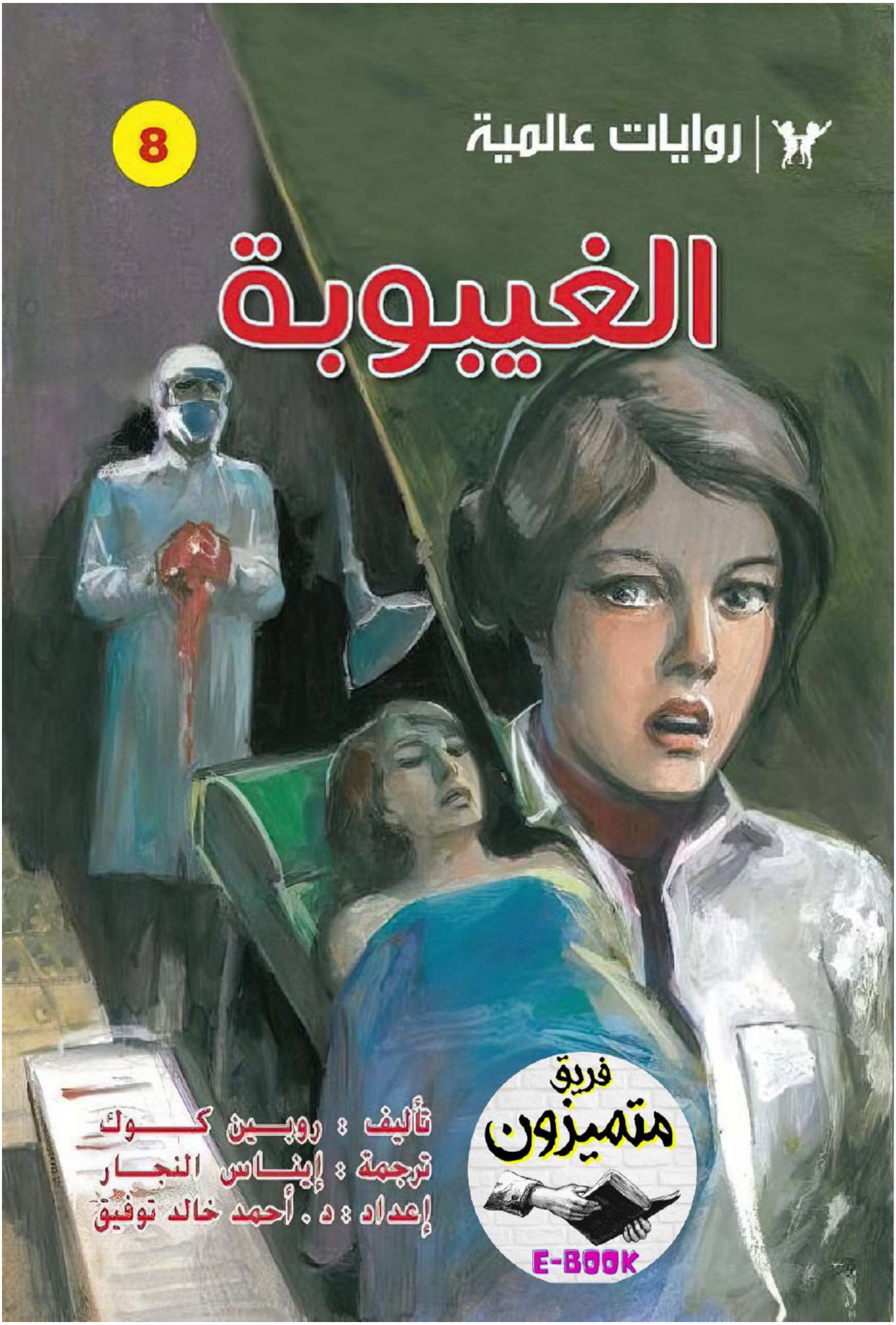
الملاحظات

[←1]

(*) راجع مقدمة الرواية

[←2]

(*) هنا وقع المؤلف في خطا حسابي صغير لاحظه الكاتب الروسي (ياكوف بريلمان)... إن كثافة الهواء تزيد سرعة الصوت، وبالتالي فإن المسافة بين البروفسير و (أكسل) أكبر من أربعة أميال بكثير.. وحسابها يتوقف على معرفة كثافة الهواء على هذا العمق... (والمفروض إنها كبيرة).


روايات عالمية
8
الغيبوبة
تأليف : روبين كوك
ترجمة : إيناس النجار
إعداد : د. أحمد خالد توفيق
فريق
متميزون
E-BOOK

(كلمة مهمة) :

هذا العمل: (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (08)

الغيبوبة
قصة: روبين كوك.
ترجمة: إيناس النجار.
إعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

لا نعرف الكثير عن (روبين كوك) سوى أنه طبيب أمراض عيون، يعيش في (بوسطون)، ومحاضر في مدرسة (هارفارد) الطبية. تخرج في جامعة (وزليان)، وكلية الأطباء والجراحين جامعة (كولومبيا)..

والرواية الحالية كتبها عام 1977، وسرعان ما حولها (مايكل كريشتون) - وهو طبيب آخر - إلى فيلم كابوسي بنفس الاسم، أثار اهتمامًا عالميًّا، ولعله من الجدير بالذكر، أنه هو الفيلم الذي أصرّ الرئيس الأمريكي (كارتر) على أن يراه الرئيس الراحل (أنور السادات)، إبان توقيع معاهدة (كامب ديفيد) كنموذج لما وصل إليه فن السينما في (أمريكا)..

يمكننا القول إن د. (كوك) لا يحمل ذكريات سارّة لمهنة الطب.. بل وإنه يحيلها في روايته الحالية إلى كابوس حقيقي، ولكنه يقدم في نهاية الرواية نوعًا من الاعتذار، عما قدمه فيها من نبوءات مروعة، (بدأت تتحقق للأسف).. على اعتبار أن عنده ما يدفعه إلى هذا التشاؤم..

يقول د. (كوك) في تعليقه الختامي على الرواية:

«رأيت إعلانًا في جريدة (تريبيون) عام 1968، يعرض فيه رجل بيع أي جزء من جسده، لمن يدفع مبلغًا من المال، يتم الاتفاق عليه. بل إنني رأيت إعلانات من أحياء يبيعون قلوبهم لمن يدفع أكثر!..

وفي مراكز الكلي يوجد طابور طويل، من المرضى القادرين، ينتظرون أن يجدوا كلى صالحة لزراعتها لهم، والمشرفون على هذه المراكز، يعرفون شيئًا اسمه (متلازمة الإجازة)، حين ترتفع

معنويات المرضى كلما دنت إحدى العطلات، لأنهم يتوقعون حركة سير أكثر..
وحوادث تصادم أكثر.. ومزيدًا من الكلى الصالحة للزراعة!..».
« والحلّ لهذه الكارثة في رأيي، هو إيجاد تسهيلات قانونية ودينية أكثر، لعملية أخذ الأعضاء من المتوفين، الذين لم تمض ساعة على وفاتهم، بدلًا من ترك هذه الأعضاء لتلتهمها الديدان أو لهيب المحرقة..».

∞∞∞∞∞

كما ذكرنا تحولت هذه الرواية إلى فيلم بنفس الاسم..
المخرج هو (مايكل كريشتون) الذي تحول بعد ذلك إلى التأليف، فقدم لنا روايات شهيرة من الخيال العلمي، المشبع بجوّ الطب، نذكر منها: (خلية أندروميدا).. (رجل الأطراف الكهربية).. (حديقة جوراسيك)..
قام ببطولة الفيلم الممثلة الكندية (جنفيف بوجولد) مع (مايكل دوجلاس) و (إليزابيث أشلي)، والممثل العجوز (رتشارد ويدمارك)..
الموسيقى التصويرية كانت لـ (جيري جولد سميث) الذي جعل من شريط الصوت كابوسًا حقيقيًا، يواكب الأحداث ولا ينافسها..
[ملاحظة أخيرة]..
نحن لا نهدف إلى أن نقصر سلسلة (روايات عالمية للجيب) على الروايات التي تحولت إلى أفلام سينمائية، لكننا نحاول أن تقدم روايات مشوّقة، بها قدر لا بأس به من التسلية والإفادة، ومن المصادفة أن هذه هي نفس نوعية الروايات، التي تجذب

السينمائيين لتقديمها..!، فالسينما كما نعلم لم تترك رواية صالحة إلا وقدمتها..
والآن تعالوا نقرأ القصة معًا..

د. أحمد خالد

14 فبراير 1976:

ها هي ذي (نانسي جرينلي)، ممددة على ظهرها، فوق منضدة الجراحة بغرفة العمليات رقم (8).. وبالرغم من العقاقير العديدة التي حقنوها بها، قائلين إنها ستسلم عينيها للنعاس، فقد ظل النوم حلمًا عزيزًا..
كانت تمقت المستشفى.. ودّت لو تصرخ.. تهرع فارّة من هذه الغرفة الكتيبة، لكنها لم تجرؤ قط..
جو المستشفى البارد الكئيب.. وتلك الرائحة.. رائحة الموت والمرض..
إنها السابعة وعشر دقائق.. في الخارج سماء (بوسطن) ملبدة بالغيوم، وكشافات السيارات مضاءة في هذه الساعة من النهار، بينما الريح الصرصر تصدر نواحها الكئيب.. والمارة يجدّون السير..
أما في غرفة العمليات، فكان الأمر يشبه خلية نحل... إذ يجب إعداد المريضة وَتخديرها، قبل أن تغدو الساعة السابعة والنصف..
حوائط غرفة العمليات، مثل مثيلاتها في كل الغرف الأخرى..
البلاط محايد اللون.. والأرضية من (الفينيل)..
الجراحة: توسيع وكحت للرحم.
المريضة: (نانسي جرينلى).
طبيب التخدير: (روبرت بيلنج).
أما باقي الفريق، فهو ممرضة التعقيم (روث)، وممرضة العمليات (داماتيو)، والجراح الشاب (جورج ماجور)، الذي كان في الغرفة

المجاورة يرتدي مريولة الجراحة..
كان النزف قد بدأ منذ عشرة أيام..
تجاهلته (نانسي) في البدء.. ثم انتابها القلق.. بضع مكالمات هاتفية مع الدكتور (ماجور)، بثت الطمأنينة في قلبها.. ثم بدأت تشعر بأن الأمر أخطر من مجرد اختلال في دورتها الشهرية..
سيارة الإسعاف تحملها إلى المستشفى - دون سرينة ولا تشنج - حيث وجدت نفسها على سرير الفحص في حجرة الطواري، هي تمقت الفحوص النسائية، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الشعور بالسعادة، حين سمعت صوت د. (ماجور)..
وفي استسلام خضعت للفحص.. الستار الرقيق الذي يفصلها عن الناس المحتشدين في قاعة الطواري، يتحرك.. يهتز..، ومن حين لآخر ترى وجوه أطفال مجروحين، وشيوخ منهكين..، وعلى الأرض كانت مبولة الفراش ملقاة في إهمال، وبها جلطة دموية كبيرة، يستطيع كل من يريد أن يراها.. في حين يقف د. (ماجور) يفحصها، ويثرثر مع الممرضة عن حالة أخرى..
كان كل هذا قاسيًا مريرًا.. وأغلقت (نانسي) عينيها.. وفي صمت بكت..

∞∞∞∞∞

والآن.. إضاءة (الفلورسنت) في غرفة العمليات، تثبّت (نانسي) عينيها عليها، وتفكر.. سينتهي هذا الكابوس بعد دقائق.. سأعود لداري بعدها..
عينان بنيتان صافيتان من خلف قناع ترمقانها:
- هل تشعرين براحة؟

كانت هذه هي الممرضة (جلوريا داماتيو) وهي تشدّ الحزام حول ذراع (نانسي) الأيمن، لتثبته إلى جانبها..
- نعم..
قالتها (نانسي) كاذبة.. فالمنضدة غير مريحة على الإطلاق، ومفعول (الأتروبين) جعل حلقها جافًا ولسانها لزجا، كأنما هو مبلل بالصمغ.
د. (بيلنج) عاكف على جهازه المكوّن من شبكة من الصلب اللامع، وأجهزة القياس، وأسطوانات ملونة من الغاز المضغوط.. ثمة بطاقة بنية كتب عليها (فلوثان)، وتحتها صيغة كيميائية معقدة، حاولت أن تقرأها (٢ برومو -٢ كلورو - ١ واوا - ثلاثي فلورو إيثان)..
كان د. (بيلنج) بارعًا.. ربما أبرع طبيب تخدير في المستشفى، وكان يعرف ذلك جيدًا.. ولم يكن يترك شيئًا للمصادفة، لهذا أعد لنفسه قائمة بالاجراءات، لا بد من أن يراجعها قبل كل جراحة..
الخطوة الثانية عشرة، هي توصيل طرف الخرطوم إلى الجهاز، وإدخال طرفه الآخر في كيس التنفس، الذي يسع من أربعة إلى خمسة لترات هواء..
الخطوة الثالثة عشرة، هي الإستيثاق من أن صمامات التحكم كلها في الاتجاه الصحيح.. ثم يفحص مفاتيح قياس الضغط في اسطوانتي الأكسجين، ويتأكد من امتلائهما بالكامل..
وبيده شرع يضرب على ظهر راحة (نانسي) اليسرى، لتنفر عروقها..
وغمغم:
- ستكون هناك وخزة صغيرة الآن..
وشعرت بالألم يشتد ثم بدأ يتلاشى.. ولمحت د. (ماجور) يدلفت من باب غرفة العمليات هاتفًا في مرح:

- ستنامين بعد قليل يا (نانسي).. أنت فتاة محظوظة؛ لأن د. (بيلنج) هو من يخدرك.. وهو خير أطباء مستشفانا..
قال د. (بيلنج) وهو يوصل قناع الوجه بأنبوب التخدير:
- هذا صحيح.. الأنبوب رقم ثمانية يا (جلوريا).. يمكنك أن تبدأ التعقيم إذن يا د. (ماجور)؛ لأننا سنكون مستعدين في تمام السابعة والنصف..
- مرحى..
ثم إنه سار نحو الباب.. واستدار نحو (روث جنكنز) التي كانت ترتب الأدوات الطبية على المنضدة وقال:
- أريد الأدوات الخاصة بي يا (روث)، لا معدات المستشفي القديمة..
وخرج قبل أن يتلقى ردًّا.
صوت ضربات قلب (نانسي) يتصاعد، من جهاز تسجيل ضربات القلب، والمخطط الذي أوصلوه بها.. على حين ساعدتها (جلوريا) على النزول بجسدها لأسفل، وعلقت كل ساق من ساقيها، في ركاب معلق بحامل معدني من الصلب..
غمغم د. (بيلنج) وهو يخرج الهواء الزائد من محقنه:
- كل شيء على ما يرام.. ستنامين الآن يا (نانسي) بعد تعاطي (البنتوثال).. ألا تشعرين بالنعاس الآن؟
- لا أعرف ما المفروض أن أشعر به..
بدقة بالغة يوصل د. (بيلنج) محقن (البنتوثال) بالصمام الوريدي ثلاثي الاتجاهات، ويسألها أن تعدّ من واحد إلى خمسين..
كان يتوقع أنها ستغيب عن العالم قبل أن تصل إلى خمسة عشر.. لكنها ظلت تقاوم النعاس، متمتعة بإرادة لا بأس بها، مما اضطره إلى زيادة الجرعة قليلًا..

وفي السابعة وأربع وعشرين دقيقة.. نامت (نانسي جرينلي) للمرة الأخيرة في حياتها..

∞∞∞∞∞

كان د. (بيلنج) يؤمن بأن الأمور ستسير كما يشتهي.. فالمرأة شابة وصحتها لا بأس بها، ولقد استوثق من جميع الخطوات.. جعلها تتنفس من خليط من (الهالوثين) و (أكسيد النيتروز) و (الأكسجين)..
ثم إنه حقنها بسنتيمترين من (السكسينايل كولين) حتى تسترخي عضلاتها، ويتمكن من إيلاج الأنبوب عبر حنجرتها..
إن هذا العقار يشابه في تأثيره سمّ (الكورار)، الذي يستعمله متوحشو (الأمازون).. ويحدث شللًا في عضلات التنفس و عضلات الحلق، لكن د. (بيلنج) كان يسيطر على الموقف تمامًا..
بهدوء ورصانة - برغم توتر أعصابه - يضع قناع (الأكسجين) على وجهها، ثم أمسك بمنظار الحنجرة (الخطوة رقم ٢٢ في قائمته)، وجذب لسانها للإمام.. ثم شرع يحرك طرف اللهاة جانبًا، ليرى أفضل.. وأولج أنبوب القصبة الهوائية بين الحبلين الصوتيين المحيطين بالحنجرة.. وأوصلها بالكيس...
وبمجرد أن ضغط على كيس الهواء؛ شاهد صدرها يعلو ويهبط بنفس القدر.. كل شيء على ما يرام.. إن تنفسها مِلكه..
كل شيء على ما يرام.. وضربات قلبها مستقرة هادئة..
عليه الآن أن يواصل ضغط الكيس بيده، ليجعلها تتنفس.. إلى أن ينتهي عمل (السكسينايل كولين) بعد ثمان دقائق.. عندئذ يعود تنفسها ويمكنه أن يسترخي قليلًا..

والحقيقة أن عملية التخدير، كانت دائمًا ما تسبب لد. (بيلنج) نفس التوتر والقلق، منذ بدأ حياته المهنية.. لكنه كان يخفي ذلك خلف قناع من الاحتراف والهدوء..
لكنه لم ينس أن باستطاعته تناول القهوة، بعد أربعين دقيقة، حين ينتهي كل هذا.. وظلّ يمني نفسه بذلك..
أما د. (ماجور) فجلس هناك بين ساقي (نانسي)، وتفحص مبيضيها، ثم أعلن أنهما (برقوقتان)، وهو الوصف الذي يطلقه دومًا على المبايض الطبيعية..
قام بتوسيع عنق الرحم برفق، وأزال الجلطات الدموية بالشفّاط..
وهنا لاحظ د. (بيلنج) تغييرًا طفيفًا، في انتظام ضربات القلب..
وعلى الشاشة أدرك أن النبض تدنّي إلى ستين نبضة..
ضغط الدم قد صار 90/60، ولم يدر سببًا لهذا الانخفاض غير المقلق برغم كل شيء.. فليسأل طبيب أمراض (النساء)..
- د. (ماجور).. هلا توقفت لحظة؟.. انخفض ضغط الدم نوعًا.. فما هي كمية فقد الدماء عندك؟
- لا يمكن أن تتجاوز نصف اللتر بحال..
وضع د. (بيلنج) السماعة في أذنيه.. وغمغم:
- غريب!.. إن ضغطها قد صار 90/60..
- وماذا في ذلك؟
- لا شيء.. لكنه لم يكن كذلك.. انخفض ولا تفسير عندي..
- لا بأس.. لونها لم يتغير..
لكن د. (بيلنج) ظلّ قلقًا، يشعر بأن شيئًا ما ليس على ما يرام..
تحركت حاسته السادسة، لتنبئه بذلك، والغريب أنها - (نانسي) – لم تستعد تنفسها التلقائي، برغم أن جرعة (السكسينايل) قد انتهى مفعولها بالتأكيد..

قال د. (ماجور) مطمئنًا:
- أنا سأفرغ بعد خمس دقائق..
تنفس د. (بيلنج) الصعداء وزاد من ضخ (الأكسجين) إلى رئتي (نانسي)، فقد كان راغبًا في إنهاء تخديرها بأسرع ما يمكن.. ومن على جبينه مسح حبّات العرق المتزايدة..
وفي السابعة وست وخمسين دقيقة، مدّ أصابعه ليفتح جفني المرأة الشابة ويتفحص حدقتيها..



لم تكد تنطق بالعبارة، حتى لوى (كواريل) ذراعها خلف ظهرها في عنف

كان إنسانا عينيها متمددين تمامًا..
وتجمد الدم في عروق د. (بيلنج)..
كان هنالك خطأ ما..

إن أسوأ كوابيسه قد تحقق..

∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 7.15 صباحًا:

الثلج يتساقط كقطن مندوف، والطقس بالغ البرودة، إذ تدفع الريح الرقائق البللورية نحو الشرفة الصغيرة، المطلة على شارع (لونجوود).. والشمس تحجبها سحب كثيفة رمادية..
وفي فراشها تقلبت (سوزان هويلر)، بعد نوم احتشد بأضغاث الأحلام.
كانت في حجرتها بالطابق الثالث من مسكن المدرسة الطبية..
لقد أتمت - منذ خمسة أيام فقط - أول سنتين من دراستها للعلوم الأساسية الطبية، وأحرزت نجاحًا باهرًا، حتى أن كراسات محاضراتها غدت ذات صيت بين الطلبة، والكل يتنافس على اقتنائها..
كان الجميع يتندرون بمواظبتها على حضور الدروس، لكن السبب المباشر الذي لم تعلنه قط، هو أنها – وقد اختارت مجالًا يعجّ بالرجال - لم تكن قادرة على التغيب دون أن يكون ذلك ملحوظًا.. والحق أن (سوزان) كانت جديرة بالملاحظة.. فهي شابة بالغة الجاذبية في الثالثة والعشرين من العمر..
ولنقرب صورتها أكثر للقارئ، نقول إن شعرها في لون سنابل القمح، طويل جدًّا، مما يضطرها إلى عقصه خلف ظهرها كذيل حصان..
وكان وجهها عريضًا.. بينما كانت عيناها خليطًا من اللونين الأزرق والأخضر، مع لمسة من البنى، تتبدل مع تبدل الضوء..
إنها ذلك المزيج النادر من الجمال والذكاء مع تذوق جيد للأدب..

وللأسف كان لهذا مثالبه..
فهي - كما قلنا آنفًا - لا تستطيع التغيب، دون أن يكون ذلك ملحوظًا..
بالإضافة إلى أن هذا الجمال، كان مما يثير حول صاحبته الأقاويل.. ويجعل من لا يعرفها يحسبها ساذجة أو حمقاء، كمعظم الفتيات الجميلات..
ولك أن تتصور - إذن - أنه لم يكن لديها أصدقاء كثيرون.. فإن ذكاءها كان يخيف الرجال، بالإضافة إلى أنه يجعلها تمل سريعًا كل من تعرفه، إذ تدرك مدى تفاهته..
اليوم هو بداية تبدّل حقيقي في حياة (سوزان)..
لقد انتهى عهد المحاضرات، وسيكون عليها أن تتعامل مع مرضي حقيقيين لأول مرة.. وكان هذا يفزعها..
هي لا تعرف كيف تكون طبيبة.. هي تشك في قدرتها على عمل شيء سوى القراءة والاستذكار.. ولعل هذا هو ما جعل نومها قلقًا..
إنها السابعة والربع..
في توتر تغلق المنبه جوار فراشها، وتنزل قدميها لتقف على أرض الحجرة الباردة غير المرحبة..
إنها حجرتها منذ عامين.. هي بنفسها طلت الجدران بهذا اللون الأصفر الفاتح.. وفضّلت تلكم الستائر خضراء اللون.. وألصقت هذه المناظر الطبيعية على الحوائط..
أما هذا المكتب ذو الخشب العتيق، فطالما جلست عليه تدرس، والان يوجد عليه كتاب عن تشخيص الأمراض السريري، قرأته مرتين دون أن يزيد ذلك من ثقتها بنفسها..
أما قميص النوم الذي ترتديه، فهدية من أبيها.. كان يحب أن يراه عليها، وكان يفضلها على أخويها الأصغر منها، مما أكسبها

ثقة بالنفس لا بأس بها.. ثقة كانت بحاجة إليها؛ كي تجتاز سنى المراهقة الكئيبة..
وتنهدت إذ تذكرت..
كان أبوها رجلًا قوي الشخصية كريمًا لطيفًا في الوقت ذاته، ولقد فرض شخصيته على الدار، فتضاءل الجميع.. ومثله شبت (سوزان)، فوجدت نفسها مرغمة على لعب دور قيادي، في كل مراحل حياتها، برغم أنها لم تحبّ ذلك قط.. كانت تفضل أدوار الظل..
دخلت الحمام، ووقفت تتأمل الحسناء، التي ترمقها من الناحية الأخرى للمرآة.. فردت ذراعيها في الهواء، وهتفت محدثة نفسها:
- «ليتك كنت راقصة باليه يا (سوزان)، بدلًا من هذه المهنة»..
لكنها كانت تدرك، أنها لا تريد حقًّا أن تكون راقصة..
هي بحاجة إلى مهنة تمارس فيها قدراتها العقلية..
لقد كانت (سوزان) جميلة..
لكنها فتاة عملية.. عملية تمامًا..

∞∞∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 7.30 صباحًا:

لم يكن مستشفى (بوسطون) التذكاري متميزًا من الناحية المعمارية.. فقد بني منذ أكثر من قرن، بكتل من الحجارة البنية اللون، التي تراصت بمهارة لكن دون أناقة.. ويتكون المبنى من طابقين، بهما عنابر عامة واسعة، لم تعد عملية في الوقت الحالي، تتناثر حوله مبان من الطوب الأحمر ذات نوافذ قذرة..

لكن أحدًا لم يلحظ قبح المستشفى، ما دام اسمها مرتبطًا في الأذهان، بأنها تضم أحدث الأجهزة وأكفأ الأطباء.. ولقد أضفى عليها الأطباء نوعًا من القدسية الأكاديمية..

وأمام المستشفى كان يظهر جزء من ميناء (بوسطون)، بمياهه السوداء المخلوطة بماء المجاري عفن الرائحة.. يفصله - الميناء - عن المستشفى فناء من الأسمنت، تناثرت فيه أوراق الجرائد والعلب الفارغة..

وفي هذه اللحظة، بدأت السيمفونية اليومية في المستشفى..

واحد وعشرون مبضعًا، يشقون واحدًا وعشرين نسيجًا بشريا، لواحد وعشرين مريضًا يرقدون بلا حراك، في إحدى وعشرين غرفة عمليات.. ذلك اللحن الذي لن يكلّ ولن يصمت قبل الثالثة ظهرًا.. بل ستظل غرفتان تعملان حتى الثامنة مساءً..

وفي استراحة الجراحين، نجد هدوءًا تامًّا.. فلا يوجد بها سوى رجلين.. أحدهما يقف جوار الحوض، وقد بدا عليه الوهن والشيخوخة، أكثر من عمره البالغ الثانية والستين.. كان اسمه (تشستر - ب. والترز)..

ولا أحد يعرف - بما في ذلك (والترز) نفسه - ما يدلّ عليه حرف (الباء) في اسمه.. فقط يعرفون أنه يعمل في قسم العمليات الجراحية، منذ خمسين عامًا تقريبًا، فلم يجرؤ واحد على رفته، برغم أنه لم يكن يؤدي أي عمل في الواقع.. وكان يقول دومًا إنه ليس على ما يرام.. وهذا حق.. فهو شاحب اللون كثير السعال، محاولًا إخراج البلغم من شعبه الهوائية دون جدوى..
أما الآخر فهو (مارك هـ. بيلوز) - و (الهاء) هنا هي اختصار لكلمة (هالبرن) - وهو جراح مقيم جاهد كثيرًا ليعمل في مستشفى (بوسطون).. وقد أثار حفيظته أن يصل لما يريد، فيجد شيئًا مثل (والترز) أمامه..
كان جالسًا على النضد يرشف القهوة، ويرتب أسماء الطلبة الذين سيقوم بمحاضرتهم: (هارفي جولدبرج)، (سوزان هويلر)، (بول كارين)، (جيوفري فيرويزر).. هناك فتاة إذن.. وستمضي معه الشهر القادم.. وحتمًا ستهيم به حبًا؛ لأنه رياضي.. وطبيب.. ووسيم إلى حدّ ما..
لقد مرض كبير الأطباء المقيمين، بالتهاب الكبد الوبائي، وتلقى (بيلوز) استدعاء من د. (هوارد ستارك)، رئيس قسم الجراحة في مكتبه.. وهذا يعني كارثة.. هل هناك أخطاء ارتكبها ولا يذكر؟..
لكن (ستارك) كان على غير العادة لطيفًا.. بل وأثنى عليه.. ثم سأله عما إذا كان يرغب في الإشراف على مجموعة الطلبة..
ولم يكن ممكنًا رفض طلب لـ (ستارك)، وإلا كان هذا انتحارًا.. لهذا وافق (بيلوز) في حماس وبلا تردد..
وبدأ في إعداد جدول المحاضرات وتواريخها لهذا الشهر..
كان هناك اثنان معينان مع (بيلوز)، وهما من المقيمين الجدد الذين لم يمر عليهم أكثر من عام.. (دانييل كارترايت) و (روبرت ريد)..

وكانا يعانيان الإحباط، بعد ما زالت عنهما رهبة المسئولية، وعرفا أنهما لا يؤديان دورًا خاصًا في المستشفى..، وكان (ريد) بالذات، حسّاسا في كل ما يتعلق بلون بشرته الأسمر.. وسريعًا في تفسير كل مطلب زائد منه، على أنه اضطهاد عنصري..
لهذا كان على (بيلوز) أن يعاملهما بحذر..
على أن الشيء الذي كان يعزيه، هو أنهما سيعاونانه، في رعاية الطلاب الخمسة، وبالتالي لن يكون الأمر حملًا على كاهله.. بالإضافة إلى أنه سيعرف، كيف يحصل على أقصى منفعة من هؤلاء الطلاب..
نعم.. كان (بيلوز) رجلًا مباشرًا.. ولولا ذلك لما وصل إلى هذه الوظيفة، وسط منافسة عاتية لا ترحم..

∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة التاسعة صباحًا:

كانت (سوزان هويلر) هي ثالثة ثلاثة، اندسوا في سيارة (جيوفري) الجاجوار؛ لتوصيلهم من مساكن الطلبة إلى المستشفى..، ولم تتسع السيارة الضيقة لـ (جورج نايلز) و (هارفي جولد برج) مما اضطرهما إلى ركوب المواصلات العامة، في وقت الذروة للوصول إلى المستشفى..
وفي المستشفى وقفوا مرتبكين كالأطفال، لا يعرفون كيف الصعود إلى الطابق الخامس، حيث ينتظرهم د. (بيلوز).. وكل طلبة الطب، يصيرون سلبيين سريعي الارتباك، بعد سني الدراسة الطويلة.
وفي المصعد - وقد انحشروا جميعًا -، قرّب (جورج نايلز) فمه من أذن (سوزان)، وهمس:
- لا أحسبني سأحب هذا المكان!
ولم يزد.. لكن (سوزان) فهمت تمامًا ما يريد قوله.. كانوا جميعا يتهيبون هذا المكان.. ويتهيبون ضرورة اتخاذ القرار الصائب.. فهم حقًّا يرتدون المعاطف البيضاء، ويبدون كأطباء.. لكنهم عاجزون عن القيام بأي تصرف.. والسماعات الطبية المتدلية من جيوبهم، لم تكن تستعمل إلا فيما بينهم، أو على عدد محدود جدًّا من المرضى.. ولم يكن لما درسوه من كيمياء حيوية، أي دور في زيادة شجاعتهم.. فمعرفة ما يحدث للجلوكوز في الخلية، لا يفيد كثيرًا في علاج مريض صرع..
الطابق الخامس أخيرًا..
تقدمت (سوزان) الآخرين، متجهة نحو موظف الاستقبال، الذي ثبت سماعة الهاتف على أذنه، وشرع يثرثر.. كان المكان كعادته

أشبه بخلية نحل، والممرضات يهرعن هنا وهناك، يعددن المرضى التالين في الدورة، أو يعنين بمن انتهت جراحتهم..
- هلا أخبرتني من فضلك..
رفع الموظف يده اليسرى مقاطعًا، وعاد يصرخ في السماعة:
- قل مرة أخرى.. لا أسمعك من الضوضاء حولى.. ماذا؟.. لقد سلمت الأمر بنفسي.. إذا لم تكن لديك (بلازما)، كان يجب أن تأتي لتقول ذلك.. إن الجراحة ستبدأ في الحادية عشرة..
ثم نظر إلى (سوزان):
- أية خدمة؟
- نحن طلبة.. ونريد أن...
أشار بقلمه جانبًا.. وأمسك ورقة، وشرع يكتب فيها بجنون:
- الانسة (لينكويفست)..
نظرت (سوزان) إلى الآنسة المذكورة.. كانت منهمكة مثله تمامًا، لكن (سوزان) سارت إليها قدمًا، بعد أن نظرت نظرة عتاب إلى زملائها الفتيان، الذين وقفوا خلفها كأرانب مذعورة..
- من فضلك.. نحن طلبة و...
صاحت الآنسة (لينكويفست) في هستيريا وهي تمسك برأسها:
- يا له من يوم!.. كل هذا العمل، ثم يأتي بعض الطلبة ليزيدوا الحياة سوءًا!..
- نحن لا نريد سوى معرفة مكان الاستراحة..
أشارت في فتور إلى اتجاه ما، ثم عادت تستكمل ما بدأته..، ومع الفتيان دخلت (سوزان) إلى الاستراحة، التي تملؤها الكتب الطبية العتيقة، والنشرات وأكواب القهوة الفارغة.. وعلى ضوء مصباح الفلورسنت الأبيض، رأوا لوحة خشبية، امتلأت بالأوراق والتعليمات..، وعلى المكتب القديم جلس د. (بيلوز) أمامه كراسته الصفراء.. فما إن رآهم حتى نظر إلى ساعته.. لم تكن

لديه تجارب في التدريس، لكنه عرف بالفطرة أن عليه أن يكون مسيطرًا ورهيبًا..
نظر لهم في فتور.. وهتف:
- تأخرتم ثلث ساعة كاملًا.. موعدكم كان التاسعة..
لم ينبس أحدهم ببنت شفة، حتى لا يكون وحده موضع اللوم..
أمسك (بيلوز) بقطعة الطبشور، ووقف أمام السبورة المعلقة، وقال في سماجة متعمدة:
- أهم صفات الجراح هي دقة المواعيد.. وعليكم أن تعوا ذلك جيدًّا وإلا - صدقوني - ستكون إقامتكم هنا مثل.....
وتوقف باحثًا عن اللفظ المناسب.. كان قد رأى (سوزان) فطارت منه الكلمات.. وبعد لأي قال:
- مثل شتاء بارد طويل..
أشعره جمال (سوزان) الكاسح بالهلع.. بعدم الراحة.. فلم يكن مستعدًّا لمواجهة هذا السحر، حين أعدّ خطته ليكون حازمًا..
استطرد (بيلوز) وهو يثبت عينية على كل وجه:
- وحدة العناية المركزة، هي أكثر مكان يمكن أن تتعملوا منه.. لكنه كذلك أخطرها.. ولن تصدروا أية تذكرة دوائية، دون أن أوقع أنا عليها، أو أحد الأطباء الدائمين الذين ستعرفونهم بعد قليل..
نظرت له (سوزان) في تأمل..
أدركت بذكائها أنه يتعمد الخطورة، وأنه متصنّع.. لم يكن ثمة داع لكل هذا اللوم على التأخير، في اليوم الأول من العمل.. وأدركت أنه شخصية ذاتية.. غير مستقرة.. لا تحب النقد.. ككل الجراحين في الواقع..
- النوبتجيات الليلية، ستكون يومًا كل خمسة أيام، لكل واحد منكم.. هذا ليس كثيرًا.. وإذا رغب الآخرون في البقاء ليلًا، فلا

مانع.. ستقومون بعمل جدول فيما بينكم، وتعطونني نسخة منه.. يبدأ العمل في السادسة والنصف صباحًا، لكن أريد منكم أن تروا المرضى، وتجمعوا المعلمومات عنهم قبل البدء.. اتفقنا؟

همس (فيرويزر) في أذن (سوزان):

- رباه... سيكون عليّ الاستيقاظ قبل ميعاد دخولي الفراش!

- هل ثمة أسئلة يا مستر (فيرويزر)؟

- لا.. لا..

صاح (فيرويزر) وقد أثار فزعه أن (بيلوز) يعرف اسمه..

قال (بيلوز) بشيء من السخرية:

- والآن تقابلون هيئة التمريض، التي سترحب بكم كما يجب..

قالت (سوزان) في ضيق:

- لقد شاهدنا ترحيبهم هذا الصباح.. لم نكن ننتظر أن يضربوا النفير لقدومنا، لكننا أيضًا لم نتوقع كل هذه اللامبالاة..

ارتبك (بيلوز) قليلًا بتأثير جمالها.. ثم غمغم:

- يا د. (سوزان).. حين يصل أطباء جدد، أو طلبة إلى المستشفى، فإن الممرضات يعرفن أن هؤلاء الوافدين، هم أخطر على المرضى من أية باكتريا، أو أي فيروس.. فلا تتوقعي أن يفرحوا بقدومكم..

نظرت له (سوزان) وفكرت.. إنه على الأقل – شخص واقعي، ولعل هذه هي ميزته الوحيدة، بعد الانطباع السيئ الذي تركه..

∞∞∞∞∞

في ذات الوقت كان د. (ديفيد كاولى) في غرفة العمليات، في أسوأ حال ممكنة.. انهارت الممرضة المساعدة باكية، وتم استبدالها..

وتحمّل طبيب التخدير سيلًا من السباب المقذع.. أما الجراح المساعد فقد أدمى إصبعه بمبضع د. (كاولى)..
كان هذا الأخير من أبرع جراحي المستشفى، وله مكتب فخم خاص به في الطابق العاشر، وعندما تسير الأمور على ما يرام، يكون ألطف الخلق طرًّا.. أما إذا لم تسر كما يشتهي، غدا وحشًا كاسرًا..
واليوم - في جراحة المرارة التي يجريها - لم تعدّ له الممرضة المساعدة طاقم الأدوات الخاص به، بل وضعت أدوات عامة، من ثم أمسك (كاولي) بالصينية كلها ورماها أرضًا..
بعد ذلك ارتجف المريض رجفة واحدة.. ولم يكد د. (كاولى) يتمكن من تمالك أعصابه، حتى لا يقذف المبضع في وجه طبيب التخدير..
أما السبب الرئيسى لفقدان أعصابه، فهو قيام (كاولي) نفسه بانتزاع الماسك الشرياني الموصل لشريان المرارة، مما جعل الدماء تنفجر في ثوان، ولقد جاهد حتى تمكن من العثور على الشريان وربطه.. وحتى بعد أن فعل ذلك، لم يكن واثقًا تمامًا، من أنه لم يؤذ الإمداد الدموي للكبد..
لقد كان يومًا نحسًا كله..
وبعد الجراحة دخل استراحة الأطباء الخالية، وهو يتمتم غضبًا..
ذهب إلى الدولاب الخاص به، وبعصبية ركل بابه ليفتحه..
كانت النتيجة أن باب الدولاب الملاصق، انفتح وسقطت منه بعض أشياء.. انحني ليعيدها لمكانها.. وكان ما رآه كافيًا ليثير ذهوله.
عشرات من زجاجات الأدوية (ديميرول).. (إينوفار).. (كورار)، ثم مئات من حقن (المورفين) و(البلاستر)..

أعاد الأشياء التي سقطت إلى مكانها، ثم أخرج مفكرة من جيبه، دوَّن عليها رقم الدولاب 338.. وعزم على أن يعرف صاحبه..
برغم غضبه كان يعرف معنى ما رآه..
يعرف خطورة ذلك على المستشفى كله..

∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 10.15 صباحًا:

لا يوجد مكان لارتداء رداء التعقيم، سوى في حجرة الممرضات، لأن استراحة الأطباء تعني الرجال فقط..

في حنق تتفحص د. (سوزان) أردية التعقيم بالحجرة... كلها زرقاء اللون من النوع الخاص بالممرضات.. شعرت بالدّم يتصاعد إلى رأسها، وخرجت إلى استراحة الأطباء لتجد (بيلوز) واقفًا هناك.. كان يرتدي ثيابه الداخلية وجوربًا أسود اللون، ولقد أصابه الهلع حين رآها فهرع يختفي..



وخرجت إلى استراحة الأطباء لتجد (بيلوز) واقفًا هناك.. كان يرتدي ثيابه الداخلية وجوربًا أسود اللون..

لكنها سارت في إصرار إلى أردية التعقيم.. وانتقت سترة وسروالًا صغيري القياس، ثم إنها غادرت المكان بنفس العصبية..

وفي غرفة الممرضات، ارتدت ثياب التعقيم.. كان السروال واسعًا عليها، فشدّت الحزام لتثبته حول خصرها الناحل..
واستعدت لمجابهة (بيلوز).. فقد أدركت أنه من الطراز المتحفظ، ولسوف يكون مسليًا أن تهاجم فيه هذه النزعة، ولعل هذا يضفي بعض حيوية على الدورة الجراحية، التي ستمضيها في هذا المستشفى..
لكم كان منظره مضحكًا، وهو يجري مذعورًا بثيابه الداخلية!..
وحين عادت إلى استراحة الجراحين، وجدته ينتظرها.. وكان يبتسم!..
وفي رزانة قال:
- مس (هويلر).. أعرف أن منظري كان مضحكًا... وعلى كل حال، أعترف بأنني حاولت هذا الصباح إعطاءكم انطباعًا مغايرًا لحقيقتي.. أنا طبيب مقيم منذ عامين لا أكثر، وأنت وأصدقاؤك أول طلاب أقوم بالإشراف عليهم، ولا أبغي سوى أن أفيدكم وأستفيد منكم.. وإن لم يكن فعلى الأقل نستمتع بوقتنا ها هنا..
ثم ابتسم من جديد، وهزّ رأسه وانصرف من أمامها..
وقفت مشدوهة مرتبكة، لا تدري ما تقول.. إن ما قاله جعلها تدرك أنها بالغت في العدائية دونما مبرر في الواقع.. عليها إذن أن تراجع موقفها منه..
ولأول مرة أدركت أنه - حتى على مستوى الشكل – لم يكن سيئًا إلى هذا الحد..
لحقت برفاقها، وعلمها (نايلر) كيف تلبس الحذاء الورقي فوق حذائها، ثم إنهم عبروا المنطقة المعقمة، إلى غرف العمليات..
لم تكن (سوزان) قد دخلت غرفة عمليات من قبل...
لهذا لك أن تتصور ما أحسته من رهبة وإثارة، وهي ترمق الأطباء منحنين على أجساد المرضى، والممرضات يدفعن الأسرة

المتحركة، التي يغفو عليها من انتهوا من جراحتهم.. وطبيب تخدير يمسك بذقن مريض ويثرثر مع الممرضة..
وارتجفت (سوزان)..
- حاولوا ألا تتكلموا بالداخل..
قالها لهم (بيلوز)، وقد وقفوا على باب الغرفة رقم (18).. وأردف:
- لقد نام المريض للأسف.. كنت أرجو أن تروه قبل ذلك.. لا يهم.. قفوا جوار الحائط، ولا تعوقوا الحركة.. الأسئلة بعد الجراحة..
ودفع باب الحجرة ليدخلوا..
ورأوا شخصًا ضخمًا يرتدي الرداء المعقم، يقف جوار صور أشعة.. فرد ذراعيه بطريقة مبالغ فيها وصاح ضاحكًا:
- مرحبًا بروفسير (بيلوز)!.. سيرى هؤلاء الطلبة يدي أسرع جرّاح في الشرق، فهل أخبرتهم أن ما سيرونه هو شيء نادر؟
أشار (بيلوز) نحو هذا العملاق وغمغم:
- (ستيوارت جونستون) أحد الثلاثة المقيمين الكبار.. بقى له معنا أربعة شهور فقط.. لقد وعدني أن يلتزم حدود السلوك القويم، في كلامه، لكني لا أثق بهذا كثيرًا...
- فلننته من كسوة المريض سريعًا..
ووضعت الكسوة الخضراء على البطن، كاشفة عن مربع صغير على الجانب الأيمن منه.. ثم تم تعقيم الجلد..
- مبضع..
واستقر المبضع في الكف المغطى بقفاز.. وبهدوء قرب النصل من الجلد.. عيون الطلبة ترمق المشهد بفضول عات..
نظر (جونستون) إلى طبيب التخدير، يسأله إن كان يستطيع البدء.. فهزّ الأخير رأسه، وفي هدوء وبشقّ سريع ناعم اندفع

النصل فوق الأنسجة بزاوية 45 درجة، وانتثرت الدماء.. ثم انحسرت وانتهت..
وهنا حدث شيء غريب في ذهن (نايلز)..
تسرب المبضع إلى خلايا عقله.. واحتشدت الدماء فيه.. ثم غاب عن الوعي، ليصطدم رأسه بالأرض الصلبة المصنوعة من (الفينيل)..
نظر (جونستون) إلى المشهد في غضب.. ثم صاح:
- هلا أخرجت هؤلاء الصبية من هنا يا (بيلوز)، إلى أن يعتادوا رؤية الدماء؟!
وانحنت الممرضة، لتضع كبسولة من النوشادر تحت أنف (جورج)، ففتح عينيه، ولوهلة لم يدر أين هو.. ثم فهم.. واعتراه حرج شديد من هذا الضعف الذي اعتراه..
- كان عليك أن تخبرني يا (بيلوز).. فماذا كان سيكون الموقف لو سقط هذا الصبي فوق الجرح المفتوح؟!
لم يردّ (بيلوز).. ساعد (جورج) على النهوض على قدميه، وأشار بفتور للمجموعة كي تتبعه، خارجين من غرفة العمليات..
ومن وراء ظهورهم، سمعوا (جونستون) يصرخ في مساعده:
- هل أنت هنا لتعاونني أم لتزيد متاعبي؟

∞∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 11.15 صباحًا:

كان الحرج في كبرياء (جورج نايلز) داميًّا، أكثر بكثير من النتوء الصغير الذي تكوّن في مؤخرة رأسه..

لقد كان تأثير الحادث سلبيًّا على الجميع.. (بيلوز) يسأل نفسه عما إذا كان قد تسرع بإدخال الطلبة غرفة العمليات.. (نايلز) يسأل نفسه عما إذا كان سيفقد وعيه كلما رأى جراحة.. (سوزان) هالها ذلك التبدل الدرامي - 180 درجة - في سلوك (جونستون) و(بيلوز).. كلاهما كان مرحًا ودودًا، ثم صار فظًّا بمجرد حدوث شيء تافه.. ودعم هذا فكرتها السابقة عن تقلب الجراحين وأنانيتهم..

بثيابهم العادية جلسوا يرشقون القهوة في استراحة الجراحين.. كانت قهوة جيدة أحبت (سوزان) عبقها، لولا دخان التبغ المنبعث من (والترز)، الذي وقف جوار الحوض يسعل ويرمق (سوزان).. ذكّرها منظره بأحدب (النوتردام) ولم تشعر بارتياح تجاهه..

ثم دعاهم د. (بيلوز) ليلحقوا به إلى العناية المركزة..

تبعه الطلبة كالدمى المتحركة متلاصقين، كي يشعروا بالأمان والثقة..، إذ بمجرد أن اجتازوا الباب، شعروا بأنهم معزولون عن العالم الخارجي، في عالم صامت خافت الإضاءة..

وظهرت ممرضة شقراء، يبدو عليها الذكاء منادية (بيلوز):

- لقد أصيب (ويلسون) بضربات بطينية غير ناضجة.. وأرى أنه لا بد من تعليق (ليدو كايين)، لكن (دانييل) بالطبع لم يتخذ قرارًا بهذا الصدد..

نظر (بيلوز) إلى رسم القلب، وغمغم:

- نعم.. فعلا يحتاج (ليدو كايين)..
- أنا قلت ذلك.. سأقوم بإعطاء 2 مجم في الدقيقة في 500 سم مكعب من (الدكستروز)..
كان المكان غريبًا بإضاءته الخافتة، وأصواته الصناعية الميكانيكية، وصوت نبضات جهاز تسجيل ضربات القلب، وفحيح أجهزة التنفس الصناعي..
كان المرضى في فجوات متصلة بالحجرة، على أسرّة عالية ذات حواجز جانبية، وزجاجات العقاقير معلقة إلى جوارهم تتصل بعروقهم..
وكان بعضهم لا يكاد يبين وراء الضمادات الملتفة حوله كالمومياء..
والبعض كان يقظًا تعكس عيناه ذلك الخوف، والخيط الواهن الذي يفصله عن الجنون المطبق..
شعرت (سوزان) بأنها تتضاءل، إذ ترمق هذه الذبذبات على شاشات (المونيتور)، وكل هذه الأسماء على زجاجات العقاقير، التي لا تفهم منها حرفًا..
وزاد الأمر سوءًا، شعورها بالفارق بين جهلها التام، وكفاءة الممرضة الواضحة، وتلك الطريقة التلقائية المنفتحة، التي تحدثت بها تلك الأخيرة مع د. (بيلوز).. الطريقة التي تخالف كل ما كانت تحسبه، عن علاقة الطبيب بالممرضات.. ودنت من (بيلوز) إذ جلس على مكتبه..
كان الدوسيه الذي يحمله د. (بيلوز) يحمل اسم (نانسي جرينلي)..
وهنا دخل (دانييل كارترايت) القاعة.. كان طبيبًا ضئيل الجسد غير مهندم الثياب.. ذقنه غير حليقة وله شارب كث ورأس أميل للصلع.. وهو رجل ودود بسيط..

- سيحدثنا د. (كارترايت) عن حالة (نانسي جرينلي)..

بطريقة آلية قال (كارترايت):
- هي فتاة في الثالثة والعشرين من العمر.. تاريخها الطبي سليم تمامًا..
دخلت المستشفى لإجراء توسيع وكحت.. إجراءات إعدادها للجراحة روتينية تمامًا.. في أثناء الجراحة عانت من مضاعفات التخدير، ودخلت في غيبوبة.. حالتها مستقرة ووزنها لم يتبدل.. كذا معدل البول وضغط الدم والتحليلات الإلكتروليتية..
همست (سوزان)، وعلى وجهها تعبير لم يره أحد في الضوء المعتم:
- ثلاثة وعشرون؟
لقد كانت هي نفسها في الثالثة والعشرين من العمر..
قال (بيلوز) شارد الذهن:
- ثلاثة وعشرون.. أربعة وعشرون.. لا فارق..
لكن كان هذا هامًا لـ (سوزان) وتساءلت..
- أين هي؟
- في الركن هناك..
تركزت عيناها على الجسد المسجى بلا حراك في الفراش.. لن تستطع أن تميز سوى شعر داكن، ووجه شاحب، يخرج من فمه خرطوم طويل، يتصل بالة تصدر فحيحًا، وفي ذراعها الأيسر كان هناك خط أنبوب وريدي.. وثمة أنبوب بلاستيكي، ينحدر من الفراش إلى كيس مليء بالبول.. أنثي في الثالثة والعشرين - نفس عمرها – راقدة بلا حراك، ولا دليل على الحياة سوى هذا الفحيح..
- منذ متى هي في غيبوبة؟

نظر لها (بيلوز) في ضيق، فقد كان منهمكًا في شرح دور الصوديوم في الدورة الدموية، حين سألته هذا السؤال:
- منذ ثمانية أيام.. ومن فضلك ركزي على الموضوع يا (سوزان)..
كان مهتمًا بجعلهم يفهمون حساب السوائل الداخلة والخارجة، لكن (سوزان) كانت تتساءل:
- لماذا أصبحت في غيبوبة؟
نظر إلى القلم في يده.. وغمغم:
- لا نعرف.. قضاء وقدر.. كانت بخير حال، وتم التخدير على أكمل وجه، لكنها لم تفق منه.. نوع ما من نقص إمداد المخ بالأكسجين.. والان هلموا نر باقي الحالات..
- وهل هو يحدث كثيرًا؟
- آه.. تعنين الغيبوبة؟.. نادرة جدًا.. حالة من كل مائة ألف.
ونظر لها في حيرة.. إن العنصر الإنساني في حالة (نانسي)، قد تلاشى تمامًا بالنسبة له.. كان كل ما يعنيه هو إبقاء أيونات دمها.. كما يفترض أن تكون، وأن يحافظ على إدرار بولها.. وببساطة لم يكن راغبًا في أن تموت (نانسي) في أثناء عمله بالقسم، حتى لا يوجه له د. (ستارك) اللوم..
لم يكن قاسيًا.. لكن لم يكن لديه الوقت كي يكون حنونًا..
- والان نواصل كلامنا عن حساب السوائل..
لكنها كانت مع (نانسي).. عينيها غير المغلقتين تمامًا، الكاشفتين عن حدقتين زرقاوين، وشفتيها المنفرجتين قليلًا، وعلى أسنانها بقعة بنية اللون من دم متجمد..
أحسّت (سوزان) بالدوار.. وأمسكت بيدها يد (نانسي).. كانت باردة كالثلج، ولولا خفقات قلبها الظاهرة على الشاشة خلفها، لحسبتها ميتة..
سأل أحد الطلاب (بيلوز):

- لماذا لم تجر لها عملية شق قصبة هوائية؟
نظر له (بيلوز) هنيهة ثم قال:
- سؤال جيد جدًّا يا مستر (فيرويزر)..
واستدار نحو (كارترايت):
- لماذا لم تفعل يا (كارترايت)؟
بلع هذا الأخير ريقه، وشرع يتأمل سجل المريضة الطبي، رغم علمه أن الإجابة ليست هناك.. فقال (بيلوز) في فتور:
- سؤال جيد جدًّا.. وأنا طلبت ذلك من (كارترايت)، لكنه لم يفعل، ولم يستدع من يقوم له بهذا العمل.. أليس كذلك يا (كارترايت)؟
- بلى.. هذا صحيح.. أبلغتهم فلم يحضروا..
- وأنت لم تتابع الموضوع.. افعل ذلك حالًا.. الحق يا مستر (فرويزر)، إن الفتاة لن تفيق من غيبوبتها، لهذا نحتاج إلى شق القصبة الهوائية، لأن الأنبوب المثبت في حنجرتها، سيؤدي - مع طول المدة - إلى موت أنسجة قصبتها الهوائية..
ثم قال وقد تذكر شيئًا:
- (كارترايت).. أريد أحد أطباء الأعصاب كي يراها. فإذا لم تُبدِ أية استجابة، يمكننا أخذ كليتيها..
- كليتين؟!
قالتها (سوزان) في فزع، عالمة معنى هذا بالنسبة لـ (نانسي)..
- هي حالة ميئوس منها.. لكن كليتيها – بعد موافقة أسرتها - ستكونان ذاتي نفع لمريض آخر.. إن بعضهم يصحو من الغيبوبة، لكن هذه ليست القاعدة.. لقد مات المخ.. ولا سبيل لعودته للحياة، أو زرع مخ آخر..
- ولماذا حدث هذا؟

- لقد كانت جراحة نظيفة.. وتخديرها تم على يدي أدق طبيب تخدير عندنا.. وقد روجعت كل خطوة قام بها.. والنتيجة: لا تفسير.. ربما كان عندها حساسية معينة للمخدر المستخدم.. النتيجة هي أنها الأن نبات[1] ويجب أن نقوم بها بكل شيء.. نحفظ توازن السوائل والإلكتروليتات، وننظم درجة حرارتها.. ونتأكد من عدم إصابتها بالتهاب رئوي، وهي الطريقة المفضلة لدي مصابي الغيبوبة كي يغادروا عالمنا.. وأحيانًا أتساءل: لماذا أكافح الالتهاب الرئوي؟.. لماذا أطيل عذابهم؟.. لكننا لا نسأل هذه الأسئلة في الطب.. مادام هناك التهاب رئوي، وعندنا المضادات الحيوية، فلا مجال للتباطؤ..
هنا دوي صوت على جهاز الاتصال ينادي:
- د. (هويلر).. في 938 من فضلك!..
أصاب الذهول (سوزان).. هل هذا النداء لها؟.. ولماذا يناديها بلقب (دكتورة)..
قال (بيلوز) في بساطة:
- أعطيت الممرضات قائمة بأسمائكم، لاستعمالها في النداء..
- سيكون غريبًا أن أتعود على لقب (دكتورة)..
- ليس المقصود مجاملتك.. لكننا نحاول كسب ثقة المرضى.. لا ينبغي أن تخفي أنك طالبة، لكن لا تعلني ذلك أيضًا، بعض المرضى لن يسمحوا لك بلمسهم لو عرفوا ذلك، وسيصرخون شاكين من أنهم يُعاملون كفئران تجارب..
ونظر إلى ساعته.. وأردف:
- هيا اذهبي لتلبي الطلب.. وبعدها تجديننا في الطابق العاشر..
مشت (سوزان) ببطء إلى المكتب الرئيسي، وطلبت رقم 938..
أخذ (بيلوز) يرمقها في تأمل وهي تعبر الغرفة..

وأدرك - في هلع - أن إعجابه بها يتزايد أكثر.. وأكثر..

∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 11.40 صباحًا:

يا له من شعور عجيب!..
النداء تسمعه (سوزان) وهي ترتدي المعطف الأبيض، فكأنه عالم غير واقعي، تمثل فيه دور طبيبة.. كل شيء كان دراميًّا مبهرًا..
قالت لها الممرضة في الهاتف:
- نحتاج إلى تركيب خط وريدي لمريض، على وجه السرعة، وقبل أن يباشر طبيب التخدير عمله..
ثنت (سوزان) السلك بين أصابعها..
- متى تريدون تلك؟..
- الان!
خرجت (سوزان) من العناية المركزة، والقلق ينتابها، لما هي مقدمة عليه.. فهي لم تعط حقنًا وريدية قبل اليوم.. كانت تعرف نظريًّا ما ينبغي عمله.. فقط تضرب الإبرة في الجلد، وتخترق الوريد دون أن تثقبه.. الصعوبة هنا، هي أن يكون العرق رفيعًا كخيط المكرونة (الإسباجتي) وتجويفه أدق من ذلك..، برغم أنه عمل هين، إلا أنها أدركت أنه تحد عسير لها.. ولسوف يظهر بوضوح أنها جديدة على اللعبة، ولربما ثار المريض وطلب طبيبًا حقيقيًّا.. كما أنها لا تقبل أي تهكم من أولئك الممرضات..
وصلت أخيرًا إلى الطابق الخامس، فناولتها ممرضة تضع على قبعتها شريطًا برتقاليًّا، صينية عليها زجاجة سائل وريدي.. وقالت:
- الاسم (بيرمان).. إنه في (503)..
اتجهت (سوزان) إلى الغرفة، حاملة الصينية، عليها عبوات من الكحول ورباط مطاطي وبعض الإبر (كانيولا)..

ترددت أمام الباب، هل تقرعة أم تدخل مباشرة.. ثم إنها قرعت الباب، فدعاها من بالداخل كي تدلف.. كانت تتمنى أن ترى عجوزًا منهكًا، أو مريضًا متهالكًا، لا يلاحظ ما يحدث له، لكنه - للأسف - كان شابًا في صحة ممتازة.. وجهه رقيق يشفّ عن ذكاء، ولونه برونزي ومظهره رياضي..

- لا تخجلي.. ادخلي على الفور..

ثم نظر إلى الصينية التي تحملها.. وتساءل في قلق:

- لا.. ليس حقنة أخرى!

قالت (سوزان) متظاهرة بالبرود:

- أخشى أنها كذلك..

ثم علقت زجاجة (الدكستروز) على الحامل، وأوصلت بها جهاز المحلول، لتخرج بعض قطرات السائل، قبل أن تثبت الإبرة على طرفه، ثم رفعت عينها نحو (بيرمان)، لتجده يرمقها في اهتمام.. وبشكّ سألها:

- هل أنت طبيبة؟

نظرت له وصمتت.. هي لم تكن طبيبة.. هذا واضح، ولن تستطيع أن تزعم العكس، حتى لو أرادت..

قالت له بوضوح:

- كلا.. أنا طالبة طب..

فرك يديه في عصبية وغمغم:

- كل ما هنالك، هو أنك لا تبدين لي كطبيبة..

لم تدر أهي مجاملة أم انتقاد.. واصلت عملها، فوضعت سوار الضغط حول معصمه وشدته حتى تنفر العروق، ثم إنها أخرجت قطعة قطن مبللة بالكحول..

قال (بيرمان) في عصبية:

- يجب أن أعترف لك بأني أمقت الحقن..
كيف لو عرف أنها المرة الأولى لها؟!..
غرست الإبرة في يده، لكن جلده قاوم الوخزة.. سمعته يتأوه.. فقالت:
- مستر (بيرمان).. أتوقع منك تعاونًا أكثر..
قال (بيرمان) في حنق:
- تعاونًا؟.. أنا مستسلم كخروف الأضحية!



لم تكد تنطق بالعبارة، حتى لوى (كواريل) ذراعها خلف ظهرها في عنف

شدت (سوزان) الجلد واخترقته بالإبرة.. وشعرت بها تخترق الوريد وإذا بالدم يملأ الخرطوم البلاستيكي..
ففتحت صمام المحلول..

وتنفس كلاهما الصعداء..
وأحست (سوزان) وكأنها أنهت جراحة مخ بارعة.. وبهدوء ثبتت الإبرة على ذراعه بالشريط اللاصق..
قال (بيرمان)، وقد بدا أنه بحاجة إلى أي حديث يسرّى عنه:
- أنا مهندس معماري، خريج (كامبردج).. أنا لا أخشى الجراحة، لكني أخشى الانتظار المؤلم.. الكل هنا يتصرف بأسلوب علمي جاف.. فلماذا اخترت هذه المهنة الجافة، برغم أنوثتك الوافرة؟
لم يكن ثمة داع للنقاش حول المعنى الصحيح للأنوثة، فليس الوقت ملائمًا لهذا قبل الجراحة.. ولهذا قالت:
- الطب يعطيني الأمان الاجتماعي الذي أحتاج إليه..
ثم أردفت بلهجة ذات معنى:
- لكنه في الواقع يشعرني بأننى معزولة عن المجتمع..
أشار (بيرمان) إلى ركبته اليمني.. وقال:
يسعدني أن أعرف عنك أكثر، بعد أن تنتهي مشكلة ركبتي هذه.. لقد أصيبت منذ سنوات في أثناء لعبي كرة القدم.. وغدت نقطة ضعفي من حينها..
وهنا دق الباب.. ودخلت الممرضة، فهتف (بيرمان) في ذعر:
- يا إلهي!.. لا أريد حقنًا أخرى!
بجفاء قالت الممرضة:
- هيا.. لا بد من أدوية ما قبل الجراحة.. نم على جانبك..
طاوعها (بيرمان) في شيء من الحياء لوجود (سوزان)، فقامت الممرضة بحقنه في إليته اليسرى بسرعة وكفاءة، ثم انصرفت كالبرق..
قالت (سوزان) وهي تتبعها خارجة من الغرفة:
- سأتركك الآن.. وسأمر عليك قبل أن تغادر المستشفي..

- وهنا دخل ممرض يدفع سريرًا متحركًا، ليأخذ (بيرمان) إلى حجرة العمليات رقم (8)..
نظرت له (سوزان) باسمة، وتمنت له حسن الحظ فبادلها التحية..
ولم تنكر (سوزان) أنه إنسان جذاب، وله سحر دافي لا بأس به...
إن مهنة الطب ستكون صعبة من كافة الوجوه..
هكذا قالت لنفسها.. ولم تكن مخطئة..

∞∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 12.15:

إنها الآن جائعة!.. قطعتا (التوست) اللتان تناولتهما في الصباح، لا تعتبران وجبة..

الفوضى تسود الطابق الخامس، في وقت توزيع وجبات المرضى..

الممرضة ذات الشريط البرتقالى، تبتسم لـ (سوزان) ابتسامة خاطفة، وتشكرها على تركيب الخط الوريدي، فتشعر (سوزان) بالرضا والفخر..

قررت النزول على السلم العتيق المتهالك، إلى العناية المركزة، بدلًا من استعمال المصعد المزدحم.. وعند الطابق الثاني، رأت اللافتة المكتوب عليها بوضوح «قسم العمليات - ممنوع الدخول»..

لم يكن ثمة داع للافتة، فإن الباب كان مغلقًا من الداخل، ولا يمكن فتحه من ناحيتها.. لهذا نزلت السلم إلى الطابق السفلي، ثم استقلت المصعد إلى الطابق الثاني، عند مدخل العناية المركزة..

في تثاقل دفعت الباب، التدخل ذلك العالم الثقيل، بإضاءته الخافتة الكابية، وأصوات الهسيس من آلات التنفس.. كانت (نانسي) هناك.. فتاة تملك أحلامًا وأصحابًا.. وقد ولّى كل هذا إلى الأبد، بسبب عدم انتظام في الدورة الشهرية..

غادرت المكان الخانق، لتركب المصعد إلى الطابق العاشر، حيث أخبرها (بيلوز) أن زملاءها سيكونون..

هذا الطابق يختلف.. فأرضيته مكسوة بالسجاد، وحوائطه تلمع بدهان جديد مصقول، عليها صور لكبار الأطباء..

وفي نهاية الممر، رأت مكتب د. (ستارك) رئيس قسم الجراحة.. وإلى جواره باب مفتوح، يكشف عن قاعة مظلمة، وعلى الباب لافتة تقول: «قاعة الاجتماعات»..
دلفت إلى القاعة المظلمة، وانتظرت حتى اعتادت عيناها الظلام..
الضوء الوحيد كان ينبعث من شاشة عرض، جوارها يقف رجل يمسك بمؤشر، ويشرح للحاضرين شيئًا ما..
أدركت أن الصورة المعروضة، هي قطاع ميكروسكوبي من رئة..
في الضوء الخافت تبينت رءوس زملائها، الجالسين إلى جوار (بيلوز)، رأت أنهم تركوا لها مقعدًا شاغرًا، فذهبت لتتبوأه..
وسمعت (بيلوز) يميل عليها هامسًا:
- كل هذا الوقت لتركيب محلول؟.. كأنك كنت تجرين جراحة مخ وأعصاب
قالت في جدية:
- لقد كنت أكشف على (روبرت ردفورد) نفسه[2]..
هزّ (بيلوز) رأسه وضحك:
- غير معقول.. إنك...
وهنا توقف.. وقد أدرك أن المحاضر كان يوجه له سؤالًا، كل ما سمعه منه هو «والآن يحدثنا د. (بيلوز) عن هذه النقطة!»..
أية نقطة؟..
لهذا هتف في توتر:
- معذرة د. (ستارك).. لكني لم أسمع السؤال..
- أقول: هل ظهرت عليها أعراض التهاب رئوي؟ وعلى الشاشة كانت صورة أشعة كبيرة لرئتين.. انحنى أحد الأطباء خلف (بيلوز) ليهمس في أذنه:

- يتكلم عن (نانسي) أيها الأحمق!
التقط (بيلوز) الخيط، فوقف ليقول:
- كانت حرارتها مرتفعة يا سيدي، لكن لا توجد أعراض صدرية، وصورة الأشعة عادية.. كان البول يحوي بعض الباكتريا، لهذا نعتقد أن التهاب المثانة هو سبب ارتفاع حرارتها..
قال د. (ستارك) ووجهه ما زال في الظلام:
- هل ستستعمل هذا الضمير إذن؟
- أي ضمير يا سيدى؟
- ألا تعرف الضمائر يا (بيلوز)؟
ارتفعت ضحكات متناثرة في القاعة، فقال (بيلوز) بارتباك:
- أعرفها يا سيدى..
- هذا أفضل.. لقد سئمت سماع كل طبيب يستعمل ضمائر (نحن) و (نا).. إلخ عندما يتكلم.. أنا أسألك عن (رأيك) أنت، وليس (رأيكم).. إنه قرار فرد.. ورأى فرد.. وأريد ممن يكون جراحًا في قسمي، أن يجرؤ على قول (أنا)..
وهنا قطع كلامه وميض أحمر متقطع على الحائط الجانبي، وظهرت عبارة على شاشة جانبية تقول:
«سكتة قلبية بوحدة العناية المركزة»..
أطلق (بيلوز) سبّة ووثب من مكانه مدمدمًا:
- أوف... يا للحظ السيي!..
ثم اندفع كالرصاصة من القاعة وخلفه (كارترايت)..
ترددت (سوزان) ورفاقها لحظة.. ثم تدافعوا لاحقين بـ (بيلوز)..
أما د. (ستارك) فواصل محاضرته كأن شيئًا لم يحدث..

∞∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 12.16 بعد الظهر:

لم يكن (بيرمان) يفقه شيئًا عن الطب..

بل هو لم يحاول معرفة شيء عن مرضه وعلاجه، كان يخاف المرض ويربط بينه وبين الطب في سلة واحدة، فلا يفهم أنهما نقيضان.. وكانت أمعاؤه تتقلص، كلما تخيل أن نصل المبضع سيمزق جسده..

يذكر جيّدًا لحظة أن دخل المستشفى، ليقول لموظفة الاستقبال:

- اسمي (شون بيرمان)..

كان وجهها مغطى بالمساحيق أكثر من اللازم، ولاحظ طلاء أظفارها الأسود الغريب، وهي تقلب صفحات الملف. وتساءل في سره، كيف لم يَلُمها أحد على هذا الطلاء الغريب.. وسمعها تقول:

- لا يوجد لك ملف هنا.. انتظر حتى أفرغ من هؤلاء المرضى..

وبرغم أنه تعطل ساعة كاملة، وساعة مثلها في قسم الأشعة، فإنه لم يسخط.. بل أحس برضا؛ لأن هذه المشاكل الصغيرة، تصرف تفكيره عن الجراحة التي هو مقبل عليها..

وفي غرفته جلس ينتظر، كالمحكوم عليه بالإعدام.. وكانت زيارة (سوزان) العابرة له، كنجم في سماء ملبدة بالغيوم.. أعطته الأمل في الحياة، وأدرك أنه لن يموت.. مستحيل أن يموت وهو شاب وبكامل عافيته..

وساعدت الحقنة التي أعطته إياها الممرضة، على أن ينفصل عن كل شيء حوله، وأن يشعر بروح المرح.. ولم يعد الزمن ذا

أهمية بالنسبة له..
وفي غرفة العمليات، وقفت الممرضة (بيني أوريللي) ترتب الأدوات الجراحية، على حامل (مايو)، أما الممرضة (ماري أبروزى)، فقد أعدت الرباط الخاص بقياس ضغط الدم..
وكان د. (جودمان) طبيب التخدير، يخرج فقاقيع الهواء من جهاز المحاليل، وكان يشعر بالرضا؛ لأن المريض شاب قوي، والجراح د. (سباليك) من أمهر جراحي العظام بالمستشفى، وبالتالي سينتهي كل هذا قبيل الواحدة ظهرًا..
- نسيت يا (مارى) إحضار أنبوب القصبة الهوائية.. هلا ذهبت وأحضرت قياس (8)؟
- حالًا..
وقام بتوصيل الأنابيب، إلى أنابيب (أكسيد النتروز) و(الأكسجين) المركزية في الحائط..
إن (بيرمان) هو الحالة الرابعة والأخيرة لهذا اليوم، لقد كانت هناك حالة صعبة نوعًا من الحالات الثلاث التي قام (جودمان) بتخديرها اليوم.. امرأة تزن 267 رطلًا، وتعاني من حصوات مرارية، وكان (جودمان) يخشى أن تمتص دهونها كميات كبري من عقار التخدير، مما يؤدى إلى صعوبة إيقاظها لكن هذا لم يحدث..
الحالة الرابعة - حالة (بيرمان) - هي حالة تمزق في الغضروف الهلالى بالركبة.. ياله من ملل!.. لم يكن شيء قادرًا على كسر الروتين بالنسبة لـ (جودمان) سوى أن يغير أساليب التخدير، ليجبر نفسه على التفكير.. وعلى ابتكار أساليب تقلل جرعات المخدر..
كان المريض قد وصل، ونقلوه على المنضدة.. فشدّ (بيرمان) الملاءة عليه، ونام على جنبه كأنما في داره..، أعادوه إلى ظهره،

ورفعت (مارى) قدمه لتعلقها في حامل معدنى، وشرع (تيدكولبرت) الطبيب المساعد، يعقّم الركبة بمحلول مطهر..
الضغط 110/75.. النبض 72 ومنتظم..
- الآن يا مستر (بيرمان)، أرجو أن تسترخي تمامًا..
ضحكت (مارى) من الدعابة.. وهتفت:
- لو استرخي أكثر، سيغوص في المنضدة!
قام د. (جودمان) بإعطاء المريض (دروبريدول) و(فنتانيل)، ثم وجد أن المريض قد نام تمامًا، فلا داعى إذن لإعطائه (البنتوثال)..
وضع القناع الأسود على وجهه ليمده بـ (أكسيد النتروز).. ثم حقنه بالـ (تيوبو كورارين) - وهو العقار الذي يعود فضل استعماله، إلى شعوب (الأمازون) – ثم بدأ يملأ رئتيه بالهواء من الكيس..
كل شيء على ما يرام..
وبحركات مسرحية أنيقة، فتح د. (سباليك) الركبة..
وبالجفت انتزع غضروفًا ممزقًا، معلنًا أنه هو سبب مشكلة المريض، لكن الممرضتين لم تكونا واثقتين تمامًا، مما إذا كان هذا القطع مرضيًّا أم أحدثه الجراح الآن..
وانتزع د. (سباليك) قفازيه، وقال لمساعده أن يغلق الجرح، مستخدمًا أمعاء القط والحرير.. ثم غادر الغرفة..
تساءل د. (جودمان):
- كم ستستغرق من وقت؟.
- ربع إلى ثلث ساعة..
وهنا ارتفع ضغط الدم قليلًا، مما دعا (جودمان) إلى زيادة جرعة عقار (اينوفار) وريديًّا، وفيما بعد اعترف أن ذلك ربما كان خطأ من جانبه، لربما كان استعمال (الفنتانيل) أكثر صوابًا..

لكن ضغط الدم استقر.. فعاد الجراح يعمل.. وعادت (مارى) إلى ركن الغرفة، تمسك بمذياع صغير، تنبعث منه موسيقا (الروك)، وتلوك لبانة..
وفجأة ظهر على الشاشة انقباض بطيني غير ناضج.. ثم توقف القلب هنيهة.. توتر (جودمان)، وزاد من تدفق الأكسجين؛ ليغسل (أكسيد النتروز) من دم المريض.. (كولبرت) يطلب المزيد من الغرز للخياطة..
دقتان أخريان غير طبيعيتين.. وهذه المرة قلل د. (جودمان) سريان الأكسجين، عله هو سبب حساسية عضلة القلب، ولقد أقر فيما بعد أن هذا قد يكون خطأ آخر..
وفجأة ازداد عدد الضربات الغريبة، وكاد (جودمان) يصاب بسكتة قلبية هو قبل المريض.. ثمة شيء خطأ.. ضغط الدم ينخفض إلى 80/55 دونما سبب..
أصاب الهلع (جودمان) في مقتل، وعجز تمامًا عن فهم ما يحدث.. الصورة على الشاشة تحولت إلى نوع من الشخبطة، التي لا تفسير لها سوى خطورة الموقف..
- ماذا يحدث عندك بحق السماء؟
قالها د. (كولبرت) وهو يرفع رأسه..
لم يجب (جودمان).. بهستيريا صرخ في الممرضة:
- ليدوكايين!!
حاول انتزاع غطاء المحقن بيده المرتجفة، دون جدوى.. فسبّ وقذف المحقن في الأرض، ثم عرّى محقنًا آخر، وحاول أن يملأه بـ (الليدوكايين)، لكن يديه ارتجفتا، فلم يستطع أن يسحب العقار في المحقن.. بل إنه جرح إصبعه بالإبرة..
- أسرع..!.. إن قلب هذا الرجل سيتوقف!

أخيرًا، وبعد لأي، استطاع (جودمان) أن يملأ المحقن بال (ليدوكاين) وجاهد - وهو يرتجف - كي يحقنها في الحافظة المطاطية لجهاز المحلول، وفجأة.. عاد القلب يخفق بسرعته العادية المنتظمة..

قاس ضغط الدم، وهو لا يصدق عينيه.. فوجده قد صار 100/60، كما عاد النبض 72 في الدقيقة..

العرق يتساقط من جبينه على سجل التخدير..

سأله د. (كولبرت):

- ماذا حدث؟

- لا أدري.. انته سريعًا، لأنني أريد إيقاظ هذا الرجل..

انتهى الجراح من الغرز، وبدأ في التجبيس على حين حاول (جودمان) أن يدفع بالهواء إلى رئتى (بيرمان) كى يتنفس تلقائيًّا..

لكن سُدى.. لم تكن هناك أية محاولة تنفس..

تساءل (جودمان) في قلق، عما عساه تكون انعكاسات الحدقة..

ففتح الجفن وجذبه لأعلى..

وهنا لاحظ شيئًا مروعًا..

إن (الفنتانيل) - شأنه شأن عقاقير التخدير كلها - يعمل على تضييق إنسان العين، لكن إنسان عين (بيرمان) كان متسعًا للغاية..

أمسك (جودمان) البطارية وركز الشعاع على الحدقة، فلم تحدث أية استجابة.. الحدقة متسعة ثابتة..

عندئذ لم يقل (جودمان) شيئًا..

رفع عينيه إلى أعلى، والعرق يغمر جبينه.. وهمس:

- يا إلهي الرحيم!..

....

∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 12.34 بعد الظهر:

هرولت (سوزان) ورفاقها إلى المصعد، في حماس مبالغ فيه، مارين بين المرضى الجالسين.. كان الطلبة يهرولون، ممسكين أقلامهم وسماعاتهم وبطارياتهم، كما لو كانوا هم من سينقذون الحالة، وبدا على المرضى الرضا لهذا المشهد، الموحى بالاستعداد التام لإنقاذ المرضى..

كان المصعد بطيئًا.. وقد أخذ (بيلوز) يضغط الزرّ مرارًا، كأن هذا سيعجل في قدومه.. ثم إنه صاح في نفاد صبر:

- سنستعمل السلم..

واندفعوا يهبطون السلم الحلزوني الطويل بلا نهاية..

همس (فيرويزر) في أذن (سوزان) وهو يلهث:

- لماذا الجري؟

- نجري لأن (بيلوز) في المقدمة.. أريد أن أرى ما سيحدث، لكني لا أريد بحال أن أكون أول الواصلين هناك!

وشرعوا يجرون خلف (بيلوز) إلى غرفة العناية المركزة..

هذه المرة كانت الغرفة مضاءة تمامًا بضوء باهر..

وفي الركن كانت الممرضات الثلاث المعينات في الغرفة، يقمن بعمل تدليك صدر لـ (نانسي جرينلي).. وعلى الشاشة رأوا جميعًا شخبطة مروعة..

قالت الممرضة الأولى:

- كانت في حالة ذبذبة بطينية منذ أربع دقائق..

دار (بيلوز) حول الفراش.. ثم كوّم قبضته وهوى بها على صدر المريضة، فارتجفت (سوزان) من الصوت.. لكن شيئًا لم يحدث..



ثم اتجه نحو (بوند)، وبدا وكأنما يفحص كل دقيقة من دقائقه، وكل خلجة من خلجاته..

وقال (بيلوز) للممرضة:

- اشحنى (نازع التذبذب).. أسرعى..

ثم نظر إلى الممرضة الأخرى آمرًا:

- أمبول بيكربونات.. وأعدى سرنجة بها 10 سم من تركيز 1: 10.000 (إبينفرين)..
فقامت ممرضة بحقن البيكربونات، وأعدت الأخرى (الإبينفرين).. فتناول منها المحقن، ودار حول المريضة.. ثم غرز الإبرة في قفصها الصدرى، وسحب المكبس ليتأكد من أنه بالقلب.. ثم حقن..
ارتجفت (سوزان) شاعرة أن هذه الإبرة تخترق قلبها هي..
همس (بيلوز) وهو يواصل تدليك القلب:
- سيقتلنا (ستارك) لو ماتت..
نظرت له (سوزان) في حيرة.. لا أحد يعتبر (نانسي) إنسانًا.. بل هي لعبة معقدة يلعبونها، وكل أهمية حياتها هي ما ستؤثر به - سلبًا أو إيجابًا - على مستقبلهم المهني.. فلتمت (نانسي)، ولكن دون أخطاء يمكن أن يُلاموا عليها..
إنها - (سوزان) - تمقت المستشفى.. تمقتها إلى أقصى حدّ ..
وضع (بيلوز) الأقطاب الكهربية لـ (نازع التذبذب) فوق صدر (نانسي) العارى، ثم صاح الصيحة المعتادة:
- إخلاء!
فتراجع الجميع للخلف.. ومرت الشحنة الكهربية عبر صدر (نانسي)، فانتفض جسدها، وتقلصت ذراعاها.. وعادت ضربات القلب العادية إلى الشاشة.. فتنفسوا الصعداء..
وهنا عاد الإضطراب من جديد إلى القلب..
قالت الممرضة وهي ترمق الشاشة:
- عضلة قلبها متوترة.. لا بد أن هناك خطأ ما..

- لو عرفت ما هو، دعينا نعلم.. إلىّ بخمسين سنتيمترًا من (الليدوكايين)..
وفي الواحدة والربع، كانت (نانسي) قد تلقت إحدى وعشرين صدمة كهربية، ومئات من محاولات التدليك كلها ذات أثر وقتى..
وهنا اتصل المعمل ليبلغهم بتركيز (بوتاسيوم) الدم، الذي طلبة (بيلوز)..
كان مستواه 2.8 مللى عيارى لكل لتر.. وهو مستوى منخفض.
- ياللهول!.. كيف انخفض إلى هذا الحدّ؟
وأمر الممرضة أن تعطي (نانسي) بعض (البوتاسيوم).. ثم واصل الصدمات الكهربية والتدليك.. بدأ الوضع يتحسن نوعًا مع (البوتاسيوم).. وهنا سمعت (سوزان) من يناديها، لأنهم بحاجة إلى عينة من الدم الشرياني من مريض ما..
ولم تكن تعرف كيف تقوم بذلك، لهذا تطوّع (بيلوز) بأن يصحبها ليعلمها.. خاصة وأن الدماء عادت تجري في عروقه، بعد انتظام ضربات قلب (نانسي)..
لقد انتهت المحنة.. مؤقتًا..

∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 1.30 بعد الظهر:

إن وخز الشريان يشبه وخز الوريد.. فقط عليك أن تعزلي الشريان بالإصبع الوسطى والسبابة كذا.. فما أن تشعري بالنبض حتى تغرس الإبرة.. ودعي ضغط الدم يملأ الحقنة بدلًا من جذب المكبس.. إن هذا يوفر عليك ادخال فقاقيع الهواء..
قال (بيلوز) هذا، وهو يسير مع (سوزان) إلى غرفة الطواري، التي بدت لها شبيهة بالعناية المركزة، إلا أن إضاءتها أفضل.. وكان النشاط يسود المكان وسط حركة الأطباء والممرضات..
- سأفعل أنا العملية هذه المرة.. وتتولينها أنت المرة القادمة..
كان هناك فراش يحيط به عدد من الأشخاص، وثمة طبيبان في رداء التعقيم.. وطبيب زنجي طويل مهيب، يقف على اليمين، ويقوم بضبط جهاز التنفس.. كان الجو مكهربًا بشكل غير عادي..
الطبيب ضئيل الحجم يرتجف كالورقة، أما الآخر فكان يصرّ على أسنانه في غيظ.. الأول هو (جودمان) طبيب التخدير.. الثاني هو (سباليك) صاحب حادث الدولاب المكسور، الذي حكيناه منذ قليل..
كان د. (سباليك) يصرخ محنقًا:
- لا بد من تبرير لكل هذا!
ثم نزع القناع المدلى على صدره، ورماه أرضًا.. واندفع من الغرفة فاصطدم بـ (بيلوز) حتى كاد يسقط الصينية من يده.. لكنه لم يعتذر، وواصل خروجه الغاضب من الغرفة..
تأملت (سوزان) الطبيب الزنجي فخم المظهر.. وتأملت البطاقة المثبتة على صدر معطفه الأبيض:

د. (روبرت هاريس)..
كان طويلًا، يعكس وجهه خليطًا فريدًا من التهذيب والثقافة والعنف المتحضر.. والتقت عيناهما لحظة، ثم عاد يواصل عمله في ضبط جهاز التنفس..
ودون أن ينظر لـ (جودمان)، سأله بلهجة (أكسفوردية) راقية جدًّا:
- ماذا استعملت في التخدير يا (جودمان)؟
ردّ هذا بصوت متحشرج:
- (إينوفار) يا سيدى..
اختلست (سوزان) نظرة إلى المريض الراقد.. إلى معصمه الذي كان (بيلوز) يعده لأخذ العينة.. ثم....
عادت بعينيها إلى وجهه.. لقد عرفت من يكون.. إنه (بيرمان)!.. لقد تحول وجهه البرونزي الوسيم – الذي رأته منذ ساعة ونصف لا أكثر - إلى شيء رمادي.. ومن جانب فمه، خرج أنبوب القصبة الهوائية، وثمة دماء متجمدة على شفته السفلي.. وعيناه كانتا مغلقتين تمامًا..
تساءلت (سوزان) بصوت مبحوح:
- هل هو..... على ما يرام؟
اندهش (بيلوز) من اهتمامها، وتوقف عن العمل ناظرًا لها.. على حين قال د. (هاريس) بلهجته المثقفة:
- هو على أفضل ما يكون.. لكنه لا يصحو... هذا هو كل شيء..
هتف (بيلوز) وقد أدرك أن كارثة جديدة قادمة له:
- ماذا؟.. حالة غيبوبة أخرى؟
تساءلت (سوزان)، وعيناها تدوران حول الوجوه:
- مثل المريضة في العناية المركزة؟.. مثل (نانسي)؟
قال د. (هاريس):

- أرجو ألا يكون كذلك.. لكن كل شيء يشير لهذا..
ثم إنه نظر إلى (جودمان)، وتأمل سجل التخدير:
- لماذا زدت جرعة (الإينوفار) في نهاية الجراحة يا (جودمان)؟
- كان تخديره قد تلاشى نوعًا..
- لكن لماذا (إينوفار)؟.. ألم يكن الـ (فنتانيل) أوفق؟
تساءلت (سوزان) مقاطعة:
- ألا يمكن عمل شيء ما؟
تذكرت وجه (بيرمان) الوسيم الضاحك، وهو يتحدث إليها قبل الجراحة.. حيويته.. وتذكرت (نانسي)..
- «لقد تم عمل اللازم» - قال (هاريس) بحزم - «سننتظر أن تعود الوظائف المخية لعملها، وإن كان من الواضح أن المخ قد مات.. وهي دلالة سيئة حتما»..
شعرت بالغثيان.. شعرت بالدوار.. بالعجز..
صاحت وقد فقدت كل تحكم لها في أعصابها:
- هذا كثير جدًّا.. رجل في صحة جيدة يشكو شكوى تافهة، ثم ينتهي هكذا؟.. شابان في أقل من أسبوعين؟.. لماذا لا يقوم رئيس قسم التخدير، بإغلاق هذا القسم المشبوه؟.. حتمًا هناك خطأ ما..
بدأت عينا (هاريس) تضيقان وهي تتكلم.. بينما فغر (بيلوز) فاه.. وفي برود قال (هاريس):
- أنا رئيس قسم التخدير يا آنسة.. وأنت من تكونين؟
قبل أن تردّ هي، سارع (بيلوز) بالردّ:
- (سوزان هويلر) يا سيدى.. طالبة بالصف الثالث وتتلقى تدريبًا في قسم الجراحة، و.... أردنا فقط أخذ عينة دم ثم نرحل فورًا..
قال (هاريس) في لهجة مفعمة بالكبرياء:

- مس (هويلر).. إن أسلوبك العاطفي المليء بالانفعال، لا مكان له هنا، ولا يخدم أي غرض بناء.. لقد تم التخدير بعناية باستثناء بعض نقاط مشكوك فيها، ويمكن تداركها، لكن أن نهاجم التخدير ككل، ونحرم المرضى من هذا الفن السامى، لهو أسوأ بكثير من قبول مخاطرة بسيطة محسوبة..

- إن حالتين في ثمانية أيام ليستا مجرد مخاطرة بسيطة

حاول (بيلوز) أن يخرسها دون جدوى.. على حين قال (هاريس):

- إن هذا الجدل يتخذ شكل تحقيق، لا أجد من واجبى أن أردّ عليه..

واستدار لينصرف، فأسرعت جارية وراءه صائحة:

- لا بد من أن يقوم شخص ما بتوجيه الأسئلة..

استدار (هاريس) ببطء شديد، فأغلق (بيلوز) عينيه، كأنما يتوقع صفعة على وجهه.. وقال (هاريس):

- لن يكون هذا الشخص طالب طب على كل حال..

ثم واصل طريقه إلى باب الخروج.. ودفعه بشدة وخرج...

وضع (بيلوز) يده على جبهته، وقد جفّ الدم من عروقه.. ماذا تحاولين عمله أيتها الحمقاء؟.. تنتحرين؟.. تتحدثين بهذا الأسلوب مع رئيس قسم التخدير الشهير بجبروته؟

ثم إنه غرز المحقن في شريان (بيرمان) وهتف:

- يجب أن أبلغ (ستارك) بما حدث، قبل أن يعرفه من مصدر آخر..

يا إلهي.. أنت لا تعرفين شيئًا عن سياسة المستشفى..

راقبت (سوزان) المحقن وهو يمتلئ بالدماء الحمراء.. وهتفت:

- كان هذا هو المريض، الذي ذهبت لأحقنه وريديًّا منذ ساعة ونصف.. كان إنسانًا لطيفًا في غاية الحيوية.. بل إنه راق لى.. إن هذا لا يُصدّق أبدًا.. ساعة ونصف!

- لا أريد أن أسمع أكثر..
ثم ناولها المحقن، وأمرها أن تضعه وسط الثلج. وضغط بقوة على موضع خروج الإبرة.. واستطرد:
- أنت لا تعرفين كم من متاعب يستطيع (هاريس) أن يسببها لى..
- يجب أن تعترف أن هذا المعدّل مرتفع لحالات موت الدماغ..
- هذا المستشفى يشهد مئات الجراحات يا (سوزان).. ست حالات لا تشكل كمًّا كبيرًا، بل يمكن قبولها كمضاعفات لعملية التخدير..
- أنت قلت لنا صباح اليوم، إن حالة (نانسي) تحدث مرة كل مائة ألف حالة.. والآن تحاول القول إن ست حالات من خمس وعشرين ألف حالة، هي نسبة مقبولة.. هل تقبل أنت أن تجري جراحة تافهة، في مستشفى تحدث فيه هذه النسبة؟
- أنت تضيعين وقتك.. لقد قام د. (بيلنج) بدراسة كل صغيرة وكبيرة، في حادث (نانسي)، وصدقيني إنه دقيق وخارق الذكاء.. وقد قال إنه لا يوجد تفسير..
- شكرًا على تشجيعك، لكني سأقوم بدراسة هذه الحالات.. ولسوف أبدأ من العناية المركزة..
- حسن.. لكن ليكن مفهومًا لكِ، أنني لن أتدخل في الموضوع، مع وجود (هاريس).. أنتِ حرة تمامًا..
- للأسف أنت ينقصك الحماس..
- ربما.. لكن ينقصني أيضًا أن أكون جراحًا..
نظرت له (سوزان) مليًّا.. ثم همست:
- نعم.. ولربما كانت هذه نقطة ضعفك..
....

∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 2.45 بعد الظهر:

جلس (بيلوز) في قاعة المحاضرات نافد الصبر، وعلى بعد منه جلس الطلاب الأربعة، يتابعون محاضرة د. (آلان دروى)، وحولهم خواء رهيب في القاعة.. لقد ظن (بيلوز)، أن اختيار قاعة المحاضرات فكرة لا بأس بها.. لكنه الآن وفي أول محاضرة، لم يعد واثقًا من ذلك، فالقاعة كبيرة أكثر من اللازم.. وبدا المحاضر مثيرًا للسخرية، وهو يحاضر مقاعد فارغة..
لكنهم كانوا يكتبون ما يسمعون في اهتمام - برغم أنه كلام فارغ - كعادة الطلبة في كتابة كل ما يخرج من شفتى المحاضر، دون تفكير ولا تمييز..
ووجد نفسه يفكر فيما سيقوله (ستارك)، لو دخل ورأى هذا المشهد..

∞∞∞∞∞∞

لقد صار (جيرالد كيلى) رئيسًا لقسم صيانة الغلايات، بعد كفاح طويل، منذ كان في الخامسة عشرة من عمره..
هو رجل من أصل إيرلندى، أشقر الشعر، متورد البشرة، يمتاز بكرش ضخم من فرط الشراب كل ليلة، وكان يتقاضى راتبًا ضخمًا؛ لأن إدارة المستشفى تعرف أنه لا غنى عنه.. وأنه الرجل الذي يعرف كل آلة من آلات هذا الصرح الطبي الضخم، كما يعرف كفه..
جلس (كيلى) يراجع أوامر التشغيل لهذه النوبتجية.. ومنها بالوعة حجرة الممرضات، التي تنسدّ مرة كل أسبوع.. إلخ، وكان معه ثمانية رجال تحت إمرته، أخذ يوزع عليهم المهام..

كان هدير الآلات يصمّ الآذان، لكنه كان معتادًا عليه.. بل ويميز كل آلة وسط الضوضاء.. لهذا أثار فضوله صوت شيء معدني يطرق شيئًا معدنيًا آخر، قادمًا من أعلى.. من ناحية اللوحة الكهربية الرئيسية..
نهض ليرى هذا الشيء.. ودار كعادته حول الغلاية العملاقة، مفتشًا عن مصدر الصوت..
وعند اللوحة الكهربية، رأى رجلًا نحيلًا يقف هناك.. رجلًا يرتدي زيًا من اللون الخاكى مفتوح الصدر.. وفي جيب حُلته عشرات الأقلام والمفكات الصغيرة ومسطرة.. وثمة (بادج) صغير كتب عليه (مؤسسة الأكسجين السائل)..
هتف (كيلى) في ذهول:
- يا إلهى!.. لم أدر أن هناك أحدًا هنا..
- وأنا كذلك..
كان الرجل النحيل يحمل أسطوانة خضراء للغاز المضغوط، كتب عليها بخط واضح (أكسجين)..
قال الرجل:
- اسمى (داريل).. (جون داريل).. آسف لإفزاعك.. كنت أفحص خطوط الأكسجين المغذية للخزان الرئيسي.. والآن أنا في سبيلى للخروج، فهلا أخبرتني بأقصر طريق للخارج؟..
- طبعًا.. من خلال ذلك الباب المؤدي إلى الصالة الرئيسية.
- شكرًا..
وقف (كيلى) يرمقه في حيرة.. كيف استطاع هذا الرجل، أن يصل إلى هنا دون أن يراه؟.. عاد لمكتبه، وأخذ يقلب أوراقه.. ثم تذكر شيئا آخر أثار قلقه..
لا توجد خطوط (أكسجين) في غرفة الغلايات!

يجب أن يسأل (بيتر باركر) غدًّا، عن هذا العامل الذي جاء ليفحص خطوط (أكسجين) لا وجود لها..
لكن المشكلة هي أن ذاكرة (كيلى) كانت ضعيفة..
ضعيفة جدا....

∞∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 3.36 بعد الظهر:

بدأ الظلام يسود (بوسطون)، وأضيئت مصابيح الشوارع.. كانت السماء ملبدة بالغيوم، والهواء البارد يتسلل إلى المكتبة، حيث جلست (سوزان) تراجع ما كتب عن الغيبوبة..

لقد أثارت ضخامة الموضوع رعبها.. وأذهلها تشعبه وتفرعه بين العديد من التخصصات الطبية.. على الأقل حصرت عددًا كبيرًا من المقالات العلمية، التي تتحدث عن الموضوع..

كانت مستغرقة، فلم تشعر بدخول (بيلوز) القاعة، ولا بجلوسه جوارها.. حتى أنه بدأ يسعل - كي يجذب انتباهها - فرفعت رأسها تنظر إليه..

- ما هذا؟.. أحسبك أصبت بغيبوبة أنت الأخرى!..

نظرت له ونظر لها بضع دقائق، ولم يقل أحدهما شيئًا.. ثم إنها قالت وهي تتناول الصفحات التي كتبتها:

- تصور أن خمسين في المائة فقط من حالات الغيبوبة، يتم تشخيصها.. والنصف الباقي يموت دون معرفة السبب..

ثم مدّت يدها تقلب بعض الأوراق:

- يعزون 60 ٪ من الحالات إلى الكحول.. و 10 ٪ إلى السكتات الدماغية.. و 3 % إلى السموم والعقاقير.. والباقي مقسم ما بين الارتجاج والصرع وغيبوبة السكر والالتهاب السحائي..

- لماذا لم تحضري المحاضرة يا (سوزان)؟

- أجبني عن سؤال واحد: هل صحا (بيرمان) أو (نانسي) من الغيبوبة؟

- طبعًا لا..

- إذن - بصراحة - ما أقوم به هنا أكثر نفعًا من حضور محاضرات مملة..
- كونى عاقلة يا (سوزان).. أنت لن تنقذى الكون في أول أسبوع لك في قسم الجراحة.. إنك تسببين لى إحراجًا شديدًا بهذا الأسلوب..
- أقدر ذلك.. صدقني.. لكن بحثي عن أسباب الغيبوبة، قد أفادني كثيرًا.. تصور أن نسبة حالات غيبوبة التخدير في هذا المستشفى، تفوق معدلها في الولايات المتحدة كلها مائة مرة؟..
أشعر أننا بصدد اكتشاف مرض جديد.. أو اكتشاف أن تزاوج عقارين له نتائج قاتلة..
وأردفت ضاحكة:
- سأصير شهيرة.. أنت تعرف أن مكتشفى الأمراض، يصبحون أشهر مائة مرة، من مكتشفى علاجها!..
وضع (بيلور) يديه على رأسه صائحًا:
- (سوزان).. أنت مازلت ساذجة، ولا تقدرين المسئوليات.. أنا سأعطيك الحق في التغيب يومًا آخر، لاستكمال مشروعك.. لكن إذا احتجت إليك، فسأطلبك باسم د. (هويلر).. وعليك أن تردى.. هل هذا واضح؟
- ليكن.. لكني بحاجة إلى نسخ مصورة من هذه المقالات.. هاك أسماؤها..
وقفزت فارة من المكان، قبل أن يستطيع الاعتراض.. فوجد نفسه يحدق في بلاهة، في قائمة من سبعة وثلاثين مقالًا.. نهض وأحضر المجلات وبدأ يدسّ قصاصات ورقية عند موضع كل مقال.. ثم طلب من الفتاة المختصة أن تصوّر له نسخًا على حسابه، من هذه المقالات..
وأدرك أن (سوزان) قد أحسنت استغلاله..

لكنه كان ضعيفًا أمامها بالفعل..
واعترف لنفسه بذلك..



نهض وأحضر المجلات وبدأ يدسّ قصاصات ورقية عند موضع كل مقال..

∞∞∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 5 عصرًا:

كان على (سوزان) الالتجاء لقسم (الكمبيوتر)، لمعرفة عدد حالات الغيبوبة بعد التخدير في مستشفى (بوسطون)..
أخذت المصعد إلى الطابق الحادي عشر.. ودخلت غرفة الاستقبال.. وتناولت طلب بيانات، وجلست تملؤه..
وعلى المكتب جلس رجل بدين مهندم، يتلقى الطلبات من الحاضرين، ويتأكد من موافقة الأقسام المختلفة هاتفيًا.. ثم يضع الطلب في صندوق صغير على المكتب، ويحدد لصاحب الطلب وقتًا تكون فيه المعلومات جاهزة.. وذلك حسب الدور..
حدّدت (سوزان) في طلبها، حالات التخدير التي تلتها غيبوبة، طيلة العام الماضي، ثم جلست تفكر في الخطوة التالية..
وهنا اقتحم المكان رجل نحيل في الأربعين من عمره هاتفًا:
- (جورج).. أريد عنوانك..
قال الرجل البدين:
- تحت أمرك يا (هنرى شوارتز).. نحن دائمًا على استعداد لمعاونة إدارة الحسابات.. فرواتبنا تحت قبضتهم!
ودون تردد كتبت (سوزان) اسم (هنرى شوارتز)، في خانة طالب البيانات... ثم كتبت في خانة الإدارة: (إدارة الحسابات)..
وكان (شوارتز) قد انصرف، بعد ما ترك طلباته وتلقى وعدًا باستلامها في السابعة مساء.. فنهضت إلى الموظف الجالس، وتظاهرت بأنها تسأله عن شيء ما.. ثم دست طلبها بين أوراق (شوارتز) دون أن يلاحظ الموظف ما حدث..
ثم إنها شكرته وغادرت المركز..

وفي تمام السابعة مساءً، رفعت سماعة الهاتف، وطلبت مركز (الكمبيوتر)، وتحدثت في ثقة:
- آلو.. إدارة الحسابات.. هل استلم مستر (شوارتز) البيانات المطلوبة منكم؟
- نعم.. منذ دقائق خمس..
وضعت سماعة الهاتف.. واتجهت - بالسؤال - إلى
إدارة الحسابات في الطابق الثالث..
كان هناك ثلاثة موظفين فقط يعملون مساء.. واتجهت إلى حيث جلس (هنرى شوارتز)، يراجع في شغف البيانات التي حصل عليها لتوه من مركز (الكمبيوتر).
مشت إليه وحيته ثم قالت:
- لقد حدث خلط بين بياناتك وبياناتى.. البيانات التي طلبتها أنا تخص حالات الغيبوبة في المستشفى.. وقد خلطوها بأوراقك في مركز (الكمبيوتر).. فهلا سمحت لى باستردادها؟
قلب الرجل الأوراق، حتى وجد الورقة التي تريدها.. ناولها إياها ثم غمغم بشك:
- لكنها مطلوبة باسمى أنا..
- لهذا حدث الخلط.. لكنك ترى أنها لا تهمك بالتأكيد..
- يجب أن أكلم (جورج) عن هذا..
قالت وهى تأخذ الورقة متجهة للباب:
- لا داعى.. ناقشت معه الأمر، وقد وعدني بأنه لن يتكرر.. شكرًا لك..

∞∞∞∞∞

جلست مع (بيلوز) في استراحة الطابق الخامس، وكان هذا الأخير يلتهم طبق كريمة، أعطاه له أحد المرضى الذي كان يشعر بغثيان فلم يستطع التهامه..

كان (بيلوز) مندهشًا.. فـ (سوزان) التي لم تحضر محاضرات الصباح، مازالت بالمستشفى حتى الثامنة مساء..

قالت (سوزان) وهي تخطط على البيانات بقلم أصفر سميك:

- كما قلت يا (بيلوز)، لم تكن هناك حالتان، ولا ست حالات، بل إحدى عشرة حالة!

ظهر الاهتمام على وجهه.. وتغيرت لهجته.. وسألها:

- هل أنت متأكدة؟

- بيانات (الكمبيوتر) تؤكد ذلك..

- وكيف حصلت عليها؟

- ساعدني (هنرى شوارتز).. كان لطيفًا ومجاملًا!

مال (بلوز) يتأمل الأوراق.. ثم غمغم:

- إن هذا المستشفى كبير يا (سوزان).. هل تعرفين كم حالة نراها هنا كل يوم؟

- حالات الوفاة أسبابها معروفة، ويمكنك دائمًا أن تجري الصفة التشريحية لها.. أما حالات الغيبوبة هذه، فلا سبب لها، ولا يمكن تشريحها لأن أصحابها أحياء..

- هناك مريضان ماتا بسبب توقف التنفس اليوم.. ولن يجد التشريح سببًا لهذه الوفاة..

- هل حقًّا حدث هذا؟ وكم كانا يعالجان أصلًا؟

- لا أذكر.. واحد كان يعانى جلطة وريد ساق.. والآخر.. ربما شلل رعاش..

- وما اسماهما؟

- (كروفورد) و (فيرار).. الطابق السادس..

- وهل سيجرون التشريح عليهما الليلة؟
- الليلة، أو صباح غد..
شكرته في حرارة، على تصوير الأوراق التي طلبتها، وعلى هذه المعلومة الهامة، ثم إنها تركته عائدة إلى غرفتها..
ربما للمرة الأولى منذ الصباح..

∞∞∞∞∞∞

الاثنين 23 فبراير الساعة 8.32 مساءً:

يعتبر علم (الباثولوجي) وتشريح الموتى، لمعرفة سبب وفاتهم، هو الجانب المظلم من الطب.. التخصص الذي يبدأ بعد فشل العلاج والموت..

وكانت (سوزان) تفكر في هذا، وهي تهبط درجات السلم، متتبعة الأسهم إلى حيث قسم (الباثولوجي).. لا تسمع سوى خطواتها على الأرض الخرسانية.. ولم تكن قد رأت سوى عملية تشريح واحدة في حياتها، زرعت في روحها الشعور بتفاهة الحياة ووهن الإنسان..

دفعت الباب الذي كتب عليه «للعاملين فقط»، داخلة إلى معمل (الباثولوجي).. منضدة طويلة من الطوب في وسط القاعة، فوقها أجهزة مجهر، وشرائح زجاجية، وكيماويات مختلفة.. وكانت رائحة (الفورمالين) تملأ المكان.. وعلى الحوائط رفوف ملآى بآنية زجاجية.. وتبينت أن هذه الآنية تحوي أجزاء آدمية عديدة.. رأت إناء زجاجيًا، يحوي رأسًا بشريًا مقسومًا بالطول إلى شطرين.. والورقة الملصقة على الإناء كتب عليها باللاتينية: (سرطان بلعوم - عينة 304 - أ 6 - 32).

ارتعدت (سوزان)، وأشاحت بوجهها عن هذه الرفوف.. مشت إلى نهاية الردهة، إلى حيث وجدت بابًا زجاجيًا كبيرًا، ومن وراء الباب وصلت لمسمعها أصوات.. فوقفت تتساءل: هل تدخل؟

- هل أنتِ طالبة؟

قالها طبيب خرج من باب جانبي وهو يبتسم.. ولم ينتظر ردّها، بل اتجه لصنبور الماء ليغسل يديه.. وسألها عما إذا كان يستطيع خدمتها.

فقالت:
- أسأل عن مرضى متوفين في الطابق السادس.. مريضين يدعيان (فيرار) و (كروفورد).. هل تم تشريحهما؟..
نظر إلى ورقة معلقة على الحائط.. ثم قال:
- نعم.. هما هنا.. إنهم (يعملون) في (كروفورد) الآن..
ودعاها للدخول، فاستجابت.. كانت الحجرة واسعة جدًّا، ذات إضاءة معتمة، وحوائطها مغطاة بالقيشاني الأبيض، المهشم في عدة مواضع.. وفي وسطها منضدتان من رخام بُني بشكل مائل، ينزلق من فوقهما مجرى مائي دائم، نحو بالوعة على الأرض..
وكان جسد ما كان (كروفورد) يومًا ما، يرقد على المنضدة الرخامية، على حين وقف جواره طبيبان.. أحدهما يزن الأعضاء التي تم استخراجها على ميزان صغير، بعد ما وضعها في دلو..
ورأت أنهما لاحظا وجودها، فدنت منهما وألقت التحية، ثم تساءلت عما إذا كانا قد عرفا سبب الوفاة، فأجابا بالنفي.. وقالا إنهما لا يتوقعان معرفته، لأنهما مرا بنفس الخبرة مرارًا هذا العام، ولم يجدا أي مرض في الرئة أو المخ يبرّر ما حدث..
شكرتهما (سوزان)، وعادت إلى الغرفة الخارجية، وقد غلبها الدوار والغثيان.. عادت إلى الطبيب الذي جلس يرشف القهوة، ويقضم الكعك على مكتب صغير، بينما يوقع على كومة من التقارير الطبية.
- يبدو أنني لا أتحمل رؤية التشريح..
- إنه شيء يأتي بالتعود ككل شيء آخر..
وبعدما استأذنته أخذت ملف (كروفورد)، وملف (فيرار)، وشرعت تنقل ما بهما في مفكرتها السوداء الصغيرة..

∞∞∞∞∞∞

الثلاثاء 24 فبراير الساعة 8.05 صباحًا:

جرس المنبه يدق، و (سوزان) في فراشها الدافئ الحبيب.. تجد صعوبة جمة في الاستيقاظ..، وبعد قليل عاد عقلها يعمل، متذكرًا أحداث اليوم السابق، حتى الثالثة صباحًا، ظلت تراجع المقالات التي صوّرها (بيلوز) لها، وكل ما دونته عن حالات الغيبوبة.. ومعها أدركت أن المشروع بالغ التعقيد، يتطلب الكثير من المثابرة والجهد..

لكن هذا زاد من حماستها وقوى من عزمها..

أخذت حمّامها، وتناولت الإفطار، وارتدت ثيابها، ثم هرعت إلى المستشفى، قابلت زميلها (نايلز)، الذي تساءل عن سبب عدم حضورها المرور على المرضى، وقد تجاوزت الساعة..

قالت في شيء من التحدي:

- يمكنني أنا أن أسألك ذات السؤال..

- كنت أجرى أشعة على رأسى، بعد سقطة البارحة!.. هيه!.. لا تقلقي..!.. كل ما وجدته الأشعة هو كبرياء جريحة.. لكن هذه لا علاج لها هنا كما تعلمين..

ضحك وضحكت.. وصعدا معًا إلى الطابق الثامن.. وهناك كانت الإدارة الطبية في الغرفة رقم 810

كان مدير الإدارة هو د. (ج. نيلسون)، نائب د. (ستارك)، وكان ذا نفوذ قوي في المستشفى، لكن ليس كنفوذ د. (ستارك)..

فلم تكن له ديناميكيته ولا شخصيته الجذابة القوية..

قدمت نفسها للسكرتيرة الباسمة، على أنها واحدة من طلبة د. (نيلسون)، ثم جلست تتأمل المكتب الفاخر، والأثاث الذي يدلّ

على مرتبة عالية، حققها د. (نيلسون) لذاته.. بعد أعوام من الجهد..
وبعد قليل دعتها السكرتيرة للدخول..
كان مكتب (نيلسون) يغص بالأوراق والكتب المبعثرة في كل مكان...
وعلى المكتب جلس (نيلسون) يدخن الغليون، دعاها للجلوس على مقعد جلدى عتيق.. وسألها عن أية خدمة تريد؟
- إنني مهتمة بموضوع الغيبوبة، التي تحدث دون سبب ظاهر..
اتكأ إلى الوراء في كرسيه.. وغمغم:
- الغيبوبة ظاهرة أكثر منها مرض.. وسببها هو ما يثير شغفنا.. فأي سبب يثير اهتمامك أنت؟
- أتحدث عن الحالات التي تحدث في هذا المستشفى، بعد عملية التخدير.. وعددها يقترب من اثنتي عشرة حالة..
- كيف عرفت هذه المعلومات يا مس (هويلر)؟
كان صوته ونظراته قد تبدلا تمامًا عن ذي قبل.. لكن (سوزان) لم تلمس هذا التبدل المفاجئ..
- حصلت على هذه المعلومات بالكمبيوتر
وناولته الورقة التي حصلت عليها أمس.. وأردفت:
- سترى هنا أن شيئًا ما، يربط كل هذه الحالات ببعضها.. وما أحتاج إليه منك، هو السماح لى باستعمال الكمبيوتر، لمعرفة سير الحالات في الأعوام السابقة، وما إذا كان ثمة شيء يربط بينها..
بدت عليه الصرامة، وتغير أسلوبه في المعاملة بشكل ملحوظ..
نصحها بأن تدرس موضوعًا آخر، لأن موضوع الغيبوبة قد قتل بحثًا.. لكنها أبدت إصرارها ونهضت لتنصرف..

أما ما أثار دهشتها، فهو أنه ثني الورقة التي عليها بيان (الكمبيوتر)، وقال لها في فتور:
- إن هذا البيان سرى.. وليس من حقك الاحتفاظ به..
نظرت له هنيهة، ثم استدارت منصرفة، دون كلمة واحدة..
أمسك بالهاتف - بعد رحيلها - وأدار القرص طالبًا رقمًا..

∞∞∞∞∞

جلس د. (هاريس) رئيس قسم التخدير على مكتبه، يقلب الأوراق، كأن (سوزان) لا وجود لها في الحجرة.. وبرغم برودة الطقس، كان يرتدي قميصًا قصير الأكمام، لتلتمع الإضاءة الفلورسنت القوية على ذراعيه الضخمين، فيكتسبا لون البرونز..
قالت (سوزان) في كياسة:
- أعترف أنني خرجت عن طورى أمس.. فقد كانت علاقة شخصية عمرها دقائق، تربطني بهذا المريض.. وحين تبينت أنه غاب في حالة السبات، فقدت وعيي.. وخرجت عن حدود اللياقة، و..
ردّ (هاريس) مقاطعًا ببرود:
- لذلك رجعت إلى طبيعة (الحريم)!..
تصاعد الدم إلى رأس (سوزان)، لكنها تمالكت أعصابها.. وردت:
- لو كان هذا رأيك في عمل المرأة، فهذا شأنك.. لكن السلوك العاطفي أمر مفهوم، سواء للرجال أو النساء.. لكنني لم آت لمناقشة هذه الأمور.. جئت أعتذر عن سلوك غير مهذب مني، لا عن كونى خُلقت امرأة..
وابتلعت ريقها وأضافت في توتر:
- إذا كان كوني امرأة يزعجك، فتلك - دون شك – مشكلتك..

- أنت تعودين لذات السلوك غير المهذب يا عزيزتي..
نهضت (سوزان) واقفة.. وثبتت عينيها في وجهه:
- آسفة على حضوري لك.. إن حديثنا لن يؤدي إلى نتيجة ما.. بعد إذنك..
استوقفها صوته قبل أن تجذب مقبض الباب إذ قال:
- الواقع يا مس (هويلر) أنني لا أومن بالنساء في مهنة الطب.. إنهن يتعاملن معه على أساس أنه لعبة.. موضة.. بالإضافة إلى ذلك، هنّ عاطفيات أكثر من اللازم..
قاطعته (سوزان) في عصبية:
- هذا كلام فارغ يا د. (هاريس).. أنا لم آت لأسمع رأيك في المرأة والطب.. أمثالك هم المسئولون عن جعل المهنة غير قابلة لتحديات التطور العلمي..
ضرب (هاريس) المكتب بقبضة يده، فتطايرت الأقلام والأوراق..
وفي اللحظة التالية كان واقفًا أمامها.. أجفلت (سوزان) من هذه الثورة، حتى توقعت أنه سيجنّ ويضربها.. سمعته يقول:
- مس (هويلر).. أنتِ لست المسيح الذي سينقذنا بمعجزة من مشكلة قتلناها بحثًا.. إن لك تأثيرًا مدمرًا على هذا المستشفى.. وأعدك بأنك لن تكوني هنا خلال أربع وعشرين ساعة.. والان اخرجي من مكتبى!..
وفرد إصبعه نحو الباب، كمسدس سريع الطلقات، فخرجت (سوزان) مهرولة، والدموع في عينيها خوفًا وغضبًا..

∞∞∞∞∞∞

الثلاثاء 24 فبراير الساعة 11 صباحًا:

كلَّا.. كلَّا.. لن تبكى..

كانت تمشي في الممر، محاولة ألا تلتقي عيناها بعيون من يقابلها.. فقد كان وجهها يظهر ما تشعر به من انفعال، وتحول خداها وجفناها إلى اللون الأحمر القاني.. تشعر بالمهانة والحنق.

هل هى حقًّا أحنقت (هاريس)، إلى درجة أنه كاد يضربها، حين قفز من مكتبه ليواجهها؟.. إنها تحس الوحدة والانعزال في هذا المستشفى.. هل هي حقًّا حمقاء إلى هذا الحدّ؟ هل الجميع على حقّ؟.. لكنها مصرة على المضي فيما اعتزمت عليه.. لن تتخلى عن (نانسي) الراقدة في العناية المركزة، تنتظر أن ينقذها أحد..

ليكن ما يكون.. ستقابل د. (ستارك) رئيس قسم الجراحة؛ ليعاونها بنفوذه في الحصول على ما تريد من (الكمبيوتر)..

كاد (بيلوز) يموت هلعًا حين أخبرته بما اعتزمته:

- هل جننتِ؟.. تقابلين (ستارك)؟.. إنه سيأكلك حية.. إن (هاريس) هو حملٌ إذا ما قورن بـ (ستارك)!

لكنها كانت مصممة.. وعرفت من (بيلوز)، أن (بيرمان) لم يعد في العناية المركزة، بل نقل إلى ما يُدعى (معهد جافرسون)..

- وما هو هذا المعهد؟

- هو معهد للعناية المركزة، تابع لمؤسسة الحفاظ على الصحة.. إدارته إدارة خاصة، وإن كان تمويل إنشائه حكوميًّا..

- لم أسمع عنه قط.. هل زرته؟

- أتمنى ذلك.. لقد رأيته من الخارج، فوجدته بناء عصريًّا عملاقًا.. لفت نظري أنه بلا نوافذ في الطابق الأول.. ويسمح

بزيارته للجماعات الطبية، في الثلاثاء الثاني من كل شهر.. ويقال إنه يسمح بدخول كل حالات الغيبوبة، التي تكتظ بها المستشفيات..

- لكن (بيرمان) حالة حديثة.. فكيف نقل هو وظلت (نانسي)؟

- العبرة باستقرار الحالة.. حالته مستقرة لا كحالة (نانسي)، التي تصاب بمضاعفات طيلة الوقت.. وبمجرد أن أجد منها استقرارًا، سأقوم بنقلها إلى معهد (جافرسون)..

∞∞∞∞∞∞∞

الثلاثاء 24 فبراير الساعة 11.45 صباحًا:
هرع (بيلوز) للحاق بموعد إجراء جراحة بواسير، الرجل في الثانية والستين من العمر.. هي عملية تافهة، لكن (بيلوز) كان يحبّ الجراحة حقًّا.. وبمجرد أن يبدأ وينتابه إحساس المسئولية المقدس، الذي يعطيه إياه المبضع في يده، لم يكن يعنيه مايقوم به ولا أهميته.
اتجه (بيلوز) إلى المكتب الرئيسي في قسم الجراحة، وسأل الموظف عن غرفة المريض.. فنظر الموظف إلى الجدول:
- د. (بيلوز)؟
- بشحمه ودمه..
- أنت معفي من هذه الجراحة!
- من؟.. ومتى؟
- ربما كان من الأوفق أن تقابل د. (تشاندلر) في مكتبه..
كان د. (تشاندلر)، هو كبير الأطباء المقيمين، الذي يوزع الجراحات عليهم.. وهو همزة الوصل بينهم وبين كبار الإخصائيين.. في الثالثة والثلاثين من العمر.. أشقر الشعر.. وسيم المحيا..
جلس (بيلوز) على المقعد الخشبي.. ولم يتكلم أي منهما في البداية، ثم قال (تشاندلر) إنه آسف لإعفاء (بيلوز) من حالة البواسير تلك، وقال له أن (هاريس) اتصل به هاتفيًا، وكان محنقًا جدًّا، لأن أحد الطلبة في المجموعة عاكف على دراسة حالات الغيبوبة.. ويظن (هاريس) أن (بيلوز)، هو من حرض هذا الطالب على دراسة الموضوع.. ونصحه - في إخلاص - أن يقنعه بالتخلي عن هذا البحث..
لكن هناك نقطة أكثر خطرًا:

- ما هو رقم خزانتك في غرفة الجراحة؟
- ثمانية..
وماذا عن 338؟
- كانت خزانتي لفترة مؤقتة.. استعملتها أسبوعًا، ثم أعطوني رقم (8)..
- هل تعرف طريقة فتحها إذن؟
- ربما.. إن فكرت قليلا ما هو الموضوع بالضبط؟
- لقد وجد د. (كاولى) أن هذا الدولاب (338) ملىء بالعقاقير.. بما في ذلك المخدرات.. وكان اسمك في قوائمنا أمام رقم (338) وليس (8)..
- لكن (والترز) هو من طلب مني استعمال (338)، ثم أعطاني رقم (8) بعدها..
- إن الأمر خطير.. فلا تخبر أحدًا به.. أعتقد أن إدارة المستشفى ستسألك بهذا الخصوص، وهم لا يريدون انتشار أخبار..
غادر (بيلوز) الغرفة حائرًا..
هو كان واثقًا بأن اسمه سيربط باسم (سوزان) في موضوع الغيبوبة، لكن موضوع العقاقير هذا مفاجأة حقيقية له.. لماذا يقوم شخص بتخزين عقاقير بهذا الشكل؟.. ما دور (والترز) في الموضوع؟..
هل يخبر (سوزان) بهذا أم لا؟

∞∞∞∞∞∞

الثلاثاء 24 فبراير الساعة 2.30 بعد الظهر:
كان مكتب رئيس قسم الجراحة رحبًا رائعًا.. به نافذتان تحتلان جدارين كاملين، والمكتب من الخشب الأسود، عليه لوح من الرخام الأبيض.. وثمة مكتبة بها جزء متحرك، يفتح على بار مليء بالزجاجات والأكواب، وعلى المكتب جلس (ستارك)، تنعكس صورته في عشرات المرايا إلى جانبه.. يرتدي حلة من اللون البيج تناسبه تمامًا، وقد أرجع شعره الأشيب إلى الوراء، وجلس يقرأ ورقة في يده بعينين خضراوين حادتين، من خلف منظار هلالى العدسات، ولم تتمالك (سوزان) أن شعرت بالانبهار به..
قال لـ (سوزان) بعد برهة وهو يبتسم:
- إن ما تقولين يا آنسة لا بأس به.. لكن إثباته مستحيل..
ثم رفع عينيه نحوها، وأردف:
- لم لا تطلبين ما تريدين من الإدارات المعنية؟
- حاولت.. وقوبلت بمعاملة غريبة، كأنني طفلة يجب أن تُقصى عما يحدث.. حتى أنني بدأت أعتقد أن شيئًا غير مشروع يجري هنا..



هبط الصقور بـ(دايل) و (زوركوف) في ذلك العش الهائل ، عند قدمي رجل ضخم الجثة ..

وصمتت انتظارًا لرد فعله الغاصب أو الساخر.. لكنه دار حول محور كرسيه، وأخذ يتأمل النافذة ثم غمغم:

- إن لك خيالًا خصبًا يا دكتورة (هويلر)..

كان نبأ العثور على عقاقير في خزانة (بيلوز) يؤرقه.. لكنه احتفظ بالسرّ لنفسه.. بالتأكيد هناك أشياء غير مشروعة تتم في هذا المستشفى.. لكنها لا تعرف ما يعرفه على كل حال..

- إن د. (هاريس) يهدد بإنهاء تدريبي في المستشفى..

- من الصعب التفاهم مع د. (هاريس)، فهو انفعالي إلى حدّ كبير، برغم كفاءته.. لكني سأرى ما يمكن عمله بالنسبة لك في هذا الصدد.. لكني أحذرك.. ستثيرين عداوات كثيرة حولك، حين تتعاملين مع هذا الموضوع الشائك..

ثم أوصلها إلى الباب في لطف، وفتحه لها.. فقالت (سوزان):

- يسرني يا د. (ستارك)، أنك على نقيض سمعتك التي تقول: إنك تلتهم البشر أحياء!

ضحك في ثقة:

- ربما تجدين هذه السمعة صحيحة، إذا ما حضرت المرور معي صباحًا...

فما إن خرجت حتى طلب سكرتيرته..

هو يريد أن يعرف ما فعله (بيلوز) بشأن العقاقير..

إن نجاحه - (ستارك) - قائم على الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة..

فلو تهاون لدمّر أولئك الأغبياء سمعة المستشفى الذي كافح كى يبنيه..

∞∞∞∞∞∞

الأربعاء 25 فبراير الساعة 8 صباحًا:

لم تذهب (سوزان) للمستشفى هذا الصباح..
كانت قد صممت على زيارة معهد (جافرسون) الشهير هذا..
نعم هي تستطيع دخوله - بقليل من الحظ - مرتدية ثياب ممرضة أو طبيبة، ولن يكون هناك مشكل ما، طالما أن الفوضى تعمّ كل المستشفيات..
المشكلة الحقيقية، هي أنها لا تعرف المبني.. وستضلّ طريقها هناك حتمًا، فيفتضح أمرها..
ووجدت الحلّ المناسب بناء على نصيحة (بيلوز).. ستذهب إلى مجلس المدينة، لتبحث عن رسوم المعهد، وتعرف جغرافية الطابق الأول منه، وتحفظها عن ظهر قلب..
وقد كان...
ومشت بين زحام المارة، وتحت الأمطار المنهمرة، شاردة الذهن.. لا تدري هنا ما الذي جعلها تنظر إلى اليسار، حين رأت رجلًا يرتدي معطفًا أسود اللون، وقبعة، توقف عن السير حين نظرت (سوزان) له..

عادت تواصل سيرها ماشية فوق الجسر، تتأمل مياه النهر القاتمة.. ثم نظرت وراءها..
كان ذلك الرجل واقفًا على مسافة يرمق الماء مثلها!
غريب هذا!.. ليس من المعتاد أن يقف مجنون سواها يرمق الماء، في هذا الجو اللعين.. في الواقع لم يكن سواهما على الجسر..
شعرت بالقلق، وقررت أن تعبر إلى الجهة الأخرى، لتركب المترو عائدة إلى دارها.. وهنا وجدت الرجل يسير وراءها في إصرار

وتؤدة..
أسرعت السير، ثم دخلت أحد الشوارع الجانبية، ووقفت تنتظر.. وكانت النتيجة إيجابية.. لقد ظهر الرجل مسرعًا عند مدخل الشارع، ثم نظر نحوها، وتأكد من مكانها.. ثم عاد يجدّ السير كأنه ماض في طريقه المعتاد..
هرعت إلى محطة المترو الأرضي، ونزلت درجات السلم..
وحين رفعت رأسها، وجدت ذلك الرجل يهبط الدرجات خلفها!
وهنا سمعت صوت المترو قادمًا.. مترو مليء بالناس حتمًا.. زادت سرعتها على درجات السلم، لتجد أن الأبواب تنغلق.. والمترو يتحرك من مكانه.. صرخت لا شعوريًّا:
- بربك انتظر!
وشرعت تجرى جوار المترو الذي تتزايد سرعته أكثر فأكثر.. ثم تعدّاها وغاب في النفق.. وهي تلهث دامعة..
وغدت المحطة خاوية تمامًا..
وهنا ظهر الرجل.. في تؤدة يتقدم منها.. ثم يشعل لفافة تبغ.. يلقى بعود الثقاب.. يسحب بعض أنفاس من لفافته قبل أن يدنو منها أكثر.. إنه - وهذا واضح - يستمتع بالرعب الذي يسببه لها.. ورأته يمد يده في جيبه، باحثًا عن شيء ما.. مسدس؟.. ربما سكين؟.. لم تنتظر أكثر.. وثبت من على حافة الرصيف - أربعة أقدام من الأرض - وجرت فوق القضبان داخل النفق المظلم..
ولكن القضبان تداخلت.. واشتبك كعب حذائها بين قضيبين فتعثرت.. حاولت انتزاع قدمها دون جدوى.. إن الرجل آت خلفها لا محالة!.. يجب أن.....
ذلك الهدير العالى.. إنه قطار قادم نحوها!..
الضوء الباهر وذبذبات العجلات، وأطنان الصلب التي ستمرّ فوق قضيب ما.. ربما هو هذا القضيب..

الضوء يتزايد!.. انتزعت قدمها من الحذاء وتكوّرت حول نفسها متدحرجة إلى جانب القضيب.. وشعرت بالمترو يمرّ كالعاصفة جوارها..
غطى العرق جسدها كله، وأخذت ترتجف غير مصدقة.. هي حية ترزق، لكن جسدها مليء بالرضوض، وأزرار ثوبها تمزقت وتبعثرت حاجياتها.. ومن الغريب أن حذاءها خرج من بين القضبان بسهولة حين ضغطت عليه لتخرجه..
رأت أناسًا يحيطون بها ليساعدوها.. كلهم يتكلمون في آن واحد.. كانت في حال بين الخيال والواقع.. كأن ما عاشته هو مجرد كابوس، فلا يوجد رجل ذو معطف أسود..
أبت أن يحضروا لها الإسعاف.. هي لا تريد سوى العودة لدارها.. دارها الحبيبة.. ومع الآخرين ركبت القطار عائدة..

∞∞∞∞∞

الأربعاء 25 فبراير الساعة 1.30 بعد الظهر:

كان اليوم سيئًا بالنسبة له (بيلوز).. أنتم تذكرون أن (سوزان) لم تشارك في المرور الصباحي معه، ولكن (ستارك) كان هناك، وقد سأله عنها، ولماذا لم تحضر المرور؟.. فانفجر الحاضرون ضحكًا، وصعدت الدماء إلى وجه (بيلوز)، الذي تلقي محاضرة عن المواظبة، وعن مسئوليته الكاملة عن التزام من يشرف عليهم..

نعم كان اليوم سيئًا.. فطيلة المرور ظلّ (ستارك) يوجه أسئلة عسيرة لـ (بيلوز) بالذات، ويرفض أية إجابة عليها من سواه..

وبعد أن انتهى المرور، أخذه منتحيًّا به جانبًا، وقال له: إن أداء (بيلوز) سيئ.. وأقل - بمراحل - عما تتوقعه منه إدارة المستشفى، بل وسأله عما تمّ في موضوع العقاقير التي وجدوها في الخزانة (338)..

وجن جنون (بيلوز)، وأزمع أن يناقش (والترز) بشأن هذه الأشياء في دولابه.. لكنه فوجئ بأن (والترز) متغيب عن العمل.. متغيب للمرة الأولى، منذ خمسة وعشرين عامًا!..

ذهب لشئون الأفراد ليطلب رقم هاتفه.. فلم يجد سوى عنوانه (1833 شارع ستيوارت - روكسبرى)..

وعلى الفور استقل سيارة أجرة إلى هناك، تاركًا مسئولية العمل لزميله (نوريس) في فترة غيابه..

كان في أمس الحاجة إلى إنهاء موضوع العقاقير فورًا.. فمركزه في المستشفى قد تزعزع كثيرًا.. و(والترز) هو الوحيد الذي يقدر على تفسير كل هذا..

كانت سيارة الأجرة تمضي في شوارع ضيقة حقيرة تحت الأمطار.. وعلى الجانبين مبان قديمة متهالكة، وهوت السيارة في مطب مليء بالمياه القذرة، مما جعل رأس (بيلوز) يصطدم بالسقف..
وأخيرًا وصل إلى هدفه.. فدفع للسائق أجره.. ووقف تحت السيول يرمق السيارة المبتعدة، متسائلًا في نفسه عما إذا كان من الأوفق لو جعل السائق ينتظره..
اجتاز مدخلًا قذرًا مغطى بقطع الزجاج المهشمة..
صالة متهالكة وسطها سلم قديم محطم، وعلى الغبار آثار أقدام حديثة.
صعد في السلم إلى الطابق الثاني.. رائحة الهواء العطنة الثقيلة، وخيوط العنكبوت تتدلى من السقف.. ثم نزل السلم مرة أخرى..
وهنا سمع صوت دقة، قادمًا من خلفية المنزل..
تردّد (بيلوز) وتسارع نبضه.. هو ذا الصوت مرة أخرى..
سار نحو مصدر الصوت، فشعر بحركة على يساره، جعلت الدماء تتجمد في عروقه.. دقّق النظر، فأدرك أنه يرى فئرانًا تهرع فارّة إلى جحورها، بعد ما عبثت ببعض الصناديق من الورق المقوّى..
كان هناك باب جوار الصناديق.. فتحه (بيلوز) ببطء.. ثمة قبو يسوده الظلام.. أخرج بطاريته الصغيرة فأضاءها.. نزل السلم المظلم ببطء، ليبرهن لنفسه أنه ليس خائفًا إلى هذا الحدّ..
ثمة باب صغير أدار مقبضه.. فوجد نفسه في غرفة كبيرة، بها أثاث بال، وفراش متهالك مغطى بورق الجرائد.. يوجد باب صغير يؤدي – غالبًا - إلى حمام..

ودفع (بيلوز) الباب، وراح يدور بضوء البطارية على السقف.. والحوض.. ثم....

صرخ صرخة مكتومة، وألقي بالبطارة فتهشمت، وساد الظلام.. شرع يركض في اتجاه السلم.. اصطدم بالحائط والهلع يغزو عقله.. أخيرًا وجد السلم.. أخذ يصعد فيه، متحسسًا دربه..

ولم يهدأ حتى وجد نفسه خارج المنزل الرهيب..

لن ينسى ما عاش ما رآه داخل الحمام.. كان (والترز) هناك.. معلقًا من خطاف كبير.. عيناه كانتا مفتوحتين، والدم المتجمد يغطى فاه.. وكان ميتًا للغاية إذا صحّ هذا التعبير..

لقد اعتاد رؤية الفظائع في غرفة العمليات..

لكنه لم ير قط أفظع من جثة (والترز)..

∞∞∞∞∞

الأربعاء 25 فبراير الساعة 5 مساءً:

إلى غرفتها دخلت (سوزان) منهكة مفككة الأوصال، بعد ما عاشته من انفعالات هذا الصباح.. أضاءت الأباجورة جوار الفراش بضوئها الخافت..

وهنا سمعت صوتًا غريبًا خلفها..

تصلبت برهة، وأرهفت السمع، لكن الصوت لم يتكرر..

اتجهت إلى الحمام، وأضاءت المصباح الفلورسنت.

وهنا شعرت بشيء يثب خلفها.. ورأت ومضة السكين.. ثم أحسّت بضربة عنيفة على رأسها، جعلتها تدور مصطدمة بالحائط.. حاولت أن تصرخ، لكن الصرخة احتبست في حلقها..

شعرت بمهاجمها يضغط على عنقها دون هوادة.. يدان كالفولاذ.. وعرفت الرجل.. ذلك الذي تبعها في محطة المترو.. وشعرت بنصل السكين تحت ذقنها.. ثم – دون إنذار - تركها تسقط على أرض الحمام.. ركلها فتهاوت على ركبتيها وسالت من شفتيها الدماء..

كان وجهه مجدورًا.. وعلى شفتيه ابتسامة شيطانية وكان يقول:

- للأسف إن التعليمات التي لديّ، هي أن أكتفي بتحذيرك، إن بعض الناس لا يروق لهم ما تقومين به في الفترة الأخيرة، وإذا لم تكفي عن ذلك، سأضطر إلى زيارتك مرة أخرى..

ثم أردف وهو يمسك شيئًا في يده:

- لربما قمت بزيارة لهذا الطفل.. ولربما ترتب على ذلك أن يقتل في حادث مؤسف..

ورمى هذا الشيء إليها.. هي صورة فوتوغرافية لأخيها الصغير (جيمس)، الذي كان في (ميريلاند) في هذه اللحظة.
- ولا داعي لأن أؤكد أن هذه الزيارة سرّ بيننا.. ولجوؤك للشرطة سيجعل العقاب أشدّ..
ثم تركها مغادرًا الحمام، وسمعت (سوزان) باب الشقة يغلق..
تكومت حول نفسها مولولة.. لقد أنساها الفزع، كل الخطط الوهمية التي أعدتها في الماضي للحظة كهذه.. إصبعان في عين مهاجمها، أو ركلة أسفل بطنه.. نسيت كل هذا..
ثم كيف عرف هذا الشيطان اسم أخيها، وكيف دخل الشقة؟
هرعت إلى باب الشقة، وأغلقته بالمزلاج.. أما الشيء المخزي الذي فطنت إليه، فهو أنها بللت نفسها كالأطفال من فرط الرعب..
لكنها فطنت لمعنى هذا التهديد..
إنها قد وصلت - بالتأكيد - إلى شيء كبير وخطير، ولا بد أنها في الطريق الصحيح، حتى لو كانت لا تعرف معنى ذلك..
وقفت تحت (الدوش) تغتسل.. وتزيل الدماء التي سالت على شفتيها..
هل تخبر (بيلوز)؟.. لا.. هو لن يكون موضوعيًا..
فكرت في د. (ستارك) العقلاني.. الذي لن يتعامل معها كأنثى أو طالبة، بل كصديق..
خرجت من الحمام واتصلت بمستشفى (بوسطون التذكارى)، فأوصلتها عاملة الهاتف بـ د. (ستارك).. قالت مستجمعة شتات أعصابها:
- د. (ستارك).. أنا واثقة بأن هناك جانبًا إجراميًا فيما يحدث، وأظن أن هناك منظمة ما مثل (المافيا) في الموضوع..
- ماذا يدعوك لهذا الظن يا (سوزان)؟

- أشياء مفزعة حدثت اليوم.. وكدت ألقي حتفى مرتين..
- هل أنت واثقة بأنها ليست مزحة أو شخصًا موتورًا؟.. إن هذا يحدث أحيانًا..
- لا.. لقد هددني بقتل أخي الصغير..
- إذن لمَ لا تبلغين الشرطة؟
- سيظنون الأمر مجرد محاولة اغتصاب يصادفونها كثيرًا...
- نصحتك مرارًا بنسيان الموضوع يا (سوزان)..
- إن لي مطلبًا هامًا يا د. (ستارك).. أريد أن تسهل لى زيارة معهد (جافرسون)، حيث ينقلون حالات الغيبوبة..
- هذا مطلب صعب يا (سوزان).. فإدارة المعهد خاصة لا حكومية، وليس لي كثير دلال عليهم.. لكن ليكن.. اتصلي بي في التاسعة صباح غد، لنرى ما قد يكون بوسعي في هذا الصدد..
شكرته (سوزان) بحرارة، ووضعت سماعة الهاتف مطمئنة إلى أن لها على الأقل صديقًا واحدًا في هذا العالم..
إن أمامها الآن يومين على الأكثر، قبل أن يعرف من هددوها، إنها لم ترضخ للتهديد.. وعليها أن تتحرك بسرعة..

∞∞∞∞∞∞

الأربعاء 25 فبراير الساعة 7.15 بعد الظهر:

على الأقل كان لكل هذا معنى.. إن (سوزان) لم تدر قط أهمية ما وصلت إليه.. هي لم تكن قد وصلت لشيء في رأيها.. لكن هناك من يهددها..
وهذا يعني أن هناك من يدرك أنها في الطريق الصائبة..
حان وقت الخروج..
لتتصرف مثلما يفعلون في أفلام الجاسوسية.. نظرت للنافذة كي تتأكد من أن أحدًا لا يراقبها.. ثم أضاءت الأنوار.. وقامت بحشر ورقة صغيرة في فتحة باب الغرفة، بعد أن تأكدت من غلقه بالمفتاح، ثم هبطت إلى الطابق السفلى، واستعملت ممرًّا صغيرًا، يستعمله الطلبة أحيانًا للذهاب إلى قسم التشريح.. ومن هناك خرجت إلى الشارع..

∞∞∞∞∞

لم يكن (أنجلو دامبروزيو) - السفاح الأجير – يعرف لماذا كلف بهذه المهمة في (بوسطون).. لكنه في مهنته يعرف جيّدًا أن الأسئلة ليست من حقه.. فهذه المرة مثلًا كلفوه أن يطير إلى (بوسطون)، ثم يتوجه إلى 1833 شارع (ستيوارت)؛ ليقتل شخصًا يدعى (والترز)، بعد أن يرغمه على كتابة ورقة، تقول إنه انتحر، لأنه لا يستطيع تحمل تبعات اكتشاف المخدرات في خزانته، ثم كان عليه أن يفزع طبيبة اسمها (سوزان هويلر)، مهددًا بقتل الطفل الذي أعطوه صورته..
كان سيستقل الطائرة الآن إلى (شيكاغو)، شاعرًا بالرضا، كأي محترف أنجز عمله بنجاح.. وفي المطار طلب الرقم الذي يعرفه

وأبلغه أن (بوسطون) تمت بنجاح..
عندئذ ردّ الشخص الذي لم يره (دامبروزيو) قط:
- ثمة مهمة أخرى.. مس (هويلر) يجب أن تموت فورًا..
- يحتاج هذا إلى ثمن إضافي..
- خمسمائة دولار إضافية إذن..
- اتفقنا..
وهكذا وجد نفسه مضطرًّا للعودة إلى دار (سوزان).. لم تزل هناك طائرة الساعة 11.45 هذا المساء.. إن الوقت كاف جدًّا لما يريد..

∞∞∞∞∞∞

لم يكن واثقًا بما إذا كانت (سوزان) قد أبلغت الشرطة عن زيارته الأولى، لكنه كان يعرف بخبرته السابقة، أنهم لن يأخذوا كلامها مأخذ الجد.. وحتى إذا فعلوا، فلن يبدءوا حراستها بشكل جدّي بهذه السرعة..
لم تكن لديه خطة ما، فهو كعادته يترك كل شيء للظروف..
صعد في السلم، ودقّ الباب مرارًا.. كان يعرف أنها لو كانت بالداخل فلن تفتح الباب، قبل أن تسأل عن الطارق، ولكنه أراد معرفة كونها بالداخل من عدمه..
ولم يتلق ردًّا كما توقع..
فتح الكالون في ثوان ودخل..
فحص خزانة الثياب.. وكان كل شيء في موضعه، بما في ذلك حقيبة ثيابها الكبيرة التي رآها في المرة السابقة..
لكي تكون قاتلًا مأجورًا ناجحًا في عمله، ينبغي أن تكون دقيقًا..
وكان (دامبروزيو) دقيقًا..

لقد عرف أن (سوزان) لم تغادر المدينة، وهي حتمًا عائدة..
عليه فقط أن ينتظر..

∞∞∞∞∞

الأربعاء 25 فبراير الساعة 10.41 مساءً:

كانت (سوزان) قد قامت بمغامرة صغيرة..
تنكرت في ثياب ممرضة، وأقنعت حراس الأمن - الأغبياء كالعادة - أن يسمحوا لها بفتح مكتب د. (مكليرى) رئيس قسم الأمراض العصبية، الذي يحتفظ فيه بكل ملفات حالات الغيبوبة..
وما إن حصلت على الملفات، حتى جلست في استراحة الجراحين تدرسها في اهتمام...
وكان (بيلوز) قد أنهي عمله منهكًا، بعد أن انتهى كذلك تحقيق الشرطة حول انتحار (والترز) المزعوم..
وحين دخل استراحة الجراحين، ووجد (سوزان) بثياب الممرضة، بدأ يفهم ما قامت به من مخاطرة، وبعد أن لامها كالعادة.. سألها عما إذا كانت قد وجدت شيئًا..
قالت (سوزان):
- لا أدري حقًّا.. لكن كل حالات الغيبوبة من الشباب كلهم كانوا بصحة جيدة.. تباينت أسماء أطباء التخدير والعقاقير التي استعملوها، لكنهم جميعًا - المرضي - أجريت لهم جراحات في الغرفة رقم (8)..
وربما كان هذا لأنها مخصصة للجراحات الصغرى..، والغريب أنهم جميعًا.. تم عمل فصيلة دم لهم واختبار توافق نسيجي..
- هذا غريب.. ليس من المعتاد تحديد فصيلة دم المريض في الجراحات الصغرى.. أما عن توافق الأنسجة، فلابد أن هناك خطأ ما..
هل يوجد رقم حسابي على تقرير التوافق؟..

- لا..
- إذن المعمل قام بذلك لحسابه الخاص..
عضّت (سوزان) شفتها السفلي مفكرة.. ثم غمغمت:
- أعتقد أنني لابد أن أرى غرفة العمليات (8) هذه..
وكالعادة أدرك (بيلوز) أنه لن يثنيها عن عزمها مهما حاول..

∞∞∞∞∞

اتجهت (سوزان) إلى غرف العمليات..
ولم يكن في هذا الوقت، سوى جراحة تمدد وعائي في البطن، في الغرفة رقم (2).. لقد استمرت الجراحة ثماني ساعات، مما يدّل على خطورتها..
دخلت (سوزان) - بثياب الممرضات - غرفة التعقيم، وارتدت رداء تعقيم، ثم سارعت بحذر إلى غرفة العمليات رقم (8).. ارتدت الحذاء الخاص المصمم بحيث يمنع الكهرباء الإستاتيكية، ووقفت تنظر عبر الزجاج إلى داخل الغرفة..
دخلت وأضاءت النور، وشرعت تتفحصها.. كان هناك خرطوم له وصلة خضراء كتب عليه (أكسجين).. وخرطوم له وصلة زرقاء كتب عليها (نيتروز).. وثمة وصلة ثالثة غير ملونة، أدركت أنها خط الهواء المضغوط..
لا يوجد ما يثير الشكّ في كل هذا..
نظرت إلى السقف، فوجدته مكونا من بلاطات كبيرة عازلة للصوت..
أحضرت كرسيًّا صعدت عليه إلى خزانة كبيرة.. ثم مدت يدها تتحسس البلاطة.. كانت تتحرك بسهولة.. مدت جسدها داخل الفتحة، وشرعت تتأمل حشد المواسير والأنابيب المعقد في

الضوء الخافت، وبقليل من الجهد رفعت جسدها بالكامل فوق مستوى السقف.. وانتظرت هنيهة، حتى اعتادت عيناها على الظلام، ببطء شديد تحركت زاحفة فوق المواسير، التي كان بعضها ساخنًا جدًّا وبعضها باردا كالثلج..



وشرعت تتأمل حشد المواسير والأنابيب المعقد في الضوء الخافت..

من المهم ألا يصدر عنها صوت ما..
ها هو ذا خط الأكسجين أخضر اللون، يصعد من الغرفة، ويتخذ مكانه جوار الخطوط القادمة من الغرف الأخرى..
وضعت إصبعها على خط الغرفة (8) حتى لا تفقده.. وشرعت تتحسسه.. حتى وجدته ينتهي بشيء شبيه بصمام ضغط..
صمام ضغط غير موجود في أي خط أكسجين آخر!..
هذا الصمام قادر على إيقاف الأكسجين، أو دمج أي غاز آخر في الخط..
لقد وجدت شيئًا هامًا..
وعليها أن تعود أدراجها الآن، قبل أن يراها أحد..

∞∞∞∞∞∞

الخميس 26 فبراير الساعة الواحدة صباحًا:

دفعت (سوزان) أجر التاكسى ومشت نحو باب مسكنها.. ستقوم في الصباح بالمزيد من البحث.. خاصة موضوع انتحار (والترز)، الذي تعرف أن له علاقة ما بما تبحث عنه.. ولكن كيف؟..

صعدت الطوابق الأربعة، وهي تتوقف من حين لآخر، لاهثة من فرط الإنهاك الجسدي والمعنوي..

ثم إنها مدّت المفتاح وأولجته في (كالون) الباب..، و..

لحظة من فضلك!..

كانت قد وضعت قصاصة من الورق في فتحة الباب قبل خروجها..

والان لم تعد القصاصة هناك.. هناك من فتح الباب إذن.. وهو الآن ينتظرها بالداخل.. بالتأكيد سمع خطواتها، وهو الآن متحفز للانقضاض عليها متى دخلت!

هل تفرّ الآن؟.. هل تبلغ البوليس؟.. لن يصدقوها.. سيعتقدون أنها مجرد محاولة اغتصاب أو سرقة..

تقدمت نحو الباب وأمعنت التفكير.. يمكنها أن تنزل لأي من الجيران، لتقول إنها لا تستطيع فتح بابها، وتطلب قضاء الليل عنده..

بدأت تهبط درجات السلم.. لكن صوت الخطوات كان عاليًا.. عاليًا، إلى درجة أن الرجل سمعه بالتأكيد..

وعند الطابق الثالث سمعت صوت بابها ينفتح، وصوت خطوات مسرعة تلاحقها!.. كلا.. لا وقت لديها لدقّ باب أحد

الجيران.. يجب أن تركض.. ستحاول تضليله بين مباني المدينة الجامعية..
شرعت تجرى.. ووجدت أمامها مبنى قسم (الباثولوجى) و(التشريح)..
صوت الخطوات يلاحقها دون كلل..
بلهفة فتحت باب الطابق الأول.. وهرعت إلى داخل المدرج الخاوى..
وهنا وجدته يدلف من الباب خلفها.. وإذا به يمدّ يده إلى مفتاح النور.. كانت واقفة هناك في نهاية المدرج كفأر في مصيدة..
هو ذا يدنو منها بتؤدة.. وجهة المجدور.. وابتسامة وحشية على وجهه:
- أنا أعشق الفتاة التي تقاومنى!
قالها وهو مستمر في الاقتراب.. كانت جوارها أسطوانة إطفاء حريق.. رفعتها في يدها، وحين اقترب، أفرغت في وجهه سيلًا من المادة السائلة، ثم قذفته في صدره بالأسطوانة فسقط أرضًا..
هرعت (سوزان) جارية نحو الثلاجة الكبيرة في غرفة التشريح..
أما (دامبروزيو) فقد استبد به الألم في صدره.. لكنه كان ألمًا بلا إصابة.. الأهم من الألم هو الغضب المحموم المجنون.. كيف راوغته هذه الفتاة بتلك البساطة؟.. أخرج مسدسه الكاتم للصوت.. وهرع خلفها..
شقت (سوزان) طريقها بين مناضد التشريح التي ترقد فوقها الجثث المغطاة بالمشمع الأخضر، إلى باب الثلاجة العملاقة.. وفتحت القفل العملاق..
ثم دخلت وأغلقت الباب وراءها وتحسست الحائط حتى وجدت مفتاح النور فأضاءته..

كانت الجثث المحنطة معلقة في مشاجب على عواميد أفقية، كما تعلق الثياب في الخزانة.. أجساد متيبسة مشوهة.. والوجوه متجمدة، بعضها مغلق العينين، وبعضها يحملق في لا نهائية مريعة..
وتذكرت (سوزان) خوفها القديم من هذه الغرفة.. الخوف الذي لا مكان له الآن..
ليس أمامها إلا بضع دقائق ويدخل الرجل الثلاجة خلفها..

أغلق (دامبروزيو) الباب خلفه احتياطيًّا.. ثم سار بين مناضد التشريح.. واتجه نحو أول منضدة وانتزع الغطاء الأخضر من عليها..
وشهق للحظة، وهو يتأمل الرأس المشوه، الذي نزع عنه الجلد.. والشعر المقلوبه للوراء.. ومقدمة الصدر المنتزعة من مكانها..
ثم أعاد الغطاء.. وعاد يكشف الأغطية عن المناضد الأخرى؛ لأنه لم يكن واثقًا من أن (سوزان) لم تنم فوق واحدة منها.. حاول قدر إمكانه ألا ينعم النظر في الوجوه المريعة..
ثم سار إلى نهاية القاعة.. إلى الثلاجة.. عادت إلى وجهه الابتسامة الشيطانية وفتح بابها..
كانت الجثث المعلقة تبدو كجيش من الغيلان الرهيبة ينتظره.. وأحس بالبرد.. قال وهو يدلف من الباب:
- أنا أعرف أنك هنا يا امرأة.. لم لا تأتين لنتحدث؟
وفي تؤدة سار بين صفوف الجثث..
كادت يدا (سوزان) تتخليان عن العمود الذي تعلقت فيه بين الجثث، في الصف الثاني.. لكنها تماسكت..
أدركت أن (دامبروزيو)، يقف عند بداية الصف الذي تتعلق هي فيه.. وأدركت أن هذه فرصتها الأخيرة.. إما الآن أو أبدًا.

بكل عنف استطاعته ثنت فخذيها لأعلى، ثم ركلت ظهر جثة المرأة التي كانت معلقة أمامها.. في الحال انزلق صف الجثث إلى الأمام..
تصلب القاتل محاولًا فهم مصدر الصوت.. تراجع كالنمر، لكنه كان أبطأ من اللازم.. رأي طابور الجثث الهاجم عليه، فرفع مسدسه لاشعوريًّا وأطلق بضع طلقات، لكن مهاجميه كانوا ميتين بالفعل..
ومن الطرف الحرّ للعمود هوى على (دامبروزيو) جسد رجل شاحب، على وجهه تعبير مريع.. ووزنه نحو مائتى رطل من اللحم المتجمد كالصخر..
وعندئذ توالى شلال الجثث المتجمدة فوق الرجل..
و هرعت (سوزان) جارية نحو باب الثلاجة..
حاول (دامبروزيو) الإمساك بكعبها.. بل وأطلق عليها الرصاص، لكن ثقل الأجساد الهائل فوقه، جعله غير قادر على التملص..
وخارج الباب دفعته بأقصى قوة لينغلق.. وأحكمت تأمينه بالقفل.. وسمعت صوت المسدس ينطلق بالداخل، لكن سمك الباب كان ثمانية بوصات..
دامعة العينين مرتجفة ركضت بعيدًا.. بعيدًا عن هذا الكابوس..

∞∞∞∞∞

الخميس 26 فبراير الساعة 2.11 صباحًا:

لن تعود إلى المسكن.. فمن أدراها أن مطاردها لم يكن له شريك، ينتظرها هناك الآن أو يطاردها؟ ستذهب إذن إلى منزل (بيلوز) وتختفي هناك..

ولكن.. لماذا عاد القاتل ليطاردها بهذه السرعة، ولم ينتظر حتى يرى أثر تهديده؟.. (بيلوز).. هو الوحيد الذي عرف أنها مصممة على مواصلة البحث، ورأى الملفات معها.. مستحيل.. لكن لا.. (بيلوز) له علاقة بقصة العقاقير.. وهو من اكتشف جثة (والترز)..

هل تقدم أم لا؟.. هي غير قادرة على اتخاذ قرار..

رنت الجرس في إصرار وعصبية، حتى سمعت صوته خلف الباب، وفتح لها مرتديًا روب الحمام، فأصابه الذهول لقدومها إلى شقته..

كانت تشعر بحاجتها إلى الصراخ والعويل بين ذراعيه.. الثلاجة المجمدة، (دامبروزيو).. كل هذا التوتر..

لكن (بيلوز) تمدد في فراشه وأغمض عينيه لينام..

فقالت حانقة:

- لم أتوقع منك كل هذه الضيافة!

- ليس في الثانية صباحًا.. إن لدي عملًا كثيرًا غدًا..

- هوجمت من جديد.. نفس الرجل في المشرحة..

لم يبد مهتمًا.. بل إنه نصحها من جديد بإبلاغ الشرطة..

قالت له إنها وجدت صمامًا على خط الأكسجين، الخاص بغرفة العمليات رقم (8)، فلم يلق بالًا لما قالت..

- أنا واثقة بأن هناك غازًا يضخّ، عن طريق هذا الصمام.. غازًا يصيب بالغيبوبة ولا يغير لون الدماء.. غازًا يؤدي لموات الدماغ.. وانني أرشح أول أوكسيد الكربون ليكون هذا الغاز..
- وهل سألت نفسك عن المبرر، الذي يدفع أحدًا لخلط هذا الغاز بالأكسجين، الذي يتنفسه المرضى؟
- لا أدري.. لكني أعتقد أن هناك منظمة إجرامية معينة، مسئولة عن كل هذا..
- أنت تخرفين يا (سوزان)..
نهضت دون كلمة واحدة، مغادرة الحجرة.. ودفعت الباب بشدة خلفها.. لم يكن (بيلوز) ذا عون لها قط.. ولن يكون..

∞∞∞∞∞∞

الخميس 26 فبراير الساعة 1.41 صباحًا:

صحت (سوزان) في غرفتها رقم (731)، في الفندق الصغير، الذي لجأت إليه فرارًا من مطارديها.. صحت من حلم رهيب، رأت نفسها فيه تجري في دغل من الأحراش المتشابكة، تخدش ذراعيها وساقيها وهي لا تجد لنفسها فرارًا..

تأملت (سوزان) الغرفة متواضعة الأثاث.. لا يهم.. المهم أنها آمنة، وأنها سمحت لها بأن تغمض عينيها في سلام..

نهضت إلى سماعة الهاتف، وطلبت د. (ستارك)، فجاءها صوته المهتم:

- (سوزان).. كنت قلقًا عليك بعد حادث الأمس.. هل أنت بخير؟

- عندي مغص شديد، فلن أستطيع المجيء للمستشفى اليوم...

- عندي لك أخبار سيئة، وأخرى طيبة..

- إلىّ بالسيئة أولًا..

- حسن.. السيئة هي أنك - بناء على اتصالات مع عميد الكلية - تم نقلك إلى مستشفى (في - إيه) التعليمي.. برغم محاولاتى، كان الجميع مصرين، ولم أجد مفرًّا.. على كل حال ليس مستشفى سيئًا.

- للأسف إن مستواه التعليمي أقل من (بوسطون التذكارى)..

- الأنباء الطيبة، هي أن مدير معهد (جافرسون)، وافق على أن تزوريه، بشرط أن تكوني وحدك.. وأن يكون ذلك بعد الخامسة مساء.. مفهوم؟

- شكرًا جزيلًا.. هناك شيء آخر يا سيدى.. لقد وجدت صمامًا مركبًا على خط (الأكسجين الداخل إلى الحجرة (8)، في قسم

العمليات، ومكانه قرب الماسورة الأم..
- (سوزان).. أنت غير معقولة!.. كيف استطعت؟
- صعدت فوق سقف الحجرة، ودرست خطوط الغاز..
- إن هذا أكثر من اللازم!
توقعت أن ينفجر فيها كالآخرين.. إلا أن ذلك لم يحدث..
بعد هنيهة سمعت صوته يقول بهدوء:
- حسن.. أعتقد أن لدى تفسيرًا.. فهذه الحجرة أنشئت تحت إشرافي.. وأعتقد أن هذا الصمام خاص بإخراج فقاعات الغاز، لكني سأرسل من يقوم بفحصه للتأكد..

∞∞∞∞∞

في ذلك الوقت كان (بيلوز) قد فرغ من جراحة الاستئصال المعوى، فألقي بقفازيه في سلة المهملات..
لم يستمتع بإجراء هذه الجراحة - وهو يحبها حقًّا -لأنه كان يشعر بالندم على تركه (سوزان) تغادر بيته غاضبة وحيدة، في تلك الساعة المتأخرة.. لكنه كان يدرك أنه على حق في تعليقاته وفي رأيه..
إن ميله الشديد نحو (سوزان)، يجب أن يُزاح جانبًا، إذا كان سيعرض حياته المهنية للخطر..
وعلى باب غرفة الطوارى، قابل د. (جونستون) الذي حيّاه.. ثم قال له في مرح:
- هل سمعت عما حدث في كلية الطب صباح اليوم؟.. لقد دخل شخص مخبول مبنى المشرحة أمس، وعرى كل الجثث.. ثم أطلق الرصاص على بعضها، وحبس نفسه في الثلاجة وأطلق مزيدًا من الطلقات.. هي هي هي!

نظر (بيلوز) إلى (جونستون) شارد الذهن (سوزان) تحدثت أمس عن اعتداء تم في المشرحة.. هل هو نفس الرجل؟.. ما هو موضوع الثلاجة؟

- وهل مات متجمدًا؟

- لا.. أصيب بغيبوبة نقص حرارة، وحتما سيفقد ساقيه..

وما أثار اهتمام الشرطة حين وجدته، هو أن بطاقته مزورة..

لقد نادانى طلبة الطب لأنقذ لهم رجلهم.

لماذا لم تذكر (سوزان) كل هذا؟.. هل هي التي حبسته إذن؟

حيرة شديدة انتابته..

فصمم على أن يتصل بها ليعرف..

∞∞∞∞∞∞

الخميس 26 فبراير الساعة 4.23 بعد الظهر:

ركبت (سوزان) سيارة تاكسي إلى معهد (جافرسون)، الواقع جنوبى (بوسطون) 1800 شارع (واى ماوث)..
منطقة منعزلة تمامًا، بلا أثر للحياة.. الضوء الوحيد في الشارع، كان من عمود إنارة، يلقي ضوءه الخافت على لافتة كتب عليها:
(معهد جافرسون - إدارة التعليم والصحة – الحكومة الأمريكية 1974).
وكما قال (بيلوز)، لم تكن ثمة نوافذ في الطابق الأول كله.. أما الثاني، فكانت له نوافذ غائرة، لا يمكن رؤية ما بداخلها، وتصميم المبنى كله، يشبه الأهرام المدرجة الفرعونية (المصاطب)..
سارت إلى الباب البرونزي، فسمعت صوتًا مسجلًا، يطلب منها أن تعطي اسمها وغرض زيارتها.. ففعلت.. ظهر نور أحمر على شاشة مضيئة جانبية يقول: انتظر..
ثم بعد ثوان تغير إلى أخضر يقول: تقدم.
وانفتح الباب ببطء أوتوماتيكيًا، لتجد (سوزان) نفسها في صالة واسعة بيضاء، بلا نوافذ ولا صور.. وأدركت - في دهشة - أن الإضاءة تنبعث من الأرضية البلاستيكية البيضاء..
وهنا انفتح باب جانبى، برزت منه امرأة ترتدي ثوبًا أبيض ناصعًا وعيناها عميقتان خاليتان من الحياة:
- مرحبًا بك في معهد (جافرسون).. اسمى (ميشيل)، وعليّ أن أصحبك في الزيارة.. ولكن أقترح أن تتركى معطفك هنا، وكذا حقيبتك.. إن المكان دافئ بالداخل..
امتثلت (سوزان) على حين استطردت المرأة:

- أنت تعرفين أن معهدنا هو مستشفى للعناية المركزة.. بمعنى أننا لا نقبل إلا مستويات متعددة من الغيبوبة.. وقد نجحنا في تقليل الطلب على الأسرة في المستشفيات العامة، التي يشغل فيها مرضى الغيبوبة مساحة ما.. وحاليًّا يتم إنشاء معاهد مماثلة في كل مدينة، يفوق تعدادها مليون نسمة!

ونهضت مصطحبة (سوزان) عبر دهليز طويل، ملئ بالمرايا والأبواب الجانبية.. وفي نهاية الممر دخلتا إلى حجرة كبيرة تشبه العناية المركزة في أي مستشفى.. بها خمس أسرة.. أحدها يرقد فيه مريض موضوع على جهاز تنفس صناعى..

قالت (ميشيل):

- هنا يرى الزائرون المرضى في ميعاد الزيارة.. هذا المريض كان أهله يزورونه، فحاولنا أن نجنبهم ردّ الفعل الانفعالي العاطفي، الذي ينتاب كل من يرى أسلوبنا في العلاج.. والآن تعالى نر العناية المركزة الحقيقية هنا..

وخلفها دلفت (سوزان) إلى قاعة يغمرها ضوء غريب.. ثم رأت المرضى فتصلبت ذاهلة.. إن هذا لا يصدّق..

كان بالقاعة أكثر من مائة مريض، كلهم معلق في الهواء على ارتفاع أربعة أقدام..، وكلهم عار من الثياب.. وحين دققت النظر أكثر، استطاعت أن ترى الأسلاك التي تخترق عظامهم وجماجمهم، وتتدلى من إطارات معلقة.. كأنهم دمى (ماريونيت) أفقية..



وحين دققت النظر أكثر، استطاعت أن ترى الأسلاك التي تخترق عظامهم وجماجمهم..

- كما ترين.. كثيرون من الزوار لا يتحملون هذا المشهد، لكنها أفضل وسيلة عرفت لمنع حدوث قرح الفراش..

- والضوء؟

- آه.. الضوء.. إنها أشعة فوق بنفسجية، تتحكم في الباكتريا.. ومن يظل هنا فترة، عليه ارتداء العوينات الواقية.. ودرجة الرطوبة هنا هي 82 ٪ مما يقلل من فقد جسد المريض للحرارة، ويقلل فرص التلوث للجهاز التنفسي..
دنت (سوزان) من المسرح في وجل.. وتساءلت:
- لا توجد ممرضات؟
- ثلاث ممرضات وطبيب واحد.. عدد كاف جدًّا لخدمة مائة وواحد وثلاثين مريضًا.. فكل شيء آلى يتحكم فيه الكمبيوتر مباشرة، بالقياس واتخاذ القرار فالتنفيذ!
شعرت (سوزان) بالتوتر.. وأدركت أن هذه الممرضة، هي كمبيوتر آخر بلا مشاعر.. ولا تساؤلات..
وهنا تذكرت (سوزان) أن معهد (جافرسون) به عدة غرف عمليات، رأتها في الخريطة التي درستها..
من ثم سألت (ميشيل):
- كم غرفة عمليات هنا؟
- ليست لدينا غرف عمليات.. إذا احتاج مريض لجراحة ما، فإننا نعيده إلى المستشفى الذي جاء منه...
كانت هذه هي الإجابة الخطأ.. لكنها جاءت أسرع من اللازم... وفي سرّها أدركت (سوزان) أن المرأة كاذبة.. ولكن لماذا؟
وهنا مال المريض الذي أمام (سوزان) إلى الوراء، بحيث انخفض مستوى رأسه ست بوصات عن قدميه.. فقالت (ميشيل):
- هذا مثال جيد.. لقد أحس الكمبيوتر بانخفاض ضغط دم المريض فحركه بالأسلاك إلى هذا الوضع، قبل أن يبدأ البحث عن سبب هذا الانخفاض..
قالت (سوزان):
- أنا أبحث عن مريض يُدعى (شون بيرمان).. فهلا ساعدتني؟

- حتمًا.. سأستعمل الكمبيوتر لأجد رقمه.. انتظرى هنا، ولكن لا تلمسي أي سلك أو مريض.. فالنظام هنا متوازن بالكامل، وسيشعر الكمبيوتر بكهرباء جسدك، ويدق جرس الإنذار..
ثم تركتها واقفة، ودخلت غرفة المراقبة الشبيهة بالغواصة النووية من الداخل..
كان هناك حارس يلبس زيًّا أبيض، ويتمنطق بمسدس وجهاز لاسلكي.. تساءل في شك:
- هل من الحكمة تركها وحيدة؟..
- التعليمات تقضي بتركها ترى ما تريد..
وبدأت تضرب أزرار الكمبيوتر باحثة عن اسم (بيرمان)..
وعلى الشاشة ظهرت البيانات:
(شون بيرمان).. ذكر.. 33 سنة - موت مخ بعد التخدير - الرقم 323 - ب 4)
كان الحارس يرمق شاشات المراقبة في اهتمام..
وفجأة اعتدل في مكانه.. إن (سوزان) لم تكن واقفة في العنبر الرئيسي..
ثم تتالت البيانات على الشاشة:
توفي - فبراير 26 - الساعة 3.10.. بسكتة قلبية.
- لقد تأخرت ساعة كاملة على (بيرمان) هذا..
قال الحارس في قلق:
- هي ليست في حجرة الاستقبال ولا الممر..
قالت (ميشيل) في هدوء:
- اهدأ.. سنجدها.. أعتقد أنه من الحكمة الخلاص من هذه الفتاة..

∞∞∞∞∞∞∞

الخميس 26 فبراير الساعة 5.20 بعد الظهر:

مشت (سوزان) في اتجاه المشرحة، مهتدية بالتصميم الذي أخذته من مجلس المدينة لمعهد (جافرسون)..، وفي نهاية الممر وجدت بابًا موصدًا.. ففتحته بهدوء..

ثمة منضدة من الصلب عليها جثة رجل عار.. وسمعت ضحكة عالية وصوتًا يقول:

- ما هو وزن القلب؟

- هذا دورك لتخمن..

استطاعت (سوزان) أن ترى وجه الجثة.. لقد كانت جثة (بيرمان)!..

أعادت غلق الباب.. وشرعت تتنفس بعمق كي تتمالك أعصابها.. ليس لديها وقت تضيعه الأن.. إلى المصعد..

انتظرت حتى مسحت عدسة الدائرة التليفزيونية المغلقة مكان المصعد، ثم هرعت لتركبه.. ضغطت على زر الطابق الثاني.. إن الرسوم تشير إلى أن غرف العمليات عند طرف المبني يقود إليها الباب الثامن والتاسع..

وفي حذر مشت في الممر حتى وصلت إلى الباب التاسع، ففتحته ودخلت.. كانت هناك غرفة ثياب ومنضدة عليها منفضة بها لفافة تبغ يتصاعد منها الدخان...

وسمعت من الحمام صوت انهمار المياه..

∞∞∞∞∞∞

- مستحيل.. هل تبخرت هذه الفتاة؟

- ربما صعدت للطابق الثاني؟
- ستكون كارثة.. سأقوم بكهربة السور الخارجي، وتشغيل جميع الأقفال الأوتوماتيكية.. ولتتصلي أنت بالإدارة فورًا..

∞∞∞∞∞∞

سارت (سوزان) متلصصة إلى باب غرفة العمليات الموصد قربت أنفها بحذر من الزجاج..
رأت اثنين من الجراحين يقومان بجراحة ما.. لكن لماذا لا ترى منضدة عمليات؟.. لماذا لا يوجد طبيب تخدير؟.. لماذا علق المريض كالذبيحة في إطار عملاق، وشق كبير في بطنه، يقوم أحد الجراحين بغلقه؟.. سمعت صوتًا يتساءل:
- أين سيرسلون قلب المريض السابق؟
ردّ صاحبه وهو يحكم غلق إحدى الغرز:
- (سان فرانسيسكو).. إن ثمنه قد وصل خمسة وسبعين ألف دولار.. وهو ثمن تافه.. لكنهم أخذوا الكلية بمائتي ألف دولار..
- إن صبى (دالاس) ينتظر..، والده يعمل في البترول، وقد وعد بدفع مليون دولار.. تصور هذا!
أخذ عقل (سوزان) يعمل سريعًا.. تفحصت الغرفة في قلق، وقد بدأت تتبين الآنية الزجاجية الموضوعة على منضدة.. آنية تشبه أحواض الأسماك، مزودة بآلات تعمل ذاتيًا مثبتة على كل حوض.. رأت في واحدة منها قلبًا بشريًا، يرتجف سابحًا في محلول.. وفي أخرى كلية بشرية..
لقد اتضحت معالم الكابوس.. الدافع.. الدافع المرعب لكل هذا..

إن معهد (جافرسون)، هو ورشة عملاقة، لإمداد السوق السوداء بحاجتها من الأعضاء البشرية!..
يجب أن تهرب.. يجب.. ولأول مرة أدركت استحالة ذلك.. إن هذا المستشفي يديره سفاحون، فكيف تخرج منها؟
وهنا - حيث وقفت في الغرفة المظلمة - سمعت صوت جرس الإنذار يدوي.. وسمعت صوتًا عاليًا يتردد من مكبرات الصوت:
- هناك امرأة دخيلة في المبني.. أكرر.. هناك امرأة دخيلة في المبني.. يجب القبض عليها فورًا!
∞∞∞∞∞∞

التقطت (سوزان) مقصًا كبيرًا من فوق المنضدة، وهرعت إلى الدهليز الرئيسي نحو باب المصعد..
وهنا فوجئت بالمصعد يتوقف ويخرج منه حارس..
فوجئت بالرجل، وفوجئ هو بها.. ثم إنه قال بعد أن عاد لرشده:
- حسن يا آنسة.. إنهم......
تراجعت (سوزان) للوراء، دون أن تسمع باقى العبارة.. جرت نحو قسم العمليات وهو خلفها.. فتحت بابًا فالاخر، ثم دخلت..
لكن الرجل وضع قدمه في الفتحة.. حاولت أن تدفع دون جدوى.. أمسكت المقص كالخنجر وأغمدته في ظهر يده، فصاح في هلع.. وتراجع..
عندئذ أغلقت الباب خلفها..
أطلق الرجل سبة، وبيد ملطخة بالدماء حاول فتح الباب مرة.. مرتين بمفاتيح كانت معه.. ثم نجح في المرة الثالثة، فاقتحم الحجرة، ليجد أن (سوزان) غير موجودة.. النافذة مفتوحة، يدخل منها هواء (فبراير) البارد.. جري هناك ليتفحص الإفريز الخارجي، ثم أمسك باللاسلكي ليقول:

- الفتاة في الطابق الثاني.. فرت من النافذة إلى الإفريز الخارجي.. لا أستطيع رؤيتها، فهو يدور حول ركن المبني.. هل أطلقتم كلاب (الدوبرمان)؟.. حسن!.. سأرى الإفريز من الجهة الأخرى..
قالها، وأعاد الجهاز إلى حزامه..
وأحكم غلق النافذة..

∞∞∞∞∞∞

الخميس 26 فبراير الساعة 5.47 بعد الظهر:

لم تكن (سوزان) قد غادرت الحجرة.. فقد علمتها تجربتها مع غرفة العمليات رقم (8)، أن هناك فراغًا فوق الأسقف المعلقة، ولهذا تمكنت من التسلق لأعلى السقف، لتتمدد فوق البلاطة الفينيل الثقيلة، على ارتفاع ستة أقدام، فوق رأس الحارس أسفلها..

وبهذه الحيلة استطاعت أن تقنعه بأنها ليست بالمبنى أصلًا..

تنهدت الصعداء، وبدأت تزحف فوق السقف بين المواسير، وهي تتفحص الرسوم التخطيطية التي في حوزتها.. كانت هناك غرفة تسمى غرفة النقل.. إنها أملها الأخير.. لأنها تعرف أن هناك من سينقل الأعضاء البشرية، التي رأتها ليتم زرعها حالًا...

شرعت تزحف مستهدية بالضوء القادم من تحتها، متجنبة المواسير المختلفة في طريقها، والتي كان بعضها حارقًا..

أخيرًا!.. لابد أن هذه هي غرفة النقل.. حركت البلاطة تحتها، لترى رجلًا جالسًا في الغرفة تحتها، يملأ طلبًا مطبوعًا.. وجواره على الأرض صندوقان كبيران، كتب عليهما بخط كبير (أعضاء للزرع - هذا الجانب لأعلى)..

كانت هناك سيارة!.. وكان محركها يهدر استعدادًا للرحيل.. ورأت الرجل يحمل الصناديق إلى السيارة.. استجمعت قواها وانتزعت البلاطة.. لم يكن ذلك سهلًا.. ثم إنها وثبت بأقصى ما استطاعت فوق ظهر السيارة.. فضاع صوت ارتطامها مع صوت هدير المحرك، وصوت باب الجراج إذ ينفتح..

وعلى بطنها تمددت محاولة ألا تنزلق، لكن ظهر السيارة المعدني الأملس لم يكن ملائمًا للتشبث..

اندفع السائق يسارًا فمال جسد (سوزان) إلى الأمام... تولاها الهلع، فزحفت نحو سقف الكابينة، وأنشبت أظفارها في طرف فتحة تهوية.. اللعنة... مطب!.. تطاير جسدها في الهواء ثم عاد يرتطم بسقف السيارة..
رفعت عينيها لترى ما حولها، فأدركت أن هذا هو طريق المطار..
كان المرور مزدحمًا، وتوقف السائق لحظة.. وهنا استجمعت قواها، وانزلقت جواره إلى الأرض..
رآها السائق من النافذة، فلم يصدق عينيه..
فتح الباب ليلحق بها، لكنها جرت بين طابور السيارات الواقفة..
كاد يطاردها لكن حشد أبواق السيارات تعالى متذمرًا، بعد ما تبدّل لون الإشارة..
فأغلق بابه..
وصمم على ألا يخبر أحدًا بروايته..
لأنهم لن يصدقوها.. على كل حال..

∞∞∞∞∞∞

الخميس 26 فبراير الساعة 8.10 بعد الظهر:

مسكينة (سوزان)!.. تركض بثوب التمريض المتسخ الممزق في صقيع الليل، باحثة عن جهاز هاتف.. تتسول قطعة عملة من المارة، بعد ما تركت حقيبتها في المعهد المشئوم..
لكن المارة كانوا يبتعدون في اشمئزاز عنها، لأنها بدت معتوهة.. وأخيرًا ناولها أحد الرجال قطعة عملة، وهو ينأى عنها في شك، فأخذتها وهرعت إلى مطعم قريب.. فدخلت كابينة الهاتف، وطلبت د. (ستارك) في مستشفى (بوسطون) التذكاري.. بعد ثوان سمعت صوته..
- د. (ستارك).. إن لديّ الآن القصة كاملة.. شيء لا يصدق..
- عم تتكلمين يا (سوزان)؟
- مرضي الغيبوبة.. ليست مضاعفات تحدث بالصدفة.. معهد (جافرسون) يقوم بتسويق الأعضاء البشرية في السوق السوداء.. يتلقون الطلبات حول نوع الأنسجة.. ثم يبدءون البحث في المستشفيات، حتى يجدوا المرضى المناسبين، المنتظرين لإجراء جراحة.. وبعدها يجعلون المريض يتنفس أول أوكسيد الكربون في أثناء الجراحة، ويدخل في غيبوبة وفاة الدماغ.. يصبح جثة حية جاهزة، كي ينتزع جزارو المعهد أحشاءها، ويبيعوها..
كان الجالسون في المطعم يرمقونها في فضول.. فأحست بالحرج، وأدارت ظهرها كي لا تراهم..
وسمعت (ستارك) يصيح في دهشة:
- (سوزان).. هذا كلام خطير.. هل يمكنك إثباته؟
- للأسف لا.. لابد من شخص ذى نفوذ، يتفق مع الشرطة على عمل هجوم مفاجئ على المعهد..

- ليكن ولكن لابد من أن أراك حالًا يا (سوزان).. هلا جئت إلى مكتبي الآن؟ أم أتي أنا لاصطحابك..
- سآتي أنا لك..

∞∞∞∞∞

وضع د. (ستارك) سماعة الهاتف، وجلس برهة صامتًا دون حراك..
ثم إنه مدّ يده إلى هاتف آخر..
هاتف من النوع الذي لا يمكن التجسس عليه..
وطلب معهد (جافرسون)..

∞∞∞∞∞

الخميس 26 فبراير الساعة 8.47 بعد الظهر:

اندفعت (سوزان) جارية من سيارة التاكسي، دون أن تدفع للسائق مالًا.. لم يكن معها مال، ولم تكن تنوى الانتظار حتى تشرح له، جرى الرجل خلفها محنقًا، فأوقفه حارس الأمن على باب المستشفى..

أما هي فشرعت تجدّ السير في طرقات المكان.. وركبت المصعد، وهنا فوجئت بأحد الحراس يوقفها..

- لحظة يا آنسة.. نريد كلمة معك..

لم تدر ما تفعله فتوقفت حائرة..

- هل أنت متعجلة حقًّا إلى درجة عدم دفع نقود التاكسي؟

كان مظهرها يؤكد بالفعل أن هناك كارثة..

قالت له:

- سجل اسمه واسم شركته، وسأدفع فيما بعد..

أنا (سوزان هويلر) طالبة الصف الثالث.. وليس لديّ وقت الآن.. إن د. (ستارك) ينتظرني، ويمكنك أن تطلبه إذا شككت في كلامي..

- حسن.. ولكن أرجو أن تمري على مكتب الأمن بعد أن تنتهي.

وركبت (سوزان) المصعد إلى الطابق العاشر..

لم تكن هناك سكرتيرة.. فقط د. (ستارك) في مكتبه المظلم.. إلا من ضوء الأباجورة.. حيّاها بحرارة ودعاها للجلوس..

- إن مظهرك يبدو كأنك شاركت في الحرب العالمية الأولى.. سأقدم لك بعض الشراب..

كانت متداعية عقلانيًّا وجسمانيًّا وعاطفيًّا.. لم تردّ عليه بل جلست تلهث..
نهض إلى البار الصغير في المكتبة، وملأ كأسين ناولها إحداهما.. ثم قال:
- أنت يا (سوزان) فتاة غير عادية.. هل أصبتِ؟
هزَّت رأسها أن لا.. وجرعت من كأسها جرعة كبيرة..
- هل تكلمت مع أحد عما رأيته؟
- لا..
قالتها شاعرة بالخدر يسري في جسدها وأوصالها.. نعم هي مرهقة للغاية.. عليها ألا تفكر في (دامبروزيو) ووجهه المجدور.. جميل هو الشعور بالدفء بعد أن تجمدت أوصالها..
سألها د. (ستارك) في رصانة:
- كيف عرفت كل هذا؟
- كانت لديّ رسوم المعهد.. حصلت عليها من مجلس المدينة، وكانت بها غرف عمليات.. لكن الممرضة هناك قالت لي إنه ليست عندهم واحدة.. أثار هذا شكي و درست المكان، فوجدتهم يشقون جسد مريض غيبوبة، ليبيعوا قلبه وكليتيه بأغلى الأثمان..
وتثابت.. إنها تشعر بتعب شديد حقًّا..
- كل هذا مثير يا (سوزان).. إن لديك بعد نظر ومثابرة وذكاء لا شك في ذلك.. لكن هل سألت نفسك عن السبب وراء هذه العملية العجيبة، التي كشفتِ عنها بمهارة فائقة.. أعني سببًا غير المال؟
- إنها طريقة للخلاص من الأشخاص غير المرغوب فيهم..
- كلّا.. أعني فائدة أكثر عمومية للمجتمع..
كانت عيناها تنغلقان أكثر.. فائدة؟.. عم يتحدث هذا الرجل؟

- د. (ستارك).. أنا لا أظن أن.....
- هيا يا (سوزان).. لقد بذلتِ جهدًا رائقًا.. حاولي أن تفكرى!..
- لا.. لا أدري..
- لقد حسبت أنك من القلة القادرين على رؤية الجانب الآخر..
- أي.. جانب آخر؟
- لقد كانت تقاتل كى تبقى عيناها مفتوحتين.. الخدر يزحف لذراعيها..
نهض (ستارك) ومشي نحو النافذة الزجاجية الكبيرة، التي تطل على المستشفى العملاق، الذي كافح لبنائه كل هذه الأعوام..
- (سوزان) إن الطب قد صار على باب أعظم اكتشافاته، منذ عرف التخدير والمضادات الحيوية.. لسوف نتمكن من زرع كافة الأعضاء البشرية.. لكن هذا لن يجيء دون تضحيات.. ليس بدون ثمن..
لقد كان (ليوناردو دافنشي) على استعداد لتخطي بعض الحواجز القانونية، من أجل النجاح.. ماذا لو أنه لم ينبش القبور ليشرح الجثث؟..
ماذا لو أن (كوبرنيكوس) خضع لقوانين الكنيسة الجامدة؟.. أين كنا سنصير اليوم؟!.. هل تفهمين ما أقول؟
حاولت (سوزان) رفع يدها لكنها لم تستطع.. هوى الكأس على الأرض متهشمًا.. صوت (ستارك) يواصل الكلام:
- إن نظامنا القضائي غير مؤهل لاتخاذ قرار كهذا.. هم لا يجرءون على إنهاء حياة مريض، حتى ولو كان مخه قد تحول إلى عجينة لا حياة فيها ولا نفع.. كيف يتقدم العلم في ظروف كهذه؟.. أرجو يا (سوزان) أن تفكرى بحرص... أعرف أنك لا تستطيعين نلك في اللحظة الراهنة.. لكن حاولى.. أنت تنتمين إلى

صفوة العقول.. ونحن نحتاج إليك ولأمثالك، نحن في هذا المستشفى ومعهد (جافرسون)..
فهل أنت على استعداد لتكريس ذكائك وجهدك، لصالح العلم والطب والمجتمع؟
جاهدت (سوزان) حتى رفعت جفنيها..
وقالت شيئا ما..
انحنى (ستارك) مقربًا رأسه من فيها:
- تكلمى يا (سوزان) وسأسمعك..
استجمعت قواها.. وبآخر حشاشة من إرادتها همست:
- عليك اللعنة يا......
ثم سقط رأسها على كتفها.
تأملها (ستارك) برهة في حنق ممزوج بالإحباط.. كان بحاجة إلى ذكائها الحاد، لكن لا بأس ما زالت الاستفادة ممكنة من (سوزان)..
ورفع سماعة الهاتف طالبًا غرفة الطواري..

∞∞∞∞∞∞

الخميس 26 فبراير الساعة 11.51 مساءً:

كانت حجرة النوبتجية مؤثثة تأثيثًا بسيطًا للغاية، حيث جلس (بيلوز) يطالع مجلة طبية حديثة، عاجزًا عن التركيز في الواقع.. فعقله وضميره يؤرقانه باستمرار من أجل (سوزان)..
لقد عرف أنها دخلت المستشفى كمريضة بالتهاب الزائدة الدودية..
وعرف أن (ستارك) هو من سيستأصلها لها.. لكنه طلب من زميل له أن يعاون (ستارك)، لأنه لن يستطيع أن يجري الجراحة لـ (سوزان) بهذه البساطة.. لن يكون موضوعيًّا.. ثم إنه لا يشعر باطمئنان ولا يدري لماذا..
رفع سماعة الهاتف وسأل الممرضة:
- في أية حجرة عمليات ستجرون الجراحة لـ د. (سوزان هويلر)؟
- غرفة رقم (8)..
غريب هذا!.. يا لها من مصادفة!.. الحجرة التي قالت (سوزان) إن كل حالات الغيبوبة حدثت فيها، وإن هناك صمامًا يتصل بخط الأكسجين لا تعرف وظيفته.. ربما كان يخلط أول أوكسيد الكربون بالأكسجين كما تخيلت (سوزان)..
لماذا لا يتأكد بنفسه ويفحص هذا الصمام.. بينما (سوزان) في غرفة العمليات؟.. ربما كان هذا سخيفًا لكنه - على الأقل - سيرضى ضميره..

∞∞∞∞∞∞∞

(سوزان) الآن على ظهرها ترمق سقف ممر يتحرك فوق رأسها.. لا.. هي التي تتحرك فوق محفة تدفعها.. وتسمع أصواتًا مختلطة.. وترى رؤى متداخلة.. غرفة التشريح.. يدًا مطعونة بمقص.. وجه السفاح المجدور.. جسد (نانسي) الشاحب..

حاولت الكلام لكن صوتًا لم يخرج من حلقها..

حاولت الحركة لكن ذراعيها كانتا مسمرتين إلى جانبيها..

ها هي ذي غرفة التعقيم.. هناك جراح أمام الحوض، يلبس على وجهه قناعًا ويغتسل.. لكنها عرفته.. هو (ستارك)!..

- هل تريد مساعدًا أم اثنين يا سيدى؟

- إن واحدًا يكفي لجراحة بسيطة كهذه.. سأنتهي خلال ربع ساعة..

وتستمر المحفة في سيرها.. وترى باب غرفة العمليات.. وترى رقم (8)!..

يجب أن تنهض.. يجب.. لكن أيد قوية ترفعها من وسطها وقدميها إلى منضدة الجراحة.. تستجمع قوتها.. ترفع يدها اليسرى لتقول بصوت خفيض وهي تشعر أن المخدر يزول:

- أرجوكم.. أنا لست.. لا.....

- لا تقلقي.. كل شيء سيكون على ما يرام.. تنفسى بعمق!

- لا.. لا..

لكن قناع التخدير هوي على وجهها، وشعرت بوخزة الإبرة..

وفي الهواء رأت عيني (ستارك) تنظران لها من فوق القناع..

∞∞∞∞∞∞

الطبيب المساعد متوتر عاجز عن إجراء العقد.. فوجود (ستارك) كان يثير أعصاب الجميع.. وطبيب التخدير كان

يرتجف.. فهو يريد الانتهاء سريعًا من هذه الجراحة.. لقد حدثت ضربات قلب شاذة للمريضة، كادت تقتله رعبًا، ثم فجأة توقف خط الأكسجين القادم من الحائط.. وهي أول مرة يحدث له هذا فيها، طيلة الثماني سنوات التي عمل فيها كطبيب تخدير.. واضطر إلى استعمال اسطوانات الطوارئ بسرعة.. كان من الممكن أن يكلفه هذا حياة المريضة..

- كم بقي لكم من وقت؟

- خمس دقائق..

قالها (ستارك) وهو يعقد الخيط بأصابعه المتمرسة السريعة..

كان هو نفسه متوتر الأعصاب.. ولقد ظن المساعد أنه هو سبب هذا التوتر، لكن (ستارك) كان قلقًا بسبب توقف (الأكسجين)..

ذلك الخطأ الذي لم يكن في الحسبان..

كان هو الوحيد الذي يعرف أن ضربات القلب غير المنتظمة معناها أن (سوزان) تلقت أول أوكسيد الكربون من خط الأكسجين..

لكن هل نالت كفايتها حقًّا؟

الشيء الثاني الذي أثار توتره، هو الأصوات الغريبة القادمة من أعلى.. من فوق السقف المتحرك..

الشيء الثالث الذي أثار توتره، كان ذلك الزحام خارج غرفة العمليات.. وهو شيء غير معتاد في منتصف الليل.. كل هؤلاء الناس الذين يراهم بوضوح خلف زجاج الباب..

كانت هذه هي الغرزة الأخيرة، فألقي بماسك الإبر الصينية، وبدأ يعقدها بيده كعادته، حين فُتح باب الحجرة، ورأى أربعة أشخاص يتقدمون نحوه.. وكان (بيلوز) من بينهم..

كانوا يرتدون ثياب التعقيم، لكن (ستارك) استطاع أن يرى الثياب الزرقاء تحت أردية التعقيم هذه.. ثياب رجال الشرطة..
وساد الغرفة صمت رهيب..
- نحن بانتظارك يا د. (ستارك)..
رفع رأسه بعد ما أنجز عمله..
وأدرك أن شيئًا ما كان خطأ..
شيئا ما كان خطأ.. على طول الخط..

روبين كوك
١٩٧٩

[تمت بحمد الله]

المستشفى هو المكان الذي نحمل إليه آلامنا وجراحنا كي نتخفف منها، لكن مستشفى (بوسطون التذكاري) يختلف كثيرًا.. إنه المكان الذي تنتهي فيه الحياة، ويبدأ الكابوس، وكانت الدكتورة (سوزان) هناك، حين بدأت تشعر بأن شيئًا شريرًا يحدث.. شيئًا يفوق كل كوابيسها.. شيئًا ستعرفه حين تقرأ هذه الرواية الرائعة..


متميزون
للكتب النصية
E-Book

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

[Link – لينك القنـاة]

الفهرس:

الأربعاء 25 فبراير الساعة 1.30 بعد الظهر:

الأربعاء 25 فبراير الساعة 5 مساءً:

الأربعاء 25 فبراير الساعة 7.15 بعد الظهر:

الأربعاء 25 فبراير الساعة 10.41 مساءً:

الخميس 26 فبراير الساعة الواحدة صباحًا:

الخميس 26 فبراير الساعة 2.11 صباحًا:

الخميس 26 فبراير الساعة 1.41 صباحًا:

الخميس 26 فبراير الساعة 4.23 بعد الظهر:

الخميس 26 فبراير الساعة 5.20 بعد الظهر:

الخميس 26 فبراير الساعة 5.47 بعد الظهر:

الخميس 26 فبراير الساعة 8.10 بعد الظهر:

الخميس 26 فبراير الساعة 8.47 بعد الظهر:

الخميس 26 فبراير الساعة 11.51 مساءً:

الملاحظات

[←1]

يستعمل لفظ (نبات) للدلالة على هذا النوع من وفاة الدماغ.

[←2]

ممثل أمريكي وسيم اشتهر بتمثيل (كل رجال الرئيس) و (الحصان الكهربائي) و (حافية على السطح)..
و(سوزان) تعني هنا طبقًا أن (بيرمان) كان شديد الوسامة..


روايات عالمية
9
الشيطانة
فريق
متميزون
E-BOOK
بقلم : ستيفن كينج
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

(كلمة مهمة) :

هذا العمل: (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

[انضم إلى الجروب]

[انضم إلى القناة]

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (09)

الشيطانة

بقلم: ستيفن كينج.

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..
د. نبيل فاروق

المؤلف..

يعترف (ستيفن كينج) الكاتب الأمريكي العظيم بأنه كان طفلا جبانًا! ولأن الجبناء أوسع خيالا من سواهم؛ فقد احتفظ هو بالرؤى التي كان يخشاها في طفولته وترجمها إلى أعمال أدبية معقدة يمتزج فيها الرعب بالسيكولوجي وعلوم ما وراء الطبيعة والأسلوب الأدبي المحكم، ليكون (ستيفن كينج) بذلك أشهر وأنجح كتاب الرعب المعاصرين.. وليحقق أعلى مبيعات في كل كتاب وليضمن تحويل كل قصة من قصصه إلى فيلم سينمائي يحقق إيرادات هائلة.

هل تذكرون رواية (كاري) الكابوسية عن المراهقة التي وجدت لديها قوى نفسية هائلة، قادرة على تدمير كل منافساتها اللواتي داعبنها مداعبة قاسية؟ لقد عُرض الفيلم في (مصر) وأحدث ضجة.

من رواياته الشهيرة أيضا (تألق) التي تروي قصة جنون كاتب يحيا في مكان منعزل مع زوجته وابنه.. وقد حول المخرج (ستانلي كوبريك) هذه الرواية إلى كابوس حقيقي في فيلم بنفس الاسم.

في روايته (مقبرة الحيوانات الأليفة) ينجح (كينج) في تحويل شيء بريء ورقيق إلى مأساة.. أما في ملحمته (الشيء) فهو يناقش عودة مخاوف الطفولة الكامنة إلى نفوس مجموعة من الأصدقاء كبروا وتفرقوا.. لكنهم ظلوا يخشون (الشيء) ويرتقبون عودته.

وفي روايته (الرجل الراكض) يتنبأ (كينج) بمستقبل دامٍ تكون حياة الإنسان فيه مجرد لعبة تليفزيونية يتم الرهان عليها.

ثم لا ننسى كذلك تحفه (كريستين).. (حشد سالم).. (لعبة جيرالد) وكلها تتميز بذلك الجو الكابوسي النفساني المتقدم جدا أدبيا.
إن (ستيفن كينج) هو كاتب راقٍ على إلمام كبير بالأدب الإنساني، وهو يحول قصص الرعب التي يكتبها إلى أعمال ثرية جدا في محتواها الأدبي.
وسنسعد القراء كثيرا بتقديم هذه الرواية لهم، واسمها الأصلي هو (ميزري) - يمكن ترجمتها (تعاسة) لكنه اسم البطلة كما سنعرف بعد قليل - وقد كتبها عام ١٩٨٧، والترجمة التالية مليئة بالتصرف لأن صفحات القصة الأصلية تربو على ثلاثمائة وستين صفحة، كما أننا اضطررنا لحذف الكثير مما يتنافى مع رسالة روايات عالمية للجيب تجاه الشباب العربي.
أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞∞

1- الحادث..

لم يكن هناك سوى الألم وأصوات الغناء المنبعث من كاسيت السيارة.. هذه الأصوات كانت تخبو تاركة فراغا سرمديا ومعها يزول الألم.. ثم كان كل شيء يعود مرة أخرى.. كان يتمنى الموت لكنه لم يدرك قط أنه تمناه..
الظلام الدامس البكر.. الصخرة التي كشف عنها الجزر في شاطئ (ريفير).. كانت أمه تأخذه إلى هناك.. وكانت الصخرة البيضاء تتغطى بالأمواج كلما تعالي المد.. وكان يصر على الجلوس هناك يراقبها.. ثم يأتي الجزر.. وتتكشف الصخرة ببطء.. ببطء كأنياب وحش أسطوري يغفو تحت الأعماق..، كانت الأم تجمع

حاجيات (بولي).. نعم... هذا هو اسمي.. (بولي).. كنت قد نسيته..
وهنا - بين أستار الظلام - أدرك أنه لا يستطيع أن يتنفس.. أدرك ذلك في رضا لأنه سئم اللعبة ولم يعد يتحمل أكثر..
وهنا شعر بشفتين جافتين تنطبقان على شفتيه.. وشعر بالهواء يندفع في فيه.. حنجرته.. رئتيه.. وشم في اشمئزاز رائحة الأنفاس مختلطة بالشوكولاتة وكعك الفانيليا..، وسمع الصوت يصرخ:
- «تنفس يا (بول).. تنفس.. عليك اللعنة!»
حاول أن يقاوم.. لكن الهواء الملوث بالشوكولاتة عاد يندفع عبر رئتيه.. أرجوك.. لا... لا تدخل هذا الشيء البشع في صدري مرة أخرى.
- «تنفس.. عليك اللعنة!»
في هذه المرة سعل بقوة.. وحاول أن يجعل صدره يتحرك قبل أن تعيد الكرة.. سعل.. وفي هذه المرة استطاع أن يأخذ نفسا عميقا.. وبدأ يتنفس بعمق محاولا أن يغسل صدره من عفن أنفاسها.
وعاد ينزلق إلى عالم الغيبوبة.
هذه المرة اقترب كثيرا جدا من الصخرة.. وأدرك دون جهد أنها تلخص حالة آلامه.. فحين ينحسر الجزر عنها يتزايد ألمه.. وحين يرتفع المد وتغطيها المياه يتلاشى ألمه تماما.
وحين استطاع أخيرا أن يفتح عينيه.. وأن يفتح شفتيه برغم اللعاب اللزج الملتصق بهما؛ وحين رأى المرأة جالسة جوار فراشه تقرأ كتابا، كان أول ما لاحظه هو أن مؤلف الكتاب يدعى (بول شيلدون).. بصعوبة تذكر أن هذا هو اسمه..
أما ثاني شيء فعله فهو أن سأل السؤال التقليدي:
- «أين أنا؟»

قالت في رزانة:
- «أنت في (سايدوندر) بـ (كولورادو).. اسمي (آني ويلكز).. وأنا...»
- أعرف.. أنت المعجبة الأولى بكتاباتي..
ابتسمت.. وقالت:
- بالفعل أنا كذلك!

∞∞∞∞∞∞

من جديد يعود الظلام.. ثم الألم.. والغشاوة..
لا يذكر عن الألم سوى أنه كان أحيانا يتلاشى.. ولا يذكر عنها سوى رائحة أنفاسها.. وأصابعها تدس شيئا ما في فمه على فترات منتظمة.. شيئا له شكل كبسولات الدواء، ولما لم يكن هناك ماء.. كانت الكبسولة تذوب في فمه تاركة مرارة لا توصف..، كان يود لو بصقها لكنه كان يفهم أن هذا المذاق المرير هو الذي سيجعل المد يغمر الصخرة فيزول الألم..
كان اسمه هو (بول شيلدون).. الكاتب نصف الشهير.. تزوج وطلق مرتين.. يدخن بإفراط.. وقد نجا من حادث مروع ليقع - كما عرف فيما بعد - في مصيدة مرعبة..

∞∞∞∞∞∞

كانت تذكره بصنم إفريقي في إحدى قصص (رايدار هجارد).. مثل (هي) أو (كنوز الملك سليمان).. قامتها الفارعة وجسدها الضخم تحت السويتر الصوفي الذي ترتديه دائما..
ثم ذلك الشعور بـ (الصلادة) الذي تمنحه إياه.. كأنها مصمتة تماما بلا أوعية دموية ولا أحشاء داخلية، وكأن عينيها مرسومتان

على الصخرة التي تمثل وجهها..
مثل الأصنام كانت تمنح النفس شعورا بعدم الراحة.. بل والذعر.. إلا أنها - على خلاف الأصنام - كانت تمده بالكبسولات التي تنسيه الألم.. وعلى فترات منتظمة كل ست ساعات وعندئذ يبدأ المد.. وترتفع المياه.. وتختفي الصخرة ومعها الألم..
وعندما استطاع أن يفهم ما يدور حوله، أدرك أنها تعطيه مسكنا قويا اسمه (نوفريل)[1].. ومن الواضح أنها تملك منه مخزونا هائلا.. وأدرك - في هلع - أنه صار مدمنا تماما لهذا المسكن..
عرف كذلك أن هذا الدواء يحدث هبوطا حادا في التنفس.. ولعل هذا هو السبب في توقف تنفسه في تلك الليلة.. لقد أعطته جرعة غير محسوبة كادت تودي بحياته..
أما آخر ما عرفه فهو أن (آني ويلكز) مجنونة.. مجنونة إلى حد خطير..

∞∞∞∞∞

فيما بعد قالت له إنها قرأت رواياته مرارا عديدة، إلا أنها قرأت قصصه التي جعل بطلتها (ميزري) مرات تفوق الحصر.. وأنها تمنت لو أنه يكتب أسرع من ذلك. وأنها لم تصدق قط أن ضحية حادث السيارة الذي أنقذته هو كاتبها الأثير (بول شيلدون) حتى بعد أن رأت بطاقته الشخصية.
- «أ.. بالمناسبة.. أين محفظتي؟»
- «وضعتها لك في مكان آمن..» قالتها وقد بدأت نذر عاصفة تلوح على وجهها مما أثار هلعه «هل حسبتني سرقت منها شيئا؟»
- «كلا بالطبع.. إنه....»

إنها لن تفهم أبدا أن حياتك كلها داخل هذه المحفظة.. حياتك خارج هذه الغرفة.. خارج مدينة الألم.. خارج الزمن الأبدي المتمدد كقطعة من اللبان ينفخها طفل أخرق..، لهذا قال لها:
- «كان أبي ينصحني بألا أفارق محفظتي ولقد صارت طبيعة ثانية عندي.. لوكنت قد ضايقتك أستميحك عذرا...»
قالها وشعر برضا حين وجد العاصفة تتلاشى من قسماتها.. حاول أن يحرك قدميه لكن الألم كان شنيعا..
- «لا تحاول» قالتها في رقة «لو حاولت إرغام قدميك على الكلام فلن تسكتا أبدا يا (بول).. وأنا لن أعطيك مسكنات لمدة ساعتين..».
لماذا أنا لست في المستشفى؟.. كان يتمنى لو سأل هذا السؤال ثم رأى أن الوقت ليس مناسبا لهذا..
- «كم تبعد هذه المزرعة عن المدينة؟».
- تبعد مسافة..
قالتها في غموض.. وارتسمت على وجهها تعبير أثار فزعه.. تعبير ينم عن لا شيء.. عن الخواء.. لقد رأى منذ أعوام ذات التعبير في مصحة أمراض عقلية فماذا كان اسم المرض؟.. (كاتاتونيا).. نعم.. هو كذلك.. وها هي ذي تعود إلى عالم الواقع.. كأن الحرارة تعود لها ببطء..
. «كنت ذاهبة للمدينة بسيارتي العتيقة الشراء طعام للماشية من متجر (ويلسون) برغم نذر العاصفة في المذياع.. كنت أريد أيضا شراء آخر قصصك (طفل ميزري) لكني لم أجدها بعد...»
- «هل لديك الكثير من الماشية؟»
سألها هذا السؤال لأن وجود الكثير من الماشية يعني أن هناك من يساعدها، كرجل أجير على الأقل.. كان يبحث عن آخرين.. وهي لم تكن ترتدي خاتم زواج.

- «ليس الكثير.. ست دجاجات بياضة.. بقرتان و (ميزري)!»
ولما رأت دهشته ضحكت وأصدرت صوت الخنزير:
- « ووينك!.. ووينك!.. خنزيرة طبعا..... إنها ودود لطيفة...»
اتسعت عيناه ذعرا.. لكنها لم تلحظ شيئا.. وأردفت:
- «وبعد مسيرة خمسة أميال بدأ الجليد يتساقط.. وفجأة لمحت سيارتك مقلوبة جوار الطريق.. فتوقفت ونزلت لأرى ما يحدث.. كانت أنوارك مطفأة.. وسمعتك تئن...»
ونظرت له في حنان أمومي مزعج..
ولأول مرة بدأت الفكرة تتضح في ذهن (بول).. إنني لفي مأزق حقيقي.. هذه المرأة ليست على ما يرام...!

∞∞∞∞∞

أخيرا استعاد صورته في فندق (بول يرادو) إذا أنهى قصته الجديدة، التي - ولله الحمد - لم تكن بطلتها هي (ميزري كاستين).. لقد سئم هذه الشخصية حتى النهاية.. ولكم أسعده أن يقتلها في أخر خمس صفحات من قصة (طفل ميزري) وغرق بعدها في ضحك هستيري..
وحين كتب كلمة النهاية.. أخذ يجوب الغرفة مقهقها: أخيرا أنا حر... أنا حر!.. لقد ماتت اللعينة (ميزري)...
وبعدها كتب قصته الجديدة المعاصرة (سيارات سريعة).. وجعل بطلها لصين سيارات.. وحين انتهى منها شعر بالرضا..
- «لعلك قد ربحت جائزة كتاب العام القادم يا صديقي...!»
كذا قال لنفسه.. وطلب خدم الغرف كي يحضروا له عشاء دسما.. وصمم أن يحتفل بهذه الأمسية قبل أن يعود إلى (نيويورك).. سيأخذ السيارة الـ (كامارو) ويتجه غربا.. لأين؟.. لا

يدري.. لا تأخذ ثيابا، فقط خذ نص قصتك (سيارات سريعة) معك وانطلق إلى (لاس فيجاس) أو (رينو)..
العاصفة تتجمع.. الظلام يسود.. عجلات السيارة تنزلق.. شريط الموسيقا يصم أذنيك.. شيء من التوتر يتسرب إلى روحك.. لكنك سعيد.. سعيد.. لهذا حسبت أنك قادر على اجتياز العاصفة.. كان يجب أن تتريث في (كانا) طالبا المأوى.. لكنك صممت على الاستمرار.. وبأقصى سرعة..
فقط تذكر أنك كنت تنحني للأمام باحثا عن لفافة تبغ في علبة السجائر.. ثم شعرت أن الكون ينقلب رأسا على عقب ..
- «كنت تصرخ يا (بول).. ولهذا علمت أنك ستنجو.. المحتضرين لا يصرخون أبدا.. كنت مرتفع الحرارة لهذا أعطيتك مضادا حيويا ومسكنا.. وحين نمت بدأت تستعيد قواك..»
«لقد أصيبت قدماي..»
- «بالطبع.. وسأعطيك مسكنا بعد ساعة من الآن..»
- «كلا أرجوك.... أنا..»
كانت الصخرة واضحة تماما في هذه اللحظة.. كأوضح ما يكون، والألم يتزايد عاتيا كاسحا لا يرحم.. لكنها كانت حازمة كأم تمنع ابنها من الإفراط في الحلوى:
«بعد ساعة يا (بول)..»
وانصرفَت..
مرت الساعة و (بول) ينتظر في قلق وتحفز..، وفي الثامنة تماما دلفت للحجرة وفي يدها كوب ماء وكبسولتان من ال (نوفريل) وجلست على طرف الفراش.. وهزت الكوب:
- «لقد حصلت أخيرا على نسخة من (طفل ميزري).. إنني أحبها كالأخريات.. بل هي أفضلهن جميعا..»..
همس والعرق البارد يحتشد على جبينه:

- «شكرا.. ولكن.. أرجوك.. رجلي.. ألم..»
همست هي كأنما تحلم:
- «أعرف أن (ميزري) ستتزوج (أيان) حتما.. هل ذلك سيحدث؟.. ولكن.. لا... لا تقل!.. دعني أقرأ ذلك بنفسي فلا أفسد متعتي..» ثم إنها قربت الكبسولتين من فمه.. ففتحه.. لكنها سحبت يدها:
- «لقد سمحت لنفسي باستراق النظر إلى حقيبتك الصغيرة.. رأيت فيها مخطوطة قصتك الجديدة (سيارات سريعة).. وهي قصة لا تلعب (ميزري) بطولتها.. أليس كذلك؟»
- «بلى.. الـ.. الدواء...».
وتحولت نظرتها إلى نظرة أم حانية.. وأردفت:
- «لا توجد سيارات في القرن التاسع عشر.. لقد فهمت هذا.. وقد سمحت لنفسي بالنظر إلى ما كتبته.. أظن هذا لا يضايقك؟»
كانت تتكلم وهي تعبث بالكبسولتين.. تقذفهما من يد ليد.. تفركهما.. تقربها من فمه ثم تبعدهما..، وكان هو موشكا على الجنون.. خذي المخطوطة اصنعي من أوراقها قبعات ورقية.. افعلي بها أي شيء.. ولكن أرجوك.. إنني أموت..
- «كنت أعرف أنك ولد طيب.. إن العقل الذي يفكر في (ميزري) ويثبت فيها الحياة لا يمكن إلا أن يكون عقل ولد طيب».
وقبل أن تنهي عبارتها دست الكبسولتين في فمه، فابتلعهما دون أن ينتظر جرعة الماء.. وأغمض عينيه منتظرا..
- «مجرد طفل.. هذا أنت.. إن لحظات سعيدة تنتظرنا يا (بول) هنا.. فقط انتظر لترى...!».

رقد (بول) على ظهره بعد انصرافها يرمق السقف ويصغي للرياح.. كان يدرك جيدا أي مأزق وقع فيه..
ها هوذا سجين مع امرأة لا تتمتع بكامل قواها العقلية.. امرأة تملك مخزونا هائلا من المخدرات.. امرأة لم تخبر مخلوقا أنه في دارها..
كانت مخبولة.. لكنه كان بحاجة إليها ليظل حيا..
«يا إلهي ساعدني.. إنني في مأزق مخيف..»..



هبط الصقور بـ(دايل) و (زوركوف) في ذلك العش الهائل ، عند قدمي رجل ضخم الجثة ..

∞∞∞∞∞

2- الغضب..

في الصباح التالي أحضرت له الحساء وقالت إنها قرأت أربعين صفحة من مخطوطة قصته الجديدة، لكنها لا تراها جيدة كقصصه الأخرى.

- «من الصعب على أن أتابعها.. إنها تتواثب عبر الزمن الماضي والمستقبل بشكل شديد التعقيد...»

- «إنه التكنيك..» قالها أملا في أن تخلب لبها هذه الألعاب اللفظية «التكنيك.. موضوع القصة هو الذي يحدد إطارها..»

مسحت قطرات الحساء من على شفتيه في شرود.. كأنها تتنبأ بالضبط أين ومتى ستتساقط هذه على شفتيه.. وقالت:

- «إنها قصة خالية من النبل..!.. وكل هذه الألفاظ البذيئة التي بها..»

- لأن بطل القصة نشأ في بيئة سيئة.. أنت تفهمين هذا..»

- «لكن الأدباء لا يستعملون هذه اللغة..».

وهنا هزت يدها بعصبية فسقطت بقعة كبيرة من الحساء على غطاء الفراش، تقلص وجهها في اشمئزاز.. وهتفت:

- «كذا!.. انظر ما جعلتني أفعله!»..

وألقت بسلطانية الحساء لتصطدم بالحائط ويسيل الحساء في كل مكان:

- «إنني عصبية المزاج إلى حد مروع..»

ثم إنها نهضت حاملة الصينية واتجهت للباب.. وقبل أن تخرج التفتت نحوه.. وأردفت:

- «في قصص (ميزري) لا توجد ألفاظ بذيئة كهذه لأنها لم تكن قد اخترعت بعد.. إن الأزمنة الرديئة تخلق ألفاظا رديئة.. ولهذا

أنصحك أن تعود إلى عالم (ميزري) الطاهر النظيف.. لن أواصل قراءة قصتك الجديدة إلا بعد أن أنتهي من قراءة (طفل ميزري)..».

- «إذا كان هذا يريحك.. فلتفعليه أرجوك..»

وبعينين خرساوين راقبها تغادر الغرفة..

∞∞∞∞∞

في المساء دلفت إلى الغرفة.. وكان هو غارقا في تهويمات النعاس حين لمح وجهها الذي اكتسبه لون الرماد.. فنهض في هلع:

- «مس (ويلكز)..... هل أنت على ما ير....».

- لا..!

واقتربت منه مترنحة.. حاول أن يتراجع لكنه اصطدم برأس الفراش.. بدا له للحظة أنها ستسقط فوقه، إلا أنها توقفت جواره بوجه كظيم.. عروق رقبتها بارزة كالحبال.. وثمة وريد ينبض بعنف في جبهتها.. وفي توحش تقلصت قبضتها:

- «أنت.. أنت.. يا طائر الشؤم...!»

كاد يتساءل عن سبب كل هذا.. ثم تذكر.. لابد أنها فرغت من قراءة القصة وعرفت كل ما كان ينبغي ألا تعرفه.. عرفت أن (ميزري) قد ماتت بعد أن ولدت طفلها الذي سيربيه (إيان).. وها هي ذي الآن ترمقه في جنون وتصيح وهي تفتح يديها وتغلقهما: - «(ميزري) لا يمكن أن تموت!».

- «(آني).. أرجوك!».

كان بجوار فراشه دورق مليء بالماء المثلج.. فرآها ترفعه وتسكب الماء البارد فوقه.. مكعب من الثلج استقر فوق أذنه

اليسرى ثم انزلق على كتفه.. ثم إنها رفعت الدورق وقذفته نحو الباب ليتهشم هناك إلى ألف قطعة..، وصرخت:
- «يا طائر الشؤم!.. كيف جرؤت على ذلك؟!»
أجابها بكلمات متلاحقة وعيناه تلتمعان.. كان يدرك - ولم يكن مخطئا - أن حياته تتوقف على ما سيقوله في العشرين ثانية التالية:
- «(آني).. في عام ١٨٧١ - زمن القصة – كانت الكثيرات من الأمهات يمتن في أثناء الولادة.. و (ميزري) لم تمت.. لقد وهبت حياتها لزوجها وطفلها.. إن روح (ميزري) ستظل دائما....»
- «لا أريد روحها!.. أريدها هي.. وأنت قتلتها.. اغتلتها!».
قالتها وقد تحولت يداها إلى مخالب توشك أن تقتلع عينيه من محجريهما.. وغرست قبضتيها في الوسادة على جانبي رأسه.
- «لم أقتلها يا (آني)..»
- «حقا.. وإذا لم تكن قد فعلت يا سيد (بول) فمن فعلها؟»
بالطبع هو من فعلها.. كان يملك الدافع.. وكان يكره (ميزري) بجنون.. ربما منذ الكتاب الثالث..، ولكنه - والحق يقال - فوجئ بموتها.. لم يتوقع لحظة أن ينهي طفل (ميزري) بمصرع البطلة..
«لم أقتلها.. لقد ماتت كما يحدث في الحياة الواقعية... و....»
- «أتظنني طفلة الأمس؟.. لقد رأيت في مهنتي الآلاف يموتون.. وكان ذلك لأن أجلهم حان.. أما في القصص فهم يموتون لأن كاتب القصة أراد ذلك!.. والآن دعني أقل لك شيئا يا طائر الشؤم.. إن كاتب القصة - في هذه المرة - له قدمان مكسورتان.. ويعيش تحت سقف داري يأكل من طعامي ٠٠».
وفجأة.. تصلبت.. مرة أخرى وقفت وذارعاها متدليتان إلى جوارها وعلى وجهها تعبير خاو..

قبع (بول) في الفراش يرمقها ويصغي لصوت الماء الذي كان بالدورق يتساقط على الأرض.. وللمرة الأولى في حياته جالت بذهنه فكرة القتل.. ربما كان هذا هو أمله الوحيد والأخير..
ببطء بدأت تعود لعالم الواقع.. غضبتها الجهنمية تنقشع.. وفي جهامة غمغمت:
«أظن من الأفضل لي أن أرحل.. لا أعتقد أنه من الحكمة بقائي هنا..»
- «تذهبين؟... لأين؟».
- «ليس هذا من شأنك.. لو بقيت هنا لربما قارفت عملا أحمق.. وداعا يا (بول)..».
- «وهل ستعودين لتعطيني الأقراص المسكنة؟».
دونما رد تمسك بمقبض الباب وتغلق الباب خلفها.. للمرة الأولى يسمع صوت المفتاح يقعقع في القفل.. ويسمع خطواتها تبتعد.. صوت باب يغلق.. صوت محرك يبدأ في الدوران.. ثم يبتعد تدريجيا...
لقد صار وحيدا...
وحيدا في دار (آني).. سجينا في غرفته.. حبيسا في فراشه.. كان حلقه جافا وعيناه زائغتين..
وكان المد ينحسر عن الصخرة..

∞∞∞∞∞∞

واحد وخمسون ساعة..
كان يصنع علامات بالقلم على معصمه كلما سمع دقات الساعة.. لابد أنه لم يُضِع ساعة واحدة.. لربما غلبه النعاس

لكنه لم يُضع ساعة واحدة لأنه كان يصحو مذعورا كلما سمع دقاتها..
الجوع.. الظمأ.. الألم.. أفراس سباق تعدو في كيانه.. يحاول كل منها أن ينال الجائزة الكبرى..، العرق البارد.. النوم.. بالتأكيد كان يحتضر.. ولكم تمنى ذلك.. الصخرة واضحة تماما.. يرى كل معالمها للمرة الأولى..
وفي الساعة الثالثة بدأ يصرخ.. يصرخ...
في الساعة الرابعة والعشرين ظهر حصان جديد في حلبة السباق.. إنه حصان الإدمان.. الحاجة لعقار الـ (نوفريل)..، الحاجة تمزقه.. لربما فكر في النهوض من الفراش والزحف بحثا عن الدواء، لكنه كان يلفظ الفكرة فورا عالما أنه لن ينجح سوى في السقوط.. ومضاعفة الأمة إلى درجة كونية..
كانت قدماه تحت البطانية وشكلها المشوه يفزعه.. فلم يجرؤ قط على النظر إليهما لرؤية ما حل بهما.. لكنه كان موقنا أنه لن يتمكن من الحركة أبدا وأن الحكمة تقضي بالبقاء كما هو..
في الساعة الرابعة من اليوم التالي بدأ حصان الظمأ يسبق منافسيه في حلبة السباق.. لسانه متضخم سميك.. وذهنه يحلم بدورق الماء الذي هشمته الشيطانة..
نام.. صحا.. نام ثانية..
وهنا بدأ خاطر مروع يلتمع في ذهنه.. هل تكون (آني) قد ماتت؟.. لربما انتحرت لأنها «لا تريد الحياة بعد أن ماتت (ميزري).. فوداعا أيها العالم القاسي!».. وهوب!.. تضغط زناد مسدس مصوب إلى رأسها.. إنها مخبولة تماما.. ومن السهل أن تفعلها..
أو لربما حدث لها حادث تصادم مروع بينما هي في حالة الانفصام إياها.. ومعنى هذا أن يموت هو هنا كفأر في مصيدة.

تمنى أن يغلبه فقدان الوعي فيستريح لكن فقدان الوعي بقى حلما عزيز المنال.. وها هو ذا راقد كدودة تتلوي تحت المجهر بلا هدف سوى الموت..

∞∞∞∞∞∞

وحين عادت أخيرا ظن أنه يحلم..
ثم أدرك أنها حقيقة.. وأنها ترتدي قبعة واسعة وثوبا أزرق اللون.. وأن محياها متورد والرضا على وجهها..
وأن عينيها تلتمعان بالحياة...
بدأ يصرخ.. يتوسل.. يعوي...
إلى أن وجدها تناوله كوبا من الماء وتطلب منه أن يرشف منه.. وهي تضع يدا مثلوجة خلف رأسه حتى لا يشرق.. رشف في جشع ثلاث جرعات ثم رآها تنتزع الماء منه:
- «لا يا (بول).. جرعة صغيرة في كل مرة حتى لا تتقيأ..»
اهتزت يداه في لهفة متوسلا:
«(آني)... أتوسل إليك!.. الدواء.. الألم..»
هزت رأسها في تسامح.. وغمغمت:
«سأعطيك إياه.. ولكن أولا هناك مهمة يجب أن تقوم بها لي.. سأعود إليك حالا..»
ونهضت متجهة إلى الباب.. فصرخ في لهفة:
- «لا»

إلا أنها لم تعبأ به.. وهنالك قبع في الفرش محاولا ألا يئن برغم كل شيء.. ثم.. بعد دقائق فوجئ بأخر مشهد توقعه في حياته.. كانت الحمقاء تدفع أمامها شواية فحم...، شواية من النوع الذي يستعملونه في النزهات الخلوية.. وها هي ذي الآن في غرفة نومه

مستدعية صورا لا تنتهي من قصص القرابين الوثنية..، بالفعل لم يكن مخطئا حين تذكر القرابين الوثنية لأن (آني) كانت تحمل معها مخطوطة قصته (سيارات سريعة) - نتاج سنتين من العمل الشاق - ومعها علبة ثقاب مليئة!

∞∞∞∞∞

- لا!
صرخ في جنون وقد أدرك ما تنتوي عمله، ولم تفارق ذهنه فكرة أليمة.. لو أنه فقط استغني عن بضع دولارات وأعد صورة احتياطية لهذه المخطوطة..... لماذا لم يفعل؟.. لم يخطر له قط أن النسخة الوحيدة على وجه الأرض لقصته ستقع في يد (آني)..
- «بل نعم!» قالتها وهي تمد علبة الثقاب نحوه «إنها قصة رديئة وبذيئة».
صاح في جنون وقد أنساه غضبه واجب الحذر:
- «أنت لا تعرفين الغث من السمين لأنك حمقاء!»..
- «وأنت لا تعرف مصلحتك يا (بول).. هيا.. خذ الثقاب!».
وهنا فوجئ بعلبة دواء تحت أنفه.. علبة أنيقة براقة مكتوب عليها (نوفريل).. ثم (عينة طبية مجانية).. ثم (لا يصرف دون روشتة طبية)، وكان عرضها واضحا.. إذا أحرق المخطوطة ستعطيه كبسولتين من الدواء.. وستبدل له الفراش الذي بلله بالبول.. وستقدم له وجبة ساخنة.. ولسوف يزول الألم والجوع والظمأ.. أما إذا لم يفعل فلن يكون بوسعها عمل شيء
. «أنت شيطانة!».

- «هذا هو ما يقوله الطفل عن أمه حين تدخل المطبخ لتجده يلهو في مسحوق الغسيل تحت الحوض..! وهذا يحزن الأم.. لكنه لا يمنعها من أداء واجبها كما أؤدي أنا واجبي الآن».

الحبوب.. الحبوب!.. المخطوطة تحوي عمل سنتين و١٩٠ ألف كلمة.. لكنه بحاجة إلى الحبوب اللعينة..

«أنا بانتظارك يا (بول)..»

عليك اللعنة..... ماذا تحاول إثباته يا (بول شيلدون)؟..

ماذا يدفعك إلى أن تموت أو تجن من أجل كتاب لا تعرف مصيره ولا يحوي سوى أوهام؟ فيمن تحاول أن تؤثر؟ وأية نتيجة تنتظر؟.. حتى (جاليليو) تراجع عن نظرياته بمجرد أن أدرك أنهم جادون في تهديده..

- «أنا بانتظارك يا (بول)...».

. نعم... هلمي!.. ناوليني علبة الثقاب.. ناوليني قاذف لهب وعبوة نابالم إذا أردت!.. لكن شيئا في روحه ظل يقاوم بعنف..

«إذن فلتحرقيها أتت ما دمت تريدين ذلك..»

- «أتمنى هذا يا (بول) لكني لا أستطيع..»

- «ولماذا؟».

- «لأنك أنت من ينبغي أن يفعل هذا بكامل إرادته!».

بيدٍ مرتجفة تناول علبة الثقاب منها.. وحاول أن يشعل عودا لكنه لم يستطع.. من ثم تناولت هي الثقاب وأشعلت له عودا ثم ناولته إياه.. ووضعت الصفحة الأولى على الشواية.. اللهب يتعالى.. ثم الصفحات التالية لها تتجعد الكلمات التي كتبها منذ أربعة وعشرين شهرا.. قال (توني) لفتاته في حزن «ليست لدي سيارة.. وإنني لبطيء التعلم لكنني أقود السيارات بسرعة مذهلة».. يذكر آلام المخاض.. ومشيه المجنون بين حجرات

المنزل.. يذكر صوت جرس كنيسة بعيدة.. ويذكر لهفته.. كما في كل مرة، متعة البدء المقدسة..



وصمتت القاعة تمامًا ، إلا من صليل السيوف وتقارعها ..

كما في كل مرة، الخشية من أن يكتب أسوأ مما أراد أن يكتبه.. ثم - كما في كل مرة - اللذة الصارخة والفرحة بأن الرحلة قد بدأت..
- «(آني).. أرجوك.. لا ترغميني على ذلك..».
- «لكنك قد بدأت بالفعل..»..
وهكذا.. أحرق (بول) كتابه..

∞∞∞∞∞

- «أحسنت يا (بول).. أنت ولد طيب ولك روح رياضية عالية.. أعرف أن هذا يؤلم مثلما تؤلمك قدماك، لهذا لن أطيل عذابك».
قالتها وناولته عود ثقاب أخيرا ليلقيه على كومة الأوراق السوداء التي كانت قصته يوما ما.. مئات القصاصات المحترقة تتطاير في هواء الغرفة الذي صار خانقا.. لكن (بول) لم يهتم كثيرا حتى لو احترقت الغرفة ذاتها.. لم يعد شيء يعنيه..
بعد ثوان جاءت (آني) بدلو مليء بالماء وسكبته فوق الشواية لتطفئها.... ثم أخذت كتلة الرماد المبتل خارج الغرفة، وعادت له لتدس كبسولتين في فمه..
كان آخر ما فكر فيه قبل أن يغمض عينيه هو:
- «لسوف أقتلها!»..

∞∞∞∞∞

لم يستطع النوم..
الأفكار تتلاحق في ذهنه كأنها قصاصات أوراق في مهب الريح..
إنهما معزولان في مزرعة بعيدة ولا يوجد جيران قريبون لأنهم - كما قالت له من قبل - لا يحبونها..

وماذا عن سيارتك الـ (كامارو)؟.. لابد أنها في مكان قريب فهل سيجدها رجال الشرطة.. لربما وجدوها.. وعندئذ كانوا سيبدءون حملة تفتيش واسعة..
إن المرأة - كما هو واضح - لا تشاهد التلفاز ولا تسمع المذياع إلا إذا كان مذياعها مزودا بسماعتي أذن.. لكنه - للأسف - يستطيع أن يستنتج أنه ما دامت الشرطة لم تأت فهو لم يجد سيارته.. وما دام لم يجدها فمن الواضح أنه لن يجدها أبدا!
شرع يتخيل الضابط الوسيم الذي سيأتي باحثا عنه.. بارد الطباع.. يرتدي منظارا أسود ليرى المتهم صورته فيه مزدوجة.. ونبرة صوته الهادئة:
- «لقد عثرنا على سيارة مقلوبة عند هضبة (همبجي) تخص كاتبا شهيرا اسمه (بول شيلدون).. لم تجد جثته لكننا وجدنا آثار دماء على المقاعد، فهل رأيت رجلا جريحا له هذه الأوصاف يوم العاصفة؟.. رجلا طويل القامة في الأربعين من عمره وشعره بلون الرمال.. يرتدي الجينز وقميصا مخططا؟»
ستقدم له (آني) قدحا من القهوة (ستكون بالطبع قد تأكدت من غلق كل الأبواب بين (بول) و(الشرطي) وستقول في ثقة إنها لم تر أحدا لأنها عادت لدارها سريعا خشية العاصفة..، عندئذ ينهض الشرطي شاكرا لها قدح القهوة ويطلب منها أن تتصل به إذا ما جد جديد..، من يدري؟ ربما حدث هذا المشهد بالفعل وربما زار هذا الشرطي الخيالي البيت بينما كنت أنت في غيبوبة المخدر! وبدأ الخاطر يغرق في أوراق مسودة تشتعل.. كانت مخطوطة (سيارات سريعة) تحترق أمام عينيه..
يا للهول!.. كانت تحرق عمله ببساطة لأنها لم تكتب في حياتها ولا تفهم لذة الخلق.. كان اعتزازها الأحمق بذاتها يجعلها تحسب أن هذا هو الصواب.. ربما لو أنك كذبت عليها وزعمت

أن هناك نسخة أخرى من المخطوطة.. ربما تركتك وشأنك.. وربما فهمت أن تدمير العمل يتجاوز قدراتها ولكن لا.. من يدري؟.. إن عجزها عن تدمير الكتاب البذيء قد يدفعها لتدمير مؤلف الكتاب البذيء!.. ومن المؤكد أنه لا توجد نسخة أخرى من (بول شيلدون).

أغمض عينيه.. وتنهد..

صبرا يا (آني)!.. إنه شهر (فبراير).. وعما قريب يذوب الجليد وتتكشف سيارتي للعيون فيراها رجل شرطة أو فلاح على محراث أو صبية كشافة.. عندئذ...

∞∞∞∞∞∞

في الصباح أحضرت له الآلة الكاتبة..

عتيقة مليئة بالتروس والروافع.. تعود إلى عهد كانت فيه الآلات الكاتبة الكهربية والتليفزيون الملون وهواتف اللمس نوعا من الخيال العلمي، آلة كاتبة متأكلة جلبتها له ووضعتها - لاهثة - على الفراش عند قدميه..

- «حسن... ما رأيك؟»

- «جميلة... أنتيكة حقيقية!». صاحت في حنق:

- «لم أشترها من متجر العاديات بل من متجر الأدوات المستعملة.. إن هذه الآلات العتيقة تظل بخيرها للأبد.. هي ليست سوى دبابات!.. اشتريتها من تلك الملعونة الثرثارة (نانسي دارتمونجر) في محلها.. هي إنسانة سيئة.. إنسانة قذرة...».

كان قد تعود تماما على دورات مزاجها وخضع تماما لها.. كان يعرف متى تكفهر ومتى تبتسم، ومن المذهل أنه ارتبط نفسيا بدورتها هذه.. بدورتها هذه.. يضحك متى ضحكت ويرتجف

هلعا متى قطبت.. لكن الثورة هذه المرة - لحسن الحظ - لم تكن تخصه.. بل تخص (نانسي دارتمونجر)..
- «إلا أن بها عيبا بسيطا - أعني الآلة - هو أن حرف (النون) معطل.. انظر بنفسك...»
وأمالت الآلة نحوه ليرى دائرة الحروف المتراصة وبينها حرف ناقص كأنه ضرس مخلوع في طاقم أسنان متهالك..
كانت الآلة ترمقه بحدة - يستطيع أن يقسم على ذلك - واعدة إياه بأوقات عصيبة..
- «جعلت المرأة تخفض الثمن خمس دولارات لأنني قلت لها إن حرف (النون) من الحروف الهامة في اللغة.. بل هو حرف هام في اسم كاتبي الأثير..! »
قال لها مداهنا:
- «وهو حرف هام في اسم ممرضتي الحبيبة!».
- «يا لك من وغد!».
واحمر وجهها فازدادت بشاعة.. لو أن صنما من الأصنام المرعبة في روايات (رايدار هجارد) قد شعر بالخجل.. لبدا مثل هذه المرأة..، قالت باسمة:
- «كلفني الكرسي المتحرك كثيرا لكنني لا أهتم بذلك ذرة.. إن الوقت قد حان كي تتعود الجلوس بالإضافة إلى أنك لن تستطيع الكتابة راقدا..» ثم فرقعت بأصبعها كأنها تقدم برنامج منوعات في التلفاز.. وهتفت:
- «لقد أحضرت لك لوحا خشبيا قطعته على المقاس.. وكذا الكثير من الأوراق.. انتظر!».
وغادرت الغرفة متواثبة ثم عادت بعد ثوان بكرسي متحرك وقد أراحت لوحا من الخشب على مسنديه، ووضعت الآلة الكاتبة

على اللوح صانعة بذلك نوعا من مكاتب المعوقين.. ودون جهد رأى (بول) أية تعاسة سيعيشها وهو سجين هذا المقعد..

- «وماذا تريدين مني أن أكتب إذن؟»

احمرت عيناها والتمعنا وهي تنظر له في نشوة:

- «ستكتب قصة جديدة يا (بول).. ستكتب أفضل قصصك.. ستكتب (عودة ميزري)!!».

∞∞∞∞∞∞

3- حملة استكشاف!

- «عودة (ميزري)؟!».
ضمت يديها القويتين إلى صدرها والتمع وجهها.. وهتفت:
- «نعم يا (بول)!.. سيكون كتابا خاصا لي أنا.. فكر في هذا.. النسخة الوحيدة من أحدث قصص (ميزري) لي أنا وحدي.. وسيكون هذا هو أجرى على القيام بتمريضك حتى عدت بكامل صحتك...!».
- «لكن (ميزري)..... قد ماتت..»
وهنا توقف وقد أدرك - لأول مرة - أنه يستطيع أن يعيدها للحياة.. لم لا؟.. إن الرجل الذي يتوسل من أجل المخدر لن يضيره في شيء أن يكتب بالأمر..
- «أنت تعلم يا (بول) أن (ميزري) لم تمت... ببطء رفع وجهه نحوها.. وضاغطا على كل حرف من كلماته همس:
- «(آني).. إذا كتبت لك هذا الكتاب.. هل ستتركينني أرحل؟»
- «أنت تتصرف كما لو كنت سجيني..»
نظر لها في صمت ولم يعلق.. فأردفت في نوع من خيبة الأمل:
- «ستكون حرا.. هل هذا هو ما تريده؟».
- «أريد كل نسخ (ميزري) الموجودة عندك من أجل المطابقة...»
- «لك هذا.. ولكن ما معنى (مطابقة)؟»
- «إنه النسق التاريخي للشخصية.. الأماكن.. الخبرات.. وكلها أحفظها في (دوسيه) مفهرس في داري ليس معي الآن...»
لم يبد عليها أدنى اهتمام بهذه الأسرار التكتيكية التي كانت تبهر هواة الأدب عند سماعها، والسبب واضح.. إن (آني) هي نموذج

للجمهور المثالي..، تحب سماع القصص لكنها لا تهتم بتاتا بآليات صناعتها.. وهي تؤمن بأن (ميزري) ومن حولها حقائق لا مجال لمناقشتها..
- «والآن سأتركك إلى أن ترتدي قبعة التفكير.. سأدرس تجليد الكتب لأتمكن من تجليد (عودة ميزري) وسأضعها جوار الإنجيل الخاص بأمي..»
واتجهت نحو الباب في مرح.. ثم توقفت قائلة:
- «سآتيك بحساء بطاطس وصدر دجاجة بعد نصف ساعة.. أنت ولد طيب، ولسوف آتيك بالدواء في وقته.. ومن يدري؟.. ربما أعطيتك كبسولة إضافية في وقت النوم.. يجب أن أطمئن إلى أنك تلت قسطا كافيا من النوم الهادئ».
وقبل أن تغلق الباب ناولته قبلة شنيعة على الهواء..

∞∞∞∞∞

في الصباح أيقظته (آني) بينما أشعة الشمس الدافئة تتمطى من النافذة.. كان قد حلم بأن (آني) هي (شهرزاد) في إحدى قصص ألف ليلة وليلة.. على أنه أدرك سخف هذا الحلم حين صحا من النوم.. لم تكن (آني) هي (شهرزاد) بل هو!... هو المكلف بتسليتها والويل له إن عجز عن شد انتباهها..
قامت بتحريك المقعد إلى جوار النافذة لتسقط أشعة الشمس عليه لأول مرة من دهور.. كأنه بجلده الذي لطخته قرح الفراش يصلي صلاة شكر للخالق الأعظم.
ومن النافذة رأى السماء الزرقاء - كأنما خلقت في هذه اللحظة - وسجادة من الأعشاب الخضراء تمتد إلى ما لا نهاية.. يتوسطها جرن أنيق الشكل.. وجواره عربة (جيب) شيروكي معتني بها إلى

حد كبير، دنت منه (آني) ووضعت أمامه صينية عليها وجبة خفيفة وجلست جواره ترمقه إذ يأكل..
- «أراك معجبا بالجرن..» قالت في شرود «مجرد (منظره).. إن تنظيف الجليد حين يقع على سقفه لهو (العكّ) الحقيقي...»
(عك) و (منظره) و (طائر الشؤم).. لو قدر لك أن تخرج من هنا حيا وأن تكتب عن (آني) فلا تنس قاموس كلماتها هذا..
- «والآن يا (بول).. لتبدأ الكتابة..»
ولكن هذا النوع من الأوراق لا يناسبني...
- «لكنها أغلى الأنواع...!».
- «ألم تقل لك أمك إن الأغلى ليس بالضرورة الأفضل؟».
قالها مستمتعا بإثارة حنقها.. فهو واثق بأنه – على الأقل - قادر على قهرها فيما يتعلق بالنقاط التكنيكية التي لا تعرف عنها شيئا..، وفي صبر بدأ يشرح لها أن الكتابة على هذه الأوراق الناعمة تزول بسهولة بمجرد مسحها بالأصبع.
قالت في حنق:
- «وهل أنت تنوي أن تجلس وتمسح كل صفحة بإصبعك؟»
- «إن احتكاك الأوراق ببعضها في أثناء التقليب كاف جدا.. دائما لابد في مهنتنا هذه من تقليب الأوراق بحثا عن اسم أو تاريخ..»
- «(بول).. أنا أكره بشدة أن تسمي هبة الله العظيمة لك (مهنة).. هذه وقاحة!».
- «وعلى كل حال سأحضر لك هذه الأوراق (المقرفة).. فلا تزعجني... ثم مدت يدها الغليظة إلى شعره فاقشعر.. حاول ألا يفعل لكن هذا كان أقوى منه.. وبصوت غليظ همست.
- «سأذهب للمتجر الآن ولكني أريد منك أن تتذكر شيئا.. ربما أبدو لك غبية أو بطيئة التفكير.. لكنك لن تخدعني أبدا يا (بول) فلا تحاول ذلك».

نظر لها في هلع.. كان شعرها منتثرا على وجهها وقد تحرر من دبابيسه، ونظرة الصنم الغاضب في إحدى روايات (رايدار هجارد).. ثم إنه سمعها تعوي من بين أسنانها:
- «جي ي ي ياه ده!»
وهوت بقبضتها على كتلة الألم التي كانت يوما ما ركبته.. فصرخ.. هوى برأسه للوراء وقد وثبت العروق على جبينه وعنقه..
- «والآن.. لتجلس ها هنا وتفكر في كل الأشياء التي أستطيع عملها من أجل إيذائك لو حاولت خداعي.. اصرخ إذا أردت فلن يسمعك أحد.. لا أحد يمر هنا لأنهم جميعا يعرفون أن (آني ويلكز) مجنونة.. الجميع يعرف ما فعلته حتى ولو كانوا قد برعوا ساحتي!».
واندفعت للباب، ثم أنها استدارت نحوه فجأة.. فصرخ ثانية متوقعا هجمة جديدة ومزيدا من الألم.. كان يرتجف كالورقة محاولا ألا يفعل لأن الرجفة تزيد آلامه.. كان يبكي كطفل..
وحين سمع محرك السيارة يهدر مبتعدا أخذ يردد:
- «يا إلهي الرحيم.. خذني بعيدا عن هذا الكابوس أو أمتني!».
كان الألم قد استيقظ.. والجزر قد بلغ مداه حول الصخرة.

∞∞∞∞∞

والآن هو ذا المعلق المجنون يصف أحداث المباراة في ذهن (بول):
- «أنا لا أصدق جرأة هذا ال (بول شيلدون).. لا أحد من المشاهدين في إستاد (آني ويلكز) يصدق ما يراه.. إنه يحاول

التحرك بالكرسي المتحرك بعد الضربة الأليمة التي تلقاها!.. هو ذا!.. نعم!.. دعونا نز المشهد بالعرض البطيء..»
كان العرق والدمع يغمران شفتيه وهو يحاول.. الألم يعصف به.. لا يمكن أن يوجد كل هذا القدر من الألم في العالم.. كأنما الشياطين تلوك لحمك.. العقار إلى (نوفريل).. الشيء الوحيد الذي يدفعه للحركة.. يجب أن تبحث عنه وأن تجده في الوقت الذي انصرفت فيه..
«(بول) يحاول بجرأة.. ترى هل ينجح؟».
ثمة مشاكل عدة.. الباب المغلق.. البحث عن الكبسولات.. احتمال أن تعود فجأة وتضبطه متلبسا.. لا يهم.. فلتعن بكل مشكلة في وقتها أو لتمت.. أما الآن فالدواء هو الأهم..
إن المقعد يتحرك.. هذا رائع..
ضغط على شفته السفلى وبدأ يحاول الدوران حول محور المقعد مستعملا ذراعيه.. كان مجهودا يفوق قدرة البشر، حتى أنه غاب عن الوعي بضع دقائق.. ثم عاد يواصل ما بدأه..
مد يده بأقصى ما يستطيع إلى الأرض.. إلى ثلاثة دبابيس شعر سقطت منها.. لكن الدبابيس ظلت بعيدة عن متناول أصابعه.. العرق يغمر البيجامة وينساب على عنقه..
«لا أظنه قادرا على الوصول إلى الدبابيس يا شباب.. كان مجهودا طيبا لكنني أخشى أنه ينتهي هنا..»
انحنى على ناحية المقعد اليمني.. كان مفصل فخذه الأيمن يوشك على الانفجار.. يمد أصابعه كما لم يمدها من قبل.. لمس دبوسا لكنه - فقط - نجح في أن يبعده أكثر.. عيناه جاحظتان.. العرق يغمر حاجبيه.. أسنانه تعتصر طرف لسانه.
في النهاية تمكن من الديوس.. واعتصره في قبضته..

جلس يلهث بعض الوقت ويلتقط أنفاسه.. ثم أنه حرك المقعد تجاه قفل الباب الذي أغلقته هي..، كان (توني بوناسارو) بطل قصته (سيارات سريعة) لص سيارات.. وكي يتعلم أساليبهم لجأ لرجل شرطة متقاعد علمه كيف يستخدم دبابيس الشعر في فتح السيارات وكيف يعطل الإنذار وكيف يبدأ المحرك.. لقد صار (توني) حفنة من الرماد الآن، لكن ذكراه لم تمت.. لذلك..
أمسك بالدبوس.. كان القفل من النوع العتيق.. وهو واثق من أن يديه لن ترتجفا.. لا يمكن أن ترتجفا.. ها هو ذا يعالج القفل من الداخل.. يوشك دبوس الشعر أن يتهشم.. لكن لا.. أرجوك يا إلهي احفظه لي.



لولا أن تراجع هذا الأخير فى سرعة ، وأغلق باب الكابينة خلفه ، ثم التفت
إلى (دايل) ، التى بلغ رعبها مبلغه .

«إن كل الجمهور بالإستاد صامت ينتظر.. (بول شيلدون) مستمر في محاولاته البطولية.. هيا!.. شجعوه يا شباب!»،

ضغط خفيف على الرفاص.. قليلا.. قليلا.. دفعة أخرى يا إلهي!.. سمع صوت قرقعة فأدرك أن الدبوس قد تحطم داخل القفل.. وقبل أن يعلن لنفسه أنه فشل أدرك أن الباب قد انفتح أخيرا..!

تعالى الهتاف المجنون في الإستاد الخيالي على حين شرع المعلق يردد:

«دعونا نر اللقطة بالسرعة البطيئة...»

لكن حناجر الآلاف ظلت تردد الصراخ الحماسي، دعك - بالطبع - من الملايين الذين يرون المشهد على شاشات التلفاز..

∞∞∞∞∞∞

كانت لحظة سيئة - بل مريعة - حين أدرك أن المقعد لا يمر من الباب.. وأن عرضه يزيد على اتساع الباب ببوصتين.. وهنا تذكر أنها أمالت المقعد على محوره الطولي حين أدخلته الغرفة أول مرة الأمر الذي لن يستطيعه أبدا.

بعنف حاول أن يحشر نفسه.. تشبث بجانبي الباب ودفع المقعد بعنف غير عابئ بأن جوانب العجلات ومحاورها تخدش خشب الباب بعنف..

لكنه مر... في الحقيقة مر..

على أنه حين رفع وجهه عن الأرض وجدها واقفة أمامه!.. كانت أسنانها تلتمع.. وفي يدها بندقية مصوبة نحوه..!!..

- «ما دمت تريد حريتك إلى هذا الحد يا (بول) فمن واجبي أن أمنحها لك..!» وضغطت على الزناد..

∞∞∞∞∞∞

لم تنطلق الرصاصة..
في الواقع لم يكن وجود (آني) سوى كابوس رآه حين أغشي عليه.. على أنه قال لنفسه إن هذا ليس مجرد كابوس بل هو إنذار.. فمن الممكن أن تعود في أية لحظة..
لقد خرجت في المرة السابقة خمسين ساعة.. فلعلها تخرج ثمانين هذه المرة، ومن الوارد أن تعود الآن في أية لحظة لتفجر رأسك..!
وبدأ يدفع المقعد عبر الممر..
كان هناك حمام على جانب الممر، وكان يعرف بوجوده لأنه سمع المياه تتدفق منه مرارا من قبل.. نظر بداخله فرأى حوضا و (بانيو) صغيرا، وثمة صيدلية صغيرة معلقة.. ولم يكن هناك (تواليت)..
عضلاته ترتجف كأنما كل الوقت الذي أضاعه فيما مضى يمارس الرياضة كان حلما.. ولقد كاد رأسه ينفجر وهو يحاول إدارة المقعد ليواجه الباب.. إلا أنه - أخيرا - نجح في... أن يعبر بعجلات المقعد فوق البلاطات البيضاء التي تغطي الأرضية.. ثمة رائحة ما.. رائحة مستشفيات.. هل هي رائحة (الليزول)؟.. ليس واثقا.. المهم الآن أن يصل إلى الصيدلية.. من الواضح هذه المرة أن الأمر مستحيل لأنها على ارتفاع تسعة أقدام من أطراف أصابعه.. ولم يستطع أن يصدق لحظة أن الحياة قاسية إلى هذا الحد..
وهنا خطر له أن يستعمل أي جسم طويل يمده لباب الصيدلية ويفتحها.. ثم يدحرج بعض الدواء ليسقط في الحوض.. ولكن لا.. ستتهشم الزجاجة في الحوض
وحتى إذا لم تتهشم فثمة فرصة لا بأس بها أن تسقط أشياء أخرى.. وعندئذ لن تستطيع إعادتها لمكانها.. وحين تعود (آني)

وتكتشف ما فعلت.. فماذا بعد؟
- «سأقول لها ان (ميزري) هي التي فتحت الصيدلية.. كانت تبحث عن دواء يعيدها إلى الحياة!»
لم يكن يضحك إذ قال ذلك.. بل يبكي.. يبكي بحرقة.. وفجأة من بين دموعه لمح بعض صناديق من الورق المقوى على الأرض في ركن الحمام.. وعلى كل صندوق كُتب اسم إحدى شركات الأدوية العالمية..!
«أرجوك يا إلهي.. لا تدع هذه الصناديق تحوي مخزونها من الشامبو أو صور أمها المرحومة الغالية..!».
واتجه إلى واحد من الصناديق وفتحه.. كان مليئا بعينات الأدوية التي لم يعرف كيف يقرأ اسم أكثرها.. لكنه على الأقل لم يجد الدواء الذي يبحث عنه..
«(نوفريل)!.. أريد هذا اللعين!».
وأغلق الصندوق وحاول باستماتة إعادته إلى موضعه السابق.. لكن المكان اللعين بدا له مختلفا عن المكان الأصلي..، فتح صندوقا آخر وبدأ يقرأ الأسماء (مورفوز).. (ليبرم).. (نوفريل)!.. ها هو ذا اللعين!..
مئات العينات منه.. فتح إحداها في لهفة وابتلع ثلاث كبسولات غير عابئ بعدم وجود ماء.
كأنه سحر!.. لقد زال الألم... لم يكن أحمقا إلى هذا الحد، وكان يعرف أن نصف ساعة لابد أن تمضي قبل أن يبدأ العقار في العمل.. لكن - بالنسبة لجسده - كان امتلاك الكبسولات أهم من ابتلاعها!.. كان الآن يملك السيطرة على قوى المد والجزر وعلى الأمواج إذ تغطى الصخرة..
والآن حان وقت الفرار.. لو جاءت الآن فسوف..

انتقى خمس علب من العقار (لأن هذا أكبر عدد يمكن أن يأخذه دون أن تشعر هي) وبها ثلاثون كبسولة، ثم أعاد تنسيق محتويات الصندوق وأغلقه كما كان لأن صوت سيارة يقترب......
اتسعت عيناه وهوت ذراعاه على جانبي المقعد.. لو أن هذه سيارة (آني) فقد انتهى الأمر.. لن يتمكن أبدا من العودة إلى غرفة النوم بهذه السرعة.. ولن يكون عليه سوى الانتظار حتى تأتي إليه وتدق عنقه..
الصوت يتعالى.. يتعالى.. ثم يخفت..
تنفس الصعداء وقرر أن ينهي هذه المسرحية القاسية ويعود لغرفة النوم فورا.. ولكن.. هل أعاد كل شيء لمكانه؟.. بدا لعقله المنهك أن ترتيب الصناديق ليس عشوائيا كما خيل له أول الأمر.. إن (آني) مخبولة.. ومثل كل المرضى النفسانيين لابد أنها تهتم بأدق التفاصيل.. ولكن.. ليكن!.. لم يكن لديه مخرج آخر سوى أن يفعل ما فعله..
وهكذا أدار المقعد وخرج من الحمام.. وهنا جال بذهنه خاطر مرعب: ماذا لو كانت أرضية الحمام مبتلة.. لابد أنه ترك آثارا على البلاط الأبيض النظيف من عجلتي المقعد.. كانت الفكرة قوية إلى حد أنه رأى تلك الآثار بالفعل.. ثم أنه طرد هذا الوسواس من ذهنه..
كان في طريقه إلى غرفة النوم حين أدرك أن غرفة المعيشة - حتما - في الجانب الآخر من القاعة.. وفي غرف المعيشة يضع أكثر الناس أجهزة الهاتف.. والتمعت الفكرة في ذهنه المحموم..
- «اسمعني يا حضرة الضابط ولا تقاطعني.. لا أعرف كم بقى لي من الوقت حتى تعود.. اسمي هو (بول شيلدون).. أتحدث من منزل (آني ويلكز) حيث أنا سجينها منذ فترة طويلة.. أرسلوا

عربة إسعاف وسيارة دورية.. وبسرعة بحق السماء قبل أن تعود!!».
ولكن من قال لك إن عندها جهاز هاتف؟.. أنت لم تسمع رنينه مرة واحدة.. أنت تجازف يا صديقي ولكن إغراء البلاستيك الأسود البارد وصوت دوران القرص أو الصوت المتقطع لأزرار اللمس.. هذا الإغراء يفوق قدراتك على التحمل.. ودون تردد اتجه نحو الطرف الآخر من الممر..
كان الهواء راكدا واللون الأحمر يسيطر على كل شيء.. ثمة صورة في إطار مذهب لامرأة ترمقه في حقد.. واضح طبعا أنها المرحومة أم (آني)..، وفي أرجاء القاعة كان هناك أثاث حقير متهالك.. وفي ركن كان هناك جهاز هاتف ينعس تحت مزهرية خضراء قبيحة..
مد يده للسماعة وقلبه يكاد يثب لفمه لكنه أدرك على الفور أنه ميت.. بلا حرارة..
«وهذا هو (العك) الحقيقي..»
شرع يتخيل ما فعلته.. لقد كان العالم مليئا بالأوغاد الذين يسخرون منها ويتهمونها بشيء ما.. لهذا - ببساطة - انتزعت سلك الهاتف الخارجي لتتخلص منهم وان حافظت على وجود الهاتف لأنه يتعلق (بالمظهر الاجتماعي)..
واستبد به الذعر..
لقد حان وقت العودة هذه المرة.. يجب أن تعود للحجرة سريعا وتخفي الحبوب وتخفي أي أثر لحملتك الاستكشافية.. لا تسقط أي شيء في رحلة عودتك.. هلم أسرع.
وهنا سمع صوت محرك سيارتها..، وأدرك في هذه المرة أنها هي..!

∞∞∞∞∞∞

كان موشكا على فقدان الوعي..
وفي أعماقه اختلج أعظم رعب عرفه في حياته.. تذكر موقفا مشابها حين كان في الثانية عشرة من عمره وقد خرج أبوه وأمه من الدار.. تناول سيجارة من علبة سجائر أبيه وأشعلها مستشعرا الدوار والشعور بالذنب واللذة وبينما هو في منتصف السيجارة والغرفة تعبق بالدخان سمع صوت الباب يفتح وأمه تهتف: « (بولي)!.. هذا أنا.. نسيت كيس نقودي!».. شرع يحرك الدخان في جنون عالما أنه لن يفلح.. عالما أنه وقع في الشرك... عالما أن العقاب ات لا محالة..
في هذه المرة لن يكون العقاب بضع صفعات صوت المحرك يتوقف.. إنها هي بالفعل هذه المرة.. لا شك في ذلك.. وضع يدين مخدرتين على العجلتين وشرع يشق طريقه عبر الممر.. إلى باب غرفة النوم...
حاول كالمحموم أن يقتحم الباب.. ترى هل خدشت الطلاء؟.. هل ثمة أثر واضح؟.. ولكن.. لقد انحشر المقعد في فتحة الباب.. انحشر كقطعة فلين في عنق زجاجة لا تستطيع الدخول ولا الخروج.. ادفع بقوة برغم أن هذا لن يفيد.. ادفع..
توترت عضلات ذراعيه كأوتار الكمان المشدود.. أخيرا.. استطاع أن يقتحم الفتحة.. لا تتوتر.. لابد أنها تحمل مشتريات كثيرة.. على الأقل رزمة الورق التي طلبتها.. فلا تتوتر.. ستحتاج بعض الوقت لإدخال هذه الأشياء.. لقد انتهى أسوأ ما في الأمر.
أمسك بمقبض الباب وأداره محاولا غلق الباب لكن اللسان العنيد أبي أن يتحرك كأن شيئا يعوقه.. حاول مرارا دون جدوى..
صوت أبواب السيارة تغلق..

آه!.. إنه الجزء من دبوس الشعر الذي تهشم داخل القفل هو ما يعوق اللسان..
صوت حقائب من البلاستيك.. وصوت أنين المرأة إذا نتوء بحملها..
- «هلم.. هلم أيها اللعين!».
توسل إلى اللسان وتوسل إلى دبوس الشعر المكسور.. الدمع والعرق يختلطان على خده.. إنها لن ترحمك.. لن ترحمك..
صوت قدميها تقتربان.. صوت مفاتيحها تخرج من الحقيبة..
أدار المقبض مرارا.. اللسان يتحرك أكثر.. فأكثر.. صوت باب المطبخ ينفتح.. صوت (آني) يناديه (كما نادته أمه في ذلك اليوم):
«(بول).. هذي أنا!.. لقد أحضرت لك الأوراق!»
وفي هذه الثانية تهشم الجزء المحشور من دبوس الشعر.. وبرز اللسان للخارج كاملا.. ضغط على الباب فأقفله.. صوت طقطقة الكالون.. هل سمعته؟.. مستحيل ألا تكون قد سمعته!.. تحرك بالمقعد إلى جوار النافذة حين سمع خطواتها تدنو من الباب..
وسمع صوت المفتاح يتحرك في القفل.. لن تنجح في فتح الباب بسبب دبوس الشعر وسينتابها الشك.. لكن لا.. لقد دار المفتاح بسلاسة..
أغمض عينيه ودعا الله أن تحسب العرق الذي يبلل وجهه وصدره والرجفة في كل جسده.. أن تحسب كل هذا نتيجة لحرمانه من العقار..، دعا الله كذلك ألا يكون قد ترك خلفه أثرا ما..
نظر للأرض باحثا عن آثار تركها المقعد بينما الباب ينفتح..
وهنا فطن لحماقته..
كانت علب ال (نوفريل) مازالت في حجره..!

∞∞∞∞∞

4 - عودة (ميزري)..

كانت معها رزمتان من الورق.. وكانت تبتسم قائلة:
- «هو ذا النوع الذي أردته.. أليس هو؟..»
ثم إنها نظرت له بحدة.. وتقلص وجهها:
- «لكنك محتقن وغارق في العرق ماذا كنت تفعل؟!».
كاد الطفل في داخله يصرخ.. إن (ماما) تعرف كل شيء.. اعترف لها بكل شيء واطلب مغفرتها، إلا أنه تماسك وأجابها بصلابة الفولاذ:
«أنت تعرفين ما كنت أفعل.. كنت أتعذب!».
مسحت العرق من على جبينه بمنديل ورقي وابتسمت في رقة مفزعة.. فسألها متظاهرا بأنه يتألم:
- «هل لي في الدواء الآن؟».
- «فورا.. ولكن أريد منك أن تتذكر ما إذا كنت نسيت شيئا آخر يحتاج إليه العباقرة أمثالك في الكتابة.. مثلا جهاز كاسيت أو شبشب كتابة أو شيئا من هذا القبيل حاول أن تتذكر..».
- «لا شيء يا (آني).. الدواء.. أرجوك..»
هبطت بعينيها إلى أسفل.. إلى حجره.. إلى حيث تشابكت يداه حول علب (النوفريل).. ظلت تنظر فترة طويلة.. دهورا.. ثم..
- «(بول).. لماذا تمسك بيديك حجرك بهذه الطريقة؟»
انفجر باكيا.. كان يشعر بالإثم.. بالذنب.. لكنه واصل خدعته كأخر ورقة عنده:
- أريد الدواء.. و.... المبولة.. لقد بللت بنطالي و..
ابتسمت وداعبت شعره:

- «يا لك من طفل بائس..... لقد تمادت (آني) كثيرا هذه المرة.. (آني) العجوز المنحطة!.. لكنني سأريحك حالا..»
ما إن غادرت الغرفة حتى أخفى العلب في المكان الوحيد الذي خطر بباله وهو مؤخرة سرواله، ثم استراح في جلسته حين رآها عائدة بالمبولة وكوب ماء وكبسولتين من (النوفريل)..
قال لنفسه «ثلاث كبسولات من عشر دقائق والآن اثنتان.. ربما غرقت في غيبوبة لن تصحو منها أبدا.. لكن.. ربما كان هذا أفضل..» ابتلع الكبسولتين..
وتناول منها المبولة على حين أدارت ظهرها له..
«والآن لنعد للفراش.. أنت مرهق ولابد أن قدميك تنشدان ألحانا أوبرالية!».
هز رأسه برغم أنه - في الوقت الحالي - لم يعد يشعر بشيء.. إن جرعة الدواء الزائدة تهوي به إلى ظلمات اللاوعي بسرعة مفزعة.. الخاطر الذي لم يفارق ذهنه هو أنها سترفعه للفراش.. وعندئذ ينبغي أن تكون عمياء وفاقدة الحسن كي لا تلاحظ العلب التي تملأ مؤخرة سرواله..
- «(آني).. هلا انتظرت خمس دقائق حتى....».
- «حتى ماذا؟».
- «حتى..»
كان يعرف ما يريد قوله لكنه لا يجد الكلمات.. ضاعت منه وسط بحيرات اللون الرمادي التي تحيط به.. من القسوة أن يفتضح أمره بعد كل هذه المعاناة.. ومن المؤكد أنها ستفضح أمره على كل حال..
إلا أنها وافقت على تركه إلى أن يبدأ العقار عمله حتى لا يؤلمه الصعود للفراش.. وغادرت الغرفة، فما إن اختفت حتى انتزع علب الدواء ودسها تحت المرتبة.. الغرفة كلها مغلقة بشاش

أبيض يزداد سمكا، وغرق في غيبوبة. عميقة. غيبوبة استمرت أربع عشرة ساعة..

∞∞∞∞∞∞∞

فرغ (بول) من كتابة أول ثلاث صفحات من (عودة ميزري).. كان مندهشا من السهولة والبساطة التي استطاع بهما أن يعود إلى عالم (ميزري) المتشعب المعقد المليء بالميلودراما.. بل - لشدة دهشته - كان الأمر مريحا كأنك ترتدي حذاء قديما عندك اعتاد قدميك..



لم يكن إغلاق الشواطئ قرارًا سهلًا، كما تصوَّر (برودي)، فقد واجه رجلاه ، اللذان وضعهما على الشاطئ لتنفيذ القرار صعوبات بالغة..

كانت (آني) جالسة بجواره تقرأ ما كتبه.. ثم أعلنت رأيها:

- «ليست سليمة..!».

لم يصدق أننيه.. كيف؟.. إنها قصة قادمة من عالم (ميزري) إلى حد لا يوصف.. إنها من صميم (ميزري)..
ولكن ما معنى (ليست سليمة)؟!
- «كيف؟.. ألا تحبينها؟»
- «كيف لا أحبها.. إنها مؤثرة للغاية وقد كادت عيناي تدمعان في بعض الفقرات.. لكنها غير سليمة.. إنها غش وينبغي أن تغيرها!».
ماذا حدث يا (بول) لقارئتك المثالية؟.. لقد تحولت القارئة المثالية إلى الناشر عديم الشفقة فجأة..
رسم (بول) على وجهه تعبير الاهتمام الصناعي الذي كان يصغي به لآراء الناشرين، ذلك التعبير الذي كان يرضيهم ويجعلهم يتنازلون عن بعض أفكارهم الحمقاء.. وسألها:
- «ماذا تعنين بكلمة (غش)؟»
«أنت تذكر نهاية قصة (طفل ميزري).. لقد ذهب (جوفري) على صهوة حصانه ليحضر الطبيب ل (ميزري) لكن الطبيب لم يأت قط، لأن (جوفري) سقط من على الحصان وحطم كتفه.. وهكذا لا يمكن أن تبدأ قصة (عودة ميزري) لنجد أن الطبيب أنقذ حياتها..».
بدأ (بول) يفهم.. إن هذه المرأة لا تسمح له بقتل (ميزري) لكنها -كذلك- لا تسمح له بإعادة (ميزري) للحياة عن طريق التلفيق..
لكنك قتلتها بالفعل.. فماذا بوسعك أن تفعل؟..
قالت (آني):
«عندما كنت طفلة كنت أذهب للسينما لمشاهدة الحلقات الأسبوعية التي يقوم ببطولتها (الفارس المقنع) و (فلاش جوردون) وغيرها.. كنت أذهب مع أخي مساء كل سبت في (بيكرسفيلد) حيث ولدت..، وكنت أستمتع بنشرة الأخبار

والرسوم المتحركة، لكنني كنت شغوفا بمعرفة ما سيحدث في حلقة اليوم من المسلسل.. ربما أضناني التفكير أسبوعا كاملا في انتظار هذه اللحظة، كانت حلقة الأسبوع الماضي تنتهي دائما بالبطل فاقد الوعي بينما طائرته تنحدر بسرعة، أو مقيدا في مخزن يحترق، أو مكبلا في سيارة بلا فرامل...»

- «يسمون هذا التكنيك (كلف هانجرز) أي (التعلق على الحافة)..»

أعرف ذلك يا سيد عبقري! إنك تحسبني جاهلة تماما..» ولوحت بذراعها في وجهه فأدرك أن الصمت هو أسلم الحلول.. وأردفت:

- «كنت أصبو دائما لمعرفة ما سيحدث.. وكان يرضيني أي حل طالما كان (عادلا).. مثلا يصحو البطل فجأة من إغماءته.. يجد مظلة تحت المقعد.. فيربطها إلى جسده ويثب من الطائرة قبل أن تهوى.. هذا حل (عادل).. ليس واقعيا لكنه (عادل)..»

كان كلامها مذهلا وأثار اهتمامه تماما.. إنها بالسليقة تعرف واحدة من أهم أساسيات البناء الدرامي[2]..

- «والآن خذ عندك نهاية أخري.. عندما وضعوا البطل في سيارة دون فرامل وأحكموا غلق السيارة وجعلوها تنطلق في طريق متعرج بين الجبال.. لا جدوى من الفرار.. لا مخرج.. وفجأة ترى الهاوية.. وتري السيارة تطير في الهواء وتهوى.. تصطدم بالصخور ثم تنفجر وتظهر على الشاشة عبارة (البقية في الحلقة القادمة).. وهكذا........»

كانت جالسة الآن على حافة فراشه وقد اتسعت عيناها حماسة:

- «في الأسبوع التالي ذهبت للسينما من الساعة الثانية عشرة ظهرا برغم أن العرض لا يبدأ قبل الثالثة..، ثم بدأ العرض.. رأينا

السيارة تصل لحافة الهاوية ثم رأيت البطل يفتح باب السيارة ويثب منها، على حين هوت السيارة لتلقى مصيرها.. كان كل الصبية في السينما يهللون ويصفقون.. لكنني لم أفعل.. فقدت صوابي.. وقفت أصرخ: «كلا..... لم يكن هذا هو ما حدث في الأسبوع الماضي....»، حاول أخي أن يخرسني دون جدوى.. ظللت أصرخ: هل أنتم أغبياء؟.. هل فقدتم جميعا الذاكرة؟.. وخرجت من السينما مرددة: إن هذا غش قذر..... إن البطل لم يخرج من السيارة قط قبل سقوطها من على الحافة.. هل تفهم هذا؟.. هل تفهمه؟»

والتمعت بوادر العاصفة في عينيها.. وبرغم ذعره وبرغم استيقاظ طفولتها المعقدة؛ فإنه بدأ يشعر بالخجل من نفسه لأنه مارس معها ذات (الغش القذر).. كانت محقة في حنقها برغم تفاهة الأمر كله..

صمم على عدم استفزازها لأن غضبتها ستكون مرعبة..

أمسكت به من سترته وجذبته ليلمس وجهه وجهها.. وصرخت:

- «هل تفهمه..؟».

- «طبعا يا (آني).. طبعا..»

- «إذن أنت تعرف ما يضايقني في الصفحات التي كتبتها؟»

- «نعم.. أعتقد ذلك» وفي سره أكمل: «ولتلعنني السماء إن عرفت كيف أعالج هذا..».

وفي أعماقه أدرك أنه لم يجد طريقة يعيد بها (ميزري) للحياة ويقنع (آني بها فإن نهايته قريبة..

∞∞∞∞∞

أغمض (بول) عينيه وأرجع ظهره للوراء في مقعده.

كان الألم قد بدأ يتلاشى، ومن الغريب أنه لم يلمس مخزونه من ال (نوفريل) المخبأ تحت المرتبة، كأنما كان يكفيه هذا (التأمين ضد مخاطر (آني)) ليزول الألم.. لكن المشكلة الحقيقية كانت هي إدراكه لخطر الإدمان الزاحف عليه.. ما دام الألم يقل رويدا رويدا فلم لا تعتمد على مسكن أقل خطرا كالأسبرين مثلا؟.. لم لا تحاول أن تخفي إحدى الكبسولتين اللتين تعطيهما لك كل ساعتين تحت لسانك حتى لا تبتلعها.. وعندما تمضي هي تخرجها من فيك وتدسها تحت الوسادة؟.. هكذا تستطيع تقليل الجرعة تدريجيا..

ولكن.. أنا متعب اليوم.. ليكن ذلك غدا، أو - على الأكثر - حين ترضى (آني) عن الفصل الأول من قصة (عودة ميزري)..

لكنها مخبولة.. أنت تدرك ذلك.. ولن يروق لها أي شيء مما تكتبه.. أنت تفهم هذا جيدا..، لكم من صفحات تكدست في سلة المهملات ليلة أمس كلها مليئة بسطور حمقاء تتحدث عن المعجزة التي عادت بها (ميزري) للحياة.. وكلها سخيفة تفتقر للعدل.. (غش قذر) كما قالت (آني).. إنه لمحظوظ حقا في كون (آني) لم تهشم قدميه بمضرب الـ (بيسبول) أو تطلي له أظفاره بماء النار تعبيرا عن عدم رضاها.. إن هذا يناسب مفهومها الفريد للعالم..، لقد ابتكرت (آني) أسلوبا جديدا في النقد الأدبي كفيلا بإثارة الرعب في قلوب الأدباء جميعا.. وفي مرارة نظر إلى الآلة الكاتبة، وغمغم:

. «إنني أمقتك..!»

∞∞∞∞∞

كان يفتش عن (المظلة الموجودة تحت مقعد الطائرة)...

وضع ورقة في الآلة الكاتبة.. وكتب على ركنها الأيمن العلوي (عودة ميزري) ثم رقم (1) على الركن الأيسر العلوي..، وأدار الرافعة أربع أو خمس مرات وكتب في منتصف الصفحة (الفصل الأول).. كان يضغط المفاتيح بعنف أكثر مما يقتضيه الأمر لأنه أراد أن تسمعه (آني)..

والآن ها هو ذا بياض الصفحة يتحدى عينيه كجبل من الجليد سيسقط من فوقه ليدق عنقه.. «إن هذا غش قذر»..

«كان يرضيني أي حل ما دام عادلا».. «ما دمت تريد حريتك إلى هذا الحد يا (بول) فمن واجبي أن أمنحها لك!»..

«هذا هو العلك الحقيقي..»

كان يغرق في بحر الشرود.. خطأ جسيم لأنها لو دخلت الغرفة ووجدته شاردا ستجن.. لكنه لم يكن يملك أن يركز تفكيره..

كان يعود بذاكرته إلى معسكر الكشافة في (مالدن).. الدائرة... واللعبة التي كنت تربحها دائما.. ماذا كان اسمها؟ اسمها (هل تستطيع؟).. وكان رئيس الكشافة يُجلس الصبية حوله في دائرة ويحكي لهم عن رجل يدعى (كوريجان المستهتر) يستكشف الأدغال في أمريكا الجنوبية.. وفجأة يجد نفسه محاصرا بأسود جائعة وهنا يشير رئيس الكشافة إلى واحد من الصبية ويضغط زر ساعة الإيقاف ويسأله.. «(دانييل.. هل تستطيع؟»..

عندئذ يواصل (دانييل) سرد القصة خلال عشر ثوان، فإن تأخر في الكلام كان عليه أن يترك الدائرة.. يستطيع (دانييل) - مثلا - أن يقول إن (كوريجان) أطلق الرصاص على الأسود وجرى.. ثم ينتقل بالسؤال إلى أحد المحيطين به «هل تستطيع؟» ليأخذ منه زمام السرد.. وكانت هناك الكثير من التلفيقات، لذلك كان دور الجزء الأعقد من اللعبة: «هل فعل ذلك؟» يسألها الرئيس

طالبا رأي الصبية في مدى مصداقية ما تم سرده.. قد يوافقون وقد ينكرون.. (بول) لم يخسر اللعبة قط..
هل تستطيع يا (بول)؟.. طبعا.. لهذا أنا حي.. ولهذا أنا ثرى.. هناك من يكتبون بأسلوب أفضل مني.. وهناك من يفهمون البشرية خيرا مني.. أنا لا أستطيع لعب التنس ولا أستطيع تغيير (جلدة) الصنبور ولا أستطيع عزف نغمة واحدة على الجيتار.. بل وفشلت في زواجي مرتين، لكنني أستطيع.. أستطيع.. أستطيع أن أخلق قصصا تبهرك.. تسحرك.. تجعلك ترتجف فرقا.. أو تبكي حزنا.. ولهذا سأنجح.. سأعيد (ميزري) إلى الحياة ولن يجرؤ واحد على رفض مصداقية كلماتي حين يسألهم الرئيس:
- «هل فعل ذلك؟»
لن يجعلني أحد أخرج من الدائرة..

∞∞∞∞∞

في الساعة الحادية عشرة بدأ (بول) يكتب في البدء كان بطيئا.. ضربات فردية على المفاتيح تليها فترات من الصمت قد تصل إلى خمسين ثانية، ثم بدأت فترات الصمت تقصر.. وتقصر.. وبدأت سرعته تزداد وقرقعة المفاتيح تتواصل وحين دخلت (آني) الحجرة لتراقبه لم يشعر بوجودها، بالأحرى لم يشعر بوجوده هو نفسه.. ظل يعمل في حماسة حتى الثالثة بعد الظهر.. ثم إنه - في المساء - طلب منها أن تعيده إلى المقعد ثانية ليواصل الكتابة، وفي الحادية عشرة دخلت (آني) الحجرة لتعيده للفراش إلا أنه توسل إليها كي تتركه خمس عشرة دقيقة أخرى.. لكنها رفضت..

وللمرة الأولى نام بمجرد أن لامس الفراش ودونما أحلام.. لقد استهلك كل رصيده من الأحلام على الورق..

∞∞∞∞∞

كانت قصة (عودة ميزري) تبدأ باكتشاف مروع.. إن هناك من الأسباب ما يدعو حارس المقبرة للاعتقاد بأن (ميزري) ما زالت حية فهو يسمع صوت أنين وحركة من التابوت الذي ترقد فيه، ويصارح (جيوفري) ومسز (راميدج) بذلك. من ثم يصمم هذان الأخيران على نبش المقبرة ليريا ما هنالك..
كانت هذه هي نهاية الفصل السابع حين دلفت (آني) إلى الحجرة.. نظر إليها وإلى الأوراق التي تحملها والتي فرغت من قراءتها.. وسألها:
- «حسن.. هل هذا (عادل)؟..»
- «بالفعل.. (عادل) ومثير.. لكنه شنيع!»
هو لا يشبه أيا من قصص (ميزري) السابقة.. ثمة شيء مفزع
فكر (بول): هذا لأن كاتب القصة يعيش في ظروف شنيعة هو الآخر.. ثم إنه سألها:
- «هل أستمر على هذا النسق؟».
- «سأقتلك لو لم تفعل!»
هذه المجاملة جمدت الدم في عروقه.. إن العبارات على منوال «أنت جميل ويمكنني أن أكلك أكلا..» كانت مفزعة حين تقولها (آني)، إلا أنه شعر بالرضا حين لاحظ أنها تقف بعيدا كأنما تخشى الاقتراب منه.. إنها الحرارة المنبعثة من بين السطور.. لقد شعرت (آني) حتى كأنها تخشى الاقتراب أكثر لئلا تحترق...
- «هل تحبين أن تقرئي ما أكتب أولا فأولا..؟».

- «هذا يناسبني ويشوقني.. سأقرأ فصلا فصلا»
- «أريد خدمة أخرى.. هلا أكملت لي كل حروف (النون) الناقصة بالقلم؟..»
- «هذا يسعدني..»
قالتها وغادرت الغرفة..
هنا لاحظ (بول) شيئا ما..
على جانبي الباب كانت هناك علامتان سوداوان.. علامتان تركتهما جوانب الكرسي منذ ذلك اليوم الذي كانت فيه حملته الاستكشافية.. إن (آني) لم ترهما حتى الآن..
ولكن إلى متى؟.. ستراهما.. وعندئذ..

∞∞∞∞∞

صباح اليوم التالي كان جالسا في الفراش يرشف قدحا من القهوة.. وفجأة اقتحمت (آني) الحجرة وفي يدها - صدق أو لا تصدق - زوج من (الكلبشات) الحديدية، وقبل أن يفهم (بول) شيئا رفعته في الفراش فصرخ من الألم.. وسقط قدح القهوة على الأرض.. ماذا دهاها؟!..
في ثوان لوت يديه خلف ظهره وقيدتهما بالأصفاد «اخرس يا غبي.. ولا كلمة!».
قالتها وكومت طرف الملاءة ودسته في فمه..



«اخرس يا غبي.. ولا كلمة!»
قالتها وكومت طرف الملاءة ودسته في فمه..

«أحذرك يا (بول).. لو سمع صوتك أو لو سمعت أنا صوتك سأقتله ثم أقتلك ثم أقتل نفسي!»

آه!.. إذن فهناك زائر!.. سمع (بول) صوت الباب الخارجي يغلق، ومن النافذة المفتوحة رأي سيارة تقف جوار سيارة (آني)

الجيب..، ورأى رجلا مهندما في الستين من عمره يغادر السيارة.. ها هي ذي (آني) تهرع في اتجاهه.. لماذا لا تدعينه للدخول يا (آني)؟.. لماذا لا تدعينه ليرى طائرك النادر المكبل بالأصفاد في الفراش؟..

كانت تتكلم والبخار الأبيض يخرج من فيها كبالونات الكلام في القصص المصورة.. والرجل يحاول إقناعها بشيء ما.. ثم يريها أوراقا لكن (آني) تأبى النظر إليها ربما لأنها (مقرفة) أو (عك).

يا لمذاق الملاءة في فم (بول)!.. القيء يتصاعد إلى حلقه لكنه يقاومه.. الرجل يتجه في استعلاء إلى سيارته ليدير محركها، على حين تقف (آني) تصرخ وهي تهز إصبعها مهددة.. الصوت يصل بصعوبة لأذني (بول):

- «أنت تحسب نفسك نبيييييها!».

لكن الرجل تحرك بالعربة غير عابئ بثورتها.. فإذا بها تركل مصباح السيارة بعنف لتهشمه تماما.. وثورتها تتزايد.. تتزايد:

- « يا طائر الشؤم... حتى الكلاب تكون أكثر لياقة منك حين... ».

لكن الرجل كان قد ابتعد وقد آثر السلامة..!

سمع (بول) باب المطبخ يفتح ويغلق بعنف.. فقال لنفسه:

- «حسن.. لقد ذهب السيد (منقذ) بعيدا عن متناول يدها.. لكني هنا.. للأسف أنا هنا!»

∞∞∞∞∞∞∞

5 - المزيد من الاكتشافات..

حين عادت للغرفة أخذت تذهب وتجيء دون أن تنظر في اتجاهه.. مرددة في عصبية وهي تلوح بقطعة الورق التي ناولها إياها الرجل:

- «عشرة في المائة زيادة في الضرائب.. حجوزات.. محامون!.. قرف!.. قرف!».

أخذ يئن محاولا تذكيرها بالملاءة المحشورة في فمه لكنها لم تعره انتباها..

- «خمسمائة دولار يجب أن أدفعها على هذا المنزل.. ولكن كيف نسيت ذلك؟»

وفي شرود بدأت تفك وثاقه وأعادت الأصفاد إلى جيب مريولها.. كان هو يفكر.. الواقع يا (آني) أنك نسيت - ببساطة - لأن حالتك تتدهور.. يوما فيوما تعبرين الحاجز الفاصل بين الجنون القابل للعلاج والجنون المستعصي..

لم تكن تملك مالا؛ لهذا عرض أن يعيرها خمسمائة دولار في حافظته على أن تذهب للمدينة فورا لتسدد ما عليها من ضرائب، وكان يأمل بذلك في بضع ساعات من الوحدة يواصل فيها اكتشافاته..

بعد تردد أحضرت له الحافظة ليعطيها المال منذ شهور يا (بول) كنت إنسانا حرا مفعما بالحياة يدخل إلى (بنك بولدر) ليصرف شيكا بخمسمائة دولار..

كانت الموظفة التي صرفت لك الشيك فاتنة وقد رمقتها بإعجاب فبادلتك النظر.. لو أنها رأتك الآن..... لو أنها رأت الشبح الذي صرته كسيح القدمين ناحلا واهنا..!

كان يبكي.. بحرقة يبكي..

∞∞∞∞∞∞

حين رحلت (آني) كان هو مستعدا.. دبابيس الشعر التي جمعها خلسة من وراء ظهرها طيلة الأيام الماضية كما يجمع السنجاب البندق..، وحين تأكد من أنها انصرفت فعلا وليست قابعة في انتظار ضبطه وهو (يعط) (مصطلح آخر من قاموس (آني) أثرى به لغته أخيرا)؛ عندئذ بدأ يتحرك بالمقعد نحو الباب.. كانت ذراعاه قد ازدادتا قوة وهذا سيدهش (آني) لو عرفته يوما ما.. حتما ستعرف ذلك حين يخنقها...
هذه المرة لم تستغرق منه معالجة القفل الكثير من الوقت.. وانفتح الباب بسهولة.. أخرج منديلا ورقيا بدأ يعالج العلامتين السوداوين على جانبي الباب ليزيلهما..
فما إن زالت العلامتان حتى أدرك أنه لا يرغب حقيقة في التجوال هذه المرة.. ستكون هناك مرة ملائمة ولسوف يجدها حتما.. أما اليوم.. هو لا يرغبه سوى في الكتابة..
وهكذا عاد بمقعده إلى داخل الغرفة وأغلق الباب خلفه..

∞∞∞∞∞∞

إنه منتصف إبريل..
كومة الأوراق على يمين الآلة الكاتبة تتزايد..، من الغريب أنه - قبل الحادث - كان يعتبر أن أقصى إنتاج له هو أربع صفحات يوميا.. أما اليوم فهو يكتب اثنتي عشرة صفحة يوميا ولقد بلغ عدد صفحات القصة مائتين وسبعا وستين صفحة حتى اليوم.

كان السبب - كما أدرك - هو انتظام حياته وبعده عن السفاسف.. لم تعد هناك جولات على الحانات ولا شقراوات ولا سجائر.. فقط ال (نوفريل).. ولعله الآن أكثر المدمنين انتظاما في العالم.. المدمن الوحيد الذي يتعاطى المخدرات بانتظام وبالساعة!

كان يقضي الوقت في الأكل أو النوم أو القراءة، وكانت (آني) تملك المجموعة الكاملة ل (سومرست موم) فاعتاد (بول) قراءتها برغم أنه كان يظن أنه لن يقرأ أي كتاب بانبهار منذ صار أديبا هو الآخر.. لكن (موم) أغواه بقصصه المشوقة وأعاده إلى مرحلة البراءة الأولى.

سمع صوت خطوات (آني) الثقيلة على الأرض فرفع رأسه.... ثدسلاش!.. ثدسلاش! وهنا فوجئ - مذعورا ـ بأنها لا ترتدي سوى خف واحد في قدمها.. رفع رأسه أكثر فوجد أن شعرها مبعثر وعينيها زائغتان وثمة علاما حمراء على خديها وذراعيها.. كما أن بقايا الطعام كانت متناثرة على صدرها.

ودونما كلمة قذفت له بكبسولتي الـ (نوفريل) وعادت تجر قدميها.. ثدسلاش!.. ثدسلاش...

«(آني)... هل أنت على ما يرام؟».

- «لا!»

واستدارت نحوه، ودونما تغير يذكر في ملامح وجهها، رآها تعتصر شفتها السفلى بين أصبعيها الإبهام والسبابة.. في غل لوتها.. شدتها، وإذا بالدم يسيل على ذقنها وانصرفت دونما كلمة تاركة (بول) يحاول إقناع نفسه بأنه حقا رأى ما رأى! ومن وراء الباب الموصد سمع صوتا..

صوت صفعات.. بالتأكيد!.. إن (آني) جالسة وحدها في الصالة تصفع نفسها!

وهنا تذكر حقيقة عرفها من الأطباء النفسيين الذين استشارهم يوما ما في شأن إحدى قصصه.. حين تنزلق الشخصية الانبساطية الاكتئابية إلى ظلمات مرحلة اكتئاب؛ فإنها تعاقب نفسها في صورة صفعات.. لدغات.. حروق بالسيجارة تحدثها في جسدها الخاص..
كان هذا هو الحال مع (آني) في هذه اللحظة.

∞∞∞∞∞

حين فتح عينيه - بعد غفوة قصيرة - وجدها واقفة جوار فراشه.. كانت تمسك كوب ماء وباليد الأخرى تمسك فأرا ميتا رمادي اللون.. هذا ليس كابوسا.. إنه يوم آخر يمضيه في بيت المفاجآت مع (آني)..! نظر لوجهها فأدرك أن حالتها قد ازدادت سوءا عن الصباح أدرك أنه يراها الآن دون أقنعة.. وأن هذه هي (آني) الحقيقية.. (آني) الكامنة تحت الجلد..، وجهها الخالي من التعبير يتدلى كقطعة من العجين، وتنورتها مقلوبة، وعلى وجهها مزيد من الكدمات وعلى ثوبها مزيد من بقايا الطعام.
في تؤدة رفعت جثة الفأر وهمست:
- «إنها تأتي إلى المخزن حين تمطر السماء.. لكنها تقع في المصيدة التي أعددتها لها...»
ونظرت للفأر وسالت دمعة على خدها:
- «يا لها من مخلوقات بائسة.. بائسة.. وكلنا مثلها.. كلنا فئران تعسة حبيسة في مصيدة لكنها تحسب أنها ترغب في الحياة..»
وضغطت على جثة الفأر ثم ألقتها في ركن الغرفة ومسحت يدها في الملاءة..، ثم نظرت ل (بول) في ترغيب:

- «إنه ينعم بالسلام الآن.. سأحضر بندقيتي يا (بول) فلربما كان العالم الآخر أفضل للناس والفئران سواء!»..
لم يعد يشعر بفمه.. احتبست الكلمات.. إنه لم يرها في هذه الحال قط.. بل لم ير أحدا في حال كهذه من قبل.. لكنه فهم أن هذه أبشع حالات الانحطاط المعنوي التي يبدأ بعدها المصابون في الاكتئاب في قتل المحيطين بهم..، الاكتئاب وحده يجعل الناس ينتحرون.. فإذا خالطه الجنون بدأ المريض يحاول أن يخدم الآخرين ويأخذهم معه.....
إنني لم أكن في حياتي أقرب إلى الموت من هذه اللحظات.. لأن اللعينة تعني كل حرف من كلامها.. يجب أن أقول شيئا
- «(آني).. دعيني أنته من.. كتابة (ميزري).. إنني أوافقك في أن الدنيا قاسية بما يكفي وأن بها ألما كثيرا.. ثم.. الأمطار.. لكم تضايقني الأمطار.. لكني.. أريد أن أرى كيف سينتهي الكتاب.. لن أموت مرتاحا مالم..»
تنهدت مفكرة:
«حسن.. ربما كان ذلك صوابا.. إن كتابك هو الشيء الوحيد الباقي لي في العالم لأتطلع إليه..، لكنك لست أحمق يا (بول).. أنت تعرف جيدا أنك لن تخرج من هنا حيا..... سواء كان ذلك الآن أو بعد انتهاء الكتاب..، أعرف أنك تفكر في الهروب لكنك لن تستطيع!..».
ثم إنها نهضت معلنة أنها ذاهبة إلى مكان خاص بها تعتكف به من حين لآخر.. وجواره وضعت كمية كبيرة من ال (نوفريل) لتسد حاجته في أثناء غيابها:
«خذ كبسولتين كل ست ساعات أو ست كبسولات كل أربع ساعات أو خذ كل الكبسولات الآن..... لا فارق..»..

أراد أن يسألها عما سيأكله، ثم عدل عن ذلك خشية أن يثير لديها فكرة البقاء معه.. كان يريد أن تنصرف لأن وجودها أشبه بوجود ملك الموت..
ظل راقدا في الفراش يصغي لصوت حركاتها متوقعا في كل لحظة أن تغير رأيها.. وتقتحم الحجرة حاملة البندقية، حتى حين سمع الباب الخارجي يغلق لم يطمئن.
فلربما كانت تخبئ البندقية في سيارتها ال (شيروكي)..
أخيرا هدر محرك السيارة.. وسمعها تتحرك.. ثم تبتعد..
نظر إلى جثة الفأر المكومة في ركن الغرفة.. وصاح:
- «من زعم أنها لم تترك لي شيئا يؤكل!».
وانفجر يضحك في هستيريا.. يضحك، يضحك..

∞∞∞∞∞

بعد ساعة فتح (بول) باب الحجرة وخرج منه (للمرة الأخيرة كما تمنى).. هذه المرة كان مصمما على الفرار..
سيكون الطريق غارقا في الوحل والظلام دامسا والأمطار غزيرة لكنه لا يعبأ بهذا كله.. إنها فرصته الأخيرة..
خرج إلى الصالة.. الصالة التي كانت نظيفة في المرة السابقة لكنها الآن مفعمة بالأطباق المتسخة ملقاة في كل مكان.. وكلها بها بقايا حلوى.. أيس كريم.. قشدة..

∞∞∞∞∞

- «تنفس عليك اللعنة.. تنفس..!»

∞∞∞∞∞

تذكر على الفور رائحة أنفاسها المشبعة بالحلوى إذا كانت تحاول إفاقته من غيبوبته، كانت هناك - كذلك - زجاجات مياه غازية فارغة واضح أنها كانت تجرع منها بيد ملوثة بالكريمة، وكانت بقع الآيس كريم متساقطة على السجادة في كل مكان.. وعلى المائدة كان هناك كتاب سميك مكتوب على غلافه (شارع الذكريات).. اتجه إلى باب المطبخ أملا في أن يكون قابلا للفتح.. لكن لا.. كان الباب موصدا بثلاثة أقفال من أجود الأنواع التي لا يمكن فتحها.. وبالطبع كانت المفاتيح في جيب (آني) في مكان اعتكافها..

لم يكن باب المنزل الرئيسي أفضل حالا.. وفي أعماق (بول) بدأ الهلع يتزايد.. ماذا ستفعل بحق السماء؟.. إنها فرصتك الأخيرة.. كيف ستخرج من هنا؟

مذاق الدموع المالح يملا فاه والموجودات تزدوج ولكن.. تعقل!.. اهدأ قليلا لتتمكن من التفكير يا أحمق!...

لن تموت قبل أن تعرف معجبتك رقم (1) مدى سعادتك بلقائها.. ليس هذا وعدا بل هو قسم مقدس..

ما هي فرصته لو استطاع الخروج؟.. وسط الأمطار والأوحال يجر مقعده إلى الطريق ثم ينتظر مرور سيارة قد لا تمر أبدا

لا شعوريا بدا يبحث في المطبخ عن مأكولات يمكنه أخذها ولا تثير شكوكها.. ثم أدرك في مرارة معنى هذا:

إن عقله الباطن قد نبذ فكرة الفرار.. قال لنفسه إنه نبذها مؤقتا.. بل للأبد! هكذا ردت نفسه في سخرية.. لن أيأس

أبدا.. هل تسمعين؟.. لن أيأس...

كان المطبخ مليئا بالمأكولات كأنه سوبر ماركت صغير وإن كان تنسيق أصناف الطعام يوحي بشيء ما.. كأنه خط الحدود بين

(ولاية الواقع المستقلة) و (جمهورية بارانويا الشعبية).. ولكن.. ليس الوقت مناسبا للتأمل هلم إلى الطعام.. هناك بعض علب السردين في كل علبة مفتاحها..، كذلك هناك علب بولوبيف وأكياس من البطاطس المحمرة..

لا يجب أن ينسى شيئا لأن الحقيقة التي يجب أن يذكرها هي أنه يجازف بحياته في كل مرة يفارق حجرته فيها اتجه بالمقعد إلى الصالة..

فشد انتباهه الكتاب السميك المعنون (شارع الذكريات) على المنضدة.. فتح الكتاب بحذر فوجد في الصفحة الأولى قصاصة من جريدة تمثل صورة زفاف.. بتاريخ ١٩٣٨ والعروس تشابه صورة المرحومة أم (آني) بشدة..، واسمها - كما ورد بالخبر - هو (كريسلدا بيريمان).. اسم مناسب تماما لقصص (ميزري).



واتجها إلى الماء، وغسلا وجهيهما في الماء البارد..
كان الجرح في ذراعها، من أثر احتكاك الرصاصة به..

في الصفحة الثانية كانت قصاصة جريدة بتاريخ1 أبريل ١٩٩٣ تهنئ الزوجين بميلاد طفلتهما (آني ويلكز)..

أي أن (آني) في الرابعة والأربعين من العمر، ولم يفته أن يلاحظ أنها مولودة مع كذبة (ابريل)..
كانت الريح تعصف بالخارج.. وقطرات المطر تصطدم بزجاج النافذة.. وكان (بول) مفتونا غارقا في (شارع الذكريات)..
الصفحة الثالثة كانت تظهر قصاصة جريدة.. في أعلاها صورة لرجل مطافئ على سلم يحاول إطفاء حريق، والخبر يقول:

خمسة يموتون في حريق منزل

لقي خمسة أشخاص - أربعة منهم من أسرة واحدة - مصرعهم في حريق مروع صباح الأربعاء في شارع (واتش هيل)، منهم ثلاثة أطفال تتراوح أعمارهم بين الثالثة والثامنة ومعهم أبوهم. ويعتقد أن الحريق بدأ من شقة في الطابق الثالث كان ساكنها (كارل ويلكز) وأسرته قد غادروها منذ أيام بسبب تصدعات في جدرانها، وتقول السيدة (كريسندا ويلكز) زوجته إنها حزينة على مصرع جيرانها لكن تحمد الله على نجاة أسرتها
هي وطفليها. ويعتقد رجال الشرطة أن سبب الحريق هو تسلل سكير إلى الشقة حيث تسبب في إشعال النار بعقب سيجارة.
أكتوبر-1954)

شعر (بول) بأمعائه تتقلص.. لماذا احتفظت (آني) بالخبر؟.. لقد كانت مجرد طفلة في الحادية عشرة من عمرها.. ولكن.. لا يمكن أن..
في الصفحة الرابعة وجد (بول) خبزا آخر بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٩٢
طالبة تمريض تلقي مصرعها في حادث

توفيت أمس (أندريا سانت جيمس) طالبة التمريض إثر نقلها إلى مستشفى (المواساة) في (لوس أنجلز).. وتقول زميلتها في المسكن طالبة التمريض (آن ويلكز) إنها في الحادية عشرة مساء سمعت صرخة فهرعت من غرفتها لتجد الآنسة (أندريا) وقد سقطت من على درجات السلم ولقيت مصرعها. وقد اتضح لها أنها تعثرت في جثة قطها الأليف المكومة عند أعلى درجة من السلم. وقد عجزت مس (ويلكز) عن تفسير سبب موت القط.

- «يا للسماء!»
همس (بول) في سره وارتجفت يداه.. لكنه واصل تقليب الصفحات.. الأمر واضح تماما.. أنت يا (آني) سمعت القط ووضعت جثته في موضعها عالمة بأن (أندريا) ستهبط الدرجات في الظلام.. وستتعثر..
إنها جريمة كاملة يا (آنى) ولكن لماذا؟..
كان قد عود جزءا من عقله على أن يفكر ويتكلم مثل (آني).. لهذا سأل هذا الجزء فشرع يجيب بالإجابات المتوقعة من (آني)..
- «قتلتها لأنها ترفع صوت المذياع ليلا..»
- «قتلتها بسبب الاسم السخيف الذي أسمت به القط»
- «قتلتها لأنني أدركت أنها تغش في اللعب».
- «قتلتها لأنها طائر شؤم و (مقرفة) وتحب (العك).. وهذا سبب كافي جدا في رأيي»
أضاف (بول) إلى الإجابات:
«أو ربما لأنها تعط) كثيرا..»
وانفجر في ضحكة عصبية هستيرية.. أية زهور مسمومة زرعتها (آني) على جوانب شارع الذكريات هذا..

لقد كانت بارعة حقا.. وحتما ستدفع ثمن جرائمها، لكن هذا لن يعزيه في شيء إذا ما كان قتل (بول شيلدون) هو آخر جريمة لها..
بعد هذا نجد صورة تخرج (آني) كممرضة مؤهلة بتاريخ 1966..
في الصفحة التالية وجد نعيا لرجل اسمه (ارنست جوينار) في الثانية والسبعين من العمر توفي في مارس 1969..، ما علاقة هذا ب (آني)؟.. ولكن. ألا تفهم يا (بول)؟.. هي قتلته... هذا هو المبرر الوحيد لوجود نعيه في هذا الكتاب.. أليس هذا هو سجل قتلى (آني)؟!..
وفي الصفحة التالية وجد نعي سيدة اسمها (هستر بوليفان) توفيت في مارس 1969 أيضا.. وفي نفس المستشفى.. مستشفى (سان جوزيف)..
مزيد من الصور في الصفحات التالية.. وكلها لأشخاص ماتوا في نفس المكان (بعد صراع طويل مع المرض)..
لقد فهمت.. لا داعي للمزيد.. هذا الكتاب سميك حقا.. سأتركه حيث وجدته وأدخل إلى غرفة النوم وأخذ كبسولتين وأنعم بنوم هادئ.. أرجوك دع الكتاب.. دعة!
لكن يديه كانتا تتصرفان وكأن لهما عقلا وإرادة خاصين بهما..، لم تصغيا لتوسلاته وواصلتا تقليب الصفحات..
صورة لالتحاق ممرضة جديدة - هي (آني) طبعا بمستشفى (ريفرفيو).. وبعدها بدأت الوفيات تنهمر على المستشفى البائس.. وكلهم ماتوا بعد هذا الصراع الطويل مع المرض) حتى كأنه وباء..
حسن.. لقد قتلت زميلة غرفتها لأنها (مقرفة) ولكن ماذا عن هؤلاء؟.. كان الجزء الخاص ب (آني) في عقله يعرف الإجابة..

هي قتلتهم لأنهم مرضى وطاعنون في السن.. مجرد فئران في مصيدة تحسب أنها ترغب في الحياة.....

∞∞∞∞∞

«يا لها من مخلوقات بائسة.. بائسة..!».

∞∞∞∞∞

في الصفحات التالية تحركت (آني) من (هارسبورج) إلى (بتسبورج) إلى (دولوث) إلى (فارجو) إلى (دنفر)، وفي كل مرة يتكرر السيناريو.. تهنئة بانضمامها إلى هيئة التمريض، ثم عدة صفحات نعي لأشخاص كان عندهم موعد في (سمارة) ([3]).. ثم.. هل هذا هو صوت سيارة..؟ كلا.. بل هي الريح.. بالتأكيد الريح..

العام ١٩٩٢ تهنئة ل (آني) بمناسبة تسلمها لوظيفة رئيسة تمريض لحضانة أطفال.. ثم بدأت وفيات الأطفال تنهمر.. من الواضح أنها بدأت تراهم (مخلوقات بائسة.. بائسة).. لكن هذا الوضع لا يمكن أن يمر بسهولة.. كانت في البداية تقتل الشيوخ الذين لا تثير وفاتهم الريبة.. أما الآن..

التحقيق مع رئيسة تمريض في حوادث وفاة الأطفال حديثي الولادة

مصدر بالشرطة: نحن لم نوجه أية تهمة بعد

يتم الآن استجواب (آني ويلكز) رئيسة التمريض في مستشفى (بولدر) (٣٩ سنة) في وفاة ثمانية من الأطفال حديثي الولادة في غضون شهور، والجدير بالذكر أن جميع الوفيات تمت في

ساعات ورديتها، وقد صرح مصدر بالشرطة بأن التحقيقات جارية لكنهم لم يوجهوا لها أية تهمة حتى الآن.

بعد هذا جاءت عدة صفحات تحوي أخبار التحقيق معها.. ثم قصاصات تحوي رسائل القراء وكلها تجمع على أن (آني ويلكز) يجب أن تشنق وأن تجلد بسوط مشتعل.. بل إن الاسم الذي ألصقوه بها كان هو (المرأة التنين).. كلها أسباب كافية جدا لأن تعتبر (آني) الجنس البشري كله جنسا من الفئران..
كانت هناك أنباء عن المحاكمة لكن لم تكن هناك أدلة معينة سوى ثرثرة (آني) في محاولتها الدفاع عن نفسها.. كانت ترتكب أغلاطا قاتلة حتى لتكاد تعترف، ولا بد أن محاميها كان على وشك إطلاق الرصاص عليها ليخرسها...
ثم في 16 ديسمبر عام ١٩٨٣ تتصدر الجريدة العناوين التالية:

المرأة التنين بريئة!

أصدرت المحكمة أمس حكمها ببراءة (آني ويلكز) من تهمة قتل الأطفال الموجهة إليها، وقد صرح أحد المحلفين الذي طلب عدم ذكر اسمه أنه يشك كثيرا في براءتها إلا أنه كذلك لا يملك أدلة تدينها، وقال إنه يأمل في إعادة محاكمتها على أن يقوى الادعاء جانبه في هذه المرة.

لقد فرت من بين أصابعهم!.. كلهم عرفوا أنها مذنبة لكنهم لم يستطيعوا إثبات ذلك.. على كل حال لقد أوشك الملف على الانتهاء وهنا فوجئ بصورته على الصفحة الأخيرة!.. خيل إليه للحظة أن هذا هو نعيه ثم بدأ يفطن إلى أنه لم يمت بعد.. على الأقل حتى الآن:

كان الخبر مقصوصا من جريدة (نيوزويك).. يقول:
مفقود: (بول شيلدون) 42 سنة.. كاتب قصصي اشتهر بسلسلته التي لا تنتهي كفقاقيع الصابون: (ميزري). يبحث عنه وكيل أعماله وزوجتاه السابقتان، شوهد آخر مرة في (بولدر) بولاية (كلورادو) حيث ذهب لكتابة عمل جديد

بعد أن فرغ (بول) من القراءة؛ أحس بحاجة ماسة ليس للدواء فحسب بل للرحيل بعيدا عن كل شيء.. كان كل جزء في جسده وروحه يتألم.. وفي تثاقل أعاد الكتاب لموضعه وبدأ يحرك المقعد إلى غرفة النوم مصغيا لهزيم الرعد وصوت الأمطار.
لن تهرب يا (بول) ولن ينقذك أحد.. إن الفارس المقنع مشغول الآن في الإعلانات التليفزيونية و (سوبرمان) يمثل أفلاما سينمائية.. أنت وحيد يا (بول).. بلا سند ولا صديق.. لو أنك أردت الفرار من هنا فلا مفر من قتل (آني)!.. لا حل آخر... وهأنتذا تعود إلى اللعبة القديمة:
هل تستطيع؟..
نعم.. نعم.. أستطيع...

∞∞∞∞∞

ظلت العاصفة مستمرة طيلة اليوم التالي..
تجمد العالم الخارجي تماما.. وكانت الخنزيرة (ميزري) تصرخ والأبقار تخور في الحظيرة.. لم يحتج أن يكون فلاحا ليعرف السبب.. الأبقار انتفخت ضروعها وتريد أن تحلب.. أما الخنزيرة فتتضور جوعا..

لا أمل لهذه الحيوانات العجماء اليوم.. ف (آني) لن تستطيع العودة في هذه العاصفة حتى لو أرادت.. شعر بحقد عاتٍ على (آني) التي تعذب بأنانيتها هذه الأكباد الرطبة..
أما عنه هو فقد كان يعيش أسعد أيامه.. يأكل السردين ويشرب الماء ويتناول الدواء ويكمل قصة (ميزري) التي – لدهشته - بدأت تسفر عن أفضل ما كتبه في حياته..
كانت (ميزري) - بعد شفائها - توشك على السفر إلى إفريقيا) مع (إيان) إلى حيث توجد قبيلة متوحشة اسمها (البوركاس) أو (قبيلة النحل).. وهم يعبدون صنما عملاقا يسمونه ملكة النحل تحوم حوله ملايين من الحشرات - النحل الأبيض - تلدغ من يدنو من ملكتها بسم زعاف.. وبالطبع لم يعد أحد حيا من هذا المكان كما هي العادة.. وحين يفرغ من الكتابة كان يضع الخطط التي يقتل بها المرأة التنين.. يستطيع مثلا أن يدس لها عدة كبسولات (نوفريل) في علبة من الآيس كريم وما إن تتناوله حتى تغيب عن الوعي.. ولكن لا.. إن ال (نوفريل) مر المذاق.. وستتعرف طعمه حتما عندئذ.. الويل لك يا (بول)!.. الويل لك..
فكر كذلك في وضع جسم ثقيل - كالآلة الكاتبة – على الباب من أعلى ليهوي فوق رأس (آني) عندما تدخل، أو في مد سلك رفيع عبر درجات السلم لتتعثر فيه.. لكنه في كل مرة لم يكن واثقا بأنه سينجح.. وهو لا يجرؤ على التفكير فيما يمكن أن يحدث له بعد فشله في محاولة اغتيالها..
وهكذا أغمض عينيه وغرق في عالم النعاس..
غرق فيه إلى حد أنه لم يدر متى عادت السيارة الشيروكي حاملة (آني)، كان ذلك في الرابعة صباحا.. ولم يدر أنها دخلت الغرفة ووقفت تتأمله.. لم يدر سوى بوخزة الإبرة حين غرستها في ذراعه



واتجها إلى الماء، وغسلا وجهيهما في الماء البارد..
كان الجرح في ذراعها، من أثر احتكاك الرصاصة به..

∞∞∞∞∞

6- العقاب..

في البدء حسب أنه يحلم بعوالم قصته.. وأن الظلام هو ظلام الكهوف التي يعيش فيها الـ (بوركاس).. وأن الوخزة هي لدغة نحلة..

- «(بول)؟».

عندئذ فهم أن هذا هو صوت (آني) نفسها.. ففتح عينيه.. كان عاجزا عن استجماع تفكيره.. واقفة جواره ترتدي السويتر الصوفي حاملة محقنا.. لقد حقنه الصنم.. ولكن بماذا؟..

حاول أن يرفع ذراعيه دون جدوى.. كأن هناك أثقالا تتدلى منهما.. لا يهم أن تعرف ما حقنتك به.. أنه نوع من كلمة (النهاية) التي تختم بها قصصك.. لم يشعر بذعر من أي نوع.. لقد فعلتها أخيرا..

سمع (آني) تهتف:

- «عيناك الزرقاوان يا (بول).. ما أجملهما!.. أظن أن نساء كثيرات قلن لك ذات الشيء.. نساء أكثر جمالا مني.. وأكثر جرأة!».

وجلست على طرف الفراش ترمقه وتبتسم..

آه يا (بول)!.. إنها نهاية آلامك.. كل حياتك كانت تمهيدا لهذه اللحظة.. والآن سيثقل جفناك وتغوص في غيبوبة عميقة.. علبة ثقاب.. سيارات سريعة.. (ميزري).. ملكة النحل..

سألت (آني):

- «والآن يا (بول).. هل تريد الأخبار الطيبة أم السيئة أولا؟»

«الأنباء الطيبة أولا.. للأسف أعتقد يا (آني) أنك لم تحبي الكتاب..»

- «بالعكس.. أنا لا أكذب أبذا وقد قلت لك إنني أهيم به.. وسأنتظر نهايته في شوق..».
كان الجزء الأخير الباقي حيا في عقله يفكر.. معنى هذا أنها لن تقتلك الآن كما تصورت.. وإذا كان فهمك لـ (آني) سليما فإن هذا يعني أنها أعدت لك مفاجأة أسوأ من الموت!...
قالت (آني) مبتسمة
- «الأخبار الطيبة هي أن سيارتك قد ذهبت.. كنت قلقة بشأنها وكيف أتخلص منها.. وكنت انتظر عاصفة كهذه كي أحاول إخفاءها.. لكن العاصفة كانت أشد من توقعاتي.. وحدث انهيار جليدي أخفى كل أثر لها.. لقد اختفت سيارتك تماما وهذا هو النبأ الطيب!».
4

وابتسمت ابتسامة أكثر قسوة وأردفت:
«أنت تعرف من مذكراتي أنني لم أحاول إخفاء جثة ولا سيارة من قبل... لا تتظاهر بالسذاجة يا (بول).. أنت قرأت (شارع الذكريات).. ومن يدري؟.. أظن أنني كنت أتمنى ذلك.. وقد أدركت أنك قرأته حين وجدت الخيوط ممزقة!»
همس في أعياء:
«خيوط؟!»
- «نعم.. الحيلة القديمة.. إذا أردت أن تعرف ما إذا كان هناك من يعبث بأدراجك فعليك أن تثبت خيطا رفيعا على كل درج فإذا ما وجدت الخيط مقطوعا اتضح الأمر.. وقد فعلت نفس الشيء مع كتابي مستعملة شعيرات دقيقة من رأسي ثبتتها في ثلاثة مواضع، وحين عدت فجر اليوم زحفت كفأر صغير لأرى.. فوجدت الخيوط كلها ممزقة..»..

وابتسمت ابتسامة مظفرة بها شيء ما لم يرتح إليه.. وأردفت:
- «لم أندهش لأنني أعرف جيدا أنك تغادر الحجرة.. أعرف هذا منذ زمن بعيد.. بعيد!».
لم يثر كلامها اهتمامه.. بل إنه لم يعد يشعر بذرة قلق.. كل ما يريده هو أن يذوب في ضوء النهار الصافي الذي بدأ يغمر الحجرة.. لقد كانت تعرف كل شيء من البداية..
- «كانت المرة الأولى عندما تركتك حانقة لأحضر الأوراق.. أليس كذلك؟».
- «بلى يا (آني)..»
لم تكن هناك فائدة من الإنكار..
- «كنت تريد الدواء.. وكان ينبغي أن أخمن أنك ستفعل أي شيء من أجله.. لم أكن واثقة في البداية.. خيل الى أن هناك أشياء تغير موضعها على المنضدة في قاعة الجلوس.. ثم قلت لنفسي إن هذا مستحيل.. فأنت مصاب والباب موصد بعناية إذن لابد أنني من فعل هذا ونسيت..، إلا أنني دخلت الحمام المجاور لغرفتك لأعيد تأمل عينات الدواء التي اختلستها من المستشفيات حينما كنت ممرضة، فما إن رأيتها حتى أدركت أن محتوياتها تحركت من أماكنها.. وعندما حاولت فتح باب حجرتك خيل إلى أن شيئا يعوق حركة لسان القفل من الداخل.. لهذا – في المساء - أعطيتك منوما قويا.. وأحضرت مفكا فككت به القفل فوجدت به هذا..»
كان الجزء الملتوي من دبوس الشعر على كفها.. الدبوس الذي تحطم داخل القفل وعجز (بول) عن إخراجه..
انفجر (بول) يقهقه في هستيريا..
كل هذا الحذر.. والقلق.. والتوتر من أجل لا شيء..
شيء مضحك!...

∞∞∞∞∞∞

- «كم مرة غادرت فيها الحجرة يا (بول)؟»
- «مرتين.. لا.. بل ثلاثا.. أمس غادرت الحجرة لأملأ دورق الماء من المطبخ..».
- «قل الحقيقة يا (بول)..
- «ثلاثا وأقسم على هذا ولم أحاول الهرب قط.. إنني أرغب حقا في إتمام الكتاب».
كان صادقا بخصوص عدد المرات.. لكنه - في المرة الثالثة - لم يذهب للمطبخ بغرض ملء دورق الماء.. بل لإحضار سكين كبير يخفيه تحت المرتبة منتظرا اللحظة الملائمة التي تنحني فيها على فراشه كي..
- «وتحاول إقناعي بأنك لم تجرب الهاتف ولم تتفحص الأقفال لأنك ولد طيب بريء.. هه؟»..
كانت أمواج المخدر تتزايد.. وإرادته تتخلى عنه.. من الواضح أنه سيقول الحقيقة مرغما.. فقط لتتركه ينعس قليلا..
- «أنت تحسبني حمقاء يا طائر الشؤم..!»
لم تكن هناك مسام في جلدها اللامع.. كأنه غطاء من شمع مشدود فوق صخرة.. أقسم لك يا (آني) - يا صنم ال (بوركاس) - إنني صادق..
- «كل الكذابين يحبون أن يقسموا!.. استمر في كذبك.. دعني أصارحك يا أبله بأنني شددت خيوطا في كل مكان من المنزل.. وقد وجدتها كلها ممزقة!.. في الصالة.. في غرفة نومي بالطابق العلوي.. في الحديقة.. كلها!»

كيف تتصور هذه المرأة أنك قادر على الصعود للطابق العلوي أو الخروج للحديقة؟.. إنها مخبولة تماما.. حالة (بارانويا) متقدمة..

- «إنني لست عمياء.. إن قدميك تتحسنان.. وبإمكانك الآن أن تمشي أو على أقل تقدير تزحف.. قل لي كم مرة؟!»

- «أول مرة للحصول على (نوفريل).، والثانية من أجل الطعام..؟»..

- «نعم..»

- «والثالثة لتملأ دورق الماء..؟»

ثم إنها مدت يدها إلى جيب مريولها وأخرجت السكين!..

كان النصل يلتمع في ضوء النهار بوضوح تام..

- «لقد بحثت تحت المرتبة بعناية قبل أن أعطيك حقنة التحضير.. ففوجئت بالسكين!.. ستزعم طبعا أنك لم تضعه هناك»

كان ذهنه يدور ويحلق كأرجوحة محطمة.. حقنة تحضير؟.. لماذا؟!

- «ستزعم لي أنك خرجت مرة من أجل الدواء ومرة من أجل الطعام ومرة من أجل الماء.. أما هذه السكين فطارت إلى هنا وأخفت نفسها!..».

حقنة تحضير؟.. يا إلهي.. هل هذا ما قالته؟...

صرخ في هستيريا:

- «ليكن! إذا أردت أن أعترف بمغادرتي الغرفة خمس مرات فليكن.. خرجت خمس مرات.. إذا أردت عشرين.. مائة.. فليكن!»

ردت عليه في هدوء:

- «إنك عنيد يا (بول).. لكن دعني أقل لك إن المبدأ لا يتغير سواء خرجت مرة أو مرتين أو ثلاثا.. وكذلك الاستجابة لا تتغير..»
كان صوتها يأتيه من بعيد.. من فوق السحب.. وفي داخله أيقن أنها صنم ال (بوركاس) يتحدث إليه من وراء الطبيعة..
- «هل سمعت عن الأيام الخوالي في مناجم الماس بـ (كيمبرلي) يا (بول)؟».
- «أحيانا كان بعض العمال يسرقون الماس ويحاولون الفرار، وهل تعلم كيف كانت السلطات البريطانية تتصرف إذا ما ألقت القبض عليهم؟»
قال وعيناه مغلقتان:
«تقتلهم على ما أظن؟»
- «كلا!.. هذا يشبه تحطيم سيارة غالية لأن بها يايا مكسورا.. كانوا يحاولون المحافظة على قدرتهم الإنتاجية وفي نفس الوقت يحاولون منعهم من الهرب مرة أخرى... وهذا هو ما أنوي عمله معك يا (بول).. هذا لمصلحتك ومصلحتي على السواء.. مجرد ألم بسيط ثم ينتهي كل شيء!».
مدت يدها تخرج شيئا من تحت الفراش... كان هذا الشيء فأسًا..

∞∞∞∞∞∞

هز (بول) الآلة الكاتبة في عصبية فتدحرجت منها قطعة معدنية صغيرة على اللوح الخشبي.. كان هذا هو الحرف (ت)..
فكر في ضيق: يجب أن أشتكي للإدارة!.. لم لا تشترى لى هذه المرأة آلة كاتبة جديدة؟!.. أنا واثق أن لديها المال.. لقد فقدت

حرف (ت) يا إلهي.. ثاني الحروف أهمية في اللغة الإنجليزية!...
لكنه - في أعماقه - كان يعرف أنه لن يجرؤ على طلب شيء من (آني).، كان هناك في الماضي السحيق رجل يدعى (بول شيلدون).. هذا الرجل كان يملك الجرأة على المحاولة.. على تحدي (آني)..
لقد ولى هذا الرجل بعيدا.. كانت له مزيتان هامتان يتفوق بهما على (بول) الحالي.. كانت له قدمان.. وكان له في يديه إبهامان..!
عُد للعمل يا صديقي..
لا تحاول استفزازها
كان النحل يئزّ خارج النافذة.. فهذا هو أول أيام الصيف..

∞∞∞∞∞

لماذا لم يستطع نسيان ما حدث له؟
كان يعرف دائما أن ضحايا حوادث السيارات يرددون دوما عبارة واحدة: أذكر أنني كنت في السيارة ثم وجدت نفسي في المستشفى.. كل ما عدا ذلك قد انمحي من ذاكرتي تماما..
إذن.. لماذا لا ينسى هو؟..
لأنه كاتب.. والكتاب لا ينسون شيئا.. «الأدب هو خلود الذكريات».. ترى من قائل هذه العبارة؟.. ربما (فوكنر) أو (زاس).. لا يهم..
فقط.. غُصْ في السحابة.. غُصْ..
يومها - في الكلية - اتصلت به أمه في الثالثة صباحا لتصرخ: تعال بأسرع ما تستطيع يا (بول).. إن أباك قد أصيب بنوبة.. إنه يغوص... يذكر رحلته الملهوفة في الشوارع بسيارته الفورد ليجد أباه قد كف عن الغوص لقد غرق في بحر الذين لا يعودون..

غص في السحابة.. غص.. أصوات طبول قبائل الـ (بوركاس) وأزيز النحل والصنم الذي يرمق الجميع بعين حازمة.. (آني) تشبه الصنم..
كانت تعنى به بسخاء.. وتبدل الضمادات حول أطرافه المبتورة كل ثماني ساعات.. ولم يكن يعرف أنه اقترب كثيرا من الموت في الأيام الأولى من (الجراحة).. وأن (آني) كانت مذعورة بحق..
كانت قد قرأت الثلاثمائة صفحة التي كتبها قبل الجراحة.. وبيد ثابتة استكملت له كل حروف الـ (ن) الناقصة.. كأنها تقول له: كيف تتهمني بالقسوة يا (بول) في حين ترى أنني كتبت لك كل حروف النون الناقصة؟!
من العجيب أنه - في أسوأ لحظات المرض - ظل يتوق إلى النهوض لاستكمال القصة.. كان يجن كي يعرف ما ستنتهي إليه الأحداث..
ظلت في ذهنه صورة المشهد الأخير من القصة.. (ميزري) مقيدة إلى شجرة تحتشد على جسدها ملايين مؤلفة من النحل، في حين يقف (أيان) عاجزا عن التصرف.. لا يمكن أن يحدث صخبا وإلا لدغها النحل..، طبول الـ (بوركا) تدق بنغم رتيب.. وهو يعرف جيدا أنه حين تكف الطبول عن الدق سيلدغ النحل (ميزري)..
وهنا تصمت الطبول..
كان راغبا في معرفة النهاية.
وكذا كانت (آني)..
إنه يلعب دور (شهرزاد) لكليهما، عالما أن قصته هي الشيء الوحيد الذي يمنعها من قتله وقتل نفسها...
وفي ذلك اليوم كان غارقا في دوامة آلامه وأفكاره حتى أنه لم ير الشيء الذي توقف في الفناء الخلفي قرب سيارة (آني)..

وحين رآه فكر في البداية أنه شبح أو سراب..
كان ذلك الشيء سيارة شرطة..

∞∞∞∞∞

اصرخ عليك اللعنة!.. اصرخ!..
حاول أن يفتح فاه لكن الذعر كان أقوى منه حاول أن يرفع يديه لكنه لم يجرؤ حتى لا تغضب ماما (أني) منه..
كانت كل سيطرته على مصيره هي صوت أنين من بين شفتيه وبضع ضربات خرقاء على جانبي الآلة الكاتبة..
لم تستمر المعاناة سوى خمس ثوان لكنها بالنسبة لـ (بول) استمرت دهورا.. كان خلاصه هناك.. في ضوء النهار، وكل ما عليه هو أن يهشم الزجاج ويحطم القفل الذي وضعته الشيطانة على لسانه.. ويصرخ:
- «الغوث!.. أغثني من (آني)!.. أغثني من الصنم!»..
لكن - في ذات الوقت - كان صوت اخر يردد داخله:
«سأكون ولذا طيبا يا (آني).. لن أصرخ.. سأكون طيبا.. فقط لا تقطعي جزءا اخر من جسدي!».
لم يدر قبل الآن إلى أية درجة استطاعت (آني) أن تدمر شجاعته وشخصيته.. كان يعرف أنه يموت ببطء ولم يثر هذا قلقه.. ما أثار قلقه هو إدراكه أنه (يبهت) كذلك ببطء يفقد كل سماته المميزة وكل لون له..
كان الشرطي يغلق باب سيارته ويهندم قبعته.. شاب في الثانية والعشرين من عمره يرتدي منظارا أسود براقا، ثم إنه توقف ليسوي تجاعيد زيه الخاكي اللون..
لن تصرخ يا (بول).. بل أصرخ.. كلا.. لا تصرخ... اصرخ!...

لا.. هذا الشرطي الطفل لا يقدر على مواجهة صنم الـ(بوركاس).. مستحيل.. هو ذا الشرطي يرنو للبيت.
لم يكن (بول) قادرا على رؤية عينية خلف المنظار الأسود لكنه أدرك من الطريقة التي أمال بها رأسه أنه مندهش إلى حد ما.. هو ذا يقترب.. يتصلب..
مد (بول) يده إلى مطفأة سجائر ثقيلة موضوعة جوار الآلة الكاتبة كان يضع فيها دبابيس الورق.. أمسكها وقذف بها نحو النافذة.. تهشم الزجاج.. صوته العالي بدا ل (بول) وكان العالم كله يتهشم..



رفع يده اليسرى، وترك السكين يسقط في كمه الواسع، ويستقر عند ضلوعه، وتظاهر بشد الحزام..

- «الغوث!.. هلم هاهنا!.. احترس من المرأة!... إنها مجنونة!»
رفع الشرطي عينيه نحوه وفغر فاه مد يده لجيبه وأخرج شيئا لابد أنه صورة فوتوغرافية.. نظر لها ونظر نحو (بول).. ثم

صاح:
- «اللعنة!.. إنه هو!».
كانت هذه آخر ثلاث كلمات سمعها (بول) من الشرطي...
بل آخر ثلاث كلمات لفظها الشرطي في حياته..

∞∞∞∞∞

7 – الكابوس..

لم ير (بول) (آني) إلا بعد فوات الأوان وحين رآها كانت قد تحولت إلى صنم حقيقي.. إلى وحش خرافي من الأساطير الإغريقية..
كانت تحمل في يدها عصا معدنية ثقيلة تصوبها إلى ظهر الشرطي..
- «خلفك!.. احترس!»
صرخ (بول) عالما أنه قد تأخر كثيرا
وفي الثانية التالية هوت (آني) على رأس الشرطي بالعصا المعدنية فسقط أرضا.. بدت (آني) كأنها تحاول قتل مصاص دماء في أحد أفلام الرعب..
«(آني)!.. كفي!».
صرخ (بول) متوسلا فرفعت عينيها نحوه.. شعرها منتثر حول وجهها.. وعلى سحنتها ملامح مجنون لفظ أخيرا كل القيود..

∞∞∞∞∞∞

أغمض (بول) عينيه وأدرك أنه لم يبق أمامه من خيار سوى أن يقتل نفسه.. نعم.. هذا هو الحل الوحيد الباقي له كي ينجو من غضبها..
سمعها تفتح باب غرفته، ورأى حذائي رعاة البقر اللذين ترتديهما.. والسروال الجينز الذي تلطخ بالدماء..
تتدلى سلسلة المفاتيح من حزامه..
همست في غل:
«سأتصرف معك فيما بعد...!»

وأعادت إغلاق الباب وسمع المفتاح يدور فيه محكما حصار (بول)..
نظر من النافذة إلى المشهد.. بدا له جسد الشرطي كدمية كبيرة عبث بها مجموعة من الأطفال القساة..
شعور عات من الشفقة يمزق فؤاده لكن شعورا أخر يخالطه: الحسد!..، على الأقل لقد أفلت هذا الشرطي البائس من (آني ويلكز)!..
كانت منهمكة في نقل الجثة وتنظيف الفناء من آثار الدماء وقد لوث العرق قميصها، ثم إنها عادت إليه حاملة شيئا ما.. مطفأة السجائر التي رماها من النافذة.. قالت له في انهماك:
- «ها هي ذي يا (بول).. سأجمع دبابيس الورق فيما بعد..
ثم نظرت له نظرة ذات معنى:
- «أنت تعرف أنني لم أقتله..»..
- «(آني)»
- «أنت من فعل هذا.. لو أنك التزمت الصمت لكان حيا وعائدا لأولاده الآن ولما ترك لي كل هذه القذارة (المقرفة) لأنظفها!»،
احتشدت السبّة على شفتيه فلم يستطع منعها:
- «أيتها الذئبة!!»
ابتسمت في رقة.. وغمغمت:
- «ذئبة مجنونة.. أليس هذا ما تريد قوله؟.. حسن.. سنتحدث عن هذا فيما بعد.. سنتحدث كثيرا.. أما الآن فأنا مشغولة تماما كما ترى..».
وتركته إلى حيث مسرح الحادث لتعكف على تنظيف الدماء بخرطوم مياه..
كانت الساعة تدنو من السادسة مساء حين قادت سيارة الشرطة لتخفيها في الجرن.. فكر (بول): إن لها حظ الشيطان.. ولها

براعته.. إنها شيطانة حقيقية..، وحين سمع صوت كعبيها يقتربان من الباب.. وإذ سمع صوت المفتاح يدور في القفل؛ قال لنفسه: لقد جاء دوري..
وفي أعماقه شعر بإحساس عميق من الخلاص..

∞∞∞∞∞

كانت قد ارتدت ثيابا نظيفة وعلى كتفها تتدلى حقيبة كبيرة خاكية اللون.. قال لها في إنهاك:
- «حسن يا (آني).. لقد انتهت اللعبة.. اقتليني ولكن.. بسرعة»
- «إن مصلحتي هي قتلك.. لكني مجنونة – ألست كذلك؟ - ولهذا لا أفعل ما يتعلق بمصلحتي.. سأتركك حيا يا (بول)»
كانت أشعة الشمس الذهبية تنحدر داخل الحجرة على حين بدأ صوت صراصير الحقول يتعالى من بعيد.. الصوت الذي كنت تحبه وأنت طفل حر لم يؤذه أحد ولم يتلوث.. كاد يبكي من فرط التأثر..
أحس بها تدفع المقعد خارجة من الحجرة.. متجهة إلى بدروم المنزل.. نظر إلى وجهها فرأى أنها -بعد قتلها الشرطي - قد عادت إلى التعقل قليلا وإن بدت متعجلة كأنها امرأة تعد العشاء لمأدبة في دارها..
ثم إنها أخبرته بأن عليه أن يتعلق بعنقها من الخلف لأنها ستنزل به درجات السلم:
- «لا تحاول أن تعمل عملا أحمق يا (بول) كأن تحاول خنقي لقد تلقيت درس (كاراتي) وكنت بارعة جدا فيه!».
نهض (بول) متحاملا على قدميه الهزيلتين، أو ما تبقى منهما.. وتعلق بعنقها، فحملته على ظهرها نازلة الدرجات.. ثلاثة

مصابيح خافتة ونسيج عناكب قديم ورائحة عطن ورطوبة.. رائحة العرق المنبعثة من إبطيها مع رائحة قذارة لم تعرف الصابون منذ دهور.. ثمة شمع أسود يسد أذنها فلا تعرف كيف تستطيع السمع.. أخيرا وصلا للبدروم..
وعلى مرتبة قديمة أنزلته.. ثم مدت يدها للحقيبة وأخرجت.. إبرة ومحقنا..!
صرخ متوسلا متوقعا ما سيحدث بعد ذلك - مثل ذلك اليوم - لكنها طمأنته:
- «لا تخف يا (بول).. إن هذا (سكوپولامين) وهو من مشتقات المورفين.. أعددتها لك في حالة ما إذا اشتد بك الألم بسبب الرطوبة قبل أن أعود إليك..».
وتركته بضع دقائق ثم عادت إليه بوسادتين وبطانيتين و.. بعض علب المياه الغازية، ونسقت له الفراش ثم فتحت له علبة ولها علبة..
- «(بورب)!» - تجشأت بعد أن فرغت من علبتها..
- «والآن يا (بول) حان وقت الكلام!».
- «(آني).. حين شتمتك لم أكن..»
- « شش!.. ولا كلمة!.. إن السيد عبقري على حق دائما ولا يحق لأحد أن يحاول تبديل أفكاره.. دعنا من هذا ولنتكلم في موضوعات جدية.. لو أن أحدا لم يأت للبحث عن هذا الشرطي خلال ساعة سنكون في أمان لأن الظلام سيحل بعد ساعة.. أما لو جاء أحد قبل ذلك...».
ومدت يدها إلى الحقيبة وأخرجت مسدس الشرطي الذي قتلته.. وأردفت:
- «عندئذ.. هناك هذا لمن يجيء.. ثم يأتي دورك. فدوري..»

∞∞∞∞∞∞

كان عليها - حين يحل الظلام - أن تقود سيارة الشرطة أربعة أميال إلى مكان يصلح لإخفائها.. ثم تعود بالدراجة التي ستضعها في مقعد السيارة الخلفي برغم أنها واثقة بأن هناك احتمالا لا بأس به في أن تسقط ويتحطم عنقها (المقرف).

أدرك (بول) أن هذا لو حدث فلن يبقى أمامه سوى أن يموت جوعا وظمأ.. ثم تلتهم الفئران جثته.. الفئران التي بدأت من الآن تتحرش بهذا الزائر الذي يمشي على قدمين..

كان البدروم محكم الإقفال بالمزاليج والأقفال مستحيلة الفتح..

وبدأت (آني) تشرح خطتها ل (بول)، ستواري جثة الشرطي التراب ثم تعود.. ولئن سألها أحدهم عن المكان الذي ذهبت إليه في هذه الليلة ستقول إنها ذهبت لترى معرض السيراميك في مدينة مجاورة اسمها (ستيمبوتس هيفن)..، كانت تعلم جيدا أن الشرطة وجدت سيارة (بول) ما داموا يبحثون عنه في هذا المكان بالذات.. وما دامت معهم صورته..

أصغ إليها يا (بول) وتعلم.. إنها تلعب لعبة (هل تستطيع؟) في الحياة الواقعية، لهذا لا تكتب (آني) قصصا.. لأنها لا تحتاج إليها..

كانت (آني) تعرف أن رجال الشرطة أتون لا محالة بحثا عن زميلهم المفقود.. لكنهم - على الأقل - لن يأتوا هذه الليلة، فقط سيتتبعون مسار سيارته.. ترى هل بدأت تفهم إلى أي حد اقتربت اللعبة من نهايتها؟..

سيسألونني عن الشرطي وسأقول لهم إنه مر بالمزرعة وسألني عن صورتك، فقلت له إنني لم أرك قط وقدمت له علبة من المشروبات الغازية وأنه شكرني وانصرف، ولسوف ألقي هذه

العلبة بعيدا عن المزرعة بعد أن أضع بصمات يديه عليها.. فكرة رائعة.. أليس كذلك؟»
والتمعت نظرة شيطان يحلم في عينيها.. واستطردت:
- «سيكتفون بهذا الأثر مؤقتا ويبحثون بعيدا... إلا أنهم بعد فترة سيرون من الحكمة أن يعودوا إلى ليبحثوا بدقة أكبر.. فأنا مخبولة تماما.. أليس كذلك؟..
سيقررون وقتها أن يفتشوا البيت.. وعندئذ سيعرفون كل شيء.. كل شيء..، أعتقد أن هذا لن يتم قبل أسبوع لهذا لديك وقت كاف للكتابة يا (بول) لكني أنصحك بأن تزيد سرعتك في التأليف قليلا!».
ابتسم (بول) في مرارة:
- «أنا نفسي متشوق لمعرفة نهاية القصة!».
أحقا لا تعرفها؟».
«بتاتا.. لا أعرف تماما كيف ستنتهي قصتي وقصتك، لكني أجهل كل شيء عن نهاية قصة (ميزري)..، سأكتب كلمة (النهاية) وعندئذ تكتبين أنت كلمة (النهاية) الخاصة بحياتي..».
- «على كل حال لقد أوشكت القصة على الانتهاء.. أليس كذلك؟»..
- «بلى.. أوشكت على الانتهاء...»
....

∞∞∞∞∞∞

قبل أن تتركه طلب منها أن تحضر له ما تم كتابته و (بلوك نوت) ليتمكن من مواصلة الكتابة بخط اليد.. لكنها أبت ذلك..
- «هذا يعني أن أضيء لك مصدر ضوء وهذا ما لن أسمح به...»

وعلى الفور رأى (بول) نفسه وحيدا في الظلام الدامس بينما الفئران تدنو منه وقد استشعرت عجزه.. شعر بجلده يغدو خشنا كجلد الإوزة من الرعب..

- «(آني).. أتوسل إليك.. لا تتركيني في الظلام»

- «لن أجرؤ على ذلك.. فلو أن أحدا رأى الضوء آتيا من البدروم لجاء يستقصي.. ولا أستطيع أن أعطيك بطارية تحاول إرسال إشارات بها.. كما أن الشموع قد تغريك بحرق المنزل.. حاول أن تتماسك وتذكر أنك السبب في كل هذا..»

- «الفئران.. (آني)!.. الفئران»

قالت وقد وصلت لأعلى درجات السلم:

- «ربما حسبتك الفئران واحدا منها.. وربما تبنتك!.. هي هي هي!».

سمع صوت أزرار الكهرباء تطفأ.. سمع صوت ضحكها.. رأي الظلال تزحف نحوه.. سمع صوت الباب ينغلق.. أقفال.. مزاليج. صوت ضحكها ما زال يتردد من خلف الباب حيث مازال هناك ضوء.. باب آخر ينغلق.

وحتى حين سمع صوت السيارة يتحرك كان بوسعه أن يسمع صوت ضحكاتها.. تتردد.. تتردد...

∞∞∞∞∞

الظلام الدامس

والصوت الذي يخشاه.. صوت الفئران المتسللة الخفيض..

لكن الفئران لم تكن سبب ذعره.. بل رجل الشرطة... ها هو ذا خيال (بول) المريض يرسم له صورة شبح الشرطي وهو ينهض من الجرن والقش يتبعثر من حوله.. وعلى وجهه الميت آثار

دماء..، ها هو ذا يراه يزحف متجها نحو البدروم المظلم حيث يرقد (بول).. يدخل بشكل ما ويدنو منه وفي عينيه اتهام صامت: أنت قتلتني أنت ناديت وقتلتني..!
إنه يحس بأنفاسه تصفع وجهه وأصابعه المتقلصة على أنه - حين اعتادت عيناه الظلام - بدأ يميز حدود الموجودات.. وبدأ يهدأ قليلا...
ستكون ليلة طويلة حقا..

∞∞∞∞∞

بعد ساعتين مد يده إلى المحقن وغرسه في فخذه.. لقد قالت (آني) إن هذا (سكوبولامين).. من يدري؟.. ربما كان سما زعافا.. لكنه حقا لا يعبأ بالنتائج.. كل ما يدريه هو أن فخذيه يتألمان وحوضه يئن..
لم يكن قد أعطى حقنة في حياته.. لكنه فعلها بنجاح تام.. وغرق في نعاس عميق..

∞∞∞∞∞

عادت (آني) في الثالثة بعد الظهر منهمكة ميالة للصمت، وكان شعرها حول رأسها مسطحا وقد اتخذ شكل الخوذة التي كانت ترتديها في أثناء ركوب الدراجة.
- «كيف كانت الأمور؟».
- «لا بأس.. لا بأس؟».
ثم أدارت ظهرها ليتعلق برقبتها كي تعيده لغرفته وسارت صاعدة درجات السم ولم تنس قبل الصعود أن تلقي نظرة أخيرة على محتويات البدروم لترى أية تغيرات..

لحسن الحظ لم تلحظ شيئا..
لم تلحظ علبة سائل إشعال الموقد التي سرقها (بول) ودسها في سروال منامته لغرض في نفسه.. غرض بدأ يتبلور في ساعات الفجر الأولى حين رأى العلبة جوار المرتبة التي نام عليها..
وحين رقد في فراشه أخيرا طلب منها بعض (النوفريل) فما إن خرجت من الغرفة حتى أخفى العلبة تحت المرتبة.. كان يعرف أن هذا المكان صار مفضوحا تماما، لكنه لم يجد أفضل منه في الوقت الحالي، وحتى يجد مكانا أكثر أمنا..
عادت له بالـ (نوفريل) و (بلوك نوت) وبعض أقلام الرصاص، وقالت له إنها ستغفو بعض الوقت ويمكنه أن يكتب قليلا في قصته مستعملا القلم والورق لأن الوقت قد صار قصيرا!
قال لها مطمئنًا:
- «أعتقد أنني سأنهي القصة في خلال أسبوع.. ولكن أريد منك وعدا...»
- «لا تقرئي ما أكتبه من الآن فصاعدا وحتى أنتهي.. لا أريد للمتعة أن تتجزأ..»
- «ستكون قصة جيدة يا (بول).. أليس كذلك؟».
- «ستكون تحفة فنية!».
ا

∞∞∞∞∞

بعد ثلاث ساعات تحرك (بول) على مقعده إلى ركن الغرفة.. وبرفق مد يده إلى لوح من خشب الأرضية كان قد لاحظ أنه مخلوع.. الفئران والرطوبة شكلت تحته حفرة لا بأس بعمقها

وهو واثق من أنها لا تعرف بوجودها.. الغبار يدل على أن أحدا لم يلمسها قبله..
دسّ علبة سائل الإشعال في الحفرة وأعاد اللوح الخشبي لموضعه.. وللحظة ارتجف من فكرة أن يظل اللوح مرتفعا قليلا خاصة وأن الشيطانية تملك عينين حادتين كعيني الصقر، لكن اللوح عاد كما كان..
ثم إن (بول) انتحى بالمقعد جانبا وعكف على الكتابة. أربع ساعات كاملة استهلك فيها الرءوس المدببة لخمسة أقلام رصاص أعطتها له وعندئذ عاد إلى الفراش.. ونام..

∞∞∞∞∞∞

توقف القلم عن الكتابة حين سمع (بول) صوت سيارة تتوقف في الفناء.. من الغريب أنه لم يشعر سوى بضيق لهذه المقاطعة.. وسمع صوت حذاء (آني) الثقيل يقترب من الغرفة.. وفي صرامة قالت له:
- «ابتعد عن النافذة...».
كانت تحمل الحقيبة على كتفها وكان يعرف معنى هذا...
إن المسدس معد لتفرغه في الزائر ثم في (بول) ثم في نفسها لو أن (بول) أحدث شغبا.. لهذا ابتعد عن النافذة دونما تفكير، قالت في هدوء صارم:
- «إنهم رجال الشرطة.. فهل ستكون عاقلا يا (بول)؟!»
- «نعم»
- «سأحاول أن أثق بك»..
وتركته لتقابل القادمين.. ومن النافذة رأى (بول) السيارة (البلايموث) تقف في الفناء ويخرج سائقها ليقف في نفس

الموضع الذي وقف فيه الشرطي أول أمس قبل أن يموت.. كان شابا حديث السن لا تبدو عليه المبالاة. أما زميله فكان عملاقا مفتول العضلات في الأربعين من عمره، ولقد وقفا يستجوبان (آني) في حين فكر (بول) في احتمالات أن يهشم الزجاج ويصرخ هذه المرة.. هناك فرصة ثمانية لعشرة في أنهما سيتمكنان منها.. لكنها سريعة الحركة بالإضافة إلى أنها تتوقع الغدر، أما هما فسيضيعان وقتا ثمينا في فهم ما يحدث.. وهذه نقطة لصالحها..

ربما كان من الأفضل أن يهتم بـ (آني) بنفسه.. فالبوليس سيكتفي بوضعها في السجن.. لكن (بول) كان يملك لها خططا أفضل.. كان يعرف كيف يؤذيها...

∞∞∞∞∞∞

8 - الانتقام..

سمع (بول) صوت باب المطبخ ينفتح إذ دخلت (آني) والشرطيان.. وفهم (بول) من المحادثة أن الشرطي المختفي اسمه (دوين كوشنر).. وأنه كان يبحث عن كاتب يدعى (بول شيلدون) تم العثور على سيارته عندما ذاب الجليد، لكن الشرطة - كما هو واضح - لم تربط بين اختفاء رجلها وبين اختفاء (بول) على أساس أن (كوشنر) - لابد - سقط في شرك بعض مهربي المخدرات..

كانت تحكى للشرطيين قصتها الملفقة عن الشرطي الذي جاء ليسألها عن صورة كاتب يدعى (بول شيلدون).. وكيف لم يمكث سوى خمس دقائق قبل أن ينصرف حاملا علبة المياه الغازية التي قدمتها له..

كان (بول) يتوقع في أية لحظة أن يسألها أحد الشرطيين عما تحويه الحقيبة التي تحملها بحق السماء.. وعندئذ سيتعالى صوت طلقات الرصاص.

كيف لو علم هؤلاء أن الكاتب الذي يبحثون عنه ينتظر على كرسيه المتحرك في محبسه على بعد يقل عن ثلاثين قدما..؟

تعالي صوت أحد الشرطيين - الضخم بالتأكيد – يسأل:

- «ماذا هناك بالضبط..؟»

دوى صوت (آني) الرزين يجيب:

- «لا شيء.. غرفة نوم إضافية جوارها حمام..

لا أستعملها عادة.. يمكنكما أن تلقيا نظرة إذا أردتما لكن دعني أؤكد لك أنك لن تجد جثة شرطي بالداخل!»

- «بالطبع يا سي... يا آنستي.. شكرا لتعاونك وربما عدنا مرة أخرى..»

∞∞∞∞∞

واصل (بول) الكتابة في تركيز حقيقي.. لكنه لم يستطع نسيان أن الشرطيين نظرا نظرة ذات معنى إلى بعضهما قبل ركوب السيارة.. حتى من مكمنه لم تفته هذه النظرة..
وفي اليوم التالي فوجئ بسيارة تابعة لأخبار التليفزيون تثب منها مذيعة حسناء تريد أن تجرى حوارا مع (آني)... لكن (آني) خرجت لهم بالبندقية وأجبرتهم على الفرار..
لقد عادوا..!
لقد بدأت الإشاعات في الجوار أن الشرطي المختفي كان قد مر على دار المرأة (التنين)، وهاهم أولاء يحاصرون دارها.. ويطاردونها.. الذين هربت منهم في الماضي قد عادوا..
وبعد يومين جاء مزيد من رجال الشرطة ليسمعوا القصة من جديد.. ولكن أحدهم ذكرها في هذه المرة أن بوسعها استدعاء محام إذا أرادت.. لكن (آني) رفضت وأعادت سرد قصتها بثبات.. ولم تبد لـ (بول) أن هناك اختلافات عن المرة السابقة..
بعد انصرافهم جاءت (آني) لحجرته..
كانت هناك خدوش دامية على جبينها فأدرك – دون جهد - أنها آذت نفسها مرة أخرى..
قال (بول) محاولا إفساد الدعابة:
- «هذا البيت قد تحول إلى حديقة ملاه..».
لم تبتسم.. فقط سألت في صرامة:
- «كم بقي لك من وقت؟»

نظر إلى كومة الأوراق أمامه.. ثم غمغم:
- «يومان.. ربما ثلاثة..»
- «حين يجيئون المرة القادمة سيكون معهم أمر التفتيش.. وأنت تعلم معنى ذلك..».
ودون أن تنتظر ردا فارقت الحجرة..

∞∞∞∞∞∞

جاءته في المساء لتراقبه منهمكا في الكتابة.. ثمة (كاللو) صغير بدأ يتكون في أصبعه الأوسط من جراء الإمساك بالقلم..
- «ألن تنام؟»
- «نعم.. بعد قليل.. أحيانا ينبغي أن أواصل الكتابة حتى لا أفقد التسلسل»
- «ولن تأخذ حبوبك؟».
- «أشعر بألم لكني لا أريدها أن تعتم أفكاري..»
همست بنعومة:
- «(بول).. ستكون القصة جيدة.. أليس كذلك؟.. أنت لم تعد تكتب من أجلي بل لمتعتك الخاصة.. أليس كذلك...؟»
بالفعل لم يكن لك يا (آني).. ولا لزوجتى السابقتين ولا لجمهورى.. بل لي أنا.. لهذا السبب يهدي الكاتب كتابه لشخص ما.. لأن أنانيته تفزعه هو نفسه..

∞∞∞∞∞∞

في اليوم التالي مرت سيارات عديدة.. سيارة كانت تحوي مراهقين أخذوا يهللون ويتصايحون فخرجت لهم (آني) متوعدة بأن تطلق عليهم الرصاص - كالكلاب - مالم يرحلوا فورا....

فصاح أحدهم:
- «اذهبي للجحيم أيتها المرأة التنين!».
- «أين أخفيت جثة الشرطي؟!».
وولوا الأدبار وسط سحابة من الغبار..
في المساء أحضرت ل (بول) مضادا حيويا (لأنه كان قد بدأ يعاني التهاب مثانة شديد) ومعه دلو مليء بالثلج كي يدفن فيه يده التى تورمت من الكتابة.. ثم نام..
كان يحلم.. يحلم بأنه ضائع فى عاصفة من الجليد.. فقط لم يكن ما يراه جليدا بل مجموعة من الأوراق.. أوراق خالية من حروف النون والتاء.. وكان ضائعا.. ضائعا..
كان هذا هو اليوم الأخير.. لقد أخبر (آني) بذلك..

∞∞∞∞∞

صحا من النوم في الحادية عشرة صباحا ففوجئ ب (آني) تهرع نحوه حاملة عصير البرتقال والدواء وسلطانية ملأى بحساء الدجاج.. وفي انفعال هتفت:
- «اليوم يوم خاص جدا.. أليس كذلك يا (بول)؟»
حاول التقاط الملعقة لكن يده اليمنى كانت متصلبة متخشبة وكأن قضبانا معدنية قد ثبتتها في وضع لا يتغير.. لقد كانت أيامه الأخيرة نوعا من تعذيب محاكم التفتيش..
وهكذا لم يعد أمامه خيار سوى العودة للآلة الكاتبة من جديد شاقا طريقه وسط غابة من حروف (النون) و (التاء)..
التمعت الدموع في عينيها.. وبصدق همست:
- «كان يجب أن أبتاع لك آلة جديدة.. لكني لم أرد أن أعترف لنفسي أن هذه المرأة (دارتمونجر) قد استطاعت خداعى...»

وفي رقة أمسكت يده ولثمت أطراف أناملها..
- «لقد أعددت لك مفاجأة لهذه الليلة.. لا أدري حقا إذا كنت تحبها لأني لا أملك خبرة في هذه الأمور.. لقد ابتعت لك علبة (كافيار)!»
كاد (بول) ينفجر ضحكا برغم علمه أن الضحك سيجعلها تحسبه يسخر منها.. فالكافيار لم يكن من الأشياء التي يحبها أو يمقتها.. فقط حين يركب طائرة وتقدم له المضيفة طبقا منه، يأكله ثم ينسى كل شيء عن وجود (كافيار) في العالم إلى أن يركب الطائرة مرة أخرى، وتقدم له المضيفة طبقا آخر، إن (آني) قد سجنتك وعذبتك وستقتلك حتما.. لكنك على الأقل ستموت بمعدة مليئة بالكافيار..!..
قال لها وقد تمالك نفسه:
- «لي مطلب آخر أرجو أن تحققيه يا (آني)..»
- «ما هو؟».
«كانت هناك علبة سجائر في حاجياتي، وإنى أرغب في لفافة تبغ بعد أن أنتهي من القصة!».
تلاشت ابتسامتها وهتفت:
«(بول).. أنا لا أوافق على هذه الأشياء.. إنها تسبب السرطان!».
- «(آني).. هل حقا تعتقدين أن السرطان من الأمراض التي يجب أن أخافها وأنت ستقتلينني هذا المساء؟!»
لم تجب.. فأردف:
- «لقد اعتدت دائما حين أنهي قصة أن أدخن واحدة.. وهي عادة أحبها وتربطنى بالماضي.. فما قولك؟».
وافقت على مضض وتركت الحجرة..

∞∞∞∞∞∞

أخيرا.. انتهت القصة...
بيد مرتجفة خط (بول) أجمل وأسوأ كلمة في قاموس الكتاب (النهاية) عند نهاية الصفحة الأخيرة.. ووضع القلم جانبا بينما ذلك الشعور الذي يلازمه كلما أنهي قصة يراوده.. شعور بالخواء.. شعور بانعدام الحيلة.. لكنه - مهما قلنا - شعور جميل..
دائما هو شعور جميل..
أن تنتج.. أن توجد شيئا لم يكن..
مد يده وكوم الأوراق.. ثم التقط لفافة التبغ التي أحضرتها له.. وجوارها كانت مطفأة السجائر التي هشم بها الزجاج ليلتها..، ثم مشط ثقاب لا يوجد به سوى عود واحد.. العود الوحيد الذي سمحت به لكنه كاف جدا..
كان يسمع صوت خطواتها في الطابق العلوي لأنها لم تشأ أن تجيء حتى ينتهي من التدخين ولأنها لا تتحمل رائحة التبغ..
جميل..... يستطيع أن يعد كل شيء للعبته الكبرى قبل مجيئها..

∞∞∞∞∞∞∞

ناداها فسمع خطواتها تهبط درجات السلم..
كان قد سكب الكثير من سائل إشعال الموقد على الأرض فملأت رائحته الحجرة..، كومة الأوراق التي كتب القصة عليها غارقة في السائل إلى جوار الآلة الكاتبة المقيتة..
سمع خطواتها تقترب.. فهمس لنفسه: إنني أسمع هذه الأصوات للمرة الأخيرة.. يا له من خاطر بهيج!.. لم يكن قد أشعل لفافة التبغ طبعا.. كان يريد عود الثقاب فحسب..

ماذا ستفعل لو لم يشتعل العود؟.. لقد فات الوقت للتفكير في هذا..
شريك!.. لم يشتعل..!.. حاول ثانية بهدوء..
شريك!.. لا جدوى:: خطواتها تقترب أكثر..
شريك!.. أخيرا!.. اللهب الأصفر الجميل يتزايد حول رأس العود..
وهنا دخلت (آني) الغرفة..

∞∞∞∞∞∞

- «أخيرا.. لا أصدق ذلك.. لكم كنت أت..».
كذا هتفت (آني) في سعادة ثم احتبس الكلام في حلقها حين رأت (بول) على مقعده وأمامه كومة من الأوراق مكتوبا على أول واحدة منها:

عودة (ميزري)
بقلم بول شيلدون

وجوار الأوراق كان يمسك بعود الثقاب المشتعل...
تصلبت في وقفتها.. وفغرت فاها في غباء:
- «(بول).. ماذا تفعل؟»
- «لقد انتهت القصة يا (آني).. إنها جيدة.. ربما أفضل ما كتبت في حياتي.. والآن سأقوم بلعبة صغيرة تعلمتها منك!».
. مدت يديها في لهفة نحوه وصرخت:
- «لا لا.. لا.. لا تفعل!»
ابتسم في ثقة.. أول ابتسامة من نوعها منذ شهور..
- «من المؤسف أنك لن تقرئيها.. لقد كانت تحفة!».
وهنا أوشك الثقاب أن يحرق أنامله فألقاه على الورق..

وللحظة خيل إليه أنه انطفأ.. ثم بدأت نار زرقاء شاحبة تشتعل في الورقة الأولى.. ثم.. فومب!.. اشتعل السائل بلون أصفر محدثا فرقعة..
- «لا يا إلهي!.. ليست (ميزري)!.. ليست (ميزري)!».
«أسرعي وتمني أمنية أيتها الشيطانة!..».
ومدت يدين عاجزتين إلى الأوراق الملتهبة..
كان السائل قد تسرب إلى الآلة الكاتبة فبدأ اللهب ينبثق من بين المفاتيح.. والحرارة تشوي جانب وجه (بول)..
بينما (آني) تصرخ في هستيريا:
- «أيها الفأر (المقرف)!.. يا طائر الشؤم..... ليس (ميزري)!».
وهنا فعلت الشيء الذي كان واثقا من أنها ستفعله..
حملت الأوراق المشتعلة راكضة نحو الحمام لتضعها في الحوض على أمل أن تنقذ شيئا..
فما إن أدارت ظهرها حتى رفع (بول) الآلة الكاتبة غير عابئ بسخونتها التي بدأت تحرق يديه.. رفعها غير عابئ بقطرات السائل الملتهب التي تسقط عليه..
وبوجه كأنما قد من صخر.. قذف الآلة الكاتبة على المرأة لتصدمها في ظهرها..
- «أووووج! ».



ويوجه كأنما قُدّ من صخر.. قذف الآلة الكاتبة على المرأة لتصدمها في ظهرها..

أنّت (آني) وسقطت على الأرض على وجهها ومن تحتها كومة الأوراق المحترقة فتحامل (بول) على نفسه ونهض متوكئا نحوها..

كانت قد بدأت تستدير لتنهض والنيران بعد مشتعلة في ثيابها:
- «لسوف أقتلك أيها الكاذب!».
قالتها.. إلا أن (بول) رمى بنفسه عليها فوق الآلة الكاتبة المحترقة.. سمعها تصرخ كقط وتتلوى كقط فلم تأخذه بها أية شفقة..
كانت تسب وتلعن لكنه واصل تثبيت جسدها بين النيران..
- «هو ذا الكتاب يا (آني)!.. إنه تحفة!.. كُليه يا (آني).. كُليه!»
كانت تصدر أصواتا مختلطة وحاولت أن تلقيه من فوقها لكنها فشلت..
- مف!.. مف!.
وأخيرا استطاعت أن تنهض من تحته.. تحاملت على قدميها ودنت منه خطوة.. اثنتين.. ثم سقطت ثانية فوق الآلة الكاتبة..
كانت عيناها ترمقانه بتعبير متسائل مريع.. لماذا يا (بول)؟.. لماذا؟.. كنت سأقدم لك الكافيار..!
وساد الصمت

∞∞∞∞∞∞

تشبث (بول) بملاءة السرير كي يستطيع النهوض..
الغرفة مليئة بالأوراق المحترقة التي ولي حماسها..
الرماد والدخان في كل مكان.. وقد آذى (بول) ظهره وأحرق كفيه.. وفي أمعائه شعر بتقلص مريع.. لكنه حر.. حر..
لقد ماتت الشيطانة.. مات الصنم..
تناول البطانية وبدأ يلقيها على الأوراق المشتعلة المبعثرة في أرجاء الغرفة وهو يلهث..
ثم بدأ يزحف متجها نحو المقعد المتحرك..

وهنا فتحت (آني) عينيها..

∞∞∞∞∞∞

راقبها (بول) غير مصدق، بينما هي تنهض على ركبتيها ببطء.. مستحيل هذا!.. أنت ميتة!..
عيناها تحدقان في عينيه ووجهها ملطخ بالدماء وفي عصبية صرخت:
- «دوردا!.. أذر!».
قالتها وهي تبصق الورق المحترق من فيها وتزحف نحوه على أربع.
تراجع (بول) وبدأ يزحف نحو الباب.. يزحف.. وفجأة شعر بيدها تطبق على ساقه أو ما تبقى منها.. وسمعها تهتف في انتصار:
- «قذر!»..
انتزع قدمه منها بأعنف ما يستطيع.. وعاد يزحف.. ويبكي.. والعرق ينهمر على خديه.. من خلفه يسمع صوت ركبتها تتقدم نحوه خطوة.. فأخرى.. خطوة.. فأخرى.
كانت آتية!.. لقد هشم ظهرها وأحرقها وأسقطها أرضا لكنها - بعد كل ذلك - ما زالت آتية!.. آتية...
أحس بها تمسك بسمانة ساقه اليسرى..
مدّ يده متشبثا بجانب الباب وحاول أن يجذب جسده..
الآن يدها اليمنى تمسك بفخذه بقوة..
إنها فوقه.. ظلها يغمره.. الرعد.. البرق.. الصنم..
- «قذر!.. أذر!».

يداها حول عنقه.. وفي أعماقه صرخ: ألن تموتي أبدا؟.. ألن تموتي؟
وفجأة تلاشي الضغط.. وشعر بها تجثم فوق أنفاسه دون حركة.. كجبل من اللحم المتراخي.. لقد همد جسدها أخيرا.. وبآخر ما يملك من قوى شق طريقه من تحتها وزحف للباب متوقعا في أية لحظة أن تطبق يداها على ساقه.. لكنها كانت قد ماتت.. بالتأكيد ماتت.. وعلى الباب فقد وعيه بضع ثوان..
لكنه حين فتح عينيه وجد أصابعها تتحرك تلقائيا عابثة في أطراف قميصه.. أجفل وتراجع بعيدا.. فاهتزت الأصابع قليلا ثم سكنت بدأ يزحف نحو الحمام.. وأغلق الباب خلفه حتى لا يرى أصابعها تمتد تحت الباب نحوه..، فما إن دخل الحمام حتى كان كل جزء من جسده يعوى ألما، أغلق الباب خلفه وزحف إلى حيث علب الـ (نوفريل) فابتلع ثلاث كبسولات دون ماء، ثم ألقى بثقله على الباب وغاب عن الوعي..

∞∞∞∞∞∞

إنه الظلام..
لم يدر في البداية أين هو.. ثم تذكر كل شيء، ومع تذكره أدرك حقيقة مؤكدة: أنها لم تمت.. بالتأكيد لم تمت..
لا شك أنها تنتظره خارج الباب حاملة فأسها.. إنه يكاد يسمع صوت تنورتها تحتك بالجدار المجاور للحمام...
كلا..... هذا مجرد وهم تتخيله.. أنت تعرف أنها ماتت أخيرا..
ولكنني سمعت صوتا..
اهدأ يا (بول) يا صديقي.. ليس من الحكمة أن تجن لأن هذا سيكون نصرا لـ (آني).. لماذا لا تغادر الحمام الآن؟.. كلا.. سأظل

هنا حيث الأمان..
لكنك يجب أن تغادر هذا المنزل الرهيب.. يجب أن توقف سيارة على الطريق ولن يطول انتظارك لأن منزل (آني) صار محط الأنظار..
استجمع شجاعته.. وتسلق لمقبض الباب وفتحه ببطء..
لم يكن هناك سوى الظلام.. بدأ يزحف متجها نحو الصالة، ولم يفته أن يلقي نظرة على الغرفة التي كان بها فوجدها مغلقة كما تركها..
الظلال في كل مكان.. يمكنها أن تتوارى خلف أي ظل منها.. يمكنها أن تكون أي ظل منها.. وفي كل الأحوال يمكنها أن تحمل الفأس..
استمر في الزحف..
كانت (آني) خلف الأريكة تنتظره.. بل كانت واقفة خلف باب المطبخ.. بل هي تزحف على ركبتيها خلفه..
وهنا سمع صوت سيارة تتوقف في الفناء الخلفي.. ورأى أضواءها من النافذة.. وفي الظلام تردد صوت يسعل.. رأي معالمه من النافذة بوضوح تام.. هذه القبعة لا تعني سوى شيء واحد.. هذا شرطي..!
مد يده وتناول تمثالا لبطريق وجده أمامه.. وعلى قاعدة التمثال كتبت عبارة (توته توته.. فرغت الحدوتة)..
همس (بول) لنفسه:
- «وكذلك حدوتتى أنا.. حمدا لله..»
وألقى التمثال ليهشم زجاج النافذة.. وصرخ بأعنف ما يستطيع:
- «الغوث!.. الغوث!.. أنا هنا!».

∞∞∞∞∞

كان هذان هما الشرطيان اللذان جاءا (لآني) من قبل.. الشرطي النحيل وزميله الضخم، وكان معهما إذن تفتيش هذه المرة..
وحين هشما باب المنزل استجابة للصرخات وجدا رجلا كأنه خارج من كابوس.. رجلا يصعب عليهما تصديق أنه حى..
كان يرتجف كورقة ويردد:
- «صنم ال (بوركاس).. احترسا.. غرفة النوم حيث احتجزتني.. كاتب أليف كما تعلمان.. غرفة النوم..».
وهنا هتف أحدهما:
- «هل ترى؟.. إنه الشخص الذي كان (كوشنر) يبحث عنه.. الكاتب.. قد نسيت اسمه لكنه هو..!».
صاح (بول) في هلع
- «احترسا.... إنها خطرة كالحية ذات الأجراس... ولو أنها حية فلسوف..
انظرا... لقد قطعت رجلي بالفأس!».
نظر الرجلان إلى قدمه لثوان.. ثم همس الشرطى النحيل:
- «يا للسماء!».
ومد يده إلى حزامه مخرجا مسدسا وأشار لزميله أن يتبعه.. سويا اتجها نحو غرفة النوم التي كان (بول) بها..، أغلق (بول) عينيه منتظرا سماع صوت طلقات..
أو سماع صراخها أو صراخهما، كأنما مر دهر عليه في هذا الوضع..
ثم سمع صوت خطوات أحد الشرطيين عائدا إليه..
وسمع صوته الرزين يقول:
- «هناك دماء وورق محترق.. لكن لا أحد في الغرفة..»
نظر له (بول).. ثم بدأ يصرخ..

يصرخ..
حتى فقد الوعي..

∞∞∞∞∞

الخاتمة..

لمدة تسعة شهور بعد ذلك اليوم ظل (بول) يتردد ما بين عيادات الأطباء والمستشفيات لإصلاح ما حدث لذاته من خلل..
أعادوا كسر ساقه وتجبيسها، ووضعوا ساقا صناعية لرجله المبتورة.. وأخبروه أنه سيعرج بقية حياته.. لكنه لن يموت...
وكان قد نشر قصته (عودة ميزري) مصحوبة بدعاية هائلة عن الظروف الشاذة التي كتبت فيها، فكان نجاحها ساحقا ولا غرابة في هذا (4)
لم يعبأ كثيرا بحماس الناشر ولا برقم المبيعات.. كان يصبو إلى الكتاب التالي.. لكن الأيام الجافة صارت أسابيع جافة فشهورا جافة حتى أنه بدأ يتساءل عما إذا كان هناك حقا كتاب تال..
كان الناشر يحثه على كتابة قصته مع (آني).. لكنه لم يجرؤ.. أحس أنه لو فعل هذا لمارس نوعا شنيعا من أكل لحوم البشر.. لحمه هو بالذات.. أحزانه.. مخاوفه.. لا يسمح لها أن تتلوث بحبر المطبعة..

كانت (آني) قد ماتت حقا..
وفيما بعد عرف (بول) أنها تحاملت على نفسها وخرجت من نافذة الحجرة، بينما كان هو فاقد الوعي في الحمام، وذهبت إلى الجرن حيث ماتت.. ماتت بسبب كسر في الجمجمة أصابها حين تعثرت على الأرض..
لكنها كانت تملك له خططا مستقبلية.. ليس بالفأس هذه المرة..

كانت يد جثتها تمسك بالمنشار الكهربي الذي كانت تضعه في الجرن..!.. وكانت تنوي أن تقتحم به باب الحمام..
لقد نامت (آني) أخيرا في قبرها، لكن ليس في كوابيس (بول) الذي نبش قبرها مرارا.. ورآها تخرج له مرارا..
وأطارت بفأسها أغلب أطرافه مرارا..
وأمام شاشة الكمبيوتر جلس..
أمام (منسق الكلمات) الذي اشتراه... جلس عالما أنه سيظل يحدق في الشاشة الخاوية عدة ساعات بينما يلتمع المؤشر مرارا.. ثم يطفئ الجهاز وينام.. هكذا دأبه منذ انتهت تلك المأساة..
ولكنه تذكر شيئا..
تذكر أنه رأى في الشارع طفلا يحمل قفصا.. وكان بالقفص ظربان حي.. من أين جاء الظربان؟ وكيف وضعه الطفل في القفص؟.. كلها أسئلة بلا إجابة
(بول).. هل تستطيع؟..
بالطبع.. أستطيع..
بدأت يداه تلمسان الحروف، والشاشة تمتلئ بالكتابة.
قصة جديدة عن طفل وجد ظربانا وأصرّ على صيده..
لقد استطعت يا (بول).. استطعت...!
لم يدر أن سرعة أصابعه تزداد..
لم يدر أن الحاجز قد تهشم..
لم يدر أن عينيه كانتا تدمعان بينما هو يكتب..

∞∞∞∞∞∞

وتوتة توته
فرغت الحدوتة..

ستيفن كينج
بانجور - مين - أكتوبر 1986

(تمت بحمد الله)

الشيطانة

لا تخافوا من (آني).. صحيح أنها تهوى القتل.. صحيح أنها تعيش وحدها في عالم مريع.. صحيح أنها مخبولة تماما.. صحيح أنها تمسك فأسا وتتسلى بتمزيق وجهها لكنها إنسانة لطيفة تهوى القراءة، وحين يقع كاتبها المفضل (بول شيلدون) أسيرا في قبضتها فإنها تحسن استقباله!

(ستيفن كينج) أشهر كتاب الرعب المعاصرين يقدم لنا أروع أعماله


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) دواء وهمي

[←2]

(*) يسمى الأدباء هذه الطريقة بـ (أسلوب المظلة تحت المقعد)، ويسميه السينمائيون بـ (أسلوب جريفث في الإنقاذ على آخر لحظة)، ويسميه المسرحيون بأسلوب (الإلة من الآلة).

[←3]

(*) يشير الكاتب إلى قصة (سومرست موم): (موعد في سمارة عن الرجل الذي هرب من الموت قاصدا (سمارة).. وهناك وجد الموت ينتظره.

[←4]

(*) والشيء الذي لم تعرفه (آني) هو أن قصة (عودة ميزري) لم تحترق لأن (بول) لم يجرؤ على ذلك.. ما فعله هو أن حرق مجموعة من أوراق المسودات على رأسها صفحة العنوان..


روايات عالمية
10
لقاءات
من النوع الثالث
فريق
متميزون
E-BOOK
قصة : ستيفن سبيلبرج
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

(كلمة مهمة) :

هذا العمل: (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (09)

لقاءات من النوع الثالث

بقلم: ستيفن سبيلبرج.

ترجمة وعرض: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

(ستيفن سبيلبرج) هو واحد ممن يسمونهم جيل (العيال) في السينما الأمريكية.. فهو مخرج سينمائى تشيكي الأصل قدم لصناعة السينما أكبر مجموعة من الأفلام المصورة التي اكتسحت دور العرض وحققت أرباحًا مذهلة..

كلنا نعرف فيلمه الثالث (فكّان) - عرض باسم (الفك المفترس) - عن قصة الأديب الأمريكي (بيتر بنشلى) والذي يحكي عن عملية صيد القرش الأبيض العظيم الذي هاجم قرية (أميتي) الساحلية. لقد حقق الفيلم نجاحًا مذهلًا برغم أن مخرجه لم يكن قد تجاوز السادسة والعشرين من العمر!.. ولهذا استحق لقبه كـ (طفل هوليود المعجزة)..

ومن لحظتها بدأ الانطلاق الصاروخي لهذا المخرج الذي قدم لنا العديد من الأفلام المبهرة ذات التكاليف الضخمة والتي تحصد شباك التذاكر حصدًا....

ومن هذه الأفلام نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

. (لقاءات من النوع الثالث): وهي القصة التي نقدمها لك الآن.

. (1941): عن الفوضى الهستيرية التي اجتاحت (أمريكا) إزاء احتمال حدوث غزو ياباني، والفيلم من النوع الساخر.

. (إى - تى): عن مخلوق الفضاء الوادع الذي ينساه قومه على كوكب الأرض، فينجح بمعونة بعض الأطفال في الفرار من عالم الكبار المتوحش لأنه هو نفسه مجرد طفل فضائى

. (اللون القرمزى): محاولة من المخرج للابتعاد عن أفلام الإبهار والمؤثرات التقديم قصة إنسانية عن صديقتين زنجيتين. للأسف لم ينل الفيلم نجاحًا برغم التفوق التكنيكى للمخرج وجودة الموضوع.

. (الفضاء الداخلى): عن رحلة داخل الجسم البشري.

. (إمبراطورية الشمس): القصة المثيرة عن طفل أمريكي يعيش مع أسرته في اليابان وقت الحرب.

. (حديقة جوراسيك): ويدور حول تجربة علمية مثيرة لمحاولة إعادة إحياء الديناصورات عن طريق الهندسة الوراثية.

. (قائمة شندلر): الفيلم الذي حصد جوائز الأوسكار وهزَّ العالم كله حول رجل الأعمال الألماني الذي ساند اليهود أيام اضطهاد النازى لهم. والفيلم لن يعرض في (مصر) غالبًا.
. سلسلة أفلام عالم الآثار (إنديانا جونس): وهي ثلاثة حتى الآن.
هذا بالطبع إلى جانب حشد من الأفلام التي أنتجها أو شارك في فكرتها أو صمم رسومها، مثل (حرب الكواكب) - أخرجه صديق عمره (جورج لوكاس) - و(بولترجايست) و (عائدًا للمستقبل) و (من ورّط الأرنب [روجر]؟).. إلخ.
كما أن له دورًا كبيرًا في تمويل عبقرى السينما الياباني المُحبَط (أكيرا كيروساوا) لتقديم تحفته العظيمة (ظل المحارب).
إن (ستيفن سبيلبرج) هو ابن هذا القرن، وُلد لأب خبير كمبيوتر وأم راقصة باليه، لهذا جاء هو نفسه مزيجًا فريدًا من العلم والفن.. كما أنه تلميذ مخلص للقصص المصورة، ولم يزل يحاول أن يقدم عالم الطفولة الخيالي الرائع على الشاشة بالألوان وبإمكانيات السينما الأمريكية.. وقد نجح في هذا إلى حدّ كبير ..
يقول النقاد إن (ستيفن سبيلبرج) مسلّ إلى أقصى حدّ لكنه يفتقر إلى العمق ..
ولعل هذه النقطة التي آذت كبرياءه ودفعته إلى تقديم (إمبراطورية الشمس) و (اللون القرمزى).. لكن الفيلمين جاءا أسوأ أفلامه.. ولعل هذا دليل كاف على أنه لا يبدع إلا حين يقدم ما يحبه ..
وعلى كل حال نحن لم نر فيلمه الإنساني (قائمة شندلر)، لكنه يقول إنه قدمه حين شعر (أنه نضج بما يكفي لتقديمه)، ولعل هذا الفيلم يضع (سبيلبرج) في قائمة المخرجين الإنسانيين

العظام بعد ما وضع هو اسمه للأبد في قائمة مخرجي الإمتاع والأفلام الملونة..

∞∞∞∞∞∞

القصة التي بين يديك الآن نموذج فريد للأدب السينمائي.. فهي إعادة سرد للفيلم بأسلوب قصصي جيد يدلّ على موهبة أدبية واضحة لدى المخرج الأمريكي (ستيفن سبيلبرج)..
لكن أساس هذه القصة ليس خياليًّا على الإطلاق..
ويؤكد د. (ت. ألن هاينك) مدير مركز دراسات الأجسام الطائرة غير المعروفة - والتي يختصرها الأمريكان بلفظة (UFO)[1] - أن هناك أكثر من عشرة آلاف حالة تمت فيها لقاءات فعلية مع راكبي الأجسام الطائرة غير المعروفة. وهذه اللقاءات هي ما يسمونها بـ (لقاءات النوع الثالث)..
ويقول د. (هاينك) إن اللقاءات الحميمة من النوع الأول هي التي يُشاهد فيها جسم طائر غير معروف.. أما النوع الثاني فيترك الجسم الطائر فيه أثرًا واضحًا للعيان كجزء محترق من الأرض أو أعشاب متفحمة أو غصون أشجار مهشمة.. أو تكف الأبقار عن إدرار اللبن لعدة أيام.. أو تتعطل السيارات دونما سبب لمدة ساعتين أو أكثر..
وهذا النوع من اللقاءات له مزية هامة.. إذ هو يتيح لنا نقل الجسم الطائر إلى المعمل حيث تتم دراسة آثاره وتمحيصها..
ويحتفظ مركز دراسات الـ (UFO) في (إيفانستون) بولاية (إيلينوي) بمئات من بقايا هذه اللقاءات من النوع الثاني..
إن (ستيفن سبيلبرج) يؤمن بأن الحكومات لا تصارح شعوبها بكل ما تعرفه عن الـ (UFO)، ويؤمن بأن هناك لقاءً مؤكدًا بين

البشر والكائنات الفضائية سيحدث حتمًا (ما لم يكن قد حدث فعلًا دون علمنا!)..
بقي أن نعرف أن فيلم (لقاءات من النوع الثالث) هو من إخراج (ستيفن سبيلبرج)، وبطولة (رتشارد درايفوس) و (فرانسوا تريفو) - المخرج الفرنسي العظيم الذي يؤمن بهذه الأشياء كثيرًا – وتصوير (فيلموس زيجموند) وموسيقا (جون وليامز) ومؤثرات خاصة (دوجلاس ترومبل)..
ولقد أحيطت الخدع المستعملة في الفيلم بسرية وكتمان شديدين، ولم يزل بعضها مجهولًا حتى لخبراء المؤثرات الخاصة، لأن الفيلم معقد جدًّا تكنيكيًّا، خاصة في مشهد هبوط الطبق الطائر في النهاية..
والآن ..
تعالوا ندر آلة عرضنا الوهمية لنشاهد الفيلم سويًّا..
د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

«لو كان كل شيء على ما يُرام في الجانب المظلم من القمر.. اعزفوا النغمات الخمس..»

1- أشياء غريبة تحدث..

مدينة (سونويتا) شمال (المكسيك).. العام 1973 العواصف الرملية تهبّ في جنون حاجبة الرؤية تمامًا، وقرص الشمس يعلن أنه وقت الظهيرة، لكنه أحمر بلون الدم..

ثلاثة من رجال الشرطة يتقدمون عبر الرمال نحو رجل يرتدي منظارًا أسود ويرفع إلى أنفه كمامة ليقى نفسه حبات الرمل المتطايرة..

- هل نحن أول من وصل؟.

سألهم الرجل بلهجة أسبانية راقية وهو يسعل، فأشار أحد رجال الشرطة نحو الجنوب حيث وقفت مجموعة أخرى من المستكشفين، وسرعان ما انضمت المجموعتان إلى بعضهما.. وبدأ التعارف.. فالمصافحات..

وتساءل أحدهم:

- هل المترجم الفرنسي معكم؟

هتف (لوفلين) محاولًا أن يعلو صوته فوق صوت الرياح:

- أنا أجيد الفرنسية ياسيدي لكن الترجمة ليست مهنتي.. أنا رسام خرائط.. أساسًا رسام خرائط..

وهنا برز رجل من بين الرمال ومدّ يده إلى (لوفلين)، مستعملًا إنجليزية مهشمة هي أقرب إلى الفرنسية:

- إذن فأنت مسيو.. (لوج) - أو - (لاين)..؟!

- (لوفلين) يا سيدى.. إسمى (لوفلين)..

- باردون يا سيدي.. أستميحك عذرًا ..

كان الفرنسي هو (لاكومب) الرجل المنتظر.. ولما كان الحشد يتحرق شوقًا لرؤية ما جاءوا من أجله.. فإن (لاكومب) أنهى

طقوس التعارف وتقدمهم إلى الهدف الذي قطعوا كل هذه المسافة ليروه..
وعلى البعد كان رجال الشرطة المكسيكيون واقفين يتصايحون ويشيرون إلى شيءٍ ما، بينما سرعة الرياح تتجاوز خمسة وأربعين ميلًا في الساعة، كان هذا الشيء - وسط الرمال - يشبه ذبابة واقفة فاردة جناحيها.. إن ما سمعوه منذ أربع وعشرين ساعة قد غدا حقيقة واقعة يرونها بأعينهم..
هذا الشيء - وستة أشياء مماثلة تقف خلفه – هو طائرة مقاتلة واقفة وسط الرمال.. بالتحديد قاذفة طوربيد خاصة بالبحرية الأمريكية من أيام الحرب العالمية الثانية..
وقف الجمع صامتًا يرمق المشهد.. وفي خشوع نزع (لاكومب) منظاره وإن لم يبد عليه الاهتمام أو أي ردّ فعل إيجابي.. وجهه الطفولي تشوهه تجعيدتان على جانبى الفم إزدادتا عمقًا الآن وهو يفكر في الخطوة التالية.
إنه يأخذ شهيقًا عميقًا.. يمسح الرمال من على لسانه بظهر يده.. ينقل أول أمر له إلى (لوفلين) كى يترجمه للواقفين حولهم:
- أريد أرقام محركات الطائرات..
وقبل أن تنتهي الجملة، كان أربعون من طاقم المشروع يزحفون إلى الطائرات الجاثمة فوق الرمال، يحلون مسامير محركاتها، ويتسلقون أجنحتها باحثين عن الأرقام المطلوبة.. وبيد مكسوة بالقفازات تمكن أحدهم من إخراج تقويم ملتصق تحت إحدى لوحات القيادة.. وهتف مناديًّا العالم الفرنسي:
- سيد (لاكومب)!.. إن هذا التقويم يدلّ على أن الشهر كان (مايو)!
نظر (لاكومب) إلى (لوفلين) طالبًا الترجمة، لكن قبل أن يقوم بها الأخير دوّي صوت الفنى مضيفًا:

-.. (مايو) عام 1948 ..
- ليكن!.. تأكدوا مما إذا كانت الخزانات تحوى وقودًا..
وهنا ارتفع صوت أحد الرجال يهتف في دهشة :
- يا الله... إن هذه الطائرات بحالة جيدة حقًّا.. خذ عندك هذه الأرقام.. أ.ى. 3034567.. اللعنة!.. أ. ى. 29930404.. يا للسماء!.. أ. ى. 33544536..
أمسك أحد الرجال بورقة دونت عليها بعض الأرقام، وهتف في ذهول:
- إنها نفس الأرقام التي لدينا.. وكذا أرقام الأجنحة..
- وما هو رقم الرحلة؟
- إنها الرحلة رقم (19)..
هتف (لوفلين) وهو يضرب خاصرته بكفيه:
- الرحلة رقم (١٩).. الفيلق الذي أقلع من قاعدة (بنزاكولا) في (فلوريدا) في شهر (مايو) عام 1948.. ومنذ ذلك الحين لم يره بشر.. حتى هذه اللحظة..! فهل هذا ممكن؟
ولكن أين ذهب الطيارون؟.. لا أحد يملك الجواب.
وهنا سمع (لاكومب) ضوضاء آتية من الخلف حيث احتشد الضباط المكسيكيون حول رجل قصير القامة ترتسم على وجهه أمارات الهلع، نظر (لاكومب) إلى (لوفلين) طالبًا عونه في إسكات هذه الضجة.. لكن (لوفلين) اعتذر بأنه لا يتكلّم الإسبانية، وهنا صاح أحد الأمريكيين:
- يقولون إن هذا الرجل كان هنا من يومين حين رأي الشيء يحدث!
ولم يكن أحدهم يأمل في أفضل من هذا..
انحنى (لاكومب) على الرجل المذعور وتناول ذقنه بين أنامله في رقة.

كان الرجل يولول.. لكن أسوأ ما في الأمر هو اللون الأحمر الذي صبغ نصف وجهه كأسوأ حرق رآه (لاكومب) في حياته، حتى مع وجوه المكسيكيين المعتادة على قيظ الصحراء..
أما عن سروال الرجل فكان مبتلًا!.. لقد بلل نفسه لا شعوريًا ومن الواضح أنه مستمر بنجاح في ذلك .. ها هو ذا يحاول أن يقول شيئًا.. بصعوبة..
تساءل (لاكومب) في لهفة:
- هيه.. ماذا يقول بالضبط؟
لم يردّ (لوفلين).. وتكفل الأمريكي الذي يفهم الإسبانية بإعادة السؤال للرجل.. لكن الرجل كرر نفس الكلمة وتهافت على الأرض..
صاح (لاكومب) نافد الصبر:
- ماذا قال لك؟.. أجب..!
رفع الأمريكى حاجبيه في حيرة.. وأطلق تنهيدة.. ثم همس:
- يقول إن الشمس أشرقت ليلة أمس.. وإنها غنت له أغنية!..

∞∞∞∞∞∞

قضى الطفل (بارى جيلر) - ذو الأربع السنوات – ليلة نابغية لم يستطع النوم فيها..
ثمة صوت أزيز آتٍ من مكان ما في الحجرة.. وفجأة.. التمع ضوء أحمر غامض ساقطًا فوق وجه (بارى) ففتح عينيه..
وجوار فراشه تحركت دمية تمثل (فرانكنشتاين) محركة ذراعيها باستمرار..
جال الطفل بعينيه في الحجرة متفقدًا كل الألعاب ذوات البطاريات التي يملكها.. دبابة (شيرمان).. عربة بوليس ذات قبة

مضيئة.. كل هذه الألعاب كانت تتحرك وتصدر جلبة دون أن يمسسها بشر..
ابتسم الطفل في سعادة، بينما جهاز (الفونوغراف) يدور تلقائيًا مصدرًا اللحن المميز لحلقات (شارع السمسم)[2]..
ضحك (بارى) وهرع إلى النافذة المفتوحة يتأمل الليل..
ثمة عواء كلب في مكان قصي.. لكن الفناء الخلفي كان خاويًا.
تحرك الطفل - وقد امتلأ فضولًا - إلى الصالة قاصدًا غرفة المعيشة، الغرفة المظلمة فيما عدا بعض أضواء خافتة..
لكنه أحس أن شيئًا ما لم يكن كما اعتاده.. شيئًا ما لم يكن في موضعه.. النوافذ - جميعًا - مفتوحة والستائر ترفرف في هواء الحجرة.. أما الأغرب فهو أن الباب الأمامي للمنزل مفتوح.. كاشفًا عن الليل البهيم بالخارج..
ومليئًا بالشغف شرع (بارى) يتشمم الهواء.. الهواء الذي يحمل رائحة البرق والرعود، لكنه لم يكن قد سمع أية عواصف.. لو كانت هناك واحدة لسمعها لأنه لم ينم قط ..
يا للروعة!.. كل نوافذ المطبخ مفتوحة كذلك يهب النسيم من خلالها.. والثلاجة مفتوحة تتكدس أكوام من زجاجات اللبن والمياه الغازية والزبد وبقايا العشاء أمامها..
لكن ما أثار حيرته أكثر من أي شيء هو.....
تراجع للوراء في ذعر.. ثم إنه ضحك في خبث.. وبدأ يقهقه.. هي هي!.. لعبة جديدة!.. هي هي... تواثب على كعبيه كشمبانزي.. وراح يدور حول نفسه راسمًا أكثر التعبيرات إثارة للفزع على وجهه..
بوووو!.. بوووو!.. أنا لست خائفًا!.

كانت الأم (جيلان جيلر) نائمة في فراشها تعاني كل الأعراض المروعة للانفلونزا.. ولقد اضطرها المرض إلى ترك منزلها الصغير في أتعس حال ممكن.. ذلك المنزل المنعزل فوق هضبة من هضبات (إنديانا)..

وحين دخلت الريح إلى الحجرة، وجدت أمامها أكوامًا من المناديل الورقية والأقراص الطبية وأصابع الزكام ونصف شطيرة وعلبة مياه غازية..

وصحت (جيلان) في تلك الحالة المألوفة التي تسببها الإنفلونزا، منهكة لكنها عاجزة عن النوم، تفكر لكنها لا تعرف فيم تفكر، قادرة على فعل شيء ما لكنها لا تدري ما هو ..

التلفاز مفتوح فلربما كان صوت الضحك الذي سمعته قادمًا منه ..

ولكن لا.. لقد عرفت مصدره... إنه (بارى)!

والآن تسمع صوت ضجيج الألعاب.. وفجأة ترى سيارة الشرطة الصغيرة تقتحم عليها الغرفة والأضواء الملونة تتراقص في قبتها ..

ومن خلفها الدبابة الـ (شيرمان).. ثم (فرانكنشتاين)....



عادا يراقبان شاشة الراصد فى اهتمام ، وأمامهما بدت (دايل) قلقة ، وهى تسأل (زوركوف) :ــ إلى أين تقودنى ؟

وثبت (جيلان) من الفراش فانقضت سيارة الشرطة على أصابع قدميها ثم أخطأتها واصطدمت بالحائط.. - بااااااري؟!
صرخت منادية صغيرها.. لكنها لم تعد تسمع صوت ضحكاته..

الساعة جوار الفراش تشير إلى العاشرة وأربعين دقيقة.. فماذا كان (باري) يفعل بحق السماء في هذه الساعة ؟.. لا بد أنه في الفراش منذ ساعتين..
هرعت إلى فراشه فلم تجده..
خرجت إلى الصالة فحجرة المعيشة باحثة عنه فلم تجده..
لكنها تسمع صوت ضحكاته يخفت.. يخفت.. يخفت..
غريب هذا!
كأن ضحكاته آتية من مكان ما في الظلام خارج المنزل!..
صرخت بعنف أكثر منادية إياه.. ثم عطست..
خرجت من الدار جارية في الظلام.. مطاردة نقطة لا تراها لكنها تسمع ضحكاته آتية منها.. سقطت ..
تعثرت.. واصلت الجري..
لكن الصوت يخفت.. ويخفت.. ويخفت..

∞∞∞∞∞∞

بصعوبة يمكنك أن تصدق أن هذا العالم - الذي تراه داخل مراكز المراقبة الجوية - هو عالم حقيقي، وفي حالتنا هذه نحن في مركز قريب من (إنديانا بوليس) هو كتلة من الخرسانة دفن نصفها تحت الأرض.. الأضواء بالداخل شاحبة خافتة تسمح لك بصعوبة أن ترى مكان الباب..
لا نهار.. لا ليل.. فقط تلك الكآبة الصناعية وضوء (الرادار) الخافت المنذر بكارثة ..
وفي الداخل يعمل الرجال على إبقاء الطائرات سالمة طيلة عبورها - بسرعات أكثر من ستمائة ميل في الساعة - في سماء (إنديانا)، وهو ما كانوا ينجحون غالبًا في عمله..

شرع (هارى كرين) يتنقل بين شاشات الرادار الست المضيئة، وعلى رأسه سماعتا الاتصال تخرج منهما أنبوبة بلاستيكية ملتوية هي (الميكروفون) الذي ينقل كلماته إلى الطائرات المحلقة فوق رأسه..
الرجال جالسون بقمصانهم البيضاء - دون ربطات عنق - وقد رفعوا أكمامهم إلى ما فوق الكوعين، حين دوى صوت المكبر فوق رءوسهم:
- مركز المراقبة الجوية.. هل لديكم رحلات في الاتجاه الشرقي 31؟..
تأمل (هارى كرين) الشاشة أمامه.. لم تكن هنالك سوى ثلاث رحلات على الخارطة، أمسك بالميكريفون .. وغمغم :
- الاتجاه 31 سلبي.. ليس لدىّ سوى طائرة (TWA) عند الساعة السادسة على بعد خمسة عشر ميلًا من موقعك، وطائرة (9 - DC) عند الساعة الثانية عشرة على نفس المسافة ..
وضغط الزر ليتسع مجال شاشة (الرادار).. وكانت النتيجة سلبية.. لا توجد سوى هاتين الطائرتين..
وهنا دوّي صوت الطيار من مكبر الصوت:
- ثمة شيء ما في الاتجاه ٣١ شرقًا.. الساعة الثانية.. خمسة أميال.. أعلى من الأفق قليلًا..
وهنا انحني أحد الرجال وتفحص الشاشة.. ثم أصدر همهمة مؤيدة..
استدار (هارى) إلى رجل الاتصالات.. وأمره:
- اطلب وتأكد مما إذا كان هناك شيء ما..
ثم إنه استدار ليخاطب قائد الطائرة:
- هل تستطيع تمييز نوع الطائرة؟

ساد الصمت لبرهة، فأدركوا أن الطيار يحاول جاهدًا أن يحسن أداء المهمة.. ثم سمعوا صوته يغمغم في حيرة:
- سلبي!.. لا معالم خارجية.. إن الهدف يتألق بالأنوار.. ويبدّل ما بين اللون الأبيض والأحمر بشكل مؤذ للأبصار..
بدا الذهول والاهتمام على الرجال.. وفي توتر جلس (هارى) على مقعده.. بعد هنيهة دوي صوت الطيار يواصل الكلام:
- إن الهدف يهبط.. هو على بعد ألف وخمسمائة قدم تحتى الآن.. انتظروا لحظة.. إنني أتجه لليمين تاركًا المستوى 53..
صرخ (هاري) في توتر موجهًا الأمر لرجل الاتصال:
- اطلب (رايت - باترسون) وانظر ما الذي يجربونه هناك بحق الجحيم..!
ثم عاد إلى الشاشة يصغي إلى وصف مماثل أدلت به طائرة (TWA) عن جسم غريب يتحرك بسلاسة غير عادية وتنبعث منه الأضواء..
كان المشرف على المركز قد دخل الغرفة ووقف خلف (هارى).. ولأول مرة تكلم:
- مستوى الطيران 310.. هل تريدون الإبلاغ عن شيء؟
ساد الصمت لهنيهة.. فعاد المشرف يكرر العرض:
- هل تريدون الإبلاغ عن (جسم طائر غير معروف)؟
استمر الصمت.. ثم دوّى صوت الطيار:
- سلبي.. لا نريد الإبلاغ..
- إذن هل تريدون كتابة تقرير من أي نوع؟
- لا نعرف حتى ما يمكن كتابته..
ابتسم (هارى) في رضا.. وانحنى على (الميكريفون) هاتفًا:
- إذن.. استدر يمينا إلى خط التقاطع (ج - 8).. استعد ملاحتك الطبيعية..

تبخَّر جو التوتر المخيم على المركز أخيرًا، ومال أحد الرجال على (هاري) يسأله:
- ما هو التصرف في حالة كهذه حسب الكتاب؟
هزَّ (هاري) كتفيه:
- عليّ اللعنة لو كنت أعرف.. لقد أصدرت القوات الجوية هذا الكتاب من ثلاثين سنة.. دعهم ليستكملوه الآن!

∞∞∞∞∞

فوق بيت (روى نيارى) أزت الطائرة النفاثة (DC - 9) في أثناء ابتعادها عن مسرح الحادث، لكن صوت محركاتها كان واهنًا فلم يتبين أحد من سكان الدار مرورها..
كان (روى) قد حوَّل غرفة المعيشة في داره إلى (غرفة هوايات) تتناثر فيها الألعاب هنا وهناك.. وعلى المائدة استقر نموذج لقطار صغير يسير على قضبان ما بين أشجار مصغرة وبحيرات، وكان (روى) جالسًا على الأرض جوار ابنه (براد) - ثمان سنوات – يحاول معاونته في الرياضيات، لكن الطفل كان أقل اهتمامًا بجدول الضرب منه بالقطارات الكهربية..
كان (روى) قد وعد زوجته بأن يتخلص من نموذج القطار يومًا ما.. ولكن ليس الآن.. لأنني أب يا (رونى) - اسم الزوجة - وأعرف تمامًا قيمة ألعاب القطارات بالنسبة للأطفال.. وهكذا ازدادت شبكة خطوط السكة الحديدية تعقيدًا وصارت تلتهم أكثر جهد (روى) ووقته..
سأله الطفل حالمًا:
- ماذا لو وضعنا جسرًا فوق القضبان ها هنا؟
قطب (روى) جبينه متوعدًا:

- حسبتك تدرس واجبك المنزلى..
- إنني أمقت الرياضيات... مهندسو القطارات لا يحتاجون إليها..
كذا هتف الطفل محنقًا ورمى قلمه الحبر على الأرض.. ومدّ يده إلى جيبه الخلفي ليخرج آلة حاسبة صغيرة أمام عيني أبيه المذهولتين..
وهنا اقتحم (توبي) - ابن الست سنوات – الغرفة غاضبًا.. ومشي نحو أخيه ليهزّ إصبعه في وجهه هاتفًا :
- لقد سرقت قلمي المضيء!
- لم أفعل..
بدأ الصبيان يتشاجران على حين تشبثت (سلفيا) الصغيرة بتنورة أمها، بينما هذه الأخيرة متجهة لغرفة النوم فرارًا من الضوضاء..
صاحت الأم في غلّ :
- (روى)!.. يجب أن نذهب لمكان ما!
- لكنك بالفعل تذهبين إلى مكان ما.. كلما اصطحبت (براد) إلى المدرسة ..
- يا لها من نزهة!
- أنت ترسمين صورة سيئة يا ملاكى ..
- إذن أعطني فرشاة أفضل!
- (رونى).. إذا كنت تعتقدين أن عملى في شركة الكهرباء هو نوع من اللهو فدعيني أصارحك بأن إصلاح محوّل محترق يقتضي مجهودًا قريبًا من إصلاح كل المحولات المحترقة..!..
نظرت له نظرة خاوية.. وغمغمت:
- ما أعنيه هو أن الوقت قد حان لنغير أسلوب حياتنا..
- هذا هو ما يفعله الأثرياء يا ملاكي.. كل ما عليهم هو الاتصال بـ (السوبر ماركت) طالبين حياة جديدة تمامًا..

- إذن أنا أتحدث عن نوعية حياتنا.. ليست حياة تلك التي نقضيها.. نفتش رفوف المتاجر عن ثلاث عبوات من ورق (التواليت) بسعر اثنتين..
أحس بالحرج وتوقف عن الكلام لحظة.. ثم تمتم:
- سأنال علاوة في (يناير)..
صرخ (توبي) في غضب مقاطعًا:
- لقد سرق أخي الحقير أقلامي المضيئة!
كانت (رونى) تتأمل صورتها في المرآة شاردة.. ثم تمتمت:
- إنني أبتسم أكثر من اللازم لقد صارت شفتاي رفيعتين.. إنها السن الخطرة..
صاح (روى) في الأطفال وهو ينهض:
- والان هلموا يا شباب!.. حان وقت الفراش..
احتج (توبي).
- لكنك قلت إننا نستطيع السهر ومشاهدة (الوصايا العشر) في التلفاز..
- تستطيعون مشاهدة خمس من الوصايا العشر..
وهنا دقّ جرس الهاتف فهرعت (روني) تردّ عليه، ثم إنها نادت (روى) لأن المكالمة له.. أمسك الزوج بالسماعة متسائلًا:
- ماذا حدث يا (ايرل)؟
(ايرل) هو زميله في شركة الكهرباء بالمناسبة، ولقد أخبره أن المولّد الرئيسي به عطل هائل.. وطلب منه أن يرتدي ثيابه فورًا لأن الكهرباء ستقطع في غضون ثوان..
ثم....
- تعال إلى (جيلمور) بأقصى سرعة يا (روى)..
وضع (روى) سماعة الهاتف واستدار نحو امرأته صائحًا:
- هل سمعت هذا؟

وهنا ساد الظلام الغرفة.. الظلام والسكون..

∞∞∞∞∞∞

كان (آيك هاريس) ممسكًا بسماعتى هاتف حين وصّل (روى).. إحدى السماعتين تتصل بالمصعد الذي سُجن فيه المشرف (جريمسبي).. والسماعة الأخرى توصله بالعالم الخارجي الذي أصابه الهلع..
صرخ (هاريس) وهو يرتجف:
- فقدنا خطًا حمولته 27 ألف فولت في (جيلمور).. لقد انقطع التيار الكهربي في (تولونو) و (كريستال ليك).. نعم يا سيدى.. نعم.. لا بد أن يعمل البرج ذو الخمسمائة كيلو فولت وإلا.... نعم؟.. حسن يا سيدى..
ثم نظر نحو (نيرى) في اهتمام.. وهتف في السماعة:
- سأرسل (روى نيرى) حالًا..
تساءل (نيرى) في ضيق:
- أحقًا ستفعل؟
- اذهب عليك اللعنة الآن!.. كلا!.. ليس أنت يا مستر (جريمسبى) بل (نيرى).. معذرة!
وهكذا.....
اندفعت سيارة (روى) الصغيرة عبر طريق ريفى معزول وقد غطت عجلة القيادة خريطة مهترئة تبين توزيع شبكة الكهرباء، وفي فم (روى) كانت بطارية صغيرة على شكل قلم مسلطة على الخريطة..
المذياع يبث نداءات سيارات الشرطة بعضها البعض:

- مرحبًا أيها الشريف.. دورية الطريق السريـع رقم 610.. نحن في (ريفا).. هل هناك كارثة ما؟
دوّي صوت الشريف المعدني من جهاز المذياع:
- أرجو أن تذهبا للمرأة الحمقاء المقيمة في 211 طريق (ريفا).. تقول إن ضوء المنزل الخارجي يتراقص والكلاب تنبح ..
وهنا تحرك اهتمام (روى).. إن (ريفا) جزء من (تولونو).. وهذا يعني أن الكهرباء قد عادت هناك..
رفع سماعة هاتف السيارة وتساءل:
- ت . ر – 88 .. هل أعدتم التيار الكهربي إلى (تولونو)..؟
دوّي صوت (هاريس) الهستيري المحنق عبر سلوك الهاتف:
- هل تمزح؟.. إن (تولونو) هي أول ما انقطعت عنه الكهرباء ..
- سمعت رجال الشرطة يتحدثون عن أضواء في (ريفا)..
انفجر (هاريس) بالسباب - البذيء طبعًا - من أجل حماقة (روى) الذي يتسلى بسماع نداءات الشرطة في ليلة كهذه ..
عاد (روى) يقود السيارة وقد احمرت أذناه حرجًا..
وعن بعد رأى ضوءًا عنبرى اللون يدور فوق سيارة إنقاذ واقفة.. فتوجه جوارها.. كان هذا هو برج الكهرباء المعطل وقد جاء بعضهم لفحصه..
كان هناك رجلان أحدهما هو (إيرل) الذي اتصل به في داره، من ثمّ سأله وهو ينظر لأعلى:
- مرحبًا (إيرل).. ماذا هنالك؟
التمعت أسنان (إيرل) في وجهه الزنجي.. وهتف:
- لقد سرق أحدهم ميلين من سلك التوصيل!
- هل تمزح؟
دون كلمة أخرى رفع (إيرل) مصباحه وسلط ضوءه على قمة البرج.. إلى حيث كان هناك سلكان نحاسيان سميكان يوصلان

إلى البرج التالي.. لكنهما لم يكونا في مكانهما..
- إن الخط لم يتعطل.. بل اختفى!.. لا يوجد شيء من (م - 10) إلى (م - 12)!
هتف (روى) في ذهول:
- عليّ اللعنة لو كنت أفهم.. لربما هو سعر النحاس المرتفع؟!
- لقد نصحت مرارًا بأن يمدوا أسلاك الكهرباء تحت الأرض..
- ولكن أين تقف العصافير إذن؟
ثم إن (روى) رفع السماعة طالبًا (هاريس) ليبلغه بما حدث.. فدوّى صراخه الهستيري (الذي لم يكن في حاجة إلى هاتف في الواقع):
- يجب أن تعيد الكهرباء خلال ساعة!
- ساعة؟.. مستحيل!
- حين يكون رئيسك سجينًا في مصعد معطل؛ يصير كل شيء ممكنًا!
- إن نداءات الشرطة مستمرة بخصوص أضواء غريبة في (تولونو)..
- إن كل أجهزة (الكمبيوتر) تقول إن (تولونو) مظلمة كعقلك تمامًا..
ركب (روى) سيارته دون كلمة أخرى تاركًا الرجلين واقفين وقد عجزا عن اتخاذ القرار السليم.. لقد قرر أن يذهب بنفسه ليري (تولونو)..
وابتلع الظلام صوت وأضواء سيارته..

∞∞∞∞∞∞

منطلقًا بسيارته نحو (تولونو)، أغلق (روى) جهاز الهاتف حتى لا يستطيع (هاريس) الحانق أن يجده..
النجوم تلتمع فوق رأسه في الظلام، وصوت نداءات الشرطة تدوي من جهاز المذياع:
- يو – هـ .. الضابط (لونجلي).. حوّل..
- استمر..
- بخصوص الأضواء في (10 - 75).. نحن ذاهبون للتحقق..
نشر (نيرى) الخارطة فوق عجلة القيادة، فسمع صوت فرملة عالية وسيارة تئز إلى جواره.. وشخصًا ما يصرخ منها:
- أنت في عرض الطريق أيها المعتوه!!
بعد دقائق أدرك (روى) أنه ضل الطريق فهو لم يتمتع يومًا بحاسة الاتجاه.. ها هو ذا في طريق ريفي ما يحيطه ضباب الربيع المميز لهذه المناطق.. اللعنة!.. تفقد الخريطة ثانية.. اللعنة!..
وفجأة التمع ضوء سيارة آتية من الخلف.. وازداد إشراقًا.. ازداد.. ثم توقف عن الحركة..
مدّ (روى) ذراعه الأيسر ملوحًا من النافذة كى تمرّ هذه السيارة.. لكن شيئًا لم يحدث لعدة دقائق..
إن النور يكاد يعمي عينيه.. من ثم لوّح بيده وقد نفد صبره أكثر..
وهنا.. ارتفعت الأضواء ببطء شديد لأعلى تاركة الظلام خلفها!
ولم يلحظ (روى) شيئًا من كل هذا لحسن حظه وإلا لجُنّ رعبًا..
كل ما وعاه عقله الباطن هو أن الأضواء كفت عن مضايقته..
وهنا بدأ الصوت يقعقع.. يقعقع باستمرار كأنها علب من الصفيح تتصادم..
تساءل (روى) في صمت: «هه؟»..
وإذا بضوء كشافات سيارته وأضواء لوحة القيادة.. كلها تذبل وتتلاشى حتى ساد الظلام الدامس..

ثم بدأ ضوء ساطع - لا يُوصف - يلتمع من حوله.. كأنه النهار.. ضوء لا تستطيع النظر إليه فضلًا عن فهم مصدره ..
وأحس بشيء يحرق جانب وجهه الذي ألصقه بزجاج النافذة..
مدّ يدًا مكفوفة إلى (التابلوه) باحثًا عن منظاره الأسود.. وبصعوبة ارتداه ليجد - لشدة هلعه - أنه يهتزّ فوق أنفه كأنما أصابه مسّ..



فانحنى الكهل بدوره يفحص (لوك)، ومسّ جبهته بأنامل حانية، ثم أمسك معصمه، فارتجفت جفون (لوك)..

انفتحت علبة ملأي بمشابك الورق المعدنية وطارت منها المشابك لأعلى كى تثبت نفسها في سقف السيارة!

المنظار ساخن حقًا.. إنه يحرق أنفه!.. خلعه وألقاه على المقعد، فطار ليلتصق بسقف السيارة الذي تمغنط تمامًا..
مرّت ثوان رهيبة..
ثم خمد الضوء..
سقطت مشابك الورق فوق رأس (روى)، وكفّ صوت القعقعة..
ثم - فجأة - عادت الأضواء وصوت المذياع إلى سيارته ..
صوت المذياع مليء بالتداخلات والخشخشة كأنما هناك شحنة كهربية استاتيكية تؤثر عليه..
دوّي صوت ضابط الدورية:
- قولى لى.. هل القمر بدر هذه الليلة؟
صوت امرأة يردّ في مركز الشرطة:
- لا.. القمر يصير بدرًا يوم 13 ..
- إذن أنا وزميلى نرى البدر الآن فوق هضبة (سجنال).. الكل يراه..
- صوت خشخشة - لحظة.. هو ذا يتحرك من الغرب للشرق!
صوت رجل شرطة آخر:
- هنا الوردية (10- 11).. نحن أيضًا نرى القمر بدرًا لكنه لا يتحرك.. السُحب من خلفه هي التي تتحرك معطية انطباعًا زائفًا..
- أين درست علم الفلك يا (10-11)؟.. هل سمعت في حياتك عن سحب تتحرك خلف القمر؟..
- ليكن.. موقعي هو طريق (تلمار) السريع شرق وادى (هاربر).
هتف (روى) في ذعر:
- يا الله..! أعرف هذا المكان جيدًا!
وانطلق بسيارته - التي عادت للحياة - نحو المكان، شاعرًا أكثر فأكثر بالدغدغة على جانب وجهه، متذكرًا أي هلع انتابه منذ

لحظات.. لكن الهلع قد ذهب الآن وحلّ محله نوع من شغف الأطفال..
كانت سيارات الشرطة - بدورها - تطارد هذا القمر المزيف ونداءاتها تدوّي عبر سماعة المذياع.
- إن سرعة الشيء تقل.. إنني أقترب منه أكثر.. إنه يتخذ منحنيات عجيبة بسلاسة غير عادية..
بسرعة 95 ميلًا في الساعة يسابق (روى) الزمن بين منحنيات خطرة قاصدًا وادى (هاربر)، وها هو ذا الآن في طريق ريفي ذي حارتين من ثم خفض السرعة إلى سبعين..
وهنا خيّل له أنه يرى شيئًا ما فوق الـ ....
طفل!..
يا للهول!.. ضغط الفرامل بأعنف ما استطاع، وفي اللحظة التالية رأي امرأة تنقض على الطفل لتحتضنه ثم تتجمد مكانها إذ رأت أضواء سيارته، بينما (روى) يصارع عجلة القيادة..
وبصعوبة بالغة استطاع أن يمر جوارهما ليصطدم بسياج على جانب الطريق قبل أن يتوقف..
كانت عضلات ذراعه ترتجف حين فتح الباب، وهبط مترنحًا نحو المرأة التي احتضنت الطفل في توتر ..
- سيدتى.. ما كان يجب أن تتركي طفلك..
انفجرت (جيلان جيلر) صارخة:
- إنني أبحث عنه من ساعات.. غادر الدار.. ساعات وساعات أبحث عنه.
وهنا اقتربت سيارة (بيك أب) يركبها فلاح حوله أسرته الصغيرة..
كان الفلاح يجرع شيئًا من زجاجة وهو يطل برأسه من النافذة مغمغمًا:
- إنهم يأتون ليلًا.. يأتون ليلًا حتى لا يزعجوا الأهالي..

وهبت ريح مفاجئة فتطاير شعر (جيلان) في الهواء..
ثمة شيء ما يتحرك من بعيد.. شيء ما..
- ها هم أولاء قد عادوا ..
قالها الفلاح وجرع من زجاجته في لا مبالاة يُحسد عليها..
صاح (روى) وهو ينظر لأعلى:
- ربّاه!
كان الشيء الذي دنا منهم بأقصى سرعة هو جسم ضخم تحفّ به الأضواء..
وكان هذا الشيء فوق رءوسهم الان.. يتحرك نحو الغرب محدثًا تفريغ هواء قاتلًا عجزوا معه عن التنفس..
شعرت (جيلان) بوجهها يحترق.. بينما الشيء المضيء يمر من فوقهم في بطء شديد.. (روى) يحتضنها لاشعوريًا.. ضوء أحمر صغير غير مفهوم يدور دورة سريعة ثم يلحق بالجسم الضخم.. ويغيبان في الأفق..
الطفل يتواثب في مرح مهللًا:
- (آيس كريم)!..
أما (روى) و (جيلان) فتجمدا لاهثي الأنفاس عاجزين عن الكلام..
وفي هذه اللحظة انطلقت كالرصاصة – بسرعة 120 ميلًا في الساعة - سيارتا شرطة مطاردتين هذا الجسم العجيب..
- إنهم مجانين!
غمغم (روى) بينما سيارة شرطة أخرى تزأر مارة بهم..
- كاد هذا المجنون يصدمنا!
ثم ركب سيارته محاولًا تحريرها من السياج المهشم.. لقد دار المحرك لحسن الحظ.. ها هو ذا.. لقد انتهى الكابوس..
ولم يكن يدرى أن هذه هي البداية..

∞∞∞∞∞

2 – الهاجس ..

ضاغطًا على دواسة البنزين اندفع (روى) بسيارته عبر الطريق السريع، مصغيًا إلى نداءات رجال الشرطة عبر جهاز المذياع..
كان من الواضح أنهم ما زالوا في إثر الجسم المضيء..
عداد السرعة يثب إلى 95 ميلًا.. 97 ميلا .. 99 ميلًا..
وبدأ يتبين الأضواء الخلفية لسيارات الشرطة التي تطارد الهدف..
لم تكن المحاولة ذات جدوى لأن الأضواء الغامضة بدأت ترتفع لأعلى.. لتمتزج بالسحب المظلمة.. وتتلاشى تمامًا..
وأخيرًا قرر (روى) أن ينسى الأمر برمته ويعود إلى (إنديانا)...
وهنا رأى في الأفق البعيد شريطًا من الأضواء.. هل هي آتية من (تولونو) أم من وادي (هاربر)؟.. المهم انقطاع التيار قد انتهى..

∞∞∞∞∞∞

حين عاد (روى) إلى داره كانت الرابعة بعد منتصف الليل..
- (رونى)... (رونى)!
نادي زوجته وهو ذاهب إلى غرفة النوم، بينما كل عضلة في جسده ترتجف نتيجة لمخزون خفى من (الأدرينالين) في دمه، الغثيان يخنقه من فرط الإثارة التي عاشها ..
- استيقظي يا حبيبتي!
اتسعت عيناها الزرقاوان هلعًا من وراء خصلات شعرها الأشقر المبعثرة..
- ماذا هنالك؟.. حريق؟.. أطفالي!
- الأطفال بخير.. لن تصدقي يا ملاكي ما رأيت..

نظرت للساعة المضيئة خلفه.. وغمغمت وهي تجذب الملاءة لتغطي رأسها:
- بالفعل لا أصدق.. لا أصدق أن توقظني في هذه الساعة..
هتف في انبهار:
- إنهم لا يتركون أصواتًا خلفهم.. لا شيء سوى الريح.. وفجأة.. وووش!.. ثم.. وووش!.. ثم أخيرًا ووووش صغير أحمر اللون!

لم تعلق (رونى).. لكنها غمغمت من تحت الأغطية:
- شركة الكهرباء تحاول من فترة الاتصال بك دون جدوى..
- أعرف.. لقد أغلقت هاتفي..
- ما كان يجب أن تفعل أيها المعتوه.. اتصل بهم الآن..
- لا وقت لهذا السخف!.. هلمي غادرى الفراش.. يجب أن ترى هذه المعجزة بعينيك!
قالها وجذبها خارج الفراش، لم تر أثرًا للدعابة في كلامه فآثرت السلامة وأصلحت من شأن شعرها متذمرة:
- لكننا لن نترك الأطفال..
- الأطفال... حقًّا!.. يا أطفاال!.. يا أطفاااال!
وفي هستيريا شرع يضع الأطفال الناعسين في ثياب الخروج، ثم حمل معه كل كاميرا في الدار.. وكل منظار مقرب او تليسكوب..
تساءل (براد) الصغير في تعاسة:
- هل نحن ذاهبون للنزهة؟
صاح أخوه (توبي) في فظاظة وقد تذكر:
- لص!.. أنت سرقت قلمي المضيء!
لكن (روى) لم ينتظر لحظة.. بل جرّ الأسرة كلها إلى الفناء الخلفي ليركبوا السيارة الواقفة هناك.. فهتفت الزوجة بعينين مغمضتين:

- (روى)... لقد انتصرت لوجهة نظرك وأخرجتنا جميعًا من الدار.. والآن هلا عدنا إلى الفراش؟
لم يرد (روى) وساعد الأطفال على الركوب، فجلست المرأة جواره، ونظرت إلى وجهه في حيرة ثم تساءلت:
- (روى).. ماذا حدث لوجهك؟.. إنه نصفه أحمر!
نظر إلى المرآة.. وأطلق سبّة.. ثم غمغم:
- لنقل إنني كنت أصطاف في أثناء نومك!
وهدر محرك السيارة منطلقًا إلى الطريق العام.. إلى المكان الذي شهد الحفل.. إلى السياج المحطم حيث قابل الفلاح وأسرته وكاد يصدم ابن (جيلان)..
إنه ينتظر.. ينتظر ماذا؟.. ينتظر أن تتكرر هذه التجربة.. أرجوك تكررى!..
إن الشغف يملؤه ليرى نفس الشيء من جديد.. لكن الليل يلاعبه لعبة قاسية.. ولم يعد رجال الشرطة ها هنا..
فتحت الزوجة عينيها من نعاسها العميق.. وتلفتت حولها.. ثم سألت:
- ماذا تفعل هنا يا (روى)؟.. ما الذي تنتظره؟
- ستعرفين ما أعنيه حين ترينه..
وأخذت عيناه تمسحان الظلام وتنظران للسماء.. في توسل..
- (روى).. إذن قل لي كيف يبدو..
بلّل بلسانه شفتيه.. وغمغم:
- مثل.. مثل قمع (الايس كريم)!
كان هذا فوق قدرتها على الاحتمال.. لذا سألته ببراءة قاتلة:
- أي نوع من (الآيس كريم)؟
- برتقال.. (آيس كريم) برتقال.. ولكن.. لا.. لم يكن كذلك.. بل هو مستدير وضخم..

ثم نظر لها.. وأسقط في يده حين أدرك أنها تمزح.
قربت وجهها من أذنه وأشارت إلى النجوم المترقرقة في السماء.. وهمست:
- هل تذكر الماضي؟.. حين كنا نجيء لأماكن كهذه كي ينظر كل منا للآخر؟
لكن (روى) كان أبعد ما يكون عن الرومانسية في هذه اللحظة ..
لم تتحمل هذه الإهانة.. فانفجرت أخيرًا برأيها فيه..
رأيها في الرجل الذي يوقظ أسرته - محطمًا دورة النوم عندها - ليأخذ أطفاله إلى مكان كهذا، زاعمًا أنه رأى فيه (آيس كريم) برتقال لكنه مستدير وضخم..
- سينام الولدان في الصف غدًا.. وستظل (سيلفيا) مستيقظة حتى الثالثة صباحًا في الأيام التالية.. (روى).. نحن أسرتك.. لا تعاملنا بهذا الأسلوب.. إنه ليس الأسلوب الطبيعي.
- طبيعي؟
نظر لها (روى) في حيرة.. لم تكن تعرف - ولا هو يعرف - أن علاقته بكل ما هو طبيعى قد دنت من نهايتها..

∞∞∞∞∞∞∞

لا توجد طرق مختصرة للوصول إلى (بناريس)..
ولا يمكن إرسال طائرة حربية - حتى بمعونة الحكومة الهندية - إلى هذه المدينة العريقة المقدسة عند الهندوس، لأن الهنود لن يقبلوا ذلك.. بالإضافة إلى أن هذا سيضرّ بسرية المشروع..
كان (لوفلين) واثقًا بأن (لاكومب) - لو أعيته الحيل - سيذهب إلى (بناريس) مرتديًا ثياب (غاندي) البسيطة حافي القدمين متكئًا

على عصا خشبية، لهذا شعر بالامتنان للطائرة النفاثة التي نقلتهم من (باريس) إلى (رانجون) في نصف يوم..
ثم إن (هليكوبتر) حملتهم فوق الهضاب إلى (بناريس) خلال نصف ساعة، لكن الهبوط كان مشكلة حقيقية وسط هذه الحشود..
صاح (لوفلين) في ذهول:
- انظر إليهم!.. إنهم ألوف!
صحح له (لاكومب) كلامه:
- بل مئات الألوف؟
- مذهل..!
قال (لاكومب) رافعًا صوته فوق صوت المحركات:
- إن (السادو)[3] رجل مقدس عندهم.. لكنه أيضًا رجل عملى، ولقد ظل يصغي أعوامًا.. وهو الآن ينتظر النتائج..
- كنت أظن أن (الهندوس) لا يبغون سوى السلام النهائي مع (النيرفانا).
هبطت (الهليكوبتر) مبعثرة الرمال هنا وهناك، ثم نزل (لاكومب) منها ومعه (لوفلين) وفنيان..
أشعة الشمس تنحدر أفقيًا منذرة أن نيرانها بعد قليل ستتدارى خلف الهضاب الغربية..
وبدأ (لاكومب) التحرك، خلفه الرجال يحملون جهاز التسجيل وآلة تصوير 16 مم وبطارية، يتقدمون ما بين صفوف الحجاج..
الحجاج الذين ازدحموا وبعضهم أحضر معه سلال الطعام، وبعضهم بدت عليه سمات الجوع والفقر..
عائلات كاملة كانت هناك.. والجميع ينتظر شيئًا ما.. كان (السادو) جالسًا في وضع زهرة (اللوتس).. قدماه متقاطعتان

تحته وعيناه مغلقتان وكفاه متلاصقان.. كأنه طائر عملاق يتأمل..
وعندما وصل (لاكومب)؛ نهض أحد (البراهما) في حين دنا (لوفلين) كي يترجم ما يقال.. ولم يحتج (لوفلين) لكثير ذكاء كي يعرف أن (البراهما) هو (مدير أعمال) الكاهن..
لم يبد على (السادو) أي انفعال - ولا حتى طرفة جفن - تدلّ على أنه يدرك ما يدور حوله، من ثم اضطر (لاكومب) إلى أن يجلس جواره في وضع مماثل لوضعه على مسافة معقولة طبعًا..
وبدأ شريط التسجيل يدور.. وكذا آلة التصوير..
تساءل (لوفلين) في سره عما يفعلون في هذا المكان العجيب.. ماذا ينتظرون؟.. لقد تكلم التقرير عن حادث لا يُصدّق فأين هو..؟
وهنا بدأ (السادو) يتحرك.. ببطء.. ببطء ..
ارتفع جفناه لأعلى.. عيناه السودوان في محجرين شديدي البياض تحف بهما أهداب كثيفة سوداء..
وببطء بدأ يقف على قدميه.. تاركًا الباقين جاثين على ركبهم..
فرد ذراعيه على امتدادهما كطائر عملاق يوشك على الرحيل إلى السموات، في حين توارى قرص الشمس خلف ظهره..
رفع ذراعيه فوق رأسه هنيهة ثم عاد يهوي بهما إلى جانبيه كأنه مايسترو يقود أوركسترا كونية..
نغمة خفيفة تتعالى من ألوف الحناجر..
باستمرار وثبات بدأت النغمة تحفر طريقها إلى مخ (لوفلين)..
ثم إن (السادو) حرك ذراعيه طالبًا نغمة أخرى من الجموع..
نغمة أكثر ارتفاعًا..
الحجاج يرددون النغمتين على التوالي.. ثم لحظة صمت..
بعدها جاءت النغمة الثالثة.. فالرابعة.. فالخامسة..

الأرض تهتزّ بالنغمات الخمس مرارًا ..
النغمات التي قالت التقارير إنها أتت من النجوم منذ أربع ليال..
ومن حينها ظل (الهندوس) يرددونها مئات المرات..
حتى الهواء نفسه يهتز بالنغمات الخمس ..
إنه الظلام...
النجوم تلتمع فوق الرءوس..
رفع (لوفلين) رأسه ليرمق النجم الموجود عند طرف (وعاء الدب الأكبر).. خيل له أنه يتلألأ مع النغمات.. كأنما ليرسل رسالة بشفرة (مورس)..
ثم.. إذا بالنجم ينفجر..
ضوء قرمزى يلتمع.. ثم يصير برتقاليًا.. فأصفر.. فأخضر باهتًا..
وإذا بالنغمات الخمس تدوي عبر الأجواء..
تعزفها آلة موسيقية لم يصنعها بشر..
ساد الصمت بين الحجاج..
وهتف الرجل الذي يحمل الكاميرا:
- ياللعنة!!
وهنا انتهت الأغنية..
نظر (السادو) إلى (لاكومب).. وهمس بالإنجليزية:
- السماء.. السماء تغني لنا!
تعانق الرجلان والدموع تنهال على خديهما.. وهمس (لاكومب) بلكنته الفرنسية:
- إنها تغني لنا جميعا أيها الصديق!

∞∞∞∞∞

يحاول (نيرى) أن يركّز بعض تفكيره على عملية حلاقة ذقنه..

كان واقفًا أمام مرآة الحمام يفرغ علبة صابون الحلاقة على كفه، ثم يرفع هذا الكف صوب خده.. حين...
حين لفت نظره شيء ما...
رفع كفه - وجبل صغير من الرغوة فوقه - إلى مستوى بصره، ثم بدأ يحاول إعادة تشكيل الصابون في صورة ما ..
إن هذه الصورة تتجاوز وعيه.. لكنها تذكره بجنون بشيء ما.. شيء يفوق قدرات العقل البشرى ..
كلنا نجتاز هذه المواقف.. مكان تحسب أنك رأيته من قبل.. وجه يبدو مألوفًا.. لكنك واثق بأن هذا لم يحدث قط .. يسمى علماء النفس هذه الظاهرة باسم (ديجافو)[4] .. بالتأكيد إن ما يشعر به الآن هو نوع من هذه الضلالات..
وهنا دخلت (رونى) الحمام فالتفت لها ليريها ما في يده:
- (رونى).. بم يذكرك هذا؟
لم ترد على سؤاله.. وببرود قالت:
- الليلة سيكون هناك حفل.. ولا أريد منك أن تحكى قصة (الآيس كريم) للناس حتى تعرف حقيقة ما تتحدث عنه..
- كل ما هنالك أنني أريد أن أعرف ما يحدث في هذا العالم..
قالت (رونى) كأنها تقرر حقيقة نهائية:
- إنه مجرد (شيء من تلك الأشياء).. والآن لنغلق هذا الباب للأبد.
وهنا دقّ جرس الهاتف، فرفعت (روبى) كف (روى) المغطى بالصابون، وضغطتها على وجهه مداعبة.. تلوّث وجهه بالصابون فبدا كلعبة من التي توضع في بانيو الحمام..
ثم إنها هرعت لتردّ على الهاتف..
بعد دقائق عادت له مرتجفة والدموع في عينيها..

- (روى).. كان هذا هو المشرف (جريمسبى) من شركة الكهرباء..
- عليه اللعنة..
- لقد طردوك يا (روى)!
وارتمت بدموعها في أحضانه.. الخدان متلاصقان.. كريم الحلاقة والدموع.. وتهاتفت:
- ماذا سنفعل؟.. لقد طردوك.. لم يحاولوا حتى الكلام معك!
لم يردّ (روى) بل ظل يرمق المرأة في بلاهة:
لم يكن ينظر إلى وجهه ولا وجهها - حيث تبكي على كتفه - بل إلى صورة غرفة النوم خلف كتفها.. غرفة النوم حيث تكدست الوسائد فوق الفراش في إهمال فبدت كجبل صغير كالذي كان يصنعه بكريم الحلاقة منذ دقائق..



لم يردّ (روي) بل ظلّ يرمق المرأة في بلاهة:
لم يكن ينظر إلى وجهه ولا وجهها – حيث تبكي على كتفه..

غمغم لنفسه:

- كلا.. ليس هذا هو الشكل المطلوب..

∞∞∞∞∞∞

حينما تصير عاطلًا؛ يكون عندك وقت كاف لعمل كل ما يروق لك..
كان (روى) يذهب إلى (هناك) كل ليلة، وكان الجميع قد صاروا أصدقاء قدامى..
منهم الفلاح الذي كان مع أسرته في تلك الأمسية، وامرأة عجوز أحضرت كرسيًا هزازًا وجلست تحيك بالإبرة، وامرأة معها ألبوم صور يحوي صورًا لهذه الأشياء التي اتفق الجميع على تسميتها بـ (أشياء الليل)..
حتى صوت طائرة نفاثة تحلق في الشمال كان كفيلًا بجعلهم يتوترون..
ركع (روى) جوار عجوز في الثمانين من عمرها.. وتساءل:
- هل يأتون هذه الليلة؟
ترقرقت عيناها بالدمع.. وهمست:
- أتمنى ذلك.. ألا تتمنى أنت؟
- بلى..
قالها بصدق.. قالها بحرارة.. وتركها ليتفقد رفاق التجربة الآخرين.
لقد بدأ هذا الحشد يجتمع هنا كل ليلة بعد ما ظهرت (أشياء الظلام)، واعتاد (روى نيرى) أن يلحق بهم..
وفي الظلام ميّز تلك المرأة وطفلها اللذين كاد يدهمهما في تلك الليلة بسيارته..
رفع ذراعه محييًا فجاءته مع الطفل:
- أتذكرنا؟
- وكيف أنسى؟
- (جيلان جيلر).. وهذا هو طفلي (بارى)..

ثم أشارت إلى لوحة الشمس على خده.. فهمس (روى):
- أتعشم أن أحرق الخد الآخر هذه الليلة..!
- أنا أيضًا أصبت بحروق..
قالتها وفتحت البلوزة كاشفة عن عنقها حيث كان الحرق.
- احمرّ وجه (روى) حياء فقالت:
- معذرة.. إن رؤيتنا (للأشياء) معًا قد جعلتني أشعر أنك أخي..
وهنا استرعي (بارى) الصغير انتباههما.. كان جالسًا على الأرض يصنع من الطين جبالًا صغيرة.. وأدرك (روى) - في هلع - أن الطفل يحاول تشكيل نفس المنظر الذي يؤرقه هو..
سألت (جيلان) في شرود:
- هل فهمت زوجتك كلامك حين وصفت لها ما رأيناه؟
قال بشيء من السخرية المريرة:
- طبعًا.. فهمتني....... تمامًا..!
- لقد اتصلت بأمي أخبرها فقالت إن هذه هلوسة ناجمة عن حياتي وحيدة..
- وأين والد (بارى)؟
- متوفي..
ونظرت إلى بعيد.. ثم ساد الصمت بعض الوقت..
تأمل (روى) الجبل الصغير الذي كان الطفل يصنعه ثم أضاف بعض قطع الحصى حوله، وسأل المرأة وهو لا يرفع عينيه عن الجبل الوليد:
- بمَ يذكرك هذا؟
انحنت على الأرض لتضيف بأظفارها بعض الخشونة إلى جانب الجبل الناعم.. وقالت:
- أفضله هكذا ..
- وكذلك أنا.. ولا أدري السبب..

وفجأة صرخ أحدهم:
- انظروا نحو الشمال الغربي!
نظرت (جيلان) و (روى) إلى حيث أشار.. وساد الصمت..
رأي الحشد ضوءين ساطعين يتحركان أمامًا وخلفًا يرتفعان.. ويهبطان.. ويقتربان..
رفع (روى) الكاميرا.. وغمغم من بين أسنانه:
- هذه المرة أنا مستعد..
الضوءان يقتربان.. يعميان الأبصار بلا رحمة..
وكانت ذراع (روى) ترتجف انفعالًا..
الضجة تتعالى.. تتعالى، الهواء يتحرك.. تزداد سخونته ثم...
كانت طائرتا (هليكوبتر) خاصتان بالقوات المسلحة تحلقان فوق الحشد، وصوت المحركات يصم الآذان..
والمراوح الرأسية تطير المقاعد والحقائب والبطاطين..
وتعمى العيون بالضوء والغبار..
ثم تبتعدان بعد ما أشبع الطياران فضولهما..
كان الهواء نفسه يهتز كما حدث في تلك الليلة..
وللمرة الأولى بدأ الشك يساور (روى) حول حقيقة ما رآه في تلك الأمسية..
فكل ما رآه قد تكرر.. لكن السبب معروف في هذه المرة..

∞∞∞∞∞∞

منتصف الليل في (بارستو) بولاية (كاليفورنيا)..
النجوم تلتمع كماسات معلقة في عباءة الليل.. على حين تصغي أذن التلسكوب (جولدستون) العملاقة إلى السماء.. وهو نفس

التلسكوب الذي يقفو آثار الأقمار الصناعية وسفن الفضاء.. (فايكنج).. (ساتيرن).. (فويجر).. (مارينر)..
وكان المكان يعجّ بالأجهزة وشاشات (الكمبيوتر)..
لكن أغرب الأشياء على الإطلاق كان هو مشهد (لاكومب) جالسًا أمام جهاز (سينثسايزر) يعزف على مفاتيحه خمس نغمات متوالية.. إننا نذكر هذه النغمات..
سمعناها في (الهند).. في (بناريس).. حين عزفتها النجوم..
ثم جاءت الإجابة..
فجأة انفجر شلال من الورق خارجًا من أجهزة الطباعة.. ورق مليء بالأرقام..
لقد تم الاتصال.. (لاكومب) واثق من هذا..
التف الرجال حول الأرقام يطالعونها.. لكنهم لم يفهموا شيئًا..
قال أحدهم :
- يبدو لي هذا كرقم بطاقتي الائتمانية!
- أو هذا الرقم (40 - 36 - 10) هو مقاييس رجل نحيل جدًّا..!
تعالت الضحكات.. لكن (لاكومب) لم يفهم الدعابة..
نظر نحو المترجم طالبًا شرحه، لكن (لوفلين) كان شاردًا يتأمل الأرقام وقد بدا عليه الاهتمام..
ثمة فكرة تلتمع في ذهنه.. فكرة مجنونة..
ثم إن (لوفلين) صاح في الحشد الصاخب:
- من فضلكم!!
فساد الصمت..
قال وهو يتأمل الأرقام التي أمامه :
- قبل أن تتحول مهنتي إلى مترجم كنت أقرأ الخرائط.. وهذه الأرقام تبدو لي كخطوط طول وعرض..

ساد الصمت برهة ثم تواثب الجميع حول (لوفلين) يطلبون تفسيرًا..
قال أحدهم:
- لربما هم يعطوننا إحداثيات مجرة.. زاوية سمت أو شيئًا من هذا القبيل..
- لا أعتقد ذلك يا رجل.. أعتقد أن هذه إحداثيات موقع أرضي...!
كان هذا أقصى ما يحتمله الجالسون، وبدا للحظة أن كل إنسان يفتش عن خارطة، ثم تذكروا أن هناك نموذجًا للكرة الأرضية في غرفة المدير..
اقتحموا الغرفة وانتزعوا الكرة من مكانها، ودحرجوها - كلاعبي كرة السلة - إلى الردهة، ثم ركع (لوفلين) على ركبتيه يتفحصها.. ويتتبع خطوط الطول:
- إننا نصعد أعلى عبر (أنتاركيتكا).. المحيط.. المحيط.. جزيرة عيد الفصح.. (المكسيك).. كهوف (كارلسباد).. ثم....
في نفس اللحظة مدّ أحدهم إصبعه يتتبع خطوط العرض:
- (مين).. (نيوهامبشير).. (منيسوتا).. (ساوث داكوتا).. ثم...
وتقاطع الإصبعان - الطول والعرضي - عند بقعة شمالى غرب ولاية....
- (وايومنج)!..
صاح المدير في جنون:
- لا تقفوا هكذا كطيور البطريق..!.. أحضروا لي خريطة مقطعية لولاية (وايومنج) بكل معالمها!..
عاد (لاكومب) إلى جهاز (السنثسايزر) يواصل ضرب النغمات الخمس.. في حين كان الحشد حوله يحتفل بأول اتصال حقيقي يتم مع الفضاء..

∞∞∞∞∞∞

كان (الاكسليفون) الصغير في حال سيئة..
لهذا بدت النغمات الخمس غريبة حين عزفها (باري) الصغير عليه..
ولم يعزفها بسرعة لكنه ظل يحاول مرارًا حتى وصل إلى النغمة المطلوبة.
أما الأم (جيلان) فأمضت اليوم ترسم أشكالا لا نهاية لها بالفحم والباستيل.. فقد بدأت حياتها تدرس الرسم، ولم تتخلص قط من هذه العادة..
اليوم وجدت نفسها ترسم جبلًا بعينه مرارًا لا حصر لها.. جبلًا طويلًا مدببًا كإصبع أرضي يفقأ عين الشمس..، وكانت أخاديد خشنة تحيط به على عدة مستويات.. لا تدري لماذا أحبّت رسم هذا الجبل..
وهنا دوّى الرعد..
خرجت (جيلان) إلى الخارج لترى، فوجدت السحب تحتشد في الغرب حاجبة الشمس الغاربة.. الهواء يزداد سمكًا معطيًا صوت وإحساس سرب من النحل..
ثم بدأت السحابة تتحرك الأسفل..!
نعم.. لأسفل.. نحوها!.. بينما داخلها تتواثب لمحات من الضوء الملون..
همست في جزع:
- يا إلهي!
وتراجعت للوراء ببطء.. ببطء.. لم ترد أن تجرى حتى لا ينتابها الهلع.. إن هذه السحابة قادمة إليها.. وهي حقيقة لا وهم..



وعلى الرغم من أن المرأة لم تر سمكة القرش، إلا أن الخوف سرى في عروقها، ودفع كمية من الأدرينالين إلى دمائها..

دخلت المنزل.. أوصدت الأبواب.. أغلقت النوافذ..
ازدادت سرعة حركاتها.. وبدأ الذعر يتملكها..
كان (بارى) سعيدًا.. يقهقه فرحًا مما هدأ من روعها نوعا..

ثم - فجأة - ازداد ذعرها.. إن هذا غير طبيعى.. لا يوجد طفل يضحك بكل هذه السعادة بينما الرعد يزأر..
وفجأة وثب الطفل من مكانه جاريًا نحو النوافذ ليفتحها.. والستائر ليزيحها..
- (بارى)!.. لا!
أمسكت به في غرفة المعيشة، حين التمع البرق خلف ستارة النافذة ودوى هزيم الرعد..
ثم انطفأ النور..
وإذا بجهاز التلفاز والستريو والمكنسة الكهربية كلها تدور تلقائيًّا..
ثم سمعت (جيلان) الصوت.. وبدا لها.. كالمخالب التي تخدش ما فوق رأسها..
حدقت في السقف بعينين متسعتين..
صوت المخالب يهبط عبر المدخنة.. قادمة نحوها..
وهنا دوّى صوت عال.. وغرقت الغرفة في ضوء برتقالي.. وانفتحت كل النوافذ.. فخرّت (جيلان) على ركبتيها مغطية أذنيها..
نور الحجرة يفعل أشياء شاذة.. فمرة يغدو حُمرة باهتة ثم يتألق إلى بياض مزرق يصيبها بالعمى.. وكان (بارى) في الـ ....
صوت الستريو يتعالى.. والمكنسة الكهربية تعوى ألمًا.. ثم تنطلق مطاردة (جيلان) عبر الغرفة.. بينما (بارى) في الـ .....
هي تسمع ضحكته المنتشية في الظلام..
في المطبخ انفتح باب الثلاجة وأخذت أضواؤها تتلألأ باستمرار.. بينما (بارى) في الـ ....
ها هو ذا!.. يزحف على ركبتيه محاولًا الخروج من الفتحة الصغيرة المخصصة لدخول وخروج الكلب، أمسكت بكاحله

وبدأت تجذبه للخلف نحوها..
رائحة الكهرباء في الجو..
لكن قوة ما تجذبه إلى خارج البيت..
توسلت (جيلان) في هستيريا:
- أرجوك.. أطلق سراحه!
جذبته بقوة أكثر.. ثم أدركت - دامعة - أنها إن لم تطلق سراحه فلسوف يتمزق جسده الصغير.. لهذا تركته ينزلق للخارج.. وفي الثانية التالية كان قد اختفى ..
اندفعت (جيلان) تفتح باب المطبخ وهرعت إلى الفناء الخلفي..
لكن (بارى) لم يكن هناك..
رأت شيئًا يشبه الإعصار يدور حول المنزل مرتفعًا نحو السحابة.. التي ارتفعت بدورها إلى عنان السماء..
لم تدر (جيلان) ما تفعله.. فقط شرعت تركض خلف السحابة..
تركض إلى أن تعثرت.. وفقدت وعيها..
كان آخر ما رأته هو نجم متفرد فوق رأسها يستحيل من اللون الأبيض إلى الأزرق فالأحمر..
ثم غاب عن عينيها..
وغابت هي عن الوجود..
∞∞∞∞∞∞

3- هل جن زوجي؟!..

- ما الذي تفعله في الجراج؟
- مجرد نجارة..
قالها (روى) رافعًا صوته ليتغلب على ضوضاء مياه الصنبور إذ يغسل يديه..
ثم خرج من الحمام يجفف وجهه في منشفة.. ووقف جوار (رونى)..
- جاءتك مكالمة ..
نظر نحوها منتظرًا بقية الخبر.. فرأى الابتسامة الخبيثة على شفتيها:
- لم تقل اسمها..
- هي؟!
- بدا لي أنها صدمت حين عرفت أنني زوجتك..
- من هي؟
- وضعت السماعة قبل أن تقول..
نظر (روى) إلى ساعة الحائط.. وغمغم:
- إن الوقت قد حان للذهاب إلى الاجتماع الذي نظمته القوات الجوية..
وكانت (رونى) ستصاحبه..
خمسون ميلًا.. يجب أن تقطعها السيارة إلى القاعدة الجوية، وقد وصلا قبل أن يبدأ الاجتماع بخمس دقائق، الاجتماع الذي أعلن عنه التلفاز منذ أيام..
سأل (روى) عن مكان استعلامات المدنيين فأخبروه به..

دلفا إلى قاعة الاستقبال وجلسا على بعض المقاعد ينتظران مع مجموعة أخرى من الناس.. وهنا دخلت (جيلان جيلر) من الباب فنهض المحررون الصحفيون يصبون فوقها جحيمًا من أضواء الفلاش..

- مسز (جيلر).. هلّا أعطيتنا حديثًا؟

بدت (جيلان) منهكة مُهدّمة، ولم تنبس ببنت شفة..

- مسز (جيلر).. قلت إن طفلك أختفي.. ولم يترك أحدهم طلب فدية.. فهلّا كررت قصتك أمام عدسات التلفاز؟

- ماذا حدث وقتها بالضبط؟

بدأت (جيلان) تفقد أعصابها، وسط زحام الأسئلة الجشعة القاسية فتراجعت نحو المصعد حين لمحت (نيرى) واقفًا عبر الغرفة.. فهتفت في هلع:

- لقد نالوا منه!

ودخلت المصعد على حين حرقت (رونى) زوجها بنظرة مقيتة.. لقد فهمت أن هناك شيئًا ما بين الاثنين..

ودخل (سيرجنت) يرتدي ثيابًا مدنية إلى الحجرة وقال للجمع..

- هلموا يا شباب إلى الداخل..

كان عددهم ثلاثين أو نحو ذلك من المدنيين الذين شهدوا الحدث.. وكان هناك بالداخل حشد من القوات الجوية والصحفيين.. فأدرك (نيرى) أن العلانية ستكون هي شعار الجلسة..

كان رجال القوات الجوية يحاولون إقناع الموجودين - سُدى - بأن ما رأوه هو ظاهرة جوية كهربية تحدث مرارًا.. لكنهم اعترفوا بأنهم لم يجروا أية تجارب في المنطقة، وبالتالي لا يملكون تفسيرًا محترمًا لما حدث..

وكانت النتيجة هي مشادة بين (روى) ومدير الجلسة.. مشادة لا يعرف لها سببًا، فلم يكن قط بهذه العصبية والتوتر..
ثم إنه انصرف محنقًا..
أما (جيلان) فقد سئمت التحقيقات المتكررة حول اختفاء طفلها، من ثم أغلقت دارها عليها واعتزلت الجيران، ومضت ترسم تكرارًا ذلك الجبل..
ذات الجبل الذي ترسمه كلما خلت لنفسها..

∞∞∞∞∞

قرب (هانتسفيل) بولاية (تكساس).. في مصنع حديد مهجور..
رتل من شاحنات النقل العملاقة يقوم حشد من الرجال بتحميلها بسرعة وكفاءة، والحمولة هي عدد من الصناديق والحقائب البلاستيكية المغلقة بإحكام يقوم بتعبئتها رجال يرتدون المعاطف .. على حين تقف مجموعة من سيارات (الجيب) تنتظر شيئًا ما..
توقفت سيارة (فولكس فاجن) قرب الزحام، ومنها نزل (لاكومب) معه (لوفلين) و (روبرت)..
سأل أحد المساعدين (لاكومب):
- هل ثمة شيء في حقائبك تحتاج إليه؟ يجب أن نضعها على متن الطائرة حالًا ..
فهم (كومب) - الذي لم ينم منذ ثلاثين ساعة - السؤال دون ترجمة، فهزّ رأسه أن لا.. شكرًا..، ولم يتمالك (لوفلين) نفسه من الذعر حين أدرك أن (لاكومب) سيظل ساهرًا لمدة ست وتسعين ساعة أخرى!.. فالفرنسي كان - ببساطة - عاجزًا عن النوم من فرط الاستثارة..

في ذلك الوقت كان الميجور (والشي) واقفًا مع آخرين يدخنون السجائر ويجرعون القهوة.. لقد عاد الميجور لتوه من بعض العمليات الخاصة في (تنزانيا) و (زائير) ليجد مسئولية مفزعة على عاتقه..

- إنذار بالزلزال؟!.. لن يصدق أحد حرفًا.. إن هناك فلاحين وهنودًا وحيوانات.. وكلهم يعرفون أن الزلازل غير واردة..

قال رجل منهك نحيل القامة:

- ما زلت أحبذ الفيضانات!

- ومن أين تأتي بالماء؟

قاطعه أحدهم وهو يعابث سلسلة مفاتيحه:

- وماذا عن احتمالات الوباء؟.. هناك أبقار كثيرة في (وايومنج) وسيكون مرض الحمرة معقولًا..

أشعل الميجور (والشي) سيجارًا.. وغمغم:

- لا بأس.. لكنها لن تكفي لإخلاء الجميع.. لابد من مهرج هنا أو هناك يزعم أنه مُحصّن.. أريد حجة قوية تسمح بإخلاء ثلاثمائة ميل مربع من كل كائن حيّ..

وكانت الشاحنات كلها تستعد للرحيل أمام عيني (لاكومب) الذي أخذ يمضغ قطعة من اللبان الأمريكي متعجبًا من أسلوب الأمريكان في الحياة، وإذا بسائق الشاحنة الأولى يخرج رأسه صائحًا:

- إلى الغرب!.. هوهوه![5]

وتحرّك الركب..

∞∞∞∞∞∞

قالت (رونى) لأمها في الهاتف:

- لا يا أمي.. أستطيع تولي الأمر بنفسي.. شكرًا على كل حال..

وقلبت المزيد من الصلصة في الوعاء.. ثم غطت السماعة بيدها، وقالت لـ (توبى):
- اذهب وأخبر أباك أن العشاء معدّ..
تردد (توبي) للحظة.. ثم وقف جوار أمه حيث وقفت في المطبخ يسترق السمع:
- انت لا تعاونيني يا أماه..
- واصلت (رونى) الشكوى - إنه لم يطلب رأي الأطباء.. لم يسأل أحدًا..
واختلست نظرة من نافذة المطبخ إلى (روى) حيث جلس على سقف الجراج على مقعد متحرك، وعلى عينيه وضع منظاره المقرب يمسح به الأفق جيئة وذهابًا..
- هو يقضي الوقت باحثًا.. نعم.. ليس عن عمل بل عن شيء آخر..
ثم نظرت نظرة قاسية لـ (توبى) كى تجعله ينصرف.. وأردفت:
- أماه.. يجب أن أنهى المكالمة الآن..
ثم وضعت السماعة في شيء من الحدة..
خرج (توبى) إلى الخارج ونادي أباه حيث جلس فوق سقف الجراج.. ناداه في شيء من الخجل (كأنما يخشى أن يسمعه الجيران):
- بابا.. العشاء معدّ..
لم يبدُ على (روى) أنه لاحظ شيئًا أو سمع شيئًا.. في الواقع لم يكن يسمع أحدًا في هذه الأيام..
- بابا.. أرجوك!
عندئذ تنبه (روى) وبدأ يهبط في درجات السلم إلى الأرض..، ومن موقعها استطاعت (رونى) أن ترى أن وجهة مبلل.. لقد كان

يبكي!.. يبكي خلف منظاره المقرب.. رأت كذلك لحيته التي لم يحلقها منذ زمن..
فكرت للحظة أن تلحق به.. ثم عدلت عن ذلك..
أما هو فدلف قاصدًا المطبخ.. وهنا لاحظ نموذج القطار الذي صممه على مائدة غرفة المعيشة.. كان ثمة جبل صغير بني اللون يقف في شموخ جوار القضبان.. حاول بأنامله تغيير شكل الجبل راسمًا أخاديد على جانبية..



وسبح الصاروخ نحو الهدف ..
نحو قصر شاهق مهيب ، يبدو أشبه بقصور الأساطير القديمة ..

أحشاؤه تتقلص وعقله يوشك على الانفجار..

- كلا.. ليس هذا هو الشكل المطلوب!

وجلس إلى مائدة العشاء دون أن يغسل وجهه أو يستبدل ثيابه..

ولاحظ - في مرارة - أن الأطفال قد نأوا عن موضعه على المائدة.. كأنهم احتشدوا حول أمهم خائفين..!
قدمت له طبقه المليء بالبطاطس الممهوكة والسلامون، ولشدة عجبها وجدت أنه لم يلتهم لقمة واحدة.. بل حدّق في الطبق ببلاهة.. ثم إنه شرع يقلب البطاطس بشوكته أمام عيون الأطفال المهتمة.. كوّمها على شكل جبل كبير.. ثم غمغم:
- ليس كبيرًا بما يكفي!
ثم نهض ليتناول السلطانية الأساسية التي تحوى البطاطس، وتناول منها ملعقتين كبيرتين أضافهما لنموذج الجبل.. وتأمل المشهد منتقدًا .. ليس بعد.. تناول ملعقتين أخريين.. ثم - دون إنذار آخر - شرع يشكل الجبل بيديه العاريتين محاولًا إعطاءه شكلًا ما!
ثم رفع عينيه..
فوجد الأسرة كلها ترمقه في صمت..
ابتسم في افتعال.. وتمتم محاولًا أن يكون ظريفًا:
- لقد لاحظتم يا أطفال أن بابا يفعل أشياء غريبة.. لكن لا تقلقوا..
مازال بابا هو بابا..!
ثم ابتلع ريقه.. وأردف:
- إنه شبيه بذلك الشعور المزعج.. حين تحاول تذكر لحن أغنية تعرفها جيدًا لكن اللحن غائب عنك.. لا أدري كيف أعبر..
ثم تحشرج صوته:
- أنا بخير.. صدقوني..
ثم ترك المائدة..
كاد الأطفال يلحقون به لكن صوت أمهم الآمر انتهرهم:
- اجلسوا وكلوا..

وبقلب كليم رفعت الشوكة إلى فمها على صوت بعيد للمياه المتدفقة من الحمام..
سمعوها.. وسمعوا كذلك صوتًا مختنقًا لرجل يبكي..
نهضت (رونى) إلى باب الحمام.. وأصغت لثوان.. ثم نادت رجلها بنعومة وهي تقرع الباب:
- حبيبى (روى).. هلا فتحت لي؟
لم يرد ..
حاولت فتح المقبض لكنه كان مغلقًا.. صوت النحيب مستمر من الداخل.. نادته بصوت أعلى لكنه لم يجب.. هرعت إلى المطبخ وأحضرت سكين الزبد أمام عيون الأطفال المذعورة .. كانت تعرف ما ينبغي عمله، فالأطفال كثيرًا ما يحبسون أنفسهم في الحمام، مدّت السكين ما بين القفل وإطار الباب.. وضغطت على الزلاجة فانفتح الباب..
كان الحمام مظلمًا.. والماء ينهمر في البانيو نصف المليء..
بينما (روى نيرى) قابعًا في الركن القصى يئن ويدارى فمه بيده، محاولًا كتم صوت بكائه.. فما إن رآها حتى حاول أن يبتسم:
- إنه شيء كالفواق.. لم أستطع التوقف قط.. ماذا يجرى لي..
قالت محاولة أن تتماسك:
- لا عليك يا (روى).. لقد أعطتني أمي اسم ذلك الرجل.. إنه طبيب..
عاد يئن من جديد، فجففت جسده.. وساعدته على ارتداء ثيابه.. وهي تستطرد:
- هذا الطبيب يمارس (علاج الأسرة).. سنذهب إليه جميعًا وسيسمع لنا جميعًا..
فربما ليس الخطأ خطأك.. من يدري؟
وابتلعت ريقها شاعرة أنها تنصح طفلًا من أطفالها.

- عدني يا (روى) أن تذهب.. أرجوك عدني..
- أنا لا أحتاج إلى طبيب.. أنا أحتاج إليك أنت..
كادت تجنّ .. ضربت الأرض بقبضتها الدقيقة وصرخت:
- أنا لا أملك لك عونًا!..
واحتشدت الدموع في عينيها:
- كل هذا الهراء قد أحال منزلنا جحيمًا.. إنني أكرهك في هذه الحال!
أمسك بيدها برفق.. فتملصت منه.. وواصلت الصراخ:
- لم يعد أحد يزورنا.. تركت عملك.. نحن في أسوأ حال ماديًا.. إنك تدمر هذه الأسرة يا (روى).. تدمرها..
إنها لم تعد تتحمل كل هذا.. لم تعد تتحمله..

∞∞∞∞∞

حين انتظمت أنفاس (رونى) غادر (روى) الفراش..
كانت الخامسة بعد منتصف الليل حين نهض قاصدًا غرفة المعيشة، لقد صار منظر الغرفة مفزعًا من الفوضى وقصاصات الجرائد الملصقة هنا وهناك تتحدث عن (الأجسام الطائرة غير المعروفة)..
جلس يتأمل الجبل الذي بدأ تشكيله أمس قبل العشاء جوار نموذج القطار، ولقد وجده سخيفًا.. فهمس:
- كلا.. ليس هذا هو الشكل المطلوب..!
- بابا..
صوت ابنته (سلفيا).. صحت من نومها – حاملة دميتها المفضلة - وجاءت غائمة العينين بفعل النعاس لترى ما هنالك ..

- ملاكي.. يجب أن تكوني في فراشك الآن..
- بابا.. هل ستصرخ فينا ثانية اليوم؟!
هذا هو ما صرته يا (روى) في عين أطفالك.. (آلة صراخ)!.. لكنها تتحمل كل هذا لأنها - ببساطة – تحبك!.. يالك من وغد يا (روى)..!..
احتضنها في حنان ولثم خدها.. وأقسم أن ينتهي كل هذا السخف الآن..
في عصبية بدأ يمزق كل قصاصات الورق التي تتحدث عن الأطباق الطائرة مرددًا:
- انظرى يا (سلفيا)!.. لقد شفيت!
كانت الطفلة ترمقه غير فاهمة لما يحدث لكنها – بحكم سنها - سعيدة بكل هذه الفوضى.. ها هو ذا ينتزع الجبل الصغير من موضعه جوار قضيب القطار.. إنه متماسك.. هوب!.. انتزع الجبل لكن قاعدته ظلت متشبثة بالمائدة متصلة بجزء مهشم من النموذج..
توقف لحظة.. واتسعت عيناه ذهولًا ثم هتف:
- (سيلفيا).. هذا هو الشكل المطلوب!!
∞∞∞∞∞∞
وحين استيقظت (رونى) في العاشرة صباحًا؛ كان ذلك على صوت ضوضاء غير عادية قادمة من الحديقة .. صوت ضحكات.. وصوت أشياء تتهشم..
خرجت من تحت الأغطية وارتدت (روبًا) وهرعت لترى..
يا للهول!.. لقد انتزع السلك الواقي من الحشرات المثبت على نافذة غرفة المعيشة ..، وكوّم عشرات الشجيرات المنتزعة من الحديقة.. و...
- (روى)!

هرعت للحديقة لتجد الأطفال يحملون شجرة (أزاليا) نحو أبيهم.. كان الأب واقفًا على سلم خشبي يصيح في أطفاله:
- هلموا يا رجال..
وإذا به يلقى بالشجيرة داخل حجرة المعيشة.. بينما (سيلفيا) تفرغ التراب من النافذة إلى الداخل..!
سأل (توبي) في مرح:
- بعد هذا.. هل يمكننا إلقاء القاذورات في حجرتى؟!
- توقاااااااف!
صرخت (رونى) غير مصدقة لكل هذا.. كان حشد من الجيران يقفون - فاغرى الأفواه - يرمقون هذا السيرك.. وهرعت نحو زوجها عاجزة عن الكلام..
فقال لها مفسرًا:
- لقد وجدتها!.. هل نظرت في حياتك إلى شيء ما من ناحية فوجدته سخيفًا ثم من ناحية أخرى فوجدته معقولًا؟!.. هذا هو ما حدث..
- (روى)!.. أنت تثير هلعي!
- لا تخافي يا ملاكي.. أنا بخير..
قالها وانتزع مائدة صغيرة من (الألومنيوم) وجدها بالحديقة، وألقاها من النافذة لتسقط فوق الشجيرات وأكوام الغبار..
- لا تقل إنك بخير ثم تقذف بالحديقة داخل غرفة المعيشة!
وهنا التمعت عيناه بفكرة جديدة:
- سلك عشة الدجاج!
ورأته يثب عبر سور الزهور إلى حديقة الجيران.. قاصدًا عش الدجاج الخاص بهم.. ورأته يعالج السلك محاولًا انتزاعه من مكانه.. ثم اتجه إلى لفة سلك موضوعة عند مدخل الجراج وجذبها عائدًا إلى الحديقة..

صرخت الجارة (مسز هاريس) في توحش:
- أيًّا ما كان ذلك الذي تفعله.. فهو سرقة!
صاحت (رونى) في يأس متوسلة:
- سيعيد السلك لك يا (مسز هاريس).. سيعيده!
كان الطفلان قد التصقا بها وقد ولت نوبة الحماس الأولى التي جعلتهما يساعدانه.. كانا خائفين الآن.. وقد أدركا للمرة الأولى - أن أباهما مجنون.. مجنون حقًّا..
ومن نافذة غرفة المعيشة طارت لفة السلك لتلحق بما سبقها.. ثم إنه عاد يفتش في الفناء عن مواد خام أخرى تصلح..
صرخت (رونى) في هستيريا:
- (روى).. سآخذ الأطفال إلى دار أمي..!
- هذا جنون يا ملاكى ..
- هذا ماذا؟.. قلت ماذا؟
وحملت في يدها (سلفيا) وساقت الأطفال إلى السيارة، ثم أغلقت الأبواب وأمّنتها ورفعت الزجاج لتمنعه من اللحاق بها.. وحتى لا تسمع صراخه:
- (رونى).. أرجوك أن تبقى.. ابقى معي!
صرخت من وراء الزجاج (بدا لـ (روى) وكأنها تخبو بعيدًا عنه):
- أبقى؟.. حتى أراهم يأخذونك في قميص الأكمام؟
وأدارت المحرك وتراجعت بالسيارة للخلف.. عندئذ رمى (روى) بجسده على مؤخرة السيارة متشبثًا بالإيريال..، فلم يكن أمامها سوى أن تندفع للأمام وتدوس الفرامل فجأة فيطير (روى) من مكانه.. وتواصل هي الاندفاع بالسيارة مبتعدة..
الطريف في الأمر هو أن (روى) - حين نهض مهشم الأوصال من سقطته - وجد نصف دستة من الجيران والمارة واقفة تراقبه خلف السور..

ابتسم في حرج ودلف إلى داخل الدار ليواصل ما بدأه من عمل.
وعلى صوت الهراء والتمثيليات السخيفة القادمة من جهاز التلفاز؛ ظل (روى) يعمل في غرفة المعيشة لعدة ساعات دون طعام ولا شراب ولا كلل..
لقد بدأ الهيكل العملاق يُولد.. هيكل شىء عملاق يتعالى شيئًا فشيئًا..
ثم يأتي دور السلك الذي اقترضه من مسز (هاريس)، وبه بدأ يخلق منحنيات أكثر تعقيدًا وأقل خشونة.. والآن يصنع عجينة طينية من كل التراب الذي نقله من الحديقة.. ثم يغطى بها السلك..
وفي الخامسة عصرًا تأمل ما فعله.. وغمغم في ضيق:
- كلا.. ليس هذا هو الشكل المطلوب..!
كان ارتفاع الشيء تسعة أقدام الآن.. مغروسة على محيطه شجيرات صغيرة هنا وهناك.. بينما جوانبه المنحدرة تقطعها خطوط حادة..
لكنه لم يقتنع بعد.. (روى) ما زال غير راض..
بدأ يغير مواضع بعض الشجيرات، ويزيل بعض المرتفعات.. حتى..
- تمامًا!.. هذا هو الشكل الصحيح!
ولم يكن يدرك أن هذه هي المرة الثالثة - بل الرابعة - التي يمارس فيها هذا العمل.. مرة مارسه بكريم الحلاقة.. ومرة مارسه بالبطاطس الممهوكة.. ومرة مارسه بالطين جوار (بارى) الصغير حين ساعده في تشكيل الجبل النموذج الذي كان الطفل يصنعه..
لكنه هو هذه المرة.. لقد خرج للوجود نسخة طبق الأصل من الجبل الحقيقى ..

أخيرًا يلتقط (روى) أنفاسه ويهدأ بالًا.. لقد كانت رغبة مجنونة تحركه كي يصنع هذا الشيء.. وقد حدث..
لقد ضحى بالكثير كي يصنع هذا النموذج الضخم.. ولكن ما معناه بعد كل هذا؟.. وما المقصود منه؟..
جهاز التلفاز (كان يستخدمه الآن كمذياع) يصبّ الهراء في المكان.. الهنود حرقوا المزرعة في مسلسل (بونانزا).. و (لوسى) فرّت من العمل لتقابل رئيسها..
انهار الشاهد تحت وطأة أسئلة (بيري ميسون) المحنكة.. و...
- (ماجي).. ما هو سرّ نظافة غسيلك؟
- لم تعد رائحة العرق تضايقني منذ عرفت مزيل العرق كذا كذا..
ترك (روى) جبله.. واتجه للهاتف ليطلب (رونى) عند أمها.. لكن الأم قالت في فتور:
- آسفة يا (روى).. لكنها لا ترغب في الحديث إليك..!
- ناديها.. أرجوكِ!
ثم إنه ظل ينتظر بضع ثوان والتوتر يمزقه.. ثم.. فجأة.. سمع صوت التكة المميز لوضع أحدهم السماعة هناك!.. جن جنونه وأعاد طلب الرقم، لكنه وجد الهاتف مشغولًا هذه المرة.. لقد رفعت (رونى) السماعة..!
وضع السماعة ونهض - شارد الذهن - يتأمل شاشة التلفاز..
إنها نشرة أخبار التاسعة..
ها هو ذا شاب مصفف الشعر بعناية يرمق الكاميرا ويبتسم:
- مساء الخير.. كارثة حدثت عبر خطوط نقل إمدادات الجيش.. تسرب للغازات السامة يؤدي إلى أكبر إخلاء يحدث في تاريخ المنطقة، ومسرح الأحداث هو (برج الشيطان) في ولاية (وايومنج).. مراسلنا (شارل ماكدونل) يقدم تقريره..

وظهر المذكور مرتديًّا معطفًا ويحمل في يده (مايكروفونًا) صغيرًا أمام خلفية من الشاحنات تتحرك، وعلى البعد ظهرت قمة جبل ما..

- إنه وقت الغروب في (وايومنج).. بينما ألوف من الناجين يبتعدون عن مكان الكارثة، والسبب.. ثلاث شاحنات محملة بغاز الأعصاب شديد الخطورة.. كانت الشاحنات تنقله للتخلص منه حين حدث انهيار أدى لتسرب حمولتها عند منطقة (والكاشي).. والآن تمشط القوات البرية ومشاة البحرية منطقة قطرها مائة ميل يقع مركزها في القمة المعروفة باسم (برج الشيطان)..

وظهرت على الشاشة صورة مقربة لهذه الهضبة..

- يا للسماء!



وظهرت على الشاشة صورة مقربة لهذه الهضبة..

وفي اللحظة التالية كان (روى) راكعًا أمام شاشة التلفاز يرمق في ذهول برج الشيطان.. الجبل الذي انتهى لتوه من صنعه.. الجبل الذي أرق منامه طيلة الأيام الماضية..

نفس الجوانب المتعرجة والقمة المسطحة.. ذات الأشجار.. ذات.. كل شيء!
صرخ بأعلى صوته:
- (رونى)!.. أنا لست مجنونًا!
لم يكن هذا وليد عشوائية عقل مريض.. بل كان له هدف.. له معنى ..
ثم توقف عن الصراخ وبدأ يدرس موقفه ..
ستكون رحلة عسيرة حقًا إلى (وايومنج)..
والكارثة أنه سيقوم بها وحيدًا..

∞∞∞∞∞∞

4 - إلى برج الشيطان..

كانت (جيلان جيلر) تتدهور في تلك الآونة..
لقد فقدت كيلوجرامات كثيرة منذ رحيل (بارى)، واختلت حالتها النفسية.. فلم تغادر الدار طيلة الفترة الماضية..
وفي غرفة المعيشة التي اختارتها لعزلتها؛ بدا المكان كأنه معرض لعمل فنى واحد متكرر.. آلاف الرسوم بالفحم لنفس الجبل الذي أتعب (روى) في تقليده..
فيما عدا ذلك كانت تفتح التلفاز أحيانًا كي لا ترى ولا تسمع شيئًا على شاشته.. لكنها - في هذه الليلة - قررت أن تتابع نشرة المساء..
وكان أن رأت برج الشيطان على الشاشة وسمعت صوت المذيع:
- يراقب الجيش وقوات الحرس الوطني عمليات الإخلاء.. وقد تم إبلاغ العائلات التي تم إخلاؤها أن الخطر سيزول بعد 72 ساعة حين يهبط تركيز السمّ إلى خمسين جزءًا في المليون، وهذا يعني أن الجميع سيعودون إلى ديارهم قبل عطلة نهاية الأسبوع..

هرعت إلى رسومها لترى ذات البرج - أو الجبل – الذي رسمته مرارًا.
وبعد دقائق من الشرود استجمعت أجزاء روحها المبعثرة.. وحملتها إلى...... الحمام، فاغتسلت وجففت شعرها ومشطته.. ثم حملت حقائبها مغادرة الدار داعية الله أن يكون هذا هو الطريق إلى (بارى)..

∞∞∞∞∞∞

في نفس اللحظات تقريبًا كان (روى) يستحم ويحلق ذقنه..

كان في حوزته عشرون دولارًا.. ثم وجد عشرين دولارًا أخرى حيث أخفتها (رونى) في مؤخرة فريزر الثلاجة حيث لن يجدها اللصوص.. وشاعرًا بالإثم هشم حصالة نقود (براد) ليجد بها أربعة دولارات..
وفي الثامنة والنصف صباحًا ذهب إلى البنك التجاري ليسحب أربعين دولارًا من رصيده البالغ اثنين وأربعين دولارًا..
والآن يأتي دور حافلة الساعة التاسعة التي نقلته إلى (سنسيناتى)..
وفي الحادية عشرة وصل إلى المطار ليسأل الموظفة عن طريق مختصر.. فكان أن أوصته برحلة جوية إلى (دنفر) ثم توصيلة إلى (شيين)..
ذهب ليبتاع ورقًا ومظروفًا وجلس ليمارس هذه المهمة العسيرة.. كتابة خطاب لأطفاله..
على المظروف كتب أسماءهم: (براد) - (توبى) - (سلفيا)..
بدت له الأسماء غريبة لأنه لم يكن قد كتب لأحدهم من قبل..
- أطفالي الأعزاء:
سأكون بعيدًا لفترة.. فإذا ما عُدت ...
وتوقف لبرهة ثم شطب الجملة الأخيرة، وكتب:
- .. عندما أعود ستكون لدى قصة مسلية أحكيها لكم.. يجب أن أفعل ذلك.. فلا يوجد حل آخر لدى..
وهنا صارت الرؤية متعذرة فأدرك أنه دامع العينين.. لكنه واصل الكتابة:
- ساعدوا أمكم.. وأنا واثق من قدرتها على الاعتماد عليكم..
ولكن.. لا داعي للكذب يا (روى)..
بالتأكيد سيكرهك الأطفال فيما بعد مالم يكرهوك فعلًا.. الآن .. يجب أن توضح لهم الأمر أكثر.. فهم يستحقون ذلك بالتأكيد..

- أعلم أن كل هذا لا يعني لكم شيئًا ولا لأمكم.. لكن لتعلموا أن كل إنسان يملك رغبة سرية.. أمنية.. وهذا الشيء أقوى مني بمراحل ..
كانت الدموع قد بدأت تغرق خديه وتنساب من أنفه ..
هو ذا جالس معدوم الحيلة يكفكف عبراته.. يوقع الخطاب بـ (بابا).. ويضعه في المظروف ثم يرميه في صندوق البريد ..
وحين دوي الصوت في الميكروفون يعلن قيام رحلته كان ما زال واقفًا جوار صندوق الخطابات يرمقه بذهن متبلد وكتفين محنيين ..

∞∞∞∞∞∞

كان (مات هيرتز) يمقت كل شيء في الوجود في هذا اليوم العصيب.. يمقت عمله في تأجير السيارات.. يمقت استبدال الإطارات.. يمقت وضع البنزين.. يمقت (روى نيرى) قبل أن يراه..
فما أن رأى هذا الأخير حتى هتف بطريقته الفظة:
- هذا أنت؟.. لقد تأخرت وقتًا لعينًا حتى وصلت .. ها هي ذي السيارة الجيب التي طلبت بالهاتف أن تستأجرها.. إنك أيها اللعين محظوظ.. كثيرون أرادوا أن يأخذوها بسبب الظروف القذرة.. ولولا الحجز اللعين الذي أجريته لتخلصت منها (في داهية) منذ أسبوع.. وقع هنا وهنا.. أين (المدعوقة) رخصة قيادتك؟
احتج (نيرى) في حدة:
- لم أعتد هذه المعاملة الـ ....
- لا عليك.. حين تنتهي من هذه السيارة اللعينة، دع المفاتيح في مطفأة السجاير القذرة لأني سأرحل الآن ولن أكون هنا حين تعود..

وأوصل (نيرى) إلى الجراج وناولة المفاتيح.. ثم - دون كلمة أخرى - ركب سيارة (بيك أب) عتيقة وذاب وسط سحابة من الأتربة ..
فتح (نيرى) باب السيارة.. أدار محركها.. وفتح المذياع محركًا المؤشر إلى حيث نشرة الأخبار:
- آلاف بلا مسكن.. وزارة الدفاع تعلن المناطق التالية غير آمنة وداخل النطاق الأحمر.. كل الطرق شمالى (كراوهارت).. كل الطرق المؤدية إلى (جراند تيتون).. كل ما هو غربي بحيرة (يلوستون).. كل ما...
أغلق (نيرى) المذياع وتفحص خريطة الطرق ..
غاز أعصاب أو لا غاز أعصاب.. لا يهم.. هو ذاهب إلى (برج الشيطان) مهما كانت النتائج..
إن سيارته هي الوحيدة - عبر أميال - المتجهة غربًا إلى (تيتون).. أما الطرق الشرقية كلها فكانت مزدحمة بسيارات الفارين من الخطر ..
وجوار محطة القطار كان الطريق مسدودًا بقوات من الحرس الوطني شاكى السلاح تلتمع وجوههم في ضوء الشمس.. بينما (سيرجنت) يمسك بمكبر صوت صائحًا في الحشود:
- على كل من يحمل بطاقة زرقاء أن يتحرك سريعًا .. أما حاملو البطاقات الحمراء فعليهم الانتظار..
الأغنام هنا وهناك مما يجعل حركة السيارات مستحيلة.. مشاجرات بين الرعاة وراكبى السيارات..
طائرة هليكوبتر تحوم فوق الرءوس قاصدة مرتفعات (تيتون)..
ضابط يدنو من (روى) حاملًا كشفًا مليئًا بالأسماء.. ويسأله:
- هل لك أقارب في المنطقة الحمراء؟
- نعم.. (سو - ألين) شقيقتى ..

- اسمها الثاني؟
- (هنرسدورفر)..
مضى إصبع الضابط يجوب الصفحات تحت حرف الهاء.. ثم غمغم:
- لا (هنرسدورفر)..
صرخ (نيرى) متظاهرًا بالهلع:
- ربَّاه!.. إذن هي بعد في نطاق الخطر..!
- لقد أخلينا المكان تمامًا أمس ..
- نسيتم (سو - ألين) إذن.. ملاكى الصغير!
- مستحيل ..
تقلصت كفّا (نيرى) على عجلة القيادة:
- إذن دعني أر بنفسي.. إن (بابا) و (ماما) لن يغفرا لى ترك صغيرتهما تموت لمجرد أنني كسول أو ضعيف الشخصية..
- اسمعني يا سيد (هنرسدورفر) .. أنت تفهم الإنجليزية.. لن يدخل أحد هنالك، وقد أعطاني الجيش صلاحية كاملة لإطلاق الرصاص على من يحاول التسلل.. فهل فهمت؟!
تقلصت الابتسامة من وجه (نيرى) وأدار عجلة القيادة عائدًا أدراجه، سامعًا عبارة أخيرة قالها أحد الواقفين للضابط:
- متطفل آخر.. هه؟
- بالطبع.. إنني أستطيع شمهم من بعيد ولو في قلب إعصار..
حقًا يا (روى)؟
هل أنت مجرد (متطفل) آخر؟.. بالطبع لا.. ربما أنت (باحث) أو (فضولى).. من يدري؟
ربما أنت (ضيف مدعو) إلى حفل ما..
لقد دمّر حياته بالكامل من أجل دعوة أرسلها إليه شخص ما.. وهذه الدعوة تقول بكل وضوح إن الحفل سيكون في (برج

الشيطان) ..
ولكن كيف تصل هناك؟.. إن خمسين ميلًا مسافة كبيرة وربما تعرضت لإطلاق الرصاص عليك.. وربما تسممت بفعل غاز الأعصاب ..
وهنا شاهد رجلًا نحيلًا أصلع الرأس له فم واسع.. فم رجل يجيد الكلام ويحب الثرثرة.. كان هذا الرجل يقف وسط حشد من الناس صائحًا:
- يا سادة.. إن غاز الأعصاب (جى - إم) هو غاز عديم اللون والرائحة.. ولن تعرفوا أبدًا أنكم تستنشقونه إلا حين تتسع حدقاتكم.. وتسيل أنوفكم، عندئذ ستلومون أنفسكم على أنكم لم تبتاعوا أحد أجهزة الإنذار التي باعها لنا الرجل الأصلع ..
وابتلع ريقه وأردف :
- وحين تسيل الدماء من أفواهكم وأنوفكم.. وحين تتقلص عضلاتكم.. عندئذ سيقتلكم الندم يا سادة على عدم شراء جهازى ..
ورفع قفصًا صغيرًا رخيصًا به طائر أصفر صغير معدوم الحيلة.. وصاح:
- هذا العصفور يعطيكم ساعة إنذار كاملة.. سيموت بمجرد أن يشم أثر غاز الأعصاب.. بخمسين دولارًا فقط يا بلاش!
بدأ الناس يخرجون نقودهم.. على حين استطرد الرجل:
- لدىّ كذلك حمام بثلاثين دولارًا فقط.. إنه يعطيك خمسًا وأربعين دقيقة.. ليس ساعة كاملة مثل العصفور.. لكنه أرخص ..
دنا (نيرى) من الرجل طالبًا عصفورين.. فصاح هذا:
- عصفوران خير من واحد.. وحمامة خير من لا شيء..

وحمل (نيرى) القفص عائدًا إلى السيارة حين سمع صوتًا يناديه باسمه:
نظر.. فوجدها تقاتل للخروج من وسط الزحام.. (جيلان)!..
قاتل بدوره للوصول إليها.. الجنود يصرخون .. الأغنام تتزاحم.. صراخ بائع الطيور.. قطار الإخلاء يهدر.. الشمس تدنو نحو الغرب ..
أخيرًا أمسكها..
أمسكها بين زحام الأغنام والبشر.. امرأة تصرخ .. شاب يضع (ووك مان) على أذنيه.. رجال يحملون أقفاص الإنذار.. أب يحمل طفليه على كتفيه ..
أمسكها وقال لها - وقالت له - أشياء لم يسمعها أحدهما ..
أمسكها وقادها - عبر طوفان البشر - إلى السيارة، فجلست هناك تغطي عينيها بيديها وتنتحب.. أدار محرك السيارة وبدأت الحركة ..
- (روى).. - قالت - أنا سعيدة أنني وجدتك..
- وكذلك أنا ..
- أين زوجتك والأطفال..؟
لم يردّ لأن الطريق كان مسدودًا بسيارة (جيب) وجنديين من الحرس الوطني.. يتأكدان من أن أحدًا لن يحاول مغادرة الطريق الرئيسى ..
- لقد تركوني.. بدوت لهم مجنونًا أكثر من اللازم.. ثم غمغم وهو ينظر إلى جانب الطريق:
- اسمعينى يا (جيلان).. نحن لم نأت هنا لنعود أدراجنا..
- لكنهم سدوا الطرقات ..
- لا بد من وسيلة.. إن هذا البلد كبير ويمكن الاختفاء فيه..

كانت الحقول على جانب الطريق تفصلها عنهم أسوار من الأسلاك الشائكة.. ولقد بدأت الأسلاك تصدأ في عدة مواضع ..
تراجع بالسيارة للوراء.. ثم ضغط دواسة البنزين بأقصى قوة فأنّ المحرك.. وتصاعد غبار (وايومنج) من تحت العجلات ..
واصطدمت مقدمة السيارة بالسلك الشائك.. فتمزق ..
واندفع (روى) عبر الفتحة..

∞∞∞∞∞∞

الآن تمضى سيارة (روى) مهتزة فوق المطبات العديدة..
- (جيلان) ربطت حزام النجاة ومضت تتأمل العصفورين في القفص الذي وضعته على حجرها.. ثم واصلت حديثها:
- من أجل (بارى) نزح رجال الشرطة النهر.. قلت لهم إنه لم يغرق لكنهم لم يعيروني انتباهًا.. دخلوا كل منزل في الجوار وفتشوه.. وسألوني عما إذا كنت قد لمحت أغرابًا في الفترة الماضية ..
كان (روى) يقود السيارة كمجنون، محركًا عجلة القيادة بعنف كي يتفادى الصخور هنا وهناك ..
وكانت (جيلان) تقاوم الشعور بالغثيان ..
لم يكن هناك بشر ولا حيوانات ولا حتى طرق ممهدة .. فقط ظل يأمل أن تتحمل العجلات وماصّ الصدمات كل هذه الإهانة حتى يصلا إلى برج الشيطان ..
ظل كذلك يأمل ألا يكون أحد - ممن رأوه يهشم السلك الشائك - قد كلف نفسه عناء إبلاغ رجال الحرس الوطني..
والآن ها هو ذا يهشم سلكًا شائكًا آخر مندفعًا عبر طريق يغطيه الحصى إلى برج الشيطان ..

ومعًا رأياه على بعد ميل فأوقف (نيرى) السيارة..
- إنه.. إنه كما تخيلته بالضبط ..
ولم يستطع التعبير أكثر ..
ذلك الشعور العجيب بأنك قد نجحت في تجميع أجزاء اللغز حتى صار لها معنى أخيرًا ..
كان البرج يقف وحيدًا.. متفردًا..
القشعريرة تزحف عبر كتفي (نيرى) حين أدرك أنه صنع نموذجًا متقنًا لهذا الشيء دون أن يراه..



اقترب (بوند) من الآثار الواضحة، التي بدت على هيئة أقواس كبيرة، يتوسطها أثر عريض حديث العهد..

سعل لينظف حلقه.. ثم غمغم:

- أعتقد أننا يجب أن نتحرك وإلا رأونا ..

ووجدا محطة بنزين منسية عن قرب، فذهب (نيرى) إليها وحاول تشغيل الطلمبة.. ثم دسّ الخرطوم في خزان وقود سيارته.. لم تزل هناك كهرباء لحسن الحظ.. وأخيرًا امتلأ الخزان ..

وهنا سمعا صوت (الهليكوبتر)..

جذبها من ذراعها ودخلا إلى كابينة المحطة آملين أن تمر الطائرة دون أن تلاحظ شيئًا ..

كانت مجموعة من طائرات الهليكوبتر الخاصة بالقوات الجوية تدنو منهما ..

وثمة طائرة (شيين) انفصلت عن الحشد..ثم هبطت بسرعة حتى كادت تلامس سقف الكابينة، وشاهدا رجلاً يطل من الهليكوبتر مرتديًا منظارًا أسود وفي يده كاميرا فورية .... يصوبها نحوهما ..

أطلق (روى) سبّة .. ومدّ يده إلى جيبه مخرجا ورقة بعشرة دولارات..

لوّح بها عاليًا ليراها الرجل في الطائرة.. ثم اتجه ليضعها تحت صخرة فوق طلمبة البنزين ليعلن أنهما ليسا لصين..

وفي تؤدة استدارت الطائرة متجهة لجبل الشيطان..

- إذن.. هيا بنا قبل أن يعودوا ..

وركب السيارة مع (جيلان) منطلقين فوق الحصى بسرعة سبعين ميلًا في الساعة.. وكادا يصلان لهدفهما دونما مشاكل ..

لولا ذلك الطائر ..

الطائر الصغير الذي وجداه على الأرض ميتًا راقدًا على ظهره، وقد ارتفعت قدماه لأعلى .. مما دفعهما إلى إيقاف السيارة لتدارس الموقف..

في صمت نظر (روى) لـ (جيلان).. ثم تساءل:

- أتريدين العودة؟
- ماذا قتله يا (روى)؟
- إن العصفورين في حوزتنا بخير.. إن قصة غاز الأعصاب هذه مزوّرة بالكامل.. أؤكد لك ذلك ..
لكن الاحتياط لم يمنعهما من تكميم أنفيهما بالمناديل وواصلا الرحلة..
واصلاها إلى أن وجدا أربع سيارات لها لون زيتونى مميز.. واقفة في صف، مغلقة الطريق أمامهما ..، ونظرا للخلف فوجدا سيارات أخرى تسدّ طريق العودة!
تراجع (روى) للوراء.. وأدار عنقه ليرى ما هنالك من النافذة الخلفية.. ودون كلمة أخرى رفعا زجاج النافذة وأمّنا الأبواب ..
ثم انفتحت أبواب السيارات، ورأيا أشكالًا تخرج منها.. كأنها بشر مصنوعون من الذهب ..
كلهم يرتدون ثياب رواد الفضاء.. ذهبية من قطعة واحدة، وعلى ظهورهم خزانات تحوي شيئًا ما ..
خطر لـ (روى) أنهم يبدون كأنهم يعلنون عن فويل (ألومنيوم) للطهى ..
ودنا أحد الرجال بحذر من السيارة .. في يده لوحة صغيرة سوداء كتب عليها بالطبشور رسالة بخط واضح:
- كيف تشعرون؟
فقد (روى) أعصابه من سخف السؤال .. فأنزل الزجاج وصاح:
- وكيف تشعرون أنتم أيها المهرجون؟
أشار الرجل لهما كي ينزلا من السيارة ..
ثم دنا رجل آخر يضع على بذلته الذهبية علامة الصليب الأحمر، وتناول القفص من يدى (جيلان) ثم دار حول السيارة

ليرفع القفص أمام عيني (روى).. كان العصفوران راقدين على ظهرهما عاجزين عن الحراك..!
فلم يستطع (نيرى) الكلام..
ودون كلمة أخرى ناولوا كلًّا منهما قناع غازات وأركبوهما عربتين منفصلتين.. عربتين من نوع الـ (فان) الشبيهة بسيارات الإسعاف ..
كانت العربة من الداخل كاملة الاستعداد الطبي.. وقد أدرك (روى) أن هؤلاء الرجال هم جميعًا أطباء .. لكنه لم يستطع النظر خارج العربة لمعرفة وجهتها..
كانت الشمس قد غربت حين وصلوا وجهتهم الغامضة..
فتحوا له باب العربة الخلفي لينزل ..
وعلى ضوء الغروب رأي خيامًا وسيارات متفرقة وحشودًا من الرجال الذهبيين.. أقرب شيء إلى معسكر خاص بالجيش لغرض ما..
ونظر إلى ساعته.. كانت السابعة مساء ..
أدخلوه - دون كلمة واحدة - إلى قفل هوائي يقود إلى مقطورة صغيرة بحجم التابوت، وجلس على سرير فحص يرمق الرجلين اللذين ينزعان قناعيهما ..
أحدهما ناحل أشيب الشعر والآخر صغير السن والحجم..
قال وهو يرمق الرجل الأشيب في تهكم:
- هل أنت المعتوه الأكبر؟
قطب الرجل جبينه ومال على مرافقه يسأله بالفرنسية عن معنى هذا ..
ثم إن المرافق قال لـ (روى):
- إن وقتنا ضيق يا سيدى. أقدم لك المسيو (لاكومب).. سيسألك بعض أسئلة ونريد إجابات صادقة ومباشرة..

- وكذلك أنا.. أين (جيلان)؟
قال (لوفلين) في رزانة:
- إن السيدة في أمان الآن ..
ثم إن (لاكومب) اقترب من (نيرى) يتأمله بعينيه الزرقاوين، ثم أطلق سيلًا من الفرنسية ترجمه (لوفلين) على الفور:
- هل حقًّا تعرف الخطر الذي تواجهه أنت ومرافقتك؟
شعر (نيرى) بالحيرة.. هل يردّ موجهًا كلامه للفرنسي صاحب السلطة أم للأمريكى صاحب الإنجليزية؟
ثم إنه تساءل:
- أي خطر؟
- السموم التي في الجو ..
- لا توجد سموم..
- لو أن الريح تحركت جنوبًا لما كنت هنا الآن معنا.. والآن نريد منك أن تجيبنا عن بعض الأسئلة..
ومدّ يده مخرجًا لوحة من التي يدون عليها الأطباء أحوال المرضى:
- هل تعاني أرقًا في الفترة الأخيرة..؟
- لا..
- صداع رأس؟
- لا ..
- هل عولجت من خلل عقلى؟
- ليس بعد!
- كوابيس؟
- لا ..
- أي مرض جلدي مؤخرًا..؟
- لا.. إلا إذا ..

- ماذا..؟
- حدث حرق في جانب وجهى.. لكنه لم يكن بفعل الشمس.
التمعت عينا الرجل الفرنسي في اهتمام.. ثم سأله عما إذا كان واثقًا من عدم رؤية كوابيس.. فغمغم (روى):
- لا.. ربما إذا استثنينا مشهد هذا الجبل الذى ...
تصلب القلم في يد (لاكومب) :
- أرجو أن تكون دقيقًا ...
- لا شيء.. مجرد وهم ..
- سيد (نيرى).. هل مررت في المدة السابقة بلقاء حميم؟.. لقاء مع شيء غير معتاد؟
هنا بدأ القلق يراود (نيرى).. من أنتم أيها الرجال؟..
لكن (لاكومب) واصل السؤال:
- هل هناك خمس نغمات تؤرق مسمعك في الفترة الأخيرة، وتتردد باستمرار؟
- من أنتم أيها الرجال؟
ثم استشاط غضبًا.. فصاح :
- أنا لست من هواة التحقق من أخبار التلفاز.. تقولون إن هناك غازًا.. جميل.. ولكن ما علاقة هذا بكوني أرى برج الشيطان مئات المرات في أحلامي دون أن أكون قد جئت هنا مرة واحدة..؟!
كان هذا هو دور (لاكومب) ليشعر بالدهشة هذه المرة.. وهب على قدميه ليعرف.. لولا أن دق الباب ودخل رجل ذهبي آخر يقول:
- القائد يطلب أخذهما إلى الحافلة وترحيلهما ..
لكن (لاكومب) لم يعبأ به.. جلس جوار (نيرى) وسأله في مودة:

- لقد زار هذا الجبل عالمك مئات المرات قبل أن تراه .. أليس كذلك؟
- بلى ..
- وتشعر أنك.... لنقل... مجبر على أن تكون هنا..؟
ثم إن (لاكومب) تناول مظروفًا وأخرج منه بعض الصور الفوتوغرافية عرضها على (روى) قائلًا إنها صور زملائه الذين حاولوا الوصول للجبل.. فهل تعرفهم جميعًا؟
- لا أعرف أحدًا سوى هذه ..
وأمسك صورة (جيلان)..
نهض (لاكومب) قاصدًا الباب مرددًا:
- يجب أن تعرف يا سيدى أنك لست وحيدًا.. إن لك أصدقاء كثيرين و... إنني إنني أغبطك!
ومرّ الثلاثة عبر قفل الهواء إلى العالم الخارجى ..
سماء الغرب حمراء بلون الدم في حين استحالت الجهات الأخرى إلى لون المخمل الأزرق القاتم ..
وقاداه إلى هليكوبتر هجومية خاصة بالجيش تدور سوى مراوحها، لكنها ما زالت بعد على الأرض.. وإذا بجندى مسلح يشير له كى يصعد ..
صرخ (روى) في هستيريا:
- كلّا.. لن أعود إلى (إنديانا).. لن أعود أبدًا أدراجي..
انفتح باب الطائرة.. واستطاع أن يرى داخلها سبعة أو ثمانية مدنيين كلهم يرتدون أقنعة الغازات.. وكانت (جيلان) بينهم ..
وهكذا صعد (روى) إلى داخل الطائرة ليتخذ مكانه بين ركابها ..
في حين اتجه (لاكومب) إلى قائد الطائرة قائلًا:
- لا يمكنك الإقلاع..
- إن عندي أوامري من القائد الأعلى..

- أنا الذي آمرك هذه المرة، ألا تفعل..
- آسف يا سيدى..
كان يتلفظ بلفظة (آسف) بشكل يدل على أنه يعني العكس تماما ..
كذا تحولت كلمة (سيدى) على لسانه إلى سبة يندى لها الجبين ..
توسل (لاكومب):
- إذن أمهلني خمس دقائق ..
هز الطيار رأسه ورفع ثلاثة أصابع ..
وهكذا ركض (لاكومب) و (لوفلين) نحو مقطورة الاتصالات ..
∞∞∞∞∞∞
كانت المقطورة مظلمة تمامًا بالداخل لتتيح لرجال الرادار رؤية أهدافهم ..
وفي منتصفها وقف ضابط أمن المشروع الذي يسميه العاملون باسم (وايلد بيل) إلا أن (البادج) على صدره كان يحمل اسم (والشي) ..
كان في نفس سنْ (لاكومب) - الخامسة والأربعين - قصير القامة متين البنيان .. وكان له صوت عال وحشى كأنه يعتقد المحادثة بين البشر بعضهم والبعض تحتاج إلى نفس المجهود الذي يحتاج إليه برج المراقبة للاتصال بطائرة.. أو نفس المجهود الذي تحتاج إليه وكالة (ناسا) لمخاطبة قمر صناعي..
صاح (لاكومب) في عصبية:
- لا يمكنكم ترحيلهم.. سأكون مسئولا عنهم..
رفع الميجور (وايلد بيل) كفه اللحمية.. وزمجر:
- لحظة يا سيد .. ليست مسئوليتك هذا الجزء من عملية (زهرة مايو).. إنها مسئولية الأمن.. أي مسئوليتى ..

- إن لهذه العملية هدفًا واحدًا.. ومطلبنا يخدم الهدف ولا يضره..
- ربما.. لكن هناك شيئًا اسمه النظام في الجيش .. ومن دونه يختل كل شيء ..
كانت الكلمات تتدافع على لسان (لاكومب) فتعثر لسانه مرارًا في البحث عن لفظ انجليزي يعبر عما يريد قوله، وبحماس شرع (لوفلين) يساعده بالترجمة التي حاول أن يكسبها ذات انفعالات الفرنسي :
- إنهم عدد قليل من الناس.. كلهم رأوا رؤيا محددة.. وكلهم وجدوا أنفسهم مرغمين على المجيء إلى هنا..
- ربما كان هناك شيء ما.. لكننا عاجزون تمامًا عن تمييز المخرّب من الفضولى من الصحفي من الذين يرون رؤيا صوفية.. يجب أن نعامل الجميع على قدم المساواة..
صاح الفرنسي وقد نفد صبره:
- إيكوتيه موا! (أصغ لى).. هؤلاء تسعة أشخاص لا رابط بينهم.. كلهم رأوا برج الشيطان وكلهم رسموه مرارًا.. ثم وجدوا أنفسهم مضطرين إلى القدوم إليه برغم الخطر الداهم..، إنها ظاهرة اجتماعية.. ربما أهم ظاهرة نصادفها في المشروع.. ويجب التوقف عندها ..
- هذا لا يعنيني.. فلترحل الطائرة!
أمسك (لاكومب) بجاكت القائد الجلدي وهزّه في عنف:
- لا بد أن هناك ألوفًا رأوا هذه الرؤيا ولم يأتوا..
لم يكن أحد قد أمسك بالميجور (والشي) من الجاكت منذ كان ملازمًا..
وكان هذا أقصى ما يستطيع تحمله ..
- اسمع يا صاحبي.. أنت ستنتهي بمحاكمة عسكرية..

- إيكوتيه موا.. تت دو ميردا!!
نظر الميجور نحو (لوفلين) في حيرة وتساءل:
- ماذا يقول بالضبط؟[6]

∞∞∞∞∞∞∞

في الطائرة جلس (روى) جوار (جيلان) مرتديين قناعى الغاز يتبادلان النظرات..
ولم يكن (روى) بحاجة إلى معرفة ما سيحدث لهما..
سيحملان بعيدًا ويعودان إلى ديارهما.. وهكذا ينتهى كل شيء.. أبدًا لن يعرف ما تعنيه الهضبة ولا النغمات الخمس..
وأبدًا لن يعود (بارى) إلى أمه ..
هو واثق تمامًا من أن غاز الأعصاب هو مجرد إشاعة أطلقها الجيش لتخويف الناس وإخلاء المنطقة.. لكن العصفورين قد ماتا في قفصهما.. لقد رآهما بعينيه .. فهل يكون الجيش قد أطلق فعلًا بعض نفحات غاز الأعصاب ليؤكد الإشاعة ويطهر المنطقة من المتطفلين؟
المشكلة أن القصة قد انتهت بالنسبة له ول (جيلان) من قبل أن تبدأ ..
وفجأة نهض.. وقد اعتزم أمرًا ..
أخذت العيون تراقبه في فضول ..
بدقة مدّ يده إلى قناع الغاز وفكه عن أنفه ثم ألقاه أرضًا ..
كان هذا أشجع عمل قام به في حياته.. وأسرع عمل .. وأكثر عمل تأثيرًا.. فهل هو - أيضًا - آخر عمل؟..
أخذ شهيقًا عميقًا ..
وفي اللحظة التالية انتزعت (جيلان) قناعها هي الأخرى..

هتف رجل في السبعين من عمره:
- ستموتان!
قال (نيرى) في ثقة:
- لا خطر هنا يا سيد.. كل ما في الأمر أن الجيش لا يريد شهودًا ..
ثم نظر نحو العجوز.. وتساءل:
- كيف وجدت المكان هنا؟
- كان شكل الجبل يؤرقني.. لهذا بحثت عنه في أطلس (الجبال الشهيرة في نصف الكرة الأرضية الغربي).. هل تعرف أن الرئيس (روزفلت) في العام 1906 اختار هذا الجبل ليكون أثرنا القومي الأول..؟
وهنا نهض شاب طويل الشعر وانتزع قناعه ليأخذ شهيقين عميقين.. وتنهد:
- يا الله!.. الهواء أنقى من (لوس أنجلس)..!
عندها.. انتزع اثنان آخران قناعيهما..
- من يرغب في البقاء؟
صاح (روى) في حماس.. فرفعت (جيلان) يدها.. فالشاب طويل الشعر.. فالاثنان الأخيران، بينما تحاشى الباقون نظراته..
- اجروا نحو برج الشيطان..!
قالها (نيرى) وهو يزيح باب الطائرة صانعًا فرجة تسمح لهم بالخروج. ثم وثب خارجًا مع (جيلان) وكل من وافقوا على متابعته.. وثب وركض قاصدًا خط الأشجار، وقد احتاج إلى أن يركل الحارس الواقف جوار باب الطائرة في عنقه ليسقط أرضًا..
لكن حارسين استطاعا القبض على الاثنين الآخرين،
في حين أخذ (روى) يركض بكل ليفة من عضلاته قاصدًا الجبل..
الجبل الذي عاش في كوابيسه كل هذه الأيام..

في مقطورة الاتصالات كانت مشادة (لاكومب) مستمرة مع (وايلد بيل) المتصلب..
- أنت لا تفهم .. هؤلاء الأشخاص مدعوون.. مدعوون لحضور ما سيحدث.. والهدية التي قدمت لنا في صحراء المكسيك هي تعبير عن حسن النوايا..
وهنا توقف وقد لاحظ شيئا ما خارج النافذة..
استطاع أن يرى المحتجزين يحاولون الفرار نحو الأشجار ..
لم يعلق.. فقط ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتيه..
∞∞∞∞∞∞

سار (روى) ومن معه عبر حزام الأشجار الموجودة عند قاعدة برج الشيطان..
نظر للشاب القادم من (لوس أنجلس) وسأله لاهثًا:
- هاى.. اسمى (روى نيرى)..
- (لارى باتلر)..
- هيا بنا يا (لارى) نتوغل بين الأشجار ..
وهنا دوى صوت بوق إنذار.. ثم اندلعت عشرات الأضواء المتقاطعة تمسح المنطقة في إصرار..
وفي مقطورة الاتصالات وقف جندي لاهث أمام الميجور:
- كانوا أقوى منى يا سيدى..!
- عددهم؟
- ثلاثة.. الباقون في أيدينا ..
زأر الميجور كالديناصور.. والتقط منظارًا مقربًا وخرج من المقطورة..
وفي الظلام كانت ثلاث طائرات هليكوبتر قد بدأت ترتفع لأعلى مختبرة أضواءها المصنوعة من اليود والكوارتز.. بينما دستة من

جنود القوات الخاصة يعبئون أسلحتهم.. وعلى عيونهم ثبتوا مناظير الأشعة تحت الحمراء..
تفحص الميجور خط الأشجار بمنظاره ثم أمسك هاتف الميدان.. وزمجر:
- سأبعدهم عن الجبل خلال ساعة!
تعالي الصوت من جهاز الهاتف:
- أجر مسحًا ضوئيًّا للجانب الشمالي.. واستعمل الأشعة تحت الحمراء..
- طلبت ذلك بالفعل...
- لو لم تجدهم حتى سعت (0800)[7].. ابدأ برش الجانب الشمالي بـ (إى - زد -4)..
تساءل (لاكومب):
ما هو هذا الـ (إي - زد -4)؟
- غاز منوم.. يعمل سريعًا ولا ينتشر.. سيناموّن عدة ساعات وبعدها ينهضون باحثين عن فنجان قهوة..
همس (لاكومب) في مرارة:
- هذا ليس من حقنا.. إنهم ينتمون لهذا المكان أكثر منا..

∞∞∞∞∞

كان الهاربون الثلاثة يعبرون أشجار الشربين عند قاعدة برج الشيطان.. وفي كل لحظة يتعثر واحد منهم فيسقط ثم يتشبث بالغصون..



كان الهاربون الثلاثة يعبرون أشجار الشربين عند قاعدة برج الشيطان..

إنه الليل..

وهنا تعالى هدير مراوح ثلاث طائرات هليكوبتر تحوم حول القمة، باحثة بأضوائها هنا وهناك..

تنهد (لارى) وهمس:
- لقد أعطونا أكثر من حقنا..
وفي هذه اللحظة اختفت أضواء الطائرات، إذ رحلت لتتفحص الجانب الآخر من الجبل..
همست (جيلان) في تردد:
- توجد أربعة ممرات تقود إلى أعلى الجبل.. أذكرها من رسومي.. وكلها تبدأ من الجانب الشمالي الشرقي..
قال (روى) مفكرًا:
- إنها وعرة جدًّا.. في حين أعرف طريقًا يلتف ببطء ونعومة حول الجبل..
قالت (جيلان):
- لم أعرف ذلك.. كنت أرسم زاوية واحدة فقط في كل مرة..
ضحك (روى) ضحكة قصيرة:
- في المرة القادمة جرّبي النحت!

∞∞∞∞∞∞

وفي ذلك الوقت..
كان عدد من سلاح المهندسين يقومون بنقل سعة عشرة جالونات من الصفائح الحاوية للمادة (إى - زد - 4) إلى طائرات الهليكوبتر بينما المراوح تزأر منذرة بالويل..
كان الميجور (وايلد بل) يعرف أن كتيبة القوات الخاصة قد انتشرت في الجبل، وبدأت الصعود قائمة بالتمشيط مستعملة الأشعة تحت الحمراء..
من ثم أمسك هاتف الميدان:

- اطلبوا الجانب المظلم من القمر وقولوا له أن يخلى الجنود من الجهة الشمالية.. سنبدأ رش المادة..
وبدأت الطائرات العمودية ترتفع واحدة تلو الأخرى..
ثم بدأت تختفي في الظلام وأضواؤها الحمراء والخضراء تتألق..
نظر (لاكومب) إلى المشهد في حسرة.. ثم هرع مع (الوفلين) إلى هليكوبتر عملاقة تنتظرهم ومحركاتها تزأر..
وسرعان ما ارتفعت هي بدورها..
وغابت في الظلام..

∞∞∞∞∞∞

5- لقاءات من النوع الثالث..

- والآن لنحاول اجتياز هذه الفرجة..
كان (لارى) قد انتهى تمامًا لهذا طلب من (روى) و(جيلان) أن يسبقاه إلى أن يلتقط أنفاسه..
- ليكن.. سننتظرك على الجانب الآخر من الجبل..
وبدأ (روى) يركض منحنيًّا وخلفه (جيلان)..
فما إن عبرا الفرجة حتى ارتميا فوق أشواك الصنوبر يلهثان..
الظمأ يقتلهما والعرق يغرق ثيابهما والجروح تملأ وجهيهما وأيديهما..
وهنا لمحا (لارى) قادمًا من جهة اليسار على بعد مائة قدم..
- (لارى)!.. من هنا!
وهنا دوي انفجار مروع من الضوء والضوضاء..
ولمحا هليكوبتر عمودية تحلق فوق قمم الأشجار ينبعث ضوء ساطع من بطنها.. ضوء يمسح المكان..
وثبا على قدميهما.. وصرخ (روى) محاولًا أن يخرق ضوضاء المحركات:
- أنت في مكان عار من الأشجار.. سيرونك!
- عليهم اللعنة!.. ماذا سيفعلون؟.. يهبطون بالطائرة فوقي؟
وهنا انحدرت الطائرة لأسفل..
طيور صغيرة تغادر غصون الأشجار وقد أزعجها الهدير والضوء..
الطائرة تحوم فوق (لاري)، الذي غاب تمامًا عن فهم ما يحدث.. الأشواك تصدم وجهه.. ورائحة الغاز (إى - زد - 4).. بدأ يفقد اتزانه لكنه لم يدرك ذلك..

رفع إبهامه كأنما يشير لسيارة بطريقة الأوتوستوب.. وصاح:
- هل تريان؟.. إنهم يقومون برش المحاصيل!
ثم بدأت عضلاته ترتعش.. ورأسه يتراقص..
وكان (روى) و (جيلان) قد ابتعدا خمسين ياردة عن المشهد وقد أدركا ألا جدوى من البقاء أكثر.. زحفا على ركبتيهما زحفًا ..
كان (لاري) يسقط على الأرض.. يرتجف بعصبية.. ثم يهمد تمامًا.
همست (جيلان) وهي ترتجف:
- لن نتركه.. فلنحضر جسده إلى هنا..

- لو كان نائمًا فهذا شيء يمكنه عمله حيث هو .. لا داعي لإحضاره هنا ..
- وإذا كان يحتضر؟
- إذا كان يحتضر... - قالها وأخذ نفسًا عميقًا – فنحن مثله من الآن فصاعدًا..!
وواصلا الزحف بين أشجار الصنوبر..
كان ضوء ساطع قادمًا من أسفل عند الحافة..
زحف (روى) على بطنه ليرى ما هنالك.. ومدّ يده إلى شجيرة يتشبث بها حين سمع صوت هليكوبتر قادمًا من أعلى الجبل.. أفلتت يده..
سقط عبر المنحدر .. وحاول التشبث بأقصى ما استطاع..
- (روى)! - صرخت (جيلان): هلم.. تعال..!
سال عرقه وحاول أن يمسك بشيء دون جدوى..
- أرجوك يا (روى)!.. الهليكوبتر قادمة!
مدّ يده وحاول الإمساك بيدها ..

صوت الهليكوبتر يتعالى.. رات - آ- تات.. رات - آ- تات..!..
العرق يغمر عينيه.. فقط بوصة واحدة تفصله عن قبضة (جيلان).. و...
أخيرًا أمسك يدها وثني جذعه ليرتمي فوق حافة المنحدر..
وهنا مرّت الطائرة فوق رأسيهما مبتعدة..
لم ترهما لحسن الحظ.. ولم تطلق غازها المشئوم ..
وبعد ما استعادا تنفسهما عادا يزحفان على بطنيهما ليريا سر الضوء القادم من أسفل......
- يا للسماء..!
- يا إلهي الرحيم!!

∞∞∞∞∞

ها هنا ينتهي دور الطبيعة ويبدأ دور الإنسان..
بدا المشهد كمرفأ كوني عملاق صنعته يد الإنسان..
أضواء هبوط تمت عبر الأفق.. ربما لخمسة أميال، وفي المركز تتلاقى أضواء الممرات عند صليب عملاقيتلألأ..
بدا لـ (نيرى) وكأنه مكان معدّ لهبوط شيء ما..
وعلى جوانب المشهد تناثرت المئات من مصابيح (الاستاد) العملاقة على حواملها الصلبة ..
والقاعدة كلها محاطة بسور من الصلب ارتفاعه ستة أقدام..
أما في المنتصف فكان هناك مقياس صوت لوني طوله أربعون قدمًا وارتفاعه ستة، يتصل بكابلات عديدة إلى جهاز (سنثسايزر) عملاق ..
همس (روى) في ذهول:
- رأيت هذا؟

- طبعا..
- حمدًا لله!
تنهد (نيرى) شاعرًا بالرضا لأنه لا يهلوس.. أو - على الأقل - لا يهلوس وحده..
ودون كلمة أخرى انحدرا إلى مستوى أقل ليريا بوضوح أكثر ما يدور تحتهما في هذا (الاستاد) العجيب..
كان هناك حشد من الرجال يعملون بأسفل مرتدين ثيابًا تشبه ثياب التمرين.. بعضها كتب عليه (لوكهيد) وبعضها كتب عليه (روكول)..
بعض الأجهزة أجهزة (ليزر).. بعضها أجهزة قياس حراري وكهربى مغناطيسى.. وبعض محللات الطيف .. وأجهزة لا يعلم سوى الله فيم تستخدم..
وحول القاعدة تناثرت أطباق الرادار تقوم بمسح الأفق بلا هوادة..
أضف لهذا حوالي خمس وعشرين كاميرا فيديو .. وخمسين كاميرا ثابتة.. وحوالي ثلاثين مسئولًا عن تشغيل الكاميرات..
وكانت آلات المشروبات الغازية وعربات المأكولات الخفيفة في كل مكان..
المثير هنا أن الحشد كان يرتدي المناظير السوداء بلا استثناء..
وحول جهاز (السنثسايزر) تجمع أربعة من الرجال يحاول أحدهم - بإصبع واحدة - أن يعزف مقطوعة (نهر القمر)..
فإذا بالفضاء يتجاوب بالأصوات ..
وتتلاعب الأضواء فوق اللوحة المضيئة معبرة عن المعادل الضوئي للنغمات ..
- هذا لا يُصدق.. لا يُصدق!
قالها (روى) وهو يتأمل المشهد ..

وهنا دوي صوت رزين من أسفل :
- أيها السيدات والسادة ....
كان هذا رجلًا يرتدي حلة بيضاء .. ممسكًا بمكبر صوت.. ماشيًا إلى منتصف الساحة:
-.. خذوا أماكنكم.. ليس هذا تدريبًا.. أكرر.. ليس هذا تدريبًا ..
هل يمكن خفض الأضواء على الحلبة إلى 60 درجة..؟
وهنا بدأت الأضواء تعتم تدريجيًّا ..
والتمعت أضواء الهبوط ببطء شديد ..
أضواء حمراء ماضية نحو الأفق البعيد ..
- رائع!
صاح الرجل الذي بدا كمقدم حفل.. وأردف:
- لا يمكن لنا أن نطلب أمسية أكثر جمالًا.. هل استعد الجميع؟
واستنتج (روى) أن هذه المراسم وكل هؤلاء العلماء والفنيين اعتادوا ممارسة هذه الطقوس كل ليلة على سبيل التدريب.. لكن دون نتائج ما ..
أما الليلة....
ولاحظ أن أجهزة الرادار كفت كلها عن الدوران وتركزت نحوهما ..
لهثت (جيلان) وهي تلتصق بالأرض أكثر :
- إنهم ينظرون إلينا ..
- ليس إلينا.. بل إلى السماء.. انظري!

∞∞∞∞∞∞

شيء ما يبتدئ ..
في البدء لم يعرف (روى) و (جيلان) كنهه ..

فقط كانا يرمقان الضياء في (الاستاد) ثم حولا عينيهما إلى الظلام الدامس فوق رأسيهما ..
كان أول ما رأياه هو درب اللبانة ..
ثم أحسّا أن النجوم تتحرك.. تتحرك..
بالحقّ تتحرك.. وحركتها تزداد سرعة..
ثم هو ذا شيء ما ينفصل عن حافة المجرة ..
لم تكن تلك نجومًا.. بل شيئًا آخر ..
وها هي ذي تشكل خطًا منحنيًّا.. ثم ينغلق الخط مكونًا شكلًا مُعينًا ..
مشهد وعاء الدب الأكبر ...
كان (روى) يقهقه.. فلم يعد خائفًا.. هو سعيد إلى درجة لا توصف..
وفي (الاستاد) وقف العلماء يرمقون المشهد كأنهم يشاهدون ألعابًا نارية مثيرة، مطلقين العديد من الـ (واو) والـ (أوه) والـ (آه)..
ثم انفجروا في تصفيق محموم..
هتف (روى) مرتجفًا:
- نحن الوحيدان اللذان عرفا ذلك.. هل رأيت؟
- نعم..
- حمدًا لله !
وهنا ظهرت ثلاثة نجوم براقة عند السماء الغربية ..
تحركت بسرعة.. ثم توقفت فوق الرءوس كأنما داست فراملها..
متحدية كل قوانين الجاذبية والطبيعة..



وهنا ظهرت ثلاثة نجوم براقة عند السماء الغربية.. تحركت
بسرعة.. ثم توقفت فوق الرءوس كأنما داست فراملها..

ثم إنها دارت 180 درجة، وانقسمت كل نقطة إلى أربع.. سرعان ما تناثرت في الفضاء ..
كانت الحماسة قد بلغت مبلغ الجنون لدى المشاهدين..

نظر لها (روى).. وكالعادة سألها:
- أرأيت هذا؟
- بالطبع ..
- حمدًا لله!
لم يكن العرض قد انتهى.. في الواقع كان على وشك البدء ..
حلقت سحابة بريئة المنظر فوق القاعدة.. ترافقها - داخلها - بقعتان من الضوء الأزرق المتألق ..
ثم بدأت النقطتان تنفصلان.. وتدوران أسرع وأسرع حول السحابة التي بدأ شكلها يتغير.. وبدت كأنها مضاءة من الداخل .. في حين وقف واحد من الضوأين جوارها يتألق بلون عنبرى.. يضيء.. يطفئ ..
إنه عرض كونى..
ولكن لأي شيء بالضبط؟!..
ربما هو توضيح لمكان شمسنا من المجموعة الشمسية..
نعم..!.. بالتأكيد هو كذلك..
شيء مذهل..!
ثم.....
أضواء ساطعة كالبرق تخرج من السحابة.. لكنها - على عكس البرق - لا تتألق لحظة ثم تنطفىء.. بل هي دائمة!.. ثم ازداد الضوء تألقًا.. وخارجًا من السحابة.. برز لسان من الضوء البرتقالي واندفع بسرعة فوق رأسي (روى) و (جيلان) اللذين لم يكادا يجدا وقتًا كافيًا ليدفنا رأسيهما..
إنه ذات الضوء الأحمر الشبيه بالغروب.. والضوء المتألق كفوانيس العيد..، الأضواء التي رأياها في (انديانا) منذ ليال عديدة..

أحدثت هذه الظواهر المذهلة إزاحة هائلة للهواء والحرارة وأطارت الغبار في كل مكان..
تطاير شعرهما في كل صوب.. وانتصب الشعر في صدر (روى) وذراعية بفعل الكهرباء الاستاتيكية..
وأفرغ الهواء من رئتيهما ..
كانت الأصوات مروعة جمدت الدم في عروقهما .. وأدرك (روى) أن هذه هي أصوات آلات الغرباء إذ تحرك سفنهم.. لكن إدراكه هذا لم يقلل من رعبه شيئًا..
ووسط الدموع والغبار، رأي (روى) و (جيلان) الأجسام العملاقة المتألقة تهبط وسط (الإستاد) ببطء شديد مالئة المكان بألوان الطيف المتراقصة، ومرغمة العمال والعلماء على البحث عن غطاء يقيهم من الأتربة والزوابع التي أثارتها..
لكن الأجسام لم تهبط ..
فقط حلقت حول الصليب المضيء الذي جُعل علامة للهبوط..
ثم توقفت كأنما هناك من داس فراملها.. ثم أخذت تحوم ببطء ..
بدأت تتخذ تشكيل مثلث.. على حين تتألق أضواؤها الملونة التي يستحيل النظر لها.. ولثوان كان يخيل لك أنها تستقر على الأرضية.. ولثوان أخرى تعلو إلى ارتفاع خمسة وعشرين قدمًا ..
كأنها تداعب الأرض.. تشمها.. تلعقها.. ثم تثب لأعلى وقد انتابها الذعر ..
واتسعت عينا (روى) ..
تمنى لو يهبط لأسفل ليرى.. لكن (جيلان) كانت خائفة تهاب الحركة ..
وفي الأسفل احتشد عدد من الفنيين حول جهاز (السنشايزر) كلهم يرتدون سماعات الأذن ويحملون في أيديهم أقلاما متصلة

بكابلات طويلة..
وارتفع صوت يقول في رهبة:
- يا سادة.. ثلاثون عامًا من التخطيط والإعداد قد بلغت غايتها.. فلنمارس عملنا الآن.. والآن هل نبدأ؟
فارتفع صوت فنى يقول:
- تي - سي ستريو.. الأوتو جاهز.. تحريف النغمة على تقاطع الموجات ..
- هيا بنا!
وأمام مفاتيح الجهاز جلس رجل يشبه في ملامحه (شكسبير).. كان غاية في العصبية.. يتصبب عرقًا ويمسح عنقه وجبينه بمنديل طيلة الوقت ..
كان يعرف المسئولية الهائلة على عاتقه.. كل سنوات العرق والتخطيط تتوقف على النغمات الخمس التي سيعزفها الآن.. يجب أن يجيد عزفها ..
نظر الشاب الذي يقدم الحفل نحوه.. وهتف:
- والآن.. ابدأ بالنغمة..
فعزف (شكسبير) النغمة الأولى ..
وتألقت على اللوحة الضوئية بقعة لون عنبرية سرعان ما خبت إذ تلاشت أصداء النغمة عبر الآفاق..
- والآن نغمة أخرى أعلى ..
عزف (شكسبير) النغمة الثانية.. فتلألأت اللوحة باللون الأرجواني ..
- نغمة ثالثة منخفضة ..
- ثم اهبط أوكتافا ..
الآن صار اللون أزرق قاتمًا رائع الجمال ..
- ثم ارتفع قليلًا إلى النغمة الخامسة ..

اللون أحمر متألق.. ثم يخبو ببطء..
غمغم قائد الفريق في خيبة أمل:
- لا شيء.. لا شيء على الإطلاق ..
فأعاد (شكسبير) النغمات الخمس ومعها تألقت الأضواء..
ولم يستجدّ شيء ..
لا استجابة من الأجسام الثلاثة ..
فقط ظلت كما هي تعلو وتهبط.. تتألق وتنطفىء..
- أنكور..!.. إين فوا..
كان هذا صوت (لاكومب) الذي ظهر جوار الـ (سنثسايزر) طالبًا بالفرنسية أن يجرب (شكسبير) مرة أخري..
مرة أخرى تتردّد النغمات الخمس والأضواء معها..
- بلوفيت.. بلوفيت..[8]
ومن مكمنهما دندنت (جيلان) النغمات الخمس، ودمعت عيناها.. هي تذكر هذه النغمات.. إنها أغنية (باري) القديمة.. التي كان يعزفها على (الإكسليفون) ليلة اختفائه.. يا للعجب!
- بلوفيت (جان - كلود).. بلوفيت..!
العرق ينسال على حاجبى (شكسبير) ويبلل ثيابه ومفاتيح الجهاز.. كان يعزف بأسرع ما استطاع الآن..
النغمات تتردد عبر الجبل.. لكن دون جدوى ..
بدأ التوتر يخنق (لاكومب).. ماذا تنتظر هذه الأجسام إذن؟
(شكسبير) يعزف حتى ليوشك مخه على الانفجار ..
وألوان الطيف تتوالى على اللوحة المضيئة ..
وفجأة استجابت الأجسام...
ليس بالصوت.. لكن باللون..

بدأت تكرر الألوان التي تتراءى على الشاشة.. وحين توقف (شكسبير) أخيرًا عن العزف بدا للجميع أن الصمت كائن خرافي يبعث من قبره وسط عويل الرياح..
أشار (لاكومب) بإصبعه نحو (شكسبير) آمرًا:
- استمر.. لا تتوقف ..
وعادت النغمات تتردد ..
الرجال في نشوة غامرة.. في الواقع كانوا في حالة لم تُسمّ بعد.. وتفوق النشوة بكثير ..
إنه أول لقاء من النوع الثالث يتم أمام كل هذا الحشد.. وكل هذه الأجهزة.. ويتم بميعاد مسبق!..
وهنا ارتفعت الأجسام الثلاثة لأعلى..
أحدها صعد لأعلى وتلاشى.. والآخران ابتعدا إلى جانبي الجبل وغابا في سحابتين عملاقتين ..
لم يعد سوى همس الرياح.. والصمت ..
وفجأة شرع الكل يصرخ ويهلل..
فقد العلماء وقارهم وأخذوا يتواثبون كأطفال.. يتبادلون العناق.. ويضرب بعضهم البعض على الظهور ..
لقد انتهى كل شيء على ما يبدو..
صافح (لاكومب) (شكسبير) مهنئًا ..
إلا أنه في نفس اللحظة بدأت أجهزة الرادار تضيء..
وعادت الأطباق تدور مركزة نظرها على السماء فوق (روى) و (جيلان)..
كان هناك شيء ما يحدث ..
وفي (الاستاد).. أشار أحد الرجال إلى أعلى وجذب (لاكومب) من كمه ليرى....
كان عدد من السحب العملاقة يحتشد في السماء فوق الجبل..

وداخل السحب كان حشد من الأضواء البراقة.. حشد مروع.. يثير الرهبة ..
وتلقائيًّا شعر (روى) و (جيلان) أن الوقت قد حان لينزلا.. وليقفا وسط البشر الآخرين بعيدًا عن هذه الظواهر الغامضة..، تذكرت (جيلان) هذه السحابة وتلك الأضواء.. ففي مثلها اختفي (بارى) الصغير يومًا ما...
ومن السحابة برز أحد الأجسام التي كانت هنا من قبل وحلق فوق أرضية (الاستاد)، وأطلق ثلاث إشارات باللون الأحمر.. فتألقت إشارات مماثلة في السحابة ..
ثم بدأ الغزو ..
انبعثت مئات الأضواء الدقيقة مشكلة ما يشبه الطائرات عجيبة الشكل والألوان.. وبدأت تؤدي حركات جوية معقدة..
بدا من الواضح أن هذه الأجسام تملك قدرة هائلة على التوقف حين تريد.. قدرة تفوق كل قوانين الطبيعة..
ولم يكن لها صوت خاص بها.. لكنها كانت تسبب إزاحة هواء هائلة مما يحدث زئيرًا كزئير الرعد..
يا للأضواء!
يا للحرارة المنبعثة منها!
بعض هذه الأجسام بدا كشجيرات عيد ميلاد عملاقة.. وبعضها بدا كأنما وليد أفكار مهندس ديكور كونى موهوب..
همس (نيرى) لـ (جيلان):
- يجب أن أدنو أكثر!
- بالنسبة لى.. هذه المسافة كافية جدًّا..
وتبادلا الصمت والنظرات لوهلة ..
ثم فارقها (روى) بادئًا النزول الخطير المتعرج لأسفل..

∞∞∞∞∞∞

وحين وصل إلى منتصف المسافة، لاحظ أن العرض قد انتهى .. وأن الأجسام قد حلقت غائبة في الظلام..
وفجأة التمعت مئات الأضواء من السحابة محيطة بدائرة قطرها عشرون ميلًا.. دائرة معتمة مظلمة لم يتضح شكلها..
وازدادت الأمور غرابة..
الصمت يسود (الاستاد) والإحساس بالإنهاك العاطفي من فرط ما رأوا من غرائب ..
(نيرى) قد وصل لأسفل وبدأ يجد السير نحو الساحة..
وإذا بالدائرة المعتمة تقترب.. تقترب حاجبة القمر رامية ظلها على المكان ..
وخرّ (روى) على ركبتيه مذهولًا ..
كان الشيء في حجم مدينة.. ربما في حجم (إنديانا).. لا.. لا.. أكبر.. ربما (ديترويت)..
الأضواء تحيط بقمته.. والجسم نفسه يبدو صدئًا منهكًا.. كسفينة فضاء جابت السماء ملايين الأعوام..
ومن الجسم انفجرت أضواء صغيرة منفصلة كأنها سرب من الذباب المضيء، وأدرك الواقفون أن هذه الأشياء هي (قوارب إرشاد)..
قوارب إرشاد تعين الجسم العملاق على الهبوط في الرقعة المحددة له على أرض (الاستاد)..
كان تأثير الجاذبية مروعًا، وشعر كل إنسان أنه فقد نحو أربعين في المائة من وزنه.. لكن هذا الشعور لم يكن بالمرة سيئًا ..
لكن (لاكومب) لم ينس في غمرة المفاجات أن يشير إلى طاقم العزف حول جهاز (السنثسايزر) ليبدءوا جولة جديدة..

تساءل الشاب - الذي كان يقدم الحفل – متوجهًا للفنيين:
- هل المحلل السمعي جاهز؟
هزّ الفنيون رءوسهم أن نعم ..
عندئذ همس الشاب في مكبر الصوت:
- لو كان كل شيء على ما يرام في الجانب المظلم من القمر؛ اعزفوا النغمات الخمس..
وببطء عزف (شكسبير) النغمات الخمس ..
فلم يستجب الجسم العملاق..
أمر (لاكومب) الرجل:
- أنكور!
وأعيدت النغمات فأصدر الجسم صوتًا غريبًا.. كصوت خنزير يلهث ..
- لا بد أنها أكلت ما سبب لها عسر الهضم..!
قالها رئيس الطاقم في عصبية وواصلوا عزف النغمات الخمس ..
وفجأة استكمل الجسم آخر نغمتين بنفسه!.. ضوضاء لا تصدق هشمت النوافذ الزجاجية وألقت بالكثيرين على الأرض، لكن أحدًا لم يعبأ بهذا ..
- اعزفها ثانية..
وفي هذه المرة أعاد الجسم النغمات وأضواء ملونة تلتمع على مقدمته.. عنبرية.. أرجوانية.. زرقاء .. خضراء.. حمراء..
ثم بدأت السفينة الأم تأتي بنغمات أخرى قلدها (شكسبير).. وبالتدريج زادت سرعة العزف فتخلى (شكسبير) عن مهمته تاركًا الكمبيوتر يتولاها..
ولقد شرع هذا الأخير يمارس عمله بنجاح ساحق..، وبدت هذه لحظات كونية تضافر فيها الصوت والضوء لصنع معجزة..
ما أغربها موسيقا...

ثم ساد الصمت بضع دقائق ..
الصمت والظلام ..
وفجأة انفتح الجسم - السفينة الأم - كاشفًا عن دائرة صغيرة من الضوء الساطع.. سرعان ما صارت ممرًا ضوئيًا باهرًا ..
وبرغم المناظير السوداء كان من المستحيل النظر للداخل..
الفتحة تتسع أكثر.. والضوء يتزايد أكثر ..
على أن (لاكومب) تخيل للحظة وجود حركة بالداخل من النافذة أو الباب المفتوح..
وتبدت ثمانية أشكال غير آدمية بالتأكيد (لأن الضوء أضاع أكثر حدود أجسادهم فبدوا نحيلين للغاية).. خرجت من دائرة الضوء الباهر.. فسار (لاكومب) نحوها..
وهنا أدرك أن هذه الأشكال بشر حقيقيون..
كانوا يرتدون ثياب سلاح الطيران في الأربعينات ..
كلهم مصابون بذهول تام.. وكلهم صغيرو السن يحملون خوذاتهم في أيديهم..
ورفع أولهم يده محييًا (لاكومب).. وهتف:
- ملازم (فرانك تايلور).. احتياطي – أسطول الولايات المتحدة - 64199
- مرحبا بعودتك أيها الملازم إلى الوطن ..
وتوالت الأسماء:
- (هارى وورد كريج) - كابتن - أسطول الولايات المتحدة - 43431
- (ماتيو ماكميشيل).. ملازم.. احتياطي - 909411
وكان هناك رجل يمسك بلوحة عليها صور وأسماء ويلصق شرائط على صورة كل من يجد اسمه عنده.. كل هؤلاء من الرحلة (19) التي أقلعت من (بنزاكولا) في (مايو) 1948 واختفت

تمامًا.. والتي بدأت قصتنا بالعثور على طائراتهم سليمة في صحراء (المكسيك)..
هتف أحد الفنيين:
- يا للسماء!.. هم حتى لم يشيخوا.. لقد كان (أينشتاين) محقًّا![9]
- من يدري؟.. ربما كان هو نفسه واحدًا منهم!
في هذه اللحظة كان أكثر من مائتي عائد قد غادروا السفينة الأم، وكان فريق من الفنيين والعسكريين والأطباء ينقلونهم فورًا إلى غرف خاصة معدة مسبقًا..
وهنا لمح (روى) خيال شخص قصير القامة يبلغ طوله حوالي ثلاثة أقدام خارجًا من دائرة الضوء، ولمح (جيلان) تركض كالملسوعة نحوه ..
إنه (بارى)!
كانت (جيلان) قد هبطت إلى (الإستاد) منذ قليل.. وكانت الآن تبكي وتضحك وتعتصر الصغير في جنون..
دنا (روى) من (لاكومب).. فما إن رآه الأخير حتى بدا عليه الرضا لأن (روى) فرّ من الجيش ووصل هنا .. على كل حال لم يعد أحد يجد وقتًا ولا سعة صدر كى يهتم بهذا الأخير في هذه الظروف ..
- ماذا تريد يا مسيو (نيرى)؟
- أريد فهم ما يحدث هنا..
نظر له (لاكومب) في صمت.. ثم تركه وسار إلى حيث وقف (لوفلين) مع عدد من ضباط عملية (زهرة مايو).. وقال بالفرنسية:
- يا سادة.. نحن بحاجة إلى الحديث عن موقف السيد (نيرى)..
وبدأت مناقشة حامية ..

ترجم (لوفلين) ما يقول الفرنسي:
- إن هؤلاء أناس عاديون وقعوا في ظروف غير عادية.. هجروا وظائفهم وعائلاتهم وقطعوا كل هذا الطريق إلى هنا بعد أن تملكهم وسواس هذا الجبل.. والآن أرى أن يصير السيد (نيرى) فورًا جزءًا من هذا المشروع..
قال أحد الضباط:
- لكن رجالنا تدربوا سبعة وتسعين شهرًا من أجل هذه اللحظة، فكيف تتوقع أن يجتاز (روى) هذه الثغرة؟.. كيف يتكيف؟
كانت فتحة السفينة تنغلق ببطء.. ببطء ..
وهتف (بارى) الصغير من بين ذراعي أمه :
- وداعًا.. وداعًا ..
في ذات اللحظة هرع (لاكومب) نحو (روى) وصافحه.
- مسيو (نيرى).. إنني أحسدك ..
ومن خلال فرجة الضوء الساطع تبدي شيئان .. بل ثلاثة ..
كان طول الواحد من هذه الأشياء تسعة أقدام.. وكان نحيلًا إلى حدّ مفزع حتى أنك لا تصدق احتواءه على أحشاء ..
لكنهم - على الأقل - بدوا كالبشر لأنهم يتحركون على ما يشبه الأقدام ويلوحون بما يشبه الأذرع ..
حملت (جيلان) ابنها المحتجّ وهرعت جارية للوراء.. فهي لم ترد أن تجازف مرة أخرى بعد أن استردته ..
والغرباء يتألقون بالنور.. يلوحون بأذرعتهم حيث وقفوا هناك ..
(لاكومب) يقتاد (روى) وأحد الضباط إلى إحدى الغرف الجانبية ..
الضابط يسأل (روى):
- قيل لي يا سيد (نيرى) إن لي أن أثق بتعاونك .. ما فصيلة دمك؟

- لا أعرف.
- متى ولدت؟
- 4 ديسمبر 1947.
- هل سبق تطعيمك ضد الجدري؟.. هل يعانى واحد من أسرتك من مرض الكبد؟
وشرع (روى) يرتدي ثياب فضاء حمراء اللون.. ووقع على إقرار أنه قد شارك في مشروع (زهرة مايو) بكامل إرادته ودون إرغام .. لم لا؟..
لم يعد هناك ما يربطه بالأرض.. وهو حقًّا راغب في أن يعرف أكثر ..
في ذات اللحظة كانت (جيلان) تلتقط صورًا للمشهد على حين دفن (بارى) الصغير رأسه في بطنها وشرع يحكي لها عن أصدقائه الواقفين بالأسفل.. كان يضحك .. يضحك ..
وفي إحدى الغرف جلس رواد الفضاء الاثنا عشر يصغون لموعظة القس التي يمهدهم روحيًّا بها للرحيل مع الغرباء..
كانوا خائفين .. برغم السبعة والتسعين شهرًا من التدريب ظلوا - وهذا حقهم - يحسون الرهبة ..
ثم تحرك الموكب قاصدًا السفينة ..
رجال الفضاء يغوصون في دائرة الضوء الساطع بداخل السفينة الأم ..
ومعهم (روى نيرى)..
وهنا برز أحد الكائنات من فرجة الضوء ولوّح بذراعه للحشود المحيطة.. لثوان تبينوا وجهه العجيب المتبدّل بين الحالة الجنينية والشيخوخة المروعة ..
ثم انغلق الباب ..

وبدأت السفينة ترتفع وسط ملحمة الأنوار لأعلى.. والأضواء الصغيرة تحوم حولها مرارًا ..
ثم إن الضوء الأحمر - قطعة الآيس كريم - دار حول السفينة .. وتلاشيا بين طبقات السحاب الكثيفة..

∞∞∞∞∞∞

لا يدرى (روى) في تلك اللحظات الرهيبة لماذا تذكر أغنية من فيلم (بينوكيو) تقول كلماتها:
حين ترى نجما وتتمني أمنية..
فلا يهم من تكون..
لأن ما تتمناه ستناله ..
لو أنك تمنيت بإخلاص ..
فلا أمنية مستحيلة ..
لأن المستقبل سينظر لك باهتمام..
حين ترى نجمًا وتتمنى أمنية ..

(تمت بحمد الله)

لقاءات من النوع الثالث..
لقاءات قريبة من النوع الأول: رؤية جسم طائر مجهول الهوية..
لقاءات قريبة من النوع الثاني: رؤية اثار مادية مؤكدة لهذا الجسم.
لقاءات قريبة من النوع الثالث: حدوث لقاء فعلى بين ركاب الجسم الطائر وبين البشر..!
من يدري؟.. لربما كنت أنت طرفًا في اللقاء القادم!..
لهذا ندعوك - على سبيل الاحتياط - الى قراءة هذه القصة الممتعة..


متميزون
للكتب النصية
E-Book

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

[Link – لينك القنـاة]

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(Unidentified Flying Object).

[←2]
فيما بعد كرر (سبيلبرج) هذا المشهد في فيلم من إنتاجه هو (بولتر جايست) لكن سبب الحركة غير العادية للألعاب كان شبحًا في هذه المرة.

[←3]

السادو : رتبة دينية عليا عند (الهندوس).

[←4]

(ديجافو - De Ja-Vu) لفظة فرنسية معناها: شوهد من قبل، وتوجد ظاهرة أخرى هي (جامى فو - Jamais - Vu) بمعنى: لم يُشاهد قط، حين تقابل صديقًا حميمًا أو أخًا لك ولثوان تشعر كأنه غريب عنك وأنك لم تره من قبل.

[←5]

النداء الذي كان المهاجرون الأوائل إلى الغرب يرددونه قبل رحيل القافلة.

[←6] سبة فرنسية لا نجرؤ على ترجمتها.. لكنها كناية عن الغباء!

[←7]

الساعة الثامنة بلغة الميدان.

[←8]

أسرع.. أسرع.

[←9]

يقصد نظرية (أينشتاين) الخاصة بالتتابع النسبي للزمن، وهي نظرية محببة جدًّا لدي كتاب الخيال العلمى.


روايات عالمية
11
وجاء
العنكبوت ..!
فريق
متميزون
E-BOOK
قصـــة : إدوارد ليفى
ترجمة : إيناس النجار
إعـداد : د. أحمد خالد توفيق

(كلمة مهمة) :

هذا العمل: (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

[انضم إلى الجروب]

[انضم إلى القناة]

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (11)

وجاء العنكبوت

قصة: إدوارد ليفي.

ترجمة: إيناس النجار.

إعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

1-وجاء عنكبوت!

على حافة الصخرة المغطاة بالرمال وقفت تتحسس المكان من حولها.. أشعة القمر الفضية تغمر الرمال، على حين أخذ النسيم الصحراوي يحرك شعيراتها البنية الكثيفة..
عنكبوت هي.. وإن كانت أكبر حجما من أي عنكبوت تتصوره..
تحرك رأسها الكبير بخفة محاولة أن تلوك بقايا لحم الفأر العالقة بالشعيرات المحيطة بإبرها السامة على حين تتوهج عيناها كجمرتين في ضوء القمر البارد..
نوع فريد من العناكب هي.. تمتّ بصلة قربى لعنكبوت (تارانتولا) السام المعروف في جنوب (أوربا) لكنها أكبر منه حجما وأكثر ضراوة.. وعاداتها مختلفة عن أي عنكبوت على وجه الأرض..

∞∞∞∞∞

بوم!..
دوي صوت البندقية في سكون الصحراء ثم سقط الأرنب البري صريعا، فخفض (لى ميلر) فوهة سلاحه وسار عبر الرمال إلى حيث ضحيته..
كان هذا شيئا مثيرا حقا أن يظفر الصبى ذو الخمسة عشر ربيعا بسلاح وحق الخروج وحده إلى الصيد.. تلك هي هدية عيد ميلاده.. والحذاء ذو الرقبة ومعدات المسعكر.. إن أباه سيكون فخورا به حتما خاصة وتلك أول رحلة صيد يقوم بها وحده..
سمع نباح كلبه الذي كان يتشمم الأرض جواره...
فصاح:

- (جوكر)!.. كف عن النباح وغد هنا..
والتقط جثة الأرنب قدسها في حقيبة الصيد.. لكن الكلب لم يصدع بالأمر بل ظل يدور وينبح.. هذا غريب!.. كأنه يتأمل شيئا ما بين صخور تل صغير..
قال الفتى حين وصل لموضع الكلب:
- ماذا هنالك يا (جوكر)؟.. أرنب آخر؟
وركع لينظر فلم ير سوي شيء أسود مختبئ بين الصخور.. ثم خرجت من موضعها وقد فردت إبرها اللادغة ورفعت أقدامها الأمامية كأنما تتهيأ للقتال..
ومع كل حركة عصبية أتى بها الفتى قامت هي ..بحركات مماثلة

- ياللهول!.. ما أكبر هذا الشيء! - قالها الفتى في ذهول وجذب الكلب من عنقه قائلا:
- غد للوراء يا صديقي..
انتصب الشعر في عنق الكلب وشرع ينبح في هياج، ثم أفلت نفسه من قبضة الفتى واندفع يدور حول العنكبوت في حذر..
دقق الفتى النظر فأدرك أن هناك شيئا مرسوما على ظهر العنكبوت بلون أبيض.. رقم (66) على وجه التحديد.. لابد أن يرى أبي هذا.. أخرج سكينه ومد طرفه نحو العنكبوت مستندا بيده اليسرى على الصخور.. وشرع يحاول أن يرفع العنكبوت على نصل السكين توطئة لأن يسجنه في حقيبة الصيد..
عندئذ..
حدث كل شيء كلمح البصر.. الوثبة.. والمخالب الحادة تغرس في ذراع الصبي.. صرخ.. هز ذراعه بعنف محاولا أن يقذفها من هناك حيث تشبثت في لحم ذراعه الطرى تفرغ سمها..
ثم انتزعها بيده الحرة لكنها ظلت متمسكة بموقفها..

كانت ترتجف في نشوة وغل وهي تحقنه بالمزيد من السم..
أخيرا نجح (لى) في انتزاعها ورماها على الصخر.. ورأى الثقوب الحمر تنز الدم من ذراعه حيث كانت اقدامها.. أما ما أثار هلعه أكثر فهو أن العنكبوت وقفت على قدميها من جديد ثم اندفعت إلى الأمام قاصدة ساقه!..
هذه المرة هوى بحذائه فوقها فهرسها ارتعشت الأرجل قليلا ثم همدت.. ورأى الجسد المهشم راقدا فوق الرمال..
إن ذراعه يخفق بالألم.. وقد تورم الجلد بلون أحمر قانٍ، الدوار يتسرب إلى عقله.. والغثيان يزحف إلى معدته..
انحنى إلى الأمام وتقيا.. أحس بحالته تتحسن نوعا..
وفوق قدمين تزنان أطنانا برغم أنهما طريتان كالهلام ؛ سار عائدا إلى داره والكلب يركض خلفه يتشمم كل شيء..
سار مترنحا.. مترنحا.. حتى خانته قدماه فسقط فوق الرمال يلهث.. تسربت حبات الرمل إلى أنفه..
فلم يعد يشعر سوى بالكلب يئن ويلعق وجهه في حيرة...

∞∞∞∞∞∞

إن (هارى ميلر) يعرف الصحراء جيدا..
يعرف جيدا ما يمكن أن يحدث فيها لصبي وحيد..
وقد ادرك الان وهو يتامل النيران المشتعلة في معسكره أن (لى) قد تأخر كثيرا.. كثيرا جدا..
وحين حمل المصباح و البندقية كان يتوقع الشرّ.. ولا شيء سواه..
راح يبحث عن ابنه في الصحراء، ورأي آثاره تقترب من تلك الأسوار الحكومية التي كتب عليها: (ممنوع الاقتراب - ملك

خاص بالدولة) ثم رأي أثاره تبتعد..
وحين رأي الكلب يركض في دوائر وينبح ؛ أدرك أن ابنه هناك..
كان (لى) متكورا فوق الرمال يتنفس بصعوبة.. حمدا لله أنه حي يرزق.. لكن ماذا به؟.. لا توجد كسور.. آه ذراعه!.. من الواضح أن شيئا ما قد عضّه..
كان الذراع متورما مكدوما وقد تجمدت الدماء ممزوجة بالرمال حول الجروح العميقة.. ربط الذراع بمنديله ليمنع مزيدا من النزف ونظر إلى البندقية الملقاة فوق الرمال.. قائلا:
- هي غلطتي.. ما كان يجب أن أتركه وحده..
ونظر إلى آثار الرمال حيث زحف ابنه.. و غمغم:
- تلك البندقية المشئومة!..
ثم دثر ابنه بمعطفة وحمله بين ذراعيه.. إلى البيت..

∞∞∞∞∞∞

2 - مرض غريب!..

حقن د. (فرانكلين) الفتى بمسكن بسيط.. وغمغم:

- إن كل ما يحتاج إليه هو النوم، ولسوف يكون على مايرام فلا تقلقوا.. إن فتاكم لقوى.. وهو يعاني الآن صدمة عصبية بسيطة من جراء ذلك الشيء الذي قابله في الصحراء.. وقد أخذت عينة دم سنحللها لمعرفة آثار السموم إن وجدت..

كان الفتى يرقد شاحب الوجه يتمتم بكلمات غير مفهومة عن العنكبوت، وأمه ترمقه في توتر وهستيريا غير مصدقة لكل هذا..

وفي غرفة المعيشة جلس الأب يحسو الشراب فما إن رأى د. (فرانكلين) حتى تساءل في جزع عن حال صغيره..

- لا بأس.. سآتى غدا لأعطيه جرعة من لقاح (باستير)...

- لقاح (باستير)؟.. لماذا يا دكتور؟.. إن الأمر يتعلق بعضة عنكبوت وليس للسعار دور هاهنا؟

- إن محيط الجرح في ذراعه يقارب الثمانى بوصات فهل سبق لك أن رأيت عنكبوتا بهذا الحجم؟!

- لكنه يهذي بخصوص عنكبوت قد هاجمه..

- أعتقد أن نوعا من القوارض الكبيرة – كفأر صحراوي - قد هاجمه كفأر؟.. فأر لعين له ثمانية مخالب؟.. إنني لن أترك ابني يتعذب بتلك الحقن المؤلمة لمجرد الاحتمال..

- وأنا لن أعرض حياة أحد مرضاى الموت بسبب جهل الأباء...

- جهل؟!..

- نعم جهل.. وفي سلطت أن أرغمك على الامتثال لرأيي بصدد إعطائه هذه الحقن..

قالها الطبيب بصيغة رسمية، ثم حياهما وغادر المنزل دون كلمة أخرى..

∞∞∞∞∞

وفي مكتبه شرع د. (فرانكلين) يدرس تقارير المعمل عن حالة (لى ميللر) وأحس بارتياح جم لأن تحليل الدم لم يثبت وجود فيروس (الكلب)، وهو لم يكن يتمنى أن يرى الصبى يتوجع تحت وطأة العلاج..
كانت هناك نسبة عالية من سم العناكب وارتفاع في عدّ الكريات البيضاء.. ولكنه واثق من شيء واحد:
مهما بلغت الجرعة المعطاة فلا بد أنها قد زالت نهائيا فما حالة الغثيان والصداع وآلام الظهر المستمرة مع الصبي؟.. إنه يعرف (لى ميللر) منذ ولادته ويعرف أنه يدّعى المرض كثيرا.. فهل الصبي يبالغ هذه المرة؟
لا يدري حقًا..

∞∞∞∞∞

في ذات اللحظة خرج (هارى) من سيارته مندفعا كالقذيفة إلى داخل بيته.. لقد كانت هناك مكالمة من زوجته تدعوه للقدوم فورا لأن حالة (لى) خطرة...
- (جين).. أنا هنا.. ماذا حدث؟.
هاهي ذي (جين) قادمة من الردهة تقول وهى تلهث:
- لقد عاوده المرض هذا الصباح.. وهو يتقيأ في الحمام الان..
ثم تهافت وأردفت:

- لقد غاب عن وعيه بالداخل والباب موصد.. آه يا (هارى)! أحسبه سيموت بالداخل الأن!..
لم يعقب (هارى) بكلمة وهرع إلى الحمام فعالج مقبض الباب.. دفعه بكتفه فأحس به يستجيب.. وإن أدرك أن هناك ثقلا موجودا خلفه من الداخل.. وأخيرا صنع لنفسه فرجة تمكنه من النظر إلى الداخل، وزج برأسه ليرى منها..
كان (لى) راقدا على ظهره يحرك رأسه ذات اليمين وذات اليسار، وقد غرق في بركة من القيء البني الثخين..
زجّ (هارى) بجسده أكثر، ومر إلى داخل الحمام.. فأراح ظهر صغيره إلى الحائط وغسل وجهه وشعره بالماء البارد فبدأ يفيق.. نظرة عينيه أصبحت ذات معنى..
سأله (هارى) في قلق:
- ماذا دهاك؟.
قال الفتى إنه شعر بالغثيان فدخل الحمام.. ثم تراخت قدماه فسقط أرضا عاجزا عن الحركة.. وهنا دهمه الغثيان من جديد فانحنى يفرغ ما بقى بمعدته في المرحاض..
ثم إنه استند إلى كتف أبيه ومضيا معا إلى حجرة النوم..
كانت حاله قد تحسنت إلى حد كبير بعد القيء، والملاحظة التي ارتاح الأب لها هي أن ذراعه أيضا قد شفى تماما من أثر اللدغة..
لقد علم من الطبيب أن فيروس (الكلب) غير موجود، وأن سُمّ العنكبوت هو ما وجدوه، مما يؤيد حدس الأب وهذيان الأبن.. لكن لو كان هذا صوابا - فلماذا لم يتلاش أثر السم بعد؟!

∞∞∞∞∞∞

نعم.. لم يتلاش أثر السم بعد...

طيلة الأسبوع التالي يتدهور الصبي باستمرار..
آلام فظيعة في بطنه، فقد ثلاثين رطلا من وزنه..
الصداع وآلام الظهر والإسهال دائما وأبدا.. عيناه تصفران هل هي حقا - كما يزعم د. (فرانكلين) -حلة نفسية؟!.. هل حقا ستتحسن مع بعض العناية والمحبة؟.. كل هذا لا يُصدق..
وفجأه سمع (هارى) وزوجته صرخة قادمة من غرفة النوم.. صرخة ألم بليغة.. تبادلا النظر ثم هرعا إلى حجرة نوم الصبى..
هناك كان (لى) يتلوى فوق الفراش ممسكا بمعدته وأظفاره مغروسة في لحمها.. والفراش كان غارقًا بالدماء وبقعة كبيرة تحتشد على السجادة..



هناك كان (لى) يتلوى فوق الفراش ممسكًا بمعدته وأظفاره
مغروسة في لحمها ..

- (جين)!.. اطلبي الإسعاف حالا!.. تحركى يا امرأة..! لابد من نقل الولد إلى المستشفى..
نجع صراخه في إعادتها إلى عالم الواقع من حيث وقفت مبهوتة على الباب ترمق ما يجرى كان الفتى يتلوى بين ذارعي أبيه الذي فتح منامته وأنزل سروالها إلى أسفل، واستطاع أن يرى الدماء السوداء القادمة من فتحة الشرج.. كان الفتى يقاوم بعنف وقد أدمى لسانه وبرزت الشرايين في عنقه ورسغية كالأسلاك..
وأخيرا - وبعد لأي - همدت حركة الفتى وشرع بيئن ويلهث.. ونظر (هاري) الذى استرخي نوعًا إلى معدة ابنه.. خيل إليه أنه

يرى حركة دائبة تحت الجلد كأن فقاقيع تحاول الخروج للسطح..
وهنا دخلت الزوجة الحجرة فصاح (هارى) في جنون يأمرها أن تخرج.. كانت على شفا انهيار عصبي ويداها ترتجفان.. من ثم كان عليه أن يبقيها خارج الحجرة حتى لو اضطر لضربها..
ونظر (هارى) إلى بطن الفتى.. الجلد المشدود يتموج ويتواثب.. فدعا الله أن تسرع سيارة الإسعاف قليلا.
آه!.. حمدا لله.. الصفارة المطمئنة الرهيبة تندوى عن بعد.. جري إلى الباب الخارجي وفتح لرجال الإسعاف ذوي المعاطف البيضاء، وقادهم إلى غرفة النوم.. ثم تجمد وقد أدرك أن الأوان قد فات......
لقد مات (لى)..
كان الفتى راقدا وذراعاه على الفراش وقد تدلى رأسه على الحافة.. قمه فاغر على آخره.. وعلى صدره وعلى شعره وعلى وجهه آلاف من العناكب السوداء الصغيرة المشعرة.. بعضها يزحف على الفراش وفوق السجادة وعلى حافة النافذة، أكثرها كان يترك وراءه خطوطا دامية حمراء..
أدار أحد رجال الإسعاف وجهه للحائط وتقيأ، على حين فتح الأخر فاه ليقول في ذهول:
- عناكب؟. آلاف منها!.
- إنها تزحف لتدخل فاه..
كان (هارى) قد خرج نوعا من الصدمة التي أصابته وبدأ يفهم.. بصوت هادئ هتف:
- هي لا تزحف إلى فمه بل تخرج منه!...
لم تكن الزوجة قادرة ولا راغبة في فهم شيء..
فقط صاحت في هستيريا:

- اقتلها!.. يا إلهي اقتلها..!.
وهرعت محاولة أن تدهس بعضها بحذائها لكن العناكب كانت تجيد المراوغة،، قلب (هارى) المنضدة بجوار الفراش وأمسكها من أرجلها وشرع يهوي بسطحها على السجادة محاولا هرس هذه الحشرات البشعة.. استطاع بالفعل أن يقتل الكثير منها.
لكن العناكب بدت وكأن لها هدفا خاصا بها..
كانت تقتفي أثرا غير مرئي خارج النافذة..
هنالك في ليل الصيف الدافئ...

∞∞∞∞∞∞∞

3- اللغز يستمر..

(صبي في الخامسة عشرة تقتله العناكب)..
رمى (ماكنيل) بالجريدة على مكتبه ونهض يرمق السماء الملبدة بالغيوم خلف زجاج النافذة.. إنها ستمطر.. دائما ما تمطر في أول أسبوعين من هذا الشهر.. ولكن.. إن اليوم هو عيد ميلاد (كارين).. كم عمرها اليوم؟.. ربما ثلاثة وعشرون عاما..
لا يهم.. المهم أنها متزوجة منذ عامين.. وأنه سيصير جدا عما قريب.. لم تكن علاقته وثيقة معها قط بسبب انشغاله الدائم.. لكنه حتما سيشتري لها هدية عيد ميلاد.. و...
تررررن تررررن!
- آلو.. (ماكنيل).. مباحث جنائية..
- أنا د. (سيمونز).. هل بإمكانك أن تأتي إلى المشرحة لترى جثة (لى ميلر)؟.. ثمة شيء لم يسبق لي أن رأيته..
كان (لى) يمقت المشرحة.. ذلك المكان الخالي من الحياة.. المعقم المضاد للفطريات، لكنه كان مضطرا..
وفي المشرحة قاده د. (سيمونز) إلى ثلاجة تخزين، وأخرج جثة مغطاة ب (النايلون) فكشف غطاءها وأنار مصباحا علويا:
- كما ترى.. الكليتين الكلية اليسرى يبلغ حجمها الضعف.. وحين أضغط عليها أنظر لهذه الكريات التي تخرج من القطع العرضي فيها.. إنها بويضات عنكبوت.. المئات منها...
- يا للهول! ولكن كيف وصلت هناك؟.
- حتما عن طريق مجرى الدم.. سارت البويضات في دورة الصبي الدموية وحاولت الكلى ترشيحها إلى مجرى البول فلم تقدر لكبر

حجم البويضات.. لقد ظلت البويضات محتضنة في الكليتين وفي درجة حرارة الجسم لمدة أسبوعين.. وحتى فقست..
ونظر نحو (ماكنيل) منتظرا أن يقول شيئا، لكن هذا الأخير ظل صامتا.. أردف د. (سيمونز):
- وحين فقست ؛ شقت العناكب طريقها خارجة من الكلى باستعمال مخالبها أو أسنانها أو إبرها فأنا لا أعرف الكثير عن العناكب - وهاجمت المعي الدقيقة والغليظة ومزقت الشريان الحرقفى فبدأ نزف داخلى مروع، ثم اتجهت إلى المعدة فالمرىء فالبلعوم.. وفرت من فم الصبي.. هل لديك أسئلة؟!
- هل تمزح.. لدى الكثير منها..
- إذن أعطيك اسم عالم حشرات - وخبير عناكب - بالمركز الطبي لجامعة (كاليفورنيا).. حتما سيكون ذا عون لك..
وكتب على قصاصة ورق اسم و عنوان العالم ثم إنه ناول (ماكنيل) كيسا بلاستيكيا به عنكبوتان ميتان لم يتهشما في غرفة النوم..

∞∞∞∞∞

لقد تبدل كل شيء في حرم الجامعة منذ كان (ماكنيل) هنا آخر مرة، حتى هذا المبنى لم يكن موجودا.. بل كانت مكانه رقعة من الحشائش الخضراء اعتاد أن يجلس عليها وحبيبته التي غدت اليوم زوجته - يلتهمان الشطائر ويثرثران عن كل شىء.. ثم تخرجا وتزوجا والتحق هو بشرطة (لوس أنجلس) حيث التهم العمل وقته كله.. كان يعود للدار كى بنام، لكن زواجه كان ناجحا رغم كل شيء.. لقد تبدل شىء ما فيما بينهما لكن الزواج لم يفشل..

إن قسم الحشرات يقع في الطابق السادس..
ركب (ماكنيل) المصعد إلى هناك، ثم سار إلى قاعة تزدان حوائطها بصناديق عرض زجاجية تحوى أخلاطا من الحشرات وعلى باب زجاجي قرأ اسم (هوارد بنجامين).. إنه هو الرجل الذي جاء من قرع الباب ودخل ليرى ذلك الرجل بشعره الرمادي ونظرته الصارمة يتساءل عن الخطب، فأخرج (ماكنيل) بطاقته وجلس دون أن ينتظر دعوة ما..
- لا بأس.. أرجو أن تختصر يا سيدي.. فإن لدىّ اجتماعا في الكلية بعد ربع ساعة، وأنا رجل مشغول جدا..
أدرك (ماكنيل) أن الرجل مغرور.. مغرور ووقح..
مغرور ووقح ويعرف الكثير عن العناكب للأسف..
فتح حقيبته وأعطى الطبيب التقارير التشريحية والصور.. لكن هذا الأخير شرع يتأمل الأوراق دون اكثراث.. وغمغم:
- كل هذا مثير للاهتمام لكني لا أدري كيف أساعدك..
- يمكن أن تشرح لى سبيل هذه العناكب للدخول إلى جسد الفتى.. إن هذا أمر مستحيل...
- غير عادي لكنه ليس مستحيلا.. لقد التهم الفتى شيئا يحوي بويضات عنكبوت مخصية.. وجسم الإنسان مكان مثالي لحضانتها.. ثمة حالات كثيرة مشابهة..
- لكن الطبيب الشرعي قال إنها دخلت مجرى الدم..
- هذا خطأ.. أنا أعرف خصائص العناكب وأؤكد لك أن ما قاله الطبيب الشرعي هراء، ونظر إلى ساعته وهتف:
- والآن أرجو أن تقدِّر انشغالى..
لم يأت (ماكنيل) برد فعل.. فتح الحقيبة وأخرج الكيس البلاستيكي الشفاف وبه العنكبوت، وقال:

- إذن هلاّ فحصت هذه؟
تأمل د. (بنجامين) العينة بمساعدة عدسة مكبرة..
ثم قال:
- هذه عينة مهشمة لكنها لعنكبوت وليد من نوع (الميجالو مورفا) البدائي.. لكن حجمه كبير نوعا..
ثم أعاد النظر إلى ساعته وأردف:
- لئن مررت على بعد الظهر فسيكون عندي ما أخبرك به..
شكره (ماكنيل) وخرج..
وفي سره تمنى لو أن هناك قانونا يبيح خنق المغرورين الحمقى..
مشى فى شارع (ويلشاير) يتأمل الحوانيت والبضائع المعروضة بها، ثم جلس على مقعد خشبي في حديقة صغيرة يتأمل الناس من حوله.. وأمضى الوقت يجتر الذكريات..
في الثالثة والنصف بعد الظهر صعد في درجات السلم فالمصعد إلى مكتب د. (بنجامين)، وكان هذا الأخير جالسا يرتب زحام الأوراق على المكتب..
جلس (ماكنيل) على المقعد متسائلا:
- هيه يا دكتور.. هل ثمة شيء جديد عن هذه العناكب؟.
- أوه!.. كنت مشغولا فنسيت أنك عائد بعد الظهر..
ومن درج المكتب أخرج تقرير التشريح والصور..
- هل وجدت وقتا لتشريح العنكبوت؟
- لا داعي لذلك.. فالعنكبوت من نوع (تارانتولا) العادي.. والتفسير الأوحد هو أن الصبي أكل البويضات..
صافحه (ماكنيل) في برود وأخذ التقرير والصور وخرج، وقد أرغم نفسه على ألا يفكر أكثر من ذلك في الأمر..
أما د. (بنجامين) فشرع يتأمل أوراقه في شرود من الخسارة حقا أن يموت صبي بهذه البساطة..

هكذا فكر لربع ثانية..
ثم نسي الأمر تماما..

∞∞∞∞∞

والآن تعالوا معنا لنرى ما يحدث في (جريفث بارك)، المنطقة التي تحوي نباتات متشابكة وأشجار عالية، تزخر بالقوارض والأرانب البرية...
إننا نرى الآن مجموعة من الأرانب البرية تغتذى على الحشائش الخضراء في ظلام الليل الساكن، من حين لآخر يقف أحدها على قدميه الخلفيتين كي يتشمم الهواء من حوله وعيناه متسعتان عن آخرهما ثم يواصل التهام الطعام في خفة..
ثمة صوت خفيف يتعالى.. أجسام سوداء صغيرة تنسل بين الحشائش نحو الأرانب..
حاولت الأرانب الفرار لكن أرنبا منها لم يفر بالسرعة الواجبة.. تعثر وسقط أرضا.. فأحاطته الأجسام السوداء وشرعت تلدغه في كل مكان.. ناضل قليلا ثم همدت حركته تماما..
لقد تزايد عدد العناكب فقارب الألف. وكذا تزايد حجمها حتى وصل الواحد منها إلى طول ثلاث بوصات..
وعما قريب ستحتل هذه العناكب جحور الأرانب جميعا.. بل وكل شق أو كهف في الصخور....
وعندئذ يبدأ الكابوس....

∞∞∞∞∞

4 - الكابوس..!

رغم أنه منتصف (أكتوبر) فقد ظل الجو حارا رطيبا..
لكن (بوبى ليمبك) كان راضيا عن الحياة.. فاليوم السبت وغدا عطلة ومن المعتاد أن يذهب مع أخيه الأكبر باحثين عن المغامرة..
وقد تسللا السبت الماضي إلى إحدى دور العرض التي تعرض أفلام (الكبار فقط) من الباب الخلفي وظلا خائفين طيلة الفيلم خشية افتضاح أمرهما فلم يفهما شيئا مما يحدث على الشاشة..
هذا الأسبوع سيقومان بعمل أكثر إمتاعا.. سيذهبان بدراجتيهما إلى (جريفث بارك)، وإذا حالفهما الحظ ربما اصطادا شيئا..
- هل ستأخذ معنا بنادقنا في حالة مصادفتنا للهنود الحمر؟
رد أخوه (مايك) في حزم:
- لا.. سنتركها.. فلا يوجد هنود حمر اليوم إنها عطلة نهاية الأسبوع كما تعلم..
وتركا دراجتيهما بين الأشجار المتشابكة، وترجلا..
لكنه رو كه صاعدين أحد التلال.. الحشائش الطويلة مبللة بقطرات ندى الصباح، وكان (مايك) حريصا على أن تشير إبرة البوصلة إلى الشمال كما قام بعمل خدوش على جذوع الأشجار حتى لا يضلا طريقهما..
كان ماء (الزمزمية) قد صار معدني المذاق دافئا ظمأهما برغم كل شيء.. ثم اقترح (مايك) أن يتسلقا تلا وجداه أمامهما..
- ولماذا هذا التل بالذات؟..
رد (مايك) في جدية ودون أثر للمزاح:
- لأنه موجود طبعا...

وكان المجهود شاقا أكثر مما توقعاه، وكان عليهما التشبث بغصون الأشجار ومقاومة السقوط وأدمت الصخور أيديهما.. وكانت ذروة الكفاح حين تعثر (بولى) فتدحرج لمسافة عشرين قدما ثم توقف بعد أن اصطدم بشجيرة..



وكان المجهود شاقا أكثر مما توقعاه ، وكان عليهما التشبث بغصون الأشجار ومقاومة السقوط ..

هرع (مايك) مذعورا نحوه ليعاونه، فوجده وقد تمزق قميصه وملأت الخدوش ذراعيه..
ساعده (مايك) - وقد اطمأن على أنه لم يجرح جرحا بالغا كى بينهض على قدميه.. ثم غمغم في قلق:
- أرى أن تعود للدار.. إن أمي ستهشم عنقي لو أصابك مكروه..

- هلم يا (مايك).. أنا لم أعد طفلا.. لم يحدث شئ!
وواصلا الصعود في صمت بينما الشمس تحرق رأسيهما..
وهنا لاحظ (بوبى) شقا في الصخر.. شقا يسمح لهما بالدخول.
وهنا خطرت له الفكرة.. لماذا لا ندخل يا (مايك) ونستكشف ما هنالك؟..
- لكن هذا خطر يا (بوبى)..
- لا خطر هنالك يا (مايك).. تشجع!..
وعلى ركبتيهما زحفا نحو ثلاثين ياردة و (بوبى) يوجه البطارية التي عض عليها بأسنانه كي تنير لهما الطريق، كان المكان رطبا إلى حد لايطاق ورائحة الغبار..
كانت الحوائط كلها مغطاة بشباك العناكب..
وهنا سمعا صوت حفيف قادما نحوهما..
تراجعا وأزمعا الفرار.. وعلى ضوء البطارية استطاع (مايك) أن يرى الشيء الذي يتحرك نحوهما.. فصرخ في هلع..
سقطت البطارية أرضا عندما فتح فاه ليصرخ فساد الظلام الحالك المكان..
حولا الزحف سريعا لكنهما كانا أبطأ مما يجب..
لحق بهما الموت الأسود فصرخا حتى جفت حلوقهما.. صرخا.. ناضلا.. صرخا..
حتى انتهى كل شيء...
وفي الأيام الثلاثة القادمة ستبحث الشرطة تحت كل حجر في (جريفث بارك) لكنها لن تجد للولدين أثرا..

∞∞∞∞∞∞

ليس (جريفث بارك) من الأماكن المعتادة للعشاق ليلا.. لهذا لم يكن أحد يرى العناكب سوى تساءلت (آن روديل) في حيرة:
- لماذا تريد أن تصعد هذا الطريق المتعرج؟.. إن هذا يسبب لي التوتر..
في هدوء ابتسم زوجها (هنرى) وواصل القيادة عبر المنعطفات الخطرة.. بعد كل هذه الأعوام مازال يحبها ويتمنى أن تظل مدركة لما تمثله له في هذه الحياة، ولقد اختار هذه البقعة خصيصا كي يذكرها بما كان بينهما منذ.. منذ ثلاثين عاما!.
وعند حافة الصخر أوقف المحرك.. السماء مرصعة بنجوم متلألئة.. وأنوار المدينة تسطع من بعيد كأنها لعبة (فيديو) مبهرة.
- شكرا يا (هنرى).. شكرا على أنك مازلت تتذكر..
صدأ الأعوام يتساقط عن روحها، فتلين أنوثتها وتتذكر..
كان ذلك حين صعد العنكبوت الأول بتؤدة فوق مقدمة السيارة..
تصلبا وظلا صامتين يحاولان استيعاب الموقف، وبرغم وجود زجاج المقدمة أرجعت (آن) ظهرها للوراء في اشمئزاز محاولة أن تنأى عن هذا المنظر البشع..
هذه المرة رأيا مئات العناكب تتسلق مقدمة السيارة وزجاجها أمام عينيهما.. صوت الأقدام المخلبية إذ تنزلق فوق المعدن الأملس.. وعلى الزجاج الجانبي بدأت الجحافل تكثر..
سارع (هنرى) باغلاق الزجاج، وسمع تهشم جسد أحد هذه المخلوقات إذ انغلق الزجاج على رأسه..
هما الآن في مأمن..
أدار (هنرى) مفتاح السيارة في توتر.. ليس الوقت ملائما لتتعطل البطارية.. فرووووووم!.. حمدا لله..

تراجع بالسيارة فوق سجادة العناكب تم اندفع للأمام.. ونظر لعداد السرعة.. كانت سرعته غير معقولة والطريق متعرج ضيق، أما (آن) فقد فقدت وعيها من هول ما رأت..
لهذا لم تعرف ما حدث..
لم تر المنعطف الحساد الذي أجبر (هنري) على ضغط الفرملة ثم.. انزلقت السيارة عبر حافة الطريق.. اصطدمت بالحاجز الخشبي وهشمته.. هوت عبر الوادي.. انفجر خزان الوقود.. انتشر اللهب البرتقالى..
لم تدر (آن) أن هذا حدث..
ولن تدرى أبدا..

∞∞∞∞∞

وفي شهر (مارس) أنهت العناكب عزلة الشتاء، وفي هذه المرة كانت الأعداد قد تضاعفت كثيرا.. لكن (شيريل هدسون) لم تعرف شيئا عن ذلك....
كانت قلقة.. فلو عرف (بابا) و (ماما) أنني هنا معك ولم أذهب إلى (جودى) فسيقطعان رقبتى، لكن (جيم بولدوين) كان واثقا.. فقد رتبنا الأكذوبة مع (جودي) يا ملاكي ولئن اتصلوا بها فستجد العذر المناسب حتما..
وأوقف السيارة بين الأشجار فخرجا منها، لقد أخبره أصدقاؤه عن هذه البقعة المنعزلة في (جريفث بارك)..
وهنا يمكنهما تناول الطعام والتنزه وربما..
الشمس توشك على الغروب وظلال الأشجار ترتمى عليهما.. حينما صرخت (شيريل).. صرخت لأن عنكبوتا هائل الحجم مشعرا كان هناك على ساقها وقد غرز أسنانه في لحمها الغضّ..

- (جيم)!.. أبعده عني أرجوك!
وشرعت تهز ساقها في هستيريا لكن الوغد كان متشبثا، ركله (جيم) بحذائه فسقط أرضا ثم دهسه في اشمئزاز..
بكت الفتاة ورمت رأسها على صدره تتوسل إليه كى يرجعا.. هي تمقت العناكب.. تمقتها أكثر من الفئران والثعابين وأي شيء آخر..
- أوه يا (شيريل).. أنت لن تفسدي هذه الأمسية الساحرة من أجل عنكبوت أبله!...
- إن هذا العنكبوت أفزعني حقا.. أرجوك دعنا نعد..
- لن يحدث لك شيء وأنا معك..
لم يلاحظا أن الحشائش تتحرك..
لم يلاحظ أن آلاف العناكب تزحف نحوهما.. وفي ثانية غطتهما العناكب فتعالى صراخهما..
أخذا يجريان.. يلوحان في هستيريا.. آلاف المدى الصغيرة تمزق جسديهما..
وكانت (شيريل) أول من سقط على الأرض..
أغمضت عينيها الملتهبتين لكن الألم ظل حيا.. تشعر..
وتسمع الأفواه الحادة الصغيرة - الالاف منها – تمزق لحمها..
الخدر يسري في أطرافها ثم إلى داخل جسدها..
مات الإحساس تماما..
وكان آخر ما فكرت فيه هو دعاؤها إلى الله أن تنتهي هذه المأساة سريعا..

∞∞∞∞∞∞

وخارت قوى (ماكنيل)..

استند إلى جذع شجرة يلتقط أنفاسه ونزع رباط عنقه، العرق يغرق ثيابه ويزيد الأمر سوءا..لقد صار بدينا.. بدينا حقا..
كان في طريقه للتحقيق في البلاغ الذي سمعه من جهاز (اللاسلكي) في سيارة الشرطة عن جثتين في (جريفث بارك)، لكنه الآن يشعر أن السير في هذه المرتفعات يحتاج لشاب أصبي منه عشرين عاما..
وحين استعاد أنفاسه وعاد إيقاع قلبه.. واصل الصعود.. كان هناك حشد كبير من الضباط ورجال المعمل يمسحون المنطقة ويلتقطون مئات الصور..
وعرف أن الجثتين لفتى وفتاه ماتا منذ ثلاثة أيام..
وأن منظر الجثتين غريب إلى حد لا يصدق.. ولكن في أي شيء؟..
رفع أحد الرجال الملاءتين عن الجثتين.. وكان أول ما لاحظه (ماكنيل) هو الرائحة الكريهة المقززة.. حتى اضطر إلى سد أنفه بمنديله..، ثم جثا على ركبته ليري أفضل..
من المستحيل أن يتم كل هذا التحول في ثلاثة أيام..
لقد جفّ الجلد تماما وتصلب مما أعطى الجثة منظر المومياء المحنطة.. واللون الأحمر القاتم غالب على كل شيء مع آثار عديدة للتمزقات في كل بوصة..
الشفتان مشدودتان للوراء مما جعل الأسنان تبرز في صرخة صامتة.. والجسد كله في مظهر غريب متشبح..
وحول المنطقة كلها كانت هناك عناكب ميتة جففتها أشعة الشمس..
وكان د. (سيمونز) - الطبيب الشرعي - قد فحص الجثتين وترك ل (ماكنيل) وريقة صغيرة عليها ملاحظاته الأولية:
1- فقدان كامل للدماء.

2- فقدان كامل للسائل النخاع الشوكي.
3 - فقدان كامل لعصارة البنكرياس.
ما الذي قتل هذه الفتاة وامتص كل سوائل جسدها؟..
وماذا قتل العناكب؟.. للأسف كان (ماكنيل) يعرف الإجابة تماما.. الفتاة هي التي قتلت العناكب وهي تذود عن حياتها..
كانت الإجابة واضحة، ولا يمكن تجاهلها..

∞∞∞∞∞∞

دق (ماكنيل) بخفة على زجاج باب مكتب رئيسه، فلما سمع الدعوة إلى الدخول اقتحم المكان ويداه تحملان عشرات التقارير، فقد قضى مع (جيفرسون) النهار كله يدرسان ملفات الأشخاص المفقودين والتي لها علاقة ما بمنطقة (جريفث بارك)..
قال (ماكنيل) للرئيس وهو عاجز عن التظاهر بالهدوء:
- أريد منكى سيدي أن تقرأ هذه التقارير.. أنا واثق من أن شيئا ما يحدث في (جريفث بارك)..
ثم تنهد وجلس وبدأ يشرح وجهة نظره:
- منذ عام مضى حققت في حادث وفاة ولد صغير اسمه (ميللر) قتلته مجموعة من العناكب بطريقة ما.. ومنذ ذلك الحين تتراكم تقارير الأشخاص المفقودين والمقتولين في دائرة (جريفث بارك).. انظر لهذا..
ولدين هما (روبرت) و (مايكل) اختفيا تماما في تلك المنطقة فلم نجد سوى دراجتيهما.. (هنرى روديل) وزوجته احترقا حتى الموت بعد أن قادا سيارتهما بسرعة جنونية.. فلماذا يقود إنسان سيارته بسرعة جنونية في الجبال؟!.. (جون فينلى) ذهب يمارس

الجري في (جريفث بارك) واختفي.. إن لدىّ سبعة عشر تقريرا كلها اختفاءات غامضة في ذات المكان..
ثم اليوم.. هلك فتى وفتاة كانا يتنزهان في نفس الرقعة وليتك ترى الجثتين!.. إن الدنيا كابوسا مريعا هناك..
أمسك الرئيس بالتقرير وتساءل:
- تظن أن ذات العناكب التي هاجمت (مللير) منذ عام تحدث هذا؟
- إن منزل الفتى كان على حافة (جريفث بارك)، وأظن أنه هو الذي جلبها معه من الصحراء ونشرها في المنطقة..
- لكن كل هذا قد يكون...
- لقد انتهيت لتوي من الاتصال مع مسئولي خدمة الغابات هناك.. هل تعرف أنهم لم يروا أي نوع من الحياة البرية في تلك المنطقة منذ شهور؟.. لا طيور ولا أرانب ولا شيء.. لقد التهم شيء ما الحيوانات كلها أو أفزعها ففرت..
- وماذا تقترح؟
- إغلاق المنطقة كلها..!
- لا يجب أن نسمح بدخول أحد هذه المنطقة حتى نتأكد من أننا واهمون..
- ربما كان شيء من الصواب في كلامك.. سأتصل بالمسئولين إذن..
وعند نهاية اليوم جاء الرئيس بالأنباء السيئة..
لقد رفض العمدة إغلاق (جريفث بارك) لأن الموسم السياحي على أشده وهو لا يريد بلبلة ([1])..
وكانت الأوامر هي عدم اتخاذ إجراء ما حتى توجد أدلة ملموسة..
- ملموسة؟.. يعني مزيدا من الجثث..!

وكانت هناك.. أدلة ملموسة لا يمكن تفنيدها في انتظارهم..
كان (ماكنيل) يعرف هذا ويتوقعه..
ويخشاه كثيرا..

∞∞∞∞∞

5- الرعب يجتاح المدينة..

الساعة الثالثة والربع صباحا..

ليلة قارصة البرد هي.. يتسرب بردها إلى نخاع العظام، و (جون هينيسي) يشعل سيجارة أخرى ويحكم غلق باقة السويتر..

فيما عدا هذا البرد لم تكن مهنة رئيس الأمن في حديقة حيوان (لوس أنجلس) سيئة إلى هذا الحد..

كان يحب الحيوانات من صغره، ولم تصادفة أية مشاكل قط في عمله الذي يتلخص في فحص الأقفال على الأقفاص - هو وزملاؤه السبعة – والاستيثاق من أن كل شيء على مايرام...

في حجرة الحرس صب لنفسه قدحا من القهوة التي كانت تنز فوق الغلاية الكهربية، ثم شرع يراجع بطاقات الدوريات حتى تنتهي الوردية في السادسة صباحا..

وفي الرابعة خرج يتفقد القطاع الشمالي من الحديقة ثم يكون عليه أن يدور إلى اليسار ليقطع طريقا آخر عائدا.. لكنه هذه الليلة شعر بتوتر غير مفهوم.. توتر في جذور عنقه وأعصابه..

ومن الواضح أن هذا التوتر سري للحيوانات هى الأخرى.. فهي قلقة.. تدور في أقفاصها بعصيبة غير مفهومة..

هذه الأشجار التي تزين الممر وتضفي عليه جمالا خلابا كانت تثير هلعه في الظلام.. وبالتأكيد لم يكن المكان مما يلائم ذوي الخيال الخصب..

ضغط على زر اللاسلكي وتكلم مع أحد زملانه:

- (دانيل).. أين أنت..

- جوار بيت الثعابين.. كيف الحال عندك؟

- الحيوانات متوترة.. لقد وثب أحد النمور فوق السور فكاد قلبي يتوقف ذعرًا..
- أعرف ما تعنيه.. فنفس الشيء هنا.. قم بجولة أخرى في المنطقة الشمالية وسألقاك عند أقفاص (أوروبا).
وواصل (هينيسي) عملية التفقد، وهنا سمع صوت حفيف من خلفه..
استدار سريعا - ويده على مسدسه – ليرى..
لا شيء.. سكون تام فيما عدا الأشجار تتمايل مع أنسام الفجر
ماذا يحدث بالضبط؟.. ما سر هذا التوتر؟..
وهنا سمع صوت زئير قادما من أقفاص الذئاب..
جرى إلى هناك كي يرى.. كان هناك ذئب متوحش من (ألاسكا) يقف منزويا في القفص، وقد انتصب الشعر من مقدمة أنفه إلى طرف ذيله.. وكانت عيناه متسعتين وأذناه مرتدتين للوراء في توتر..
ماذا يمكن أن يخيف هذا الذئب العملاق؟.. لم يكن الذئب ينظر إليه بل يرمق شيئا ما.. شينا خلفه..
استدار (هينيسي) ليرى.. فرأى ظلا ضخما أسود اللون يغطى سفح التل بأكمله وينحدر باستمرار من القمة.. وكان امتداد الظل حوالي ربع ميل مصدرا صوت حنيف وصرير وكأن ملايين الأرجل تدوس الحشائش..
وهنا أدرك (هينيسي) كنه هذا الشيء.....
هو الذي أمضى عشرين عاما في حياة الأخطار كان يظن أنه رأى كل شيء.. أما الآن فبعد ما رأى ذلك الشيء كان عليه أن يفر بعيدا.. بعيدا.. لم ينظر وراءه،، ساقاه تندفعان تحت تأثير رعب أعمى..
ومن بعيد سمع صوت طلقة رصاص وصراخ..

صراخ آدمى..
صوت جهاز الاتصال ينز في حزامه لكنه لم يعبأ به..
الهرب.. الهرب.. لايدري إلى أين.. تعثر ثم نهض..
هوذا مبنى الأمن أمامه.. أين المفتاح اللعين؟..
إن سلسلة المفاتيح تحوي خمسة عشر مفتاحا فأين هو؟..
نجح في فتح الباب بالمفتاح الرابع وهرع إلى الداخل و أوصد الباب وراءه.. وشرع يلهث..
ثم أدار جرس الإنذار لينذر رئاسة الأمن ومكافحة الحرائق وأربعة أقسام بوليس جوار الحديقة..
ثم إنه تناول سماعة الهاتف وبدأ يطلب الإدارات المختلفة لكن الجميع سخروا منه وحسبوه مخرفا..
الموت يجتاح الحديقة ,, زئير الحيوانات من بعيد إذ داهمها الكابوس في أقفاصها فلم تقدر أن تحارب..
سمع دقا على الباب فنهض لينظر عبر الزجاج المسلح فرأى هولا..
(دانييل) يدق على الباب في جنون.. قميصه مكسو بالدماء وذراعاه مليئان بالجروح النازفة وثمة جرح قطعي عميق في خده..
- (هينسى)!.. افتح بسرعة!.. إن هذه العناكب آتية من ورائي!
تصلب (هينسى) ولم يجرؤ على فتح الباب.. لن يغامر بالسماح لهذه الأشياء بالدخول.



تصلب (هينسى) ولم يجرؤ على فتح الباب ..
لن يغامر بالسماح لهذه الأشياء بالدخول ..

- أرجوك يارجل أن تسرع.. أستحلفك بالله!..
الدموع تبلل خديه.. يحاول بقبضته أن يهشم الزجاج الذي لا ينكسر.. لكن (هينسى) لم يتزحزح شعرة..
- عليك اللعنة يا ابن الـ.....
ثم سقط أرضا..
في ثوان لم يعد (دانييل) هو (دانييل). تحول إلى كتلة من الزغب الأسود على هيئة رجل.. ثم تهاوي وكف عن المقاومة..

قال (هينسى) لنفسه إنه كان يجب أن يفعل هذا، وإلا فما فائدة جثتين بدلا من واحدة؟!
النافذة مغطاة الآن بالعناكب ولقد أدرك أنها تراه من الطريقة التي تتزاحم بها على الزجاج كلما دنا منه..
إذن سيظل بالداخل وهم بالخارج.
سيبقى الأمر على ما هو عليه..
ومد يدا مرتجفة إلى علبة سجائره..

∞∞∞∞∞

لم يصح (ماكنيل) من نومه إلا بعد ما دق جرس الهاتف خمس مرات.. كان مرهقا ينام على ظهره كعادته وقد عقد يديه على صدره كحوت عجوز ميت حين سمع الرنين فرفع السماعة.. وعرف أن العناكب هاجمت حديقة الحيوان...
يا اللعنة!.. ارتدي ثيابه على عجل.. نفس الحلة..
فلن يلبس حلة جديدة من أجل هذا.. لن يحلق ذقنه فلا يهم.. تساءلت زوجته عن السبب الذي يدعوه للخروج من جديد فطمأنها، وأطفأ النور عليها وغادر المنزل ليركب سيارة الشرطة جوار (وليامز) الذي لحق به إلى هناك..
وعند حديقة الحيوان كانت الفوضى ضاربة أطنابها.. عربات شرطة ومطافي.. والجميع يصدورن أوامرهم للجميع ولا أحد يعرف حقا ما عليه أن يفعله..
كانت خراطيم الضغط العالي الخاصة بالمطافئ لا بأس بها، فهي قادرة على شق طريق بين صفوف العناكب لكن هذا كان حلا مؤقتا لأن الحشرات ما إن ينتهي اندفاع المياه حتى تلتئم صفوفها وتواصل الزحف نحو وجهتها السابقة..

أما ما زاد الأمر سوءا فهو وصول سيارات أخبار التليفزيون وعليها المذيعون الباحثون عن أي شخص يقبل الكلام معهم في تلك الساعة العصيبة..
وكانت مصابيح الإضاءة الباهرة تجعل الرؤية مستحيلة..
و عند نافورة رخامية أنيقة وجد (ماكنيل) رئيسه جالسا في بؤس يتأمل هذه المهزلة.. سأله (ماكنيل)و هو يجلس جواره:
- هل ثمة إصابات؟..
- لا أدري وسط هذه الفوضى.. لكن هناك ضابط أمن اسمه (هينسى) حدثنا هاتفيا.. إنه محبوس في غرفة الحرس وهو واثق من أن زملاءه السبعة قد لاقوا حتفهم..
- وهل يمكن إخلاء الحيوانات من هنا؟
- مستحيل.. هل تتخيل إمكانية التعامل مع وحوش أصابها الرعب والهياج؟
- هل عندك فكرة عما يدور بالداخل؟
- لقد أرسلت ضباطا ليروا.. عاد أحدهم في حالة صدمة عصبية لم أر مثلها من قبل.. إن مجرد النظر إلى وجهه ليقتلك رعبا. وقد رفض أن يعود إلى هناك عاصيا أوامرى، وليس لي أن ألومه على كل حال.. إن ما يقلقني هو ما ستفعله العناكب بعد أن....
إنهم أتون!.
دوت صرخة رجل شرطة وهو يهرع خارجا من البوابة، وركض إلى رتل السيارات الواقفة..
وهنا رأى (ماكنيل) أول العناكب خارجا من بوابة الحديقة الرئيسية ورأي الرجال يركبون سياراتهم ويحكمون غلق نوافذها..
فشرع يجرى بقدر ما سمحت بدانته..

أدار ظهره ليري.. فوجد العناكب تنهمر كالمطر من فوق سلالم المدخل على بعد ثلاثة أمتار وراءه..
وشعر بوخزات حادة في ساقيه.. ثم.. الوخزات تصعد لأعلى نحو كرشة المستدير المليء.. إذا تعثّر لحظة ستكون النهاية.. إنه يشعر بها في لحم رقبته.. إن فرصته الوحيدة هي......
ودون تردد وثب في نافورة الماء بين زهور (الليلك) المحيطة بها.. حبس أنفاسه وظل تحت المياه أطول فترة ممكنة حتى زالت الوخزات..
وحين صعد للسطح أخيرا كانت العناكب الغرقيطافية على سطح الماء حوله.. وشرع يخرج من النافورة لاهثا..
وراح يجد السير نحو سيارة جلس بها رئيسه وثلاثة رجال شرطة ففتحوا له الباب وأجلسوه بينهم..
وفي ضوء الفجر أخذوا يشاهدون المذبحة الجارية بالخارج وصراخ الرجال الذين عجزوا عن الفرار وسقطوا...
عندئذ كانت العناكب تغطيهم بالكامل ثم تتركهم وقد صاروا مومياوات خاوية من عصارات الحياة
وفي هذه اللحظة صرخ أحد الجنود:
- العناكب تقصد طريق (جولدن ستيت)!
اندفعت تسع سيارات شرطة، تعوى صفارات إنذارها، وقد هرست عجلاتها مئات من العناكب تاركة أجسادها ترتجف في جشع.. كان على الشرطة أن يصلوا إلى (جولدن ستيت) قبل أن يصلها جيش العناكب..
إنها السادسة صباحا.. صنع رجال الشرطة متاريس بسيار اتهم لإيقاف السيارات القادمة.. على حين غطت كتلة العناكب الجانب الأيمن من الطريق السريـع بأكمله..

وكان ركاب السيارات المارين على الجانب الأيسر يُخرجون رءوسهم من النوافذ محاولين فهم هذا الذي يحدث..
لكن (ماكنيل) لاحظ شيئا هاما..
كانت العناكب الأن عمياء تماما في ضوء الشمس، وبدا الاضطراب واضحا في حركتها وفي اصطدامها بكل شيء، ولم يكن صعبا أن يفهم أن العناكب تبحث الان عن مكان تختبئ فيه..
لقد بدأت بالفعل تترك الطريق السريع ببطء..
كانت تعبر مجرى نهر (لوس آنجلس) الجاف لتمر عبر الفتحات الصناعية المخصصة لتصريف المياه الزائدة..
ابتلع الرئيس ريقه و غمغم:
- إن تلك الأنفاق تمتد منات الأميال تحت المدينة.. لن تستطع إخراج العناكب منها أبدا..
هز (ماكنيل) رأسه عالما أن هذا صحيح للأسف..
قاموا بتوزيع الرجال لمراقبة الفتحات وإبعاد الأشخاص الفضوليين كما أعطوا كل رجل جهاز اتصال يبلغ به مركز قيادة قرب الطريق السريع للقيام بـ....
لا أحد يدري بالضبط للقيام بماذا.. فلو عادت العناكب فلن يعرف مخلوق كيف يتصرف..
وانصرفوا للحاق باجتماع هام حول الموضوع.

∞∞∞∞∞∞

وكذا بدأ الذعر العام..
مدينة لوس أنجلس) قد هوجمت من جيش من العناكب العملاقة..
هل تفني مدينة الملائكة؟..

كانت الضجة الإعلامية قد بدأت في وسائل الإعلام كلها.. المذياع.. التليفزيون.. الصحف.. لقد تعدت هذه الحملة ماهو مفروض لها وأحدثت هلعا.. وانهالت المكالمات الهاتفية المذعورة على أقسام الشرطة والمطافئ، وحدث اختناق مرورى بسبب الهجرة الجماعية لسكان المدينة...

وهكذا - أخيرا بدأت وسائل اللاإعلام تقلل من حماسها وقد أدركت فداحة ماتسببت فيه..

ولم ينس عمدة المدينة أن يوجه لومًا قاسيا للصحافة في المؤتمر الذي عقده ليبلغ الناس حقائق الموقف، وأن الخطر كامن في دائرة قطرها ستة أميال تمتد من شارع (سان فرناند) إلى طريق (جولدن ستيت) السريع..

أما عن خطة الشرطة لاحتواء الخطر فكانت – كما قال - هي وضع براميل من (النابالم) في الانفاق لتحيط بدائرة العناكب، وعندما تستجد حركة ما، سيلاحظها رجال الشرطة الذين نزلوا عبر البالوعات إلى الأنفاق، ولسوف يشعلون البراميل عن طريق غلق دائرة إلكترونية، من ثم تحترق العناكب..

سأله صحفي في شك:

- من أين جاءت هذه الحشرات؟

- أؤكد لكم أنني لا أعرف..

ثم رأى نظرات الشك حوله فأردف في ضيق:

- نحن لانخفي شيئا.. وأية معلومات تتوافر لي سأقدمها لكم بكل سرور..

ثم نظر إلى ساعته معلنا انتهاء المؤتمر..

في ذلك الوقت كان (ماكنيل) في الحمام حين سمع صوتا رفيعا يقول في كياسة:

- الملازم (ماكنيل).. رأيتك تدخل الحمام فوجدتها فرصة كى ألقاك على انفراد..
كان هذا هو د. (بنجامين)... لقد جاء يعتذر لـ (ماكنيل) على الإهمال والصلف اللذين عامله بهما في اللقاء الأول حين جاءه هذا الأخير يعرض عليه تقرير التشريح في حالة الصبي (ميللر).. وقال إنه آسف جدا ولكن مشاغله العديدة وقتها لم تعطه فرصة الاهتمام بالأمر..
وأدرك (ماكنيل) أن الرجل يعاني عذاب الضمير بشدة:
- لا عليك.. سنحاول أقصى ماتستطيع.. إننا ذاهبون الآن إلى قاعة المؤتمرات وأريدك معى هناك..

∞∞∞∞∞

في قاعة المؤتمرات جلس (ماكنيل) يتأمل الجالسين.. على رأس المائدة نجد العمدة (بر انشو)..
على يمينه مدير الأمن (رتشارد سون) و على يساره د. (بيريللى) مدير الإدارة الصحية، كما عرف (جيلبرت) مدير المطافئ و (ماكاندل) مدير الإدارة الهندسية..
كان العمدة يقول وهو يطالع ورقة أمامه:
- إن خمسة وثلاثين شخصا لقوا حتفهم صباح اليوم في هذه الأحداث المروعة منهم ثمانية عشر رجل شرطة وتسعة رجال مطافئ.. وأخشى أن تكون هذه هي البداية..
وهنا دخلت امرأة في العقد السادس من العمر تحمل حقيبة أوراق وترتدي سترة أنيقة، قالت إن اسمها (سيلبي).. د. (سيلبي).. وإن لديها معلومات قد تكون مفيدة..
تصلب د. (بنجامين) حيث جلس جوار (ماكنيل) وتساءل:.

- د. (كرستين سيلبي)؟
- نعم..
فاستدار للعمدة وقال في إجلال:
- انها خبيرة عالمية في علم الحشرات..
قالت د. (سيلبي) وهي تتخذ مقعدا:
- إن الأمر يتعلق بمشروع أعمل فيه الآن، وهو خاص بالدولة ومصنف (سرى جدا).. ولن أتحدث عنه حتى أتأكد من علاقته بما نحن بصدده..
ساد الصمت ثم بدأ العمدة يعيد سرد الأحداث بالتفصيل من الأوراق التي أمامه، وهنا تدخلت د. (سيلبي) قائلة:
- للأسف أنا عضو في الفريق العلمي الذي أنتج
هذه العناكب!.
- أنت أنتجت ماذا؟
قالت بصوت منخفض:
- أنتجت هذه العناكب أو فصيلة مشابهة لها إلى حد كبير!...
ادا كيا ـ

∞∞∞∞∞∞∞

6 - عن العناكب..

قالت د. (سيلبي) للجالسين المشدوهين:
- أنتم تعرفون أن طبقة الأوزون) المحيطة بالأرض تتأكل ببطء وستختفي يوما ما.. ويحاول العلماء معرفة أثر إشعاعات (جاما) والفوق بنفسجية التي ستعبر بحرية إلى غلافنا الجوي بعد انتهاء (الفيلتر) الذي يحتجزها، لهذا قمنا بعمل بيئة صناعية في صحراء (موجاف) تحاكي عالمنا بلا طبقة (أوزون)، ووضعنا في هذه البيئة نماذج نباتية وحيوانية عدة ومن ضمن هذه النماذج كان عنكبوت الصحراء..
وصمتت ونظرت نحو د. (بنجامين) كأنها تختصه وحده بالكلام.. سألها هذا الأخير:
- إذن تعتقدين أن عنكبوتا قد فر من عيناتك إلى الصحراء؟
- هذا احتمال واه.. فالبيوت من ألواح الصلب الملحومة بعناية ومدفونة على عمق ثمانية أقدام..
وأرقام العينات متسلسلة ومراقبة بدقة.. إلا أن عاصفة عنيفة قد حدثت منذ عام واحد أدت إلى انفصال اللحام بين لوحين من الصلب.. ولقد دقت صفارات الإنذار وهرع رجالنا اللحام اللوحين خلال نصف ساعة، ولم أعلم أن هناك عينات قد اختفت في تلك الآونة..
- مع ذلك تظنين أن هناك تشابها بين (عناكبنا) و (عناكبك)..
- الواقع أن السلوك العدواني الجماعي قد تزايد بشكل ملحوظ في (عناكبي).. وعلى كل حال فإنني أرغب في رؤية بعض هذه العناكب الخاصة بكم..
قال د. (بنجامين) في سرور:

- يشرفني أن تعملي معي في فحص هذه العناكب.. إن مملكة العناكب تنقسم إلى قسمين كبيرين: العناكب من النوع المتطور جدا والمسماة (أرانيو مورفس)، والنوع البدائي المسمى (ميجالو مورفس).. النوع الأول أرستقراطي رقيق.. أما الثاني فضخم قوى مفترس وهو ما يعنينا الآن..، لقد رأيت عينات من أمريكا الجنوبية يصل طولها إلى ثلاث بوصات ومدى أرجلها عشر بوصات.. وهي قادرة على قتل القوارض والطيور ولا تعتمد على الخيوط الرقيقة بل على قوتها وسرعتها، وسمها ليس قاتلا لكنه يشل الجهاز العصبي للفريسة.. إن العناكب غير قادرة على قتل الإنسان بسمها كما أنها لا تلدغه إلا إذا حاصرها.. بل إنه في بعض بلاد (أمريكا الجنوبية) يستأنسها الأطفال وتتجاوب هي بألفة لمحبتهم لها..

وابتلع ريقه ونظر نحو د. (سيلبي) وأضاف:

- إن العناكب تعيش حياتها منفردة.. ولا تحب الترحال، ثم أنها قد تعيش ثلاثين عاما في ذات الجحر ولاتتركه أبعد من عشرة أقدام في أي اتجاه..

ثم إن بصرها ضعيف للغاية تعوضه بسمع مرهف وشعيرات حسية تغمر جسدها وتُشعرها بأدنى حركة على بعد أربعين قدما..، وقد يفقس البيض خمسمائة عنكبوت صغير فتلتهم الأم معظمهم.. إذن من كل تسعمائة عنكبوت وليد يصل أربعة إلى طور البلوغ.. ويتم هذا خلال سبع سنوات.. فهل تفهمون معنى هذا؟..

وتأمل وجوه الجالسين حوله.. ثم استطرد دون أن يجيب:

- لقد شاهدت العناكب الحالية في فيلم (فيديو) تم تصويره في حديقة الحيوان.. لايمكن أن نصف أحد هذه العناكب بأنه في مرحلة الطفولة.. الأغرب هنا هو أن هذه العناكب لم تكن

تفترس بعضها البعض، وبالتالي كان سلوكها اجتماعية تعاونيا كالنمل والنحل.. إن هذا مستحيل لكنه حدث!
قالت د. (سيلابى):
- معنى هذا أننا لو لم تقض عليها بالكامل فإن كل أنثى من الت (ميجالو مورفس) قادرة على أن تتزايد ألف مرة، إن تناقص الأعداد بالافتراس غير وارد أصلا..
وهنا بدأ أحد الجالسين - لم يعرفه (ماكنيل) - يتحدث عن إبادة العناكب بالمبيدات وفيما بعد عرف (ماكنيل) أن هذا الرجل – والجالس جواره - هما مندوبا شركتين متنافستين لإبادة الحشرات..، وكان اسم الأول هو (بيتس) والثاني (هاسكل)..
قال (بيتس)
- إننا سنستعمل: غاز (الكلوردين) المركز عند تقاطعات الأنفاق وكذا يصل الضباب السام إلى كافة أجزاء شبكة الصرف، ثم إن (الكلوردين) أثقل ثلاث مرات من الهواء فلن يرتفع لأعلى ويغادر فتحات البالوعات.. وبالتالي لن يؤذي أحدا..
قال (هاسكل) في عصبية:
- أنا أقترح رش (الأمونيا) الذي سيكون أقل ضررا على البشر..
- هذا لن يكون موثرا..
- ان اعتراضك قائم على ارتفاع ثمن (الكلوردين) الذي سيحقق ربحا وافرا لشركتك..
- هذه إهانة.. إن (الكلوردين) شديد الفعالية، ولن تحتاج ياسيدي العمدة سوى لرجل أو اثنين يضعانه في الأنفاق..
دارت مناقشات عديدة استقر بعدها رأي العمدة على استعمال (الكلوردين)، وعرض (جيلبرت) رئيس المطافي استعمال حلة خاصة ليرتديها المتطوعون الذين سيدخلون الأنفاق، وتتكون هذه الحلة من طبقات من (الأسبستوس) ولها غطاء رأس مزود

بنافذة زجاجية للوجه، ولها خزان (أكسجين) خاص بها.. مشكلتها الأساسية هي ثقل وزنها..
قال العمدة وقد بدا عليه الرضا:
- نحن بحاجة للعمل صباحا حين تحتشد كل العناكب في مكان واحد.. ولابد أن يكون كل شيء معدا قبل السادسة.. أما الليلة فلن نستطيع عمل أي شيء..

غمغم (ماكنيل) في قلق:
- سنعتمد إذن على براميل (النابالم) وخراطيم الضغط العالى إذا حاولت العناكب الخروج من فتحات النهر
- وإذا تحركت العناكب في الأنفاق تحت المدينة؟
- عندئذ ليس أمامنا سوى الدعاء..

∞∞∞∞∞∞∞

قام د. (بنجامين) ود. (سيلبي) بإعداد حضانتين من الزجاج نثرا في قاعهما طبقة رقيقة من الرمال والغبار ثم أغلقاهما من أعلى بشبكة من الصلب، ثم أعد د. (بنجامين) صندوقا خشبيا مثبتة به خراطيم لينة تمده بالغاز. وقال باسما:
- طلبتي يدعون هذه غرفة الغاز.. حيث أقوم بتخدير العينات بالغاز قبل فحصها..
ثم إنهما أعدا محلولا ملحا وطاقم أدوات تشريح ومجهرين.. والأهم: قفازين سميكين لحمايتهما من المخلوقات المفترسة..
كانت هناك حقيبتان من الكتان السميك تهتزان باستمرار.. وازدادت الحركة حين دنا من إحدى الحقيبتين ليخرج منها ما بها من عناكب حية تم اصطيادها في حديقة الحيوان..

وضع - بحذر - الحقيبة فوق المنضدة جوار الحضانة، ثم فتح حبلها وأدخل الطرف المفتوح داخل القفص الزجاجي وهز الحقيبة مقلوبة ليفرغها تماما..
ورأى تسعة عناكب ضخمة تستكشف أرضية الحضّانةوقد انتصبت شعيراتها السوداء ولاحظ أن قاع الحقيبة تتعلق به أربعة عناكب أخرى فرفعها وقلبها من جديد ليفرغها في الحضانة..



ورأى تسعة عناكب ضخمة تستكشف أرضية الحضانة وقد
انتصبت شعيراتها السوداء ..

أخذت د. (سيلبي) تتأملها فى انبهار.. وفجاة وثب اثنان من العناكب نحوها لكنهما اصطدما بالزجاج فسقطا على ظهريهما.. ثم إنهما استعادا توازنهما وانتصبا من جديد معاودين الهجوم..
أجفلت د. (سيلبى) قليلا وتراجعت للوراء.. ثم همست:
- هذه العناكب لا تشبه بتاتا تلك التي نربيها في المشروع.. وأنا لم أر مثلها قط ولكن.. هيا بنا نعمل...
وهكذا بدءا في فحص العينات..
كانت ضخمة في حجم قبضة طفل، لها رأس كبير به عينان متقاربتان.. أما أرجلها فطويلة سميكة تنتهي بكلابات إيرية مقوسة، ولقد أدركا – حين شاهداها - مدى الهلع الذي تسببة ألوف منها في المدينة البائسة..
انتقى د. (بنجامين) عنكبوتا بشكبة من (النايلون) فوضعه في صندوق التخدير، وفتح الصمام فتهالك العنكبوت على نفسه بلا حراك..
شرع يشرحه.. وكان ما لاحظه بشكل غير معهود، هو أنه بعد عدة أجيال لن تظل هذه العناكب أحادية الجنس بل ستبدأ في تخصيب بيضها بنفسها..
واستجابة لاقتراح منها قام د. (بنجامين) بوضع أحد خنازير (غينيا) في حضّانةالعناكب بعد أن أعدّ ساعة الإيقاف، ولم يجد الخنزير البائس الفرصة سوى لصرخة هلع واحدة قبل أن تنغرس الإبر والمخالب في ظهره ومعدته ورقبته.. تلوى.. تصلب جسده.. ثم رقد ساكنا.. وغطته العناكب..
ضغط (بنجامين) زر ساعة الإيقاف وهتف مبهوتا:
- ثمائى ثوان!.. قتلته في ثمائى ثوان!.
وتم الافتراس بعد سبع وعشرين دقيقة، وقد صارت الجثة خالية تماما من عصارات الحياة حين أخرجها (بنجامين) من القفص..

وضع للعناكب خنزيرا ثانيا لكن العناكب لم تهاجمه هذه المرة بل دارت حوله ببطء.. ثم اندفعت واحدة فقط منها وغرست إبرتها في الخنزير الذي تصلب في الحال.. لدغته مرارا لكن العناكب الأخرى لم تدن منه..

- ما معنى هذا؟.. لماذا لم تتغذ عليه.

- لابد أن نعرف سر عدم اهتمامها بالغذاء هذه المرة..

ورفعت د. (سيلبي) الخنزير الأخير إلى منضدة الفحص حيث أخذت عينة من دمائه وفحصتها بالمجهر..

وكانت النتيجة المذهلة هي أن الدماء مليئة ببويضات العناكب!.. بل وأنهم وجدوا هذه البويضات في القلب.. في الكليتين.. في المعي الدقيقة والغليظة..

متى تفقس؟.. هل يوجد مثل هذه البويضات في أجساد الضحايا؟..

أسئلة كثيرة تزاحمت على لسانيهما. لكن الساعة كانت قد دنت من الثانية صباحا.. أي أنهما عملا اثنتي عشرة ساعة كاملة..، وبدأ التثاؤب يجد طريقه اليهما.. لكنهما لم ينسيا أن يتصلا ب د. (بيريللى)..

ليطلبا إليه أن يقوم بحرق كل جثث ضحايا العناكب خشية أن تحوى البويضات فيها، فهما ليسا واثقين من ضرورة أن تكون الضحية حية كي يفقس البيض..

وهز (بنجامين) كتفيه متسائلا:

- كيف نقضي على هذا الكابوس؟ لايمكن اللجوء للمبيدات الحشرية بسبب عدد العناكب الهائل وسكناها تحت المدينة..

- الحرب البيولوجية!

قالتها في حماس وأردفت وقد التمعت عيناها:

- يمكننا الاستعانة بالباكتريا.. إن في ذهني تسع سلالات قد تكون ذات نفع لنا..
وذهبا إلى الثلاجة فأخذا أربعة عشر نوعا من المركبات ووضعاها على حامل من الصلب.. يجب ترك الباكتريا في درجة حرارة الغرفة حتى الصباح إلى أن تذوب وتنشط ويمكن تجربتها..
وفي حذر تأكدا من أن كل شيء في المعمل في مكانه، وحضّانات العناكب محكمة الغلق.. من ثم خرجا وأغلق الباب وراءهما..

∞∞∞∞∞

ضوء الفجر الرمادي يتسلل إلى نوافذ المعمل الرئيسي...
على حين تكومت فئران التجارب وخنازير (غينيا) فوق نشارة الخشب في أقفاصها فبدت ككريات بيضاء صغيرة.. سرعان ما سوف تستيقظ وتبدأ حركاتها النشطة التي لا تخمد..
أيضا بدأت العناكب تتحرك في اقفاصها تعيد استكشاف المكان.. كان هذا حين دخل (جونى) من باب المعمل يدفع أمامه عربة النظافة. وأضاء المعمل فعم نور باهر..
لم يكن قد عاد لدار أمس شرق المدينة لأن شعورا عارما بالحزن على نفسه قد انتابه مما جعله يجرع زجاجة خمر كاملة في المخزن.. بعدها قضي ليلته على أريكة، وهو الآن يشعر بسرور لأن د. (بنجامين) غير موجود في المعمل.. فالرجل يمقته وينتظر أول فرصة كي يستغني عنه نهائيا.. لهذا يجب التعامل بحذر مع هذا المكان بالذات..
إن المعمل مرتب بعناية وليس أمامه الكثير ليقوم به.. فقط يمسح الأرضية ويرتبت سلال المهملات وفي الحضّانةرأي العناكب واقفة خلف الزجاج تنتظر..

- اللعنة على قبحكم!.. كم أكره أن أرى واحدا منكم تحت فراشي...
وهنا انقض أحد العناكب مصطدما بالزجاج، فوثب (جونى) إلى الوراء وتمتم:
- اللعنة!.. أنتم أشرار أيضا.. لا أريد مشاكل معكم..
و انصرف عنها ليسكب على الأرض دلوا مليئا بالماء والصابون ويبدأ المسح، وببطء بدأ ينتهي من أكثر المعمل وهو يحرك الممسحة في حركات منتظمة دائرية.. من ورائه يسمع حفيف العناكب المستمر..
الذي أصابه بالتوتر.. ولأنه متوتر أخرج زجاجة الخمر من عربة التنظيف فجرع منها جرعتين ثم أعادها..
كان منهمكا في العمل بالممسحة حين التفّت جدائلها حول إحدى المناضد المعدنية.. حاول جذبها فلم يستطع.. جذبها بعنف أكثر فلم يقدر.. أمسك بكلتا يديه بها وجذب حتى كادت جذور عنقه تنفجر.. من ثم تمزقت الممسحة وطار هو إلى الخلف – وقد فقد توازنه - ليصدم قفصا زجاجيا يحوى بعض العناكب فيهشمه..
- يا للهول!.. سأطرد الان...
قالها وهو يتأمل القفص المهشم و عنكبوتين هلكا تحت وابل الزجاج المحطم..
ولم يجد ذهنه الثمل سوى حل واحد.. أن يفرّ من المعمل ويغلق الباب خلفه بالمفتاح، ثم - إذا سأله د. (بنجامين) - يقسم أغلظ الأيمان أنه لم يفعل ما يظن أنه فعله.. إن هذا سهل.. والضمان الوحيد كى لا يُطرد..
وهكذا خرج.. وقد تأكد من أنه أعاد كل شيء لسابقه..

والأن بدأت العناكب تتفحص ثقب الزجاج في فضول.. ثم بدأت تخرج من الثقب في تؤدة.. واحدة واحدة.. زاحفة فوق المنضدة..
ثم........

∞∞∞∞∞

7 - فلندخل النفق..!

عند النهر كانت هناك عشرات من سيارات الشرطة والمطافئ تلتف حول فتحة خرسانية لأحد أنفاق الصرف.. وبالطبع كانت سيارة التليفزيون واقفة كدأبها..

إن (ماكنيل) مرهق يترنح من جراء اليومين المنهكين السابقين.. عيناه ملتهبتان وجفناه متقرحان..

لكن هذا لم يمنعه من أن ينزل من السيارة ويتجه نحو رئيسه حيث وقف وسط مجموعة من الرجال.. فسأله:

- هل اخترت الرجال الذين سيدخلون النفق؟

- سأحتاج إلى اثنين..

- بل تحتاج إلى واحد.. هو أنا..

- اسمع يا صديقي.. أنت أكبر سنا بكثير من لعب دور البطل..

ونظر الرئيس الى ساعته.. ثم لزم الصمت..

دنا (ماكنيل) من العمدة وطلب منه أن يرسل بعض رجال الحرس الوطني - مرتدين ثيابا واقية إلى منطقة (جلندال) كي يفتشوا المنازل باحثين عن العناكب التي قد تكون تخلفت هناك من الليلة الماضية..

رفع العمدة سماعة الهاتف في سيارته واتصل بالحرس الوطني ليكلفهم بهذا الموضوع..

وهنا وصلت إلى المكان سيارة بيضاء كبيرة كُتب على بابها بحروف كبيرة (الإدارة الهندسية).. نظر (ماكنيل) إلسي رئيسة.. فكلاهما يعرف أن هذه السيارة تحمل عبوات الغاز السام.. قال الرئيس هامسا وهو يمسك ذراع (ماكنيل):

- (جورج).. أنا لن أدعك تفعل ذلك..

- أرجوك.. أنا أشعر بأنني مسئول بشكل ما عما وصلنا إليه ولست واثقا مما إذا كان بإمكاني منعه من البداية.
بدين ووزنك لا يسمح بالجري في الأنفاق وعلى ظهرك معدات تزن مائتي رطل.
- أنت تعرف أنني أستطيع القيام بذلك..
برهة صمت ثم..
- ليكن يا (جورج).. تعال نلبس ثياب العملية..
هتف (ماكنيل) في ذهول:
- ماذا تعني؟..
- أعني أننا سنفعلها أنا وأنت أيها الأحمق..!

∞∞∞∞∞

دلف د. (بنجامين) إلى معمله شاعرا بالضيق، فهؤلاء الحمقى لم يأخذوا برأيه قط في أن غاز (الكلوردين) لن يكون فعالا.. وحتى د. (سيلبى) صاحبة اقتراح الحرب البيولوجية بوساطة الباكتريا لم ترَ مانعا من أن تذهب إلى النهر لتري استعمال غاز (الكلوردين).. أغلق باب المعمل وارتدي معطفة الأبيض.. وهنا....
إنه ذلك الشعور المتوجس!.. ثمة شيء ما شرير هنا..
ورأى الحوض المكسور ففهم على الفور ما حدث..
لقد فرت تلك المخلوقات إذن..
مد يده إلى جيبه ليخرج المفاتيح بسرعة، لكن ألما واخزا حادا اندلع في ساقه اليسرى فأجفل.. رأي عنكبوتا عملاقا بتشبث بساقه وقد أنشب مخالبه فيها..
شعر بالدوار والخدر فسقط على منضدة مجاورة ليهوى كل ما عليها من أنابيب اختبار وكتب أرضا..

أي!.. وخزة أخرى في أعلى الفخذ الأيمن..
لقد.. اللعنة!.. لقد فقد الإحساس بقدميه تماما..
لكنه لن يفقد الوعي.. يجب أن يواصل الحركة..
مد يده إلى المنضدة والتقط مبضعا من مباضع التشريح. وبكل غلى دفع النصل في جسد العنكبوت المتشبث في فخذه ثم رفع المبضع والعنكبوت يتلوى عند طرفه.. ورماه إلى ركن الغرفة فسقط على الأرض..
يا للعرق اللعين!.. العرق يغسر عينيه.. لا يمكن أن يفقد الوعى هنا وإلا لن يصحو ثانية..
نفس عميق!.. نفس آخر!.. الرؤية تتحسن..
لا بأس.. ورأي عنكبوتا يقف على الأرض يمتصّ بقعة من الدم نزفت من جرح فخذه.. فهرسه بحذائه..
و هرس واحدا آخر.. كم بقي منها؟.. اثنان ماتا داخل القفص.. ثلاثة.. لا.. أربعة قتلهم هو..
بالتأكيد هذا هو الحوض الذي أخذ منه عينة التشريح..
وكان قد بقي فيه ثمانية.. وها هما اثنان يقتربان منه فهرسهما بحذائه.. لقد انتهت العناكب إذن..
الدوااار.. آه!.. فك رباط عنقه وزر قميصه..
استند إلى المنضدة ليتوازن.. وهنا برز له عنكبوت هائل من وراء صف الكتب وأنشب مخالبه في ذراعه.. من أين جاء هذا؟!.. هز ذراعه بعنف وهو يعوى..
لكن العنكبوت لم يتزحزح.. بل ولف أقدامه الطويلة حول ذراعه بالكامل ليثبت نفسه أكثر..
الألم لا يُحتمل!.. شريان المعصم قد تمزق حتما!..
أخذ يلوح ويضرب ذراعه فتهشمت أنابيب الاختبار الحاوية للباكتريا وانسكبت محتوياتها..

لقد صار التفكير عسيرا.. لكن فكرة استخدام الحمض التمعت في مكان ما من ذهنه.. صوت دق..

مجنون على الباب.. هناك من ينادي اسمه لكن الأصوات بعيدة بعيدة..

أمسك بزجاجة الحمض.. استجمع قواه وبحرص سكب قطرات على العنكبوت المتعلق بذراعه.. تلوى هذا وتصاعد منه دخان أبيض كريه الرائحة.. ثم هوى على الأرض..

وبيد مرتجفة فتح (بنجامين) صنبور الماء وترك الماء يغسل يده.. عيناه زائغتان.. قدماه مرتخيتان تماما..

ولم يدر كيف ولا متى سقط على الأرض..



أمسك بزجاجة الحمض .. استجمع قواه .. وبحرص سكب قطرات على العنكبوت المتعلق بذراعه ..

∞∞∞∞∞∞

كان (ماكنيل) في ذروة التعاسة حين ارتدى زي (الأسبستوس) الضيق الذي جعل من المستحيل عليه أن يتنفس.. كان بدينا أكثر مما ينبغي، واضطر أن يفك بعض الأربطة عند ظهره.. خاصة والزى جامد لا تتحرك فيه سوى مفاصله..

أما الرئيس (برابسون) فكان منتعشا كزهرة الصباح يتحرك بسلاسة غير عادية في زيه.. مما أثار غيظ (ماكنيل)..

- نحن نعمل - أنا وأنت - منذ خمسين ساعة وأنا منهك.. وأشعر بصداع مروع.. وأحتاج للنوم.. إنني مهزوم.. لكنك بخير حال..

ابتسم (برايسون) ولم يقل شيئا..
وصعدا معا إلى سيارة النقل حيث وقف فنيان قال لهما أكبرهما:
- كل عبوة من هذه قادرة على تغطية أربعمائة باردة مكعبة من البخار السام.. نحن نشك في قدرة أجهزة (التفجير على بعد) على العمل داخل الأنفاق، لأن الموجات اللاسلكية لن تدخل هناك، لكن يمكن الاطمئنان إلى قدرتكما على التحدث أحدكما إلى الآخر عن طريق (اللاسلكي).. فإذا عجزنا عن تفجير الشحنات من الخارج سيكون عليكما عمل ذلك يدويا، وذلك بجذب الجزء الخاص بالتفجير مع ضغط مسمار الأمان.
كانت العربة التي سيركباتها داخل الأنفاق في حجم عربة (الجولف) الصغيرة تتحرك بمحرك كهربى، ولها عجلات خاصة مطاطية عريضة، ويحيط بها حاجز معدنى مرتفع لمنع العناكب من تسلق العربة..
و الان يغلق الرجلان سترتيهما , وقام أحد الفنيين بتشغيل صمام خزان الهواء على الظهر من ثم انتفخ الرداءان بالهواء وأحس (ماكنيل) بشيء من الراحة حين ساعد الهواء على تقليل الضغط من على جسده..
وجلس (برايسون) خلف عجلة القيادة.. ليست عجلة بالمعنى الحرفي بل هي عصا يمكن تحريكها في كل الاتجاهات عدا الخلف، وتحركت المركبة بسرعتها القصوى (خمسة أميال في الساعة) داخلة النفق ببطء..
كأنهما يدخلان فما فاغرا الديناصور من عهود ما قبل التاريخ..
وتذكر (ماكنيل) نصيحة زوجته:
- (جورج).. كن حذرا ولا تغامر..
الان يغمر كشافي المركبة جدران النفق..

الحوائط والأرضية مكسوة بطبقة بنية قذرة من العفن والرطوبة ورائحة المجارى تعم المكان.. كأنه عالم لم يرد إنسى من قبل..
وعند التقاطع الأول سمعا الأصوات..
أصوات المخالب الدقيقة تخدش الجدران الخرسانية..
ثم رأوها.. الملايين منها تكسو الأرضية والجدران وتتعلق بالأسقف.. الأجسام السوداء المشعرة التى لا تكف عن الحركة..
تبادلا نظرة ذهول.. ثم همس (ماكنيل):
- رباه..
ورأتهما بعض العناكب فشرعت تزحف نحوهما في ضوء الكشاف.. كأنه كابوس لا يمكن أن يكون هذا حقيقيا
كان الحاجز المعدني فعالا وعجزت العناكب عن تسلقه حقا.. على حين تعالى صوت الأجساد المتهشمة تحت العجلات.
- هلم نضع العبوات وننهي الأمر ثم نخرج..
ثم إن (ماكنيل) حمل العبوة الأولى والقاها أرضا، وقال موجها كلامه للفنيين خارج النفق:
- أسقطنا أول عبوة.. فجروها..
الصمت.. لا شيء..
- هل تسمعونني؟ فجروها!
لا شيء سوى أصوات قرقعة وخشخشة.. لقد عاق النفق موجات اللاسلكي كما توقع الفني..
- ماذا تفعل الان؟
- نستمر في رمي العبوات وندعو الله أن نتمكن من تفجيرها يدويا في طريق العودة..
وواصلا المسيرة الرهيبة..
فجأة نظر (برايسون) إلى أعلى الحائط وصاح في هلع:
- رباه!

رفع (ماكنيل) رأسه فرأى ملايين وملايين من الأكياس ذات النسيج الأبيض الواهن تتدلى من السقف..
وعليها تتحرك عناكب سوداء وليدة..
إذن فهذا المكان هو قلب المستعمرة حيث تولد الأجيال الجديدة.. المشكلة هي أن الدخان السام لا يرتفع فوق مستوى الأرض أكثر من قدمين، ومعنى هذا أنه لن يقتل سوى بضعة ألوف من هذه العناكب..
جرب (ماكنيل) حظه فضغط زناد العبوة التي يحملها ثم ألقاها إلى أبعد ما يستطيع.. فتصاعد منها دخان أزرق كثيف ما إن لامس العناكب حتى شرعت تتكور على ظهورها وتموت.. لكن أكثرها استطاع الزحف إلى أعلى فوق الجدران..
- هيا بنا نخرج من هنا..
وأدار (بر ايسون) محرك المركبة للعودة.. لكنها كادت تصطدم بالجدار الأيسر للنفق.. وتهاوي الجانب الأيمن المعدني منها.. وهنا فهما الأمر.. لم يكن الدوران بالمركبة ممكنا بسبب ضيق النفق وجسامة الحاجز المعدني..
إذن هما مضطران إلى العودة سيرا على الأقدام لا بأس.. فالرداءان يحميانهما جيدا..، وهكذا ترجلا وحمل كل منهما عبوتى غاز وسارا عائدين..
لكن (ماكنيل) صار منهكا.. العرق يبلل جسده والبخار يغطي زجاج وجهه بالضباب.. لاهث الأنفاس يترنح بين الدخان الأزرق.. ومن حين لحين يفجران عبوة سبق أن رمياها في رحلة الدخول..
إن النسيم القادم من فتحة النفق يهب عليهما..
لقد اقتربا من الخروج.. لكن أميالا ما زالت تفصلهما برغم كل شيء!

إنّ العناكب تتسلق جسديهما.. تحاول اختراق الرداء.. تخدش نافذة الوجه.. ثقلها على أكتافهما يكاد يسقطهما أرضا.. وحال (ماكنيل) يزداد سوءا، مما أثار قلق (برايسون).. فرأس الأول ينبض بضغط الدم، والعرق يبلل كل شيء ويحرق عينيه..
و ألم مروع يتزايد خلف عظمة القص وذراعه اليسرى..
- تماسك يا (جورج).. مسافة صغيرة باقية..
لكن هذا لم يرد.. كان يحارب معركته الخاصة ضد الإغماء..
كانت العناكب الحانقة تغطي جسديهما تماما طبقة فوق طبقة ولحسن الحظ أنها لم تكن قادرة على الوقوف فوق زجاج الوجه والا لاستحالت الرؤية..
وهنا سقط (ماكنيل) تحت سجادة من العناكب..
فهرع (برايسون) نحوه يجذبه بكل قوته دون جدوى وتوسل في هلع:
- أرجوك أن تقف.. افعل أي شيء.. أنا غير قادر على جرك.. يا للهول!..
ثم مد يده حتى وصل إلى صمام الهواء ففتحه، وسمع هسيس الهواء وأحس بالبدلة تنتفخ.. وساعد (الأكسجين) على انتعاش (ماكنيل) وقتيا فقل الدوار والألم.. نهض واستند إلى ذراع (برايسون)، وسار معه ببطء شديد..
و عند حافة النفق وقفت الجموع تنتظر.. الكل يعرف أن رجلى الشرطة الذين دخلا النفق لن يعودا أبدا..
وفجأة صاح أحدهم مشيرا إلى مدخل النفق..
كان هناك هيكلان تغطيهما العناكب السوداء الحية بالكامل، وفي ثوان اندفعت المياه من خرطوم الضغط العالى تجرف العناكب بعيدا.. حتى زالت عنهما آثارها و عادا من جديد.. رجلين، وامتدت الأيدي تفتح ردائيهما وتنزع غطائي رأسيهما.. ثم انهمرت

الأسئلة من كل صوب.. الكل يتكلم.. لماذا لم تنفجر العبوات باللاسلكي؟.. ماذا حدث لـ (ماكنيل)؟ هل نجح الغاز؟..
لكن أحد الأطباء تدارك الموقف فحمل (ماكنيل) حملا إلى عربة الإسعاف.. أما (برايسون) فقال وهو يلهث للدكتورة (سيلبي):
- ملايين من أكياس البيض.. لا توجد وسيلة للخلاص منها..
صاحت في رعب:
- إذن ستتضاعف أعدادها أكثر وتملا النفق!.
تدخل العمدة الذي بدت عليه الصدمة:
- هذا لن يكون.. سنقوم برش الأنفاق بالأمونيا وربما (السيانيد) بعد إجلاء المدينة من السكان.. لا أرى حلا بديلا..
و هنا جاءت سيارة شرطة نزل منها ضابط شاب، واتجه نحو د. (سيلبي) ليبلغها أن حادثا ألم بـ (بنجامين) في معمله وأن هذا الأخير طلب أن يخبروها بالأمر..
- ما.. ماذا؟.. أي مستشفى؟
- المستشفى العام.
فهرعت إلى السيارة معه..
وإلى نفس المكان ذهب (پرايسون) ليطمئن على مرءوسه وصديق عمره الشرطي البدين (ماكنيل).

∞∞∞∞∞∞

8- مذبحة جديدة..

انها تعليمات العمدة..
وبناء عليها تم توسيع المنطقة المخلاة من السكان، وعلى هؤلاء أن يرحلوا حاملين حاجياتهم الضرورية الى الأجزاء النائية من (لوس أنجلس)... قوات الاحتياط تم استدعاؤها. وتم عمل نطاق بشرى لحصار المنطقة الموبوءة.. الأحكام العرفية يتم تطبيقها بصرامة، و سيتم اعتقال كل من يتواجد في المنطقة.. كما أن من يقوم بالسرقة أو النهب سيتم إطلاق الرصاص عليه دون مناقشة..
ولقد وجدت قوات التمشيط ثلاثا وعشرين جثة متيبسة لأشخاص يعتقد أنهم كانوا يسرقون المنازل التي احتلتها العناكب، كذا مات ثلاثة من الحرس الوطني عندما داهمتهم العناكب في أثناء بحثهم عنها..

∞∞∞∞∞

وفي المستشفى أفاق د. (بنجامين) من إغماءته ليري ضوء الكشاف الذي يحمله الطبيب مسلطا إلى عينيه، واستطاع أن يعرف أن ذراعه قد تسلخ وتمزق من جراء معركته مع العناكب، لكن سُمّ الحشرة قد تلاشى من دمه تماما..
لكن (بنجامين) لم يطمئن قط..
كان يريد منهم أن يجروا له تحليل دم وبول، ويعملوا له أشعة على الكليتين والكبد.. إن فكرة بيض العنكبوت المتسقر في الأحشاء لم تبارح خياله، ولئن تحققت مخاوفه فهو رجل ميت لا محالة..

∞∞∞∞∞

على بعد أمتار من الغرفة دفع (ماكنيل) الصينية في اشمئزاز بما حوته من بيضة مسلوقة وشريحة خبز يابس..
- أنا لن أكل هذا.. أريد الطبيب وملابسي..
كان (ماكنيل) يمقت المستشفيات ويعتقد أن من اخترعها إنسان سادي مولع بتعذيب المرضى..
فما إن خرجت الممرضة حتى هرع يرتدي ثيابه التي - برغم قذارتها الشديدة - كانت تصلح للفرار من المستشفى..
وهنا دق الباب وجاءت امرأته.. فما إن رأته حتى تساءلت:
- (جورج).. لماذا فارقت الفراش؟.. هل سمح لك الطبيب؟
- لقد كان رسم القلب على ما يرام يا ملاكي.. كل ما هناك هو التوتر والإنهاك.. وقد قال الطبيب إننى أستطيع الخروج من المستشفى على أن أستريح في الفراش يوما أو اثنين..
غمغمت في شك وهي تناوله حقيبتها:
- حسن.. إذا وعدتني بذلك.. لقد أحضرت لك ثيابا نظيفة أما هذه فسنحرقها!.
وهنا دخل الطبيب الغرفة فما إن رأى (ماكنيل) حتى صاح في حزم:
- إنك لا تضيع وقتك.. لكنك لا تعرف أن ما رأيته كان تحذيرا حقيقيا لك. لابد أن تترك جسدك يأخذ راحته، أنت في الثانية والخمسين من العمر تزن ما يقرب من ثلاثمائة رطل.. وهذا يعود لأنك تلتهم الأكل كحصان.. يجب أن تركز على الطعام بدون ملح وبدون (كوليسترول) وإلا.....
نظرت الزوجة شاحبة الوجه إلى (ماكنيل) وهمست:
-- (جورج).. إن موتك لن يفيدنا بشيء..!

قال (ماكنيل) وهو يرفع حقيبته:
- حسن.. أعدك..

∞∞∞∞∞∞

كانت سينما (لوجر اند) قد اجتازت فترة عصيبة صنفت فيها في الدرجة الثالثة.. ثم اشترتها شركة كبرى أجرت بها تجديدات أنيقة حتى صارت دارا فاخرة تعرض أفلام الدرجة الأولى..
وكان المدير راضيا في تلك الليلة وهو يحصى الإيراد.. فبرغم الظروف الخطرة التي تمر بها البلدة فإن روادها لم يقلوا عن الستمائة في هذه الحفلة وهو مايفوق نصف المقاعد.
وفي فخر خرج إلى الشارع يستنشق أنسام الليل العليلة ويتأمل لافتة السينما المضاءة..
وفي الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق امتلأ الشارع أمام دار السينما بالعناكب السوداء، وفي منتصف الليل بالضبط صار مدير السينما ومساعده والفتاتان بائعتا التذاكر جثثا هامدة تغطيها العناكب..
وكان (بارى سوليفان) جالسا على مقعده في الصالة متململاعاجزا عن التركيز.. فالفليم يدور حول قصص عبادة الشيطان والسحر الأسود، تلك النوعية التي يمقتها من القصص.. ثم نهض من مكانه قاصدا الحمام.. وفي الردهة مشي بضعة أمتار قبل أن يدرك ما هذا الذي يمشي عليه!.



بينما كتل العناكب تنهمر من باب الحمام المفتوح إلى الصالة ،
زحف فوقه .. ومن حسن حظه أنه فقد الوعى ..

فقد توازنه.. صرخ , بينما كتل العناكب تنهمر من باب الحمام المفتوح إلى الصالة، زحفت فوق، ومن حسن حظه أنه فقد الوعي.. فلم يدر بما حدث لجسده بعدها..
وعندئذ استحالت دار السينما إلى كابوس..

كان الناس يركضون في الظلام، ويدوس بعضهم البعض، ويلوحون بأيديهم.. ويصرخون..
وفي غرفة (المكنجى) جلس (جيك كولمان) يطالع المجلة التي في يده حين خيل إليه أنه يسمع صرخة من الصالة.. نظر إلى بكرة آلة العرض التي تدور بانتظام فأدرك أن كل شيء على مايرام.. دنا

من نافذة الملاحظة ليختلس نظرة إلى الصالة يعرف بها ما يدور هنالك..
وكان مارأه هو الناس يركضون ويتعثرون ويدوس بعضهم بعضا.. ماذا حدث؟.. أهو حريق؟..
مستحيل.. وإلا لرأي وشم الدخان وهنا رآها..
رأي الالاف منها تملا الصالة وتزحف هنا وهناك تفترس النساء المولولات والرجال الصارخين..
أكثر من ستمائة شخص تفترسهم عناكب هائلة الحجم..
ورأى امرأة تهوي من أعلى البلكون مغطاة بالعناكب..
هذا ليس حقيقيا.. هذا جزء من فيلم رعب يعرضه هو..
إنه لم يعد يرى بشرا.. بل سجادة سوداء سميكة تمتد إلى كل مكان في الصالة وتتسلق شاشة العرض لتنعكس عليها ظلال الفيلم الذي لم يعد أحد يشاهده..
وسمع صوت خدوش على باب الحجرة فأدرك أن العناكب قد جاءت إليه.. وأنها تسد عليه باب الهرب..
ماذا يفعل؟.. آه.. الهاتف..
هناك هاتف عملة في الردهة جوار باب الحجرة إذا استطاع فقط أن يصل إليه.. ثمة نافذة صغيرة في الجزء الأعلى من الباب يمكنه فتحها ومد يده محاولا الوصول للهاتف..
فتح النافذة بحذر فلم ير عناكب.. من الواضح أنها عاجزة عن تسلق الجدار الرخامي وباب الغرفة المصقول..
مد ذراعه إلى اليسار.. هاهي ذي أصابعه تلمس الجهاز , بيد مرتجفة يحاول أن يدس قطعة العملة في الفتحة. هاهى ذى... و....
شعر بشيء يلمس رسغه فتخلى عن العملة وجذب ذراعه إلى الداخل.. وتفحص ذراعه في حرص.. لم يكن بها شيء.. لا بد أن

مالمسه لم يكن سوى سلك الهاتف..
عاد يحاول - بعد أن جذب السماعة عبر النافذة - إلى أن دس العملة وطلب عاملة الهاتف بعد ماعدّ ثقوب القرص ليجدها..
سمع صوتها يتساءل:
- أية خدمة؟
- أريد الشرطة حالا..
- يمكنك أن تتصل بهم مباشرة.
صاح في حنق:
- لا أستطيع.. أنا حبيس غرفة محاصرة بالعناكب ووسيلتي الوحيدة لطلب رقم هو أن أمد ذراعي من نافذة صغيرة.. أرجوك.. إنها مسألة حياة أو موت!.
- ليكن.. لكن لاتصرخ أرجوك فأنا لست صماء.
وسمع صوت رجل شرطة يتساءل.. فصاح:
- أرجوك.. العناكب ستقتلني..!
- وما اسمك.
- لا أفهم أهمية اسمي في الموضوع.. أنا عامل العرض في سينما (لوجر اند).. وقد داهمت العناكب اللعينة المكان..
- مستحيل سيدي.. إن العناكب محصورة في المنطقة الخالية من السكان..
- لا تقل (مستحيل) بينما المكان حولي يزدحم بمليون عنكبوت مقزز.. يجب أن ترسلوا قوة إلى هنا.. يجب أن تنقذوني!.
سادت لحظة صمت.. ثم تساءل الضابط:
- أفهم من كلامك أنك آمن الآن؟
- إن الباب مغلق ولكن....
- إذن ابق حيث انت إلى الصباح، وفي الصباح سترحل كل العناكب.. فنحن لا نملك أية وسيلة فعالة لمواجهتها.. فقط ابق

حيث أنت وصلَّ..
أسقط (جيم) السماعة في الردهة وأوصد النافذة..
إن الشرطي على حق فيما يبدو..
سينتظر حتى الصباح إذن..
عاد إلى النافذة الصغيرة في قاعة العرض وشرع يتأمل الصالة وكتل العناكب المنهمكة في افتراس ضحاياها..

∞∞∞∞∞∞

كانت أرقام ضحايا الليلة السابقة مروعا..
لقد ملك أربعة آلاف إنسان منهم ستمائة هلكوا في دار السينما..
لقد كانت ليلة كئيبة حقا وكأنما أرادت السماء أن تضفي عليها الجو المناسب فصلات سماعها بالسحب الداكنة.. و حين جاء مساء يوم الأحد خرجت العناكب مبكرا لتهاجم المناطق النائية والتي كان رجال الشرطة عاكفين على اخلائها مما زاد من قطر دائرة الخطر..
وحين دق جرس الهاتف يستدعيه إلى مجلس المدينة، كان (ماكنيل) جالسا يتابع في تعاسة بالغة نشرة الأخبار على شاشة التليفزيون وأعداد الضحايا المروعة..
وكان المتكلم هو (بر ايسون) يعلنه أن إجازته المرضية قد انتهت لأنهم يريدونه على وجه السرعة..
وفي الطابق السادس من مبنى العلوم خرج د. (بنجامين) من المصعد قاصدا معمله بعد أن قضى ثلاث ساعات في زحام المرور يحاول أن يصل إلى هنا..
فالشوارع تعج بالسيارات الفارة...

وكان راضيا عن نتائج التحاليل التي أثبتت خلو دمه من البويضات كما أن أعضاءه الداخلية كانت سالمة..
وهنا رأي باب مكتبه مفتوحا فدخل مدهوشا ليجد (كرستين)..
- د. (سيلبي) لكن الكلفة قد زالت بينهما -واقفة:
- (كرستين)!.. ماذا تفعلين هنا؟
- أراجع أوراقنا يا (هارولد).. كيف حالك الآن؟
نحمد الله..
لم تفنه - ولم تفتها نظرة الحنان المتبادلة بينهما..
ودلفا إلى المعمل الرئيسي حيث وقعت الكارثة منذ يومين.. كان كل شيء في موضعه لم يتبدل.. الكتب منتثرة.. الأنابيب مهشمة.. جثث العناكب التي قتلها..
- أخشى أنى المسئولة عن هذا.. لقد أمرتهم ألا يلمسوا شيئا هنا.
- إذن نستنقد المعدات السليمة معًا..
ودنا من أحد الأقفاص الزجاجية السليمة وقرعه بيده كى تهاجمه العناكب.. لكن.. شيئا لم يتحرك..
هذا غريب!. أمسك الحوض وحركة فانقلبت ثلاثة عناكب على ظهورها دون حراك.. لقد ماتت جميعا!..
كيف؟.. ولماذا؟..
- (كرستين)!.. تعالي هنا.. لقد ماتت العناكب جميعا..
نظرت إلى القفص مشدوهة، ثم أشارت إلى آنية الماء وهتفت:
- بالتأكيد ماتت جوعا أو ظمأ..
- لا أظن.. إن أجسادها بدينة لا يبدو عليها الهزال.. أنا واثق بأنها ماتت لسبب آخر.. شيء فعلناه في هذا المعمل قتلها ويجب أن نعرف ما هو.
ونظر لها والأفكار تصطرع في ذهنه...

∞∞∞∞∞

9- الحل..!

السادة المجتمعون الان هم محافظ (كاليفورنيا) واثنان من الجيولوجيين ومندوب من لجنة الطاقة الذرية.. وموضوع الاجتماع هو: ماذا نفعل لإنهاء هذه المصيبة؟
وقف العمدة (برادشو) فلخص ما توصلوا إليه في الأيام السابقة، وحكي مغامرة (برايسون) و (ماكنيل)..
ثم أضاف:
- إذن - حسب رأى علماء الحشرات – هناك خمسة عشر مليون عنكبوت أو أكثر في الأنفاق، وقد بدأت تتفرع من الجماعة الأم جماعات أخرى تختص بأماكن جديدة.. والمفزع هنا أنها تتكاثر بمعدل كل عشر ثوان، إذ يقوم خمسون عنكبوتا بوضع ألف بويضة، وخلال أسبوعين ستحتل شبكة الأنفاق بالكامل.. ثم تهدد الولاية كلها فباقي البلاد..
قال د. (ونيكلر) في تؤدة:
- يجب القضاء على هذا الكابوس قضاء مبرما لأنه إذا نجا واحد منها ستعود القصة من جديد..
وإنني لاقترح استعمال وسيلة نووية!
تعالى صوت الاحتجاج ونهض العمدة صارخا:
- إذن تريد رمي قنبلة هيدروجينية على (لوس أنجلس)؟..
- لم أتحدث عن قنبلة هيدروجينية أتحدث عن قنبلة (نيوترون) تبيد الحياة العضوية وتحافظ على المنشأت كما هي.
هز العمدة رأسماء في عنف:
- وماذا عن تلوث الجو بالغبار الذري؟.. ستظل المدينة مصيدة موت لأعوام كاملة..

قال المحافظ بحزم:
- لكن المدينة بحالتها الحالية مدة موت فعلية، ولابد من إخلائها سواء استعملنا القنبلة أم لا.
وهنا تكلم (هنرى جيساب) من وكالة الطاقة الذرية:
- أخشى أن لديكم جميعا فكرة خاطئة عن قنبلة (النيوترون).. إنها تنفجر في الجو ولن تمس المخلوقات في الأنفاق لأن طبيعة الأنفاق الخرسانية ستحمى الحشرات.. إننا بحاجة إلى قنبلة (ثرمونووية) ([2])..
ثم نظر إلى الوجوه البلهاء حوله وأردف:
- منذ قنبلتى (هيروشيما) و (ناجازاكي) أحرزنا تقدما لا بأس به حتى وصلنا إلى (القنبلة النظيفة).. القنبلة الخالية تقربيا من الاشعاعات الذرية فلا تتعدى نسبتها اثنين في المائة.. لكن أثرها الحراري قمين بتطهير الأنفاق..
سأله المحافظ في توجس:
- وهل تكفي قنبة واحدة إذن؟
- لا.. تحتاج ثلاثا.. توزع في أماكن استراتيجية..
قالها وعلى وجهه أمارت السلام النورانى، حتى أن (ماكنيل) همس في أذن (برايسون):
- هذا الرجل ليس إنسانا.. إنه شيطان!.
هنا نظر المحافظ إلى الجيولوجيين وتساءل:
- ماهي الأعراض الجانبية لتلك القنابل؟
قال (الان تيت) في وقار:
- أنتم تعرفون أن (كاليفورنيا) بالذات تعاني مما يسمى ظاهرة (سان أندرياس) الجيولوجية.. وهى انشطارات في القشرة الأرضية على طول الساحل من (باجا مكسيكو) حتى (كندا)، وقد تؤدي

القنابل إلى ضغوط متوالية تؤدي بدورها إلى تحطم الساحل الغربي على طول سبعمائة ميل.
قال المحافظ في اكتئاب:
- أنت ترسم صورة قاتمة.. لكنني سأبلغ الرئيس فلا يوجد خيار آخر.. ولو احتاج الأمر سنضحى بالولاية كلها..
وهنا دق جرس الهاتف، فرفع (برايسون) السماعة وشرع ينصت لهنيهة.. ثم صاح في حماس:
- هذه د. (سيلبي).. تقول إن كل عينات العناكب قد ماتت في معملها دون أن تعرف لذلك سببا!

∞∞∞∞∞∞

في المعمل الرئيسي التقى العالمان (مايرز) و (وينكلر) بزميليهما (بنجامين) و (سيلبي)
وكانت وجنتا الأخيرين متوردتين من فرط الحماس..
كانا على وشك البدء في تشريح العينات.. كل عالم على عينة..
وبعد ساعتين من العمل عرفوا أن سبب الوفاة هو التهاب القصيبات الهوائية لدى العناكب، مما أدى للوفاة فورا..
وهنا خطرت ذات الفكرة لدى (بنجامين) و (سيلبى)..
- ماذا لو كان السبب نوعا من الفيروسات؟
- للأسف نحن لا نعرف سوى القليل جدا عن الفيروسات.
لهذا هرع (مايرز) يتصل بد. (بريلى كى يرسل لهم فريقا من علماء الفيروسات لدراسة العينات، وتحديد أي نمو فيروسى بها..
ثم إنهم نقلوا كل ما يحتاجون إلى معمل (البيولوجي) حيث الإمكانات أوفر و أفضل لما يزمعون القيام به..

وبعد أربع ساعات أعلن د. (بيتر هاول) خبير الفيروسات أنه لا يوجد شك في أن وفاة العناكب نجمت عن فيروس. ربما كان في إحدى أنابيب الاختبار التي تهشمت في أثناء صراع د. (بنجامين) مع العناكب.. إذن لابد من عزل الفيروس، والتأكد من أنه هو - بالذات - المسئول عما حدث، كما ينبغي التأكد من أنه لا يؤذي الكائنات الحية الأخرى..

أسرع د. (بنجامين) إلى المعمل الآخر ليرى حيوانات التجارب في أقفاصها.. وكانت كلها ميتة..

إلا أن التشريح الدقيق أثبت أن هذه الحيوانات ماتت بعدوى للجهاز العصبي ناجمة عن نوع آخر من الباكتريا تسربت المعمل في أثناء الحادث.. حمدا لله مازال هناك أمل إذن في استخدام الفيروس..

وهنا شعر (بنجامين) بالدوار.. ترنح واستند بذراعه إلى المنضدة.. كان منهكا.. منهكا إلى حد لا يوصف..

قال الد. (سينبي) و هو يلهث:

- (كرستين) , لقد قمنا بكل ما يمكن.. أما الان فيجب أن نستريح قليلا لأني أوشك على الموت تعبا..

قالت في قلق:

- ليكن.. اذهب أنت وارتح.. أما أنا فكفانى الجلوس هنا قليلا ورفع قدمي على مقعد سار مستندا إلى الحائط حتى وصل مكتبه.. رأسه يدور لا يكاد يرى ما أمامه.. على المكتب جلس..



سار مستندًا إلى الحائط حتى وصل مكتبه .. رأسه يدور ..
لا يكاد يرى ما أمامه ..

أراح رأسه فوق ذراعيه وغاب في نعاس عميق بلا أحلام..

....

- د. (بنجامين).. هل أنت بالداخل؟

فتح عينيه ليري في الظلام من حوله.. كم من الوقت قد نام؟.. لقد حسب نفسه قد غفا لدقائق.. تمطى بذراعيه وتنفس بعمق لكن التنفس جعله يسعل ويسعل.. صدره يؤلمه حقا.. نهض ليدور حول المكتب وتساءل:

- من؟.. كح كح!.

- لقد استطعنا عزل الفيروس، هل أنت متيقظ؟

أضاء النور ونظر لساعته وهو يفتح الباب.. مستحيل!.. لقد نام أربع عشرة ساعة متواصلة!..
دخل العلماء المكتب باسمى الوجود، وفي يد (هاول) كانت هناك زجاجة بها سائل أصفر يميل إلى الاخضرار..
- هو ذا الفيروس.. من فصيلة فيروسات (د.ن. أ) ([3]) وينمو جيدا في أي محلول بروتيني..
تساءل (بنجامين) محاولا استعادة توازنه:
- هل يقتل العناكب فعلا؟
- له. (بنجامين) ,. إن هذا الفيروس فعال جدا كما رأينا جميعا.. وهو متخصص في مهاجمة الجهاز التنفسي لكل كائن حي يستنشقه.. إلا أن الكائنات المتطورة قادرة على مقاومته بأجهزتها المناعية ولن تزيد أعراضه فيها على أعراض نزلة برد بسيطة، أما بالنسبة للكائنات البدائية كالعناكب فهي معدومة الحيلة أمامه. سيدخل الفيروس قصيباتها الهوائية ويدمرها.. والأعراض تبدأ خلال تسعين دقيقة و الوفاة تتم بعد ست ساعات..
قالت د. (سينبى) مؤمنة:
- بالطبع لن ينسينا هذا واجب الحيطة حتى لا نسبب وباء يقضي على الحشرات في العالم كله، فإن هذه ستكون كارثة بيئية..
- هذا صواب..
قال د. (بنجامين) وقد بدأ يصاب بعدوى الحماس:
- إذن ليس من الحكمة أن نستعمل الفيروس في الهواء.. الأسلم أن نضعه في طعام العناكب.. كح كح!.. نحقن عددا من الحيوانات بجرعة هائلة من الفيروس ثم ترسلها داخل الأنفاق..

وهنا داهمته نوبة سعال شنيعة.. عاد بعدها يتكلم..
- واضح أنني أول ضحايا هذا الفيروس من البشر..
نهضت (سيلبي) إلى الهاتف فاتصلت بمركز الأمراض المعدية وشرحت للطبيب أنهم هنا قد أصيبوا جميعا بجرعات مختلفة من فيروس تنفسى، فقال إنه سيأتي إليهم حالا ومعه ما يلزم للعلاج، وسيطهر المكان جيدا.
نظر (بنجامين) إلى ساعته و غمغم:
- حسن.. سأقوم بطلب المحافظ والعمدة لعمل الترتيبات اللازمة قبل الشروق.. إنها الثالثة صباحا.. لكني لا أحسبهما نائمين في أثناء هذا الكابوس أنصحكم إذن أن تحاولوا نيل قسط من الرحية قبل أن نلتقي جميعا عند حوض النهر لنقوم بالفصل الأخير من هذه المأساة.. أو هذا ما أرجوه.. إن عملكم يا سادة لجدير بكل تقدير.، كح كح!
وانصرف العلماء راضين عن أنفسهم، في حين رفع هو سماعة الهاتف طالبا المحافظ ليخبره بتفاصيل ما عرفوه.. تحمس المحافظ وأراد البدء فورا..
- ليس قبل الشروق فمن الضروري أن تحتشد الحشرات كلها عند الأنفاق وطلب كذلك من المحافظ إعداد خمسين رأسا من الماشية تنقل إلى مدخل النفق عند الشروق..
- ليكن.. هل هناك شيء آخر؟.
أرجو أن تبلغوا الملازم (ماكنيل) بالموعد كى يكون هناك.. فهو قد رأى بداية الكابوس.. وأنا واثق من أنه يرغب في رؤية نهايته..
ووضع السماعة ثم نظر إلى (سيلبي) بعينين حمراوين.. كانت ترمقه باعجاب طيلة الوقت، وخطر له أنها - برغم سنها إنسانة فاتنة حقا..

∞∞∞∞∞

10- هل هي النهاية؟.

كانت الأضواء الباهرة تنير المنطقة كلها على امتداد ميل كامل حين وصل (ماكنيل) و (پرايسون) إلى حوض النهر ومدخل الأنفاق بعد الفجر بقليل...

ولكن - خلف دانسرة الإضاءة - كانت الأنفاق جاثمة متسربلة باللون الأسود القاتم..

أوقف (ماكنيل) سيارته قرب المكان المسور بالسلاسل، وكانت هناك ثلاث سيارات نقل ضخمة مفعمة عن آخرها بالمعدات الطبية..

تساءل (برايسون) وهما يخرجان من السيارة:

- ماذا تظن سيحدث إذا لم ينجح الفيروس؟

- نرحل إلى (زامبيا) فورا.. لا أتصور ما يمكن أن يحدث لهذه المدينة لو قرر هؤلاء المخبولون قذفها بالقنابل..

وعن بعد كان د. (بنجامين) و د. سيلبي) واقفين بين حشد العلماء، وكان واضحا من صياح (بنجامين) وحركاته العصبية أن هناك مشكلة ما.. وأن هناك ما لا يوافق عليه..

وحين اقتربا أكثر سمعا د. (مايرز) يقول:

لا بد أن تفهم أن من واجبك أن تبقى لتمارس الإشراف على العملية.. فلو فشل الفيروس..

- لا قدر الله - ستكون أنت آخر أمل لهذه المدينة، ونظر إلى الاخرين الذين أو منوا موافقين.. وأردف:

- بعد أن نحقن الماشية بالفيروس نتركها لمدة ساعة حتى ينتشر في دمها.. ثم نقود كل بقرتين معًا إلى داخل النفق وهذا يحتاج إلى متطوعين يقبلون دفعها إلى حيث نريد..

تدخل (ماكنيل) في الكلام بحزم:
- أنا لن أمر رجالي بدخول النفق مالم يتطوعوا بذلك..
وتبادل نظرة ذات معنى مع (برايسون)..
وهنا صاح به (بنجامين):
- (ماكنيل).. إن لديك السلطة، وإنني لأرجوك أن تقنعهم بأنني خير من يدخل هذه الأنفاق.. إن الشرطي المذعور الذي سيدخل لن يفكر إلا في كيفية الخروج ثانية.. أما أنا فإذا دخلت فبامكاني دراسة سلوك العناكب، وأستطيع أن أعود بمعلومات هامة في حالة فشل الفيروس..
صاح (كرستين) في هلع:
- كلا..لا تغامر بحياتك.
- و هل حياتي أهم من حياة أي متطوع يدخل هناك؟
- يا إلهي.. هو مريض بالتهاب الرئة ولن يحتمل..
غمغم (ماكنيل) في حزم:
- آسف.. لا أستطيع أن أختارك. , كما قالت د. (سيلبي) أنت لست على مايرام.. وعلى كل حال ليست لدى سلطة كهذه..
نظر إليه (بنجامين) في ضيق، ثم استدار ومشى بعيدا.، وكادت د. (سيلبي) تتبعه إلا أن (ماكنيل) أمسك ذراعها برفق كى تحترم رغبة (بنجامين) في الوحدة..
ثم سمعا أبواق سيارات النقل المحملة بالماشية وامتلأ الجو بأصوات ورائحة الأبقار بينما أخذوا يقودونها إلى المكان المسور المخصص لها، على حين شرع د. (مايرز) و (ونيكلر) يحقنان كل بقرة بالفيروس..
فإن هي إلا ساعة حتى بدأ المرض يظهر على الأبقار..
بدأت تهتاج في عصبية وتعاني صعوبة التنفس..

∞∞∞∞∞

في ذلك الوقت كان (ماكنيل) قد وجد ثلاثين متطوعا متحمسا، قادهم إلى السيارة الطبية كى يشرح لهم الأطباء ما ينبغي عليهم عمله، ثم مضى إلى حيث وقف (برايسون) مع بعض رجال الشرطة يتهمون الشطائر والقهوة، فشعر بالأسى لأنهم لم ينادوه تساءل (بر ايسون) وهو يصبّ له القهوة:
- متى نعرف بنجاح العملية يا (جورج)؟.
- إنها الثامنة. وسواء نجحت العملية أو فشلت فسنعرف ذلك في الثالثة بعد الظهر
وهنا جاء د. (مايرز) ليقول ل (ماكنيل) إن الخطة قد تم تعديلها وذلك بتقسيم الماشية إلى ثلاث مجموعات.. وبالتالي لن تكون هناك حاجة إلا لثلاثة رجال فقط من بين المتطوعين، وقد ارتاح (ماكنيل) لهذا التغيير.. فهو يقلل المسئولية كثيرا عن كاهله..
وفجأة سمعا د. (ونيكلر) يصيح و هو يهرول نحوهما:
- (مايرز).. زجاجة محلول الفيروس اختفت..
لانجدها في أي مكان!.

∞∞∞∞∞

وتم تقسيم الماشية إلى ثلاث مجموعات كل منها تضم ستة عشر رأسا.. يقود (ماتيسون) المجموعة الأولى.. بعده بيدخل (أوكونور).. ثم يأتي دور (دافي) في دخول النفق..
دنا (ماكنيل) من (ماتيسون) ولم يفته أن يلاحظ أمارات القلق والخوف على وجه الرجل.. فقال:
- ماتيسون).. عليك أن تنفذ أوامرى بكل دقة..
- حسن يا سيدى..

- ادخل بالأبقار إلى أبعد ما تستطيع.. فإذا رأيت أو سمعت شيئا مريبا فلتعود أدراجك فورا..
ثم أدرف بلهجة حاول أن يجعلها مرحة:
- لا أريد أن أمنح الوسام لأرملتك.. بل لك..
وانصرف ليلحق بالرجال.. ثم.. خطر له هاجس معين فعاد أدراجه إلى مدخل النفق ليجد (ماتيسون) واقفا وحده وقد بدت عليه الحيرة.. فسأله عما هناك..
قال (ماتيسون) إن د. (بنجامين) جاءه وأخبره أن الخطة تغيرت وسيكون عليه هو قيادة الماشية.. ثم أخذ منه اللجام وغاب داخل النفق.. فهل تريد أن أدخل وراءه ياسيدي؟..
نظر (ماكنيل) إلى مدخل النفق شاردا:
- لا داعي... لقد اتخذ الرجل قراره بنفسه وسيتحمل نتائجة.. إنه يشعر بحاجته إلى التكفير عما يظن أنه ذنبه حين أهمل الموضوع في بدايته..

∞∞∞∞∞

في نفس الوقت كان د. (بنجامين) يلهث ويسعل وهو يضرب البقرة التي أمامه باللجام على كفلها..
ثم إنه بصق المخاط.. الحق يقال إنه منهك مضعضع القوي لكنه مضطر لأن يستمر..
البقرة تسير للأمام دافعة باقي الماشية أمامها قاصدة عمق النفق، ومن المؤكد أنه قطع نصف ميل بالداخل.. وهو يسمع أصوات الحفيف والخرفشة كأعلى ما يكون الآن..
لقد اقترب منها جدا...

الماشية قد بدأت تتوتر.. ترفض التحرك لولا ضرباته المستمرة على أكفالها.. هاهي ذي الكتلة السوداء.. طوفان أسود يزحف نحوه قادما من عمق النفق..



الماشية قد بدأت تتوتر .. ترفض التحرك لولا ضرباته المستمرة على أكفالها ..

دفع الماشية للأمام ثم تراجع عائدا..

تصلبت الأنعام في رهبة.. وخلال ثوان كان طوفان العناكب قد غطاها.. شرعت تسقط أرضا وتتلوى محاولة الفرار..

أما (بنجامين) فشرع يركض في النفق..
وفجأة رأي أمواجا من العناكب تسد طريقه!...
مد يده إلى جيب المعطف وأخرج زجاجة الفيروس التي سرقها منذ دقائق.. ورماها على الأرضية الخرسانية ثم تراجع إلى الوراء..
ولحسن حظه وجد جواره سلما معدنيا يقود إلى البالوعة أعلاه..
فرفع جسده بصعوبة فوق السلم ومن تحته شرعت العناكب تنهش حذاءه محاولة أن تجذبه لها.. ذراعه يتمزق ألما ورئتاه لا تطاوعانه لكنه يصمد..
الدم ينزف من موضع الخياطة في ذراعه ويتساقط على العناكب تحته فيجن جنونها..
إلا أنه استطاع - أخيرا - أن يدفع غطاء البالوعة الأعلى ثم انزلق في الشارع، وأغلق الغطاء خلفه..
لقد نجا!.. نجا!.. حمدا لله العلي القدير..
وحين استعاد تنفسه. تحامل على قدميه وشرع يقطع الشوارع القليلة التي تفصله عن عربات الشرطة.. التي تفصله عن الحياة....

∞∞∞∞∞∞

إنها الثالثة والنصف عصرا..
د. (ونيكلر) يكاد يموت قلقا. ويكاد - إن لم يمت - يصاب بقرحة من فرط ما جرع من أقداح القهوة..
قال د. (مايرز) في قلق:
- علينا الان أن نتأكد من موتها..
تساءل (ماكنيل):
- وكيف تعرف؟

- بأن ندخل إلى هناك ونرى بأنفسنا!.
كاد (ماكنيل) يصارحه بأنه لن يجد أبدا مجنونا يقبل الدخول ثم توقف.. الواقع أنه هو بالذات راغب في الدخول للاطمئنان..
وهكذا:
- سأدخل أنا و (برايسون) لنرى!.
ركبوا مركبة مشابهة لتلك التي ركبوها أول مرة.. هذه المرة لم تكن مزودة بحاجزي حماية بل بها أربعة مقاعد جلس عليها د. (مايرز) و د. (وينكلر) و بالطبع - (ماكنيل) و (برايسون).. وهذه المرة طبعا كانوا بلا أية حماية..
تساءل (ماكنيل) وهو يصحح مسار المركبة:
- لين وجدنا كل العناكب ميتة في منطقة ما فهل يعني هذا أنها هلكت في الأنفاق كلها؟.
قال (مايرز) بعد فترة صمت:
- أظن ذلك..
- وماذا لوكنا تعجلنا قبل أن يبدأ الفيروس عمله؟.
- في تلك الحالة تكون قد وقعنا قرار اعدامنا!.
كان ضوء المركبة يتلألأ على حوائط النفق.. النفق الصامت كالقبور تملو د روائح الرطوبة والعطن ورائحة أخري تثير الغثيان..
وفجأه توقفوا.. رأوا كتلة سوداء ضخمة تغطي أرض النفق.. مرت عليهم دقائق رهيبة كئيبة وهم ينصتون.. لا يسمعون أدنى حركة ولا صوت هنالك سوى صوت تنفسهم الثقيل.. ودقات قلوبهم..
المركبة تتقدم ببطء بين صفوف العناكب السوداء..
الأعداد الغفيرة التي لا يتصورها عقل، وبرغم هذا كانوا لم يروا سوى نفق واحد فحسب..

ودون كلمة أخرى رفع كل منهم منديله إلى أنفه ليحجب الرائحة التي لا تطاق..
مرت خمس وأربعون دقيقة وهم يشقون طريقهم بين أجساد العناكب التي لا تتحرك وأخيرا وصلوا إلى جزء عار من النفق حيث لا عناكب..
وفجأه.. رأوا شيئا أسود اللون يجري في ضوء المركبة ويتبعه آخر.. صاح (مايرز) في ذهول:
- ماذا كان هذا.
وتصلبوا دقائق ينتظرون.. وفجأه رأوا على الحائط شيئا أسود أخر يلحق بمن سبقوه.. فتنفسوا الصعداء..
لقد كان مجرد فار..!
وكان هذا كافيا.. أداروا مقود العربة عائدين أدراجهم..
وقال (ماكنيل) مسترخيا في المقعد:
يسرني أن أعود لممارسة عملي مع الجرائم البسيطة كالقتل والخطف..
قال د. (وينكلر):
بس أنت لن تقوم بأي شيء لأسبوع كامل، فبعد ساعات ستكون مريضا بأسوأ التهاب رئوى فيروسى..
- ومتى تعرضنا لذلك الفيروس؟.
- إنك تتعرض له الان بالفعل!.. لكن لا تقلق بعض أيام في الفراش وشرب عصير الفاكهة ستكون كافية كي تستعيد قواك..
وخرجوا إلى ضوء الشمس المليء بالأمل..

∞∞∞∞∞

أخيرا عاد الهدوء إلى النفق..

خرج الفأر الأسود من مكمنه يجري على الحائط.. ثم توقف هنيهة يتشمم الهواء، ونزل إلى أرض النفق و هنا حدثت حركة خاطفة..
سقط الفأر على الأرض في قبضة مخالب حادة.. لم يستطع الخلاص منها.. وانغرست الإبر الحادة في موخر عنقه..
بدأت قواه تخور.. وتهالك وهنا شرعت أنثى العنكبوت تجذبه إلى وكرها صحيح أنه ثقيل الوزن.. وصحيح أن حركتها ثقيلة بسبب امتلاء بطنها بالبيض لكنها استطاعت جذب جثته إلى تلك الحفرة في الجدار الخرساني..
طفرة هي.. طفرة امتلكت المناعة التي جعلتها تنجو من الفيروس الذي قتل إخوتها.. ولسوف تورث هذه المناعة للأجيال التي ستنجبها فيما بعد..
قلبت الفأر على ظهره لتتمكن من استخدام بطنه لوضع البيض.. فصغارها القادمون يجب أن ينالوا أفضل عناية ممكنة..
إدوارد ليفي
1979

(تمت بحمد الله)

وجاء العنكبوت..!
العناكب ضيوف شرف في أي كابوس مريـع..
والرواية التي نقدمها لك هنا تتحدث عن كابوس عاشه سكان (لوس أنجلوس): غزو العناكب الرهيبة القادمة من شبكة مجاري المدينة لتحيل حياة البشر جحيما، (إدوارد ليفي) يقتحم - في هذا الكتاب - بعدا جديدا من أبعاد الرعب غير المسبوق..
والذي لا يمكن تحمله إلا الأقوياء الأعصاب حقا..
فهل أنت منهم؟!..
د. أحمد خالد توفيق.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

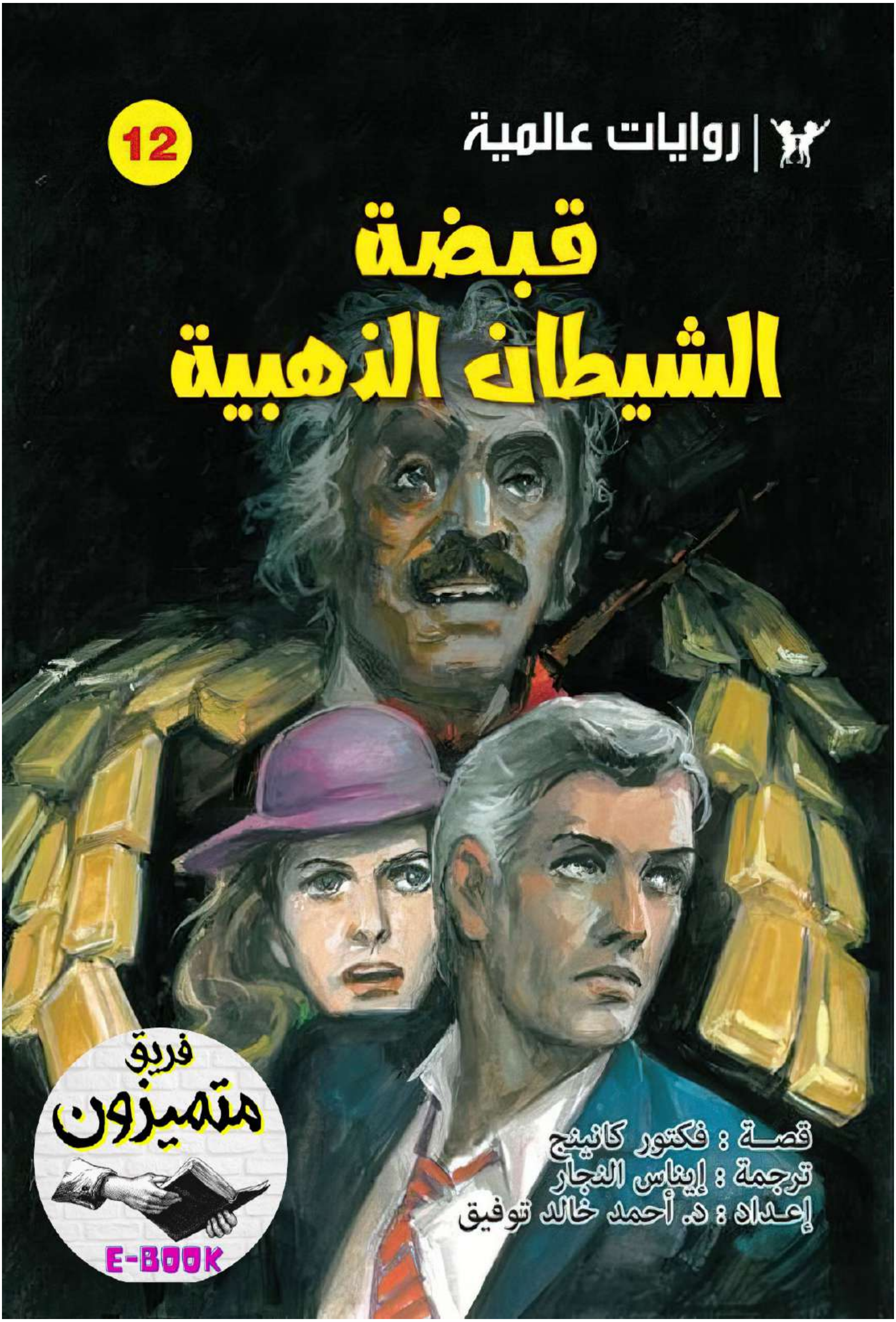
[←1]
(*) موقف العمدة المتعنت يتكرر في كل قصص المسموح بدءا برواية (بيتر بتشلي) الشهيرة (فكان) أو (القلك المفترس)، ويبدو أنه صار مقدمنا في هذه النوعية من الروايات..

[←2]

(*) قنيلة حرارية نووية.

[←3]

(*) (د.ن.أ) أي (ديوكس رينو نيوكـليك اسيد) وهو الحمض النووي الحامل لصفات الفيروس الوراثية.


روايات عالمية
12
قبضة الشيطان الذهبية
فريق متميزون
E-BOOK
قصة : فكتور كانينج
ترجمة : إيناس النجار
إعداد : د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمة مهمة) :

هذا العمل: (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (12)

قبضة الشيطان الذهبية

قصة: فكتور كايننج.

ترجمة: إيناس النجار.

إعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

-1-

وقفت موظفة الحسابات الحسناء ترمق (أندرو رايكس) في إعجاب بينما هو يراجع فاتورة حساب الفندق..

كان يرتدي سترة صوفية تلائم لون عينيه تماما فوق قميص أبيض ناصع البياض، وكان وجهه الوسيم القسيم - الذي اكتسي باللون البرونزي - يشع ذكاء..

لكن الفتاة - حين حاولت أن تسترجع معالم وجهه فيما بعد - لم تستطع، ولم تدرك أن هذه مزية هامة من مزايا (رايكس) المتعددة.. لا يمكن تذكر ملامح وجهه أبدا...

وحين فرغ من كتابة الشيك ووقعه باسم (جون أ. فرامبتون) أعطته الفتاة إيصال استلام.. فشكرها برقة وابتسم..

عندئذ غزا عالمها شعور عجيب من الانتعاش،، كزهرة تخرج عبيرها للكون، ولم تدر أن هذه مزية هامة أخرى من مزايا هذا الرجل، ولم تدر كنلك أن هذا الرجل البشوش قادر - إذا دعته الحاجة على قتلها دون أن تهتز له شعرة...

شمس (لندن) الساطعة أخيرًا..

إنها نهاية عصر.. عشرون عاما من النصب والاحتيال قد انتهت بهذا الشيك بدون رصيد.. عشرون عاما قضاها يحمل مئات الأسماء المستعارة قد ولت بلا رجعة، واليوم يودع حياة الجريمة أبدا..

عشرون عاما- منذ انغلق التابوت على أبيه – وهو يمارس كل الموبقات التي يمكن لفتى في التاسعة عشرة من عمره أن يقترفها..

كان اليوم رائع الجمال.. والذكرى تتحرك في أعماقه..

وإذ مشى في شارع (سانت جيمس) كان يفكر في النهر في بلدته.. لابد أن المياه فاضت به وتلونت بماء المطر.. وكل ما يحتاجه

للصيد هو طعم جيد من حانوت (هاردى)..
تمثلت لعينيه أسماك (التروت) اللامعة تتواثب معلقة في صنارة الصيد فأحس بالحنين يغزو روحه..
مرت أمامه فتاة ترتدي حذاء من الجلد الطري وجوربا في لون بشرتها وتنورة صفراء عليها بقعة متسخة صغيرة عند طرفها، وسترة بيضاء عليها صديرية خضراء، طول الفتاة خمسة أقدام ونصف.. ووزنها مائة وعشرون رطلا..
لو أنه رآها بعد خمس سنوات فسيعرفها.. وتلكم مزية أخرى من مزاياه: إنه لا ينسى تفاصيل أي شيء...
دخل حانوت (هاردى) فابتاع بعض الطعم وصنارة صيد.. ثم كتب شيكا للبائع.. هذه المرة وقع عليه باسمه الحقيقي (أندرو رايكس) على حسابه في بنك (إكستر)..
ثم غادر المحل قاصدا مقهى (راك)..
هناك كان (برنزر) جالسا بانتظاره إلى منضدة صغيرة عليها الأوراق النهائية وحساب المكاسب عن خمسة عشر عاما عملا فيها معا في الشيء الوحيد الذي يجيدانه..
لم يكن أحدهما يعرف اسم الآخر الحقيقي، ولا يعرف ما إذا كان شريكه متزوجا أم لا.. ولا أين يقيم، ولم يبد أحدهما أدني فضول ليعرف هذه الأشياء..
قال (برنزر):
- لقد حولت رصيدك إلى بنك (سويسري) وبالطبع أنا أعرف رقم الحساب.
سأقوم بتغييره فيما بعد.
ثم ابتسم (برنزر) وهو يتأمل الأوراق:
- ما زلنا نستطيع الاستمرار والكسب أكثر...
- لابد أن نتوقف في لحظة ما.. يجب ألا نكون جشعين.

كان (برنزر) رجلاً ضئيلا ذا كتفين مستديرتين وصدر ضيق، وجهه يلمع كالرخام، وعيناه رماديتان لا حياة فيهما.. أما شعره الأشقر فبدأ يتساقط وسط رأسه منذرا بالصلع.. لكن هذا الرجل - ذا المظهر العادي - كان داهية في الحسابات والأرقام.. كأنه (كمبيوتر) آدمى.. ولم يكن ينسى التفاصيل مهما تضاءلت..

- المفترض أن نتناول قدحًا من الشراب..

- لا مجال لهذه التقاليد..

- إذن وداعا..

- وداعا..

وخرجا من المقهى ينتظران سيارة أجرة..

وهنا قال (برند) السؤال الذي كان (رايكس) يتمناه:

- ماذا لو حدث مكروه لأحدنا في المستقبل؟.

هز (رايكس) كتفيه:

- يعالج الأمر كما يتراءى له.. أنت لا وجود لك في حياتي من الآن فصاعدا..

ودون كلمة أخرى وثب في سيارة الأجرة.. لا مصافحات ولا وداع.. فلقد انتهت الشركة بينهما..

∞∞∞∞∞

وصل إلى (تاونتون) بعد الظهر فاستقل سيارته من هناك قاطعا الأربعين ميلا التي تفصله عن داره.. داره التي يعيش فيها وحيدا فيما عدا المسز (هاملتون) التي تنظف له المنزل وتعد الطعام..

وبدأ يستعد لممارسة صيد الأسماك قبل العشاء حين سمع صوت سيارة في الفناء فأيقن أن هذه هي (ماري)..

(مارى) حسناء من أسرة ريفية لا تملك ثروة كبيرة لنفسها لكنها تملك اسم عائلة.. فتاة طبية من أصل طيب مثله تماما.. ولهذا يريدها وسينتظرها رغم أنها تصغره باثنتي عشرة سنة..
(ماري واربرتون).. اسم جيد مشرّف، نشأت نشأة راقية وستكون خير أم لأطفاله..
وفي العام القادم سيكون قد استعاد ملكية منزل أجداده (ألفرتون مانور)، ويمكنهما أن يتزوجا هناك..
كانت سمراء ممشوقة القوام.. وكان مما يحسه نحوها أقرب شيء إلى الحب.. وهذه هي بدايتك الحقيقية إذن.
(أندرو رايكس) الرجل المهذب ذو الأملاك.. القادم من مقاطعة (ديفون).. وزوجته الحسناء المخلصة...
كان هذا تفكيرا تقليديا (فكتوري) النزعة.. لكنه كان حلمه الوحيد.. إن كل ما يريده من القرن العشرين لهو أن يجد فيه السبيل للرجوع إلى الماضي..
الماضي الهادي الذي يتوق إليه..

∞∞∞∞∞∞∞

-2-

بعد شهرين - منتصف شهر نوفمبر - كان عائدا إلى منزله مساءً بعد جولة طالت على شاطئ النهر..

كان واثقا أنه لن يجد مسز (هاملتون) هناك الآن..

الغسق يرسل ظلالا شاحبة ما بين الأشجار وثمة بومة صغيرة تتوارى بين أشجار الحديقة صارخة..

وفجأة رأي سيارة في الممر المؤدي إلى المنزل تلتمع أرقامها في الضوء الخافت.. أرقام من مقاطعة (كنت).. أي أنها سيارة غريبة راكبها غريب وهو لا يحب الغرباء في داره...

ولم يحتج كثير ذكاء كي يعرف أن سائقها امرأة.. فثمة سترة أنيقة من (الشمواه) ملقاة على حافة المقعد.. ورأى ضوءا في حجرة الاستقبال بداره.... ومن فرجة الباب رأى يدها ترتكز على منضدة صغيرة..

أنامل خالية من الخواتم في يد طويلة انسيابية.. الأظفار طويلة حمراء كفاكهة الكرز الطازجة.. دخل إلى الحجرة فرأى وجهها الشاحب الذي أفسدت الأصباغ جماله، شعرها الأحمر المموج الذي كومته على جانب واحد وعقد اللؤلؤ حول عنقها...

- أرجو ألا أكون أزعجتك.. لقد سمحت لي مسز (هاملتون) بالدخول قبل رحيلها.. أنت مستر (رايكس) على ما أظن؟

- هو بعينه..

- أنا (بللا فيكرز).. اسمي الحقيقي هو (مابيل) لكنه اسم قبيح أليس كذلك؟

- أوه.. إنه اسم لا بأس به..

- أوه.. أشكرك..

- ماذا أستطيع تقديمه لك يا آنسة (فيكرز)؟

استرخت في مقعدها.. وقالت:
- عندي رسالة لك..
- ما هي؟
قالها وجلس أمامها مثبتا مرفقيه على ركبتيه..
قالت في ارتباك:
- يا إلهي!.. إن هذا محرج جدا.. لقد طلب مني أن أبلغك الرسالة وهو من سيؤكد لك جدية الموضوع.
وناولته مظروفا من ورق (المانيلا) الثقيل الأصفر المختوم بالشمع الأحمر..
- لا أعرف محتواه.. فقط على أن أسلمه لك مغلقا مختوما وعليك أن تعطيني إيصال استلام به...

فتح المظروف فوجد بداخله ورقة صغيرة مطوية، كتب عليها (جون قرامبتون)!.. حدق في الورقة برهة، ثم صب لنفسه قدحا من الشراب وجرعة مرة واحدة..
ثم إنه نهض إلى المدفأة فأشعل النار في الوريقة ممسكا بها من طرفها حتى تحولت إلى رماد، وعاد إلى المقعد.. ناولته الفتاة إيصالا وقلنا.. فوقع الإيصال وهو ينظر نحوها شاردا..
مس (بيللا فيكرز) متوترة الأعصاب.. يوما ما سيقتلها.. نعم... لا شك في هذا..
سألها وهو يناولها قبحا:
- والآن ما المطلوب مني بالضبط؟
- غدا صباحا.. سأصحبك إلى موعد يستغرق ثلاث ساعات.
- فهمت.
الصدمة عميقة في روحه.. كان يخشى هذه اللحظة ويرجو ألا تأتي أبدا.. وكان - رغم هذا - وائقا أنها لن تأتي أبدا.. لقد كان

حريصا دائما.. فكيف عرف هؤلاء الاسم الذي كان يزاول به نشاطه؟
- سأحضر لاصطحابك في التاسعة صباحا..
كانت مرتبكة ومتعاطفة معه إلى حد ما.. ابتسم لها في رقة ومد يده يصحبها إلى سيارتها..
فتح لها الباب وهو يتأمل مؤخرة عنقها.. عنقا واهنا عاريا.. لم لا؟ ضربة واحدة منه تقتلها.. لكن لا جدوى من هذا الأن..
فهي ليست المسئولة الوحيدة عما يحدث..
وفي شرود راقب سيارتها وهي تبتعد...

∞∞∞∞∞∞

في فراشها بالفندق راحت تفكر فيه..
إنها تعرف طرازه من الرجال ذوى الثقة الزائدة بالنفس.. الكبرياء التي لا تتزعزع حتى لو كان الواحد منهم أجيرا في بقالة..
لكنها - رغم هذا - أحست بالأسى من أجله، ألم تمر هى ذاتها بكل ذلك من قبل؟..
الشعور المريع بعدم الأمان.. الشرخ في زجاج السلامة..
لم يكن هو أول رجل تناوله مظروفا أصفر ختم بالشمع الأحمر ...
لكنه كان أول من يأخذه دون أن يرتبك أو يبدو عليه الوهن..
نهضت إلى مرآة الزينة وشرعت تتأمل وجهها..
(مابيل فيكرز).. مولودة في فبراير 1945.. حياتها الأسرية خالية من الاستقرار.. والدها متوف وأمها أنانية لم تعبأ بها قط..
وفي عام 1962 كانت في (لندن) تتقاسم المسكن مع فتاتين أخريين وتعمل في مكتب التأمين، كان ذلك حين بدأت - ولا

تعرف السبب - تسطو على المحلات أثناء فترة الظهيرة.. واعتادت بيع هذه السلع لصاحباتها بأثمان رخيصة زاعمة أنها (بارعة في فن الشراء)..
بعد هذا عملت في بنك (أوفرسيس ميركانتل)..
وعندها تخلت عن السرقات الصغيرة لأنها أدركت أن لها ملكة غير عادية في التزوير.. بدأت تختلس وتختلس.. عازمة على أن تجمع مبلغ عشرين ألف جنيه ثم تفرّ بعيدا..
وذات يوم استدعاها رئيس مجلس الإدارة إلى مكتبه..
أوصد الباب ثم قام بتهنئتها على مهارتها الخاصة في الأرقام ومنذ ذلك الحين تمت ترقيتها إلى سكرتيرة خاصة شخصية له، ولم يعد من حقها أن تتساءل ما إذا كانت سعيدة في حياتها أم لا..
كان كل ما يحتاجه هو مكالمة هاتفية تلغي حياتها وحريتها.
غدًا تصحية المدعو (رايكس) إلى رئيس مجلس الإدارة.. ولن تعرف أبدا أي اتفاق سيتم بين الرجلين.. لكنها واثقة أن الأمور لن تظل كما هي في حياة (رايكس)..

∞∞∞∞∞∞

كان جالسا جوارها في السيارة يرقب الطريق سائلا:
- ماذا تعرفين عني؟
- القليل.. اسمك وعنوانك.. لا شيء غير هذا..
سرح (رايكس) ببصره.. يتأمل قنوات لامعة من الماء الفضي تتسابق فيه أسماك (التروت).. الصيد جنته وحبه الوحيد منذ خرج مع أبيه يصطادان لأول مرة..
السيارة تمشي في شارع فرعي لتدخل من بوابة حديدية واسعة.. وفي الأفق منزل ضخم من الحجارة الرمادية.. ثمة بحيرة صغيرة

تسبح فوق مائها زهور (الليلاك) البيضاء..
- اصعد درجات السلم وستجد كوخا ينتظرك هو فيه..
- وأنتِ؟
- سأظل هنا حتى تعود..
وضع يديه في جيب سترته وصعد في السلم متأملا درجاته، وانعكاس ضوء الشمس على مياه البحيرة..
ودخل الكوخ الذي لم يكن سوى حجرة واحدة كبيرة بها نوافذ عديدة تفصلها نباتات متسلقة رائعة الجمال..
وقرب أحد النوافذ وقف رجل متوسط الطول يرتدي قميصا حريريا أبيض وسروالا من الكتان الأزرق – إن (رايكس) لا ينسى التفاصيل أبدا -.. وكان قبيح الوجه، أحمر الجلد، مشوه الملامح كأن يدا ضخمة هرست معالم وجهه..
أذناه بعيدتان عن جمجمته، وشعره الرمادي الخشن أشبه شيء ببساط أبيض استحال لونه رماديا من كثرة ما داسته الأقدام..
وثمة شارب عملاق بني اللون كأنه ملصق هناك تحت أنفه..
قال الرجل في ثبات:
- اجلس يا مستر (رايكس).
فجلس ارايكس) على مقعد جوار المنضدة..
- تفحص هذا الملف بينما أعد لك مشروبا....
- من أنت؟
- اسمى (سارلنج).. (جون بوستاس سارلنج).. هل سمعت به؟
- أظن هذا..
- إنه اسم جميل ومن المؤسف أن يكون صاحبه بهذا القبح.. لا عليك.. أنت تشرب (البراندي) في هذا الوقت من النهار.. أليس كذلك؟

كان صوته هادئا رتيب الوقع كجراح يهدي روع مريضة قبل الجراحة..

- بلى..

فتح (رايكس) الملف.. كان يحوي أوراق (فلوسكاب) مثبتة بمشيك أوراق.. وبدأ يقرأ..



فتح (رايكس) الملف .. كان يحوى أوراق (فلوسكاب) مثبتة بمشبك أوراق .. وبدأ يقرأ ..

كان كل شيء مدونا.. أخواه الأكبر منه اللذان هلكا في الحرب العالمية الثانية.. أمه التي توفيت عام 45..

بيع مسكن (ألفرتون مانور).. وفاة الأب.. ثم:

عمل (رايكس) لمدة عامين مع شركة (مورجت) للاستثمار وتركها باختياره عام ١٩٠٠، ومنذ ذلك التاريخ لم يعمل عملا مشروعا قط ولم يستعمل اسمه الحقيقي في أية عملية..
وفي الأوراق التالية كان يجد في كل صفحة أحد أسمائه المستعارة أو اسم إحدى الشركات الوهمية التي أسسها مع (بيرنزر) للنصب على الحمقى..
كل التفاصيل كانت هناك.. تم جمعها بعناية فائقة...
أغلق (رايكس) الملف وقال:
- بدأت أفهم قصدك.. والآن ماذا تريد؟
أشرق الوجه فصار مريعا في قبحه:
- يجب أن تفهم يا مستر (رايكس) أنني لا أبغى بك سوءا وإلا كانت الشرطة هي التي زارتك بدلا من مس (فيكرز).. كم دفعت لاستعادة (ألفرتون ماتور)؟
- خمسة وثلاثون ألفا..
- لقد فعلت ما فعلت من أجل استرداده.. أليس كذلك؟
تنهد (رايكس) في إنهاك:
- لقد وثق أبي في أصدقائه.. تركهم يبددون أمواله وحتى حين أقلس تماما واضطر إلى بيع البيت ظل واثقا فيهم.. البيت الذي آوى أسرتى أربعمائة سنة.. أنا لا أبالغ.. هذه هي الحقيقة.. لقد خسر أبي كل شيء ولهذا مات.. عزمت أنا على استعادة منزل أجدادي..
قبل أن أبدأ الحياة التي اخترتها لي ولأولادي من بعدى..
- وما نوع هذه الحياة؟
- الثراء.. الاستمتاع بمباهج الحياة الأسرية البسيطة..
إنني أومن بالاستمرارية يا مستر (سارلنج) وهي شيء مختلف عن البقاء حيا.

ثم أشار للملف وتساءل:
- ولكن هلا تفضلت بإخباري بالطريقة التي عرفت أنت بها كل هذا؟.. ما هو الخطأ الذي وقعت فيه أنا أو شريكى؟
- الواقع أنه لم يكن هناك خطأ.. لقد مات الرجل الذي أنجز هذا العمل منذ ستة شهور بعد أن جمع البيانات التي في ملفك وملف (برنزر) و آخرين سواهم.. أشخاص يهمهم ألا تقترب الشرطة منهم أو تشك فيهم.. بعض هؤلاء استخدمتهم وبعضهم لن أستخدمهم أبدا ولن يعرفوا أننى عرفت سرهم.. إنني أجمع الناس يا مستر (رايكس) بالطريقة التي يقوم بها غيري بجمع الكتب النادرة أو اللوحات الفنية.. كان هذا الرجل يعمل عندي.. ألمانيا عمل في (الجستابو) أيام الحرب وكان شديد الولع بالتفاصيل.. اعطه أية مشكلة فلا يهدأ باله حتى يحلها وينتظر أن تعطيه غيرها.. هل تذكر شركة توريدات سيلفرتون؟
- حتما..
قالها (رايكس) وهو يملأ قدحه بالشراب دون استئذان، فالعلاقة بينهما قد تعنت مرحلة الآداب الأولية..
- لقد قمت أنت ببيعها في عملية نصب بارعة الذكاء.. وكانت شركة نبيذ (استوريا) هي الضحية، وكنت أنا رئيس مجلس إدارة هذه الشركة الضحية.. وحين اكتشفنا عملية النصب كلفت أنا رجل (الجسقاپو) كى يجد لى من خدعنا.. هل تذكر المكتب الخالي الذي تركته لنا في شارع (ديوك)؟.. لقد بحثنا فيه فلم نجد شيئا يدل عليك.. فقط كان هناك كتالوج حانوت (هاردى) لأدوات الصيد.. لابد أنك نسيته هناك.. كانت هذه هي لعبة (الجستابو) التي يحبها.. ففي الكاتالوج كانت هناك نقطة صغيرة حمراء أمام صنارة صيد.. مجرد نقطة.. لكن رجلنا أدرك أن من يضع علامة كهذه أمام صنف فلابد أنه سيشتريه، وكان من

السهل إذن الحصول على قائمة بأسماء كل مشتري هذه الصنارة في ذلك العام.. ثم بدأ البحث والتحري عن أصحاب الأسماء واحدا تلو الآخر. ثم صورهم وعرض الصور على من نصبتم عليهم.. إن هذا هو العمل الذي يحبه رجلنا ويتعيش منه.. فهل تعتبر النقطة الصغيرة الحمراء خطأ من جانبك؟..

- وهل اتصلتم بالآخر؟

- تعني زميلك (برنزر)؟.. ليس بعد لكني بحاجة إليكما معا.. هي عملية واحدة.. بعدها تغدوان حرين في العودة لحياتكما التي تريدان، ولن أضايقكما ثانية بل سأجزل لكما العطاء..

- عملية غير مشروعة؟

- طبعا!

تأمل (رايكس) المشهد من النافذة.. الأغنام ترعى في المروج الخضراء غير عالمة بمأساته، قال وهو يضع كأسه:

- إن ملفي وملف (برنزر) معك هنا.. فلم لا أفجر رأسك الآن بمسدسي ثم أخرج وأقتل مس (فيكرز) وأخذ الملفين؟! وأخرج مسدسه ووضعه على المنضدة..

- هل تفعل ذلك حقا؟

- طبعا..

- هل قتلت أحدا من قبل؟

- لا.. لكني لن أجد صعوبة في ذلك..

- إذن لكي أريحك من التفكير - أصارحك أن محاميّ لديه نسخة من كل هذه الملفات مع رسالة تقول له أن يطالع كل محتوياتها لو أنني متّ في ظروف غامضة.. هل هذا كافٍ؟

- لكننا سنبقى تحت رحمتك بقية حياتنا..

- لكنكما - وقتها – ستكونان شاهدين عليّ.. وبذلك أكون أنا أيضا تحت رحمتكما.. وستكون كفتنا متساوية..

ووقف في حزم معلنا انتهاء المحادثة.. فسأله (رايكس):
- هل تعرف مس (فيكرز) شيئا عني؟
- هي لا تعرف سوى اسمك.. إ.. بالمناسبة: إن اسم (برنزر) الحقيقي هو (أوبرى كاتويل) ويعيش في رقم (٣) (برنسيس تيراس) في (برايتون).. يجب أن تتصل به ..
ثم ناوله لفافة صغيرة، وقال له أن يفتحها فيما بعد..
وفي صمت سار (رايكس) عائدا إلى السيارة التي تنتظر بها مس (فيكرز) وركب جوارها..
تساءلت وهي تدبير المحرك:
- هل رأيت وجهه؟ من الغريب أنك بعد فترة لا تراه قبيحا إلى هذا الحد..
شعر بالحنق.. فهتف:
- لا يهمني وجهه إلا حين أراه ميتا.. ولا داعي لمصارحته بهذا لأنه يعرف!

∞∞∞∞∞∞

في البيت فتح اللفافة التي أعطاه (سارلنج) إياها..
كانت نسخة من أول كتاب بالإنجليزية عن صيد الأسماك - يعود تاريخه إلى 1880 - وبداخله. وجد رسالة من (سالنج) تقول:
(الرجاء التوجه إلى الشقة رقم عشرة جالواى هواس.. ماونت ستريت.. يوم الاثنين القادم للحصول على التعليمات)..
اللعنة على هذا الوغد في الوجه القبيح!، الذي صار سيده الآن..
والسبب: بقعة من الحبر الأحمر في كتالوج..
الغضب والحنق يغليان في دمه..

فتح دائرة معارف الأعلام (من هو من؟) باحثا عن اسم (سارلنج) وكان أن وجده بالفعل.. لكن لا شيء يهم بخصوصه سوى أنه رئيس مجلس إدارة عدد كبير من الشركات التجارية والصناعية.. له منزل ريفي في (ميون بارك - ويلتشاير).. ربما كان يحفظ الملفات هناك؟..
لا جدوى.. أعاد دائرة المعارف إلى المكتبة..
اتصل بـ (ماري) وأخبرها أنه بداية من الأسبوع القادم سيكون في (لندن) فترة من الوقت، لم يذكر لها أية تفسيرات ولا تفاصيل.. ولم تكن هي بطبعها فضولية.. فهي من عائلة ريفية تقليدية لم تعتد نساؤها مناقشة الرجال في أعمالهم..

∞∞∞∞∞

يوم الاثنين صباحا ركب القطار إلى (بادنجتون) وقد استقر كل شيء في ذهنه.. لابد أن يزيل (سارلنج) من الوجود.. وبعده (فيكرز).. لكن أولا لابد من الحصول على الملفات وصورها..
ركب سيارة أجرة إلى (جالواي هاوس).. ثم دخل المبنى وسار فوق البساط الأحمر إلى الشقة رقم (10).. وهناك - على الباب - وجد لافتة تقول (مستر ومسز فيكرز)..
دق الجرس ففتحت (بيللا فيكرز) الباب.. قالت له:
- تفضل.. قمت بإعداد بعض اللحم البارد والسلطة إذا كنت جائعا..
أدرك أنها تنتظره.. ودخل وراءها الشقة التي كانت مثل مئات غيرها.. ردهة صغيرة وغرفة ثياب ونافذة تطل على الحمام ومطبخ صغير.. وبالنسبة لأي شخص معه بعض المال ويعرف كيف يتصرف كان من الممكن تأثيثها كلها في ساعة واحدة......

- هل الشقة مؤجرة مفروشة؟
- نعم..
سار نحو الحائط يتأمل صورة معلقة لجياد بيضاء تتسابق في سهل.. كانت مائلة إلى حد ما وأدرك دون جهد أنها تدارى خزانة حائطية..
سألها:
- متى يصل (سارلنج)؟...
- لن يصل..
- ماذا تعنين؟
- ثمة خطاب مغلق مختوم بالخزانة.. وعليك أن تفتحه وتعطيني إيصالا به كما حدث مع الخطاب الآخر..
ثم ترددت لحظة وأضافت:
- تعليماتى هى أن أعيش هنا معك وأن أكون في خدمتك.. سأحضر حقيبة ثيابي بعد ظهر اليوم..
نظر إليها غير فاهم.. ثم تساءل:
- ماذا لو أنني رفضت؟
- هذه تعليماتي.. ولكن كانت لديك اعتراضات فلتقلها له..
- آسف إذا كنت أتحدث دون وة.. لكن الموقف يستأهل السخط.
تركته متجهة إلى المطبخ وارتدت مريولة صغيرة وشرعت تعد السلطة.. لقد نجح في إزعاجها واستثارة أعصابها.. وهل يظن أنها تحب تلك؟.. إن كل ما تريده لهو الخلاص من هذه المصيدة العفنة.. نظرت لوجهها البائس التعس في المرآة وتساءلت: لم لا يعود عليّ أي شيء أفعله بالنفع؟.. حتى شعري.. قال الكوافير أنه سيكون جميلا وها هو ذا يبدو غريبا كعش العصفور..

و.. حتى البيضة التي قشرتها.. لقد تهشمت بين أصابعها لأنها لم تكن تامة النضج.. وغطي صفار البيض أناملها..

∞∞∞∞∞

-3-

فتح (رايكس) المظروف الذي وجده في الخزانة..
وقرأ الموجود به:
1- طريقة إدارة العمليات: تقوم مس (فيكرز) بشراء المؤن وأوجه الصرف، وتكون هي المسئولة عن الاتصالات معي.
2- دفع المبالغ للأشخاص يتم نقدا من مبلغ الألفي جنية الموجودة بالخزانة..
3- إجراءات أمنية: لا تجعل أحدا يعرف أن هناك سلطة أعلى منك. لا تكشف اسمك الحقيقي. والأشخاص الوحيدون الذين سيكونون على معرفة ببعضهم هم أنا وأنت و (برنزر) و (مس فيكرز)..
4- اختيار العاملين: من الرجال والنساء الذين لهم ملفات محفوظة لدينا وهم حوالي خمسين شخصا لديهم ماض يجعلهم على استعداد للتعاون معنا..
استرخي (رايكس) في مقعده ونفث سحابة من الدخان، لقد بدأ يشعر بالملل من كثرة التعليمات الغامضة هذه..
آه..... الورقة الأخيرة تحمل عنوان (العملية المبدئية):
1- نجاح هذه العملية حيوي بالنسبة للعملية الأساسية. هناك شرط وحيد مطلوب أن تتم العملية خلال أسبوعين..
2- هناك منطقة معلم عليها في الخريطة يوجد بها مخزن مون خاص بالجيش، ويحوي المخزن (رقم 5) ستة صناديق مطلية باللون الأخضر عليها رقم 93 / ز، مطلوب سرقة صندوق واحد وحفظه في مكان آمن.
3- تتم هذه العملية بأقل عنف ممكن.

طوى (رايكس) الأوراق بعناية ووضعها في جيب سترته.. تأمل الخريطة فرأى أن المخازن موجودة في مقاطعة (كنت) قرب (ورثام)..
وهنا دخلت (بيللا فيكرز) حاملة حقيبة ثياب كبيرة، نهض يساعدها في حملها إلى حجرة النوم..



وهنا دخلت (بيللافيكرز) حاملة حقيبة ثياب كبيرة ، نهض
يساعدها فى حملها إلى حجرة النوم ..

ثم سألها:
- بالطبع حذرك (سارلنج) من أنني سأحاول استخلاص المعلومات منك؟

- أظن ذلك.
- وهل ستخبرينه بما سألتك عنه؟.
- نعم..
- أنت راغبة في الخلاص منه.. أليس كذلك؟
- بلى..
- إذن لماذا لا نحاول الحصول على حريتنا معا؟
- قال لي أنك ستقترح على هذا..
- إذن فكري في الأمر.. والآن.. هل لديك فكرة عما وصلني من تعليمات؟
قالتها باقتضاب.. كانت بعد ترتاب فيه.. وآلمتها حقيقة أنها لا تمثل له شيئا خاصا.. كل ما يعنيه هو نفسه فقط.. قال لها مفكرا:
- أريدك أن تبحثي في الملفات الخمسين عن رجل في العقد الخامس من العمر.. إنجليزي.. له نشأة عسكرية ويعرف كيف يتصرف مع هؤلاء.. يفهم في السيارات ويجيد العراك..
- هل تريده اليوم؟
- لا.. يمكننا أن نبدأ غدا.. أما اليوم فيومنا ويمكننا أن نذهب لتناول العشاء بالخارج.. إذا كان هناك فيلم تريدين أن تريه فيمكننا أن نذهب للسينما معا..
وهكذا....
ذهبا لرؤية فيلم (صوت الموسيقا) معا..، ولاحظ أنها غرقت تماما في أحداث الفيلم.. معنى هذا أنها رومانسية تماما رغم ذلك الشيء الذي ارتكبته في الماضي وأوقعها في قبضة (سارلنج).. الشيء الذي بالتأكيد أظهر شجاعتها وكفاءتها حتى أنه حظى باحترام (سارلنچ) ذلك الوغد العريق الذي لا ينبهر بشيء..
لكن (سارلنج) أخطأ حين جعلها مع (رايكس)..

ففتاة رومانسية بهذا الشكل لن تصمد كثيرا..
وفي طريق العودة - بعد العشاء خطر له أنها لم تزل تغني وتحلق في عالم (جولى أندروز) الرائع..
لكنه كان مخطئا..
كانت هي تفكر في سر تبدل مسلكه.. بالتأكيد كي تتعاون معه ضد (سارلنج).. لكن (سارلنج) ليس لقمة سائغة.. إنه يملك المال والنفوذ والذكاء الشخصي وعشرات الرجال الذين يستغلهم متى أراد.. لا يمكن لـ (رايكس) أن يفوز إذن، وهى - لأسباب قوية - لا تريد أن تكون مع الجانب الخاسر.
لكن لم يحن الوقت لاتخاذ القرار بعد..

∞∞∞∞∞

في العاشرة صباحا جاءته بسيارة (ستيشن واجون) استأجرتها بناء على طلبه.. لم يسعه سوى أن يقدر نشاطها وكفاءتها..، وقبل أن يغادر الشقة ناولها عشرين جنيها كي تشتري خاتم زواج تضعه في بنصرها حتى لا يثور حولهما القيل والقال.. كذلك طلب منها أن ترسل خطابين كل أسبوع على عنوانها الحالي مع تغيير الخط وجهة الإرسال، وطلب منها أن تثرثر مع البواب بخصوص زوجها من حين لآخر..
- وهل أكتب لك شيئا داخل الخطابات؟
- الورق الأبيض كافٍ جدا..
وتركها وقاد السيارة إلى مقاطعة (كنت) ليتفحص مخازن الجيش. كان المخزن المقصود على بعد ميلين في الناحية اليمني من الطريق وقد تم قطع الأشجار والنباتات حوله.. لم يكن ثمة دليل على وجود حارس بالمكان ولا أي شخص آخر..

تلفت حوله بحذر ثم أبطأ سرعة السيارة حتى سقطت عجلاتها في حفرة على جانب الطريق.. وواصل دفع العجلات - مع التحكم في القرامل - ليزيد انغراس العجلات..
ثم ترجل.. وركع على الأرض ليتناول بعض التراب من الحفرة و غبر به وجهه وسرواله، ثم سار قاصدا بوابة المستودع..
لم يكن به أي توتر - كعادته - ولم يشعر سوى بالثقة الباردة التي كانت تكسب كل خدعه مصداقية تامة..
والآن.. ها هو ذا موظف مدنى جالس أخبره (رايكس) بحاجته للعون لأن سيارته غرست في التربة.. أشار له الموظف إلى جهاز هاتف.. فهرع (رايكس) إلى هناك يطلب جراج إصلاحات ولم ينس - طبعا - أن يحفظ رقم الهاتف في ذاكرته..
كما لم ينس أن يحفظ موضع الكوخ رقم (5) كما رآه في خارطة معلقة على الحائط.. الثالث إلى يسار الطريق الرئيسي الممتد من مدخل المعسكر...
ثم سأل الموظف وهو يرفع كفيه المغبرتين:
هل لي أن أغسل يدي؟
ولم يكن بحاجة لمعرفة مكان الحمام.. لقد رآه في خارطة الموقع ما بين الكوخين السادس والثامن لكنه أصغي لشرح الموظف شاكرا..
وفي الحمام اختلس النظر إلى الكوخ الخامس.. نافذتين على جانبي الباب دون قضبان حديدية والقفل بسيط للغاية..
عاد إلى الموظف وشكره ووقف ينتظر سيارة الصيانة..

∞∞∞∞∞∞

صباح اليوم التالي:

كل خميس عندما يقوم (جورج جيلين) بحرق الإطارات القديمة ويتصاعد اللهب الأصفر الكبريتي والدخان الأسود، لابد وأن يدق جرس الهاتف ويكون المتكلم من سكان المنازل المجاورة.. ولابد أن يشكو..
هم دائما يشكون...
ليكن لهم ما يريدون فهناك دوما ما يجب حرقه في الجراج.. حقا إن النار هذه شيء مدهش..
- ماذا هناك يا ملاكي؟.. هل لوث السناج غسيل إحدى جارتنا؟
سأل زوجته إذ رآها قادمة.. فقالت:
- ثمة شخص واقف بالخارج يبدو مهتما بالسيارة (الستيشن) الزرقاء..
- ليكن.. سأذهب لأرى ما يريد..
وغسل يديه ووجهه الذي غمره العرق.. إن العمل مزدهر والأوراق الخضراء لا تفارق حافظته، وها هوذا أمل جديد في زيادة تلك الأوراق الخضراء..
كان الزبون المرتقب يبدو راقيا من طبقة موسرة، وحتما لن يقتله بالمساومة ثم ينتهي الأمر بعدم الشراء..
- مستر (جيلين)؟.
- أنا هو..
- اسمى (سميث).. أريد أن نجرب هذه السيارة في جولة قصيرة..
- ولم لا..؟
ركبا السيارة يقودها (سميث).. (جيلين) يثرثر طيلة الوقت - بحكم العادة - لأن هذا يجعل الزبون أقل انتباها لعيوب السيارة.. لم يكن ثمة داع لهذا لأن السيارة كانت جيدة فعلا..
- هل لك في قدح جعة في هذا المقهى؟
- لا أرى ما يمنع..

إذن هو رجل طيب.. طيب وذو حس شعبي متواضع..
جلسا يرشفان الجعة على مقعد في المقهى.. بعد برهة تساءل (جيلين):
- ما رأيك في السيارة؟
- لا بأس بها لكني لا أريد شراءها!!
- ما هذا السخف؟.. إذن فالأمر كذلك.. مجرد تضييع وقت..
- كل ما أردته هو إبعادك عن الجراج لنجد فرصة الكلام في هدوء..
- عن ماذا؟
- عنك!
توتر (جيلين).. غدا حذرا.. لا يوجد دليل ضده، وسجله اليوم نظيف.. فماذا يريد هذا المتحذلق؟..
أخرج الرجل علبة سجائر فضية وأشعل لفافة ببطء:
- لقد كنت تعيش في (ولفرهامبتون) يا مستر (جيلين).. أليس كذلك؟
- بلى ..
- تذكر كذلك شركة في (برمنجهام) اسمها (ناردون)؟..
تحولت الجعة إلى حمض في معدة (جيلين) وتوتر أكثر..
- لقد كنت مهندسا بارعا في كل شيء يا مستر (جيلين) حتى في صناعة المتفجرات.. ولقد احترقت ثلاث شركات عملت أنت فيها.. كلها في عام واحد والسبب: أجهزة تفجير من صنع يديك..
وقف (جيلين) متصلبا.. لقد بدأ الفزع يداهمه:
- اسمع يا صاحبي.. أنت تبحث عن المتاعب.. كل ما سأقوم به الآن هو أن آخذ سيارتي وأنصرف، وبعد هذا أنت المسئول عما سيحدث لو رأيت وجهك ثانية!

- إجلس ولا تلفت الأنظار.. إن الشرطة لديها جهاز من صنعك.. الجهاز الذي لم ينفجر.. وكنت أنت واثقا إلى الحد الذي جعلك تترك بصماتك عليه لأنك متأكد من أنه سيعمل كما يجب.. والشرطة الآن تملك بصمات لا تعرف من صاحبها.. كل مايلزمهم مكالمة هاتفية من مجهول.. وعندئذ تنتهي هذه المأساة..

جلس (جيلين) يرمق (رايكس) في غلّ.. كان رجلا عمليا للغاية.. ويعرف متى تكون الأمور بلا رجعة.. ويعرف حين يرى اللبن المسكوب ألا جدوى من البكاء عليه:

- حسن.. أنت تلعب لعبة قذرة.. كم تبغى؟

ابتسم مستر (سميث):

- لا أبغى مالا.. أبغى وقتا. أبغى وقتا.. يومين فحسب بعدهما تنصرف لحال سبيلك وتحصل على خمسمائة جنيه!

- أنت تدفع لي؟

- أفضل أن أدفع أنا لك.. فأنا لن أقوم بعمليات قذرة أخري، ستقوم بما أريده منك يا مستر (جيلين).

لا وسيلة للخلاص.. لقد أحيط به.. هو لا يريد نهايات حقيرة وأمامه سنوات عدة من الحيوية والنشاط لن يتخلى عنها.

- حسن.. لقد نلت مني.. ما هي العملية؟

وبدأ (رايكس) يشرح له..

∞∞∞∞∞∞

سيكون عليك يا مستر (جيلين) أن تحضر سيارة (لاندروفر) كالمستعملة في الجيش وتطليها باللون الزيتي ثم تكتب عليها كل هذه الأرقام والعلامات الخاصة بسلاح المدفعية..

كان (جيلين) يعرف أن هذا الكابوس لن ينتهى أبدا.. عملية تتبعها أخرى.. سيظل هذا الوغد متحكما في باقي حياته..
ربما هو قادر على إرغامه على هذه العملية.. لكن (جيلين) سيقضى عليه بمجرد أن يتحدث عن عملية أخرى.



كان (جيلين) يعرف أن هذا الكابوس لن ينتهى أبدًا .. عملية تتبعها أخرى ..

∞∞∞∞∞∞

سأل (رايكس) (بيللا) وهما جالسان في الشقة:
- ألم تفكري قط في ترك (سارلنج)؟.. الاختفاء فحسب؟
قالت وهي تتنهد:

- لقد فكرت.. لكنني لن أنجح.. يوما ما سيموت كالآخرين..
- الأغنياء يعيشون أكثر من الآخرين.. فلديهم المال الذي يسمح لهم بشراء الأطباء والأدوية والخدم الذين يقدمون لهم العلاج.. بالنسبة للبعض يحسن الإسراع بموتهم..
- أنت لست جادا؟
نظر إليها في حنق.. كانت تثير أعصابه ولم يكن مبالغا حين أدرك أنه يمقتها.. لكنه الآن في حاجة ماسة إليها..
- أنا أريد موته.. لكني أريد أن أرى الملفات محترقة مع صورها.. ودون ذلك لن يكون قتله ذا نفع لى.. هل تحبين هذا القفص اللعين الذي أنت فيه؟
- ليس قفصا سيئا جدا خاصة وهو لم يعد يدخل إليه ليضايقني..
- إذن لن تتعاوني معي؟
نظرت إليه في خوف.. كله قوة وحيوية وتصميم على القتل.. يتكلم عنه كشيء عادي.. لا يمنعه سوى حاجته للملفات عندئذ سيزيل (سارلنج) من الوجود كذبابة...
هي تريد حريتها لكنها - حتما- لا تريد دفع هذا الثمن.
رباه... لماذا سرقت أول علبة بودرة من محل (ماركس آند سبنسر) التي قادتها إلى كل هذا؟
مد أنامله ليرفع ذقنها مداعبا.. هي تعرف أنه يفعل هذا كي يؤثر عليها لكنها ترغب في هذا.. تحتاج إلى أن يهتم بها أي شخص تشعر معه بالأمان..
همست في وهن وهي ترى ابتسامته الدافئة:
- ماذا على أن أفعل؟.
- ليس الكثير.. لا تظني أنني سأطلب منك وضع السم في شرابه أو ضربه بالسكين فأنت لن تقدري على ذلك..

كان يريد عونها.. وبعد قتل (سارلنج) يأتي دورها هي.. فهناك في (ديفون) ينتظر بيت أهله و (مارى).
منزل الأحلام وزوجة الغد.. كيف يترك (سارلنج) يحرمه من كل هذا؟..

∞∞∞∞∞

-4-

في الصباح التالي توجه إلى (برايتونر) ليزور المدعو (أوبرى كانويل) - فهو لم يتعود بعد على انه ليس (برنزر) - محاولا تذكر أول لقاء حدث بينهما.... منذ خمسة عشر عاما...
كان (برنزر) هو من تعرف عليه.. لقد كان (برنزر) ذكيا في حكمه على الرجال، ويجيد تقويم خصائصهم كأنه جهاز كمبيوتر).
وعاشا معا كل هذه الأعوام دون أن يعرف أحدهما اسم الآخر الحقيقي ولا عنوانه..
واليوم.. للمرة الأولى هو ذاهب إلى (أوبرى) ليخبره بأن الأمور لا تسير كما أرادا...

∞∞∞∞∞

لم يتغير (برنزر) كثيرا..
ذات الرأس الأصلع والوجه الهادي عديم التعبير والعينين الرماديتين وتلك المسحة العامة من اللطف المهذب المشوب بحزن..
فقط كانت ثيابه أكثر أناقة وأرقى ذوقا..
بدأ (رايكس) يخبره بقصة (سارلنج).. الثقطة الحمراء في كتالوج معدات الصيد.. سرقة مخازن الجيش.. كل شيء..
ظل (برنزر) صامتا طيلة الوقت يصغي، كما كان دأبه مع كل عملية جديدة.. يصغي دون أسئلة حتى فرغ (رايكس).. ثم سأله:
- ما هو رأيك في (سارلنج) نفسه؟
- أظن أنه مخبول.. لم يكشف لنا بعد عن خطته الكبرى لكني أراهن أنها ستكون شيئا خياليا لا يمكن تنفيذه.. لابد من تدميره ولكن بعد الحصول على الملفات..

- سنحتاج إلى معلومات عن (سارلنچ) هذا..
وبدأ يوضح لـ (رايكس) كل الأشياء التي يريد الإلمام بها.. رسم المنزل الذي زاره (رايكس).. أسماء العاملين به.. أجهزة الإنذار ومكان الخزانة..
أريد كذلك. قال (برنزر) - قائمة بثياب (سارلنج).. عاداته في الأكل.. الأمراض التي لديه.. طبيب أسنانه.. أسماء مرءوسية في العمل - وسائل تسليته.. هل يشكو من الأرق؟.. سفرياته إلى الخارج.. كل شيء..
إن (سارلنج) علامة استفهام كبيرة.. وعندما تريد قتل رجل فلابد من أن تعرفه جيدا.. تعرفه إلى درجة الغرام..و (سارلنج) يجب أن يموت.. هذا هو الحل الوحيد..
قال (رايكس) في إحباط:
- آسف جدا.. كنت أنا السبب في كل هذا..
- لا عليك.. كان من الممكن أن أكون أنا.. إن المرء يؤتى من هواياته.. ولو أن أحدا رأى لوحة من التي كانت معلقة في ذاك المكتب لأدرك أنها أصلية.. ولكان قادرا على الوصول لنا..
وانصرف (رايكس) بعدما طلب منه (برنزر) أن يعطي الفتاة كاميرا تلتقط بها صورا - كلما تمنت لها الفرصة - لدار هذا المدعو (سارلنج).

∞∞∞∞∞∞

حين عاد (رايگس) إلى الشقة.. كانت (بيللا فيكرز) في الخارج، لكن (سارلنج) كان هناك!.. جالسا في مقعد قرب النافذة.. والضوء الداخل منها يضيء جانب وجهة المشوه فيجعله في لون اللحم المسلوق، تساءل (رايكس) بعد أن حياه بهزة من رأسه:

- هل معك مفتاح الشقة؟
- طبعا..
- وهل من الطبيعي أن تأتي هنا؟.
- لم لا..؟.. عشرات الأشخاص يدخلون ويخرجون من هذا المبنى كل يوم.. هل كنت عند (برنزر)؟
- نعم
- وناقشتها طريقة القضاء عليّ؟
- طبقع!
عندما تقرران شيئا أرجو أن تخبراني به.. والآن ماذا رتبت بشأن مخزن الجيش؟
- سنقوم بالتنفيذ ولسوف تعرف الموعد من مس (فيكرز)..
- ومتي ستنفذ العملية النهائية؟
جذب (سارلنج) شعيرة من شاربه وغمغم:
- لا أستطيع في الوقت الحالي أن أطلعك على أية تفاصيل.
ونهض متكئا على عصاه ذات الرأس الفضى قاصدا الباب فسأله (رايكس):
- كيف عرفت بأمر ذلك الصندوق؟
- أوه!.. أنت تعرف كيف يثرثر الرجال ذوو المواقع الهامة بعد عشاء فاخر وشراب جيد.. كل الرجال في السلطة يتماثلون في أن لسانهم ينزلق.. إنهم ليسوا مثلنا يا (رايكس).. وإلا لما حققنا أي نجاح.. إن صمتنا هو سر قوتنا يا (رايكس)..
ثم توقف ونظر ل (رايكس) وابتسم فازداد قبحا..
وأردف:

- استمر في مقتك لى فهكذا أحبك أن تكون.. مثل أسد شرس يخضع لسوط المدرب بانتظار لحظة سهو كى يمزق عنقه!

ثم ضحك وأضاف:
- أعرف أنك ستفتح الصندوق لترى مابه.. أنصحك إذن أن تكون حذرا حين تفعل ذلك. ثم هز رأسه وخرج..
أسد شرس... ومدرب!.. هذا هو تقدير (سارلنج) للموقف!.. تبا له!.. تبا لطبيعة تهوى تعذيب الناس إلى هذا الحد المروع.. ماذا يريد هذا الرجل مع كل ما يملك من نفوذ وثروة؟..
يجب القضاء على (سارلنج).. يجب الفوز بولاء (بيللا) المطلق.. لأنها هي المفتاح الوحيد إلى أسرار هذا الرجل المريع ها هي ذي قادمة..

∞∞∞∞∞∞

السبت.. الساعة الرابعة.. وقد رحل (رايكس) بالسيارة (الستيشن) منذ ساعتين..
تجلس (بيللا) أمام الهاتف تصغي لصوت الأمطار متوجسة.. على حين يجلس وراءها ذلك الذي عرفته أخيرا:
(برنزر).. لا يبدو عليه أي توتر وقلق مثله مثل (رايكس) تماما.. رجل مهذب هادئ لا يبالي على ما يبدو بكل هذا...
- هيا.. اطلبي المكالمة..
قالها (برنزر) فأطفأت سيجارتها ورفعت سماعة الهاتف متوترة.. وبعد ثوان سمعت صوت رجل يقول في سأم:
- نعم؟.
- هل هذا هو مستودع (ميرورث)؟
- انتظر لحظة.. هذه وزارة الدفاع.. هوايتهول.. كولونيل (شرمبتون) يريد الحديث مع....
لقد زال عنها التوتر الآن وبدأت الجدية تظهر في صوتها:

- هنا مكتب مدير عام المعدات.. سأوصلك به.. وحكت ظهر إبهامها في السماعة مرتين ثم ناولت الهاتف ل (برنزر) قائلة في تهذيب:
- المكالمة التي طلبتها يا سيدى.
أمسك هذا بالسمعة ليقول بلهجة عسكرية آمرة:
- مستودع (ميرورث)؟.. هل وصل الكابتن (كيلى)؟
- لا يا سيدي.. لم يحضر أحد بهذا الاسم..
- عندما يصل أبلغه بأن عليه الاتصال بي فورا – أنا كولونيل (شرمبتون) - في وايتهول 17022.. هو يعرف الرقم الداخلى.. هل فهمت؟
ثم أنهى المكالمة ونظر للفتاة مبتسما وشدّ حلمة أذنه في شرود: إن هذا سيوقف تفكيرهم تماما.. من هو مدير المعدات الحربية حقا؟
ثم ارتدي قفازاته وقبعته ونهض لينصرف، وقبل أن يخرج استدار قائلا:
- كل شيء سيكون على مايرام.. لا تقلقي.
بعد انصرافه جلست (بيللا) تفكر.. أولئك الرجال الملاعين.. كلهم في منتهى الهدوء والثقة ولن يغيرهم أي شيء تقوله أو تفعله أو تقترحه..
وهذان الاثنان بالذات، سيقومان بقتل (سارلنج) بكفاءة وهدوء ودون انفعال كما يتصرفان في هذه العملية بالضبط.

∞∞∞∞∞∞

تم كل شيء في حقل منعزل في (كنت)..

حيث لحق (رايكس) ب (جيلين) الذي كان يقف - بثياب الجنود - جوار السيارة (اللاندروفر) التي غيّر معالمها لتبدو كسيارة من سلاح المدفعية، وارتدي (رايكس) ثياب ضابط وانطلقا إلى مستودع (ميرورث).. ولم تحدث مشاكل.. لأن المشاكل لا تحدث أبدا لمن يثقون بأنفسهم. كابتن (كيلى)؟.. نعم.. هناك رسالة لك من (وايتهول) تفيد بأن تتصل بكولونيل (شرامبتون).. الضيق على الوجه.. تلك الأوامر التي لا تنتهي.. اليوم السبت والمفترض أنه إجازة.. حسن.. قيادة السيارة إلى الكوخ رقم (5).. فتح الباب.. ضربة على مؤخرة رأس الموظف.. ثم تقيد يديه وقدميه.. واستبدال الصندوق المطلوب بالذي كانا يحملانه ثم مغادرة المعسكر دون كلمة واحدة إلى أن وصلا إلى السيارة (الستيشن) ونقلا الصندوق داخلها..
ولا داعي للقول أنهما كانا يرتديان القفازات طيلة الوقت..
قال (جيلين):
- لقد نجحت كما لو كنت ساحرا..!
ومد يده اليمنى داخل سترته.. عندئذ عرف (رايكس) ما سيحدث. اللحظة التي كان (جيلين) ينتظرها وعلى الفور اعتصر يد (جيلين) حتى أسقط المسدس منها...
- أيها اللعين!
ورمي الرجل بكل ثقله فوق (رايكس) فأوقعه أرضا.. وهان!.. ركلة بالحذاء العسكري في صدغه تمالك (رايكس) نفسه - والحنق يغزو دمه. فضرب عنق الرجل بسيف يده ثم ركله في بطنه، فتدحرج فوق العشب يئن..



تمالك (رايكس) نفسه ــ والحنق يغزو دمه ــ فضرب عنق الرجل
بسيف يده ثم ركله فى بطنه ..

التقط (رايكس) المسدس وصوبه نحو الرجل..
الدماء تسيل على وجهه ويمه يغلي لكنه تمالك أعصابه..
- لا تحاول ذلك مرة أخرى وإلا قتلتك!
فنهض (جيلين) يسعل حتى ليكاد يقيء معدته نفسها..
معًا حملا الصندوق إلى العربة، ثم تفقدا العربة (اللاندروفر) قبل تركها ليتأكدا أنهما لم ينسيا ما يدل عليهما..
ثم أن (رايكس) قاد السيارة متجها إلى جنوب (لندن).. توقف جوار بركة ماء وفتح النافذة.. ثم أخرج المسدس من جيبه:
- هل يستطيع أحد تعقب هذا للوصول إليك؟

- أتظنني معتوها؟
- بدأت أشك فيك بعد ما فعلته الآن..
ثم طوح المسدس إلى بركة الماء..
وانتزعا ثيابهما العسكرية وبدلاها بثياب مدنية، ودفنا الأولى في حفرة صغيرة..
قال (رايكس) وهما عائدان للسيارة (الستيشن):
- إن قتلك لي لم يكن ليفيدك بشيء.. لا يوجد مبتز يعمل وحده كما تعلم..
- كل ما أعرفه هو أنني كنت سأستمتع بقتلك إلى أقصى حدّ..
مسح (رايكس) وجهه بالمنديل:
- لقد انتهت القصة ولن يزعجك أحد بعد الآن..
وأشار إلى تابلوه السيارة:
- نقودك في الدرج أمامك..
- كم؟
- خمسمائة زائد ثمن (اللاندروفر) والمصاريف الأخرى..
- لا بأس.. لقد حصلت على (اللاندروفر) من مزاد سيارات في (ليستر) ولن يستطيع أحد الوصول إليّ عن طريقها..
- هذا لا يقلقني.. فأنت تحمي نفسك أولا..
وحمل (جيلين) مظروفه ونزل من السيارة.. ووقف تحت رذاذ المطر وضوء مصابيح الشارع يرمق (رايكس)، ثم قال وهو يرفع يده في تردد:
- آسف على ما بدر مني.. أنت حقا رجل طيب!
واستدار.. ليختفي بين أمواج الذكريات..

∞∞∞∞∞∞

في حذر رفع (رايكس) غطاء الصندوق..
كان مغطى من الداخل بنشارة خشب.. مد يده يعبث داخلها فخرج بقنبلة بلاستيكية صغيرة الحجم بحيث يمكن إخفاؤها في راحة اليد.. كان هناك الكثير منها..
وضع واحدة في جيبه وأغلق الصندوق.. ثم استقل (تاكسى) عائدا إلى الشقة....
سيكون هذا الجراج مأمونا لإخفاء الصندوق إلى حين..
بعد قليل ستتجه (بيللا) إلى الجراج لتزيل كل البصمات من على السيارة، ثم تقودها لتعيدها إلى الوكالة التي استأجرتها منها.. وهكذا يذوب كل دور لهما في هذا الجزء.. إن الاسم الذي تركته لهم في الوكالة مزيف طبعا.. وسيكون مستحيلا أن يعثر أحد على مستأجرى السيارة لو أن أحدا وجدها.. كانت قد تركت له عشاء من اللحم والقنبيط.. فشرع يلتهمه وهو راض عن نفسه أتم الرضا...

∞∞∞∞∞∞

-5-

وعاد (رايكس) إلى (ديقون) ليستجم قليلا..
كان قد عرف من (بيللا) أن (سارلنج) في رحلة بـ (مالطا) وحين يعود لن يحتاج لرؤية (رايكس) أسبوعا أو اثنين..
وفي داره هناك أثار دهشته أن وجه (بيللا) لم يفارق مخيلته..
نظرة الضعف التي تدعوه لحمايتها..
يا إلهي... لماذا يفكر فيها الآن؟..
بعد الظهر قصد بيت (مارى)..
لكنه - قبل أن يزورها - قام بتجربة صغيرة..
اتجه بالسيارة إلى واد قديم عميق.. فترجل هناك وسار بين الزهور البرية التي يغلفها الضباب، حتى وصل إلى هضبة صغيرة تطل على ممر ضيق ترعى فيه الأغنام..
الريح تهب من ظهره لكنه بلل إصبعه ورفعه إلى أعلى ليتأكد من اتجاه الريح.. ثم وقف يرمق الأغنام وهي تسير هنا وهناك بين الأعشاب.. عند قدميه أخرج القنبلة البلاستيكية التي سرقها من الصندوق وانتزع مسمار الأمان منها ثم رماها من أعلى بين الحشائش....

تراجع بظهره ببطء وهو يعة.. ثمانية.. تسعة عشرة.. ثم وثبت القنبلة في الهواء وتناثرت شظاياها..
طفق ينتظر.. ينتظر..
وفجأة رفعت إحدى الماعز رأسها ثم هوت على الأرض.. وتبعتها باقي الأغنام.
ومر طائر فوق الأغنام الممدة على ارتفاع أربعة أقدام فهوى كقطعة حجر..

كان هذا هو ما يريد (رايكس) معرفته..
لهذا ركب سيارته قاصدا دار (ماري)..

∞∞∞∞∞

صباح اليوم التالي عاد إلى مكان الأغنام
كان ضوء الشمس يسطع عبر المنحدر الصخري.. ولم يكن هناك سوى جثة واحدة من الأغنام.. أما الباقيات فكانت تمرح هنا وهناك ترعى العشب...
ما سر هذا؟.. لماذا ماتت واحدة فقط من الغنم؟

∞∞∞∞∞

بعد يومين قابل (برنزر) في مقهى (راك) ب (لندن) وأخبره و بنتائج تجربته.. وتساءل عما يزمع (سارلنچ) عمله بهذه القنابل..
- أظن أنها قنابل خاصة بفض الشغب
- لا أظن هذا.. لو أنهم استعملوها مع الناس فلن ينهض بعضهم أبدا كما حدث لهذا الخروف - لربما كان نوعا من غاز الأعصاب.. معظم هذه الغازات تكون قاتلة إذا ما استعملت في مكان مغلق.
حك (رايكس) رأسه وغمغم:
- علينا أن نتصرف سريعا بشأن (سارلنج) قبل أن يورطنا في خطته الشريرة التي يريد فيها استعمال هذا الغاز...
ثم جرع ما بقدحه.. وأردف:
- هذه الليلة سأصارح (بيللا) وأتصل بك غدا..
وهكذا..

اصطحب (بيللا) إلى العشاء في الخارج... وحدثها عن القنبلة البلاستيكية. فضل أن يحدثها وسط الزحام حتى تتحكم في انفعلانها لو أردات أن تعترض....

قال:

- سيورطنا جميعا في استعمال هذا الغاز.... الله وحده يعلم أية خطة مجنونة ينتويها (سارلنج) قد تودي بحياة المئات.. هل سنقف مكتوفين؟.. لا حل سوى قتل (سارلنج).. وأنتِ الوحيدة القادرة على معاونتنا يا (بيللا)..

- ومن أدراك أنه سيجعلك تستعمل القنابل؟

- لأنه لا يملك الوقت الذي يجعله من هواة البلاستيك يا صغيرتي.. عليك الاختيار ما بين (سارلنج) وعشرات الأبرياء.. غير أن قتل (سارلنج) سينقذ الأبرياء ويحررنا في ذات الوقت..

- أفهم هذا..

- لا نريد منك سوى بعض البيانات..

نظرت إلى القدح أمامها على المنضدة.. وهمست:

- أنا خائفة!

كل ما عليها الآن هو أن تنهض واقفة وتتركه و (سارلنج) وكل شيء وراءها.. ترحل.. لكنها لا تملك القوة كي تفعل ذلك..

أومأت بالإيجاب..

مد يده عبر المنضدة وأمسك بيدها.

- لن تندمي أبدا.. الآن دعينا نستمتع بأمسيتنا معا وننسى كل شيء.. سنتحدث في الموضوع فيما بعد..

∞∞∞∞∞∞

-6-

لمدة أسبوعين كاملين ظلت (بيللا) تلتقط الصور لـ (بارك ستريت) و (ميون بارك) كما طلب منها (رايكس)..
وكانت تخفي آلتي تصوير معها في المكانين كذلك قامت بتدوين المعلومات وعمل رسوم بيانية للمنزلين.. بإتقان ودقة قامت بعملها آملة في أن يرضى عنها (رايكس)..
(رايكس) الذي ازدادت تعلقا به يوما بعد يوم..
وفي كل ليلة تجلس جواره قبل النوم ليراجعا البيانات الخاصة بكل شيء
الحق يقال.. إن هذه كانت أسعد أيامها على الإطلاق..
وفي تلك الأمسية قال لها:
- صفي لي مرة أخرى غرفة نوم (سارلنج) في (بارك ستريت)..
لقد وصفتها له عدة مرات حتى غدا قادرا على رؤيتها..
الحجرة بالطابق الأول.. باب المكتب إلى اليمين من الدرج.. غرفة نوم (سارلنج) لليسار.. ثم باب المكتب من خشب البلوط.. النوافذ يحرس كل منها جرس إنذار..
مكتب (سارلنج) من خشب (المجنة).. ساعة الحائط الطويلة في الركن الأيسر من الباب.. ثم الباب الذي يقود إلى غرفة الخزانة المصفحة ثم ينوي (سارلنج) الدخول إلى الخزانة فيطلب إلى (بيللا) أن تنصرف ريثما يفتح الباب..
المشكلة هنا أن (رايكس) لديه صورة الباب المصفح في منزلى (لندن) والريف.. لكن البابين كانا متماثلين تماما.. وبلا تضاريس على الإطلاق.. لا مقبض.. لا مفتاح.. لا قفل..
مجرد مسطح ضخم من الصلب الأملس، وعلى الناحية اليسرى أعلاه مربع أملس من النحاس ضلعه ستة بوصات..

- كل ما أعرفه هو أنه يضع يده فينزلق مربع النحاس وينفتح الباب..
- أية يد؟
- اليمني..
- لا تفترضى.. أغلقي عينيك وتذكري.. أية يد؟
- اليمني.. ثم يضغط بإبهامه الأيسر على مكان ما وعندئذ ينفتح الباب.
لكنها حاولت - منذ أيام - أن تجرب دفع يدها في ذلك المربع دون جدوى.. أحست به يتزحزح للخلف لكن شيئا لم يحدث..
ما هو السر وراء هذا الباب العجيب؟
- وماذا بعد أن يغادر الغرفة المصفحة؟.. كيف يغلق الباب؟
- كما قلت لك.. هناك زر كزر الجرس في الحائط يضغط عليه فينغلق الباب.. وبالطبع لا داعي لسؤال عن ما قد يحدث لو ضغطت الزر والباب مغلق طبعًا لم يحدث شيء..
ثم نظرت إليه متوسلة:
- أنت لن تفتح هذا الباب.. فلم لا تتوسل له كى يتركك بعد أن تقوم بهذه العملية؟
- إنه لن يتركنا وشأتنا - صاح في غضب - هذا الرجل يستمتع بالاستيلاء على أقدار الناس.. ولن نجد حرية ولا راحة في حياتنا ما دام حيا يرزق..!
وفي غضب ذهب لينام.. أما هي فظلت في الظلام لساعة متأخرة من الليل..
في أتنها تدوي عبارته: هذا الرجل يستمتع بالاستيلاء على أقدار الناس.. أنت أيضا تستمتع بالاستيلاء على أقدار الناس.. لقد سلبتني إرادتى تماما وجعلتني طوع بنانك.. ولكن - حين يموت

(سارلنج) - هل ستظل راغبا في الزواج منى؟.. على كل حال مهما حدث..
سيظل جزء منك بحاجة إلى.. أنت مثل (سارلنج)..
لا تتخلى أبدا عن شيء تملكه..

∞∞∞∞∞∞

جلس (سارلنج) في مقعد قرب النافذة وساقاه متباعدتان وقد انحنى بجسده إلى الأمام..
كان في حال نفسية طيبة.. وقال وهو يبتسم:
- أنا الابن السابع لابن سابع.. لابد أن لهذا معنى ما..
- في (ديفون) يقولون أن لهذا الشخص القدرة على جذب الأسماك.. إلا أنه يفقدها إن شرع في قتل سمكة..
أشار (سارلنج) إلى وجهة الدميم وغمغم:
- كنت في الواحدة والعشرين من عمرى، وقد نجحت في جمع خمسين ألفا من الجنيهات فاحتفلت بذلك.. شربت كثيرا ونمت ولفافة تبغ مشتعلة في يدي.. سقطت على الفراش وصحوت وسط النيران.. لقد بذل الجراحون قصارى جهدهم حتى صنعوا مني المسخ الذي تراه.
ثم ابتسم ونظر إلى (رايكس):
- إن أي محلل نفسانى سيؤكد أن تصرفاتي كلها منذ ذلك الحين هي تعويض عن تشوه وجهي.. لكنهم حمتى.. دعني أؤكد لك أن هذا كلام فارغ.. أنا بطبعى مقامر.. لابد أن أعيش وسط الأخطار.. بدأت أخرج على القانون مرارا لأعيش في دائرة التوتر.. كان هذا يجلب الى الراحة النفسية والمال.. وستكون أنت معي

في هذه اللعنة الخطرة.. فلو ربحناها يكن لك و (برنزر) نصف مليون جنيه على الأقل..
- أنا لا أريد مالا.. كل ما أريده هو الحصول على الملفات ثم قتلك والعودة إلى (الفرتون مانور)..
ضحك (سارلنچ) وحك ذقنه:
- أنت تخدع نفسك يا عزيزي.. تظن أنك تريد الانتقام لأبيك.. استعادة منزل الأجداد.. إلخ.. لكن لا.. أنت مقامر مثلي تماما يا (رايكس).. مقامر بطبعك.. ولن يمر عليك عامان حتى تعود إلى سابق عهدك.. أنت تعرف ذلك وتمقته.. وحين تلوح نيران الحقيقة أمام عينيك تحاول إطفاءها بكلمات مثل (ألفرتون مانور)..
لهذا اخترتك أنت لأنك مقامر.. المخاطرة هي الشيء الوحيد الذي يجعل الحياة طعما لديك..
هز (رايكس) رأسه في سأم.. وغمغم..
- أنت بحاجة إلى علاج.. أما أنا فأعرف علاجي.. أن أراك جثة هامدة!
ازدادت ابتسامة (سارلنج) اتساعا.. وقال:
بس أنا شاكر لك كل هذه المتعة.. الإحساس بأنني لو ارتكبت خطأ واحدا سأموت.. إن هذا يزيد استمتاعى بالحياة..
وأومأ برأسه... ثم انصرف..
شرع (رايكس) يفكر في الأمر مليا.. هذا الرجل مخبول تماما.. لكن التخلص منه مستحيل قبل أن يجد حلا للغرفتين المصفحتين إنه منهك.. منهك..
وحين عادت (بيللا) أدركت أنه قضى ساعة رهيبة..
فجواره مطفأة سجائر طافحة بالأعقاب.. نظر إليها وقال:

- أخبريني بشيء مفرح.. قولي لي أنه سقط من على السلم ودق عنقه..
جلست جواره وربكت على رأسه بلطف:
- ماذا يضايقك بالضبط؟
جلست ممسكة بيده.. وقالت:
- هناك شيء هام عرفته.. إنه يمتلك منزل (لندن) منذ أربع سنوات فقط، وقام بعمل تعديلات كثيرة به منها تلك الغرفة المصفحة.. وقد قمت بمراجعة فواتير التعديلات التي أحتفظ بها في مكتبي.. وهل تعرف ماذا وجدت؟
وهكذا قال مبتسما وهو يداعب نقنها: - وجدت فاتورة دفع نفقات إنشاء الغرفة المصفحة - نعم قامت بذلك شركة (فينسن أند لايل) في (لندن) وهي منبثقة من شركاته الكبرى..
وهكذا.. تبين خيط قيم في هذه القصة..
اتصل (رايكس) بالشركة المذكورة وتكلم مع مدير مبيعاتها.. شرح له أنه شريك في شركة تصميمات معمارية شمال (أيرلندا)..



اتصل (رايكس) بالشركة المذكورة وتكلم مع مدير مبيعاتها ..

وأنه يريد رؤية إنتاجهم من الأقفال والخزانات..
سال لعاب مدير المبيعات ودعاه لزيارة الشركة غدا..
وتوطدت علاقته مع الرجل، ودعاه إلى الغداء الفاخر مرارا.. كما وعده بمكافأة مالية قيمة لو أنه قدم له سعرا مناسبا وخاصة أن مدير الشركة راغب في خزانة مصفحة!
التقطت السمكة الطعم.. وقال مدير المبيعات:
- لدينا ما تريد حتما.. بالواقع رئيس مجلس إدارتنا يملك خزانتين من ذات النوع.. لكن تكلفتها باهظة بما لا يناسب السوق..
وشرع يثرثر عن كل ما يريده (رايكس)..

إن (رايكس) يعرف الآن كل ما يحتاج لإرسال (سارلنج) إلى العالم الآخر..
القفل يعمل ببصمة الإبهام.. يوضع الإبهام على المستطيل فتنطبع البصمة عليه، ثم يتراجع للوراء حيث توجد عين إلكترونية تقارنها بالبصمة التي برمجت عليها وينفتح الباب عند حدوث تطابق.. كذا.. صار كل شيء روتينيا ويمكنه قتل (سارلنج)..
ثمة مشكلة بسيطة هي (بيللا)..
(بيللا) التي تقف بالمطبخ تي في سعادة وهي تقلب شرائح اللحم.. تقرأ كتاب الطهو وتفكر في ذات الوقت قطعى شرائح اللحم قطعا متساوية.. الباب يفتح ببصمة الإبهام. كيف يحدث هذا؟.. ارفعيها على النار مع البصل والمقدونس.. ثم أضيفي بعض الدقيق والحساء.. لقد بدأ يتغير.. لا شك في هذا.. اتركيها حتى يتم النضج..
الخل.. (سارلنج).. الباب المصفح.. هل الخل أبيض أم أحمر؟.. لنجرب الأبيض..

∞∞∞∞∞∞

جوار النافذة جلس (برنزر) يتأمل الأوراق والصور منتصف النهار وشمس الشتاء الخافتة تلمع في حياء..
إنه الآن قادر على إغماض عينيه والسير داخل المنزل لأنه يعرف كل قطعة أثاث فيه
ستبدأ الخطة في (ميون بارك) إذن...
سيكون (سارلنج) هناك.. تكمم فمه وتخدره ثم تستعمل بصمة إيهامه لفتح الغرفة المصفحة.. ثم تحصل على الملفات.. ثم

ينطلق (سارلنج) بسيارته التي تقودها (بيللا فيكرز) إلى (لندن).. لكنه لن يكون هو طبعا.. بل واحدا يشابهه في الطول والحجم والثياب هو (برنزر) طبعا إن التعقيد وصعوبة التنفيذ ليفعمان نفسك حبورا لا داعي للقلق.. فسواء كان (سارلنج) حيا أو ميتا.. فبصمته كافية لفتح الباب المصفح..

∞∞∞∞∞

في اليوم التالي جاء (سارلنج) إلى الشقة ولم يكن بها سوى (رايكس)..
جلس - كغراب أسود - يثرثر ربع ساعة كاملة دون أن يقاطعه (رايكس).. وحين فرغ سأله هذا الأخير:
من أين ستأتي البضاعة؟
- ستعرف فيما بعد..
- وهل أنا الذي سأحضرها؟.
- حتما..
- وهل سأتظاهر بأنني قائد العلمية؟
- نعم..
- لكن (الآخر) سيفهم أنني لست كذلك لو عنده ذرة من الذكاء..
- هذا طبيعي.. فهو أيضا ليس قائد عملية الجانب الآخر.. إن الرؤساء في هذه العمليات غير معروفين ولا يظهرون أبدا.
- وإذا أراد معرفة مصدر البضاعة؟
عندئذ تتركه وترحل فورا..

∞∞∞∞∞

رفع (رايكس) سماعة الهاتف وخاطب الجانب الآخر:

- لقد عاد (تونى) وطلب موعدا..
تساءل الرجل بصوت هادى:
- (تونى) من؟
- (توني) من (أبل جيت)..
سمع (رايكس) صوت السماعة توضع في حزم.
فأشعل لفافة تبغ وطفق يدخن وهو يشعر أن كل هذا كابوس مريع.. بعد ثوان دق جرس الهاتف.
- (تونى)؟
- نعم..
- الساعة الرابعة.. فتدق (الريتز). غرفة ٩٧..
وقد كان
هوذا (رايكس) يجتاز بهو الفندق بين الرجال في حللهم الرسمية والنسوة في ثيابهن الحريرية.. إنه حفل عرس.. لكن الوقت لا يسمح له بالتوقف لأن عليه أن يعقد صفقة.. صفقة بخصوص سبيكة ذهب عليه أن يسرقها..
وفي الغرفة ٩٧ وجد رجلا جالسا إلى مكتب عليه مزهرية بها صحبة من زهور (الأقحوان).. وكان الجناح كله مفروشا باللون الأخضر..
أما الرجل فكان في الثلاثين من عمره شديد النظافة والأناقة كأنما خلق لتوه.. والصحة تطل من كل ملامحه وعيناه تبتسمان في رقة.. كله ثقة بعلمه بالشعائر السرية التي أعطته موضعا في ذلك الكون الذي يسوده لون الذهب..
- هل ترى أن ندخل في الموضوع مباشرة؟
- نعم
كان صوت (رايكس) يفضح توتره.. لكن الرجل كان ودودا..

- أريد سعرا لتوريد سبائك ذهب زنة أربعمائة أوقية.. قد يصل بعضها إلى وزن كيلوجرام.
- من خمسين إلى مائة للسبائك الكبرى..
من الرجل يده إلى جيبه وأخرج قطعة ذهب فى حجم قالب الشيكولاته الكبير.. وقال:
- سبيكة (تولا).. يوجد منها ملايين في بلاد الشرق هم لا يثقون بالعملات هناك.. الذهب هو الذهب لا يتغير.. هل بضاعتك من (لندن)؟
- محتمل..
- متى تسلمها لي؟
- إبريل القادم
- التسليم في (انجلترا) له سعر منخفض سنحدده لك.. لكننا نفضل التسليم في (أمريكا).. إن هذا سيرفع سعر التسليم لكنه أقل من فارق السعر.. وماذا عن العملات؟
- دولارات. تودع في الخارج.
- يمكنك أن تثق بنا تماما.. في مهنتنا هذه إذا خدعت شخصا ما فإنك تقضي على مستقبلك المهني.. إن الأخبار تنتقل بسرعة.. لهذا يمكنك أن تثق في أمانتنا..
ثم نهض وصافح (رايكس):
- أطلب رقم الهاتف هذا بعد أسبوعين.. سيكون لدينا ردّ جاهز لك..
ناوله (رايكس) سبيكة (التولا) فهز رأسه:
- إحتفظ بها أعطها لفتاتك.. كمواطن بريطاني أنت غير مسموح لك بحمل الذهب لكني لا أحسب هذا يقلقك للمرة الأولى في حياته أحس (رايكس) أنه مهزوز..

كأنه موظف جديد ساذج تحت إمرة رئيس داهية.. إنه قد اعتاد أن يمخر في عباب المياه التي يألفها طيلة حياته..
ها هو ذا يتورط في عالم مروع مجهول هو عالم تهريب الذهب.. فيالها من كارثة.....
كان الان يقف في منتصف (بوند ستريت) وسط زحام الناس.. لكنه لم يبال بهم.. التقط السبيكة (التولا) ورماها في فتحة المجرور....... وابتعد بخطوات واثقة ليذهب الجميع إلى الجحيم..

∞∞∞∞∞∞

لكنه ظل عاجزا عن فهم خطة (سارلنج)...
لربما كان هذا الرجل يقوم بتهريب الذهب إلى الخارج..
على كل حال هو لا يهتم كثيرا بمعرفة التفاصيل..
كل ما يعرفه هو أنه سيقتل (سارلنچ).
وبعد ذلك يأتي دور الفتاة..
وموتها يجب أن يبدو كحادث...
كان يعرفماينبغي عمله..

∞∞∞∞∞∞

-7-

عطلة الكريسماس:
قضاها (رايكس) في (ديفون) مع (مارى) يرتبان كل شيء للخطبة بمجرد شرائه لداره في (الفرتون ماتور)..
زيارة الأصدقاء.. السير جوار النهر.. كل هذا جعل مشاكل (لندن) و (سارلنج) تبدو بعيدة واهية...
هي ذي بلدته.. أهله.. زوجته المقبلة..
لكن فتورا ما تسرب إلى علاقته مع (مارى) لم يدر سببه.. ربما كانت (بيللا) هي السبب؟.. تظاهر – رغم كل شيء - بأن شيئا لم يتغير وكذا فعلت هي..

∞∞∞∞∞∞

فجر اليوم التالى لعودته إلى (لندن):
دق جرس الهاتف في الشقة فرفعت (بيللا) السماعة وردت.. ثم قرعت باب غرفة (رايكس)..
كان واقفا أمام المرآة يربط رباط عنقه.. قويا وسيما يمكن الاعتماد عليه.. إنها تحبه حقا.. تقدم نحوها وربت على خدها في رفق.. فقالت:
- هذا (سارلنج) يتحدث من (باريس).. سيعود ظهرا وعلى أن أقابله بالسيارة ثم أخذه إلى (ميون بارك) ليمضي نهاية الأسبوع..
رأت النظرة في عينيه.. النظرة التي ترهبها..
وفي رتابة قال وهو يعتد رباط عنقه:
- خلال يومين سيموت هذا الخنزير..
- باستطاعتي أن أبلغه بذلك!
- إخبريه إذن.. وسأبحث عن وسيلة أخرى للخلاص منه

لكنه كان مطمئنا إلى أنه نال ولاءها الكامل..
كانت ترتجف فقال لها:
- إن الساعة ما قبل الفجر تكون أبرد ساعات اليوم عليك ببعض القهوة الساخنة..
تركته ودخلت المطبخ تعد القهوة.. ومن الصالة سمعت صوت صفير المرح المنتعش.. لقد أوشك على نيل حريته..
هي لم تره من قبل في هذا الحال من السعادة...

∞∞∞∞∞

حين وصل (سارلنج) - من (باريس) - إلى الشقة حيث جلس (رايكس) وحيدا، كان أول ما طلبه هو كوب من اللبن.. ثم سأل (رايكس):
- ماذا تم بشأن الذهب؟
- سأحصل على السعر وبيانات التسليم قريبا..
- حسن.. نصف الربح الذي سنحصل عليه لك أنت و (برنزر)..
- وما هي العملية الكبرى التي تريدها؟
- سنسرق بعض سبائك الذهب..
- ليس من بنك.. بل من البحر.. من على سفينة، هل هذا يروق لك؟
- لا... وأية سفينة؟
- من أحدث وأجمل سفن العالم..
وفتح حقيبته.. وأخرج منها كتيبا سميكا له غلاف مصقول، كتب عليه بحروف كبيرة (عابرة المحيطات كوين إليزابث).. وفي الصفحات التالية رأيا صورا للقبطان والمهندس الأول ومئات الأماكن بداخلها..

- أنت مجنون!!
- أنا رجل عملى..
صاح (رايكس) في جنون:
- عم تتحدث؟.. كابتن (بلود) أم سرقة قطار البريد السريع؟.. أنت تقرأ مجلات أطفال أكثر من اللازم.
ثم استرد أنفاسه وأردف:
- أنت بحاجة إلى جيش.. إلى عدد من الرجال أكثر ممن تضمهم ملفاتك.. لم لا تطلب مني سرقة جواهر التاج؟.. قد يكون هذا أسهل..
هز (سارلنج) رأسه:
- هذا ليس مستحيلا.. إن السفينة الآن في (ساوث هامبتون) وكان بها عطل في التوربينات مما اضطر شركة (كونراد) إلى إلغاء جدول رحلاتها.. لهذا لا يمكننا تحديد موعد البدع.. سنأخذ الذهب أثناء أول رحلة لها إلى (نيويورك)..
- (سارلنج).. كن عاقلا.. ربما كان أبوك يضربك في طفولتك لكن هذا لا ينبغي أن......
- سيكون الذهب في خزينة السفينة.. يمكن التنفيذ برجلين فقط دون عنف ولا شوشرة.. فهي ستحمل ثلاثمائة مسافر مع الطاقم.. ولن يرى ما سيحدث سوى عدد محدود جدا أكثره لن يرتاب في شيء.. اذهب الآن إلى (ديفون)..
وفكر في الأمر مليا.. ثم عُد وقل لي ما فكرت فيه.
وضحك وفرك يديه كأنه طفل يحاول حل لغز.. قال (رايكس):
- لن أقوم بهذه العملية..
- بل ستفعل.. ليس لديك الخيار..

∞∞∞∞∞∞

رفع (رايكس) سماعة الهاتف طالبا (بيللا) فردت عليه..
- (بيلا).. هو الان آت إليك.. هل كل شيء في ذهنك؟
- نعم..
قال في حنان:
- لا تقلقي يا ملاكي.. سأخرج الآن لأحضر (برنزر) معي.. سنظل هناك تراقب المكان وتراك حين تصلين معه.. وحين يخيم الظلام ويكون في غرفة مكتبه عليك..
أن تقف أمام النافذة وظهرك لنا حتى نراك بوضوح..
- ليكن...
- هذه هي فتاتي المفضلة...
- (أندي).. ماذا لو..؟
- لا تفترضى شيئا.. وداعا يا ملاكي..
ووضع سماعة الهاتف..
(أندي)!.. لقد بدأت منذ قريب تدعوه بهذا الاسم..
وكلما سمعه منها أحس بالغثيان يخنقه...
من الخزانة أخرج قنبلة بلاستيكية صغيرة.. ثم أخرج سلة صغيرة بها حبل وقفازات.. والآن (برنزر) ينتظر وقد ارتدي معطفا كمعطف (سارلنج) وألصق شاربًا كشارب هذا الأخير.. ما هذا؟.. كتيب دعاية السفينة؟..
دون تردد مزقه إلى نصفين ورماه في سلة المهملات لقد حان وقت العمل..

∞∞∞∞∞∞

-8-

وراء المكتب الكبير ذى السطح الجلدي الأحمر يجلس، قصيرا قميئا يثبت عينيه على بقعة في الفضاء خلف رأسها ويملي عليها محضر اجتماع (باريس).. هذا هو (سارلنج)..

أمامه تجلس (بيللا) تدون بالاختزال ما يقول.. يده ممددة فوق المكتب تمسك كالمخلب كوبا من اللبن، ويده الأخرى تعابث طرف شاربه.. وأدركت دون جهد زنه شارد الذهن..

أيقنت أن شيئا ما يشغل باله إلى حد مروع..

وخطر لها أثه - في مكان ما وسط الظلام - يقبع رجلان ينتظران الدخول بينما يلفها الظلام بأصابعه الندية رجلان واثقان من نفسيهما تماما.. لكنهما لن يفعلا شيئا حتى تذهب هي إلى النافذة.. فإن لم تفعل لا نتظرا حتى يفقدا الأمل ويرحلا.. وعندئذ يعيش هذا الرجل فترة أخرى...


مال على المكتب وأسند وجهه بين أنامله .. وتأمل وجهها حتى بدأت تشعر بالارتباك ..

مال على المكتب وأسند وجهه بين أنامله.. وتأمل وجهها حتى بدأت تشعر بالارتباك
وفجأة سألها مباغتا:
- (بيللا).. إلى أي مدى وصل (رايكس) في خطته لقتلى؟!
- لا أدري عن أي شيء تتحدث!
النظرة تزداد تركيزا على وجهها:
- (بيللا).. أجيبي..
- لا أدري.. هل تظنه يخبرني بهذا؟
- إذا أراد معاونتك له..

- ثق أنه لم يطلب معاونتي.. ولن ينالها إذا طلبها..
تمدد بظهره إلى الوراء وقد شبك يديه الكبيرتين المكسوتين بالشعر.. وقال:
- إن (رايگس) پريد موتى.. لكنه يريد الملفات أولا.. أنا أحتاج هذا الرجل.. أفهم أنك تحبينه يا (بيللا)، ولن تتركي فرصة لمساعدته.. لهذا سأقوم بنقل نسخ الملفات من هنا إلى خزينة الشركة في (لندن).. ثم أنقلها إلى البنك يوم الاثنين..
هتفت في سرها:
إفعل ذلك أرجوك.. أغلق الباب في وجه القتل..
فعلا الرجلين لن يستطيع السطو على البنك..
نظر لها (سارلنج) في هدوء:
- هل قلت له كيف تعمل الغرفة المصفحة؟
- كيف ذلك وأنا لا أعرف؟
- كاذبة يا (بيللا).. كل ما عليك هو مراقبتى وإبلاغه بما أفعله وسيفهم هو.. لقد أصبحت ملكا له وأنت بذلك راضية.. أنت حمقاء يا (بيللا).. فهذا الـ (رايكس) لن يتورع عن قتلك إذا ما فرغ من قتلى.
لهذا يجب أن أحميك.. سأرسلك إلى مكتب (نيويورك) لتعملي هناك ستة شهور ولسوف يروق لك العمل هناك..
ثم أردف:
- أنت من نوع النساء اللواتي يمنحن حبهن وإخلاصهن لأول رجل يظهر لهن حنانا.. لكنني أعرف (رايكس).. هو لا يريد سوى السلام المطلق في حياته التي يخطط لها.. والآن اطلبي السيارة.. نحن عائدان إلى (بارك ستريت) هذه الليلة..
ونهض إلى الباب المصفح فدفع المربع النحاسي، ثم وضع إبهامه الأيسر على لوحة الكروم المعدنية، فانفتح الباب..

- لا تنسى حين تريته أن تخبريه بأن علية سرقة البنك للحصول على الملفات.. راقبي وجهه حين تخبرينه لن ترى عليه أي تعبير لكنني أعرف أن دوامة ستجتاح عالمه..
النافذة بجوارك يا (بيللا).. كل ما عليك هو أن تقفي وظهرك لها.. لن تستطيعي عمل ذلك.. ليس الآن.. (سارلنج) يشك في الأمر.. لكن لا.... رغم كل شيء تسير ببطء إلى النافذة.. لا..!

∞∞∞∞∞∞

إنها الإشارة..! لقد تبينها (رايكس) و (برنزر) حيث وقفا في الظلام يترقبان ويصفيان ليقات ساعة الكنيسة تعلن التاسعة ثم فجأة انزاحت الستارة في نافذة غرفة المكتب وبرز شعاع من النور يتألق فيه ظل شخص ما.. ثم عادت الستارة إلى مكانها تغطى النافذة..
مد يده في جيبه وأخرج القفاز.. ثم بدأ السير نحو المنزل ببطء.. ببطء..
تسلقا نافذة حجرة المكتب، ودون جهد وثبا إلى الداخل، وقد بهر ضياء الحجرة عينيها..
كانت (بيللا) بعد ممسكة الهاتف.. فما أن رأتهما حتى ابيض وجهها كوجوه الموتى، وفغرت فاها في صرخة صامتة..
ودون كلمة أخرى أشارت نحو باب الغرفة المصفحة..
هرع (رايكس) إلى هناك وانتظر (سارلنج) الذي برز من الباب حاملا علبة ملفات، فانقض عليه وجنبه صائحا:
- مهما صرخت فلن يسمعك أحد!
تمالك (سارلنج) روعه وقال في رزانة:
- لا شك أنك تعرف أن الجدران عازلة للصوت..

ودون كلمة أخرى تناول الرجلان الملفات منه.. فنظر هذا إلى (بيللا) وسألها:
- عندما كنا نتحدث.. هل كنت تعرفين أنهما بالخارج؟
- نعم..
هز كتفيه وابتسم واستدار إلى (رايكس):
- لقد كانت خير عون لك.. أرجو أن تكافئها بسخاء..
أخرج (رايكس) قفازا وأمر (سارلنج) أن يرتديه..
- وما هي الفكرة؟
- لا نريدك أن تحاول تشويه إبهامك الأيسر.. نريد الحفاظ عليه حتى تفتح الغرفة الأخرى..
ارتدي (سارلنج) القفاز فشرع (رايكس) يقيد ذراعيه أمامه في حذر حتى لا يدمي المعصمين..
ثم شرع (برنزر) يضع الملفات جميعا في حقيبة أوراق.. ثم كور (رايكس) منديلا ودسته في فم (سارلنج)..
قالت (بيللا):
- ألا يمكن تغيير الخطة الآن يا (آندي)؟
تمالك (رايكس) شعور الغثيان الذي داهمه حين سمع هذا الاسم الكريه.. ما أغبي هذه الفتاة.... قال في صبر:
- لا تغيير!
ثم سألها وهو يقود (سارلنج) إلى النافذة:
- متى تصل العربة؟
- حالا.
ثم ضغط على الزر فانفلقت الحجرة المصفحة..
وشرعا ينفذان مخطط الهرب عبر النافذة، وتفهما (بيللا) و (سارلنج) المقيد معدوم الحيلة.

∞∞∞∞∞∞

ظل (سارلنج) صامتا طيلة الطريق ينظر إلى لا شيء، بينما (رايكس) يدخن في شراهة، و (بيللا) تقود السيارة وتختلس نظرات إلى الوراء عبر المرآة، كان (برنزر) يتبعهما في سيارة (سارلنج).. بعد دقائق من الصمت الثقيل ارتفع صوت (سارلنج) الذي كانوا قد حرروا فمه:

- (بيللا)..!

- نعم..

- إن أي شخص لن يرغب في الموت.. و (رايكس) لن يجدي معه التوسل.. لكن قد يختلف الأمر معك أنت مختلفة يا (بيللا) وتدينين لي.. ولولاي لكنتِ في السجن منذ زمن.. أنت لا تريدين أن تتورطي في جريمة قتل..

قال (رايكس) وهو يتثاءب:

- ظللت أنتظر أن تقول هذا الكلام منذ ركبنا..

ثم أردف:

- بالطبع هي لا تريد أن تتورط في جريمة قتل..

وكذا أنا.. لكننا تورطنا رغما عنا.. وأنت السبب يا (سارلنج)..

ونظر إلى (بيللا) الذاهلة.. وقال

- هل تريدين أن أخبرك بما سيقترحه..؟.. سيعطيك مائة ألف يا (بيللا) يوم الاثنين صباحا بمجرد أن تفتح البنوك أبوابها مقابل أن تكسري إحدى الإشارات أو تقعي بالسيارة في حفرة.. أي شيء يوقف مسيرتنا ويلفت لنا الأنظار.. عندئذ - يوم الإثنين - تصيرين غنية حرة..

ربما أعطاك العالم كله.. كل السعادة تنتظرك يوم الاثنين، لكنك تعرفين أين ستكونين وقتها.. أليس كذلك؟ جالسة في مكتبه

تعملين على الآلة الكاتبة.. وفي المساء...
- كفي هذا! - صاحت في غضبا - لا أريد كلمة أخرى!
كفا عن الكلام.. وبعد قليل ضحك (سارلنج):
- أنت ذكي يا (رايكس).. طبعا كنت سأعرض عليها الدنيا كلها ثم أعدل الصفقة بعدها..
كانت تقود السيارة كإنسان آلي.
تقود السيارة إلى (لندن).. سيصعد (سارلنج) السلم إلى غرفة النوم ويموت أثناء نومه.. هذا ما يجب أن تقنع نفسها به.. (سارلنج) سيموت أثناء النوم...
كانت الساعة الواحدة والنصف حين وقفت السيارة أمام الجراج وأخرج (رايكس) المنديل ليكمم (سارلنج)..
فقال له هذا:
- ألا يوجد ما أمنحه لك لتتركني:
- لا شيء..
- إن أرجوك أن تكون رحيما مع (بيللا).. أتركها لحالها فهي تستحق ذلك..
هز (رايكس) رأسه وأغلق نوافذ السيارة جميعا..
ثم عاد للباب الخلفي وأخرج من السلة قنبلة بلاستيكية صغيرة لف مسمارها قليلا..
أخذ (سارلنج) بركل. يحاول التملص.. لكن (رايكس) شد مسمار التفجير ودحرج القنبلة على أرضية السيارة، ثم أغلق الباب قبل أن يسمع صوت الانفجار المكتوم.. اتجه بهدوء إلى مقعد وجلس ينتظر.. يحتاج إلى ساعة كاملة حتى يختفي أثر الغاز السام..
وفي هذه الساعة سيفكر في (ألفرتون)..

بعد قليل جاء (برنزر).. وسار معه إلى السيارة ففتح كل منهما بابا ثم هرعا خارجين من الجراج.. وانتظرا ربع ساعة قبل أن يعودا.

هذه المرة كان (سارلنج) متكوما في المقعد الخلفي وقد فارق الحياة.. أخرجاه.. ومشيا عبر الردهة حتى وصلا للطابق الأول.. ثم دخلا غرفة المكتب التي كانا يعرفان مكانها بدقة من الصور.. ونزعا القفازين عن يد (سارلنج)..



هذه المرة كان (سارلنج) متكوّماً فى المقعد الخلفى وقد فارق الحياة ..
أخرجاه .. ومشيا عبر الردهة حتى وصلا للطابق الأول ..

وباستخدام إبهام الجثة الأيسر تمكنا من فتح الخزانة المصفحة، ثم حملا الجثة إلى غرفة النوم ووضعاها في الفراش..
وبرغم ذعر (بيللا) الشديد استطاع (رايكس) إقناعها بمعاونته في نزع ثياب (سارلنج) وإلباسه منامته.. ثم قلب الوسائد كأن (سارلنج) كان نائما مثذ برهة حين حان أجله.. ثم قال لها:
- والآن هيا.. إذهبي إلى حجرتك للنوم.. خذي ثلاثة أقراص منومة..
وربت على خدها ملاطفا..
وهرع إلى الجراج حيث كان (برنزر) ينتظره حاملا الملفات كلها.. فشرعا - بالقفازات في الأيدي – يفرغان منافض التبغ في منديلهما ليخفيا ما كانا دخناه من لفافات تيغ.. وسرعان ما انطلقا معًا بالسيارة...

∞∞∞∞∞

تاركين خلفهما (بيللا) راقدة في الفراش محدقة بعينين لا تطرفان في الظلام، عالمة أن الحبوب المنومة لن تجديها فتيلا...

∞∞∞∞∞

-9-

فرغ (رايكس) من حمامه فخرج منتشا إلى الصالة هناك كان (برنزر) جالسا في استرخاء يحسو بعض القهوة بانتظار قطاره العائد إلى (برايتون)..

كان كلاهما يقظا نشيطا رغم أنه لم ينم ليلة أمس..

وحين تبادلا النظرات أدركا أنهما كانا وسيظلان أخوين تربط بينهما أواصر أقوى من الحب ذاته...

- ماذا سنفعل بشأن (بيللا)؟

- لا شيء الآن.. لا بد أن تمر فترة مناسبة حتى لا تثير الشكوك..

- عندما يحين الوقت اتصل بي إذن..

- بإمكاني التصرف وحدي..

- لا.. نحن دائما نقوم بكل شيء معًا..

ثم أن (برنزر) مد يده إلى المنضدة حيث كان الكتيب الممزق إلى نصفين.. وقال:

- أمس وجدته في سلة المهملات.. إن بعض مذكراته جيدة فعلا..

- لم أحاول قراءته.. كان المخبول بريدنا أن نستولى على سبائك ذهبية من داخل هذه السفينة..

- لو أنه عرض على هذا من خمس سنوات لفكرت بالأمر.. كنت اشتريت ضيعة كضيعته حولها سور عال.. وقصرا به أفخر الرياش..

- أما أنا فأرفض هذا تماما.. السرقة ليست مجالى..

- ربما ترفض الفكرة لأنها جاءت منه ولم تأى منك أنت.. لابد لهذه الأشياء أن تنبع من داخلك..

في السادسة مساء - بعد رحيل (برنزر) – جاءت (بيللا) إلى الشقة.. فنهض (رايكس) يعينها على الجلوس وخلع معطفها.. لابد أن أعصابها في الحضيض..
- كنت خائفة كما لو كان جرمي مكتوبا على وجهي..
- وماذا حدث بالضبط؟
- جاء إلى (بينز) في الصباح يقول لي أن مستر (سارلنج) لا يصحو من النوم.. طلبت طبيبه الخاص..
قال لي إنها سكتة قلبية خاصة والفقيد يعاني مشاكل مع قلبه منذ أعوام.. وطلب مني الطبيب أن أتصل بمحامي (سارلنج) ليرتب الأمور..
- لم يطلب التشريح؟
- لا.. فقط جلس وكتب شهادة وفاة.. كان لا مباليا إلى حد أثار حنقي..
- كنت حقا رائعة!
قالها وألقي بملفها الوردي في حجرها.. وأردف:
- أرجو أن تحرقى هذا.. أنا لم أقرأه ولا أريد ذلك..
ثم سألها وقد ضايقته نظرة الهيام في عينيها:
- متى ينتهي إيجار هذه الشقة؟
- إنه مدفوع حتى آخر (مايو)..
- ليكن.. أما أنا فعلى الآن التخلص من تلك القنابل.. فهى خطرة.. بعدها أعود إلى (ديقون).. هناك السيارة كذلك.. ستتخلص منها فيما بعد.. ما ألذ الشعور بالحرية!
واتجه إلى الطاولة ليصب بعض الشراب لنفسه..

∞∞∞∞∞∞

صباح الثلاثاء:
احتل خبر وفاة (سارلنج) بسكتة قلبية مكانا بارزا في جريدة (التيمز)، وفي نفس اليوم قام (رايكس) بنقل القنابل البلاستيكية المخبأة بالجراج إلى صندوق عادى من الورق المقوى..
ثم قاد سيارته إلى غابة (إنج) ورمي هناك صندوق الجيش الأصلي.. حيث سيجده طفلان بعد أيام ويأخذانه إلى بيتهما ليصنعا منه بيتا للأرانب..
في نفس اليوم أيضا قامت (بيللا) بتنظيف الشقة ووجدت الكتالوج الممزق الخاص بشركة (كونراد) للسياحة... وانتابها الفضول فقامت بلصقه بشريط لاصق لتعرف محتوياته، ووضعته جوار الفراش تحت بعض المجلات لتقرأه فيما بعد..
إلا أنه - حين حضر (رايكس) - كانت قد نسيت كل شيء عن الكتالوج.. ولن تتذكر أمره إلا بعد أيام...

∞∞∞∞∞∞

في اليوم التالى لجنازة (سارلنچ) ذهب (رايكس) إلى (ديفون) وفي رأسه عشرات الخطط للخلاص من (بيللا).
لن يكون وضع خطة صعبا.. التنفيذ هو الصعب لأنه لم يكن يكرهها كما كان يكره (سارلنج).. بل إنه أحيانا كان يشعر بميل تجاهها.. الخرقاء البريئة العزيزة التي تعرف أكثر مما يجب..
وفي داره أخفي صندوق القنابل في المخزن.. ثم شرع يحرق الملفات الوردية في المدفأة..
وفي الصباح التالي حمل ست قنابل إلى الأحراش وفجرها بعد ما تأكد أن أحدا لا يراقبه..
ولم تزل في الصندوق اثنتان وثلاثون قنبلة..

∞∞∞∞∞∞

مع (مارى) جوار المدفأة.. هكذا بدأت القصة:
يرمقان كتل الخشب المشتعلة ويحلمان..
كانت ترتدي سروالا أحمر و (بول أوفر) من الصوف الأخضر وقد مدت ساقيها نحو المدفأة تصطلى وكانت تفكر: لو لم تخبره الآن تكون قد خدعته ولن يغفر لها هذا أبدا.. المهم ألا تدمع عيناها لأن الرجال يضعفون أمام الدموع ولربما أعطوا وعودا يندمون عليها فيما بعد..
- (أندي).. ثمة شيء أريد أن أصارحك به..
- هم مم؟
- أنا لن أنجب أطفالا!
وأمام عينيه الخرساوين مدت يدها إلى جيبها تخرج خطابا مطويا:
- هذا خطاب من طبيب أمراض نساء في (بلايموث)..
سيدتي
إيماء إلى زيارتك لى الأسبوع الماضي لفحص ما قبل الزواج، أحيطك علما بأن جراحة الزائدة الدودية التي أجريت لك منذ ستة أعوام قد أظهرت وجود ورم في الحوض، لهذا اضطر الجراح إلى استئصال المبيضين وقناتي (فالوب)، وأجد من واجبي أن أصارحك بأن فرصتك في الإنجاب توشك أن تكون معدومة.
قرأ الخطاب وأدرك أنها توشك على البكاء.. أحس بالعطف عليها وقال لنفسه: لو أنني أعرف الحب لما اهتممت بالأمر بتاتا.. لكنني معجب بصراحتها وأمانتها.
قال وهو يعيد الخطاب لها:
- ليس هذا أكيدا..

- (أندي).. يجب أن تكون صادقين.. إن أهم شيء لديك هو (ألفرتون).. أنت تحتاج إمرأة تملأ الدار لك بالأطفال الذين يحملون اسم الأسرة.. وأنا عن ذلك عاجزة..
- إذن نجرب حظنا..
- لن أدعك تقامر..
- (مارى).. ماذا تظنين؟.. أتظنيننى تاجرا بيحث عن فرس من سلالة خصبة؟
- كلا.. لكن ما حدث عنه هو الأولاد الذين تحلم بتربيتهم.. ربما لن تشعر بالخسارة الآن لكنك ستشعر بها فيما بعد.. وإنني لأعفيك من أي التزام..
- لا تكوني حمقاء..
لكنه كان يعرف..
يعرف أنه لن يتحمل..
يعرف أن الشيء الوحيد الذي يتمناه هو الإنجاب..
يعرف أنه لن ينسى هذه اللحظة أبدا..

∞∞∞∞∞∞

-10-

صوت الراديو آت من غرفة النوم، على حين تفرغ (بيللا) من حمام المساء وترتدى الروب، ثم تمضي إلى حجرة نومها.. وهنا سمعت تلك التكة المميزة الانفتاح فانغلاق باب الشقة.. أصابها الهلع وكانت تصرخ..

وهنا برزت إمرأة على باب الغرفة.. وبنعومة قالت:

- لا تقلقي أرجوك!.. لا أحد يحاول إيذاءك..

- من أنت؟.. كيف دخلت هنا؟

- أسئلة كثيرة أريق عليها في الصالة؟

كانت المرأة في الثلاثين من عمرها.. قصيرة.. نحيفة.. ترتدي عوينات شفافة وحلة أنيقة من الصوف الكاروهات.. وتبتسم بود:

- لو كنت مكانك لصرخت.. لحسن الحظ أنك لم تفعلى.. بالمناسبة.. اسمي (إيثيل).. وهو اسمه (بنسون).

خرجت (بيللا) إلى الصالة لتجد هذا الا (بنسون) واقفا ينتظرها.، ويبتسم:

- عسى ألا نكون أزعجناك بدخولنا بهذه الطريقة!

- ماذا تريدان؟

- فلنجلس أولا ونتكلم..

كان فارع القامة وسيما.. أنيقا إلى حد أكثر من لازم.. يا الله... ماذا يريدان؟....

- والآن يا مس (فيكرز).. اللافتة على الباب تقول أن هذا مسكن آل (فيكرز).. فأين زوجك؟..

- ليس هنا.. مسافر.. عمله.. يسافر كثيرا..

رفع الرجل عينه نحو المرأة أمرا في حزم:

= (إثيل).. عليك تفتيش الشقة بعناية..
نهضت المرأة على حين استدار نحو (بيللا) مردفا:
- كم عمر زوجك؟ وكيف يبدو؟
- في الخمسين من العمر.. قصير بدين.. أصلع..
- أنت تكذبين.. فأنا أعرفه جيدا.. أنت سكرتيرة مستر (سارلنج) رحمة الله.. أليس كذلك؟
- بلى.. اسمع.. عليكما بالخروج الآن وإلا صرخت وطلبت الشرطة..
هز كتفيه في استهتار.. وغمغم:
- كما تشائين.. أنا شخصيا أفضل ذلك...
جلست (بيللا) في غباء ولم تفعل شيئا..
- لقد أعطيتك الفرصة فلم تستغليها.. لماذا يا ترى؟.. أعتقد أن لدي فكرتي الخاصة عن السبب..
ما هو اسم مستر (فيكرز) الحقيقي؟
ولما واصلت الصمت.. أضاف.
- الاسم الذي عرفته به هو (تونسي آبل جيت).. لكني واثق أن هذا ليس اسمه الحقيقي.. فما هو؟
- ماذا تريد منه؟
- تنك قصة طويلة.. نريد مقابلته لمناقشة العمل ما هو اسمه وكيف نجده؟
ولما عادت إلى الصمت قال لها:
- إذن.. أبلغيه أن (بنسون) يريد من (آبل جيت) أن يلقاه هل ستنسين؟
وهنا عادت المرأة من الداخل حاملة (الكتالوج) الممزق إلى نصفين الذي أعادت (بيللا) لصقه..
- وجدت هذا في غرفتها!

أدركت (بيللا) أن هناك شيئا ما خطأ.. شيئا مخيفا لكن من يرشدها لما لا ينبغي وما ينبغي أن تقوله؟
الرجل يتصفح (الكتالوج) بأظفار لامعة... ثمة خاتم سميك من الذهب في يده..
ثم رفع وجهه نحوها وابتسم:
- هل يهمك أمر هذا (الكتالوج)؟
- لا.. البتة!
- إذن سأحتفظ به بعد إذنك.. لا تنسى إبلاغ (آبل جيت) برسالتي، وأكرر أسفي على الإزعاج الذي سيبناه..
وغادر الشقة مع الفتاة..
أدركت (بيللا) أنها قارفت خطأ جسيما لا تدري ما هو.. هرعت إلى الهاتف تطلب رقم (رايكس) في (ديفون).. عبثا حاولت نصف الساعة لكن الجرس ظل يدق هناك كحيوان يتن في أعماق نفق مظلم..

∞∞∞∞∞

عزيزى (أندي):
بكل أسف أقول لك أنني اتخذت قراري ولا رجعة فيه.. عندما تقرأ هذا الخطاب أكون في طريقي إلى (قبرص) لقضاء بضعة أيام، أي أنني أفسخ خطبتنا وأعفيك من أي التزام نحوى..
(مارى)
جلس في مكانه يفكر وقد طوى الخطاب، ثم نهض إلى النافذة شاعرا بالارتياح لأنها أزالت عن كاهله عبئا أخلاقيا مروعا..
لقد قتل (سارلنج) لأنه كان عقبة أمام أحلامه وهو الآن يخطط لقتل (بيللا)..

ربما كان سيفعل نفس الشيء مع (مارى)..
لكن نهاية قصة (مارى) أورثه شعورا بالقلق عليه الآن أن يجد فتاة أخرى تأخذ مكانها في أحلامه..

∞∞∞∞∞∞

في السابعة صباحا وصل إلى شقة (ماونت ستريت)..
ففتح الباب بالمفتاح ودخل..
وفي غرفة النوم كانت (بيللا) التي صحت مذعورة حين رأته.. فما أن عرفته حتى طوقت عنقه بذراعها باكية وحكت له كل شيء عن زيارة (بنسون).
اللعنة!.. لابد أن نجمه منحوس... كلما دنا من حلم حياته ظهرت له عقبة ما أن يزيحها حتى تظهر عقبة أخرى.. مثله مثل أمه.. لقد ورث عنها قلة حظها..
رفع سماعة الهاتف وطلب رقما ما..
- هاللو.
- لقد عاد (تونى آبل جيت) ويطلب موعدا..
بعد ساعة - كما في المرة الأولى - دق جرس الهاتف، وطلب منه أن يذهب إلى فندق ريتز) غدًا في العاشرة..
كانت الحجرة كما رآها أول مرة.. وكان ذلك اللص الوسيم (بنسون) واقفا في وسطها مثالا للوسامة والرجولة..
قال (رايكس):
- لماذا لم تتصل بى بدلا من إثارة رعب (بيللا)؟
. أحيانا تأتي الزيارات غير المتوقعة بثمار طيبة!
وابتسم ابتسامة ذات مغزى وأردف:

- سبب زيارتى هو أنك لم تتصل بي بشأن العملية. ورجل الأعمال الناجح لابد وأن يتابع أعماله باستمرار ماذا حدث لك إذن؟
- قررت ترك العملية فحسب..
- هل لي أن أعرف السبب؟
مخاطرها كبيرة.. كما أنها ليست من اختصاصى..
- على العكس.. هي في اختصاصك تماما!
لم يكن (بتسون) قائل هذه العبارة.. بل كانت من رجل طويل أشيب ذي أنف معقوف مما أعطاه سيما الصقر، وكان قد دخل الغرفة دون أن يلاحظه (رايكس)..
- أقدم لك مستر (ماندل) مدير شركتنا..
جلس (ماندل) على المكتب ومد يده إلى كتيب كان هناك.. كتيب (كونراد) تحديدا.. وقال:
- دعني أؤكد لك يا مستر (رايكس) أنك ستقوم بهذه العملية.. أولا لأنك جدير بها.. ثانيا لأنني سأجبرك على ذلك!
دون جهد أدرك (رايكس) أن الرجل يملك من الأسباب ما يبرر له كل هذه الثقة.. لهذا لم ينهض غاضبا كما أزمع وجلس يصغى..
- أنت كنت تعمل مع (سارلنج).. نحن نعلم ذلك ونعلم - من هذا (الكتالوج) - أنه كان يخطط لسرقة السفينة (كوين إليزابث).. لقد كان (سارلنج) ثرثارا.. رغم زعمه.. وكان من السهل أن نعرف أنه يضغط عليك.. أنت قد صرت حرزا الآن.. وهناك احتمال لا بأس به أن تكون قد قتلته أنت وزميلك واستخدمتها بصمته في الحصول على الملفات.. لا أقول إنك فعلت هذا.. فأنا لست واثقا.. إنه مجرد فرض.. لكن بضع كلمات مع البوليس كافية لإعادة التحقيق في موت (سارلنج).. أنا أعرف أنك و

(برنزر) لن تتكلما.. لكن الفتاة هشة ويسهل الإيقاع بها.. فهل أنت حقا مستعد لهذه المخاطرة؟
أطفأ (رايكس) لفافة تبغه في المنضدة.. ثم وضع (الكتالوج) في جيبه.. وتساءل بصوت مبحوح:
- وما هو الضمان أن تتركوني في سلام بعد هذه العملية؟
- كلمتى فقط.. عندما ينخرط المرء في عالم الجريمة فإنه يتخلى للأبد عن الشعور بالأمان.. إنها النتيجة الحتمية للمال الحرام.. غير أن هناك نوعا من الثقة يسود عالمنا والآلاف يعتمدون على ذلك..
- ربما أقتلك أنت أيضا؟
- لا.. هناك عشرات الأشخاص ورائي.. لقد كان (سارلنج) يعمل منفردا وتلك هي غلطته الكبرى.
- وهل لابد من توريط (برنزر) في هذا؟
- حتما.. وكذلك مس (فيكرز)..
ثم وقف في حزم معلنا انتهاء المحادثة:
- ستتحمل معظم الخطر وحدك وتحصل على خمسة وسبعين بالمائة.. سيحدثك (بنسون) عن التفاصيل..
ومد يده إلى (رايكس) لكن هذا تجاهلها في اشمئزاز..
وغادر الحجرة...

∞∞∞∞∞∞

لم يكن به غضب الآن.. هناك حيث مشي تحت الثلج المنهمر غير شاعر به.. (سارلنج) ثم (مارى) ثم (ماندل).. كلهم ضدى.. كلهم أجلوا حلمي إلى أجل غير مسمى.. لا سبيل إلى الهرب.. لا سبيل...

وعندما دقت الساعة الثانية دق هو جرس (برنزر) في (برايتون)...
فتح (برئزر) له الباب مرتديا سترة من اللون الأزرق القاتم وسروالا رماديا..
ولم يكن يعرف ما يحمله له من أخبار..

∞∞∞∞∞∞∞

-11-

مما أثار دهشة (رايكس) أن (برنزر) بدا متحمسًا للعملية.. مبتهجا بها.. وإذ وقف (رايكس).. قال:

- هذا هو كل شيء.. أقترح أن يفكر كل منا على انفراد ثم نلتقي لتبادل الرأي.. لن تبحر (كوين إليزابث) إلا بعد ١٨ إبريل.. يمكننا الإعداد لكل شيء قبلها..

قال (برنزر) وهو مازال جالسا:

- أنت مندهش لرد فعلي تجاه العملية..

- بالتأكيد

- يا عزيزى (فرامبتون).. نحن واجهنا مخاطر عديدة مقا طيلة حياتنا.. ولم نفعل ذلك لأجل المال فقط.. فكر في الأمر وستجد أن لنا سلوكا مغايرا لكافة الرجال.. إننا لا نستطيع الحياة في سلام مطلق.. فلابد لنا من حياة الأخطار.. إننا - بالواقع - غير سويين.. عاجزان تماما عن الانتماء للمجتمع العادي..

ضحك (رايكس) في مرارة:

- ربما يريحك هذا التفسير.. لكنني أعرف تماما أنني بحاجة إلى حياة هادئة مستقرة أسرية.. ولن أدع أحدا يقف في طريقي..

∞∞∞∞∞∞

كان بحاجة إلى دراسة السفينة بعناية..

فالخطة التي وضعها تقضي بسرقة الذهب خلال ست عشرة ساعة من مغادرة السفينة ل (ساوث هامبتون) وهي ما زالت في (المانش).. إن هذه السفن تشبه المدن العائمة ومن السهل على الإنسان أن يضل طريقه فيها لهذا سافر إلى (ساوث هامبتون)

حيث أقام في فندق (بولى جون) حيث يقيم عدد كبير من العاملين في شركة (كلايد) ينتظرون التمام من إصلاح السفينة..
وبعد أيام استطاع أن يتعرف على مهندس سكير اسمه (ألفريد جرهام).. لم يكن عسيرا أن يحمله إلى الفراش ويسرق منه تصريحه الذي لم تكن به صور فوتوغرافية.



لم يكن عسيرا أن يحمله إلى الفراش ويسرق منه تصريحه الذى لم تكن به صور فوتوغرافية ..

وتمكن أن يدخل السفينة بهذا التصريـح، خاصة بعد أن أدرك أن الحارس لا يأخذ التصاريـح بل يكتفي بالتلويـح بها...
وهكذا دخل (رايكس) السفينة..
كان يعرف أن سرقة الذهب هينة لكن نقله من السفينة شبه مستحيل، مالم تقم طائرة (هليوكوبتر) بالتحليق فوق السفينة الترفع الذهب إليهاوضايقه أن وجد عامودا في منتصف سطح السفينة، مما سيجعل مهمة (الهليوكوبتر) في التحليق عسيرة..
على أنه درس قلب السفينة والكافتريات وسطوح القوارب.. إلخ..
كان المكان يغص بالعاملين لكن أحدا لم يستوقفه أو يطلب تصريحه..
حاول كذلك أن يعرف مكان القيادة حيث سيوجد القبطان وحيث سيحاول (رايكس) أن يفرض إرادته عليه، وعلى السفينة كلها..
وتعرف - بكل ثقته المصطنعة - على أحد الضباط زعم له أن رجلا يدعى (فيرار) ينتظره في قمرة القيادة لا يوجد لدينا (فيرار).. تعال لتر بنفسك.. إن الضابط رائق المزاج - فغدا الأحد إجازة - ومستعد ليريه كل شيء على أساس أنه (جرام) المهندس..
كل شيء رآه (رايكس).. بما في ذلك العامود الذي أثار قلقه والذي لم يكن سوى تلسكوب يتم خفضه بعد إقلاع السفينة..
لا بأس على الإطلاق... لقد اطمأن قلبه..
وفي المساء عاد ليقابل (بنسون)..

∞∞∞∞∞∞

- لقد أعددنا الخطة.. لكني بحاجة إلى صلاتكم النفوذية من أجل تدبير بعض أشياء

- مثل ماذا؟
- أنا ومس (فيكرز) ستكون على ظهر الباخرة.. لا أريد كابينة لي بل كابينة باسمها هي.. ولتكن الكابينة رقم (4004) لأن موقعها يناسبني..
- ستكون لك الكابينة..
- بعد ترك السفينة (لوهافر) بأربع ساعات ستكون في شمال (المانش) وسرعتها ٢٧ عقدة.. أريد منكم تدبير طائرة عمودية (هليوكوبتر) تنطلق من (فرنسا)..
لا تهمنى سرعتها.. المهم أن يكون مجالها مائتي وخمسين ميلا.. وأن يكون بها ونش قادر على رفع سبائك الذهب في شبكة..
. لكن السرعة عالية ولربما سببت الريح مشكلة.
- لا مشكلة لأن السفينة ستبطئ سرعتها وتستدير مع الريح.
- بناء على تعليماتك؟
- بل تعليمات القبطان التي سأجعله يصدرها.
طلب (رايكس) من (بنسون) كذلك أن يكون (برنزر) على متن (الهليوكوبتر) ولذلك يجب معرفة الوزن الذي تستطيع الطائرة حمله مع أربعة رجال..
ويجب إجراء تجارب المعرفة الوقت اللازم لرفع طن أو طنين من الذهب..
- لا بأس - قال (بنسون) -: إلا أنك ستتحمل جزءا من النفقات يخصم من نصيبك بالطبع!

∞∞∞∞∞∞

وفي إحدى ليالى منتصف (إيريل) ذهب ليقابل (برنزر) على مقهى (راك)...

كان جالسنا هناك مع (بنسون) يتحدثان بخصوص العملية المقبلة.. فما أن رآه (برنزر) حتى أخبره أن التجارب لا بأس بها مع الطائرة حتى في وجود رياح شديدة، وأنه يمكن رفع الذهب خلال أربعين دقيقة..

إن الطائرة سترفع ستمائة رطل في كل مرة أي أربع وعشرين سبيكة.. والمطلوب رفع أربع نقلات.. كان من الضروري عدم تطويل الفترة على القبطان حتى لا يفكر في أعمال حمقاء..

وحين تنتهي العملية يلحق (رايكس) بركاب الهليوكوبتر التي ستحلق داخلة الحدود الفرنسية، وفي (بريتانى) في (فرنسا) يتم تخزين الذهب في قلعة قديمة اسمها (ميريا).. على حين يتولى (بنسون) تصريف هذا المخزون..

ستسافر (بيللا) على ذات السفينة في الكابينة التي اختاروها لها.. ولن تظهر معرفتها لـ (رايكس) بأي شكل..

واصطحبها (زايكس) إلى الغابة ليشرح لها كيفية تفجير قنابل البلاستيك التي ستكون مسئوليتها في أثناء العملية:

- إن العملية ستنجح. قال لها مطمئنا ـ ولن نحتاج إلى تفجير القنابل.. لكن يجب أن تكوني واثقة من نفسك ومن قدرتك على التفجير.. وكذا يجب على أن أكون واثقا من قدرتك هذه.. حتى يكون لكلامي معه مصداقية تامة..

- لكنك قلت أننا لن نفجرها!

- هذا لأننى واثق أن القبطان سيفضل حياة الركاب على بضعة كيلو جرامات من الذهب.. هذا واجبه.. ولو لم يفعل لقضي على مستقبله تماما..

- كان يعرف في قرارة نفسه أنها ستطيعه طاعة عمياء.. وأنها ستقتل أي شخص إذا ما طلب هو ذلك منها ثم تنسى الأمر برمته بمجرد أن تصل إلى (نيويورك)....

فلم يكن يقلقها ما سيحدث فوق ظهر السفينة..
كانت قلقة بشأن ما سيحدث عند وصولها إلى (نيويورك).. كانت تريد أن تسأله لكنها عرفت أنه لن يرحب بالسؤال.. بل كانت هي أيضا تخشى إجابته...

∞∞∞∞∞

ترك حقيبته في الأمانات، وملأ جيوبه بالأشياء التي سيحتاجها كالمسدس ومسدس (فيرى) الخاص بالإشارات، ولم يأخذ معه ما يدل على شخصيته سوى جواز السفر وبه تأشيرة الدخول إلى (الولايات المتحدة).. كان سيحتاج هذه الأخيرة إذا ما فشلت العملية واضطر إلى البقاء على السفينة.. عندئذ كان سيدخل (الولايات المتحدة) كأي مسافر عادى..

صعد إلى متن السفينة (كوين إليزابث) كزائر في أثناء صعود الركاب إليها..، ثم هبط إلى الكابينة رقم (4004) ودق الباب ففتحت له (بيللا)..

أفرغ جيوب معطفه في خزانتها.. المسدسين.. القنابل.. ثم دعاها للصعود معه لدراسة السفينة لأنها أشبه بمدينة كاملة، ومن الممكن أن تضل طريقها فوقها..

وأشار إلى عقد اللؤلؤ حول عنقها:

- كنت ترتدين هذا يوم قابلتك أول مرة!

- كان يوما سيئا بالنسبة لك..

هز كتفيه وغمغم:

- ليس سيئا.. فقط جعل الأمور صعبة نوعا..

ابتسمت في سرها.. صبرا يا (بيللا).. لا تتعجلى الأمور.. سيأتي اليوم الذي يكتشف فيه عواطفه نحوها...

وفوق السطح مشت تتأمل كل الأماكن التي رأتها مئات المرات في الرسوم البيانية.. هنا المكان الذي تلقى عنده بقنابل الغاز.. هنا النافذة الزجاجية التي تراقب من عندها تحميل الطائرة..

من هنا ستراقب الإشارات الضوئية التي تخبرها أن كل شيء على ما يرام..

وعادت لحجرتها في حين ذهب (رايكس) إلى كافتريا السفينة فطلب مشروبا لنفسه، وشرع يرمق استعدادات السفينة للاقلاع.. بدأ التحرك، وأخذت فرقة موسيقية تصدح بالأنغام العذبة بينما الأعلام الملونة ترفرف.. لم تكن مجرد سفينة.. بل هي مدينة عائمة تنبض بالسعادة.. سعادة غامرة كان على (رايكس) أن يهدمها..

∞∞∞∞∞

كانت (بيللا) في الفراش تحلم..
(ديقون).. الحياة مع (رايكس) هناك.. يوم تصير مسز (بيللا رايكس).. الدار الملأى بالأطفال تعني بهم مربيات حازمات.. وهي ستغير تسريحة شعرها وتتعلم قواعد السلوك القويم.. وتكون حياتها الباقية كنهر هادئ جميل....
دق باب الغرفة.. كان القادم هو (رايكس):
هل أكلت؟
- لا..
- لابد لك من وجبة عشاء طيبة.. سأقضي الوقت هنا فإذا دق النادل الباب، عليك أن تدخلى الحمام معى وتفتحى الدوش ثم تخرجى رأسك من باب الحمام وتسأليه عما يريد..
كان هذا ضروريا لأنه بالنسبة لطاقم السفينة لم يكن (رايكس) بين الركاب. وهذا منطقي.. لأنه سيهرب في (الهليوكوبتر)، فليس مستحبا أن يعرفوا أنه كان مقيما مع (بيللا) في قمرتها.. سيكون هذا هو طرف الخيط الذي يمكن أن يقودهم إليه دون كثير عناء...
وفي الثامنة مساء جاءت مكالمة هاتفية ل (بيللا):

صحة العمة العجوز لا بأس بها..
بمعنى آخر: سرعة الرياح مناسبة للعملية هذه الليلة، وكان هذا مناسبا لأن السفينة بدأت في هذه الساعة تدخل مياه (المانش)..
هواء الليل البارد يداعب وجه (رايكس) حيث وقف يراقب أنوار (لوهافر) عن بعد..
ظل يجوب السفينة لمدة ساعتين، ثم نزل إلى قمرة (بيللا) - ولم تكن هي هناك - فأخذ المعطف والقفازين والمسدس ومسدس (فيري) والخراطيش..
وبحركات آلية توجه إلى القسم الخاص بطاقم السفينة..
الساعة جاوزت منتصف الليل بعشرين دقيقة عند باب القبطان أخرج وشاحا لفه حول نصف وجهه الأسفل وفتح الباب..
كان الباب المؤدي إلى غرفة نوم القبطان مفتوحا..
وبينما هو يتأهب انفتح الباب وخرج القبطان بكامل ثيابه يدندن لنفسه.. ثم رأى (رايكس) فتصلب.. ذلك الوجه البشوش الأشيب بلحيته الصغيرة المنمقة.. الوجه الذي تخيله (رايكس) من الصور مرارا..، وبصوت هادئ قال (رايكس):
- أقترح أن تجلس وتصغي لما سأقول، ولوح بالمسدس.. وأردف
- أنا لا أمزح يا سيدي.. ولو أنك لم تنصع لأوامرى فسيقتل عدد لا بأس به من الركاب.. لذلك أرجو أن تجلس وتضع يديك حيث أستطيع رؤيتهما..
- لا تضيع وقتك في الكلام المهذب يا رجل.. فقط قل ما تريد..
- هذه السفينة تحمل سبائك ذهب.. ولدى طائرة عمودية تحلق بانتظار رفع طن من هذا الذهب إذا أنت أصدرت أوامرك بحمله إلى السطح..
- سأراك في جهنم قبل أن

- إذن.. هناك شريك لي على ظهر هذه السفينة ينتظر إشارة مني وإلا سيقوم وسط الزحام – بتفجير ست قنابل تحوي غازًا سامًّا يبيد الركاب..
- وإذا أنا رفضت ستموت أنت أيضا..
- طبعا لكن من قال لك أنني غير مستعد للموت؟ سأموت.. لكنك لن تستطيع أبدا تبرير إنقاذك للذهب على حساب أرواح من سيموتون..
سكت القبطان برهة.. وغمغم:
- إن أمثالك يملئون عالمنا هذا اليوم.. وأنا لا أجد متعة في صحبتك..
كان (رايكس) يحترم الرجل.. الرجل الكفء ذا الخبرة في مهنته التي تعدت ثلاثين عاما.. الرجل الذي وضعه في مأزق بين الإحساس بالمسئولية وكراهية القرصنة..
قال (رايكس):
- والآن تخرج المفاتيح ونصعد إلى غرفة القيادة، حيث تقلل السرعة وتواجه الريح لتتمكن (الهليوكوبتر) من التحليق.. بعدها ترفع إلى السطح صناديق تحوى ثمانين سبيكة من الذهب.. سيتم هذا بمعونة خمسة من رجالك.. بعدها أصعد إلى الطائرة وسيظل التهديد قائما حتى ترحل.
- وهل يذهب شريكك معك؟
- بالطبع لا.. لابد أن يبقى لحماية ظهري.. لكنك لن تتعرف عليه أبدا.. وسيرحل في (نيويورك) وسط عشرات الأبرياء الآخرين..
دون كلمة أخرى تناول القبطان المفاتيح، وأشار إلى المسدس في يد (رايكس):
من إخف هذا.. فلن أذهب إلى قمرة القيادة وهو في ظهري..
وكان هناك أربعة رجال ينظرون في دهشة..

قال القبطان لأحدهم:
- مستر (دورمر).. يؤسفني أن أقدم لك ضيفنا غير المرغوب فيه.. بسببه نحن في موقف يجبرنا على إطاعة أوامره مهما بدت غريبة أو شاذة.. مفهوم؟
- نعم سيدى..
أخرج (رايكس) مسدس (فيرى) للإشارات ووضع به خرطوشة واحدة وأمر أحد الرجال أن يطلق طلقة واحدة حين يصل لمقدمة السفينة..

∞∞∞∞∞∞

الضوء الأخضر يغمر السماء ا...
رأته (بيللا) حيث وقفت عند مؤخرة السفينة، وأدركت أنه فعلها.. في الحال زال توترها المتزايد..
نفس الضوء رآه (برنزر) من (الهليوكوبتر) التي تحوم على بعد ربع ميل..
وأدرك. ومن معه في الطائرة - أن (رايكس) فعلها..
فعلها كما اعتاد دائما..
لقد بدأت لعبة النهاية..

∞∞∞∞∞∞

-13-

قال القبطان:

- مستر (درومر) أبلغ غرفة التحكم أننا مضطرون إلى تقليل السرعة حالا.. وفي نفس اللحظة عاد إلى الغرفة الضابط بمسدس (فيرى) فأخذه (رايكس) منه.. ثم قال للقبطان:

- أشعل أضواء مقدمة السفينة..

استدار القبطان متجاهلا له وقال للضابط الثالث:

- أطلب ضابط وردية الأمن وخمسة رجال خارج غرفة الإيداع..

ما أن ذكر آخر كلمتين حتى التقت الضابط الأول نحوه غير مصدق.. على حين شرع الضابط الثالث ينفذ الأوامر.. كلهم كانوا يتحاشون النظر له في احتقار..

أدرك (رايكس) أنهم - بحق - مشمئزون منه.. وتمني في سره أن تتم العملية سريعا قبل أن يحاول أحدهم شيئا أحمق..

- أضيئوا مقدمة السفينة..

مد أحدهم يده إلى لوحة المفاتيح، وبعد دقائق عم الضوء الباهر كل مقدمة (كوين إليزابت).. قال القبطان:

- والآن.. ها هي ذي مفاتيح غرفة الإيداع يا مستر (دورمر) ستذهب هناك وتشرف على الرجال إذ ينقلون ثمانين سبيكة ذهبية إلى سطح المقدمة..

وعاد الرجال يواصلون عملهم متجاهلين (رايكس) تماما..

يالبرد العزلة يعتصر قلب (رايكس)!.. إنه خجل من نفسه.. هو المجرم الذي انتهك حرمة هذه السفينة العظيمة التي يفخر كل واحد من هؤلاء بها..

وللمرة الأولى أحس أنه إنسان غير متزن.. شرير..

هنا دوي صوت اللاسلكي:

لقد وضعنا الذهب في المصعد يا سيدى..
نظر له القبطان في إزدراء وقال:
- الآن لا داعي لوجودك هنا.. سنصعد معا إلى السطح..
قال (رايكس) محاولا تمالك نفسه:
على إطلاق إشارتين ضوئيتين من هنا حين يستقر الذهب على السطح..
مدّ الضابط الثالث يده وأخذ مسدس (فيري) ومعه طلقتان.. وأمره القبطان أن يطلقهما حين تصل الصناديق للسطح..
وتقدم القبطان (رايكس) إلى سطح السفينة...
بعد دقائق أضاءت السماء مرتين باللون الأخضر الساطع...

∞∞∞∞∞

رأت (بيللا) الوهج فأدركت أنه نجح..
دائما ينجح.. كل كلماته تصير حقائق...
رفعت حقيبتها إلى حافة السور ورمتها بما فيها من قنابل إلى الماء.. ثم أزمعت أن تعود إلى قدرتها..
لم تكن تريد أن ترى عملية التسليم..
لا تريد أن تراه وهو يحلق بعيدا عنها إلى السماء حيث يغيب بين السحب المظلمة بعيدا.. ربما للأبد..
من الأفضل أن تتعلق بالأمل وأن تعود لغرفتها..

∞∞∞∞∞

الأذان تعالى صوت هدير مراوح الطائرة حتى صار يصم.. ومن مكانه استطاع (رايكس) أن يرى بابها الجانبي وقد فتح وتدلى منه

خطاف.. واستطاع أن يرى وجه (برنزر) العزيز.. وأن يرى رجلا لا يعرفه يمسك بشبكة يلقي بها فوق السطح..
قال (رايكس) للقبطان في حزم:
عشرة صناديق فقط في كل شبكة..
وأصدر الرجل أوامره فقرد الرجال الشبكة وشرعوا يلفون الصناديق في قلبها.. ثم ابتعدوا بعد أن ثبتوا الخطاف فيها.. وشرع السلك يرتفع لأعلى.

∞∞∞∞∞

رجلان يريان المنتظر من نافذة المراقبة:
- ما هذا؟.. يبدو الأمر كأنها سرقة بالإكراه!!
- لا تكن غبيا
- لكن ذلك الرجل.. إنه يضع وشاحا على نصف وجهه..
- ربما ليتقى البرد.. إن كل شيء على مايرام.. القبطان هنا وضابط الأمن.. لا توجد مشاكل..

∞∞∞∞∞

في الحال رمى ركاب الطائرة شبكة أخرى، على حين شرعوا يدخلون الشبكة الأولى داخل الطائرة..
نظر (رايكس) إلى ساعته.. إن العملية تسير بدقة تامة.. كما أن فكرة استخدام شبكة جديدة في كل مرة جيدة حقا.. ووفرت الكثير من الوقت..
كانوا قد رفعوا الشبكة الرابعة وانتظر (رايكس) أن يدلوا الخطاف ليرفعوه..

وكان (برنزر) يلهث غارقا في العرق بينما هدير المحركات يصم أذنيه.. في السادسة صباحا يكون في جنوب (فرنسا) الجميلة.. من يدري؟.. ربما لن يعود إلى (إنجلترا) أبدا.. لا يهم.. فهو قادر على الاستمتاع بالحياة في كل مكان.. لا مثل (رايكس) السمكة التي تموت لو غادرت أنهار (ديفون).. (رايكس) الحبيب (رايكس) الأخ والصديق..

اتحني ليدلي بالخطاف إلى (رايكس)...

أحس بدافع ما يدعوه إلى أن ينظر للوراء..

وحين نظر رأي المسدس مصوبا على بعد قدم واحد إلى ما بين عينيه.. وسمع الرجل الذي معه يقول:

- معذرة يا زميل.. الأوامر هي الأوامر!

ولم يتسع الوقت كى يفهم (برنزر) الحقيقة.. إن هي إلا طلقة واحدة قذفته إلى الوراء.. من باب الطائرة المفتوح...

هوى الأسفل وقد فرد ذراعيه وساقيه.. ليصطدم بسطح السفينة مهشم الأوصال.....

وفي السماء ارتفعت (الهليوكوبتر) ببطء مالئة الكون بضوضائها، واستدارت محلقة نحو الغرب..

حتى غابت عن العيون...

∞∞∞∞∞


هوى لأسفل وقد فرد ذراعيه وساقيه .. ليصطدم بسطح السفينة مهشم الأوصال ..

الأسي ثم الدهشة ثم استيعاب الموقف!
كل هذا دار في عقل (رايكس) الذي لم يشله ما رأى..
وقبل أن يتحرك أحد.. قبل أن يصرخ أحد.. كان قد أخرج مسدسه وهرع يركض إلى مدخل السطح.. ثم ممر يؤدي إلى جناح الطاقم.. وبينما هو يجري خلع معطفه واللثام.. وعلى الدرج نزل طابقا.. ثم مشى بهدوء...
إنه الآن مجرد راكب عادي لا يعرفه أحد..

إتجه إلى قمرة (بيللا).. إنها الواحدة صباحا.. استند إلى الجدار ومسح جبينه من العرق المنهمر..
لقد قتل الأوغاد (برنزر) أمام عينيه.. خدعوهما كطفلين.. لماذا لم يخطر له ذلك؟.. ياللخيانة!..
هل يخطو إلي قمرة (بيللا)؟.. هل من حقه أن يورطها معه؟..
إنه في محنة.. محنة حقيقية..
لقد تخلى الحظ عنه وتخلي الناس..
هذه الليلة - في غرفة القبطان عرف حقا قدر نفسه وموضعه بين الناس الشرفاء المكافحين..
أولا النقطة الحمراء في (الكتالوج).. ثم عقم (مارى).. ثم خيانة (ماندل).
لكنه لن ييأس.
إن ذهنه متوقد ولديه المهارة الكافية للخروج من هذا المأزق..
هذه المصيدة العائمة....
تعهد أمام نفسه - لو نجا- أن يتزوج (بيللا) ويحبها بكل كيانه..
ستغدو أما لأطفاله
كان باب القمرة مفتوحا، وحين دخل القمرة أدرك أنه قد قدم هذا التعهد بعد فوات الأوان..

∞∞∞∞∞∞

-14-

بدت وكأنها نائمة حيث رقدت بقميصها الحريري الوردي على الفراش، وقد مال رأسها قليلا إلى اليسار الفارق الوحيد بين حالتها وحالة النائمين هو أن عينيها كانتا مفتوحتين.. وأن ثقبا أحمر مستديرا توسط جبينها وقد مال منه خيط دم رفيع نحو حاجبها..

نظر (رايكس) إلى اليمين..

إلى الرجل الواقف جوار الفراش، بقامته الفارعة وشعره الرمادي وقامته المنحنية إلى الأمام كصقر عجوز.. وفي يده اليمنى مسدس كاتم للصوت...

همس (رايكس) بصوت خافت:

- ولكن لماذا؟

قال (ماندل) وهو يداعب زهرة بيضاء في عروة سترته:

لأنها كانت جزءا منك مثلها مثل (برنزر).. لقد صعدت إلى السفينة عند (لوهافر) وراقبت تنفيذك للعملية بإعجاب شديد.. أنت موهوب حقا..

- إذن لماذا تقتلنا؟

تقدم (ماندل) - والمسدس في يده - نحو (رايكس)..

مد يده في جيبه وأخرج المسدس الآلي قدسه في جيبه هو وقال:.

- أنظر إلى وجهي.. سترى الشبه بينه وبين وجه (سارلنج) قبل أن يتشوه.. كنا سبعة أشقاء وكان هو أقربهم لي.. لذلك صممت على الانتقام من قاتليه.. لقد قتلنا (برنزر).. ثم هي.. والآن أنت..

- لم يكن لهذه الطفلة ذنب..

ابتسم (ماندل) ولم يعلق.. اكتفى بالقول:

- وداعا يا مستر (رايكس)؟

∞∞∞∞∞∞

في نفس لحظة الإطلاق وثب (رايكس) نحوه..
أصابته الرصاصة في الكتف الأيسر فسقط أرضا من الصدمة..
لكنه تمالك نفسه وأمسك بكاحل (ماندل) ليسقطه أرضا..
ووجدت يدا (رايكس) رقبة الرجل..
أطبقت أصابعه الفولاذية - التي تربت على العمل في المزرعة.
على العنق النحيل وشرعت تضغط.. تضغط..
حتى غارت الحياة من جسد (ماندل) الذي تراخى تماما..
رقد (رايكس) ينزف الدم ويجاهد من أجل التنفس ثم فتح عينيه، والتقط المسدس من يد (ماندل) وصوبه ما بين عينيه وأطلق رصاصة تأكيدية.
أمامه الآن شيئان: أن يموت دون أن يترك أثرا يقودهم إلى إسم (رايكس) فيلطخونه بالعار.. وألا يدع لأحد فرصة للربح من هذه العملية..
زحف إلى حقيبة (بيللا) فأخذ قلما من الحبر.. وورقة وكتب بوضوح:
سيدي القبطان:
هذه السطور كتبها الضيف الثقيل الذي حل على سفينتك..
أبلغ السلطات الفرنسية أن سبائك الذهب سيتم تخزينها في قلعة (ميريا) بقرية (لودياك) في (بريتانى).
ووضع الرسالة في مكان ظاهر.. ثم انحنى ليلثم يد (بيللا)..
لو كانا قد نجيا لأخذها زوجة له في (الفرتون) لتعيش معه في سعادة أبد الآبدين..

سار في الدهليز الخالى رغم علمه أنهم يفتشون كل شبر من السفينة بحثا عنه.. فهو لا يخشى شيئا الآن..
وصل إلى السطح رقم (1) فمضى يمشي تحت رذاذ الأمطار..
ووقف يتأمل البحر..
(برنزر).. (بيللا).. (مارى)..
(ألفرتون مانور)..
النهر.. والأسماك القضية اللامعة...
شعر بسلام نفسي وهو يتسلق الجافة ويثب لأسفل..
وقبل أن يلمس جسده الماء تذكر كلمة أبيه:
- ناضل الماء يصبح عدوك.. دع نفسك له يكن صديقك.
.. ولقد ترك نفسه للماء....
تركه يهبط به لأسفل..
بنعومة.. بنعومة..

فكتور كاننج
1969

(تمت بحمد الله)

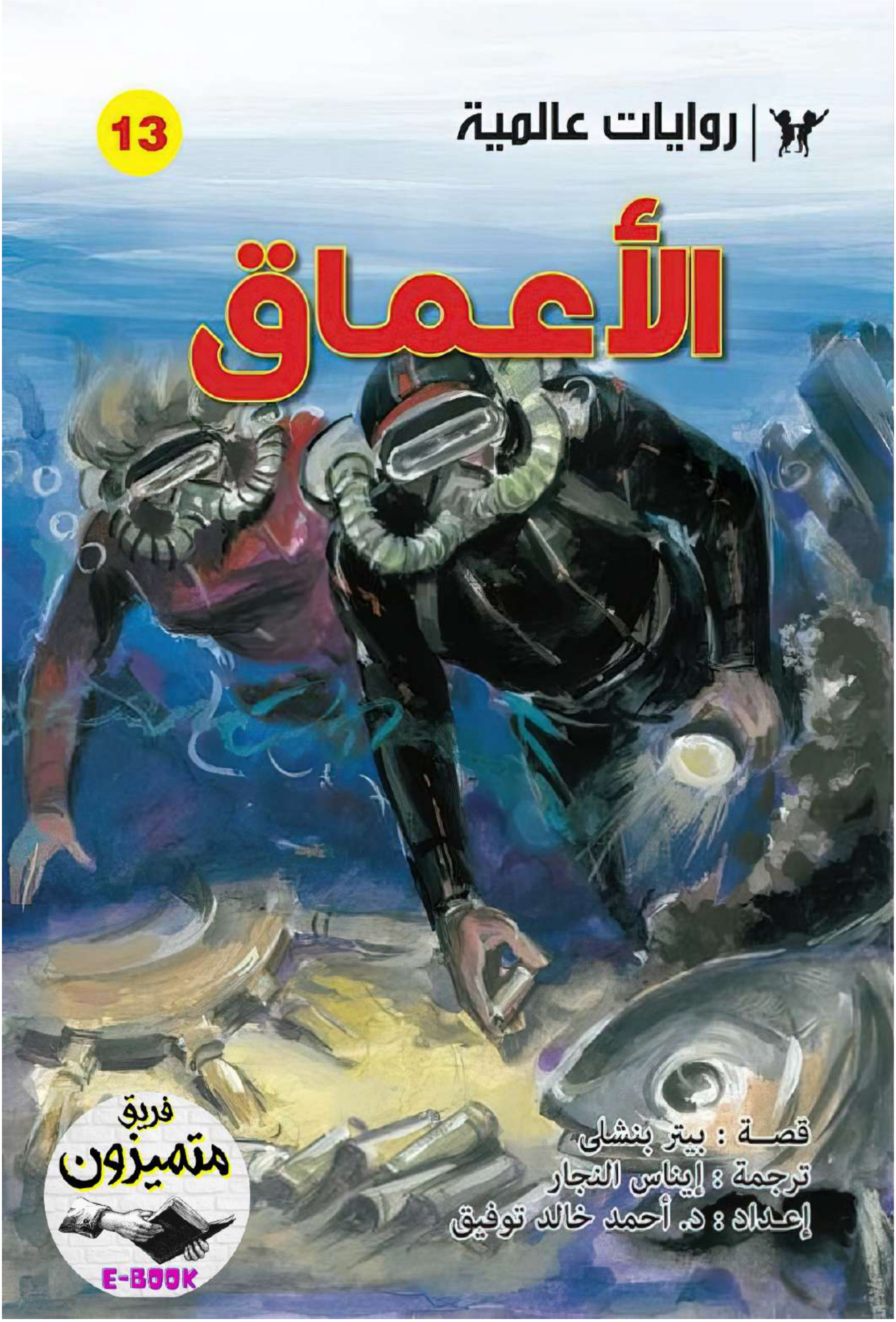
قبضة الشيطان الذهبية
التقاعد في قمة النجاح شيء رائع.. وكان (رايكس) من الأذكياء القلائل الذين عرفوا نقطة التوقف.. لكنه قابل من أجبره على الاستمرار..
أجبره على الاشتراك في عملية أخيرة..
إن التقاعد في قمة النجاح شيء رائع.. أما الفشل بعد هذه القمة فشيء مروع!.. وكان
(رايكس) من هؤلاء الفاشلين....!
د. أحمد خالد توفيق.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

[Link – لينك القنـاة]

الفهرس:


روايات عالمية
13
الأعماق
قصة : بيتر بنشلى
ترجمة : إيناس النجار
إعداد : د. أحمد خالد توفيق
فريق
متميزون
E-BOOK

] كلمة مهمة [:

هذا العمل: [تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية] هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق [متميزون]

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم [13]

الأعمـــــــــــاق

قصة: بيتربنشلي.

ترجمة: إيناس النجار.

إعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

إن (بيتر بنشلي) هو المؤلف الذي اختص بالحديث عن البحر..
صحيح أن كتابا آخرين كتبوا عن عالم البحار الغامض، لعل أكثرهم شهرة الأمريكي (إرنست هيمنجواى) صاحب (العجوز والبحر).. وكذلك (هيرمان ملفيل) صاحب (موبي ديك)..
لكن الكاتبين مرا على البحر مرور الكرام.. فلم تبتل أقدامهما.. ولعلهما ذهبا إلى هناك كي يغوصا في أعماق أبطال قصتيهما فحسب..
أما مع (بيتر بنشلي) فالأمر يختلف.. إن هذا الكاتب يتنفس عبق البحر ورائحة حيواناته. إنه يغوص في أعمق أعماق المحيط خلف الكنوز الغارقة، ويحارب أسماك القرش وقناديل البحر، ثم يصعد ليواجه أعتى القراصنة.. كل هذا في إطار أدبي محترف محكم..
ولد (بيتر بنشلي) عام 1940 في عائلة من الكتاب، اشتهر منها أبوه (ناثان) وجده الأديب الأمريكي العبقري (روبرت بنشلي)، ولقد تخرج الفتى في (هارفارد) وعمل بالصحافة حينا من الوقت إلى جانب عشقه الدائم للبحر.. وفي عام 1974 خرج إلى العالم برائعته الأولى:
- فكان (اشتهرت باسم الفك المفترس): وهو الكتاب الذي قدمناه لك في هذه السلسلة، والذي اهتز العالم لقراءته ثم مشاهدة الفيلم السينمائي الرهيب الذي أخرجه (ستيفن سبيلبرج) عنه.
بعدها قدم روائعه التالية:
- الأعماق: وهي القصة التي بين يديك الآن. ولن نحاول أن نستبق السرد هنا لكنها تدور في عوالم الكنوز الغارقة , قدم المؤلف - كعادته - بطلا من وحوش البحار هو سمكة (أبو مرينا).. ثعبان

البحر المفترس المختبئ بين صخور الأعماق بانتظار الغواصين ذوي الحظ العاثر..
تم إخراج فيلم سينمائي عن هذه القصة بطولة (روبرت شو) و (نك نولت) و (جاكلين بيسيه) الفتاة من بحر (كورتيز): عن فتاة تعقد صداقة مع مخلوقات البحر.. والوحش الجديد الذي يقدمه هذه المرة هو (حدأة البحر) العملاقة.. والتي تدافع عن الفتاة وعن عالمها بمجرد أن تشعر أن الخطر يتهددهما، وفي هذه القصة المثيرة نلمس بوضوح إلمام (بنشلي) بجيولوجية البحار..
- الجزيرة: في هذه المرة يأخذنا الكاتب إلى عالم مروع ما زال قراصنة (الكاريي) يعيشون فيه ممارسين طقوس حياتهم الرهيبة.. ويقع الصحفي - الذي أرسل ليرى ما يحدث هناك - في قبضتهم مع ابنه..
والقصة تعكس إلمام المؤلف بجزر (الكاريبي) ودراسته الجنس القراصنة المنقرض المعروف باسم (بوكانير).. قدمت السينما العالمية هذا الفيلم عام 1980 من إخراج (مايكل ريتشي) وبطولة (مايكل كين)..
إن (بيتر بنشلي) يقدم لنا نوعا فريدا من الأدب أدب البحر.. ولأنه يكتبه باقتدار وحرفية عالية قادرة على حبس أنفاسنا مع كل سطر؛ فإن هذا الكتاب لجدير بأن يُقرأ.

د. أحمد خالد

ooooooooo

-1-

العام 1943..
بدأت الريح تهدأ في العاشرة صباحا..
لاحظ القبطان ذلك أن رقد في قمرته يتسلى بتقليب صفحات مجلة أحضرها أحد الملاحين من (نورفولك)..
نهض.. وتمطى واتجه إلى الباب..
وعلى السطح كانت السماء صافية.. رائحة النسيم، وثمة سحابة صفراء تلوح في الأفق..
دنا من مساعده الشاب الأسكتلندي الملتحي وسأله:
- هل أصلحت الصارى؟
- نعم.. والأشرعة كذلك.. هل ستكون الرياح شديدة؟
كيف لي أن أعرف دون لاسلكي؟.. لو أن هذه الحرب طالت لنسينا جهاز اللاسلكي تماما.. لكن ظنى أنها ستكون شديدة..
نظر مساعد الربان إلى ساعته وتساءل:
- هل أمامنا مسافة طويلة؟
- خمسون أو ستون ميلا بعدها نصل إلى المضايق فنقرر: هل نرسو في (سانت جورج) أم نتجه إلى (هاملتون)؟
- لا مشاكل اذن.. سنصل بسلام...
- بهذه المركب؟ - قالها القبطان وبصق.. إنها قطعة خردة.. لا شيء فيها سوى اسمها المماثل لاسم (جوليات) السابقة..
وفي الساعة الواحدة ظهرا..
تغطت السماء بغلالة رمادية كتيبة من السحب، وتلاعب الزبد على صفحة الماء تعابثه الأمواج.. ثم إن المطر انهال مدرارا ومن الجنوب جاءت كتلة من السحب السوداء..

وعلى ظهر السفينة - مرتديا معطفا واقيا – وقف القبطان جوار مساعده.. وجاء أحد البحارة المسئولين عن مخزن المؤن..
سأله القبطان:
- كيف حالهم؟
- بخير.. لكني أتساءل.. لماذا وضعوهم في صناديق سيجار ما داموا باهظ الثمن إلى هذا الحد؟
- هل تهشم شيء منهم؟
إنهم محاطون بأجولة الدقيق..
المطر يزداد قسوة.. الريح تعوي وتزداد حدة هطول الماء.. السفينة تهتز..
- ربما كان علينا تحويل الطريق؟
- لا أحد يستطيع الابتعاد عن (برمودا) في هذا الطقس.. إن الصخور تبرز إلى حد مخيف لمدة ساعة ظلت السفينة (جوليات) تصارع الأمواج..
هيكلها يحدث أصواتا منذرة بالتفكك..
وفي الثالثة هدأت الريح قليلا. وصفت السماء الرمادية نوعا.. وغير القبطان الاتجاه إلى الجنوب محاولا الوصول إلى القناة الآمنة الوحيدة إلى أرخبيل (برمودا)..
غير أن الريح انفجرت ثانية من الشمال هذه المرة..
اندفعت الأمواج كالجبال السوداء تعصف بالصوارى...
فهوى صار وتمزق شراعه إلى ندف بيضاء..
وإلى السماء ارتفعت مقدمة السفينة..
صاح القبطان في مساعديه قائلا شيئا ما لم يتبينوه..
ومن بعيد لمحوا فنارا غير مضاء.. مجرد خط رفيع أمام سماء مظلمة..

هوى القبطان على ركبتيه.. تشبث – مذعورا - بالدفة.. لكنها شرعت تدور وحدها في جنون..
وسمع صرخة مساعده.. ورأى جسده يطير وسط المياه إلى ظلام البحر المزيد...
قبض القبطان على العجلة في توتر..
مازال شراع المؤخرة موجودا.. ولئن استطاع أن يصل إلى الفنار فلربما احتمى بميناء (سانت جورج)..
مقدمة السفينة ترتفع ثانية.. الرذاذ ينغرس في وجهه وعينيه كأشواك حادة..
اقترب من الفنار ببطء حين رأي البحار المسئول عن المخزن أتيا إليه وهو يترنح محاولا الإمساك بأي شيء..
وسمع صوته يقول كلاما لم يتبين منه سوى (ديفيد)..
وأخيرا تبين ما يقول:
- ليست هذه أضواء (سانت ديفيد)!
- بل هي..
- بتاتا.. إنها أضواء (جيبس هيل)!
وهنا أدرك القبطان خطأة..
لقد أعماه المطر فجعله يحيد اثنى عشر ميلا إلى الجنوب الغربي.. وقبل أن يفهم ما يحدث سمع صوت تهشم الخشب فوق الشعاب المرجانية..
ارتفعت مقدمة السفينة إلى أعلى..
مد القبطان يده ليمسك بالدفة، لكن ذراعه انحشرت في العجلة.. تهشم معصمه.. وفي اللحظة التالية طار إلى ظلام البحر الرهيب..

ооооооооо

وفي الصباح.. كانت العاصفة قد نفثت غضبها..
كان هناك ضابط من السلاح البريطاني يمشي على الشاطئ مع كلبه، يتأمل الأخشاب المبتلة التى قذفتها الأمواج فوق الرمال..
وأخذ كلبه يلهو هنا وهناك ثم يعود إلى جواره..
وفجأة تشمع الكلب شيئا ما بين الرمال فتصلب..
شرع ينبح.. وكان ما أثار توتره كتلة من القماش مخلوطة بالرمال..
وتحت هذه الكتلة رقد رجل لا يستر عريه سوى سروال ممزق..
انحنى الضابط ولمسه.. فسعل الرجل وأن معلنا أنه لم يمت بعد...
وكان اسم هذا الرجل هو (آدم كوفين)..

ꝏꝏꝏꝏ

في الأعماق يستحيل لون الدماء إلى الأخضر..
والسبب في هذه الظاهرة البصرية هو أن الماء يحتجز لنفسه ألوان الطيف بادئا باللون الأحمر، وعند عمق مائة قدم يختفي الأخضر ليحل محله الأزرق.. أما عند مائتي قدم فإن الدماء تغدو سوداء..
تربع (ديفيد ساندرز) على القاع الرملي.. ومد يده محاولا إمساك السمكة الجريحة من ذيلها كانت الدماء الخضراء تتسرب من جرح كبير في ظهرها، لربما أحدثته سمكة أكبر منها وأشرس..
كانت السمكة غضبى.. ولربما كانت حماقة منه أن يحاول.. لكنه فعل وكان نصيبة عضة شرسة في كفه وسرعان ما رأى السائل الأخضر يتسرب من يده..
لا داعي للتوتر.. إن القارب فوق رأسه مباشرة..
فليصعد الأن ولا يحاول أن يمسك بأنفاسه وعلى السطح كانت (جيل) زوجته تنتظر، حين رأت فقاعات الهواء، فأدركت أنه قد صعد..
ساعدته على التسلق، وفك خزان الهواء.. ثم سألته عما إذا كان قد رأى شيئا فأجاب بالنفي.. سألته وقد رأت الدم يسيل من كفه:
- وماذا حدث ليدك؟
- لا شيء.. مجرد جرح صغير، ثم ركل زعنفتي القدمين.. ونظر إلى بعيد.. إلى حيث الفنار ونادي (أورانج جروف) وقال:
- هذا هو الموضع كما حدده حارس الشاطئ.. لابد أننا فوق المكان بالضبط..
- لا تنس أن ذلك الحطام مر عليه ثلاثون عاما..

- لكن الرجل أكد وجود أجزاء من الهيكل، ثم نظر إلى حيث يتكسر الموج على ثلاثة صفوف من الصخور، وأردف:
- لقد أكد لى أنها وراء مجموعة الصخور الأولى، لكن ربما كان علينا أن ندخل نحو الثانية وببطء شرع (ساندرز) يوجه القارب نحو الخط الثاني للصخور، ثم رمى الهلب وثبت خزان الهواء على ظهره.
تساءلت (جيل) في قلق:
- هل تغطس ثانية؟
- لم لا؟.. سأضمد جرح يدي بعناية حتى لا ينزف في الماء..
قامت (جيل) بإعداد ثيابها هي الأخرى، وثبتت المنظم على الصمام أعلى خزان الهواء، ثم أدارت المفتاح.. وغمرت الزعنفتين في الماء قبل أن ترتديهما.. شطفت قناعها وبصقت على الزجاج من الداخل ومسحته باللعاب حتى لا يحجب بخار الماء الرؤية..
ثم ارتدت خزان الهواء الذي يسمح لها بالتنفس نحو ساعة.. وجلست على حافة الزورق وظهرها للماء واستنشقت نفسا عميقا من خرطوم الماء..
أشار لها كي تغطس أولا، فانقلبت بظهرها للوراء وسط حشد من الفقاقيع تلاشت، وتبعها (ساندرز)..
ما أروع القاع!...
الماء شفاف رائق وأشعة الضوء تتخلله إلى حيث الرمال والمرجان.. رأى (جيل) عند القاع تحفر الرمال بأصابعها بينما تنتظر جوارها سمكة صغيرة بانتظار أية قشرية دقيقة قد تخرج من تحت الرمال أثناء الحفر.
لا شي وتسمعه سوى صوت الشهيق وصوت فقاعات الزفير.. وفيما عدا القلق الممزوج بالإثارة حين تقف وحيدا أمام هذا السهل الممتد من الرمال بينما ملايين المخلوقات ترقبك ولا

تراها.. أنت مقيد بأطنان من الماء تضغط على كل سنتيمتر من جسدك وتشعر بأصفادها..
تلفت حوله بحثا عن أي أثر لتلك السفينة.. لا شيء..
سبحا معا إلى اليسار ووراءهما حشد من الأسماك الصغيرة التي تأمل - بشكل ما أن تجد ما تأكله..
فجأة أحس أن (جيل) تجذب كاحله..
كانت تشير إلى اليسار..
إلى ثعبان (براكودا) ضخم معلق في الماء بلا حراك، يرمقها بعينين سوداوين ثابتتين.. كان جسده رفيعا ناعما يلتمع كنصل سكين.. بينما فمه فاغر عن أسنان مدببة حادة..
ودون كلمة مد (ساندرز) يده وانتزع الخاتم الماسى اللامع الذي ترتديه (جيل) ودسه في ثيابه..



ودون كلمة مد (ساندرز) يده وانتزع الخاتم الماسى اللامع الذى ترتديه (جيل) ودسه فى ثيابه ..

ضربت (جيل) بيدها إلى صدرها وأشارت الأعلى..
فهز رأسه أن لا.. لكنها أصرت.. يمكنه هو أن يبقى إذا أراد أما هي فصاعدة.. وركلت الأرض بقدميها وارتفعت لأعلى..
وتبعها هو...

- بعد أن صعدا إلى القارب سألها:
- هل تخليت عن الأمر؟
- كلا.. شعرت بالخوف من (البراكودا) فحسب..
- كان عليك أن تتركي خاتمك.. إن لمعة الماس تجذب المشاكل تحت الماء.. حين بدأت تعلم الغوص كنت أرتدي رداء للعوم به قفل نحاسي لامع.. وطلب مني معلم الغوص أن أنتزعه، لكني رفضت.. فأحضر الرجل سكينا وربط طرفها إلى عصا بحيث يكون سلاحها لأعلى.. وغرس العصا في الرمال، وشرعت السكينة تتلألأ في ضوء الشمس.. فما هي إلا دقائق حتى جاءت (براكودا) كبيرة وهاجمت السكين في جنون.. أدمتها السكين لكنها واصلت الهجوم..
وتخيلت كأن الوحش يهاجم قفلي النحاسي.. ومن يومها لم أرتد هذا الرداء تانية..
ثم أردف في حزم:
- ثمة نقطة هامة.. يجب تحت الماء - أن نفعل كل شئ معا وأن يعرف كل منا مكان الثاني.. لو كان ثعبان (البراكودا) هذا قرشا واندفعت أنت بهذه الحماقة إلى السطح لهاجمك دون تردد..
الحل الأمثل هو الانتظار في القاع والاحتماء بالصخور هل فهمتِ؟ لا تقومي بشيء مفاجئ دون إخباري به..
وفجأة نظر خلف كتفها إلى بقعة بنية ما بين الأمواج عند مؤخرة القارب.. مد يده إلى معصمها يجذب انتباهها..
كانت هناك كتلة خشبية ما.. دعامات خشبية معطنه ملقاة هنا وهناك فوق رمال القاع البيضاء..
أبتسم لـ (جيل) وابتسمت له.. لقد وجداها!..
ودون مناقشة.. وثبا إلى الماء ما بين الصخور..

وجدت (جيل) علبة من الصفيح مهشمة صدئة، بينما وجد (ساندرز) زجاجة مياه غازية سالمة تماما..
رقدت (جيل) على القاع وشرعت تنبش تحت الخشب، فوجدت شوكة طعام وجزءا من طبق مكسور..
وعبرا إلى الجانب الآخر من الصخرة حيث باقى الهيك..
وهناك وجدا عشرات من قطع الخشب والحديد الصدئ والمعادن المغطاة بالشعاب المرجانية..
أشارت له (جيل) إلى تجويف في الصخر شبيه بكهف صغير..
كانت تتساءل لكنه قال لها - بالإشارة أن لا.. من أدراه أن شيئا ما لا يعيش في هذا الكهف!!.. شيئا يقبض على يده إذا ما أدخلها هناك..
لقد تذكر صورة رآها منذ أعوام ليد رجل عضها ثعبان (موراى)..
كان اللحم ممزقا وقد تبدت العظام بيضاء كئيبة لكن الفضول هو الفضول..
من عنقه يحاول أن يختلس نظرة إلى داخل الكهف، لكنه كان مظلما حالك الظلمة.. ثمة شيء يلتمع بالداخل لا يدري كنهه..
النبض يدق في جانبي رأسه.. أي أنه يتنفس أسرع مما يجب..
استجمع شجاعته أخيرا ومد يده داخل الحفرة فالتقط شيئا دقيقا من هناك.. ثم أخرجها سريعا..
كان هذا الشيء أنبوبا رفيعا من زجاج يحوي سائلا أصفر شفافا..
نحو (جيل) سبح وأشار لها إلى عنقه (أي أن التنفس غدا عسيرا)..
فهزت رأسها موافقة.. ومن ثم صعدا إلى السطح معا..
كانت الحصيلة لا بأس بها.. ملاعق.. أشواك.. إناء زبد.. مسدس صدئ.. وصندوقا معدنيا أحاطه الماء بطبقة سوداء سميكة مما يستدعي تهشيم هذه الطبقة لفتح الصندوق..

أما عن أنبوب الزجاج فقد أدركا أنه أمبول يحوي عقارا ما..
- غدا نحضر معنا حقيبة، فأنا أعتقد أن هناك أشياء كثيرة مازالت موجودة في هذا الحطام.

∞∞∞∞∞

وحين وصلا إلى الشاطئ كان الحارس ينتظر..
- أرى أنكما وجدتما الحطام وبعض الأشياء..
- نعم..
كان (ساندرز) يمقت هذا الحارس الذي استأجرا منه القارب، فهو شاب مختال بنفسه يقارب (جيل) في عمرها. السادسة والعشرين
- ويخصها باهتمام مريب...
حتى (ساندرز) له كان يجيب بها (جيل)...
سألهما الحارس:
- هل وجدتما قذائف؟
- قذائف؟
- نعم، يقال إن (جوليات) كانت تحمل قذائف أعماق.. ربما كان هذا من قبيل الإشاعات..
- على كل سنستأجر القارب ثانية غدا لنواصل البحث..
وسارت (جيل) و (دافيد) فوق الرمال الوردية الناعمة المختلطة بأصداف البحر.. حتى وصلا إلى قاعدة التل الحجري..
كان هناك مصعد عبارة عن قفص حديدي يصعد على دعامة من الصلب مرت عليها عشرات السنين، وكان هناك سلم ضيق متعرج يقود إلى القمة بجوار هذا المصعد..
لم يكن المصعد مزودا بجرس إنذار فإذا -لا قدر الله - وجدت نفسك حبيسا بداخله فعليك أن تظل مكانك حتى يراك أحدهم أو

تقوم الساعة!
وبالنسبة ل (جيل) لم تكن هناك مشكلة.. هي لن تستعمل هذا القفص الحديدي تحت أية ظروف..
ستصعد السلالم.. أما بالنسبة لـ (ساندرز) المنهك فهو لا يخشى المرتفعات أكثر من خوفه من الطائرات..
وكلا الخوفين لن يفسدا حياته...
لهذا استقل المصعد مع حاجياته.. وشرع القفص الحديدي يعلو ببطء.. ببطء وهو يئن..
ولم ينتبه (ساندرز) إلى الصوت الذي بدأ يتبدل من الأنين إلى الشكوى الصريحة..
ثم توقف المحرك نهائيا!..
ضغط على زر النزول فسمع صوت دقة.. ولم يتحرك المصعد..
ضغط على زر الصعود فسمع دقة أخرى وظل المصعد ثابتا.
نظر إلى أعلى ليرى قمة التل على بعد خمسة عشر قدما..
وكانت (جيل) في ذات الوقت قد وصلت لقمة السلم..
نظرت إلى موضع المصعد فلم تجده قد وصل بعد..
بلل العرق جبينها وانحنت فوق السور تنظر لأسفل التل فلم تستجمع أنفاسها إلا حين رأت القفص معلقا هناك.. على الأقل هو لم يهو من عل كما خطر لها..
نظرت الأعلى لترى صندوقا معدنيا يحوي – فيما يبدو - محرك المصعد..
هرعت حافية القدمين وبثوب الاستحمام إلى بهو نادي (أورانج جروف) الأرستقراطي الذي يحرم دخول أشخاص بثوب الاستحمام..
وصاحت في موظف الاستقبال أن يفعل شيئا.. لقد تعطل المصعد بزوجها داخله..

لم يخف الموظف استياءه من ثيابها.. رفع سماعة الهاتف وطلب رقما ما.. فصاحت (جيل) في جنون:
- ألن تفعل شيئا؟
- بلي.. أنا أفعل ذلك الان يا سيدتي!.. هالو (كلارنس).. لقد تعطل مرة أخرى.. ووضع السماعة..
فهرعت (جيل) إلى الخارج لترى ما يحدث..
وكانت المفاجأة أن وجدت زوجها يقف سليما معافى عند قمة التل..
- كـ.. كيف أصلحته؟
- لم أصلحه يا ملاكي.. لقد تسلقت العامود!
كادت تنفجر فيه غاضبة على الجنون الذي جعله يفكر في.. حين رأيا عجوزا زنجيا يدنو من المصعد حاملا أدوات إصلاح ويكلم نفسه..
سأله (ساندرز) عما حدث؟
فقال الرجل بلا مبالاة:
- لا شيء.. إنه يتوقف حين يرغب في ذلك!
وعبث ببعض الأزرار بالصندوق فارتفع المصعد ببطء لأعلى..
- ربما كان ساخنا أو باردا أكثر من اللازم.. إنه يتوقف فحسب..
وأخرج متاع (ساندرز) من الداخل وهو يغمغم:
- يتوقف فحسب..

oooooooo

-3-

جلسا في بهو النادي الكبير يتأملان الشمس الغاربة تضيء الأفق بلون وردى..
جاء النادل الأسمر ليعرف طلباتهما في أدب، ولاحظت (جيل) البطاقة الموضوعة على صدره، فسألت (ساندرز) هامسة:
- اسمه (سليك).. أهو اسم (برمودي)؟
- لا توجد أسماء برمودية خاصة.. هناك الزنوج الذين يتكلمون بلهجة المستعمرات البريطانية.. والبيض الذين تشابه لهجتهم لهجة رعاع (جامايكا)..
وجاءت المشروبات فطفقا يرشفان في صمت مصغين لهمس الأمواج ويتأملان الصخور.. ثم أن (ساندرز) دس يده في جيبه وأخرج الأمبول:
- غدا صباحا نجد من يحلل هذا السائل لنا.. أراهن على أنه (بنسللين) أو شيء مماثل مما تحمله السفن.
- لا أظن أن ال (بنسللين) كان منتشرا هكذا إبان الحرب.
وهنا سمعا صوتا يسأل:
- من أين حصلتما على هذه؟
كان هذا هو النادل الذي أحضر لهما قائمة الطعام، ثم بدا عليه الحرج من تدخله المفاجئ على هذا النحو..
قال (ساندرز) في بساطة:
- من الحطام هناك في البحر..
- من (جوليات)؟
- نعم.. هل تعرف محتواها؟

تناول (سليك) الأمبول ورفعه أمام الضوء.. ثم أعاده إلى (جيل) قائلا:
- ليست لدي أدنى فكرة
- إذن لماذا تهتم بها؟
- الزجاج.. إنه يبدو عتيقا وجميلا.. معذرة.
ووضع لهما القائمة على المائدة.. وانصرف..

ooooooooo

- هيا نجلس في الشرفة بعض الوقت.
كان القمر يسكب ضوءه الفضي على الزهور وأوراق الشجر بينما الضفادع تتبادل السباب..
كان هذا هو كوخهما.. رائحة الهواء العطرة وحفيف الأنسام..
على حين جلسا على مقعدين من القش يتناجيان..
قال (ساندرز) وهو يرشف كوبه:
- هل أخبرك بمعلومة مثيرة من مجلات (الجغرافيا الوطنية) التي كنت أعمل فيها؟
- هم م م؟
- في القرن السابع عشر كانوا يسمون هذا المكان (جزيرة الشياطين)..
- ولمة؟
- كيف لي أن أعرف؟
سمعها تتثاوب بصوت عال طويل.. وفجأة تصلبت ونظرت لبعيد..
- ماذا حدث؟.. هل ابتلعت لسانك؟
- ثمة شخص ما هناك!

- لا أحد..
لا.. أنظر هناك نهاية الممر..
بالفعل كان هناك رجل خارجا من بين الشجيرات قادما نحوهما..
كان أسود يرتدي حلة سوداء..



بالفعل كان هناك رجل خارجا من بين الشجيرات قدما نحوهما ..

وسمعاه يقول:

- اسمحا لي!..
تساءل (ساندرز) في ضيق:
- منذ متى وأنت هنا؟
قال الرجل بلهجة بريطانية:
- لقد وصلت لتوي.. هل يمكنني الحديث معكما؟
كان زنجيا في الخمسين من عمره.. امتلأ جلده الأسمر بالتجاعيد وشعره بالشيب:
- اسمي (باسيل تابر) أدير محلا للمجوهرات.. إن هوايتى هي الزجاج القديم، ولقد سمعت أنكما وجدتما قطعة زجاج نادرة في حطام (جوليات) ويسرني أن أراها.. كان هناك رجل يدعى (راينهارت) يعمل في الزجاج في (نورفولك) وكانت أعماله قليلة نسبيا، لكن - في محيط عملنا من المدهش أن تمتلك قطعة من زجاج (راينهارت)..
نظرت (جيل) نظرة ذات معنى إلى (ساندرز) الذي بادلها النظر وقالت:
- إن عشاق الزجاج أكثر من اللازم في (برمودا)..
سأله (ساندرز) وهو يمسك الأمبول:
- ولكن.. ماذا يحتويه هذا الأمبول من الداخل؟
- لا أعرف.. قد يكون أي شيء.. إن الزجاج هو ما يثير شغفى..
ثم نظر إلى الأمبول بشغف.. وقال:
- سأدفع لكما عشرين دولارا ثمنا لها..
تأمل (ساندرز) الأمبول هنيهة ثم قال:
- هل تمانع أن نسحب السائل منها أو لا.. فإن أمره يهمنا..
قال الرجل في عصبية:
- لا.. مستحيل.. لسحب السائل تحتاج إلى كسر طرف الأمبول، وهذا يتركها معدومة القيمة..

- إذن لن نبيعها..
- خمسون دولارا!
ثم توتر الرجل للمرة الأولى وأردف:
- لن تجدا من يشتريها بهذا الثمن!
- في هذه الحالة نحتفظ بها.. ألم تقل أنت أن زجاج (راينهارت) شيء له قيمته؟!
نظر لهما الرجل في غيظ هنيهة، ثم أدار ظهره وابتعد غائبا بين الأشجار..
سأل (ساندرز) زوجته:
- ما رأيك في كل هذا؟
- دعنا ندخل أولا.. فالله وحده يعلم من يوجد سواه بين هذه الشجيرات المظلمة، وفي داخل الكوخ - بعد أن أغلقا الباب بالمفتاح..
كرر سؤاله.. فقالت (جيل) أنها لم تسمع عن زجاج (راينهارت) هذا.. و...
- انه - و (سليك) - لا يهتمان بالزجاج بتاتا.. بل يريدان ما بداخله!
- ولماذا لا يفصح عن ذلك ببساطة؟
- كان بحاجة إلى أكذوبة.. ومن الصعب أن يزعم لنا أنه يجمع السوائل من الأمبولات الموجودة بالسفن الغرقى!
قال (ساندرز) في قلق:
- غدا نبحث عن شخص يعرف ما كانت تلك السفينة (جوليات) تحمله حين غرقت!

∞∞∞∞∞∞∞∞

-4-

لم ينج من (جوليات) سوى مخبول واحد لن تظفرا منه بشيء.. غير أن هناك رجلا يدعى (رومر تريس).. يعرف كل شيء عن السفن التي غرقت قرب (برمودا).. هو خير من يعرف هذه المياه..

- وما هو رقم هاتفه؟

- لا هاتف.. إنه مقيم في (سانت ديفيد) فاذهبا إليه..

ثم إن موظف الفندق نظر إلى (ساندرز) في قلق:

- هل تعرف (سانت ديفيد)؟

- من الخريطة.. نعم..

- إن سكانها لا يرحبون بالزوار.. ولا يعتبرون أنفسهم مواطنين ل (برمودا).. ثمة جسر يربط الجزيرة بباقي (برمودا).. لكنهم يفضلون لو أنه لم يوجد قط..

- لماذا؟

- هم أناس خليط من المرارة والاعتزاز بالنفس، لديهم قوانين خاصة بهم لا تدري سلطات (برمودا) شيئا عنها.. يقال إن هذا هو ثمن العبودية!

- لا أفهم

- كان أجداد هؤلاء السكان من العبيد.. نصفهم من هنود (الماهيكان) المشاغبين الذين طردهم الأمريكان.. والنصف الآخر من حثالة الأيرلنديين الذين طردهم الإنجليز.. لهذا جاء الناتج جنسا قويا عاتيا لا مثيل له..

قالت (جيل) بانبهار:

- هذا يبدو مثيرا!

- في ضوء النهار نعم!
قال (ساندرز) وهو يحاول تغيير مجرى الكلام:
- شكرا لك.. نحن بحاجة إلى ملء خزانات الهواء الخاصة بنا..
- أعتذر لك عن جهلي يا مستر (ساندرز).. لقد لمحت بطاقة اشتراكك وبها كلمة (نيدا).. ما معناها؟
بهدوء قال (ساندرز):
- هي الحروف الأولى من عبارة (الرابطة القومية للغواصين المستقلين).. وهي جماعة جديدة..
- أكرر أسفي يا سيدي.. ولأقومن بتلبية طلبك..

ꝏꝏꝏꝏ

عرجا على حانوت تأجير الدراجات في نادي (أورانج جروف) فاستأجرا دراجتين بخاريتين..
تساءلت (جيل) هامسة وهي تفحص در اجتها:
- ما موضوع الى (نيدا) هذه؟
- لم أسمع عنها قط.. أنت تعرفين أنهم يتشددون.. من الصعب الحصول على هواء للخزانات مالم تكن عندك شهادة بالغطس.. وقد قمت بـ (فبركة) هذه البطاقات في (نيويورك).. إنهم لا يتقصون الأمر أبدا ويكتفون بتسديد خانات في دفاترهم..
والان يركبان دراجتيهما لابسين خوذتيهما كما تحتم القوانين، قاصدين الشمال الشرقي..
هواء البحر المخلوط بالرذاذ يداعب وجهيهما مخلوطا بالزهر والتوابل..
وها هما ذان قد وصلا إلى كوبري (سيفرن).. وسارا في الطريق الضيق قاصدين (سانت ديفيد)..

كان المكان عبارة عن مجموعة من أكواخ حجرية مبعثرة فوق جوانب المرتفعات بلا نظام.. فكأن شخصا أمسك بحقيبة ملأى بالأكواخ وأفرغها دون خطة معينة على التراب...
وكان هناك كوخ كتب عليه (مطعم كيفن) وعلى بابه ستار من الخرز الملون.. فدخلاه
- هل ثمة أحد هنا؟!
صاح (ساندرز).. فبرز له رجل أسمر سمين عارى الجذع..
- ماذا تريد؟
- نبحث عن المدعو (رومر تريس)..
- ليس هنا..
- أين نجده؟
- إنه ليس من المعالم السياحية للجزيرة..
- ونحن لسنا سانحين.. نريد سؤاله عن سفينة ما..
- إنه يفهم في السفن.. وما مدى احتياجك لرؤيته؟
فهم (ساندرز) الرسالة بعد ثانية تردد مد يده لجيبه وأخرج خمسة دولارات وضعها على المنضدة..
- يبدو أنك لا تريد رؤيته إلى حد كبير!..
تبادل مع (جيل) نظرة ذات معنى، ثم أخرج خمسة دولارات أخرى وضعها على المنضدة وقال:
- هل هذا كاف لإظهار شوقي إلى رؤيته؟!
قال (كيفن) وقد قبل العرض:
- أعلى التل عند الفنار..

ooooooooo

كان باب المنزل مفتوحا، لكن كان هناك باب داخلي مغلقا وراءه..

دق (ساندرز) بيده وصاح مناديا:
- (تريس)..
فسمع صوتا يقول:
- هناك كتيبات في الفنار بها كل المعلومات..
دوي الصوت العميق من مكان ما بلهجة تشبه لهجة الإنجليز والأسكتلنديين لكنها تختلف عنهما معا..
قال (ساندرز):
- نحن نبغى سؤالك عن أشياء وجدناها يا مستر (تريس)..
وحين استدار نحو الباب، رأى أمامه أضخم رجل رآه في حياته.. طوله يناهز سبعة أقدام.. صدره العريض يوشك أن يمزق أزرار قميصه.. وجهه قوى القسمات بارز الوجنتين حاد الذقن.. عيناه زرقاوان كالبحر ذاته..
وكان شعر رأسه حليقا بطريقة البحارة على شكل رقم (٧) وسط الجبهة..
- أية سفينة؟
- (جوليات)..
- لا يوجد بها شيء ذو قيمة..
أمسكت (جيل) بلفافة قماشية كانت تحملها وفتحتها على الأرض لتريه ما بها.. الملاعق الأشواك.. إلخ..
- هي فعلا من مخلفات (جوليات).. لا شك في هذا لكنها بلا قيمة
قال (ساندرز) وهو يناوله الأمبول:
- وجدنا هذا أيضا..
تأملها (تريس) للحظة.. ثم تحركت عضلات فكيه.. ورأياه ينظر إلى البحر.. وسمعاه يغمغم:
- يا إله السموات!.. بعد اثنين وثلاثين عاما!
ثم أنه نظر إلى (ساندرز):

- من غيري رأى هذه؟
- أمس حاول رجل أسود شراءها منا.. قال إنه شغوف بهذا الطراز من الزجاج.
- زجاج؟! وضحك ضحكة ازدراء.. ووضع الأمبول تحت أنف (ساندرز) - هل تعرف ما هذا؟.. إنه (مورفين).. (مورفين) نقى.. ما يثبت أن أسطورة (جوليات) حقّ..
- أية أسطورة؟
نظر لهما برهة كأنما يتساءل هل يخبرهما أم لا؟..
ثم دعاهما إلى المطبخ...
كان مكانا رحبا يطل على البحر، وقد امتلأ بقوارير المواد الكيماوية والمدى والمطارق.. وأشار لهما أن يجلسا..
وهنا دخل المكان كلب عملاق مجعد الفراء شرع يزوم وينبح حين رأى الضيفين..
- صمتا يا (شارلوت) أيتها الكلبة الحمقاء!
لكن الكلبة ظلت تنظر نحو (ساندرز) وتنبح.. من ثم تناول (تريس) قدحا من الماء قذفه في وجه الكلبة..
قلت لك أن تهدئي!.. كذا!.. قلت لك إنهما ليسا سائحين.. على الأقل لم يعودا كذلك!
ثم إنه - وقد هدأت الكلبة - أراح ظهره إلى الوراء:
والآن.. ماذا تعرفان عن (جوليات)؟
- لا شيء في الواقع..
- حسن.. اعلما إذن أن (جوليات) كانت سفينة شحن تحمل إمدادات إلى (أوروبا) في الحرب الأخيرة.. كانت خشبية مزودة بالأشرع، وهذا لجعلها تتفادي الألغام الممغنطة، وحتى لا يصدر عن محركاتها صوت.. وفي خريف 1943 تبعثرت (جوليات) فوق الصخور.. ومن يومها يجد الناس أشياء عديدة في حطامها.. أنا

دخلتها في الخمسينات وأخرجت منها طنا من قذائف الأعماق النحاسية.. لكن أحدا لم يجد ما بها من معدات طبية..
ثم عقد ذراعيه خلف رأسه وأردف:
- لقد نجا واحد فقط.. واحد كان محطما أكثر من السفينة ذاتها.. ولقد أمضى سنوات عدة يبيع أسرار الحطام مقابل كأس من الشراب.. وفي ذات ليلة كان ثملا.. ثملا إلى الحد الذي جعله يعترف أن (جوليات) كانت تحمل آلافا وآلافا من أمبولات (المورفين).. وفي اليوم التالي أمسك به البعض وضربه ضربا مبرحا كى يتكلم أكثر.. لكنه أقسم أنه لا يعرف أي شيء عن هذه المخدرات..، وكذا قالت الأسطورة أن حطام (جوليات) يحوى (مورفينا) بعشرة ملايين دولار لكن أحدا لم يجد أي شيء.. أنتم أول من وجد الدليل.
سأله (ساندرز):
- ولماذا الآن بالذات؟
- هية!.. إن قاع المحيط شبيه بامرأة متقلبة هوائية تتغير طيلة الوقت.. يمكنك أن تفتش حطام سفينة في يوم فلا تجد شيئا.. ثم تهب الريح في ذات الليلة لتجد أنت - في ذات البقعة - كنزا من العملات الذهبية..
ثم نهض وأردف مشيرا ل (ساندرز):
- هل يضايقك أن تغطس ثانية بحثا عن المزيد من هذه؟.. أريد أن أتخلص منها قبل أن يعرف بأمرها كل أحمق ومدمن من هنا حتى جزر (بهاما).. أستطيع الغوص بنفسي لكن هذا سيكون إعلانا عاما للجميع.. في كل مرة أضع فيها قدمي في الماء تعرف (برمودا) كلها أن هناك كنزا في مكان ما..
وأخرج من أحد الأدراج قطعتين من الصخر ناولهما لـ (ساندرز):

- إذا أنت وجدت أمبولا آخر، ضع واحدة من هذه في مكان العثور عليها.. إن هذه الصخور تعكس الأشعة تحت الحمراء، مما يمكنني على العثور على موضعها لو غطست ليلا ومعي كشاف للأشعة تحت الحمراء..

- ليكن.. غدا إذن..

قبل أن ينصرفا عرضت عليه (جيل) قطعة المعدن المغلفة بمادة سوداء.. فعرض عليها أن يهشم الطبقة السوداء ليرى ما بالداخل..

أحضر الأزميل والمطرقة وشرع - بيده العملاقة - يحاول إيجاد شق صغير في الطبقة ثم تمكن من إزالتها..

- إنها قطعة عملة قديمة

وفي الضوء استطاعا أن يريا صورة صليب وقلعة وأسد يرفع قدميه الأماميتين.. صورة باهتة تماما..



وفى الضوء استطاع أن يرى صورة صليب وقلعه واسد يرفع قدميه الأماميتين ..

- هذا هو ما يصيب الفضة حين تُغمر في الماء.. تتحول إلى كبريتيد الفضة.. فلا يحميها سوى أن تكون مجاورة للحديد..

سألته (جيل):

- هل كانت تساوى الدولار؟

- كلا.. لكن علامة الدولار الشهيرة جاءت منها إنها قطعة من فئة الثمانية.. وكانوا يكتبون جوارها حرف (P) اختصارا لكلمة (قطعة).. بعد فترة من الزمن تحولت (P8) لتصير $..
ثم غمغم وهو يتأمل القطعة:
- عملة أسبانية هي.. أين وجدتماها؟
- في (جوليات) طبعا..
غريب!.. لقد غرقت (جوليات) عام 1943 ولم تكن عليها أية عملات أسبانية.
قالت (جيل) في دهشة
- لكننا حقا وجدناها هناك..
- إن هذه الأشياء تحدث.. فالبحر يخفى أسراره بعناد غريب.. وحين يكشف عنها يسخر منا.. تصوري لو أن سيلا أغرقنا جميعا الان فماذا يحدث بعد ثلاثمائة سنة؟.. سيأتى الغواصون.. ولسوف يعثرون على قطعة عملة سقطت من جيبي، سيفترضون وقتها أن هناك كنزا في هذا المكان؟
- قرأت مرة أن صبيا وجد على رمال الشاطئ قلادة ثمنها خمسون ألف دولار..
- إن أشياء كهذه تحدث.. لكن إذا انتظرتيها فلن تحدث لك أبدا..
وكانوا قد وصلوا إلى الباب.. فسأله (ساندرز) عن كيفية الاتصال به مستقبلا..
- ابن عمي (كيفين).. يمكنكما الاتصال به..
- هل تعني ذلك النصاب في المطعم؟.. لقد سلبنا عشر دولارات لمجرد أن يشير إلى مكانك.
ضحك (تريس) حين رأي الغيظ على وجه (ساندرز):
- إنه يحب المال.. ولو كانت هناك وسيلة لاستخلاص المال من التراب فهو أول من سيكتشفها..

عرفا كذلك أن (تريس) يعتبر - إلى حد ما- زعيما لهذه المنطقة..
فهو يدير الفنار ويحكم في النزاعات..
بل إن أهالي (سانت ديفيد) تكفلوا بمصاريف دراسته في (إنجلترا) لأنهم يؤمنون أن الزعيم يجب أن يكون متعلما..
كان قد ورث هذا المنصب عن أبيه الذي ورثه بدوره عن أجداده...
- وهل نترك الأمبول معك؟
- ذلك أفضل.. فإن أحدا لن يجرؤ على المجيء هنا لأخذها..
أنا لا أستطيع الجزم بما يمكن أن يقوم به بعض المخبولين إذا شموا رائحة المال..
وفتح لهما البوابة ثم أغلقها وراءهما..
شرعت الكلبة تنبح وتزوم.. فقال ضاحكا:
لقد اعتبرتكما من السياح مرة ثانية!

∞∞∞∞∞

هل - حقا- يريدان أن يتماديا في الأمر!!
كان (ساندرز) في الجامعة حين حضر محاضرة ألقاها (جاك - إيف - كوستو) قرر بعدها أن يصير (كوستو) الثاني..
كتب للرجل عدة خطابات فلم يتلق ردا.. قابله في محاضرة أخرى وعرض عليه العمل معه..
أجابه (كوستو) بأدب - وبحزم - أنه يتلقى مئات الخطابات من أشخاص يظنون أنهم خلقوا لاستكشاف الأعماق.. لكنه لا ينظر لأي طلب بجدية مالم يأت من عالم بحار أو خبير تصوير تحت الماء...
تزوج (جلوريا) - زوجته الأولى - وسافر معها إلى (واشنطن)..

التحق بالعمل في مجلة (الجغرافيا الوطنية).. ثم تركها ليعمل سمسار عقارات.. ولقد حقق نجاحا لا بأس به في هذا العمل..
وجاء عام 1971 ولديه شقة أنيقة في حي المال وطفلان جميلان وحساب بالبنك لا بأس به.. كان المفروض أن يشعر بالسعادة لكنه لم يستطع.. كان يشعر بالملل من (جلوريا).. من حياته كلها.. فقط حين كان يذهب للتدريب على الغطس يشعر بشيء من التجديد في حياته..
وهناك قابل (جيل) الحسناء الشابة.. وبدأ الحب ينمو بينهما.. كانت تحب الماء مثله.. وتهوى كل ما يهواه..
وذات يوم كان لابد لصفحة كاملة من حياته أن تنطوي ويبدأ صفحة جديدة هنا..... في (برمودا)..
للمرة الثانية اقتربا من سلسلة الصخور بقاربهما..
وحين وصلا هناك أخرج (ساندرز) من جيبه كشافا صغيرا.. كان يريد أن ينظر داخل الكهف حيث وجد الأمبول..
قالت (جيل):
- لكنها ليست عازلة للماء.. ستفسد على الفور..
لكن (ساندرز) كان حويطا.. أخرج كيسا من البلاستيك بس الكشاف به ثم أحكم غلقه، وضغط الزر فأضاء الكشاف.. فكرة بسيطة لكنها فعالة..
ألقيا بالهلب ووثبا إلى الماء، وفي الأعماق كان ضوء الشمس يقطع الماء عموديا، والظلال تتحرك هنا وهناك..
ومن بعيد رأيا الكهف.. وقفا أمام فتحته وأضاءت (جيل) الكشاف وصوبته إلى الداخل محركة إياه يمينا ويسارا.. كان خالى تفرشة الرمال الناعمة.. لكن (جيل) مدت يدها إلى الداخل وشرعت تعابث الرمال مكونة سحابة.. وحين فرغت كانت قد صنعت حفرة عمقها ثلاث بوصات..

وهناك - في داخلها - رأيا شيئا ما يلمع.
كان هذا ما جاءا لأجله.. أمبولا متينا بسائل شفاف تناوله برفق وناوله لـ (جيل) ثم سوى الرمال كأن شيئا لم يكن و...
وعلى مسافة قصيرة وجدا ما حسباه قطعة عملة، ثم تبين نهما أنه قطعة من المعدن الأصفر على شكل دائرة على حافتها أربعة ثقوب،. لم يكن المعدن متآكلا.. واستطاعا في الضوء أن يقرأ عليه (أ. ف)..
واتخذا طريقهما صاعدين..
وعلى متن القارب سألته (جيل) عن كنه هذا الشيء..
- لا أدري حقا.. ربما هي قطعة مجوهرات..
ورفع الأمبول يتفحصه في ضوء الشمس..
كان منهمكا بذلك فلم ير الشخص الواقف يراقبهما فوق صخور (أورانج جروف)..

ꝏꝏꝏꝏ

مرا بدراجتيهما على (تريس) ليخبراه بأمر الأمبول الجديد الذي وجداه، فقال لهما إنه ينوى الغطس غدا ليلا ليتفقد المكان،، وأخذ منهما ذلك الأمبول..
عرض عليه (ساندرز) قطعة المعدن الأصفر، فتفحصها بعناية وضغط بإبهامه وسبابته على طرفها، ثم سألهما وهو يبتسم:
- أين وجدتما هذه؟.. إنها من الذهب!
- ذهب.. يا إلهي!.. لكنها ليست متأكلة ولا مغطاة بالصدأ..
- تلكم من خواص الذهب العجيبة.. يمكنك أن تضع قطعة ذهب في البحر وتتركها إلى يوم القيامة.. وحين تخرجها تجدها كما هي.. لم ينم فوقها شيء ولم يتآكل منها شيء..

ثم أضاف أنه يظن هذه القطعة كانت معلقة في رقبة فتى غريق.. ويعتقد أنها ليست جزءا من حطام سفينة لأنه يعرف القاع كظهر يده.. لا يوجد ما يدل على غرق سفينة هناك وهو متأكد من هذا..

سألته (جيل) عما إذا كانت تستطيع الاحتفاظ بها؟

فقال لها إن هذا ممنوع قانونا إلا إذا رفضت حكومة (برمودا) شراءها.. وهذا يترك لها خيار التهريب أو طلب الجنسية البرمودية!

فارقاه على موعد عند الغروب غدا.. وركبا دراجتيهما..

وفي الطريق أحس (ساندرز) أن سيارة خضراء تقتفى أثرهما بشيء من الإلحاح.. حاولا التملص منها، لكنها قطعت عليهما الطريق، وبرز لهما رجل أسود فارع القامة من السيارة، ولوح بمطواة في وجه (ساندرز) داعيا إياه لركوب السيارة..

- ماذا تريد؟

- ثمة رجل يريد لقاءكما!

- من؟..

- ستعرف حالا.. والآن لا داعي للبطولة الزائفة حتى لا أمزقك إربا..

ودون كلمة أخرى دفع أحد الرجلين في السيارة دراجتيهما البخاريتين ما بين الأشجار على جانب الطريق، ثم أدخل الزوجين الشابين إلى المقعد الخلفي للسيارة وجلس جوارهما..

- والان.. هيا بنا..

ooooooooo

كان الهواء ثقيلا داخل السيارة بينما هم راكبون ودنوا من ميدان عام تشير اللافتات به أن (هاملتون) إلى اليمين و (أروكريك) إلى الأمام..
كان هناك شرطي في وسط الميدان ينظم المرور..
وخطر لـ (ساندرز) أن يفتح الباب ويطلب الغوث، لكن رأي السائق يلوح بيده محييا رجل الشرطة، ورجل الشرطة يبتسم قائلا:
- كيف حالك يا (رولاند)!
عبروا جسر (سومرست) الصغير.. أي أنهم عبروا الجزيرة كلها.. وفي النهاية وصلوا إلى سوق مكتظ بالناس والبائعين والأطفال الذين يلهون هنا وهناك..
وأخيرا محل بقالة صغير عليه لافتة تقول (سوق تيدي)..
وأمام الباب جلس زنجيان.. أحدهما يتسلى بقذف سكين صيد، والاخر يرمقه عاقدا ذراعين عضليتين على صدر امتلأ بأثار الجروح.. متى رأيناه من قبل؟
قال (رونالد):
- والان أخرجا ولا تحاولا شغبا وإلا....
ترجل الجميع ودخلوا..
وعند مروره بالرجل ذي أثار الجروح تذكره (ساندرز).. هو (سليك) الساقي الذي رأى الأمبول.. أول من رآه...
كان المكان مظلما من الداخل.. لكنهما - بعد أن اعتادا الظلام - رأيا صفوفا من البضائع وبابا موصدا في المؤخرة..
أشار لهما (رولاند) كى يتبعاه إلى الباب.. ودقه وأدخلهما.

وفي الداخل جلس شاب في العقد الثالث من العمر يلتمع جلده الأسود بفعل العرق.. على أنفه نظارة مذهبة.. ويرتدي قميصا أبيض منشي مفتوح المصدر عن قلادة ذهبية.. والغرفة كلها تفوح برائحة العرق والفاكهة العطنة..

- مرحبا بكما.. أنا (هنرى كلوش)..

قالت (جيل) محاولة أن تبدو متماسكة:

- هل لي أن أعرف سبب وجودنا هنا؟

- يا له من سؤال!.. طبعا من أجل الأمبول...

ثم مد يده يطلبها.. فقال (ساندرز):

- ليس معنا..

- إذن إسمحا لي بالتأكد من ذلك..

وبإشارة من إصبعه عمد رجلان ضخمان إلى تفتيش الزوجين بدقة.. وبالطبع لم يجدا شيئا..

قال (كلوش) وهو ينظر بعيدا:

- إذن لابد أنها عند (رومر تريس).. على كل حال هي واحدة فقط ولا أهمية لها..

- إذن لماذا كل هذا؟

- لأنني مصمم على الحصول على كل أمبول.. أعتقد أنكما تعرفان الأسطورة جيدا وتعرفان محتوي تلك الأمبولات..

- وفيم تريدها؟

- هذا ليس شأنكما.. إنني بحاجة لكما لأنكما تجيدان الغطس وتعرفان مكان هذه الأمبولات..

قال (ساندرز) في حنق:

نعرف فقط مكان أمبولين منها.. وهناك غطاسون يعرفون هذا المكان خيرا منا

- ربما.. لكن البريطانيين أرادوا دائما أن يكون السود أقل منهم في كل شيء.. وهكذا لم يأت إلى (برمودا) غطاس أسود بارع حتى اليوم.. لكنكما أبيضا البشرة وسائحان.. وسيكون في مقدوركما أن تغوصا دون إثارة شبهات.. ثم عقد أصابع يديه، وأردف:
- أريد منك يا مستر (ساندرز) أن تغوص وتخبرني عن عدد هذه الأمبولات.. فإذا كان قليلا بمعنى أن الأسطورة مجرد أسطورة - فعليك أن تخبرني بهذا وجائزتك هى الصحة والعافية وإجازة سعيدة في (برمودا).. أما إذا كان العدد كبيرا فإنني أطالبك بأن تستخرج لى تلكم الأمبولات.. وبعدها تعودان إلى (نيويورك).. ومن هناك تتصلان برقم هاتف أحدده لكما كى تطلبا إيداع مليون دولار في أي حساب مصرفى تريدانه..
ثم لوح بإصبعه في وجه (ساندرز) محذرا:
- كلمة أخيرة.. لو أنك حاولت اللجوء إلى السلطات لوجدت أنني - رسميا - لا وجود لى.. أما لو حاولت الفرار من (برمودا) فلسوف تجد أنني في الواقع موجود في كل مكان.. فلا ملجأ لك..
ثم استدار إلى (رولاند):
- والان.. عُد بهما إلى الفندق..

ooooooooo

إذ دخل (ساندرز) الحمام في غرفتهما سمع صوت قرص الهاتف يدور.. ثم سمع (جيل) تقول في صوت ملهوف:
- أرجو أن توصلني بالشرطة لو سمحت!.
هرع إلى غرفة النوم وانتزع منها السماعة وأعادها إلى جهاز الهاتف.. ثم قال لها:



هرع إلى غرفة النوم وانتزع منها السماعة وأعادها إلى جهاز الهاتف ..

- هلا هدأت أولا؟

انتزعت يده من على كتفها وصاحت بعصبية:
- أريدهم أن يقبضوا عليه.. ألم تر ما يريده منا؟
- لأي سبب يقبضون عليه؟.. ما الدليل؟.. ألم يقل إنه رسميا لا وجود له؟.. ألم يلوح له رجل المرور؟..
من الممكن أنه يضع جهاز الشرطة كله في جيبه..

- إذن نطلب الحكومة البريطانية..
- أرى أنه من الحكمة أن تبلغ (تريس) أولا..
وهنا عطست.. فمسحت أنفها بالمنديل وتأملته.. كانت هناك بقعة من الدماء عليه..
- لم يزل الدم ينزف من أنفى..
- ماذا تعنين بأنه (لم يزل)؟
- كان هناك دم في قناع وجهي حين غادرت الماء اليوم..
في الصباح التالي وجدا دراجتيهما البخاريتين أمام باب الكوخ..
ارتجفت (جيل) حين فكرت أن هؤلاء الرجال المرعبين كانوا هنا ليلا وهما نائمان..
ذهبا إلى (تريس) حيث استقبلتهما الكلبة كالعادة، وفي المطبخ وجدا (تريس) جالسا أمام كومة من الأوراق التي جمعها - كما قال لهما طيلة حياته كلها تحوي معلومات عن السفن الغارقة.. ماذا كانت تحمل؟.. أين غرقت؟.. من نجا منها؟.. وقد جمع أكثرها من أرشيف (مدريد) و (كاديز) و (أشبيليه)..
- أحاول أن أعرف ما إذا كانت سفينة أخرى قد غرقت في نفس موضع (جوليات).. ولربما وجدت ما يقودني إلى غريق يبدأ اسمه بحرفي (أ.ف) كالحلية التي وجدتماها.. ولكن لماذا أتيتما مبكرا اليوم؟
حكيا له لقاءهما غير الودي مع (كلوش)..
فما أن سمع القصة حتى بدت عليه سيماء من وجد أخيرا ما توقعه من شر..
- اللعنة!.. هل تعرفان الرجل؟
- وهل هو شهير؟

- لقد جاء أصلا من (هايتى) وجعل نفسه بطلا أسطوريا بين السود هنا.. أغلبهم يعتبرونه (تشى جيفارا) المحلى ([1]).. كما أن أمه لها نفوذ كبير في السحر
- سحر؟
- نعم.. إن لها أيقونات صغيرة في أكواخ (المارتينيك).. كانت خادمة في فندق ثم مرضت وطردها البيض.. أما ابنها (كلوش) فكان محصل تذاكر.. لكنه كان ذكيا.. أخذ أمه إلى الغابة وجعلها رمزا لاستغلال البيض.. جعل منها عرافة سوداء شافية مقدسة.. وشرع يجول هذه الجزر يبشر السود أن وقت الخلاص قد حان، إن السود يعاملون معاملة عنصرية في هذه الجزر ولا ينالون حقوق البيض..
لهذا فإن أي هدوء هو هدوء وقتى نسبى..
قد تحدث ثورة في أي وقت خاصة وأن (كلوش) يجيد الخطابة.. ومن السهل أن تقنع الناس أنهم يستحقون أكثر مما يحصلون عليه..
- هل هو شيوعي؟ - لا.. كل ما يريده هو أن يحكم الجزيرة.. وسيطلق عليها وقتها اسم (الجمهورية الشعبية) لأي شيء يتفق عنه خياله..
- وما دور المخدرات؟
- إن الثورات تكلف مالا.. أظن أنه سيحاول بيع هذه المخدرات في (الولايات المتحدة).. مليون دولار!.. ألم يسل لهذا المبلغ لعابكما؟
تبادل (ساندرز) نظرة مع (جيل) وقال:
- الله يعلم أننا بحاجة إلى ربع هذا المبلغ..
قال (تربيس):

- هذه الليلة نبحث عن أمبولات أخرى.. فإذا لم نجد يمكنكما إعطاء (كلوش) الاثنتين اللتين وجدتاهما ولنأمل أن ينتهي الأمر على هذا.. ولكن قبل ذلك أرى أن نتحدث إلى (آدم كوفين)..
- ومن يكون؟
- إنه الوحيد الذي نجا من (جوليات).
ثم إنه وضع الأمبولين في جيبه..
قالت (جيل):
- بمناسبة الغوص.. لقد نزف أنفي أمس.
- أوه!.. إن هذا يحدث حين تفارقين الماء فترة. ثم تعودين للغطس.. يمكنك ألا تغطسي معنا هذه الليلة وهكذا...
ركبوا جميعا سيارة (كيفين) ابن عمه قاصدين مسكن هذا المدعو (آدم كوفين)..
كانت السيارة ضيقة جدا على جسد (تريس) العملاق، حتى أنه انحنى إلى الأمام وكانت ساقاه طويلتين إلى درجة أنه - لإخراجهما من الباب – مال بجذعه خارج السيارة، واستند بذراع واحدة حتى جر ساقيه خارجا..
قال في غل:
- سيارات غبية.. تصلح للأقزام!
سأله (ساندرز):
- لم لا تستعمل دراجة بخارية؟
- إنها آلات انتحار.. ميزتها الوحيدة رخص ثمنها وكان (آدم) واقفا في الحديقة يعنى بزهوره.. أقرب إلى هيكل عظمي مليء بالتجاعيد ويرتدي سروالا قصيرا، وحين ابتسم لم تكن في فيه سن واحدة سليمة..
رحب ب (تريس) ودعاهم إلى الداخل..
قدم لهم بعض الشراب، ثم جلس ضاحكا..

- ما سر هذه الزيارة؟.. أم أن هذا هو يوم (الأمم المتحدة) لزيارة العجائز؟
لم يرد (تريس).. فقط دس يده في جيبه وأخرج الأمبولين ووضعهما أمام عيني (كوفين)..
لم يلمسهما الرجل، بل ظل ينظر إليهما دون كلمة.. ثمة شيء في عينيه ينطق بالرعب.. ربما الإثارة..
بعد برهة نظر نحو (ديفيد) و (جيل) وتساءل:
- ماذا يعرفان عن الموضوع؟
- كل ما أعرفه - قال (تريس) في كياسة - ولو لم تصارحنا بكل شيء فإن (كلوش) سيأتي ليقتلك.. كم كان عدد الأمبولات؟
شرب (كوفين) كأسه بيد مرتجفة:
- كانت معبأة في علب السيجار.. ثمانية وأربعون في كل علبة.. سجل السفينة يقول إن هناك عشرة آلاف علبة سيجار.. معظمها (مورفين).. بعضها (أدرينالين).
- لم يكن هناك (هيروين)؟
تكفلت (جيل) بالإجابة:
- إنه نفس الشيء..
- ماذا تعنين؟
- إنه هو نفسه.. ما. (الهيروين) إلا (مورفين) تم تسخينه مع حمض الخليك.. فما أن يدخل الجسم حتى يخرج منه (المورفين)..
- إذن لماذا لا يتعاطى المدمنون (المورفين)؟
- إن المدمنين لا يختارون.. تجار المخدرات هم المسئولون عن ترويج (الهيروين) لأنه أكثر ربحا.. إن حمولة (جوليات) تصلح لعمل نصف مليون جرعة (هيروين) ستباع الواحدة منها في الشارع بعشرين دولارا..

قال (تريس):
- سنغطس الليلة لنرى..
وضع (كوفين) كأسه على المائدة وهتف:
- حسن جدا.. أنا مستعد..
- لا.. سنذهب نحن.. ربما احتجنا إليك فيما بعد..
ضرب (كوفين) بقبضته على صدره وهتف وقد احمر وجهه بفعل الخمر:
- لكن هذه سفينتي!.. أتظنني لا أصلح للغطس؟..
إنني قوي كالحصان..
كان الرجل يدنو من السبعين عاما، ولقد حاول (تريس) أن يمنعه في كياسة دون أن يؤذى شعوره.. قال له إنه - (كوفين) - شهير جدا في المنطقة، ولو أن أحدا رآه يغوص تعرف على الفور أن في الأمر شينا ما...
بدا الرضا على العجوز ووافق على ذلك..
وخرجوا من داره.. وشرع (تريس) يدفن جسده العملاق في السيارة على مراحل كأنه أخطبوط يدس نفسه في كهف ضيق..
قال (كوفين):
- لا تتنفس بعمق والا ضغط صدرك آلة التنبيه!
وقبل أن ينصرفوا استدار (تريس) نحو (جيل):
- هل ستقضين الليل في الفندق؟
- أظن ذلك..
- إذن أحكمي غلق الأبواب.. لا أريد أن أفزعك لكن (كلوش) سيعرف حتما أنك هناك!
- أعرف ذلك..
قالتها ومشهد الدراجتين البخاريتين أمام بابها لا يبرح مخيلتها..
وأدركت أنها ستكون ليلة مريعة..

-7-

كان القمر يرسل أشعته الفضية فوق سطح الماء..
وفوق قارب (تريس) وقف (ساندرز) يرمق البحر ويرمق (ترس)..
حين سمع عواء آتيا من مقدمة القارب..
الكلبة (شارلوت) قابعة هناك تنبح وذيلها يهتز...
- ماذا دهاها؟
- إنها رأت الوميض الفوسفوري..
ونظر (ساندرز) إلى جانب القارب فرأى أضواء صغيرة لامعة على جانبي الماء..
قال (تريس) مفسرا:
- إن القارب يثير الأحياء المائية الدقيقة حتى أنها تشع الضوء.. كان اليابانيون يدعون بها أيديهم آناء الحرب كي يستطيعوا قراءة الخرائط في الأدغال ليلا..
(شارلوت) تريد أن تلتهم هذا الوميض..
- إن شهيتها قوية حقا
- يوما ستكون هي نفسها طعاما.. منذ فترة رأت سمكة قرش تدور في الماء.. فوثبت فوق ظهر القرش محاولة أن تقضم منه قطعة!..
وساد الصمت من جديد..
يرمقان مياه الليل والأنوار المتلألئة من بعيد..
أحس (ساندرز) بمزيج عجيب من الرضا والفخار..
بل - صدق أو لا تصدق - بسرور صبياني لأنه يخوض هذه التجربة دون (جين)...

مشى إلى مقدمة القارب ليقف هناك. ويحذر (تريس) إذا رأى ما يمكن أن يصطدما به.. فقد كانت هناك صخور لا أول لها ولا أخر..
وفي ضوء القمر الفضي رأي شينا يظهر فوق الماء.. ثم يختفي على الفور.. نظر نحو (تريس) متسائلا فرد هذا:
- براكودا!
وبعد قليل رأي (ساندرز) حلقات من المياه تبتعد عن مركز دائرة كما لو أن هناك من رمى بحجر في قلبها..
نادي (تريس) ليرى.. فأوقف هذا المحرك وألقي بالهلب، ثم ثبت الحبل بين الصخور المرجانية..
- هذه صخور تحت الماء.. لقد كنا في الطريق إلى الهلاك..
ونزل (تريس) إلى القمرة.. ورمي ردائى غطس من المطاط الأسود إلى السطح..
- هل الماء بارد؟
- لا.. لكن الصخور تمزق جسدك في الظلام...
قالها (تريس) وتناول كشاف ضوء كبيرا معزولا..
وصندوقا معدنية فتحه فرأى (ساندرز) بداخله قناعا وكشاف ضوء يشبه المسدس..
- هذا هو مصدر الأشعة تحت الحمراء.. وبواسطته أجد الصخور التي تركتها أنت..
ثم أنهما ارتديا ردائيهما..
- انظر في ساعتك.. بعد نصف ساعة - ومهما كان معك من هواء. يجب أن تصعد.. لا أريد المجازفة حين نصل إلى القاع أضيء النور وأعرف أين مكانك بالضبط ثم أطفئه فورا.. لا أظن أن أحدا يقفو أثرنا..
لكنني لست راغبا في إرسال دعوات عامة لهم..

ودس كل منهما خرطوم التنفس في فيه.. ثم انقلبا إلى الوراء واثبين إلى الماء..

ooooooooo

كان الظلام دامسا.. ظلاما مطلقا..
لم يستطع (ساندرز) أن يرى فقاقيع الهواء الخارجة منه.. ولا حافة نافذة قناعة الزجاجية.. ولا حتى إصبع يده..
ولأول وهلة ظن أنه صار ضريرا أو أن النسور لم يخترع بعد..
كان يهبط إلى القاع مع الزفير.. ثم أخذ شهيقا أبطأ من سرعة انحداره.. شعر بالسكينة وبانعدام الحيلة، فقرد ذراعيه وترك جسده ينساب بنعومة إلى أسفل وعلى القاع جلس على ركبتيه وأضاء البطارية..
أدار شعاعها يمينا فيسارا يتأمل الألوان الزاهية التي أظهرها شعاع الضوء على الرمال..
أي إبهار!.. في ضوء النهار كانت الرمال رمادية اللون والصخور بنية والأسماك خضراء، وكل هذا مع مسحة من اللون الأزرق الباهت.. أما الآن فهو يرى الألوان الطبيعية الزاهية.. الأحمر للشعاب المرجانية والوردي الزاهي للأسماك..
وفي طرف دائرة الضوء رأي رأس (براكودا) صغيرة..
أحس (ساندرز) بقشعريرة وتساءل في سره عما إذا كان الظلام الدامس يدارى قروشا..
وهنا لمس شيء كتف (ساندرز) فأجفل..
كان هذا هو (تريس) الذي أشار له لأعلى.. ثم أشار له أن يطفئ النور.. ففعل..
مد يده وأمسك يد (تريس) وتركه يقوده..

فـ (تريس) يبصر الآن بالأشعة تحت الحمراء وأخيرا أضاء الكشاف فرأى أنهما يقفان خارج الكهف الذي وجدا فيه الأمبول أول مرة.. وبسرعة بدأ (تريس) يجرف الرمال.. يزيلها ويوسع الفتحة حتى أخرج منها شيئا يشبه ورقة بنية اللون.. ثم.. أمبولا زجاجيا سليما.. قطعا من الخشب المتعفن..



وبسرعة بدأ (تريس) يجرف الرمال .. يزيلها .. ويوسّع الفتحة
حتى أخرج منها شيئا يشبه ورقة بنية اللون ..

أدرك (ساندرز) أنها أجزاء من صناديق السيجار التي كانت تحوي الأمبولات.. وأخيرا خرج صندوق مربع بني الشكل تهالكت جوانبه تماما.. لكنه كان يحوي ثمانية وأربعين أمبولا متراصة ما بينها حواجز من الورق المقوى..
بعد قليل بدا لهما صندوق آخر..
كانت ثلاثون دقيقة قد مرت عليهما تحت الماء..
وأشار (تريس) لأعلى إلى (ساندرز) وأخذ منه الكشاف..
ارتفع هذا الأخير ببطء - دون أن يحرك ذراعيه الى أعلى، شاعرا بوهنه ووحدته وسط هذا السواد اللانهائي حوله.. كان آخر ما يرجوه هو أن يلفت نظر كائن ما.
وعند السطح أدرك أنه ابتعد خمسين ياردة عن القارب.. فسبح نحوه بحركات منتظمة وتسلق سطحه.. فك حمالتي كتفيه وجلس يلهث على صوت عواء ات من مقدمة القارب..
بعد ثوان ظهر وجه (تريس) من تحت الماء، فبصق الخرطوم من فيه وتساءل:
- أين (شارلوت)؟
- في المقدمة.. لابد أنها نائمة دون انتظار وثب (تريس) إلى ظهر القارب فرمى خزان الهواء من على ظهره.. وهتف:
- هراء!.. إن هذه الكلبة لا تنام.. بل تنتظر خروجى من الماء لتلعق الملح من على وجهى ..
وهرع بسرعة وثقة إلى مقدمة القارب.. وتبعه (ساندرز)..
- الأوغاد!
سمعها (ساندرز) فوثب قلبه إلى فمه...
كانت الكلبة متكورة على نفسها، تنهش مؤخرتها محاولة أن تخرج جسما لامعا من ذيلها عند اتصاله بالردف..

كانت تعوي من الألم.. ولقد انحنى (تريس) في رقة فنزع هذا الجسم المعدني من جسدها، وعلى الضوء الذي أناره (ساندرز) رأي سهما طوله بوصتان على شكل ريشة..
- (كلوش)!
قالها (ساندرز) وقد رأي الشيء..
- حين رأينا (كلوش) كان يعلق في عنقه ريشة كهذه.. لا بد أن هذه هي بطاقة زيارته..
- الوغد!.. إذا ظن أن إيذاء كلبي سيقنعني بالتعامل معه فهو مخطئ.. هات لى صندوق الإسعاف أضمد هذه السيدة العجوز..
وفي حنان ورفق حلق الشعيرات المحيطة بالجرح ونظفه.. ونثر فوقه مسحوق (السلفا).. ثم إنه ضمد الجرح وهو ما ينفك يداعب الكلبة ويحدثها..
- أنت قد ذقت لحمك ووجدتيه شهيا.. لا يوجد ما يمنعك الآن من التهام نفسك حتى العنق!
ثم أنهضها. واستدار إلى (ساندرز) قائلا:
- يبدو لي أن مخزن (جوليات) اصطدم بالصخر أولا.. وسقطت كمية صغيرة منه.. بعد ذلك أخرج أحشاءه كلها.. وإن كمية هذه المخدرات لتفوق تخيلى..
- وهل نقدر على إخراج كل الكمية؟
- نحتاج إلى شفاط هواء.. كما سيكون علينا الغوص بمعدات (ديسكو).. إن هذا يؤمن تهوية مستمرة فلا يتحتم علينا الصعود للسطح لتغيير خزانات الهواء، سيكون الأمر عسيرا لأن الأمبولات مخلوطة بالقذائف.. إن النحاس يتآكل لكن (الكوردايت) ([2]) سيكون صالحا تماما للانفجار.. فما أن تسقط قذيفة فوق الصخرة حتى تحدث كارثة..

ثم مد يده لصدره وأخرج شيئا ناوله ل (ساندرز)..
- وجدت هذه جوار الصخر بعد ما صعدت أنت للسطح كانت قطعة عملة متآكلة عليها نقش لأسد، وحرف (١) اللاتيني، ورقم (170).
كانت جوار قطعة حديدية لذلك لم يتطرق إليها العطب كتلك التي وجدتها أنت.. حرف ال (١) يعنى أنها سكت في (المكسيك) فهل تدرك معنى هذا؟
- أي أن المركب التي حملتها كانت تقصد (أسبانيا)..
- أحسنت.. كانت عائدة من العالم الجديد.. الأرقام التي عليها هي الأرقام الثلاثة الأولى من تاريخ سكها في وقت ما من السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، وفي هذا الوقت كان (فيليب الخامس) يعتلي عرش (أسبانيا) عام 1700 م.
ثم ضاقت عينا (تريس) فصارتا عينى ثعلب وأردف:
- في عام 1715 م. غرق أسطول كبير أثناء عودته إلى (أسبانيا).. عشر سفن تحمل ذهبا وفضة.. وفي عام 1960 تمكن غواص يدعى (كيب واجنر) من العثور على ثمان سفن حمولتها تقدر بثمانية ملايين من الدولارات.. المشكلة هنا أن السفن قد غرقت عند (فلوريدا).. ومن المستحيل أن يحرك البحر حطام سفينة مسافة تتجاوز ألف ميل.. لهذا لا أميل للظن أن هاتين السفينتين غرقتا عند (برمودا)..
وأخرج من جيبه ميدالية أخرى عرضها على (ساندرز).. كان عليها رسم لرأس امرأة كتب تحته (سانتاكلارا).. وعلى الوجه الآخر كتب الحرفان المعهودان (أ.ف) ...
لقد أمضيت النهار كله أبحث بين الأوراق.. لكني لم أجد ضابطا أو نبيلا يبدأ اسمه بهذين الحرفين...

ثم إنه دس الميدالية والعملة في جيبه، وأرسل (ساندرز) ليرفع الهلب، وبدأ محرك القارب..
سأله (ساندرز) وقد عاد إلى القمرة:
- ماذا عن (كلوش)؟
- هو يعرف الآن أنني مهتم بالأمر، ولن يصبر كثيرا قبل أن يحاول معي شيئا.. وأرى من الحكمة أن تعود مع زوجتك إلى الوطن.. فقد يتركك بسلام..
لكن الأمر كان يعني الكثير ل (ساندرز)..
حلمه القديم بالعمل مع (كوستو).. الترحال حول العالم.. ها هو ذا القدر يهديه فرصة على طبق من فضة كي يعيش الحياة بدلا من الاكتفاء بمشاهدتها.. القيام بما لم يقم به من قبل..
كان يعرف أنه سيستمر في المخاطرة..

∞∞∞∞∞

حكى له (تريس) قصصا طريفة عن مزوري الذهب الأسباني..
قال له إن التزييف سهل نوعا.. ومن الصعب فحص قطعة ذهب إشعاعيا لمعرفة عمر الكربون بها..
حكى له أنه منذ عام - تلقى مكالمة هاتفية من متحف (فورستر) ليفحص بعض العملات التي وجدوها..
لم يكن في العملات ما يدعو للريبة.. وظل أسبوعا كاملا يحدق فيها عاجزا عن تمييز تزييفها أو جودتها..
وفجأة - بعد لأي - وجد حرف (ب) اللاتيني على العملات، أي أنها سكت في (بوتوسى) في (بيرو) - اسمها الان (بوليفيا) - والتاريخ على العملة كان 1627 م.
كان هذا هو الفيصل..

لماذا؟.. لأن دار سك عملة (بوتوسى) لم تبدأ العمل إلا في عام 1650 م.. ومعنى هذا أن المخادع الذي وجد تلكم العملات أنفق آلاف الدولارات لشراء ذهب يسك منه هذه العملات..

ولم لا؟.. إنك تستطيع بيع عملة ذهبية ملكية واحدة بخمسة آلاف دولار.. لقد كان النصاب يسعى لتسويق أسهم شركة لا وجود لها تستكشف حطام السفينة (سان دييجو) التي غرقت عام 1580 م..

لقد صار الشك بخصوص العملات قاعدة في عالم السفن الغارقة حتى أن بعض الشركاء الذين يملكون عملات أصلية لا يجدون مشتريا لذهبهم، ويبيعونه لأطباء الأسنان بالجرام.. عملات عمرها أربعة قرون تنتهي في أسنان النساء المتصابيات!

ooooooooo

وصل القارب إلى المرفأ في الحادية عشر مساءً..

وودع (ساندرز) (تريس) إلى الغد.. وركب دراجته البخارية قاصدا الفندق.. يشق الظلام بنورها الخافت..

وفجأة..

تصلب جسده إذ رأي شبحا يقف أمامه في الظلام خارج مجال ضوء الدراجة.. وسمع صوتا يتساءل:

هل فكرت فيما عرضناه عليك؟

لم يكن هذا صوت (كلوش).. وارتبك (ساندرز) حول كيفية التصرف الصحيح.. أجاب متلعثما:

- أنا.. أنا.. لم نجد شيئا..
- هل وصلت إلى قرار؟
- حسن.. إنني..

- نعم أم لا..

- لا أعرف.. لم يمر وقت كاف و...

ودون كلمة أخرى اختفى الشبح بين الشجيرات، ولكن.. لماذا لم يفعلوا معه ما يريدون؟..

لماذا يتركونه؟..

وهنا خطر الجواب على ذهنه كومضة البرق..

(جيل)!....

∞∞∞∞∞

سقط مرتين بالدراجة في طريق العودة..
مرة وهو يدور حول منحنى.. سقط على ركبتيه وكفيه وخدش جلده..
ومرة أخرى غاص بين الشجيرات وخدش وجهه ومزقت ثيابه..
لو حدث شيء ل (جيل) فقد حدث وانتهى..
لقد مرت ساعة كاملة منذ تكلم مع الرجل على الطريق..
وأخيرا رأى الكوخ ورأى ضوءا في نافذته..
هرع في جنسون إلى هناك.. فتح باب غرفة النوم ليرى (جيل) جالسة على الفراش مشعثة الشعر تحدق في الأرض دون أن تحيد بعينيها..
فما أن رأته حتى انفجرت باكية.. طوقها بذراعه مهدئا.. لم تكن هناك آثار عنف لكنه تمنى أن يذبح كل هؤلاء الأوغاد
- ماذا فعلوا؟
- لا شيء.. لا تخف..
- إذن ماذا؟
- في الحادية عشرة ذهبت للنوم.. لا أدري كم من الساعات نمت لكنني صحوت على دق على الباب.. قال لى الطارق: إنه من الشرطة وأنك أصبت في حادث، كان العذر مقنعا وفتحت الباب ملهوفة لأجد ثلاثة منهم.. كلهم من رجال (كلوش.. أحدهم هو الساقى إياه.. (سليك).. سألني عما إذا كنا سنتعاون معهم..
ثم رمي لي هذا الصندوق على الأرض قائلا إنها هدية لنا من (كلوش)
مد (ساندرز) يده إلى الصندوق وفتحه.. ثم هتف:

- رباه!

ooooooooo

دمية هي.. مصنوعة من قماش قطنى محشو بالقش.. ولكن معناها كان واضحا.. الشعر على الرأس آدمى له نفس لون شعر (جيل).. والجسد ممزق بالسكين في عدة مواضع، وقد سدت التمزقات بقطع من القطن لها لون الدم..
تقلصت كفه على الدمية.. وسرى الخوف في عموده الفقري..
إن التهديدات له لا تهمه كثيرا.. لكن إقحام (جيل) في الأمر..
وسرعان ما اتخذ قراره..
- ألو.. شركة (بان أمريكان).. من فضلك..



تقلصت كفه على الدمية .. وسرى الخوف في عموده الفقري ..

وانتظر بضع ثوان.. ثم هتف:
- ماذا؟.. شركات الطيران مغلقة حتى التاسعة صباحا؟.. شكرا لك...
ووضع السماعة على حين كانت (جيل) عائدة من الحمام تحمل كأسا من الشراب.. فسألته عما يفعل..

- أحاول الفرار طبعا.. لن أدع لهؤلاء المجانين فرصة كي يمزقوا أحشاءكِ..
- لكننا لن تستطيع تركهم يفعلون ما يريدون.. كما أن هربنا الأن معناه أن نمضي عمرنا تحت التهديد.. أرى أن الشيء الوحيد الممكن هو إبلاغ الأمر إلى السلطات..
- قال (تريس) إن هذا لا جدوى منه..
- لكننا سنفعله..

ꝏꝏꝏꝏ

كان (تريس) منهكا بعد أن قضى أمسية شنيعة..
عرفا هذا من عينيه الحمراوين والجلد المتورم تحتهما، وعلى مكتبه تكدست أوراق مصفرة وصور عتيقة.
حكيا له ما تم بالأمس وعرضا عليه الدمية.. فقال:
- لا أعتقد أنه سيحاول إيذاءكما الان فهذا سيثير عاصفة غضب ضده، كما أنه يحتاجكما.. لكن خذا الحذر.. لو تأكد حقا من أنكما لن تتعاونا معه فهو قمين يذبحكما دون أن يحفل بشيء؟
تم صب لنفسه قدحا من الشراب.. وقال:
- أريدكما أن تسمعا ما توصلت إليه البارحة.. تذكر يا (ساندرز) أنني كلمتك عن أسطول من عشر سفن غرق عام 1715 م.. لقد كان هذا الأسطول تحت إمرة جنرال اسمه (دون خوان إسطبان دي أوبيللا).. كان يريد العودة إلى (أسبانيا) لكنه اضطر إلى البقاء في (هافانا) لبعض الإصلاحات.. وهنا ظهر رجل يدعى (دارا) يقود سفينة اسمها (الجريفون).. وطلب من (أوبيللا) أن يشمله بحمايته ويقبل سفينته في أسطوله لأنها.. محملة بالذهب وهو خائف من قراصنة (الكاريبي)..

حاول (أوبيللا) التملص لكن (دارا) استعان بأعلى مسئول ملكي في (هافانا)..
وهكذا صار الأسطول مكونا من إحدى عشرة سفينة، ورفع ورقة صفراء لوح بها وأردف:
- لقد غادروا في 24 يوليو 1715 م، وعلى متن السفينة الفا رجل وثلاثون مليونا من الدولارات.. ثم إن السفن غرقت جميعا عند ساحل (فلوريدا) فلم تنج سوى سفينة (دارا)..
ولقد عادت السفينة إلى (هافانا) ثم - بعد ذلك - اختفت أخبارها تماما.. ومن المرجح أنه غرق هنا..
في تلك الأونة لم يكونوا يعرفون خطوط الطول، وكانوا يعتبرون (برمودا) نقطة مناسبة للانحراف شرقا في طريق العودة.. لهذا غرقت أكثر من ثلاثمائة سفينة عند هذه الجزيرة..
ثم التمعت عيناه بفرح:
- هكذا - ترون - اجتزنا مرحلة أحلام اليقظة.. حتما هناك سفينة.. وأنتما أول من وجدها.. لا أرغب في أن ترحلا من هنا قبل أن تعرف أن نصف ما أجده هو من حقكما..
قالت (جيل) وقد تذكرت ما كانت تريد قوله:
- مستر (تريس).. لقد قررت إبلاغ الحكومة بشأن المخدرات..
ضرب (تريس) المنضدة بقبضته وصاح:
- يا إلهي!.. الحكومة لن تفيدك بشيء!
- أنا أعرف مدى احتقارك للحكومة، لكن هذا واجبي..
انتصب (تريس) واقفا في حنق.. وهتف:
- إذن أخبريهم وتعلمي الدرس بنفسك..
وأحسا عندئذ أنه راغب في إنهاء الزيارة، فانصرفا..

ooooooooo

في الفندق طلبت (جيل) مصلحة الجمارك.. وقالت:
لمن رد عليها أنها ترغب في مقابلة مسئول بصدد عملية تهريب..
- من المتكلم؟
كادت تقول اسمها، ثم تذكرت أن (كلوش) موجود في كل مكان.. فاعتذرت عن ذلك في الوقت الحالي..
- هل أنت أمريكية؟..
- إذن أقترح أن تتصلى بمصلحة السياحة..
ووضع الخط..
طلبت (جيل) مصلحة السياحة، فحددوا لها موعدا في الرابعة، وكالعادة رفضت إعطاء اسمها..
وفي الموعد ذهبا إلى مصلحة السياحة، فقالت لهما موظفة الاستقبال - وهي فتاة سمراء جميلة - أن المدير غير موجود وأنهما سيقابلان مساعده... مستر (هول).
كان المستر (هول) أبيض البشرة في الأربعين من عمره.. وكان ودودا أحسن استقبالهما ودعاهما إلى الجلوس.
شرعا يحكيان له القصة الكاملة - مع حذف قصة السفينة الإسبانية طبعا - وهو يصغى باهتمام:
وحين انتهيا أبدى اعتذاره على ما لقياه من متاعب، ووعد بأن يطلع الوزير على تفاصيل المشكلة، فالوزير غير موجود.. إنه في (جامايكا) يحضر مؤتمرا إقليميا لكنه سيعود بعد أيام..
وعد كذلك بأن يجري تحريات سرية لمعرفة هذا المدعو (كلوش)..
فارقاه وقد أدركا أنهما - إذا توقعا منه عملا إيجابيا سيموتان شيخوخة أو كمدا قبل أن يحقق شيئا..

ooooooooo

وحين عادا إلى (تريس) وأخبراه بما تم وما انتوياه؛ تم الاتفاق على أسلوب جديد للحياة..
سيأتيان ليقيما معه في منزله!..

ooooooooo

استقبلهما (تريس) مع كلبته، ففتح لهما الباب حتى يدخلا حاملين ما جلباه معهما من حقائب كبيرة وخزانات هواء.
ثم أنهما دخلا إلى غرفة النوم.. وكان بها سرير عريض جدا من الخشب الوردي اللامع.. وأدرك الزوجان أن هذه غرفة (تريس)...
- ليس بوسعنا أن نأخذ حجرتك..
- سأنام في حجرة المعيشة.. لقد صنعت هناك أريكة ضخمة تناسب حجمي المهول..
وأدركت (جيل) بفطنتها الأنثوية أن هناك لمسة امرأة في هذا البيت.. ولكن أين ذهبت؟.. كان (تريس) موجودا في كل ركن بصور سفنه وقطع عملاته. لكن كانت هناك أيضا أثار امرأة مسنة في المفارش المطرزة بالزهور والسجاد اليدوي..
ثم إنهم سمعوا صوت دقة على الباب، فقال (تريس):
- قد جاء العشاء!
وفتح الباب والتقط لفافة ورقية.. وعلى المنضدة فتحها فرأيا بداخلها سمكة (براكودا) طولها متران تلتمع بالبلل تقلصت أمعاء (جيل) إذ رأت السمكة وتساءلت - كنت أحسبها سامة؟
قال (تريس):
- ان هناك أكثر من ثلاثمائة نوع كلها سامة وكلها تفرز (النيوروتوكسين).. وفي جزر (بهاما) يسلقون (البراكودا) مع قطعة

من الفضة فإذا اسودت الفضة كان هذا دليلا على سمية السمكة.. لكننا متحضرون ولدينا أساليب علمية أفضل..
ومد ذراعه الأيمن وقاس عليه طول السمكة وأردف:
- إذا كانت السمكة أطول من ذراعك فإنها تؤذيك، وكما تريان هذه السمكة أقصر من ذراعي فهي غير ضارة.. إن هذا ليس تخريفا.. الفكرة هنا أن الأسماك الكبيرة تحوي سما - إذا كانت سامة - أكثر من الصغيرة.. ولئن كانت هذه السمكة الصغيرة سامة.. فسمها لن يحدث أكثر من مجرد مغص.. ثم أخرج سكينا.. وشرع ينظف السمكة في عناية وسرعة..
سأله (ساندرز) عن مصدر هذه السمكة.. فقال (تريس):
إنهم اعتادوا أن يحضروا له ما يزيد عن حاجتهم من الأسماك... وذلك ديدنهم في العناية بحارس الفنار..
ثم طلب من (جيل) أن تقوم بتسخين الزيت.. وبدأ يضع شرائح السمك في المقلاة ويتركها حتى تكتسب اللون الذهبي.. وكانت (جيل) قد أعدت بعض السلاطة فجلسوا يأكلون..
- لا تخافي منها فهي غير سامة.. ولو كانت كذلك لعرفت في الحال.. - قال (تريس) لـ (جيل) – لقد حدث أنهم نقلوا رجلا إلى المستشفى وقطعة السمك مازالت في فمه!
وحين جاءت العاشرة مساء خلدوا للنوم..

ooooooooo

حين صحا (ساندرز) على نباح الكلية حسب لوهلة أنه يحلم.. نظر إلى ميناء ساعته المضيء فوجد الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق.. ثمة ضوء خافت يتسرب من ستار النافذة..
هز (جيل) لتصحو.. ففتحت عينيها وهمست

- ما الخطب؟
- لا أدري.. ربما كان هذا حريقا؟
ثم إنه هرع إلى الباب وفتحه فوجد (تريس) واقفا عند الباب الأمامي للمنزل عاريا إلا من سروال قصير وجواره تقف الكلبة متحفزة.. ووراء جسد (تريس) الضخم رأي (ساندرز) وهج المشاعل ووجوه بعض الزنوج..، وسمع صوته يتساءل:
- ماذا هنالك؟
كانت يده ممتدة نحو بندقية كبيرة مستندة إلى ركن الباب..
ورأى (ساندرز) رجلين متسربلين بالسواد يحملان مشعلين كبيرين وبينهما جاء (كلوش) في حلة بيضاء لامعة..
وسمع (ساندرز) شيئا يطير وعلى بعد بوصات من رأس (تريس) رأي سهما رفيعا يهتز مرشوقا في الخشب.. سهما رفيعا رماة أحدهم على سبيل الإنذار..
قال (كلوش) في تؤدة:
- إن أصدقاءك لم يتصرفوا بحكمة.. لقد اتصلوا بالسلطات رغم أنني أنذرتهم ألا يفعلوا..
- وماذا تريد الان؟
- أنت تعرف ما أريد.. الأمبولات..
دون أن يلتفت (تريم) إلى الوراء قال:
- (ساندرز) هامسا:
بس اذهب إلى الباب الخلفي وتأكد ألا أحد هنالك، ثم عاد يخاطب (كلوش):
- أنت تعرف السياح.. إنهم لا يكفون عن....
عبر (ساندرز) المطبخ سريعا في الظلام.. فتح أحد الأدراج وتحسس الموجودات حتى وجد ضالته.. السكين.. شعر بالراحة

حين دسه في سرواله رغم علمه أنه واهم.. فهو لا يعرف كيف يحارب بسكين..
فتح باب المطبخ فلم ير شينا بالخارج.. ولم يسمع سوى صوت الرياح.. أحكم غلق الباب بالمفتاح، ثم عاد إلى الردهة ليقف جوار (جيل) التي جاءت على قدميها الحافيتين لتسمع المحادثة..
كان (تريس) يصيح:
- لن أتركك تحصل على هذه المخدرات!
قال (كلوش):
- حسن جدا.. بك أو بدونك فالنتيجة واحدة!
وبرز رجلان من الظلام يحملان قوسين.. وفي اللحظة التالية أفرغ (كلوش) على الأرض حقيبة بها قماشية غرس سهم في صدر كل منها، وأطلق الرجلان سهميهما..
رمى (ساندرز) ب (جيل) إلى الوراء.. أم (تريس) فقد وجد الوقت مناسبا ليخرج بندقيته ويطلق منها ثلاث قذائف دوت كالرعد في الردهة..
وبعد ثانية لم يجدوا (كلوش) ولا رجاله.. بقيت شعلتان ملقيتان على الأرض.. لقد فروا حين رأوا البندقية وما كانوا يتوقعونها..
فروا تاركين رسالتهم المروعة..

ထထထထထ

وكانت ليلة رهيبة كما يمكن لك أن تتوقع..
وفي الصباح خرج الزوجان إلى المطبخ ليجدا (تريس) جالسا يرشف الشاي، وقد جلس أمامه (كيفن) وقد امتلأ فمه بالخبز..
وهتف (ترس) حين دخلا:
- هيه.. لقد سبق أن قابلتها (كيفن).

- بالطبع
لم يرد (كيفن).. اكتفى بصب قدح من القهوة..
أخبر (تريس) (ساندرز) أنهم سيقومون بالغوص مستعملين بدلات الغوص المسماة (ديسكو).. فهى مريحة ولا تحتاج إلى خزانات هواء. فالهواء يأتيها عبر خرطوم قادم من فوق السطح.. والقناع على الوجه يسمح للابسة بالكلام والغناء إذا أراد.. المشكلة أنه لن يكون هناك وقت للتدريب عليه.. سيتدربان عليه أثناء العمل، لأن (باسيل تابر) - تاجر الزجاج الذي زار الزوجين في بداية المغامرة. قد حصل على معدات غوص كاملة هذا الصباح.. (كيفن) عرف هذا من الجمارك.. ومعنى هذا أن (كلوش) قد صار متأهبا للوصول إلى (المورفين) بجهوده الذاتية.
وفي الحادية عشرة صباحا خرجوا بالقارب..
كان على ظهره مكبس تخرج منه ثلاثة خراطيم صفراء متصلة بثلاث أقنعة للوجه والرأس.. وفي المقدمة وقف (تريس) ممسكا ببندقية..
تساءل (ساندرز):
- هل تظنهم قادمين؟



وفي المقدمة وقف (تريس) ممسكا بندقية ..

تسأل (ساندرز) : — هل تظنهم قادمين ؟..

- لا أدري.. هل تجيد استعمال البندقية؟.. إن (آدم) سيقوم بنوبة المراقبة الأولى.. وستكون طريقة الإنذار هي غلق المكبس.. إنها أسرع رسالة لمن تحت الماء، أن شيئا ما خطأ يدور على السطح.. وكانوا قد دنوا من شاطئ (أورانج جروف).. وكان (أدم كوفين) واقفا - كالمومياء - في المياه الضحلة جوار الشاطئ ينتظرهم..

فسرعان ما لحق بالقارب..
وشرع (ترس) يشرح لـ (ساندرز) العملية المنتظرة:
- لسوف ترى شفاط الهواء إذ يعمل.. إنه يخلق نوعا من الفراغ يمتص الرمال من على القاع بسرعة لا تصدق.. وحين تظهر لك الأمبولات المدفونة عليك أن تستخرجها بمجرد أن تراها محاذرا أن يبتلع الشفاط أناملك.. لو أن الشفاط امتص الأمبولات ستتهشم في الحال..
ثم وجه كلامه إلى (جيل):
- أما أنت فستجمين الأمبولات التي يعطيكها (ساندرز) لتضعيها بدورك في حقيبة قماشية، لا تصعدي قبل أن تخبرينا.. إلا إذا ما حدث مكروه على السطح، عندئذ سيتوقف سريان الهواء.. اصعدي بسرعة وتشبثي بمقدمة القارب.. لو كان هناك دخيل على ظهر السفينة فلن يراك.. يمكنك عندئذ أخذ بضعة شهقات ثم مواصلة الغطس..
بدا التردد على (جيل):
- الواقع أنا.. أنا خائفة من ارتداء هذا (الديسكو)..
- لا مشكلة هنالك.. نحن نريد راحتك.. يمكنك ارتداء خزان هواء عادي.. هل ثمة شيء آخر؟..
بدأ هذا المكبس العمل فلن نسمع بعضنا البعض..
لم يعترض أحد.. فأدار (تريس) المحرك.. وبدأ الزئير..
ثم إنهم ارتدوا ثياب الغوص تباعا.. يحتاج الأمر هنا إلى تثبيت عشرة أرطال في الحزام لتساعد على الغوص.. ولمن اعتاد الغوص بثياب عادية يشعر بكثير من الغرابة دون خزان هواء على ظهره..
لكن لل (ديسكو) مزايا لم يدركها (ساندرز) إلا حين وثب إلى الماء.. فمجال الرؤية أوسع يتيح له رؤية أنفه..، كما أن عدم وجود الخرطوم في فيه مريح للغاية.. وحين نظر لأعلى رأي

خرطوم المطاط الأصفر يتلوى فوقه كثعبان الماء.. وكان باستطاعته أن يقفو أثر خرطوم (تريس) نحو القاع..
وعند فوهة الكهف وقف (تريس) ممسكا بأنبوب شفاط الهواء الألومنيوم تنبعث منه ضوضاء مروعة سمعوها حتى تحت الماء..
وقفا بجواره على حين شرعت الرمال تختفي من القاع كأنها رماد سجائر تمتصه مكنسة كهربية بلا رحمة.. ومن الناحية الأخرى للأنبوب شرعت الرمال والحصى تخرج محدثة سحابة كثيفة..
لقد صارت الحفرة أعمق.. وأعمق..
ثمة أمبول يلتمع في الضوء.. التقطه (ساندرز) وناوله ل (جيل)..
فجأة انهارت الرمال.. وتبدت عدة أمبولات تلتمع في الضوء.. وبعد دقائق صار هناك حقل من الأمبولات اللامعة دستها (جيل) في الحقيبة ثم أشارت لهما أنها ستصعد لأعلى لأن الحقيبة قد امتلأت..
وعلى السطح ارتمت على بطنها لاهثة على حين شرع (كوفين) يفرغ الأمبولات من الحقيبة.. وسألها:
- هل رأيت مدى براعة (تريس)؟
- هل استعمال الشفاط عسير إلى هذا الحد؟
- إنه يهتز كعفريت.. لكن (تريس) يمسكه بيد ثابتة كطود لمدة خمس أو ست ساعات.. إن هذا الرجل يجد نفسه تحت الماء بعيدا عن الزحام المجنون.. مائتان وستة وأربعون أمبولا.. مازال أمامكم الكثير..
وضعت القناع على وجهها وانزلقت عائدة للماء..
كانت الرؤية عسيرة بسبب سحابة الرمال، لكنها تبينت زوجها و (تريس) مستمرين في شفط الرمال..
وكانت سجادة من الأمبولات قد تبدت لعيونهم تحت صخرة كبيرة.. أحست (جيل) أن الأمر لا ينتهي، كلما تخلصت من طبقة

ظهرت أخرى.. البرد يزحف إلى عظامها والحنين إلى ضوء الشمس يقتلها، وسرها أن شعرت بعسر تنفس مما يعني أن خزان هوائها نفذ.. لمست (تريس) وحركت يدها على حلقها بحركة الذبح التي تعني أن الخزان فارغ.. ثم صعدت إلى أعلى..

وحين نزعت قناعها أحست أن فمها مشدود كأن طبيب أسنان ظل يعمل طويلا بين شفتيها.. وأحست أن الدم يسيل من أنفها..

- هل أنت مرهقة؟

سألها (كوفين) وهو يحضر خزانا آخر.. فقالت:

- ميتة!

- إذن سأهبط أنا.. لقد بدأ الملل يقتلني..

رفضت في إصرار.. وبعد أن عرضت جسدها للشمس بدأت تتأهب لمواصلة الغطس.. وفي هذه المرة أعطاها (كوفين) ثلاث حقائب مربوطة بالحبال بحيث يمكنه رفعها إلى السطح عند امتلائها..

وفي القاع وجدت جبلا صغيرا من الأمبولات ارتفاعه قدمان.. فشرعت تملا الحقائب الثلاث.. ثم جذبت الحبال ثلاث مرات ليعرف (كوفين) أن عليه جذب الحقائب..

الصداع الشديد في جبهتها.. الضغط على أذنيها..

ثمة شيء رمادي يتحرك ما بين الصخور.. حاولت أن تتبينه.. ثم رأته يخرج من خلف سحابة الرمال.. ينزلق من الضباب.. القرش..

لم تستطع معرفة حجمه فلا يوجد ما تقارنه به.. لم تستطع معرفة بعده عنها.. فهو يتحرك على مرمى بصرها.. ولكن ما هو مرمي بصرها؟

يدور في حلقة واسعة حولها.. جنده رمادي مغطى بخطوط بنية.. عينه السوداء ترمقها دون اكتراث..

دنت من (ساندرز) وحركت يدها اليمني كأنها فم يفتح ويغلق..
نظر لقناعها.. إلى الدماء الخضراء التي تسيل من تحته..
ورأى الخيوط تختلط بالمياه..

ꝏꝏꝏꝏ

-10-

اشارت (جيل) لأعلى طالبة الصعود..
- لا!.. هز (ساندرز) رأسه في حزم ليمنعها، ثم واصل العمل....
كان يكدس الأمبولات عشرا في كل مرة ويدسها في حقائب (جيل).
لكنه لم يستطع قط أن يلحق بسر (تريس)..
وفجأة اقترب القرش إلى مسافة عشرة أقدام منهم..
طوله يدنو من السبعة أقدام كأنه طوربيد من العضلات.. ثم غاب بين سحابة الرمال..
لم تعد (جيل) ذات نفع لهما لأنها ظلت راكعة على ركبتيها تتلفت حولها في هلع مرتقبة عودة القرش، وأهملت جمع الأمبولات تماما..
وراه هو أولا.. رآه قادما من اليمين نحو (جيل)..
وفي هذه المرة كان رد فعله سريعا،، مد بيده إلى ساقه وتناول الخنجر الذي كان يحمله لا يدري لماذا..
واندفع إلى الأمام نحو القرش.. يا لنعومة هذا الجسد!.. لقد غاص الخنجر حتى المقبض في بطن القرش.، وما أن انتزع (ساندرز) الخنجر حتى تدفقت الدماء الخضراء من الجرح في سحابة ثخينة.. شرع القرش يبتعد وذيله يرتجف.. ثم انثنى ليطبق بفكه الرهيب على بطنه محاولا التهام نفسه كعادة القروش...
وهنا شعر (ساندرز) بشيء يطبق على كاحله.. لم يكن قرشا، بل شينا أقوى جعله يهوي إلى الوراء معدوم المقاومة.. كان هذا هو (تريس) الذي التمعت عيناه غضبا خلف القناع.. لم ير الرجل حانقا إلى هذا الحد من قبل.. فما السبب يا ترى؟

وأشار (تريس) إلى أعلى معطيا إشارة الصعود وبدأوا الطفو.. جثة القرش تتلوى هنا وهناك حولهم..
فما أن وصلوا إلى السطح حتى نزع (ساندرز) قناعه:
- ما الذي......؟
- أحمق!! - دوي صراخ (تريس) المرعب - لم أر في حياتي تصرفا أغبى من هذا!.. هل تظن نفسك (طرزان)... لقد أفسدت علينا عمل يوم كامل.. كان القرش يشعر بمجرد فضول ولم يكن ليهاجمنا.. القرش لا يهجم إلا إذا ارتعش جسده كله من الإثارة.. ولو حدث هذا كنا سنكتفي بالاختفاء في سحابة الرمال.. إن الرمال تسد خياشيم القروش وهذا يضايقها.. أما أن تطعنه بسكين فهو آخر شيء أحمق يمكن أن تلجأ إليه.. ارحمني يا إلهي من الغباء والأغبياء!
ثم قذف له ول (جيل) بقناعي وجه وأضاف:
- انزلا إلى الماء.. تعلقا بالمنصة وانظرا ما سببه هذا المخبول..
صدع الزوجان بالأمر.. هبطا إلى الماء وتشبثا بمنصة الغطس.. وكان ما رأياه لا يصدق.. الأمر يبدو كحرب العصابات.. أعداد لا حصر لها من القروش من كل الأحجام تصطرع حول قطع ممزقة هي كل ما بقي من القرش الذي طعنه (ساندرز).. والقروش الكبيرة تهاجم الصغيرة التي بدورها تتحول إلى هدف المشاجرة أخرى..
صعد (جيل) و (ساندرز) إلى السطح مذهولين...
وكان (تريس) منهمكا بعد الأمبولات.. وسألهما دون أن ينظر نحوهما:
- هل رأيتما النتيجة؟.. سيظلون هنا يأكلون بعضهم البعض لفترة طويلة جدا..
قال (ساندرز) في خزي:
- آسف جدا.. ان الجهل..

- لا عليك.. على الاقل لهذه القروش مزية واحدة: انها ستبقى المتطفلين بعيد.. لقد حصلنا اليوم على4870 أمبولا ان أمامنا يومين على الأكثر قبل أن يجهز (راكوش) شفاط هواء ويعلم رجاله كيف يستخدمونه..

وبدأ القارب يتحرك مهتزا فوق الأمواج..

- ما هو موعد البدء غدا؟

- الثامنة صباحا.. سنعمل خمس ساعات ونستريح.. ثم نواصل العمل في السادسة مساء..

ooooooooo

حين وصلوا إلى المرفأ كانت الشمس تلامس الأفق الغربي.. وأعلن (تريس) أن عليهم إخفاء الأمبولات في كهف تحت الماء عند قاعدة الصخرة..

قام و (ساندرز) بتجهيز خزانى هواء ثم حملا الأكياس معهما وأشار (تريم) إلى صندوق خشبي طالبا من (جيل) أن تجلب له سمكة مملحة من داخل الصندوق، به..

- لأجل (بير سى).. إنه يعيش في الكهف!

- وما هو (بيرسى)؟

- إنه ثعبان (موراى) عملاق.. أخضر اللون يسكن هذا الكهف منذ زمن.. إن علاقتي به لا بأس بها لكنه جائع أبدا..

التقطت (جيل) سمكة كبيرة محاولة تجاهل الرائحة الشنيعة وناولتها له.. ثم إن الرجلين نزلا الماء...

وعند حافة الكهف - وعلى ضوء الكشاف – رأى (ساندرز) (تريس) واقفا يضيء داخل الكهف بالكشاف.. وتأمل (ساندرز)

المكان فلم ير شيئا على بعد ثلاثين قدما، لكن (تريس) أشار بإصبعه إلى نهاية الكهف.. كان هناك شيء يتحرك..
دخل (تريس) الكهف ملوحا بالسمكة.. ورأى (ساندرز) رأس الثعبان يتلوى خارجا من بين الصخور.. في حياته لم ير شيئا بهذا الحجم المروع ينظر بعينين باردتين كعيني الخنزير إليه.. وفي اللحظة التالية انفتح الفم عن أسنان كالإبر بينها خيوط لزجة تلتمع في الضوء.. وفيما بعد لم يستطع (ساندرز) أن يتذكر متى انقض الوحش على السمكة..
وفي الثانية التالية كان قد أخذها معه إلى جحره وابتعد الرجلان.. وعند فوهة الكهف حفرا حفرة كبيرة دفنا فيها حقائب الأمبولات ثم غطياها بالرمال وحين صعدا إلى السطح تساءل (ساندرز) عن طول هذا الثعبان..
فقال (تربيس) إنه لم يره كاملا قط وإنه لا يتمنى أن يراه خارج جحره أبدا.

ooooooooo

في صباح اليوم التالي: شرع القارب يهدر عائدا إلى موقع الأمبولات طلبا للمزيد...
كان الجو عاصفا.. ولقد احتاج (تريس) إلى مهارة غير عادية كي يجتاز حزام الصخور متفاديا إضافة حطام جديد إلى (أورانج جروف)..
وفي هذه المرة تقرر أن ينزل العجوز (كوفين) الماء بدلا من (جيل) لأن رأسها كان يؤلمها وأنفها ينزف منذ البارحة..، وألقي (تريس) هلب الميمنة، فهلب الميسرة وترك تروس القارب غير معشقة.. فانزلق هذا إلى الوراء جاعلا الحبال مشدودة تماما..

وقبل أن ينزلوا الماء ناول (تريس) البندقية لـ (جيل) كى تتولى الحراسة..
بدا على المرأة أنها رأت ثعبانا.. لكنه أصر على أن تأخذها وألا تضعها على كتفها عند الإطلاق، لأن قوة ارتدادها عنيفة جدا.. وقوة تدميرها أعنف..
- لا أستطيع!
- إذا هاجمك أحد مخابيل (كلوش) بخنجر ستجدين أنك قادرة على كل شيء.
ثم إن (تريس) أحضر أثقالا يربطونها في أحزمتهم كى يهووا إلى القاع كالصخور وسط المياه الثائرة كانت المياه هادئة نسبيا في القاع عن السطح، لكنها كانت قوية إلى حد أن (ساندرز) أخذ يتأرجح أماما وخلفا كقشة..
واضطر أن يزحف على القاع غارسا ركبتيه في الرمال...
وفي الساعة التالية قام (ساندرز) بست رحلات إلى السطح، كان يشعر بالبرد والإنهاك وألم فوق حاجبيه، الكنه واصل العمل.. ومرت ساعة أخرى..
الآن يؤلمه كل جزء في جسده.. كان الصعود عسيرا والهبوط صعبا.. لكن الأمبولات كانت قد تجاوزت العشرة آلاف.
وهنا رأى شيئا يلتمع داخل أحد تجاويف الصخر اما هذا؟
أشار بيده لـ (كوفين) ثم إلى الصخرة.. فأشار هذا بدوره إلى (تريس) الذي ترك الشفاط وسبح نحو (ساندرز) وعلى وجهه تعبير يقول:
- ماذا هنالك؟
اشار (ساندرز) إلى الكهف.. فنظر (تريس) بداخله وأومأ برأسه ثم مد يده داخل الكهف..
فجأة توتر جسده.. فتح فاه خلف القناع صارخا في هلع:



وحولها رأى ثعبان (موراى) يتلوى ، وقد قبض بفكيه على كف (تريس) ..

راه (ساندرز) يجذب ذراعه.. وحولها رأي ثعبان (موراي) يتلوى. وقد قبض بفكيه على كف (تريس)..

حاول (تريس) تخليص كفه، لكن الثعبان تملص ولف جسده على شكل عقدة حول ذراع (تريس)..
واستمرت الأنياب تنهش واللحم يتمزق.. ثم إن الثعبان ازدرد ما اقتطعه من لحم وانقض قاصدا خصر (تريس)..
لكن (تريس) تملص.. اعتصر عنق الثعبان بين يديه ودفعه إلى الصخر وهشم رأسه.. انتفض الجسد مرتين، ثم تهالك على الرمال..

أشار (تريس) نحو (ساندرز) كي يمد يده في الكهف بحثا عن الشيء الذي كان يلتمع..
هز (ساندرز) رأسه أن لا.. أتظنني مجنونا...
لكن (تريس) كان قاطعا.. من ثم مد (ساندرز) يده داخل الكهف متوقعا في أية لحظة أن يشعر بالأنياب تطبق على ذراعه.. وأخيرا اصطدم كفه بشيء صلب..
فأطبق عليه وأخرجه.. كان يمثل تمثالا من الذهب للسيد المسيح. وقد حفر على قاعدة التمثال الحرفان المعهودان (أ.ف)..
صعد الثلاثة إلى السطح، وجلس (تريس) تاركا كفه المجروح (كوفين) يضمده..
- هل إصابتك بالغة؟
- لا.. حمدا لله.. مشكلة وحوش البحر هذه هي تلوث الجروح، ولكن انس الأمر.. ماذا وجدت؟
يا إلهي.. إنها تحفة فنية!
انظري إلى أظافر اليدين والقدمين.. صنعت من الزمرد الأخضر.. هو لون محاكم التفتيش.. الزمرد الذي كان الأسبان يحبونه.. إن صديقنا (أ.ف) كان فاحش الثراء أو عزيزا لدي من هو فاحش الثراء.. ثم نظر إلى كفه المضمدة وقال ل (ساندرز) باسما:
لم تعد أنت المعتوه الوحيد.. فلو كان (بيرسى) هو ساكن الكهف لابتلعني حتى العنق.. والان هيا بنا.. سنأخذ إجازة حتى السابعة مساء..
- هل ستغطس بهذا الجرح؟..
- طالما ظلت يدي قادرة على الإمساك بالشفاط فلا مشكلة هنالك.. والآن سنوصلك يا (كوفين) ويمكنك أن تستريح.. سأحضر (كيفين) لمساعدتنا..

- هل تثق فيه؟
- إنه خليق بانتزاع الأسنان الذهبية من أفواه الموتى، لكنه مخلص لي..
وأوصلوا (كوفين) إلى بقعة ضحلة من الماء ثم عادوا إلى مرفأ (تريس) الخاص..
تناولوا الغذاء.. وعند العصر جاء (كيفين) بوجهه الكئيب الذي يعكس كراهيته المطلقة للبشر وللخير وذهبوا معا إلى المكان الذي يخفون فيه الأمبولات تحت الماء.. طبعا بعد أن أخذوا السمكة إياها هدية ثعبان البحر (بيرسي)..
استغرق إخفاء الأمبولات ساعتين.. حتى كاد (ساندرز) يقضي جوعا وبردا.. لكن (كيفين) البدين الذي لم يكن يرتدي سوي لباس العوم لم يبد متأثرا ببرودة الماء أو جهد العمل.. لم يكن ينبس ببنت شفة.. يصعد ويهبط دون كلل..
كنت أظنه يكره الماء..
- إنه يكرهه.. لكن إذا أوكلت إليه عملا فإنه يؤديه كالألة.. لا يتوقف دون أن ينهيه.. كما إنه بدين كالخنزير فلا يشعر بالبرد..
- وكم ستدفع له؟
سيطلب مائة دولار وسأعرض عليه عشرين ثم نتفق على خمسين!
كان الإنهاك باديا على (ساندرز) وكل جسده يرتجف.. لهذا أخذ منه (تريس) ثوب الغطس ونصحه بالعودة إلى البيت كي يستريح ويأخذ حماما..
وقد فعل.. فما أن خرج من الحمام حتى وجد (تريس) جالسا على منضدة المطبخ يتأمل التمثال الذهبي -فسأله (ساندرز):
- هل يساوي كثيرا؟
- إذا أمكننا بيعه فلن يقل ثمنه عن مائة ألف دولار!

- يا للهول!
- إن اليهود الهولنديين صناع مهرة حقا.. لم يكن باستطاعة الأسبان ولا الهنود أن يصنعوا شيئا بهذه الدقة.. المشكلة أن نعرف من هو (أ.ف) هذا..
لابد من معرفة أصل هذا التمثال..
ثم إنه تثاءب ونصح (ساندرز) بأن يذهب لينام قليلا قبل أن تجيء السادسة مساء..
هو كذلك.. غاص في الفراش جوار (جيل) وخطر له أن يهزها قليلا لأنها تغط في نومها بصوت مسموووو......
ولم يشعر بعد ذلك سوى بيد (تريس) تهزه أن الوقت قد حان لاستئناف البحث..
كانت الريح قد هدأت نوعا في هذه المرة..
الأضواء في (أورانج جروف) تلتمع ساعة الغسق، والشمس الغاربة تلون الأفق بلون وردي شاحب..
لكن (كوفين) لم يكن بانتظارهم..
- أين هو؟
- حتما سيحضر..
لكن الانتظار طال.. كلما مرت بضع دقائق قام (تريس) بإعادة تشغيل المحرك كي لا يجنح القارب على الصخور..
وفي السابعة والربع أدركوا أن (كوفين) لن يجيء عرض (ساندرز) أن يذهب ليرى سبب تأخره..
نزل إلى الماء الضحل وخاض فيه بقدميه..
صوت ارتطام الأمواج وهمسات الريح بين الشجيرات..
وضوء القمر الفضي المصفر.. تعثر في شيء ما فسقط على ركبتيه.. شم رائحة كريهة كالبراز، ثم لمست أصابعه شيئا باردا..

هذا ذراع.. شهق رعبا.. نظر للأمام.. كانت عينا (كوفين) الباردتان تحدقان - دون أن تريا في السماء.. وثمة دماء لزجة على ركن فيه.. هرع راكضا إلى الشاطئ.. وشرع يتعثر في الماء كالمسعور وهو يصرخ:

- لقد مات!

سأله (ترس) وهو يعتصر ذراعه:

- متأكد؟

- حتما.. لقد قذفوا به من أعلى الصخرة..

- الملاعين!

أخذت (جيل) ترتجف كالورقة منتحبة.. ومن بين شفتيها هتفت:

أريد الرحيل من هنا.. الأن!

قال (تريس) وهو يحدق في الصخور:

- لا يمكن لأحد الرحيل الآن.. إن معنى هذا أن (كلوش) صار مستعدا بغواصيه.. لم يعد بحاجة إلينا الأن

كنت أظن أن وقتنا ضيق، لكني الآن أعرف أننا لا نملك وقتا على الإطلاق..

وبدأ محرك القارب دون تردد..

ooooooooo

قالت (جيل) وهما يتأهبان للغوص:
سأنزل معكما.. لا أريد بحال أن أظل هنا وحدي..
قال (تريس) في شرود:
- هذا غير مستحب أن نترك سطح القارب دون حراسة.. إن (شارلوت) الكلبة لا تجيد استعمال البندقية.. ولكن.. ليكن.. ربما لا يحاول شيئا جديدا هذه الليلة..
وارتدوا ثياب الغطس ووثبوا إلى الماء..
تبعتهما (جيل) وهي تتساءل عن سر المذاق الحلو الخفيف.. الذي تجده في الهواء الذي تتنفسه..
كان (تريس) و (ساندرز) يعملان كما سبق في الكشف عن أمبولات أخرى على ضوء كشاف يمسكه (ساندرز)...
لم تكن تشعر بتوتر بل باسترخاء غير عادي..
استلقت على بطنها وشرعت تحدق في حفرة الرمال أمامها.. كأنها تحلم.. لم تحاول تسليط كشافها على الرجلين، بل شرعت تتسلى بمراقبة سمكتين صفراوين تسبحان جوارها..
يا له من شعور جميل.. الدفء والراحة في المياه السوداء..
وكان (تريس) هو أول من لاحظ أن شيئا ما ليس على ما يراد، نظر نحوها.. ثم وثب اليها.. انتزع الكشاف من يدها وسلطه عليها.. كانت عيناها مغمضتين ورأسها يتأرجح في استرخاء..
انتزع خرطوم الهواء من فمها ثم وضع رأسها في قناع الـ (ديسكو) الخاص به. ودفن ركبته في بطنها.
ولم ير (ساندرز) ما حدث.. فقط وجد (تريس) يحمل (جيل) إلى السطح.. وحين لحق بهما وجد أنها ممددة على منصة الغوص،

في حين شرع (تريس) يحاول إرغامها على القيء.. وسمع صوت حشرجة وصوت شهيق..
ثم إن (تريس) تشمم الهواء الخارج من خزان الهواء الخاص بها وغمغم:
- الأوغاد!.. كانت ستقضى وقتا طيبا مع الملائكة هناك من ملأ خزان الهواء بأول أوكسيد الكربون!
- كانوا يريدون قتلها؟!
- هي أو أنت أو أنا.. لا يهمهم ذلك كثيرا..

ထထထထထ

حين عادت (جيل) إلى رشدها سالت (تريس):
- ماذا ستفعله مع جثة (ادم).. هل ستبلغ الشرطة؟
حث (تريس) رأسه في ارهاق وقال:
- إنسي كل شيء عن الشرطة والقانون والنظام لن يساعدنا أحد.. ولقن عشنا فالفضل لنا أو متنا فالخطأ خطونا.. غدا سيجد أحدهم (آدم) ولسوف يبلغ الشرطة.. وسيأتون بكل همة ونشاط ويملأون أوراقهم.. ولن يصلوا لشيء، نفس الشيء سيحدث لو أبلغناهم فيما عدا أننا سنمضي أياما نجيب على أسئلتهم الغبية.. إن الشرطة مضيعة للوقت يا صغيرتي..
واستعد الرجلان للوثب إلى الماء.. ثم وثبا.. فثارت سحابة رمال لم يتخللها سوى ضوء كشافيهما وجلست (جيل) عند مقدمة القارب ممسكة البندقية.. كانت تكرهها لكنها أشعرتها بالأمان، وشرعت تتخيل عيني (كوفين) الخاليتين من الحياة حيث رقد على الرمال ميتا في هذه اللحظة بعينها..
وبعد دقائق صعد (ساندرز) وناولها حقيبة ملاي..

كانت الحادية عشرة مساء والمزيد من الأمبولات يظهر رجلين.. العمل بطيء بسبب عدم وجود يد ثالثة..
صعدا إلى وفجأة رأى (تريس) بريقا ما بين الرمال.. فشرع يزيحها جانبا ليرى أفضل.. كان هناك تمثال من الذهب على شكل ثمرة أناناس مزدانة باللآلئ.. تفحصها برفق ثم دسها في حقيبة (ساندرز)..
بعد ثوان وجد شيئا آخر.. سلسلة من الذهب طولها ثمانية أقدام.. وفي نهايتها الحرفان (أ.ف) ...
هذه المرة لم يعد ممكنا مواصلة العمل سطح القارب ورفعا خراطيم الهواء على حين أخذت (جيل) تتفحص ما وجداه في اهتمام..
ظل (تريس) صامتا.. لم ينبس ببنت شفة حتى حين وصلوا إلى المنزل في الواحدة صباحا.. ظل على منضدة المطبخ يتأمل ما وجدوه ويحسو الشراب ولم يرد تحية المساء التي ألقياها وفي الرابعة صباحا عرف من هو (أ.ف)..

ooooooooo

وحين صحا (ساندرز) و (جيل) ودخلا إلى المطبخ..
أدركا من عينية المنتفختين أنه لم يتم طيلة الليل..
سألها عما إذا كانت نامت جيدا، فقالت باسمة:
- لم يحاول أحد قتلى في الفراش.. وأنا لذلك سعيدة!

نظر لها ولد (ساندرز).. ثم قال بلهجة منتصرة:
- لقد عرفت من هو (أ.ف)!
ثم أردف إزاء صمتهما:

- إن ما يوجد في القاع لهو كنز لم يعثر عليه أحد قط.. كنز ظلوا يبحثون عنه مائتين وستين عاما..
حطام (الجريفون)..
في عام 1714 ماتت زوجة (فيليب الخامس) وتعلق قلبه بدوقة (بارما).. لكن المرأة اشترطت عليه أن يغمرها بالجواهر.. وقد كان..
أرسل إلى (هافانا) طالبا قائمة طولها صفحات ثلاث من الحلى الثمينة ترسل إلى (أسبانيا).. وحملها رجل من (هافانا) فلم يعرف بأمرها سواه والربان.. ثم غرقت السفن ونجا الربان.. لهذا اتفق مع الرجل على اقتسام الكنز والإدعاء أن الكنز غرق على إحدى السفن المختفية.. ويبدأ الربان رحلة العودة حاملا كنزه، لكن سفينته تحطمت فوق صخور (برمودا) ولم يعرف التاريخ أن السفينة تحمل كنزا..
والأن ماذا كان اسم دوقة (بارما)؟
كان اسمها (اليزابيتا فارنيس).. هل تذكركم الحروف الأولى من اسمها بشيء ما؟!
تبادل (ساندرز) و (جيل) النظرات.. لكن الذهول منع السعادة من زيارة وجهيهما
قال (تريس):
- لقد صارت مهمتنا الأولى الآن هي استخراج الكنز.. فلا جدوى من محاولة إخراج كل الأمبولات قبل أن يتحرك (كلوش).. لن أترك هذا الكنز ل (كلوش) ليقوم بصهره وبيع الذهب بالجرام.. من الجرم تركه لمن لا يعرف قيمته.. سنترك ما تبقى من الأمبولات له..
ثم إنه لف المجوهرات في قطعة من القطيفة وأخفاها في غرفة سرية تحت الأرضية أصر على أن يعرفا كيفية فتحها والنزول إليها

وفي الحادية عشرة صباحا وصلوا عند الصخور..
وتفقد (ساندرز) الشاطئ بنظارة معظمة فلم يجد أثرا لجثة (كوفين)..
قال (تريس) وهو يلقي الهلب..
- لقد رفعوه من أجل السياحة.. إن من يدفعون مائة دولار في اليوم لا يفعلون ذلك لأنهم يعشقون الجثث المنتنة..
ثم إنه ناول (جيل) البندقية وطلب منها البقاء على السطح..
كان يشعر بأن هناك ما سيحدث اليوم بالذات.. وكرر على مسمعها التعليمات الخاصة بإيقاف المكبس لو حدث ما يريب..
- لو لم يحدث شيء فعلى الأقل ستكتسب بشرتك لونا برونزيا..
ووثبا إلى الماء..
كانت الرمال قد انزاحت كاشفة عن أمبولات متفرقة.. لكن (تريس) أشار ل (ساندرز) كى لا يجمعها ويدعها وشأنها.. وأخذ يزيح الرمال بالشفاط ببراعة لا توصف..
بعد دقائق ظهرت زهرة من الذهب المطعم بالزمرد..
ثم رأى (تريس) شيئا ذهبيا يلتمع، فجرف الرمال عنه بيده.. كانت حرباء من الذهب يتصل ذيلها بسلسلة طولها عشرة أقدام.. وفي فم الحرباء نفخ (تريس)..
(أي أنه تظاهر بالنفخ) ليشرح ل (ساندرز) أنها صفارة..
ومرت أربع ساعات.. الحصيلة: أربعة خواتم ذهبية.. سلسلة بها لؤلؤتان كبيرتان.. وقرطان من الزمرد.. وحبل من الذهب المجدول تشبث بقوة ما بين صخرتين فلم يقدر (ساندرز) على انتزاعه رغم جهودهم..
شرع (تريس) يهوى على الصخر بقاعدة الشفاط محاولا تحطيمه حتى يتسنى لهما انتزاع السلسلة..

∞∞∞∞

في الوقت ذاته أحست (جيل) أنها توشك على الاحتراق حية في أشعة الشمس.. لم لا تنزل عن السطح تاركة للكلية (شارلوت) مهمة المراقبة؟.. إنها حتما ستحدث ضوضاء لا بأس بها إذا ما رأت أحدا..

∞∞∞∞

لا صوت تحت الماء سوى شهيق الرجلين وأزيز المكبس.. وحركة أطراف الأنامل في الرمال.. كأنما يعملان في شرنقة..

∞∞∞∞

الكلبة تنبح.. صوت محرك يقترب.. أجفلت (جيل).. أمكنها أن تسمع صوت رجلين يتكلمان:
لا يوجد أحد..
- نعم ما عدا الكلبة.. هاى!.. كفى عن النباح بالعينة!
دقات قلبها تتواثب.. فتحت فاها تعب الهواء.. ثم ارتقت السلم إلى السطح منحنية.. إن البندقية هناك على الرف جوار الدفة..
لن تستطيع أبدا.. صوت الرجلين:
- كم خرطوما يخرج من هذا الشيء؟
- اثنان.. وثمة واحد للشفاط..
مدت يدها وأمسكت مؤخرة البندقية.. كانت ثقيلة حقا عند حملها بهذه الطريقة.. القارب يدنو أكثر.. صوت مجداف.. صوت عواء الكلبة.. ثم صوت شيء ينطلق من بندقية.. ثم سكون..
الان تراهما.. الرجل في مؤخرة القارب الأخر..

واضح لها الآن.. أثر الجرح على صدره الأسمر.. إنه (سليك) الساقي.. وفجأة نظر لأعلى فالتقت عيناهما..
نظرة سرور على وجهه.. ها هو ذا يرفع البندقية يصوبها نحوها.. ثم رمح من الصلب ينطلق ليرشق على بعد ست بوصات من عنقها..
عندئذ ضغطت الزناد..
الدور المروع.. (سليك) يتأرجح وفي صدره ثقب في حجم كرة ينز الدم.. يداه تمسكان بصدره ثم هوى..
وفي خطوات ثابتة هرعت إلى المكبس فأوقفت عمله..

ooooooooo

كان (ساندرز) قد دس السلسلة في صدر ردائه حين شعر بشيء ما مختلف.. ماذا حدث؟.. هناك شيء ناقص.. آه!.. المكبس.. لقد توقف عن العمل..
ونظر نحو (تريس) فرأى شبحا ينقض عليه وفي يده سكين.. ورأى خرطوم (تريس) يتمزق.. ثم إن الرجلين التحما وارتفعا إلى أعلى..
وحين دقق البصر أكثر فهم أن (تريس) يرفع الرجل إلى السطح بسرعة، لكنه كان قد انتزع خرطوم هواء المهاجم.. بل وكان قد سد أنفه وفمه بيده ليمنعه من إخراج الزفير!
إن الهواء المحبوس في الرئتين يتمدد عند الصعود للسطح.. وما لم تتم عملية الزفير فإن هذا الهواء يمزق الرئة...



وحين دقق البصر أكثر فهم أن (تريس) يرفع الرجل إلى السطح بسرعة ..

إن (تريس) يقتل خصمه بطريقة شنيعة.. فهل سيتألم الرجل أم سيفقد وعيه قبلها؟
(ساندرز) يلحق بهما نحو السطح متوجسا.. فماذا ينتظره على السطح الآن؟..

وفجأة شعر بشيء يجذب الخرطوم.. نظر للخلف فرأى رجلا يجذبه من الخرطوم هو يمسك ببندقية (حربون).. الأكسجين!.. رأسه تنبض.. لا وقت كي..
حاول أن يتملص.. لكن الرجل أحكم تصويب البندقية بعينين باردتين على مقتله.. ثم رأي (ساندرز) الرمح آتيا نحوه.. انتهى الأمر!
انتظر الألم لكن الرمح اصطدم بصدره ولم يؤذه..
وسرعان ما فقد (ساندرز) رشده..

ꝏꝏꝏꝏ

على السطح فتح عينيه ليجد أن (جيل) تحتضن وجهة برفق..
وكان (تريس) يرمقه باسما:
- مرحبا بعودتك..
- هل.. هل غرقت؟
- كدت.. ولحسن الحظ أنك كنت تحمل سلسلة الذهب في صدرك فلم يخترقه الرمح..
كان المعتدون ثلاثة.. أحدهم قتلته (جيل) والآخر خنقه (تريس) تحت الماء بعد ما هاجم (ساندرز)..
أما الثالث فهنا..
في ذهول نظر (ساندرز) إلى (جيل):
- أنتِ قتلت رجلا؟
لم يكن لدي الخيار..
ثم إن (تريس) استعد للعودة إلى الماء ليجلب الشفاط..
قال ل (ساندرز) أن يراقب ذلك الرجل المخنوق الذي تمزقت رئتاه.. فهو ميت لكن الحذر يقضي بتصويب البندقية عليه..

- ألن تشغل المكبس؟
- لا.. إذا لم أكن أستطيع النزول والصعود في نفس واحد، فأنا غير جدير بعملي..
ووثب (تريس) إلى الماء على حين تعاون الزوجان على جر الجثة إلى السطح.. كانت ثقيلة كديدن الجثث.. وجلسا على حافة القارب.. القمر يتسلق الأفق.. وملامحهما صارت عسيرة التبين في الظلام لهذا لم يريا الرجفة التي بدأت تغزو ساق الجثة.. لم يريا انفتاح العينين.. وبالتأكيد لم يريا حركة الأصابع العصبية نحو السكين المربوط في الساق..
وفجأة رأيا الرجل يقف كالكابوس صارخا.. ووثب نحوهما..
ضغط (ساندرز) الزناد فلم يحدث شيء!.. كان ضوء القمر يلتمع على وجهه المتوحش.. أحس (ساندرز) بألم في ذراعه.. ثم سقط على ظهره في الماء..
(جيل) الأن وحدها معه.. ربما لو وثبت في الماء بسرعة.. ولكن لا.. لن يتسع الوقت لذلك.. ربما لو..
فجأة سمعت صوت ضربة.. ابيضت عينا الرجل ثم هوى أرضا..
وهناك وجدت (ساندرز) يقف خلفه ممسكا بمفتاح انجليزي ثقيل ملوث بالشعر والدماء..
وصعد (تريس) إلى السطح.. ففهم على الفور ما حدث.. تحسس عنق الرجل ثم غمغم:
- انتهى..
ثم نزل إلى أسفل القارب فأخذ حبلا وربط طرفه في رقبته - رقبة القتيل - ثم ربط طرفه الآخر إلى وتد في المقدمة..
- ماذا تفعل؟
تساءلت (جيل) فلم يرد (تريس).. أمسك بسكين شق بها بطن الجثة، ثم ألقى بها في الماء...

- ماذا تفعله!

- أطعم به القروش!

ولماذا؟

- كتحذير.. إن (كلوش) يقنع رجاله أنهم شهداء وأن مالهم الجنة.. لكنهم يؤمنون أنهم لن يصلوا إلى الجنة إلا بأجساد سليمة.. وحين يرون ما سيبقى من جثة هذا الحيوان سيدب الذعر في قلوبهم، وسمعوا صوت شيء يصطدم بجانب القارب، فنظر (ساندرز) إلى هناك ليرى زبدا أبيض يملأ الماء جوار القارب..

شعر بالغثيان وبالحموضة ترتفع إلى حلقه.. لقد كان المشهد لا يوصف..

ورأى رأس قرش بحجم غطاء المرحاض تهتز من جانب الاخر وهي تنتزع قطعة لحم من الجسد الذي كان حيا منذ دقائق..

لم تر (جيل) المشهد لحسن الحظ.. نظرت للظلام، وهمست:

- لقد ساد السكون

قال (تريس):

- نعم.. السكون أغنية الموت..

....

سارت (جيل) خلف زوجها و (تريس) شاعرة بالرعب من التغير الذي طرأ على (ساندرز).. كانا يتحدثان عن القتل كأنه أمر عادي يحدث كل يوم..

كان (تريس) يقول بصوت عال:

- ثمة طرق عدة لاستعمال السكين.. إن بها ثلاثة عناصر: الطرف المدبب، والجزء الحاد من النصل والجزء غير الحاد.. إن الأمر يتوقف على ما تريد عمله بالشخص..

وسمعت (ساندرز) يقول:

- ولكن قد يكون في إمكانه أن........

- ليس إذا غمدت السكين حتى نصلها.. عندئذ لن...

صرخت (جيل) بصوت عال:

- كفي!

كان الجرح في ذراع (ساندرز) قد كف عن النزف تاركا بقعة من الدماء الجافة على ثوبه.. ونصحه (تريس) أن يضع مزيجا ما من أعشاب كانت جدته تضعه على الجرح..، ثم اتجه إلى الخزينة فأخرج منها قالبا من شيء يشبه الصلصال.. ونصفا سفليا لزجاجة شراب.. وجهاز توقيت.. وصندوقا من ورق مقوى..

ثم شرع يقطع قطعا صغيرة من الصلصال يضعها في قاعدة الزجاجة..

فتساءل (ساندرز) عن كنهها..

قال (تريس):

- اسمها س - 4 -.. وهي بلاستيك متفجر.. نستعمله عادة في رفع الحطام.. تنظيف الموانئ.. لكننا هذه المرة ستستعملها في تدمير

المخدرات إلى الأبد..
- بهذه المادة؟
- ليس بها وحدها.. لكن إذا وضعتها ما بين متفجرات أخرى فإنك تحصل على جهنم التي تريدها...
ثم بدأ يوصل الأسلاك إلى العبوة الناسفة.. سيضبط جهاز التوقيت إلى ما بعد خمس دقائق ثم يبتعد عن المكان عدة ياردات بانتظار الانفجار..
وفجأة نبحت الكلبة معلنة قدوم شيء ما..
أصاخ (تريس) السمع.. ثم هتف:
- ثمة قارب!
وفتح درجا انتقى منه سكينا طويلا ناوله ل (ساندرز):
- تذكر ما قلت لك.. هذا السكين قادر على سلخ تمساح..
ثم ناول (جيل) شاطورا من على مشجب..
تراجعت.. لكنه أصر قائلا: إنها صارت تعرف كيف تقتل الأن..
وحمل معه كشافا.. ثم خرج مع الزوجين بين الشجيرات تحت ضياء القمر..
استطاعوا أن يروا قاربا يقف عند فتحة الكهف الذي أخفوا فيه الأمبولات.. كان هذا (كلوش)!...
تسلل (تريس) مع (ساندرز) بين الأشجار مقتربين أكثر.. كان (ساندرز) يشعر بشيء غريب.. كطفل صغير يشعر بالخوف الممزوج بالإثارة، لكنه مطمئن، لأن أباه معه.. (تريس) كان معه..
وفجأة شعر بشيء يثب عليه من الخلف.. أحس بكيان ضخم يجثم فوقه ويثبته أرضا..
حاول طعنه بالسكين لكن ركبة المهاجم دفعت بمعصمه إلى الأرض تاركة إياه معدوم الحيلة..
وفجأة سقط مهاجمه أرضا.. وسمع صوت (تريس)..

يهمس في كراهية ومرارة:
- (كيفين)!
كان (كيفين) هناك مستلقيا على ظهره، وقد جثم (تريس) على صدره وثبت نصل خنجره على وريد رقبته.. وكان (تريس) يهمس في مرارة:
- أنت أخبرت (كلوش) بمكان الكهف!.. لماذا؟
تتخلى عن صديق عمرك وابن عمك من أجل المال؟
لكن (كيفين) ظل يرمقه صامتا دون تعبير على وجهه..
وفي اللحظة التالية جذب (تريس) النصل سريعا، ثم أغلق عينيه..
وبعد لحظات عاد إلى رشده، فنهض من فوق الجثة الذبيحة وتأمل الموقف.. كان هناك اثنان أو ثلاثة من الغواصين يستعدون للغطس فوق قارب (كلوش)..
سيحاولون إخراج الأمبولات من الكهف.. لكنه لن يتركهم يحصلون عليها.. سينزل إلى الماء مع (ساندرز) ويحاولان القضاء عليهم..
- حاول أن تقطع خرطوم الهواء عنهم – قال لـ (ساندرز).. ثم ابتعد سريعا عن الرجل الذي تقطع خرطوم هوائه، لأن الرجل الذي يفاجأ بهذا يغدو خطيرا..
- ولكنهم سيصعدون لأعلى على الفور..
- لا أخالهم على هذا القدر من المهارة.. سيعجزون عن حبس أنفاسهم أثناء الصعود، أو سيضلون طريقهم داخل الكهف..
وسمعوا صوت الرجال.. كانوا يتساءلون عن مكان (كيفين) الذي اختفى دون سابق إنذار..
تسلل (تريس) و (ساندرز) إلى قارب (تريس) المتوقف هناك ورقدا على السطح.. ثم شرعا يزحفان محاولين سرقة خزان هواء وزعانف وقناع..

ثم غطسا في الماء وقد أمسك كل منهما يد الأخر باحثين عن أضواء الغطاسين..

ooooooooo

كان الكهف مضاء كخشبة المسرح في قاعة مظلمة.. أضواء الكشافات العملاقة تنير المكان..
ومن الكهف خرج غواص يحمل حقيبة ملاي بالأمبولات..
دنا (تريس) و (ساندرز) من الكهف خارج دائرة الضوء..
ثم أن (تريس) استلقي على بطنه وشرع يزحف على الرمال مقتربا أكثر.. وأشار لـ (ساندرز) كى يقف عند الجهة الأخرى من المدخل.. والتصق كلاهما بالصخر..
حركة الماء والرمال.. ثمة شيء قادم..
رفع (تريس) سكينة منتظرا.. وبعد ثانية خرج رجل من الكهف.. عندئذ وثب (ترس) نحوه وبنصل سكينه انتزع خرطوم الهواء من فيه وقطعه..
وهنا ظهر رجل آخر فوثب (ساندرز) عليه.. لكن الرجل كان متنبها.. التحم ب (ساندرز) وأسقطه فوق الرمال..
سقط السكين من يد (ساندرز).. كلا الرجلين يحاول انتزاع خرطوم الآخر..
اندفعا في صراعهما داخل الكهف.. (ساندرز) يحاول آملا في أن يخف (تريس) لعونه.. الرجل قوي..
أصبح الرجلان كتلة من الأذرع والسيقان المتلاحمة...
وفجأة رأى (ساندرز) الفتحة في حائط الكهف وتذكر..
أمسك بالرجل باستماتة حتى نجح في تقريب رأسه من الفتحة.. وهنا.. برزت عينا الخنزير في الرأس الأخضر العملاق.. ثم عنق

(بيرسى) ثعبان (الموراى) الهائل وفي لحظة كان عنق الرجل بين أسنان الثعبان..
انفجرت الدماء منه وارتسمت على وجه الرجل أفظع امارات الفزع والرعب..
خطر د (ساندرز) أن يطعنه.. لكن ما الداعي؟ ...
ان عنق الرجل كله بين أنياب الثعبان، خرج من الكهف فوجد (تريس) مازال ينتظر، أشار له (تريس) نحو السطح فتبعه (ساندرز)..
وفجأة أحس بساقين تلتفان حول خصره.. نظر للوراء.. شهق.. فوجد أن ما يأتيه من الخرطوم ليس هواء.. إنه ماء.. لقد قطعوا خرطوم هوائه.. ثم تركته الساقان..
ضغط على أسنانه وصعد إلى السطح سريعا وأخذ شهيقا..
كان الضوء يغمر السطح.. وسمع صوت طلقة رصاص أزت جوار أذنه.. غطس ثانية.. ثم عام بعيدا عن الضوء.. وصعد ثانية إلى السطح وتنفس بحرية.
أحس بيد تمسك بمقدمه فاستعد للنضال برغم أنه غير قادر عليه.. لكن هذا كان (تريس).. الذي قاده في سكون نحو الشاطئ..
وحين لحقا به (جيل) أشار لها (تريس) أن تلحق بهما فورا..

ꝏꝏꝏꝏꝏ

منذ اللحظة غدا السباق مروعا..
أعد (تريس) المتفجر الذي قرر أن ينسف به بقايا (جوليات) فورا..
لقد كان قارب (كلوش) قد ترك المكان إلى هناك..

أخذ الثلاثة سيارة (كيفين) قاصدين (أورانج جروف).. حاول (تريس) أن يمنع (جيل) من الغطس لكنها كانت مصرة.. إنها حياتها وهي وحدها تملكها.. وهي لم ترغب قط في انتظار هم وحيدة..

وصلوا بالقارب إلى حطام (جوليات).. فارتدى (تريس) ثياب الغطس وحمل العبوة على كتفه، وقال:

- سأنزل لأضع العبوة في الحطام.. ثم أصعد حتى إذا رأينا (كلوش) قادما نزلت ثانية لأضبط جهاز التوقيت..

ثم هز إصبعه محذرا (ساندرز):

- نصيحة.. لو رأيت ما يريب عليك مغادرة المكان، ولا تحاول لعب دور المنقذ..

- وماذا عن باقي الكنز؟

- سيذهب مع الأمبولات..

ووشب إلى الماء...

وهنا تتابعت الأحداث سريعا..

رأيا قارب (كلوش) قادما مسرعا فوق الأمواج.. وسمع (ساندرز) أزيز رصاصة تمر جوار أذنه..

هتفت (جيل) وهي تنبطح على قاع القارب:

- لقد قال لنا أن نذهب..

- لا.. لن أذهب..

الطلقات تنهمر دون أن تصيبهما لحسن الحظ..

الثواني تمر و (ساندرز) لا يتحرك..

- (ساندرز).. يجب أن نرحل..

- ولكن..

- هل تريد أن تموت؟

نظر (ساندرز) إليها.. ثم شغل المحرك.. وبدأ القارب يتحرك في اتجاه الشاطئ.. حتى أصبحا خارج مجال الطلقات..
ووقف يرمق ما يدور هناك..
كانت الأضواء تنبعث من قارب (كلوش)، وأخذ الغطاسون يثبون إلى الماء واحدا تلو الآخر..
قال (ساندرز) في حدة:
- فتشي عن (تريس).. إذا لم نخرجه من الماء قبل الانفجار فلسوف يموت..

ထထထထထ

كان هناك سلك مفكوك.. وشرع (تريس) يحاول ربطه مستعملا ظفر إبهامه كمفك.. ضبط الساعة بعد خمس دقائق.. ثم وجده ضوء أحد الغطاسين وفي اللحظة التالية كان خرطوم هوانه قد قطع..
شرع يحاول التملص يمينا ويسارا لكن الغواصين حاصروه:.
شعر بنصل سكين ينغرس في ظهره..
كان الألم مروعا..
ولم يدر كيف ولا متى أدار قرص جهاز التوقيت إلى الصفر..

ထထထထထ

كان الانفجار مريعا..
لقد تكفلت بقايا القذائف في (جوليات) بتحويل البحر إلى جحيم.. المياه تتناثر في عنان السماء.. قطع صغيرة من قارب (كلوش) تتناثر في كل صوب..
صور مهزوزة لأشلاء رجال..

ثم سقط (ساندرز) على ظهره.. يسمع صوت تهشم الحطام..
يرى النجوم في السماء.. ويحسب أنه الموت.
ثم يسمع صوت (جيل) يناديه:
- هل انت بخير؟
- نعم.. وأنت؟
على الشاطئ نزلا..
خرجا من الماء يتشران.. يغوصان في الرمال..
وسارا حتى وصلا إلى صخرة (أورانج جروف)..
ثمة حفرة كبيرة في سلسلة الصخور.. وقطع من الحطام تطفو فوق الأمواج..
وفوق الصخرة كان هناك حشد من الناس يرمقون الماء في فضول..

بيتر بنشلي

[تمت بحمد الله]

يقولون ان القبور تذخر بالأبطال الذين لم يمتلكوا من الحظ قدر ما امتلكوا من الشجاعة، ولم يكن (ديفيد ساندرز) وزوجته بطلين.. كانا مجرد زوجين شابين أرادا قضاء شهر العسل في (برمودا). لكنهما وجدا نفسيهما مقحمين في هذه القصة الرهيبة كالبحر ذاته..

الغامضة كالبحر ذاته..

د. أحمد خالد توفيق.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

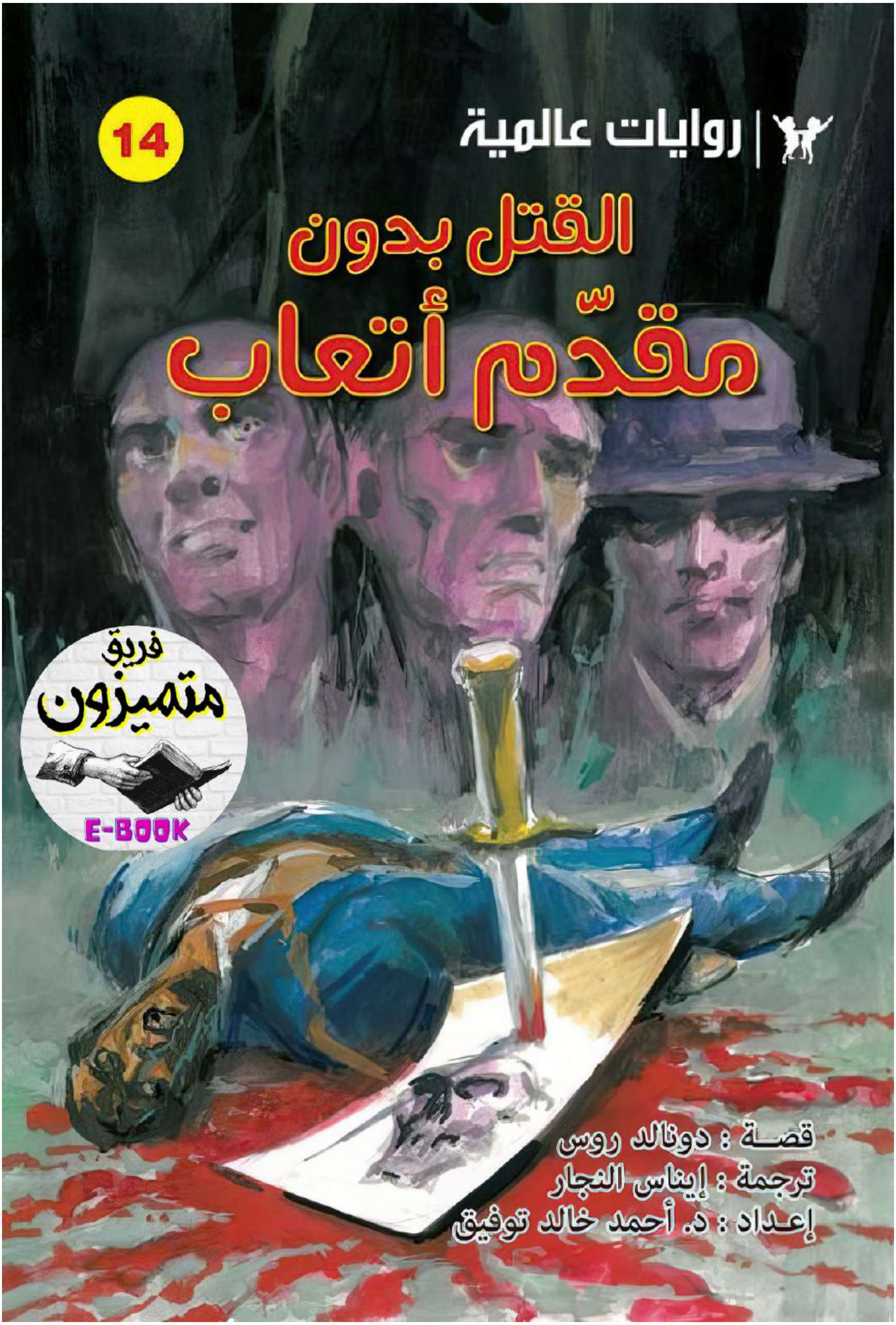
الفهرس:

الملاحظات

[1←]
(*) تشي جيفارا: ثائر أرجنتيني شيوعي حارب في (كوبا) واكتسب شعبية أسطورية، حتى قتله الأمريكيون في أواخر الستينات

[←2]

(*) الكورادايت: منفجر لا لون له يصنع على شكل حبال


روايات عالمية
14
القتل بدون
مقدّم أتعاب
فريق
متميزون
E-BOOK
قصة : دونالد روس
ترجمة : إيناس النجار
إعداد : د. أحمد خالد توفيق

[كلمة مهمة]:

هذا العمل: [تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية] هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق [متميزون]

[انضم إلى الجروب]

[انضم إلى القناة]

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (14)

القتل بدون مقدم أتعاب

قصة: دونالد روس.

ترجمة: إيناس النجار.

إعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

1- لن أخسر شيئًا..

فواتير!.. فواتير!.. ديون!.. ديون!..
من بين الأوراق التي طفق (مارك ماسترسون) يتصفحها حيث جلس في كافتيريا الفندق؛ كانت هناك مطالبة بدفع الإيجار من الفندق.. ودفع إيجار مكتبة للمحاماة.. وحتى الخياط يطالبه بدفع ثمن حلته الأخيرة..
جلس والاكتئاب يغمره، يفكر.. كان في الأساس شابا متفائلا.. بالتأكيد هو متفائل وإلا ما استدان بهذا الشكل المفزع..
هو شاب وسيم أسمر.. آخر من بقي حيا من آل (ماسترسون).. يتولى عمه الإتفاق عليه، وافتتح له مكتبا للمحاماة، كما سمح له بريع سنوي قدره الفان وخمسمائة دولار..
إنه لمبلغ جيد.. جيد لو كان (مارك) إنسانا آخر.. فهو كثير العلاقات.. مسرف.. عابث، وفي العام الأول لمزاولة المحاماة استطاع أن يحقق) دينا قدره ألفا دولار.. وقد سدد عمه هذا الدين واتهمه بالسفه والحمق..
مد يده وفتح المظروف الأخير..
وكان ما قرأه غريبا.، غريبا إلى حد لا يصدق.
كان الخطاب مكتوبة بخط اليد بحبر أزرق باهت:
«عزيزى مستر (ماسترسون):
إن قبولك الاستعانة بخدماتنا يتيح لك تحقيق ثروة مالية ضخمة.. لكن الأمر يتوقف على قبولك أن تدفع عمولة ٪ 20 من هذه الثروة لنا إن عدم قبولك يعني أن تفوتك الفرصة ليظفر بها من هو أكثر تفتحا. وعدم الرد على هذه الرسالة يعني عدم

قبولك العرض. أما إذا كنت راغبا في التعاون فعليك أن تكتب الفقرة التالية وتوقع عليها:
«أوافق أنا الموقع أدناه على دفع عمولة 20 ٪ من كل المبالغ التي ستؤول إلى خلال شهر لشركة (جولكندا) وذلك مقابل خدماتها لي
ما هذا الهراء؟!..
إنه لا يتوقع بتاتا أن يحصل على مال، وهو الذي اقترض بضمان كل شيء حتى أزرار أساور قميصه الماسية..
الأمل الوحيد للحصول على مال، هو أن يموت عمه.. لكن العجوز كان بصحة ممتازة، وعمره لم يتجاوز الخامسة والخمسين..
ربما كان تصرفه أحمق.. لكن الفضول دفعه إلى أن يوافق على هذا العرض الغامض.. إن عنوان مراسلة شركة (جولكندا) هذه، كان مكتب البريد العام في (نيويورك)..
يا لها من دعابة قاسية سمجة!.. هو الذي وصل إلى الحضيض المادي.. هو الذي غيروا كالون باب مكتب المحاماة الخاص به؛ لأنه لم يدفع الإيجار.. كيف يتوقع مخلوق في الكون له أن يظفر بمليم آخر؟..
لماذا لا يساير ذلك السخيف؟.. أي ضير هنالك في أن يحصل على ثروة حتى إذا خسر ربعها؟..
- لن أخسر شيئا - قال لنفسه ساخرا:
- سأجرب.
وهكذا كتب إقرار الموافقة، ووضعه في مظروف ثم رمى الخطاب في صندوق خطابات الفندق..

ooooooooo

بعد الظهيرة ترك فندق (فرانكو آرمز)..
تركه ليقيم في فندق (بريسكوت).. صحيح أنه أغلى بمراحل من الفندق الأول، لكنهم هناك - على الأقل لا يعرفون وضعه المالي..، وهذا هو أحد الأوجه المرعبة للإفلاس: إنك تضطر إلى زيادة نفقاتك بدلا من تخفيضها، حتى لا يرتاب أحد..
هنا يمكنه أن يعيش شهرا قبل أن يطالبوه بالدفع..
وخلال هذا الشهر ربما استطاع أن....
ربما....

ooooooooo

صباح الثلاثاء دق جرس الهاتف جوار فراشة..
رفع السماعة والنوم لم يبرح عينيه، فسمع الصوت المذعور:
- أنا (هربرت بورتر) يا مستر (ماسترسون)..
في الحال أفاق (مارك) من النعاس.. يا لها من مصيبة!.. ان (بورتر) هو محامي عمه. ومعنى اتصاله به أن عمه يعرف أن كل دائني (نيويورك) يطاردون ابن أخيه..
- (مارك).. إن لدي أخبارا سيئة..
في كآبة غمغم (مارك):
- نعم.. أعرف هذا...
- ماذا؟.. كيف لك أن تعرف؟.. أنا عرفت الخبر الآن فقط..
- عم تتحدث؟
- عن عمك (رودنى) يا (مارك).. لقد مات.. حادث طائرة فوق جبال (سييرا)..
- مستحيل!.
- (مارك).. يجب أن تتماسك، وأن تأتي لمكتبى حالا..

- سألحق بك بعد ساعتين..
ونهض (مارك) إلى الحمام.. عمه مات؟.. لقد نام أمس وكله خوف عميق من هذا الرجل الحازم، الآن لا يتذكر سوى عطفه عليه.. لقد كان يلبي جل مطالبه، والآن هو ذا قد مات.. إن (مارك) - برغم طيشه – كان شابا طيب المنبت.. لهذا لم يفطن إلى حقيقة الوضع إلا بعد أن خرج من الحمام.
لقد صار ثريا!.. لقد صار يملك الملايين... مستر (مارك ماسترسون) قد غدا مليونيرا.... ومتى؟..
في أحلك أيام حياته.. ولو عاش عمه ليعرف حقيقة وضع (مارك)، لحرمه من الميراث..
وهنا تذكر الخطاب..
لقد وافق منذ أسبوع واحد على دفع ربع ثروته.. مقابل ماذا؟ لا شيء.. وهو- ياله من أحمق - قد وقع ذلك الإقرار..
هرع إلى درج مكتبه حيث ذلك الخطاب الغامض..
كانت المفاجأة هي الورقة البيضاء الخاوية، التي أخرجها من داخله.. هذا هو المظروف.. ولكن كيف صارت الورقة بيضاء من غير سوء..
قطرات العرق تحتشد على جبهته.. كيف عرفوا أن عمي سيموت؟ كأنه نوع من السحر الأسود..
ولكن لا.. مستحيل أن توجد صلة بين الخطاب ووفاة عمه.. إنها مجرد صدفة.. والخطاب.. ماذا دهاه؟.
كيف اختفى الحبر من عليه؟ لكنه وافق بخط يده على إعطاء ربع الثروة..
كان إنسانا شريفا إذا وعد فعل.. لكنه كان غبيا كى يعد..
كان أيضا محاميا.. ولذلك عرف أن الاتفاق لا قيمة له إذ يحوي عبارة (مقابل خدماتها لى)..

كيف تستطيع شركة (جولكندا) المزعومة أن تثبت أنها قد أدت له أية خدمات... ما هو حقهم في الحصول على إرث قد يبلغ مليون دولار؟ ا

ထထထထ

بعد ساعتين ذهب إلى مكتب المحامي..
كان العم العجوز قد تبرع بكل ثروته ل (مارك) ولكن بشرط أن يشرف مستر (بورتر) على وجوه الاتفاق..
ولم يفت (مارك) أن يلاحظ أن (بورتر) بدأ يعامله بذلك الاحترام اللائق برجل واسع الثراء..
لقد بدأت الأمور تتحسن...

ထထထထ

2 - مقابل خدماتنا..

صبيحة اليوم التالي لجنازة عمه، صحا (مارك) على جرس الهاتف، فأجاب النداء وعيناه بعد مغمضتان..
قال صوت رفيع غريب:
- نحن شركة (جولكندا)!..
- ماذا؟
- (جولكندا).. لقد قمت بالرد على خطابنا!
هنا طار النوم من عينى (مارك).. وفي غل صاح:
- هل تظنون لحظة أنني سألتزم بهذا الاتفاق السخيف؟
- نحن بالتأكيد نتوقع ذلك..
-اذهبوا إلى الجحيم.. لقد مات عمي في حادث طائرة..
بهدوء قال الصوت الذي أدرك (مارك) أنه مفتعل:
- لو لم توقع على الإقرار لكان عمك الآن حيا يرزق.. لقد نفذنا واجبنا في الاتفاق، وجاء دورك..
وانتهت المكالمة قبل أن يفيق (مارك) من ذهوله..
خمسة ملايين يا للأوغاد!.. لقد انتهزوا فرصة المصادفة التي وقعت، وها هم أولاء يطالبون بربع دولار!.. لكنهم لن يجرءوا على أن يشكوه في المحكمة..
هو يعرف حقوقه جيدا..
عند الظهر اتصل به المحامي مستر (بورتر) يدعوه إلى الغداء في نادي القضاة..
ولبى (مارك) الدعوة.. فهو قد صار ثريا ولابد أن يحسن علاقته برجال القانون شأن الأثرياء..
وعلى الغداء صارحه مستر (بورتر) بالأمر..

- شركة الطيران قد قامت بالتحقيق في الموضوع يا (مارك).. أنت تعرف أن حادث الطائرة قد أودى بحياة طيارين ومضيفة وثمانية ركاب.. لكن العثور على أشلاء صغيرة ليس أمرا معتادا في سقوط الطائرات.. ثمة ما يجعلهم يشكون في أن قنبلة انفجرت في الطائرة وهي محلقة..
- لكن هذا شنيع.. من حمل معه قنبلة من الركاب؟.
- إنها قنبلة زمنية، دسها أحدهم بين الطرود، التي تم نقلها إلى الطائرة قبل الإقلاع...
تساءل (مارك) في قلق:
- ومن كان الركاب الآخرون؟..
- لا أحد يحظى بأهمية خاصة... سوى عمك!.
وساد الصمت بعض الوقت.. ثم تساءل المحامي:
- سمعت إشاعات با (مارك) عن الوضع المالي الحرج الذي مررت به..
- حقا.. كنت مفلسا أوشك على الموت جوعا..
- لكن الوضع اختلف الآن.. حتى بعد خصم ضرائب التركات..
وانتهت المقابلة عند هذا الحد.
لكن رأس (مارك) تحول إلى بؤرة مجانين..
حقا لم يكن سقوط الطائرة صدفة.. قنبلة زمنية... هل شركة (جولكندا) لها دخل في كل هذا؟.. من المسكن هذا..
وإذن - لو صح هذا الفرض الشنيع - يكون هو شريكا في الجريمة بلا ريب...
ولكن ما معنى (جولكندا)؟.. مد يده إلى القاموس وقلب أوراقه حتى وجد اللفظة.. ها هي ذي: حطام مدينة قديمة في الهند اشتهرت بصقل الماس.. لهذا تعنى الكلمة الثراء العميم..

لا يمكن أن يمر جرم هذا (الرجولكندا) دون عقاب.. فقبل كل شيء هو قتل عم (مارك) ومعه عدد من الأبرياء.. يجب منعه من المزيد من الأعمال الإجرامية.. يجب جعله يتلقى عقابه.. لابد أن يصارح أحدا بما يعتمل في فكره والا جن...

ooooooooo

إلى كاتدرائية (روثمان) ذهب..
هو يعرف أنه سيثرثر حين يلقي الأب (روثمان).. كان الأب (روثمان) شابا رياضيا سلك في الكنيسة منذ أعوام معدودات.. وكان قد صار الآن راعيا يتقاضى عشرة دولارات في الأسبوع، ويصحو مبكرا ليؤدي القداس..، وفي نادي (فارستى) قابلة (مارك) ولعب معه (الاسكواش)..
كان الأب (روثمان) غير قادر على دفع نفقات هذا النادي، لهذا تكفل أحد الأثرياء بدفعها عنه..
ولم يكن (مارك) كاثوليكيا، لكنه في تلك اللحظات- أحس بأنه في حاجة ماسة إلى سماع نصيحة الأب..
كان الرجل الضخم يرتدي رداء الكهنوت.. وجهه القسيم وعيناه الزرقاوان تشعان رقة.. وبيد ضخمة صافح (مارك) حتى كاد يهشم أنامله..
- مرحبا بك يا (مارك).. سمعت أنك ورثت ثروة هائلة.. أرجو أن تكون قد حضرت كى تتبرع بنافذة من الزجاج الملون للكنيسة..
قربت على كتف (مارك) وقاده من ذراعه إلى غرفة صغيرة بها مذبح للصلاة ومقعدان مستقيما الظهر..
- خذ راحتك.. وأخبرني بكل شيء..
قال (مارك) محاولا ألا ينظر في عيني القس:

- أنا في أسوأ حال يا أبت..



وحكى للقس كل شيء عن شركة (جولكندا) ومصرع عمه ..

وحكى للقس كل شيء عن شركة (جولكندا) ومصرع عمة.. وظل القس يصغي دون تعليق، حتى إذا ما انتهى الحديث، قال د (مارك):

- لنفرض الآن أن الدليل توافر لديك على أن شركة (جولكندا) هذه قتلت كل ركاب الطائرة.. فماذا ستفعل؟..

- إذن أجد المسئول عن هذه الشركة وأسلمه العدالة..

- وكيف؟.. كل ما لديك هو ورقة بيضاء تزعم أن العرض كان مكتوبا عليها.. هذا ليس دليلا ثم إن الأب ابتسم بوقار وقال:
- أنت لست كاثوليكيا يا (مارك)، لهذا لا تعرف الكثير عن مذهبنا.. بالنسبة للاعتراف إذا ما جاءني رجل وأقر بارتكابه جريمة، لا يكون في وسعي إلا نصحه بأن.
يسلم نفسه للسلطات، لكن ليس من سلطتي - ولا من حقى - إفشاء سره.. وهناك قساوسة ذهبوا إلى الجلاد لأنهم لم ينقضوا عهد الاعتراف...
- سمعت عن هذا....
- منذ شهرين استمعت لاعتراف رجل لا أعرف من هو ولا شكله.. فالعادة عندنا أن يجلس المعترف التائب في غرفة صغيرة مظلمة..، المهم أن الرجل أخبرني أن أباه كان قد أمن على حياته بمبلغ مائة ألف دولار..، وكان الابن لا يعمل، وله زوجة وثلاثة أطفال.. ثم وصلته رسالة من شركة اسمها (الدورادو) تعرض عليه عرضا مماثلا لعرضك.. ومثلك وقع الورقة إياها.. وبعد أسبوع توفي الأب في الجراج مختنقا بغاز أول أكسيد الكربون من عادم سيارة، ومثلك رفض الابن أن يدفع ربع ميراث أبيه لتلك الشركة.. بعد أسبوع وجد قنبلة على عتبة داره، مع مكالمة هاتفية تخبره أن هذه القنبلة تذكره بما عليه من ديون.. خاف الرجل وبادر - بحماس شديد - إلى إرسال ربع ما حصل عليه من مال إلى شركة (إلدورادو) هذه..
ثم جاءني يعترف.. طلبت منه الذهاب للشرطة، لكنه خاف وفر من غرفة الاعتراف..
صار وجه (مارك) شاحبا كورقة..
- إنه ذات الشيء!.. (الدورادو).. (جولكندا)!
قال الأب وهو يضع يده على كتف (مارك):

- إن الأمر أخطر من هذا.. لو أن هناك حالتين فقط، فمن غير المعقول أن تجيئانى.. لابد أن العدد الأصلي يفوق هذا بكثير.. لابد أن نشاط هذه العصابة واسع حقا.. ومن واجبك الآن ألا تخضع لهم، أو تقوم بدفع المبلغ المتفق عليه لهم...

ثم نهض والتمعت عيناه مكرا وأردف:

- سآتي لأراك الليلة.. أين عساك تقيم؟

- أقيم في فندق (بريسكوت).. شارع 77.

قال الأب:

- إن بوسعي أن أشير عليك.. فلدى نفوذ لا بأس به لدى رجال الشرطة، وإن كنت لم أضطر لاستعماله من قبل..

- وكيف نجد عصابة القتل هذه؟.

- سيرشدنا الله...

∞∞∞∞∞

3- آنسة تفقد وظيفتها..

برغم الاسم الرنان ل (وكالة الصحف العالمية) فإن الوكالة نفسها كانت عبارة عن شقة في مبنى متواضع في شارع ٩٢ غرب، وكان رئيس الوكالة هو مستر (جاكسون جونسون).. رجل ضئيل نحيف، ذو شعر رمادي.. يعاني حولا طفيفا في عينيه..
وكانت سكرتيرة مكتبة تندهش من منظر رأسه.. إذ لم يكن له (ظهر).. رأس مفلطح تماما، وبالنسبة لها - على الأقل - كانت ترى أن له منظرا شيطانيا مروعا..
والأدهى هو أنه لم يلحظ جمالها قط.. ولم يرق له لحظة، حتى أنه - في لحظات غضبه - كان يعاملها كالرجال..
وظيفة السكرتيرة - واسمها (كلاريبل) – غريبة نوغا، تتلخص في انتزاع صفحات الوفيات والضمانات الصناعية من صحف (نيويورك)، وتسليمها إلى مستر (جاكسون)....
وحين جاءت من ولاية شمالية إلى (نيويورك)، كانت تتوقع حياة أكثر إثارة.. لكنها لم تجد ما يشوق في العمل ولا في زملائها في الوكالة: مستر (جريج) العجوز الشبيه بالبومة، ومستر (جون ماربل) الذي يمشي على ساق صناعية، بعدما فقد ساقه في الحرب الأمريكية الإسبانية (أي أن عمر الرجل يدنو من المائة عام!
كانت تكسب خمسة عشر دولارا في الأسبوع، دون أمل في أن تنال ترقية.. أو تغير نمط حياتها الممل..
وفي هذا الصباح وجدت ضمن البريد خطابا من أمها فتركت كل شيء كى تقرأه..
كان الخطاب مليئا بعبارات غاضبة:

- ماذا تعنين بإرسالك خطابا خاليا من الكتابة؟..
إذا كانت هذه طريقتك في المزاح، فأنا لا أحبها.. أعيد لك الورقة الخالية من السطور.. ومن يدري؟.. ربما أرسلت خطابي إلى شخص آخر غيري كعادتك....
ما معنى هذا؟
لقد كتبت لأمها خطابا طويلا وألقته بنفسها في صندوق البريد، فماذا حدث بالضبط يومها؟.. آه.. لقد وجدت أن حبرها قد نفد، وكانت هناك زجاجة حبر على مكتب مستر (جاكسون) فسمحت لنفسها بأن تملأ قلمها منه.. كتبت الخطاب ثم كتبت العنوان على المظروف بالآلة الكاتبة..
وهذا يعني أن...
جرس مستر (جاكسون) يئز...
هرعت إلى مكتبه، فقال لها بلهجة صارمة:
- إذا اتصل بي من يدعي (ويلتون براون) فأخبريه أني ذهبت إلى (فلوريدا)..
- ولماذا؟.
- لأني لا أريد أن أراه.. هل يستطيع عقلك الفارغ أن هذا؟
ضحكت - متجاهلة الإهانة - وقالت وهي تتجه للباب:
- بالمناسبة يا مستر (جونسون).. إن زجاجة الحبر المربعة التي على مكتبك.. أوه.. أرى أنها لم تعد موجودة.. أردت القول إنني استعرتها وكتبت بها خطابا.. لكنه حبر رديء جدا.. سرعان ما يتلاشى ويترك الورقة بيضاء..
عبس بشكل شيطانى، وضاقت عيناه.. ثم تمالك نفسه:
- لم يكن هذا حبرا.. بل صبغة كيماوية خاصة بالرسوم المتحركة.. إياك أن تدخلي مكتبي، أو تلمسى شيئا به في غيابي.. وإلا فصلتك على الفور.. هيا... اخرجى!.

خرجت (كلاريبل) من الحجرة شاعرة بالرضا.. الآن يمكنها أن تفسر لأمها سر الرسالة البيضاء..
أما (جاكسون) فجلس يفكر حانقا في مدى غبائه وإهماله:
- لو لم تكن الفتاة غبية إلى هذا الحد لتخلصت منها..
ولكن.. ربما كان هذا أفضل.. فهي ثرثارة حقا...
وفتح باب مكتبه وزار كأسد وقد اتخذ قراره:
- مس (بيتس)... أنت مفصولة!

ထထထထ

كانت هناك سمة مميزة لدي (كلاريبل) هي الإصرار..
وفي السادسة من صباح اليوم التالي، ها هي ذي تجلس جوار النافذة تقلب صفحات الجرائد.. حتى أن رفيقة سكنها ميس (شميت) رفعت رأسها من فوق الوسادة مزمجرة:
- ماذا تفعلين بحق السماء في ساعة كهذه؟
أبحث عن وظيفة جديدة.. يجب علينا دفع الإيجار يوما ما..
وفي الثامنة صباحا ذهبت إلى العنوان الأول الذي وجدته في الجريدة لتجد هناك طابورا من الفتيات.. وبعد دقائق تم اختيار الثالثة منهن.
ولم يكن حظها أفضل في المكانين التاليين.. أما المكان الثالث، فكان مكتب محام تنتظر به خمس فتيات، بينما الساعة قد صارت العاشرة..
ووصل رجل مندفع كاد يصطدم بها.. رجل وسيم ذكرها إلى حد ما بـ (كلارك جيبل).
قال لها في حرج:
- معذرة.. هل تريدين العمل في مكتبي؟

قالت وقد شاع الاكتئاب في وجهها الجميل:
- نعم.. ولكن كل هاته الفتيات جئن قبلي..
- هنا كل شيء بالعكس.. الأخيرة قد تكون الأولى.. تعالي!
وفتح لها باب المكتب أمام نظرات الفتيات التي قد تمزقها إربًا لو أن النظرات تقتل.
نظر لهن (مارك) وقال بلطف:
- معذرة يا آنسات لكنها تنتظر بالخارج منذ الفجر..
وأغلق باب مكتبه..

ꝏꝏꝏꝏꝏ

4 - الحبر الذي تلاشى..

حين جلس (مارك) مع الفتاة، اعترف لنفسه بأن شيئا في وجهها ينعش النفس، فإذا أضفنا إلى ذلك أن ثيابها رخيصة لكنها محتشمة أنيقة نظيفة، وإذا أضفنا أنها صريحة. (نعم.. لقد اعترفت بأنها آخر من جاء للمكتب)..

إذا أضفنا كل هذا إلى ضعف (مارك) التلقائي تجاه النساء معدومات الحيلة وكان من الطبيعي أن نفهم سر ترشيحه لها...

وأدرك وهو ينظر نحوها أنها - غالبا - غير ماهرة في عملها، ولن تجد وظيفة أخرى بسهولة..

لم لا يعينها؟.. لن يكون هناك كثير من العمل في الوقت الحالي، لهذه المؤسسة القانونية، التي شارك فيها مستر (بورتر)..

- ماذا تستطيعين القيام به يا آنسة؟

- أنا اكتب على الآلة الكاتبة جيدا.. لكني لا أعرف الاختزال.. يمكنني تنظيم مواعيدك والعناية بمكتبك..

- وأين كنت تعملين قبل هذا؟

- (وكالة الصحف العالمية).. وفصلت من هناك!

- لعدم الكفاءة.

- بل لأنني استعملت الحبر الخاص بالمدير!.

. - لابد أن هناك قصة مضحكة وراء هذا..

- لم يكن حبرا.. كان شيئا ملونا سرعان ما يتلاشى من على الورقة..

ضحك (مارك) - ولم تفهم سبب ضحكه - وقال:

- سأعطيك عشرين دولارا في الأسبوع.. وسيكون عندك من الوقت ما يسمح لك بقراءة القصص البوليسية وطلاء أظفارك، بل وشغل الإبرة إذا أردت!

أشرق وجهها بابتسامة بشوش..
ولم يفهم (مارك) قط أن عشرين دولارا في الأسبوع تمثل بحبوحة من العيش، تفوق تصورات الفتاة عن الثراء.. كما لم يفهم أنه بذر البذرة الأولى للحب، في قلب هذه الفتاة البريئة..

ꝏꝏꝏꝏ

شرع (مارك) يتصفح بريده.. ومعظم الخطابات كانت من مدينية يطالبونه بالسداد.. لا بأس.. الآن يستطيع أن يخرسهم جميعا..
وفجأة وجد خطابا بلا عنوان المرسل.. فتحه فوجد ورقة واحدة.. إنها رسالة من (جولكندا)..!
- عزيزى مستر (ماسترسون):
- هذه تذكرة فقط بالتزامك. ويسرنا أن تعلم أننا قد توصلنا إلى عنوان وريثك!.
إذن هو التهديد!.. وريثه؟.. من هو وريثه.. إن له قريبا من بعيد يدعى (فرانك ماسترسون).. إذن التهديد واضح.. سيقتلون (مارك) من أجل (فرانك) إذا قبل هذا الأخير أن يوقع..
وهنا خطرت له فكرة معينة..
نادي السكرتيرة الجديدة كي تأتي إلى مكتبه، وما إن دخلت حتى سألها:
- كيف يبدو رئيسك السابق هذا؟
- يبدو.. يبدو شيطانيا...
- وماذا حدث بخصوص الحبر الذي تلاشى من على الورقة؟
- كتبت به خطابا لأمي.. وحين وصلها صارت الورقة بيضاء تماما..
رفع الورقة التي في يده ليريها إياها وتساءل:
- هل كان خطه - المدير - يشبه هذا الخط؟



رفع الورقة التى فى يده ليريها إياها وتساءل :
– « هل كان خطه – المدير – يشبه هذا الخط ؟ » ..

في دقة تتأمل الورقة ثم تهز رأسها نفيا.. فيواصل (مارك) السؤال:
- هل سمعت عن شركة (جولكندا) أو (الدورادو)؟..
- ولماذا قلت إن مستر.. ماذا كان اسمه؟
- (جونسون)..
- لماذا قلت إنه شيطاني؟.. هل له قرنان أو ذيل؟
ضحكت ضحكة رنانة عذبة وقالت:
- لا.. ولن يدهشني لو كان كذلك.. لكنه دائم الاستهزاء بي وله عين معطوبة

- ليكن.. والآن عودي لصمتك..
وارتدي معطفه وغادر المكتب فورا..
كان واثقا من أن هذه الرسالة ستتلاشى هي الأخرى..
لهذا رأى أن الحجا يقضي بأن يحصل على صورة فوتوغرافية لها..، ليس هذا فحسب، بل ويحفظها في مظروف مغلق، مع توقيعات ثلاثة موظفين بمضمون الرسالة، ويضعها في خزانة تلك الشركة التي قامت بالتصوير..
والآن - وقد أنجز شيئا هاما - لم يكن أمامه ما يفعله سوى لقاء الأب (روثمان) على الغداء بعد ساعة من الآن..
لماذا لا ينتهز الفرصة لزيارة (وكالة الصحف العالمية)؟
إن مديرها له نفس الشغف بالحبر السري..
مثل (جولكندا).

ooooooooo

5- زيارة غير منتظرة..

كان هناك رسامان ينتظران في قاعة الانتظار، بينما فتاة شابة تجلس إلى مكتب صغير تقصن أوراق الجرائد..

تقدم (مارك) من الفتاة في تردد، باحثا عن عذر مناسب.. ثم استجمع شجاعته وسألها عن (مستر جونسون).. وزعم لها أنه مهتم بالوكالة الصحفية و...

انفتح الباب وبرز منه رجل مروع الشكل، صاح ينادى السكرتيرة بفظاظة، فما إن رأى (مارك) حتى سأله بحدة:

- هل السيد راغب في مقابلتى؟

- نعم.. إذا كنت أنت مستر (جونسون)؟

أشار له الرجل إلى الداخل داعيا..

جلس (مارك) أمام المكتب يتأمل الرجل.. كان جفنه الأيمن السفلي مشدودا إلى أسفل.. كذلك كان في فمه التواء غريب.. صحيح أن هذا لم يعطه منظرا شيطانيا، لكنه أعطاه سيما الشخص الذي يستحيل الوثوق به..

أخذ الرجل يحدق في (مارك) محاولا سبر غوره..

فتح فاه ليقول شيئا ثم عاد للصمت..

قال (مارك) للرجل إنه كيميائي يبحث عن عمل.. - كيميائى؟.. ولماذا تظن هذه الوكالة تحتاج الكيميائي.. - ما اسمك يا سيد؟.

تلعثم (مارك).. كان يتوقع السؤال، لكنه لم يعد اجابة له:

- أ. (هندرسون)

- للأسف لا مكان عندنا لك يا مستر... (هندرسون)..

وصافحه (مارك) وخرج..

خرج شاعرا بأنه لم يكن هناك داع للزيارة.. لكنه أحس بأن الزيارة تتسم بشيء من غرابة.. لماذا قبل (جونسون) أن يقابله دون موعد؟.. لقد أحس (مارك) – ولعله مخطئ - بأن الرجل كان يتوجس منه خيفة..

وحين عاد إلى المكتب وجد الأب (روثمان) ينتظره هناك، وقد عقد صداقة مع السكرتيرة الجديدة..

أخبره (مارك) بتفاصيل مغامرته القصيرة، فصارحه الأب بأن هذا كان حماقة منه، لأنه من المحتمل أن (جونسون) يعرفه.. ولسوف يشك في الأمر حين يراه أمامه..

- وما هو الانطباع الذي كونته عنه؟

- مثل ثعبان أرقط راقد بين الحشائش..

قال الأب وهو يريح قدميه على المكتب:

- بالمناسبة يا (مارك).. ستمر شهور عديدة، قبل أن تحصل على إرثك.. فكيف تتوقع أن تسدد لهم ما يريدون لو وافقت على الدفع؟

- لقد ترك عمى وثيقة تأمين بنصف مليون دولار، من المفترض أن تدخل في رأس مال شركته لو كان هناك عجز في رصيد الشركة وقت الوفاة، وإلا دفع المبلغ لى ولسوف أتسلم مبلغ الوثيقة بعد أسبوع..

صاح الأب (روثمان) وهو يضرب المكتب بقبضة يده:

- فهمت ا.. هؤلاء المجرمون يختارون ضحاياهم من ورثة الأشخاص ذوي وثائق التأمين الباهظة، وهم يعلمون أن هذه الشركات تحميها عقليات قانونية جبارة..

ومجرد الشك في ظروف الوفاة، تجعل شركات التأمين توقف الصرف فورًا.. ونحن لا نعرف حقا ما فعلوه بالإقرار الذي أرسلته

لهم.. ربما قاموا بتبديل نصه ليجعلوه اعترافا منك بالتحريض على قتل عمك..

- هبني ذهبت للشرطة برغم كل شيء..

- قبل أية خطوة يجب أن تجعل الأشرار يظهرون أنفسهم.. لابد أن يفعلوا ذلك ليحصلوا على مالهم..

وترك (مارك) الأب بعد الغداء...

ذهب إلى الفندق عند منتصف الليل، فأمضى الوقت يراجع كتبه القانونية.. لمدة ساعة قبل أن ينام..

صباح اليوم التالي، صحا من النوم شاعرا بأن شيئا ما قد حدث.. شيئا ما خطأ..

شرع يتأمل سقف الغرفة وهو مستلق في الفراش.. ثم مد ذراعه الأيسر يتمطى..

لمس ذراعه شيئا طريا باردا..

نهض ليرى هذا الشيء.. وعندئذ أطلق صرخة ذعر..

ورمى جسده خارج الفراش ساقطا على ركبتيه..

لقد صحا ليجد نفسه راقدا جوار جثة..

ooooooooo

6- الميت والتحقيق..

نظر (مارك) في هلع إلى الرجل متوسط العمر، الذي يرقد فوق غطاء الفراش بكامل ثيابه، وفي عنقه جرح غائر..
كان المشهد مهولا.. ولم يتمالك (مارك) نفسه..
فهرع إلى الحمام يفرغ معدته..
ولما تحكم في نفسه بعد دقائق، انحنى فوق الجثة ولمس وجهها..
كان الوجه باردا، لكن ليس كالثلج.. لقد مات هذا الرجل منذ ساعتين لا أكثر..
جرى نحو الباب.. لم يجد المفتاح.. لكن.. ها هو ذا على الأرض، وكأن أحدهم دفعه من الخارج ليسقط..
طلب مدير الفندق هاتفيا وأخبره بما وجده.. ثم غادر الغرفة إلى قاعة المعيشة مغالبا الدوار والغثيان..
كيف حدث ذلك؟.. ولماذا حدث؟
كان قد أغلق الباب بالمفتاح قبل أن ينام، تاركا المفتاح في القفل..
هل قتل هذا الرجل التعس على فراش (مارك)، أم أحضر إلى الغرفة مقتولا؟.. إن هناك الكثير من الدماء، وهذا معناه أن الرجل قتل على الفراش..
لابد أنه كان نائما بعمق، وإلا فكيف لم يدر بما حدث؟..
وبالطبع كانت الساعتان التاليتان من أسوأ ما مر بـ (مارك)، فقد امتلأ المكان برجال الشرطة، يتساءلون عن كل شاردة وواردة.
وللمرة الألف أخبرهم (مارك) أنه لا يعرف القتيل، ولم يكن مخمورا، ولا يعرف كيف جاءت هذه الجثة إلى فراشه..
واستكمل التحقيق في المخفر..
قال مفتش الشرطة المهذب اليدين (ريجان) له:

- نحن لا نعرف كيف صعد هؤلاء بالقتيل إلى الطابق الثامن.. فقد ظل المصعدان لا يعملان طيلة الليل..
يبدو أنهم أرادوا أن نتهمك بقتل الرجل.
- نعم.
وهنا دق جرس الهاتف، فرفع المحقق السماعة، وأصغى قليلا، ثم تناول ورقة وقلما وشرع يكتب..
ان القتيل يدعى (جوليوس شتاينولد).. جواهرى من شارع (ماديسون).. وهو لم يعد لداره منذ أمس..
- ربما قتل بدافع السرقة.. لكن لماذا يفكر أي مخبول، في نقل الجثة إلى الطابق الثامن من فندق (بريسكوت)، ووضعها في الفراش جوار رجل نائم؟..
- لا أملك أدنى فكرة..
- في معظم الأحيان، نتحفظ على الشخص الذي يصحو من النوم ليجد جثة جواره.. لكن لديك معارف أقوياء يا مستر (مارك): البنوك، ومكتب (بورتر) للمحاماة.. ولا توجد شكوك تحوم حولك..
ثم أخرج ورقة وطلب من (مارك) أن يوقعها:
- هذا تعهد منك بعدم مغادرة المدينة، وأن تحضر إلى هنا حين نحتاج إليك...
وخرج (مارك) من الغرفة، ليجد الأب (روثمان) ينتظره وسط حشد من رجال الشرطة، يتبادلون المزاح ويتراهنون حول نتيجة المباراة القادمة في كرة القدم..
أخذ الأب (مارك) من ذراعه، وقال له إن هناك مطعما قريبا يمكنهما أن يتناولا الطعام فيه..
قال الأب وهو يلتهم الطعام بشراهة
- إن المقصود مما حدث واضح يا (مارك)..

إرهابك.. ويخيل إلى أنك وقعت على شيء هام، حين زرت (جونسون) أمس.. بالإضافة إلى زعمك أنك كيميائي..
جعله هذا يشعر بأنك تعرف أكثر مما ذكرت له..
- وما دخل هذا بالميت؟
- يا لك من أحمق!.. هم لن يقتلوك، وإنما هم يكتفون بإرهابك.. على الأقل حتى يجدوا لك وريثا متحمسا.. سيتصلون بك حتما ليخيروك بين الدفع وأن تلقى ذات مصير الرجل..
ثم إنه استأذن من (مارك) بضع دقائق..
عاد إلى المائدة ورمى جسده الضخم على مقعده، حتى أن المطعم ارتج مرارا.. وابتسم كأنه قط التهم عصفورا وقال:
- لقد قمت الآن بطلب (وكالة الصحف العالمية) فلم أجد هذا المستر (جونسون).. لقد غادر المدينة.. ربما تغلق الوكالة أبوابها تماما الآن..
قال (مارك) في تصميم:
- بعد ما فعلوه معي.. لن أتركهم.. لابد من تسليمهم للعدالة.
ابتسم الأب ابتسامة ذات معنى وقال:
- أرجو أن تكون عالما بما أنت بصدده يا (مارك)!

ꝏꝏꝏꝏꝏ

حين عاد (مارك) إلى المكتب، وجد (كلاريبل) جالسة في مقعده، وهي تقوم بعمل بطولي: النوم جالسة..
شعرت بوجوده، فنهضت مذعورة، وهتفت:
- مرحبا.. صديقتك كانت هنا وانصرفت.
- صديقتي؟!.. من هي؟

- سمراء رائعة الجمال قليلة الكلام، ظلت تنتظرك نصف ساعة، ثم انصرفت.. رفضت ذكر اسمها...
- غريب هذا.. هم م م م!.
قالها وهو يتصفح رسائله، غير مبال بالموضوع كثيرا.. ومن بين الرسائل وجد ورقة مكتوبة بخط مألوف.
- من أحضر هذه؟.
- رسول سلمها باليد لى..
كانت الورقة ذات الحبر الأزرق الباهت تقول:
- كان هذا إنذارا لك.. انتظر تعليماتنا.. شركة (جولكندا).
رفع (مارك) سماعة الهاتف، وطلب شركة التصوير التي تعامل معها من قبل، وأخبرهم أن لديه رسالة أخرى يريد تصويرها، وشهادة الشهود على محتواها كما فعل من قبل.. ثم وضع الخطاب في مظروف كبير، وناوله للسكرتيرة قائلا:
- اذهبى بهذا إلى العنوان الذي سأكتبه لك.. لو ضاع منك في الطريق، اعتبري نفسك مفصولة..
- لن يضيع.. لكني لم أتناول غدائى بعد..
- فيما بعد.. فيما بعد..
ارتدت الفتاة معطفها وقبعتها وخرجت..
على حين جلس هو يفكر..
بعد الظهر ذهب إلى فندق (بريسكوت)، حيث طلب من المدير أن يبدل بجناحه جناحا آخر..
وصعد بالمصعد إلى الدور الثامن ليجمع حاجياته من غرفته القديمة..

ooooooooo

7- فتاة ومسدس..

دقات على باب الحجرة..
ترك (مارك) ما كان يقوم به من جمع ملابس، وذهب ليفتح الباب، فوجد هناك امرأة شابة تقف في الدهليز الخارجي..
يا للجمال... دون شك هي أجمل امرأة رآها في حياته..
عيناها الواسعتان السوداوان تلتمعان بشدة وهما ترمقانه..
حتما هي أخطأت الغرفة.. لا يمكن لمثل هذه أن تعرف مثله..
قالت بصوت منخفض ذلق:
- أريد التحدث مع مستر (ماسترسون)..
- أنا هو..
قالها مغالبا انبهاره، وسمح لها بالدخول..
قالت وعيناها مازالتا ترمقانه في ثبات:
بس - أردت أن أتأكد، لأن عندي شيئا لك..
ومدت يدها في حقيبة يدها، وأخرجت.. مسدسا..
ودون كلمة أخرى ضغطت الزناد..!
دوى الصوت، ولمح (مارك) لمعة ضوء..
ووسط ذهوله، وجد نفسه يثب نحو الفتاة ويعتصر معصمها بقوة حتى تخلت عن المسدس..
فما إن استجمع روحه المبعثرة، حتى سألها من بين أسنانه..
- تسرني رؤيتك.. هلا سمحت لي بمعرفة الاسم الذي سأبلغ به الشرطة؟
للخلف تراجعت الفتاة..
لم يكن في عينيها خوف، ولكن فقط خيبة الرجاء..
ورفعت وجهها إلى أعلى بلامبالاة..

قالت بحزم:
- اسمى (مارتا شتاينولد)..
- (شتاينولد).. تعنين ذلك الرجل الذي وجد هنا؟!
- كان أبي.. والآن يمكنك أن تطلب الشرطة..
نظر (مارك) إليها في حيرة قائلا:
- هل تظنين حقا أنني قتلت أباك؟
- طبعا..
- أنا لم أره في حياتي قط.. والشرطة تعرف صدق ما أقول..
- ذلك لأنك مليونير.. والمليونيرات أبرياء دائما..
أمسك معصميها وقربها منه، وفي عنف تساءل:
- هل حقا أبدو قاتلا؟
بدا عليها التخاذل.. رمشت بعينيها طويلتي الأهداب:
- لا.. لكن لابد أنك فعلتها..
- إذن يمكنك الانصراف يا مس (شتاينولد)...
بدا عليها عدم الفهم.. وتلعثمت:
- هل.. هل ستتركني أرحل؟
أشار لها نحو الباب باسما، وهو يناولها المسدس:
. - طبقا.. ويؤسفني أنك عاجزة عن الحكم على الناس..
هاك مسدسك، فلربما أردت إطلاق المزيد من الرصاص..
لم ترد الفتاة.. فقط سالت دمعتان من عينيها..
بعد لحظات من النشيج قالت:
- أرجو أن تغفر لي.. شعرت بعد رؤيتك أنك لا يمكن أن تقتل ذبابة.. ولكن ماذا أفعل؟
أمسك يدها، وقادها - مرغمة - إلى الجلوس على أحد المقاعد.. وقال:
- ما هي جنسيتك؟

- أبى مجرى وأمي أسبانية
جذب مقعدا ليجلس جوارها، وقلبه يرتجف من الشعور بالخطر المثير.. أن هذه الفتاة الشبيهة بنمر كاسر..
قال لها:
- أنت إذن حارة الدماء.. أرجوك أن تصدقي ما أقول لك.. كل علاقتي بأبيك هي أنني وجدته في فراشي ميتا.. هل تعرفين لأبيك أعداء؟
هزت رأسها أن لا..
- عرفت أنه كان جواهرجيا في شارع (ماديسون)..
- نعم.. لكن أرباحه كانت ضئيلة للغاية.. كان قد ورث خمسين ألف دولار، وكانت أحوالنا على وشك الازدهار حين لقي حتفه...
بدا الاهتمام على (مارك)، وعب الهواء إلى صدره وسألها:
- هل كان ميراثه من وثيقة تأمين
- نعم.. من أخيه الذي مات منذ شهرين...
- هل تلقى تهديدا بالقتل؟
- لا أعرف.. كان يبدو عليه القلق مؤخرا، لكنه لم يفض لي بالسبب قط..
ثم نهضت معلنة رغبتها في الانصراف، فأمسك (مارك) ذراعها قائلا:
- إنني أريد أن أكون صديقك يا مس (شتاينولد)..
أرجو أن تتركي لي عنوانك ورقم هاتفك.. أعتقد أن المسئولين عن قتل عمى، هم المسئولون عن قتل أبيك..
أشرق وجهها بابتسامة عريضة، ومن حقيبة يدها أخرجت بطاقة ناولته إياها..
- يسرني أنني لم أطلق الرصاص في مقتلك يا مستر (ماسترسون).. أرجو أن أسمع عنك قريبا.

وخرجت....
رقد (مارك) على أريكة يستعرض الموقف..
إذن كان والد الفتاة أحد المتعاقدين مع (جولكندا).. ومات أخوه، فالت إليه وثيقة التأمين، ثم إنه رفض الدفع فقتلته العصابة.. قتلته ضاربة عصفورين بحجر.. من ناحية قتلوه.. ومن ناحية استخدموا جثته لإرهاب (مارك).. هذا هو تفسير ما حدث بدقة..
بعد دقائق دق جرس الهاتف..
- آلو..
- مستر (هوبكنز) من شركة (جارجنتوان) للتأمين..
هنا يا مستر (ماسترسون)..
سر - دعه يأت..
وبعد برهة انفتح الباب ليدلف منه رجل طويل نحيل..
شعر رأسه فاتح اللون قد زال أو كاد.. يتراوح عمره بين الثلاثين والأربعين.. وعلى وجهه ابتسامة دبلوماسية هادئة:
- آسف على تطفلي.. لن آخذ الكثير من وقتك.
- لا داعي للأسف
وسار الرجل عبر الغرفة نحو المقعد الذي أشار (مارك) إليه.. طويلا نحيفا يعلو رأسه الصغير قامته، فبدا كطائر (أبو قردان) يرتدي منظارا سميكا..

ooooooooo

8- قتل في الشارع..



ثم رآه (مارك) ينهض نحو الباب ... ينحني ليتفحص شيئًا ما هناك ..

جلس (هوبكنز)، بينما عيناه تتفحصان الغرفة كصقر.. ثم رآه (مارك) ينهض نحو الباب.. ينحنى ليتفحص شيئا ما هناك، ثم يعود وعلى وجهه ابتسامة غامضة، وعلى كفه رصاصة كانت قد استقرت هناك من مسدس الفتاة..

- معذرة.. هل كنت تتسلى باطلاق الرصاص؟
شعر (مارك) بالضيق من هذا الطفيلي.. فقال نافد الصبر:
- ليس هذا من شأنك.. أريد أن أعرف سبب الزيارة، فإذا لم يرق لي سأطلب منك الرحيل.
ضحك الرجل ضحكة لطيفة.. وهتف:
- أستمحيك عذرا.. يبدو أنني تصرفت ككلب صيد عجوز.. أنا المسئول عن مكتب التحقيقات هنا في شركة التأمين.. أنت تعرف أن عمك توفي في حادث طائرة..
غالبا بسبب قنبلة على متنها..، ثم في هذا الصباح وجدنا مستر (شتاينولد) في فراشك قتيلا.. أليست صدفة أن ينام
اثنان من المستفيدين من مبالغ وثائق تأميننا، في ذات الفراش؟.
ثم انتظر هنيهة.. وقال:
- في الستة شهور الأخيرة، لاحظنا زيادة كبيرة في أعداد المتوفين، من أصحاب وثائق التأمين الباهظة، في شركات التأمين عامة، ولقد دفعت شركتى زيادة قدرها مليونان ونصف عن معدلها...
- إن هذا مريب حقا..
- إن عملنا في الواقع، هو نوع من المقامرة على حياة المؤمن.. يستطيع أن يخدعنا وينتحر، لكن الناس - لحسن الحظ - لا يحبون الانتحار..، يستطيع ورثته أن يقتلوه ليحصلوا على مبلغ البوليصة.. لكن الناس عادة لا يورثون إلا من كان موضع ثقتهم..، لهذا فخسائرنا بهذا الصدد شبه معدومة.. تعتقد الآن أن هناك طريقة مستحدثة لا نعرف عنها شيئا..
ابتلع (مارك) ريقه، وأدرك أن عيني الصقر تتفحصانه من وراء المنظار السميك.. فقال:
- ماذا تعني؟

- أعني.. لو أن مجموعة من الأوغاد شرعوا يعرضون على كل مستفيد من بوليصة التأمين، أن يقتلوا صاحب البوليصة مقابل نسبة معينة.. ألا يكون هذا تفسيرا معقولا؟ لقد لاحظنا أن المستفيد من البوليصة يقوم بسحب ربعها بعد أن يحصل عليها.. ألا يوحي لك هذا بنوع من (دفع الثمن)؟

أدرك (مارك) بفراسته، أن الرجل جاء إليه دون أمل حقيقي في الحصول على جديد.. لكنه وجد نفسه يقول:

- بالفعل.. ولقد اتصل بي هؤلاء الأوغاد!

مال (هوبكنز) إلى الأمام واتسعت عيناه دهشة:

- هل حقا تعني ما تقول؟

- طبعا يا مستر (هوبكنز).. لحظة... دع هذه المفكرة.. هناك عصابة قامت بقتل عمي تطوعا منها، دون أن أطلب أنا ذلك.. لقد كنت أحب عمي، وأنا مستعد لكل شيء كى يقبض على هؤلاء الأوغاد.. لكني لم أكن قط شريكا لهم ولن أكون.. وما أقوله لك الآن لا يمكن إثباته ولا تحاول استغلاله، لتوقف صرف وثيقة التأمين لصالحى..

ارتجف القلم في يد (هوبكنز) انفعالا وهتف:

- لعمري أنا معك في كل ما تفعله يا مستر (ماسترسون).. لابد أن يأخذ أولئك القتلة عقابهم... كم أنا سعيد بكوني جئت لأراك!..

وفي الدقائق التالية، حكى (مارك) د (هوبكنز) كل ما مر به في هذه المغامرة.. حتى تصويره للرسائل المكتوبة بالحبر السري..

- أشكرك يا مستر (ماسترسون) - قال الرجل وهو يصافح (مارك) بحرارة - لقد أتيت ها هنا بحثا عن بصيص من ضوء، فإذا بأشعة الشمس تغمرني.. أراك غدا ظهرا لنطلع على الرسالتين اللتين قمت بتصويرهما..

فما أن غادر المكان حتى شرع (مارك) يستعرض الموقف.. تراه أخطأ حين تكلم؟.. ربما لا.. فالرجل يبدو صادقا موحيا بالثقة.. ثم إنه ذكي ووراءه قوة هائلة..
المهم الآن أن يستعد للعشاء..
دخل إلى الحمام، فنزع سترته وغسل يديه ووجهه، ثم خرج من الحمام ليجد مدير الفندق وسط الغرفة..
ماذا دهاه؟.. لماذا اقتحم الحجرة هكذا؟
- مستر (ماسترسون).. شيء مروع.... السيد الذي كان عندك الآن.. لقد....
- ماذا؟
- ل.. لقد مات.. قتل في الطريق العام..!
- ومن قتله؟
- قال البواب أن هناك من أخرج مسدسا وأفرغه في صدره، بينما كان ينتظر سيارة أجرة.. ووثب القاتل في ذات سيارة الأجرة، التي أوقفها القتيل بعد ما هدد سائقها كي ينطلق..
وضع (مارك) كفه على جبهته:
- يا للهول ا يا للهول!.
- إن رجال الشرطة أتون حالا.. بعد كل هذه التوترات أعتقد أنك ترغب في الرحيل من هنا.. وهذا يؤسفني!.
فهم (مارك) على الفور ما يعنيه الرجل:
- تعني أنك تريد مني أن أرحل..
- إن أمورا كهذه - أكثر من اللازم - تسيء إلى الفندق..
ابتسم (مارك) في أسي وغمغم:
- لا عليك.. أنا نفسي لم أعد أرغب البقاء أكثر.. إن الفنادق التي تسمح للناس بقتل بعضهم فوق فراشى، هى فنادق لا تناسبني.. حتما لا تناسبني..

9 - زيارة مريض..

هذه المرة لن يترفق به رجال الشرطة...
لقد طالت هذه الرواية كثيرا.. قتيل في فراشه..
طلقات رصاص في غرفته.. محقق في شركة تأمين يموت بمجرد ترك جناحه..
بالتأكيد هناك من يراقب (مارك) بدقة.. ولكن لماذا مات (هوبكنز)؟.. بسبب ما يعرفه من البداية، أم بسبب أنه أطال الجلوس مع (مارك)؟
عليه أن يجد الأب (روثمان) الآن بأي ثمن..
طلب رقم الأب على قرص الهاتف، وسره أن يسمع صوت الرجل الضخم المليء بالبشر.. فصاح:
- (بيل).. أنا مريض حقا.. تعال إلى من فضلك!.
- (مارك).. هل حدث مكروه؟.
- حدثت مكاره!.. هلم إلى فوزا!
ووضع سماعة الهاتف ويداه ترتجفان..
لم يكد يفرغ من ارتداء ثيابه حتى وصل رجال الشرطة..

ꝏꝏꝏꝏ

كان المحقق يدعى (شيهان)..
وبدا - على الفور - مدى ما يحمله من ضغينة نحو (مارك)، كما أنه كان وقحًا....
وبرغم أن (مارك) حكي القصة مرارا، خاصة والدليل
قائم على أن (هوبكنز) كان سالما حين غادر الفندق.. إلا أن المحقق بدا مؤمنا بدور (مارك) في كل هذا..

ولم ينقذ الموقف سوى حضور الأب (روثمان)، الذي اتضح أنه يعرف المحقق جيدا، وأنه صديق دراسته منذ زمن بعيد..
وهكذا سرعان ما صار جو التحقيق وديا، وصافح (شيهان) (مارك) معتذرا، وردد مرارا أن كل أصدقاء (بيل) - (روثمان) - هم أصدقاؤه.. ثم انصرف بشوشا..
في انبهار سال (مارك) الأب:
- هل كل رجل شرطة في (نيويورك) صديقك؟
- إن لم يكن صديقى، فهو صديق صديق لي.. والآن احكِ لى كل ما حدث..
شرع (مارك) يحكى للأب كل شيء بالتفصيل..
بدا الوجوم على القس.. وغمغم:
- واضح يا (مارك) أنك - بزيارتك لـ (جونسون) - قد أثرت عش الدبابير.. إنهم لن يتهاونوا معك أي (مارك) ولا أحسب الحل الوحيد لك إلا مغادرة البلدة..
في تصميم قال (مارك):
- لا.. سأظل هنا.. حتى أقبض على أولئك الأوغاد أو أملك...

ꝏꝏꝏꝏꝏ

10- (كلاريبل) في حفل..

عادت (كلاريبل) مساء إلى الشقة التي تتقاسمها مع مس (شميت) فتاة الكورس.. وكانت هذه الأخيرة تؤدي بعض تدريبات الرقص أمام مرآة الحمام..
كانت قد أمضت عامين في مسارح (برودواى)، دون أن تحقق أي نجاح، لكنها كانت رفيقة جيدة في دعوات العشاء التي كانت تلبيها دون تمييز، لأنها كانت جوعى دائما..
قالت ل (كلاريبل) وهي تدخل إلى فراشها:
- تلقيت دعوة للعشاء، وهذا من حسن الحظ، خاصة وأنت قد فقدت عملك اليوم!.
رفعت (كلاريبل) حاجبيها راسمة علامة استفهام:
- ماذا دعاك لقول هذا؟
- ألم تقرئي صحف المساء؟..
- نعم لم أقرأها..
- ألم تعرفي بعد أن مخدومك مستر (مارك ماسترسون) - الشبيه ب (كلارك جيبل) - هو وريث الخمسة ملايين دولار؟ وأنه أخذ رجلا إلى فراشه بالفندق وذبحه؟ وأنهم كانوا يحققون معه لمعرفة لماذا فعلها؟..
- مستحيل!.. إن له صديقا قسا. - إذن سيكون ذا نفع له على الكرسي الكهربائي..
- لكنهم تركوه.. أعني أنه عاد للمكتب اليوم..
- هذا بسبب ثروته.. فكل رجال شرطة (نيويورك) مرتشون كما تعلمين..

كانت (كلاريبل) قد أمسكت الصحيفة وشرعت تلتهم السطور.. وهتفت كمن يوشك على البكاء:
- مستحيل يا (جلاديس) أن يفعلها.. إنه لطيف كملاك.. يضحك معي طيلة الوقت ولا يعنفني.. كما أنني لا أعمل في المكتب تقريبا..
- ربما يحاول كسب ثقتك إلى أن يقتلك...
قالتها (جلاديس) وهي ترتدي ثيابها وتتبرج بالمساحيق..
كانت الغرفة ضيقة جدا، والحمام الملحق بها هو ذاته المطبخ، الأثاث قديم متهالك، وحتى الإيجار المنخفض لم يكن بوسع واحدة منهما أن تتحمله بمفردها..
كانت (جلاديس) - وهي فتاة جميلة جدا في الواقع – قد استعدت للخروج إلى ذلك العشاء الموعود، وارتدت معطفها الأسود المزين بالفراء الرخيص عند الرقبة والأكمام..
كانت (كلاريبل) تحب الناس، لكنها لم تستسغ قط جو الحفلات التي كانت (جلاديس) تصحبها إليها.. ولم تطق قط أن يعاملها أحدهم بلا كلفة، كما أنها لم تكن تشرب الخمر..
لهذا ظلت وحيدة بالدار تفكر في (مارك).. لنفسها قلت بيضة، وأعدت بعض القهوة.. حين دق جرس الهاتف.. رفعت السماعة فسمعت (جلاديس) تقول: - هلمي.. البسي ثوب السهرة.. وقابليني عند مدخل فندق (والدورف) بعد ساعة.. فإننا ذاهبون إلى مكان راق ونحتاج إلى فتاة أخرى معنا..
لم تكن لدي (كلاريبل) أدني نية للرفض هذه الليلة، فالشعور بالاكتئاب يغمرها، والوحشة تمزقها.. سيكون أي مكان أفضل لها من هذا الجحر..
وهكذا ارتدت ثيابها.. وبرغم أنها لم تبذ مبهرة مثل (جلاديس)، فإنها بدت حلوة بسيطة..

وعند المكان المتفق عليه رأت (جلاديس) تقف مع رجل ذى شعر مصفف لامع، كل ما فيه يوحي بأنه مدير استعراض..
قال لها في مرح:
- سنذهب إلى شقة رجل عظيم لديه كل شيء، أمريكي من أصل أسباني يدعى (أوبيسبو)..
كادت (كلاريبل) تعترض، لكن صديقتها ضغطت على ذراعها محذرة، وهمست لها أن تصمت حتى لا يتكدر المستر (رانكين) وعلى مضض سكتت.. وإن كانت تتوقع أنهم ذاهبون إلى ناد ليلي وليس إلى شقة.. شعرت بالاحتجاج الصامت يغمرها وهي تركب سيارة الأجرة مع الآخرين..
كانت الشقة في الطابق الخامس والثلاثين، على بابها وقف خادم أنيق، وبداخلها ردهة فسيحة تقود إلى صالون فاخر.. وفي ركن منها (بيانو) عملاق.. وعلى الأرضية بساط فاخر غاصت فيه قدما (كلاريبل) حتى الساق..
وفجأة رأت..
عند طرف القاعة رأت مستر (جاكسون) بلحمه وشحمه.. مخدومها السابق الذي بدا شيطانيا أكثر من ذي قبل، بثياب السهرة.... وارتجفت هلقا.. حتما سيطردها..!
وقام (رانكين) بتقديمهم إلى بعض.. وظلت الفتاة البائسة تنظر إلى الأرض متخاذلة، لكنها لاحظت أن (جاكسون) لم يظهر ما يدل على كونه رآها..
أما صاحب الشقة - (أوبيسبو) - فكان في الخمسين من العمر أصلع الرأس كئيب الوجه شاحبه.. اتجه في ثقة إلى البيانو الضخم وجلس على مقعده..
وشرعت النغمات الساحرة تتصاعد..
تتصاعد ببطء حاملة (كلاريبل) إلى عوالم الحلم..



أما صاحب الشقة - (أوبيسبو) - فكان فى الخمسين من العمر
أصلع الرأس كئيب الوجه شاحبه ..

11 - (كلاريبل) تحقق شيئا..

مرت ساعة ومستر (أوبيسبو) يعزف.. و (كلاريبل) وحدها تصغي إليه، لأن كل واحد كان مشغولا برفيقته..

وأخيرا انتهى العزف بنغمات مرتفعة ثم إن (أوبيسبو) نهض إلى حيث (كلاريبل) فقال لها:

- شكرا لك.. أنت الوحيدة التي أصغيت..

وجلسا يتحدثان.. وسرعان ما عرفت أن مستر (جاكسون) تعرفها، وتذكر أنه طردها.. لم يتخل عن غطرسته، لكنها قابلته بغطرسة مماثلة..

قال لها مستر (أوبيسبو):

- إن لديك إحساسنا فطريا بالموسيقا يا آنستي.. تعالى إلى مرات أخرى.. يسرني أن أعزف أمامك.. أما الباقون فهم لا يفقهون شيئا.. كم تربحين أسبوعيا؟.

- عشرين دولارا..

- لابد أنك تلاقين صعوبات جمة في الحياة بمبلغ كهذا..

- لو أن (جلاديس) تعمل بانتظام فلربما كانت حياتنا أرغد..

ولا حسن.. سأتأكد من أن تجد (جلاديس) عملا دائما..

- هل تفعل ذلك من أجلها..

- بل من أجلك.. فقط تعالى إلى التصفي لعزفى وسأحرص على أن تكون معنا سيدة عجوز محترمة!

كان الرجل مهذبا وعلى قدر ما من الحنان والرقة..

وعند نهاية الأمسية شكر الجميع، وناول مظروفا لكل من الفتيات، ثم أخذ رقم هاتف (كلاريبل) ووعدها باتصال قريب..

وحين فتحت الفتيات مظاريفهن، وجدت كل واحدة عشرين دولارا في المظروف..
صاحت (جلاديس) في انبهار:
- هذا الرجل.. إنه لملك حقيقي.. عشرون دولارا..
لمجرد الجلوس وسماع عزفه العمل على البيانو!
قالت (كلاريبل) في حماس:
- لقد وعدني بأن يجد لك عملا مستديما في مسرح..
- سمعت هذه الوعود كثيرا.. وماذا وعدك أنت؟
- قال لي أن أحضر لأسمع موسيقاه..
- طريقة جديدة!
- لا.. لقد وعد بأن تكون هناك عجوز محترمة جالسة معنا..
احتضنتها (جلاديس) بقوة وحنان:
- أنت حلوة.. لكنك ساذجة..، إنني أقوى منك بمراحل يا ملاكي، وما كنت لأقبل هذا العرض المريب..
- لكنني أعتقد أن هذا الرجل طيب القلب حقا..

oooooooo

بالفعل تم الاتصال..
صحت (جلاديس) على صوت الهاتف في اليوم التالي..
- الو.. أنا (جون دريدي) المخرج المسرحي.. هل أنت مس (شميت)؟.. أنت هي؟.. لدى توصية هامة بشأنك.. تعالى إلى لنرى ما إذا كنت تصلحين لفرقتي.
وثب قلب الفتاة إلى فمها..
آن (دريدى) هو أشهر مخرجى (برودواى)، وفرقته محترمة لا غبار عليها.. وهي لا تجرؤ على الحلم بالعمل معه..

وذهبت إليه في زمن قياسي، حيث تلقت الوعد بأن تكون على المسرح من يوم الاثنين القادم، بمرتب قدره أربعون دولارا في الأسبوع!

ꝏꝏꝏꝏꝏ

12- المـــلاذ..

في الثامنة والنصف صحا (مارك ماسترسون) من غفوته ليتأمل الحجرة البسيطة التي أقام فيها، بناء على نصيحة الأب (روثمان).. غرفة في الكنيسة.. وهي بسيطة الأثاث.. تزدان جدرانها بصور دينية منقولة..
لكنها كانت المكان الأمن الوحيد الباقي له، بعد أن صار يشك في كل شخص وكل شيء..
كان الأب (رومان) قد رتب مع الشرطة أن تعين حراسة دائمة ل (مارك)، كما أنه عين رجلا – مجرما تائبا - يدعى (ميكى موليجان) ليكون مع (مارك) دائما في مكتب المحاماة، وهذا المجرم التائب، يجيد استعمال السلاح تماما إذا استدعى الأمر ذلك،.، مقابل أربعين دولارا في الأسبوع.

∞∞∞∞∞

وفي المكتب كانت (كلاريبل) قد جلست إلى الآلة الكاتبة تتمرن على الكتابة عليها.. فحين قالت د (مارك) إنها تجيد الطباعة، لم تكن صادقة تماما.. فهي تخطي دوما في كل رابع حرف تضغط عليه..
بعد دقائق دخل المكتب رجل شاب وسيم أشقر الشعر أزرق العينين.. يتصرف بجرأة غير عادية:
- هاللو يا حبيبتي!
تصلبت في امتعاض.. وبرصانة قالت:
- لا تحاول رفع الكلفة مع.. أنا سكرتيرة مستر (ماسترسون).. فماذا تبغي؟

طوح الرجل قبعته في ثقة نحو المشجب.. وقال:
- اسمى (ميكى موليجان).. وأنا وأنت سنرى بعضنا كثيرا من الآن فصاعدا.. أنا أعمل هنا ككاتب قانونى..
شعرت (كلاريبل) بغصة..
فهي قد اعتادت أن تكون وحدها مع مستر (ماسترسون)..
ومن الصعب عليها أن تتحمل رفقة شخص ثالث..
قالت في غيظ:
- لا تبدو لي ذا كفاءة قانونية يا مستر (موليجان)..
تبدو لي كحمال للأمتعة..
. - لكنني سأكون رئيسك حين لا يكون مستر (ماسترسون) هنا..
وهنا وصل (مارك)، فهش للرجل وصافحه، وقام بتعريفه إلى الفتاة وتعريفها إليه، ثم أصدر تعليماته بفتح باب الغرفة المجاورة، وتأجيرها لتكون مكتبا له، على أن يترك هذه الغرفة الفتاة والحارس الخاص..
وجلست الفتاة تواصل تدريبها على الآلة الكاتبة وتختلس النظرات نحو (موليجان)، الذي شرع يقرأ الجريدة ويختلس النظرات نحوها بدوره حين دق جرس الهاتف:
- آلو... يا إلهي... مستر (أوبيسبو)... لم أحسب أنني سأسمع صوتك ثانية.. لا.. لا أستطيع الليلة.. ولكن.. ليكن.. مطعم (كولونى)؟.. السابعة والنصف.. شكرا لك..
ووضعت السماعة ووجهها أحمر كالطماطم..
وجدت (موليجان) يرمقها في دهشة وقد سقطت الجريدة من يده.. وبصوت غريب سألها:
- هل الاسم الأول لهذا الرجل هو (لويس)؟
نظرت له في كبرياء.. لقد عرف قدرها الآن وأن هناك رجلا ثريا يتوسل إليها كي تقبل دعوته إلى مطعم فاخر..

قالت في تأفف:
- لو كنت أكثر رقيا لتركت الغرفة حتى آخذ راحتى..
- هل هو يدعى (لويس أوبيسبو)؟.
- هذا ليس من شأنك!.
- ليكن.
ونهض (موليجان) في تصميم إلى مكتب (مارك) فدخل وقال له بوجه جدى:
- هل تعرف من يدعى (أوبيسبو)؟
- حتما لا.
أشار (ميكى) بإصبعه إلى الخارج.. وتساءل:
- ماذا تعرف عن هذه الدمية؟
كان يقصد الفتاة.. فهز (مارك) كتفيه في حيرة قائلا:
- لا شيء.. لكن من الواضح أنها فتاة طيبة.
- هذا ما ظننته.. لكني سمعتها الآن تحدثه بالهاتف وتقبل دعوته إلى مطعم (كولوني).. (لويس أوبيسبو)..
رجل له علاقات نفوذية بالعصابات، وكل أعماله مشبوهة.. الجميع يخشونه، وهو من طراز لا يمكن إطلاقا أن يعرف فتاة كهذه.. إنني أسائل نفسي عما إذا كانت عميلة له..!
نظر له (مارك) في حيرة وقد شعر بالخطر الواقع أنني لا أعرف عنها أي شيء على الإطلاق!

ooooooooo

13 – التـــابوت..

في الثانية عشرة والنصف، ذهب (مارك) لتناول الغداء.. لكن أثار رعبه أن وجد (ميكى) يلحق به ليسأله مبتهجا:

- أين سنتناول غداءنا؟.

نظر له (مارك) في غيظ:

- هل دعاك أحد؟.. إنني سأتناول الغداء مع فتاة...

- حسن.. سآكل بقربكما.. ولن أتدخل..

- لن أشعر بالراحة إذ أكل وجوارى غوريللا مثلك تراقبني..

- أوامري أن أراقبك..

- بل عليك أن تظل خارج المطعم ولا تضايقنا..

- إذن سأظل بالخارج.. لكنها قد تكون جنازتك..

وهكذا...

توجها إلى شارع (ماديسون)، حيث دخل (مارك) إلى حيث تقف (مارتا شتاينولد) تشرف على عملية الإغلاق، دعاها إلى الغداء محرجا، فقبلت.. كانت ترتدى السواد وشاحبة، لكنها حسناء كزهرة (ليلاك)..

ركبا سيارة أجرة.. ولشدة غيظ (مارك) رأى حارسه الأمين يستقل سيارة أخرى خلفهما وهو يغمز له بعينه، إشارة إلى حسن ذوقه..

وفي مطعم (ريتز) جلسا يأكلان..

وحكي لها كل تفاصيل القصة دون أن يخفي شيئا.. وقال لها إنه سيظل للأبد يعتبر نفسه مسئولا عن موت أبيها..

وحين انتهى الغداء ودعها.. فوجد (موليجان) ينتظره..

قال (موليجان) باسمًا..

- فهمت الآن لماذا لا تعير القردة الظريفة في المكتب اهتماما..

- أرجوك أن تخرس!
وخرس (ميكى) بالفعل..
خرس حتى حين ذهب مع (مارك) إلى جناحه بالفندق..
وخرس حين تركه (مارك) ليدخل غرفة النوم ليجمع حاجياته..
فيما بعد لم يذكر (مارك) سوى أنه كان يترنح ورأسه يدور..
ثم إنه غاب عن الوعي في الحال..

ထထထထ

لبضع دقائق حسب أنه صار أعمى كان الظلام دامسا.. وفي رأسه ترجرج صداع مروع..
حاول أن ينهض.. لكن جبهته اصطدمت بشيء صلب أملس..
عاد إلى وضع الرقاد.. ورفع ركبته لأعلى لكنها اصطدمت بذات الشيء.. وحين مد يده شعر بملمس قماش مخملي..
وعرف الآن ما يرقد فيه.. إنه صندوق.. صندوق مغلف بالمخمل.. وبعبارة أخرى هو تابوت...
أصابه هلع حقيقي.. حاول أن يتحرك.. حاول أن يرفع غطاء الصندوق من الداخل دون جدوى.. لقد كان الغطاء مثبتا بالمسامير..
منذ متى يرقد هنا؟.. كم سيمر من الوقت قبل أن يختنق؟
بالطبع لم يخلق بعد الرجل مهما بلغ من شجاعة – الذي يتحمل أن يرقد حيا في تابوت..
بعد قليل لاحظ أنه يتنفس هواء باردا منعشا.. إذن هو يرقد في تابوت يسمح بالتهوية.. هذه نقطة هامة بحرقة راح يبكي.. ويحاول تذكر ما حدث..
أين ذهب (ميكى) ولماذا لم ينتقده؟..

ꝏꝏꝏꝏ

كان غارقا في تلكم الأفكار السوداء، حين سمع طرقا على التابوت.. صوت مفك يعمل..

ثمة بصيص من النور يبدو لعينيه.. ثم.. آى 1.. النور الساطع ينغرس كاملا في حدقتيه..

فتح عينيه أخيرا فرأى ثلاثة رجال يقفون حوله في شبه دائرة، وكلهم يرتدي القبعات وقد أرخاها كل منهم على عينيه بقناع أسود طويل.. كان من الممكن أن يكون منظرهم مريعا لواحد سواه، لم يمر بتجربة أشد هولا..



فتح عينيه أخيراً فرأى ثلاثة رجال يقفون حوله فى شبه دائرة ، وكلهم يرتدى القبعات وقد أرخاها كل منهم على عينيه بقناع أسود طويل ..

سمع صوتا عميقا يقول:

- مستر (ماسترسون).. أنت الآن أمام مجلس إدارة (جولكندا)..

حاول أن ينهض من التابوت، ثم أدرك أنهم فتحوا فتحة واحدة تكشف عن صدره ووجهه، أما باقي جسده فظل بالداخل..

- عصابة من مصاصي الدماء... هذه هي حقيقتكم..

- اصمت ودع رئيس مجلس الإدارة يتكلم..

قال صوت آخر عاد النبرات:

- ادخر عقلك لما هو أهم يا مستر (ماسترسون)..
نحن مصرون على الحصول على ربع ثروة عمك، وحين تحصل بعد أيام على قيمة وثيقة التأمين، عليك أن تسحب منها مائة ألف دولار كدفعة أولى غير ذات علامات..
لم يدر (مارك) من المتكلم.. فكلهم مقنعون ولا أحد منهم يتحرك في أثناء الكلام..
قال الصوت:
- والآن أنت تعرف أن واجبك هو التعاون معنا..
لقد مات (هوبكنز) لأنه تكلم معك فترة أطول من اللازم، وسيحدث ذات الشيء لكل من تثرثر معهم...
ودون كلمة أخرى، أغلقوا الباب المفتوح في التابوت..
وعاد (مارك) إلى الظلام، فلم يستطع كبح صرخة ذعر، وسمع صوت المسامير تثبت إلى التابوت.. لكنه كان أكثر اطمئنانا في هذه المرة؛ لأنه عرف أن موته سيسبب مشاكل في انتقال الميراث.. إن العصابية لا تملك سوى تهديده..
شعر بالتابوت يرفع.. وأحس بأنه يوضع في سيارة..
شعر بالسيارة تسير.. ثم.. غطاء التابوت يفتح منديل مبلل بمادة ما يوضع على أنفه.. ثم السماء فوق رأسه مرصعة بالنجوم، وجواره قطع رخام بيضاء، أدرك أنها شواهد قبور..
نهض مترنحا.. مشي نصف ساعة حتى وجد نفسه في منطقة سكنية تشبه (بروكلين)..
وبصعوبة وجد سيارة أجرة..
لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بدقة تدبيرهم.. إنهم جبابرة حقا.. لقد فعلوا به كل ما أرادوا، وكانوا يستطيعون النيل منه، لو لم يكن مبلغ الميراث مغريا إلى هذا الحد..
ولكن أين ذهب (ميكى موليجان) وسط كل هذا؟

14- كل شيء مكتوب بوضوح..

حين قابل (مارك) (ميكى) في جناح الفندق، صار كل شيء واضحا لهما..
لقد شعر الحارس الخاص بنعاس غير مفهوم، بينما هو ينتظر (مارك)، وكذا غاب عن الوعي.. وصحا ليجد (مارك) غير موجود بالحجرة، لهذا افترض أنه انصرف في أثناء نومه..، وهذا يعني أن الجناح كله كان مفعما بغاز مخدر، أفقد الرجلين وعيهما..
على كل حال، كان واضحا أن شيئا لن يحدث هذه الليلة؛ لهذا أخلد الرجلان لنوم عميق..
وفي ساعة متأخرة من الليل، نهض (مارك) إلى المكتب وجلس يكتب كل شيء من البداية.. منذ وصله أول خطاب من (جولكندا)، وحتى قصة التابوت..، فإذا قتل أو مات، ستكون هذه الأوراق عونا للشرطة..، غدا صباحا يودعها خزينة البنك..
وعاد ينام بعمق بلا كوابيس..
في الصباح أيقظه (ميكى) وقد بدا عليه الانتعاش..
طلب الإفطار بالهاتف.. ثم جلس (مارك) يتأمل هنيهة..
وهنا لاحظ شيئا.. الأوراق التي سطرها ليلا لم تكن هناك!.
- ماذا تريد أن تأكل؟
سأله (ميكى) في مرح..
- قهوة وتوست..
وشرع يرتدي ثيابه شارد الذهن..
وقعت عيناه على قائمة الطعام.. وكانت مصدرة بأسماء أفراد الشركة مالكة الفندق..
كان أحدهم هو (لويس أوبيسبو)..

ooooooooo

عند البقال القريب من المكتب، أجرى (مارك) مكالمة هاتفية مع مدير الأمن.. فهو كان واثقا من أن هاتف مكتبه مراقب، وكان قد أعد كل شيء للانتقال إلى فندق آخر بعيد..، وتم تحديد موعد له لدى مدير الأمن عندما ترك الحانوت، ألفي (ميكى) واقفا جواره، ويده اليمني في صدر معطفه.. قال ل (مارك) في تردد:

- أعتقد أنك لن تقابل مدير الأمن يا (مارك)..

- لماذا؟

- هناك من دخل الحانوت خلسة خلفك.. اسمه (ايجهيد هوجان).. مخبر سري يعمل مع (أوبيسبو)..

وقد سمع محادثتك في الهاتف، ولا بد أن ينقل ما سمع إلى مخدومه..

ثم أشار إلى محطة مترو الأنفاق.. وأردف:

- لن نستعمل سيارة أجرة.. فلو أن (أوبيسبو)

راغب حقا في منعك من مقابلة مدير الأمن، ففرصتك لا تتجاوز خمسين في المائة!.

ودون كلمة أخرى جر (مارك) من يده نحو المحطة، ودس العملة في المكان المخصص لها.. ووثبا إلى المترو الذي كان يوشك على التحرك، فانغلقت الأبواب وراءهما...

- إنه حظنا - قال (ميكى) في رضا - فلو أن (أوبيسبو) أمر رجاله بمنعنا من الاتصال بمدير الأمن لفعلوا ذلك حتما.. ولكنا الآن بحاجة إلى عربة نقل موتى لا عربة إسعاف!

- أنت تبالغ...

- هذا هو مجال عملى يا سيد.. وأعرف ما أقول جيدًا..

- على كل حال نحن نتفوق في نقطة على (أوبيسبو).

على الأقل هو لا يعرف أننا نشتبه فيه...
ووصل المترو إلى محطة قريبة من مديرية الأمن، فقال (ميكى) - (مارك) ويده على مسدسه:
- أسرع إلى الداخل وسأقوم بتغطيتك..
أطلق (مارك) لساقيه العنان.. حين سمع صوت طلقتي رصاص من ورائه.. نظر خلف كتفه فرأى رجلا يمسك بمسدس أوتوماتيكي ويتلوى على الأرض.. ومن ناحية اليمين رأى رجلا آخر يسقط أرضا..
وامتلأ المكان برجال الشرطة يحيطون ب (مارك).. وأحدهم يمسك بتلابيبه صارخا:
- كيف قتلتهم؟
- أنا لا أحمل سلاحا..
أنا القاتل - صاح (موليجان) - إن لدى سلاحا مرخصا، وكانا سيطلقان الرصاص على مستر (ماسترسون) الذي جاء ليقابل مدير الأمن!
انحنى شرطي يفحص جثتي الرجلين، ثم هتف:
- هذا (جيمى سيفلين) يا سيدى.. إنه مسجل خطر، أما فلا أعرفه.. لقد كانا ينويان شرا بكل تأكيد..
ودخل الجميع إلى مديرية الأمن، حيث احتجز (ميكى)..
أما (مارك) فصعد ليلقى مدير الأمن.. كانت روحه تهتز انفعالا، لكنه كان شديد الإعجاب ببراعة (ميكى) وحسن تصرفه.. لقد أنقذ حياته بما يشبه المعجزة..
كان مدير الأمن جالسا على مكتبه، يحدجه بعينين رماديتين بلون الفولاذ، وابتسامة ودود.. وأفهمه أن الأب (روثمان) قد أعطاه فكرة عن الموضوع..
ثم إنه أمسك بالقلم والورقة، وانحنى للأمام قائلا:

- هات ما عندك يا مستر (ماسترسون)...
وبدأ (مارك) يحكي بالتفصيل كل شيء..

ထထထထထ

10- الرجل بالمكتب المجاور..

عاد (مارك) إلى مكتبه، وكلمات مدير الأمن تتردد في ذهنه:
- إن أمامنا هنا مؤامرة، تحتاج إلى رأس مال هائل كى بدعمها.. لابد إذن أن زعيم العصابة رجل فاحش الثراء.. وهذا ينطبق على (لويس أوبيسبو).. وأنت تقول إن سكرتيرتك قابلته في حفل عشاء، وقابلت عنده مخدومها السابق (جاكسون) الذي كانت لديه زجاجة الحبر السري.. (أوبيسبو) مهتم بمس (بيتس) ربما لأنها سكرتيرتك.. وهو - أيضا - مدير الفندق الذي كنت به، وقادر بالضرورة على وضع جثة في فراشك.. على كل حال سوف أعمل على حراستك جيدا، ولسوف أطلق سراح حارسك الكفء (موليجان).. لكن لا تفعل أي شيء دون الرجوع إليّ..
على (مارك) الآن ألا يتوقع الرحمة من العصابة فلديها التقرير الذي كتبه.. وهي تعرف زيارته لمديرية الأمن.. لكن عزاءه الوحيد، هو أنه لم يعد وحده..
الشرطة الأن تبحث عمن وضع القنبلة في الطائرة..
ومن الذي دخل وخرج من وإلى جناح الفندق.. ومن قتل (شتاينولد).. لم يعد وحده.. لكن يجب أن يكون حذرا..
سمع صوت (ميكى) من الغرفة الداخلية يسأل:
- ماذا حدث ل- (كلاريبل)؟.. لقد تأخرت!.
اعتصر قلبه قلق مفاجئ على الفتاة.. فقال ل (ميكى):
- هي تتناول طعامها أسفل المبني.. اذهب وابحث عنها هناك..
- ليكن.. سأوصد الباب عليك بالمفتاح..
وانصرف (ميكى)، على حين جلس (مارك) وحيدا يتأمل الغرفة.. أمام عينيه كانت هناك مرآة صغيرة.. خيل له لوهلة أنه يرى الباب

الذي خلفه يفتح ببطء!..
كان هذا الباب يقود للغرفة الملاصقة لمكتبه.. وبحرص..
مد يده فأمسك بثقل للورق كان على المكتب أمامه..
- ارفع يديك إلى أعلى!.
ونهض واقفا وهو يرى المتسلل.. الرجل الذي يحمل في يده مسدسا.. ودون كلمة أخرى طوح الثقل نحو الرجل.. فطاشت الرصاصة الأولى:: فالثانية.
وفي اللحظة التالية وثب على الرجل.. غضب جامح تملكه، فشعر بقوة لم يعهدها في نفسه.. لوى معصم الرجل منتزعا المسدس، ثم كال له لكمة في أنفه هشمته.. ثم ركل الرجل في قصبة ساقه، ووثب فوقه يواصل ضربه، بينما الزبد يخرج من فمه كثور برى هائج..



وفى اللحظة التالية وثب على الرجل .. غضب جامح تملكه ، فشعر بقوة لم يعهدها فى نفسه ..

ولم يدر متى دخل الغرفة رجلان، شرعا يجرانه إلى الوراء محاولين تهدئته.. لقد كانا من رجال الأمن.. وقد فطنا إلى أن (مارك) على وشك قتل الرجل..

دخل أحد الرجلين الحجرة المجاورة، ثم عاد يحمل في يده أسلافا متشابكة، وسماعة صغيرة.. لقد كان الرجل ويتجسس باستمرار على (مارك)..، وجاء (ميكى) وقد جنيته الضوضاء ليرى المشهد الذي لا يصدق..

- هل جندلت هذا الوحش وحدك يا سيدى؟
- نعم.. أرجو أن تطلبوا له سيارة الإسعاف..
ولم يستطع أن يخفي نبرة الرضا في صوته..

∞∞∞∞

الآن صار واضحا أن (كلاريبل) قد اختفت (ميكى) لم يجدها بالمطعم..، وأسلاك التصنت تؤكد دون شك، أن العصابة تعرف ما تعرفه الفتاة، عن علاقة (أوبيسبو) بمخدومها السابق..
لم يعد هناك مكان آمن ل (مارك).. حتى أن البوليس فكر في حبسه بزنزانة لحمايته.. لكنهم لا يستطيعون ضمان حياته في أثناء نقله إلى السجن..!
لقد صارت الحياة أكثر خطرا بما لا يقاس..

∞∞∞∞

16 - تعليمات للقتل..

يقع مكتب (أوبيسبو) في جناح بالشارع الخامس غير بعيد من مكتب (مارك ماسترسون)..
وفي الوقت الذي كان فيه (مارك) مجتمعا بمدير الأمن، كان (أوبيسبو) يذرع الغرفة جيئة وذهابا وقد عقد يديه خلف ظهره..
عيناه السوداوان تلتمعان انفعالا..
فللمرة الأولى قد جعل من نفسه معتوها..
لويس أوبيسبو) الذي بدأ حياته عازف بيانو في ملهى حقير، وعرف كيف تتحول الخمر المغشوشة إلى مال وفير.. ثم تشعبت أعماله - وأكثرها غير مشروع – وازداد ثراء..
وكانت طريقته الحالية هي أفضل ما وجده لكسب المال، ولأن (أوبيسبو) لم يكن يملك ذلك العضو الزائد المسمى بالضمير، فإنه لم يجد صعوبة قط في قتل العشرات..
وبمجرد أن يجلس إلى البيانو ويعزف (شوبان)، كان ينسى كل شيء عن ضحاياه..
منذ دقائق لا أكثر عرف أن (كلاريبل) هي سكرتيرة (مارك ماسترسون).. ويا لهول ما عرف! معنى هذا أنها أخبرت مخدومها بعلاقة (أوبيسبو) ب (جاكسون) مخدومها السابق، لأنها قابلتهما معا على العشاء..
لِم لَم يخبره أحد بذلك؟.. ما نوع هؤلاء الرجال الذين يعمل معهم؟.. كيف يمر خطأ كهذا تحت أنوفهم؟!..
والآن يفهم - أخيرا. مغزى زيارة (مارك) الغامضة..
- (جاكسون).. ان (مارك) يشتبه في هذا الأخير..
لم يكن يريد ترك شيء للصدفة..

رفع سماعة الهاتف وهتف:
أبلغ تعليماتي للقضاء على (ماسترسون) قبل أن يصل إلى مديرية الأمن..
نعم.. لم يعد هناك حل آخر سوى ذبح الدجاجة التي تبيض ذهبا.. لا يمكن المخاطرة بتركها..
اللعنة!.. لماذا لم يتخلص من (ماسترسون) حين كان في قبضته أمس..
وحين دق جرس الهاتف بعد قليل، ليعرف أن الحارس الخاص (موليجان) قد أردى الرجلين صريعين.. ازداد حنقه وقلقه..
الأسوأ هنا هو ذلك التقرير الذي كتبه.. لو وقع هذا التقرير في يد الشرطة، لكان هذا كافيا كي تأخذ شركات التأمين حذرها من الوثائق ذات المبالغ الباهظة..
إنه يعلم الآن أن الشرطة تعلم كل شيء.. ويعلم أنها تشك في (جاكسون).. إذن حان الوقت لإيقاف هذه العملية تماما.. وواجبه الآن هو تغطية آثارها..
ان (كلاريبل) و (مارك) الشاهدان خطران..
وكلاهما يجب أن يختفي.

ooooooo

17- الكلاب تصطاد ثعلبا..

كان الوقت ضيقا بالنسبة لـ (جاكسون جونسون)..
هرع إلى شقته، فجمع ثيابه في حقيبتين، وأعد جواز السفر الخاص به..، هناك بأخرة تبحر إلى إيطاليا في الخامسة بعد الظهر.. وستتوقف في الجزائر التي يستطيع مغادرتها إلى المغرب، حيث لا توجد اتفاقية تسليم مجرمين..
سيترك كل شيء وراءه، لأنه لن ينتظر حتى يلحق به رجال الشرطة ليستجوبوه.. فعمله مليء بالثغرات وحسابات الوكالة كلها تزييف..
سيترك (أوبيسبو) وراءه، فهو يستطع العناية..
استقل سيارة أجرة إلى البنك.. نزل إلى قبو الخزائن، فأخرج ما في خزينته من أوراق بنكنوت عالية القيمة فكدس بها جيبة..
عاد إلى سيارة الأجرة، وكاد يطلب من السائق التوجه إلى الميناء، حين وثب جواره رجل لم يره من قبل..
كان يتكلم محتجا، لكنه أحس بفوهة المسدس في صدره.. وسمع الرجل يقول مبتسما:
- تحاول الفرار من (أوبيسبو)؟.. لا تحاول الاستنجاد بالسائق فهو رجلنا!.. هيا ناولني ما معك أيها الفأر!
- لكنه مالى.. (لويس) لديه أكثر منه.. إنني...
ودون كلمة أخرى، شرع يفرغ ما بجيوبه للرجل.. ثم هتف:
- لقد أخذت نقودي.. دعني أنصرف!.
- استرخ يا صاحبي.. استرخ!.
وكانت السيارة الآن تمشي في طريق مهجور خال من السيارات، ودوي صوت ثلاث رصاصات.. ثم واصل الرجل تفتيش جيوب جثته.. كان هناك جواز سفر..

لا بأس أبدا.. إن جواز السفر مفيد دوما..
وفي شارع ضيق، غادر الرجل والسائق السيارة، حاملين جثمان الفقيد، وتخلصا منه في حديقة منزل خرب..
لقد قام (أوبيسبو) بأداء دوره المعروف: ما إن أحس بأن (جونسون) قد يسبب له خطرا حتى تخلص منه.. ثم إنه لم ير بأسا في أن يأخذ مال (جونسون).. فما دام انتهاء العملية كان نتيجة خطأ (جونسون)، فمن الطبيعي والعدل تماما أن يأخذ ماله.
لكننا نعترف هنا بأن (أوبيسبو) - ذلك المجرم العتيد - كانت له نقطة ضعف هي (كلاريبل)..
إن ذلك الشيء في صدره - والمفروض أنه قلب – كان يخفق في وجود هذه الفتاة الرقيقة البريئة، التي تهوى سماع البيانو..
ولم يستطع قط أن يقرر التخلص منها.

∞∞∞∞∞∞

سأل المفتش (جارسون) بوابة البناية عن (كلاريبل)..
فقالت له إنها لم ترها طيلة النهار.. ولم تسمع أصواتا من هناك..
صعد المفتش الدرج إلى حيث الشقة العليا الخلفية..
كان القفل ذا طراز عتيق، استطاع أن يفتحه دون جهد..
بطبعه كان جم التشاؤم، لهذا توقع أن يجد (كلاريبل) في أية لحظة راقدة على الأرض، وقد غاص نصل مدية في صدرها.. لكنه لم يجدها.. طلب الشرطة على الهاتف، وسألهم أن يرسلوا من يراقب الشقة..
ثم غادر إلى شارع (ماديسون)، ليحقق في حادث سرقة حانوت (شتاينولد) للمجوهرات، الذي حدث أمس.. والذي - حتما - له علاقة بذات العصابة..

ooooooooo

أين كانت (كلاريبل) طيلة هذا الوقت..؟
الواقع أن الفتاة لم تذهب للمكتب ظهرا؛ لأن واحدة اتصلت بها، وقالت لها إن (مارك) يريد منها أن تغلق المكتب وتنصرف.. وبالطبع لم تكن هذه المتصلة تتكلم من طرف (مارك)، ولكن من طرف (أوبيسبو)، الذي أراد أن يبعد الفتاة بعض الوقت وبينما الفتاة عائدة إلى الدار، قابلت شريكة سكنها..
مس (شميت)، وكان أن اصطحبتها هذه إلى المسرح حيث تؤدى بروفات الرقص، وفي ذلك الوقت كان المفتش (جارسون) قد اتصل بمركز الشرطة، فعرف منهم أنهم وجدوا جثة رجل ملقاة في فناء منزل مهجور.. والجثة لرجل يدعى (جاكسون جونسون)!..
إذن لا شك هناك الآن، في أن القاتل هو (أوبيسبو) وقد تخلص من (جاكسون) لأنه صار ورقة مكشوفة لدى البوليس.. لكن - كالعادة لا يمكن إثبات ذلك وفكر (جارسون) كم أن قدر رجل الشرطة تعس!..

ooooooooo

كان (مارك) جالسا مع (مارتا شتاينولد) في المحل، بينما - بطرف عينه - يرى الشارع مكتظا برجال الشرطة السرية، فالمفتش (جارسون) مصمم على الإبقاء على حياته أطول وقت ممكن.. قال لها: - لماذا لا نذهب للعشاء؟
- أريد مكانا كئيبا لا تعزف فيه الموسيقا.. فمزاجي لا يتحمل أي مرح..
- توجد أماكن عديدة تمتاز بالكأبة..

وهنا دخل (موليجان) المكان.. وطلب أن يتحدث إلى (مارك) على انفراد.. فقال (مارك) لفتاته:
- إذن أستميحك عذرا..
وخرج مع (موليجان) إلى الخارج.. وسأله عابسًا:
- ماذا هنالك؟
- الشرطة مازالت تبحث عن (كلاريبل).. لكنني كنت واقفا في الشارع الآن عند مدخل المبنى، وجاءت سيارة فخمة وخرج منها رجل وفتاة.. الفتاة في (كلاريبل).. والرجل (أوبيسبو)، ودخلا إلى هذا المطعم.
- مطعم؟.. لا.. (كافيه اترانجيه) ...
- كنت أظنها طيبة.. لكني واثق الآن أنها تلعب بنا...
ضحك (مارك) وربت على كتفه: - الفتاة ساذجة تماما ولا تملك فكرة عما أنا فيه..
كل ما في الأمر أن (أوبيسبو) يريها عالما لم تعرف بوجوده.. إن (كافيه إترانجية) لأفخم مطعم فرنسي في (نيويورك).. وإنني أعتقد أن الوقت قد حان لأرى هذا الرجل يا (ميكى).. سأدعو مس (شتاينولد) إلى (كافيه إترانجية)
- لا تغامر يا سيدى!
- بالعكس.. لا يوجد في العالم مكان أكثر أمثالى من المطعم الذي يأكل فيه (أوبيسبو).. فقط أخبر حراسي أنني ذاهب إلى هناك..
وعاد (مارك) إلى الداخل، حيث كانت (مارتا) تنتظره استعدادا للعشاء....

ooooooooo

18- في المطعم..

سارا إلى المطعم ووراءهما اثنان من رجال الشرطة و (ميكى).. كما لاحظ (مارك) أن كثيرين من المخبرين السريين كانوا يقفون في مداخل البنايات ينتظرون..
واستقبله مدير المطعم بحفاوة، وقادهم إلى غرفة الطعام التي تتسع لمائة شخص بإضاءتها الخافتة..
بحث (مارك) بعينيه عن (كلاريبل) فلم يجدها..
أو - بمعنى أصح - لم يجدها كما عرفها.. ذلك الظهر الرشيق الذي تنسدل عليه خصلات الشعر الذهبي، لكنه لم يهتم بتأملها، بل ركز عينية على مرافقها.. هذا هو (أوبيسبو) إذن!.. الوجه الأصلع الشاحب.. والوجه الحزين.. والعينان الكبيرتان شديدتا السواد.
وابتسم الرجل لحظة لثرثرة (كلاريبل)، فشاع اللطف في محنته.. لكنه ظل مرعبا.. مرعبا وعجوزا بحيث لا يناسب فتاة شابة مثلها.. أن (كلاريبل) هذه إما شيطانة تدعى البراءة، أو هي أغبى مما يمكن تخيله.
لكن (كلاريبل) لم تكن هذا ولا ذاك.. كانت فتاة ملأي بالأحلام، ووجدت من يحقق لها هذه الأحلام دون أن يطلب منها شيئا أو يغير سلوكه المهذب الراقي تجاهها..
لم يكن هذا ال (أوبيسبو) بريد منها سوى أن تسعه وهو يعزف البيانو.. وهي كانت تحب هذا..
قالت (مارتا) وهي تتفحص قائمة الطعام:
- أراك لا تحول عينيك عن هذين.. يخيل لي أنني أعرف هذه الفتاة..

- هى سكرتيرتى.. وعقلها لا يزيد على عقل أرنب..
- إذن أنا أرثى لها.. فهي في صحبة ثعبان!.
وجاءت مكالمة هاتفية ل (أوبيسبو) فاستأذن مرافقته كى يلبيها..
ووجد (مارك) الفرصة سانحة، فنهض إلى مائدة (كلاريبل)، فما أن رأته هذه حتى بشت وجهها وصاحت فيه:
- أنت هنا يا مستر (ماسترسون)؟
قال في حدة وهو ينظر في عينيها:
- لا أدري متى ولا أين قابلت هذا الرجل.. لكني أقول لك كلمة واحدة: عودي لدارك حالا..



قال فى حدة وهو ينظر فى عينيها :
— لا أدرى متى ولا أين قابلت هذا الرجل ..

- لكن كيف؟.. إن مستر (أوبيسبو) رجل عطوف.. لن..
قال في حزم:
- إن لم تفعلي اعتبري نفسك مفصولة!
في عينيها احتشدت الدموع.. كادت تنهض، ثم أجلستها كرامتها ثانية.. أي شيء يريد هذا الرجل؟..
كيف يجرؤ على الاعتراض على حياتها الخاصة، بينما هو لم يدعها للعشاء قط؟.. بل هو ذا يصطحب معه هذه الحسناء..

وفي هذه اللحظة عاد (أوبيسبو) من مكالمته الهاتفية، وكان (مارك) قد عاد إلى مائدته.. سألها:
(أوبيسبو) في حيرة:
- ما خطبك يا صغيرتي؟
- إنه.. مستر (ماسترسون).. رئيسى.. لقد جاء إلى وأمرني أن أنصرف حالا وإلا فصلني...
ضاقت عيناه كعينى ثعلب.. وتساءل بصوت خفيض:
- أين هو؟..
- هناك.. جالس مع هذه السمراء ذات الجمال الفظيع!.
جلس (أوبيسبو) إلى المائدة، وتعد ألا ينظر نحو مائدة (مارك).. لكن عقله كان يعمل بسرعة.. نادي النادل وكلمة بضع كلمات بالفرنسية، فهز هذا رأسه.. ثم عاد إليه بعد هنيهة وفي يده ورقة بيضاء.. وهمس بالفرنسية:
- هذا هو الاسم الذي كان على معطفها..
لمعت عينا (أوبيسبو) وهو يقرأ الاسم:
- (مارتا شتاينولد)!!

ooooooooo

كان الطعام شهيا، ولقد أكلت (مارتا) بنهم حقيقى..
ثم جاءت القهوة فشرعا يحتسيانها..
وهنا نهض (أوبيسبو) و (كلاريبل) متجهين نحو باب الخروج.. وفجأة انفصل الأول وسار نحو مائدة (مارك)، وقال له بصرامة لكن بتهذيب:
- هل لي أن أتحدث معك يا سيد على انفراد؟
أومأ (مارك) إلى (مارتا) ثم وقف وقال:

- بكل سرور..
وسار الرجلان معا إلى البار، بينما مشت (كلاريبل) قاصدة حمام السيدات....

ထထထထထ

16- المواجـــهة..

- هل لي أن أسألك، لماذا تعطي نفسك الحق في تهديد الآنسة الشابة التي كانت معي؟ ولماذا هددتها بفصلها من العمل لمجرد تناولها العشاء معي؟.
هكذا تساءل (أوبيسبو) في حنق.. فهمس (مارك) بصوت كالفحيح:
- لأنك قاتل قذر!.
توهجت عينا (أوبيسبو):
- ستندم قريبا على هذه الإهانة.. إنني لا أنسى الانتقام..
- أعرف ذلك!.
قالها (مارك)، ووجه لكمة قوية بيده اليمنى إلى فك الرجل، فسقط الرجل أرضا.. وسرعان ما انقض مدير المطعم وعامل البار يبعدونه عنه..
هرعت (مارتا) إلى (مارك) حاملة حقيبتها، وتأبطت ذراعه لينصرفا على حين قام النادل بنقل (أوبيسبو) فاقد الرشد إلى غرفة داخلية.
وعلى الباب كانت (كلاريبل) تنتظر، فجذبها (مارك) من ذراعها على الرغم منها إلى سيارة أجرة.. وأوصى (موليجان) أن يقودها حيث الأب (روثمان)، ليخفيها في مكان آمن..
ثم هرع إلى سيارة الشرطة، واستقلها مع (مارتا) فارّين.. لقد كان (أوبيسبو) على رأس عالم الجريمة.. لكنه لم يعد يستعمل قبضته، وقد كادت هذه اللكمة العاتية تهشم فكه تماما، وغاب عن الوعي خمس دقائق كاملة..

∞∞∞∞∞∞∞∞

وحين عاد (موليجان)، بعد ما أخذ (كلاريبل) إلى الدير..
قال له (مارك):
- غدا يا (ميكى) تتوجه صباحا إلى مكان اسمه (هاسبريدج) في (لونج ايلاند).. هل تعرفه؟
- نعم.. هو مكان ناء في منتصف الطريق إلى (مونتوك)..
- حسن.. اسمع تفاصيل ما أنتويه..

ꝏꝏꝏꝏ

السادسة صباحا..
غادر (مارك) و (ميكى) فندق (بليتز)، مستقلين سيارة أجرة، نهبت بهما الأرض قاصدة (هاسبريدج)...
تساءل (ميكى):
- ألم يكن الأصوب أن نخبر الشرطة؟
- كنا عندئذ سنذهب وسط جرس شرف يتقدمنا على الدراجات البخارية، ووراءنا سيارة بمكبرات الصوت، ولم أكن أعرف ما نحن ذاهبان لمعرفته...
- لا وما هو؟
- لن أصارحك.. ولكن لو نجحنا سنجد (أوبيسبو) خلف القضبان قريبا جدا..
مس - إن الأمل في أن ترى نهاية اليوم لأمل واه.. ففي غضون ساعتين سيعرف الوغد وجهتنا، وعندئذ...
لكن (مارك) كان قد بدأ يستعيد ثقته بنفسه.. حين وقّع الإقرار ل (جولكندا) كان سفيها.. ومنذ توفي عمه كان فأرا يلهو به قط.. أما الآن....
تساءل (مارك) وهو يرمق الطريق:

- لماذا يجد رجل مثل (أوبيسبو) وقتا كافيا لفتاة مثل (كلاريبل)؟
- أعتقد أن (أوبيسبو) نشأ مثلى من الحضيض، ولم يعرف سوى النسوة المحترفات والخشنات.. وحين قابل (كلاريبل) وجدها طاهرة وغبية.. ومست فؤاده بضعفها الشديد وحبها للبيانو.. إن النسوة يحببن موسيقا الجاز، ولا يهوين الموسيقا الكلاسيك.. لكن (كلاريبل) أحبت موسيقاه، وبالتالي استعبدته...
ثم احمر وجه (ميكى) وغمغم في رقة:
- أحسبني غارقا في حب هذه الفتاة.. أن هذه الفتاة لو تزوجت رجلا عاقلا.. رجلا يضربها كلما ظنت أن لديها فكرة ما..
ضحك (مارك) وهتف:
- الحق أنها مهمة عسيرة..

ꝏꝏꝏꝏ

كانت المسافة حوالي ثمانين ميلا إلى (هاسبريدج) والتي تبين أنها قرية على المحيط..
وقرر (مارك) أن يتوقفا عند الفندق لتناول الإفطار..
وفي التاسعة وعشرين دقيقة، عبر الشارع إلى حيث مجلس المدينة، وفي الداخل جلس عجوز أشيب الشعر لم ينته بعد من تناول إفطاره في المكتب..
سأله (مارك) وهو يتأمل المكان:
- أريد بعض بيانات، بصدد قطع الأرض من الرابعة عشرة إلى الرابعة والعشرين، بسجل (هاسبريدج).
- وماذا تريد بالتحديد؟
لقد ابتاعها صديق لي وطلب الاستعلام عنها..
ابتسم الرجل بسمة واهية:

- يبدو أنه كان من الأفضل أن يستعلم عنها قبل الشراء.
- كم سعر الأرض؟
- سعرها ألف دولار لمائة قطعة!
- وما سبب هذا السعر المنخفض؟
- إنها رمال لا تصلح لشيء.. في الماضي اشتراها بعض المهربين ليمارسوا عليها نشاطهم.. لكن كل هذا انتهى منذ زمن...
حاول (مارك) أن يدارى انفعاله.. وسأل:
- هل تعرف شيئا عن شركة (لونسج آيلاند) للأراضي؟
- طبعا.. هي مالكة أكثر الأراضي على الساحل، وهي من اشترى هذه الأرض من المهربين..
وناول (مارك) نشرة أنيقة لامعة تتحدث عن الشركة، فالتمعت عينا الأخير طربا.. العنوان يقول إن الشركة ملك لصاحبها (لويس أوبيسبو)..!
شكر (مارك) الرجل في حماس.. وانصرف مع (ميكى).. وفي غباء تساءل الحارس الخاص:
- لا أفهم شيئا من كل هذا...
- لقد كان حضورنا مفيدا للغاية يا (ميكى).. لقد وجدت (مارتا) ابنة (شتاينولد) بين حاجياته وريقة صغيرة، هي إثبات أنه اشترى أرضا من شركة (لونج آيلاند).. دفع ستة عشر ألفا في أرض لا تساوي ألف دولار.. هذه هي الطريقة المختارة لدى شركة (جولكندا) لتسديد الأتعاب.. إنهم يرغمونك على شراء أشياء لا قيمة لها، ولعل الرجل تذمر أو هند بالتوقف، فقرروا قتله بلا إبطاء... المهم أن معنا الآن الدليل على تورط (أوبيسبو) في هذه العمليات المشبوهة التي لا تنتهي، ولسوف يجد البوليس الكثير.. هيا بنا نعد الآن ونخبر الشرطة بما عرفناه..

ꝏꝏꝏꝏ

في ذات اللحظة جلس العجوز يفكر في معنى هذا الذي حدث..
إن مكسبه الضئيل يأتي كله من بيع الأراضي..
ربما كان من الواجب أن يخطر الآخرين في شركة (لونج آيلاند) بفحوى تلك المحادثة المريبة...
فتح دليل الهاتف وبحث عن رقم ما....
يجب أن يتأكد ليطمئن قلبه..

ꝏꝏꝏꝏ

20- - (أوبيسبو) يربح جولة..

من جناحه بالفندق اتصل (مارك) بالمفتش.. كان في غاية الانشراح على عكس المفتش عصبي المزاج، الذي لم يرق له كون (مارك) غادر الفندق دون إنذار..

- كيف تتوقع - بحق السماء - أن نحميك حين تفرّ من الفندق كما فعلت اليوم؟

- سيكون عندك الدليل الذي يدين صاحبك، لو أنك جئت إلى.. ولن تتذمر من حمايتى بعد اليوم..

ثم إنه وضع السماعة.. وطلب (مارنا شتاينولد) ليسأل عن أحوالها.. لكن الفتاة الحسناء لم تكن هناك، طلبها في الحانوت كذلك فلم يجدها..

بعد عشر دقائق دق جرس الهاتف، وسمع صوتا جديدا يقول:

- هنا شركة (جولكندا).. إن مس (شتاينولد) في قبضتنا الآن يا مستر (ماسترسون).. لا تفه بكلمة عما عرفت اليوم في (هاسبريدج)، إذا ما أردت ضمان صحتها.. تك! ...

وأغلق الخط.. فتهاوى (مارك) جالسا شاحب الوجه..

كيف نسي أن (مارتا) مهددة؟.. لقد ركز تفكيره على (كلاريبل) ونسى كل شيء عن (مارتا).. وهو الآن فقط يدرك أنه يحبها، كما لم يحب أحدا من قبل المصيبة هنا هي أن (أوبيسبو) عرف أن (مارك)..

يحب (مارتا)، قبل أن يعرف هو نفسه ذلك!

لقد هزمة العدو.. فذلك الوغد لن يتورع عن ذبح (مارتا) ليحمي نفسه.. لقد ذبح أباها من قبل.. وأدرك كذلك أن (أوبيسبو)

يحاول تعطيل (مارك)، إلى أن يزيحه عن طريقه نهائيا.. لابد ل (مارك) أن يموت قبل إطلاق سراح (مارتا).
يا له من مأزق!.

ꝏꝏꝏꝏꝏ

متحمسا وصل المفتش (جارسون)؛ ليعرف من (مارك) ذلك الدليل الذي سيوقع (أوبيسبو) في الشرك..
لكنه - لخيبة أمله - وجد (مارك) عازفا عن الكلام وكذلك حارسه الخاص.. وصارح (مارك) المفتش أن (مارتا) في قبضة العصابة، وهو غير راغب بتاتا في فقدها إذا ما ثرثر.. فهو يعرف ما يستطيع أولئك الأوغاد عمله..
صرخ المفتش محنا!
- يا لك من أحمق!.. إنهم سيقتلونها على كل حال بمجرد أن يفرغوا منك.. ذلك متوقع.. فلا تكن مغفلا!
تنهد (مارك) وغمغم في وجوم:
- اقبض على (أوبيسبو) يا سيدي المفتش.. ضعه في زنزانة وعندئذ أتكلم أنا...
- هل تتحامق؟.. لا يمكن القبض على رجل نفوذه كهذا دون دليل.. سيخرج من أية زنزانة بعد نصف ساعة..
إن (أوبيسبو) لمركز قوة مرعب..
ثم ابتلع ريقه وأردف
- حتى إذا أنت قتلت، فأنا أعرف جيدا أن قاتلك هو (أوبيسبو)، لكني لن أستطيع إثبات ذلك.. لو أنني أردت القبض على كل إنسان أعرف أنه مجرم، لامتلأت سجون الولايات المتحدة بعد ربع ساعة.. أنت قل لى دليلك!

حاول من جديد، لكن (مارك) كان مصرا
لهذا انصرف المفتش محنقا..
جلس (مارك) بعد رحيله شاردا منها.. وبعد هنيهة نظر إلى (ميكى)
وغمغم:
- أطلب لي مكتب المحامي (بورتر).. أريد أن أكتب وصيتي...!.

ꝏꝏꝏꝏ

21- الشقراء (دليلة)..

في السادسة مساء استلقي (أوبيسبو) على ظهره في الفراش في شقته الفاخرة بـ (بارك أفينيو)..
كان يشعر بالرضا عن قراره الأخير بخطف ابنة (شتاينولد)، فهي آخر ورقة في حوزته للضغط على (مارك)..
وهنا دق جرس الهاتف، فرفع السماعة..
سمع صوت (كلاريبل) المألوف المحبب له:
- كيف حالك يا (كلاريبل)؟
- أوه يا سيدي.. كم يسرني أن استطعت الاتصال بك.. كنت في غاية القلق عليك بعد ما حدث أمس بحدة تساءل:
- من أين حصلت على رقمى؟
- مدير المسرح الذي تعمل به (جلاديس) أعطانيه..
- يسرني أنه فعل ذلك.. في العادة لا أحب أن يعرف رقمي أحد.. يؤسفني أننا افترقنا كذا بالأمس.. سمعت أنك رحلت مع (ماسترسون)..
. - لقد قال عنك أشياء فظيعة.. إنه يكرهك حقا
- الشعور متبادل.. قولي لي.. ما هي خططك الليلة؟
- لا شيء.. كنت أرغب في سماع بعض الموسيقا....
خفق قلبه بحرارة:
- بالتأكيد ستسعينها...
قالت في رجاء:
- هل لك أن تأتي لتصحبني؟
ابتسم وهمس:
- بالتأكيد.. هلا أعطيتني عنوانك مرة أخرى؟

أعطته عنوانها وأضافت في حياء:
- إن الشقة ليست في مكان راق جدا يا سيدي.. لكن عسى ألا يثير هذا حفيظتك!
لم يعد يشعر بالإنهاك.. فقلبه العجوز يستعيد شبابه مع فتاة بريئة طاهرة كهذه..
وبثقة شرع يرتدي ثياب السهرة..

ꝏꝏꝏꝏꝏ

بعد ربع ساعة، هو ذا الرجل المتأنق يقف أمام باب المبنى القديم، يقرأ اسم (شميت - يتس)، فيدق الجرس..
ثم يدفع الباب صاعدا الدرج وهو يصفر موسيقا (ليست)..
يا للسلم العتيق المتآكل... حتما تستحق هذه الفتاة ما هو أفضل..
وكانت هناك تنتظره.. شقراء فاتنة على وجهها أحلى ابتسامة عرفها.. وفي دفء همست:
- تفضل بالدخول!
ودخل (أوبيسبو).. دخل الشقة.. دخل المكان الذي أحس فيه بفوهة مسدس تنغرس في ظهره، وسمع (مارك ماسترسون) يقول في هدوء:
- ارفع يديك لأعلى!.
رفع يديه ببطء، وصوب نحو (كلاريبل) نظرة حيوان جريح.. لم تتحملها الفتاة، فقالت في جزع:
- اغفر لي.. أنا أعمل عند مستر (ماسترسون) وأنفذ ما يطلبه مني...

أشار لها (مارك) كى تنصرف، فارتدت معطفها وقبعتها، وفتحت الباب.. ولم تنس قبل الخروج أن تهمس:

- أنا في غاية الأسف يا (أوبيسبو)..

ثم أغلقت الباب وراءها..

وفي الشقة بقي الرجلان وحدهما..

ထထထထထ



رفع يديه ببطء .. وصوب نحو (كلاريبل) نظرة حيوان جريح ..
لم تتحملها الفتاة . فقالت فى جزع :
- « اغفر لى .. » ..

- اجلس يا (أوبيسبو).. أعتقد أنك ستبقى هنا مدة طويلة..
- أشك في ذلك.. أتظنني أحمق إلى درجة أن آتى وحدي؟!
- عندما يهيم عجوز مثلك بفتاة صغيرة.. فإنه يأتي وحده!
وهز (مارك) سلاحه في وجه الرجل.. وأردف:
- لن نضيع الوقت في هذا الهراء.. لقد أتيت أنا الليلة خلسة دون علم الشرطة، فإجراءات الشرطة طويلة..

في سخرية ابتسم الرجل:
- ما تقوله لا جدوى منه.. أنت لن تجرؤ على قتلى، ولسوف أخرج من هنا حين أزيد
- حاول ذلك وستكون هذه أسعد لحظات حياتي..
ثم إن (مارك) قال بصرامة:
- أريد أن تخلى سبيل مس (شتاينولد).. أريدها هنا سالمة تماما.. عندئذ فقط أتركك تذهب ونبدأ من جديد.. إن المساس بشعرة من رأسها، سيؤدي بك إلى منضدة طبيب التشريح، وبي إلى الكرسي الكهربائي...
أخرج (أوبيسبو) من جيبه - الذي سبق أن فتشه (مارك) - لفافة تبغ وأشعلها.. وقال:
- يمكنك أن تقتلني.. أنا لا أعرف شيئا عن الفتاة ولا عن كل الجرائم التي تتحدث عنها.. أعتقد أن هذا المكان يعج بأجهزة التسجيل..
أنتم معشر المجرمين تظنون أن الرجل الطيب لا يقتل.. وهذا - لعمري - خطأ فادح.
وهنا دق الباب.. قال (مارك) دون أن يحول بصره:
- من هناك؟
- (ميكى)..
تراجع (مارك) بظهره وفتح الباب.. دخل (موليجان) ويده اليمنى على سلاحه، وقال إن (كلاريبل) آمنة في الكنيسة.. ثم سأل عن حال (أوبيسبو).. فقال (مارك):
- يحسبني أمزح..
مذ (ميكى) يده إلى جيبه.. أخرج حفنة من الأشواك الرفيعة.. وبلا مبالاة قال:
- نجرب هذه.. وان لم تصلح يمكننا كيه بالحديد!

ودون كلمة أخرى، شرع يشد وثاق (أوبيسبو) إلى مقعد، مستعملا حبلا غليظا.. تساءل الرجل في سخرية:
- ما هو البرنامج بالضبط؟
- الأشواك الخشبية تحت أظفار القدمين.. تعلمت هذه الطريقة من رجالك..
بدأت الشجاعة تتخلى عن الرجل.. ونظر إلى (مارك) متوسلا:
- أنت لن تسمح بالتعذيب!.
- لم لا؟.. أنت وضعتني في تابوت منذ أيام.. هل تذكر هذا؟.. ولا تحاول الصراخ؛ لأن المبنى خاو على عروشه هذه الليلة بالذات..
وبدأ التعذيب..
كان الألم شنيعا لا يطاق.. وانهار الرجل سريعا، وقبل أن يحضر لهم الفتاة إذا ما تركوه.. خطله (ميكى بعض عبارات على ورقة وأحضر الهاتف، وطلب له الرقم الذي اختاره، وعبر الهاتف تلا (أوبيسبو) العبارات التي تطلب إحضار الفتاة (مارتا) إلى الشقة حالا.. ثم أغلق (ميكى) الخط..
قال (مارك) وهو يصوب المسدس نحو رأسه:
- لو حاولت التلاعب بي، أو حاول رجالك اقتحام الشقة، فإنني سأفجر رأسك دون إبطاء...
استأذن (ميكى) بعض الوقت إلى أن يحضر رجال العصابة.. ثم عاد يواصل الانتظار المتوتر مع (مارك)..

ooooooooo

صوت جرس الباب..
هرع (مارك) ليفتح الباب، لكن الباب انفتح فجأة، واقتحمه خمسة رجال أشداء..

وفي اللحظة ذاتها وشب (أوبيسبو) - برغم قيوده - راكضا إلى غرفة النوم القريبة.. أطلق (مارك) رصاصة عليه لكنها طاشت.. وسرعان ما وجد المسدس ينتزع منه، ولم يكن حظ (ميكى) أكثر وفرة.. إذ سقط أرضا بين الأقدام، والكثرة تغلب الشجاعة..
ورأى (مارك) سكينًا لامعا يهوى فوقه.. فاستعد للطعنة..
- لا تطلقوا النار.. أمسكوهما فقط!
كان هذا هو صوت (أوبيسبو)..
وانتهت المعركة أخيرا بصديقينا مقيدين إلى الأرض..
- هل نقتلهما الآن يا ريس؟
في ضيق غمغم (أوبيسبو):
ثمة امرأة تعرف أنني كنت هنا معهما.. سأرحل أنا الآن، وبعد خمس دقائق تخرجون بهما خذوهما إلى دار (جاس) حتى أقرر ما تفعله بهما..
ثم أصلح من شأنه أمام مرآة صغيرة، وارتدي قبعته، ثم ابتسم ابتسامة قاسية وقال ل (مارك):
- الخطأ كان في الخطبة التي كتبتها لي لأقولها.. لم
يكن هذا هو أسلوبي في الكلام، واستنتج الرجال سريعا أن شيئا ما كان خطأ..
واتجه نحو الباب..
كان الألم يعتصر صدر (مارك).. لقد فشلت خطته..
كان كل هذا أجمل من أن يكون حقيقة.. والآن لم يعد له أن يتوقع رأفة من هؤلاء..
لقد حانت ساعته، وساعة (مارتا)، وساعة (ميكى)، وربما ساعة (كلاريبل) كذلك..

ooooooooo

22 - الآن أتكلـــم..

نزل الرجال السلم في بطء..
وكانت هناك مفاجأة قاسية عند الباب الخارجي.. فرقة من رجال الشرطة، يحملون المدافع الرشاشة، سرعان ما أحاطت برجال العصابة، وسمعوا صوتا مألوفا:
- ارفعوا الأيدي فوق الرءوس!
ثم برز وجه المفتش (جارسون) يهتف بصوت كالنقيق:
- كيف حالك يا (ماسترسون)؟.. أخرج لى أنت و(ميكى)، ولتضعا الأصفاد في أيدي هذه الشرذمة!
وعرف (مارك) أن (ميكى) - حين اختفى بعض الوقت.
قد اتصل بمديرية الأمن؛ لأنه خشي أن تكون العصابة قد ارتابت في الأمر..، وجاء رجال الشرطة وأعدوا كمينهم، وقبضوا على (أوبيسبو) لحظة مغادرته..
- لكن (مارتا) بعد في قبضتهم..
- ليس تماما.. لقد ذهبت فرقة شرطة إلى عنوان الرقم الهاتفي الذي طلبه (أوبيسبو).. لابد أن (مارتا) هناك أو من يعرف مكانها...
وذهب المفتش يتصل بتلك الفرقة، بينما سيارات الشرطة ترحل حاملة صيدها الثمين.. وعاد يقول لـ (مارك): إن كل شيء على ما يرام.. سيوجهون إذن إلى (أوبيسبو) تهمة الخطف وهي - في قوانين الولاية - تهمة خطرة..

ooooooooo

- (مارتا)!

استدارت (مارتا) وهرعت ترتمي بين ذراعى (مارك) على باب البناية التي تقطنها، بعد أن نزلت من سيارة الشرطة..
كانت عيناها حمراوين من البكاء،، وشعرها مشعثا لكنها ظلت فاتنة حقا..
لهما حكت كيف اقتحموا المنزل عليها في الصباح، وهي غافية في الفراش، وكيف أرغموها على الذهاب معهم إلى منزل مهجور، حيث حبسوها في غرفة بالطابق العلوي..
لم يؤذها أحد، لكنها كانت تموت هلعًا..
ولم تستطع أن تأكل قط..

ooooooooo

ظهر اليوم التالي، جلس (مارك) يشرح للمفتش (جارسون)، كيف أن الإيصال الذي معه يدين (أوبيسبو)، وينهي تلك الشبكة الفظيعة التي أنشأها..
- أنت محقق بارع أيها المفتش، لكنني أنا محام.. اقتحم مكتب (أوبيسبو)، وضع يدك على سجلاته ستجد أن كل من تعامل معه، واشترى أشياء رخيصة بأسعار باهظة؛ هو في الواقع مستفيد من بوليصة تأمين ضخمة.. لو أنك استجوبت هؤلاء، لوجدت أنهم ينهارون سريعا.. ثم شهادة مس (شتاينولد) حول خطفها ستضيق الخناق حول الرجل، كذلك قد تستطيع إثبات دور الرجل في مقتل (جونسون).. حتما سيعترف رجاله..
نهض المفتش متحمسا ليواصل العمل الذي بدأه أما (مارك) فكان بانتظار (مارتا).. وفي هذه المرة لن يكون مصرع أبيها هو محور الحديث..
(كلاريبل) أيضا لم تعد ترى (ميكى) موليجان سيئا إلى هذا الحد..

لقد كان الفتي يحبها.. يحبها من اللحظة الأولى..
وبرغم أسلوبه المتعجرف معها، فإنه صارحها بأنه يهيم بها، وبأن جنونه جن حين عرف علاقتها مع رجل العصابات العجوز، الذي كانت تهوى موسيقاه..
لقد عرف كل منهما حبا جديدا..
والغد لم يكن ببعيد..

دونالد روس
١٩٣٨

[تمت بحمد الله]

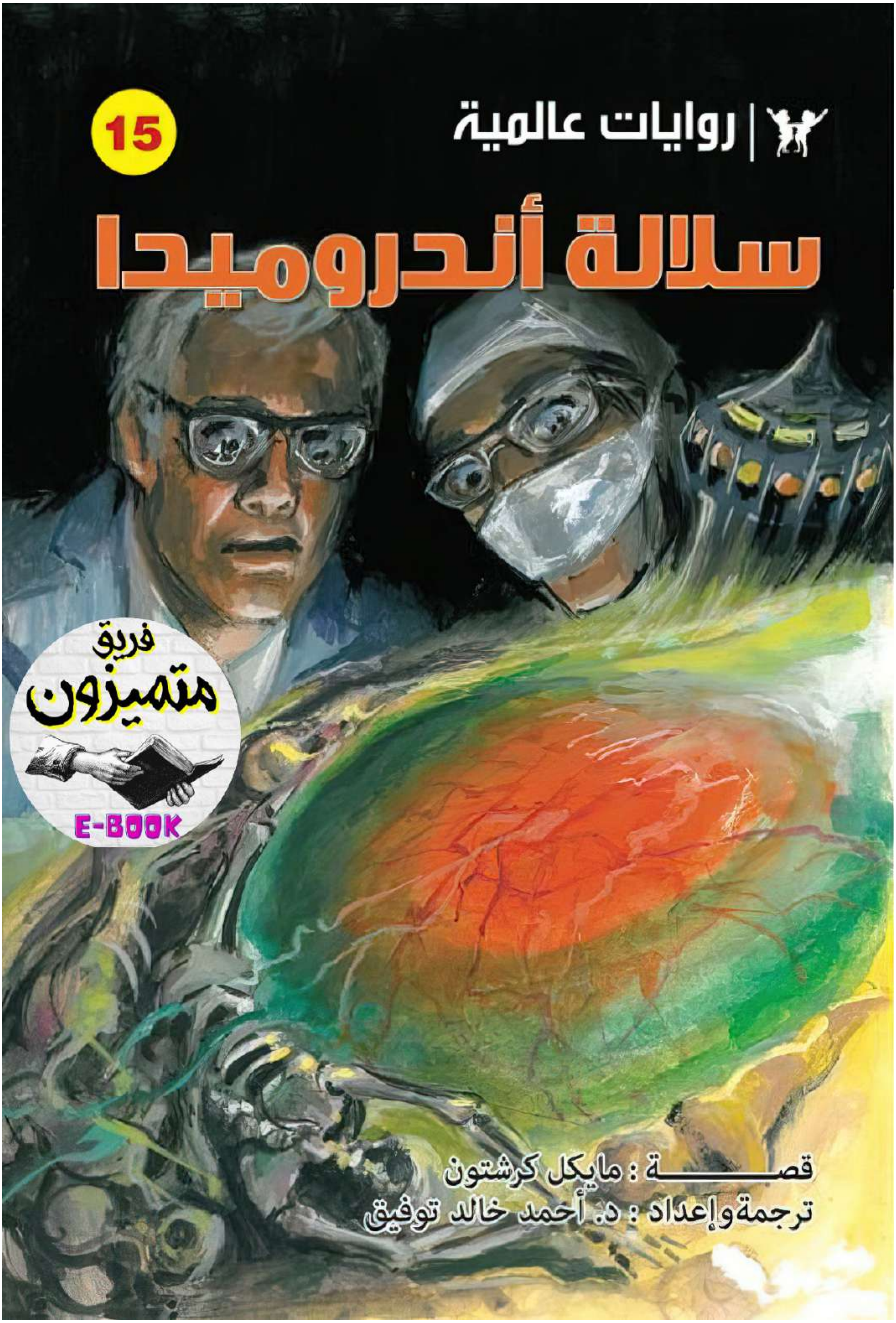
القتل بدون مقدم أتعاب
نحن نقدم لك عرضا لا يرفض يمكننا أن نتخلص من أي شخص تختاره. ولن نطلب أتعابنا الا بعد انتهاء المهمة... ولكن حذار من التلاعب بنا.. حذار من التظاهر بالبراءة حذار من التظاهر بسوء الفهم... إن شركة (جولكندا) لقادرة على العثور على من يرغب في الخلاص منك انت..
د. أحمد خالد توفيق.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس:



روايات عالمية

15

سلالة أندروميدا

قصـــــة : مايكل كرشتون

ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

فريق متميزون E-BOOK

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (01)

سلالة أندروميدا

تأليف: مايكل كرشتون.
ترجمة وعرض: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

1- المؤلف..

ليست هذه هي المرة الأولى التي نذكر فيها اسم (مايكل كرشتون)، فقد قابلناه من قبل مخرجا لقصة (الغيبوبة).. واليوم نلقاه مؤلفا متميزا لقصص الخيال العلمي، التي تفوح منها رائحة الطب..

ولا عجب هنالك.. فنحن نعرف أن (مايكل كرشتون) طبيب قبل أن يصير مؤلفا أو مخرجًا.

ولد (مايكل كرشتون) في (شيكاغو) عام 1942، وتخرج في مدرسة (هارفارد) الطبية، ثم صار زميلا لما بعد الدكتوراه في معهد (سالك) في (لاجولا) بكاليفورنيا عام 1969..

لا ندري متى ولا كيف بدأ يهتم بالفن.. لكنه قدم عددا لا بأس به من قصص الخيال العلمي، نذكر منها:

- رجل الأطراف الكهربية.
- سرقة القطار الكبرى.
- أكلة الموتى.
- الكونغو.
- الكرة.
- حديقة العصر (الجوراسي).

ونحن نذكر جيدا القصة الأخيرة التي أخرجها (سبايلبرج) في فيلم الديناصورات الشهير، الذي هزّ شباك الإيرادات في العالم كله.

أما قصص (كرشتون) البعيدة عن عالم الخيال العلمي فهى:

- خمسة مرضى.
- حياة كهربية.
- رحلات.

- وفي مجال الإخراج السينمائي قدم لنا هذا الفنان المتميز:
- العالم الغربي.
- الغيبوبة.
- سرقة القطار الكبرى (عن قصته هو نفسه).
والآن هو كاتب زائر في معهد (ماساتشوستسى) للعلوم التقنية.. والقصة الحالية كتبها (كرشتون) عام 1969، وكالعادة تلقفتها السينما الأمريكية لتقدمها في فيلم من إخراج (روبرت وايز).
وكما يقول محرر مجلة (لايف) عن هذه القصة:
- إن الخيال العلمي الذي كان في الماضي مريعا، لأنه كان بعيدا جدا، صار اليوم مريعا لأنه صار قريبا جدًا. إن قصة (سلالة أندروميدا) هي نوع من رسوم الجمجمة على زجاجات الدواء، وتحدث نفس القشعريرة في البدن..
ولسوف تجد في القصة الكثير من التوثيق، والإشارة إلى أسماء واقعية من العاملين في (ناسا)، بل أن نهاية الطبعة الإنجليزية زاخرة بأسماء المراجع العلمية، وكأنها رسالة دكتوراه حقيقية، حتى أنك تجد نفسك غير قادر على تحديد متى تبدأ الحقيقة ومتى تنتهي..
وهذا هو طابع (كرشتون) في كل كتاباته..
على أننا سنفهم عالم (كرشتون) أكثر، لو بدأنا نطالع هذه الرواية المشوقة، ذات الطابع غير المألوف.

د. أحمد خالد توفيق

اليوم الأول

اللقـاء

1- بلد الحدود المفقودة..

رجل يمسك بمنظار مقرب.. هكذا بدأ كل شيء..



ـ هناك .. على جانب الطريق .. يبدو كجسد ممدد .. ثم دوّى صوت محرك العربة .. ثم : ـ يا إلهي الرحيم !..

الرجل يقف على جانب الطريق في ليلة شتاء، جوار مدينة صغيرة من مدن (أريزونا).. اسمه الملازم (روجرشون).. لابد أنه وجد الإمساك بالمنظار المقرب عسيرا مع القفازين السميكين اللذين كانا في يده.. وأحدث بخار الماء عتامة على العدستين..

كل هذا كان غير ذي جدوى.. فلم يكن المنظار قادرا على كشف أسرار هذا البلد الغامض، لكن مشهد (شون) الواقف فوق صخرة جلمود، يحاول تثبيت المنظار فوق أنفه؛ كان هذا المشهد يتألق بشيء حزين.. شيء يثير الشفقة في النفس..
لابد أن المنظار المقرب كان يشعره بالألفة.. على الأقل هي آخر شيء مألوف سيراه قبل موته.
وهكذا يمكننا أن نتخيل - ونعيد تركيب - ما حدث بعد ذلك..
لقد تفحص الملازم (شون) البلدة بمنظارة.. هي مجرد بلدة صغيرة لا تزيد مبانيها على ستة كلها تحتشد حول الشارع الوحيد بها.. والهدوء يعم المكان، فلا أضواء.. ولا صخب ومن بعيد يرى امتداد صحراء (موجافي) الرهيبة التي كان الهنود الحمر يسمونها (بلد الحدود المفقودة).
وشعر الملازم بالبرد يمزق أعصابه.. فالشهر هو فبراير، والساعة في العاشرة مساء.. عبر الطريق إلى السيارة (الفورد) الواقفة، بينما محركها يهدر ببطء..
دلف إلى الباب الخلفي ودخل، ثم أغلقه وراءه..
وفي الداخل جلس فني الكهرباء (لويس كرين) منكما على خارطة، ما بين الأجهزة الإلكترونية العديدة التي اشاعت ضوءا أحمر دمويا على المكان كله..
كلا الرجلين - (شون) و (كربن) - كان منها بعد رحلة شاقة قطعها من (فاندنبرج) إلى هنا.. وكانت مهمتهما هي استعادة القذيفة المكوكية التي هبطت مؤخرا ها هنا..
ولم يكن الرجلان يفقهان شيئا عن القذائف المكوكية، سوى أنها نوع من الكبسولات، التي ترسل لتحلل الفضاء الخارجي ثم تعود..

ولتسهيل عملية العثور على هذه الكبسولات؛ كانت القذيفة ترسل أزيزا إلكترونيا، بمجرد أن تصير على ارتفاع خمسة أميال.. لهذا كانت هذه العربة مزودة بوسائل التتبع الإلكتروني، التي تعمل بكفاءة برغم بطنها.. فما على راكبيها سوى تحديد اتجاه الأزيز، ثم يتحركون نحوه مسافة خمسة أميال.. ثم يتوقفون ويعيدون حساب الإحداثيات.. وشيئا فشيئا يدنون من القذيفة..
هذه المرة احتاج اقتفاء الأثر إلى ست ساعات كاملة..
لكنهم قد وصلوا تقريبا إلى هدفهم.. واسم المكان على الخارطة هو (بيد مونت) بولاية أريزونا).. تعدادها - واكتم ضحكاتك - هو ثمانية وأربعون نسمة.. ومن الغريب أن الأزيز كان قادما من وسط المدينة بالضبط..
الغريب في هذا، أن مواطنا ساذجا من (بيد مونت)، إذا ما رأي مركبة قادمة من الفضاء، لابد أن يخبر الجميع بما رآه.. لكن هذا لم يحدث.. ولم تصلهم أية أخبار من هذه البلدة..
خرج الرجلان من العربة وألقيا نظرة على المكان.. كان السلام يسود الربوع.. سلام له لون ظلام الليل.. لكنهما بعد ثوان - لاحظا الطيور..
طيورا عملاقة كانت تحوم حول المباني.. كأشباح فوق وجه القمر.. كيف لم يلاحظاها من قبل؟.. ماذا يعنيه وجودها؟..
- ربما كانت صقورا.
- هي كذلك.. ولكن لماذا هي هنا؟
لم يرد الأخر.. فأشعل (شون) لفافة تبغ، وهو يكور راحتيه حول اللهب ليمنعه من الانطفاء.. ثم رفع المنظار المقرب إلى أنفه، وشرع يمسح الأفق ببطء بعد دقائق ألقى بلفافة التبغ إلى الجليد.. وغمغم:
- ربما كان الأوفق أن نهبط ونلقي نظرة...

2 - فاندنبرج..

على بعد ثلاثمائة ميل في غرفة مراقبة معزولة؛ يجلس الملازم (إدجار كومرو)، وعلى مكتبه حشد من المقالات العلمية..
مهمة (إدجار) هذه الليلة، هي الإشراف على عملية البحث في صحراء (أريزونا) عن القذيفة المكوكية، وكان الرجل يكره هذا العمل، ولا يطيق هذه الغرفة الباردة المقيتة بضوئها الخافت..
ان عملا كهذا لا يجلب سوى السأم، ولما كان (إدجار) أساسا مختصا في فسيولوجيا الجهاز الدوري، فقد وجدها فرصة سانحة لقراءة مقال عن (نسبة انتشار الأوكسجين عندما تزيد (الضغوط الجوية)، وهو - كما نرى - موضوع لا يساعد كثيرا على قتل الملل.. كان ذلك حين أصدر مكبر الصوت فوق رأسه قرقعة.. ودوي صوت (شون) يتكلم من عربة المتابعة:
- هنا (كيبر - 1) يخاطب (فاندال - 10).. هل تسمعني؟.. حوّل..
- أسمعك..
- نحن على وشك دخول المدينة لاسترداد القذيفة.. أبق جهاز الراديو مفتوحا..
كان هذا بروتوكولا ثابتا في كتيب (قواعد النظام الخاص باسترجاع القذائف).. يجب أن يتم تسجيل كل شيء على شريط كاسيت.. ولم يستطع (كومرو) قط أن يفهم جدوى هذا الإجراء.. الأمر واضح.. العربة تذهب.. تسترجع المقذوف.. تعود.. فلم التعقيدات؟
وعاد يطالع المقال الممل، ويصغي للأصوات من الراديو:

- نحن الآن داخل المدينة.. لقد مررنا بمحطة بنزين، لكن لا علامة على الحياة.. لا أضواء.. لكن إشارات المقذوف تتعالى دون توقف..
كان (كومرو) يعرف (شون).. إنه رجل بلا خيال..
وهو قادر تماما على أن ينام في أثناء عرض فيلم رعب، فلماذا يبدو هذا التوتر في صوته؟
وتستمر الأصوات من الجهاز:
- هل رأيت هذا يا (كرين)؟
يدوي صوت (كربن):
- ماذا هنالك؟
- هناك.. على جانب الطريق.. يبدو كجسد ممدد..
ثم دوى صوت محرك العربة.. ثم:
- يا إلهي الرحيم!
- هوذا واحد آخر.. يبدو ميتا.. هل..؟
- لا.. ابق في العربة..
دون كلمة أخرى مد (كومرو) إصبعه إلى زر أحمر مكتوب عليه (أمن)، فضغطه.. هذا الزر مهمته عزل الغرفة تماما عن العالم الخارجي.. ثم رفع سماعة الهاتف:
- هالو!.. أعطني ميجور (مانشك) حالا.. أولوية
وكان الميجور المذكور هو المسئول عن كل نشاطات المشروع لشهر (فبراير)..، وطفق (كومرو) ينتظر الخط ويصغي للمحادثة:
- هل أنت واثق بأنهم موتى يا (كرين)؟
- بالتأكيد.. لابد أن هناك عشرات منهم..!
وفجأة دوي الصوت المذعور:
- (كربن)!.. هل تراه؟..

- نعم.. ذلك الرجل في المعطف الأبيض يعبر الشارع..
- إنه يمشي فوق جثثهم بلا مبالاة.. كأنهم..
- إنه قادم نحونا!
- أرى أن نترك هذا المكان فورا.. إنني..
وهنا دوت الصرخة الحادة..
وانتهى الاتصال تماما، فلم يعد (كومرو) قادرا على سماع صوت الرجلين مرة أخرى..!

∞∞∞∞∞∞

3 – الأزمـــة..

إن الأزمات العلمية لشيء نادر..، وحتى حين ظهرت هذه الأزمات في تاريخ البشرية، كانت تتعلق دائما بالكيمياء أو الفيزياء، وليس بعلوم الحياة (البيولوجي) وهذا أمر متوقع.. فقد كان علماء الطبيعة هم أول من طور علمه.. ثم لحقت الكيمياء بالطبيعة بخطا حثيثة، لكن علم الأحياء ظل طفلا يحبو..

وحتى في زمن (جاليليو) و (نيوتن) كان الناس يعرفون عن القمر أكثر بمراحل مما يعرفون عن أجسادهم.

واستمر هذا الوضع حتى عام 1940 لفترة ما بعد الحرب، وبدء عهد المضادات الحيوية.. ثم اكتشاف الشفرة الوراثية وكيمياء المناعة، وفي عام 1953 تم زرع أول كلية في التاريخ.. وفي عام 1958 تم تركيب أول حبة مانعة للحمل..، لقد صار علم الأحياء يرمح بخطا واسعة.. وبرغم هذا لم تحدث أية أزمة بيولوجية قط قبل أزمة (سلالة أندروميدا)..

وكما يقول (لويس بورنايم): «الأزمة هي موقف تتحول فيه مجموعة من الظروف المقبولة، إلى ظروف غير مقبولة بتاتًا.. وذلك بعد إضافة عامل معين قد يكون سياسيا أو اقتصاديا أو علميا.. موت سياسى شهير.. عدم ثبات أسعار البورصة.. كلها تتساوى في النهاية..

وإذا نحن نظرنا إلى قضية (سلالة أندروميدا)، لوجدنا أن الأفراد الذين واجهوها في البداية لم يكونوا مؤهلين لمواجهة أول أزمة بيولوجية في التاريخ، كان (شون) و (كربن) واضحى الكفاءة، لكنهما لا يتمتعان بتفكير خلاق.. كذلك كان رئيسهما (كومرو).. لكن هذا الأخير - كما تقضي اللوائح - اتصل برئيسة الميجور

(مانتشيك)، وهنا تأخذ القصة مجرى مختلفا.. لأن (مانتشيك) كان معدا ومؤهلا لقياس أبعاد أزمة هائلة كهذه..

∞∞∞∞∞∞

جلس (مانتشيك) يملأ غليونه بالطباق، ويصغي لشريط المسجل في حوزة (كومرو)..، وكان (مانتشيك) مهندسا بدين الجسد يعانى ارتفاعا في ضغط الدم يهدد مستقبله في الجيش، ما لم يفقد وزنا كما نصحوه من قبل.. لذلك كان يفكر في ترك الجيش، والالتحاق بالقطاع الصناعي، حيث لا يعبأ أحد بوزنك أو ضغط دمك..، وفي هذه الليلة - حين استدعوه – شعر بالتوتر والقلق.. من ثم اتخذ رد الفعل الدفاعي الوحيد المميز له: صار أكثر تراخيا وبطئا، هذا هو سر نجاحه.. كلما هاج الناس من حوله، ازداد هو لامبالاة..
إلى حد أنك تظنه سيهوى مغشيا عليه.. وكان هذا هو أسلوبه ليظل موضوعيا صافي الذهن ولا ينجرف إلى الذعر..
كانت المشكلة - كما أوضحها (كومرو) - هي انقطاع الاتصال بالعربة.. بعبارة أدق، لم يعد (شون) و (كربن) يتكلمان، لكن صوت محرك العربية ظل قادما من مكبر الصوت.
أحس (مانتشيك) بالإرهاق.. إن أمسية رهيبة تنتظره من المكالمات الهاتفية والاتصالات، وارتباكات نظم (الكمبيوتر)..
أصدر أوامره بإعداد كل شيء وإرسال (القشاش) إلى البلدة.. كما طلب أن يتصلوا بالفنيين وخاصة (جاجرز).. ولم يكن (مانتشيك) واقعا في غرام (جاجرز)، لكنه كان يعلم كفاءته..
وهو الليلة في حاجة إلى رجل كفء..

∞∞∞∞∞∞

في الحادية عشرة مساء، حلقت طائرة (صمويل ويلسون) بسرعة 465 ميلا في الساعة، فوق صحراء (موجافي).. ومن بعيد في ضوء القمر استطاع أن يرى النفاثتين اللتين أرسلهما الجيش تحلقان فوق البلدة، بينما اللهب الغاضب ينبعث من مؤخرتيهما..
وكانت طائرة (ويلسون) تختلف.. فهي رشيقة طويلة الجسم.. يسمونها (القشاش).. وهي واحدة من سبع طائرات مماثلة في العالم كله، طائرة استطلاعية متوسطة المدى، مزودة بإمكانات الرؤية ليلا ونهارا.. ومزودة بكاميرا قادرة على تصوير الطيف المرئي، بالإضافة إلى الإشعاعات منخفضة التردد، ولها القدرة على المسح الإشعاعي، ورؤية الأشعة تحت الحمراء، ومن نافلة القول أن نقول إن كل الأفلام كانت تحمض وتطبع في الجو.
لهذا كان (القشاش) هو أفضل ما يمكن إرساله إلى (بيدمونت) تحت أستار الظلام وهبطت النفاثتان إلى مستوى منخفض.. ثم ألقت كل منهما بقنبلة فوسفورية جعلت البلدة تتوهج بضوء النهار.. وهكذا صار كل شيء ممهدا أمام (ويلسون) كي يلتقط ما يريد من صور..
ضغط الرجل زر الكاميرا.. وهبط بزاوية حادة.. ثم عاد يرتفع.. وعلى أرض الشارع الوحيد بالبلدة رأي أجسادا..
أجسادا ممددة..
- يا إلهي الرحيم!
ثم تناسى ما رآه، وعاد يحاول الهبوط.. فالدرس الأول الذي يتعلمه طيارو الاستطلاع، هو: لا تهتم بما تراه.. فقط صوره ودعه للخبراء ليحللوه حين تعود..

أما لو انغمست في محاولة الفهم وانفعلت فلن يكون نصيبك سوى تهشم طائراتك
وحين هبط مرة أخرى كانت الأجساد هناك..

∞∞∞∞∞∞

لم يكن أحد يحب (جاجرز) في القاعدة، إلا أن الجميع كانوا يقرون له بأنه سيد فهم صور الاستطلاع.. وخير من يفسرها..
فما إن دخل (مانتشيك) و (كومرو) الحجرة، حتى دعاهما الرجل إلى الجلوس أمام شاشة معلقة هناك وأشار إلى مسئول تشغيل الفانوس السحري كى يبدأ العرض.
وعلى الشاشة سقطت صورة تمثل مدينة صحراوية من الجو.
- تلك صورة أخذت منذ شهرين بوساطة قمرنا الصناعي (جانوس - 12).. على ارتفاع 187 ميلًا.. يمكنكم رؤية تفاصيل مدينة (بيدمونت).. محطة البنزين - هل تقرءون كلمة (بنزين) عليها؟ - ثم الدكان الرئيسي.. ومكتب البريد والكنيسة.. الصورة التالية من كليك أخرى.. ثم ظهرت صورة غريبة، لا يبدو بها سوى اللونين الأبيض والأحمر..
- هذه صورة بالأشعة تحت الحمراء، التقطها (القشاش).. وهي صورة للحرارة أكثر منها للضوء.. كل ما هو دافئ يأخذ اللون الأبيض وما هو بارد يأخذ اللون الأسود.. وكما ترون: المباني لونها أسود، لأنها أبرد من الأرض.. هذا يحدث في الليل دوما.. والآن.. هل ترون هذه البقع البيضاء؟.. إنها أجساد.. بعضها في الشارع وبعضها داخل المنازل.. عددها خمسة عشر...
- هل تعني أنهم ماتوا؟

- ربما هم أحياء.. وربما ماتوا منذ فترة قريبة، ما داموا لم يبردوا تماما.. لكن حرارتهم تتباين.. بعضهم أميل للبرودة، وبعضهم مازال دافئا.. لكننا لاحظنا أن هذا الشخص - هل ترونه؟ - أكثر دفئا من سواه.. بل ويتحرك!

- إذن هناك شخص جي؟

- هذا هو ما يمكن افتراضه..

- وماذا حدث لراكبي العربة؟

- صارا بقعتين بيضاوين يخبو بياضهما مع الوقت..

نهض (مانتشيك) وأشار إلى (كومرو) كي يتبعه..

وأصدر له تعليماته، بينما هما يقطعان الممر:

- اطلب جنرال (ويلر).. قل له إنني سأعلن (ح. ط) عاجلة ([1]).. اطلب منه المجيء فورا، فلا أحد سواه يملك هذه السلطة..

- ألا تخبره أنت بنفسك؟

- إن لدي أشياء هامة ينبغي عملها..

∞∞∞∞∞∞∞

4 - الإنــذار..

دخل (مانتشيك) غرفته عازلة الصوت وأغلقها عليه.. كان يعرف بالضبط ما سيفعله، لكنه كان يجهل لماذا يفعله..
كان قد تلقى ملخصا عما يسمى بمشروع (وايلد فاير) منذ عام.. ولقد نسي (مانتشيك) التفاصيل، لكنه يذكر شيئا ما عن معمل في مكان ما، ومجموعة من خمسة علماء، مهمتهم من خلال المشروع - هي دراسة أشكال الحياة غير الأرضية، التي قد تأتي الأرض بوساطة سفن الفضاء الأمريكية العائدة..
لم يكن يعرف العلماء الخمسة.. فقط كان يعرف أن هناك خطا يقوم باستدعائهم.. وعلى من يطلبهم أن يطلب الصيغة الثنائية لبعض الأعداد.. مد يده إلى حافظته وأخرج بطاقة كتب عليها:

في حالة الحريق
اطلب الوحدة 87

هذا هو.. وأخرج ورقة وبدأ يسجل عليها الترجمة الثنائية للرقم (87).. إن الأرقام الثنائية مصممة للحاسبات الآلية، التي تستعمل أسلوب (نعم - لا).. شحنة كهربية - لا شحنة كهربية).. وقد وصف أحد الرياضيين الأرقام الثنائية، بأنها وسيلة العدّ لمن لا يملكون سوى إصبعين في كفهم... إلا أنها مألوفة لمن يعرف (الكمبيوتر).
وحين فرغ من التحويل كان الرقم الثنائي هو:

110 11 11 0

أي أن الرقم هو (1010 - 110 - 1) وهو رقم هاتف معقول.. ويمكن طلبه من القرص..
وهذا هو ما فعله..

كان الوقت هو منتصف الليل عندما أدار القرص..

∞∞∞∞∞

اليوم الثاني

بيدمونت

5- الساعات المبكرة..

كانت الأجهزة كلها تنتظر هذه اللحظة منذ عامين كاملين..
وبدأ (مانتشيك) يسمع صوت طنين، عرف على الفور، أنه يعني أن مكالمته قد أدخلت إلى خطوط خاصة تشفّر الرسالة.. ثم سمع صوتا:
- هذا الصوت مسجل.. أعط اسمك ورسالتك ثم انتظر.
- ميجور (آرثر مانتشيك).. قاعدة (فاندنبرج) الجوية.. أعتقد أنه من الواجب إعلان إنذار (وايلد فاير)..
ولدى أدلة بصرية هامة..
قالها شاعرًا بالسخف.. فهو - برغم كل شيء يحدث شريط تسجيل.. سمع صوت ال (كليك) المميز لإغلاق الخط، فطفق ينتظر أن يتلقى عشرات المكالمات الملهوفة، لكن شيئا من هذا لم يحدث ولم يدر أنه خلال ثوان عشر من مكالمته، راحت رسائل مشفرة تمر عبر كابلات الهاتف فائقة السرية:

**** * * * * * * *وحدة * * * * * * * ***

سري للغاية

الشفرة هي:

س ب و 9/9/9/234/435/6778/90

الرسالة هي:

إنذار وايلد فاير

حالة إنذار حتى تعليمات أخرى

انتهى

∞∞∞∞∞

بعد ذلك دون تدخل بشر - راحت الرسالة الآتية تتردد:

**** * * * * * * *وحدة * * * * * * * ***

سري للغاية

الرسالة هي:

يتم وضع المواطنين الأمريكيين التالية أسماؤهم في حالة (زد-كابا):

ستون، جيريمى

ليفيت، بيتر

بيرتون، تشارلز - ل

كيرك، كرستيان. ألف هذا السطر

هول، مارك

انتهى

∞∞∞∞∞

كانت هذه هي الرسالة.. وكما نرى كان هناك خطأ في الاسم الرابع.. مما اضطرهم في (واشنطن) إلى استدعاء خبير كمبيوتر لمعرفة مدى صحة الرسالة، بما يسمى بـ (التتبع العكسي).. لكن الخبير لم يستطع أن يتأكد سوى من صحة اسمين من القائمة..

∞∞∞∞∞

الساعة الواحدة صباحا، و (أليسون ستون) في دراها المطلة على ساحة (ستانفورد)، تتساءل في قلق عن سبب بقاء ضيوفها إلى

هذا الوقت المتأخر.. لقد شربوا قدحين من القهوة، وبرغم ذلك لم يبد أحدهم نية للانصراف.. وفي ذعر نظرت نحو زوجها الأستاذ في إدارة (ستانفورد) للباكتيريا.. هنا دق جرس الباب فذهبت لتفتحه.. وجدت رجلين عسكريين – لدهشتها – يقفان على الباب وقد بدا عليهما الارتباك:

- معذرة سيدتي.. هل هذه دار د. (جريمي ستون)؟

- إنها هي...

ثم نظرت وراء كتفه.. ما سر هذه السيارة العسكرية الواقفة هنالك؟ ولماذا يقف ذلك الرجل ممسكا بشيء ما في يده؟

- هل هذا الرجل يحمل سلاحا؟ - سيدتي.. لابد لنا من مقابلة د. (ستون) حالا.

تراجعت للوراء والذعر يغمرها.. كادت تغلق الباب، لكنها وجدت الرجل وقد يلف إلى الداخل بالفعل.. مهذبا متحفظا برغم كل شيء..

إلى زوجها ذهبت وأخبرته بالنبأ المقلق، لكن أثار دهشتها أنه بدا لها كأنما يتوقع هذا..

خرج إلى الردهة.. فحياه الرجل العسكرى مقدما نفسه بإسم كابتن (مورتون).. وباقتضاب عسكري قال له:

- ثمة حريق يا سيدى.

- فهمت - ونظر (ستون) إلى سترة السهرة - «هل ثمة وقت كى أستبدل ثيابي؟».

- أخشى أن لا يا سيدى.

ولدهشتها وجدت زوجها يودعها ويستعد للانصراف..

فصاحت مذعورة:

- متى تعود؟

- لا أدري.. ربما بعد أسبوعين أو أكثر...

نظرت في هلع إليه.. بدا لها الأمر كأنه كابوس..
- ولكن.. الأسلحة... هل أنت معتقل؟
- لا يا ملاكي - وابتسم في رفق - أبلغي اعتذارى للضيوف...
وقبل أن تفهم، كان زوجها قد قبلها، وغادر الدار يحيطه رجلا الجيش، متجهين إلى سيارة الجيش دون كلمة..
وانطلقت السيارة بعيدا عن ناظريها..

∞∞∞∞∞∞



وغادر الدار يحيطه رجلا الجيش ، متجهين إلى سيارة الجيش دون كلمة ..

في صيف عام 1962 قدم عالم الأحياء الإنجليزي (ج. ميريك)، ورقة علمية إلى المؤتمر البيولوجي العاشر المقام في (لونج آيلاند)، وكان عنوان هذه الورقة هو (تكرار التلاقي الحيوي حسب الخصائص النوعية)..

كان (ميريك) رجلا ثوريا ذا آراء جامحة.. وكان يرى في دراسته أن اللقاء مع الأجناس غير الأرضية، يمكن تحديده حسب

الخصائص النوعية للأجناس..
فالحقيقة التي لا تدحض هي أن الأجناس ذات التركيب المعقد نادرة على كوكب الأرض، بينما الأجناس بسيطة التركيب توجد بوفرة.. فهناك ملايين الباكتيريا والاف الحشرات.. بينما يوجد عدد محدود من الفقاريات.. ونوع واحد من البشر..، ولابد أن هذا الوضع حادث بالنسبة للفضاء الخارجي..
لهذا يرى (ميريك) أن فرصة لقاء الإنسان مع باكتيريا آتية من الفضاء الخارجي هي أكثر وفرة من لقائه مع كائنات معقدة عديدة الخلايا..
وهذا اللقاء المتوقع يحمل خطرا جسيما، إذا ما تذكرنا أن ثلاثة في المائة من بكتيريا الأرض تحمل المرض للإنسان..

∞∞∞∞∞

كان (ستون) ممن حضروا هذا المؤتمر.. واهتموا كثيرا بما جاء فيه..، وكان (ستون) أستاذا في (الباكتيريا) منذ كان في الثلاثين من عمره.. بل إنه حاصل على جائزة (نوبل) في العلوم الطبية..
وكما قال أحد رفاقه عنه: «إن (جيريمي) يعرف كل شيء.. وتستهويه كل الأشياء الباقية!»..
من الناحية البدنية، هو رجل نحيل أميل للصلع.. له ذاكرة حديدية.. نافذ الصبر إلى حد مزعج، حتى أنه يشعرك بأنك تثير الملل..
وفي بداية الستينات، فطنت الولايات المتحدة إلى مركزها العلمي المتقدم بين دول العالم.. إن ثمانين في المائة من الاكتشافات العلمية في العالم، في العقود الثلاثة السابقة صنعها أمريكيون..،

ولدى الولايات المتحدة خمسة وسبعون في المائة من الحاسبات الآلية في العالم..
وتسعون في المائة من أجهزة الليزر..، ولديها من العلماء أكثر من أربعة أمثال علماء (أوروبا)، تنفق على بحوثهم سبعة أضعاف ما تنفقه (أوروبا)..
وكان (ستون) من طليعة علماء الولايات المتحدة في كاليفورنيا).. لهذا استطاع أن ينتزع من (الكونجرس) الموافقة على مشروع (وايلد فاير)..

∞∞∞∞∞

ومنفعلا بأفكار (ميريك)، نشر (ستون) ورقة علمية في مجلة (العلوم)، عنوانها (تعقيم سفن الفضاء) وأعيد نشرها في مجلة (الطبيعة البريطانية ([2]).. وفي هذه الورقة تحدث (ستون) عن ضرورة منع سفن الفضاء من جلب العدوى من الفضاء الخارجي.
أحدثت الورقة تأثيرًا لم يدم طويلا.. لهذا بدأ الرجل سلسلة محاضرات في قسم الكيمياء الحيوية، بمدرسة (كاليفورنيا) الطبية. وبدأت نواة مشروع (وايلد فاير) تتكون..
ومثلما أرسل (اينشتين) خطابه الشهير إلى (روزفلت) عام 1940، يقنعه بدخول أمريكا العصر النووي، أرسل (ستون) وعدد من العلماء اقتراحهم إلى الرئيس ببدء مشروع (وايلد فاير)..
بعدها استدعى (ستون) ليشرح وجهة نظره في مجلس الأمن القومي.. ثم أرسل إلى وكالة الفضاء (ناسا)؛ ليناقش خططه.. وسرعان ما تعهدت وزارة الدفاع بالتمويل. وفي ذلك الوقت كانت (ناسا) عاكفة على بناء (معمل الاستقبال القمري)، المعد

لاستقبال رواد (أبوللو) العائدين من القمر، حيث يبقى كل رائد فضاء في عزل صحي لمدة ثلاثة أسابيع، حتى يتم التأكد من خلوه من أية باكتيريا أو فيروس..، لهذا لم يجد أحد مشروع (ستون) شاذا..
وفي عام 1966 تم بناء معمل (وايلد فاير) في (فلاتروك) ب (نيفادا) وتولت تصميم الهندسي شركة (جنرال ديناميكس)..
يتكون التصميم من مبنى قمعي الشكل، تحت الأرض، من خمسة طوابق.. يحيط كل طابق بقلب من المصاعد والأسلاك والصرف الصحي، وليس الانتقال حرا من طابق لأخر، لأن كل طابق أكثر تعقيما من الطابق الذي أعلاه.. بل ثمة إجراءات تعقيم شديدة التعقيد..
بعد هذا تم انتخاب خمسة علماء تكون مهمتهم إدارة هذا المشروع.. كان هذه هو ما دار في ذهن (ستون)، بينما هو راكب عربة الجيش..

∞∞∞∞∞∞

وفي الطائرة (البوينج) جلس (ستون) وحيدا تماما، يطالع الملف الذي أعطوه إياه.. ولم يفته أن يلاحظ أنهم- بدلا من المضيفة الحسناء - أحضروا له رجلا من البوليس الحربي، يضع مسدسا ضخما فوق ردفه، ويرمقه في ثبات..
كان الملف يتحدث عن مشروع (سكوب)، الذي يرسل قذائف إلى الفضاء لجمع الغبار الكوني ثم تعود، على أمل أن يتضح وجود باكتريا حية بها.. باكتريا تصلح للحرب البيولوجية..
قطع على (ستون) استغراقه ضابط يحمل جهاز هاتف، ناوله إياه، ثم أبتعد مسافة لا بأس بها..

رفع (ستون) السماعة إلى أذنه شاعرا بارتباك.. فهى أول مرة في حياته يتلقى مكالمة هاتفية على متن طائرة:

- هاللو.. هنا جنرال (ماركوس).. رأيت إبلاغك أننا قد استدعينا جميع أفراد الفريق، عدا بروفسير (كيرك)..

- لماذا؟

- لأنه في المستشفى.. ستعرف كل شيء عند الهبوط.

ناول (ستون) السماعة للضابط،، وشرع يتخيل رد فعل أفراد الفريق متى تم استدعاؤهم..

خذ عندك (ليفيت) مثلا.. لسوف يستجيب سريعا.. إنه عالم في (الميكروبيولوجي) وخبير أوبئة.. بالإضافة إلى ذلك هو إنسان شديد التشاؤم إلى حد لا يصدق.. له وجه كئيب حزين يحدق في مستقبل شديد التعاسة..

بعد هذا يأتي عالم الأمراض (بيرتون)، الذي لم يستطع (ستون) أن يحبه قط برغم احترامه لعلمه.. كان أخرق كثير الانفعال.. حتى أنهم كانوا يسمونه (المتعثر)، ربما بسبب كثرة تعثره في رباط حذائه المفكوك دوما وربما بسبب كثرة أخطائه..

ثم يجيء (كيرك) عالم (الأنثروبولوجي) من (بيل) الذي لن يلحق بالفريق.. كان عقلا شديد المنطقية برغم قلة ثقافته..

وهنا يأتي (مارك هول).. الرجل الخامس الذي لن يكون ذا قيمة من أي نوع.. لقد أقحم في الفريق إقحاما برغم أنه جراح، وكان الأفضل أن يتم اختيار طبيب باطنى.. لكن الضغط كان شديدا من وزارة الدفاع.. وتساءل (ستون) في سره عن رد فعل (هول) إزاء استدعائه..

∞∞∞∞∞∞∞

فيما بعد وصف (هول) ما حدث بأنه أسوأ ما مر به في حياته:
- انتزعوني من أكثر العوالم ألفة ورموا بي إلى أكثر العوالم غرابة.
كان يعقم يديه جوار غرفة العمليات (V)، ويمزح مع الطبيب المقيم، في السادسة والنصف صباحا، حين سمع صوت (ليفيت) يتكلم عبر جهاز (الإنتركوم)، طالبا أن يلحق به فورا لأن هذه حالة طوارئ..
وإزاء إلحاحه اضطر إلى فك تعقيمه وإعطاء الجراحة لمساعده..
صعد ليلقي (ليفيت) رئيس قسم (الميكروبيولوجي) في ذات المستشفى، الذي ضمه معه منذ أعوام، إلى مشروع (وايلد فاير).. وكان (هول) يشعر برضا لأن شيئا لن يجيء إلى (وايلد فاير) أبدا.. هذا مؤكد.. لكن (ليفيت) قابله بطريقة ميلو درامية مزعجة، داعيا إياه كى يستبدل ثيابه ويهرع معه إلى سيارة تنتظرهما بالخارج..
- أحسبك تتحدث عن ذلك المشروع الملعون؟
- تماما.. نحن ذاهبان إلى المطار حالا..
نزع (هول) حذاءه ذا الرقبة دون تفكير، وفتح المريولة.. لم يكن يظن أن يوما كهذا آتٍ أبدًا..
ولم يصدق ما يحدث إلا حين رأي سيارة الجيش بلونها الزيتوني تنتظر..
عندئذ عرف أن (ليفيت) لا يمزح.. لا أحد يمزح..
إن هناك كابوسا مريعًا في الطريق..

∞∞∞∞∞∞

كان (ليفيت) مولعًا بالصحة العامة، وقد سافر إلى أرجاء العالم كلها.. واكتشف الدودة البرازيلية (تينيا رنزى) عام 1953.. لكنه

بدأ يهرم.. ودراسة الأوبئة هي لعبة الشباب فقط، أو كما قال: (متى أصابتك والدوسنتاريا الأميبية للمرة الخامسة، عليك أن تتقاعد)..

وهو كان قد أصيب بها للمرة الخامسة في (روديسيا) عام 1055.. لهذا كف عن الترحال..

كان هو من رشح (هول) لمشروع (وايلد فاير).. وحين سأله (هول) عن سبب التشبث به وهو جراح.. قال له:

- أنت تفهم في الكهارل (أيونات الدم).. كيمياء الدم ودرجة حموضته..

إن لهذا شأنا عظيما حين يحين الوقت..

- لكن هناك الكثيرين من خبراء الكهارل..

- أنت تتفوق عليهم بكونك غير متزوج.. ونحن بحاجة إلى رجل عزب في فريقنا..!

∞∞∞∞∞

وفي السيارة عرف الرجلان أنهما سيركبان طائرة (إف - 104) إلى (نيفادا).. وتلقى كل منهما ملفًا عليه قراءته في أثناء الرحلة..

- وما هي وجهتنا؟

- (بيدمونت) في (أريزونا).

- لم أسمع عنها قط

- لا أحد يعرف عنها شيئا.. حتى الآن.

∞∞∞∞∞

6- بيدمونت..

في التاسعة والنصف صباحا أقلعت طائرة هليوكوبتر من مطار (فاندنبرج) السرى قاصدة (أريزونا)..
وبداخل الطائرة كان هناك ثلاثة رجال: ربان وعالمان، يلبسون جميعا ثيابا مطاطية قابلة للانتفاخ.. فبدوا كغزاة من المريخ يعانون من البدانة..
كان العالمان هما (ستون) و (بيرتون).. الأول عرفناه من قبل، أما الثاني فعالم باثولوجي، يعمل في مجال تأثير الباكتيريا على الأنسجة.. وهو مجال نادر العمل به، منذ أن افترض (هنل) عام 1840، أن الجراثيم تسبب الأمراض.. وقد درس (بيرتون) المكورات العنقودية البيضاء التي تسبب الدمامل.. واكتشف نصف بستة من السموم التي تفرزها هذه الباكتيريا، وتنشر العدوى..، ولم تكن هناك مشكلة في هذا الحين؛ لأن هذه الباكتيريا كانت حساسة للبنسلين، إلا أنه في عام 1950، ظهرت أول سلالة مقاومة للبنسلين من المكورات العنقودية.. وسرعان ما هرع العلماء نحو (بيرتون)، يطلبون منه ما يعرفه عن هذه الباكتيريا التي صارت مفترسة فجأة والمشكلة التي يجابهها اليوم، كانت ساخنة تماما..
خمسة عشر رجلا لقوا حتفهم في غضون ثمان ساعات لابد أن العدوى التي هم بصددها - لو كانت عدوى – هي محمولة بالهواء..
شرع العالمان يتأملان خرائط (بيدمونت)، تلك التي أعدها الكمبيوتر لهم، وعليها سرعة الريح وخلافه..
قال (ستون):

- ما يحيرني هو سرعة الوفاة - كما تبينا من التسجيل -، وهذا لا يحدث إلا بفعل غاز سريع الانتشار عبر الجلد أو الرئتين..
وسمعا صوت الطيار يقول عبر جهاز (الإنتركوم):
- (بيدمونت) أيها السيدان.. أرجو أن تسديا النصح.
هتف (ستون):
- در مرة حول المدينة.. ودعنا نلق نظرة.
ثم مال على (بيرتون) وقال مبتسما:
- لو كان الموضوع يتعلق بغاز سريع الانتشار فلسوف نعرف سريعا!
مالت الطائرة وبدأت تهبط أكثر، واستطاع العالمان أن يريا الطيور الجارحة محتشدة حول الجثث..
- كنت أخشى هذا..
- ستعمل هذه الجوارح على نقل العدوى.. فماذا تفعل؟
نظر له (ستون) مفكرا.. ثم قرب فاه من جهاز (الإنتركوم):
- رشها بالغاز السام!.. هل معك العبوات؟
- أمرك يا سيدى..
وبعد دقيقة لم يعد العالمان قادرين على رؤية الأرض، بسبب سحابة الغاز الرمادية الكثيفة، التي غلفت الأرض والأجساد..
ما هذا الذي رششته؟
- (جازولين) يا سيدى.. شديد الفعالية – وبتركيز ضعيف - على تمثيل الطيور الحيوي.. إن الطيور كائنات دقيقة، يدق قلبها بسرعة 120 في الدقيقة، وتأكل أكثر من وزنها يوميا، لهذا تتمتع بمعدل تمثيل حيوي عال جدًا..
وبالفعل.. حين انقشعت سحابة الغاز، كانت مئات من جثث الطيور ملقاة على الأرض، بعضها مازال يخفق بجناحه معالجا سكرات الموت وفي جهاز (الإنتركوم)، أصدر (ستون) تعليماته

الجديدة للطيار - اتجه إلى الشارع الرئيسي واهبط إلى ارتفاع عشرين قدما.. ثم أنزل السلم المصنوع من الحبال.. لا تهبط.. هل هذا واضح؟

- واضح يا سيدى..

- ستعود حين نخبرك.. وإذا حدث لنا شيء..

- أعرف يا سيدي.. سأذهب مباشرة إلى (وايلد فاير).

كان الطيار يعرف عمله جيدا.. فهو يتقاضى أعلى مرتب في السلاح الجوي الأمريكى.. بدل مخاطرة.. بدل خدمات خاصة في غير وقت الحرب.. بدل ساعات طيران..، إن هذه الرحلة تعني أن يحصل على ألف دولار لو عاد.. وتحصل أسرته على عشرة آلاف لو لم يعد.

ولهذا السخاء ما يبرره.. فلو حدث شيء للعالمين، سيكون على الطيار أن يعود إلى (وايلد فاير) ويحلق على ارتفاع ثلاثين قدما إلى أن تقوم إدارة المشروع بحرقه هو وطائرته في الجو!..

وكان مضطرا للذهاب إلى (وايلد فاير)، لأن فوقه تحلق باستمرار مقاتلة نفاثة، تحمل صواريخ جو - جو، مستعدة لنسفه في اللحظة التي يحاول فيها الفرار وفوق الشارع الرئيسي حلق الطيار، ثم توقف بالطائرة.. وأنزل السلم، فنهض (ستون) وأحكم غلق بدلته المطاطية ونفخها وارتدى الخوذة المتصلة بخزان (أكسجين) يكفيه ساعتين.

وحذا (بيرتون) حذوه.. ثم شرع العالمان يهبطان على الحبل سحب الغبار تتصاعد، فلم يعرفا أنهما وصلا إلا حين لمسا الأرض.. وارتفعت الهيلوكوبتر فبدأ الغبار ينقشع وأمكنهما أن يريا وببطء شرعا يشقان طريقهما عبر شارع (بيدمونت) الرئيسي...

7- مهمة غير معتادة..

بعد أسابيع حكى الرجلان هذا المشهد بالتفصيل:
كانت الشمس تلقى أشعتها الباردة عديمة البهجة فوق الأرض المكسوة بطبقة جليد هشة.. الصمت في كل مكان.. والأجساد كذلك في كل مكان وقد ارتسمت دهشة على وجوه الموتى..
لا كلاب تعوى.. لا محركات تهدر.. لا أطفال يصرخون..
ولفترة غير قصيرة، ظل الرجلان واقفين عاجزين عن اتخاذ قرار..
ثم إن (ستون) قطع السكون متسائلا:
- لماذا هم جميعا خارج ديارهم؟.. لو أن مرضا قد زارهم ليلة أمس لهلكوا جميعا في أسرتهم.
الأغرب هو أن الموتى جميعا يرتدون مناماتهم.. لماذا لم يرتد أحدهم معطفا أوروبا قبل أن يخرج إلى الشارع البارد؟
- ربما كانوا في عجلة كى يروا شيئا ما..
وتأمل أول جثة رآها، ولاحظ ملاحظة سليمة، هي أن أكثر الموتى يمسكون بصدورهم.. وأن وجوههم تعكس السلام، كأنما كان هلاكهم بدون ألم..، أن يموت الإنسان وهو يمسك صدره يشير إلى أزمة قلبية أو سيدة رئوية، لكن هذين يكونان مصحوبين بألم مريع.. ربما هلك هؤلاء بفعل (الأسفكسيا) السريعة غير الأليمة..
وفي منتصف الشارع، وقفت العربة الـ (فان) وبداخلها جثتا المجندين (شون) و (كربن)، وقد بدا عليهما التصلب الرمى..
كان (شون) قد هوى برأسه فوق عجلة القيادة، فكان هناك قطع كبير عبر وجهه مزق أنفه..
- لا أفهم هذا..

- ماذا؟
- هذا الجرح نظيف جدا.. لا نزف على الإطلاق..
- برغم أن جرحا كهذا كان سينزف كالجحيم ذاته ثم إن (ستون) جذب جثة (شون) المتخشبة خارج العربة.. وقال لزميله في عصبية:
- هلم تبحث عن هذه القذيفة اللعينة.. لقد بدأ هذا يثير قلقي..
وأخرجا جثة (كرين) من العربية التي نفد وقودها.. ثم ذهبا إلى حيث محطة البنزين فملا بلوا بالوقود، ثم عادا ليملأ خزان العربة..
وانطلقت العربة، على حين أدار (بيرتون) جهاز الرادار، فسمعا صوت الإشارات القادم من القذيفة المكوكية..
شرع الصوت يتعالى.. ويتعالى.. ثم فجأة راح ينخفض، فأدركا أنهما تجاوزا مكان القذيفة.. فعادا يبحثان عن مصدره..، أخيرا وجداه في منزل خشبى كتب على بابه (د. الان بندكت).. إذن فأهل القرية حملوا المقذوف إلى دار طبيب البلدة..
كان الباب مفتوحا ومواربا.. دخل الرجلان إلى مكتب الطبيب.. الرجل الأشيب البدين الجالس وراء مكتبه، وأمامه مجموعة من المراجع العلمية، وعيناه تحدقان دون أن تريا عبر الغرفة..، وإلى جواره كان المقذوف.. قمع براق ارتفاعه ثلاثة أقدام، وقد احترقت حوافه من حرارة الاحتكاك..، ولقد تم فتحه بفظاظة بوساطة أزميل و(بنستين) رآهما العالمان جوار المقذوف..
- لقد فتحه الوغد الغبي!
- كيف كان له أن يعلم؟
- هو يعلم الآن على كل حال... هل معك الحقيبة؟.
مذله (بيرتون) الحقيبة البلاستيكية وفتحها.. فتعاونا على إدخال القمر الصناعي الصغير بها وأحكما غلقها..

ثم إنهما شرعاً يتفحصان جثة (بندكت.. وكان ما لاحظه (بيرتون) هو أن الجثة خالية من آثار الزرقة الرمية، وهى آثار الدماء التي تحتشد بعد الوفاة في الأجزاء السفلي من الجسم.. لقد مات (بندكت) وهو جالس، وكان المنطقي أن يحتشد الدم في رد فيه أو كوعيه..

قال (بيرتون) وهو يمد يده إلى مبضع على المكتب:

- سوف أخذ من هذا الرجل شريانا ووريدا رئيسيين ومن المبضع إلى معصم الرجل وشق الجلد.. لا دماء.. إن هذا غريب.. في النهاية وصل إلى الشريان وقطعه وأدرك على الفور أن الدم به قد تجمد تماما.. صار كتلة حمراء صلبة..

- عليّ اللعنة!

قالها (ستون) وهو يرمق المشهد مذهولا.

ثم إن (بيرتون) شق الفخذ واقتطع الشريان الفخذي.. ثم شق الصدر بوساطة الأزميل، وانتزع القلب الذي كان مليئا بدم متجمد متخثر هو الآخر

- أنا لم أر مرضا كهذا من قبل - قال (بيرتون) - «لا يوجد مرض يؤدي إلى تجلط خمسة لترات من الدم بهذه السهولة.. ثمة شيء يدعى (التجلط المنتشر داخل الأوعية).. لكنه لا يبدو كهذا...

بعد هنيهة صمت قال (ستون):

- أرى أن نجري مسحا على المنازل كلها..

∞∞∞∞∞∞

كانت الأدلة متناقضة تماما:

أسرة ماتت بينما أفرادها ملتفون حول مائدة العشاء، يبتسم بعضهم البعض في مودة.. وقد تعفن الطعام في أطباقه تماما..

امرأة عجوز تتدلى من أنشوطة مشنقة إلى السقف..
وعند قدميها مظروف به رسالة أنيقة الخيط:
(إلى من يعنيه الأمر.. لقد حل يوم الحساب لينتهى جنس البشر ما بين الأرض المسعورة، والبحار الهائجة.. فليرحمني الله ويرحم من رحموني.. وإلى الجحيم فليذهب الباقون.. آمين)
قال (بيرتون) بعد انتهاء القراءة:
- تخاريف شيخوخة.. لقد جئت حين رأت الجميع يقضون نحبهم...

∞∞∞∞∞

كان هناك أيضا (روى تومبسون) صاحب محطة البنزين.. هذا الرجل ملا بانيو الحمام بالماء وركع على ركبتيه، ودفن وجهه في الماء حتى مات.. وحين وجدا جثته لم تكن هناك آثار عراك.. ولا أحد جواره.
- مستحيل.. لا أحد ينتحر بهذا الأسلوب أبدا..

∞∞∞∞∞

واستمر تفتيش البيوت.. كان هناك عدد لا بأس به من المنتحرين.. هناك من فقدوا حياتهم فورا، وهناك من فقدوا عقلهم أولا ثم انتحروا تاركين رسائل غريبة..
- لا ولكن لماذا!!
قال (بيرتون) في شرود:
- ربما كانت هنالك درجات من المناعة لتلك العدوى وأنت تذكر ما سمعوه من جهاز الميكروفون، وما ظهر في صور

الأشعة تحت الحمراء، من أن هناك رجلا واحدا سالما يرتدي ما يشبه المعطف الأبيض.
وهنا سمعا صوت صراخ..
صوتا رفيقا عاليا كان.. تقطعه سعلات قصيرة حادة..
هرع الرجلان إلى الخارج.. وفجأة انقطع الصوت..
- أترانا فقدنا عقلينا؟
وقفا يلهثان وسط الصحراء الحارقة، ويتبادلان النظرات.. لا شيء سوى الجثث والسيارة الواقفة..
ثم... الصراخ من جديد.
عاد الرجلان يركضان.. وعلى مسافة بابين وجدا جثتي رجل وامرأة على الأرض.. ومن داخل المنزل انبعث صراخ الصغير..، وفي مهد بغرفة النوم وجداه.. رضيعا تعسًا محتقن الوجه يبكي في هلع..
- يا للشيء المسكين.. لقد أصابه الذعر كأنما الجحيم يطارده..
ورفع (ستون) الرضيع المولول وشرع بهره برفق..
- إنه جائع.. يحتاج إلى الغيار والرضاعة.. هل تبحث عن علبة لبن صناعي في هذا البيت؟
- كلا..
- على اللعنة.. لماذا؟
- ربما كان المرض كامنا في الطعام في هذه البلدة ربما هو سليم لأنه جائع.. ولربما كان هناك شيء واق في طعامه.. ربما..
وافقه (ستون) على مضض.. فكلامه علمى ممنطق.. لكن من الصعب تجاهل أن الرضيع لم يأكل منذ اثنتي عشرة ساعة...
ثم إن (بيرتون) قال بحزم:
- هذا الرضيع هو أهم ما حصلنا عليه هنا.. والآن يجب أن تعود به دون إبطاء.. هذا هو مفتاح اللغز.

كلف الرضيع عن البكاء لحظة، ومتسائلا نظر نحو (بيرتون).. ثم أيقن ألا طعام هنالك فعاد يصرخ..
- من المؤسف أنه لن يستطيع اخبارنا بحقيقة ما حدث.

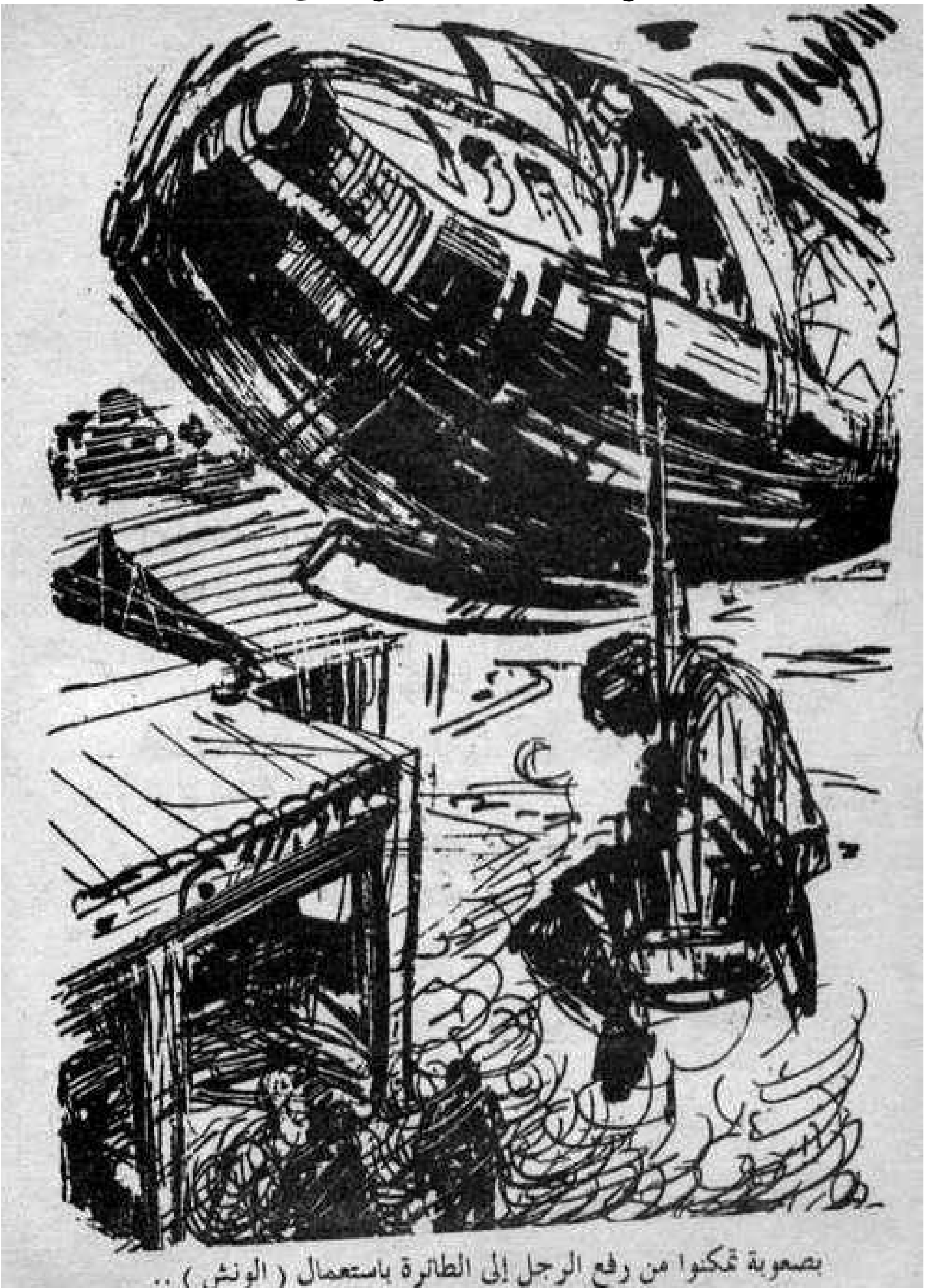
∞∞∞∞∞∞

عادا إلى منتصف الشارع وأشارا للهليكوبتر كى تنزل لهما الحبل.. فما إن هبطت هذه حتى عادت سحابة الغبار تعمي عينيهما، ولق (بيرتون) البطانية بإحكام حول الصغير ليحمي وجهه.. ثم شرع يتسلق الجبال في مشقة..
ووقف (ستون) - حاملا القذيفة - منتظرا دوره حتى يصعد.. حين أدرك فجأة أنه ليس وحده في الشارع..
أدار وجهه مذعورا ليرى رجلا عجوزا أشيب الشعر مجعد الوجه، يرتدي جلبابا طويلا متسخا.. وحافى القدمين..، كان يتقدم نحوه ويتعثر.. بينما السعال يمزق صدره.. ويقول:
- أنت؟
- أنت.. فعل ذلك!
ثم شرع يتوسل وهو يرتجف:
- لا تؤذني.. أنا لست كالآخرين..
أدرك (ستون) أن ثيابه الغريبة - كغزاة المريخ - أثارت رعب الرجل.. وحاول أن يهدئ من روع الرجل دون جدوى..
- لا تؤذني.. أنا رجل مريض.. إن معدتى.. أنت لست بشرا!
ثم انثنى الرجل على نفسه وتقيأ بما أحمر قاتم اللون..
- على اللعنة!!.. ما اسمك؟
- أنا (جاكسون).
ثم سقط الرجل على الأرض فاقد الرشد.. فهتف (ستون) ثانية:

- عليّ اللعنة!

∞∞∞∞∞∞∞

بصعوبة تمكنوا من رفع الرجل إلى الطائرة باستعمال (الونش)، ثم - أخيرا - تمكن (ستون) من الصعود إلى متنها..



بصعوبة تمكنوا من رفع الرجل إلى الطائرة باستعمال (الونش) ..

- من هذا؟

- رجلنا التائه الذي ظهر في صورة الأشعة تحت الحمراء..
ولم ينتزع العالمان ثيابهما.. بل قام كل منهما باستخدام مستودع ثان للأكسجين، يكفيهما حتى الوصول إلى (وايلد فاير)..
ثم إن الربان فتح الاتصال مع الميجور (مانتشيك) في (فاندنبرج):
- حسن.. ماذا وجدتما؟
قال (متون):
- البلدة بلدة موتى..
- خذ الحذر.. إن الدائرة مفتوحة..
- ليكن.. هل لك أن تطلب 7 - 12؟
- الآن؟
- نعم..
- (بيدمونت)؟
- نعم.
- ليكن.. سأصدر الأمر الآن..

∞∞∞∞∞∞

8 – التوجيه 7-12..

التوجيه (7 - 12) هو جزء من بروتوكول مشروع وايلد فاير)، عند حدوث كارثة بيولوجية.. وبمقتضاه يتم وضع سلاح نووى محدود في مكان حدوث تلوث فضائى.. وشفرة التوجيه هي (كى).. أي أن المقصود من القنبلة النووية هو كي العدوى ومنعها من الانتشار..

وكان كثير من الجدل قد أثير حول هذه الخطوة، وبصعوبة وافق الرئيس الأمريكي على قبولها، بشرط أن تتم بأمره هو شخصيا..

وكان معهد (هدسون) قد قام بدراسة خطوة (الكي)، وحددوا أربعة مواقف، قد يكون فيها اللجوء إلى الكي ضروريا..

1- قمر صناعي يهبط في منطقة غير مأهولة.. لن يكون هناك خطر من الكي، بعد إبلاغ السوفييت بأسباب خرق معاهدة (موسكو) 1963، بصدد تحريم التجارب النووية فوق الأرض..

2- قمر صناعي يهبط فوق مدينة أمريكية كبرى: ستكون كارثة تودي بقطاع سكانى كبير.

3- قمر صناعي يهبط فوق مدينة محايدة (مثل نيودلهي): لو تدخلت الحكومة الأمريكية بإجراء (الكي) ستكون الحرب العالمية أكيدة..

4- قمر صناعي يهبط فوق مدينة سوفيتية كبرى: يجب إقناع الروس بإجراء (الكي) على مدينتهم بأنفسهم، وهذا مستحيل..

على العموم - في حالتنا هذه - وافق الرئيس الأمريكى على تأجيل عملية (الكي) لمدة ثمان وأربعين ساعة..

ثم إنه استدعى الحرس الوطني ليقوم بتطويق (بيدمونت) بدائرة قطرها مائة ميل وطفق ينتظر ما تسفر عنه الأحداث..

∞∞∞∞∞

9- فلاتروك..

جلس (مارك هول) في مقعده بالمقاتلة (إف - 104) يطالع - من فوق قناع الأكسجين - ذلك الملف الذي أعطوه إياه قبل ركوب الطائرة.. لكن فتح الملف كان عسيرا في هذه الطائرة الضيقة التي لم تخلق للقراءة.

وايلد فاير
هذا الملف مصنف سري للغاية
وقراءته بوساطة الأشخاص غير المرخص لهم
جريمة يعاقب عليها بالسجن فترة لا تزيد على ٢٠ عاما
وغرامة لا تزيد على 200،000 دولار

كان الملف مكونا من 274 صفحة كلها غير مفهومة، وملأي بتفاصيل عن إنشاء المشروع ومقتضياته وبروتوكول التعقيم..

وبعد قليل وصل صوت الربان إلى سمعه، يقول له إنهم قد وصلوا إلى وجهتهم وسيهبطون بعد أربع دقائق.. إلى (فلاتروك) بـ (نيفادا).

وكانت (نيفادا) - الولاية الفضية - هي أنسب الولايات لمشروع (وايلد فاير).. فهي سابعة الولايات من حيث المساحة.. لكنها التاسعة والأربعون من حيث تعداد السكان، أي أنها أقل الولايات كثافة سكانية بعد (ألاسكا)..

بالتالي هي صالحة تماما لمشاريع (البنتاجون) السرية..
وما أكثر هذه المشاريع في (نيفادا)..!

∞∞∞∞∞∞

10 - المرحلة (1)

كان الطقس حارا للغاية.. حتى أن (الأسفلت) كان لينًا تحت قدمى (هول)، إذ مشى إلى الكوخ الموجود في نهاية ممر الطيران.. وخطر له أن هذا المطار - حتما – مصمم للطيران الليلي، خين يكون الأسفلت باردًا صلبا..

واصطحبه (ليفت) إلى سيارة جيش زرقاء اللون خالية من أية إشارات إلى سلاحها..، وجلس (ليفيت) خلف عجلة القيادة، ودعا (مارك هول) إلى الركوب.. وانطلقت السيارة في الصحراء المقفرة، تلتمع تلالها الزرقاء في ضوء الشمس الحارق.. وكان الطريق مغبّرا يوحي بقلة الاستعمال..

ذكر (هول) الملحوظة الأخيرة لصديقه، فقال له:

- للتمويه فقط.. نحن نقضي الوقت في تعفير هذا الطريق بالغبار.. فلو أن أحدا رأي آثار المعدات العسكرية الثقيلة التي تمر عليه يوميا، لتساءل أسئلة لا نريدها أبدا..

لم يكن (هول) يعلم أن هناك أداة للتدمير النووي الذاتي..

وقد أثارت جدلا شديدا في وزارة الدفاع، لأن (ستون) أصر على أن تكون هذه الأداة تحت سيطرة العلماء.. لكن وزارة الدفاع لم تعتد أن تترك أسلحة نووية في يد أفراد..، وبعد لأي نجح (ستون) في إقناعهم - بأنه لو حدث تلوث – فلن يكون ثمة وقت كاف لأخذ رأي (واشنطن بصدد التدمير للمشروع..

قال (هول):

- قرأت شيئا عن (فرض الرجل المتفرد) في ملف المشروع.. لكن الصفحة التي تفسر ما هو كانت منتزعة.

- أعرف.. سنناقش هذا فيما بعد..

∞∞∞∞∞∞

كان الغبار يتصاعد إلى العيون، فرفعا زجاج السيارة، وأشعل (هول) لفافة تبغ.. فقال له (ليفيت):

- هذه هي الأخيرة..

- أعرف.. إذن دعني أستمتع بها أرجوك ولمحا لافتة تعيسة أفسدتها تغيرات الطقس تنذرهما بأن يبتعدا؛ لأن هذه أملاك حكومية.. لكن لا حراس ولا سور ولا كلاب..

- إجراءات أمنية عظيمة حقا..

- هذا لعدم إثارة الشكوك.. الواقع أن الأمن هنا أفضل مما يخطر لك..

وبالفعل.. وصلا إلى سور عال من السلك الشائك، يحيط بمبنى خشبى وحقل من القمح.. قمح؟.. في هذا المكان؟..

نعم.. إن اللافتة بالخارج تقول (إدارة الزراعة – محطة تجارب استصلاح الصحراء).. وفتح لهما الباب حارس متراخ يلتهم شطيرة في يده اليمنى.. ودعاهما إلى الدخول..

وفي المبنى الداخلي، كان هناك رجل آخر جالسا على مكتب، يلتهم شطيرة هو الآخر، حياهما وتبادل هذه المحادثة الغريبة مع (ليفيت):

- هل من مساعدة يا (جدعان)؟

- كنا نمر ذاهبين إلى (روما)..

- هل لديكما وقت كاف؟

- ساعتى تعطلت أمس..

- اللعنة على الساعات!

- الحر هو السبب..

ونهض الرجل وهما يسيران وراءه، ماشين في ردهة ملأى برجال منهمكين في العمل، بين لافتات تقول: (حضانة البذور) - (ضبط الرطوبة) - (تحليل التربة).. إلخ...
وانتهى بهما المسار إلى غرفة كتب عليها (مخزن) دخلاه، فشعرا بالأرض تهبط تحت أقدامهما..
بعد ثوان وجدا أنفسهما في غرفة عارية من الأثاث، تضيئها أضواء النيون بلون أبيض بارد.. وفي ركن المكان..
كان هناك صندوق أعلاه مضيء بلون أخضر.
قال (ليفيت):
- هذا هو المحلل.. ضع كفك على الزجاج.
انصاع (هول) للأمر.. شعر بتنميل في أنامله، وأز الجهاز.. ثم جاء دور (ليفيت).. بعدها أشار هذا الأخير إلى باب جانبي:
- الآن ندخل (وايلد فاير).. لقد مرت بصماتنا بمحلل إلكتروني قادر على قراءة عشرة آلاف بصمة، يقارنها بما في ذاكرة الكمبيوتر، ليرى ان كان مسموحا لنا
بالدخول..
ودخلا من الباب الذي انغلق وراءهما.. ثم دخلا غرفة أخرى بها حارس أمن، يجلس أمام شاشات الرادار، وأجهزة استشعار قادرة على الإحساس بأي جسم يقترب من القاعدة، وزنه أكثر من مائة رطل.. أما الأسوأ فهو تسعة كلاب رعى ألمانية في أقفاصها، تنبح - دون صوت - في وجه الزائرين.. أثار عواؤها الصامت ذهول (هول)..
قال الحارس وقد رأي دهشته:
- تم تدريب هذه الكلاب في الجيش على الشراسة إنها خطرة كالشيطان، وقد تم استئصال حناجرها لتقتل دون ضوضاء..
- وهل... لجأتم إليها من قبل؟

- لا.. وأحمد الله على هذا.

∞∞∞∞∞∞∞

وفي غرفة جانبية استبدل العالمان ثيابهما بزى من قطعة واحدة.. مطاط وردي اللون.. ونزع كل منهما ما كان يرتديه من ثياب، واجتازا ممرا قصيرا حين دوي صوت جرس إنذار، وفوجئا بباب حديدي ينزل أمامهما ليسد الطريق، وشرع مصباح في السقف يضيء بشكل متقطع.. فيما بعد تذكر (هول) أن (ليفيت) تحاشى النظر إلى الضوء.. وسأله:
- ثمة خطأ ما.. هل انتزعت خاتمك وساعتك؟
وهنا أدرك (هول) أنه نسي الساعة في معصمه، فعاد لينزعها ويضعها في حاجياته.. وفي هذه المرة انفتح الباب..
ورأيا لافتة تقول:
أنت الآن تعبر المستوى (1)
اتجه مباشرة إلى غرفة التحصين..
كانت الحوائط حمراء تماما.. ومن (ليفيت) عرف (هول) أن كل مستوى له لون خاص.. المستوى (1) أحمر.. و (2) أبيض.. و (3) أصفر.. و (4) أخضر.. و (5) أزرق..
- هل هناك سبب لهذا؟
- قامت البحرية منذ أعوام بدراسة التأثير ألوان البيئة على نفسية العاملين.. ويبدو أنها استعملت هذا المبنى لإجراء الدراسة ووصلا إلى ثلاث غرف زجاجية.. فدعاه (ليفيت) إلى أن يدخل واحدة منها.. دخل (هول) غرفة منها فانغلق الباب خلفه، وعلى شاشة أمامه رأى عدة نقاط مضيئة..
وسع صوتا آليا يردد:

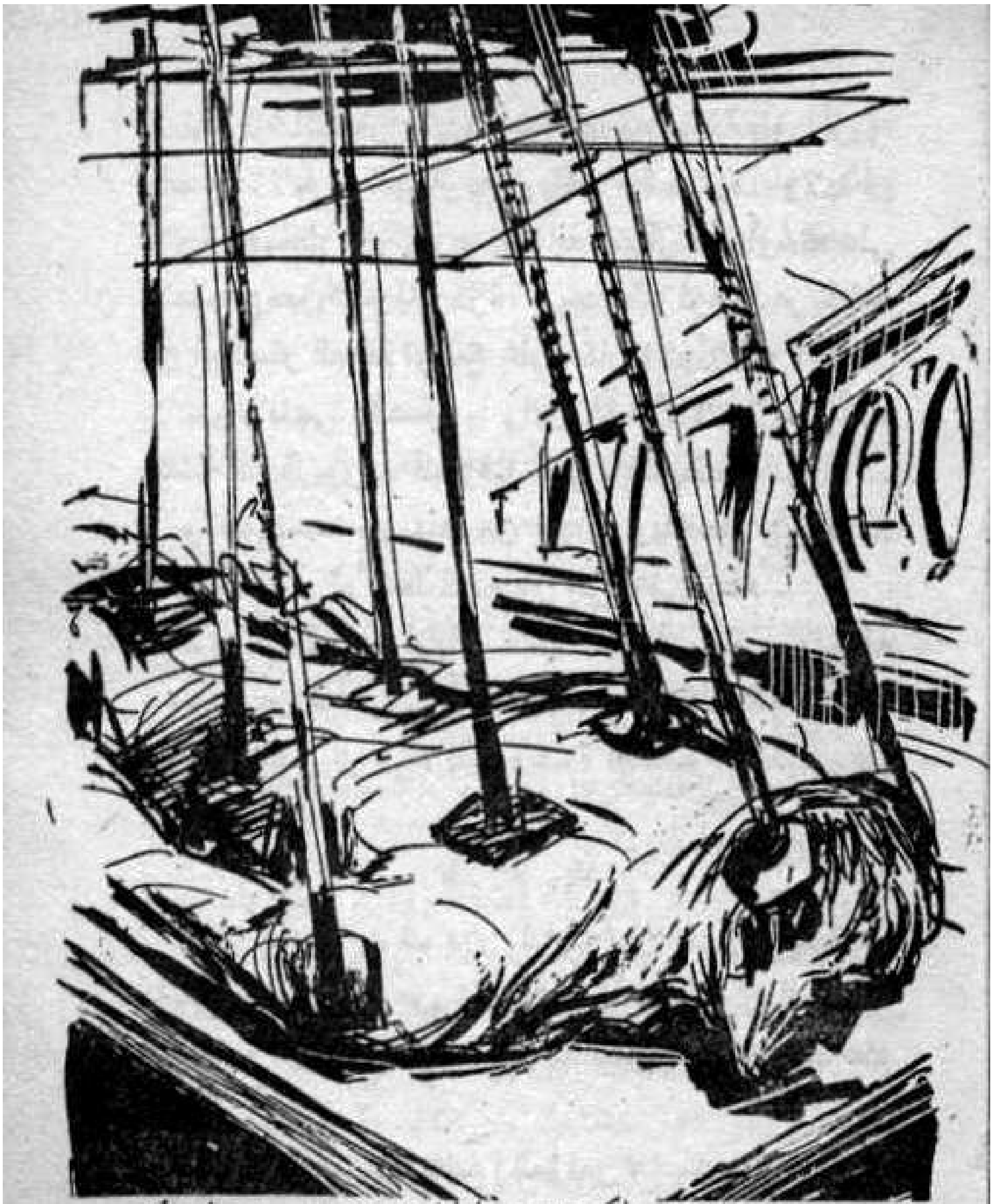
- أجلس.. اجلس..
فانصاع (هول) للأمر وجلس على أريكة هناك..
- حرك جسدك إلى أن تنطفئ كل النقاط على الشاشة أمامي..
وهنا فهم (هول) الأمر.. إن بقع الشاشة تمثل جسد إنسان.. شرع يتحرك حتى اختفت النقاط كلها، وسمع الصوت يقول:
- قل اسمك.. اسم العائلة أولا واسمك الأول أخيرا..
- (مارك هول)..
رأى (هول) على الشاشة عبارة تقول:
الموضوع قد أعطى إجابة غير قابلة للتشفير تدارك خطأه وذكر اسمه (هول مارك) كما طلب الصوت.
- شكرا على تعاونك.. أرجو أن تغنى (مارى عندها حمل صفير)!
الموضوع قد أعطى إجابة غير قابلة للتشفير
شعر (مارك) بالحماقة، لكنه مرغما راح يدندن أغنية الأطفال:
- ماري عندها حمل صغير.. فراؤه أبيض كالثلج..
وفي كل مكان تذهب إليه (مارى) لابد وأن يتبعها الحمل ([3])
ساد الصمت، ثم - مرة أخرى - شكره الصوت على تعاونه و...
محلل الصوت أثبت شخصية الموضوع هول، مارك..
- ستجيب عن هذه الأسئلة بنعم أو لا.. هل تلقيت تطعيم جدري خلال العشر سنوات الماضية؟
- دفتريا؟
- نعم..
وتوالت الأسئلة عن التيتانوس والحمى الصفراء والطاعون والكوليرا والدرن، والزهري، والفطريات، والفيروسات.. وهل عنده حساسية لشيء معين؟.. ثم - انزع ثيابك تماما وغد الجلوس على الأريكة، بحيث تنطفي النقاط.

فعلها.. ورأى مصباح أشعة فوق بنفسجية يتحرك فوق جسده.. نظر إلى الشاشة فرأى صورة بالكمبيوتر للمسح بادئا بأصابع قدميه..

- هذا مسح للفطريات.. والآن ارقد على بطنك لنواصل المسح..

بعد هذا رأى عشرات الكابلات تهبط لتلتصق بجسده..

استطاع أن يفهم الغرض من بعضها.. فالأقطاب الستة على صدره هي حتما لرسم القلب الكهربائي، والواحد والعشرون على دماغه، هي لرسم المخ.. لكنه لم يدرك الغرض من الباقين..



بعدها رأى عشرات الكابلات تهبط لتلتصق بجسده.. استطاع أن يفهم الغرض من بعضها ..

- ضع يدك على اللوح الموجود يسارا.. ستشعر بوخزة، إذ تخترق الإبرة عروقك.. حقنة وريدية بالكمبيوتر.. مستحيل... كيف يستطيعون هذا؟ ...

نظر للشاشة فرأى يده وعروقها مصبوغة بلون أزرو واضح.. لابد أن الجهاز يعمل باقتفاء الحرارة.. ولا بد أن الإبرة ستبحث عن الوريد بوساطة حرارته.. أوشك على الاحتجاج حين شعر

بالوخزة.. وبعد عشر ثوان شعر بقطعة من البلاستر المعقم توضع على مكان دخول الإبرة..
- هذا ينهى الفحص.. والآن قف وكتفك الأيمن أمام شاشة التليفزيون.. فلسوف تتلقى حقنا بضغط الهواء وشعر بمسدس يهبط من الجدار ويلتصق بذراعه.. الألم لثانية.. ثم صعد المسدس إلى أعلى ببطء..
- يمكنك ارتداء ثيابك.. لقد طعمناك بطعون منشطة وجلوبيولين مناعى.. إذا شعرت بدوار يمكنك الجلوس..
أبلغ أية حمى أو قيء إلى وحدة التحكم.. انتهي هذا التسجيل الآن..

∞∞∞∞∞

وفي الردهة عرف من (ليفيت) أن جهازا كهذا هو ما يجرون به الفحوص على رواد الفضاء، وأن الحكومة الأمريكية سحت به للمستشفيات الكبرى.. ولكن بعد عام 1971..
ودلفا من باب كتب عليه (المؤتمر ٧)، ليجدوا بالداخل باقي أعضاء الفريق.. (ستون) يقف في وسط القاعة متوترا كأنما خرج من تحت (دوش) بارد.. وجواره يجلس (بيرتون) بادى الإرهاق..
بعدما تبادلوا التحيات؛ ناول (ستون) مفتاحا أحمر اللون لـ (هول) وأمره أن يضعه حول عنقه..
- مفتاح ماذا؟
قال (ليفيت) في كياسة:
- إن (هول) لا يدري شيئا عن (فرض الرجل المتفرد)..
نظر له (ستون) في شيء من الحيرة.. ثم تساءل:
- ألم يقل لك أحد إن سبب اختيارك هو أنك عزب؟

تساءل (هول) وهو يرمق المفتاح مقطبا:
- وما معنى هذا؟
- معناه أنك أنت الرجل المتفرد.. أنت مفتاح الموضوع كله دون بلاغة لغوية!
واتجه إلى ركن الحجرة فضغط زرا.. انفتح باب دس فيه مفتاحا فضيا فأضاءت اللوحة كلها بلون أخضر..
- في الطابق السفلي لهذا المعمل، توجد تدمير ذاتى ذرية.. وقد قمت الآن بوضعها في حالة استعداد بعد هذا يأتي دور مفتاحك، وعندئذ يكون أمامنا ثلاث دقائق قبل الانفجار.. وغرض هذا التأخير هو اعطاؤك فرصة لمراجعة الموقف ونزع المفتاح..
تساءل (هول) في حيرة:
- ولماذا أنا؟
- لأنك غير متزوج.. اقرأ هذا التقرير ولسوف تفهم أكثر..
كان التقرير المعنى صادرة من معهد (هدسون)..
وكان يقيس كفاءة الأشخاص على اتخاذ قرارات صائبة..، ومنه يتضح أن الرجال المتزوجين، أقل قدرة على الحكم الصائب من غير المتزوجين..، وبتطبيق هذه القواعد المعقدة على العلماء الخمسة، يتضح أن مؤشر الكفاءة في أقل درجاته مع (بيرتون) و (ليفيت)، بينما يصل الذروة مع (مول)..، ومن هذا نتبين فرضية الرجل المتفرد.. الرجل غير المتزوج الذي سيتخذ القرار النووي.
- وهل تتوقعون مني أن أضع المفتاح وأفجر هذا الشيء؟
قال (ستون):
- أنت لا تفهم.. إن نظام التفجير أتوماتيكى تماما، يبدأ مع حدوث تسرب للجراثيم.. ويحدث خلال ثلاث دقائق ما لم تعطله أنت بمفتاحك.
- فهمت...

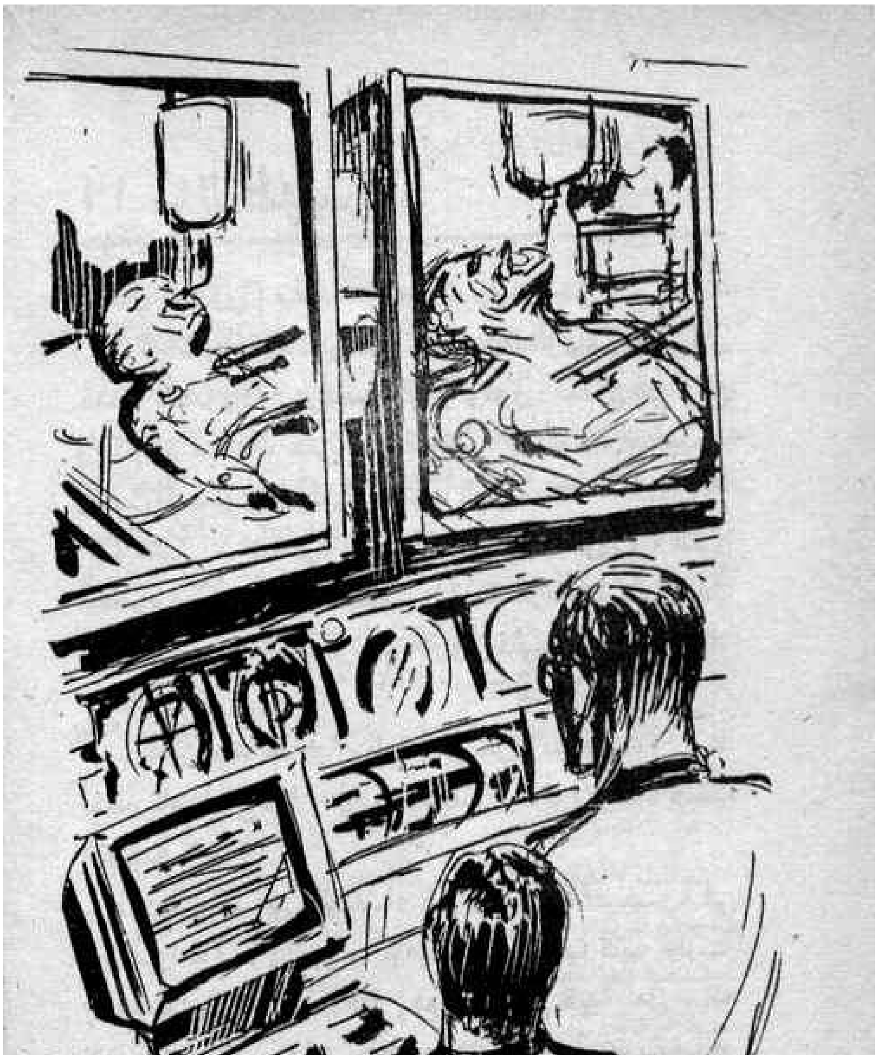
قالها، وازداد قلقا...

∞∞∞∞∞

11- التطـهير..

قال (ستون) وقد سمع صوت جرس يدق:

- كما تعرفون، نحن في المستوى العلوي من مبنى ذى خمسة مستويات.. وحسب البروتوكول، نحتاج إلى أربع وعشرين ساعة، حتى تمر بعمليات التعقيم والتطهير، وتصل للمستوى السفلى.. يجب البدء حالا..



وعلى الشاشة رأوا ذلك الرجل (جاكسون) ، الذى أحضره (ستون) من البلدة .. وكذلك الرضيع ..

وعلى الشاشة رأوا ذلك الرجل (جاكسون)، الذي أحضره (ستون) من البلدة.. وكذلك الرضيع..، وكانت المحاليل الوريدية تتدفق إلى عروق كليهما..

قال (ستون):
- هذان هما الناجيان الوحيدان من (بيدمونت)، وقد أحضرناهما إلى هنا.. إن البلدة ستدمر - أو دمرت – حسب التوجيه 7 – 12..
ثم حكى لباقي العلماء مغامرته القصيرة (بيدمونت).. واتجهوا جميعا إلى باب كتب عليه (المستوى [2]).. لاحظ (هول) - في خيبة أمل – أنه لا يوجد خرس، ولم يعط أحدهم بطاقة تعريف أو (بادج).. صارح بهذا (ستون).. فقال له هذا الأخير:
- صحيح.. نحن قررنا الاستغناء عن (البادجات) هنا، فهي صعبة التعقيم.. دائما ما تكون من البلاستيك وتذيبها الحرارة
وبدأت رحلة العذاب لكل منهم.. غرف مبطنة بالقيشاني يخلعون الثياب فيها، فيمر شعاع ضوء باهر خلال هذه الثياب.. بعد هذا غرفة من البخار الحار ذي الرائحة المطهرة..
ثم غرفة بها بانيو مليء بسائل مطهر كتب عليها (ضع قدميك فقط، حاول ألا يمس السائل عينيك).. لم يستطع (مول) معرفة كنه هذا السائل، لكنه كان زلقا مما يدل على أنه قلوي، وعرف من (ليفيت) أنه (الفاكلوروفين).
قال (ليفيت):
- إن المشكلة التي واجهتنا.. هي كيف نعقم الجسد البشري - أقذر شيء في الكون كله - دون قتل البشري ذاته!
بحث (هول) عن منشفة فلم يجد واحدة، إلا أنه في الغرفة التالية وجد هواء ساخنا ينبعث من السقف..، على حين انبعثت من الجدران الجانبية حزم من الأشعة فوق البنفسجية، مغرقة الغرفة في ضوء أرجواني ساطع..

ثم جاء دور الغرفة الأخيرة، التي تحوي ثيابا هي أقرب لما يرتديه الجراحون.. صفراء اللون مريحة إلى حد كبير..
ومن هناك خرجوا إلى المصعد الذي قادهم إلى المستوى (2) ذى الجدران الصفراء اللون.. ووجدوا أنفسهم في غرفة صغيرة، بها نصف دستة من الأرائك، فأشار لهم (ستون) كى يسترخوا عليها قائلا:
- إنهم لفي حاجة إلى أقصى راحة قبل أن يواصلوا الرحلة.. ودون كلمة أخرى تمدد على الأريكة ونام..
وهي موهبة أخرى من مواهبه العديدة: سرقة ساعات.. النوم في أوقات الانتظار..
وبدأت مرحلة التعليم الثانية بحرق الثياب التي يرتدونها.. الثياب التي ارتدوها منذ ساعة واحدة..، بعدها كان عليهم قطع مسافة تحت الماء وعيونهم مفتوحة..
وعرف (هول) أن هذا الماء هو محلول مطهر..، بعد ذلك أدخلوا إلى كبائن تشبه كبائن الهاتف مع رسالة تقول:
- أبعد ذراعيك عن جسدك، وباعد قدما ما بين ساقيك.. لا تفتح عينيك حتى يصدر صوت الأزيز، الإشعاع طويل الموجة قد يسبب العمى!
أغمض (هول) عينيه وشعر بشيء يحرق جسده..
حين سمع الأزيز فتحهما.. وخرج ليمر تحت أكثر من (دوش) مطهر.. وفي النهاية وجد ثيابا جديدة تنتظره.. لونها أبيض هذه المرة..
والآن إلى المرحلة (٣).. حيث تصطحبهم ممرضات إلى غرف فحص.. والفحص هذه المرة، يجرية طبيب شاب مسطح الوجه لمدة ساعتين.. وفكر (هول) في ضيق أنه كان يفضل الآلة..
لم يترك الفحص ذرة واحدة في جسده، حتى كاد يتميز غيظا..

بعد هذا جاء المستوى (4).. مزيد من أحواض الغمر المطهرة والإشعاعات والموجات فوق الصوتية، ثم مكعب من الصلب فوقه خوذة ولافتة تقول:
« ارتد الخوذة لحماية الوجه والعينين، ثم اضغط الزر ..
جرب (هول) التعليمات، ففوجئ بحرارة قاتلة تجتاح جسده.. لحظة خاطفة.. وحين انتزع الخوذة أخيرا وجد أن جسده مغطى برماد أبيض دقيق... إذن لقد حرقت الآلة اللعينة الطبقات السطحية من جسده!..
وبعد دوش سريع، وجد الثياب تنتظره كالعادة..
ولونها في هذه المرة أخضر..
ثم جاءت مرحلة العينات: عينة من كل شيء يستطيع الشيطان أن يفكر فيه: بول - براز - بلغم - دم - إلخ...
كان مرهقا، وبدأ يشعر بفقدان الاتزان.. التكرار..
التكرار.. كم هو متعب! وحين لحق برفاقه أخيرا وجد (ستون) يقول له:
- أمامنا ست ساعات هنا حتى ينتهوا من كل التحاليل.. يمكننا النوم... ولسوف نلتقي في (الكافتيريا)
بعد خمس ساعات، لعقد مؤتمر صفير اتفقنا؟.
وأشار إلى حجرات جانبية كتب على كل منها اسم واحد منهم، حيث يمكنهم النوم على أسرة مريحة برغم كل شيء..
وهكذا غرق العلماء المرهقون في نعاس طويل..

∞∞∞∞∞∞

اليوم الثالث

وايلدفاير

12 - المؤتمر..

- حان وقت الاستيقاظ يا سيدى..
فتح (هول) عينيه.. كان هناك ضوء نيون شاحب يغمر الغرفة.
- حان وقت الاستيقاظ يا سيدي.
كان صوتا أنثويا ناعما.. جلس على الفراش وتأكد أنه وحيد..
- من أنت؟
- حان وقت الاستيقاظ يا سيدى..
نهض مرغما، وارتدي ثيابه متسائلا عن كيفية عمل هذا الصوت.. ليس هذا مجرد شريط تسجيل، لأنه يستجيب للمتغيرات.. فالرسالة لا تتردد إلا حين يتكلم هو.. قال:
- أريد معرفة اسمك!
- هل هذا كل شيء يا سيدى؟
ثم سمع صوت رجل غليظ يهدر:
- هنا خدمة الإجابة على الأسئلة.. كنا نرجو أن تتعامل مع المشروع بجدية أكبر يا د. (هول)!..
ضحك (هول) وغمغم:
- معذرة.. لقد كان صوتها لذيذا - الصوت هو صوت مس (جلاديس ستيفنز)، تعيش في (أوماها)، وتكسب رزقها من تسجيل الرسائل الصوتية، للمشاريع المعتمدة على الصوت الصناعي عمرها ثلاثة وستون عاما..
- اللعنة.
وغادر الغرفة باحثا عن (الكافتيريا)، وسط الممرات التي جعلته يدرك، لماذا قام بتصميم المبنى مصممو غواصات..، أخيرا وجدها.. ووجد بداخلها (ليفيت)، عاكفا على احتساء المشروب

(40 - 5-2)، وهو مشروب صناعي يشبه عصير البرتقال، يحوي كل ما يحتاج إليه رجل يزن سبعين كيلوجراما، كي يظل حيا عشر ساعات..

المشكلة هي أن المشروب لم يكن يحوي سكرا..

قال (ليفيت) مفسرا:

- ممنوع وجود السكر ها هنا.. ولا أي شيء يمكن أن يشجع نمو الباكتيريا..، سنستخلص كل حاجتنا إلى السكر من البروتين الذي نأكله.. لن يدخل سكر إلى أمعائنا.. بل العكس...!

وفوجئ (هول) به يقدم له شيئا ملفوفا في قمع من الألومنيوم.

- هذا ضروري.. ادخل حجرتك واستعملها، لتطهر الأمعاء قبل أن نستكمل إجراءات التعقيم!.

- فلتحل على اللعنة لو أنني.

- لقد ظهرنا جلدك وأغشيتك المخاطية.. بقي جهازك الهضمي..

ثم ابتسم بسمته المكتبة الشهيرة.. وأردف:

- والآن.. هلم بنا.. إن (ستون) يريد الحديث عن (كارب).

- ومن هو؟..

∞∞∞∞∞∞∞

(رودلف كارب).. عالم الكيمياء الحيوية المجري، الذي هاجر إلى الولايات المتحدة منذ عام 1951.. والتحق بجامعة (متشيجان) كأستاذ، ثم عكف على دراسة النيازك.. كان يأمل أن يجد فيها ما يدل على وجود حياة فضائية، كانت هناك منافسة رهيبة في هذا الصدد، وكلما أعلن عالم أنه وجد جزيء هيدروكاربون، في شهاب أو نيزك، كان يتهم بأنه أحدث تلوثا عمدا أو غير عمدي، في العينات التي فحصها.. وكان (كارب)

حذرا دقيقا.. وراعي أشد درجات التعقيم في بحوثه.. وبهذا كان واثقا من نتائجه، حين استطاع عزل البكتريا.. باكتريا حلقية الشكل، تتمتع بكل خواص الباكتيريا الأرضية عدا النواة.. من ثم فطريقة تكاثرها مازالت غامضة..

مع الوقت نسى الناس أبحاث (كارب)، لكن اثنين ظلا يذكرانها، هما: (جيريمي ستون) و (ليفيت)..، وقد وصف (ليفيت) ما حدث بالقاعدة (48) الخاصة به، والتي تقول: كل العلماء عميان!.

وسر هذه القاعدة (48) يعود إلى ما زعمه العلماء قديما، من أن الإنسان يملك ٤٨ كروموسوما في نواته وكان عدد الكروموسومات في كل الصور هو 48، وفي عام 1953 قال فريق من العلماء، إن عدد الكروموسومات هو 46.. وعاد بعض العلماء إلى الصور القديمة ليعدوا كروموسوماتها، فوجدوها – بالفعل 46 كروموسوما..

كل العلماء عميان حسب القاعدة (48).

ولم يكن (ليفيت) يعلم أن هذه القاعدة تنطبق عليه وعلى زملائه، قبل أن تنطبق على غيرهم...

∞∞∞∞∞

ناول (ستون) زملاءه ملفات، تحوي كل تفاصيل رحلة القذيفة المكوكية.. ليدرسوها، ويحاولوا معرفة موضع الخطأ في هذه الرحلة.. ولفت نظرهم إلى أن هناك العديد من الأقمار الصناعية في ذات المدار حول الأرض.. لقد سجلت أجهزة الرادار الأمريكية، حوالى خمسمائة وسبعة وثمانين جسما يدور حول الأرض..

بعضها أقمار صناعية قديمة غير عاملة، من مجموعة (اكسبلورر) الأمريكية القديمة، ومجموعة (سبوتنيك) الروسية..، وبعضها مراحل منفصلة من صواريخ.

وبعضها مسامير وصواميل.. الخلاصة أن هناك مخزنا للخردة حقيقيا يدور حول الأرض..، والاحتمال الوارد هو أن شيئا ما قد اصطدم بالقذيفة المكوكية، مما جعلها تغير مدارها..

وهنا سمعوا دقة جرس.. ثم الصوت الأنثوي الذي عرفوا أنه صوت (جلاديس ستيفنز) من (أوماها)، يقول:

- يمكنكم الانتقال إلى المستوى التالي يا سادة..

∞∞∞∞∞∞∞

13- المستوى (5)..

اللون الأزرق هو ما يغمر المستوى الخامس..
والأزياء كلها زرقاء..
- نفس التصميم - قال (بيرتون) -: دائرة لها عدة محيطات..
نحن في المحيط الخارجي الآن..
وبالداخل قليلا نجد المعامل.. ثم بالداخل أكثر، نجد القلب المركزي، حيث أسلاك الكهرباء والسباكة، وحيث تجد الآن المقذوف والمريضين من (بيدمونت).
- وكيف تصل إلى المريضين إذن؟.
- باستعمال صندوق القفازات.. توجد فتحتان في الجدار، كل ما عليك هو أن تزج بذراعيك فيهما، لتدخلا إلى قفازين على الجانب الآخر حيث المريض..، ونحن فعلنا ما هو أوسع من هذا.. وبدلا من وضع يديك في قفاز، تضع جسدك كله في بذلة عازلة..
كانت هناك غرفة مكتوب عليها (التحكم المركزي)..
رأى (هول) العالمين (ستون) و (ليفيت) يقفان هناك يضغطان أزرارا، وعبر جدار زجاجي، رأى القذيفة..
تتعامل معها يد ميكانيكية عملاقة.. لم يكن قد رأى قمرا صناعيا من قبل، ولم يتصور أنه صغير إلى هذا الحد..
وعليه علامات احتراق من الغلاف الجوي..
ورأى (هول) اليد الميكانيكية تفتح القمر ببراعة، كاشفة عن قلبه..
ثم إن (ستون) طلب فأرا نرويجيا أسود، يدخله إلى الحجرة الزجاجية، لمعرفة ما إذا كان التلوث مازال موجودا، وهذا الفأر

ليس نرويجيا ولا أسود.. لقد حولته التجارب الوراثية إلى جيل أبيض، دقيق الحجم وديع الطباع..
- أدخلوا بعده قردا من نوع (الريزاس)
ومن المعروف أن هذه القرود مفضلة في المعامل، لقربها من الإنسان تشريحيا..، وقد نجحت في استبدال الغوريللا التي كانت تستعمل في الخمسينات، وهى - بالطبع - باهظة الثمن وخطرة، بل وقادرة على تحطيم أعناق فريق من العلماء..، والمعروف كذلك أن الخنزير مناسب أكثر من القرود، لدراسات القلب والجهاز الدوري. أما خنازير (غينيا) فمناسبة لدراسات المناعة..
وأمام عيني (هول) المنبهرتين، رأي اليد الميكانيكية تحمل قفصا به فأر صغير، وتضعه جوار القمر الصناعي..، وفي اللحظة التالية تشمم الفأر الهواء.
تقلص عنقه. ثم هوي على جانبه ومات!
- ياللبشاعة!.. بهذه السرعة؟.
بعد هذا جاء دور القرد في قفصة.. صرخ القرد بصوت رفيع، وراح يضرب بقبضته على جدران القفص.. ثم هوى على الأرض وعلى وجهه علامات الذهول هز (ستون) رأسه وغمغم:
- على كل حال نحن نعرف الآن، أن ما قتل الناس في (بيدمونت) مازال حيا ونشطا..
قال (بيرتون) وهو مازال مضطربا:
- سآخذ هذين الحيوانين، وأجرى الصفة التشريحية عليهما..
ضغط (ستون) على زر مكتوب عليه (تشريح)..
فامتدت اليد الميكانيكية ترفع القفصين، وتضع كلا منهما على حزام ناقل في مؤخرة الحجرة.. وانزلق القفصان إلى الخارج.. إلى غرفة التشريح..
قال (ستون) ل (هول):

- أنت الوحيد بيننا الذي يمارس الفحص الإكلينيكي أخشى أن مهمة عسيرة تنتظرك.
- طبيب أطفال وطبيب شيوخ؟.
- بالفعل.. لنر كيف يمكنك مساعدة المريضين في غرفتهما.. ثمة جهاز كمبيوتر هناك، ولسوف يشرح لك الفني كيف تستعمله..

∞∞∞∞∞∞

14- أشياء عدة..

كانت غرفة زجاجية بها فراشان.. على أحدهما رقد الرضيع، وعلى الآخر رقد العجوز (بيتر جاكسون) أما أغرب ما في المشهد، فهو أربع بذلات مطاطية معلقة من السقف، ومن كل بذلة يمتد نفق إلى الحائط تأمل (مول) كل هذا في انبهار..
من الواضح إذن، أن على المرء دخول النفق، ليجد نفسه داخل البذلة، وبعدها يمكنك التعامل مع المريض..
وعرفته الفنية نفسها.. اسمها (كارين أنسون)..
وقالت له إن جهاز الكمبيوتر الذي تعمل عليه، هو نهاية طرفية للكمبيوتر العملاق، الذي يدير مشروع (وايلد فاير)، أي أن ثلاثين شخصا يمكن أن يعملوا على ذات الكمبيوتر، في ذات الوقت.. ويسمى هذا بمبدأ (مشاركة الوقت)..
فالكمبيوتر سريع جدا بينما البشر شديدو البطء، وهذا يعني أن الكمبيوتر يقضى أغلب وقته - بين أمر وآخر.
بلا عمل تقريبا.. ولكن حين يعمل أكثر من شخص على ذات الكمبيوتر، تكون الاستفادة القصوى من إمكاناته..
- هذا البرنامج يدعى (ميدكوم).. كل ما عليك هو إدخال المعلومات، وسيقوم هو بالتشخيص.. أو يطلب منك أبحاثا أكثر..
- لا بأس.. وماذا عن المريضين؟.
- لا شيء فقط نعطي البلازما ل (جاكسون)، والماء والجلوكوز للرضيع.. إن (جاكسون) في غيبوبة الآن، ولم يزل يعاني فقر الدم.
ثم إنها ناولت قلما ضوئيا إلى (مال)، وشرحت له..

كيف يشير به على الشاشة إلى الأبحاث التي يرغبها، ليقوم الكمبيوتر بإجرائها على الفور..، ثم إنها ضغطت زر البدء:

برنامج ميدكوم

تحليل / معمل

دم:

عدّ دم أحمر

خلايا شبكية

صفائح

كرات بيضاء

تفريقى

بروتين:

زلال

جلوبيولين

فايبرين

كلى

... وهكذا...

قائمة طويلة من الأبحاث بلا نهاية تقريبا..

مد (هول) يده بالقلم المضيء، وأشار إلى الأبحاث التي يريدها - حوالي عشرين - فاختفت كلها من على الشاشة..

ثم ظهرت الكلمات التالية:

التحاليل المطلوبة تحتاج من كل مريض:

20 سم مكعب دم

15 سم مكعب بول

دم مع الأوكسالات
دم مع السترات

قالت الفتاة:
- سأقوم بأخذ هذه العينات، إلى أن تفحص أنت المريضين.. كل ما عليك هو دخول النفق إلى أن تجد نفسك داخل هذه البذلة، ولسوف ينغلق النفق خلفك احتياطا لحدوث ثقب في البذلة، مما قد يؤدي لخروج الباكتيريا عبر النفق.
كان شعورا غريبا وهو يزحف - كالسحلية - عبر النفق ليجد نفسه داخل البذلة، بينما يسحب النفق كله خارج جسده.. وبينما انهمكت الممرضة في أخذ عينة الدم، من وريد بفروة رأس الرضيع؛ عكف هو على فحص (جاكسون).



كان شعورًا غريبًا وهو يزحف ـ كالسحلية ـ عبر النفق ليجد نفسه داخل البذلة ..

رجل عجوز يعانى فقر دم وهزالا: الاحتمال الأول هو السرطان ثم الدرن فإدمان الكحول..، هو غائب عن الوعي والاحتمالات هي الصرع.. فنقص سكر الدم..
فنزف مخى..
ضغط الدم منخفض (٨٠/٥٠).. النبض والتنفس سريعان..
حاول أن يوقظ الرجل بهزة مرارا..
ببطء فتح الرجل عينه.. وغمغم:

- إن... صرف!.
ثم عاد لعدم الاستجابة.. كان الدم يغطى شفتيه.. وأظهر فحص الشرج وجود دم مهضوم كذلك..
وهنا رأي على الشاشة جوار الفراش، بداية ما تم عمله من أبحاث..
حجم الخلايا المحرومة 21 (الطبيعي 38- 54)
جاكسون، بيتر..
- نصف الطبيعى - قالها ووضع قناع الأكسجين على أنف الرجل
- نحتاج إلى أربع وحدات من الدم.
- سأطلبها حالا.
بعد هذا جاء دور الرضيع.. كان قد نسي طب الأطفال ونسي مدى صعوبته.. إن النظر لعين الرضيع مستحيل، لأنه يغلقهما كلما حاولت فتحهما.. وكلما حاولت سماع قلبه صرخ الصغير كالمجانين فلا تسمع شيئا..
لكنه لم ينس: هناك رابطة ما بين الرضيع والعجوز، جعلت كليهما ينجو من الكارثة.. فما هي الرابطة بين عجوز شاحب يقىء دما، ورضيع متورد يملأ الدنيا صراخا؟..
كل شيء طبيعى بخصوص الرضيع..
فيما عدا أنه قد نجا من الوباء الوبيل..
بشكل أو بآخر..

∞∞∞∞∞∞

15- التحكم الرئيسي..

في غرفة التحكم الرئيسي، جلس (ليفيت) و (ستون) يرمقان القمر الصناعي عبر النافذة الزجاجية، وطبقا لبروتوكول (وايلد فاير)، كانت هناك ثلاث خطوات أساسية: البحث.. التمييز.. التحكم..، يجب العثور على الجرثومة، ثم دراستها، فالتحكم فيها..

وكانت هناك عدسات ميكروسكوب عديدة مسلطة على المقذوف.. تنقل الصورة عبر ألياف زجاجية إلى الشاشات، لم يكن استعمال شاشات التلفزيون، ليعطي صورة واضحة حادة التفاصيل مثل هذه الصورة..

- ابدأ بقوة تكبير (5)..

وشرعت العدسات تدور حول المقذوف ببطء..، لكن الرجلين لم يريا ما يريب.. جريا تكبير (20) - وهذا يقتضي وقتا أطول لمسح المقذوف - لكن لم يتضح شيء بعد..

- جرب (100).

بدأ حماسهما يفتر تدريجيا.. ومرت ساعتان من البحث العقيم، من ثم رأي (ستون) أن يشرعا في فحص داخل القمر الصناعي.. قام (ليفيت) بتسليط الضوء على داخل الجسم، ثم شرع يحرك العدسة على أجزائه، وهو أمر عسير، كأنما تحاول الكتابة وأنت تنظر إلى انعكاس يدك في المرآة..

أخيرا وجدا ندية دقيقة في جدار المقذوف.. زادا قوة التكبير فوجدا مادة ملتصقة بها، كأنما سواد مختلط بفطر أخضر.. شعر كلا الرجلين برجفة حماس.. إنهما يريان للمرة الأولى شيئا جديدا..

لكنهما لم يتوقفا عن مسح الجسم بالعدسات، فهما لا يريدان الوثب إلى أية استنتاجات متعجلة..
انتهيا من ذلك، عادا إلى مكان الندية، وزادا قوة التكبير إلى (440)، ثم عكفا على دراستها..
- تبدو كبقع من طلاء أخضر.
- أرجو ألا تكون كذلك..
وواصلا النظر إلى البقعة بعض الوقت.. حين حدث الشيء.. احمرت البقعة لجزء من الثانية.. ثم عادت إلى اللون الأخضر..
- عليّ اللعنة!.. هل رأيت هذا؟!
- نعم.. بالطبع.. ولكن ما معناه؟..
جاءت الإجابة بعد ثوان، حين احمرت البقعة ثم انتظمت حوافها وبدا كأنها ازدادت حجما.. ثم عادت إلى اللون الأخضر..
- إن هذا الشيء يكبر!.

∞∞∞∞∞

ضغط (ستون) الزر الذي كتب عليه (مزرعة).. فبرزت يد معدنية تحمل صينية عليها مجموعة من أطباق (بترى)، المخصصة لزراعة الباكتيريا.. وكل طبق يحوي نوعا من أوساط الزراعة، مثل (آجار الدم)..
(أجار الشيكولاتة).. (وسط سابورو).. إلخ..
وبيد ميكانيكية أخرى، تم عمل مسحات لعدة أجزاء من سطح المقذوف الخارجي، ثم مسحات للسطح الداخلي، وقام (ستون) بكحت الرقعة الخضراء، ووضعها سالمة في طبق منفصل..
ثم استعان (ليفيت) ببرنامج الكمبيوتر (ماكسكلت) الذي ينسق زراعة أطباق (بترى)، في ظروف متباينة من الحرارة والرطوبة

والغازات المختلفة، وهو عمل يحتاج من المرء إلى عدة أسابيع، لكن الكمبيوتر ينجزه خلال دقائق..

- أرى أن نفحص الرقعة الخضراء بوسيلة أفضل.. كيف حالك مع الميكروسكوب الإلكتروني؟.

- لست معتادا عليه لكنه سيقدم لنا الكثير..

ونظر (ليفيت) إلى الساعة وراء ظهره..

كانت الحادية عشرة صباحا..

وأيقن الرجلان - للمرة الأولى - أنهما يعملان منذ عشر ساعات كاملة دون توقف..

∞∞∞∞∞∞

16- التشـريـح..

فيما بعد اعترف (بيرتون) بأنه ارتكب عدة أغلاط، حين جلس كى يشرح الحيوانين اللذين قتلتهما الباكتيريا..
كان عليه كذلك أن يدرس كيفية سريان العدوى.. وبكل المقاييس كان (ليفيت) هو خير من يقوم بهذا، لكن الحاجة كانت ماسة إليه في عزل الجرثومة، من ثم وقع العبء على (بيرتون)..
بدأ بمجموعة من الأقفاص، لكل منها مصدر تهوية مستقل..، ثم إنه وضع جثة الفأر جوار أحد هذه الأقفاص، وجعل الهواء يمر من الجثة إلى القفص، وعلى الفور مات الفأر السليم..
إذن فالعدوى - كما خطر له - منقولة بالهواء..
أحضر قفصا آخر به فأر حي، ووضع مرشحا دقيقا على صمام التهوية، سعة ثقوبه 100 أنجستروم.. أي أنه يسمح بمرور فيروس، ثم شرع بمرور الهواء من الجثة.. لكن الفأر ظل حيا..
إذن فالجرثومة أكبر حجما من الفيروس. بدأ يزيد من حجم الثقوب واحدا تلو الآخر حتى توفي الفأر..، كان حجم المرشح هو 2 ميكرون.. أي بحجم خلية صغيرة..، وهكذا يمكن استبعاد الغازات السامة كمسبب للوفاة...
ثم إنه بدأ يدرس كيفية دخول الجرثومة للجسم هى تحدث تجلطا في الدم.. فهل يبدأ ذلك من الأنف أم من الجلد؟ انتقى قردا من نوع (الريزاس).. وحقنه ببروتينات دم معلمة بنظائر مشعة، ثم سلط جهاز المسح الذري على القرد.. وبدأ جهاز المسح يرسم النتائج على ورق الكمبيوتر..
ثم إن (بيرتون) جعل القرد يستنشق الهواء الملوث.

وعلى الورق ظهر له أن التجلط يبدأ في الرئتين أولا، ثم ينتشر إلى باقي الدم.
بعد هذا جرب أن يحقن الفئران بالهيبارين، (المادة التي تمنع تجلط الدم)، ثم يعرضها للعدوى، على أمل أن تظل حية ولا يقتلها التجلط.. لكن التجربة فشلت وماتت الفئران..
وهنا ارتكب أسوأ أخطائه: لم يقم بتشريح هذه الفئران الأخيرة، التي منع دمها من التجلط، ولكن صبرا.. لسوف يتبين خطأه بعد ثمان وأربعين ساعة.. أما الآن فهو منهمك بتشريح جثتي الفأر والقرد، اللذين ماتا أولا.. وأعد شرائح مجمدة تصلح للميكروسكوبين الضوئي والإلكتروني..
كما أنه أرسل عينات لتصبغ بالصبغات المختلفة، ولتأخذن هذه العملية عشر ساعات أخرى...
وفي نهاية بحثه المضنى جلس بدون ما وجده:
1- حجم الجرثومة حوالي ٢ ميكرون.. إذن هي ليست فيروسا ولا غازا.
2- يتم انتقالها بالهواء.
3- يبدأ المرض في الرئتين حيث يحدث تجلط سريع.
4- مضادات التجلط لا تقي من الموت بالجرثومة.
5- فيما عدا التجلط العام، لا توجد تغيرات مرضية في خلايا الحيوان الميت.
وهز رأسه منها.. ربما لا يجدي منع التجلط، لكنه قد وضع قدمه على الدرب الصحيح.. ولسوف يصل إلى الجواب حتما..

∞∞∞∞∞∞

17- الإفــاقة..

في الحادية عشرة، كانت كل الأبحاث التي طلبها (هول) قد اكتملت على شاشة الكمبيوتر..
الموضوع المسمى - رضيع - في حدود الطبيعي.
الموضوع المسمى - جاكسون، بيتر - ليس في حدود الطبيعى وبدأ الكمبيوتر يعرض النتائج..
وظائف الكلى مختلفة نوعا.. سرعة الترسيب عالية نتيجة لتدمير الأنسجة.. الخلايا الشبكية عالية بسبب محاولة النخاع تصحيح الأنيميا.. كل هذا مفهوم.. فيما عدا الرقم الهيدروجيني للدم، فهو لغز.. 7.31 هو دليل على ارتفاع شديد في حمضية الدم.. كيف يمكن تفسير ذلك؟
الموضوع المسمى - جاكسون، بيتر -
احتمالات التشخيص:
1- نزف حاد - المصدر الجهاز الهضمي -لا مصادر أخرى مهمة..
2- ارتفاع في حمضية الدم: السبب غير معروف. مطلوب أخذ تاريخ دقيق من الحالة معروفة..
قرأ (هول) المكتوب على الشاشة وهز كتفيه.. إن الكلام سهل دائما.. فكيف - بحق السماء - تأخذ تاريخا دقيقا من مريض في غيبوبة؟!.. على كل حال يمكن طلب تحليل غازات الدم مؤقتا.. لكن الكمبيوتر رفض الاستجابة بعناد.. وكتب:
تاريخ الحالة أكثر أهمية من نتائج المعمل..
كتب (مول) للكمبيوتر: «المريض في غيبوبة» فرد الكمبيوتر على الشاشة:

مؤشرات المريض لا تدل على الغيبوبة..
رسم المخ يظهر موجات (ألفا) المميزة للنوم..
- عليك اللعنة إذن!.
ونظر عبر الحاجز الزجاجي، ليجد أن (جاكسون) يهوم برأسه حقيقة.
أسرع يدخل النفق إلى البذلة البلاستيكية، ثم انحنى المريض وبالفعل فتح (جاكسون) عينيه، ونظر غير مصدق إلى (هول).
- لا تخشى شيئا.. أنا د. (هول).. أعني بك هاهنا.. كنت تنزف بغزارة وتقلنا لك دما..
لم تبد الدهشة على الرجل.. فسأله (هول) وقد أثار هذا ريبته:
- هل حدث لك هذا من قيل؟.
- نعم.. مرتين.. ولكن.. هل معك سيجارة؟
- لا.. التدخين ممنوع هنا
هب الرجل محنقا من الفراش.. وراح يسب ويلعن:
- إن هذا المكان يثير اشمئزازى.. اصغ إلىّ يا (جدع).. لو أنك عشت قدر ما عشته أنا، لأدركت ما يصلح لك وما لا يصلح.. قالوا لي من قبل ألا أقرب الأكل المكسيكي.. لا جعة.. والنتيجة أنني أتدهور..
- من قال لك هذا؟
- الأطباء.. هؤلاء الرعاع في (فينيكس).. منذ عام.. تلك المعدة اللعينة التي في بطني.. دائما هي السبب..
- كانت تنزف؟
- يا الله!.. تنزف بغزارة.. لم يخطر لي قط أن في جسدي كل هذا الدم.. عامان مرا بي في هذا الداء..
- عامان؟.. إذن فالموضوع يتعلق بقرحة وليس سرطانا..

- قال لى هؤلاء الحمقى إنني بحاجة إلى انتزاع هذه المعدة.. كل الأطباء يحاولون فتح (كرشك) وإخراج أشياء.. لكني رفضت.. لقد عشت حياتي بهذه المعدة.. ولسوف أنهيها بها.. لهذا عدت أشرب كل ما هو ضار وأكل كل ما هو ضار.. إنني أعرف علاجي الفعال: الأسبرين.. أنه يشفي معدتي تماما!.

لهذا ينزف الرجل بهذه الغزارة.. إن الأسبرين هو أسوأ ما يمكن أن يتعاطاه مريض القرحة، وربما هذا يفسر حموضة الدم، فالأسبرين هو حمض لا بأس به.. حمض (أسيتيل ساليسلك).

أضاف الرجل:

- هذا كان يريحني بالإضافة إلى بعض العصارة..

- عصارة؟

- نعم.. (السيترنو).. هل تعرف هذا (الهباب)؟

- بالطبع (السيترنو) نوع من أحط المشروبات الكحولية، وهو قادر على إصابتك بالعمى لأنه غنى بالكحول الميثيلى.

- اللعنة.. لقد كان يريحني، لهذا شربته مع الأسبرين.. والآن كف عن الأسئلة قليلا يا (جدع) فأنا بحاجة إلى (تعسيلة)..

رأي (هول) أن الرجل على صواب، فتركه ينعس، ثم خرج إلى الفنية، فطلب منها أن تدخل أنبوبا إلى معدة (جاكسون) لتجري غسيل معدة بالماء المثلج.. وهذا يقلل النزف من القرحة ([4]).. وهنا دق الجرس داعيا إياه إلى مؤتمر عاجل.

∞∞∞∞∞∞

18 - مؤتمر في الظهيرة..

كان بروتوكول (وايلد فاير) يحتم لقاء علماء المشروع كل اثنتي عشرة ساعة، لعقد مؤتمر قصير، يتم أثناؤه تبادل وجهات النظر، ووضع خطط البحث الجديدة..، ولتوفير الوقت تعقد هذه المؤتمرات في الكافتيريا، حيث يستطيع العلماء أن يأكلوا في نفس الوقت..

قال (ستون) للجالسين:

- سنسمع د. (بيرتون) أولا..

شرع (بيرتون) يشرح دراسته للجرثومة ونتائج التشريح، بصوت خفيض متردد قليلا..

بعد هذا جاء دور (هول)، الذي حكى للعلماء نتيجة فحصه للمريضين وأثار ذهولهم حين عرفوا أن (جاكسون) قد أفاق.. كما شرح لهم كيف أن تعاطى الرجل للأسبرين و (السيترنو)، أدى إلى زيادة حموضة دمه.. وقد حاول جسمه مقاومة هذا، بزيادة سرعة التنفس التي تغسل آثار ثاني أوكسيد الكربون من الدم..

ثم إن (ستون) و (ليفيت) عرضا ما توصلا إليه بفحص القمر الصناعي.. وقاداهما إلى غرفة بها..

ميكروسكوب قوى، حيث عرضا عليهما صورة البقعة الخضراء، وكيفية ازديادها في الحجم وتغير لونها..

- يجب أن نواصل البحث..

قالها (ستون) واقتطع قطعة صغيرة من البقعة طالبا من (بيرتون) أن يحللها طيفيا.. كما طلب من (ليفيت) أن يحللها بحثا عن أحماضها الأمينية إن الخلية تتكاثر بسرعة لا تصدق حتى هذه اللحظة..

∞∞∞∞∞

19- سقوط..

كانت المكالمة مرعبة.. أثارت هلع (أرثر مانتشيك)، حيث جلس يطالع الجريدة بعد العشاء، هو الذي لم يقرأ جريدة منذ يومين، بسبب انهماكه في قضية (بيدمونت).. ثم يدق جرس الهاتف، ويسمع صوتا مرتبكا يقول:

- سيدى.. هنا كولونيل (بيرنز) في الوحدة (8).. ثمة حادث سقوط منذ اثنتين وأربعين دقيقة، في (بيج هيد) في (يوتاه).

غريب هذا منذ متى يبلغوني بحادث سقوط روتيني؟..

- ماذا كان نوعها؟

طائرة (فانتوم) يا سيدي كانت متجهة إلى (توبيكا).. طلب منا (جودار) أن نبلغك حتى يمكنك اللحاق بنا..

قطب (مانتشيك) حاجبيه غير فاهم لشيء.. إن (جودار) لهو مركز الملاحة الفضائية خارج (واشنطن).. ماذا هنالك؟..

- سيدى.. لقد مرت الطائرة عبر المنطقة (و. ف).

أحس (مانتشيك) بالخدر يغزو أطرافه: - متى؟. - عشرون دقيقة قبل السقوط.. على ارتفاع ثلاثة وعشرين ألف قدم..

- حسن.. سألحق بكم حالا..

ووضع السماعة شاعرا بالتعاسة.. فهو بحاجة إليّ، لكن المنطقة (و، ف) هي منطقة الحزام الأمني المحيط بـ (بيدمونت) في (أريزونا).. كان يجب أن يلقوا القنبلة.. كان يجب أن يلقوها منذ يومين..

ربما كان سقوط الطائرة عائدا إلى سوء تصرف الطيار.. هذا يحدث كثيرا.. ودائما يكون تقرير لجنة فحص الحطام - إذا لم يتضح السبب هو (فشل النظام) وفشل النظام ينجم دوما عن

فشل الطيار.. لكن شيئا ما يحدثه أن فشل الطيار ليس تفسيرا لما حدث..

∞∞∞∞∞∞∞

جلس في العربية الليموزين المتجهة إلى (يوتاه)، يسترجع ما تردد في التسجيل الذي يدون محادثات الطيار مع مطار (توبيكا)..
ماذا قال الرجل؟.. أولا قال إن هناك خطأ ما..
ثم - بعد لحظة - قال: إن خرطوم الهواء المطاطي يذوب.. إنه يتحلل إلى غبار...
وبعد عشر ثوان قال بصوت خافت: كل ما هو مطاطى يتلاشى..!
وانتهى الاتصال تماما بعدها..
نظر إلى الجبال البعيدة تستحم بأشعة الشمس الصافية.. وتساءل:
- هل أبلغتم (وايلد فاير)؟.
سأله عالم نفساني يجلس في السيارة معه (وكل لجان فحص حطام الطائرات تضم ولا بد عالما نفسانيا):
- هل تعنى علماء الجراثيم إياهم؟.. بالطبع.. أرسلنا لهم رسالة تلكسية منذ ساعة.
وخطر د (مانتشيك) - في ضيق - أن هؤلاء القوم بالتأكيد لا يقرءون ما يصلهم من رسائل.. لابد أن الأبحاث قد استغرقتهم، فلم يعودوا يعبثون بما تحمله أسلاك (التلكس).. وأفاق من كآبته على صوت قائل يقول:
- ها هو ذا الحطام أمامنا...

∞∞∞∞∞∞∞

حتى هذه اللحظة، مازال (مانتشيك) يشعر بالصدمة كلما رأى حطام طائرة.. القوة المدمرة لكتلة معدنية عملاقة، تصدم الأرض بسرعة آلاف الأميال في الساعة..
هو ذا حطام (الفانتوم) مبعثر عبر ميلين من الصحراء، وفي كل مكان قطع من المعدن المسود الملتوي.. أو المعدن الذي زال طلاؤه.. وجوار قطعة مهشمة من الجناح وجد عظمة.. عظمة أممية من ذراع أو فخذ.. والغريب أنها كانت صقيله بلا قطعة لحم واحدة..
كان المساء قد جاء، وعلى ضوء المصابيح دنا منه أحد علماء الكيمياء الحيوية ضمن الفريق وقال له:
- أسمعت ما قاله الطيار عن ذوبان المطاط؟.. الواقع أنه لم يكن هناك أي مطاط في الطائرة.. بل مادة بوليمرية مرنة قريبة الشبه بالأنسجة البشرية إلى حد مذهل..
- وماذا تستخلصه من ذلك؟
- أستخلص أن هناك شيئا يدور هنا.. وأنا لا أعرف..
- بحق السماء - ما هو هذا الشيء...

∞∞∞∞∞∞



وجوار قطعة مهشمة من الجناح وجد عظمة .. عظمة آدمية من ذراع أو فخذ ..

20- روتين...

ببطء تحول ما يجري في معامل (وايلد فاير) – حيث لا نهار ولا ليل - إلى روتين.. عمل مستمر بلا نهاية، ينام الرجال معه حين ينهكون، ويصحون حين يستردون قواهم.

وقف (بيرتون) جوار مقياس الطيف، المزود بأجهزة أخرى للقياس الإشعاعي والتحليل الحراري، وتصوير البللورات بأشعة إكس..

وكان عمله يتلخص في حرق المادة التي يتم دراستها، ثم يمرر الضوء المنبعث منها عبر مخروط زجاجي، يفكك الضوء إلى خطوط.. وتتم قراءة هذه الخطوط على شاشة لمعرفة مكونات المادة..، وهذه الخطوة الأخيرة تتم عن طريق كمبيوتر حساس..

لكن هذه العملية بطيئة.. ربما استغرقت ساعتين أو أكثر.

وفي غرفة مجاورة، كان (ليفيت) يقوم بتحليل الأحماض الأمينية للبقعة الخضراء، التي وجدوها في القمر الصناعي..، إن عدد الأحماض الأمينية المعروف هو 24 حمضا.. وتتكون البروتينات من سلسلة من هذه الأحماض الأمينية، التي يحدد ترتيبها نوع هذا البروتين.. هل هو جزيء هيموجلوبين، أم إنسولين، أم هرمون آخر..

لقد احتاجت هذه الجملة القصيرة عشرين عاما من البحث المضنى لاكتشافها..

ثم بعد ذلك تلتف سلسلة البروتين حول نفسها، بطريقة خاصة جدا لتؤدي عملها.. هذه الجملة احتاجت عشر سنوات أخرى..

من المستحيل وجود حياة دون بروتين..

ولكن هل هذه البقعة تحوي بروتينا حقا؟.. ماذا لو كانت لا تحوي بروتينا، ومع ذلك هي حية؟!
إن علم الأحياء - كما قال (جورج وولد) - هو علم فريد من نوعه، لأنه لا يستطيع تعريف موضوعه!.. بالفعل..
ما معنى كلمة حياة؟.. صحيح أن هناك تعريفا عتيقا يقول:
الحياة هي القدرة على الأكل والإخراج والتناسل... إلخ.
لكن التعريف الحالي الأكثر دقة هو: الحياة هي القدرة على تحويل الطاقة، تحويل الطعام أو الضوء إلى طاقة حرارية، صحيح أن الفيروسات لا تفعل هذا.. لكن الفيروسات منذ اكتشافها - تقف في المنطقة الفاصلة بين الموت والحياة...
في ذات الوقت، كان (ستون) يضع قطعة من المادة الخضراء فوق بلاستيك ذائب.. ثم انتظر حتى غمرت تماما، بعدها غطاها بمزيد من البلاستيك.. إن إعداد العينات الميكروسكوب الإلكتروني فن معقد حقا.. لقد احتاج إلى خمس سنوات كى يجيد هذا العمل بعد هذا يضع البلاستيك في درجة حرارة 61 مئوية، ورطوبة 10 ٪ بعد هذا يقطع شريحة صغيرة من المادة بالميكروتوم.. ويفحصها في قوة تكبير لا تقل عن ستين ألف مرة..
كان (هول) في ذلك الوقت، يتأمل أجهزة التدمير النووي في الردهة.. وعندها خمسة، كل منها في حجم صندوق السيجار الفضي.. وبه ثقب مفتاح وضوء أخضر صغير..
لو حدث تلوث عام، يستشعر الجهاز ذلك بوساطة المسح الحيوي فيطفئ الضوء الأخضر وينير الأحمر بشكل متقطع.. أي أن هناك ثلاث دقائق قبل الانفجار.. ما لم بس هو مفتاحه ليغلق النظام..
لكن هناك مشكلة صغيرة..

في حالة حدوث تلوث، تهبط أبواب عازلة لتفصل الجزء الملوث عن باقي المبني.. فلو كان (هول) معزولا في تلك اللحظة عن أجهزة التدمير، فلن يصل بمفتاحه إلى الجهاز في الوقت المناسب..
كان هذا خطأ في التخطيط.. خطأ لا يمكن تصحيحه..

∞∞∞∞∞

صحا (ليفيت) من نومه، فنهض من الفراش ونظر الى الساعة..
إنها الساعة (2200) بلغة الجيش، أي العاشرة مساء بلغتنا..
حان الوقت إذن.. ارتدي ثيابه على عجل.. كانت باردة تماما لكنها صارت دافئة بعد ثانية واحدة..
رفع عينيه إلى الساعة فوجدها (2210) ...
يا للسماء!.. مرة أخرى يحدث هذا له؟.. أين ذهبت الدقائق العشر؟.. كل ما فعله هو أن ارتدي ثيابه..
لا يمكن أن يستغرق هذا منه أكثر من نصف دقيقة.. حاول أن يتذكر.. لكن سدى...
إن هذا مخيف.. هل يخبر الآخرين؟.. لا.. لا داعي لذلك.. إنه على ما يرام، وليس له أن يخشى شيئا..
هل يخبر (ستون)؟.. حتما لا.. سيهدم هذا مستقبله بالكامل، ويؤثر على ثقة الناس به.. بل لن يسمح له أحد بقيادة سيارته..
فليبق الأمر سرًا.. سيكون على ما يرام ما دام يتحاشى النظر إلى الأضواء الوامضة...

∞∞∞∞∞

في حجرته لم يستطع (ستون) النوم..

ثمة فكرة ما تطارده.. شيء ما يتعلق بالطيور الجارحة، التي كانت تحوم حول الجثث في (بيدمونت)..

كان قد نسي أمرها تماما، لكن الذكرى عادت إليه الآن..

شيء ما قاله (هول) اليوم يتعلق بكيفية ما – بطيور (بيدمونت).. ولكن أي شيء؟

إن مفاتيح اللغز كلها هنا.. لكنه غير قادر على الحفر ليصل إليها..

ككل العلماء العباقرة، كان (ستون) يتعامل مع عقله بكثير من الشك.. كان يعتبر مخه آلة دقيقة بارعة، لكنها خاضعة لتقلبات مزاجية غير مفهومة لهذا لم يكن يندهش حين تفسد هذه الآلة، وإن كان يخشى تلك اللحظات كثيرا...

تنهد ونظر إلى الساعة..

كانت (2340)..

إذن حان الوقت لمؤتمر منتصف الليل..

∞∞∞∞∞∞

21- مؤتمر منتصف الليل..

كان واضحا من العيون المحمرة المتفتحة، أنهم جميعا لا ينالون كفايتهم من النوم.. وقال (ستون): - أرى أنه لا داعي لإرهاق أنفسنا.. إن الرجال المتعبين يرتكبون أغلاطا سواء في التفكير أو التنفيذ.. لنعمل بتراخ أكثر، ونحاول أن يظفر كل منا بست ساعات نوم على الأقل يوميا..

وافق الآخرون، خاصة وأنه لا داعي للعجلة.. فهم واثقون بأن القنبلة الذرية قد (كوت) العدوى في (بيدمونت) منذ يومين..

وهنا اقترح (ليفيت) أن يطلقوا اسما على الجرثومة وبعد جهد اتفق الحاضرون على تسميتها (سلالة أندروميدا).. ثم إنهم شرعوا يتأملون جهاز (التلكس) الذي يقعقع طيلة اليوم في ركن الغرفة كانوا جميعا منشغلين، فلم يكلف أحدهم نفسه بقراءة المكتوب على الورق الذي يخرج من الجهاز..

لكن (ليفيت) رأي رسالة أثارت اهتمامه، فاقتطعها وناولها إلى (ستون):

443/1134/ك ك/ي-و/9

ارسال لكل المحطات

تصنيف سري للغاية

طلب بالتوجيه (7-12) تلقاه ن س – كوبرا اليوم.

المصدر فاندنبرج / وايلد فاير

مانتشيك، أرثر - ميجور - ولايات متحدة.

لم يتم تنفيذ التوجيه

تم التأجيل 48 ساعة

لا ملاحظات.
انتهى
لم يصدق العلماء عيونهم.. ولثوان لم يقل أحد شيئا..
ثم طلب (ستون) القيادة ليفهم ما حدث..

∞∞∞∞∞∞

بعد عشر دقائق، سمع (ستون) صوت (روبرتسون) رئيس مستشاري الرئيس الأمريكي العلميين.. كان يتكلم من (هيوستن)
ظل (ستون) يتكلم بضع دقائق، مستعملا عبارات حادة.. ومناقشة ساخنة حول سبب إحجام الرئيس عن تنفيذ التوجيه (7 - 12) ...
- الرئيس لا يثق بالعلماء - فستر (روبرتسون) - ولا يرتاح معهم..
- إذن فواجبك كان يحتم أن تجعله يرتاح معهم..
- (جيريمى).. أنا أوافقك على أن القنبلة كان ضروريا أن تلقى.
- إذن ابق مع الرئيس.. أقنعه.. فلربما كان الأوان قد فات..
- إن الحرس الوطني يحاصر المكان، فلا تقل....
- لعمري هذا هو الغباء بعينه.. إن الريح هناك تأتي من الشرق.. ولسوف يبدأ رجالكم في الموت غربا.. عندما يموت أول جندي، أريد معرفة كيف ومتى - والأهم - أين؟
حاول الرجل تهدئة (ستون)، فحكى له عن حادث الطائرة الفانتوم، التي سقطت قرب نطاق الأحداث، ووعده بأن يوافيه بالجديد عن هذا الحادث..
وانتهت المحادثة عند هذا الحد..
إلا أن (ستون) جلس يطالع كل ما كتبه التلكس.. في صبر يحسد عليه حقا..

∞∞∞∞∞

اليوم الرابع

الانتشـار

22- التحلــيل..

نظرا لضيق الوقت، صار تحليل الأحماض الأمينية ذا أهمية قصوى بالنسبة للفريق.. فمن المأمول أن يكشف النقاب عن أسرار (أندروميدا)، التي تهدد الأرض تهديدا مروعا..
كان الكمبيوتر قد فرغ من تحليل العينات أمام (ليفيت) و(بيرتون).. ووجد العالمان أن البقعة الخضراء، تتكون من ذات العناصر الأرضية:
الهيدروجين - الكربون - النتروجين – الأكسجين..
ثم جاء دور الأحماض الأمينية:

جليسين 00
ألانين. 00.00
فالين. 00.00
إلخ

- يا للسماء!
- لا أحماض أمينية!.. لا بروتين..
- حياة بلا بروتين!.. إن أسوأ مخاوفي قد تحقق!
لقد أدرك العالمان أنهما يتعاملان مع كيان غريب تماما...

∞∞∞∞∞∞

وفي غرفة الفحص، جلس (ستون) يعد العينة التي كان قد وضعها في البلاستيك.. يقطعها بالميكرتون في ضوء فضي، يسمح له برؤية الشرائح أكثر سمكا مما هي عليه..
وفي النهاية وضعها - العينة - على مقياس نحاسي أدغمه في الميكروسكوب الإلكتروني، الذي يستعمل الإلكترونات بدلا من

الضوء، ويستعمل حق مغناطيسيا بدلا من العدسات..
والميكروسكوب الإليكتروني يشبه - في مبدأ عمله - جهاز التليفزيون إلى حد كبير وكلاهما يستخدم ذات الشاشة تقريبا.
لكن مشكلة هذا الميكروسكوب هي:
أولا: أن داخله يجب أن يكون مفرغا من الهواء تماما، مما يجعل من المستحيل فحص كائنات حية..
ثانيا: تقتضي الحاجة أن تكون عيناته غاية في الرقة مما يجعل عسيرا أن ترى صورة ثلاثية الأبعاد واضحة..
كان (ستون) يعرف كل هذا حين أدار مضخة التفريغ، وقام بضبط الشعاع.. وبعد ثانية رأي على الشاشة شكلا سداسيا يتداخل مع سداسيات أخرى.. كان المنظر دقيقا هندسيا لم يعتد أن يراه بين أشكال الحياة الأرضية.. كأنه بللورة..
ولكن دعوا (ليفيت) ير هذا المشهد.. ولسوف يصيبه الذهول..
وجاء (ليفيت) ليقول في مرح:
- هذه هي الإجابة.. كيف يمارس هذا الكائن حياته دون أحماض أمينية..
وأشار إلى الشاشة:
- لابد أن الكائن مسدس.. وكل وظائفه الحيوية تفصلها هذه السطوح السداسية المتعددة عن بعضها..
وتذكر (نظرية الرسول) التي قدمها (جون صمويل) - مهندس الاتصالات - أمام المؤتمر السنوي الخامس لأبحاث الفضاء..، كانت هذه النظرية تناقش الطريقة المختارة، التي يمكن لكائنات فضائية، أن تتصل بحضارات أخرى بعيدة عنها بها..، وكان ضمن ما قال:
- هب أن حضارة ما تحاول اختراق الكون.. كيف تفعل ذلك؟.. بالراديو؟.. مستحيل.. فهي وسيلة بطيئة تتحلل موجاتها

بسرعة.. وتزداد ضعفا التليفزيون أكثر سوءا..، حتى لو حاول المرء أن يفجر نجما كاملا كإشارة ضوئية.. فالمشكلة واحدة، وهي نقص القوة كلما طالت المسافة.. لأن الطاقة المشعة تتناسب عكسيا..
مع الأس الرابع لنصف القطر تلكم حقيقة فيزيائية لا تدحض..، إذن ما يمنا عاجزين عن استعمال الطبيعة، فلنستعمل الأحياء.. نصمم كائنا يحمل الرسالة في شفرته الوراثية، ويتكاثر بلا حدود، ويحافظ على قوة الرسالة.. يمكنك أن تبعثر هذا الكائن في الفضاء، ونتركه ينقسم وينقسم.. وبعد أعوام ستكون هناك ملايين البلايين من هذا الكائن، يحملون رسالتك عبر الكون..
كانت نظرية مسلية عسيرة التصديق.. لكن (ليفيت) لم يستطع أن ينساها.. وعادت إلى ذهنه بقوة في هذه اللحظة..
واتجه العالمان إلى وحدة تصوير البللورات بأشعة (إكس).. وهي أكثر الطرق تقدما وتعقيدا، لتحليل التراكيب في علم الأحياء المعاصر وهي طريقة أكثر دقة وعمقا من الميكروسكوب الإلكتروني.. لكنها كذلك تكلف وقتا ومالا أكثر..
وكما قال عالم الأحياء (ر. أ. جانك) فإن زيادة قوة التكبير، تؤدي إلى زيادة أكبر في التكاليف!.. أي أنك لترى الشيء أكبر مائة مرة، تنفق مالا أكثر بألف مرة، مما كنت ستنفقه لو استعملت عينيك فقط..!

∞∞∞∞∞∞

- هل تستطيع تعرف هذا الرضيع يا مستر (جاكسون)؟.
نظر العجوز الراقد في الفراش إلى الصغير.. وغمغم لـ (هول):
- لابد أنه ابن (ريتر).. (جيمي ريتر).. عمره شهران. – بالضبط..

- إنه لمزعج مثل (ريتر) العجوز.. يحب أن (يعارك الذباب على وجهه) سليم الجسم كالجاسوس البري، لكنه دائم الصراخ والعواء.. كان يصرخ بعنف في تلك الليلة..
- أية ليلة؟
- ليلة أحضر (شارلى توماس) ذلك الشيء اللعين إلى البلدة.. رآه يهبط خارجها والأنوار تنبعث منه، فأحضره إلينا.. في عربته (الفورد).. عربة جديدة (لنج) وهو
فخور بها..
- ثم ماذا بعد ذلك؟
- وقفنا ننظر للشيء متسائلين عما إذا كان قمرا صناعيا قادما من المريخ.. أم هو شيء من هذه الأشياء التي يرسلونها للفضاء؟.. أنت تعرف ما يفعله هؤلاء (الجدعان) في (فلوريدا).. إنهم يقذفون صواريخ إلى الفضاء (على طول.. المهم.. ظللنا نتشاور، حتى اقترح (شارلي) أن نأخذها للدكتور (بندكت)، فهو متعلم ويفهم في هذه الأمور.. وكانت السابعة والنصف حين أخذها (الدوك) إلى منزله.. ووقفت مع (آل) تثرثر جوار طلمبة البنزين.. كانت معدتي تؤلمني فشربت (حبه) من العصارة.. وفجأة أمسك (آل) برأسه وصرخ، وجرى في الشارع، ثم سقط بلا كلمة..، وبعدها رأيت الجميع يغادرون ديارهم، ويسقطون على الأرض.. وبلا كلمة..، أصابني الذعر، وأخذ قلبي العجوز يتواثب في صدري..
وفجأة رأيت صديقي الجنرال - اسمه (بيتر أرنولد) - مرتديا ثيابه العسكرية، التي لم يرتدها منذ سنوات.. كان واقفا على باب داره يصرخ: لقد عاد اليابانيون...
غارة...، سألته: (بيتر).. هل (طار برج من نافخوك؟).

لكنه لم يرد ويخل داره.. وعرفت أنه ضرب رأسه بالرصاص.. نعم لابد أنه (برج طار من نافوخه)..
وسمعت صوت سيارة في العاشرة مساء.. خرجت لأرى راكبها، فوجدت رجلين يتحشرجان بداخلها ويموتان..
اللعنة!.. يا له من رعب!.
ثم تثاءب وقال ل (هول)
- والآن.. هلا تركتني (أعسول) قليلا؟.. لقد أنهكني الكلام..
.. هر (هول) رأسه.. وتراجع خارجا من النفق.
ووقف خارج الزجاج يرمق الرجل الغافي في شرود..

∞∞∞∞∞∞

23 – توبيـــكا..

كان الحطام كله قد تم جمعه في قاعة واسعة ب (توبيكا)، وراح الفنيون يدرسونه بعناية
والملاحظة التي أبداها أحد خبراء الكيمياء الحيوية، هي أن الأجزاء المصنوعة من البوليمر ([5]) الشبيه بالبلاستيك كلها قد تفككت..، وهذا يعني وجود تفاعل عضوى ما.. ربما أحدثته باكتريا غير معروفة..
أثار هذا اهتمام (مانتشيك).. لماذا لم يرد علماء (وايلد فاير) على خبر سقوط الطائرة الفانتوم؟ واضح أن له علاقة قوية بما هم عاكفون على دراسته.. لم يستطع الفهم قط...

∞∞∞∞∞∞

وفي نفس الوقت أثار (هول) نقطة هامة: لماذا أصيب بعض المرضى بالجنون دون سواهم؟.. هل هذا يعني إصابة مخية ما؟
وبالفعل عاد (بيرتون) إلى تشريح جثث الفئران التي منع بها من التجلط، قبل إصابتها بالعدوى.. وكان أن وجد شرايين مخها في حالة نزفية مريعة..
إذن فخلية (أندروميدا) تبدأ بإحداث تجلط في رئة الأصحاء.. والا اتجهت إلى شرايين مخهم لتحدث نزفا، إذا ما وجدت تجلطهم على غير ما يرام، والتجلط يكون على غير ما يرام بفعل العقاقير.. بفعل أمراض الكبد بفعل سوء الامتصاص.. بفعل عشرات الأسباب التي يمكن أن تكون موجودة، لدي من فقدوا عقولهم قبل الوفاة..
لكن المشكلة لم تحل بعد..

لماذا احتفظ الرضيع والعجوز بقواهما كاملة، ولم يصبهما شيء؟.. إن كليهما لا يعاني عيوبا في تجلط الدم..
ولن يمضي وقت طويل قبل أن يعرفا التفسير..
يعرفاه بعد فوات الأوان...

∞∞∞∞∞∞

24- التقيـــيم..

ذات مرة قال سير (ونستون تشرشل):، العبقرية الحقيقية، تكمن في القدرة على تقييم معلومات غير مؤكدة وخطرة ومتعارضة..
وبرغم أن (وايلد فاير) كان يضم نخبة من ألمع العقول، فإن أفراد المشروع أساءوا الحكم على المعلومات في عدة نقاط..
لقد كانت هناك بقعة عمياء في تفكيرهم.. وكما قال (ستون) فيما بعد:
- كان تفكيرنا متعلقا بالمشكلة.. كل ما فعلناه وفكرنا فيه، كان بقصد العثور على حل وعلاج السلالة (أندروميدا).. وكنا مركزين تفكيرنا على ما حدث في (بيدمونت)، ظانين أننا - إن لم نجد حلا – لواجدون العالم كله وقد تحول إلى (بيدمونت).
وكانت بداية الأخطاء مع المزارع الباكتيرية:
كان على (ليفيت) و (ستون) أن يستخدما برنامج (ترانسماتركس) لتحليل نتائج المزارع.. وكان هذا البرنامج يزن كل طبق (بترى)، باحثا عن زيادة في وزنه، ثم يفحصه بعين إلكترونية حساسة.. واتضح لهما أن أفضل نمو يحدث في الأشعة فوق البنفسجية، مع تركيز 100 ٪ ثاني أوكسيد الكربون، وعلى أي وسط مختار..
لاحظا كذلك. حين درسا دوائر النمو المغلقة – أن الباكتيريا تستهلك الغازات الموجودة في البيئة، لكنها لا تخرج شيئا من أي نوع..، وهو تكيف ملائم للحياة في الفضاء الخارجي.. باكتريا تستهلك كل شيء ولا تفقد..
وهنا خطرت الفكرة المروعة لكليهما في ذات الوقت - يا إلهي الرحيم!

وهرع (ليفيت) إلى الهاتف، يحاول طلب (روبرتسون) حالا..
- لو أن هذا الشيء يحول المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة.. فهو
- إذن - يعمل كمفاعل نووي صغير!
- ولو أن انفجارا ذريًا حدث له عندئذ...!
- أرجو ألا نكون تأخرنا..
وحين سمعا صوت (روبرتسون) المنهك على الهاتف، صاحا فيه في نفس الوقت:
- اسمع!.. يجب إلغاء التوجيه (7 - 12) حالا.. لاكى..
وشرحا للرجل المذهول، أن معنى الانفجار الذرى هو تقديم وسط غذائى رائع لخلية (أندروميدا).. سيتكاثر الكائن بلا حدود..
قال (روبرتسون):
- سأبلغ هذا للرئيس.. سيسره أن يعلم أنه أصاب حين أجّل التوجيه (7 - 12)..
- تستطيع أن تهنئه على بصيرته العلمية!.
ثم إن (روبرتسون) أخبرهما أن الحرس الوطني، في النطاق المحيط ب (بيدمونت) بخير، ولم يمت أحد، كما أخبرهما عن موضوع البوليمر المتأكل في طائرة الفانتوم إياها.. وعن قطع العظام النظيفة التي وجدوها هناك..
وحين انتهت المكالمة، رأى العالمان أن الأصوب هو تعريض فأر آخر للباكتيريا، للتأكد مما إذا كانت قد تحورت أو تحولت إلى شيء آخر.. وكادا يبدآن هذا لكن صوت امرأة دوى من مكبرات الصوت ينادى (ليفيت):
- د. (ليفيت) لقد قمنا بدراسة رسم المخ الخاص بك.. وأعتقد أن هناك خطة ما.. لكن...
تساءل (ليفيت) في قلق:
- ماذا هناك؟

- إن رسم مخك من الدرجة الرابعة.. غير طبيعى.. نحتاج إلى واحد آخر..
في حنق صاح (ستون):
- بالتأكيد هناك خطأ - وأمسك بمكبر الصوت – سيعيد د. (ليفيت) رسم المخ حين يكون عنده ما يسمح من الوقت..
- أمرك يا سيدى.
وتأبط (ستون) ذراع (ليفيت)، ليريا مقا نتائج تصوير البللورات بأشعة إكس.. وكان هذا قرارا غير موفق.. لقد نسيا تماما موضوع تعريض الفأر للباكتيريا، ولو فعلا نلك لعرفا أن أفكارهما كانت مشوهة.. وأنهما يسيران في الطريق الخاطئ..

∞∞∞∞∞∞

25 - النطاق..

فجأة دوى رنين جرس الإنذار.. وراح الضوء الأصفر يتألق..
وفي الردهة راحت الإشارة تتوهج، مبينة مكان المشكلة: (التشريح).. وإذ هرع (هول) إلى هناك ورأى ذلك، أيقن أن النطاق العازل تهشم بشكل ما وحدث تسرب..
وخرجت الفنية المساعدة له، تتساءل عما يحدث فقال لها:
- (بيرتون).. حدث تسرب للعدوى.
- وهل هو بخير؟.
- أشك في هذا..
ولحق بهم (ليفيت) يجري عبر الممرات بمرونة فائقة.. حين فجأة تصلب.. راح يرمق الضوء المتألق دون استجابة.. وأدرك (هول) على الفور أنه ليس على ما يرام..
كان واقفا مفتوح العينين ذاهلا عن كل شيء.. مرر (هول) كفه أمام عينيه فلم يبد حراكا.. وعندئذ فهم (هول) الأمر.. لماذا كان (ليفيت) يتجنب الأضواء المتراقصة طيلة الوقت..؟
- الوغد... لم يجد وقتا أفضل..
وقبل أن يفسر للفتاة المذعورة شيلا دار حول (ليفيت)، وأمسك به، ثم طلب منها أن تغطي عيني الرجل حتى لا يرى الضوء..
وفي اللحظة التالية هوى (ليفيت) أرضا.. وشرع جسده يهتز بعنف.. وأطبق على أسنانه وأصدر صرخة..



وفي اللحظة التالية هوى (ليفيت) أرضا وشرع جسده يهتز في عنف ..

فقال (هول):

- اذهبي إلى الصيدلية فأحضرى 100 مجم (فينوبا ريبتون) في محقن.. سنحقنه بالديلانتين فيما بعد إذا استدعى الأمر ذلك..

كان (ليفيت) يعوى بين أسنانه كحيوان مكبل.. فما إن عادت الفنية، حتى حقن العقار في ذراع (ليفيت).. ثم أمرها أن تبقى معه، وهرع إلى غرفة التشريح..

∞∞∞∞∞∞

حاول أن يفتح الباب دون جدوى.. لقد أغلق الباب بإحكام لمنع انتشار التلوث..

وفي غرفة التحكم الرئيسي، وجد (ستون) ينظر إلى (بيرتون)، عبر شاشة دائرة تليفزيونية مغلقة.. كان الذعر ظاهرا على هذا الأخير.. يتنفس بسرعة.. شاحب اللون.. بدا بالضبط كما هو: رجل ينتظر الهلاك، كى يطيح بعنقه بمنجلة الدامى...

قال (بيرتون) على الشاشة:

- أنا مذعور!.. مذعور!

قال له (ستون) بلهجة حانية:

- ستكون على ما يرام.. نحن نعرف أن (أندروميدا) لا تطيق الأوكسجين، ولهذا بدأت في ضخ أوكسجين نقى إلى الغرفة...

ثم نظر نحو (هول) معاتبا:

- لماذا تأخرت في المجيء؟.. أين (ليفيت)؟

- أضواؤكم تلتمع ثلاث مرات في الثانية.. لهذا أصيب بنوبة صرعية صغرى، ثم صارت نوية كبرى.. انقباضات عضلية.. وتبول لا إرادي.. حقنته (بالفينوباربيتون) وجئت.

- (ليفيت) مصاب بالصرع؟

قالها (ستون) وبدأ يتذكر أشياء:

- نعم.. لهذا كان رسم المخ غريبا.. ولهذا كان يتجنب الأضواء المتقطعة، التي تبدأ النوبة.. لقد كان يعرف..

كان يعرف مرضه.

- قل لي كيف حدث التلوث؟

- كان محتا أن يحدث.. كل وحدات العزل يحدث بها تسرب عاجلا أم آجلا.. هناك الكثير من المطاط، والكثير من كيت وكيت.. كل هذا لابد أن ينهار في لحظة ما..
لم ير (هول) الأمر بهذه البساطة.. وعلى كل حال لقد مرت أربع دقائق، ومازال (بيرتون) حيا يرزق.. هل هو الأكسجين؟
قال (ستون) وقد فهم ما يرمي إليه (هول):
- لا يوجد أكسجين يضخ إلى الغرفة.. كنت أخدعه ليطمئن!
وهنا سمعا (بيرتون) يصيح:
- اسمعا... أريد منكما أن تجربا (الكالوسين)
هتف (ستون) مشدوها:
- لا.. ليس (الكالوسين).. نحن لا نجرؤ على ذلك!

∞∞∞∞∞

كان (الكالوسين) واحدا من أكثر العقارات سرية في العقد الأخير.. ابتكرته شركة (جنسن) في ربيع 1965، وأطلقت عليه الاسم: يو - جى – 44759 - و، وقد لاحظت أنه يوقف نمو الحيوانات الصغيرة عند حد معين.. وبالمزيد من التجارب تبين أن العقار، يوقف تحول الخلايا إلى سرطان.. بالذات في السرطانات التي تسببها الفيروسات..، ثم تبين أن العقار يقتل الفيروسات جميعا، وكذا الباكتيريا والفطريات..، وكافحت الشركة بعنف كى تعمم الدواء، لكن معارضيها - ومن بينهم (ستون) - تنبئوا بفشل هذا العقار.. إن مناعة الإنسان مبنية على تعرضه الدائم للجراثيم عبر القرون، فلو قضينا على كل
الجراثيم مرة واحدة، لانهار الجهاز المناعي للجسم فورا وما عاد قادرا على مقاومة شيء..

وأثبتت التجارب صدق رأي (ستون).. وتم منع العقار..
والآن يريد (بيرتون) أن يعطوه (الكالوسين)!!
التفت (ستون) نحو (هول) وقال:
- ابدأ ضخ الأكسجين.. إن المسكين مذعور حتى الموت.
قرعت العبارة جراما في عقل (هول): مذعور حتى الموت.. لقد أصاب (ستون) شيئا بالغ الأهمية.
إن حل القضية يكمن في هذه العبارة.

∞∞∞∞∞∞

26 - مذعور حتى الموت...

من الصعب عليه أن يفكر بمنطقية.. لقد فقد يقينه السابق بأن الحل دان.. عقله يدور في حلقات مجنونة..

وقف يرمق العجوز النائم وجواره الرضيع..

«مذعور حتى الموت.. هذه هي الإجابة.. لنفكر بشكل علمى.

العجوز يحسو (الستيرنو) الذي يجعل دمه حمضيا والصغير؟.. ماذا عنه؟.. ماذا يجعل يمه حمضيا؟..

دائما يصطدم بالصغير.. فهو سليم تماما.. ودمه غير حمضي..

فلتناقش الأمر بهدوء: رجل مصاب بحمضية الدم فكيف يتصرف؟.. سيتعامل جسده مع الحمض عن طريق سرعة التنفس.. ولسوف تغسل الرئتان ثاني أكسيد الكربون من دمه..

(أندروميدا) تهاجم الرئتين.. تحدث تجلط دم بهما ثم ينتشر وتحدث الوفاة.. الدم الحمضي - ربما - يمنع (أندروميدا) من العمل...

لكن الرضيع ليس ذا دم حمضي.. هو يبكي طيلة الوقت.. يتنفس سريعا.. هذا يجعل دمه قلويا.. أي العكس تماما..

كان الرضيع قد صحا من نومه، وشرع يصرخ وقد احتقن وجهه.. مذعور حتى الموت هو...

ثم.. لماذا عاشت الطيور ذات معدل التمثيل العضوي العالى؟.. لماذا لم تمت ضحية ل (أندروميدا)؟

إن رأسه يوشك على الانفجار.. بينما (بيرتون) يموت.. يموت..

∞∞∞∞∞

فكر أين كان سيكون في لحظة كهذه؟.. بالطبع يقود سيارته عائدا إلى داره في (سانتامونيكا).. السيارات تتدافع حوله بعضها سريع وبعضها بطيء..
عليك أن تكون حذرا.. السيارات الأسرع منك خطرة..
والأبطأ منك أشد خطرا.. و... لقد كنت أحمق!..

∞∞∞∞∞

فيما بعد أطلق (هول) على تشخيصه اسم (تشخيص الطريق السريع).. والمبدأ بسيط.. بسيط وواضح تماما..
وحين جلس أمام الكمبيوتر طالبا برنامج (النمو) كان منفعلا يقرع المفاتيح الخاطئة دوما..
وكان عليه تكرار كل كلمة عدة مرات أخيرا - على الشاشة - رأي ما أراد..
«نمو خلية (أندروميدا) وعلاقته بالرقم الهيدروجيني للحمضية – القلوية» أن النتائج واضحة: خلية (أندروميدا) لا تنمو إلا في نطاق ضيق جدا من الحمضية - القلوية - لو كان الوسط حمضيا لا تنمو.. ولو كان قلويا لا تنمو..
الرقم الهيدروجيني الملائم لها هو 7.39 إلى 7.43 - كل شيء على ما يرام!.. لقد انتهت مشاكلنا جميعا..
ولم يدر إلى أي حد كان مخطئا..

∞∞∞∞∞

27 – الأختبـــار..

جرى (هول) إلى غرفة التحكم، وطلب من (ستون) أن يوقف ضخ الأوكسجين..
كان واضحا أن الأوكسجين قد بدأ يؤثر على (بيرتون)، ويبطئ سرعة تنفسه وحركة صدره، أمسك (هول) مكبر الصوت:
- هنا (مول) يا (بيرتون).. لقد حصلت على الإجابة.. إن (أندروميدا) لا تنمو إلا في نطاق هيدروجيني ضيق.. أريد منك أن تتنفس بسرعة التدخل في قلوية دم تنفسية.
- لكن هذا أوكسجين نقي.. لو تنفست بسرعة سأقضي نحبي، إستدار (هول) نحو (ستون) وطلب منه زيادة أول أوكسيد الكربون هذا هو الحل الوحيد.. يجب أن
يصير دم (بيرتون) قلويا..
كان هذا هو الجواب الوحيد بالنسبة للرضيع.. فهو دائم الصراخ، لأنه (مذعور حتى الموت).. لهذا صار دمه قلويا أكثر الوقت..
ثم شرع يبحث في المعمل عن شيء يمكنه أن يجعل دم (بيرتون) قلويا.. فالرجل لن يظل يتنفس بسرعة كهذه للأبد.. سينهك حتما.
كان عاكفا على البحث حين....
حين التمعت الأضواء، وظهرت رسالة على شاشة الكمبيوتر:
عملية تحلية في الممر ف - 112- 6886
نظر (ستون) للشاشة وغمغم:
- شيء ما خطأ.. هذا الممر من ممرات القلب.. ويربط كل المعامل.. وهنا واصل الكمبيوتر ذكر تسع ممرات أخرى

تتحلل..
ونظر (هول) إلى (ستون) وهتف كأنما يكلم نفسه:
- الرضيع!.. كان هذا هو الحل.. إن الرضيع لا يبكي طيلة الوقت، ومعنى هذا أن تفتك به (أندروميدا) متى هدأ صراخه.. لكن هذا لم يحدث..
- ربما هو نوع من المناعة....
- مستحيل!.. هناك احتمالان... الاحتمال الأول: هو أن الجرثومة لم تعد هناك.. اختفت، والاحتمال الثاني: هو أنها تحورت..
- أي حدثت لها طفرة..
- نعم.. تحولت لطور غير معد.. ربما - وهذا مؤكد - تحولت إلى جرثومة تغتذى على المطاط..
- مثل هذه الطائرة.. والممر المطاطي عندنا.
- إذن ف (بيرتون) لا يواجه خطرا.. إنه حي ليس بفضل تنفسه، ولكن بفضل أن (أندروميدا) لم تعد قاتلة..
وهنا ظهرت على الشاشة رسالة جديدة:

كفاءة الممر: صفر.. المستوى (5) ملوث ومغلق

صاح (ستون) في (هول):
- أسرع من هنا.. اذهب للقطاع الأخر حيث نجد أجهزة تفجير يمكن أن تعطلها..
لم يفهم (هول) في البداية ما يعنيه (ستون).. ثم تذكر.. نهض مسرعا نحو القطاع الآخر، لكن لوحا عملاقا من الصلب هوى من أعلى ليسد الممر أمامه..
وسمع (ستون) يصيح دون انفعال حقيقى:
- انتهى!.. لقد حبسناها هنا!

وراح صوت ميكانيكي يتردد:
- هذه حالة طواري.. المستوى مغلق.. المستوى مغلق.
وبعد هنيهة دوى صوت مس (جلاديس) من (أوماها).. صوت رخيم ناعم يقول برزانة:
- ثلاث دقائق على التفجير الذاتي النووي..

∞∞∞∞∞∞

28 - ثلاث دقائق..

بدأ صوت صفارة إنذار بتعالي.. وتوقفت كل الساعات، وأضاءت بضوء أحمر، مع علامة خضراء على لحظة التفجير
تأمل (هول) المفتاح في يده وتساءل:
- كيف أغادر هذا المستوى؟
- لا طريقة.. لقد أغلقت كل الطرق بإحكام.
- وماذا عن القلب؟.. إنه يتصل بكل المستويات..
- لكنه مؤمن بوسائل دفاعية، تطلق غاز (الليجامين)
السام.. وأسلحة أوتوماتيكية تقنف (الليجامين).. الهدف كان منع الحيوانات الفارة من المعمل، من الاختباء في القلب المركزي..
دقيقتان وخمس وأربعون ثانية على التفجير الذاتي النووي.
بلف (هول) إلى المعمل داخلا في بدلة بلاستيكية، ثم استدار ومزقها بالسكين.. فصار حرا يتنفس الهواء المفعم - حتما بخلية (أندروميدا).. وفي الطرف الآخر، كان الممر المطاطي المؤدي إلى القلب..
كان أمله الوحيد، ألا تكون جرعة (الليجامين) سامة للإنسان.. فمن المنطقي أن العلماء أعدوها لحيوانات لا تزن أكثر من عشرة كيلوجرامات أما (أندروميدا) فهو لم يعد يخشاها..
ودقيقتان ونصف على التفجير الذاتي الثوري مزق (هول) جدار الممر المطاطي بالسكين... ثم دلف إلى الداخل.. إلى الظلام والبرد..
رأي عامودا من الكابلات أمامه.. وعلى الجدار رأي درجات سلم تقود إلى المستوى الرابع.

يجب أن يصعد بسرعة، قبل أن ينطلق الغاز..
فما أن ارتفع بضع درجات حتى وجد دخانا أبيض يغطي الأرضية.. إنه الغاز 1.. يجب أن يكف عن التنفس..
لكنه - على الرغم منه - كان يتنفس بسرعة، من فرط انفعال ومجهود عضلي..
كان (ستون) يرى كل شيء حيث جلس في غرفة التحكم..
وعلى الشاشة رأي صورة (هول) وهو يتسلق.. وسرعان ما رأي على شاشة أخرى قاذفات (الليجامين)، تدور ببطء حول محورها، قاصدة التصويب على الجسم المتحرك، الذي بدا له هشا إلى درجة تثير الإشفاق.. صاح في مكبر الصوت:
- أسرع!.. لقد أحست بك القاذفات!
وعلى الشاشة رأى جسد (هول) يتلقون بالأشعة الحمراء.. إن الكمبيوتر يقيس حرارته بغرض التصويب، وسرعان ما ظهر صليب تصويب على ظهر (هول)..
(هول) الذي راح يتسلق شاعرا بالإرهاق.. وأحس بشيء يصطدم جوار رأسه، ثم ينفجر.. أدرك أن المقذوف أخطأ طريقه..
وفوق رأسه رأي باب المستوى الرابع..
فجأة!.. ألم حارق في كتفه.. لقد نال الكمبيوتر اللعين منه.. لكنه واصل التسلق والخدر يزحف إليه..
«دقيقتان على التفجير الذاتي النووي»..
القذائف مستمرة من حوله.. وكلما أصابته قذيفة كتب الكمبيوتر على الشاشة (إصابة)، ثم يعيد عرض اللقطة بالسرعة البطيئة ثلاث مرات!
وأخيرا وصل إلى الباب وأمسك المقبض.. وفتحه..
«تسعون ثانية على التفجير الذاتي النووي»..
قذيفة اصطدمت بساقه.. فأحس أنها تزن أطنانا..

أغلق الباب وراءه ومشى يترنح.. كل باب يبعد أميالا عن الآخر..
« ستون ثانية على التفجير الذاتي النووي
مشي عبر الممر.. رأى جهاز التفجير على بعد أقدام منه..
«خمس وأربعون ثانية على التفجير الذاتي النووي»..
يا للسخرية!. استعملوا صوتا أنثويا مغريا من أجل طقوس الموت هذه.. كل شيء كان نظيفا أنيقا كما ينبغي له أن يكون.. ها هي ذي حياته تتقرر، بمجرد عبارات في سيناريو تم تسجيلها منذ عامين أو أكثر..
فيما بعد لا يذكر (هول) متى ولا كيف استطاع إخراج المفتاح ودسته في فتحة الجهاز.. ورأى الضوء الأخضر يتألق..
«تم إلغاء التفجير الذاتي»
وعندما سمع الصوت خر ساقطا وسط محيط من السواد..
وغاب عن الوعي تماما..

∞∞∞∞∞∞

اليوم الخامس

الحـلّ

29- اليوم الأخير..

صوت من بعيد:

- إنه يقاومها

- أحقًا؟

- انظر..

وعندئذ سعل (هول)، بينما شىء ما ينتزع من حلقه وفتح عينيه.. كان راقدا في الفراش يتنفس.. بالحق يتنفس..

ووجد فتاة يبدو القلق على وجهها تقول له:

- حمدا لله.. بعد أربعين ثانية.. كانت الزرقة قد غزت وجهك.. وقمنا بإدخال أنبوب قصبة هوائية في حلقك موصلة بجهاز تهوية.

- أفهم أن القنبلة لم؟

- لم..

يدخل عليه (ستون) مهنئا بنجاته ونجاحه.. وقال:

- ما وصلنا يؤكد أن الجرثومة صارت مسالمة.. ولسوف تغادر الأرض عاجلا أم آجلا، لأن الأوكسجين لا يناسبها..، لقد صار كل شيء تحت سيطرتنا.. عندنا (أندروميدا) ونستطيع دراستها كما تشاء.. لقد فحصتها منذ دقائق، ووجدتها قد تحورت.. هكذا نستطيع أن نفهم كل ما حدث، اعتمادا على قوانين الطفرات..

ثم نظر إلى عينى (هول) وكرر عباراته الأخيرة:

- نعم.. يجب أن نفهم..

من الحديث الصحفي الذي أجرى

مع (جاك ماريوت) في مركز

رحلات الفضاء في (هوستون)

س: بعد احتراق سفينة الفضاء (أندروس) في أثناء دخولها المجال الجوي، قرر الكونجرس تأجيل رحلات الفضاء إلى أجل غير مسمى.. فإلى متى يستمر هذا الوضع؟

ج: كما قلنا... إلى أجل غير مسمى..

س: هل لهذا علاقة بقرار السوفييت تأجيل رحلاتهم بعد تهشم قمرهم (زوند - 19)؟

ج: ربما كان الأصوب أن تسأل السوفييت عن ذلك..

س: ذكر اسم د. (جريمى ستون) في لجنة التحقيق.. ما سبب إقحام خبير ميكروبات في الموضوع؟

ج: إن لدينا أسبانيا تجعلنا نقدر معاونته في مواضيع عدة..

س: هل يؤثر هذا على مشروع الهبوط فوق المريخ؟

ج: نحن نعتبر احتراق (أندروس - 5) خطأ علميا.. فشلا في تكنولوجيا النظام.. إن العلماء عاكفون على الدراسة الآن، وصدقني أن القرار ليس في أيدينا نحن، بل في يد العلم..

س: هلا كررت هذه العبارة؟

ج: القرار ليس في أيدينا نحن.. بل في يد العلم.

مايكل كرشتون...
1969

(تمت بحمد الله)

سلالة أندروميدا..

نحن في ورطة حقيقية.. أول أزمة بيولوجية في التاريخ. إن الخلية (أندروميدا) قد جاءت من الفضاء الخارجي: لتنشر الذعر والوباء في الأرض، تعالوا يا سادة إلى معمل (وايلد فاير) المتقدم.. ولنحاول معًا استعمال عقولنا الأرضية لفك هذا اللغز الرهيب..


متميزون
للكتب النصية
E-Book

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

[Link – لينك القنـاة]

الفهرس:

[←1]

(*) ح. ط: حالة طوارئ.

[←2]

(*) من العسير تبين متى ينتهي الخيال ومتى يبدأ ولأن هذه الورقة منشورة بالفعل باسم (ستون).. وكذا باقي أبحاث هذا العالم توجد قائمة بها في نهاية الرواية (المترجم).

[←3]

(*) جدير بالذكر أن هذه الأغنية هي أول ما تم تسجيله على أسطوانة (فونوغراف في التاريـخ، ويبدو أن (كرشتون) يشير إلى هذا..

[←4]

(*) من الطريف هنا أن نلاحظ أن (كرشتون) في ذلك الوقت لم يكن قادرا على تخيل معجزات المناظير، ولم يسمع عن العقارات السحرية الشافية للقرحة..

[←5]

(*) البوليمر: هو تكرار لجزيء واحد مرات عديدة.. وإليه ينتمي البلاستيك والنايلون والسيليولوز النباتي والجليكوجين الحيواني.


روايات عالمية
16
الغرفة الحمراء
فريق
متميزون
E-BOOK
قصـــــــة : هـ . ج . ويلز
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (16)

الغرفة الحمراء

تأليف: هـ. ج. ويلز.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

1- المؤلف..

المجموعة التالية من القصص القصيرة، هي مجموعة منتقاة من القصص الخيالية للأديب الإنجليزي العظيم (هربرت جورج ويلز) ([1])

ومن الغريب أن شهرة الأعمال الخيالية لـ (ويلز) تفوق بكثير شهرة أعماله الواقعية.. من منا لم يسمع عن قصص (الرجل الخفي) أو (آلة الزمن) أو (جزيرة د. مورو)؟.. ولعل هذا يرجع إلى أن النوعية الأولى أكثر إمتاعا وشعبية..

على أن النقاد - ومنهم د. (لويس عوض) الذي نقتبس هنا بعض عباراته - يقسمون أدب (ويلز) إلى ثلاث مجموعات:

1- الأساطير العلمية: على غرار ما ذكرناه.

2- القصص الواقعية: مثل (كيبس) و (تونو بنجي) و (سيرة مستر بولى)، وهذه المجموعة هي الأرقى والأكثر ثراء في محتواها الأدبي.

3- القصص الجدلية: مثل (مستر برتلنج) و (آن فيرونيكا) وكلها خالية من المحتوى الأدبي، بل هي أقرب إلى مناقشات للآراء الاجتماعية تبرز فيها طبيعة المفكر المصلح أكثر من طبيعة الفنان..

ولما كان ما سنقدمه اليوم يندرج تحت المجموعة الأولى، فإننا سنتجاهل عن عمد الحديث عن المجموعتين الأخريين، وإن كنا نعد بتقديم أحد أعمال (ويلز) الواقعية قريبا إن شاء الله..

توجد سمة عامة في منهج أساطير (ويلز) العلمية..

وهي أنه يجتهد لتصور مستقبل البشرية إذا ما وضع العلم في خدمة المجتمع..

وفي قصة (آلة الزمن) يبدو متأثرا بشدة بمنهج (داروين) ونظرية النشوء والارتقاء.. وفي قصص أخرى يتصور مصلا تحقن به الحيوانات فتتكلم وتفكر كالآدميين، أو محلولا يشربه الناس فتشف أجسادهم حتى تغدو خفية.. أو حربا بين كوكبنا وغيره من الكواكب..
ولقد جرت العادة على أن يوضع (ويلز) مع الفرنسي (جول فيرن) في سلة واحدة.. ويرى د. (لويس عوض) أن هذا تعسف.. فكلا الرجلين يجعل العلم أداة الخيال، لكن (فيرن) يكتفي بالمغامرة القصصية المثيرة.. أما (ويلز) فيعرض تأملاته وآراءه ويعيد بناء المجتمع ونقده.. وهو شديد الإيمان بالمنهج العلمي في القياس.. ويصف أبطاله وأحداث القصة وصفا باردا شبيها بعالم يصف أحد الأحياء الدقيقة تحت عدسة المجهر..

∞∞∞∞∞

ولد (ويلز) في ٢١ سبتمبر 1866 في (بروملى) بـ (كنت).. أبوه (جوزيف ويلز) كان يملك ورشة صغيرة، بينما أمه كانت خادمة قبل أن تتزوج..، وعمل (ويلز) الصغير فترة في محل لبيع الصوف في (وندسور) [وصف هذه الفترة في قصته (كيبس)]..
ثم جاهد حتى تمكن من الدراسة في الكلية الإمبراطورية للعلوم، وتخرج فيها بامتياز.. ثم عمل مدرسا.. وتفرغ للكتابة عام 1893.. وكتب في كل شيء تقريبا.. من نشأة وحيدات الخلية إلى مؤتمرات الصلح، ومن ألعاب الأطفال إلى قوانين الاقتصاد..، ويرى د. (لويس عوض) أن الرجل كتب كثيرا جدا.. بل (ربما أكثر مما ينبغي..) وهذا حق..

وبعد حياة حافلة، توفي (ويلز) في 13 أغسطس عام 1946 في التاسعة والسبعين من عمره.. بعد أن ترك طابعه الذي لا يمحى في عقول هذا الجيل..

∞∞∞∞∞∞

في المجموعة التالية نقدم لك - في كتيبين – عددا من القصص القصيرة الخيالية التي كتبها (ويلز)..
ونلمس فيها تنوعا غير عادي.. ونقابل وحوشا لم نتصور وجودها.. سترتجف أوصالنا حين ندخل الغرفة الحمراء، ونضحك مما يحدث لـ (بايكرافت)..
وندهش لما نراه في بلد العميان..، سنقابل الكثير من التنوع.. والفكاهة.. والسحر والمأساة.. والشعر.. والقليل جدا من الرعب..
إذن.. دعونا نبدأ الآن...

∞∞∞∞∞∞

قصص الكتاب:

1- (بولوك) ورجل (البوروه)..
2- جزيرة الـ (إيبيورونيس)...
3- الغرفة الحمراء..
4- حقيقة (بايكرافت)..
5- إمبراطورية النمل..
6- في مرصد (آفيو)..
7- انتصارات دباغ..

∞∞∞∞∞


(بولوك)
ورجل
(البوروه)

(بولوك) ورجل (البوروه)..

تم اللقاء الأول بين (بولوك) ورجل (البوروه) في شبه جزيرة (تيرنر).. في قرية مليئة بالمستنقعات..
كان رجل (البوروه) منهمكا في طعن امرأة في قلبها (كأنه إيطالي من السوقة)، ثم حاول أن يطعن (بولوك) بدوره..
لكن هذا الأخير تحاشى الطعنة التي كانت في طريقها لتمزق عضلة كتفه، ورفع مسدسه نحو الرجل وأطلق الرصاص على يده، فطار الخنجر في الهواء..
صوب مسدسه مرة أخرى، لكنه أخطأ هدفه..
عندئذ وقف رجل (البوروه) على باب الكوخ يحدق في (بولوك)..، وأدرك الإنجليزي أنه وحيد.. وأنه مريض يرتجف لخطورة الموقف..
لقد حدث كل شيء في وقت أقل من الوقت اللازم لقراءة هذه السطور... وفي اللحظة التالية اختفى رجل (البوروه) تماما..
لقد ماتت المرأة..، وسار (بولوك) مترنحا إلى مدخل الكوخ.. ينظر إلى الأكواخ التي تلتمع في ضوء الشمس الحارق..، وكان ستة من الحمالين الذين جاءوا مع الحملة يقفون خارج أكواخهم، ينتظرون في تساؤل عما عساه يكون مصدر هذه الطلقات في حذر خرج (بولوك) من الكوخ قاصدا النهر ناظرا فوق كتفيه من حين لآخر.. لكن رجل (البوروه)..
كان قد تلاشى، وبعصبية اعتصر (بولوك) المسدس في قبضته..
جاء أحد الرجال ليشير إلى الأشجار خلف الكوخ، حيث تلاشى رجل (البوروه).. وشعر (بولوك) بأنه كان أحمق إلى حد مطلق.. والأدهى هنا أن عليه أن يخبر (ووترهاوس) بما حدث..

(ووترهاوس) المثالي المتحفظ الذي لن يأخذ الأمور ببساطة أبدا..
تبا لهذا الحظ السيئ الذي يلازم (بولوك) منذ جاء إلى ساحل إفريقيا الغربي!.. لقد سئم هذه الحملة تماما..
وفي مؤخرة رأسه ظل يتساءل في ريبة عن المكان الذي يربض فيه رجل (البوروه)..
لم يكن ما رآه من مصرع المرأة ليصدمه.. فلقد رأي الكثير من الوحشية في الشهور الثلاثة الأخيرة..
رأى نساء قتيلات، وأكواخا محترقة، وهياكل عظمية جافة، على طول الطريق من نهر (كيتام) إلى هنا..
حتى أن حواسه تبلدت تماما..
مضى إلى الظل تحت أشجار البرتقال، حيث كان (ووترهاوس) مستلقيا، شاعرا أنه تلميذ ذاهب إلى مكتب ناظر المدرسة ليلقي عقابه..
كان (ووترهاوس).. نائما تحت تأثير دواء (الكلورودااين) المنوم.. وجلس (بولوك) جواره، وأشعل غليونه منتظرا حتى يصحو..
راح يتأمل الأسلحة التي جمعها (ووترهاوس) من قبائل (المندي)، والتي كان ينوى شحنها في قارب إلى (سوليما).
وصحا (ووترهاوس) وتثاءب.. وتمطى معلنا أنه يشعر بالانتعاش، فجلب له (بولوك) بعض الشاي.. وراح يحكى له ما حدث اليوم.. ولم يكن رد فعل (ووترهاوس) عنيفا كما توقع (بولوك).. بل كان مروعا!.. لم يكتف الرجل بالاستنكار.. بل راح يؤنب (بولوك).. بل ويهينه:
- أنت واحد من هؤلاء الحمقى - حطب جهنم - الذين لا يعتبرون الزنوج بشرا.. لا يمكنني أن استمتع بالمرض إلا وأراك قد

تورطت في عمل قذر.. للمرة الثالثة في شهر واحد أراك تقع في مشاكل مع الوطنيين..
لكنك في هذه المرة تستحق انتقاما (بوروه)؟ من جديد؟ إنهم ما زالوا يحملون لك الضغائن منذ قمت بكتابة اسمك السخيف على صنمهم، وهم لا ينسون الإساءة أبدا كالشياطين.. أنت تجعلني أخجل من كوني متحضرا..
لو أنني ورطت نفسي ثانية مع غبي غرير مثلك، فسوف.....
- اهدأ يا (ووترهاوس).. اهدأ..
ثم حدق في عين (ووترهاوس).. وقال:
- مت بغيظك.. لقد سئمت كل هذا وأبغى الرحيل..
عاد الهدوء إلى (ووترهاوس).. فجلس.. وقال:
- حسن يا (بولوك).. ليكن.. لا أريد عراكا، لكنني أكره أن أرى خططي تنسف بسبب أشياء كهذه.. سأذهب معك إلى (سوليما) وأطمئن إلى أنك ركبت السفينة سالما..
- لست بحاجة لهذا.. أستطيع العودة وحدي..
- لن تبتعد كثيرا.. أنت لا تفهم (البوروه)..
صاح (بولوك) في مرارة:
- كيف كان لي أن أعرف أن المرأة تخص رجل (البوروه)؟! - حسن.. لقد كانت كذلك.. ولم يعد باستطاعتك إصلاح هذا.. حسن.. اذهب وحدك إذن!.. أتمنى أن أعرف ما هم فاعلون بك.. أنت لا تفهم أن قواعد (البوروه) هي لهذا البلد بمثابة القانون.. الدين.. الدستور.. الطب..، ومن حسن الحظ أن حمالينا هم من قبيلة (المنديس)..
وشرع يفكر.. وكانت أفكاره كلها شنيعة.. من ثم تناول البندقية وغادر المكان وهو يردف:

- لو كنت مكانك لما ابتعدت كثيرا.. سأذهب لأري ما أستطيع معرفته بصدد ما حدث.
وفي الخيمة بقي (بولوك) وحيدا يتأمل، ويعيد إشعال غليونه:
- لقد خلقت للحياة المتحضرة.. وكلما عدت إلى (لندن) أو (باريس) أسرع كلما كان هذا أفضل لى.
وفي ندم غمغم:
- ليتني أصبت ذلك المتسول في مقتل!
بعد هنيهة عاد (ووترهاوس) حاملا أخبارا سيئة..
يبدو أن رجل (البوروه) كان عضوا بارزا في هذا المجتمع الوثني..، بل إنه كان من الأطباء السحرة..، وكانت القرية كلها مهتمة بمجرى الأحداث..، والجميع يعلم أنه مختف في الغابة واضح أنه ينتوي شيئا ما..
قالها (ووترهاوس) وعاد للصمت.. فسأله (بولوك) بإلحاح:
- وماذا بوسعه أن يفعل؟
ظل (ووترهاوس) محتفظا بالغموض، إلى أن فقد أعصابه وصاح:
- وكيف لي أن أعرف بحق الجحيم؟.. لقد حاول أن يقتلك في الكوخ.. وفشل.. الآن أحسبه سيجرب شيئا أكثر فعالية.. ولا أريد بهذا أن أدمر أعصابك..
وفي المساء، إذ جلسا جوار النار، حاول (بولوك) ثانية أن ينتزع من (ووترهاوس) تصوره لما ينوى (البوروه) عمله.. فقال هذا:
- من يدري؟.. إنهم أناس متقلبون واسعو الخيال ولديهم عديد من الحيل القذرة
وهنا التمع وهج.. وصوت انفجار دوي من قلب الظلمة خلف الأكواخ.. وانطلقت رصاصة تصفر جوار رأس (بولوك).. [على الأقل كان هذا الأسلوب مألوفا).. ووثب السود من حيث جلسوا

حول النار، وأطلق أحدهم النار صوب مصدر الطلقة ودون أن يتحرك (ووترهاوس) صاح في (بولوك):
- من الأفضل أن تعود إلى الكوخ..
نهض (بولوك) ملوحا بمسدسه.. فهو لا يخشى القتال بهذا الأسلوب.. لكن الرجل الذي يستعين بالظلام..
إنما يستعين بأفضل الدروع قاطبة، ولهذا وجد (بولوك) أنه من الحكمة أن يلجأ إلى الكوخ.. ويختفي فيه..
وقضى الليل في محاولة عسيرة للنوم، تقطعها أحلام مزعجة.. خاصة وجه رجل (البوروه) يرمقه في ظلال الكوخ.. وآلام في العظام..
وفي ضوء الفجر الأبيض - بينما كانوا يعدون القوارب البدائية للرحيل - انطلق سهم ليستقر عند قدمى (بولوك).. وكالعادة لم يستطع الرجال أن يجدوا راميه..
تلقائيا - بعد هذين الحادثين - بدأ الرجال يتجنبون (بولوك)، وللمرة الأولى في حياته شعر (بولوك) بالحاجة إلى أن يختلط بالزنوج..، لقد وجد نفسه في قارب.. بعيدا عن (ووترهاوس).. جالسا وحيدا منبوذا في المقدمة، والمشكلة الأسوأ كانت إقناع الرجال - الذين لم يحبوه قط - بأن يبقوا القارب في وسط النهر بعيدا عن كلتا الضفتين إلا أنه استطاع أن يقنع (شكسبير) - الرجل الهجين من (فريتاون) - بأن يأتي ليجلس جواره، ويحدثه عن (البوروه)..، وقد فعل هذا الأخير ذلك في تحرر وترحيب..
القارب ينساب فوق المياه الفضية.. والأشجار المنحنية على الجانبين.. ونباتات البردي أما (شكسبير) فراح يحكي بإنجليزيته المشوهة..
كيف يرمي (البوروه) بلعناتهم.. وكيف يرسلون العفاريت والشياطين.. كيف عذبوا وذبحوا أبناء (إيجيبو).. وكيف خطفوا

تاجرا أبيض أساء إليهم، وكيف بدت جثته حين وجدها الباحثون..
راح (بولوك) يسمع في هلع هذه القصص، وهو يلعن الإرساليات والحكومة البريطانية المتراخية في إحكام نظامها على هذا القطاع المظلم من (سيراليون)..

∞∞∞∞∞

في اليوم التالي وصلوا إلى (سوليما)، حيث صار بوسعهم أن ينشقوا أنسام البحر..، لكن (بولوك) كان مضطرا إلى قضاء خمسة أيام هنا قبل أن يبحر إلى (فريتاون)..
ولما كان (ووترهاوس) يشعر باطمئنان نسبى نحو صديقه هنا، فقد تركه عائدا مع الرجال إلى (جبيما)، وتعرف (بولوك) على تاجر أبيض – الوحيد الذي وجده في (سوليما) - هو يهودى برتغالي يدعى (بيريرا).. وبحكم الضرورة صار (بولوك) صديقا حميما له.. برغم انجليزية البرتغالي الشنيعة..
ومر اليومان الأولان بلا مشاكل..
إلا أنه في المساء تلقي (بولوك) النبأ الرهيب، أن رجل (البوروه) موجود في (سوليما) الآن.. وكانت وسيلة إبلاغه بالنبأ، هي قذيفة من الحديد مزقت لحم كتفه، كانت المسافة طويلة، واستهلكت القذيفة أكثر قوتها في الوصول إليه.. لكن الرسالة كانت واضحة بما يكفي..
وقال له البرتغالي حين عرف بالأمر:
- (هادا) انتقام.. لقد أصابه الجنون حين عرف أنك ستغادر البلاد.. لن (يتدهل) أحد الوطنيين في الأمر وعليك أن تصفي

الأمر بنفسك.. تم بعد (دالك) تجيء مشكلة السحر الأسود.. أنا لا أؤمن به.. (هرافات)..
لكنك - طبعا - ستظل قلقا من فكرة أن هناك رجلا أسود يرقص حول النار في ضوء القمر، كل ليلة.. كى يرسل اللعنات عليك..
- الأسوأ هو أنني أرى وجهه في كل أحلامي..
وجهة المقلوب حين نظر لي من فوق ذراعه وكشر عن أنيابه.. أعرف أن هذا حلم طيلة الوقت، لكني لا أعرف كيف أصحو منه.
- آه! (هدا هرافات)!.. يقول رجالي إن (البوروه) قادرون على إرسال الثعابين.. هل رأيت ثعابين في (سوليما)؟
- رأيت واحدا هذا الصباح، وقتلته.. كدت أدوس عليه حينما صحوت من النوم!
- آه!.. (هدا) صدفة!.. لكن يجب أن تكون حذرا.. هل تشعر بآلام في (عضامك)؟
- حتما..!.. ظننتها بسبب داء (الميازما).
- آه!.. صدفة!.. منذ متى؟
عندئذ فقط تذكر (بولوك) أن هذه الآلام بدأت في الليلة التي تلت معركة الكوخ.. لكن (بيريرا) قال مطمئنا:
- في رأيي أنهم لا يبغون قتلك.. أعتقد أنهم يريدون (إهافتك) بالثعابين وآلام (العضام) (هي) تكره الحياة.. وتنتحر.. بالطبع (هادا هرافات).. كلام في كلام.. فلا تقلق.

∞∞∞∞∞∞

بعد ظهر ذلك اليوم قتل (بولوك) ثعبانين في خيمته.. ولاحظ زيادة غير معقولة في النمل الأحمر بالمكان..

وفي المساء راح يثرثر مع أحد رجال (المندي)...
الذي عرض عليه خنجرا صغيرا، وراح يشرح له كيف يضرب به العنق.. حتى أن (بولوك) شعر برجفة، إلا أنه - لأسباب معينة - شكر الرجل ووعده ببندقية ذات ماسورتين مكافأة له..
وفي كوخ (بيريرا) - حيث جلس الرجلان الأبيضان يلعبان الورق - جاء (المندى)، حاملا شيئا ما في حقيبة من القماش الوطني غارقة في الدماء..
صاح (بولوك) في لهفة:
- ليس هنا!
لكنه كان قد تأخر.. لأن الرجل المتحمس فتح الحقيبة.. ورمى برأس رجل (البوروه) المقطوع على المائدة..، تدحرج الرأس فوق أوراق اللعب راسما خطا داميا وراءه.. ثم سقط على الأرض وعيناه ترمقان (بولوك) في حدة...!
وثب (بيريرا) في فزع.. وراح يسب ويلعن بالبرتغالية.. في حين وقف (المندي) ينتظر نصيبه من الصفقة.. قائلا:
- (بندكية)!
أي أنه يريد البندقية التي وعده (بولوك) بها إذا قتل الرجل.
ونظر (بولوك) إلى الرأس.. كان يحمل ذات التعبير الذي كان في أحلامه..
استعاد (بيريرا) انجليزيته أخيرا.. فقال:
- ألم تقتله بنفسك؟
- لماذا ينبغي عليّ ذلك؟
- لكنه لن يستطيع أن (ينتزعه) الآن!
- ينتزع أي شيء؟.
- عليك أن ترسل لى أوراق لعب جديدة من (فريتاون).. لقد اتسخت هذه بالدماء

- ينتزع أي شيء؟!
- إنها (هُرافة، الذنوج يدعمون، هادا (هُرافة) - أنه لو سحرك (البوروه) فعليك أن ترغمه على (انتزاع) السحر، أو تقتله بنفسك..
أطلق (بولوك) سبة من تحت شاربه، وراح يحملق في الرأس.. كان بريق العينين غير محتمل، من ثم وجه ركلة إلى الشيء.. فتدحرج بضع ياردات..
ثم عاد يستقر في ذات الوضع المقلوب، وعيناه تحدقان في (بولوك)..!
- (هادا) قبيح.. قبيح جدا - قال البرتغالي – إنهم يصنعون (هادى) الشقوق في وجوههم بالسكين..
- (بندكية)!
قالها رجل (المندى) واضعا يده على كتف (بولوك)..
فقال (بولوك) في عصبية:
- لك بندقيتان لو أنك أخذت هذا الشيء المريع بعيدا لكن الرجل رفض.. لم يكن يريد سوى بندقية واحدة له لغرض عاجل.. فقدم له البرتغالي بندقية من عنده، ورحل الرجل وبقي (بولوك) يرمق هذا الشيء على الأرض...
ضحك (بيريرا) ضحكة عصبية وقال: - غريب أن رأسه يفضل الوضع المقلوب.. لابد أن (مهه) ثقيل جدا.. مثل (هادى) الدمى التي تعتدل كلما (أرجهتها)..
نهض (بولوك) وحمل الرأس متثاقلا قاصدا كوخه.
كان ينوي أن يحفر قبرا ويدفنه فيه حالا..، وكان واثقا بأنه حمل الرأس من شعره.. لكن لابد أنه كان مخطئا.. لأنه حين نظر ليده وجد أنه يحمل الرأس مقلوبا من رقبته..!

دفنه قبل الغروب في البقعة الشمالية من الكوخ، حتى لا يضطر للمرور بالقبر في الظلام حين يعود من عند (بيريرا)، وقبل أن ينام كان عليه أن يقتل ثعبانين آخرين..
وفي الظلام صحا على صوت شيء يخدش في الأرضية..
جلس في الفراش ساكنا.. وتحسس مسدسه تحت الوسادة.. هو ذا صوت حشرجة.. نهض (بولوك) وأطلق رصاصة باتجاه الصوت..
وفي اللحظة التالية رأى شيئا معتما يعبر الباب المغمور بزرقة باهتة..
- كلب!
قالها (بولوك) وعاود الرقاد..
في الفجر صحا شاعرا بعدم الارتياح.. ألم عظامه يزداد.. راح يرمق السقف بعض الوقت، ثم إذ تزايد الضوء - استطاع أن يرى ذلك الشيء المعتم الملقي على الأرض.. وثب إلى الأرض ليرى أكثر.. وعندئذ وجد أنه يحدق في رأس رجل (البوروه)!.. لقد مزقه الكلب تمزيقا وفتك به النمل..، لكنه ظل بالصدفة في ذات الوضع المقلوب، وتلك النظرة الشيطانية المقيتة في عينيه..
كان الرعب يغمره حين غادر الكوخ.. وفي ضوء الفجر المنعش.. وأمام منظر الخضرة التي تتراقص مع النسيم؛ بدأ الذعر يفارقه تاركا مكانا للتعقل في ذهنه المكدود..
وحين حكى ل (بيريرا) ما حدث.. قال له هذا باسما:
- ما كان ينبغي أن (تهيف هادا) الكلب!
طيلة اليومين التاليين - وحتى جاء المركب البخاري - ظل (بولوك) يحاول الخلاص من الرأس بشتى السبل..
في البداية ذهب إلى البحر ورماه هناك.. لكن هذا - بمعجزة ما - نجا من الأسماك والتماسيح، حيث رماه المد على الشاطئ

ليجده رجل عربي مثقف.. حمله كشيء طريف إلى (بيريرا) و (بولوك) عارضا بيعه لهما..، لكن الرجل وجدهم مذعورين إلى حد لا يوصف، حتى أنه بدأ يشعر بالذعر هو الآخر..
لهذا غادر المكان.. فما إن مر بكوخ (بولوك) حتى رمي الرأس بداخله.. ليكتشفه (بولوك) في الصباح الباكر!
إلى هنا بدأ (بولوك) يدخل في حالة جنون.. يجب أن يحرق الشيء.. بني محرقة صغيرة من خشب الورد.. وكاد يبدأ حين سمع صفارة القارب البخاري الذي يقل الناس من (مونروفيا) إلى (باثورست)..
القارب الذي ينتظره..
- حمدا لله!..
قالها (بولوك) في خلاص، عالما معنى هذا الصوت..، وبيد مرتجفة أشعل النار في المحرقة ورمى الرأس فيها، ثم انصرف ليقرئ (بيريرا) الوداع ويحزم حقائبه وبعد الظهر راح يرمق شاطئ (سوليما) يصغر ويصغر كأن السماء تطبق على الأرض في الأفق.. مقص عملاق يزيل متاعبه وذكرياته الأليمة..، هو ذا يفارق الأرض التي يخيم عليها شبح (البوروه) وسحر (البوروه).
صاح في سعادة:
- وداعا يا (بوروه)! وداعا.. وليس إلى اللقاء!
جاء قبطان القارب ووقف جواره يرمق الماء، وتمنى له ليلة طيبة.. ثم بصق على الأمواج في بساطة.. وقال:
- لقد وجدت تحفة جميلة على الشاطئ اليوم.. شيئا لم أر أحدا يفعله في هذه الأصقاع..
- وما هو؟
- رأس مجفف.. مدخن؟
- ماذا؟

- رأس.. رأس واحد من هؤلاء (البوروه) مزخرف بعلامات السكاكين هيه؟.. ماذا دهاك؟.. ما كنت لأحسبك عصبيا إلى هذا الحد.. يا لاخضرار وجهك!..
بحق السماء أنت بحار رديء..
رباه!.. لكم تبدلت ملامحك.. حسن.. لقد وضعت هذا الرأس مع بعض الثعابين في الكحول في (مرطبان) بقمرتى، حيث أحب أن أحفظ هذه الطرف.. والعجيب أنه يميل لاتخاذ وضع مقلوب.. ولأشنق إن لم يكن هذا صدقا!
أطلق (بولوك) صرخة صامتة، ودس أصابعه في شعره.. ولثانية خطر له أن يرمي بنفسه إلى الماء.. ثم عاد إلى صوابه..
صاح القبطان في هلع
- (جاك فيلبس)!.. أبق هذا الرجل بعيدا عنى!..
لا تدن مني يا سيد... ماذا دهاك؟.. أتراك مخبولا؟!
لم ير (بولوك) جدوى من الشرح.. لذا قال وهو يمسك رأسه:
- أعترف أنني فقدت صوابى.. إنه ذلك الصداع المفاجئ.. أرجو أن تغفر لي هذا..
كان شاحبا يغمره العرق.. لم يرد أن يحسبه القبطان مخبولا.. وأراد أن يستعيد ثقة هذا الأخير فراح يجيب عن أسئلته.. ويتبادل معه حديثا شبه طبيعي.. بل وراح يسأله عن تجارة هذا الأخير في الطرف والغرائب.
راح القبطان يصف له الرأس بالتفصيل.. وشعر (بولوك) بأن القارب صار شفافا كالزجاج. يمكنه أن يري من خلاله ذلك الرأس يرمقه من قمرة القبطان..
وهكذا قضى (بولوك) ساعات أسود من ساعاته في (سوليما).. الكوابيس تطارده في كل ليلة فيصحو متخشبا، وشبح صرخة مريعة في حلقه..

ترك الرأس في (باثورست)، حيث غير القارب متجها إلى (تينيريف) لكنه لم يترك كوابيسه ولا آلام عظامه.. وفي (تينيريف) حاول أن ينسى.. شرب كثيرا.. لعب الشطرنج.. بل وقرأ الكتب، لكن الرأس راح يطارده.. كان يعرف أن خياله صار خائنا له، ولم يعد ينتمي إليه، لقد صار البحر الواسع ورفاق السفر كستار يفصله عن العالم الحقيقي.. لكن رأس رجل (البوروه) الشيطاني كان يمزق هذا الستار كالشيء الوحيد الحقيقي في هذا العالم..
وغارقا في هذا الصراع المحموم مع خياله؛ وصل (بولوك) إلى (انجلترا)..

رست السفينة في (ساوثها مبتون)، واتجه هو إلى (ووترلو) ليلقى مدير البنك الخاص به.. حيث عقد معه بعض صفقات العمل في حجرة منعزلة.. لكن الرأس ظل يتدلى فوق رأسيهما طيلة الوقت، كأنه قطعة زينة.. بينما قطرات الدم تتساقط منه فوق حاجز المدفأة.. لكن المدير بدا كأنه لا يراه..
قال (بولوك) للمدير:
- هل توصى لى باسم طبيب مختص في الأمراض العقلية!..
إنني أعاني بعض الد.. ماذا أقول؟.. هلاوس!
وهنا ضحك الرأس في وحشية...

∞∞∞∞∞

حاملا عنوان الطبيب في جيبه، اتجه (بولوك) إلى (كورنهيل) وقرر عبور الشارع..، إن عبور الشارع- حتى بالنسبة لـ (لندنى) متمرس - لأمر عسير..

طوفان من العربات وعربات الأجرة والحافلات كلها تتحرك في تيار ثابت لا يتزحزح.. وبالنسبة لرجل قادم من (سيراليون) يبدو الشارع فوضى من الارتباك المجنون.. لكن حين ترى رأسا مقلوبا يتواثب بين قدميك.. عندئذ لن تبالي بأن تلقى حتفك في حادث.. وإذا ركل (بولوك) الشيء ليبعده عنه، شعر بشيء يصدمه بعنف في ظهره.. وألم ساخن يغزو ذراعه..

أخرجوه من بين حوافر الخيل التي كانت تجر الحافلة وقد تهشمت ثلاث من أصابع يده.. نفس الأصابع التي أطلق عليها رصاصته في كف رجل (البوروه) وليومين لم يدر بأي شيء سوى الرائحة الحلوة الحادة المميزة ل (الكلوروفورم)، وجراحات عدة لم يشعر بألمها..، والرقاد بلا حراك.. وحزن عاوده الكابوس القديم فقط تذكر أنه لم يره منذ يوم كامل في أول فرصة صارح (بولوك) الطبيب بمشكلة..

كان يدرك جيدا أنه سيجن حتما ما لم يحل شيء بينه وبين ذلك.. لم يذكر التفاصيل الحقيقية.. قال إنه رأى قطع رأي في (داهومى) ومن لحظتها يطارده الرأس المقطوع في كل مكان..

سأله الطبيب في تردد:

- هل كانت تربيتك الدينية طيبة في طفولتك؟..

- لا أدري إن كنت قد سمعت عن العلاج الروحي في (لوردس)؟

قال (بولوك) وهو يرمق الوسادة:

- لا أحسب هذا سيعينني كثيرا.. للأسف كان الرأس يرمقه الآن مكشرا عن أنيابه، والطبيب يقول:

- كل ما أنت فيه تخيلات.. لقد انهارت أعصابك، ولسوف أقدم لك وصفة طبية تقوي جهاز العصبي وخاصة مخك.. كما أقترح أن تسترد عافيتك.. ابحث عن الهواء المنعش في (اسكتلندا).. (النرويج) أو (الألب)..

∞∞∞∞∞∞

حين غادر المستشفى حاول (بولوك) بأمانة أن ينفذ نصائح الطبيب..
كان هذا هو (نوفمبر) فحاول أن يلعب كرة القدم، لكن اللعبة تحولت إلى ركل رأس مقلوب.. من ثم كان يركله في هلع ودون تركيز..، حتى حين حاول أن يلعب في مركز حارس المرمى.. كان يرى الرأس قادما نحوه فيصرخ ويفر مذعورا..
وبدأ رفاقه يتحاشونه إزاء تصرفاته المثيرة للريبة..
كانت أوهامه تزداد تجسدا.. صار الرأس يثرثر معه.. بل صار له ملمس مادى واضح..
وفي مرتين على الأقل تبادل الكلام مع الرأس أمام الناس..
جاء ابن عمه ذات يوم في (ديسمبر) ليراه.. ويتأمل وجهه الشاحب غائر العينين..، لكن (بولوك) لم ير في القبعة التي يحملها ابن عمه سوى رأس مقطوع مقلوب يتأمله بإصرار..
وجاءت النهاية في صباح (الكريسماس)..
ظل محموما طيلة الليل.. والكوابيس تطارده..
وفي ضوء الفجر الشاحب البهيم جلس في الفراش، ورأى الرأس واقفا جوار فراشه في وعاء برونزي كان هناك بالأمس..
قال ورجفة الشك في صوته:
- أعرف أن هذا وعاء برونزي..
غادر الفراش ببطء.. يرتجف.. وسار إلى موضع الوعاء.. الأن سيجد أن خياله قد خدعه حتما..
وأخيرا - بعد قرون من التردد - تلمست أنامله خدي الرأس..! إنه حقيقى!!

سحب يده في توتر.. هذه هي المرحلة الأخيرة إذن..
حتى حاسة اللمس قد خانته وانضمت إلى عدوه..
شق طريقه إلى المائدة.. وتناول الموسى من الدرج، وعاد ليجلس على الفراش.. وفي المرأة رأي وجهه شاحبا.. مفعما بالمرارة اليائسة..
راح يستعيد تفاصيل قصته في ذهنه.. تفاصيل حياته الآثمة السابقة
كل شيء يعود إلى ذهنه في ضوء الفجر البارد.. الكوخ.. رجل (البوروه).. والهلوسة!.. بالتأكيد هي هلوسة!.. اللحظة تمسك بالأمل.. رفع عينيه ليجد الرأس حيث هو يضحك ضحكته الشيطانية..!
تحسس عنقه ببطء باحثا عن نبض شريان.. كان الصباح باردا وملمس نصل الموسى على لحمه كالثلج
٢٣ مايو 1895..

∞∞∞∞∞∞∞


جزيرة
الـ(إيبيورنيس)

جزيرة ال (إيبيورنيس)

انحنى الرجل ذو الوجه المليء بالندوب فوق المائدة..
ونظر إلى الحزمة التي أحملها.. ثم سألني:
- زهور أوركيد؟
- قليل منها..
- أي شيء جديد؟.. لا.. لا أحسب هذا.. لقد زرت هذه الجزر منذ خمسة وعشرين عاما.. ولئن وجدت
أنت جديدا فيها فهو جديد تماما.. فأنا لم أترك الكثير لمن يأتون بعدى..
- أنا لا أجمع الأشياء..
قال الرجل وهو يحاول تقييمي بنظرة فاحصة:
- كنت شابا آنئذ.. ياالله!.. لكم جبت العالم!.. قضيت عامين غرب (الأنديز).. وسبعة في (البرازيل).. وزرت (مدغشقر)..
قلت له متوقعا أنه سيكذب على:
- لقد عرفت مستكشفين كثيرين فمن كنت تجمع له؟
- (داوسون).. تراك سمعت الاسم من قبل؟
بدا الى الاسم مألوفا بشكل ما.. ثم تذكرت (بوتشر داوسون)..
- آه!.. إذن فأنت الرجل الذي رفع قضية من أجل مرتب أربعة أعوام، بعدما عاش وحيدا على جزيرة صحراوية!!
انحنى الرجل بأدب:
- أنا خادمك.. لقد صنعت ثروة في تلكم الجزيرة دون مجهود يذكر..
- كيف حدث هذا؟ أنا لا أذكر القصة جيدا..
- حسن.. هل سمعت عن ال (إيبيورونيس)؟

- كان (أندروز) يحكي لي قصة عن جنس جديد يعكف على دراسته.. تلك المخلوقات لها عظمة فخذ تقارب الياردة... وحوش.. لابد أنها كذلك..!
قال الرجل ذو الندبة:
- أنا أصدقك.. كانت وحوشنا بالفعل.. وما (رخ سندباد) إلا تنويعا على قصتها..، ولكن متى وجدوا هذه العظام؟
- منذ ثلاث أو أربع سنوات.. لماذا تسأل؟
- لماذا؟.. لأنني وجدت هذه الوحوش.. كان ذلك منذ عشرين عاما.. لم أستطع أن أمنع ذلك القارب اللعين من الضياع مع التيار، ثم صمت هنيهة.. وأردف
- أراهن على أنه ذات المكان.. مستنقع على بعد تسعين ميلا شمال (أنتانا ناريفو).. هل تعرفه؟
- لا.. لكن يخيل لي أن (أندروز) قال شيئا عن مستنقع..
- بالتأكيد هو.. على الساحل الشرقي.. وثمة شيء ما في مائه يحول بين الجثث وبين التحلل..، هل وجدوا مزيدا من البيض؟ لقد وجدت بيضا يربو ارتفاعه على قدم ونصف.. يدور المستنقع حول المنطقة ومياهه مالحة... كم من أوقات قضيتها معه!..
لقد ذهبنا - أنا وشابان من الأهالي - في زورق بدائى بحثا عن عظام.. ووجدناها في ذات المكان ياله من عمل خلاق!.. تقضي الوقت تنقب في الوحل بقضبان حديدية.. وكثيرا ما يتهشم البيض... إنني أتساءل عن الفترة التي انقضت منذ كانت تلك (الإبيورونيس) تعيش ([2])، لقد كان البيض طازجا!...
صدقني! لقد سقطت واحدة من أحد الزنوج في أثناء نقلها للقارب.. وتهشمت.. الأحمق!.. لكنها كانت طازجة.. حتى

رائحتها كانت طيبة.: برغم أن الأم قد ماتت منذ أربعمائة عام.. المهم.. استغرقنا يوما كاملا لاستخراج هذا البيض سالما.. وكسانا الوحل تماما، بعد هذا بفترة ذهبت لأرى البيض الذي لديهم في متحف التاريخ الطبيعي في (لندن)..
ووجدت أنه مهشم.. متشقق.. مع أجزاء كثيرة مفقودة..، أما بيضي أنا فكان بحالة رائعة.. وشعرت بالغيظ من الأخرق الذي تسبب في كسر بيضة – بعد ثلاث ساعات من العمل - لمجرد أن عقربا لدغه.. لقد ضربته مرارا!
ومن الرجل يده إلى غليون من الخزف، قربت منه كيس التبع الخاص بي، فملأ الغليون منه وذهنه شارد ثم واصل الرد:
- حصلت على ثلاث بيضات أخرى، طازجة تماما..
وعدت إلى الخيمة لأعد بعض القهوة، تاركا تابعيّ الوثنيين على الشاطئ، ولم يخطر لي قط أن الوغدين سيتحرشان بى.. لابد أن سم العقرب، والركل الذي أوسعته لأحدهما - الذي كسر البيضة - قد ضايقه وكان ذا طبيعة نارية.. واستطاع أن يقنع الآخر..
والآن أذكر أنني كنت جالسا أدخن وأغلى الماء، وأتأمل المستنقع في إعجاب.. إذ يتموج باللونين الأزرق والأحمر القاني.. ومن بعيد أرى الجبال، والسماء خلفها حمراء كفم فاغر..
لم أعرف أن الكافرين قد قررا أن يرحلا ويتركانى ليس معي سوى زاد ثلاثة أيام وخيمة قماشية.. سمعت جلبة خلفى.. فنظرت لأجدهما في القارب وقد ابتعدا عشرين ياردة عن الشاطئ، فهمت ما يحدث على الفور.. ولم يكن في بندقيتي رصاص.. لكنني كنت أملك مسدسا صغيرا في جيبي.. فسحبته..
قال الرجلان شيئا لي..، فصويت الرصاص على الرجل السليم لأنه كان يمسك المجداف، وأطلقت رصاصة أخطأته..

وسمعتهما يضحكان.. تمالكت أعصابي وأعدت التصويب.. فلم يضحك هذه المرة.. سقط في الماء والمجداف معه..
عدت أصرخ في الآخر كى يعود.. لكنه أبى..
صوبت المسدس نحوه وأطلقت رصاصة، لكنه كان قد ابتعد كثيرا.. دعني أصارحك بأنني شعرت بحماقتي..
ظللت أنادي حتى استحال صوتي صراخا، ولم يعد أمامي سوى أن أسبح في الماء، مجربا حظي مع القرش..
فتحت مطواتي وأطبقت عليها بأسنانى، وقفزت إلى الماء.. لأجد أنني لم أعد أرى القارب.. لكني اتجهت إلى حيث ظننت أنه موجود، على أمل أن الرجل لا يحسن الملاحة، وبالتالي سيبقى في اتجاه واحد، كانت النجوم الآن قد بدأت تلتمع عبر الأزرق العظيم.. لكنني سبحت كالأبطال..
الان ساد الظلام الكون، وبدأت أرى كل أنواع الأشياء المتألقة في الماء.. حتى أنني شعرت بدوار وبدأت أعجز عن تمييز: هل أنا أسبح وكعبي الأسفل أم رأسي.. من بعيد أرى القارب أسود كالخطيئة.. وأدنو منه.. وأخيرا أتسلق القاري، ببطء متوقعا أن يتحرك الكافر ويهاجمني.. لكنه لم يفعل..
بعد وقت غير قصير ناديته باسمه في الظلام.. فلم يجب.. وكنت منهكا بحيث لم أستطع أن أمشي له فجلست في مكاني، وأعتقد أن النعاس غلبني مرة أو مرتين..، وحين جاء الفجر وجدته ميتا كمقبض الباب ومحتقنا..، في وسط القارب رأيت بيضاتي الثلاث والبسكويت والقهوة.. وتحت جثة الرجل قنينة كحول ميثيلى.. ولم أجد مجدافا، فجلست في القارب على أمل أن يجدني أحدهم يوما ما.. وقلت لنفسي إن ثعبانا أو عقربا أورد الرجل حتفه..
كان الأفق خاليا من أية علامات تدل على الأرض..

وحين علت الشمس السماء، راحت تصب حرارتها فوق يافوخي.. حتى شعرت بمخي يغلي..، وهنا وجدت جريدة.. نسخة من جريدة (آرجوس) فرقدت على ظهري وفردتها فوق رأسي.. يالله! ما أكثر فوائد هذه الصحف!.. أنا لم أقرأ صحيفة في حياتي، لكني قرأت هذه بالذات أكثر من عشرين مرة..
ظللت ضائعا عشرة أيام.. شيء بسيط حين تحكيه.. أليس كذلك؟.. وفي اليوم السادس مرت سفينة على بعد نصف ميل مني.. وسمعت صوت موسيقا على سطحها.. وقفت ولوحت وصرخت..، وفي اليوم التالي قمت بتقشير جزء من بيضة الـ (إيبيورونيس) وجربت مذاقها.. لم يكن رديئا.. له مذاق بيضة البط..
بها - في المخ - خيوط من دم متخثر لم أعرف مغزاه في ذلك الوقت. المهم أن هذه البيضة كانت كافية لي ثلاثة أيام مع البسكويت.
قشرت البيضة الثانية في اليوم الثامن.. وأثارت هلعي..
نعم.... كانت تنمو..، لقد ظلت مدفونة في الوحل ثلاثمائة عام، وبرغم ذلك لم يكن من الممكن أن تسيء فهم ما تراه.. كان هناك - ماذا تسمونه - آه!..
الجنين.. برأسه الضخم، وظهره المنحنى، وقلبه يخفق.. لقد فهمت..! إنني أقوم بتفريخ بيض أضخم الطيور قاطبة في قارب بدائي وسط المحيط الهندي....
لو أن (دواسون) العجوز سمع هذه القصة!..
المهم أنني التهمت البيضة بمحتواها.. كل جزء منها..، أما البيضة الثالثة فقد رفعتها للنور مرارا؛ محاولا تبين ما يحدث بها.. لكن القشرة كانت سميكة للغاية.. كان هذا حين وصلت إلى الجزيرة.. وصلتها فجأة مع شروق الشمس..

بعد معاناة من التجديف بيدي وصلت إليها.. جزيرة مساحتها أربعة أميال، بها أشجار معدودة، وينبوع وبحيرة مفتوحة، تسبح بها أسماك الببغاء..، وضعت البيضة فوق صخرة، لتكون في أمان من الكسر ولتغمرها أشعة الشمس إن كانت لديها نية الفقس...

ورحت أتفقد الجزيرة.. فوجدتها مملة ككتاب مواعظ لا شيء فيها يمت إلى جزيرة (روبنسون كروزو) الفاتنة.. وشعرت بأنني سأقضي سأما..

لكني سعيد الحظ.. إذ في اليوم الأول هبت عاصفة رعدية، وأغرقت السيول الجزيرة ليلا.. وكما تعلم لم يحتج الأمر لجهد كبير كي أفقد القارب الذي جئت به..

كان ذلك ليلا حين صحوت على عواء الريح.. وجاءت موجة عاتية لتأخذ القارب بعيدا عني.. لكن البيضة ظلت سالمة، لأنها كانت في مكان مرتفع.. ياالله!..

يالها من ليلة!

عند الفجر هدأت العاصفة وأشرقت الشمس وعندئذ فقست البيضة!.. نعم يا سيدي.. فقست وأنا أتخذها وسادة تحت رأسي.. سمعت قرقعة واهتزازا، فرفعت رأسي لأرى الرأس البني الصغير يرمقني من طرفها.. وراح يحاول الخروج من باقي البيضة، فصحت به مرحبا..

كان ولذا لطيفا.. في حجم دجاجة صغيرة.. مغطى بزغب دقيق ولن أقول ريشا.. بصعوبة أصف لك مدى سروري بمجيئة.. إنها لصحبة رائعة، نظر لى ثم رمش بعينه كدجاجة.. وراح يفتش بمنقاره عن طعام ناولته بعض سمك الببغاء، فراح يلتهمه، ثم فتح منقاره يطلب المزيد..

كان طائرا مسليا فرخ ال (إيبيورونيس) هذا يتبعني في كل مكان، ويقف جوارى إذ أصطاد فى البحيرة ليشاركني كل ما أظفر به.. وكان مرهف الحس كذلك..
مع الوقت نما.. تكاد تراه وهو ينمو لحظة بلحظة..، ولم أكن رجلا اجتماعيا، لهذا ناسبتنى طباعة الصموت الهادئة..، ومرت أعوام سعيدة علينا في هذه الجزيرة، لم أكن أحمل هم العمل، لأن مرتبى يتراكم كل شهر عند (داوسون).. فقط أزخرف الجزيرة بالقواقع وأرقب الطائر يكبر.. يكبر..، لقد صار له غرف.. وريش أخضر على مؤخرته.. حتى أنني بدأت أتساءل عما إذا كان لـ (داوسون) حق في الطائر أم لا.. لقد كنت خليقا بأن أجمع ثروة من عرضه..
فقط لو غادرت الجزيرة وفى آناء العواصف كنت أرقد جواره في الكوخ الذي صنعته.. وأحكي له الأكاذيب..، باختصار.. لو كان هناك طباق للتدخين لصارت هذه الجزيرة جنة حقيقية..
الآن صار صديقى شامخا بارتفاع أربعة عشر قدما..
له رأس كبير عريض.. وعينان بنيتان لامعتان واسعتان تحيطهما جفون صفراء..، وكانت العينان في مقدمة الرأس كالإنسان، لا على جانبية ككل الطيور..
وهنا بدأت الجنة تتبدل..
كان حظي مع الأسماك شحيحا في تلك الفترة..
ووجدت أن الطائر يلاحقني بإلحاح وتأمل.. كنت جائعا.. ولهذا حين نجحت أخيرا في صيد سمكة؛ إذا باللعين يقتنصها.. وكانت الأعصاب متوترة في ذلك اليوم على الجانبين.. لذا ناولته لكمة فوق رأسه ليرحل.. وعندئذ هاجمني أنا!..
وأشار إلى الندبة على وجهه وقال:
- لقد أصابني بهذه.. ثم ركلني كأنه حصان جر..

نهضت لأجّد أنه لم يفرغّ بعد.. فغطيت وجهي بساعدي وعزمت على الفرار.. لكنه لاحقنى بساقية السريعتين،..
وراح يركلني ركلات كمطرقة الحداد.. فررت إلى البحيرة وغصت بها حتى عنقي..
توقف على الشاطئ - كان يكره أن تبتل قدماه - وراح يصدر زمجرة خشنة.. ثم راح يذرع الشاطئ جيئة وذهابا..، أعترف أنني شعرت بضالتي وأنا أرى هذه الحفرية الحية تذرع الشاطئ جيئة وذهابا.. أنفى وجسدي ينزفان وقد صرت كلى عصيدة من الكدمات..
بدا لي الموقف مؤسفا.. أنا الإنسان وريث الأجيال.. أنا الذي فقسته وعلمته وأطعمته.. أي نكران للجميل هذا!..
إلا أنني أملت أنه سيرى الأمور كما أراها فيما بعد، ولابد سيشعر بالندم.. ربما لو قدمت له بعض الأسماك فإنه سيفعل الشيء المعقول.. احتجت زمنا كي أتعلم مدى حقد وسواد قلب هذه الطيور المنقرضة؟
لن أحكي لك عدد الحيل التي ابتكرتها لأسترد صداقة هذا الطائر.. بل جربت العنف، رميت كرات من الفحم عليه من مسافة مأمونة.. لكنه ابتلعها..، حاولت تجويعه بالكف عن صيد السمك.. لكنه راح يلتقط الديدان من المياه الضحلة جوار الشاطئ.. ولا داعى.. أن أقول لك إنه أجبرني على قضاء نصف حياتي في مياه البحيرة.. والنصف الآخر فوق نخلة شامخة لا يستطيع الوصول إليها.. حتى غدا الوضع غير محتمل.. هل جربت في حياتك النوم فوق نخلة؟! أنه مؤلم فضلا عن أنه مهين.. هذا الطائر اللعين يحكم جزيرتى، بينما أنا الإنسان الذي كرمه الله غير مسموح لى بوضع قدمي على الأرض..، شرعت أسبه وألعنه من فوق النخلة، فاكتفى بأن فغر منقاره في وجهى..

أخيرا كان من الضروري أن أقتله.. استعملت حيلة من حيل أمريكا الجنوبية.. فقمت بربط كل حبال الصيد عندي لتصنع حبلا طويلا طوله اثنتا عشرة باردة أو أكثر.. وربطت قطعتين من الفحم إلى طرفيه وأخيرا رفعته فوق رأسي وأدرته عدة مرات ثم قذفته عليه.. فالتف الحبل حول ساقية ودار عدة مرات..
وسقط الطائر أرضا.. فما إن هوى حتى هرعت لأحز عنقه بمديتى..
لا أحب أن أستعيد هذه الذكرى.. لقد كان غضبي ملتهبا، لكني شعرت بأنني قاتل.. حين وقفت أرمق دماءه تسيل فوق الرمال البيضاء.. وساقيه الجميلتين ترتجفان بالسكرات الأخيرة..
يا له من مشهد!..
لقد عادت الوحدة إلى عالمي كلعنة.. وجلست أرمق جثته وأرتجف وأذرف الدمع.. كم كان طائرا لطيفا حين خرج من البيضة!. والآن لو كنت قد اكتفيت بجرحه.. لربما أمكنني تمريضه حتى يعود لصحته، ولفهم أفضل.. ليتني أستطيع حفر هذه الصخور لأدفنه..
لا أستطيع أكله لأنني شعرت بأنه كائن بشري.. لهذا وضعته في البحيرة وتركت الأسماك الصغيرة تنظف هيكله..، وبعد أيام جاء شاب في يخت ليستكشف جزيرتى..
كان هذا هو الوقت المناسب تماما، لأني كنت قد سئمت الوحدة.. وأزمعت إنهاء حياتي في البحر..
وحين عدت.. بعت العظام لتاجر يدعى (وينسلو).. وباعها هذا لـ (هافرز) العجوز.. وهناك نسيها الرجل حتى مات فأثارت الانتباه.. وسماها العلماء (إيبيورونيس).... ماذا؟!
قلت له مكملا الاسم:

- (إيبيورنيس فاستس).. كان هناك طائر طول فخذه ياردة.. وكانوا يحبسونه الأكبر.. لهذا سموه (إيبيورونيس ماكسيماس).. ثم ظهر طائر أكبر فسموه (تيتان).. ثم جاء طائرك... بعدها جاء طائر أكبر هو (فاستيماس) ([3])

ابتسم الرجل ذو الندبة وقال:

- لكن هذا - مهما قلنا - هو شيء غريب في حياة إنسان.. ألا ترى ذلك معي؟!

رأس السنة - 1894

∞∞∞∞∞


الغرفة الحمراء

الغرفة الحمراء..

- أؤكد لك أن الأمر يحتاج لشبح قوى كى يخيفني..
قلتها.. ووقفت أمام النيران وكأسي في يدي..
- إنه اختيارك الخاص..
قالها الرجل ذو الذراع اليابسة وراح يرمقني شزرا - لقد عشت ثمانية وعشرين عاما.. ولم أر فيها شبحا..
راحت العجوز تحدق في النيران، وقد اتسعت عيناها.. وقالت:
- حقا.. لكنك عشت ثمانية وعشرين عاما.. لم تر فيها مثيلا لهذا البيت، هناك الكثير مما يمكن أن تراه حين يكون عمرك ثمانية وعشرين عاما..
وأرجحت رأسها ببطء من جانب آخر:
- الكثير مما تراه.. وتندم عليه..
شعرت أن العجوزين يحاولان بإلحاح المبالغة في أمر الأهوال الروحية لمنزلهما.. فوضعت كأسى على المنضدة ورحت أجوب الحجرة، وأختلس نظرة للمرأة في نهاية الحجرة...
- حسن.. لو أنني رأيت الليلة شيئا؛ فلسوف أزداد حكمة..
لقد جئت للمهمة بعقل متفتح..
وهنا سمعت صوت عصا.. وخطوات مثقلة في الممر بالخارج.. وأصدر الباب صريرا حين دخل عجوز آخر.. أكثر انحناء وتجعدا، وأكثر تقدما في العمر من الأول.. كان يستند إلى عكاز، وثمة سحابة على عينيه.. بينما تتدلي شفته السفلى كاشفة عن أسنان صفراء نخرة..
اتخذ طريقه إلى (شيزلونج)، وجلس عليه دون روية وراح يسعل.. لم تبد المرأة ما يدل على أنها لاحظت قدومه..

وواصلت التحديق في النار..
قال الرجل الأول حين توقف السعال:
- قلت إن هذا اختيارك الخاص..
- هو كذلك..
هنا لاحظ الرجل الثاني وجودي للمرة الأولى.. فمال برأسه جانبا ليراني أفضل.. نظرت لعينيه الصغيرتين اللامعتين، الملتهبتين للحظة.. على حين عاد الرجل الأول يقول له:
- ألا تشرب؟
وأزاح نحوه زجاجة البيرة.. فصب هذا لنفسه كوبا بيد مرتجفة أسقطت كثيرا فوق المائدة.. ثمة ظل عملاق له على الحائط إذ ينحني ويصب ويشرب..
يجب أن أعترف بأنني لم أتوقع وجود هؤلاء الحراس الغريبين.. ثمة شيء في ذهني يجد في الشيخوخة نوعا من فقدان الآدمية.. إن الصفات البشرية تتساقط من الشيوخ يوما بعد يوم دون أن يشعروا.. وهؤلاء الحراس الثلاثة يشعرونني بعدم الارتياح بصمتهم..
وانحناء ظهورهم.. وانعدام مودتهم تجاهي وتجاه بعضهم البعض..
قلت لهم:
- لو أنكم أريتموني تلك الغرفة المسكونة؛ فلسوف أستريح.
نظر لي العجوز ذو السحابة على عينيه لحظة واحدة.. لكن أحدا لم يجبني بشيء.
أعدت الكلام بصوت أعلى:
- لو أريتموني الحجرة المسكونة فلسوف أريحكم من عناء تسليتى..
قال الرجل الأول وهو ينظر لقدمى:

- ثمة شمعة على مصراع الباب.. لكن إذا كنت ستدخل الغرفة الحمراء الليلة...
(تدخلت العجوز قائلة: هذه الليلة دون غيرها من ليال)
.. فيجب أن تذهب وحدك..
- حسن.. وأي طريق أسلك؟
- تمشي عبر هذا الممر حتى تبلغ بابا.. ثم درجا حلزونيا.. ثم بابا آخر.. ادخله.. ولسوف تجد الغرفة على يسارك..
قال الرجل ذو السحابة على عينيه:
- هل حقا أنت ذاهب؟
(قالت العجوز: هذه الليلة دون غيرها من ليال!)
- هذا ما جئت لأجله..
واتجهت إلى الباب.. وإن فعلت هذا دار الرجل ذو السحابة حول المنضدة ليدنو من النار أكثر.. وحول النار التفوا يرمقونني بعيونهم الغابرة.. ومن جديد قال أولهم:
- إنه اختيارك الخاص..
تركت الباب مواربا حتى أضأت الشمعة، ثم مشيت عبر الممر البارد الذي يردد أصداء خطواتي..
لابد هنا من الاعتراف بأن نفسي تأثرت، برغم محاولتي للاحتفاظ بمنطقي.. تأثرت بهؤلاء الشيوخ الثلاثة الذين تركت لهم (الليدي) صاحبة القلعة أملاكها.. تأثرت بالأثاث العتيق.. وغرفة الحارس التي تجمعوا فيها كأن كل هذا يمت لعهد سحيق.. عهد كانت فيه الساحرات والتعاويذ أمورا قابلة للتصديق.. وكانت الأشباح حقا لا مراء فيه..، حتى بدا لي الحراس الشيوخ كأنهم أطياف متلاشية تسكن هذا العالم، لكنها لا تشارك فيه..
كان الممر مغبرا.. وراح لهب شمعتي يتأرجح، والظلال على الحائط تهتز.. ورأيت ظلا يصعد السلم نحوى، وآخر يطير من

فوق ليذوب في الظلام..
توقفت لحظة أصيغ السمع، ثم - وقد استرحت للصمت المطبق - فتحت الباب أمامي.. ووقفت في الردهة..
كان ضياء القمر القادم من شباك ضخم على الممشى؛ يغلف كل شيء بضوئه الفضي.. وكل شيء في موضعه، كأنما المكان مهجور بالأمس، لأمن ثمانية عشر شهرا..
كانت هناك شموع.. والغبار الذي تراكم على السجادة، أو على البلاط، لم يكن مرئيا في ضوء القمر، لأنه قد تم توزيعه بالتساوي،.، كدت أخطو ثم تجمدت بدا الى أن هناك من يقف عند ركن الحائط، وكأنما ينتظرني ليقطع على الطريق.. فتحسست الغدارة في جيبي وتقدمت.. لأجد تمثالا لنسر وفتاة من البرونز يلتمع في ضوء القمر..
أعاد الى هذا الحادث جرأتي.. فلم أعبأ كثيرا بتمثال من (البورسلين) اهتز رأسه قليلا عندما مررت به..
حركت شمعتي لأرى جوانب مدخل الغرفة الحمراء، لابد أنهم وجدوا سلفى ها هنا.. أصابني توجس مفاجئ حين تذكرت هذا.. فتحت باب الغرفة في تردد.. بينما أدير وجهي لأرمق الصمت الشاحب خارجها..
دخلت.. وأوصدت الباب ورائي، وأدرت المفتاح في القفل.. ثم وقفت حاملا الشمعة أرمق مسرح سهرتى..
الغرفة الحمراء العظمي في قلعة (لوريان).. حيث مات الدوق الشاب.. أو بالأحرى - حيث بدأ موته.. لأنه فتح الباب وتدحرج فوق الدرجات التي ارتقيتها من فورى.
وكانت تلك نهاية سهرته.. نهاية محاولته المجيدة لقهر تقاليد المكان الشبحية..، غير عالم أنه سيخدم الإيمان بالخرافات إلى أقصى حد ممكن...

ثمة قصص أكثر قدما حول هذه الغرفة، مثل الزوجة الجبانة التي حاول زوجها أن يداعبها والنهاية المأساوية التي تلت محاولته إفزاعها..

رحت أرمق الغرفة بجوانبها المظلمة، ومضاجعها.. وأدركت جيدا كيف ولدت الأساطير من هذه الظلمة..

لقد كانت شمعتي قبسا واهيا من نور في هذا الديجور الممتد.. عاجزا عن الوصول إلى الركن البعيد، تاركا محيطا من الغموض والتساؤلات وراء جزيرة الضوء هذه...

أزمعت أن أتفحص المكان فورا.. وأستبعد الخيالات قبل أن تتمكن مني.. ورحت أذرع المكان - بعد ما أوصدت الباب بإحكام.. متفقدا كل قطعة أثاث ومزيحا كل ستارة لأرى ما وراءها..

بل إني تأكدت من أن النوافذ موصدة.. وانحنيت لأتأمل سواد المدفأة من الداخل.. وضربت على كل الألواح الخشبية لأتيقن من ألا فتحات سرية هناك..

كانت هناك مرآتان، على جانبي كل واحدة شمعتان، وعلى المنضدة كانت هناك شموع أكثر أضأت كل هذه..، وكانت الأخشاب معدة في المدفأة..

وهي عناية غير متوقعة من حارس البيت.. أشعلتها لألغى شعوري بالقشعريرة، ثم أدرت ظهري لها لأعيد تأمل الحجرة..

جذبت منضدة و (شيزلونج) ووضعتهما أمامي كنوع من المتاريس، وعلى هذه المنضدة وضعت غدارتي..

لقد أفادني تفقدي الحجرة.. إلا أن الركن المظلم القصي من المكان.. بذلك الصمت التام والسكون المخيم عليه؛ لم يزل يثير خيالاتي..

لم أجد الراحة في صوت قرقعة النيران بالمدفأة، وذلك الظل عند طرف المضجع بالذات ليه تلك الخاصية التي لا يمكن التعبير عنها.. خاصية الحضور.. الإيحاء الغامض بشيء حي، الذي يولد بسهولة في الظلام والوحدة..

في النهاية - لأطمئن نفسى - حملت الشمعة في يدي، وسرت إلى هناك لأتأكد من عدم وجود شيء ملموس..

الآن أنا في حالة لا بأس بها من التوتر العصبي، برغم أنه لا يوجد سبب كاف لذلك.. إلا أن مخى صاف تماما، وقادر على التفكير.. قلت لنفسي دون تحفظ إنه لن يحدث شيء خارق للطبيعة.. ورحت أغنى بعض الألحان لتزجية الوقت..

لكن الصدي لم يكن سارا على الإطلاق، ولنفس السبب تخليت عن مناقشة بيني وبين نفسي عن استحالة وجود الأشباح..

كان اللونان الأسود والأحمر يسيطران على الغرفة.. وضايقني هذا لأنها - مع كل تلك الشموع – ظلت مظلمة تقريبا..

وهنا تذكرت تلكم الشموع التي رأيتها في الممر..

ففتحت الباب وخرجت من الغرفة.. وفي ضوء القمر عدت بعشر شموع.. وبدأت أوزعها في أرجاء الحجرة في أوعية صينية صغيرة كانت موجودة في الغرفة بكثرة، بعض الشموع وضعتها على الأرض.. وبعضها على النافذة.. حتى - في النهاية - لم يعد هناك موضع في الغرفة إلا وقد سقط عليه ضوء ساطع..

وخطر لي أنه لو جاء الشبح فعلي أن أنذره حتى لا يتعثر في إحدى هذه الشموع...

ثمة شيء مبهج ومطمئن للغاية في هذه الشموع..

إلا أن توقعي للسهرة الطويلة ظل جاثما فوقي..

كان ذلك عند منتصف الليل: حين انطفأت شمعة المضجع فجأه.. وزحف الظل الأسود إلى مكانه عندها..

لم أرها تنطفئ.. فقط أدرت رأسى لأجد الظلام هناك.. كأنما ترفع عينيك لترى غريبا لم تتوقع وجوده جوارك..
صحت عاليا:
- بحق الله!.. يا لها من نسمة قوية!
ومتناولا الثقاب من فوق المنضدة: مشيت عبر الغرفة متراخيا لأعيد إشعال الشمعة..
لم يشتعل العود الأول.. واشتعل الثاني، وفجأة شعرت أن شيئا يومض على الحائط أمامي، فنظرت لأجد الشمعتين على المنضدة الصغيرة جوار المدفأة وقد انطفأتا..
وثبت على قدمي هاتفا:
- عجيب!.. تراني فعلت ذلك شارد الذهن؟!
وتراجعت إلى الوراء وأعدت إشعال واحدة، فبينما فعل ذلك إذا بشمعة على جانب المرأة تتألق ثم تخبو.. وعلى الفور لحقت بها الشمعة التي على الجانب الأخر..
لا خطأ هنالك.. لقد خبا اللهب كأن الفتيل قد انضغط ما بين أصبع وإبهام.. تاركا الفتيل لا يدخن ولا يحمر..
فقط أسود..
وهنا تلاشت الشمعة عند قدم الفراش.. وخطا الظل خطوة أخرى نحوى..!
- هذا لن يصلح..!
عندئذ تلاشت الشمعة فوق التسريحة..
صحت بصوت مبحوح:
- ماذا هنالك؟
وهنا خبت الشمعة فوق خزانة الثياب.. وتلتها أخرى.. تلك.. تلك التي أعدت إشعالها عند المضجع..
اهدأ بالا.. هذه الشموع هامة لى..

قلت ذلك بصوت نصف هستيري، وأنا أضرب رأس العود بعلبة الثقاب.. ويداى ترتجفان.. فما إن أشعلت شمعة التسريحة حتى خبت شمعتان في طرف النافذة القصيّ..

أشعلت شمعتي المرآة وشمعة الأرض بعود الثقاب ذاته.. وللحظة خيل إلى انني هزمت الانطفاء، ولكن - فجأة - خبت أربعة أضواء في أركان مختلفة من الحجرة.. فأشعلت عود ثقاب آخر في لهفة..

وهنا شعرت بأن يدًا خفية قد مرت على شمعتين فوق المنضدة، أطلقت صرخة رعب وشرعت أعيد أشعالهما...

ثمة طريقة أفضل.. وضعت الثقاب على المنضدة، وأمسكت بحامل شموع.. هكذا أتلافى بطء اشتعال الثقاب.

لكن الانطفاء استمر.. وراحت الأشباح تلاحقني وتكسب أرضا جديدة في كل مرة.. الظلال..

بدا الى المشهد كغمامة تمر أمام النجوم.. فجأة يبدو نورها وفجأة يختفي..

الآن أشعر بالهلع من فكرة الظلام القادم.. وقد فقدت كل قدرة على التماسك..

أجرى من شمعة الأخرى في صراع معدوم الجدوى..

أصبت بكدمة في فخذي من اصطدامى بالمنضدة.

سقطت.. وأسقطت غطاء المائدة في سقطتي..

انطفأت الشمعة التي أحملها من أثر حركتي السريعة..

ثم انطفأت آخر شمعتين في الغرفة..!

لكن الغرفة لم تظلم تماما.. ثمة ضوء أحمر آت من موضع ما.. المدفأة!

بالتأكيد.. ما زال بوسعي أن أشعل الشمعة من المدفأة..

ذهب إلى المدفأة حيث اللهب يتراقص بين كتل الفحم.. وهنا تلاشى اللهب دون إبطاء.. وشعرت بالظلمة تطبق على كانغلاق جفنين.. والتفت حولي في عناق محكم.. مطبقة على بصري.. مهشمة أخر بقايا التعقل في رأسي..
سقطت الشمعة من يدي.. مددت ذراعي أمامي محاولا - بلا جدوى - أن أبعد هذا السواد عني.. رفعت صوتى.. صرخت بكل قواى مرة.. مرتين.. ثلاثا..
أذكر أنني فكرت وقتها في الردهة التي يغمرها ضوء القمر.. حنيت رأسي وركضت إلى الباب.. عازما على الفرار دون إبطاء..
لكني نسيت موقع الباب.. واصطدمت بركن الفراش...
تراجعت مترنحا.. انقلبت انقلبت.. اصطدمت بقطعة أثاث..
أذكر بشكل ضبابي ركضي في الظلام.. صراعى المحموم.. صراخي الوحشي.. ضربة قوية على جبهتي، وشعور مريع بالسقوط دام قرونا محاولتى المجنونة لأقف على قدمي من جديد..
بعد هذا لا أذكر شيئا..

∞∞∞∞∞∞

فتحت عيني في ضوء النهار.. رأسي ملفوف بالضمادات، بينما الرجل ذو الذراع المتيبس يرمق وجهي.. نظرت حولي لأتذكر ما حدث.. لكني لم أستطع ذلك..
نظرت إلى ركن الحجرة فرأيت العجوز، تصب بعض قطرات الدواء من قارورة زرقاء صغيرة... سألتهما:
- أين أنا؟.. إنني أتذكركم، لكني لا أتذكر من أنتم..
حكوا لى كل شيء:
- وجدناك عند الفجر والدم يكسو شفتيك وجبهتك..

بدأت أسترجع ذاكرتي ببطء.. وعاد العجوز يقول:
- تراك أمنت الآن أن الغرفة مسكونة؟
- نعم.. الغرفة مسكونة..
- ورأيت ذلك.. بينما نحن من عشناها طيلة حياتنا لم نره قط.. لأننا لم نجسر قط.. قل لي.. هل هو (الإيرل) العجوز الذي....؟
- لا.. ليس هو..
قالت العجوز والكأس بيدها:
- قلت لك.. إنها تلك الكونتيسة البائسة التي أخافها زو....
- ليس هي.. لا يوجد شبح (إيرل) ولا (كونتيسة) في الغرفة الحمراء.. لا شبح هناك على الإطلاق.. لكن ما هو أسوأ.. أسوأ بكثير..
- إذن؟
- إنه أسوأ الأشياء التي تسكن البشر الفانين.. ألا وهو الخوف..! الخوف الذي لا ضوء له ولا صوت ولا يخضع للعقل.. الخوف الذي يصم ويعمى ويسحق.. لقد تبعني عبر الممر وحاربته في الغرفة. وعدت إلى الصمت، وتحسست يدي ضماداتى..
عندئذ قال الرجل الواقف في الظل بعد ما تنهد:
- نعم.. عرفت أنه كذلك.. قوة الظلام.. إنه يجول هناك أبدا.. وتشعر به حتى في ضوء النهار وحتى في صباح الصيف المشرق.. يختفي وراء الستائر والأبواب ويمشي خلفك أينما وجهت وجهك.. يتبعك عبر الدهاليز فلا تجرؤ على الالتفات.. الخوف.. الخوف الأسود في حجرتها.. ولسوف يبقى بها ما بقي هذا البيت المفعم بالآثام..

مارس 1890

∞∞∞∞∞∞


حقيقة
(بايكرافت)

حقيقة (بايكرافت)

يجلس على مسافة أقل من اثنتي عشرة باردة منى..
لو نظرت من فوق كتفي أرأيته، ولو التقت عيني بعينه - وهذا يحدث دائما - يلقاني بتعبير ما إنها أساسا نظرة متوجسة.. لكن الريبة فيها برغم سحقا لريبته هذه!.. لو أردت أن أفشى سره لفعلت من زمن.. أنا لن أفعل ذلك، والمفترض أن يشعر بالراحة.. كأن شيئا بهذه البدانة والضخامة يمكن أن يشعر بالراحة.. ثم من يصدقني لو تكلمت؟
مسكين يا (بايكرافت)! كتلة هلامية عملاقة.. أكثر رواد الأندية بدانة في (لندن)..
يجلس جوار النار على مائدة صغيرة يلوك شيئا.. ماذا يلوك؟ إنه يقضم من كعكة مليئة بالزبد، وعيناه عليّ.. سحقا له!.. ليكن يا (بايكرافت).. مادمت ستكون وضيعًا.. مادمت ستتصرف وكأنني رجل غير شريف..
حسن.. هأنذا أكتب القصة كلها تحت عينيك.. حقيقة (بايكرافت).
الرجل الذي عاونته.. الرجل الذي داريته.. الرجل الذي جعل جلسة النادي غير محتملة بإلحاحه على لا تقل) كلما نظر إلى..
شم - إلى جانب هذا - لماذا يصر على التهام الطعام للأبد؟
ها هي ذي الحقيقة.. كل الحقيقة.. ولا شيء غير الحقيقية!
عرفت (بايكرافت) في قاعة التدخين هذه.. كنت عضوا صغير السن عصبيا.. وجاءني إذ جلست وحدي..
كتلة متدحرجة هائلة من كرشه ولغده.. جلس جوارى على مقعد ولهث قليلا ثم أشعل سيجارا وبدأ يتكلم..

لا أذكر ما قاله بالضبط.. شينا عن أعواد الثقاب التي لا تشتعل جيدا.. ثم راح يثرثر، ومن حين لآخر يستوقف النادل ليقول له شيئا عن أعواد الثقاب بصوته الرفيع المنغم.. ثم إنه بدأ بتحدث عن الألعاب الرياضية.. فقال لى:
- لابد أنك تجيد (الكريكت).
أعرف أنني نحيل.. بل أنا أقرب إلى الهزال الشديد.. دعك من أنني أسمر.. لا أخجل من أن لي جدة هندية، لكني لا أرحب بأن ينظر الغرباء إلى وجهى فيروها..
لكنه كان يتحدث عنى ليصل إلى نفسه..
قال لي:
- أعتقد أنك لا تمارس الرياضة أكثر مني.. ولا تأكل أقل (ككل مفرطي البداية كان يحسب أنه لا يأكل).. ثم ابتسم.. وأردف:
- برغم هذا.. نحن مختلفان، ثم راح يتكلم عن بدانته.. كل ما فعل من أجل بدانته.. وكل ما سيفعله من أجل بدانته.. ما نصحه به الناس من أجل بدانته.. وما سمع أن الناس يفعلون من أجل بدانتهم..
كان حديثا مملا.. وشعرت بأنني أنتفخ لسماعه..
ويوما بعد يوم لم أعد أطيق المزيد.. راح يطاردنى في إلحاح.. ما إن يراني في النادي.. كأنه يعرف ويثق بأنني (أستطيع) وكأن هناك فرصة أمثلها له ولا يتيحها سواى..
إلى أن جاء اليوم الذي طرق فيه الموضوع:
- إن علم الصيدلة الغربي ليس هو الكلمة الأخيرة في الطب.. يقال إن الشرق.......
وبتر كلماته ونظر لي..
فأصابني الغضب منه، وقد عرفت أن حدسى كان صادقا:
- قل لي.. من حدثك عن وصفات جدتي؟!

غمغم في حرج:
- حسن!
- في كل مرة التقينا فيها طيلة الأسبوع، شعرت أنك تلمح إلى سرى هذا
- حسن...
لقد انكشف الأمر.. هو كذلك عرفت السر من.....
- من (باتيسون):
- بشكل غير مباشر.. نعم.
قلت وأنا أعرف أنه يكذب:
لقد تناول (باتيسون) المادة على مسئوليته الخاصة..
وأضفت:
- وصفات جدتي هذه هي أشياء غامضة.. وقد كاد أبي ينتزع مني وعدا بألا أتحدث عنها..
الآن صار (بايكرافت) عليما بأن لي سرا.. وأنه يستطيع التمادي.. وكنت أنا قد سئمته تماما حتى أنني قلت لنفسي: ليكن.. دعه يجرب بنفسه!.. يجب أن أعترف هنا بأنني كنت أشك في هذه الوصفات تماما من ناحية الأمن...
لكنني في تلك الأمسية أخرجت من خزانتي ذلك الصندوق الخشبي غريب الرائحة، وفتحته.. كان يحوى وصفات جدتي..
لابد أن من كتب هذه الوصفات لجدتي كان مولعا باستعمال الجلود المختلفة.. وخطه كان رديئا إلى أقصى درجة، عجزت عن قراءة بعض الأجزاء برغم أن أسرتي ظلت ملمة باللغة الهندوستانية من جيل لجيل..
أخيرا وجدت الوصفة التي كنت أبحث عنها، فجلست على الأرض أطالعها..
وفي اليوم التالي قلت له (بايكرافت):

- انظر هنا!
وانتزعت القصاصة من قبضته الملهوفة.. وأردفت:
- على قدر فهمى.. هذه وصفة لفقدان الوزن (وهنا تأوه (بايكرافت)).. لكني لست واثقا من ذلك.. وإذا أخذت بنصيحتى: دعها وشأنها..
- دعني أجربها..
ناولته قطعة الجلد طالبا وعدا منه بأن يكف عن الكلام عن بدانته المقززة مهما كانت النتائج.. فنظر لها في دهشة.. ثم هتف:
- لكنها.. لكنها..
فقد أدرك أنها لم تكتب بالإنجليزية..
- سأحاول ترجمتها لك..
وحاولت جهدي.. وبعدها لم نتبادل الحديث لمدة أسبوعين.. وكلما دنا مني ليتكلم قطبت في وجهه وأشير له بالابتعاد...
في نهاية الأسبوعين جاءني بدينا كما كان.. ليقول لى:
- يجب أن أتكلم.. هذا ليس عدلا.. إن الوصفة لم تجد نفعا..
- أين الوصفة؟
فأخرجها من بين طيات كتابه.. وجريت بعيني بين سطورها:
- هل كانت البيضة فاسدة؟
- لا.. هل كان هذا ضروريا لنجاح الوصفة؟!
هذه هي طريقة جدتي العزيزة في كتابة الوصفات..
إن لم تحدد الطريقة فعليك افتراض الأسوأ.. كانت إما باترة في عملها.. أولا تفعله أبدا.. هل حصلت على سم حية الجرس طازجا؟
- أحضر لي (جامراتش) واحدة.. إنها باهظة الثمن..
- تلك مشكلتك أنت..

ومر شهر على هذا، ظللت أثناءه أرى (بايكرافت) في النادي.. بدينا.. قلقا.. كما كان دوما..، وظل صامتا محافظا على عهده إلى أن انفجر قائلا:
- إن جدتك هذه..
- ولا كلمة في حقها!
ظننته قد قنط من المحاولة.. إلى أن وجدت - على غير توقع - برقية تصلني ذات يوم..
- مستر (فورمالين)!
قالها بائع الجرائد الصغير.. وناولني البرقية، ففتحتها فورا..
بحق السماء تعال فورا - (بايكرافت).
همم!.. لكي أكون صادقا أقول إنني سررت بأن وصفات جدتي قد عادت إلى مجدها القديم.. ولهذا رحت ألتهم غدائي بشهية..
بحثت عن عنوان (بايكرافت) لدى ساقي القاعة وعرفت أنه يقطن الجزء العلوي من منزل في (بلومسبري).. لهذا ذهبت هناك بمجرد أن فرغت من قهوتي.. فلم انتظر حتى أفرغ من تدخين السيجار..
وعلى الباب الخارجي صحت:
- مستر (بايكرافت)؟
كان الجيرة يعتقدون أنه مريض.. فهو لم يفارق حجرته منذ يومين.. دعوني للصعود.. فصعدت وقرعت جرس الباب.. فرأيت امرأة ذات وجه مذعور تهرع إلى قبل أن ينفتح الباب..
قالت لي:
- طلب أن نسمح لك بالدخول لو جئت.
ثم أضافت في ثقة:
- إنه حبيس بالداخل يا سيد!
- حبيس؟

- منذ صباح الأمس حبس نفسه.. ولم يدع أحدا يدخل.. ولم يكف عن السباب لحظة..!
- ماذا جرى؟
- لا يكف عن الأكل.. طلب كثيرا من الحلوى.. والسجق والبودنج.. والخبز.. لم يكف لحظة.. شيء مريع!
وهنا صدرت جلبة من داخل الحجرة:
- أهذا (فورمالين)؟
قرعت الباب وصحت:
- أهذا أنت يا (بايكرافت)؟
- قل لها أن تنصرف!
وفعلت كما قال..
شعرت بصوت غريب وراء الباب كأنما هناك من يتحسس بحثا عن المقبض في الظلام.. وسمعت لهائه..
ثم سمعت المفتاح يدور في الباب.. وصوت (بايكرافت) يدعوني للدخول.. فأدرت المقبض وفتحت الباب.. وبالطبع توقعت أن أرى (بايكرافت).. لم يكن هناك!
غرفة الجلوس في حالة فوضى مروعة.. أطباق مبعثرة بين الكتب وأدوات الكتابة.. ومقاعد مقلوبة.. لكن أين هو؟
- حسن أيها العجوز.. أغلق الباب..
سمعتها.. وعندئذ عرفت أين هو..
كان هناك.. فوق الباب.. كأنما هناك من طلاه بالصمغ وألصقه هناك.. وجهه ملئ بالرعب والغضب، وكان يلهث..
- أغلق الباب.. فلو أن المرأة رأت شيئا..
قلت له:
- لو أنك سقطت لهشمت عنقك يا (بايكرافت)..
- ليت هذا يحدث..

- أرجل في سنك ووزنك يمارس هذه البهلوانيات الصبيانية؟
- سأخبرك بالأمر..
وهنا أدركت فجأة أنه لا يمسك بشيء أدركت أنه يطفو هناك كمثانة حيوان ملأى بالغاز..!
كان يبذل مجهودا محموما ليبتعد عن السقف، وينزل على الحائط إلى.. وراح يلهث ويقول:
- إنها تلك الوصفة.. جدتك الـ....
وأمسك - دون حذر - بإطار لوحة معلقة وهو يتكلم فأفلتت من يده، وعاد يطير إلى السقف.. على حين هوت الصورة متهشمة على الأرض..
حاول من جديد بحذر حتى بدأ يهبط نحو رف المدفأة..
كان مشهدا غير عادي.. هذا الرجل الضخم البادن المحتقن مقلوب رأسا على عقب، ويحاول النزول إلى الأرض..
- كانت وصفتك ناجحة حقا!
- كيف؟
- فقدان الوزن.. حرفيا!
وهنا فهمت ما حدث..
- بحق السماء يا (بايكرافت).. كنت تبحث عن علاج للسمنة، لكنك كنت تسميها (وزنا)، وشعرت بسرور بالغ.. بل شعرت بأنني بدأت أحب (بايكرافت).
فقلت له:
- دعني أساعدك..
وجذبت ذراعه.. فراح يركل بقدميه محاولا أن يلمس بهما شيئا ما، حتى شعرت كأنما أحمل علما في يوم عاصف..
قال لي مشيرا:

- هذه المنضدة.. هي من خشب (الماهوجني) الثقيل.. لو أنك استطعت أن تحشرني تحتها..
وفعلت.. فقبع تحت المنضدة كبالون أسير.. في حين وقفت على السجادة وتحدثت معه مشعلا سيجارا:
- قل لي.. ماذا حدث؟
- أخذتها!
- وكيف كان مذاقها؟
- أوه!.. شنيع
كان يجب أن أخمن أن جميعها شنيع.. سواء نظرنا إلى المكونات أو النتائج.. كل وصفات جدتي تبدو لى غير مشجعة..
شربت جرعة أولا فشعرت بعد ساعة أنني أخف..
من ثم شربت الوعاء كله.. أغلقت أنفى وشربت..
وشعرت بأنني أصير أقل.. أقل وزنا.
ثم صاح بانفعال:
- ماذا عساي فاعل بحق السماء؟
- ثمة شيء واحد مؤكد ولا يجب أن تفعله.. لو غادرت هذا المبني.. سترتفع لأعلى وأعلى إلى مالا نهاية..
- ربما يزول مفعول الوصفة بعد قليل؟
هززت رأسي:
لا تعتمد على ذلك..
وهنا ركل الكراسي ولكم الأرض.. تصرف كما يفعل..
أي رجل بدين يحترم نفسه حين يمر بظروف عسيرة، أعني أنه تصرف بفظاظة.. راح يتكلم عني وعن جدتى بتحقير شديد، فقلت:
- أنا لم أطلب منك أن تأخذ الوصفة ومتناسيا إهاناته بكرم نفسى، جلست على المقعد ورحت أكلمه بلطف وحنان... قلت

له إنه هو من جلب هذه الكارثة لنفسه.. وإنني أجد فيما نوعا من العدالة الشعرية..
- والآن.. ارتكبت خطيئة عدم الدقة.. ولم تسمّ (الدهن) باسمه، بل سميته (وزنا)..
ثم اقترحت عليه أن يكيف نفسه حسب الوضع الجديد، ولن يكون عسيرا عليه أن يمشي على السقف باستخدام يديه..
- لا أستطيع النوم..
لكن هذه ليست مشكلة.. من الممكن أن يدخل تحت (ناموسية) يثبتها إلى ما تحتها بشرائط لاصقة، ويثبت الملاءة والبطانية بأزرار يجب عليه أن يثق بمديرة المنزل.. فوافق بعد جدل.. (بعد هذا كان من الطريف أن نجد أن المرأة تعاملت مع الأمر بواقعية جميلة)..
اقترحت عليه كذلك أن يضع سلم مكتبه في غرفته حيث توضع كل وجباته فوق المكتبة.. لتكون في متناول يده..
أما عن النزول للأرض فكان الحل العبقري هو أن يمسك بعض أجزاء من دائرة المعارف البريطانية (الطبعة العاشرة).. من ثم يهبط إلى أسفل بسلاسة..
كنت متحمسا للأمر.. لهذا أخبرت مديرة المنزل بالأمر بنفسي وأعددت فراشة المقلوب بالواقع قضيت يومين كاملين في شقة الرجل.. فأنا أجيد الأشغال المنزلية، لهذا فعلت كل الاختراعات العبقرية الممكنة.. جعلت مفاتيح النسور الكهربي تفتح لأعلى بدلا من أسفل.. أطلت له سلك الجرس.. الخ..
كنت سعيدا بفكرة أن (بايكرافت) قد صار ذبابة عملاقة تزحف على السقف، ومن غرفة الأخرى..
وأنه لن يعود للنادي أبدا..
لكن عبقريتي - كما تعلمون - انتصرت عليّ..

كنت جالساً عنده جوار المدفأة.. بينما كان هو يثبت سجادة تركية في السقف حين خطرت لي الفكرة:
- بحق السماء!.. كل هذا ليس ضروريا يا (بايكرافت)!
وشرحت له فكرتي قبل أن أفكر في تبعاتها:
- كل ما عليك هو ارتداء ثياب داخلية من الرصاص!
وأردفت:
- اشتر رصاصا واصنع منه أقراصا.. وثبت هذه الأقراص فوق ثيابك الداخلية.. ارتد حذاء مبطنا بالرصاص.. احمل حقيبة ملأى بالرصاص.. ولسوف ينتهي الأمر!.. لن تكون سجينا بعد اليوم..
وخطرت لي فكرة أكثر جاذبية:
- لن تحتاج أبدا لأن تخاف من غرق السفن.. لو حدث هذا لك فكل ما عليك هو انتزاع ثيابك الداخلية بعضها أو كلها.. عندئذ تحلق إلى عنان السماء..
في غمرة حماسته ألقى المطرقة على مقربة من رأسي.. وهتف:
- يا للسعادة!.. يمكنني أن أعود إلى النادي!
احتبس الهواء في حلقي.. وقلت بصوت خافت:
- نعم.. يمكنك ذلك..
وفعل ذلك..
ومازال يفعله..
يجلس خلفي الأن يمضغ - طيلة حياتي! - قطعة ثالثة من الكعك بالزبد، ولا أحد في العالم كله - ما عداى - يعرف أنه لا يزن بالفعل شيئا.. إنه كتلة مملة من المادة معدومة الكتلة.. مجرد سحابة ترتدي الثياب.. أكثر الرجال تفاهة..
هناك يجلس يرقبني حتى أفرغ من كتابتى.. بعدها سيأتي إلى.. سيخبرني بالقصة كلها من جديد.. وما يشعر به.. وما لا يشعر

به.. ودائما في وسط هذا الخطاب الوافر، يقول لي:
- (السر في بير)؟.. أليس كذلك؟.. لو عرف أحد بالأمر لجلاني العار.. إنه لمما يشين المرء - كما تعلم - أن يزحف على السقف.. وكل هذه الأمور......
والآن حان وقت التملص من (بايكرافت)، الذي يحتل - كدأبه - موضعا استراتيجيا بين الباب وبينى..

أبريل 1903

∞∞∞∞∞∞



1939

إمبراطورية النمل..

حين تلقي القبطان (جريلو) تعليماته بأن يأخذ قارب المدفعية الخاص به، ويتجه إلى (باداما) على ذراع (باتيمو) من نهر (جوارامادیما)، ليساعد السكان هناك في مكافحة وباء النمل..
حين تلقي هذه التعليمات شك في أن السلطات تسخر منه..
كانت ترقياته استثنائية، معتمدة على نفوذ سيدة برازيلية مرموقة وقعت في غرام عينيه الساحرتين، وقد كثرت التعليقات غير المهذبة من حوله.. وأحس أنه مقبل على المزيد من المشاكل..
كان مفهومه للإتيكيت والنظام مفهوما برتغاليًا صميما.. ولم يفتح قلبه إلا لد (هوارويد) المهندس الإنجليزي الذي يعمل على القارب، وعلى سبيل التدريب على الإنجليزية لدى القبطان، خاصة أنه لم يستطع قط إجادة نطق حرفي (الزای) و (الذال) ([4])
قال المهندس:
- واضح انهم يحاولون تسفيهي.. ماذا بوسع الإنسان أن يفعل مع النمل؟.. إنها تجيء.. وتذهب.
قال (هوارويد):
- يقال إن هذه لا تذهب.. هذا الشاب الذي تسميه (سامبو).
- (دامبو).. إنه نوع من الدم الخليط..
- هذا الشاب يقول إن الناس يرحلون..
دخن القبطان غليونه في تململ.. وقال:
- هذه الأشياء تحدث دائما.. كان هناك وباء من النمل الذي يحمل أوراق الشجر في (ترينداد).. (نضف) ثمار المانجو..

(ومادا) في (دلك)؟.. أحيانا يهاجم النمل (مندلك).. نمل محارب!.. عندئذ تترك (المندل) لهم (لينضفوه).. ثم تعود لمندلك لتجد كل شيء (نضيفا).. لا صراصير.. لا فئران.. لا براغيث..
- يقول هذا الشاب (السامبو) إن هذا النمل مختلف.
هز القبطان كتفيه.. وواصل التدخين..
بعد قليل تساءل:
- (عديدى) (أولرويد).. (مادا) عساي فاعلا مع هذا النمل الشيطاني؟..
وعند الظهر ارتدي ثيابه كاملة، ونزل إلى الشاطئ، ثم جاءت صناديق عدة إلى ظهر القارب ومعها عاد هو..
كانت ستة أيام قد مرت عليهم في نهر (الأمازون)..
على بعد مئات الأميال من المحيط..، ماء النهر يجرى طيلة الوقت مليئا بالقاذورات والتماسيح والطيور الحائمة.. ويصب فيه معين لا ينضب من جذوع الأشجار..
وفي المساء جلس (هولرويد) يرقب مدينة (ألمكوير) بكنيستها العتيقة.. وبيوتها.. كأنها شيء صغير ضائع في وحشية الطبيعة.. كأنها قطعة عملة في الصحراء..
كان شابا حديث السن.. وتلك أول مرة يرى فيها المنطقة الاستوائية..، لقد جاء من (انجلترا) حيث تم إخضاع الطبيعة لقهر الحضارة؛ ليكتشف هنا فجأة وهن الإنسان..
لمدة ستة أيام ظلوا يبحرون في النهر.. حيث الإنسان نادر كفراشة غريبة.. ربما رأيت قاريا بدائيا اليوم.. ثم محطة بعيدة بعد يومين، إن الإنسان لحيوان نادر لا يملك أية سيطرة على عالمه.. ولا تكاد تراه في هذه الأصقاع.

بعد يومين نزل إلى (باتيمو) مع قائده.. كان الأول عاكفا على تعلم الإسبانية.. لكنه ما زال في مرحلة الفعل المضارع وإلغاء الضمائر ولم يكن هناك من يتكلم بعض الإنجليزية إلا بحار زنجي.. وكان يستخدمها بطريقة خاطئة تماما..
كان هناك رجل برتغالي يدعى (داكونا) يتحدث الفرنسية.. لكنها فرنسية مختلفة عن تلك التي تعلمها (هواروبد) في (ساوث بورت)، ولذا اقتصرت محادثتهما على التحيات وحديث الطقس..
وككل شيء في هذا العالم لم يكن الطقس مرحبا ببنى البشر.. كان حارا في النهار، حارا في الليل.. وحتى الريح الحارة تحمل رائحة النباتات المتحللة، والتماسيح.. والطيور.. والذباب.. والنمل.. والخنافس والثعابين..
وبدت القرود كأنما تتساءل عن سبب مجيء الإنسان إلى هذا المناخ، الذي لا تحمل شمسه بهجة.. ولا يحمل ظلامه ترطيبا..
ارتداء ثيابك لا يطاق.. بينما انتزاعها معناه أن تمنح البعوض هدية لا تعوض..
البقاء في جوف القارب يعنى الاختناق.. بينما الصعود إلى ظهره يعني أن يعميك الوهج الشمسي.
وللأسف غدا القبطان - الذي كان سلوى (هولرويد) الوحيدة - مثيرا للسأم إلى حد لا يوصف، كلما حكى غرامياته.. سلسلة تنتهي من النساء كحبات الخرز في عقد..
أحيانا كانا يغادران القارب ليحضرا حفلات صاخبة، ويرقصا مع فتيات (الكريولي) اللواتي وجدن في لغة (هولرويد) الإسبانية - الخالية من الضمائر والفعل الماضي - ما يكفي لأغراضهن..
كانت هذه لحظات عابرة في رحلة القارب المضنية..
لكن (جريلو) بدأ يتعلم أكثر فأكثر عن النمل خلال هذه الرحلة..

وقال لصديقه بلهجته المهشمة:
- هو نوع جديد من النمل.. لابد لنا أن نكون – ماذا تسمونه؟ - علماء حشرات.. خمس سنتيمترات في الطول!.. يا للسخف!.. لكنه يأكل البلد كلها..
وقرع على ركبته وأضاف:
- أولئك القوم في المرقص.. لقد هربوا من هناك، فقدوا كل ما يملكون.. النمل (دار) بيوتهم بعد (الضهر).. الكل جرى.. لو بقيت لأكلك النمل أترى؟
حاول أحدهم أن يعود لداره ليرى هل رحل النمل.. لكن النمل كان (ينتضره)!
- هل هاجمه؟
- عضه.. خرج من داره يصرخ ويركض إلى النهر.
أترى؟ وفي المساء يموت.. كأنما لدغة ثعبان!
- هل تعني أن النمل كان ساما؟
هز القبطان كتفيه:
- من يدري؟.. حين دخلت الخدمة دخلتها لأحارب رجالا.. لا هذه الأشياء.. هذا النمل.. يأتي ويذهب.. هذا ليس عملى.
وفي الأيام التالية بدأ (هولرويد) - الذي تحسنت لغته نوعا - يسمع هذه اللفظة أكثر فأكثر: (سوبيا).. وعرف أنها تحكم هذا العالم.. إذن فهذه اللفظة تعني النمل..
لقد بدأ التوتر يغزو النفوس..
كف القبطان عن حكاياته المملة، أما الملازم البرتغالي فراح يحكي د (هولرويد) عن النمل.. عن الشغالات اللواتي يعملن ويحاربن.. والملكة التي تحكم.. وعن المحاربات اللواتي يصعدن إلى العنق ليجرحن ويدمين..

حكى له كيف يقطع النمل أوراق الشجر.. وكيف رأي أعشاشا له في (كاراكاس) يبلغ اتساعها مائة باردة.
ثم دارت مناقشة حامية بين الرجال الثلاثة حول ما إذا كانت النمل عينان.. قرر (هولرويد) – بعد يومين - أن يحسمها بالنزول إلى الساحل ليصطاد نملة..
وعاد بأنواع كثيرة من النمل بعضها له عينان واضحتان وبعضها بدونها..
عندئذ راحت المناقشة تدور حول: هل النمل يلدغ أم يعض؟
قال القبطان:
- هذا النمل له عينان كبيرتان.. إنه (يدحن) إلى الأركان ليراقب ما تفعله..
- وهل يلدغ؟
- نعم.. ولدغته سامة..
ثم أضاف متأملا:
- (هدا) النمل.. إنه يأتي (ويدهب).. ماذا في وسع الإنسان عمله؟

∞∞∞∞∞

عند (تاماندو) يمتد ساحل طويل على ثمانين ميلا.
رسا قارب المدفعية (بنيامين كونستانت) في ظل الأشجار.. وعلى ظهره جلس القبطان و (هوارويد) يدخنان.. ويستمتعان بالهواء الرطيب الذي يشعران به للمرة الأولى منذ أيام..
كان مخ (جريلو) مليئا بالنمل.. لذا تمدد فوق سطح القارب..
وكان آخر ما قاله في يأس هو:
- (مادا) أفعل مع النمل؟.. (هدا) سخف!
بقي (هولرويد) يحك معصميه.. ويتأمل..

نقل عينيه إلى ضفة النهر.. حيث الغابة بغموضها..
تنيرها من حين لآخر ذبابة مضيئة.. ويدوى في جوها صوت نشاطات غامضة تجري بها..
كان يعرف أن السماء خالية من البشر.. مساحة شاسعة من الخواء.. ويعرف أن المحيط هائل غير قابل للترويض؛ لكنه في (انجلتر) تعلم أن البر هو ملك خاص للإنسان.. حتى في أطلس الجغرافيا كان يرى البر ملونا كأنما يؤكد حنق الإنسان فيه.. على النقيض من لون البحر الأزرق المستقل الممتد...
وكان يؤمن وقتها أن يد الإنسان ستمتد بالزراعة والمحاريث والضوء الكهربائي والطرق والترام، إلى كل بقعة في هذه الأرض..
لكنه الآن يشك في هذا..
هذه الغابة بلا نهاية.. ومن المؤكد أنها لا تقهر، وليس الإنسان سوى متطفل أحمق عليها..
إنها من حق الزواحف والطيور والحشرات التي تعيش فيها كأنما في دارها.. بينما الإنسان عليه أن يقاوم الأشجار المتشابكة والوحوش.. ويقع فريسة للثعابين والضواري والحمى.. ثمة أماكن يدعونها (كاسا) ليس من حق الإنسان أن يدخلها أبدا..
والسادة الحقيقيون هنا هم (البوما) و (الجاجوار)..
لقد استطاع الإنسان - عبر آلاف السنين - أن يعبر من البربرية إلى التحضر، حتى شعر أنه سيد الأرض..، لكن ما الذي منع النمل من الشيء ذاته؟.. إن النمل يملك لغة وذكاء.. فلماذا يتوقف عند عصور البربرية.
إذا كان الإنسان لم يتوقف؟!..
كانت الغابة باردة.. وحول المصباح المعلق كانت حشرة ما تئز باستمرار.. وتحرك القبطان في الظلام وتنهد:
- (مادا) بوسعي أن أفعل؟

وعاد إلى النوم.. فخرج (هولرويد) من دوامة تأملاته..

∞∞∞∞∞

في الصباح التالي عرف (هولرويد) أنهم على بعد أربعين ميلا من (باداما)، وازداد اهتمامه بضفة النهر..
كلما سنحت فرصته كان يغادر المكان ليتفقد الموجودات.. لم ير علامة تشير إلى وجود بشر سوى القبة الخضراء لدير (موجو) المهجور.. الذي سكنت الزواحف العملاقة فيه..
وفي السماء حلقت أسراب من فراشات صفراء غامضة لها أجنحة شفافة..
وعند الظهر وجدوا السفينة (كوبرتا)..
لم تبد في البداية كسفينة.. كانت أشرعتها تتدلى مرتخية في صمت الظهيرة.. وثمة شبح رجل جالس جوار الدفة..
وكان هناك رجل آخر نائما على عرق خشبي في منتصف القارب.. نائما على وجهه، لكن كان واضحا من الطريقة التي تسبح بها الى (كوبرتا) حتى كادت تصطدم بهم، أن شيئا ما ليس على ما يرام..
مسح (جريلو) سطحها بمنظار الميدان.. وازداد اهتماما بالظلام الذي يكسو وجه الرجل الجالس.. رجل أحمر الوجه وبدون أنف منحن أكثر منه جالسا كلما نظر إليه القبطان أكثر كلما أراد ألا يراه.. وكلما عجز عن إبعاد المنظار عنه نهض ليحيي (كيوبرتا).. حياها مرتين.. لكنها مرت به مبتعدة.. فما إن صارت بجوارهم حتى تهاوى جسد الرجل المني.. كأنما تخلت عنه مفاصله فجأة. سقطت قبعته عنه.. ولم يكن وجهه من الأشياء التي تسر الناظرين..
أطلق القبطان سبة.. وصاح في (هوارويد):

- هل رأيت (هدا)؟
- ميت!.. أرى أن ترسل من يصعد للسطح.. ثمة شيء ما خطأ..
- هل.. هل رأيت وجهه؟
- كيف يبدو؟
- كان.. يع!.. لا أجد كلمات..
ثم أدار ظهره وراح يصدر تعليمات صارمة للرجال..
وعلى الفور تم إنزال مركب صغير به الملازم (داكونا) وثلاثة ملاحين.. وتحرك المركب قاصدا الـ (كوبرتا)، ليصعد الرجال إلى سطحها..
واستطاع (هوارويد) من مكانه أن يدرك أن طاقم السفينة لم يكن سوى هذين الرجلين.. لم ير وجهيهما، لكنه رأى أيديهما الممدودة بما عليها من لحم متآكل..
كأنما خضع لعملية تحلل غير مألوفة، وحين دقق البصر أكثر..
رأى أن هناك بقعا سوداء متحركة في منتصف القارب...!
كلها تتحرك في اتجاهات مبتعدة عن الرجلين..
كأنها - لمعت الخاطرة في ذهنه - جماهير تنصرف بعد مشاهدة مصارعة الثيران
- كابو ([5]) - نادي القبطان - هلا قمت بتوجيه منظارك إلى هذا الصاري؟.
ناوله (جريلو) المنظار.. وغمغم بشيء ما..
بعد هنيهة من الفحص صاح الإنجليزي:
- إنه النمل...
وأعاد المنظار لقبطانه.. وهنا ظهر رأس الملازم (داكونا) على جانب السفينة.. فصاح القبطان به:
- اصعد إلى ظهرها!

قال الملازم إنه لا يستطيع.. لأن المكان مليء بالنمل..
- إن حذاءك ذو رقبة..
حاول الملازم تغيير الموضوع.. فتساءل:
- كيف هلك هذان؟
انطلق القبطان يزأر بسباب برتغالي معقد جدا..
ودار الشجار بين الرجلين، في حين تناول (هولرويد) المنظار وعاود تأمل النمل.. لقد وصفه لي بدقة شديدة فيما بعد..
قال إنه كان كبيرا جدا.. أسود اللون.. ويتحرك بتصميم يختلف عن الهرج الألى للنمل العادي وكان بعضه يقف على قدميه الخلفيتين كأنما تعلم الاستفادة من قدميه الأماميتين..
وضع المنظار بحدة.. وقد تبين أن موضوع النظام بين القبطان وجنديه قد صار حرجا.
هتف القبطان:
- هذا واجبك.. يجب أن تصعد..
وبدا أن الملازم على شفا العصيان الصريح..
قال (هولرويد) بالإنجليزية:
أعتقد أن هذين الرجلين قتلهما النمل..
لكن القبطان لم يرد.. وواصل الصراخ في ضابطه المذعور:
- أمرك أن تصعد.. ولو لم تفعل سأعتبره تمردًا..
تمردا وجبنا..! سأضعك في الأصفاد.. وسيطلق عليك الرصاص ككلب..
كان يسب ويلعن ويضرب الهواء بقبضته، بينما الملازم يرمقه شاحبا صامتا.. وأفراد الطاقم ينظرون لهما ذاهلين..
وفجأة.. اتخذ الملازم قراره.. وصعد إلى سطح (كيوبرتا)..
وساد الصمت.. على حين رأى (هولرويد) النمل يتراجع مبتعدا عن حذائي (داكونا).. اتجه البرتغالي نحو الرجل الممتد على

وجهه..
وبتردد قلبه على ظهره..
اندفع سرب من النمل من جسد الرجل.. فتراجع (داكونا) للوراء.. وركل الأرض مرة أو اثنتين..
رأى (هولرويد) النمل حول قدمي الملازم، يقوم بما لم ير نملا يقوم به من قبل.. كان ينظر إلى الدخيل!
كأن حشدا من الناس يرمق عملاقا يقف بينهم..
- ماذا عندك؟
صاح القبطان في ملازمه.. فمشي هذا بضع خطوات، ثم راح يفسر ما يراه بالبرتغالية.. ثم توقف وركل شيئا بقدمه.. ثم هرع إلى جانب المركب.. توقف..
عاد يمشي نحو الرجل الآخر.. أصدر أنة عالية.. ثم مشي نحو القمرة..
عاد يتحدث مع قبطانه.. كلا الرجلين مهذب متمالك نفسه بعد كل الصراخ والإهانات السابقة.. ولم يفهم (هولرويد) سوى أشلاء من الحوار..
استعمل منظار الميدان ليفاجأ بأن النمل قد رحل عن أجزاء السطح، نظر نحو الظلال تحت السطح.. وخطر له أنها ملأى بعيون تراقبه..
وتقرر أن يقوم الرجال بربط ال (كوبرتا) لجرها خلف (بنيامين).. فقد كانت تعج بالنمل بحيث يصعب أن يقودها أحد..
وبمنظاره المقرب بدأ يشعر بأن هناك نشاطا أكثر من اللازم يجري فوق الـ (كوبرتا)..
كان هناك نمل عملاق - طول الواحدة بوصتان - تحرك من نقطة مظلمة إلى أخرى.. بعضه كان يتدارى تحت ثياب الموتى..

وبعضه يتحشد في شكل سرب على جانب القارب، الذي سيمشي عليه (داكونا) حتما...
لم ير النمل ينقض على الملازم.. لكنه لم يشك في أنه فعل ذلك..
فجأة إذا بالملازم يصرخ.. ويلعن.. ويضرب قدميه..
قالها وهو ينظر نظرة مقت واتهام نحو (جيريلو).
ثم سقط من على الجانب.. ليسقط في قاربه.. ثم يتدحرج إلى الماء حتى سمع (هولرويد) صوت ارتطامه به..
جذبه الرجال الثلاثة إلى ظهر القارب..
وفي نفس الليلة قضى نحبه..

∞∞∞∞∞

خرج (هولرويد) والقبطان من القمرة التي رقد بها الجسد المنتفخ للملازم، ووقفا عند مؤخرة السفينة يرمقان المركب التي تجرها سفينتهم..
كانت أمسية حالة السواد.. وبدت الـ (كوبرتا) مثلثا مظلما يتأرجح في الماء.. ويهتز شراعها..
كان عقل (جيريلو) يفكر في الأشياء غير الطيبة التي قالها الملازم في سكرات الموت.. في أثناء الحمى الأخيرة التي أصابته..
- يقول إنني قتلته.. هذا سخف.. كان لابد أن يصعد أحد إلى (ضهر) السفينة.. إلى متى سنفر من هذه (النملات) اللعينة كلما رأيناها؟
لم يقل (هولرويد) شيئا..
كان يفكر في هجوم منظم الأشياء سوداء.. فوق سطح سفينة تغمره الشمس..

بس كان (هدا) هو مكانه.. مات وهو يؤدي واجبه، فمم يشكو؟
لقد جن المسكين.. لم يعد بكامل عقله.. لقد نفخه السم.. هم!
وعاد الصمت الطويل..
- سنحرق (هدا) القارب.. ونغرقه..
- وبعدها؟
ضايق التساؤل القبطان.. فرفع كتفيه.. ولوح بذراعيه:
- (ماذا يفعل المرء غير (هدا)؟! (مادا) بوسعى أن أفعل؟
كان الغضب قد بدأ يغزو صوته.. وأردف:
- على كل حال.. سأحرق كل نملة في هذه السفينة سأحرقها حية!
لم يرد (هولرويد).. كان يصغي لصوت القرود على الشاطئ
واستعاد القبطان نشاطه وحماسه.. وأزمع أن يحرق..
الد (كوبرتا) دون إبطاء.. وعلى الفور تم قطع الحبل الذي يجرها.. وسكبوا (الكيروسين) عليها..
وسرعان ما راحت السفينة تتوهج وتقرقع في الليل الاستوائي غير المتناهي.. وبدت الأشجار في صورة (سيلويت) خلف اللهب المتعالي..
لم يستطع (هولرويد) أن يحب هذا المشهد..
لكن ماذا كان بوسع القبطان أن يعمل؟..
ازداد هذا السؤال قوة في الغد.. حين وصل القارب إلى (باداما)..
كان المكان - في حر الصباح - خاليا من أية علامة على بشر أحياء، بمنازله المسقوفة..
ومعصرة القصب التي سكنتها الزواحف..
قال (جيريكو):
- لقد رحل القوم جميعا.. لكننا سنفعل شيئا... سنصدر جلية!
بعد هذا غرق القبطان في أسوأ نوبات التشكك، وقال للإنجليزي:

- ثمة شيء واحد يمكن عمله.. سنصدر جلبة!
وتم تنفيذ أوامره حرفيا..
بعدها راح القبطان يمشي على ظهر القارب، وهو يشير بيديه.. بدا وكأن هناك ما يشغل عقله.. وفتات كلمات على شفتيه.. واستطاع (هواروید) أن يميز شيئا ما عن الذخيرة وسط كلامه..
ثم عاد القبطان إلى الإنجليزية:
- وا أيديدي (أو لروید).. ماذا عساي فاعلا؟
استقلا قاربا صغيرا وأخذا معهما منظار الميدان، واقتربا من المكان..
كانت هناك أسراب كبيرة ثبتت على وضع واحد كأنما ترقبهم.
حاول (جيريلو) أن يطلق بعض طلقات دون جدوى..
وسار الرجلان فوق رصيف الميناء.. فوجدا هيكلا بشريا مدثرا بثياب حول خصره.. وقد بدت عظامه نظيفة لامعة..
ساد الصمت هنيهة.. ثم قال (جريلو) فجأة:
- يجب أن أضع حياة كل هؤلاء في اعتبارى، وأردف.. وقد فهم (هولرويد) أن القبطان يتحدث عن الخليط غير السائغ من الأجناس الذين يشكلون طاقم القارب:
- لو أرسلت حملة للبر.. فهذا مستحيل.. كلهم يتسممون.. ينتفخون.. يسبونني.. ثم يموتون.. مستحيل.. لو رسونا (فسأندل) البر وحدي مرتديا (حداء) (دا) رقبة.. لا أدري.
وعادا يجدفان ويرمقان الهيكل الأبيض النظيف من زوايا عدة.. ثم عاد إلى القارب.. راح المحرك البخاري يهدر.. وعند الغروب عاد ليرسو..
لقد صار تردد (جبريلو) مروعا..
كان المساء رطبا ونام الجميع على السطح..
وعند الفجر أيقظ القبطان (هولروید).. فصاح هذا في رعب:

- رباه! ماذا حدث؟ - لقد قررت جلس (هولرويد) وتساءل:
- ماذا؟.. أن تنزل البر؟
- كلا.. لقد قررت! ولا رجعة في قراري..
قالها القبطان في تحفظ.. وراح يرددها.. فلم يطق (هولرويد) صبرا.. وسأله عما ينتويه:
- سأطلق المدفع الكبير!!
ولقد فعل هذا....
الله وحده يعلم ما جال بفكر النمل وقتها.. لكن الرجل أطلق المدفع مرتين في احتفالية عظيمة، وأصاب الطاقم الطنين في آذانهم، لكن كان هناك جو عام من الإحساس بأنهم يفعلون أخيرا شيئا ما...
هدمت القذائف معصرة القصب أولا.. ثم هدمت المتجر المهجور وراءها..
بعد هذا صاح القبطان وقد أدرك سخن فكرته:
- (هدا) لا يصلح.. (هدا) لا يصلح.. يجب أن نعود أدراجنا من أجل التعليمات.. سيوبخونني كثيرا على (هده) (الدخيرة).. كثيرا.. أنت لا تعرف (هدا) يا (أولرويد).
وراح يرمق الكون بحيرة لا نهاية لها..
وفي المساء هبطت مجموعة إلى البر، لتوارى جسد الملازم التراب في بقعة لم يجدها النمل بعد...

∞∞∞∞∞∞

منذ ثلاثة أسابيع لا أكثر، سمعت هذه القصة مجزأة من فم (هولرويد) ذاته..

كان النمل قد صعد إلى مخه.. وعاد الرجل إلى (انجلترا) بفكرة (إثارة هلع الناس) قبل (فوات الأوان)..
قال إن النمل يهدد (غينيا البريطانية)، وإنه على مكتب المستعمرات أن يتحرك سريعا..
- هذا النمل ذكي.. فقط فكروا في معنى هذا!
بالفعل هذا النمل خطر.. ولقد أعلنت الحكومة البرازيلية عن خمسة آلاف جنيه مكافأة لمن يجد طريقة فعالة لاستئصاله..
لقد أحرز النمل انتصارات مروعة..
لقد احتل كل الشاطئ الجنوبي لنهر (باتيمو) على امتداد ستين ميلا.. وفر الناس من هناك، واحتل النمل المزروعات وهاجم قاربين على الأقل.. ويقال إنه وصل إلى ذراع (كابوراتنا) وكاد يبلغ (الأمازون).
ومن المؤكد أن هذا النمل يتمتع بتنظيم اجتماعى متميز.. وخطره الأساسي يكمن في استعماله للسم ضد خصومه الأكبر..، ويبدو أن هذا السم يماثل سم الثعابين.. وأن الأفراد الأكبر حجما يحملون بللورات هذا السم على ظهورهم..
وللأسف لم يتمكن مراقب لهذا النمل من أن ينجو بعد المقابلة، إلا في حالات نادرة كحالة (هولرويد).
وتثير هذه القصص خيالنا نحن الشماليين.. لأننا لم نعتد شيئا مثل ما حدث في (ريودي جانيرو) عام 1841، حين شق النمل نفقا عرضه كعرض نهر (التايمز)..
إن عمل النمل حتى الآن يتلخص في قتل أو طرد كل بشرى في نطاق سكناه.. ويؤمن (هوارويد) أن النمل سيطرد الإنسان من كل أمريكا الجنوبية الاستوائية..
وفي عام 1911 - أو نحو ذلك - إذا استمر بهذا المعدل.. سيصل إلى طريق (كابورانا) الحديدي.. وفي عام 1920 سيصل إلى

(الأمازون).. وأعتقد أنه سيكتشف (أوربا) عام 1950 أو 1960 على الأكثر..

ديسمبر 1905

∞∞∞∞∞∞∞



فى مرصد (آفيو)..

1956

في مرصد (آفيــو)..

يقع مرصد (آفيو) في (بورنيو) عند بروز بالجبل..
وفي الشمال يمتد نطاق الصخور، باللون الأسود في الليل أمام زرقة السماء السرمدية..
ومن المبنى الصغير المستدير الذي تشبه قمته عش الغراب، تنحدر الجوانب بحدة لتغيب وسط الأحراش الاستوائية تحتها..
ويعيش مراقب المرصد ومساعده في منزل صغير، على بعد خمسين ياردة من المرصد بينما وراء هذا تقع أكواخ العمال الوطنين..
وكان (تادى) - الملاحظ الرئيسي - مصابا بوعكة بسيطة.. من ثم تولى المساعد (وودهاوس) عملية المراقبة هذه الليلة..
جلس هذا الأخير صامتا يتأمل الليل الاستوائي هنيهة..
قبل أن يبدأ سهرته وحيدا..
كان الليل ساكنا تماما..
ومن حين لآخر تدوي أصوات ضحك من أكواخ الوطنين.. أو صرخة حيوان آتية من قلب الغابة الغامض..
على حين تخرج حشرات الليل من الظلام.. وتتراقص حول الضوء وبالنسبة لعلماء الطبيعة تعتبر أدغال (بورنيو) معجزة.. ملأى بالأسئلة الغامضة والكشوف الغريبة..
كان (وودهاوس) يحمل مصباحا صغيرا، ينعكس ضوؤه الأصفر أمام خلفية من الأزرق والأسود.. أما حامل المصباح نفسه فقد طلا يديه ووجهه بالدهان ليتقي شر لدغات البعوض..
وتنهد إذ فكر فيما ينتظره من عناء وجهد عضلي في أثناء المراقبة، ثم تمطى ودخل التلسكوب..

ربما كان القارئ ملما بتصميم المرصد الفضائي العادي.. فالمبنى يكون أسطوانيا.. له قبة نصف كروية يمكن إدارتها من الداخل، ويوضع التلسكوب فوق صخرة عالية، ويتم إعداده ليدور مع عقارب الساعة كي يعوض دوران الأرض، مما يساعد على الحفاظ على رؤية نجوم - مثلا – في ذات الموضع دائما..

وهناك عدد من العجلات والمسامير تتيح للراصد أن يحكم ضبطه...

ويجلس الراصد - أو يرتد - على سطح خشبي يمكن أن يحركه إلى أي موضع من المرصد.. والإظلام تام بالداخل حتى يزيد تألق النجوم التي ترمقها...

دخل (وودهاوس) إلى المرصد.. كان المساء يزحف وقد راح يتحول إلى ظلال تملأ المكان أما الفتحة التي سيتم الرصد منها، فكانت بلون أزرق شفاف، وقد التمعت ستة نجوم بتألق استوائي صميم فيها.. مرسلة ضوءا شاحبا من خلال الأنبوب الأسود للتلسكوب..

حرك (وودهاوس) العجلات.. فراح الأنبوب العملاق يميل ليأخذ وضعه الجديد..

انتزع سترته لأن الليل كان شديد الحرارة.. ووضع المقعد غير المريح الذي سيكون عليه أن يجلس فوقه أربع ساعات كاملة..

لم يكن هناك صوت داخل المرصد، وفي الخارج كنت تسمع من حين لآخر صرخة حيوان يتألم، أو ينادي رفيقته.. بالإضافة إلى أصوات الخدم من قبائل (الداياك)..

لقد بدأ أحد الرجال ينشد أنشودة عجيبة، فكان الرجال الآخرون يردون عليه بعض المقاطع.

ثم ساد الصمت.. وبات واضحا أنهم أخلدوا إلى النوم وازداد الصمت الهامس دقيقة فدقيقة..

كان (وودهاوس) يصغي للصمت.. وصوت عقارب الساعة المنتظم.. وطنين بعوضة تعبث هنا، وهناك باحثة عن دماء تمصها.. ثم انطفأ المصباح وساد الظلام..
بدل الرجل موضعه إلى وضع أكثر راحة، ليتمكن من متابعة التلسكوب في وضعه الجديد..
راح يرقب حشدا من النجوم في (درب اللبانة).. فقد لاحظ رئيسه - أو ظن أنه لاحظ - تنوعا لونيا فريدا، في أحد نجوم هذا الحشد..
ولم يكن هذا العمل أساسيا في مهام المرصد..
وربما لهذا مارسه (وودهاوس) في اهتمام واستمتاع شديدين..
لقد نسى كل ما هو أرضى.. وتلخص العالم كله بالنسبة له في دائرة زرقاء كبيرة هي حقل التلسكوب، انتثرت عليها كالبودرة نجوم لا حصر لها.. كلها تتألق تدريجيا أحس أنه فقد ماديته.. كأنه يحلق في أجواز الفضاء.. وقد غدا كيانا أثيريا..
فجأة - وللمحة - اسود الكادر.. وتلاشت النجوم.. ثم عادت تتألق.. فقال لنفسه في حيرة: - غريب!.. ربما كان هذا طائرا..
وهنا حدث الشيء من جديد..
ثم ارتجفت أنبوبة التلسكوب كأنما هناك من ضربها..
ودوي صوت ضربات تنهال على قبة المرصد..
وبدت النجوم كأنما تنسحب جانبا.. لأن التلسكوب - الذي لم يكن مثبتا - ابتعد عن فتحة الرصد في السقف.
صاح (وودهاوس) في هلع:
- رباه... ماذا حدث؟
بدا له أن جسما أسود عملاقا.. له شيء يرفرف كجناح، بدا له يحاول التملص من فتحة المرصد..

وفي اللحظة التالية عاد (وودهاوس) يبصر الفتحة..، وبدت له من جديد نجوم درب التبانة لامعة متألقة..
وداخل المرصد كان الظلام دامسا..
فقط صوت حفيف بالداخل يعلن وجود ذلك المخلوق المجهول..
تدحرج (وودهاوس) من المقعد ليقف على قدميه..
كان يرتجف بشدة.. وقد غمره العرق إثر هذا الحدث المفاجئ..
هل الشيء - أيا ما كان به بالداخل أم بالخارج الآن؟
وهنا تأرجح التلسكوب.. فوثب (وودهاوس) واقفا.. ومد ذراعه لأعلى..
إن الشيء بداخل المرصد إذن.. معه..
ومن الواضح أنه يتعلق بالسقف.. ما هو؟.. هل يراه الآن؟
إن الوحش - أيا ما كان - يتعلق بداخل القبة.. ثم أحس بشيء يرفرف جوار رأسه، ورأى ضوء النجوم يلتمع للحظة فوق بشرة كأنما هي جلد مدهون بالزيت..
وسقطت زجاجة الماء من فوق المنضدة وتهشمت..
لم يكن الإحساس بوجود طائر يحوم على بعد ياردات من وجهه في الظلام سارا بأي شكل بالنسبة لـ (وودهاوس).. وخطر له أن هذا ربما كان طائرا ليليا أو وطواطا..
على كل حال.. فلير ما هنالك.. جذب عود ثقاب من حافظته، وحاول أن يحكه في المقعد..
تألق لهب فوسفوري للحظة.. وتألق عود الثقاب، ورأى جناحا عريضا يطير نحوه.. نوعا من الفراء البني الرمادي.. ثم شعر بضربة في وجهه.. وسقط عود الثقاب من يده..
ثمة مخلب مزق خده.. فسقط أرضا وسمع المصباح يتهشم..
وشعر بدمه الحار يجري على وجهه غريزيا شعر بأن عينيه

مستهدفتان، فأدار وجهه بعيدا.. وحاول أن يزحف ليكون محتميا بالتلسكوب..
ضربة أخرى في ظهره.. وسمع سترته تتمزق ثم ضرب الشيء سقف المرصد..
دفن (وودهاوس) جسده قدر الإمكان بين عدسة المرصد والمقعد الخشبي.. وكور نفسه بحيث لم يبق مكشوفا سوى قدميه.. على الأقل كى يركل بهما..
تعلق الشيء الغامض بالتلسكوب.. وجعله يتأرجح..
بعد هذا رفرف بقربه.. فركله (وودهاوس) بقدمه.. وشعر بها تصطدم بجسم طرى..
أصابه الذعر إلى حد مروع.
لابد أن الشيء ضخم كى يؤرجح التلسكوب هكذا..
وفي ضوء النجوم رأى حدود رأس عملاق له أذنان حادتان منتصبتان..
من ثم راح يصرخ بأعلى صوت عنده طالبا الغوث..

وهنا هبط الشيء نحوه.. ركله (وودهاوس)..
فأحس بكاحله محشورا بين صف من الأسنان الحادة..
عاد يصرخ.. وراح يركل بالقدم الأخرى.. وهنا تذكر أن زجاجة الماء المكسورة توجد جوازه فانتزعها.. وتحسس في الظلام قرب كاحله حتى وجد أننا يكسوها الفراء كأذن قط عملاق..
أمسك بالزجاجة وهوي بها فوق رأس الوحش الغريب، وكرر الضرب.. وطعن بالطرف المدبب في الظلام حيث قدر أن الوجه هناك..
عندئذ أطلقت الأنياب سراح كامله.. استجمع قواه وركل بعنف.. وأحس بالعظام تتهشم تحت كعب حذائه.. ثمة عضه في

ذراعه.. لكنه واصل الركل..
وساد الصمت.. ثم سمع صوت مخالب.. وجسد ثقيل ينسحب فوق أرضية المرصد.. وعاد الصمت من جديد.
لا صوت سوى.. وصوت يشبه اللعق..
راح ينتظر في الظلام.. حتى بدا له الانتظار بلا نهاية..
بحث في جيبه عن أعواد ثقاب، فوجد واحدا.. حاول أن يشعله، لكن الأرض كانت مبتلة تماما...
أطلق سبة.. فهو لم يكن يذكر موضع الباب..
يبدو أن الشيء عاد يتحرك نحوه، وقد سمع صوت الثقاب.. فصرخ (وودهاوس):
- أريد وقتا!
لكن الشيء لم يعاود الهجوم.. لابد أن الزجاجة المكسورة آذته كثيرا.. كان الألم يمزق كاحله..
وتساءل عما إذا كانت ساقه ستتحمل الوقوف..
لا صوت في الظلام لأي شيء يتحرك.. إن الحمقى النائمين لم يسمعوا رفرفة الأجنحة ولا صرخاته..
لا داعي إذن لمزيد من الصراخ فقد يفقد قواه..
وهنا رأى ضوء النجوم الظاهر من فتحة المرصد يخبو ويتألق.. هل هو موشك على فقدان الوعي؟
ليس هذا من الحكمة.
ضغط على قبضتيه وأسنانه ليتماسك..
إن النجوم الظاهرة هي من مجموعة (ساجيتاريوس) في الجنوب الشرقي.. والباب في الشمال.. أم هو في الشمال الغربي؟!
لو استطاع أن يصل إليه لفر من المكان.. إنه ليشعر بتوتر وحشي..
هنا رأي الشيء يتحرك.. رآه يعتم ضوء النجوم هل هذا تراجع؟

المخيف أنه لا يشعر بقلق.. إنه ظمآن.. لكنه لا يرغب في البحث عن ماء.. لحظة فلحظة ينزلق عبر قمع طويل.. مظلم أخيرا شعر بحرقة في حلقه..
عندئذ أدرك أن هذا هو النهار..
وأدرك أن أحد الخدم من قبيلة (الداياك) يرمقه في دهشة.. ثم رأي وجه (تادى) المقلوب..
إنسان غريب هو (تادي) كي يمشي بوجه مقلوب كهذا!
ثم بدأ يفهم الموقف..
إن رأسه ممدد على ركبة (تادى)، بينما هذا الأخير يقدم له البراندي.. ثم رأي عدسة التلسكوب، وعليها بقع حمراء.. فتذكر كل شيء..
قال (تادى):
- لقد ملأت المرصد بالفوضى..!
كان (الداياك) يخفق بيضة في (البراندي).. ثم ناوله ل (وودهاوس).. شربه.. ثم جلس شاعرا بألم حاد.. كان كاحله مربوطا وكذا ذراعه ونصف وجهه..
أما الزجاج المحطم الملوث بالدم فتناثر على الأرض.. وقد انقلب مقعد التلسكوب.. وانفتح الباب.. ومن خلاله رأى قمة الجبل قال (وودهاوس):
- رباه... من الذي كان يذبح الأغنام هنا؟.. أخرجني من هذا المكان!
ثم تذكر معركته مع الشيء.. فسأل (تادى):
- ماذا كان ذلك؟
- أنت خير من يعلم.. على كل حال لا تقلق..
قال (وودهاوس):

- كان الشيء أقرب إلى وطواط عملاق منه إلى أي شيء في العالم.. له أذنان مدببتان وفراء ناعم وجناحان جلديان.. أسنانه دقيقة لكنها حادة شيطانية..
قال (تادي):
- كادت هذه الأسنان تقطع كاحلك..
- كان يضربني بمخالبه بسلاسة.. وهذا كل ما أستطيع قوله عنه.. كان حواري معه حميما لكنه خال من الود.
- يتحدث (الداياك) عن وحش يدعي الـ (كولوجو) الكبير - أيا كان هذا - لا يهاجم الناس عادة.. لكنك....
فيما يبدو أثرت أعصابه.. هناك (كولوجو) كبير و (كولوجو) صغير.. وكلاهما يطير ليلا..، أنا أعرف أن هناك سناجب طائرة وثعالب طائرة هنا.. لكنها ليست ضخمة الحجم كما تصف وحشك هذا..
قال (وودهاوس).. ووافقه (تادي) على كلامه:
- ثمة أشياء في الأرض والسماء وغابات (بورنيو) أكثر من كل ما حلم به فلاسفتنا.. وعلى كل حال.. إذا كانت عجائب (بورنيو) تنوي أن تطلعني على أسرارها؛ فليكن ذلك في وقت لا أكون فيه داخل المرصد.. وحيدا في الظلام...!

9 أغسطس 1894

∞∞∞∞∞∞



1965

انتصارات دبّــاغ..

ها هنا نقدم لكم بعض أسرار دباغة الجلود..
حكاها لى دباغ في حالة انبساط..
حكاها لي في تلك الفترة ما بين الكأس الأولى من (الويسكي) والكأس الرابعة.. حين يتخلى عن المرء حذره وبرغم هذا لا يكون قد ثمل بعد.
جالسين في صومعته.. التي هي كذلك مكتبته وغرفة جلوسه وغرفة طعامه، تفصلنا ستارة من خرز عن المكان الذي يمارس فيه مهنته..
كان يريح حذاءه فوق رف المدفأة.. وقد لف قدميه في شيء يشبه الحذاء، اصطنعه من سجادة قديمة، أما عن سرواله - بالمناسبة برغم أنه لا دخل له في انتصاراته - فكان شيئا عتيقا يعود إلى زمن أجدادنا..
أما شعره فكان أسود.. ووجهه ورديا.. وعيناه بنيتين.. ومعطفه مصنوعا أساسا من الشحم مع لمسة من الفراء..
أما عويناته فكانت منحرفة.. عينه اليمنى تبدو وراء الزجاج مكبرة مظللة.. أما عينه اليسرى فتحدق فيك مباشرة.. صغيرة.. تخترقك بحدة..
قال لي:
لم يوجد قط رجل يجيد فن (التصبير) مثلي.. لقد (صبّرت) أفيالا.. وصبرت الديدان.. ولقد بدت جميعها أكثر حياة وأجمل مما كانت عليه، بل إنني صبرت البشر.. وذات مرة صبرت زنجيا.!
كلا.. لا يوجد قانون يمنع هذا.. لقد صبرته بحيث تمتد أصابعه مفرودة، واستعملته كحامل للقبعات.. لكن ذلك الأحمق (هو

ميرسبى) تشاجر معه ذات ليلة وأتلفه..
كان هذا قبل أن تولد أنت.. إن الحصول على الجلود عسير ولولا هذا لصنعت لنفسي واحدا أخر..
غير سار؟ لا أرى ذلك.. أحيانا أرى أن الدباغة هي طريقة واعدة بالإضافة إلى أسلوبي الدفن والحرق.. يمكنك أن تحتفظ بأحبائك جوارك مبعثرين في أرجاء دارك.. سيجعل هذا منزلك عامرا مسليا.. بل ويمكنك أن تزودهم بمحركات ليقوموا بعمل ما تريد.. بالطبع يحتاجون إلى تلميع بالورنيش.. لكنهم لن يحتاجوا إلى أكثر مما يحتاجه الناس الأحياء في العادة.. يمكنك أن تثرثر معهم دون مقاطعة.. وحتى الخالات.. صدقني.. إن مستقبلا عظيما ينتظر فن الدباغة..
وهنا عاد الصمت..
ثم إنه أمتص غليونه شاردا:
- ثم هناك الحفائر.. لا.. لا أظن أنه على أن أخبرك بهذا.. لا.. شكرا.. لا تضف الكثير من الماء.
بالتأكيد ما سأقوله لك هو سر بيننا.. هل تعرف أنني صنعت بعض البجع العملاق وطائر (دودو)؟..
لا؟.. واضح أنك مجرد هاو في فن الدباغة يا عزيزي.. إن نصف البجع العملاق في العالم لا يزيد أصالة على ذلك المنديل الذي زعموا أنه يخص القديسة (فيرونيكا).. نحن نصنع هذا البجع من الريش، وحتى بيض هذا البجع نصنعه..
- يا للسماء!
- نعم.. نصنع البيض من الخزف الرقيق.. إن للبيض ثمنه.. لقد بلغ ثمن إحداها ثلاثمائة جنيه استرليني.. إن تزييف البيض لعمل متقن.. ثم يكون عليك أن تكسوها بالغبار.. ولا أحد من مالكي هذا البيض يجرؤ على تنظيفه.. وهذا هو الجميل في الموضوع..

إذا هم شكوا في بيضة لا يجرون على فحصها بدقة.. إنها لشيء هش للغاية..
أنت لم تعرف قط أننا وصلنا إلى هذا التقدم.. بل قد وصلنا إلى ما هو أكثر.. لقد تحديت الطبيعة ذاتها يا بني.. لقد قمت بابتكار واحدة من البجع الأصيل المنقرض..
لو أنك درست علم الطيور لعرفت روعة ما قمت به، وليس هذا هو كل شيء.. أتراك سمعت عن الـ (دينورنيس)..؟ إنه واحد من تلك الطيور العملاقة التي انقرضت من (نيوزيلاندا).. واسمه الشائع هو (موا).. لا يوجد (موا) الآن.. أترى؟.. حسن كان لديهم بعض من عظامه وبعض الريش وبعض أجزاء جافة من جلده.. وجدوها في أحد المستنقعات.. في هذه المرة لم أحتج إلى عظام.. قمت بتزييف (موا) كامل كأنما تم تصبيره.. أعرف شابا يزعم أنه وجدها في مستنقع مضاد للتعفن.. ويقول إنه صبره في الحال قبل أن يتحول إلى فتات..
إن الريش مشكلة.. لكنني استعمل ريش البجع بعد أن أغير منظره.. نعم.. ذلك هو سر الرائحة التي تشمها..
ستكتشف الخدعة فقط لو استعملت مجهرا.. لكن أحدا لا يجرؤ على جذب ريشة واحدة من هذه العينات الممتازة مخاطرا بإتلافها، وهكذا - ترى - أعطى دفعتي الخاصة في تقدم العلم.
لكن كل هذه نماذج لمحاولتي تقليد الطبيعة.. لقد فعلت أكثر من هذا في شبابي، وأنزل قدميه من على حاجز المدفأة.. وانحنى بثقة نحوى:
- لقد صنعت طيورا جديدة!.. لا تشبه أي طائر في العالم..
وعاد إلى وضعه السابق قائلا:
- أنا أزيد الكون ثراء.. بعض الطيور التي لفقتها كانت طيورا مغردة جميلة.. وبعضها كان عملاقة.. إن أضخم طائر لفقته هو

طائر ال (أنومالوتركس جيجونا).. (جيجونس) باللاتينية معناها (فارغ)
وقد سميته كذا لأنه كان بالفعل مفرغا من الداخل.. مجرد قشرة.. إن (جافرس) العجوز يملك الشيء الآن.. وهو فخور به مثلما أنا فخور به، إنه لتحفة يا (بيلوز).. فيه كل غباء البجعة.. وكبرياء الببغاء المتفرد.. وصراع الألوان السخي في الطاووس.. ياله من طائر!.. صنعته من هياكل (القلق) و (طوقان) مع كثير من الريش..
إن الدباغة تصير متعة حقيقية جديرة بفنان....
كيف وصلت إلى هذا؟.. ببساطة مثل كل الاختراعات العظمى..
كان هناك عالم شاب معدوم الخبرة، كتب ترجمة عن طيور (نيوزيلندا) في مجلة علمية..
ترجمها عن الألمانية مستعملا قاموسا وذكاءه الفطري الذي ورثه بالتأكيد عن أمه..
ذكر في مقاله هذا شيئا عن طائر ارتفاعه خمسة أقدام.. يعيش في الأحراش.. خجول.. نادر.. يصعب الحصول على عينة منه.. إلخ
وكان أن قرأ (جافرس) العجوز هذا المقال.. إن (جافرس) كجامع للعينات العلمية هو رجل جاهل إلى حد معجز وأقسم إنه سيحصل على هذا الطائر.. وراح يطالب الموردين بأن يجلبوه له..
هذه هي فائدة الإصرار.. هو ذا رجل يرغب في الحصول على طائر لا وجود له.. ولم يوجد قط.. ولن يوجد أبدًا لو تركنا له حرية الاختيار...
أصرّ هذا الرجل على الحصول على الطائر.. وقد حصل عليه..!
هل لك في مزيد من (الويسكي) يا (بيلوز)؟..

ثم راح الدّباغ يحكي لي كيفّ صنع عروس بحر فاتنة.. وكيف أن واعظا لم يجد مستمعين لمواعظه بسببها؛ هشمها فوق مرتفعات (بورسلم) لأنها نوع من الأصنام.. لكن هذا الحادث سر لا يجوز نشره..

ولما كان القارئ غير ملم غالبا بالأساليب التي يتبعها جامعو العينات العلمية؛ فقد يتشكك فيما قاله هذا الدباغ..

إلا أنني أعرف أن بعض علماء الطيور المتميزين قد وافقوا على هذه العينات.. وقد ظهر مقال عن طائر (نيوزيلندا) في جريدة صباحية ذات سمعة لا غبار عليها..

فقد كان الدباغ يحتفظ بنسخة منها.. وقد جعلني أراها لأتأكد من كلامه..

1894

∞∞∞∞∞

(تمت بحمد الله)

الغرفة الحمراء

ها هو ذا (هـ. ج. ويلز) يأخذنا معه في رحلة عبر شطان الخيال الإنساني المترامية.. نفرّ من رأس مقطوع لأكل لحم بشر.. لنواجه النمل المفترس على ضفاف نهر (الأمازون).. ونواجه وحشا غامضا في الظلام داخل مرصد.. لنجد أنفسنا وقد دخلنا - بكامل إرادتنا – إلى.... الغرفة الحمراء!

أحمد خالد توفيق


متميزون
للكتب النصية
E-Book

[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

[Link – لينك القناة]

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) (هـ. ج، ويلز) من الكتاب العالميين المعدودين الذين اشتهروا بالحروف الأولى من أسمائهم، ومنهم د. (هـ. لورانس)، و (ج. ب. شو) و (ر. ل. ستفنسون) و (ت س. إليوت)

[←2]

(*) لـ (هـ. ج. ويلز): لم ير أي أوروبي طيور الـ (الإبيورونيس) باستثناء (ماكاندرو) الذي زار (مدغشقر) عام 1745، وروايته مشكوك فيها.

[←3]

(*) كلها تدريـج لمعنى الضخامة في اللاتينية (فاكسيماس). (تيتان).. (فاستس).. (فاستيمس).

[←4]

(*) كل أمريكا الجنوبية تتحدث الإسبانية، عدا (البرازيل) فتتحدث البرتغالية..

[←5]

(*) كابتن بالبرتغالية.


روايات عالمية
17
وادى العناكب
فريق متميزون
E-BOOK
قصة : هـ . ج . ويلز
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

1980

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (17)

وادي العناكب

تأليف: هـ. ج. ويلز.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

1983

المؤلف..

مازلنا إذن مع (هربرت جورج ويلز) الكاتب الإنجليزي فائق الشهرة.. وكنا قد تحدثنا عنه في عجالة في مقدمة الكتيب السابق، ولهذا نواصل الحديث عنه ها هنا من وجهة نظر أخرى..

في صبا هذا الكاتب قذف به أحد الأولاد الكبار في الهواء..

ومن ثم سقط أرضا وتهشمت ساقه. وكان على الصغير أن يرقد في الفراش شهورا يتلوى ألمًا..

تبدو هذه كارثة.. لكنها بالنسبة ل (هـ. ج. ويلز) كانت أسعد حوادث حياته؛ لأنها أرغمته على ممارسة التسلية الوحيدة للمقعدين قبل اختراع التليفزيون: القراءة..

وكانت نشأة (ولز) فقيرة للغاية، بدأ حياته في محل لبيع القماش - وهو ما استوحي منه تحفته الروائية (كييس) – ثم في صيدلية.. وفي النهاية فر من هذا الجحيم وكتب خطابا يستعطف فيه ناظر مدرسته القديمة.. وقبل هذا الأخير أن يعين (ويلز) معلما عنده..

بعد هذا أصيب بثقب في رئته بعد مباراة كرة قدم عنيفة.. وكان لإصابته الأولى الفضل في إرغامه على (القراءة).. أما إصابته الثانية فأرغمته على (الكتابة)..

خمسة أعوام ظل يكتب فيها، انتهت بأن حرق كل ما كتب لرداءته!.. ثم إنه تزوج وواصل محاولات الكتابة في حماس غير مسبوق إلى درجة إخراج كتابين طويلين كل عام.. وبدأ يرضي عن أعماله..

وفي كتاباته نجد تنوعا غير عادي في مجالات اهتمامه، فهو مولع بعلم الأحياء لهذا كتب (مرجعا فى الأحياء) عام 1893،، وهو يعشق الخيال العلمي.. (العصوية المسروقة) عام 1895.. و (آلة الزمن) عام 1895 (جزيرة د. مورو) عام 1896.. (الرجل الخفي) عام 1897، (حرب العوالم) عام 1898.. (أول رجال على القمر) عام 1901، ثم كتب عن المشكلات الاجتماعية (توقعات) عام 1901.. (كيس) عام 1905.. (يوتوبيا الجديدة) عام 1905.. و (تونى بانجى) و (أنا فيرونيكا) عام 1909..

وفي عام ١٩٠٣ انضم للحركة الفابية (الحركة الاشتراكية التي تدعو للتغيير التدريجي، (والتي كان برنارد شو عضوا فيها)..

وفي عام 1911 بدأ خط جديد من خطوط إبداعاته يتمثل في قصصه: (ميكيافلي الجديد) - (الزوج) - (أصدقاء عاطفيون) - (الزوجة لسير إدراك هارمان)..

وأيد (ويلز) الحرب العالمية الأولى على أساس أنها (الحرب التي ستنهي الحروب جميعًا)، وقاد حملة الدعاية ضد الألمان في أثنائها، لكن هذا لم يمنعه - عام 1916 - من كتابة قصة شهيرة هي (مستر برتلنج يتبين الأمر)..

بعد الحرب كتب (خلاصة التاريخ) عام 1920.. ثم (علم الحياة) عام 1929.. ثم (العمل والثروة وسعادة البشرية) عام 1932.. كان يبشر بعالم واحد متكامل يبعد شبح البربرية والعدمية..

وفي عام 1934 كتب قصة حياته وسماها (تجريه في الحياة) وجاءت الحرب العالمية الثانية لتفقده؛ إيمانه بالجنس البشري الذي فقد التحكم في ذاته، ومشي بخطا حثيثة نحو الهلاك..

وتوفي العبقري عام 1946 بعد ما أثرى الأدب العالمي بقصص ومقالات لا تُنسى.. ربما لم تكن عميقة كلها.. لكنها بالتأكيد

فائقة الإمتاع..

د. أحمد خالد

∞∞∞∞∞

1986



في الهـاوية..

وقف الملازم يتأمل الكرة المعدنية وهو يلوك قطعة من جذر الصنوبر..

1987

وتساءل:
- ما رأيك يا (ستيفنز)؟
رد (ستيفنز) بأسلوب رجل يتمتع بعقل متفتح:
- إنها فكرة..
- أعتقد أنها ستتهشم..
- لا يبدو أنه قد أجرى حساباته بدقة..
قال الملازم:
- ولكن فكر في الضغط.. إنه يساوي أربعين رطلا على كل بوصة عند سطح الماء.. ويتضاعف على عمق ثلاثين قدما وعند تسعمائة قدم، يصير أربعين ضعفا.. وعلى عمق ميل يصير مائتين وأربعين ضعفا.. معنى هذا يا (ستيفنز) أن الضغط على كل بوصة سيكون طنا ونصف طن.... والرجل ينوي أن يهبط إلى عمق خمسة أميال..
- يبدو كثيرا.. قال (ستيفنز):
- لكن هذا الصلب سميك حقا..
لم يأت الملازم برد..
كان الرجلان يتحدثان عن كرة من الصلب لها محيط تسعة أقدام كأنها قذيفة مدفع عملاق، وكانت معلقة على روافع تتدلى من ونش ضخم، مما أعطى للقارب مظهرا أثار الحيرة في نفس كل بحار يحترم نفسه يرى هذا المنظر.. منذ أن غادر القارب حوضه في (لندن)، حتى وصل إلى مدار الجدي..
كانت هناك نافذتان دائرتان سميكتا الزجاج في موضعين من الكرة، وكانت واحدة منهما مفتوحة الآن عن طريق انتزاع المسامير التي تثبت إطارها..
كان الرجلان قد رأيا قلب الكرة اليوم كانت ملأى بالوسائد الهوائية.. وقد تم تغليف كل شيء بهذه الوسائد حتى جهاز

(مايرز) المخصص لامتصاص حمض (الكربونيك)، وتجديد الأوكسجين الذي سيستهلكه الركاب..
كان عدد الوسائد هائلا حتى إنك يمكن أن تطلق رجلا من ماسورة مدفع إلى داخل الكرة فلا يصاب بسوء.. إن الضرورة تحتم هذا ما دام هناك إنسان سيدخل هذه الكرة عبر النافذة المفتوحة، وسيتم غلقها عليه بإحكام ويتم تطويحه إلى البحر من فوق القارب.. ليغرق على عمق خمسة أميال.. كان الملازم يشعر بالسأم، وقد أحس أن الله قد أرسل له (سيتفنز) كي يثرثر معه عن الموضوع مرارا وتكرارا..
قال الملازم:
- إن رأيي هو أن الزجاج سيتهشم تحت الضغط.. لقد استطاع (دوبرييه) أن يجعل الصخور تندفع كالماء تحت الضغط العالي ولو لاحظت كلامي...
- وماذا لو تهشم الزجاج؟
- سيندفع الماء إلى الداخل كقذيفة حديدية.. إن اندفاعه سيكون كالرصاص.. سيمزق رئة الرجل ويفجر أذنيه..
احتج (سيتفنز):
- إن لك خيالا مفصلا أكثر من اللازم..
- هو مجرد تقرير لما لا مفر منه..
- وماذا عن الكرة؟
- ستخرج منها بضع فقاعات ثم تستقر هناك على القاع إلى يوم الدينونة.. وسينتثر جثمان (إلستيد) المسكين كقطعة من الزبد فوق شريحة خبز..
وكأنما راق له التشبيه الأخير كرره في استمتاع:
- كقطعة زبد فوق شريحة خبز..
- أي زبد وأي خبز؟

كان هذا هو صوت (إلستيد) ذاته إذ وقف وراءهما، وقد تسربل بثياب بيض، وسيجار بين أسنانه، وعيناه تبتسمان من تحت حافة القبعة التي يرتديها..
- أتراك تتذمر يا (وايبردج) كالعادة من راتب ضباط الجيش الشحيح؟ إنني سأبدأ على الفور.. يجب أن نعد الرافعة اليوم.. فهذه السماء الصافية مناسبة تماما لإلقاء اثنى عشر رطلا من الحديد والرصاص.. ألا ترى هذا؟
قال (وايبردج):
- إن هذا لن يكون ذا تأثير عليك..
- بالطبع لا.. فبعد اثنتي عشرة ثانية سأكون على عمق ثمانين قدما.. وعندئذ لن أرى ذرة تتحرك، حتى لو كانت العواصف تزأر فوق السطح، والأمواج توشك أن تلامس السحاب..، إن ما ينتظرني هناك هو...
ومرت هنيهة من الصمت.. كان يبحث عن لفظة مناسبة.. ثم أردف:
-.. السلام..
غمغم (وايبردج):
- لن أهبط في هذا الشيء الملعون؛ ولو مقابل عشرين ألفا من الجنيهات.
هتف (إلستيد) في مرح وهو يبصق على فقاعة على سطح الماء:
- يا لك من شاب متفائل!
ثم أردف شارحا:
- أولا: سيتم إحكام غلق الكرة على.. ثم أضيء وأطفئ النور الكهربي ثلاث مرات.. عندئذ ترفعني هذه الرافعة لأعلى بكل أثقال الرصاص هذه معلقة منى.. وتسقطني إلى القاع مدلي من حبل يلتف حول هذه البكرة.. وقد آثرنا استعمال الحبل بدلا من

السلك؛ لأنه أسهل في قطعة عند الضرورة وحين تهبط الكرة إلى الماء سوف تطفو بسبب الهواء بداخلها.. لكن الأثقال الرصاصية ستجذبها لأسفل.. ويظل الحبل معلقا بها..
- ولكن ما فائدة الحبل الذي يعلق الأثقال؟
- لتحاشي تهشم الكرة على القاع.. فالهبوط سيكون سريعا.. ميلا بعد ميل.. وهنا يأتي دور الأثقال التي ستلمس القاع أولا.. ستهبط الكرة نفسها ببطء؛ لأن الأثقال تتلقى الصدمة الأولى.. ثم تبدأ الكرة في الارتفاع، وهنا يبدأ دور الميكانيكية التي صممناها.. سأظل على القاع نصف ساعة ألاحظ ما حولى؛ بعدها تخرج سكين آلية تمزق الحبل الذي يربط الكرة إلى الأثقال، وسأرتفع أنا إلى أعلى كفقاعة في زجاجة صودا..
- ولنفرض أن حيوانا بحريا أفسد هذه الآلية التي تتحدث عنها؟
- ستكون هذه دعوة قوية لي كي أتوقف..
قالها (إلستيد) وأدار ظهره للماء كى يتأمل الكرة.

∞∞∞∞∞

ألقوا بـ (إلستيد) من فوق ظهر القارب في الحادية عشرة..
كان النهار يتألق بضوء هادئ صاف، وتألق الضوء الكهربي خلف زجاج الكرة ثلاث مرات.. عندها بدءوا في إنزاله ببطء إلى سطح الماء..
لحظتها بدت الكرة التي كانت هائلة الحجم فوق السطح صغيرة إلى حد لا يصدق، وبدت نافذتاها وهي تتدحرج كعينين حائرتين زائغتين بين جموع البحارة الواقفين على السطح..
صاح القائد:
- هل أنتم مستعدون؟

- آى آى يا سيدي ([1])
- دعوها تهبط إذن!
وعندئذ قام أحدهم بقطع حبل كان يمنع الكرة من الهبوط وراء الأثقال.. بدا وقتها كان الكرة ثابتة لا تتزحزح.. وفجأة.. انغلق الماء من فوقها، واستطاعوا أن يروها من تحته تتراقص صورتها باستمرار.. ثم اختفت نهائيا..
والآن كان على القارب أن يبتعد ميلين عن هذا الموقع، خشية أن تصطدم الكرة به إبان صعودها..
كانت شمس (ديسمبر) تعلو متن السماء الآن، وقد ازدادت حرارة الجو إلى حد ملحوظ.. ومر نصف ساعة عندئذ بدأ التوتر..
راح الجميع يرمقون النقطة التي ينتظرون (إلستيد) عندها.. لكن لا كرات.. دقيقة أخرى.. ولا شيء
- هلم يا (إلستيد).. اصعد!..
قالها بحار ذو شعر صدر كثيف، وشاركه الآخرون في الهتاف كأنما ينتظرون رفع ستار مسرح..
نظر لهم القومندان في توتر.. وقال:
- أنا لا أومن بالرياضيات.. ربما كانت الحسابات خاطئة..
لم يعلق أحد.. وساد الصمت دقيقتين أخريين الآن تعتلي الشمس ذروة السماء وقد مرت عشرون دقيقة.. الجميع ينتظر الكرة.. دون أن يجرؤ أحد على أن يهمس بأن الأمل قد مات وكان (وايبردج) أول من أعطى تلميحا لذلك:
- لم أثق قط بتلك النافذة..
قال (ستيفنز) في هلع:
- يا إلهي الرحيم!.. أنت لا تعتقد أن...

- حسن!..
قالها (وايبردج) تاركا الباقي لخيال محدثه..
وعندما جاء منتصف الليل راح القارب يدور ببطء حول البقعة التي كان على الكرة أن تبرز منها.. وراح الضوء الكهربي يمسح المياه مرارا دون جدوى..
غمغم (وايبردج):
- لو أن النافذة لم تتهشم.. فهذا يعني ما هو أسوأ.. يعني أن الجزء الميكانيكي لم يعمل كما يجب.. ومعنى هذا أن الرجل حي الآن على عمق خمسة أميال في البرد والظلام.. حيث لم يصل إنسان قط منذ خلق الله الماء.. إنه جائع يعاني الطوي ظمآن خائف..
ثم صاح في هلع:
- أية مخلوقات تافهة نحن! أية شياطين صغيرة متهورة! كل هذا الماء تحتنا وحولنا وفوقنا..!
فجأة.. ظهر ضوء أبيض متجها نحو السماء، حتى غدا نقطة بيضاء بين النجوم.. ثم راح ينحدر حتى غاب وسط التوهج الفوسفوري للمياه.
هنا تصلب (وايبردج) فاغرا فاه فارا ذراعيه، ولوح بعد هنيهة بذراعه.. وصرخ:
- (إلستيد) على مرمى البصر!
قالها لمن حوله وهرع قاصدا الكشافات:
- لقد رأيته!.. رأيته بين النجوم!.. لقد قذف من الماء.. هلموا اجلبوا الضوء ها هنا.. سنراه طافيا فوق الماء حالا..
لكنهم لم ينقذوا المستكشف قبل الفجر..
أنزلوا حبل الرافعة وربطوا الخطاف إلى الكرة.. ثم رفعوها إلى ظهر القارب وقاموا بحل المسامير التي كانت تغلق الكوة.. ثم

إنهم راحوا يختلسون النظر إلى داخلّ الكرة حيث عم ظلام دامس..
كان الهواء حارا بالداخل، وقد بدأ المطاط المحيط بإطار الكوة يسيل نوعا..، ولم تكن ثمة إجابة لأسئلتهم الملهوفة ولا صوت ينم عن الحركة.. بدا لهم (إلستيد) نائما بلا حراك مكوما في قاع الكرة، وعندما زحف طبيب القارب إليه بالداخل لم يكن بوسع أحد معرفة هل هو ميت أم حي.. لكن وجهه كان مبتلا بالعرق..
وفي قمرته أدرك القوم أنه ليس ميتا.. لكن في حالة من الانهيار العصبي الكامل، ثم إن جسده ملئ بالسحجات العنيفة.. ولقد اقتضى الأمر أسبوعا كاملا حتى استطاع أن يتكلم.. ويحكي قصته..
كان أول ما قال هو أنه سيعود.. وأن الكرة يجب أن تطور بحيث تسمح له بالتخلص من الحبل بنفسه وكان هذا كل شيء..
- ظننتم أنني لن أجد شيئا سوى بعض الفقاقيع سخرتم منى وهأنذا قد اكتشفت عالما جديدا!
وراح يسرد قصته بشكل مفكك، وبالتالي سيكون من المستحيل أن ننقل كلماته حرفيا.. لكننا سننقل خلاصة ما قال..

∞∞∞∞∞

بدأ الأمر بداية شنيعة - والكلام هنا ل (إلستيد) – فقد راحت الكرة تتدحرج؛ حتى شعر بأنه ضفدع حبيس في كرة قدم.. ولم يكن بوسعه سوى أن يرى السماء والقوم المحتشدين فوق السطح، وفجأة شعر بقدميه ترتفعان، ثم راح يتدحرج رأسا على عقب فوق الوسادة الهوائية ثم توقف التأرجح واستقامت الكرة.. واستجمع هو شتات نفسه؛ ليجد الماء حوله مزيجا من

الأخضر والأزرق، وثمة شعاع ضوء قادم من أعلى حيث السطح.. لكن الماء، راح يزداد سوادا وسوادا حتى بدا كسماء منتصف الليل اللهم إلا من مسحة خضراء..
وراحت أشياء شفافة تلتمع في الماء من حوله ثم تنفجر حين تدنو منه، وذلك الإحساس بالسقوط!.. إنه يشبه ما تشعر به حين يبدأ المصعد في الهبوط.. لكنه دائم لا يتوقف، وعليك أن تتصور كيف يكون ذلك..
كانت تلك هي المرة الأولى التي يندم فيها على تجربته.. وأدرك أن الفرص كلها ضده.. خذ عندك مثلا أسماك الحبار العملاقة التي تعيش ها هنا.. لو أن إحداها أمسكت بالكرة ولم تتخل عنها.. ثم هل تم اختبار الميكانيكية بشكل مرض؟
على كل حال لم تعد هناك قيمة الآن لرغبته في البقاء أو الاستمرار..
الظلام في كل مكان حوله.. فقط الضوء المنبعث من الكرة يسقط من حين لآخر على حشد من الأسماك أو شيء ما يغرق.. وأحس أن حرارة الكرة تزداد بفعل احتكاكها بالماء.. واضح أنهم لم يضعوا هذا في حسبانهم..
إن العرق يغمره.. ومن كوة النافذة يرى فقاقيع صغيرة تتصاعد لأعلى بسرعة.. إنه الغليان!.. زجاج النافذة حار.. خطر له أن الزجاج سيتهشم نتيجة لفارق الحرارة لأن - حسب علمه - ماء قاع المحيط بارد إلى درجة تقرب من التجمد..
وهنا شعر أن أرضية الكرة تضغط على قدميه، وتلاشت الفقاقيع المتصاعدة من حوله، واختفى الهسيس..
أدرك أنه - خلال دقيقة - سيستقر على القاع..
عندئذ فكر في (ستيفنز) و (وايبردج) اللذين صارا الآن على ارتفاع خمسة أميال، كأنهما سحب عالية تسبح في السماء..

ألقي نظرة عبر الكوة.. كان الخارج مظلما كمخمل أسود.. ثم رأي في ضوء الكشاف ثلاثة أشياء تشبه اللهيب في منظرها تدخل مجال البصر.. ولم يستطع أن يخمن هل هي أشياء دانية صغيرة الحجم، أم قصية كبيرة الحجم..
كان لكل منها غلاف خارجي من الضوء الأزرق يتألق كمصباح، وسرعان ما أدرك أنها أسماك من نوع غريب.. لها رأس عملاق وعينان واسعتان..



وسرعان ما أدرك أنها أسماك من نوع غريب . .لها رأس عملاق وعينان واسعتان . .

هنا وجد سحابة بيضاء تحيط به، مما جعل الضوء عاجزا عن اختراقها.. كان السبب في هذا هو أنه لامس القاع، وتصاعد الغبار من حوله.. ثم بدأت السحابة تنقشع وبدأ يرى بوضوح أكثر.. كانت هناك مجموعات من نبات سوسن الماء تحرك ممسساتها الجائعة في الماء..

ومن بعيد رأي معالم مجموعة من الإسفنج العملاق، وعلى القاع تناثرت قشريات تزحف هنا وهناك تاركة ممرات خلفها..
في البدء لم ير ذلك المخلوق بوضوح.. مجرد شيء يتحرك ويوحي من بعيد بمنظر رجل يسير.. ثم دخل المخلوق في مجال الضوء،، فما إن صدمه الضوء حتى أغلق عينية مبهورا..
كان حيوانا فقاريا عجيبا.. رأسه الأرجواني يشبه الحرباء إلى حد ما.. لكن رأسه الكبير وجبهته العالية لم يكونا مما يوجد لدى الزواحف.. كان مجمع وجهه يعطيه تشابها مذهلا مع الإنسان..
كانت هناك عينان تبرزان من محجريهما كما تبرز عينا الحرباء. وتحت أنفه الدقيق كان هناك فم ذو شفتين قرنيتين كشفاه الزواحف، وفي موضع الأذنين غطاء خيشوم، على حين تنبعث من جسده شجرة متفرعة من الخيوط الدقيقة مثل خياشيم أسماك القرش.
على أن أكثر الأشياء غرابة بصدد المخلوق لم يكن وجهه، بل كونه يسير على قدمين.. جسده الكروي يتربع فوق قدمين كأقدام الضفادع وذيل سميك طويل بينما يداه تشبهان يد الإنسان إلى حد ما.. كأنما هما رسم كاريكاتيري لها..
وكان لون المخلوق متباينا.. رأسه ويداه وقدماه كان لونها أرجوانيا.. لكن جلده الذي تهدل من فوق عظامه كان يتألق بلون الفسفور.. حيث وقف هنالك وقد أعماه الضوء..
في النهاية فتح المخلوق فاه.. وأطلق صوتا صارخا.. له مقاطع ككلا منا اخترق الصلب الذي صنعت منه الكرة..
كيف يتم الصراخ دون رئتين؟ لم يستطع (إلستيد) أن يجيب عن هذا السؤال.. لكنه أدرك أن الكائن قادم إلى الكرة مبهورا بالضوء.. وسرعان ما مد (إلستيد) يده ليطفئ الإضاءة، في

اللحظة التي تأرجحت فيها الكرة بفعل شيء ما قد ارتطم بجدارها الفولاذي..
عاد الصراخ يتردد.. وبدا له أن أصداء بعيدة تجاوبه.. عادت الكرة تتأرجح.. وفي الظلام الدامس..
أدرك (إلستيد) أن هناك مخلوقات أخرى شبه آدمية وتتألق بضوء فوسفوري، تتحرك نحوه.
لم يدر ما يفعله.. راح يبحث في الظلام عن مفتاح الضوء الكهربي.. وجد كشاف اليد الخاص به فأضاءه.. وسرعان ما رأي زوجين من الأعين تتأملانه عبر الكوة وتلتمعان في الضوء..
وهنا سمع صوتا أثار هلعه.. صوت طرقات عنيفة على آلات الكرة المسئولة عن قطع الحبل.. كان هذا كافيا ليثب قلبه إلى فمه.. لو أن هذه المخلوقات نجحت في مسعاها، فلن ينجح في الفرار أبدا..
عادت الكرة تتأرجح بعنف ثم شعر بقاعها ينضغط فوق قدميه.. وأدرك أنه يرتفع!.. اختفى القاع واختفت المخلوقات الشبيهة بالإنسان من تحته..
خطر له لأول وهلة أنه قد فر، وأن هذه المخلوقات قد قطعت الحبل الذي يربطه إلى الأثقال.. استمر الصعود سريعا سريعا.. وفجأة توقف.. وانقذف (إلستيد) إلى أعلى؛ ليصطدم بسقف الكرة.. ولمدة نصف دقيقة منعته الدهشة من التفكير..
هنا لاحظ أن الكرة تدور ببطء حول نفسها.. وأن هناك من يجذبها عبر المياه.. لكنه لم ير شيئا حين نظر من الكوة.. خطر له أن يطفئ الكشاف ويترك عينيه كي تعتادا الغموض العميق المحيط به.. وكان حكيما في قراره..
بعد ثوان بدأ الظلام المخملي يتحول إلى سواد شفاف.. ثم رأي من بعيد - في ضوء شاحب – أشياء تتحرك.. وخطر له أن هذه

المخلوقات قد قطعت الكابل الذي كان يربط الكرة بالقارب؛ وأنها تجره الآن إلى قاع المحيط..
ثم رأي أفقا عريضا من الضياء الشاحب يمتد هنا وهناك إلى أبعد ما تسمح به الكوة الضيقة..، وكان ينجذب إلى هذا الأفق كبالون يجذبه الصبية من الريف إلى المدينة..
كان يدنو أكثر فأكثر.. وبدأ الضياء يتخذ أشكالا أكثر تحديدا، كان يرى ما يوحي بشوارع وبيوت تمتد خريطة من تحته وكانت تلكم المنازل مجرد جدران بلا سقوف، صنعت - كما عرف بعد ذلك - من عظام فسفورية متألقة، مما أعطى المكان منظرا يوحى بأنه بني من ضوء القمر..
كانت هناك أشجار تتموج.. وقطع إسفنج عملاقة..
ورأى حركة في الشوارع كأنما القوم يتزاحمون..
كان يهبط.. وتفاصيل المكان تزداد وضوحا وتبدد جزعه نوعا.. وأدرك أنه في مواضع عدة كانت هناك سفن غارقة غطتها القشريات منذ دهر..
كان يهبط.. ولقد أدرك أنهم يقودونه إلى مبنى كبير في مركز المدينة واستطاع أن يرى الأشكال العديدة التي تجذب حبل كرته، والأشكال العجيبة التي تنتظره بين جدران المبنى.. ثم ارتفعت الجدران من حوله؛ لتداري المدينة عن عينيه..
صنعت هذه الجدران من خشب السفن وقطع الحديد وعظام وجماجم الغرقى.. وقد تم نشر الجماجم بشكل حلزوني ومنحنيات لا تصدق حول المبنى، في حين راح السمك الفضي يخرج ويدخل من محاجرها..
كان يهبط.. يهبط.. حتى شعر أن الكرة تستقر على ما يشبه المحراب في وسط المكان...

الآن صار بوسعه أن يرى سكان الهاوية بوضوح أكثر.. وعندئذ أدرك لدهشته أنهم يظهرون احترامهم وإجلالهم له.. جميعهم ما خلا واحدا يرتدي ثوبا من القشور وتاجا من اللآلئ.. كان يقف فاتحا فمه الشبيه بفم الزواحف، كأنما يقود إنشاد المتعبدين....
حافز غريب دعا (إلستيد) إلى أن يضيء الكرة ثانية ليراه هؤلاء الواقفون في الهاوية حوله..
عندئذ غدا الإنشاد جلبة وصراخا.. وأدرك (إلستيد) أنهم يركعون أمامه، وهكذا ظلوا في عبادتهم له دون كلل، ولا انقطاع ثلاث ساعات كاملة..

∞∞∞∞∞∞

إن قصته لعجيبة.. لكنها لا تقل غرابة عن كون رجال العلم البارزين - مثل (آدامز) و (جنكينز) - لا يجدون فيها ما يدعو للدهشة.. فهم لا يرون غرابة في أن تعيش مخلوقات ذكية تتنفس الماء ذات عمود فقري، ووزنها ثقيل إلى حد أنها من المستحيل أن تطفو حية أو ميتة، لا يرون غرابة في أن تعيش مخلوقات كهذه على قاع المحيط دون أن نرتاب فى وجودها.. مخلوقات تنحدر من الـ (ثريومورفا) التي وجدت في الحقبة الجيرية..
لابد أن هذه المخلوقات ترانا ككائنات نيزكية غريبة اعتادت الهبوط ميتة من خلال ظلمات سمائهم المائية، وأحيانا تهوى سفن عملاقة، لتهشم مدنهم كأنما هو عقاب من قوة عليا غير مرئية..
لهذا يمكن للمرء أن يفهم سلوكهم تجاه هبوط رجل حي فوق عالمهم، كما يفعل البدائيون مع رائد فضاء في حلة براقة يهوى

فوق رءوسهم..
ولما كان (إلستيد) قد وعد بأن يكتب تفاصيل الاثنتى عشرة ساعة التي قضاها في الهاوية؛ لكنه لم يفعل ذلك قط.. فإننا نحاول جمع أجزاء القصة المتناقضة من أفواه القومندان (سيمونز) و (وايبردج) و (ستيفنز) وآخرين..
الآن تمر دقيقة تلو الأخرى.. و (إلستيد) ينظر إلى ساعته؛ ليدرك في هلع أن أمامه أربع ساعات قبل أن ينفد الأوكسجين.. لكن إنشاد المخلوقات استمر كأنما هو أنشودة جنازته.. أغنية موته المقبل..
لا يستطيع أن يفسر كيفية تحرره.. لكن طرف الحبل المتدلي من الكرة يشير إلى أنه تمزق من احتكاكه بالمحراب.
فجأة تدحرجت الكرة.. وانزلق خارجا من عالمهم كمخلوق أثيري ينزلق من عالمنا عائدا إلى عالمه الأثيري.. لابد أن الصعود بدا لهم غريبا..
ازدادت حرارة الكرة وسرعتها في الصعود..
يذكر (إلستيد) الفقاقيع التي راحت تجيش جوار الزجاج..
ثم فجأة شعر كأن عجلة عملاقة تدور في رأسه وسرعان ما فقد الوعي..
بعد هذا لم ير سوى القمرة، ولم يسمع سوى صوت الطبيب..
بقي أن نقول هنا إنه في ٢ فبراير ١٨٩٩، قام (إلستيد) بمحاولته الثانية للهبوط إلى هاوية المحيط بعد ما أجري تحسينات عدة على كرته في (ريو)..
أما ما حدث بعد هذا فلن نعرفه أبدا.. لأنه لم يعد قط..
وقد ظلت السفينة (تارميجان) تبحث عنه ثلاثة عشر يوما بلا جدوى.. ثم إنها عادت إلى (ريو) وأبرقت الأخبار إلى أصدقائه..
وهكذا ينتهي الموضوع..

لكن من العسير ألا تجرى محاولة جديدة لتحقيق هذه القصة العجيبة، عن تلك المدن الغريبة في أعماق المحيط، والتي نجهل عنها كل شيء..

(أغسطس 1896)

∞∞∞∞∞



المتجر المسحور..

رأيت المتجر المسحور مرارا من بعيد مررت به مرة أو مرتين.. ورأيت في واجهته كرات سحرية.. دمى سحرية.. ألعاب السلة.. مجموعات من أوراق اللعب (تبدو) على ما يرام..، رأيت كل هذا،

لكني لم أفكر في دخوله قط إلى أن جاء يوم - بلا إنذار - وجدت فيه (جب) يجذبني من إصبعي نحو المتجر.. بمعنى أنه لا مفر لي من أن أدخل معه..
ولم يكن قد خطر لي من قبل أن هذا المكان موجود هناك في شارع (ريجنت) ما بين محل الصور والمفرخة.. لكن المكان كان هناك حقا..، لطالما تصورت أنني رأيته قرب السيرك أو عند ناصية (أوكسفورد).. المهم أنه كان دائما بعيدا عن طريقي..
الآن ها هو ذا أمامي.. وإصبع (جب) الصغير يحتك بزجاج الواجهة محدثا جلبة.. وهو يردد:
- لو كنت غنيا لابتعت هذه.. وهذه.. - كانت هذه هي دمية تمثل طفلا باكيا - وهذه.. - التي كانت لغزا يتم تجميعه - وهذه..
- وكانت هذه الأخيرة قد كتب عليها - اشتر واحدة وأدهش أصدقاءك.. قال (جب): - أي شيء يختفي تحت هذه الأقماع.. لقد قرأت عنها..
ثم أردف:
- وها هو ذا (نصف البنس المختفى).. لقد ورث (جب) العزيز إصرار أمه.. لهذا لم يعرض على دخول المتجر.. فقط - ودون وعي - جذبني من إصبعي إلى الباب.. وأشار إلى زجاجة سحرية في شغف.. فسألته:
- ماذا ستفعل بها؟
- يمكنني أن أرى إياها لـ (جيسى)..
مددت يدي إلى مقبض الباب وفتحته.. فلم يقل (جب) شيئا وأطبق بقبضته على إصبعى بحزم..
ودخلنا المحل..
ما كان هذا متجرا عاديا.. كان متجرا مسحورا..

وترك (جب) دفة الحديث لي..
كان متجرا ضيقا خافت الإضاءة.. وسمعنا جرس الباب يدق حين أغلقناه وراعنا.. هنا صرنا وحيدين وأمكننا أن نتأمل المكان.. كان هناك نمر على الزجاج..
الموضوع فوق منضدة الاستقبال.. نمر له عينان حنونان..، وكانت هناك كريات بلورية، ويد من الخزف الصيني تمسك بأوراق لعب، ومجموعة من أحواض السمك السحرية، وقبعة سحرية تظهر اليايات بداخلها بلا حياء..
وعلى الباب رأينا مرآتين سحريتين: واحدة تظهرك طويلا نحيلا.. وواحدة تضخم رأسك وتكمش جسدك..
بينما نحن نضحك وقد رأينا صورتينا؛ دلف البائع إلى المكان..
رجل نحيل أسمر هو.. مثير للفضول.. له ذقن كطرف الحذاء وأذن أكبر من الأخرى..
قال لنا وهو يفرد أنامله الطويلة على الزجاج:
- ماذا بوسعي أن أقدم لكما؟
وهكذا شعرنا بوجوده.. فقلت:
- أريد أن أبتاع لطفلي بعض الحيل البسيطة..
- ميكانيكية؟ أم منزلية؟ أم قائمة على خفة اليد؟
- أي شيء مسل..
- هم م م! - قال وهرش رأسه كما لو كان يفكر.. ثم فجأة جذب من رأسه كرة زجاجية – شيء كهذا؟
كان تصرفه غير متوقع.. رأيته مرارا يؤدي في دور اللهو.. لكنه فاجأني ها هنا.. لكم بدا لي غريبا!
قلت ضاحكا
- هذا رائع...!
مد (جب) يده ليلتقط هذا الشيء لكنه وجد كفا خاوية..

- إنه في جيبك!
قالها البائع.. وكان هناك فعلا!.. سألت الرجل:
- كم ثمنه؟
قال الرجل وهو يخرج كرة أخرى من كمه:
- نحن لا نثمن الكرات الزجاجية.. ما دمنا نحصل عليها مجانا..
وأخرج كرة من مؤخرة عنقه.. على حين تأمله (جب) في اهتمام.. واستعد للمفاجأة التالية.. قال الرجل:
- نحن نحصل على كل حيلنا الصغيرة هكذا..
قلت ضاحكا بأسلوب رجل يشارك في دعابة:
- بدلا من التعامل مع تجار الجملة.. هكذا أرخص حتما..
قال الرجل:
- إلى حد ما.. أما عن حيلنا الكبرى وكل ما نحتاج إليه فإننا نحصل عليه من هذه القبعة.. ولو أن السيد سمح لى فإني أقول له: لا توجد متاجر جملة للبضائع السحرية الأصيلة - وأخرج بطاقة من خده وقدمها لى: - لا خداع هنالك يا سيدى.. أصيلة.. ثم نظر إلى (جب) وقال باسما: - أنت (الولد المناسب).. فقط (الولد المناسب) يستطيع أن يدخل من هذا الباب..
وكأنما لتوضيح ما قال سمعنا صوت من يحرك مقبض الباب.. وصوتا رفيعا يصيح من الخارج:
- أريد الدخول يا بابا.. أريد الدخول نيايايابابايا!
ثم صوت أب يواسيه:
- إنه موصد يا (إدوارد)..
قلت أنا:
- لكنه ليس موصدا..
- فقط بالنسبة لولد غير مناسب كهذا..

- قال صاحب المحل ذلك وهو يشير إلى وجه الطفل الآخر الذي ينظر من وراء الزجاج.. وجه شاحب شوهته الشهوات الشيطانية.. مخلوق صغير أناني سوست الحلوى أسنانه..
كدت أتجه إلى الباب برد فعل طبيعي لأعين الصبى على الدخول، لكن الرجل قال لي:
- لا جدوى من ذلك سيدي..
ثم أردف وهو يلوح بيديه، فتنطلق شرارات اللهب الملون من أطراف أنامله، لتختفي في ظلام المتجر:
- إنه السحر!
ثم قال موجها الكلام إلى (جب):
- قبل أن تدخل المحل قلت إنك ترغب في واحدة من ألعابنا المسماة (اشتر واحدة وأدهش أصدقاءك)
قال (جب) بعد عناء:
- ن... نعم..
- هي الآن في جيبك!
وانحنى فوق المنضدة ليقدم لنا اللعبة بطريقة دعائية.. ثم هتف:
- ورق!
والتقط لفة ورق كبيرة من القبعة.. ثم صاح:
- خيط!
وأخرج من فمه خيطا طويلا بلا نهاية راح يربط به الطرد بعد أن غلفه، ثم أشعل شمعة على أنف إحدى الدمي وغمس فيها إصبعه ليأخذ مسحة من الشمع ويلصق بها الطرد كأنما ختم بشمع أحمر..، ثم راح يغلف (البيضة المختفية) و (الطفل الباكى) ويناول كل طرد بعد الفراغ منه إلى (جب)..، (جب) الذي احتشدت العواطف داخله وراحت تصطرع..

وهنا شعرت بشيء يلهو في قبعتي.. شيء ناعم يتواثب.. أزحتها عن رأسي فوجدت حمامة تسقط منها وتجري فوق المنضدة.. لتتوارى داخل صندوق أوراق اللعب خلف دمية النمر..
مدّ الرجل يده ليتناول قبعتي، وهزها ليخرج منها ثلاث بيضات.. بلية كبيرة.. ساعة.. دستة من الكرات الزجاجية..
- كل هذه الأشياء تتراكم في القبعة يا.. سيد..
- كان يلومني بأدب وهو يخرج هذه الأشياء..
- لا أعنيك أنت بالذات.. لكن أعني كل عميل.. من المدهش أن ترى كل الأشياء التي يحملونها في قبعاتهم!
وفجأة توقف عن الكلام.. كأنك ضربت الجراموفون بقطعة من القرميد حسنة التصويب.. عندها ساد الصمت وكفت كل الأصوات.. فسألت بعد هنيهة:
- هل فرغت من اللهو بقبعتي؟
فلم يجب.. نظرت إلى (جب) ونظر (جب) لي..
- إننا سنرحل الآن.. فهلا قلت لي ثمن هذه الألعاب؟..
وعدت أكرر بصوت أعلى:
- أقول: أريد الفاتورة وقبعتي من فضلك..
سمعنا صوتا حفيفا من وراء كومة الورق.. فقلت لـ (جب):
- فلننظر وراء المنضدة أي (جب).. إنه يعبث..
ومشينا لنلقي نظرة هناك.. فماذا تحسبنا وجدنا؟
لا أحد! فقط قبعتي على الأرض وجوارها رأينا أرنبا أبيض غارقا في التأمل.. صاح (جب) في افتتان:
- بابا.. إنني أحب هذا المتجر!
- وأنا كذلك.. ما لم تتحرك هذه المنضدة فجأة انغلق الباب علينا!

لكنه لم يعط لما قلت أهمية.. وراح يمد يده للأرنب محاولا إقناعه بالاقتراب..
- هيا يا (بوسي).. قم بلعبة سحرية ل (جب)!
رأينا الأرنب يتواثب قاصدا الباب.. وفجأة انفتح الباب ولمحنا الرجل ذا الأذن الأكبر من الأخرى يبرز لنا.. كان يبتسم لكننا رأينا في عينيه مزيجا من الاستمتاع والتحدي:
- إنكما ستحبان رؤية قاعة عرضنا يا سيدى..
هنا كنت قد بدأت أشعر بأن السحر أصيل ها هنا..
أكثر أصالة مما يجب في الواقع.. فقلت:
- ليس لدينا متسع من الوقت..
لكننا - بشكل ما - وجدنا نفسينا في قاعة العرض، وقبل أن أنهى كلامي رأيت البائع يمد يده إلى كم معطفي وينتزع شيئا.. ورأيت أن هذا الشيء كان عفريتا صغيرا أحمر يمسكه الرجل من ذيله، بينما العفريت يقاوم ويحاول أن يعض يده.. وسرعان ما رماه الرجل في إهمال وراء المنضدة..
لم أشك لحظة في أن الشىء دمية مطاطية.. لكن كم بدا حقيقيا!.. خاصة والرجل يتصرف كمن يمسك بأفعى.. أفعى حقيقية تلدغ.
نظرت إلى (جب) فوجدته لم يلحظ الشيء.. وقد سرني هذا..
سأل (جب) الرجل في تبجيل واحترام وهو يشير إلى لعبة
- هل هذا الشيء سيف سحرى؟ - إنه (لعبة سيف سحرية).. لا تنحني ولا تنكسر ولا تقطع الأصابع إنه يجعل حامله لا يقهر في أية معركة ضد من هو أقل عمرا من ثمانية عشر.. ويباع معها درع واقية.. وأحذية تطير.. وخوذة تجعلك غير مرئي!
تنهد (جب) في نشوة:
- آه يا بابا!

حاولت معرفة سعر هذه الأشياء، لكن الرجل لم يعطني فرصة.. ولقد استحوذ على (جب) الآن..
وترك (جب) إصبعى؛ ليرى كل شيء في جراب هذا الساحر.. بل إنني لاحظت - بشعور هو للغيرة أقرب - أن (جب) قد أمسك بإصبع الرجل كما كان يفعل معى تماما.. لا جدال أن الرجل مسل.. ولديه بضاعة لا تنفد من الألعاب الزائفة..
مشيت وراءهما، وعزيت نفسي بأن (جيب) يستمتع بكل هذا.. لكن حين يجيء الوقت لترحل سترحل..
كنا نمشي في قاعة العرض والبائع يعرض على (جب) قطارات تسير دون وقود أو ميكانيكية ما..
وصناديق تحوي جنودا تدب الحياة فيهم بمجرد أن نفتح الغطاء وتقول حين لم أتمكن من التقاط الكلمة خاصة وأنها كانت عسيرة النطق.. لكن (جب) الذي ورث أذنى أمه الحادتين - استطاع أن يحفظها، وسرعان ما أعاد الرجل الجنود إلى الصندوق وهو يهنئ (جب) على سرعة حفظه..
- هل ستأخذ الصندوق؟
وقبل أن نرد.. قذف الرجل الصندوق في الهواء، وهنا وجدناه أمامنا ملفوفا بالورق البنى وقد كتب عليه اسم (جب) الكامل وعنوانه!..
وضحك البائع من ذهولي.. وقال:
. - هذا هو السحر الأصلي.. السحر الحق!
قلت في تردد:
- إنه أصلى أكثر من اللازم بالنسبة لي..
وواصل الرجل إبهار (جب) بمزيد من الحيل السحرية.. فكنت تسمع لفظة (برستو!) ([2]) من الرجل تليها لفظة (برستو!)

الصغيرة الصافية من الصغير.. لكنني كنت بعيدا عن هذا.. رحت أتأمل الجو الغامض الموحى بالتوتر المخيم على هذا المكان..
كان هناك مساعد من مساعدي الرجل.. رجل غريب الشكل لا يشعر بوجودى.. كان منحنيا على كومة ألعاب وقد رسم قوسا بجسده، وراح يصنع أشياء مروعة بأنفه! أشياء يفعلها كأنما يشعر بالملل ويريد أن يروح عن نفسه..
كان الأنف مستديرا قصيرا.. فإذا به يشده كالتلسكوب.. وبعد قليل غدا الألف طويلا رفيعا مثل سوط أحمر.. كأنه كابوس!..
أول ما خطر لي هو أن (جب) لا ينبغي أن يرى هذا.. استدرت لأجد (جب) منهمكا مع البائع، دون أن يفكر في شر ما.. كانا يتهامسان وينظران إلى.. (جب) يقف فوق مقعد مستدير والبائع يمسك بشيء يشبه طبلة عملاقة..
صاح (جب):
- نحن نلعب (الاستغماية) يا بابا..!
وقبل أن أستوعب ما يحدث، نزلت الطبلة فوق (جب) لتخفيه داخلها.. عندها أدركت ما سيحدث.. وصحت:
- انزع هذه!.. إنك ستخيف الغلام.. انزعها!
نفذ البائع كلماتي دون أن يعلق.. وأدار الطبلة الكبيرة نحوي ليريني أنها خاوية.. لقد اختفى ولدى!
أنت تعرف حتما ذلك الشعور القادم من المجهول بأن يدا خفية تعتصر فؤادك.. عندئذ تشعر أنك فارقت نفسك التي ألفتها وصرت عنيفا حازما.. بلا غضب ولا خوف.. هكذا كان الحال معي حين مشيت إلى الرجل وركلت المقعد جانبا..
- أوقف هذا السخف!.. أين الغلام؟
قال لي وهو ما زال يعرض على داخل الطبلة:
- كما ترى.. لا خداع هنالك!

مددت يدي نحوه فتملص.. هجمت عليه فتراجع، وفتح بابا خلفه كي يفر.. فصرخت فيه:
- توقف!
ضحك.. وتراجع ليغيب عبر الظلام الحالك، وسمعت من يقول:
- فليرحمني الله.. لم أرك قادما يا سيدى!
كنت هناك في شارع (ريجنت) وقد اصطدمت بعامل يبدو مهذبا.. وعلى بعد ياردة - حائرا مشتتا – كان (جب) يقف!
ورأيته يدنو منى بابتسامة معتذرة مشرقة، وكأنما قد ضل طريقه لأول وهلة ثم وجدني..
وكان يحمل الطرود تحت ذراعه!...
على الفور أمسك بإصبعي كعادته..
ولثانية شعرت بفقدان الوزن.. نظرت ورائي لأرى باب المتجر.. وبالطبع لم يكن هناك!.. لا باب.. لا متجر.. لا شيء.. فقط متجر الصور، وجواره المفرخة..
فعلت الشيء الوحيد الممكن.. رفعت مظلتي إلى أعلى لأنادي سيارة أجرة.
ركبت جوار (جب).. وهنا شعرت بشيء في مؤخرة معطفى.. مددت يدي إلى هناك لأجد أنه كرة زجاجية.. رميتها إلى الشارع على الفور..
ولم ينبس (جب) ببنت شفة..
كانت مشكلتي هي معرفة كيف بدا له الأمر.. لكن أذى لم يمسه، ولم تبد عليه أية علامات للخوف.. كان راضيا تماما عن هذه المتعة.. وظللت أتساءل في حيرة عن محتوى الطرود.. وان ندمت على أنني أبوه لا أمه وإلا كان في استطاعتي أن ألثمه فجأة وأمام الناس جميعا..
وحين فتحنا الطرود بدأت أطمئن..

ثلاثة منها كانت تحوي جنودا عاديين.. جنودا من الرصاص تم صنعهم بإتقان شديد..، أما الطرد الرابع فكان يحوي هريرة بيضاء حقيقية تتمتع بصحة وشهية ممتازتين..
فما إن رأيت هذا حتى شعرت بالارتياح..

∞∞∞∞∞∞

كان هذا منذ ستة أشهر.. واليوم فقط أعتقد أن الأمور على ما يرام.. فالهريرة لم تكن مسحورة أكثر من أية مرة أخرى.. والجنود كانوا طبيعيين جدا..
وماذا عن (جب)؟
إن أي أب ذكي يعرف أنني يجب أن أتعامل بحذر معه.. لكنني تماديت في تعاملى.. وذات يوم سألته:
- هل تحب أن تعيد هؤلاء الجنود إلى الحياة يا (جب)؟
قال (جب):
- إنهم أحياء.. فقط يجب أن أقول لفظة ما قبل فتح العلبة..
- وعندئذ تدب فيهم الحياة ويمشون؟
- طبعا يا بابا.. ما كنت لأحبهم لو لم يمشوا..!
لم أبد دهشة... لكني اعتدت من وقتها أن أدخل حجرته دون إنذار من حين لآخر.. لكني - حتى الآن لم أرهم يقومون بعمل سحرى..
ثمة موضوع آخر متعلق بالمال..
إن لدى عادة مرضية هي أنني أدفع ما على من فواتير.. ولقد مشيت مرارا في شارع (ريجنت) بحثا..

عن ذلك المحل.. وأعتقد أنني - من ناحية الشرف - قد فعلت المطلوب مني.. وما دام اسم (جب) وعنوانه معروفين لدى هؤلاء القوم.. فإن بوسعي أن أنتظر منهم أن يرسلوا الفاتورة لنا في الوقت الذي يناسبهم، وبصرف النظر عن حقيقة وسر وجودهم في عالمنا.

(يونيو 1903)

∞∞∞∞∞∞



وادي العناكب..

وادي العناكب عندما انتصف النهار.. وصل الثلاثة المطاردون إلى منحني في مجرى السيل المطل على واد فسيح مقفر لقد صار ممر الحصى الذي اقتفوا أثر المطاردين عليه واديا منحدرا واسعا.. ودون إشارة أو اتفاق؛ توقف الرجال فوق مرتفع تحيط به أشجار الزيتون..

2016

وهناك انتظروا.. رجلان يتبعان ثالثا يمتطي جوادا ذا سرج مطعم بالفضة..
ولبرهة راحوا يمسحون الأفق الممتد تحتهم بعيون ملهوفة.. كان يمتد بعيدا بعيدا، وقد انتثرت فيه أشجار الشوك هنا وهناك.. وبعض الأعشاب الصفراء تذوب من بعيد في السفوح الزرقاء للتلال النائية وإلى الغرب يغيب الوادي في ظلمة دانية تحت السماء حيث تبدأ الغابات..
قال الرجل النحيل ذو الشفتين المليئتين بالندوب:
- ليسا هنا.. - وتنهد في خيبة أمل – لكنهما يسبقاننا بيوم كامل على كل حال..
ردّ الرجل الذي يمتطى الحصان الأبيض:
- هما لا يعرفان أننا نتبعهما....
قال القائد بمرارة وكأنما يكلم نفسه: - ستعرف هي.. - حتى لو علمنا.. فلن يرحلا بسرعة.. ليس معهما دواب سوى البغل.. وقدم الفتاة ما زالت تنزف..
نظر له الرجل ذو السرج الفضي في حنق:
- أتحسبني لست بهذا علينا؟
قال الرجل ذو الندوب:
- لو أننا ركبنا.. وأسرعنا..
ثم ألقي نظرة على الحصان الأبيض وصمت..
قال ذو السرج الفضي:
- لعنة الله على الجياد البيضاء!
قال الرجل صغير الحجم راكب الحصان الأبيض:
- قد حاولت وسعى..
- هلما إذن..

قالها الرجل ذو السرج القضى، فهز الرجلان عنانى جواديهما.. وراحت حوافر الخيول ترسم طريقا متعرجا فوق العشب بينما هم يسيرون فوق الأثر تدريجيا بدا الأثر أكثر شحوبا.. لأن طبقة الغيار صارت أرق.. لكنهم بمزيد من التدقيق والانحناء على أعناق الخيول، كانوا قادرين على اقتناء الأثر ما بين عشب مهشم.. أو أثر قدم.. وفي ذات مرة رأي القائد لطخة من دم تركتها الفتاة.. فأطلق سبة في سره يلعن حماقتها..

كان ذو السرج الفضي يتقدم الطريق.. ولم يتبادل واحد من ثلاثتهم كلمة مع زميليه..

فجأة شعر الرجل الثالث على الجواد الأبيض بشيء غير طبيعى.. إن الوادي ساكن أكثر من اللازم.. كان يرى سيده ورفيقه على جواديهما، وقد سقط ظل كل منهما على الأرض أمامه.. وهو ذا يرى ظله هو نفسه أمامه.. فما الجديد؟ لم تكن هناك أنسام.. هذا هو الشيء..!.. الوادي كله يغفو في قيلولة الظهيرة، والسماء مفتوحة صافية فوق الرءوس..

تنهد.. وضم شفتيه ليصفر.. عابث سرجه وأدار ظهره؛ ليتأمل مدخل الوادي من حيث جاءوا..

منحدرات خاوية على الجانبين لا تنم عن وجود مخلوق له قيمة.. ولا نبات.. أي أرض هذه!..

شعر بنسمة صغيرة تعابث وجهه.. همسة تروح وتجيء.. محاولة أولى لأنسام محتملة.. من ثم بلل إصبعه ورفعه في الهواء...

من الأمام يرى ظهر سيده.. قبعته.. كتفيه تظهر وتختفي من وراء ظهر الرجل النحيل.. لقد ركبوا جيادهم أربعة أيام كاملة.. بلا ماء ولا شيء سوى قطعة من لحم مقدد تحت سرج كل

منهم يمشون فوق صخور ومرتفعات لم يعش بها أحد من قبل سوى هذين الهاربين.. تصور..!
وكل هذا من أجل فتاة.. مجرد فتاة! لم هذه الفتاة بالذات؟
تساءل الرجل ولعق شفته الجافة بلسان مسود..
إن هذا هو طريق سيده، وهذا هو كل ما يعرفه لمجرد أن الفتاة حاولت أن تهرب منه..
كان النسيم يزداد قوة، وينتزع من الأشياء جمودها هذا شيء لا بأس به.. هنا توقف الرجل النحيل:
- هاللو!
فتوقف ثلاثة الرجال فجأة.. وتساءل السيد:
- ماذا هنالك؟
- انظر هناك..
- ماذا؟
- ثمة شيء آت نحونا..
وهنا رأوا الكلب الأصفر قادما نحوهم جريا.. لسانه متدلٍ وجريه عنيف ملهوف حتى إنه لم يبال براكبي الخيول حين دنا منهم.. كان يقترب وقد شمخ بأنفه فتحسس راكب الجواد الأبيض سيفه: - إنه مسعور دنا الكلب منهم.. وفي اللحظة التي كاد السيف يمزقه فيها، رأوه يواصل الركض لاهثا مبتعدا..
وتابعته عينا الرجل صغير الحجم.. وقال:
- لا توجد رغاو على فمه..
- هلما.. لم يحدث شيء ذو أهمية..
قالها راكب الحصان ذي السرج الفضي... وواصل المشي بحصانه..
شرع الرجل صغير الحجم يتهكم في سره على الطبيعة البشرية، وقد نسى لغز هذا الكلب المحموم القادم من قلب الريح..
2019

هلما!.. لماذا يرزق بعض الناس دون سواهم بالسلطة التي تتيح لهم أن يتكلموا بهذه الثقة وهذا التأثير الكاسح؟.. هلما!.. ليتني أستطيع أن أقولها بذات السيطرة..!
إن الناس يتعجبون عندما لا يطاع هذا السيد.. لهذا اعتبر الناس تلك الفتاة مجنونة.. ربما ملحدة..
أخرجته من خواطره أحاسيس غريبة في كفيه وركبتيه.. وبدأ يوقن بوجود شيء ما.. تقدم إلى رفيقه النحيل وسأله:
- هل لاحظت الخيول؟
نظر له الرجل النحيل وغمغم:
- هي لا تحب هذه الريح، وواصل الركب مسيرته في صمت.. وقد بدأت الريح تزداد قوة دقيقة بعد دقيقة.. ورأى الرجل الصغير كتلا سوداء تتحرك من بعيد فقال لنفسه: إنها خنازير برية تركض.. وواصل قلقه بصدد توتر الخيول غير المفهوم..
سمعوا الصراخ.. ورأوا خنزيرا بريا عملاقا يندفع..
أدار رأسه نحوهم ثانية واحدة، ثم واصل الركض عبر الوادي..
هنا توقف الفرسان الثلاثة وراحوا يرمقون الوادي..
قال القائد:
- لو لم تكن هذه النباتات الشوكية التي تذروها الريح..
وهنا رأوا كرة عملاقة تتدحرج على بعد ياردات..
لم تكن كرة تماما، بل شيئا شفافا محاطا بمخاط كأنه قنديل البحر.. يجر خلفه نسيجا متشابكا لزجا..
قال الرجل الصغير:
- ليس هذا نباتا شوكيا..
وقال النحيل:
- لست مرتاحا لهذا..

- اللعنة! - قال القائد - إن هذه الأشياء تعطلنا ودفعهم شعور غريزى كالذي يحرك قطيعا من الظباء يهاجمه وحش، إلى أن يديروا خيولهم في اتجاه الريح.. ويتقدموا بضع خطوات.. ثم يقفوا ليتأملوا هذه الكتل المتحركة..
كانت الكتل التي تمثل طليعة هذا الجيش العجيب تتقدم من الركبان.. وراحت الخيول تتراقص وتقف على أقدامها الخلفية..
هنا نفد صبر القائد فجأة..
وأطلق سبة:
- ما الخطر من هذه الأشياء؟ هلما نواصل بحثنا! وجذب لجام حصانه فكاد يمزق فمه..
- سأتبع الأثر مهما حدث.. أين الأثر؟
فما كاد يقولها حتى هوى خيط طويل على وجهه..
وإلى مؤخرة رأسه جرى شيء سريع الحركة عديد الأرجل..
رفع رأسه؛ ليجد واحدة من هذه الكتل الرمادية فوقه، ونهايتها كشراع مركب لكن مع إحداث جلبة
وفي ذهنه انطبعت صورة عيون عديدة.. حشد من الأجسام المترنحة.. أطراف عديدة تحاول الهبوط فوقه.. ولبرهة راح يهدئ من روع الحصان بطريقة غريزية وبأسلوب رجل خبر الفروسية.. وفي هذه اللحظة التمع نصل السيف وهوى ليمزق خيط العنكبوت الذي تتدلى تلكم الكتلة منه.. وعلى الفور انفصلت هذه وتدحرجت بعيدا..
- عناكب! - كان هذا هو الرجل النحيل – هذه الكتل مفعمة بالعناكب! انظر يا سيدي!
راح السيد ذو السرج الفضي يرمق الشيء المهشم على الأرض.. واستطاع أن يميز أرجلا عديدة غير محببة الشكل.. وهنا رأى

الرجل النحيل يشير إلى كتلة أخرى تتدلى فوقهم.. كان الوادي كله مليئا بأشياء مماثلة..
ولفترة حاول أن يفهم الموقف..
أما ما حدث بعد ذلك فقد كان أقرب إلى فوضى المعارك..
رأي ذو السرج الفضي الرجل الصغير يتقدمه وهو يضرب بوحشية خيوطا غير مرئية.. ثم رآه يندفع نحو الرجل النحيل فيصطدم به ليسقطه وجواده أرضا.. أما جواده، هو نفسه فقد مشي خطوات بعيدة قبل أن يتمكن من جذب لجامه، وإلى أعلى نظر ليتلافى أخطارا تخيلية.. وإلى الأرض نظر ليجد جواد الرجل النحيل يتلوى.. والرجل النحيل نفسه يضرب جسده؛ ليبعد كتلة من اللون الرمادي تتموج فوق الحصان..
كانت كتل العنكبوت قادمة تذروها الرياح..
كان الرجل النحيل راجلا الآن وهو يمسك بزمام حصانه محاولا تهدئة هياجه.. وباليد الأخرى يضرب بلا هدف..، وقد التحمت الكتلة الرمادية الأخرى به وبحصانه..
توقف القائد وجذب لجام حصانه.. وأطرق برأسه..
كان الحصان الذي يتلوى على الأرض قد أغرقها بالدماء وراحت أشياء متحركة تلهو حول خاصرتيه..
عندها تركه الرجل النحيل وراح يركض للأمام قاصدا سيده..
كانت ساقاه مغلفتين بالكتل الرمادية، وثمة قناع من نفس اللون على وجهه.. وبيديه أتى بحركات غير مجدية محاولا التملص.. ثم هوى متعثرا.. حاول النهوض وسقط..
عندئذ راح يصدر أصواتا مريعة:
- وووه.. أوووووه!
ونظر القائد إلى الرجل الصغير فوجده مرتكزا ببطنه على ظهر جواده الأبيض وقد أمسك اللجام.. وكان يتلوى.. ومن جديد

هوي خيط رمادي لزج على وجهه.. ورأى نسيج العنكبوت حوله وفوقه وتحته..

∞∞∞∞∞∞

لن يعرف أبدا إلى يوم مماته ما حدث ساعتئذ..
هل هو من همز الحصان أم أن الحصان قد فر من تلقاء نفسه؟
لا يهم.. يكفي أنه بعد ثانية كان يركض عبر الوادي وسيفه يلوح في الهواء.. ومن حوله تتطاير كتل العناكب ونسيجها، كأنما تبحث عنه بحثا واعيا مصمما..
كلاتر كلاتر!.. والرجل ذو السرج الفضي ينظر لأعلى.. لليمين.. لليسار.. ويلوح بسيفه.. ومن ورائه الحصان الأبيض وراكبه على ظهره في وضع عفوى..
كان مصمما على القرار حتى إنه لم ير الخندق الذي أمامه، وحين رآه كان رد فعله خاطئا ومعوقا لوثبة الحصان الغريزية..
انحنى فوق عنق الحصان متأخرا جدا..
لكنه إن كان قد نسي الوثب فهو لم ينس السقوط..

2023



لكنه إن كان قد نسى الوثب فهو لم ينس السقوط ..

ولهذا استعاد خبرته في الفروسية وهو في الهواء..
وجعل السقطة طفيفة فيما عدا كدمة في كتفه.. وتدحرج الحصان وركل الهواء بأقدام متشنجة ثم تصلب تماما..
عاد الرجل يقف على قدميه لاهثا.. ولدقيقة خطر له أن يجري ثم أدرك أنه آمن ها هنا في الخندق.. يمكنه أن ينتظر ويرقب

هذه العناكب حتى تهدأ الرياح ويغدو الهرب مأمونا..
وقد كان.. ولفترة طويلة جلس القرفصاء في الخندق يرمق تلكم الكتل الرمادية تتطاير في فرجة السماء فوق رأسه//
ذات مرة سقط عنكبوت ضال في الخندق وراءه..
وكان يبلغ قدما في طوله وكان جسمه في حجم قبضة الرجل..
راح الرجل يداعبه بطرف سيفه الذي تهشم في السقطة - كأنما القدر يأبى أن يبقى فارسة بعد الآن..
وراح يراقب بحثه الدقيق المحموم.. ثم رفع كعب حذائه وهشمه مطلقا سبة..
مر وقت طويل قضاه - كعادته - في قرض أظفاره، وعض سلاميات يديه.. حتى أخرجه من شروده مجيء الحصان الأبيض بفارسه..
سمع الحوافر والصوت المطمئن.. ثم ظهر الرجل ورأسه مغطى بنسيج العنكبوت.. اقترب دون أن يلفظ بعبارة تحية أو أي شيء.. وعلى وجهه أمارات المرارة واليأس....
وأمام سيده الجالس وقف:
- هل تخليت عنه؟
- تعثر جوادى..
- أعلم.. وكذلك أنا..
وضحك دون حبور.. فقال القائد الذي كان ذا سرج فضي يوما ما..
- قلت لك: إن جوادى تعثر..
- كلانا جبان!
رمقه القائد في حنق وعض سلامياته بعنف أكثر، ثم غمغم:
- لا تدعني جبانا..
- أنت جبان مثلى..

- ربما.. لكن هناك حذا يجب أن يجبن عنده كل رجل.. لقد تعلمت ذلك أخيرا لكنك لم تفعل.. وهذا هو الفارق بيننا..
- لم أحسبك تاركه وقد أنقذ حياتك قبلها بدقيقة.. أين كنت يا سيدى؟
ادلهمت سحنة القائد وعض أنامله..
- لا أحد يدعوني جبانا.. وسيف مكسور خير من لا شيء.. وحصان أبيض لن يقدر على حمل رجلين..
أربعة أيام.. أنا أمقت الخيول البيضاء لكني مضطر هل فهمتني؟.. أنت تنوي أن تشوه سمعتي.. الرجال على شاكلتك يفسدون الأمور.. وإلى جانب هذا أنا لم أحبك قط!
ووقف الرجلان الواحد في مواجهة الأخر، وفوق رأسيهما راحت كرات العناكب تتطاير ومن بين الحصى دوى صوت حركة.. ركض أقدام.
صرخة يأس.. ثم ضربة.

∞∞∞∞∞

توقفت الريح مساء.. وغربت الشمس في صمت ومن الخندق خرج الرجل الذي كان ذا سرج فضي؛ وهو يقود الحصان الأبيض.. فكر لحظة في استعادة سرجه الفضي من الجواد النافق، لكنه خشي الليل وتسارع الهواء.. وخشي كذلك أن يجد جواده الحبيب وقد تأكل تماما..
راح يرمق الوادي في رهبة وتذكر نجاته من كل الأموال التي لاقاها..
- كنت مليئا بالشهوة.. لكنها لاقت جزاءها..
بالتأكيد هي وهو قد..

وفجأة رأي عبر الوادي وفي ضوء الغروب دخانا يتصاعد..
عندئذ تحول استسلامه إلى غضب مدهش.. دخان؟ كاد يتجه بالحصان الأبيض نحوه.. لكن الريح عادت تهب منذرة.. ورأى من بعيد خيوط عنكبوت رمادية تتطاير.. أعاد النظر للدخان.. وغمغم:
- ربما - على كل حال - لم يكونا هما...
لكنه كان يعرف جيدا...
وانطلق بجواده بين بقايا العناكب التي تملأ الأرض على الجانبين.. كانت هناك عناكب ميتة تتغذى عليها أخواتها الحية في شراهة.. لقد ولى وقتها ولم تجد ريحا تحملها إلى فرائس..
راح يبعد بحزامه العناكب التي تدنو أكثر من اللازم ويبتعد..
ومن حين لآخر ينظر وراءه إلى الدخان..
- عناكب! - غمغم لنفسه مرارا – عناكب.. حسن.. حسن!.. في المرة القادمة سأنسج بيت عنكبوت للمرأة..

(مارس 1903)

∞∞∞∞∞∞



بلد العميان..

ثلاثمائة ميل من (كيبمبورازو) ومائة ميل من ثلوج (كوتاباكسى).. في أحراش الأنديز الإكوادورى؛ هذا هو موقع ذلك الوادي الغامض المنعزل: بلد العميان..

كان هذا الوادي مفتوحا على العالم منذ أعوام طوال، فكان الناس قادرين على المجيء إليه.. جاءته عائلة أو اثنتان من سكان (بيرو) الهاربين من جشع وطغيان المحتل الأسباني.. ثم جاءت زلازل (ميندوبامبا) الرهيبة التي أظلمت لها سماء (كيتو) سبعة عشر يوما.. وغلى لها الماء في (ياجوانشى)، عندئذ انفصل جزء من أخدود (أرواكا) وعزل بلد العميان عن المستكشفين إلى الأبد..
غير أن واحدا من القادمين كان في الجانب الآخر من الممر حين ارتجفت الدنيا.. فنسى كل شيء عن ولده وزوجه وبدأ حياة جديدة.. وأصيب فيما بعد بالعمى ومات في أحد المناجم.. وعاشت القصة التي حكاها عن بلد العميان كأسطورة بين شعوب (كولديراز) حتى اليوم.
قال الرجل: إن بلد العميان يزخر بكل ما يشتهي الفؤاد.. ماء عذب.. خضرة.. طقس معتدل.. أرض خصبة.. وغابة شامخة الأغصان تحوي ثمار الأناناس..
والسماء لا تمطر ولا تتساقط منها الثلوج ها هنا، لكن الينابيع الوافرة تعطى خضرة غنية..
والحيوانات تتوالد وتنمو، لكن شيئا واحدا أفسد رونق سعادة هؤلاء القوم..
شيئا واحدا لكنه عظيم الشأن.. فقد راح مرض غريب يهاجمهم جعل كل أطفالهم مكفوفي البصر..
وفي ذلك الوقت ما كان الناس يفكرون في الجراثيم، ولكن في الخطايا.. ورأى الرجل - الذي عاد إلى هذا البلد - أن سبب المرض يعود إلى إهمال هؤلاء القوم لإنشاء محراب في أرضهم.. وأزمع أن ينشئ محرابا جميلا زهيد التكلفة تقام فيه الصلوات وتعلق فيه الأيقونات..

لكنه حين أحضر قسا مبشرا ليعود، به إلى هناك؛ وجد الزلزال قد عزل هذه الأرض تماما عن عالمنا..

∞∞∞∞∞∞∞

وواصل الداء مسيرته في هذا الوادي المقفر المنسي.. صار الشيوخ ضعيفي البصر.. وصغار السن يرون بعسر ومشقة.. أما الأطفال فلم يكونوا يرون على الإطلاق..
لكن الحياة كانت ميسرة في هذا الوادي الذي حاصره الجليد، دون أدغال ولا حشرات ضارة ولا وحوش فيما عدا قطعان (اللاما) التي راحوا يرعونها هناك...
واستمر بصرهم يتلاشى بالتدريج حتى إنهم لم يلاحظوا ما يفقدون.. وراحوا يقودون الصغار العميان هنا وهناك حتى يحفظوا معالم الوادي بدقة، وحينما تلاشى النظر نهائيا من عالمهم كانوا قادرين على الاستمرار..
تعلموا كيف يسيطرون على نار لا يرونها.. فقد كانوا أناسا بسطاء لم تمسهم الحضارة الإسبانية إلا قليلا.. لكنهم يملكون الثقافة التقليدية لشعوب (بيرو) وفلسفتهم القديمة..
وراح جيل يتلو جيلا.. ونسوا العديد من الأشياء، وابتكروا العديد من الأشياء.. وصار العالم الذي جاءوا منه باهتا غير مؤكد.. وفيما عدا البصر ظلوا أقوياء قادرين.. ونما المجتمع الصغير في العدد وفي التفاهم.. حتى جاء الوقت الذي ولد فيه أول طفل من الجيل الخامس عشر..
وفي يوم من الأيام دخل رجل من العالم الخارجي إلى هذا العالم.. وهاك قصته...

∞∞∞∞∞∞∞

كان متسلق جبال من بلدة قرب (كيتو).. رجل أسفار رأي العالم وقرأ كثيرا..، وقد اصطحبته مجموعة من الإنجليز قدموا إلى (الإكوادور) لاستكشاف الجبال بدلا من مرشدهم السويسري الذي أصابه المرض..
ولقد تسلق الجبال في كل مكان حتى وصل إلى جبل (باراسكوتويتل) في (الأنديز).. حيث فقد العالم الخارجي أخباره..
وقد سردت جهات كثيرة القصة لكن خيرها ما نشر في جريدة (بوينتر)؛ وتحكي كيف أن المجموعة واصلت صعودها شبه الرأسي، وبنى رجالها مأوى ليليا وسط الثلوج على حافة صخرة..
ثم بقوة مسرحية اكتشفوا أن (نونيز) لم يعد بينهم..
صرخوا فلم يتلقوا إجابة.. ولم ينم أحدهم ليلتها وفي الصباح رأوا آثار سقطته.. لقد انزلق غربا نحو الجانب المجهول من الجبل لينحدر فوق الثلوج إلى حيث يتوارى المشهد.. ومن بعيد رأوا أشجارا في وادٍ سحيق هو بلد العميان.. لكنهم لم يعرفوا أن هذا هو بلد العميان.. لقد حطم الحادث أعصابهم وأزمعوا عند الظهيرة أن يتخلوا عن المحاولة.. ولم تزل القمة التي لا تقهر يزهو بها جبل (باراسكوتويتل) حتى ساعتنا هذه...
لكن الرجل الذي هوى لم يمت...
عند نهاية الجبل هوي ألف قدم، وهبط وسط سحابة من الثلج فوق منحنى جليدي.. وعندئذ تمدد فاقد الحسّ لكن دون عظمة مهشمة واحدة.. ودفن وسط كومة ناعمة من الثلج صاحبت سقطته وخففت منها..
عاد إلى وعيه متخيلا أنه سقيم في الفراش.. ثم أدرك موقفه بفطنة متسلق جبال، فتحرر وراح يرمق الجبال والنجوم.. لقد تمزقت أكثر أزرار معطفه وضاعت قبعته وفأسه..

نظر لأعلى فرأى في ضوء القمر تلك المسافة الرهيبة التي سقطها..
وقف على قدميه شاعرا بألم في كل مفصل من مفاصله.. وهبط في منحدر جليدى حتى تمدد جوار صخرة كبيرة، وجرع جرعة كبيرة من زجاجة يحملها في جيبه الداخلي ثم غرق في النعاس..

∞∞∞∞∞

أيقظه غناء الطيور، فجلس مدركا أنه عند سفح قمة واسعة..
وأمام عينيه كان حائط عملاق يسدّ السماء..
راح ينزل في منحدرات وعرة حتى رأي مجموعة من الأكواخ الحجرية غريبة الشكل.. وكانت هناك أشجار..
هنا كان المساء قد حل والهواء يزداد برودة..
عند منتصف اليوم التالي وصل إلى الوادي.. فجلس في ظل صخرة وملا زجاجته من ماء ينبوع وتجرعها..
ثم مشي نحو المنازل التي رآها أمس..
كانت غريبة تماما بالنسبة له.. الوادي كله بدا له غريبا غير معتاد..، أكثره مغطى بكلأ أخضر تنتثر فيه الزهور.. ويتم ريه بوساطة قنوات تم حفرها بعناية.
كانت هناك قناة مائية تحيط بالوادي، وعلى المنحدرات العالية كانت (اللاما) ترعى العشب..
ورأى الرجل طرقا تم تمهيدها من صخور بيضاء وسوداء.. أما البيوت نفسها فكانت متعددة الألوان إلى حد لا يصدق، وما من نافذة في أي منها وهنا فقط خطرت له لفظة (أعمى).. الرجل الطيب الذي اختار هذه الألوان كان بالتأكيد أعمى كوطواط..

دنا أكثر فرأى حشدا من رجال ونساء يستريحون فوق العشب كأنما في قيلولة، من بعيد بعض الصبية يرقدون.. وفي الناحية النائية من المروج رأى رجالا يحملون قرب الماء عبر الطريق الضيق المتجه إلى المنازل، وكانوا يرتدون ثيابا ونعالا وأغطية رأس من فراء اللاما وجلدها..
كان منظر القوم مطمئنا، فوقف (نيونز) فوق الصخرة ليجعل نفسه واضحا للعيان.. وصرخ بأعلى صوته صرخة رددها الوادي..
توقف ثلاثة من الرجال وحركوا رءوسهم كأنما يبحثون من حولهم.. فلوح لهم (نيونز).. لكنهم لم يُظهروا ما يدل على أنهم أبصروه.. بل قصدوا الجبل على اليمين وصرخوا.. لوح لهم (نيونز) وللمرة الثانية خطرت له لفظة (أعمى).. - لابد أن هؤلاء الحمقى عميان..
أخيرا عبر جسرا صغيرا فوق مجرى الماء، وعبر بوابة حجرية؛ ليصل إليهم.. الآن غدا واثقا من أن هذا هو بلد العميان الذي تكلمت عنه الأسطورة..
وقف الرجال الثلاثة متجاورين.. لا أحد منهم ينظر له بعينيه لكن بأذنيه.. وبدا شيء من الوجل في وقفتهم المتراصة.. وأدرك أن جفونهم ملتصقة غائرة كأنما المحاجر خلفها قد تلاشت..
قال أحدهم بلغة أسبانية يستحيل تبينها:
- رجل.. رجل أو روح.. جاء من الصخور..
تقدم (نيونز) بخطى ثابتة من الشاب، وفي ذهنه كل القصص المفقودة عن بلد العميان.. وترددت في ذهنه تلك المقولة الشائعة مرارا وتكرارا:
- في بلد العميان يغدو الأعور ملكا..
حياهم بشكل شديد التحضر.. وتحدث معهم..

تساءل أحدهم:
- من أين الرجل يا أخ (بدرو)؟
قال (نيونز):
- من فوق الجبال.. من البلاد هناك حيث يبصر الناس.. من (بوجاتا) حيث يعيش ثلاثمائة ألف نسمة، وتبتعد المدينة عن البصر..
- بصر؟!.. بصر؟!
قال الأعمى الثاني:
- جاء من وراء الصخور..
كانوا يعدون أيديهم نحوه بحركات متزامنة.. فتراجع بعيدا عن أناملهم..
قال الأعمى الثالث وهو يتجه نحوه بدقة ويمسك به:
- تعال ها هنا!
وراحوا يتحسسونه دون أن يتبادلوا كلمة واحدة..
- خذوا الحذر!
قالها (نيونز) متألما من إصبع في عينه.. لقد وجدوها وبدت لهم بجفونها الرامشة شيئا مثيرا للعجب..
قال المدعو (بدرو):
- هذا مخلوق غريب يا (كوريا).. تأمل خشونة شعره كشعر (اللاما)..
رد (كوريا) وهو يتحسس ذقن (نيوز) بيد ناعمة رطبة:
- خشن هو كالصخور التي جاء منها.. ربما يزداد نعومة فيما بعد.
- بحذر!
قالها (نيوز) وهو يحاول التملص منهم.. وهنا اقترح (بدرو):
- هلم نقده إلى الكبار..

وأمسك (بدرو) بيد (نيونز) ليقوده إلى البيوت، فسحب هذا يده:
- أستطيع أن أرى.
- ترى؟
وهنا تعثر (نيوز) في الحقيبة التي كان (بدرو) يحملها.. فقال الثالث:
- حواسه ما زالت غير دقيقة.. إنه يتعثر ويقول أشياء بلا معنى.. امسكوا بيده..
ضحك (نيونز) ومد يده لهم مستسلما.. سيحين الوقت الذي يعلمهم فيه ما لا يفهمون..
وهنا سمع الصراخ، ورأى عددا من القوم يحتشدون في مركز القرية.. وأحاط به حشد من النساء والأطفال كلهم لهم نفس العيون الغائرة الملتصقة.. وشعر بأيدٍ حساسة ناعمة تتحسسه وأنوف تشمه.. لكن بعض الواقفين ظلوا يخشونه.. وأدرك أن صوته كان خشنا فظا بالنسبة لأصوات هؤلاء الناس..
ظل الرجال الثلاثة يحيطونه بنوع من الامتلاك مرددين مرارا وتكرارا:
- رجل متوحش من الصخور..
قال (نيونز):
- من (بوجوتا).. (بوجوتا) ..
- رجل متوحش يستعمل ألفاظا متوحشة.. أسمعتم هذا؟ (بوجوتا)؟ إن عقله لم يتشكل بعد ومازال يستعمل كلاما بدائيا
- اجلبوه إلى الكبار..
واندفع إلى غرفة دامسة الظلام تلتمع النار في نهايتها.. وأحاط به الجميع وضغطوا عليه فسقط عند قدم رجل جالس.. وشعر بأيد عديدة تتحسسه فصاح:

- لا أرى شيئا في هذا الظلام..
ساد صمت كأنما القوم حوله يحاولون فهم كلماته، ثم سمع صوت (كوريرا) يقول:
- هو رجل جديد الخلق.. يتعثر في مشيه ويقول كلاما بلا معنى سألهم:
- هل لي أن أقف؟ لن أقاوم..
فسمحوا له بالنهوض.
عندها راح العجوز يسأله، وراح (نيونز) يشرح له العالم الكبير الذي سقط منه.. والسماء والعجائب التي لم يرها أولئك الشيوخ الجالسون في الظلام في وادي العميان..
لكن القوم لم يفهموا أكثر ما قال، ولم يبالوا به، لقد انقطع هؤلاء القوم عن العالم الخارجي أربعة عشر جيلا.. تغيرت أسماء كل شيء، وصارت دنيانا مجرد قصة أطفال خيالية..
وتكفل حكماؤهم بنفي كل الذكريات الباهتة التي حملوها معهم من العالم الخارجي.. ناقشوها.. وأثبتوا أنها أوهام.. واستبدلوا بها تفسيرات أكثر حكمة..
ذبل جزء كبير من مخيلتهم مع أبصارهم.. لكنهم صنعوا لأنفسهم خيالات جديدة بآذانهم وأناملهم شديدة الحساسية..
ولما قنط (نيوز) من جعلهم يفقهون كنه الإبصار؛ راح يصغي إلى تعليماتهم..
شرح له أكبر القوم الحياة والفلسفة والدين.. وكيف أن عالمهم كان في البدء حفرة في الصخر.. ثم ولدت مخلوقات بدائية عاجزة عن اللمس ومعها حيوانات (اللاما).. ثم جاء البشر فالملائكة التي تحدث أصواتا لكن أحدا لا يقدر على لمسها..
حير هذا الجزء (نيونز) قليلا ثم عرف أنهم يتكلمون عن الطيور..

راح الرجل يحكي لـ (نيونز) كيف أن الزمن انقسم إلى جزأين؛ بارد ودافئ - وهما المعادلان المكفوفان لليل والنهار - وكيف أنه من المستحب أن ينام المرء في (الدافئ) ويعمل في (البارد)..
وقال ل (نيونز) إنه يجب أن يخدم الحكمة التي اكتسبوها.. وأنه - برغم تعثره وعجزه عن الكلام - يجب أن يتعلم وأن يكون ذا شجاعة، هنا راح القوم يغمغمون مؤيدين..
قال كذلك: إن (الدافئ) قد توغل؛ وإنه من الخير أن يعود كل امرئ إلى فراشه لينام..
قال (نيونز) إنه راغب في أن يصيب بعض الطعام قبل أن ينام.. فجلبوا له بعض لبن (اللاما) في (سلطانية) ومعها خبز خشن مملح.. ثم قادوه لمكان منعزل؛ ليأكل فيه ويغفو حتى يوقظهم هواء ليلنا البارد كي باشروا عمل يوم جديد..
لكن (نيونز) لم ينم قط..
جلس حيث تركوه، وأراح جسده إلى الوراء وراح يستعرض ما حدث له منذ جاء ها هنا..
- عقل غير ناضج...!.. لا حواس!.. إنهم لا يعلمون أنهم يهينون سيدهم وملكهم الأعلى.. يجب أن أردهم إلى الصواب..
وما زال يفكر حين غربت الشمس..
خرج ليرمق القرية.. انعكاس الشمس الغاربة فوق الجليد كأجمل ما رآه في حياته.. انتابته رجفة من العرفان فحمد الله من أعماق قلبه على نعمة البصر التي منحه الله إياها..
هنا سمع من يناديه من القرية:
- هيه أنت! (بوجوتا)!.. تعال!
وقف وابتسم.. سيرى هؤلاء القوم معنى الإبصار الآن.. لسوف يبحثون عنه لكنهم لن يجدوه..
ضحك.. وتنحى خطوتين عن الطريق.. فسمع من يقول:

- لا تمش على العشب يا (بوجوتا).. فهذا غير مسموح به..
تصلب (نيونز) مدهوشا..
فهو لا يكاد يسمع صوت خطواته هو نفسه..
وجاء صاحب الصوت مندفعا نحوه.. فعاد (نيونز) إلى الطريق وقال:
هأنذا...
قال الأعمى:
- لم لم تأت حين ناديتك؟ أينبغي أن تقاد كطفل؟
ألا تسمع صوت الطريق تحت قدميك؟
- نعم.. لأنني أراه..
- لا توجد كلمة اسمها (أراه).. هلم اتبع صوت خطواتى..
تبعه (نيوز) شاعرا بالحنق.. وغمغم:
- ألم تسمع مقولة (في بلاد العميان يغدو الأعور ملكا؟
- ما معنى (العميان)؟
ومرت أربعة أيام..
وفي اليوم الخامس كان الملك بعد نكرة.. مجرد غريب أخرق بلا نفع.. كان الأمر أعسر مما ظن.. على أنه راح يتعلم أساليب وعادات بلد العميان، وكان أول ما ضايقه وأزمع تغييره هو موضوع العمل ليلا..
إن هؤلاء القوم يعيشون حياة شاقة بسيطة لكنها سعيدة.. كانت لديهم كفايتهم من الثياب والأطعمة وكانوا ينالون قسطا من الراحة ولديهم غناء وموسيقا ولديهم حبّ..
كان كل شيء في الوادي مصمما لقضاء حاجاتهم..
كل الطرق لها علامة بارزة خاصة عند بدايتها كل العوائق في الطريق قد تمت إزالتها..

وكانت حواسهم قد صارت مرهفة بشكل مذهل حتى غدا بوسعهم سماع حركة رجل على بعد اثنى عشرة خطوة.. وربما سمعوا خفقات قلبه..
تمرد (نيونز) فقط بعد ما جرب الإقناع الودي مع هؤلاء القوم حاول مرارا أن يحدثهم عن الإبصار:
- اصغوا لى يا قوم.. ثمة أشياء لا تفهمونها في....
وقف رجل أو اثنان يصغون له، وقد أداروا آذانهم تجاهه..
وحاول جهده كي يحدثهم عن معنى الإبصار..
كانت هناك فتاة بين المستمعين.. فتاة لها جفنان أقل احمرارا وغورا من الآخرين مما يعطيها انطباعا بأنها تطرق حياء.. وقد حاول أن يقنع هذه بالذات..
تحدث عن جمال الجبال.. عن الشمس.. عن الفجر.. وراحوا يصغون إليه في عدم تصديق يمازجه شعور بالتسلية.
قالوا له: إنه لا توجد جبال، وإن الصخور التي ترعى عندها (اللاما) هي نهاية العالم.. بعد هذا يبدأ سقف العالم..
بالإضافة لذلك كانت قدرتهم على الشم مذهلة وكانوا يعرفون المرء من رائحته كما تفعل الكلاب تماما..
قال لهم: إن العالم بلا سقف ولا نهاية.. فقالوا إن أفكاره شيطانية.. لقد هز عقائدهم وإيمانهم بأن للعالم سقفا أملس ناعما..
هنا تخلى عن المحاولة وأزمع أن يريهم جدوى الإبصار..
رأي (بدرو) قادما على الطريق الذي يسمونه (السابع عشر) نحو مركز القرية، لكنه كان أبعد من أن يُسمع أو يُشم..
قال لهم متنبئا:
- بعد هنيهة سيكون (بدرو) ها هنا..

قال أحد الشيوخ إن (بدرو) لا يوجد ما يدعوه إلى المشي في الطريق (السابع عشر).
وهنا - وكأنما ليؤكد الكلام - غير (بدرو) مساره ليمشي في الطريق (العاشر)!
سخر القوم من (نيونز) حينما لم يأت (بدرو)، وفيما بعد حاول أن يفهم من (بدرو) سر تغييره لطريقه.. لكن هذا الأخير أنكر وتهرب.. ثم صار معاديا تجاهه..
حاول أن يحدثهم عما يحدث بين المنازل.. لكنهم طلبوا منه أن يحدثهم عما يحدث بداخلها.. ولما أخبرهم أن هذا مستحيل حتى لمن كان بصيرا.. قوبل بسخرية لم يخفوها..
عندها قرر استعمال القوة..
فكر في حمل هراوة يهشم بها رأسا أو رأسين ليعرف الباقون نفع الإبصار.. هنا عرف عن نفسه شيئا جديدا: من المستحيل عليه أن يهشم رأس رجل ضرير بأعصاب باردة.
تردد.. لكنه عرف أنهم جميعا أحسوا بأنه يمسك الهراوة.. رآهم قد تصلبوا وراحوا يرهفون السمع لمعرفة ما ينوى عمله.. وقال واحد منهم:
- ألق الهراوة حالا..
شعر (نيونز) بنوع من الرعب العاجز، وكاد يطيع.. ثم إنه قذف بواحد منهم إلى جدار وانسل من جواره خارجا من القرية..
ذهب إلى أحد المروج وجلس، كان يشعر باندفاع للقتال لكنه كان حائرا.. وبدأ يدرك أنه من العصير عليك أن تقاتل في رضا رجلا يختلف عنك في أساس فكره..
ومن بعيد رأي جمعا منهم يحملون العصى ويمشون في مسارات متفرقة نجوه.. كانوا يمشون ببطء ويتحدثون مع بعضهم ويتشممون الهواء..

ضحك (نيونز) حينما رآهم.. لكنه بعد هذا كفّ عن الضحاك، راح يرقب حزامهم.. وازداد ذعره..
وقف خمس دقائق يرمق الحصار يزداد إحكاما.. ثم قرر أن يتحرك.. كانوا يحيطون به على شكل هلال ويصغون..
قبض على الهراوة وارتفع النبض إلى أذنيه..
«في بلد العميان يغدو الأعور ملكا»
هل يضربهم؟..
- (بوجوتا).. أين أنت؟
احتضن الهراوة بقوة أكبر واتجه نحو المروج..
لسوف أقتلهم لو لمسوني.. بحق السماء سأضرب..
ونادي بصوت عال:
- اصغوا إلى.. لسوف أفعل ما أريد في هذا الوادي.. أتسمعون؟ سأفعل ما أريد.. وأذهب حيثما أريد!
لكنهم كانوا قادمين بسرعة نحوه.. كأنما يلعبون (المساكة) وقد غطى الجميع أعينهم فيما عدا واحدا..
- اقبضوا عليه....
شعر بأنه يجب أن يكون حازما.. فصاح فيهم بصوت كان من المفترض أن يكون قويا:
- أنتم لا تفهمون.. - وهنا صار صوته مبحوحا - أنتم عميان وأنا مبصر.. دعوني وشأني!
- (بوجوتا).. دع الهراوة وتعال..!
- سأؤذيكم! - بصوت يرتجف انفعالا – بحق السماء.. دعوني وشأني..
وراح يركض غير عالم إلى أين.. تجنب الأعمى الأول، ثم استدار ليتفادى صفوفهم.. اتجه نحو ثغرة بينهم لكن الرجال أحسوا بقدومه فاغلقوها.. كان هناك رجل يسد الطريق عليه..

سويش!.. شعر بالضربة تهوي على الذراع.. وسقط الأعمى على الأرض يئن ألما.. لكنه قد مر من بينهم.. مر...
عاد يركض في الشارع بينما عاد العميان يتبعونه ملوحين بهراواتهم وعصيهم.. وهنا سمع جلبة خلفه.. فاستدار ليرى رجلا عملاقا ينقض عليه بعد ما سمع صوت خطواته.. فقد أعصابه فهو على رأس الرجل بالهراوة..
لقد تملكه الهلع.. راح يجرى بجنون وهو يتلفت حوله فيتعثر.. وهنا وجد بابا في الجدار المحيط بالقرية كأنه باب الجنة..
فاندفع نحوه وعبره.. ومشى فوق الجسر... وأثار فزع (لاما) صغيرة ففرت بعيدا.. ثم رقد أرضا يلهث من أجل الهواء..
وهكذا انتهت مغامرته..
قضي ليلتين خارج السور دون طعام ولا مأوى يتأمل في كل ما لم يتوقعه.. راح يردد دون كلل:
- في بلد العميان يغدو الأعور ملكا!!
خططا عديدة يقهر بها هؤلاء القوم.. لكن ما من طريقة بدت له ممكنة.. ليس لديه سلاح ومن العسير الحصول على واحد.
ما زال عاجزا عن التفكير في قتل رجل أعمى.. ولو فعل هذا لكان بوسعه أن يملي عليهم شروطه.. لكن - عاجلا أم آجلا - سينام..!
حاول أن يجد طعاما في أشجار الأناناس أو أن يقتل. (لاما) بحجر كى يأكلها.. لكن (اللاما) ظلت مرتابة فيه ترمقه بعينيها غير مطمئنة، وتبصق حين يمر جوارها..
في اليوم الثانى شعر بالذعر وراح يرتجف بردا وفي النهاية تسلق الحائط وعاد إلى وادي العميان وقرر أن يعقد صلحا.. وهكذا راح يصرخ حتى جاءه رجلان ضريران: - كنت مجنونا.. لكني حديث الصنع كما تعلمان قالا: إن هذا أفضل.. فقال لهما: إنه

ازداد حكمة وإنه نادم على ما صنع.. وفجأة بكي.. بكي من ضعفه ومرضه.. واعتبر الرجلان هذه علامة حميدة..
سألاه عما إذا كان يعتقد بعد أنه (يرى).. فقال:
- لا.. كانت هذه حماقة.. فاللفظة بلا معنى تماما..
سألاه عما فوق الرءوس:
- توجد قبة من الصخور الملساء تعلونا بعشرة أمثال قامة الرجل
وانخرط في بكاء هستيري:
- قبل أن تسألا المزيد أعطياني بعض الطعام قبل أن أموت
وتوقع العقاب.. لكن هؤلاء العميان كانوا يملكون قدرة عالية على التسامح، واعتبروا ثورته دليلا آخر على عتهه وانحطاطه..
جلدوه قليلا ثم كلفوه بأبسط وأشق الأعمال.. ولم يكن لديه طريق آخر للحياة فخضع لما يطلبون منه..
وهكذا غدا (نيونز) مواطنا صالحا في بلد العميان، وكف أولئك الناس عن أن يكونوا عامّين بالنسبة له.
بل بدأ يرى الفوارق الفردية بين بعضهم والبعض وبدأ العالم الخارجي يغدو باهتا غير واقعى كان هناك (يعقوب) سيده - رجل طيب حين لا يثار - و (بدرو) ابن أخ (يعقوب).. و (ميديناسروتى) صغرى بنات (يعقوب).. لم يكن العميان يعجبون بها.. وجهها حاد وليست فيه تلك المنحنيات الناعمة التي هي فكرتهم عن الجمال الأنثوي.. لكن (نيونز) وجدها جميلة.. جميلة حقا..
ولم يكن جفناها غائرين وأحمرين بل طبيعيين، كأن عينيها قد تفتحان في أية لحظة.. وكانت أهدابها طويلة، الأمر الذي يعتبره العميان تشويها مروعا.. ثم إن صوتها كان قويا لا يناسب أسماعهم المرهفة.. لهذا لم يحبها أحد في الوادي..

وجاء وقت فكر فيه (نيونز) أنه لو فاز بها لأحب البقاء في الوادي ابدا..
راح يراقبها.. وينتهز الفرصة، ليقدم لها خدمات صغيرة.. حتى وجد أنها لاحظته.. وذات مرة وضع يده على يدها فأمسكتها وبادلته الضغط في رقة.. فكر في أن يكلمها..
قصدها يوما وهي جالسة في ضوء القمر تغزل الصوف، وجعلها ضوء القمر كيانا من الفضة والغموض.. جلس عند قدميها وصارحها بحبه..
صوت العاشق تكلم ولم يكن قد مسها من قبل.. لم ترد عليه لكنه عرف أن كلماته سرتها..
حدثها يوما عن البصر..
بدا لها البصر خيالا شاعريا لا يوصف.. وأصغت لوصفه للنجوم والجبال وجمالها العذب كأنما تمارس فعلا شائنا.. لم تفهم نصف ما قال ولم تصدق كل ما قال لكنها شعرت بسرور غامض..
وهكذا بدأ حبه يكتسب الشجاعة
قرر أن يطلب يدها من (يعقوب) والكبار، لكنها خشيت ذلك.. وكانت أختها الكبرى هي من أخبرت أباها أن (نيونز) و (ميدينا ساروتى) متحابان..
لاقى الأمر معارضة شديدة من البداية ليس لأنهم يقدرونها.. ولكن لأنهم يعاملونه كمجذوب.. كشيء معدوم الكفاءة أدنى من المستوى الذي يسمح به للرجل.
شقيقاتها عارضن بشدة لأن هذا يجلب العار على رؤوسهن.. وبرغم كون (يعقوب) قد بدأ يميل إلى الفتى، فقد قال: إن هذا لن يصير.. وثار الشباب على فكرة تعكير جنسهم وتكدير نسبهم..

لكن (يعقوب) العجوز كان مشفقا على ابنته الصغرى وأحزنه أن يجدها تنتحب على كتفه..
- أنت ترين واعزيزتي أنه أحمق.. لا يفعل أي شىء بشكل صحيح..
- أعرف.. لكنه أفضل مما كان.. وهو قوى وطيب القلب.. وهو يحبني يا أبي وأنا أحبه..
تضايق (يعقوب) من إجابتها وضايقه أكثر أنه كان يحب الفتى..
لذا راح يجلس مع الشيوخ ليقول لهم:
- لقد غدا أفضل مما كان.. وربما - يوما ما - نجده عاقلاً مثلنا..
فكر أحد الشيوخ قليلا ثم توصل إلى حل..
كان هو طبيب هؤلاء القوم، وكان له عقل فلسفى مبتكر.. وقد راقت له فكرة شفاء (نيونز)..
قال له (يعقوب):
- لقد فحصت (بوجوتا).. إن المسألة واضحة لي.. ويمكن شفاؤه دون شك..
قال (يعقوب) في رضا:
- لطالما تمنيت ذلك..
- إن عقله مريض.. همهم الشيوخ معربين عن موافقتهم.. فأردف الطبيب:
- هذان... وأشار إلى وجهه - هذان الشيئان الغامضان اللذان يسمونهما العينين.. إنهما منتفختان عنده وعليهما أهداب وجفناه يتحركان.. لهذا يعانى مخه من التهيج والتشتت..
- وبعد؟
- لهذا أقول بشيء من يقين: إننا ـ كى نشفيه نحتاج إلى جراحة بسيطة.. إزالة هذين الجسمين المزعجين..
- وعندئذ يعود إلى صوابه؟

- سيغدو عندئذ مواطنا يثير الإعجاب..
صاح (يعقوب) في مرح:
- حمدا لله على نعمة العلم!
وهرع ليزف النبأ السار إلى (نيونز)..

∞∞∞∞∞∞

كان رد فعل (نيونز) مخيبا للأمل..
قال (يعقوب):
- إن المرء ليحسب من نبرة صوتك أنك غير راغب في ابنتي..
وحاولت الفتاة إقناعه.. ولكنه قال:
- أنت تريدين حرماني من هبة الإبصار..
هزت رأسها وأردف:
- تلك الأشياء بارعة الجمال.. الزهور.. نبات الحزاز بين الصخور.. السماء القصية بغيومها.. الغروب.. النجوم.. وأنتِ.. كفاني بالبصر أنه يريني وجهك العذب ويديك المتعانقتين.. وأنتم تريدون لي أن أتوارى تحت سقف الظلام الذي سجن خيالكم فيه؟ كلا.. لن تريدي هذا لي..
قالت:
- أحيانا.. أتمنى أن.. ثم توقفت عن الكلام.. فرجاها أن تكمل..
- أحيانا.. أتمنى ألا تتكلم بهذه الطريقة..
- أية طريقة؟
- أعرف أنه جميل - أعني خيالك - وأنا أحبه لكن..
- لكن...؟
واعتدل في وقفته وتساءل:
- تعنين أنني.. ينبغي أن...؟

وبدأ يفهم بسرعة..
شعر بالحنق على مسار الأمور وبالشفقة على عجزها عن الفهم..
وأدرك من شحوبها كيف أن روحها تضغط بعنف على الأشياء التي لا تجرؤ على التلفظ بها..
بعد برهة سألها بلطف:
- ولو أنني وافقت على هذه الجراحة؟
ارتمت على صدره ولفت ذراعيها حول عنقه وبكت بحرقة:
- ليتك تفعل!.. ليتك تفعل!
لم ينم (نيونز) طوال الأسبوع السابق للجراحة.. الأسبوع الذي أريد به إعداده؛ ليكون لائقا بالعمى، وأن يرتفع من مستوى العبودية والانحطاط إلى مستوى المواطن المحترم المكفوف..
راح يقضي ساعات الصباح - حين يغفو الجميع -في التجوال بلا هدف..
لقد وافق.. لكنه لم يكن واثقا من الصواب بعد..
إنها آخر أيام الإبصار بالنسبة له..
وقضى دقائق مع (ميدينا - ساروتى) قبل أن تنام..
قال لها:
- غدا.. لن أرى ثانية..
ضغطت يديه بقوة.. وهمست:
- يا قلبي!
وأردف:
- لن يؤذوك إلا قليلا.. ستتحمل الألم يا حبيبي من أجلي.. لو كان بوسعي أن أمنحك عمري لفعلت..
غرق في الشعور بالحسرة على حاله وحالها..
تأمل وجهها الجميل للمرة الأخيرة.. وهمس:

- وداعا..!
وابتعد في صمت..
كان يزمع الذهاب إلى مكان منعزل تبدو فيه المروج مزهوة بزهر النرجس.. ويبقى هناك حتى ساعة الأضحية..
لكنه رفع عينيه فرأى النهار..
النهار كملاك يرتدي درعا ذهبية ويمشي عبر المنحدرات..
عندئذ بدت له حياته في الوادي وحبه وكل شيء مجرد لطخة آثمة.. ولم يعد كما انتوى.. بل واصل التقدم..
خرج من السور.. واجتاز حاجز الصخور.. وراح يتذكر العالم الحر العظيم الذي جاء منه.. العالم الذي كان كله ملكا له.. و (بوجوتا) بلده.. عظيمة نهارا.. غامضة ساحرة ليلا..
تذكر رحلات النهر والعالم الواسع والقرى والغابات والصحاري واندفاع الأنهار والبحر العظيم بآلاف الجزر.. ثم السماء.. لون السماء.. الأزرق الذي يفوق الوصف.. بحر النجوم السرمدي..
راحت عيناه تمسحان ستار الجبال..
لو أنه تسلق هذا الممر إلى المدخنة الثلجية الصاعدة.. ثم نفذ بين الأشجار صاعدا.. وبعد هذا؟
بعدها يصل إلى السفح ويبحث عن مخرج.. وبعدها؟
ربما يمكن للمرء أن ينفذ إلى أعلى الجليد الكهرمانى نحو قمة الجبال..

∞∞∞∞∞∞

نظر إلى القرية من جديد..
وتذكر (ميدينا ساروتى).. لكنها بدت له ضئيلة بعيدة.
استدار نحو الجبال.. وراح يتسلق..

∞∞∞∞∞

وحين غربت الشمس كان في مكان عال بعيد لقد تمزقت ثيابه وتلوثت أطرافه بالدم وملأت الكدمات جسده.. لكنه رقد مبتسما يرمق النجوم..

وكان سعيدا..

ومن بعيد لاح وادي العميان كجحر على بعد ميل منه، غارقا في الضباب والظلال.. وقد بدأ سكانه يوما جديدا من العمل..

وادي العميان الذي ظن أنه سيكون ملكا له..

(أبريل 1904)

∞∞∞∞∞



غزاة البحر..

-1-

ظل العلم يجهل كل شيء عن النوع المسمى (هابلوتوثس فيروكس) حتى وقعت تلك الأحداث المذهلة في (سيد ماوث).. كل ما كان لدى العلماء هو ممسّ مهضوم وجدوه قرب جزر (آزور)..، وجسد متحلل وجدوه قرب (لاندز إند) بوساطة السيد (جننجز) في عام 1896، ولا يخيم الظلام على أي مجال من مجالات علم الحيوان مثلما يخيم على (الرأسقدميات) التي تعيش في أعماق البحر.. وقد كانت مجرد مصادفة هي التي جعلت أمير (موناكو) يكتشف اثنى عشر نوعا جديدا منها في عام 1895 وهي المصادفة التي وجد فيها ذلك الممس الذي تحدثنا عنه..

ويبدو أن تلك المخلوقات العملاقة التي تعيش في أعماق البحر ستبقى أبدا لغزا بالنسبة لنا.. لأننا لا نجد العينات إلا في ظروف غير متوقعة..

فمثلا فيما يتعلق بال (هابلوتوثس فيروكس)؛ نحن نجهل موطنها.. تماما كما نجهل أماكن توالد أسماك الرنجة ومسارات هجرة (السلامون)..، ولا يستطيع علماء الحيوان أن يفسروا لنا سبب ظهورها المفاجئ على سواحلنا.. ربما كان ذلك بسبب الجوع الذي يدفعها لمغادرة الأعماق.. لكن الأصوب هو أن نتحاشى المناقشات غير المجدية وأن تبدأ في قصتنا فورا..

كان أول رجل يرى ال (هابلوتوثس) – بعبارة أخرى - أول رجل حي.. لأن المؤكد الآن أن وفيات الغرق وحوادث الزوارق التي اجتاحت خلجان (ليفربول) و (ديفون) في أول مايو كانت بسبب تلك الكائنات كان هذا الرجل تاجر شاى متقاعدا يدعى (فيزون).. وقد توقف في (سيدماوث) لفترة..

كان الوقت ظهرا وهو يمشي من (سيد ماوث) إلى خليج (لادرام)؛ حين أثار اهتمامه ما بدا له كحشد من الطيور تتقاتل

على شيء له لون أبيض متورد في ضوء الشمس..
كان هناك الكثير من النوارس تلتمع بشكل يخطف البصر في النور، وبدا له حجمها الصغير مقارنة بما تلتف حوله.. زاد هذا من فضوله إلى حدٍ كبير..
ولما لم يكن لديه شيء أفضل يسلى به نفسه؛ أزمع أن يرى كنه هذا الجسم بدلا من السير إلى (لادرام)..
وقرر أن هذا بالتأكيد سمكة كبيرة الحجم رماها الموج، وهي الآن تقاوم الهلاك.. من ثم راح يهبط المنحدر ذا الدرجات وهو يتوقف من آن لآخر ليأخذ شهيقا عميقا حين وصل إلى أسفل كان بالتأكيد أقرب إلى هذا الجسم مما كان.. لكن الشيء بدا له أكثر قتامة وعدم وضوح.. وما كان وردي اللون فيه توارى الأن وراء صخور غطتها الطحالب..
لكن الرجل أدرك أن الشيء مكون من سبعة أجزاء مستديرة.. وقد التحمت أو انفصلت، وأن الطيور تحدث ضوضاء مستمرة وصراخا لكنها تهاب الشىء وتأبي الدنوّ منه..
مزق الفضول مستر (فيزون).. وراح يشق دربه بين الصخور التي أبلاها البحر، وقد وجد أن الطحالب المتراكمة فوقها قد جعلتها زلقة إلى حد غير معقول..
توقف.. وانتزع حذاءه وجوربيه وثني سرواله إلى الركبتين.. وأحس بمتعة يعرفها كل إنسان.. متعة العودة إلى أيام الصبا.. على أي حال.. من المؤكد أنه يدين لهذا العمل بحياته..
وصل إلى مقصده مطمئنا إلى الأمان المطلق لهذا البلد من كل أنواع الحيوانات غير المرغوب فيها..
وتحرك الشيء مهتزا.. لكنه لم يبال به.. لم يبال حتى وصل إلى الصخور.. عندها فقط أدرك الطبيعة المهولة لهذا الكائن.. وجاءه هذا الإدراك بشكل مفاجئ.

ابتعدت الأجسام المستديرة عن بعضها.. وأدرك أن اللون الوردي هو جسم آدمى تم التهامه جزئيا.. وإن استحال عليه معرفة أجسم رجل أم امرأة، أما الأجسام المستديرة ذاتها فكانت غريبة الشكل تشبه الأخطبوط إلى حد ما.. لها ممسات عملاقة طويلة جدا ومرنة وقد التفت حول نفسها على الأرض..
الجلد براق كجلد مدبوغ لا يسر الناظرين.. بينما الممسات تحيط بالفم وقد أعطى هذا المشهد مع العينين الذكيتين الكائن كله إيحاء غريبا بوجه آدمى..
وأدرك الرجل أن هناك سبعة أو ثمانية من هذه المخلوقات.. وعلى بعد عشرين ياردة ووسط مياه المد التي تعلو تدريجيا كان هناك اثنان آخران يخرجان من الماء..
تمددت الأجساد على الصخور، ترمقه عيونها في اهتمام شرير لكن لا يبدو أن الخوف قد انتساب مستر (فيزون).. ولا يبدو أنه أدرك الخطر المحيق به.. لكنه - بالتأكيد - اشمأز وشعر بالتوتر من تلك المخلوقات العجيبة التي تتغذى على اللحم الآدمي..
فكر في أنها قد ظفرت بجسم غريق.. فصاح فيها محاولا إرغامها على العودة للماء..، ولما وجد أنها لم تبال به التقط صخرة كبيرة ورماها على واحد منها وهنا - وهي تحرر ممساتها - بدأت المخلوقات تتحرك نحوه.. وهي تزحف في تصميم واضح وتصدر صوتا ناعما من بين صفوفها..
هنا فقط أدرك مستر (فيزون) أنه في خطر..
صرخ من جديد ورمى حذاءه.. ثم راح يركض..
وعلى بعد عشرين ياردة توقف واستدار ليرى سرعتها وقدر أنها بطيئة الحركة.. لكنه وجد ممسات أولها تتلمس الصخرة التي كان يقف عليها منذ ثانية!

هذه المرة صرخ صرخة ثالثة وراح يثب.. يتعثر.. ينزلق محاولا الوصول إلى الشاطئ.. ولم يدر من قبل كم كانت المسافة كبيرة.. وهنا رأي عاملين عاكفين على إصلاح سلم على الشط غير مرتابين في الشيء الرهيب الذي يجري بهما، وكأنهما من عالم آخر المخلوقات تتحرك في الماء خلفه على بعد خطوات تعثر.. كاد يقع في الماء.. طاردته حتى الشاطئ.. ولم تتركه إلى أن بلغ العاملين..
فراح الرجال الثلاثة يقذفونها بالحجارة ثم ركضوا إلى (سيد ماوث) بحثا عن العون وعن قارب.. حتى يستنقذوا الجسد الممزق من تلكم المخلوقات الشرهة..

∞∞∞∞∞

-2-

وكأنما لم يلق ما يكفيه من المخاطر؛ استقل مستر (فيزون) القارب ليحدد لمن معه الموضع الذي وقعت فيه مغامرته..
كان المدّ قد ولى، واحتاج الأمر دورانا لا بأس به بالقارب ليصلوا إلى البقعة.. لكن الجسد كان قد اختفى.
كانت الرؤية عسيرة تحت مستوى القارب.. فيما عدا غابة من (اللاميناريا) وسمكة هنا أو هناك.. شعروا بخيبة أمل.. فهم قد أعدوا أنفسهم للمغامرة.
وهنا رأوا واحدا من المخلوقات يسبح متجها للبحر وهو يتحرك حركة لولبية عجيبة ذكرت مستر (فيزون) بدوران بالون حول نفسه وهو مربوط بخيط..
تحرك الماء.. واجتاحت دوامة غابة (اللاميناريا) اللحظة.. استطاع بعدها القوم أن يروا اثنين من هذه المخلوقات، وهما يتقاتلان حول ما يبدو أنه جزء من جسد الغريق..
وسرعان ما عادت خيوط (اللاميناريا) الخضراء تغطى ذلك المشهد.. راح الرجال الذين تهيجت مشاعرهم - يضربون الماء بالمجاديف ويصرخون..
وعلى الفور رأوا حركة صاخبة بين الطحالب.. وعندها بدا لهم قاع الماء كله زاخرا بالعيون!..
- يا للبشاعة! - صاح أحد الرجال - إن هناك عشرات منها!
وبدأت الأشياء ترتفع من الماء نحوهم وفيما بعد وصف مستر (فيزون) لكاتب هذه السطور ذلك المشهد.. لقد بدا له كأنما استغرق وقتا لا بأس به لكن من الواضح أنه لم يستغرق سوى ثوان معدودة..

في البدء لم يروا سوى أعين.. ثم رأي الممسات تخرج من كل صوب باحثة هنا وهناك.. ثم إن هذه الأشياء راحت تتضخم حتى غطت القاع كله.. ورأوا الممسات تخرج فوق سطح الماء... في جسارة تحسس واحد منها جانب القارب.. كان مليئا بالممصات والتف حول الدفة كأنما ليغرق القارب أو يصعد إليه..
أمسك مستر (فيزون) بخطاف.. وهرع نحو الممس وضربه بعنف؛ ليرغمه على الانسحاب، وهنا تلقى ضربة عنيفة على ظهره كان مصدرها صاحب القارب، الذي أمسك بالمجداف، وراح يصدّ هجمة مماثلة على الجانب الآخر..
وسرعان ما عادت الممسات إلى الماء...
قال مستر (فيزون) وهو يرتجف:
- من الخير لنا أن نغادر المكان..
بدأ الرجال يجدفون على حين وقف واحد منهم عند المقدمة ممسكا بحربة، مستعدا لضرب أية ممسات جديدة تظهر..
المزاج متعكر صامت.. والوجوه شاحبة.. كانوا يحاولون الفرار من المكان الذي هوجموا فيه بشراسة لكن المجاديف لم تكد تلمس الماء؛ حتى التفت حولها حبال أفعوانية مدببة.. التفت حولها وحول الدفة وزحفت إلى سطح القارب بحركة لولبية بطيئة..
كان التجديف شبه مستحيل صرخ من كان يجدف:
- الغوث ها هنا!
فهرع (فيزون) ورجل آخر؛ ليعيناه على التمسك بالمجداف.. أطلق الرجل ذو الحربة - واسمه (إيوان) - سية وراح يضرب إلى جانب القارب.. حشد الممسات الذي ظهر له في نفس اللحظة حاول الرجلان الآخران استعادة مجدافيهما..

فتح صاحب القارب مطواته، وانحنى على جانب القارب، وراح يمزق الأذرع الملتفة حول المجدافين..
وألقى مستر (فيزون) نظرة إلى البحر وهو يرتجف وأسنانه تصطك من اهتزاز القارب..
عندها رأي على بعد خمسين ياردة قاربا فوق أمواج المدّ.. قاربا به ثلاث نساء وطفل.. وكان هناك نوتى يجدف.. ورجل ذو قبعة من القش وقف على ظهر القارب يحييهم..
في البدء فكر (فيزون) في أن هذا معناه الغوث..
ثم تذكر معني وجود طفل..
ترك المجداف ولوح بذراعيه بإشارة مجنونة، وتوسل إلى المجموعة أن يرحلوا - بحق السماء!.
ومن الجميل هنا أن نلاحظ تواضع مستر (فيزون) الذي لم ير بطولة في هذا العمل.. لكنه كان عملا بطوليا حقا؛ لأن المجداف قد غاص تحت الماء وعاد يطفو على بعد عشرين ياردة..
هنا شعر بالقارب يهتز من تحته.. وسمع صرخة رعب مخيفة من (هيل) - صاحب القارب - مما جعله ينسى القادمين..
استدار ليرى (هيل) وقد تقلص وجهه ألما ورعبا وذراعه اليمني قد تدلت على جانب القارب بينما شيء ما يجذبها بقوة..
- أوه.. أوه! أوه..
من العسير أن نعرف ما حدث بالضبط..
كل ما نعرفه هو أن القارب قد مال بشدة.. وأن (إيوان) والآخرين راحوا يضربون الماء بالمجداف والحربة على جانبي ذراع الرجل..
كان (هيل) قوي البنيان.. وبذل جهدا جهيدا حتى هبّ واقفا.. وبالفعل أخرج ذراعه من الماء.. وكانت الذراع ملفوفة بخيوط بنية معقدة.. وظهرت فوق سطح البحر عين لامعة لأحد الوحوش التي هاجمته.. ظهرت الآن يميل القارب أكثر ويتدفق

الماء بغزارة إليه عندها انزلق (هيل) ليسقط من جانب القارب إلى الماء.. اصطدم حذاؤه بركبة (فيزون) حين حاول هذا أن يمسكه.. وفي الثانية التالية أحاطت به الممسات..
قاومها مقاومة متشنجة قصيرة ثم غاص إلى الماء..
واعتدل القارب من جديد..
وقف (فيزون) يتأرجح ليسترد توازنه وقد أدرك أن المعركة قد قربت القارب من الصخور المغطاة بالطحالب خلال ثانية كان قد انتزع المجداف من (إيوان) وضربه في أرض القارب ووثب..
فشعر بقدميه تنزلقان فوق الصخور الزلقة.. تعثر.. وقف على قدميه.. تعثر ثانية..
- خذ الحذر!
دوي صوت أحدهم.. واصطدم به جسم عملاق فسقط (فيزون) أرضا وهو يسمع صرخات مختنقة متحشرجة حسب مصدرها (هيل)...
وثب فوقه شخص ما.. واندفع دفق من الماء الرغوي فوقه..
نهض على قدميه ولم ينظر للماء..
ركض بأسرع ما جعله ذعره يركض.. ورأى رجلين يركضان أمامه مبتعدين..
نظر وراءه إلى الماء.. كان مذهولا من سرعة الأحداث منذ برزت لهم تلك الرأسقدميات من الماء..
كان يتصرف بأسرع مما يستطيع فهم تصرفاته..
والآن فقط يشعر أنه صحا فجأة من كابوس شيطانى..
السماء بلا غيوم تلتمع بشمس الظهيرة.. والبحر يئن تحت ضيائها غير الشفيق
كل ما حدث قد ولى كأنما لم يحدث قط..
نظر إلى الوراء.. فرأى قاربين مقلوبين في عرض البحر..

∞∞∞∞∞

-3-

كانت هذه هي (هابلوتوثس فيروكس) تعلن عن وجودها على ساحل (ديفون شاير)..
وحتى هذه اللحظة تعتبر هذه أخطر اعتداءاتها إن قصة مستر (فيزون)، مع حوادث الاختفاء المتكررة، وهروب السمك من هذا الساحل في ذلك العام.. كل هذا يشير إلى أن وحوش القاع هذه كانت تمرح تحت خط الماء في هذا الساحل..
أعرف أن هناك من يرجحون هجرة الجوع كقوة دفعت تلكم الوحوش إلى المجيء؛ لكن - من ناحيتي أفضل تلك النظرية البديلة التي اقترحها (همزلى).
يرى (همزلى) أن مجموعة من هذه المخلوقات تزودت باللحم البشري بعد غرق قارب بينها.. ودفعها هذا لمغادرة موطنها المعتاد.. حتى وصلت إلى شواطئنا..
يبدو لي أن شهية هذه الوحوش قد أشبعها التهام أحد عشر إنسانا، لأن القارب الآخر كان يحمل عشرة أشخاص.. ولا يوجد دليل على وجود المخلوقات في مكان آخر من (سيد ماوث) يومها..
وعندما انتصف الليل دوت صفارة مذعورة من قارب في وسط البحر على بعد ميلين جنوبى غرب (سيد ماوث)، ورأى البعض فانوسا يرتفع ويهبط بطريقة غريبة..
هرعت القوارب الدانية نحو مصدر الاستغاثة، واتضح أن راكبي القارب قد رأوا حقا تلك المخلوقات تمر تحت قاربهم..
يبدو أن هذه الكائنات - كأكثر كائنات الأعماق – كان لها وهج فوسفوري وقد بدا منظرها مرعبا في سواد الماء.. وكانت

ممساتها مطوية كأنما هي نائمة بينما تتحرك ببطء نحو الجنوب..
لكن القوارب التي جاءت لم ترغب في مطاردة هذه الكائنات..
نحن لا نعلم اتجاه هذا السرب برغم كون الساحل الجنوبي الغربي يعلم كله بوجوده بعد هذا بأسبوعين وثلاثة أيام ظهر (هابلوتوثس) على رمال (كاليه).. وكان حيا لأن شهودا عديدين رأوا ممساته تتحرك.. وقد قام سيد يدعى (بوشيه) بإطلاق الرصاص عليه..
وكان هذا آخر ظهور ل (هابلوتوثس) حي.. إلا أنه في اليوم الأخير من (يونيو) كان المستر (إجبرت كين) - رسام - يستحم قرب (نيولين).. وفجأة صرخ ولوح بذراعيه ثم جُذب إلى الأعماق..
ولم يحاول صديق يستحم بقربه أن ينقذه، بل سبح إلى الشاطئ فورا..
وهذه هي آخر حقيقة تقال عن غزاة البحر هؤلاء..
ومن سبق الأحداث أن نقول: إن هذا هو الهجوم الأخير لتلك المخلوقات الشنيعة.. لكننا نعتقد. وبالطبع نأمل - أنها قد عادت لأعماق البحر.. إلى الأعماق المظلمة التي غادرتها دون سبب واضح..

(ديسمبر 1896)

∞∞∞∞∞



القلنسوة الأرجوانية..

كان مستر (كومبس) يشعر بالسأم من الحياة لقد غادر داره التعسة شاعرا بالسأم لا من وجوده هو فحسب؛ بل من وجود كل إنسان سواه..

وعبر ممر (جازويرك) مشي ليتفادى المدينة، واجتاز الجسر الخشبي؛ ليصل إلى أشجار الصنوبر، بعيدا عن رؤية وسماع أي وجود إنساني.. وراح يردد دون كلل أنه لن يتحمل المزيد...
كان رجلا شاحبا له عينان سوداوان وشارب دقيق كث، وله ياقة مرتفعة قليلا مما يعطيه ايحاء بازدواج الذقن..، ومعطفه - برغم كونه رثا – مطعم بالإستراكان..
وكما قالت له زوجته في الأيام الخالية السعيدة قبل زواجهما - كان مظهره له صبغة عسكرية ما وكما تقول له زوجته الآن - ويا له من شيء مخيف أن تقوله زوجة لزوجها - فهو يبدو كدودة صغيرة..
ولم يكن هذا أسوأ تشبيه أطلقته عليه...
كانت هناك من تدعي (جيني).. وهي صديقة زوجته، ومن دون دعوة كانت تأتي للعشاء في كل أحد مبارك.. كانت امرأة صاخبة تهوى الألوان الفاقعة والضحك المبتذل.. وقد فاقت كل سخافاتها السابقة هذا الأحد حين أحضرت معها شابا مزخرفا مثلها للعشاء في دار مستر (كومبس)..
وجلس مستر (كومبس) في بلاهة يرمق زوجته تثرثر بالسخافات مع ضيفيها وتضحك بصوت عال..
حسن.. على كل حال لقد تحمل هذا.. وبعد العشاء لابد أن تنهض مس (جينى) إلى البيانو لتعزف صخبا لا ينتهي.. إن الدم واللحم لم يخلقا لاحتمال كل هذا..
سيسمع كل الشارع هذا الصخب.. ولسوف تتدهور سمعته..
عندها أراد أن يتكلم شعر بأنه يشحب ولاقى عسرا في التنفس..
كان جالسا على مقعد جوار النافذة، وقد انتخب الضيف لنفسه (الشيزلونج) المريح حين أدار (كومبس) وجهه وصاح كأنما يوجه إنذارا:

- إنه الأحد!
ثم عاد يكررها:
- الأحد!..
استمرت (جينى) تعزف.. أما زوجته فسألته وهي تتصفح بعض الكراسات الموسيقية فوق البيانو:
- وما في ذلك؟ ألا يستطيع القوم أن يسروا عن أنفسهم؟
- لا أمانع في التسلية العاقلة.. لكني لا أسمح بهذا الصخب في داري في يوم أحد..
توقفت (جيني) واستدارت بجسدها فوق مقعد البيانو:
- وما العيب في عزفي؟
انفتح (كومبس) بعنف كما يحدث مع كل الرجال العصبيين الذين لا خطر منهم:
- اعتدلى على هذا المقعد.. فهو لا يحتمل الأثقال..
- لا تلق بالا للأثقال.. ماذا كنت تقول عن عزفى من ورائى؟
ابتسم الضيف في شفقة، ونفث سحابة من دخان السيجار..
وقالت الزوجة لصاحبتها شيئا من قبيل - لا تهتمي به.. وواصلي العزف يا (جينى)..
- سأفعل!
وصاحت الزوجة:
- لم أر رجلا على شاكلتك قط.. لقد تبدلت تماما منذ تزوجنا.. وقبلها كنت...
وهنا بدأت (جينى) تواصل قرع المفاتيح.. تام!.. تام!..
هنا صعد الدم إلى رأس مستر (كومبس) فهب واقفا ورفع صوته:
- اصغي لي! لا أريد هذه الضوضاء ها هنا.. واهتز معطفه معلنا عن الكبرياء..
قال الرجل وهو ينفث دخان السيجار:

- لا داعي للاحتداد..
- ومن أنت بحق الجحيم؟
هنا بدأ الجميع يتكلمون في الوقت ذاته..
قال الضيف: إنه مكلف بحماية (جيني) وذلك لأن أمرها يهمه..
وقال مستر (كومبس) إن هذا من حقه..
في كل مكان عدا داره هو (دار مستر (كومبس).. وقالت مسز (كومبس) لزوجها: إنه يجب أن يخجل من إهانة ضيوفه وأنه - كما قلت آنفا - قد تحول إلى دودة صغيرة.
ووصل الأمر ذروته حين طلب (كومبس) من ضيفيه مغادرة الدار.. لكنهما رفضا.. من ثم أعلن أنه سيغادر الدار بنفسه..
واتجه للمدخل ليأخذ قبعته، ووجهه يحترق بالنار، ودموع الانفعال في عينيه.. عندها واصلت (جينى) العزف على البيانو..
تام تام تام...
حتى حين جذب الباب بعنف وراءه فاهتز البيت كله..
كان هذا - باختصار - هو سبب تعكر مزاجه.. لهذا يمكننا الآن أن نفهم سر سخطه على الوجود كله..

∞∞∞∞∞∞

كان هذا هو آخر شهر (أكتوبر)..
وكانت الطحالب تملأ الخنادق والحفر وتكسو نباتات الشرين..
حينما راح يتذكر قصة زواجه.. كانت مختصرة وعادية..
الأن يعرف أن زوجته تزوجته لمجرد الفضول.. وللفرار من حياتها السقيمة المملة كعاملة.. وكأكثر طبقتها لم تدرك - بغباء - أن واجبها هو معاونته في عمله..

كانت نهمة إلى المتعة وإلى حياة المجتمعات، وقد أحبطها أن تجد أن قيود الفقر مازالت تحاصرها.. كلما حاول (كومبس) أن يهدئ انفعالاتها ازدادت سخطا..
لماذا لا تكون لطيفا؟
وكان مستر (كومبس) رجلا وديعا مسالما اعتاد أن يعين نفسه وأن ينكرها.. حتى وصل إلى (الاكتفاء الذاتي)..
عندها جاءت (جيني) مثلما جاء (مفستوفوليس) الشيطان إلى د. (فاوست) ليجعله يبيع روحه وراحت تقنع زوجته بارتياد المسارح و (ما إلى ذلك).
أضف إلى هذا خالات زوجته وأخوالها الذين دأبوا على زيارتهما ليلتهموا رأس ما لهم ويهينوه ويضايقوا العملاء.. وعامة ليسودوا حياته..
لم تكن هذه أول مرة يغادر فيها داره في غضب، يقسم بصوت عال إنه لن يقبل المزيد.. لكنه لم يكن من قبل قد وصل إلى هذه الدرجة من مقت الحياة..
ربما ساعدت السماء الرمادية على ذلك.. وربما إدراكه أنه قد وصل إلى الحضيض في حياته كرجل أعمال، فلم يبق أمامه سوى الإفلاس.. وبعدها الندم على تلك الزيجة..
إن موقفه لمحزن.. ورأس ماله كله مربوط بتجارته..
ومعنى أن ينفصل عن زوجته هو الانضمام إلى جيوش المتعطلين في مكان ما من الأرض...
إن ترف الطلاق بعيد عنه.. وتعريف الزواج بأنه الحياة معا في السراء والضراء يناسبه للغاية..
إن البنائين حين يغضبون على زوجاتهم يركلونهن حتى الموت.. والنبلاء يخونون زوجاتهم.. أما بين الموظفين محدودي الدخل وأصحاب المحلات فتتفشى عادة الذبح.. ويمكنك أن تثق

بكلامي حين أقول: إن عقل مستر (كومبس) راح يفكر في وضع نهاية مناسبة لإحباطاته.. فراح يفكر في حد الموسى والمسدسات وسكاكين الخبز.. وراح يكتب في ذهنه خطابات مؤثرة يذكر فيها أسماء أعدائه ويطلب المغفرة لروحه
بعد قليل أفسحت شراسته المكان للأحزان..
لقد تزوج بنفس المعطف الذي يرتديه الآن.. كانا يمشيان فوق ذات الدرب، وكان يكافح ليجمع رأس مال كافيا، والبريق اليانع الأيام الزواج الأولى.. ثم انتهى كل شيء هكذا!..
بدا يفكر في الموت كحل أخير جذري..
فكر في القناة التي عبرها.. لم لا يغوص فيها للأبد؟
وبينما هو ينفذ ما انتواه رأى القلنسوة الأرجوانية توقف لحظة وتأملها.. ثم انحنى كي يلتقطها وقد حسبها حافظة جلدية مزخرفة.. وهنا أدرك أنها قمة فطر.. فطر أرجواني من النوع السام.. براق له رائحة حادة. كانت الرائحة قوية حادة لكنها غير منفرة.. كسر قطعة من القشرة فوجد مادة بيضاء كريمية تغيرت خلال عشر ثوان - كأنما هو سحر - إلى لون أصفر مخضرّ.
كسر جزأين آخرين ليرقب هذه الظاهرة.. أشياء رائعة تلك الفطريات - خطر له - ولكنها سامة مميتة..
هكذا قال أبوه مرارا.. سامة مميتة!..
إن الوقت مناسب للحماقات.. لم لا يكون هذا الآن وهنا؟
تذوق قطعة صغيرة جدا من الفطر.. كان حاد المذاق إلى حد أنه كاد يبصقه ثم بدا له حارا متبلا كالمسطردة الألمانية.. ابتلعه كاملا.. ترى هل أحب مذاقه أم لا؟
لم يبال بهذا ونسى كل متاعبه في نشوة الحاضر.. إنه يلعب مع الموت الآن.. قضمة أخرى..

ثمة شعور غريب بالتنميل على طرف لسانه وأطراف أنامله.. ونبضه يتسارع ويصفر في أذنيه..
- فلأجرب قطعة أخرى!
لم تعد قدماه ثابتتين.. لكنه ترنح حتى وصل لقلنسوة أرجوانية أخرى:..
- ش.. شيء.. ل.. لذي.. لذيذ!
وانكفأ على وجهه..
بعدها نسى كل شيء..
نهض شاعرا بالحيرة.. ووضع يده على حاجبه..
لقد حدث شيء ما لكنه لا يذكر كنهه.. لكنه الآن يشعر بالذكاء.. بالحيوية.. وضحك من أعماق قلبه.. هل كان خمولا فيما سبق؟ لا يدري.. لكنه لن يظل كذلك..
إن الضباب يملأ ذاكرته لكنه يذكر شيئا عن مشاجرة في الدار.. لم لا يعود لهم ويجلب معه بعض هذا الفطر الجميل؟ سيملأ قبعته به...
سيقلب كمى معطفه إلى الخارج - على سبيل المرح - ويلصق بعض الزهر الأصفر على جيوب معطفه..
ويعود للدار مغنيا..

∞∞∞∞∞

بعد ما فارق الدار غاضبا؛ توقفت (جيني) عن العزف واستدارت بمقعد البيانو هاتفة:
- يا لها من ضوضاء من أجل لا شيء!
قالت مسز (كومبس):
- هأنذا ترى ما على أن أعانيه يا مستر (كلارنس)..

قال مستر (كلارنس) في حكمة:
- إنه رجل مندفع قليلا..
- إنه لا يدرك مركزنا الاجتماعي.. هذا هو ما أشكو منه.. لا يبالي بشيء سوى متجره العتيق، فإذا حاولت شراء شيء يجعل مظهرنا محترما كان الشجار حتميا.. ويصرخ بأشياء من قبيل (الاقتصاد)..
(الكفاح) من أجل العيش).. إنه يسهر الليالي مؤرقا يفكر في كيفية حرماني من شلن.. بل لقد حاول مرة إقناعي بأكل زبدة (دورسيه).. ولو أنني استسلمت لمطالبه.. عندئذ..
قال مستر (كلارنس) مسترخيا على الشيزلونج:
- لو أن المرء يعرف قيمة المرأة فعليه أن يضحي من أجلها.. عن نفسي لا يمكن أن أفكر في الزواج، حتى في وضع يسمح لى بأن أتزوج بشكل لائق..
قالت (جينى):
- لا أوافق على ذلك.. فلم لا يطلب المرء عون زوجته طالما هو لا يعاملها بشكل حقير؟
قالت الزوجة:
- لن تصدقاني.. لكني كنت حمقاء حين وافقت عليه.. ولولا معونة أبي ما كنا وجدنا عربة تقلنا بعد الزفاف....
صاح (كلارنس) مصدوما:
- رباه!.. ألم يدبر هذا لك؟
- قال: إنه يحتاج المال للبضاعة - شيء من هذا الهراء - وبعد هذا يأتيني حاملا أوراقا وأرقاما يولول من كثرة المصاريف.. لو لم نقتصد هذا العام فلسوف يصيبنا الخراب.. فأقول له: لِم لَم تتزوج جارية – إذا أردت واحدة - بدلا من بنت ناس مثلي؟

دعونا لا نواصل هذه المحادثة العقيمة.. يكفي أن نقول: إنهم كانوا راضين عن رحيل مستر (كومبس)، وجلسوا جوار النار فترة لا بأس بها حتى جلبت مسز (كومبس) أدوات الشاي..
وهنا سمعوا ما يدل على عودة مستر (كومبس)..
صوت انغلاق الباب..
قالت الزوجة:
- هو ذا سيدي قد عاد.. غادر الدار كأسد وعاد كحمل..
هنا انفتح الباب وبرز مستر (كومبس) لكنه لم يكن هو.. لقد مزق الياقة العالية بإهمال عن عنقه وقبعته ملأى بالفطر، وزهور صفراء تحيط بخاصرة.. أما عن وجهه فكان شاحبا.. عيناه واسعتان تلتمعان.. وشفتاه قد تراجعتا كاشفتين عن أسنان مزمجرة..
- تسلية عاقلة!.. مرح... رقص!..
قالها ومشى ثلاث خطوات مترنحة راقصة.. ثم انحنى..
صرخت مسز (كومبس):
.. على حين فتح (كلارنس) فاه في غباء قالت (جينى) بصوت واهن: - إنه ثمل..!
لكنها لم تر قط رجلا بهذا الشحوب.. ولا هاتين العينين المتسعتين..
مد مستر (كومبس) يده بحفنة من الفطر.. وصاح في (كلارنس).
. - صنف حلو!.. مد يدك!
وهنا بدأ يثور.. وصرخ بصوت لم تسمعه زوجته من قبل:
- هذا بيتي.. وأنا السيد هنا.. كل ما أعطيه لك!
هنا أعلن (كلارنس) عن جبنه.. لم يتحمل النظرة المجنونة في عيني (كومبس).. فنهض من مقعده وتراجع..

عندها وثب (كومبس) إليه.. وجدت (جيني) أن هذه فرصتها.. فأطلقت صرخة وهرعت للباب.. لحق الزوج بها.. وحاول (كلارنس) التدخل لكن عربة الشاي تهشمت إذ أمسك به (كومبس) من ياقته وحاول أن يدس الفطر في فمه..
اختبأت (جيني) في المتجر الذي كان ملحقا بالبيت.. أما (كلارنس) ففر إلى المطبخ.. واندفعت الزوجة خارج الغرفة وأغلقت الباب وراءها لكن المفتاح كان بالداخل.. من ثم هرعت إلى الطابق العلوي وأغلقت غرفة النوم وراءها..
خرج الزوج (المرح) من الغرفة.. وتحير بين ثلاثة اتجاهات مختلفة ثم أزمع الهجوم على المطبخ، حيث كان (كلارنس) يحاول جاهدا غلق الباب.. ثم تخلى عن محاولته وحاول الفرار من الباب الخلفي لكنه وقع في الشرك قبلها..
ولما كانت هناك سكاكين وسواطير لحم حولهما؛ فقد رأي (كلارنس) أن يتظاهر بالمرح ليتفادى أية أحداث مأساوية.. ولا شك هنا أن مستر (كومبس) تلاعب بمستر (كلارنس) حتى النهاية.. لقد بدا الرجلان في قمة الألفة والمرح كما لو كانا صديقين منذ أعوام..
وأصر (كومبس) أن يتذوق ضيفه الفطر..، ويبدو لي أن (كلارنس) قد تم جره تحت الحوض، وتم حكّ وجهه بفرشاة تنظيف الفرن.. لكنه ظل مصرا على أن يكون مرحا.. وعلى كل حال - بشكل ما به وجد نفسه في معطفه وقد طرد من الباب الخلفي.. ممزق الثياب مبعثرا..
وهنا بدأ مستر (كومبس) يفكر في (جينى)..
لقد وجدت نفسها عاجزة عن فتح باب المتجر الأمامي.. لكن الباب الخلفي ظل موصدا.. من ثم قضت باقي الليلة حبيسة المتجر.

يبدو لي هنا أن مستر (كومبس) عاد إلى المطبخ باحثا عن المرح.. حيث شرب خمس زجاجات من الشراب المقوي الذي كانت زوجته تحتفظ به لصحتها..
أحدث جلبة مريعة وهو يهشم أعناق الزجاجات بأطباق (جهاز) زوجته، وغني أغاني مرحة شتى.. وجرح إصبعه مرة - وهو الدم الوحيد الذي سال في قصتنا هذه - وعلى كل حال يمكننا أن نسدل الستار على أحداث هذا الأحد الدامي.. فقد انتهت في القبو بنعاس طويل عميق..

∞∞∞∞∞∞

بعد خمس سنوات.. هو ذا مساء الأحد في (أكتوبر) من جديد.. ومستر (كومبس) يمشي بين أشجار الصنوبر..
لم يزل هو ذات الرجل الذي عرفناه.. لكن ذقنه المزدوجة قد تلاشت.. ومعطفه جديد محلى بالمخمل قبعته لامعة وقفازاه جديدان.. ويمكن لملاحظ عابر أن يرى انتصاب هامته كرجل يثق بنفسه جيدا.
الآن هو سيد له ثلاثة معاونين.. وجواره يمشي شبيه له هو أخوه (توم) الذي عاد من (أستراليا)..
وكان يقول ل (كومبس):
- عمل طيب أيا (جيم).. وسط هذه المنافسة أنت محظوظ كى تحسن تولى أمورك.. ومحظوظ أن تجد زوجة تعينك مثلما تفعل زوجتك..!
قال (كومبس):
- بيني وبينك لم يكن الأمر هكذا دائما..
- بحق السماء!

- نعم.. لن تصدق هذا.. لكنها كانت مبذرة مشاكسة.. وكنت أنا مسالما محبا فظننت أنها تملك كل شيء.. أؤكد لك يا (توم).. لم تكن الدار داري..
- لم أحسب هذا..
- كان كذلك.. لكني قلت لها: أنا لست دوقا لأحتفظ بزوجة كأنها حيوان أليف.. لقد تزوجتك لتساعديني في كفاحي.. لكنها لم تصغ.. قلت لها: أنا رجل وديع حتى أثار.. لكنها لم تصغ لتحذيراتي..
- وعندئذ؟
- كذا النسوة دائما.. لم تحسبني قادرا على الثورة.. إن النسوة مثلها - وليكن هذا بيننا يا (توم)..
- لا يحترمن الرجل ما لم يخفنه قليلا.. لهذا عزمت على أن أريها.. كنت هناك من تدعي (جينى) مع صديقها.. تشاجرنا فانفجرت فيهم..
- أحقا؟
- طبقا.. كنت مجنونا.. ضربت هذا الشاب لأريها ما بوسعي عمله.. ضربته علقة ساخنة وكسرت أشياء.. أفزعتها حتى فرت إلى غرفة النوم..
- ثم؟
- في الصباح قلت لها: الآن ترين كيف أكون حين أُثار.. وبعدها عمت السعادة الدار.. لولا تلك الأمسية لكنت أتسول في الطرقات الآن، وعائلتها تتذمر من فقري. أنا أعرف أسلوبهم..
قال الأخ (توم) متأملا:
- النساء مخلوقات عجيبة..
- يحتجن يدا صارمة..
هنا هتف (توم) وهو يتأمل المشهد أمامه:

- ما أكثر الفطريات هنا!.. لا أفهم نفعها بتاتا..
قال مستر (كومبس):
- أعتقد أن الله خلقها الحكمة عالية..
وكان في هذا عرفانا بالجميل للقلنسوة الأرجوانية التي أصابت هذا الرجل الوديع بالجنون إلى درجة الفعل الإيجابي؛ ومن ثم تغيير مسار حياته بالكامل..

(رأس السنة - 1896)

∞∞∞∞∞

(تمت بحمد الله)

رحلة أخرى ممتعة مع أفضل ما كتب (هـ. ج. ويلز) من قصص خيالية.. الفرار من مطاردة العميان المحمومة بحثا عنك.. التخبط في وادي العناكب.. البحث عن لغز متجر الدمى العجيب.. ثم الانحدار إلى هاوية المحيط.. كل هذا وأكثر تجده بين دفتي هذا الكتيب.. لك.. ولك وحدك..!

أحمد خالد توفيق


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

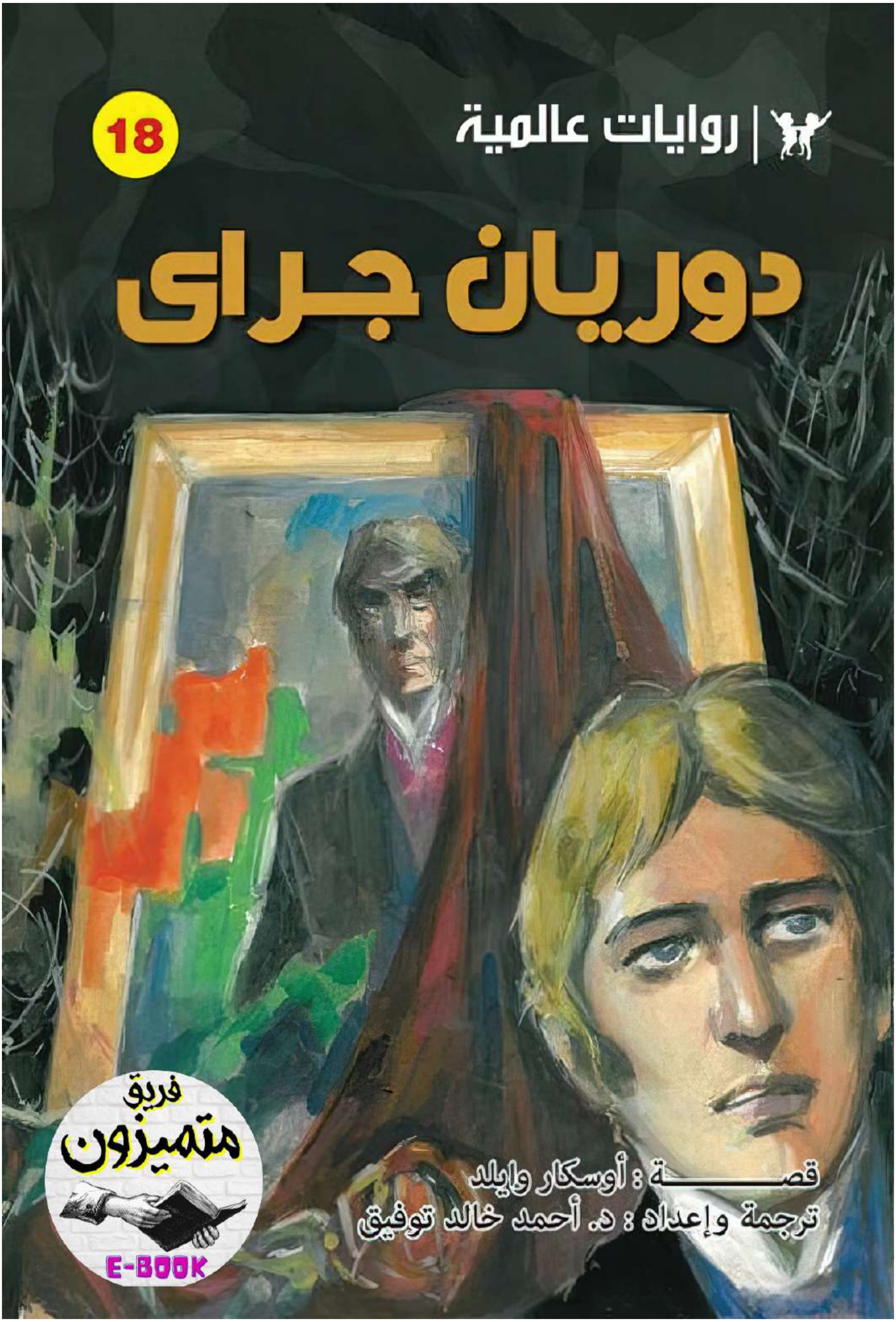
الفهرس:

[←1]

(*) نعم بلغة البحر..

[←2]

(*) مثل لفظة (جلا جلا) عندنا..


روايات عالمية
18
دوريان جراى
قصة : أوسكار وايلد
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق
فريق
متميزون
E-BOOK

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (18)

دوريان جراى

بقلم: أوسكار وايلد.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

المؤلف..

اليوم نحاول الابتعاد قليلا عن عالم المغامرة، والأحداث المثيرة الصاعقة، لندنو أكثر من عالم الأدب الرومانسي، والذي هو درجة أكثر نضجا في درجات تذوقنا للأدب العالمى..
أديب اليوم لا يمكن الكلام عنه إلا في كتاب كامل ولعله من أكثر كتاب العالم الذين صدرت عن حياتهم دراسات كاملة.. وحياته بحر لا ينتهي من الصخب والقيل والقال..
لكننا سنكون محددين مختصرين.. ألم يقل (ماكابيس) إنه «من الحمق أن تطيل في المقدمة.. وتأتي القصة ذاتها قصيرة»؟
ولد (أوسكار وايلد) في 16 أكتوبر عام 1854 في (دبلن).. الابن الثاني لسير (ويليام وايلد) طبيب وجراح عيون فائق الشهرة - وأم كانت تحارب من أجل حرية (إيرلندا) بقلمها..
وفي المدرسة - كعادة الأدباء - لم يبد (أوسكار) حماسا للألعاب الصبيانية.. كان يؤثر الوحدة وقراءة الأدب الإغريقي والشعر..
وكان لقراءاته هذه الفضل في أن يظفر - فيما بعد - بمنحة الجامعة (أوكسفورد)، وظفر هناك بشعبية لا بأس بها بسبب الماحيته وروحه المرحة.. وبدأت أشعاره تولد على صفحات المجلات الإيرلندية..
وحين تخرج في (أوكسفورد) كان قد نال شهرة بآرائه الثورية التي تصدم أذواق السواد الأعظم من الناس، وكانت ثيابه الزاهية منفرة الألوان تعكس هذا التحدي..
سافر إلى الولايات المتحدة ليلقي بضع محاضرات، ثم تزوج (كونستانسى لويد) وأنجب منها طفلين، واضطرته المسئوليات

إلى أن يعمل مراجعا في مجلة (بول مول) ثم صار محررا لمجلة (عالم المرأة)..
كان هذا الوقت - عام 1887 - هو الذي كتب فيه قصة (شبح كانترفيل).. وبعد هذا بعام أصدر مجموعة من القصص الخيالية تحت عنوان (الأمير السعيد وقصص أخرى).. تلا ذلك إصدار روايته الوحيدة (دوريان جراى) وهي القصة التي بين يديك الآن..، وقد قوبلت هذه القصة بهجوم عنيف في البداية، واستخدمها مهاجموه كدليل إثبات ضده في محاكمة (كوينز برى) الشهيرة..
وعلا نجم (وايلد) سريعا، وامتلأت الصحف بآرائه وأخباره.. وقدم مسرح (سانت جيمس) روايته (مروحة الليدي وندرمير) التي دشنت اسمه كأحد أهم كتاب المسرح الإنجليزي.. ولقد قدمت السينما المصرية.. ذات الرواية باسم (امرأتان) منذ عقدين من الزمان..
شهد العام 1895 ظهور أعماله (امرأة بلا أهمية) و (الزوج المثالي) وتحفته الخالدة (أهمية أن تكون جادا) و (سالومى)..
كان لهذه الشهرة دور في تبديل شخصية (وايلد - أليس بشرا؟ - كأنما تحقيق الطموحات قد حرر ميولا مرضية ما في تكوينه.. وسرعان ما بدأ تدهور الرجل إلى نهايته..
وتكفل أصحاب السوء بتسهيل طريق الرذيلة للرجل، حتى قدم للمحاكمة فيما يعرف بـ (محاكمة كوينز برى).. وحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة عامين..
وفي السجن كتب إلى صديقه (ألفرد دوجلاس) خطابا شهيرا جدا نشر فيما بعد باسم (من الأعماق) أو De profundis...
ويغادر (وايلد) السجن فيترك البلاد إلى فرنسا..، ويمضي الوقت دون كتابة أعمال مهمة أخرى، ثم يصيبه التهاب الأذن الوسطى

الذي يؤدي به إلى الحمى الشوكية في ديسمبر عام 1900، ويلفظ أنفاسه الأخيرة فيدفن في باريس.. في مقبرة (بيرلاشيز) في (مونمارتر)..
يقول (ماكس بيربوم): «كان الجمال موجودا منذ دهر قبل عام 1880، لكن (أوسكار وايلد) هو أول من رآه.»
ويقول (وايلد): «على الفنان أن يخلق أشياء جميلة.. لكن عليه ألا يضيف شيئا من حياته الخاصة إليها.»..
لكننا سندرك من الصفحات التالية شخصية هذا الأديب العظيم المفعمة بالشاعرية والحساسية والقلق..

د. أحمد خالد

∞∞∞∞∞∞

(1)

كان المرسم يعبق برائحة الورود.. وحين تتحرك ريح الصيف الهينة بين أشجار الحديقة؛ كانت روائح زهرة (الليلاك) تتسلل من الباب المفتوح، ومعها عبق نباتات أكثر رقة وشفافية...

وعلى المتكأ يجلس اللورد (هنري وتون) يدخن كدأبه ما لا حصر له من لفافات التبغ، يتأمل الزهور الرقيقة من وراء زجاج النافذة.. ويصغي لأزيز النحل الخافت وهو يفتش في إصرار رتيب حول الأعشاب في الحديقة، ومن بعيد تبدو ضوضاء (لندن) لمسمعيه كنغمة يرددها معزف بعيد..

وفي منتصف الغرفة - على حامل منتصب – صورة مرسومة بالحجم الطبيعي لشاب شديد الوسامة إلى حد غير عادي.. وأمامها جلس الرسام ذاته (باسيل هولورد) الذي آثار اختفاؤه المفاجئ منذ أعوام ضوضاء عامة.. وجلب شائعات كثيرة..

ابتسم الفنان في رضا وهو يتأمل عمله المتقن..

وفجأة أغمض عينيه.. ووضع أنامله على جفنيه كأنما ليسجن حلما غريبا في ذهنه يخشى أن يصحو..

قال لورد (هنرى):

- هذا خير عمل لك يا (باسيل).. أفضل ما قمت به.. يجب أن ترسله إلى (جروزفينور) في العام القادم.. إن الأكاديمية ها هنا غير مناسبة.. كلما ذهبت هناك وجدت إما أناسا كثيرين فلا أستطيع رؤية اللوحات. وهذا سيئ - أو أجد لوحات كثيرة فلا أستطيع رؤية الناس - وهذا أسوأ -.. إن (جروز فيتور) هي خير مكان..

هز الرسام رأسه بطريقة طالما أضحكت أصدقاءه منه.. وقال:

- لا أحسبني مرسلها إلى أي مكان..
رفع لورد (هنرى) حاجبيه وتأمله في دهشة عبر سحب الدخان..
- لن ترسلها؟ لم يا صديقي العزيز؟ يا لكم معشر الفنانين من غرباء الأطوار!.. إن لوحة كهذه سترفع ذكرك عاليا في إنجلترا.. ولسوف يغار منك الشيوخ لو كان الشيوخ أن يشعروا بشيء..
- اعلم أنك ستسخر.. لكني لا أستطيع عرضها، فقد وضعت كثيرا من ذاتي فيها...
كثيرا من ذاتك؟ لعمرى يا (باسيل) لم أدر أنك بهذا الحمق.. لا أجد أي تشابه بينك بوجهك القوي وشعرك الفاحم، وبين هذا الشاب الوسيم الذي صنع من العاج والزهور.. إن وجهك يحمل تعبيرا ذكيا يا (باسيل).. لكن الجمال الحقيقي ينتهي حيث تبدأ التعابير الذكية.. الذكاء يدمر توازن أي وجه.
وحين يجلس المرء ليفكر يتحول بأكمله إلى أنف أو جبين.. إن صديقك الجميل هذا الذي لا أعرف اسمه..
هو إنسان لا يفكر.. مخلوق جميل خاو من العقل أنا واثق من هذا.. لا تتملق نفسك يا (باسيل) فأنت لا تحوي أقل شبه به..
أجاب الرسام:
- أنت لا تفهمني.. أنا لا أشبهه البتة.. أعرف هذا.. إن (دوريان براى) هذا...
نهض لورد (هنرى) وتساءل:
- (دوريان جراى)؟ أهذا اسمه؟
- نعم.. لم أكن أبغي إخبارك به...
- لمه؟
- ربما لأنني أحب الغموض.. هذا هو ما يجعل الحياة المعاصرة شائقة.. وحين أسافر لا أخبر القوم عن وجهتي وإلا فقدت متعتي.. عادة سخيفة لكنها تثير الخيال.. أترى أنني أحمق؟

- بتاتا يا عزيزي (باسيل).. بتاتا.. يبدو أنك تنسى أنني متزوج... ومزية الزواج الساحرة هي أنها تجعل حياة الخداع ضرورية للزوجين!
قال (باسيل) ماشيا نحو الباب المفضي إلى الحديقة:
- إنني أمقت طريقتك في الحديث عن الزواج فأنت زوج طيب.. لكنك شخص غير عادي.. كل كلامك بذيء وكل أفعالك نقية طاهرة..
وخرج الرجلان إلى الحديقة وجلسا على مقعد طويل من البامبو تحت خميلة، وقد انساب ضوء الشمس من بين الأوراق..
أخرج اللورد ساعته وقال:
- أخشى أن يكون على الانصراف أي (باسيل).. لكن - قبل رحيلي - أرغب في أن تجيب عن سؤالي.. لماذا لا تريد عرض صورة (دوريان جراى)؟ أريد الإجابة الحقيقية..
- قلتها لك..
- كلا.. لم تفعل.. قلت: إن هناك الكثير من ذاتك وهذا تفسير طفولى..
نظر (باسيل) في عينيه وقال:
- إن كل لوحة رسمت بإحساس صادق هي صورة للرسام وليس للجالس أمامه.. ليس الجالس هو من تراه، بل الرسام الذي كشف روحه على القماش.. لقد أظهرت أدق أسرار روحي في هذه الصورة؛ لهذا أهاب عرضها على الملأ..
ابتسم لورد (هنري) والتقط زهرة أقحوان أرجوانية من الأعشاب، وراح يتأملها مصغيا.. وهو يتساءل عن بقية ما سيقول (باسيل)..
بعد هنيهة قال الرسام:

- (منذ شهرين ذهبت إلى حفل في دار السيدة (براندون).. أنت تعرف أن على الفنانين الفقراء أن يظهروا في المجتمعات من آن لآخر ليعرف الناس أنهم ليسوا متوحشين.. وبمعطف سهرة وربطة عنق بيضاء يمكن لأي جلف أن يبدو للناس متحضرا وقضيت عشر دقائق أثرثر مع رجال الأعمال والأكاديميين المملين.. ثم شعرت بأن هناك مسنّ يراقبني.. استدرت لأرى (دوريان براى) للمرة الأولى.. أدركت للمرة الأولى أن هذا الشخص بوجوده الساحر قادر على امتصاص وجودي وفنى ذاته.. أصابني الهلع.. وشعرت أن القدر يدارى لى مسرات عديدة وآلاما لا توصف.. واستدرت لأغادر القاعة يحدوني شعور هو نوع من الجبن..، وهنا اصطدمت بالسيدة (براندون).. فسألتني بصوتها الصارخ الرفيع (لا أظنك مفارقنا بهذه السرعة يا مستر (هولورد)؟ لم أستطع التملص منها.. وقدمتني إلى أمراء من الأسرة المالكة وأشخاص يرتدون ربطة الساق والأشرطة ونساء من العجائز المتصابيات.. قدمتني لهم باعتباري أعز أصدقائها وفي النهاية وجدتني أصافح (دوريان براى).. وتعارفنا..
سأله اللورد:
- وكيف وصفت لك السيدة (براندون) هذا الشاب؟ إنها تعامل ضيوفها كما يعامل سمسار المزادات بضاعته.. إنها تخبرك بكل تفاصيلهم فيما عدا الشيء الذي تود معرفته حقا..
- آه يا عزيزي.. أنت قاس عليها..
- لقد حاولت تلك المرأة أن يكون لها صالون أدبي.. لكنها نجحت في أن يكون لها مطعم فكيف أعجب بها؟ قل لي ما قالته عنه..
- قالت كلاما فارغا على غرار (فتي ساحر – المرحومة أمه وأنا كنا لا نفترق - لا أذكر عمله.. أعتقد أنه لا يعمل شيئا - أوه..

نعم.. إنه يعزف على البيانو أم تراه الكمان؟).. ولم أستطع أنا و (جراى) أن تمنع نفسينا من الضحك.. وصرنا صديقين على الفور..)
قال اللورد:
- ليس الضحك بداية سيئة للصداقة.. وما زال أفضل نهاية لها..
ثم سأله وهو يداعب لحيته البنية المدببة:
- هل ترى هذا ال (دوريان) كثيرا؟
- يوميا.. ولا أشعر بسعادة ما لم أره..
. غريب! حسبتك لا تبالي بشيء فيما عدا فتك..
قال الفنان بجدية:
- أحيانا يخطر لي أن هناك عنصرين شديدي الأهمية في تاريخ العالم.. الأول هو ظهور وسط مناسب الفنون.. والثاني هو ظهور شخصية مناسبة للفنون..
إن (دوريان براى) لوجه ملهم.. وأعتقد أن هذه الصورة هي خير ما رسمت في حياتي.. لكن لا أدري إذا كنت تفهمني شخصيته قد ألهمتني بأسلوب فريد في الرسم.. يمكنني أن أرسم الحياة بطريقة كانت خبيئة عني قبل اليوم.. إنه يقدم لي معالم مدرسة جديدة.. مدرسة تحوي كل عاطفة الرومانسيين وإتقان وكمال الروح الإغريقية.. تناغم الروح مع الجسد..
نحن فصلنا الاثنين عن بعضهما فتركنا روحًا خاوية وجسدا سوقيّا فظا..
- (باسيل)!.. إن هذا مذهل.. لابد من أن أرى (دوريان جراى)..
- لهذا تفهم سر إحجامي عن عرض الصورة نحن نعيش في عصر ينظر فيه الناس إلى الفنون نظرتهم إلى السير الذاتية.. لقد فقدنا حاسة تجريد الجمال..

- لن ألح عليك يا (باسيل).. الجهلاء فقط هم من يجادلون ويلحون.. قل لي.. هل (دوريان جراى) يميل إليك كصديق؟
تفكر الرسام هنيهة، ثم قال:
- يميل إلى.. أعرف هذا.. إننا نتحدث في آلاف المواضيع بينما نحن في المرسم.. لكني أجد فيه أحيانا خواءً عقليا مروعا.
أشعل اللورد عودا من الثقاب فسيجارة، وقد بدا عليه الرضا عن النفس.. من حسن الحظ أن الموعد قد فات.. فلن يذهب لدار عمته حيث يلقي لورد (هودبودى) ويدور الحديث حول إطعام الفقراء، وأهمية التوسع في بناء المساكن.. لحسن الحظ أنه قد فر من هذا.. وهنا تذكر شيئا فالتفت إلى صاحبه، وقال له:
- لقد تذكرت شيئا الآن يا صديقي..
- (تذكرت ماذا؟
- تذكرت أين سمعت اسم (دوريان جراى)..
- أين؟
سأله (هولورد) مقطب الجبين.. فقال اللورد:
- (كان هذا عند عمتي (أجاثا).. قالت لي: إنها تعرفت شابا لطيفا.. وأنه جاد مخلص.. تخيلت على الفور رجلا يرتدي العوينات وقد امتلأ وجهه بالنمش ولم أتصور لحظة أنه صاحبك..
- يسرني أنك لم تعرف..
- لماذا؟
- ولا أريد أن تقابله..
وهنا دخل الخادم إلى الحديقة ليعلن (مستر (دوريان جراى) في المرسم يا سيدي!
ضحك لورد (هنرى) وقال:
- الآن عليك أن تقدمني له..

نظر الرسام إلى صاحبه اللورد، وقال له بعد ما صرف كبير الخدم:

- إن (دوريان براى) أعز أصدقائي.. إن له طبيعة لطيفة بسيطة.. فلا تحاول التأثير عليه أو إبهاره بمنصبك..

- يالك من سخيف!

قالها اللورد باسما، واقتاد (هولورد) من ذارعه عائدين إلى المنزل..

∞∞∞∞∞

(2)

دخلا القاعة فرأيا (دوريان جراى) جالسا إلى البيانو وظهره لهما، وهو يقلب صفحات مجلد من مؤلفات (شومان) هو (مشاهد الغابة)..

صاح في حماس:

- يجب أن تقرضني هذه يا (باسيل).. أريد تعلمها إنها فاتنة..

- هذا يتوقف على جلوسك للرسم يا (دوريان)..)

دار الشاب بمقعده ليواجههما قائلا:

- أوه.. قد سئمت الجلوس.. ولا أبغى صورة لي بالحجم الطبيعي..

وهنا رأى اللورد فاحمر وجهه قليلا.. وغمغم:

- معذرة يا (باسيل).. لم أدر أن لديك ضيفا هاهنا.

- هو لورد (هنرى).. صديق قديم من أيام (أوكسفورد).. كنت أحدثه عن جلوسك المنتظم للرسم.. لكن هأنتذا قد أفسدت كل شيء..

خطا لورد (هنري) للأمام وصافح الشاب قائلا:

- لكنك لم تفسد متعتي بلقائك.. قد حدثتني عمتى عنك.. أنت واحد من أصدقائها المفضلين وكذلك - يؤسفني - واحد من ضحاياها..

تأمله لورد (هنرى) مليا.. نعم.. كان وسيما حقا بعينية الزرقاوين الصريحتين وشعره الذهبي المجعد وثمة شيء في وجهه يجعلك تثق به على الفور.. كأن هذا الفتى ظل في معزل عن آثام العالم.. فلا عجب أن انبهر به (باسيل)..

كان الرسام منهمكا في خلط الألوان وإعداد فرشاته، وكان متوترا إلى حد ما.. حين رفع عينيه ليقول للورد:

- (هنرى).. أريد إنهاء هذه الصورة اليوم هل ترى من الوقاحة أن أسألك الرحيل الآن؟



كان الرسام منهمكاً فى خلط الألوان وإعداد فرشاته . .

ابتسم لورد (هنرى) ونظر إلى (دوريان):

- هل أرحل يا مستر (جراى)؟
- البتة يا لورد (هنرى).. إن (باسيل) يمر ببعض لحظاته العصبية..
لكن لورد (هنرى) أخذ قبعته وقفازيه وقال:
- أخشى أنه ينبغي أن أرحل حقا.. فلدى موعد مع رجل في (أورليانز).. وداعا مستر (جراى)..
تعال لتلقاني يوما ما في شارع (كورزون).. إنني أعود لداري في الخامسة..
صاح (دوريان):
- (باسيل).. لو رحل لورد (هنري) فسألحق به.. أنت لا تفتح فاك في أثناء الرسم.. وإنه ليثير مللي أن أقف طيلة الوقت صامتا أحاول أن أبدو وسيما.. أرجوك دعه يبق..
تساءل لورد (هنرى):
- وماذا عن الرجل الذي ينتظرني في (أورليانز)؟
ضحك الرسام وقال:
- لن تكون ثمة مشكلة.. عد للجلوس يا (هنرى) وأنت يا (دوريان).. لا تتحرك كثيرا ولا تلق بالا لما سيقول لورد (هنري)..
صعد (دوريان) درجتين إلى المقعد وجلس فوقه وأصدر آهة تأفف.. وراح الرسام يضع الألوان على اللوحة..
- أدر وجهك لليمين قليلا يا (دوريان) كولد طيب..
ومر الوقت و (باسيل) منهمك في الرسم بلمسته الجريئة المميزة.. ولم يعد يشعر بالصمت الذي ساد القاعة..
هنا صاح (دوريان جراى)
- (باسيل).. لقد سئمت الوقوف.. يجب أن أخرج وأجلس في الحديقة.. إن الهواء ثابت ها هنا.

- وا عزيزي.. أستميحك عذرا.. فحين أرسم لا أفكر في شيء سواه.. لكنك لم تجلس قط أفضل من هذا.. وأعطيتني التأثير الذي أردته..
قال اللورد (هنرى):
- إن الحر الشديد في المرسم حقا.. فلتقدم لنا شيئا باردا نحسوه يا (باسيل).. وليكن به بعض الشليك..
- ليكن يا (هنري).. اقرع الجرس واطلب من (باركر) ما تريد.. ما زال على أن أفرغ من هذه الخلفية.. لا تؤخر (دوريان) كثيرا.. فلم أكن قط في مزاج أفضل للرسم.. ستكون هذه تحفتى..
وخرج لورد (هنرى) إلى الحديقة، ليجد (دوريان) يتشمم في نهم عبق زهور (الليلاك).. قال للفتى في تأمل:
- أنت محق.. لا شيء يشفي الروح كالحواس ولا شيء يشفي الحواس كالروح..
ثم قال للفتي:
أنت تملك الشباب.. ويوما ما حين تشيخ وتتجعد بشرتك.. ويحرق الفكر جبينك بمحرقته، ستشعر بحسرة فقدان الشباب.. إن لك وجها قسيما يا (دوريان).. لكن هل سيظل كذلك؟ والجمال هبة غير عادية لأنها لا تحتاج إلى تفسير.. مثلها كضوء الشمس والربيع.. إن له استقلاله الخاص المقدس تبتسم؟.. حين تفقده لن تبتسم.. إن الزمن يغار منك وأطرافنا تتخاذل وحواسنا تتعفن فتتحلل إلى دمى قبيحة، تسكنها ذكرى مشاعر خفنا منها.. الشباب... لا شيء في الكون كالشباب!
راح (دوريان) يرمق (الليلاك) شاخص البصر بذلك الاهتمام الذي نصغي به الأمور مهمة تفزعنا.. ثمة نحلة تنز هنا وهناك.. وهنا ظهر الرسام.. وأشار لهما كي يلحقا به..

عاد الصديقان الجديدان إلى المرسم، وجلس (دوريان) يصغي لصوت احتكاك الفرشاة باللوحة، ويشم رائحة الورود..
توقف الرسام بعد ربع ساعة ليتأمل (دوريان جراى) ثم يتأمل الرسم وعض على نهاية الفرشاة.. ثم غمغم:
- لقد انتهيت!
وانحنى ليكتب اسمه على الركن الأيسر السفلي من اللوحة..
تفقد لورد (هنرى) الصورة.. كانت تحفة حقا..
نهض الشاب بدوره ليري.. تأملها.. واحمر وجهه غبطة.. كان (هولورد) يحدثه لكنه لم يعِ حرفا مما يقال.. وللمرة الأولى بدا أنه يدرك مدى جماله الخاص به، وعرف أن الزمن سيدمر هذا الجمال تدميرا.
أحس بألم حاد يمزقه.. وإلى عينيه تسربت الدموع..
سأله (هولورد) في قلق غير فاهم لسر صمته:
- ألم ترق لك؟
قال (دوريان) في صوت خفيض:
- يا للحزن!.. سأشيع وأتجعد بينما تحتفظ هذه الصورة بشبابها.. لن تشيخ أبدا عن هذا اليوم من شهر (يونيو).. لو كان بوسعي أن أظل كما أنا وتشيخ هذه الصورة بدلا مني!.. إنني لأعطي كل شيء مقابل أمنية كهذه.. أعطى روحي ذاتها.!
ضحك لورد (هنرى) قائلا:
- لا أظن هذا يضايقك يا (باسيل).. إن هي إلا خطوط على رسمك..
قال (باسيل):
أعترض على هذا بقوة..
نظر له (دوريان) ملا، وقال:

- أنت تحب عملك وفنك أكثر مما تحب صديقك، وما أنا لك إلا تمثال من البرونز.. موديل..
لم يعتد الرسام لهجة الغضب هذه من (دوريان)..
فماذا حدث؟
واصل الفتى الكلام الحانق:
- كما قال لورد (هنرى).. لن تهتم برسمى ثانية في اللحظة التي تظهر فيها أول تجعيدة على جبينى.. إن الشباب هو القيمة الوحيدة في الكون ويوم أدرك أنني أشيخ سأقتل نفسى...
شحب الرسام وصاح ممسكا ذراع (دوريان):
- أتغار من لوحة؟
- أغار من كل جمال لا يفني.. أغار من هذه الصورة.. لماذا تحتفظ بما سوف أفقده أنا حتما؟ كل ثانية تمر تسلبني شيئا ولا تأخذ من هذه الصورة شيئا.. لماذا رسمتني؟.. ستجلب هذه الصورة السخرية علىّ يوما ما..
واحتشدت العبرات في مقلتيه وهرع إلى الأريكة ليدفن وجهه في الطنافس وكأنه يصلى.
نظر الرسام إلى اللورد بمرارة وقال:
- هذا فعلك.. كان ينبغي أن ترحل حين سألتك هذا..
- بل بقيت حين طلبت مني ذلك.. (هنري).. أنا لا أستطيع الشجار مع أفضل صديقين لي في ساعة واحدة لكنكما جعلتماني أمقت أفضل صورة رسمتها ولسوف أحرقها..!.. إنها مجرد قماش وألوان ولن أتركها تفسد صداقتنا..
كان يتكلم وهو يعبث بين أنابيب الألوان والفرش.. ولمحه (دوريان) حين رفع عينية الدامعتين.. عمَّ يبحث؟ نعم.. يبحث عن سكين المعجون الكبيرة.. كان يوشك على تمزيق القماش، وبوثبة سريعة هرع الفتى لينزع السكين منه ويلقيها بعيدا..

- لا تفعل يا (باسيل).. لا تفعل. هذا اغتيال..
عاد للرسام هدوؤه، فقال في برود وهو يتخلى عن السكين:
- أنا مسرور أنك تقدر عملى أخيرا يا (دوريان)..
- أقدره؟ أنا مفتون به.. إنه جزء من روحى..
- حسن. ما إن تجف ويتم وضع إطار لك ونرسلك لدارك.. عندها يمكنك عمل ما تشاء بنفسك..
قال لورد (هنري) في هدوء:
- أنا لا أهوى المواقف الضخمة إلا على خشبة المسرح.. كل هذا الصراخ والتشنج.. يمكنكما إنهاء الموقف بإعطائي اللوحة.. (باسيل).. هذا الفتى السخيف لا يريد اللوحة حقا.. أنا أريدها..
قال (دوريان):
- لن أسامحك يا (باسيل) أبذا لو فعلت.. ولا تسمح الأحد بأن يدعوني فتى سخيفا..
قال (باسيل):
- هي لك يا (دوريان).. وهبتك إياها من قبل أن توجد..
عادت الأمور إلى نصابها تدريجيا.. وحول أقداح الشاي تبادل الأصدقاء عبارات المزاح.. وهنا اقترح اللورد (هنرى) أن يدعو الرجلين إلى المسرح هذه الليلة.. لكن الرسام تنصل من الدعوة لأن عليه مسئوليات عديدة..
وهكذا غادر (هنرى) و (دوريان) المرسم تاركين (باسيل) وحده.. يتأمل اللوحة وعلى وجهه تعبير من الألم..

∞∞∞∞∞∞

(3)

في الثانية عشرة والنصف في اليوم التالي اتجه لورد (هنري) إلى دار عمه في (ألبانى).. وهو شيخ عزب خشن الطباع نوعا يعتبره الناس أنانيا لأنهم لا يحصلون على نفع ما منه.. لكن المجتمعات الراقية كانت تعتبره كريما لأنه يطعم القوم الذين يسلونه.. وكان قد درس بعناية ذلك الفن الأرستقراطي. في عدم عمل شيء على الإطلاق..، ولم يكن لبلد أن ينجب رجلا كهذا سوى (إنجلترا).. وهو بدوره كان يردد دوما أن البلد ذاهبة إلى الكلاب..

حين دخل لورد (هنري) المكان وجد عمه جالسا يطالع (التايمز).. فما إن رآه عمه حتى سأله:

- هيه يا (هاري).. ماذا جاء بك مبكرا هكذا؟ حسبت أن الشباب الرقيع من أمثالك لا يصحو من النوم قبل الثانية ظهرا.. ولا يظهر للعيان قبل الخامسة..

- مجرد هوى عائلي يا عماه. أبغى شيئا ما منك..

- طبعا تبغي مالا.. إن شباب اليوم يحسبون المال هو كل شيء..

قال (هنرى) وهو يفك أزرار معطفه:

- نعم.. وحين يكبرون في السن يعرفون أن المال هو كل شيء حقا لكني لا أريد مالا.. فقط من يدفعون فواتيرهم هم من يحبون المال. إن الديون هي رأس مالي الذي أعيش منه.. ما أريده هو معلومة.. معلومة غير مفيدة طبعا..

- سل ما تريد..

سأله (هنرى) وهو يسترخي على المقعد:

- أريد معرفة من هو (دوريان جراى).. إنه آخر أحفاد لورد (كيلسو) وأمه هي ليدي (مارجريت ديفورو).. أريد أن تعطيني معلومات أكثر..
قطب العجوز وداعب شعر حاجبية:
- أوه!.. طبعا.. أنا أعرف أمه وحضرت تعميدها.. كانت فتاة فاتنة أثارت جنون الجميع حين فرت لتتزوج من تافه فقير.. مات بعدها في مبارزة، كيف حال ابن هذه المرأة؟ أتعشم أن يكون في يد أمينة لأن أباه وأمه تركا له ميراثا ضخما.. لكني لا أفهم تصرف هذه المرأة.. كان بوسعها أن تتزوج أي شخص تريد في اللحظة التي تقرر فيها هذا..
ثم تصلب وضرب المائدة بقبضته:
- بمناسبة الزيجات السخيفة.. يقولون: إن (دارتمور) سيتزوج امرأة أمريكية.. ألا يجد في الإنجليزيات من تناسبه؟
- إنها الموضة الآن يا عماه..
- الأمريكيات لا يعمرن في البيوت.. ومن هم أهلها؟
- الأمريكيات يخفين أهلهن بنفس البراعة التي تخفي بها الإنجليزيات ماضيهن!
- لابد أن أهلها يربون الخنازير..
- ليت هذا يكون صحيحا يا عماه.. يقولون: إن تربية الخنازير تجلب الثراء في أمريكا..
- وهل هي جميلة؟
- كل الأمريكيات يتصرفن كما لو كن جميلات، وهذا سر سحرهن.. والآن وداعا يا عماه.. لا أريد التأخر عن الغداء.. شكرا على هذه المعلومات..
- قلت لعمتك (أجاثا) أن تكف عن إزعاجى بمشاريعها الخيرية..

- سأخبرها يا عماه.. لكن لن يجدي هذا إن محبي البشر على غرارها يفقدون كل إحساس بالإنسانية.. وكلهم في هذا سواء..
وغادر لورد (هنري) المنزل قاصدا ميدان (بيركلي)..
دخل منزل عمته فناول قبعته وعصاه للخادم، ثم دلف إلى قاعة الطعام.. وجذب مقعدا ليجلس.. رفع عينيه فوجد (دوريان) عند طرف المائدة يحني رأسه له محييا.. وكانت الدوقة (هارلي) جالسة.. وجوارها سير (توماس بيردن) نائب البرلمان المتطرف.. وعلى الناحية الأخرى مستر (إرسكين تريدلي) وهو رجل مهذب مثقف لكنه صموت جدا، لأنه - كما قال للعمة (أجاثا) - قال كل ما يمكن قوله قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر..
كانت المأدبة ناجحة، وتكفلت دعابات لورد (هنرى) وآراؤه الثورية بإضفاء جو من التسلية والإمتاع، حتى إن المستر (إرسكين) أصر على أن يعطيه عنوانه ليزوره فيما بعد.. وشعرت الدوقة بالحزن لانتهاء ميعاد الغداء سريعا..

∞∞∞∞∞∞∞

(4)

كان (دوريان) جالسا في حجرة المكتب في دار الورد (هنرى)، يتأمل الغرفة الجميلة بسقفها المصنوع من خشب البلوط وزخارفها، وسجاجيدها الفارسية السميكة.. وكانت هناك منضدة صغيرة عليها تمثال صغير ل (إقليدس).. وجواره رواية فرنسية مجلدة بعناية..، وعلى رف المدفأة كانت آنية خزفية جميلة..

لم يكن اللورد (هنرى) قد جاء بعد، فراح الفتى يقلب في ملل صفحات كتاب وجده هناك.. وفكر أكثر من مرة في الانصراف..

سمع خطوة بالخارج وانفتح الباب، فهتف:

- لقد تأخرت كدأبك أي (هارى)!

- أخشى أنني لست هو..

كان هذا صوت امرأة.. وسرعان ما رأى من تدخل المكتبة قائلة:



كان هذا صوت امرأة .. وسرعان ما رأى
من تدخل المكتبة

- أنا زوجته.. لابد أنك (دوريان جراى)..

كانت لها عينان من طراز (لا تنسى أبدا) وثيابها غريبة جدا تبدو كأنما تم تصميمها في ثورة وتم ارتداؤها في عاصفة.. حاولت طوال حياتها أن تبدو حسناء أنيقة لكنها لم تنجح قط.. اسمها هو (فكتوريا)..
قالت له:

- رأيتك البارحة في الأوبرا.. في أثناء عرض (لوهنجرين).. أنا أحب موسيقا (فاجنر).. إنها عالية صاخبة تسمح لك بالحديث دون أن يسمع الآخرون ما تقول!.. إنها لمزية هائلة..
وضحكت ضحكة عصبية متقطعة.. وأردفت:
أنا أعشق الموسيقا.. خاصة عازفي البيانو يبدو لي أن السبب هو كونهم أجانب دائما!.. ألا ترى هذا؟ حتى من ولدوا منهم في إنجلترا يغدون أجانب بمرور الوقت!.. لماذا لا تحضر إحدى حفلاتى يا مستر (جراى)؟ إنها ممتعة دائما.. لكن هوذا (هارى)!.. (هاري).. كنت أبحث عنك فوجدت مستر (جراى) هنا.. كنا نثرثر عن الموسيقا.. ووجدنا آراءنا متماثلة تماما..
رفع لورد (هنرى) حاجبية المقوسين وابتسم:
- هذا يسرني حبيبتي.. يسرني.. معذرة على تأخرى يا (دوريان)..
حيتهما الزوجة بطريقتها المتقطعة الغريبة ثم انصرفت أشعل لورد (هنرى) سيجارا وألقى بنفسه على الأريكة قائلا:
- لا تتزوج امرأة شعرها بلون القش الأصفر يا (دوريان).. أبدا..
- ولماذا؟
- لأن من شعرها بلون القش عاطفية جدا..
- لا أظن أنني سأتزوج من أحبها يا (هارى).. لكني أحبها كثيرا..
- ومن التي تحبها؟
احمر وجه الفتى وغمغم:
- ممثلة مسرع هي..
- اسمها؟
- اسمها (سيبل فين)..
- لم أسمع عنها قط..
- لم يسمع أحد عنها.. لكنها عبقرية..

- يا بني لا توجد امرأة عبقرية.. النساء جنس زخرفي لا أكثر.. ليس لديهن ما يقال لكنهن يقلنه بأسلوب ساحر.. إنهن يمثلن انتصار المادة على الروح.. كما يمثل الرجال انتصار العقل على الأخلاق!
- (هارى)؟ كيف بوسعك أن؟
- دعك من هذا وقل لي: أين قابلتها؟
- سأخبرك لكن لا تكن عديم التعاطف هكذا.. كانت ليلة شعرت فيها بالملل والحاجة إلى التغيير فخرجت أمشي في (لندن) الرمادية الغامضة – كما تدعوها حتى وجدت مسرحا صغيرا بائسا.. وكان هناك يهودي بشع الخلقة يبيع التذاكر على الباب فابتعت واحدة ودخلت.. ولو لم أفعل لفاتني أعظم حب في حياتي.. أنت تضحك!
- لا أضحك منك.. ولا تقل: إن هذا (أعظم حب).. بل هو (أول حب في حياتك..
- كان المسرح مروعا غش الذوق من الداخل.. الكل يلتهم البندق والبائعات يطفن هنا وهناك بالبرتقال والجعة.. كان كل هذا مثيرا للكآبة وكدت أنصرف حين سمعت (جرس) المسرح يدق.. هل تعرف أية مسرحية كانت؟ (روميو وجولييت).. في البدء شعرت باشمئزاز من أن أرى (شكسبير) يقدم في هذا المكان القذر.. ثم انفتح الستار.. كان كل شيء كما توقعت.. لكن.. (جولييت)!..
تصور يا (هارى) فتاة عمرها سبعة عشر عاما وجهها يشبه الزهرة.. وشعرها مجعد كشعور الإغريقيات.. ولها شفتان كورقتي وردة.. كانت أروع ما رأيت في حياتي.. وصوتها.. لم أسمع قط صوتا كهذا.. بدا لي كصوت ناي في الغابات كصوت الكروان في الفجر، لماذا لا أهواها يا (هارى)؟ إنها كل شيء في الحياة لي.. وليلة بعد ليلة أذهب لأرى تمثيلها.. أراها في ليلة (روزالند)..

وفي ليلة أخرى (إيموجن).. رأيتها تموت في مقبرة إيطالية ورأيتها تلهو في غابات (الأردين).. رأيتها في كل عصر وكل زي.. هذا هو سحر الممثلات الذي يختلف عن النساء العاديات حبيسات قرونهن، واللواتي لا يتغيرن أبدا.. لماذا لم تعلمنى يا (هاري) أن الوحيدة الجديرة بالحب هي من تعمل ممثلة؟!

- لأنني أحببت بعضهن.. هلا ناولتني الثقاب من فضلك؟.. شكرا.. ما هي حدود علاقتك بها؟

ضم الفتى ساقيه واحمر وجهه وصاح:

- (هارى)!، إن (سيبل فين) قدسية!

- لا بأس.. هل تعرفها على الأقل؟

- (طبعا.. لقد جاءني اليهودي بشع الخلقة بعد العرض ودعاني كي أتعرفها.. لكني رفضت في عصبية لأن (جولييت) قد ماتت منذ مئات السنين وجسدها يرقد في تابوت رخامي في (فيرونا).. لابد أنه حسبنى ثملا.. لكنه وجدني في اليوم التالي أدخل مسرحه.. جعله هذا يؤمن بأنني أعشق فنه وفن فرقته حقا..، وفي الليلة الثالثة كانت (سبيل) تؤدي دور (روزالند).. ولم أستطع التحكم في نفسى فرميت لها بعض الورود.. ورأتني..

- حسن.. وكيف كان سلوكها بعد ذلك؟

- أوه.. كانت خجولا رقيقة.. ثمة شيء فيها يذكرك بطفل.. عيناها تتسعان دوما في انبهار، وهي غافلة تماما عن سحرها..

كان اليهودي واقفا على الباب يتكلم عنا نحن الاثنين، بينما أنا وهي صامتان نتبادل النظرات، وأدركت أنها حين تكلمت - لا تفقه شيئا عن الحياة كأنما هي تعيش على المسرح دوما.. إنها طاهرة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها..

- آه.. أرى السبب تخلفك عن العشاء معي هذه الأيام..

- لا أستطيع ألا أراها.. أشعر بالجوع لتمثيلها.. الليلة ستكون (إيموجن) وغدا تعود (جولييت)..
- ومتى تكون (سيبل فين)؟
- لا يحدث أبدا..
- أهنئك!
- يا لقسوتك!.. إنها أكثر من امرأة عادية.. أريد أن تعلمني كيف أجعلها تهواني.. أريد أن يغار (روميو) مني.. أريد أن يصحو العشاق الموتى على ضحكاتنا ويشعروا بالحسرة...
كان يتكلم وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا.. كان منفعلا حقا.. وراقبه (هنري) في استمتاع.. لشد ما تبدل الفتي سريعا..
- وماذا تريد أن تفعل؟
- ستأتي معي و (باسيل) لتريا أداءها.. ثم نحررها من قبضة اليهودي الذي يحتكر تمثيلها لثلاثة أعوام..
سأدفع له مبلغا من المال.. ثم أجد لها مسرحا محترما يقدمها للعالم لتبهره كما بهرتني..
- حسن.. ومتى هذا؟
- ليكن غدا.. الأربعاء.. السادسة والنصف قبل رفع الستار..
- يا له من موعد!.. حسن. و (باسيل).. قل له أن يأتي معنا..
- يا لهذا العزيز..! أنا لم أره منذ أسبوع.. لقد أرسل لى لوحته مع إطار رائع صممه بنفسه.. لقد بدأت أسعد باللوحة برغم كوني أغار من أنها اليوم أصغر منى بشهر.. ربما كان عليك أن تدعوه بنفسك.. فهو لا يكف عن إسداء النصح لى..
- إن (باسيل) يضع كل ماهو فاتن في شخصه.. في لوحاته.. وبالتالي لا يبقى له هو نفسه شيء.. إن الفنانين ذوي الشخصية الجذابة الذين قابلتهم في حياتي كانوا فنانين رديئين.. الفنانون الجيدون يتواجدون في أعمالهم وبالتالي تجدهم مملين في

شخوصهم.. والشاعر العظيم حقا هو أقل الناس شاعرية في كلامه وحياته..
هز (دوريان) رأسه وسكب بعض العطر من قارورة زجاجية على منديله.. وقال:
- على كل حال.. لا تنسني غدا.. وداعا..
فما إن غادر الغرفة حتى أغلق لورد (هنرى) عينيه بأهداب ثقيلة وراح يفكر.. لقد أسعده غرام الفتى الوليد.. جعل الفتى بالنسبة له أكثر تشويقا وجدارة بالدراسة.. ما أروع دراسة الحياة! دراسة منطق العاطفة المعقد وكيف يتخلى القلب عن العقل.. إن الفتى من صنعه هو.. كلماته التي يسكبها في مسمعه طوال الوقت جعلته يبحث عن الحب قبل أن يذوي شبابه.. إن التجريب هو الوسيلة الوحيدة التي يثق بها للحصول على حقائق علمية.. و (دوريان جراى) موضوع تجربة شائق.. كل هذا الطهر والنقاء يهيم حبا بممثلة من الدرجة الثالثة.. حب هو إلى الفضول أقرب.
وهنا قطعت عليه خواطره دقة على الباب.. كان هناك من يذكره بأن يرتدي ثيابه للعشاء..
وحين عاد إلى داره عند منتصف الليل؛ وجد برقية على مائدة الرواق.. ففتحها فوجدها من (دوريان جراى)..
لقد خطب الفتى (سيبل فين).

∞∞∞∞∞∞

(5)

- أماه! أماه!.. ما أسعدني!
همست الفتاة ودفنت وجهها في حجر المرأة الشاحبة المنهكة الجالسة على المقعد الوحيد في غرفة الجلوس..
وضعت المرأة بيدها التى ابيضت أناملها على شعر الفتاة.. وقالت:
- أنا أسعد مثلك يا (سيبل) حين أراك تمثلين لا تفكرين في شيء سوى التمثيل.. إن مستر (إسحق) طيب معنا ويديننا بالمال..
- الحب أهم من المال يا أماه..
- إن خمسين جنيها لمبلغ كبير.. والرجل متفهم..
قالت الفتاة وقد نهضت واتجهت النافذة:
- الحق أنه ليس رجلا مهذبا.. لا أحب أسلوبه في الكلام معي
- لا أدري كيف كنا سنعيش من دونه..
- لن نحتاج إليه بعد اليوم.. إن الأمير الوسيم يعني بأمرنا من الآن..
قالتها.. وانفرجت زهرة ثغرها قليلا وزفرت في انفعال.. واحمر خداها إثر زهرة تفتحت في دمها وببساطة همست:
- أنا أحبه!
تحدثت الحكمة ضامرة الشفتين من مقعدها البالى:
تحدثت من كتاب الجبن الذي ينتحل مؤلفه اسم (العقل).. لكن الفتاة لم تصغ.. كانت حرة في سجن عاطفتها.. أرسلت روحها لتفتش عنه..
وحين تكلمت قالت:

- أماه.. لماذا يحبني بهذا الشكل؟ أنا أعرف لماذا أحبه.. أحبه لأنه هو ما ينبغي أن يكونه الحب ذاته.. لكن ماذا يرى في؟ إنني لا أستحقه.. أعرف هذا لكني لا أشعر بضعة، بل بفخر..
ازداد وجه المرأة شحوبا تحت المساحيق التي تغلف وجهها.. وتقلصت شفتاها الجافتان في ألم..
عانقتها (سيبل).. لفت ذراعها حول عنقها ولثمتها، فقالت المرأة:
- يا طفلتي.. أنت أصغر سنا من أن تقعي في الحب.. ثم ماذا تعرفين عن هذا الشاب؟ حتى اسمه الأمر كله غير مرض..
- أماه.. ماما.. أرجوك دعيني أكن سعيدة!
نظرت لها المرأة ثم - بحركة إيمانية مسرحية من التى تصير طبيعية ثانية لدى الممثلين – احتضنتها بين ذراعيها..
هنا دخل الغرفة شاب مجعد الشعر ضخم الأطراف..
كان واضحا أنه لم يرب جيدا مثل أخته.. وبصعوبة يمكنك أن تدرك القرابة بينهما. نظرت له الأم نظرة موحية.. وتخيلت أنه جمهور من المشاهدين، وعرفت يقينا أن المشهد المسرحي جيد.. فازداد أداؤها افتعالا..
كان (جيمس) - وهذا اسمه - راحة إلى (أستراليا) ليجرب حظه.. لأنه كان يتمنى أن يكفل لأمه وأخته المال الذي يجنبهما الصعود إلى خشبة المسرح من جديد..
ولما كان هذا يومه الأخير في (لندن) فقد طلب من (سيبل) أن تخرج معه قليلا للنزهة في الحديقة..
هرعت الفتاة لترتدي ثيابها، فانفرد هو بالأم يسألها عن هذا الشاب الوسيم الذي يحوم حول أخته..
- أريد منك أن تراقبي (سيبل) بعناية يا أماه.. أرجوك..

- أنت تعرف هذا.. لو كان هذا الشاب ثريا فلا أرى ما يمنع من أن يتقرب إليها.. أعتقد أنه من الطبقة الأرستقراطية وهذا زواج مناسب ل (سيبل)..

هنا جاءت (سبيل) وقد تأهبت للخروج، فودع الأم في فتور، فلم تشعر براحة من نظرته والصوت الذي ودعها به..

خرج الشاب وأخته إلى ضوء الشمس الذي تعابثه الريح، واتجها إلى (أوستون رود).. وراح المارة يرمقون في دهشة هذا الشاب المغبر الضخم مبعثر الثياب، الذي يمشي مع حسناء بارعة الحسن.. فكأنه بستاني يمشي مع زهرة..

ضايق هذا الفتى.. فهو يمقت أن ينظر له الناس ذلك الشعور الذي يعانيه الأذكياء دوما..

لكن (سبيل) لم تبد واعية بالأثر الذي يحدثه حسنها.. كانت تحلم بأميرها الجميل لكنها لا تتكلم عنه.. تتكلم عن السفينة التي سيركبها أخوها.. وعن المال الذي سيجمعه.. وعن الوريثة الحسناء التي سينقذها من هجوم قطاع الطرق ذوي القمصان الحمراء.. لأنه لن يظل بحارا أو سائق عربة.. بل سيودع ربان السفينة ويهبط إلى البر حيث يجد مناجم الذهب، وبعد أسبوع لا أكثر يعود حاملا قدرا مليئة بالذهب.. يعود بها في عربة يحرسها ستة رجال مدججين بالسلاح.. ولكن لا.. لا داعي لمناجم الذهب.. فالناس يختنقون هناك ويضربون بعضهم بالرصاص في الحالات، ويقولون ألفاظا بذيئة..

فليكن فلاحا طيبا ينقذ وريثة حسناء يخطفها لص على صهوة حصانه.. بالطبع ستهيم حتما به ويتزوجان ويعودان إلى (لندن) ليعيشا في بيت جميل عليه فقط ألا يتهور.. ولا يكف عن الصلاة.. إنها لا تكبره في السن لكنها تعرف كل شيء عن الحياة..

ظل الفتى يصغي لثرثرتها صامتا.. كان القلق يغمره عليها..



وبكياسة راح يحذرها من هذا الشاب المتأنق
الذى يحوم حولها . .

وبكياسة راح يحذرها من هذا الشاب المتأنق الذي يحوم حولها.. فهتفت:

- إن رؤيته تعني أن تهيم حتما به.. وان معرفته تعني أن تثق به.. إنك تتركني يا (جيم) وأنا في أسعد وأعز أيام عمري.. لقد كانت الحياة قاسية علينا لكنها ستختلف.. أنت ذاهب إلى عالم جديد كالذي وجدته أنا فعلا..

جلسا في الحديقة بين زهور (التيوليب) المتراقصة كحلقات النار.. راحت تمازحه وتداعبه لكنه ظل ساهما. بعد قليل قال لها:
- تأكدى - مثلما أنت متأكدة من وجود إله – أن هذا الفتى لو ضايقك أو آذاك فسوف أفتك به!
قالت له والشفقة في عينيها:
- أنت أحمق يا (جيم).. طفل سيئ الخلق لا أكثر..
- إن أمي غير ذات نفع.. لا تعرف كيف تعني بك ولكم أتمنى ألا أسافر إلى (أستراليا) وأتركك..
- أنت لم تعرف الحب بعد..
وعادا بالحافلة إلى دار هما الحقيرة، فودعته الفتاة لأنها لابد أن تنام ساعتين قبل صعودها لخشبة المسرح..
أما هو فراح يتناول عشاءه.. آخر عشاء له في داره.. بينما الأم تراقبه في صمت وتوتر..
كان يكره السادة.. السادة الأرستقراطيين ذوي الأصل العريق.. لقد كان أبوه الذي تخلى عنه وأخته منهم واليوم تتحدث أخته عن أميرها الجميل الذي هو سيد أرستقراطي آخر..
قالت الأم وقد فهمت مخاوفه:
- إن (سيبل) لها أم.. أما أنا فلم يكن لى..
لثمها الفتى معتذرا وقد مست عبارتها قلبه:
- آسف لو كنت آلمتك.. يجب أن أتصرف الآن.. وأكرر.. لو آذى هذا الرجل (سيبل) فلسوف أجده وأقتله ككلب..
راق الموقف الميلودرامي للأم بما فيه من إيماءات مسرحية وعبارات رنانة.. شعرت أنها تندمج وكادت تعلو بأدائها لكن الفتي

قاطعها.. كان عليه أن يحمل حقائبه إلى العربة.. ويساوم السائق.. وهكذا ضاعت هذه اللحظة في تفاصيل سوقية..
لكن الأم كانت تعرف أنها ستجد لحظات مسرحية أمتع، وهي تخبر (سبيل) أن الحياة تزداد قفرا وكآبة.. وأنها لم تعد تملك سوى طفل واحد تربيه، بعد ما رحل ابنها بعيدا..
فكرت في هذا وهي ترمق العربة تبتعد..

∞∞∞∞∞∞

(6)

- أحسبك سمعت الأخبار يا (باسيل)؟
قالها لورد (هنرى) في تلك الأمسية بينما (هولورد) يدخل المطعم، حيث كان العشاء معا على المائدة لثلاثة..
قال الرسام وهو يناول قبته ومعطفه للخادم المنحنى.
- لا يا (هاري).. أرجو ألا يكون شيئا سياسيا، فالسياسية لا تثير اهتمامي.. لا يوجد شخص واحد في مجلس العموم يستحق أن يرسم.
قال لورد (هنرى) وهو يتأمله:
- لقد خطب (دوريان براى)
حدق فيه (هو لورد) غير مصدق.. ثم قطب.
- مستحيل!
- بل هي الحقيقة.. خطب ممثلة مغمورة..
- كنت أحسبه عاقلا حتى هذه اللحظة..
- حينما يفعل الرجل شيئا أحمق تماما يكون هذا ناجما عن دوافع نبيلة، يبدو أن الصورة التي رسمتها له قد جعلته يقدر جمال الآخرين.. لسوف نرى الفتاة الليلة لو أن الصبي لم ينس موعده معنا..
هنا دخل الفتى.. فرمى معطفه وصافح صديقية مرددا:
- وا عزيزى (هارى)!.. وا عزيزى (باسيل)!.. هنئانى!.. لم أكن قط أسعد مني في هذه اللحظة.. لقد حدث هذا فجأة..
كان في أوسم حالاته وقد احمرت وجنتاه انفعالا..
جلس الأصدقاء حول مائدة العشاء.. وراح الفتي يقول:

- البارحة بعد ما فارقتك يا (هارى) ذهبت إلى المسرح كدأبى، كانت (سيبل) تلعب دور (روزالند).. كم كانت فاتنة لا توصف!.. وبعد العرض قصدتها وحادثتها.. وجلسنا معا.. في نهاية الجلسة كانت خطبتنا قد صارت حقيقة واقعة.. لكنها سر لا تعرفه أمها ذاتها.. لا أدري ما سيقوله حارس تركتى لورد (رادلى).. لكني دنوت من سن المسئولية القانونية وبعدها سأفعل ما يروق لي.. لقد وجدت زوجتى بين مسرحيات (شكسبير).. والشفتان اللتان علمهما (شكسبير) الكلام قد همستا بسرهما في مسمعي..

جرع لورد (هنري) الشمبانيا متأملا.. وسأله:

- متى ذكرت لفظة (زواج) يا (دوريان)؟ وبم ردت الفتاة؟

- يا عزيزى (هاري).. لم يتم الأمر كصفقة تجارية.. ولم أقدم لها عرضا رسميا.. قلت: إنني أحبها فقالت: إنها لا تستحق أن تكون زوجتي..

غمغم لورد (هنرى).

- النساء عمليات حقا.. عمليات أكثر منا بمراحل في مواقف كهذه لا نذكر نحن حرفا عن الزواج لكنهن يذكرننا به..

ضحك (دوريان) وقال:

- حين ترى (سيبل) يا (هارى) ستؤمن بأن الرجل الذي يؤذيها هو حيوان.. حيوان بلا قلب.. أريد أن أضعها على عرش من ذهب ليعبد العالم تلك المرأة التي هي لي.. ماهو الزواج؟ إنه قسم لا يحنث به.. أريد أن أقسم هذا القسم.. ثقتها بى تجعلني مخلصا وإيمانها بى يجعلني طيبا.. وحين أكون معها أنسى كل نظرياتك الخلابة السامة..

ثم تنهد وقال:

- إنني أهيم بها..

قال لورد (هنرى) وهو يعبث ببعض الفاكهة.
- هذا خير من أن تهيم هي بك.. فهذا يغدو مزعجا.. إن النساء يعاملن الرجال كأصنام.. يهمن بهم ثم يضايقنهم طوال الوقت بمطالب لا تنتهي..
غمغم الفتى بجدية:
- حين يطلبن منا أشياء فهن يقدمن لنا أشياء أكثر.. وما دمن قد زرعن الحب في أرواحنا فمن حقهن أن يطالبن باسترداده...
قال (هولورد):
- هذا هو الصواب بعينه..
فقال لورد (هنرى):
- لا شيء هو الصواب بعينه.. أيها الساقى، هات لنا القهوة وبعض لفافات التبغ..
قال (دوريان) وهو يتأمل ما جلبه الساقى:
- هلما إلى المسرح لترا (سيبل)، عندها ستفهمان معنى المثالية..

∞∞∞∞∞∞

(7)

لسبب ما كان المسرح مكتظا تلك الليلة، وقابلهم المدير اليهودي اليدين على الباب بابتسامة لزجة ملأت وجهه.. واصطحبهم إلى مقاعدهم في تواضع فخور، وهو يلوح بأصابعه السمينة المكتنزة بالمجوهرات، ويتكلم بأعلى صوته..

بدا على (دوريان) أنه يشمئز منه حقا.. لكن الورد (هنرى) أحب الرجل على الفور. كان الحر خانقا والعرق يغمر الوجوه.. والناس الذين خلعوا معاطفهم يثرثرون بصوت عال..

قال لورد (هنرى):

- ياله من مكان تجد مثلك الأعلى فيه!

رد (دوريان).

- نعم.. فقد وجدتها هنا.. وحين تمثل أنسى كل شىء، وحتى هؤلاء القوم السوقيين ذوي الإيماءات الفظة يغدون شيئا آخر حين تمثل هي.. إنها تجعلهم يتجاوبون معها كأوتار كمان.. يبكون حين تبكي ويضحكون حين تضحك..

مر ربع ساعة من الضوضاء.. ثم ظهرت (سيبل فين) على المسرح.. نعم.. كانت هي أجمل مخلوق رأته عينا لورد (هنرى) بالقطع. ثمة شيء خلاب في حيائها.. ومسحة حمرة كظل وردة في مرآة من الفضة وهي ترمق الحشد..

وكأنما في حلم، جلس (دوريان براى) يحدق فيها صامتا.. أما لورد (هنرى) فراح يرمقها عبر منظاره المقرب مغمغما:

- فاتنة!.. فاتنة!

كان المشهد هو حديقة (كابيوليه) في مسرحية (روميو وجولييت).. وقد دخل (روميو) في ثياب الحجاج إلى خشبة

المسرح.. وراح جمع من الممثلين بثياب رخيصة سخيفة يرقصون.. بينما تحركت الفتاة بينهم كأنما هي مخلوقة من عالم أسمى.. يداها من العاج.. ومنحنيات رقبتها كمنحنيات زهرة السوسن.. لكنها حين قالت مقطعها الأول من الشعر:

- أيها الحاج الكريم، إنك لتظلم بيدك..

التي لم تزد على أن قدمت بهذا نسكا تقيا..

فإن القديسات أيديا تمسها أيدي الحجيج..

ومس الراح للراح قبلة حاج طاهر.. ([1])

كان أداؤها مفتعلا تماما.. صوتها كان عديم اللون جرد الشعر من كل روح فيه.

ولم يجرؤ الرجلان على مصارحة (دوريان) برأيهما.. خاب أملهما بشكل مروع.. وأدركا أن الفتاة لا تملك أية موهبة.. لكن لينتظرا مشهد الشرفة في الفصل الثاني لأنه هو المحك لقياس موهبة أي (جولييت)

وبالفعل كانت الفتاة فاتنة حين برزت في ضوء القمر.. لكن مسرحية تمثيلها كانت لا تحتمل.. إيماءاتها صناعية تماما.. كأنما هي طالبة صغيرة تقوم بالتسميع أمام أستاذ محفوظات غير مجيد.. كانت فاشلة تماما..

وبدأ ملل الجمهور وصفيره يتزايد.. وبدأت المحادثات الجانبية، فنهض (هنرى) وارتدي معطفه، وقال لـ (دوريان):

- إنها فتاة جميلة حقا لكن لا علاقة لها بالتمثيل هلم ننصرف..

قال الفتى في صوت مرير..

- سأشاهد المسرحية بأكملها.. وإن كنت أعتذر لكما.. لا أعرف ماذا دهاها.. تبدو لي باردة تماما.. تغيرت عما كانته بالأمس.. لم تعد تلك الفنانة العظيمة ولا أعرف السبب..

قال (هولورد) مخففا عنه:
- لا عليك يا (دوريان).. إن الحب الأكثر أهمية من الفن..
قال لورد (هنرى):
- الحب والفن كلاهما ببساطة - نوع من التظاهر، ولكن دعنا لا نبق أكثر يا (دوريان).. ماذا يهم في كل هذا؟.. إن فتاتك حسناء ولو كانت معرفتها بالحياة تعادل معرفتها بالفن فإنها خبرة سارة حقا.. إن الناس الجديرين بالمعرفة هم أولئك الذين يعرفون كل شيء والذين لا يعرفون أي شيء.. هلما نقصد النادي..
لكن الفتى لم يرد.. سال الدمع من عينيه وأسند رأسه للحائط.. فلم يجد الرجلان مناصا من تركه والانصراف احتراما لحزنه..
وحين انتهت المسرحية - وسط الصفير والتذمر..
هرع إلى الكواليس ليراها.. كانت واقفة والنصر يرتسم على ملامحها.. وعيناها تضيئان بنار متوهجة..
- هل كان أدائي شيئا الليلة يا (دوريان)؟
- مريعا..!.. هل أنت مريضة؟ لقد كان هذا أسوأ ما رأيت..
ابتسمت وبصوت موسيقى رنان نادته:
- (دوريان).. حسبتك فهمت..
- فهمت ماذا؟
- قبل أن أعرفك كان التمثيل حياتي.. كانت أفراح (بياتريس) هي أفراحي وأتراح (كورديليا) أتراحي.. والديكورات هي عالمي.. ثم جئت أنت - أيها الحب الجميل - لتحرر روحي من ربقتها.. وهنا أدركت للمرة الأولى أن ضوء القمر على المسرح كان صناعيا، وأن كلمات الحب التي أقولها لم أقلها أنا، بل كتبها سواي، وأن الديكور سوقي ركيك.. انت جلبت لي شيئا أروع.. شيئا ليس الفن بالقياس إليه سوى انعكاس.. يا حبي!.. يا حبي!.. يا أميرى

الجميل!.. لقد سعت الجمهور يصفر استهجانا لكني قلت لنفسي: ماذا يعرف هؤلاء عن حب عظيم؟! خذني بعيدا عن المسرح يا (دوريان)...!
أنا أمقته.. يمكنني دوما أن أصطنع مالا أشعر به لكني لن أصطنع أبدا عاطفة يحرقني لهيبها.. أنت علمتني هذا كله..
ألقى بجسده على الأريكة وأبعد وجهه عنها.. وغمغم:
- (أنت قتلت حبى..



نظرت له بدهشة .. دنت منه وركعت على ركبتيها أمامه .. ثم رفعت كفه ولمستها بشفتيها ..

نظرت له بدهشة.. دنت منه وركعت على ركبتيها أمامه.. ثم رفعت كفه ولمستها بشفتيها.. لكنه ابتعد عنها وارتجف..

ثم إنه نهض قاصدا الباب صارخا:
- نعم قتلت حبي.. كنت تحركين خيالي.. لكنك الآن لن تحركى حتى فضولي.. كنت أحبك لأنك فهمت خيال الشعراء العظام

ولأنك منحت ظلال الفن شكلا وملمسا.. أنتِ غبية ضحلة.. رباه!.. كم كنت مجنونا حين هويتك..! لن أراك بعد اليوم، ولن أفكر فيك.. ويا ليتني لم أرك قط.. فمن دون فتك أنتِ لا شيء سوى فتاة ذات وجه وسيم..
شحبت الفتاة وارتجفت.. واحتبس الصوت في حلقها.. دنت منه ولمست يده، لكنه أبعدها في جنون:
- لا تلمسيني!
صدرت منها أنة خفيضة وألقت بنفسها على قدميه وهمست:
- (دوريان).. (دوريان).. لا تتخل عنى أنا آسفة إذ لم أؤد دورى جيدا.. لكنني سأحاول ثانية أعدك بهذا.. كان هذا أقوى مني.. لكني سأكون أفضل فيما بعد.. أنا حقا راغبة في إرضائك.. فلا تكن قاسيا معي لأني أهواك بكل جوانحى..
وخنقتها نوبة من العبرات.. فانثنت على نفسها كطير جريح.. لكن (دوريان) راح يرمقها بعينيه الجميلتين في لا مبالاة.. ثمة شيء سخيف في عواطف الناس الذين كف المرء عن حبهم.. لهذا بدت له (سيبل) ميلو درامية إلى حد يثير الاشمئزاز..
ظلت تبكي في صمت وامتدت يداها الصغيرتان أمامها كأنما تبحث عنه.. لكنه أدار وجهه وانصرف..
إلى أين مشي؟ لا يدري.. فقط كان يمشي في شوارع سيئة الإضاءة بين سكارى يترنحون كالقرود ونسوة ينادينه بصوت خشن وضحكات رفيعة.. وسمع صرخات وسبابا..
بعد جهد أدرك أنه الفجر.. وأنه في حديقة (كوفنت).. ورائحة الهواء تعبق بالورود..، فاستقل عربة إلى داره..
دخل إلى غرفة نومه، وأدار مقبض الباب.. هنا وقعت عيناه على لوحة (باسيل) التي رسمها له أصابته الدهشة.. فك زرا من أزرار سترته ثم غالبه التردد فعاد يرمق الصورة من جديد..

وفي الضوء المعتم المتسرب عبر الستائر ذات لون القشدة؛ بدا له كأنما الوجه قد تغير نوعا.. يمكن للمرء أن يقول: إن هناك مسحة من القسوة على شفتيه في الصورة.. إن هذا الغريب مشي إلى النافذة وأزاح الستارة.. فتسرب الفجر البراق ليغرق الحجرة.. لكن مسحة القسوة في اللوحة ازدادت وضوحا.. كأنما هو يرمق وجهه في المرآة بعد اقتراف عمل شنيع..
ما معنى هذا؟ أحضر عدسة يتفحص بها اللوحة بالتأكيد لم يتخيل هذا.. إن التعبير واضح.. تذكر أمنيته التي قالها لـ (باسيل) في المرسم.. لقد تمنى أن تشيخ اللوحة بدلا منه ويحتفظ هو بنضارته.. هل تحققت هذه الأمنية؟ مستحيل هذه الأشياء لا تحدث أبدا.. ولكن هناك هذه القسوة حول ثغر الصورة.. قسوة!..
هل كان قاسيا حقا؟.. لقد كان هذا خطأ الفتاة وليس خطأه هو، لكن منظرها وهي عند قدميه تبكي جعله يشعر بندم ما.. لكم كان قاسيا معها.. ولكنه تعذب هو الآخر.. لقد عاش قرونا من الألم ودهورا من العذاب خلال الساعات الثلاث التي استغرقها العرض، ثم إن النساء يتحملن الأسى خيرا من الرجال.. وهن لا يقعن في الغرام إلا لحاجتهن إلى مشاهد تمثيلية ميلودرامية يشبعن فيها ألما..
ولكن.. الصورة.. الصورة التي علمته كيف يعشق جماله.. فهل ستعلمه كيف يحتقر روحه؟ هل ستحمل هي وزر آثامه؟
لا.. لن يحدث هذا.. سيعود لـ (سبيل) يستعطفها.. يطلب منها أن تتزوجه ويحاول أن يهواها.. هذا.. هذا واجبه.. لكم كان قاسيا مع البائسة..
لكن الأمور ستعود كما كانت..
أحضر ستارا كبيرا دارى به الصورة كي لا يراها...

وقف أمام النافذة يتنسم هواء الصّباح الطازج وراح يردد اسم (سيبل) مرارا وتكرارا.. وقد أحس أن الطيور فوق أشجارها المبللة بالندى تهمس بكل شيء عن (سيبل) للزهور..

∞∞∞∞∞∞∞

(8)

كان الوقت قد جاوز الظهيرة حين صحا من نومه..
وبعد ما تسلل وصيفه على أطراف أصابعه مرارا ليرى ما إذا كان يتحرك، ويتساءل عن سر إغفاء سيده حتى هذه الساعة المتأخرة..
في النهاية دق الجرس فدخل الوصيف الحجرة حاملا صينية من (السيفر) الصيني عليها قدح من الشاي، ورزمة من الخطابات..، وأزاح الستائر زيتونية اللون المصنوعة من الساتان، وقال باسما:
- لقد نام السيد طويلا.. إنها الواحدة والربع..
هب الفتي مذعورا.. لكم تأخر الوقت!.. نهض وراح يطالع بريده.. كانت ذات الخطابات التي تحوي دعوات للعشاء.. وبرامج الأعمال الخير.. وما إلى ذلك.. ثمة فاتورة لطاقم حمام من طراز (لويس كينزى) عليه أن يرسلها إلى الوصي على إرثه كى يسددها..
إن هذا الوصي رجل من طراز عتيق ولن يفهم أبدا أن - في هذا العصر - تغدو الأشياء غير الضرورية هي الضرورة ذاتها..
جلس في المكتبة يتناول إفطارا فرنسيا خفيفا على مائدة وضعت له جوار النافذة المفتوحة.. كان الهواء الدافئ محملا بالعطر.. وحلقت نحلة حول حوض الزهور أمامه.. فشعر بسعادة قصوى..
فجأة رأي الستار الذي داري به الصورة.. وتصلب..
هل كان كل هذا حقيقيا؟.. هل تبدلت الصورة حقا؟
ليرى ذلك إذن.. كان الخادم قد جلب له القهوة ولفافات التبغ، فأحس برغبة تحدوه إلى أن يسأله البقاء.. كان خائفا من اليقين..

لكن الرجل غادر الغرفة.. فنهض (دوريان)..
أشعل لفافة تبغ ووقف يتأمل الستار.. ما الذي يحدوه إلى إزاحة الستار؟ لو كان حقا فإنه لشيء مريع...
ولو كان وهما فما جدوى التأكد منه؟.. لكن الحقيقة مهما كانت مريرة خير من هذا الشك الشنيع..
أزاح الستار.. وعندها أدرك أنه لم يكن واهما لقد تغيرت الصورة..
تراجع إلى الوراء ليجلس على الأريكة، ويرمق الصورة في ذعر مريض..
إذن فهذا الرسم يحدثه عن آثامه.. يمكن أن يكون هو دليله في فيافي الحياة كما يفعل الضمير.. لم يعد يدري كيف يفكر.. ولا ماذا يعمل.. في النهاية ذهب إلى المكتب، فكتب خطابا إلى حبيبته يطلب غفرانها ويتهم نفسه بالخيال.. إنها متعة لوم النفس الشهيرة.. حين نلوم أنفسنا نشعر أنه ما من أحد سوانا يستحق أن يلومنا.. إن ما يمنحنا الخلاص هو الاعتراف وليس القس الذي نعترف أمامه.. وهكذا حين فرغ (دوريان) من الكتابة كان قد غفر لنفسه ذنوبه..
هنا سمع قرعات على الباب، وصوت لورد (هنري) يطلب الدخول.. وما إن دخل الرجل حتى قال:
- أنا آسف يا (دوريان).. ولكن لا يجب أن تفكر فيما حدث كثيرا..
- تعني (سيبل)؟
- نعم.. - وخلع قفازيه ببطء وجلس – ولكن الأمر لم يكن خطأك.. لقد قابلتها بعد المسرحية طبعا.. وتشاجرت معها..
- كنت متوحشا يا (هارى).. لكني الآن خير حالا سأتزوجها!
نظر له اللورد في دهشة.. ووقف متسائلا:

- تتزوجها؟.. لكّن يا (دوريان)...
- نعم يا (هارى).. أنا متأكد من أنك ستذكر رأيا مروعا في الزواج.. فلا تقلها.. لقد طلبت يدها منذ يومين ولن أتراجع..
نظر اللورد عاجزا عن قول شيء.. ثم هتف:
- إذن لم تعلم بعد؟
- أعلم ماذا؟
نهض اللورد ليعبر الحجرة ويجلس أمام (دوريان)، فيتناول يديه بين كفيه ويقول:
- (دوريان) - إهدأ قليلا. لقد ماتت (سيبل فين)!
صرخة ألم خرجت من شفتي الفتى وهو ينهض محررا بيديه:
- ماتت؟ (سيبل) ماتت؟ هذا ليس حقا! كيف تجرؤ؟
- للأسف هذا صحيح... - قال اللورد بجدية -
- كل هذا في صحف الصباح.. سيكون هناك تحقيق ولا أريد لاسمك أن يقحم في كل هذا.. إن هذه الأشياء تجعلك (موضة) في (باريس).. لكنها هنا في (لندن) فضيحة.. هل يعرفون اسمك في المسرح؟
لم يجب (دوريان).. كانت شفتاه ترتجفان والرعب يجتاحه: - (هارى).. هل قلت (تحقيق)؟ هل (سيبل)؟
لا أتحمل هذا يا (هارى) لكن تكلم سريعا..
قال لورد (هنرى):
- أنا واثق من أن الأمر لم يكن حادثا.. وجدوها في غرفة الثياب ميتة.. ابتلعت مادة ما تستعمل في المسارح.. لا أعرف كنهها لكنها بالقطع تحوي الرصاص الأبيض أو حمض (البروسيك)..
صرخ الفتى:
- (هاري)! هذا شنيع!

- نعم هذا شنيع.. لكن عليك ألا تزج بنفسك في هذا.. أريد منك أن تأتي للشاء معي ثم تذهب إلى الأوبرا.. يمكنك أن تحضر في مقصورة أختي.. لسوف تكون معها بعض النسوة الجذابات..
لم يرد (دوريان).. بل هتف:
- اذن أنا قتلت (سييل).. كأنني ذبحت عنقها الصغير بسكين.. وبرغم هذا لم يقل جمال الزهور، ولم تكن البلابل عن الغناء في حديقتي.. كم أن الحياة مأساة!.. والخطاب الذي كتبته.. أول خطاب حب أكتبه لامرأة في حياتي هو خطاب لفتاة ميتة.. أتراهم يحسون يا (هارى)؟ أولئك القوم الصامتون الشاحبون الذين نسميهم موتى؟.. أتشعر يا (هارى) أو تسمع ما أقول؟ كانت كل شيء لي.. والآن ولت ومعها ولت آخر فرصة لي كي أستقيم..
قال اللورد بطريقته الباردة التحليلية:
- ثمة فتاة قتلت نفسها من أجل حبك.. أتمنى لو كانت لي تجربة مماثلة.. إن النساء اللواتي همن بى - ولسن كثيرات - أصررن على الحياة طويلا بعد ما كففت وكففن عن الشعور بالحب.. إنهن يعزين أنفسهن بارتداء ألوان عاطفية.. لا تثق بامرأة ترتدي اللون البنفسجي في أي سن.. ولا تثق بامرأة تجاوزت الخامسة والثلاثين وتضع شرائط وردية في شعرها معنى هذا أن لها ماضيا..، ولكن (سبيل فين) تختلف.. إن موتها يجعلني أعيد النظر في كل ما كنت أتهكم عليه.. الرومانسية - الحب – الهوى..
ثم أردف وهو يشعل سيجارا بعلبة ثقاب مذهبة:
- إن الفتاة لم تعش حقا قط.. لهذا هي لم تمت قط.. يمكنك أن تنتحب على (أوفيليا) أو تضع التراب فوق رأسك بسبب خنق

(كورديليا) لكن لا تذرف دمعة على (سيبل).. إنها أقل وجودا حقيقيا من كل بطلات (شكسبير) اللواتي لعبت دورهن..
كان المساء يدنو.. ودون جلبة وبقدمين من فضة زحفت الظلال من الحديقة..
لقد نجحت كلمات لورد (هنرى) في تهدئة ذعر الفتى وتوتره..
في النهاية قال (دوريان):
- سأذهب إلى الأوبرا.. لكني لن أكل شيئا.. ماهو رقم مقصورة أختك؟..
- .. سبعة وعشرون.. ستراه على الباب مع اسمها..
وشكره (دوريان) في حرارة قائلا: إنه خير صديق له. فرد هذا:
- ما زلنا في بداية صداقتنا يا (دوريان).. تذكر أن (باتى) تغني في الأوبرا هذه الليلة..
فما إن انصرف اللورد حتى هرع (دوريان) نافذ الصبر ليزيح الستار عن الصورة.. لا.. لم يحدث تبدل جديد.. لابد أن خطوط القسوة التي تحيط بالفم ظهرت في ذات اللحظة التي تجرعت فيها الفتاة السم.. ليت بوسعه أن يرى التغير أمام عينيه..
مسكينة (سيبل)! ما أروعها من قصة رومانسية!
كيف لعبت هذا المشهد الأخير المروع؟ هل لعنته قبل الموت؟
لن يفكر في هذا.. سيفكر فيها كشخصية عظيمة ظهرت على مسرح الحياة لتظهر روعة الحب العظمى.. ولسوف ينسى وجهها الطفولي الذي تخلت عنه في تهور..
إن صورته ستلعب دور المرأة المسحورة.. لن تظهر وجهه، بل ستظهر روحه.. ولسوف تتجعد الصورة وتضمر لكنه سيظل بنضارته ذاتها، ولن يفقد زهرة من زهور صباه..
وهكذا أعاد تغطية اللوحة..

وبعد ساعة كان جالسا في (الأوبرا) جوار اللورد (هنرى)..

∞∞∞∞∞

(9)

بينما كان يتناول الإفطار في الصباح التالي؛ ظهر باسيل هولورد)..
قال الرسام في حزن:
- سرني أن وجدتك يا (دوريان).. جئت البارحة، فقالوا لي: إنك في الأوبرا.. بالطبع عرفت أن هذا مستحيل.. وقضيت ليلة مفزعة أتوقع فيها أن تتبع المأساة مأساة أخرى.. قرأت الحادث بالمصادفة في جريدة (جلوب) وجدتها في النادي.. إنك لن تتصور كم تحطم فؤادى لهول ما جرى. ولكن أين كنت أنت؟ هل ذهبت لتلقي أم الفتاة؟ كدت الحق بك لكنى لم أرد إقحام نفسي في حزن لا أستطيع تخفيفه.. مسكينة تلك المرأة!.. ماذا قالت لك؟
غمغم (دوريان) وهو يرشف النبيذ من كأس من الزجاج الفينيسي مذهب الحافة:
- كيف لي أن أعرف؟ لقد كنت في الأوبرا بالفعل.. كان يجب أن تكون معنا هناك.: لقد قابلت ليدي (جويندولين) أخت (هارى)، وهي امرأة فاتنة.
وغنت (باتي) كما لم تغن من قبل.. والآن دعنا لا نتكلم عن الأمور السيئة.. فالمرء إن لم يتكلم عن شىء فلا وجود لهذا الشيء..
قال الرسام ببطء، وقد بدا ألم ما في صوته:
- أنت ذهبت إلى الأوبرا؟.. ذهبت إليها بينما (سيبل فين) ترقد في مشرحة ما؟ تتحدث عن فتنة النساء و (سيل) لم تعرف بعد ظلمات القبر وسكونه؟

- كف يا (باسيل)! ما قد فات قد مات..
- (دوريان)!.. هذا مريع.. شيء ما قد غيرك تماما.. ما زلت تبدو ذات الشباب الوسيم الذي كنت أجد فيه أكثر الشباب طهرا في هذا العالم.. اليوم تتحدث كأنما لا عاطفة فيك.. وهذا تأثير (هارى) الضار عليك..
صاح (دوريان):
- إن القوم الضحلين فحسب هم من يحتاجون إلى أعوام كى يتخلصوا من عاطفة.. إنما الأنسان سيد نفسه هو من يستطيع أن ينهي حزنا بالسهولة التي يخلق فيها مسرة.. لن أكون عبدا لعواطفى.. بل أريد أن أحكمها.. أن أستمتع بها..
لم يستطع الرسام أن يوجه مزيدا من اللوم للفتى...
لربما كانت لا مبالاته هي نتيجة للصدمة.. فما زال في الفتى كثير من الطيبة والنبل..
بعد قليل تساءل:
- وهل الشرطة لا تعرف اسمك؟ لا أريد أن تقحمك في الأمر..
- إن الفتاة لم تذكره قط.. كانت تسميني لدى أسرتها بـ (الأمير الجميل).. وقد كان هذا لطيفا منها..
هنا تصلب الرسام ونظر إلى الستار الذي يدارى اللوحة.. وصاح:
- هل داريتها؟ إن هذا لمهين.. كنت أشعر من البدء أن الغرفة مختلفة.. لماذا أخفيت خير عمل لي هكذا؟



واتجه في عصبية تجاه اللوحة .. لكن (دوريان) وثب ليقف بين الرسام والستار ..

واتجه في عصبية تجاه اللوحة لكن (دوريان) وثب ليقف بين الرسام والستار.. وصرخ في هلع، وقد شحب لونه:

- (باسيل).. لا أريد أن تنظر لها..!

تساءل الرسام ضاحكا:

- لا أنظر إلى لوحتى؟ لا يمكن أن تكون جادا..

- لو حاولت يا (باسيل) فلسوف تنتهي صداقتنا أبدا.. وأقسم بشرفي!.. ضرب البرق (باسيل).. فنظر بذهول إلى (دوريان).. لم ير الفتي غاضبا بهذا الشكل من قبل كان يرتجف انفعالا..
قال الرسام ببرود وهو يبتعد عن اللوحة قاصدا النافذة:
- حسين.. لكني لا أرى سببا محترما يمنعني من رؤية لوحتى؛ التي كنت سأعرضها في (باريس) الخريف القادم.. إنها بحاجة إلى طبقة ورنيش..
- تعرضها؟.. تعرضها؟
- نعم.. في معرض خاص بي في (رودى سيز).. ما دمت تضع لوحتي وراء ستار فلا أخالك ستفتقدها كثيرا..
مرر (دوريان) كفه على جبينه ليزيل العرق وهتف:
- لكنك قلت: إنك لن تعرضها أبدا.. قلتها مرارا..
دعاه الرسام إلى الجلوس وقال له:
- عندما رسمت هذه اللوحة شعرت بأنك فيها حقا.. وأن روحي قد تركت بصماتها عليها حتى إنها تفضح ذاتى.. إن الفن قلما يعبر عن الفنان.. لكن هذه الصورة عبرت عني حتى صرت أخجل من أن يراها الناس.. ثم إن اللوحة انتقلت إلى حوزتك فبدأت أشعر بأنني كنت أحمق حين ظننت أنها تحوى الكثير من روحي.. وخطر لي أن أعرضها في (باريس).. لكنني الآن أوافقك على رفضك لهذا وإنني لأفضل أن أخسر لوحة على أن أخسر صديقا..
ثم إن الرسام ودعه.. واعتذر على إلحاحه..
مسكين (باسيل).. ما أقل ما يعلم..!
تنهد (دوريان) وقرع الجرس.. إن الصورة يجب أن تدارى بأي ثمن.. كان من الحمق منه أن يترك اللوحة في غرفة يصل إليها أصدقاؤه.. ويدخلونها..

∞∞∞∞∞

(10)

حين دخل الخادم تأمله (دوريان) متسائلا..
أيكون قد حاول النظر خلف الستار؟ أشعل (دوريان) لفافة تبغ.. وظل يرمق وجه الخادم الجامد الذي ينتظر الأوامر.. كلا.. لا داعي للخوف منه..
طلب منه أن يستدعي مديرة المنزل.. وجاءت المرأة العجوز فطلب منها أن تعطيه مفتاح غرفة الدراسة..
- لكن الغرفة مهملة منذ خمس سنوات.. منذ توفي جدك.. ولسوف تكسوك خيوط العناكب لو دخلتها.. لابد من أن أنظفها أولا..
امتعض (دوريان) حين ذكر اسم جده بما يحمله من ذكريات سيئة.. لكنه كرر الأمر للمرأة فناولته المفتاح مترددة..
حين خرجت المرأة، دس المفتاح في جيبه وبحث في الحجرة حتى استقرت عيناه على غطاء من الساتان الأرجواني.. قطعة من تحف القرن السابع عشر وجدها جده في (بولونيا).. لابد أنها ستصلح ليغلف بها الشيء.. كانت يوما ما غطاء للموتى اليوم تصلح غطاء لمن تعفنت روحه.. دنا من اللوحة ونزع عنها الغطاء.. لم تكن قد تغيرت.. مازال الشعر ذهبيا والعينان زرقاوين والشفتان الورديتان كما هما.. لكن التعبير قد تغير.. المزيد من القسوة على الوجه.. إن روحه تبرز له من وراء الستار تدعوه إلى المحاكمة..
غطى اللوحة بغطاء الساتان إذ سمع قرعة على الباب.
صوت الخادم يقول:
- إنهم ها هنا يا سيدي..

ومن الباب دخل (هوبارد) صانع الإطارات الشهير، ومعه مساعد خشن المظهر.. كان (هوبارد) شابا محتقن الوجه يتعامل مع الفنانين بكثرة..
- ماذا بوسعي أن أقدم لك يا مستر (جراى)؟
قالها وفرك يديه السمينتين..
- لم أكن أريد أن أتعبك يا مستر (هوبارد)..
كل ما هناك أن لدى لوحة أريد نقلها إلى الطابق العلوي، وهي ثقيلة جدا لذا أردت أن أقترض رجلين من رجالك..
وأشار إلى اللوحة.. وقال:
- هي ذي.. أريد نقلها مغطاة.. فلا أبغي لها أن تخدش في أثناء النقل..
وافق (هوبارد) وتعاون مع مساعده على فك اللوحة من السلاسل النحاسية التي كانت معلقة منها...
ثم بدأ الصعود في الدرج.. وبرغم احتجاج مستر (هوبارد) الذي يمقت ككل التجار أن يرى أحد السادة يمارس عملا مفيدا؛ فإن (دوريان) وضع يديه على اللوحة ليعين الرجلين..
قال الشاب وقد وصلوا إلى الغرفة:
- حقا هي ثقيلة يا سيدي..
فتح (دوريان) الباب.. باب الغرفة التي سيخفي فيها سر روحه عن العيون.. الغرفة التي لعب فيها طفلا ودرس فيها مراهقا.. كم يتذكر كل هذا.. طفولته الوحيدة تعود لذاكرته.. كتبه.. لعبه.. اللوحات على الجدار..
هنا لن يرى أحد اللوحة حتى هو.. لماذا يرى التخريب المخيف لروحه؟ لماذا يرى وقع السنين والآثام على هذا الوجه؟
تساءل (هوبارد) في أدب:
- ألنا أن نرى هذه التحفة يا سيدى؟

نظر له (دوريان).. وكاد يثب ليخنق الرجل لو جرؤ على نزع الستار..
- لا.. لن تروق لك..
وشكرهما طالبا منهما الرحيل..
وحين تلاشى صوت أقدامها؛ أغلق (دوريان) الباب بالمفتاح، ووضع هذا في جيبه..
عاد إلى المكتبة ليجد أن الساعة تجاوزت الخامسة، وأن الشاي قد وضع على المائدة الصغيرة.. وكان هناك خطاب من لورد (هنرى) وكتاب رث الحال قليلا مجلد بلون أصفر.. وجريدة (الجازيت)..
صب لنفسه الشاي مفكرا.. إن اختفاء اللوحة سيثير فضول الخادم.. من يدري؟ لربما وجده ذات ليلة يحاول اقتحام الغرفة بالطابق العلوي ليشبع فضوله.. إن هذا مريع.. لكم سمع عن خدم ابتزوا سادتهم بعدما قرروا خطابا.. أو سمعوا محادثة.. أو وجدوا زهرة تحت وسادة..
فتح الجريدة ليتصفحها.. فوجد خبرا في الصفحة الخامسة يقول:
«التحقيق بخصوص ممثلة.. قام المشرح الشرعي مستر (دابنى) بتشريح جثة ممثلة شابة تدعى (سيبل فين).. كان موتها قد أثار شبهة انتحار قوية..
وقد كانت أم الفقيدة منهارة تماما في أثناء استجوابها
عبس وجهه ومزق الجريدة إربًا.. يا لقبح هذا الأمر كله! ثم تناول الكتاب الذي عرف أن لورد (هنرى) قد. أرسله إليه ليقرأه..
تمدد على الأريكة وراح يقلب الأوراق.. وسرعان ما غاب وسطها.. كان هذا أعجب كتاب قرأه في حياته.. أشياء لم يحلم بها تتضح أمام عينيه لحظة فلحظة.. كان يدور حول رجل

باريسي من القرن التاسع عشر يحاول أن يعيش كل شهوات وأفكار القرون الغابرة.. وقد كتب الكتاب بأسلوب رفيع مجدول كسلاسل الذهب بقلم أفضل فناني المدرسة الرمزية الفرنسية.. وراح يتقلب بين الرؤى الصوفية العليا وأعمق الغرائز الآدمية..
لقد كان كتابا ساما..
وجاء المساء فلم يعد قادرا على مواصلة القراءة..
وأخيرا جاء الخادم ليذكره بموعد العشاء، فنهض ليرتدي ثيابه..
وفي النادي كان لورد (هنرى) جالسا ينتظره وقد بدا عليه القلق..
فقال له معتذرا..
- آسف لتأخري.. لكن كتابك قد فتتني.. لم يرق لى لكنه قتلني..
هناك فارق كبير بين الكلمتين..
غمغم لورد (هنرى) وهو ينهض معه لدخول قاعة الطعام.
- آه!.. أنت كذلك لاحظت هذا الفارق..

∞∞∞∞∞∞

(11)

ولأعوام طوال لم يستطع (دوريان براى) أن يتحرر من تأثير هذا الكتاب..
أو - ربما - لم يحاول قط أن يتحرر منه وغدا بطل الكتاب الباريسي الذي جمع بشكل غريب بين الرومانسية والأسلوب العلمى؛ هو القدوة التي تحرك حياة (دوريان).. كأن الكتاب يحوي قصة حياته هو من قبل أن يعيشها..
لكن (دوريان) كان يختلف عن بطل القصة.. فهو لم يكن يهاب المرايا التي يرى فيها وجهه.. لقد ظل محتفظا: بجماله الخلاب الذي يبهر الجميع.. وحتى من بدءوا يسمعون عن أعماله الشريرة، ويتحدثون عن أسلوب حياته الغريب.. حتى هؤلاء كانوا يكذبون كل ما يسئ إليه حين يرونه..
كان يبدو دوما كإنسان لم يلوثه هذا العالم.. مجرد وجوده كان يعيد إلى أذهان الناس الطهر الذي فقدوه..
وعندما كان يعود لداره بعد إحدى جولاته الغامضة التي تثير الأقاويل؛ كان يصعد إلى الطابق العلوي فيفتح الغرفة الموصدة.. ويقف أمام اللوحة وقد وضع مرآة بجوارها.. ويرمق الشر والشيخوخة اللذين زحفا على اللوحة.. ثم يرمق الوجه الغض الأشقر الذي يبادله النظر من وراء المرآة.. عندها يجعله التناقض الحاد يبتسم ويزداد إدراكا لجماله الخاص.. وإدراكا لخراب روحه..
كان قد غدا نجم المجتمعات، وغدت ثيابه المبهرجة الحديثة (موضة) في حد ذاتها في أندية (لندن)، كما أنه راح يطالع الأدب بنهم، فصارت ثقافته مزاجا من التصوف والدقة العلمية.. وكان

له اهتمام خاص بآراء (داروين) في ألمانيا.. وانبهر بدور المادة - على شكل عصب أو خلية مخ - في السيطرة على الروح..
لكن نظريات الحياة لم تثر اهتمامه كما أثارته الحياة ذاتها.. راح يدرس الحواس.. العطور وصنعها، وراح يحرق الزيوت الشرقية ويفكر في أنه ما من حالة عقلية لا تعبر عنها العطور.. رائحة الجذور ورائحة الصبار.. ورائحة البنفسج.. ورائحة زهر البرتقال..
أحيانا كان يدرس الموسيقا.. فكان يؤلف مقطوعات عجيبة كأنما يرقص حولها الغجر أو يقرع الزنوج لها طبولهم.. واقتنى آلات موسيقية غريبة من حضارات غابرة ومن أرجاء الأرض
لفترة ما اهتم بالأحجار الكريمة، وظهر في حفل أقامه أدميرال فرنسا وهو يرتدي ثوبا عليه خمسمائة وستون لؤلؤة.. ولقد قضى الساعات يصنف مجموعاته ويقرأ كل شيء عنها.. ويضعها في علب مخملية..
ومر صيف بعد صيف، ورددت ليالي الرعب قصة عارها.. لكنه لم يتغير.. لم يأت شتاء يبدل وجهه أو يفسد نضارته..
الكنوز النادرة تتراكم في صناديق في داره.. وفي غرفة الصبا حيث علق الصورة ليتأملها بمفرده ويرى فيها التحلل الحقيقي الذي بدا يطرأ على ملامحه.. كان ينساها لأسابيع ثم يتذكر فيصعد ليراها يشعر بالاشمئزاز منها.. ثم يشعر بالتفرد – وهو جزء من جاذبية الآثام - ويبتسم في سرور ساخرا من الرسم القبيح الذي يحمل ذنب خطاياه هو..
كان يخشى طوال الوقت أن يقتحم أحد الغرفة..
ولكم ترك أصدقاءه في مسراتهم التي تبهر الناس ببذخها ليهرع إلى داره ليتيقن من أن الباب مغلق بإحكام، والصورة ما زالت هناك..

كانت الأقاويل تحيط به في المجتمعات، وكانت هناك تساؤلات لدى النساء حول سحره غير العادي وجماله الذي يبدو أبديا.. لكن المجتمعات المتحضرة لا تصدق أي حرف يقال عن الأثرياء بارعي الجمال..

وتعتقد أن السلوك المتحضر يكفي عوضا عن الأخلاق التقليدية.. وفي مجتمعات كهذه يصعب إقناع الناس أن من قدم لهم عشاء متواضعا أو سقاهم شرابا رديئا هو شخص نزيه في حياته الخاصة..

وراح (دوريان) يتساءل عن الفهم الضحل للإنسان، لدى أولئك الذين يعتبرون العقل الباطن شيئا بسيطا دائما موثوقا به..

كان يؤمن بأن الإنسان حيوات عديدة وأحاسيس عديدة.. مخلوق غامض يحوي بداخله تركات لا تنتهي من العواطف والآلام..

∞∞∞∞∞∞

(12)

كان هذا هو اليوم التاسع من (نوفمبر).. عيد ميلاده الثامن والثلاثين كما تذكر فيما بعد...

كان عائدا بعد العشاء - الحادية عشرة مساء – من دار لورد (هنري)، وقد تدثر في الفراء لأن الليل كان باردا ضبابيا.. عند ركن ميدان (جروزفينور) مر به رجل في الظلام يجد السير رافعا ياقة معطفه لأعلى.. وفي يده حقيبة.. تعرفه (دوريان) على الفور.. كان هذا هو (باسيل) الرسام. أحس بخوف لم يستطع تفسيره وابتعد متجها نحو داره..

لكن الرسام رآه، وسمعه يركض نحوه وأمسك بذراعه:

- (دوريان)!.. أي حظ!.. انتظرتك في دارك منذ التاسعة لكنك لم تأت.. أنا ذاهب إلى (باريس)

الليلة وأردت لقياك قبل أن أرحل.. ألم تتعرفني؟

- أفي هذا الضباب يا (باسيل)؟ كدت لا أميز ميدان (جروزفينور) ذاته.. يؤسفني رحيلك لكنى متيقن من عودتك؟

- سأغيب عن البلاد ستة أشهر.. وأريد أن أخبرك بشيء..

قال (دوريان) وهو يصعد في درج منزله ويفتح القفل:

- هذا سيسرني.. ولكن ألن يؤخرك هذا عن القطار؟

- بتاتا.. ما زال أمام جبل من الوقت..

ودخل الرجلان إلى المكتبة حيث كانت النار مشتعلة في المدفأة.. وشرع (دوريان) يقدم لصاحبه الشراب الممزوج بالصودا.. ثم سأله:

- ترى ماذا هنالك؟ أرجو ألا يكون الموضوع متعلقا بي.. فقد سئمت نفسي هذه الليلة بصوته العميق الهادئ.. قال الرسام:

- إنه عنك.. لن يستغرق هذا أكثر من نصف ساعة..

ثم أردف:
- هذا لصالحك.. أظن من حقك أن تعلم أن أبشع الأشياء تقال عنك في (لندن)..
- هذا لا يهمني.. أحب أن أعرف فضائح الآخرين، لكني لا أعبأ بمعرفة فضائحي.. فهي تفتقر إلى الجدة..
- لكن (الجنتلمان) الحقيقي لا يحب أن يتكلم الناس عنه كشرير منحل.. بالطبع إن لديك مركزك الاجتماعي وثروتك.. لكنهما ليسا كل شيء.. أنا لا أصدق ما يقال.. فالخطيئة ترسم نفسها على وجه صاحبها.. ولا توجد خطيئة سرية.. لهذا حين أبصر وجهك البريء النقي أوقن ألا صحة لما يقال عنك، ولكن.. لماذا يقولون هذه الأشياء عنك؟ ولماذا يغادر رجل مثل دوق (بيرويك) غرفة النادي حين تدخلها أنت؟ ولماذا لا يدعوك كثير من سادة المجتمع إلى ديارهم؟ ولماذا يقولون إنه على أية فتاة محترمة ألا تتواجد في مكان أنت فيه؟
صاح (دوريان) محنقا وهو يعض شفته:
- كفاك يا (باسيل) كلاما عن أمور تجهلها..
تقول لماذا يغادر دوق (بيرويك) القاعة؟ لأنني أعرف كل شيء عن حياته وليس لأنه هو من يعرف كل شيء عن حياتي.. هذه هي إنجلترا.. حيث ينتقد الناس بعضهم لمجرد التظاهر بأنهم أرقي طبقة ومحتدا.. إنجلترا يا عزيزي هي وطن النفاق..
صرخ (هولرود):
- لتكن إنجلترا سيئة.. لهذا أري لك أن تكون جيدا.. لكن بوسع المرء الحكم عليك من رفاقك.. لقد فقدوا كل إحساس بالشرف أو الخير أو النقاء.. ثم - ماهو أسوأ - أنا أعرف علاقتك الحميمة بـ (هارى).. ولهذا السبب وحده ما كان يجب أن تلوث اسم شقيقته..

- حذار يا (باسيل).. لا تتماد..!
- حين عرفتها لم تكن هناك وصمة أو شبهة إشاعة حولها.. والآن هل توجد امرأة مهذبة واحدة في (لندن) تجرؤ على المشي معها في الحديقة؟ وماذا عن منزلك الريفي؟ ما الذي يجري فيه؟ ولماذا يراك الكثيرون تغادر الحانات القذرة وأوكار الرذيلة في آخر الليل؟ كل هذا يقال أمامي ولا أدري صحته.. كيف أعلم؟ لابد لي من أن أرى روح كى أدرك الحق من الباطل!
- ترى روحى؟
قالها (دوريان) بصوت خفيض وهو يجلس على الأريكة، وقد ابيض وجهه هلعا.. فرد (هولورد) بصوت محزون:
- نعم.. لكن الله وحده يقدر على ذلك.. تعال معي..
أمسك (دوريان) بمصباح.. وابتسم ابتسامة مريرة.. وقال: «سترى هذه الليلة عمل يديك.. لماذا لا تراه؟ لسوف تخبر العالم كله عن ذلك لكن أحدا لن يصدقك.. أنت تحدثت كثيرا عن الفساد والانحلال، والآن ستلقاهما وجها لوجه..»
كان ثمة فخر في كل لفظة قالها.. سرور وحشى غمره حين عرف أن هناك من سيشاركه سره.. وأن من رسم صورته سيعاني طوال عمره وزر ما فعل وابتسم.. وفي قسوة قال:
- هلم إلى الطابق العلوي.. إن لدى مفكرة دونت فيها حياتي يوما فيوما.. ولسوف أريكها إن أنت جئت معي..
- سآتي يا (دوريان).. قد فقدت قطارى ولم يعد ما يدعو للعجلة.. لكني أريد إجابة واضحة: هل ما يقال عنك حقيقة؟
- إذن تعال.. وأعدك بأنك لن تقرأ طويلا في مفكرتي هذه..

∞∞∞∞∞∞

(13)

بدأ الصعود.. المصباح يلقي ظلالا خيالية على جدران الدرج.. وريـع بعيدة تجعل إحدى النوافذ تقعقع..
وتناول (دوريان) المفتاح وأولجه في القفل، وسأل بصوت خفيض:
- مصر على المعرفة يا (باسيل)؟
- (نعم...
هذا يسرني.. - وبصوت خشن وابتسامة أضاف - فأنت الرجل الوحيد في العالم الذي يمكنه أن يعرف كل شيء عني..
دخلا الغرفة.. فهب تيار بارد من الهواء عليهما وازداد وهج المصباح فأغلق (دوريان) الباب وراءهما..
لم يكن شيء في الحجرة يوحي بأن هناك من دخلها منذ أعوام.. كل شيء يغمره الغبار.. رائحة عطن رطبة..
- أزح هذا الستار أي (باسيل) لترى روحى..
توقف (باسيل) مترددا غير فاهم.. فمد (دوريان) بيده ليزيـح الستار ويلقيه جانبا.. صرخة ذعر خرجت من شفتي الرسام حين رأى في الضوء الخافت ذلك الوجه المريـع على القماش.. شىء ما في تعبير الوجه ملأه تقززا واشمئزازا.. يا رباه!.. إن هذا هو وجه (دوريان براى)..



فمدّ (دوريان) يده ليزيح الستار ويلقيه جانبًا ..

مازال بعض الجمال باقيا في الرسم.. ولكن من أفسد اللوحة هكذا؟ مد يده إلى شمعة صغيرة فأشعلها وقربها من الركن الأيسر السفلى ليجد اسمه مكتوبا هنالك..
هذه دعاية سمجة!.. هذه ليست لوحته.. لكنها هي!.. دمه يستحيل في ثوان من النار إلى الجليد ماذا حدث؟ استدار إلى (دوريان) عاجزا عن النطق غارقا في عرق بارد..

كان الفتى صامتا يرقبه وعلى وجهه تعبير من يشاهد مسرحية رائعة.. لا حزن ولا فرح.. فقط حماس المشاهدين..
قال (دوريان) وهو يتشمم - أو يتظاهر بذلك - زهرة انتزعها من ياقة سترته:
- منذ أعوام كنت أنا صبيا.. قابلتني وعلمتني معنى وسامتي.. ثم قدمت لي صديقا شرح لى روعة الشباب.. هنا تمنيت أمنية مجنونة في لحظة بعينها..
- مستحيل.. إن هذه الغرفة رطيبة وقد أحدثت الطحالب تأثيرا كيمائيا في الأصباغ.. مما أدى إلى.....
- ألم تقل لي: إنك دمرت اللوحة؟
- كنت مخطئا.. اللوحة هي التي دمرتني..
- أنا لم أرسم هذا.. هذا وجه مسخ... ان هذا وجه روحى..
جلس الرسام على مقعد هناك، ودفن وجهه بين كفيه، ومن حيث وقف (دوريان) عند النافذة؛ تعالى صوت نهنهة..
كان يشعر بمقت ل (باسيل).. لم يمقت أحدا في حياته كما مقت (باسيل) الآن.. أحاسيس الحيوان المطارد تتحرك في داخله..
ورأى شيئا يلتمع في الظلام.. سكين نسيها في هذه الغرفة من سنين.. مشي ببطء نحوها وأمسكها..
كان (هولورد) يحاول النهوض حين انقض عليه (باسيل)، وغرس السكين في الوريد الضخم المار خلف الأذن - وراح يطعن – ويطعن..
صوت أنين.. والصوت المفزع لشخص يشرق بالدماء.. ثم همد الجسد، وراح شيء ما يتدفق إلى الأرض..
وقف في الظلام يصغى.. صوت النقاط تتساقط.. تتساقط.. فتح الباب وغادر الغرفة.. فلم يكن ثمة أحد بالخارج..

. عاد ليدخلها ويغلقها على نفسه بالمفتاح من الداخل..
الرجل مازال جالسا على مقعده.. ولولا الخط الأحمر في العنق لبدا لمن يراه كالنائمين..
كيف تم هذا بسرعة!.. لقد ولى الرجل الذي رسم الصورة.. وهذا كان بالنسبة له أعاد فتح الباب، وأخرج المصباح حتى لا يفتقده الخادم.. هبط في الدرج وخشب الأرضية يصرّ..
المعطف والقبعة مازالا في غرفة المكتب.. يجب إخفاؤهما.. ثم يمكن حرقهما فيما بعد..
إن القوم يشنقون في إنجلترا يوميا - شهريا – سنويا جزاء على فعلته هذه.. لقد دنا النجم الأحمر من الأرض فأصابه الهوس لكن من يعلم بما فعله؟
الخدم متغيبون ووصيفه غاف الآن.. وكل من يعرف (باسيل) يعرف أنه مسافر إلى باريس) هذه الليلة بالذات.. وكل الناس يعلمون أن (باسيل) يتغيب طويلا بلا تفسير..
ثم إنه ارتدي معطفه وقبته وغادر الدار.. أغلق الباب برفق خلفه. ثم قرع الجرس.. وبعد خمس دقائق ظهر وصيفه بثياب النوم والنعاس يغالبه..
قال (دوريان):
- معذرة لإيقاظك أي (فرانسيس).. نسيت مفتاحى.. كم الساعة الآن؟
نظر الرجل للساعة ورمش بعينية:
- الثانية وعشر دقائق بعد منتصف الليل..
- ياله من وقت متأخر!.. تذكر أن توقظني في التاسعة.. هل زارني أحد الليلة؟
- مستر (هولرود) يا سيدي.. مكث حتى الحادية عشرة ثم انصرف.. وقال إنه سيكتب لك من (باريس)..

- لا بأس.. والآن اذهب ونم..
ثم خلع (دوريان) معطفه وقبعته ودخل إلى المكتبية ومن أحد الرفوف أخذ دليل العناوين وراح يقلب الأوراق حتى وجد الرجل الذي يريده:
آلان كاميل - 152 - هيرتفورد ستريت - ماى فير..

∞∞∞∞∞

(14)

في التاسعة صباحا دخل الخادم غرفته حاملا قدحا من الشيكولاتة.. كان (دوريان) نائما في سلام وقد توسد يده اليمنى.. فبدا كطفل أنهكه اللهو.. اضطر الرجل إلى أن يهزه مرتين ليوقظه.. فنهض من نعاس طويل بلا أحلام..، وراح يرشف الشيكولاتة، وقد بدأ يتذكر ما حدث بالأمس.. نهض ليرتدي ثيابه بعناية كعادته، موليا اهتماما كبيرا بربطة العنق ودبوس الوشاح.. وجلس بشهية يلتهم إفطاره، ثم إنه جلس ليكتب خطابين طلب من الخادم أن يحمل أحدهما إلى 152 (هيرتفورد ستريت)..

وطفق ينتظر قدوم الرجل.. كانا صديقين لا يفترقان منذ خمسة أعوام.. وكان (آلان كامبل) شابا بارعا، وإن كان لا يتذوق الفنون البصرية ولا يحب الشعر لكنه كان يحب العلم.. وقضى وقتا طويلا في معامل (كامبردج).. ثم قابل (دوريان) في إحدى حفلات (روبنشتاين) في دار السيدة (بركشاير).. وجمعت الموسيقا بين روحيهما..

ثم بدأ (كامبل) يتغير.. وصار يتجنب (دوريان) دون سبب واضح.. وتضاءل اهتمامه بالموسيقا، وإن ظهر اسمه مرة أو مرتين في المجلات العلمية مقرونا بتجارب غريبة..

هذا هو الرجل الذي يحتاج إليه (دوريان) الآن.. لكن متى يعود الخادم؟ وهنا انفتح الباب ودخل الأخير يعلنه أن مستر (كامبل) ها هنا..

تنفس (دوريان) الصعداء، وعاد الدم إلى خديه..

- دعه يدخل يا (فرانسيس)..

وجاء (آلان).. كان رجلا شاحبا زاد من شحوبه شعره الفاحم وحاجباه الكثان. فما إن حياه (دوريان) حتى قال:
- ما كنت أرغب في دخول دارك.. لكن قلت: إنها مسألة حياة أو موت..
قالها وأبقى يديه في جيبي معطفه الاستراخان معلنا عدم رغبته في المصافحة. دعاه (دوريان) للجلوس، ففعل.. والتقت عينا الرجلين..
مال (دوريان) للأمام وقال وهو يرمق وجه الرجل:
- (آلان).. في غرفة بالطابق العلوي يوجد رجل ميت.. ميت منذ عشر ساعات. لا ترمقني كذا!.. لا تسألني من هو؟
ولا كيف مات؟.. ولا لماذا مات؟.. أنت الرجل القادر على إنقاذي.. فأنت عالم تفقه في الكيمياء..
ويمكنك أن تدمر هذا الجسد الميت.. بحيث لا يبقى منه شيء.. إن الشرطة لن تبحث عنه قبل شهور.. وعندها لا أريد أن تجد منه سوى رماد منثور في الهواء..
قال الرجل:
- أنت مخبول.. لا أريد - سواء أكان ما قلت حقًا أم زيفا - أن أندمج في شئون حياتك.. فأبق أسرارك المريعة لك لأنها لا تثير اهتمامي..
- كان انتحارا يا (آلان)..)
- يسعدني أن أعرف هذا.. لكن من جعله ينتحر؟!
- إذن ترفض معاونتي؟
- لا أعبأ بأي عار يصيبك من جراء هذا.. كيف تجرؤ على طلب شيء كهذا مني؟ يبدو أن صاحبك اللورد (هنرى) قد نسي أن يعلمك تقييم الناس ضمن ما علمك.. ولقد اخترت الرجل غير المناسب بالتأكيد..

- (آلان).. أنا مذعور وأتوسل إليك.. هب هذه تجربة علمية تقوم بها.. وهب أنك لا تعرف شيئا عن موضوعها.. ثم إن هناك نقطة قد تهمك.. ثمة خطاب كتبته إلى شخص معين.. ولسوف أرسله مالم تساعدني.. لا أحب هذا لكنك لم تترك لى الخيار وعاملتني كما لم يجرؤ مخلوق على معاملتي من قبل..
شحب وجه (آلان) وارتمى في مقعده، وداهمه الغثيان..
كانت الساعة تدق فوق المدفأة كأنها تقسم الزمن إلى ذرات منفصلة من الألم.. ثمة حلقة من الفولاذ تضيق حول جبهته...
في النهاية قال بلا تردد:
- ليكن.. هل هناك نار في تلك الحجرة بالطابق العلوي؟
- نعم..
لا أريد أن أجلب أشياء من دارى..
- لا.. اكتب ما تريد على ورقة.. ولسوف يجلب لك خادمى ما تريد..
خط (آلان) بعض سطور على ورقة يرسلها لمساعده، فقرأ (دوريان) الورقة بعناية ثم استدعى خادمه هو وطلب منه أن يجلبها له..
مرت عشر دقائق من الصمت والترقب، ثم عاد الرجل حاملا صندوقا من الخشب مليئا بالكيماويات، فسأل (دوريان) (الان):
- كم من الوقت تستغرق تجربتك يا (آلان)؟
قالها في لا مبالاة وهدوء.. كأن وجود ثالث في الحجرة وهبة شجاعة غير عادية..
- (خمس ساعات..
- إذن يمكنك إمضاء الأمسية كما تريد يا (فرنسيس).. فلسوف أتناول عشائي خارج الدار..

ثم إنه أصطحب (آلان) إلى الغرفة الرهيبة بالطابق العلوي.. لم يكن ينوى دخول الغرفة لكنه لمح الصورة معلقة في موضعها.. لقد نسي أن يغطيها بالأمس.. ما سر هذا اللون الأحمر المريع على اليدين وكأن قماش اللوحة ينزف دما؟ كم أن هذا مرعب!.. مرعب أكثر من الشيء الذي يجلس على المنضدة دون حراك حيث تركه بالأمس..

هكذا اضطر إلى أن يدخل الحجرة فيعيد الغطاء إلى الصورة.. ثم غادر المكان دون أن ينظر حوله تاركا العالم يقوم بعمله الرهيب...

وفي السابعة مساء جاءه (كامبل).. كان شاحبا لكنه هادئ تماما... وقال:

- قد قمت بما طلبت مني.. والآن وداعا.. لا أريد أن أراك ثانية..

قال (دوريان):

- قد أنقذتني من الدمار يا (آلان).. ولن أنسى هذا..

وصعد إلى الحجرة..

كانت رائحة حمض النيتريك الخانقة تفعم الجو، لكن الشيء الذي كان جالسا على المنضدة قد اختفى..

∞∞∞∞∞∞

(15)

في الثامنة والنصف مساء دخل إلى غرفة الرسم الخاصة بالليدي (ناربورو) يقوده حشد من الخدم المنحنين..

انحنى يلثم كف مضيفته محاولا تجاهل الأعصاب النابضة ألما في جبهته.. في الواقع لم يكن بوسع من يراه ليلتها أن يصدق أنه قد اجتاز مأساة مروعة منذ ساعات.. وحتى هو تساءل في سره: هل حقا عرف من يدعى (باسيل هولورد)؟

كان الحفل الذي تقيمه ليدي (ناربورو) العجوز مم حقا.. لكنه شعر بسرور حين علم أن (هنرى وتون) مدعو لهذا الحفل.. هذا عزاء كاف.. وحين سمع صوت (هنرى) المميز يعتذر اعتذارا غير صادق لكنه جذاب عن تأخره؛ شعر بأن ملله يتلاشى، لكنه لم يستطع أن يمسس طيقا واحدا من العشاء، برغم لوم المضيفة له على (إهانة أدولف الذي أعدّ القائمة خصيصا من أجلك).. لكنه راح يجرع (الشمبانيا) في نهم وبظمأ متزايد..

كان (هنرى) يرمقه في اهتمام.. وفي النهاية سأله:

- (دوريان).. ماذا دهاك؟ تبدو متعكر المزاج تماما..

قالت الليدي ضاحكة:

- أظن أن (دوريان) يرغب في أن يتزوج ولسوف أجد له زوجة مناسبة..

قال لورد (هنرى) بطريقته المتهكمة:

- كل رجال العصر لهم مستقبل.. وكل نسائه لهن ماض!

ثم إنه استدار ليسأل (دوريان):

- لقد تركتنا في الحادية عشرة أمس.. فهل عدت لدارك؟

حدق فيه (دوريان) وقطب:

- لا.. لم أعد لداري إلا في الثالثة..
- أذهبت للنادي؟
- نعم.. - ثم عض شفته - أعني.. لا..
مشيت في الشارع.. أعني.. أهذا تحقيق؟ أنا لا أحب تذكر ما أفعله..
هز لورد (هنري) كتفيه:
- عزيزي أنت لست أنت الليلة.. ماذا قد دهاك؟
- لا عليك.. أنا متوتر وعصبي.. أبلغ اعتذاري لليدي (ناربورو)... أراك غدا.. فأنا عائد لدارى..
وفي طريق العودة ضايقه أن الشعور بالذعر الذي غالبة قد عاد إليه.. لقد جعلته أسئلة (هنري) العابرة يفقد أعصابه..
أغلق باب المكتب عليه في داره.. وأخرج قبعة ومعطف (باسيل) من حيث خبأهما.. وألقاها في نيران المدفأة..

∞∞∞∞∞∞

(16)

بدأ مطر بارد ينهمر.. وتبدت مصابيح الدروب وراء الضباب.. ومن بعض الحالات تصاعد صوت ضحك مربع.. وفي أخرى تشاجر السكارى..

كان (دوريان) جالسا في عربة الأجرة، وقبعته على وجهه.. يرمق عار المدينة العظيمة.. وراح يتذكر كلمات لورد (هنرى).

- لا شيء يشفي الروح سوى الحواس.. ولا شيء يشفي الحواس سوى الروح..

كانت جحور المخدرات حيث يدخن المدمنون الأفيون تتبدى أمام عينيه.. هناك حيث يتخلص القوم من ذكريات الخطايا القديمة بخطايا جديدة تماما..

القمر يتدلى من السماء كجمجمة صفراء.. ومن حين لحين تغطيه سحابة مشوهة.. والبخار يتصاعد من منخري الحصان..

كانت روحه حقا بحاجة إلى شفاء.. لقد سال دم برئ.. ولم يعد الغفران ممكنا لكن النسيان متاح، وهو مزمع أن ينسى.. يهشم الذكرى كما يهشم نملة لدغته..

الشوارع لا تنتهي.. كأنه نسيج عنكبوت عملاق.. ونبح كلب في مكان ما.. بينما راحت كلمات لورد (هنرى) تتردد في ذهنه؛ وبينما الحاجة الملحة إلى المخدر تحرق أحشاءه وفي أحد الأكواخ الحقيرة كان ما يبغيه.. وقاده رجل خبيث المظهر إلى ما وراء ستار.. هنا سمع ضحكة قبيحة من الشفتين المصبوغتين لإحدى الغواني.. وبصوت خشن قالت وهي تشير إليه:

- هي ذي صفقة الشيطان!

أجابها:

- عليك اللعنة!.. لا تسميني كذا.
- إذن تحب أن أدعوك بالأمير الجميل؟
هنا توقف.. ذكره الاسم بشيء ما فهرع يغادر المكان مبتعدا.. وتحت الأمطار راح يفكر في معنى هذا.. مشكلة الحياة هي أننا نظل ندفع ثمن خطايانا مرارا.. إن القدر لا يغلق دفاتر حساباته مع الإنسان أبدا..
كان يمشي في الشوارع الضيقة سيئة السمعة حين شعر بمن يجذبه من الوراء.. وقبل أن يدافع عن نفسه شعر بيد خشنة تمسك حنجرته وتثبته إلى الحائط.



وقبل أن يدافع عن نفسه شعر بيد خشنة تمسك حنجرته وتثبته إلى الحائط ..

بعناء أبعد اليدين عن حنجرته.. وهنا سمع صوت مسدس، ورأى لمعة ماسورة السلاح مصوبة إلى رأسه.. ورجلا قويا يجابهه..

قال لاهثا:

- ماذا تبغي؟

- لا تتحرك.. لو تحركت لأطلقت الرصاص على رأسك..

- أنت مجنون.. ماذا فعلت لك؟

- أنت أفسدت حياة (سيبل فين).. و (سيبل فين) هي أختي.. بخعت نفسها والذنب ذنبك.. ولقد أقسمت أن أقتلك.. لم أكن أملك أن أجد سبيلا لك.. لكني سمعت تلك الغانية تدعوك (الأمير الجميل) وهو الاسم الذي كانت (سيبل) تدعوك به.. والآن أطلب المغفرة من ربك..
كاد (دوريان) يقيء من فرط الذعر.. وقال:
- لم أسمع عنها من قبل.. أنت مخبول..
ولم يدر ما يقول.. فقال الرجل:
- على ركبتيك!.. أمامك دقيقة واحدة للصلاة.. لا وقت لدي لأني مسافر إلى الهند هذه الليلة.. دقيقة لا أكثر..
فجأة خطرت فكرة لـ (دوريان).. فسأل الرجل:
- منذ متى ماتت أختك؟
- ثماني عشرة سنة..
إذن قرب المصباح من وجهي.. وارن إلىّ مليا تردد (جيمس فين) هنيهة.. ثم قرب المصباح، وعلى الوهج المتراقص رأي وجه الرجل الذي أراد أن يقتله.. وجها يحوي كل نضارة الصبا ونقاء الشباب، لا يمكن أن يكون أكبر من عشرين عاما.. بل هو في سن (سيبل) حين ماتت مستحيل أن يكون هو..
- رباه!.. لقد كنت على وشك قتلك..
تنهد (دوريان) في عمق وقال:
- كنت على وشك اقتراف جريمة شنعاء يا صاحبي.. ليكن هذا إنذارا لك من محاولة الانتقام بيديك..
غمغم الرجل:
- سامحني يا سيدي.. لقد خُدعت..
- إذن أبعد هذا المسدس قبل أن تتورط في المتاعب

وبهدوء استدار مبتعدا.. تاركا (فين) واقفا يرتجف من رأسه حتى قدميه.. وهنا دنا ظل منه ليدخل دائرة الضوء.. ووضعت يد على ذراعه.. كانت يد واحدة من نساء الحانة..

قالت له بصوت كالفحيح:

- لم لم تقتله؟ كان يجب أن تفعل فمعه نقود كثيرة.. وهو سيئ كالسوء نفسه..

- لا أريد مالا.. أريد حياة.. حياة رجل في الأربعين من عمره الآن.. أما هذا فهو إلى الصبية أقرب..

ضحكت المرأة في مرارة وقالت:

- صبي؟! لقد كان هذا منذ سبعة عشر عاما.. حين صنع مني الأمير الجميل ما أنا عليه! وأقولها لك أمام الله..

- أنتِ كاذبة!

- فليصبني الخرس إن كنت أكذب.. إنه أسوأ خلق الله قاطبة.. يقولون: إنه باع روحه للشيطان ليحتفظ بوجهه مليحًا..

- أتقسمين على هذا؟

قالت بصوت خشن:

- أقسم.. وإنني لأخشاه كثيرا..

تركها وهرع إلى ركن الشارع.. لكن (دوريان جراى) كان قد اختفى.. وحين التفت إلى الوراء وجد أن المرأة اختفت بدورها..

∞∞∞∞∞∞

(17)

بعد أسبوع كان (دوريان جراى) جالسا في (رويال سيلبى) يثرثر مع دوقة (مونماوث) الحسناء.. وكان زوجها معها.. رجل في الستين من عمره شاحب الوجه..

الدوقة تثرثر وتضحك وتنفرج شفتاها الحمراوان عن ابتسامة لشيء همس به (دوريان) في مسمعها..

وعن كثب جلس لورد (هنري) يرمقهما.. وبهذا بلغ عدد حضور الحفل اثنى عشر ضيفا..

قالت الدوقة لـ (دوريان):

- إن زوجي يحب جمع الحشرات.. ربما تزوجنى كنموذج جيد لفراشة جديدة..

قال (دوريان) ضاحكا:

- عساه لا يثبت جسدك بالدبابيس...

- إن وصيفتي تفعل ذلك حين أضايقها..

تدخل (هنرى) في المحادثة بآرائه الجريئة الساخرة المميزة.. فضحكت الدوقة كثيرا.. وسألت (دوريان):

- هل توافق على آراء (هارى) يا (دوريان)؟

- أنا أوافق (هارى) دوما..

- حتى لو كان مخطئا..؟

- (هاري) لا يخطئ أبدا..

ثم نهض (دوريان) لشأن ما.. وواصل (هارى) الثرثرة مع الدوقة حين سمعا صوت سقطة.. وهبّ الجميع مذعورين.. وتصلبت الدوقة، بينما هرع لورد (هنري) يعبر الغرفة ليجد (دوريان) راقدا على البلاط ووجهه منكفئ على الأرض..

حملوه إلى أريكة وشرعوا يحاولون إفاقته..

وأخيرا فتح عينيه ونظر لمن حوله مذهولا.. وراح يرتجف..
قال لورد (هنرى):
- لقد أغشي عليك يا عزيزي.. لابد أنك أنهكت نفسك.. سآخذك لدارك..
- لا.. لا - قالها وهو ينهض - لا أريد أن أكون وحيدا..
ولم يدر أحد أنه رأى عبر زجاج القاعة – كمنديل أبيض - وجه (جيمس فين) يرمقه في اهتمام..

∞∞∞∞∞∞

(18)

لم يبرح الدار في اليوم التالي، بل مكث في حجرته يرتجف هلعا من الموت لكنه في الوقت ذاته – غير مكترث بالحياة..
كان الشعور بالمطاردة يعذبه.. وارتجف لصوت الأوراق الجافة إذ تصطدم بزجاج النافذة.. وحركة الستائر مع الريح..
لابد أن خياله هو المسئول عما رآه.. لا يمكن المتسكع أن يحوم حول دار مضيفه دون أن يراه الخدم.. إن أخ (سيبل) لم يعد لقتله.. إنه الآن في طريقه إلى الهند..
ولكن يا لعدالة الخيال! أية حياة هذه حين تطارده أشباح ضميره وتهمس في أذنه.. وتوقظه بأنامل باردة إذ يحاول النوم..!.
في النهاية أزمع أن يخرج ليحاول التحرر من مخاوفه.. ذهب إلى نادي الرماية.. كان السير (جيفر كلاوستون) شقيق الدوقة واقفا يخرج خرطوشين فارغين من بندقيته.. بينما بدت السماء كقدح مقلوب من المعدن الأزرق.. وطبقة رقيقة من الجليد تكسو العشب.
وقف (جراى) يرمق المشهد شاعرا بمتعة الحياة.. وأمامه رأى أرنبا بريا يبرز من بين الشجيرات، فثبت السير (جيفري) البندقية على كتفه... لكن شيئا ما في حركات الأرنب بهر (دوريان) فصاح:
- لا تقتله.. دعه يعش!
- يا للسخف!
وأطلق الرصاص.. عندها دوت صرختان من بين الأشجار.. واحدة كانت صرخة الأرنب المريعة، والأخرى كانت صرخة إنسان شنيعة..
صاح سير (جيفري):

- يا للسماء!.. لقد أصبت متسللا.. يا له من جحش إذا يمر أمام مرمى البنادق!.. كفوا عن الرماية!
وهرع الحرس إلى المكان.. فصاح في رئيسهم بحنق:
- لم لا تقومون بعملكم كما يجب؟ لقد أفسدتم يومي.
ومن بين الأشجار خرج القوم يجذبون جسدا آدميا.. فأدار (دوريان) وجهه وقد شعر أن سوء الحظ يلاحقه أبدا..
مرت لحظات بدت كدهر، ثم شعر أن يدا توضع على كتفه..
قال لورد (هنرى):
- يجب أن تعلم أن الرماية قد ألغيت اليوم يا (دوريان)..
- ليتها تلغى للأبد.. إن الأمر كله قبيح قاس هل الرجل..؟
- أخشى هذا.. لقد تلقي الخرطوش بالكامل في صدره.. هلم نعد للدار..
ودون كلمة أخرى مشيا عبر الممر.. بعد برهة تنهد الفتى وقال:
- هذا فأل سيئ يا (هارى).. فأل سيئ..
تساءل لورد (هنرى):
- ما هو؟.. آه.. تتكلم عن الحادث كما أفترض..
هذا خطأ الرجل دون شك.. ولن يسبب لسير (جيفري) سوى بعض الحرج لا أكثر..
- أشعر كأنها نبوءة..
ضحك العجوز في سخرية: - لا يوجد شيء اسمه فأل سيئ أو تطيّر.. إن القدر لا يرسل لنا نواياه أبدا القدر أحكم من هذا أو أقسى.. ثم ما الذي يقلقك وأنت الذي يملك كل شيء في العالم؟
- أنا أتمنى مبادلة مكاني مع أي شخص آخر، إن هذا الفلاح الصريع خير حالا منى.. فالموت لا يرهبني لكن قدومه هو ما يثير خوفي..

- تبدو لي عصبيا بشكل مروع هذه الأيام يا (دوريان) وليتني أفهم السبب..
هنا جاءت الدوقة وقد بدا عليها الانزعاج مما فعله أخوها.. وهنا اعتذر (دوريان) لأنه مرهق.. وطلب الانسحاب..
التفت لورد (هنري) إلى الدوقة يسألها بعينين ناعستين:
- أنتِ تحبينه.. أليس كذلك؟
لم تجب لوهلة.. ظلت ترمق المشهد أمامها ثم قالت:
- ليتني أعرف..
- المعرفة تقتل.. إن الضباب هو ما يجعل الأشياء تبدو ساحرة..
وفي الطابق العلوي رقد (دوريان) على الأريكة. والذعر يجتاح كل عضلة في جسده.. لقد شعر أن مصرع الفلاح هو نبوءة بموته هو.. نادي خادمه وطلب منه أن يحزم حقائبه لأنه سيغادر المدينة الليلة.. لن يقضي ليلة أخرى في (سلبى رويال).. إنه مكان مشئوم حيث يمشي الموت في شمس الظهيرة..
هنا سمع قرعة على الباب.. ودخل الوصيف ليخبره أن رئيس الحرس راغب في رؤيته..
ما إن دخل الرجل حتى أخرج (دوريان) دفتر الشيكات من درج مكتبه.. وأمسك بقلم وقال:
- أحسبك سمعت عن الحادث المؤسف يا (ثورنتون)؟
- نعم يا سيدي.
- لو كان للرجل أسرة فأنا راغب في إرسال أي مبلغ من المال لها..
- نحن لا نعرفه يا سيدي.. لهذا جرؤت على طلب مقابلتك..
- غريب!.. وهل كان معه ما يدل على شخصه؟
- لا يا سيدي.. لكنه يبدو كبحار يملأ الوشم ذراعيه، ومعه مسدس ذو ست طلقات..

انحنى (دوريان) إلى الأمام وحملق في الرجل وسقط القلم من يده..
- أين الجثة؟ أريد رؤيتها سريعا!
وخلال ربع ساعة كان (دوريان) يركض بجواده نحو الإسطبل الذي ترقد به الجثة.. والحجارة تتطاير تحت الحوافر..
ألقى اللجام لأحد الرجال.. ثم هرع إلى داخل الإسطبل.. وفي ركن المكان كان هناك رجل راقد يرتدي قميصا خشنا وسروالا أزرق..
وثمة منديل يغطي وجهه.. وشمعة تتوهج جوار الجثة..
أشار لأحد الخدم لكي يعرى الوجه.. ففعلها الرجل..
وندت صيحة فرح من حلق الفتى.. لقد كان القتيل هو (جيمس فين).
ظل يرمق الجثمان بضع دقائق..
وفي طريق العودة لداره سالت العبرات من عينيه..
إنه في مأمن أخيرا..

∞∞∞∞∞∞



وفى ركن المكان كان هناك رجل راقد يرتدى قميصًا
خشنًا وسروالاً أزرق . .

(19)

قال لورد (هنرى) وهو يغمس أصابعه في سلطانية نحاسية مملوءة بماء الورد:
- لا جدوى من أن تقول لي إنك ستكون طيبا أنت إنسان كامل.. وادع الله ألا تتغير..
هز (دوريان) رأسه وقال:
- كلا يا (هارى).. لقد ارتكبت أشياء مريعة في حياتي.. لكني توقفت الآن وقد بدأت عملي الصالح أمس..
- أين كنت؟
- في الريف..
ابتسم لورد (هنرى) وقال:
- يا صغيري العزيز يمكن أن يكون كل إنسان صالحا في الريف.. فلا إغراءات هناك.. في المدينة يمكن للمرء أن يغدو مثقفا أو منحلا.. أما الريفيون فليس الخيار أمامهم.. لذا يركدون..
ثم بدأ يلتهم بعض الشليك من طبق.. وسأل:
- ولكن ما الخير الذي فعلته؟
- سأخبرك يا (هارى).. كانت فتاة حسناء تشبه (سيبل فين).. هل تذكر (سيبل)؟ حسن.. كانت (هيتى) تشبهها.. لم تكن من طبقتنا فهى مجرد فتاة قروية.. لكنني أحببتها.. وأحبتنى.. وكان المفترض أن تهرب معي فجر اليوم.. لكني فجأة قررت أن أتركها زهرة بيانعة كما وجدتها..
- إذن أنت حطمت قلبها.. وكانت هذه بداية إصلاحك؟!
- (هاري).. لاتكن مخيفا!.. قلب (هيتى) لم يتحطم.. ولم تلوث..
ضحك لورد (هنري) وهو يسترخي في مقعده:

- يا عزيزي.. إن لك مزاج طفل.. هل تحسب هذه الفتاة ستقنع بعد اليوم بأى واحد من طبقتها؟ إن حبك لها سيعلمها أن تحتقر زوج المستقبل الذي لن يزيد على فلاح أو سائق عربية.. يمكن القول إن هذه ليست بداية طبية أبدا.. ثم كيف تعرف أنها ليست طافية الآن فوق مياه بركة وسط زهور السوسن، مثلما كانت (أوفيليا) بعد انتحارها؟!
- لا أتحمل سخريتك هذه يا (هاري).. لا يهمني ما تقول لي، فأنا سعيد بما فعلت.. لا تحاول إقناعى بأن التضحية الوحيدة بالنفس التي قمت بها في حياتي هي نوع آخر من الخطايا.. دعنا لا نتكلم عن هذا مرة ثانية.. فكلمني عن نفسك..
- مازال القوم يتحدثون عن اختفاء (باسيل)، لقد ظلوا يتحدثون عن هذا شهرا ونصف الشهر.. ثم أضافوا لهذا موضوع طلاقى وانتحار (آلان كامبل)..، إن اختفاء (باسيل) يحير (سكوتلانديارد) لكنه سيظهر - حتما - في (سان فرانسسكو).. كل المختفين يظهرون في (سان فرانسسكو) ولا أدري السبب.. لابد أنها مدينة جذابة..
ثم غمغم في شرود:
- (مسكينة يا (فكتوريا)!.. لكم أفتقدك! إن الزواج عادة.. عادة سيئة.. لكن المرء يفتقد حتى عاداته السيئة حين يحرم منها.. وقد صار بيتى مكانا موحشا حقا..
نهض (دوريان) إلى البيانو وراح يداعب العاج الأبيض والأسود فوق المفاتيح.. ثم تساءل:
- (هاري).. ألم يخطر لك أن هناك من قتل (باسيل)؟
- لقد كان (باسيل) أقل مهارة من أن يحظى بأعداء.. إنه موهوب لكن ممل.. ممل حقا. وأنا أعرف أن هناك أماكن رهيبة في (باريس) لكنه ما كان ليذهب إليها.. فهو رجل بلا فضول..

- وماذا لو قلت لك: إنني قتلت (باسيل)؟!
- أقول لك: إنك تتقمص شخصية ليست لك.. كل الجرائم سوقية كما أن السوقية جريمة.. إن الجريمة تمثل الطبقات المنحطة ما تمثله الفنون لنا.. وكل شيء يغدو ممتعا حين تكرره لكن الجريمة عمل خاطئ.. وعلى المرء ألا يفعل شيئا لا يستطيع أن يتكلم عنه بعد العشاء..، لقد تدهور مستوى (باسيل) بعد ابتعاده عنك، وصار رسمه مزيجا من النوايا الحسنة والفن المتواضع.. مما يؤهل (باسيل) كى يصير رساما بريطانيا مشرفا!..
ثم أرجع رأسه للوراء.. وأغمض عينيه قائلا:
- اعزف لى شيئا من (شوبان) يا (دوريان)..
وفي أثناء العزف قل لى سر شبابك الدائم.. إنني أكبر منك بعشر سنوات لكنى مرهق متجعد.. لكنك لم تشخ قط. كأنك أنت كما رأيتك أول مرة.. أخبرني بسرك يا (دوريان) فأنا أدفع أي ثمن كى أعود شابا.. لكن لا تطلب مني أن أصحو مبكرا أو أمارس الرياضة أو أصير محترما.. الشباب!.. لا شيء كالشباب..
ثم أردف وهو يتأمل الفتى:
- يسرني أنك لم تصنع شيئا قط.. لم تنحت تمثالا أو ترسم لوحة أو تخلق أي شيء خارج نفسك.. كانت الحياة هي فنك الوحيد.. إن أيامك هى (السوناتات) التي قمت بتأليفها!
كف الفتى عن العزف وقال:
- لن أعيش ذات الحياة يا (هارى)..
- لماذا كففت عن العزف؟ أترى هذا القمر بلون العمل في السماء؟ إنه فتاة جميلة تنتظر أن تفتنها بعزفك.. عندها ستدنو من الأرض أكثر.. ألن تعود للعزف إذن؟
قال بحزن:
- إنها الحادية عشرة.. وقد حان ميعاد النوم فأنا مرهق..

ثم أردف وهو يمشي في الغرفة:
- (هارى).. أنت سمت حياتي يوما بكتاب معين.. عدني ألا تقرض هذا الكتاب لأي مخلوق.. فهو كتاب مُؤذ..
- لا يوجد كتاب مسموم.. فالفن لا يؤثر على الأفعال.. بل هو يحبطها.. ولكني أراك قد صرت واعظا تنهي الناس عن الآثام التي مللتها.. عدني بأن أراك غدا في الحادية عشرة ..
تنهد (دوريان) وتمنى له ليلة سعيدة، واتجه نحو الباب..

∞∞∞∞∞∞

(20)

ليلة جميلة كانت.. دافئة لدرجة أنه تخلص من معطفه ولم يربط المنديل الحريري حول عنقه..
كان عائدا للدار يدخن لفافة تبغ، حين سمع رجلا يهمس لصاحبه:
- هذا هو ذا (دوريان جراى)..
تذكر أن ما راق له في القرية هو أن أحدا لا يعرفه.. الفتاة التي أحبها هناك لم تكن تعرفه.. وحين قال لها: إنه (آثم) ضحكت وقالت: إن الآثمين يكونون شيوخا قباح الوجوه.. ما أشد براءتها وما أجملها!.. لم تكن تعرف لكنها كانت تملك كل شيء فقده هو..
في الدار جلس على الأريكة يفكر.. أحقا من العسير أن يتغير المرء؟.. كم يشعر بحنين لطهر صباه!... صباه الأبيض كزهرة كما وصفه لورد (هنرى) يوما..
لكم من حيوات أفسد وكم من نفوس عذب..!.. لقد أفسده جماله الدائم.. لو كان وجهه كوجوه البشر يحمل آثار خطاياه لكان هذا أفضل.. لربما خفف هذا من حدة اندفاعه قليلا.. لربما كفر عن خطاياه بعض الشيء..
لكنها الصورة اللعينة.. الصورة التي جلبت كل هذا الوبال..
حياة جديدة!.. هذا هو ما يريد.. وقد بدأها بالفعل فأنقذ روحا طاهرة.. ولن يحاول إغراء الطهر بعد اليوم..
ولكن ماذا عن الصورة؟ أتراها قد تبدلت؟ بالتأكيد لم تعد مريعة كما كانت،، ما دامت حياته قد صارت طاهرة بلا آثام..

صعد إلى الطابق العلوي ليتفحص اللوحة.. من اليوم لن تظل رعبا يطارده ويداريه عن العيون.. وأزاح الستار.. صرخة ألم ندت عنه حين رأى الصورة.. لم تتغير، بل زادت لمحة خبث في العينين ومسحة نفاق حول الشفتين..
إن الشيء صار أقبح مما كان لو كان هناك أقبح.
أترى الخيلاء والعبث هما ما دفعه للقيام بعمله الصالح هذا؟
أم هي غريزة التمثيل التي تجعلنا أحيانا نقوم بأشياء أنبل من طبائعنا؟ ولماذا تبدو اللطخة الحمراء على اليدين أكبر؟
لماذا تبدو الدماء كأنما تتساقط منهما على الأرض؟
أتطالبه الصورة بالاعتراف بمقتل (باسيل)؟
ومن سيصدقه لو تكلم؟..
لا يوجد دليل ضده سوى الصورة ذاتها.. ولسوف يدمرها.. لماذا احتفظ بها كل هذا الزمن؟ لقد لعبت دور الضمير بالنسبة له..
نظر حوله فرأى المدية التي طعن بها (باسيل)..
لقد قتلت الرسام.. ولسوف تقتل الرسام ذاته الآن..
ستقتل الماضي.. وعندها يكون آمنا..
ودون تردد طعن اللوحة..
كانت هناك صرخة.. صرخة ألم مريعة جعلت الخدم يهبون من نومهم.. وتوقف رجلان يمران في الميدان ونظرا إلى البيت.. ثم ناديا رجل شرطة.. فراح يقرع الجرس مرارا دون إجابة..
وفي داخل الدار هرع الخدم إلى الغرفة بالطابق العلوي.. وتمكنوا من اقتحام الباب الموصد..
وفي الداخل وجدوا صورة رائعة لسيدهم كما اعتادوا أن يروه.. بكل جماله وسحره..
وعلى الأرض كان رجل ميت قد انغرست مدية في صدره..
كان وجهه مجعدا كريها.. حتى عجزوا عن معرفة شخصيته..

فقط حين رأوا الخاتم في يده عرفوا من هو..

أوسكار وايلد 1891

(تمت بحمد الله)

دوريان جراى

هكذا كانت (دوريان جراى) أمنية غالية.. لقد تمنى أن يحتفظ بشبابه على حين تشيخ صورته، وتحمل آثار أوزاره وخطاياه بدلا منه , وكان له ما تمنى..

عندها أدرك أنه يهاب الصورة ويخشاها كالشيطان ذاته.. وكذا يقدم لنا (أوسكار وايلد) هذه الدراسة الشائقة عن جمال الصورة وفساد الروح..

أحمد خالد توفيق


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

(18)

(19)

(20)

الملاحظات

[←1]
(*) الأبيات ترجمة الأستاذ (مؤنس طه حسين) – مسرحية (روميو وجولييت) - دار المعارف ـ 1960


روايات عالمية
19
العالم المفقود
فريق متميزون
E-BOOK
قصـــــــة : أرثر كونان دويل
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (19)

العالم المفقود

بقلم: آرثر كونان دويل.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

..المؤلف

يندر الحديث عن (آرثر كونان دويل) إلا وتستدير الدفة تلقائيا نحو بطله الأشهر والأكثر إمتاعا (شيرلوك هولمز)..
إن الراغبين في معرفة أشياء أكثر عن (شيرلوك هولمز) لقادرون على العثور عليها في كل مكان تقريبا.. لكننا نجد القليل جدا عن خالق (هولمز) ذاته.. وهذا نموذج جيد للشخصية الروائية التي تلتمع وتتألق حتى تطغى على شخصية كاتبها ذاته ([1])
يمكن القول دون خطأ كبير أن (كونان دويل) حاول مرارا التملص من شخصية (هولمز)، وحاول أن يبدع خارج سجنها.. لكنه كان يفشل دوما ويقابل بالفتور.. من ثم يعود إلى عالم (هولمز) من جديد..
وقد قرأنا دراسة شائقة لعقدة الشخصية المسيطرة هذه في رائعة (ستيفن كنج) التي قدمناها في الكتيب التاسع من هذه السلسلة: (الشيطانة) أو (ميزرى)..
في القصة التي بين يديك الآن يحاول (كونان دويل) الفرار من أسر (هولمز).. ويمكن القول أنه نجح إلى حد كبير.. ونالت القصة رواجا دفعه إلى أن يقدم جزءا ثانيا لها تحت عنوان (النطاق السام) مع نفس الأبطال..

∞∞∞∞∞∞

كان السير (آرثر كونان دويل) طبيبا من الذين جذبهم الأدب إلى عالمه السحري الخلاب.. لكن الطب لم يفارقه لحظة..
تعلم من الطب دقة الملاحظة، ومنه اقتبس شخصية أستاذه العظيم د. (جوزيف بل) الذي كان هو (هولمز) في كل شيء..

بملاحظته غير العادية للتفاصيل.. وبطولة الفارع وبطولة الفارع.. وعينية الشبيهتين بعيني صقر..
لم يتصور الأستاذ ولا التلميذ أن علاقة الإعجاب هذه يمكن أن تؤدي ب (كونان دويل) إلى هجر الطب والتفرغ لكتابة القصص البوليسية.. لكن هذا حدث.
وقدم (دويل) روايته (علامة الأربعة) عام 1890.. ثم (مذكرات هولمز) عام 1894.. و(عودة شيرلوك هولمز) عام 1905.. و (عقدته الأخيرة) عام 1917.. و (قضية هولمز) عام 1927..
بالإضافة إلى هذا قدم (دويل) روايته (الشركة البيضاء) عام 1891.. وهي عمل أدبي تاريخي عالي القيمة لم يرض عنه أحد للأسف..
ثم كتب مسرحية بعنوان (قصة واترلو) عام 1900، وكان (كونان دويل) من المهتمين بعالم الأرواح وعلوم تحضيرها.. وله قصص مثيرة في هذا الصدد..
وقد وضع خبراته في هذا في كتاب اسمه (تاريخ مذهب تحضير الأرواح) عام 1926..
وكتب سيرة حياته في كتاب بعنوان (مذكرات ومغامرات) عام 1924..
لقد أثرى السير (آرثر كونان دويل) – الأديب الإنجليزي العظيم - عالم الأدب بمؤلفات كثيرة.. لكن شخصية (شيرلوك هولمز) ستظل هي الأكثر خلودا وشهرة من كل أعماله.. وهذا دليل على عبقرية الرجل وعلى موهبته التي أسعدت الملايين من القراء بكل اللغات.

د. أحمد خالد

1- هناك بطولة في كل مكان..

كان مستر (هنجرتون) أبوها أكثر الرجال فظاظة على وجه الأرض.. رجلا مشعثا قليل العناية بهندامه لكن اهتمامه يتركز حول شخصه السخيف.. ولو كان الشيء أن ينفرني من (جلاديس) فهو أن يكون هذا الرجل حماى..

وكان الرجل يؤمن أنني أقصد داره للاستمتاع بصحبته، وسماع آرائه في الاقتصاد، وقيمة الفضة الرمزية، ومعدلات استبدال العملة..

وفي تلك الأمسية قال لي:

- تصور لو أن المدينين في كل العالم قد أصروا فجأة على سداد ديونهم حالا.. فماذا سيحدث وقتها؟

قلت له في وضوح أن الخراب سيحل بي لو حدث هذا..

عندها وثب من مقعده، واتهمني بالتهكم الدائم مما يجعل من العسير مناقشة أي أمر جدي معي..

وغادر المكان قاصدا أحد الاجتماعات الماسونية..

وكذا وجدت نفسي مع (جلاديس)..

ومن الجدير بالذكر أنني اخترت هذا اليوم لأطلب يدها.. وكان الهلع يغمرني خشية الإخفاق..

كانت رائعة الحسن حيث جلست جوار الستار الأحمر.. لكنها كانت نائية عنى أميالا..

إن (جلاديس) أنثى بحق.. وإن كان البعض يزعم أنها باردة جامدة لكني لا أعتقد ذلك.. كل ما هنالك أنني عاجز عن العثور على السر الذي يضرم اللهب في هذا الجمال.. لكني الليلة أزمعت أن

أجد مخرجا.. فأن أكون حبيبا مرفوضا، لخير عندي من أن أظل صديقا ترتاح إليه..
فجأة هزت رأسها الشامخ ونظرت عيناها البنيتان المدققتان إلى:
- إنني أحدس أنك موشك على طلب يدي يا (نيد).. وكم أود لو لم تفعل.. فالأمور على ما يرام كما هي..
جذبت مقعدا لأجلس قربها وتساءلت بدهشة حقيقية:
- كيف عرفتِ أنني سأفعل؟
- ألا تعرف النساء ذلك دوما؟ ولكن بالله يا (نيد).. من الخسارة أن تفسد صداقتنا هذه..
- لا أدري يا (جلاديس).. إنني أريد منك ما هو أكثر من الصداقة..
قالت في توتر:
- أنا لم أشعر بحبك قط.. والحب يحتاج إلى تمهل..
- ولماذا لا تحبينني؟ أهو مظهري أم ماذا؟
تراجعت للوراء.. ومدت يدها لتربت على رأسي - وياله من وضع جميل - ونظرت إلى وجهي المكفهر.. وابتسمت:
- لا.. ليس الأمر هكذا.. إنما هو أعمق من هذا..
- شخصيتي؟
فأومأت برأسها بشدة..
- ولكن ماذا بوسعي أن أفعل لأصلحه؟ اجلسى وتكلمي!
نظرت لي في ارتياب محير.. كم يغدو الأمر بدائيا قاسيا حين تغدو الأمور بلون أبيض وأسود! لكنها جلست على كل حال.. وقالت:
- إنني أحب شخصا آخر!
فوثبت من مقعدى.. قالت ضاحكة من تعبير وجهى..

- ليس شخصا بذاته.. بل هو مجرد مثل أعلى، فأنا لم ألق قط ذلك الرجل الذي في ذهني..
- وماذا يقدر على عمله وأعجز أنا عنه؟
قالت في شرود:
- ليكن.. يجب أن يكون هذا الرجل شجاعا.. لا يهاب الموت.. رجل حقق أمجادا لا توصف.. رجل كهذا جدير بأن تهيم به المرأة حبا..
قلت لها:
- للأسف ليس بوسع الجميع أن يكونوا هذا الرجل.. أنا لم تسنح لي فرصة تحقيق الأمجاد، لكنها لو أتيحت لي فلن أتركها..
قالت:
- هذا الطراز من الرجال يخلق فرصه خلقا، ولا يرده أحد عن غايته.. إن البطولات حولنا تنتظر من يحققها من الرجال.. وعلى النسوة أن يدخرن حبهن جائزة لأولئك الرجال بمعنى الكلمة.. أريد أن تحسدني النساء جميعا على رجلي..
وأضافت وقد غلبها الحلم:
- أعرف أن هذه خيالات مراهقة.. لكنها صارت قطعة من روحي.. ولو كان لي أن أتزوج يوما فليكونن زوجي رجلا شهيرا يشار له بالبنان..
صحت فيها:
- سيكون لك هذا.. سأخلق فرصتى خلقا.. ولن أنتظر المجد حتى يوافيني، بل سألحق به وأصنعه!
ابتسمت وقالت:
- إن هذا يسرني لأنني بعثت فيك هذه الروح..
وأردفت وهي تضع يدها الدافئة فوق ثغرى:

- يوما ما حين تجد لك مكانا في هذه الدنيا سيكون بيننا حديث طويل!

∞∞∞∞∞∞

وهكذا - في هذا المساء الضبابي من شهر (نوفمبر) - وجدت نفسي أهرع إلى ترام (كامبرويل) وقلبى يتوهج داخلي.. وفي روحي عزم على ألا يمر يوم آخر دون عمل يجعلني جديرا بفتاتي.. ولكن من كان يتصور نوعية هذا العمل.. ولا الخطوات الغريبة التي قادتني إلى ما تلا ذلك من أحداث؟
إن هذا الفصل لا علاقة له بقصتي.. لكن القصة كلها ما كانت لتحدث لولاه.. إن الرجال ليأتون بأفعال غريبة حين تتملكهم فكرة أن العالم يعج بالبطولات حولهم.. لهذا ترونني في مكتبي بجريدة (ديلى جازيت) حيث أعمل صحافيا، أفتش في لهفة عن عمل جدير بحبيبتي (جلاديس).
هل كانت تلك أنانية منها أن تجعلني أجازف بحياتي من أجل فخارها؟
ربما تتبادر أسئلة كهذه إلى ذهن رجل في منتصف العمر، لكنها ما كانت لتخطر لعاشق في الثالثة والعشرين من عمره.. يلتهب قلبه بنيران حبه الأول.

∞∞∞∞∞∞

2- جرب حظك مع البروفسور (تشالنجر)..

كنت أحب (ماكاردل) العجوز محدودب الظهر أحمر الشعر.. وهو رئيس قسم الأخبار في جريدتنا.. وفي تلك الليلة دخلت مكتبه.. فرفع عويناته لأعلى وقال بلهجته الإسكتلندية المحببة:

- حسن يا مستر (مالونى).. أنت موفق تماما في عملك.. لكني لا أعرف سر طلبك مقابلتي..

قلت له:

- كنت أود لو أرسلتني في مهمة صحفية، إنني سأقوم بهذه المهمة خير قيام.. لكني أبحث عن مهمة خطرة تفعمها الأهوال والأخطار..

- تبدو متلهفا على الموت يا بني!

- بل متلهفا على إيجاد مبرر لحياتي يا سيدي...

راح يفكر قليلا.. ثم قال لي:

- لم لا تجرب حظك مع البروفسور (تشالنجر)؟ لربما كشفت النقاب عن زيفه وخداعه.. ما رأيك؟

انتفضت هلعًا.. وهتفت:

- أليس هو (تشالنجر) عالم الحيوان الشهير؟ الذي حطم جمجمة محرر جريدة (التليجراف)؟

- ألم تقل أنك تفتش عن المخاطر؟!

- مادام هذا عملا يا سيدي.. ليكن

- ممتاز... أنا لا أعتقد أن الرجل شرس بهذا الأسلوب دائما.. ولعل محرر (التليجراف) قد قابله في وقت غير مناسب.. أو بأسلوب غير مناسب.. ولربما كان حظك أفضل أو حيلتك أوسع..

- لكني أجهل كل شيء عنه..
تناول من درج مكتبه ورقة وراح يقرأ منها:
- هو ذا ملخص لحياة الرجل.. لقد نال ميدالية في علم الحيوان.. ونشر عددا كبيرا من المؤلفات العلمية.. ويهوى المشي وتسلق الجبال.. وقد زار أمريكا الجنوبية منذ عامين إنه يأبى تحديد المكان الذي كان فيه حقا.. ولديه صور فوتوغرافية غريبة، يزعم الكثيرون أنها ملفقة.. وحين حكى مغامرته هناك هاجمة بعض المتشككين، مما جعله يستشيط غضبا.. وهو يضرب الصحفيين ويقذفهم من فوق الدرج كلما حاولوا سؤاله عن مغامرته.. هذا هو رجلك يا مستر (مالونى)! إذهب لتر ما يمكنك عمله معه فأنا على يقين من كونه يملك شيئا مهما..
وأحمد الله على كونك متين البنيان بحيث تستطيع مقاومة الرجل..

∞∞∞∞∞∞

وفي النادي قابلت رجلا ناحلا طويل القامة يجلس على (شيزلونج) أمام المدفأة.. كان هذا هو (تارب هنرى) محرر مجلة (نيتشر) الممتلئ رقة ولطفا..
جلست جواره ودخلت في الموضوع مباشرة:
- ماذا تعرف عن البروفسور (تشالنجر)؟
قطب جبينه في امتعاض علمى:
- (تشالنجر)؟ إنه الرجل الذي جاء بخرافة من أمريكا الجنوبية..
- عن ماذا؟
- عن حيوانات غريبة وجدها هناك..
- أما من تفاصيل أكثر؟

- لا أعرف الكثير.. لكن (تشالنجر) ليس بالرجل الذي يمكن تجاهله.. إنه شحنة من الحيوية، لكن أخلاقه عنيفة.. وهو يهوى الشجار.. ولا يمانع في تزوير نتائجه العلمية..
ثم أضاف:
- عندي محضر اجتماع لمؤتمر أقيم في (فيينا).. وقد تحدث فيه عن التطور وتسبب في مشادة شنيعة فهل تحب أن تقرأه؟
- بالطبع.. فما دمت أنوي لقاء الرجل يجب أن أعرف ما الذي يتحدث عنه..
وهكذا.. بعد نصف ساعة وجدت نفسي في أرشيف المجلة وأمامي ملف عملاق يحوي ما دار في مؤتمر (فيينا)..
كانت المصطلحات العلمية كثيرة فلم أفهم أغلب ما دار في المحضر.. لكن الحوار كان حافلا بالمشادات والاحتجاجات.. وفيما عدا ذلك بدا لى كأن الجلسة دارت باللغة الصينية..
كان التصرف الذي بدا لي معقولا هو أنني انتقيت جملة فهمتها - ولو بشكل غامض - من حوار الجلسة وصممت على أن تكون هي موضوع مراسلتي مع البروفسور.. وانتقيت ورقة عليها اسم المجلة (نيتشر) لأكتب خطابي عليها.. وبالتالي يكتسب خطابي أهمية علمية ما..
قال (تارب) محتجًا:
- لكن الرجل سيحضر إلى مقر المجلة ليحطمه فوق رءوسنا!
- كلا.. إن الخطاب سيكون مهذبا.. ولن يضايقه في شيء..
وكان نص الخطاب مهذبا بالفعل.. طلبت فيه شرف لقاء البروفسور لمناقشة جملة معينة لفتت نظري في مؤتمر (فيينا)..
كنت آمل أن ألقى البروفسور بأي شكل.. وحين نلتقي، لربما فسرت له كل شيء، وسيفهم الأمر باسما لو كان يملك روح الدعابة..

قال (تارب) في حسرة:

- روح دعابة؟ إنك ستكون بحاجة إلى درع واق.. وعلى كل حال ستجد الرد عندي هنا صباح الأربعاء لو أنه تنازل بالرد.. إنه لشخص خطر شرس يمقته الجميع.. ولربما كان من الخير لك ألا تسمع منه ردا على الإطلاق..

∞∞∞∞∞

3- إنه لرجل مستحيل حقا..

لم تكن مخاوف صاحبي - أو آماله - قابلة للتحقق..
فحين ذهبت يوم الأربعاء إلى الجريدة وجدت خطابا عليه خاتم بريد (وست كنزنجتون).. وعليه اسمى بخط يشبه سلكا شائكا..
أما محتواه فكان:
«تلقيت خطابك في سأم إذ تزعم أن آرائي لم ترق لك.. برغم أنني أعرف أنها ليست بحاجة إلى رضاك أو رضا سواك.. لقد استعملت لفظة تبدو لي مهينة هي (زعم) حين تحدثت عن آرائي في مذهب (داروين).. ثم تحدثت عن عبارة لم تفهمها من خطابى وأنا أرى أن هذه العبارة واضحة حتى لمستوى ذكاء أقل من البشري.. لكن لا بأس من أن أدعوك لزيارتي لأشرحها لك برغم أنني أمقت الزوار بجميع أشكالهم»
عليك أن تبرز هذا الخطاب لخادمى (أوستين) كى يتأكد من أنك مدعو.. لأنه يبعد عني كل هؤلاء الأوغاد الذين يدعون أنفسهم (صحفيين)!

جورج إدوارد تشالنجر
قرأت الخطاب بصوت عال لـ (تارب).. وكان تعليقة الوحيد هو:
- إنه يتمتع بروح رياضية حقا!
واستقللت سيارة أجرة إلى موعدى..
كان البيت يشي بالثراء.. لكنه رهيب.. وفتح لى الباب السائق وسألني عن مقدمي فأبرزت له الخطاب.. سمح لي بالدخول إلى رواق طويل.. فإذا بامرأة قصيرة القامة تهرع لتقول لي:
- هل قابلت زوجي من قبل؟
- لا يا سيدتي.. لم أحظ بشرف كهذا..

- إذن يجب أن تعلم أن زوجي مستحيل.. رجل مستحيل حقا.. وأرجو أن تكون أقدر على تحمله بعد هذا التحذير.. لو أبدى ميلا للعنف، فعليك أن تغادر المكان فورا.. لو كان مقدمة للحديث عن أمريكا الجنوبية فأنا أناشدك - حتى لو لم تصدق حرفا – ألا تظهر ذلك.. تظاهر بتصديق ما يقول لك، فلعل هذا يضمن لك بعض السلامة!

بعد هذا الكلام المطمئن؛ اقتادني الخادم إلى غرفة الأستاذ.. وقرع الباب، فسمعت صوتا كصوت ثور غاضب.. ووجدتني أمام الرجل..

كان يجلس على مقعد دوار خلف منضدة عريضة ملأى بالكتب والخرائط.. وحين رأيته أطلقت شهقة.. كنت أتوقع شيئا غريبا، لكن ليس إلى هذا الحدّ.. كان حجمه غير عادي.. حجمه وحضوره المسيطر، وكان رأسه أضخم رأس رأيته في حياتي.. وعيناه زرقاوين رماديتين فيهما صفاء وسيطرة.. ثمة لحية سوداء تغطي صدره.. وكتفان عريضان ويدان يغطيهما شعر كثّ.. الحق أنني لم أر آدميا أقرب للثور من هذا..



كنت أتوقع شيئًا غريبًا ، لكن ليس إلى هذا الحدّ . .
كان حجمه غير عادى ! . .

سألني في فظاظة:

- والآن ماذا تريد؟

قدمت له الخطاب.. فقال على الفور:

- إذن فأنت الشاب الذي لا يفهم الإنجليزية أليس كذلك؟ لكنك بالطبع موافق على الخطوط العامة؟

- بالتأكيد يا سيدي.. بالتأكيد!

- إذن قل لى ما تريد سريعا..

- خيل إلى أنك كنت قاسيا في هجومك على (فايتسمان)..
مال إلى الأمام في عصبية.. وراح يعزز وجهة نظره معددا على أصابعه عدة عوامل لم أفهم منها حرفا.. لكني رحت أوافق على كل كلمة مما يقول، وفي النهاية سألني في لهجة رقيقة:
- إلى أي شيء يقودنا هذا؟
قلت بنفس اللهجة:
- آه.. إلى أي شيء؟
هنا انفجر صارخا كالبركان:
- يقودنا إلى أنك نصاب متلصص.. صحفي دنيء يحاول خداعى.. لقد كنت أقول لك كلاما لا معنى له لكنك كنت تؤيد ما أقول طيلة الوقت!
وهب على قدميه.. وتقدم منى ببطء..
هنا لاحظت أنه قصير القامة من النوع الذي يسمونه (مدكوك).. لقد تركزت قوة هذا الرجل في العمق والعرض وحجم الرأس..
- حسن يا سيد.. لقد أنذرتك.. لكنك لعبت لعبة خطرة.. ويؤسفني أنك قد خسرتها!
قلت وأنا أتقهقر بظهري للباب:
- إسمع يا سيد.. يمكنك أن تكون وقحا إذا أردت لكن لا تعتد على بأية صورة!
- ألن أفعل ذلك؟
قالها ودس يديه الكبيرتين في جيب سترته وأردف:
- لقد رميت كثيرين من أمثالك خارج دارى فلم لا تلحق بهم؟
صحت فيه وأنا أفكر في المزلاج الموصد:
- لا تكن أحمق با بروفسور.. إنني ثقيل الوزن وصلب.. أنا لست الرجل..

لم يتركني أكمل كلامي إذ وثب عليّ وكنت محظوظا لأني فتحت الباب.. وانزلقنا إلى الردهة.. وأسقطنا مقعدا في طريقنا.. وامتلأ فمي بلحيته.. واشتبكت ذراعانا.. بينما قوائم الكرسي اللعين تحاصرنا.. وبدحرجة للخلف انزلقنا على الدرج.
ولم أدر متى فتح الخادم باب الشارع فوجدنا نفسينا هناك.. ووجدت الرجل ينهض ملوحا بقبضته يريد استكمال المشاجرة، وهو يلهث كمرضى الربو..
فصحت فيه بجنون:
- أيها الثور الجهنمي!
كان هناك رجل شرطة قادما.. فنهضت مسرعا وأشرت إلى البروفسور:
- هذا الرجل قد هاجمني!
نظر لنا الشرطي مليا.. وغمغم:
- إنها ليست المرة الأولى.. لقد أحدث شغبا مماثلا الشهر الماضي..
ثم سألني:
- هل تتهمه يا سيدى؟
قلت له وأنا أنهض:
- لا.. أنا الملوم لقد تطفلت عليه وهو قد أنذرني مرارا قبل هذا..
نظر الأستاذ إلى في دهشة، على حين انصرف الشرطي بعد أن أنذر الرجل من إحداث مزيد من الشغب..
هنا قال لي البروفسور وهو يشير إلى داره:
- هيا ندخل!.. أنا لم أنته منك بعد؟
تبعته إلى داخل الدار.. وكتمثال خشبي أوصد (أوستن) الباب وراءنا..

∞∞∞∞∞

4- أضخم شئ في العالم..

ما إن انغلق الباب وراءنا حتى اندفعت زوجة البروفسور نحونا.. كدجاجة حانقة تسد الطريق على كلب (بولدوج).. وصاحت في زوجها:

- يا لك من وحش يا (جورج)! لقد آذيت الشاب اللطيف.

ثم واصلت اللوم وهي ترمق أثر المشاجرة عليّ:

- كل أسبوع تكرر ذات المشهد.. حتى صار الجميع يمقتونك ويسخرون منك.. لقد نفد صبري..

غمغم في ضيق:

- هذا غسيل قذر..

- ليس سرا.. ألا تعرف أن كل الشارع.. كل (لندن).. لا يتحدثون إلا عنك؟ أين كرامتك يا (جورج)؟ لقد صرت مشاغبا في زقاق.. وإنك لتختبر تحملي أكثر من اللازم..

قال لها في هدوء وهو يضع يديه الضخمتين على كتفيها:

- كان يمكن أن أكون أفضل لو اتبعت نصائحك، لكني ما كنت لأكون أنا.. ليس في العالم إلا (جورج إدوار تشالنجر) واحد.. وهو ملكك!

ثم التفت إلى في وقار قائلا:

- هذا الطريق من فضلك يا مستر (مالون)!

عدنا إلى غرفة مكتبه.. فأجلسني وقدم لي سيجارا فاخرا.. وقال:

- والآن يا مستر (مالون).. أصغ لما أقول بانتباه ولا تقاطعني.. لقد راقت لي إجابتك لهذا الشرطي.. إنها تعكس نوعا من الشعور الكريم لديك، ليس معتادا أن أجده لدى صحفي.. ولهذا السبب أشعر بميل لتعرفك أكثر..

قالها وراح يعبث في الأوراق على مكتبه.. ثم رفع ما يشبه كراسة الرسم (الاسكتشات) التخطيطية، وأردف:
- سأحدثك عن أمريكا الجنوبية.. لا تعلق من فضلك.. لا داعي لأن أذكر أن حرفا مما سأقول الآن لا يسمح بذكره لأحد.. هل هذا واضح؟
قلت بعد تفكير:
- حسن.. حسن.. سأقبل أية شروط - كلمة شرف؟
- كلمة شرف..
- وماذا تعرف عن الشرف على أية حال؟!..
جن جنوني فصحت محنقا:
- إنك لتسمح لنفسك بتجاوز الحدود.. لم يهني أحد في حياتي إلى هذا الحدّ..
بدا أنه مستمتع بثورتي.. فقال:
- رأس مستدير.. شعر أسود.. عينان رماديتان جمجمة مستطيلة.. يبدو لي أنك من أصل زنجى أليس كذلك..؟
- أنا أيرلندي يا سيدى
- هذا يفسر الأمر.. والآن سأبدأ كلامي.. تعرف أنني قمت منذ عامين برحلة إلى حوض الأمازون في أمريكا الجنوبية.. كنت أبغي تحقيق بعض كشوف (والاس) و (بيتس).. ولو اقتصرت رحلتي على هذا الغرض، لكانت تستحق العناء.. لكني وجدت علامات تقود إلى عالم جديد لا يُصدق..
- مررت في طريق عودتي على قرية من قرى الهنود (الكوكاما).. وهم قوم مسالمون لا يزيد ذكاؤهم على ذكاء مواطن إنجليزي متوسط.. كنت قد شفيت بعض مرضاهم، لهذا كانوا يميلون إليّ، وأدركت من إشاراتهم أنهم بحاجة لعوني.. وفي داخل كوخ من أكواخهم وجدت رجلا أبيض قد احتضره الموت، وكانت

جواره حقيبة بداخلها اسمه (مابل وايت) من (ليك أفنيو) في (ديترويت) بالولايات المتحدة.. لقد كان الرجل رساما يحمل في جعبته الكثير من الألوان وفرش الرسم.. ووجدت هذه الكراسة في جيبه..
وتناول سيجارة وتراجع للوراء يرمقني متفحصة، ليرى الأثر الذي ستحدثه هذه المخطوطة في نفسى..
فتحت الكراس وأنا أتوقع شيئا مبهرا.. لكن الصفحة الأولى لم يكن بها ما يثير الانتباه سوى صورة لرجل بدين كتب تحتها (جيمي كولفر على قارب البريد) بعد صفحات عدة بها رسوم للهنود وطرائق معاشهم.. دراسات لنساء الهنود وأطفالهن.. ثم صور للحيوانات تحتها تعليقات على غرار (ماناتى على هضبة رملية).. (سلاحف وبيضها).. ثم صفحة تضم صورا لزواحف كريهة للغاية.. أخبرني البروفسور أنها تماسيح أمريكية (قاطور).. ا
في الصفحة التالية رأيت رسما لخط من الحواجز الصخرية التي يكسوها النبات وتبدو كسور على طول المنظر الخلفي.. كانت هناك صخرة هرمية فوقها شجرة.. وفي الصفحة التالية رأيت أغرب مخلوق رأته عيناى..
كان كائنا له جسم تمساح يرتمي ذيله على الأرض.. والرأس كان رأس طائر.. ورأيت صورة قزم يقف أمام هذا الشيء ويرمقه..
- الآن ما قولك في هذا؟
قالها الأستاذ مزهوا.. فقلت له:
- إنه تأثير الخمر المحلي في رأسه.. كما أعتقد لقد كان الرسام ثملا..
- أهذا خير تفسير عندك؟
- وما هو خير تفسير عندك يا سيدى؟

- التفسير الواضح: إن هذا المخلوق موجود فعلا وقد رسم من الطبيعة وإنك لتزيد من سعة فهمى لجوانب التخلف العقلي والعته.. رائع!
كدت أغضب.. لكني رأيت أن في هذا مضيعة للجهد.. لو أنك أردت أن تغضب من هذا الرجل فلسوف تغضب طيلة الوقت -
وضع إصبعه المشعر الشبيه بالسجق على الخريطة، وقال:
- أنظر هنا.. أترى هذا النبات؟ إنه ليس عشبا، بل هو نخلة كاملة يبلغ طولها ستين قدما.. وهذا الرجل.. المفترض أن طوله ستة أقدام.. وهذا يعني أن ارتفاع الحيوان هو....
صحت في ذعر:
- يا للسماء! لكنك لن تلقي بتجربة الجنس البشرى جانبا على أساس رسم تخطيطي واحد رسمه رسام أمريكي جوال تحت تأثير الحشيش، أو هذيان الحمى، أو ببساطة طلبا لمجد زائف.. أنت رجل علم ولن تسمح بهذا..
قدم لي البروفسور عظمتين لأفحصهما.. كانت الواحدة منهما تبلغ ست بوصات طولا.. وقال إن العظمتين بالتأكيد من ذلك الوحش.. وكانتا في حاجيات المتوفي..
- ألا يمكن أن تكون عظمة فيل؟
- لا أفيال في أمريكا الجنوبية.. أما زلت غير مصدق؟
- لنقل أنني - فقط - مهتم جدا.
- على الأقل ليست حالتك ميؤوسا منها.. يخيل إلى أن لديك بعض العقل.. سنترك الأمريكي الميت الآن ونعود لقصتي.. لقد عرفت الجهة التي جاء منها ذلك الرحالة المتوفى.. إن الهنود يتحدثون عن أرض تسكنها أرواح الغابات التي يدعونها (كوروبورى).. إنها شيء مفزع مخيف يجدر بالمرء أن يفر منه.. لا أحد يعرف كنهه.. لكن القبائل كلها متفقة على مكان

(الكوروبورى).. وهو نفس الاتجاه الذي جاء الأمريكي منه.. ثمة شيء مريع هناك.. وعملى هو أن أعرف ما هو..
- وماذا فعلت؟
- نجحت بالإقناع والهدايا أن أجعل اثنين من الهنود يعملان دليلين لي.. وبدأت رحلتي إلى ذلك المكان.. وبعد مخاطر عدة وصلنا إلى إقليم لم يره بشر قط عدا سلفى البائس... هلا نظرت إلى هذه؟
كانت في يده صورة فوتوغرافية حال لونها وقال:
- إن حالتها السيئة تعود لأن القارب انقلب في أثناء العودة.. وكانت الأفلام في حقيبتي.. وهى خسارة لا يمكن إصلاحها.. وهذا هو ما جعل هناك أقاويل عن تزوير الصور..
كانت الصورة تظهر مشهدا طبيعيا، لكنني استطعت أن أفهم أنه يمثل خط الصخور الطويل الذي رأيته في الرسم التخطيطي.. وكانت هناك صورة أخرى لذات المشهد من زاوية أقرب تظهر الصخرة الهرمية والشجرة فوقها.. فقلت:
- لا شك عندي في أنه ذات المكان..
- وهل ترى هذا الذي فوق الشجرة؟
وقدم لي عدسة مقربة فنظرت خلالها.. وقلت له:
- كأنه.. إنها بجعة..
- ليس بجعة.. ليس طائرا على الإطلاق.. لقد قمت بصيده ببندقيتي.. وكان هذا دليلا مؤكدا..
- إذن هو لديك؟
- كان لدي.. ثم ضاع في النهر حين انقلب القارب.. وما تمكنت من الحصول عليه هو جزء من جناحه..
وأخرج من درج مكتبه ما بدا لى كجزء أعلى من جناح وطواط عملاق.. كان طوله قدمين وله غلاف غشائي..



وأخرج من درج مكتبه ما بدا لى كجزء أعلى من جناح وطواط عملاق . .

قلت مقترحا:

- وطواط هائل!

- لا ليس وطواطا.. إن كوني أحيا في جو علمى يجعلني لا أصدق أن الناس يجهلون أبسط قواعد علم الحيوان إلى هذا النحو.. أحقا لا تعلم تلك الحقيقة البسيطة في التشريح المقارن: إن جناح الطائر هو ساعده في الحقيقة.. وجناح الوطواط هو ثلاثة أصابع طويلة يربطها غشاء؟! هذه العظمة ليست عظمة

ساعد.. ولا يوجد غشاء حولها.. بالتالي هي لا تخص طائرا ولا وطواطا.. فما هي إذن؟
كان قسطي الضئيل من العلم قد نفد.. فهززت رأسي في عجز..
قال وهو يشير إلى الكراس:
- إنه زاحف من زواحف العصر (الجوراسي) ظهر على الأرض منذ مائة وخمسين مليون سنة..
اسمه العلمي هو (تيروداكتيل) ([2]).. هي ذي صورته ويمكنك أن تقارنها بالجناح الذي لديك..
هنا أصابني الذهول.. وصحت وقد صحا حماسى الصحفي لا العلمي:
- إنه مذهل.. أنت (كولمبوس) العلم الذي وجد عالما جديدا مفقودا أنا أعتذر إن شككت فيك، لكني أفهم الأدلة حين أراها..
همهم في رضا.. واستكمل قصته:
- كان هذا هو موسم الأمطار با مستر (مالون).. وقد أوشكت المؤن على النفاد.. ووجدت مكانا فوق الصخرة الهرمية يصلح للتسلق.. ومن أعلاه رأيت سهلا ممتدا لا نهاية له.. داخله أراض ملأى بالمستنقعات والأوحال.. ولقد عسكرنا هناك أسبوعا، ظللنا طيلته نسمع أصواتا غريبة من الإقليم..
- وكيف وجدت الوحوش في هذا الإقليم؟
- لا أحسب المشكلة غامضة إلى هذا الحد.. إن أمريكا الجنوبية - كما أخالك تعرف - قارة جرانيتية..
وقد حدث في هذا الموضع - في زمن سحيق – انفجار بركان مهول.. أدى إلى ارتفاع كتلة من الأرض بما عليها من وحوش فوق مستوى القارة.. بالتالي ظلت هذه الحيوانات بمعزل عن عوامل الانقراض في باقي القارة.. إن السير (برسيفال والدرون)

عالم الأحياء الشهير سيلقى هذه الليلة محاضرة في الثامنة والنصف، في قاعة (هول) عن (سجل العصور)..
وقد دعيت لحضور هذه المحاضرة.. ستكون معي هذه الليلة لتراني أقدم ملاحظاتي بشكل عقلاني رقيق.. سيكون هذا نموذجا لسيطرة الروح على العاطفة، ولعلي بهذا الأسلوب الهادئ أنجح في الحصول على نتيجة ما..
- وهل لي أن ألحق بك؟
أجاب في مودة:
- بالتأكيد سيكون من دواعي سروري أن أعرف أن هناك من يؤيدني في القاعة برغم جهله وقلة كفاءته.. سيكون الحضور كبيرا لأن (والدرون) ذو شعبية هائلة برغم كونه مهرجا علميا.. والآن يا سيدي لقد أعطيتك من وقتي الكثير.. وعلى المرء ألا يحتكر ما هو ملك للعالم.. وأنت تفهم طبعا أن ما قلته لك ليس للنشر..
- لكن.. لكن المستر (ماكاردل).. سيريد معرفة ما فعلت..
- قل له ما تشاء.. قل له أيضا أنه لو أرسل لى من يتدخل في حياتي بوقاحة؛ فسوف أزوره حاملا سوط الركوب لأجلده به.. وأنا أثق بأنك لن تنشر حرفا مما قلت.. ولا تنس موعدنا في الثامنة والنصف الليلة..
وحين أخرجني من الغرفة، لم أعد أذكر سوى خدين أحمرين.. ولحية زرقاء.. وعينين لا تقاومان..

∞∞∞∞∞∞

5- سـؤال!

كنت منهكا جثمانيا بعد صدامي الأول مع البروفسور (تشالنجر).. وكنت منهكا عقليا بعد لقائي الثاني..
لكني حين وجدت نفسي في (إنمور بارك) كانت فكرة واحدة تتردد في رأسي الذي يمزقه الصداع:
هذا الرجل يحكي قصة حقيقية.. ويمكن أن تكون طبعة لا توصف من جريدة (جازيت) لو أنه سمح لى بنشرها..
استقللت سيارة أجرة إلى الجريدة.. حيث كان (ماكاردل) في مكتبه كالعادة..
صاح في شغف:
- حسن.. ماذا حدث أيها الشاب؟ لا تقل أنه اعتدى عليك!
- كانت ثمة مشادة في البدء، ثم مال للتعقل لكني لم أخرج بشيء من كلامه.. لا شيء للنشر..
- لا أظن هذا.. إن السواد يحيط بعينيك.. وهذا صالح للنشر حتما.. لن نستسلم لهذا الإرهاب، ولأكتبن مقالا افتتاحيا عنه غدا يؤذيه ويفضح أكاذيبه..
حاولت إقناعه بأن يتمهل لأن الرجل غير كاذب، وليس غشاشتا بحال.. وحكيت له كل شيء.. فقال:
- ليكن.. لكني أريد منك أن تحضر اجتماع الليلة.. إن هذا يجعلنا ننفرد بخبر لن تكتب عنه أية جريدة أخرى شيئا.. فلا أحد يهتم بـ (والدرون)، لأن شهرته ساحقة.. لكننا فقط نعلم أن (تشالنجر) سيكون هناك.. بل سيتكلم كذلك!.. سأحجز لك فراغا في العدد حتى منتصف الليل..

∞∞∞∞∞∞

نجحت في إقناع صديقى (تارب) بعد لأي بأن يصحبني لحضور محاضرة (والدرون)..
وفي الموعد كانت القاعة مكتظة بالحضور.. تجمع بين أساتذة الجامعة ذوي اللحى البيضاء وعامة الناس.
وكان هناك كثيرون من طلاب الطب يتبادلون النكات وقد عم المكان جو من المرح..

..
لهذا - حين دخل (تشالنجر) القاعة ليجلس في موضعه - دوت صيحة ترحيب من الجميع.. وأدركت أن سبب تواجد طلاب الطب هو أن خبر قدوم (تشالنجر) قد تسرب بشكل ما.. دوت بعض ضحكات من الجالسين في المقاعد الأمامية ذوي الثياب الفاخرة فقد كان صخب الترحاب رهيبا.. كأنه زئير الوحوش في أقفاصها حين يدخل الحارس إلى مكانها حاملا دلو الطعام..
وشعرت شيئا من الاستفزاز في هذا الصخب.. إنهم ينظرون إلى (تشالنجر) كشخص يسليهم أكثر منه شخصا ينفرهم أو يثير مقتهم، لكن الرجل ابتسم في تحد.. وجلس نافخًا صدره.
فما إن هدأت الضجة حتى قدم رئيس الجلسة محاضرة (والدرون)، وراح الرجل يتحدث عن تكوين الكون من كتلة غازات ملتهبة، ثم تيبس هذه الكتلة وتكوين الأرض بجبالها وبحارها.. ثم ظهور الحياة..
حدثنا عن سلم الحيوانات.. وعن جفاف البحيرات الذي جعل المخلوقات البحرية تلجأ إلى البر حيث الغذاء.. مما أدى لنموها نموا هائلا..

كان حديثه شائقا.. لكنه كان يقترف خطأ الإنجليز الشهير في كونه يتحدث بصوت غير مسموع.. لماذا لا يبذل الناس الذين يقولون أشياء جديرة بالسماع جهدا بسيطا لجعل صوتهم مسموعا؟ هذا من أغرب الأمور في حياتنا المعاصرة..
تطرَّق بعد ذلك إلى الزواحف العملاقة التي حكمت الأرض ملايين السنين، ثم انقرضت قبل ظهور الإنسان على الأرض..
- سؤال!
دوى الصوت من المنصة.. لكن المحاضر لم يكن يهوى المقاطعة، لذا واصل الكلام.. إلا أن الصوت دوى من جديد:
- سؤال!
ومع أن (والدرون) رجل متمرس في فن المحاضرة إلا أنه عجز عن تحميل المقاطعة بهذا الشكل.. لذا نظر نحو (تشالنجر) صاحب الصوت، وهتف:
- إنني أجد نفسي مرغما على أن أطالبك يا بروفسور (تشالنجر) بأن تكف عن هذه المقاطعة التي تنم عن سوء أدب!
رد (تشالنجر) في هدوء وبابتسامة ناعسة:
- كف أنت أيضا عن تقرير أشياء غير علمية!
سادت الضوضاء القاعة.. لكن رئيس الاجتماع وقف على قدميه وراح يطالب الجميع بالتزام الصمت وترك التعليقات لما بعد..
واستأنف (والدرون) محاضرته.. لكن الجمهور ظل ينتظر نهايتها في شغف، ليرى ما سيحدث بين العالمين في نهايتها..
وحين فرغت المحاضرة طلب رئيس الجلسة من البروفسور (تشالنجر) أن يقدم تعليقه.. فقال الرجل:
- سيداتي سادتي.. إنني لأوجه عظيم شكري إلى السير (والدرون) الذي أمتعنا بخطبة مسلية حقا.. لكنها مفرطة في الخيال.. لقد أخطأ خطأً جسيما عندما افترض أن عدم رؤيته للزواحف

العملاقة يعني أنها غير موجودة.. فأجدادنا القدامى بأشكالهم البدائية المروعة موجودون حتى الآن... وتلك الزواحف التي تعود إلى العصر الجوراسي موجودة كذلك.. وبشيء بسيط من الجهد يمكن العثور عليها.

ارتفعت بعض الأصوات المحنقة تردد:

- كاذب!

قال في إصرار:

- لا يهمني أن أناقش هذه النقطة.. فلن يستطيع بعض الشبان الحمقى وبعض الشيوخ الذين لا يقلون حماقة عنهم أن يقنعوني بأن ما هو حقيقى ليس كذلك.. لقد فتحت بابا علميا جديدا وأنتم تنكرون هذا على.. وإنني لأطالب بأن تنتخبوا واحدا من بينكم كى يذهب ممثلا لكم ليتحقق مما أزعمه..

نهض المستر (سامرلي) أستاذ تشريح الحيوان المقارن.. وهو رجل ناحل طويل القامة له سيمات علماء اللاهوت.. وطلب من البروفسور معرفة خطوط الطول والعرض لهذه المنطقة التي تعيش بها الزواحف العملاقة..

قال البروفسور إن المنطقة في حوض (الأمازون) ولا يستطيع الإدلاء بأي تفاصيل أخرى.. لكنه سيقدم المعلومات كاملة للجنة يختارها الحاضرون.. وهو يرشح البروفسور (سامرلي) أن ينضم إلى هذه اللجنة.

وافق هذا الأخير.. فأسرعت بطلب الانضمام إلى هذه اللجنة لأنني أعتقد أن هذه هي الفرصة التي تحدثت عنها (جلاديس).

ثم نهض رجل يدعى لورد (جون ركستون).

وقال: إنه يعرف (الأمازون) جيدا وأنه يرحب بالانضمام إلى الحملة..

قال رئيس الجلسة: إن الحملة يناسبها حتما انضمام صحفي ورجل رياضي رحالة مثل اللورد...
ووافقه بروفسور (تشالنجر).
وكذا وسط الصراخ والتهليل تحدد مصيرنا..
ووجدتني غارقا وسط التيار البشري الذي يقود إلى الباب.. بينما عقلى مبلبل بالمشروع الضخم الذي أقدمت عليه.. وسمعت ضحكات، ورأيت البروفسور (تشالنجر) على الإفريز يلوح بمظلته ليفرق حشد الطلبة الضاحكين الذين التفوا حوله..
ومشيت في شارع (ريجنت) مليئا بالأفكار عن (جلاديس) أتساءل عن مستقبلى..
هنا شعرت بمن يلمس مرفقي.. فالتفت لأجد أنني أحدق في عينين مرحتين مسيطرتين للرجل الذي تطوع بمصاحبتي.. لورد (ركستون).

قال لي:
- مستر (مالونى).. أفهم أننا قد صرنا رفيقين.. إن منزلي عبر الطريق هناك في (ألباني).. لربما تكرمت بأن تعطيني نصف ساعة من وقتك لأن هناك شيئا أو شيئين أرغب في مناقشتهما معك..

∞∞∞∞∞

6- كنت هراوة الرب..

وصلنا إلى مسكن اللورد (ركستون).. ففتح الباب وأضاء النور الكهربي.. كان المناخ بهيجا، به ذوق وأناقة.. لكن كل شيء كان يشي بأن الرجل وسط الحجرة كانت ثمة منضدة عليها أقداح وزجاجة شراب.. فنهض ليعد قدحين.. وعاد ليجلس جواري.. كان أحمر اللون من إثر الشمس والهواء.. وله حاجبان كثان، وشعر داكن محمر، وأنف معقوف..

كنت أعرف الرجل.. فشهرته طبقت آفاق إنجلترا، لكني لم أره عن كثب من قبل.. خاصة وهو يرمقني بهذا الإصرار..

أخيرا قال:

- ها نحن أولاء قد فعلناها يا بني.. لقد قفزنا قفزة كبرى.. وأخالك لم تكن تنتوي شيئا حين دخلت القاعة هذه الليلة..

- بتاتا..

- وأنا كذلك.. تصور أنني عائد من (أوغندا) منذ أسابيع ثلاثة.. بالمناسبة.. كنت أريد خدمة صغيرة منك..

- بكل سرور..

- إنها مخاطرة..

- ما هي؟

- إن لي صديقا في الحجرة العليا.. أصيب بحمى خطرة جعلته هائجا منذ الثلاثاء الماضي، ويقول الأطباء إنه يجب أن يأكل وإلا مات.. المشكلة هي أنه قد جُنّ تقريبا.. وهو يحتفظ فوق وسادته بمسدس محشو، يقسم بشرفه إنه سيفرغه في قلب من يدنو منه!

- وماذا ستفعله؟

- سننقض عليه أنا وأنت.. لن يصيب سوى واحدا منا إذا أطلق الرصاص، أما الآخر فسيصل إليه ويقيده.. وعندها ننقذ حياته!
وأنا لست شجاعا.. بل أنا رجل إيرلندي ذو خيال يقظ يضخم الأخطار.. لكنني أخشى الاتهام بالجبن أكثر.. إنني لأرمي بنفسي في أي خطر لو أن شجاعتي صارت محك تساؤل..
لهذا برغم خوفي من الوحش المريض بالطابق العلوي، فإنني أجبت في صوت هادي قدر الإمكان أنني موافق..
وضعت قدحى ونهضت من مقعدي.. ونهض هو معي.. ثم إذا باللورد يبتسم.. ويصافحني.. ثم يدعوني للجلوس ثانية:
- مرحي يا فتاي.. أنت تصلح!
فنظرت له متسائلا.. قال مفسرا:
- إن رحلة أمريكا الجنوبية هذه شيء خطير، ولا أريد أن أصحب شخصا لا أستطيع الاعتماد عليه هناك.. ولهذا عقدت لك هذا الامتحان كى أعرف مدى ثبات جنانك.. ومن الواضح أنك اجتزته بنجاح..
إن الوحيدين القادرين على الكفاح في هذه الرحلة هما أنا وأنت.. أما العجوز (سامرلي) فسوف يحتاج إلى مربية تعنى به.. هل أنت جيد في الرماية؟
- متوسط..
- يا إلهي الرحيم!.. أإلى هذا الحد من السوء أنت؟.. يجب أن تحسن الرماية في أمريكا الجنوبية، إذا لم يكن البروفسور (تشالنجر) كاذبا أو مجنونا فهذا يعني أننا سنرى وحوشا مذهلة، وقادني إلى خزانة من خشب البلوط ليريني صفوفا من البنادق متراصة بدقة كأنابيب الأرغن.. وقال وهو يتأمل إحداها بحنان:
- كنت أقاتل بهذه النخاسين في (بيرو) منذ أعوام ثلاثة.. كنت هراوة الرب وقتها في هذه الربوع.. لقد بدأت هناك حربا على

مسئوليتي الخاصة.. وكل ندبة على جسدي تدل على قتيل من تجار الرقيق.. لقد كان من واجبي أن أحارب من أجل الحق والعدل..



وقادني إلى خزانة من خشب البلوط ليريني صفوفا من البنادق متراصة بدقة كأنابيب الأرغن . .

ثم نظر لى متسائلا وهو يناولني إحدى البنادق:

- ماذا تعرف عن بروفسور (تشالنجر)؟

- لم أره قبل اليوم!

- وأنا كذلك.. ومن المضحك أننا سنواجه الأخطار سويا تحت إمرة رجل نكاد لا نعرفه.. إنني أحب أمريكا الجنوبية حقا لأنها أكثر بقاع الأرض ثراءً، وفخامة.. ثم إنها مجهولة حتى اليوم..

لكني سمعت كثيرا من الأساطير، جعلتني أومن أن هناك شيئا حقيقيا في تلك البقاع.. إن كل شيء يمكن أن يحدث في أمريكا الجنوبية..
وحين فارقت الرجل أخيرا؛ كنت مؤمنا أننا لسنا واجدين في انجلترا كلها من هو أرجح دماغا ولا أكثر شجاعة من هذا الرجل..
وعدت راضيا إلى (ماكاردل) رئيس قسم الأخبار، فشرحت له تفاصيل ما حدث..
واتفقنا على أن أبعث إليه بخطابات دورية من أمريكا الجنوبية أصف فيها تفاصيل رحلتنا.. على أن تنشر أو تحجب حسب ما يتراءى ل (تشالنجر)..

∞∞∞∞∞

وهكذا يا قرائى لن يكون ممكنا من الآن فصاعدا أن أحدثكم مباشرة، بل ستكون همزة الوصل بيننا هي الجريدة التي أراسلها..
هأنذا أكتب هذه السطور على ظهر عابرة المحيطات (فرانشكا).. وسيقوم القبطان بتوصيلها إلى المرشد ليوصلها إلى مستر (ماكاردل)...
دعوني أرسم صورة أخيرة، هي آخر ذكري للبلد الذي أحمله معي.. إنها صورة صباح ضبابي في نهاية الربيع.. ومطر بسيط ينهمر.. بينما يمشي البروفسور (سامرلي) بقامته الفارعة ووجهه المكتئب فوق ظهر العابرة.. ويقف لورد (جون روكستون) شارد الذهن..
البروفسور (تشالنجر) ينادينا من الميناء صائحا:

- أرجو ألا تظنوا أنني مدين لكم بأي شيء مقابل قيامكم بهذه الرحلة!.. إن الموضوع لا يعنيني أساسا.. إن الحقيقة العلمية هي الحقيقة العلمية..

تعليماتي ستكون في مغلف، عليكم ألا تفتحوه إلا في (ماناوس) على نهر الأمازون.. بالنسبة لك يا (مالون) فإن كل ما أطلبه هو ألا تنشر على الناس شيئا قبل عودتك للوطن..

وتحركت العابرة مغادرة الميناء..

فليكتب الله لنا العودة إلى وطننا سالمين..!

∞∞∞∞∞∞∞

7- غدا نختفي في المجهول..

لن أثير سأم من يقرءون قصتي بوصف رحلتنا على عابرة المحيطات.. أو إقامتنا أسبوعا في (بارا) وإن كنت أود أن أزجي الشكر لكرم شركة (بيريرادو بنتا) التي أسدت لنا معونات كبيرة.. ولا عن رحلتنا عبر النهر في زورق بخاري حتى وصلنا إلى (ماناوس)؛ حيث صار بوسعنا أن نفتح خطاب البروفسور (تشالنجر)..

والآن سأتحدث بحرية تاركا تنقيح الكلام لك يا مستر (كماردل)..

سأترك الكلام عن صديقى الأبيضين، لأن القارئ سيعرف عنهما وعنى أكثر كلما تقدمت القصة.. لكننا كنا قد ضممنا بعض المرافقين سيلعبون دورا غير صغير في الأحداث التالية..

أولهم: عملاق زنجى.. هرقل أسود مطيع كحصان، يتكلم بعض الإنجليزية، واسمه (زامبو).. ثم كان لدينا هجينان من أعلى النهر.. رجلان ملتحيان يوحى شكلهما بالشراسة..

كان الهجين الأول يدعى (جومز).. ويتحدث الإنجليزية بطلاقة..

ثم ألحقنا معنا ثلاثة هنود حمر من (بوليفيا) من قبائل (الموجو).. وهم يجيدون صيد الأسماك وأعمال القوارب.. وزعيمهم يدعى (موجو) على اسم قبيلته.. أما زميلاه فيدعيان (خوزيه) و (فرناندو)..

ثلاثة بيض.. هجينان... زنجى.. ثلاثة هنود..

هذا هو قوام المجموعة التي بدأت تتحرك للقيام بحملتها الغريبة..

وها نحن أولاء جالسون في قاعة الجلوس في دار مستر (شورتمان) نصغي لأصوات الحشرات الاستوائية.. وعلى

المنضدة خطاب البروفسور (تشالنجر) الذي أوصانا بعدم فتحه إلا في (ماناوس) يوم 15 يوليو عند الظهيرة..
حان الوقت فتناول لورد (جون) المظروف وفتحه بمبراته.. أخرج من داخله صفحة بيضاء.. ففتحها ليجد أنها ورقة بيضاء من دون سوء.. تبادلنا نظرات غير مفهومة.. وقال البروفسور (سامرلي) ساخرا:
- لقد قضى الأمر!.. هو ذا (تشالنجر) يعترف بكل صراحة أنه كاذب أو مجنون.. دعونا نعد إلى الوطن الآن لنعلن على الناس أن (تشالنجر) نصاب) كدنا نتبادل الجدال حين سمعنا هديرا من الشرفة كان هذا صوت رجل يدخل إلى المكان رجل قصير القامة.. ضخم الرأس.. عريض الكتفين..
وهبينا واقفين حين رأينا (تشالنجر) يدخل إلى الغرفة.. وعلى رأسه قبعة من القش.. وبصوته الغليظ صاح:
- يؤسفني أن تأخرت عن موعدي.. كنت أنوى أن أكون بينكم قبل هذه الساعة.. وبالتالي لا تعود بكم حاجة لفتح المظروف!
قال لورد (جون):
- إن ظهورك يا سيدي قد أعاد الارتياح إلى نفوسنا بعد ما ظننا أن مهمتنا قد انتهت عند هذا الحدّ.. فلم يكن أحدنا قادرا على فهم هذا التصرف..
تقدم (تشالنجر) فصافحنا جميعا في مودة.. ثم ألقى بجسده الثقيل فوق أحد المقاعد وتساءل:
- هل الرحلة مُعدَّة؟
- يمكن البدء غدا..
- حسن.. لا داعي لوجود تعليمات مادمت سأشرف هذه الرحلة بأن أقودها بنفسي على الطبيعة. الواقع أنني لم أرد أن أصحبكم

من البداية، لهذا لجأت إلى هذه الحيلة الصغيرة حتى لا تصروا على أن أكون معكم..
قال لورد (سامرلى) في إخلاص:
- ما كنت لأطلب هذا يا سيدى مادامت هناك سفينة أخرى عبر الأطلنطي!
لوح (تشالنجر) نحوه بيده الغليظة المشعرة..
وأردف:
- أنتم الآن في يد أمينة.. وأجد نفسى مطالبا إياكم بإتمام جميع التجهيزات هذه الليلة بالذات، لأننا سنتحرك في ساعة مبكرة من الصباح.. إن وقتى ثمين.. على الأقل هو أثمن من وقتكم جميعا!
إن نهر الأمازون مناسب للملاحة تماما حين تكون الرياح الجنوبية الشرقية هي المسيطرة.. وبهذا تستطيع السفن الشراعية أن تصعد إلى المنبع، وعند العودة تكتفي بالهبوط مع مجرى الماء، وهكذا أبحرنا في النهر فوق زورق بخارى كبير، عبر أحد روافد النهر الفرعية.. حتى وصلنا إلى إحدى قرى الهنود....
ثم استأجرنا من القرية قاربين (الجلد المشدود على هيكل من البامبو) من النوع المسمى (Canoe)ويمتاز بخفته الشديدة التي تمكنك من حمله عند عبور أي عائق..
وجعلنا البروفسور نقسم بشرفنا على عدم ذكر أية علامات تدل على مكان الكشف.. لهذا ألتزم بالغموض في سرد قصتي.. وأنذر قرائى أننى سأكون دقيقا في الخرائط التي أرسمها فقط فيما يخص علاقات الأشياء ببعضها.. لكنني قد قمت بتشويش إحداثيات البوصلة تماما حتى لا يستخدمها أحد فيما بعد..
ولا أدري هل هذا من حق البروفسور أم لا..
لم نكن نملك الخيار
بعد هذا استعنا بهنديين اسمهما (آتاكا) و (ايبيتو)...

وأعتقد أنهما كانا نفس الملاحين اللذين صاحبا البروفسور في رحلته الأولى..
وغدا نختفي في المجهول...
من يدري؟ قد تكون هذه الكلمات هي آخر ما تسمعه منى يا مستر (ماكاردل)..

∞∞∞∞∞

8 - المعالم الخارجية للعالم الجديد..

سيطرب رفاقنا في الوطن حين يعلمون أننا في السبيل لهدفنا.. وأننا أثبتنا أن آراء بروفسور (تشالنجر) قابلة للتحقق منها..
أرسل هذه الرسالة للوطن مع أحد الهنود المرافقين لنا بعد أن أصابه جرح.. وبالتالي هو عائد إلى الحضر.. لكني لست واثقا مما إذا كان هذا الخطاب سيصل أم لا..
لقد غادرنا القرية الهندية وركبنا القاربين..
وتوخينا واجب الحرص فجعلنا كلا من العالمين المرافقين لنا في قارب منفرد..
واستمرت الرحلة يومين في مياه داكنة شفافة ونهر عرضه مئات الياردات.. وعلى الضفتين كنا نرى أشجارا لم أصدق قط أنها بهذا الحجم الذي يفوق كل معلوماتى عن علم النبات.. لكن العالمين كانا يعرفان اسم كل شجرة هنا.. وإن لم يخفيا انبهارهما.
كانت الظلمة هائلة بسبب غاية الأشجار الكثيفة لهذا كان كل نبات يحاول الوصول إلى أعلى ليحظى بقسط من الضوء..
وكنا نسمع صراخ القردة في وقت الفجر.. أما في النهار فكان طنين الحشرات يفعم آذاننا بصوته الرتيب المستمر: فيما عدا ذلك، لم يكن ثمة دليل على وجود حياة بشرية في هذه الأصقاع..
على أنه في اليوم الثالث سمعنا صوتا غريبا يتردد ونظرنا إلى الهنود متسائلين، فلم نر سوى علامات الذعر على وجوههم..
لكن اللورد (جون) قال في هدوء ولامبالاة:

- إنها دقات طبول الحرب.. إن هؤلاء الهنود يراقبوننا طيلة الوقت، ولسوف يقتلوننا حين تسنح الفرصة!
واستمر الصوت أياما.. من ست أو سبع طبول.. وميزنا أن الصوت يأخذ أحيانا سرعة غير عادية وأحيانا يأخذ شكل سؤال وجواب.. لكنها كانت تردد دوما:
- سنقتلكم حين نستطيع!.. سنقتلكم حين نستطيع!
كان الصوت يهز أعصابنا طيلة النهار.. لكني وجدت أن البروفسورين العجوزين اللذين يصاحباننا على مستوى عال من قوة الأعصاب.. إنها شجاعة العلماء.. كانا غارقين في ملاحظة كل طائر وكل شجرة، كأن التهديد لا يخصهما وكأنهما يدرسان في إحدى قاعات لندن..
وفي فجر اليوم التالي بدأت أصوات الطبول تخفت تدريجيا.. وعرفنا أننا نبتعد عن الهنود رويدا..

∞∞∞∞∞∞

عبرنا مسقطا مائيا صغيرا يبدو أنه المسقط الذي انقلب فيه قارب البروفسور في رحلته الأولى، وبعبورنا لهذا المسقط قطعنا نحو مائة ميل من ذلك الرافد، مبتعدين عن النهر الأساسي، وعند الفجر كان البروفسور (تشالنجر) يتفحص جانبي النهر في قلق.. فجأة صاح في رضا وهو يشير إلى شجرة مفردة جوار المجرى.. وسأل:
- ها هي هذه الشجرة؟
قال البروفسور (سامرلى):
- هي نخلة بالتأكيد!

- هذه هي علامة الطريق.. إن الممر السري يبعد نصف ميل عن هنا.. إن بوابة المجهول تنتظر أن نوغل فيها..
وبعد قليل كان أمامنا أروع واد مسحور رأيناه في خيالنا.. فوق الرءوس تلتقي النباتات صانعة ممرا وضربات المجداف ترسل أمواجا لا تصدق فوق الماء.. الماء الذي شف حتى لترى بوضوح ما فيه من كائنات..
ولم يكن هناك هنود.. لقد كانوا يهابون (الكورو بورى) كان الماء يزداد ضحالة، فلم يعد بوسع القاربين أن يستمرا أكثر.. قمنا بإخفائهما بين الأشجار وحملنا أكتافنا، ورحنا نخوض المجري راجلين وسط البعوض والحشرات المجنحة..
تدريجيا تفقد الغابة طابعها الاستوائي.. الأشجار تصغر ببطء إلى أن تغدو شجيرات.. ثم يغدو نبات الخيزران هو السائد.. وصرنا نشق دربنا باستعمال المدى..


وصرنا نشق دربنا باستعمال المدىّ !..

أخيرا وجدنا واديا ضيقا وراءه تل.. وكان علينا أن نجتاز هذا التل..
ثم اجتزنا تلا ثانيا.. عندها وجدنا أمامنا حاجزا من الصخور الحمراء الشامخة.. الصخور التي رسمها الأمريكي في كراسه..
هنا بلغت الحماسة ب (تشالنجر) مبلغها.. إنه يسير جيئة وذهابا كأنه ديك رومي متغطرس..
أما بروفسور (سامرلى) فتقبل الأمر في شك..

والآن عزيزي القارئ لقد أخذتك معي عبر النهر وفي النفق الأخضر وبين أشجار النخيل.. وهو ذا هدفنا ينتظر أمامنا..
لقد جرح (خوزيه) في ذراعه بعود (بامبو) مكسور من ثم صار عليه أن يعود.. وقد وضعت هذا الخطاب بين حاجياته أملا أن يصل إلى وجهته..
ومع الخطابة وضعت رسمًا مبسطا لرحلتنا عسى أن تجعل فهم مسيرتنا أكثر وضوحا..

∞∞∞∞∞∞

9 - من كان بوسعه التنبؤ بهذا..

لقد حدث شيء مروع لنا.. ولكن من كان بوسعه التنبؤ بهذا؟.. يبدو أن علينا أن نقضي باقي حياتنا في هذا المكان الموحش.. إنني لمرتبك حتى أنني عاجز عن التفكير في حقائق الحاضر أو فرص المستقبل.. فأحدهما مخيف والآخر أسود كالليل..
نحن بعيدون عن أي عون بشرى، كما لو كنا على القمر.. ولولا رؤية وجوه رفاقي التي لم يتطرق إليها اليأس لمُتّ كمدا..
إن القمة التي تكلمت عنها كانت ترتفع في وجوهنا أكثر من ألف قدم على الأقل في بعض المواضع بحيث يغدو تسلقها عسيرا حقا..
ومن بعيد كنت أرى الصخرة هرمية الشكل وفوق قمتها شجرة عالية..
قال (تشالنجر):
- رأيت (التيروداكتيل) فوق هذه الشجرة وأطلقت عليه الرصاص فسقط.. كان ذلك في رحلتي السابقة..
ثم أردف:
- لقد حاولت أن أتسلق الحاجز الصخري بكل طريقة ممكنة دون جدوى.. إنني استطعت تسلق الصخرة الهرمية لكني وجدت بعدها هاوية تفصل بينها وبين الهضبة.. وبالتالي لن تكون عونا لنا في اجتياز حاجز الصخور هذا.. لكني ارتدته في رحلتي السابقة لمسافة ستة أميال شرقا..
قال البروفسور (سامرلى):
- إذن يمكننا تتبع الحاجز نحو الغرب بحثا عن طريق يمكن تسلقه..

قال البروفسور (تشالنجر):
- على كل حال.. من المؤكد أنه لا يوجد طريق سهل لاجتياز الصخور.. وإلا ما صارت هذه الهضبة معزولة عن العالم الخارجي.. ولكان العالم كله يعرف هذا الموضع.. لكننا سنبحث عن موضع يستطيع متسلق جبال أن يعبر منه ولا يستطيع حيوان أن يفعل الشيء ذاته ليخرج..
قال الأستاذ (سامرلي) في ازدراء:
- أنت لم تنفك تتحدث عن الحيوانات.. وأنا لم أر أي دليل على وجودها حتى هذه اللحظة..
هنا جذبه (تشالنجر) من عنقه ليشير له إلى أعلى الحاجز الصخري ويصيح:
- هذا هو الدليل على وجود حيوانات!
وعلى حافة الحاجز الصخري رأينا ما بدا لنا كعنق ثعبان هائل الحجم له رأس غريب.. راح ينظر ببطء يمينا ويسارا ثم انزلق ليتوارى وراء الصخور..
هنا هتف بروفسور (سامرلي) في ضيق:
- ليتك تبدي ملاحظاتك دون لي عنقي يا بروفسور (تشالنجر).. فأنا لا أرى ما يستحق كل هذا الصخب لدى رؤيتك ثعبانا عاديا جدا..
- لكن هذا يثبت لى وجود حيوانات..
وواصلنا تقدمنا إلى الغرب باحثين عن ثغرة في الحاجز..
كانت هناك آثار معسكر قديم.. علب لحم محفوظ وجريدة يومية بالية.. فقال (تشالنجر) وهو يتفحص البقايا:
- ليست آثاري.. إنها أثار (مابل وايت) حتما..
وواصلنا مسيرتنا في صمت، حول الحاجز الصخري وبعد أميال خمسة رأينا سهما مرسوما بالطبشور يشير إلى الغرب..

فهتف البروفسور (تشالنجر):
- (مابل وايت)!.. لقد ترك هذه العلامات لمن يأتي بعده.. لقد كان لديه صندوق طبشور بين حاجياته.. وكان إصبع اللون الأبيض ناقصا..
واستمر السير غربا.. حتى وجدنا سهما آخر لكنه كان يشير إلى أعلى.. إلى شق ضيق بين الصخور..
وصعدنا في هذا الشق.. فوجدنا فتحة كهف.. دخلنا الكهف مستعينين بضوء بطارية يحملها اللورد (جون).. وكانت الأسهم تملأ المكان مما دلنا على أن (مابل) عبر حاجز الصخور عن طريق هذا الكهف.. لكن للأسف كانت نهاية الكهف مسدودة بانهيار صخري..
حشد من الصخور هناك جيل من المستحيل الوصول من هذا الطريق..
وكاسفي البال أقمنا معسكرنا.. وقررنا أن من الحكمة أن نواصل البحث غربا بحثا عن طريق آخر.
على أن حادثا معينا حدث في تلك الليلة جعلنا نسلم للبروفسور (تشالنجر) بصدقه ودقته العلمية..
كنا نشوى بعض اللحم على النار وقد احتشدنا حول الشعلة.. وفجأة برز من ظلام الليل طير هائل الحجم له جناحان جلديان.. ولثانية لمحت عينيه الحمراوين وعنقه الطويل كثعبان.. ومنقاره هائل الحجم المزدان بأسنان حادة لامعة..
وقبل أن نعي ما يحدث؛ حلق الطائر وبين فكيه عشاءنا..
وأدركا من اتساع جناحيه أن عرضه أكثر من عشرين قدما.. واختفي وراء حاجز الصخور..
كان هذا هو (التيروداكتيل)!
ساد الصمت برهة.. ثم بصوت منفعل هتف (سامرلى):

- أنا مدين لك بالاعتذار أي بروفسور (تشالنجر).. أرجو أن تنسى تشيكي في كلامك..
وهكذا اصطلح الرجلان.. وإن لم يعزنا هذا كثيرا عن ضياع عشاءنا....

∞∞∞∞∞

بدأ الحاجز الصخري يتخذ اللون البني وقد كان شديد الحمرة.. لكننا ظللنا عاجزين عن العثور على وسيلة تعبر بها إلى الداخل..
وكنا نعرف جيدا أن الحاجز الصخري مغلق يدور بنا ببطء عائدين إلى حيث بدأنا.. لهذا لم نعجب حين وجدنا أننا عدنا إلى معسكرنا الأول جوار الصخرة الهرمية، وذلك في اليوم السادس.. وهكذا أسقط في يدنا!
ساد الوجوم وكففنا عن تبادل الكلام.. وأخلدنا للنوم تاركين (تشالنجر) أمام النار يفكر.. يفكر بعمق..
وفي الصباح كان قد وجد حلا جيدا.. الصخرة الهرمية..
- لكن بين الصخرة والهضبة هاوية مريعة وأنت بنفسك قلت..
- سنصعد لقمة الصخرة.. وبعدها سترون..
وهكذا...
بدأنا التسلق.. ويا لها من مهمة مرهقة.. لكنها تمت على كل حال.. ووقفنا جميعا على قمة الصخرة الهرمية نرمق السهل الممتد تحت أقدامنا، وكان حاجز الصخور الرهيب على نفس مستوانا..
لكن تفصلنا عنه هاوية اتساعها أربعون قدما، ينبغي اجتيازها لا أدري كيف..
وكان (تشالنجر) يعرف ما سيفعله..

كانت فكرته هي اقتطاع الشجرة الشامخة التي كان (التيروداكتيل) يقف عليها- وطولها ستون قدما - ليجعل منها معبرا فوق الهاوية..
وقمت بقطع الشجرة ثم أملناها لنجعلها تسقط وتثبت قمتها فوق الجانب الآخر من الهضبة..
إن الشجرة قد صارت جسرنا إلى المجهول..
هنأنا البروفسور (تشالنجر) على صواب رأيه فانحنى لنا وهو يرفع قبعته القشية.. ثم أعلن أنه سيكون أول من يعبر إلى هذه الأرض المنسية..
لكن لورد (جون) أبدي خشيته من أن يكون هناك خطر داهم ينتظر أول العابرين. لذا اقترح أن يحضروا البنادق الأربع و (جوميز) وصاحبه، على أن يعبر واحد الجسر في كل مرة ويحمى الآخرون ظهره بالبنادق....
وبعد اتخاذ الاحتياطات عبر (تشالنجر) الهاوية وقد امتطى الجذع كأنه ظهر حصان.. ووقف في الجهة الأخرى يلوح بذراعيه صائحًا، بعد هذا عبر البروفسور (سامرلي) الهاوية، ثم جاء دوري وأنا أحاول مقاومة الدوار الشديد بعد هذا عبر اللورد (جون) الهاوية ماشيا على قدميه بأعصاب فولاذية..



وبعد اتخاذ الاحتياطات عبر (تشالنجر) الهاوية وقد امتطى الجذع كأنه ظهر حصان . .

وأخيرا صرنا أربعة على مشارف العالم الجديد..
لقد انتهت متاعبنا.. أم هي بدأت لتوها؟
صوت فرقعة عالية.. فنظرنا للوراء لنجد الجسر قد انهار!
لقد هوت الشجرة في الهاوية وفوق الصخرة رأينا (جوميز) يضحك في تشفّ هاتفا:

- إنها نهايتك يا لورد (روكستون) أيها الكلب الإنجليزي!.. لقد انتظرت في صبر عظيم حتى أجد لحظة كهذه توقعك في مأزق لا مفر منه.. والآن ستبلى عظامكم في الشمس.. وحين تموت أرجو أن تذكر (لوييز) تاجر الرقيق الذي قتلته أنت منذ خمس سنوات!.. إنه أخي!

وراح يهبط الصخرة مقهقها..

لكن رصاصة اللورد (جون) عاجلته فصرخ..

وتدحرج ميتا..

هنا حاول الهجين الآخر أن يهرب.. لكن خادمنا الزنجي (زامبو) ركض وراءه وانقض عليه ليخنقه بدية القويتين...

وصعد (زامبو) إلى القمة ليعلن لنا أنه لن يتركنا.. إنه هو همزة الوصل الوحيدة بيننا وبين العالم الخارجي..

رمينا له الحبال كي يربط فيها المؤن.. ووعدنا بأن يعود غدا صباحا ليعرف ما نريد منه..

وهكذا نجلس نتناول عشاءنا صامتين..

وغدا نبدأ مغامرتنا في هذا العالم الغريب..

العالم المفقود.

∞∞∞∞∞

10 - أشياء رائعة حدثت..

أشياء رائعة حدثت وما زالت تحدث لنا...
سأحاول أن أدون هذه الأحداث ما دمت قادرا على تحريك يدي.. برغم أنني لا أملك إلا خمس أوراق وكثيرا من القصاصات.. وقلما واحدا من الرصاص..
لا أدري هل سيحمل (زامبو) هذه الرسائل إليكم أم لا.. لكني سأدون كل شيء ها هنا على كل حال..
قمنا في الصباح بتغيير موضع المعسكر بحثا عن مكان أقل سخاءً في الحشرات.. وجاء (زامبو) الأمين ليقذف إلينا بعدد من صفائح المؤن التي تحوي البسكويت والشيكولاتة..
كانت مؤننا جيدة وافرة.. وبنادقنا بحالة ممتازة.. وقد قمنا بجردها وبنينا ما يشبه حصنا صغيرا يصلح للسكنى والاحتماء..
ثم قررنا أن نطلق اسما على هذا الموضع فقال (تشالنجر):
- ليس هذا الحق إلا لشخص واحد هو الذي اكتشفه أول مرة هل ستسمى هذه الهضبة باسم هضبة (مابل وايت)..
وكان أن اتفقنا على هذا الاسم.. ولسوف تراه كثيرا عزيزي القارئ في الرسوم التخطيطية التي أعرضها عليك في هذه القصة..
كنا نتوقع الخطر واجه خطر المخلوقات الرهيبة التي رسمها (مابل وايت) وخطر بشر قد يكونون موجودين هنا: لهذا تسلحنا جيدا وأحكمنا إخفاء معسكرنا ثم شرعنا نستكشف المكان في حذر..
وصلنا إلى منطقة تملؤها الأوحال.. وفجأة هتف لورد (جون):
- انظروا..

كانت هناك آثار أقدام ضخمة في الوحل.. أقدام لها ثلاثة أصابع. أقرب إلى أثر تتركه قدم نعامة عملاقة في الأرض.
لكن لما بدا لنا، كأثر طائر عملاق؛. بدأ يثير ريبتنا حين اختلط بأثار أقدام خماسية الأصابع..
قال (تشالنجر) في جدية:
- هذا أثر مخلوق له قدمان خلفيتان ثلاثيتا الأصابع يمشي عليهما وقدمان أماميتان خماسيتا الأصابع يرتكز عليهما أحيانا.. إنه ليس طائرا يا سادة!
- وما هو في رأيك؟
- لا يوجد سوى شيء واحد يترك أثرا كهذا الزاحف.. إنه ديناصور يا سادة.. ديناصور مشى في هذا الموضع منذ عشر دقائق!
واستحالت كلماته همسا فوقفنا ذاهلين...
وعبرنا بعض الشجيرات لنصل إلى أرض مكشوفة في قلبها خمسة من أغرب المخلوقات التي رأيتها في حياتى..
كانت أحجامها هائلة.. الصغار كانت في حجم الفيلة.. أما الكبار فحجمها لا يوصف.. ولا يمكنني أن أصفها للقارئ إلا بأنها حيوانات تشبه الكانجارو، مع فارق الحجم.. وجلودها تشبه جلود التماسيح أو قشور الأسماك.. وكانت تلتهم أوراق الأشجار في جشع..
كان منظرا لا يصدق..
ولبثنا نرمقه مطمئنين لاتجاه الريح ولاختفائنا لكن لورد (جون) كان يقاوم رغبة جامحة - كبتها الحسن الحظ - في صيد واحد من هذه الوحوش ليعرضها على أندية (لندن)..
همس (سامرلى) في انبهار:
- ماذا سيقولون عن هذا في لندن؟

قال (تشالنجر):
- سيقولون إننا نصابون وصورنا مزورة.. هذا هو كل شيء!
- ولكن..
- نحن فقط نعرف أنه في يوم 28 أغسطس رأينا خمسة من (الإيجانودون) في وادى (مابل وايت).. فلنذكر هذا التاريخ يا سادة..
وتركنا المشهد المهيب، وواصلنا اختراق الغابة..
وكان العالمان يقفان من حين لآخر مشدوهين أمام زهرة غريبة أو حشرة لم يعرفها العلم من قبل، وهنا سمعنا صوتا يشبه الصفير.. فتوقفنا وراء بعض الصخور..
نظرنا بحذر لنرى ما هنالك فوجدنا سهلا ممتدا..
مليئا بالمستنقعات التي اخضر ماؤها..
أما ما آثار هلعنا فهو مئات من طيور(التيروداكتيل) تطير هنا وهناك، بمنه وتحدث ضوضاء مروعة ورائحة مقززة.
وفي ركن من المكان كانت الإناث يرقدن على البيض.. على حين وقف الذكور يحرسون المكان كالتماثيل..
راح العالمان يتجادلان في حماس حتى نسيا واجب الحذر.. برز رأس (تشالنجر) فوق الصخور وعلى الفور دوت صرخة حادة من أحد الذكور وحلق في الهواء.. وهنا تبعه مائة من الباقين على الأقل..
ورأينا الوحوش تحلق بأجنحتها الجلدية..
ثم ازدادت دنوا منا حتى كادت تلمسنا..
كدنا نفر إلى الغابة لكن الطيور الزاحفة كانت قد حاصرتنا بالفعل..
وبرزت الرءوس والأسنان الحادة.. ورأيت البروفسور (سامرلى) يصرخ.. ثم لمحت الدم ينزف من وجهة..

وسقط البروفسورة(تشالنجر) أرضا وتلقيت عديدا من ضربات الأجنحة في مؤخرة عنقي..
ودوت طلقة من لورد (جون) فهوى أحد هذه الطيور المجنونة يتشحط في دمه، وكانت في هذا فرصة لا بأس بها حيث ارتفعت الطيور قليلا..
رحنا نركض إلى الغابة والعدو يطاردنا في عناد، واحتمينا بين الفروع المتشابكة فراحت الوحوش تصرخ في عصبية.. وتحاول الوصول لنا لكن حجمها لم يتيح لها المرور..
وتوغلنا أكثر داخل الغابة قاصدين معسكرنا... حتى لم نعد نسمع شيئا من صراخ هذه الكائنات المجنونة..
كان البروفسور (تشالنجر) سعيدا وهو يغسل جراحه.. وهتف:
- إنها لدراسة ممتعة عن عادات (التيروداكتيل) في بيئته الطبيعية!
راح كل منا يضمد جرحه.. وكان أبلغنا إصابة هو (سامرلى).. قال لورد (جون):
- كانت ميتة قذرة نجونا منها بأعجوبة.. ما كنت لأتصور أن أموت بمناقير هذه الزواحف المجنحة..
وقصدنا المعسكر متوقعين أن متاعبنا لهذا اليوم قد انتهت..
لكننا وجدنا شيئا أثار ريبتنا..
كان هناك من زارنا.. فروع الشجرة التي تظلل المعسكر جعلتنا نعرف أن زائرا عملاقا قام بالزيارة في أثناء غيابنا.. وقد فتحت صفائح اللحم المحفوظ بوحشية وتم تفريغها..
وشرعنا نرمق فروع الأشجار في هلع.. فالخطر قد يكون هناك متربصا بنا.. لكن الزائر كان قد رحل...
وجلست أدخن وأدون أحداث اليوم.. حين جاء لورد (جون) ليسألني في لهجة حازمة:

- لقد كانت الطيور في حفرة بركانية.. أليس كذلك؟
- بلى.. تربتها تميل للزرقة.. وهي إلى الفخار أقرب.. لماذا تسأل؟
- لا شيء
وانصرف.. فلم أفهم ما يعنيه بالضبط.. لكني سمعته يغمغم لنفسه قبل أن ينام:
- فخار أزرق في حفرة بركانية!
كان هذا آخر ما سمعت قبل أن أغيب في نوم عميق..

∞∞∞∞∞∞

11- كنت البطل لمرة واحدة..

كانت عضات الطيور مسمومة حتما لأننا صحونا في الصباح (سامرلى)، وأنا - لنجد أننا نعاني الحمى وألما في العضلات..
لهذا قضينا اليوم كله في معسكرنا.. وراح لورد (هنري) يحاول تعلية الأسوار بأغصان الأشجار، وهو جهد عرفنا جدواه في تلك الليلة...
كنا نياما حول النار.. حين دوت صرخات لا يمكن وصفها.. صرخات مريعة جدا.. واضطررنا إلى أن نسد آذاننا لنجنبها هول الصوت..
عندها دوت ضحكة هائلة مجلجلة كأنما ترد على صرخات الألم هذه...
وبعد دقائق ساد الصمت
أعاد لورد (هنرى) إشعال النار لنتمكن من الرؤية أفضل.. وبعد ثوان سمعنا صوت خطوات تهز الأرض هزا.. كانت تدنو نحو مدخل المعسكر وسمعنا صوت لهاث عاليا.
مال لورد (هنري) على السور مصطنعا فتحة بين الشجيرات.. وهمس:
- يا الله.. إنني أراه..
ففي ظلال الأشجار كان هناك ظل أكثر كثافة. لكنه مفزع يفيض بالوعيد والتحرش.. كان ارتفاعه كالحصان لكنه أقوى.. وأدركنا من حركته أنه يتقدم.. وفي هلع هتفت:
- إنه سيثب من فوق السور!
قال لورد (جون):
- لا تلمس الزناد!

- إلى متى؟
- لنبق إطلاق الرصاص إلى اللحظة الأخيرة..
إن إطلاق رصاصة في هذا السكون سيعلن عن وجودنا للجميع..
وهرع ليقتبس جذوة من النار، وانطلق ليثب فوق السور.. ثم يدفع بالغصن المشتعل في وجه مهاجمنا الذي لم ير النار من قبل..
لم يكن واحد منا قادرا على تخيل مدى شجاعة هذا الرجل..
لكن الوحش تراجع للوراء.. ثم فر مبتعدا...
عاد لورد (جون) يثب إلى داخل المعسكر.. وقال:
- كان هذا هو الحل الوحيد.. إن إطلاق الرصاص عليه كان سيجلب الهول على رءوسنا.. ولكن ما اسم هذا المخلوق؟
تبادل العالمان النظرات.. ثم قال (تشالنجر):
- لا أملك سوى القول إنه ديناصور آكل للحم.. على كل حال ينبغي أن نواصل نومنا لأن يوما شاقا ينتظرنا..
قلت في هلع:
- يجب تنظيم ورديات للحراسة.. فالخطر أكثر مما نتوقع..
في الصباح وجدنا مذبحة في الغابة حيث رأينا بالأمس حيوانات (الإيجانودون) آكلة العشب.. تناثرت الأشلاء والدماء في كل صوب.. وأدركنا أن الحيوان الذي هاجمنا أمس هو القاتل..
واقترح العالمان أن يكون اسم الحيوان السفاح (ميجالوسوروس)..
أما ما أثار دهشتنا بالتحديد فهو دائرة غريبة سوداء على مكان كتف الحيوان القتيل.. وبالتأكيد لم يجد أي منا تفسيرا لهذا الشيء الغريب... على أننا في الأيام التالية رسمنا خريطة لا بأس بها للهضبة.. وإن تحاشينا موطن طيور (التيروداكتيل) الشرسة..

كان البروفسور (سامرلى) متحفظا بشأن إمكانية رسم خريطة للمنطقة، لأن تشابك الأشجار يجعل استكشافها عسيرا..
هنا عرضت أن أتسلق إحدى الأشجار العملاقة، لتكون برج مراقبة لي يشرف على الهضبة كلها، وبالتالي أرى كل شيء بوضوح..
راقت الفكرة للجميع، وبرغم أن النهار كان يحتضر فلم تبق منه سوى ساعة واحدة.. إلا أن الفكرة يمكن تنفيذها حالا..
وبدأت التسلق.. وشعرت أن الأرض تتوارى خلف أوراق الأشجار الكثيفة.. ونظرت لأعلى فوجدت الشجرة ما زالت شامخة..
واصلت الصعود..
وفجأة لمحت وجها يحملق في وجهي من وراء أحد الأغصان!..
لم يكن وجه، قودا. له حاجبان كان يغطي عينين ضاريتين متوحشتين، وفيهما كراهية شديدة.. بعدها اختفى الوجه بين الأوراق الكثيفة..
صحت.. فسألني رفاقي عما هنالك..
لم أجد داعيا للتفسير فلذت بالصمت.. وواصلت الصعود..
ازداد هبوب الهواء حولي فعرفت أنني صرت في موضع عالٍ حقًا.. أعلى من كل الأشجار المحيطة بى..
جلست على غصن أفقي ورحت أرمق هذه المنطقة العجيبة في ضوء الغروب..
إن اتساع الهضبة حوالي ثلاثين ميلا ومركزها بحيرة كبيرة.. وحول البحيرة كانت هناك أجسام طويلة لا هي تماسيح ولا هي قوارب.. لكن لها حركة وحياة خاصتين بها..
وعن بعد رأيت فوهات كهوف جبلية في حاجز صخري شامخ..
رحت ارسم خريطة للمنطقة إلى أن غدت الرؤية متعذرة.. فرحت أهبط الشجرة عائدا إلى رفاقى.



رحت أرسم خريطة للمنطقة إلى أن غدت الرؤية متعذرة..
فرحت أهبط الشجرة عائداً إلى رفاقي..

راح كل واحد من رفاقي يصافحني مهنئا.. وحكيت لهم عن المخلوق الذي شاهدته فوق الشجرة..

فسألني (تشالنجر):

- هل كان قادرا على ثني إبهامه على كفه؟

- لم ألحظ هذا..

- هل كان له ذيل..

- لا لا..
- هل قدماه تطبقان على الغصون؟
- أرجح هذا..
- إن أمريكا الجنوبية تحوي - أرجو أن تصحح لى يا بروفسور (سامرلى) - ستة وثلاثين نوعا من القردة.. لكنها لا تحوي القرد الإنسان.. لكن من الواضح أنه موجود.. لا أتحدث هنا عن الغوريللا المشعرة التي تراها في إفريقيا (كنت أقاوم رغبة هائلة كي أصارحه أنني رأيت الغوريللا في كنزنجتون)..
إن علينا أن نحدد هل الكائن الذي رأيته أقرب إلى القرد أم الإنسان..؟ لو كان أقرب للإنسان فهو ما يسميه الجهلة باسم (الحلقة المفقودة)..
هتف (سامرلى):
- هذا كاف جدا.. لنعد الآن إلى الوطن ونترك التفاصيل لحملات تأتي بعدنا..

∞∞∞∞∞∞

كنا على استعداد للموافقة.. لكن ما من أحد يعرف كيفية العودة ووعدنا بروفسور (تشالنجر) بأن يجد حلا لمشكلة الهبوط هذه..
وفي تلك الليلة رسمنا خريطة الهضبة بعناية..
سألني البروفسور (تشالنجر):
- أنت وجدت هذه البحيرة الوسطى.. فبم تسميها؟
قال لورد (جون):
بالطبع يسميها (بحيرة مالون).. فهذا حقه..
قلت وقد تضرج وجهي حمرة:

- بل نسميها بخيرة (جلاديس)!
اعترض البروفسور (سامرلى):
- أليس اسم (البحيرة الوسطى) أفضل!
- نسميها (بحيرة جلاديس)!
نظر لي البروفسور (تشالنجر) في فهم ومودة وغمغم:
- ليكن.. ستسميها (بحيرة جلاديس)!

∞∞∞∞∞∞

12 - كان الأمر شنيعًا في الغابة..

كنت قد قلت. أو ربما لم أقل.. لأن ذاكرتي تلعب معي ألعابا مجزية هذه الأيام - إنني شعرت بالفخار؛ إن كال لي ثلاثة رجال كمرافقي الشكر على إنفاذ الموقف..
والآن بدأت أشعر بثقة في نفسي.. ودفعني هذا إلى أن أتحمس إلى مزيد من المخاطرة.. مخاطرة كادت تؤدي بي للهلاك..
كان (سامرلى) ساهرا للدراسة نصف نائم، بينما لورد (جون) و (تشالنجر) غارقان في النوم، أما القمر فكان بدرا...
لم لا أذهب إلى البحيرة الوسطى – بحيرة (جلاديس) لأجمع عنها قدرا من المعلومات، أعود بها في موعد الاستيقاظ..؟
إن هذا حتما سيجعل الرجال يحبسون أنفاسهم انبهارا بشجاعتي وحسن تصرفي.. ويوم نعود إلى الوطن سأكون بطلا..
مشيت في الظلام وسط الأغصان المتشابكة..
من المستحيل رؤية ضوء القمر الا لو نظرت لأعلى... على حين تخفي الأشجار في ظلماتها ألف احتمال واحتمال..
وبدأت أشعر بالتوجس.. لم لا يكون ذلك الوحش الذي داهمنا أمس كامنا بانتظارى الآن ونهم انا ليه
فلأحش بندقيتي، ولكن يا لغبائي! لقد جئت ببندقية صيد الطيور لا بندقية الوحوش.. أي أنها عديمة النفع..
لكني لن أعود فبندقية الوحوش لن تجدي على كل حال مع هذه الديناصورات العملاقة.. إن الأمر يتساوى إذن..
المهم أن أمشي جوار الجدول. فهو سيقودني إلى البحيرة.. وعند العودة سيقودني إلى المعسكر، ودنوت من البحيرة أكثر فوجدت

بركة صغيرة الحجم بها مادة سوداء تغلي.. هذا يعني أن البركان ما زال حيا..
أخيرا صرت على حافة البحيرة.. فرقدت على بطني وجرعت من مائها العذب البارد ما روى ظمئي.. ورحت أرمق الأفق في فضول..
رأيت الفتحات التي حسبتها فتحات كهوف في الحاجز الصخري..
كانت تتوهج بضوء أحمر يعني أن هناك نارا!..
نارا أشعلها بشر..!
يا له من خبر..!
إذن لابد لنا من البحث عن أصل هذه السلالة البشرية المجهولة..
ومن بعيد رأيت حيوانا ضخما آتيا بتؤدة نحو البحيرة ليروي ظمأه.. أجهدت ذهنى كى أتذك ما هو.. هذا الرأس الشبيه برءوس الطير والذيل كثير العقد.. إنه (الاستيجوسوروس) آكل العشب الذي رسمه (مابل وايت) في كراسه... وأنه ليهز الأرض بخطواته هزا..
راح يشرب بعض الوقت ثم استدار مبتعدا..
إنها الثالثة بعد منتصف الليل وقد حان أوان العودة إلى المعسكر..
سرت جوار المجري عائدا مسرورا من الأنباء التي سأحملها لرفاقى..
هنا سمعت من ورائي صوتا هو مزيج من الغطيط والخوار!
زدت سرعتي.. لكن الصوت ازداد قربا وتوعدا..
إنه يقتفى أثرى إذن.. وقف شعر رأسي ونظرت خلفي فلم أر إلا الأشجار.. اين هو ذلك الشيء؟

وفجأة رأيته قادما.. يثبّ على قدميه الخلفيتين ككانجارو ضخم.. وحركته سريعة إلى حد لا يصدق، وأدركت في الحال أنه كائن شرس.. لابد أنه شرس مع كل هذه السرعة والخفة.. كائن خلق ليهاجِم لا ليهاجَم.. ماذا أفعل..؟..
إن المنطقة خالية من الأشجار الضخمة.. ولا مكان للاختباء..
رميت بندقيتي ورحت أركض نحو الغابة بسرعة لم أعرف قط أنني عليها قادر..
كان اللهاث يقتلني فتوقفت.. واستدرت..
وهنا رأيت الوحش قادما في أعقابي بسرعة مماثلة!
إنه يثب بسرعة هائلة.. وأنيابه تلتمع في ضوء القمر مريعة واضحة..
رحت أصرخ..
وهنا مادت الأرض تحت قدمي.. وشعرت انني أهوى تحت مستوى الأرض..



وهنا مادت الأرض تحت قدمى . . وشعرت أننى أهوى تحت مستوى الأرض . .

إنني في مكان ما خبيث الرائحة.. حفرة ما..
لكنها أنقذتني من الوحش.. إن أطرافي سليمة..
وضوء النجوم فوق رأسى..
إنها حفرة. بل هي شرك مليء بقطع لحم شديد التعفن.. إنها شرك صنعته يد الإنسان حتما..
فقوام الحفرة عامود أقرب إلى وتد ارتفاعه تسعة اقدام، تلوثت قمته بدماء الوحوش التي سقطت فيه..

إذن هذا اللحم المتعفن هو بقايا تلكم الوحوش التي سقطت في الحفرة..
هل أغادر الحفرة؟ لعل الوحش ينتظرني بخارجها..
لكني تذكرت ما قاله (تشالنجر) يوما من غباء الديناصور.. إن هذا الوحش قد نسى كل شيء عن وجودي في اللحظة التي غبت فيها عن عينيه، وبالتأكيد هو يفتش الآن عن فريسة أخرى.
وخرجت متسلقًا خارج الحفرة، فلم أر اثرا يدل على دنو الخطر..
وكان هواء الفجر ينعش صدري.
ومشيت جوار مجرى الماء عائدا لمعسكرنا..
أخيرا وصلت المعسكر فوجدت مفاجأة مهولة..
الباب مفتوح جميع المتعلقات مبعثرة.. بركة من الدماء جوار النار!
طار صوابي فرقا ورحت أبحث في الغابة صارخا مناديا رفاقي.. فلم أتلق سوى الصدى.. رحت أضرب الأشجار بقبضتي جنونا.. وأوشك أن أمزق شعرى..
أنا طفل لا يعرف ما يفعله وحده.. أنا طفل، مذعور يموت رعبا..
أخيرا عاد التعقل لي.. يجب أن أعرف ما حدث فعلا.. من الواضح أن ما هاجم المعسكر هو حيوانات لا بشر.. لأن المؤن والسلاح سليمان لم يُمسا تقريبا..
ولكن كيف؟.. وماذا حدث بالضبط؟
يجب أن أجد أصدقائي بأي ثمن..

∞∞∞∞∞∞

13 - مشهد لن أنساه..

انحدرت الشمس إلى الأفق.. وبدأ الظلام يزحف، لكني شعرت بالألفة حين رأيت النار التي أشعلها الزنجي الأمين في معسكره.. كان بانتظارنا كدأبه، ولولاه لقتلني الشعور بالوحدة والعزلة..
لم أكن أجسر على النوم في المعسكر.. لكني كنت أهاب كذلك النوم في العراء.. واستغرقت في نوم عميق جوار النار حين شعرت بيد تمسك بذراعي..
وثبت مذعورا لأجد لورد (جون) بجوارى..
إنه هو.. لكن لشد ما تغير.. إن الجروح تغمر وجهه والدماء.. ثيابه ممزقة ووجه شاحب..
قال لي دون أن يسمح لى بأسئلة:
- أسرع يا فتاى!.. خذ البنادق وكل الطاقات.. خذ كل علب الطعام المحفوظ.. هيا!.. أسرع!
ورحت أركض معه نحو حزام الأشجار فتوارينا.. واختار هو جذع شجرة غليظا لنحتمي فيه.. وقال:
- هنا لن يجدونا.. فهم سيهاجمون المعسكر حتما..
- من هم؟
صاح في فزع:
- الرجال القرود!.. إنهم مرهفو السمع حديدو البصر.. لكنهم لا يتمتعون بحاسة شم قوية لحسن الحظ.. لحسن حظك أنك لم تكن معنا هذه الليلة!
وتبادلنا سرد قصتينا.. فقال لي:
- حدث هذا فجرا.. فجأة أمطرت السماء قرودا فوق رءوسنا.. لقد احتشدوا فوق غصون الشجرة العملاقة التي تظلل

معسكرنا.. وقد حاولنا إطلاق بعض الرصاص لكن سدى.. لقد كانوا يملكون حبالا شدوا وثاقنا بها.. إنهم في حجم الرجل العادي لكن قوتهم هائلة.. وبشرتهم حمراء كالخنازير.. وقد قهروا حتى البروفسور (تشالنجر) قوي البنية.. لكن هذا استفز الرجل.. وجعله يقف ليصرخ فيهم ويسبهم بغلظة.. ولو كان يخاطب جيشا من الصحفيين لما استعمل لغة أقذر من هذه!

- وماذا فعلوا؟

- كان هذا غريبا.. لقد راحوا يتكلمون ثم دنا واحد منهم فوقف جوار (تشالنجر).. وهنا فوجئت بما لم أتوقعه.. لقد كان القرد العجوز هو زعيم القبيلة.. ومن الغريب أنه كان نسخة أخرى من (تشالنجر)! ذات الصدر العريض واللحية الحمراء والرقبة المبتورة.. واتجه الموكب إلى الغابة..

أساءوا معاملتي و (سامرلى) لكنهم حملوا (تشالنجر) على الأعناق.. إن مدينتهم هي مجموعة من الأكواخ على بعد أربعة أميال من هنا.. وهناك قيدونى و (سامرلى) إلى شجرة.. أما (تشالنجر) فأجلسوه على عرشهم جوار ملكهم، وراحوا يقدمون له الفاكهة وسائر ضروب التكريم..

وقد أمكننا أن نعرف شيئا عن البشر الذين لمحت نيرانهم في فتحات الكهوف.. إنهم يختلفون عن الرجال القرود ويهابونهم.. لقد رأيت الرجال القرود قد أسروا عددا من هؤلاء البشر فأساءوا معاملتهم أسوأ معاملة.. بل إنهم انتزعوا أذرع عدد منهم من الأجساد!.. كان مشهدا شنيعا فقد (سامرلي) الوعي على أثره.. وعرفنا بعد هذا أنهم يعدمون أسراهم بإجبارهم على الوثب من فوق الحاجز الصخري ليسقطوا فوق خوازيق البامبو.. إنها تسليتهم المفضلة ويا لها من تسلية!.. وقد فهمنا من لغة

الإشارات أنهم يدخروننا.. أنا و (سامرلى) للوثب فوق البامبو اليوم..
ثم التقط أنفاسه وأردف:
- لقد عرفت الكثير عن هؤلاء الرجال القرود، فهم لا يركضون بسرعة لأن سيقانهم قصيرة.. كذلك هم لا يعرفون شيئا عن البنادق وهذه لعمري هي الورقة التي ستلعب عليها.. لقد نجحت في الفرار من حارسى وجنت ها هنا كي أسترد البنادق..
ثم قال في تصميم:
- سنعود لإنقاذ العالمين.. لن يجيء المساء إلا وقد أنقذناهما أو متنا معهما..
وتناولنا الإفطار.. وكان اللورد جائعا.. ثم ملأنا جيوبنا رصاصا ومشينا عبر الأشجار عائدين إلى قرب معسكرنا القديم..
قال اللورد:
- علينا التحرك في العراء لأن الأشجار هى أرض ملعبهم التي يتحركون فيها بسلاسة غير عادية..
ستكون حافة الهضبة هي نقطة هجومنا.. والآن فلنتقدم.. وأنصحك ألا تقع أسيرا في أيديهم أبدا! وبعد ساعتين من السير كنا في مكان قريب من مدينة القرود، كما قال اللورد.. فزحف على بطنه ليلقي نظرة.. ثم دعاني للدنو.. كان مشهدا لن أنساه ما حييت..
كانت هناك مساحة واسعة معشوشبة، حولها نصف دائرة من الأشجار.. وأكواخ غريبة الشكل، ينتشر بينها الرجال القرود.. ورأيتهم يقفون في صف منتظم يحيط ببعض الهنود حمر البشرة ذوى الحجم الضئيل.. ورأيت بينهم (سامرلى) مطرق الرأس، ورأيت في مكان بعيد (تشالنجر) وقد تبدل كثيرا.. لقد فقد كل ما وهبته الحضارة إياه.. فقد صار عاري الصدر تمتزج لحيته بشعر

صدره الأحمر الكث.. وقد غدا سرواله وما تحته نوعا من الذكريات..
وبالفعل كان ملك القرود يقف جواره فبدا الشبه مذهلا.
عندها بدأ الحفل..
رأيت القرود يحملون أحد الأسرى من ذراعيه نحو الهاوية.. فيطوحون به في الهواء ليسقط صارخا..
وحين صمت أخيرا رأيتهم يتحشدون مهللين على الحاجز الصخري ليروا ما حدث له..
بعدها جاء دور البروفسور (سامرلى) حمله قردان في وحشية قاصدين الحافة، فجرى (تشالنجر) إلى الملك يتوسل إليه بالإشارة كى يترك صديقه.. لكن الملك لم يتحمس لذلك..
هنا دوي صوت الطلقة وهوي الملك مضرجا في دمائه.. لقد أحسن لورد (جون) التصويت
صاح اللورد:
- هلم يا فتاى! اضرب حشودهم!.. اضرب!
وانهمر الرصاص على الرجال القرود.. فسقط حاملا البروفسور (سامرلى).. وراح الرجال القرود يركضون هنا وهناك كالسكارى غير عالمين من أين يأتي هذا الهول كله..
وعلى الفور جرى (تشالنجر) جاذبا يد (سامرلى) ليلحقا بنا..
وبدأنا الانسحاب بينما لورد (جون) يحمى انسحابنا بطلقاته، واستمرت المذبحة إلى أن وصلنا معسكرنا.. فلم يعد أحد يقفو أثرنا، لكن الهنود الحمر الأسرى كانوا هناك.. لقد جاءوا خلفنا..
رأيناهم يجثون على الأرض في إجلال، يرتجفون ويسألوننا الحماية..
هتف (تشالنجر) في حماس وهو يخاطب اللورد:

- رائع!.. رائع!.. إنك قد أنقذت العلم الحديث بإنقاذك لنا أنا و (سامرلي)..
بدا لنا سخيفا بعض الشيء أن يقف أمل العلم الحديث عاريا بشعره الأحمر الكثيف.. والواقع أن منظره أثار هلع الهنود بالفعل حتى أنهم تشبثوا بساقى لورد (جون) يسألونه الحماية.. لكن الرجل لم يفطن إلى حقيقة الشبه المذهل التي أنقذتنا..
ونعمنا جميعا بليلة هادئة بعد كل هذا العناء، لولا أن شعرت بمن يوقظني في الظلام.. كان هذا هو بروفسور (تشالنجر) الذي جاء ليسألني هامسا:
-- أنت لم تدون في مذكراتك شيئا عن.. عن هذا الموقف السخيف..
- نعم.. نعم..
- لا حاجة لذكر هذا الموضوع في المذكرات لأنه سيثير استيائي حقا..
ثم بعد تفكير قال:
- لكن ملك القرود يملك شخصية متميزة.. شخص وسيم ذكي.. ألا ترى هذا؟
- إنه شخصية مميزة حقا..
عندئذ تركني راضيا ليخلد للنوم..

∞∞∞∞∞∞

14 - كانت غزوات حقيقية..

حسبنا أن مطاردينا - الرجال القرود – يجهلون مخبأنا هذا.. لكن سرعان ما عرفنا أننا مخطئون.. لقد تعلمنا كيف يصبر هؤلاء الأعداء بانتظار سنوح الفرص.. وسأحكي لك ها هنا كل شيء عما حدث..

كنا قد صحونا مرهقين بعد عناء الأمس.. فتناولنا إفطارنا وقد عزمنا على الدوران حول البحيرة للوصول إلى كهوف الهنود..

إن هذه هي آخر المهام التي علينا أن نقوم بها قبل العودة، هذا بالطبع لو وجدنا طريقة نعود بها..

وفي ضوء النهار تفحصنا هؤلاء الهنود.. كانوا قصار القامة.. لكنهم أقوياء مفتولو العضلات يسترون عوراتهم بقطعة من الجلد، ويعقصون شعرهم بقطع مماثلة.. وكانت حلمات آذانهم دامية متدلية فأدركنا أنهم كانوا يضعون أقراطا مزقها آسروهم..

وكانت لغتهم سلسة ميزنا لفظة (آكالا).. ومن الواضح أنها ترمز إلى قبيلتهم.. وميزنا لفظة (دودا) يقولونها في هلع.. وهم يشيرون إلى الغابات.. وهذا يعني أن هذا هو اسم الرجال القرود عندهم..

سأل لورد (جون) البروفسور:

- ألا ترى مثلى أن هذا الشاب هو زعيمهم؟

بالفعل كانت مخايل الزعامة تبدو على الفتى، وكان واثقا من نفسه.. وذات مرة وضع يده على صدره وقال بشمم:

- ماريتاس!..

قال الأستاذ وهو يشير إلى أحد الهنود كأنه يحاضر:

- إن هؤلاء القوم متحضرون ويصعب القول إنهم تطوروا عن الرجال القرود.. أعتقد أنهم جاءوا من خارج الهضبة أساسا.. أما

القرود فقد نشأوا هنا منذ البداية
هنا قلت وقد فطنت إلى شيء:
- إن أحد هؤلاء الهنود مفقودا!، - لقد ذهب ليجلب الماء..
- سأذهب لأرى ما دهاه..
وهرعت صوب الجدول حاملا بندقيتي..
وعند الجدول وجدت شجرة.. تحتها شيء أحمر مكوّم إنها جثة الهندي وقد انثنى رأسه في زاوية غير معقولة.. هرعت نحوه لأرى حين وجدت ذراعين قويين يخرجان من بين أغصان الشجرة، ليهبطا فوقي.. ويطبقا على عنقي..
وانثنى رأسي للوراء وفقدت قدرتي على التحمل وغامت عيناي.. وهويت إلى الأرض غائبا عن الوعي..
وأفقت لأرى لورد (جون) يبلل رأسي بالماء، والأستاذان يعاونانني على النهوض
قال لورد (جون):
- لقد سمعنا صراخك.. وهرعنا نحوك فوجدناك وقد مال رأسك إلى الوراء في قبضتي ذلك الوحش فحسبنا عددنا قد نقص واحدا.. لقد فر هذا الوحش للأسف.. كان خطر الرجال القرود يتزايد.. إن بأسهم يزداد ليلا، ومن الواضح أنهم سيختارون الليل للهجوم لهذا من الحكمة أن تتحرك في ضوء النهار سريعا قبل فوات الأوان..
وسارت حملتنا المثيرة للشفقة تجاه الكهوف، وفي ساعة من الظهيرة كنا قد وصلنا إلى البحيرة، وفوقها رأينا حشدا من الزوارق قادما نحونا..
فما إن دنت حتى تعالت صيحات الفرح، وراح الرجال يلوحون برماحهم في الهواء، ثم واصلوا التجديف.. والتفوا حول قدمى

زعيمهم ما إن وصلوا إلى اليابسة.. وجاء رجل متقدم في السن فقبل الشاب الذي تبدو عليه الزعامة في حنان.. ثم حيانا بوقار..
كان الرجال مدججين بالرماح والفئوس.. ويرددون (دودا.. دودا) بلا انقطاع، فعلمنا أنهم جاءوا للحرب واسترداد أميرهم من قبضة آسريه.. إذن فالشاب هو أميرهم..
ودار اجتماع حرب فوق صخرة.. بمجرد ما انتهت مراسم التعارف..
كان من الواضح أن القوم يريدون العودة، لكن أميرهم يطالبهم بانتهاز الفرص، ما دام هؤلاء البيض ها هنا.. فلم لا يقومون بحرب شعواء تستهدف إبادة الرجال القرود؟
تحمس لورد (جون) للأمر.. فهو يريد إفناء الرجال القرود دون تردد.. وطلب رأينا..
وافقت أنا و (تشالنجر)، ولم يجد (سامرلى) مناصا من القبول.. وأشرنا لهم بالموافقة فتعالت صيحات التهليل..
وفي تلك الليلة صرنا ضيوفهم.. وجاءوا لنا بحيوان صغير من نوع (إجوانودون) وكان يحمل بين كتفيه تلكم العلامة المستديرة.. وفهمنا أخيرا أن هذه العلامات كوشم الماشية يضعها ملاكها على حيواناتهم..
وتم شي الحيوان على النار، وكان عشاء شهيا بحق.
بعد العشاء رأيت أن (تشالنجر) يتفحص باهتمام إحدى حفر الوحل التي تخرج منها فقاعات غازية قرب منها عود ثقاب، فاشتعل الغاز محدثا فرقعة..
فبدا عليه الرضا وقال:
- هذا (هدروجين).. إن عبقريتي لقادرة على صنع منطاد يطير بنا من فوق هذه الهضبة إلى السهل..

في الصباح اكتمل عددنا خمسمائة من الرجال الأشداء.. وكونا جيشين وانضممنا إلى رماحهم وسهامهم ببنادقنا..
وهنا هجم علينا الرجال القرود.. فانطلقت السهام وطلقات الرصاص تحصدهم حصا.. واشتعل القتال في الغابات بشكل أكثر شراسة..



كان القرود أقوياء . . وكان الواحد منهم يقتل هنديًا أو اثنين قبل أن يهلك . .

كان القرود أقوياء.. وكان الواحد منهم يقتل هنديا أو اثنين قبل أن يهلك.. بل إن قبضة يدهم كانت قادرة على تهشيم بنادقنا

تهشيما..

لكن كفتنا كانت الرابحة باستمرار، وتركنا مطاردة فلولهم للهنود.. لكن (تشالنجر) كان متحمسا.. راغبا في مزيد من الدماء.. وقال لنا:
- هذه يا سادة من أعظم معارك التاريخ.. إن هذه المعارك الوحشية بين الإنسان والأجناس الأخرى هي التي صنعت الحضارة، هذا هو الغزو الحق..
ومنذ هذه اللحظة غدت الهضبة حكرا على بني آدم، إنها لمعركة عظمى تختلف عن كل معارك العصر الحديث التي لا جدوى منها.. وتدور بين دولة ودولة مماثلة لها..
وعندما تحركنا رأينا الغابة مكسوة بجثث الرجال القردة..
ورأينا الهنود يقودون الرجال القرود الذين ظلوا أحياء إلى حافة الهاوية..
وتحت تهديد الرماح، اضطر القرود المائة إلى الوثب.. هناك ثلاثون منهم أبوا أن يثبوا فاخترقت الرماح أجسادهم.. أما الباقون فهووا إلى حيث كان الهنود يلقون نهايتهم في الماضي..
لقد رسخت سلطة الإنسان للأبد في هذه الهضبة وكانت النهاية الدامية لحرب طالت حتى حسمتها البنادق..
وبينما نحن نرمق المشهد قال (سامرلى):
- ها نحن أولاء قد نلنا كفايتنا من كل هذا، والآن يا (تشالنجر) أريد منك أن تستخدم عبقريتك في إخراجنا من هذه الأرض التي غفل عنها الزمن..

∞∞∞∞∞∞

15- لقد رأت عيوننا عجبا..

أكتب هذه الأحداث يوما بيوم.. لكنني قبل أن أصل إلى نهايتها أجرؤ على القول إن الضوء يسطع من خلال السحب..
نحن ها هنا بلا سبيل واضح للنجاة.. لكني أتخيل أن اليوم أتٍ حين أشعر بالرضا لأننا حُبسنا برغم إرادتنا في هذه الأرض.. لنرى من غرائبها ما رأينا..
لقد جعل نصر الهنود واندحار الرجال القردة منا سادة الهضبة الحقيقيين وصاروا يرمقوننا بشيء من رهبة وانبهار وامتنان..
وأدركت أنهم - برغم هذا – يتمنون أن نرحل..
لكنهم لم يعرضوا علينا سبيلا يسهل لنا الوصول إلى السهل..
كان هناك ممر.. لابد أن الجميع كان يستعمله فيما سبق.. الهنود والرجال القرود و(مابل وايت) سلكوا هذا الطريق مرارا..
لكن زلزالا فظيعا قد حدث.. وهوت صخرة لتسد هذا الممر، وبالتالي صارت الهضبة معزولة حقا..

∞∞∞∞∞

كان الهنود راغبين في استضافتنا في كهوفهم، لكن لورد (جون) لم يتحمس كثيرا لهذا، لأنه لا يريد أن نظل تحت رحمة هؤلاء الهنود.. فهم قد ينقلبون علينا يوما ما...
لكننا في الوقت الحالي حافظنا على علاقات ملأى بالمودة معهم..
كانت كهوف هؤلاء القوم ترتفع عن الأرض بمسافة كبيرة، تقود إليها درجات سلم منحوت في الحجر..

ومن الداخل تزدان الجدران برسوم متقنة تظهر وحوش الهضبة.. ويعم الكهف جو من الدفء..
وبدأنا ندرك أننا كنا مخطئين حين حسبناهم راغبين في رحيلنا.. بل هم مسرورون ببقائنا.. ويحاولون أن يحجبوا عنا أية تفاصيل يعلمونها عن طريقة الفرار..
لقد اعتبرنا هؤلاء القوم جنسا متفوقا من البشر وظنوا أن وجودنا معهم يعني حسن الحظ الدائم، بل إنهم عرضوا زوجة على كل منا.. وكهفا خاصا.. لذا اجتمع قرارنا على الفرار سرا.. لأننا توقعنا أن يمنعونا بالقوة.
كنت أمشي ذات مرة قرب موطن (التيروداكتيل) حين رأيت رجلا يمشي داخل قفص من البوص.. كما يفعل الغواصون حين يراقبون أسماك القرش وعرفت أن هذا اللورد (جون) فما إن رآني حتى سألته في حيرة:
- ماذا تفعل هنا؟
- جئت لأقابل أصحابي من (التيروداكتيل)..
- ولمه؟
- إنها مخلوقات جديرة بالمراقبة.. لكنهم لا يحبون الدخلاء.. ألم تلحظ هذا؟.. لهذا أراقبهم من داخل القفص لأحمي نفسي..
- ولمه؟
ضحك وقال في خبث:
- إن (تشالنجر) يبغى واحدا.. لا داعي لبقائك معى.. فأنا في مأمن داخل قفصي أما أنت فلا.. وداعا.. سأعود للمعسكر ليلا..
أما (سامرلى) فكان يقضي وقته بين جمع الحشرات والطيور في الهضبة.. وصب اللوم على رأس (تشالنجر) الذي لم يف بوعده في إخراجنا من هذا المكان..
لكن منقذنا لم يكن (تشالنجر)..

كان هو الأمير الشاب الذي قادنا إلى صف الكهوف ذات ليلة بينما قومه نيام.. وناولني قطعة من لحاء الأشجار.. وانصرف..
كانت خريطة للكهوف مرسومة على اللحاء هكذا عرفنا حين تفحصنا اللحاء بدقة..
وكان أعمق الكهوف هو الكهف الذي وضعت تحته علامة مميزة..
إذن فهذا الكهف سيصل بنا إلى السهل الممتد أسفله..
ولم نتوان عن اختبار قدرتنا.. صعدنا إلى الكهف المشار إليه، وأشعلنا قطعا من الخشب، ورحنا نبحث.. نبحث حتى وجدنا فتحة مظلمة في الجدار.. قادتنا إلى ممر متسع منحدر وباجتياز الممر وجدنا ضوء القمر الفضي يغلف السهل الخارجي..
صاح لورد (جون) في مرح:
- مرحي!.. هذا هو السهل.. لقد وصلنا يا فتيان!
كانت الكوة ترتفع بمائة متر عن الأرض، وكانت الحبال قادرة على أن تؤدي غرض الهبوط لهذه المسافة..
ليكن الهرب في الليلة القادمة حين نستعد تماما، ويجب أن يجهل الهنود كل شيء عن مشروعنا هذا.. وساد الظلام الهضبة في اليوم الثاني..
ثم إننا حملنا صناديقنا إلى الكهف.. وسرنا عبر هذا الممر حتى وصلنا إلى الكوة.. ونجحنا فى الهبوط لأسفل.. لنكون عند قدمي الحاجز الصخري الرهيب..
وشرعنا نركض نحو الصخرة الهرمية حيث ينتظرنا (زامبو)..
غدًا نعود عبر نهر الأمازون إلى ديارنا...

∞∞∞∞∞∞

وأخيرا - بمزاج ممتن متواضع - أنهي هذا السرد.
لقد رأت عيوننا الأعاجيب.. وتطهرت نفوسنا بكل ما تحملناه..
لقد غدا كل منا رجلا أفضل وأعمق..
سنبتاع ما نريد من مؤن في (بارا).. وهناك سأرسل هذا الخطاب بالبريد.. فإن لم أستطع سأحمله معي إلى لندن..
على كل حال أتعشم قريبا جدا أن أصافحك يا مستر (ماكاردل)..

∞∞∞∞∞∞

16 - موكب... موكب!

أرغب في أن أسجل هاهنا شكري لكل من ساعدنا في رحلة العودة عبر نهر الأمازون، وعلى ضيافته وكرم سجاياه..
ويؤسفني اضطراري لتزييف إحداثيات ومعالم رحلتنا، بحيث يعجز الجميع عن تكرار الرحلة مرة أخرى..
ولقد بدأت الرسائل البرقية تنهمر من جريدة لأخرى، بمجرد أن دنت سفينتنا خمسمائة ميل من (ساوثمبتون).. وتلقينا عروضا كثيرة من عدة صحف تعرض علينا تنويها بسيطا عن رحلتنا..
عندها فقط عرفنا مدى اهتمام الدوائر العلمية بهذه الرحلة..
وقد استقر رأينا على ألا نلفظ بشيء قبل أن نقابل أعضاء معهد علم الحيوان أولا..
ولهذا رفضنا الإدلاء بأية تصريحات..
وأذيع أن اجتماعا سيعقد لنا في قاعة الملكة بشارع (ريجنت) في اليوم السابع من نوفمبر، لهذا استعد الناس جميعا لحضور هذا الاجتماع..
ولن أحكي لكم على لساني شيئا.. بل سأحكيه لكم كما جاء في الجريدة بتاريخ 8 نوفمبر:

العالم المفقود

اجتماع في قاعة الملكة

حوادث خارقة للعادة

تم أمس اجتماع عقده معهد علم الحيوان لسماع ما تبين للبعثة التي سافرت إلى أمريكا الجنوبية؛
للتحقق مما زعمه البروفسور (تشالنجر) عن وجود حيوانات ما قبل التاريخ حية في تلك القارة.

وقبل حلول الثامنة مساء كانت القاعة مكتظة عن آخرها بالناس.. وكان هناك من يتشاجرون بالخارج لمنعهم من الدخول.. وقد تدخل رجال البوليس ونشأت مشاجرة عنيفة جرح فيها كثيرون وظهر الرحالة الأربعة ليواجهوا خمسة آلاف شخص. ودوى التصفيق الحاد وراح الحاضرون يهتفون في حماس..

بعد هذا جاء دور المقدم ليدعو البروفسور (سامرلى) إلى الكلام.. وحمد الله على نجاة هؤلاء السادة، لأن خسارة هؤلاء الرحالة كانت تعنى ضربة قاصمة لعلم الحيوان (وقد وافق على هذا (تشالنجر) بحماس..

راح (سامرلي) يحكى للحضور رحلتهم في النهر، ومحاولة اجتياز الحاجز الصخري وحكي لهم عن الوحوش العجيبة التي رأوها، وقد قدم قائمة بهذه الوحوش، وإن قال إن القائمة ستتسع حين يتم مسح هذه الهضبة مسحا علميا كاملا..

وعاد إلى مكانه بعد ما أنهى خطابه، فتصاعدت أصوات الاجتماع تطالب بالبراهين. وحاول مقرر الندوة تهدئة الأمر دون جدوى..

هنا نهض (تشالنجر) ليلوح بذراعيه صائحا:

- إن هرجا أحمق مماثلا حدث في آخر اجتماع حضرته هنا قبل سفري.. ولكني استفدت من هذه التجربة السابقة أن آتي معي بدليل حاسم، لا يجادل فيه رجل عاقل..

إن الرجال القرود قد أتلفوا آلات التصوير لكن لدينا مجموعة نادرة من الحشرات والطيور جمعها الأستاذ (سامرلى) بعناية.. وكذلك تحت يدي دليل سوف يخرس المعارضين..

عندها دخل رجل زنجي عملاق المكان، وتعاون مع مستر (مالونى) في إدخال صندوق كبير.. تقدما حتى وضعاه أمام مقعد البروفسور (تشالنجر).. وشرع البروفسور يفتح الصندوق.

عندها خرج من داخله طائر شنيع المنظر له صراخ رفيع.. له عينان متقدتان ومنقار ملئ بأسنان حادة.. وكانت له رائحة كريهة حقا.. وقد تسبب هذا في جو عام من الذعر وبعض إغماءات..
عندها فتح الطائر جناحية الجلديين المليئين بالشعر، وحلق في سقف القاعة، صاح البروفسور (تشالنجر):
- أغلقوا النافذة!.. أغلقوها!
لكنه تأخر كثيرا لأن الطائر غادر النافذة إلى سماء (لندن)..
وتنفس الناس الصعداء لفرار الطائر.. لكن (تشالنجر) لم يبد راضيا عن هرب هذه العينة الثمينة..
وكان هذا كافيا.. إذ تصايح الناس في حماس:
- موكب!.. موكب!
وارتفع الرحالة الأربعة فوق الأعناق وخرجت بهم الجماهير من القاعة في موكب حماسى.. وتوقف المرور في العاصمة بسبب الزحام..
لقد كانت أمسية غير عادية حقا..
وماذا عن (جلاديس)؟
(جلاديس) التي تتصل بي منذ عودتي إلى (لندن)..
ذهبت لزيارتها قلقا.. أتراها هلكت؟.. لماذا لم تلقني بذراعين مفتوحتين كما توقعت أن أراها.. يوم أعود مظفرا؟
طرقت الباب ففتحت الخادمة لى، كانت (جلاديس) جالسة على البيانو. فاقتحمت المكان وهرعت نحوها وأمسكت يديها.. وهتفت:
- (جلاديس)!
نظرت لي في دهشة.. ثمة تغير ما قد طرأ عليها فما هو؟
انتزعت يديها من يدي.. وسألني بفتور:

- ماذا تريد؟
- ماذا؟
- إن اسمي هو السيدة (بوتس)!.. تعال أقدم لك زوجى!
ودون أن أفهم وجدت رجلا قصير القامة يدنو ليصافحني.. وقالت:
- لقد سمح أبي بأن نقيم في هذا البيت حتى نعد بيتنا!
- آه.. فهمت..
- ما حيلتي ما دمت هجرتني ورحلت بعيدا..؟
نظرت لها عاجزا عن التعليق.. ثم نظرت لزوجها متسائلا:
- كيف نجحت في ذلك؟.. هل وجدت كنزا؟ ... هل اكتشفت قارة؟.. أم سبحت عابرا المانش؟
نظر لى غير فاهم ما أريد.. أخيرا قال:
- أنا كاتب لدى محام!
غادرت الدار دون كلمة أخرى مكتفيا بتحية المساء..
لقد عادت بحيرة (جلاديس) ليكون اسمها (البحيرة الوسطى)!

∞∞∞∞∞∞

بعد أمسية قضيناها في دار لورد (جون)؛ قال لنا وهو يخرج صندوق سيجار من خزانته:
- لم أكن أريد إخباركم بشيء قبل أن أتأكد من الأمر.. أما الآن فأنا واثق.. لقد وجدنا – كما تذكرون - حفرا بركانية بها فخار أزرق في موطن (التيروداكتيل).. أنا أعرف أن هناك حفرة بركانية مماثلة واحدة في (كيمبرلى) على مدخل المنجم الأكبر للماس.. لهذا توجهت - داخل قفص من البامبو - إلى موطن (التيروداكتيل) وقمت باستخراج عشرين أو ثلاثين قطعة من هذا الخزف

الأزرق، وبعد هذا - عند عودتنا - توجهت إلى جوهرى شهير قدر لي المجموعة بمائتي ألف سيخص كلا منا خمسون ألف جنيه منها!

وسأل كل منا عما سيفعله بنصيبه..

قال (تشالنجر) إنه سيقيم متحفا للتاريخ الطبيعي..

وقال (سامرلى) إنه سيتفرغ للدراسة..

وقال اللورد إنه سيعود لدراسة الهضبة.. وأنت يا (مالون)؟.. هل ستتزوج بحصتك؟..

قلت في أسى:

- لا.. بل سأعود إلى الهضبة.. معك!

وتصافحت يدانا عبر المائدة..

(تمت بحمد الله)

العالم المفقود

هناك في موضع ما بقرب نهر الأمازون) أرض لم يرتدها بشر من قبل.. لم ترسمها أية خارطة من قبل، وحتى من يعيشون قرب هذه الأرض يتحدثون عنها في همس متوجس آنها أرض غفل عنها الزمن، لهذا هي مفعمة بالاحتمالات والأخطار..

لتحزموا حقائبكم وتودعوا أحباءكم لأننا إلى هناك، مع البروفسور (تشالنجر) ورفاقه، كلا لا تقلقوا بصدد تذاكر العودة لأنها موضوع آخر...

أحمد خالد توفيق


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

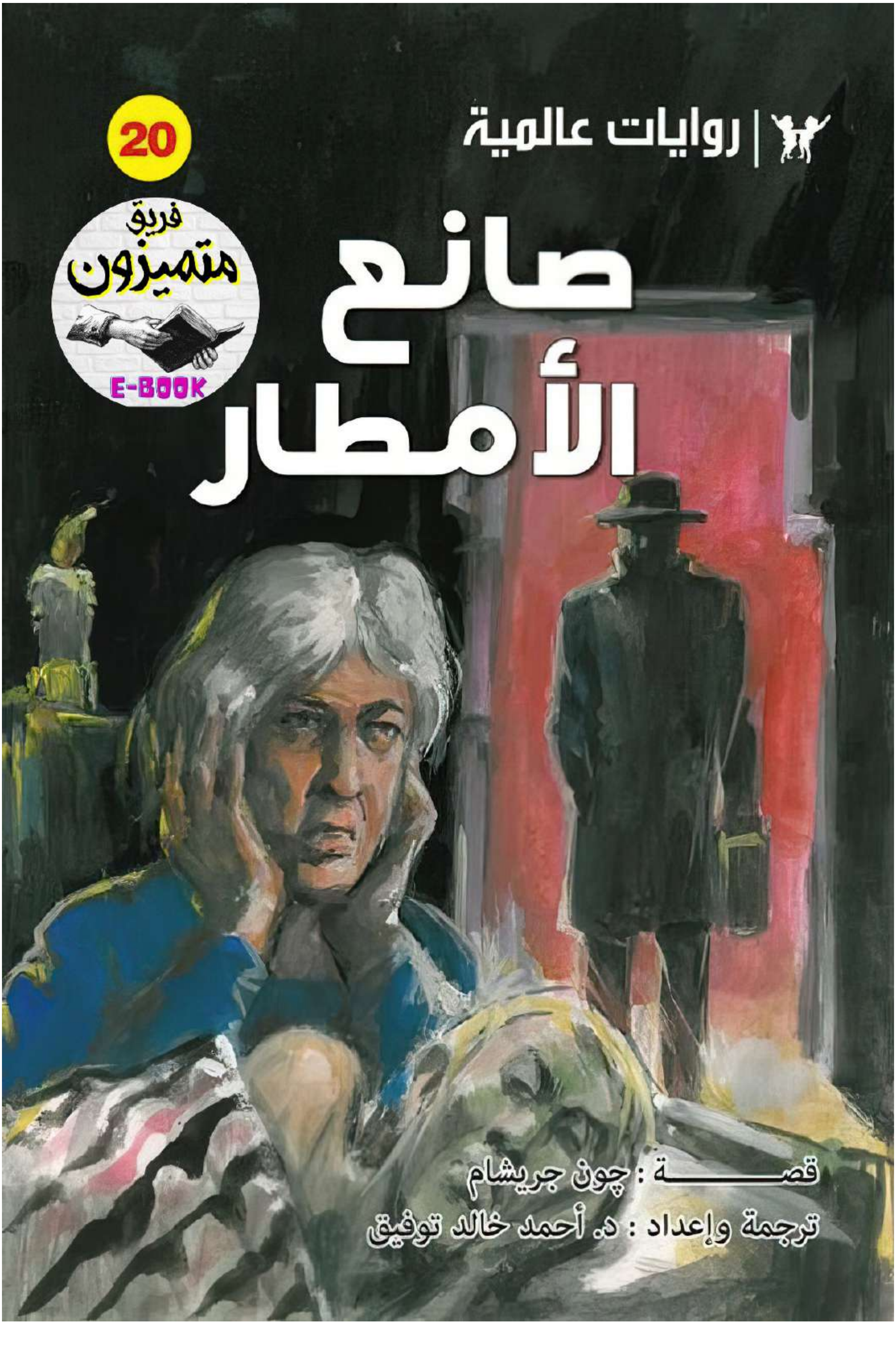
الفهرس:

الملاحظات

[←1]
(*) للمزيد من التفاصيل راجع العدد الأول من (فانتازيا)..

[←2]

(*) بتروداكتىل: الإصبع المجنح باللاتينية.


روايات عالمية
20
فريق
متميزون
E-BOOK
صانع
الأمطار
قصـــــــــة : چون جريشام
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (20)

صانع الأمطار

بقلم: جـون جريشــام.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

المؤلف..

الرواية العشرون!
عشرون رواية صدرت من هذه السلسلة التي تحاول أن تنقل لك المختار من الأدب العالمى..



وبهذه المناسبة قررنا أن نقيم احتفالا صغيرا:
سنقدم لك هذه الرواية الرائعة للأديب (جون جريشام).
بعض الكتاب يميل إلى التخصص في كتاباته.. وقد عرفنا في هذه السلسلة بالذات أن (ستيفن كنج) يميل إلى الرعب، وأن (بيتر بنشلي) يميل إلى عالم البحار والكنوز الغارقة، وأن (روبين كوك) و(مايكل كرشتون) يميلان إلى عالم الطب بمفرداته الغامضة..
قديما ظهر أديب أمريكي هو (إيرل ستاتلى جاردنر)، الذي مال إلى التخصص في عالم المحاماة والمحاكم، وقدم لنا محاميه الأريب الوسيم (بيري ميسون)، وذلك في سلسلة روايات لا تنسى.
اليوم نقدم لك أديبا ثانيا اهتم بعالم القضايا والمحاكم، هو (جون جريشام).
وقد صار اسمه.. فائق الشهرة في قوائم (أفضل المبيعات).. وصار من المؤكد أن تتحول كل رواية له إلى فيلم سينمائي شهير بدوره..

قدم لنا (جون جريشام) روايته الأولى الشهيرة (المؤسسة) في عام 1991.. وهي التي رأيناها في فيلم قام ببطولته (توم كروز) باسم (الطاغية)، ثم قدم لنا روايته (ملف البجعة)، التي تحولت إلى فيلم باسم (امرأة في خطر) بطولة (جوليا روبرتس) حسناء (هوليوود) الرقيقة..

كذلك نذكر لـ (جون جريشام) رواياته الشهيرة (العميل)، و (الغرفة)، و (وقت القتل)..

كلها نجحت نجاحا ساحقا وبلغ عدد النسخ المباعة منها خمسين مليونا.. والرواية التي بين يديك الآن صدرت عام 1995، ويتم تحويلها إلى فيلم سينمائي حالا؛ ربما تكون قد رأيته بالفعل عندما يتم طبع هذه الكلمات..

قد يتساءل القارئ عن معنى العنوان.. سنعرف من الرواية أن (صانع الأمطار) هو مصطلح مهنى، يعني المحامي الذي يحقق صفقات كبرى، وتعويضات هائلة لموكليه..

تعالوا الآن ما نتعرف عالم هذا الأديب الجديد...

د. أحمد خالد

∞∞∞∞∞∞

(1)

كان قرارى هو أن أكون محاميا.. لكني اضطررت إلى إلغائه حين أدركت أن أبي يكره مهنة القانون..
كنت في ذلك الوقت مراهقا أخرق محبطا من الحياة، مرتبكا من خجله، وقد أزمع أبي أن يرسلني إلى إحدى المدارس العسكرية.. فقد كان مجندًا سابقا في الأسطول، يؤمن أن الصبية يجب أن يتربوا على السياط.. وكان قراره أن أذهب بعيدا.. واحتجت إلى أعوام طوال كى أسامحه على ما فعل..
كان أبي مهندسا صناعيا يعمل سبعين ساعة أسبوعيا في شركة تصنع - ضمن ما تصنع – السلالم ولأن السلالم بطبيعتها خطرة؛ صارت شركة أبي هدفا للدعاوى القضائية.. وصار أبي - مصمم السلالم هو ضيف المحاكم الدائم.. لقد تكفل المحامون بجعل حياته تعسة.. ولهذا كان يمقتهم بشدة..
في النهاية أفلست الشركة.. وبالطبع كان اللوم كله على المحامين.. ولم يتكلم أحد عن سوء الإدارة الذي أدى إلى إفلاس الشركة..
الأعوام طوال عاش يعاقر الخمر دون عمل ثابت واضطرني هذا إلى أن أعمل ساقيا أو أنقل فطائر (البيتزا)، لأجد المال الكافي لشق طريقي في دراستي الجامعية، كنت قد التحقت بمدرسة للقانون.. وتقول أمي إنه لازم الفراش أسبوعا بعد ما عرف الخبر..
بعد هذا بأسبوعين كان عاكفا على استبدال مصباح كهربى في دارنا، حين – وأقسم أن هذا حدث – سقط السلم به، وهوى على رأسه وقضى عاما في غيبوبة، حتى قرر أحدهم أن يرحمه ويوقف الأجهزة.

تلقت أمي مبلغ خمسين ألفا من الدولارات قيمة بوليصة التأمين على الحياة.. وتزوجت من موظف متقاعد من (توليدو).. ولم تعطني سنتا واحدا من المال؛ لأن لدي مستقبلا يمكنني فيه أن أربح مالا.. أما هي فلا تملك مستقبلا.. ثم إنني قد أظهرت حتى اليوم براعة في البقاء حيا دون مال..
سأنهي دراسة القانون في (مايو) - أي بعد شهر - سأجتاز الامتحان في (يوليو)، لن أكون طالبا لامعا بالتأكيد، لكني لن أكون في النصف الأخير من صفي..
كنت أدرس (المشاكل القانونية لكبار السن) - مادتي المفضلة - لهذا تجدني جالسا على هذا المقعد المتهالك، في هذا المبنى الحار الرطب المليء بسادة الماضي كما يحبون أن يسموا أنفسهم.. الجدران عارية إلا من صورة باهتة قديمة لـ (رونالد ريجان) بين علمين تعسين.. ويبدو أن البناية كلها قد تم تشييدها فجأة بحفنة من الدولارات تبقت من مال الحكومة..
يوجد خمسون شيخا هنا.. بعضهم ضرير، وبعضهم على مقعد متحرك.. وبعضهم يرتدى سماعات أذن.. كانوا يجتمعون هنا لتناول الطعام، ولربما زارهم مرشح سياسي لا يجد شيئا آخر يفعله.
تعرفت في هذه المصحة امرأة تدعي مس (بيرو سونج).. وهي في الثمانين من عمرها تمارس عمل الأم والطاغية ومنسق الأمور لهذا المجتمع..
جلس أستاذنا (سموت) يرمق المشهد راضيا عن سير الأمور، كرجل انتهى من فوره من وجبة دسمة..
لقد ظل هذا الرجل لمدة عشرين عاما يعطي الدورات الدراسية التي لم يكن أحد من الأساتذة سواه يرغب في تدريسها، ولم يكن

أحد من الطلبة يرغب في تعلمها.. كحقوق الأطفال، وقوانين المعوقين، ومشاكل المتخلفين عقليا..
وفي أول يوم، قال لنا إن الغرض من هذه الدورة هو أن يجعلنا نلقى أناسا حقيقيين لهم مشاكل قانونية حقيقية..
ولا داعي للقول إننا كنا أحد عشر تلميذا.. وبعد شهر من محاضرات (سموت) المملة صرنا أربعة فقط.. إنها دورة تعليمية لا تساوي شيئا ولا تتطلب منك أي عمل.. وهذا هو ما جذبني إليها..
كان هذا أول لقاء لى مع عملاء حقيقيين، وجعلني هذا أشعر بالهلع.. وقد جلس المسنون أمامي يحدقون في كأنما أملك حكمة هائلة.. ربما لأنني أرتدي بذلة داكنة، ومعي (بلوك نوت) أرسم فيه مربعات ودوائر، ووجهى متصلب في تقطيبة ذكية..
كان معي (بوكركين) الزنجي.. أفضل صديق لي في المدرسة.. وكان مثلي خائفا.. وعلى مائدة أخرى جلس (ف. فرانكلين دونالسون) الرابع.. وهو مخلوق أحمق مغرور، لا يستطيع أن يذكر اسمه دون حروف قبله وأرقام بعده، ثم تأتي (إليزابث إركسون) وهي حسناء مبهرجة..
أرجوك يا إلهي لا تدع هذا يحدث لى.. أعطني خمسين عاما من العمل والمتعة ثم أمتني وأنا نائم لا تجعلني شيخا كهؤلاء..
تقول مس (بيرد سونج) بصوتها الرفيع في مكبر الصوت:
- الآن - بالنسبة لبرنامج اليوم - يسعدنا أن يكون معنا الأستاذ (سموت) مع مجموعة من طلبته الأذكياء الوسيمين..
وتشير لنا.. وتبتسم عن أسنانها المصفرة.. وتستطرد..
- الأستاذ (سموت) يعلم القانون في (ممفيس) حيث درس أصغر أبنائي كما تعلمون - لكنه لم يتخرج قط - وفي كل عام يزورنا مع تلاميذه الذين يصغون لمشاكلكم ويقدمون النصيحة، التي تكون

دوما مفيدة ودوما مجانية.. بروفسور (سموت).. مرحبا بعودتك الى (سيبرز جاردنز).. نحن نحبك.. شكرا..
وتتراجع.. وهي تصفق.. وتنظر لزملائها كى يفعلوا الشيء ذاته.. لكن أحدا لا يصفق..
ينهض الأستاذ (سموت) إلى المنصة، وينظف حلقه.. بينما تعود مس (بيرد سونج) إلى مقعدها، وتهمس بصوت مسموع لرجل شاحب الوجه:
- كان لا بد أن تصفقوا!
يقول (سموت) بصوته الرفيع:
- من اللطيف دوما أن أزوركم في (سيبرز جاردنز)..
ويتحدث عن مستقطعات الميزانية، والرعاية الصحية، وأقساط التأمين.. وأشعر بالخمول يتسرب إلى عيني.. وأرى أحد الشيوخ ينظر إلى ساعته كل عشر ثوان..
في النهاية يشكر (سموت) مس (بيرد سونج)، وبعد أن يعود في العام القادم..، وينصرف فلا يصفق أحد كالعادة..
في حيرة وبطء يتقدم الشيوخ نحونا..
يتقدم أحدهم إلى الآنسة (إيريكسون)، ويتوجه شيخ زنجي إلى (بوكر) ليخبره بمشاكله.. أسمع كلاما ما عن زواج وطلاق.. بدون (بوكر) ملحوظاته في اهتمام كأنه محام حقيقي يعرف ما ينبغي عمله..
في النهاية بدأت أشعر بأنني وحيد.. جالس في غباء، بينما زملائي يدونون الملحوظات ويهزون رءوسهم.. ويبدو أن ضيقي ظهر للجميع.. إذا جاءت مس (بيرد سونج) وجلست أمامي.
مدت يدها في كيس نقودها، وأخرجت مظروفا ثم قربت رأسها من رأسي لتهمس:
- أنت من أريد..

كانت هذه هي استشارتي الأولى كمحام..
قطبت المرأة وجهها، وكان معنى هذا أن أبقى صوتي ورأسي منخفضين.. فما ستقوله الآن خطير كالجحيم.. وكان هذا يناسبني جدا لأنني لا أريد أن يسمع أحد النصيحة العرجاء البلهاء التي سأقدمها لمشكلتها..
قالت لى المرأة وهي تفتح المظروف:
- اقرأ هذا!
سبحان الله! هذه وصية.. الوصية الأخيرة لـ (جانيس كولين بيردسونج).. ومن حسن حظي أننا تلقينا في العام الماضي دورة تدريبية في فن كتابة الوصايا.. وقد شعرنا أننا صرنا محترفين لهذا الإجراء.. إنها مجرد وثائق يمكن لأقل المحامين خبرة أن يكتبها دون أخطاء.
عرفت من القراءة أن المرأة أرملة لها ابنان، وجيش من الأحفاد.. لكني توقفت عند الفقرة الثالثة يقول الكلام: إن منفذ الوصية يجب أن يعطى لكل من ابنيها مليونين من الدولارات، بالإضافة إلى مليون يودع لكل حفيد من أحفادها!
قمت بالعد فوجدت أن الوصية تتضمن اثنى عشر مليونا من الدولارات..
همست المرأة لي كأنما سمعت هدير الآلة الحاسبة في ذهنى:
- استمر في القراءة..
في الفقرة الخامسة تترك المرأة خمسة ملايين الكنيسة، ومليونين لكلية، وقائمة إحسان طويلة تبدأ بـ (جمعية مرضى السكر) وتنتهي بحديقة حيوان (ممفيس).. إن المرأة تملك عشرين مليونا من الدولارات.
لكن الوصية ليست على ما يرام.. إنها ليست محكمة أو دسمة كما يجب.. إن الأغنياء يستعملون وصايا دسمة مركزة مليئة

بالأساليب القانونية المعقدة، التي يجيد استعمالها محامو الشركات..
سألتها:
- من كتب صيغة الوصية لكِ؟
- محاميّ السابق.. لقد توفي بالسرطان في العام الماضي..
- لحسن الحظ أنه ميت.. فالوصية ملأى بأخطاء مهنية جسيمة.. مثلها مثل المرأة التي لا تبدو ثرية على الإطلاق.. بل ترتدي ثيابا رثة تدعو للشفقة..
سألتها ما إذا كان لديها محام.. فقالت:
- ما كنت لأسألك النصح لو كان لدى محام.. إن الجشع شيء غريب.. إنني سأبدأ العمل في (يوليو) مع (برودناكس) و (سبير).. وهى شركة محاماة صغيرة لم أكن أتمنى العمل فيها لكن للضرورة أحكام.. لكم سيدهش (برودناكس) لو ظهرت له ومعي عميلة تملك عشرين مليونا من الدولارات!
سأصير صانع الأمطار في شركتهم.. سأصير النجم اللامع ذا اللمسة الذهبية.. يمكنني وقتها أن أطالب بمكتب أكبر
- أنت تعلمين أن هناك مالا كثيرا هنا..
- لا تذكر هذا المال..
- حسن.. لكن لا بد من استشارة محامي
ضرائب.. إن هذا يوفر عليك طنا من المال ستدفعينه للضرائب..
وضعت يدًا مبرقشه باللون البني على معصمي، وقالت:
- لا أهتم بهذا.. إنني أريد شطب ورثتى من الوصية.. فأنا أكرههم.. لا أريد أن ينالوا شيئا.. لا شيء..
وضغطت على معصمي بعنف.. لم تكن غاضبة فحسب، بل متألمة كذلك..

سألتها:
- إذن من يحصل على المال؟
وشعرت أنني ساحر يستطيع أن يهب الثراء للناس بكلمة واحدة يقولها..
قالت لي:
- الحق أنني لا أدري من يستحق هذا المال؟
ماذا عن مليون دولار لى؟ إن صاحب المسكن سيطردني قريبا لأنني لم أدفع الإيجار من شهرين، وهأنذا أجلس مع مليونيرة حائرة بصدد منذ يحصل على كم من المال!
كانت هناك أربعة أسماء كتبتها في عامود ضيق..
وقالت:
- هؤلاء هم الأحفاد الذين أريد أن يرثونى، أعط كلا منهم مليونا.. أما الباقون فلا شيء.. إنهم لا يرسلون لى هدايا ولا بطاقات..
لو كانت لي جدة تملك عشرين مليونا لأرسلت لها زهورا كل أسبوع.. وبطاقات كل يوم.. وشيكولاتة كلما أمطرت السماء، ولاتصلت بها مرتين يوميا.. وآخذها يوم الأحد إلى الكنيسة.. ويدي في يدها..
سأعنى بجدتي المليونيرة حقا!
قلت لها:
- ولا شيء لابنيكِ؟
- لا شيء..
- وماذا فعلا لك؟ هل لي أن أسأل؟
نظرت لي كأنما تكره أن تخبرني بالسبب.. ثم مالت على مرفقيها وقالت:
- حسن.. (براندون) الأكبر في الستين من عمره، وقد تزوج لثالث مرة من متشردة صغيرة السن لا هم لها إلا المال.. إنني لأفضل

إعطاء مالى لك يا (رودى) على أن أعطيه لابني! سأتبرع بكل ما بقي من مالي لـ (كينيث تشاندلر).. هل تعرفه؟ إنه يظهر في التليفزيون..
- هل تعنين ذلك الداعية الديني في التليفزيون؟!
- نعم.. إنه أكثر من داعية إنه معلم ومستشار.. ورجل وسيم لا يصبغ شعره.. لقد اتصلت به وأخبرته بنيتي في ترك ثروتى له.. تحمس جدا وعرض أن يجيء لزيارتي بطائرته الخاصة في أي وقت..
- وماذا عن ابنك الآخر؟
- آه! (ديلبرت)! إنه يعيش منذ ثلاثة أعوام في (فلوريدا).. اشطب.. اشطب.. اشطب!
شطبت الاسم بقلمي.. هو ذا السيد (ديلبرت) يفقد ملايينه بجرة قلم مني..
وافترقنا على وعد بأن أعود لها بعد أسبوعين بصياغة الوصية الجديدة.. من المريح أن أعرف أن (سموت) سيكون هناك ليساعدني.. وأن أمامي أسبوعين أعرف خلالهما ما ينبغي عمله..
أنا لا أشعر بأنني غبي.. لكنني بالتأكيد غير كفء..
تلفت حولي، فوجدت في الصف الثاني زوجين ينظران إلى.. كنت المحامي الوحيد المتوافر.. كانا مترددين كأنما هما بحضرة أحد النسور القانونية العظيمة.
جاءا إلى منضدتي، والمرأة تحمل كومة من الأوراق مربوطة (بأستك) من المطاط.. مرحبا بكما في مكتبي..
- مرحبا.. أنا (رودي بايلور)..
قالت المرأة:
- أنا (دوت).. وهو (بادى)..
فسألتها:

- والاسم الكامل؟
- نحن آل (بلاك).. الكل يسموننا كذلك.. إنني معوقة.. وزوجي يتقاضى معاشا صغيرا.. إنه مصاب في حرب (كوريا).. شظية داخل رأسه.. وهو مدمن كحول كذلك..
إن هذه المرأة التي قابلتها منذ دقيقة قد اكتفت بتحويل زوجها إلى مجرد معتوه مخمور.. ورأيتها تدس لفافة تبغ بين شفتيها المتشققتين..
قالت لي:
- ليس لدينا كثير مال..
إنها لا تدرك أنه مهما بلغ فقرها فهي أكثر ثراءً مني.. على الأقل لن تُقدم للمحاكمة تقريبا.. إنها تشعر بأنها تخلصت من أعبائها وتركت مشكلتها لصانع معجزات..



إنها لا تدرك مهما بلغ فقرها فهى أكثر ثراء منى ..

- إن لدينا مشكلة مع شركة تأمين.. بوليصة طبية اشتريناها منذ خمسة أعوام حين كان طفلانا في السابعة عشرة.. الآن يموت (دونى راى) بسرطان الدم بينما هؤلاء النصابون يرفضون دفع ثمن علاجه.. إن الشركة تدعى شركة (الفائدة العظمى)..
- لم أسمع عنها..
قلتها بثقة كأنني أعرف كل شيء عن كل شركة تأمين في العالم..
قالت المرأة وقد بدأت ترتاح إليّ:

- لقد دفعت كل الأقساط. ولم أفكر في استعمال هذا الشيء اللعين حتى أصيب (دونى راى) بالسرطان منذ ثمانية أشهر.. لا بد من زرع النخاع.. إن نخاع أخيه يناسبه، لكن الجراحة تكلف خمسمائة ألف دولار.. المفترض أن يدفعها الأوغاد في شركة التأمين لكنهم يأبون.

سألتها سؤالا تسمح إجابته بإعطائي وقتا يسمح لى بالكتابة:

- أين يعيش ابنكما؟

- إنه معنا في البيت.. لم يفارقه قط.. وهذا سبب آخر لتخلى شركة التأمين عنا.. يقولون إن البوليصة لا تعطيه بعد ما صار بالغا.. ويقولون إن مرض (دونى) كان موجودا قبل استخراج البوليصة.. لقد استعملوا كل حيلة في كتبهم.. إن الأطباء مدهوشون ويقولون إن الشركة يجب أن تدفع..

مددت يدي إلى كومة الأوراق، فوجدت خطابا يحمل شعار الشركة (الفائدة العظمى).. خطابا مباشرا مختصرا وبذيئا جدا.. يقول:

- عزيزتي مسز بلاك..

في سبع مناسبات سابقة أنكرت شركتنا حقك في المطالبة.. وللمرة الثامنة والأخيرة نكررها.. إنك غبية.. غبية.. غبية!

رحت أطالع الورقة غير مصدق..

في العام الماضي تلقيت دورة في قوانين التأمين وكان أستاذها شيوعيا يكره شركات التأمين، ويؤكد أن هناك حالات تفوق الحصر من رفض شركات التأمين للدفع.. لكن أغلب الضحايا لا يصعدون الأمر لدى المحاكم..

بدا لي الأمر واضحا.. فلو كان مرض الشاب هو سرطان الدم؛ فمن المستبعد أن يكون مصابا به منذ خمسة أعوام.. عندها لا بد للشركة أن تدفع.. لكني أعرف أن القانون لا يحوي شيئا

واضحا أو منطقيا.. وما دام الأمر بهذا الوضوح في نظري؛ فلا بد أن هناك خطأ قاتلا في هذه الأوراق.. لا بد أن موقف الشركة قوي حقا...

قلت لها:

- أحتاج إلى بعض الوقت لأراجع كل هذا..

- يحسن أن تسرع.. لأن (دونى راى.) لن ينتظر كل هذا.. هل ترى أملا ما؟

مازلت طالبا أدرس القانون.. لكني تعلمت كلام المحامين ذا المعنيين.. لذا قلت:

- حقا لا أستطيع أن أقول في هذه المرحلة يبدو الأمر واعدا لكني أحتاج إلى دراسته أكثر.. سأراكما خلال أسبوعين..

هذان الزوجان يعهدان بحياة ابنهما لي.. طالب في السنة الثالثة من مدرسة الحقوق.. يظنان أنني سآخذ الهاتف وأجرى بعض المكالمات.. عندها تسقط شركة التأمين جاثية على ركبتيها.. وينجو ابنهما من السرطان، والأدهى أنهما يريدان أن يتم هذا بسرعة!

كنت أعرف أن البوليصة تحوي استثناء محكما لا يكاد يقرأ.. ولا يمكن فهمه.. لكنه موضوع هناك بوساطة عباقرة التحايل القانوني.. ليكون شركا للبسطاء الذين يظنون أنهم قادرون على استرداد حقوقهم..

بدأ الجمع يتفرق.. هذا يكفيني اليوم، إن جهلي بالقانون مروع.. كيف سأقف في المحاكم بعد أشهر لأترافع أمام القضاة والمحلفين؟..

إن مدرسة القانون لا جدوى لها سوى أن تشحننا بمحاضرات لا تنتهي.. لو أنني قضيت خمسين ساعة أسبوعيا طيلة السنوات

الثلاث الماضية أتدرب على يد محامٍ بارع، لصرت محاميا بارعا أنا الآخر..
إن (سموت) يعدنا بمناقشة هذه المشاكل في الصف الأسبوع القادم.. أكاد لا أطيق صبرا حتى أسمع رأيه..
انصرفت مع (بوكر) في سيارته (البونتياك)..
إن (بوكر) متزوج ولديه طفلان.. لهذا يدرس بجهد ويحقق درجات لا بأس بها، ويعمل في ذات الوقت لدى شركة قانونية بمرتب قدره أربعون ألفا من الدولارات في العام..
قلت له ونحن ننصرف من مؤسسة العجزة:
- أنا أمقت مدرسة القانون..
- هذا يعني أنك طبيعي..
كلما تذكرت الامتحان الذي سأجتازه ارتجفت.. لو أنني رسبت فلن أحصل على عمل لدى (برودناكس)، وكل السادة الظرفاء المهذبين هناك؛ ولن يكون أمامي سوى البطالة والتسكع والضياع.. إن الرسوب شيء غير وارد في خططي للغد.. فمعناه هو الجوع ببساطة حكيت له عن عميلتي الأولى الثرية، وكيف أنها تبرعت بجل ثروتها لواعظ تلفزيوني وسيم.. قلت له إنني سأسأل (سموت).. فلربما استعان بأحد أساتذة الضرائب ليساعدها.. على كل حال إن لدي مشاكلى الخاصة قبل شركة (تكساكو) التي ستقاضيني من أجل دين قدره أربعمائة دولار، وصاحب المسكن الذي يوشك على طردى..
يجب أن أتحمل حتى ألتحق بالعمل عند (برودناكس)، عندها أصير ثريا.. ما أكثر ما يمكن عمله بأربعة وثلاثين ألف دولار سنويا لمن هو مثلى، ممن اعتاد الحياة بملاليم.. وقتها سأشتري أحذية وربطات عنق.. وبعض الطعام الذي لا يباع في علب..

∞∞∞∞∞

(2)

أجلس في المكتبة وسط كتب القانون العتيقة..
يوشك هذا المكان أن يكون محجوزا باسمي أنا.. فبه درست وكتبت.. إنني أعذب نفسي طيلة الوقت فيه في هذا المكان أستطيع أن أصرخ دون أن يقبض على أحيانا كانت (سارة) تجلس معي - المقعد جوار المقعد - حيث نقهقه ونتهامس فلا يعبأ بنا أحد..
والمشكلة هي أنني كلما جلست هنا تذكرتها.. فأشعر بسكين تمزق فؤادى.. هاهنا كانت منذ أسابيع والآن هي ملك رجل آخر..
ها هي ذي الكتب الخاصة بالتأمين.. أفتح أوراق الزوجين (بلاك).. كانت (سارة) هي الفتاة التي أحببتها طيلة حياتي، وقد تخلفت عني منذ أربعة أشهر من أجل من يدعي (إيفى ليجر).. إنها تمقت أن تفعل ذلك بي.. لكن الحياة يجب أن تمضي، هكذا قالت..
أراجع نص البوليصة.. لا أفهم شيئا كأنها مكتوبة باللغة السنسكريتية.. رحت أفكر في (ماكس لويبرج) أستاذنا الشيوعي الزائر الذي يمقت شركات التأمين، إنها تحكم البلاد كما يقول، وتسيطر على البنوك وتملك الثروة كلها..
ألخص ما ورد في قضية الزوجين.. ثم أتجه إلى مكتب الأستاذ..
كان الباب مواربا وسمعته يعوى في الهاتف، فطرقت الباب برقة.. ودخلت. رجل نحيل هو له شعر بلون القش، ويدان لا تسكنان.. إنه نشيط جدا إلى درجة تجعلني عصبيا..

أشرح له ملخص قضية الزوجين (بلاك)، وهو يصغى باهتمام.. ثم سألته عما إذا كان قد سمع عن شركة (الفائدة العظمى)، فقال:

- نعم.. إنها تبيع الكثير من بوليصات التأمين الرخيصة للبسطاء.. إنهم لا يعلنون عن أنفسهم، إن عملاءهم من النوع الذي يقرع الباب.. دعني أر البوليصة.. حسن.. ما هو أساس رفضهم؟

- كل شيء.. ينكرون أن سرطان الدم تتضمنه الوثيقة.. يقولون إن سرطان الدم كان سابقا للبوليصة.. يقولون إن المستفيد بالغ الآن أي أن البوليصة لا تشمله..

- وهل تم دفع كل الأقساط؟

- مسز (بلاك) تؤكد ذلك..

- الأوغاد!

قالها وابتسامة شيطانية على ثغره.. كان مولعا بهذه الأمور..

قدمت له (خطاب الغباء) إياه.. فابتسم غير مصدق.. قلت له:

- هذا هو كل شيء.. مسز (بلاك) تقول إن ابنها لن يعيش طويلا..

- الأوغاد العفنون!

كل أساتذتي أكاديميون جدا يرتدون ربطات العنق ويزرون كل أزرار ستراتهم، لكن (ماكس) يختلف فهو لم يرتد ربطة عنق طيلة حياته..

ودعته على وعد بلقاء باكر.. لكم أحب هذا الرجل مررت على استراحة الطلبة، فوجدت المغرور الأحمق (ف. فرانكلين دونالسون) الرابع يتهامس مع بعض رفاقه زرق الدماء.. فلما رآني سألني:

- هل ستعمل لدى شركة (برودناكس) حقا؟

- هذا ما انتويته..
- ألم تسمع عن موضوع دمجها مع شركة أكبر؟! دمج؟ ما هذا الخبر الغريب؟
عدت إلى المكتبة.. يجب أن أتصل بـ (لويد بك) الذي عينني في شركة (برودناكس).. لم أكن أريد الاتصال من الاستراحة.. يجب ألا يرى أحد معالم الهزيمة على وجهى..
ضغطت الأرقام الستة لشركة (برودناكس).
تسع رنات ثم سمعت من يتساءل عن المتكلم..
- هاللو.. أنا (رودى بايلور).. أريد الاتصال بـ (لويد بك) لأمر ملِّح..
- أنا (كارسون بل).. (لويد) في اجتماع ولا نستطيع استدعاءه.. اتصل بعد ساعة..
- لقد سمعت عن اندماج شركتكم مع شركة (بريت).. أهذا صحيح؟
- (رودى).. أنا مشغول.. اتصل بعد ساعة..
سألته بفزع وقنوط:
- هل ما زال لي عمل عندكم؟
قال وهو يضع السماعة
- اتصل بعد ساعة..
ذهبت إلى الحديقة لأركب سيارتي (التويوتا) المتهالكة.. إن أسوأ أسراري هو أنني مدين بثلاثمائة دولار للشركة التي أعطتني قطعة الخردة هذه، لقد كذبت على (بروكر).. فهو يظن أنني دفعت ثمنها..

∞∞∞∞∞∞

(3)

ليس سرا أن المحامين كثيرون في (ممفيس).. قالوا لنا هذا حين التحقنا بمدرسة القانون، وقالوا لنا أيضا إن المدينة مزدحمة بشكل مفزع.. هنا وفي كل مكان وإن بعضنا سيقتلون أنفسهم في الدراسة لكنهم لن يجدوا عملا بعد التخرج..

لهذا كنت راضيا فخورا بالوظيفة التي سأنالها في (برودناكس).. لكن هذا الأمل تلاشى فجأة.. أشعر بغصة في حلقي وأنا أقود سيارتي..

لا يوجد مكان لخريج صغير مثلي في شركة مثل (بريت).. لماذا يحتاجون إلى شركة قوامها خمسة عشر رجلا مثل (برودناكس)؟ لقد مات (برودناكس) منذ أعوام.. و(سبير) هو زوج ابنته برغم أنه طلقها منذ زمن..

كانت شركة (برودناكس) تعمل أساسا في مجال حوادث السيارات.. ربما كانت شركة (بريت) بحاجة إلى تدعيم عملها في حوادث المرور.. من يدرى؟

في العام الماضي قام عدد كبير من زملائي بمسح المدينة بحثا عن عمل.. وبالتالي من الواضح أنه لا يوجد عمل آخر لي..

دخلت مبنى الشركة.. وكدت أستقل المصعد حين رأيت وجها مألوفا.. إنه (رتشارد سبين).. وهو رجل لطيف المعشر دعاني للغداء مرتين..

كان يجلس على مقعد رخامي ووجهه مثبت على الأرض.. جلست جواره وسألته عما هنالك.. كان تائها.. أدار رأسه نحوى.. وببطء همس:

- لقد طردوني..!

عيناه حمراوان كأنما كان يشرب الخمر أو يبكي..
- من؟
- لقد طردوا كل غير المثبتين هنا.. لقد نادانا (بك) إلى غرفة الاجتماعات، وقال لنا إن الشركة قد بيعت لشركة (بريت)، وأن أمامنا ساعة كي نخلى مكاتبنا من متعلقاتنا.. طبعا أنت تتساءل عن وظيفتك؟ انسها! لقد وصل الفأس إليك مثلنا!..
- ولماذا يطردونكم؟
لم أكن مهتما بمصيرهم.. لكنى حاولت أن أبدو مخلصا..
- كان (بريت) بحاجة إلى عملائنا.. ولكى يحصلوا عليهم اشتروا شركتنا.. ولم يعد لنا وزن بعدها.. هل تعرف كم حققت من مال العام الماضي؟ ثمانين ألفا! عملت كالعبد سبعين ساعة أسبوعيا، وتجاهلت أسرتي.. فجأة يطلب الأوغاد مني الرحيل! بل إن ضابط الأمن جاء يراقبني في أثناء أخذ متعلقاتي.. ثم أعطوني ساعة ذهبية، وقالوا لي كم أنا عظيم.. هل تدرك يا عزيزي أنك طردت من العمل قبل أن تتسلمه؟
ومسح عينيه.. ووضع يده على كتفي..
- لا أحد يعين أحدا في هذه المدينة.. يوجد جيش من المحامين الملاعين..
فارقته وأنا أرتجف..
ركبت المصعد إلى الطابق الرابع، فرأيت حارسا يقف جوار الاستقبال.. سألني مزمجرا
- هل أستطيع مساعدتك؟
عرفته بنفسي.. فالتقط مظروفا عليه اسمى من فوق المنضدة، وأعطانيه.. فتحته وأنا أعرف ما به.. يقول الخطاب إن الاندماج كان سريعا ويتمنى لى حظا سعيدا.. رميت الخطاب على الأرض..

أراهن على أنهم بالداخل ينتظرون رحيل كل المنحوسين مثلي وينصتون وراء الباب إلى ما يقال بالخارج..
ثمة تمثال جوار الباب لوجه (برودناكس)..
بصقت عليه.. أزحته.. عندها سقط الرأس أرضا وتهشم..
- هيه! - سمعت صوت الحارس من ورائي..
فكرت لجزء من الثانية أن أعتذر، ثم قررت أن أفر.. اندفعت عبر درجات السلم حتى وصلت للطابق السفلي.. لم يستطع اللحاق بي..
إنها السابعة.. لقد حلّ الظلام..
اشتريت بعض الجعة وهكذا بقي معي أربعة دولارات.. لم أكل شيئا منذ تناولت الغداء في دار رعاية العجزة.. ليتني ملأت بطني جيدا.. ليتني ملأت بطني بذلك الجيللى الأصفر الذي اشمأززت منه وقتها..

∞∞∞∞∞

شقتي ذات الغرفتين تقع في مبنى متهالك وتكلفني خمسة وسبعين دولارا في الشهر نادرا ما أدفعها في الوقت المناسب..
ظلت هذه الشقة مسكنا لى طيلة ثلاثة أعوام، ولكم فكرت في هجرها حين أتلقى شيكا شهريا من (برودناكس)..
نزلت من سيارتي فوجدت رجلا يخرج من سيارته، ويتجه نحوي...
- هل أنت (رودى بايلور)؟
كان راعي بقر عاديا.. ملتحيا.. له شعر محلوق بعناية.. ويمضغ اللادن..
- نعم أنا..

وناولني بعض الأوراق في وجهي.. فسألته:
- دعاو قضائية!
- من شركة (تكساكو)؟
- يب.. كما أن هناك حكما بطردك من مسكنك..

كل شيء هنا.. موعد المحاكمة.. أسماء المحامين.. آسف.. إن هذا عملي على كل حال..
يا له من عمل! التسلل في الظلام.. ترويع الآمنين.. إلقاء الأوراق في وجوههم.. ثم الانسحاب ليفزع شخصا آخر..
قبل أن يرحل قال لي:
- اسمع.. أنا شرطى سابق ولدي جهاز لاسلكى في سيارتي.. سمعت رجال الشرطة يبحثون عن (رودى بايلور) الذي أحدث تخريبا في مكتب محام في المدينة.. عبث في ممتلكات خاصة.. ولو كنت مكانك لبحثت عن مكان آخر أقضي فيه ليلتي..
وابتعد بسيارته الفاخرة..

∞∞∞∞∞∞

فتح لى (بوكر) باب شقته.. كان يرتدي روبا وحافي القدمين..، ومن ورائه بدت زوجته (شارلين)، وسمعت طفلا يبكي في مكان ما.. إنها الثالثة صباحا.. وقد أيقظت الجميع.
قال (بوكر) وهو حانق كأب أثار ابنه حفيظته:
- اجلس.. تبدو ثملا..
- إنها قصة طويلة..
وضعت (شارلين) قدحا من القهوة الساخنة أمامي رأسي يخفق.. حكيت له كل أحداث اليوم.. لسانى ثقيل.. إن والد (شارلين) قس.. ولهذا لم تكن تطيق السكارى..

لقد كان يوما عصيبا جدا.. يجب أن أجد وظيفة..
- عندك مشاكل أكبر.. إن الامتحان بعد ثلاثة أشهر.. ولو تم اعتقالك الآن لكان في هذا ضياع مستقبلك..
- أفكر في هذا.. هل لي في شطيرة؟
وسألتني (شارلين):
- ماذا عن بعض اللحم والبيض؟
- لا بأس.
راح (بوكر) يفكر.. يجب أن أتصل بـ (مارفين شانكل).. يجب منع اعتقالك بوساطة البوليس.. إن (شانكل) هو أشهر محام زنجي في (ممفيس) ويمكنه أن يفيدك..
شممت رائحة اللحم المحمر قادمة من المطبخ..
وشعرت بأنني أمن دافئ وربما محبوب كذلك..
لهذا - كطفل - راحت عيناي تنغلقان..
ونمت حيث أنا..

∞∞∞∞∞∞

(5)

في الصباح أيقظني (بوكر) بأخبار مطمئنة.. إنه تحدث مع (مارفين شانكل). وقد رأي المحامي أن الأمور قابلة للحل، وقد تحسن الموقف كثيرا..

رحت ـ بعقل مضطرب - أدون ما ينبغي على عمله.. سأذهب إلى مكتب الاستخدام وأبكي بدل الدموع دما.. من يدري؟ ربما كانت هناك هيئة حكومية ما لديها وظيفة قانونية لفظها كل الخريجين الأخرين..

قابلت الأستاذ (ماكس لويبرج) في وقت غير ملائم.. كان يثرثر في الهاتف ملوحًا بيده وهو يطلق اللعنات كبحار ثمل..

حاولت التشاغل عنه، ورحت أخط رسوما في دفتر مذكراتى..

مد يده إلى أوراقه.. وسد السماعة بيده ليقول لي:

- لقد ظفرت بهم!

- من؟

- شركة (الفائدة العظمى).. لقد قرأت الملف..

ثم وضع السماعة منها المكالمة، وقال وهو يسترخي في مقعده:

- حالة تقليدية من التأمين بالأقساط.. يسمونه تأمين الشوارع.. بوليصات تأمين رخيصة تباع من باب لباب.. وعندما يحين الوقت يعتذرون: نحن أسفون إن تأميننا لا يسري على هذه الحالة ولا تلك.. ويكون زبائنهم من البسطاء الذين يهابون المحامين ونظام العدالة.. فلا يرفعون الأمر للقضاء أبدا..

- وماذا لو رفعت عليهم قضية؟

قرقع سلامياته وغمغم:

- للأسف لا يحب المحلفون أن يجعلوا من البسطاء أصحابا للملايين.. إن هذه (تنيسى) يا (رودى) لا أحد ينال تعويضات هائلة هنا.. إن المحلفين متحفظون.. لكنها قضية لا بأس بها.. ليست ممتازة لكن لا بأس بها.. وعليك أن تقاضي شركة الأوغاد هذه..

- لست محاميا مرخصا لى..

- لست أنت.. أرسل الزوجين إلى محامٍ نشط يقظ.. أجر مكالمات هاتفية وتوصيات.. اقرأ المزيد عن قضايا رفض دفع التأمين..

وناولني الأوراق عبر المنضدة..

∞∞∞∞∞

يقع مكتب الاستخدام في الطابق الرئيسي من مدرسة القانون.. أقرأ لائحة الإعلانات.. بنظرة سريعة أدرك ما أعرفه بالفعل.. لا يوجد سوق للعمل في هذا الوقت..

كانت (مادلين سكينر) تدير المكان من عشرات السنين، ودائما تقول الإشاعات إنها ستتقاعد.. لكن هذا لا يحدث.. ربما هي تستعمله كوسيلة للضغط على العميد..

إنها امرأة في الستين لها شعر رمادي، وتجاعيد كثيفة حول عينيها، وهي تجيد عملها.. فهي تعرف الناس المناسبين في الشركات المناسبة.. إلا أن عملها يزداد صعوبة لأن الطلاب القانونيون يتزايدون.

طرقت الباب فوجدتها بالداخل تمسك كوب ماء، ولفافة تبغ.. صحيح أن التدخين ممنوع لكن أحدا لم يجرؤ على إخبارها بذلك..

- يوم صعب أليس كذلك؟ لقد تحدثت إلى (بيك).. سمعت عن اندماج في شركة (برودناكس)، وكنت مهتمة بأمرك.. فأنت الشخص الوحيد الذي عينّاه هناك..، وقلت له إنه تسبب في تدمير مستقبل تلميذ من تلاميذي.. وتشاجرنا على الهاتف..
ثم أردفت:
- كان يجب أن يناقشوا الأمر معك.. لقد انتهى عصر العبودية.. لست ملكا لهم يحق لهم نقله أو إبقاؤه.. حمايته أو إيذاؤه.. تعيينه أو طرده..
إنها عبقرية.. هذا هو ما أريد قوله بالضبط..
إنها تحاول أن تعزيني كأن ما حدث لي شيء بسيط.. من يحتاج إلى العمل لدى شركة تمنح خمسين ألف دولار في العام؟؟
- إذن ماذا تبقى لي؟
- لا شيء في الواقع، كان عندي منصب مساعد المدعي العام.. باثني عشر ألف دولار في العام.. لكني منحته لـ (هال باستريفي)..
ثم وضعت أوراقها على المكتب ونصحتني:
- أنصحك بأن تبدأ بطرق الأبواب.. هناك ثلاثمائة محام صغير في المدينة.. كلهم لا يتعاملون معي.. اطرق بابهم.. اعرض عليهم العمل في (ملفات السمك) الخاصة بهم..
- ملفات ماذا؟
- كل محام عنده (ملفات سمك).. قضايا تتراكم في مكتبه، ومع الوقت تتزايد رائحتها عفنا، ويتمنى المحامون لو لم يكونوا قبلوها..
ملفات السمك؟ هذا هو الكلام الذي لا تتعلمه في مدرسة القانون..
سألتها:

- هل لي أن أسأل سؤالا؟ كم مرة قلت هذه الكلمات في الأشهر الماضية؟
نظرت إلى ورقها.. وقالت:
- لدينا خمسة عشر خريجا يبحثون عن عمل وهم يمسحون الشوارع الآن..
قلت لها وأنا أنهض:
- شكرا جزيلا.. من اللطيف أن يلقى المرء من يهتم..
- لا عليك.. سأستمر في البحث.. عُد لي في الأسبوع القادم..

∞∞∞∞∞∞

(6)

يقع منزل مس (بيردسونج) على بعد ميلين من مدرسة القانون.. شارع محاط بأشجار البلوط العتيقة وبعض منازل جميلة جدا.. منزل من الطراز الفكتوري يحتاج إلى دهان وإلى سقف جديد..
خطوت إلى الباب الأمامي، وتلفت حولي في حذر متوقفا رؤية كلب عملاق يكشر عن أنيابه.. إن الوقت متأخر ولا توجد أضواء..
قرعت الباب لأنه لا يوجد جرس.. حمدا لله.. لا كلاب هنا..
تبرز مس (بيردي) بذات الثوب القطني الذي قابلتها به أمس.. سألت عن الطارق فقلت لها إنه أنا.. طالب القانون الذي كان معها البارحة.. إنها تعيش وحدها في هذا البيت المرعب، مقتنعة إن الأسرة تخلت عنها.. يا لها من مخلوقة حزينة وحيدة مثلى..
تقودني عبر الردهة، وتضيء الأنوار بينما نحن نمشي..
رائحة العطن في المكان.. والسجاجيد المغبرة.. أدخلتني إلى المطبخ.. وسألتني أأريد قهوة أم شايا؟ قهوة.. دون قشدة ولا سكر من فضلك..
- إن لك منزلا جميلا يا سيدتي..
- لقد مات (توماس) منذ أحد عشر عاما، وفي هذه الدار تربي ولدانا.. دعنا نتكلم عنك، إنه موضوع أفضل عدم التطرق إليه..
ورحت أتأمل المكان.. لو كانت هذه المرأة تملك حقا ملايين الدولارات فلا شك أنها تجيد إخفاء ذلك.. أثاث رخيص.. أطباق عتيقة.. ثياب رثة ولا خدم ولا كلاب..
وضعت قدحي أمامي.. كان باردا تماما والقهوة شنيعة المذاق..
سألتني:

- متى ستبدأ عملك كمحام؟
- سيكون هذا عسيرا في البدء.. لكن مع الإخلاص والاجتهاد لا داعي لأن أقلق بصدد اجتذاب العملاء..
- يا لك من شجاع! إن المهنة بحاجة إلى أمثالك..
إنني آخر شيء تحتاج إليه المهنة.. مجرد محام جائع آخر يذرع الشوارع محاولا أن يجعل شيئا يحدث.. أن يسبب مصيبة يعتصر بها الدولارات من عملائه المفلسين..
قلت لها:
- لنعد إلى موضوع وصيتك.. لقد ظللت أفكر فيها طيلة الليل.. أرجو أن تسامحيني على ما سأقول.. إنه ليضايقني ويضايق كل محام أن يرى عميلا يتخذ إجراءات صارمة ضد أسرته.. ثانيا: عندي مشكلة في كتابة وصية تمنح كل ثروتك إلى شخصية تلفزيونية..
. - إنه رجل الرب..
- أعرف.. لكن لماذا تعطينه كل شيء؟
- لقد صارت طائرته بالية..
- وجهة نظري هي أن كثيرا من هؤلاء نصابون.. لا أعني بهذا أنه نصاب.. لكن...
ثم قطعت عبارتى.. وسألتها:
- أين تضعين مالك؟
- في (أطلانطا).. إنها قصة طويلة يا (رودى)...
وأولادي لا يعرفون حقيقة ما عندي من مال.. هم يعرفون طبعا أن زوجى (توماس) مات تاركا لى مائة ألف من الدولارات.. لكنهم يجهلون كل شيء عن (أطلانطا).. لقد جاء المال من زوجي الثاني (تونى).. لقد مات منذ عامين.. وقبل موته بيومين مات أخوه الثري المجنون، وورث (تونى) الثروة..

ثم بعد يومين صرت وارثة لهذه الملايين..
نترك المطبخ ونتجه للفناء الخلفي نرمق نافورة المياه..
لقد عاشت المرأة حياة توحي بأنها تعتمد على مدخرات لا بأس بها.. لكن أحدا لا يتصور لحظة أنها بهذا الثراء الفاحش..
وهي لا تتمنى أن يعرف أحد بالأمر خاصة أسرتها..

∞∞∞∞∞∞



نترك المطبخ ونتجه للفناء الخلفى نرمق نافورة المياه . .

(7)

أواصل البحث عن عمل في مكاتب المحاماة الصغيرة..
حاولت العمل في مبنى قبيح يقطنه محام مختص بقضايا حوادث الطريق.. لكن السكرتيرة بدت فاترة
تناولت أوراقي وملفاتي باشمئزاز كأنها مبتلة بالبول ووضعتها على المكتب.. وأخبرتني أنها تقابل يوميا خريجا يبحث عن عمل..
هكذا.. يبدو أنني سأجرب ثلاث شركات يوميا خمسة أيام في الأسبوع؛ حتى أتخرج.. وعندئذ من يدري؟ يوجد كثيرون يبحثون عن عمل لى.. ربما ينجح شيء ما..
دخلت شركة أخرى قريبة أجرب حظي.. إنهم يمارسون عمل العقارات الذي لا أتحمله.. لكن لا خيار..
قالت السكرتيرة الحسناء:
- إن مستر (منلى) مشغول حاليا..
أعرف أن المحامين مشغولون دائما.. لا يوجد محام في العالم يقبل أن تقول سكرتيرته إنه ليس غارقا في العمل.. ينفتح الباب ويدخل رجل دون معطف، وينظر لي في ودّ.. ويسألني عما أريد فأرد:
- أريد مستر (منلى)..
- اسمى (رودى بايلور).. طالب قانون.. أبحث عن عمل..
- آه.. عمل!
وينظر لى ثم لها كأنما يسألها كيف سمحت لهذا أن يحدث.. ثم يسمح لي بعشر دقائق لأنه ذاهب للمحكمة حالا.. وأدرك من رقته أنه منذ وقت قصير كان على نفس جانب المدفع مثلى.. إنه يفهم.. سيصغي لي.. لكنه قد رتب جيدا رحيلى صفر اليدين..

في غرفته رحت أتأمل عشرات الشهادات المعلقة على الحائط.. حكيت له قصة عملي مع (برودناكس)، لاعبا على وتر كراهية المحامين الصغار للشركات الكبرى.. إنه لن يستأجرني.. هو يضيع الوقت فقط..
- أنا مستعد لأن أعمل.. إن درجاتي طيبة في مادة العقارات..
سألني وهو يتأمل أوراقي:
-كم يدفعون للمحامين الشباب؟ أنا لا أعرف لا داعي للكذب.. هو بالتأكيد يعرف.. كل المحامين يحبون الثرثرة..
- في شركة (بريت) يتقاضى المحامي الشاب خمسين ألفا..
- أنت تمزح!
- لست باهظ الثمن لهذا الحد..
لقد قررت أن أبيع نفسي رخيصا لكل من يقبل.. أي عمل لمدة عامين قد يتيح لى فرصة أفضل فيما بعد..
- سأعمل بخمسة وعشرين ألفا.. ثمانين ساعة أسبوعيا.. سأتولى كل (ملفات السمك).. سأتولى كل عمل ممل لا يرغب سواى فيه.. سأنهيه خلال ستة أشهر.. جربوني لمدة عام فحسب..
كان الإغراء شديدا.. أن يتخلص من كل هذه القاذورات فوق مكتبه.. لكن الدقائق العشر قد انتهت، فصافحني، ووعدني أن ينظر مع شركائه في الأمر..
إن المشكلة ليست في أجرى.. المشكلة هي أن الشركة ناجحة جدا الآن ولا أحد يرغب في التوسع، لكنه سينظر في الأمر حتما..
وانصرفت من مكتبه شاعرا بأنني ابتذلت نفسي حقا..
ما كان هناك داع لكل ما قلت..

∞∞∞∞∞∞

(8)

كان على في الأيام التالية أن أذهب للمحكمة لأنهى إجراءات إعلان إفلاسي.. إن (التفليسة) ليست بالسوء الذي حسبتها به، ويوجد كثيرون من الناس يواجهون الظروف ذاتها مثلى..
مازلت أواصل البحث عن مكتب قانوني لم يدخله سواء من قبل.. وذات يوم أزمعت أن أزور الزوجين (دوت) و (بادى بلاكلي) في عنوانهما الذي أعطياني إياه.. كانا يعيشان في شمال المدينة منطقة يعيش بها أصحاب المعاشات والبيض والزنوج رقيقو الحال..
كان كلبان شرسان من (الدو برمان) يحرسان مدخل الدار.. الجو حار.. وكل النوافذ والأبواب مفتوحة.. أقرع الباب في حذر..
تأتي المرأة إلى الباب وتنظر لي.. أقول لها إنني (رودى)، تقابلنا منذ أسبوع في (سيبرز جاردنر)..
كنت أتولى قضيتها ضد (الفائدة العظمى)..
- ماذا تريد؟
تسألني وهي تنفخ دخان سيجارتها.. المنزل من الداخل رطب ولزج.. أسألها عن (بادى) كأنه صديق قديم لى.. فتشير إلى النافذة:
- هل ترى هذه السيارة القديمة هناك؟
سيارة فورد بيضاء عتيقة، لها بابان، وقطة تستريح فوق الكبود، الأعشاب تحيطها وليست لها عجلات.. وتردف المرأة:
- ابتعنا هذه السيارة عام 1964.. هو يجلس فيها طيلة اليوم..
يبدو لي الأمر منطقيا.. إن جلوسه في السيارة يعنى ابتعاده عن رائحة دخان التبغ.. وعن القلق على ابنه المريض..
- إن عقل زوجي ليس على ما يرام.. قلتها لك من قبل..

أقول لها وأنا أناولها أوراقها:
- لقد بحثت في حالتك كثيرا.. يجب أن تقاضوا الشركة..
- كم من الوقت تستغرق المحاكمة؟
- إن المحاكمات تطول.. والشركة تملك حتما عشرات المحامين الذين يكسبون رزقهم من المماطلة..
- سيموت ابني خلال أشهر!!
أسمع صوت سعال من مؤخرة المنزل.. واضح أنه ابنها..
قلت لـ (دوت) إنني راغب في تولى القضية، لكنني أحتاج إلى محام مؤهل مرخص يضع اسمه على الأوراق، إلى أن أجتاز امتحانى..
سألتني في شك:
- كم يكلف الأمر؟
- لا شيء.. - ابتسمت ابتسامة دافئة - سآخذ الثلث مما نحصل عليه في النهاية.. نحن سنطالب بالملايين.. لن نحصل عليها بالطبع لكن ما سأناله سيكون مجزيا.. هذا طبعا بعد خصم تكاليف علاج (دونى راى)..
ضربت المائدة بقبضتها:
- ليكن.. افعل ذلك الآن..
لم تكن تحلم بالمال.. لكنها كانت تتمنى في صدق أن تجعل هؤلاء النصابين يعانون.. لهذا أعطتني توكيلا شفويا بتولي القضية.. وودعتني إلى الخارج.. ألقت نظرة على عربتى المتهالكة، وقالت شيئا سيئا عن الصناعة اليابانية، وزجرت كلاب (الدو برمان).. ثم عادت للداخل..
وفي تلك الأمسية زرت مس (بيردسونج)، ولاحظت أن لديها غرفة في دارها كان ابنها يعيش فيها.. عرضت عليها أن أستأجر هذه الغرفة، فلم تر مانعًا.. لكنها اشترطت عليّ أن أساعدها في العناية بحديقتها كشرط لإقامتي هناك. واتفقنا على إيجار قدره

مائة وخمسون دولارا في الشهر.. انها صفقة طيبة.. وأنا فخور بقدرتي على التفاوض فيها..

∞∞∞∞∞

(9)

إن أول ما تحصل عليه في مدرسة القانون هو الأعداء.. هناك يتعلم الناس كيف يخدعون وكيف يطعنون من الخلف. وهو تدريب جيد على الحياة العملية كما ترى..
إنني حاليا أمقت ذلك الذي وضعني في هذا الموقف الكريه..
ففي مدينتنا يصدر تقرير يومي عن النشاطات القانونية والمالية، اسمه (ديلى ريبورت)، ويتضمن كذلك قائمة بـ (التفاليس).. وقد استمتع رفاقي بأن يضعوا اسمي في هذه القائمة، ووزعوا عشرات منها في كل أرجاء المدرسة!
اختبأت في ركني المختار مبتعدا عن كل الوجوه المألوفة.. على كل حال سوف تنتهي الدراسة قريبا وينتهي هذا الكابوس..

∞∞∞∞∞∞

كان العذر الذي قدمته التهربي من حفل التخرج هو أن عندي القاعات واعدة مع بعض شركات القانون، لكنني لم أستطع خداع أحد.. فالكل يعلم أنني أقرع الأبواب وأوزع أوراقي في كل مكان بلا جدوى..
إن حفل التخرج لا يهم أمي بالتأكيد.. ثم إن الحفل ممل مليء بخطب القضاة الذين يحاولون إقناعنا بحب القانون..
كذلك لا أريد أن ألقي (ساره بلاكمور) هناك، وهي تبتسم للكاميرا مع خطيبها. ثم إن (مادلين) أخبرتني أن كل خريج في دفعتي قد عثر على عمل ما..
ومعنى هذا أن أجلس بروب التخرج وغطاء الرأس الأسود وسط مائة من زملائي؛ كلهم يعرفون أنني الوحيد في الصف الذي لم

يظفر بعمل في الوقت الذي دار فيه حفل التخرج الذي لن أحضره؛ كنت أدخل مكتب المحاماة الخاص بـ (جوناثان ليك)..
لقد قمت ببعض الأبحاث عن شركة (ليك)، وهي شركة قوامها اثنا عشر محاميا.. منهم سبعة يملك كل منهم سكرتيرة وكاتب محام.. تسمى هذه الوحدة (وحدة المحكمة).. أي أن لدى الرجل سبع وحدات تعمل بشكل مستقل.. ينسق بينها (لبيك)..
كان (ليك) يحب بشكل خاص مقاضاة أطباء التوليد، وقد حقق أرباحا كبرى من ورائهم أما النجم الصاعد في الشركة فهو (بارى لانكستر).. وهو محام في الرابعة والثلاثين استطاع أن يرغم طبيبا على دفع مليوني دولار.. وهو مطلق يعيش في المكتب..
كانت خطتي هي ألا أبدأ كمحام.. لِم لا أبدأ ككاتب محام؟ ستكون قصة رائعة يوما ما حين أنجح وأملك شركة كبرى..
إن لدى موعدا في الساعة الثانية مع (بارى لانكستر)..
جلست في الاستقبال أتأمل الجدران الفاخرة، والسجاجيد الإيرانية.. ثم أدخلتني السكرتيرة إلى متاهة من الممرات، ثم إلى مكتب (بارى)..
صافحني.. هو قطعا مشغول جدا.. وقد وضع جهاز الهاتف بقربى كى أرى أضواء المكالمات تلتمع في جشع طيلة الوقت..
- قل لي عن موضوعك.. ألم تكلمني بصدد مشكلة شركة تأمين؟
- إنني أبحث عن عمل!
قلتها بجرأة.. ماذا أنا خاسر؟ هو ذا يقطب.. يلتقط قطعة من الورق.. ويسألني وقد شعر أنه خدع:
- هل أنت كاتب محام؟
- أستطيع أن أكون!
وأقف حتى لا أدع له فرصة للتملص.. أحكي له كل شيء.. إن أجرى بسيط.. سأفعل كل شيء يطلبه.. أعرف أن خداعي له

يضايقه.. لا ألومه لكني أقدم له صفقة لا بأس بها.. سأعمل كالعبيد بأربعة وعشرين ألفا من الدولارات في العام..
قاطعني قائلا:
- لكننا بحاجة إلى كاتب يملك خمس سنوات من الخبرة..
- سأتعلم بسرعة..
كنت أحاصره بشكل غير عادل.. لكني لم أشفق عليه.. فهو قادر على طردي في أية لحظة يختارها.
قال لي:
- يجب أن أتناقش مع مستر (ليك) أولا.. إن له قواعد صارمة في اختيار موظفيه.. ولن يروق له موضوع كاتب محام بدون خبرة..
كنت قد تلقيت هذه الصفعة مرارا.. لقد صرت ممتازا في هذا..
- إن لدى كذلك قضية تأمين مهمة.. ها هي ذي أوراقها..
وناولته ملخص قضية آل (بلاك).. راح يدرسه بعناية.. بدا عليه اهتمام لا شك فيه.. ثم سألني:
- دعني أحدس.. تريد عملا ونسبة من هذه العملية!
- لا.. أريد العمل فقط.. أريد أن أعمل في القضية لكن الأجر لك..
ثم نهضت قائلا:
- أرجو أن تتصل بـ (مادلين سكينر) في مدرسة القانون.. فهي ستزكيني..
- (مادلين) المجنونة.. أما زالت هناك؟
- بلى.. ولسوف تؤكد لك أنني أصلح..
وافترقنا على وعد بالاتصال بي..

∞∞∞∞∞∞

بعد يومين اتصل بي (بارى) وطلب مني أن أقابله فورا..
كان الوقت ليلا.. برغم هذا كان عدد كبير من الناس يعمل بداخل المكتب.. قابلني على الباب، واقتادني إلى مكتبه.. كنت أرمق كل شيء في انبهار، وأفكر في أنني سأغدو جزءا من هذا المكان الفخيم.. أكبر شركة للتقاضي في (ممفيس)..
جلس على مكتبه، وقرب مكبر الصوت منى وفتح جهاز الدكتافون:
- سنسجل ما ستقول.. ولسوف تدونه السكرتيرات غدا.. موافق؟
- حسن..
- سأعينك كاتب محام لمدة اثني عشر شهرا.. راتبك واحد وعشرون ألفا يتم دفعه على اثنى عشر قسطا متساويا في منتصف كل شهر.. لن تستفيد من التأمين الصحي قبل مرور عام.. وقتها سنقيم أداءك ونلغي عقدك أو نستخدمك كمحام.. سيكون لك مكتب وسكرتيرة.. العمل يبدأ في الثامنة صباحا ويستمر حسب الظروف.. ستين ساعة أسبوعيا.. ستبدأ العمل في قضية (آل بلاك) ضد شركة (الفائدة العظمى)..
- موافق على كل شيء..
لا بأس بستين ساعة من العمل.. لتكن تسعين.. هكذا لن أعمل في حديقة مس (بيرد سونج) الرهيبة..
أقفل (الدكتافون.)، وراح يطالع تقريري عن أسرة (بلاك).. راق له تنسيقي للأحداث القانونية، وطلب منى الحصول على تعاقد مع الأسرة لتوكيل الشركة..
رحت أبتسم وأنا أرمق وجهي في مرآة السيارة.. يجب أن أتصل بـ (بوكر) العزيز لأبلغه بالأنباء الطيبة.. ثم أخذ زهورا لـ (مادلين سكينر) وأقول لها شكرا..

ربما كان عملا حقيرا.. لكنه نقطة بدء أنطلق منها كصاروخ.. سأكون أكثر ثراء من كل البلهاء الذين أهرب منهم هذه الأيام..

∞∞∞∞∞

(10)

مر يومان مع (باري لانكستر) درسنا فيهما كل شيء عن قضية شركة التأمين وآل (بلاك).. لم ألق أحدا سواه في الشركة.. يعود هذا طبعا إلى وضاعة وظيفتي.. فلست محاميا.. لست شيئا كبيرا أو خاصا.. إن كتبة المحامين يجيئون ويذهبون فلا يلاحظهم أحد.. ثم إن الموظفين في المبنى مشغولون جدا ولا وقت لديهم للزمالة..

كانت قيود الأمن تحاصر المبني.. لم يكن أحد يسمح لى بأخذ مفتاح.. لهذا كنت أذهب مبكرا، وأنتظر (بارى) حتى يفتح لى بمفتاحه..

في اليوم الثالث فرغنا من صياغة خطاب مطالبة بارع، موجه لشركة (الفائدة العظمى)، تم إرساله بالبريد المسجل مع علم الوصول...

∞∞∞∞∞

الجميع يعرف الآن أنني أعمل في شركة (ليك)..

ما أجمل اسمها! لا أحد يسأل ما هي.. فقط أذكر اسمها، عندئذ يراها الناس مائلة أمامهم بمبناها الفخم ومحاميها البارعين..

وجاء يوم الجمعة..

قابلت (بارى) على باب الشركة، لم يسمح لى أحد بالدخول، لأن اسمي لم يدون بعد في قائمة الأجور.. لهذا كان على أن أنتظره..

قال (بارى) إنه مطلوب في المحكمة في التاسعة..

لهذا اقترح على أن أذهب إلى آل (بلاك) وأجعلهم يوقعون التعاقد.. يجب أن يوقع ثلاثتهم على العقود:

الزوج والزوجة والأبن..
لم أكن أحب قضاء نهار الجمعة مع آل (بلاك)، لكني ذهبت على كل حال.. نفس الكلاب تنبح في وجهي.. وقادتني (دوت) إلى المطبخ ورأيتها تنظر إلى الفناء الخلفي وتقول بإحباط:
- لن أستطيع جعل (بارى) يأتي إلى هنا! أنت تريد توقيع (دونى راى) كذلك.. أليس كذلك؟
- بلى..
خرجت من المطبخ.. بعد دقائق سمعت جلبة بالخارج، فوقفت لأقابل الشاب (دونى راى بلاك).. كان واضحا أنه سيموت أيا كان السبب.. فهو هزيل تقعر خداه، لون جلده شمعى، وظهره منحنٍ... حتى ليقارب الأرض في قامته..
لكنه يبتسم ويمد لي يا عظمية، بينما الـ (تى - شيرت) الذي يرتديه يتهدل حول هيكله:
- مرحبا.. ماما تقول أشياء طيبة عنك.. تقول إنك ستقاضى هؤلاء الأوغاد وترغمهم على الدفع..
لا أتخيل أن تقول هذه المرأة أشياء طيبة عني..
- لسوف نطالبهم بمليون..
قلتها وأنا أخرج العقود وأضعها على المائدة..
قالت المرأة:
- لن يأتي (بادى)..
- يجب توقيع هذه الأوراق
- وماذا فيها؟
- آه.. الكلام المعتاد.. أنكم توكلوننا لمقاضاة الشركة مقابل ثلث ما تدفعه..
سألتني في شك وهي تشعل لفافة تبغ:
- إذن لماذا اقتضاكم الأمر صفحتين بخط صغير؟!

قال لها (دونى راى) في غضب:
- خذي قلما واذهبي إلى أبي.. واجعليه يوقع هذا الشيء اللعين..
- أظن أنني سأفعل..
وأخذت العقد وراحت تجتاز الفناء الخلفي نحو زوجها، الجالس في سيارته غير ذات العجلات، والقطة لم تغير جلستها فوق الكبود..



وأخذت العقد وراحت تجتاز الفناء الخلفى نحو زوجها ، الجالس فى سيارته غير ذات العجلات ، والقطة لم تغير جلستها فوق الكبود !

رحنا ترمقها وهي تبعد القطة.. تدخل الأوراق من النافذة وتحدث زوجها..
قال الشاب السقيم على صوت المناقشة الحادة بين الزوجين:

- أعرف أنهما يبدوان كالمجانين.. لكن اصبر عليهما.. إنهما طيبا القلب..
ثم زفر وقال:
- أعرف أن احتمال وفاتي ثمانون بالمائة لو تلقيت مزرعة النخاع منذ ستة أشهر لكانت فرصة شفائي تسعين بالمائة.. لقد تفاقمت حالتي..
وراح يلهث.. حتى شعرت بأنه من الواجب أن أساعده.. للمرة الأولى شعرت أن شركة (الفائدة العظمى) عدو شخصي لي..
تعود الزوجة بالأوراق وعليها توقيع لا يُقرأ، لزوجها.. وتوقع هي وابنها.. ويقول لى الشاب وهو يعيد الأوراق لى:
- سأموت حتما.. لكني أرجوك أن تعني بهما.. لقد عاشا حياة مريرة..
لم أستطع الكلام من فرط التأثر..

∞∞∞∞∞∞

(11)

ظل المطر ينهمر لمدة ثلاثة أيام، مما أبقاني في المنزل وأراحني من كل تلك الأشغال الشاقة التي أؤديها في حديقة مس (بيردى)، والتي جعلتني أرتاب فيما إذا كنت حقا بارعا في الصفقة التي أجريتها معها.. حين قالت لي إنها ستخفض الإيجار مقابل معاونتها في فلاحة الحديقة؛ لم أتوقع لحظة أنها تدخر كل هذا العمل لى..

وحين جاء مساء الثلاثاء دق جرس الهاتف، فرفعت السماعة.. كان المتحدث هو الزوجة (دوت بلاك).. فعرفت أن شيئا ما ليس على ما يرام.

قالت:

- تلقيت مكالمة هاتفية ممن يدعى (بارى لانكستر).. قال لي إنه محام..

قلت لها:

- بالفعل هو محام ثقيل الوزن يعمل معي!

- حسن.. لم يقل هذا.. اتصل طالبا منا أن نزوره غدا لتوقيع بعض الأوراق.. سألته عنك فقال إنك لا تعمل هناك! هلا شرحت لى ما يحدث؟

توقفت لهنيهة.. شعرت بغصة في حلقي.. قلت شينا ما عن سوء الفهم.. لكنها قالت في إصرار:

- كلا.. كان يعنيك أنت.. قال إنك كنت تعمل معهم.. لكنك لم تعد!

انهرت في مقعدى.. وبصعوبة قلت والغرفة تدور بي:

- حسن.. سأتصل به لأفهم ما يحدث وأطلبك بعد دقائق..

وبيد مرتجفة طلبت رقم (باري لانكستر).. يجب أن أعرف.. سمعت صوته المتعب يرحب بي.. ثم يقول:
- إن لدينا مشكلة يا (رودى) بصدد عملك إن (جونانان ليك) غير موافق على عملك معنا!
- لِم لا؟
- إنه غير مستريح لفكرة محام يشغل وظيفة كاتب محام.. مستر (ليك) يعتقد أن المحامي فيك سوف يحاول الظهور ويفسد كل شيء.. آسف يا (رودى).. إن الرجل يمسك بزمام الأمور بقبضة حديدية.. ولا يلين.. بل لقد وبخني كثيرا على تعيينك...
- أيها الوغد!!
- اسمع يا (رودى)..
- أيها الوغد!!
صرخت في السماعة وشعرت ببعض الراحة.. ثم صحت:
- سأكون عندك حالا!
ووضعت السماعة، وبعد عشر دقائق توقفت - بفرملة حادة - أمام المكتب.. أصعد إلى المدخل الأمامي.. هم بالتأكيد بالداخل لكنهم لن يفتحوا لى..
درت حول البناية ورحت أقرع الأبواب دون كلل..
هنا يبرز رجل أمن ضخم الجثة.. ويضع يده على كتفى:
- يجب أن ترحل يا بني.. قبل أن أستدعى الشرطة..
يقولها بصوت عميق.. فأبعد يده عن كتفي وانصرف..
وعلى الأريكة في غرفتي ظللت ساهرا.. أبكي.. أخطط للانتقام.. أفكر في قتل (ليك) و(بارى).. كيف أشرح الأمر لآل (باك)؟ لم أتصور أمس أن أعود لطرق الأبواب من جديد.. كيف أعود لـ (مادلين) من جديد أطلب عملا؟ تبا لكل هذا النحس!

نمت على الأريكة.. وأيقظني أحدهم في التاسعة صباحا..
وجدت شرطيين في غير ثيابها الرسمية..
دعوتهما للدخول وأنا أتساءل عن سبب قدومهما..
طلبت منهما الجلوس.. فسألاني:
- هل تعرف (جوناثان ليك)؟
- نعم..
- هل ذهبت هناك إلى مكتبه ليلة أمس؟
- نعم..
أسئلة غريبة.. لماذا ذهبت؟ هل حاولت اقتحام المكان؟
هل عدت في منتصف الليل؟ لا.. صف لنا رجل الأمن..
وعرفت أن رجل الأمن قد مات أمس!
- ك.. كيف مات؟
- احترق في النار.. النار التي شبت في المبنى بعد منتصف الليل!
هل السيارة (التويوتا) بالخارج ملكك؟
- أنتم تعرفون أنها ملكي.. فأنتم تملكون الحاسبات الآلية..
- هل قدتها إلى المكتب بعد منتصف الليل؟
هناك من رأي سيارتك قرب المكتب في الثانية صباحا..
قلت في عصبية
- إذن فالشركة احترقت..
- صارت والأرض سواء..
- و (باري لانكستر) قال لكما إنني مشتبه لا بأس به.. أليس كذلك؟
وأخبراني أن الحارس مات في الحريق إذ سقط السقف عليه.. يا للخسارة! المباني الجميلة والسجاجيد والديكور.. كلها في النار
- يقولون إنك كنت ثائرا جدا..
- نعم.. لكن ليس إلى درجة حرق المكان..

سحب أحدهما ورقة من جيبه. وقال لي:
- لدينا هنا تقرير يدينك في تدمير ممتلكات خاصة.. حدث هذا منذ شهرين في شركة (برودناكس)
- أخيرا تعترفان بأن لديكما حاسبا آليًا..
وإذا كنتما تعتقدان أن من يهشم تمثالا في (إبريل) يمكن أن يحرق شركة كاملة أمس؛ فإن للفاعل الحقيقي أن يسترخي ويهنأ بالا.. فأنتما بعيدان جدا..
قال لي أحدهما وهما يتأهبان للانصراف:
- ربما كان من الأفضل أن تجد محاميا.. فحتى هذه اللحظة أنت المشتبه الأول لدينا!
انتظرت نصف ساعة بعد رحيلهما، ثم قدت سيارتي نحو شركة (ليك).. ومن بعيد لمحت البقايا المتفحمة.. لم يعد باقيا سوى حائط واحد من المبنى الجميل، وقد فاحت رائحة الخشب المحروق النفاذة، وثمة شريط أصفر ثبته رجال الشرطة حول موقع الحادث..

∞∞∞∞∞∞

كان (برينس) وغدا لا خلاق له، يدير بارا مشبوه السمعة عند أطراف المدينة، وقد عملت عنده فترة لا بأس بها ساقيا.. وأعتقد أنه يكن لى بعض المودة، وأعرف أنه أستاذي في التحايل على القانون.
إلى (برينس) توجهت.. وحكيت له مشكلتي مع البوليس. راح يصغي للقصة بوجهه المشعر الذي يذكرني بوجوه المذؤوبين في السينما.. كان يحب هذه القاذورات، وقد كانت قصتي ملأى بها: شركة تأمين نصابة.. حريق في مكتب محاماة.. شرطى مقتول.. لم

يكن ينقص الأمر سوى بعض فتيات الاستعراض لتكون قصة ممتعة له حقا..
كان متعكر المزاج لأنه لم يفق من الخمر بعد..
فهو لا يفيق قبل السادسة مساء عندها يبدأ الشراب من جديد..
لكن قصتي أسعدته..
كان اقتراحه هو أن أذهب معه لاستشارة محاميه (بروزر)، وهو وغد أخر بلا خلاق.. معروف بأنه لا يكسب قضية شريفة أبدا..
لم يكن لي الخيار...
قال لمحامية في الهاتف بعبارات سريعة مختصرة:
- هنا (برينس).. نعم.. أحتاج إليك بسرعة موظف عندي.. بعد ثلاثين دقيقة.. كان يعرف جيدا أن هاتفه مراقب.. وإنني لأشفق على ضباط المباحث الذين سيحاولون استخلاص ما يدين (برينس) من هذه العبارات الملغزة..
ندخل مكتب (بروزر) الذي لا تدخله الشمس أبدا.. كان (بروزر) يشبه الدب الكبير، وخلفه رأيت حوض أسماك مليئا بسمك القرش المفترس.. إنها لمحة ذات دلالة..
حكيت له قصتي لكنه كان يعرفها من الصحف بالفعل.. وبدا مطمئنا واثقا من نفسه لقد أخبرني (برينس) ذات مرة أن (بروزر) يعرف من رجال الشرطة أكثر ممن يعرفهم العمدة نفسه..
- يحتاج الأمر إلى بعض الأيام قبل أن تقرر الشرطة: هل هذا الحريق بفعل فاعل أم لا.. ولن يطلبوك قبل هذا..
هنا تدخل (برينس) ليعرض على (بروزر) استخدامى.. قائلا:
- يا للجحيم! أنت تملك جيشا من المحامين هنا يا (بروزر).. ماذا يضير لو زادوا واحدا؟ إن الغلام يحتاج إلى عمل.. ابتسم المحامي ابتسامة لطيفة كبسمة (بابا نويل).. وقال:

- الحق أنني أبحث عن موهبة قانونية.. لأن عندي منصبين شاغرين هنا.. لكني لن أمنحك راتبا.. إنني أنتظر من العاملين عندي أن يدفعوا رواتبهم لأنفسهم!
لم أستطع الكلام.. إنني لا أتحمل فكرة أن يكون (بروزر) رئيسي.. سيكون هذا هو الحضيض بعينه.. ولكن ماذا يعنيه بعدم دفع راتب؟
قال لي:
- هذا سهل.. لدينا بعض الشركاء هنا.. كل منهم يتلقى ألف دولار في الشهر.. وثلث ما يحصل عليه في القضايا، الثلث الثاني يذهب إلى صندوق مكتبي للإنفاق على السكرتارية، الثلث الثالث يذهب لي.. وتظل مدينا لى بألف دولار شهريا حتى تحقق صفقة كبرى في شهر ما..
يا له من نظام غريب! إن الشيء الوحيد الأكثر سوءا من البطالة هو العمل الذي تتراكم فيه الديون عليك كل شهر!
هنا قال (برينس) في حماس، وهو يضربني على ركبتى:
- يا لها من صفقة! هذا عادل.. يمكنك هنا أن تصنع نقودا حقيقية..
إن الرجل يقدم لي الوظيفة الوحيدة الباقية في (ممفيس).. كيف أرفضها؟ إنه يريد مني أن أبدأ اليوم.. الآن.. وأنا مذعور أحتاج إلى عون.. وحيد خائف.. أجلس مع اثنين من كبار المفسدين في المدينة..
لم يكن أمامي خيار آخر..
سأقبل العرض..

∞∞∞∞∞∞

(12)

يقع مكتب (بروزر) في بؤرة فساد المدينة، محاطا بملاه خليعة وحانات.. وقد توجهت إلى هناك بعد الظهر لأم أوراق استخدامى..
قرأت النص بعناية.. فمن هو مثل (بروزر) لا بد أن يخفي عبارات صغيرة في العقد، تتيح لمخالبه أن تنغرس أكثر في لحمي..
قابلت (بروزر) وكلمته عن قضية آل (بلاك)، وقلت له إن (لانكستر) خدعني لأخذ القضية إلى مكتبه..، وقلت إنني سأجعل آل (بلاك) يسحبون القضية من شركة (ليك) ليعطوها لنا.. راق له الأمر.. فهو يحب الأعمال الدنيئة من هذا القبيل..
بدأت أنتظم في العمل مع (بروزر).. وكان أكثر ما راق لي معه هو أنني غير مطالب بارتداء ربطة العنق.. يمكنني ارتداء أي شيء.. قيادة أي سيارة.. آتي وأذهب متى أريد.. ثم إنني بدأت أتعلم القانون من أبوابه الخلفية.. ستعلمني هذه الشركة كيف أكون خشنا..
ذات صباح دخل (بروزر) ليناولني قصاصة جريدة.. وقال:
- هو إذا حادث طريق.. يبدو أن أحد السائقين كان ثملا وكسر الإشارة وهي حمراء.. تولّ هذا الموضوع..
- وهل نمثل نحن أحد إلـ...؟
- يا للجحيم!.. لا.. ليس بعد.. اذهب وحقق في الأمر.. يبدو أن هناك بعض الإصابات الطيبة..
وتركني دون أن أفهم شيئا.. رحت أطالع القصاصة والتقرير معها، إن التقرير يحوي كل شيء: أسماء المصابين، الشهود،

أرقام الهاتف.. العناوين، كما يوجد رسم كروكي لما حدث.. لقد وقع الحادث مساء أمس وبرغم هذا يعرف (بروزر) كل شيء عنه.. ما المطلوب مني..؟

سمعت قرعا على الباب.. ثم ظهر رجل صغير الحجم قال لى إن اسمه (ديك شفلت).. على عينيه عوينات رفيعة الإطار متسخة.. من الصعب أن تعرف هل رأسه أكبر من جسمه أم جسمه أكبر من رأسه.. المهم أنهما غير متناسبين.. الواقع أنه أقبح رجل رأيته في حياتي..

قال لي إنه مختص بقضايا شركات التأمين هنا وقد طلب (بروزر) منه أن يعاونني في قضية آل (بلاك).. لم يكن (ديك) محاميا.. فهو لم يجتز اختبار التأهيل كمحام برغم محاولته ست مرات، لكن (بروزر) يعامله كمحام عادي.. وهو ذا (ديك) يحصل على أربعين ألفا في العام عن طريق ممارسة القانون دون رخصة..

سألته عما ينبغي عمله بصدد الحادث الذي كلمني (بروزر) عنه.. فقال:

- اذهب إلى المصاب في الحادث.. اجعله يوقع.. اجعله يطلب تعويضا عن إصابته ويوكلك أنت.. ثم ابدأ العمل!

- وكيف أجده؟

- بالطبع هو في المستشفى.. يجب أن تعتاد البحث عنهم في المستشفى.. الأمر لا يحتاج إلى عالم صواريخ.. ماذا علموك في مدرسة القانون؟

- علمونا الكثير.. لكنهم لم يعلمونا مطاردة سيارات الإسعاف..

- إذن تعلم بسرعة وإلا ستموت جوعا.. ستتصل برقم منزل المصاب وتقول: إنك تريد التحدث إليه، سيقول لك المتكلم إن فلانا لن يجيء للهاتف لأنه في مستشفى كذا.. تعال معي الآن إلى المستشفى، وسأريك ما يجب عمله..

في الطريق إلى المستشفى بعد ما عرفناها بهذه الحيلة الصغيرة..
مستشفى (سان بيترز) الخيري هو حديقة حيوان صحية مملوكة للحكومة...
نشق الطريق إلى هناك بينما (ديك) يلوك الشطيرة التي اشتريتها له والسلطة تتساقط من جانبي فمه فلا أجرؤ على النظر..
يجتاز المدخل دون مشاكل.. إن الحراس يعرفونه..
ومن الاستعلامات يعرف رقم غرفة (فان لاندل)..
نستقل المصعد معا ويهمس لي:
- حاول ألا تبدو كمحام!
لن تكون هناك صعوبة.. فمن المجنون الذي يشك في أن (ديك) محام؟ نصعد إلى الطابق الثامن ونخرج.. ونمشي في ممرات مزدحمة حتى نجد الغرفة (368).. ندخل إلى حيث نجد رجلا راقدا على ظهره والضمادات تملأ جسده.. ينظر لنا في هلع كأنما جئنا لننتزع كليته..
هنا يتصرف (ديك) بثقة وسيطرة لم أتصور أنهما لديه.. ينحني على الرجل في تعاطف القساوسة ويسأله:
- عمت مساء يا سيدي.. كيف حالك؟ نحن نمثل مكتب (ستون) القانوني.. أنت لم تقابل أي مندوب شركة تأمين بعد.. أليس كذلك؟
هكذا ببساطة يحدد (ديك) الأشخاص السيئين.. إنهم ليسوا نحن.. إنهم فتية شركات التأمين يقول (فان لاندل): إنه لم يلق أحدهم..
- حسن.. إنهم قد خرجوا ليفوزوا بك.. لقد قرأنا تقرير الحادث.. خلال ساعة سنذهب لنتحدث إلى الشهود.. لو أن رجال شركة التأمين قابلوهم أولا فلسوف يرشونهم ليزوروا شهادتهم نحتاج إلى توكيلك.. إن شركات التأمين تهاب شركتنا..

ولسوف ننال ثلث ما ستحصل عليه من تعويض..
يقولها وهو يخرج التعاقد من حقيبته.
يمسكه (فان لاندل) ويحاول قراءته.. يا له من تعس! لقد مر بأسوأ ليلة في حياته أمس.. والآن عليه - بعين غائمة - أن يوقع على وثيقة قانونية ويتخذ قرارا صائبا.. كان مترددا لكن (ديك) لم يترك له فرصة.. وضع حقيبته ليسند الورقة عليها ويناول قلمه للرجل.. يوقع الرجل بيد منهكة، فيقول له (ديك) في رضا:
- برافو.. تذكر أن رجال التأمين سيأتون إليك ليلا.. سيحاولون الوصول إلى تسوية.. لا تقبل.. لا توقع أية أوراق..
ونتحرك للانصراف..
وفي الممر يقول لي (ديك) فخورا:
- هذا هو العمل يا (رودى).. إنه قطعة من الكعك كما ترى..
- وماذا لو كان لديه محام؟
- لن نخسر شيئا.. وحتى لو طردنا من الغرفة فماذا نخسر؟
سنخسر بعض الكرامة وبعض الاعتزاز بالنفس.. لا يبدو له هذا خطيرا.. ولا يرى في هذا مخالفة لآداب المهنة..
كانت هناك (كافتيريا) صغيرة بالمستشفى أخبرني (ديك) أنه يقضي ساعات طوال هنا.. فهذا هو المكان المناسب لاصطياد المرضى الذين غادروا فراشهم مللا.. لا تخش هذا المكان.. لن يقذف بك أحد للخارج.. فقد صار (فان لاندل) عميلا لك ولن يجرؤ أي شخص على الاعتراض..
إن مستشفى (سانت بيترز) مناسبة للبدء.. لأن بها أكبر عنبر للحوادث في المدينة.. ستكون هذه الكافتيريا هي مكاني الدائم ليلا..

∞∞∞∞∞∞

(13)

أخبرني (بروزر) أن رجال الشرطة يريدون التحقيق معي.. من الخير ألا أرفض حتى لا يحنقون، إن التحقيق سيدور هنا.. في مكتبه وأمامه.. من الغريب أنني كنت أثق بـ (بروزر) ثقة عمياء.. وهو رجل ما كنت لأثق به في أي وضع آخر..
جاء رجال الشرطة بجهازي تسجيل، وراحوا يسألونني.. كان الأمر مم.. إذ على أن أكرر ما قلته لهم في تلك الليلة.. حاولوا أن يجدوا تناقضات في كلامي على غرار: قلت إنك كنت ترتدي قميصا سماويا.. والآن تقول إنه كان أزرق، لكن الحقيقة كانت في صفى، وسرعان ما أدركوا أنني لست رجلهم.. بالإضافة إلى أن (بروزر) كان لهم بالمرصاد.. وأدركت - في ذهول - أنهم يهابون (بروزر) حقا.. وأخيرا انصرفوا.. وأخبرني (بروزر) أن هذه نهاية معاناتى.. وفوجئت به يناولني جهاز هاتف صغيرا طلب منى أن أبقيه دوما معي.. فلربما احتاج إليّ فجأة..
شعرت بالرعب.. فعن طريق هذا الجهاز سأظل عبدًا له طيلة اليوم..

∞∞∞∞∞∞

لم يكن الطعام سيئا في كافتيريا المستشفى..
أطباء وممرضات من حولي يثرثرون.. أخرجت كتبى الخاصة بامتحان التأهيل لمحام.. فقد قررت أن أستفيد من وقتي في الاستذكار.. لكم ستكون دهشة الأطباء عظيمة حين يعرفون أن وسطهم محام يدرس في جهد، عله يقاضيهم يوما ما!
بدأت أنهمك في الدراسة حتى نسيت أين أنا..

وبعد قليل – ولشدة دهشتي - أدركت أنني أحب هذا المكان.. لا أحد يعرفني، والقهوة ليست سيئة، والهدوء تام، ثم إن رئيسي ينتظر مني أن أكون هنا..
هنا رن جرس الهاتف.. هذا (بروزر) يسألني:
هل من توفيق؟ فأقول له: لا.. يتمنى لى (صيدا سعيدا) ويضحك.. ويغلق الاتصال..
أواصل دراسة القانون الفيدرالي..
في التاسعة يطلبني (بروزر) من جديد.. يريدني في الصباح ليناقش معي قضية مهمة.. واضح أنه يتحدث من الملهى الليلي.. يؤسفني أن يتلقى رئيسى إلهامه القانوني وهو جالس يعاقر الخمر في ملهى خليع..
العاشرة مساء ولا أحد في الكافتيريا.. ثمة فتاة على مقعد متحرك يدفعها ممرض.. فتاة قدمها في الجبس ومعصماها مربوطان.. صغيرة جدا.. جميلة جدا.. حملقت فيها لثوان ثم عدت لكتبي..
شعرها أسود.. عيناها بنيتان.. ثمة كدمة حول عين منهما.. كدمة من النوع الذي تتركه قبضات اليد يقدم لها الممرض كوبا ورقيا من عصير البرتقال ويقول:
- هو ذا يا (كيلى).
وينصرف.. إنها لا تنظر لي، بل تنظر لبعيد.. إنها في عالم خاص بها.. ثمة خاتم زواج رفيع في خنصرها الأيسر.. إنها تمسح عينيها بمنديل ورق.. إنها تبكي! ليس بسبب ألم قدمها بالتأكيد.. إن روحها تتألم..
أنظر لها.. تنظر لي.. آخذ نفسا عميقا وأنهض وأدنو منها...
أقول لها بعسر:
- انظري.. هل هناك شيء أستطيع عمله؟
- لا.. - بصوت خافت وابتسامة واهية..

- أنا هناك.. لو أردتِ أي شيء.. فأنا موجود وأهتم!
- شكرا
أعود لمقعدي عالما أننى تركت أثرا فى روحها..



أعود لمقعدى عالمًا أننى تركت أثرًا فى روحها ..

أرفع عيني لأجدها ترنو لي.. وقلبي يفلت ضربة، لو كانت متزوجة فأين زوجها بحق السماء؟ هل مات في ذات الحادث؟ رحت أقلب كتاب القانون.. ثم سألتها:
- هل أجلب لك شيئا؟

- ربما بعض الكولا..
ملأت كوبين من آلة المشروبات، وعدت لها..
قالت لي:
- أرجوك أن تجلس.. فقد سئمت الممرضات..
قلت لها وأنا أجلس جوارها:
- أنا (رودى بايلور)..
- (كيلى رايكر)..
لم أصدق مدى جمالها إلا حين دنوت منها..
سألتها:
- لماذا تأتين هنا؟
- سئمت غرفتي.. وأنت؟
- أدرس لامتحان التأهيل للمحاماة، فقد أنهيت دراسة القانون..
ما هذا الكسر؟
- إنه كاحلي.. لقد ثبتوه بمسمار.. حادث منزلي..
ما معنى هذا؟ حادث منزلي؟
ثم سألتني:
أليس مكانا غريبا للدراسة؟
- ليس تماما.. إنه هادئ ومفتوح طيلة الليل وبه كثير من القهوة.. كم عمرك؟
- تسعة عشر عاما..
ورحنا نتكلم.. وعرفت الكثير عنها.. إنها تلك القصة التقليدية: هو بطل المدرسة الثانوية الرياضي وهي أجمل طالبة.. الزوجان الأمريكيان المثاليان..
والكل ينتظر زواجهما.. لكنهما يتعجلان الزواج قبل إنهاء المدرسة.. وهنا يكتشفان أن الحياة عسيرة حقا.. تتلاشى الرومانسية من حياتهما.. مازال هو يحلم بالنجاح، ومازالت هي

تحلم بأيام المراهقة الخالية من الهموم، وتحلم بالكلية التي لن تراها أبدا. ولا داعي للذكر أن أهلها وأهله تخلوا عنهما..
وفهمت أن زوجها يشرب الخمر بإفراط، وربما يضربها بقسوة..
الهاتف يدق من جديد..
(بروزر) يسألني عن أخبار الصيد..
استغرقت المكالمة بعض الوقت، حتى جاء الممرض ليعيدها إلى غرفتها.. سددت السماعة بيدي، بينما (بروزر) يصرخ في أذني..
وسألتها:
- أراكِ غدا؟
- غدا..
وابتعد الممرض بها..
أغلقت الهاتف كى لا أسمع بقية مكالمة (بروزر)..
لو أنه تذكر غدا ما حدث حين يفيق من سكره، فلسوف القى اللوم على جهاز الهاتف..

∞∞∞∞∞∞

(14)

كان (ديك) يعشق التحديات..
لهذا - ما إن كلفته بالتحري - حتى عاد لي بعد ساعة، وهو يحمل تقريرا كاملا عن الفتاة: لقد دخلت المستشفى منذ ثلاثة أيام بإصابات عدة.. سمع الجيران مشاجرة منزلية شرسة فاستدعوا الشرطة.. جاء البوليس ليجدوا الفتاة مضروبة ومكومة على الأريكة..
وكان زوجها ثم إلى حد أنه كاد يضرب رجال الشرطة أيضا.. نقلوها إلى المستشفى ونقلوه إلى السجن..
كلما فكرت أن هناك من يجرؤ على ضرب هذه الفتاة الرقيقة إلى حد كسر رجلها؛ أشعر بالغثيان، والعجيب أن هذه ثالث مرة!
قال (ديك) في خبرة:
- سيقدم الفني للمحاكمة لكن شيئا لن يحدث.. سنتنازل الزوجة عن التهمة كما فعلت من قبل.. سيقبلان بعضهما ويصطلحان.. وتتماسك حتى يفعلها ثانية!
إنها تحب الفتي حقا وتأبى اتهامه..

∞∞∞∞∞∞

عدت للمستشفى في تلك الليلة.. وجلست أحاول أن أدرس..
وصلت (كيلى) بعد دقائق.. لكن كان هناك من يدفع مقعدها.. حين رأيته عرفت أنه (كليف) زوجها.. إنه في طول قامتي لكنه متين البنيان عريض المنكبين، وعضلات ذراعه تبرز من كم قميصه القصير.. لقد ارتداه خصيصا لهذا الغرض.. وكان مشعرا كالقرد..

هي تعرف أنني أنظر لها لكنها تتحاشى عيني..
كانا يتحدثان بحدة.. تهديدات.. اعتذارات.. من الواضح أنهما يتكلمان عن القضية.. فجأة يرتجف ويقذف بعبارات بذيئة.. إن فتيله قصير حقا..
سرعان ما يشتعل فينفجر.. كان يحمل كوبا من الكولا في يده.. رأيته يقذف الكوب في عصبية على قميص المستشفى الذي ترتديه..
وثبت برد فعل غريزي لكن عينيها أمرتاني أن أجلس..
رأيته يبتعد وهو يطلق السباب.. جاءت الساقية
حاملة منشفة وراحت تنظف رداء (كيلى).. أراهن على أن (كيلى) جاءت به هنا خصيصا كي أراه..
كى أشهد مزاجه الناري..
مرت فترة لا بأس بها أدركت معها أنه لن يعود..
تناديني (كيلى) بإصبعها كي آتي.. تقول لي كلمات لن أنساها ما حييت:
- هلا صحبتني إلى حجرتى؟
- هل أنت بخير؟
تهز رأسها أن نعم.. أقود مقعدها إلى المصعد..
تتحرك إلى الطابق الخامس.. أتجه إلى غرفتها كما تصفها لى.. النور مضاء بالداخل..
تقول لي وهي تشير إلى الفراش:
- أرجو أن تساعدني..
أنحنى وأحملها.. تطوق عنقي بذراعها.. تعتصر بقوة لكني لا أشكو.. عملية سهلة لأنها لا تزن أكثر من ستين كيلوجراما بما فيها من جبس.. تعتمد على قدمها الهشة لتساعدني.. وتستريح أخيرا على الفراش..

تدخل ممرضة من الباب.. لتقول في لا مبالاة:
- يجب أن تستبدلى ثيابك يا (كيلى) – ولى تقول - انتهت ساعات الزيارة يا (روحي).. هيا انته سريعا..
وتخرج من الغرفة.. ترفع (كيلى) الملاءة إلى ذقنها وتسألني:
- ما رأيك في (كليف)؟
- يجب أن يُرمي بالرصاص.. أي رجل يضرب امرأته بمضرب الكرة يستحق الرمي بالرصاص..
- كيف عرفت؟
- من تقارير الشرطة.. إلى متى تتحملين؟ إلى لحظة أن يهشم رأسكِ؟!
دمعت عيناها.. وهمست:
- أنت لا تعرف شيئا
- ارفعي قضية لطلب الطلاق.. افعليها الآن وخلال ثلاثة أشهر ستكونين حرة.. وإلا أنت ميتة خلال شهر من الآن لو لم تتخلصي من هذا الوغد..
سأعطيك عناوين مراكز النساء ضحايا العنف..
- ضحايا العنف؟
- نعم.. أنت ضحية عنف.. ألا تدركين هذا؟ هذا المسمار في كاحلك يعني أنك ضحية عنف..
- لو حاولت الطلاق لطاردني في كل مكان ليقتلني.. إنه مجنون.. لقد قالها مرارا.. وعندما طلبت الطلاق للمرة الأولى وجدت نفسي في المستشفى فورا.. إنني خائفة تماما..
هنا دخلت الممرضة لتقول في حنق:
- انتهت مواعيد الزيارة.. ليس هذا فندقا كما تعلم..
عدت لدارى أحلم.. بكل كلمة قالتها.. بكل نظرة نظرتها..
إنها تتوقع أن أنقذها.. ولا أحد لها سواى..

إنها فتاة خاسرة.. فتاة محطمة ملأى بالندوب..
ثم أنها خطرة.. لو علم زوجها أن هناك من يحاول انتزاع جميلته منه فسوف..
رباه! لماذا لا أقع في الحب إلا قرب الامتحان؟!

∞∞∞∞∞

في الصباح أخبرني (بروزر) أن شركة (الفائدة العظمى) للتأمين قد وكلت عنها المحامي الأشهر (دراموند)، من شركة (بريت القانونية ([1])!
يا للمصادفات! أكثر شركة أمقتها في العالم توكل عنها ألعن شركة لا أطيق سماع اسمها في الكون!
كل أعدائي في سلة واحدة..
عرفت أنهم سيجرون المحاكمة أمام قاضيهم المفضل (هافر).. وهو زميل (دراموند) في دراسة القانون بجامعة (بيل)، وكان محاميا مختصا بالدفاع عن شركات التأمين النصابة قبل أن يصير قاضيا!
- سيغرقونك في الورق.. إنهم يقبضون أجرهم بالساعة.. وكلما كان الورق أكثر كلما نالوا أجرا أكبر.. لقد خرجوا ليظفروا بك يا (رودى)!
وللمرة الأولى شعرت لدهشتي أن (بروزر) خائف!

∞∞∞∞∞

لم أجد (كيل) في موعدها.. عندما دخلت الكافتيريا مساء..
وجدت خطابا أعطانيه أحد الممرضين بخطها:

- عزيزى (رودى)، سمح لى الطبيب بالخروج.. أرجو ألا تحاول الاتصال بي أو معرفة عنوانى.. شكرا على كل شيء.. أتت مدهش..
هكذا.. بهذه البساطة! ظللت طيلة اليوم أنتظر لقاءها، ولم يجل ببالي أنه من الممكن أن تغادر المستشفى.. شعرت كأنني أهوى من حالق..
هرعت إلى هاتف عمومى، وبحثت في دليل العملاء حتى وجدت اسم (كليف رايكر).. طلبت الرقم.. فسمعت صوتا مسجلا يردد:
- هذا الرقم مرفوع من الخدمة.. هذا الرقم مرفوع من الخدمة..

∞∞∞∞∞∞

(15)

في الأيام التالية رحت أقضي وقتى وقتى ما بين زيارة آل (بلاك) وقضاء وقت مع (دونى راى) المريض، وما بين سماع (بروزر) يخبرني بخبراته عن أسلوب عمل الشركات الكبرى مثل (بريت)..
إن هؤلاء الأوغاد - قال لي - يجيدون عمل الملفات ويمكنهم أن يملئوا ملفا كبيرا في أية لحظة..، فلديهم المحامون الذين يدفنون أنفسهم في المكتبة وأمام شاشات الكمبيوتر.. وعندئذ تجد لديك ملفا سمينا مرهقا في قراءته.. إنهم لا يبالون بالخسارة أو الكسب.. ما داموا يقبضون بالساعة..
إن (دراموند) يتقاضى 350 دولارا في الساعة، وعملاؤه يوقعون الفواتير دون تردد.. هذا يشعرني بالتضاؤل كأنني تحديت جيشا.. أنا الذي مررت باختبار التأهل كمحام منذ أسبوعين فحسب..
لكنني حقا أكره شركة (الفائدة العظمى).. وصورة (دونى راى) المحتضر لا تبرح مخيلتي.. إن (درامون) يريدها حربا ورقية.. حسن.. أنا لها.

∞∞∞∞∞∞

في هذا الوقت أخبرني (ديك) بأخبار غريبة..
قال لي إنه يتوقع القبض على (بروزر) و (برينس) قريبا جدا.. فمكتب المباحث الفيدرالية يراقبهما..
ربما إلى درجة وضع أجهزة تنصت في مكتبنا فهمت الآن سر إصراره على الكلام في مطعم مهجور.

يبدو أن الرجلين قد تورطا أكثر من اللازم في تجارة مريبة منافية للآداب، وهناك جرائم قتل عدة في الموضوع..
لهذا توقع (ديك) أن يهرب الرجلان قريبا، ومعهما ما يتمكنان من تهريبه من مال.. عندها ماذا سيحدث؟
لم لا نرتب لعمل مكتبنا الخاص وقتها؟ لم لا نتشارك أنا و (ديك) في كل شئ؟ إن العرض مهين لى، ولا أجرؤ على قبوله.. لكن (ديسك) يخبرني به تكرارا.

∞∞∞∞∞∞

ذهبت للمحكمة في أول يوم تنظر فيه قضية (بلاك)..
إنها محكمة مقاطعة (شيلبي) برئاسة القاضي (هيل)..
كان (بروزر) قد وعدنا بأن يحضر المحاكمة لكنه لم يأت حتى الآن.. وفي التاسعة إلا الربع قررت و (ديك) أن نذهب للمحكمة.. فلربما ينتظرنا (بروزر) هناك، واتجهنا بالسيارة إلى القاعة...
لو تخلي (بروزر) عنى في موقف كهذا فلن أسامحه أبدا.. يقول لي (ديك) أن أسترخي.. إنه واثق من أن (بروزر) هناك.. ثم لو لم يكن هناك ففي وسعي أن أقوم بالعمل.. فالجلسة إعدادية بلا محلفين..
أقول له أن يخرس..
انظر إلى مبنى المحكمة العملاق.. إن المحاكمة ستكون في الطابق الخامس.. أخرج من السيارة وأصعد في الدرج..
الأرضية من الرخام، والأبواب من (الماهوجني) المصقول.. هي ذي القاعة.. قاعة القاضي المحترم (هارفي هيل).. لا أثر ل (بروزر) هنا.. أفتح الباب وأطل برأسي:. يوجد عدد قليل من

القوم ينتظرونني، وعلى مقعد من الجلد يجلس القاضي الذي لا أحب منظره...
إنها التاسعة وعشر دقائق.. وأرى عددا من المحامين ينظرون لي.. كلهم يلبس ذات البذلة الغامضة والعوينات والشعر القصير.. شد ما هم متشابهون!
أدنو من المنصة بساقين من المطاط، وثقتى بنفسي صفر..
- عذرا سعادتكم.. أنا هنا من أجل قضية (بلاك) ضد (الفائدة العظمى)..
لم يتغير وجهه.. سألني عن اسمى.. ثم سألني عن مستر (بروزر).
- لا أعرف.. كان عليه أن يلقاني هنا..
همهمة تتصاعد من الصفوف خلفي.. يسألني القاضي:
- أظن أنك تبغي التأجيل؟
- لا يا سيدي.. أنا مستعد للمرافعة الآن..
وأضع الملف على المنضدة جواره.. فيسألني:
- هل أنت محامٍ؟
- نعم يا سيدي..
- لكنك لم تتلق الرخصة بعد..
- لا سيدي.. أتلقاها الأسبوع القادم..
- هنا تنحنح أحد خصومى، ووقف بطريقة مسرحية طالبا الكلمة..
- لو سمحت لي المحكمة.. اسمي (ليوف دراموند) من شركة (بريت).. والمستشار
القانوني لشركة (الفائدة العظمى) كأنما ليس صديق القاضي منذ أيام الدراسة!
- إننا نعترض على مرافعة هذا الشاب..

كانت كلماته ثقيلة بطيئة... إنني أمقته بالفعل من الآن لطريقته المسرحية.. وأسلوبه السخيف في فرق شعره..
- إنه لا يملك حتى رخصة.. سعادتكم..
ورفع ذراعيه لأعلي.. وبطريقة مستفزة..
يا لأعصابه! تبادلت معه نظرات الكراهية للحظات..
عندها تعلمت درسا مهما: إنه مجرد رجل! ربما كان محاميا أسطوريا لكنه مجرد رجل.. لا يستطيع إيذائي.. لا يستطيع الدنو مني كي يصفعني لأنني سأركل مؤخرته وقتها.. لا هو ولا من حوله..
يقول سعادته - القاضي - في مكبر الصوت:
- حسن.. اجلس يا مستر (بايلور).. فلنبدأ إذن.. لقد طلب الدفاع منا أن نرفض النظر في القضية.. لهذا أطلب من كل منكما شرح وجهة نظره في فترة لا تزيد على خمس عشرة دقيقة يتجه (دراموند) بتؤدة إلى المنصة.. ويبدأ مرافعته..
إنه بطيء.. وبعد دقائق يغدو مملا.. كان ملخص مرافعته هو أن البوليصة لا تتضمن زرع النخاع كعلاج.. ثم إن (دونى راى) بالغ لا تشمله البوليصة.. بصراحة.. أعترف أنني توقعت ما هو أكثر من هذا.. انتظرت كلاما سحريا من (ليو دراموند) العظيم.. لكنني لو لم أكن متوترا هكذا لنمت مللًا..
تذكرت هنا أن الرجل يتقاضى 350 دولارا في الساعة.. إن لديه كل المبررات التي تجعله يتكلم ببطء.. والمحامون حوله يكتبون بدقة كل ما يقول برغم أنه لا يقول سوى ما أعدوه هم من قبل..
إن هذا (مسح جوخ) فاضح..
هنا شعرت بـ (ديك) يضرب كتفي من الخلف ويناولني ورقة فيها:
- هذا الرجل ممل كالجحيم.. حاول ألا تتجاوز أنت عشر دقائق.. بعد نصف ساعة خلع الرجل عويناته معلنا أنه انتهي..

إنه الأستاذ الذي فرغ من محاضرته.. وبثقة عاد إلى مقعده..
صعدت إلى المنصة.. خائفا حتى الموت لكني سأفعلها..
رحت أقدم قضيتي بعبارات مبسطة.. نحن على حق وهم على خطأ.. أتذكر وجه (دونى راى) الشاحب.. وأتكلم.. القاضي يرمقني بوجه ساخر، كأنني أكبر أحمق رآه في حياته.. لكنه لا يقول شيئا..
انتهيت من كلامي.. فقال القاضي:
- حسن.. أريد الانفراد بكما في غرفتي..
كان (دراموند) مهذبا.. أحاط كتفي بذراعه وقال لى إنني كنت رائعا، واقتادني إلى مكتب القاضي..
كان سعادته جالسا إلى مكتبه، يفرغ عشرات أقراص الدواء من العلب، ودعانا إلى الجلوس وهو يبتلع الأقراص.. ثم قال لنا:
- هذه القضية تثير أعصابى.. إنني ميال إلى رفضها.. فأنا لا أريدها في محكمتي.. سيكون عليك يا مستر (بايلور) أن تأخذها إلى المحكمة الفيدرالية..
ثم نهض معتذرا لأنه يريد دخول دورة المياه الملحقة بالمكتب..
جلست ساهما أرمق زجاجات الدواء، وأنا أتمنى لو كان قد اختنق بما فيها.. نهض (دراموند) صامتا وجلس بقربي.. وقال:
- انظر يا (رودي).. أنا محام غالي الثمن.. لهذا يسألوننا دوما عن تكاليف الدفاع قبل أن نرفع اصبعنا.. وقد قدرت أن تكاليف الدفاع ستكون في حدود خمسة وسبعين ألفا.. لهذا سمحت لى شركة (الفائدة العظمى) بذلك المبلغ كي أعراضه عليك وعلى عميلك من أجل التسوية!
أفكار عدة وثبت إلى ذهني.. منها منظر كومة الدولارات التي سأظفر بثلثها.. ولكن لماذا يعرض المال عليّ ما دام القاضي سيرفض القضية؟ فهمت..

إنهما يلعبان معي لعبة (الشرطي الطيب والشرطي الشرس).. واحد (يضرب) وواحد (يلاقى)..
(هارفي) يثير الرعب في نفسي، ثم يأتي (دراموند) بلمسته الحريرية.. لابد أنهما يلعبان هذا الدور كثيرا.. وهو ما زال يتكلم:
- إنه عرض لمرة واحدة.. خده أو اتركه والعرض سار لمدة يومين بعدهما تبدأ الحرب العالمية الثالثة..
- ولماذا؟
- مسألة سمعة.. شركة (الفائدة العظمى) لا تريد شوشرة حول اسمها كشركة تأمين محترمة.. خذ النقود وارحل.. هذه نصيحتي..
هنا عاد القاضي.. والآن يشعر (دراموند) بحاجة ماسة للتبول بدوره..
يقول لي القاضي: إنه يعانى ارتفاعا في الضغط، ليس بما يكفي للأسف.. ثم يقول وقد انصرف (دراموند):
- إن (ليو دراموند) يعرض تسوية.. هذا جزء من عملي كما تعلم.. إنني أجدها وسيلة لإنهاء القضايا من البداية..
حتما يصغي (ليو) للمحادثة من وراء باب دورة المياه..
وخرجت من المكتب مع (دراموند).. وذهنى مبلبل.. لقد كانا يتوقعان (بروزر) فهل كان نفس العرض سيقدم له؟
أنا متأكد من أن (هارفي) سيرفض القضية، وسيكون عسيرا أن أرفعها أمام المحكمة الفيدرالية، لكن (دراموند) يريد تسوية الأمور.. لماذا؟
لأنه خائف.. هذه نقطة مهمة.. الرجل خائف...

∞∞∞∞∞∞

في المكتب كانت السكرتيرة في حالة هستيرية..
إن (بروزر) لم يظهر بعد.. هذا ليس طبعه بالتأكيد هناك كارثة ما. إن (بروزر) يعرف ألعن شلة من الخطرين والقتلة.. لن يندهش أحد لو وجدوا جثته في سيارة على طريق المطار.. حتى (برينس) لا يعرفون عنه شيئا وهم في الملهى الليلي قلقون عليه..
وفي الحادية عشرة مساء غادرنا المكتب ولم نحسب أننا لن نضع أقدامنا فيه مرة أخرى...

∞∞∞∞∞

في الثالثة والثلث من صباح اليوم التالي، اتصل بى (ديك) في المنزل ليخبرني أن (بروزر) و (برينس) قد فرا من المدينة..
عرفت كذلك أن المباحث الفيدرالية داهمت المكتب لتفتيشه..
وأن مكاتبنا قد أغلقت.. وأن التحقيقات تجري على قدم وساق..
أتمنى أن يكون (برينس) في أمان.. أتمنى أن يكون قد فر بماله.. لا أبالي بما يقولون عنه..
المهم أنه صديقي..
اتصلت بـ (دوت) أخبرها بالعرض الذي قدمه المحامي لي.. قالت في عصبية: إنها لا تريد مالا..
هنا عرفت أن الدم هو ما تبغيه.. سيكون (دونى راى) قد مات، وهي لن تستفيد بكل مال الدنيا وقتها.
قلت لها باقتناع:
- أنا كذلك لا أبغى تسوية.. إن معنى هذا أن هؤلاء القوم خائفون..
يمكنني أن أقنعها بأن القاضي سيلغى القضية..

أقنعها بأن تأخذ المال ما دام ذلك بوسعها.. أريها أهوال يوم الدينونة القادم.. لكنني لست من هذا النوع.. لقد وصلت إلى السلام مع نفسي..

∞∞∞∞∞∞

في الأيام التالية استأجرت مكتبا جديدا مع (ديك)..
شقة من أربع حجرات.. ستكون هي محاولتنا الأولى للبدء منفردين.. لكن هناك كثيرا من أعمال الطلاء على عاتقنا..
إن (ديك) متحمس.. إن فكرة ممارسة المحاماة دون رخصة والحصول على نصف الأتعاب تروق له..
لقد طبع نماذج ورقية عليها شعار الشركة، وماذا عن الفاكس؟ لننتظر.. الهاتف يأتي إذا لا داعي لآلة تصوير مستندات.. سنصور ما نريد بالخارج.. نحتاج إلى جهاز رد على المكالمات بثمانين دولارا.. نحتاج إلى حساب مصرفي ودفتر شيكات..
من جديد دق جرس الهاتف عندي قبل الشروق..
كان هذا هو (ديك).. كان من العسير أن أكون لطيفا.. أريد أن أوقفه عن هذه العادة المقيتة.. قلت له مزمجرا:
- اسمع يا (ديك).. من حقك أن تصحو في الرابعة لكن لا تتصل بي قبل الثامنة.. أفهمت؟
- لكن هناك شيئا مهما.. هل تعرف من مات أمس؟
كيف لي بحق السماء أن أعرف من مات في (ممفيس) كلها؟ قال لي:
- (هارفي هيل)!
- ماذا؟
- القاضي (هارفي هيل) توفي بأزمة قلبية!

من العسير أن أصدق هذا.. إن رأسي يدور...
- إن صورة كبيرة له في الصفحة الأولى من الجريدة.. لقد توفي في الثانية والستين.. ظل قاضيا أحد عشر عاما.. هناك تكهنات كبرى حول من سيخلفه الحاكم سيعين خليفة مؤقتا له حتى الانتخابات القادمة..
إن المرشح الأول هو (تايرون كيبلر)..
(تايرون كيپلر) هو شريك في شركة (بوكر)..
رجل زنجي فاضل.. حاضرنا في (قانون الدستور) في العام الماضي..
هرعت إلى المحكمة لأرى ملفات قضية (بلاك)..
وتنفست الصعداء..
لحسن الحظ لم يرفض سعادة القاضي المرحوم (هيل) القضية قبل وفاته، نحن مازلنا في المعترك إذن.
اتصلت بشركة (بريت) وقلت ل (دراموند) إن عملائي يرفضون التسوية..
فقال بصوت منهك محزون لفقد صديقه القاضي:
- إن هذا خطأ يا (رودى)..
- عملائي مصرون .
- إذن هي الحرب..
قالها بحزن كأنه في صفى.. ولم يحاول زيادة المبلغ المعروض علينا..
إن القاضي الجديد زنجى.. وهذا يعني أنه سيصغي ل (بروكر) حين يعرض عليه قضية آل (بلاك)..
ثم إنه يمقت شركات التأمين ويحب أن يقاضيها طيلة الوقت..
لقد مات (هيل).. وعادت العدالة إلى الحياة..

∞∞∞∞∞∞

قابلت القاضي الجديد في مكتبه..
إنه في الأربعين من عمره.. له صوت رخيم وعينان لا تطرفان..
وهو ذكي جدا.. ويقال إنه سيكون أعظم قاض فيدرالي يوما ما..
رحنا نتحدث عن هذا وذاك.. ثم سألني عن قضية آل (بلاك)..
قال لي بخبرته بعد ما شرحت له الموقف:
- سيضايقونك بموضوع الحصول على الوثائق التي تريدها.. هكذا الأمر مع شركات التأمين دائما، ستقضى وقتا طويلا في جمع الأوراق..
سرني أنه استعمل صيغة المتكلمين حين قال (سنقضي).. ليس هذا خطأ.. ربما بدا (كيبلر) منحازا لجانبي قليلا، لكن (هارفي) كان منحازا بنفس القدر إلى خصومي.. إن هذا عادل...

∞∞∞∞∞∞

اعتدت أن اتصل بـ (دونى راى) كل ظهر.. قالت لى (دوت) إن هذا كان يعني له الكثير.. اعتدنا الحديث حول كل شيء إلا مرضه والقضية.. ثم اعتدت أن أمر عليه أسبوعيا لنشاهد مباريات الكرة، فنجلس تحت شجرة.. وأبتاع له الفيشار والكولا...
ويجيء الليل فأعود به إلى الدار وقد تسلل النعاس إلى عينيه..
كنت قد قدمت طلبا للمحكمة بأن نأخذ إفادة الفتى بأسرع وقت، لأن حالته تتدهور سريعا، وسيكون عسيرا بعد أسبوع أن يجلس أمام المحكمة ليتحمل ساعتين من الأسئلة..
يجب أن نسرع قدر الإمكان...



ثم اعتدت أن أمر عليه أسبوعيًا لنشاهد مباريات الكرة ،
فنجلس تحت شجرة ..

(17)

اليوم الأول من المحاكمة تحت رئاسة القاضي (كيبلر)..
جلس (دراموند) وسط محامي شركة (بريت)، واثنين من شركة (الفائدة العظمى) إن المحامين المحيطين بـ (دراموند) مرموقون حقا.. وكم من واحد منهم كنت أستذكر من الملخصات التي أعدها في أثناء دراسته..
تقدم (دراموند) إلى القاضي ليقول:
- نود من سعادتكم أن نطالب بنقل القضية إلى محكمة فيدرالية..
قال القاضي:
- لنفعل ذلك.. ولكن لماذا لم تطلب ذلك حين كان (هارفي) هو القاضي؟
كان (دراموند) مستعدا لهذا.. فهو ثخين الجلد، ولن يترك هذا القاضي حديث السن والخبرة يضايقه.. لذا قال:
- سعادتكم.. كنا منشغلين بجمع الأدلة والحقائق، أما الآن فنحن نطلب ذلك..
بدا على وجه (كبلر) أنه لا يصدق حرفا مما يقال.
وراح (دراموند) يتكلم عشر دقائق ملخصا القضية.. لم يكن يهاب القضاة.. فهو قد رأي العشرات منهم في حياته يأتون ويذهبون. أما أنا فأحتاج إلى عشرة أعوام في المحكمة كي لا أرتجف من هؤلاء القوم لابسي الروب الأسود..
قال القاضي مقاطعا:
- عذرا.. لو كان لديك شيء جديد تضيفه أو توضحه فعليك به.. فيما عدا ذلك كل شيء مدون لدينا هنا في الأوراق..

تجمد (دراموند).. وفتح فاه وراح يرمق سعادته، ثم بارتباك قال:
- حاولت أن أزيد النقاط جلاء للمحكمة سعادتكم..
قطب المحامون المحيطون بـ (دراموند).. إن بطلهم يهان.. وهذا ليس محببا..
إن هناك جوا عاما من الذعر بينهم.. بالتأكيد ليس بسبب وجودى.. من المعتاد أن توكل شركات التأمين محامين لقضاياها.. لا أكثر ولا أقل.. أما هذا العدد فأكثر من اللازم.. إن هؤلاء القوم خائفون حقا.
يقول القاضي بحزم:
- إن طلبك بنقل القضية مرفوض يا مستر (دراموند).. هل من شيء آخر؟
- لا سعادتكم..
ونظرت له وهو يجمع أوراقه لينصرف.. قال القاضي:
- الآن.. المدعي المدنى..
كانت كراهية القاضي لـ (دراموند) واضحة، إلى درجة أنهما لا يتبادلان النظرات تقريبا.. إن هذا لحسن حظي..
- هل تستطيع أن تفرغ خلال عشر دقائق؟
كنت قد اتعظت بالموقف الذي رأيته من فورى، لهذا اتبعت استراتيجية مختلفة:
- شكرا سعادتكم.. إن أوراقي تتحدث عن نفسها، وليس عندى جديد كى أضيفه..
ابتسامة دافئة على شفتيه.. يا له من محام شاب ذكي!
ثم إنني تقدمت بطلبى كى يتم الاستماع لإفادة (دونى راى) سريعا، وقدمت تقريرا موقعا من د. (والتركورد) يقول فيه: إن (دونى راى) لن يعيش طويلا.. وافق القاضي على الطلب ثم سألنا أن نحدد وقتا..

قلت أنا باسما:
- أي يوم سعادتكم.. أي وقت، هذه هي ميزة ألا يكون عندك شيء أخر تفعله..
لكن المحامين خصومي راحوا يقلبون دفاتر مواعيدهم، بحثا عن يوم يصلح للاستماع..
قال (دراموند) جالسا:
- إن أجندة مواعيدى ملأى سعادتكم..
المحيطون به يقطبون.. يفركون ذقونهم.. الأمر صعبا.. كلهم مشغولون..
سأل القاضي (دراموند):
- هل قرأت التقرير الطبي؟
- نعم سيدى..
- هل تشك في صدقه؟
- أردت القول..
- نعم أم لا؟
- حسن.. الفتى سيموت قريبا.. وعلينا سماع وتسجيل إفادته..
- ليكن سعادتكم.. إن الثلاثاء يناسبني.. ولكن لا.. عندي محاكمة تبدأ الإثنين..
- وماذا عن السبت القادم؟
هنا نهض (ت. بيرس) واعتذر لأنه سيكون في زفاف شقيقته السبت القادم.. من مصلحتهم أن يؤجلوا الموعد حتى يموت (دونى راى)، وحتى لا يرى المحلفون وجهه المتهدل، ويسمعوا صوته المعذب..
إن هؤلاء الخمسة لقادرون على أن يجدوا من الأعذار ما يؤجل سماع الإفادة حتى أموت أنا بالشيخوخة.. لهذا قال القاضي:

- ستكون الإفادة يوم السبت،، يؤسفني أن هذا لن يناسب الجميع لكن وجودكم جميعا ليس شرطا..
هز (دراموند) كتفه في تهذيب، وعرفت أنه يقول في سره شيئا على غرار (شكرا على لا شيء سعادتكم) أو (لم لا تعطي المدعى مليون دولار وتنهي الأمر؟).. لكنه كالعادة بدا مهذبا رقيقا..

∞∞∞∞∞

كان (ديك) شريكي منهمكا في المكتب، كان يكنس الأرضيات.. ويرتب الملفات.. ويجرى مكالمات عديدة مع من لا يعلم إلا الله وكان يطبع على الآلة الكاتبة بسرعة لا بأس بها.. ويذهب ليبتاع القهوة والشطائر.. كانت كرامته غير متوهجة جدا ولم يكن يريد سوى إسعادي..
لكنه كان حانقا لأنني لا أطارد حوادث السيارات بما يكفي.. ولكم قال لى إن هناك محامين جياعا كثيرين في الخارج، كلهم يعرف قوانين لعبة قطع الرقاب هذه.. اجلس ها هنا دون حراك ولسوف تموت جوعا.
ذهبت إلى مكتبة المحكمة مرارا لأقرأ قضايا (دراموند) السابقة، وحفظتها عن ظهر قلب أحيانا كان خصومه بارعين، وأحيانا كانوا سيئين..
لكن في كل الظروف بدا لى أنه يملك اليد العليا...
لقد حفظت ودرست كل ما قاله أو كتبه (دراموند) على مدى عشرين عاما..

∞∞∞∞∞

(18)

قرر القاضي (كيبلر) أن تؤخذ إفادة (دونى راى) في داره.. من المعتاد أن يتم هذا في مكتبى، لكن (دوت) أخبرتني أن (دونى راى) لم يعد قادرا على ترك الفراش.. إذن سيكون علينا أن نأخذ الإفادة في داره..

اتصلت ب (دراموند) الذي رفض الفكرة، وقال:

إنه يفضل الانتظار حتى.. حتى ماذا؟ أعرف أنه يفضل الانتظار حتى تنتهي الجنازة.. لهذا اتصلت بالقاضي الذي أرغم (دراموند) على القبول..

سيحضر (كيبلر) الإفادة بنفسه، وهذا غير مألوف.. لكنه كان يخشى أن يتلاعب (دراموند) بى حين يجدني وحيدا، وقد يؤدي هذا لإلغاء الإفادة..

ونمت ليلتها أسوأ نوم ممكن.. الكوابيس تحاصرني في كل لحظة..

وفي الصباح وصلت لمنزل (بلاك).. كان (دونى راى) هناك ومعه نص كامل لأسئلتى وإجاباتها.. لقد عملنا بروفات عديدة لهذا من قبل.. أما الأم (دوت) فكانت قلقة منهمكة في التنظيف.. فهناك قاضٍ ومحامون سيكونون هنا بعد قليل..

وصل (ديك) حاملا كاميرا (فيديو) عتيقة استأجرها.. ثم جاء القاضي (كيبلر) وعرض علينا أن يتم التصوير في الفناء الخلفي.. إن الضوء لا بأس به في الخارج.. وبدأت و(دوت) نقل المقاعد إلى الفناء الخلفي، فإذا بالقاضي يساعدنا في بساطة.. ويحمل مقعدا هو الآخر احتشد الجيران في الفناء الخلفي يرمقون ما يجرى في فضول.. ثم وصل كاتب المحكمة، ثم وصل (دراموند)

وعصابته في التاسعة.. وجلس الجميع هناك حول (دونى راى).. في حين راح (ديك) يجري هنا وهناك بالكاميرا.. وأسلاك الكهرباء تتدلى وراءه فتكاد تقتلنا جميعا صعقا..
نظرت إلى (دراموند) الذي يرى (دونى راى) لأول مرة.. وفي سري قلت له:
انظر جيدا يا مستر (دراموند).. هذا هو ما فعله عميلك به!
كان (دونى راى) في حالة أسوأ مما رأيته من قبل.. شاحبا.. وجهه مبتل بالعرق.. لا يملك العافية كي يصافحنا.. دنونا بالكاميرا لتظهر وجهه طيلة الإفادة، وستجيئ الأصوات من خارج الكادر..
جرع (دونى راى) جرعة من الماء.. إنه يعرف معنى هذا الذي يجري.. إن إفادته مطلوبة لأنه سيكون ميتا حين تبدأ المحاكمة.. والمفترض منه أن يثير التعاطف من حوله.. يجب أن يبدو سقيما جدا..
جعله القاضي يحلف اليمين.. وكان عليّ أن أبدأ..
سألته عن اسمه.. وعنوانه.. وتاريخ ميلاده..
أجابني ببطء وهو ينظر إلى الكاميرا.. والجو يزداد حرارة.. خلع المحامون ستراتهم وفكوا أربطة أعناقهم..
سألت (دونى راى) عن كونه ترك المنزل من قبل، وعن بطاقته الانتخابية، وعن سوابقه القانونية.. كان رده بالنفي دوما.. ثم رحت أسأله عن مرضه وانتهيت بعد عشرين دقيقة..
ورأيت (ديك) يرفع إيهامه لأعلى كأنما يخبرني أنني الأعظم..
جاء دور (دراموند).. فراح بصوت رقيق يعرف نفسه.. ثم قال: إنه نادم على مجيئه لهذا الموقف المؤسى.. أعرف أنه يتحدث إلى المحلفين لا (دونى راى)..
راح يسأل (دونى) عما إذا كان قد ترك البيت يوما ليستقل.. أو رحل لمعسكر لمدة أسبوع مثلا.. أو استخرج بطاقة صحية في

وظيفة ما.. يحاول أن يثبت أن (دونى) قد استقل عن البوليصة بعد أن صار بالغا.
لكن إجابة (دونى راى) واحدة: لا يا سيدى..
انتهى (دراموند) خلال عشر دقائق.. فلم يكن يرغب في الضغط على الفتي كثيرا.. وأغلق (ديك) الكاميرا.. وبدأ المحامون ينهضون.. رحت أساعد (دوت) على إعادة (دونى راى) إلى المنزل، وبطرف عيني رأيت (ديك) عند السور يوزع إعلانات مكتبنا على القوم المتزاحمين! يا لك من فتى ذكي!

∞∞∞∞∞∞

كانت المرأة واقفة في شقتي بالفعل، منهمكة في تصفح إحدى المجلات، حين دخلت فأجفلت فزعا وسألتني:
- من أنت؟
- أنا أعيش هنا.. من أنت بحق السماء؟
قالت وهي تسترد أنفاسها:
- يا إلهي! أنا زوجة (ديلبرت).. لقد أعطتني (بيردي) المفتاح، وسمحت لي بتفقد المكان..
- هذه ملكية خاصة.. ليس الدخول من حقك.. هنا بدأت أتذكر.. أن (ديلبرت) هو أصغر أبناء مس (بيردسونج)، ذلك الذي يعيش في (فلوريدا)، ولم يتصل بها منذ أعوام.. إذن هذه زوجته.. إنها في الخمسين من العمر لها بشرة نحاسية غريبة.. بشرة عاشقة للشمس..
انسلت المرأة خارجا، فتبعتها.. ووجدت مس (بيردى) جالسة على الأريكة تتابع التليفزيون ورأيت رجلا أسمر ضخم الجثة

أشيب الشعر.. له عوينات إطارها مذهب، وحول معصمه (انسيال) ذهبى.. نموذج لقواد عصرى.. قال لي:
- لابد أنك المحامي..
ورأيت أوراقا كثيرة على المنضدة.. فقلت له:
- أنا (بايلور)..
- وأنا (ديلبرت).. هلا تفضلت بالجلوس؟
لكنني ظللت واقفا.. ونظرت حولي فعرفت أنهما تعاملا الشقة على أنها ملكهما.. كان هناك الكثير من الفوضى، وقالت المرأة وهي تفتش الثلاجة..
- لقد أمرني أن أخرج من شقته..
فصحت في عصبية:
- بالطبع.. إنها ملكية خاصة.. ولا أحد يحق له الدخول.. إن مس (بيردى) هي صاحبة الشقة التي أدفع إيجارها..
مس (بيردى) لم تتدخل في الكلام كأنها لا تسمع..
وسمعت الرجل يقول وهو يصلح من وضع عويناته:
- يبدو أنك كنت تعبث بوصية (ماما)..
نظرت إلى الأوراق.. إن بينها وصيتها الحالية، إن هذا مقلق.. فمس (بيردي) لم تطلع ولديها قط على هذه الوصية.. لكن الوصية تقول بوضوح إن لديها عشرين مليونا.. لقد قرأها الرجل حتما.. لكن كيف حصل عليها؟ ما كانت لتعطيه إياها بسهولة..
هل وجد النسخة التي في حجرتى؟
يقول الرجل في فظاظة وقحة:
- لهذا يكره الناس المحامين.. مررت بالصدفة على (ماما) لأجد أن محاميا نتنا يعيش في دارها ألا يثير هذا قلق؟
قلت في حنق:

- أنا أعيش في شقتي، وهي مسكن خاص له مفتاح.. ادخلها ثانية ولسوف تكون في مشكلة مع الشرطة..
- هل أعددت وصية جديدة لأمي؟
- إنها أمامك.. فاسألها..
- إنها لا تنبس بحرف.. يبدو أنك تتلاعب بنا أيها الصبي..
تركتهما وغادرت المكان متجها لشقتي.. لا يبدو أثر عبث في المستندات التي أحتفظ بها.. لكن من يدرى؟

∞∞∞∞∞

عندما حل الظلام عدت لشقتي، فوجدت سيارتين (بونتياك) جوار سيارة مس (بيردي) (الكاديلاك) وسمعت صخبا من عند مس (بيردى)، فحاولت التسلل دون ضوضاء حتى لا يشعر بي أحد..
لقد تزايد العدد كما هو واضح.. لكن (ديلبرت) رآني وناداني.. كان أمرا أكثر منه دعوة وسرعان ما لحق به رجل آخر قدمه لى وصافحاني:
- هو ذا أخي (راندولف)..
ثم صافحت زوجته (جون) التي نظرت لي نظرة مميتة.. وكانت مس (بيردى) جالسة ذات الجلسة على الأريكة حيث رأيتها..
وتذكرت هنا أن (جون) هي المرأة التي وصفتها مس (بيردى) بأنها متشردة، لا تحب سوى المال..
والآن ماذا يريد هؤلاء السادة الظرفاء مني؟
قال لي (راندولف):
- إن الأمور تتغير يا (رودى).. فقد جئنا هنا لنعني بشئون (ماما).. إن (ماما) أخبرتنا بالإيجار.. وهو قليل جدا..

- بالفعل هو كذلك

قالتها (جون) في حماس
فسألت مس (بيردي) بدوري:
- هل شكوت من هذا يا مس (بيردي)؟ لا؟
إذن ما دامت صاحبة العقار راضية فما شأنكم أنتم؟
قال (راندولف):
- لا نريد أن يستغل أحد (ماما).. هذا هو كل شيء..
وجدت مس (بيردى) راضية تماما.. إن أطفالها هنا يهتمون بها، ويراعون مصالحها.. من ثم وجدت أن الأفضل أن أنسحب الآن..
وفي شقتي التهمت شطيرة ورحت أفكر.. أمس مرّ (ديلبرت) عليها وعرف بالصدفة أنها تملك عشرين مليونا.. من ثم راح يهتم بصحتها بشدة..
اتصل بـ (راندولف) ليهرع من (فلوريدا) مع زوجته.. تعال لندافع عن حقوق (ماما) الحبيبة.. ماذا لو عرف هذان المخبولان الحقيقة؟
لقد أرسلت (ديك) ليتحقق من الأمور في (أطلانطا).. وقد عاد ليخبرني بالخبر اليقين..
المرأة لا تملك سوى مائتي ألف من الدولارات، وكل ما عدا ذلك هو خيال في خيال..
لكنها الآن سعيدة راضية.. وهذا يسعدني..
لقد استعادت طفليها أخيرا..

∞∞∞∞∞∞

في اليوم التالي وجدت مزيدا من السيارات أمام الباب.. إنهم الأحفاد حتما.. لقد تعاملوا مع الأمر كأنه نداء للمطافئ.. إنها تملك مالا.. ومكالمة تلو الأخرى.. أسرعوا.. إن اسمكم في الوصية وأمامه مليونان من الدولارات.. وذلك المحامي يحاول تغييرها.. أسرعوا!
لقد حان الوقت كى نحب (تيته)!

∞∞∞∞∞∞

بعد أسبوعين عدت للدار لأجد كل السيارات قد اختفت.. لم تبق سوى سيارة مس (بيردى) وحدها دخلت متجها إلى شقتى.. حين سمعت صوتا لم يكن صوتها.. كان هذا هو ابنها (راندولف) يناديني، ولاحظت أن الأنوار مطفأة..
- أين مس (بيردى)؟
- لقد رحلت اليوم.. ستمضي بعض الوقت معنا في (فلوريدا)..
- متى ستعود؟
- لا نعرف.. سنعني بها وبأعمالها.. لكننا نريد أن تقيم في هذا المنزل وتعتني به.. ولا تدفع أيجارا..
- كيف أعتني به؟
- ما كنت تفعله دائما.. البريد سيصل إلى العنوان الجديد.. وهاك مظروف به المفتاح وأرقام الهاتف الخاصة بنا.. كل شيء.. إنها صفقة جيدة...
هي كذلك حقا.. لذا قلت له:
- موافق..
- حسن إن (ماما) تحبك وتثق بك.. وترى أنك شاب لطيف.. سأقود سيارتها إلى (فلوريدا) غدًا..

أستطيع أن أتصورهم الآن يتقاتلون على خدمة (تيته) الحبيبة، وكلهم يأملون ألا تعيش طويلا..
أنا أعرف أنها تحبني حقا.. لكن هل سأراها مرة أخرى؟
إن هؤلاء القوم سيحاصرونها حتى تموت، ولن يتركوها تعبث هنا وهناك بوصيتها.. لكني لا أستطيع أن أخبرهم أنها مفلسة..
لقد كانت تحب الاهتمام دوما.. لها قلب من ذهب.. لكنها تعشق لفت الأنظار.. ولسوف تجد ما تحب في (فلوريدا)..
شعرت بذلك الألم الممض.. ألم فقدان صديق..

∞∞∞∞∞∞∞

(20)

في ذلك الوقت كانت حرب الورق مستعرة بيني وبين (دراموند).. في كل يوم أجد في بريدي مئات الوثائق التي يطالبونني بها، ومئات الوقائع التي يعطونني فترة أسبوع كي أنفيها، وإلا كان من حقهم اعتبارها حقائق للأبد..
إن القانون يجبرهم ويجبرني على إرسال الوثائق التي يطلبها كل منا..
وفي الوقت ذاته راحت حالة (دوني راي) تتدهور أكثر.. لم يعد يتكلم ولا يأكل.. فقط يتنفس.. وحتى هذا سيكف عنه بعد أيام.. وجلست أمام فراشه أفكر.. من العار في هذا الزمن - زمن الأطباء البارعين والمستشفيات البراقة وكل المستحقين لجائزة (نوبل) - أن يموت هكذا..
في فراش بداره دون أدنى رعاية صحية.. هكذا يموت الفقراء..
إنني وحدي.. معدوم الخبرة.. أعزل.. لكني على حق.. ولو لم يربح آل (بلاك) القضية فلا شيء عادل في النظام القانوني كله..
نظرت لجسده الهامد.. وأقسمت على الانتقام..

∞∞∞∞∞∞

صباح الأحد سافرت إلى (كليفلاند) لأجرى بعض التحقيقات في المقر الأساسي لشركة (الفائدة العظمى). لكني فوجئت بأنني كلما سألت عن اسم من الأسماء التي أردت سؤال أصحابها؛ وجدت من يقول لي: إنه استقال أو فصل أو اختفى!
كان أهم اسم هو اسم (جاكى ليمانتزيك) وهي التي تتولى أمر مطالبات الدفع.. لكنها استقالت منذ أسبوع.. لم يعد من

الممكن طلب شهادتها.. ولا أحد يعرف مكانها.. لقد طردت الشركة القوم كى تمنعهم من الكلام.. كانت (جاكى) هي المسئولة عن خطاب الغباء إياه، الذي قالوا فيه لمس (دوت) إنها غبية.. غبية.. غبية..
وتركت (كليفلاند) شاعرا بخيبة الأمل.. وأخبرت القاضي بما حدث..
توجهت إلى المحكمة بعد عودتي إلى (ممفيس)..
وجدت القاضي يوبخ (دراموند) على تأخير الوثائق والشهود عني.. لم يكن هذا خطأ (دراموند)..
إن موكله يلعب معه ألعابا سخيفة.. ومطلوب منه أن يدافع عن سلوك عمله المريب...
مسكين (دراموند).. وهو المعتز بنفسه ولا يقبل إهانة..
قال القاضي:
- إنني آمر شركة (الفائدة العظمى) أن تدفع لمستر (بايلور) نفقات رحلته الضائعة إلى (كليفلاند)،
على سبيل العقوبة.. كم تكلف رحلة الطائرة ذهابا وإيابا إلى هناك يا مستر (بايلور)؟
- سبعمائة دولار سعادتكم..
- وكم أنفقت على المأكل والإقامة؟
في الواقع أقل من أربعين دولارا.. لكن هذا رقم محرج كي أقوله أمام الخصوم.. أنا واثق من أن غرفة كل منهم في (كليفلاند) تكلف مائة وخمسين دولارا في الليلة..
- مائة دولار سعادتكم..
وأمر القاضي بأن تدفع لى الشركة ثمانمائة دولار..
وما لم يحدث هذا خلال خمسة أيام سيتضاعف المبلغ يوميا عن كل يوم تأخير..

∞∞∞∞∞∞∞

دق جرس الهاتف في الثالثة والثلث صباحا.. قلت لنفسي: إن هذا هو (ديك) حتما يبلغنى بسقوط طائرة..
لكني سمعت صوتا مألوفا:
- مس (بيردى)؟!
وأضأت الضوء جوار الفراش..
- كيف حالك؟
- حسن.. إنهم يعاملونني بحقارة ها هنا..
أغمضت عيني.. لماذا لست مندهشا لهذا؟
- (جون) هي أكثرهم حقارة.. إن الأمر لا يطاق.. أحيانا أخشى أن آكل خشية أن تكون قد سممت طعامي.. أنا جادة.. إنهم ينتظرون موتى، وقد جعلوني أوقع على وصية جديدة تعطيهم ما يريدون.. لقد ظلوا ظرفاء بضعة أيام، ثم أخذوني لفحص طبي فقال لهم الطبيب: إنني بصحة ممتازة.. خاب أملهم وتبدلت معاملتهم..
- ولماذا تتصلين؟
- حسن.. أكاد أختنق.. إن (جون) منعتني من استعمال الهاتف.. لا أستطيع البقاء أكثر.. فهم يحبسونني في غرفتي.. وأنت تعرف أنني أحب المنازل الواسعة الملأى بالغرف.. ويحاول (راندولف) أن يجعلني اكتب توكيلا..
- لا توقعي على شيء يا مس (بيردى).. مفهوم؟
- ليس هذا كل شيء.. فأمس... أو.. كفي! شخص قادم! وداعا يا (رودى)!
ووضعت السماعة..

بإمكاني أن أرى (جون) تجلد مس (بيردي) بحزام جلدى، عقابا لها على هذه المكالمة المسروقة..
على كل حال لو طلبت مني مس (بيردى) أن أعيدها إلى هنا فسأفعل.. لا شيء بوسعي عمله الآن.. يجب أن أعود للنوم..

∞∞∞∞∞

صباح الأحد جاءت المكالمة التي كنت أخشاها..
كان هذا صوت (دوت) تخبرني أن الأمر حدث منذ ساعة.. لقد ذهب (دونى راى) لينام لكنه لم يصح حين حاولت إيقاظه..
كانت متماسكة لكنها تحاول ألا تبكي.. وراحت تردد مرارا: إنه مستريح الآن..
وعدتها أن آتي حالا.. واتجهت إلى الفناء الخلفي، ورحت أمسح الدموع عن عيني.. وأصلي من أجله.
إن الجنازة غدا بعد الظهر..
وفي الجنازة كان الجيران كلهم موجودين.. عانقت (دوت) فشكرتني على قدومي.. عيناها حمراوان، كأنما لم تعد لديها دموع أكثر..
وفي الفناء الخلفي رقد (دونى) ليستريح حتى تقوم الساعة.. وراح القس يتلو موعظته، على حين راحت عيناي تتأملان زوجها (بادى) وابنها (رونى) توءم (دونى راى) الذي جاء من السفر، ومن الواضح انه سيرحل بعد الجنازة فورا..

∞∞∞∞∞

عدت للمكتب لأجد (ديك) متوترا كان جالسا مع رجل ضخم الجثة أحمر الخدين، من النوع الذي يستمتع بالمشاجرات.. إنه

مخبر خاص يدعى (بوتش).. وهو صديق (ديك)..
فوجئت ب (ديك) يناولني وريقة كتب عليها:
تحدث في أي شيء!
ثم سألني عن الجنازة.. فقلت له:
- مجرد جنازة أخرى..
- وماذا عن الأسرة!
- هم على ما يرام
وفوجئت ب (بوتش) يفك بوق سماعة الهاتف ويشير إلى شيء بداخلها.. جسم صغير مستدير ملتصق بالغطاء الداخلي.. نظرت لهما بعينين خرساوين فقال (ديك) مستمرا في محادثته المزيفة:



وفوجئت بـ (بوتش) يفك بوق سماعة الهاتف ، ويشير إلى شىء بداخلها ..

- ألا تعتقد أن الفتى قد استراح؟

- بلى.. بالتأكيد..
ورأينا (بوتش) يعيد السماعة لحالتها، ثم طلب منا (ديك) أن نترك المكتب لنشرب بعض القهوة.. شعرت بغصة في حلقي..
وفي الشارع توقفت وصحت:
- ماذا بحق السماء؟
بدأنا نفهم.. كنا قلقين بخصوص المباحث الفيدرالية فأنا و (ديك) كنا نعمل لدى (بروزر) لهذا استدعى (ديك) صديقه

(بوتش) كي يفحص أجهزة الهاتف، وقد وجد ثلاثة أجهزة تنصت..
- يجب أن نفتش كل ملليمتر في المكتب.. فلربما هناك أجهزة أخرى..
ثم إن (بوتش) أضاف:
- يمكنك أن تنتزع أجهزة التنصت.. لكن الأفضل أن تتركها وإلا عرفت المباحث الفيدرالية بهذا.. وعندها سيجدون طريقة أفضل للمراقبة.. يمكنك دوما أن تنتقي كلماتك في أثناء الحديث بالهاتف..
وعدنا إلى المكتب كي نمشطه.. ورحنا نفعل ذلك ونحن نثرثر أنا و (ديك) في أي كلام فارغ، وليكن الاتصال بيننا بالإشارات.. رحنا نقلب الموائد ونفتش في سلال المهملات والملفات.. حمدا لله على هذا الأثاث القليل الذي يسهل تفتيشه.. لكننا لم نجد شيئا جديدا..
وهكذا صار علينا أن ندعو (بوتش) إلى عشاء دسم..

∞∞∞∞∞∞

(21)

بدأ مكتبنا يتخذ شكلا تجاريا يوحي بكثرة العمل، وتزاحمت الملفات هنا وهناك.. وقد وضعناها في مكان يراه الزائر بسهولة.. صار الهاتف يدق مرات أكثر.. لكني كنت أتوجس خيفة في كل مرة..

إنه فبراير.. الشهر المحدد لبدء المحاكمة أمام المحلفين..

وذات صباح - دون استشارتي - أخذ (ديك) جهاز الهاتف إلى (بوتش)، واستعان هذا الأخير بأحد معارفه ممن كانوا يعملون في الجيش سابقا.. وطبقا لما قاله الرجل، فإن أداة التنصت التي وجدها في الهاتف ليست من الطراز الذي تستعمله المباحث الفيدرالية.. إنها أداة رخيصة الثمن متوسطة الأداء صنعت في (تشيكوسلوفاكيا).. وكان من رأيه أن الشرطة والمباحث لم تزرعا هذه الأداة عندنا..

وتلقيت هذا الخبر في الصباح.. هناك شخص آخر يتنصت.. لكن من هو؟

هنا خطرت لي فكرة عبقرية.. ناديت (ديك)، وأخبرته بما أعتزمه.. سيترك المكتب ويتجه إلى أقرب كابينة هاتف.. ويتصل بي.. ويبدأ حديثا عن العمل.. وسرعان ما بدأنا التنفيذ، وبعد كلمات عادية سألته:

- هل تعرف من الذي يريد التسوية؟

- من؟

- المرأة.. (دوت بلاك)!

سألني بطريقة تمثيلية تدل على موهبة رديئة في هذا الفن:

أحقا؟

- نعم.. لقد مررت عليها هذا الصباح، فقالت لى: إنها لا تريد مواجهة المحاكم.. وإنها ستقبل مالا لتسوية القضية والتنازل..
- كم؟
- مائة وستين ألفا.. لقد حاولت أن أقنعها، لكنك لا تعرف مدى عنادها..
- لا تفعل يا (رودى).. إننا في سبيلنا للحصول على ثروة.
- أعرف.. لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ إن مائة وستين هي طعام للدجاج.. تعويض لا يساوى شيئا..
وانتهت المكالمة.. وبعد قليل عاد (ديك) ليجلس معى..

∞∞∞∞∞∞

في التاسعة من صباح اليوم التالي دق جرس الهاتف.. كان هذا هو (دراموند).. كنا قد اشترينا جهاز تسجيل مكالمات صغيرا من (راديو شاك)، وقد أوصلته بالهاتف، داعيا الله ألا يفسد عمل جهاز التنصت..
قلت مرحبا وأنا أضغط على زر التسجيل:
- أهلا..
أخلاق المهنة تقضي بإن أخبره بأنني أسجل المكالمة.. لكني قررت ألا أفعل..
هو قد تنصت على مكالماتى – أو هذا ما أظنه، فليس من حقه أن أعامله بشرف..
قال (دراموند):
- هل تعرف يا (رودى) ما يريد موكلي؟
إنهم لا يريدون إضاعة أسبوع في (ممفيس) على هذه المحاكمة.. فوقتهم يساوى مالا.. إنهم يريدون تسوية.. لقد افترضنا - لمجرد

الجدل - أن موكلى مسئول عن عملية زرع النخاع.. ولنفترض أنه غطى تكاليفها.. عندها كان يجب أن يدفع مائة وسبعين ألفا.. نحن سنقدم لكم هذا المبلغ إذن.. وسيكون الشيك عندك بعد أسبوع..

- لكن..

- اصغ يا (رودى).. تعقل.. وناقش موكلتك، فأنا أراهن على أنها تريد تسوية.. هذه البائسة لا تدري ما سيحدث في المحكمة.. هلم اطلبها الآن..

وضعت السماعة، وأرجعت الشريط وأدرته عاليا بينما (ديك) ينظر لى مصدوما لا يصدق.. وحين انتهت المكالمة قلت بصوت ثقيل..

- يجب أن نخبر (كيبلر)..

قال (رودى) وهو ينزع عويناته:

- لا.. نحن نعرف أن (دراموند) يتجسس علينا، لكننا لا نستطيع إثبات أنه هو من وضع أجهزة التنصت.. لن نضبطه متلبسا أبدا.. فكيف يتهمه (كيبلر)؟ مستحيل.. سيكتفي بجعل حياته سيئة فحسب..

- (دراموند) قد اعتاد هذا على كل حال..

ونحن كذلك مذنبان.. فتسجيل المكالمات دون إذن جرم فادح.. ولو أذعت هذا الشريط على الملأ فلن يعاقب (دراموند).. بل سأعاقب أنا أتراه هو من فعلها أم هي شركة (الفائدة العظمى)؟ أرى أن نستغل أجهزة التنصت هذه لمصلحتنا...

∞∞∞∞∞∞∞

بعد يوم اتصلت بـ (دراموند) لأخبره بالخبر المؤسف: عميلتنا ترفض العرض، إنها غريبة الأطوار حقا.. تارة ترغب في تسوية وتارة ترغب في محاكمة.. لم يبد مندهشا.. لكنه عاد ينذرني بأنها ستكون محاكمة قذرة..
إن المال لا يهم أسرة (بلاك).. فلم يكن عندهم مال قط.. ولا يهمهم الثراء الآن.. كل ما يريدونه هو حكم نهائي يقول: إن شركة التأمين قد قتلت (دونى راى).. يقول: إنهم على صواب..
فيما يتعلق بى دهشت من قدرتي على تجاهل المال.. إنه لمبلغ مغرٍ لكني لا أهيم به حبا.. إنني شاب.. ولست جائعًا.. وما زالت أمامي قضايا أخرى..

∞∞∞∞∞

جاء (الكريسماس).. وكنت أعتزم ألا أقضيه في المدينة، لذا ركبت سيارتي (الفولفو) المستعملة التي اشتريتها حديثا؛ واتجهت إلى (وسكونسين)..
وجدت فندقا صغيرا يقدم طعاما ساخنا.. إنني حر الآن ولا أحد يعرف مكاني في العالم..
اتصلت بأستاذي (ماكس لويبرج) الذي استشرته بخصوص هذه القضية منذ فترة.. وكان قد جاء ليعمل أستاذا زائرا في جامعة (وسيكونسين).. رحب بي ودعائي لزيارته.. فاتجهت إلى داره لأجلس معه ونرشف القهوة الساخنة.. وبعد الثرثرة المعتادة سألني عما حدث في القضية..
حكيت له كل شيء.. وبدا متفائلا بصدد قوة موقفي.. راح يحاضرني لمدة ساعة وأنا أدون ما يقول.. مثلا نصحني أن أبقى الأفضل للنهاية.. فلا أعرض مثلا شريط الفيديو الخاص بـ

(دونى راى) على المحلفين، إلا قرب انتهاء المحاكمة حتى يظل أثره فعالا.
ثم نهض وناولني بعض الأوراق.. فسألته:
- ما هذا؟
- إنها بوليصة التأمين الجديدة لشركة (الفائدة العظمى).. جعلت أحد تلاميذي يبتاعها، ولسوف تلغيها الشهر القادم.. هل تعرف النص الجديد الذي أضافوه بخط سميك واضح هنا؟
- استثناء عمليات زرع النخاع من التمويل بالبوليصة..
- تماما! لقد أوضحوا هذه النقطة بعناية.. في المحاكمة سيكون عليك أن تسألهم عن سر إضافة هذه الفقرة بعد رفع آل (بلاك) قضيتهم.. ما داموا لم يستبعدوا زرع النخاع في وثيقة آل (بلاك)، فهذا يعني أنه كان عليهم دفع مبلغ المطالبة.. إنهم يعترفون بأنهم كانوا مخطئين..
كنت أسجل كل كلمة يقولها على جهاز التسجيل حتى ملأت ستة شرائط.. وودعته وانصرفت فلن أستطع أن أشكره كما يجب أبدا..

∞∞∞∞∞∞

(22)

عدت إلى (ممفيس) مع بداية العام الجديد..
وفي المحكمة ناول (كيبلر) كلامنا - أنا والمحامي - ملفا.. وقال:
- هي ذي أسماء وعناوين المحلفين لتختاروا منها ([2]).. يوجد ها هنا اثنان وتسعون اسما يمكنكم التحري عنهم كما تريدون.. لكني أحذركم من الاتصال الشخصي بأي منهم..
رحت أقرأ الأسماء.. يوجد مليون شخص في هذه المدينة.. فهل يمكن أن أعرف أحدا من هذه الأسماء؟
مستحيل.. كلهم غير معروفين بالنسبة لي.. عدت للمكتب وتناولت غدائي وأنا أرمق القائمة..
إن (دراموند) يملك طبقا فريقا من المحققين يمكنهم البحث عن هذه الأسماء جميعا..
سوف يتفقدون صحيفة سوابقهم، وحالات الطلاق..
أو الإفلاس.. كل شيء مسموح به سوى الاتصال المباشر..
بل إن (دراموند) عنده استشاريو محلفين.. إنها مهنة حقيقية مستجدة على عالم القانون.. إنهم علماء نفس أو أطباء نفسيون مهمتهم دراسة شخصيات المحلفين واستنتاج قرار هم.. وهم يبيعون خبراتهم باهظة الثمن لمن يستطيع الدفع..
إن اختيار المحلفين مشكلة.. بالنسبة لى يناسبني محلف شاب زنجي.. فثمة حكمة قديمة تقول: إن الزنوج مفيدون في قضايا الادعاء المدني.. إنهم يشكون في المؤسسات الأمريكية التي أنشأها البيض.. ومن يستطيع لومهم؟
تقول الحكمة كذلك: إن النساء يتعاطفن بسهولة خاصة مع القضايا التي يؤذى فيها الأبناء.. لكن لهن عيبا هو أنهن لا يوافقن

على التعويضات الباهظة، لأنهن يكرهن رؤية جيرانهن أثرياء..
لو كان لي أن اختار لاخترت اثنتي عشرة امرأة زنجية.. وحبذا لو كن أمهات!
إن اختيار المحلفين عسير.. لكن من المؤكد أن عليك أن تتجنب نوعا واحدا، هو الرجل الأبيض الذي يمارس وظيفة تنفيذية في شركة كبيرة.. فهذا الطراز متعلم ولا يعبأ بالمحامين.. لكنه - لحسن الحظ – مشغول دائما بحيث لا يستطيع أن يكون محلفا..
هنا خطرت لي فكرة خبيثة..
أخبرت بها (ديك) فتحمس.. قررنا أن نلفق مكالمة هاتفية تمثيلية..
وذهب (ديك) إلى هاتف عمومى قريب.. واتصل بي في المكتب.
لقد أجرينا عدة بروفات على هذا، بل إن كلا منا لدية سيناريو مكتوب..
- لقد وجدت (دين جودلو)..
(جود لو) هو رجل أبيض يملك شركة لتنظيف السجاد.. وهو محلف لا أريده في أثناء المحاكمة
يقول (ديك):
- قابلته اليوم.. إنه رجل لطيف وكنا مخطئين بشأنه.. إنه يمقت شركات التأمين.. وهو على أتم استعداد ليدين شركة (الفائدة العظمى)..
إن فكرة أن يقابل المحامي المحلفين قبل المحاكمة هي فكرة لا تصدق.. وقد خشيت أن يعرف (دراموند) أننا نخدعه.. لكنني قدرت أنه سيقع في الفخ لأنني مبتدئ أخرق.. ويمكن أن أقع في هذا الخطأ.. هكذا سيظن..
وأواصل المكالمة:

- هل تعتقد أن: (جودلو) لن يتكلم؟
- أنا واثق من هذا!
وأحرك بعض الأوراق جوار السماعة.. ثم أسأل:
- من الباقي في قائمتنا؟
- دعني أتذكر.. تحدثت إلى (در مونت كنج) و (جان ديسل) و (لورانس بيرونى) و(هليدا هايندز) و (راتيلدا براوننج)..
كان كل هؤلاء من البيض الذين لا نريدهم في المحاكمة.. إننا نلوث اسمهم بحيث يبذل (دراموند) ما بوسعه كى يبعدهم..
- كان بعضهم خائفين من الحديث معي.. لكنهم جميعا في صفنا وكلهم يعرف أن الشركة تملك اربعمائة مليون دولار..
أما آخر اسم في القائمة - (راتيلدا براوننج) – فهى امرأة كنت أريدها معنا.. لهذا سألت (ديك) عنها، فقال حسب المتفق عليه:
- إنها زنجية متعصبة.. لقد طردتني من مكتبها ولن تكون في صفنا..
- أما أنا فقابلت (إستر صمويلون).. امرأة لطيفة حقا..
لو كان قلب (دراموند) ما زال يخفق، فأنا واثق من أن شريانا في رأسه يوشك على الانفجار.. وأجمل شيء أن الرجل لا يستطيع أن يخبر أحدا بما سمعه وإلا اعترف بأنه يتنصت على هاتفنا..
وواصلت المكالمة مع (ديك).. ثم وضعت السماعة..
دق جرس الهاتف بعد دقائق.. كان المتكلم هو (بوتش) يلعب دورا آخر كلفته إياه.. قال لي بصوت مستعار:
- أنا (بيللى بورتر).. لقد تركت لي رقمك في متجري اليوم..
كان (بورتر) رجلا أبيض أردت استبعاده من المحلفين.. قلت له:
- شكرا على اتصالك.. أنا واحد من محاميّ آل (بلاك)..
- وهل هذا الاتصال قانونى؟

- طبعا هو كذلك.. أنا أمثل العجوز البائسة التي مات ابنها بسب شركة (الفائدة العظمى).. إن الشركة مذنبة كالشيطان، وهي أسوأ حالة رفض رأيتها في حياتي.. وأتمنى لو تساعدني..
- سأفعل ما أستطيع..
وهكذا.. ظللت و (ديك) طيلة اليوم نتحدث عن المحلفين الذين جندناهم في صفنا، وكلهم يتوقون لمعاقبة شركة (الفائدة العظمى).. إن من يصغ لمحادثاتنا سيظن أنني و (ديك) لم نهمد لحظة واحدة في ذلك اليوم..

∞∞∞∞∞∞

وصل المحلفون في الثامنة والنصف.. وجلسوا متوترين قليلا - في مقاعدهم.. وجلست أتأملهم..
لم يفتني أن ألاحظ أن خصومي المحامين تبدو عليهم المرارة، ويغمرهم الاشمئزاز مني وتجنبوا النظر إلى.. إنهم يعلمون!
هنا بدأت أمارس لعبة (داوود وجالوت)..
الشخص الصغير أمام العملاق... فالمحلفون يرون أنني فقير وحيد أعزل من السلاح، أمام وحوش أثرياء عمالقة.. إنني لا أفهم كيف فات هذا على (دراموند)؟ لماذا أحضر خمسة محامين ضدى برغم أن هذا يستفز المحلفين؟ مادام قد جلب كل هذا العدد من المحامين فمن المؤكد أن موكله مذنب بشكل ما..
دخل (كيبلر) القاعة فنهض الجميع رحب بالمحلفين وتحدث عن واجباتهم.. ثم بدأ بالسؤال:
- هل تعرفون أيا من طرفي النزاع؟ أيا من المحامين؟ أيا من الشهود؟ هل قاضى أحدكم شركة تأمين من قبل؟

أجاب البعض أن نعم.. فكان عليهم أن ينسحبوا.. وتضاءل العدد..
بدأت ثقتي في نفسي تتزايد.. أستطيع القيام بهذا..
إنني محام...
جاء دورى كى أتكلم لأول مرة أمام المحلفين.. قلت الكلمات التي حفظتها عن ظهر قلب مئات المرات.. ثم سألتهم باسما:
- هل لدى أحدكم أي سبب يمنعه من أن يكون هنا؟ لم يرد أحد.. فشكرتهم وجلست مبتسما معلنا أنني لا أعترض على أحد..
جاء دور (دراموند).. حاول أن يبدو هادئا لكني كنت أعرف أنه يحترق من الداخل.. قدم نفسه ثم راح يتحدث عن عميله.. عميله الذي هو شركة عظمى لا نستحق عقابا على سبب كهذا... صوته يوحي بالثقة.. وشعره الأشيب يوحي بالحكمة.
وفجأة قرر أن يضرب ضربته:
- هل حاول أحد الاتصال بكم بصدد هذه القضية؟!
ساد الصمت.. كان الأمر أقرب إلى اتهام منه إلى سؤال.. تجمد الرجل بضع ثوان مستعدا ليثب في بطن أول من يرفع يده أن نعم..
كان يعرف أنه سيظفر بالحقيقة.. ولسوف يفضحني ويفضح فسادى.. ويشطب اسمي من المهنة نهائيا.. وستؤجل القصية أعواما كاملة..
- هذا مهم.. يجب أن نعرف..
كانوا يرمقونه في كراهية.. فصوته يشى بالشك، ونظراته تقول: أيها السفلة الكاذبون!
- إذن لنسألها بطريقة أخرى: هل اتصل مستر (بايلور) بأحدكم أمس؟!

وثبت في جنون صائحا:
- اعتراض سعادتكم.. إن هذا لا يطاق!
قال (كيبلر) في تؤدة:
- موافق.. ماذا تحاول قوله يا (دراموند)؟
استدار له (دراموند) صائحا:
- إن لدينا من الأسباب ما يدعونا لافتراض أن المحلفين قد تم التلاعب بهم!
- أنا لا أفهم يا مستر (دراموند)..
ثم دعانا لندنو منه.. وأزاح مكبر الصوت بعيدا..
ثم سأل (دراموند) همسا:
- كيف تعلم أن هذا حدث؟
- إن لى مصادر السرية.. لكن هذه حقيقة..
- أريد دليلا
- ربما لو سمحت لي بمناقشة كل منهم على حدة، أثبت كلامي..
قلت بدوري:
- لا اعترض سعادتكم.. فليس لدي ما أخشاه..
وعدنا نواجه المحلفين.. وعاد (دراموند) يواصل كلامه:
- إنه لأمر خطير أن يتصل المحلف مباشرة بأحد طرفي النزاع.. بل إن المحلف يعاقب بشدة لو ثبت هذا..
لم يرفع أحد يده.. لكن المحلفين راحوا يرمقونه في كراهية.. أردف وهو ينظر إلى (بورتر):
- مستر (بورتر)
فوجئ الرجل واحمر وجهه
- إن لدي سؤالا لك.. وسأقدر لو أجبتني إجابة أمينة عنه..
- سل سؤالا أمينا تظفر بإجابة أمينة!

قالها (بورتر) بغيظ.. هذا رجل قصير الفتيل، وكنت أفضل تركه وشأنه:
- هل اتصلت أمس بمستر (رودى بايلور)؟
- و اللعنة.. لا..
- وأنا أقول إن هذا حدث..
وقبل أن يقول (كيبلر) شيئا، وثب (بورتر) من مقعده لينشب مخالبه في حنجرة (دراموند):
- لا تقل إنني كذاب أيها السافل!
وسقط (دراموند) على الأرض، وتلقى بضع لكمات، على حين صرخت النساء.. وهرع حجاب المحكمة يفصلون بينهما.. وانتفض المحامون..
ظللت في مقعدي أستمتع بالمشهد.. بينما القاضي يدق بمطرقته.. ووقف (دراموند) أخيرا ينفض ثيابه، ويرمق (بورتر) بعين خائفة..
وبعد استراحة قصيرة طلب (دراموند) رسميا تغيير المحلفين جميعا، فأبى (كيبلر).. وإن تم إبعاد (بورتر) طبعا.. كان يريد المزيد من الشجار، وتمنيت لو ينتظر (دراموند) خارج المحكمة ليسوى الأمر..
وفي الساعات التالية استطاع (دراموند) استبعاد كل الأسماء التي ذكرتها في مكالماتي مع (ديك)، والنتيجة مجموعة محلفين لم أحلم بها.. ست نساء زنجيات كلهن أمهات.. وثلاثة رجال بيض يعملون في اتحادات العمال.. وزنجي هو جار لآل (بلاك)..
إن تسعة محلفين يكفون لاتخاذ القرار..
وأدى المحلفون القسم..
لقد خلف (دراموند) فقدانا تاما لمصداقيته لدى المحلفين.. ولن يستطيع الاعتذار أبدا.. إنه لفي موقف عسير.. فالقاضي

خصمه.. والمحلفون يكرهونه.. ولديه مجموعة حقائق متعفنة.. بل إنه تلقي (علقة) ساخنة كذلك.. إن هذا أجمل مما يمكن تصوره...

∞∞∞∞∞∞

قبل المحاكمة بأيام تلقيت مكالمة من محام يدعى (بيتركورسا).
لم أدعه يكمل كلامه، وقطعت المكالمة.. ثم هرعت إلى سيارتي.. وبحثت عن رقمه وطلبته بالهاتف الذي ابتعته مؤخرا للسيارة.. إن هذا هو الروتين الذي نتبعه منذ فترة منذ عرفنا أن هاتف مكتبنا مراقب..
اتضح أن المكالمة مهمة جدا..
إن (كورسا) يعمل لفتاة تدعى (جاكى ليمانتزيك)، وهي موظفة تم طردها من شركة (الفائدة العظمى) دون مبرر.. إن الشركة زعمت لى أن (جاكى) قد استقالت.. وعرفت أنها تلقت مضايقات كثيرة بسبب جمالها في تلك الشركة.. إن (جاكى) تعرف كل شيء عن الغسيل القذر لتلك المجموعة.. وهى تتمنى لو تشهد لكنها خائفة.. فهؤلاء الناس قذرون يملكون الكثير من المال..
وأعطاني رقمها الهاتفي لأطلبها.. ولم أنس أن أقول له ألا يتصل بالمكتب..

∞∞∞∞∞∞

كنت أعرف أنني سأترافع ببراعة في المحكمة، لكن من العسير أن أطالب بعشرة ملايين من الدولارات كتعويض.. لو كان عمري خمسين عاما لكنت على ذلك قديرا.. لكن في عمري وبخبرة تسعة أشهر يبدو الأمر مضحكا..

لكنني سأطالب بعشرة ملايين.. إنني أطالب بها في المكتب.. في سيارتي.. في فراشي وأنا مؤرق.. أحادث الاثني عشر وجها الذين صرت أحفظهم تماما..
سأحطم شركة (الفائدة العظمى)..
المحاكمة الكبرى غدا..
الجليد ينهمر.. يتمني جزء مني أن يحدث إعصار فيتأجل (غدا) هذا..
وجزء آخر يتلهف على البدع..
وأصلي كي أستطيع النوم..

∞∞∞∞∞∞

كان على أن أقدم كلمة الافتتاح.. إن البروفة التي أجريتها مرارا تقول إنها تستغرق ست دقائق.. لكني أفعل ذلك بشكل جيد.. رحت أشرح القضية للمحلفين.. قضية (دونى راى).. وقلت لهم إنهم سيقابلونه على شريط فيديو لأنه مات..
ثم جاء دور (دراموند).. واثقا من نفسه قال:
إن البوليصة لا تتضمن زرع النخاع.. ليس الموضوع موضوع أن موكله يكره (دونى راى).. الموضوع موضوع مبدأ... موضوع ما هو مكتوب في الوثيقة إنهم يطالبون موكلي بعشرة ملايين.. وأنا أسمي هذا جشعا..
وفهمت خطته.. إنه سيشكك في عملية زرع النخاع.. سيقول: إنها عملية تجريبية لا تدخل في نطاق الرعاية الصحية العادية..
مرة أخرى استعمل لفظ (جشع) فوثبت واقفا أعترض..
ثم طلب مني القاضي أن أنادي شاهدي الأول، فناديت (دوت بلاك).. مشت متوترة إلى المنصة وحلفت اليمين..

كنا قد راجعنا سيناريو الأسئلة عدة مرات وهي تحفظ كل حرف منه.. وتعرف أن عليها ألا تدخن أمام المحلفين..
حكت عن محاولاتها اليائسة لإقناع الشركة دون جدوى.. حكت عن الرسائل السبع التي أرسلتها للشركة، وآخرها (خطاب الغباء) إياه.. رأيت وجوه المحلفين مصدومة غير مصدقة.. وحين انتهت ساد الصمت المحكمة..
تركتها بعد هذال (دراموند) كي يستجوبها عالما أنه لن يعنف بها.. لن يجرؤ..
سألها (دراموند):
- لماذا تطالبين الشركة بعشرة ملايين؟
كان سؤالا خطيرا جدا لأنه يحاول إظهارنا بمظهر الجشعين للمال.. لكنها كانت ذكية.. فسألته بدورها:
- فقط؟!
- عذرا؟
- ظننت المحامي قد طالب بما هو أكثر.. إن موكلك يملك بليون دولار.. وموكلك قد قتل ابني
أريد منه أن يدفع أكثر..
هنا ارتكب (دراموند) خطأ قاتلا أخيرا إذ سألها:
- وماذا تفعلين بعشرة الملايين لو حصلت عليها؟
لم تخيب أملى إذ أجابت:
- سأتبرع بها كلها ل (رابطة السرطان الأمريكية).. فلا أريد شيئا من مالكم العفن!
قال لها: شكرا، وعاد إلى مقعده وحين رأيت وجهة عرفت أنه شاحب..
هامسة سألتني المرأة عن أدائها.. فقلت لها:
- إنها صفعتهم صفعة بارعة..

ثم جاء شاهدي التالي.. (رون بلاك) توءم (دونى) الذي قال: إن نخاع عظامه مناسب تماما لأخيه.. وهو كان على أتم استعداد للتبرع..
بعد هذا طلبت شهادة د. (والتركورد) بصفته خبيرا في الأورام..
راح يلخص المرض للمحلفين تلخيصا سلسا سريعا.. وشرح لهم معنى سرطان الدم.. ومعنى زرع النخاع.. إلخ
وقال: إن شركة (الفائدة العظمى) لم تدفع ثمن العلاج الكيماوي أو التشخيصي، من ثم تدفع مسز (بلاك) الفاتورة على أقساط شهرية حاليا..
إن فرصة الحياة دون زرع نخاع المريض سرطان الدم هي صفر.. لكن زرع النخاع يجعلها ثمانين بالمائة..
ولقد حاول (دراموند) أن يحاصر د. (كورد)..
حاول أن يثبت أن زرع النخاع عملية تجريبية حديثة العهد.. وإلا فلماذا لا يزرع النخاع إلا لعدد محدود من مرضى سرطان الدم؟
قال د. (كورد): إن هذا يحدث لأنهم لا يجدون من يتبرع لهم..
لكن (دونى راى) كان يملك متبرعا.. كان سعيد الحظ!
ولم يجد (دراموند) بعد هذا ما يقول!
لقد كان أول يوم من المحاكمة رائعة بالنسبة لي..

∞∞∞∞∞∞

(24)

كانت الطائرة القادمة من (شيكاغو) قد وصلت في التاسعة، ورأيت امرأة تضع عوينات سوداء تخرج من الصالة ومعها رجل قدمته لى باسم (كارل)..

كانت هذه هي (جاكي ليمانتزيك).. مفاجأتي التي قررت أن أصدم بها رجال شركة (الفائدة العظمى) الموظفة التي زعموا أنها استقالت، والتي تعرف أكثر مما يجب.. والتي ظلت مختفية في مكان لا يعرفه أحد حتى طلبتها..

اتجهنا إلى الفندق الذي حجزت لها غرفة باسمى فيه.. إنها مطلقة في الثلاثين من عمرها لها طفلان، ويقال إنها جميلة لكن إنهاكها جعلني أشك في هذا..

وجلسنا معا نرتب ما سأوجهه لها من أسئلة غدا وما سترد به علىّ..

صباح الثلاثاء نادانا القاضي (كيبلر) أنا و (دراموند)..

وطلب مني أن أستدعى شاهدي التالي، فقلت بأعلى صوتى: (جاكى ليمانتزيك)!

رأيت محامي شركة (بريت) يتبادلون النظرات، ورأيت ممثلي شركة (الفائدة العظمى) يفتحون أفواههم غير مصدقين، بل لم يصدقوا حتى وهي تدخل وراء (ديك) إلى قاعة المحكمة.. كانت جميلة بعد إرهاق الليل.. ونظرت نظرة مقت واضحة إلى صبية (الفائدة العظمى) الجالسين.. ثم إنها أقسمت اليمين.. وبدأت أسألها:

- كيف انتهى عملك بشركة (الفائدة العظمى)؟
- طردوني..

- إذن لم تقدمى استقالتك؟
- كانت مؤامرة.. لقد طردت بسبب أنني أعرف كل شيء عن قضية (دونى راى بلاك).. وكنت مطلوبة للشهادة بعد يومين.. لهذا طردوني.. لكنهم جعلوني أوقع خطابا فيه صيغة استقالة مقابل الحصول على عشرة آلاف دولار.. وأنا أم وحيدة على فواتير كثيرة.. لهذا اضطررت إلى التوقيع..
- ولماذا عدت هاهنا؟
- لأنني تحدثت مع محام بارع، قال لي: إن ما وقعته برغمي ليس ذا أهمية قانونية.. لقد طردنى هؤلاء الناس دون ذنب.. بعد ما ضايقوني بسب جمالى أعواما طويلة ولمجرد أنني وحيدة فقيرة..
- وماذا عن ملف آل (بلاك)؟ - رفضت الشركة الدفع لأن سياسة الشركة كانت هي الرفض لكل المطالبات في ذلك العام.. بعدها تراجع الملفات.. فإذا استعان أصحاب بوليصة التأمين بمحام أو اشتكوا، عندها يتم النظر في مطالبتهم.. ولا بأس بدفع المبلغ.. لقد جربت الشركة هذا لمدة عام كامل.. والنتيجة هي أننا وفرنا قدرا هائلا من المال استثمرناه لفترة لا بأس بها..
- وكم ربحتم من هذا؟
- ربحنا أربعين مليونا في عام واحد..
- وهل كنتم تعرفون أن مطالبة (دونى راى) صحيحة؟
و - بالطبع.. كنا نعرف أننا سندفع حتما.. لكننا رحنا نجرب حظنا.. إن واحدا من كل خمسة وعشرين مؤمنا يوكل محاميا.. أما الباقون فهم أشخاص غير متعلمين لا يعرفون حقوقهم.. ويقبلون رفضنا للدفع باعتباره مسلما به..
- شكرا.. جاء دور (دراموند)، وأدركت أنه في ورطة حقيقية.. سألها:
- هل أنت هنا بسبب غضبك على شركة (الفائدة العظمى)؟

- و أنا أمقت تلك الشركة.. وكل الديدان التي تديرها.. هل هذا يجيب سؤالك؟
- وهل المقت هو سبب شهادتك هذه؟
- لا.. أنا هنا لأني أعرف كيف خدعوا آلاف الأبرياء.. ويجب أن أتكلم..
ولم يكن لدى (دراموند) كثير مما يقال.. لذا أنهى استجوابها..
وأنهى القاضي بدوره الجلسة للغداء..

∞∞∞∞∞∞

عاد المحلفون لمقاعدهم بعد الغداء، وتلقيت بعض الابتسامات منهم.. لقد كانت شهادة (جاكى) هى موضوع حديثهم بالتأكيد..
طلبت بعد هذا شهادة (ولفرد كيل).. وهو من مديري شركة (الفائدة العظمى)، ناولته بوليصة التأمين التي طبعتها الشركة حديثا، والتي أعطانيها (لويرج):
- هل تعرفت هذه؟
قال بسعادة وهو يتصفحها:
- نعم.. إنها بوليصة خاصة بشركتنا..
- منذ متى؟
- من ديسمبر 1992.. منذ خمسة أشهر..
- أرجو أن تفتح صفحة 11 الفقرة الرابعة هلا قرأتها؟ ما معنى هذه الجملة؟
- إنها تستبعد جراحات الزرع من تغطية البوليصة..
ناولته البوليصة القديمة الخاصة بال (بلاك)، وسألته:
- هل هذه البوليصة تستبعد زرع النخاع؟

- كلا..
- حسن.. لقد تم رفع القضية ضد شركتكم في يونيو الماضي.. أي أن البوليصة تغيرت بعد رفع القضية..
الأمر واضح تماما.. لقد أدانوا أنفسهم بأنفسهم..
وكان شاهدنا الأخير هو (دونى راى بلاك) نفسه..
أظلم حاجب المحكمة القاعة وأدار شريط الفيديو، فرأينا وجه الفتى يملأ الشاشة.. صوته المنهك السقيم كان المحلفون متعاطفين جدا، وحتى أنا شعرت بغصة في حلقي، بينما (دوت) تنهنه بالبكاء جانبى.. لقد سمع الجميع صوتها.. صوت أم تحاول أن تكتم دموعها..
ساد الصمت بعض الوقت بعد انتهاء الشريط.. لقد أحدثنا كل ما أردنا من أذى، ويمكن القول إننا ربحنا القضية..

∞∞∞∞∞∞

(25)

بدأت الأنباء تتوالى عن قضايا في ولايات أخرى ضد شركة (الفائدة العظمى).. لقد ثقبنا السد ولم يعد شيء قادرا على منع السيل والفيضان..

وفي العاشرة مساء ذلك اليوم دق جرس الهاتف في شقتى.

صوت امرأة قلقة تقول لى:

. - أنت لا تعرفني.. لكني صديقة (كيلى)

هببت فزعا ومددت يدي أبحث عن زر الإضاءة..

- ماذا حدث؟

- لقد ضربها مرة أخرى.. عاد إلى البيت ثم أمس كالعادة.. إنها هنا في شقتي.. لاكسور.. لكن الشرطة قبضت على (كليف)!

كنت لم أنس (كيلى) البائسة التي اختارت البقاء مع زوجها المجنون.. وكنت أعرف أن هذا اليوم أتٍ لامحالة..

حصلت على العنوان، وارتديت ثيابي، وهرعت إلى هناك..

سمعت صوت المزلاج يفتح.. سألتني (روبين)..

- اسم الصديقة - عن هويتي.. ثم سمحت لي بالدخول..

كانت (كيلى) على الأريكة، وكيس ثلج على جبهتها.. الكدمات تملأ وجهها وساقيها.. وضمادة على رأسها.. دمعة في عينيها إذ تقول:

- شكرا على قدومك..



كانت (كيلى) على الأريكة ، وكيس ثلج على جبهتها ..

ربت على خدها.. إنني قادر على قتله الآن تقول صديقتها:
- لقد عاد للدار ثملا.. وجد فواتير الكريسماس تنتظره.. عندها ثار.. وأنت تعرف الباقي.. لقد أحضرتها من عنبر الطوارئ اليوم، وأخذتها إلى مركز لضحايا العنف، وهناك نصحوها برفع قضية طلاق، ثم الفرار بعيدا.. لقد ضربها بحزام.. لحسن الحظ لم يجد مضرب الكرة..
مسحت دمعة (كيلي) وسألتها:
- ماذا تنوين عمله؟

بعصبية صاحت (روبين):
- هل تمزح؟ طبعا ستطلب الطلاق وإلا سيقتلها..
- حسن.. سأطلقها منه غدا..
- مشكلة أخرى هي أنها لا يمكن أن تظل هنا..
(كليف) قد غادر السجن.. وهو يتصل بأصدقائها اتصل بي ظهرا فأنكرت وجودها، ثم اتصل بعد ساعة ليهددني.. إن (كيلى) ليس لها أصدقاء كثيرون ولن يطول الوقت قبل أن يأتي هنا ليفتش الشقة..
- حسن.. إلى أين تذهبين يا (كيلى)؟
قالت (روبين):
- حسن هناك مركز سرى.. ملجأ للنساء ضحايا العنف لا يعرفه أحد.. ولا يستطيع الرجال العثور على زوجاتهم الحبيبات هناك.. لكنه يكلف مائة دولار يوميا..
هزت (كيلى) رأسها وقالت: إنها راغبة في الذهاب هناك.. فقلت لها: إنني سآخذها هناك غدًا..
تنهدت (روبين) في ارتياح.. وقالت:
- انظر يا (بايلور).. أنت لا تعرف (كليف).. إنه مجنون وحقير وثمل.. وعليك أن تكون حذرا..
- لا تقلقي..
- وقد يكون بانتظارك في الخارج الآن..
وأوصلتني إلى الباب فخرجت.. وسمعت صوت المصراع والسلسلة.. أعدك يا (كيلي) أن هذا لن يحدث ثانية..
عدت لمكتبي.. إنها الواحدة صباحا.. إن إجراءات الطلاق سهلة على كل حال.. ورحت أكتب مذكرة بطلب الطلاق.. ففي هذه المرة أنا واثق من أنني أنقذ حياة إنسان..

∞∞∞∞∞

أصيب (ديك) بذهول حين جاء صباحا، ليجدني ساهرا في كتابة أوراق قضية الطلاق.. أفي هذا الوقت والجلسة النهائية بعد ساعتين؟
- اطمئن يا (ديك).. سأكون بخير..
وأخذت الأوراق معي إلى المحكمة..

∞∞∞∞∞

الميزة الكبرى لأن تكون مبتدئا هي أن الجميع يتوقع أن تكون خائفا مرتبكا.. ومن الخطأ أن أتظاهر بما ليس في.. ربما بعد أعوام طويلة وعشرات المحاكمات يكون في وسعي أن أقف أمام المحكمة وأبدو رائعا.. لكن ليس اليوم..
أنا لست سوى (رودى بايلور) صبى عصبى يسأل أصدقاءه المحلفين أن يساعدوه في بداية حياته بدأت ألقى مرافعتي النهائية أمام المحلفين.. قلت لهم: إنه لن يكون هناك غد، ولا فرصة أخرى، لن يكون هناك محلفون آخرون.. إن (دونى راى) ينتظر الانتقام.. شركة (الفائدة العظمى) ثرية جدا..
فكيف تعاقب شركة بهذا الثراء؟ وهنا استعملت مثالا يحبه المحامون كثيرا.. ماذا لو كان في حسابى المصرفي عشرة آلاف دولار.. وارتكبت خطأ ما؟
سأطالب بدفع تعويض.. كم من حسابى يجب أخذه كى أهتم بالموضوع ولا أفعلها ثانية؟ إن واحدا بالمائة يساوى مائة دولار.. وهذا لن يؤذيني...
خمسة بالمائة قد تكفي لتعذيبي؟ ربما.. لكن لو دفعت عشرة بالمائة - ألف دولار - فلسوف يحزنني هذا جدا، ويدفعني إلى

تغيير أساليبي.. لهذا أطالب المحلفين بغرامة تؤذى لكنها لا تحطم.. عشرة ملايين دولار تبدو لي مناسبة وشكرتهم.. وعدت لمجلسي.. وجاء دور (دراموند) العظيم..
قال (دراموند): إن موكله دون شك، لكن موكله لديه ستة آلاف موظف تصعب مراقبتهم جميعا.
إن الشركة قد نظفت نفسها من كل المخطئين.. فما هي جدوى دفع تعويض ضخم؟ من الخطأ أن تأخذ المال من شركة كبرى لمجرد أنه موجود..
ثم انخفض صوته، وصارت كلماته أبطأ.. إنه الإخلاص المجسد الآن.. وأنهى كلمته..
جاء دوري لأنني أول من تكلم.. بدأت بمدح مهارة (دراموند).. ثم تحدثت عن كون الشركة الآن تعترف بالخطأ.. لماذا تعترف الآن به برغم أنها كانت مصرة على أنها محقة في البداية؟ لماذا؟ لأنهم كانوا يأملون أننا لن نعرف الحقيقة.. وأنهم لن يدفعوا شيئا على الإطلاق..
الآن نعرف الحقيقة.. لذلك يتحدثون بتواضع ويطلبون دفع مبلغ أقل.. وعدت إلى مقعدى..
وهكذا انتهت المحاكمة بكل ما فيها من قلق وعناء ترك المحلفون ليتداولوا.. وبدأ الانتظار..

∞∞∞∞∞∞

اتجهت إلى حيث قمت بتسجيل طلب طلاق (كيلى)..
وعرجت على مكتب القاضي (كيبلر) فهنأني وشكرته للمرة الألف..

ثم إنه مهر أوراق الطلاق بإمضائه. كما وقع على طلب (كيلى) بعدم تعرض زوجها لها.. ثم ناولت (بوتش) المخبر الخاص أمر المحكمة ليسلمه لـ (كليف)..
وانتظرنا في المحكمة ساعة..
واستأذنت من القاضي نصف ساعة، لآخذ (كيلى) كى أنقلها إلى ملجأ ضحايا العنف.. ذهبت إليها ولم يكن معها حقائب ولا شيء.. ناولتها أمر المحكمة بالطلاق.. فسألتني:
- متى يصله هذا الأمر؟
- إنه يقرؤه الآن!
- سيجنّ..
- هو مجنون بالفعل...
- سيطاردك.. إن اسمك على الأوراق وعنوانك..
- أتمنى لو يفعل.. لكن لا.. إنه جبان.. الرجال الذين يضربون زوجاتهم هم ألعن نوع من الجبناء..
وعلى كل حال أنا أحمل مسدسا..
وأوصلتها إلى الملجأ الذي تديره امرأة، ووعدتها أن أمر عليها ليلا، فطلبت أن أحضر معي لها فطيرة (بيتزا)..
وعدت للمحكمة لأجد الجميع ينتظر..
إنها الثالثة بعد الظهر.. وبدأت أوقن أنني خسرت القضية.. إن الأمر لم يكن ليحتاج إلى كل هذا الوقت.. أظني وثقت بنفسي أكثر من اللازم لعلى سأنتهي كرقم إحصائي آخر.. نموذج للطريقة التي يكافح بها المحامي في (ممفيس) ثم يخسر قضيته برغم كل شيء..
هنا نادونا لقاعة المحاكمة.. فدخلنا وجلسنا..
وجوه المحلفين لا تظهر شيئا.. يسألهم القاضي:
- هل وصلتم إلى قرار؟

- وصلنا سعادتكم
- هل هو مكتوب كما طلبت؟
- نعم سعادتكم..
- إذن قف واقرأه..
يمسك المحلف بقصاصة ورق.. تنفسى عسير وأوشك على الإغماء.. (دوت) بجواري أكثر هدوءا..
فالقضية انتهت بالنسبة لها.. لقد كسبت معركتها مع (الفائدة العظمى) ولا شيء يهمها بعد ذلك..
يقول المحلف بعدما تنحنح:
- لقد وجدنا أن الشركة مذنبة.. وأن من حق المدعي المدني تعويضا، قدره خمسون مليونا من الدولارات!!
دوت شهقة من خلفي.. وساد الصمت لبضع ثوان..
لقد انفجرت القنبلة.. والآن يفتش كل إنسان جسده بحثا عن جراح مميتة.. كتبت الرقم في الورقة أمامي.. وحاولت ألا أبتسم..
أريد أن أرقص فوق المنضدة.. أهرع إلى القاضي أعانقه.. أجرى للمحلفين ألثم أقدامهم..
لكني تماسكت وهمست لـ (دوت): - تهنئتى!
وعلى الورقة أمامي كتبت: (دونى راى بلاك)..
وحاولت تذكر وجهه كما أحبه.. في ملعب الكرة يلتهم الفيشار.. سعيدا لمجرد أنه هناك..
عيناي تبتلان دما..
القاضي يشكر المحلفين.. نظرت إلى (دراموند) ورجاله يضعون الأوراق في حقائبهم.. إنهم مشتاقون لترك هذا المكان.. سيظل اسمهم مقرونا بأكبر تعويض في تاريخ ولاية (تنيسى) ما عاشوا..
كان المفترض أن أصافحهم كما يفعل السادة المهذبون.. لكني لا أحب ذلك.. لم أصر ثريا بعد لأن الاستئناف سيستغرق عاما

وربما عامين.. فالمبلغ فادح.. لكن كل من يعرفني يحاول الآن القيام بعملية حسابية بسيطة: كم يبلغ ثلث الخمسين مليونا بالضبط؟!

كانت (دوت) قد بدأت تنهار.. وهزمتها الدموع أخيرا.. فبكت..

المحكمة تخلو من الحضور.. وبدأ الظلام يسود..

لكننا لم نتحرك...

∞∞∞∞∞∞∞

(27)

أخيرا أشعر أن قدرا كبيرا من السّم قد فارق روحى فلمدة عام عشت مع كراهية عنيفة لكيان اسمه (الفائدة العظمى)، كنت أحمل له سما زعاف، لكني لم أعد أحمل لهم ضغينة الآن..
اتجهت إلى (كيلى) أزف لها نبأ النجاح العظيم، ووجدتها راغبة في الحصول على ثيابها التي تركتها في دارها.. فهي لم تستبدل ثيابها بعد..
وعدتها بذلك حين تسنح الفرصة وفي مكتبي دق جرس الهاتف، فرفعت السماعة لأسمع من يقول لي:
- هنا (كليف رايكر)!
ضغطت على زر التسجيل فورا.. بينما قال لي في غلظة:
- أين زوجتي؟
- من حسن حظك أنها ليست في المشرحة الآن..
- سأحطم عظامك أيها الوغد!
- استمر في الكلام أيها القوي.. فأنا أسجل ما تقول..
وضع السماعة على الفور.. ورحت أرمق الهاتف في قلق.. ثم إنني طلبت (بوتش) وأخبرته بما حدث..
كان (بوتش) حانقا على الفتي لأنه سبه أمس بأغلظ سلمه حكم المحكمة.. (بوتش) يحب أن يكون في الموضوع لأن لديه أصدقاء (فتوات)..
سيذهب معهم للفتى ويهدده إذا ضايقني..
هذه هي فكرة (بوتش) عن الاستمتاع بالوقت الألفاظ حين الصحف كلها تتحدث عن القضية وعني..

عرفت أن شركة (الفائدة العظمى) قد رفعت قضية إهمال ضد شركة (ترنت) التي يمثلها (دراموند) إن فكرة أن ترفع شركة تأمين قضية ضد (ترنت) لهي فكرة رائعة حقا.. ابتسمت كثيرا لتصور هذا..
وفي يوم الاثنين قررت و (كيلى) أن نذهب لاسترداد ثيابها.. إن زوجها سيلعب الكرة في هذا الوقت وهي مباراة حيوية لا يمكن أن يضيعها..
كنت عصبيا.. بل كنا خائفين..
معي المسدس على كل حال.. قدرت (كيلى) الوقت اللازم بعشر دقائق.. فنصحتها ألا تتجاوزها لأن هناك جيرانا قد يروننا.. ويبلغونه..
دنوت بسيارتى من دارها.. وتوقفت..
- هل أنت خائف؟
- نعم
ودخلنا الدار في الظلام.. كان هناك ضوء في المطبخ وهو كاف للرؤية.. علب البيرة في كل مكان وبقايا فطائر البيتزا.. طلبت منها أن تسرع ووضعت المسدس بقربي دخلنا غرفة النوم وراحت تضع ثيابها في الملاءة.. وحزمتها وخرجت لأضعها في المقعد الخلفي.. عدت لأخذ المزيد وقلبي يتواثب..
- هذا كاف.. لن تستطيعي أخذ كل شيء مزيدا من الفساتين على شماعات، وأكياس وسادات ملآى..
فجأة سمعنا ضجة.. ثمة من يحاول الدخول!
وقبل أن نفهم فوجئنا بالباب ينفتح، ودخل (كليف رايكر).. ووجدت أنني أقف أمامه.. لقد كان كمينا لنا! عيناه الحمراوان وفي يده مضرب الكرة يصوبه نحو رأسي:
- أيها الوغد!.. هكذا صرخ وهوي به عليّ..

تمكنت من التنحي في آخر لحظة.. وهوى المضرب ليهشم منضدة خشبية..
ركلته بجنون.. أين المسدس؟ ورأيته ينهض، ويوجه لى ضربة أخرى لم تصب الهدف.. قلت لنفسي: لن أمنحه ضربة ثالثة.. وعلى الفور لكمته في وجهه ثم ضربته في أسفل ذقنه، فصرخ..
سقط المضرب من يده.. فأمسكته وهويت على أذنه اليسرى..
سمعت صوتا مخيفا لعظام تتهشم..
سقط أرضا وحاول أن ينهض.. لكن ضربتي الثانية هوت على رأسه بكل مقتى وخوفي.. فصرخت (كيلى):
- توقف يا (رودى)!
نظرت لها.. ورأيته يحاول أن يقول شيئا ثم همدت حركته..
- سأقتل الوغد!
- لا..! هات المضرب هات المضرب!
أدهشني هدوؤها.. فناولتها المضرب.. وإذا بها تدفعني إلى الباب:
- ارحل.. أنت لم تكن هنا الليلة.. أنا من قتلته..
ارحل!
لم أستطع عمل أي شيء سوى النظر خلفى.. استرددت مسدسي واتجهت للباب مبلبل الفكر..
بعد عشر دقائق وصلت أول عربة شرطة.. ثم الإسعاف..
كنت في سيارتي على مسافة آمنة أراقب المشهد ولاحظت أن رجال الإسعاف ليسوا على عجلة من أمرهم. (كيلى) وحدها بالداخل تجيب عشرات الأسئلة.. وهأنذا أجلس كالسيد (جبان) أتمنى ألا يراني أحد.. لماذا تركتها؟ لا يمكن أن يموت..
أريدهم أن يعيدوه للحياة.. أنا أستطيع أن أتعامل معه كشخص حي.. هلم يا (كليف).. انهض!
وهنا أدركت أنهم سيضعونه في عربة المشرحة لا الإسعاف..

ملأ الزحام المكان.. تظهر (كّيلي) محاطة بالشرطة لكنها غير مكبلة بالأصفاد لحسن الحظ..
تبدو رقيقة خائفة..
توجهت إلى المخفر بصفتي محاميها وطلبت مقابلتها..
كان المحقق يستجوبها حين وصلت وقدمت نفسي.. فلم يصافحني وبحنق قال:
- أنتم يا سادة تسافرون سريعا.. هه؟
- لقد اتصلت بي بمجرد أن استدعتكم..
- حسن.. تقول إنه حاول قتلها فاضطرت هي إلى ضرب رأسه بالمضرب..
وعرفت أن البائسة ستقضي ليلتها في السجن..
لا يمكن إخلاء سبيلها بضمان محل إقامتها.. ربما يمكن خروجها بكفالة فيما بعد...

∞∞∞∞∞∞

راحت الوساوس تحتشد في ذهنى..
كم جارا لها رأي شخصا غريبا يغادر المنزل؟
لماذا لم أطلب الشرطة وأرو الحقيقة؟ لكن من الذي يستطيع أن يفكر بتعقل وقد تحول خلال عشر ثوان من ضحية إلى قاتل؟
ماذا لو أثبت البوليس أنها لم تتصل بي قط؟ ماذا لو أثبتوا أنها لم تستخدم سيارتها منذ أيام فكيف تزعم أنها جاءت بها؟
طمأني (ديك) حين عرف القصة.. وقال لى إنه ما من محلف في العالم يمكن أن يدينها.. فتقارير الشرطة التي تثبت إصاباتها السابقة موجودة..

عرفت بعد هذا أن السجن يتلقى عشرات المكالمات..
تهددها بالقتل.. إن أقارب (كليف) كلهم مجانين مثله.. وكلهم يشربون.. لهذا تتوقع (كيلي) أن يطاردوها للانتقام..

∞∞∞∞∞∞∞

(28)

قمت بإنهاء الإجراءات كلها، ودفعت خمسمائة دولار كفالة.. واصطحبت (كيلى) إلى سيارتي بينما (بوتش) - مدججا بالسلاح - يحرسنا.. ثم أخذتها إلى ملجأ ضحايا العنف..
وفي ذات اليوم تقدم محامو شركة (الفائدة العظمى) بطلب في المحكمة لإشهار إفلاسهم.. إن الشركة تزعم أنها لا تملك مالا..
جلست و (ديك) في المكتب صامتين بعد تلقي النبأ..
كان (ديك) قبل هذا عاكفا على حساب أرباحه والآن جلس صامتا وقد أدرك أنه هو الآخر قد أفلس..
إن شركات التأمين لها ملفاتها الخاصة المفبركة، بحيث يستحيل معرفة حقيقة ما لديها من نقد. عرفت أن الوقت مبكر لمعرفة الحقيقة.. لكن يقال أن للشركة وسيلة لتهريب المال إلى أوربا.. حيث يتم غسله بمعرفة مؤسسة أمريكية لها مكاتبها في (سنغافورة)
إن هذه الفوضى ستستغرق شهورا حتى تحل.. إنهم نصابون أكثر حصافة من أن يتم القبض عليهم.. لن يحصل أحد على شيء فيما أظن.. إن الأمل واه جدا.. وذات الشيء سيصيب (دراموند) الذي سيعجز عن تحصيل فواتيره الباهظة من الشركة..
إن التعاسة تحب الصحبة.. لكن كون هناك من سيعاني مثلى لا يعزيني إلا قليلا.. فأنا أكثر واحد قد خسر في هذا الموضوع..
دق جرس الهاتف، فرفع (ديك) السماعة وأنصت ثم قال بلا مبالاة:
- هناك من يقول إنه سيقتلك!
- ليست هذه أسوأ مكالمة تلقيتها اليوم..

- لا يهمني الآن لو رماني أحد بالرصاص!

∞∞∞∞∞

تلقيت مكالمة من (روجررايس) المحامي الجديد لمس (بيردى).. هنأني على قضية آل (بلاك).. ثم أخبرني أن مس (بيردى) تعانى سوء المعاملة في (فلوريدا)..
إن أبناءها قد ذهبوا إلى (أطلانطا) ليعرفوا حقيقة ما تملكه الأم.. واتضح كل شيء.. لقد كانت تعابثهم وقد قررت مس (بيردي) العودة لدارها في (ممفيس)..
وحين عرفت بموضوع الخمسين مليونا قالت:
- لا بأس.. ليس هذا شيئا بالنسبة لجنايني مثل (رودى)!
انهيت كل إجراءات قضية (كيلى)، واقتنع القاضي بألا تكون هناك محاكمة.. بعد ما أقر ممثل الادعاء ذاته أن الحالة حالة دفاع عن النفس..
وإن حذرني القاضي أن أقارب (كليف) مجانين، يتصلون مائة مرة في اليوم به، مطالبين بإعدامها دون محاكمة.. لمجرد أنهم يريدون ذلك..
وفي اليوم ذاته انطلقت رصاصة لتدخل من نافذة مكتبي، وتحدث ثقبا في الجدار.. لم يكن هناك سوى (ديك) الذي أصابه الهلع.. واتصل بـ (بوتش) كى يلحق به حالا.. لكن الحادث لم يتكرر..

∞∞∞∞∞

قمت بتنظيف الشقة د (مس بيردي).. ثم توجهت إلى المكتب كى أنهى صفقتي مع (ديك).. لقد قررت أن أنفصل.. سيحصل

(ديك) على ملفات القضايا التي يريدها.. وأحصل أنا على نصف مدخرات المكتب منذ بدأنا العمل.. إن (ديك) سيبحث عن محام آخر يعمل تحت رخصته..

قال لي (ديك):

- لقد اتصل بي (بروزر) أمس!!
- أين هو؟
- في جزر البهاما!
- وهل (برينس) معه؟
- نعم.. لقد فعلاها!

أراهن على أن (ديك) كان يعرف هذا منذ زمن..

ثم قال لي:

- هل تعرف أن مالهما مازال هنا؟ أربعة ملايين..
- أين؟
- تحت أرضية ورشة.. إنه يعدني بعشرة في المائة لو نقلت المال إلى (ميامى).. وسيتولى (بروزر) الباقي..
- لا تفعل يا (ديك).. سيقبض عليك..
- أشك في هذا.. إن الفيدراليين لم يعودوا يراقبوننا..
- وهل هو محتاج إلى المال؟
- لا أدري.. لكنه بالتأكيد يريده بشدة!
- لا تفعل..
- إن الأمر سهل.. قطعة من الكعك..

كنت أعرف أنه سيفعلها.. إنها فرصته الأخيرة ليكون ثريا.

تعانقنا حتى كاد يخنقني.. وقال لي:

- إنك قد صنعت التاريخ يا (رودى)..
- بل صنعناه معا..

وكانت عيناه دامعتين.. راح يبتعد ببطء وأنا أرمقه في صمت..

∞∞∞∞∞∞∞

كتبت مذكرة أودع فيها مس (بيردى)، وتأكدت من غلق الشقة التي رأت أحسن وأسوأ أيامي.. ثم ركبت السيارة إلى الملجأ..
كانت (كيلى) تنتظرني في قلق، ومعها حقيبة جلدية فيها كل ما تملك.. وقعنا الأوراق وشكرنا صاحبة الملجأ.. وركبنا السيارة..
سألتها:
- إلى أي اتجاه؟
وضحكنا لأن كلينا لا يعرف له وجهة.. وقالت:
- أريد أن أرى الجبال..
- إذن هو الغرب..
- أريد رؤية الثلوج..
- ربما وجدنا بعضها هناك..
أراحت رأسها على كتفي.. ودخلنا (أركنساس)، واختفى من خلفنا جسر (ممفيس).. سنعيشن في مكان لا يجدنا أحد فيه.. أريد أن أترك وشأني.. لا شيء عن (بروزر) ولا (الفائدة العظمى).. لا أريد أن تطلبني مس (بيردي) لحل مشكلة قانونية.. ولا أخبار عن (كليف) وأهله المجانين..
إنها ستكمل دراسة الكلية فهي مازالت في العشرين من عمرها.. وأنا أريد أن أدرس التاريخ.. لن أمارس عملا له علاقة بالقانون أبدا.. سأترك رخصتي حتى تفقد صلاحيتها.. لن أضع قدمي في محكمة ثانية...
ابتسمنا بينما الأرض تستوي أمامنا، وحركة المرور تقل.. لقد صارت (ممفيس) على بعد عشرين ميلا وراءنا..
عندها أقسمت ألا أعود أبدا..

جون جريشام - 1995

(تمت بحمد الله)

صانع الأمطار
وحيدا.. مفلسا حديث التخرج.. يحاول (رودى) المحامي الشاب أن يواجه فساد شركة تأمين ضخمة، تقف ضده بجيش من المحامين العتيدين ذوي الخبرة. ولا يملك رودى) في هذه الحرب المخيفة سوى إيمانه بأن موكله قد ظلم ظلما فادحا.. فهل ينجح؟
بأسلوبه الساحر وسخريته اللاذعة، ينجح (جون جريشام) في جعل هذا الصراع صراعا شخصيا تتوتر له حتى اللحظة الأخيرة..

أحمد خالد توفيق


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

(22)

(24)

(25)

(27)

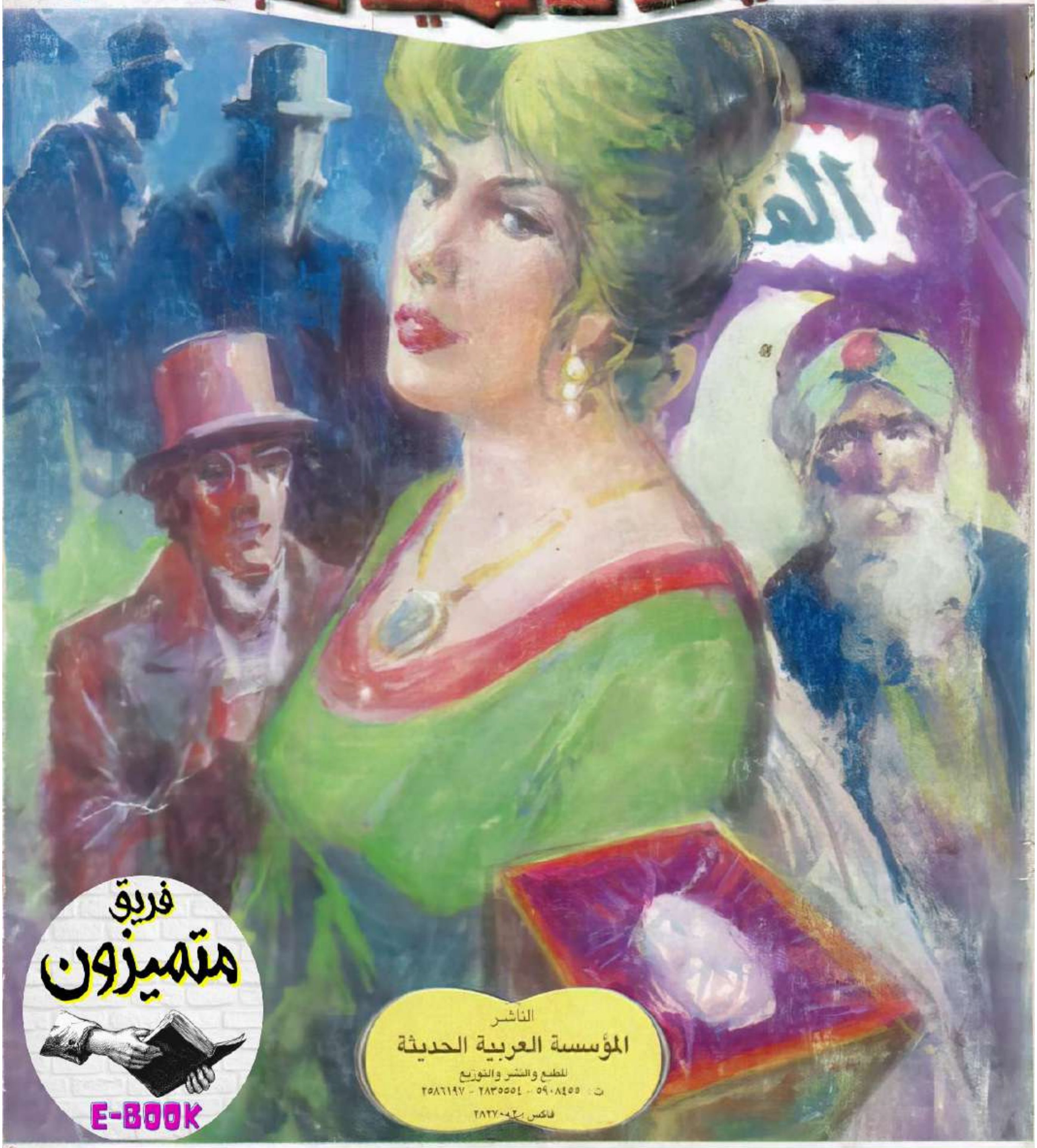
(28)

[←1]
(*) نذكر القارئ أن (رودى) فقد وظيفته في (برودناكس) بسبب دمجها مع شركة (بريت).

[←2]

(*) في الولايات المتحدة تتم المحاكمة في وجود المحلفين، وهم اثنا عشر مواطنا عاديا حسن السمعة، يحضرون المحاكمة، ويكون عليهم بعدها تحديد هل المتهم مذنب أم لا.. في حين يقتصر دور القاضي على تحديد العقوبة.

روايات عالمية للجيب 21



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧

ألف ليلة وليلة الجديدة

بقلم : ر. ل. ستيفنسون
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (21)

ألف ليلة وليلة الجديدة

بقلم: ر. ل. ستيفنسون.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالميةً للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

المؤلف..

لو أن أحدا حاول أن يذكر قائمة بأفضل عشر قصص مغامرات في تاريخ الأدب، لكان من المحتم أن تتضمن القائمة قصة (جزيرة الكنز) لـ (ر. ل. ستيفنسون). ولسوف يتكرر الأمر ذاته لو اخترنا قائمة من خمس قصص، أو ثلاث قصص، ولو اخترنا قصة واحدة لكان هناك احتمال لا بأس به أن تكون هي (جزيرة الكنز)..

كلنا نعرف أحداث القصة، لكننا لا نعرف شيئا تقريبا عن مبتدعها..

مولود في (إدنبرة) عام 1850... دارس للقانون..

معتل الصحة إلى الحد الذي يوحى في كل لحظة بأنه يحتضر الآن... هذا هو (روبرت لويس ستيفنسون) شاعرنا وأديبنا الشهير..

لقد ترك مهنة القانون وتفرغ للأدب، وكان كثير الأسفار.. وفي (كاليفورنيا) قابل من ستكون زوجته، فعاد معها إلى (اسكتلندا) حيث كتب رائعته (جزيرة الكنز) في صيف عام 1881..

ولم يكن قد كتب أفضل رواياته بعد.. ففي عام 1886 قدم لنا رائعته (الحالة الغريبة لدكتور جيكل ومستر هايد)، وهي التي صارت إحدى كلاسيكيات أدب الرعب وعلم النفس معا.. وقدمتها السينما مرارا بعد وفاته..

وفي عام 1888 ارتحل إلى (هونولولو).. ثم إلى جزيرة (ساموا) من جزر جبل (طارق) حيث قدم روايتيه الشهيرتين (كاتريونا) و (الاختطاف)..

وفي عام 1894 انتصر المرض أخيرا بعد صراع دام أربعة وأربعين عاما، ظل كاتبنا طوالها ينتظر نهايته في كل لحظة..
مات وهو يملى روايته (سيد الأسماك في هرميستون) وكأنما الموت لم يطق صبرا حتى يفرغ من كتابتها..
لقد انتظر طويلا وهو ذا الوقت قد حان..
لكن (رول ستيفنسون) عاش طويلا جدا في وجداننا..
وهو واحد من الموهوبين القلائل الذين لم يعد أدب المغامرة بعدهم كما كان قبلهم..
وفي هذا الكتيب نلتقي باثنتين من قصصه القصيرة الشائقة ([1])، والتي قدمها في مجلد يحمل هذا الاسم الممتع: (الليالي العربية الجديدة).. وبعبارة أقرب إلى فهمنا نحن العرب: ألف ليلة وليلة الجديدة..

د. أحمد خالد

∞∞∞∞∞∞

قائمة بأشهر أعمال (ر. ل. ستيفنسون)..

جزيرة الكنز..
كاتريونا..
الحالة الغريبة لـ د (جيكل) ومستر (هايد)..
الاختطاف..
رحلة داخلية..
دراسات مألوفة للإنسان والكتب..
الليالي العربية الجديدة..
الأمير أوتو..
الرجال السعداء..
في بحر الجنوب..
قصص وحكايات خيالية..
الصلوات..
الأب داميان..
عظة مسيحية..

∞∞∞∞∞∞

جوهرة الراجــا

كانت جوهرة الراجا معجزة قادرة على تفسير نفسها.. لو وجدها صبي قروي لحملها صارخا إلى أقرب كوخ.. ولو وجدها متوش بدائى لراح يعبدها حتى يكلَّ..

∞∞∞∞∞

حتى سن السادسة عشرة، في مدرسة خاصة ثم في معهد من المعاهد التي اشتهرت بها (انجلترا) تلقى مستر (هارى هارتلي) التعليم العادي الجدير برجل مهذب.. لكنه أظهر عدم ولع شديد بالدراسة..
وبعد عامين توفي والده تاركا إياه شحاذا ويتيما.. ولم يكن (هاري) صالحا بأي حال للنشاطات العملية والعقلية.. كان يجيد غناء الأغاني الرومانسية، يصاحبها بعزف موفق على البيانو، وكان يملك روحا فروسية، ويتذوق لعبة الشطرنج بشكل ملحوظ..
ثم إن مظهره الخارجي كان من أجمل المظاهر التي يمكن تصورها.. فهو أشقر وردي البشرة له عينا يمامة وابتسامة رقيقة.. وله أسلوب رقيق خاضع..
لكننا - حين يأتي الكلام الجاد - لا يمكن أن نجده رجلا مناسبا كى يقود الجيوش أو يدير شئون الدولة..
تدخلت الصدفة - وبعض التوصيات من ذوي النفوذ - كى تقدم ل (هارى) فرصة كي يعمل سكرتيرا للجنرال سير (توماس فاندلير).. كان شير (توماس) في الستين من عمره عاتيا عالي الصوت، ولسبب ما يتهامس الجميع به - كان راجا (خاشجار) قد قدم لهذا الضابط سادس أكبر ماسة في العالم.. وقد أحالت هذه الهدية الجنرال إلى رجل ثري، وأحد أسود مجتمع (لندن) وصارت كل الدوائر ترحب به..
وسرعان ما وجد الجنرال شابة حسناء تمنت أن تكون الماسة لها، حتى ولو كان ثمن ذلك هو الزواج من الجنرال..

يقولون إن الجواهر تجذب الجواهر.. وقد كانت ليدى (فاندلير) درة نادرة، اعتادت أن يراها الناس في بذخ.. ويعتبرها الثقاة من أكثر ثلاث سيدات أناقة في إنجلترا..
لم يكن عمل (هارى) مرهقا.. لكنه كان يمقت كل أشكال العمل.. وكان يكره أن يلوث أنامله بالحبر.. كما أن جمال السيدة كان يجتذبة إلى خدرها بدلا من الجلوس في المكتبة.. وكان لطيفا مع النساء يجيد الكلام عن الموضة، ويمكنه أن يقوم بمأمورية من وإلى صانع القبعات..
في النهاية ثار حنق الجنرال على تأخر مراسلاته ونهض من مكانه ليخبر سكرتيره أنه لم يعد بحاجة إلى خدماته.. واستعمل إشارة من يده قلما يستعملها السادة، وكان الباب مفتوحا ليسقط مستر (هارتلي) خارجا منه.
كان الحزن يغمره لأن الحياة في دار الجنرال تناسبه.. رفقة لطيفة.. يعمل أقل ما يمكن.. ويأكل أفضل ما يمكن.. ثم إنه كان هائما بالليدي (فاندلير)..
لهذا هرع إلى خدر الليدي وأخبرها بمدى أسفه على ما كان..
وقال لها والدمع ينحدر من عينيه:
- سيدتي.. ما الإهانة؟ إنني لا أفهم كيف لا يغفر المرء الإهانات.. لكن ما يؤلم هو أن يفارق المرء أصدقاءه.. أن يكسر روابط العاطفة التي..
ولم يستطع إكمال الكلام لأن عاطفته خنقته، فراح يبكي..
نظرت له الليدي في فضول وفكرت:
- هذا الأحمق يحسب نفسه في قصة حب معي! لم لا يكون هو سكرتيري بدلا من الجنرال؟ إنه لطيف المعشر خدوم يفهم في الأزياء..

وليلتها فاتحت الجنرال بالأمر.. وكان هذا بالفعل قد بدأ يندم على فظاظته مع السكرتير.. وانتقل (هارى) إلى العمل في خدر الليدي حيث كانت حياته أقرب إلى الجنة.. راح يلبس أكثر الثياب أناقة ويضع الزهور في عروة سترته.. ويشعر بالفخار لأنه خادم لهذه المرأة الرقيقة، حتى ولو كان الرجال يتهكمون عليه باعتباره (وصيفة مذكرة)..

كان يشعر بأنه يعيش في جزيرة مسحورة وسط عواصف الحياة..

ذات يوم جميل كان يعزف بعض النغمات على البيانو.. وكانت ليدي (فاندلير) واقفة في الناحية الأخرى تكلم أخاها.. وهو رجل متقدم في العمر ضئيل الجسد يدعى (تشارلى بندراجون).. أعرج.. مفلس بعد حياة تبذير طويلة..

ولم يستطع السكرتير أن يتجنب سماع جزء من المحادثة:

- اليوم أو لا للأبد.. مرة واحدة وينتهي الأمر اليوم..

رد الأخ متنهدا:

- اليوم إن كان هذا ضروريا.. لكنها خطوة حمقاء يا (كلارا)،، ولسوف نندم عليها أبدا..

نظرت له نظرة غريبة في عينيه.. وقالت:

- أنت تنسى أن الإنسان يموت في النهاية حتما..

- بشرفى يا (كلارا).. أعتقد أنك أكثر وغد بلا قلب في (انجلترا)..

- يا لكم معشر الرجال من ضخام الأجساد حتى لتعجزون عن فهم معنى الكلمات الحكيمة! ليس لدي صبر مع أمور كهذه..

- ربما كنت على حق.. فقد كنت دوما أبرع منى، وعلى كل حال: أنت تعرفين شعارى: الأسرة قبل كل شيء..

- نعم.. أعرف هذا الشعار.. وأعرف أن (كلارا) قبل الأسرة.. هذا هو الجزء الثاني من الشعار..

نهض مرتبكا.. وقال:
- من الخير ألا يراني أحد.. وسأبقى عيني على قطتك المدللة..
- افعل ذلك.. فهو شخص خسيس ومن الممكن أن يفسد كل شيء..
وسرعان ما انصرف الأخ..
فما إن صارا وحيدين حتى هرعت الليدي إلى السكرتير.. وقالت له:
- لدى مأمورية لك اليوم يا (هارى).. لكن
ستركب عربة أجرة لأني لن أترك الشمس تحرق بشرة سكرتيرى..
ثم أردفت في مكر:
- هو سر من أسرارنا العظيمة.. ولا يجب أن يعرفه أحد.. لو عرف سير (توماس) لكانت مأساة.. أوه يا (هارى)! هل لك أن تقول لي لماذا الرجال قساة ظالمون إلى هذا الحد؟ لكن.. أنت الرجل الوحيد الذي يجهل كل شيء عن هذه الأمور المشينة.. فأنت طيب رقيق.. وتجعل الآخرين يبدون أكثر شرا بالمقارنة بك!
وصمتت لحظات كى تعمل كلماتها أثرها.. لكن ليس بما يكفى كى تسمح له بالرد، وقالت:
- لكن هذا خارج الموضوع.. ستجد صندوق قبعات في الناحية اليسرى من الدولاب المصنوع من البلوط.. ستأخذه إلى هذا العنوان.. لكن لا تتركه تحت أية ظروف حتى تتلقى إيصالا بالاستلام بخط يدي.. هل تفهم؟ إن هذا مهم جدا..
راح (هاري) يردد تعليماتها.. وهنا دخل الجنرال إلىّ بوجه محمر غضبا، وفي يده فاتورة من بائع القبعات.. وصرخ:
- هل يمكنك إلقاء نظرة إلى هذا يا (مدام)؟ أعرف أنك تزوجتني من أجل المال لكنني - كما أنا واثق من أن الله خلقني - واثق

أيضا من أنني سأضع نهاية لهذا الإسراف المهين!
قالت الليدي لسكرتيرها:
- مستر (هارتلي).. أعتقد أنك تعرف الآن ما يجب عمله.. هل لى أن أسألك القيام به حالا؟
قال الجنرال لـ (هارى):
- لحظة.. كلمة قبل أن تنصرف.. ما هي مأمورية هذا الشاب العظيمة؟ إنني لا أثق به أكثر مما أثق بك.. فهلا أخبرتني بالأمر؟ لو كانت لديه بقية من كرامة لغادر هذا المنزل حالا.. ما هي مأموريته يا مدام؟
- لو كنت مصرا على أن يلم الخدم بمشاداتنا.. فعليّ أن أسأل مستر (هارى) البقاء ها هنا.. لا؟ حسن.. يمكنك الانصراف يا مستر (هاري)..
فر (هاري) على الفور من الغرفة وصعد في الدرج وهو يسمع صوت الجنرال وصوت الليدي الرفيع يتشاجران.. لكم احترم هذه المرأة! لقد تحاشت سؤالا محرجا ببراعة.. وشعر بسعادة لأنه سيقوم بخدمة لها..
وجد علبة القبعات حيث وصفتها له.. فنسق ثيابه وغادر الدار.. كانت الشمس حارة ومشواره طويلا.. وتذكر في ضيق أن دخول الجنرال منع الليدي من إعطاء (هارى) نقودا لعربة أجرة..



مشى أسرع من المعتاد حتى كاد يعبر حدائق (كنزنجتون)
حين وجد نفسه فجأة أمام الجنرال ! ..

كان يعرف أن مظهره سيتأثر بعنف.. إن آل (فاندلير) يعيشون في (إيتون بليس) ووجهته هى (نوتنج هيل).. عليه إذن أن يعبر الحديقة.. مشى أسرع من المعتاد حتى كاد يعبر حدائق (كنزنجتون)..

حين وجد نفسه فجأة أمام الجنرال!
قال في أدب وهو يوشك على الإغماء:
- معذرة يا سير (توماس)..

- إلى أين أنت ذاهب سيدي؟
- أجول بين الأشجار..
ضرب الجنرال بعصاه على صندوق القبعات، وقال:
- بهذا الشيء؟ أنت تكذب وتعرف أنك تكذب!
- لم أعتد أن يخاطبني أحد بهذا الصوت المرتفع..
- ألا تفهم موقفك؟ أنت خادم لمن أحمل ضدها أعتى الشكوك.. كيف أضمن أنك لم تملأ الصندوق بالفضيات؟
وأمسك به من كتفه في خشونة ورفع عصاه مهددا..
اعتبر (هارى) نفسه ضائعا.. وهنا منحته السماء مدافعا غير متوقع، في شخص (تشارلى بندراجون) الذي برز من وراء الأشجار..
- هلم هلم يا جنرال! ارفع يدك! هذا ليس لطيفا ولا رجوليا..
استدار الجنرال ليواجه خصمه الجديد:
- آها! مستر (بندراجون)! وهل تظن أنني...
- لأنني كنت تعس الحظ إلى حد الزواج من أختك سأسمح لنفسي بأن أُهان بوساطة فاسق مفلس مثلك؟
إن حياتي مع ليدى (فاندلير) - سيدى - قد جعلتني أفقد الشهية تجاه كل أفراد أسرتها..
- وهل تحسب با جنرال أن أختي - ما دامت تعسة الحظ إلى حد الزواج منك - ستسمح لك بحرمانها من حقوقها كسيدة؟ بالنسبة لي هي مازالت من أسرة (بندراجون). ومن واجبي أن أحميها من الاعتداء الوحشي، ولن أسمح لحريتها بأن تقيد.. ولا أن يوقف رسولها الخاص بهذا الشكل الشرس!
وأضاف في حنق:
إنني أمنح نفسي حرية التدخل فقط حين أرى القوة يساء استعمالها، ورجلا يسيء إلى من هم أدنى منه..

وأشار لـ (هارى).. لكّن الأخير كان أكثر غباءً أو ازعاجا من أن يفهم..
ولوح الجنرال بعصاه قاصدا رأس (تشارلى)، لكن الأخير تحاشي الضربة بمظلته.. ثم صاح:
- اجر يا (هارى)! اجر! هلم يا أحمق!
تصلب (هاري) لوهلة.. ثم ولى الأدبار.. ونظر وراء كتفه ليرى الجنرال يهوى عند ركبتى (تشارلي)، لكنه يحاول جاهدا أن يغير اتجاه المعركة وامتلأت الحديقة بمن جذبتهم المشاجرة..
كان المشهد يملأ (هارى) بشعور من الصدمة.. ثم تذكر أن ليدي (فاندلير) هي أخت واحد وزوجة واحد من هذين المتصارعين؛ فشعر بالحزن من أجل حظ هذه المرأة العاثر.
كان شارد الذهن حتى إنه نسي اتجاهه الأصلي..
تأمل المظروف الذي أعطته إياه الليدي.. كان العنوان هناك دون اسم.. كل هذا غامض جدا.. وللحظة بدأ يشك في ليدي (فاندلير) نفسها.. لكن سيطرتها على روحه كانت كاملة.. لذا لام نفسه على هذه الشكوك..
كان يريد الخلاص من صندوق القبعات بأسرع ما يمكن..
أوقف أول رجل شرطة وسأله عن الطريق.. لم يكن بعيدا.. ووصل إلى هدفه بعد دقائق.. كان منزلا حديث الدهان حسن المظهر، ومطرقة بابه لامعة صقيله.. وله ستائر ثقيلة فاخرة..
قرع الباب وهو يزيل الغبار عن حذائه.. ظهرت له خادمة جذابة نوعا.. ابتسمت له.. فقال لها:
- هذا الطرد من ليدي (فاندلير)..
- نعم.. أعرف.. لكن السيد غير موجود، فهل تتركه لي؟
- لا أستطيع.. مطلوب مني ألا أسلمه إلا بإيصال وأخشى أن على أن أسألك تركي أنتظر..

- حسن سأتركك تنتظر.. فأنا وحيدة ها هنا.
وأنت لا تبدو من النوع الذي يلتهم الفتيات.. لكن لا تسلني عن اسم السيد..
- هل هو صاحب البيت؟
- لا.. إنه يستأجره منذ ثمانية أيام.. هل تعرف ليدى (فاندلير)؟ إنها جميلة أليس كذلك؟
- بلى.. وكذلك طيبة وكريمة..
- أنت كذلك طيب.. وأراهن على أنك تستحق دستة من أمثالها!
قال وقد شعر بالخجل:
- أنا مجرد سكرتير لها..
- يا لهؤلاء النساء! يرسلن سادة مهذبين مثلك، يحملون علب قبعات في يوم حار كهذا!
نظر إلى أول الزقاق، فرأى لخيبة أمله جنرال (فاندلير) قادما! كان يجري في الشارع يبحث عن أخي زوجته، فما إن رأى السكرتير البائس حتى تغير هدفه.. وجاء يركض عبر الزقاق..
اندفع (هارى) داخل المنزل وأوصد الباب في وجه الرجل.. بينما المطرقة يتردد صداها في أرجاء المكان.. وصاح (هارى):
- لو أمسك بي فأنا ميت! إنه يطاردني طيلة اليوم حاملا عصا طرفها مدبب كسيف.. وهو ضابط جيش عائد من الهند..
سألته الخادمة:
- إنه سيدي الجنرال ويريد هذا الصندوق..
صاحت في انتصار:
- ألم أقل لك؟ كنت أتوقع الأسوأ من سيدتك، ولو عندك ذرة نظر لعرفت الشيء ذاته..
كان الجنرال يركل الباب الان..

- من حسن الحظ - قالت - إنني وحدي في المنزل.. وليدقن جنرالك الباب حتى يكل ساعداه، ولن يفتح له أحد.
واقتادت (هارى) إلى المطبخ فأجلسته.. ثم سألته:
- ما اسمك؟
- (هارى هارتلي)
- اسمي (برودانس).. هل تحبه؟
- جدا.. ولكن.. الجنرال سيحطم الباب حتما.. عندها يكون هلاكى..
هزت رأسها في ثقة وقادته إلى الباب الخلفي.. ثم طلبت منه أن يركض بأسرع ما يستطيع لأنها ستدع الجنرال يدخل..
لم يحتج (هارى) لنصحها لأنه كاد يطير فرارا..
جرى بضع خطوات حين سمع من يناديه بالاسم..
نظر للوراء ليجد (تشارلى بندراجون) يطلب منه التوقف.. لكن الذعر استبد بـ (هاري) فلم يجد خيرا من الركض.. لم يسعفه ذهنه بتذكر أن (تشارلى) في صفة مادام عدو عدوه..
كان الزقاق منحدرا ضيقا تحيطه الأشجار من الجانبين، هنا لاح صبي جزار يحمل الصينية في يديه.. الأمر الذي أوحي لمطارد (هارى) بفكرة جيدة.. فرفع عقيرته صائحا:
- أوقفوه! لص!
وعلى الفور وضع صبي الجزار حمله واشترك في المطاردة..
كانت هذه لحظة مريرة لـ (هاري) الذي واصل الركض، وهو يدرك أن موارده من التنفس تنفد بسرعة..
- يجب أن أجد مكانا للاختباء! وإلا فأنا منتهِ تماما..
هنا اتخذ الزقاق منحنى جانبيا..
لم ينتظر (هاري) للتفكير.. وجد سور حديقة جواره.. فرمى بصندوق القبعات فوق السور ثم تسلق خلفه ليثب إلى

الداخل..
عاد إلى وعيه بعد لحظات؛ ليجد نفسه جالسا وسط الزهور.. ويداه تدميان لأن السور كان مليئا بالزجاج المكسور للوقاية من المتسلقين..
سمع خطوات تدنو منه قبل أن يستعيد وعيه..
كان القادم شخصا ضخما غليظا يرتدي ثياب بستانى ويحمل أداة للسقاء في يده.. لم يشعر (هارى) بالذعر لأن سقطته سلبته الشعور تماما..
ترك الرجل يدنو منه.. ويوقفه بغلظة على قدميه، دون حركة أو مقاومة..
سأله الرجل في استمتاع برعبه:
- من أنت؟ من أنت كى تطير فوق جدارى وتهشم زهورى؟ وماذا تفعل هنا؟
لم يجد (هاري) كلمة للتفسير على حين قال البستاني:
- أريد أن أسمع منك قبل أن آخذك إلى المخفر.. أنت لصا.. لص يكسب الكثير من المال؛ لهذا أنت متأنق إلى هذا الحد.. هذا القميص! أراهن على أنه أغلى من القبعة التي أرتديها يوم الأحد في الكنيسة.. وهذا الحذاء الـ..
وهنا كف الرجل عن الكلام.. وتصلبت عيناه على الأرض وراح يرمق شيئا هناك.. وسرعان ما صاح:
- ما كل هذا بحق السماء؟!
نظر (هارى) إلى اتجاه عيني الرجل؛ فرأي ما جمد الدم في عروقه.. لقد سقط فوق صندوق القبعات فهشمه.. وهنا سقط منه كنز عظيم من الماس.. وقد تبعثر بعضه في التراب.. كان هناك تاج ذهبي اعتاد أن يراه على ليدي (فاندلير) وخواتم.. وأقراط تبعثرت بين الأعشاب كندى الصباح.. ثروة جديرة

بالأمراء هناك بين الرجلين على الأرض.. تبعثر الضوء في مليون قوس قزح، سرعان ما استعاد (هارى) الماضي.. وبدأ يفهم مغامرة اليوم.. ويفهم المؤامرة الحزينة التي تورط فيها..
- أنا ضائع!
تلفت البستاني حوله بحثا عن وجوه فضولية.. ثم قال:
- تجلد يا أحمق! لقد انتهى أسوأ ما في الأمر.. لِم لَم تقل لي من البداية إن هناك ما يكفي لاثنين، بل لمائتين؟!
وراح يجمع المجوهرات المبعثرة بلهفة ويعيدها للعلبة، ثم أشار ل (هارى) كى يتبعه في اتجاه المنزل..
عند مدخل الدار قابلا رجلا شابا يبدو أنه رجل دين متأنقا جدا وله نظرة تجمع بين الوهن والتصميم..
تضايق البستاني من هذا اللقاء.. لكنه رسم البشاشة على وجهه وحيا القس في مودة:
- يوم جميل يا مستر (رولز).. كما خلقه الله، وهو ذا صديق لي أراد أن يرى زهورى.. لأني حسبت السكان لن يعترضوا..
قال مستر (رولز) الموقر:
- بالطبع لا.. فالحديقة حديقتك يا مستر (ريبون).. لكني - بعد إطالة النظر - أرى أنني قابلت السيد من قبل. مستر (هارتلي) على ما أظن؟
ومد يده مصافحًا.. فضل (هارى) أن يترك نفسه تحت رحمة البستاني المجهول له.. على أن يقع فريسة فضول وشكوك شخص يعرفه.. لذا قال:
- أخشى أن هناك خطأ ما.. اسمي هو (توملينسون)..
- حقا؟ إن التشابه المذهل..
دون كلمة أخرى جرّ البستاني (هاري) إلى غرفة في الحديقة.. وشدّ الستائر لأن مستر (رولز) ظل في الحديقة وقد بدت عليه

علامات الدهشة والتفكير..
أفرغ البستاني محتوى علبة القبعات، وراح يفرك يديه في جشع وهو يرمق المجوهرات.. وأثار وجهه الذي اجتاحته الشهوات الذعر في نفس (هارى).. فهو لم يرتكب خطايا في حياته.. لكنه الآن يشعر بكل مشاعر الخطيئة: الخوف من العقاب



وأثار وجهه الذى اجتاحته الشهوات الذعر فى نفس (هارى) ..

- شكوك الأخيار فيك - رفقة الأوغاد..

قال الرجل وهو يقسم المجوهرات إلى كومتين متساويتين تقريبا:
- الآن ترى يا مستر (هارى) - لو كان هذا اسمك - أنني رجل بسيط سهل الطباع.. كان بوسعي أن آخذ هذا الكنز كله لنفسي وأتمنى لو رأيتك تعترض، لكن لا بد أنني أحببتك.. فهل ترى هذه قسمة عادلة.
صاح (هارى):
- لكن يا سيدي.. ما تقترحه عليّ مستحيل، فهذه الماسات ليست ملكي ولا أستطيع أن أقتسم ما هو ملك لسواى..
- إذن أنا مضطر لأخذك إلى المخفر.. ألست لصا؟ فكر في السجن.. فكر في المستعمرات.. فكر في يوم الحساب..
قالها ولوي ذراع الفتى بقوة..
قال (هارى) وهو يتألم:
- موافق..
- هذا حمل وديع.. عرفت أنك ستعرف مصلحتك، سأحرق هذا الصندوق مع القمامة.. والآن خذ نصيبك وضعه في جيبك..
راح الرجل يتأمل الماس.. ومن حين لآخر تلتمع شهوته ببريق ماسة جديدة، فيأخذها من نصيب السكرتير..
واتجه الرجلان إلى الباب.. كان الشارع خاويا من المارة.. وإذا بالرجل يلوي رأس (هاري) لأسفل بحيث لا يرى الشوارع التي يسيران فيها.. ودار به ثلاثة منعطفات ثم أطلق سراحه وصاح:
- والآن اغرب عن وجهي! وركله ركلة رياضية محكمة الاتجاه.. ثم اختفى..
ولوهلة ظل الفتى يبكي ألا وكمدا.. فهو لم يُعامل بهذه القسوة قط..

كان هناك من يرمقه من النوافذ البعيدة.. ورأي خادمة تهرع نحوه حاملة قدحا من الماء، ودنا منه متشرد كان يتسكع في الشارع المجاور..
جرع من الماء.. وهنا لاحظ أن ما بقي من ماس في جيبه بعد (الشقلبة) التي أجبره عليها البستاني؟
قد سقط منه.. تبعثر على الأرض..
شعر أن استعادة هذه الماسات أشد أهمية من فقدانه النصف الذي استولى عليه البستاني.. لكن - واحسرتاه! - ما إن دنا من الماس، حتى لوح المتشرد مهددا.. ووثب ليلتقط قبضة من الماس وهرع يجري عبر الشارع بسرعة جنونية!
نهض (هارى) وراح يطارد المتشرد صارخا، لكن الآخر كان سريعا جدا..
عاد (هارى) مهدها إلى مشهد المأساة.. كانت الخادمة قد أعدت قبعته وما تبقى من الماس.. فشكرها، ولما كان في مزاج غير مناسب للاقتصاد؛ فقد شق طريقه إلى موقف عربات الأجرة، واتجه إلى (إيتون بليس)..
وصل إلى المنزل فرآه في حال توحي بالخراب، كان الخدم واقفين في الصالة قلقين.. مرّ بهم متظاهرا بالكبرياء واتجه إلى خدر الليدي (فاندلير).. عندها رأي الجنرال والليدي و (تشارلى بندراجون) واقفين وعلى وجوههم أمارات الجدية.. لقد اتحدوا جميعا في وجه خطر مشترك..
صرخت الليدي:
- حمدا لله! ها هو ذا! صندوق القبعات.. يا (هارى).. الصندوق!
لكن (هاري) ظل صامتا..
كرر الرجال السؤال بصوت مهدد..

أخرج (هارى) قبضة مجوهرات من جيبه.. كان شاحبا جدا.. وقال:
- هذا كل ما بقي.. وأقسم أمام الله أن هذا لم
يكن مني.. وبعض هذه المجوهرات يمكن استرجاعها أما البعض فلا..
قال الجنرال:
- مدام.. يمكنني أن أغفر لك سرقة تاج أمي وخاتمها.. ولكن ليس ماسة الراجا.. عين الضياء كما يسميها الشرقيون.. فخر ال (خاشجار)! لقد انتهى ما بيننا للأبد يا مدام!
قالت الزوجة:
- صدقني يا جنرال.. لو أنك أصغر سنا ولديك ماسة أكبر من رأسك؛ فلسوف أحذر حتى خادمتى من زيجة مدمرة كهذه.. أما أنت يا مستر (هارتلي)..
وأدارت رأسها نحو السكرتير - فإن لدينا الآن قناعة تامة بأنك تفتقر إلى الرجولة والإحساس واحترام الذات.. وعليك بالاستقالة حالا.. ويمكنك أن تطالب بأجرك من (تفليسة) زوجى..
لم يكد (هاري) يستوعب هذه الإهانة حتى باغته الجنرال بأخرى:
- والآن.. ستذهب معي لأقرب مفتش شرطة.. إنك قد تخدع جنديا بسيطا، لكن عين القانون ستعرف أسرارك المشينة.. ولسوف يسلبني الله متعة عظيمة لو أنك لم تجمع ألياف الكتان حتى يوم مماتك.. ([2])
وهكذا جرّ الجنرال (هارى) من الشقة إلى قسم الشرطة..
يقول الرواي العربي: وهكذا تنتهي قصة صندوق القبعات.. لقد اقتنع رجال الشرطة ببراءة السكرتير

خاصة بعد ما عاونهم قدر الإمكان.. وسرعان ما ورث مبلغا لا بأس به من خالة في (ورسسترشاير)، تزوج به (برودانس) ورحل إلى (بنديجو) وبدأ حياة راضية..

∞∞∞∞∞

حكاية رجل الدين الشاب..

كان مستر (سيمون رولز) الموقر قد أحرز لنفسه مكانا مرموقا في علوم الأخلاق.. وكان شديد الكفاءة في دراسة اللاهوت.. وغدا له وضع متميز في جامعة (أوكسفورد).
لكن هذه الإنجازات الطموح لم تساعده في تحقيق مستقبله.. ولقد أقام في هذا الجزء من (لندن) لأنه يجلب له السلام.. ويساعده على الدراسة، بالإضافة لرخص الإيجار الذي يدفعه لمستر (ريبورن)..
واعتاد بعد الظهر - وبعد سبع أو ثماني ساعات من الدراسة - أن يمشي بعض الوقت بين الزهور متأملا... وفي العادة تكون هذه أكثر ساعات يومه إثمارا.. لكن هذا لم يمنعه من ملاحظة سكرتير الجنرال (فاندلير) ممزق الثياب ملوثا بالدماء وفي صحبة مالك الدار..
وأثار فضوله أن السكرتير أنكر شخصيته بإصرار، مما جعله ينسى القديسين والآباء ويشعر بفضول غير عادى..
وفكر:
- لا يمكن أن أكون مخطئا.. لا شك أن هذا هو مستر (هارتلي).. كيف صار بهذا المنظر المزرى؟ ولِم ينكر اسمه؟
ثم إن (ريبورن) دخل ومعه صديقه إلى الكوخ..
وحين نظر من النافذة والتقت عيناه بعينى مستر (رولز)؛ بدا الارتباك على البستاني وسرعان ما أسدل الستائر ليحجب ما يحدث عن القس..
تحرك المخبر البوليسي الموجود في كل منا، ليصحو في صدر مستر (رولز).. وبخطوات ملهوفة لا تشبه خطواته الأصلية في

شيء راح يدور حول الحديقة وسرعان ما رأي زهورا محطمة وخدوشا على الجدار، وقطعة ممزقة من سروال، تتدلى من إحدى قطع الزجاج المحطم على الحائط..
هكذا إذن دخل صديق مستر (ريبورن)!
انحنى القس الشاب يتفحص الأرض.. كانت آثار أنامل كأنما هناك من راح يجمع شيئا تبعثر على الحشائش..
- لعمر الله إن الأمر يزداد إثارة للاهتمام..
عندها رأى شيئا مدفونا في الأرض..
كانت علبة مغربية الصنع مزخرفة بالعاج.. لقد داسها أحدهم بحذائه مما جعلها تفلت من بحث مستر (ريبورن) المدقق..
فتح العلبة وشهق دهشة إذ استقرت أمامه على وسادة من المخمل الأخضر ماسة هائلة الحجم.. في حجم بيضة دجاجة بلا عيب واحد.. وشعر أن يده تحترق من ملمسها بألف نار داخلية..
لم يكن يعرف الكثير عن الأحجار الثمينة.. لكن جوهرة الراجا كانت أعجوبة قادرة على تفسير نفسها، لو وجدها صبي قروي لحملها صارخا لأقرب كوخ، ولو وجدها متوحش بدائي لراح يعبدها حتى يكلّ..
إن من يملك هذه لقادر على بناء كاتدرائيات أعظم من (كولون).. قادر على أن يتحرر للأبد من لعنة الفقر..
وقادر على أن يتبع مزاجه الخاص دون عجلة ولا توتر إن القرارات الحاسمة يتم اتخاذها في لحظة دون وعى تقريبا.. وهذا ما فعله مستر (رولز).. لقد تلفت حوله فلم ير أحدا.. وسرعان ما وضع العلبة في جيبه وهرع إلى مكتبه بسرعة الذئب ذاتها..
لقد سرق مستر (رولز) المحترم ماسة الراجا!
بعد الظهر وصل رجال الشرطة مع (هارى هارتلي)..

وسرعان ما تم الكشف عن المجوهرات التي استولى عليها البستاني..
هنا ظهر مستر (رولز) مبديا استعداده التام لمعاونة.. وحكي ما رآه بوضوح واعتذر عن عدم قدرته على إسداء خدمات أكبر لرجال الشرطة، وقال:
- لكني أفترض أن مهمتكم قد انتهت تقريبا..
قال ضابط (سكوتلانديارد):
- بتاتا.. هناك جواهر أكثر أهمية لم نجدها بعد..
- لابد أنها تساوى ثروة..
صرخ الضابط:
- بل عشر ثروات.. عشرين ثروة!
قال (رولز) في مكر:
- كلما ساوت أكثر كلما صار عسيرا بيعها.. إن هذه الأشياء يستحيل إخفاؤها.. ربما كان من الأسهل على المرء أن يبيع كاتدرائية القديس (بول)..
- حقا.. لكن لو كان اللص ذكيا لقطع الجواهر الكبرى - خاصة ماسة الراجا – إلى أجزاء وسيوجد ما يكفي لجعله ثريا بعد هذا..
قال (رولز):
- شكرا.. لن تتصور كم أن هذه المحادثة تثير شغفي!
وعاد مستر (رولز) إلى شقته.. بدت له أصغر، وأكثر عريًا من المعتاد.. ونظر إلى المكتبة بعين مشمئزة..
فكر وهو يتأمل المجلدات:
- هؤلاء السادة هم - ولا مراء - كتاب نافعون.. لكنهم يجهلون الحياة بشكل واضح.. هأنذا أملك من العلم ما هو جدير بأسقف لكني لا أعرف كيف السبيل إلى الخلاص من ماسة مسروقة.. إن لدي فكرة عامة لكني لا أدري كيفية تطبيقها..

هنا تذكر أنه يعرف صائغا يدعى (ب. ماكولوش)
في (إدنبرة) سيسعده حتما أن يمنحه المران اللازم بضعة أشهر وربما أعوام بعدها يمكنه أن يقسم ماسة الراجا ويبيعها.. من ثم يعود لممارسة أبحاثه دون قلق.. طالبا ثريا يحسده الجميع..
ونام تزوره الرؤى الذهبية...
في الصباح جاء رجال الشرطة لإغلاق دار المستر (ريبورن).. وكان هذا عذرا كافيا له كي يرحل..
أعدّ حقائبه ونقلها إلى (كينجز. كروس)، ثم ذهب إلى النادي ليمضي الأمسية ويتناول عشاءه إلى أن يجيء القطار..
قال له أحد معارفه هناك:
- لو تعشيت هنا الليلة يا (رولز) فلسوف تلقى رجلين شهيرين في انجلترا.. الأمير (فلوريتسل) من (بوهيميا)، و (جون فاندلير) العجوز..
- سمعت عن الأمير.. وقابلت الجنرال مرة..
- الجنرال حمار كبير! هذا هو أخوه (جون) خبير الأحجار الكريمة وأحد الدبلوماسيين العظام، ألم تسمع عنه قط؟ خذ مائدة بقربه.. وأصغ لما يقال.. ولتسمعن عجبا..
تساءل القس:
- ولكن كيف أعرفهما؟
صرخ صاحبه:
- تعرفهما؟ إن الأمير هو المخلوق الوحيد الحي الذي يبدو كملك.. أما (فاندلير) فيشبه (أوليس)، لو عاش إلى سن السبعين، ولو كانت هناك طعنة سيف في وجهه! ([3]).. لسوف تعرف الرجلين حتما..

هرع (رولز) بلهفة إلى قاعة الطعام.. وكانت كما وصفها صاحبه.. وكان من المستحيل أن تخطئ الرجلين المعنيين..
كان (جون فاندلير) العجوز عملاقا، هو خليط من الفارس والبحار، له قسمات جريئة وألف معقوف ووجه مشاكس.. يعطيك الانطباع برجل أفعال شرس، أما شعره الأبيض وندية السيف علي خذه فيعطيان انطباعا بالتوحش..
وكان أمير (بوهيميا) كما وصفه صديق (رولز) بالضبط..
الجالسون متناثرون في أرجاء القاعة تاركين هذين الإثنين المتميزين وحدهما.. لكن القس لم يهبه شيئا.. فدنا من الرجلين وجلس على أقرب مائدة قربهما.. وراح يسمع محادثة غريبة نوعا..

إن (جون فاندلير) له مغامرات كثيرة في كل أرجاء العالم.. أما الأمير فكانت لديه تعليقات أهم من المغامرات ذاتها..
هكذا كانت هناك خبرتان أمام القس.. ولم يدر من يحترمه أكثر، المؤدي الشجاع أم خبير الحياة البارع؟
الرجل الذي يتحدث بجرأة عن أفعاله، أم الرجل الذي يعرف كل شيء دون أن يفعل شيئا؟
وكان (فاندلير) يتحدث، وهو يحرك ذراعيه بإشارات فظة.. وله صوت عال.. أما الأمير فكان أرستقراطيا جدا وهادئا.. وكانت أقل إيماءة له أكثر أهمية وثقلا من كل الصراخ الصادر من مرافقه..
كان الرجلان يتحدثان عن ماسة الراجا!
قال الأمير (فلورتيزل):
- خير لهذه الماسة أن تلقى في البحر..
قال (فاندلير):
- أظن أن سموكم تعتبرونني منشقًا عن آل (فاندلير)..

- إنني أتحدث بخصوص السياسة العامة.. إن المجوهرات الثمينة كهذه يجب ألا يسمح بها إلا في خزانة أمير أو بنك دولة.. أما أن يتم تداولها بين الناس العاديين فأمر غير طبيعي.. وإذا كان راجا (خاشجار) يبغي الانتقام من الأوربيين، فما كان ليجد وسيلة أفضل من هذه الهدية التي تجلب الفتنة.. إنني أعتقد أنني غير قادر على الاحتفاظ بهذه الماسة وسلامتي في آن واحد.. وأنت يا صائد الماسة بطبعك وذوقك.. لا أعتقد أنه توجد جريمة لن تقارفها ولا صديق لن تخونه.. ستحارب كى تكون هذه الماسة لك عاما أو اثنين بعدهما تموت.. ومن آن الآخر تفتح خزانتك لتطمئن عليها..

قال (فاندلير):

- أنت محق.. لقد اصطدت أكثر الأشياء. اصطدت الرجال والنساء وحتى البعوض.. وطاردت الحيتان والنمور.. وكما لسموكم أن تتخيل أنا أبحث عن ماسة الراجا في هذه اللحظة.. إنني أعرف كل جوهرة في مجموعة أخي كما يعرف الراعي خرافه.. وأتمنى أن أموت ما لم أحصل عليها جميعا..

قال الأمير بنوع من الاشمئزاز:

- لا أفهم ما ترمي إليه بالضبط..

هنا دخل خادم ليخبر (فاندلير) أن عربته بالانتظار..

نظر مستر (رولز) إلى ساعته.. ووجد أن عليه الانصراف هو أيضا.. كان يريد معرفة المزيد عن صائد الماس هذا.. للأسف..

كان قد حجز - كعادته - أريكة مريحة في عربة النوم بالقطار..

وقال له حارس القطار:

- ستكون مستريحا ولا يوجد سوى سيد عجوز في الناحية الأخرى من القمرة..

مرت ساعته وتم فحص التذاكر.. ورأي (رولز) رفيق سفره يحرسه عدد من الحمالين يقودونه إلى مكانه.. وبالطبع ما كان هناك رجل في الكون لا يرغب (رولز) في رؤيته مثل (جون فاندلير) العجوز!

يتم تقسيم عربات النوم في خط الشمال إلى ثلاثة أقسام: قسم في كل طرف لأحد المسافرين.. وفي الوسط يوجد قسم معد كدورة مياه.. ويوجد باب يفصل الدورة عن كل غرفة على حدة.. ولم يكن هناك ترباس أو قفل مما يجعل المكان - عمليا - مشتركا..

أدرك مستر (رولز) أن موقفه خطر بالفعل، فهو بلا دفاع على الإطلاق.. ولو أراد (فاندلير) أن يزوره ليلا فلا شيء يمكن عمله..

شعر بذعر مؤلم..

تذكر في هلع ما قاله (فاندلير) على العشاء منذ ساعتين.. وكان قد قرأ أن بعض الأشخاص يملكون حسنا خاصا نحو الأحجار الكريمة.. ويشعرون بها على بعد ومن وراء الجدران!

لو كان هذا صحيحا فمن أجدر بهذه الموهبة من الشخص الذي يفخر بلقب (صائد الماس)؟!

إن لديه أسبابا قوية ليهاب رجلا كهذا، وينتظر طلوع الصبح بلهفة..

دارى الماسة في أعمق أعماق جيوب معطفه، واستعاد القطار مسيرته السريعة..

بدأ النعاس يهزم القلق في عينى مستر (رولز)، ووجد أن عينية تنغلقان ببطء.. حاول المقاومة لكن سدى..

حين استيقظ مضى وقت طويل قبل أن يستعيد توازنه..

جذب قبعته على عينيه كي يحميهما من وهج النور القادم من الخارج.. بينما رؤي مخيفة تطارده الماسة في جيبه كبيرة جدا..

تضغط على صدره..
تحرقه.. ولربع ثانية فكر في أن يطوح بها من النافذة..
هنا حدث شيء مرعب..
تحرك الباب الذي يقود إلى دورة المياه قليلا..
وفي النهاية اتفرج عن فراغ مقداره عشرون بوصة..
كان المصباح في الحمام يتوهج.. ورأى (رولز) رأس مستر (فاندلير) يتلصص باهتمام شديد!
وأدرك أن تحديق الرجل يتركز على رأسه.. فجعلته غريزة الحفاظ على الحياة يحبس أنفاسه ويكف عن الحركة.. وراح يرمق الرجل من وراء أهدابه..
بعد دقائق عاد الرأس للداخل وانغلق الباب..
لم يأت الرجل ليهاجم.. بل ليلاحظ.. ولم يكن مسلكه مسلك رجل يهدد، بل مسلك رجل مهدد. كان يريد الاطمئنان فاطمأن وعاد..
نهض (رولز) على قدميه وقد بدأ يشعر بالجسارة...



ثم فتح الباب على الجانب الآخر فى حذر شديد .. عندها لم يملك نفسه دهشة .. كان (جون فاندلير) منهمكاً فى عمل غريب ! ..

اتجه إلى الحمام وفتحه.. ثم فتح الباب على الجانب الآخر في حذر شديد.. عندها لم يملك نفسه دهشة كان (جون فاندلير) منهمكا في عمل غريب..

فبين قدميه كانت هناك علبة من الورق المقوى، وفي يده مدية وفي اليد الأخرى كم معطف يمزقه بهذه المدية.. يبدو أن بطانة الكم تحوي مجوهرات، وها هي ذي ماسة تلو أخرى تسقط في العلبة الورقية..
استطاع (رولز) من مكانه أن يعرف أن هذه المناسبات هي التي سرقها المتشرد من (هارى هارتمان)..

بالتأكيد هي.. فقد وصفها له الضابط جيدا.. هي ذي نجمة الياقوت.. وزمردة كبيرة في وسطها، وشعر (رولز) بالراحة.. إن (فاندلير) متورط في الأمر مثله تماما.. لهذا تنهد تنهيدة عميقة، لكنها جعلته يسعل لأن حلقة كان جافا..
نظر مستر (فاندلير) لأعلى وتقلص وجهه، وتدلى فيه دهشة.. ولنصف دقيقة تبادل الرجلان النظرات..
كان هذا وقتا كافيا لمستر (رولز) لأنه كان سريع التفكير في وقت الخطر.. وقرر أن يقوم بعمل جريء..
قال وقد تمالك رباطة جأشه:
- أطلب عذرك..
نظر له الرجل.. وبصوت خشن تساءل:
- ماذا تريد من هنا؟
- إنني مهتم بالماس.. ولدي هنا تحفة قد تروق لك.. على الفور أخرج علبة من جيبه.. وأظهر للرجل ماسة الراجا..
- كانت هذه لأخيك!
ظل (فاندلير) يرمقه في ذهول.. ولم يتكلم.. فأردف (رولز):
- يسرني أن ألاحظ أن كلينا يحمل جواهر من ذات المجموعة..
قال (فاندلير):
- أعذرني أيها الشاب.. واضح أنك لست جبانا، لكن مازال على أن أتأكد مما إذا كنت لست أحمق الحمقى في العالم.. ولأفترض لحظة أن لديك غرضا ما من هذا العرض..
قال (رولز):
- الأمر سهل.. ينبع من انعدام خبرتى وجهلى الشديد بالحياة...
- يسرني أن أقتنع..
حكى له (رولز) كل شيء عن ماسة الراجا..
وتوصل في النهاية إلى هذه الكلمات:

- عرفت أننا نحمل الموقف ذاته تجاه المجتمع وألهمني هذا - بأمل لم يكن غير ذى أساس – بأنك ستكون شريكا لى في صعاب ومزايا الأمر.. فأنت تعرف الكثير عن الماس ولن تتجشم عناء في بيع هذه.. بينما الأمر بالنسبة لي مستحيل.. ومقدار ما ستأخذه من مال يعادل ما كنت سأخسره بقطع هذه الماسة بيد غير خبيرة.. وإنني لأعتذر عن عدم لياقتى، لكني لا أعرف أسلوب (الإيتيكيت) المتعلق بأمر كهذا..

قال (فاندلير):

- لست براغب في إطرائك.. لكن - بشرفى - إن لك ميلا غير معتاد للإجرام.. لقد قابلت أوغادا في كل بقاع الأرض، لكني لم ألق قط من لا يخجل مثلك أبشر يا مستر (رولز) فقد وجدت مهنتك الصحيحة أخيرا! إن لدي عملا يستغرق يوما في (إدنبرة) فما إن يتم حتى أعود إلى (باريس).. فلو سمحت بمرافقتي إلى هناك، سأكون قد وصلت إلى حلٍ مُرض بصدد هذا الأمر خلال شهر واحد..

هنا كف الراوي العربي عن سرد قصته.. وإني لأسف لهذا لكني مضطر لأن أتقيد بالقصة الأصلية.. لهذا أحيل القارئ إلى الفصل التالي، ليعرف ما حدث لمستر (رولز).

∞∞∞∞∞∞

حكاية المنزل ذي الستائر الخضراء..

كان (فرانسيس سكريمجور) موظفا بالبنك في (إدنبرة).. وصل إلى سن الخامسة والعشرين في مناخ منزلي هادئ، ونال تعليما ممتازا في المدرسة..

برغم وفاة والدته في سن مبكرة من حياته..

كان لين العريكة رقيق الحاشية، كرس نفسه وروحه لعمله. ولذا صار رؤساؤه يحبونه، وغدا راتبه مائتى جنيه في العام، مع وعد بمضاعفة هذا المبلغ مع الترقية.. وعامة لم يكن هناك شبان كثيرون راضون مثله..

في ذات يوم تلقي مذكرة من شركة محاماة معروفة، يطلبون اللقاء به.. وكان الخطاب سرا وخاصا لهذا نفذ الطلب باهتمام..

كان مدير الشركة ودودا.. رحب به في جدية وراح يشرح له الموضوع:

إن شخصا ما يفضل أن يبقى اسمه سرا – لكن المحامي لديه أسباب كثيرة ليثق به - يريد أن يمد (فرانسيس) بمعاش سنوي قدره خمسمائة جنيه..

وسيكون المبلغ تحت رعاية كفيلين.. وهما كذلك يريدان أن يظلا غير معروفي الاسم..

وهو يعتقد أن عميله لن يجد شيئا مهينا أو مبالغا فيه في الشروط التي يحصل بها على هذا المبلغ

- وما هي الشروط؟

- لا أخفي عليك أنها غير معتادة.. في الواقع القضية كلها غريبة.. وكان على أن أرفضها لكني لا أستطيع أن أخيب ظن هذا العميل..

سأله (فرانسيس) أن يوضح الكلام أكثر..
- إنهما شرطان تحصل بهما على المبلغ..
ورفع المحامي حاجبيه.. وقال:
- الأول سهل جدا: يجب أن تكون في باريس، بعد ظهر الأحد الخامس عشر من الشهر.. وستجد هناك في شباك تذاكر (الكوميدي فرانسيز) تذكرة باسمك عليك الدخول والجلوس طيلة العرض في المقعد المطلوب.. هذا كل شيء..
- أما الشرط الثاني فأكثر أهمية: إن عميلى يريد أن يختار لك زوجتك بشكل مطلق.. أنت تفهم هذا!
سأله (فرانسيس):
- لنكن أكثر وضوحا.. هل سأتزوج واحدة - خادمة أو أرملة - يريد هذا المجهول أن يزوجها لي؟
قال المحامي:
- أؤكد لك أن تناسب الوضع الاجتماعي مهم جدا بالنسبة للمحسن إليك..
سأله (فرنسيس):
- كل هذه الأمور لا تُصدق.. وما لم أر ضوء النهار ومبررا واضحا فإنه يؤسفني أنني عاجز عن قبول هذا العرض.. لذا اطلب منك معلومات أكثر..
إذا لم تكن تعرف أو لا تقدر على التخمين أو لست مخولا بأن تجيب، عندها سأخذ قبعتي وأعود إلى البنك..
- أنا لا أعرف.. لكن عندي تخمينا جيدا.. أن أباك وراء هذا!
- أبي؟! صاح (فرنسيس) غير مصدق..
- هذا الرجل الطيب.. إنني أعرف كل أسراره وكل مليم يملكه،،
قال المحامي:

- أنت تسيء فهمي.. أنا لا أتحدث عن مستر (سكريمجور) الكبير.. بل عن والدك! أبيك الحقيقي..
من المستحيل هنا أن نصف ذهول (فرنسيس) لدى سماعه هذه المعلومة الغريبة.. ووسط حيرته فارق المكان متجها إلى داره، شاعرا بمزيج من الأهمية والغرابة..
بدأ يحس في قلبه نفورا من اسم (سكريمجور)، وراح يشعر بضيق من حياته السابقة عديمة الأهمية..
لقد تلقى شيكا يحوي نصف المبلغ لأن المعاش يبدأ في يناير..
وما إن عاد لشقته حتى بدأ يشعر باشمئزاز من رائحة الحساء التي تفعم المكان، ويلاحظ عيوبا في سلوك أبيه بالتبني، لقد أعد نفسه تماما لحياته القادمة..
في باريس انتقى فندقا رخيصا يسكن فيه الإنجليز والإيطاليون.. وكرس وقته كي يجيد الفرنسية، فراح يتسلى بمحادثة عابري السبيل في (الشانزليزيه)، وزيارة المسرح ليلا..
وعندما جاء الصباح؛ اتجه إلى شباك التذاكر في المسرح الكائن في شارع (ريشليو).. قدم له الموظف مظروفا يحوي تذكرة.. وقال:
- لقد تم حجزها لك هذه الساعة!
- حقا؟ هل لي أن أسأل عن مظهر السيد؟
- هذا سهل.. إنه عجوز قوي أشيب الشعر ويوجد أثر سيف علي خده.. ولسوف تتعرفه بسهولة!
لن يكون بعيدا.. لو أسرعت ستجده..
راح (فرنسيس) يبحث في كل مكان وسط الوجوه دون جدوى.. لكن - حين كاد ييئس خدمته الفرصة بشكل غير عادي.. فقد وجد على إفريز شارع (رو دى مارتير) رجلين على مقعد.. أحدهما شاب أسمر له سيماء رجل الدين.. أما الآخر فكان يتفق مع كل حرف ذكره الموظف!

شعر بفؤاده يخفق في صدره.. وأدرك أنه أمام أبيه..
وقف خلف الاثنين اللذين استغرقتهما المحادثة فلم يلحظا وجوده.
قال العجوز بالإنجليزية كما توقع (فرنسيس):
- إن شكوكك تضايقني يا (رولز).. إنني أبذل ما بوسعي.. ألا تحيا على نفقتي؟
قال الآخر:
- بل على مقدم أتعابك يا مستر (فاندلير).
- حسن.. لن نختلف على المصطلحات.. فقط كف عن مضايقتي وإلا فابحث عن شخص آخر..
- إن لديك كل الأسباب التي تغريك بخداعي..
ولا تغريك بتعامل شريف.. وعاجلا.. أو آجلا ستسرق الماسة..
قال (فاندلير):
- إن تبادل الاتهامات لعبة لاثنين يا مستر (رولز).. وإذا لم ترض بالانتظار فإنك تجازف بالسقوط في بئر بلا قاع داخلى.. وعندئذ مرحبا بك!
قال ذلك وهو ينهض متجها نحو (مونمارتر)..
شعر (فرنسيس) بهلع ودهشة.. كان يأمل في أن يشعر برقة الرجل وحنانه، لكنه الآن يشعر بيأس واشمئزاز.. إن أباه القديم يبدو وديعا جدا حين تقارنه بهذا الرجل الشرس الخطير..
راح يمشي دون شعور وراء الرجل الذي لم ينظر وراءه قط..
كان منزل الرجل في (رودى لابيك).. له نوافذ مغلقة بستائر خضراء وكل أبوابه موصدة.. ورآه (فرنسيس) يدخل..
كانت هناك لافتة تقول: مسكن غير مؤثث للإيجار، وهي تعلن عن مبنى مواجه لمنزل (فاندلير)..

لم يتردد (فرنسيس) لحظة.. بل سرعان ما استأجر الغرفة، وعاد لفندقه كي يجلب حقائبه.. فقد يكون العجوز أباه وقد لا يكون.. لكنه بالتأكيد على حافة لغز مثير.. وقد أقسم أن يعرف سر هذا الرجل..
ومن نافذة شقته راح يراقب الحديقة..
كانت حديقة عادية، لكن المنزل يعطي انطباعا عاما بالسجن، وكانت الستائر مسدله على الدوام..
راح يزجي الوقت في إجادة الفرنسية، عن طريق دراسة هندسة (إقليدس) بالفرنسية.. ومن حين لآخر يلقي نظرة على المنزل..
في العاشرة مساء سمع صوت جرس يدق..
نهض إلى النافذة ليرى ما هنالك، فوجد الأقفال تفتح والأبواب تنفرج.. ورأى مستر (فاندلير) يحمل مصباحا ويخرج إلى البوابة..
ثم رآه يقتاد شخصا له مظهر متواضع إلى داخل الدار، وبعد نصف ساعة رآه يخرج مرة أخرى، ويقوده للخارج.. ثم وقف يدخن سيجارا وهو شارد الذهن.. حركاته وهو ينفض التبغ توحي بأن هناك تفكيرا مؤلما يشغل وجدانه..
ولم يلبث أن دو صوت فتاة شابة تناديه، فألقى بعقب السيجار على الأرض ودخل إلى المنزل، ومن جديد انغلق الباب وساد الظلام.
استيقظ (فرنسيس) في الصباح، وكل عظمة من جسده تؤلمه.. فنوم الليل على الأرض لم يكن مريحا، وحين نظر إلى المنزل ذي الستائر الخضراء وجد الستائر مرفوعة، وإذا بفتاة شابة تبرز من الباب لوهلة ثم تعود إلى الداخل.. وهلة لكنها كانت كافية كي يدرك أنها جذابة جدا..
بدأت معنوياته تتحسن، وشعر بأن أسرته القادمة تستحق منه الاهتمام.. ترى هل الفتاة أخته أم زوجته القادمة؟ إنها أقرب

لملاك متنكر منها إلى أي شيء آخر..
استشار البواب، وكان لدى هذا الأخير القليل جدا مما يقدمه..
الجار هو سيد إنجليزي له طبائع غريبة وعادات أغرب.. لديه مجموعات ثمينة في داره لهذا يحيطها بهذا الغموض ويقيها من الآخرين.. ليس لديه صداقات سوى بعض الزوار الغرباء الذين يجري تعاملات معهم..
ثم إن هناك الآنسة وخادمة عجوز.. فقط..
- هل الآنسة هي ابنته؟
- نعم.. إن المودموازيل هي ابنة البيت.. وبرغم ثرائهم فإنها تذهب إلى السوق يوميا بنفسها حاملة السلة في ذراعها..
- وما المجموعات التي يحتفظ بها الرجل؟
- مسيو (فاندلير) سافر لكل أرجاء العالم وقد سمعت أنه يجمع الماس ولو كان هذا حقا فلابد أن هناك عرضا مبهرا بالداخل!
وفي صباح الأحد اتجه (فرانسيس) إلى المسرح..
كان المقعد الذي تم حجزه له يبعد ثلاثة مقاعد عن الممر الأيسر جوار إحدى المقصورات المنخفضة..
لم يساوره شك في أن هذا المقعد تم اختياره بعناية لغرض ما..
ونظر للمقصورة على يمينه فأدرك أن من يجلس فيها قادر على مراقبته بدقة طيلة العرض، دون أن يراه (فرانسيس) إلا بصعوبة..
كان الفصل الثاني يدنو من نهايته، حين دخل شخصان في الظلام ليجلسا في هذه المقصورة.. كان هذا هو مستر (فاندلير) وابنته! وبصعوبة تحاشى (فرانسيس) النظر نحوهما، لكن أذنيه كانتا تصفران.. ولم يجرؤ على الحركة كي لا يثير الشكوك.. لكنه حين كان يختلس النظر من لحظة لأخرى كانت عيناه تلتقيان بعيني الفتاة.. احمرت الدنيا أمام عينيه..

ما الذي لا يعطيه مقابل سماع ما يقوله هذان الاثنان؟
ما الذي لا يعطيه مقابل السماح له بأن ينظر نحوهما مباشرة؟
هناك يتم تحديد حياته كلها.. بينما هو عاجز عن التدخل.. عاجز عن المشاركة.. مرغم على الجلوس ها هنا متوترا..
انتهت المسرحية.. ووجد نفسه وسط زحام الناس يتجه مرغما إلى الخارج..
في الصباح وقف ينتظر الآنسة (فاندلير) في أثناء ذهابها للسوق...
في الساعة الثامنة رآها.. كانت ذات طابع أرستقراطي سام.. والسلة في ذراعها بدت له كنوع من الزينة شديدة البهاء.. كأنما الظلال تفسح لها الطريق والشمس تتبعها في أثناء مشيها..
دنا منها وناداها باسمها..
التفتت لترى من هو.. فشحب وجهها.. قال لها:
- سامحيني.. إن السماء تعرف أنني لم أرد إفزاعك.. ومن العسير أن يفزع المرء حين يلقي من يتمنى له كل خير.. إن لدينا أمورا مشتركة.. وأنا واقف في الظلام وحدي.. ولا أعرف من أصدقائي ولا من أعدائي..
- أنا لا أعرفك..
- بل تعرفينني يا مس (فاندلير) خيرا مما أعرف نفسي.. قولي لي من أنا.. قولي لى اسم أبي، ولسوف أشعر بامتنان عظيم..
قالت:
- لن أحاول خداعك.. أنا أعرف من أنت لكن لا أملك حرية الكلام..
- إذن لن أضغط عليك.. فقط لا تدعيني أحسب أنني أضفت عدوا جديدا إلى أعدائي..
- لم تفعل سوى ما هو طبيعي.. والآن وداعا!

- هل هو الوداع إذن؟
- لا.. لا أعرف هذا.. أردت الوداع للحظة الحاضرة فحسب..
قالت هذه الكلمات ورحلت..
عاد لمسكنه وواصل مراقبته.. وهنا رأي (جون) مع رجل آخر..
كانت المرة الأولى التي يرى فيها جنرال (فاندلير).. كان رجلا له سمات العسكريين يشبه أخاه إلى حد ما.. لكنه يفتقر إلى المظهر الأرستقراطي القوي الفخم حتى بدا ككاريكاتور إلى جوار أخيه..
كان الرجلان جالسين إلى منضدة في الحديقة التي أمام المنزل.. وقد تقارب رأساهما وراحا يتحدثان بصوت خفيض لم يسمع منه حرفا بالطبع من مكانه إلا أنه أدرك أن المحادثة كانت عنيفة.. وذات مرة صاح الجنرال في عصبية:
- (فرنسيس فاندلير)! أقول لك هذا!
ما معنى هذا؟ هل يتحدثان عنه؟ من جديد يتجدد الشجار.. ثم صاح الجنرال:
- زوجتي؟ لقد انتهى أمر زوجتي.. ولن أعود إلى هذه السيرة أبدا!
ثم انصرف غاضبا..
وجلس (جون فاندلير) وحده يضحك.. ضحكة شيطانية مريبة حقا..
جاء موعد العشاء..
ولاحظ (فرانسيس) أن هناك استعدادات معينة تجرى في الحديقة.. وأن المائدة التي كان الرجلان جالسين إليها قد وضعت جانبا، لتكون عليها أطباق فارغة وأطباق سلاطة كأنما مأدبة يتم إعدادها.
ثم وصل مستر (رولز).. كان صموتا خفيض الصوت إذا تكلم.. على حين برز (جون فاندلير)، فبدا صاخبا مرحا، وراحت ضحكاته تدوي في السكون.. وجاءت مس (فاندلير) حاملة وعاء الحساء،

فراح مستر (رولز) يعاونها.. وعامة ساد جو من المرح المكان، وبدأ العشاء، وتعالى صوت الملاعق والأشواك، وجاء موعد القهوة.. ورأى (فرانسيس) مستر (فاندلير) يصب قدحين منها.. ثم - وهو يدير ظهره للاثنين - يفرغ محتويات قارورة صغيرة في أحد القدحين كان تصرفا سريعا جدا حتى إن (فرانسيس) كاد لا يلاحظه.. ثم إن (فاندلير) عاد بالقدحين والضحكة على شفتيه.. أحس (فرانسيس) أن هناك لعبة قذرة تدور ها هنا.. كان بحاجة إلى التدخل، ولكن كيف؟ ربما لم يكن ما حدث شيئا مهما.. شعر بالعرق يغمر جسده، والحيرة تمزقه..
ومرت دقائق..
فجأة سمع صوت زجاج يتهشم.. ثم صوت سقوط جسد وصرخة صرخت مس (فاندلير): - ماذا فعلت؟ لقد مات!
همس الرجل بصوت مسموع واضح:
- صمتا! إنه بخير حال مثلي.. فلنحمله معا..
لكنها واصلت البكاء.. فعاد يقول:
- هل سمعت؟ أم تريدين الشجار معي؟
- إنها جريمة!
- وإنني أبوك!
وعندها رأى (فرنسيس) الأب والابنة يحملان جسدا ويترنحان.. كان القس شاحبا يتأرجح رأسه في كل خطوة..
لم يستطع (فرنسيس) معرفة هل هو حي أم ميت.. لقد وقعت جريمة كبرى.. وربما كان فاعلها هو أبوه والقس على الأرجح ميت..
وشعر بشعور عارم من الحنان الأبوي.. إن واجبه هو أن يعين أباه سواء كان مخطئا أم مصيبا..

ولم يدر كيف ولا متي وثب من النافذة متشبثا بالأشجار ليهبط إلى الحديقة..
واندفع نحو المنزل وفتح الباب..



كان مستر (فاندلير) محنيًا على جسد مستر (رولز) ، فما إن رأى (فرنسيس) حتى تصلّب . .

كان مستر (فاندلير) محنيا على جسد مستر (رولز)، فما إن رأى (فرنسيس) حتى تصلب..

وفي ثانية واحدة مد يده إلى صدار (رولز) فأخرج شيئا.. ثم ناوله لابنته سريعا..
تم كل هذا وقدم (فرنسيس) مازالت على الباب، وفي اللحظة التالية جثا على ركبتيه أمام (فاندلير) وقال:

- أبتاه! دعني أساعدك عاملني كابنك ولتجدن عندي إخلاص الأبن.. سأفعل ما تأمر به دون أسئلة!
كانت استجابة الرجل الأولى هي حشد من الشتائم:
- أب وابن؟ ابن وأب؟ ما هذه الكوميديا العجيبة؟ وبحق السماء من أنت؟
هنا التمع النور على وجه (فرنسيس)، فضحك الرجل عاليا:
- أرى! إنه (سكريمجور)! حسن.. دعني أقل لك إنك قد دخلت منزلي عنوة، وفي لحظة ضيق بالنسبة لى؛ لأن ضيفي قد فقد وعيه.. أنت لست ابنا لى.. أنت ابن أخي لو أردت أن تعرف هذا.. وواضح من تصرفاتك أن عقلك ليس أفضل حالا من مظهرك.. ولو لم أكن مشغولا لعاملتك أسوأ معاملة ممكنة.. لهذا أنصحك بالرحيل حالا..
راح (فرنسيس) يصغي في ضعة حقيقية.. ولو كان بوسعه الرحيل لفعل، لكنه وقف يصغي في حماقة إلى ما يقال..
قالت مس (فاندلير):
- أبي.. أنت غاضب.. لكن نوايا مستر (سكريمجور) حسنة..
قال (فاندلير):
- أشكرك على الكلام.. لقد ذكرتني بنقطة أخرى أريد قولها لمستر (سكريمجور).. لقد كان أخي أحمق ليمنحك هذا المعاش.. وأحمق لأنه اقترح أن تزوجك هذه الشابة.. لقد تم عرضك عليها في المسرح.. وأقول إنها رفضت الفكرة باشمئزاز، ودعني أضف أن لى تأثيرا على أبيك.. ولن يكون ذنبي أنك ستحرم من معاشك، وتعود لدارك قبل انصرام الأسبوع!
كان صوت الرجل جارتنا أكثر مما يقول، وشعر (فرنسيس) بأنه يعاني أقسى وأعنف احتقار في حياته.. غطى وجهه بكفه كاتما أنة ألم.. لكن الفتاة وقفت معه من جديد..

- لا يجب أن تضايقك تعبيرات أبي الجارحة.. أنا لم أتنفر منك، بل العكس.. وقد زادتني أحداث الليلة تقديرا لك..
هنا حرك مستر (رولز) ذراعه.. فأدرك (فرنسيس) أن الرجل مخدر فقط.. انحنى مستر (فاندلير) وتفحص وجهه صائحا:
- هلم.. هلم! لينته هذا كله.. والآن يا مس (فاندلير) ما دمت متحمسة له هكذا.. فلتحملى شمعة وتقودي هذا الوغد إلى الخارج..
خرج معها الفتى إلى الحديقة، ممزق الروح والجسد قال لها:
- أشكرك من روحى.. لقد كانت أسوأ ليلة في حياتى..
ثم إنه سألها تذكارا منها.. فتفكرت هنيهة ثم قالت:
- لو أنني وافقت.. أتعدني بأن تنفذ حرفيا ما أطلبه منك؟
- حتما..
- عدني ألا تعود لهذا المنزل أبدا مهما سمعت ومهما عرفت.. اتجه إلى شوارع المدينة المزدحمة وكن حذرا.. أنت في خطر لا يمكن تصوره..
ووضعت شيئا ملفوفا بمنديل في يده ودفعته إلى الشارع، وأوصدت الباب وراءه، وعلى الفور بدأ في الركض.

∞∞∞∞∞

لو كان (فاندلير) هو الأقوى فإن (فرنسيس) هو الأسرع..
وقد ركض هذا حتى وصل إلى (كافي أمريكان)، وطلب بعض الجعة.. ثم أخرج المنديل من جيبه ليتفحص تذكار مس (فاندلير)..
وجد علبة مغربية بداخلها أكبر ماسة رآها في حياته.. إن قيمتها لهائلة.. وشعر بحيرة وهو ينظر..

هنا شعر بيد حازمة توضع على كتفه، وصوت هادي يقول:
- أغلق العلبة واستعد هدوء قسماتك!
نظر لأعلى ليجد رجلا شابا له هيئة مطمئنة.. كان قد جاء من مائدة قريبة حاملا كأسه.. ومرة أخرى قال:
- حاول أن تتخلص من ذهولك وتصرف كأنني أحد معارفك.. حسن! هكذا حسن! هكذا.. اقرع كأسك بكأسى.. أخشى يا سيدي أنك من الهواة!
قالها بابتسامة ذات معنى.. وأشعل سيجارا
سأله (فرنسيس):
سم - بحق السماء من أنت؟ ولماذا أطيعك؟ إن وجهك يلهمني بالثقة وتبدو لي حكيما.. فماذا تريد؟
- كل شيء في وقته.. يجب أن تخبرني كيف وصلت ماسة الراجا إلى حوزتك؟
- ماسة الراجا؟!
- لو كنت مكانك لما تكلمت بهذا الصوت العالي لقد تعاملت معها كثيرا.. حين كانت في حوزة الجنرال (توماس فاندلير)..
- أبي؟
- غريب! أبوك؟
كان الفتى يشعر بأنه - مع هذا الرجل - يقف على أرض ثابتة، وشعر بالاحترام يفعم صدره.. هنا سأله الرجل:
- هل لك أن تفسر لي كيف سرقت هذا الشيء؟
- ليس معي شيء مسروق.. لقد منحتني إياه منذ ساعة المس (فاندلير) في (رودى لابيك)..
- إنك تثير اهتمامى..
هنا تذكر الفتى أن هذه العلبة هي بالتأكيد ما أخذه (فاندلير) من ضيفه بعد تنويمه.. وحكى للغريب كل شيء..

ما إن فرغ من قصته حتى نادي الغريب السّاقى، وطلب منه:
- هل لك أن تسأل المدير أن يحضر لهذه المائدة..؟
ولاحظ (فرنسيس) أن نبرته نبرة رجل ألف إصدار الأوامر..
وجاء المدير بعد دقيقة لينحني أمام المائدة.. فقال له الرجل:
- أرجو أن تخبر هذا السيد باسمي..
قال المدير:
- إن لك الشرف يا سيدي أن تجلس على مائدة الأمير (فلورتيزل) أمير (بوهيميا)..
نهض (فرنسيس) مذهولا، لكن الأمير أشار له بالعودة إلى مقعده، وللمدير بالعودة لعمله.. ثم مد يده لـ (فرنسيس):
- أعطني هذه الماسة..
ناوله (فرنسيس) الماسة دون أن ينطق.. فقال الأمير:
- الصواب ما فعلت.. وستعيش لتشعر بالعرفان لأحداث الليلة.. الرجل يقع في مشاكل عديدة، لكن العاقل الشجاع هو من يخرج منها في شرف.. دع عقلك يسترح لأن مشاكلك في يدي.. ولتكونن نهايتها سعيدة..
ونهض الأمير مع الشاب.. ليقوده إلى عربته الفاخرة.. وقال له:
- هذه عربتي وهي تحت تصرفك.. اجمع متاعك، ولسوف تأخذك العربة إلى فيللا خاصة بي خارج (باريس)، تقيم بها حتى ينتهي الأمر..
تفوه (فرنسيس) ببعض عبارات العرفان.. فقال الأمير:
- سيكون هناك وقت كاف لشكري حين يعترف بك أبوك، وتتزوج مس (فاندلير)..
ثم فارقه الأمير، وأوقف أول سيارة أجرة وركبها بعد ربع ساعة وصل إلى دار مستر (فاندلير)..
فقرع الباب.. برز وجه مستر (فاندلير) الحذر يسأله من أنت؟

- أرجو أن تغفر لي هذه الزيارة المتأخرة يا مستر (فاندلير)..
كان هناك اثنان بالداخل.. أحدهما (رولز) والآخر هو مس (فاندلير) نفسها التي تغمر الدموع عينيها.. فحياهما..
سأل المستر (فاندلير):
- أي ريح طيبة أتت بسموكم هاهنا؟
- جئت لعمل معك..
ثم اتجه ليجلس تاركا الباقين واقفين.. كأنما هم خدم عنده يتلقون الأوامر.. وأردف:
- أنت يا مستر (رولز) تصرفت دون شرف، أما أنت يا مستر (فاندلير) فيداك ملوثتان بالجريمة.. كلا.. أنا هنا لأتكلم لا لأصغي.. لذا عليك أن تسمعني باحترام وتطيعنى.. لسوف تزوج ابنتك إلى صديقى (فرنسيس سكريمجور) ابن أخيك، وتقدم لها عشرة آلاف دولار كدوطة.. أما أنت يا مستر (رولز) فإن لى عملا لك كواعظ في (سيام).. أعتقد أن صمتك يا (فاندلير) يعني الموافقة..
نظر له الرجلان في دهشة.. ثم قال (فاندلير):
- ليس دون مقاومة مني..
قال الأمير:
- إن سنك الكبيرة لم تعطك حكمة.. فلا تستفزني وإلا وجدتني أقسى مما تتصور.. إن هذه أول مرة أصطدم فيها بك وأنا غاضب.. فاحرص على أن تكون آخر مرة..
ثم أشار إلى (رولز) كى يمشى معه إلى الحديقة وتبعهما (فاندلير) بشمعة كي يفتح لهما البوابة..
كان صامتا لكنه - ما إن أدار الأمير ظهره له – حتى أتى بحركة من يده، كلها تهديد وغضب مجنون ثم إنه غادر الدار بدوره قاصدا أقرب موقف العربات الأجرة..

يقول الراوي العربي: وهكذا يبتعد خيط الأحداث عن المنزل ذى الستائر الخضراء.. بقيت مغامرة أخيرة وتنتهي قصة (جوهرة الراجا).. إن آخر حلقة في السلسلة معروفة لدى ساكني (بغداد) باسم (مغامرة الأمير فلورينزل مع المخبر).

∞∞∞∞∞

مغامرة الأمير (فلوريتزل) مع المخبر..

مشي الأمير مع مستر (رولز) إلى باب الفندق الذي يسكنه الأخير..

كان (رولز) يشعر بندم، جعل العبرات تحتشد في عينيه.. وهو يقول:

- لقد دمرت حياتي.. قل لى ما يجب أن أفعله واحسرتاه! ليست لدي فضائل الرهبان ولا شرور المجرمين..

قال الأمير:

- لن أطالبك بشيء.. فالتائب يتعامل مع الله لا مع الأمراء.. لكن لو كان لي أن أنصحك، فلتذهب إلى (أستراليا) واعمل في المستعمرات هناك، وحاول أن تنسى أنك كنت رجل دين، أو وضعت عينيك على تلك الماسة اللعينة..

- لعينة حقا! أين هي الآن؟ وأي أذى تحدثه للبشرية؟

رد الأمير:

- لا مزيد من الأذى.. إنها في جيبي الآن..

وابتعد عن الرجل ليذوب في الظلام، أمام عينيه الدامعتين، لمدة ساعات راح الأمير يجول في الدروب حائر بصدد ما يجب عمله بهذه الماسة.. هل يعيدها لمالكها الذي لا يستحقها.. أم يقوم بعمل شجاع ويبعدها عن كل البشر للأبد؟

أخرج الماسة وراح يتأملها في ضوء الشارع..

حجمها وتألقها جعلاه يدرك أكثر فأكثر أنها الشرّ النقي مجسدا..

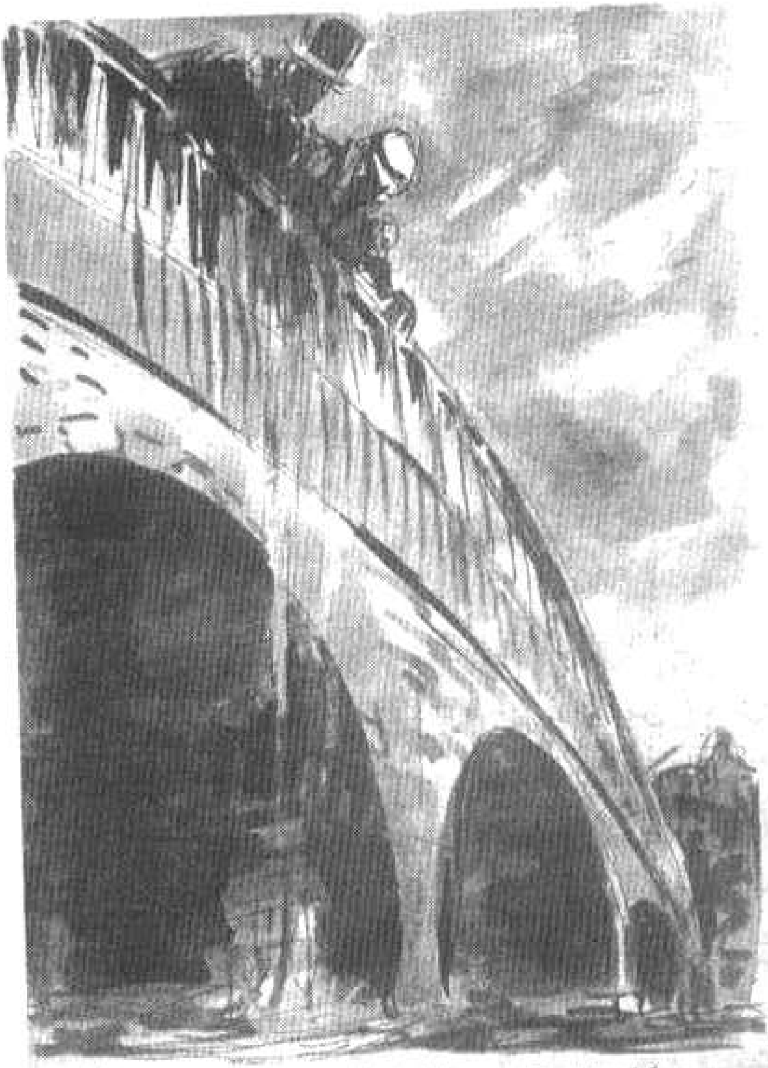
- فليعني الله! لو أنني نظرت إليها أكثر لغلبني الجشع أنا الآخر!

في النهاية عاد إلى داره..

كاد يدخل من الباب الخلفي كدينه، حين وجد رجلا يخرج من الظلام وينحني باحترام سائلا:
- هل لى شرف مخاطبة الأمير (فلورتيزل) أمير (بوهيميا)؟
- كذا أدعي.. فماذا تريد؟
- أنا مخبر.. ومطلوب مني استدعاء سموكم لمقابلة المأمور.. إنه مجرد إجراء روتيني..
- وماذا إذا أبيت أن أتبعك؟
- لن أخفي على سعادتكم أنني مخول بحرية التصرف..
قالها وانحنى.. فسأله الأمير:
- وهل لك أن تشرح لي سبب هذا الفعل غير المهذب؟ تلاحظ أنني لم أرفض ولم أقبل.. وقرارى يعتمد على إجابتك السريعة الحاذقة، ودعني أذكرك أن الأمر جد خطير..
قال المخبر بتواضع:
- سيدي.. إن جنرال (فاندلير) وأخاه لديهما اعتقاد لا يصدق بأنهما يتهمانك بالسرقة.. ويقولان إن الماسة الشهيرة في يديك.. ولسوف يكفي المأمور كلمة إنكار منك..
هنا - إذ سمع اسم (فاندلير) - عرف الأمير الحقيقة المروعة.. فهو لم يتم القبض عليه فحسب..
بل هو كذلك مذنب! إن هذه الكارثة على شرفه..
ماذا عساه أن يفعل؟ إن ماسية الراجا منحوسة حقا..
ويبدو أنه آخر ضحية لها..
شيء واحد مؤكد.. هو لن يعطى التأكيد المطلوب للمخبر وعليه أن يكسب وقتا.. ولم يستمر تردده سوى ثانية..
قال للمخبر:
- حسن.. دعنا نمش إلى المأمور..

انحنى الرجل ثانية.. ومشى وراء الأمير بمسافة محترمة.. فقال له هذا:
- ادن.. فأنا في مزاج للحديث..
ومشيا يثرثران.. حتى وصلا إلى منتصف الجسر..
فقال الأمير
- نحن هنا فوق الجسر.. فلترح مرفقيك على السور وتنظر.. فكما يجرى الماء تحتنا تجرى الشهوات ومتاعب الحياة، حاملة معها أمانة الشخص الضعيف.. دعني أحك لك قصة..
- إنني أتلقى أوامر سموكم..
وانحنى على الجسر يرمق المدينة النائمة وهو يصغى للأمير:
- كان هناك ضابط - رجل شريف - رأى ماسة نادرة لدى أمير هندى.. بالتالي لم يعد يرغب في شيء سوى الظفر بها، حتى لو ضحى بشرفه.. بسمعته.. بحبه للوطن.. لذا راح يخدم سيده الجديد بكل وسيلة.. خان وطنه.. وترك زملاءه يُذبحون، وفي النهاية عاد بالماسة وثراء فاحش...
- ومرت السنون، وضاعت الماسة لتقع في يدي رجل دين شاب واعد، فترك كل شيء وفر بالماسة إلى بلد بعيد.. وتعاون مع أخ الضابط الأول، وقررا اقتسام الماسة.. لكن الأخ كان يريد الماسة اللعينة النفسية.. من ثم خدر رجل الدين وسرقها.. وفي النهاية ضاعت الماسية لتصير في حوزة رجل عالى المكانة..
- اسم الضابط هو (توماس فاندلير).. والماسة هى ماسة الراجا.. وها هي ذي!
ورأى المخبر الماسة فأطلق صرخة.. بينما استطرد الأمير:
وبالنسبة لى هذه الجوهرة شيء مقيت.. مقيت كما لو كانت الديدان تزحف عليها.. ترجفني كأنما تم صنعها من دم الأبرياء.. تلتمع بنار الجحيم.. وأنا لم أخبرك سوى بقدر يسير من

تاريخها.. والله يعلم ما حدث في العصور الخالية بسببها.. إن ملكوت



وبحركة مفاجئة هوت الماسة إلى النهر ، محدثة رذاذاً من الماء

هذه الماسة سينتهي هذه الليلة..
وبحركة مفاجئة هوت الماسة إلى النهر، محدثة رذاذا من الماء..

صرخ المخبر:
- فليسامحني الله! ماذا فعلت؟ لقد خربت بيتي!
ثم صرخ بعد ثانية صمت:
د - واحسرتاه! لقد أفسدت حياتي يا سمو الأمير!

قال الأمير:
- لم يكن من هذا بد.. والآن لنمض إلى المخفر..

∞∞∞∞∞∞

لم يمر وقت طويل إلا وتزوج (فرنسيس) مس (فاندلير)، وكان الأمير هو شاهد العريس.. وراح الأخوان (فاندلير) يتسليان بالغطس في نهر (السين) بحثا عن الماسة.. وقد صار غطسهما من فكاهات المدينة، لكن الرجلين لم يعرفا أنهما اختارا الفرع الخطأ من النهر..
أما عن الأمير - ذلك الرجل السامي - فقد قامت ثورة في (بوهيميا) أقصته عن العرش.. بسبب غيابه المستمر واهماله لواجبات شعبه..
والآن يدير الأمير متجرا للسيجار في شارع (رويبرت).. وأنا أتردد عليه من آن لآخر لأدخن وأثرثر معه.. وأجده ما زال عظيما كأيام مجده..
ويمكنني أن أقول إنه أوسم بائع تبغ في (لندن) كلها.

∞∞∞∞∞∞

نادي الانتحار

ملعونة هي الحياة التي لا يستطيع المرء فيها أن يموت دون أن يدفع مالا!

حكاية الشاب في الكعكات المغطاة بالقشدة..

خلال إقامته في (لندن)، نال الأمير (فلورتيزل) أمير (بوهيميا) إعجاب كل الطبقات، بسبب جاذبية طباعه وكرمه الملحوظ.. كان رجلا مرموقا بحكم منصبه.. برغم أن هذا كان جزءا ضئيلا من شخصيته..

كان قد اعتاد أن يتقبل العالم كما هو كأي فلاح بسيط، لكنه كان يتذوق المغامرات، وأساليب الحياة التي تختلف كثيرا عن تلك التي رسمها له مولده..

ومن آن لآخر كان يشعر بالضيق حين لا تعرض مسرحية ضاحكة في أي من مسارح (لندن).. وحين لا يناسب الطقس ممارسة الرياضة التي يهزم فيها كل منافسيه؛ من ثم ينادي الكولونيل (جيرالدين) - رئيس الفرسان المخلص - ويطلب إليه أن يعد لأمسية مثيرة..

كان (جيرالدين) ضابطا شابا جريئا، يستقبل الأنباء في حبور.. ويهرع ليعد للأمر عدته.. فقد علمه المران كيف يجيد التنكر.. وغدا قادرا على تغيير أفكاره ذاتها لتناسب تنكره.. وبالتالي صار بوسعه أن يدخل مع سيده أغرب الأماكن طرًا..

لم تعلم السلطات المدنية بسر هذه المغامرات، لأن شجاعة أحد الرجلين وإخلاص الآخر أنقذهما من مأزق كثيرة شديدة الخطر..

في ذات ليلة من (مارس) دخلا - بسبب المطر - إلى حانة تدعى (بار أويستر) وهي دانية جدا من ميدان (ليستر)..

تنكر (جيرالدين) في شكل صحفي فاشل فقير بينما وضع الأمير لحية وحاجبين كثين جعلا مظهره كمن لوحته الشمس.. وجلسا

يرشفان البراندي والصودا في أمان..
كانت الحالة تعج بأحط الطبقات طرا في (لندن)..
وكان الجو مملا عامة.. لكن فجأة فتح الباب، ودخل الحانة شاب معه رجلان.. وقد حمل الثلاثة أطباقا ملآي بالكعك المغطى بالقشدة.. وراح يدور على الحاضرين سائلا كلا منهم أن يقبل كعكة.. فكان هناك من يأبى وهناك من يقبل وهناك من يسخر عندئذ كان الفتى يلتهم الكعكة ضاحكا..
ودنا الفتى من الأمير وانحنى عارضا عليه كعكة، فقال الأمير:
- إن مجاملتك تؤثر في.. لكني لن أقبلها مالم تقبل دعوتي إلى العشاء، على سبيل التعويض عن التهامنا هذا الكعك الذي لا نميل إليه، قال الفتى بعد تفكير:
- الحق أن لدي كعكا كثيرا يجب توزيعه، ولسوف أمر على حانات عديدة.. لهذا أخشى أن تكونا جائعين.
قال الأمير:
- بل سأصحبك وصديقي.. لأننا مهتمان بأسلوبك المحبب في إمضاء سهرة.. والآن دعني أوقع المعاهدة لكلينا..
والتهم الأمير كعكته، وكذا فعل صديقه.. ثم نهضا يتبعان الشاب في جولته غير العادية على الحانات...
كانت تسع كعكات قد بقيت، فقال الفتى لزميليه:
- لست راغبا في تأخير عشاءكما أكثر.. اليوم أنا أنهي حياة حمقاء بعمل شديد السخف.. وبرغم أن بنيتي صارت واهنة بسبب إفراطي في الملاذ، إلا أنني سأجازف بحياتي لإنهاء مشكلة الكعك الباقي، وعلى الفور التهم الكعكات التسع الباقية.. ثم نقد الحمالين أجرهما.. وأعلن أنه جاهز لتناول العشاء..
وفي مطعم صغير في حي (سوهو) راح الرجال الثلاثة يلتهمون عشاء فاخرا مع كثير من الشمبانيا..

كان الفتى مرحا لكن ضحكاته كانت أعلى مما ينبغي.. ثم إن يديه كانتا ترتجفان..
سأله الأمير وقد أشعل كل منهم سيجارا:
- أمقت أن أبدو متطفلا.. إلا أنني وصاحبي لخليقان بأن نحفظ السر.. فإذا كانت حكايتك سخيفة فاطمئن.. فإننا من أسخف رجال (انجلترا).. إن اسمي هو (جودول) وصاحبي هو الميجور (ألفريد هامر سميث).. وقد كرسنا جل حياتنا للبحث عن كل ما هو شاذ وغريب..
قال الشاب، وقد بدأ يتحمس:
- سأروى القصة كي لا أخيب أملكما.. لكن اسمى سيظل سرا.. إنني ورثت عن جدودى مبلغ ثلاثمائة جنية كل عام، وبيتا جميلا، ومعهما ورثت شغفا هائلا بالمرح.. إنني أجيد لعب الورق بما يسمح بأن أخسر مائة جنيه سنويا.. وأجيد الفرنسية بما يسمح لى بأن أضيع مالي في باريس كما أضيعه هنا.. ثم إنني مارست المبارزة مرارا!
- لقد بددت مالى تبديا مرعبا.. حتى لم يعد في ثروتى سوى ثمانون جنيها لا أكثر! فأبقيت أربعين لغرض ما.. وبددت اليوم أربعين في مرح ومزاح.. آخره دعابة الكعك المغطى بالقشدة هذه..
- كنت عازما على أن أنهي حياتي الحمقاء بنهاية سخيفة.. والآن أنا مفلس أخرق تماما.. فقد انتهى آخر جنيه معي..
قال الأمير:
- صدقني إنني لمتأثر بهذه الصدفة.. ولسوف أحذو حذوك حالا!
وأخرج كيس ماله فحفن حفنة من الجنيهات..

انتقي منها عددا وضعه على المائدة لدفع الحساب، ثم رمى بالباقي في نيران المدفأة..
حاول الفتى أن يمنعه لكنه لم يستطع فصاح في جنون:
- أيها التعس! ما كان لك أن تحرقها كلها.. كان ينبغي أن تبقى على الأقل أربعين جنيها!
تساءل الكولونيل:
- ولماذا يبقى أربعين جنيها؟ لماذا ليس ثمانين أو مائة مثلا؟
قال الفتى في قنوط:
- لأنه لا يستطيع الدخول دون أربعين جنيها ملعونة هي الحياة التي لا يقدر المرء فيها أن يموت دون أن يدفع مالا!
تبادل الأمير والكولونيل النظرات.. أخيرا قال الكولونيل:
- ليتك توضح أكثر.. فما زال معي مالي.. لكن على أن أعرف أولا معنى كلامك هذا..
نظر الفتى إليهما حائرا.. ثم تساءل:
- هل تمزحان معي؟ هل كلاكما يائس قانط مثلى حقًا.
قال الأمير:
- حسبك أن رأيت الدليل.. فلا أحد يرمي بمائة جنيه في النار مالم يكن يائسا قانطا..
- مالم يكن يائسا أو.. أو مليونيرا!
- لقد قلت إنني بائس.. ولا أحب أن يشك أحد في كلامي..
- أحقا أنت مستعد أن تفعل الشيء الأخير الباقى لك؟ هل ستلج الباب الوحيد المفتوح أمامك لتفر من لوم ضميرك؟
قال الكولونيل في نفاد صبر:
- نحن مثلك سئمنا الحياة وتطلب الموت.. وقد شاء الحظ أن نلقاك.. فليكن لنا موعد مع الموت الليلة.. ثلاثة من القانطين يرحلون معا إلى العالم الأخر!

كان (جيرالدين) يؤدي دوره ببراعة حقة، حتى إنه خدع الأمير ذاته، واحمر وجه الشاب وقال في حماس:
- أنتما من تناسبانى! فلنتصافح من أجل الصفقة..
ثم أردف وهو يصافحهما: - قد قادكما حظكما السعيد إلى.. فإنني أعرف باب الموت السري كما لا يعرفه سواى.. هل لديكما ثمانون جنيها؟ حسن! إن رسم الدخول إلى نادي الانتحار أربعون جنيها!
- نادي الانتحار؟ ما هو بحق السماء؟
قال الشاب:
- حسن.. هذا هو عصر الرفاهية والترف لدينا كل شيء من السكك الحديدية إلى المصاعد إلى التلغراف.. لم يكن ينقصنا سوي باب خلفي نغادر به المسرح.. باب إلى الحرية.. وهذا هو ما يقدمه نادي الانتحار..
إن كثيرين من الناس يرغبون - مثلنا - في مغادرة الحياة.. لكنهم لا يفعلون.. إما لأن لهم أسرا قد يصدمها الفراق.. وإما لأن الخوف يمنعهم من ذلك..
وأنا نموذج على النوع الثاني.. فأنا أمقت الحياة..
لكني لست مشتاقا إلى الموت.. ولا أجرؤ على إطلاق الرصاص على مخي..
- السبب كهذا وجد نادي الانتحار.. ولا أستطيع الكلام أكثر.. لكني قادر على أن أقدمكما إليه الليلة، ولتكونن نهاية حياتيكما هذا الأسبوع!
ثم نظر في ساعته.. وقال:
- أمامكما نصف ساعة حتى تقررا!
وانفرد الأمير بالكولونيل (جير الدين).. فقال الأمير إن رأيه قد استقر على رؤية هذا النادي بأي ثمن..

- ولكن المصلحة العامة يا سمو الأمير.. لو أن مكروها أصابكم هذه الليلة فلسوف تحل كارثة عظمى بأمتنا..
- سأمضي في الأمر حتى نهايته..
وفي هدوء استدعى الأمير الخادم، وطلب من الكولونيل أن ينقده ثمن العشاء.. ثم انتقى سيجارا وخرج الرجال طالبين عربة.. وانطلقوا بها إلى ساحة مظلمة.. فترجلوا ودفعوا للحوذي أجره استأذنهما الشاب بضع دقائق حتى يعطي فكرة لمن بالداخل..
ثم عاد بعد قليل.. وقال لهما:
- هلما! إن الرئيس بالانتظار.. لكن عليكما أن تصدقاه القول.. فهو يحب أن يتحرى بدقة عن كل عضو جديد.. إن كتمان السر مهم في هذه الجمعيات السرية كما تعلمان..
وتهامس الأمير وصاحبه.. واتفقا على أن يؤيد كل منهما ما سيقول زميله.. وهكذا اقتادهما الشاب إلى غرفة صغيرة عالية السقف.. وتركهما حتى يدعو الرئيس..
كانت أضواء الشارع تتبدى لعيونهما، مما جعلهما يعتقدان أنهما دانيان من (تشيرنج كروس) وكانت الحجرة مكسوة بأثاث رخيص وبها قبعات عدة فوق مشاجبها..
ثم انفتح الباب ودخل رئيس نادي الانتحار..
كان أصلع الرأس ذا لحية كثة.. في الخمسين من العمر.. مهيبا مخيفا وبين شفتيه سيجار هائل يحركه يمينا ويسارا.. وتحت إبطه كتاب.. نظر لهما متسائلا.. فقال الكولونيل:
- إننا لشديدا الرغبة في الانضمام للنادي يا سيدي..
حرك الرجل السيجار بين شفتيه.. وقال:
- ماذا؟ نادي؟ لقد اخطأتما.. فهذا بيت خاص وعليكما أن ترحلا حالا..
قال الأمير في هدوء:

- سيدى.. دعني أذكرك أن من هو يائس مثلي ليس لديه ما يخسره.. ولن يقبل هذه المعاملة، وإنني لأعدك بأن تندم على دخولي هذه الحجرة، إذا أنت لم تنفذ طلبي الصغير هذا!
كان هذا كافيا لأن المدير الفجر يضحك.. وقال:
- هذا هو الكلام! لقد لمست قلبى ولسوف يسعدني أن أستمع إليك، ولكني بحاجة إلى الانفراد بك أولا..
وتم اقتياد الكولونيل إلى حجرة جانبية.. ثم بدأ استجواب الأمير عن سبب رغبته في الانتحار.. فقال هذا:
- لا شيء سوى فرط الكسل، وهو السبب الذي أدى لفصلي من الجيش.. أضف لهذا إفلاسي التام!
- وزميلك؟
- طرد من الفرقة منذ أيام لأنه غش في لعب الورق..
راح الرجل يرمقه صامتا دون أن يكف عن مضغ سيجاره.. ثم أمطره بوابل من الأسئلة أجاب عنها الأمير في ثبات.. وجاء دور (جيرالدين) ليتلقى أسئلة مماثلة.. كان الرجل يبحث عن تناقض بين القصتين..
ثم جاء دور التوقيع على ميثاق شرف الجمعية، ويلزم كل عضو بالولاء التام وتنفيذ ما يطلب منه حرفيا.. فمن ينكث بالعهد يفقد شرفه ويغذ إنسانا بلا دين ولا كرامة!
كان هذا عسيرا بالنسبة للأمير والكولونيل، لكنهما وقعا وهما يشعران بالرجفة والأسى.
اقتادهما الرئيس إلى قاعة الجلوس..
كان هناك ستة عشر شخصا حول المدفأة يدخنون ويشربون الشمبانيا.. وكان الجو عامة مرحًا.
راح الأمير يتأمل الجلوس بعين خبيرة.. وأدرك أنهم شباب في شرخ العمر أكثرهم ذكى حساس، لكنهم خالون من القوة التي

يمكن بها النجاح في الحياة..
بعضهم كان يتحدث بلا انقطاع في مواضيع تافهة.
ثم يصمت بلا سبب.. وبعضهم كان يدخن في لهفة، ثم ينسى سيجاره حتى ينطفئ.. ثمة جو عام من التوتر والإرهاق العصبي..
وكان هناك رجل يجلس جوار المدفأة، يبدو وقد تجاوز الأربعين من العمر.. بدا للأمير أنه أقبح من رأى في حياته.. إنه هيكل عظمي مكسو بالجلد وعلى أنفه عوينات شديدة السمك..
كان الشباب المجتمعون يتبادلون عبارات المزاح الثقيل.. ويتبادلون الأنخاب لما مضى من ذكريات، ويحكون عن أعظم المنتحرين في الماضي، ويتراهنون حول العالم الآخر.. هل هو ظلام دامس أم نور يخلب العيون..
وقال واحد إنه انضم للنادي حين سمع نظرية (داروين) التي تقول إن الإنسان أصله قرد.. فهو لم يتحمل فكرة أن يكون أجداده قرودا..
بدا الأمر سوقيا للأمير.. فلو أراد إنسان أن يقتل نفسه فليفعل - بحق السماء - كسيد مهذب ولا داعي لكل هذه الضوضاء.
أما الكولونيل فاتجه نحو ذلك الرجل القبيح الجالس جوار المدفأة.. وقدم له نفسه باسم كولونيل (هامر سميث).. فعرفه الرجل أن اسمه (مالتوس)، وأنه عضو في النادي منذ عامين!
عامان؟ إذن فهذا النادي مزحة ولا خطر هناك لكن الرجل قال:
- بصراحة أنا لا أرغب في الانتحار.. أنا عضو فخري هنا.. فالعضو العادي يأتي هنا يوميا بانتظار أن يصيبه الحظ.. ويأتي دوره..
- وماذا عن الرئيس؟
- أوه! إنه شخصية رائعة.. أروع وغد يمكن أن تصادفه يوما!

وهو عقلية جبارة.. قضى في (لندن) ثلاثة أعوام ينظم هذا العمل ويرتب الأوراق.. ولم يحدث قط أن السلطات شكت في الأمر.. فكل سبل القتل هنا تبدو طبيعية تماما..

سأله الكونيل:

فما سبب - لكنك تقول إنك لا تشتهي الموت حضورك اليومي؟

قال الرجل في حماس:

- أنت لا تفهم يا سيدى.. إن هذا النادي هو معبد الإدمان.. حيث تمارس أعتى أنواع الانفعال ومن المؤسف أنني غير مؤهل صحيا كي أستمتع به أكثر من هذا.. لقد جربت كل أنواع اللهو فلم أجد بينها ما يستحق كل هذه الضوضاء.. الخوف هو العاطفة الحقيقة الوحيدة.. الخوف عاطفة قوية تهبنى أعظم ملاذ الحياة.. يمكنك أن تحسدني يا سيدى الفاضل.. فأنا جبان!

شعر الكولونيل باشمئزاز من هذا الجنون كله..

لكنه سيطر على نفسه وواصل الأسئلة.. وهنا اتضح له شيء غير معقول.. إن القرعة تجري كل ليلة الاختيار أحد الأعضاء ليلعب دور الضحية.. وأحدهم ليلعب دور القاتل! أي أنه من الممكن أن ينتخب لقتل الأمير مثلا!

راح مستر (مالتوس) يرمق انفعال الكولونيل في استمتاع.. كان يعشق أن يثير اشمئزاز الناس الشرفاء شامخي الكرامة.. فهو كان يعتبر نفسه في موضع أعلى من هذه العواطف التقليدية..

- إن نادينا يجمع بين عواطف المقامرة والمبارزة وألعاب السيرك الرومانية.. لقد كان الرومان أساتذة في فن الانفعال، لكن المسيحية قد قضت على هذه الألعاب تماما..

ثم قال:

- والآن هلم نر اللعب عن قرب.. أعرني ذراعك أتوكأ عليها..

ورأى الكولونيل أعضاء النادي يدخلون حجرة مجاورة..

حجرة في وسطها مائدة خضراء كموائد القمار والرئيس يقف عليها يوزع أوراق اللعب.. قال (مالتوس):

- إن الآس البستوني يحدد الضحية.. والآس السباتي يحدد القاتل أو الجلاد.. للأسف إن نظري واهن فلا أستطيع رؤية الورق من هنا.. إلا أن متابعة الوجوه تكفيني على كل حال..

كان الأمير واقفا وسط الحشد.. هادئ الجنان..

وإن كان متوترا في أعماقه، وراح يتابع اللاعبين فكان يرى وجوها شاحبة منفعلة، وأيادي ترتجف بينما الرئيس يوزع الورق مقلوبا حول المائدة.. على كل لاعب أن يقلب ورقته ليرى مصيره ولكم تردد أحدهم بضع ثوان قبل أن يمد يده ليعرف.. أكثرهم حماسا كان مستر (مالتوس)..

وجاء الدور على الأمير فمد يده - وقد تحركت فيه طبيعة المقامر - ليري ورقته.. وكانت (تسعة)..

أما الكولونيل فكانت ورقته (ثلاثة) وجاء الدور على الفتى ذي الكعكات المغطاة

بالقشدة، فإذا هي الآس السباتي! يا لحظه التعس!

فهو لم يرد أن يقتل، بل جاء كي يقتل!

ومازالت دورة الورق مستمرة.. فالورقة الخطرة لم تظهر بعد..

سقطت ورقة جديدة أمام مستر (مالتوس).. فما إن قلبها حتى أطلق شهقة عالية.. فقد كانت ورقته هي الأس البستوني!



سقطت ورقة جديدة أمام مستر (مالتوس) .. فما إن قلبها حتى أطلق شهقة عالية .. فقد كانت ورقته هى الآس البستونى ! ..

انتهى اللعب أخيرا.. وتفرق اللاعبون لكن (مالتوس) ظل في موضعه بلا حراك، كمن ضربة البرق..
خرج الأمير والكولونيل إلى الهواء البارد شاعرين أن كل هذا كان حلما ثقيلا..
صاح الأمير:

- واحسرتاه! أن ترتبط بميثاق شرف في أمر كهذا؟ أن تدع هذه التجارة تستمر بلا عقاب.. لو يمكنني الحنث بقسمي!
قال الكولونيل:
به - مستحيل يا سمو الأمير.. لكن من الممكن أن أحنث أنا بقسمى:
- لن أسمح لك يا (جيرالدين) بإهانة شرفك في أية مغامرة معي أطلب لنا عربة بحق السماء، علنا ننسى هذه الليلة..
وفي الصباح ما كاد يصحو من النوم، حتى دخل إليه الكولونيل بجريدة، وأشار إلى خبر فيها:
«حادث مؤسف: صباح اليوم في الساعة الثانية، وقع المستر (بارتليمو مالتوس) - ويعيش في (ويستبورن جروف) - من فوق ترابزين السلم.. فتوفي في الحال..
وقد كان السيد مشهورا في الأوساط الراقية، وإن موته سيقابل بحزن عميق دون شك..»
تبادل الرجلان النظرات.. لم يكن ما يؤلمهما هو وفاة (بارتليمو) الشرير، ذى الروح الشيطانية، بل ما اقترفه صاحب الكعكات ذات القشدة..
قال الأمير:
- لقد كان الفتى التعس بريئا أمس.. والآن يلطخ الدم يديه.. لسوف يندم رئيس هذا النادي على آثامه.. لا أعرف كيف لكني سأفعله.. تبا لها من لعبة ورق.. وتبا لها من تجربة!
- ما ينبغي لها أن تتكرر..
لكن الأمير ظل صامتا.. فتوتر الكولونيل.. وصاح:
- لا أظن سموكم ترجو العودة.. إن واجبات مركز السامى تحرم عليك تكرار هذه التجربة المريعة!
- بل العكس.. سنكون هذه الليلة في نادي الانتحار من جديد!

كان الأمير مصرا.. حتى لم يجد الكولونيل حلا سوى القبول.. لهذا استأذن من الأمير كى يعد عدته، ويرتب بعض أموره، استعدادا لاحتمال الهلاك في لعبة الشيلة..
وجاء الليل..
ودخل الرجلان النادي الرهيب من جديد.. فلم يكن هناك سوى ستة أشخاص جالسين..
ورأى الأمير بطرف عينه الفتى صاحب الكعكات المغطاة بالقشدة، وهو مفعم بالضيق والهم.. راح الأمير يحاول التودد إليه لكنه صاح:
- ليتني لم أحضركما إلى هنا! لو سمعتما صرخة العجوز وهو يسقط.. لو سمعتما صوت تهشم عظامه!
اخرجا الآن وأنتما بريئان لم تقتلا أحدا!
هنا دوي صوت الرئيس:
- انتباه يا سادة!
ثم بدأت اللعبة الرهيبة..
دار الورق ثلاث مرات، ولم تظهر الورقتان..
ازداد التوتر بينما الدورة الرابعة تبدأ.. ومد الأمير يده إلى ورقته يقلبها فإذا بها الآس البستوني!
كان رجلا شجاعا.. لكن العرق غمر جبهته وارتجفت يداه على الرغم منه..
ساد الغرفة ضجيج عال.. وبدأ القوم ينصرفون عن المائدة.. كان هناك لاعب قد تلقى الآس السباتى..
في الدورة الثانية.. وأدرك الأمير كم كان أحمق، حين خاطر بمستقبله ومستقبل دولة كاملة.. لمجرد الفضول!
بدأت السكينة تعود إليه إلى حد ما.. ودار بعينيه بحثا عن الكولونيل فلم يجده في المكان.. ووجد جلاده يتهامس مع

الرئيس بصدد بعض الترتيبات بينما هناك من يدنو منه ليهمس:
- ليت لي حظك!
هنا انتهى الجلاد من الحديث مع الرئيس، فانصرف وقد فهم ما يجب عليه عمله.. بينما دنا الرئيس من الأمير، فصافحة قائلا:
- كانت معرفتك شرفا لى.. ويسرني أنني أسديت ان هذه الخدمة، ولا يمكنك أن تشكو من أننا عطلناك.. فقد تم اختيارك في ثاني مرة!
لم يجد الأمير ما يقول.. لقد جف حلقه تماما..
دعا الرئيس إلى كأس من البراندي.. وقال له:
- ستمشي في شارع (ستراند) على الرصيف الأيسر حتى تلقى السيد حامل الآس السباتى عليك أن تطيعه طاعة عمياء.
هز الأمير رأسه شاكرا.. وانصرف..
ارتدي قبعته ومعطفه، وخطر له أن هذه قد تكون المرة الأخيرة التي يرتديهما فيها! وفى تؤدة غادر المكان إلى الظلام..
لكنه لم يكد يغادر الدار.. حتى مرت جواره عربة واذا بثلاثة رجال يحملونه في غير رفق إلى داخلها، وسمع صوت الكولونيل يقول له بينما العربة تنطلق..
- فليغفر لى سموكم تهورى!
ألقى الأمير رأسه على عنق الكولونيل، وأطلق تنهيدة خلاص:
- أغفر لك؟ كيف أشكرك بما يكفي يا (كولونيل)؟
قال الكولونيل:
- بألا تضع نفسك في مأزق مشابهة مرة أخرى إن هذه العربة تنتظر خارج النادي من قبل أن ندخله نحن.. لقد رتبت الأمر حين تركتك..
- و.. وجلادى؟

- قبضنا عليه وهو يغادر النادي.. وهو الآن في القصر ينتظر حكمك..
راحت العربة تركض في الظلام.. وقال كولونيل جير الدين:
- إن قسمنا يمنعنا من إبلاغ البوليس.. لكن لدينا عددا هائلا من الأسرى قبض عليهم خدمك في النادي الآن.. فماذا تنوي عمله؟
وصلت العربة إلى بيت الأمير أخيرا، وفي ثيابه الرسمية مثل أعضاء نادي الإنتحار أمام الأمير.. فقال لهم:
- يا حمقى! إنني لأرثي لكم جميعا وأتمنى عونكم.. وغدا يحكي لي كل منكم قصته فلعلى قادر على مساعدته!
ثم التفت الأمير إلى رئيس النادي.. وقال:
- أما أنت فإنني لن أهينك بعرض المساعدة.. إن عندي عرضا جيدا لك.. فأخو الكولونيل سيقوم برحلة إلى أوروبا.. وأنا راغب في أن تصحبه إلى هناك.. هل تجيد الرماية بالمسدس وثق بأنك ستحتاج إلى هذا.. وسيكون هناك من رجالي من يراقبك طيلة الوقت، للتأكد من أنك لن تفر من هذه المبارزة العادلة!
وبعد هذا استمر رجال الأمير في مراقبة النادي، والقبض على كل زائر جديد لاستجوابه.. وكانت هذه نهاية القصة.
يقول الراوي العربي.. وهكذا انتهت هذه الحكاية.. وصار مقر النادي مغلقا.. وإنني أبقى العنوان سرا لأسباب واضحة.. أما من يرغبون في معرفة مغامرة الأمير مع رئيس النادي، فلهم أن يطالعوا قصة الطبيب وصندوق (ساراتوجا)..

∞∞∞∞∞∞

قصة الطبيب وحقيبة ساراتوجا..

كان مستر (سيلاس سكودامور) شابا أمريكيا وديعا.. ولا يعود هذا إلى أنه جاء من (نيو إنجلاند) فهي بقعة من العالم الجديد لا تشتهر برقة الحاشية، وبرغم أنه لم يكن ثريا، فقد احتفظ بنفقاته كلها مدونة في مفكرة صغيرة.. وقرر أن يشاهد سحر (باريس) مقيما في فندق بالحي اللاتيني.. وراح ينفق أقل القليل من المال.

في الغرفة الملاصقة له كانت هناك حسناء جذابة متأنقة.. عرف فيما بعد أنها تدعى مدام (زفرين)، وكانت تقابله أحيانا بابتسامة مشرقة أو بضربة قاضية من عينيها السوداوين، لكنها لم تفلح سوى في جعله يغرق في الاكتئاب والحياء..

وكلما حدثته كان الكلام يفارقه، وينسى لغته الفرنسية.. ويغرق في اللعثمة والارتباك حتى ترحل..

وعلى الناحية الأخرى من غرفة الأمريكي، كان هناك طبيب إنجليزي له سمعة مشكوك فيها.. وكان اسم الرجل دكتور (نويل)، ويقال إن شرطة لندن هي التي أرغمته على ترك عيادته الناجحة جدا هناك..

فراح يقضي وقته في الدراسة في هذا الركن المتواضع من الحي اللاتيني..

لم يكن مستر (سكودامور) خاليا من العيوب، وأهم هذه الرذائل فضوله.. كان ثرثارا بطبعه يعشق القيل والقال خاصة في الأمور التي يجهلها.. وكان يسأل دوما عما لا يعنيه.. ويتلصص على قاعة الجلوس في غرفة مدام (زفرين)، من خلال ثقب، في الجدار الفاصل بين الغرفتين..

وفي ذات يوم تلقت مدام (زفرين) زيارة من رجل طويل القامة أصلع، في الخمسين من عمره.. لم يره (سيلاس) قط.. لكن الرجل كان ذا سالفين مشعثين، وبذلة من (التويد) مما جعل صاحبنا يتأكد من أنه بريطاني ولقد دارت المحادثة همسا أكثر الوقت.. لم يسمع منها (سيلاس) سوى عبارة قيلت بنبرة عالية كأنما هي احتجاج:
- لقد درست طباعه بدقة.. ومن جديد أقول لك..
إنك المرأة الوحيدة من هذا الطراز التي يمكن أن أجدها..
تنهادت مدام (زفرين) وبدا كأنها تعفى نفسها من مشقة شديدة..
عند العصر تم سد فتحة المراقبة.. وأدرك (سيلاس) أن البريطاني له دور في هذا ولا بد أنه لاحظها في أثناء زيارته..
كان يشعر بسوء حظه حين حضر الخادم حاملا خطابا بخط امرأة لم يكن موقعا.. لكنه كان مكتوبا بالفرنسية بهجاء مليء بالأغلاط ويدعو الشاب إلى اللقاء في مكان من ال (بوبير بول) في الحادية عشرة مساء اليوم..
واصطرعت الوداعة مع الفضول في نفس الفتى وكانت النتيجة هي أنه اجتاز مدخل الـ (بوبير بول) في العاشرة مساء.. ودفع ثمن تذكرة الدخول بلا مبالاة أدهشته هو نفسه..
كان الوقت وقت (كرنفال) والمرقص مزدحما صاخبا.. وفي البداية أخجلته الأضواء وأربكته.. ثم خدرت ذهنه وجعلته يزداد جرأة.. وراح يشق زحام المرقص كفارس مستعد لمواجهة الشيطان ذاته..
هنا رأى مدام (زفرين) وضيفها البريطاني جالسين جوار عامود.. فدنا منهما ليسمع ما يقولان دون أن يرياه..
قال البريطاني:

- هو ذا الرجل.. ذو الشعر الأشقر يتحدث مع الفتاة ذات الثوب الأخضر..
قالت المدام:
- حسن سأبذل ما بوسعي.. لكن تذكر أن أفضلنا قد يفشل في شيء كهذا..
- لا! إنني أبغى نتائج.. لقد اخترتك من ثلاثين واحدة.. اذهبي لكن خذي الحذر من الأمير.. ليتني أعرف أية لعنة أحضرته ها هنا الليلة.. كأنما لا يوجد ألف مرقص غير هذا في (باريس)..
رأي (سيلاس) بالصدفة رجلا شديد الوسامة تبدو عليه أمارات الأرستقراطية والسيطرة.. كان جالسا مع رجل آخر يخاطبه باحترام واضح.. وسمع (سيلاس) ذو العقل الجمهوري - فهو أمريكى لفظة (أمير) تتردد مرارا.. ففتنه هذا الوصف ودنا من المائدة التي جلس عليها هذا الأمير وتابعه كان الأمير يقول وهو يشير نحو الرجل الأشقر:
- أقول لك يا (جيرالدين) إن المسألة حمقاء تماما.. لقد اخترت أخاك لهذا العمل، ومن واجبك أن تتأكد من أنه سيقوم به.. لقد مرت ثمان وأربعون ساعة ولما ينفذ المهمة بعد.. كان يجب أن يقضي وقته في التدريب على المبارزة، وينام ساعات أطول ويتمشى يوميا، ويأكل طعاما متقشفا.. أتراه يحسبنا تلهو هاهنا؟
قال الكولونيل:
- إنني أعرفه جيدا يا أميري.. وهو حذر جدا، فما عليك أن تقلق.. وأنا واثق من أنه – والخادمين سيعنيان برئيس النادي جيدا..
قال الأمير:
- يسرني أن تقول هذا.. لكن الخادمين جاسوسان بارعان، وبرغم هذا استطاع رئيس النادي أن يفلت من مراقبتهما ساعات

عديدة.. وهذا يثير قلقي حقا إنه الرجل يجيد الخداع..
ثم انهمك الأمير في مراقبة الرقص.. ولم تعد المحادثة غير عادية..
هنا عاد (سيلاس) يتذكر موعده الذي حان وقته ومن الغريب أنه بدأ يشعر برعب ونفور من اللقاء المرتقب.. وترك دوامة الرقص تحمله إلى الباب دون مقاومة.. لكنه سمع صوت مدام (زفرين) تتحدث بالفرنسية مع الرجل ذي الشعر الأشقر، الذي أشار إليه البريطاني منذ قليل..
قال (سيلاس) لنفسه:
- إن هي إلا عشر دقائق أمشي بعدها مع امرأة في مثل جمال هذه ربما أكثر أناقة، وربما لها لقب شريف..
ثم تذكر الهجاء المغلوط في الخطاب، فخاب أمله..
- لربما كانت خادمة هى كاتبة الخطاب..
وكاد يتجه للباب ثانية.. لكن الدوامة أبعدته عنه..
كان راغبا في الرحيل لأنه شعر بمزيج من الفضيلة والجبن.. ولم يمنعه من الفرار سوى خشيته أن يبدو ناقص الرجولة أمام صاحبة الخطاب..
لقد مرت عشر دقائق على الموعد.. واستعاد جرأته وشجاعته، إذ فكر في أن الفتاة قد رحلت أو لم تأتِ.. الآن لا يمكن لأحد أن يتهمه بالجبن! ثم راح يفكر في أنه - ربما قد أفلت ببراعته من مؤامرة شريرة..
اتجه للخروج حين شعر بيد توضع على ذراعه..



اتجه للخروج حين شعر بيد توضع على ذراعه .. استدار فرأى امرأة ضخمة الحجم ، لكن وجهها وديع ..

استدار فرأى امرأة ضخمة الحجم، لكن وجهها وديع..
قالت له:
- أرى أنك صائد نساء واثق من نفسه.. لكنى كنت مصممة على لقائك.. فالمرأة تتخلى عن كبريائها، حين تقدم على الخطوة الأولى..
كانت لطيفة جعلت التوتر يفارقه.. وبرغم حجمها الهائل وظهورها المفاجئ فقد بدأ يميل إليها قالت له وهي تعده بلقاء:
- غذا عليك أن تبقى في حجرتك لا تغادرها..

ولو جاء من يزورك من رفاقك فلتصرفه فورا.. ثم - في الحادية عشرة إلا الربع - تفارق الفندق.. لا تتكلم مع البواب وإلا أفسدت كل شيء.. توجه إلى تقاطع حدائق (لوكسمبورج) مع ال (بوليفار) وسأكون بانتظارك هناك.. عليك أن تتبع تعليمات حرفيا والا جلبت الوبال على امرأة كل جريرتها أنها أحبتك يوما..
قال (سيلاس):
- لا أفهم معنى لكل هذه التعليمات..
ضربته بالمروحة على يده، وهتفت:
- أراك بدأت تعاملني كسيد لي.. الصبر الصبر!
إن المرأة تحب أن تطاع في البداية.. وبعد هذا تحب أن تطيع.. أنا أعرفكم معشر الرجال.. كلكم لا تبالون بسمعة المرأة التي تهواكم..
ثم قالت بلهجة مترددة:
- ثم كيف لي أن أثق بعواطفك.. إذا ما رفضت تنفيذ هذه التوافه التي أطلبها أنا في أول لقاء لنا؟
ونظرت للساعة وضربت كفيها معا صارخة:
- يا للسماء! أحقا تأخرنا إلى هذا الحد؟
واحسرتاه! أية جوار من نحن معشر النساء! ليست لدي ثانية أخري..
وودعته بعد أن كررت تعليماتها، وغابت في الزحام..
وجاء الموعد المنتظر في الليلة التالية، فاتبع سيلاس) تعليماتها حرفيا.. ووقف عند تقاطع حدائق (لوكسمبورج) مع ال (بوليفار)..
كان متلهفا قلقا، لكنه انتظر نصف ساعة، يرمق وجوه المارة.. ودار حول المدينة مرارا.. لكن لا كونتيسة حسناء تلقي بنفسها

بين ذراعيه، وأخيرا بدأ يمشي إلى الفندق في تردد.. وخيبة الأمل تقتله..
قابله البواب، ففتح له الباب وسأله:
- هل رحل؟
- من؟
قال البواب:
- لم أره يخرج.. لكني أظنك دفعت له..
- عم تتحدث بحق السماء؟
- الرجل الأشقر قصير القامة الذي جاء يطالب بدين لك عنده..
قال (سيلاس):
- لكن.. لكنه لم يأت قط..
ثم هرع يرقي درجات السلم إلى حجرته..
وقف أمام الباب يلتقط أنفاسه الملهوفة.. ثم فتح الباب.. كان الظلام دامسنا، لكنه شعر بالأمان أخيرا..
وراح يبحث في الظلام عن علبة الثقاب.. وبحاسة الاتجاه أدرك أنه عند قدم الفراش.. فما عليه إلا أن يتحسس الأغطية حتى يصل إلى المنضدة التي عليها الثقاب..
مد يده.. فلم يكن ما أحس به ملاءة.. كانت ملاءة تحتها شيء ما أقدم إنسان! سحب يده سريعا وتصلب هلعا بضع ثوان.
استجمع شجاعته وواصل التجسس.. كان هناك شيء في فراشه..
بحث عن الثقاب وأوقد شمعة وقربها من الفراش، وبرغمه أطلق صرخة.. بالتأكيد هو ذا يرى أسوأ خيالاته وقد تحقق..
إنه جسد رجل يرقد في السرير تحت الأغطية..
الرجل الأشقر الذي رآه في المرقص أمس.. وجه منتفخ أسود وخيط من الدم يخرج من فتحتي أنفه..

ارتمى على ركبتيه عاجزا عن التفكير..
هنا سمع صوت قرعات على الباب.. جرى ليمنع الطارق من الدخول، لكنه تأخر كثيرا.. فهو ذا د. (نويل) يدخل الغرفة حاملا مصباحا.. ويتقدم للأمام.
قال الطبيب:
- سمعت صرخة.. لذا سمحت لنفسي بهذا الاقتحام..
لم يجد (سيلاس) صوتا يرد به.. لكنه وقف بين الفراش والطبيب.. إذ قال هذا الأخير:
- أنت في الظلام لكنك لم تستعد للنوم بعد ووجهك يدل على أنك بحاجة إما إلى طبيب وإما إلى صديق.. فمن تريد؟
هنا انهارت أعصاب الفتى.. فهو على الأرض يبكي.. وهكذا رأي الطبيب جثة الرجل الممددة في الفراش.. فصاح:
- هيا! ما هذا وقت البكاء.. ماذا تفعل هذه الجثة في فراشك؟ تكلم بصراحة.. فقطعة اللحم الميت هذه لن تقلل من تعاطفي معك.. ولو عاد صديق لي من بحر دم فلن يغير هذا عاطفتي نحوه..
راح الفتى يحكى له قصته.. فما إن انتهى حتى هتف الطبيب:
- واحسرتاه! إما أنك خدعتني.. وإما أنك وقعت في أخطر أياد في أوروبا.. يا للحفرة التي تم إيقاع بساطتك فيها! ولكن لا تقنط.. إنما الشباب هو موسم الجبن.. ومتاعب المرء تلوح أكثر سوادا مما هي عليه في الحقيقة..
- هل أحكي قصتي للشرطة؟
- بالطبع لا.. فمن نظرة السلطات الضيقة للأمور، يمكن القول إنك القاتل دون شك.. ونحن لا نعرف سوى قدر يسير من المؤامرة.. فلا بد أن من فعل هذا قد أحكم الشرك حولك..
قال الفتى:

- إذن ما العمل يا دكتور؟ إنني لا أجد في نفسى من الشجاعة ما يكفي كي أستمر في الوجود..
تأمل الدكتور الجثة بعين خبيرة وقال:
- ميت تماما.. لحسن الحظ أنه صغير الحجم..
لم يفهم (سيلاس) معنى الكلام.. وانتهى الطبيب من الفحص، فجلس وقال:
- لقد لاحظت عندك في ركن الحجرة شيئا من هذه الأشياء هائلة الحجم، التي يحملها الريفيون من أمثالك في أثناء سفرهم.. ويسمونها حقيبة (ساراتوجا).. وحتى هذه اللحظة لم أكن أفهم نفع هذه المنشآت العملاقة.. ثم بدأت أفهم الآن.. إن أصلح شيء لهذه الحقيبة هو وضع جثة فيها!
قال الفتى:
- طبعا ليس هذا وقت المزاح..
- قد أعبر عن رأيي بمرح، لكن فحوى كلامي جاد تماما.. وعلينا الآن أن نفرغ هذه الحقيبة مما بها..
وراح الرجلان يفرغان الحقيبة.. ثم تعاونا على حمل الرجل، ثم ثنى جسده كى يستقر داخلها..
وأغلقا الغطاء على هذا المتاع غير المعتاد..
- والآن عليك أن تدفع مبلغا كبيرا للبواب كى تهدي شكوكه.. وتعال معي حجرتى كى أعطيك جرعة من دواء مهدئ يعينك على النوم..
قضى الفتى أطول يوم في حياته بين الدموع والدعاء، وعندما جاء المساء عاد د. (نويل) إلى حجرته، حاملا مظروفين مغلقين لا عنوان عليهما.. وقال للفتى:
- قد جاء الوقت لأشرح خطتي لخلاصك.. صباح غد سيعود الأمير (فلورتيزل) أمير (بوهيميا) إلى (لندن).. وقد سبق لي أن

أسديت لياوره الكولونيل (جيرالدين) خدمة ما.. لهذا سيقبل الأمير أن يضم حقيبتك إلى متاعه.. وبهذا يدخل المتاع إلى (لندن) دون أن تفتشه الجمارك نظرا لمنصب الأمير ووضعه الدبلوماسي.. فما إن تدخل الحقيبة (لندن) حتى يكون عليك فتح الخطاب الأول.. ستجد به عنوانا تذهب إليه بالخطاب الثاني مع الصندوق.. سيؤخذ منك هناك وتنتهي متاعبك!

- ولكن كيف يقبل عقلي هذا؟

بدا الضيق على الدكتور وقال:

- يا صبي.. ربما كنت أبدو هادئا منعزلا مدمنا للدراسة.. لكن في شبابي كان اسمى داويا بين أرواح (لندن) الشريرة.. وكانت لى علاقات كبيرة مع المجرمين.. وأنا أرسلك لواحد من معارفى القدامى ممن مارسوا القتل كتجارة..

بدا الرعب على (سيلاس).. فقال الدكتور ضاحكا:

- أنت صعب الإرضاء يا مستر (سكودامور).. لكنني أخيرك بين صحبة القتيل وصحبة القاتل! ولو كان ضميرك يقظا إلى هذا الحد فإنني سأرحل حالا.. ويمكنك التخلص من الحقيبة بالشكل الذي يلائمك..

- قد أسأت التعبير عن نفسي.. فأنا ممتن لك إلى حد لا يوصف..

وفي الصباح ذهب (سيلاس) إلى الفندق، حيث استقبله الكولونيل (جيرالدين) في تهذيب، ومن لحظتها زال عنه عناء الصندوق..

ومضت الرحلة دون مشاكل.. فيما عدا رعب الفتى من ملاحظات الحمالين حول وزن الصندوق غير العادي..

وعلى ظهر القارب البخاري؛ لاحظ سمو الأمير ذلك المناخ من الشجن المحيط بالفتي.. فقال متأملا:

- هذا شاب لديه بالتأكيد..

قال الكولونيل:
- إنه الأمريكي الذي حملنا متاعه معنا..
اتجه الأمير إلى (سيلاس).. وقال له:
- لقد سرني أيها الشاب أن أحقق لك الرغبة التي عبرت عنها الكولونيل (جيرالدين).. ولسوف يسرني أن أقدم لك خدمات أخرى أهم من هذه في المستقبل.. إنني ألاحظ أنك جاد جدا بالنسبة لعمرك، يبدو لي أنك غارق في أمور كئيبة..
قال (سيلاس):
- إن لدى أسبابًا تجعلني أتعس الناس.. فلم يعامل برىء معاملة سيئة كهذه التي عوملتها قط..
وشعر (سيلاس) بالامتنان إثر معاملة الأمير اللطيفة.. لكن لطف الأمراء لا يستطيع تحرير روح مثقلة من قيودها..
وصلوا إلى (شيرنج كروس).. فطلب الأمير من سائق عربته أن يوصل الفتى بحقيبته إلى حيث يرغب.. شكره الفتى بحرارة.. وراح يبحث عن العنوان في المظروف الذي بحوزته، وأخبر السائق بوجهته..
وفي العنوان المذكور تعاون والسائق على إنزال الحقيبة.. ثم قرع الباب فعرف أن صاحب الدار غير موجود.. هكذا صار عليه أن يأخذها ثانية.. ويردعها فندقا.. وكان هذا الفندق هو فندق (كريفن)..
جلس في حجرته على الفراش.. وفجأة وجد الحمال يحاول فتح الحقيبة له.. فصاح:
- دعها وشأنها! لن أحتاج إلى شيء منها!
غمغم الرجل:
- إذن اتركها في الاستقبال.. إن هذا لشيء كبير ككنيسة.. ولو كنت قد ملأته مالا فلا بد أنك أغنى رجل في العالم..

- مال؟ أنا لا أملك مالا.. وأنت تتحامق..
- ليكن يا قبطان.. لن يمس أحد مال سعادتكم..
لكني أريد أن أشرب شيئا في صحتكم..
دس (سيلاس) عملتين نابوليونتين في يد الرجل فراح هذا يزمجر.. وينقل عينيه بين العملة الأجنبية والحقيبة.. وفي النهاية قبِل أن ينصرف، فما إن صار وحيدا؛ حتى راح (سيلاس) يتشمم الحقيبة.. لكن الطقس كان باردا ولم تفح رائحة الجثة بعد..
وحيدا في مدينة غريبة.. دون أصدقاء.. ولو تخلى عنه أصدقاء الطبيب فهو دون شك ضائع تماما..
لقد ضاع مستقبله.. لن تكون هناك أمجاد.. ولن يشرف وطنه (بانجور - مين) أبدا.. ولن يصير أبدا رئيسا للولايات المتحدة يترك تمثالا قبيحا له في (واشنجتون)..
إنه هنا محبوس مع إنجليزي معبأ في حقيبة (ساراتوجا).. ومجده القومي قد تلاشى شعاعا!
ترك كنزه المريع في الحجرة ليلحق بالعشاء، وهو يشعر أن كل العيون ترمقه في شك.. وحانت منه لفتة ليرى رجلا يدخن في ركن القاعة.. رجلا له منظر محترم مهيب.. لقد رأى هذا الوجه من قبل..
شعر بالذعر وعاد إلى الغرفة فأوصدها على نفسه وقضى الليل تنهشه الكوابيس.. خائفا من الجثة من اللصوص.. من المراقبة نام عند الفجر من فرط إرهاقه، قلم يوقظه سوى صوت طرق على الباب، فجرى ليفتحه.. وجد خادما يسأله:
- هل أنت السيد الذي جاء إلى (بوكس كورت) أمس؟
هز رأسه أن نعم.. وهو يرتجف:
قال الخادم وهو يقدم له مظروفا مغلقا:
- هذه الرسالة لك..

فتح المظروف فوجد داخله رسالة تقول (الثانية عشرة)..
ولم يكذب خبرا.. حمل حقيبته المشئومة بمعونة بعض الخدم إلى المكان الذي قصده أمس..
أدخلوه - حين وصل إلى العنوان - إلى حجرة يقف فيها سيد أمام المدفأة، وقد أولاه ظهره..
مرت خمس دقائق قبل أن يستدير الرجل.. عندها فوجئ (سيلاس) بأنه لم يكن سوى (فلوريتزل) أمير (بوهيميا)..
قال الأمير في عنف:
- أرى يا سيدي أنك تسيء فهم تهذيبي معك، أنت تتصل بناس ذوي حيثية لمجرد أن تفلت من تبعات جرائمك..
صرخ الفتى:
- أنا طاهر بريء من كل إثم سوى سوء الحظ!
وبصوت ملهوف راح يحكي القصة من بدايتها للأمير..
قال الأمير بعد ما سمع كل شيء:
- أرى أنني أخطأت.. أنت ضحية.. وما دمت لن أعاقبك فمعنى هذا أنني سأساعدك.. والآن يأتي دور العمل.. افتح الصندوق لأرى ما فيه شحب لون (سيلاس) وقال:
- إنني أخشى النظر إليه..
- أحقا لم تنظر داخله؟ هذه عاطفة يجب مقاومتها.. إن منظر رجل مريض لهو أكثر تأثيرا في المشاعر من منظر رجل ميت.. رجل صار بعيدا عن العون أو الأذى.. عن الحب أو المقت.. تماسك يا مستر (سكودامور)..
تحامل الفتى على نفسه وفتح الحقيبة..
وقف الأمير يرقب المشهد ويداه خلف ظهره بينما الفتي يحرر الجسد المتخشب من الحقيبة..
بدت دهشة أليمة على وجه الأمير.. ثم صرخ:

- واحسرتاه! أنت لا تعرف أية هدية قاسية جلبت لى.. هذا الرجل هو شقيق صديقي الأمين.. وقد كان مكلفا بمهمة في خدمتي حين لقي حتفه على يدي خائن أثيم.. مسكين يا كولونيل! بأية كلمات أخبرك بمصرع أخيك؟ كيف أسامح نفسي وكيف يغفر لي الله أنني قدت الفتى إلى حتفه؟ إنني أنظر إلى هذا.
الفتى الذي ضحيت به يا مستر سكودامور) وأشعر كم هو تافه أن يكون المرء أميرا!
كان (سيلاس) يبكي.. فدنا منه الأمير وربت على يده:
- تماسك.. فلدى كلينا ما ينبغي تعلمه.. ولسوف تغدو رجلين أفضل..
ثم إنه قاد الفتى إلى المائدة.. وقال:
- اكتب لى عنوان د. (نويل) هنا.. واحرص على تجنب صحبته لو عدت إلى (باريس).. فهو رجل خطر.. رجل ذكي.. لقد أرسل جثة الشاب في صحبتك إلى القاتل الحقيقي!
هتف (سيلاس) مذهولا:
- القاتل الحقيقي!
- لقد وجدت الخطاب الذي أرسله معك.. وهو موجه إلى رئيس نادي الانتحار نفسه.. إن نجاتك لمعجزة.. وعليك ترك هذا البيت حالا..
فارق (سيلاس) الأمير، لكنه تلكأ قليلا جوار البيت عندها رأي الأمير يركب عربة فاخرة في زيارة الكولونيل (هندرسون) في الشرطة..
وبرغم أنه جمهوري النزعة؛ نزع الأمريكي قبعته احتراما للعربة المبتعدة.. وفي ذات المساء ركب القطار عائدا إلى (باريس)..

يقول الراوي العربي: هنا تنتهي قصة الطبيب وحقيبة (ساراتوجا).. ولن أضيف هاهنا سوى أن مستر (سكودامور) قد بدأ يرتقي سلم الشهرة السياسية.. ويقال في آخر أخباره إنه صار مأمورا في مسقط رأسه..

∞∞∞∞∞

مغامرة العربات (الكارو)..

كان الملازم (براكنبورى ريتش) قد ظفر لنفسه بشهرة لا بأس بها في أثناء الحرب في جبال (الهند)..
واشتهرت أنباء شجاعته، ثم عاد للوطن مصابا بحمى أدغال مستعصية وندبة سيف علي خده.. وكان المجتمع مستعدا لاستقباله كنجم متوسط البريق.. لكن الملازم لم يكن من هواة الشهرة.. وكان يعشق المغامرة ولا يعبأ بالمراسم.. لذا انتظر تسعة أيام حتى بدأ الناس ينسونه، ثم ذهب إلى (لندن) ليزورها كسائح أجنبي لا يعرفه أحد.. برغم أنه ضحي بحياته من أجلها..
تناول عشاءه في نادي المحاربين.. ثم خرج يبحث عن طريقة لقضاء السهرة.. وكان في زيه الرسمي إذ اعتزم دخول المسرح.. لكن المدينة كانت جديدة عليه، وزحام الوجوه في الشارع يغريه بأن يمشي ويتأمل..
بدأ المطر ينهمر، فوقف تحت بعض الأشجار يحتمى..
هنا رأى عربة (كارو) يشير له سائقها أنه غير مرتبط بزبون.. فهرع إليها.. وركبها.. سأله السائق عن وجهته فقال:
- إلى حيث تريد..



هنا رأى عربة (كارو) يشير له سائقها أنه غير مرتبط بزبون .. فهرع إليها ..

عندئذ اندفعت العربية تحت الأمطار وسط متاهة من البيوت الفاخرة.. كانت هناك مجموعة من (الفيلات) المتشابهة حتى إن الملازم فقد إحساسه بالاتجاه تماما، وأدرك أن سائق العربة يتجه نحو وجهة محددة لم يتردد كثيرا في اختيارها.. وبهرته قدرة الرجل على شق طريقه وسط هذه المتاهة.. لقد اسمع قصصا رهيبة عن (لندن) من قبل.. فهل السائق ينتمي لمنظمة غادرة دموية؟ وهل يراد قتله؟

هنا توقفت العربة أمام (فيللا) ما.. وكان المنزل يتألق بالنور.. وثمة مدعوون يدخلون من البوابة الرئيسية..
قال السائق:
- لا ها قد وصلنا يا سيدي..
- وصلنا أين؟
- طلبت أن آخذك إلى حيث أريد.. وها قد وصلنا!
- كنت أظن أن الاختيار لي أيها الرجل الطيب..
- هو كذلك يا سيدي.. إن هناك حفلة للسادة المهذبين بالداخل.. لا أعرف شيئا عن صاحب (الفيلا).. لكني كلفت باختطاف السادة الموجودين الذين يرتدون ثياب السهرة أو الثياب العسكرية.. فما عليك إلا أن تدخل وتقول إن مستر (موريس) دعاك..
- وهبني رفضت الدعوة؟
- عندئذ تقضي أوامري بأن أعيدك إلى حيث كنت، وأنطلق لأبحث عن مدعوين آخرين.. إن من لا يرغبون في مغامرة كهذه لا يصلحون ضيوفا لمستر (موريس)..
هنا اتخذ الملازم قراره..
نزل من العربة مغمغما:
- على الأقل لم أنتظر كثيرا حتى أبدأ مغامرتى بحث في جيبه عن الأجر، لكن العربة كانت قد انطلقت.. وسرعان ما برز له خادم يحمل مظلة كى يقوده إلى الداخل.. وبأدب قال له:
- لقد تم دفع أجر السائق..
واجتازا الحديقة إلى داخل المنزل، حيث راح حشد من الخدم يخلصونه من عصاه وقبعته.. وأعطوه تذكرة عليها رقم.. ثم قادوه إلى قاعة كبيرة..

كانت هناك مئات من الشموع، وما يقرب من ستة عشر ضيفا.. بعضهم يلعب (الروليت).. وبعضهم يلعب (الباكاراه)
على حين راح الخدم يتنقلون، حاملين كئوس الشمبانيا وأطباق الفاكهة.. ثم جاء مستر (موريس) ليستقبله.. كان شابا وسيما رقيقا يوحي بأصل راق، ووجد الملازم أن لديه ميلا طبيعيا تجاه مضيفه..
قال مستر (موريس):
- سمعت عنك يا ملازم (ريتش).. وصدقني إنني لممنون إذ أعرفك.. إن مظهرك يتفق تماما والسمعة التي سبقتك من (الهند).. ولو أنك تناسيت الأسلوب الغريب الذي دعوتك به إلى منزلي؛ فإنني سأشعر بالفخر والسرور الخالص لوجودك هنا..
فكر الملازم:
- بشرفي.. هذا الرجل من ألطف الناس، وهذه الصحبة من أظرفهم في (لندن)..
لكنه راح يراقب الرجل.. ووجده يجري فحصا دقيقا على كل الموجودين في القاعة.. لم يترك ضيفا إلا وكلمه.. وراح يراقبه من بعيد.. وعلى وجهه ابتسامة دائمة سرعان ما ينساها.. عندئذ ترتسم على ملامحه سيماء القلق والجدية..
ثم رآه يأخذ أحد الضيوف جانبا ليقول له:
- أعتذر لك ألف مرة.. لا أنكر أنني أعتقد أنك
جنت داري دون قصد، وعن طريق الخطأ.. لأنني - وأتكلم بصراحة - لا أذكر وجهك أبدا.. فهلا قلت لي تحت أي سقف تحسب أنك موجود الأن؟
قال الضيف في حيرة:
- تحت سقف مستر (موريس)..

- فهمت.. هناك رجل آخر يدعى (موريس) في نهاية الشارع.. وأنا واثق أن الشرطي سيدلك عليه.. إنني أعتذر عن سوء الفهم لكنه - على الأقل - قد جعلني أستمتع بصحبتك فترة كافية.. وأنا لن أقبل تحت أية ظروف أن أؤخرك عن رفاقك فترة أطول.. (جون)! هلا تأكدت من أن هذا السيد سيجد معطفه؟

فما إن رحل الرجل مع الخدم.. حتى أطلق مستر (موريس) تنهيدة.. كأنما روحه كانت مرهقة بهذا العمل الثقيل الذي قام به..

وخلال ساعة راح مستر (موريس) يستقبل ضيوفا آخرين.. ويطرد آخرين بنفس الأسلوب الرقيق.. لهذا ظل العدد ثابتا..

لكن بعد قليل بدأ عدد الوافدين يقل وعدد المطرودين يزداد..

بينما مستر (موريس) يتنقل بين مجموعة وأخرى.. لم يكن يبدو كمضيف، بل كمضيفة.. وثمة طريقة أنثوية في عنايته الفائقة بالضيوف..

دخل الملازم غرفة مجاورة على سبيل التجديد..

هنا وجد شيئا غريبا..

لقد جمع الخدم الأثاث كله.. والزهور كلها..

كأنما المنزل تسكنه أسرة قد عزمت على الرحيل، وكانت هناك عربتا نقل أثاث أمام الباب.. فما معنى هذا؟

إذن فالأمر كله خدعة..

من هو مستر (موريس)؟ ما غرضة من لعب دور المضيف؟ ولماذا يجمع الزوار من شوارع (لندن)؟

كان خمسة أشخاص قد بقوا في القاعة.. حين نهض مستر (موريس) ليقول:

- ها قد حان الوقت يا سادة لأشرح لكم الأمر.. إن غرضي لم يكن هو إمتاعكم.. بل معاونة نفسي في ضرورة عاجلة.. وأطلب منكم

أن تسدوا لى خدمة خطرة حساسة.. إن طلبا كهذا فيه مبالغة كبرى حين يجيء من غريبا.. لهذا يمكن لمن يرغب أن ينصرف.. وهي ذي بدي تصافحه بكل إخلاص..
نهض رجل أسمر طويل القامة.. وقال:
- إنني أقدر صراحتك يا سيدي.. لا أريد إعطاء انطباعات.. لكن لا أنكر أنك تملؤني بأفكار متشككة لهذا سأرحل.. وأعتقد أنه ليس من حقي تبرير ما أفعل بكلمات..
- على العكس.. أنا ممنون لما تقول..
قال الرجل مخاطبا الآخرين:
- حسن يا سادة.. ما رأيكم؟ هلا عدنا إلى ديارنا الآن في سلام؟ سوف تشكرونني على طلبى حين يجيء الصباح وترون الشمس ثانية وأنتم طاهرو الذيل سالمون..
قالها بجدية وخطورة.. عندها نهض واحد من الجالسين مستعدا للرحيل..
وبقي اثنان ثابتا الجنان هما الملازم (براكنبورى)...
وميجور عجوز أحمر الأنف من سلاح الفرسان..
اقتاد مستر (موريس) الراحلين إلى الباب.. ثم عاد إلى الضابطين الجالسين وقال:
- لقد اخترت رجالي كما فعل (جوشوا) في التوراة.. والآن أنا موقن أنكما خلاصة (لندن)..
فمظهركما شد سائق عربتي.. ولقد راقبت مسلككما طيلة السهرة.. ورأيتكما تلعبان وتقبلان الخسارة..
ثم قدمت خطبتي المريبة، لكنكما لم تتزحزحا وقبلتماها كدعوة إلى العشاء..
قال الميجور العجوز:
- نحن لن نخيب ظنك يا سيدي..

ثم قال مخاطبا (براكنبورى):
- ملازم (ريتش).. سمعت عنك الكثير ولا أشك في أنك سمعت عني أيضا.. أنا الميجور (أوروك)..
صافحه (براكنبورى) وقال:
- ومن لم يسمع عنك؟
ثم سأل الميجور مضيفهما:
- والآن ماذا؟ هل في الأمر مبارزة؟
قال مستر (موريس):
- مبارزة على الموضة! مبارزة. كما أخشى حتى الموت مع أشر الأعداء طرا.. والآن يمكنكما أن تدعواني باسم (هامر سميث) وهو اسمي الحقيقي.. هناك شخص آخر يهمني أمره قد اختفى من الدار منذ ثلاثة أيام.. ولا علم لي بمكانه.. وصديقي هذا منهمك في عمل من أعمال العدالة الشخصية.. فهو مضطر لأن يتخلص بنفسه من وغد أثيم، دون معونة القانون.. لأنه ملتزم بقسم تعس.. لقد هلك اثنان من رفاقي أحدهما هو أخي الشقيق.. والآن لا أدري مصير صديقي هذا.. لكني أعرف أنه مازال حيا.. وهذه الرسالة تثبت هذا..
بالطبع كان المتكلم هو الكولونيل (جيرالدين) تابع الأمير (فلوريتزل)..
وأخرج خطابا قدمه للرجلين.. كان مكتوبا فيه ميجور (هامر سميث):
- يوم الأربعاء في الثالثة صباحا، سيقتادك إلى حدائق (روشستر هاوس) رجل يهمني أمره.. وأنا أسألك ألا تخذلني.. أحضر معك مجموعة سيوفي وسيدين متعاونين يجهلان شخصى.. ولا يجب أن يذكر اسمي في هذا الموضوع.

(ت. جودول)

قال الكولونيل:
- كما تريان أنا لا أفهم شيئا عن الموضوع أكثر منكما.. لكني غير نادم على هذه الحيلة التي رتبتها:
استأجرت هذه الفيلا والخدم.. وقمت بترتيب مع أحد محلات المفروشات لهذه الليلة.. وهأنذا قد ظفرت بعون ميجور (أوروك) والملازم (ريتش).. والآن أمامنا ساعة حتى يحين الميعاد وتوجد عربة على الباب بانتظارنا..
وناول كلا منهما مسدسا محشوا.. ثم ركب ثلاثتهم العربة قاصدين العنوان الموضح في خطاب الأمير..
يقع (روشستر) على ضفاف القتال.. وله حديقة تعزله عن الجيرة بشكل غير معتاد.. ومن الشارع لا يمكنك أن ترى ضوءا في أية نافذة.. عامة يبدو المكان كأنما أصحابه قد هجروه منذ زمن..
دنا الرجال الثلاثة من الباب.. بينما المطر ينهمر مدرارا، فوقف الرجال في ظل شجرة يتهامسون وينتظرون..
فجأة رفع (جيرالدين) إصبعه يأمرهم بالصمت، ومن خلال ضوضاء المطر سمعوا صوت رجلين يتحدثان.. بل واستطاعوا تمييز مقاطع من كلامهما:
- هل تم حفر القبر؟
رد الآخر:
- نعم... جوار أشجار الغار.. يمكننا تغطيته بألواح الخشب حين نفرغ، وضحك أول المتكلمين فأحدث صدمة لدى من ينصتون..
ثم بدا من صوت الخطوات أن الرجلين افترقا وسلك كل منهما طريقا مختلفا..
هنا ظهر وجه أبيض من البوابة.. وأشارت يد للرجال الثلاثة.. فاتجهوا نحو الباب صامتين كالموتى ومشوا وراء مرشدهم بين

طرقات الحديقة إلى باب المطبخ فالمنزل ذاته..
كان دليلهم يقتادهم حاملا شمعة.. وهو رجل نحيل محني الظهر، من آن لآخر يستدير طالبة الصمت منهم بإشارة من يده..
الجو غامض والظلام دامس.. والمكان مقفر يناسب أسود الأفعال طرا.. حتى إن الملازم بدأ يتوتر..
في النهاية دخلوا حجرة صغيرة تنيرها نار بسيطة وجوار المدفأة جلسن شاب له مظهر مسيطر قوى..
وفي يده سيجار يدخنه باستمتاع شديد.. وأمامه كأس تحوي سائلا فوارا ملأ الغرفة برائحة محببة..
قال الرجل وهو يشير (الكولونيل) وكان هو الأمير طبعا..
- مرحبا.. عرفت أنني أستطيع الاعتماد عليك..
انحنى الكولونيل وقال:
- بكل إخلاص..
ثم تمت طقوس التعارف.. بعدها قال الأمير:
- كنت أتمنى يا سادة أن يكون برنامجي أفضل، فمن المهين أن نبدأ التعارف بهذه الأمور الخطرة..
لكن خطورة الموقف أقوى من واجبات الزمالة وأنا أعرف أن رجالا أقوياء مثلهم يكفيهم أن يعرفوا أنهم أدوا معروفا..
قال الميجور:
- فليغفر لى سموكم وقاحتي.. لكني لا أستطيع مداراة ما أعرف.. قد يمكن أن تجد رجلا في (لندن) لا يعرف أمير (بوهيميا).. لكنك بالتأكيد لن تجد رجلين لا يعرفانه!
بدا الذهول على الملازم (براكنبورى) حين سمع الاسم.. أما الأمير فقال:

- لن يضايقني أن شخصيتي قد انكشفت، مادام هذا يسهل على توجيه الشكر لكما.. أنا أعرف أنكما كنتما ستفعلان نفس الشيء لمستر (جودول).. لكن الأمير قادر على توجيه الشكر لكما..
مر الوقت في حديث عن (الهند).. ثم دنا الرجل الذي قادهما إلى الداخل ليهمس بكلمة في أذن الأمير..
قال الأمير بصوت عال:
- حسن يا د. (نويل).. اغفروا لي يا سادة فقد دنت اللحظة..
أطفأ د. (نويل) المصباح.. وساد الظلام المكان فيما عدا ضوءا خافتا من النافذة يعلن قدوم الفجر..
اتجه الأمير نحو الباب ووقف هناك في انتباه وقال:
- سيكون فضلا منكم لو لزمتم الصمت، واختفيتم في الظلال..
ساد الصمت المكان.. فلم يعودوا يرون سوى الظلام.. ثم رأوا شخصا يتجه في تؤدة نحو درج المطبخ.. كان يقف بين خطوة وأخرى ليصغي..
وتعالى صوت لهاث د. (نويل) وهو واقف ينتظر ما سيحدث.. لقد كان كل هذا ذا تأثير مقلق في نفوس المنتظرين..
ثم انفتح باب المطبخ..
وعلى الباب ظهر خيال رجل منعكسا على ضوء الفجر خلفه..
ولبرهة وقف القادم ساكنا.. كان طويل القامة يحمل سكينا في يده.. وفي ضوء الغبشة كنت ترى أسنانه العارية تلتمع كأنما كلب صيد موشك على الانقضاض.. وكنت ترى قطرات الماء تساقط من ثيابه على الأرض..
في النهاية عبر العتبة.. ودوت صرخة وصوت عراك..
وقبل أن يتحرك الكولونيل كان الرجل قد سقط في يد الأمير.. أعزل.. عاجزا عن الحراك.. وقال الأمير:
- د. (نويل).. أرجو أن تتكرم بإشعال المصباح..

ثم ترك سجينة الكولونيل.. واتجه نحو ركن المدفأة..
فما إن اشتعلت النار في المصباح حتى رأى الرجال تبدلا شديدا في ملامح الأمير.. لم يعد هو (فلورتيزل) السيد المهذب.. بل هو أمير (بوهيميا) المفعم بالتصميم والعنف..
وأشار الأمير إلى سجنه وأعلن أنه رئيس نادي الانتحار..
- أيها الرئيس.. لقد اجتزت فخك الأخير وسقطت قدماك فيه.. هذا هو آخر صباح تراه.. جنت سباحة عبر قناة (ريجنت).. هذه هي آخر سباحة لك والقبر الذي حفرته لي صباح أمس سيكون - بعون الله القدير - قبرك الخاص.. اركع وصلِّ يا سيدي لأن الوقت قصير.. وجهنم تنتظرك..
لم ينبس الرئيس ببنت شفة.. بل ظل ينظر إلى الأرض شاردا.
قال الأمير بنبرة أكثر هدوءا:
- هو ذا الرجل الذي راوغني كثيرا.. لكنى - بفضل (نويل) - قد تمكنت منه.. والآن يا سادة ما نحن مقبلون عليه هو تنفيذ حكم أكثر منها مبارزة.. وأنا لن أمنح هذا السفاح فرصة اختيار السلاح الذي يناسبه.. إن رصاصة المسدس تسافر بأجنحة الحظ.. وقد تخذل الشجاعة والمهارة أفضل الرجال.. لهذا اخترت السيوف وأعتقد أنكم توافقون على هذا..
ثم أشار إلى رئيس النادي.. وهتف:
- هلم سيدي.. انتق سيفك فصبري قد نفد..
رفع الرئيس رأسه للمرة الأولى.. وقد استجمع بعض شجاعته.. وسأل:
- هل سيتم الأمر بيني وبينك؟
- أردت أن أعطيك شرفا..
- إن هذا مسلك لائق من سموكم.. ولو حدث الأسوأ فكفاني أن أموت بيد أعظم رجال (أوروبا).

ثم اتجه إلى المائدة وانتقى سيفا..
كان مسرورا.. ومن الواضح أنه كان موقنتا من خروجه سالما بعد المبارزة..
وأدت ثقته بنفسه إلى إثارة رعب المراقبين..
وطلبوا من (فلورتيزل) أن يراجع نيته..
قال لهم:
- لن تكون سوى مزحة.. وأعدكم يا سادة أن. المسرحية لن تطول..
ثم قال للكولونيل:
- إن هذا دين شرف على أن أوفيه لك.. إنني مدين لك بموت هذا الرجل.. وأنا مصمم على دفع ديوني..
ثم رفع سيفه وأعلن استعداده بإيماءة نبيلة..
ومثله فعل الرئيس.. فقد كان هناك مناخ عام من الرجولة والشرف في كل هذا..
قال الأمير:
- في هذه الحجرة سينتظر (جيرالدين) ود. (نويل).. فلا أريد لصديق لى أن يتدخل في هذا الأمر.. أما ميجور (أوروك) فإنني أرجوه أن يكون شاهد رئيس النادي.. أما الملازم (ريتش) فأرجوه أن يكون شاهدى..
قال (براكنبورى):
- يا سمو الأمير.. هذا شرف سأقدره تماما.. ثم تقدم الأمير خارجا من المطبخ..
ووقف الكولونيل والطبيب في النافذة ينتظران ما سيحدث من مشاهد دموية.. وكان المطر قد توقف والطيور تغرد على أشجار الحديقة..

تقدم الأمير والرئيس والشاهدان وسط الأشجار، حتى وصلوا إلى فرجة أخفتهم عن العيون.. فلم يعد الكولونيل يرى ولا يسمع حتى صوت قراع السيوف..
فقط راح يدعو الله أن ينتصر الحق.. والعرق. يغمره..
مرت دقائق عديدة.. ثم ارتفع صوت خطوات..
كان القادم هو الأمير مع الضابطين.. لقد انتصر الحق فعلا..
قال الأمير:
- أنا خجل من نفسي.. لكن وجود هذا الكلب في عالمنا كان يمزق أعصابي كالوباء.. وقد أنعشني موته أكثر من نعاس عميق..
وألقى بسيفه أرضا وقال:
- هي ذي أي (جيرالدين) دماء الرجل الذي قتل أخاك.. ياله من منظر جميل! لكن ما جدوى هذا مع كل ما قارف الرجل من إثم؟ هذا المنزل الذي نحن فيه هو منزله.. فقد كان ثريا.. ومن الممكن أن أحارب الشر إلى يوم الدين، لكن أخاك سيظل ميتا.. إن حياة المرء لشيء بسيط هين حين تأخذه.. وشيء عظيم حين تستخدمه في الخير.. واحسرتاه!
قال الدكتور:
- قد حقت عدالة السماء.. كان الدرس قاسيا بالنسبة لي.. وإنني لأرتقب دوري في هلع متوجس..
صاح الأمير:
- ماذا أقول إذن؟ لقد عاقبت.. وهو ذا رجل جوارى يمكن أن أصلح به ما فعلت.. فلنقل يا د. (نويل) إنك قد كفرت عن أخطائك السابقة..
قال الطبيب:
- إذن فاسمح لي أن أذهب لدفن صديقى القديم...

يقول الراوي العربي اللوذعي: وهذه كانت النهاية السعيدة لقصتنا.. ولم ينس الأمير واحدا ممن ساعدوه في مهمته العظيمة.. وما زال نفوذه يعاونهم في شق طريقهم في الحياة.. بينما تضيف صداقته سحرا إلى حيواتهم الخاصة.. إن كل الأحداث الغريبة التي لعب فيها الأمير دورا مهما لتملأ الأرض بالكتب، وتعطي زادا لا ينفد لهواة قصص الشجاعة والمغامرة.

روبرت لويس ستيفنسون
1887

(تمت بحمد الله)

ألف ليلة وليلة الجديدة..

في جو ساحر من المغامرة، والسادة المهذبين الذين لا يفقدون وقارهم أبدا.. والكونتيسات الغامضات.. والمبارزات حتى الموت.. وقسم الشرف الذي لا يمكن الحنث به؛ يقدم لنا (ستيفنسون) أعماله التي يعشقها كل قراء الإنجليزية.. والتي يصبها في كأس خلاب يذكرنا بألف ليلة وليلة..

أحمد خالد توفيق


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(*) لمزيد من الدقة وهذه القصص ليست قصيرة إلا من ناحية الطول.. لكنها - من ناحية التركيب الأدبي تدخل في إطار الرواية أي أنها روايات قصيرة..

[←2]

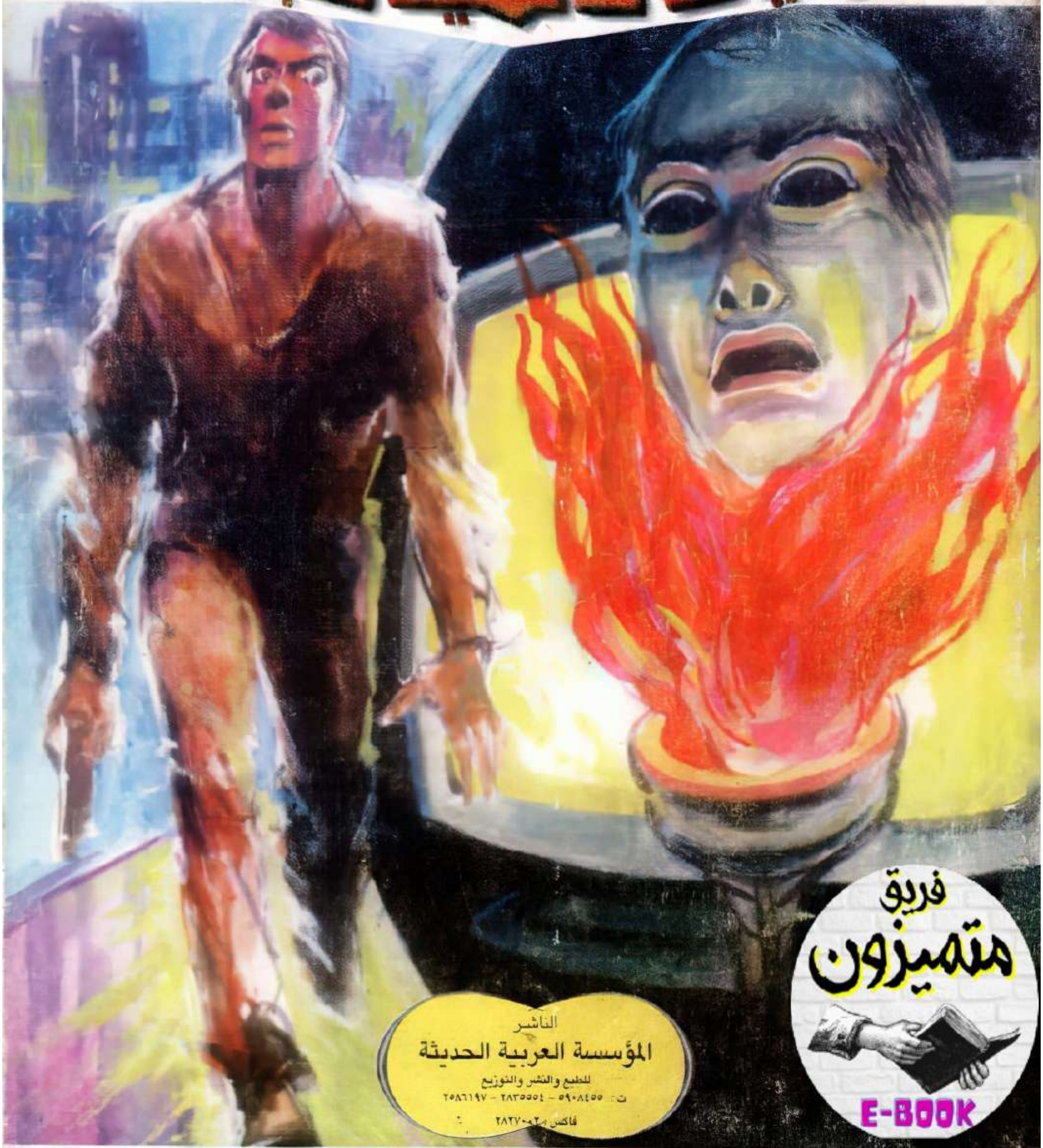
(*) يعني الأشغال الشاقة المؤبدة.. وكان المساجين يُرسلون للعمل في المزارع في المستعمرات

[←3]

(*) أوليس بطل إغريقي شهير

روايات عالمية للجيب

22



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس [illegible]٢٨٢٧٠

سباق الموت

قصة : ستيفن كنج

ترجمة وإعداد :

د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (22)

سباق المـوت

بقلم: ستيفن كنج.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

التقينا من قبل بـ (ستيفن كنج) في الكتيب التاسع.. وعرفنا أنه كاتب ذائع الصيت ذو شعبية هائلة، تخصص في أدب الرعب، حتى غدا لاسمه ذات الرنين الرهيب الذي صار لأسماء (إدجار آلان بو) و(برام ستوكر) و(لافكرافت)...

ولد (ستيفن كنج) في (بورتلاند) بولاية (مين) الأمريكية، عام 1947.. ويبدو أن نشأته قد أثرت كثيرا على أدبه.. لأن معظم قصصه تدور في ولاية (مين) هذه..

وكانت قصته الأولى (كارى) هي بداية نجاحه الأدبي.. ومن لحظتها صار أكثر الكتاب مبيعا في العالم.. وتفرغ للكتابة تماما..

إن (كنج) يهتم بالرعب.. لكن الخيال العلمي يظل خارج اهتماماته فيما عدا بعض قصص قصيرة نادرة منها (أمواج الليل) و (أنا مدخل الباب) وقصتنا التي نقدمها اليوم...

وقصة اليوم لا تمت لعالم الخيال العلمي إلا من ناحية الشكل.. فأحداثها تدور في المستقبل.. لكن ما يريده المؤلف منها هو الرعب والتشويق.. وكعادة أكثر كتاب الخيال العلمي يرى (كنج) أن المستقبل هو كابوس رهيب، يسيطر فيه حكم شمولي على أنفاس البشر.. ويزداد الفارق بين الطبقات اتساعا، بحيث يتحول المجتمع إلى طبقة حكام مترفة.. وطبقة محكومين حياتهم أقرب إلى حياة الفئران..

هنا تأتي لعبة الموت.. لو ربحتها لأمكنك أن تنتقل إلى طبقة أخرى.. ولو خسرتها فلن تفقد سوى حياتك أمام شاشات التلفزيون، وجمهور المشاهدين المتعطشين للدماء كما في سيرك روماني قديم..

إنها صفقة مغرية كما ترى!
إن الرواية لممتعة حقا.. وتحبس أنفاس القراء حتى آخر صفحة فيها، ومنها سنعرف أن (ستيفن كنج) لا يتخلى عن عشقه للرعب والتوتر، حتى وهو يضع قدميه في حذاء الخيال العلمي، ويضع عباءة المستقبليات على كتفيه.. ثم إنه لا يتخلى عن المحتوى الإنساني العالي الذي يميز قصصه..
بقي أن نعرف أن عنوان الرواية الأصلي هو (الرجل الراكض).. وقد كتبها عام 1982 باسم مستعار يستعمله كثيرا هو (رتشارد باكمان)..
ولا يجد (ستيفن كنج) نفسه سببا مقنعا لكتابة بعض الروايات بهذا الاسم.. لكنها عادة أحبها وأحبها القراء جميعا..

د. أحمد خالد

∞∞∞∞∞∞

قائمة بأشهر أعمال (ستيفن كنج)..

- كارى.
- كريستين.
- وردية الليل.
- مقبرة الحيوانات الأليفة.
- التألق.
- هو (الشيء).
- ميزرى (قدمناها باسم الشيطانة).
- أشباح الليل.
- النصف المظلم.
- الرابعة بعد منتصف الليل.
- أشياء مشتهاة.
- لعبة جيرالد.
- دولوريس كليربورن.
- كوابيس وأحلام.
- الرجل الراكض (نقدمها هنا باسم سباق الموت) (*)
- أرق.
- ساحة سيلم.
- كتب باكمان (*).

(*) كتب كتبها بالاسم المستعار (رتشارد باكمان)

∞∞∞∞∞∞∞

100- ومازال العدّ مستمرًا..

راحت تحملق في (الترمومتر) في الضوء الأبيض الداخل من النافذة.. بينما خلفها تبدو المباني الشامخة لمدينة (كو - أوب) كأنما هي نقاط المراقبة المحيطة بسجن.. وفي الزقاق راحت الفئران والقطط تمرح وسط صناديق القمامة..

نظرت إلى زوجها الجالس إلى المنضدة يتأمل جهاز التلفزيون المجاني بتركيز خال من المعنى لقد ظل يشاهده لمدة أسابيع.. ولم يكن هذا دأبه.. فهو يكرهه.. لكن كل شقة إسكان كانت ملزمة باقتناء واحد.. هذا هو القانون.. لكن ما زال من المسموح به أن تطفئ الجهاز إذا أردت..

ومنذ أن مرضت ابنتهما (كاتى) ظل عاكفا على مشاهدة المسابقات..

وقد ملأها هذا رعبا..

كان صوت أنين (كاتي) يتعالى.. فسألها (رتشارد):

- ما مدى سوء الحال؟

- ليس سيئا إلى هذا الحد..

- لا تكذبي على..

- الحرارة مائة وأربعة[1] .

ضرب بقبضتيه على المنضدة، فطار طبق فى الهواء وسقط أرضا..

واستدار ليرمق شاشة التلفزيون المجاني من جديد..

لم تكن لعبة كبرى، بل مجرد تسلية عابرة اسمها (السير المتحرك والدولارات).. وفيها يقف مريض القلب أو الصدر على سير متحرك سريع وعليه أن يظل متماسكا ليربح عشرة دولارات

عن كل دقيقة.. ثم يرد على سؤال يوجهه له المقدم بعد دقيقتين، فإن أجاب عنه ربح خمسين دولارا.. وإن أخفق خسر خمسين دولارا، وازدادت سرعة السير..

قال (رتشارد) لزوجته بوحشية:

- سنحضر لها طبيبا حقيقيا.. لا مزيدا من (الدايات) ذوات الأيدي القذرة والأنفاس التي تفوح بالويسكي..

- كلا.. كلا لن أسمح بهذا.. لن أدعك...

- لم لا؟ على الأقل سيمنحونها إعانة اليتم.. وسيكون معك ما يكفي من المال كي تنقذيها..

واستدار نحوها مقطبا.. كان قويا في وقت ما.. لم يكن عملاقا لكنه كان خطرا.. و (الشبكة) ستعرف هذا جيدا..

رأته يتناول سترته.. ويرتديها.. ثم يتجه للباب..

- (رتشارد).. هذا هو ما يريدونه لأمثالنا.. لأمثالك..

قال وهو يفتح الباب:

- ربما لن يأخذوني.. ربما ليس عندي ما يبحثون عنه..

قالت وسط عبراتها:

- لو أنك ذهبت فالموت نهايتك.. وسأبقى أنا هنا أشاهدك.. أحقا تريد أن أرى ذلك معها؟

قال محاولا غلق الباب، بينما جسدها يمنعه:

- أنا أحاول إنقاذ حياتها فحسب..

- إذن قبلني.

قبلها.. وانفتح الباب لتدخل منه رائحة شهية للحم بقرى مع الكرنب.. لقد كانت جارتهما ثرية، فهى تعمل في الصيدلية القريبة.. قال (رتشارد):

- هل ستأخذين المال؟ ولن تقومي بعمل أحمق؟

- سآخذه.. أنت تعرف ذلك..

ووقفت على الباب تتهانف بالعبرات، وما زال (الترمومتر) في يدها..

عادت إلى داخل الشقة، لتجد المتسابق على شاشة التلفزيون قد أصابته نوبة قلبية.. ورأته محمولا على نقالة خارج المسابقة بينما الجمهور يهلل حماسا..

جلست تتأمل اللعبة التالية، بينما أنين الطفلة يتعالى من الحجرة الداخلية.

∞∞∞∞∞

99- ومازال العدّ مستمرًا..

كان المطر قد بدأ ينهمر حين وصل (رتشارد) إلى الشارع..

حرارة الجو واحد وخمسون درجة مئوية فلابد أنها ستون في شقته.. والطفلة مريضة..

لم يكن رجال الشرطة يجسرون على العبور إلى الجهة الجنوبية من القناة.. فهذه المنطقة جحر فئران يسيطر عليه قانون واحد.. هو قانون عصابات الدراجات البخارية.

شوارع مخيفة تسكنها الأشباح.. ومتاجر مهجورة.. فلا يمكن أن تمشي على قدميك.. عليك أن تستقل الأتوبيس الهوائي، أو تحمل أسطوانة غاز للدفاع عن نفسى.

كان (رتشارد) يمشي مسرعا ولا ينظر حوله أو يفكر..

رائحة الهواء كبريتية ثخينة جدا.. ومرت أربع دراجات بخارية جواره.. بعدها مر أتوبيس هوائي فلم يشر له (رتشارد).. فهو لا يملك مالا.. لقد أنفق عشرين دولارا هى معاش البطالة لهذا الأسبوع..

وقد أدرك أن العصابات التي تعمر الحي تدرك فقره.. فلم يتحرش به أحد..

نوافذ محطمة.. فئران.. أكياس قمامة.. شتائم كتبت بالطبشور على الجدران وكاد المطر يمحوها..

حانات.. بيوت لهو.. كابلات التلفزيون المجانى مدفونة بعناية تحت الأسفلت، ولا يجرؤ على تخريبها سوى أحمق أو ثائر.. إن التلفزيون المجاني هو سلعة الحياة.. خبز الأحلام.. ولا يكلفك شيئا..

أما على الجانب الآخر من القناة، فتدور آلة الأحلام أربعة وعشرين ساعة يوميا.. ولكن الجانب الجنوبي يحوي أربعة ملايين من السكان كلهم عاطلون بلا عمل.. ولا أمل..

بدأ يرى ناطحات السحاب ترتفع في الأفق، نظيفة شامخة.. وأعلى ناطحة فيها هي مقر (شبكة الألعاب).. ناطحة تتكون من مائة طابق نصفها العلوي مدفون وسط السحب ودخان المصانع..

الآن يرى المنازل الفاخرة.. والنظافة.. ورجل شرطة في كل ركن.. الأمهات في ثياب مهندمة يراقبن أطفالهن المليئين بالصحة.. دنا من مبنى الشبكة برخامه المصقول.. رجال الشرطة مستعدون لطرده أو مضايقته لو حاول أن يتلكأ.

ففي هذا الجزء من المدينة، لا يوجد سوى عمل واحد لرجل فظ الثياب يحلق شعره حلاقة رخيصة مثله.. هذا العمل هو الألعاب..

بدأت الامتحانات عند الظهر.. ووقف (رتشارد) وراء آخر رجل في الطابور.. ما زال أمامه ميل حتى يصل إلى المبني.. والطابور يمتد إلى ما لا نهاية كثعبان خرافي..

وقف رجال الشرطة يتأملونهم وهم يبتسمون في اشمئزاز وتشفّ:

- هؤلاء الأوغاد ليسوا...
- يقتلون أمهاتهم من أجل....
- رائحة هذا الرجل تقول إنه لم يستحم منذ....

الرءوس تمشي تحت الأمطار.. والطابور يتحرك...

∞∞∞∞∞∞

98- ومازال العدّ مستمرًا..

بعد الرابعة وصل (رتشارد) إلى المنصة الرئيسية.

وأدخلوه إلى دسك رقم (٩).. كانت المرأة الجالسة لتستخرج البطاقات مرهقة غير متعاونة.. وقد نظرت له دون أن تراه.. وسألته:

- اسمك.. اذكر اللقب أولا ثم الاسم الأول..

- بنيامين.. رتشارد..

ضغطت على المفاتيح تدون ما قال. كليتر كليتر!

- السن؟ الطول؟ الوزن؟

- 28 - 165 - 62.

كليتر.. كليتر.. كليتر!

كانت القاعة ممتدة إلى ما لا نهاية.. وفي كل صوب تنهمر الأسئلة ويعلو صوت الأجوبة.. رجال يطردون إلى الشارع.. أصوات خشنة تعلو احتجاجا.

- آخر مدرسة دخلتها؟

- مدرسة الأشغال اليدوية..

- هل تخرجت فيها؟

- لا..

كليتر.. كلير.. كليتر!

- هل تتعاطى (الهيرويين) أو مشتقات (الأمفيتامين) المسماة بدفعة (سان فرانسسكو)؟ لا تكذب لأنهم سيعرفون ذلك..

-.. لا..

ناولته بطاقة من البلاستيك ونصحته ألا يفقدها وإلا سيبدأ من جديد.. ودخل إلى صالة طويلة بها مصاعد كثيرة..

هناك شاب طرده رجل الشرطة، فخرج وهو يصرخ احتجاجا.. سمع صوت المرأة يقول دون تعاطف:

- عالم كبير قاس يا فتى.. هيا تحركوا!

تحرك (رتشارد) متجها إلى المصعد..

∞∞∞∞∞



ناولته بطاقة من البلاستيك ونصحته ألا يفقدها
وإلا سيبدأ من جديد ..

97- ومازال العدّ مستمرًا..

ضغطت يد غليظة على كتفه.. وسمع صوت الشرطي يقول:

- البطاقة يا فتى..

مد (رتشارد) يده بالبطاقة، فتفحصها الشرطي، وبدت على وجهه خيبة أمل فقال له (رتشارد):

- أنت تحب أن تطردهم أليس كذلك؟ هذا يشعرك بالأهمية..

- هل تريد أن نرجعك إلى دارك يا حشرة؟!

تقدم (رتشارد) متجها إلى المصعد.. والتفت إلى الشرطي وناداه.. التفت الرجل متشككا.. فقال (رتشارد):

- هل عندك أسرة؟ من يدري؟ ربما كان الدور عليك الأسبوع القادم!

زمجر الشرطي يأمره بالتحرك.. وعلى باب المصعد كان هناك شرطي آخر عليك أن تريه بطاقتك من جديد.. سأله في سخرية:

- يبدو أن لك روحا صلبة يا فتى؟ سيركلونها حتى تلين من جديد.. ما مدى براعتك في الكلام حين يمتلئ رأسك بثقوب الرصاص؟

قال (رتشارد) وهو يبتسم:

- مثل براعتك في الكلام حين تفقد سلاحك هذا!

- هل تريد أن تجربه؟

للحظة ظن (رتشارد) أن الشرطي سيضربه.. لكن الرجل اكتفي بالقول:

- سيحسنون معاملتك هنا.. ولسوف تزحف على ركبتيك طويلا قبل أن تموت..

وتحرك الجمع.. هنا التفت الرجل الذي يمشي أمام (رتشارد) ونصحه ألا يستفز هؤلاء القوم أكثر من هذا..

وانفتح باب المصعد، وكان بداخله رجلا شرطة واحتشد القوم في المصعد حتى غدا التنفس مستحيلا.. اللحم الحزين يحيط بـ (رتشارد) تماما.

ثم انفتح الباب من جديد.. وأُمروا بإبراز البطاقات أمام عدسة كاميرا تتفحصها.. ولسبب ما صدر أزيز حوالي اثنتي عشرة مرة.. فطرد اثنا عشر رجلا إلى الشارع..

فما إن اجتاز الكاميرا حتى اتجه (رتشارد) إلى جهاز بيع السجائر.. فابتاع علبة.. وجلس يدخن ويسعل..

كانت أول لفافة تبغ يقربها منذ ستة أشهر.

∞∞∞∞∞

96- ومازال العدّ مستمرًا..

نادوا الرجال الذين تبدأ أسماؤهم بحرف (ألف) للكشف الطبي.. وكان هناك باب في نهاية الرواق عليه لافتة تقول: هذا الاتجاه..

وقدر (رتشارد) أن حرف (الراء) سيأتي دوره في التاسعة والنصف.. وتمنى لو كان قد جلب كتابا، لكن الكتب كانت مجلبة للشكوك عامة، خاصة حين يحملها شخص من جنوب القناة.، ربما كانت المجلات الهزلية أكثر أمنا هاهنا..

راح يرقب شاشة التلفزيون المجاني.. حين بدأت الألعاب في السادسة والنصف.. لم يرفع عينيه إليها لأنه - وقد اتخذ قراره - لم يعد يطيق مشاهدة الألعاب ثانية..

شعر بحنين عارم نحو (شيللا) و (كاتى) وتمنى لو يستطيع الاتصال بهما.. لكن ترى هل هذا مسموح به؟

وعلى الشاشة كانت لعبة جديدة اسمها (احفر قبرك) في بدايتها.. ومال الجالس جواره ليسأله:

- هل صحيح أن 30٪ منا لن يجتازوا الكشف الطبي؟

- لا أدري..

- رباه! إنني مصاب بالتهاب شُعَب..

وكان (رتشارد) بالفعل قد سمع تنفس الرجل المنهك.. كأنه شاحنة تحاول تسلق مرتفع.. لم يجد ما يرد به.. عندها انهمك الرجل في سؤال الجالس على الجانب الآخر..

كان الظلام قد حل بعد ما انتهى نزف النهار ترى أما زالت الأمطار تنهمر؟ يبدو أنه سيكون ليلا طويلا حقا..

∞∞∞∞∞∞

95- ومازال العدّ مستمرًا..

في قاعة الفحص الطبي..

كان هناك جدار مغطى بالقيشاني.. وإضاءة بالفلورسنت.. فبدا المكان كأنه خط تجميع في مصنع بينما وقف أطباء ملولون على جانب الخط..

في مرارة فكر (رتشارد): لِم لا يقوم أحدكم بالكشف على ابنتي الصغيرة؟

وجاء طبيب في معطف أبيض طويل.. ليقول:

- انزعوا ثيابكم.. علقوها على الخطاطيف.. لا تقلقوا بصدد أشيائكم الثمينة فلا أحد يريدها هنا.

أشياء ثمينة! كانت دعابة قوية.. إن حافظته خالية تماما إلا من صورة لـ (شيللا) و(كاتى).. وإيصال بنعل حذاء جديد من الإسكافي وجورب طفل رضيع لا يعرف ما الذي وضعه هناك..

ونزع الرجال ثيابهم ووقفوا عراة في الطابور..

الأرض باردة مما جعلهم يحركون أقدامهم مرارا طلبا للدفء..

كان هناك شرطي جوار كل طبيب.. ثم جاء دور (رتشارد)..

- افتح فمك.. تحرك..

ثم فحص الطبيب التالي حدقتيه.. ثم أذنيه، بعدها شعر بقُرص السماعة البارد على صدره.. خذ نفسا عميقا.. تحرك..

أخذوا حرارته.. وجعلوه يبصق في طبق صغير..

ويجثوا عن البواسير ومواضع الفتق في جسده.. كل هذا وهو في منتصف الممر بعد..

دستة من الرجال يفشلون في الفحص ويغادرون المكان..

كابينة صغيرة - من التي كانت تستعمل في الماضي حين كانت هناك انتخابات - دخلها وطلبوا منه أن يبول في كأس..

ثم فحص النظر.. فرسم السمع.. أخذوا طوله ووزنه.. ثم التقطوا له صورة بالأشعة..

رجل ثار على الطبيب وكاد يضربه، لكن رجل الشرطة ضربه بعصاه الكهربية.. فهوى الرجل على الأرض مهشم الجسد..

بعد هذا جلس (رتشارد) أمام طبيب سأله عن خمسين مرضا معروفا.. ثم:

- هل تم اعتقالك بتهم سياسية؟

- لا..

- هل أنت مصاب بـ (فوبيا)؟ أي أن...

- لا..

قال الرجل في ضيق

- لم لا تصغي لمعنى كلمة (فوبيا) أولا؟

- أي: هل لدى مخاوف قهرية غير معتادة، كخوف الأماكن المغلقة أو خوف المرتفعات.. ليس لديّ!

تمالك الطبيب أعصابه.. وواصل الأسئلة.. ثم جعله يوقع على أقواله.. واتجه (رتشارد) إلى المصعد..

وبدأت الرحلة إلى الطابق الثالث..

وهنا جاء رجلا الشرطة يقدمان للرجال أرقام الأسِّرة التي سيبيتون عليها وكان سرير (رتشارد) يحمل رقم 940..

كان الفراش صغيرا جدا مغطى بملاءة بنية..

ووجد (رتشارد) أن قدميه تتدليان للخارج لكن لم يكن بوسعه عمل شيء..

عقد يديه على صدره وراح يحملق في السقف.

∞∞∞∞∞

94- ومازال العدّ مستمرًا..

أيقظوهم في السادسة صباحا بصفير عال ولوهلة شعر بأن عقله مشتت والضباب يحيط به.. وتساءل عن المنبه الذي اشترته (شيللا).. ثم تذكر أين هو.. ونهض جالسا..

اقتادوهم إلى الحمام.. حيث استحم وحلق ذقنه، ثم اقتادوهم إلى كافتيريا.. وبتقديم البطاقات تم صرف علبة من الـ (كورن فليكس) لكل منهم.. ومعها طبق مليء بالبطاطس المقلية المشحمة. وقطعة خبز جافة باردة كأنها شاهد قبر.. وقهوة موحلة.. وبعض اللبن..

التهم الطعام كذئب.. فهو أول طعام حقيقي يأكله منذ زمن لا يعلمه سوى الله.. لكنه كان عديم المذاق، كأن مصاص دماء قد امتص كل نكهة من هذا الأكل..

ماذا تأكل (شيللا) الآن؟ وماذا تأكل الطفلة غير اللبن المزيف؟

رباه! متى يرى المال؟ بعد أسبوع؟ بعد شهر؟ ربما لن يكون هناك مال أبدا.. ربما كان الأمر مزحة.. ولا يوجد قوس قزح فضلا عن قدر الذهب في نهايته..

راح يرمق الصفحة الخالية حتى جاءت الساعة السابعة..

تم اقتيادهم إلى حجرة بها- على طول الجدران - ما يشبه صناديق الخطابات، ثم جاء رجل يرتدي بزة عليها شعار الألعاب (ويمثل رأسا آدميًا فوق شعلة متقدة).. وقال لهم:

- أرجو نزع ثيابكم ووضع كل ما هو ثمين في أيديكم.. بعدها ضعوا الثياب في إحدى فتحات الإحراق.. ارتدوا (أوفرول)

الألعاب.. ويمكنكم الاحتفاظ به دائما مهما كانت نتيجة المسابقات..

خلع (رتشارد) ثيابه.. وأخذ منها أشياءه الثمينة عديمة القيمة.. ثم رمي ما كان عليه في فتحة جانبية فتصاعد لهب جائع للحظة وخبا..

ثم راحوا ينتقون (الأوفرولات) الملائمة لقياسهم.. اختار (رتشارد) قياس XL فكان مناسبا.. ملمسه كالحرير لكنه أقوى منه.. وتوجد (سوستة) بلاستيكية في مقدمة الزي.. أما عن لونه فكان أزرق وعلى جيبه الأيمن العلوى شارة الألعاب..

وحين فرغ (رتشارد) من ارتدائه؛ أحس أنه فقد كل ما كان يميزه عن الآخرين فيما سبق..

∞∞∞∞∞

92- ومازال العدّ مستمرًا..

دخل من الباب وسط مجموعة من عشرة رجال..

تم فحص بطاقاتهم من جديد.. ثمة سجادة سميكة على الأرض أثارت دهشته.. فقد كاد ينسى ملمس أي شيء عدا (الأسفلت) تحت قدميه..

طلبوا منه التوجه إلى الكابينة رقم (6) فتوجه إليها ليجد منضدة، وساعة، وورقة، وقلما.. وكاهنة من كهنة عصر الكمبيوتر.. شقراء فارعة القامة بادية الحسن.. قالت له:

- اجلس أنا (ليندا وورد).. وسوف أمتحنك..

كانت ابتسامتها جذابة لكنها لا تخصه بعينه.. ابتسامة مهنية جدا.. وشعر بحنق لأنها تمنح هذه البسمة لكل البائسين مثله، الذاهبين إلى مفرمة اللحم.

- هذا الامتحان...- قالت - هو لقياس عقلك كما قسنا جسدك أمس..

ثم ابتسمت وأضافت:

- أمامك ساعة للإجابة.. ضع علامات واضحة.. ولو لم تعرف الإجابة فلا تخمنها.. مفهوم؟.

وعلى الصفحة الأولى من كراسة الأسئلة؛ كانت هناك كف حمراء.. وعبارة تقول: توقف! لا تقلب هذه الصفحة حتى يطلب الممتحن ذلك..

- والآن.. أبدأ!

فلم يبدأ.. ظل يرمقها في تحد وثبات.. احمرّ وجهها وهتفت:

- لقد بدأ الوقت.. وعليك أن...

سألها:

- لماذا يفترض الناس حين يتعاملون مع رجل من جنوب القناة، أنهم يتعاملون مع وحش متخلف عقليا؟
- لـ.. لكن.. أنا لم....
- نعم أنتِ لم...
وأمسك القلم وراح يجيب.. تاركا إياها حائرة لا تفهم سبب غضبه.
كان الجزء الأول يقتضى استكمال الكلمة الناقصة على غرار:
1- إن...... واحدة لا تكفي لجعل الصيف ممتعا..
(أ) فكرة. (ب) بيرة. (ج) بلعة. (د) جريمة. (هـ) لا شيء مما سبق.
راح يجيب بسرعة دون أن يقف لحظة ليفكر مرتين.. تلا هذا اختبار للمصطلحات اللغوية.. إلخ..
انتهى من الإجابة قبل أن تنتهي الساعة بخمس عشرة دقيقة.. لذا راح يتسلى بالنظر بوقاحة إلى الممتحنة.. وأدرك أنه يخنقها.. وأنها تتمنى أن ينتهي الامتحان سريعا..
ثم جاء امتحان في الحساب.. ولم يكن بارعا فيه، لذا بدأ يعرق والوقت يمضي سريعا.. حتى إنه لم ينته تماما حين شدت الورقة من يده، وابتسمت في تشفّ قائلة:
- لم تكن سريعا هذه المرة..



ثم جاء امتحان فى الحساب .. ولم يكن بارعًا فيه ..
لذا بدأ يعرق والوقت يمضى سريعًا ..

- لكن الإجابات سليمة..

ثم نظر لها في تحد.. وقال:

- الآن تعودين لدارك لتتناولي العشاء الدسم.. أريد منكِ وقتها أن تفكري في طفلتي التي تموت بالحمى في شقة إسكان رخيصة..

وتركها شاحبة الوجه.. واتجه إلى الغرفة التالية..

خضع لاختبار نفسي من نوع (تداعى المعاني).. ثم وضع على جهاز كشف الكذب.. وسأله طبيب يضع عوينات سميكة:

- هل قررت دخول الألعاب مدفوعا بأي حافز انتحارى؟

- لا..

- إذن ما هدفك؟

- طفلتي الرضيعة مريضة.. وبحاجة إلى طبيب.. إلى علاج..

- وهل من سبب آخر؟

- لم أظفر بعمل منذ زمن طويل.. أريد أن أعمل حتى ولو لعبت دور الأحمق في لعبة سخيفة.. أريد أن أعول أسرتي.. إن لي كبريائي..

وانتهت المقابلة فاتجه (رتشارد) إلى الباب التالي..

∞∞∞∞∞∞

90- ومازال العدّ مستمرًا..

جلس من تبقى من الرجال ينتظر ودخل رجل يحمل صينية عليها شطائر عديمة المذاق، فأخذ (رتشارد) اثنتين.. وجلس يلوكهما ويتأمل ما حوله.. لقد وصلوا الآن إلى الطابق الخامس..

نهض (رتشارد) واتجه إلى رجل الشرطة الواقف على الباب.. وسأله:

- هل ثمة هاتف هاهنا يا زميل؟

أشار الشرطي إلى الصالة.. كان هناك هاتف بالفعل.. هاتف بالعملة..

فنظر (رتشارد) إلى الشرطي وقال:

- اسمع.. لو أقرضتني خمسين سنتا للهاتف فسوف......

- اغرب عن وجهي يا أحمق!

تماسك (رتشارد) وقال:

- أريد الاتصال بزوجتي.. ابنتي مريضة.. ضع نفسك في مكاني بالله عليك..

ضحك الشرطي بصوت قبيح وقال:

- كلكم نفس الشيء.. قصة لكل يوم من السنة..

- أيها الوغد! - شيء في عيني (رتشارد) جعله يبعد عينيه عنه - ألست متزوجا؟ ألم تجد نفسك مضطرا للاقتراض، حتى لو كان لهذا طعم العلقم في فمك؟!

مد الشرطي يده في جيبه.. ورمى بربعين لـ (رتشارد).. ثم أمسك بقميصه بقبضته وقال:

- لو أنك أرسلت واحدا آخر من زملاك ها هنا، لأن (تشارلى جريدى) طيب القلب، فسوف أهشم رءوس هؤلاء الأوغاد

جميعا!
قال (رتشارد) بثبات:
- شكرا على هذا القرض..
واتجه إلى الصالة وطلب رقم الهاتف الخاص بالطابق الخامس في البناية التي كان يعيش فيها.. ودعا الله ألا ترد جارته اللعينة، لأنها ستقول له إن الرقم خطأ وتضع السماعة دون مناقشة..
صوت غير مألوف يسأل عن الطالب فسأل عن (شيللا رتشارد)..
- أظن أنها خرجت.. عندها طفل مريض وزوجها لا نفع منه..
بفم جاف كرر طلبه:
- هلا دققت الباب؟
وسمع صوت السماعة تسقط.. ثم صوت قرع على الباب... ونداء ثم:
- هي ليست هنا.. لكن الطفلة تصرخ.. كما قلت لك هي ليست هنا.. دائما ما تخرج دون علم زوجها!
تمنى (رتشارد) لو يدخل من سماعة الهاتف، ويخرج من الطرف الآخر كجنى عملاق في زجاجة.. ثم يخنق المتكلم حتى تثب عيناه من محجريهما..
- خذ هذه الرسالة.. اكتبها على الحائط لو أردت.
- ليس معي قلم.. سأضع السماعة.. وداعا!
- لا! انتظر!
- أنا.. لحظة.. إنها تصعد السلم الآن!
ثم سمع (رتشارد) صوت (شيللا) الحبيب المرهق الخائف.. فقال لها وهو يترك للحائط أن يتلقى جسده:

- (شيلة).. (كاتى) كيف حال.....؟

- نفس الشيء يا (رتشارد).. لم تزدد سوءا لكني أشعر بماء في رئتيها.. أتراه التهابا رئويا؟

- كل شيء سيكون على ما يرام..

- أكره أن أفارقها لكني ذهبت لشراء دواء لها.. دواء أعتقد أنه مفيد..

- كل هذه الأدوية هراء.. كفاك يا (شيللا)..

أنا قد وصلت تقريبا.. لن يطردوا مزيدا منا لأن الألعاب عديدة.. ابقي مع (كاتى) لأن..

- انتهت الدقائق الثلاث أرجو أن تضع المزيد من العملة!

دوي صوت عاملة الهاتف.. فصاح (رتشارد):

- صبرا.. اتركي الخط أيتها الـ...

لا صوت سوى طنين الاتصال المقطوع..

رمي بالسماعة وتركها تتأرجح على الجدار أماما وخلفا.. كأنها أفعى قد لدغت شخصا وماتت بعدها..

يجب أن يدفع أحدهم الثمن.. أحدهم سيدفع الثمن...

∞∞∞∞∞∞∞

89- ومازال العدّ مستمرًا..

وما زال العد مستمرا.. أخذوهم إلى قاعة استماع في الطابق السادس وكانت القاعة فاخرة جدا وكل مقعد مزود بمطفأة سجائر جانبية.. لكن (رتشارد) أشعل لفافة تبغ وراح يلقي بالرماد على الأرض..

- والآن يا سادة تلقون المدير المساعد مستر (آرثر م. بيرنز)..

دخل القاعة رجل مهيب أشيب الشعر متجها إلى المنصة.. وهو يحرك رأسه كأنما يشكرهم على تصفيق لا يسمعه سواه.. ثم ابتسم ابتسامة مشرقة وصاح:

- أهنئكم! لقد فعلتموها!

تصاعدت تنهيدة ارتياح جماعية.. وتعالت ضحكات وضربات على الظهور..

وقال الرجل:

- سيقوم المنتجون التنفيذيون بشرح ما يريدون منكم لكل برنامج.. وإنني لأكرر التهنئة لأنكم رجال حقيقيون - بل أبطال هذا العصر - واسعو الحيلة شجعان..

- هراء! قالها أحدهم في مرارة وهنا دخل رجال يرتدون زي الألعاب الأحمر وراحوا يوزعون المظاريف بالأسماء على الموجودين.

وتعالى صوت الأنين أو الفرح أو العواء، وامتلأت الأرض بالمظاريف البيضاء التي فرغت من محتوياتها..

- هذه لعبة (أية حرارة تتحمل؟) رباه.. أنا أمقت الحر!

- (السير المتحرك والدولارات)؟ حقا لم أعرف أن قلبي مريض..
- لعبة (اسبح بين التماسيح).. هل سمعت عنها؟
- لم أتوقع أن.....
- (بنيامين رتشارد)!
- هنا!

وتناول مظروفا أبيض ففتحه بأنامل ترتجف.. فلم يجد بداخله سوى هذه العبارة (المصعد السادس) ...

هرع إلى المصعد، فوجد هناك رجلا من زملائه شوه شلل الأطفال ذراعه (وكان شلل الأطفال قد عاد في عام 2005).. سأله:

- ماذا هناك؟ هل طردونا؟
- لسنا محظوظين لهذا الحد.. إنهم يدخروننا للألعاب الكبرى.. ليس لألعاب بتر الذراع والنوبات القلبية.. بل لألعاب الموت!

انفتح باب المصعد، وبرز لهم رجل شرطة مدجج بالسلاح..

قال الرجل ذو الذراع المشوه:

- أترى؟ نحن شخصيات خطرة.. أعداء الشعب!

وكشر عن أنيابه.. وأطلق رصاصات وهمية بإصبعه على الشرطي لكن هذا ظل يرمقه بوجه متصلب.

∞∞∞∞∞∞

دخل (رتشارد) وذو الذراع المشوه إلى مكتب فاخر، به موظفة استقبال حسناء تجلس وسط حشد من النباتات..

عرف (رتشارد) أن اسم الرجل هو (جيمي لولين).. وقد طرد من عمله في شركة (جنرال أتوميك) بسبب اشتراكه في إضراب، احتجاجا على حدوث تسرب من المفاعلات..

قال الرجل:

- حسن.. أنا حي على كل حال.. صحيح أنني عقيم لكن من يهتم لذلك؟ إنهم يدفعون لي سبع دولارات يوميا من أجل ذلك..

لكن زوجته أصيبت بالربو... لهذا قرر أن يجد المال بأية وسيلة..

- ربما استطعت أن أرمي ببعض هؤلاء الأوغاد من النافذة، قبل أن يقتلني رجال (ماكون)..

سأله (رتشارد):

- هل تعتقد أن الأمر يتعلق بـ...؟

(الرجل الراكض)؟ يمكنك الرهان على ذلك هات سيجارة..

هنا نادت السكرتيرة (رتشارد) كي يدخل..

∞∞∞∞∞∞

87- ومازال العدّ مستمرًا..

كان المكتب الداخلي كبيرا.. يوجد رسم كبير على الجدار.. ونافذة هائلة ترى منها المدينة كلها، وسماء رمادية ما زال المطر ينهمر منها.

كان الرجل وراء المكتب متوسط الطول.. أسود جدا.. مد يده ليصافحه لكن (رتشارد) لم يمد يده بدوره.. فاستعاد الرجل يده..

قال لـ (رتشارد) بينما هذا الأخير يشعل سيجارة:

- أنا (دان كيليان).. إن كل نتائج الاختبارات تؤكد أنك فتى لامع.. لقد اخترناك لـ (الرجل الراكض).. وهو عرضنا الأساسي.. بل أخطر عروضنا.. لكنى أريد أن تفهم أولا ما ينتظرك.

وفتح ملفا.. وراح يقرأ منه:

- (بنيامين رتشارد).. 28 سنة.. مولود في أغسطس 1997.. مدينة (هاردنج).. درست الأشغال اليدوية.. وتم اعتقالك مرتين ثم طردت بسبب عدم احترامك للإدارة.. لقد ركلت المدير في فخذه..

قال (رتشارد) بلا مبالاة: - خطأ.. لقد ركلت الرجل في مؤخرته.

هز (كيليان) رأسه.. وقال:

- كما تقول يا سيدي.. بعد هذا تزوجت.. ولم تكف عن التمرد طيلة الوقت.. ويقال إنك سببت الحاكم ذات مرة.. وطردت ست مرات من عملك لإهانتك السلطات..

- باختصار أنت رجل ضد الحكومة.. ضد المجتمع.. أنت منحرف ذكي بما يكفي كي يظل خارج السجن، وكل اختباراتك

لدينا تدل على عنف بالغ..
قال (رتشارد):
- أنا هنا من أجل العنف..
استمر (كيليان) يقلب صفحات الملف.. وقال:
- إن لديك ابنة اسمها (كاترين) سنها ثمانية عشر شهرا..
قال (رتشارد):
- كنت أعمل في شركة (جنرال أتوميك) آنئذ..
ويبدو أنني لم أصر عقيما تماما بفعل الإشعاعات.. إنها هبة الله لنا..
- على كل حال أنت هنا.. وستظهر يوم الثلاثاء القادم في (الرجل الراكض).. وأنا المنتج المنفذ لهذا البرنامج.. إن (الرجل الراكض) هو وسيلة مؤكدة للخلاص من البذور المثيرة للقلاقل مثلك.. أنا في هذا البرنامج منذ ستة أعوام.. وطيلة هذا الوقت لم نر أحياء.. ولأكون صادقا معك.. لا نتوقع أن نرى أحياء في المستقبل..
- إذن أنتم تغشّون..
بدا على (كيليان) أنه مستمتع أكثر منه غاضبا.. وقال:
- نحن لا نغش يا مستر (رتشارد).. لكنك تحارب ضد الزمن.. إن الناس لن يقفوا في الشوارع يهللون لك كي تهرب.. لا بحق السماء! إنهم يريدون أن يروا تدميرك.. يريدون رؤية ميتتك الشنيعة.. ثم إن هناك (إيفان ماكون) والصيادين..
- يبدو اسمهم كأنها فرقة (روك) جديدة..
- إن (ماكون) لا يخسر أبدا..
ثم أردف وأسنانه البيضاء تلمع في الظلام:
- القواعد هي البساطة ذاتها.. أنت وأسرتك تربحون مائة دولار عن كل ساعة تبقاها حيا.. في البداية نعطيك 4800 دولار

لنفقاتك على افتراض أنك ستضلل الصيادين ثمان وأربعين ساعة.. لو ظللت هاربا لمدة شهر فالجائزة الكبرى من حقك: بليون دولار.. هل لديك أسئلة؟

انحنى (رتشارد) للأمام.. وبجدية سأل:

- واحد فقط.. إلى أية درجة تحب أن تكون أنت الفريسة في هذا السباق؟

ضحك (كيليان).. وضع يديه على بطنه وراح يضحك ضحكة أبنوسية تتردد في أرجاء المكان.. في النهاية جفف الدموع من عينيه بمنديل ورقي.. وقال:

- أنت.. أنت.. تملك روح دعابة قوية معذرة!

وواصل الضحك..

حين استعاد أنفاسه سأل (رتشارد) عن أية أسئلة أخرى.. فقال هذا:

- هل لي أن أكلم زوجتي هاتفيا؟

- لا يا مستر (رتشارد).. نحن نحقق كل رغباتك إلا هذه.. لن يتم الاتصال بك أو منك قبل الثلاثاء.. والآن وقِّع لى هذا التعاقد..

خط (رتشارد) توقيعه على الورقة.. ثم غادر الحجرة دون كلمة أخرى..

ووقف (كيليان) يرمقه بعينين خرساوين، وهذه المرة لم يكن يبتسم...

∞∞∞∞∞∞

86- ومازال العدّ مستمرًا..

كانت الحجرة فاخرة حقا.. مبطنة بالسجاد من الحائط للحائط.. وصمت جميل يخيم عليها.. زهور في مزهرياتها.. وجرس خاص بالخدمة.. وكان هناك رجلا شرطة على الباب لمراقبته وتنفيذ طلباته.

دق الجرس فدخل رجل شرطة يسأله:

- نعم يا مستر (رتشارد):.

وأدرك (رتشارد) كم أن مذاق كلمة (مستر) كرية بالنسبة للرجل..

مد يده وأخرج بعض (الكوبونات) التي قدمها له (كيليان).. وهي (كوبونات) خاصة بالألعاب يمثل الكوبون الواحد منها عشرة دولارات.. ويمكن استبدالها في أي محل..

- أريد أن تأخذ هذه (الكوبونات) إلى شخص ما..

- اكتب الاسم والعنوان.. وسأتأكد من توصيلها..

كتب عنوانه واسم (شيللا) على قصاصة ورق..

ثم توقف وقد تذكر شيئا.. قص جزءا من (الكوبون) الأول وقيمته دولار واحد.. وسأل الشرطي:

- هل تعرف شرطيا باسم (تشارلى جريدى)؟

نظر له غير فاهم.. ثم قال:

- (تشارلى)؟ إنه في الطابق الخامس..

- إذن أعطه هذا الجزء.. والآن أريد منك إيصال استلام منه ومن زوجتي..

نظر له الشرطي باشمئزاز.. ثم غمغم:

- ثق بأنني سأستمتع بعملية صيدك على الشاشة.. سأجلس أمام التلفزيون أجرع البيرة ولا أتركه لحظة..
وأخذ الكوبونات وانصرف..

∞∞∞∞∞∞

راح (رتشارد) يمضي الوقت بين القراءة وشرب (البوربون).. ثم جاءه الشرطي بإيصالي الاستلام..
الأول جاء من (شيللا) ولم يكن سوى صورة صغيرة لـ (كاتى) وهي رضيعة.. أما الثاني فكان بخط (جريدى) يقول فيه:
- شكرا يا حشرة.. احرص على أن تموت!
ابتسم لدى قراءته هذا الرد البليغ:
وراح يتأمل صورة (كاتي).. بوجهها الأحمر تصرخ.. غائصة في ثوب أبيض قامت (شيللا) بتطريزه لها.. احتشدت الدموع في عينيه..
ولم يدر متى ولا كيف نام..
∞∞∞∞∞∞

83- وما زال العدّ مستمرا..

مرت الأيام عليه في سجنه الفاخر.. ويوم الثلاثاء يدنو باستمرار..

في الليل رأى حلما مروعا: (شيللا) ميتة وهو في جنازتها.. أحدهم دنا من التابوت وراح يدس (الكوبونات) في فمها.. حاول أن يجري ليمنعه من هذا الفعل المشين.. لكن الأيدي أمسكته، ووجد نفسه في قبضة دستة من رجال الشرطة، وأحدهم هو (تشارلى جريدى) نفسه يقول له:

- هذا هو مصير الخاسرين يا حشرة!

ثم صحا من النوم وكان نهار الثلاثاء.. شعر بالخوف يتحرك في أحشائه.. لكنه استعاد هدوءه في الثانية ظهرا حين جاءوا يصطحبونه إلى الاجتماع النهائي قبل بدء اللعبة..

∞∞∞∞∞∞



فى الليل رأى حلمًا مروّعًا : (شيلا) ميتة وهو فى جنازتها . .
أحدهم دنا من التابوت وراح يدسّ (الكوبونات) فى فمها . .

غادروا المصعد في الطابق العاشر من مبنى الألعاب، حيث استقلوا سيارة راحت تقطع ممرات متشابكة لا نهاية لها.. وفي

النهاية وصلوا إلى شارة تقول (الرجل الراكض.. ممنوع الدخول قطعيا)..

انفتح الباب فدخلوا إلى ستوديو واسع.. به (دان كيليان) مع رجلين لم يرهما (رتشارد) من قبل.. عرف أن أحدهما مخرج البرنامج والآخر هو (بوب تومسون) المقدم.. وكان شعره فضيا لامعا يثير الريبة..

سأله (رتشارد):

- هل تصبغه؟

- أستميحك عذرا..

- لا عليك..

قال (كيليان) مبتسما:

- يجب أن تغفر لمستر (رتشارد) يا (بوب).. فهو يتمتع بقدر عال من الوقاحة..

- مفهوم.. - قال (بوب) مشعلا سيجارة - هذا مفهوم في ظروفه.

بدأ المخرج يشرح ما سيحدث لـ (رتشارد):

- أولا سيقدمك (بوب) للجماهير.. ثم تدخل أنت من الجهة اليمنى للكواليس مع شرطيين، يحملان بندقيتين ذواتي طلقات مطاطية.. إن العصي المكهربة عملية أكثر لكن البنادق تكون جميلة على المسرح..

- ستتصاعد أصوات (بوو) من الجماهير استنكارا لك.. وهذا مثير حقا.. عبر عن نفسك كما تحب.. وفي السادسة والنصف تخرج دون حراس من الجانب الأيسر للمسرح.. نحن نعطيك اثنتي عشرة ساعة للهرب قبل أن ينطلق الصيادون في إثرك..

- سيتم إعطاؤك كاميرا (فيديو) في حجم صندوق الفيشار.. وستين شريطا صغيرا.. لن يتجاوز وزن هذا ستة أرطال.. ستقوم

بتصوير نفسك.. وترسل لنا شريطين بالبريد كل يوم.. لو لم تفعل هذا سيتوقف صرف مستحقاتك..

- لكن الصيد مستمر..

- نعم.. لذا يجب إرسال الشرائط.. لا تخف فهي لن تعلن عن مكانك..

شعر (رتشارد) بالشك لكنه ظل صامتا..

هنا قال (كيليان):

- كما اتفقنا.. أنت تترك الاستوديو دون سلاح... لكن من حقك بعدها أن تسلح نفسك.. سيتم دفع مائة دولار إضافية لأسرتك عن كل صياد أو ممثل قانون تقتله.. لا تحاول أن تقتل عابري السبيل الأبرياء فهذا ليس مهذبا..

قال (رتشارد) في سخرية:

- لكنه سيكون جميلا على المسرح..

- هناك مكافأة قدرها مائة دولار لكل مواطن يبلغ عنك، ترتفع إلى ألف لو أدى الإبلاغ إلى قتلك..

هنا جاءت امرأة تعلن أن موعد الظهور قد حان وأن على (رتشارد) أن يضع الماكياج النهائي..

∞∞∞∞∞∞

81- وما زال العد مستمرا..

في الكواليس وقف (رتشارد) - ورجلا شرطة يحرسانه - يصغي لصوت جماهير المسرح.. كان عصبيا.. والساعة الآن السادسة..

وعلى الشاشة ظهرت صورة وجه (رتشارد).. يبدو أنهم التقطوها له خلسة.. ودوي صوت (بوبى تومسون) يقول:

- متسابق الليلة هو نمر واسع الحيلة من جنوب القناة..

وأدرك (رتشارد) أنهم تلاعبوا بالصورة ليجعلوا عينيه أعمق وجبينه أضيق..

والنتيجة أنه بدا مرعبا.. غير ذكي لكنه يملك غريزة الوحوش.. بعبع الأثرياء..

- اسمه (بنيامين رتشارد).. تذكروا وجهه! وهذه هي المرأة التي ستنال مكسب (رتشارد) سواء عاش أو مات!

هنا بدت على الشاشة صورة (شيللا).. وقد تم العبث بوجهها الجميل لتبدو كأفعى غبية.. وعيناها تلتمعان بالشر.. وأدرك (رتشارد) أن من تلاعب بالصورة أغفل الثياب منها.. لتبدو كأنها عارية..

- أيها الأوغاد!

ووثب للأمام لكن أيدي الشرطيين القوية أمسكت به.. وعندها أدخلوه إلى المسرح.. وعلى الفور بدا انفعال الجماهير:

- بووو.. اقتلوه! - الوغد! - قاتل الأمهات!

- لص الدراجات البخارية! - السفاح!

- دعونا نسمع ما يقول!

وقف (رتشارد) كثور هائج على المسرح كان يعرف أن هذه بالضبط هي الصورة التي تريد له الشبكة أن يبدو بها.. لكنه لم

يملك حيلة.. لقد أخرجته صورة (شيللا) عن طوره.. نظر لـ (بوب) وقال بعينين تتقدان دما:

- هناك من سيلتهم حذاءه ثمنا لهذه الصورة لزوجتي!

ازدادت الصرخات علوا.. فلوح بقبضته مهددا...

نظرت له النساء بخوف وبعض الإعجاب.. ونظر له الرجال بكراهية دموية.. صاح بغل:

- أيها السفلة! ما دمتم تحبون الموت هكذا، فلم لا تقتلون بعضكم؟!

تعالى الصراخ.. وحاول بعض المتفرجين الوصول إليه (ربما هم ممثلون)..

فصاح من جديد:

- فلتعلموا أن هذه ليست صورة زوجتي هذه كذبة رخيصة!

مزيد من الصراخ.. تلويح بالقبضات.. ثمرة طماطم تصطدم بوجهه..

قال المقدم في لطف:

- الآن سيتم خروج مستر (رتشارد).. وغدا عند الظهر يبدأ الصيد..

تذكروا وجهه! ربما وجدته جوارك في الأوتوبيس الهوائي.. ربما في عرض سينما ثلاثي الأبعاد.. اليوم هو في (هاردنج).. أيكون غدا في (كولومبوس)؟.

في (نيويورك)؟ في (ألبوكيرك)؟ هل ستبلغون عنه؟

تصاعد الصراخ:

- نعاااااام!

وسرعان ما جذبوه ليخرج من المسرح وسط طوفان من السباب وصيحات الكره..

∞∞∞∞∞

80- وما زال العد مستمرا..

كان (كيليان) ينتظره في الكواليس يرتجف استمتاعا.. وقال له:

- أداء جيد.. رباه! لو كان بوسعي أن أمنحك جائزة! أنت مذهل..

قال (رتشارد) في لامبالاة:

- هدفنا إسعادكم لا أكثر.. والآن هات الكاميرا اللعينة واذهب للجحيم..

- ليس بهذه السرعة.. فأنا معجب بك حقا يا (رتشارد) كنموذج فريد مذهل..

أنت التوحش بصورته الفجة البرية.. لذا دعني أسد لك نصحا: أبق رأسك منخفضا.. واركض.. اركض.. وابق وسط قومك لا وسط أمثال هذا الجمهور الذي يكره فكرة وجودك ذاتها ربما بهذا تعيش فترة أطول.. لكن بالطبع لا أمل لك بتاتا مع وجود أمة بأسرها تكرهك.. ومع التدريب المذهل الذي حصل عليه الصيادون..

مد يده ليصافح (رتشارد) لكن هذا - كالعادة – لم يمد يده، واستقل المصعد.

∞∞∞∞∞∞

خرج إلى شارع (رامبارت) ليمر جوار حديقة (نيكسون) التذكارية.

الهواء نقي نظيف.. وقطرات حانية من المطر تنهمر.

- ابق وسط قومك.. هذا ما قاله (كيليان).. وما كان (رتشارد) بحاجة إلى سماعه.. ستنطلق الذئاب بحثا عنه غدا.. لكنه سيكون قد هرب إلى الجبال..

أوقف سيارة تاكسي، وتمنى لو لم يكن سائق التاكسي من هواة التلفزيون المجاني..

- إلى أين يا رجل؟

- شارع (روبارد)..

وقرر - حين يصل إلى هناك - أن يمشي عائدا إلى بيت (مولى).. وانطلق التاكسي مسرعا.. بعد هنيهة قال السائق:

- رأيتك في التلفزيون المجاني.. أنت ذلك الرجل (رتشارد)! حقا أنت شجاع.. بحق المسيح أنت شجاع! سيقتلونك حتى تجحظ عيناك..

رباه! هل يضايقك أن أخبر المرأة (زوجتي) أنك ركبت معي؟ إنها مخبولة بالألعاب.. للأسف لن أستطيع الإبلاغ عنك.. فسائقو التاكسي يحتاجون إلى شاهد ثان..

- هذا مؤسف.. هل ترى أن أترك رسالة تؤكد أنني كنت هنا؟!

- حقا؟ هل تستطيع ذلك؟

كانا قد عبرا القناة.. فأخرج (رتشارد) دولارا وناوله للرجل.. فهتف هذا في احتجاج:

- ولكن.. ماذا عن الرسالة؟

- فلتمت يا حشرة!

قالها (رتشارد) وهو يغادر التاكسي مبتعدا ليذوب في الظلام، بينما سباب الرجل يتعالى من ورائه..

يتمنى له الموت السريع.

∞∞∞∞∞

عبر زقاقا خلفيا يحيطه سور متهدم ومن بعيد يرى أضواء الدراجات البخارية التي يركبها المتسكعون، تلتمع في الظلام كعيون المذءوبين.. وصل إلى باب (مولى جرنيجان) الخلفي كان (مولى) يدير محلا صغيرا.. لكن من يملك مالا كافيا يستطيع أن يشتري منه عصا كهربية كعصي الشرطة.. بندقية غاز.. هيرويين.. أقنعة.. كل شيء ممنوع تجده عند (مولى) أو يمكنه أن يدبره لك..

حتى الأوراق المزورة.

طرق (رتشارد) الباب، ففتحه (مولى) بعدما نظر من عين سحرية.. وانزاحت المزاليج والأقفال...

كان المكان يعج بآلات التصوير المسروقة، وأدوات العزف المسروقة، وصناديق بها سلع السوق السوداء.. إن (مولى) هو نوع من (روبن هود) هاهنا.. يسرق أثرياء المدينة ويطفف تجارته معهم، بينما يعامل سكان جنوب القناة بالأجل.. وبأسعار التكلفة أو أقل منها حين كان أحدهم يمر بفاقة..

جلس (مولى) على منضدة وسأل (رتشارد) عن الأوراق المراد تزويرها.. كان عجوزا في الخامسة والسبعين فبدا شعره كالفضة في ضوء الأباجورة..

قال (رتشارد):

- رخصة قيادة.. بطاقة خدمة عسكرية.. بطاقة تقاعد اجتماعي..

- سأفعل.. من أجل زوجتك لا من أجل حمار مجنون مثلك.. وأحتاج لخمس ساعات تقريبا..

- رباه! إذن هل أذهب للدار كي..

- لا إنهم يحاصرون منزلك تماما.. وكل من يرى جوار الدار يجد نفسه في زنزانة يثرثر مع العصى المطاطية.. إن امرأتك وطفلتك في القفص الآن.. إنهما بخير طالما هما بعيدتان عنك.. فأنت سام يا (رتشارد).. هل تصدق هذا؟

وقف (رتشارد) يرمق الظلام بالخارج.. وأحس بأنه يرتجف من الحنين لداره.. بل هو شعور أسوأ بمراحل..

ومن خلفه يسمع العجوز يعمل. ويترنم بشيء ما عن امرأة لها عينا (بتي ديفيز).. من هي بحق السماء؟

77- وما زال العد مستمرا..

فارق دار (مولى) عند منتصف الليل، وقد نقص ماله ألفا ومائتي دولار.. فقد باع له الرجل كذلك تنكرا بارعا: عوينات.. شعر رمادي.. أسنان صناعية غيرت شكل شفتيه بالكامل.. ونصحه بأن يعرج قليلا ليس إلى حد جذب الأنظار طبعا..

والآن صار اسمه (جون جريفن سبرنجر) يبيع كتبا مسموعة على شرائط.. في الثالثة والأربعين من العمر.. أرمل.

استقل تاكسيا إلى المطار، وعبر أمام رجال الجوازات فلم ينتبه إليه أحد.. واستقل طائرة الثانية والنصف صباحا إلى (نيويورك).. وفي الثالثة والثلث صباحا كان (رتشارد) قد ذاب في أكبر مدينة على وجه الأرض...

∞∞∞∞∞∞

استأجر غرفة في فندق يدعى (برانت).. وهو فندق متوسط المستوى.

سأله الموظف عن المدة التي يزمع قضاءها هنا فقال وهو يتظاهر بالمرح:

- لا أدري.. الأمر يتوقف على الزبائن كما تعلم...

فما إن انفرد في حجرته حتى راح يتفقدها.. كانت نظيفة.. لكن الحمام كان يصدر ضوضاء مستمرة لم يستطع منعها، حتى بانتزاع كرة السيفون.

تناول إفطارا من البيض المقلي والقهوة.. ثم أغلق الباب وأخرج الكاميرا من جيب سترته.. وقرأ التعليمات عليها عبأ الشريط الأول حسب ما هو مكتوب، وضبط مجال الرؤية على

الفراش.. لم يكن هناك شيء يميز الجدار خلفه.. ثم فتح (الدوش) كي يقلل من ضوضاء الشارع.. من يدري؟
تبقى مشكلة التنكر.. يمكن إزالة أكثره.. لكنه لن يدعهم يروه بشعره الرمادي.. لذا وضع كيس الوسادة على رأسه ثم ضغط الزر.. واتجه ليجلس على الفراش..
وقال مخاطبا عدسة الكاميرا:
- إنني أسخر منكم أيها الأوغاد.. كيف الحال؟
ثم أغلق الكاميرا.. وأرجع ظهره للوراء وحاول أن يسترخي، وراح يفكر في الملايين الذين سيرون وجهه على شاشة التلفزيون هذا المساء.

∞∞∞∞∞∞

صحا في الرابعة ظهرا..
وعندها أدرك أن الصيد قد بدأ.. بدأ بالفعل منذ ثلاث ساعات!
فتح الكاميرا وجلس أمامها.. وتلا الوصايا العشر من التوراة ثم أغلقها.. المشكلة الآن هي حاجته لإرسال الشريطين إلى الشبكة.
لقد قال (كيليان) إن الشبكة لن تخبر الصيادين بمكان إرسال الشرائط
وعليه أن يثق بهذا.. فهو لا يملك اختيارا آخر.. إنهم لم يعطوه حماما زاجلا للأسف..
وهكذا غادر الفندق ورمي بالشريطين في صندوق البريد بعد ما كتب عنوان الشبكة عليهما..

وفي غرفته راح يفكر.. هل خطته جيدة؟ ما الذي سيقوم به أي متسابق غيره في هذه اللعبة؟ بالطبع سيتصرف بغريزة حيوانية بسيطة.. اختبئ...

فهل يتوقع الصيادون هذا؟ طبعا.. لن يبحثوا عن (رجل راكض) أبدا.. بل سيبحثون عن رجل مختبئ..

هل سيجدونه؟

تمنى من سويداء قلبه أن يجيب بـ (لا).. فلم يستطع. إن تنكره جيد لكنه غير خارق.. وليس كل الناس يجيدون الملاحظة، لكن هنالك دائما عدد يكفي لهذا..

هل يجد الصيادون (مولى)؟ هذا ممكن.. عندها سيظل العجوز صامتا فترة كافية حتى يتلقى علقة بالحزام.. عندها سيثرثر دون انقطاع.. ويضيع (رتشارد). فمن السهل معرفة أن مستر (جون سبرنجر) قد سافر إلى (نيويورك) أمس.

يجب أن تفترض أنهم سيجدون (مولى).. يجب.. إذن الهرب.. ولكن أين؟

ربما هم أحسن مما توقع.. ربما يحاصرون الغرفة الآن حاملين مدافعهم.. وكاميرا التلفزيون على كتف أحدهم القوية.. يريدون أن يصوروا كل شيء ليراه القوم من لحظة اقتحام الغرفة حتى تحويله إلى (هامبورجر)..

اهرب يا (رتشارد).. اهرب!

ربما تصلح (بوسطون) كبداية..

∞∞∞∞∞∞

74- وما زال العد مستمرا..

اتجه إلى موظف الفندق، وضاحكا قال له إن الأمور تزداد رواجا.. لذا هو بحاجة إلى الغرفة يومين آخرين، ودفع الثمن على الفور.

ثم صعد إلى غرفته.. علق لافتة (لا تزعجني) على الباب، ثم انتقى بعض حاجياته، وغادر الفندق عن طريق سلم الحريق..

اتجه إلى موقف الحافلات فاشترى تذكرة إلى (بوسطن) بثلاثة وعشرين دولارا.. واستقل الحافلة.

وتحركت المركبة إلى الشمال وسط الظلام.

∞∞∞∞∞

يقع مركز الـ Y.M.C.A في (بوسطن) في بقعة كانت من أرقى أحياء المدينة وأنظفها خلال القرن الماضي.. أما اليوم فهو مبنى متداع عتيق الطراز.. بدا في الظلام كذكرى مقتولة من عصر غابر [2]..

استقبله موظف الاستقبال لكنه كان مشغولا بالشجار مع فتى زنجي، كان قد وضع (نكلة) في آلة اللبان.. ولم تخرج له الآلة شيئا..

انتهى الشجار فعاد الموظف لـ (رتشارد) وقال:

- من المستحيل مخاطبة الزنوج.. ولو كنت حاكم المدينة لوضعتهم في أقفاص!

وقع (رتشارد) في الدفتر باسم (جون ديجان) من (متشجان).. ثم سأل:

- هل حقا أضاع (نكلة)؟

- لا أدري.. ولو كان صحيحا فهي مسروقة ويكفي أن أرق له وأعطيه (نكلة) من عندي، كي أجد كل (سبارسجية) المدينة عندي يزعمون نفس الشيء.

ودفع له (رتشارد) خمسة عشر دولارا.. ثم اتجه نحو حجرته (512) كما حددها له الرجل..

وفي سره حمد الله على أن الـ Y.M.C.A لا تطلب أوراق الهوية قبل أن تعطيك غرفة..

استقل المصعد وعندها سمع صوت الموظف ما زال يردد:

- إنهم عار وخطيئة: يجب أن يضعوهم جميعا في أقفاص!

∞∞∞∞∞

كان الطابق الخامس يفوح برائحة البول.. ثمة ردهة ضيقة بها بساط كان أحمر يوما ما.. وحمام مشترك هو مصدر الرائحة.. أصوات صراخ.

شتائم بلهجة الزنوج المميزة..

غرفته بها فراش ملاءاته شبه بيضاء. وعليه بطانية من مخلفات الجيش وصورة للمسيح على الحائط.. ومكتب بلا أدراج..

شعر كم هو تعس منسي قليل الحيلة في هذا العالم.. وبكى قليلا..

وبعد قليل تذكر أنه قد استحق ثمانمائة دولار حتى الآن.. بعد ثماني ساعات من الصيد.. لا بأس..

عليه أن يجد سلاحا غدا.. لا بد من هذا.

∞∞∞∞∞

جاء موعد البرنامج ثانية..

أدار ظهره للكاميرا وراح يدندن لحن مقدمة البرنامج، وقد داري رأسه بغطاء الوسادة.. وتعمد أن يخفي شعار Y.M.C.A المكتوب عليها..

كان قد بدأ يتعامل مع الكاميرا في مرح.. كأنما خطر الموت الدانى قد كشف عن كوميديان بارع في داخله..

وانتهى من تقديم فقرته، فوقف في النافذة يتأمل الشوارع المزدحمة يمشي فيها الناس الهوينى..

رجال شرطة في كل موضع.. الإعلانات المعلقة التي تظهر أشخاصا مطلوبين للعقاب في كل مكان..

ومتسكعون كثيرون يقفون ليقرءوها..

راح يعد السيارات في الشارع، فقط ليعرف بعد قليل أنها ليست لعبة مسلية جدا.. ولم تكن معه ساعة لكنه قدر أنها الواحدة ظهرا.. مما يشير السخرية أن الرجل الذي يعيش بالساعة لا يملك ساعة.

راح يرمق الشارع لدقائق.. حين لاحظ أن الشاب ذا السترة البنية، الواقف عند متجر الكتب لا يتحرك تقريبا.. والغريب أن الشرطة لم تطرده من مكانه بالأحرى كانوا يتجنبونه ثم رأى رجلا يدخن سيجارا عملاقا يقف عند المحطة ينتظر الحافلة.. ولسبب مهم لم يصعد في أية حافلة توقفت أمامه...

شعر (رتشارد) بر عدة في أعماقه

الشرطي يتبادل كلمتين مع الرجل عند المحطة ثم ينصرف..

باعة الصحف يبدون مألوفين لـ (رتشارد) كأنما رآهم مرارا منذ وقف بالنافذة.. للمرة الأولى يفطن لهذا وبشكل غامض كما نسمع صوت الموتى في أحلامنا..

فكر للمرة الأولى: إن نوعا من الحصار يتم حولي..

وشعر بذعر عاجز كذعر الأرانب..

لكن عقله صح له المعلومة:
بل أنت محاصر بالفعل!

∞∞∞∞∞

70- وما زال العد مستمرا..

هرع إلى الحمام وحاول أن ينسى هلعه.. لو أراد أن يخرج سالما فعليه أن يحتفظ بتفكيره.. أما إذا انتابه الهول فالموت سريع لا شك فيه..

كانت الفكرة قد بدأت تتضح له بالتدريج وهو يرمقهم من النافذة.. مثل (علاء الدين) وهو يرى الدخان يخرج من المصباح.. ليتجمع في صورة مارد جبار فجأة..

انتزع حامل فرشاة الأسنان المعدني من الحائط.. وهرع إلى المصعد..

استدعى المصعد فاحتاج هذا إلى دهر حتى يهبط من الطابق الثامن.. وكان خاليا.. حمدا لله على أنه خال..

دخله.. وضغط الزر الذي يهبط به إلى البدروم.. كانت هناك فتحة جوار الزر.. هذه الفتحة يقوم الموظف بإدخال بطاقة فيها.. عندها يتم السماح له بالنزول للبدروم..

قطب جبينه في انتظار صدمة كهربية، وأولج حامل الفرشاة في الفتحة.. صدرت ضوضاء من الداخل كأنها سبة إلكترونية قصيرة.. ثم انغلق الباب المعدني.. وراح المصعد يهبط لأسفل غير راض عن هذا..

توقف لحظة.. ثم - كأنما شعر أنه أخاف (رتشارد) بما يكفي - واصل هبوطه لأسفل..

ووجد (رتشارد) نفسه في البدروم المظلم..

فأر يفر مبتعدا.. قطرات ماء من السقف.. لكن لا أحد.. حتى الآن..

∞∞∞∞∞∞

ثمة جراند كثيرة ملقاة على الأرض، تحتها أسر كاملة من الفئران ترمق القادم بعيون ياقوتية متشككة..

ثمة فتحة لتصريف الماء إلى المجاري.. فتحها فوجدها تقود إلى نفق منحدر من المستحيل أن يكون اتساعه أكثر من قدمين ونصف.. ومظلم.. تحرك خوف الأماكن المغلقة في نفسه.. إنه أصغر من أن يسمح بالشهيق..

لكن لا بد مما ليس منه بد..

خطرت له فكرة معينة قبل فراره..

اتجه إلى أكوام الصحف فالتقط واحدة جعلها على شكل قرطاس.. ثم أشعل عود ثقاب ولامس به الصحيفة.. عندها تألق اللهب الأصفر..



اتجه إلى أكوام الصحف فالتقط واحدة جعلها على شكل قرطاس ..
ثم أشعل عود ثقاب ولامس به الصحيفة ..

ثم إنه أشعل بها ورق الحائط المحيط بالبدروم..
فراحت النار تتزايد.. وهرع إلى صندوق القوابس فشد أكثر ما به من منصهرات حتى ساد الظلام المكان كله إلا من ضوء

النيران..
ثم انزلق إلى فتحة المصرف.. ولم ينس أن يعيد الغطاء إلى مكانه فوق رأسه قبل أن يواصل الهبوط..
كانت البداية سهلة.. ثم اصطدم بجزء أفقي من النفق المظلم لم يستطع أن يثني جسده ليمر فيه..
كانت الزاوية حادة أكثر من اللازم..
بدأ خوف الأماكن المغلقة يمتلكه.. مسجونا هنا.. للأبد.. مسجون في البدروم، والأسوأ هو أنه يعرف الآن أن النار تدنو من هدفها.. من خزان الوقود الموجود في البدروم، والذي يمد البناية بحاجاتها من التدفئة..
أخيرا تماسك واستطاع أن يدور بجسده.. يتخذ وضع الصلاة.. وبدأ يحرك ذراعيه كأنه يجدف في هذا الفراغ الضيق.
وفجأة نجح ردفاه في المرور.. وشعر بقميصه يتمزق.. لكنه مر إلى الأنبوب الأفقي.. مر.. لحمه ينزف ووجهه ملطخ بالقذارة.. لكنه مر..
- حمدا لله على أنني أعاني من نقص التغذية.

∞∞∞∞∞∞

شعر بهزة الانفجار.. ورأى الضوء الفوسفوري.. وشعر بالسخونة الشديدة في النفق الذي يزحف فيه.. لم يعد قادرا على لمس الجدران..
صداع لعين يمزق جمجمته.. ويغرس الخناجر في عينيه..
سأحترق ها هنا.. سأحترق!
فجأة يشعر أن قدميه تتدليان في الهواء.. تتدليان نحو ماذا؟ لا يهم.. المهم أن يثب خارجا من هذا الفرن..

ووثب.. فشعر بماء بارد كان في أنبوبة أخرى يغمرها الماء.. واسعة يمكن المشي فيها لحسن الحظ..

وترك العنان لأفكاره بعد ما زال خطر الحريق..

كيف وجدوه في (بوسطن)؟ لربما لم يفعلوا.. لربما لم يكونوا هم قط..

لا.. كانوا هم.. هو يعرف هذا.. الصيادون.. كانت لهم رائحة الشر.. وقد شمها من الطابق الخامس وواصل السير شارد الذهن

لا بد أنه مشى أميالا.. ولا بد أنه سار ساعات..

هناك وقف تحت فتحة مجرور ينظر للشارع فوقه.. ولم يجرؤ على محاولة الخروج إلا حين حل الظلام. في هذه الأثناء أخرج الكاميرا - ليستغل الوقت – ووضع فيها شريطا جديدا.. وراح يلتقط صورة لصدره دون أي تعليق.. كان يعرف أن الأفلام حساسة للضوء الخافت.. ولم يرد أن يكشف لأحد عن مكانه في المجاري..

طيلة الوقت كان واثقا - فهو لم يعد يشك في ذلك - من أن الشرائط أو الكاميرا هي التي تشي بمكانه.

لكن كيف ينتصر على هذه المشكلة؟

ولم يكن يعرف أن هربه قد دام ثلاثين ساعة حتى الآن.

∞∞∞∞∞

66- وما زال العد مستمرا..

كان الصبي الزنجي ذو الأعوام السبعة، يقف في الزقاق ولفافة تبغ بين أصابعه، يرمق فتحة المجرور وهي تنفتح.. عينان؟

شخص ما - أو شيء ما لشدة ذعره - كان يتحرك هناك.. ربما هو الشيطان جاء من جهنم كي يأخذ (كاسى).. أمه كانت تقول له إنه سيذهب إلى الجنة مع (ديكى) لكنه كان يعتقد أن هذا هراء..

الجميع يذهبون إلى الجحيم بعد الموت حيث ينخسهم الشيطان بالشوكة في مؤخراتهم.. الجنة للأثرياء فقط..

لكن هذا رجل.. لا ذيل ولا قرون وليس لونه أحمر..

حاول الصبي الفرار لكن الشيطان جرى وراءه وأمسكه.. فراح يقاوم ويركل..

- لا تنخسني بها! لا تنخسنى بالشوكة أيها الوغد!

- ششش! اخرس!

راح الشيطان يهزه حتى اصطكت أسنان الصبي، وعلى وجهه أعتى أمارات الرعب.

- إذن أنت لست الشيطان..

- ستجدني هو لو لم تكف عن الصراخ! هل تعرف مكانا هادئا للاختباء؟

مذعورا اقتاده الصبي إلى زقاق آخر.. ثم إلى زقاق ثالث فمخبأ حقير من القرميد وقطع الخشب.. وأضاء مصباحا هو عبارة عن (لمبة) تتصل ببطارية سيارة.. ولم ينس أن يقول منذرا لـ (رتشارد):

- إياك أن تقتلني.. إن أخي (برادلى) في عصابة (الطاعنين).. وسيجعلك تلتهم حذاءك أمامه..

- أنا لن أقتل أحدا.. خاصة الصبية.. وما اسمك يا غلام؟

- أنا لست غلاما.. اسمي هو (ستيسي)..

ابتسم (رتشارد).. وقال:

- حسن.. أنا هارب يا (ستيسى).. هل تصدق هذا؟

- طبعا هارب.. لا أحد يخرج من فتحة المجاري لشراء صور بذيئة.. أنا في السابعة من عمري أختي (كاسى) عندها سرطان.. تصرخ كثيرا.. لهذا أحب البقاء هنا..

أخرج (رتشارد) دولارا ودسه فى كف الغلام.

ثم طلب منه أن يجلب أخاه وعندها ينال دولارا آخر..

- لا تحاول قتل (برادلى) يا رجل.. فهو سيجعلك..

- تلتهم حذاءك أمامه.. أعرف.. فقط ناده حين يكون وحده..

- إذن أجعلها ثلاث دولارات.. سأبتاع مخدرا لـ (كاسى) حتى لا تصرخ..

تقلص وجه (رتشارد) وابتلع ريقه بصعوبة.. ووافق.. لكنه حذر الصبى:

- لو أحضرت الشرطة فلن تنال شيئا..

تصلب الصبي وقال:

- أنت غبي لو طننت هذا.. فأنا أكرههم أكثر من الشيطان ذاته..

وحين رحل كان (رتشارد) منهكا.. منهكا إلى درجة العجز عن الخوف.. لهذا أسلم عينيه لنعاس طويل..

∞∞∞∞∞

فتح عينيه ليجد الصبي ومعه فتي زنجي عمره حوالي ثمانية عشر عاما، وكان هذا الأخير يرتدي سترة دراجات بخارية، ويرمق (رتشارد) بمزيج من الاهتمام والكراهية.. وفي يده التمعت مطواة زنبركية شرسة.

فجأة هتف وقد تبين وجه النائم:

- أنت ذلك الرجل في التلفزيون المجاني! لقد أحرقت مبنى ال Y.M.C.A يقولون إنك أحرقت خمسة رجال شرطة.. ربما كان معنى هذا خمسة عشر رجلا.

سأله الصبي في حماس:

- كنت أعرف أنه ليس الشيطان.. بل مجرد أحمق.. هل ستفتح كرشه يا (برادلي)؟

دنا الشاب من (رتشارد)، وجلس على الفراش وقد أشرق وجهه نوعا..

هنا تذكر أن المطواة ما زالت مفتوحة.. وأدهشه هذا.. فأغلقها وقال:

- أنت - إذن - أكثر حرارة من الشمس يا رجل..

- حقا..

- هلم معنا إلى الدار.. يجب أن نتحدث.. وهذا المكان لا يصلح..

- لا فارق عندي..

ونهض (رتشارد).. هنا شعر بالصبي يركله في ساقه.. لم يفهم السبب ثم تذكر على الفور.. ناول الصبي ثلاثة دولارات حسب الاتفاق..

∞∞∞∞∞∞

64- وما زال العد مستمرا..

كانت المرأة عجوزا جدا.. لا يذكر (رتشارد) أنه رأى أحدا عجوزا مثلها.. وقد انهمكت في إعداد وجبة العشاء التي ابتاعوها بدولارات (رتشارد).

وفي غرفة النوم القصية تصرخ (كاسى).. تسعل.. وقد أفهمه (برادلى) أن سرطان الرئة قد

فتك برئتيها معا.. ثم امتد إلى بطنها.. وكان عمرها خمسة أعوام..

قال (برادلى) وهو يشم رائحة اللحم والخضر تعبق هواء البيت:

- يمكنني أن أخذلك يا رجل.. أسلب مالك ثم أسلم جسدك لهم، وأنال ألف دولار وأذرع الشارع السهل..

- لا أحسبك تفعلها..

- ولماذا تلعب هذا الدور؟ لماذا تقبل تسلية هؤلاء القوم؟

- ابنتي إنها أصغر من (كاسى).. التهاب رئوي.. وتبكي طيلة الوقت.

- وأنت أحمق.. أتظن أنهم بعد شهر سيعطونك بليونا؟ يجب أن تشتري قطار بضاعة لنقله لدارك! أماه!

متى ينتهي هذا العشاء؟ لقد صيرنا الجوع أشباحا!

- حالا..

عاد الفتى يسأل (رتشارد) وهو يضع الصحاف على المنضدة:

- هل تريد الخروج من (بوسطن)؟ لن تستطيع..

فكل المداخل والمخارج مسدودة.. سيحيلونك إلى لحم قرود قبل أن تبتعد ستة أميال.. ولكن عندي خطة قد تنجح..

وجلسوا يلتهمون العشاء مع الأم.. لم يكن الصبي موجودا لأنه ذهب إلى الصيدلية ليشتري مخدرا لأخته.

ولم يتم تبادل الأحاديث طيلة الوجبة.. لكن الثلاثة كانوا جائعين حقا.. والطعام كان يحتوي على اللحم..

وحين فرغوا جاء الصبي حاملا المخدر الذي اشتراه من الصيدلية.

∞∞∞∞∞

صحا (رتشارد) على صوت صراخ الطفلة، في الرابعة والنصف صباحا.. شعر بأن (برادلي) يخرج من الغرفة.. يتجه للمطبخ.. يقف هناك بلا حراك بانتظار أن تتعب الطفلة من الصراخ.. وتنام.

هدأ الأنين.. فعاد هذا، واستلقي على السرير..

سأله (رتشارد) في الظلام:

- (برادلى)..

- نعم؟

- هل عمرها حقا خمسة أعوام؟

- نعم..

- وما دخل سرطان الرئة بطفلة في الخامسة من عمرها؟ ربما كانوا يصابون بسرطان الدم.. لكن ليس الرئة..

- حسن.. أنت من (هاردنج).. ما وضع ثلوث الهواء عندكم؟

وهمس بمرارة، وقد اختفت اللهجة الساخرة الحادة من كلامه، فبدا كمن يحلم:

- إنهم لا يتكلمون عن هذه الأشياء في (بوسطن).. هل تضع مرشحا أنفيا؟
- هل تمزح؟ إن المرشح يكلف مائتي دولار وأنا لم أر مائتي دولار في حياتي..
- أنا صنعت بعض المرشحات.. (ستاسى) يضع واحدا من صنعي.. إنني أقرأ من حين لآخر يا رجل.. أذهب للمكتبة.. إنهم لا يسمحون بدخول المكتبة إلا لواحد دخله أكثر من خمسة آلاف دولار في العام..
لهذا سرقت بطاقة أحدهم واعتدت أن أدخل بها المكتبة بعد ما زورت بياناتها.. اسخر مني وسأفتح كرشك!
- أنا لا أسخر..
- قرأت الكثير عن التلوث.. هل تعرف أن كل سكان (طوكيو) يضعون مرشحات الأنف منذ عام ٢٠١٢؟
أراهن أنك تري حالات كثيرة من (الإمفيزيما) عندكم.
- (إمفيزيما)؟ كرر (رتشارد) اللفظة.. بدت له غريبة لكنها مألوفة نوعا.
- عندما تنتفخ رئتاك.. وتجاهد وتجاهد لكن التنفس يظل عسيرا.. الآن يبلغ معدل التلوث في (بوسطن) عشرين في يوم صحو.. وهذا يماثل تدخين أربع علب من السجائر يوميا.. وفي بعض الأيام يبلغ التلوث اثنين وأربعين فيسّاقط الناس صرعي في كل يوم.. انهم يضخون الدخان بأقصى ما يستطيعون.. والمرشحات الوحيدة الصالحة التي تنتجها شركة (جنرال أتوميك).. لكن سعر الواحد ستة آلاف دولار.. أما المرشح الذي تتحدث عنه - ذو المائتي دولار - فهو قطعة من روث البهائم لا أكثر..
ثم باشمئزاز هتف:

- وحين تموت (كاسى) سيكتبون في شهادة وفاتها (الربو).. ولن يكتب أحد كلمة (سرطان) أبدا.. إنهم يقتلوننا يا رجل.. والناس لا تفهم هذا..

ودون كلمة يقولها، راح (رتشارد) يتخيل وجوه (كيليان) و (آرثر بيرنز) و... لو استطاع أن ينزع مرشحات أنوفهم ويلقي بهم إلى الشارع.

وعاد للنوم والكلمات تتردد في ذهنه...

∞∞∞∞∞

62- وما زال العد مستمرا..

راح (برادلي) يعد عدته لتهريب (رتشارد) - بمعونة فرد من عصابته - إلى (مانشستر) في سيارة.. وهي خطة طموح حقا..

في الساعة السادسة والنصف سأل (رتشارد) عما إذا كان يحب أن يرى نفسه على الشاشة في برنامج (الرجل الراكض).. فتحمس هذا.. وفتحوا الجهاز.

وظهر (بوبى موريسون) أمام الكاميرا وسط بحر من الظلام.. وقال:

- انظروا.. ها هو ذا ذئب يمشي بيننا..

وظهر وجه (رتشارد) مكبرا ليملأ الشاشة.. بينما استمر (بوب):

- الليلة أتحدث لأهالى (بوسطون).. أمس تفحم خمسة من رجال الشرطة في مبنى Y.M.C.A يدي هذا الذئب الذي أعد لهم مصيدة ماكرة..

فمن هو الليلة؟ أين هو الليلة؟

ثم بدأ عرض المشهد الذي التقطه (رتشارد) لنفسه صباح اليوم.. كانت (ماما) الزنجية هي التي تصوره وهو يقول:

- إلى من يشاهدون هذا.. ليس كلامى للفنيين ولا ساكني القصور.. بل لمن يسكنون بيوت الإسكان والأكواخ.. أيها العاطلون.. أيها الشباب الذين يُعتقلون لجرائم لم يقترفوها.. أخبركم بمؤامرة رهيبة تحاول حرمانكم من الهواء الذي...

ثم تعالت ضوضاء جعلت السماع مستحيلا.. شفتاه تتحركان لكن بلا صوت..

قال (بوب) بنعومة:

- هناك مشكلة مع الصوت.. لكن لا داعي لسماع كل ما يقول هذا المتعصب..

ثم صاح مخاطبا الجمهور:

- ماذا تفعلون لو رأيتموه في الشارع؟

- ذ.. ق.. ت..ل.. ـه!

ضرب (رتشارد) الأريكة بقبضته.. فقال (برادلى) بسخرية:

- أتظنهم كانوا يتركونك لتقول كل هذا على الهواء؟ إنني مندهش لأنهم تركوا كل هذا القدر من كلامك..

ثم بدأ عرض المشهد الثاني لهذا اليوم..

كان (رتشارد) يقرأ فيه على الناس أسماء مراجع عن تلوث الهواء.. وبعض الأرقام المرعبة ويطالبهم بالقراءة والاستقصاء..

لكن ما حدث هو أن صورته فظهرت وشفتاه تتحركان.. أما الصوت فكان يقول:

- عليكم اللعنة جميعا! اللعنة على كل الخنازير! اللعنة على هيئة الألعاب.. سأقتل كل خنزير أراه!

ولم يعرف (رتشارد) ما إذا كان هناك من يقلد صوته، أم أن هذه لعبة إلكترونية قاموا فيها بإعادة ترتيب كلماته!

ثم عاد صوت (بوب) يقول:

- راقبوا هذا الرجل.. فلو عاش لعاد بجيش من أمثاله يعيثون خرابا في شوارعكم.. يذبحون أطفالكم ويستحيون نساءكم.. هذا هو (بنيامين رتشارد)!

لو كنت ترانا يا (رتشارد) فاعلم أنك نلت مالك القذر.. لقد حققت 5800 دولار عن كل ساعة.. بالإضافة إلى خمسمائة دولار عن رجال الشرطة المقتولين وهنا بدأت صور رجال الشرطة الشباب تظهر على الشاشة.. كلهم نضرون مليئون بالأمل.. ويبدو أنها صور من حفل تخرجهم في أكاديمية

الشرطة.. وراحت نغمة (فلوت) حزينة تدوي.. بينما (بوب) يقول بصوت هامس:

- وهذه.. هي.. أسرهم..

وبدأت صور زوجات ضاحكات تملأ الشاشة.. أطفال يلعبون.. حتى إن (رتشارد) شعر بالغثيان.. دارى وجهة بين كفيه مداريا دمعة..

ضغط (برادلى) على كتفه بيد قوية دافئة.. وهتف:

- هلم يا رجل! كل هذا تلفيق.. إن من ماتوا لم يكونوا سوى بعض الحلاليف!

- أرجوك اصمت! اصمت.. أرجوك!

عاد صوت (بوب) يتردد في لوم حزين:

- خمسة رجال شرطة.. خمس زوجات.. تسعة عشر طفلا.. أي حوالي سبعة عشر دولارا لكل ميت أو ثكلى أو كسير القلب.. ما أرخص أجرك يا (رتشارد)!

فحتى (يهوذا) أسلم (يسوع) مقابل ثلاثين قطعة من الفضة.. والآن ثمة أم تخبر طفلها أن أباه لن يعود لأن رجلا جشعا قد..

هنا صرخ الجمهور:

- قاتل! فليمتك الله يا (رتشارد)! اذبحوه! فليرفع كل امرئ يده على (بنيامين رتشارد)!

هنا أدرك (رتشارد) أن أحدا لن يبلغ عنه.. سيمزقونه أولا بمجرد أن يروه..

لكنه سيقتلهم.. سيقتلهم جميعا قبل أن يموت...

∞∞∞∞∞∞

61- وما زال العد مستمرا..

رقد (رتشارد) متكورا على نفسه في قاع الشاحنة، وقد قرب أنفه من إحدى الفتحات.. وكان (برادلي) قد أخبره أن الرحلة تستغرق ساعة ونصف مع نقطتي مراقبة.. قبل أن يتركه ناوله مسدسا كبيرا.. وقال:

- إنهم يفتشون بعناية كل عاشر سيارة، يفتحون قاعها.. هذه نسبة لا بأس بها: واحد لعشرة..

هناك احتمال معقول لأن تنجو.. لكن المسدس احتياط ضروري..

وراحت الشاحنة تشق طريقها عبر شوارع (بوسطن).. يقودها (برادلي) نفسه

بعد دقائق سمع (رتشارد) صوتا دانيا يصرخ -

- توقف! أظهر رخصتك ورخصة السيارة..

توقفت السيارة.. وبعصبية أمسك (رتشارد)

المسدس.. صوت باب يفتح.. وصوت (برادلى) يقول:

- أنا مدير المبيعات لشركة كيماويات (ريجون).

رباه! ماذا لو لم تكن الأوراق مقنعة؟ ماذا لو لم توجد شركة بهذا الاسم؟

الآن يسمع صوت عبث في المقعد الخلفي للسيارة.. الباب ينغلق.

هل سيفتش المقطورة الآن؟ (شيللا).. أنا أحبك.. لكن ماذا يمكنك عمله بستة آلاف دولار؟ عام واحد لا أكثر بعدها تجدين نفسك في الشارع..

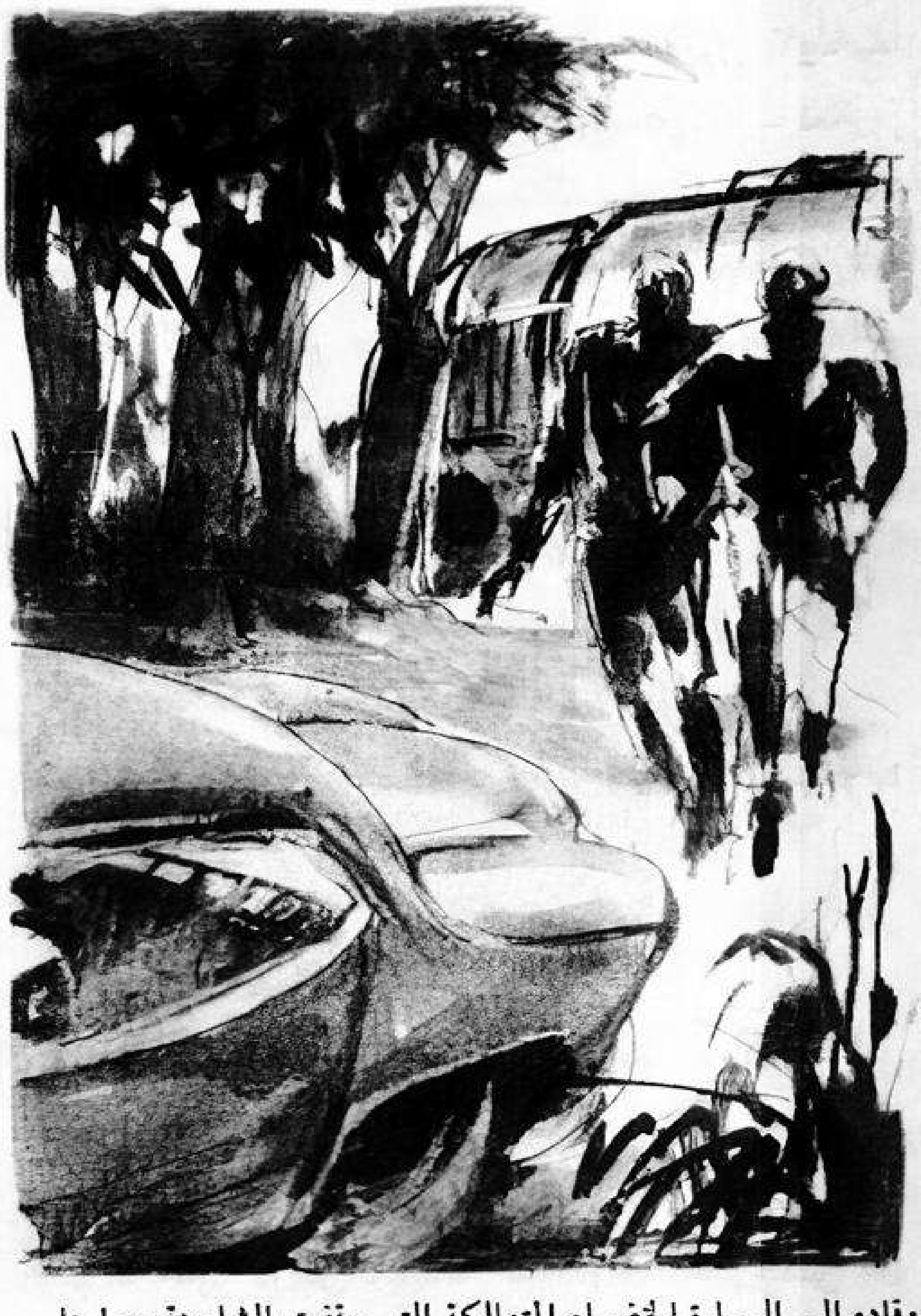
- ماذا يوجد في المقطورة يا فتى؟

يقول (برادلى) بصوت ملول:
- أسطوانة غاز فاسدة.. لحظة.. سأفتحها لك..
- لو أردت ذلك لطلبته..
ثم صوت مطمئن يقول:
- هيا.. انطلق..

وبدأت العربة تهدر ثم تتحرك.. وعاد الهواء إلى رئتي (رتشارد)..

ومضت ساعة كاملة بين اهتزازات وانتفاضات، جعلته على وشك القيء.. ولكنه سمع (برادلي) يقول له إن السيارة الـ (وينت) الهوائية جاهزة..

حاول الحركة فلم يستطع بسبب تصلب عضلاته.. لذا حمله (برادلى) حملا إلى خارج الشاحنة.. وقاده إلى السيارة الخضراء المتهالكة التي وقفت الشاحنة جوارها.. لقد اتفق (برادلي) مع أحد أصدقائه أن يعدها له..



وقاده إلى السيارة الخضراء المتهالكة التى وقفت الشاحنة جوارها . .

جلسا خلف مقعد السيارة يدخنان.. وقال له (برادلى):

- قد حجزنا لك غرفة فندق في شارع (وينتروب).. اسمه كاسم الشارع

والآن خذ هذه الثياب.. عوينات سوداء.. مسبحة.. ثياب قس.. سيكون تنكرك أفضل..

راح (رتشارد) يرتدي الثياب بينما قال له الفتى:

- أنت هنا في (مانشستر) لحضور مؤتمر كنسي عن الإدمان.. فهمت؟

ثم راح يشرح لـ (رتشارد) طريقة الهرب من مشكلة أشرطة التسجيل، التي كان متأكدا أنها تقود المطاردين إلى عنوانه

- سترسل هذه الأشرطة في مظاريف إلى بعض رفاقنا هنا.. وهم سيدخلون بها (بوسطن) ليرسلوها بالبريد من هناك.. الجميل في هذا أن الأوغاد سيظنون أنك ما زلت حبيسا في (بوسطن)..

شعر (رتشارد) بإرهاق عقلي شديد.. لم يعد قادرا على التفكير الصائب.. لذا شعر بامتنان لأن (برادلى) هناك كي يضع نفسه بين يديه..

- كم كلفك كل هذا يا (برادلى)؟

- ستمائة دولار..

- هراء! إن هذا لا يغطي النفقات.

- بل يغطيها.. ويبقى مال كاف لأسرتي..

- سأعطيك ألف دولار..

- أنت بحاجة إلى المال يا زميل.. والآن يجب أن أرحل..

نظر له (رتشارد) عاجزا عن الكلام.. فقال الفتى ضاحكا:

- حين تنجح.، أرسل لنا مليونا.. وضعنا في الشارع السهل!

- شكرا يا (برادلي).. كن حذرا أرجوك وإلا انتهيت على الأرض، بينما أحشاؤك مبعثرة في كل مكان..

ضحك (برادلي).. وفتح باب السيارة كي ينزل (رتشارد) منها..

وابتعد في الظلام.. بينما (رتشارد) واقف يرمق أضواء عربته الخلفية تبتعد.. لا بد أنه يشعر بالراحة لخلاصة مني!

ثم استدار متجها إلى فندق (وينثروب)..

∞∞∞∞∞∞

56- وما زال العد مستمرا..

ظل في غرفته يتابع (الرجل الراكض) على شاشة التلفزيون المجاني.. ولم يستجد شيء بخصوصه سوى أن الشرطة تفتش البيوت بحثا عنه.. وكل من يتضح أنه يأويه سوف يعاقب بالإعدام..

لكن المقدم (بوب) كان لدية اليوم خبر جديد مثير.. لقد ظفروا بـ (لولين).. الرجل المصاب بشلل الأطفال زميل (رتشارد) في (الرجل الراكض).. والذي بدأ الفرار بعد (رتشارد) بساعة..

لقد لمحه طفلان في (توبيكا) وكان قد هشم معصمه الأيمن في حادث ما.. وظهر الطفلان على الشاشة يضحكان.. كان لأحدهما سن ناقصة..

سينال كل منهما شهادات تقدير.. ومخزونا يكفي مدى الحياة من حبوب (فان توينكس).. وألف دولار لكل منهما هدية من حاكم (تكساس)..

ثم ظهر جسد (لولين) يجرونه على الأرض..

فتصاعد تهليل القوم.. وعرف (رتشارد) أن الجثة ستعلق أمام محافظة (كنساس) ليستمتع الناس برؤيتها.. وقال شرطى شهد العملية إن (لولين) لم يقاوم قط..

الآن بقى عرض واحد رائع.. هو عرض (رتشارد)..

∞∞∞∞∞

لم يعد راغبا في البقاء أكثر حيث هو يجب أن يفر إلى مكان جديد..

إن مشهد (لولين) الصريع جعله يشعر بدنو نهايته هو.

تذكر أن (برادلى) ترك السيارة الـ (وينت) الخضراء داخل (مانشستر)، وعاد إلى (بوسطن) بالشاحنة.

كما تذكر أن الفتى ترك له عنوانا لصديق في (بورتلاند) يمكنه أن يذهب إليه لو شعر بأنهم يضيقون الخناق عليه..

ولم يتردد.. اتجه إلى البقعة التي أخفي فيها الفتى سيارته الهوائية.. وركبها.. ولم ينس أن يبتاع عكازين وضمادات لزوم التنكر..

ثم انطلق بالسيارة نحو (بورتلاند).

∞∞∞∞∞

كان العنوان المذكور في أحد أحياء المدينة القذرة.. حيث لا سلطة لرجال الشرطة.. وحيث يستحيل المشي ليلا دون حراس..

قرع الباب مرارا حتى سمع صوت خفين يدنوان من الباب.. وسمع صوتا يقول:

- من بالباب؟ أنا لا أبتاع شيئا.. انصرف!

قال (رتشارد):

- قيل لي أن أزورك.

الفتح العين السحرية.. وراحت عين بنية تختلس النظر.. ثم قال الصوت:

- أنا لا أعرفك..

- جئت في طلب (إلتون باراكيس)..

- آه.. أنت إذن واحد من الـ.....

وانفتح الباب مزلاجا بعد مزلاج.. وجنزيرا بعد جنزير..

وبرز له وجه امرأة نحيلة لها يدان مليئتان بالعقد.. ووجه خاض مشاجرات لا تنتهي مع الزمن نفسه.

وقد ربح الزمن أخيرا.. لكنها لم تكن خصما سهلا.
وأدرك (رتشارد) أنها خائفة.. وأنها تتأرجح على حافة الجنون..
- أنا (فرجينيا) أم (إلتون).. هلم...

∞∞∞∞∞

كان المنزل مظلما مفروشا ببقايا محلات الروبابيكيا.. مثل بيته هو..
وقالت المرأة وهي تضع براد الشاي على الموقد:
- (إلتون) غير موجود الآن.
وفي الضوء الخافت بدا له ورق الحائط المبتل بالماء.. والمرصع بذباب ميت.. وشم رائحة مطهر بينما المرأة تفتش عن كيسين من الشاي.. أحدهما تم استعماله من قبل.. وبالطبع نال (رتشارد) الكيس المستعمل.. فلم يدهش لهذا.
رفعت عينيها للمرة الأولى إلى وجهه.. وهمست وقد تعرفته:
- فليرحمنا الله!
- مسز (باراكيس)؟
قالت في صوت خشن بسبب الخوف:
- لا.. لا!
والتقطت سكين جزار عملاقة من خزانة الأدوات وراحت تلوح بها في وجهه مرغمة إياه على التراجع نحو الصالة:
- اخرج! اخرج!
كاد يدلف من الباب الخارجي، حين سمع صوت مفتاح يدور في القفل، فتصلب الاثنان عاجزين عن اتخاذ خطوة أخرى.

كان (إلتون باراكيس) بدينا جدا، يعقص شعره الأشقر في ضفيرة خلف رأسه.. ووجهه طفولي مذهول..

قال لأمه حين رأى ما تحمله:

- أبعدي هذا السلاح يا أماه.

ضحك واتجه نحوها.. فتراجعت للوراء صائحة:

- اطرده يا بني.. إنه هذا الـ (رتشارد).. ومعنى هذا السجن أو أسوأ.. لا أريد أن ترحل..

وألقت السكين وغابت بين ذراعيه باكية...

راح يهزها في رفق.. ويهدئ من بالها.. وابتسم ابتسامة من نوع (آسف - على - ما حدث) لـ (رتشارد) من فوق كتف أمه.. وقال لها بحنان:

- إن (رتشارد) هو صديق (برادلى ثروكمورتون).. ولسوف يبقى معنا أياما.. أما أنت فسوف ترسلين طردا باسمه إلى (كليفلاند)..

قال (رتشارد) مصدا:

- بل (بوسطن).. الأشرطة ترسل إلى (بوسطن)..

- إنها ترسل إلى (كليفلاند) الآن.. فهم يطاردون (برادلى)!

- يا للسماء!

واصطحب الشاب ضيفة الخطر إلى الطابق العلوي.. وهو يلهث من فرط سمنته.. كان المكان فندقا فيما مضى لهذا كان مليئا بالحجرات الفارغة.. وقد اختار لـ (رتشارد) غرفة مناسبة.

- تستطيع أن تبقى كما تشاء هنا.. إن (برادلى) هو صديقي الوحيد.. صديقي الوحيد..

وابتسم ابتسامة من نوع (نحن - نبغي - رضاك)..

وأردف:

- سأقود سيارتك إلى مكان مناسب لأخفيها..

ثم أخذ المفاتيح وغادر المكان.

وقف (رتشارد) يتأمل الفناء بعد ما أزاح الستائر التي على النافذة.. ورأى السيارة ترحل.. فأزاح غطاء الفراش وتمدد عليه يرمق السقف.

ومن الطابق السفلى كان يسمع بكاء المرأة.

∞∞∞∞∞

50- وما زال العد مستمرا..

عند المساء جاءه (إلتون) وقد فرغ من مهامه..

قال له ألا يتضايق من أمه.. فهي تعيش في عالمها الخاص.. وتكاد لا تدري شيئا عن أمور العالم في العشرين عاما الماضية.

هنا دخلت المرأة إلى الحجرة فجأة.. كانت يداها معقودتين على صدرها.. وكانت تبتسم لكن عينيها مهمومتان.. وقالت:

- لقد اتصلت بالشرطة! الآن يجب أن ترحل!

شحب وجه (إلتون) وهتف:

- أنت تكذبين!

وثب (رتشارد) على قدميه.. ودون كلمة أطرق برأسه كأنما ليصغي.. هنا أدرك أنه يسمع صوت سرينة عربات الشرطة من بعيد.. وقال:

- هي لا تكذب.

ثم همس وهو يقاوم شعورا بالغثيان:

- خذني إلى العربة

هتف (إلتون):

- إنها تكذب.. هذه عربات إطفاء

لكن (رتشارد) أصر.. وصوت السرينة يزداد

علوا وعويلا.. شعر بأنه يحلم.. بينما الفتى يمسك بمعصم أمة متسائلا.. فقالت:

- لقد اضطررت لهذا من أجلك.. لقد أفسد الزنجى عقلك.. سنقول للشرطة إنه اقتحم الدار علينا ونطالب بمكافأة..

وتعلقت بابنها بقوة.. فاضطر أن يدفعها دفا ليتملص منها.. وبوجه كله ذعر وتعاسة صاح في (رتشارد):

- هلم بنا!

واندفع يركض بخطى واسعة وهو يلهث خارجا من الدار..

بينما الأم تقف وحدها في الطابق العلوي، تصرخ صراخا عاليا يمتزج بصوت السرينة القادم من بعيد:

- لقد فعلت هذا من أجلاااااك!

∞∞∞∞∞

49- وما زال العد مستمرا..

كان ظلاهما يطارد انهما عبر المنحنى، وهما يمران بصف المصابيح التي وضعتها هناك شركة (جنرال أتوميك)..

(إلتون) يلهث كمقطورة.. بينما كشافات زرقاء تلتمع من سيارات الشرطة على بعد مائة باردة..

كانت سيارة (رتشارد) مخبأة بعناية تحت غصون الأشجار..

لكنه حين نظر للوراء رأي سيارة شرطة مسرعة قادمة عبر الحديقة نحوهما.. وأضواؤها تملأ السماء.

سحب (رتشارد) مسدس (برادلي) من جيبه.. إنها سيارة واحدة حتى الآن.. مندفعة تشق التراب بعجلاتها التي كاد مطاطها يذوب من الاحتكاك..

أطلق الرصاص على الزجاج الأمامي فتشقق لكنه لم يتهشم.. وفي آخر ثانية تدحرج مبتعدا وهي تمر جواره.. ثم رآها تدور لتعيد الكرة وأضواؤها تحيل الليل إلى كابوس.

سمع صوت الرصاص يدوي حوله.. تناثر الطين على وجهه.. أطلق رصاصة أخرى عليها.. وهذه المرة رأى ثقبا في الزجاج.. وكذلك - هذه المرة - مرت السيارة بجواره، واصطدم جزء من رفرفها بكاحله فهشمه..

وسقط (رتشارد) أرضا..

دارت العربة لتنقض من جديد.. والمكان يكتسي بلون واحد من أضوائها...

(الأدرينالين) يتدفق في دمه فيرهف حواسه.. لهذا بدت الأمور كأنها بطيئة مرتبة من قبل.

رصاص ينطلق حوله.. واحدة تمزق ساعده الأيسر.. لكنه أطلق رصاصة أحكم تصويبها.. دارت السيارة حول نفسها ثم انقلبت. واشتعلت النار فيها..

هرع إلى سيارته الـ (ونيت) الهوائية حيث كان الفتى يحاول إيقاظ المحرك النائم.. على صوت سرينة سيارات الشرطة القادمة.

دار المحرك. فرمى بنفسه على المقعد الجانبي.. وانطلقت السيارة..

ثمة سيارتا شرطه تلحقان بهما من وراء المنعطف..

صرخ (إلتون)

- نحن لا نملك سرعة سياراتهم!

قال (رتشارد):

- إن سيارتنا هوائية أما سياراتهم فعلى عجلات.. هذه ميزة لنا!

وسرعان ما اجتاز الفتى منحدرا وعرا.. حاولت السيارة الأولى أن تلحق بهما لكنها لم تستطع.. فانقلبت واحترقت..

- ادخل هذا الزقاق بحق السماء!

- لا! سنكون كفأرين في مصيدة!

وانزلقت السيارة بعد منحن خطر - فوق الخرسانة.. لتصطدم في نهاية الزقاق بحائط من القرميد وصناديق قمامة..

اصطدم رأس (رتشارد) بلوحة القيادة، وتهشم أنفه.. أما (باراكيس) فتدلى كجثة هامدة فوق عجلة القيادة.

أعاد (رتشارد) حشو مسدسه.. ثم وثب من العربة.. وراح يثب على قدم واحدة قاصدا مدخل الزقاق.

طفق ينتظر.. وثبت المسدس بكلتا يديه..

وبرزت سيارة الشرطة، فاستنشق الدم الذي سال على أنفه.. وأطلق الرصاص.. تهشم الزجاج كأنه من الورق.. واصطدمت السيارة بالجدار فتهشمت وانفجرت..

لكن هناك آخرين.. لا بد من آخرين..

راح يعرج إلى السيارة الهوائية، فانتزع القمامة التي سدت مضخاتها.. ووثب إلى داخلها ليجد الفتى يردد:

- لقد أصبت.. أصبت إصابة بالغة! أين ماما؟

وتحركت السيارة مستعملة خمسا من مضخاتها الست.. بسرعة لا تتجاوز أربعين ميلا.. أما الفتى فقد أزاحه (رتشارد) إلى المقعد الجانبي.. وأدرك أنه يحتضر.. لقد مزقت عجلة القيادة صدره.. وهو ذا يبصق دما.

- لقد كان خطئي.. لم أر الجدار.. سأقودك إلى مكان آمن.. هل سيعذبون أمي؟ هل يسجنونها؟

لقد مرت عشر دقائق منذ هربا من البيت! كأن عشرات الأعوام قد مضت.. وها هما ذان يعبران غابة من المباني المتداعية والمتاجر المهجورة وأكوام الأخشاب وأشجار التوت..

هنا طلب الفتى المحتضر من (رتشارد) أن يجلسه وراء عجلة القيادة لأنه سيقود العربة حتى يموت

أما (رتشارد) فيثب هاهنا..

رمقه (رتشارد) بدهشة.. من كان يتخيل أن الفتى يحوي كل هذا الدم داخله؟ وتم الاتفاق دون جدال كثير.. فالفتى ميت بالفعل.

سرعان ما وثب (رتشارد) ليتدحرج وسط المرج..

والغريب أنه لم يسمع انفجارا حين غابت السيارة عن عينيه.. وظل يرمق السماء بعض الوقت..

ولم يدر كيف نام..

شكرا لك يا مسز (باراكس).. شكرا..

∞∞∞∞∞

46- وما زال العد مستمرا..

راح يبحث في ضوء النهار عن شيء يصلح كعكاز.. من السخرية أنه ترك العكاز الحقيقي في السيارة.. وأخيرا وجد لوحا خشبيا يصلح هل يظل حيث هو؟ لا.. ليس من المفترض أن يكون رجلا مختبئا.. بل يجب أن يكون رجلا راكضا.. هذا هو ما أبقاه حيا حتى الآن.

سمع صوت سيارات واهيا من بعيد..

مشي في حذر إلى مصدر الصوت.. فرأى طريقا ذا حارتين تشق السيارات طريقها عبره.. راح يعرج قاصدا الطريق وهو يدرك أن الدماء تغرق وجهه..

جلس على الحصى كأنه رجل قد فقد الأمل في العثور على مواصلة، وقرر أن يستمتع بشمس الخريف..

مرت سيارتان تحوي كل منهما رجلين.. فرأي أن فرصته ضعيفة.

لكن السيارة الثالثة كانت تقودها فتاة وحيدة.

لم تنظر له لأنها بالتأكيد لا تطيق راكبي (الأوتوستوب).. أبطأت عند المنحنى ففتح الباب الجانبي، وبسرعة البرق وثب ليركب جوارها.. شعر بيديها تحاولان قذفه للخارج.. وسمع صراخها:

- أنت.. لا! ليس بوسعك!

لكنه شهر المسدس في وجهها.. لحسن الحظ أنه يبدو الآن مرعبا كأنه خرج لتوه من مفرمة لحم..



لكنه شهر المسدس فى وجهها .. لحسن الحظ أنه يبدو الآن
مرعبًا كأنه خرج لتوَّه من مفرمة لحم ..

إن هذا يفيده طبعا.

- انطلقي!

عندها فعلت الشيء المتوقع.. ضغطت على الفرامل بأقصى طاقتها.. وصرخت.. فاندفع للأمام ليصدم وجهة من جديد.. وتوقفت السيارة..

صرخت الفتاة:

- أنت..

- (بنيامين رتشارد).. ارفعي يديك عن عجلة القيادة وضعيها في حجرك.. ما اسمك؟

- (إميليا ويليامز).. لا تقتلني! خذ المال كله.. خذ السيارة ذاتها.. إنها مؤمن عليها.. أنت تريدها طبعا بعدما هلك صاحبك..

قال لها مهدئا:

- لن أؤذيك فاهدئي بالا... قودي السيارة الآن وسنتحدث فيما بعد..

ثم سألها:

- هل هناك كمائن شرطة؟

- نـ.. نعم.. مئات منها.. سيظفرون بك!

- لا تكذبي يا مسز (ويليامز)..

- حسن..

وبدأت القيادة تهدئها قليلا.. فأجابت الإجابة الصحيحة هذه المرة:

- هناك واحد عند (وينسكوت).. حيث أمسكوا بالحشـ... بالآخر..

- على أي بعد؟

- ثلاثين ميلا..

وأدرك أن (باراكيس) ابتعد بالسيارة أكثر مما توقع قبل أن يلقى حتفه.. وهنا قالت الفتاة:

- لقد رأيت زوجتك.

قالتها في تشكك حتى إنه تمنى أن يهشم وجهها.. لو أنك أكلت القمامة وقتلت فأرا بالمكنسة، ما بدا عليك هذا الاشمئزاز وأنت تتكلمين عن زوجتي.

شعر بأسي من أجلها على كل حال.. فقال لها:

- أنت حماية لى يا مسز (ويليامز).. حتى أصل لمكان يدعى (ديرى) به مطار كبير..

- لكنه على بعد مائة وخمسين ميلا.. لن تصل هناك أبدا

- ربما أصل.. وكذلك أنت لو أطعت أوامرى!

راحت ترتجف..

وأدرك أنها تتمنى لو تصحو من هذا الكابوس.

∞∞∞∞∞

44- وما زال العد مستمرا..

اتجها شمالا وسط جو خريفي.. لم تكن الأبخرة السامة قد قتلت الشجر هاهنا.. وأحس (رتشارد) بالشجن حين تذكر أنه - بعد شهر واحد – سيهبط الجليد ليكسو كل هذا.. إن الأمور تنتهي في الخريف دوما..

مرا فوق جسر (يارموت).. ثم وصلوا إلى (فريبورت).

كانت هناك ثلاث عربات شرطة.. بينما بعض الضباط يقفون على جانب الطريق جوار عرباتهم يتحدثون..

شحب وجهها لكنها ظلت هادئة.. ومروا بالعربات دون مشاكل..

فما إن ابتعدوا حتى قال لها (رتشارد):

- لو نظروا إلينا لعرفوا.. ربما كان الأفضل لو كتبت على جبينك: (بنيامن رتشارد) موجود في هذه السيارة..

صاحت في عصبية

- إنك ثابت الجنان حقا أيها القاتل.. تفزعني وتقتل هؤلاء الفتية الأبرياء في (بوسطن)..

- كان هؤلاء الأبرياء آتين لقتلى.. ذلك عملهم..

- أنت تفعل كل شيء من أجل المال.. لم لا تبحث عن عمل شريف؟ لأنك كسول! أنت وأمثالك تبصقون على كل ما هو محترم في الحياة.

أشعل لفافة تبغ من علبة أمامه.. وقال:

- الطرد من العمل لأنك لا ترغبين في التعرض للإشعاعات.. أهذا محترم؟ أن يموت ملايين الأطفال كل عام بالتلوث.. أهذا محترم؟

وراح يرقب الطريق يبتعد.. وشعر بالقنوط..
لا توجد طريقة اتصال بهذه الحسناء.. إنها من عالم آخر حقا.

∞∞∞∞∞∞

ابتعدا كثيرا جدا.. ربما أكثر مما ينبغي وصلا لمدينة جوار البحر اسمها (كاندن)..
قال لها:
- ربما يشمون رائحتنا هنا.. لو جاء شرطي نحونا عليك أن تفتحي بابك، وتقولي له: إن (بنيامين رتشارد) هنا.. وهو يتخذنى رهينة.. ويجب أن تدعوني أمر..
سألته بمقت:
- وهل هذا كاف؟
- يجب أن يكون كافيا.. لأنك تنقذين حياتك..
ثم قال مفسرا:
- سيكون هناك الكثير من المصورين الهواة وهذا سيضطر الشرطة إلى عدم التضحية بالرهينة..
ثم غاص في مقعده حتى لا يبدو سوى رأسه..
وراح ينتظر أضواء الشرطة الزرقاء في مرآة المشاهدة الخلفية.. لكن لم تكن هناك أضواء زرقاء هنا..
وبعد ساعة ونصف - أي أنها الثانية – اجتازا منحنى جوار مدينة (كانون).. عندها رأيا سيارتي شرطة على جانبي الطريق.. ورجلين يتفحصان رخصة قيادة مزارع يركب شاحنة صغيرة..
قال لها:
- تحركي مائتي قدم.. ثم توقفي..

كانت شاحبة لكن متمالكة الأعصاب.. تقدمت بضعة أقدام ثم توقفت.

أشار لها الشرطي كي تدنو لكنها لم تفعل.

تبادل نظرة مع زميله.. ورأى (رتشارد) رجلا ثالثا يدخل سيارة شرطة كي يتبادل حوارا سريعا في جهاز اللاسلكي..

قال (رتشارد) لنفسه:

- ها نحن أولاء قد بدأنا.. رباه! لقد بدأنا!.

∞∞∞∞∞

42- وما زال العد مستمرا..

كان يوما مشرقا للغاية.. وكل شيء واضح محدد.. واستطاع (رتشارد) أن يرى رجال الشرطة يمدون أيديهم إلى أحزمتهم، طالبين المسدسات..

فتحت مسز (ويليامز) الباب.. وصاحت:

- لا تطلقوا الرصاص من فضلكم..

ومن الباب المفتوح استطاع (رتشارد) أن يشم رائحة الصنوبر والعشب الطازج..

قال الشرطي كأنه آلة مبرمجة صنعتها (جنرال أتوميك):

- اخرجي من السيارة ويداك فوق رأسك..

قالت بوضوح:

- اسمي (إميليا ويليامز).. (بنيامين رتشارد) معى هنا، ويحتفظ بى رهينة.. وسيقتلنى لو لم تدعوني أمر..

تبادل الشرطيان النظرات.. وهنا فهم (رتشارد) الرسالة الصامتة التي تبادلاها كأنما قد اكتسب حاسة سابعة.. صرخ فيها:

- انطلقي!

نظرت له غير فاهمة.. وهنا جثا الشرطيان على ركبتيهما.. وخرجت المسدسات في الأيادي اليمنى، بينما الأيادي اليسرى تمسك المعاصم اليمني..

داس (رتشارد) بقدمه المصابة على حذائها الأيمن، واندفعت السيارة.

دوي صوت الرصاص.. وتهشم الزجاج ليتناثر عليهما.. غطت وجهها بيديها فانحنى فوقها وأمسك عجلة القيادة في

شراسة.
نظر للوراء ليرى الشرطيين يعاودان إطلاق الرصاص.
راح يتحكم في عجلة القيادة.. بينما صراخ المرأة يصم أذنيه.. نزع المنظار عنها فتدلت من أذن واحدة.. بينما هي تصيح:
- لقد أطلقوا الرصاص علينا! أطلقوا الرصاص علينا!
- زيدي السرعة!
وارتفعت السرينة من خلفهما.. فداست الفرملة لا شعوريا وصاحت:
- قلت لهم كل شيء لكنهم أصروا على قتلنا!
هنا كان (رتشارد) قد وثب من السيارة.
تدحرج على الأرض.. ثم وقف على جانب الطريق، حين وصلت السيارة.. سرعتها ثمانون ميلا ومازالت تسرع.. ثمة راعي بقر يجلس وراء العجلة ورؤى المجد في عينيه.. ربما رأوه.. ربما حاولوا التوقف لكنهم تأخروا كثيرا؛ لأن (رتشارد) أطلق الرصاص على العجلات.. دارت العربة حول نفسها ثم انقلبت..
وطار السائق كالطوربيد من النافذة الأمامية أما السيارة الثانية فاحتاجت إلى أربع طلقات حتى تنفجر عجلاتها، وتنقلب محترقة.
عاد إلى السيارة الهوائية.. وأدرك - حين نظر لأسفل - أن قميصه ملوث بلون أحمر، يزداد قتامة في كل لحظة.
ركب وهو يلهث.. واسترخي في المقعد جوارها.
كان بإمكانها أن تفر لكنها لم تفعل.. ألجمها الخوف.
لكنها صرخت حين رأته:
- لقد قتلتهم!
- لقد حاولوا قتلنا منذ دقائق.. أسرعي!

كان منظر الشابة الواثقة العائدة من السوق قد تلاشى تماما.. وتحته بدا له كائن من الكهف.. له شفتان مرتجفتان وعينان ترقصان ذعرا..

∞∞∞∞∞∞

توقفا عند متجر صغير على جانب الطريق واتجها إلى صاحبه العجوز الأشيب الذي ما أن رآهما حتى صرخ:

- أرجوك! لا أريدك هنا! إن لدى أسرة!

قال (رتشارد):

- ادخل المتجر يا بابا..

واتجه إلى الهاتف الذي يعمل بالعملة.. وطلب الاتصال بالأخبار في التلفزيون.. ثم بعد دقيقة سمع من يسأل عن المتكلم.. فقال:

- أنا (بن رتشارد).

- اسمع يا حشرة.. أنا أحب النكات.. لكن يومي كان شاقا و...

- اخرس! لسوف تتأكد من كلامي خلال عشر دقائق

- إذن أين أنت؟

نظر (رتشارد) إلى اللافتة المعلقة على المتجر... وقال:

- مكان يدعى (متجر مدينة جيلي).. والآن اسمع.. أنا لم أطلبك كي أحكى لك تاريخ حياتي..

أرسل بعض المصورين هنا حالا وأذع كلامي.. إن لدى رهينة ستموت ما لم تضمنوا سلامتى..

- رباه! إنني أشم رائحة جائزة (بوليتزر) للأدب.

- كلا.. بل تشم رائحة سروالك.. أريد للشرطة أن تعرف أنني لست وحدي.. لقد حاول ثلاثة خنازير أن يقتلوني والرهينة..

لكني قتلتهم..

كان يتكلم وهو يحاول تذكر كل أفلام العصابات التي رآها في طفولته.. والتي رآها على شاشة التلفزيون المجانى..

ووضع السماعة، واتجه مع الفتاة إلى السيارة..

- هل ترى الدم على قميصك؟ أنت مجنون!

- اركبي السيارة واتجهي إلى الشمال..

وشعر بعسر في التنفس.. والوعي يصر على الهروب منه..

كان النزيف يتزايد..

ومن بعيد سمع صوت سرينات الشرطة.

∞∞∞∞∞∞

40- وما زال العد مستمرا..

بعد خمسة أميال بدأ الناس يخرجون من ديارهم ليروا العربة.. وأكثرهم كان يحمل آلات التصوير..

لقد سمعوا الأخبار.

كانا الآن يدخلان إلى (روكلاند).. بيوت صيفية.. طرق تؤدى إلى أكواخ وشاليهات على الشاطئ.

قال لها:

- هؤلاء القوم لا يريدون سوى رؤية شخص ينزف.. وكلما نزف أكثر كان هذا أفضل.. هل تصدقين هذا؟

- لا..

- إذن لك تحياتي..

وهنا وجد الطريق مسدودا بسيارتي شرطة وعربة مصفحة فوقها مدفع فقالت الفتاة في حزن:

- أرى أن أمرك انتهى.. هل على أن أموت أيضا؟

- بل قفي على بعد خمسين ياردة.. وانزلق في المقعد.. ليداري رأسه.. وقال لها مطمئنا.

- لن يطلقوا عليك الرصاص.. فالشهود كثيرون..

لا يمكن قتل الرهائن إلا حين لا يراك أحد.. هذه قواعد اللعبة..

وتمنى لو أنه يجلس معها في مكان هادئ بعيدا عن كل هذا يرشفان القهوة، ويناقشان مشكلة الظلم الاجتماعي، وسر تدلي جوربك لأسفل حين ترتدي حذاء مطاطيا، وأهمية أن تكون جادا.

إن المهرب الوحيد له الآن هو لفوق.. إلى السماء.

∞∞∞∞∞

- اسمى (إميليا ويليامز).. وأنا رهينة لـ (رتشارد بن) لو لم تدعوه يمر فسوف يفتك بي..

ساد الصمت.. لبضع دقائق.. ثم دوي الصوت من مكبر:

- نريد الحديث إلى (رتشارد).. غادرى السيارة يا سيدتي!

- لكنه سيقتلني.. ألم تسمعوا ما قلت؟ هل هو على حق؟ يقول إنكم ستقتلوننا نحن الاثنين.

هنا دوي صوت خشن من صفوف الجماهير:

- دعوا الفتاة تمر بسيارتها.

ودوى صراخ الناس كجمهور مجنون في مباراة كرة.. دعوها تمر.. دعوها تمر.. وغرق صوت المكبر في زئير الثائرين.

وطارت صخرة من مكان ما لتهشم زجاج إحدى سيارات الشرطة.. هلل الناس أكثر.. لكن الصوت دوى من مكبر الصوت:

- فليخل المدنيون المنطقة.. قد يحدث إطلاق رصاص.. ومن يخالف الأمر توجه له تهمة التجمع، وعقوبتها عشر سنوات في سجن الولاية.. أو عشرة آلاف دولار غرامة، أو كلاهما..

هنا صرخ أحد الواقفين:

- اللعنة على الخنازير! تريدون ألا نراكم وأنتم تقتلون الفتاة!

ولم يتزحزح الجمع.. ودنت سيارة أخبار لتصور ما يحدث.. لكن شرطيا جرى لينزع الكاميرا من فوقها ويهشمها على جانب الطريق.

عندها خرج صبي من الزحام وقذف صخرة على مؤخر رأس الشرطي.

تناثر الدم.. وعلى الفور شرع ستة من رجال الشرطة في توجيه الركلات إلى الصبي.. وتطايرت اللكمات في كل مكان.. واشتبك القوم مع الشرطة.

قالت الفتاة:

- اللعنة! البوليس يضرب الناس.

قال لها من مخبئه:

- استمري في التقدم.. إنهم يفتحون الطريق.

- لكنهم قد يطلقون الرصاص على مضخات الهواء ليعطلوا السيارة..

- لن يفعلوا.. إنهم أغبى من أن يفكروا في هذا..

وبالفعل لم يفعلوا..

وتقدمت السيارة ببطء.. بينما أفسح الناس لها طريقا..

∞∞∞∞∞∞

38- وما زال العد مستمرا..

إنها الرابعة عصرا الآن..

كان النزف قد توقف من بطنه.. ثمة جلطة تسد الجرح الآن..

لا يهم.. فهم سيمزقونه على كل حال.. إن خطته في مواجهة هذا الجيش لا تزيد على دعابة.

سيستمر في التقدم حتى يحدث (حادث أليم).. وتتناثر السيارة إلى شظايا، وتتأسف الشبكة على فقدان (حياة ضحية بريئة).. ولسوف يذاع هذا في آخر نشرة أخبار.. ما بين أسعار أسهم البورصة وآخر تصريح للبابا.

كان قلقا على (إميليا) التي كانت خطيئتها الوحيدة هي الذهاب للتسوق صبيحة الأربعاء

نظر لها فجأة.. وقال:

- حسن..

- ماذا؟

- توقفي وغادري السيارة!

- لكنهم سيقتلونك..

- نعم.. لكن لن يكون دم.. إن لديهم من النيران ما يكفي لتحويلي إلى بخار.. فلا تقلقي..

ورمى بالمسدس على الأرض في قاع العربة معلنا حريتها التامة.

صاحت في تأثر:

- يا للسماء! لماذا لم تنتظر السيارة التالية بحق المسيح؟

ألقي رأسه للوراء وراح يضحك.. يضحك حتى سعل من فرط الألم.. وسال الدمع من عينيه..

∞∞∞∞∞∞

قالت له:

- لقد وصلنا إلى (ديرى).

كانت الشوارع ملأى بالناس يرمقون المشهد.. واحتشد كثيرون فوق الأسطح وفي الشرفات يلتهمون الشطائر والدجاج المقلي.

- أنت تريد المطار طبعا.. هل ستخطف طائرة؟

- سأحاول

عادت تسأله:

- لقد رأيت زوجتك في التلفزيون.. إنها تبدو متشردة نوعا.. ربما كان بوسعها أن تعنى بنفسها أكثر

- لقد عبثوا بالصورة..

طائرة هليوكوبتر تحوم حولهما باستمرار.. بينما السيارة تدنو من بوابة المطار.. كانت مفتوحة لكنها مسدودة.. هناك دبابة تصوب مدفعها نحوهما وتسد المدخل.. دبابة من طراز (أ- 62) قادرة على إطلاق ربع ميجا طن من القذائف.

هنا خطرت له فكرة.. فقال لها:

- قولي لهم إنني مجروح وشبه مجنون.. ولن أسلم نفسي إلا لشرطة المطار..

- شرطة المطار؟

- إنها ليست فيدرالية ولا خاصة بالولايات.. بل هي سلطة دولية تقع تحت سيطرة الأمم المتحدة منذ عام 1995 [3]..

ويزعمون أنهم يعطون نوعا من العفو العام.. هذا هراء طبعا.. كل ما سيفعلون هو أن يسلموني إلى الصيادين.. وهؤلاء سيقتادونني إلى الجرن لإنهاء الأمر.. لكنني أريد جعلهم يعتقدون أنني أصدق ذلك.. أو أنني أريد تصديق ذلك..

وخطر له أن فرصة حدوث (حادث أليم) مناسبة جدا الآن.. ضغطة واحدة على زناد المدفع وتنتهي الكوميديا فورا..

أخرجت رأسها وصاحت:

- إن (رتشارد) يريد الاستسلام لشرطة المطار!

ساد الصمت برهة.. ثم بدأت الدبابة تبتعد لتفسح الطريق لهما.. ودوي الصوت من المكبر يقول:

- (رتشارد).. ستتقدم إلى الساحة (16).. وستكون شرطة المطار بانتظارك لأخذك إلى الحجز..

وتقدمت السيارة ببطء إلى داخل المطار، تتبع الأسهم.. بينما رجال الشرطة يقفون خلف الحواجز الصفراء..

- قولي لهم إنني أريد مكبر صوت..

وبعد قليل دنا منهما رجل يحمل المكبر المطلوب، فوضعه جوار السيارة في تؤدة، ثم انسحب عائدا إلى صفوف الشرطة..

التقطت المكبر.. فأمرها (رتشارد) بالتوجه إلى الساحة (16)..

36- وما زال العد مستمرا..

وقفت السيارة بقرب الساحة.. وظل (رتشارد) صامتا..

سألته الفتاة:

- ألا ترى أنك تدفعهم للجنون أكثر؟

ضحك وقال:

- إنهم يتوقعون أن أخدعهم.. لكنهم لا يعرفون كيف.

ومد يده إلى حقيبتها المصنوعة من جلد التمساح ودسها تحت سترته حيث برزت بوضوح.. وقال لها:

- الآن سأقوم بخدعة صغيرة..

- مثل أن تقتلهم بإصبع (الروج)؟

رفع مكبر الصوت إلى شفتيه.. وقال:

- أصغوا إلى بانتباه.. إن معي هنا اثنا عشر رطلا من المتفجر البلاستيكي المعروف بال (ديناكور) ويسمونه (الإيرلندي الأسود).. اثنا عشر رطلا تكفي لتفجير كل شيء في دائرة ميل هنا.. ولو لم تنفذوا ما أقول حرفيا فسوف ألقى بكم في جهنم جميعا!

هناك فتيل معي وقد شددته إلى منتصفه.. وتكفي جذبة أخرى كي تقولوا لمؤخراتكم عبارات الوداع!

تصاعدت صرخات الناس وبدأت حركة كجزر الأمواج.

تحرك رجال الشرطة في توتر.. ولم تر (إميليا) عدم التصديق في عين أحدهم..

وهنا دوي الصوت:

- هذه كذبة يا (رتشارد).. فاخرج من السيارة!

- سأخرج لكن بعد أن تنفذ مطالبي.. أريد طائرة ملأى بالوقود من طراز (لوكهيد) أو (دلتا – سوبر سونيك)، مداها مائتا ميل، وطاقمها كامل سيتم تجهيزها خلال تسعين دقيقة..

هنا رأت المرأة رجلا يرتدي قميصا أبيض وسروالا أسود، يتقدم منها برغم حالة الذعر العام.. وكان يرتدي منظارا صغيرا يعكس ضوء الشمس..

قال في مكبر صوت يحمله:

- أنا (إيفان ماكون)!.

تذكر (رتشارد) الاسم.. إنه الصياد الرئيسي لدى الشبكة.. ينحدر من نسل (هنريخ هملر) [4].. إنه الصلب داخل قفاز الشبكة المخملي.. إنه (البعبع).. يخيفون به الأطفال الأشقياء.. لو لم تكف عن اللعب بالثقاب سأجعل (إيفان ماكون) يخرج من خزانة غرفتك.

قال (ماكون):

- أنت تكذب يا (رتشارد) ونحن نعرف هذا..

لا أحد يستطيع الحصول على (الديناكور).. فدع المرأة تذهب..

قال (رتشارد):

- في الأزقة يمكنك شراء (الديناكور) إذا امتلكت المال.. وأنا فعلت ذلك بنقود الشبكة.. الآن أمامك ستة وثمانون دقيقة.. سأرسل لكم المرأة كي تتأكدوا من كلامي.. رصاصة واحدة تصوب لى وبعدها سوف نذهب جميعا إلى القمر..

كانت (إميليا) مذهولة.. وهمست:

- لا.. لا تعتقد أنني سأكذب من أجلك!

- لو لم تفعلي سأموت.. فلا يوجد حل أخر اسمعي.. إن (الديناكور) أبيض وصلب.. وملمسه مشحم قليلا.. و...

- لا.. لا! وسدت أذنيها بكفيها حتى لا تسمع أكثر.

- يبدو كقطعة من الصابون الأبيض.. الآن أصف لك الفتيل..

بدأت تبكي.. وتردد:

- لا! إن لي واجبي كمواطنة..

- لن يعرفوا أنك تكذبين.. ولو دعمت كلامي سيدخلون كهوفهم.. إن حلقة الفتيل من الذهب وتبدو كسلسلة مفاتيح بلا مفاتيح.. يتصل بها قضيب معدني.. أما أداة الزناد فتبدو كممحاة القلم الرصاص..

راحت تتلوى وهي تئن..

- لن أكذب!

- وان سألوك عن شيء أخر فأنت لست واثقة.. فقط أنت تعرفين أنني أمسك الحلقة منذ دخولنا إلى المطار.. هيا!..

ثم دفعها إلى الخارج.. فنظرت له بعينين متسعتين لقد اختفت المرأة الواثقة تماما.. والآن يشك في أنها سترجع أبدا.

- اذهبي..

غادرت السيارة راكضة.. شعرها يطير وراءها وللمرة الأولى عرف أنها جميلة حقا.. نجمة تلحق بسديم النجوم الذي صنعته كشافات المطار..

والآن عليه أن ينتظر..

∞∞∞∞∞

33- وما زال العد مستمرا..

مضى الوقت ببطء.. ثم سمع الصوت يناديه:

- (رتشارد)!

رفع المكبر إلى فمه.. وقال:

- بقي لكم تسعة وسبعون دقيقة.

إن الطريقة الوحيدة للعب هذه اللعبة.. هي لعبها حتى النهاية.. وحتى يصدر (ماكون) أوامره للصيادين بإطلاق الرصاص على السيارة..

- نحتاج إلى ثلاث ساعات.. فلا توجد طائرة جاهزة الآن..

لقد فعلتها! لقد نظرت إلى الهاوية ثم عبرتها.

طبعا لم يصدقوها.. عملهم هو ألا يصدقوا أحدا بصدد أي شيء.

بالتأكيد أخذوها إلى غرفة جانبية، ليحقق معها ستة من رجال (ماكون).. نعرف أننا نزعجك يا سيدتي.. لكننا ـ فقط - من أجل التسجيل نريد سماع القصة من بدايتها.. ثمة نقطة تحيرنا هنا.. ماذا قال؟ ماذا فعل؟ كيف عرفت؟

يحاولون تعطيله بعذر أو بآخر.

ثمة مشكلة في الوقود لهذا نحتاج لمزيد من الوقت. ثمة نقص في الطاقم لذا نحتاج لمزيد من الوقت.. هناك طبق طائر فوق المطار لذا نحتاج إلى وقت.. لم نستطع تحطيمها بعد.. لم نستطع جعلها تعترف أن ما معك من متفجرات هو حقيبة من جلد التمساح، لذا نحتاج إلى وقت..

لا نستطيع المجازفة بقتلك بعد.. لذا نحتاج إلى وقت.

إنها الآن في حجرة صغيرة محاطة برجال (ماكون) يحاولون إفزاعها.. بالتأكيد سينجحون.. لكن إلى أي مدى سيتمادون مع امرأة ثرية لا تنتمي لمجتمع الفقراء الذين لا وجوه لهم؟

عقاقير؟ هذا وارد.. هناك عقاقير يمكن استعمالها.. وبوسعها أن تجعل هنديا صموتا أو قس اعترافات يحكي تاريخ حياته منذ كان بالمهد.

وهنا بدأ يسمع صوتا لا يمكن أن يخطئ فيه:

هدير محركات طائرة (لوكهيد) يتم تسخين محركاتها..

إنها طائرته! الصوت يصمت.. ومعنى هذا أنهم يملئونها بالوقود.. عشرون دقيقة إن كانوا متعجلين..

وبالطبع هم ليسوا كذلك..

∞∞∞∞∞

وهم لا يكفون عن الاتصال به.. أنت كاذب.. ثم.. الطائرة غير جاهزة وعلينا أن نجد واحدة أخرى ثم.. أنت كاذب من جديد..

وفي كل مرة يواصل تهديده بأنه سيرسلهم إلى القمر.. بقي من المهلة خمس وعشرون دقيقة.. أربع وعشرون..

والمرأة لم تظهر بعد.. ثماني دقائق.. يقولون إنهم بحاجة لرش الدوارات بالهيدروجين السائل سبع دقائق.. إن (إميليا) صلبة لكن هل هي صلبة بما يكفي؟! دقيقة واحدة..

ثمة شيء دافئ ينساب على شفتيه.. أدرك أنه عضها دون أن يشعر.. مسح فمه بقبضته.. ثم أدار محرك السيارة.

وتحركت العربة ببطء..

هنا دوي الصوت في المكبر:

- (رتشارد)! لو لم تتوقف سنطلق الرصاص!

لقد تكلمت الفتاة! نحن نعرف كل شيء!
لكن أحدا لم يطلق رصاصة..

∞∞∞∞∞

31- وما زال العد مستمرا..

كان طريقه محاطا برجال الشرطة يحملون كل شيء.. بدءا بالطلقات المسيلة للدموع وانتهاء بالقذائف خارقة الدروع.. ينظرون له في ذعر حيواني.. ذعر الأبقار في الحظيرة وهي ترمق صاحبها وقد جُن، وراح يرقص ويصرخ على باب الجرن.

ومن بعيد رأى طائرته واقفة.. طائرة (جامبو)

تزأر محركاتها التوربينية الاثنا عشر.. وعندها رأى في ظلال الطائرة (إيفان ماكون)..

للمرة الأولى يراه (رتشارد) على الطبيعة.. شعر كأنه يرى نجم سينما اعتاد أن يراه على الشاشة، وفجأة وجده أمامه.. فلم يصدق أنه من لحم ودم..

عندها تتخذ الحقيقة نوعا من الهلوسة..

كان (ماكون) قصير القامة يرتدي عوينات دون إطار.. باختصار لم يكن يبدو كوحش.. لم يكن يبدو كحاكم مملكة الخوف المطلق.

وحين تكلم كان صوته مهذبا مثقفا:

- أنت يا (رتشارد) متسابق غير تقليدي.. ربما لهذا أنت حى.. هل تعرف أنك ضربت الرقم القياسي في الهرب؟ أنت بارع حقا وإنني لآسف لأن اللعبة قد انتهت.. لقد قمنا بحقن المرأة بـ (بنتوثال الصوديوم).. أسلوب قديم لكنه فعال وقد تكلمت بالتفصيل

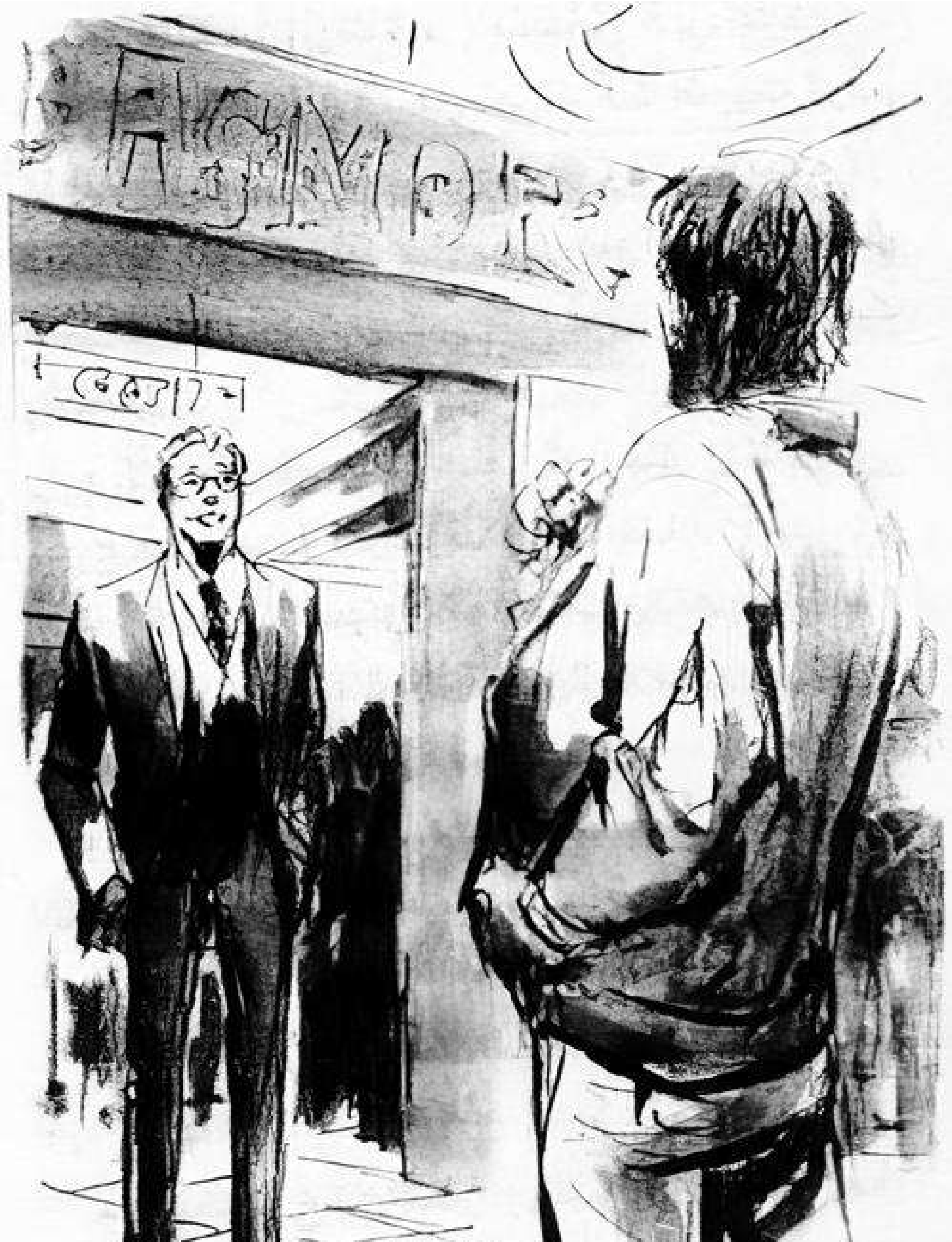
- الآن سأمنحك مجاملة صغيرة يا مستر (رتشارد)..

أخرج من السيارة وسوف أفعلها هنا.. بعيدا عن آلات التصوير.. سيكون موتا يتمتع بالخصوصية..

غادر (رتشارد) السيارة.. واتجه نحو (ماكون) ويده ما زالت داخل سترته..

ووقف الرجلان يتبادلان النظرات في المساحة الخالية..

∞∞∞∞∞∞



غادر (رتشارد) السيارة .. واتجه نحو (ماكون) ويده مازالت داخل سترته ..

حطم (ماكون) الصمت حين أرجع رأسه للوراء وراح يقهقه:

- أنت بارع يا مستر (رتشارد).. إن المرأة لم تنهر.. مازالت مصرة على أن البروز في سترتك هو (الأيرلندي الأسود).. لم

نعطها (البنتوثال) لأنه يترك أثرا في رسم المخ يمكن اكتشافه.. لقد طلبنا ثلاثة أمبولات من الـ (كانوجين) من (نيويورك).. وهو لا يترك أثرا.. لكن الطائرة ستصل به بعد أربعين دقيقة..

- إن المرأة تكذب.. نحن نعرف هذا.. بل وأجسر على القول إن هذا البروز هو حقيبة يدها.. فهي لا تحمل حقيبة برغم أنها كانت تتسوق.. فأين ذهبت الحقيبة مالم تكن في سترتك؟!

لم يبلع (رتشارد) الطعم.. وواصل النظر بتحد للرجل..

ثم فرد (ماكون) ذراعيه وصاح:

- إن المرء لا يجازف بحياة الناس، حتى لو كانت الاحتمالات خمسين إلى واحد أنك كاذب.. إن الحياة البشرية مقدسة نوعا.. والشبكة تعرف هذا..

هنا فطن (رتشارد) إلى أن الرجل ينومه مغناطيسيا

إن الدقائق تمر.. والطائرة التي تحمل الأمبولات قادمة الآن.. بينما هو هنا يصغي لكلام الرجل الفارغ.. رباه! لقد كان (ماكون) مخيفا حقا..

- اسمع يا (ماكون).. حتى بعد أن تحقن المرأة ستغنى لك اللحن ذاته..

ودون كلمة أخرى اتجه ليرتقي درجات الطائرة الواقفة

هتف (ماكون) ومنظاره يلتمع في الشمس:

- (رتشارد).. حين تحلق في الجو.. سنطلق صاروخا (أرض - جو) عليك.. ونقول للناس إن يدك توترت فجأة على الزناد..

- لن تفعل..

- لم؟

- سيكون ارتفاعنا منخفضا ونحن فوق مناطق مدنية مزدحمة.. لو فعلت لكان الانفجار مروعا. ربما تفعل ذلك لو لم تتورط في التحقيقات بعدها..

ودخل الطائرة..
كانت مقاعد الدرجة الأولى أمامه.. وشاشة التلفزيون المجاني..
اتجه إلى قمرة الطيارين.. فوجد ثلاثة هناك.. فما إن رآه الملاح حتى صاح:
- الرجل الذي سيسبب دمارنا قد جاء يا شباب!
جاء الكابتن ليلقاه.. وهو محارب قديم في الأربعين من العمر.. قال له:
- أنا كابتن (هولواي).. طبعا لست سعيدا بلقائك.. لكننا سننفذ كل تعليماتك.. وأعتذر عن عدم مصافحتك..
- هل توجد وسيلة لمحادثة (ماكون)؟
ناولوه سماعة صوت.. فقرب المكبر من فمه وقال:
- هلم يا حشرة.. فأنت والمرأة ستركبان الطائرة معي..
نظر له الطاقم في دهشة.
وفكر هو: لو كان (ماكون) ذكيا بما يكفي لأدرك كل شيء.. كوني أطلب أن تأتي المرأة معنا يوضح الأمور تماما..
وراحت الساعة في رأسه تدق بلا توقف..

28- وما زال العد مستمرا..

جاء صوت (ماكون) عبر جهاز اللاسلكي، وفيه رنة غير معتادة (أراها الخوف؟):

- أنت مجنون يا (رتشارد)!

- اسمع.. أنت جبان يهاب الموت.. لكنك تعرف أن هواة تنصت كثيرين في البلاد يسمعون ما نقول الآن.. أما المرأة فستأتي معنا لأنني قد أخبرتها بوجهة طيراننا..

وقال لنفسه: حسن.. لا تعطه فرصة للتفكير اضربه بسرعة..

وعاد يكمل كلامه:

- لو أنك رفضت الحضور معي، وعرف الناس هذا.. ولو أنني فجرت (الإيرلندي) فلن تجد بعدها وظيفة حتى كبائع خضار..

ثم أغلق مكبر الصوت..

قال له الكابتن:

- أنت تملك أحشاء (كناية عن الشجاعة).

وأنا لم أر أحشاء كثيرة في حياتي..

قال الملاح:

- ستكون هناك أحشاء أكثر مما تتخيل لو أنه جذب حلقة التفجير!

كان الظلام قد خيم تماما، حين وصل (ماكون) و (إميليا)..

كان الأول ثابت الجنان لكن عينيه قاتمتان بالكراهية التي تبلغ مبلغ الجنون.. أما الفتاة فكانت تنشج وشعرها مبعثر ووجهها شاحب..

وفجأة انفجرت في البكاء وترنحت.. وعلى الأرض تكومت وثوبها ينتشر حولها، فبدت كزهرة ذابلة..

شعر بالأسى لها.. لكن لم يكن بوسعه أكثر..
وبصوت مبحوح أصدر أوامره للطيار بالإقلاع.
قال (ماكون) وقبضتاه تتقلصان:
- لقد فضحت نفسك حين طلبت اصطحاب المرأة.. هل تعرف هذا؟
وبدأت الطائرة تهتز ومحركاتها تهدر..
ربطت له (إميليا) حزامه لأن يده مشغولة.. ولم يكن (رتشارد) قد ركب الطائرة سوى مرة واحدة في حياته عندما فر إلى (نيويورك).. وكانت رحلة ليلية نام طيلتها.. أما الآن فهو يشعر بالذعر وعدم الراحة.
نظر إلى (إميليا).. فوجدها تنظر إليه دامعة العينين.
أما (ماكون) ففضل أن يذهب إلى قطاع أخر من الطائرة..
قالت له بصوت صدئ مخاطي:
- أنت حلم مزعج.. كابوس لن ينتهي أبدا..
- أنا آسف.
- بالمناسبة.. أنا لم..
هنا فوجئت بيده على فمها.. وهز رأسه بمعنى (لا)..
الطائرة تركض عبر الممرات.. خطر له هنا أنهم يتلاعبون به.. ربما يعرضون فيلما مجسما خارج النافذة والطائرة ثابتة.. ثم استبعد الفكرة..
- نحن نقلع الآن يا مستر (رتشارد)!
دوي صوت الكابتن في الـ (إنتركوم).. وازداد تسارع الطائرة حتى أوشك (رتشارد) على إطلاق صرخة رعب..
راح يردد دون كلل:
- نحن ذاهبون.. نحن ذاهبون..
- إلى أين؟

لم يرد.. فالجواب كان في بدايته..

∞∞∞∞∞

بعد قليل ناداه الطيار على الـ (إنتركوم):
- مستر (رتشارد).. نحن نطير حاليا على نمط.. أي أننا نقوم بدورة كبيرة حول المطار الآن.. التعليمات؟
- ما أقل ارتفاع يمكنكم الطيران عليه؟
- ألفا قدم..
- حسن.. إني سأضع ثقتي بكم لأني لا أعرف شيئا عن الطيران.. فقط تذكروا أن القوم الذين سينسفوننا بصواريخ (أرض - جو)، هم جميعا على الأرض بعيدون عن الخطر..
ثم طلب خريطة كي يتابع عليها اتجاه الطيران.. فأحضرها الملاح له:
- اتجه إلى اليسار!
هتف الكابتن مذهولا:
- ماذا تقول؟
- أعني للغرب.. اتجه غربا على ارتفاع ألفي قدم..
ثم استدار للفتاة.. ومزق قصاصة ورق من الخريطة.. ووضعها على ركبته وكتب لها:
- الاحتمال تسعة وتسعون إلى مائة أنهم زرعوا جهاز تنصت.. ربما في شعرك.. أو في حذائك.. إن (ماكون) يصغي لنا الآن.. أرجو أن تدخلي في نوبة هستيرية وتتوسلي إلى ألا أجذب الفتيل.. فهذا سيدعم موقفنا..
هزت رأسها موافقة..
أشعل الورقة.. وتركها تحترق في مطفأة التبغ جواره..

بدأت تئن.. ثم انفجرت صارخة.. كانت بارعة إلى حد أنه شعر بالذعر..
من يدري؟ ربما هي لا تمثل..
- أرجوك! ما ذنبي؟ إن لي أسرة وطفلة تنتظرني!
رفع حاجبيه مدهوشا.. فهو لم يرد لها أن تكون بهذه البراعة.. رباه! لا يجب أن تكون بهذه البراعة أبدا!
- لماذا لا تريه هذا (الدايناكور)؟ هذا سيجعله يصدق!
قال (رتشارد):
- لا أجرؤ على ذلك.. فقد جذبت المفجر فعلا ولو أخرجته من جيبي لكان احتمال الانفجار قويا.. فلتدعي الوغد يتساءل.. أنا لا أملك ما أخسره.. هو الذي سيخسر كل شيء!
هنا انفتح الباب.. ودخل (ماكون)..
كان هادئا.. لكن تحت هدوئه كانت نظرة مذعورة عرفها (رتشارد) على الفور.
وبصوت مهذب قال:
- أعدى سبعة أقداح قهوة لنا من فضلك يا مسز (ولیامز).. يؤسفني أنك ستضطرين للعب دور المضيفة هاهنا..
نهضت دون أن تنظر له.. بينما وقف يرمق (رتشارد).. ثم قال:
- هل تتنازل لو وعدتك بالعفو العام؟
ثنى (رتشارد) ذراعه وابتسم.. وقال:
- يا لها من كلمة! كذبة كبيرة لزجة.. لا يا زميل.. أنا لست كما تظن..
تراجع (ماكون) للوراء مرتبكا.. فتعثر.. اصطدم بالمقعد وهوى على الأرض.

ضحك (رتشارد) كما لم يضحك من قبل.. في حياته المريرة المقاتلة.

ضحك حتى دمعت عيناه.

∞∞∞∞∞∞

بدأ النعاس يتسلل لعيني (رتشارد)..

إن صوت المحركات الرتيب منوم.. و (ماكون) يعرف هذا.. جالسا يتحين الفرصة كأفعى.

شرب (رتشارد) قدحين من القهوة لكنهما لم يعيناه.. وبات من الصعب أن يستعيد تركيزه..

في النهاية لم يجد حلا سوى أن يدخل يده في سترته.. ويوجه لكمة إلى الجرح في بطنه.. كان الألم عنيفا صارخا.. وبدأ النزف من جديد.. ولكن الرغبة في النوم فارقته.

∞∞∞∞∞∞

19- وما زال العد مستمرا..

كانوا الآن يطيرون فوق (نيوآرك - نيوجيرسي)..

قال (رتشارد) للكابتن:

- الآن نتجه غربا..

نهض (ماكون) مذهولا.. وأنّت (إميليا).. على حين قال الكابتن وفي صوته رنة فزع للمرة الأولى:

- أنت تطلب ما سيحدث لك.. إن معنى هذا أن تطير فوق ريف مفتوح.. إن ما بين (هاريسبورج) و (بتسبورج) لا يزيد على مزرعة كبيرة.. ولا توجد مدن كبرى بها..

- اتجه غربا يا كابتن.. فأنت لا تضع خططي..

صرخ (ماكون):

- أنت مجنون.. تسهل لهم أمر نسفنا.

- ينسفوننا وأنت - وخمسة أبرياء معنا؟ ألا ترى (النشرة القومية) يا (ماكون)؟ إن النظام لا يرتكب أخطاء أبدا.. لم يرتكب أي خطأ منذ عام 1950.

وكانت (نيوآرك) تبتعد في الظلام.

∞∞∞∞∞

بعد قليل دوي صوت الكابتن يقول: - (رتشارد).. هناك رسالة على الهواء لك من مبنى الألعاب في (هاردنج).. يقولون إنها مهمة جدا.. فافتح جهاز التلفزيون المجاني..

- حسن..

شعر بذعر في أعماقه.. وشعر بأنه يعود للبداية.. (شيللا).. رائحة الكرنب.. صراخ (كاتى)... الكشف الطبي..

وبيد مرتجفة ضغط على زر فتح الجهاز..

وعلى الشاشة رأي صورة واضحة جدا مقواة.. والوجه على الشاشة كان مألوفا للغاية أسود للغاية.. إنه (دان كيليان).. كان يجلس على مكتب له شكل الكلية ويقول:

- مرحبا يا مستر (رتشارد)..

ارتجف (رتشارد) وقد أحس كأن الرجل يرمقه..

فقال الأخير:

- أنا لا أراك لكنى أسمعك.. لقد صار المشاهدون مجنونين بك يا مستر (رتشارد).. أنت أفضل متسابق قابلناه حتى الآن.. تملك قدرا من الشجاعة والحظ معا.. لهذا كنت - ببساطة - الأعظم.. وأنا أقدم لك عرضا..

- إن خطف هذه الطائرة كان أروع ما قمت به لكنه أغباه كذلك.. الخطأ هنا أنك - للمرة الأولى - لم تذب وسط قومك تركتهم وراءك على الأرض.. وكان هذا خطأ جسيما يا (رتشارد).. أنت الآن بطة ميتة..

- يقال لى هذا كثيرا في الأيام الأخيرة..

قال (كيليان) محاولا التظاهر بالهدوء، لكنه صوته دل على توتره:

- والآن هو ذا عرضي.. ستعود بالطائرة إلى مطار (هاردنج).. يوجد ممثل هناك وفرقة إعدام.. سيتم تمثيل مشهد إعدام صورى أمام العدسات...

بعدها تصير واحدا منا..

- أيها الوغد!

كان هذا صوت (ماكون) الغاضب حين سمع ما قيل.. أما (رتشارد) فقال:

- رائع يا (كيليان).. أعرف أنك جيد لكني لم أحسبك رائعا.. كنت ستغدو أفضل بائع للسيارات المستعملة لو اخترتها مهنة لك..

قال (كيليان):

- لقد قمت بأداء فقرتك الاستعراضية مع المتفجرات يا مستر (رتشارد).. لكننا نعرف أنك تكذب.. فلا أحد يستطيع ركوب طائرات شركة (لوكهيد) حاملا متفجرات.. هناك أربعة أنظمة للبحث عن العبوات الناسفة داخل الطائرة.. ويمكنني أن أؤكد لك أن أيا من أضواء الإنذار لم تتألق عندما دخلت.. وهذا يجعل موقفك أسوأ طبعا..

هنا وثب (ماكون) جوار (رتشارد) صائحا:

- هكذا يتضح الأمر.. وهنا سوف أنسف رأسك اللعين!

وألصق الفوهة برأس (رتشارد)..

∞∞∞∞∞

46- وما زال العد مستمرا..

قال (كيليان) في هدوء، ووجهه يرمقهما على الشاشة:

- ستموت يا (ماكون) لو فعلت هذا..

تراجع (ماكون) للوراء، وشفتاه ترتجفان ووجهه يتقلص، باحثا عن كلام.. وفي غضب قال:

- أستطيع قتله الآن.. هنا..

قال (كيليان) بإرهاق:

- يا أحمق.. لو أردنا قتله لقتله الملاح (دوناهو) منذ زمن..

- هذا الرجل مجرم.. لقد قتل رجال شرطة وخطف طائرة.. وأهان شرفي المهني أمام الملأ..

بصوت بارد كأنه الفضاء ما بين الكواكب، قال (كيليان):

- حان الوقت كي تتذكر من يدفع راتبك يا سيدي (الصياد الرئيسي)..

تراجع (ماكون) وهو ما زال يطلق السباب:

- ستقضي حياتك تجمع القطن في الحقل يا زنجى!

هنا دوى صوت جديد يقول:

- أرجو أن تلقى مسدسك على الأرض..

كان هذا هو (دوناهو) الملاح.. بدا باردا خطرا.. وكان يوجه إلى (ماكون) مسدس (ماجنم) ضخما..

تردد (ماكون) للحظة.. ثم رمى مسدسه على الأرض..

فقال (دوناهو):

- لقد سمعنا بلاغتك الخطابية بما يكفي عُد الآن واجلس في مقاعد الدرجة الثانية كرجل مهذب..

تراجع (ماكون) للوراء.. ونظر إلى (رتشارد) نظرة كالتي ينظرها مصاصو الدماء في الأفلام حين يرون الصليب.. ثم إن (دوناهو) ابتسم لـ (رتشارد)..

وحياه تحية ساخرة بفوهة المسدس..

- لن يضايقك ثانية..

قال (رتشارد):

- برغم هذا لازلت أشعر أنك رقيع!

تلاشت الابتسامة من وجه الفتى.. ونظر له بكراهية.. ثم عاد إلى غرفة القيادة..

شعر (رتشارد) بدهشة لأن تنفسه لم يسرع، ونبضه لم يتزايد.. يبدو أن الموت صار شيئا طبيعيا بالنسبة له.

وعلى الشاشة عاد (كيليان) يقول:

- الآن وقد تم حل المشكلة نواصل كلامنا.. نحن نعرف أنك تكذب.. وهذا يجعل موقفك أسوأ ومصداقيتنا أكثر.. أنت طائر نادر يا (رتشارد).. لقد برهنت من جديد على أنك لا تملك المفجر.. وإلا لفعلتها حين هددك (ماكون)، وكنت واثقا من أنه سيقتلك!

هنا استسلم (رتشارد) أخيرا فابتسم..

- والآن سيقوم مستر (دوناهو) بانتزاع الحقيبة من سترة مستر (رتشارد).. وأرجو ألا تؤذيه بأي شكل.

ظهر (دوناهو) واتجه نحو (رتشارد) بوجه بارد.. (مبرمج).. هذه هي اللفظة التى خطرت لـ (رتشارد).. قال وهو يثب ويضع يده في جيبه:

- قف ها هنا أيها الوسيم! هذا الرجل آمن على الأرض.. أما أنت.

لحظة تردد مرت على وجه الفتى.. ثم واصل تقدمه..

- أراك في جهنم إذن!

قالها (رتشارد) وجذب الحقيبة من جيبه في حركة سريعة.. هنا سقط الفتى على ركبتيه ورفع يديه أمام وجهه ليحميه، وهي حركة عفوية قديمة قدم الإنسان ذاته..



قالها (رتشارد) وجذب الحقيبة من جيبه فى حركة سريعة . .

هنا قذف (رتشارد) الحقيبة.. لتصطدم بصدر الفتى الشاحب، وتسقط عند قدميه كطائر ميت.. فراح هذا يرمقها في غباء..

- بوم!
قالها (رتشارد) في حزن..

∞∞∞∞∞∞

جلس شاعرا بازدواج غريب في الرؤية أمام عينيه.. إن الجرح قد انفتح من جديد.
قال (كيليان) على الشاشة بوجه مغلق:
- الآن نكمل صفقتنا..
همس (رتشارد) ووعيه ينساب بعيدا عنه:
- ابعد يا شيطان.. ابعد يا شيطان!
- ماذا؟
- لا شيء..
بعد فترة صمت طويلة جدا.. قال (كيليان):
- لقد انتهى دور (ماكون).. أنت تعرف هذا لأنك من فعلها.. لقد حطمته كبيضة.. ونحن نريد منك أن تأخذ منصبه!
تدلى فك (رتشارد) في عدم فهم.. بالتأكيد هي كذبة أخرى.. لكن لماذا يكذبون؟ لقد وجدوا الحقيبة.. وهو جريح وحيد.. و (ماكون) مسلح وكذلك (دوناهو).. إن رصاصة فوق أذنه تنهى الأمر دون ضوضاء ولا مضايقة..
الاستنتاج: (كيليان) يتكلم بصدق هذه المرة...
- أنت معتوه!
- لم لا؟ أنت أفضل راكض قابلناه.. وأفضل راكض يعرف طبعا خير الأماكن للاختباء.. إنها فرصتك يا فتى.. فالشبكة هي سوق المواهب الجديدة الطازجة.. ويجب أن تظل كذلك..

- لا يمكن أن يكون (الصياد الرئيسي) رب أسرة.. فمخاطره تعرض ذوية للـ...

قال (كيليان) في رقة متناهية:

- (رتشارد).. لقد ماتت زوجتك وابنتك!

حدث هذا منذ عشرة أيام!

∞∞∞∞∞

13- وما زال العد مستمرا..

كان (كيليان) يتكلم.. ربما هو يفعل هذا منذ زمن طويل.. لكن (رتشارد) لم يكن يسمعه سوى من بعيد.. كأنما هو سجين في بئر يسمع من يناديه من مكان ما..

(كيليان) يؤكد له أن الشبكة لا دخل لها بالأمر.. إن ما حدث هو نتيجة (حادث مؤسف)..

أحس (رتشارد) أنه يصدقه.. فالقصة تبدو كاذبة إلى حد يجعلها في الغالب صادقة.. ثم إن (كيليان) يعرف أن (رتشارد) - لو وافق على العرض - سيقوم في أول مهمة له بالتحقيق في مصرع أسرته.. عندئذ يعرف الحقيقة..

ثلاثة من الغوغاء.. اقتحموا البيت.. وقتلوا الأم وابنتها طعنا.. لا بد أنهم كانوا ثملين.. ولربما أدركوا أنه ما من رجل في البيت..

قال (كيليان):

- لا شيء يمكن أن أقوله.. لقد تلقت زوجتك ستين طعنة..

غطت (إميليا) وجهها وراحت تنشج..

في خواء همس (رتشارد):

- (كاتى)!

قال (كيليان):

- أنا أسف.. وأقسم بأمي أنه لا علاقة لنا بالأمر.. فلا أحد يقبل العمل عند ناس ذبحوا أسرته.. عندما تصير صيادنا الرئيسي يمكنك القبض على هؤلاء الأوغاد ومعاقبتهم.. وآخرين سواهم..

مذ (رتشارد) يده وأغلق جهاز التلفزيون..

وجلس في مقعده.. ويداه تتدليان بين فخذيه..

∞∞∞∞∞∞

مرت ساعة وشريط الأحداث يدور في ذهنه..
(ستاسى).. (برادلي).. (إلتون).. (باراكيس).. قبو الـ Y.M.C.A.. سيارة شرطة تنفجر.. كل هذا هباء..
الآن لا شيء يربطه.. ولا خوف من أي شيء..
الفتاة تبكي بجواره طيلة الوقت.. بالنسبة له الحزن مستحيل.. كل ما يشعر به هو الارتباك والضيق.
بدأ يغفو في مكانه.. والرؤى تتوالى أمام عينيه.
كل شيء واضح ملون..
ودون تردد ضغط على الزر ليفتح التلفزيون..
ظهر له وجه (كيليان) بادى التوتر.. فقال له:
- لقد قبلت عرضك..
لم يبتسم في وجه الرجل سوى عينيه.. وقال:
- أنا مسرور بهذا..

∞∞∞∞∞∞

10- وما زال العد مستمرا..

دخل إلى كابينة القيادة.. وصاح:

- رباه!

لم يكن أحد جالسا على مقاعد الطيارين.. لكن الأضواء كانت تتألق والأزرار تضغط.. كأن شبحا يقود الطائرة..

قال الكابتن وقد لمح دهشته:

- إن (أوتو) الطيار الأوتوماتيكي يقود الطائرة..

- وماذا لو أخطأ؟

- نتولى نحن التصحيح.. لكن الكمبيوتر لا يخطئ.. نحن متوجهون إلى (هاردنج) ولسوف تراها في الأفق خلال ست دقائق..

ثم ابتسم وقال:

- يسرنا انضمامك للفريق.. فقد أتعبتنا كثيرا..

∞∞∞∞∞

عاد إلى الردهة.. ومر جوار (ديناهو) قاصدا المطبخ..

كان هناك إبريق قهوة كهربائي.. فأعد لنفسه بعض القهوة، وجلس على مقعد يرشفها.. وتأمل الإبريق.. إنه زجاجي ثقيل من طراز (سيلكس).. لأنه يعيش أكثر.. هذا ما قالته (شيللا) يوما..

نهض ووضع قدحه جانبا، ثم أمسك الإناء من مقبضه..

وعاد إلى الممر.. فلم ينظر له (ديناهو).. سأله:

- هل تريد قهوة؟

- كلا..

- بل تريد!

وفي اللحظة الثانية هوى الإبريق فوق رأس (ديناهو) بأقصى قوة..

وتأمل (رتشارد) الإبريق الملوث بالدماء.. حقا إنه متين كما قالت (شيلة)..

وعلى الأرض تكوم (ديناهو) جثة هامدة..

∞∞∞∞∞

8- وما زال العد مستمرا..

انفتح الجرح في بطنه من جديد من جراء الجهد العضلي..

لكنه تحامل ومد يده يبحث في جيب الرجل حتى وجد المسدس..

ثم خرج إلى الممر.. فقابل الطيار (فرايدمان) هناك فقال له الأخير:

- هلا أخبرت (ديناهو) أن يرد على الرسالة اللاسلكية التي..

عندها أطلق (رتشارد) الرصاص على رأسه..

هنا ظهر الكابتن على باب مقصورة القيادة، فلما رأي المشهد حاول يائسا أن يغلق الباب في وجه (رتشارد)...

وهذه المرة استقرت الرصاصة في معدة الكابتن.. الذي أصدر أنّة طويلة ثم تراخت قدماه.. وسقط على الأرض.

أما الطيار المساعد فكان في مقعده، يرفع رأسه ووجهه شاحب يقول لـ (رتشارد):

- لا تقتلني.. هه؟

ولم يكن في صدره من الهواء ما يسمح بإكمال العبارة.

عندها جذب (رتشارد) الزناد..

ثم استدار وأفرغ ما في معدته من قهوة.. إن الجهد العصبي جعلها لا تتحمل..

وفي داخل المقصورة كان (أوتو) يواصل مهمة القيادة.

∞∞∞∞∞∞

لقد صار جانبه الأيمن مصبوغا بالأحمر كله هنا دخل (ماكون) الممر.. حاملا مسدسا لا يدري (رتشارد) من أين جاء

به.. وأطلق الرجلان الرصاص في وقت واحد.

ثم إن (ماكون) اختفى.. بين المقاعد الفاصلة بين الدرجة الأولى والثانية..

أما (رتشارد) فجلس شاعرا بإنهاك عظيم..

ثمة ثقب هائل في جدار بطنه

أما المرأة فكانت تصرخ دون انقطاع، وكفاها على خدّيها.. حتى صار وجهها كقناع ساحرة مما يلعب به الأطفال.

جاء (ماكون) يترنح مكشرا عن أنيابه.. لقد مزقت الرصاصة وجهه لكنه كان يكشر.. وأطلق الرصاص مرتين.. مرت الأولى فوق (رتشارد)..

أما الثانية فاخترقت ترقوته

هنا أطلق (رتشارد) الرصاص.. فترنح (ماكون)..

دار حول نفسه.. وسقط السلاح من يده.. وبدا كأنه يتأمل تصميم السقف.. ثم سقط على الأرض ورائحة البارود تملأ الجو.

والفتاة لم تزل تصرخ إنها تتمتع بصحة جيدة حقا.

∞∞∞∞∞∞

6- وما زال العد مستمرا..

نهض ممسكا ببطنه كي لا تسقط أمعاؤه خارجا.. شاعرا أن هناك من يشعل أعواد ثقاب في معدته..

جذب المظلة.. وأشار للفتاة كي تثبتها على كتفيها

لم تسمعه وواصلت الصراخ.. فصفعها.. ثم أرغمها على وضعها إرغاما.. فراحت تنظر له في غباء:

- لكني لا أستطيع القفز.

- ستفعلين.. وإلا أطلقت عليك الرصاص.. إن هذه المظلة تنفتح أوتوماتيكيا على ارتفاع معين..

نهضت من مقعدها.. وأحكمت ربط الحزام بيدين ترتجفان.. فقال:

- والآن سنفتح الباب..

- صار الثقب في بطنه مشعلا كبير الحجم..

كان الباب مغلقا بمزاليج عديدة.. ولم يستطع فتحه.. لذا ناولها السلاح وأمرها بأن تطلق الرصاص على القفل الرئيسي لأنه لم يعد يقدر..

أغمضت عينيها وأدارت رأسها إلى الجانب الآخر وجذبت الزناد مرتين.. لكن الباب ظل مغلقا.. وشعر (رتشارد) بالقنوط..

قالت له:

- ربما..

هنا انفتح الباب فجأة.. وابتلعها الهواء إلى الخارج.

∞∞∞∞∞

5- وما زال العد مستمرا..

تماسك (رتشارد) وتشبث بالمقاعد.. لو كان ارتفاعهم أعلى أو فارق الضغط أكبر، لابتلعه الهواء إلى الخارج معها..

راح يزحف محاولا الوصول إلى الدرجة الثانية، حيث تقل قوة الامتصاص.. داس على جسد (ماكون).. وواصل الترنح..

لقد مزق الرصاص أمعائي! مزق الرصاص أمعائي!

شعر بأنه يريد أن يبكي من أجل أمعائه الرقيقة، التي لم تستحق قط هذه المعاملة الخشنة.. كيف يوجد كل هذا الكم منها داخل البطن؟

لا أحد سواه الآن هو و (أوتو)..

الألوان تنسحب من الكون.. بينما اللون الأحمر القاني ينفذ من جسده.. صور المرئيات تتأرجح.. بالتأكيد هذا هو الموت.. إنني راحل..

صرخ ليعيد العالم إلى وضوحه.

(أوتو) يصدر صوتا رتيا.. يغنى للأطفال كي يناموا.. البقرة في الحظيرة والأبقار في الجرن.. وأنت منهك.. منهك.

نام بعض ثوان فوق جثة الكابتن.. ثم صحا..

كان المذياع يردد:

- يا (س - 148).. أنت منخفض جدا! أرجو الرد.. أرجو الرد..

بدأ يزحف نحو أزرار التحكم في غرفة القيادة..

وراح يتسلق مقعد الكابتن كأنه جبل (إفرست).

∞∞∞∞∞

3- وما زال العدة مستمرا..

ها هو ذا.. بناية عملاقة ترتفع في الظلام وقد أحالها ضوء القمر إلى رخام..

جذب عجلة القيادة نحوه.. فوجد أن الطائرة ترتفع.. ضغطها فأدرك أن الطائرة تنخفض حسن.. والآن إلى الدواسات..

لم يعد يرى تقريبا فعينه اليمني عمياء.. غريب أننا لا نفقد سوى عين واحدة في كل مرة..

الارتفاع يتغير من (1500) إلى (900).. يجب الارتفاع أكثر..

∞∞∞∞∞

2- وما زال العد مستمرا..

طارت الطائرة في الظلام.. وكان يدنو من مبنى الألعاب..

∞∞∞∞∞∞

1- وما زال العد مستمرا..

طارت فوق القناة.. لا تمسكها سوى القدرة الإلهية...

وكان هناك متسكع في الشارع.. رآها وحسب أنه يهلوس.. لا بد أن هذا ملك الموت يأخذه إلى جنة (جنرال أتوميك) حيث الطعام المجاني..

ورمى رجل شرطة هراوته.. وغطى وجهه وصرخ.. الطائرة تتوهج كوطواط فضي.. والبرق يملأ الكون..

نهض (كيليان) من مكتبه.. ووقف أمام النافذة التي تمتد من جدار الآخر.. رأي المدينة تتألق من تحته.

وفجأة رأي المشهد تملؤه طائرة (لوكهيد) القادمة نحوه.. وأضواؤها تضيء وتنطفئ.. وللحظة مجنونة رأي (رتشارد) خلف زجاج الطائرة ينظر له ويضحك.. وهو ملطخ بالدم.. وعيناه تلتمعان بلون أحمر كعيني شيطان..

لم يجد من الوقت ما يكفي إلا ليقول:

- رباه!

∞∞∞∞∞

صفر

اصطدمت الطائرة بمبنى الألعاب مباشرة..

كانت خزاناتها ملأى حتى ربعها بالوقود.. وسرعتها أكثر من خمسمائة ميل في الساعة.. لهذا كان

الانفجار مريعا وأضاء الليل كغضبة السماء وأمطرت السماء نارا على بعد عشرين مربعا سكنيا.

ستيفن كنج

1982

(تمت بحمد الله)

سباق الموت
اركض يا (ريتشارد). اركض.. إن المدينة كلها
تبحث عنك.. والصيادون يشمون رائحتك.. ولو
ظفروا بك لجعلوا منك قطعة من (الهامبرجر)
اركض! إن كل ساعة تبقاها حيا تعني مائة دولار
لأسرتك.. أما لو مت فلن تخسر سوى حياتك
اركض يا (ريتشارد).. اركض!


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

( )طبعا تتحدث بلغة (الفهرنهايت).. اطرح 32 واضرب في 5/9 لتعرفها بالمئوية.

[<-2]

() الحروف الأولى من (رابطة الشباب المسيحي).. وتشبه بيوت الشباب المعروفة..

[←3]

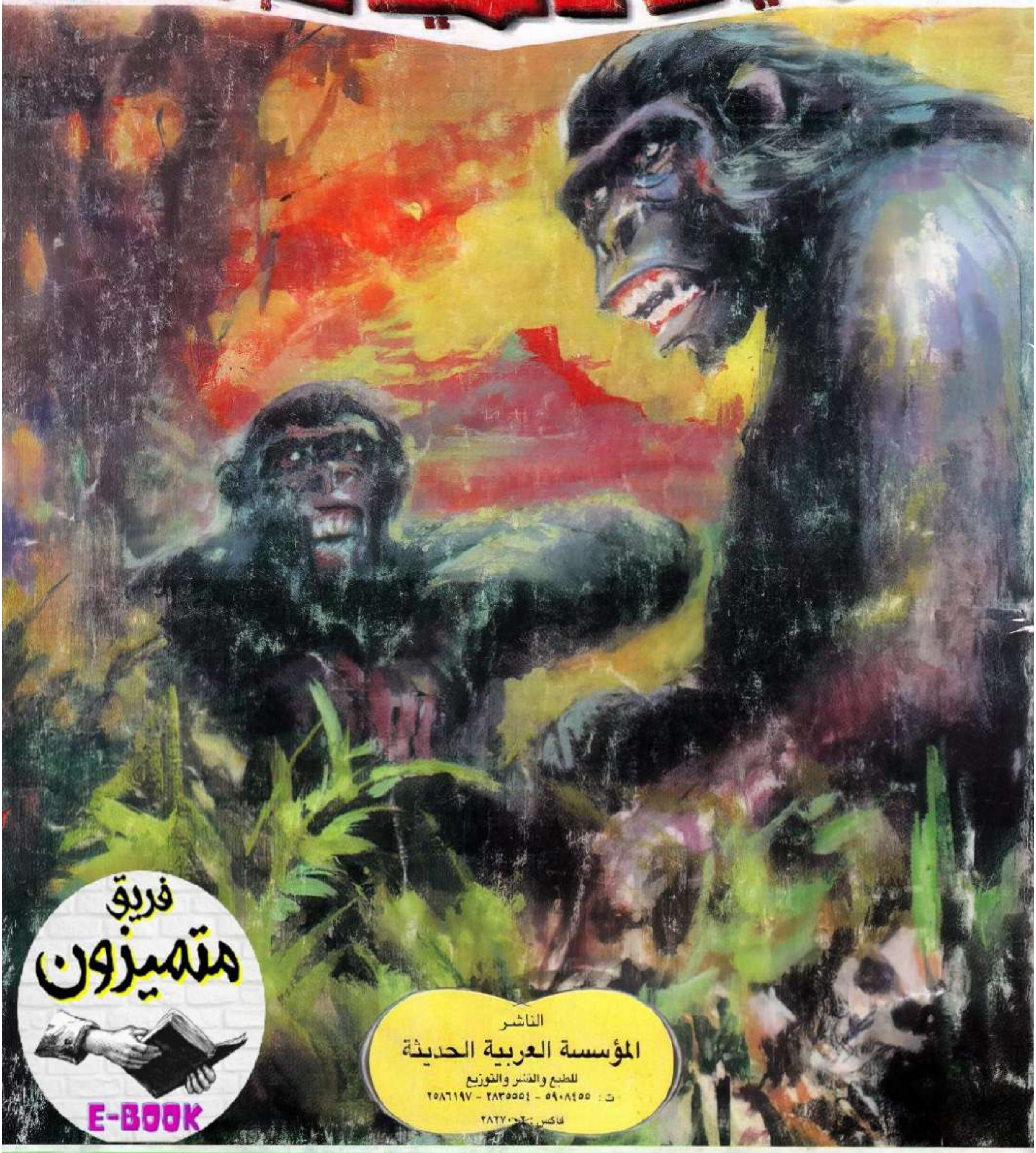
() لاحظ أن الرواية مكتوبة عام 1982.. وكان عام 1995 يقع في نطاق المستقبل وقتها!

[←4]

() قائد الجستابو لدى (هتلر).. وهو رجل مخيف ارتكب فظائع عديدة..

روايات عالمية للجيب

23



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧

كونغو ..!

قصة : مايكل كرشتون
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (23)

كونغـــو

قصة: مايكل كرشتون.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

للمرة الثالثة نلتقي بمؤلف صرنا نعرفه جيدا هو (مايكل كرشتون).. وقد عرفناه من قبل مخرجا متميزا لفيلم (غيبوبة)، ومؤلفا مبدعا لقصص الخيال العلمي كما في (سلالة أندروميدا).

ولمن لم يقرءوا العمل الأخير نقول إن (كرشتون) طبيب ومؤلف ومخرج سينمائي، ولد في (شيكاغو) عام 1942، وتخرج في مدرسة (هارفارد) الطبية، ثم نال درجة الزمالة في معهد (سالك) في (كاليفورنيا)، وحاليا هو يعمل في معهد (أساتشوستسي) للعلوم التقنية..

في مجال الخيال العلمي كتب (كرشتون):

- رجل الأطراف الكهربية.
- سرقة القطار الكبرى.
- أكلة الموتى.
- الكونغو.
- الكرة.
- حديقة العصر الجوارسي.
- سلالة أندروميدا.

وبعيدا عن الخيال العلمي كتب:

- خمسة مرضي.
- حياة كهربية.
- رحلات.
- الفضيحة.
- مسألة احتياج.

ونحن اليوم نقدم له قصة ممتعة حقا، كتبها عام 1980، والقصة تدعى (الكونغو).. وفيها يبتعد نسبيا عن عالم الطب المألوف لديه كي يرتاد مجاهل إفريقيا.. وهو يقدم لنا ذات العالم الذي استكشفه (رايدار هجارد) من قبل، ولكن بلغة الإلكترونيات والعلم الحديث..

ويقول (كرشتون) في مقدمة الرواية:

- إن مساحة إفريقيا لتبلغ اثني عشر مليون ميل.. أي قدر مساحة أمريكا الشمالية وأوروبا معا.. وإن جهلنا بقارة إفريقيا لفادح

تسمى (إفريقيا) بالقارة السوداء لسبب واحد فقط.. هو غابات الأمطار الاستوائية في وسطها وهذه هي منطقة مصب نهر الكونغو، حيث توجد غابة مظلمة رطبة مساحتها نصف مساحة الولايات المتحدة.. وهو مظهر جغرافي لم يتبدل على مدى ستين مليونا من الأعوام..

وحتى اليوم لا يسكن حوض الكونغو سوى نصف مليون نسمة، يعيشون في قرى متناثرة.. أما أكثر الغابة فيحوي آلاف الأميال المربعة التي لم تستكشف بعد، ولم ترها عين غربية حتى اليوم..

ويقارن (كرشتون) بين الحملة التي سنقابلها حالا، وبين حملة (ستانلي) التي استكشفت حوض الكونغو في الأعوام 1874 – 1877.. ويقول إن أساليب الاستكشاف تطورت كثيرا، لكن الغابة ظلت كما هي..

سنقرأ الرواية معًا.. وسنلاحظ من جديد أسلوب (كرشتون) المتميز جدا، المفرط في التوثيق والاستطرادات العلمية.. بحيث يجعل من الرواية مزيجا من الفن والدراسة الأكاديمية..

ولـ (كرشتون) إيقاعه الخاص في قصصه.. فهو يكتب الأحداث على شكل فقرات مزدوجة.. الفقرة الأولى يخصصها للحدث.. والفقرة الثانية يخصصها للتفسير العلمي لهذا الحدث وكالعادة ينهي روايته بحشد من المراجع العلمية التي لجأ إليها، وهو ما لم نقدمه هنا طلبا للتبسيط، ولأن فكرة (رواية ذات مراجع) تبدو غريبة بالنسبة لذوق قارئ العربية.

لكن الرواية ممتعة دون شك.. ولسوف يحبها القارئ بالتأكيد.

د. أحمد خالد

∞∞∞∞∞∞

مقدمة: موضوع العظام..

أقبل الفجر على غابة أمطار (الكونغو).

وأحرقت الشمس الشاحبة برد الصباح، والضباب الرطب، فتكشف عالم ضخم صامت.. أشجار هائلة الحجم تعلو مائتي قدم فوق الرءوس.. حيث تتشابك غصونها لتحجب السماء، ويسّاقط الماء منها إلى الأرض.. بينما نباتات الأوركيد الطفيلية تتعلق بجذوع الأشجار..

المكان كله شاسع أخضر.. يعطي انطباعا بالغربة والعداوة للإنسان.

وضع (جان كروجر) بندقيته.. ومدد عضلاته المتصلبة.. فالفجر يهبط سريعا على خط الاستواء، وسرعان ما صار الضوء في كل مكان..

راح (جان) يرمق المعسكر الذي يحرسه، ويتكون من ثمان خيام صفراء من (النايلون).. وعلى صخرة جلس الحارس الآخر (ميسولو) الذي حيّاه ملوحًا بيده ناعسًا.. وعن كثب كانت أداة الاتصال: صندوق أسود وهوائي على شكل طبق فضي.. وكابلات تتصل بكاميرا الفيديو الواقفة على حامل ثلاثي.. وعن طريق هذه الأداة كان الأمريكيون يرسلون تقارير يومية عبر القمر الصناعي إلى (هوستون)..

كان (كروجر) هو الـ (بوانا موكوبوا) المسئول عن إرشاد هذه الحملة عبر الكونغو.. لقد قاد حملات سابقة: شركات بترول.. مساحي خرائط.. مجموعات جيولوجية مثل هذه.. وكان (كروجر) يجيد عمله ويتكلم السواحلية ولغة البانتو وقليلا من

لغة الباجندي.. وقد زار الكونغو مرارا لكنه لم يزر (فيرونجا) قط..

ولم يستطع قط فهم اهتمام الأمريكيين بزيارة منطقة (فيرونجا) في (زائير) جنوبي غابة أمطار الكونغو.. إن (زائير) هي أغنى أقطار إفريقيا السوداء بالمعادن.. وأغنى بلاد العالم بالكوبالت والماس الصناعي.. وسابع الدول المنتجة للنحاس..

لكن أكثر هذه المعادن موجود في (شابا) و(كازاي) وليس (فيرونجا)..

لكنه استنتج دون سؤال أنهم يبحثون عن الذهب أو الماس؛ حين رآهم يفتشون في مجاري الأنهار وقاع الجداول..

كانوا يبحثون عن الماس.. لكن ليس أي ماس إنهم يبحثون عن النوع المسمى (IIb).. وكانوا يجرون اختبارا كهربيا على كل ماسة يجدونها.. ولم يكن يفهم المصطلحات التي يقولونها على غرار (أيونات الشبكة - المقاومة - الفجوات ثنائية الكهربية)..

لكنه كان يعرف أن هذه الماسات الزرقاء عديمة القيمة كمجوهرات.. إنها زرقاء من كثرة ما بها من شوائب..

كان التنقيب جاريا دون مشاكل، في منحنيات سلسلة (فيرونجا) البركانية، إلى أن جاء اليوم الذي أبي فيه الحمالون التقدم أكثر..

هذا الجزء من (فيرونجا) - كما قالوا – يدعى (كانيا ماجوفا).. ومعناها (موضع العظام).. وأن أي إنسان أحمق بما يكفي كي يتقدم ستتهشم عظامه وبالذات جمجمته..

كان الحمالون من قبائل (آراوانيس) المتحدثة بلغة (البانتو).. وكانوا ككل رجال القبائل يعتنقون كل أنواع الخرافات..

نادي (كروجر) زعيمهم وسأله:

- أية قبائل هناك؟

- لا قبائل..
- لا قبائل؟ ولا حتى أقزام الـ (بامبوتي)؟
- لا إنسان هنا.. هذا هو الـ (كانيا ماجوفا)..
- وما الذي يهشم العظام؟
- (داوا).. - قالها في رهبة مستعملا هذا المصطلح الدال على القوى السحرية - (داوا) قوية هنا.. الرجال يبتعدون..

تنهد (كروجر).. فهو ككل البيض قد سئم سماع لفظة (داوا).. إن الـ (داوا) في كل موضع هنا..

في الصخور والعواصف والمزروعات واضطر إلى قضاء باقي اليوم في مفاوضات مضنية.. ضاعف أجور الحمالين ووعدهم بأسلحة نارية حين يعودون إلى (كيزانجاني).. وكان يعرف عادة الحمالين في زيادة أجورهم متى وصلت الحملة إلى مرحلة تجعلها تعتمد تماما عليهم..

ولم يبال (كروجر) بشيء بعدها، حتى حين وصلت الحملة إلى أماكن تملؤها العظام المهشمة التي وجدها الحمالون مرعبة.. وبفحص العظام أدرك أنها ليست آدمية بل هي لقرود صغيرة.. لكن الكثير منها كان هنا.. إلا أنه قد اعتاد أن يجد أشياء كثيرة لا يمكن تفسيرها في إفريقيا..

كذلك لم يندهش لرؤية الخرائب التي تدل على مدينة قديمة ها هنا.

وفي الليلة الأولى عسكروا جوار الخرائب..

كان الحمالون مذعورين.. يصرون على أن قوي الشر ستهاجمهم ليلا.. واضطر (كروجر) إلى تعيين حارسين: هو وأكثر الحمالين جدارة بالثقة (ميسولو)..

كان هذا قرارا سياسيا..

وكما توقع تماما مر الليل في هدوء.. فقد سمع عند منتصف الليل صوت حركة في الأحراش افترض أنها صوت فهد لأنه صوت أزيز.. وكل هذه القطط الكبيرة تعاني ضيق الشعب في الأحراش..

وجاء الفجر أخيرا..

دوي صوت إشارة إلكترونية، فسمعها الرجلان.. كان ضوء أحمر يتألق على أداة الاتصال.. وكان (كروجر) يعرف كيف يشغلها فقد صمم الأمريكيون على أن يتعلم ذلك.. كوسيلة طوارئ..

انحنى على جهاز الاتصال وضغط على الأزرار، فظهرت كلمات:

TX HX

ومعناها أن الاتصال من (هوستون).. ثم جاءت رسالة تقول (AMLOK).. أي أن (هوستون) تطلب تشغيل كاميرا الفيديو..

ضغط على زر الحامل فتألق ضوء أحمر على الكاميرا.. ومعنى هذا أن الاتصال بدأ عبر القمر الصناعي.. ويمكن البث خلال ست دقائق..

عليه الآن أن يوقظ (دريسكول) رئيس فريق الجيولوجيين.. وكان (كروجر) يشعر بالاستمتاع حين يرى إصرار الأمريكيين على ارتداء قميص نظيف وتمشيط شعرهم قبل الوقوف أمام الكاميرا.. كأنهم مراسلو تلفزيون.

هنا شعر بشيء يلطمه في صدره.. ظن في البدء أنها حشرة.. ثم نظر إلى قميصه الخاكي فرأي بقعة حمراء.. القردة الملاعين على الأشجار تقذفه بالثمار.. انحنى والتقط الشيء الذي لطم

صدره، فأدرك أنه ليس ثمرة فاكهة على الإطلاق.. إنها كرة.. عين آدمية مازال العصب البصري يتصل بمؤخرتها!

لوح ببندقيته.. فلم ير (ميسولو) دانيا..

نهض إلى موضع المعسكر.. القرود صامتة تماما فوق الأشجار بينما هو يتجه عبر الوحل إلى خيام النيام.. هنا سمع صوت الأزيز من جديد..

عندها وجد (ميسولو).. كان راقدا على ظهره والدماء تحيط برأسه وقد تهشمت جمجمته من الجانبين.. صار وجهه ضيقا مستطيلا.. وفمه مفتوحا في تثاؤب مريع.. وقد وثبت إحدى عينيه من محجرها بتأثير الضغط.

شعر بقلبه يتواب وهو ينحني ليفحص الجسد، وتساءل عما يمكن أن يحدث إصابة كهذه..

عندها سمع الأزيز ثانية.. وهذه المرة عرف يقينا أنه ليس صوت فهد..

بدأت القردة تصرخ.

بينما ركع (كروجر) على ركبتيه وأطلق صيحة رعب.

∞∞∞∞∞∞

اليوم 1: هوستون
13 يونيو 1979

ERTS -1

على بعد عشرة آلاف ميل، في غرفة المعلومات الخاصة بـ (هيئة الخدمات التكنولوجية للموارد الطبيعية) واختصارها ERTS، جلست (كارين روس) أمام قدح من القهوة، أمام شاشة الكمبيوتر، تتابع آخر مشاهد من إفريقيا.

كانت (روس) هي مشرفة المشروع الخاص بالكونغو.

دخلت إلى غرفة الاتصالات المربعة، بعدما أولجت بطاقتها الإلكترونية في فتحة الباب.. وسرعان ما انفتح الباب لها.

كانت غرفة الاتصالات أقرب إلى رحم الأم الدافئ الهادئ.. خاصة مع الجو المغلق للغرفة الملأى بالأجهزة الإلكترونية من أرضها إلى السقف.. والإضاءة الحمراء التي تغمر المكان..

كان هذا المكان هو الجهاز العصبي المركزى لهيئة ERTS، وكل المراسلات من كل أرجاء المعمورة تلتقي هاهنا..

حيث يتم تسجيل كل شيء بالصوت والصورة..

قال لها أحد الفنيين:

- سيصلنا الإرسال خلال دقيقة.. هل لك في قهوة؟

- لا..

وظهرت كهربية إستاتيكية على الشاشات، وفي الساعة 6:22 بتوقيت الكونغو ظهر الإرسال علي الشاشة.

الآن يرون معسكر الأمريكيين من وجهة نظر كاميرا (فيديو) على حامل ثلاثي.. رأوا خيمتين ونارا، لكن لا علامة على أي نشاط..

ضحك الفني وقال:

- لقد ضبطناهم متلبسين بالنوم! أظن أنهم يحتاجون إليك هناك..

وكانت (روس) معروفة بحزمها وحرصها على النظام.

قالت للفني:

- قم بعمل مسح استعراضي للمشهد (بان).

استعمل الفني عصا (جوى ستيك) كالتي يستعملونها في ألعاب الفيديو.. فتحركت الكاميرا على بعد آلاف الأميال في الكونغو.. واتجهت الصورة إلى اليسار ليروا المزيد من المعسكر..

كان مدمرا تماما.. الخيام مهشمة وممزقة.. والمعدات مبعثرة في الوحل.. وثمة خيمة تحترق.. وأجساد ميتة كثيرة..

صاح الفني:

- رباه!

- أعد مسح المشهد!

لكن لم تكن هناك أية علامات الحياة على الشاشة.. فقط وجه لأحد الجيولوجيين.. (روجر) بالتحديد..

قالت (روس) بصوت بارد:

- اقترب أكثر بلقطة (زووم)..

دنت الصورة من الوجه، فكان ما رأياه هو رأس محطم، وفم مفتوح، ودم يخرج من العينين والأنف..

- ما الذي فعل ذلك؟

هنا ظهر ظل يعبر الشاشة.. فوثبت (روس) تمسك بال (جوي ستيك) ليتراجع الكادر إلى الوراء، واتسعت الصورة ليريا حدود الشيء..

كان رجلا.. وكان يتحرك.. وهتف أحد الفنيين:

- هذا شخص حي! لكنه يعرج.. لابد أنه جريـح!

نظرت (روس) إلى الظل فلم يبد لها كرجل يعرج.. ثمة شيء خطأ.. لكنها لا تستطيع معرفة ما هو..

هنا سمعوا صوتا غريبا كالهسيس.. عندها صار الوجه واضحا جدا وفي مجال البؤرة، ورأوا جسما مهزوزا أسود ثم اختفى..

- هل هو من الوطنيين؟

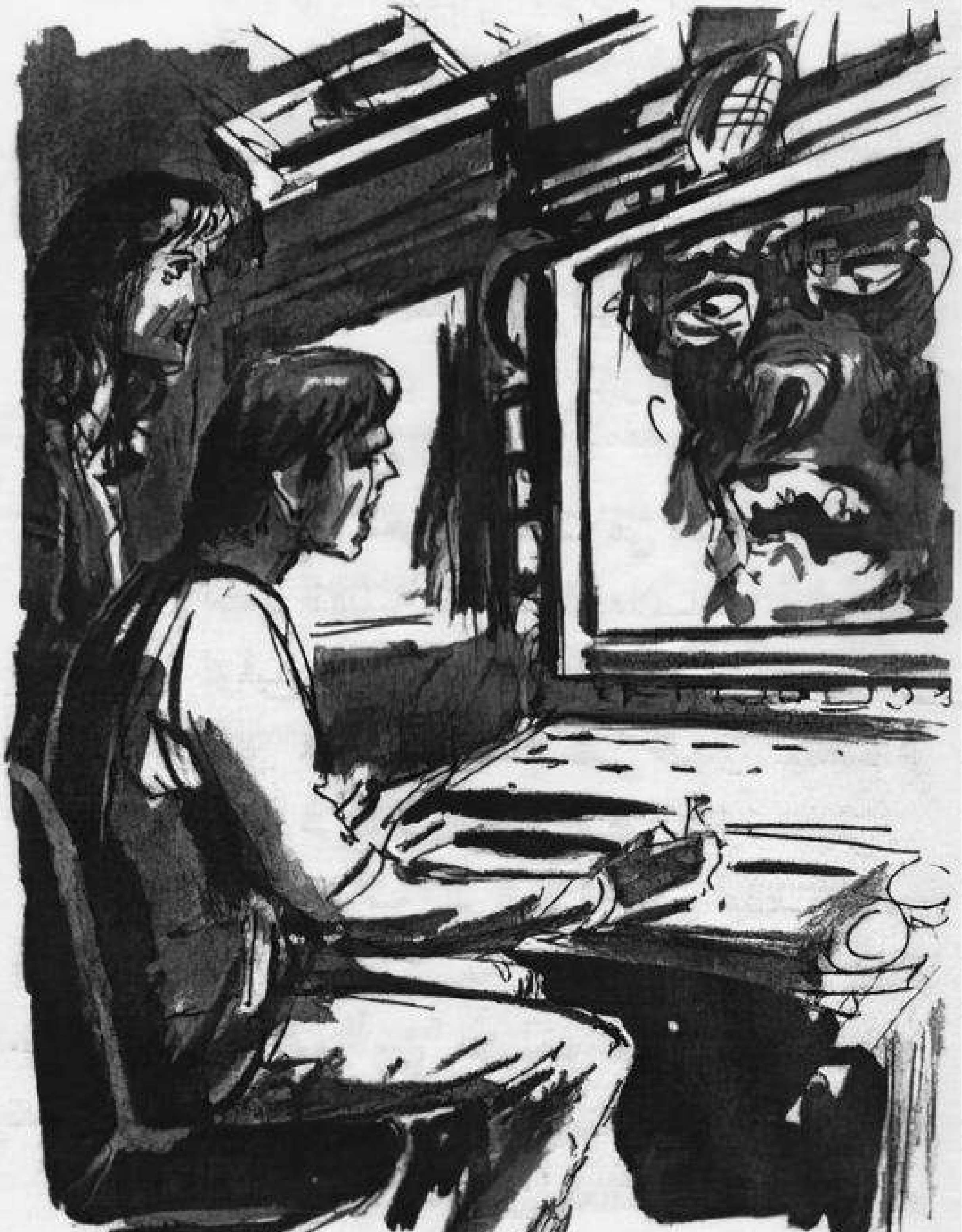
- هذه المنطقة غير مأهولة..

واصلت الكاميرا استعراض المنظر.. وفجأة تأرجحت الصورة ومالت إلى جانب.. لقد قلب الشيء الكاميرا لتسقط أرضا..

ظهرت الشقوق على الصورة، ثم ملأتها الكهرباء الاستاتيكية.. وصار من العسير أن ترى أي شيء..

ورأوا وجها ضخما يملأ الشاشة.. ثم تحولت الصورة إلى نقطة مضيئة قبل أن تتلاشى تماما..

☆ ☆ ☆



ورأوا وجهًا ضخمًا يملأ الشاشة ...

٢- تداخلات في الاتصال

في صيف ١٩٧٩ كانت الـ ERTS لها فرق في كل مكان؛ تدرس رواسب اليورانيوم في بوليفيا، والنحاس في باكستان، والتربة الزراعية في كشمير، وموارد الأخشاب في ماليزيا..

ولأن معظم هذه الحملات كانت في مناطق خطرة، فقد كان واجب الهيئة ملاحظة العلامات الأولى لما يسمى بـ (توقيع التداخل) [1].. وفي لغة الاستشعار عن بعد يطلق هذا المصطلح على ظهور جسم أو ظاهرة جيولوجية في صورة فوتوغرافية للمرة الأولى..

وبالنسبة لـ (ر. ب. ترافيس) الذي أيقظوه من فراشه في الساعات الأولى من صباح 13 يونيو؛ كانت صور الفيديو القادمة من الكونغو هي أسوأ (توقيع تداخل) ممكن.. لكن أحدا لم يفهم مصدره..

كل ما كانوا يعرفونه هو أن المعسكر قد تم تدميره خلال ست دقائق، ولم يطلب (ترافيس) أية معلومات سوي معرفة (ماذا حدث بحق الجحيم هناك؟)..

كان في الثامنة والأربعين من العمر، وهو مهندس أقمار صناعية سابق مشهور بروحه المرحة.. وكانت فلسفته في الإدارة تتلخص في عبارة يضعها على مكتبه تقول (ل. م. أ. ي. خ. ل. د) وهي اختصار لـ (لابد من أن يحدث خطأ لعين دائما!)

لكنه لم يحتفظ بمرحه في تلك الليلة بعدما فقد ثمانية من رجاله، ومن كانوا معهم من حمالين.. إنها أسوأ كارثة في تاريخ ERTS..

عليه الآن أن يتحمل إجراء واستقبال مئات المكالمات الهاتفية.. سيكون هناك أبناء كثيرون وزوجات كثيرات يسألون في أمل عن ذويهم. وسينتقي إجابات حذرة مضللة..

شعر بالإرهاق حين فكر في كل الكذب القادم.. فهو لن يخبر أحدا بما حدث قبل أسبوعين..

وجاءه (موريس) مسئول التأمين في الشركة ليسأله:

ماذا نفعل بصدد التأمين؟

فقد كانت الهيئة تؤمن على حياة أفرادها في الحملات.. وتؤمن على كل واحد من الحمالين بمبلغ خمسة عشر ألفا من الجنيهات الإسترلينية..

- استمر في دفع الأقساط لمدة شهر..

- لكننا نعرف أنهم ماتوا!

قالها (موريس) محتجا شاعرا بالحسرة لضياع كل هذا المال.. فقال (ترافيس):

- لابد من إبقاء الأمر سرا..

ثم أصدر تعليماته باستدعاء فريق من الفنيين لدراسة شرائط الفيديو التي تم تصويرها.. فهي الدليل الوحيد على ما حدث في الكونغو..

☆ ☆ ☆

3- الاسترجاع

كانت ERTS تسمى عملية استرجاع المعلومات باسم (الانتشال).. وهو لفظ يوحي باستخراج الكنوز من أعماق البحار.. فكلا العمليتين بطيء يحتاج إلى دقة بالغة.. وأي خطأ يؤدي إلى ضياع كل شيء..

كانت (روس) ضمن الفريق المسئول عن استرجاع المعلومات البصرية، وهي عملية معقدة جدا ولا يمكن أن تتم إلا لدى ال ERTS..

وكان لدى الشركة حوالي ٨٣٧ برنامجا لتحسين الصور المرسلة عبر القمر الصناعي، جربت (روس) أربعة عشر برنامجا منها على صور الكونغو.. خاصة على اللقطة التي ظهر فيها وجه الكائن قبل أن تتهشم الكاميرا..

بدأت بالتخلص من الكهربية الإستاتيكية وطلبت من الكمبيوتر أن يحذفها.. هنا ظهرت فجوات سوداء في الصورة، قام الكمبيوتر بملئها حسب ما يوجد حولها.. أي أن الجهاز قام بعملية تخمين منطقي المحتوي هذه الفجوات.

ثم إن (روس) قامت بتقوية درجات اللون الرمادي..

وبعد ساعة ظهرت الصورة واضحة متألقة وحبست (روس) أنفاسها..

إنه وجه ضخم له حاجبان ثقيلان وأنف أفطس..

إنه وجه ذكر غوريلا..

☆ ☆ ☆

دخل (ترافيس) ليقول لها:

- لقد فرغنا من انتشال الشريط السمعي - إن صوت الهسيس هو صوت تنفس آدمي غريب حقا.. صوت يأتي من الشهيق لا الزفير..

قالت وهي تشير للشاشة:

- الكمبيوتر مخطئ.. هذا صوت غوريلا..

- هذه الصورة خطأ..

- لا.. ليست خطأ..

- حسن.. إن الفريق سيجتمع في مكتبي حالا..

ثم نظر إلى صورة الغوريلا على الشاشة.. وقال:

- لا أصدق هذه الصورة.. فالغوريلات لا تتصرف هكذا.. مشكلتنا الآن هي مدى السرعة التي نرسل بها فريقا آخر إلى الكونغو..

☆ ☆ ☆

4- حملة العودة

واجتمع (ترافيس) برؤساء الأقسام في الشركة..
كلهم جاءوا وهم يفركون عيونهم ويتثاءبون.. فقال لهم:
- أبغى أن نعود إلى الكونغو خلال 96 ساعة..!
ثم استرخي في مقعده ليسمح لهم بأن يفسروا له سبب استحالة هذا.. وكانت لديهم أسباب عديدة:
- لا نستطيع إعداد الحمولة قبل 160 ساعة..
قال (ترافيس):
- سنؤجل حملة (الهيملايا) ونأخذ معداتها..
قال مسئول النقل:
- لكننا لن نجد طائرة.
- توجد نفاثة خاصة بالخطوط الجوية الكورية.. وستكون جاهزة خلال تسع ساعات..
قال مسئول الدبلوماسية:
- لن نستطيع الحصول على (فيزا) من سفارة (زائير) بهذه السرعة..
ثم أردف:
- وأشك في أنهم سيوافقون.. إنهم متحمسون للحملة المنافسة التي نظمها الألمان واليابانيون.. فهناك ثلاثمائة موظف ياباني في (كينشاسا) الآن ينفقون (الين) كأنه الماء..
- هذا صحيح.. لكنهم لا يعرفون أن حملتنا في خطر..
ثم أضاف
- سنلجأ إلى صناديق الخمر للتفاهم مع القبائل.. ونحتاج إلى رجل بارع.. ربما يصلح (مونرو)..

- (مونرو)؟ هذا صعب.. إن حكومة (زائير) تمقت (مونرو)..
- إنه واسع الحيلة ويعرف المنطقة.
ولم تأت الحادية عشرة مساء حتى تم ترتيب الحملة بكل تفاصيلها، ووافق عليها الكمبيوتر.. من المفترض أن تصل الطائرة إلى إفريقيا يوم 15 يونيو، ليتم البحث عن (مونرو).. ثم تتحرك لتصل إلى الكونغو يوم 17 يونيو.

☆ ☆ ☆

قالت (روس) لـ (ترافيس):
- يجب أن أقود هذه الحملة..!
رفع نحوها عينين مندهشتين.. وقال:
- لا أرى سببا يضطرني لهذا.
- أنا أسرع من يتعاملون مع قواعد البيانات هنا.. وأنت بحاجة إلى من يتعامل مع قواعد البيانات ببراعة وإلا انتهت هذه الحملة كما انتهت سابقتها..
نظر إليها.. وأدركت من تردده أنه بدأ يلين..
وحين تركت المكان جلس يفكر في الموقف.. إن (روس) باردة جدا وسوف تكون قائدة سيئة للحملة.. وستشعر الآخرين بالتعاسة
لكنه كان يؤمن بأن خير من يقوم بالعمل - أي عمل - هو الشخص الذي سيجني كثيرا بالنجاح.. أو سيخسر كثيرا بالفشل.
داعب أزرار الكمبيوتر طالبا ملف الصورة النفسية. لـ (كارين روس).. وبعد ثوان ظهرت على الشاشة حصيلة ثلاثة أيام من الاختبارات النفسية، كانت تجرى على كل موظفي الهيئة:
- ذكية جدا / منطقية / واسعة الحيلة / لها أهداف محددة.

إنها خير صفات لقائد فريق الكونغو.. أما السلبيات فكانت أقل دعوة إلى الاطمئنان:

- قاسية / متسلطة / عديمة التعاطف / ترغب في النجاح بأي ثمن / طموحها يؤدى لاستجابات خطرة غير منطقية.

☆ ☆ ☆

وفي ذلك الوقت بدأت (كارين روس) تمارس مهام منصبها الجديد.

على شاشة الكمبيوتر طلبت قائمة بأسماء خبراء الحيوانات الذين تمولهم ERTS.. وتحت عنوان (حيوانات أولية) وجدت أربعة عشر اسما، منهم واحد فقط في الولايات المتحدة، يدرس الغوريلا ويدعى (بيتر إليوت) من جامعة (كاليفورنيا)..

على الشاشة ظهر أن (إليوت) في التاسعة عشرة من عمره، أعزب، أستاذ زائر لقسم الحيوان، مهتم بلغة الغوريلا ومسئول عما يدعى (مشروع آمي)..

اتصلت برقم هاتفه.. كان مترددا في البدء خشية أن تكون صحفية.. لكنها أخبرته أنها من ERTS التى تدعم بحوثه.. وسألته عما إذا كان راغبا في السفر معهم إلى (فيرونجا)..

ولدهشتها صاح في حماس:

- بالتأكيد! أريد الذهاب مع (آمي)..

- من هي (آمي)؟

- (آمي).. الغوريلا!

☆ ☆ ☆

اليوم 2: سان فرانسسكو
1979 14

1- مشروع (آمي).

لعلنا نكون ظالمين لو اعتقدنا أن (بيتر إليوت) كان يريد الهرب في هذا الوقت.. لكن المؤكد هو أنه كان يتعرض لحملات عنيفة من الصحافة ومن زملائه في الجامعة، واتهامات بأنه مجرم نازي يعذب الحيوانات الخرساء.. والسبب هو مشروع (آمي)..

كانت فكرة تعليم اللغة للحيوانات قديمة جدا تعود إلى عام 1961، حين رأى (صمويل ببز) حيوان الشمبانزي في حديقة حيوان (لندن).. فقال: إنه يبدو كالإنسان.. وأعتقد أنه يفهم كثيرا من الإنجليزية.

ومرت ثلاثمائة سنة بعدها؛ حاول الإنسان فيها أن يعلم القرود الكلام دون جدوى.

جاء زوجان هما (كيث) و(كاتي هايز) ليحاولا في الخمسينات من هذا القرن تربية شمبانزي صغير وعلماه نطق بعض الكلمات مثل (بابا) و(ماما).. لكن تقدمه كان بطيئا جدا ونطقه عسير الفهم..

وفي عام 1966 حاول الزوجان (جاردنر) إعادة تقييم تجربة آل (هانز).. وشاهدا بعض الأفلام القديمة فأدركا أن الشمبانزي لم يكن عاجزا عن استعمال اللغة، بل هو عاجز عن الكلام فحسب.. فقد كانت إيماءات الشمبانزي طلقة ومنسابة، بينما كان لسانه ثقيلا عاجزا..

وبدأ الزوجان تعليم لغة الإشارة الأمريكية الخاصة بالصم لشمبانزي رضيع.. وسرعان ما اكتسب هذا مائة وستين إشارة..

بل صار يجمع الإشارات ليدل على كلمات لم يتعلمها قط.. فحين رأي بطيخة لأول مرة؛ أشار إلى أنها (فاكهة - الماء).

واستمرت التجارب على الأوليات.. إلى أن أجرى (إليوت) أول تجربة على غوريلا جبلية صغيرة هي (آمي)..

كانت في المستشفى رضيعة مصابة بزحار أميبي.. وقد حياها (إليوت) في حنان قائلا:

- مرحبا يا (آمي).. أنا (بيتر)..

عندها عضت يده حتى سال منها الدم..

لكن هذه المقابلة كانت فاتحة خير لبرنامج بحثي موفق..

وكان عمل (بيتر) مع (آمي) دقيقا جدا.. متواضعا بعيدا عن الشهرة، وسرعان ما فاز الفتي باحترام المحافل العلمية، ونال منحة دراسية قدرها مائة وستون ألفا في العام لمشروع (آمي).

لم يكن (إليوت) يهتم بشيء في الكون سوى (آمي).. وجعله هذا محدثا مملا لكنه عالم مرموق..

بدأت مشاكل (إليوت) في فبراير 1979.. كانت (آمي) تقضي الليل وحدها في معسكر في (بيركلي).. إلا أنه في الصباح وجدها متعكرة المزاج تماما كأن هناك من أساء إليها..

وحين سألها عما حدث؛ راحت تشير بما معناه (صندوق - النوم).. وهي كلمة لم يفهمها.. منذ أيام قليلة حيرته حين تحدثت عن (لبن - التمساح).. وبعد جهد فهموا أن اللبن الذي تشربه قد فسد.. وبما أنها كانت تمقت التماسيح التي تراها في الصور فإنها اعتبرت اللبن الفاسد (لبن - تمساح)..

بعد معاناة كبيرة فهموا أن (صندوق - النوم) معناه الأحلام.. لأنها تذكرها بـ (صندوق - الصور) وهو التلفزيون..

سألها (إليوت) عما رأته في (صندوق - النوم) من صور.. فأشارت بيدها إلى أنها (صور سيئة – صور قديمة) و (تجعل

آمي تبكي)..
إن حقيقة أن (آمي) هي أول غوريلا تتحدث عن الأحلام، أحدثت دهشة عارمة لدى (إليوت)..
وفي الأيام التالية ظلت تحلم لكنها لم تحك أحلامها.. وإن تدهور مزاجها أكثر وقل معدل اكتسابها للكلمات.. وصارت تثور يوميا.. إن (آمي) حيوان قوي، وقد بدأ فريق العمل يقلق بصدد قدرتهم على السيطرة عليها..
راحوا يعرضون عليها صورا من المجلات علها تتعرف إحداها.. وراقبوها وهي وحيدة علها تكشف عن شيء.. ف (آمي) كانت - ككل الأطفال – تكلم نفسها.. وفي النهاية وجدوا ما يثير الاهتمام..
كانت (آمي) تهوى الرسم بأقلام الشمع.. وقد مزجوا لها الفلفل بالشمع كي يمنعوها من التهام الألوان.. ومع الرسم تعلمت الاسترخاء..
وقد لاحظ أحد الإخصائيين النفسيين أنها ترسم دوما أهلة مقلوبة، بجوار خطوط خضراء.. ووجدوا أنها تسمى الأهلة باسم (بيوت سيئة) (بيوت قديمة)..
من الواضح أنها ترسم مباني قديمة من الغابة.. رؤى تعذبها، لذا تحاول الخلاص منها على الورق..
في النهاية قال الأخصائي إن كوابيسها يمكن تفسيرها بأربعة احتمالات:
١- الأحلام محاولة لتفسير الأحداث اليومية.
٢ - الأحلام هي من أعراض المراهقة: إن (آمي) تعتبر غوريلا مراهقة في سن سبع سنوات.
٣ - الأحلام هي ظاهرة خاصة بالغوريلا: ربما كانت كل الغوريلات تحلم بكوابيس لكنها لا تعبر عنها.

4 - الأحلام هي أول علامة على العته: وهذا أخطر الاحتمالات..

وهو السبب في فشل برامج كثيرة بعد سنوات من الجهد، بسبب انهيار الحيوان نفسيا أو جسديا.. كثيرا ما ينتحر الشمبانزي بابتلاع فضلاته في ذروة نجاح برامج التعليم.. وكذا إنسان الغابة (أورانج أوتان)..

يبدو أن القرود ورثت ذكاء الإنسان، لكنها - كذلك - ورثت اضطرابه النفسي.. وقابليته للجنون..

☆ ☆ ☆

2- الاختراق

في 3 يونيو من نفس العام، بدأت (هيئة المحافظة على الرئيسيات) - وهي هيئة مهمتها منع تعذيب القرود بالبحوث المعملية - ترسل إلى قسم الحيوان في (بيركلي) تطالب بإطلاق سراح (آمي)..

وانتشرت ملصقات طبع عليها (حرروا آمي).. ولكن المشروع (آمي) تجاهل هذه الضجة السخيفة..

وفي 5 يونيو بدأت الهيئة تنشر آراء بعض علماء الرئيسيات، الذين قال بعضهم: «إن عمل (إليوت) خيالي وغير أخلاقي..»، وقال آخر: «مشروع فاشي في طبيعته..».. وأحدث هذا أذى لا يمكن وصفه..

وانتشرت إشاعات تقول إن أبحاث (آمي) أصابتها بالكوابيس.. وزعموا أن (آمي) تتعرض للتعذيب والصدمات الكهربية..

إلا أن فريق (آمي) نجح - في أثناء هذه الضوضاء - في اختراق أحلامها إلى حد غير مسبوق..

كانت (سارة جونسون) تعرض بعض الصور الأثرية من (الكونغو) على (آمي) علها تتعرفها من طفولتها.. وكان تاريخ الكونغو معقدا جدا لكن أول من وصفه هم التجار العرب والبرتغاليون.. و (سارة) لم تكن تفهم العربية ولا البرتغالية لكنها رأت صورة قالت عنها فيما بعد: لقد جعلتني أرتجف رعبا..

كان رسما برتغاليا اصفر حبره، يظهر مدينة خربة تحيط بها أشجار الغابة.. ولمبانيها أبواب ونوافذ على شكل أهلة مقلوبة كالتي رسمتها (آمي)! إنها لحظة نادرة فعلا..

لجئوا إلى مترجم عربية ومترجم برتغالية ليشرحا لهم كل شيء.. إلا أن (إليوت) أحس أن (آمي) تحمل هذه الذكرى من طفولتها حين كان عمرها سبعة أشهر..

وفي 11 يونيو قرر الفريق أن يأخذ (آمي) إلى الكونغو.. لكن هناك مشكلة التكاليف الباهظة للرحلة..

ومشاكل نقل غوريلا عبر الكرة الأرضية، بما فيها من تعقيدات إدارية وإجراءات بيروقراطية رهيبة..

وفي 13 يونيو اتصلت (كارين روس) بـ (إليوت) تطلب منه السفر إلى الكونغو!

☆ ☆ ☆

3- مسائل قانونية

كان على (إليوت) إنهاء مشاكله القانونية ليخرج (آمي) من البلاد..

ففي المائة سنة الأخيرة كانت هناك حملة منظمة ضد إجراء التجارب على الحيوانات.. يحركها جنون محبي الحيوانات.

لكن حجة العلماء الجاهزة أمام المحاكم هي أن أبحاثهم تحسن صحة ورفاهية الإنسان.. والإنسان أكثر أهمية من الحيوان..

بالإضافة لذلك فالحيوانات لا تدرك ذاتها ولا تفهم حقيقة وجودها في الطبيعة.. وبعبارة أدق يقول الفيلسوف (جورج ميد):

- إن الحيوانات ليست لها حقوق.. إن لنا الحرية في إنهاء حياتها.. فهي لن تخسر أي شيء بفقدها..

وقد صدم هذا الرأي أناسا كثيرين.. وراحوا يتساءلون عن مشاعر القطط والكلاب عند إجراء التجارب عليها.. لكن فريقا آخر تساءل: أليس قاسيا أيضا أن تلقي بسرطان البحر حيا في ماء مغلي؟!

لكن الدراسات بالنسبة للقرود والدرافيل أوضحت أنها حيوانات ذكية.. بل وتدرك ذواتها.. وهكذا ظهرت حقوق مدنية لهذه الحيوانات.. فالمشكلة أن (الشمبانزي) الذي يتعلم مفهوم اللغة لا يعود (شمبانزي) ثانية.. وثمة قصة عن (شمبانزي) يدعى (آرثر) كان يشير إلى أفراد جنسه باعتبارهم (أشياء سوداء)، وكان يصنف صورته الخاصة مع صور البشر.. لهذا صار من العسير معاملته كحيوان..

قال المحامي لـ (إليوت) إذ استشاره، إنه إذا أراد إخراج (آمي) من البلاد فعليه أن يفعل ذلك دون إبطاء، ودون أن يشعر أحد بشيء، قبل أن تصدر المحكمة حكما باحتجازها.

☆ ☆ ☆

عرف (إليوت) من سكرتيرته أن رجل أعمال يابانيا يدعى (هاكاميشي) قد اتصل به ثلاث مرات، وقد عرض شراء (آمي) بمائتين وخمسين ألف دولار.

أصيب (إليوت) بالدهشة.. هو لن يبيع (آمي) أبدا.. لكن المبلغ كبير حقا.. فلماذا يرغب أحد في إنفاق ربع مليون دولار لشراء غوريلا؟

لا شك أن الرجل يريد (آمي) من أجل رسومها.. لكن لماذا تساوي هذه الرسوم ربع مليون دولار؟ لا أحد يعرف..

وجاءت (سارة جونسون) لتقول إن لديها أنباء سيئة عن الكونغو..

قالت إنه - لفترة طويلة - لم يكن أحد يعرف شيئا عن هذا البلد.. فقط كان الفراعنة يعرفون أن النيل ينبع من الجنوب، من منطقة أسموها (أرض الأشجار).. وكانت مكانا غامضا تملؤه الأشجار وكائنات غريبة.. رجال لهم ذيول وحيوانات نصفها أبيض ونصفها أسود.

ولمدة أربعة آلاف سنة ظل قلب إفريقيا غامضا، حتى جاء العرب إلى شرق إفريقيا في القرن السابع الميلادي بحثا عن الذهب والعاج والتوابل.. لكنهم لم يرتادوا البر لأنهم كانوا بحارة بطبعهم.. وأطلقوا على الأرض الداخلية اسم (زنج) أو (أرض السود)..

لكنهم حكوا عن غابات مظلمة، وجبال تخرج منها النار، وقرى تحكمها القردة، وعمالقة لهم أجساد مشعرة.. وأسواق يتم فيها بيع لحم الجثث..

أبقت هذه القصص العرب بعيدا عن قلب إفريقيا.. أما أكثر القصص إثارة فهي ما يتحدث عن مدينة الزنج المفقودة.. تقول الأسطورة إن تاريخ المدينة يعود إلى النبي (سليمان) - عليه السلام - والعبرانيون يعرفونها جيدا، وهي ملأى بالماس لكن الوصول إليها سر تتوارثه أجيال بعينها [2]

وفي عام 1187 جاء رجل عربي يدعى (ابن بطوطة) ليحكي عن مدينة مفقودة اسمها (مدينة الزنج) يتكلم عنها الأهالي..

وفي عام 1292 جاء رجل إيراني يدعى (محمد زايد)، قال إنه رأى في (زنزبار) ماسة عملاقة جاءت من مدينة الزنج، وإن مباني المدينة لها نوافذ وأبواب تشبه الأهلة..

ثم جاء البرتغاليون ليواصلوا الكشوف وسط مناخ معاد، مليء بالملاريا ومرض النوم.. لكنهم لم يصلوا إلى هذه المدينة.

ورسم رسام برتغالي يدعى (خوان دييجو دي فاليديز) صورة للمدينة حسب ما سمعه عنها من كلام البحارة والوطنيين..

وفي منتصف القرن التاسع عشر.. تم استكشاف إفريقيا بدقة بوساطة (بيرتون) و(بيكر) و(سبيك) و(ليفنجستون).. فلم يجد أحدهم أثرا لهذه المدينة المفقودة.

هنا ساد الاكتئاب جو الجلسة..

قال (إليوت) لـ (سارة) بعد ما فرغت من كلامها:

- إذن هذه الصورة البرتغالية وهمية..

- نعم.. إنها مجرد قصص يتبادلها بحارة ثملون..

4- الحل

بدأ (إليوت) يشعر بأن خطته لأخذ (آمي) إلى الكونغو، طفولية ساذجة إلى حد كبير. إن تشابه خطوط رسومها مع رسوم من عام 1642 خطها رسام برتغالي لهو مجرد مصادفة.

من المؤكد أن مدينة الزنج خرافة عتيقة.. كانت معقولة في القرن السابع عشر.. لكنها في القرن العشرين - قرن الكمبيوتر - تبدو وهما أسطوريا..

قال في أسي:

- إذن.. فالمدينة لا وجود لها..

- بلي هي موجودة.. لا شك في هذا!

نظر ليرى صاحبة العبارة.. فرأي فتاة في العشرين من عمرها، كان يمكن اعتبارها جميلة لولا الطابع البارد المسيطر عليها.. وكانت ترتدي بذلة كاملة وتحمل حقيبة أوراق وضعتها على المكتب..

وقالت:

- أنا د. (روس).. وأريد رأيكم بخصوص هذه الصور..

تأمل (إليوت) مجموعة من الصور بالأبيض والأسود، عليها خطوط مسح عرضية، وفيها تظهر بوضوح مدينة وسط الأدغال.. لها أبواب ونوافذ تشبه الأهلة!

لقد كان الدليل لا يدحض..

☆ ☆ ☆

5- آمي

سألها وهو يشعر بالتوتر في صوته:

- أهي بالقمر الصناعي؟

- نعم.. جاءتنا من إفريقيا منذ يومين..

- وحملتك سترحل خلال ساعات؟

قالت وهي ترمق ساعتها الرقمية:

- نعم.. بعد ست ساعات وثلاث وعشرين دقيقة..

وفي الساعات التالية جلسا يتكلمان.. ولم يدر أنها تستغله في نفس الوقت الذي حسب فيه أنه يستغلها.

لم تكن صادقة معه، فقد تعمدت إغفال بعض المعلومات من كلامها.. وهو فن تجيده تماما.. وتعرف كيف لا تقول إلا ما تريد قوله فحسب..

بدا لها (إليوت) خجولا جدا، وكما قيل عنه إنه كرس حياته للقرود لأنه لا يملك الشجاعة كي يتحدث إلى الناس.. لكن هذا كان يخفي طبيعة (إليوت) العنيدة الطموح.

أما هي فقد كان غرضها نفعا واضحا.. فهي بحاجة إلى خبير غوريلات.. وبحاجة إلى غطاء يخفي أغراض الحملة.. وبحاجة إلى ألا يستطيع المنافسون (الألمان - اليابانيون) أخذ (آمي) معهم في رحلتهم..

كانت (روس) تريد الماس.. ومن أجله هي مستعدة لتقول أي شيء وتفعل أي شيء وتضحي بأي شيء لهذا الغرض.. لكنها لم تصارح الفتى بذلك..

وفي 14 يونيو ركبت إلى جواره في سيارته (الفيات)، متجهين للقاء (آمي) في معسكرها.

فتح (إليوت) الباب الذي كتب عليه (ممنوع الدخول.. أبحاث حيوانات تجرى بالداخل).. ودلفا ليلقيا (آمي)..

قال له (روس):

- يجب أن تتذكري أنها غوريلا وليست إنسانا.. لها (الإتيكيت) الخاص بها.. لا تتحدثي بصوت عال إلى أن تعتاد وجودك.. وإذا ابتسمت لا تظهري أسنانك لأن الأسنان المكشوفة تعتبر تهديدا للغوريلا.. أبقى عينيك لأسفل لأن نظرات الغرباء المباشرة تعتبر معادية بالنسبة لها.. لا تقفي بقربي أو تلمسيني لأنها غيور جدا.. لا تكذبي أبدا لأنها تشعر بذلك وسيجعلها هذا تفقد ثقتها بك..

- أي شيء آخر؟

- لا

وابتسم لها مطمئنا..

فتح الباب.. فرأت (روس) جسدا أسود ضخما يبرز ليثب بين ذراعي (إليوت) فتراجع هذا للوراء بفعل الصدمة.. وأذهل حجم الغوريلا (روس).. فقد كانت تتخيل شيئا أصغر وألطف.. لكن (آمي) كانت بحجم أنثى بشرية بالغة..



فتح الباب .. فرأت (روس) جسدًا أسود ضخمًا يبرز ليثب بين ذراعى (إليوت) ..

لثمته (آمي) على خده بشفتيها العملاقتين فسألها وهو يفك ذراعيها:

- هل (آمي) سعيدة اليوم؟

فحركت أناملها بسرعة مذهلة تحدثه بالإشارة..

ولاحظت (روس) أن (آمي) تحتضنه بعينيها حتى لا يفوتها شيء منه..

- هذه هي د. (روس) يا (آمي).

قالت (كارين روس) وهي تنظر للأرض شاعرة بالحماقة:

- مرحبا يا (آمي)

نظرت لها الغوريلا بشك.. ثم تراجعت وهي لا تكف عن الإشارة.. ومن جديد دنت منها لتتشممها وتتفحصها وتتأمل حقيبتها الجلدية باهتمام.. وفيما بعد قالت (روس): كنت أشعر بأنني في حفل كوكتيل.. وأن امرأة أخرى تتفحص ثيابي.. حتى شعرت أنها ستسألني في أية لحظة عن المكان الذي ابتعت حذائي منه.

كان (إليوت) يرمق المقابلة في قلق.. فعملية تقديم بشر إلى (آمي) عملية خطرة خاصة إذا كانوا من النساء.. إن (آمي) أنثى حقيقية تستجيب للتملق وتهتم بمظهرها وتعشق (المكياج).. وكانت تفضل صحبة الرجال وتغار بشدة على (إليوت)..

لهذا كانت أحيانا تهاجم النساء دون إنذار.. ولم تكن هجمة (آمي) ذكرى ممتعة أبدا.

راحت (آمي) تشير بيدها:

- (آمي لا تحب النساء... آمي لا تحب... ابتعدي ابتعدي)..

- هلم يا (آمي)! (آمي) غوريلا طيبة..

لكن الأمر يكون أسوأ مع قرود الشمبانزي التي تهاجم بشراسة، وتقذف الغرباء ببرازها.. ربما على سبيل تأكيد السيطرة.. ومن الغريب أن الغوريلا أكثر تسامحا في طقوس التعارف هذه.

جلست (آمي) على الأرض وراحت تمزق أوراق الرسم، مرددة (تلك المرأة، تلك المرأة).. وهو (تفاعل إزاحة) شهير لدى القرود.. فحين تكره القرود إنسانا فإنها تمارس طقوسا رمزية معه.. وبعبارة أوضح كانت (آمي) تمزق (كارين روس) الآن إلى أشلاء!

ثم بدأت تمر بما يسميه علماء الرئيسيات بـ (التتابع).. وهو سلسلة من التصرفات تقوم بها الغوريلا قبل الهجوم: تمزيق الورق أو العشب - الحركات الجانبية التي تشبه حركة سرطان البحار - أصوات الأنين - ضرب الأرض بقبضتها – الهجوم..

قال (إليوت) لـ (آمي) ليوقف تفاعل التتابع:

- إن (روس) هي امرأة - زر..

بالنسبة لـ (آمي) فإن لفظة (زر) تعنى مقاما عاليا.. ففي صغرها كانت قد هاجمت رجل شرطة وعضته.. لأن ثيابه بأزرارها اللامعة بدت سخيفة جدا بالنسبة لـ (آمي)، وقد افترضت أن من يرتدي هذه الثياب المضحكة هو في وضع منحط يسمح لها بمهاجمته.. عندها كان على (إليوت) أن يعلمها مفهوم الزر.. كل من يرتدى الزر هو رجل عالي المكانة..

لذا - دون كلمة أخرى - مشت لركن الغرفة ووقفت ووجهها للحائط.. إنها تعاقب نفسها لأنها أخطأت..

دون كلمة اتجهت (روس) إلى (آمي) فجلست جوارها، فتحت حقيبتها الجلدية وناولتها لـ (آمي)..

راحت الغوريلا تعبث في محتويات الحقيبة ثم راحت تردد بأصابعها (أحمر شفاه أحمر شفاه آمي تحب أحمر شفاه).. وأخرجت إصبعا لأحمر الشفاه ورسمت به دائرة على وجه (كارين).. ثم هرعت إلى المرآة وراحت تلطخ وجهها بالأحمر..

وأدرك (إليوت) أن اللقاء مر على خير..

☆ ☆ ☆

6- الرحيل

وقفت البوينج 747 تهدر، وقد انفتح بطنها كفكين فاغرين..
كانت قد أقلعت من (هوستون) إلى (سان فرانسسكو)، والآن الساعة التاسعة مساء، بينما العمال المندهشون يحملون صناديق الفيتامينات وقفصا من الفولاذ و (قصرية) أطفال وعلبا ملأى باللعب..
وقف (إليوت) مع (آمي) التي سدت أذنيها بسبب صوت المحركات العالي، وأشارت إلى (بيتر) بما معناه (طيور صاخبة).. كانت تحب رحلات السيارة مع (بيتر) لكنها لم تَخْبُر الطيران بعد وكان هو قلقا بصدد رد فعلها..
كانت (روس) تروح هنا وهناك تجري مكالمات عاجلة.. فسألها (إليوت):
- علام الاستعجال؟
- إنها مقتضيات (البيزنس).. منذ أربعة أعوام لم تكن هناك شركة مثل شركة ERTS.. الآن توجد تسع منها.. وكلها تنافسنا.. ولهذا صار عملنا يقتضي السرعة.. لقد كان بوسع شركة بترول في الستينات أن تدرس مشروعا عدة أعوام.. أما الآن فقرارات الـ (بيزنس) يجب اتخاذها خلال أيام.. ومن المتوقع في عام 1990 أن يتم اتخاذ القرار في اثنتي عشرة ساعة..
وعلى متن الطائرة كان هناك (ينسن) وهو جيولوجي شاب ملتح..
و(إرفنج ليفين) وهو خبير إلكترونيات.. وقد جلسا أمام الكمبيوتر.. لكنهما توقفا كي يصافحا (آمي) التي بدت مهتمة جدا

بالأزرار.. وراحت تشير: (آمي تلعب صندوق).. لكن (إليوت) منعها في لطف..

جاءت (كارين روس) بطريقتها العملية لتسأله:

- أين تنام (آمي)؟

- إنها - ككل الغوريلات - تصنع فراشا طازجا كل ليلة.. أعطيها بعض الملاءات وسوف تقوم بتكويمها صانعة فراشا لكي تنام عليه..

والفيتامينات؟ هل ستبلع الأقراص؟

- يجب إغراؤها أو إخفاء الأقراص في إصبع موز.. فالغوريلا لا تقشر الموز قبل أكله ولا تمضغه أبدا.. ومن المهم أن تنال ثلاثة آلاف وحدة من فيتامين (ج) يوما..

كان (إليوت) متحمسا جدا لأن هذه الرحلة قد تتيح تحقيق حلم قديم لدى علماء سلوك الحيوانات هو (فرض بيرل)..

كان (فردريك بيرل) قد أعلن في 1972 أن الرئيسيات قد تعلمت لغة الإشارة.. ومن الممكن أن تأخذ أحدها للغابة كمترجم يساعدنا على التفاهم مع أفراد فصيلته.. أي أنه سيعمل سفيرا لجنسية لدى الإنسان..

لم يحاول أحد القيام بهذه التجربة من قبل سوي (إليوت)..

المشكلة هي أن القرود (المثقفة) كانت تظهر تعاليا واضحا تجاه القرود الجهلة من أبناء جنسها.. لكن (آمي) ستكون بداية التجربة الحقيقية..

وفي الساعة الحادية عشرة مساء انطلقت الطائرة..

واتجهت شرقا عبر الظلام نحو إفريقيا..

☆ ☆ ☆

اليوم 3: طنجة
15 يونيو١٩٧٩

1- الحقيقة الأرضية

كان (إليوت) مع (آمي) منذ كانت رضيعة.. وكان يعرف استجاباتها جيدا.. إلا أنه كان مندهشا لسلوكها؛ فقد توقع أن تهتاج لدى الإقلاع.. وأعد محقنا مليئا بالـ (ثورالين) المهدئ..

لكنها ظلت هادئة جدا.. وراحت تتأمل ما يقوم به (ينسن) و(ليفين)، حتى إنها ربطت حزام مقعدها مثلهما.. أصابها بعض الذعر حين سمعت هدير المحركات، لكنها لم تر أحدا مذعورا حولها، لذا استرخت في مقعدها وقلدت لا مبالاتهم الملول.. بل إنها تثاءبت عدة مرات..

لكنها حين نظرت خارج النافذة بعد الإقلاع فكت حزامها.. وراحت تركض في الممر مكررة إشاراتها مرارا: (أرض أين أرض أين)..

حقنها (إليوت) بالـ (ثورالين) وراح يربت على شعرها.. إن الرئيسيات تكرس أكثر ساعات اليوم لتمشيط شعر بعضها والتهام القمل والقراض.. ويبدو أن للتمشيط أثرا مهدئا على القرود كأثر التربيت عند البشر..

بعد قليل صحت (آمي) من النوم.. نظرت حولها فرأت الجميع يشربون.. طلبت لنفسها كأسا من (مشروب به نقطة خضراء) وهي تعني بهذا كأسنا من المارتيني به زيتونة وسيجارا..

إلا أنها تقيأت بعد قليل.. وراحت تعتذر (آمي آسفة.. أمي فوضى)..

قال لها (إليوت) وهو يربت على ظهرها:

- لا تقلقي..

أشارت بأناملها: (أمي تنام الآن).. وكومت الأغطية على الأرض، وغرقت في النوم وهي تغط من فتحتي أنفها الكبيرتين..

جلس (إليوت) جوار (روس)، فراحت تحدثه عن سبب الرحلة، وعن مدينة الزنج المفقودة، وعن محاولات السابقين للعثور عليها..

- أعتقد أن حملات سابقة كثيرة وجدت المدينة.. لكن أحدا لم يعد كي يحكي لنا عما رآه..

قالت شارحة نظريتها في البحث:

- افترضت أولا أن المدينة موجودة.. فأين هي؟

إن المدينة بها مناجم ماس.. والماس مرتبط بالبراكين.. لهذا بدأت تنظر إلى الوادي المتصدع العظيم في إفريقيا، الذي يغطي الثلث الشرقي لقارة إفريقيا لمسافة 1500 ميل..

كان الوادي المتصدع أكبر مما يجب، حتى إن أحدا لم يتبين وجوده إلا في عام 1890.. ويعتبره الجيولوجيون محاولة فاشلة لتكوين محيط، حيث إن الشرخ لم يكتمل، ولسبب ما لم يتم الانفصال للجزء الشرقي عن القارة..

ويميز هذا الوادي عدد مهم من البحيرات والبراكين الوحيدة النشطة في إفريقيا وكلها في (فيرونجا).. إن عددها ثلاثة هي (موكنكو) و (موبوتي) و (كاناجاراوي).. لذا تبدو (فيرونجا) مكانا مثاليا للبحث عن الماس.

بعد هذا كان على (روس) العثور على (الحقيقة الأرضية)..

- وما هي (الحقيقة الأرضية)؟

قالت له:

- نحن في ERTS نتعامل مع صور الأقمار الصناعية والمسح الراداري.. لكن لا شيء يعدل (الحقيقة الأرضية).. وهي خبرة فريق يعمل على أرض الموقع.. وقد وجد رجالنا الماس هناك كما

توقعنا لكنهم لم يجدوا مدينة الزنج.. هذا ممكن في الأدغال حيث تتعذر الرؤية على بعد أمتار بسبب تشابك الغصون.. لذا كان عليّ أن أجد المدينة بنفسي وعرضت له على شاشة الفيديو ذلك الفيلم الذي يصور ما حدث للحملة السابقة في (فيرونجا).. كما عرضت له وجه الغوريلا الذي استطاعت تصحيحه بوساطة الكمبيوتر.. لكنه أصر على:

- نعم هي تبدو كغوريلا.. لكن الغوريلا لا تهاجم الناس.. إنها حيوانات نباتية مسالمة..

وراح يرمق رأس الغوريلا.. كان هناك خطأ ما لم يستطع تبين ما هو..

سلوك غير معتاد وشيء آخر لا يدري كنهه..

أوقف الكادر وتأمل الصورة، عندها أدرك أن الوجه والفراء لهما لون رمادي.. فسأل (روس):

- هل يمكننا زيادة التباين؟ هذه الصورة باهتة..

داست بعض الأزرار وهي تقول:

- لا أعتقد.. إن درجات الرمادي سليمة تماما..

- إنها رمادية.. والغوريلات لونها داكن أكثر من هذا..

وهنا خطر له أنهما ينظران إلى صورة جنس جديد يشبه الغوريلا.. لكن لونه فاتح وسلوكه عدواني..

☆ ☆ ☆

2- داخل التابوت

في ركن من الطائرة 747 كانت هناك مقصورة من ألياف الزجاج، بها شاشة، ويطلقون عليها اسم التابوت لما تثيره من مشاعر رهبة الأماكن المغلقة لمن يدخلها..

وبينما الطائرة تعبر الأطلنطى و(إليوت) و (آمي) نائمان يغطان؛ و(ليفين) و(ينسن) يلعبان المعركة البحرية على شاشة الكمبيوتر؛ دخلت (روس) إلى التابوت..

كانت مرهقة لكنها لا تتوقع نوما كثيرا خلال الأسبوعين التاليين.. فعليها أن تصل إلى الماس أو تفقد كل شيء.. لقد بدأ السباق وليست لديها النية كي تخسره..

ضغطت على الأزرار حتى تفتح الاتصال مع (هوستون).. وانتظرت حتى بدأ تشفير الاتصال لتجنب المتنصتين، ومعنى هذا فترة تأخير قدرها خمس ثوان بين الإرسال والاستقبال..

وعلى الشاشة ظهرت كلمة (ترافيس)..

ثم ظهرت كلمات (ترافيس) على شاشة الكمبيوتر:

- إن منحرفي الأعين يتقدمون سريعا..

وكانت تعرف لغته.. فهو يسمى اليابانيين باسم (منحرفي الأعين).. ودائما يقول: في الثمانينات اليابانيون.. في التسعينات الصينيون.. كلهم منحرفو الأعين.. وكلهم لا يأخذون إجازة يوم الأحد ولا يبالون بنتائج كرة القدم.. علينا أن نلحق بهم..

سألته (روس):

- التفاصيل؟

- إنهم يعلمون أنك في الطريق.. والكونغو قد ذهب إلى الجحيم في الساعات العشر الماضية.. إن لدينا تقريرا (جيو -

سياسي) سيئا جدا..

- اطبع..

وعلى الشاشة ظهر التقرير المذكور يقول:

- الحدود الزائيرية عبر (رواندا) مغلقة بلا تفسير/ ربما الجيش الزائيرى يطارد قوات (عيدى أمين) / قبائل (الكيجاني) المحلية ثائرة وتمارس أكل لحوم البشر والعنف / لا يمكن الاعتماد على أقزام الغابة فهم يقتلون الغرباء / حكومة (زائير) كلفت الجنرال (موجورو) بالقضاء على ثورة (الكجاني) بأي ثمن/ دخول (زائير) فقط ممكن من الغرب عبر (كينشاسا)/ أنتم بحاجة ماسة إلى خدمات كابتن (مونرو)/ الموقف خطر/ أنتم بحاجة إلى (مونرو) لتظلوا أحياء.

نظرت (روس) إلى الشاشة.. إنها أسوأ أنباء ممكنة.



نظرت (روس) إلى الشاشة . . إنها أسوء أنباء ممكنة . .

ثم سألها (ترافيس):

- ماذا عن المسافرين معك؟

- هم بخير.. لا يرتابون في شيء..

- إذن حاولى إبقاء الأمر كذلك..

☆ ☆ ☆

٣- مونرو

بدأ (ترافيس) يمارس مهمة إطعام الخصوم بالمعلومات الزائفة.. إن الفريق (الألماني - الياباني) لا يعرف إحداثيات مدينة الزنج، لهذا بدأ في إرسال إحداثيات خاطئة بوساطة اللاسلكي.. وقد قام بتشفير بياناته بشفرة يمكن للمنافسين أن يفكوها خلال اثنتي عشرة ساعة.. فلم يكن ينبغي أن يبدو الأمر سهلا بالنسبة لهم..

☆ ☆ ☆

لن تجد اسم الكابتن (تشارلز مونرو) في أية قائمة تضم قادة الحملات الاستكشافية.. وهناك أسباب لذلك أهمها سمعته السيئة..

لقد تربي (مونرو) في شمال (كينيا) ابنا لفلاح سكوتلندي وزوجته الهندية.. وقد قتل أبو (مونرو) عام 1956 في أثناء إحدى غارات قبائل (ماو ماو).. واتجه (مونرو) إلى (نيروبي) حيث عمل دليلا الحملات الصيد، وأنعم على نفسه بلقب (كابتن) برغم أنه لم يكن في الجيش قط..

وفي عام 1960 بدأ يهرب الأسلحة من (أوغندا) إلى الكونغو المستقلة.. وفي عام 1964 ظهر كواحد من المرتزقة البيض لدى جنرال (موبوتو) تحت قيادة الكولونيل (مايك المجنون)، حيث عرفه الجميع كـ (رجل خطر يعرف الغابة، وشديد الكفاءة مادام بعيدا عن النساء)..

وفي عام 1968 ظهر في (طنجة) حيث عاش حياة مترفة.. وكان مصدر ثرائه غير معروف.. يقال إنه أمد الثوار الشيوعيين

بالسلاح عام 1971.. وساعد الإثيوبيين الملكيين في ثورة 1974..

وأدت نشاطاته الكثيرة إلى جعل (مونرو) شخصا غير مرغوب فيه (برسونا نان جراتا) لدى دستة من الدول الإفريقية.. وكان يسافر كما يريد مستعملا جوازات سفر مختلفة، وكل موظفي الجمارك كانوا يعرفون وجهه.. لكنهم لا يجرءون على منعه من دخول البلاد..

وقد قاد إحدى حملات ERTS عام 1977 إلى (أنجولا) في أثناء الحرب الأهلية بها.. وقد شهد الجميع له بأنه أفضل رجل للظروف الخطرة..

ولهذا توقفت طائرة ERTS في (طنجة)..

☆ ☆ ☆

دوي صوت الأذان فوق البيوت وقت الغسق يدعو المؤمنين إلى الصلاة..

بينما (كارين روس) تجلس في شرفة دار (مونرو) تنتظر لقاءها مع الرجل.. في حين جلس (إليوت) مرهقا من الرحلة الطويلة..

بدأت تشعر بالقلق وقد طال الانتظار..

ومن داخل البيت تسمع أصواتا يحملها النسيم تتحدث العربية.. ودخلت الشرفة إحدى الخادمات وانحنت وهي تناولها جهاز الهاتف قائلة:

- مكالمة لـ د.(روس) من (هوستون)!

جلس (إليوت) يرمق ما حوله في دهشة.. لقد كان يتوقع مكانا عسكريا خشنا.. لكنه دهش حين رأي بيتا مغربيا جميلا به نافورات تتألق شمس الغرب في مائها..

عندئذ رأي الألمان واليابانيين في الغرفة المجاورة، ينظرون له ول (روس) بنظرات غير ودود.. لقد جاءوا من أجل (مونرو)!

هنا نهضت (روس).. ورآها (إليوت) تتجه إلى شاب أشقر فتعانقه.. وكأنهما حبيبان قديمان.

وبدا الاستياء على اليابانيين حين رأوا المشهد.. فانتظر (إليوت) حتى عادت وسألها:

- من كان هذا؟

- هذا (ريختر).. أفضل عالم (طوبوجرافيا) في غرب أوروبا.. إنه عبقري ربما مثلى تماما!

- لكنه ألماني.. أي يعمل ضدنا..

- إن (كارل) لا يملك خيالا.. ولا يستطيع ابتكار شيء جديد.. إنه أسير للحقائق مربوط بالواقع.. هوذا (مونرو)..

ورأى (إليوت) (مونرو) يدخل الغرفة المجاورة.. كان رجلا ضخما ذا شارب كث يرتدي (الخاكي) ويدخن السيجار.. وله عينان مدققتان لا يفوتهما شيء..

تكلم مع الألمان واليابانيين فلم تبد عليهم السعادة، ثم عاد إلى الغرفة وقال ل (روس) بصوت قوي:

- إذن أنت ذاهبة إلى الكونغو يا د. (روس)؟

- نعم..

- يبدو أن الكل ذاهب إلى هناك..

- خمسون ألف دولار ونسبة 0.8 % من المصدر في العام..

- مائة ألف..

ثم إنه عاد إلى الغرفة المجاورة ليسمع عرض الألمان - اليابانيين.. وكان الهاتف مازال مع (روس) والخط مفتوح على (هوستون).. فهمست في السماعة:

- وغدا! إنهم يريدونه بشدة!

قال (إليوت):

- يبدو أنك تعتمدين عليه جدا..

- لأنه الأفضل..

واستمرت المفاوضات في الغرفة المجاورة.. ولاحظت (روس) أن الألمان محتقنون غاضبون.. ثم إن (مونرو) عاد إليهما وقال:

- ليست (فيرونجا) حديقة غناء في هذه الأيام..

إن (الكيجاني) ثائرون والأقزام غير ودودين.. ومن السهل أن تجدي سهما في ظهرك ينهى عذابك.. والبراكين تهدد بالثورة.. ماء فاسد.. ذبابة (تسي تسي).. ليس بالمكان الذي تذهبين إليه دون سبب قوي..

قالت (كارين روس):

- يبدو أننا لن نتفق..

ودون كلمة أخرى عاد (مونرو) إلى الغرفة التي بها الألمان واليابانيون.. وبدأت المفاوضات من جديد..

قالت (روس) لـ (إليوت) الذي لم يفهم شيئا:

- إن الأمور تتحسن.. فهو يعتقد أننا نعرف عن الموقع أكثر من الآخرين.. وبالتالي سنجد ما نبحث عنه سريعا وندفع له نسبة مناسبة..

وفي الغرفة الأخرى وقف المنافسون، ليصطحبهم (مونرو) إلى الباب فيصافح الألمان وينحني لليابانيين..

قالت (روس) في قلق:

- كلا.. مستحيل أن يستسلموا بهذه السهولة!

عاد (مونرو) إليهما.. وقال لهما إن العشاء معد..

☆ ☆ ☆

جلسوا يأكلون العشاء المكون من (طواجن) وفطيرة الحمام..
وسألت (روس) (مونرو):
- هل حقا تخلصت من اليابانيين؟
- كلا.. أنا إنسان مهذب.. قلت لهم إنني سأفكر في الأمر..
ثم سألها من جديد عن ضالتها التي تريدها في الكونغو.. فقالت:
- ماس صناعي..
- آه! ماس صناعي.. إنني أستمتع بالحديث الصريح! ولكن العالم مليء بالماس الصناعي.. يمكنك أن تجديه في الهند وروسيا والبرازيل.. بل في الولايات المتحدة في (أركنساس).. لماذا الكونغو بالذات؟
- نحن نبحث عن نوع IIb من الماس الأزرق المغطى بالبورون.. وله خواص شبه موصلة مهمة لصناعة الإلكترونيات..
داعب شاربه وغمغم:
- ماس أزرق.. معقول.. لكن ألا تستطيعون تخليقه في المعمل؟
- نعم.. لقد جربنا ذلك.. وحاول اليابانيون كثيرا لكنهم تخلوا عن الفكرة لأنها غير ذات نفع..
وفي إصرار وبصوت مسطح كررت:
- أريد الذهاب إلى هناك حالا..
وقف (مونرو) عند النافذة.. وقال:
- لا شيء مثل (البيزنس) يثير اهتمام مس (روس).. إنه ليدهشني أن..
وعندما انطلقت أول دفعة من الطلقات، ألقى بنفسه أرضا، وصرخت إحدى الخادمات.. وهشمت الطلقات الأواني الخزفية

والزجاج الذي كان على (الطبلية).. واستمر التصويب ثلاثين ثانية ثم ساد الصمت..

نهض الموجودون وتبادلوا النظرات..

قال (مونرو) باسما:

- إنهم يلعبون جيدا هذا هو طراز الناس الملائم لى..

نهضت (روس) تنفض الغبار عن ثيابها.. ونظرت لـ (مونرو) وقالت:

- 5.6 % ولن تكون هناك استقطاعات.

- 5.7 % وسأكون لك..

- ليكن..

صافحهما وأعلن أنه سيكون مستعدا خلال دقائق للسفر إلى (نيروبي).. ارتفعت سرينات عربات الشرطة قادمة إلى مكان الطلقات، فقال لهما:

- هلما.. سنرحل عبر الباب الخلفي..

وخلال ساعة كانوا يطيرون نحو (نيروبي).

☆ ☆ ☆

اليوم 4: نيروبي
16 يونيو 1979

1- الخط الزمني

كانت المسافة من (طنجة) إلى (نيروبي) أطول من المسافة عبر الأطلنطي من (نيويورك) إلى (لندن)..

وتستغرق ثماني ساعات في الجو..

وكانت (روس) أمام شاشة الكمبيوتر تدرس الخطوط الزمنية، وبها يحاول الكمبيوتر إيجاد أسرع طريقة للوصول إلى (فيرونجا).. وكان أفضل ما وصل إليه هو خمسة أيام واثنتان وعشرون ساعة..

- هذا أفضل.. لكنه ليس بما يكفي.. حسب هذا سيصل المنافسون إلى (فيرونجا) في الثامنة صباح 21 يونيو.. أي أنهم يسبقوننا بأربع ساعات بعد خمسة أيام من الآن..

بدا الذهول على (إليوت).. فقد بدا له هذا سخيفا.. وقال:

- لكن - بالطبع - لن تعتمدوا على هذه الأرقام بعد دخول الكونغو..

- لم يعد الأمر كالحملات القديمة التي كانت تختفي شهورا.. إن الكمبيوتر لا يخطئ أكثر من نصف ساعة في أربعة أيام..

☆ ☆ ☆

في عام 1971، تنبأت شركة (إنتك) أن أشباه الموصلات الماسية ستكون مهمة لأجهزة الكمبيوتر في المستقبل..

وكان أول جيل من الحاسبات الآلية (أدفاك) و(إنياك) - اللذين تم بناؤهما سنة 1940 في وقت الحرب - يعمل بالأنابيب المفرغة.. ومتوسط عمل الأنبوبة هو عشرون ساعة.. وكانت بعض أجهزة الكمبيوتر تنطفئ كل سبع دقائق..

ولم يستعمل الجيل الثاني من الحاسبات الأنابيب المفرغة.. لأن (الترانزستور) تم اختراعه عام 1947 - وهو شريحة بحجم الظفر تؤدي كل وظائف الأنبوبة المفرغة - وبهذا تكون جيل من الإلكترونيات، تحتاج إلى كهرباء أقل وتصدر حرارة أقل وتعمل بكفاءة أكثر.. ولمدة عشرين عاما خدمت تكنولوجيا (السيليكون) أجيالا من الكمبيوتر..

لكن مصممي الحاسبات واجهوا في السبعينات مشكلة تقنية (السيليكون) الدائمة، فسرعة الكمبيوتر تعتمد تماما على قصر الدائرة.. وكلما قصرت الدائرة كلما ازدادت الحرارة الخارجة منها.. الحرارة التي قد تذيب الدائرة حرفيا..

وفي عام 1977 أعلنت شركة IBM أنها صممت جهاز كمبيوتر فائق السرعة بحجم ثمرة الـ (جريب فروت)، مجمدا في النتروجين السائل.. وكان هذا هو بداية عصر الماس المخلّق في صناعة الكمبيوتر.

لكن العلماء تنبئوا بأن نقص عناصر التوصيل في الثمانينات، سيضر بنقل المعلومات.. بنفس القدر الذي أضر به نقص البترول بوسائل الانتقال في السبعينات.. لقد حرمنا من (الحركة) والآن سنحرم من (المعلومات)..

وتنبأ العلماء بأن الماس شبه الموصل والليزر سيكونان هما الأمل الوحيد لنا في المستقبل.. وهذا يعني أن الماس سيكون أثمن من البترول في الحقبة القادمة..

وفي قلب الأسواق المتنافسة، تزايد القلق بصدد القوى الأجنبية.. وخاصة اليابان التي راحت تمارس التجسس الصناعي على نطاق واسع.

لذا صار السباق محموما من أجل الماس الأزرق، لأن من سيجده سيسبق الآخرين في مجال التكنولوجيا خمس سنوات

كاملة.. وخمس سنوات تكنولوجية تعني عشرة بلايين من الدولارات.

ولم تنس (روس) قط ما قاله لها (ترافيس):

- لا تخافي من أن تجعلك الضغوط تجنين.. فهناك بلايين الدولارات فوق كاهلك.. ابذلى خير ما لديك من جهد..

ولهذا بذلت خير جهد لديها.. واستطاعت اختصار الخط الزمني للحملة ثلاث ساعات وسبعا وثلاثين دقيقة.

لكنهم ظلوا متأخرين.. وهذا معناه كارثة في سباق (الفائز - يأخذ - كل - شيء) هذا..

☆ ☆ ☆

٢- نيروبي

على بعد خمسة أميال خارج (نيروبي) يمكنك أن تري (سافانا) شرق إفريقيا الوحشية، وبها الغزلان والزراف والثيران البرية.. وفهد يتسلل - من حين لآخر - إلى مضجع أحدهم..

لقد تغيرت المدينة كثيرا عن أيام المستعمرات، حين كانت مكانا يفيض بالحياة، حيث الرجال يشربون ويزدادون خشونة، والنساء يزددن حسنا..

أما (نيروبي) الحديثة فهي مدينة عصرية بها ناطحات سحاب، ومشاكل مرور، وسوبر ماركت ومغاسل وهواء ملوث.

هبطت طائرة ERTS عند الفجر في مطار (نيروبي).. وكان المفترض أن يرحلوا من (نيروبي) خلال ساعتين..

اتصل (ترافيس) بهم من (هوستون) يخبرهم أن (بيترسون) في (نيروبي) الآن.. و(بيترسون) هو واحد من أفراد الحملة الأخيرة..

تحمست (روس) وسألته:

- وأين هو الآن؟

- في مشرحة المدينة..

☆ ☆ ☆

نظر (إليوت) إلى المنضدة المصنوعة من صلب لا يصدأ، والتي رقد عليها رجل أشقر من سنه.. له ذراعان مهشمتان وجلد منتفخ ولون قرمزي.. وهنا دخل أخصائي الباثولوجي.. وسأل (روس):

- هل يمكنك تعرف هذا الشخص؟

قالت في برود دون أن تحول عينيها وكأنها تفحص عينة جيولوجية:

- نعم.. إنه (جيمس بيترسون)..

وحكي لهم الأخصائي أن المتوفي قد جاء إلى (نيروبي) أمس في طائرة شحن صغيرة، مصابا بصدمة نهائية.. ومات بعد ساعات.. كانت الطائرة قد هبطت في أحد الحقول بسبب مشكلة ميكانيكية..

عندها ظهر هذا الرجل خارجا من الأحراش وسقط جوار الطائرة..

سألته (روس):

- ما الذي يحدث إصابة كهذه

- لم أر شيئا كهذا.. تبدو لي كحادث سيارة أو شاحنة.. لكنها قلما تحدث في كلا الذراعين.. وقد وجدنا خيوط شعر رمادي وبقعة دم تحت أظفاره.. ونحن نجري اختبارا الآن..

ثم قال:

- إن الشعر ليس آدميا.. بل هو شعر حيوان..

هنا بدأ جهاز التحليل يصدر صوت أزيز.

وعلى شاشته رأوا خطوطا ملونة على جانبي الصورة.

- هذا الذي على اليمين دم بشرى.. وعلى اليسار عينة الدم التي وجدناها تحت أظفاره.. وواضح أنها ليست آدمية..

- غير آدمية؟

- ربما هي لخنزير أو لحيوان يشبه القرد..

وعلى الشاشة ظهر تقرير الكمبيوتر:

- الجلوبيولين ألفا وبيتا يتطابقان: تم غوريلا..

☆ ☆ ☆

٣- الفحص

قال (إليوت) للموظف المذعور وهما يقفان في قمرة المسافرين:

- لا تخف.. لن تؤذيك.. انظر.. إنها تبتسم..

كانت (آمي) تحاول أن تظهر أفضل ابتسامة لديها، وحاولت ألا تظهر أسنانها.. لكنه لم يهدأ بالا.. وارتجف المحقن في يده..

كانت هذه آخر فرصة لـ (آمي) كي يتم فحصها طبيا.. فجسدها الضخم القوي يحمل هشاشة داخلية، وكان على الفريق في (سان فرانسسكو) أن يفحصها مرارا.. عينات بول يومية.. عينات براز أسبوعية صورة دم شهرية.. طبيب أسنان كل ثلاثة أشهر لإزالة (التارتار) الأسود الناجم عن أكل الخضر..

كان الموظف خائفا.. وتقدم منها بالمحقن كأنه يشهر سلاحا..

- متأكد أنها لن تعض؟

أشارت (آمي) له: (آمي تعد لن تعض)..

قال له (إليوت):

- لا تخف.. لن تعضك..

تقدم الموظف ليسحب عينة الدم.. فما إن فرغ حتى تنهد وقال:

- يا لها من وحش قبيح!

- حذار.. أنت تؤذي شعورها..

وكان (إليوت) قد عرف أن الناس يتعاملون مع القرود بجهل.. فهم يرون الشمبانزي طفلا شقيا ويعتبرون (الأورانج أوتان) شيخا حكيما.. ويعتبرون الغوريلا وحشا مرعبا ضخما.. وكانوا

دائما مخطئين.. إن الشمبانزي أكثر شراسة من الغوريلا.. لقد رأي (إليوت) الأمهات في حديقة الحيوان يقربن أطفالهن من الشمبانزي ويبعدنهم عن الغوريلا.. فلا واحدة من تلك الأمهات تعرف أن الشمبانزي الثائر يلتهم الأطفال.. وهو شيء لا تفعله الغوريلا أبدا.

وكانت (آمي) تخفي تحت شكلها المرعب روحا رقيقة حساسة، يدميها أن ترى الناس يفرون هاربين منها ويصرخون.

غادر الموظف الطائرة.. فأشارت (آمي): (رجل سخيف)..

- لا عليك.. دعي (بيتر) يدغدغ (آمي):.

ورقدت (آمي) على الأرض ولمدة ربع ساعة راح (بيتر) يدغدغها.. وهي تضحك في رضا تام.

لم يلحظ الباب ينفتح وراءه.. ولم يلحظ الظل الذي بدا فيه..

في اللحظة التالية هوى شيء ثقيل على رأسه..

بعدها صار كل شيء أسود..

☆ ☆ ☆



فى اللحظة التالية ، هوى شىء ثقيل على رأسه ..

4- مخطوفة

أفاق على صوت أزيز إلكتروني حاد.. ومن يقول له ألا يفتح عينيه. وحين فتحهما أخيرا رأى رجلا يرتدي معطفا أبيض ينحنى عليه.. وأطراف أصابعه مبتلة بالدم..

قال الرجل مطمئنا:

- لا تخش شيئا.. إنه جرح سطحي.. كم تظنون لبثَ فاقد الوعي؟

دوي صوت (مونرو) يقول:

. دقيتين لا أكثر..

- يجب أن يوضع تحت الملاحظة لمدة أربع وعشرين ساعة..

هنا سأل (إليوت):

- أين هي؟

- لقد فتحوا الباب الخلفي وأخذوها.. ووجدنا هذا بجوارك.

ومد يده بزجاجة عليها نقش ياباني.. وفي طرفها إبرة محطمة فنهض (إليوت) ورأسه يخفق بالألم.

وتساءل وهو يتشمم الزجاجة:

- هل كان عليها ثلج حين وجدتموها؟

- نعم.. كانت باردة جدا..

- هذا ثاني أوكسيد الكربون.. طلقة من مسدس غاز.. وأظنهم قد استعملوا الـ (لوباكسين).. الأوغاد!

لقد تهشمت الإبرة في جسدها.. واستعملوا مخدرا لا نستعمله لأنه يسبب فشلا كبديا للحيوانات..

وتخيل صراخ (آمي) المذعور في أثناء اختطافها.

فهي حيوان تعود على أرق وألطف معاملة.. ولم تكن معدة بحال لمواجهة العالم الخارجي الخشن..

في هذا الوقت كانت (روس) عاكفة على فحص الطائرة.. باستخدام جهاز إلكتروني صغير.. واستطاعت أن تدرك أن الطائرة مليئة بأجهزة التنصت التي زرعها المقتحمون.

سألها (إليوت):

- هل تظنين أنهم أخذوا (آمي) خارج البلاد؟

- بالطبع لا.. فلن تفيدهم في شيء..

- هل قتلوها؟

- محتمل؟

ثم أردفت:

- لكني أشك في هذا.. فهم لا يرون جدوى ما لـ (آمي) ولا يعرفون سبب جلبنا لها هنا.. فقط يحاولون نسف جدولنا الزمني لكنهم لن ينجحوا في ذلك.

كان في نبرتها ما أوحي لـ (إليوت) أن (روس) تنوي الرحيل دون (آمي).. وأثارت هذه الفكرة ذعره.. فصاح:

- يجب أن نستعيدها.. لن أتركها هنا!

أشارت إلى شاشة الكمبيوتر وقالت:

- لم يبق لنا سوي 72 دقيقة بعدها يدمر جدولنا الزمني..

- لن أترك (آمي).. لو كنت تنوين تركها فافعلي هذا معي أيضا!

قالت (روس):

- دعني أقل لك شيئا: أنا لم أعتقد قط أن (آمي) مهمة لحملتنا.. ومن البداية كانت وسيلة لتشتيت انتباه المنافسين.. الآن لم يعد الأمر يستحق العناء.. وإذا اضطررت لترككما سأفعل..

☆ ☆ ☆

5- أجهزة تتبع

هتف (إليوت) في غيظ:

- اللعنة!.. إذن تريدين القول إنني..

في برود قالت:

- نعم.. يمكن الاستغناء عنك..

كانت تتكلم وهي تجذبه من ذراعه خارج الطائرة، وإصبعها على فمها منذرة.. لكنه لم يكن ينوي أن يهدأ.. إن (آمي) مسئولة منه وليذهب للجحيم كل الماس الأزرق وصراع الشركات..

وكان قد خرج من الطائرة إلى الممر.. فصاح:

- لن أرحل دون (آمي)..

- ولا أنا! ألا تفهم؟ هذه الطائرة ملأى بالبق (أجهزة التنصت).. وهم يصغون لنا.. وكلامي كان موجها لهم لا لك.. اسمع.. أنا أعرف أن الغوريلات لها دخل بما حدث لفريقنا في الكونغو.. وأعتقد أن (آمي) ستساعدنا حين نصل هناك.. فهي تعرف عن الغوريلات أكثر منا..

- وهل يمكنك العثور عليها خلال ساعة؟

- اللعنة لا..!

ونظرت إلى ساعتها الرقمية.

- لن أحتاج إلا إلى عشرين دقيقة!

☆ ☆ ☆

- اهبط.. اهبط!

كانت جالسة جوار طيار الهليوكوبتر، تنظر إلى جهاز التتبع المعلق على صدرها وتصدر تعليماتها للرجل.. بينما هو يدور في

سماء (نيروبي) حول (الهيلتون)..
- اتجه شرقا..
وما لت الطائرة خارجة من المدينة.. وقد جلس (إليوت) في المقعد الخلفي شاعرا بمعدته تتقلص.. لكنه صمم على المجيء لأنه الوحيد الذي يعرف كيف يتعامل مع (آمي) لو كانت في مشكلة ما..
- اتجه شمالا..
وكانوا يطيرون فوق ساحة جراج بها أكوام من القمامة.. وراحت الطائرة تهبط تدريجيا.. وغادرتها (روس) جريا وهي تهتدي بالجهاز على صدرها.. حتى وصلت إلى كومة من القمامة كريهة الرائحة، لكنها مدت ذراعيها حتى الكوعين مفتشة وسط الكومة..
في النهاية أخرجت قلادة (آمي) التي ثبتتها لها والتي وضعت فيها جهاز تنصت..
اللعنة.. ضاعت ست عشرة دقيقة!
ثم أردفت وهي تركض إلى الطائرة:
- لقد تخلصوا من جهاز التنصت هنا كي يضللونا..
- وكيف ستجدينها بعد هذا؟
- لا أحد يزرع جهاز تنصت واحدا.. إنها مجرد خدعة المفترض أن يجدوها.. والآن علينا أن نواصل البحث..
وارتفعت الهليكوبتر فتطاير الورق في كل مكان..
اتجهوا إلى مقبرة للسيارات القديمة.. وبدأت الطائرة تهبط وسط حشد من الأطفال المهللين.. ونزلت (روس) من الطائرة جريا.. وقالت لـ (إليوت):
- هذا مكان مناسب جدا.. يجب أن يضعوا (آمي) محاطة بالمعادن على سبيل منع الإشارات الصادرة عنها..

سمع (إليوت) صوت أنين قادما من حافلة (مرسيدس) قديمة.. وفي الداخل وجد (آمي) مقيدة بشريط لاصق، وفي الناحية اليمنى من صدرها وجد الإبرة المكسورة فانتزعها.. وانتزع الشريط فصرخت ألما..

قال لها وهو يتحسس أطرافها:

- كل شيء على ما يرام يا(آمي)..

ثم سأل (روس):

- أين أخفيت جهاز التتبع الآخر؟

- لقد ابتلعته!

شعر بغضب جامع:

- ألا تفهمين أنها حيوان رقيق وصحته هشة؟

- لا تتضايق.. هل تذكر الفيتامينات التي ابتلعتها؟ ليس هذا سيئا فقد وجدناها خلال أربعين دقيقة ومازال أمامنا وقت لا بأس به..

☆ ☆ ☆

6- الرحيل

بدأت عملية نقل المتاع من الطائرة 747 إلى طائرة من طراز (فوكر - إس - 144).. وكان الغرض من الطائرة الصغرى هو أن الـ 747 مزروعة بأجهزة التنصت.. ويحتاج الأمر إلى وقت أطول لتنظيفها..

وساعد (إليوت) (آمي) على ركوب الطائرة الـ (فوكر).. بينما راح الحمالون الزنوج ينقلون الأشياء ويضحكون ويضربون بعضهم على الظهور..

وجد (روس) واقفة تتحدث مع عملاق زنجي قدمته له باسم (كاهيجا)..

قال (كاهيجا) مصافحا (إليوت):

- آه! د. (إليوت) ود. (روس).. طبيبان! ممتاز!

لم يفهم (إليوت) ما يجعل هذا ممتازا.. لكن الرجل واصل الضحك:

- ليس كالأيام الخوالي مع (مونرو).. الآن دكتوران.. طبيبان.. مهمة علمية.. أليس كذلك؟

قالت (روس):

- إن (كاهيجا) مصر على أننا نهرب السلاح ولا يصدق أننا لا نفعل.. ما دمنا مع كابتن (مونرو)..

وابتعد (كاهيجا) ليلحق بالآخرين.

قالت (روس):

- سيكون لدينا (كاهيجا) وسبعة رجال من قبيلة (كيكيويو).. ونحن ثلاثة و(آمي).. سيكون الوزن حوالي 480 رطلا..

- هل الحمالون من (الكيكيويو)؟

- نعم.. رجال طيبون لكنهم يحبون المزاح ولا يسكتون أبدا.. وكلهم أشقاء! لهذا كن حذرا في كلامك..

وفي الساعة 9:24 أقلعت الطائرة من مطار (نيروبي)..

☆ ☆ ☆

لمدة ست عشرة ساعة حلقت طائرة ERTS فوق أربعة أقطار.. هي (كينيا) و (رواندا) و (تنزانيا) و (زائير)..

واحتاج الأمر إلى علاقات (مونرو) مع المخابرات الصينية في (تنزانيا).. إن نشاط الصينيين في إفريقيا لشيء معروف منذ الستينات حين كان الروس هم الأعداء.. ثم صار اليابانيون هم الأعداء بعد ذلك.. وكان معنى هذا أن (مونرو) والصينيين يتلاقون في نقاط عديدة.

وفي العاشرة من مساء يوم 16 يونيو، هبطت الطائرة ال(فوكر) في (رواماجينا) في (رواندا) لتملأ بوقودها..

☆ ☆ ☆

اليوم 5: موروتي
1979 17

1- زائير (3)

بعد خمس ساعات من الإقلاع من (رواماجينا) تغير المنظر.. فهم الآن عند أطراف غابة الكونغو على أطراف (زائير)..
وراح (إليوت) يرمق المشهد مذهولا.. الأشجار العملاقة السامقة والأنهار الموحلة.. كان المنظر مرعبا لأنه يواجهك بما سماه (ستانلي) باسم (العظمة اللامبالية للطبيعة)..
وكان (إليوت) يعرف أن الغابة تمتد ألفي ميل غربا، حتى ساحل المحيط الأطلسي.. ونظر لـ (آمي) فوجدها ترمق المشهد باهتمام.. لكن لم يبد عليها أنها تعرفت شيئا معينا..
كان الرجال في مؤخرة الطائرة يحزمون الأدوات ويرتبونها.. دنا (إليوت) من (كاهيجا) سائلا:
- كم يبعد المطار؟
- المطار؟
- نعم.. مطار (موكنكو)..
تبادل (كاهيجا) النظرات مع رجاله.. وقال لهم شيئا ما بالسواحلية.. ومن ثم انفجروا جميعا يضحكون.. فعاد (إليوت) يسألهم عن الشيء المضحك.. فقال (كاهيجا) وهو يضربه على ظهره:
- آه يا دكتور! أنت تملك روح دعابة قوية!
ودارت الطائرة دورة في الهواء.. فنظر الجميع خارج النوافذ.. واستطاع (إليوت) أن يرى صفا من عربات الجيب الخضراء تمشي في طريق موحل، وسمع الكلمة مرارا (موجورو)..
الآن تحلق الطائرة غربا فوق الأشجار.. بينما إخوان (كاهيجا) يمزحون ويضربون بعضهم على ظهورهم.. بدا أنهم يستمتعون

بوقت طيب حقا..
اتجه إلى (روس) فوجدها تفتح عدة صناديق، لتخرج منها كريات من المعدن البراق بحجم كرة السلة.. وذكره المنظر بزينة عيد الميلاد..
عندها سمع أول انفجار.. واهتزت الطائرة في الهواء..
جرى إلى النافذة فرأى خطا من الدخان الأبيض على اليمين، بينما الطائرة تهبط منحدرة نحو الغابة..
ورأى خطا أبيض آخر يدنو..
لقد كانت قذيفة.. قذيفة موجهة!
صرخ (مونرو):
- (روس)!
فهتفت:
- مستعدة!
ودوي انفجار قوى جوار النافذة فلم يعد يرى شيئا لأن الدخان الأبيض ملأها.. واهتزت الطائرة من جديد..
وصرخ (مونرو):
- إنها بالرادار.. ليست بصرية بل بالرادار..
هرعت (روس) حاملة الكرات المعدنية إلى الباب الخلفي، وكان (كاهيجا) قد فتحه لها.. فطوحت حمولتها إلى الهواء.. وتراجعت..
صاح (إليوت):
- ماذا يحدث؟
ثم دوى صوت انفجار قوي.. وانحدرت الطائرة ثمانية أميال جنوبا ثم دارت حول الغابة.. واستطاع أن يرى الكرات معلقة في الهواء كسحابة معدنية.. ورأي صاروخين يلحقان بالسحابة ثم ينفجران داخلها..

صدمة الاهتزاز مزعجة جدا..
قالت (روس) وهي تجلس:
- إنها خدعة لتحير أجهزة الرادار.. إن صواريخ (سام) تعتبرنا في مكان ما داخل السحابة..
سمع كلامها وأحس أنه يحلم.. وسألها:
- ولكن من يطلق علينا؟
قال (مونرو):
- بالطبع القوات الجوية الزائيرية.. فنحن بالنسبة لهم نعتبر مخترقين للمجال الجوي الزائيري دون إذن..
- رباه!
جذبه (مونرو) للخارج.. وقال وهو يربت على كتفه:
- لا تخف.. إنها صواريخ (سام) عتيقة من الستينات أغلبها ينفجر في الهواء قبل بلوغ الهدف..
لا خطر هناك..

☆ ☆ ☆

كانت الخطة التي وضعتها (روس) و(مونرو) تسمح لهم بالتغلب على المنافسين وتحقيق فارق أربعين ساعة كاملة..
وكانت هذه الخطة تستدعي الهبوط بالمظلات فوق جانب بركان (موكنكو).. وهذا خطر لأنه يقتضي أن يثب أشخاص غير مدربين بالمظلات، ويمشوا ثلاثة أيام على الأقدام في مناطق وعرة شرسة..
إلا أن الكمبيوتر قدر فرصة النجاح في الوثب بـ 0.798، بينما الوثب الناجح يعني فرصة 0.9943 في نجاح الحملة.. أي أن النصر مؤكد..

وقالت (روس) وهي ترمق الأرقام:
- واضح أننا سنقفز..
إن للقفز مزية أخرى هي تجنب قوات الجيش وقبائل (كيجاني)..
لكنهم كانوا قد نأوا كثيرا عن مكان القفز، كما أن (روس) وجدت تشويشا في جهاز الكمبيوتر يمنعها من الاتصال بالقمر الصناعي..
إنها ظروف سيئة لكن ما باليد حيلة..
والفجر صاروخ (سام) آخر.. فهرع (مونرو)
إلى مؤخرة الطائرة وقال:
- فليستعد الرجال..
- حسن يا ريس..
قالها (كاهيجا) فدارت زجاجة (ويسكي) على الرجال يجرع كل منهم جرعة منها..
فتساءل (إليوت):
- ما هذا بحق الجحيم؟
- الرجال يستعدون..
- لماذا؟
هنا برزت (روس) من مؤخرة الطائرة مقطبة الوجه وقالت:
- من هنا تبدأ رحلتنا على الأقدام!
- وأين المطار؟
- لا مطار هنالك..
وتقلصت معدة (إليوت) لأنه فهم ما يريدون عمله.. وإذا بـ (مونرو) يضع المظلة حول صدره ويربط حزامها قائلا:
- (آمي) ستكون بخير.. لقد حقنتها بل (ثورالين) المهدئ، ولسوف أحتضنها جيدا في أثناء الهبوط..

ونظر (إليوت) إلى (آمي) فوجدها تغط ولعابها يسيل على كتف (مونرو).. بينما هذا الأخير يجرها على الأرض جرا.

- إن (البارافويل) الخاص بك يفتح تلقائيا.. توجد حبال في كلتا يديك.. حرك الحبال اليمني تتحرك يمينا.. حرك اليسرى تتحرك يسارا.. و....

- ولكن (آمي)؟

- اصغ لي! لو حدث خطأ يمكنك استعمال الباراشوت الاحتياطي هنا على صدرك..

- وأشار إلى جهاز كتب على شاشته (4757) وقال:

- ... هذا هو مقياس الارتفاع ومعدل السقوط.. وهو يفتح المظلة لو أنك هبطت إلى 3600 قدم وسرعتك ما زالت قدمين في الثانية.. لا تقلق من شيء فالعملية كلها أوتوماتيكية..

كان (إليوت) يرتجف ذعرا والعرق يغمره:

- والهبوط؟

- الهبوط يتم تلقائيا كذلك.. خذ الصدمة على قدميك.. ستشعر بأنك تثب من فوق سور ارتفاعه عشرة أقدام لا أكثر..

ورأى (إليوت) الباب المفتوح تلتمع وراءه الشمس.. وسرعان ما وثب رجال (كاهيجا) واحدا بعد الآخر.. ثم جاء دور (روس) التي كانت شفتها السفلى ترتجف لكنها استجمعت شجاعتها ووثبت..

- دورك!

- لكني خائف!

- يمكنني معاونتك..

قالها (مونرو) ودفع (إليوت) ليسقط خارج الطائرة..

☆ ☆ ☆



ـ « يمكننى معاونتك .. »

قالها (مونروا) ودفع (إليوت) ليسقط خارج الطائرة ..

ما كانت وثبتهم وثبة في الهواء فحسب.. بل وثبة في الزمن.. وثبة فارقوا بها كل معاني الحضارة ليدخلوا عالما بدائنا مرعبا.. وكان (مونرو) يعرف كل هذا.. وفيما بعد قال:

- كانت مهمتي أن أقود هؤلاء القوم إلى (الكونغو).. لا أن أخيفهم حتى الموت.. لهذا لم أخبرهم بما ينتظرهم.. فمازال الوقت كافيا لهذا..

☆ ☆ ☆

وهوى (إليوت) لأسفل خائفا حتى الموت.

وشعر بمحتويات معدته في فمه، والريح تصفر في أذنيه.. والهواء بارد كالثلج.. وأغلق عينيه كي لا يرى الغابة تحته..

لا شيء يحدث.. واضح أن (البارافويل) - أيا كان معناه - لن ينفتح.. فحياته إذن تتوقف على المظلة الاحتياطية على صدره.. مد يده يتحسسها ثم أحجم.. فربما يعوق هذا انفتاحها.. وهو يعرف أن كثيرين ماتوا نتيجة لتلمس مظلاتهم في أثناء الهبوط.. لا شيء يحدث..

لا شيء يحدث.. وتقيأ من الرعب.. لكن رأسه كان لأسفل فلم يبلل القيئ ثيابه.. وكانت رجفته غير معقولة.

وفجأة انقلب وضعه ليستقيم بهزة تحطم العظام..

وهنا أدرك أن المظلة فتحت.. وبدأ يرى السماء الزرقاء حوله.. لقد كان على ارتفاع آلاف الأقدام فوق الغابة..

ونظر لأعلى فرأى (البارافويل).. إنه شكل مستطيل عملاق به شرائط حمراء وزرقاء.. وعامة يبدو كجناح طائرة تخرج منه الحبال.. ورأى الآخرين..

حاول أن يعدهم فقدر أنهم ستة.. لكنه لا يستطيع التركيز على كل حال..

إن شعورا بالسلام والراحة يغمره..

نظر لقدميه فرأى (كاهيجا) يلمس الأرض.. ثم رجل ثان فثالث.

بدأ يرى الأرض بدوره تندفع نحوه بسرعة.. لم يتصور أنه يهبط سريعا هكذا.. أغمض عينيه.. وشعر بغصون الأشجار تخمش وجهه وجسده ثم لم يحدث شيء..

فتح عينيه فرأى أنه فوق الأرض بمسافة أربعة أقدام.. لقد اشتبك (البارافويل) بغصون الأشجار..

حرر نفسه وهوي للأرض.

ونهض على قدمين مطاطتين شاعرا بنشاط غير عادي..

وبعد دقيقة هبط (مونرو) مع (آمي)، وأذنه تنزف دما حيث عضتها (آمي) في ذعرها.. لكن الغوريلا كانت بخير حال.. وراحت تركض على أربع نحو (إليوت) وهي تردد (آمي تطير لا تحب)..

ونظروا لأعلى فرأوا الطائرة (الفوكر) تبتعد، بينما مظلات تحمل معداتهم تهبط فيهرع رجال (كاهيجا) لاقتناصها..

وخلال عشرين دقيقة تحركت الحملة... لتبدأ رحلة مائتي ميل ستقودهم إلى بقاع (الكونغو الشرقية) التي لم يستكشفها أحد..

إلى الجائزة الكبرى لمن يصل إليها قبل الآخرين..

☆ ☆ ☆

2- كيجاني..

ما إن انتهت صدمة الوثبة، حتى راح (إليوت) يستمتع بالسير في غابة (باراوانا)..

كانت القردة تصرخ فوق الأشجار، والطيور تغرد، بينما حمالو (الكيكيويو) يدخنون ويتبادلون عبارات المزاح.

شعر (إليوت) بالرضا وروح المغامرة.. وبدأ يلتذّ بملمس الأرض الندية تحت حذائه.. ويرمق (روس) فيجدها جميلة كما لم يرها من قبل.. شعرها الأشقر على كتفيها والعرق يبلل ظهرها لكنها جميلة..

قال (مونرو) له:

- استمتع بالغابة.. فهي آخر مرة تشعر فيها أنك بارد جاف!

لكن الغابة لم تكن عذراء تماما.. فمعالم الإنسان كانت موجودة.. لكن (مونرو) كان صامتا.. وبدا أنهم كلما توغلوا أكثر كلما صار (مونرو) أقل استعدادا للكلام.

فقط كان يصغي لصياح القردة وغناء الطيور..

☆ ☆ ☆

عند منتصف النهار شعر (إليوت) بألم في قدميه.. ويبدو أن الحمالين كذلك بدءوا يتعبون لأنهم كفوا عن المزاح ولاذوا بالصمت..

سأل (إليوت) (مونرو) عم إذا كانوا سيتوقفون للطعام، فقال هذا (لا)..

نظرت (كارين) لساعتها وقالت:

- ممتاز..

بعد الواحدة سمعوا صوت هليكوبتر.. وعلى الفور انبطحوا وسط الحشائش إثر طلب (مونرو).

واستطاع (إليوت) أن يرى طائرتين كبيرتين لونهما أخضر كتب عليهما (FZA) وهي الحروف الأولى من (سلاح الجو الزائيري).

وابتعدت الطائرتان.. فنهض الرجال.. وقال (مونرو):

- إن الجيش.. يبحث عن الـ (كيجاني)..

بعد ساعة وصلوا إلى فرجة بين الأشجار، بها بيت خشبي يتصاعد الدخان من مدخنته.. وثمة ثياب معلقة على الحبال لتجف.. تتطاير في النسيم..

رفع (مونرو) يده طالبا الصمت، ودعاهم للانبطاح وسط الحشائش دون كلام.. كان متوترا.. ولم يفهم (إليوت) سببا لذلك..

ظلوا فترة لا بأس بها في الموضع ذاته.. ورفعت (روس) رأسها لتقول شيئا لكنه غطي فمها بيده وهمس:

- (كيجاني)!

اتسعت عيناها.. وهي ترمق المنزل..

ثم إن (مونرو) التفت إلى (إليوت)، وأشار إلى (آمي) متسائلا.. كان قلقا بصدد صمتها ويريد التأكد من أنها لن تحدث جلبة..

لكن (آمي) كانت متوترة فقد شعرت بجو القلق المخيم حولها.. ولاذت بالصمت هي الأخرى..

وزحف (كاهيجا) إلى الوراء ليأخذ بندقية آلية من الحمالين، فنزع عنها التأمين ثم عاد بها إلى (مونرو).. وفي اللحظة ذاتها دوي صرير الباب.. ثم خرج الـ (كيجاني) من المنزل.. استطاع (إليوت) أن يعد اثني عشر رجلا قويا يحملون الأقواس والسهام،

وقد دهنوا وجوههم باللون الأبيض مما أعطاها انطباعا مرعبا كالجماجم.

وبعد رحيلهم ظل (مونرو) يرمق المنطقة عشر دقائق.. ثم نهض متنهدا..

سأله (إليوت):

ماذا كانوا يفعلون؟

- يأكلون! لقد قتلوا الأسرة في هذا البيت وأكلوا أفرادها!

ظل (إليوت) يرمق البيت.. ويتساءل عما سيراه لو دخله..

ولاحظ (مونرو) توتره فقال:

- إن العادات القديمة تموت بصعوبة..

☆ ☆ ☆

كانت هناك تقارير عن أكل لحوم البشر في حرب (الكونغو) الأهلية عام 1960، وقد هزت هذه التقارير العالم الغربي.. لكن هذا النشاط كان يمارس على نطاق واسع في (إفريقيا) طيلة الوقت.

وفي عام 1897 كتب (سيدني هيند): إن كل القبائل في (الكونغو) كانت أو مازالت تأكل لحوم البشر.. ولا يمارس هذا من قبيل الطقوس الدينية أو الحرب أو السحر بل هو مجرد تفضيل غذائي..

ويقول (هولمان بنتلي) على لسان أحد الأهالى:

أنتم - معشر البيض - تأكلون الخراف والأبقار، أما نحن فنأكل البشر.. لم لا؟ ما الفارق؟

وفي 1910 كتب (هربرت وورد) عن الأسواق التي يباع فيها العبيد قطعة قطعة وهم أحياء.. حيث يرسم كل مشتر على

جسد العبد القطع التي يرغب فيها..
ومن الغريب أن كل الدارسين وجدوا أكلة لحم البشر أشخاصا ظرفاء يمكن أن تحبهم.. وهم ودودون جدا يعبرون عن عواطفهم بوضوح..
لقد كان الـ (كيجاني) ثائرين لأن حكومة (زائير) تحاول إرغامهم على التحول من الصيد إلى الزراعة كأن هذا سهل.. وكانوا قوما متخلفين يؤمنون بالسحر كثيرا.. ويعتقدون أنهم - بأكل أعدائهم – سيستفيدون من القوى السحرية الموجودة في أجساد هؤلاء..
إنهم يأكلون البشر الآن على سبيل الاحتجاج..

☆ ☆ ☆

وأشار (مونرو) إلى بعيد.. إلى دخان حرائق يتصاعد في الجو من بعيد.. وقال:
- هذه قرى الـ (كيجاني).. ما كان بوسعهم الفرار خاصة أن قائدي الطائرات من قبيلة (أباوي) وهي عدوهم الطبيعي..
إن القرن العشرين لم يتحمل وجود الـ (كيجاني).. لذا صممت حكومة (زائير) على الخلاص منهم وأطلقت في إثرهم جيشا مسلحا وست طائرات هليكوبتر مسلحة بالصواريخ، ولم يكن الجنرال (موجورو) يهتم بالأوهام بصدد مهمته.. كان يعرف أن (كينشاسا) ترغب في الإبادة الكاملة للـ (كيجاني).. وهذا هو ما انتوي عمله.
وعند نهاية اليوم - بعد ما عبروا الجسر الخشبي عند (موروتي) - أعلن (مونرو) أنهم قد تجاوزوا إقليم الـ (كيجاني).. وأنهم على الأقل الآن - آمنون.

☆ ☆ ☆

3- معسكر موبوتي..

كانت معدات (ERTS) المتطورة جدا قد تم تصميمها بالاتفاق مع وكالة (ناسا) الفضائية.. فمثلا لم يكن معهم ماء.. إن الماء ثقيل جدا ويشكل ورطة في الحملات، لكن جهاز (ناسا) لإعادة تدوير ماء البول قد حل المشكلة.. وهو حل مقزز لكنه فعال..

أما عن المعسكر فقد تم تصميم خيامه عام 1977، وهي خيام هوائية تزن الواحدة ست أوقيات.. وكانت هناك أجهزة تكييف في حجم علبة الحذاء..

دار جدل عابر بين (مونرو) و (روس)، حين دنت (آمي) من (إليوت) وأشارت له: (المرأة والرجل شعر - أنف يتشاجر)..

وكانت (شعر - أنف) هي التسمية التي أطلقتها على (مونرو).. وكانت (آمي) قد أحبت (مونرو) من اللحظة الأولى وهو شعور متبادل.. فبدلا من أن يخافها أو يربت على رأسها عاملها كأنثى.. وكان قد رأي غوريلات كثيرة بما يكفي.. وحين ترفع ذراعيها لأعلى سرعان ما يفهم أنها راغبة في الدغدغة.

ويدغدغها..

راحت (روس) تعد وتوصل أجهزة الاتصال الإلكترونية.

لقد تأخروا عشرين ساعة عن المنافسين بسبب غارة صواريخ (SAM).. لكن الأخبار على الشاشة كانت مطمئنة..

لقد تعطل المنافسون في مطار (جوما) لأن طائرتهم ينبعث منها نشاط إشعاعي.. واضح أنها لعبة من (ترافيس) يعطلهم بها..

☆ ☆ ☆

وجاء الغروب..

وانحدرت الشمس الاستوائية نحو الغرب.. فبدا المعسكر كأنه طبق مجوهرات.. به طبق هوائي فضي وخمس خيام تلتمع في الضوء..

وبدأ الظلام ينتشر ليغطى غابة الأمطار..

☆ ☆ ☆

اليوم 6: ليكو
18 يونيو 1979

1- غابة الأمطار..

لم يكن (إليوت) قد رأى من قبل غابة أمطار.. وقد أصابه الذهول حين رأي حجمها الهائل وجذوعها التي يبلغ اتساعها اتساع بيت..

إن الحركة تحتها تشبه المشي في كاتدرائية مظلمة.. الأشجار هائلة لكنها أقل كثافة مما تصور..

الصمت كامل.. ولا أثر للطن أو التحلل العضوي كما توقع.. إن الهواء نقي تماما لكنه حار جدا.. والعرق يتخلل أعصابك ذاتها..

وبدأ (إليوت) يشعر بعدم راحة.. وراح يتمنى لو فارق هذا المكان..

تغير سلوك (آمي) كذلك.. فراحت تبتعد عنهم أو تسبقهم.. أو تجلس في مكان وترفض اللحاق بهم.. وثمة تعبير خامل على وجهها..

قالت (روس) في عصبية:

- ما معنى هذا بحق الجحيم؟

- لقد صارت (غوريلا) من جديد.. ولم تعد تهتم بي.. إنها في عالم يمكنها أن تجد فيه الطعام والأمان والمأوي بدوني..

قال (مونرو) ملخصا للموقف:

- لقد انتهت ساعات المدرسة.

ثم جذب (إليوت) من ذراعه قائلا:

- الحل الوحيد هو أن تتركها! سر معنا وانسها..

- لكنها لن تتبعنا..

- هلم يا بروفسور.. كنت أظن أنك تعرف عن الغوريلات.. أنها حيوانات اجتماعية لا تتحمل الوحدة.. ولن تطيق الابتعاد عنا ما دامت لا توجد غوريلا أخرى.. نحن عشيرتها وهي لن تتركنا..

وكما توقع.. سرعان ما لحقت (آمي) بهم وهي تهشم الأعشاب..

وبعدها لم تتخل عن (إليوت) ثانية.

كان حمالو (الكيكيويو) يقضون الوقت في المزاح والصياح.. فقالت (روس):

- إنهم قوم سعداء..

فقال (مونرو):

- لا يا دكتورة.. إنهم ينذرون.. ينذرون الفهود وال (تيمبو).. الأفيال..

واستمرت المسيرة..

وفجأة دوى صوت الرعد..

وانهمرت قطرات المطر.. قطرات كبيرة ثقيلة تؤلم عند الاصطدام بك.. واستمر ذلك لمدة ساعة ثم توقف فجأة.. وقد صاروا مبتلين تعساء..

جلس الرجال يشوون اللحم المقدد على النار، على حين انهمك (مونرو) في حرق العلقات الملتصقة بأرجل (روس) و (إليوت) بأطراف السجائر المشتعلة.. وكانت العلاقات منتفخة بالدم.. ويجب حرقها لأن انتزاعها يبقي رأسها داخل اللحم مما يسبب العدوى..

وجلسوا يأكلون في صمت.

☆ ☆ ☆

2- راجورا..

كان الطريق يقودهم غربا إلى نهر (راجورا).. وقد أقلق هذا (مونرو) فسأله (إليوت):

- ما الخطر مع نهر (راجورا)؟

- ربما لا خطر.. يتوقف الأمر على مستوى الأمطار في الفترة الماضية..

نظرت (روس) إلى ساعتها وقالت:

- لقد تأخرنا.. وعلينا الملاحة في النهر ليلا..

ولم تكن قد سمعت عن حملة ليلية في النهر لهذا أثار دهشتها أن (مونرو) قبل:

- سأفعل ذلك.. لأن العقبات أسفل النهر ستكون أقل ليلا..

- وما هي العقبات؟

- سنتكلم عن هذا فيما بعد..

☆ ☆ ☆

وقبل وصولهم (راجورا) بميل سمعوا هدير النهر.. أصاب هذا (آمي) بالقلق فراحت تشير (أي ماء؟).. حاول (إليوت) تهدئتها لكنه لم يقدر..

كان الصوت آتيا من سدود عالية فوق المجري.. وكان لون المياه موحلا لكنه لا يبدو خطيرا..

إلا أن (مونرو) كان يعرف نهر (الكونغو).. رابع أكبر أنهار العالم بعد النيل والأمازون واليانجتسي.. وهو نهر فريد في نوعه، يتلوى كالأفعى ويعبر خط الاستواء مرتين.. مرة يتجه شمالا نحو (كيزانجاني) ثم يتجه جنوبا نحو (موباندااكا).. وبسبب هذه

الظاهرة الغريبة كانت هناك دوما أمطار في مكان ما من مجراه، ولم يكن خاضعا للتغيرات الموسمية المميزة للأنهار الأخرى مثل النيل.. ويصب مليون ونصف قدم مكعب من الماء كل ثانية في الأطلنطى وكان هذا المجرى يجعل نهر (الكونغو) أصعب الأنهار للملاحة.. و(راجورا) هو أحد فروع النهر قرب (كيزانجاني)، وتسميه القبائل باسم (باراتاواني) ومعناها (الطريق المخادع) لأنه كثير التغير.. إما أن يكون بركة هادئة للنزهة وإما جحيما يغلي..

راحت (آمي) ترقب في ذعر عملية نفخ الأطواف الـ (زودياك).. والآن يدفع رجال (كاهيجا) القوارب إلى حافة الماء..

أشارت له سائلة: (من يركب؟)..

- كلنا يركب..

ولسوء الحظ كان الجميع متوترين.. وكانت (آمي) حساسة جدا لمزاج من حولها.. والقلق يصيبها بالعدوى سريعا..

راحت تشير بما معناه: هم يرحلون (آمي) تبقى، (بيتر) يبقي (آمي)

عبأ محقنا بال (ثورالين) واستعد كي يحقنها هنا رسمت اسمه ثم كورت قبضتها تحت ذقنها.. وهي سبة بذيئة جدا عند القرود العليا بمعنى (قاذورات البطن).. وكانت (آمي) تعنى بهذا: (بيتر) قذر..

من الغريب أن القردة العليا عرفت أن ربط الإنسان بإفرازات الجسد لهو نوع من السباب..

وراحت تردد (بيتر لا يحب أمي)..

أفرغ الدواء المهدي في صدرها.. فزاغت عيناها.. وللمرة الأخيرة أشارت: (بيتر) لا يحب (آمي)..

ثم تصاعد غطيطها..

قال لها: آسف.. وأمسكها كي لا تهوى على الأرض..

☆ ☆ ☆

تقدم طوفان يحوي كل منهما ستة أشخاص.. الأول به (مونرو) والثاني به (روس) و (إليوت) و (آمي) و (كاهيجا)..



تقدّم طوفان يحمل كل منهما ستة أشخاص . .

في البدء لم تكن هناك متاعب.. الرحلة هادئة والغابة تتحرك ببطء حول جانبي القارب.. حتى إن (روس) راحت تداعب الماء بأناملها.. لكن (كاهيجا) نصحها ألا تفعل.. وقال:

- حيث يوجد ماء يوجد (مامبا)..

وأشار إلى الضفاف حيث كانت التماسيح ترقد في كسل.. تتثاءب من حين لآخر كاشفة عن فكوك عملاقة.. لكن بدا أنها لا تعير القارب اهتماما..

تساءل (إليوت) في خيبة أمل:

- ألن تضايقنا؟

- حار جدا.. - قال (كاهيجا): الـ (مامبا) تنام في الحر، ولا تأكل إلا حين يبرد الجو..

مر النهر بمنحني.. وبدأ الماء يهدر.. إذا بالقارب يسرع أكثر.. ثم راحت المياه تغلي وتتناثر في وجوههم.. وقارب (مونرو) في المقدمة يميل لكنه لا ينقلب.. الطوف يعلو ويهبط.. القارب الأمامي يختفي ويظهر.. بينما (روس) تكرر دون هوادة:

- آه يا رب! آه يا رب!

الماء يصل إلى الجلود.. وسحب البعوض السوداء تلدغهم بوحشية.. من الغريب أن يكون هناك بعوض هنا لكن هذا ما حدث..

وفجأة اتسع النهر.. ومن جديد ساد السلام وعادوا يتحركون ببطء..

استلقي (إليوت) في القارب منها وقال:

- قد فعلناها!

قال (كاهيجا):

- حتى الآن.. لكننا نحن (الكيوكيو) - نقول:

لا أحد يخرج من الحياة حيا.. إنها راحة لا استرخاء يا دكتور..

فك (إليوت) قميصه المبتل واستبدل به آخر وغطي (آمي) النائمة كي لا تبرد.. وكانت الشمس قد غربت وبدأ الظلام..

وقف (كاهيجا) ليقوم بتعبئة البندقية بطلقات عملاقة..

فسأله (إليوت):

- لم هذه الطلقات؟

من أجل الـ (كيبوكو).. لا أعرف الكلمة بالإنجليزية.. - ثم نظر إلى الأمام يسأل (مونرو) بصوت عال

- .. مزي! ميني ماناكيبوكو؟

صاح (مونرو) من طرف المقدمة

- فرس النهر!

☆ ☆ ☆

كان القرن العشرون قد غير مفاهيم كثيرة عن الحياة البرية.. فمثلا كان العلماء يرون (مشهد الفجر) الذي يمثل الأسد ملك الغابة يلتهم فريسته، بينما الضباع الدنيئة تنتظر الظفر بقطعة لحم.. فلما تطورت أساليب الرؤية الليلية أدرك العلماء أن الضباع هي التي استطاعت بنظام وبسالة اصطياد الفريسة.. ثم جاء الأسد الكسول ليأخذها منهم جاهزة.. وهذا هو ما نراه نحن في (مشهد الفجر) هذا..

إلا أن فرس النهر ظل لغزا.. لأنه يغطس في الماء أكثر الوقت.. لكن الذكر يملك حريما من عدة إناث، يعيش معهم في مجاميع من عشرة حيوانات.. وبرغم بدانته فهو شرس جدا وهجمته سريعة جدا.. وأسنانه حادة كالموس.. وصراع ذكرى فرس النهر يعني موت أحدهما دائما..

وفي (إفريقيا) يعتبر فرس النهر مسئولا عن موت نصف من يدنون من الماء.. فهو يكون خطرا جدا على اليابسة.. ومن يجد نفسه بين فرس النهر والماء لا يعيش غالبا كى يحكى التجربة.

لكنه حيوان مهم للبيئة النهرية.. وبرازه – وكمياته هائلة - يسمد الأعشاب التي تأكل منها الأسماك وسواها.. وفي الأماكن التي لم يعد يعيش فيها تموت الأنهار..

النقطة الأخرى المهمة هنا هي أن ذكر (سيد قشطة) يدافع بشراسة عن نهره ضد المعتدين وهؤلاء المعتدون يتضمنون التماسيح والقوارب بمن عليها من ناس..

☆ ☆ ☆

اليوم7: موكنكو
19 يونيو1979

1- كيبوكو

كان هدف (مونرو) من مواصلة السفر ليلا مزدوجا.. فقد أراد أولا: أن يحقق سبقا في الوقت لأن كل خطط الكمبيوتر لم تضع الرحلة الليلية في الحسبان.. وبهذا قد يكسب ستين ميلا في ساعات المساء..

أراد ثانيا: أن يتجنب أفراس النهر في (راجورا).. فهذه الوحوش تخرج إلى الضفة ليلا لتأكل.. وهذا معناه أن يكون النهر مأمونا..

كانت خطة بارعة لكنها لم تضع في الحسبان سرعة النهر.. وبالتالي وصلوا في التاسعة مساء – وهو وقت مبكر جدا - إلى منطقة أفراس النهر..

هكذا كان لا بد لها من أن تهاجمهم..

دار النهر منحنيين.. وأشار (كاهيجا) إلى الضفاف حيث كانت الحشائش مقطوعة بنظام شديد كأنما بنصل موس.. وقال:

ـ حالا!

ودوي صوت يقول: هاوو.. أه.. أه! كأنما رجل عجوز ينظف حلقة من البلغم.. وتجاوبت معه أصوات أخرى.. فغرس (كاهيجا) في الماء مجدافه ثم رفعه ونظر.. لم يجد سوى ثلاثة أقدام مبتلة.. إن الماء ضحل وهذا مقلق.

ورأى (إليوت) نصف دستة من الصخور السوداء مغمورة تحت المياه.. عندها ارتفعت صخرة منها ورأي مخلوقا عملاقا يرفع رأسه ويدنو من طوف (مونرو)..

أطلق (مونرو) طلقة من (المغنسيوم) نحو الحيوان.. وفي الضوء الأبيض رأى (إليوت) الفم العملاق مفتوحا.. وأربعة

أسنان هائلة الحجم.. ثم غاب الوحش في سحابة من الدخان الأصفر..

قالت (روس):

- غازات مسيلة للدموع..

وغاص ذكر فرس النهر واختفى، ودخل طوف (كاهيجا) وسط السحابة، فاحمرت عيونهم وحرقتهم أنوفهم..

- ربما استسلم..

واستمرت مسيرتهم في صمت..

وفجأة اهتزت مقدمة القارب.. وزار الوحش وصرخت (روس)..

تراجع (كاهيجا) وأطلق طلقة في الهواء.. ومال الطوف بشدة..

ورأى (إليوت) أسنان فرس النهر على جانب الطوف.. وبدأ الهواء يخرج محدثا هسيسا..

طلقة أخرى تراجع بعدها فرس النهر..

وكان جانب الطرف الأيمن قد تداعي تماما.. وعرف (إليوت) أنهم سيغرقون خلال دقيقة.. لكن القارب دار حول منحنى آخر..

وابتعدوا عن الوحش بمسافة معقولة.. لكن الطوف كان قد تهاوي تماما.. وراحوا يجذبون ما تبقى منه إلى الضفة.

وتوقف (مونرو) يرمق المشهد في ضوء القمر وأعلن أنهم سينفخون طوفا آخر.. وهكذا جلسوا على الضفة يحاربون البعوض ويلتقطون أنفاسهم..

☆ ☆ ☆

دوي صوت القذائف الـ (أرض – جو) محدثة انفجارات في السماء فوقهم.. ومع كل طلقة يلتمع النهر بلون أحمر.. ثم ترتسم ظلال طويلة.. بعدها يعود الظلام..

أشارت (آمي) إلى (إليوت) مرددة: (طائر يأتي)..

سأل (مونرو) بعد ما عرف معنى إشاراتها:

- هل تعتقد أنها تسمع صوت طائرة؟

- إن سمعها حاد للغاية..

عندئذ ظهرت طائرة في السماء، تشق طريقها بين الانفجارات الحمراء..

وقال (مونرو) وهو يتفحصها بمنظاره:

- إنها طائرة نقل طراز (س - ١٣٠) عليها كتابة باليابانية.. إنها تحمل المؤن إلى المنافسين.. ويبدو أنها لن تستطيع..

شعر (إليوت) بالشفقة على ركاب الطائرة.. لا بد أنهم يصرخون باليابانية وهم يرون كرات النار حولهم.. أتراهم يتمنون لو لم يجيئوا هاهنا قط؟

بعد دقيقة انحدرت الطائرة نحو الشمال واختفت..

- ربما استطاعوا الفرار من مدفعية (موجورو)..

ثم إن (مونرو) دعاهم إلى مواصلة التحرك..

☆ ☆ ☆

- موكنكو..

لم يكن تسلق جبل (موكنكو) عسيرا.. لكن كثافة الهواء كانت قليلة، وقد أرهقهم هذا فجلسوا يلتقطون أنفاسهم..

صاح (مونرو):

- ماذا تتوقعون؟ إنه جبل وكل الجبال عالية..

- ونظر إلى (روس) المنهكة وصاح: وماذا عن جدولك الزمني؟ نحن لم نبدأ الصعاب بعد.. استريحي الآن ولن نصل للقمة قبل الليل.. وهكذا يضيع يوم كامل..

- لم أعد أهتم..

قال في سخرية:

- هكذا النساء!

وقابل نظرتها الحادة بابتسامة.. كأن واجبه أن يهينهم.. يجعلهم يكرهونه.. فهذا سيحمسهم ويدفعهم إلى التقدم.

صاروا على ارتفاع عشرة آلاف قدم.. واختفت النباتات، وبدءوا يشمون أبخرة البركان الكبريتية قادمة من قمة (موكنكو).. وبدأ أصعب جزء من الرحلة خاصة بالنسبة لـ (آمي) التي تمشي حافية القدمين فوق صخور حادة..

وبدأت (روس) تعد عدتها للاتصال الليلي بـ (هوستون)..

كانت الأخبار سيئة.. فعلى الشاشة قرءوا:

- المجموعة المنافسة في مدينة الزنج الآن.. لا مزيد من المخاطرات.. الوضع ميئوس منه..

هتفت (روس):

- لا أصدق هذا.. لقد انتهى الأمر..

وقال (إليوت):

- أنا منهك..
كان التعب قد حل بهم جميعا لذا غرقوا في سبات عميق..

☆ ☆ ☆

اليوم 8: كانياماجوفا
20 يونيو1979

1- الهبوط..

نام الجميع حتى الصباح.. وتناولوا الإفطار دون عجلة.. وجلسوا في الشمس يلعبون مع (آمي) التي سرت لهذا الاهتمام غير المعتاد.

وفي العاشرة صباحا بدءوا الهبوط من فوق جبل (موكنكو) إلى الغابة..

كانت الصخور ساخنة جدا بالنسبة لـ (آمي)، لذا قام (آساري) - أقوى الحمالين - بحملها على كتفه.

كانت (آمي) خائفة لسبب ما.. وقد توترت عضلاتها حول عنق الرجل.. لكنهم واصلوا الهبوط..

☆ ☆ ☆

عادوا إلى ظلمات غابة الأمطار..

وعند منتصف النهار وجدوا الفضلات ثلاثية الفصوص المميزة لبراز الغوريلا.. وكانت هناك أعشاش غوريلا في كل مكان..

وبعد خمس عشرة دقيقة دوى صوت زئير يصم الأذان.. فقال (مونرو):

غوريلا.. إنه ذكر ينذرنا من مغبة التقدم..

أشارت (آمي) لـ (إليوت): (غوريلا لا تريد بشر يدنون)..

قال لها (إليوت):

- لا تخافي يا (آمي).. فنحن لن نؤذي الغوريلا..

نظرت له في حيرة كأنما أساء فهم مقصدها..

وفيما بعد أدرك (إليوت) أنه أساء الفهم حقا.. لم تكن (آمي) خائفة من أن يؤذي البشر الغوريلا.. بل خائفة من أن تؤذي الغوريلا البشر..

تقدموا إلى مكان خال من الأشجار.. وهنا ظهر ذكر غوريلا فضى الظهر وزأر في اتجاههم.. وكان (إليوت) في المقدمة حين رأي المشهد..

كان الذكر الحاكم ضخما ورأسه يعلو الأرض بستة أقدام.. وكان غاضبا جدا.. وسمع (روس) تقول من ورائه:

- ماذا نفعل؟

- ابق خلفي ولا تتحركي..

مشى الذكر على أربع نحوهم وهو يصدر صوتا (هو - هو!) يتزايد تدريجيا.. ثم راح ينزع العشب ويضرب صدره بقبضته محدثا صوتا رنانا..

وهتفت (روس):

- آه لا!

وهنا انقض الذكر..

راح يجري بسرعة مذهلة نحوهم وهو يزأر.. لكن (إليوت) ظل ثابتا ينظر إلى قدميه.. كان يتمنى أن يجرى.. كل غرائزه تنصحه بالجرى.. لكنه أرغم نفسه على الثبات.. وشعر بالجسم العملاق يدنو منه..

من يدري؟ ربما كانت كتب علم الحيوان خاطئة.. إن الذكر يدنو مسرعا نحو قتل سهل.. هدف أحمق..

صدّق ما يقرؤه في المراجع العلمية..

هنا ساد الصمت.. لا بد أن الغوريلا كانت دانية جدا.. لأن (إليوت) رأي ظلها على قدميه.. بعد دقائق ابتعد الظل..

هنا رفع رأسه ورأي ذكر الغوريلا يبتعد ويحك رأسه.. كأنما يتساءل عن السبب الذي لم يُفزع معه هذا العرض (إليوت).

وهنا تهاوت (روس) فاقدة الوعي..

قال (مونرو) حين لحق بهما:

- أحسنت صنعا.. يبدو أنك تعرف شيئا أو اثنين عن الغوريلا.. فهي لا تبدأ في مهاجمتك إلا حين تفر أنت.. عندها تركض وراءك وتعض مؤخرتك وهم يعتبرون هذه علامة على الجبن ها هنا..

كانت (روس) تنهنه بالبكاء.. بينما قدما (إليوت) تهتزان..

لكنه تذكر في رضا أن الغوريلا قامت بكل ما وصفته المراجع..

☆ ☆ ☆

2- المنافسون..

بعد ساعة وجدوا حطام الطائرة س - 130، وقد غاص نصفها في وحل الغابة ومقدمتها مهشمة، وبدت لهم أكبر طائرة شحن في حجمها الطبيعي..

وخلف زجاج النافذة الأمامية رأوا جسد الطيار وقد غطاه الذباب الأسود ولم يستطيعوا دخول الطائرة لأنها كانت عالية..

تسلق (كاهيجا) إلى الجناح الأيمن.. ثم فتح الباب ودخل.. وصاح بهم من النافذة:

- لا أفراد.. يوجد كثير من الصناديق والمعدات..

إذن هذه هي الطائرة التي رأوها وسط القذائف ليلا.. لكن معنى هذا أن ستا وثلاثين ساعة مضت منذ سقوطها.. فأين المنافسون؟ ولماذا لم يظهروا بعد؟ إن الصناديق لم تمس..

☆ ☆ ☆

كان معسكر المنافسين وسط الخرائب..

الخيام ممزقة والذباب يغطي الأجساد.. ورائحة العفن تزكم الأنوف..

وأزيز الحشرات رتيب غاضب..

ابتعد الجميع اشمئزازا، لكن (مونرو) تمالك نفسه وعبر نطاق الحماية حول المعسكر.. وعلى الفور بدأت الخلايا الكهروضوئية تصدر إشارة صارخة عالية.

غطي الجميع آذانهم.. لكن (مونرو) لم يبد متضايقا.. ودنا من إحدى الجثث وأبعد الذباب عن الوجه ليتفحصه..

بعد دقائق لحقت به (روس) لأنها أرادت دراسة دفاعاتهم الإليكترونية.. وعبرت النطاق بدورها.. ثم تبعها (كاهيجا) ليرى ما إذا كانت هناك أسلحة..

عالجت (روس) صندوقا أسود في المركز فقطعت سلكا.. وسرعان ما كفت الصفارة..

سأل (إليوت) (آمي):

- لا ماذا حدث ها هنا؟



سأل (إليوت) (آمى) :

ـ « ماذا حدث ها هنا ؟ »

أشارت له: (أشياء تأتي.. أشياء سيئة)..
وسمع صوت (روس) تنادي:
- هل وجد أحدكم قائد الحملة؟

فصاح (مونرو):
- (مينارد)؟
- إنه ذو سمعة طيبة فهو يعرف الكونغو.
قالتها وهي تشق طريقها وسط الجثث - لكنه لم يكن جيدا بما يكفي..
كان (مونرو) يحمل (جركن) سعة عشرين لترا ويلوح به:
- (كاهيجا).. فلننه هذا!
راح الرجال يسكبون (الكيروسين) فوق الخيام والأجساد.. وأطلقوا طلقة مشتعلة فالتهبت الجثث وتصاعد الدخان إلى السماء..
سال (مونرو) (إليوت):
- ما رأي الغوريلا في هذا؟
- لا تريد الكلام بصراحة..
- أتمنى أن تخبرنا.. فكل هؤلاء ماتوا بطريقة واحدة.. لقد تهشمت جماجمهم..

☆ ☆ ☆

تحركت الحملة مبتعدة وقد سادها الصمت..
همست (روس) لـ (إليوت):
- كان لديهم نظام دفاعي جيد يشبه نظامنا المسمى ADP (نطاق الدفاع ضد الحيوانات).. إنها ترسل صوتا حادا يؤذي الجهاز السمعي للوحوش ويمكنه أن يجعل فهدا يفر إلى الجبال..
- وماذا عن الجهاز السمعي للإنسان؟

- إنه يضايقه فحسب.. وكما رأيت هو لم يضايق (آمي) إلا قليلا..

- وهل يمكننا عمل نطاق دفاعي أفضل من نطاقهم؟

- طبعا نستطيع.. إن نطاقنا يمنع كل شيء عدا الخراتيت والأفيال.

وعند العصر وصلوا إلى مكان معسكر ERTS السابق.

لم يبق كثير سوى خيام ممزقة وهوائي محطم.. لقد غطت النباتات كل شيء

ومن تحتهم في الظلام رأوا معالم مدينة الزنج المحطمة....

وهنا نظر (بيتر) إلى (آمي) فلم يجدها جواره....

☆ ☆ ☆

٣- نظام (ويرد)..

لم يستطع تصديق ما حدث..

راحوا لنصف ساعة يفتشون عنها في الدغل.. ونادوها دون استجابة..

أصابه الهلع.. فقال (مونرو):

- ربما لحقت بالغوريلات الأخريات.. إنها في السابعة من عمرها.. وهي بالغة.. وعشائر الغوريلا مفتوحة تقبل الغرباء دائما..

وكان (إليوت) يعرف أن هذا ممكن جدا.. كل من ربى قردا يجد نفسه في لحظة يتعذر معها إبقاؤه معه.. إذ يغدو الحيوان قويا جدا ولا يمكن السيطرة عليه.. ويصعب إلباسه (الحفاضة) والتظاهر بأنه طفل ظريف.

لكن ما الذي تعرفه (آمي) عن الغابة؟! لقد تربت في العالم الغربي ومعلوماتها عن الغابة مثل معلومات (إليوت) نفسه..

قالت (روس) وهي تنظر إلى ساعتها:

- ستعود إذا رغبت في ذلك.. قبل كل شيء لم تتخل عنها.. هي التي تخلت عنا..

تناولوا عشاء كئيبا صامتا.. وبعده بدأت (روس) تعد نظام الدفاع المعروف باسم (ويرد).. وهي الحروف الأولى من (الاستجابة للمعتدين في الحياة البرية).

كان نطاق الدفاع أسلوبا تقليديا في تاريخ الكونغو وقد لاحظ (ستانلي) منذ مئة عام أنه (ما من معسكر يعتبر كاملا ما لم تتم إحاطته بالأشجار).. ولم يتغير هذا المفهوم حتى اليوم.. لكن مفاهيم الدفاع تغيرت..

كانت هناك كشافات للأشعة تحت الحمراء.. وشبكة خفيفة أقرب إلى الخيوط منها إلى السلك.. وعند حدوث تماس تسري كهرباء قدرها عشرة آلاف فولت في السلك، ولتقليل العبء على البطاريات كان هذا يحدث أربع مرات في الثانية..

وقام (مونرو) بتقسيم فترات الحراسة إلى كل أربع ساعات..

بدأ (إليوت) الحراسة واضعا منظار الرؤية الليلية.. كان ثقيلا يعطي الموجودات ضوءا أخضر شبحيا.. انتزعه عن عينيه فأثار هلعه أن يجد الغابة مظلمة سوداء كالحبر.. أعاد المنظار إلى عينيه مذعورا.

ومرت الليلة دون حوادث..

☆ ☆ ☆

اليوم 9: الزنج
21 يونيو 1979

1- ذيل النمر..

دخلوا المدينة في صباح 21 يونيو..
وكان عليهم رسم خارطة المدينة خلال ست ساعات؛ يحاولون منها استنتاج أماكن المناجم من ترتيب المباني..
وكانوا يستطيعون توزيع أنفسهم على أركان المدينة الأربعة، ويقومون بإرسال إشعاعات الليزر لمسح المدينة.. ويعيد الكمبيوتر تشكيل الصورة..
لكن المدينة كانت كبيرة تغطي مساحة ثلاث كيلومترات، ولم يكن من المستحب أن يتفرقوا بعدما رأوا ما أصاب المنافسين.
الطريقة البديلة التي اتبعوها هي طريقة (ذيل النمر).. وتقضي بأن أسهل وسيلة للعثور على النمر هي أن تمشي حتى تدوس على ذيله..
مشوا بين الخرائب متباعدين.. كانت العناكب في كل مكان.. وكل الأبواب والنوافذ على شكل أهلة.. والمباني متماثلة الحجم والشكل..
بدءوا يطلقون أسماء اعتباطية على المباني لتمييزها.. فهذا المبنى أسموه (مكتب البريد).. وذاك المبنى أسموه (السجن).. وساحة واسعة أطلقوا عليها اسم (الجيمنزيوم)..
كان الطحلب الأسود يغطى الجدران.. لكن (مونرو) أدرك أنه يغطى رسوما جدارية ملونة.. وشعر بالأسف لأنهم لم يجلبوا معهم خبيرا في تاريخ الفن.. وابتكرت (روس) طريقة لفحص الرسوم بالأشعة تحت الحمراء، ثم تصورها بالفيديو وترسلها إلى

(هيوستون) حيث يقوم الكمبيوتر بإعادة تشكيلها، ويرسلها لهم ثانية ليروا الصور التي على بعد متر منهم!

من الغريب أنهم لا يرون الجدار الذي أمامهم إلا عن طريق سفر الصورة عشرين ألف ميل وعبر القمر الصناعى.. وذكر هذا (إليوت) بمنظار الرؤية الليلية.. وقد وصف (إليوت) النظام فيما بعد بأنه (أطول حبل شوكي في الكون)..

ومن دراسة الصور استطاعوا معرفة الكثير عن المدينة.

كان السكان القدامى سودا فارعي الطول يرتدون جلابيب. ملونة طويلة.. ومن الواضح أنهم هجروا المدينة وهي سليمة.. فلماذا؟

قالت (روس):

ربما أجدبت المناجم.. وصارت المدينة مدينة أشباح.. هذا يحدث في كل المدن التي تم إنشاؤها حول مناجم..

أما (إليوت) فاعتقد أن الطاعون هو السبب.. واقترح (مونرو) أن الغوريلات هي السبب.. فالمنطقة بركانية بها زلازل وحرائق، وهذا يجعل الحيوانات تتصرف بطريقة غريبة.. وحكى لهم عن قردة (البابون) التي تهاجم المزارع والحافلات في المناطق التي تندلع فيها الحروب الأهلية.

☆ ☆ ☆

كانت ليلة 21 يونيو هادئة في البداية..

لكنهم شعروا بحركة غير عادية في الأشجار المحيطة بالمعسكر.. وسمعوا صوتا يتنهد.. وما يشبه الأزيز..

وتذكر (إليوت) هذا الصوت وشعر برجفة.. وكان الجميع متوترين قلقين..

وعند منتصف الليل أصدر النطاق الدفاعي شرارة كهربية، فتوتر (مونرو) وصوب بندقيته نحو مصدر الصوت.. وضغطت (روس) زر الأشعة تحت الحمراء فغمر الضوء المعسكر..

قال (مونرو):

- هل رأيتم؟ هل رأيتم ماذا كان؟

هزوا رءوسهم.. فلم يسمع أحد شيئا..

ومرت الليلة دون أحداث....

☆ ☆ ☆

اليوم 10: الزنج
22 يونيو 1979

1- العودة..

كان صباح 22 يونيو ضبابيا كئيبا..
وفي السادسة صباحا صحا (إليوت) ليجد المعسكر نشطا.. وكان (مونرو) يروح هنا وهناك وقميصه مبلل بالعرق..
وأشار لـ (إليوت) إلى أثر قدم مطبوع على الأرض.. كانت المسافة كبيرة بين الأصبع الإبهام وبقية الأصابع كما في أصابع يد الإنسان.. وقال له:
- بالتأكيد هي غوريلا.. هل ترى هذه؟ إنها آثار رءوس الأصابع حين تمشي على يديها..
- لكن الغوريلا حيوان خجول ينام ليلا، ولا يحتك بالبشر..
- قل هذا للغوريلا التي تركت هذا الأثر..
وفقد (إليوت) صبره فقال شيئا عن الخرافات التي يحكيها الصيادون البيض حول النار.. وقال (مونرو) شيئا غير لطيف عن الناس الذين يعرفون كل شيء من الكتب.. عندها بدأت القردة تصرخ فوق رءوسهم..

☆ ☆ ☆

وجدوا جسد (مالاوي) خارج المعسكر..
كان قد ذهب ليملأ دلوا بالماء عندما قتل.. وكان وجهة مشوها وجمجمته مهشمة وفمه فاغرا.. واستدارت (روس) مشيحة بنظرها شاعرة بالغثيان.. على حين راح الحمالون يتشاجرون مع (كاهيجا)..
وتقدم (كاهيجا) منتصب الظهر من (مونرو) وقال:

- يا ريس.. الآن نعود!
قال (مونرو):
- لا..
- يجب أن نعود.. أحد إخواننا قتل وعلينا تقديم العزاء لأمرأته وأطفاله..
وقف الرجلان يتحدثان بصوت خفيض لبضع دقائق.. بعد دقائق أخرى عاد (كاهيجا) ليتكلم مع الرجال بالسواحلية.. ثم قال:
- نحن باقون يا ريس..
- حسن..
قالها (مونرو) وقد استعاد صوته الواثق..

☆ ☆ ☆

بعد ما فرغ (إليوت) من فحص الجثة اتجه إلى النهر ليغسل يديه..
كان عاجزا عن تفسير سلوك عدواني ليلي من الغوريلا.. لكن ربما كان هذا خطأ فادحا أخر من أخطاء علماء الرئيسيات..
ألم يقولوا يوما إن الشمبانزي أكثر ذكاء من الغوريلا، واتضح أن هذا خطأ؟ ألم يقولوا إن خطف الشمبانزي للأطفال خرافة، ثم اتضح بعدها أن الشمبانزي يخطف الأطفال ويلتهمهم؟
سمع حفيفا بين الأشجار فرأى ذكر غوريلا فضي الظهر، يقف على الجانب الآخر من مجرى الماء.. إنه في أمان.. فالغوريلا لا تعبر الماء أبدا (أم أن هذا خطأ آخر؟)
ظل الذكر يرمقه في فضول ثم تواري داخل الأحراش.. بعدها رأي غوريلا أصغر حجما.. أنثي.. نظرت له.. ثم أشارت بيدها

(بيتر تعال دغدغ آمي)! وثب إلى النهر صارخا: (آمي).. وسرعان ما كانت بين ذراعيه..

☆ ☆ ☆

عادت إلى المعسكر معه.. وكاد (الكيوكيو) يرمونها بالرصاص لولا أن حجب (إليوت) جسدها بجسده..

وسرعان ما تأقلم الجميع مع عودتها، وراحت تعلن مطالبها.. وضايقها أنهم لم يكن عندهم لبن أو حلوي..

سألها (إليوت) بالإشارات: (آمي) لماذا تركت بيتر؟

- بيتر لا يحب آمي..

- بيتر يحب أمي - أين ذهبت آمي؟

- آمي عند غوريلا طيبة، آمي تحب..

وهنا فهم.. لقد عاشت مع عشيرة من الغوريلات البرية عدة أيام..

- غوريلات تفعل ماذا؟

- غوريلا تشم آمي.

- آمي تحب غوريلا؟

- غوريلا غبية، غوريلا لا تتكلم.

- ولماذا عادت أمي؟

- آمي تحب بيتر، بيتر رجل طيب.

شعر برغبة في البكاء.. وسرعان ما انقض عليها يدغدغها وهي تقهقه..

☆ ☆ ☆

كانت (آمي) مصرة على رأيها: ما هاجم المعسكر ليلا لم يكن غوريلات..

بل هي (أشياء شريرة).. أما الغوريلات فهي طيبة.. وقد استضافتها بينها..
وترجم (إليوت) المحادثة لـ (مونرو)..

☆ ☆ ☆

اقتاد (إليوت) (آمي) إلى المدينة المفقودة ليرقب تعبيراتها حين ترى أحلامها وقد صارت حقيقة لكن ما حدث لم يكن متوقعا: لم تبد أي انفعال على الإطلاق.. بل أعطت انطباعا بالملل وعدم مشاركتها حماس (إليوت) المجنون..
سألها: (آمي) تعرف هذا المكان؟
- مكان قديم.. مكان سيئ.. آمي تخاف..
- لم تخاف أمي؟
- آمي تريد أكل.
ولم يفهم سر استجابتها اللامبالية إلا حين قرأ كتاب تفسير الأحلام لـ (فرويد) فيما بعد.. ويقول في فقرة منه:
- قد يحدث في ظروف نادرة حين يواجه المريض بالحقيقة خلف أحلامه، أن تكون الاستجابة الموضوعية للحالم نفس الشيء: الملل.. لكن هذا لا يعني أن الحلم خطأ.. بل إن الملل يكون واضحا جدا كلما كان الحلم حقيقيا، وكان الموضوع شاعرا بعجزه عن تبديل ما يشعر به.. لذا يجد نفسه وقد قهره التعب والملل واللامبالاة.. وهذا يعبر عن عجزه أمام مشكلة حقيقية يجب تصحيحها.
أي أن (آمي) شعرت أن المدينة خطرة جدا، إلى حد أن عقلها الباطن أرغمها على نسيان هذه الذكرى..

☆ ☆ ☆

قضى (إليوت) و(روس) بقية اليوم يدرسان الرسوم.
وعرفا أن السكان القدامى قد علموا الغوريلا كيف تحرس هذه المدينة وتهشم رأس الغرباء.. ويبدو أن أجيالا من الغوريلا الرمادية قد توارثت هذه الخبرة وعاشت ها هنا بعد ما رحل السكان..
ودنا الليل فأعلن (مونرو) أن الوقت قد حان لتحصين المعسكر..

☆ ☆ ☆

حفروا خندقا خارج المسكر وملئوه بالماء من النهر المجاور..
واحتاجوا إلى أن يضيئوا المعسكر بالأشعة تحت الحمراء وهم يعملون.
وقالت (روس):
إن الخندق عقبة هينة ليست بمشكلة.. فقال (مونرو):
- الغوريلا تمقت الماء.. وقد رأيت غوريلات ترفض عبور مجار أصغر..
وقال لـ (إليوت):
- راقب قردك جيدا.. أربطه في خيمتك..
فلو أفزعها الرصاص ليلا فأنا أكره أن أراها تركض في الظلام، هناك من الشباب هنا من لا يعرف الفارق بين غوريلا وأخرى..
أخذها (إليوت) إلى الخيمة ووضع السلسلة حول عنقها، والطرف الآخر ثبته إلى الفراش.. وأشار لها: بيتر يحب آمي..
ثم خرج إلى المعسكر الغارق في اللون الأحمر والحراس يضعون مناظير الرؤية الليلية، بينما البنادق الآلية واقفة على حواملها الثلاثية.. بدا له المنظر غير أرضي.. وثمة شبكة من الكابلات في كل صوب..

قالت له (روس) مفسرة:
- هذه البنادق مزودة بمجس حراري يجعلها تتجه نحو الهدف أوتوماتيكيا وتطلق الرصاص فتأكد من عدم المرور أمام إحداها..

مرت ساعة من الصمت.. الحمالون يتبادلون النكات باللغة السواحلية، لكنهم لا يدخنون حتى لا تشعر بهم البنادق

وفي الواحدة صباحا نامت (روس) ويدها على مفتاح الإضاءة الليلية..

وفجأة سمع (إليوت) صوت التنفس مرة أخرى..

سمع الحمالون الصوت كذلك، فصوبوا بنادقهم نحو مكانه.. كان الصوت قادما من كل نواحي الغابة.. ودوي صوت طرطشة الماء.. نظر إلى الخندق وإلى أشجار الدغل.. وأدرك أن هناك جذع شجرة يعبر الخندق.. هذا هو سر الصوت! لقد صنعوا جسرا.. لقد أساءوا تقدير ذكاء من هم بصدد مواجهته..

بدأت القردة تصرخ فوق الأشجار عندما انقض أول المهاجمين.. كان وحشا ضخما رمادي اللون.. اصطدم بالسور الكهربى فانطلق الشرر وفاحت رائحة اللحم المحترق..

عندها انطلقت البنادق المحمولة الموجهة بالحرارة تهدر.. وكانت كل عاشر رصاصة هي رصاصة تتبّع من الفوسفور الأبيض.. لذا تقاطع الأخضر والأبيض والقردة تهجم من كل اتجاه.

تسلق بعضها غصون الأشجار يبتغين الوثب من علٍ.. فصوب (مونرو) و(كاهيجا) البنادق لأعلى وراحوا يطلقون الرصاص..

الفوهات تهدر بالطلقات وقد صارت ساخنة جدا..

وبدأت الغوريلات تتراجع دون نظام..

ولفترة ظلت البنادق الموجهة بالحرارة تدور حول محورها بحثا عن هدف.. ثم هدأت أخيرا..

وساد الصمت..

☆ ☆ ☆

اليوم 11: الزنج
23 يونيو 1979

1-جوريلا إليوتنسس

في الصباح راح (إليوت) يدرس جثث الغوريلا التي بدأت تتصلب مع حرارة الصباح.. كان لونها رماديا تماما..

إن لون الغوريلا المعروفة أسود.. الأطفال يكون لونهم بنيا ثم يزداد سوادا مع تقدمهم في العمر.. ثم يكتسب الذكر بقعة فضية اللون على ظهره في سن العاشرة وهي علامة على النضج الجنسي.. وفي سن الشيخوخة يبدأ لون الشعر يستحيل رماديا، إلا أن لون الذراعين يبقى كما هو.. لكن (إليوت) قدر عمر الغوريلات الصريعة بعشر سنوات.. وكان حجمها أصغر من الغوريلا العادية.. بعد هذا قام (إليوت) بتشريح الرأس بحثا عن (العُرف السهمي) وهو بروز في قمة الرأس يعطي الغوريلا مظهرها المميز ذا الرأس المدبب.. وكان (العُرف السهمي) هنا صغيرا جدا..



فى الصباح راح (إليوت) يدرس جثث الغوريلا التى بدأت تتصلب مع حرارة الصباح ..

ولم يعد (إليوت) يحلم بشيء سوى العودة إلى الوطن بواحد من هذه الهياكل لتدوي شهرته عبر العالم.. وراح يتخيل في المستقبل ثلاثة أجناس من القردة الإفريقية:

بان تروجلودايتس الشمبانزي
جـــوريلا جـوريلا الغوريلا
جوريللا إليوتنسس جنس جديد اكتشفه هو
وتذكر في قلق - أنه لا يملك بذلة رسمية مناسبة.

كان الجميع مسرورين بنتائج معركة أمس.. وشعروا بقوة التكنولوجيا.. لكن (مونرو) ظل محصنا ضد الغرور.. وقد تفقد الذخائر وأبدى رأيا غير مشجع:

- إن نظام الليزر جيد، لكنه يبدد الذخيرة كأنما ليس هناك غد.. لقد قضت غارة البارحة على نصف ذخيرتنا..

ثم قال لـ (إليوت):

- علينا أن نجد طريقة أخرى لمكافحة هذه الغوريلا.. يجب أن نجد حلا قبل أن تنفد ذخيرتنا..

☆ ☆ ☆

2- النظر عبر القضبان..

عام 1960 أظهرت دارسات الدم القرابة الواضحة بين القرد والإنسان.. ويبدو أن أقرب قرد للإنسان هو الشمبانزي.. وعام 1964 تم زرع كلية شمبانزي للإنسان بنجاح تام وفي عام 1975 تمت مقارنة الحمض النووي للإنسان والشمبانزي.. واتضح أن نسبة الاختلاف هي 1 %..

وفي نفس العام قال عالم الرياضيات (س. ل. بيرنسكي):

- لا يوجد شك في أن الرئيسيات أكثر ذكاء من الإنسان.. من السهل أن نقول إن الإنسان هو الأذكى لأنه هو من بني حديقة الحيوان ليسجن القرود فيها..

لكننا ننسى أن القردة تعلمت التفاهم معنا، لكننا لم نتعلم الحديث معها.. عاشت بيننا لكننا لا نستطيع العيش بينها..

☆ ☆ ☆

وجاء الليل....

وقرر (مونرو) استعمال الغاز المسيل للدموع لتوفير الذخيرة.. وكان أسلوبا فعالا.. وأدى لتشتيت الغوريلا..

وأعلن (مونرو) أن ما لديهم من غاز يكفي لإبقاء الغوريلا بعيدا مدة أسبوع..

وعند الفجر وجدوا جثتي (مولوي) و (آكاري).. وفهموا أن هجمة الغوريلا كانت مناورة تسمح لغوريلا واحدة بدخول المعسكر وقتل الرجلين.. وبالبحث وجدوا جزءا ممزقا من السور الكهربي وجواره عصا.. لقد استعملت الغوريلا العصا

لترفع السور من أسفل صانعة ثغرة، تسمح لإحداها بالزحف إلى الداخل..

كان هذا الذكاء صعب القبول.. ولم يكفوا عن اعتبار الغوريلات كائنات غبية، برغم أنها استطاعت القضاء على ربع أفراد حملتهم..

☆ ☆ ☆

اليوم 12: الزنج
24 يونيو 1979

1- الرحيل..

أشارت (آمي): الرحيل نذهب الآن..
قال (إليوت):
- إن (آمي) تنصحنا بالرحيل.. وأعتقد أنها على حق..
قالت (روس):
- لا تكن سخيفا.. فنحن لم نجد الماس بعد.
نظروا إلى (مونرو).. وكانوا قد قرروا بشكل ما أنه صاحب القرار الأخير.
فقال هذا:
- أنا أرغب في الماس كأي واحد آخر.. لكنه لن يفيد إذا هلكنا.. ليس لدينا اختيار وعلينا أن نرحل إذا استطعنا..
تساءل (إليوت):
- ماذا تعنى بـ (إذا استطعنا)؟
- إذا سمحوا لنا بأن نرحل..
بدءوا يجمعون حاجياتهم فلم يحملوا إلا القليل وتركوا نطاق الدفاع والخيام وأجهزة الاتصال، ونظر (مونرو) إلى المعسكر وتمنى لو كان يفعل الشيء الصواب.. فالقاعدة الأولى لدى مرتزقة الكونغو هي (لا تترك البيت).. أي أنه من الحمق ترك المعسكر المحصن ودخول الغابة.
كانوا في المعسكر مجرد بط ينتظر الذبح.. لكن المرتزقة كانوا يقولون كذلك: إن بطة تنتظر الذبح الخير من بطة ميتة.
مشوا في غابة الأمطار.. طابور هزيل هو أو هي تشكيل دفاعي ممكن لو مشوا ساعة لوصلوا إلى جبل (موكنكو) وتكون النجاة أكيدة..

عندها سمعوا صوت التنفس والتنهد إياه قادما من وراء الأشجار.. تصلب الجميع.. فالمكان مناسب للكمائن تماما..

وتساءل (مونرو) في سره: كم من الغوريلات خلف هذه الأشجار؟ عشرين؟ ثلاثين؟ ونظر له (كاهيجا) متسائلا.. فقال بعد تفكير:

- فلنعد!

واستداروا راجعين إلى معسكرهم.. وبدأ صوت التنفس يتوارى.

وعندها عرف (مونرو) الحقيقة.. لم يعد بوسعهم الرحيل..

☆ ☆ ☆

2- العزلة..

كانت لدي (روس) أخبار سيئة.. فقد حاولت الاتصال بـ (هوستون) منذ ساعة دون جدوى.. وقالت:

- إن اليوم هو 29 يونيو.. ومنذ سبعة وعشرين يوما فقدنا الاتصال بحملة ERTS الأخيرة.

لم يفهم (إليوت) ما ترمي إليه، فقال (مونرو):

- إنها تقول لك: إن السبب متعلق بالشمس..

قالت (روس):

- نعم.. إن الشمس تحدث تغيرات في طبقة (الأيونوسفير) - وهي طبقة على ارتفاع 250 ميلا فوق الأرض تتكون من أيونات - ويحدث هذا الخلل نتيجة ظواهر مثل بقع الشمس.. والشمس تدور كل سبعة وعشرين يوما، لهذا يتكرر الخلل مرة كل شهر.. وفي العادة لا يمتد أكثر من يوم، لكن الواضح أنه قد يطول هذه المرة.. ومعنى هذا أننا معزولون تماما عن العالم الخارجي..

☆ ☆ ☆

إن سبب التشويش الشمسي غير معروف.. لكن البقعة الشمسية هذه المرة كانت هائلة الحجم يبلغ قطرها عشرة آلاف ميل، وقد أثرت في خطوط التحليل الطيفى الخاصة بالكالسيوم والألفا – هيدروجين..

ولم تؤثر البقعة في الإرسال التجاري العادي.. لكنها أفسدت الإرسال ذا الترددات المنخفضة كالتي تستعملها الـ ERTS..

بالإضافة لذلك كانت هناك إشارات مقلقة حول ثورة بركان (موكنكو) في الساعات التسع الماضية..

☆ ☆ ☆

وفي الساعة الثالثة توارى (إليوت) و (آمي) وراء الأشجار..

كان (إليوت) يحمل جهاز تسجيل و(ميكروفونا).. وراح يسجل أصوات الغوريلا في الجبال، وراح يعتمد على (آمي) في ترجمة هذه الأصوات إلى لغتنا.. كان مجهودا شاقا واعتماده عليها كالكابوس.. فهو بين يدي حيوان لا يمكن فهم أفكاره.. لكنه أنجز العمل بعد ساعات..

أما (مونرو) فكان منهمكا في تحصين المعسكر ضد هجمة الليلة، التي لديه أسباب كافية لينتظرها في رعب..

بدأ بتوسيع الخندق.. ثم حفر مصائد أفيال خارج المعسكر، وملأها بأوتاد حادة ثم غطاها بالأوراق والغصون..

كما قطع غصون الأشجار المحيطة بالمعسكر كي لا تتسلقها الغوريلات.. وأبعد الجذوع عن الخندق كي لا يتم استعمالها كجسور..

ثم وزع السلاح على رجاله، وزاد قوة السور إلى 200 أمبير، وهذا كاف ليحول السور إلى حاجز قاتل.. وعند الغروب اتخذ أصعب قراراته.. فقد وضع ما بقي من ذخائر داخل البنادق الموجهة بالحرارة..

وحين تنتهي هذه لن يكون أمامه سوى الاعتماد على خطة (إليوت)..

☆ ☆ ☆

3- الدفاع الأخير..

سال (مونرو) (إليوت):

- بعد كم من الوقت تغدو مستعدا؟

- بعد ساعتين..

وكانت (آمي) شديدة الفخر بنفسها شاعرة بأهميتها..

بينما راح (إليوت) يحصر قائمة الكلمات التي استطاع أن يعرف معناها من (آمي).. وهي اثنتا عشرة كلمة.. وقام بوضع الأصوات المسجلة في ذاكرة الكمبيوتر، وصنع حلقة برمجية تردد الأصوات مرارا، وتنقلها إلى مكبر صوت صغير..

هنا نظر (كاهيجا) لأعلى وأشار بأصبعه، وكان (مونرو) قد شعر بالشيء ذاته.. رطوبة الجو الثقيلة والإحساس الملموس بالكهرباء.. إن المطر قادم..

لكن (مونرو) كان يسمع كذلك هديرا عاليا بعيدا من العسير أن يكون رعدا.. لقد سمع هذه الأصوات من قبل ويعرف معناها.. (موكنكو)..

ونظر إلى (إليوت) و (روس) وهما جالسان أمام الكمبيوتر يتناقشان.. كأنما يملكان كل الوقت في العالم.. كان (إليوت) يحاول أن يجمع أصوات الغوريلا معا ليخلق منها جملة ذات معنى.. والمشكلة هنا أن الغوريلا لا تستعمل اللغة بمعناها المعروف.. بل هي تستعمل خليطا من الصوت والإشارات كما يفعل الإيطاليون في محادثاتهم.. لهذا حاول أن يختار الأصوات التي لا تحوي إشارة ما، وصمم جملا مثل (خطر هنا) و(ابتعد) و(نذهب الآن).. ثم قام بتركيبها ليذيعها الكمبيوتر بشكل تكراري..

سأله (مونرو):
- هل تظن هذا سيعمل؟
- لا طريقة للتيقن دون تجربة.
كانت هناك دستة اعتراضات في ذهنه.. هل تصل الرسالة دون إشارات؟ هل التسجيل واضح؟ هل تستجيب الغوريلات لصوت أنثى؟ هل؟
وهنا سمعوا صوت التنفس من وراء الأشجار..
وفجأة انهمر شلال مطر فوقهم.. وسرعان ما ابتل مكبر الصوت الهش.. وحدث ماس كهربائي في الأسلاك المحيطة بالسور فتلف تماما.. وانفجر اثنان من مصابيح الضوء.. وتحولت الأرض إلى وحل..
أما الأسوأ فهو حاجتهم إلى الصراخ، وبالتالي لن تسمع الغوريلا مكبر الصوت، والأمطار تبدد الغاز المسيل للدموع..
وبعد خمس دقائق هجمت الغوريلات..
☆ ☆ ☆

تهاوي السور وسرعان ما دخلت الغوريلات المعسكر.. وكان هجومها عنيفا منظما.. وبدا منظرها مريعا وقد اختلط شعرها بالماء فبدا كالعجين.. ورأي (إليوت) خمس عشرة منها داخل المعسكر تمزق الخيام.. وتركل حاملات البنادق، فتسقط في الوحل تتلوي كحيوان جريح..
وهوى (عزيزي) - أحد الحمالين - في الطين وقد تهشمت جمجمته.. بينما أطلق (مونرو) و(روس) و(كاهيجا) الرصاص.. لكن تصويبهم لم يكن على ما يرام..
ضغط (إليوت) زر الكمبيوتر لإذاعة الصوت المسجل.. كان كل امرئ في المعسكر في ورطة الآن.. ف (مونرو) على ظهره

وفوقه غوريلا.. بينما (كاهيجا) يقاوم الأنياب المغروسة في صدره و (روس) غير ظاهرة.. ومرّ (موزيزي) أمام مجال بندقية، فأفرغت طلقاتها فيه.. صرخ واهتز ثم هوي للأرض.

ولم يسمع (إليوت) من السماعة سوى صوت خدوش، فلم تبال به الغوريلات على الاطلاق.. عندها أدرك أنهم ضاعوا.

وانقضت غوريلا تزأر عليه.. فغطت (آمي) عينيه بكفيها خائفة.. أبعد كفيها عنه.. وهنا رأي الغوريلا تقف.. تصيخ السمع بينما هو راقد في الوحل..

جلس مذهولا.. وأدرك أن المطر قد توقف وغدا الصوت مسموعا..

ورأى غوريلا أخرى تتوقف لتصغي.. لقد صار الصوت واضحا الآن.. التقط أنفاسه ولم يجرؤ على الأمل..

وكان الأمل صحيحا.. إذا بدأت الغوريلات – كأنها في غيبوبة تتراجع في بطء واحدة خلف الأخرى.. وسرعان ما غادروا المعسكر ليدخلوا إلى الدغل من حيث جاءوا..

☆ ☆ ☆

اليوم 13: موكنكو
25 يونيو 1979

1- الماس..

في الصباح غطى الرماد الأسود المعسكر.. وعن بعد كان (موكنكو) يتجشأ كميات هائلة من الدخان.. وأشارت (آمي) - (إليوت) قائلة: (نرحل الآن)..

لكنه لم يكن ذا خبرة بالنشاط البركاني.. لكن (موكنكو) لم يكن مثيرا للقلق بشكل خاص، فهو يفعل ذلك منذ وصلوا إلى (فيرونجا)..

وكان (مونرو) يعرف البراكين جيدا، وقد شهد ثورة (مبيوتي) عام 1968 في الكونغو.. وقد أحس بثورة مقبلة من (مونكو).. إن سلوك البراكين لا يمكن التنبؤ به.. ف (موكنكو) يثور من آلاف السنين لكن حممه تنحدر إلى الجانب الآخر وهذا هو سر بقاء المدينة سالمة حتى اليوم.

لكن هذا لا يعني ألا خطر هنالك.. فقد يجدون أنفسهم وسط ثورة البركان.. عندها لن يكون الخطر من الحمم، فهي تتحرك ببطء شديد ويمكن الهرب منها جريا.. الخطر يأتي من الرماد والغازات التي تخنق لأنها أثقل من الهواء.. ومدينة الزنج منخفضة ويمكن أن يملأها الغبار البركاني خلال دقيقة.. وأثار دهشته أن (روس) لم تبد قلقة على الإطلاق..

ومن وقت لآخر كانت اهتزازات عنيفة تحدث..

☆ ☆ ☆

إن علاقة الماس بالبراكين معروفة منذ قرن فالماس - وهو بلورات من الكربون النقي - يتكون في حرارة عالية وضغط مرتفع، في طبقة (المانتل) على عمق ألف ميل تحت قشرة الأرض،

وبهذا يغدو الحصول على الماس مستحيلا ما لم يثر بركان فتحمله طبقات (الماجما) إلى أعلى..

وأغلب مناجم الماس توجد جوار براكين خامدة، في أنفاق حفرية تسمى (أنابيب كيمبرلايت).

وتقع (فيرونجا) قرب الوادي المتصدع غير المستقر جيولوجيا.. وهي تشهد نشاطا بركانيا منذ خمسين مليون سنة..

لهذا وجدوا عددا من الأنفاق - عند الظهر – في شرق المدينة.. وتقول (روس): لقد حسبوني جننت لأنني رحت أثب وأصيح.. لكنهم لم يعرفوا أن هذه كانت أنابيب (كيمبرلايت)..

وراحت تنبش في الجدران.. واستخرج (مونرو) ستمائة قيراط من الماس، بينما وجدت (روس) ما هو أكثر..

لقد كان منجما أكثر ثراء من الـ (برميير) في جنوب إفريقيا..

- إذن فالمنجم مازال حيا.. لا بد أنها ثورة الغوريلا كما قلت.

قالها (مونرو) وهو يملأ جيبه بقطع الماس..

لكن (روس) كانت تعرف الحقيقة.. فبالنسبة لسكان الزنج القدامى لم يكن لهذا الماس قيمة كأحجار كريمة.. فهو أزرق مليء بالشوائب.. سألها (إليوت):

- ما سر أهمية هذا الماس؟

- إنه سيغير وجه العالم.. وسيضع نهاية العصر النووي ليبدأ عصر جديد!

☆ ☆ ☆

2- كل شيء كان يتحرك..

تحركت الأرض تحت وطأة زلزال قوته 8 ريختر.. أو 9 بمقياس (موريللى).. وبدأت تهتز بعنف حتى إن المرء كان يجد الوقوف مستحيلا.. وراحت الأشجار تتهاوي..

بدا الأمر كالكابوس.. وقال (إليوت) فيما بعد:

كان كل شيء يتحرك واضطررنا للزحف على أيدينا وركبنا.. ورأينا مباني المدينة تتهاوى وجدرانها تضمحل والضوضاء لا تصدق..

لكن البركان لم يكن يزأر.. بل كانت الحمم تتدفق من قمته في وفرة.. وحدثت موجات تصادم أطارتنا أمتارا إلى الوراء..

وأصيبت (آمي) بالهلع ووثبت بين ذراعي (إليوت)، وبالت فوق ثيابه وهم يركضون نحو المعسكر..

كانت السماء سوداء كالليل.. لكن الهواء المشبع بالرطوبة أدى إلى حدوث صواعق كهربية.. وشعرت (روس) بتناقض بين رغبتها الجيولوجية في رؤية هذه الظاهرة الفريدة، ورغبتها في الفرار بحياتها..

وهوى لسان برق ليضرب أحد الحمالين.. فلم يصرخ.. فقط تألق بلون أبيض ثم هو أرضا، ورائحة الكهرباء واللحم المحترق تنبعث منه..

وفي المعسكر وجدوا (كاهيجا) يحاول جمع الخيام للرحيل لكن هذا كان مستحيلا.. واحترقت إحدى الخيام بلسان برق..

- دع هذا حالا!

صرخ (مونرو).. ونظروا ليجدوا (روس) وقد اسود نصف وجهها واحترق ذراعها.. فقد ضربها البرق برغم أنها لا تذكر

ذلك..

- هلموا نصعد إلى الجبال.

وسمعوا صوت الغوريلات المحترقة تصرخ حين بلغتها الحمم.. وسرعان ما انهار ستار الأشجار المحيط بالمدينة.. وفي النهاية غاصت المدينة كلها في سحابة سوداء ثم اختفت..

لقد دفنت مدينة الزنج المفقودة للأبد.. ومعها دفن الماس..

☆ ☆ ☆

3- الكابوس.

لم يكن لديهم طعام ولا ماء.. ومعهم قليل جدا من الذخيرة.

وقد دخلوا الغابة بثياب محترقة ممزقة، لا يكادون أن يتبادلوا الكلام.. العالم كالح عديم اللون.. السماء سوداء تلتمع فيها شرارات حمراء.

وهم يمشون في عالم من (السناج)..

(مونرو) يشعر بإحباط المقامر الذي راهن بالطريقة الصحيحة لكنه خسر، لقد كان محقا حين تجنب فريق (الألمان - اليابانيين).. كان محقا حين اختار ERTS.. وبرغم هذا هو صفر اليدين.. ليس تماما فهناك بعض الماس في جيبه على كل حال.

أما (إليوت) فراح يرمق جنون الطبيعة.. الطيور تهوي من السماء مختنقة والوطاويط تحلق ظهرا.. والفهود تصرخ.. لقد عاد دون هيكل عظمي أو صور أو شرائط فيديو.. ومن دون هذا لن يجرؤ حتى على الحديث عن اكتشافه.

كانت خطة (مونرو) هي الوصول إلى طائرة المنافسين التي وجدوا حطامها منذ أيام.. فيها الطعام والذخائر.

استغرقوا ست ساعات حتى وصلوا هناك، فوجدوها مغطاة بالغبار الأسود.. ومن بعيد يسمعون طلقات مدفعية (موجورو) وطبول (الكيجاني) تحركوا إلى الأمام.. لكن (آمي) كانت خائفة وأشارت لـ (مونرو) مرددة.

- لا تذهب ناس هناك.. ترجم له (إليوت) ما قالت فقطب وانتظر.

وبعد دقائق ظهر رجلان من (الكيجاني) على جناح الطائرة يحملان بعض صناديق الويسكي، ويحاولان إنزالها لأسفل..

ثم ظهر خمسة رجال من داخل الطائرة.. وتحركت المجموعة مبتعدة..

نظر (مونرو) إلى (آمي) وابتسم... فأشارت له (آمي غوريلا طيبة) انتظروا عشرين دقيقة ثم تحركوا إلى الطائرة ودخلوها.

فجأة راحت السهام البيضاء تنطلق نحوهم..

أغلق (مونرو) الباب فراحت هذه تصطدم بالمعدن.

كان داخل الطائرة مظلما.. والقاع منحدرا بزاوية مجنونة.. وحين نظروا من النافذة رأوا نصف دستة من الرجال المدهونين بلون أبيض يتسلقون الأشجار.

تساءلت (روس):

- ماذا نفعل؟

قال (مونرو) وهو يفتح صندوق ذخيرة:

- نقتلهم طبعا.. فلسنا نعاني أزمة ذخائر..

لكنهم كثيرون..

- نعم.. لكن رجلا واحدا يهمنا الآن.. احرصوا على قتل الرجل الذي يرسم خطوطا حمراء تحت عينيه.. فهذا هو (الأنجاوا) الساحر.. عندها نخرج من ورطتنا

راح (الكيجاني) يرمون الطائرة بسهامهم وبرازهم الذي راح يرتطم بجدارها المعدني.. بينما الطبول تدق باستمرار.

راحت (آمي) ترتجف، وربطت نفسها إلى المقعد وأشارت:

- آمي ترحل الآن طائر يطير..

ووجد (إليوت) رجلين في مؤخرة الطائرة..

ولدهشته أطلق عليهما الرصاص دون تردد فتناثر الدم ليلوث النوافذ.

- هذا رائع يا دكتور!
قالها (كاهيجا) وهو يربت على كتفه.. وراح (الكيجاني) يتسلقون جسد الطائرة ويحاولون الدخول من باب البضائع.. فصاح (مونرو):
- لو قبضوا عليكم لأكلوكم!
أطلقت (روس) رصاصها.. وتبعثر الدم في كل مكان.. وتهشمت النوافذ.
- ها هو ذا الوغد! - صرخ (مونرو) على شاب في العشرين رسم خطوطا حمراء تحت عينيه وأطلق الرصاص - لقد قتلته!
سقط الفتى على الأرض.. فكف (مونرو) عن إطلاق النار وجلس تاركا المحاربين يحملون جسد ساحرهم في صمت.. ويغادرون الطائرة..
لقد انتهت غارة (الكيجاني).

☆ ☆ ☆

سأله (إليوت):
- هل كسبنا الحرب؟
فقال (مونرو):
- سينتظرون حتى الليل ثم يهاجمون من جديد..
لم يكن هناك حل سوى مغادرة الطائرة.. أو الاحتماء بها كحصن، وهذا يقتضي إحراق بعض الأشجار لإخلاء مساحة حولها.
وطلب من (كاهيجا) البحث عن علب الوقود.
هنا سمع صرخة (روس).. فجرى ليرى ما دهاها..

وجدها جالسة على مقعد تضحك في هستيريا.. والرجال حولها حائرون.. كان (كاهيجا) جالسا جوار خزان كبير كتب عليه (بروبان).. وقال:

- إنها رأت هذا وسألتني عن المزيد.. فقلت لها إن هناك ست خزانات منه.. عندها راحت تضحك..

قطب (مونرو) وبدأ يفهم:

- إنها كمية هائلة من الغاز.. لقد فهمت..

- هلا شرح لى أحدكم معنى هذا؟

معناه أن الأمور تتحسن..

☆ ☆ ☆

مدفوعين بخمسين ألف رطل من الهواء الساخن، بدءوا يرتفعون في منطاد المنافسين.. وحلقت الكرة العملاقة في ظلام الغابة.

جاء (الكيجاني) يركضون نحو المنطاد.. وأطلقوا عليه سهامهم ورماحهم لكنه كان قد ارتفع عن مجالها..

وعلى ارتفاع عشرين قدما جاءت ريح شرقية حملتهم فوق الوادي المتصدع.. وانحدر المنطاد جنوبا في ضوء القمر..

نحو (كينيا).. ونحو الحضارة..

مايكل كرشتون
1980

(تمت بحمد الله)

كونغو..!

برغم تقنيات الكمبيوتر والقمر الصناعي والتقدم في الاتصالات: فإن الكونغو مازال موضعا خطرا نجهل عنه الكثير.. وفي هذه الرواية الممتعة نرى المواجهة بين الليزر والغوريلا.. بين الاستشعار عن بعد والبراكين، بين القمر الصناعي وأكلة لحوم البشر بين التقدم العلمي الذي لا يرحم والطبيعة التي لا تمزح!


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

[←1]

Interference Signature

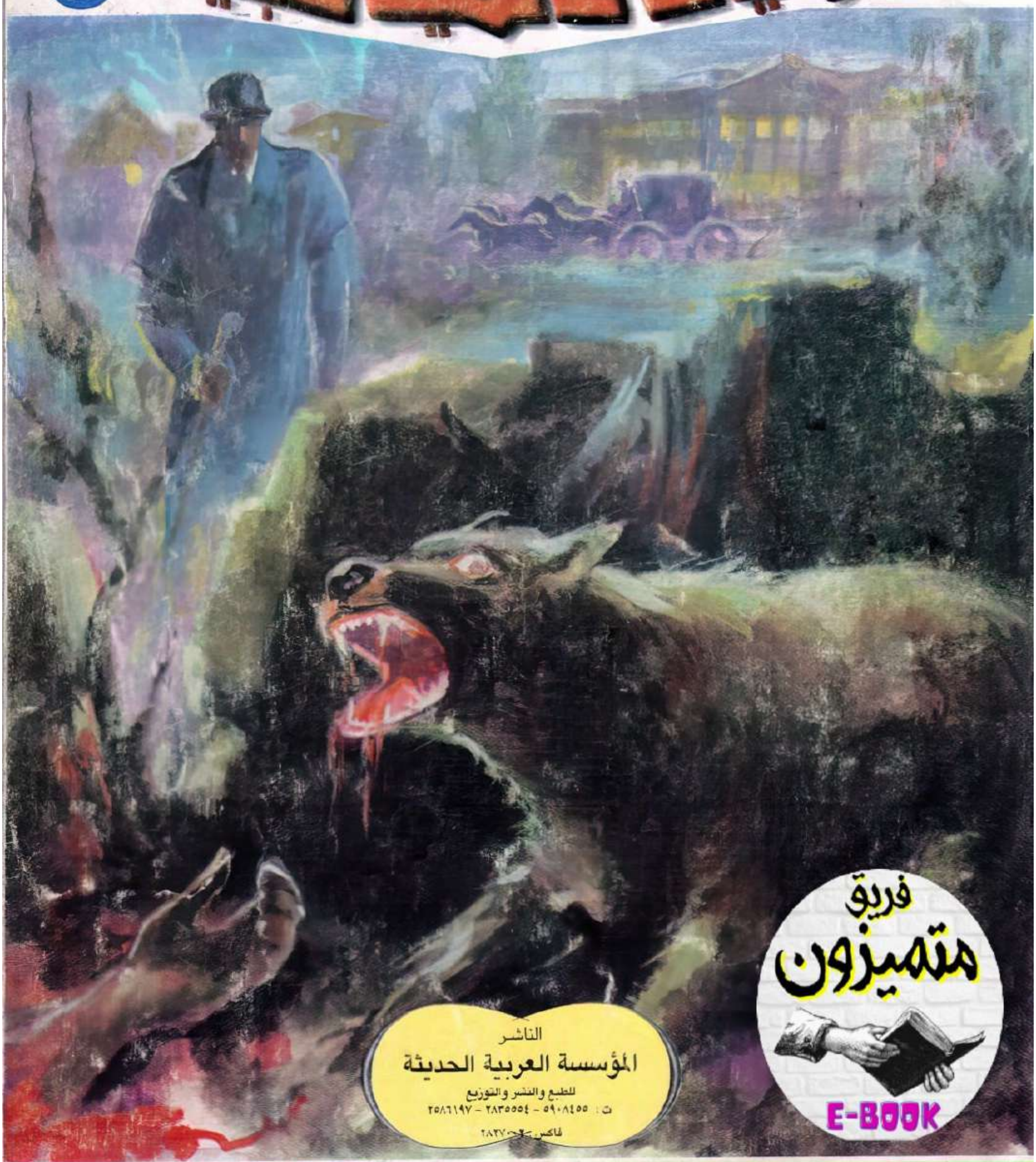
[←2]

كانت هذه المدينة هي أساس قصة (رايدار هجارد) الشهيرة (كنوز الملك سليمان)، التي نشرت عام 1885.. ويبدو أن المؤلف سمع قصة المدينة من قبائل (الزولو).

[←3]

بعد الانقلاب الذي تم على (موبوتو) عادت البلاد تسمي (الكونغو) مرة أخرى.

روايات عالمية للجيب 24



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧

كلب آل باسكرفيل

قصة: آرثر كونان دويل
ترجمة وإعداد:
د. أحمد خالد توفيق

(كلمة مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (24)

كلب آل باسكرفيل

بقلم: آرثر كونان دويل.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف

للمرة الثانية نلتقي مع سير (آرثر كونان دويل)..
لقد كان لنا لقاء ممتع مع أدبه في (العالم المفقود)، لكننا لن نعرفه حقًّا ما لم نقدم له إحدى القصص التي يقوم ببطولتها (شيرلوك هولمز)..
وللتذكرة نقول إن سير (آرثر كونان دويل) طبيب.. وكان في سني دراسته منبهرًا بأستاذه العظيم د. (جوزيف بل) الذي برهن على قوة ملاحظة مذهلة.. فكان يعرف مهنة المريض ومرضه ومشاكل الأسرية من نظرة واحدة..
وكان (جوزيف بل) فارع الطول معقوف الأنف يدخن الغليون، وله عينا صقر.. وهذه هي الصفات التي خلق منها (دويل) شخصية بطله (هولمز)..
إن (هولمز) هو أقوى شخصية عرفها الأدب البوليسي عمومًا.. ومازال في لندن من يقيمون الأندية تخليدًا له، ويزورون شارع (بيكر) لرؤية بيته المفترض، وقد قرأت دراسة مرهقة تحاول إثبات أن (واطسون) - صديق (هولمز) - كان امرأة.. وأن عناوين القصص تكشف اسمها!
بدأ ظهور قصص (هولمز) عام 1891 وحققت نجاحًا ساحقًا.. ونذكر منها هنا: (العصابة الرقطاء)، (مذكرات هولمز)، (علامة الأربعة)، (عودة هولمز)، (عقدته الأخيرة)، (قضية هولمز)..
وقد فشلت كل محاولات (دويل) للخلاص من (هولمز).. بل إنه قتله في إحدى رواياته.. لكن انهمر عليه سيل من رسائل القراء أرغمه على أن يعيد إحياءه في رواية تالية..
وهكذا نجد ممن يحبون (هولمز) كثيرين في اليابان.. وفي روسيا ينتظر الناس حلقاته التلفزيونية فى شغف.. ولا يوجد من لا

يعرف هذا المخبر العبقري الجالس أمام المدفأة يدخن الغليون، ومعه راوي قصصه محدود الذكاء د. (واطسون) الذي يحاول أن يفكر مثله لكنه يعجز دائمًا..
الرواية التي بين يديك الآن من الروايات المحدودة جدًّا لـ (هولمز).. لأنك تجده أكثر في القصص القصيرة - وهي من الأعمال الشهيرة التي أغرت السينما بتقديمها مرارًا.. ولسوف نجد فيها الكثير من الإثارة والفكر الممنطق، وبعض الرعب، وقليلًا جدًّا من الجوانب الإنسانية..
أرجو أن تروق لكم كما راقت لآلاف القراء من قبل..

د. أحمد خالد

∞∞∞∞∞∞

-1-

وجه صديقي (هولمز) الكلام إلى ضيفه:
- « قل لى كل ما تعرف عن القضية.. »
قال د. (جيمس مورتيمر) وهو يخرج ورقة عتيقة من جيبه:
- « كانت هناك صداقة حميمة بيني وبين المرحوم السير (تشارلس باسكرفيل).. بالإضافة إلى كوني طبيبه الخاص.. وقد كان رجلًا عقلانيًّا لا يبالي بالخرافات، لكن هذه الوثيقة كانت تثير اهتمامه إلى حدّ كبير.. »
ثم نظر إلى (هولمز) وقال:
- « هذه الوثيقة تتحدث عن أسطورة خاصة بآل (باسكرفيل).. وأرجو أن تسمح لي بقراءتها لأنها تتعلق بما نحن فيه.. »
أغمض (هولمز) عينيه ليحسن الإنصات، واسترخى في مقعده.. بينما راح صوت د. (مورتيمر) يتردد حاكيًا قصته الغريبة:
- « هأنذا أحكي قصة كلب آل (باسكرفيل) كما سمعتها عن أجدادي.. فقد كان قصر (باسكرفيل) آل إلى (هوجو) الشرير.. الذي اشتهر أمر فسقه وفجوره في البلاد.. وأحب هذا الشيطان ابنة مزارع فقير، لكن الفتاة صدته وأبت أن تكون له..
»وفي ليلة اغتنم الفتى فرصة غياب أهلها، واختطفها.. وعاد بها إلى قصر أجداده، حيث حبسها في الطابق العلوي، بينما راح ورفاق السوء يثملون ويصخبون..
»كانت البائسة خائفة.. وقد حاولت الفرار هابطة على غصون النباتات خارج نافذتها.. وراحت تركض في الظلام قاصدة العودة لذويها.. »

لكن (هوجو) شعر بفرارها فثار غضبًا، ونزل ليخبر رفاقه.. عندها اقترح سكير منهم أن يبعثوا في إثرها بكلاب الصيد.. وراقت الفكرة لـ (هوجو) فأتى بمنديل من مناديل الفتاة، وقربه من أنوف الكلاب.. فانطلقت هذه كالشياطين في ضوء القمر تبحث عن الفتاة البائسة.. »
»أما (هوجو) فانطلق بجواده وراء الكلاب.. »
»بعد قليل انطلق رفاقه السكارى يبحثون في الفلاة المحيطة بالقصر عن الفتاة أو الكلاب أو (هوجو)..
لم يجدوا سوى الجواد الأسود يركض دون فارس في الفلاة وقد أصابه الجنون.. وواصل الرفاق طريقهم متوجسين خيفة.. كان عواء الكلاب يتعالى.. وأخيرًا وجدوها تقف على حافة هاوية وهي تنظر لأسفل في هلع.. »
»ودنوا من الحافة ونظروا لأسفل.. فرأوا الفتاة البائسة في قاع الهاوية، وقد سقط ضوء القمر عليها.. كانت جثة هامدة.. »
لكن ما أثار رعبهم أكثر من سواه هو (هوجو باسكرفيل).. كان ممددًا جوار الفتاة يقف فوق جثته كلب عملاق أسود كالليل.. وكان الكلب يطبق على عنق (هوجو) بفكين هائلى الحجم، ثم انتزع العنق مرة واحدة.. ورفع نحوهم عينين تتقدان نارًا، وفكين يسيل الدم منهما.. »
»كان هذا كافيًا كي يفر الفتيان راجعين إلى ديارهم.. وقد مات أحدهم رعبًا، بينما أصيب الباقون بانهيار عصبي بقية حيواتهم..
»
»تلكم هي قصة الهول الذي عاش يلاحق أسرة (باسكرفيل) منذ ذلك الحين.. ولقد لقى أكثر من واحد من أفرادها حتفه بطريقة غامضة منكرة.. إن اللعنة تطاردنا جيلًا بعد جيل منذ فتح (هوجو) أبوابها.. »

»وأنصح الأجيال القادمة: لا تمشوا في الفلاة ليلًا حين تخرج قوى الشر الخفية كي تمارس سلطاتها في الظلام.. »
وانتهى د. (مورتيمر) من قراءة الوثيقة.. ثم قال لـ (هولمز):
- » والآن دعني أتل عليك هذا الجزء من صحيفة (ديفون شاير) التي صدرت في 14 يونيو.. وهى تحكي عن وفاة سير (تشارلز باسكرفيل).. »
لاحت أمارات الاهتمام على (هولمز).. فطفق د. (مورتيمر) يتلو:
- « صدمت مقاطعة (ديفونشاير) لهول أنباء وفاة سير (تشارلز باسكرفيل) مرشح مجلس العموم.. فقد كان الفقيد عائدًا من جنوب إفريقيا، حيث جمع ثروة من أعمال المناجم، وأقام في قصر أجداده بالمقاطعة، ولم يكن قد أعقب ولدًا، لهذا كرس حياته لخدمة أرض أسلافه.. »
» عاش سير (تشارلز) في قصره عزبًا، يقوم بخدمته اثنان هما (باريمور) وامرأته.. وقال الاثنان إن سير (تشارلز) كان معتدل الصحة في أواخر أيامه.. ضيق الصدر واهن القلب، وهذا ما أيده طبيبه د. (مورتيمر).. »
»وفي يوم الوفاة نهض سير (تشارلز) للقيام بجولته الليلية المعتادة في الممر المؤدي للقصر واتجه إلى الأشجار وهو يدخن سيجارًا كدأبه في كل ليلة.. »
« وفي منتصف الليل رأى (باريمور) الباب الخارجي للحديقة مفتوحًا.. فأثار هذا قلقه، وحمل مصباحه ليتبين ما هنالك.. وكان أن وجد جثة سير (تشارلز) عند نهاية الممر خارج الحديقة.. »
» ويقول (باريمور) إن سير (تشارلز) كان يمشي على مجمع قدميه في بداية رحلته.. ثم تغيرت خطواته بعد عبور البوابة

فراح يمشي على أصابع قدميه، وقد أثارت هذه المقولة حيرة وأي حيرة.. »

»وصرح تاجر خيل من الغجر، أنه كان دانيًّا من مكان الحادث، حين سمع صوت صراخ لم يدرك مصدره.. »

»لم تكن ثمة آثار عنف على جثمان سير (تشارلز).. غير أن الوجه كان متقلصًا رعبًا حتى إن ملامحه تبدلت تمامًا.. وكشف تشريح الجثة أن سبب الوفاة كان نوبة قلبية عنيفة.. »

« والوريث الجديد للقصر هو الوحيد.. وهو مستر (هنرى باسكرفيل) ابن أخي الفقيد، وهو مقيم حاليًا في أمريكا.. لكن ثروة طائلة قد آلت إليه بوفاة عمه.. »

وانتهى د. (مورتيمر) من القراءة.. فسأله (هولمز):

- « لابد أن لديك من الأسباب ما يدعوك لطلب رأيي.. »

- « أنا يا مستر (هولمز) رجل علم.. يكره أن يقال عنه إنه يصدق خزعبلات الفلاحين.. لكني أعرف أن خرافة كلب (باسكرفيل) التي حكيتها لك كانت تملك من سير (تشارلز) كل مملك قبل وفاته.. وكان يؤمن بها ويتحاشى السير في الفلاة ليلًا.. »

»لكَمْ من مرة سألني عما إذا كنت أسمع عواء كلب هائل، أو أرى وحشًا غريبًا في الفلاة المحيطة بالقصر.. وذات مرة زرته قبل وفاته فوجدته ينتظرني عند الباب.. ورأيت عينيه تتسعان هلعًا.. نظرت ورائى فرأيت حيوانًا أسود ضخم الجسد في حجم عجل يركض مبتعدًا.. حاولت اللحاق به، لكنه كان قد ذاب في الظلام.. »

»وأحدثت هذه الحادثة أسوأ الأثر لدى سير (تشارلز).. وبدأ فؤاده يضعف.. لهذا اقترحت عليه أن يسافر بعض الوقت إلى

(لندن) لينسى كل شيء عن قصر أجداده المخيف والقفر المحيط به.. »

»وفي ليلة وفاته أرسل خادمه (باريمور) عامل الاسطبل (بركنز) كى يأتى بى.. هرعت إلى القصر ولاحظت ما لاحظه (باريمور) من اختلاف في آثار الأقدام.. لكني لم أر آثار أحد سوى أقدام (باريمور).. »

»كان سير (تشارلز) منبطحًا على وجهه، وأصابعه قد حفرت الأرض.. وعلى وجهه كانت أعنف أمارات هلع رأيتها.. وقمت بالبحث حول الجثة فوجدت آثار أقدام حديثة العهد.. آثارًا غير آدمية.. »

ونظر لنا بعينين غريبتين.. وبصوت مبحوح أردف:

- « آثار أقدام كلب ضخم ! ».

∞∞∞∞∞∞

-2-

شعرت برجفة تسري في عروقي حين سمعت العبارة الأخيرة، أما (هولمز) فراح يسأل د. (مورتيمر) في حرص:

- »هل أنت واثق من رؤيتك هذه الآثار؟ »

- « كما أنا واثق من أنني أراك.. »

- »ولم يرها أحد سواك؟ »

- « كانت بعيدة عن الجثة حوالي عشرين مترًا.. ويمكن بسهولة ألا تراها.. لكنى أؤكد أنها هائلة الحجم.. »

- « هلا وصفت لي الممر الذي هلك سير (تشارلز) في نهايته؟»

- « إنه طريق مرصوف بين صفين من أشجار كثيفة ارتفاعها اثنا عشر قدمًا، ويوجد حزام من العشب يفصل الأشجار عن الطريق.. ويوجد باب صغير على جانب الممر يقود إلى الفلاة.. وباب في نهايته يقود إلى المنزل الصيفي.. »

- « وهل كان الباب الصغير مغلقًا؟ »

- »كان عليه قفل محكم.. لكن أي امرئ يقدر على الوثب فوقه.. والآثار كانت هناك.. يبدو لي أن سير (تشارلز) وقف هناك بعض الوقت لأن رماد لفافة تبغه تساقط هناك مرتين.. إن المرء ينفض السيجار مرة كل خمس دقائق.. »

قال (هولمز) في سرور:

- « مرحى ! إن د. (مورتيمر) يفكر مثلنا يا (واطسون).. »

وضرب بقبضته على ركبته متحسرًا.. وقال:

- « ألا ليتني كنت هناك ! الحق أنها قضية شائقة.. »

قال د. (مورتيمر) في تردد:

- »إن هذه القضية تحمل طابعًا خارقًا للطبيعة.. لا أجرؤ على قول هذا، لكن الأساطير قد كثرت في المنطقة إلى حدّ مريب..

لقد رأى الناس في الفلاة وحشًا فيه كل صفات كلب (باسكرفيل).. يقولون إنه مخلوق هائل الحجم يشع ضوءًا كأنه شبح ».
»لقد أجمع الكثيرون على ذات الوصف.. ودعني أؤكد لك أن ملكوت الرعب قد بسط جناحيه فوق المقاطعة.. فلا يجرؤ على المشي في الفلاة ليلًا إلا رجل له قلب من فولاذ.. »
- »وهل حقًّا - وأنت رجل علم - تؤمن بهذه الترهات؟ »
- « أنا لا أدري ما أعتقده.. »
هزّ (هولمز) كتفيه وقال:
- « أرى تناقضًا في كلامك يا سيدى.. فقد جئت تطلب عوني، وبرغم هذا أراك تحمل يقينًا بأن في الأمر شيئًا خارقًا للطبيعة يستحيل عليّ معرفته »
- « أنا لم أطلب منك التحقيق في مصرع سير (تشارلز).. بل أرغب منك أن تحمى سير (هنرى باسكرفيل).. الذي سيصل إلى (ووترلو) حالًا.. »
- « الوريث المقيم في أمريكا؟ »
- « نعم.. وهو شاب حسن الخلق، وأنا القائم على تنفيذ وصية سير (تشارلز) »
- « هل من ورثة آخرين؟ »
- « هناك (رودجر باسكرفيل) أصغر ثلاثة أخوة.. وكان سيئ الخلق.. رحل إلى أمريكا الوسطى، ومات هناك بالحمى الصفراء.. وهناك أخ أوسط توفى شابًا، وخلّف لنا (هنرى).. وهناك أخ كبير هو سير (تشارلز) رحمه الله.. وأنا أجد عُسرًا في قبول أن يدخل سير (هنرى) قصر أجداده.. »
- « لم لا؟ »

- « هل تنسى اللعنة المحيطة بهذا البيت؟ أنا أعرف أن سير (هنرى) سيلقى ما لاقاه سابقوه.. لكني - من ناحية أخرى - أرغب في أن يتواجد واحد من آل (باسكرفيل) هنا دومًا.. فوجودهم ينعش المقاطعة بمشروعات نافعة لا غنى عنها.. »
قال (هولمز) بعد تفكير:
- « لكن - إذا صحت نظريتك بخصوص وجود قوى مما وراء الطبيعة - فهذا يعني أن الخطر يهدد الوريث في كل مكان.. وليس في (ديفون شاير) وحدها »
- « هذا صحيح.. »
- « إذن خذ عربة واتجه لاستقبال سير (هنري) في المحطة.. ولا تقل له شيئًا حتى أكون رأيًا.. »
- « ومتى تكون رأيًا؟ »
- « أعطني يومًا.. وسأكون لك شاكرًا لو جئتنى في العاشرة غدًا ومعك سير (هنرى).. »
- « ليكن.. »
وغادر الدكتور (مورتيمر) المكان.. فجلس (هولمز) يبتسم راضيًا إذ وجد قضية معقدة بما يكفي.. وسألني:
- « هل أنت خارج يا (واطسون)؟ »
- « نعم.. »
- » إذن أرجو أن تمر على حانوت (برادلى) وتطلب منه أن يرسل لى أفضل ما عنده من تبغ.. وإنني لأرجو - كذلك - أن تتأخر في العودة ليلًا كى تتيح لى التفكير في هذه القضية الشائقة.. »

∞∞∞∞∞∞

عدت من النادي في التاسعة مساء ففتحت باب الشقة..
خيل لي أن حريقًا قد اجتاح المكان.. دخان كثيف يغطى كل شيء.. وبصعوبة أدركت أن هذا دخان غليون (هولمز).. ورأيته

وسط السحب جالسًا على مقعده الأثير يدخن، وجواره على المنضدة لفافات ورق كثيرة..
قال لي وأسنانه تطبق على الغليون:
- »هل أصابك البرد؟ أراك أمضيت وقتك في النادي.. «


قال لى وأسنانه تطبق على الغليون :
ـ «هل أصابك البرد ؟ أراك أمضيت وقتك فى النادى . .»

بدت عليّ الحيرة.. فقال:
- »هذا منطقي جدًّا يا عزيزي.. فاليوم ممطر وأنت نظيف لم يتسخ حذاؤك ولم تبتل ثيابك.. وأنت بلا أصدقاء سواى، فأين

أمضيت اليوم إذن؟ »
- « هذا.. حسن.. أمر واضح.. »
- « ثمة أشياء كثيرة لا يفطن أحد لها برغم وضوحها.. وأين تحسبني ذهبت؟ »
- « ظللت حيث أنت.. »
- « بالضبط.. لكني شربت قدحين من القهوة الممتازة، ودخنت كمية هائلة من التبغ الجيد.. وأرسلت في طلب خريطة لـ (ديفون شاير) كى أدرس مسرح الحادث.. »
ومدّ يده ليفتح خارطة كبيرة جواره.. وأشار إليها:
- « هو ذا قصر (باسكرفيل).. توجد غابة حوله.. ثم هي ذي قرية (جريمين) حيث يقيم د. (مورتيمر).. ثمة مزرعتان في قلب الفلاة، هما (فولمير) و(هاى نور).. ثم سجن (برنستون) الكبير هنا.. »
ثم أشار إلى النافذة التي فتحتها وقال:
- « أرجو أن تعيد غلقها يا (واطسون).. فإن الأماكن المغلقة تساعدني على تركيز أفكاري.. ليس إلى حد الحياة في صندوق طبعًا.. »
ثم سألنى:
- « دعنا نتأمل هذه القضية.. لنر أولًا ذلك التغير في آثار الأقدام في الممر.. لقد تكلم عنه د. (مورتيمر) وقال إن سير (تشارلز) بدأ في السير على أطراف أصابعه.. ما معنى هذا؟ إن هذا يبدو سخيفًا.. »
- »وما رأيك؟ »
- « كان الرجل يجري يا (واطسون).. يجرى فارًّا بحياته.. ثم أصيب بنوبة قلبية اجتمع فيها المجهود والذعر فهوى ميتًا.. »
- « وما الذي رآه؟ »

- « لا أدري.. لكنه شيء جعله يجن هلعًا.. بالتأكيد جُنّ هلعًا.. ففي فراره لم يتجه إلى المنزل حيث الأمان، بل ابتعد عنه.. ويبدو أنه صرخ كثيرًا طالبًا الغوث - طبقًا لرواية الغجري - ثم بحّ صوته.. وهنا نقطة أخرى: من الذي كان ينتظره في الممر ليلتها؟ »

- « ومن قال إنه كان ينتظر أحدًا؟ »

- « هذا واضح.. رجل مريض، شيخ يخرج في الليل البارد.. وينتظر عشر دقائق كاملة جوار باب المروج.. ليس هذا بأسلوب من يتريّض.. إن القضية قد غدا لها جسد يا (واطسون).. فهلا ناولتني القيثار؟ علينا أن ننحي كل شيء عن أذهاننا حتى نلقى د. (مورتيمر) وسير (هنرى) غدًا.. ».

∞∞∞∞∞∞

-3-

ما كادت الساعة تدق العاشرة حتى جاء زائرانا.. واستقبلهما (هولمز) في روبه المنزلي.. لقد كان الميعاد دقيقًا..

كان السير (هنرى) في الثلاثين من عمره، ذا شعر أسود وحاجبين كثين.. وقد لوحت الشمس بشرته مما يشي بكفاحه تحت تقلبات الجو.. وكانت سمات الأرستقراطية والاعتداد بالنفس تتمشى مع ما قيل عن أصله..

قال لـ (هولمز):

- »كنت قادمًا لزيارتك يا مستر (هولمز) حتى قبل أن يكلمني د. (مورتيمر) عنك.. فقد حدثت واقعة غريبة نوعًا لى.. هذا الخطاب.. «

كان مظروفًا رمادي اللون كتب عليه بخط متعرج: سير (هنرى باسكرفيل) - فندق (نورث مبرلند).. ويبدو أن مكتب البريد ختمه مساء أمس..

- »هل كان أحد يعرف أنك تنتوى الإقامة في ذلك الفندق؟ «

- « لا أحد سواى ود. (مورتيمر).. »

فتح (هولمز) المظروف فأخرج ورقة مطوية فتحها.. فقرأنا عبارة واحدة تم تكوينها من كلمات مطبوعة ملصقة:

- « لا تمش في الفلاة حرصًا على حياتك.. »

وكانت كلمة (الفلاة) هي اللفظة الوحيدة المكتوبة يدويًا..

قال (هولمز):

- »هلا جلبت لى نسخة من جريدة (التيمس) الصادرة أمس يا (واطسون)؟ «

وأحضرت له الجريدة.. ففتحها وراح يتأمل صفحاتها.. ثم نظر إلى العمود الافتتاحي وقال:

- »هو ذا مقال افتتاحي عن حرية التجارة.. يقول المقال: هناك فريق يؤكد أن زيادة الضرائب الجمركية تحمي الصناعة المحلية.. نقول لهذا الفريق: (لا تمش في هذا الطريق (حرصًا على) اقتصاد البلاد.. إن نقص الواردات يؤثر في (حياتك) وحياة كل مواطن.. »
وفرك كفيه.. وقال بمرح:
- « ما رأيك يا (واطسون)؟ »
قال سير (هنرى) في حيرة:
- »إن ضرائب الجمارك هي آخر ما أفكر فيه الآن يا مستر (هولمز).. »
قال (هولمز):
- »بل العكس.. إن الرسالة التي وصلتك جاءت من هنا.. فهاهنا تجد كلمات (لا تمش في) و(حرصًا على) و(حياتك).. »
هتف د. (مورتيمر) في دهشة:
- »إن هذا مذهل يا مستر (هولمز) ! كيف عرفت اسم الصحيفة ومقالها الافتتاحي بهذه السرعة؟ »
قال (هولمز):
- « كما يمكنك يا د. (مورتيمر) أن تميز بين جمجمة الزنجي وجمجمة الإسكيمو.. أنا كذلك أميز افتتاحية (التيمس) أنيقة الحروف ثابتة الحبر من باقي الصحف.. هذا شيء واضح.. وقد رجحت أن يكون صاحب الرسالة اختارها من جريدة أمس.. نفس يوم الإرسال.. ويمكن القول إنه قصّ الكلمات بمقص أظفار.. هذا واضح من قطع الورق.. وألصقها بالصمغ فوق الورقة.. »
- « ولماذا كتب (فلاة) بخطه؟ »

- »من العسير أن تجد لفظة (فلاة) في الجريدة.. فهي لفظة غير شائعة.. »
- »هذا رائع.. هل تدلنا الرسالة على شيء آخر؟ »
- « كما ترون.. العنوان مكتوب بخط رديء.. وهذا معناه أن مرسل الرسالة رجل مثقف حاول انتحال خط غير خطه.. لأن جريدة (التيمس) شبه قاصرة على المثقفين.. إنه شخص يخشى أن نرى خطه.. ثم هو يتصرف بعجلة كما هو واضح من قلة العناية بلصق الكلمات.. فلماذا هو متعجل؟ »
قال د. (مورتيمر):
- »هنا تنتهي الحقائق وتبدأ الافتراضات.. »
- « بل نحن نعمل بطريقة علمية منظمة[1].. ويمكنني أن أذهب أبعد من هذا، فأقول إن عنوان الرسالة على المظروف قد كتب في فندق.. »
- « وكيف تعرف هذا؟ »
- « سنرى من العنوان أن هناك عسرًا واضحًا في استخدام المداد.. وقد تم ملء قلم الحبر ثلاث مرات.. ولا أحد يترك قلمه في حالة كهذه ما لم يكن بعيدًا عن المحبرة.. أي أنه في فندق.. وأراهن أننا لو فتشنا في سلال المهملات الخاصة بالفنادق في (تشيرنج كروس)، لوجدنا جريدة (التيمس) ذات الفجوات إياها.. »
ثم نظر إلى سير (هنرى) سائلًا:
- « ألم يحدث لك شيء غير مألوف منذ وصلت إلى (لندن)؟ »
فكر سير (هنرى) قليلًا.. ثم قال:
- « أنا لا أعرف ما هو مألوف أو غير مألوف بالنسبة لحياة اللندنيين.. لكني لا أحسب فقد فردة حذاء حدثًا مألوفًا.. »

- « هذا مهم.. أرجو أن توضح لي أكثر.. »
- « لا شيء.. تركت الفردة مع زميلتها خارج حجرتي في الفندق، وفي الصباح لم أجدها.. والخادم لا يعرف شيئًا.. لقد ابتعت الحذاء ولم أضعه في قدمي قط.. لقد كان ثمينًا يساوي ستة ريالات.. »
قال (هولمز):
- « أعتقد أنها لم تكن سرقة وإنما هي إهمال عادي.. وأنك حتمًا واجد الحذاء.. »
هنا كان صبر السير (هنرى) قد نفد.. فهو لا يملك أية خلفية عن الموضوع.. لهذا طلب من د. (مورتيمر) أن يحكى له بالتفصيل عما يحدث..
وحكى د. (مورتيمر) القصة بالتفصيل..
حين انتهى السرد؛ قال سير (هنرى) في دهشة:
- « يبدو لي أنني نلت ميراثًا ملعونًا.. نعم أنا قد سمعت عن كلب (باسكرفيل) منذ طفولتي لكنني اعتبرته خرافة لا أكثر.. ثم هناك ذلك الخطاب.. »
قال (هولمز):
- « يبدو أن هناك من يعرف جيدًا ما يحدث في الفلاة.. ويريد حمايتك.. »
- « أو إبعادي لغرض في نفسه.. »
ثم قال في عزم:
- « لن يقدر إنسى ولا جني على أن يمنعني من الحياة في بيت أسلافي.. فهذا هو قرارى النهائي الذي لا محيد عنه.. لكن هذه الأخبار قد فاجأتنى يا مستر (هولمز).. لهذا أحتاج إلى بعض الوقت حتى أستوعب ما سمعت.. دعنا نلتق في الفندق اليوم على الغداء يا مستر (هولمز).. »

وانصرف الرجلان..
وعلى الفور كف (هولمز) عن الكسل.. انتابه النشاط فهرع يرتدي ثيابه ومعطفه.. وصاح فيّ:
- »ارتد المعطف والقبعة يا (واطسون).. أسرع !«
وهرعنا إلى الشارع.. فرأينا الرجلين يعبران شارع (أوكسفورد) على بعد مائتي متر من مكاننا.. رحنا نركض وراءهما حتى دنونا منهما.. ثم تبعناهما إلى شارع (ريجنت) ووقفنا بعيدًا عنهما..
هنا صاح (هولمز) في سرور:
- « ها هو ذا رجلنا ! »
قالها وهو يشير بعصاه إلى عربة مقفلة تقف بعيدًا عن الرجلين.. وبداخلها رجل لم أتبين وجهه.. وفي اللحظة التالية أخرج الراكب رأسه فرأيت وجهًا ذا لحية كثة وعينين لامعتين.. فما إن رآنا حتى هتف يقول للسائق شيئًا عندها اندفعت العربة مسرعة نحو نهاية شارع (ريجنت)..
كان قد ابتعد عنا فلم يعد سهلًا أن نلحق به.. ولم نجد عربات أجرة حولنا..
قال (هولمز):
- « هذا هو من يتتبع سير (هنرى) منذ جاء إلى (لندن).. وإلا فكيف عرفوا أنه سيقيم في فندق (نورث مبرلند)؟ »
- « لكنه بذلك يغدو تحت رحمة السائق.. ومن المؤسف أنني لم ألتقط رقم العربة.. »
- »كلا يا عزيزي.. إن شيئًا كذا لا يفوتنى الرقم هو 2704..«
- « لقد رأيت لحيته.. »
- »من الواضح أنها مستعارة.. وهي كافية لتغيير ملامح الوجه تمامًا.. «.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-4-

اتجهنا بعد الظهر إلى فندق (نورث مبرلند) حسب الموعد..
وصعدنا في الدرج فإذا بنا نلقى سير (هنرى باسكرفيل).. كان يمسك في يده بفردة حذاء قديمة متسخة.. ويصيح حانقًا وقد احمرّ وجهه:
- »كذا ! هم يحسبونني أحمق لكني سأريهم أنني مرّ الطعم.. لو لم يعد الحذاء المفقود فلسوف يندمون.. لقد بالغوا في مزاحهم يا مستر (هولمز).. »



فإذا بنا نلقى سير (هنرى باسكرفيل) . . كان يمسك
فى يده بفردة حذاء قديمة متسخة . .

- »هل تعني أن حذاءك لم يرجع؟ »
- « نعم.. بل وسرقوا (فردة) من حذاء آخر.. لم يتركوا لى من أحذيتى الثلاثة سوى هذا الذي أرتديه ! »

وجاء خادم ذو لكنة ألمانية يقول في حرج:
- « سيدى.. ليس لحذائك أثر في الفندق كله.. »
- « حسن.. ما لم يظهر الحذاء قبل الغروب ستكون لى كلمتان مع المدير.. »
- »عذرًا سيدى.. سنجد الحذاء حتمًا.. »
- « سترون أنكم لن تسرقوا مني شيئًا آخر.. »
واجتمعنا على طعام الغداء.. فلم يتلفظ أحدنا بشيء عن قضية كلب (باسكرفيل) حتى جلسنا في قاعة الجلوس.. فأعلن سير (هنرى):
- »سأذهب للإقامة في قصر (باسكرفيل) في آخر الأسبوع.. »
قال (هولمز):
- « ربما كان قرارًا صائبًا.. فالحقيقة هي أن هناك من يتعقبك في (لندن).. وهي مدينة كبيرة يسهل أن تؤذي فيها دون أن نستطيع حمايتك.. هل تتصور مثلًا أن رجلًا ملتحيًا كان يقفو أثرك اليوم؟ »
هتف د. (مورتيمر):
- « ولكن.. ولكن (باريمور) خادم سير (تشارلز) ملتح.. »
- »هل هو في القصر الآن؟ »
- « بالتأكيد.. »
تناول (هولمز) ورقة تلغراف وكتب عليها نصّ برقية « هل أعددتم كل شيء لوصول سير (هنرى)؟ » وجعل المرسل إليه مستر (باريمور) في قصر (باسكرفيل).. ثم كتب برقية أخرى نصها: (السيد مدير مكتب تلغراف (جريمبن).. المرجو في حالة عدم وجود مستر (باريمور) لتسلم برقيته باليد أن تبرقوا لنا باسم سير (هنرى باسكرفيل) – فندق نورث ميرلند)..
وقال:

- « هكذا نعرف قبل المساء ما إذا كان (باريمور) في القصر أم لا.. »
ثم إنه سأل د. (مورتيمر):
- « قل لى يا دكتور.. لابد أن (باريمور) وامرأته ينعمان بحرية وسعة عيش في قصر (باسكرفيل) الآن.. »
- « طبعًا.. »
- « وهل خصهما سير (تشارلز) بشىء من ميراثه؟ »
- « نعم.. خمسمائة جنيه لكل منهما.. »
- « وطبعًا كانا يعلمان ذلك مسبقًا.. لعمري إنها أخبار طيبة.. سؤال آخر يا دكتور، وأرجو أن تغفر لي ما فيه من وقاحة: لو أن حادثًا أصاب سير (هنري) فمن يرث هذه الثروة الطائلة في (باسكرفيل)؟ »
- « لا يوجد ورثة قريبون.. لهذا تئول الثروة إلى قريب بعيد اسمه (جيمس دزموند).. ويعمل واعظًا في كنيسة (وستمورلاند).. »
- « وهل قابلت هذا المستر (دزموند)؟ »
- « نعم.. وهو رجل صالح مهذب.. زارنا في القصر ذات مرة.. »
سأل (هولمز) سير (هنرى):
- « وهل قمت أنت بكتابة وصيتك؟ »
- « لا.. لم أجد وقتًا لذلك.. لكني أرى أن يتم توريث المال والعقارات معًا ليتمكن الوريث من الحفاظ على مجد آل (باسكرفيل).. »
قال (هولمز):
- « حسن يا سير (هنرى).. يمكنك الذهاب إلى قصر أجدادك.. لكني أرى ألا تذهب إليه وحدك.. إن د. (مورتيمر) معك.. لكن بيته بعيد عن القصر ولديه عمله وعبادته.. لذا أرى أن تصحب رجلًا يكون معك في كل لحظة.. »

- « ومن تراه يصلح؟ »
- « إن د. (واطسون) خير من يقوم بهذا العمل ! »
قالها وهو يضع يده على كتفي.. فشعرت بدهشة غامرة، ولم أدر ما أقول بينما سير (هنري) يصافحنى في حرارة ويقول:
- » هذا كرم منك يا د. (واطسون).. ولن أنسى صنيعك ما حييت.. »
لم أجد ما أقول ردًّا على هذه المجاملات فغمغمت:
- »حسن.. سأذهب بكل رضا.. »
- « أراك في المحطة يوم السبت في الحادية عشرة والنصف..»
وركبت العربة جوار (هولمز) عائدين إلى دارنا في شارع (بيكر).
قضى النهار كله وأكثر المساء يدخن غليونه بفظاعة، ويفكر صامتًا.. وفي أول المساء عرفنا أن (باريمور) الخادم ما زال في قصر (باسكرفيل).
دق جرس الباب فذهبت لأفتحه..
رأيت رجلًا فظ المظهر لم أحتج لجهد كي أعرف أنه حوذي المركبة التي أخذ (هولمز) رقمها، والتي كان الملتحي الغامض يركبها..
قال الرجل:
- « لقد أخبروني في المخفر أنك تبحث عن حوذى المركبة رقم 2704 .. إن لي في القيادة سبع سنوات ولم أر شكوى واحدة في حقي.. »
قال (هولمز):
- « ليس في الأمر شكوى يا رجلى الطيب.. بل سأعطيك جنيهًا لو أجبت سؤلى.. »
بدا الرضا على الرجل.. وسأل:
- »ماذا تريد يا سيدى؟ »

- « أريد معرفة كل شيء عن الرجل الذي كان يراقب هذا المنزل صباح اليوم، ثم راح يتتبع رجلين في شارع (ريجنت)، ثم أمرك بالابتعاد.. »
بدا الارتباك على الحوذى.. وقال:
- « المفترض أن تعرف هذا يا سيدي.. فالرجل من الشرطة السرية، وقد طلب مني ألا أنبس ببنت شفة.. وقال إن اسمه (شيرلوك هولمز) ! »
فوجىء (هولمز) بالإجابة، فانفجر يضحك.. وقال:
- « يا له من رجل يا (واطسون) ! الحق أنه سريع البديهة يفكر بذكاء.. وقد تفوق عليّ في هذا.. وأين قابلته؟ »
قال الحوذى:
- « في ميدان (ترافلجار).. وقد نقدنى جنيهين مقابل أن أطيعه طاعة عمياء طيلة اليوم.. وكان يراقب رجلين ذهبا من فندق (نورث بمبرلند) إلى شارع (بيكر).. ثم غادراه إلى شارع (ريجنت).. وفجأة أغلق الرجل نافذة العربة وأمرني أن أنطلق بأقصى سرعة إلى محطة (ووترلو).. وهناك نقدنى أجري وقال لي: ربما يهمك أن تعلم أنك كنت في صحبة (هولمز).. ومن هنا عرفت اسمه.. »
- »هل يمكنك أن تصفه؟ »
حك الحوذي رأسه مفكرًا وقال:
- « لا شيء خاصًا فيه.. في الأربعين.. شاحب.. متوسط الطول.. له لحية كثة.. »
- « حسن.. هاك الجنيه.. ولك مثله لو جلبت لى معلومات أخرى.. »
وانصرف الرجل مسرورًا.. بينما نظر لى (هولمز) في خيبة أمل و أسف.. وقال:

- »خيط آخر لم يعد مهمًّا يا (واطسون).. لقد خسرنا معركة (لندن) لكني أتمنى لك الفوز في معركة (ديفون شاير) ! ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-5-

بينما نحن في طريقنا إلى المحطة؛ قال (هولمز):

- »ستكتب لي كل الحقائق بالتفصيل أي (واطسون)، وتترك لى مهمة ربطها واستخلاص النتائج.. أريد معرفة علاقة سير (هنري) بجيرانه الجدد.. أريد أخبارًا عن وفاة سير (تشارلز).. أريد أخبارًا عن الجيران.. »

سألته:

- « هل ترى أن يبدأ سير (هنرى) بطرد الخادم وزوجته؟ »

- « لا.. فالظلم سيكون فادحًا في حالة براءتهما.. ولعل طردهما يجعلهما يعجلان بتنفيذ مخطط شرير ما.. أريد منك أن تراقب صاحبي المزرعتين.. أن تراقب د. (مورتيمر) وإن كنت أعرف أنه بريء.. هناك عالم تاريخ طبيعي يعيش مع أخته، واسمه (ستيبلتون).. وهناك مستر (فرانكلاند) صاحب قصر (لافتر).. يجب أن تدرس أمر كل هؤلاء يا عزيزي.. وليكن مسدسك جاهزًا في حالة الخطر.. وكن حذرًا.. »

لحقت بعربة السير (هنرى) ود. (مورتيمر) بالدرجة الأولى.. وأخرجت رأسي من النافذة أودع (هولمز) الذي وقف على المحطة يرمق القطار صامتًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راح القطار يقطع طريقه بين المزارع الخضراء والمروج الغناء، ونمت صداقة لا بأس بها بيني وبين صديقيّ في السفر..

ومن بعيد لاحت غابة عند سفح جبل.. فهتف د. (مورتيمر):

- « إنها الفلاة.. »

وتوقف القطار في محطة صغيرة.. وسرعان ما راح الحمالون ينقلون الحقائب إلى عربة يجرها حصانان..
كان الجو رحبًا بسيطًا لكني لاحظت عددًا أكثر من اللازم من الجند، الذين يحملون سلاحهم ويتأملون الناس في اهتمام وشك..
بينما نحن نشق دربنا بالعربة نحو قصر (باسكرفيل)، قال السائق الذي عرفت أن اسمه (بيركنز):
- « إن مسجونا قد فرّ من سجن (برنستون) منذ أيام ثلاثة.. لهذا تراقب الشرطة مخارج المقاطعة، لكن دون توفيق.. »
كانت العربة ماضية وسط الحقول والمراعي التي لا ترى نهاية لها.. ومن بعد ترى الهضاب المكسوة بالعشب..
تساءل (مورتيمر):
- « من هو السجين الهارب؟ »
- « إنه (سلدن).. سفاح (نوتنج هول).. »
تذكرت الاسم.. لقد كانت جريمة شنعاء بلغ من هولها أن المحكمة اعتبرت القاتل مخبولًا ولم تحكم بإعدامه..
ومن بعيد لاح قصر (باسكرفيل) المبنى من الحجر.. كان رهيبًا مهيبًا يقف وسط الأشجار كلغز قديم..
ودخلت العربة طريقًا بين صفين من الأشجار.. ورحنا ندنو من القصر..
استقبلنا رجل فارع الطول.. تقدم منا ورحّب بسير (هنرى):
- » مرحبًا يا سير (هنرى).. إن قصر (باسكرفيل) يرحب بك..»
وكانت معه امرأة.. فعرفت أنه الخادم (باريمور) وزوجته..
وانسحب د. (مورتيمر) لتقله عربة سير (هنري) إلى داره.. بينما أدخلنا الخادم إلى بهو كبير به موقد مشتعل.. ورحت أتأمل

(باريمور) فوجدته رجلًا فارع الطول ذا لحية سوداء كثة.. وسيمًا إلى حد ما..
قال لسير (هنرى):
- « يسرنا يا سيدي أن نبقى معك حتى تعدّ للقصر ما يلزمه من خدم.. بعد هذا نحن مستعدان للرحيل.. فالقصر كان في استطاعتنا أيام سير (تشارلز) لأنه لم يكن يزور ولا يُزار.. أما مع التغيرات التي تزمع سيادتكم عملها.. »
قال سير (هنرى):
- « لكن أسرتنا تتعامل مع أسرتك منذ دهر.. ولن أبدأ حياتي في القصر بأن أغير هذا.. »
بدا التأثر على الخادم وقال:
- »هذا يؤثر فيّ يا سيدي.. لكني أحمل - وزوجتي - ذكريات كثيرة لهذا القصر توشك أن تكون أليمة بعد رحيل سير (تشارلز).. وأعتقد أننا لن نجد راحة في الحياة هنا بعد ذلك.. »
كانت حجرتى جوار حجرة سير (هنرى)، وكلاهما تطلان على رواق طويل يمتد من شرفة في نهاية بهو القصر..
ويبدو أن الحجرة قد تم تجديدها حديثًا لأن ورق الحائط كان زاهي اللون، وكان أثاثها حديث الطراز..
وجلسنا نلتهم العشاء صامتين، ثم دخلنا إلى قاعة الجلوس..
قال سير (هنرى):
- « إنه مكان كئيب والحق يقال.. يخيل إلىّ أنه معاد لي بشكل ما.. وإني لأفهم سر تدهور الحالة النفسية لعمى.. »
جاء موعد النوم..
دخلت غرفتي ورقدت في الفراش، لكن النوم جفا عينيّ برغم إرهاق السفر.. كان السكون تامًّا ما خلا صوت دقات ساعة حائط..

فجأة سمعت في الظلام صوت امرأة تئن ! امرأة تبكي.. وواضح أن الصوت آت من داخل القصر..
مكث صوت البكاء نصف ساعة ثم انتهى.. وعاد السكون إلا من صوت دقات الساعة الرتيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على مائدة الإفطار عرفت أن السير (هنرى) سمع الصوت ذاته ليلًا، لكنه كان شبه غاف فلم يحاول تبين كنهه..
وسألنا (باريمور) عن هذا الصوت فامتقع وجهه قليلًا.. وقال:
- « توجد امرأتان في القصر إحداهما زوجتي.. والأخرى في الجناح البعيد.. وأنا أعرف أن صوت البكاء لم يصدر عن زوجتي.. »
كان كاذبًا.. عرفت أنه كاذب حين دخلت امرأته ولمحت عينيها المحمرتين وجفنيها المنتفخين.. لماذا كذب؟ لماذا بكت زوجته؟
كان عليّ أن أتيقن من أنه لم يكن في (لندن).. لهذا ذهبت إلى مكتب تلغراف (جريمبن) وسألت عمن تسلم برقية (باريمور).. هل هو (باريمور) نفسه؟
لكن الصبي الذي سلم البرقية قال:
- « كان مستر (باريمور) مشغولًا.. لذا قمت بتسليم البرقية لامرأته فأنا أعرفها.. »
عدت من المكتب شاعرًا بالحيرة..
إذن وجود (باريمور) في (لندن) أو عدمه أمر يستحيل التيقن منه..
هنا سمعت من يناديني.. فنظرت للوراء لأجد رجلًا نحيلًا يحمل شبكة لصيد الفراش، ومعه علبة للعينات النباتية.. قال لي:
- « أعذرني على تطفلي ياد. (واطسون).. فنحن على طبيعتنا ها هنا.. إنني من الجيران وأدعى (ستبلتون)..
- »هذا واضح.. فأستاذ التاريخ الطبيعي يسهل تمييزه.. لكن كيف عرفتني؟ »

- « د. (مورتيمر) أشار إليك من بعيد وذكر اسمك.. هل سيشرفنا مستر (هولمز) بزيارة المقاطعة؟ »
كان سؤالًا غريبًا لم أتوقعه... لكني تمالكت نفسي وقلت:
- « إنه مشغول حاليًّا.. ولا يمكنه ترك (لندن).. »
- « أنا مستعد لتقديم العون في أية مشكلة تضايقك أو تحقيقات تريدها.. »
وكنا قد دنونا من منزله.. فقال:
- « تفضل بالدخول.. سأقدمك لأختى.. »
كان من واجبي أن أكون مع سير (هنري).. لكن الرجل مشغول الآن في دراسة الأوراق.. ثم إن من واجبى كذلك أن أتعرف الجيران.. لهذا قبلت الدعوة.. وسرت مع (ستبلتون) قاصدين بيته..
قال وهو يرمق الفلاة حوله:
- »إن الفلاة هنا حافلة بالأسرار العظمى.. لقد مضى عليّ عامان ها هنا أدرسها.. ولا يعرفها حق المعرفة سوى قليلين..»
- »هل هي صعبة إلى هذا الحدّ؟ »
- « جدًّا.. انظر إلى هذه الهضبة الشمالية.. هل ترى شيئًا غير عادي؟ »
- « تبدو لي مكانًا صالحًا للنزهة فوق جواد.. »
ضحك وقال:
- »هل ترى البقاع الأكثر خضرة وسطها؟ هذه هي مستنقعات (جريمبن) العظمي حيث يدفع الجاهلون ثمن جهلهم.. خطوة واحدة تكون الأخيرة.. إنها تبتلع كل من يدنو منها، وهي الآن أخطر بعد أمطار الخريف.. لكني أعرف ممرين يمكن المشي فيهما.. »
- »وماذا يدعوك لعبورها؟ »

- »إنها تقودني إلى جزر تعج بالنباتات النادرة والفراشات الثمينة.. ولا أنصح أحدًا بمحاولة العبور هذه.. »
وفجأة دوى في المكان صوت حشرجة بدأت واهنة.. ثم تعالت حتى ملأت الأرجاء.. وأخيرًا غابت في حزن عميق..
صحت في دهشة:
- »ما هذا بحق السماء؟ »
قال في غموض:
- « إن الفلاة لملأى بالأسرار.. يقول الفلاحون إن هذا صوت كلب آل (باسكرفيل) ينادى فريسته.. »
ثم أردف وهو يرمق المستنقعات:
- »ربما هو صياح طير جارح.. »
ومرت جوارنا فراشة جميلة.. هنا فارقني (ستبلتون) وراح يركض وراءها في خفة ورشاقة.. ورأيته يوغل داخل المستنقعات حتى كاد قلبي يقف ذعرًا.. لقد نسي كل شيء عنى..



ومرت جوارنا فراشة جميلة . . هنا فارقنى (ستبلتون)
وراح يركض وراءها فى خفة ورشاقة . .

هنا سمعت من يمشي خلفي فنظرت للوراء.. كانت امرأة تدنو مني.. وكانت حسناء رشيقة سوداء العينين، أدركت أنها شقيقة (ستبلتون)..

رفعت قبعتي محييًا.. لكنها لم تردّ التحية.. فقط قالت كلمة واحدة:
- « عُد أدراجك ! عُد! »
وكانت تضرب الأرض بقدمها في نفد صبر.. فسألتها:
- « أعود؟ لماذا؟ »
- « لن أوضح.. لكني أنصحك بالعودة إلى (لندن).. »
- « ولكني جئت من فورى و.. »
صاحت في حنق:
- « ألا تفهم أن هذا المصلحتك؟ عُد إلى (لندن) في أول قطار.. صه ! إن أخي قادم.. أرجو أن تقتطف لي هذه الزهرة البرية.. ما أجملها ! »
هنا جاء (ستبلتون) يلهث.. وبدا مندهشًا لرؤيتنا معًا.. وقال:
- »كانت فراشة نادرة لكني لم أظفر بها.. »
وأدركت أنه غير سعيد لهذا اللقاء.. وعيناه اللامعتان تنتقلان بيني وبين شقيقته.. ثم قال:
- « قد تعارفتما كما أظن؟ »
قالت الفتاة:
- « إنه سير (هنرى باسكرفيل) على ما أحسب؟ »
- « كلا.. أنا د. (واطسون).. صديقه.. »
دعانا (ستبلتون) إلى الدخول.. ولاحظت أن الفتاة تضايقت لهذا الخلط..
كان المنزل ريفيًّا عتيق الطراز، لكن تنسيق الفتاة كان واضحًا.. ورحت أرمق الفلاة الموحشة من النافذة، فقال (ستبلتون) كأنما قرأ أفكارى:
- « مكان غريب لكننا نحبه.. أليس كذلك يا (بيريل)؟ »
ردّت الفتاة بلهجة غير صادقة تمامًا:

- « بلى.. »
وحكى لى (ستبلتون) أنه كان مدير مدرسة في شمال انجلترا.. ثم تفشى فيها الوباء واضطر إلى إغلاقها.. وجاء مع أخته ليستقر ها هنا ويدرس النبات والحشرات البرية..
ثم دعاني إلى الصعود معه للطابق العلوى كى أرى مجموعاته.. لكني اعتذرت فلم يكن لديّ وقت كاف..
وعدت عبر الفلاة وفي ذهني أسئلة عدة، عما قالته الفتاة، وعن صوت العواء، وغير ذلك..
و هنا فوجئت بالآنسة (ستبلتون) جالسة إلى جانب الطريق، وكانت تبتسم في رقة وقالت:
- « لقد ركضت كى ألحق بك، وسلكت طريقًا مختصرًا.. إنني آسفة على تلك الهفوة، وأرجو أن تنسى ما قلته لك نسيانًا تامًّا..»
سألتها:
- « لكني أبغي معرفة سبب نصحك لـ (سير هنرى) بالعودة إلى لندن.. »
- »إن للنساء تصرفات غريبة قد لا يكون لها مبرر واضح.. لكن هل تعرف أسطورة كلب (باسكرفيل)؟ »
- « إن هذا لهراء.. »
- « أما أنا فأصدق كل حرف منها.. وأرجو أن تنصح سير (هنرى) بتحاشى هذه المقاطعة الخطرة.. »
- « لن يغادر المكان ما لم يجد ما بين يديه حقائق.. ثم لماذا تكرهين أن يسمع أخوك رأيك؟ »
- »إن (ستبلتون) حريص على أن يقيم وريث (باسكرفيل) في قصره، فهذا يفيد الفلاحين ها هنا جم الفائدة.. ولسوف يحنقه

أن يعلم أنني طلبت من سير (هنرى) مغادرة المكان.. والآن وداعًا.. »
ووثبت بين الصخور حتى توارت عن عيني..
وعُدت إلى قصر (باسكرفيل) قلقًا متوجسًا..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-7-

عزيزى (هولمز):

- « أطلعتك في خطاباتى السابقة على كل الأحداث التي طرأت منذ قدومنا إلى (باسكرفيل).. لا أثر للسجين الهارب ويرجح أنه غادر المقاطعة..

تم التعارف بين (ستبلتون) وسير (هنرى)، واصطحبنا هذا الأول كى يرينا الفلاة.. ثم دعانا إلى منزله لتناول الغداء..

وقد لاحظت ميلًا واضحًا من سير (هنرى) نحو الفتاة.. وامتعاضًا واضحًا من (ستبلتون) تجاه هذا الميل.. ولاحظت أنه يحاول ألا يتيح للاثنين فرصة الانفراد أبدًا.. واضح أنه متعلق بأخته ولا يرغب في أن تتزوج فيغدو وحيدًا..

تعرفت كذلك مستر (فرانكلاند) مالك قصر (لافتر).. وهو رجل شيخ ذو وجه أحمر وشعر أشيب.. عاكف على دراسة الفلك بالتلسكوب.. وهو حاليًا يمسح الفلاة به بحثًا عن السجين الهارب..

الجديد في الأمر أن شكى يتزايد بصدد (باريمور) الخادم..

أمس صحوت في الثانية صباحًا لأسمع صوت قدمين تمشيان خارج الغرفة.. نهضت وفتحت الباب فرأيت (باريمور) يمشي في الرواق حاملًا شمعة.. وقد قررت أن أتبعه خلسة..

رأيته يدخل غرفة خالية في الجناح الآخر.. ووجدته يقف خلف النافذة يحرك الشمعة باستمرار.. كان يرمق المروج..

ظلّ بعض الوقت في هذا العمل، ثم أطفأ الشمعة وعاد.. عندها هرعت إلى حجرتي واندسست في الفراش.. وسرعان ما نمت..

لا أستطيع استنتاج شيء من كل هذا، لكنك طلبت مني أن أحكي كل صغيرة وكبيرة في هذا المنزل..

وقد اتفقت مع سير (هنري) على أسلوب نكشف به سرّ هذا البيت.. لكن موضع هذا في خطاب آخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-8-

عزيزى (هولمز):

لقد اتفق رأيي وسير (هنرى) على أن نتبع (باريمور) معًا في رحلته الليلية..

لقد بدأ سير (هنرى) في إصلاح القصر، مستكملًا ما بدأه عمه سير (تشالز) وإن كان الأمر يتجاوز التجديد إلى ما يبدو لي أنه إعداد لقدوم عروس.. وأنا أعتقد أن هذه العروس هي مس (ستبلتون)..

منذ يومين استعد سير (هنرى) للخروج، واستعددت كي أتبعه كدأبي.. لكنه بدا غير راغب في ذلك.. وكان سهلًا أن أستنتج أنه ذاهب إلى لقاء مس (ستبلتون).. قررت أن أتركه يخرج ثم أتبعه لأطمئن على سلامته..

وعلى بعد ربع ميل رأيتهما.. كانا يمشيان جنبًا إلى جنب ويتحدثان..

هنا أجفلا ونظرا إلى ما بين الصخور.. ورأيت (ستبلتون) يخرج من بين الصخور ويعدو نحوهما ملوحًا بقبضته..

ورأيت مشادة بين الرجلين، بدا فيها سير (هنري) يحاول التفسير.. و(ستبلتون) حانق منفعل.. ثم جذب أخته من ذراعها كي تمضي معه إلى البيت، ووقف سير (هنرى) وحيدًا كاسف البال..

الحق أن موقف (ستبلتون) غريب فقد علمت أن سير (هنرى) سأله يد أخته.. لكنه لم يقبل وأبى في حنق..

إن سير (هنرى) رجل ثري وسيم حسن الخلق.. وهو زوج صالح للفتاة.. ثم إن الفتاة تتعامل باستسلام ورخاوة تجاه مصيرها الخاص.. أليس هذا غريبًا؟

وفي المساء تحسن الموقف نوعًا..
لقد جاء (ستبلتون) إلى القصر، فاعتذر لسير (هنرى) عن خشونته.. وقال إن حبه لأخته جعله يشعر بأن كل عريس إنما يحاول سرقتها منه.. وطلب من سير (هنرى) ألا يتضايق، فهو - (ستبلتون) - موافق على الزيجة.. لكنه يسأل سير (هنرى) ألا يحاول مغازلة الفتاة لمدة ثلاثة أشهر.. على أن تكون هذه الأشهر فرصة لتوطيد التعارف بينهم..
وزالت الضغائن بعد هذا الموقف..
أما عن صوت البكاء الليلي فقد كشفنا عنه الستار.
في المساء كنت وسير (هنرى) ننتظر حتى يبدأ (باريمور) رحلته الليلية.. ثم دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. فسمعنا صوت خطواته في البهو..
خلعنا أحذيتنا وفتحنا الباب، وهرعنا نلحق بـ (باريمور)..
كان في الحجرة إياها أمام النافذة والشمعة في بيده..
هنا دنا منه سير (هنرى).. فما إن رآه الخادم حتى ارتجف هلعًا، وامتقع وجهه، وتراجع عن النافذة.. فسأله سير (هنرى):
- »ماذا تعمل؟ »
قال مرتجفًا:
- « إن هي إلا جولتي الليلية للاطمئنان على النوافذ يا سيدى !»
في صرامة سأله سير (هنرى):
- « لا تكذب.. ما سبب وقوفك هنا يا (باريمور)؟ »
ارتجف الرجل أكثر.. وفي تعاسة قال:
- « لا تسلني يا سيدي أرجوك.. فهذا السرّ لا يخصني.. »
وهنا دنوت من النافذة ورحت أحرك الشمعة.. فقد بدا لي الأمر كأن (باريمور) يعطي إشارات لشخص ما في الفلاة..
رحت أرمق الظلام.. عندها رأيت ضوءًا شاحبًا يتألق من بعيد..

صحت في حماس:
- »هذا هو ما نبحث عنه.. »
تهدج صوت (باريمور) قائلًا:
- « أقسم لك يا سيدي إن هذا لا شيء.. »
قال سير (هنرى):
- « إن الضوء يتحرك مع حركة ضوئنا.. إنها إشارات يا (باريمور).. وإنني لأتساءل عن المؤامرة التي تدبرها.. وشريكك في هذا.. »
- « قلت إنه شأني يا سيدي.. »
- « إذن أنت مطرود! »
- « أمرك يا سيدى ! »
هنا سمعنا صوتًا نسائيًا يصرخ:
- « لا يا سيدي ! نحن لا ندبر شيئًا ضدك صدقني.. أنا من دفع (باريمور) إلى هذا.. ولا ذنب له في شئ.. »
كانت هذه زوجة (باريمور) التي دخلت علينا وهي في ذروة الشحوب..
سألها سير (هنرى):
- « إذن ما معنى هذه اللعبة؟ »
قالت:
- »إنه أخي الذي يموت جوعًا في الفلاة.. لهذا نعدّ له الطعام، ونشير له بالشمعة كي ينتظرنا.. ثم أتجه أنا له بالطعام حيث يتألق ضوؤه هناك.. »
- « إذن أخوك هو.. »
- « هو (سندن) السجين الهارب.. »
نظرنا لها في ذهول غير مصدقين علاقة تربطها بهذا السفاح.. لكنها قالت:

- « كان هو وصمة عار أسرتنا، وقد هرب من السجن فجاءني ها هنا يطلب العون، ولم أستطع أن أرفض ذلك.. فهو أخي ولن أتركه يقضى جوعًا.. لهذا اتفقنا على هذه الإشارات المتبادلة كل ليلة.. »
قال سير (هنرى):
- »حسن.. يمكنكما الذهاب للنوم.. وسوف نتكلم عن هذا غدًا..»
وانصرفا.. فراح يرمق الضوء البعيد مفكرًا.. ثم قال لي:
- « ما رأيك في القبض عليه يا (واطسون)؟ »
- « فكرة لا بأس بها.. فهذا المجرم خطر علينا جميعًا.. وقد يأتي يوم يهاجم فيه (ستابلتون) وأخته.. أرى أن الحكمة تقضي أن نقبض عليه.. »
- »مرحي.. إذن هات مسدسك سريعًا ولنسرع.. »
وخرجنا إلى الفلاة الباردة، والقمر يطل علينا من وراء السحب.. ثم بدأ المطر ينهمر مدرارًا لكننا كنا نرى الضوء بوضوح تام..
فجأة دوى ذلك الصراخ الغريب القادم من مستنقعات (جريمبن).. بدأت خافتة عميقة ثم صارت عواء مخيفًا عاليًا.. ثم عادت أنينًا كالحشرجة.. وصداها يدوي في الفضاء موحشًا عميقًا ينذر بالويل..
كان السير (هنري) يسمعه للمرة الأولى.. أمسك بذراعي مذعورًا وهتف:
- « رباه ! ما هذا يا (واطسون)؟ »
- « إنه صوت مألوف ها هنا.. »
- « لكنه عواء كلب هائل ! »
كان مذعورًا، وانتقل ذعره إلىّ، وبرد الدم في عروقى..
سألني:

- »ماذا يقولون عن هذا الصوت يا (واطسون)؟ »
لم أدر كيف أتملص منه.. أخيرًا قلت بعد إلحاح:
- »يقولون إنه عواء كلب آل (باسكرفيل).. »
تنهد في عمق.. وقال هامسًا:
- « نعم.. هو عواء كلب.. وواضح أنه آت من مستنقعات (جريمبن).. »
- « هل نعود أدراجنا؟ »
- « لا.. لقد جئنا نبحث عن السجين.. ولسوف نفعل حتى ولو ركضت خلفنا كلاب جهنم ذاتها.. »
ورحنا نتقدم في الظلام وسط الفلاة.. قاصدين الضوء الشاحب الذي رأيناه في النافذة.. وأخيرًا رأينا مصدره.. كانت شمعة مثبتة في فجوة صخرية حتى لا تطفئها الرياح..



كانت شمعة مثبتة فى فجوة صخرية ، حتى لا تطفئها الرياح . .

تهامسنا واتفقنا على الاختباء خلف صخرة..
عندها رأينا وجهًا دميمًا في عينيه شرّ وإجرام، يطل من الفتحة في حذر.. وثبت صارخًا أدعوه للتوقف.. لكنه أطلق سبّة وقذفنا

بصخرة.. ثم راح يركض مبتعدًا بأقصى سرعة..
كان خفيف الحركة، لكني لم أجرؤ على رميه بالرصاص.. فقد كان أعزل لا يحمل سلاحًا، والمسدس كان لحمايتى لا لقتله..
كان سريعًا، لهذا جلسنا فوق الصخور نلهث..
هنا حدث شيء غريب.. لقد رفعت رأسي لأعلى فرأيت في ضوء القمر خيال رجل فارع الطول نحيل يقف فوق هضبة..
كان مطرقًا برأسه ويداه على صدره معقودتين كأنما يفكر..
استدرت أهيب بسير (هنرى) أن ينظر إلى ما أراه، لكن الرجل تلاشي في الظلام..
وعدنا أدراجنا إلى قصر (باسكرفيل) صفر اليدين..
لكننا على الأقل عرفنا سر (باريمور) وزوجته..
ويمكننا أن نضعهما كما ترى خارج دائرة الشبهات..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-9-

مقتطفات من مذكرات د. (واطسون):

16 أكتوبر:

الضباب كثيف والمطر ينهمر مدرارًا.. وشعور الخطر يغمرنا..

من هو الغريب الذي رأيته أمس فوق التل؟ أنا أعرف أنه ليس (ستبلتون) ولا (فرانكلاند) ولا (باريمور)..

لقد غدا سير (هنرى) عصبي المزاج مشتتًا.. إنه لم ينس صوت العواء الذي سمعه في الفلاة.. وكان يدرك أن هذا الصوت من أجله هو..

وفي الصباح جاء (باريمور) طالبًا الحديث مع سير (هنرى)..

قال له:

- « لقد علمت ياسيدي أنكما كنتما تطاردان (سلدن).. لماذا لا تتركان هذا التعس لما هو فيه من بؤس؟ »

قال سير (هنرى):

- « إنه سفاح له وجه سفاح.. وهو خطر داهم على المقاطعة ما ظل حرًا طليقًا.. كم من أبرياء يستطيع هذا القاتل أن يؤذيهم..»

- « أقسم بشرفي يا سيدي إنه لن يؤذي أحدًا.. لقد أعددنا عدتنا كى نرحله إلى أمريكا الجنوبية، وبعدها لن يسمع عنه مخلوق.. أما إبلاغ رجال الشرطة عنه فلن يؤدي إلا إلى توريطي أنا وزوجتي.. »

- « وماذا إذا اعتدى على أحد قبل رحيله؟ »

- « لن يفعل يا سيدي.. لأن أية جريمة ستجعل الشرطة تعلم مكانه.. »

قال سير (هنرى):

- »حسن.. يا (باريمور).. لن نبلغ الشرطة.. »

بدا الرضا على الرجل... لكنه لم ينصرف، وبدا أنه يريد قول شيء ما.. وبعد هنيهة قال مترددًا:
- « إنك عطوف يا سيدي.. لهذا أبغي مساعدتك في قضية وفاة عمك سير (تشارلز).. ثمة نقطة لم أذكرها لمخلوق، ولم أعرفها إلا بعد انتهاء التحقيق في الوفاة.. »
- »هل تعرف كيف مات؟ »
- « لا.. لكني أعرف سبب انتظاره عند باب الفلاة ليلة وفاته.. كان ينتظر امرأة.. »
شعرنا بدهشة لهذا التصريح.. وسألناه:
- « ما اسمها؟ »
- « اسمها (ل. ل).. هذا كل ما أعرفه.. »
- « وكيف عرفت هذا؟ »
- « لقد تلقى سير (تشارلز) رسالة في صباح ذلك اليوم.. رسالة مرسلة من (كومب تراس).. وقد نسيت كل شيء عنها لولا أن امرأتي كانت - منذ أسابيع - تنظف مكتب السير (تشارلز).. ووجدت بقايا رسالة في المدفأة.. رسالة محترقة لم يبق منها سوى نهايتها.. وكانت تقول: (أسألك أن تحرق هذه الرسالة.. وأن تنتظرني عند باب الفلاة في العاشرة..

التوقيع
« ل. ل »

- « هل الرسالة معك؟ »
- « لا.. لقد تفتتت بين أنامل زوجتي.. »
- »ولماذا لم تخبرنا؟ »
- « كنا قد انشغلنا بشأن (سلدن).. ثم إننا شعرنا بأن إذاعة هذه الرسالة قد يؤذى سمعة الفقيد.. فالرسالة تتكلم عن امرأة.. وقد يسبب هذا شوشرة.. »

- « حسن.. يا (باريمور).. يمكنك الانصراف.. »
وما إن انصرف (باريمور) حتى سألني سير (هنري) عن رأيي فقلت:
- « الضباب يزداد كثافة.. »
- « إن البحث عن هذه الـ (ل . ل) لن يكون عسيرًا فيما أرى.. وهي التي ستقودنا إلى الحقيقة.. »
- « أرى أن نخبر (هولمز) بكل شيء.. »
وعدت إلى غرفتي، فكتبت لـ (هولمز) تقريرًا مفصلًا.. كنت أعلم أنه مشغول، ومن الواضح أنه نسى موضوع كلب (آل باسكرفيل) هذا.. لكني كنت آمل أن أثير حماسه بما في الخطاب من أنباء جد مهمة..
17 أكتوبر:
المطر يهطل مدرارًا.. لا أتمالك من التفكير في البائس الذي يقبع الآن في الفلاة بلا سقف يحميه.. إن هذا السجين يكفر عن خطاياه الآن..
جاء المساء فارتديت معطفي الواقي من الماء.. ومشيت في الفلاة أصغي لصوت الرياح وأشعر بالمطر يغمر وجهي..
وصعدت إلى الهضبة التي رأيت عندها أمس ذلك الرجل الغامض.. فلم أر من فوقها سوى قصر (باسكرفيل)، والأكواخ الحجرية المتناثرة التي كان يعيش فيها قوم ما قبل التاريخ منذ ملايين السنين..
قررت العودة إلى القصر، فقابلت د. (مورتيمر) يقود عربته بنفسه.. فما إن رآني حتى أصرّ على أن أركب معه في طريق العودة.. وكان قلقًا على كلبه الصغير الذي خرج إلى الفلاة واختفى.. هنا استنتجت أن الكلب قد غرق في مستنقعات (جريمبن) الرهيبة..

سألته والعربة ماضية بنا:
- »هل تعرف كل سكان المقاطعة يا د. (مورتيمر)؟ »
- « كلهم.. »
- »هل من امرأة تدعى (ل. ل)؟ »
فكر لحظة.. ثم قال:
- « لا.. إلا إذا كانت من الغجر.. فلست واثقًا من ذلك.. ولكن.. هناك (ل . ل) حقًا.. هي (لورا ليونز) وتعيش في (كومب تراس).. إنها ابنة (فرانكلاند) ! »
- « ابنته؟ »
- « نعم.. كانت قد تزوجت من فنان بوهيمى هجرها بعد الزواج.. لكن بعدما طردها أبوها نفسه لأنه لم يبارك هذه الزيجة.. »
- « وكيف تعيش؟ »
- « أبوها يمنحها مرتبًا ضئيلًا.. لكن سير (تشارلز) و(ستبلتون) وأنا قد تعاونا كى نجد لها عملًا تتعيش منه.. »
حاول أن يعرف أكثر لكنى التزمت الصمت، وتملصت منه..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
تناول د. (مورتيمر) العشاء معنا في قصر (باسكرفيل).. وجلس يلعب الورق مع سير (هنرى)، أما أنا فجلست أرشف القهوة وسألت (باريمور):
- »هل ما زال أخو زوجتك في الفلاة؟ »
كنا بعيدين عن د. (مورتيمر) فلم يعرف ما نتحدث عنه..
قال (باريمور):
- « لا أعرف عنه شيئًا منذ ثلاثة أيام يا سيدى.. ربما كان قد رحل.. »
- »هل قابلته؟ »

- « لا.. لكن الطعام اختفى في اليوم الثاني.. ربما كان هو أو الرجل الآخر.. »
- « رجل آخر؟! »
- « نعم.. هناك رجل آخر في الفلاة.. »
- « هل رأيته؟ »
- « لا.. لكن (سلدن) أخبرني بأمره.. وهو متوار مثل (سلدن) تمامًا.. »
ثم صمت الرجل باحثًا عن كلمات، وقال وهو يشير إلى النافذة:
- « إنني لا أحب كل هذا الجو الشيطاني.. ولسوف أشعر بالرضا لو أن سير (هنرى) عاد أدراجه إلى (لندن).. »
- « لكن لماذا؟ »
- « لقد حامت الشكوك حول وفاة سير (تشارلز).. ثم بعد هذا تجد أصوات العواء الليلية في المروج.. لقد صارت تلكم الفلاة مكانًا محرمًا.. ثم ذلك الرجل الكامن في الفلاة ينتظر ماذا؟ كل هذا مريب مخيف.. »
- « هل عرفت من (سلدن) أين يقضي الرجل لياليه؟ »
- « في الأكواخ القديمة التي بناها القوم الأقدمون.. »
- « وطعامه؟ »
- « يجلبه له صبي صغير.. »
وانصرف الخادم.. فاتجهت إلى النافذة أرمق الظلام في الخارج.. السحب تزدحم في السماء منذرة بهطول المطر.. والريح تحرك الأشجار في عنف..
تخيلت الرجل الغريب القابع في كوخه وسط الفلاة في هذا الزمهرير..
إن الرجل للغز.. لكنه سيكون هو نفسه مفتاحًا لهذا اللغز..
إن الإجابة تكمن في الكوخ الحجرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-10-

على مائدة الإفطار، أخبرت سير (هنرى) بما عرفته عن مدام (ليونز)، والخطاب الأخير الذي تلقاه سير (تشارلز) قبل وفاته.. واتفقنا على أن أذهب وحدي إلى (كومب تراس) لمعرفة ما يمكن عن هذه السيدة..

أوصلني السائق (بيركنز) إلى هناك.. فنزلت أستعلم عن مقر مدام (ليونز)، وأخيرًا وصلت بيتها.. فأدخلتني الخادمة إلى قاعة استقبال بها سيدة تطبع شيئًا على الآلة الكاتبة.. وقد أشرق وجهها حين رأتنى وسألتني عما أريد.. فقلت لها:

- « لقد أسعدني الحظ بلقاء والدك.. »

تغيرت معاملتها في الحال إلى الفتور.. وقالت:

- « إن أصدقاء أبي ليسوا أصدقائي.. فهو قد تخلى عنى.. ولولا معونة سير (تشارلز باسكرفيل) وسواه لتضوّرت جوعًا.. إنه أقسى من أن يكون أبًا لى.. »

- « لكنني هنا بخصوص سير (تشارلز) نفسه! »

بدا عليها الارتباك، وازدادت عصبية.. فقلت لها:

- « أنت تعرفينه بالتأكيد.. »

- »قلت لك إنه صاحب الفضل عليّ.. وهذا كل شىء.. »

- « هل تبادلتما خطابات؟ »

ارتفع صوتها في حدة.. وقالت:

- « ما معنى هذا الكلام؟ »

- « أنا أحاول منع فضيحة سرعان ما تكون على كل لسان.. لذا أرجو أن تجيبي بصدق: هل أرسلت له خطابات؟ »

شحب وجهها وقالت بعد صمت طويل:

- « حسن.. لقد كتبت له خطابًا أو اثنين وكانا يحويان شكرًا على كل ما قام به من أجلي.. »
- « ألم تطلبي منه أن يقابلك قط؟ »
احمرّ وجهها حنقًا وقالت:
- « المزيد من الأسئلة الغريبة ! »
- »هذا حق.. لكنه مهم بالنسبة لي.. »
« إذن أنا لم أفعل.. »
- « ولا في يوم الوفاة؟ »
شحب وجهها تمامًا.. واحتبست لفظة (لا) في فمها، فحركت شفتيها بها..
قلت لها:
- « سأذكر لك آخر مقطع من الرسالة: أسألك أن تحرق هذه الرسالة.. وأن تنتظرني عند باب الفلاة في العاشرة. التوقيع: ل.ل. »
قالت وهي تتماسك كي لا تفقد الوعى:
- « ألم يعد رجل شهم في هذا العالم؟ »
- « لا تظلمي الرجل.. فقد أحرق الرسالة لكنها لم تحترق تمامًا.. هذا يحدث كثيرًا.. »
قالت في غضب واندفاع:
- « ليكن.. أنا كتبت الرسالة ! لم أقارف خطأ ما.. كنت أبغي عونه، وحسبت أنني سأناله لو قابلته وحدي.. لقد كان يزمع السفر إلى (لندن) وكان عليّ أن أفاتحه سريعًا.. »
- « ولماذا الحديقة بالذات؟ »
- « لأن المرأة المحترمة لا تدخل بيت رجل عزب وحيدة ليلًا.. وعلى كل حال نحن لم نلتق قط ! »
- « أحقًّا؟ »

- « نعم.. لقد جدّ جديد منعني من اللحاق به.. »
- « وما هو؟ »
- « شأن خاص من شئونى.. »
قلت وأنا أنهض عازمًا على الانصراف:
- « أنت تضعين نفسك في مشكلة.. ولسوف يجد البوليس حكايتك واهية تمامًا.. فأنت ضربت لسير (تشارلز) الموعد والمكان اللذين مات فيهما.. ثم زعمت أنك لم تذهبى.. هذا يبدو غريبًا.. »
فكرت المرأة قليلًا ثم قالت:
- « حسن.. أنت تعرف أنني تزوجت زيجة ندمت كثيرًا عليها فيما بعد.. وانفصلت عن هذا الزوج المخبول، لكن القانون كان يخول له أن يعيدني بالقوة إلى بيته.. وكنت أحتاج إلى المال كي أتمكن من تحرير نفسي من قيد هذا الزواج والظفر بالطلاق.. لذا كتبت رسالة إلى سير (تشارلز) أسأله فيها العون.. وأملت في أنه - حين يسمع الكلام مني مباشرة - سيرقّ ويمنحني ما أريد من مال.. »
- « إذن لماذا لم تذهبي؟ »
- « لأني وجدت المال في مكان آخر.. ولم أذهب للموعد.. وفي الصباح علمت بخبر وفاته.. »
لاحقتها بأسئلتي محاولًا استخلاص المزيد، أو إيجاد ثغرة في قصتها فلم أجد.. إن من السهل التأكد من حقيقة أنها لم تأت إلى (باسكرفيل) في تلك الليلة.. ف (كومب تريس) صغيرة والأنباء تنتشر فيها بسرعة..
أعتقد أنها صادقة.. قد تخفي شيئًا لكنها صادقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عدت إلى القصر وقد عزمت على استكشاف تلك الأكواخ الحجرية التي يعيش الرجل المجهول في أحدها..
كنت راكبًا حين مرت العربة أمام منزل (فرانكلاند).. وكان الرجل واقفًا على باب الدار، فما إن رآني حتى صاح يدعوني إلى الشراب..
لم أكن متحمسًا للرجل بعد ما عرفت بأمر معاملته لابنته.. لكنها كانت دعوة كريمة لم أستطع التنصل منها..
تخلصت من السائق.. ثم دخلت إلى دار (فرانكلاند)..
قال لي الرجل في حماسة:
- « إعلم أنني قد سبقت رجال الشرطة بخطوات.. »
- « كيف؟ »
- « لقد وقفت على سر يموتون شوقًا كى يعرفوه.. »
قررت التظاهر باللامبالاة.. فهذا سيجعله يقول كل ما هناك.. وقد كان.
قال لي في حماس متزايد:
- « لقد عرفت مكان ذلك السجين الهارب.. »
- »وكيف؟ »
- « من السهل أن تجد الرجل لو بحثت عن المصدر الذي يحصل منه على الطعام.. وأنا أعرف أن صبيًّا يحضر له الطعام كل يوم.. »
- « صبى؟ »
- « نعم.. أراه بال (تلسكوب) كل يوم يتجه للفلاة.. ثم إن.. لكن لحظة.. هل ترى شيئًا يتحرك فوق السفح هناك؟ »
نظرت إلى حيث أشار.. وخيل إلىّ أنني أرى جسمًا يتحرك في ذلك الموضع..
قال وهو يصعد في الدرج:
- « تعال نره بال (تلسكوب) من فوق سطح الدار.. »

وصعدت وراءه لأجد جهاز (تلسكوب) يقف على حامل ثلاثي..
ودعاني الرجل أن أنظر من العدسة ففعلت..
كان ما رأيته هو صبي يحمل لفافة، ويتلفت حوله في حذر بينما هو يتسلق سفح التلّ.. ثم توارى عن عينى..



ودعانى الرجل أن أنظر من العدسة ففعلت . .
كان ما رأيته هو صبى يحمل لفافة ويتلفت حوله . .

قال (فرانكلاند):
- « هل ترى منظره المريب؟ من السهل أن تتخيل أية مهمة يقوم بها هذا.. »

غادرت الدار وقد عقدت العزم على بدء بحثي في التل الذي رأيت الصبي عنده..
دنوت من تلك الأكواخ الحجرية القديمة، ومن بينها كوخ تم وضع سقف بدائي فوقه بيد إنسان من أيامنا هذه.. فأيقنت أن هذا هو الكوخ الذي يتوارى فيه رجلنا إياه..
كان الصمت يسود المكان.. فرميت عقب لفافة تبغي، وأخرجت المسدس من جيبي.. وتقدمت من المدخل..
كان كل شيء في الكوخ يدلّ على وجود إنسان.. فهناك بطاطين.. وبقايا نار في وعاء حجرى.. وأوان ملأى بالماء..
إن من يعيش هاهنا إنما يعيش منذ زمن بعيد.. في وسط الكوخ قطعة حجر وجدت عليها لفافة، بها رغيف خبز وبعض اللحم..
إنها اللفافة التي كان الصبي يحملها حين رأيته بالـ (تلسكوب)..
وجوار اللفافة وجدت وريقة كتب عليها بخط ردىء، وبالقلم الرصاص:
- (د. واطسون ذهب إلى كومب تراس) !
دق قلبي بعنف.. إذن هذا الرجل الغامض يقتفى أثرى.. إن هذه الرسالة كتبها له الصبي كنوع من التقرير..
من هو هذا الرجل؟ وماذا يريد مني؟
رحت أفتش الكوخ بحثًا عن مزيد فلم أجد..
فقط عرفت من التفتيش أن الرجل لا يبالي كثيرًا برغد الحياة.. ومن الواضح أن ماء المطر المنهمر من السقف لا يضايقه كثيرًا..
بدأت الشمس تغرب.. كقرص دموي ينحدر في الأفق، وأشعتها تلتمع فوق مستنقعات (جريمبن)..
ومن النافذة البدائية كنت أرى قصر (باسكرفيل).. وبعيدًا عنه بيت (ستبلتون).. شعرت براحة نفسية لكنها لم تكن تامة لأني

كنت أفكر في ذلك الرجل الغامض.. جلست والمسدس في يدي أنتظره..

ثم سمعت صوت خطوات تدنو من الكوخ.. فتوترت مستعدًا للصراع..

توقفت الخطوات هنيهة.. ثم عادت تدنو.. ورأيت ظلّ الرجل على الباب وسمعت صوته يقول:

- « ليلة جميلة يا (واطسون).. لا أدري ما يرغمك على البقاء في هذا الكوخ الكئيب! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-11-

عرفت الصوت على الفور.. فتجمدت في مكاني..
إن رجلًا واحدًا في العالم يتكلم بهذا الصوت الهادئ الساخر..
وإنني لأشعر أن عبء المسئولية ينزاح عن كاهلى..
صحت في فرح:
- « (هولمز) ! (شيرلوك هولمز) ! »
قال:
- »هلم اخرج لى.. واحذر أن يصيبني مسدسك ! »
خرجت من الكوخ فرأيته جالسًا فوق صخرة.. وقد بدا منهكًا مرهقًا لكنه نظيف الثياب حليق الوجه..
قلت له في طرب:
- « لم أسعد قط برؤية إنسان مثلما حدث الآن.. »
- « ولم تُدهش..! »
- « حقًّا.. أعترف بهذا.. »
- »ولكن كيف عرفت؟ »
- « لا يمكن ألا أعرف وأنا أرى عقب لفافة تبغك على الأرض.. لفافة تبغ كتب عليها (برادلى – شارع أوكسفورد).. هذا يدلّ بوضوح على أنك كنت هنا.. ثم آثار أقدامك.. ليس عسيرًا استنتاج أنك بداخل الكوخ تنتظر ومسدسك معك.. وأنا أيضًا ارتكبت أخطاء مماثلة.. فلم ألحظ أن ضوء القمر خلفي تلك الليلة حين رأيتني فوق الهضبة.. ولم ألحظ أن التلسكوب يمسح الفلاة إلا حين التمع عليه وهج الشمس.. لكنني أرى أن شكوكنا تمضي في اتجاه واحد.. »
قلت له:

- « الحق أنني مسرور لوجودك هنا.. فهذه القضية غامضة تسبب لي توترًا مريعًا.. لكن قل لي: لماذا أتيت هاهنا؟ ولماذا لم تقل لي؟ »
- « يا صديقي أنا لم أخدعك أو أكذب عليك.. كنت أتوقع أن يكون هناك خطر داهم عليك.. لهذا أردت أن أتواجد دانيًا منك وأظل مجهولًا بالنسبة لأعدائنا.. وساعدني اختفائي هنا على حرية التنقل.. تلك الحرية التي ما كنت لأنالها لو أقمت في قصر (باسكرفيل).. »
- « كان بوسعك أن تخبرني.. »
- « لا.. لأنك كنت ستكشف الأمر.. ما كنت لتحتمل تركى هنا دون ضروريات أو تحت تقلبات الجو.. لقد تكفل الصبي (كارترايت) في مكتب البريد بالوفاء بكل مطالبي.. »
- « وتقاريرى؟ لم تستفد منها طبعًا؟ »
- « بل كان يحملها لى جميعًا ولا يرسلها إلى (لندن).. وإنك لبارع دقيق الملاحظة حقًا.. والآن إحك لى ما رأيته في (كومب تراس).. »
جلسنا داخل الكوخ حيث كان الليل البارد قد غمر الوجود.. ورحت أحكي له تفاصيل لقائي بـ (لورا ليونز).. وكان هو يصغى باهتمام شديد..
قال لي:
- « هل تعلم مثلًا أن هناك لقاءات ومراسلات بين مدام (لورا) و(ستبلتون)؟ إن هذا يقوي ما لدينا من معلومات.. ويمكن أن أجعل زوجة (ستبلتون) في صفنا بدافع الغيرة.. »
- « زوجة (ستبلتون)؟ »
- « بالطبع.. فمن تقيم في داره هي زوجته لا أخته ! »
- « رباه ! وكيف يسمح لسير (هنرى) بأن يحبها؟ »

- « لم يحدث شيء بينهما.. فـ (ستبلتون) يراقبهما كالصقر - كما قلت أنت في خطاباتك - ولو آذى هذا الحب أحدًا فهو سير (هنرى).. »
- « ولم يكذب؟ »
- « إن (ستبلتون) يعرف أن عذراء غير متزوجة ستفيده أكثر من زوجة.. »
بدأ الشك يتلاعب في نفسى..
- « تريد القول إن (ستبلتون) هو الغريم؟ وهو الذي كان في (لندن)؟ »
- »هذا هو رأيي في اللحظة الحاضرة.. »
- « وكيف عرفت ما عرفت؟ »
- « لقد كان الرجل مدير مدرسة في شمال إنجلترا.. ومن السهل أن تسأل في إحدى الإدارات التعليمية لتعرف كل شيء عن أحد مديري المدارس.. لقد عرفت أن (ستبلتون) قد هجر مدرسته بعد انتشار الوباء مع زوجته.. زوجته لا شقيقته.. »
- « وعلاقته بمدام (ليونز)؟ »
- « إن المرأة تبغى الطلاق من زوجها.. معنى هذا أنها تطمع في الزواج من (ستبلتون) الذي تحسبه غير متزوج.. ولسوف يفيدنا أن تعرف الحقيقة.. »
- « وما غرض (ستبلتون) من كل هذا؟ »
- « إن في الأمر جريمة قتل.. جريمة يخططها عقل جبار وتنفذها أعصاب من فولاذ.. وبفضل معونتك لى يا (واطسون) صار (ستبلتون) في قبضتي.. والخطر كل الخطر هو أن يضرب ضربته قبل أن نضرب نحن ضربتنا.. أنا بحاجة إلى يوم أو اثنين لا أكثر.. أما قبل هذا فالواجب حماية سير (هنرى).. والحق أنك ارتكبت خطأ حين تركته وحده كل هذا الوقت.. »

هنا دوت صيحة مريعة.. صيحة فيها كل معانى الرعب والألم الممض.. فصحت وقد وثب قلبي لفمى:
- »رباه ! ما هذا؟! »
وثب (هولمز) إلى باب الكوخ ينظر ما هنالك.. لم يكن سوى الظلام بالخارج..
هنا دوت الصرخة ثانية.. لكن اختلط بها صوت آخر..
صوت زئير عميق يعلو ويهبط كالأمواج.. زئير كلب يمزق..
صرخ (هولمز):
- « الكلب ! كلب (باسكرفيل) ! هلم يا (واطسون) ! رباه! »
وراح يركض في الفلاة وأنا خلفه.. بينما الصرخة تتردد من جديد، كلها يأس وقنوط.. ثم همدت تمامًا.. ولم يعد من صوت سوي سكون الليل..
- « لقد تأخرنا يا (واطسون).. تأخرنا أكثر من اللازم.. »
ورحنا نركض في الظلام متعثرين بالأشجار والصخور.. ونصعد الهضاب والمرتفعات.. كنا نقصد مصدر الصرخة..
أخيرًا توقف (هولمز) وأشار لى كى أرى..
كان هناك جسم آدمى مكوم على الأرض.. وقد انثني عنقه في زاوية غير معتادة..
وعلى ضوء الثقاب رأينا الرأس المهشم، وقد تناثر منه المخ في بركة من الدماء.. وعرفنا أن هذا سير (هنرى باسكرفيل)..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يرتدي سترته التي قابلنا بها في (شارع بيكر) أول مرة.. وانطفأ لهب الثقاب فانطفأت معه آمالنا..
أنّ (هولمز) في ألم، بينما كورت قبضتى صائحًا:

- « ويحه ذلك الآثم ! لن أغفر لنفسى أبدًا أن تركته وحده ورحت أجري تحرياتي.. »
- « بل الذنب ذنبي.. فقد ضحيت بحياة رجل من أجل التأكد من شكوكى.. إن هذا أكبر فشل في حياتي العملية.. فما توقعت أن يجازف سير (هنري) بحياته وسط الفلاة بعد ما سمع.. »
ثم قال في حنق:
- « يجب أن يلقى (ستبلتون) جزاءه.. فقد مات سير (تشارلز) رعبًا حين رأى الكلب.. ومات سير (هنرى) ساقطًا من عل وقد أبصر هذا الكلب في إثره.. المشكلة هي أن نثبت أن الكلب علاقة بحادثى الوفاة.. »
- »ولماذا لا نقبض عليه حالًا؟ »
- « ما زالت معلوماتنا عن القضية ناقصة.. يجب إثبات ما نقول.. »
- »إذن ماذا نفعل؟ »
- »علينا الآن واجب واحد هو العناية بهذا التعس.. »
وهبطنا من عل.. كان القمر قد بزغ مما جعل الرؤية واضحة نوعًا في الضوء الباهت.. ورأيت الجثة فتذكرت ما كانت عليه من دقائق.. وتذكرت صراخها الملهوف.. ودمعت عيناى..
وانحنينا فوقها.. ففوجئت بـ (هولمز) يضحك بصوت عال.. ثم نهض يرقص ويهزّ يدي في مرح، حتى حسبته جُنّ..
- « لحية ! لحية ! الجثة لها لحية.. »
- « لحية؟ »
- « نعم.. إنه ليس سير (هنرى) بل السجين الهارب ! »
وقلب الجثة على ظهرها.. فرأيت ذلك الوجه الملتحي الذي يشي بمعالم الإجرام.. إنه حقًّا وجه (سلدن) المجرم الهارب..

وفهمت كل شيء.. ف (سير هنرى) قد أعطى ثيابه القديمة ل (باريمور).. ومن الواضح أن هذا الأخير أعطاها ل (سلدن)..
هتف (هولمز) وقد فهم بدوره:
- »الآن نفهم ما حدث.. لقد اشتمّ الكلب أثر سير (هنرى) في ثيابه.. ولعله شمها بالذات في حذائه الذي فقده في (لندن).. ومن حظ السجين العاثر أنه ارتدي ثيابًا تحمل نفس الرائحة.. وفوجئ بالكلب يطارده عبر الفلاة.. »
- « وماذا نفعل بجثة التعس؟ »
- »سنضعها في كوخ حتى تصل الشرطة.. »
وتعاونا على حمل الجثمان حين نظر (هولمز) إلى الوراء.. فرأينا (ستبلتون) قادمًا عبر الفلاة.. وكانت في فمه لفافة تبغ مشتعلة.. فما كاد يرانا حتى توقف برهة مترددًا ثم واصل المشي حتى وصل إلينا.. فقال:
- « أهذا مستر (هولمز)؟ لم أتوقع لحظة أن أراك هنا.. لكن.. يا للهول ! لا تقل إن هذه جثة سير (هنرى) ! »
وهرع إلى الجثة وتفحصها.. سقطت لفافة التبغ من يده.. وغمغم:
- « م .. من هذا؟ »
- « إنه (سلدن).. السجين الهارب من (برنستون).. »
كان ممثلًا بارعًا.. استطاع أن يداري خيبة أمله بسرعة.. وسألنا في حيرة:
- « يا للبشاعة ! كيف لقي حتفه؟ »
- « لقد سقط من فوق الصخور.. »
- « يا للهول ! لقد سمعت صراخه فغادرت المنزل.. وكنت قلقًا على سير (هنرى) »
- « لماذا هو بالذات؟ »

- « لأنه كان مدعوًّا إلى داري وتأخر بعض الوقت.. فقلقت.. »
ثم سألنا وهو ينقل بيننا عينيه:
- »هل سمعتما شيئًا آخر؟ »
- « مثل ماذا؟ »
- « مثل تلك الكلب الذي يتحدث عنه الفلاحون هنا.. ونسمع صوته في الفلاة ليلًا.. »
- « لا لم نسمع.. ويبدو أن البائس قد جن وراح يركض في الفلاة دون روية.. فتعثر وهوى أرضًا.. »
ثم إن (ستبلتون) نظر إلى (هولمز) وقال:
- « يسرنا قومك هنا.. ومتى ستعود إلى (لندن)؟ »
- »غدًا على الأرجح.. »
- »أبهذه السرعة؟ عسى أن تكون زيارتك قد ألقت بعض الضوء على كل هذا الغموض.. »
هزّ (هولمز) كتفيه قائلًا:
- « ليس النجاح ميسورًا في كل حالة.. والمحقق لا يبنى عمله على أساطير.. »
وقررنا أن نرقد الجثمان في أحد الأكواخ حتى الصباح، مع تغطية وجهه.. ودعانا (ستبلتون) إلى داره، فأبينا شاكرين.. وعدنا إلى القصر..
قال (هولمز):
- « أعصاب من حديد ! لقد تمالك نفسه، فلم يبد أقل دهشة أو ذهول لدى معرفته أن لعبته فشلت.. إن هذا الرجل جدير بنا..»
- « يؤسفني أنه رآك.. »
- « أعتقد أنه سيتخذ المزيد من الحذر والحيطة.. وربما يكون واثقًا من نفسه إلى الحدّ الذي يدفعه إلى المضي قدمًا في

خططه.. »
- « ولم لا نعتقله الآن؟ »
- »تلك هي المشكلة.. لن نثبت شيئًا عليه.. أظن أنه حذر بما يكفي.. فلن يكون الكلام عن كلب جهنمى مجديًا في المحكمة.. لقد مات سير (تشارلز) بنوبة قلبية، ولسوف يقبلها أكثر القضاة تشككًا كحقيقة.. أين هي آثار أنياب الكلب؟ أين مخالبه؟ نحن لا نملك الدليل المادي وعلينا أن نجده.. »
- « ومصرع السجين؟ »
- « نحن لم نر الكلب.. ولا يمكننا إثبات أنه طارد القتيل.. كما أنه لا يوجد دافع للجريمة.. كلا يا (واطسون).. قضيتنا واضحة لكن ما من محكمة تقبلها.. »
- « وماذا تنتوي؟ »
- »سأطلع مدام (ليونز) بحقيقة زواج (ستبلتون).. وإنني لآمل ألا ينتهي الغد إلا وقد صار (ستبلتون) في قبضتنا.. »
- « وهل ستعود للقصر معي؟ »
- « نعم.. فلا مبرر للاختفاء أكثر.. لكني أرجو يا (واطسون) ألا تخبر سير (هنرى) بشيء عن الكلب.. فأنا أريده رابط الجأش حين يواجه ما ينتظره غدًا! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-12-

أحس سير (هنرى) بالسعادة للقاء (هولمز).. لكنه لم يندهش.. فهو يتوقع مقدمه منذ أيام، لكنه لم يفهم سر مقدمه بلا حقائب..

جلسنا إلى المائدة، وحكيت لسير (هنرى) أحداث الليلة.. لكني لم أذكر شكوكنا في (ستبلتون) ولا الكلب..

ولقد أطلعت (باريمور) وزوجته بخبر وفاة (سلدن).. كان الخبر طيبًا بالنسبة لـ (باريمور) لأن هذا كان هو الحل الوحيد للخلاص من هذا العبء..

أما هي فبكت في حرقة.. بكت شقيقها الذي أحبته.. والذي لم تره يومًا سفاحًا كما رآه الناس..

قال (هولمز) لمضيفنا:

- « يبدو أنك يا سير (هنرى) كنت تزمع الخروج.. »

قال سير (هنرى):

- « نعم فقد دعانى (ستبلتون) لزيارته.. »

- « لقد كان (سلدن) التعس يرتدي ثيابك.. ومن حسن الحظ أن مصدر الثياب غير واضح.. وإلا لوجدتم أنفسكم جميعًا في مأزق مع الشرطة.. إنكم جميعًا مدانون بصدد التستر على مجرم وتقديم العون له.. »

قال سير (هنرى):

- « وماذا عن قضيتنا الحالية؟ »

- »لقد دنوت جدًّا من الحل.. إنها قضية معقدة مازال فيها جوانب كثيرة مظلمة.. و.. »

وتصلب وهو ينظر إلى ما فوق رأسي.. حتى حسبته استحال تمثالًا.. وبدا الابتهاج على وجهه..

ثم أشار إلى عدد من صور زيتية على الجدار.. وسأل:
- »هذه الصور تحفة فنية ثمينة.. »
نظر له سير (هنرى) في دهشة.. وقال:
- « هذا إطراء جميل.. لكني لا أفهم في الفنون.. وكنت أحسبك لا تجد الوقت الكافي لذلك.. »
- »إنني أعرف ما يمكنني من القول إنها تحف فنية.. هل هي تمثل أسرتك؟ »
- « نعم.. »
- « من هذا إذن؟ »
- »هذا هو الأميرال (جورج باسكرفيل).. أما هذا ذو السترة الزرقاء فهو سير (ويليام باسكرفيل).. »
- « ومن الذي يرتدي المخمل الأسود.. ويضع الشملة الزرقاء على صدره؟ »
- « آه.. هذا هو سبب لعنة (باسكرفيل).. فهو الشقي (هوجو) ذاته.. »
كان شكل الفتى ينطق بالهدوء والوداعة.. وأثار هذا دهشتي.. فهو في تصورى خشن المظهر ضخم الجثة..
ولماذا يرمق (هولمز) الصورة بهذا الاهتمام؟
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلنا غرف نومنا.. لكن (هولمز) وافاني بعد قليل واقتادني إلى حجرة المائدة ومعه شمعة.. ودنونا من صورة (هوجو).. فقرب منها الشمعة.. وسألني:
- « بمن يذكرك هذا الوجه؟ »
دققت في ملامح الصورة.. وقلت:
- « الفم فم سير (هنرى).. »

- »حسن.. وهكذا؟ «

قالها وهو يصعد إلى مقعد، فيمد كفه فوق الصورة ليحجب القبعة والشعر الطويل.. ثم عاد يسألني عن رأيي.. فهتفت:

- « رباه ! »

كانت الصورة التي أمامي هي صورة (ستبلتون)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



قالها وهو يصعد إلى مقعد، فيمد كفه فوق الصورة ليحجب القبعة والشعر الطويل..

قال (هولمز):

- « هل فهمت الآن؟ إن الفراسة مهمة في المحقق البوليسي.. ويجب أن يتعلم النظر إلى الوجوه وينسى ما حولها من شعر

وثياب.. »
- « لكن.. كأن هذه صورة (ستبلتون).. »
- « هذا نموذج طيب لتناسخ الأرواح والأجساد.. والآن لا يوجد شك في أن (ستبلتون) من نسل (باسكرفيل).. »
- « وهو يحاول الحصول على إرثه.. »
- « بالضبط.. والآن نقول إن (ستبلتون) قد صار في قبضتنا، كما تصير الفراشات التي يحبسها في شباكه.. »
وانفجر ضاحكًا ضحكته المتوعدة الشهيرة وهو يبتعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحوت من النوم في الصباح، لأجد (هولمز) قد غادر القصر.. ثم عاد بعد قليل وهو يقول مغتبطًا:
- « لقد نصبت شباكي كلها.. وبقي أن يحطّ الطير بينها.. »
- « أين كنت؟ »
- « كنت أبلغ إدارة السجن بوفاة (سلدن).. والآن نحدث سير (هنرى).. »
قال سير (هنرى) وهو يبتسم:
- « صباح الخير يا مستر (هولمز).. ما هي تعليماتي الحربية؟»
- « يبدو أنك مدعو هذه الليلة للعشاء مع (ستبلتون) وأخته.. »
- »هذا حق.. وأتمنى أن تحضر معي.. »
- « لن يتيسر هذا لأني راحل مع (واطسون) إلى لندن.. »
بدا الأسف على سير (هنرى):
- « كنت أتمنى أن تبقى معي فترة أطول حتى نفهم كل شيء.. إن القصر والفلاة ليسا بالمكان الذي يحب المرء أن يكون وحيدًا فيه.. »

- « أرجو أن تثق بي.. وعليك أن تعتذر لمضيفك لأن ظروفًا مهمة اضطرتنا للسفر إلى (لندن).. لكننا نأمل في العودة سريعًا.. يجب أن تذكر هذه العبارة حرفيًّا.. »
- « سأفعل ما دمت تريده.. »
- « سنرحل عقب الإفطار.. لكن حقائب (واطسون) ستظل هنا.. »
قال سير (هنرى):
- »سآتي معكما إلى (لندن).. فلا أريد أن أبقى وحدي.. »
- « لقد وعدتني يا صديقي أن تفعل ما أطلب منك.. »
- « حسن.. كما تريد.. »
- « ثمة نقطة أخرى.. يجب أن تعود إلى القصر على قدميك من دون المركبة.. فهمت؟ »
- « أمشي في الفلاة وحيدًا ليلًا؟! »
- »نعم.. »
- « لكن هذا هو عين ما حذّرتني منه.. »
- « هذا ضرورى.. وعليك أن تنفذه.. »
- « ليكن.. »
- « وعليك ألا تعبر الفلاة إلا من ناحية الممر الموصل من دار (ستبلتون) إلى طريق (جريمبن).. »
- « حسن.. »
بدا لي هذا غريبًا.. فـ (هولمز) ينوي ترك سير (هنري) في وقت عصيب حقًّا.. لكنه كان يطالبنا بالطاعة العمياء..
وفي محطة (كومب تراس) فارقنا مركبة سير (هنرى).. واتجه (هولمز) إلى صبي صغير يقف على المحطة فقال له:
- « مرحبًا يا (كارترايت).. ستركب هذا القطار إلى (لندن).. ومن هناك ترسل برقية إلى سير (هنرى) تحمل توقيعى، تخبره فيها أن

يبحث عن مفكرتي..
والآن هل توجد برقيات لي؟ »
ناوله الصبى برقية، فضها (هولمز) فكان بها:
- « تسلمت برقيتك - قادم ومعي أمر الاعتقال - أصل الساعة 5:30 - ليستراد).. »
قال (هولمز):
- « إن (ليستراد) هو أبرع مفتشي (سكوتلانديارد)، ومعونته مهمة لنا.. والآن هلم يا (واطسون) نزر مدام (لورا ليونز).. »
فهمت خطة (هولمز).. إنه يحاول خداع (ستبلتون) ليتوهم أننا عدنا إلى (لندن).. بينما نحن في الجوار مستعدون للتدخل..
واتجهنا إلى مدام (لورا) أو (ل. ل).. حيث قدم لها (هولمز) نفسه ودخل في الموضوع دون مقدمات.. فقال:
- « لقد عرفت ما ذكرته لدكتور (واطسون) بصدد وفاة سير (تشارلز).. وعرفت ما لم تذكريه! »
قالت في تحد:
- « لم أذكر ماذا؟ »
- « العلاقة بين موعدك للرجل ووفاته في ذات المكان والزمان.. إن الشرطة تعتبر الوفاة جريمة قتل.. ولدينا أدلة قوية ضد (ستبلتون) وزوجته.. »
وثبت من المقعد صائحة:
- « زوجته؟! إن (ستبلتون) عزب.. »
هزّ كتفيه في هدوء وقال:
- »هذا لم يعد سرًّا.. »
- »إذن أثبت ما تقول.. »
أخرج من جيبه بعض الأوراق.. وقال:

- « هوذا دليل مؤكد.. صورة فوتوغرافية التقطت في (يورك) منذ أربعة أعوام.. وعلى ظهرها كتب (مستر ومدام فتدلير).. هل تعرفت الوجهين؟ »
التمعت عيناها لمعة مخيفة.. وبعد صمت قالت:
- « لقد عرض هذا النذل عليّ الزواج إذا هجرت زوجي.. ولماذا؟ واضح أنه كان يتلاعب بى تلاعبًا شريرًا.. فلم أعد ملزمة بكتمان أسراره.. سلنى عن أي شيء تريد: لكن - فاعلم - أنا لم أتعمد قط إيذاء سير (تشارلز) حين كتبت ذلك الخطاب له.. »
- « حسن.. أنا أثق بما تقولين تمامًا.. هل كتبت تلك الخطابات استجابة لمطلب (ستبلتون)؟ »
- »إنه من أملاه عليّ.. »
- « ثم أقنعك بعدم الذهاب للموعد؟ »
- « نعم.. قال لي إن كرامته تمنعه من أن يترك أحدًا يدفع لى مالًا.. وهكذا لم أذهب للقاء سير (تشارلز).. وعرفت نبأ وفاته في الصباح.. وعندها أقنعني (ستبلتون) أن أتكتم شأن الزيارة، لأن الوفاة حدثت في ظروف مريبة.. ولربما تكاثرت الشبهات حولى لو تكلمت.. »
- « ألم تشكى في شيء.. »
ترددت وقالت:
- « نعم.. كنت أثق به.. وكنت أنتوى أن أخلص له على طول الخط »
قال (هولمز):
- « لكن معرفتك سره تضعك في خطر داهم.. وإن اعترافك قد أنجاك بأعجوبة من ميتة شنيعة.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على المحطة وقفنا ننتظر القطار القادم من (لندن)..
ودخل القطار المحطة.. فبرز لنا من عربات الدرجة الأولى رجل ضئيل، صافحنا.. وعرفت أنه المفتش (ليستراد)..
كان بادي الاحترام لـ (هولمز).. وأدركت أنه يؤمن بنظرياته في البحث الجنائي إلى حد كبير.. على عكس باقي رجال (سكوتلانديارد) الذين يرون في الاستدلال المنطقي مضيعة للوقت ..
سأل (ليستراد):
- « هل جدّ جديد؟ »
قال (هولمز):
- « هي أروع قضية قابلناها منذ أعوام.. وأرى أن نتناول العشاء إلى أن يحين وقت العمل بعد ساعتين.. هل رأيت (دارتمور) من قبل؟ لا؟ أظن أنك لن تنسى هذه الزيارة أبدًا ! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-13-

إن الكتمان هو أسوأ عيب في شخصية (هولمز).. فهو يحتفظ بخططه لنفسه ولا يبوح بها لامرئ مهما كان.. وبعض هذا يعود إلى حبه لإبهار من حوله.. لكن الجزء الأكبر يعود لطبيعة مهنته التي تتسم بالاحتياط وعدم التساهل في التفاصيل..

لكن كتمانه هذا يسبب ضيقًا بالغًا لمن حوله..

وكان الكيل قد طفح بي في تلك الليلة، ونحن نعبر الفلاة في الظلام.. فنحن في آخر فصول المأساة ومن حقي أن أعرف.. لكن (هولمز) ظل صامتًا لا يقول حرفًا..

وشعرت بهواء الليل البارد، ورأيت ظلام المروج الدامس اللامتناهى، ولم أتمالك أن أرتجف.. إن حوافر الخيل تقربنا من نهاية المأساة..

دنونا من قصر (باسكرفيل) فترجلنا.. وصرفنا السائق.. ثم مشينا نحو دار (ستبلتون).. وتساءل (هولمز):

- « هل مسدسك معك أيا (ليستراد)؟ »

ابتسم الرجل في ثقة:

- « إنه لا يفارق جيبى.. »

- « حسن.. »

ونظر المفتش في رهبة للسفوح المظلمة.. والضباب الكثيف فوق مستنقعات (جريمبن)؛ فقال في تطيّر:

- »هذا المكان لا يريحني كثيرًا.. »

قال (هولمز):

- « هذا منزل (ستبلتون).. سندنو منه في هدوء تام.. »

ومشينا في حذر إلى هناك.. وعلى بعد مائتي متر قال (هولمز):

- « فلنتوار وراء هذه الصخور.. »
ثم سألني:
- « ما هذه النافذة المضاءة أمامنا؟ »
- « إنها نافذة غرفة الطعام.. »
- « إذن ازحف في هدوء.. وانظر خلسة لترى ما هنالك.. »
نظرت من الزجاج فلم أر سوى سير (هنرى) و(ستبلتون) يدخنان ويرشفان القهوة، كان (ستبلتون) يثرثر بغزارة بينما سير (هنرى) واجم الوجه صامت.. وخطر لي أنه يفكر قلقًا في الرحلة التي سيقطعها في الفلاة ساعة العودة.. فتبدو له الفكرة مفزعة.. نهض (ستبلتون) وغادر الغرفة، تاركًا سير (هنرى) وحده يدخن.. سمعت صوت خطواته فوق الأرض المفروشة بالحصى.. ثم رأيته يخرج من الدار فيتجه إلى مبنى صغير في الحديقة.. فأولج المفتاح فيه.. وهنا سمعت ضوضاء غريبة، وصوتًا أقرب إلى سلاسل تفك.. ثم عاد إلى المنزل..
عدت في صمت إلى (هولمز) وأخبرته بما كان.. فسألني:
- »تقول إن السيدة ليست معهما؟ »
- « لا.. »
- « إذن أين هي؟ »
وبدأت سحابة كثيفة من الضباب تنتشر فوق المستنقعات.. وازدادت كثافة كأنها - في ضوء القمر - جبل جليدي.. وراحت تدنو منا..
رآها (هولمز) فبدا عليه القلق.. وقال:
- « إنها تدنو منا يا (واطسون).. »
- « وما خطر هذا؟ »
- « سيجعل هذا الرؤية متعذرة علينا.. وأملنا الوحيد الآن في أن يغادر سير (هنرى) الدار قبل أن تحجبه هذه السحابة عنا

تمامًا.. »
وزحفت السحابة ببطء نحو المنزل.. حاصرت جدرانه، وغطت النافذة المضاءة، وبدت قمم الأشجار كأنما تطل من محيط دخاني كثيف..
- « اللعنة ! »
قالها (هولمز) وهو يضرب الصخر بقبضته.. وأردف:
- « بعد نصف ساعة لن يبصر أحدنا يده.. يجب أن ينصرف الآن ! »
- »فلنرتفع قليلًا كى نخرج من هذا الضباب.. »
- « نعم.. »
وبدأنا نصعد المرتفعات في بطء.. حتى خرجنا من السحابة الكثيفة.. لكن (هولمز) منعنا من أن نصعد أكثر..
وألصق أذنه على الأرض.. ثم تهلل وجهه وهتف:
- « حمدا لله.. شخص قادم ! »
وسمعنا صوت خطوات تدنو مسرعة، فانكمشنا وسط الصخور نرمق الضباب.. وبعد هنيهة برز من الضباب رأس سير (هنرى).. وبدت عليه الدهشة إذ لم يتصور سرعة انتشار الضباب في الفلاة..
ومشى يخف السير في الطريق الممهد قاصدًا قصره، وكان يتلفت حوله في توجس يمينًا ويسارًا..
هنا صاح (هولمز) وهو يخرج مسدسه:
- « إنه هو ! »
وسمعنا صوت خطوات وسط الضباب.. لكننا لم ندر ما يتوقعه (هولمز).. ونظرت إلى وجهه لأرى ما يبغيه، فرأيته يشحب وتلتمع عيناه.. وفجأة فتح شفتيه في ذهول.. وسمعت صرخة هلع من (ليستراد)..

وأمام عيني رأيت مشهدًا مروعًا لا يصدق، جعل عقلي يشلّ تمامًا..
رأيت كلبًا أسود عملاقًا.. لكنه لا يمت لعالمنا بصلة..
النار تنبعث من فمه المفتوح.. واللهب يخرج من عينيه..
وضوء متألق يحيط بفمه وعينيه وعنقه كأنما جاء من جهنم..
لقد رأيت كابوسًا يخرج من الضباب..
وكان يركض في خطوات واسعة نحو سير (هنرى)..
تجمدنا حيث نحن عاجزين عن اتخاذ قرار..
وحين عدنا لروعنا كان الكلب قد مرّ من أمامنا يركض تجاه ضحيته..
عندها أطلقت و(هولمز) مسدسينا في اللحظة ذاتها..
صرخ الوحش لكنه واصل ركضه للأمام.. ورأينا سير (هنري) يلتفت للوراء فيري الهول القادم نحوه..
تسمر في مكانه وبدا الرعب على وجهه الشاحب.. ورفع يديه للسماء..
أما نحن فقد أعادتنا صرخة الكلب إلى عالمنا..
إن المخلوق الذي يُجرح يمكن أن يُقتل كذلك..
كان (هولمز) يعدو عدو الظليم.. فسبقني وسبق (ليستراد)..
ومن بعيد سمعنا صراخ سير (هنرى) وزمجرة الكلب..
كان الكلب جاثمًا فوق الرجل، يحاول تمزيق عنقه بأنيابه..



كان الكلب جاثمًا فوق الرجل ، يحاول تمزيق عنقه بأنيابه . .

لكن (هولمز) أفرغ الرصاص في ظهر الكلب.. فزأر زأرة مريعة.. ثم تدحرج ساقطًا على ظهره، وأقدامه ترتجف في الهواء.. وهمدت حركته..

دنوت من الكلب لاهثًا.. ولاصقت بمسدسي رأسه.. لكنه كان قد مات..
كان سير (هنرى) قد فقد وعيه، فراح (هولمز) يفك ربطة عنقه.. وحمدنا الله تعالى لأنه خال من الجروح..
سكب (لستراد) في فم الضحية بعض (البراندى)، ففتح عينيه ورمقنا في هلع وهتف:
- « رباه ! ما كان هذا؟ »
- « أيًا كان فقد مات.. وانتهت أسطورة كلب العائلة.. »
ورحنا نتفحص الجثة..
كان كلبًا عملاقًا بادى الشراسة والوحشية.. وقد توهج ضوء أخضر حول فكيه وعينيه.. مددت إصبعي ومسحت.. ثم تفحصته هاتفًا:
- « مادة فوسفورية ! »
قال (هولمز):
- « حقًّا.. وواضح أنها بلا رائحة مما يؤثر على شم الكلب.. خالص اعتذاري يا سير (هنرى) على هذه التجربة المروعة.. لكننا كنا نأمل في أن نقتله أسرع من هذا لولا الضباب.. »
- « إنك أنقذت حياتي.. »
- « نعم.. ونحمد الله على ذلك.. هل يمكنك الوقوف؟ »
تحامل سير (هنرى) على قدميه، فوقف وهو غاية في الشحوب والوهن.. واستند إلى صخرة دافئًا وجهه بين يديه..
قال (هولمز):
- »سوف نتركك هاهنا فلم يعد ثمة خطر عليك.. أما الآن فلابد أن ننطلق للقبض على المجرم.. »
وانطلقنا نركض نحو منزل (ستبلتون)..
قال (هولمز) ونحن نجري:

- »من المحال أن نجده في المنزل.. لقد سمع الطلقات حتمًا وعرف أن الفريسة أفلتت.. »
- « ربما لم يسمع.. »
- « لا.. لابد أنه قد هرب.. لكن لابد من تفتيش المنزل.. »
كان باب المنزل مفتوحًا.. فدخلنا ورحنا نفتشه..
لم تكن حجرة مضاءة سوى حجرة الطعام.. ورحنا نبحث في كل حجرة فلم نجد أثرًا لـ (ستبلتون).. إلا أننا وجدنا غرفة موصدة في الطابق العلوي..
قال (ليستراد):
- « صوت حركة بالداخل.. ثمة إنسان هاهنا.. »
بالفعل كان هناك صوت أنين.. فركل (هولمز) الباب بقدمه.. واندفعنا إلى الداخل وقد صوّب كل منا مسدسه في اتجاه..
رأينا مشهدًا عجبًا..
كانت الحجرة ملأى بالبرطمانات التي يحنط فيها فراشاته النادرة.. وقد وضعت على الرفوف في كل صوب..
وفي وسط القاعة كان عمود خشبى ربط إليه جسد مشدود.. وقد غُطّى حتى عسر علينا تمييز.. أرجل أم أنثي..
مزقنا الأغطية فإذا هي مدام (ستبلتون).. وسقط رأسها على صدرها إذ كان قد أغشي عليها، فرأينا على عنقها حزًّا أحمر.. من أثر سوط..
هتف (هولمز):
- « تبًّا له من وحش ! أعطها جرعة من (البراندى) يا (لستراد).. فقد عذبها الحيوان حتى فقدت وعيها.. »
أخيرًا فتحت عينيها فهتفت:
- « هل نجا؟ »
- »بل لن يفلت منا يا سيدتي.. »

- « لا أتحدث عن زوجي.. أتحدث عن سير (هنرى).. »
- « نعم نجا.. »
- « والكلب؟ »
- « مات.. »
- « حمدًا لله.. »
وتنهدت وقالت:
- « لكم عذبني (ستبلتون) وآذاني.. لكني تحملت كل هذا أملًا في الظفر بمحبته.. »
وتهانفت.. فقال (هولمز):
- « إذن.. قولي لنا أين نجده.. لنعاقبه.. »
قالت:
- « يوجد مكان واحد.. هو منجم مهجور وسط المستنقعات.. لقد كان يربي الكلب فيه.. وبه ملجأ يختفي فيه.. إنه هناك.. »
دنا (هولمز) من النافذة فرأى الضباب بالخارج.. قال:
- « من المستحيل أن نعبر المستنقعات هذه الليلة.. »
ضحكت المرأة في وحشية وقالت:
- « لن يستطيع أن يجد طريقه في هذا الضباب.. فهو يسترشد بعيدان خشبية تدله على الطريق بداخلها.. »
تركنا (ليستراد) يحرس البيت.. وعدنا إلى سير (هنري) واصطحبناه إلى القصر لتنتهي هذه الليلة الرهيبة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-14-

في الصباح اصطحبنا مدام (ستبلتون) إلى المستنقعات، فأرشدتنا إلى المنطقة بين الأوحال.. وكانت متحمسة إلى حد كبير، فقد عذبها زوجها كثيرًا..

كان هناك طريق متعرج.. غرست على جانبيه أعواد خشبية متباعدة تدل على الطريق الصحيح.. بينما رائحة التعفن تزكم أنوفنا..

وحين كانت قدم أحدنا تزل كان يشعر أن الأوحال تجذبه إلى أعماقها بيد حديدية..

ووجدنا آثار أقدام تدل على أن هناك من سبقنا عبر هذا الطريق المرعب.. لكن الآثار اختفت بعد قليل بسبب تقلب الأوحال..

ويبدو واضحًا أن (ستبلتون) لم يستطع الوصول إلى كهفه بين طبقات الضباب.. فلابد أنه زل وسقط في مستنقعات (جريمبن) الرهيبة، فابتلعته وخلصت العالم منه..

وفي أحد الأكواخ وجدنا سلسلة عملاقة وطوقًا حديديًا وبعض العظام، ففهمنا أن (ستبلتون) كان يربى كلبه هنا..

قال (هولمز):

- « هذا هو سرّ الصوت الذي كان يروع الفلاحين.. فالكلب كان هاهنا يعوى.. لكن (ستبلتون) كان يحمله إلى داره أحيانًا حين ينوى الهجوم.. أما هذه العلبة فأظنها تحوي المخلوط الفوسفوري إياه، الذي كان يطلى به الكلب..

» لا غرابة في أن كل من رأى الكلب يشع في الظلام راح يركض ذعرًا.. إلى حد أن سير (تشارلز) أصيب بنوبة قلبية.. لقد كان تدبيرًا جهنميًا حقًا.. ونجح في جعل الأسطورة رهيبة ملموسة.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي ليلة باردة من ليالي (نوفمبر) جلست و(هولمز) جوار المدفأة، نتحدث عن هذه القضية الرهيبة..
قال (هولمز):
- « لقد أسفرت أبحاثي عن وجود قرابة قوية لـ (ستبلتون) وآل (باسكرفيل).. فالأخ الأصغر (رودجر) الذي فرّ إلى أمريكا الجنوبية قد تزوج هناك.. وأنجب طفلًا أسماه (رودجر).. كبر الفتى وتزوج فتاة تدعى (بيريل جارسيا) وهي حسناء كوستاريكية.. ثم اختلس بعض المال وغير اسمه إلى (فاندلير)، وفرّ إلى انجلترا لينشئ مدرسة.. »
»بعد قليل تدهورت المدرسة وساءت سمعتها.. لذا غير (فاندلير) اسمه إلى (ستبلتون) وقصد جنوب انجلترا، وكان شغوفًا بعلم الأحياء.. حتى صار حجة فيه.. ويبدو أنهم أطلقوا اسمه على نوع من الفراش.. »
وعرف الفتى أن شخصين يحولان بينه وبين امتلاك ضيعة كاملة.. فجاء إلى (ديفون شاير) مصممًا على الخلاص منهما، وأعلن أنه غير متزوج وأن من معه هي شقيقته.. »
ثم إنه بدأ يوثق معرفته بسير (تشارلز)، ومنه عرف كل شيء عن أسطورة الكلب الجهنمي الذي يطارد الأسرة منذ قرون.. وبدأت الفكرة تختمر في ذهن (ستبلتون)..
»إن السير (تشارلز) يؤمن بالخرافات وقلبه واهن.. لذا اتجه (ستبلتون) إلى متجر (روس ومانجلز) في (لندن)، فابتاع كلبًا قويًّا شرسًا.. ودخل به إلى المقاطعة.. ثم أخفاه في كوخ وسط المستنقعات وعلمه الافتراس، وراح ينتظر فرصة سانحة يغادر فيها سير (تشارلز) القصر إلى الفلاة وحده.. »

»حاول (ستبلتون) أن يجعل زوجته تغرى سير (تشارلز) بالخروج.. لكنها أبت ذلك.. ولم يفلح الضرب في إقناعها.. »
»بدأ يوطد علاقته بالمسكينة (لورا ليونز).. وأغراها بالزواج منها.. ثم جعلها تكتب تلك الرسالة إلى سير (تشارلز) تطلب لقاءه تلك الليلة.. ثم أقنعها بعدم الذهاب.. »
»وفي المساء أعدّ هو الكلب، وطلاه بالمادة الفوسفورية.. ثم ساعده على الوثب إلى الممر الذي كان سير (تشارلز) فيه.. أصيب الرجل بالهلع وراح يجري صارخًا مبتعدًا عن القصر.. وتكفل الرعب ووهن القلب بقتله.. وكان الكلب يجري على العشب فلم يترك آثار أقدام واضحة.. إلا حين دنا من الجثة ليتشممها.. »
»كانت زوجة (ستبلتون) تتوقع خطته الشريرة لكنها لم تعرفها صراحة.. أما (لورا ليونز) فلم تشك في شيء إلا بعد ما حدثت الوفاة.. »
»بعد هذا جاء دور سير (هنرى).. »
»لقد اكتشف (ستبلتون) أن هناك وريثًا آخر.. لهذا سافر إلى (لندن)، ووضع على وجهه لحية مستعارة وراح يراقب د. (مورتيمر).. »
»لكن زوجة (ستبلتون) أرادت إنذار سير (هنرى).. لذا كانت هي صاحبة الرسالة ذات الحروف الملصقة التي قرأناها.. »
»وفي هذا الوقت تمكن (ستبلتون) من سرقة حذاء سير (هنري) من الفندق، ولما وجده جديدًا لم يُلبس اضطر إلى سرقة حذاء آخر.. كان بحاجة إلى أثر يشمه الكلب.. »
سألته:
- « ثمة نقطة تحيرني: لو أن (ستبلتون) تمكن من قتل سير (هنرى)، فكيف كان سيفسر إقامته باسم مستعار قرب القصر؟

إن هذا يزيد من الريبة حوله.. »

- « هذا سؤال عسير يا (واطسون).. لكن مدام (ستبلتون) ترجح أنه كان سيعود إلى أمريكا الجنوبية، حيث يتوجه إلى القنصلية البريطانية ويعلن استحقاقه للميراث.. وربما كان سيعود إلى (لندن) ليتنكر ويخفى وجود (ستبلتون) تمامًا.. ثم يطالب بإرثه.. »

»والآن يا (واطسون) صار من حقنا أن ننعم بالراحة، بعد شهر من البحث في هذه القضية الغامضة الشاقة..«

آرثر كونان دويل

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

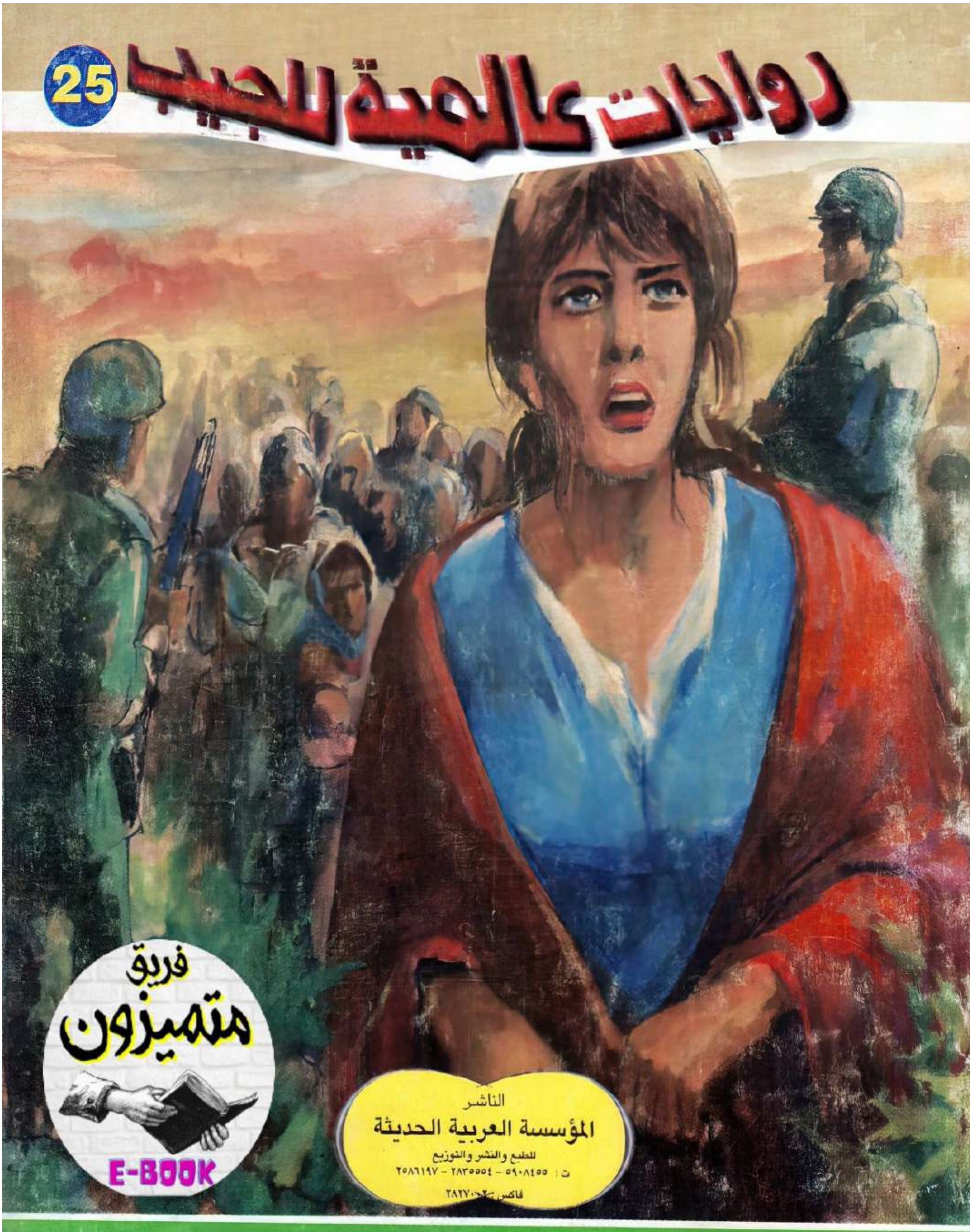
Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

مازالت طريقة (هولمز) في الاستنباط تدرس في كليات شرطة عديدة بالعالم.



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧

مدينة مثل أليس

قصة : نيفيل شوت
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

) كلمه مهمة (:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (25)

مدينة مثل أليس

بقلم: نيفيل شوت.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

(على الشاطئ) رواية طبقت شهرتها الآفاق، ظهرت عام 1957.. وكان كاتبها أديبا إنجليزيا ولد في (النرويج) هو (نيفيل شوت)..
بيع من الرواية مليونا نسخة، ومن لم يقرءوها لم ينسوا الفيلم السينمائي الرائع، الذي قدمه (ستانلي كرامر) وقام ببطولته (جريجوري بيك) و (آفا جاردنر).. وقد عرض ها هنا في مصر باسم (بلا غد)..
لم يحاول (نيفيل شوت) قط أن يغدو من معالم الأدب الإنجليزي.. كل ما كان يريده هو أن يكون كاتبا (مسليا).. وقد نجح في هذا دون شك.. وترك لنا - في يناير 1959 - روايات فائقة النجاح والإمتاع.. مثل (الزمار الساحر) و(ريفير) و(السور المحكم) و(مدينة مثل أليس)..
كما قلنا آنفا ولد (شوت) في (النرويج) عام 1899.. وقد عمل لفترة في مصنع طائرات، وهو ما ظهر فيما بعد حين كتب راويته (الأزمة).. حيث تظهر خبرته السابقة في عالم الطائرات.. بل وخبرته كمهندس رادار سابق، أضاف اختراعات لا بأس بها إلى هذا العلم.. وقد ظهرت هذه الخبرة أكثر في رواية (لا طريق)، التي تصور طائرة تعبر المحيط، وقد أوشكت على السقوط.. يصف لنا كل هذا في جو متوتر يقطع الأنفاس..
والرواية التي بين يديك الآن، تحكي عن ورطة مجموعة من النساء والأطفال، وقعوا في قبضة اليابانيين في (الملايو) في عام 1940.
وهي تيمة عالجها الأدب الإنجليزي كثيرا، كما في رواية (شجرة الجاكارandا) لـ (بيتس) و(قصة الدكتور واسيل).. لكن (شوت)

يقدمها هنا في مزيـج ممتع يجمع بين التشويق والعاطفة..
دعونا نطالع الرواية معا لنعرف ما هو أكثر..

د. أحمد خالد

∞∞∞∞∞

1- حياة (جان) المبكرة..

ولدت (جان باجت) في (الملايو) عام 1921، في وقت كان البريطانيون يحكمون (الملايو) فيه.. وكان بعضهم موظفين حكوميين، وآخرون كانوا يعملون في الجيش أو الشرطة أو المدارس والمستشفيات.
إلا أن أكثر البريطانيين في (الملايو) كانوا يمارسون التجارة، وكانت هناك صناعات مهمة كالتعدين في مناجم القصدير أو مزارع المطاط..
كان أبو (جان) يدير مزرعة مطاط كبيرة في جنوب (بيراك)، على بعد مائة ميل من العاصمة (كوالا لامبور).
ولقد عاش هناك مع زوجته وأسرته.. وكان هناك طفلان لديه؛ صبي يدعى (دونالد) وفتاة تدعى (جان)، تصغر أخاها بثلاثة أعوام..
تربى الطفلان في صغرهما على يدي أمه.. وهي امرأة من (الملايو) كانت تحدثهما بلغتها، لذا تعلم الطفلان لغة (الملايو) والإنجليزية معا..
وفي البدء كانت مسز (باجت) هي المسئولة عن تعليم الطفلين، ثم أرسلت ابنها (دونالد) إلى المدرسة في (إنجلترا) حيث بلغ سن الثالثة عشرة.. وبرغم كون (جان) في العاشرة وقتها، فقد ذهبت كذلك إلى (إنجلترا)..
وأقام الطفلان مع جديهما في (ساوثهامبتون)، وهي مدينة كبيرة، على بعد ثمانين ميلا من (لندن)..
بعد عامين مرض الجدّان، واضطرت مسز (باجت) إلى العودة إلى إنجلترا، وابتاعت منزلا في (ساوث هامبتون) عاشت فيه مع

طفليها.
توفي والد (جان) في حادث سيارة، حين كانت في الثالثة عشرة من عمرها. كان في طريق العودة إلى داره ليلا بعد عمل طويل ويبدو أنه كان منهكا وغلبه النعاس، ففارقت السيارة الطريق، واصطدمت بشجرة..
لكن مسز (باجت) لم تقلق على مستقبلها، فقد دفعت لها الشركة معاشا، ووعدتها بأن تجد وظيفة لـ (دونالد) حين تنتهي دراسته.
كان (دونالد) و(جين) طفلين عاديين جدا لا يتميزان بذكاء خاص.. لكنهما كانا يتميزان بشيء واحد فحسب هو إجادتهما للغة (الملايو)، وكانا يتحدثان بها على سبيل الدعابة، وكلغة سرية بينهما لا يفهمها سواهما..
إلا أنهما وجدا فيما بعد أسبابا وجيهة لاستعمال هذه اللغة، إذ إن (دونالد) كان راغبا في العودة ليعمل لدى شركة المطاط..
وراح يتدرب على لغة الملايو مع (جان) في المنزل، حتى عاد إلى (الملايو) عام 1937 حينما كانت (جان) في السادسة عشرة من عمرها.
وفي العام التالي التحقت (جان) بكلية التجارة في (ساوث هامبتون) حيث درست الاختزال والطباعة على الآلة الكاتبة.. ثم عملت كاتبة اختزال لمدة سنة.
وفي ذلك الوقت أجرت أمها بعض اتصالات لتعيدها إلى (الملايو).. فإن شركة المطاط في (كوالا لامبور) كانت بحاجة إلى سكرتيرات، وظنت أن (جان) تناسب الشركة لأنها تجيد لغة (الملايو)..
وبالفعل كتبت الشركة إلى مسز (باجت) تعلنها بمنح (جان) وظيفة.. وكان هذا هو العام 1939.

وفي سبتمبر غزت (ألمانيا) (بولندا) وبدأت الحرب العالمية الثانية.
لكن (جان) لم تغير خططها.. ظنت أن (الملايو) مكان آمن لأن القتال كله في أوروبا..
ولحسن الحظ استطاعت أن تركب سفينة إلى (الملايو)، فوصلتها دون مشاكل في ديسمبر 1939.
أحبت حياتها في (الملايو)، حيث عاشت في (كوالا لامبور).. تقطن غرفة في فندق تملكه امرأة إنجليزية، وأغلب من يقيم بالفندق من النساء الموظفات.
كان لديها مكتب في وسط المدينة، ولها أصدقاء كثيرون.. تعمل بجهد في الصباح، وتلعب التنس بعد الظهر، وتذهب للحفلات والمراقص مساء.
كان هناك دوما ما يمكن الاستمتاع به.
وكانت عارفة بمستقبلها جيدا.. ستتزوج رجلا يعمل في منجم قصدير أو مزرعة مطاط.. وتعيش حياة سعيدة كأمها.
إن الأمر لا يختلف عن الحياة في إنجلترا.
لكن الطقس هنا أكثر دفئا والشمس أكثر إشراقا..
سيكون لديها خدم كثيرون، يعينونها في العمل المنزلى.. يا لحظها!
لكن كل شيء تغير فجأة..
وفي 1941 دخلت (اليابان) الحرب إلى جانب (ألمانيا)..

☆ ☆ ☆

2- (جان) تغادر (كوالا لامبور)..

غزت (اليابان) (منشوريا) وهاجمت الصين والهند الصينية..
بعدها قرر اليابانيون أن يغزوا (الملايو) وبعدها يتجهوا إلى (أستراليا) و (نيوزيلندا)..
ولم يصدق البريطانيون في (الملايو) أن يكون اليابانيون أقوياء، إلى حد أن يقهروا كل هذه البلدان..
وفي (كوالا لامبور) ظل البريطانيون يمارسون عملهم ومرحهم بالطريقة ذاتها..
إلا أن بعض الشباب تطوعوا للحرب، وتدربوا في الجيش على سبيل التسلية.. مما أتاح لهم ارتداء الثياب العسكرية الأنيقة في الحفلات..
إلا أن (اليابان) غزت الساحل الشرقي الشمالي لـ (الملايو) قرب مدينة تدعى (كوتا بارو)، وهي تبعد ثلاثمائة ميل عن (كوالا لامبور).. وكانت هناك تلال وعرة، وغابة كثيفة بينهم وبين العاصمة مما جعل القوم يشعرون بالأمن..
تم إرسال سفينتين حربيتين من إنجلترا لمحاربة اليابانيين، لكن الطائرات اليابانية الحربية أغرقتهما فورا..
وطلبت الحكومة البريطانية من رعاياها أن يتركوا البلاد ويرحلوا إلى (سنغافورة)، التي تبعد مائتي ميل شمالا.. لكن أكثر الرعايا لم يؤمنوا بأنهم في خطر.. فالحرب ما زالت بعيدة جدا.
ثم تحرك اليابانيون بسرعة جنوبا بطائراتهم ليعبروا التلال.. وفي النهاية أدرك البريطانيون ما يتهددهم.
وفي ذات يوم استدعى مستر (ميريمان) رئيس (جان) مرءوسته إلى مكتبه.. وقال لها:

- (جان).. إن لدى أنباء سيئة لك.. إن اليابانيين في (إيبوه) الآن على بعد مائة ميل من هنا.. ولا يمكن أن نفقد وقتا..
لسوف نغلق المكتب الآن، وعليك أن تقصدي المحطة، لتركبي أول قطار إلى (سنغافورة)..
سألته بدهشة:
- (سنغافورة)؟ وماذا أفعل هناك؟
- اذهبي إلى مكتبنا هناك.. سيجدون لك مكانا على ظهر قارب تعودين به إلى (إنجلترا)..
- هل الأمر بهذه الخطورة؟
- ربما أخطر.. لقد أخبرت كل الفتيات ولسوف تجدينهن في المحطة، يمكنك الرحيل معهن..
فارقت (جان) المكتب، فاتجهت إلى المصرف، حيث سحبت كل مدخراتها وهي ستون دولارا.
ثم اتجهت إلى الفندق فحزمت أشياءها وذهبت إلى المحطة.
فجأة تذكرت بعض الأصدقاء الذين يعيشون على بعد عشرين ميلا شمالي المدينة.. وكانت متأكدة أنهم لم يرحلوا.. سيسرهم أن تساعدهم في الرحيل..
لذا لم تركب القطار.. بل استقلت الشاحنة إلى (باتو - تازيك)..
كان أصدقاؤها هم آل (هولاند).. (بيل) و (إلين هولاند).. وكان (بيل) مدير مكتب تصدير، يعيش في كوخ جوار المنجم مع زوجته وأطفاله الثلاثة..
كان لهما ابنان هما (فريدي) و (روبرت) وفتاة تدعى (جين). تتراوح أعمارهم من سبع سنوات إلى عشرة أشهر..
وصلت إلى (باتو - تازيك) ظهرا.. فوجدت (إلين) وحدها مع الأطفال، والفوضى تعم المكان.. حقائب على الأرض وثياب مبعثرة في كل موضع.. وقد تعثرت (جين) وجرحت ركبتها..

وكانت تبكي ألما، بينما الأم تحاول أن تطهو طعام الغداء، فلما رأت (جان) ابتسمت..
هتفت (إيلين):
- عزيزتي (جان)! ما أسعدني برؤيتك! هناك عمل كثير، لكني مرتبكة والأطفال جياع..
قالت (جان):
- واصلى إعداد الطعام وسأعني بالأطفال..
وبدأت في لصق شريط بلاستر على ركبة الطفلة.. وسرعان ما صار الطعام جاهزا وبدءوا يأكلون..



وبدأت فى لصق شريط بلاستر على ركبة الطفلة . .

تساءلت (جان):

- أين (بيل)؟

قالت (إيلين):

- في (كوالا لامبور).. لقد ذهب ليبتاع بعض الإطارات لسيارتنا القديمة.. فنحن لم نستعملها منذ زمن.. إن محركها يعمل لكن إطاراتها بالية..
- وماذا عن سيارات وشاحنات الشركة؟
- لقد ذهبت جميعا.. أخذها الجيش منذ أسابيع.. إن سيارتنا القديمة هي الشيء الوحيد الباقي.
- متى رحل (بيل)؟
- منذ ثماني ساعات.. وقد بدأت أقلق عليه..
- سيعود فورا.. سيكون على ما يرام..
- أشعر بالسرور وأنت معي.. هل تبقين هنا؟
- طبعا.
كان الظلام قد دنا حين عاد (بيل هولاند).. وقد بدا عليه الإنهاك والحر.. وأسعده أن يجد (جان)..
احتسي جرعة كبيرة من الماء المثلج وقال:
- كان على أن أمشي خمسة الأميال الأخيرة.. فالحافلة لا تدنو أكثر..
- سألته (إيلين):
- هل ظفرت بالإطارات؟
- لا.. لقد صادر الجيش كل إطار في (كوالا لامبور)..
- وماذا عساك فاعلا؟
- هناك حافلة تغادر إلى (سنغافورة) في الثامنة صباحا، وسنجد مقاعد فيها.. سنكون في (سنغافورة) في مثل هذا الوقت غدا..
- لكن كيف نصل إلى (كوالا لامبور)؟
- بالسيارة.. سنمشي على الإطارات القديمة.. إن المسافة عشرون ميلا فحسب... فلو قدنا بحذر سنصل هناك..
سألته (جان):

- لم لا نتحرك الليلة؟ إن الطقس بارد يسمح بنوم الأطفال في السيارة..
- لن نستطيع.. هذا ليس مأمونا.. فالجيش لن يسمح لأحد باستعمال الطرق ليلا.. إن الحواجز في كل مكان وسيطلقون الرصاص على كل من يرون..
قالت (جان):
- إن الأمور تسوء.. يجب أن نرحل مبكرا غدا.. فلنحزم الآن كل شيء، حتى لا نضيع وقتا في الصباح..
سألته (إيلين):
- متى نصحو من النوم؟
- في الرابعة صباحا ليكون عندنا وقت لإلباس الأطفال ثيابهم.. وتناول إفطار بسيط..
- حسن.. نحزم الحقائب الآن..
ودخلوا الفراش بعد ما استعدوا للغد..
عند منتصف الليل سمعت (جان) (بيل هولاند) ينهض ويخرج من الدار.. كان واقفا ينظر إلى الغابة.
نهضت من فراشها وأزاحت أستار (الناموسية)، وخرجت إلى الشرفة، فوجدته واقفا يصيخ السمع في الظلام.
- ماذا هناك؟
- حسبت أنني سمعت طلقات نارية من بعيد..
وقفا صامتين يصغيان، لكنهما لم يسمعا سوي صوت الضفادع والحشرات.
قال (بيل):
- أتعشم أن يأتي الصباح سريعا..
وعادا إلى الداخل..

وفي تلك الليلة انتصر اليابانيون على البريطانيين ووصلوا إلى نهر (سليم).
كانوا الآن على بعد خمسين ميلا لا أكثر..

3- الرحلة إلى (كوانا بانونج)..

نهضوا في الصباح فجمعوا الحقائب ووضعوها في السيارة، ثم تعاونوا على إعداد الأطفال..
صارت السيارة مليئة بطريقة مثيرة للقلق.. فبها ثلاثة بالغون وثلاثة أطفال ومتاع كثير جدا.. فاضطر (بيل) للقيادة ببطء شديد، حتى لا يرهق الإطارات العتيقة، ولكن أحدها انفجر بعد ميلين..
استعملوا الإطار الاحتياطي، الذي كان أسوأ حالا وبعد نصف ميل انفجر الإطار الاحتياطي بدوره، فقرر (بيل) أن يستمر في السير على (الجنط) الداخلي للعجلة برغم خطورة هذا..
واستمرت العجلة ميلين ثم تحطمت.. كانوا على بعد خمسة عشر ميلا من (كوالا لامبور) والساعة السابعة صباحا.. أي أن أمامهم ساعة قبل اللحاق بالحافلة، وهو وقت كاف.. لكن بشرط أن يجدوا سيارة أخرى فورا..
كان هناك بيتان على جانب الطريق، فترك (بيل) الأسرة في السيارة، وهرع ليرى ما إذا كان بوسعه الحصول على عون..
بحث عن سيارة أو شاحنة فلم يجد.. ولم ير أحدا يمكن سؤاله..
عاد للسيارة فوجد الجميع يشعرون بالظمأ والحر والأطفال يبكون..
قال لهم:
- لم أجد شيئا.. يجب أن نمشي..
قالت (إيلين):
- لنعد أدراجنا.. إلى حيث الظل والماء.. فليس معنا ما يشرب..

- لكن أمامنا خمسة عشر ميلا إلى (كوالا لامبور).. لنتجه إلى هناك لربما وجدنا شاحنة أو سيارة..
- ولربما لن نجد.. من المستحيل أن نمشي كل هذه المسافة..
عادوا تاركين متاعهم في السيارة، وأغلقوا كل الأبواب.. وحمل كل منهم طفلا..
وحين وصلوا إلى الدار أخيرا، شربوا بعض المشروبات الباردة من الثلاجة واستلقوا على الأسرة..
سمعوا صوت شاحنة تقف خارج الكوخ، فهرعت (جان) لترى من..
كان هذا ضباطا شابا، يوقف الشاحنة ويسرع نحوها صائحا:
- ألم ترحلوا بعد؟ كم منكم هنا؟
قالت (جان):
- نحن ستة.. منهم ثلاثة أطفال.
كانت الزوجة و(بيل) قد خرجا من الكوخ وسمعا المحادثة.. فتساءل (بيل):
- وماذا عن متاعنا؟ إنه في السيارة على بعد ستة أميال على طريق (كوالا لامبور).. ألا تأخذنا هناك أولا؟
قال الضابط بصرامة:
- نعم لا أستطيع.. إن الـ (جابس) على بعد عشرين ميلا [1].. سآخذكم إلى (بانونج) ولو كنتم محظوظين ستجدون قاربا ذاهبا إلى (سنغافورة)..
ركب الجميع على ظهر الشاحنة، وقادهم الضابط عشرة أميال، وهو لا يكف عن اصطحاب كل من يلقاه من الإنجليز..
وصلوا إلى (بانونج) ظهرا، وقد صار عددهم أربعين رجلا وامرأة وطفلا، بعضهم لم يتصور لحظة أن هناك خطرا داهما..

اقتادهم إلى مكتب مأمور المقاطعة، الذي قابلهم وقد بدا القلق على وجهه.. ثم إنه قال للضابط:
- خذهم إلى مكتب المحاسبات، حيث يظفرون بالظل والراحة..
سأله الضابط:
- هل لديك قارب بمحرك؟
- لا.. ليس لدي..
- إذن كيف يرحلون؟
- لا أعرف.. ربما استعملنا قوارب صيد..
وفي المكتب الظليل جلست (إيلين) مسندة ظهرها إلى الحائط، وقد راح الصغار يلهون حولها.. في حين اتجهت (جان) و (بيل) إلى المتاجر ليبتاعوا بعض الطعام.. فقد تركوا كل شيء في السيارة..
وبحثوا عن (ناموسيات) فلم يجدوا..
اشترت (جان) بعض الإبر والخيط لنفسها..
ووجدت حقيبة ظهر فابتاعتها.. ولم تكن تعرف أنها ستحمل هذه الحقيبة على ظهرها طيلة السنوات الثلاث القادمة..
جلس الجميع في الشرفة وتناولوا وجبة من البسكويت وعصير الليمون..
في الوقت ذاته كان المأمور يفتش عن قارب..
وعند المساء تلقى مكالمة هاتفية من أحد رجاله في الفنار.. كانت أنباء طيبة.. فالقارب المسمى (أوسيري) - وهو قارب كبير ذو محرك، قادم عبر النهر..
لم يحاول المأمور معرفة سر قدوم القارب.. إنه قارب سريع قادر على حمل اللاجئين على كل حال..
اتجه للمرفأ وانتظر (أوسيرى).. واستطاع أن يرى حشدا من الجنود على ظهره.. كانوا رجالا قصيري القامة في ثياب رمادية

مخضرة.
كانوا يابانيين!
شعر بأسى شديد.. لقد استولى اليابانيون على (أوسيرى).. ولسوف يعتقلون الجميع ها هنا وليس في وسعه أن يفعل شيئا..

☆ ☆ ☆

4- سجناء..

وثب اليابانيون من القارب إلى الأرض، فقبضوا على المأمور واقتادوه إلى المكتب..

كانوا يتوقعون أن يجدوا بعض الجنود البريطانيين لكنهم لم يجدوا.. وحتى السائق الضابط لم يكن موجودا.. فقد عاد بحثا عن مزيد من البريطانيين.

وفي المكتب وجدوا الأسر البريطانية فأسروهم.. وأمروا النسوة بأن يخلعن خواتمهن وساعاتهن وأخذوها وانصرفوا..

بعد ساعة جاء ضابط ياباني ومعه جنديان يصوبان سلاحيهما نحو الأسر، وراح بعض الأطفال ينشجون.. لم يكن أي واحد يدري ما سيحدث..

نظر لهم الضابط قليلا، ثم راح يتكلم في إنجليزية مهشمة:

- أنتم سجناء الآن.. عليكم الطاعة.. (إذا لا طاعة).. جنودى يطلقون النار..

لم يقل أحد شيئا فاستطرد:

- ستبقون هنا الليلة وغدا تذهبون إلى المعتقل..

سأله أحد الرجال:

- هل يمكننا الحصول على أسرة وناموسيات؟

- الجنود اليابانيون ليس لديهم أسرة أو ناموسيات.. الأسرى مثل الجنود.. لا أسرة... لا ناموسيات..

سأله رجل آخر:

- هل لنا في بعض الطعام؟

- الطعام غدا.. الآن نوم..

وتركهم وانصرف..

تمدد الأسري على الأرض ليناموا.. كانوا منهكين لكن النوم كان مستحيلا.. كانت الأرض صلبة والبعوض مفترسا.. وظل الأطفال يصحون من نومهم باكين، لأن أيديهم وأرجلهم تقرحت..
أما البالغون فكان القلق يمنعهم من النوم..
ماذا سيحدث لهم غدا؟
نهضوا من النوم متصلبي الأجساد.. ولم يكن ثمة طعام لذا التهموا ما ابتاعوه أمس من طعام محدود الكمية..
وبعدما أكلوا شعروا بتحسن ضئيل..
عند منتصف النهار، جاء الضابط اليابانى كابتن (يونياتا) يسألهم بعض الأسئلة.. واستجوب كل أسرة بدورها، وهو يدون الإجابات في كراسة مدرسية..
ثم قال لهم:
- الرجال يذهبون للمعتقل اليوم.. الرجال يذهبون ظهرا.. النساء والأطفال يبقون هنا..
كان الكبار يعرفون أن الرجال والنساء يذهبون إلى معسكرات مختلفة في الحرب.. إلا أنهم تمنوا لو يبقون ما..
وودعت كل أسرة رجلها في حزن مرير..
أما (جان) فقد حاولت أن تحصل على بعض المراهم من أجل لدغات البعوض اتجهت إلى أحد الحراس وأشارت إلى اللدغات.. لكنه صوب سلاحه نحوها وأعادها إلى المكتب..



اتجهت إلى أحد الحراس وأشارت إلى اللدغات .. لكنه صوّب سلاحه نحوها وأعادها إلى المكتب ..

فكرت في طريقة أخرى.. كان هناك أطفال يلهون على بعد خمسين مترا، فأشارت لهم وخاطبتهم بلغة (الملايو):

- يا فتاة.. تعالي يا فتاة..

هرعت نحوها طفلة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها.
- ما اسمك؟
- (خليجة)..
قالتها الفتاة في خفر
- الآن يا (خليجة).. هل تعرفين هذا المتجر الصيني هناك؟
نعم.. إنه (تشان - كوك - فوان)..
- حسن.. اذهبي إلى الرجل وقولي له أن يحضر لنا لنبتاع منه بعض المراهم.. لو فعلت لأعطيتك عشرة سنتات..
هرعت الطفلة لتعود بالتاجر الصيني، يحمل سلة ملأى بالمراهم..
وتركه الجنود يمر فابتاعت (جان) ست أنابيب من المرهم..
وابتاعت النساء الباقي..
ثم جاء جندي ياباني بدلوين من حساء السمك المخفف، والأرز المسلوق.. ولم تكن لدى الأسرى آنية، لذا راحوا يأكلون كيفما اتفق.. بعضهم لم يظفر بشيء وبعضهم أكل كثيرا..
بعد الظهر جاء كابتن (يونياتا) مع جنده وأمر الرجال أن يصطفوا في طابور للتحرك..
ودع الرجال زوجاتهم وأطفالهم.. ثم ابتعدوا..
صار في المعسكر الآن اثنان وثلاثون سجينا منهم تسعة عشر طفلا..
وكان أصغر الأطفال رضيعا وأكبرهم في الرابعة عشرة من عمره..
وكانت كل النساء متزوجات، فيما عدا (جان) وفتاة أخرى.. وكانت (جان) الوحيدة التي تتحدث لغة (الملايو)..
وفي الليل حصلوا على دلو آخر من حساء السمك، لكنهم لم يكونوا جائعين..

وفي الصباح طلبت إحدى النساء - وتدعي مسز (هورسفول) - أن ترى الكابتن.. وتكلمت معه في غضب قائلة:
- كابتن.. نحن لا نستطيع النوم بهذا الشكل.. نحتاج إلى أسرة وأغطية وناموسيات..
قال الكابتن:
- لا أسرة.. لا ناموسيات.. نساء اليابان لا يستعملن أسرة..
قالت في اهتياج:
- لكننا بريطانيات.. لسنا حيوانات.. ولا نقبل النوم على الأرض..
نظر لها بشراسة.. وأمر جنديين أن يمسكا بذراعيها.. ثم صفعها على وجهها أربع مرات.. وصرخ:
- امرأة سيئة!
وفي اليوم التالي جاء ليفتش عليهن.. فعادت تكلمه مرة أخرى في شجاعة.. سألته بعض الماء للاستحمام، فوافق على أن يرسل بعضه يوميا.. وهكذا صار الاستحمام ممكنا، لكن غسيل الثياب ظل مستحيلا..
وفي البداية كن يملكن بعض المال، لهذا استطاعت بعض الأسر الحصول على وجبة يومية مطهية، لأنها لا تستطيع أكل الأرز..
وكن يبتعن الصابون و(الكينين) - لزوم علاج الملاريا - من المتجر.. وبدأن يعتدن حياتهن..
في نهاية الأسبوع أصيبت أكثر الأسيرات بالزحار (الدوسنتريا).. وطيلة الليل ظل الأطفال يُحملون باكين إلى مكان قضاء الحاجة..
حاول كابتن (يونياتا) مساعدتهم.. فزاد حصة الأرز، وصرف لهم دلوا من الشاي كل يوم..
في اليوم الخامس والثلاثين توفيت بالزحار طفلة في الثامنة من عمرها.. كانت تنام قليلا وتبكي كثيرا وارتفعت حرارتها إلى 40

مئوية.. وقالت مسز (هورس فوّل):
يجب إحضار طبيب للطفلة..
لكن لم يكن ثمة أطباء.. وتوفيت الفتاة، ودفنت في اليوم ذاته..
بعد ستة أسابيع - وبعد تفتيش الظهيرة – قال كابتن (يونياتا) للأسرى الذين تمزقت ثيابهم وأضناهم المرض:

- سيداتي.. إن جيوش الإمبراطور الآن في (سنغافورة).. وقد تحرر (الملايو) كله.. ستتجهن إلى (سنغافورة) حيث معتقلات مناسبة للنساء والأطفال.. ستكونن سعيدات..

سألته مسز (هورس فول):

- وكيف نصل إلى (سنغافورة)؟

قال الكابتن:

- بالقطار.. من (كوالا لامبور)..
- وكيف نصل إلى (كوالا لامبور)؟
- تمشين!

قالت في غضب:

- لن نقدر.. إنها مسافة خمسين ميلا.. لا بد من سيارة..
- لا سيارة.. تمشين!

سألته:

- وماذا عن متاعنا؟
- تحملنه!

قالها في حنق وابتعد.

☆ ☆ ☆

5- الطريق إلى (كوالا لامبور)..

عند الظهر أحضر لهم جندي دلوا مليئا بالأرز ودلوا مليئا بالشاي..

جلسوا يلتهمون طعامهم.. ولم تكن التاسعة صباحا قد حلت حين وصل الكابتن، واعتراه الغضب حين وجدهم لم يرحلوا..

صرخ فيهم:

- ترحلون الآن.. لو لم تفعلوا سيضربكم رجالي.. اليوم تذهبون إلى (آير بنشيس).. إنها لا تبعد كثيرا.. إذا تمشون أنتم سعداء.. إذا تبقون الجنود يضربونكم..

ونهض الأسرى.. وجاء (سيرجنت) ياباني يتقدمهم، وثلاثة جنود في المؤخرة، وحملت (جان) الأغطية وهي أثقل جزء من الحمل، وأمسكت بيدها الطفلة ذات السنوات الأربع، على حين حملت (إيلين) رضيعها وحقيبة (جان)..

مشوا ببطء.. وكان عليهم التوقف كل بضع دقائق كلما تعثر أحد.. ولم يترك الجنود متخلفين، برغم أن سرعة المشي كانت ميلا ونصفا في الساعة..

بدأت أقدامهم تتألم.. كانت النسوة ترتدين أحذية.. فانتفخت أقدامهن.. ولاحظت (جان) أن الأطفال يشعرون براحة في المشي، لأنهم حفاة.. فانتزعت حذاءها.. كانت الأرض ساخنة، لكنها استطاعت السير بسهولة..

وصلوا إلى (آير بنشيس) ليلا.. وكان هناك مبنى ضخم يستخدم مخزنا للمطاط، فتركه لهم عمدة القرية كي يبيتوا فيه..

وأعد الجنود بعض الشاي والأرز وحساء السمك، إلا أن الأسرى لم يصيبوا شيئا منه..

ذهبت (جان) إلى متاجر القرية فابتاعت بعض ثمار المانجو.. وعادت بها إلى النسوة.. أكل الجميع وشعروا بالراحة، وسرعان ما صار الأطفال مغطين بالمانجو، بل إنهم أعطوا كل واحد من الحراس ثمرة مانجو، على سبيل المجاملة..
صحوا في الصباح شاعرين بالتصلب، وقد لدغت الفئران بعض الأطفال..
بدا لهم أنه من المستحيل مواصلة المشي، لكن الحراس أرغموهم..
مشوا عشرة أميال إلى مكان يسمى (أساخان).. وكانت إحداهن وتدعي مسز (كولرد) مرهقة جدا.. كانت امرأة بدينة أوهنتها الملاريا والزحار.. وقد اضطرت النسوة إلى حمل متاعها، وساعدنها في أثناء المشي.. وعند الظهيرة ازرق لون المرأة واحمر، وغدا من العسير عليها أن تتنفس..
وفي (أساخان) ساعدتها النسوة على الرقاد جوار الحائط، وغسلن وجهها بالماء.. عندها فقدت الوعي.. وماتت بعد ساعات..
عندما ماتت مسز (كولرد) اتجهت مسز (هورس فول) و (جان) لتريا (السيرجنت) الياباني.. كان من العسير جعله يفهم، لكنهما استخدمتا الإشارات..
قالت له:
غدا لن يمكننا المشي.. اليوم امرأة ماتت وغدا يموت الباقون..
قال لهما:
- غدا نضع المرأة في التراب.. بعد غد نمشي..
وضعوا مسز (كولرد) في قبرها.. وقرأت مسز (هورس فول) بضع كلمات من كتاب الصلوات، ووجدت (جان) نجارا، صنع لها صليبا خشبيا صغيرا وضعته على القبر..

عند منتصف اليوم وصل كابتن (يونياتا) بسيارة كبيرة، وأثار حنقه أن يجد الأسري جالسين..
سألهم غاضبا:
- لم لا تمشون؟
قالت مسز (هورس فول):
- لقد توفيت مسز (كولرد) أمس، ودفناها هذا الصباح.. ولا أحد فينا يستطيع المشي اليوم.
- ولماذا تموت المرأة؟ ملاريا؟
- ملاريا وزحار.. لقد أوهنها المشي وماتت.. توجد امرأتان أخريان، غير قادرتين على المشي.. يمكنك أن تراهما لو أردت..
هنا بدأ يتكلم بصوت أرق..
قال:
- سأحضر لكن شاحنة من (كوالا لامبور).. يحزنني أن المرأة ماتت.
أحست بالسعادة، وظنت أنها ستكون في (كوالا لامبور) غدا.
إلا أنه حين عاد كابتن (يونياتا) مساء، كانت لديه أنباء سيئة.
- لن تستطعن الذهاب إلى (كوالا لامبور).. لقد نسف الإنجليز أكثر الطرق.. ستذهبن إلى (فورت سويتنهام)..
سألته مسز (هورس فول):
- وماذا عن الشاحنات؟
- آسف جدا.. لا شاحنات.. تمشين.. تمشين ببطء.. يومين أو ثلاثة.
- لكن هذا مستحيل.. لا نستطيع المشي كل هذه المسافة.. فكر في الأطفال.
- لا شاحنات.. مشي!
ولم يقل أكثر.. بل ركب سيارته وابتعد ولم يرينه ثانية بعد هذا.

☆ ☆ ☆

6 - الرحلة إلى (كلانج)..

في الصباح التالي بدأ الأسرى رحلتهم.. لم يكن هناك سوى جنديين يحرسانهم، لأن كابتن (يونياتا) لم يعد يخشى من فرارهن.. فحالتهن لا تسمح بذلك كانت مسز (هولاند) تمشي مترنحة.. بينما (جان) تحتضن الطفلة، وتحمل الأغطية وتمشي حافية القدمين.

أمضوا النهار في كوخ بقرية تدعى (بكرى)، كان بها حوض سمح للجميع بالاغتسال.

وكانوا يعرفون أنهم سيبدءون التحرك غدا عبر حقول المطاط..

وفي اليوم التالي كادوا يضلون الطريق، لكن (جان) عرفت الاتجاه من الأهالي.. وشرحته للحراس.

بعد الظهر داس أحد الأطفال - وهو (بن كولرد) أصغر أبناء مسز (كولرد) التي ماتت - على عقرب في الحشائش.. لدغة العقرب في قدمه.. فتألم كثيرا وتورمت رجله، وصار عاجزا عن المشي، واضطر (السيرجنت) الياباني إلى حمله طيلة الطريق.

توقفوا في قرية تدعى (ديليت).. وكالعادة طلب الحارسان اليابانيان المأوى والطعام من العمدة، ولم يكن هذا الأخير راغبا في بقائهم هنا.. لكن الإنسانية أرغمته على أن يمنحهم كوخا صغيرا مع بعض حساء السمك.. ووعده (السيرجنت) بدفع الثمن فيما بعد.

وفي الكوخ حاولت النسوة معاونة (بن).. شققن قدمه بالموسى.. وتولين وضع كمادات دافئة عليها.. ثم غطينها..

اتجهت (جان) لتتحدث إلى العمدة.. قالت له:

- آسفة لما سببناه لكم من متاعب.

- لا مشكلة.. إنكم جميعا مرهقون مرضي..
دعاها إلى داره وقدم لها قدحا من القهوة، وراحت (جان) تحكي له قصتهم المأساوية.. وأخبرته أن الأسري صاروا عاجزين عن المشي يوميا، لهذا يستريحون يوما ويمشون يوما..
قال لها:
- إن اليابانيين لا يدفعون ثمن طعامهم أبدا لكنكن مسئوليتنا وسنتولى إطعامكن.
قال (جان):
- لا أجد ما أقوله سوى الشكر..
ابتسم العمدة وقال:
- إن القرآن يأمرنا بالإحسان إلى الضعفاء

☆ ☆ ☆

استراح الأسري بقية اليوم التالي في (ديليت) ثم انطلقوا إلى (كلانج).. وبعد أربعة أميال صار (بن) الصغير في أسوأ حال انتفخت قدماه وآلمتاه، ولم يعد قادرا على النوم أو الأكل.. بل إن مرأى الطعام كان كافيا لأن يصيبه الغثيان.
وصلوا إلى (كلانج)، حيث أقاموا في مدرسة القرية.. ثم اتجه السيرجنت كالعادة إلى العمدة ليطلب الطعام.
وعاد مع ضابط ياباني يدعي ميجور (نيمو)، يتحدث إنجليزية جيدة.
سألهم:
- من أنتم؟ وماذا تريدون؟
قالت مسز (هورس فول):
- نحن أسرى قادمون من (باتونج).. أرسلنا كابتن (يونياتا) بغرض دخول المعتقل في سنغافورة..
- كان عليكم أن تبقوا في (باتونج).. لا توجد هنا قوارب..

- لم يكن لنا اختيار.. أنتم من يقرر..
ثم سألته:
- هل يوجد طبيب ها هنا؟.. معنا طفل يتألم بشدة.. وقد هلكت امرأة في الطريق.
سألها في لهفة:
- مم ماتت؟ هل هو مرض؟
- لا.. ماتت من المجهود، أما الصبي فلدغه عقرب..
- سأرسل له طبيبا.. يمكنكم المبيت هنا، لكن لا أكثر من هذا.. ليس لدي من الطعام سوى ما يكفي لرجالي.. لا يمكنني أن أطعم ثلاثين شخصا آخرين..
وعاد إلى المعسكر.. وفيما بعد زارهم طبيب فحص الطفل، وأوصاهن بالاستمرار في الكمادات الدافئة.
إلا أن حالة الصغير تدهورت..
وفي اليوم السادس قضى نحبه..

☆ ☆ ☆



وأوصاهن بالاستمرار فى الكمّادات الدافئة .. إلا أن حالة الصغير تدهورت .. وفى اليوم السادس قضى نحبه ..

7- المسير إلى الساحل الشرقي.

ظلوا في (كلانج) أحد عشر يوما.. كان الطعام شحيحا، ولم يكن معهم نقود تسمح لهم بشراء المزيد منه.
وفي اليوم الثاني عشر جاء ميجور (نيمو) ليتفقدهم.. ثم أمرهم بالمسير إلى (بورت ديكسون) حيث يجدون قوارب تحملهم إلى (سنغافورة)..
كان هذا هو منتصف (مارس) عام 1941، لكنهم لم يصلوا إلى (بورت ديكسون) إلا في نهاية الشهر.
لقد مرضت مسز (هورس فول) وارتفعت حرارتها.. وحين تحسنت نوعا لم يكن السير بوسعها.. ومن حينها لم تعد قط كما كانت.. وهكذا غدت (جان) هي قائدة المجموعة.
أخيرا وصلوا إلى (بورت ديكسون).. هناك باعت (جان) بروشا، كان في حوزتها بعشرة دولارات لتشترى قطعة قماش بدولارين.. ومنها صنعت (سارونج) وهو زي بسيط مريح من أزياء (الملايو).. كما صنعت من بقايا ثوبها القديم بلوزة جعلتها تبدو كواحدة من النسوة المحليات.
لم تكن هناك قوارب لكن (بورت ديكسون) كان مكانا مناسبا.. فالبحر حولهم يسمح بالسباحة والماء المالح خير علاج للقروح الجلدية.
لكن بعد عشرة أيام أصدر القائد الياباني أمرا بالتحرك إلى (سرنبام).. اتجهوا إلى (سرنام)، وفي الطريق توفيت (جين هولاند) الصغيرة بفعل الملاريا.
دفنوها في واحدة من مقابر المسلمين.. وقد حاولت أمها أن تتماسك، لكن (جان) سمعتها تنشج في الظلام.

كان (روبين) الرضيع بحالة طيبة، ولم يصب بالزحار كباقي الأطفال.. وحتى (جان) أصابتها الحمى، لكنها تحسنت كثيرا بعدها.
بعد أيام صدرت الأوامر بالرحيل إلى (تامبين).. وهناك قيل لهم: أن يمشوا إلى (ملكة)..
ووصلوا (ملكة) فأمرهم اليابانيون بالعودة إلى (تامبين)..
وفي الطريق توفيت مسز (هورس فول) بالزحار..
وتولت مسز (فريث) أمر (جوني) ابن مسز (هورس فول)..
كانت مسز (فريث) التي تجاوزت الخمسين أسنّ نساء المجموعة، وكانت كثيرة الشكوى حتى توقع الكثيرون مرارا أن تموت، لكنها لم تفعل.. لقد عاشت خمسة عشر عاما في (الملايو) وتعرفها جيدا.
وفي (تامبين) صارح كابتن (توسي) (جان):
لا توجد معتقلات فارغة في (سنغافورة)!
صاحت:
- لكن إلى أين نذهب؟ لن نظل نمشي للأبد.. لقد فقدنا سبعة منا..
قال بحزم:
- آسف.. لا (سنغافورة).. أسرى كثيرون في معتقلات هناك.
إذن أين نذهب؟
قال وهو يبتعد:
- سأخبركم غدا.
أخبرت (جان) النسوة بما قال الكابتن فلم يندهشن لهذا.. وقالت مسز (فريث):
- لو أطلقوا سراحنا لوجدنا قرية نقيم فيها حتى تنتهي الحرب..

- سيكون هذا أفضل شيء.. لكن كيف نجد الطعام دون يابانيين؟
- إنه ليس طعاما كافيا.. لقد كدنا نموت جوعا في (ملكة)..
في الصباح التالي جاء الضابط ليعلن لهن:
اليوم تبدأن الرحلة إلى (كوانتان).. معتقل كبير للنساء هناك..
سألته واحدة:
- أين (كوانتان) هذه؟
فتولت مسز (فريث) الرد:
- على الساحل الشرقي.. على بعد مائة وخمسين ميلا..
- وهل نذهب بالقطار؟
قال الضابط:
- آسف.. لا قطارات..
- إذن بالشاحنات؟
- لا شاحنات.. تمشين! أميالا قليلة كل يوم.. رحلة سعيدة.. في (كوانتان) تكن سعيدات..
صاحت (جان):
- لا نقدر على الذهاب الآن.. حالتنا لا تسمح..
- اليوم راحة.. وجبة طيبة.. غدا نمشي.
قالها وابتعد.
راحت النسوة تتناقشن فيما ينبغي عمله.. وقالت إحداهن:
- لا أصدق أن هناك معتقلا في (كوانتان)..
وقالت أخرى:
- وأنا كذلك.. هم لا يريدوننا في أي مكان. فنحن مشكلة، ونأكل الكثير من الطعام.. لهذا يرسلنا كل ضابط إلى أي مكان آخر..
وفي الصباح بدأ الأسرى المشي مع اليابانيين.. وكان عليهم المشي على الخط الحديدي.. لم تكن هناك قطارات لذا كان الأمر آمنا.

القيظ شديد ولا أشجار هنالك.. لكنهم واصلوا السير.
بدأ الأطفال يصابون بالحمى في وقت واحد.. وبدأ هذا في مكان يدعى (باهاو).. لذا اضطروا إلى التوقف أسبوعا.
وبرغم محاولات العلاج العنيفة، فقد توفى أربعة من الأطفال، كان أحدهم هو (فريدي هولاند)..
كانت (إيلين) أمه قد انتهت تماما، ولم تعد تبالي بشيء.. حتى إنها كفت عن العناية برضيعها وصار هو مسئولية (جان) تماما.
وفي (آير كرينج) سقطت (إيلين) مرتين في يوم واحد.. وساعدتها النسوة على المشي. لقد صارت ناحلة جدا، واحمر وجهها بشدة.. غسلن وجهها وأعطينها حساء، لكنها أبت أن تأكل..
أيقنت بالموت، فهمست في أذن (جان) ليلا:
- يؤسفني أني أتعبتك معي يا عزيزتي.. وأنا آسفة لـ (بيل)..
لو قابلته قولي له ألا يحزن، وأن يتزوج أخرى.. فهو ما زال شابا..
وبعد هنيهة قالت:
يسعدني أن الطفل يحبك..
وفي الصباح كانت حية، لكنها فاقدة الوعي.. ووهن تنفسها.
وعند الظهر ماتت ودفنوها في القرية هذا المساء.

☆ ☆ ☆

كان المكان غير صحي، مفعما بالبعوض.. فالأرض حوله مسطحة ملأى بالمستنقعات، وبدأ الجميع يشكون من الحمي..
لكن مسز (فريث) قالت لهن: إنهن يجب أن يتحركن سريعا إلى مناطق أكثر ارتفاعا، للفرار من الملاريا.
أصيب الرضيع (روبين) بالحمى بدوره، فأخذته (جان) إلى عمدة إحدى القرى.. فأحضرت زوجته مشروبا ساخنا مصنوعا من

لحاء شجرة، وسقته بعضا منه فتحسن بشكل ملحوظ..
كانت حصيلة تلك الفترة هي هلاك ثلاث نساء.
لكنهم في النهاية تحركوا إلى المرتفعات..
وصلوا إلى مدينة صغيرة تدعى (ميراو) على طريق (كوانتان).. بها خمسون منزلا ومدرسة وبضعة متاجر.
كانت هناك شاحنتان تقفان على جانب الطريق.. وثمة رجلان أبيضان يصلحان إحداهما، بينما الحراس اليابانيون حولهما.
كانا أول رجلين أبيضين يرونهما منذ خمسة أشهر.

☆ ☆ ☆

8- الأستراليان سائقا الشاحنة..

التفت النسوة والأطفال حول الشاحنة ليرقبوا الرجلين يعملان.
كانت الشاحنة محملة بـ (فلنكات) السكك الحديدية، وثمة حارس ياباني يقف فوق الأخشاب ممسكا ببندقية..
لم يبد اليابانيون اهتماما بالنسوة الواقفات.. وقال أحد الرجلين البيض بالإنجليزية:
- قل لهاته النسوة أن يتحركن.. فأنا لا أري ما أفعله..
ضحكت النسوة.. فقد أسعدهن أن يسمعن الإنجليزية ثانية.
قالت (جان):
- حسن.. لا تتضايق.. نحن (نتفرج) فحسب.
سأل في ذهول:
- من قال هذا؟ من تتكلم بالإنجليزية؟
قالت (جان):
أنا فعلت.. نحن بريطانيات نظر الرجلان إليهن.. كانت النسوة يرتدين زي (الملايو)، وقد لوحت الشمس بشرتهن، وكانت (جان) قد ربطت شعرها الأسود الطويل في جديلة على ظهرها.. لذا صار من العسير تمييز أنها إنجليزية.
قال الرجل طويل القامة:
- لا يبدو لي أنكن بريطانيات.
قالت (جان):
- هذا لا يمنع أننا كذلك.
سألها:
- من أين جئتن؟ وماذا تفعلن هنا؟
- نحن أسيرات.. ذاهبات إلى المعتقل في (كوانتان).

- لا يوجد معتقل في (كوانتان).. لا يوجد هناك سوى حفنة من الأسرى مثلنا، كلهم يقودون الشاحنات..
- لست مندهشة.. إن اليابانيين يكذبون علينا طيلة الوقت.. كلما وصلنا إلى مكان وجدنا أنهم لا يريدوننا هناك..
- ومن أين جئتن؟
- لقد أسرنا في (باتونج) منذ خمسة أشهر.. وقد طفنا بـ (كلانج).. (بورت ديكسون).. (تامبين).. (ملكة).. (جيماس) والآن هنا.. لقد مشينا خمسمائة ميل..
تساءل في ذهول:
خمسمائة ميل؟ مشيتن كل هذا؟
- نعم.. كلنا، وخمس عشرة جثة تركناها وراءنا..
تساءل في ذهول أكبر:
ماذا؟ ماتت منكن خمس عشرة امرأة؟ هيه يا (بن)! هل سمعت ما دهاهن؟
كان صديقه يثرثر مع النسوة الأخريات.. فسألته (جان):
- ومن أنت؟.. وماذا تفعل هنا؟
- أنا أسترالي.. اسمي (جون هارمان) وهو (بن ليجات).. لقد أسرونا منذ شهرين، ومن حينها نقود شاحناتهم.. أين تكونون هذه الليلة؟
- هنا.. في مدرسة القرية كالعادة..
- وماذا تفعلن غدا؟
نمشي يوما ونستريح يوما.. هل يمكن لشاحنتك أن توصلنا؟ ماذا قد دهاها؟
- لقد احترقت الفرامل، لكننا أصلحناها لكننا قادران على أن نخرب شيئا آخر، لنبقى هنا ليلة ثانية.. ماذا يمكننا عمله لهذه الشاحنة يا (بن)؟

قال (بن) في خبث:
- يمكننا أن ننزع عامود (الكردان).. سيحدث هذا فوضى لا بأس بها. سأفعل هذا الآن..
- سأساعدك.
ثم سأل (جان):
- كيف نساعدكن؟ هل معكن أدوية؟
- لا.. بل نحتاج إلى بعضها.. نحتاج إلى بعض أدوية المعدة والملاريا والتهابات الجلد.. فأكثر الأطفال مرضى جدا.
- هل معك نقود؟
- لا.. لقد أفلسنا تماما.. لكن معنا بعض الحلى..
- أرجو ألا نحتاج إلى ذلك..
فما إن انصرفت حتى كان الأستراليان قد فكا عامود (الكردان).. وأظهراه للحراس، وأخبراهم أن التحرك مستحيل هذه الليلة.
شعر الحرس بالريبة، لكنهم لم يجدوا ما يفعلونه.. نهض (جون) متظاهرا بأنه يريد قضاء حاجة خلف أحد المنازل.. فما إن تواري حتى كان هناك رجل صيني يملك حافلة ينتظره..



فما إن توارى حتى كان هناك رجل صينى يملك حافلة ينتظره .

سأله (جون):

- هل أنت بحاجة إلى وقود؟

- نعم..

بعد مساومة بسيطة كتب (جون) بعض كلمات على ورقة: أدوية للملاريا، والأمراض الجلدية والزخار.. وناولها للصيني، ثم أخذ منه ثلاثة (جراكن) للوقود، وعاد أدراجه إلى الشاحنة..
في الليل ملأ الـ (جراكن) بالوقود من خزان الشاحنة، وأعادها إلى الصيني، الذي ناوله بدوره بعض الأدوية وشرح له استعمالها.
قصد (جون) المدرسة، حيث يبيت الأسرى.
وهمس من وراء الباب المفتوح:
- أين الآنسة التي كنت أكلمها ظهرا؟
كانت (جان) نائمة، لكن النساء أيقظنها.. فخرجت له.. قال لها:
- مرحبا.. ما اسمك؟
- (جان باجت)
(جان باجت).. سأتذكر ذلك.. ها هي ذي الأدوية يا (جان) (كينين).. دواء صيني للإسهال يذاب في ماء ساخن.. ومرهم جلد.
هتفت في حماس:
- رائع!.. كم كلفك هذا؟
- لا تقلقي.. لقد دفعت ثمنه بالوقود الياباني!
- أتمنى ألا يكتشفوا هذا.
- إن الشاحنات تفسد دائما.. فليس في الأمر ما يريب..
- وإلى أين تحمل هذه الفلانكات الخشبية؟
- لا أعرف.. غالبا هم ينشئون خطا جديدا في مكان ما..
جلست (جان) على درجة من السلم، وافترش هو الأرض عند قدميها.
سألته:
- هل تقود الشاحنات في أستراليا؟

- لا.. أنا أرعى الماشية، في محطة لحوم كبري قرب (وويلرا).. أي على بعد مائة ميل من (سبرنجز) [2]
- ما هي (سبرنجز)؟
- (أليس سبرنجز)؟ ألا تعرفينها؟! إنها في وسط (أستراليا).. منتصف المسافة بين (أدليد) و(داروين)..
- حسبت وسط (أستراليا) صحراء كله.
- كلا.. ثمة ماء كثير.. الحدائق خضراء طيلة العام.. إن الشمال جاف، لكن الماء في الأنهار.. وحتى حين تجف الأنهار فالمياه الجوفية موجودة..
- وكم رأس ماشية ترعاه؟
- ثمانية عشر ألفا!
- يا للسماء! وما مساحة المحطة؟
- 2700 ميل مربع!
هتفت في دهشة:
- بهذا الكبر! وكم عددكم هناك؟
- كنا أربعة عشر رجلا..
وظلا صامتين هنيهة.. هو يفكر في وطنه الأم، وهي تفكر في ضخامة هذه المساحات وكثرة الماشية.. إن إنجلترا تختلف.. فالمدن مزدحمة والمزارع صغيرة.. أربعة عشر رجلا لا أكثر!
ظلا يثرثران ساعة.. وفي النهاية نهض (جو) لينصرف.. لم ينس أن يسألها عما تحتاج إليه.. فقالت:
- الصابون هو أعز ما نحتاج إليه.. فالاستحمام مستحيل بالنسبة لنا.
قال لها:

سنحاول إحضار بعضه.. آسف لأنني ثرثرت كثيرا عن وطني.. لابد أن هذا أثار سأمك..

- بالعكس.. لقد استمتعت به..
- تصبحين على خير..
- تصبح على خير..

☆ ☆ ☆

9- بعض الصابون وخنزير

في الصباح التالي أظهرت (جان) الأدوية للنسوة الأخريات، فقالت مسز (فريث):

- إن (جو) رجل طيب.. أليس كذلك؟ سمعتك تحدثينه كثيرا أمس..

قالت (جان):

- إنه يعاني الحنين للوطن.. ويتكلم عن بيته بإفراط..

- إنه قد ساعدنا كثيرا.. فلو أراد الكلام أصغى إليه.. لن نجد طريقة أخرى لشكره.. هل سينقلوننا بهذه الشاحنات إلى (كوانتان)؟

بالفعل حاول الأستراليون ذلك.. لكن اليابانيين أبوا.. وقالوا:

- إن الشاحنات ملأى.. النساء والأطفال يخربون الشاحنات.. الأسرى يمشون.

قضي (جو) وزميله طيلة النهار، يصلحون (الكرنك) المكسور، وحين تأهبوا للرحيل قال (جو) لـ (بن):

- كلم الحارس بعض الوقت حتى لا يرى ما أفعل.. لسوف أحدث ثقبا في خزان الوقود.. لقد سرقت ست جالونات من الخزان أمس.. ويجب أن يجد اليابانيون مكانا للتسرب في الشاحنة..

وتسلل ليحدث الثقب.. وبدأ الوقود يتساقط على الأرض.

ظلت النسوة طيلة اليوم مستريحات.

وفي اليوم التالى واصلن الرحلة.. وفي المساء حضرت طفلة من (الملايو) وناولتهن طردا.. كانت بداخله ست قطع من الصابون، وخطاب من (جو):

«عزيزتي (جان):
هو ذا بعض الصابون.. سأحاول جلب المزيد.. لن أستطيع أن أراك، لأن اليابانيين لا يسمحون لنا بالتوقف..
(جو هارمان)»
في اليوم التالي، عبر الأسرى عددا من مزارع جوز الهند، وابتاعت امرأة زوجا من الأحذية، وبعض ثمار جوز الهند، من ثم استطاع الجميع شرب لبن جوز الهند شهي المذاق..
وفي (بيركابور) قضين اليوم في ظليلة كانت مخزنا.. جلسن واستعملن الصابون لأول مرة منذ أسابيع عديدة.
وفي المساء جاءت الشاحنتان، فخرجت لتلقي (جو)..
قالت له:
- شكرا على الصابون.. لقد كان حماما رائعا..
قال لها:
لقد جلبنا معنا خنزيرا لكنّ..
- خنزير؟
- نعم.. وجدناه على الطريق.. طاردته بالشاحنة وأطلق عليه اليابانيون النار.. لم يصيبوه إلا بعد الطلقة السابعة.. سيحصلون على أكثر اللحم، لكن سيبقى ما يكفي لكنّ..
وفي تلك الليلة أكلن اللحم مع الحساء.
فيما بعد ذهب (جو) ليري (جان).. كانت تلعب مع الرضيع، فوقف يرقبها بعض الوقت ثم قال:
- آسف لأنني لم أحضر مزيدا من اللحم.. فأنتن شديدات النحول..
- نحن كذلك.. لكننا أفضل بكثير مما كنا والفضل لك..
- هي حياة غريبة لكن.. ماذا كنتن تفعلن قبل قدوم اليابانيين؟
أكثرنا متزوجات وكان للأزواج وظائف..

- لكنهم الآن في سجن (سنغافورة)..
- نعم..
- ألا تستطعن الإقامة في مكان حتى تنتهي الحرب؟
- بلى.. فكرنا في ذلك.. لكننا بحاجة إلى الطعام.. ولن نجده ما لم ندفع ثمنه..
قال لها بعد تفكير:
- نعم.. لن تجدنه..
ثم نظر لأعلى وقال:
- أعرف من أين أجلب لكنّ بعض الدجاج..
لكننا لم ندفع ثمن الصابون بعد..
- لقد دفعه اليابانيون بالفعل!
- أنت محظوظ لأنهم لم يقبضوا عليك..
- من السهل خداع هؤلاء القوم..
- هل ستسرق الدجاج أيضا؟ أرجو أن تحترس..
- سيكون كل شيء على ما يرام.. حين أحضر لك دجاجة، كليها ولا تسألي من أين جاءت..
جلست جواره على الأرض.. وسألته:
- كلمني عن (أستراليا).. هل هي حارة؟
- نعم.. إن الحرارة هناك سبعة وأربعون درجة مئوية.. لكنها حرارة جافة.. فلا تعرقين كما يحدث هنا.. فقط تشعرين بالظمأ..
سألته:
- كيف تبدو البلاد؟
كانت تعرف ولعه بالكلام عن وطنه، فحاولت أن تسره.. قال:
- إنها حمراء.. والتربة والصخور حمراء.. وعند شروق الشمس يغدو كل شيء أرجوانيا.. وفي فصل الأمطار تكتسي الأرض

بالأعشاب، فيغدو اللون أخضر، من أين جئت؟
- من (ساوثهامبتون).
- حيث تجيء كل القوارب؟
- نعم.. ليست جميلة، لكني كنت سعيدة هناك.. وما زلت أحلم بأن أراها ثانية.
بعد دقائق نهض لينصرف.. قال لها:
- سأعود بعد يومين..
وأوصلها إلى المدرسة فقالت له:
- سنستريح غدا ثم نقصد (بوهوى).
- سأحضر لك الدجاج هناك..
قالت بجدية:
- أرجوك أن تكون حذرا.
- ليس الأمر خطرا إلى هذا الحد.. ولو كان كذلك سأبحث عن شيء آخر أسرقه.. فأنا لا أحب المشاكل..
وابتسم قائلا:
- أود أن أظل سالما لمدة عامين حتى تنتهي الحرب ثم أعود لوطني..
- هل تستمر الحرب عامين؟
- كذا يقول (بن).. لكن لا عليك.. فكري في الدجاج!
- أرجوك.. كن حذرا..
- سأكون.. والآن وداعا..

☆ ☆ ☆

10- خمس دجاجات سوداء..

بدأ الأسري سيرهم إلى (بوهوى).. مرت بهم الشاحنات عند الظهر.. ومن النافذة لوح (جو) للنساء فلوحن له بدورهن.. وشعرت (جان) بالسعادة، لأن الرجلين لم يجلبا الدجاج، فهي تعرف أنهما سيفعلان أي شيء للحصول عليه.. وما داما لا يحملان دجاجا فهما في أمان..

في المساء جاء صبي من (الملايو) ليراهم، وكان يحمل حقيبة من (الكانافاه).. فتحت (جان) الحقيبة، فوجدت بها خمس دجاجات سوداء كبيرة، كلها حية، وقد ربطت أقدامها..

كان عليها أن تجد قصة تقنع بها الحراس اليابانيين، لأن أمر الدجاج لن يظل سرا.. وقررت أن تستشير مسز (فريث)..

قالت المرأة العجوز:

- فلتزعم أن الفلاحين أعطونا إياها..
- ليس الفلاحون بهذا الكرم.. ولن يصدقنا اليابانيون.
- لنقل إننا اشتريناها.
- ممكن.. لكنهم سيسألون من أين جئنا بالمال..
- لنقل إن الأستراليين أعطيانا المال..
- حسن.. لكني لا أريدهما أن يقعا في مشاكل سنقول إننا اشترينا الدجاج من مال الأستراليين.. ولكن من أين اشتريناها؟
- ومن أين جاء الصابون؟
- من (جوبانج).. لكننا لم نتوقف هناك..
- قولى إننا حاولنا شراء الدجاج في (بيركابور).. لكننا لم نجد.. ثم عرض البائع أن يرسله لنا ها هنا..
- أتعشم أن يصدقوا هذا..

- من الضروري أن نمنح اليابانيين دجاجة..
صاحت (جان) في صرامة:
- لن أعطيهم أية دجاجة!
- لا بد أن ينالوا واحدة أو اثنتين.. وإلا ما صمتوا..
وكانت (جان) تعرف أن مسز (فريث) محقة.. لذا ذهبت تتحدث مع (السيرجنت)، قالت له:
- انظر.. هذا عشاء ممتاز.. دجاج..
ومدت يدها في الحقيبة فأخرجت دجاجة.. وهتفت:
- هذه لك..
بدت عليه دهشة غامرة.. وسألها:
- أنت اشتريته؟
- نعم.. عشاء طيب..
من أين جئت بالمال؟
- الأستراليان أعطيانا إياه.. قالا إننا نحيلات جدا..
قال لها في صرامة
- دجاجتان!
بحزم ردت:
- بل واحدة.. إنها هدية لأنك طيب وتعين الأطفال، وتسمح لنا بالبطء في السير.. توجد هنا خمس دجاجات ونحن سبعة عشر أسيرا..
كانت دجاجات سوداء كبيرة، تختلف عن الدجاج الذي تراه في القرية.. وسرعان ما هز الجندي رأسه، وحمل الدجاجة تحت إبطه سعيدا.
وفي هذه الليلة نعم الجميع – البريطانيون واليابانيون - بالدجاج والأرز.

☆ ☆ ☆

وفي اليوم نفسه كان القائد الياباني – واسمه (سوجامو) - الذي يعيش في (كوانتان) مغتاظا جدا..

كان يعيش في منزل الحاكم البريطاني السابق، وفي الحديقة كانت هناك عشرون دجاجة من نوع (لوج هورن) كان الحاكم قد جلبها من (إنجلترا) عام 1939.

واستبقى كابتن (سوجامو) الدجاج وكان فخورا به.

إلا أنه في هذا الصباح عرف أن خمسا منها قد سرقت.. ومعها سرقت الحقيبة الخضراء، التي توضع فيها الحبوب..

استدعى (سوجامو) الشرطة العسكرية، وأمرهم بالبحث عن الدجاج.. ومن سرقوه..

وانحصر الشك في سائقي الشاحنات الأستراليين..

فتشوا أكواخهم، فوجدوا بعض المعلبات ولفافات التبغ.. لكن لا دجاج..

أمر الكابتن رجاله بتمشيط المدينة.. فراحوا يبحثون في كل صوب عن ريش أسود أو حقيبة خضراء..

ازداد حنق الرجل، والتفتيش لن يسفر عن شيء..

إلى أن كان بعض الجند خارج (كوانتان) حين قابلوا بعض النساء والأطفال يمشون على الطريق.. وكان معهم جنديان يابانيان، يضع أحدهما بندقية على كتف وحقيبة خضراء على الآخر..

توقف رجال الشرطة العسكرية بسياراتهم (الجيب)، وسألوا الجندي: من أين حصل على الحقيبة..

أشار إلى (جان)، فأحاطوا بها يسألونها عن مصدر الحقيبة..

قالت قصتها المعتادة: الأستراليون أعطوها مالا كي تبتاع بعض الدجاج من (بيركابو)..

وكان الدجاج في حقيبة خضراء..
لم يصدقوا حرفا.. وسألوها الأسئلة ذاتها مرارا.. وضربوها وصفعوها عدة مرات، لكنها ظلت تكرر الإجابات ذاتها..
كانت تدرك أن قصتها واهية جدا.. لكنها لم تكن تملك سواها..
بعد ساعتين وصلت شاحنتان كان (جوهارمان) يقود إحداهما..
أنزلوه منها.. وسألوا (جان):
- هل هذا هو الرجل الذي أعطاك المال؟
قالت في سرعة:
- كنت أحكي لهم عن الأربعة دولارات التي أعطيتني إياها يا (جو).. لقد اشتريت بالمال دجاجا لكنهم لا يصدقون..
قال رجل الشرطة العسكرية:
- أنت لم تعطها ما.. بل أعطيتها دجاجا مسروقا من منزل القائد في (كوانتان)..
نظر (جو) إلى أنف (جان) الذي تسيل منه الدماء.. وإلى قدمها المرضوضة، وعرف على الفور أنه يجب أن يقول الحقيقة كي يحميها.
قال في صوت خفيض غاضب:
- دعوها وشأنها يا حمقى.. نعم.. لقد سرقت الدجاج.
على الفور أمر رجال الشرطة النسوة والأطفال بركوب الشاحنات.. وأخذوهم مع (جو) إلى الكابتن (سوجامو)..
وسرعان ما أصدر (سوجامو) حكمه بالموت على (جو)..
ثبت رجال الشرطة العسكرية يديه وقدميه بالمسامير إلى الشجرة.. وراحوا يضربونه مرارا حتى قضى نحبه.
وتم هذا أمام الأطفال والنساء، الذين أرغموا على رؤية المشهد..

☆ ☆ ☆



ثبّت رجال الشرطة العسكرية يديه وقدميه بالمسامير إلى الشجرة .. وراحوا يضربونه مرارًا حتى قضى نحبه ..

11- سجناء بلا حارس..

حين ظن اليابانيون أن الأسترالي قد مات، قال كابتن (سوجامو) للأسرى في اشمئزاز:

- أنتم قوم أشرار.. ولا مكان لكم هنا ستذهبون إلى (كوتا بارو).. الآن تمشون..

جمعوا أشياءهم وانطلقوا في طريقهم شمالا.. والوقت ظهر والقيظ شديد.. لكنهم كانوا راغبين في ترك (كوانتان) سريعا..

أما السيرجنت فقد أبقاه كابتن (سوجامو) معه ليعاقبه.

شقوا طريقهم عبر الساحل.. وأمضوا الليلة الأولى في قرية صيادين.. لم يستطيعوا النوم، لأن الأطفال كانوا مذعورين من مشهد قتل (جو هارمان).. وظلوا يصرخون طيلة الليل.

في اليوم التالي مشوا بأسرع ما استطاعوا ليبتعدوا عن (سوجامو)..

☆ ☆ ☆

كان الساحل الشرقي بهيجا صحيا.. الطقس بارد نوعا.. وهم يطعمون سمكا طازجا كل يوم، مما زادهم قوة وشفي أمراضهم..

كما أن الاستحمام في البحر عالج قروحهم الجلدية..

وللمرة الأولى - منذ كانوا في (باتونج) راح الأطفال يلعبون.. وبدأت (جان) تعلم (روبين) كيف يمشي.

الوحيد الذي لم يكن سعيدا ولا بصحة جيدة هو الحارس الياباني.. فقد صار وحيدا بلا صديق يثرثر معه..

مشوا على الشاطئ في بطء.. ومن حين لآخر كان أحدهم يمرض، فكانوا يتوقفون أياما حتى يبرأ من مرضه..
لم يمت آخرون، لذا شعروا بأن الأمور إلى انفراج، وأن الأحزان قد انتهت..
وفي نهاية (أغسطس) وصلوا إلى (كوانا تيلان)..
كان الفلاحون يزرعون الأرز.. بينما آخرون يصطادون السمك بالشباك عبر الشاطئ..
كان الحارس الياباني محموما الآن.. وشعرت النسوة بالتعاطف معه.. فقد كان يساعدهن في حمل الأطفال.. وكان يبكي بحرارة كلما مات طفل.. الآن هو مريض جدا..
لذا حملن حذاءيه وحقيبته وبندقيته.. وحين وصلن القرية قدنه إلى مكان ظليل.. كان محموما إلى درجة أنه لم يعد يعرف أين هو..
ذهبت (جان) إلى العمدة، وكان في الخمسين من عمره يدعى (مات أمين بن طيب)..
قالت له:
- نحن أسرى مكلفون بالمشي من (كوانتان) إلى (كوتا بارو).. وهذا الياباني هو حارسنا.. وهو مريض بالحمى.. نحتاج إلى مأوى وطعام..
قال (مات أمين):
- لا مكان هنا يناسب النساء الأوروبيات..
قالت له:
- نحن لسن نساء أوروبيات.. نحن أسيرات.. لا نحتاج إلى منازل وأسرة.. نحتاج إلى أرض ننام عليها وبعض الأرز والسمك..
- يمكنكن أن تنلن نفس ما تناله نساؤنا.. لكن يدهشني أن أرى نسوة أوروبيات يرضين بهذا..

واصطحبها إلى داره ليقدم لها حشايا ينمن عليها.. وفي الصباح كان الجندي الياباني أسوأ حالا وراح يتمنى الموت.. وأدركت النسوة ألا سبيل لإنقاذه..
مدت (جان) يدها في جيبه وأخرجت حافظته.. كانت بها صورة امرأة مع أربعة أطفال..
قدمت له الصورة، آملة أن تمنحه القدرة على المقاومة، لكنه أشار لها بأن تبعدها عنه..
وفي عينيه لمحت (جان) الدموع.
وبعد يومين توفي..
دفنته النسوة.. وبكين عليه قليلا، لأنه كان صديقا لا بأس به..
والآن صرن أسيرات بلا حارس.. ورحن يناقشن موقفهن..
قالت مسز (فريث):
- لا أدري لماذا لا نبقى في هذه القرية؟ إنها هادئة ولا يوجد يابانيون فيها.. أود البقاء هنا حتى تنتهي الحرب..
قالت (جان):
- أتمنى ذلك مثلك.. لكن اليابانيين سيجدوننا حتما، عندئذ سنسبب مشاكل للعمدة.. ولربما قتله اليابانيون..
قالت إحدى الأمهات:
- لن يبحثوا عنا..
- نعم هذا جائز.. لكن (مات أمين) سيظل في خطر طالما نحن هنا..
- أنت محقة..
- وهناك مشكلة أخرى.. كيف يوفر الفلاحون لنا الطعام؟
قالت مسز (فريث):
- لم لا نزرع طعامنا؟ إن نصف حقول الأرز هنا غير مزروعة..
- بالفعل.. ولا أدري سبب ذلك..

قالت أم أخرى:
- هذا طبيعي.. لقد أخذ اليابانيون كل الرجال ليعملوا في خط السكة الحديدية..
قالت (جان):
- ربما نستطيع زراعة الأرز..
قالت امرأة:
لا أستطيع أن أمشي في الوحل والماء لأزرع الأرز..
فقالت مسز (فريث):
- بل هي فكرة طيبة.. واليابانيون سيجدونها كذلك.. سيجدون أننا نطعم أنفسنا.. بل ونوفر لهم مزيدا من الأرز..
طالت المناقشات.. لكن (جان) كانت مهتمة بسؤال (مات أمين) عن إمكانية البقاء..

☆ ☆ ☆

12- كوالا - تبلانج.

اتجهت إليه في الصباح.. حيته برقة، ثم جلست جواره..
وسألته:
- (مات أمين).. أرى حقولا كثيرة غير مزروعة.. فما السبب؟
- لا يوجد رجال لزرع الأرز.. لدينا صيادون، لكن ليس لديهم وقت كاف للعمل في الحقول.. لقد أخذ اليابانيون الرجال الآخرين.
- هل هم يعملون في السكة الحديدية؟
- لا.. إنهم يبنون مهبطا للطائرات في (جونج - كيداك)..
- هل سيعودون سريعا للزراعة؟
- لا أظن.. سيبنون مهبطا آخر في (تاخانج)..
ثم مهبطا في (تان - يونج - مات).. سيحتفظ اليابانيون بالرجال فترة طويلة..
- ومن يزرع الأرز؟
- النساء سيزرعن ما يستطعن زرعه.. سيكون هناك أرز كاف لنا.. لكن لن يكون هناك ما نبيعه لليابانيين.
- (مات أمين).. ثمة أمر مهم أريد أن أكلمك فيه.. لو كان معنا رجل لفوضناه بالحديث.. لكننا جميعا نساء..
ابتسم.. واقتادها إلى منزله، حيث جلسا في الشرفة على الأرض.. وأمر زوجته بإعداد بعض القهوة..
وبينما هما ينتظران راحت (جان) تحدثه في أشياء أخرى كما تقضى التقاليد.
جاءت القهوة في قدحين سميكين.. وكانت دون حليب وكثيرة السكر.

رشفت (جان) قليلا، ثم وضعت قدحها وقالت:
- إن موقفنا حرج يا (مات أمين).. لقد مات حارسنا، ولم نعد قادرين على الذهاب لأي مكان واليابانيون لا يريدوننا..
- أعرف كل هذا.
- يمكننا البحث عن رجال الجيش الياباني.. لو كنا رجالا لرمونا بالرصاص واستراحوا.. لكننا نساء وأطفال، لذا لن يفعلوا بنا شيئا.. سنظل نمشي حتى نصل ذات يوم لمنطقة موحلة ونموت..
- لا تخافي.. إن القرآن يقول لنا: إن الله (سبحانه وتعالى) يبلونا ليثبت إيماننا.
قالت وقد تذكرت ما قاله لها العمدة في (ديليت):
- إن القرآن كذلك يأمر بالإحسان إلى الضعفاء..
سألها في دهشة:
- هل أنت مسلمة؟
- لا.. أنا مسيحية، لكني سمعت هذا من عمدة كريم في إحدى القرى..
- أنت ذكية.. فماذا تريدين؟
- نريد البقاء في هذه القرية للعمل في الحقول.. سنزرع حقول الأرز لمدة أسبوعين، تحت إشراف نسائكم.. وسنعمل يوميا لنسدد ثمن طعامنا ومأوانا..
- لكن هذا سيغيظ اليابانيين جدا..
- أعرف هذا.. لذا - بعد أسبوعين – سنقابل الضباط اليابانيين، ونطلب الإذن بزراعة الأرز.. سنقنعهم أنهم سيجدون أرزا أكثر للجنود لو بقينا هنا وعملنا.
قال بعد تفكير طويل:
- الأوروبيات لا يعملن في حقول الأرز.

بنفس لهجته قالت:
- والأوروبيات لا يمشين أميالا ثم يمتن..
ظل صامتا يفكر.. فقالت له:
- يجب أن تعطينا ردا يا (مات أمين).. تستطيع الخلاص منا.. لكن لو جعلتنا نبقى فلسوف يشكرك البريطانيون حين يعودون.. إن دولا كثيرة تحارب اليابان، ولا بد من نصر دان.
قال لها بعد ما فرغ من احتساء القهوة:
- لا أستطيع إعطاء رد فوري.. يجب أن أتشاور مع رجالي وأن آخذ رأي إخوتي..
وانصرفت (جان)..
في المساء وجدت حشدا من الرجال في كوخ (مات أمين)، فعرفت أنهم يناقشون الأمر وعواقبه.
ثم جاء (مات أمين) ليلقي (جان).. فقابلته حاملة مصباحا من الزيت.
قال لها:
- لقد تحدثت مع إخوتي.. بعض الرجال خائفون من البريطانيين يوم يعودون.. سيقولون إننا أرغمناكن على العمل في الحقول..
قالت له
- يمكنني أن أكتب لك بخط يدي مستندا، يؤكد أننا راغبات في العمل..
قال لها:
- لا حاجة لكتابة مستند.. سأعتمد على كلمتك..
في اليوم التالي ذهبت النسوة البريطانيات للعمل في الحقل.. وشرحت لهن فتاتان من القرية طريقة الزراعة..
غرقن في الوحل والماء، لكن الأمر لم يكن شاقا.. وفي نهاية أسبوعين كن قد فرغن من زراعة الأرز..

وفي اليوم السادس عشر غادرت (جان) القرية مع (مات أمين).. وحملت معها ثياب الجندي الياباني وحافظته وبندقيته.
كانت أقرب القوات اليابانية في (كوالا راكت) على بعد سبعة وعشرين ميلا تقريبا.. هناك أخذها إلى كبير ضباط (الملايو) ويدعي (تونجكو بنتارا راجا).. وكان يتكلم إنجليزية ممتازة.
حكت له (جان) قصتها فأبدى أسفا شديدا.. وقالت:
- نريد البقاء في (كوالا - تيلانج).. لا نريد مواصلة المشي..
- لا يوجد معتقل للنساء.. لكنهم لن يتركوكن هناك.. على كل حال ستبيتين الليلة في داري.. وغدا نقابل الحاكم العسكري الياباني..
وفي الليل نامت (جان) على فراش لأول مرة منذ سبعة أشهر.. لكن القيظ كان شديدا فلم يواتها النعاس..
في الصباح ذهبت مع (تونجكو بنتارا) إلى الحاكم العسكري، وكان هذا الأخير قد درس في (أمريكا) ويتحدث إنجليزية جيدة..
قال لها الياباني:
- أتمنى أن أعينك.. لكن الكولونيل (ماتيساكا) هو المسئول عن الجيش ها هنا..
وسمع (ماتيساكا) القصة بدوره فبدا مغتاظا.
لم يكن لديه جنود يكفون للعناية بالأسري.. ولم يكن لدية معتقل يسمح بإبقائهن.
قال لها:
- ستذهبين إلى (كوتا بارو)..
سأله الحاكم العسكري:
ولماذا لا يبقين حيث هن؟
لأنني لن أعني بأمرهن.. ولو بقين في (كوالا - تيلانج) لصرن مسئولية على كاهلنا.. وهذا ما لا أريده..

قال الحاكم:
- حسن.. سأعني أنا بهن..
وغادروا المكتب على إذن ببقاء النساء والأطفال حيث هم..
وعادت (جان) إلى القرية مع (مات أمين)..
وعاشوا هناك ثلاثة أعوام..

☆ ☆ ☆

13- بعد الحرب..

انتهت الحرب عام 1945، وعادت (بريطانيا) إلى (الملايو)..
تم نقل النساء والأطفال إلى (كوتا - بارو)، حيث تم أخذهم بالطائرة إلى (سنغافورة).. وهناك قابلوا الرجال الذين تم أسرهم في (باتونج)..
ولاقت (جان) (بيل هولاند).. فأخبرته بما حدث لـ (إيلين) والطفلين.. أصغي لها محزونا.. لكن (روبين) كان سالما على الأقل، وهو طفل جميل في الرابعة من عمره، ويحب (جان) بشدة..
أما (جان) فقد راحت تجمع الأخبار عن أسرتها..
لقد توفي أخوها (دونالد) في (بورما).. لقد قبض عليه اليابانيون.. وأرسلوه للعمل في السكك الحديدية، حيث مات مئات الأسري..
أرسلت برقية لأمها في (إنجلترا).. وبعد عشرة أيام تلقت برقية من خالتها في (ويلز).. قالت لها:
إن أمها ماتت منذ ثلاثة أعوام..
وهكذا صارت (جان) وحيدة في هذا العالم..
حين عادت إلى (إنجلترا)؛ سألها (بيل هولاند) أن تقبل الزواج منه.. لكنها أبت إلا أن تقيم مع خالتها في (ويلز)..
ثم إنها قصدت (لندن) حيث وجدت عملا في شركة تدعى (باك آند ليفي) تصنع أحذية وحقائب جلدية..
كانت سكرتيرة مستر (بارك) المدير.. ووجدت غرفة صغيرة، بدأت تعيش فيها حياة هادئة، كأية فتاة إنجليزية أخرى.
لكم تذكرت الحرب في (الملايو)!
لكم تذكرت النسوة والأطفال الذين ماتوا في أثناء المسير..

ولم تنس قط مصرع (جو هارمان)..
كانت في السابعة والعشرين من عمرها.. لكنها كانت تشعر بالشيخوخة، ولم تفكر قط في المستقبل..
أرادت أن تعيش حياة هادئة، ولم تفكر قط في الزواج والأطفال..
ولمدة عامين عاشت في (لندن) الحياة التي أرادتها، إلى أن تلقت خطابا من محام يخبرها أن لها عما توفي في (إسكتلندا)، وترك لها بعض المال..
تذكرت أنها في طفولتها زارت شخصا ما في (إسكتلندا) ثم نسيت كل شيء عنه.. كان الخطاب يطلب منها أن تلقى المحامي..

☆ ☆ ☆

تلا عليها المحامي نص الوصية، وأخبرها أن عمها ترك لها مائة وخمسين ألف جنيه إسترليني وقال لها:
- هذا يعني أنك لست بحاجة إلى العمل مرة أخرى يا مس (باجت).. فالدخل السنوي من هذا المال سيكون ألف جنيه سنويا دون مساس بالأصول.



تلا عليها المحامى نصّ الوصية ، وأخبرها أن عمها ترك لها مائة وخمسين ألف جنيه إسترلينى . .

يمكنك الحصول على خادم وسيارة ومنزل صغير قالت (جان):
- يبدو لي أنني صرت ثرية فجأة!

- نعم.. أنت كذلك فعلا.. يجب أن تقرري ما تريدين عمله بكل هذا المال..
- سأقرر.. لكن دون عجلة.. وفي الوقت الحالي سأستمر في العمل عند (باك آند ليفي)..
وانتظمت شهرين في العمل..
ثم إنها جاءت لتقابل المحامي.. وقالت له:
- لقد استقررت على ما أريد عمله.. سأذهب إلى (الملايو) وأحفر بئرا!
غمرته الدهشة.. فراحت تحكي له قصتها في أثناء الحرب..
قالت له:
- .. وأقمنا في (كوالا تيلانج) ثلاثة أعوام هانئة.. كان الناس طيبين للغاية، ولم نستطع قط أن نرد لهم ثمن المعروف.. لكن المال معي الآن.. ويمكنني أن أمنحهم هدية..
سألها المحامي:
- ولماذا بئر بالذات؟
قالت:
- النسوة هناك ليس لديهن بئر إنهن يمشين ميلين لجلب الماء.. ثم يعدن وهن يحملنه ميلين آخرين.. إن البئر سيحدث طفرة في حياة النساء.. ولن يكلف كثيرا..
سألها:
- إذن تريدين العودة إلى هناك.. وماذا تفعلين بعدها؟
- لا أدري.. لكني سأستقيل الآن من (باك آند ليفي).. وحين أعود سأبحث عن شيء آخر أفعله..
رتب المحامي مع بنوك (الملايو) عملية حصول (جان) على المال حين تريد.. كما كتب للحاكم في (كوتا بارو) وأخبره بقدوم (جان)..

وفي يونيو 1948 سافرت (جان) إلى (الملايو) ومعها أقل القليل من المتاع.
لكنها لم تعد إلى (إنجلترا) قط بعدها..

☆ ☆ ☆

14- البئر.

قابلها الحاكم العسكري البريطاني في مطار (كوتا۔ بارو)، واصطحبها معه إلى داره.
وأقامت في (كوتا - بارو) يومين.. وقد أدهشها أنها صارت شهيرة.. وأن الناس في (الملايو) يعرفون قصتها آناء الحرب..
وفي الصباح الثالث أخذها سائق في عربة (جيب) إلى (كوالا تيلانج).. ولم تأخذ معها سوى سلة يد صغيرة..
كانت ترتدي زي (الملايو) كما كانت حين عاشت في القرية.
وكان الحاكم قد أرسل رسالة إلى (مات أمين)، وقد راحت القرية تنتظر وصولها، والسرور يعم الجميع..
قابلت الرجال الذين عادوا بعد الحرب، وليلتها نامت على الأرض.. صحيح أنها لم تنم جيدا، لكنها أحست براحة لم تحسها في (لندن) قط..
في الصباح قابلت النساء.
قالت لهن:
- حين عدت إلى (إنجلترا) لم يكن لدى مال.. والآن صرت ثرية، ولم أعد بحاجة إلى العمل.. وقد عدت لأنني أرغب في إهدائكن بئرا تحصلن به على الماء بسهولة.. ومغسلة تغسلن فيها الثياب حتى لا تمشين إلى النهر..
راحت النسوة يتناقشن فيما قالت.. فأردفت:
- أريد أن تقررن لى موضع حفر البئر.. وموضع المغسلة.. وكيف ستكون المغسلة من الداخل.. ثم نطلب موافقة الرجال..
دارت المناقشات لمدة ساعتين..
وراحت بعض النسوة يرسمن رسوما تخطيطية للبئر والمغسلة..

وفي المساء راحت إلى دار (مات أمين)، وجلست معه يتحدثان ويرشفان القهوة..
قال لها:
- أخبرتني زوجتي بمشاريعك.. لكن النهر كان كريما مع نسائنا منذ دهر.. ولو أن لدينا بئرا لغدت النسوة كسالي..
قالت (جان):
- لكن ستكون لديهن القوة الكافية والوقت الوافر مما سيساعدهن على القيام بأعمال أخرى أكثر أهمية..
قال لها:
- سأبحث الأمر مع الرجال..
وفي الصباح قابل الرجال (جان) التي رسمت لهم تخطيطا للمغسلة والبئر..
كانت الفكرة جيدة لكنها جديدة.. وهذا ما جعلهم بطيئين في تقبلها..
لكنهم في النهاية وافقوا.

☆ ☆ ☆

لم تكن هناك سوى أسرة واحدة يمكنها حفر آبار.. وكانت تقيم في (كوانتان) وهي عبارة عن شيخ وولديه.
أرسلت (جان) تطلب قدومهم، ثم ابتاعت الأسمنت والقرميد اللازمين.. وقضت وقتها – بانتظار حفاري الآبار - في اللهو مع الأطفال، ومعاونة النسوة في حصد الأرز..
جاء الحفارون بعد ثلاثة أسابيع، وبدأ العمل بنشاط وهمة.
أمضت (جان) وقتا طويلا تراقب الرجال في أثناء عملهم.. وذات يوم سألتهم عن ذلك الأمر المفزع الذي لم تستطع نسيانه قط.

سألت العجوز:
- هل تذكر الضابط الياباني في (كوانتان)؟
قال الشيخ:
- نعم.. الكابتن (سوجامو).. لقد كان رجلا شريرا، وقد أسعدنا رحيله.. فالضابط الذي جاء بعده كان أطيب قلبا..
- لقد حوكم بعد الحرب، وأعدم بسبب قسوته مع الأسرى، آناء مد الخط الحديدي إلى (بورما)..
قال الرجل:
- - لم أدر بهذا.. لكنه يستحق.. لقد قام بفظائع وقت الحرب..
- هل تذكر تلك الفظائع؟
- كثيرون من الناس عذبوا..
- أذكر سجينا عذبه (سوجامو).. وكان قد ساعدنا حين كنا جياعا ومرضى.. أمسكه اليابانيون، وثبتوا كفيه وقدميه إلى شجرة بالمسامير.. ثم ضربوه حتى مات..
قال العجوز:
- أذكر هذا.. لقد كان في المستشفى، في (كوانتان)..
سألته في ذهول:
- مستشفى؟ هل دخل المستشفى؟
ثم نادي ابنيه اللذين كانا يعملان في البئر تحته وسأل:
- هل تذكران الإنجليزي الذي ربط إلى شجرة وضرب في عام الحرب الأول؟ هل قضى نحبه؟
قال أحد الأبناء:
- لم يكن إنجليزيا.. كان أستراليا، وقد ضربوه لسرقته الدجاج..
قال الشيخ:
- نعم.. هذا حق.. دجاج أسود.. هل مات الرجل؟
- كلا.. لقد أمر كابتن (سوجامو) بإنزاله ليلا..

وانتزعوا المسامير من يديه وقدميه.. كان محطما لكنه ظل حيا!

☆ ☆ ☆

15- أستراليا.

لأول مرة منذ ستة أعوام شعرت (جان) بسرور حقيقي.
لقد حاولت كثيرا أن تنسى مصرع (جوهارمان).. لكنها لم تستطع قط.
كانت قد مالت إليه، وأحست أنها السبب في مصرعه ومن يوم المشهد الفظيع، لم تكف عن التعذب.. وحين عرفت أنه ظل حيا أفعمها الحبور.
الآن صار لديها هدف في حياتها..
ستسافر إلى (أستراليا) لتراه..
لقد كان يعيش قرب مكان يسمى (أليس سبرنجز).. هكذا قال.
إنها ثرية الآن.. ويمكنها أن تسافر إليه، ولو كان في عسر مادي فمن السهل أن تعينه.
لكن يجب أولا أن تنتهي مما بدأته.

☆ ☆ ☆

كان عمال البناء يعملون بسرعة، وسرعان ما انتهى الأمر..
وجاء الجميع ليحضروا حفل الافتتاح..
سحبت (جان) من البئر أول دلو ماء، وذهبت به إلى المغسلة..
وحين بدأت غسل الثياب تصايح القوم وهللوا..
وعرفت أن الهدية أسعدتهم حقا.
وبعد يومين ودعت أصدقاءها في القرية.. فقالوا لها:
- شكرا يا (جان).. نحن لن ننساك ما حيينا..
- وأنا كذلك..

☆ ☆ ☆

حين وصلت إلى (كوتا - بار) كانت مرهقة جدا.. لذا دخلت الفراش على الفور، وفي الصباح حكت للحاكم العسكري البريطاني ما قامت به.

قال لها:

- ستطالب كل قرية بمغسلة الآن.. لقد منحتهم فكرة طيبة.. لكن ماذا عنك أنت؟ ما هي خططك الآن؟

قالت: إنها تنوي الرحيل إلى (أستراليا)..

ستسافر إلى (كوانتان) أولا.. علها تعرف عنه شيئا من المستشفى.

وبعد يومين طارت إلى (كوانتان)..

استدعاها الربان إلى قمرته.. بينما هم يطيرون فوق (كوالا تيلانج).. وحلق فوق ارتفاع منخفض ليسمح لها بأن ترى النساء، والأطفال يغادرون أكواخهم ويلوحون للطائرة.

ثم حلق الربان مبتعدا، بينما عادت هي إلى مقعدها..

☆ ☆ ☆

كانت مجدودة الحظ في (كوانتان) إذ قابلت امرأة كانت ممرضة في المستشفى في أثناء الحرب..

قالت لها:

- نعم.. أذكره.. اسمه هو (جوهارمان).. كان مريضا جدا، حين جلبوه إلى المستشفى.. وظننا أنه لن يعيش، لكنه فعلها.. لقد قمنا بتمريضه لمدة أربعة أشهر..

قالت (جان):

- كنت واحدة من النساء اللاتي ساعدهن (جو)..

سألتها المرأة:
- هل كنت أنت قائدة المجموعة؟
- نعم.
- كان يسأل عنك.. لكن أحدا لم يكن يعرفك.
سألتها (جان):
- وماذا حدث له؟
- أرسل إلى (سنغافورة) وصار قادرا على المشي بعون عكازين.. وأحسبه في خير حال الآن..
ثم أضافت:
- لكنه لم يعد قادرا على حمل الأشياء الثقيلة..

☆ ☆ ☆

طارت (جان) إلى (سنغافورة) وأمضت أياما ترتب لرحلتها.. ورتبت مع البنك أن يرسل لها المال في (أليس سبرنجز)..
في البداية طارت إلى (داروين).. وكانت هناك حافلة إلى (أليس سبرنجز) في منتصف (أستراليا)..
كانت (داروين) مكانا شديد الإملال.. فلا شيء يمكن عمله ولا مكان يمكن القصد إليه.. وحين تحركت الحافلة بعد يومين سرها أن ترحل..
ولمدة يومين سافرت على طرقات مغبرة..
تذكرت ما قال لها (جو) عن وطنه الأم.. كانت.. الأرض حمراء، لكن وقت الشروق كان كل شيء يكتسي بلون أرجواني..
في النهاية وصلت الحافلة إلى (أليس سبرنجز)..
حجزت حجرة في فندق (تالبوت آدامز).. وبعد احتساء الشاى نزلت لتتفقد المدينة..

مشت عبر الشارع الرئيسي، وسط صفين من المنازل ذات الحدائق.. وراحت تتأمل المحلات..



مشت عبر الشارع الرئيسى ، وسط صَفَّين من المنازل ذات الحدائق . . وراحت تتأمل المحلات . .

كانت هناك دار سينما.. وحلاق.. ومتجر ثياب.. وبار لبن..

وفهمت لماذا وصف (جو) هذا المكان بالجمال.. وأحست أنها ستحب الحياة ها هنا.
بعد العشاء بدأت البحث عن (جو)..
بالطبع لم تكن تريد أن تخبر القوم بسرها.. لذا أخبرت مديرة الفندق أنها تبحث عن قريب لها..
قالت للمرأة:
- سأبقى مع أخت لي في (أديليد).. وقد طلب عمي أن أجد (جو) حين آتي إلى (أليس).. وآخر ما يعرفه عمي عنه هو أنه يعمل في محطة لحوم دانية من هنا..
سألتها المرأة
- ماذا كان اسمه؟
- (جو هارمان)..
- (جو هارمان)؟ ألم يكن يعمل في (ووليرا)؟
- بلى.. هل تعرفين ما إذا كان هناك؟
- كلا.. لم يعد هناك.. لقد عاد بعد الحرب وبقي ستة أشهر..
كان اليابانيون قد ربطوه في شجرة وعذبوه..
هتفت (جان):
- يا للفظاعة! ألا تعرفين أين هو؟
- نعم لا أعرف.. لكن قد يعرف أحد هؤلاء الرجال..
ونادت بعض الرجال الذين جلسوا يحتسون الجعة في البار..
سألتهم:
- هل يعرف أحد مكان (جوهارمان)؟
قال أحدهم:
- نعم.. لقد عاد إلى (كوينز لاند).. وهو الآن يدير محطة لحوم قرب الخليج.. ليست بعيدة عن (ويلزتاون).. وأعتقد أن اسم المزرعة هو (ميدهيرست)..

سألته (جان):
- وأين (ويلز تاون) هذه؟
- إنها قرب الخليج.. شمال شرق.. حوالي مائتي ميل من هنا..
- وكيف أصل إليها؟
قالت المرأة:
- يمكنك ركوب طائرة من هنا إلى (كلونكاري)..
إنها تقلع مرتين أسبوعيا.. ومن هناك تركبين طائرة إلى (ويلزتاون)..
شكرتها (جان) بحرارة على عونها.
في اليوم التالى حجزت مقعدا إلى (كلونكاري)، وأرسلت لـ (جو) برقية تقول فيها إنها آتية..
وأرسلت لمحاميها خطابا تسأله أن يرسل بعض المال إلى مصرف (ويلزتاون)..
وانتظرت يومين في (أليس)..
في هذا الوقت أحبت المدينة كثيرا، وأشعرها الرحيل بالأسى الشديد..
كانت (كلونكاري) أصغر من (أليس).. وقد ظلت هناك ليلتين قبل أن تقلع الطائرة إلى (ويلزتاون)..
في النهاية وصلت إلى (ويلزتاون) لتصاب بخيبة أمل.. فلم يكن (جو) هناك.. ولم يكن حتى في (ميدهيرست).
لقد سافر إلى (إنجلترا) ولن يعود قبل شهرين..

☆ ☆ ☆

16- جوهارمان..

الآن على (جان) أن تقرر ما ينبغي عمله..
هل تبقى وتنتظر حتى يعود (جو)؟
لماذا ترغب في رؤيته؟
لقد كانت تبرر لنفسها الأمر، بأنها تريد الاطمئنان عليه.. وتعرف ما إذا كان بحاجة إلى عون.
الآن هي تعرف أنه بخير ويستطيع العمل.. فهل ثمة سبب آخر يجعلها بحاجة إلى رؤيته.
هناك سبب واضح، هو أنها لم تلق قط شخصا أحبته مثل (جو).. وحينما كانت تعتبره ميتا لم ترد أن تتزوج.
الآن تعرف أنه حي وغير متزوج.. وفي قرارة نفسها كانت تتمنى أن تكون زوجته.. وعرفت أنه لن يرفض..
وقررت أن تراه في (ويلزتاون)..
بقيت في (ويلزتاون)، وسمعت كثيرا عن المدينة وسكانها.
كان هناك مائة وعشرون شخصا فيها.. وبها متجر واحد وبار واحد يبيع الجعة للرجال فقط..
كانت مكانا مملا للنساء، خاليا من فرص العمل للبنات، اللواتي كن يتركن البلدة بمجرد أن يكبرن نوعا..
وأيقنت (جان) أنها لن تكون سعيدة هاهنا، ولو تزوجت (جو) فهي تتمنى لو تعيش في أي مكان آخر.
ربما يتمني (جو) أن يرحل لكن المشكلة هي أن عمله ممتاز كمدير في مزرعة (ميدهيرست)، ومن العسير أن يجد وظيفة كهذه لو عاد إلى (أليس) أو (أديلين)..
صارت قلقة، وراحت تفكر في أنها قارفت خطأ جسيما.

ربما كان خيرا لها أن تعود إلى إنجلترا..
هنا حدث شيئان جعلاها تزمع البقاء..

☆ ☆ ☆

أولا: تلقت خطابا من محاميها يقول لها إن (جو) في إنجلترا يبحث عنها.
لقد وجد خالتها في (ويلز) وقد أعطته عنوان محامي (جان)..
وهو ذا (جو) الآن في طريقه إلى (أستراليا)..
جعل هذا الخطاب (جان) سعيدة كما لنا أن نتصور..
لقد قطع (جو) كل المسافة إلى إنجلترا ليجدها.. ولربما يتزوجها.. لكنها احتفظت بمقتها لـ (ويلزتاون)..
فلم تكن ترغب الحياة فيها.
كانت ترغب الحياة في مدينة مثل (أليس).

☆ ☆ ☆

الشيء الثاني: حدث حينما جاء إلى الفندق رجل يحمل حزمة من جلود التماسيح.. وهنا واتتها فكرة لا بأس بها.
يمكن أن تستعمل مالها لتبني ورشة في (ويلزتاون).. بها تصنع أحذية من جلود التماسيح، وتبيعها في إنجلترا..
ستحتاج لعديد من الفتيات لتصنيع الأحذية..
ولتكونن هذه وظيفة ملائمة للفتيات متى أنهين دراستهن..
ربما يقنع هذا الفتيات بالإقامة في (ويلزتاون) بعد الزواج.
ستحتاج الفتيات إلى مكان لإنفاق المال..
يمكنها إذن أن تفتتح بار لبن تقدم فيه (الآيس كريم) والمشروبات الخفيفة والفواكه الطازجة..

عندها تغدو (ويلزتاون) مكانا أجمل..

☆ ☆ ☆

بدأت (جان) إعداد خططها للورشة وبار اللبن.. وقضت أسبوعين في (ويلزتاون).. ثم اتجهت إلى (كيرنز) وكتبت ثلاث خطابات..
الخطاب الأول كتبته لـ (جو)..
قالت له: إنها في (كيرنز) وإنها تريد أن تراه.. وأرسلت الخطاب إلى شركة الملاحة في (تاونزفيل).. هكذا سيتلقى الخطاب فور وصوله إلى اليابسة..
الخطاب الثاني لمحاميها..
طلبت فيه أن يرسل لها خمسة آلاف جنيه إسترليني لزوم بناء الورشة وبار اللبن.
الخطاب الثالث لمستر (باك) في (لندن)..
قالت فيه: إنها تريد تصدير أحذية من جلد التمساح له.. فهل يقبل أن يبيعها لها في (إنجلترا)؟ ويكون عميلها..
بعد ثلاثة أسابيع وصلتها برقية من (جو)..
سيصل إلى (أستراليا) بالطائرة غدا..

☆ ☆ ☆

شعرت بتوتر شديد.. وهرعت إلى المطار لتلقاه..
تعرفته فورا.. لم يكن قد تغير، لكن خطواته كانت متصلبة نوعا لم يتعرفها هو.. ففي (الملايو) كانت ترتدي الثياب المحلية.. وكانت تختلف كثيرا عن المرأة الجميلة الأنيقة الواقفة عند البوابة.

نادته (جان) فتعرفها بصعوبة.. وابتسم..
قال لها:
- مرحبا (جان).. لقد عبرت نصف الكرة الأرضية بحثا عنك..
ضحكت.. وهتفت:
- هأنذا أخيرا.. والآن اذهب وأحضر متاعك ريثما أستوقف سيارة أجرة..
وجلسا في شرفة الفندق..
سألته:
- لماذا ذهبت إلى إنجلترا يا (جو)؟
قال لها:
- لقد كسبت تذكرة اليانصيب الأولى.. هكذا حصلت على المال.. ثم عملت في (تاونزفيل)..
هنا قابلت قائد طائرة، هو الذي طار بك من (كوتا بارو) في نهاية الحرب.. وأخبرني أنك لم تتزوجي..
- لم أفعل..
- لم أكن أعرف.. فقد كنت دوما تحملين رضيعا على ذراعك.. وحسبته طفلك.. ولكن لم جئت (أستراليا)؟
حكت له عن (كوالاتيلام).. وكيف عادت إليها كي تهدي بئرا للقرويين، وكيف أخبرها حفار البئر بنجاة (جو)..
عندها قررت أن تأتي لتراه..
ثم سألته:
- لم أمر الكابتن الياباني جنده بإنزالك من على الشجرة؟
قال لها:
- لست متأكدا.. كان قد جاء ليراني في المساء..
وسألني ما إذا كنت أريد شيئا قبل أن أموت.. إن رغبات المحتضرين مقدسة في اليابان.. طلبت منه أن يجلب لى دجاجة

وزجاجة جعة.. وبعد ساعة عاد مع رجاله، فقد عجز عن العثور على الجعة.. ولما كان قد وعدني فإنه لم يسمح لى بالموت.. وأمر الجند أن يفكوني ويأخذوني إلى المستشفى..
قالت (جان) بنعومة:
- أنا آسفة على هذا الوقت المرير.. تسعدني عودتك..
- دعينا لا نتحدث عن هذا.. كم ستبقين هنا؟
قالت في هدوء:
- وقتا طويلا.. أريد أن أجعل من (ويلزتاون) مدينة مثل (أليس).
وتزوجا بعد هذا بستة أشهر..
عملت (جان) بجد حتى أنشأت الورشة، ووافق مستر (باك) على أن يكون عميلها.. وبعد أربعة أشهر أرسلت له أول صندوق من الأحذية.
أما بار اللبن فنجح منذ افتتاحه..
وقبل أن ينصرم العام بني (جو) و(جان) حمام سباحة ومحلا لتصفيف الشعر.
لقد تحقق حلم (جان).. وتدريجيا صارت (ويلزتاون) مدينة مثل (أليس).
وبعد ثلاثة أعوام صار في المدينة أربعمائة نسمة..
وبدأ القوم يتحدثون عن بناء طريق من (كيرنز) وبناء مستشفى..
أما (جو) فظل يعمل في المزرعة، وتزايد عدد الماشية.. وسرعان ما اشترى المزرعة من صاحبها بما ادخره من مال.
وعاشت (جان) في هناءة مع زوجها وأطفالها في المدينة التي تعلمت أن تحبها..
مدينة مثل (أليس).
نيفيل شوت
1950

☆ ☆ ☆

مدينة مثل أليس

العام 1940.. اليابان تدخل الحرب إلى جوار ألمانيا، وتكتسح قواتها (الملايو).. هذه قصة عن مجموعة من النساء والأطفال وقعوا في قبضة غزو ياباني لا يرحم.. قصة عن حدود الاحتمال البشري وفظاعة الحرب وبشاعة الموت.. إنها قصة عن الحب الذي لا يقهره الرصاص...

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]
(جايس) هو اختصار لكلمة Japanese أي (اليابانيون).. وكان الحلفاء يستعملونه في الحرب.. كما كانوا يسمون الألمان باسم (فريتزات).

[←2]

اسم مدينة لكن يمكن ترجمته بـ (الينابيع).

روايات عالمية للجيب 26



الحزاز

قصة : جون ويندهام
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (26)

الحــزاز

بقلم: جون ويندهام.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدِّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

(جون ويندهام) هو كاتب من كتاب الخيال العلمي المرموقين.. مولود في انجلترا عام 1903، وعاش في (برمنجهام) حتى عام 1911 ثم انتقل إلى (بيدلز) عام 1918.. وامتهن الكثير من الأعمال، بما فيها الفلاحة والقانون والدعاية والإعلان، ولم يبدأ كتابة القصص القصيرة بغرض الكسب إلا عام 1925..
كتب عددًا كبيرًا من القصص بعضها بوليسي، حتى نشبت الحرب العالمية الثانية.. فصار جنديًا في الدفاع المدني..
وبعد الحرب أزمع (ويندهام) أن يكرس قلمه لذلك الفن المسمى بـ (الخيال العلمي)، وقدم لنا أعمالًا حازت شهرة لا بأس بها:
- يوم الأشجار: عن مستقبل كابوسى تحكم فيه الأشجار العملاقة الأرض.
- صحوة الكراكين: عن قوى الشرّ التي تتحرك من مكمنها في أعماق البحر.. وعنوان القصة مأخوذ من قصيدة لـ (تنيسون).
- بذور الزمن: عشر قصص مثيرة فريدة في طرازها.
- طيور وقواق (ميدويتش): قدّمت في فيلم اسمه (قرية الملاعين).
- تشوكي: قصة عن صبي يُدعى (ماتيوز) يعيش علاقة متوترة مع صبي في خياله يُدعى (تشوكى).. وسرعان ما تتحول العلاقة إلى شيء مخيف..
- مشكلة مع الحزّاز: وهي القصة التي نقدمها لك اليوم، وقد كتبها عام 1960.
سنترك لك الرواية والحكم عليها.. لكن - قبل أن نفترق - نقول إن المؤلف توفي في (مارس)1969، بعد ما أضاف الكثير إلى أدب

الخيال العلمي.. وإن كنت لم تسمع باسمه من قبل فلن تنساه بعد قراءة هذه الرواية..

د. أحمد خالد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- كان الوداع جميلًا..

الجوقة كلها ترتدي اللون الأبيض، وتنشد بشجن مرهف كأنما هي أحزان الملائكة.. وحين انتهى الغناء ساد الصمت المطبق في الكنيسة المزدحمة، وفي الهواء انتشر عبق آلاف الأزهار يتموج في عذوبة.
فوق التابوت كان هرم صغير من الزهور.. بينما وقف الحرس في جوانب المكان بثيابهم الرسمية المصنوعة من حرير أرجواني، واعتمروا قبعات ذهبية على الرءوس، ووقفوا كأنهم منحوتون..
اجتاز الأشبين المكان في صمت.. ليصعد الدرجات الأربع إلى المنبر المنخفض، وبرفق وضع كتاب الصلوات أمامه.. وقال:
- أختنا الحبيبة (ديانا).. عملها الذي لم يتم والذي لن تتمه أبدًا.. سخرية القدر ليست عبارة لائقة.. التسمية الصحيحة هي إرادة الربّ.. الربّ يعطي ويأخذ.. ولو أخذ منًّا شجرة الزيتون فهو من منحنا ثمارها الناضجة.. وعلينا أن نقبل... وعاء لإرادته.. مخلصة لأهدافها.. غيرت تاريخ البشرية.. خادمتك (ديانا)..
وتلاقت أعين الجمع.. آلاف النساء وعدد لا حصر له من الرجال، ينظرون إلى النعش.. بضع زهور سقطت فوق الجثمان.. ثم انغلق الغطاء، وبدأ الأرغن يعزف بنعومة، وأصوات الجوقة تعلو..
وانزاحت الستائر عن جانبي التابوت..
تعالى صوت النشيج مع حفيف المناديل الورقية الصغيرة..
وابتعدت (زيفاني) و(ريتشارد) عن أبيها.. كان قد صار على بعد بضعة أمتار خلفها.. هناك حيث وقف النساء حوله فبدا أطول

من حقيقته.. ووجهه الوسيم لا يدل على تعبير ما.. بدا مرهقًا لا أكثر، غير شاعر بما يدور حوله..
وفي الخارج كانت هناك مئات من النسوة ممن لم يستطعن دخول الكنيسة.. كانت عبراتهن تنهمر، وقد وضعن الزهور التي أحضرنها كبساط أبيض على جانبى الباب..
وكان هناك رجل يحمل باقة من زهور السوسن تم ربطها بشريط من الحرير الأسود..
وفوق الحصى مشت (زيفانى) تبغى لقاء (ريتشارد) بعيدًا عن الزحام.. كانت عيناها دامعتين ولكن - برغم ذلك - تلاعبت بسمة ما على شفتيها، وقالت:
- يا لـ (ديانا) العزيزة! فكر كم كان هذا سيسليها..
ومسحت عينيها بمنديلها.. وقالت:
- تعال لنجد أبي ونخرجه من هنا..
لكنها كانت جنازة جميلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي جريدة (نيوزركورد) جاء التالي:
- احتشدت نساء من جميع الطبقات ومن كل أرجاء (بريطانيا) كى يعبرن عن احترامهن الأخير، ووصلت أخريات في الفجر كى يلحقن باللواتى عسكرن طيلة الليل خارج المقبرة.
وفي النهاية وصل الموكب المحاط بالزهور، واندفع زحام الناس عبر صفوف رجال الشرطة، وانهمرت الدموع من عيون المحتشدين الذين علا صوت نشيجهم.
ولم تر (لندن) هذه العلاقة الحميمة بين امرأة وامرأة أخرى قط وبما أن جريدة (نيوزركورد) كانت تهتم دومًا بالتأكد من أن قراءها يفهمون المكتوب؛ فقد كتبت ملحوظة للتفسير:

- نشيج: بكاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الأول

-1-

تم إخلاء القاعة، ووضع أحدهم بعض النباتات دائمة الخضرة هنا وهناك، وخطر لأحدهم أن بعض الزينة قد تجلب السرور في المكان..

وفي ركن المكان تم رصّ الموائد جنبًا إلى جنب.. وفوقها مفرش أبيض وضعت عليه أطباق الشطائر والكعك وأقداح عصير الليمون والبرتقال ومزهريات الورود..

في الواقع بدت القاعة كلوحة متحركة..

كان هذا هو حفل نهاية الصف الدراسي لمدرسة (سانت ميرين) الثانوية. ووقفت مس (بنبو) مدرسة الرياضيات تصغي لـ (أوروراتريج) تثرثر عن ذكاء كلبها الخارق، بينما عيناها - عينا مس (بنبو) - تجولان في المكان بحثًا عمن يجب أن تتحدث معهم خلال الأمسية..

وفي نهاية القاعة وقفت (ديانا براكلى) وحدها..

انتهزت مس (بنبو) لحظة توقف في حديث مس (تريج) الذي لا ينقطع؛ كى تعتذر لتنسحب..

وعبرت القاعة متجهة نحو (ديانا) وهي ترمقها كأنما لم ترها من قبل.. لم تعد (ديانا) طالبة كالتي تعرفها لكنها صارت حسناء ناضجة.

كانت ترتدي ثوبًا أزرق سماويًّا لا يمكنك ملاحظته ما لم تدقق فيه.. ولم يكن غالي الثمن.. مس (بنبو) متأكدة من ذلك.. لكن كان هناك نوع من الذوق فيه.. إن (ديانا) تملك موهبة تذوق

الثياب، وهذا يجعل الثوب ذا الجنيهات الثلاثة يبدو كأنما هو بعشرين..
ولشد ما احترمت مس (بنبو) هذه الموهبة..
إن (ديانا) ليست جميلة.. لكن الجميلات يشبهن زهور (مايو).. كثيرات جدًّا.. وما من أحد يجرؤ على أن يسمى (ديانا) جميلة..
إنها في الثامنة عشرة من عمرها.. طويلة.. نحيلة.. سوداء الشعر.. لها أنف كلاسيكي جميل وفم مخضب بأحمر الشفاه.. فقط كمية أحمر الشفاه التي تناسب الموقف..
لكن أهم شيء في وجهها هو عيناها الرماديتان.. العينان اللتان يسحرك هدوؤهما وثباتهما..
كانت مس (بنبو) تعامل (ديانا) كعقل أكثر منها كوجه جميل..
وأثار هذا الجمال الطارئ دهشتها.. لكنها سُرّت له لأن الجمال - في المدرسة الثانوية - هو عقبة تحول بين التلميذة والنجاح الدراسي..
وهنأت نفسها لأنها أعانت تلميذتها على النجاح.. لكن في قرارة نفسها كانت تدرك أنها لم تعنها كثيرًا.. ف (ديانا) - يجب الاعتراف بذلك - كانت تحتاج إلى عناية بسيطة جدًّا، فهي لا تعبأ بالإغراءات، كأن الإغراءات لم تخلق من أجلها قط..
كانت تنظر إلى هذه الأمور نظرة عابرة.. كمسافر مثقف يعبر بلدًا مثيرًا للاهتمام.. لا أكثر..
لقد كافحت (ديانا) واستحقت النجاح..
- مساء الخير يا مس (بنبو)..
- مساء الخير يا (ديانا)..
- أردت أن أهنئك.. إن هذا مذهل.. كنا نعرف أنك ستفعلين ذلك..

- شكرًا.. لكن هذا لم يكن بجهدي وحدى.. ولولا معونتكم لي، وإخباركم لي بما يجب أن أفعله..
- لكننا مدينون لك يا (ديانا).. لقد حصلت بجهدك على منحة دراسة جامعية.. وهذا يعتبر مجدًا للمدرسة.. ولابد أن أبويك سعيدان جدًّا
قالت (ديانا) بدرجة ما من التحفظ:
- إن أبي سعيد جدًّا.. فهو يحب فكرة دخولى (كامبريدج)، لأنه كان يتمنى ذلك لنفسه لكنه أخفق.. وما كان ليستطيع إدخالى (كامبردج) على نفقته الخاصة.. وكنت سأغدو - من دون تعليم جامعى - قطعة قرميد أخرى في الجدار..
ابتسمت مس (بنبو) للتشبيه، وقالت:
- بعض قطع القرميد تؤدي عملها جيدًا..
- طبعًا.. ولكن حين يتمنى المرء شيئًا ما، يغدو عمل أي شيء آخر نوعًا من الفشل..
سألتها مس (بنبو):
- وما رأي أمك؟
نظرت لها (ديانا) بعينيها الرماديتين اللتين تريان الأفكار ذاتها.. وقالت:
- إنها فخور بنجاحي.. تحاول أن تسعد بذلك.. ولا أدري لماذا تعتقد الأمهات أن جمال الفتاة أكثر احترامًا من ذكائها؟
قالت مس (بنبو) بحكمة:
- إن عالم (الذكاء) هو كتاب غامض بالنسبة لأكثر الأمهات، حتى إنهن يرتبن فيه.. إنهن يعتقدن أنهن حجة في عالم (الجمال).. وأنهن يفهمنه ويمكنهن إسداء العون فيه..
وافقت (ديانا).. فأردفت مس (بنبو):

- إن الآباء يتوقعون من الأبناء أن يخضعوا لنمط مفهوم لهم.. وحين تختار ابنة (ست بيت) عادية مهنة لا تفهمها أمها.. فكأنما تنتقد أمها ضمنًا.. وتقول لها: إن الحياة التي تعيشينها يا أمي لا توائمنى..

سألتها (ديانا):

- هل تعنين أن كل أم ترغب في أن تفشل ابنتها في وظيفتها، لتثبت لها أنها كانت على حق؟

- لا تندفعى يا (ديانا).. لا أعتقد ذلك..

ثم سألتها لتغير الجوّ:

- إلى أين أنت ذاهبة في الإجازة؟

- إلى (ألمانيا).. كنت أفضل (فرنسا).. لكن (ألمانيا) مفيدة أكثر..

ثرثرتا بعض الوقت، ثم فارقتها مس (بنبو) متمنية لها الخير في حياتها الجامعية القادمة..

وابتعدت بضع خطوات لتجد نفسها أمام (برندا واتكنز).. هنأت (برندا) التي كان خاتم خطبتها الرقيق يفوق المنح الدراسية لجميع جامعات الأرض..

ومن وراء ظهرها سمعت (ديانا) تقول لإحداهن:

- إن كوني امرأة ولا شيء آخر يضايقني كمهنة بلا مستقبل.. لا أمل في الترقية.. ومن العسير قبول هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت مسز (براكلى)، وقد بدت عليها الحيرة بشأن ابنتها (ديانا):

- أنا لا أفهم.. من أين اكتسبتْ هذا؟

قال زوجها:

- حسن.. لم تكتسبه مني.. أحيانًا كنت أتمنى لو كان هناك بعض المخّ في أسرتنا لكن - على قدر علمى - لم يحدث هذا قط.. على

كل حال لا يهمّ من أين جاءت به..
- ليس الذكاء ما أفكر فيه.. إن أباها يملك بعض المخّ حتمًا وإلا ما نجح كموثق عقود.. لكنني أتحدث عن حبها للاستقلال.. عن أسلوبها في التساؤل الدائم عن أشياء لا تستحق تساؤلًا..
- وتجد إجابات غريبة..
- إنه نوع من القلق.. كل الفتيات قلقات.. لكن أمر (ديانا) غريب..
قال زوجها:
- لا فتيان.. لا مشاكل يا عزيزتي..
- ربما.. لكن الأمر سيكون طبيعيًّا أكثر خاصة مع جمالها..
- لو أرادت أن تصادق الفتيان لاستطاعت.. كل ما عليها هو أن تتعلم كيف تقهقه، ولا تقول أشياء تفزعهم.. لكنهم يعتقدون أنها مغرورة.. والناس يقسمون الفتيات إلى ثلاثة أنماط: الرياضية والمقهقه والمغرورة.. ولا يعرفون نمطًا رابعًا..
إن مدرسيها في المدرسة يتوقعون لها مستقبلًا (لامعًا).. (لامعًا) هي الكلمة التي استخدموها وهي لا تعني (طبيعيًّا) بالضرورة..
- من المهم بالنسبة لها أن تكون سعيدة أكثر من أن تكون لامعة..
قال لها:
- معنى كلامك أن الناس غير اللامعين هم أناس سعداء.. وهذا قياس خاطئ..
قالت له:
- إن أصغر خالاتي - وتدعى (آني) - لم تكن على ما يُرام..
- لماذا؟
- لقد دخلت السجن عام 1912 - لعله 1913 - لأنها أطلقت ألعاب نارية في ميدان (بيكاديللى)..

- ولماذا فعلت ذلك بحق السماء؟
- لا أدري.. لقد ألقت بها بين أرجل الخيول، وتعطل المرور تمامًا.. ثم تسلقتْ لسطح حافلة وراحت تصرخ: حق التصويت للنساء.. حتى أخذوها للسجن واحتجزوها شهرًا..
بعد هذا رمت قطعة قرميد من النافذة على شارع (أوكسفورد)، و سجنت شهرين.. وحين خرجت نجحت في إلقاء زجاجة حبر على مستر (بلفور).. ثم كادت تحرق جناحًا كاملًا في سجن (هولواي)..
- إنها امرأة مجيدة حقًّا - خالتك - لكن ما معنى هذا؟
- أريد القول إن (ديانا) ورثت جنونها من خالتي..
قال لها:
- ليس هذا الحكم من شأننا.. لكني سعيد وفخور بها.. منذ أن كانت طفلة، كان يؤرقني أنني لا أستطيع إرسالها لمدرسة من الدرجة الأولى.. وحين توفى والدك حسبت أننا سنغدو قادرين على إقامة أودنا.. ذهبت إلى منفذي وصيته وشرحت الأمر.. أظهروا لى أسفهم لكنهم كانوا حازمين جدًّا.. سيظل إرث (ديانا) تحت الوصاية حتى تبلغ سن العشرين، ولن يُمسّ.. لن يُنفق منه مليم واحد على تعليمها..
- ولماذا لم تقل لي ذلك يا (هارولد)؟
- كان من الخطأ أن أخبرك أن أباك من القسوة بحيث لم يترك لنا شيئًا في وصيته.. وبرغم ذلك ترك لابنتنا أربعين ألفًا من الجنيهات مقيدة في أكثر الأعوام حرجًا لها.. لقد فعلت (ديانا) ما لم أستطع أنا عمله لها.. وما لم يفعله أبوك لها..
وتذكر حياته.. داره المتواضعة.. الكفاح اليومي للحصول على راتب هو أقل دائمًا من الأسعار..
سألها:

- أما زلت غير نادمة؟
ابتسمت وقالت:
- بالعكس يا عزيزي.. لست نادمة بتاتًا.. لم أكن أشعر بسعادة أكثر لو ظفرت بمنحة جامعية مجانية..
قال لها في سرور وهو يقتادها لتجلس على الـ (شيزلونج):
- ليس كل الناس سواء يا عزيزتي.. كم واحدًا في هذا الشارع يمكن أن يقول بلا تردد: لست نادمًا؟ إن (ديانا) لا تشبهك ولا تشبهني.. الله وحده يعلم من تشبه..
- لكنها لا تعرف شيئًا عن إرثها.. أليس كذلك؟
- تعرف أن هناك مالًا.. لكنها تظنه مبلغًا على غرار ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه.. ليس شيئًا كبيرًا..
بعد صمت سألته:
- (هارولد).. أعرف أنني أبدو حمقاء.. لكن ماذا يفعل (الكيميائي) بالضبط؟ لقد شرحت لي (ديانا) أن عمله يختلف عن عمل الصيدلي.. وقد سرني هذا..
- ولا أنا أعرف يا عزيزتي.. ربما كان علينا أن نسألها ثانية.. لقد بلغنا المرحلة التي ينبغي أن نعرف الأشياء فيها من ابنتنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن آل (باركلى) بحاجة إلى معرفة كنه (الكيمياء).. لأن (ديانا) كانت قد اتجهت إلى دراسة علم (الكيمياء الحيوية).. الأمر الذي يستحيل أن تفهم أمها كنهه..
وكان سبب هذا التبدل يكمن في محاضرة عنوانها (بعض النواحي الارتقائية في البيئات حديثة التغير).. ولم يبدُ الموضوع شائقًا، حتى إن (ديانا) لم تفهم قط السبب الذي جعلها تحضرها.. إلا

أنها فعلت.. وهكذا خطت خطوة كان لها أن تحدد مسار حياتها..
كان المتحدث هو (فرانسيس ساكسوفر).. دكتور في العلوم.. وأستاذ زائر للكيمياء الحيوية في جامعة (كامبريدج)..
نشأ في أسرة من جنوب (ستافورد شاير).. أسرة لم تكن قط مرموقة، حتى اكتسبت جينًا ما للمجد العلمي في منتصف القرن الثامن عشر.. وكان هذا الجين مناسبًا لعصر الثورة الصناعية..
لهذا ابتكر أجداد (ساكسوفر) أساليب جديدة لاستخدام البخار وزيادة الإنتاج، وكونوا ثروة لا بأس بها..
وفي النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت روح الإنجاز العلمي في (فرانسيس).. فترك الاهتمامات الاقتصادية لأخويه وتفرغ للعلم..
وكانت صحة أبيه قد تدهورت إلى حدّ كبير.. لذا ترك العمل لابنيه الكبيرين، وكرس وقته لابتكار طرق لاستلاب خزينة الدولة..
أما عن (فرانسيس) فقد أنشأ مؤسسة للبحث العلمي خاصة به.. وحاول إثبات خطأ ما يظنه العامة من أن الاكتشافات مقصورة على الباحثين المجتمعين، العاملين في شركات ضخمة لها تنظيم شبه عسكرى..
أطلق على مؤسسته اسم (دارهاوس).. وسرعان ما استرعت اهتمام الشركات الكيميائية الكبرى، وأثارت الحسد بين زملائه القدامى..
ومن الغريب أن (ديانا) لم تعد تذكر تفاصيل المحاضرة.. فقط تذكر عبارة انطبعت في ذهنها: الشخصية المهمة في الماضي كانت المهندس.. واليوم هي عالم الطبيعة.. لكنها في الغد ستكون الكيميائي الحيوي..

كان (ساكسوفر) لم يتجاوز الأربعين من العمر.. طوله ستة أقدام.. له شعر أسود بدأ يشيب على الفودين.. وله حاجبان كثان يعطيان انطباعًا بأن عينيه عميقتان أكثر مما هما في الواقع..
وكان أسلوبه هادئًا مسترخيًا.. يتكلم ولا يحاضر.. ويستعمل أصابعه الطويلة المدببة ليوضح كلامه..
وأحست (ديانا) بأنها أخيرًا وجدت هدفًا لحياتها..
في النهاية تغيير دراستها إلى الكيمياء الحيوية..
وعندها.. المزيد من العمل الشاق..
وعندها.. درجة شرفية ما في الوقت المناسب..
وفكرت في أن تعمل في (دار هاوس).. عرفت أن عدد العاملين هناك كثير نوعًا.. وأغراها الكثيرون بالعمل في شركات كبرى.. فعملها في تلك الشركات لن يكون لامعًا، لكنه يعد براتب جيد واستقرار..
لكنها أصرّت على (دار هاوس)..
قالوا لها:
- إن (دار هاوس) أنتجت فيروسًا يمكنه أن يسبب العقم لذكر الجرادة.. هذا أمر واعد دون شك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- بالطبع أتمنى أن تنالى الوظيفة.. لكن ما هي هذه الـ (دار هاوس)؟
- إنها مركز بحوث خاص يديره مستر (ساكسوفر) يا أماه.. إنه منزل كبير ابتاعه الرجل منذ عشرة أعوام، ويعيش فيه مع أسرته، وقد حوّل الجزء الباقي إلى مكاتب ومعامل.. وأحال الاسطبل إلى أكواخ لسكني العاملين.. إنه بمثابة مجتمع..

- وهل ستعيشين هناك؟
- لو كنت سعيدة الحظ سأجد غرفة صغيرة هناك.. يقولون إنه مكان جميل.. لكنه يحتاج إلى العمل الجادّ..
- ما يقلقني هو معرفة ما يصنعون في هذا المكان..
- إنهم يصنعون أفكارًا يا أماه.. ثم يبيعونها للآخرين ليستعملوها..
- ولماذا لا يستعملونها هم؟
- ليس هذا عملهم.. فـ (دار هاوس) ليس مصنعًا.. سأقدم لك مثالًا: كانت لدي د.(ساكسوفر) فكرة عن الأرضة - النمل الأبيض
- التي تأكل المنازل والأثاث في المناطق الاستوائية..
- منازل؟
- نعم.. الأجزاء الخشبية فقط.. عندها كان المنزل ينهار.. وقد عكف العاملون في (دار هاوس) يبحثون عن سبيل للكفاح... وجدوا أن النملة تحوى في أمعائها نوعًا من الحيوانات الأولية مسئولًا عن هضم الخشب. فلو مات هذا الحيوان لعجزت النملة عن هضم (سليولوز) الخشب ولهلكت.. وقد توصل العلماء إلى مادة تقتل هذا الحيوان الأولى.. وأسموها مادة 91-AP، وجرى بيعها لبعض حكومات المناطق الحارة، ويحصل د. (ساكسوفر) على نسبة من كل علبة تُباع.. هكذا تجري الأمور.. وهذا ليس أكثر من مشروع واحد.. هناك كثير من المشاريع الأخرى..
ثم هتفت في مرح:
- والآن تعالى لأريك الثوب الذي نويت أن أحضر به مقابلة اليوم.. هلمى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-2-

لم تدر (ديانا) بحقيقة ما حدث..

فالثوب الذي أعدته للمقابلة كاد يفقدها عملها.. وليس هذا لعيب فيه بل العكس.. فهو مصنوع من الصوف الأخضر الذي يتلاءم مع لون شعرها، وكالعادة بدا أغلى ثمنًا حين ارتدته.

وقد قدمت شهاداتها العلمية لـ (ساكسوفر)، وكانت التوصيات بشأنها جيدة، وخطاب التقدم للعمل كُتب بأسلوب مؤثر..



وقد قدمت شهاداتها العلمية لـ (ساكسوفر) ، وكانت التوصيات بشأنها جيدة ، وخطاب التقدم للعمل كُتب بأسلوب مؤثر . .

لكن (ساكسوفر) كان قد تعلم الحذر من فترة إدارته لـ (دار هاوس)، لذا ارتاب في مظهرها، لأن أناقتها وجمالها ينذران

بالمتاعب.. وتدريجيًّا ستتحول مؤسسته العلمية إلى ناد صيفي، أو ناد للقلوب الوحيدة..
لهذا بدأت المقابلة غير ناجحة..
وعلى الغداء بدأت مخاوفه تتراجع.. فقد كانت تتحدث بذكاء وحيوية لمضيفها وزوجته، وراحت تناقش مع (بول) - ذى الاثني عشر عامًا – أمورًا مهمة مثل التاريخ المتوقع لحدوث غزو من المريخ.. كما راحت تتودد إلى (ستيفاني)..
في نهاية الغداء سأل امرأته (كارولين) حائرًا:
- ما رأيك؟ أترانا نقبلها أم أننا بهذا نسبب لأنفسنا المشاكل؟
قالت له:
- (فرانسيس) يا عزيزي.. يجب أن تكف عن افتراض أن هذا المكان يجب أن يعمل كآلة.. فلن يعمل.. وإذا ظننت أن واجبك هو وضع المتقدمات في مسابقة جمال عكسية - اختيار الأقبح - فهذا ليس واجبك.. إنها فتاة ذكية وغير معتادة.. فإن كانت تملك ما تبغي من علم فلا تتردد في قبولها..
وكذا فازت (ديانا) بالوظيفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وسرعان ما وجد زملاؤها في العمل - الذين حاولوا أن يجربوا فتنتهم - أنها لا تستجيب بتاتًا..
وقال أحد الكيميائيين بحزن:
- جميلة هي.. لكن غبية..
وقال أحد باحثي الأحياء:
- غبية؟ يا للسماء! وحتى لو كان هذا صحيحًا.. أهو عيب في المرأة؟
قال زميله:

- إنها تتكلم أكثر من اللازم.. لكنها تتكلم في الأمور الخاطئة..
وتدريجيًّا بدأت الزوجات والعازبات في مركز البحوث يشعرن بشيء من الراحة واسترخين أخيرًا.. إن الفتاة الجديدة (باردة) لحسن الحظ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واستقرت (ديانا) في (دار)، وبدأت تمارس عملها في نشاط أرضي عنها (ساكسوفر).. وأدرك أنها فتاة مهذبة جادة، وإن كانت تفضل الانفصال عن زملائها.. وكما قالت زوجته عنها في نهاية الشهر الثاني:
- إن هذه الفتاة معنا.. لكنها ليست معنا.. ثمة شيء غير عادي يتعلق بها.. إنها تبتسم للأشياء الخاطئة التي لا تستحق الابتسام.. ولسوف تدهشنا جميعًا عاجلًا أم آجلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-3-

ذات صباح - بعد ثمانية أشهر لها في المركز - كانت جالسة في المعمل أمام (الميكروسكوب).. فرفعت رأسها لترى (فرانسيس) على الباب وقد وقف ممسكًا طبقًا، وعلى وجهه تعبير من الألم..
قال لها:
- مس (براكلى).. إنه لاهتمام مشكور منك أن تتأكدي من أن (فيليشيا) لديها طعام الليل.. لكني سأكون لك ممتنًا لو حرصت على وضع طبقها في مكان بعيد عن حركة المرور في المستقبل.. هذه هي ثالث مرة أوشك فيها على أن أكسر رجلي بسبب هذا الطبق..
- آسفة يا مستر (ساكسوفر).. سأتذكر ذلك فيما بعد.. إن (فيليشيا) لم تشربه كما تعلم.. لربما أفزعتها العاصفة الرعدية أمس..
وأخذت الطبق من يده لتضعه على المنضدة، وقالت:
- سأتأكد من أن..
وهنا توقفت عن الكلام..
لاحظت أن اللبن بالطبق قد فسد منذ ليلة العاصفة.. لكن كانت هناك بقعة أقل من نصف بوصة تبدو مختلفة.. لم تحمض بعد..
- هذا غريب..!
- فيم كنت تعملين قبل أن تضعي هذا اللبن للقط؟
- تلك المجموعة الجديدة من نبات (الحزّاز)، التي أرسلها لنا (مكدونالد) منذ أسبوع..
بحثا عن شريحة نظيفة.. وأعدا مسحة من الطبق وضعاها على الشريحة.. ثم قربت (ديانا) عينيها من (الميكروسكوب) لتتأمل

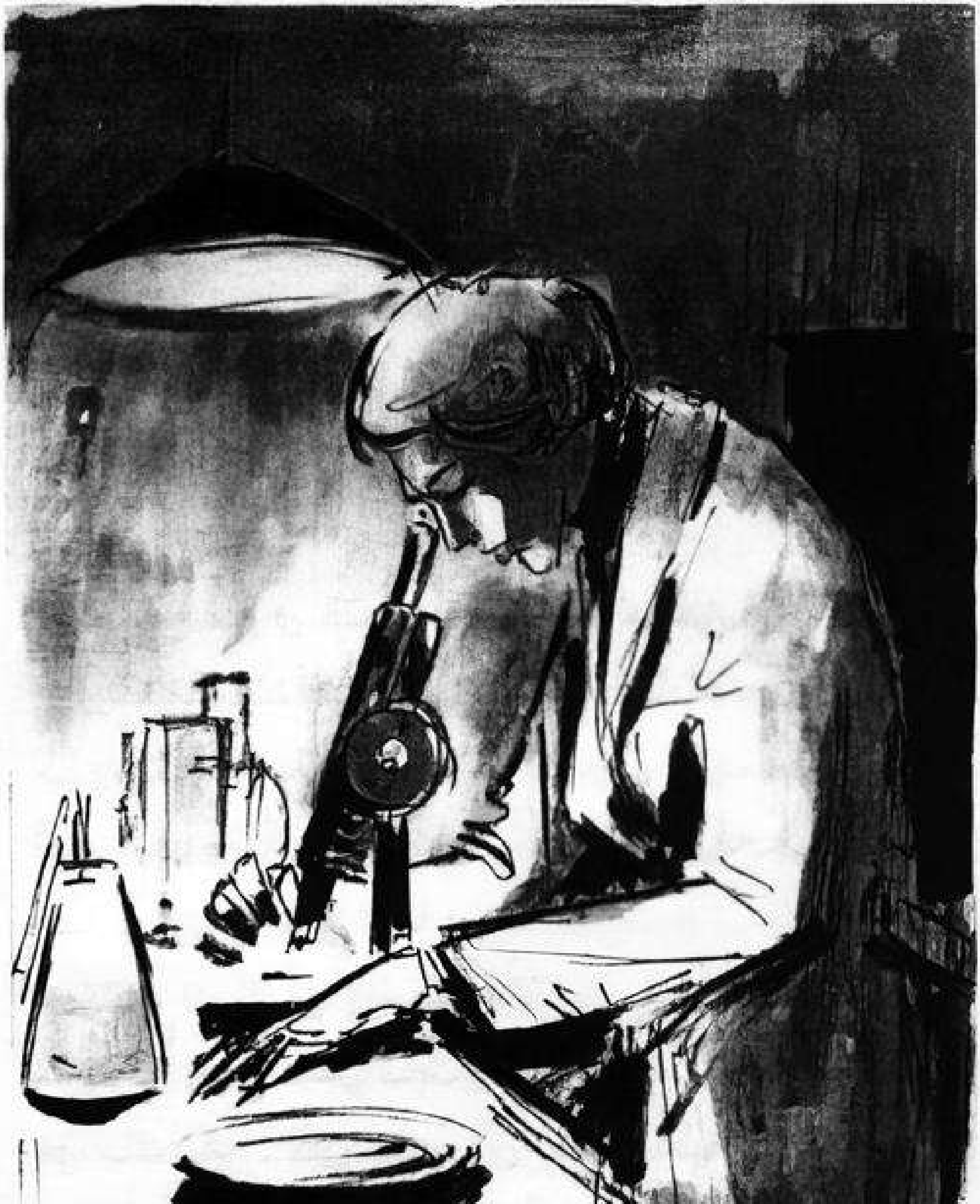
(الأوراق) الرمادية الخضراء المميزة.. ثم قالت وهي تتأمل بعض الأجزاء المتحللة:
- إنه من ذات مجموعة الحزّاز.. لقد أسميته مبدئيًّا (ليكنيس إمبرفكتوس)..
- أحقًا فعلت ذلك؟
- ليس هذا سهلًا كما تعلم..
- فلنتذكر أن الاسم مبدئي..
قالت:
- إذن سقط جزء من الحزّاز في لبن القط فمنعه من التخثّر.. هل يتعلق الأمر بمضاد حيوي؟
- ربما.. إن كثيرًا من الفطريات تفرز مضادات حيوية.. ليس هذا مستبعدًا.. لكن الاحتمال واحد في المائة أن يكون هذا المضاد نافعًا..
وتناول مرطبانًا فارغًا ملأه بـ (الحزّاز) ثم استدار لينصرف..
قبل أن يصل إلى الباب استوقفه صوت (ديانا):
- د. (ساكسوفر).. كيف حال زوجتك؟
استدار وتبدلت ملامح وجهه.. كأنما نزع قناعًا ليكشف عن الإرهاق بداخله.. هزّ رأسه ببطء وقال:
- يقولون في المستشفى إنها بخير اليوم.. هذا هو ما استطاعوا قوله، وأتمنى لو كان صحيحًا.. هي لا تعرف الحقيقة وتحسب أن الجراحة قد نجحت..
ثم استدار ليغادر المكان قبل أن تقول شيئًا..
كان الحزّاز معه.. وتلك آخر مرة تسمع عنه (ديانا) شيئًا لفترة طويلة.. فقد توفيت (كارولين ساكسوفر) بعد أيام..
وبدا كأن (فرانسيس) قد غاص في غيبوبة طويلة..

وصلت أخته الأرملة (إيرين) لتتولى شئون المنزل.. لكن (فرانسيس) بدا كأنما لا يلاحظها.. حاولت إقناعه بالخروج لكنه لم يفعل..
ظلّ يذرع المكان كشبح لمدة أسبوعين أو أكثر.. وأغلق على نفسه معمله وراح يعمل.. طعامه يُرسل له في المعمل، لكنه لا يمسه.. وقيل إنه يعمل في دستة أبحاث في ذات الوقت كأنه جُنَّ..
وحين كان يظهر بعد هذا كله؛ كان يبدو متباعدًا حتى إن أطفاله بدءوا يخافون منه.. وراح الجميع يتوقع له انهيارًا عصبيًّا..
لكن (فرانسيس) لم يصب بانهيار عصبي.. نجا منه بفضل إصابته بالتهاب رئوي.. وحين شفي منه بدا كأنما يستعيد ذاته القديمة..
ولم تحاول (ديانا) أن تتساءل عما أصاب الحزّاز..
كانت واثقة من أن المرطبان قد ضاع وقت وفاة (كارولين).. إلا أنها ذكرته بالأمر في الوقت المناسب..
وكان الوقت المناسب هو إحدى حفلات (السواريه) الشهرية التي كانت (كارولين) حريصة على إحيائها، لإذكاء الروح الاجتماعية لدى العاملين في مركز البحوث..
لقد تلقى المركز عينة نباتات جديدة من (ماكدونالد) الذي يجمع له العينات من أطراف الأرض؛ وبعد تناول المرطبات راح (فرانسيس) يثرثر مع رجاله.. وشكر (ديانا) على ما أبدته من لطف شمائل نحو طفليه..
هنا سألته عن عينة الحزّاز إياها..
سألت بلا مبالاة وتوقعت أن يقول إنه نسى الأمر.. لكنه - للحظة لم تفتها - بدا مذهولًا كمن باغته السؤال.. واستعاد هدوءه، لكن انطباع المباغتة ظل هناك.. قال لها بعد هنيهة:

- آه يا عزيزتي! إنني لمهمل.. كان عليّ أن أخبرك من قبل.. لقد اتضح أنه ليس مضادًّا حيويًّا بعد كل شيء..
واستدار ليتحدث مع شخص آخر...
لكن إجابته كانت غريبة.. لو قال لها إنه نسى الأمر برمته لكان هذا مقنعًا.. لكن العبارة التي قالها:
ليس مضادًا حيويًّا بعد كل شيء.. توحي بأنه يتجنب أن يقدّم إجابة مباشرة..
لماذا يتجنب (فرانسيس) الإجابات المباشرة؟
إنها زلّة لسان من رجل اعتاد ألا يكذب، ووجد أن عليه أن يجد كذبة سريعة ردًّا على سؤال مفاجئ..
ثم راحت تتأمل العبارة بدقة..
الفطر ليس مضادًّا حيويًّا.... أي أن الفطر أعطاه انطباعًا بأنه مضاد حيوي واتضح إنه ليس كذلك.. فماذا اتضح إذن؟
ثم كان هناك ترتيب قدرى آخر..
لقد أرسل لها قسم المخازن طالبًا أن تجرد ما لديها من خامات.. فبدأت تعد قائمة بها.. حين وصلت إلى بند الحزّاز توقفت قليلًا.. إن قسم المخازن سيقوم بالجرد خلال أسبوعين من الآن..
قاومت رغبة جامحة - لا إغراء - في أن تتجاهل ذكر الحزّاز في القائمة..
قامت بالتزوير دون شعور بإثم ولا ذنب.. كأنما تقوم بضرورة غير مستحبّة.. وهكذا لم يظهر طرد الحزّاز الذي أرسله (ماكدونالد) على الأوراق قط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي المراحل الأولى من أبحاثها على الحزّاز كانت لديها مزية على (فرانسيس).. فهي تعرف من البداية أنها لا تعمل على مضاد حيوي..
كانت تبحث عن شيء (يبدو) كمضاد حيوي، لكنه ليس كذلك.. وبعد أعوام قالت:
- لم يكن الأمر وهمًا ولا تخمينًا.. لقد بدأ كل شىء باستنتاج منطقي.. وكان سهلًا ألا ألاحظ الأمر وأمشي في مسالك خاطئة لمدة أشهر.. لهذا كان في الموضوع جزء من الحظ كبير.. وحين راجعت نتائجي مرارًا لم أصدق ما أراه..
لقد برهن الجزء العقلاني مني على الأمر وفشل في نفيه.. لهذا كان يجب أن أصدقه.. لكن الجزء الآدمي مني لم يستطع أن يقبل الأمر.. مثلما يجد الإنسان العادي صعوبة في قبول المسلمات العلمية.. وهذا هو ما جعلني أتصرف بغباء..
كان كشفًا علميًا مهمًا.. وقد تمكنت من عزل العامل الأساسي في الحزّاز، واستغرق هذا أكثر وقت فراغي حتى رحت أمضى الجانب الأكبر من الليل في هذا العمل، وصارت زياراتي لدارى أقل..



واستغرق هذا أكثر وقت فراغى ، حتى رحت أمضى
الجانب الأكبر من الليل فى هذا العمل ..

كانت (ديانا) تجرى تجاربها على الفئران، واكتشفت مجموعة الحيوانات التي كان (فرانسيس) يجرى أبحاثه عليها.. وبالتالي

أمكنها إجراء مزيد من المقارنات، وعند الخريف صارت نتائجها مؤكدة تمامًا..
لم يبق سوى التجريب المنتظم ليعطي قياسًا أدق..
وعندما بدأت تسترخي أمكنها أخيرًا أن تقوِّم ما وجدته.. لقد كان (فرانسيس) يسبقها بستة أشهر.. وبالتأكيد هو يعرف الآن ما تعرفه هي وأكثر.. لكنه لم يذكر حرفًا عما وجده..
كانت تدرك أن وضعها القانوني خطأ تمامًا.. فكل ما تجده وهي تعمل تحت سقف معمل (فرانسيس) هو ملك له.. كان عليها أن تطلعه عليه..
لكن من الناحية الأخلاقية لا تثريب عليها.. هى التي أسقطت الفطر في اللبن.. هي التي لاحظت ما حدث للبن، ولولاها لما تم اكتشاف أي شيء..
وتدريجيًا بدأت تدرك أنها تمسك بأحد أكثر الأسرار التهابًا في العالم.. والآن فقط تفهم إن (فرانسيس) لا يعرف ما يفعله به..
وفيما بعد قالت:
- كان أكبر خطأ قارفته هو أنني لم أطلع (فرانسيس) على ما وجدت.. لقد كان رئيسي وكنت عصبية متوترة.. لهذا لم أجرؤ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي عيد ميلادها الخامس والعشرين وجدت أنها ثرية، إذ ظفرت بالإرث الذي تركه جدها لها..
ابتاعت بعض الثياب من بيوت أزياء ما كانت لتجسر على دخولها.. واقتنت سيارة صغيرة.. لكنها لم تنتو أن تفارق (دار)..
وقالت لها أمها إنها غدت ثرية بما يكفى كى تشتري لنفسها زوجًا..
فردت عليها:

- لماذا يا أماه؟
- أنت في الخامسة والعشرين.. والزمن لا يبقى ساكنًا.. ستكونين في الثلاثين قبل أن تدركي هذا.. ثم تبلغين الأربعين.. إن الحياة ليست طويلة.. ستعرفين هذا حين تنظرين لها من الطرف الآخر..
- ولكني لا أريد أسرة يا أمي.. هناك أسر كثيرة بالفعل..
وبعد أيام طلبت مقابلة (فرانسيس)..
أخبرته أنها ترغب في الرحيل قبل نهاية (أغسطس)..
تنهد (فرانسيس).. نظر ليدها اليسرى وبدا مندهشًا.. ثم قال:
- ليس السبب التقليدي..
رأت نظرته، فقالت:
- لا..
- كان يجب أن تنتحلي هذا السبب.. فهذا كان سيعطيني فرصة لا بأس بها لمناقشتك..
- لا أبغى مناقشة..
- إن عليّ أن أناقش الأفراد الممتازين في مجموعتي.. وأن أقنعهم بالبقاء.. والآن ماذا حدث؟ ماذا فعلناه أو لم نفعله؟
قالت له إنها ورثت مالًا، وترغب في القيام برحلة حول العالم.. قال لها إنها فكرة طيبة.. هكذا يمكنها متابعة عمل الباحثين في المناطق الاستوائية، يمكنها أن تقضى عامًا على سبيل الإجازة..
قالت:
- ليس هذا ما أعنيه..
- ألا تريدين العودة؟ أتمنى ألا تفعلى.. إننا سنفتقدك.. هل قدم لك أحدهم عرضًا أفضل؟
- لا.. إنني..
ولم تجد كلمات تقولها.. وقفت مترددة غير واثقة..

وأدرك أن الدموع توشك على الانهمار من عينيها الرماديتين..
كانت ترتجف..
- يجب أن تتركوني أرحل..
وخرجت من الغرفة قبل أن يكمل كلامه..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثاني

- 4-

قال (فرانسيس) لولديه:

- إنني سعيد أن كليكما استطاع المجيء..

قال (بول):

- كان من العسير أن آتي، لكنك جعلت الأمر مُلِحًّا..

- الأمر مهم بالفعل.. لكن رابع أفراد مجموعتنا قد تأخر.. لعلكم تذكرانها.. لقد فارقت (دار) منذ أربعة عشر عامًا.. إنها (ديانا براكلى)..

قال (بول):

- أعتقد أنني أذكرها.. طويلة حسنة المظهر.. أليس كذلك؟

وقالت (زيفاني):

- أذكرها طبعًا.. وكنت أعتبرها أذكى مخلوق في الكون بعدك يا أبي..

سأله (بول):

- إنه لزمن بعيد.. ولا أدري ما يجعل هذا مُلِحًّا..

قال الأب:

- يحتاج هذا إلى شرح مطوّل.. ولحسن الحظ أن تأخرها يمنحنا وقتًا للشرح..

كان (بول) في السابعة والعشرين الآن.. مهندسًا له سيماء طفولية، برغم اللحية التي حاول أن يبدو بها أكثر جدية.. أما (زيفانى) فقد اكتسبت جمال أمها.. وإن بدت كطفلة لا في سن الجامعة..

- كان من الواجب أن أخبركما بهذا منذ زمن.. لكن لدى أسبابًا ضد هذا..
تساءلت (زيفاني):
- رباه! إن الكلام يبدو مقلقًا.. أترانا لقيطان أو شيء كهذا؟
- بالطبع لا.. إنها قصة طويلة سأحاول أن أحكيها من البداية.. لقد بدأت في (يوليو) عام وفاة أمكما..
وحكى لهما قصة اللبن والحزّاز..
- وأخذت المرطبان إلى معملي.. لكن أمكما توفيت سريعًا.. وانهرت أنا.. وفي يوم صحوت من النوم قائلًا لنفسي: لو لم أنغمس في العمل سأجنّ، وهكذا عدت أدرس هذا الحزّاز.
إن الحزّاز كائن غريب كما تعلمان.. إنه يمثل نوعين من الحياة؛ الطحالب والفطريات يعيشان في توافق حيوي تام.. ومنذ زمن طويل لم تبدُ له فائدة سوى استخراج الأصباغ، وإطعام حيوان الرنة..
إلا أنه منذ فترة تبين إمكانية استخراج المضادات الحيوية منه.. حسبت في البدء أنني أبحث عن مضاد حيوي.. لكن لا..
بعد فترة عرفت أنه شيء مختلف.. شىء لا يمكن تسميته.. لهذا اخترعت له اسمًا هو (أنتيجيرون)..
- وما معناها يا أبي؟
- (أنتي) معناها (ضدّ).. و (جيرون) معناها (سنّ).. بمعنى أدق: مضاد الشيخوخة.. صحيح أن أحد المقطعين لاتيني والآخر يوناني.. لكن أحدًا لم يعد يعبأ بهذا الخلط هذه الأيام.. لذا هو (أنتيجيرون).. إن الاسم يصلح برغم أنه خطأ لغويّ.. أما المادة التي استخلصتها من الحزّاز فأسميتها (الحزّازين).. إن شرح آلية عملها عسيرة نوعًا.. لكنها – ببساطة - تؤخر التمثيل الحيوي للكائن الحيّ..

ظل الشابان صامتين هنيهة.. ثم هتفت (زيفاني):
- أبت.. لا تقل إنك وجدت..
- بالفعل يا ابنتي.. الأمر كذلك..
نظرت له عاجزة عن التعبير، ثم صاحت:
- آه يا أبي!
- لا يجب أن تمنحيني ما هو أكثر من حقى.. أحدهم كان سيكتشف الشيء ذاته يومًا ما..
- رباه! كأنها كانت مجرد مصادفة أن يكتشف (فليمنج) (البنسلين)..
واتجهت إلى النافذة وألصقت جبينها بالزجاج البارد، ترمق الحديقة..
تساءل (بول) في حيرة:
- معذرة يا أبي.. ما زلت لا أفهم شيئًا.. أنا مجرد مهندس مدنى بسيط..
- ليس صعبًا فهم ذلك.. الصعب هو تصديقه!
هتفت (زيفاني):
- إلى متى؟
لم يفهم أحد مغزى سؤالها للحظة..
وحبست أنفاسها واستدارت، وجسدها كله ينبض نبضًا تبدى في صوتها:
- إلى متى يمتد بي العمر؟
نظر لها (فرانسيس) لثوان.. ثم قال محاولًا أن يبدو صوته محايدًا:
- المفترض أن تعيشي مائتي سنة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قرع أحدهم الباب، وأدخلت سكرتيرة (فرانسيس) رأسها من الباب قائلة:
- إن مس (براكلى) على الهاتف.. تقول إن الأمر مهم..
غادر (فرانسيس) الغرفة تاركًا ولديه..
قال (بول) في دهشة:
- هل حقًّا يعني ما قال؟
- طبعًا يا (بول).. هل تتخيل أن يقول أبي شيئًا لا يعنيه؟
هنا عاد الأب قائلًا:
- لن تأتي (ديانا).. لقد انتهت حالة الطوارئ.. وهذا يعطينا وقتًا أفضل كى نتحدث..
سألته (زيفاني):
- لا أفهم.. ما دور (ديانا) في كل هذا؟ هل هي وكيلتك أو شيء ما؟
هزّ رأسه نافيًا:
- حتى يومين مضيا لم أحسب أنها تعرف شيئًا عن الأمر مثلي..
تساءل (بول):
- هل تعني أنها سرقت عملك؟
- لا أظن.. تقول إنها وصلت إليه بنفسها.. وأنا أريد أن أصدق هذا..
- وما حالة الطوارئ هذه؟
- على قدر علمى هي قد استعملت (الحزّازين).. ويبدو أن خطأ ما قد حدث، وهناك من سيقاضيها للضرر.. وهي لا تريد أن يصل الأمر إلى المحكمة..
- إذن هي تريد أن تقترض منك المال الذي ستدفعه كتعويض.. حتى تضمن أن الأمر لن يصل للمحكمة؟

- أتمنى ألا تقفز إلى استنتاجات خاطئة.. أنت لا تتذكر (ديانا). إنها تعمل في شركة قادرة على دفع أي تعويض.. لكن معنى أن تدفع الشركة تعويضًا، هو أن تشجع إناسًا آخرين على طلب تعويضات..
سألته (زيفاني):
- هل تظن أنها كانت تعطي (الحزّازين) للناس دون علمهم؟
- بالطبع.. فلو عرفوا لذاعت الأخبار في كل مكان خلال خمس دقائق..
هنا هتف (بول) فجأة:
- تطعيمنا!.. هذا هو السبب!
وتذكر ما حدث في عيد ميلاده السابع عشر حين حدثه أبوه عن المقاومة التي بدأت البكتريا تكتسبها ضد المضادات الحيوية.. وكيف ألحّ عليه كى ينتفع من تطعيم جديد غير متوافر في السوق.. وهكذا ذهب (بول) مع أبيه إلى المعمل، حيث أحدث جرحًا في ذراعه وأدخل في الجرح شظية بيضاء صغيرة، ثم خاط الجرح عليها.. وقال له:
- هذا يكفيك لمدة عام..
ومن يومها.. صارت مناسبة سنوية له ولـ (زيفانى) أن يأخذ التطعيم..
قطعت خواطره (زيفاني) حين سألت أباها:
- وما اسم الشركة التي تعمل فيها (ديانا)؟
- إنه اسم فرعوني غريب.. كلا.. ليس (كليوباترا)..
- هل هو (نفرتيتي)؟
- نعم.. نعم.. شركة (نفرتيتي) المحدودة..
- يا للسماء! و (ديانا)؟
- وماذا عن هذه الشركة؟

- أبي العزيز! أين تعيش أنت؟ إن شركة (نفرتيتي) هي أكبر وأغلى مركز تجميل فى (لندن)!
انحنى للأمام بغتة.. ثم جلس وراح يضحك في هستيريا.. ثم راح يهتزّ بالعبرات.. وأخفى وجهه بين كفيه..
هرع الفتى إليه يربّت على كتفه.. وهزّه بقبضة حازمة هاتفًا:
- أبي.. توقف!
رفع عينيه الدامعتين.. وقال:
- معذرة.. إن هذا مضحك.. كل هذه الأعوام أخفي في ضلوعي هذا السرّ.. سرّ القرون.. ثم أجد أنه صار علاجًا للتجميل..!
ومن جديد عاد يتهانف بالبكاء..
جلست (زيفاني) على الأريكة بجواره، واحتضنت يده.. فهمس:
- ربّاه!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-5-

خرجت (زيفاني) من المصعد، وهي تفتش في حقيبتها عن المفتاح..

هنا نهض رجل ضخم الجثة من على مقعد غير مريح على الإطلاق، وقابلها على باب الشقة.. هنا تبدل وجهها من الحيرة إلى الحزن بسرعة غير عادية..

قال الرجل مقطبًا:

- كان اتفاقنا أن أتصل بك منذ ساعة.. وقد فعلت..

- آسفة يا (ريتشارد).. أنا..

- لقد نسيت كل هذا..

- لم أنس.. تذكرت هذا الصباح.. لقد حدثت أشياء كثيرة من وقتها..

- حقًّا؟

قالها (ريتشارد تريفرن) ووقف جوارها.. رجل طويل أشقر يرمقها في ريبة..

- أشياء كثيرة مثل ماذا؟

قالت بغموض وهي تفتح باب الشقة:

- أمور عائلية..

ثم دخلت وهو خلفها، فقالت له:

- هلم اجلس. أعطنى عشر دقائق ريثما أستحم وأبدِّل ثيابي..

غمغم وهو يجلس:

- إن عشر دقائق معناها خمس دقائق بعد ارتفاع الستار..

- (ريتشارد).. ألا نذهب لنتناول العشاء في مكان هادئ؟ أعرف أن هذا سوء ذوق منى، لكني لن أستطيع الاستمتاع بالمسرح هذه الليلة.. يمكنك إلغاء الحجز بالهاتف..

- ليكن.. سأتصل بالمسرح فلا تقلقي..
لم تكن أمسية طيبة على الإطلاق.. فقد حاولت أن تبعث البهجة لكنها فشلت.. وشربت كثيرًا من (البراندي)..
وحين عادا لشقتها كانت عيناها دامعتين.. كانت تبكى دون توقف، ولاحظ (ريتشارد) أنها - بالفعل - تحمل وجه طفل.. طفل باك..
قال لها في حيرة:
- والآن هلا شرحت لي سر بكائك؟
لم تجب.. فعاد يسألها:
- لا تكوني حمقاء.. أمثالك لا يبكون دون سبب..
- إنه سرّ.. لا أستطيع البوح به..
- اللعنة على الأسرار! كيف أساعدك ما لم أعرف مشكلتك؟ انظري يا حبيبتي.. كل الأمور تبدو بحجم خاطئ حين تكونين وحيدة إزاءها.. إنني أعرف كيف أكتم السرّ..
أمسكت بيده.. وقالت:
- أنا لا.. لا أريد هذا..
- لنكن أكثر وضوحًا.. ما الذي لا تريدينه إلى هذا الحدّ؟
نظرت له بعينين زائغتين وقالت:
- أن أستمر.. وأستمر.. فكر في هذا.. كل الناس تشيخ وتموت بينما أستمر أنا هكذا.. وحدى للأبد.. لم يعد الأمر مثيرًا يا (ريتشارد).. أنا خائفة.. أتمنى أن أحب وأعيش.. ثم أشيخ وأموت كالآخرين.. هذا ما أريد..



ـ (أن أستمر .. وأستمر .. فكر فى هذا .. كل الناس تشيخ وتموت ، بينما أستمر أنا هكذا .. وحدى للأبد ! ..

قال لها في صبر:

- الآن أنت في مرحلة مرضية.. يكفى هذا الهراء.. عليك الآن أن تدخلي الفراش..

- إن مائة عام لزمن طويل جدًّا.. طويل جدًّا بالنسبة لإنسان وحيد..
ثم أردفت:
- آه يا عزيزي! ما كان لي أن أقول هذا.. فلتنس ذلك..
- ليكن.. والآن إلى الفراش..
- ألا تستطيع معاونتى يا (ريتشارد)؟
لم يرد.. قادها إلى حجرة النوم فساعدها على الرقاد في الفراش، ثم غادر الغرفة على أطراف أصابعه، وارتدي قبعته ومعطفه..
أشعل لفافة تبغ واطمأن إلى أن صوت البكاء توقف..
ثم غادر الشقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك الوقت كان (بول) يخوض معركته الخاصة..
كان قد قرر أن يخبر زوجته بما سمعه من أبيه.. ف (جين) ستعرف عاجلًا أو آجلًا.. ولن تغفر له أبدًا أنه لم يخبرها.. وهو - بدوره - لا يقدر على إخفاء شيء عنها..
كانت شخصية (جين) تختلف كثيرًا عن آل (ساكسوفر).. ربما كان أهم شيء هو المعاملات المالية، فآل (ساكسوفر) كانوا يعتبرون المال ناتجًا زائدًا عن العمل ينمو وحده.. أما أسرة (جين) فكانت تؤمن بأن المال يجب أن ينمو بأية وسيلة..
وكان أبوها - (كولونيل بارتون) - رجلًا عسكريًّا متقاعدًا، يملك إقطاعية صغيرة في (كومبرلاند).. إقطاعية راحت تتآكل قطعة فقطعة.. أما ابنه الأوحد (هنرى) فقد تزوج زيجة غير موفقة، جعلت الأمل مفقودًا في أن يعيد مجد الأسرة وثراءها..

وهكذا علق الأب آماله بابنته.. أرسلها إلى مدرسة من الدرجة الأولى، وبعد إحباطات متوالية نجح في أن يزوجها (بول) بن (فرانسيس)..
لم يكن (فرانسيس) يتمنى هذه الفتاة لابنه.. لكن حاستها الاجتماعية كانت جيدة، وكانت تتحاشى المحرمات، وتعمل بالوصايا العشر، ثم إنها تعرف جيدًا ما تفعله..
كان (بول) محقًّا حين قال ذات مرة إن أباه وأخته لا يحبان (جين بارتون).. الحق أن (فرانسيس) حاول مرارًا أن يحب (جين).. لكن (زيفانى) كانت قد أقرت بفشلها تمامًا.
وقالت لأبيها ذات مرة:
- آسفة يا أبي.. لقد حاولت مرارًا أن أحبها لكننا لا نعيش في نفس العالم أو نرى نفس الأشياء.. إنها لا تفكر في شيء.. تتصرف بأسلوب الانعكاس الشرطي.. ولديها ردّ جاهز لكل شيء..
قال لها:
- على الأقل فلنحاول إبقاء العلاقة متحضرة في أسرتنا..
وكانت مشكلة (بول) هي أن (جين) يجب أن تعرف..
وأخيرًا قرر أن يخبرها بالأمر على مائدة الإفطار..
ولم تكن هناك استجابة متوقعة من زوجة يخبرها زوجها فجأة - على مائدة الإفطار - أنه يُتوقع أن يحيا مائتي عام.
لهذا نظرت له نظرة بلا معنى، وتأملت وجهه الذي كان مغطَّي أكثره باللحية.. لكن العينين هما ما يهم في أمور كهذه..
بحثت عن عينيه.. وأخيرًا قالت في حنكة:
- حسن.. لقد زاد معدل الحياة في الخمسين عامًا الماضية..
- أقول.. مائتي عام!
- (بول).. هل أنت على ما يُرام اليوم؟
صرخ فيها وقد رآها توشك على النهوض:

- اجلسي! اجلسى واسمعي! وكُفّي عن هذه الجمل التقليدية.. إن ما سأخبرك به يهمك..
كانت تدرك من كتاب (الاستراتيجية) غير المكتوب، أن هذه هي اللحظة المثلى للانسحاب.. فالانسحاب الآن يترك العدو مرتبكًا مزعزعًا.. إلا أن (بول) يبدو قلقًا بحق.. لذا ترددتْ.. وجلستْ.
قال لها:
- لو أصغيت لوجدت أن ما أقوله مهم..
وحكى لها القصة كلها..
قالت له بعد ما سمعت ما قال:
- ولكن يا (بول) هل تتوقع أن أصدق هذا؟ إن أباك يمزح..
نظر لها نظرة مخيفة وقال:
- كانا على حق.. كان عليّ ألا أخبرك بشيء من هذا..
- إذن هما طلبا منك ألا تخبرني..
- كلا.. طلبا مني أن أنتظر.. حتى يغدو إخبارك بالأمر بلا مجازفة..
- لابد أن هناك أعراضًا لهذا الدواء..
- نعم.. لاحظت أنني لم أكن أصاب بالزكام بسهولة - لكني لم أكن أعرف السرّ وقتها - كما لاحظت أن جروحي تلتئم سريعًا..
- ولماذا مائتا عام بالضبط؟ ما سر هذه الدقة؟
- لأنه يفعل هذا.. يقول أبي إن هذا العقار يخفض تمثيل الخلايا الحيوي إلى الثلث.. ومعنى هذا أنني أشيخ عامًا واحدًا كلما مرت ثلاثة أعوام..
- إذن فعمرك الحقيقي سبعة وعشرون عامًا، بينما عمرك الجسدي عشرون..
- بالضبط.. كنت أبدو دائمًا أصغر من أقراني لذا ربيت هذه اللحية.. وكذلك الأمر بالنسبة لـ (زيفانى)..

- ألا تفهم معنى هذا الاكتشاف؟ إنه يساوى ملايين الملايين.. إن آلاف الرجال والنساء يتمنون لو دفعوا الملايين كى تطول حياتهم.. والآن هل أنت واثق من أن أباك لم يفعل شيئًا طيلة أربعة عشر عامًا، سوى أن يعالجك أنت وأختك؟ بحق السماء أظهر بعض الذكاء يا (بول)..
- لقد جربه على نفسه قبلنا بالطبع..
- إذن سيعيش حتى مائتي عام..
- ليس إلى هذا الحدّ.. فقد بدأ متأخرًا..
- لا بد أنه صنع الملايين طيلة هذه الأعوام وأبقاها لنفسه.. كم علينا أن ننتظر حتى نرث هذا المال؟ قرونًا؟
نظر لها في حدة.. فقالت وقد لاحظت نظرته:
- لا شيء خطأ.. من الطبيعي أن يموت الشيوخ ويرث الصغار.. ثم إن لدى أسبابًا قوية تدعونى للكلام مع أبيك.. سأبدأ بسؤاله: لماذا لم يعالجني أنا - زوجة ابنه - وتركني أشيخ عامين كاملين؟ لقد خدعني في ستة عشر شهرًا من حياتي كان يمكنني الظفر بها.. ماذا تقول في هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-6-

قال (جيرالد مارلين):

- لا بد أن أحقق في هذا.. هناك شيء يستحق.. أنا واثق من ذلك..

قال رئيس تحرير جريدة (صنداى برون):

- شركة (نفرتيتي)! يجب أن تتأكد من موضع قدميك..

- أعرف هذا.. لكن قراءنا سيحبون هذه الأشياء.. إنهم مولعون بفضائح الأثرياء..

فكر رئيس التحرير متشككًا.. فقال (جيرالد):

- انظر.. لقد هزتهم تلك المرأة من (ويلبرى).. طالبتهم بخمسة آلاف جنيه تعويضًا.. خمسة آلاف!

- إن هذه الأوساط تدفع الكثير كي لا تذهب للمحكمة..

- خمسة آلاف!

- فقط جزء يضاف للتكاليف.. أنا لا أؤمن بوجود موضوع مهم في كل هذا.. المرأة أصيبت بالحساسية، وهذا قد يحدث لأي شخص.. الله وحده يعلم ما تضعه مراكز التجميل تلك في كل هذه الدهون والغسولات وكل ما يستعملونه.. من الممكن حدوث أي شيء.. ولو أنهم أعلنوا غدًا نصرًا علميًّا جديدًا.. يستخرجون مادة للتجميل من البطين الأيسر للدبور.. كيف تتوقع أنك لست مصابًا بحساسية تجاه شىء كهذا؟

- أنا متأكد من وجود شيء غير طبيعي في كل هذا.. ثم إنني أشك في هذه المرأة (براكلى) التي تدير المكان.. واضح أنها ذكية.. وليست الطراز الذي يدير هذه الأماكن..

وتحسس جيبه.. فتناول بعض أوراق مطوية ناولها لرئيسه..

فتحها الأخير فوجد مكتوبًا عليها (ديانا بريسيلا براكلى - تقرير أولى)، وقد كتبها على الآلة الكاتبة شخص يهتم بالسرعة أكثر منه بالدقة، وكان المكتوب يقول:
- (ديانا بريسللى براكلى).. عمرها تسعة وثلاثون عامًا.. حسنة المظهر.. شعر بني.. عينان رماديتان.. تقود سيارة (رولزرويس) غالية الثمن.. تعيش في (دارلنجتون) بإيجار مسكن فلكى..
الأب (هارولد براكلى).. متوفي.. موظف في مصرف.. عاش في 43 (دسنبترود).. كانت هى طفلته الوحيدة.. درست في المدرسة المحلية حتى سن أحد عشر عامًا، ثم التحقت بـ (سانت ميرين) الثانوية، ونالت منحة دراسية في (كمبردج) لتفوقها..
عملت ثلاثة أعوام ونصف في (دار هاوس)، ثم ظهر عليها الثراء المفاجئ في سن الرابعة والعشرين، وقامت بجولة لمدة عام حول العالم..
عند العودة اتجهت إلى مهنة التجميل.. وبعد عامين أنشأت شركة (نفرتيتي) المحدودة..
المعلومات الشخصية عنها قليلة برغم كثرة الفضائح في المهنة.. لم تتزوج.. تعيش في بذخ.. تنفق بسخاء على ملبسها.. مستقيمة.. كل العاملين في مركزها تم انتقاؤهم بعناية..
قال المدير:
- ليست نموذجًا بشريًّا تمامًا.. ألا ترى هذا؟
قال (جيرالد):
- هي مذكرة مبدئية.. لكن الأمر غريب.. إنها من خارج حقل التجميل ومن طراز مختلف، تخوض مجال المنافسة وسط الوحوش والمبتسمين الذين يدارون الخناجر خلف الظهور.. وبرغم هذا لا تموت.. بل وتنجح نجاحًا مذهلًا.. كيف؟ توجد

إجابة واحدة: التميز.. إنها تملك شيئًا ليس عند الآخرين.. وهذا الشيء وجدته حين كانت في (دار هاوس) وقررت أن تنتفع به..
هزّ المدير رأسه وقال:
- حسن يا (جيري) يا غلام.. ابحث في الأمر وكن حذرًا.. إن شركة (نفرتيتي) لها نفوذ قوى.. ولو وجدت ما يمكن أن يكون فضيحة فسوف تكون هناك زوجات رجال مهمين في الموضوع.. فتذكر هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت الخادمة الشابة:
- سأخبر المدام أنك هنا..
وأغلقت الباب خلفها..
كانت الغرفة مؤثثة بطريقة فاخرة، لكنها عتيقة الطراز.. والنافذة تطلّ على حديقة غنّاء..
هنا سمعت صوت الباب ينفتح..
كانت (ديانا) هناك واقفة، بثوب من الحرير الرمادي الأنيق، ولا حلىّ ترتديها سوى سوار ذهبى حول معصمها..
تبادلا النظر بلا كلام.. كانت (ديانا) بالضبط كما تذكرها (زيفانى).. لا بد أنها في الأربعين لكنها تبدو في ميعة الشباب..
قالت (زيفاني):
- هكذا أشعر بأنني طفلة من جديد..
ابتسمت (ديانا) وقالت:
- وأنت تحاولين أن تظهري أكبر سنًّا كما كنت دومًا..
- إذن فالأمر حقيقة.. إنه يعمل!
قالت (ديانا):
- شعرت بأنك متوترة في الهاتف، لذا طلبت أن ألقاك..

وتحدثتا.. وتدريجيًّا نجحت (ديانا) في إزالة توتر (زيفاني) وشعورها بعدم التصديق..
سألتها (زيفاني):
- ما هو موضوع (نفرتيتي)؟ وما المشكلة التي كنت فيها؟
تناولت (ديانا) لفافة تبغ وفركتها.. ثم تأملتها لحظة وقالت:
- حسن.. سأبدأ من البداية..
وأشعلت اللفافة وبدأت تحكي القصة من بدايتها..



وأشعلت اللفافة ، وبدأت تحكى القصة من بدايتها . .

ـــ (كانت المشكلة الحقيقية هى كيف نفيد من هذا الشىء . .

- كانت المشكلة الحقيقية هي كيف نفيد من هذا الشيء.. كنت حائرة ثم بدأت أفكر.. لو أنني جعلت بعض النسوة يعشن طويلًا

حتى يصير منهن عدد كاف ذو تأثير.. عندها يجدن أنهن سيعشن حياة طويلة، ويبدأن الكفاح من أجل حقوقهن..
أنت تشعرين بالارتباك الآن.. لكنك ستفهمين ذلك..
- ولكن.. ماذا عن نقص المورد الطبيعي من (الحزّاز)؟
- آه.. لن يلبث العلم أن يجد حلًّا لهذا.. ما دام الطلب مكفولًا..
- لكن الناس سيتقاتلون للحصول عليه وإطالة أعمارهم..
- كل هذا سيحلّ في وقته.. لن يحب كل الناس طول العمر..
قالت (زيفاني):
- لقد جئت ها هنا خائفة نوعًا.. مذعورة.. لكني الآن بدأت أدرك أن اكتشاف أبي - أو اكتشافك - هو حلم هائل يتحقق.. خطوة لا تصدق نحو المجهول..
قالت (ديانا) بعد ما تأملتها قليلًا مفكرة:
- تعلمين يا عزيزتي أن العالم في فوضى.. إن آلافًا منا يجيئون العالم كل يوم، وعما قريب سيبدأ عصر المجاعات.. أنا لا أمزح يا فتاتي ولا أتخيل.. بل أتحدث عن موقف لا مفر منه، ولو لم نفعل شيئًا بصدده فسوف يطارد البشر البشر عبر الخرائب من أجل التهامهم.. نحن نترك الأمور تمضي لهذا بلا مبالاة شريرة، لأن حياتنا قصيرة نضمن معها أننا لن نكون موجودين لنرى ذلك..
إن جيلنا لا يعبأ بالتعاسة التي سيسببها.. هذه مشكلتهم.. هكذا نقول.. اللعنة على أطفالنا ما دمنا نحن على ما يرام..
يوجد شيء واحد يمكنه منع ذلك: أن يستطيع بعضنا أن يحيا حياة طويلة كي نقلق من أجل أنفسنا.. وكي نزداد حكمة..
إننا نخطو نصف خطوة نحو الحكمة وبعدها نشيخ.. نحتاج إلى الوقت كي نكتسب الحكمة ونستعملها.. وإلا سنموت جوعًا..
وابتسمت لـ (زيفاني).. وقالت:

- معذرة على تفلسفي.. لكن مما يريحني أن أقول هذا لشخص ما.. ومهما سبّب هذا الاكتشاف من ارتباك فهو يحمينا مما هو أسوأ..
إن ما قمت به يبدو مضحكًا.. ربما يراه أبوك فضيحة.. لكني ظفرت بألف امرأة وعالجتهن..
سألتها (زيفاني):
- وكيف فعلت ذلك؟
- تصرفت كذلك الرجل الذي كان يهرب اللآلئ.. وكان يضع اللآلئ الثمينة داخل لآلئ مزيفة..
لقد اعتاد الناس النصب من معاهد التجميل، وعلى عبارات من نوع (ابقى شابة أبدًا).. لا أحد يصدّق حرفًا من هذا.. لكنهم سيجربون معى.. وسيجدون نتائج حقيقية.. لكنهم - من كثرة ما ذاقوا الكذب - لن يصدقوا أن هذا حقيقى، وأنه حدث لهم حقًّا.. لن يلاحظوا الفارق إلا بعد أعوام..
قلت لنفسي: هذا هو القرن العشرون وهو يستحق هذا.. ليس هذا هو عصر الحكمة.. إنه عصر الجنون والأساليب المراوغة..
وقررت - أولًا - أن أتأكد من انتظام إمداداتى مما يسميه أبوك (حزّازين) وأسميه أنا (ترشيانين).. لذا قمت برحلتي حول العالم.. في الواقع اتجهت إلى شرق آسيا..
كنت أبحث عن مستر (ماكدونالد)، لكنه كان قد مات.. وعرفوني على مساعده مستر (ماكمورتى).. وكان في حملة الحزّاز إياها..
وقد أخذني الرجل إلى مكان ما في (منشوريا) شمالى (فلاديفستوك) حيث وجدوا الحزّاز.. لكن لم يكن هناك كثير منه هنالك..

ولا أخفي عليك قلقي بصدد هذا المورد، فهو تحت سيطرة الصينيين، لكن لو سمع به الروس.. عندئذ لا مشكلة هناك.. لأن (منشوريا) تبعد أقل من مائتي ميل عن الحدود الروسية في ثلاثة اتجاهات..

أعتقد أنك تدركين أن كلامي معك سرّ.. وإلا صار أبوك وأنا هدفين رئيسيين.. وعندها ستغدو مسألة حياة أو موت كما تفهمين..

كان كل شيء على ما يرام لولا الحظ السيئ الذي جعل مس (ملبرى) تصاب بالحساسية.. لقد انتفخت البائسة وامتلأ جسدها بالطفح، واحتقنت شعبها الهوائية.. لكنها قبلت التعويض.. وما كانت لتفعل لو لم نعرضه عليها بسخاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-7-

قالت سكرتيرة (بول) له قبل أن يغادر المكتب:
- د.(ساكسوفر) على الهاتف يا سيدي
استدار (بول) ليلتقط السماعة، فسمع صوت أبيه يسأله دون دفء:
- لقد جاءتني زوجتك هذا الصباح.. أعتقد أنه كان بوسعك أن تتفضل وتخبرني أنك صارحتها بكل شيء..
- قلت إنني سأخبرها لا محالة يا أبي..
- متى قلت لها؟
- الصباح التالي..
- منذ خمسة أيام.. هه؟ ولم تقل شيئًا عن الحضور لمقابلتى..
- قالت.. لكني لم أحسبها تعنى ذلك.. وظننتها نسيت
- لم تنتظر طويلًا..
- وماذا كانت تريد؟
- حقًّا يا (بول).. ماذا تظنها كانت تريد وتطالب به بقوة؟
- أبي.. هل فعلت لها ذلك؟
- نعم.. فعلت.. ورأيت أن من واجبى إبلاغك..
وأنهى المكالمة..
ظل (بول) يرمق السماعة بضع ثوان، ثم أعادها مكانها ببطء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الطابق الخامس من المبنى الذي تقع فيه مؤسسة (نفرتيتي)؛ أصدر جهاز (الدكتافون) على مكتب (ديانا) أزيزًا..
ضغطت على الزرّ فسمعت صوت سكرتيرتها الواهن يقول:

- إن من تُدعي مس (برندون) ها هنا.. إنها قلقة وتريد مقابلتك..
قلت لها: إن التسلسل الطبيعي هو مس (رولرديدج).. لكنها تصرّ على مقابلتك بنفسها في موضوع شخصي..
فكرت (ديانا) في الأمر.. لابد أن السبب مهم.. لهذا سمحت للفتاة بمقابلتها..
كانت مس (برندون) شقراء ذهبية الشعر، جميلة، تشبه الدمية إلى أن ترى بريق المعركة في عينيها الزرقاوين..
- لماذا لم تقولي ما تريدين لمس (رولريدج)؟
- كنت سأفعل لو لم تكن مشكلة إدارية.. ثم إنني كنت أريد التأكد من أن الآخرين لن يعرفوا..
ثم قالت بعد تردد:
- إنهن يتحدثن كثيرًا ها هنا..
- حسن.. ما هي المشكلة؟
- لقد ذهبت إلى حفل ليلة أمس.. كنا ستة.. مجرد عشاء ورقص في النادي.. وبينما نحن نتناول الطعام تحدث رجل لا أعرفه عن مس (ويلبري) وعن مرض الحساسية الذي أصيبت به.. هنا.
قال أحد الجالسين إنني من مؤسسة (نفرتيتي) وأنني أعرف ما حدث.. هنا فوجئت بالرجل الأول يسألني في إلحاح عن معلومات حول الموضوع.. كان منتبهًا جدًّا لكلامي، ودعاني كى يوصلني لدارى، لكني رفضت.. ووعدته بالاتصال به
فيما بعد عرفت أنه صحفي شهير يعمل في (صنداى برول)، واسمه (مارلين)..
هزّت (ديانا) رأسها مفكرة وعيناها لا تفارقان الفتاة.. ثم قالت:
- حسن.. أظن خير ما تفعلين هو أن تقابلى مستر (مارلين) هذا غدًّا، وتخبريه بما يبغى معرفته..
- لكني لا أعرف ما..

- حسنٌ.. مس (تالوين) ستخبرك بالتفاصيل.. أريد أن تقنعي هذا الرجل قبل أن يحاول الظفر بالمعلومات من أخريات.. انعمي بليلتك.. واحرصي على أن تستفيدي بالفرصة جيدًا.. لا تطلبي أي طعام رخيص.. وكلما زدت استغلالًا وغلوًّا معه كلما شعر أن معلوماتك مهمة..

- وماذا أفعل بما سيعطيه لى من مال يا مس (براكلى)؟

- بارك الله فيك! إن هذا المال من حقك.. ويمكنك أن تتصرفي فيه كما تشائين..

وبعد انصرافها، ضغطت (ديانا) على زرّ (الدكتافون) وقالت:

- يا (سارة).. أحضري لي ملف مس (برندون)..

وجاءت (سارة) بالملف المذكور، وقدمته لها..

وراحت (ديانا) تطالع المكتوب باهتمام شديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تساءل (ريتشارد):

- أهذا كل شيء؟

وتأمل الضمادة على ذراعه الأيسر، وتحسسها..

قال (فرانسيس):

- للأسف ليس المشهد دراميًّا.. إن الأفلام تفعل هذا بشكل أفضل.. سيمتص جسدك هذا المركب ببطء.. إن الحقن تفعل ذات الشيء لكنها غير مضمونة..

قال (ريتشارد):

- لا أعرف ما أقول يا سيدي، فما زلت أجد عُسرًا في التصديق..

- لا تقل شيئًا.. كن عمليًّا.. فمنذ أن عرفت بمعرفتك الأمر أزمعت أن أريك مزاياه؛ وإلا كانت (زيفانى) ستصرّ على الشيء ذاته..

- ألا تجازف يا سيدى بذلك؟ لقد تقابلنا ثلاث مرات فقط..
- أنا لا أثق إلا فيمن يستحق..
وخرجا إلى قاعة الجلوس حيث كانت (زيفاني) تنتظر، فما إن رأتهما حتى نهضت هاتفة:
- مرحبًا يا (ريتشارد).. إنها تسبب حكاكًا لكنه يزول سريعًا..
- ما زلت مندهشًا..
قالت (زيفاني):
- أنا كذلك مندهشة.. تصور أنني سأمضي معك مائة وخمسين عامًا!.. هل يمكن لاثنين أن يحبّا بعضهما طيلة هذه المدة؟!
- لا عليك يا عزيزتي.. سنحيا.. ستكون مغامرة.. سنستمتع بالاستكشاف معًا في كل يوم..
تركت نظرتها القلقة تسترخي، وقالت:
- نعم يا (ريتشارد).. أعرف هذا..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-8-

وسط بريد الاثنين القليل، جوار طبق إفطار (فرانسيس ساكسوفر)؛ كان هناك خطاب منتفخ قليلًا عليه خط لم يميزه..
فتحه ليجد أنه يحوي أوراق صحف، وورقة صغيرة كُتب عليها:
عزيزي (فرانسيس)..
تذكرت أن مرحنا في (دار) أيام الآحاد كان يتلخص في قراءة الصحف.. أعتقد أن الموجود ها هنا لا يثير اهتمامك، ولربما أنت تعرف ما فيه.. لكني أجد ها هنا أن اليد اليسرى في (فليت ستريت)[1] لا تعرف شيئًا عما تفعله اليد اليمني..
المخلصة: (ديانا)
مدهوشًا تناول الجريدة.. كانت صفحة من (الرادار) عليها علامات حمراء تحت فقرات معينة.. وكان المكتوب كالتالي:
أخبار طيبة لكِ ولكِ ولك!



مدهوشًا تناول الجريدة .. كانت صفحة من (الرادار) عليها علامات حمراء تحت فقرات معينة ..

يقولون إن المال لا يبتاع كل شيء.. كالشمس والقمر والابتسامات.. وهم محقون.. لكن يجب أن تعرف وأعرف أنا، أن المال ما زال بوسعه أن يحقق لك رحلة ناعمة عبر الحياة.

والآن انظر إلى الصور أعلاه لترى ما أعنيه.. توجد أربعة أزواج من صور الحسناوات.. الصورة العليا تمثل ذات المرأة منذ عشر سنوات.. والسفلى تمثلها اليوم.. قارن الصورتين.. هل ترى؟ لا توجد اختلافات على الإطلاق..
إنهم يزعمون أن ثلاثمائة إسترليني كل عام، تدفعينها لمؤسسة تجميل معينة في (لندن) تحقق لك هذا..
انتظرونا في الأسبوع القادم لتعرفوا أكثر عن الموضوع.. فاحجزوا نسختكم من (صنداى رادار).. الجريدة التي تعرف ما يهمكم أن تعرفوه!

وضع (فرانسيس) الصفحة جانبًا.. وتناول صفحة أخرى من جريدة (صنداى برول) هذه المرة..
وكانت تنشر في عمودين صغيرين ما يلي:

الزمن لن يفعل!
لم يعد سرًا أن مؤسسة تجميل شهيرة قد قامت بتعويض إحدى العميلات، كى لا ترفع شكواها إلى القضاء..
إن مرض الحساسية هو مرض مزعج يظهر حين لا تتوقعه.. والمشكلة أن العميلة البائسة واجهت هذه المعاناة وحدها بدون زوجها.. الذي اضطرته أشغاله إلى السفر إلى أمريكا الجنوبية منذ عام.. وظل هناك بعيدًا عنها في وقت حرج.
والأسوأ أن يحدث هذا لشركة محترمة مرموقة..
يقولون إن سرّ تركيبة الجمال هذه يكمن في شيء لا يكلف سوى جمعه ونقله..
إن مصدر إزعاج هذه العميلة يظل سرًا حتى في أوساط الشركة ذاتها.. وتظل العميلة خائفة من التعرض لهذه المادة ثانية دون

أن تعرف.. لذا نقدم لها هذه النصيحة الغالية.. عليها أن تتحاشى سواحل خليج (جالواي) في (أيرلندا).. فإن لم تقدر فلتتحاش الاستحمام.. فإن كان عليها الاستحمام فعليها أن تتحاشى الأعشاب المائية هناك!

بقلم: (جيرالد مارلين)

أنهى إفطاره.. لكنه لم يذهب لمعمله كالعادة.. واتجه لمكتبه وطلب (ديانا).. قال لها:
- شكرًا على الصحف يا (ديانا).. إن هذا مثير حقًّا..
قالت (ديانا):
- إن الحساسية مرض غريب.. لا بد أن كل خصومي ظلوا يطلبون التفاصيل من مستر (مارلين) وعرضوا عليه الآلاف من الجنيهات.. تقول فتاة (السويتش) عندي إنه يجب استئجار ببغاء يقول (لا تعليق) لكل الصحفيين.. ولا بد أنهم في وزارة الزراعة يبحثون عن أي طلب لي لاستيراد الأعشاب البحرية من (إيرلندا)..
- لكن لا يمكن أن يكونوا عرفوا هذا بأنفسهم.. لا بد أن هناك من دسّ عليهم هذه المعلومات الخاطئة..
- بالتأكيد.. لديّ ثلاث فتيات قيلت لهن هذه المعلومات، وهن يثرثرن بها في كل مكان.. لن ينتهى المرح أبدًا..
قال لها:
- اسمعي.. إنني أدعوك للعشاء في (كلاريدج) في الثامنة والنصف مساء.. فهل يناسبك هذا؟
- الوقت مناسب لكن ليس المكان.. يجب ألا يربطوا بين اسمي واسمك.. فأنا امرأة مشبوهة في الوقت الحالي.. يوجد مكان هادئ يدعى (ألتونيا) في شارع (شارلوت).. لن نرى أحدًا هناك..

- ليكن.. (ألتونيا) الثامنة والنصف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال رئيس التحرير لـ (جيرالد):
- أراك راضيًّا عن نفسك..
- أنا كذلك..
- أنا لست مثلك.. فقد تلقيت مكالمة عنيفة من محرر (الرادار).. كان حانقًا جدًّا وزفر كثيرًا من السباب..
قال (جيرالد):
- لن يدهشني هذا.. لقد وجدت فتاة بريئة تعمل في (نفرتيتي).. تعشق (الكافيار) و (الشمبانيا).. أخذتها إلى نادي (كواجلينو) لأريها حياة البذخ.. لكني وجدتها تنظر مندهشة إلى مائدة مجاورة.. سألتها: ما المشكلة؟
فقالت إن الفتاة على المائدة الأخرى من مؤسسة (نفرتيتي).. بعد دقائق جاء رجل فحياها.. وعرفت على الفور أنه (فريدى رامار) محرّر (الرادار).. أدرت وجهي حتى لا يراني ثم انسحبنا في هدوء من المطعم.. ثم عرفت منها موضوع أعشاب البحر الأيرلندية هذا..
قال المحرّر:
- لا بد أن الأمور في (دبلين) بإيرلندا مرعبة الآن.. لا بد أن مئات السيارات تتجه لهناك مثلما كان الأمريكيون الأوائل في عصر الاندفاع للذهب..
- لقد اتصلت بى كل شركات التجميل - ما عدا (نفرتيتي) - بغية معرفة أكثر.. والمشكلة أن هناك دستة من أعشاب البحر في (جالواى).. أيها المقصود؟ لو عرفت (الرادار) هذا النوع لأحرزت نقطة ضدنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت (ديانا) لـ (فرانسيس):
- سنجد كثيرًا من المتعة في هذا الموضوع..
قال لها وهما يجلسان في (ألتونيا):
- حقًّا.. فيما عدا النسوة التعسات اللائي سيتوقعن المعجزات من أعشاب البحر الأيرلندية هذه..
- لا تقلق.. إن (المعجزات) كلمة مكررة كثيرًا في المجلات النسائية.. ولا أحد يتوقع أن تعني شيئًا.. سيفتش المنافسون كثيرًا وسط أعشاب البحر.. حين تستخدم النساء كريم أعشاب البحر.. غسول أعشاب البحر.. يتناولن افطارًا من أعشاب البحر.. وسيجدون مقالات تدعم هذه الخرافة.. سيقول أحدهم إن دور أعشاب البحر في حفظ الجمال هو معلومة قديمة.. وليست صورة (فينوس) الخارجة من البحر سوى ترديد لهذا الظن الذي أعيد إحياؤه[2].. وهذا التخبط سيمنحنا فترة عامين.. وبعد قليل سيعرف هؤلاء أن (الحزّاز) ليس له دور.. عندها يُذاع أن مؤسسة (نفرتيتي) تستعمل جهازًا للموجات فوق الصوتية، يعالج ما تحت طبقات الجلد..
بعد فترة من الصمت قال لها بحذر:
- أعتقد أن الصراحة واجبة فيما أنوى قوله، وإلا كان الأمر خطرًا.. ثمة شيء ما يتعلق بزوجة ابني..
- هل ستقول إن (بول) أخبرها بالأمر؟
- نعم.. وقد أرغمتني على أن أعطيها (الحزّازين).. ثم عادت لتخبر (بول) بذلك.. شكّ في كلامها وأصر على أن يرى الجرح.. وكانت الضمادة موضوعة عليه بطريقة تختلف عن طريقتي في

التضميد.. وحين كشفها لم يشعر بوجود (الحزّازين) تحت الجرح..
- هل تعني أنها فكّت الغرز بعد ما وضعت أنت لها الدواء؟
- نعم.. شخص ما جعلها تجلب له الدواء، وخاط الجرح ثانية.. لا بد أنه وعدها بمعالجتها من جديد بعد ما يتم تحليل هذا الدواء..
- وأين هي الآن؟
- حزمت ثيابها في حقيبتين واختفت..
- لو نجحوا في الحصول على الدواء، فما مدى ما سيعرفون عنه؟
- أقل مما يظنون.. ليس الأمر سهلًا.. لكن هذا سيضعهم على بداية الخطّ..
- وما هي خطوتهم التالية؟
- سيفحصون قوائم وارداتنا بحثًا عن ضوء..
ثم أردف بعد قليل:
- لو فشلوا سيحاولون سرقة السرّ.. ولرّبما اختطفوا أحدنا أو كلينا.. لقد فكرت في هذا، وإذا اختفيت أنا فلسوف يذاع السرّ تلقائيًا..
أظنك قمت باحتياطات مماثلة؟
هزَّت رأسها أن نعم..
وتبادلا النظرات لبضع دقائق...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-9-

قالت السكرتيرة لـ (ديانا) وهي تعبر المدخل إلى مكتبها:
- إن مس (برندون) تريد أن تراكِ..
هزت (ديانا) رأسها موافقة..
- دعيها تأت بعد أن تنهي عملها..
ودخلت مكتبها لتجلس وسط الخطابات العديدة التي أعدتها لها السكرتيرة..
وبعد ربع ساعة جاءت مس (برندون)..
سألتها في مرح:
- صباح الخير يا (لوسي).. كيف تعمل الخدمات السرية الآن؟
- بخير يا سيدتي.. لكني اصطدمت بوجود مكاتب خدمات سرية أخرى ها هنا..
- لا عليك يا عزيزتي.. توجد شبكات كثيرة في الشركة الآن.. لكني لا أريد أن تضيّعن الوقت في أن تحقق كل واحدة في الأخرى.. ماذا عندك؟
قطبت مس (برندون) قائلة:
- لا أدري كيف أبدأ.. كثير من الناس مهتمون.. هناك ذلك الرجل (مارلين) محرر (البرول).. لقد عرض عليّ خمسين جنيهًا لو جلبت له عينة من العشب الذى نستعمله.. وعرفت كذلك أن الشرطة مهتمة بالأمر.. هناك مفتش يحقق في الأمر اسمه (إيفرهاوس).. وقد علمت أنه مختص بقضايا المخدرات أساسًا.. ومعه ملازم يُدعى (موين)..
- ومن أيضًا؟

- محرر من (الرادار) اسمه (فريدى رامار)، وهو يحاول مع (بيثى).. فتيات كثيرات صار لهن أصدقاء.. لقد خرج الجميع ليظفروا بسرّ هذا العشب..
- حاولي أن تعرفي ما يبحث البوليس عنه.. فسيسرني هذا..
- سأعمل ما بوسعى يا مس (براكلى)..
واستدارت لترحل، لكن (ديانا) أوقفتها بإشارة..
وراحت تنظر لها طويلًا مفكرة حتى احمرّ وجه (برندون)..
قالت (ديانا):
- إنني بحاجة إلى من أثق به.. وأنا أعرف عنك أكثر مما تتوقعين، لهذا سأقدم لك عرضًا..
ورفعت سماعة الهاتف لتقول:
- لا مكالمات حتى أتصل بك يا (سارة)..
ووضعت السماعة، وقالت:
- والآن.....
وبدأت تتحدث......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-10-

تحركت سيارة شرطة سوداء مارة بهما، ثم توقفت لتقطع الطريق، ومن النافذة خرجت يد تلوّح لهما كي يقفا بسيارتهما..

قال (ريتشارد) في حيرة:

- ماذا بحق السماء؟

وقالت (زيفانى):

- نحن لم نفعل أي شيء..

توقفا ووراءهما توقفت سيارة (فان) ليس عليها كتابة، وانفتح الباب ليخرج منها رجل، دنا منهما.. كان يحمل مسدسًا..

- هيا.. أخرجا!

وعلى جانب (زيفانى) كان هناك رجل آخر يحمل مسدسًا بدوره، وقال:

- هيا.. اركبا العربة الـ (فان)..

فتحت (زيفانى) الباب عاجزة عن قول شيء.. وتم اقتيادهما - ومسدس في ظهر كل منهما – إلى العربة الـ (فان).. وسرعان ما انغلق الباب وتحركت العربة مبتعدة.. لقد تم كل شيء في نصف دقيقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت غرفة كبيرة مفروشة بأثاث عتيق..

أما الرجل الجالس على المكتب المغطى بالجلد، فقد أضاء المصباح كى يلتمع على عيني (زيفانى)، ويظل هو في الظلّ..

كان (ريتشارد) يقف على يسار المكتب، يداه مربوطتان خلف ظهره وشريط لاصق على فمه..

قال الرجل الجالس:

- لا توجد إساءة في هذا يا مس (ساكسوفر).. لو لم تتضايقي أريد إجابة على بعض المعلومات.. وسأكون مسرورًا لو أجبت على أسئلتي مباشرة.. والآن لقد أحرز أبوك كشفًا عظيمًا.. أعتقد أنك تعرفين ما أتكلم عنه..

قالت:

- لقد أحرز أبي كشوفًا عظيمة كثيرة..

ضرب المكتب بيده اليسرى، فكوّر أحد الزبانية جوار (ريتشارد) يده، ووجه لكمة قوية إلى معدة الأخير.. فأطلق أنّة وانحنى للأمام..

قال الرجل:

- قولي لى الكشف الذي أريده..

حاولت أن تتحرك.. لكن يدين قويتين أمسكتا بمعصميها وداس أحد الرجال على قدمها بغلظة..

ضرب الرجل على المكتب مرة أخرى، فانهالت لكمة قوية على وجه (ريتشارد).. وقال:

- ليست لدينا نيّة لإيذائك يا مس (ساكسوفر).. لكننا لا نبالي كثيرًا بما يحدث لصديقك هذا.. يجب أن تعرفي أن صمتك تجربة غير سارة له.. فإن أصررت سنضطر إلى إقناع أبيك.. سنرسل له خاتمك.. وإصبعك بداخله طبعًا.. سيجعله هذا متحمسًا للتعاون..

هزَّت رأسها.. سمعت ضربة على يمينها فصرخت:

- توقفوا!

ثم قالت في لهفة:

- تعني (الحياة لفترة أطول)؟

- هذا أفضل.. إن الدواء مستخرج من؟ أرجو ألا تقولي لى إنه من الأعشاب البحرية..

صمتت مترددة لحظة وهي تنظر ليده اليسرى.. ثم قالت:
- إنه من الحزّاز..
- هذا جيد.. أي نوع منه؟
- لا أعرف.. لا! لا تؤذه! أقسم إنني لا أعرف الاسم..
فكر قليلًا ثم قرر أن يصدقها.. لكن رجاله لم يصدقوها بعد..
- يجب أن تصدقني.. أنا لا أعلم!
دوي صوت الضربات من جديد، فلم تجرؤ على النظر..
مدّ الرجل يده إلى الدرج فأخرج قطعة من الورق المقوّى، ثبتت عليها نماذج عدة من نباتات.. أنواع الحزّاز بالدقة..
- لا أعرف.. أنا لم أره قط.. ربما سمعت لفظة (امبرفكتس).. لكني لست واثقة..
- هناك مئات من الحزّاز كلها (امبرفكتس).. حسن.. سؤال آخر: من أين يحصل أبوك على الحزّاز؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إنها الآن على ما يرام جسديًّا.. لكنها مصابة بصدمة..
قالت (ديانا) في الهاتف وقد أدهشها ما قال (فرانسيس):
- يا للبائسة! وماذا عن (ريتشارد)؟
- لقد ضربوه بعنف.. لكن لا كسور.. تقول (زيفانى) إنهم أعادوهما إلى السيارة الواقفة، فاقتادتها إلى المستشفى.. لقد فقد (ريتشارد) بعض أسنانه لكن لا خطورة عليه.. أظن أنهم ضربوها أيضًا، لكنها لا تريد أن تخبرني..
- يا للطفلة المسكينة! ماذا قالت لهم؟
- كل ما تعرفه تقريبًا فيما عدا دورك..
- وهل يعرفون من أين نحصل عليه؟

- أخشى أنهم يعرفون هذا الآن..
- يا للخسارة! ليتني لم أخبرها بذلك..
ثم قالت بعد قليل:
- لقد أرسلت خطابات لعملائي والصحافة من أجل لقاء مهم يوم الأربعاء..
ساد الصمت لبرهة.. فسألته:
- هل ما زلت هناك؟
- نعم..
- وما رأيك؟
- أرى من الخير ألا نخبرهم بشيء.. سينظرون لما تفعلين على أنه إعلان عن شركتك.. كوني حذرة من أجل نفسك..
- لا تقلق عليّ فأنا أعرف ما أفعله..
- لا أعتقد ذلك.. لكن الوقت متأخر الآن.. أرجو أن تكوني حذرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-11-

صباح الثلاثاء اشترت (ديانا) بعض الصحف.. وراحت تطالعها.. لم يكن هناك شيء ذو بال فيها.. إن الصحف حساسة جدًّا نحو ما يمكن أن يكون محاولة للإعلان المجاني..

انطلقت سيارة الـ (رولز) نحو (دار هاوس).. كانت هناك فتاة واقفة وقد فتحت كبّود سيارتها تفحص شيئًا ما، فلما رأت السيارة الـ (رولز) بدت عليها المفاجأة..

سألتها (ديانا) عن مكان (ساكسوفر) فأخبرتها، وهتفت بحسد:

- يا لها من سيارة!

ال

ثم تأملت (ديانا) وصاحت:

- ولكن.. ألم أر صورتك في (صنداى جادج) هذا الصباح؟ أنت مس (براكلى) أليس كذلك؟

- بلى.. وسأكون لك ممتنة لو ظل هذا سرًّا بيننا..

- لكن هل هذا الـ (أنتيجيرون) كما يقولون؟ لو كان هذا فأعتقد أنني أسيطر على قواى العقلية أكثر منك، برغم سيارتك الـ (رولز)..

مشت (ديانا) لتصعد سلمًا ثم تطرق الباب..

فتح لها (فرانسيس) الباب فبدا مذهولًا.. ودخلت.. بدت لها الغرفة أصغر مما تتصور..

قال لها في حرج:

- يا عزيزتي.. ليس الأمر أنني لست سعيدًا برؤيتك.. لكننا اتفقنا على ألا يربط الناس بيننا.. هل رآك أحد؟

- فتاة تصلح سيارتها بالخارج..

بدا مهتمًا.. وقال لها:

- سأذهب لأراها وأطمئن إلى صمتها..
وغادر الغرفة.. ووقفت هي تتطلع إلى النافذة شاردة..
بعد قليل عاد قائلًا:
- كل شيء على ما يرام.. إنها فتاة طيبة.. كيميائية نشطة مثلك..
تعتبر (دار) مكان عمل لا مكتب زواج..
- وهل حقًّا تحسبني كذلك؟
- نعم كنت من أفضل العاملين هنا..
ثم أحس بشيء في لهجتها.. فتوقف وسألها:
- ماذا تعنين؟
لم تردّ وظلت عند النافذة ترمق الحديقة.. وقالت:
- غريب أنني كنت أحسبنى سأكره (دار).. لكني سعيدة بأن أراها ثانية.. لقد عشت أتعس أيامي هنا وكنت أبكي كثيرًا..
- يا عزيزتي! لا أفهم السبب..
- لقد كنت صغيرة جدًّا.. وعواطف الصغار قلقة لحوح.. ولم أفلح قط في ألا أخفي عواطفي.. ولكن دعنا من هذا....
- أظن أنك لم تجيئي ها هنا لتقولي ذلك..
- جئت لأقول إنني سأكون مشغولة في الفترة القادمة..
- حقًّا ستكونين.. وأعتقد أن كلمة (مشغولة) هي كلمة مهذبة، لتصف نتيجة ركل عش الزنابير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-12-

توالت عناوين الصحف المثيرة.. في (ميرور).. (جاردنر).. (نيوز كرونيكل).. (برول).. (رادار).. إلخ...

وراحت (ديانا) تتأمل الصحف باسمة، ثم رفعت سماعة الهاتف:

- صباح الخير يا (سارة)..

- صباح الخير مس (براكلى).. أحسنت باستعمال خطك الخاصّ.. إن عاملة الهاتف ستجن من كثرة المكالمات.. كل جريدة وشركة تجميل تحاول الاتصال بك..

- قولي لـ (ديكسون) أن يغلق أبواب الشركة، فلا يسمح سوى للزبائن أو العاملين بالدخول.. وإذا اشتد الزحام فليطلب الشرطة.. واطلبى مس (برندون) حالًا..

جاء صوت مس (برندون) الرقيق، فقالت لها:

- اسمعى يا (لوسي).. كنت أريد أن أعرف حقًّا ما يقول الناس عنّي.. أريد منك أن تنتقى ست أو خمس فتيات ذكيات، وتكلفيهن بالذهاب إلى المقاهي.. إلى البارات.. إلى المغاسل حيث يثرثر الناس.. وحاولى معرفة ما يفكرون فيه.. وعودي في الرابعة والنصف لتقدمي لي تقريرًا.. هل فهمت؟

- حسن يا مس (براكلى)..

- سأدفع أربعة جنيهات لكل واحدة لتغطية النفقات..

- حسن يا مس (براكلى)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أريد أن أعرف رأيك في سني يا دكتور..

- مدام.. لست ممن يتملقون المرضى أو يلعبون ألعاب التخمين معهم.. وما لم تكن معك صورة من شهادة ميلادك، فعليك أن

تقصدي (سومرست هاوس) حيث يستخرجون لك واحدة..
- لكن الأخطاء تحدث.. قد تكون شهادة ميلادي ضاعت أو أخطأ أحدهم في تدوينها..
- هذا قد يحدث.. لكنه ليس معتادًا..
- لكني أريد التأكد..
- هل هذه لعبة ما يا مدام؟ لقد مارست المهنة خمسة وثلاثين عامًا، لكني لم أر قط في يوم واحد خمس سيدات يسألنني عن عمرهن..
- لكنها.. مصادفة..
- ثم إن تحديد السن مستحيل.. أفضل ما بوسعى هو أن أعطي رقمًا تقريبيًّا، لا يفضل تقدير الرجل العادي في شيء..
- وماذا فعلت للأخريات؟
- أعطيتهن رقمًا تقريبيًّا..
- إذن أعطني الشيء ذاته.. أعنى.. إن هذا مهم لي يا دكتور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- (سبيلر).. (سبيلر)! أين أنت!؟
- هنا يا سيد (جون)..
- حان الوقت.. هل سمعت عن موضوع الـ (أنتيجيرون) هذا؟
- من بعض الصحف يا سير (جون)..
- إن زوجتي تؤمن به بشدة.. وتذهب إلى هذه الـ (نفرتيتي) منذ أعوام.. وأنا ميال لتصديقها.. تبدو كأنها لم تشخ منذ تزوجنا..
- إن الليدي تحافظ على نفسها..
- اللعنة لا! هل ترى هذه الصورة؟ إنها تمثلها منذ تسعة أعوام.. كأنها هي لم تتغير..

- فعلًا يا سير (جون)..
- أريد أن تجد مديرة المكان - اسمها (براكلى) - ورتّب دورة علاجية.. وإذا لم تجد مكانًا شاغرًا أضف خمسة وعشرين بالمائة فوق السعر المعتاد للخدمة السريعة..
- لكني ظننت أن الليدي تأخذ دورة بالفعل..
- ليس لها بحق السماء.. بل لى!
- آه.. أرى.. أرى يا سير (جون)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملكة الأنتيجيرون!

إن جريدة (إيفننج فلاج) لتشعر بأنها تعبر عن رأى أكثر القراء، حين ترى أن الأجدر بالتمتع بمزايا العِلْم البريطاني هي أهم سيدة في البلاد: ملكتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا راديو (موسكو):
- بخصوص بعض التقارير في الإذاعة البريطانية، صرحت جريدة (أزفستيا) السوفييتية بالتالي:
- إن ما ذكرته الصحف البريطانية عن اكتشاف دواء يزيد معدلات العمر، لا يثير أدنى دهشة لدى مواطني الاتحاد السوفييتي المستنيرين، لأنهم يعلمون أن رائد هذا المجال هو بطل الاتحاد السوفييتي الرفيق (أ. ب. كريستانوفتش)، في مركز الشيخوخة بـ (كومسك).
إن العلماء في (روسيا) يعتقدون أن أبحاث (كريستانوفتش) قد سرقت بيد إمبريالية، وخضعت لمبالغات تحركها المنفعة

الشخصية.
إن العلم السوفييتي ما زال يقود العالم نحو النور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجت (جانيت) إلى الشرفة وصاحت:
- آه يا (ديانا)! يا لها من حديقة رائعة!
قالت (ديانا) وقد انحنت على النباتات، وهى تخلع قفازيها الأبيضين:
- إنني أحبها كثيرًا.. بالمناسبة أنا مسرورة لحضورك..
- يا عزيزتي لولا التصريح الذي معي لما استطعت الدنو..
دنت منها (ديانا).. وسألتها:
- ما هي آخر الأخبار؟
- ضوضاء سياسية.. وصحفية.. وضوضاء في الاتحادات النسائية..
- وغير ذلك؟
- يتحدثون عن مشكلة التعامل مع الصين..
- الصين؟
- لا يجب أن تظهري الدهشة أمامي..
- لكنني مندهشة فعلًا..
وتذكرت مقابلة (ريتشارد) و(زيفانى) لخاطفيهم.. لقد عرف الخاطفون مصدر الحزّاز.. لا بد أن الأمر تسرّب إليهم ومنهم..
قالت (جانيت) وعيناها لا تفارقان (ديانا):
- يقولون إن الصين هي المصدر الوحيد للحزّاز الذي نأخذ منه (الأنتيجيرون).. وحين يعرف الصينيون ذلك سيحتفظون

بالحزّاز كله لأنفسهم.. ثم إن الروس سيعرفون بدورهم.. إن شمال (منشوريا) قريب جدًّا من الحدود الروسية..
قالت (ديانا) متظاهرة باللامبالاة:
- على كل حال ليس هذا هو المصدر الوحيد..
- ليكن.. كوني حذرة كما تريدين.. أنا أقول لك فقط ما يقال.. يقولون كذلك إن الحزّاز يتم جلبه من الصين.. ويتم تجهيزه لك في (دار هاوس)..
هنا صاحت (ديانا):
- هذا كذب! أنا أستورد الحزّاز وأجهزه بنفسي.. لا دور لـ (دار) في الموضوع، هذه (فبركة) كاملة..
- أنا لا (أفبرك) يا عزيزتي..
- نعم.. لكن بين كل الأشياء الغبية التي تقال....... انتظرى هنا لحظة..
وخرجت إلى الحديقة دقيقتين لتفكر.. ثم عادت لتقول لها:
- (جانيت).. أريد أن أذيع كلمة.. ربّما في وقت ما مساء الأحد.. أحتاج إلى عشر دقائق لا أكثر.. أريد أن أجيب عن الأسئلة التي لم أجبها قط عن إلـ (أنتيجيرون).. هل هذا ممكن؟
ابتسمت (جانيت) وقالت:
- تحت أي ظروف يبدو أن امتناع الإذاعة عن قبول كلمتك أمر غير محتمل.. لكن ماذا ستقولين بالضبط؟
- لا تقلقي ورتبي لي الأمر..
- لا أفهم..
- سيكون كل شيء على ما يُرام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيارة توقفت على جانب الطريق، وأطفأت أضواءها.
نزل منها رجال لم تتأقلم عيونهم بعد على الظلام..
قال كبيرهم بصوت هادئ لكنه عال بما يكفي ليسمعوه:
- كل مستعد؟ هل أدواتكم معكم؟ حسن.. تذكروا الآتي:
صوت بومة واحد معناه أن (جيني) قد قطع خطوط الهاتف..
ثم انتظروا.. لو رأيتم أحدًا تعاملوا معه لتتأكدوا من أنه لن يطلب النجدة.. ثلاثة أصوات البومة: أنهوا مهمتكم.. ثلاثة أصوات.. الجميع يفهم؟ حسن.. تذكروا خطاكم جيدًا، فلسوف يعود كل منكم وحيدًا في الظلام.. ونحن لن ننتظر المتعثرين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-13-

صحت (ديانا) على رنين الهاتف جوارها:
- من؟
جاء صوت العاملة يقول:
- صباح الخير يا مس (براكلى).. معذرة.. لكن هناك مكالمة من مس (ساكسوفر).. وهي في القائمة.. تقول إن الأمر مهم..
نهضت (ديانا) وقالت:
- نعم.. دعيني أكلمها..
جاء صوت (زيفانى).. فسألتها:
- ماذا هناك؟
- إنها (دار) يا (ديانا).. لقد احترقت كلها! وقد أخذوا أبي إلى المستشفى..
وثب قلب (ديانا) متألمًا، واعتصرت السماعة متسائلة:
- آه (زيفي)! ماذا حدث؟
- كلنا على ما يرام.. لم يصب أبي إصابة بالغة.. كان ينام في الشقة كما تعلمين، وصحا على الحريق فوثب من النافذة.. بضع سحجات..
- الحمد الله! ولكن ماذا حدث من جديد؟
- لسنا متأكدين.. كأنها غارة قام بها حشد من الناس حاصروا المكان فجأة.. رجل يقول إنه كان متيقظًا ثم سمع صوت زجاج يتهشم.. لا بد أنهم رموا زجاجات مشتعلة عبر النوافذ.. كلا.. لم تحو (بترولًا) وإلا لكان أقل شراسة مما حدث.. لم تعمل أجهزة الهاتف.. لهذا أسرع (أوستين) بسيارته بحثًا عن غوث..
اصطدم بسلك ممدود عبر الطريق، وتهشمت سيارته.. ونقل المسكين إلى المستشفي أيضًا.. ضلوع كثيرة مهشمة..

أما الحارس العجوز فقد وجدوا جثته في الاسطبل.. البائس! مات من ضربة واحدة.. لحسن الحظ لم يتألم كثيرًا..
لقد ذهب كل شيء يا (ديانا): المنزل - المعامل - المخازن.. كل شيء.. وانتهى الأمر سريعًا..
الحمد لله على كل شيء.. هل وجد البوليس خيطًا ما؟
- لا أعتقد.. يقول إن (لديهم أسبابًا ليعتقدوا) أن هناك عصابة جاءت من مكان ما في سيارة (لورى).. (أوستين) يقول إنهم عباقرة..
- أبلغى أباك بأفضل تحياتي..
- بالمناسبة يا (ديانا).. ماذا عن الكلمة التي ستلقينها في الإذاعة؟ هل هذا حقيقي؟
- نعم.. من أين سمعت به؟
- لقد نوهوا عنه قبل وبعد نشرة أخبار الصباح.. ماذا ستقولين لهم؟
- كل شيء يا (زيفانى).. لو لم أعلنه فسأختنق به..
- وأبي؟
- يمكنك سؤاله لكنه لن يعترض.. أنا واثقة من هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انفتحت أبواب المصعد، وخرجت مجموعة صغيرة..
(ديانا) في المقدمة ترتدي زيًّا مسائيًّا فاتح اللون، وخلفها (لوسى برندون) متأنقة في شيء من البهرجة.. والأخرى (سارة) ترتدي ثوبًا فظيعًا من الأزرق القاتم.. وفي النهاية (أوتللى) وصيفة (ديانا)..
تقدم رئيس الحمالين نحوها وقال:

- هناك زحام كثير في الخارج يا مس (براكلى)..
نظرت (ديانا) عبر زجاج الباب، لترى نحو مائة شخص في الخارج أكثرهم من النساء.. أما الرجال فكان بينهم عدد يحمل آلات التصوير الصحفية..
عبر الملازم الذي يحرسها الممر، وأشار للجمع الواقف كى يفسح الطريق.. فتراجع الناس بعد تردد صانعين ممرًا ضيقًا..
قالت مس (برندون):
- الحمد لله على أننا نلعب دور الملكات بشكل مؤقت.. تخيلي أن الملكة تعيش في هذا الجحيم طيلة حياتها..
نظر الملازم للجمع نظرة مهددة، كأنما يتحدى أحدهم أن يدنو ثانية.. ثم اتجه نحو السيارة الـ (رولزرويس) ليفتح بابها.
اتجهت السيدات الثلاث إلى السيارة..
وهنا سمعوا صوتًا يقول:
- في الأربعين! تبدو كفتاة.. أليس كذلك؟
والتمعت فلاشات أجهزة التصوير..
هنا دوت ثلاث انفجارات داوية..
تأرجحت (ديانا).. اعتصرت جانبها الأيسر.. ثم ظهر قفازها الأبيض ملطخًا بالدم.. بقعة حمراء على جانبها.. تراجعت للوراء ثم سقطت على الأرض..
واصل المصورون التقاط صورهم في لهفة..
جرى الملازم عبر الدرجات، على حين سمع من يقول:
- لا تحركوها!



جرى الملازم عبر الدرجات ، على حين سمع من يقول :
ـ (لا تحركوها !) . .

كان قائل هذا رجلًا صغير السن يرتدي عوينات من العاج.. وأردف:

- أنا طبيب! إن تحريكها قد يؤذيها.. اطلبوا الإسعاف..

هرع الملازم إلى الهاتف، فوجد أن (أوتللى) قد طلبت الإسعاف فعلًا ووضعت السماعة وسألته:
- هل قبضتم عليه؟
- من؟
- الفاعل.. شاب يرتدي معطفًا ويعتمر قبعة خضراء.. كان على اليسار..
نظر الملازم للجمع فلم ير أية بؤرة للحركة.. لقد فرّ الرجل..
أما الطبيب فرفع رأسه حيث جثا جوار (ديانا) وتساءل متوترًا:
- ألن تبعدوا هذا الجمع اللعين؟
هنا انفتحت عينا (ديانا).. وحركت شفتيها.. ثم أغمضتهما ثانية.. قطب الطبيب جبينه وهمس:
- تلك الاسعاف!
هنا دوي جرس السيارة، التي وقفت خلف السيارة الـ (رولز).. وسرعان ما خرج رجلان ليحملا (ديانا) على محفة..
وانطلقوا نحو المستشفى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في التاسعة والربع أعلن المذياع:
- نعتذر لأن ترتيبات برامجنا لن تتم كما هو مخطّط لها..
إن مس (براكلى) التي كانت ستحدثكم عن الـ (أنتيجيرون) قد هوجمت في أثناء ذهابها إلى محطة الإذاعة.. أطلق مهاجمها ثلاث طلقات، وتوفيت في الإسعاف في أثناء نقلها للمستشفى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ظهر الأحد صار الجو نقيًا، تاركًا رصيف ميدان (ترافلجار) رطبًا بفعل ندى الصباح.. وبدأ القوم يفدون.. وجاءت فرقة

الجند بزيها المميز يجرّب أفرادها آلاتهم الموسيقية، وحولهم وقف الفضوليون ومن يطلبون تسلية لبعد الظهر..
تقدم رجل قصير القامة يحرسه عدد من مفسحى الطريق.. راح يبتسم ويلوح بذراعيه، وصافح عددًا كبيرًا..
وقال في مكبر الصوت:
- الـ (أنتيجيرون) أقذر سلاح ضد الطبقة العاملة.. القنبلة الموجهة التي تركوها تقع فوق العمال.. إن من يعيشون حياة الترف والثراء سعداء بالـ (أنتيجيرون) لأنه يعنى أعوامًا أطول من الترف والثراء.. لكن ماذا عنا نحن العمال؟ نحن من ننتج لهم الراحة والرفاهية.. إنه يعني أن نعيش ثلاثة أعمار.. ولو عشت أنا ثلاثة أعمار فأين يجد أبنائي العمل؟ إن هذا يعني جيلين من العاطلين.. وسيؤدى هذا إلى انخفاض رواتبكم..
وعلى الطرف الشمالي من الميدان، توقفت سيارة عند المتحف القومي، وخرجت منها مكبرات صوت عملاقة تصيح:
- قتلة! جبناء! سفاحو النساء!
توقف الخطيب الأول وقد فقد خيط الكلام، ثم عاد يقول:
- جيلان........
لكن صوت الآخر كان عاليًا حتى إن صوت الأول لم يعد مسموعًا..
- أنتم فقط تغتالون الأجساد، لكن الأفكار تعيش.. لقد قتلتم (ديانا براكلى) بسبب أبحاثها.. لكنكم لن تقتلوا الأبحاث ذاتها..
ونظر كل من في الميدان إلى السيارة الـ (فان)..
- لقد جلبت لنا الحياة فكافأناها بالموت..
كان البوليس قد وصل إلى السيارة، وفتحوا بابها على حين استمر الصوت:

- ماذا تعرفون عن الحياة يا جبناء؟ يا من تهابون الحياة إلى درجة تدميرها!
كان رجل شرطة قد انتزع السائق من العربة، وركب مكانه وراح يقود العربة مبتعدًا.. لقد كان الصوت يأتي باللاسلكي..
فما إن هدأت الضوضاء حتى استعد الخطيب الأول لمواصلة كلامه شاعرًا بالراحة.. فتح فاه، وهنا دوي صوت عال لامرأة هذه المرة تتحدث من ورائه:
- لا تفرحوا بنجاحكم في قتل فرد واحد.. فلن تقتلونا.. نحن نعرفكم.. قابلناكم من قبل.. أنتم (اللودايت)[3].. تدعون إلى هدم الآلات، والآن تريدون هدم صانعيها أيضًا!!
هرع مزيد من رجال الشرطة نحو العربة الثانية وابتعدوا بها.. ثم عادوا ينتظرون العربة الثالثة.. وسرعان ما ظهرت فأخذوها بعيدًا..
ونجحوا في تعطيل العربة الرابعة قبل أن تقول سوى عبارة: (تذكروا ديانا براكلى، التي استشهدت بقوى الغباء والأنانية)..
لم تظهر سيارة خامسة.. لذا التقط الخطيب أنفاسه..
هنا ظهر زحام آخر خلف النافورات يغني بإيقاع متعال:
- قتلة.. جبناء.. سفاحو نساء!
تردد الجمهور للحظة.. وعلى الفور - دون تفكير - تحرك الحشد قاصدًا الحشد الآخر.. حاول رجال الشرطة أن يفصلوا بين الحشدين.. ثم ظهر (الكونستابلات) على خيولهم، التي تصدم حوافرها الأرض فينبعث منها الشرر...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهت الجنازة يوم الأربعاء..

وتدريجيًّا بدأ زحام يتجمع في ميدان (ترافلجار)..
وفي السابعة مساءً ظهرت صور (ديانا).. وملصقات تحمل شعار (ر.ح.ج) أي (رابطة الحياة الجديدة).. وظهرت راية كبيرة عليها: (في ذكرى ديانا براكلى) التي كانت الحياة مهنتها، فصار الموت جزاءها..
وبدأ الزحام يتزايد ويعطل المرور..
وراح يتدفق بين السيارات المعطلة والحافلات، حتى مزق (كردون) الشرطة.. وتحطم (الكردون) أخيرًا وتدفق الحشد..
كانوا يغنون:
جسدها في القبر..
لكن عملها سيدوم!
وتعالى صوت الغناء أكثر فأكثر:
- اقتلونا كما قتلتموها..
لكن عملها سيدوم!
وتدفق الحشد إلى ميدان البرلمان.. وصاح صائح في مكبر صوت:
- نبغى الـ (أنتي - جي)!
وكان له ايقاع قوي، فالتقطه القوم هتافًا وراحوا يرددونه في كل صوب:
- نبغي الـ (أنتي جي)!
نبغي الـ (أنتي - جي)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- كما عرف مستمعو آخر نشراتنا، فقد ألقى رئيس الوزراء خطابًا أمام المجلس أمس عن الـ (أنتيجيرون).
إن الوزارة قد أولت اهتمامًا هائلًا لهذا الموضوع، وإن كان إبداء رأيها للجمهور قد تأخر، فهذا لحرصها على عدم إثارة آمال

كاذبة.
لكننا وصلنا مرحلة يمكن أن نصارح الناس فيها بالحقائق. إن هذا الكشف يدل على تقدم العلم في (بريطانيا).. لكن اكتشاف شيء عظيم لا يدلّ بالضرورة على وفرة هذا الشيء.. ولعلنا نذكر أن (الألومنيوم) عند اكتشافه كان أغلى من (البلاتين) وأندر.
إننا نجد الـ (أنتيجيرون) بعسر بالغ، من نوع نادر من (الحزّاز)، وللأسف لا يجد العلماء طريقة أخرى حاليًّا.
إن الحكومة تدعم البحث العلمي في هذا الصدد بعشرة ملايين جنيه، وهي واثقة من أن العقول البريطانية ستجد مخزونًا كافيًّا من الحزّاز يكفي كل رجل وامرأة في البلاد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-14-

أوقف (فرانسيس ساكسوفر) سيارته..
وعلى بوابة المزرعة استطاع أن يرى عبارة (مزرعة جلين)..
كان بوسعه من هنا أن يرى المنزل.. المنزل المريح اللائق على المكان، المبنى بالحجارة الرمادية ربما منذ ثلاثة قرون..
كان يطلّ على البحيرة، وله حديقة صغيرة جميلة..
كان هناك مدخنتان يخرج الدخان الأزرق من إحداهما..
خرج من السيارة، وتقدم نحو المنزل..
أثار شيء ما عند قدميه اهتمامه.. انحني ليلتقطه.. وتأمله بوجه معبّر، اختلج ركن فمه.. وترك قطعة (الحزّاز) تسقط على الأرض..
فتحت فتاة ريفية الباب فسألها عن مسز (إنجلز).. قالت:
- إنها في الجرن يا سيدى، ما الاسم الذي أقوله لها؟
- قولي: إنني من مصلحة التعداد..
وأدخلته لغرفة جلوس مريحة، على جدرانها صور زهور جميلة..
سمع الباب يفتح خلفه، وصوتًا مألوفًا يقول:
- صباح الخير..
استدار نحوها.. فشحبت وتأرجحت.. وهتفت:
- أوه! كان هذا سخيفًا.. إنني سأبكي.. ليس البكاء من عاداتي.. ولا أحد يجعلني أبكي سواك!
وبكت (ديانا) لمدة عشر دقائق..
فلما هدأت سألته:
- ولكن كيف عرفت؟
- يا عزيزتي.. أنا لم أولد أمس.. كانت مسرحيتك رائعة.. لكن زيارتك المفاجئة لـ (دار).. أسلوبك.. اختيارك للكلمات.. وكان من

العسير أن أعرف أن مسز (إنجلز) هي أنت.. لكني عرفت أن هذا كان اسمًا لك في فترة من حياتك..
- لم يكن عسيرًا أن ألعب دورها.. لأنني أنا هي بالفعل..
نظر لها مشدوهًا للحظة.. وقال:
- لم أفكر بهذا.. قلت إنك غير متزوجة..
- يجب أن أقول ها هنا إنني لا أفهم العادة السارية: أن تظل الزوجة تحمل اسم زوجها حتى بعد طلاقها منه كان هذا منذ زمن بعيد.. كنت صغيرة.. كنت مصدومة.. كنت فقدت ما أتمناه.. لهذا بحثت عن أسلوب جديد للحياة.. لم يكن زواجًا ذا أساس.. كان زواجًا قصيرًا تعسًا.. ولم أحاول أن أجربه ثانية..
- وهل أنت سعيدة الآن؟
- أعرف أنك لا توافق على ما فعلته أنا.. كثيرون سيلعنونني لو عرفوا ما قمت به.. لكني كنت مضطرة.. ثمة أشياء مهمة وضرورية وأنا فخور بها.. كان وجودي كفيلًا بإسالة دماء كثيرة، والدنو مما يشبه الحرب الأهلية.. لكن اختفائي قد أزال هذا الخطر..
ثم هتفت:
- أنت مصدوم.. لكن لا كصدمة فتاة صغيرة في عواطفها.. فتاة تجد.. أو تحسب أنها تجد – رباه لا أستطيع التعبير! - أن مركز وجودها قد غزاه رجل هو.. هل ستجعلني أقولها يا (فرانسيس)؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الشمس تغرب وراء الجبال، راسمة الظلال على البحيرة..
وفي المنزل كان (فرانسيس) و(ديانا) جالسين على الأريكة يقرران حياتهما القادمة.. وكانا قد اتخذا أهم القرارات..

سألته:
- هل لديك مخزون من (الحزّازين)؟
- ما يكفي لإبقائي و(زيفانى) و(بول) و(ريتشارد) لفترة.. وأنت؟
- عندي قليل يكفي (سارة) و(لوسي).. ثم هناك (جانيت) و(ليديا) اللتان لن أتخلى عنهما.. وعلى أن أجد حلًّا لهما..
- إذن سيعرف كل هؤلاء أنك ما زلت حية..
- سيعرفون عاجلًا أو آجلًا..
- ولو لم تكن هناك نتائج بحثية خلال ثلاث سنوات - ما دام الأمريكان والروس يعملون في الموضوع - أعتقد أنك ستجدين إمدادًا جديدًا..
- هل لاحظت الحديقة؟ نعم.. لقد بدأ ينمو هنا بكميات ضئيلة جدًّا..
راح يرمق اللهب في المدفأة.. وقال:
- ليس من الحكمة أن تعودي للظهور ببساطة بعد هذا.. فالسماء وحدها تعرف ما سيحدث.. لن نستطيع العودة لإحياء (دار).. أي أننا يجب أن نغادر البلاد..
- قد رتبت كل شيء.. سنبقى ها هنا.. ستتزوج أنت مسز (إنجلز) في صمت.. وسيعرف الناس فيما بعد أن مسز (إنجلز) هي أخت (ديانا) الصغرى.. وستعيش ها هنا بضعة أعوام.. إن المكان متسع ها هنا وعندها يمكنك أن تعود إلى نجوميتك السابقة في المجتمع..
- بالمناسبة.. لقد أطلقوا علي (ديانا) ثلاث رصاصات.. فكيف؟
- فشنك يا عزيزي.. والدم هو حيلة صغيرة يستعملونها في التلفزيون لتلطيخ الثياب بالحبر الأحمر..
- قلت إنني سأعود لنجوميتي.. أعتقد أنني لم أكن نجمًا قط..

- بل أنت نجم.. نجم إلى حد مفزع.. لكني قلقة من فكرة أن نبقى ها هنا ثلاثمائة عام دون أن نفعل شيئًا.. إن لدىّ معملًا جيدًا في الجرن يناسبنا..

ونهضت وأمسكت بمعصمه قائلة:

- عليك أن تبدأ محاولة تحديد التركيب الجزيئي للـ (أنتيجيرون).. فقط تعال معي يا عزيزي.. وسأريك كل شيء..

جون ويندهام
لندن ـ 1960

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

فليت ستريت: حى الصحافة فى (لندن).

[←2]

تتحدث عن لوحة شهيرة للرسام الإيطالي (بوتشيللى).

[←3]

اللودايت: هم مجموعة من العمال كانوا ينادون بتحطيم الآلات - في عهد الثورة الصناعية - بدعوى أنها ستجعلهم يفقدون أعمالهم..


روايات عالمية للجيب
27
فريق
متميزون
E-BOOK
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
مطار ٧٧
قصة : مايكل شيف وديفيد سبكتور
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (27)

مطار 77

بقلم: مايكل شيف وديفيد سيكتور.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

..مطار 77

حرك (فيليب ستيفنز) عصا الطائرة (الهيلوكوبتر)، فدارت الطائرة في قوس عبر سماء (فلوريدا) الزرقاء الصافية..

ومن تحته استحال المحيط الأطلنطي الثائر إلى لسان ضيق من الأرض، تغطيه النباتات وأشجار النخيل وقناة تشبه شبكة الطرق..

ابتسم (ستيفنز).. فهو يستطيع تعرف هذا المشهد حتى على هذا الارتفاع.. إنهم يطيرون فوق (بالم بيتش).. وأشار إلى مساعده كي يتولى القيادة.. فهز هذا رأسه وأمسك بالعصا، كي يهبط بالطائرة.

كان (ستيفنز) راغبا في الاستمتاع بالمشهد أكثر.

فهو لم يفقد قط اللذة الأولى لرؤيته هذا اللسان الضيق من الأرض في كل مرة يحلق فيها فوقه.

كان طوله يتجاوز الستة أقدام، لا ترى في مظهره أثرا لأعوامه السبعين برغم أن شعره كان رماديا ووجهه ملأته التجاعيد..

لكن عينيه كانتا أهم ما يجذب الناس إليه.. زرقاوان نفاذتان تتلمسان العالم حولهما في براءة طفولية.

فتح سترته الواقية مستشعرا البرد في قمرة القيادة.. وشعر أنه يخلق من جديد.. لقد أمضى آخر أربع وعشرين ساعة في غرفة مغلقة مع قيادات العمال الغاضبين.. لا هواء، ثم رائحة التبغ والسيجار..

نظر إلى ساعته.. لقد كان الأمر يستحق.. فعلى مدى خمسة وثلاثين عاما صارت مؤسسة (ستيفنز) مؤسسة ناجحة لا تعاني أبدا من الإضرابات العمالية..

لقد طار إلى (جاكسونفيل) في الثالثة لإجراء مفاوضات مع العمال، قبل أن ينتهي العقد معهم باثنتي عشرة ساعة.. وكانت المفاوضات اختبارا حقيقيا في التحمل، مارس فيه لعبته القديمة الناجحة دوما.. أقنع رؤساء اتحاد العمال باتفاق يرضى الطرفين.. ذلك الاتفاق الذي وصلوا إليه على رائحة الدخان والعرق والتوتر.. حمى العطاء والأخذ وتوتر قرب انتهاء العقد.

تذكر أيامه الأولى حين بدأ إنشاء مؤسسته.. وفكر:

- حسن.. لسوف أرحل عن قريب، لكنى كونت فريقا يستطيع القيام بما قمت به.. ويفكرون كما فكرت.. لكن ما دمت حيا سيعرف الجميع أن دماء الحياة مازالت في عروقي..

وابتسم..

كان الجميع ينصحه بالتمهل قليلا.. لكن عليهم أن يعرفوا أنه بالنسبة لحصان حرب عجوز فإن أبواق الحرب تمثل إغراء لا يقاوم..

بدأت الطائرة تهبط.. وظهرت معالم (بالم بيتش) أكثر..

راح الطيار ينحدر نحو الجانب الغربي من شبه الجزيرة، حيث لاحت أملاك (ستيفنز) هناك..

تنفس (ستيفنز) هواء المحيط في جشع.. وسالت دموعه حين رأى أملاكه.. لقد عاش في أماكن كثيرة، لكن يظل هذا هو المكان الوحيد الذي يسميه (بيتي)..

لقد تم بناء العقار في الخمسينات، وأسماه مالكه (ميليفورا) - أي الألف زهرة - وحاول (ستيفنز) أن يجعل الاسم جديرا بالمكان.. جنوبا كانت هناك بحيرة صناعية تم تزويدها بالأسماك.. وشمالا كان هناك مشتل يحوي نباتات نادرة من أطراف العالم الأربعة..

لكن (ستيفنز) كان شديد الفخر بالجزء المركزي من المقاطعة.. وكان يدعى (الدار).. ارتفاعه أربعة طوابق له شرفات دائرية مزدانة بنباتات متسلقة فبدا كقصة خيالية..

هبطت الهليكوبتر أكثر.. ومن تحتها كان هناك مئات العمال يضعون أشياء على شاحنات أو ينقلونها بالأوناش.. وعربات التلفزيون في كل مكان، بينما كابلاتها الكهربية السميكة تزحف في كل صوب..

خلع سترته فقد ازدادت حرارة الجو..

جاء (هاري جيفرسن) ورجاله.. وكان (هاري) رجل علاقات عامة لا يقدر بثمن، وقد عمل دهرا مع (ستيفنز)..

حاصر الصحفيون (ستيفنز) فور هبوطه من الطائرة، وراحوا يلتقطون له الصور.. ويتدافعون بالمرافق..

رفع ذراعيه لأعلى وصاح:

- بحق الجحيم يا أولاد.. لا تضيعوا الأفلام عليّ.. ادخروها لحفل الليلة.

انهمرت الأسئلة.. وكأنها شوشرة من مذياع لم يتم ضبط محطاته بدقة.. لكن (ستيفنز) لم يكن بحاجة إلى سماع الأسئلة كي يعرف محتواها.. إنها نفس الأسئلة دائما منذ أهدى أملاكه في (فلوريدا) إلى شعب الولايات المتحدة.

وبروح مرحة راح يحكي خطته.. فهو - حين بلغ السبعين - شعر بالحماقة لحياته وحيدا في مقاطعة ضخمة، وشعر بأنه مدين للولايات المتحدة التي يمكن فيها - فقط - لعامل صغير مثله أن يملك أكبر مؤسسات العالم، عن طريق عرقه لا أكثر لهذا قرر تحويل الدار إلى معرض لمجموعته الثمينة من الفنون.. والأراضي سيحولها إلى حديقة للشعب.

هنا تدخل (هاري) مقاطعا الصحفيين:

- فيما بعد يا شباب.. إن أمامنا مائة تفصيلة لا بد من ترتيبها الآن مع مستر (ستيفنز).. فلو لم يتم حفل الليلة فلن تكون هناك أخبار لكم.

ضحك الصحفيون وابتعدوا.

وابتعد الرجلان بدورهما نحو الدار.. هنا استوقفتهما النباتات المحيطة بالبناية.. تذكر (ستيفنز) أن ابنته (ليزا) نمت كهذه النباتات.. كانت طفلة وفجأة صارت امرأة حسناء.. وفجأة فتح عينه ليجد أنها تزوجت.

في الداخل كان العمال عاكفين على تعليق الأضواء، وقد تم دهان القاعة بلون أبيض يناسب ما سيعلق فيها من لوحات.

هنا سمع من يقاطعه:

- هل لي في بعض الأسئلة؟

كانت هذه (مارسي).. مذيعة أخبار التلفزيون الشقراء.. كانت تستطيع دائما نيل رضاه.. وكانت ذكية بما يكفي كي تحصل لنفسها على مزية من هذا الرضا..

كانت تريد أن تعرف بعض المعلومات عن الطائرة النفاثة الخاصة بمؤسسة (فيليب ستيفنز)، التي ستنقل أصدقاءه وشركاءه إلى افتتاح المعرض هذه الليلة.

هز (ستيفنز) رأسه وقال:

- هي مجرد طائرة شركة جديدة، يستقلها زملائي في (واشنجتون) قادمين إلى هنا.. لا شيء غير معتاد.

كانت تعرف أنه يتهكم.. لذا قالت:

- لا شيء غير معتاد في طائرة (747) كلفتك خمسة وأربعين مليون دولار لشرائها.. ثم خمسة عشر مليونا لتأثيثها؟ هلم يا سيدي.. هل تظن أنني محررة حمقاء؟

نظر إلى مدير علاقاته وقال:

- يبدو لي أن هذه الشابة قد أنجزت واجبها المنزلي جيدا.
قالت:
- ظللت أفتش في شركة (بوينج) حتى وجدت من يحب الثرثرة.. سمعت أن الطائرة قد تم بناؤها بطريقة غريبة.. يقولون إن مقاعد الركاب انتزعت ووضعت مكانها موائد وقاعات مؤتمرات.
- ليس هذا كل شيء.. الحقى بي في (بالم بيتش) الليلة ومعك طاقم الأخبار.. سأريك كل ركن بالطائرة..
شكرته منبهرة، وابتعدت.
قال (جيفرسن) وهو يتأملها:
- فتاة مليئة بالحماس..
- لا أشك في هذا..
ثم تذكر شيئا.. فسأل (جيفرسن):
- ألم تتصل (إيف كليتون) بعد؟
- نحاول الاتصال بها.. لكنها غير موجودة.
- دعني أعرف حين تنجح في الاتصال بها..
وابتسم ابتسامة حزينة.. فبادله (جيفرسن) ابتسامة دافئة.

☆ ☆ ☆

أحس (كالاهان) بألم في أسنانه.
كان يشعر به منذ الظهيرة وهو يقود السيارة.. وراح يتساءل عما إذا كان قد نسي موعده السنوي مع طبيب الأسنان.. فهو لم يكن منظما.. لقد أرسل له د. (سلون) يذكره بالموعد، لكنه لا يدري هل فعل أم لا..

قاد سيارته (البلايموث) نحو شارع (أوك).. إنها الخامسة والمرور يزداد كثافة.. أحس بالذعر.. هل سينتظرونه لو تأخر؟ وماذا لو لم يظهروا؟

زاد من سرعة السيارة، وتحاشي سيارة (كاديلاك) توقفت أمامه.. وبصعوبة حدق بعينيه في ضوء الشمس ليتأمل راكبها.. الوغد الثرى..

ابتعد بسيارته ليتجه إلى الشارع الرابع، وأشعل لفافة تبغ، وراح باشمئزاز يرمق الأحياء التي تعج بالزنوج وسكان (بورت ريكو).. حتى في صباه لم تكن (رونوك) مدينة.. لكنها الآن مستنقع قذر.

فكر في عصبية في الأسطوانة الصفراء الملقاة في حقيبة السيارة تلفها البطاطين.. إنها بعيدة عن الأذى.. لكنه لا يعرف محتوياتها، ولسوف يشعر بالراحة حين يعيدها إلى الرجال الذين استأجروه كي يسرقها لهم.

فكر في الثلاثة آلاف دولار التي وعدوه بها؛ وهو يتوقف أمام بائع جرائد.. ورأى سيارة (فان) بيضاء تقف خلف سيارته، فوثب قلبه إلى فمه..

إنهم هم الرجال الذين استأجروه..

وهنا أدرك أن أسنانه تؤلمه لأنه يضغط عليها منذ ثلاث ساعات..

☆ ☆ ☆

- برج (دولز).. هنا (2 - 3 سييرا).. نحن على ارتفاع 3000.. نطلب تعليمات الهبوط..

- (روجر).. (2 - 3 سييرا).. استمر في الدنو.. خال للهبوط..

أوقف الطيار (دوين جالاجر) عمل الطيار الأوتوماتيكي، وبدأ ينحدر لأسفل بعدما أوقف المحركات النفاثة.

كان يتعامل مع الطائرة (747) بسلاسة أكسبته إياها الخبرة.. وراح يراقب معدلات السرعة.. الهبوط..

كان في أوائل الأربعينات.. لكن شعره - ذا لون الملح والفلفل - جعله يبدو للناس أكبر سنا.. وهو هادئ جدا مما جعله أجدر الناس كقائد لهذه الطائرة العملاقة.

استدار إلى مساعده (شامبرز):

- إنها لك..

فهز (شامبرز) رأسه وأمسك بمفاتيح التحكم..

استدار (جالاجر) إلى المهندس (بث ووكر):

- هل حصلت على معلومات الهبوط؟

- كله معد.. والضغط مناسب.

كان هذا هو الفحص الأخير وكل شيء على ما يرام.. الطائرة سليمة نظيفة كالصفارة.. لقد وصلت إلى درجة الامتياز.. واجتازت ست اختبارات عويصة جعلتها بحق أكثر طائرات العالم أمانا..

نظر (جالاجر) إلى النافذة الجانبية ليرى شذرات السحب تتكاثر فوق (واشنجتون).. الرؤية سيئة لكنه هبط مرارا فوق هذا الممر حتى ليفعلها مغمض العينين.

تناول قائمة المراجعة وراح يتفقد تعليمات الهبوط، بينما يرد عليه (شامبرز) أو (ووكر) كل حسب عمله..

- الضغط؟

- مضبوط..

- الارتفاع؟

- تم التأكد منه..

- طاقم وحدة الـ (بارو)؟
- أُعيد التحقق منه.
كان هناك أكثر من مائة مصطلح يجب مراجعتها، قبل هبوط الـ (747)..
كانت السحب الزغبية تتزايد منذرة بقدوم طقس سيئ لمدة أيام.. وتمنى لو لم يكن (فيليب ستيفنز) قد اختار الليلة لافتتاح متحفه.. وراح يراقب (شامبرز) في أثناء عملية الهبوط..
إن من واجبات عمل (جالاجر) مراقبة الطاقم بالإضافة إلى مراقبة الطائرة.. ولم يكن لديه شك في أن (شامبرز) يعرف حقا ما يفعل..
كان (جالاجر) يحب أن يعرف من يعملون معه.. وقد عمل طويلا مع (ووكر) فوجده مهندسا ذا ضمير يقظ وروح مرحة.. وهذه الأخيرة مهمة جدا بالنسبة لطائرة مزدحمة لعدة ساعات.
لكن (شامبرز) كان غامضا تماما بالنسبة لـ (جالاجر).. كان عملاقا في الأربعينات عديم المرح، قلما يضحك على نكات (ووكر).. بل هو (يتحملها) في صبر.. هذه هي الكلمة الدقيقة: (يتحملها).
لكن (شامبرز) كان بارعا في عمله حقا، وهو مديح من العسير أن يصدر عن (جالاجر)..
لكن (جالاجر) كان يؤمن بأن معرفة الطاقم جيدا تجعلك تتنبأ بتفاعله مع الأزمات.. ومعنى هذا – في مهنة الطيران - هو الفارق بين الحياة والموت.. لقد تقدمت علوم الطيران كثيرا، لكن حكم الإنسان هو الذي يصنع الفارق في حالات الطوارئ..
هنا كانت عجلات الطائرة قد لمست الأرض..

☆ ☆ ☆

وقف (بوتشك) جوار الأبواب المفتوحة للحظيرة (ج) يراقب هبوط الطائرة (747)..

وحين بدأت تتحرك للحظيرة أصدر تنهيدة ارتياح.. لقد كان (بوتشك) في أسوأ حال نفسي، وكان عصبيا، دخن أكثر من نصف علبة تبغ قبل أن يتذكر أنه هجر التدخين أمس..

إنه معروف بتوتره وولعه المجنون بالإتقان، وكان هذا هو اليوم الذي سيتوج كل جهوده.. وبعد ثمان ساعات تطير الطائرة إلى (بالم بيتش) لتخرج من يديه أخيرا..

لقد كافح كثيرا لتحويل هذه الطائرة من طائرة مسافرين إلى طائرة للاستعمال الشخصي.. أي أنه كان مسئولا عن تصميمها من جديد.. وقد فعل ذلك..

كان يعرف كل شيء عن (البوينج 747) منذ إنتاجها.. وكان حجمها الهائل يدهشه.. فهي بارتفاع مبنى من أربعة طوابق.. وطولها كنصف طول ملعب لكرة القدم.. تولد ملايين من الأحصنة، وطاقة تكفي لإضاءة مدينة صغيرة ليوم كامل..

كان هناك الكثير مما ينبغي عمله قبل رحلة الطائرة إلى (بالم بيتش)، وقبل أن ينتهي هذا اليوم العسير..

وفكر في نفسه:

- حسن.. ليكن.. لقد أردت أن أكون مسئولا عن هذا المشروع اللعين وها قد نلت ما أردت..

في ذلك الوقت كان (جالاجر) يغادر مقعده وقال لمن معه:

- الخامسة يا شباب..

ووضع حقيبته على كتفه.. رأى (بوتشك) يقف في الحظيرة متوترا، فابتسم.. كان يعرف أنه لا قلق يعدل قلق مشرف المشروع، حين يصغى إلى تقرير قائد الطائرة عنها..

- استرخ يا (بوتشك).. إن طائرتك هي الإتقان ذاته..
هنا فقط استرخي كتفا (بوتشك)، وأطلق تنهيدة ارتياح..

☆ ☆ ☆

ازدادت سرعة الوصول والمغادرة في المطار..

نفس المجموعة التقليدية من السياسيين ورجال الأعمال والسياح، وقد راحوا يتنقلون بين شبابيك التذاكر والاستعلامات..

كانت هذه الحقيقة تناسب (جو بانكر) في مهمته.. فقد كان يرتدي زي طيار.. صحيح أنه كان ضيقا تحت إبطيه، لكنه كان مقنعا وجيدا.. اتجه نحو الباب الذي يقود إلى إحدى الطائرات..

تأمل الحارس على الباب شارة المرور الزرقاء على سترته، ثم ابتسم وجعله يمر..

كانت هذه هي العقبة الأخيرة أمام (بانكر)..

دخل استراحة طاقم الطائرة وكانت خاوية.. وما كان ليقلق لو لم يجدها كذلك.. فزيه هو زي أكبر شركة طيران في العالم، ولو قابله واحد من نفس الشركة فلن يكون غريبا ألا يتعرفه..

هناك فتح إحدى الخزانات الجدارية فأخرج منها ثياب رجل صيانة، واستبدلها بثيابه.. ودخل دورة المياه..

ثم إنه فتح المرحاض.. بداخله كانت حقيبة بلاستيكية بها مسدس عيار 0.35.. انتزع السلاح من الحقيبة ودسه في جيبه وغادر المكان.



ثم إنه فتح المرحاض . . بداخله كانت حقيبة بلاستيكية بها
مسدس عيار ٣٥ و . . .

الان صار رجل صيانة طائرات عاديا.. فقط كان ينقصه أن يثبت بطاقة التعريف: (مشروع ستيفنز - تنظيف الحظيرة ج)..

☆ ☆ ☆

تكاثر الرجال وعمال الصيانة حول الـ (747) في الحظيرة.. شاحنات الخدمة وعربتان مدرعتان..

كانت الشاحنات تنقل مجموعة من اللوحات الفنية والتماثيل، وهي من مجموعة (ستيفنز) الفنية التي ستنقل إلى (بالم بيتش) الليلة..

أعمال لـ (فان جوخ).. و(أتريللوس).. وبعض التأثيريين..

تساءل (بوتشك):

- ما الأغلى ثمنا؟ الطائرة أم حمولتها؟

كانت هناك كذلك مجموعة هائلة من عبوات (الكافيار) والجبن الفرنسي والخمور النادرة.. وكلها لزوم حفل الليلة.

نظر إلى بعيد فرأى (إيف كليتون) تعمل جاهدة في الطرف الأخر من حظيرة الطائرات.. وحتى على هذا البعد فكر: كم هي امرأة جميلة.

كانت مشغولة جدا.. فهي تعمل في المشروع منذ عام، واليوم كان هو ذروة جهدها.. كانت تراجع قوائم التكاليف والضيوف.. فهي - إلى جانب جمالها - متمكنة جدا من عملها حتى صارت مديرا أساسيا في شركة (ستيفنز)..

دق جرس الهاتف، فرفعت السماعة متضايقة نوعا لقطع حبل تركيزها.

كان هذا صوت (ستيفنز):

- (إيف).. كيف حالك؟

- لطيف أن أسمعك يا (ستيفنز).. إننا بخير.. وكنت أراقب الحمولة.

- وماذا عن الضيوف؟

- قبل الجميع الرحلة.. ليس هناك عاقل يرفض رحلة كهذه.

ساد الصمت هنيهة ثم سألها:

- هل تحدثت إلى (ليزا)؟
كادت تقول أي شيء.. ثم وجدت أنه يستحق معرفة الحقيقة:
- لن تجيء يا (فيليب).. أنا آسفة..
لقد حاولت كثيرا أن تصلح بينه وبين ابنته، لكن المحاورة الطويلة لم ترأب صدع العلاقة.. لقد عارض كثيرا زواج ابنته برغم إرادته. وكان من العسير إقناع (ليزا) بالسفر إلى (بالم بيتش).. ولقد غضبت (إيف) كثيرا، وشعرت أن (ليزا) طفلة مدللة أكثر منها امرأة عاقلة.
- لا تتضايق.. فهي ابنتك.. ولسوف تكون هناك مرات أخرى..
- لا تخدعي نفسك.. لن تكون هناك مرات أخرى..
أمسكت بالهاتف وعضت شفتها السفلى.. كان هذا سرا بينهما، لكنه سر ودت لو تنساه.. فالحقيقة هي أن (ستيفنز) مصاب بسرطان متقدم، ولن يطول به الأمر.
قال لها:
- حسن.. سأراك هنا الليلة.. شكرا على كل شيء..
وضعت سماعة الهاتف.. كانت قبل المكالمة تشعر بالحماسية والحيوية أما الآن فقد غمرها الحزن.
انحنت على المنضدة، وراحت تفرك براحتيها عينيها..

☆ ☆ ☆

مشي (بانكر) نحو الحظيرة مشية مسترخية سهلة.. إن زي رجل الصيانة يناسب جدا، وهو رجل يهتم كثيرا بالتفاصيل الصغيرة كهذه..

خارج الحظيرة كان الطيار المساعد (شامبرز) ينتظره في عصبية بالغة.. ابتسم (بانكر).. فهو كان يعتبر نفسه محترفا من الذين يزدادون هدوءا وثقة كلما دنوا من العملية..

لقد كان من حظهم أن يظفروا بـ (شامبرز).. فالرجل قد ذهب كثيرا إلى (لاس فيجاس) حيث تراكمت عليه ديون القمار، وهنا ظهر (بانكر) ورفاقه ليدفعوا ديون (شامبرز).. كانوا بحاجة إلى مساعد طيار يكون تحت سيطرتهم..

قال (بانكر) للرجل الذي غمر العرق وجهه:

- اهدأ.. سيكون كل شيء سهلا..

- لقد حصلنا على الشحنة هذا الصباح..

ابتسم (بانكر) في ثقة، وفارقه متجها نحو الحظيرة..

لم يجد عسرا في الدخول.. فاتجه إلى الطائرة (747).. فتسلق إلى مخزن البضائع.. وكان (ويلسون) ينتظره في المطبخ..

كان (ويلسون) رجلا بادنا يرتدي زي رجال الصيانة.. اتجه معه إلى الاستراحة حيث الظلام والهدوء..

اتجها إلى ممر مظلم بعد ما أضاءا كشافا.. وكان هذا الممر يقود إلى مؤخرة الطائرة.. أخرج سلما صغيرا فتسلقه.. وانتزع قطعة من السقف..

هذا جزء من الطائرة لا يراه المسافرون أبدا، لكنه مهم للصيانة.

على ضوء الكشاف راح يتتبع خراطيم الهواء التي تؤمن تكييف هواء الطائرة.. ثقب جزءا من الخرطوم، ثم أدخل عبره سلكا من النحاس، فصارت هناك حافظة نحاسية تتصل بخرطوم الهواء.

ثم انتزع من حقيبته أسطوانة صفراء صغيرة كتب عليها (غاز سي - آر - 7 خاص باستعمال الجيش فقط)، فقام بتثبيتها

بالحافظة.

الآن يمكن للأسطوانة أن تفرغ محتواها في خراطيم الهواء مباشرة.

وابتسم (بانكر)..

إن العملية - حتى هذه اللحظة - تتم بأدق وأسهل ما يمكن..

☆ ☆ ☆

في السابعة مساء كانت كل ترتيبات الرحلة قد أعدت.

وصل الضيوف، ولدهشتهم وجدوا أن بساطا أحمر قد فرش من موضع السيارات إلى الطائرة.. ووقف (جالاجر) يحيي الضيوف الذين ينيف عددهم على العشرين..

ثم دخل إلى قمرة القيادة وأدار جهاز اللاسلكي:

- خدمة الطيران.. هنا 2 - 3 سييرا.. أريد معلومات عن الطقس..

صدر صوت أزيز إستاتيكي.. ثم جاءت الإجابة:

- هناك عاصفة تبدأ في الخليج عليك الالتزام بالجدول الزمني بدقة يا كابتن..

- (روجر)..

وأغلق الجهاز.. لا شك في احتمال سقوط أمطار.. إن ليلة عسيرة تنتظره..

☆ ☆ ☆

في داخل حافلة المطار ذات اللونين الأزرق والأبيض، جلست (جين ستيرن) تمسك بحزم يد ابنتها (بوني) ذات الثماني

السنوات.
هتفت الطفلة في حماسة كديدن الأطفال:
- أهذه هي الطائرة يا ماما؟
هزت رأسها في عصبية.. فالصغيرة لم تركب طائرة قط وتجن شوقا للرحلة.. كانت (بوني) قد ربحت هذه الرحلة كمرشحة مدرستها المتفوقة.. وبالتالي ظفرت بهذا المقعد الذي أهداه (فيليب ستيفنز).. وكان الأب مشغولا فاضطرت الأم لاصطحاب (بوني).
وشعرت الأم بأنها تفقد شجاعتها.. فالحقيقة هي أنها لم تركب طائرة في حياتها.
وثب قلبها إلى فمها حين رأت الطائرة.. فالشيء كان عملاقا.. قالت لنفسها إن الطائرة بالتأكيد متينة كالصخر.. ثم تذكرت أن الصخور تسقط في الماء أكثر من أي شيء آخر.
هنا دنت (إيف) منها ورحبت بها وبالطفلة سألتها بعين خبيرة:
- أول طيران لك.. أليس كذلك؟
هزت الأم رأسها أن بلى.. فهمست في أذنها:
- في أول مرة طرت فيها شعرت مثلك تماما.. ثم وجدت أن الأمر ممتع حقا.
كان هذا أفضل ما يقال لـ (جين).. وبدأت تشعر أن الأمور - بشكل ما - لم تعد مفزعة كما كانت.
ما إن انتهت (إيف) من استقبال الأم المذعورة، حتى رأت سيارة (رولزرويس) تصل، يقودها سائق خاص.
توقفت السيارة وانفتح بابها الخلفي، فكاد يصدم السائق حين حاول أن يفتح الباب.. وعلى الفور عرفت (إيف) القادم..
- هذه (إميلي ويليامز).. هكذا يكون الجميع قد جاء..

كل الأسماء موجودة عدا (ليزا) ابنة (ستيفنز)..
خرجت (إميلي) واثبة من السيارة، وهرعت نحو (إيف).. إنها امرأة قصيرة القامة في الستينات من عمرها.. ملأى بالحيوية والنشاط.. يبدو من وجهها أنها كانت جميلة جمالا كلاسيكيا في شبابها، وهو ما يبرر ما قيل عن حكاياتها العاطفية مع (بيكاسو) و (همنجواي)..
- أنت تبدين رائعة يا مسز (ليفنجستون)..
- أين (دوروثي)؟
هنا ظهرت (دوروثي).. كانت امرأة جذابة في الخمسين من عمرها، تحمل معطفا من الفراء، ومن المعتاد ألا تفارق (إميلي) لأنها ظلت سكرتيرتها أعواما طويلة، وفي النهاية غدت صديقتها الصدوق وكاتمة أسرارها.
كانت تهرع نحو (إميلي) بمعطف الفراء كي تلفه حول عنقها، فقالت هذه الأخيرة:
- (دوروثي)! بحق السماء.. نحن ذاهبتان إلى (بالم بيتش) لا (سيبيريا)..
ودخلت إلى الطائرة..
كانت طيلة حياتها في زبدة الثراء في المجتمع..
ولم تكن الرفاهية لتبهرها.. كذا راقبت (إيف) رد فعلها في اهتمام..
فما إن دخلت العجوز الطائرة حتى تدلى فكها ذهولا، وهتفت:
- إنها رائعة! تخطف الأنفاس!
كانت عبارة (خطف الأنفاس) تصف الموقف بدقة..
لقد أزيلت مقاعد الطائرة كلها.. وتناثرت أرائك مريحة في مجموعات لطيفة، جعلت المكان أقرب إلى استراحة فندق

فاخر.
وتحسست (إميلي) إحدى الأرائك، وأدركت على الفور أنها من تصميم (جوتشي).. مصنوعة من أفخر أنواع الجلد الإيطالي، ولا بد أنها كلفت ثروة طائلة.
وفي ركن القاعة كان هناك جهاز تلفزيون تحتل شاشته جدارا كاملا، كما كان هناك بيانو يجلس إليه عازف ضرير يعزف ألحانا متنوعة..
كما كانت هناك منضدة يجلس إليها عدد من نجوم المجتمع يلعبون الورق، وسرعان ما لحقت بهم (إميلي)..

☆ ☆ ☆

وضعت (إيف) سماعة جهاز (الإنتركوم)..
كانت قد سألت (جالاجر) تأخير الإقلاع قليلا، لكنه قال إن هذا مستحيل.. فالجو يسوء باستمرار عبر الأطلنطي..
كانت تفهم موقفه، لكنها تمنت لو تلحق بهم (ليزا)..
إنه أمل أحمق.. لكن وجود (ليزا) يعني الكثير لـ (ستيفنز) هذه الليلة..
هنا جاءت (جولي) سكرتيرة (إيف) بعينين لامعتين، وهمست في أذنها بحماسة جعلت الهمس أدني إلى الصراخ..
- هما هنا!
- من هما؟
- (ليزا)! (ليزا) و(بنجي)!
هنا ارتفعت معنويات (إيف).. إنها معجزة..
هرعت إلى الباب لتستقبل (ليزا) في أثناء خروجها من حافلة المطار، ومعها (بنجي) طفلها ذو الثماني السنوات..

رحبت بهما في حرارة.. واستدارت لترمق (ليزا)..
كانت (ليزا) فتاة حسناء تبدو أصغر من ستة وعشرين عاما.. في ملامحها استقلال وقوة..
ولاحظت (إيف) أنها ترتدي ثيابا بسيطة بالنسبة لرحلة كهذه..
هتفت (إيف):
- ما ظننتك قادمة..
- ولا أنا!
وكانت السخرية واضحة في صوتها.. وعرفت (إيف) أن الضغائن القديمة مازالت هناك سيكون عليها أن تحدثها قليلا في أثناء الرحلة..
- أنت مثل أبيك بالضبط.. عنيدة كالجحيم!
واقتادتها إلى الاستراحة.. فما إن رأتها (ليزا) حتى هتفت:
- ربما نختلف حول أبي.. لكننا متفقتان على أنه يفعل كل شيء كما ينبغي أن يكون..

☆ ☆ ☆

راحت إشارات (اربطوا الأحزمة) تتألق..
واستعد الطاقم للإقلاع.. وراح المضيفون يجولون في أرجاء الاستراحة يجمعون الأشياء الزجاجية ويرشدون القوم إلى كيفية ربط الأحزمة.. وقام الساقي بربط زجاجاته بشريط مطاطي خاص، قبل أن يتوجه إلى مقاعد الطاقم..
كان على البار شخصان هما (كارين والاس) وزوجها (مارك والاس) وهو رجل في الخمسين من عمره، وجوارهما رجل ضخم في الثلاثين من عمره يدعى (باورز)، وله مظهر الرياضيين أكثر من العلماء وبرغم هذا كان من الحجج في علم المحيطات..

ثم ظهر (بوتشك).. كان قلقا كطفل تلقى هدية العيد، ومازال يصر على الاستيقاظ من حين لآخر؛ ليتأكد من أنها هناك..

وكان يرتدي حلة أنيقة.. لكنه. ككل من لم يعتادوا ارتداء البذلة - كانت فكرته عن الأناقة هي أن يجعل نفسه غير مستريح قدر الإمكان؛ لهذا ربط رباط العنق بإحكام كمشنقة..

مدت (إيف) يدها ببساطة وفكت رباط عنقه قليلا..

ثم جاءت مضيفة حاملة شريط (فيديو)، ودسته في جهاز العرض، وعلى الفور ظهر وجه (فيليب) على الشاشة:

- مرحبا.. أنا مسرور لوجودكم معنا في هذا الطيران الافتتاحي.. أتمنى أن أكون معكم لكني – كما تعرفون - في (بالم بيتش) أستعد لحفل الليلة ولاستقبالكم..

وهنا جاء صوت الربان يخبرهم أن الإقلاع قد بدأ..

☆ ☆ ☆

مر عليهم في الجو ما يزيد على نصف الساعة وكان (ستيف بوروز) جالسا أمام البيانو مستمرا في العزف، لكنه تعرف بعض الأصوات.. وكعادة المكفوفين منذ ولادتهم كان قادرا على تمييز كل الموجودين من حوله، بل إنه كان قادرا على أن يعزف ويصغى في الآن ذاته..

شم رائحة العطر مرتين وعرف أن تلك الفتاة صاحبة العطر قد عادت مرتين لتصغي لعزفه.. ابتسم.. واستشعر قوة كاسحة في حضورها جعلته يدرك أنها تصغى باهتمام..

لذا راح في حماس يعزف لها ولها وحدها..

قال لها بصوت مسموع:

- لا بد أنك تحبين الموسيقا..

أجفلت (جولي) سكرتيرة (إيف) حين سمعت هذا.. لم يجل بخاطرها أن عازف البيانو أحس بها..

- إنني ممتن لك.. ثالث مرة تأتين لى يا (جولى)..

- كيف عرفت أنه أنا؟

ضحك (ستيف) وقال:

- سر المهنة.. لقد عرفت رائحة عطرك..

ضحكت وقالت:

- ليس الأمر هكذا.. فلست الوحيدة التي تستعمل العطر ذاته.

- ربما.. لكنك الوحيدة التي أهتم بأمرها..

وأدرك أن كلماته حقيقية.. لكنه تمنى ألا يكون قد تجاوز حدوده، فهو يعرف مدى خجلها.. وهو يشعر الان باحمرار وجهها بعد ما قال..

قالت:

- الواقع أنني.. أشعر بالشيء ذاته..

هنا كف عن العزف للحفل، وراح يعزف لشخص واحد فقط..

☆ ☆ ☆



هنا كف عن العزف للحفل ، وراح يعزف لشخص واحد فقط ..

انتزع (جالاجر) السماعتين عن أذنيه، وناولهما لـ (إيف) التي قالت في حماسة لـ (ستيفنز):

- يا (فيليب).. إن (ليزا) قد جاءت!

سمعت صوت شهقة.. وبعد صمت هتف:
- إن هذا مذهل يا (إيف).. لا أدري كيف فعلتها لكني أشكرك!
- وهذا هو أفضل ما في الموضوع، لست في حاجة إلى شكري.. لقد جاءت بنفسها..
انفجر يزجي لها عبارات الشكر ثم وضع سماعة الهاتف..

☆ ☆ ☆

خارج الطائرة كانت السماء بحرا من السلام.. لكنها كانت تحلق فوق الرياح والسحب والأمطار العاتية.. فعلى ارتفاع أربعين ألف قدم يغدو الهدوء مطلقا بعيدا عن كل عوامل الجو..
وفي قمرة الطيران كان الطاقم يعمل في جد.. ولاحظ (ووكر) أن هناك صماما أمامه يعطى قراءة خاطئة، فنادى (جالاجر):
- كابتن.. هلا نظرت إلى هذا؟
استدار (جالاجر) في مقعده وتأمل الأرقام.. ثم غمغم:
- قراءة منخفضة جدا.. ماذا عن الضغط؟
- ثابت تماما
- لابد أن المشكلة في الاستشعار نفسه.. على كل سأطلب من (بوتشك) أن يتحقق من هذا..
وتناول سماعة (الإنتركوم)..

☆ ☆ ☆

كان (بوتشك) في البار يتحدث مع (إيف) حين اسمع الرنين..
رفع السماعة إلى أذنه وراح يتكلم مع الكابتن.. وحاولت (إيف) أن تتابع المحادثة لكنها كانت ملأى بالمصطلحات الفنية إلى

حد أنها لم تعد تفهم حرفا..

ثم إنه وضع السماعة، ونهض ليتفقد الأمر.. إن وحدة الاستشعار هذه غير ذات بال على كل حال.. لكنه هبط إلى قاع الطائرة..

دخل مخازن الشحن ومعه (هنتر) رجل الأمن ليبحث عن جهاز الاستشعار الموضوع داخل الجدار..

ومن سترته الرسمية أخرج مفكا صغيرا وراح يحل الصفيحة الرمادية التي تغطي الجهاز..

وكان (هنتر) واقفا بجواره على سبيل كسر الملل.. بالإضافة إلى قواعد الأمن التي تحتم تواجده مع أي شخص يدخل مخزن الشحن.. وكان يشعر أنه من الصعب أن يحدث شيء لهذه الطائرة، ومعنى هذا ساعات طويلة مملة في قاع الطائرة وحده.. لذا كان شيء تافه كإصلاح جهاز استشعار يبدو له شيئا مسليا إلى حد لا بأس به.

كان - قبل أن يصير رجل أمن - يعمل شرطيا.. لذا اكتسب تلك الحاسة التي تجعله يعرف أن شخصا ما يقف وراءه..

وحين نظر للوراء رأى (بنجي) ابن (ليزا) يقف.. كاد يشير له بالابتعاد لكن وجه (بوتشيك) تهلل وقال:

- هذا على ما يرام.. تعال يا(بنجي).. كيف حالك؟

ثم إنه قال لـ (هنتر):

- والآن أغلق الباب لنتأكد من سلامة الصمام..

أغلق الرجل الباب الثقيل.. هنا تزايد ضغط الهواء فجأة، واستدار الصغير يسأل (بوتشك):

- ما كان هذا؟ لقد أوشكت أذناي على الانفجار..

- هذا ضغط الهواء.. إن كل خانة في المخزن محكمة الهواء..

وحاول أن يشرح للصغير تصميم خانات الشحن هنا.. إن الـ (747) متقدمة جدا، تسمح بعزل كل عينة على حدة في ظروف ضغط ورطوبة مختلفة.. إن طريقة حفظ مومياء فرعونية تختلف حتما عن طريقة حفظ لوحة لـ (رمبرانت)..

ثم استدار (بوتشك) والتقط سماعة (الإنتركوم) طالبا (جالاجر):

- كنت محقا يا كابتن.. كان جهاز الاستشعار معطلا.. كيف القراءة الآن؟

أخبره هذا بأنها على ما يرام..

في نفس الوقت كان (بنجي) يسأل (هنتر) رجل الأمن:

- هل أنت شرطي حقيقي؟

- نوع منهم..

- .. وقبضت على (لصوص) كثيرين؟

- قليل منهم.. يمكن أن تعود لأخبرك بقصص مثيرة..

انفتح الباب وخرج الثلاثة إلى الممر وفي سره تمني (هنتر) لو عاد (بنجي) ليزوره.. عندها سيحكى له ذكريات شبابه كلها..

☆ ☆ ☆

إنها الثامنة وخمس وأربعون دقيقة..

نظر (شامبرز) مساعد الطيار إلى ساعته.. وكانت درجة الحرارة منظمة داخل القمرة لكنه شعر بأنه بارد كالثلج.. قلبه يخفق كالطبل..

- حان الوقت كي أفرد ساقيّ يا(كابتن).

- بالتأكيد..

قالها الكابتن وهو ينظر إلى اللوحة أمامه..

خرج (شامبرز) إلى الخارج، ومن بعيد سمع أصوات الحفل.. ورأى (بانكر) قادما.. وتساءل في سره: كيف يظل هذا الرجل هادئا؟

سأله (بانكر):

- حاول أن تبدو طبيعيا.. هل جئت بالمفاتيح؟

ناوله (شامبرز) ثلاثة مفاتيح، وقال له:

- أمامك عشر دقائق.. المهم أن تخرج (جالاجر) من قمرة القيادة...

ومد إصبعا غليظا ليغرسه في صدر (شامبرز):

- تأكد من القيام بهذا..

وأدرك (شامبرز) من لهجة الرجل ما يخفيه من جزاء للفاشلين..

وافترقا.. فعاد (شامبرز) إلى قمرة القيادة، خائفا لكنه مصمم على الاستمرار..

☆ ☆ ☆

جلس (هنتر) الحارس في مقاعد الطاقم يلتهم العشاء في صينية أرسلها له المطبخ.. كان طعاما فرنسيا لكنه شهي المذاق، وكاد يطلب المزيد من هناك حين هوي شيء ثقيل على صدغه فأحس بشيء ينفجر وسقط على الأرض فاقد الوعي..

أعاد (بانكر) القبضة النحاسية إلى جيبه، وألصق البلاستر على فم العجوز، وكان (ويلسون) في هذه اللحظة قد دخل.. ولاحظ الزاوية العجيبة التي كان عليها عنق الحارس فتحسس نبضه، وقال:

- انتزع هذا البلاستر.. لقد ضربته أقوى من اللازم..

هز (بانكر) رأسه دون مبالاة، وتعاون مع (ويلسون) على إخفاء الجثة.

هنا سمعا أصواتا دانية.. سارعا بجر الجسد وراء بعض الحقائب.. وهرع (ويلسون) إلى الباب ليعترض القادم..

كان الطفلان (بنجي) و (بوني) قد جاءا يبحثان عن مستر (هنتر).. لقد كان الأخير هو اكتشاف (بنجي) الثمين..

هنا اعترض (ويلسون) طريقهما:

- ليس مفروضا أن تكونا هنا أيها الطفلان.

- أين مستر (هنتر)؟

- قلت إن عليكما الرحيل..

وفي مكمنه جوار الجثة، تحسس (بانكر) القبضة النحاسية.. لن يسمح للخطة بأن يفسدها غلام فضولي..

هنا دوى صوت مسز (ستيرن):

- (بنجي).. (بوني).. ماذا تعملان هنا؟

ودخلت المكان، ولم تلحظ الشحوب الذي غمر وجه (ويلسون).. قالت:

- أتعشم ألا يكونا أحدثا متاعب..

- لا متاعب يا سيدتي..

واقتادت الصبيين خارجة.. فتنفس (ويلسون) الصعداء.

ما إن خرجت حتى انسلّ الرجلان إلى مؤخرة الطائرة.. أسرع (ويلسون) إلى المخزن حيث أخفي أسطوانة الغاز، أما (بانكر) ففتح غرفة النوم الموجودة بالطائرة..

تناول سماعة (الإنتركوم) وطلب (جالاجر) في قمرة القيادة..

- كابتن.. هنا مضيف الليل.. أرى أن تلحق بي في غرفة النوم..

- ما المشكلة؟

- أحد المسافرين أصيب بوعكة يا سيدي..

ووضع سماعة الجهاز، وأخرج القبضة النحاسية وجلس على الفراش ينتظر..

☆ ☆ ☆

في قمرة القيادة واصل (شامبرز) الطيران، ونظر إلى ساعته بعصبية.. لقد تم توقيت كل شيء بدقة تامة.. قام بنقل قيادة الطائرة إلى الطيار الأوتوماتيكي، ثم مد يده في حقيبته وأخرج مسدسا أوتوماتيكيا عيار 0.45، وبهدوء ودون انفعال اتجه إلى (ووكر).. رفع هذا الأخير رأسه في اللحظة التي هوى المسدس الثقيل عليها..

تدحرج جسده فوق المقعد إلى الأرض..

وفي عصبية مد (شامبرز) يده ليغلق اتصال اللاسلكى تماما..

☆ ☆ ☆

نظر (ويلسون) إلى ساعته حتى جاءت اللحظة..

التقط قناع الغاز وثبته على وجهه، ثم مد يده إلى أسطوانة الغاز الصفراء وفتحها..

دوي صوت الهسيس إذ بدأ الغاز يتسرب إلى أنابيب التهوية..

☆ ☆ ☆

استوثق (بانكر) من حسن تثبيت قناع الغاز على وجهه، وسمع صوت الخطوات تدنو، فتوترت عضلاته.. كان هذا (جالاجر) يفتح الباب فما إن صار الكابتن داخل الحجرة حتى وجه له (بانكر) ضربة عنيفة، فتهاوى على الأرض.. حاول أن يقبض على معصم (بانكر)، وكانت قبضته قوية حقا لكن

(بانكر) استعمل ذراعه الحرة ليوجه ضربة سيف إلى عنق (جالاجر).. فسقط هذا فاقد الوعي..
لقد تم إنجاز الجزء الثاني من الخطة..

☆ ☆ ☆

وتسرب الغاز إلى الاستراحة عبر شبكات تكييف الهواء، فلم يسمع أحد صوت الهسيس بسبب الضوضاء..
وكان أول المتأثرين هو (ستيف) عازف البيانو الكفيف.. سقط على البيانو فجأة.. وصرخت امرأة.. ثم بدأ الجميع يشعرون بما يحدث.. الكل يحارب من أجل الهواء.. صراخ.. أجساد تسقط.. وسمع (بوتشك) الصراخ.. هرع إلى الاستراحة ليرى المشهد الرهيب.. حاول أن يفهم ما يحدث.. ماذا يحدث بحق الجحيم.
لكن الضباب كان يغلف أفكاره.. وأدرك أنه سقط على ركبتيه.. وسمع من يقول: (ماذا يحدث؟ أنقذونا!)..
كان يعرف أن كل شيء يحدث لحظيا، لكن عقله جعله يرى كل شيء بالسرعة البطيئة.. (جولي) تسقط أمامه محاولة التشبث بالبيانو.. ثم تسقط كأنما تستغرق أبدا كاملا..
كانت معركة الحفاظ على وعيه معركة خاسرة.. كان يردد لنفسه مرارا: يجب أن تذهب لقمرة القيادة..
لكن وجهه كان يسقط ليلمس الأرض بينما هو يردد ذلك..
ثم ساد الظلام..

☆ ☆ ☆

على ضوء البطارية راح (ويلسون) يتفحص ساعته..

أغلق صمام الغاز فانتهى الهسيس.. ثم غادر مخزن البضاعة.. وفي الوقت ذاته كان (بانكر) يعبر الاستراحة حين لاقى (ويلسون).. كان الأخير يرمق سوارا ثمينا تتدلى منه قطعة ماس حول معصم (إميلي) فاقدة الوعي.

كاد ينتزعها حين سمع صوت (بانكر) يقول:

- انس هذا!
- لكن لابد أنها تساوي خمسين ألفا.
- إنها طعام دجاج.. عد لعملك وكف عن إضاعة الوقت..

ثم اتجه (بانكر) إلى قمرة القيادة ليلحق بـ (شامبرز).

استدار مساعد الطيار ليرى (بانكر) خلفه.. وكان من الواضح أنه - المساعد - يتحاشى النظر إلى قدميه حيث جسد (ووكر) الملطخ بالدماء.. ابتسم (بانكر).. فهو يحب رؤية سرعة تأثر الآخرين..

كان (شامبرز) يمسك بمسطرة الملاحة ليرسم اتجاها جديدا للطائرة يبعد مئات الأميال عن مسارها الأصلي..

ونقل تحكم الطائرة من الطيار الأوتوماتيكي إليه..

☆ ☆ ☆

مهمة المراقبة الجوية عسيرة حقا في الطيران الحديث..

إن مهمتها الأساسية هي مراقبة خطوط الملاحة.. فقد صارت السماء مزدحمة ربما كالطرق تحتها، وصار منع تصادم الطائرات صعبا، وهي مهمة تحتاج إلى الاتصال والرادار والحاسب الآلي..

وكانت وحدة المراقبة الجوية تتبع (هيئة الطيران الاتحادية) ومقرها (جاكسونفيل)..

ويعمل بها عدد من الرجال المخلصين الذين يقضون ساعات طويلة أمام شاشات الرادار في غرف مظلمة..
لهذا حين اختفت النقط التي تمثل الطائرة (747) ساد جو من الخوف.. الخوف البري مما عساه قد حدث..
زادوا تكبير القطاع لكنهم لم يروا شيئا..
- (جيري).. انظر! لقد فقدت (2 - 3 سييرا)..
انحنى (جيري) وتأمل الشاشة..
- أريد قراءة عن (2 – 3 سييرا).. آخر ارتفاع هو N1500.0 وخط الطول W8075.0..
وضغط على زر النور الأزرق الذي يخبر الآخرين بوجود مشكلة، ونظر إلى المفاتيح.. إن اختفاء أثر طائرة على الرادار لا يعني سوى شيء واحد..
- رباه! أعتقد أن لدينا طائرة هاوية!

☆ ☆ ☆

الآن تطير الـ (747) على ارتفاع بضع مئات الأقدام فوق المحيط، ونفاثاتها تجعل الماء يغلي ويمور تحتها..
كان (شامبرز) قد هبط بالطائرة لسبب بسيط: الرغبة في الخروج من مجال رادار الدفاع الجوي وخفر السواحل..
الآن غدت الطائرة خفية بالنسبة لأجهزة الاستطلاع..
قال لـ (بانكر):
- قد نلنا الآن حريتنا.. سنكون عند الجزيرة بعد عشرين دقيقة..
- لا بأس.

- لقد أحسنت التخطيط.. جزيرة مهجورة.. مطار غير مستعمل منذ الحرب الأخيرة..

قال (بانكر) ساخرا:

ومساعد طيار متعاون.. أليس كذلك؟

لم يجد (شامبرز) ما يقول.. فالرجل يسيطر عليه تماما..

☆ ☆ ☆

كان الجو يسوء باستمرار..

وبدأ (بانكر) يشعر بالقلق بسبب ارتفاع الطائرة الخفيض، وراح يصغي إلى اتصالات الطائرات المقاتلة التي تفتش عن الطائرة (747) دون كلل..

قال (شامبرز):

- لا تخش شيئا.. إن هذه الطائرات تبحث عنا حيث من المفترض أن نكون.. ونحن نبتعد عنهم بسرعة ستمائة ميل في الساعة..

شعر (بانكر) ببعض سخرية في كلام (شامبرز)، وهو لم يكن يحب أن يسخر منه أحد أو يعتبره جاهلا..

لم يكن يحب (شامبرز) بتاتا.. ولم يحب فكرة أنه مجرد هاو.. ربما يثرثر أكثر من اللازم بعد انفصالهم.. و(بانكر) أكثر من سواه يعرف خطر الشريك الثرثار.

بعد هذه الرحلة لن يهمه كثيرا ما سيحدث لـ (شامبرز)..

غادر القمرة فوجد بعض الركاب يتحركون ببطء ويئنون.. لحسن الحظ أنهم سيصلون جزيرة (سان جورج) بعد ربع ساعة قبل أن يفيق الجميع..

نعم.. بعد الهبوط لن يحتاج إلى (شامبرز).. وسيكون هذا أفضل حتى على مستوى تقسيم الأموال..

☆ ☆ ☆

وفي مخزن البضائع كان (ويلسون) عاكفا على إخراج اللوحات، ورصها جوار باب الحمولة، فراح يعينه.
في الوقت ذاته كان (شامبرز) على ارتفاع ستمائة قدم فوق سطح المحيط.. الضباب يتزايد حتى غدت الرؤية مستحيلة.. أحيانا كانت الطائرة تخرج من الضباب لحظة، عندها كان يرى الماء ثم يختفي المنظر ثانية..
حالا سيكونون فوق الجزيرة ويفرغون الحمولة.. وغدا يكون في (ريودي جانيرو) باسم جديد وثروة فاحشة..
لكنه لم يكن سعيدا..
فهو لم يفكر قط في نفسه كمجرم.. بل لم يعتبر نفسه سيئا قط..
الآن من الواضح تماما أنه كلا الرجلين.. لكنه كان يعرف عن نفسه منذ زمن أنه واهن ضعيف..
خسر كل ما يملك في القمار في (لاس فيجاس) وصار مدينا بخمسة وعشرين ألفا..
هنا ظهر (بانكر) في طريقه بعرضة المسموم: تعاون ولن تكون هناك ديون، بل ستغدو ثريا.. لا تتعاون ولسوف تسترد نقابة القمار ديونها.. بالدم.. ولم يكن ثمة اختيارات كثيرة..
كان سيغدو ثريا بعد دقائق، لكنه كان يعتبر حياته كلها فشلا وسوء حظ..

هنا خيل إليه أنه يرى شيئا ما أمامه.. حسبه مجرد ظل.. لكنه كان مخطئا بدرجة مرعبة..

فجأة رأي بريقا أخضر يدنو منه.. ثم أدرك ما يراه.. إن ما يدنو منه هو برج لحفار بترول من الحفارات التي تنقب في المحيط وككل الطيارين كان سريع رد الفعل.. زاد من سرعة النفاثات، ووجه مقدمة الطائرة لأعلى.. لكنه سمع صوت الارتطام المعدني، وأدرك أن الجناح اصطدم بالبرج..

راحت إضاءة حمراء تلتمع في لوحة القيادة.. وحاول استرداد التحكم، بينما عقله يعمل في ثبات محاولا فهم ما يحدث وفرص النجاة..

إن المحركات مشتعلة.. ضغط على زر إطفاء الحريق للمحرك الرابع وراح يرتفع أكثر.. هنا دوى صوت انفجار.. لقد انفجر المحرك الثالث.. لابد أن شظايا الرابع قد دخلت فيه..

إن أنظمة الطائرة تتحلل.. هكذا لاحظ الجزء المنفصل من عقله ما يحدث في برود تام..

☆ ☆ ☆

وحين حدث التصادم كان قريبا جدا من مخزن البضائع، واستطاع (ويلسون) أن يتشبث.. لكن (بانكر) لم يستطع..



واستطاع (ويلسون) أن يتشبث . . لكن (بانكر) لم يستطع . .

طار في الهواء ليصطدم رأسه بالجدار في قوة..

إن الأرض تهتز.. هرع (ويلسون) إلى الباب مذعورا وقد انتابه هلع حيواني، حتى إنه لم يبال بنداء (بانكر) له..

خرج إلى الاستراحة، وقد صار اهتزاز الطائرة شرسا.
كان كثير من الركاب قد بدأ يسترد وعيه من فرط الهزات.. فما إن دخل (ويلسون) قمرة القيادة حتى وجد مئات الأضواء الحمراء تلتمع.. وأدرك أن الماء صار دانيا جدا، وأنهم على وشك الاصطدام به..

☆ ☆ ☆

لم يدر (جالاجر) كم استغرقه الخروج من أبدية السواد التي دخلها.. ولم يدر ما يحدث هاهنا..
متأرجحا شق طريقه إلى خارج الغرفة.. يجب أن يصل إلى قمرة القيادة.. إن الضوء الأحمر يخبره بأن المحركات مشتعلة.. لكن كيف ومتى؟
صاح في المسافرين الذين بدءوا يفيقون:
- اتجهوا لمؤخرة الطائرة! أسندوا ظهوركم إلى الجدار الصلب!
تفاعل بعض المسافرين معه، وراحوا ينهضون ليعينوا سواهم.
لقد صارت زاوية انحدار الطائرة حادة تماما، وراحت الأكواب والأطباق تتدحرج إلى مقدمة الاستراحة..
وحاول (شامبرز) أن يحفظ الطائرة في وضع أفقي.. لو استطاع أن يلمس الماء ببطن الطائرة لا مقدمتها فلربما كانت هناك فرصة نجاة..
راح - قانطا - يجذب عجلة القيادة، وكاد ينجح في الهبوط كما أراد.. لكن الطائرة ضربت الماء بقوة هائلة..
كانت الصدمة شبيهة بانفجار مروع..

☆ ☆ ☆

وفي الاستراحة تهاوت أجزاء من بطانة الجدار، وطارت المناضد والأرائك وزجاجات الخمر.. ووجد (جالاجر) نفسه وسط شلال من الزجاج المهشم..

ورأي مضيفة تطير كالقذيفة لتخترق شاشة التلفزيون العملاق.. وتحرك البيانو ليسقط فوق العازف الضرير..

صوت صراخ.. صوت معادن تلتوي.. صوت الهلع الأدمي..

وفجأة بنفس المعجزة الغامضة توقف كل شيء..

الحسن الحظ لم يبد أن الماء تسرب إلى الطائرة.. لكن الطائرة استقرت فوقه وراحت تتمايل..

كان المسافرون مذعورين لا يدرون ما سيحدث فيما بعد..

لكن (جالاجر) كان يعرف أن باب الخروج يجب ألا يفتح، وإلا تسرب الماء وهوت الطائرة للقاع كحجر..

كثيرون جرحوا بفظاعة، وانتشر البعض عبر الطائرة يئنون ويصرخون.. كانت الطفلة (بوني) محشورة بين البار والحائط وكانت تبكي بصوت عال..

على حين رقد (بوتشك) ويده محشورة تحت البار.. من الواضح أنه كان يحاول إنقاذها فانحشرت يده..

وأدرك (جالاجر) على الفور أن ذراع الرجل تهشمت.. حاول مع مسز (ستيرن) أن يزيحا البار قبل أن تميل الطائرة أكثر، وقبل أن تتهشم الطفلة..

في النهاية استطاعا أن يحررا الطفلة.. وأخرج (بوتشك) ذراعه.. ساعده (جالاجر) على النهوض فوجد أن يده تتدلى عاجزة إلى جواره، ولم يتحمل لمسة (جالاجر) لها..

قال لـ (جالاجر):

- ساعد الآخرين.. فهم في وضع أسوأ..
نهض (جالاجر) وأمر الناجين بأن يجرّوا المصابين إلى قرب باب الخروج، وراح بعض الرجال يرفعون البيانو عن (ستيف).. كان يضع يده على صدره ويئن، وعرف الجميع أن ضلوعه تهشمت..
انحنت (جولي) عليه، وبذراعيها طوقته وشعر (جالاجر) بحنق على ما بدا له، مأساة غير ضرورية، وبلا تفسير..

☆ ☆ ☆

قبل أن تصدم الطائرة الماء؛ كان (بانكر) في مخزن البضاعة.. وقد عاد إلى وعيه، لكنه يشعر بألم في أذنه، ويجد عسرا في تركيز عينيه..
ثم لمست الطائرة الماء فاصطدم رأسه ثانية، ورأى الحاويات العملاقة المصنوعة من الألومنيوم - وتزن الواحدة أكثر من ألف رطل - تنحدر نحوه عبر أرض المخزن بسهولة تامة..
اخترق أحدها جانب الطائرة بقوة مرعبة، وفي هلع رأي (بانكر) الفتحة التي بدأت تتسع.. والماء يتدفق منها.. آلاف الجالونات تدخل جسم الطائرة.
حاول أن ينهض لكن الحاويات ثبتته في موضعه بقوة لا توصف، وراح الماء يملأ المخزن..
هنا راح (بانكر) - الذي لم يجرب قط الشعور بانعدام الحيلة - يبكي.. وبدأ الماء يعلو.. يذوق طعمه المالح.. يختنق..
وفي الخارج - في ضوء القمر - مالت الـ (747) إلى أحد جانبيها، ثم راحت ببطء تهوي إلى القاع

☆ ☆ ☆

كان (فرانك باورز) و (والاس) يحاولان رفع الشاشة العملاقة من فوق رجل سقطت فوقه..

فما إن أخرجاه حتى أدركا أن قلب الرجل قد كف عن الخفقان..

هنا سمع (والاس) صوتا حادا ميز فيه صوت زوجته تصيح:

- رباه! انظروا!

كانت صرخة ذعر جعلت الجميع يلتفت إليها..

كانت تشير إلى النافذة، فرأى الجميع الماء يعلو ببطء فوق مستوى النوافذ..

ساد الصمت ثم تعالت الصرخات..

وبدأت أضواء الطائرة تتوهج ثم تلاشت..

وشعر (مارتن والاس) أنه يعيش أحد الكوابيس الرهيبة، حيث يهوي إلى ظلمة لا نهائية.. الفارق أن هذا لم يكن كابوسا..

أما (بوتشك) فكان متشبثا بجدار.. الذعر يغمره، لكن ذهن المهندس فيه لم يكف عن إجراء الحسابات المعقدة.. واضح أن قاع الطائرة امتلأ بالماء، لكن لا يوجد تسرب إلى قسم المسافرين، ولو حدث لكان هذا واضحا منذ فترة طويلة..

لكن هل تتحمل المخازن صدمة القاع؟

في النهاية دوي صوت صخب عال.. لقد اصطدمت الـ (747) بقاع المحيط فعلا..

وساد الصمت سوى صوت بكاء المسافرين..

مد يده إلى جيب حلته فأخرج كشافا صغيرا.. الحمد لله على أنه وضعه في جيبه هذا الصباح.. وعلى ضوء الكشاف تأمل الوجوه المذعورة:

- الآن أصغوا إلى.. هناك ضوء طوارئ لهذا القطاع..

واتجه إلى مؤخرة الطائرة وهو يتحسس طريقه بالكشاف..

في النهاية وجد صندوق المحولات.. كان يعرف أن البطاريات ستعمل ما لم تكن مبتلة.. مد يده وفتح المحول فأضيئت الاستراحة.. تنفس في راحة.. والآن عليه أن يتفقد قطاع المسافرين ليتأكد من عدم وجود تسرب..

كانت (كارين والاس) تفكر في شيء واحد:

الخروج من الطائرة.. لذا - ما إن عاد الضوء – حتى هرعت إلى مكان سترات النجاة فارتدت واحدة، ولحق بها أحد الموجودين ليفعل مثلها.. ثم بدأ التدافع المجنون..

هنا وثب (جالاجر) وسطهم وفي غضب صاح:

انسوا سترات النجاة! لا أحد يستطيع فتح الأبواب دون أن يمزقنا الماء!

انهالت الأسئلة الملهوفة عليه والاحتجاج:

- يجب أن نخرج / سنغرق هاهنا / هل طلبتم النجدة؟ / سينتهي الهواء قبل أن يجدونا!

رد عليهم قدر ما استطاع.. كان عليه أن يعيد جو النظام إليهم وإلا أدى هذا إلى تدميرهم.. قال لهم إن الماء لم يتسرب إلى الاستراحة وهذا يعني أنهم آمنون..

أخبرهم أن اللاسلكي لا يعمل تحت الماء، لكن الرادار يعرف مكانهم، وبالتأكيد النجدة في الطريق..

- والآن اصغوا لى لقد تأذي كثيرون وعلينا أن نعاونهم.. أحضروا الملاءات والبطاطين لنريح المجروحين..

ثم اتجه نحو د. (ويليامز) الذي كان يضمد ذراع جريح..

- هل أنت طبيب؟

هز رأسه أن نعم.. فقال له:

- ثمة طفلة جريحة في البار.. عليك أن تساعد بها..

هنا دنا منه (بوتشك) ليقول له:
- الجزء الأمامي من الاستراحة على ما يرام..
ثم مال ليسأله همسا:
- (دون).. ماذا حدث؟
- لا أعرف.. لكني سأعرف الحقيقة حالا.
ثم ترك المهندس ليذهب إلى قمرة القيادة..
كان (بوتشك) يعرف أن الطائرة لن تتحمل كثيرا البقاء تحت الماء، لكنه كان يأمل أن تظل وقتا يكفي حتى وصول النجدة..

☆ ☆ ☆

هرع (جالاجر) إلى قمرة القيادة.. وهنا رأي - وسر لذلك - (إيف) على الأرض تحتضن (ليزا) النائمة بين ذراعيها..
وعلى بعد خطوات من (إيف) رأى (ووكر) مهندس الطيران غارقا في دمه..
قالت (إيف) دامعة:
- إنه ميت!
نهض (جالاجر) وربت على كتف (إيف) التي فقدت شجاعتها تماما، وقال لها:
- (إيف).. ثمة جرحى هنا يجب معاونتهم.. إنهم بحاجة إليك وأنا مثلهم تماما..
ابتسمت في حزن وهمست:
- سأحاول..
في قمرة القيادة كان (شامبرز) على مقعده، وقد تهشم رأسه على لوحة القيادة، وعلى الأرض كان (ولسون) وقد التوى عنقه في زاوية غريبة..

واستطاع (جالاجر) أن يرى قناع الغاز جوار (ولسون)..
هكذا بدأ يفهم ما كان.. ثم تأكد يقينه حين تفحص (شامبرز) فوجد المسدس عيار 0.45 في جيبه..
أيا ما كان غرض المؤامرة التي تمت فمن الواضح أن (شامبرز) متورط فيها.. كان (شامبرز) يتنفس في عسر شهقات غير منتظمة، وبدا لـ (جالاجر) أن الرجل سيعيش..
أثار غضبه كل هذا الحمق والشر اللذين تسببا في هذا..
هنا جاء أحد المسافرين عارضا خدماته، فقال له (جالاجر):
- دعنا نأخذ هذا الوغد إلى المكتب، فلديه الكثير مما يفسره لنا لو ظل حيا..
في الآن ذاته كان (بوتشك) في المكتبة يتفقد الزجاج والجدران بحثا عن علامات شروخ أو تسرب..
هذا التسرب سيكون هو التوقيع على شهادات وفاتهم..
تفحص الجدار.. كان جسم الطائرة المصنوع من الألومنيوم باديا في أكثر من موضع.. مد يده وانتزع جزءا من البطانة؛ عندها وجد ما كان يبحث عنه..
إنه انتفاخ مخيف منذر بالهول في الجدار..
تبادل نظرة خوف مع الراكب الذي كان معه.. فسأله الأخير:
- ما رأيك؟ هل ستتماسك؟
- إنها طائرة قوية حقا.. لكنها لم تخلق لتحمل كل هذا الضغط الخارجي..
- وإلى متى ستصمد؟
- لا أدري.. - وهز رأسه -.. ربما ما يكفي حتى تجدنا وحدة الإنقاذ.
وبان القنوط في صوته.

☆ ☆ ☆

راح د. (ويليامز) يفحص حدقتي (شامبرز) على ضوء الكشاف..

جواره وقف (جالاجر) نافد الصبر ينتظر نتيجة انتهاء الفحص، فإن (شامبرز) يملك معلومات يريدها.. يجب أن يعرف أين هم.. ومتى لهم أن يتوقعوا قدوم النجدة..

في النهاية أطفأ (ويليامز) الكشاف وقال:

- إن حدقتيه تستجيبان.. هذا ارتجاج في المخ ولسوف يصحو منه..

- متى..

- عسير أن نقول.. لربما تم هذا بسرعة..

هز (جالاجر) رأسه.. مجرد عدم يقين وسط متاهة من الأشياء غير المؤكدة.. واستدار لـ (كراوفورد) وقال له:

- راقب هذا الوغد وأخبرني حين يسترد وعيه..

ثم إنه غادر المكان مع د. (ويليامز) وقد صار أكثر هدوءا.. وكان الركاب ملتفين في الاستراحة في مجموعات صغيرة يحاولون رفع معنويات بعضهم..

ورأى (بوتشك) قادما نحوه.. وجهه المقطب يدل على شؤم تقييمه لموقف الطائرة..

بصوت هادئ كي يتجنب إفزاع المسافرين أخبره بالوضع.. وطلب من د. (ويليامز) أن يعني بالساقي (إيدي) الذي تهشمت رجله داخل حجرة الاتصالات..

وفي الاستراحة كان (مارتن والاس) يحتضن زوجته التي لم تصب، لكنها كانت منهارة تماما.. فناداه قائلا:

- أحتاج للعون.. هلا أتيت هنا؟

قال (مارتن):
- بالطبع..
لكن زوجته تشبثت به بقوة.. كانت تعتصره بدافع من الغضب.. أكثر منه الخوف.. وحين تكلمت كان صوتها قويا:
- لا تتركني.
كان يعرف أن التعقل لا يجدي معها.. لكن لابد لها أن تفهم أن هناك أناسا آخرين في العالم.. أشخاصا يحتاجون إلى أشياء مثلها تماما.. وفي عينيها رأي تفاعلها الحيواني المليء بالفزع..
- (كارين).. هناك أناس يجب العناية بهم..
غرست أظفارها في ذراعه وصاحت:
- أنت زوجي.. وعليك أن تحميني! ماذا سيحدث لى؟



غرست أظفارها فى ذراعه وصاحت :

ـ « أنت زوجى . . وعليك أن تحمينى » !

نهض بشيء من الغلظة وانتزع ذراعه منها..

هنا تحولت إلى أفعى سامة.. وصرخت:

- اذهب أيها الوغد!

وتذكر أنه لعب هذا الدور معها مرارا.. فانصرف..
غرست أظفارها في ذراعه وصاحت:
وبين ذراعي أمه التي تمسح على شعره، قال (بنجي):
- ماما.. هل سنموت جميعا؟
شعرت بحيرته بصدد ما يحدث.. فالموت شيء غامض بالنسبة للأطفال.. لذا قالت له دون أن تؤمن بما تقول:
- لا يا عزيزي.. سنكون على ما يرام.

☆ ☆ ☆

على ضوء الكشافات تحسس (بوتشك) قاع قسم البضائع.. كان ماء البحر يتسرب ببطء لكن بثبات..
معنى هذا أن مخزن رقم واحد قد غرق تماما..
كان هو و(جالاجر) يفهمان خطورة الموقف..
هل سيتم إنقاذ المسافرين قبل أن يتسرب الماء إلى قسم المسافرين؟ لا أحد يعرف..

☆ ☆ ☆

كان (ستيف) مستندا إلى جدار الطائرة، يضغط بمنشفة مبتلة بالدم على جرح وجهه، وجواره انحنت (جولي) تستبدل له المنشفة.. كان القلق يعتصرها عليه..
إن الأمر مرعب.. لكنه غير قابل للوصف بالنسبة لشخص كفيف يعيش الألم دون أن يعرف ما يحدث حوله..
- هل تحتاج إلى جرعة ماء؟
- نعم.

هرعت إلى البار فوجدت زجاجة سليمة وكوبا.. ملأت الكوب بالماء، ثم عادت إليه.. حسبته نائما.. فهو مسترخ والسلام على وجهه.. لكنها ركعت جواره لتعرف الحقيقة.. لقد مات..
وضعت رأسها على صدره وراحت تنشج..

☆ ☆ ☆

اجتاز (جالاجر) و(بوتشك) الماء - الذي وصل إلى الركبتين - في قاع الطائرة.. وكانت هناك جثة عرفا على الفور أنها جثة الطاهي..
استدار (جالاجر) إلى زميله وقال:
- حسن.. ما هو رأيك؟
- بعد مدة يمتلئ الجزء الأوسط من الطائرة كله.. سيستغرق هذا ساعتين أو ثلاث ساعات.. يجب أن تصل النجدة قبلها.
هنا ظهر (كراوفورد) على قمة الدرج.. وصاح:
- كابتن.. لقد استعاد مساعدك وعيه..
شعر (جالاجر) براحة.. إن ما سيقوله (شامبرز) لهو شديد الأهمية.. لذا هرع عبر المياه ليلحق بالرجل..

☆ ☆ ☆

كان (شامبرز) جالسا على الأريكة، مليئا بالكدمات لكن دون إصابات خطيرة، وقد أجاب على كل الأسئلة، بينما (بوتشك) و (جالاجر) و (كراوفورد) يصغون..
أثارت هذه القصة غثيان (جالاجر) وغضبه لكنه تمالك أعصابه كي يسأل سؤالا مهما:
- هل حصل رادار السواحل على إحداثياتنا قبل التصادم؟

هز (شامبرز) رأسه:
- لا.. لم تكن هناك فرصة، وكنا تحت مستوي الرادار..
في غضب هز (جالاجر) مساعده:
- يا لحظك أنك مصاب أيها الوغد التعس وإلا لمزقتك إربا!
أطرق (شامبرز) رأسه، وتمدد على الأريكة..
استدار (جالاجر) إلى (كراوفورد) يطلب منه مراقبة الرجل.. وخرج إلى الاستراحة فرأت (إيف) وجهه القلق وسألته:
- ما معنى هذا؟
- يعني أن (شامبرز) أبعدنا مائتي ميل عن موضع فرق البحث..
اتسعت عيناها وهمست:
- ألا توجد فرصة؟
- لا فرصة في الجحيم.. نحن وحدنا تماما..

☆ ☆ ☆

لم تتوقف حركة البحث عن الـ (747) في مركز (التنسيق التاكتيكي للبحرية).. لكن ما إن توغل الليل حتى بدأ الرجال يظهرون الاكتئاب والإرهاق اللذين يصاحبان البحث غير المثمر..
شربوا مئات الجالونات من القهوة، وامتلأت مطافئ التبغ بالأعقاب.. كان الطقس يسوء باستمرار، ومن العسير إرسال طائرات أكثر إلى موضع الطائرة المفترض..
وكان (فيليب ستيفنز) قد جاء من (بالم بيتش) بعدما علم باختفاء طائرته.. وجلس في مقعد في غرفة الرادار يصغي إلى ما قام به الأدميرال (كوريجان) قائد العملية..

طيلة حياته كان يعتبر نفسه مؤهلا للتعامل مع أية كارثة.. لكن الانتظار المرير وعدم اليقين كانا يحطمانه..

كان يعرف أن هؤلاء الرجال يؤدون عملهم كما ينبغي، لكن هذا غير كاف بالتأكيد.. فكر في أصدقائه وابنته وحفيده الذين ربما هلكوا الآن.. إن هذا أكثر مما يتحمله.. وحتى رجل في قوته له حدوده، وهو قد وصل إلى هذه الحدود..

☆ ☆ ☆

سأل الأدميرال:

- أريد منك أن تكون صريحا معي.. ما هي فرصنا؟

نظر إليه (كوريجان) وعرف أنه يجب أن يقول الحقيقة:

- ما بين البحرية وحرس السواحل لدينا عشرون طائرة في الجو وست سفن في الماء.. وحتى الآن لم يصلوا إلى شيء..

وأخرج سيجارا أشعله، ونفث الدخان وقال:

- لا شيء.. أنا آسف يا (فيليب).. لكن الأمر لا يبدو مريحا..

وشعر (ستيفنز) بقلبه يغوص برغم أنه توقع كلمات كهذه.. لكن سماعها يختلف بالتأكيد..

☆ ☆ ☆

ساد جو ثقيل في الاستراحة، ونام بعض الركاب المرهقين.

لم يعد هناك ما يمكن عمله الآن.. لقد أزيل الزجاج المكسور وعولج الجرحى قدر الإمكان.

بدأ ضوء أخضر يتسرب عبر النوافذ.. إنه الفجر.. ضوء الشمس آت عبر المياه.. في البدء ارتفعت معنوياتهم.. هناك فرصة مع النهار كي يراهم أحد.. وتحركت الغريزة الحيوانية التي

جعلتهم يسعدون لرؤية ضوء النهار بعد السواد المطبق الذي كان يحاصرهم..

كان (جالاجر) قد أفهمهم ما حدث بالضبط.. الاختطاف.. سرقة اللوحات.. كانوا غاضبين على (شامبرز) وحاول بعضهم الفتك به، لكن (جالاجر) قال لهم في حزم:

- لن نتحول إلى عصابات.. إن السلطات ستتعامل معه بعد نجاتنا..

لم يحب أن يكذب عليهم.. لكنه قدم لهم الكثير من الأعذار عن سبب تأخر النجدة فلو عرفوا ألا أمل هناك لعم الهلع.. وآخر ما كان يريده هو ذعر عام..

☆ ☆ ☆

- أين الدائرة E-15؟

انحني (بوتشك) على الصفحة يدقق..

كان جالسا مع (جالاجر) عاكفين على كتاب الدوائر الكهربية المعقدة في الطائرة.. تتبع (بوتشك) الدوائر بإصبعه ثم قال:

- ها هي ذي..

- هل يمكننا الوصول إليها؟

- هذا سهل.. والآن إذا أردت أن..

هنا سقطت قطرة ماء فوق الصفحة.. تبعتها قطرة أخرى..

هنا رفع (بوتشك) رأسه ليرى الماء يتجمع عند السقف ليكون نقطة جديدة.. تبادل الرجلان النظرات.. ثم نهض (بوتشك) صاعدا إلى الجزء العلوي من الطائرة..

وعلى ضوء الكشاف استطاع أن يرى خيط الماء يتجمع آخذا طريقه إلى قسم المسافرين.. خيط بطيء لكنه واثق..

اتجه إلى المكتب.. فوجد الأرض مغمورة بالماء.. إن جدار الطائرة لم يعد يتحمل كل هذا الضغط..

التقط قناع أوكسجين وأسطوانة كانا هناك، وعاد إلى الاستراحة..

إن خطة (جالاجر) مجنونة لكنها أملهم الوحيد..

سأله (جالاجر) هامسا:

- ما مدى سوئه؟

- سيئ بما يكفي.

أشار (جالاجر) إلى دائرة كهربية في الصفحة، وقال:

- انظر إلى W57. إنها صالحة..

يجب أن ينتهوا من هذا سريعا.. إن الماء قادم لا محالة..

☆ ☆ ☆

هتفت (جولى) فجأة:

- أصغوا! هل تسمعون هذا الصوت؟

حاولت (إيف) أن تصغي.. أجهدت أذنيها..

كان صوتا هو مزيج من الضوضاء والاهتزاز فصاحت في الموجودين:

- أرجوكم.. اصمتوا لحظة!

نظروا لها بدهشة، ثم ساد الصمت.. بدأ الصوت يزداد وضوحا.. نهض (مارتن والاس) وأرهف السمع.. إنه غطاس بارع لهذا يعرف هذا الصوت جيدا.. لذا ابتسم وقال للموجودين:

- إنه قارب! إنهم قادمون من أجلنا!

تعالى الصراخ، وراحوا يحتضنون بعضهم..

☆ ☆ ☆

وفوق سطح الماء كانت ناقلة الزيت الفرنسية (ليبرتيه) تتحرك بسرعة خمس عشرة عقدة.. كانت متجهة إلى (تكساس)..

وكان أفراد الطاقم يجنون شوقا للعودة إلى الأرض بعد طول غياب..

وعلى سطحها كانت الشمس الجميلة تلتمع، وأشعل (الناضورجي) لفافة تبغه الأولى واستراح في مقعده.

لم يكن هناك بالطبع شيء يمكن رؤيته على سطح الماء..

☆ ☆ ☆

تلاشي صوت المحركات..

تعالى الخوف وفقدان الأمل..

واستدارت (ليزا) إلى (بوتشك) وسألته نفس السؤال الذي يسأله الجميع:

- كيف يتركوننا؟ كيف يفعلونها؟

ارتجف جسده توترا.. وقال:

- لا أعرف..

هتفت (كارين والاس) بأسلوبها المتنمر:

- أنا أعرف لماذا لم يتوقفوا.. هل تعرفون السبب؟

ساد الصمت.. فقالت ولسانها يقطر حقدا:

- لم يتوقفوا لأنهم لم يرونا.. لم يعرفوا أننا هنا.. ألا تفهمون يا حمقى؟ لا أحد يعرف أننا هنا ولن يجدونا أبدا!

لقد أظهرت لهم حقيقة كانوا يشكون فيها.. لكن الجميع تمنى ألا تقال.. ولم يستطيعوا تجاهلها بعد ما قيلت..

نظر لها (جالاجر) في اشمئزاز.. إن هذا آخر ما يريده الآن.. كانت المرأة من الطراز الذي يداوي القلق بتوزيعه على الآخرين..

- أعتقد أن هذا كاف يا مسز (والاس)!

ثم قرر أن يتكلم بصراحة.. قال:

- ليكن.. الوضع أسوأ مما قلت لكم.. طائرات البحث لا تعرف مكاننا.. لكن لدينا خطة..

واتجه إلى موضع سترات النجاة، وأخرج عبوة صفراء كبيرة:

- هذا طوف ينتفخ ذاتيا به جهاز لاسلكى يعمل حين يكون الطوف على سطح الماء.. وسيرسل إشارة استغاثة (ماي داي) إلى وحدات الإنقاذ.. سنحاول إخراج هذا الطوف من الطائرة..

يوجد في هذه الطائرة باب واحد يفتح للداخل هو في مخزن البضائع.. وقد درست ومستر (بوتشك) دوائر الطائرة، وأعتقد أن بوسعنا فتح الباب كهربيا.. ويوجد جزء خاو بين مخزن البضائع وهنا.. وهذا معناه غرق جزء واحد فقط..

سأله (نيكولاس):

- كيف ستتنفس؟

مد يده ليريهم قناع الأكسجين والأسطوانة.. وقال:

- سأرتدي هذا إلى حين أصل للسطح..

ساد الصمت بينما الموجودون يمتصون كلماته ويحاولون استيعابها.. وكادت (إيف) تجن وهي تتصوره في مخزن البضائع يفتح الباب ليغرقه..

قال (مارتن والاس):

- كابتن.. يجب أن أذهب معك..

- أخشى أنني لن..

- كابتن.. أنا غواص محترف.. والفرصة لرجلين خير منها الواحد..

كاد (جالاجر) يرفض حين قال (بوتشك):
- إنه محق يا (جالاجر).. ليس من حقك الرفض.. سأحضر قناعا وأسطوانة له..
واتجه الرجال إلى مخزن البضائع حاملين الطوف..

☆ ☆ ☆

ما إن وصلوا إلى مؤخرة الطائرة؛ انتزع (بوتشك) جزءا كبيرا من بطانة الجدار لتظهر الأسلاك الكهربية متعددة الألوان.. كان (بوتشك) يستطيع أداء العمل بشكل أفضل، لكن ذراعه المهشمة جعلته يكتفي بإصدار التعليمات..
كان على (جالاجر) أن يكون حذرا وإلا انفتح الباب فجأة.. وقال له (بوتشك):
- هو ذا.. اربط السلك الأحمر والأخضر معا.. لكن لا تتركهما يلمسان الأزرق..
قام (جالاجر) بما قيل له.. لو لامس السلكان الأزرق لانفتح الباب.. وقال لـ (بوتشك):
- ما يقلقني هو قدرة الباب الأوسط على تحمل كل هذا الضغط..؟
- سنعرف هذا حالا يا زميل..

☆ ☆ ☆

وضع (مارتن والاس) أسطوانة الأوكسجين على حزامه، ووصلها بخرطوم قناع الوجه.. وفتح أسطوانة الأوكسجين وتنفس قليلا ثم أغلق الصمام.. إنه جهاز بدائي حقا نفعه

الوحيد هو إمداد طاقم الطائرة بالهواء في الجو، لكنه غير مخصص للغطس.. لكن ما الحيلة؟

خرج إلى الاستراحة فجاء الموجودون يشكرونه ويشجعونه على ما سيقوم به.. شعر بأنه على ما يرام..

شخص واحد فقط لم يشكره ولم يودعه: زوجته (كارين).. فقد تشاجر معها منذ ثوان لأنها تأبى له أن يشارك (جالاجر) في تلك المغامرة المجنونة..

لم تكن علاقتهما هي تلك العلاقة السامة دائما.. أحيانا كان يشعر بأنها تحبه.. وقالت له:

- لن يجدي شيء أقوله.. أليس كذلك؟

لم يجب.. فقالت:

- دع (جالاجر) يرحل وحده.. أرجوك..

- إنني أفعل هذا من أجلنا..

- (نحن)؟ أنا وأنت هما (نحن).. أما كل هؤلاء فغرباء.. مشكلتك أنك تعتقد أن كل واحد هو (نحن)..

كان مستحيلا جعلها تفهم..

- اذهب الآن.. كن شهيدا.. لكن لا تتوقع مني أن أصفق لبطولتك الرخيصة هذه..

لم يرد ولحق بالرجال في مخزن البضاعة..

☆ ☆ ☆

قال (مارتن) لصديقه (فرانك):

- لو حدث شيء لي فأرجو أن تعنى بالعمل..

- ثق بهذا..

- وتأكد من أن (كارين) لن تؤذي نفسها..

وشعر براحة لأنه سيلقى بنفسه ومشاكله في المحيط من جديد..

استدار (جالاجر) وأشار بإبهامه لأعلى بمعنى O.K لـ (والاس).. ثم صافح (بوتشك) و (إيف) الدامعة.. وخرج الأخيران من غرفة البضاعة بعدما أحكموا إغلاق الباب..

وقف الرجلان أمام باب البضاعة.. كانا يعرفان أن هناك مئات الأطنان من ماء المحيط على الجانب الآخر من الباب، ولسوف تنهال عليهما بعد ثوان..

قال (جالاجر):

- حسن.. سنبدأ.. ابتعد عن الباب قدر الإمكان فلو انفتح لحسبت أن بوابات الجحيم انفتحت..

ابتعد (مارتن والاس) عن الباب، وتشبث بالجدار.. أما (جالاجر) فمد يده إلى الأسلاك.. فتح صمام الأكسجين فشم رائحة الغاز البارد النقي في رئتيه، وسمع صوت الهسيس..

قال (والاس):

- كابتن.. إذ تصعد إلى السطح حاول أن تخرج كل الهواء من صدرك.. لا تحاول حبس نفسك وإلا آذيت رئتيك..

هز (جالاجر) رأسه.. ومد يده ولامس السلك الأزرق بالسلكين الآخرين.. دوى صوت المحرك الذي يفتح الباب لكن هذا لم ينفتح.. انتظر لحظة ثم لامس الأسلاك مرة أخرى صوت المحرك لكن الباب لم ينفتح..

تساءل (مارتن):

- ماذا هناك؟

هز (جالاجر) رأسه من جديد:

- لابد أن المحركات اللعينة قد التصقت.. أو أن البطاريات لم تعد بها قوة كافية..

حاول يائسا مرة ثالثة.. ورأى أن (مارتن) قد دنا من الباب ليفحص الأقفال عن كثب.. فقال:

- احترس.. لا تدن من...

لكن الأوان قد فات..

انفتح الباب ودخلت مئات الأطنان من الماء..

تم كل شيء بسرعة حتى إن (جالاجر) لم ير ما حدث.. فقط عرف أن (والاس) قد تلقى الصدمة بقوة.. وقبل أن يتحرك صارت الغرفة جحيما من الماء الهادر.. كان يفكر في الطوف الأصفر خلفه..

تمزق القناع وأدرك أنه يستنشق ماء البحر المالح وفجأة امتلأ المخزن بالماء، وبالتالي هدأ كل شيء..

حبس أنفاسه وفتح عينيه ليحرقهما الماء المالح.. وجد قناع الأكسجين الذي سقط منه تتصاعد منه الفقاقيع.. ثبته على وجهه وأخذ جرعات عزيزة من الهواء، ثم سبح نحو (والاس)..

كان رأس الأخير متدليا وعيناه مفتوحتين لا تريان وعلى الضوء الخافت القادم من الخارج أدرك أنه لا يمكن عمل شيء.. وراح يسبح نحو باب المخزن..

☆ ☆ ☆



وعلى الضوء الخافت القادم من الخارج ، أدرك أنه لا يمكن عمل شيء .. وراح يسبح نحو باب المخزن ..

احتشد المسافرون قرب النوافذ يأملون في ظهور الرجلين..
سمعوا صوت هدير محركات الباب، وضعف الضوء لحظة تلامس السلكين.. ثم تكررت المحاولات فتوتروا وقد أحسوا أن

شيئا ما ليس على ما يرام..

ثم سمعوا الباب ينفتح فجأة.. واهتزت الطائرة..

ومن النوافذ رأوا الجزء التالي من الدراما.. فقاقيع تتصاعد.، ثم طوق النجاة.. وشهق الناس إذا رأوا (جالاجر) يرتفع ببطء..

ثم رأوا جسد (والاس) يطفو في الماء.. مر أمام النافذة مباشرة وقد بدا أثر الانضغاط على وجهه..

برزت عيناه واتخذ عنقه وضعا غير طبيعي.. بالواقع كاد تعرفه يغدو مستحيلا.. وأدركوا أن ميتته كانت أليمة شنيعة..

كانت (كارين) تولول وقد فقدت التحكم في نفسها..

حاول (باورز) أن يهدئها لكنها تراجعت عنه كالملسوعة، مدت (إيف) يدها لها لكنها صرخت:

- ابقوا بعيدا عني! ابقوا بعيدا!

ثم بدأت تستعيد روعها، فراحت ترمقهم في كراهية كأن ما حدث لزوجها حدث بسببهم..

وابتعدت عنهم وجلست في ركن الاستراحة..

ساد الصمت المكان.. ربما كان (جالاجر) على السطح الآن.. لكن منظر جثة (والاس) هزهم بعنف، وأدركوا ألا ضمان للنجاة..

☆ ☆ ☆

وصل (جالاجر) لسطح الماء، فشهق ملء رئتيه كان الموج عاتيا لذا بدا من العسير أن يصل للطوف الداني، الذي كان قريبا لكنه يبتعد عنه باستمرار..

جاهد حتى وصل إليه، وصدره يؤلمه وعيناه تحرقانه..

كان مرهقا باردا، لذا رقد على ظهره ينظر للسماء.. ثم استعاد قواه وبدأ تشغيل جهاز الإرسال.. ومسرورا سمع صوت (بيب بيب) ينبعث منه.. حمدا لله..

كانت مفاصله تؤلمه، وجلس في الطوف ينظر حوله إلى المحيط الخاوي.. ليس في جعبته سوى الانتظار والألم..

☆ ☆ ☆

بدأ رجل الاتصالات يشعر بدهشة..

كان جالسا في مركز الاتصالات التاكتيكي لعدة ساعات، يتفقد قنوات الإغاثة، ولم يتوقع أن يسمع شيئا بعد كل هذا الوقت..

لذا شعر بدهشة حين سمع إشارة (ماي داي) تأتي من جهاز الراديو، وصوت (بيب) يزداد قوة على تردد الطائرات..

صاح فيمن حوله:

- قد سمعت إشارة!

أحاطوا به، وهرع (ستيفنز) مع الأدميرال (كوريجان) يصغيان.. وهنا دب النشاط المفاجئ في المكان..

راح الرجال يحاولون تحديد مكان الإشارة..

وعلى منضدة الخرائط عكفوا بمساطر الملاحة على تحديد البقعة..

قال (كوريجان) لـ (ستيفنز) مذهولا:

- على بعد مائتي ميل من مكان بحثنا! هذا لا يصدق!

والآن - وقد عرف موقعا - هو يعرف ما يجب عمله..

أمر الكوماندور (ريد) بالتحرك.. ثم سأله عن السفن الموجودة هناك، فقال هذا:

- (جرين وتش) و(كايوجا) و(هاملتون)..

لكنها ليست في العملية..

- هي جزء من العملية الآن.. أطلب الأدميرال (جيمس) وحرس السواحل..

كان يشعر بالراحة لأن لديه أملا ما..

وراح (ستيفنز) يرقب في رضا السرعة التي راحت تعمل بها وحدة إنقاذ البحرية، ويصغي لاتصالات اللاسلكي:

- بحث (5).. هنا قاعدة البحث.. لدينا طائرة 27 شمالا و65 غربا.. ابدأ التحرك.

- هنا بحث (5).. بدأ التحرك.. (روجر)..

☆ ☆ ☆

كان (بوتشك) لم يبذل موضعه في قاع الطائرة منذ خرج (جالاجر).. وهو يدرك أن الماء يتعالى باستمرار، والوضع يسوء..

لم يكن بحاجة إلى أن يتفقد مواضع التسرب.. الأبواب كلها تسرب الماء من الجوانب وأعلى الباب..

سمع خطوات متجهة إلى الاستراحة..

سأله القادم:

- مستر (بوتشك).. هل يوجد ما نقوم به؟

- ولا شيء.. لقد لعبنا أخر ورقة لدينا.. ولتأمل خيرا..

وفي الاستراحة جلس المسافرون.. لقد مرت عشرون دقيقة منذ رحل (جالاجر).. ولأول مرة بدأ شيء كالأمل ينساب في النفوس..

أما (كارين) فكانت وحيدة مكتئبة.. شعرت (إميلي) بتعاطف شديد نحوها، فنهضت لتقول لها في رفق:

- مسز (والاس).. لم لا تأتين لتجلسي معنا؟

لم تجب (كارين) كأنها لم تسمع.. بل إن (إميلي) رأت شفتي المرأة تتحركان دون صوت.. نهضت بحركات غريبة كحركات الماشين أثناء النوم..

وتساءلت (إميلي): إلى أين هي ذاهبة؟

هنا فهمت (إميلي) فجأة إلى أين كانت (كارين) ذاهبة، وماذا كانت تزمع عمله..

صرخت في هلع:

- توقفي! ماذا ستفعلين!

وثبت (إيف) لتلحق بالمرأة قبل أن تفتح الباب الذي يقود إلى مخزن البضائع.. جذبتها من ذراعها وصرخت:

- ستقتليننا! ابتعدي عن الباب..

- اتركيني! يجب أن أخرج!

وغرست أظفارها في ذراع (إيف).. مزقت وجهها.. ولم تجد (إيف) طريقة للسيطرة على هذه المرأة سوى حل واحد..

كورت قبضتها وضربت (كارين) في وجهها بأقوى ما استطاعت.. تهاوت المرأة على الأرض وتحسست شفتها السفلى.. كانت ممزقة تنزف دما..

فجأة بدأت تبكي.. بكاء يجيء من أعماق روحها..

- لماذا فعلت هذا؟ انظري ما فعلت بي؟

لم ترد (إيف).. احتضنتها دون كلمة، شاعرة أن شيئا ما ليس على ما يرام في عقل هذه المرأة..

☆ ☆ ☆

أبطأ طيار النفاثة محرك طائرته، وهو يرى الطوف الذي بدا كنقطة في المحيط..

دار حوله مرتين كي يتأكد أن الرجل الذي في الطوف رآه.. لكن ما أثار دهشته هو أنه لم ير أي حطام في هذه البقعة.. دار من جديد، وارتفع أكثر ليرى المشهد بشكل أفضل.. هنا أصابه الذهول..

تحت سطح الماء كان يرى الظل المميز للطائرة (747)..

ضغط على زر أمامه ليسقط صبغة ملونة فوق المنطقة.. ثم فتح جهاز المذياع ليبلغ المركز بما رآه..

☆ ☆ ☆

احتشد رجال البحرية حول (الراديو) بينما الطيار يعطيهم تقريرا عن الموقف.. الطائرة مغمورة تماما.. رجل واحد في طوف..

قال (كوريجان):

- أريد حالة إنذار رقم واحد في المنطقة.. أعدوا طاقم غطس وطائرات هليوكوبتر طراز SH - 3 أريد خراطيم هواء.. أدوية.. تعامل كأنها عملية انتشال غواصة غارقة..

وتحدث (كوريجان) إلى ضابط الاتصال:

- صلني بالقبطان على السفينة (كايوجا)..

- آي آي يا سيدي..

قال (ستيفنز):

- هل هناك فرصة في وجود أحياء؟

قال (كوريجان):

- بالتأكيد.. لقد أنقذنا أشخاصا من تحت الماء من قبل.. المهم هنا أن يكون جسم الطائرة سليما..

هنا جاء صوت كابتن (ماكنزي) قائد (كايوجا):

- سيدي.. نحن نتجه نحو الطوف.. بدأنا إعدادات الغطس ولسوف نصل الموقع خلال عشرين دقيقة..

- استعدوا لاستقبال هليكوبتر تقل مستر (ستيفنز).. حظا سعيدا..

ثم استدار لـ (ستيفنز) القلق وابتسم:

- سيكون كل شيء على ما يرام.. فاطمئن..

☆ ☆ ☆

كانت لدى البحرية أكثر من أي سلاح آخر في الجيش خبرة لا بأس بها في عمليات الإنقاذ.. فقد تم تشكيل جناح الإنقاذ الخاص بها منذ الحرب العالمية الأولى، وكانت هذه الخبرة تظهر في وقت الطوارئ التي يكون الفارق فيها بين الحياة والموت بضع دقائق..

كان (بوتشك) - في الطائرة - يعرف أن (جالاجر) لم يتأخر سوى ساعة.. لكن هذه الساعة بدت له كالأبد..

كان الماء يتسابق عبر الدرجات نحو الاستراحة ويتعالى.. فعرف (بوتشك) أن عليه أن يرفع الجرحى لأعلى قليلا.. إنها مسألة وقت، والماء الآن على ارتفاع بضعة أقدام..

حاول حساب الوقت الذي سيملأ الماء فيه الاستراحة الرئيسية.. ولكن ما الفارق؟

اتجه إلى (دوروثي) الراقدة على الأرض، وتعاون مع رجلين في حملها إلى الأريكة، وجوارها جلست (إميلي) تبلل جبينها بمنشفة..

هنا تعالت همهمة بين المسافرين..

وحتى (شامبرز) الذي جلس وحيدا مكتئبا بدأ يسمع الصوت.. صوت قارب يدنو.. صوتا يتعالى..
وهذه المرة لم يتلاش..
راحوا يهللون ويتصايحون.
وابتسمت (إيف) لفكرة أن (جالاجر) سالم.. لقد في فعلها.. فعلها (دون)، ووجدونا..

☆ ☆ ☆

كانت السفينة (كايوجا) في التدريب، حين تم استدعاؤها للغوث فتحركت بسرعة نحو مصدر الإشارة.
تم إعداد مضخات الهواء وأنابيب الأكسجين في أثناء الرحلة.. وكان القبطان (ماكنزي) يعرف أن سفينته قادرة على أداء المهمة، لأن عليها طاقمين من رجال الـ U.D.T... وهي الحروف الأولى من عبارة (إخلاء السفن الغارقة)، وكان هؤلاء يستعدون بأدواتهم فوق ظهر السفينة..
كانت كفاءة هؤلاء القوم هي الضمان الوحيد لأداء مهمة هي - في أبسط ظروفها - شديدة الخطر..
وهنا دوى صوت جهاز الاتصال ما بين السفن.. لقد ظهر الطوف.. ورفع (ماكنزي) منظاره المقرب ليري (جالاجر) وسط المحيط..
قال لضابط الاتصال:
- حرك الدفة خمسة وثمانين درجة.. استعدوا لانتشال الرجل..

☆ ☆ ☆

بتوتر متزايد راح (جالاجر) يرقب السفينة تدنو.. وقبل أن تنزل الـ (كايوجا) مرساتها؛ ظهر (زودياك) وهو قارب مطاطي بمحرك تم إنزاله في الماء، به رجال من طاقم الـ U.D.T ليشق الأمواج متجها إلى (جالاجر).. وبسرعة شديدة انتشلوا الرجل ثم عادوا إلى (كايوجا).

قام طبيب بفحص (جالاجر) سريعا، وساعده على أن يلتف بالبطانيات، ثم قدم له بعض القهوة الساخنة من (ترموس).. رشف منها بعض رشفات ثم صاح:

- أنا بخير.. إن الركاب هم من يحتاجون إلى عون وعلينا إخراجهم حالا..

صعد بمعونة الرجال إلى ظهر الـ (كايوجا) وهرع ليلقي القبطان.. فهو يملك معلومات حيوية يجب أن يعرفها الرجل..

دنا القبطان منه، وصافحه ثم سأله:

- ما هو الموقف تحت؟

- أكثر المسافرين أحياء.. البعض جرحي.. جسم الطائرة قد بدأ يذعن للضغط، ولا أعرف قدر الماء الذي دخل في الساعة الماضية..

- ومخزونهم من الهواء؟

- أوشك على الانتهاء.. هل يمكن البدء الآن؟

أشار القبطان إلى طائرات الهليكوبتر التي تحوم حول السفينة كحشرات عملاقة، وقال:

- لقد بدأنا بالفعل كما ترى.

ثم قال (ماكنزي) وهو يقتاد (جالاجر) إلى مؤخرة السفينة:

- هلم معي..

وكانت الضوضاء تصم الآذان، ورأى (جالاجر) أولى الطائرات تهبط في رقعة صغيرة على ظهر السفينة.. ثم خرج منها رجال الـ

U.D.T ومعهم أدواتهم، ثم ارتفعت الطائرة.. وبعد ثوان هبطت الطائرة الثانية بنفس الكفاءة لتكرر الأمر ذاته..

وجاءت الطائرة الثالثة ليخرج منها رجال تبين فيهم (جالاجر) وجها مألوفا..

كان هذا هو (فيليب ستيفنز).

صافحه (جالاجر) وأخبره أن أكثر الضيوف أحياء وأن ابنته وحفيده آمنان، وحكي له قصة خطف الطائرة كلها..

أخبر القبطان الرجلين أن الإنقاذ سيبدأ حالا..

تقدم قائد العملية الملازم (لاوسون) رجل الضفادع البشري، ليعلن البدء.. فقال (ستيفنز):

- كابتن.. ماذا تنوون عمله بالضبط؟

قال القبطان:

- لو كان عدد الضحايا محدودا لكان الأمر سهلا.. نثقب جسم الطائرة ليدخل رجال الضفادع البشرية حاملين أسطوانات الأكسجين، ونخرج الجرحى واحدا في كل مرة.. لكن العدد كبير هاهنا.. لذا نحن بحاجة إلى رفع الطائرة باستعمال حقائب قابلة للنفخ.. نفس الأسلوب الذي نستعمله في انتشال السفن الغارقة..

قال (جالاجر):

- أنا ذاهب معهم!

سأله القبطان في ريبة:

- هل أنت غواص؟

- أنا هاو..

- إذن لا سبيل إلى ذلك يا مستر (جالاجر)..

واستدار إلى (لاوسون) باعتبار الموضوع منتهيا، لكن (جالاجر) كان مصرا، فقد أنهكت الساعات الماضية أعصابه،

وغدا متوترا سريع الشجار

- يا كابتن.. إن رجالك لا يعرفون المواضع الخاطئة في (747).. لكني أعرفها.. ولو ربطت حقيبة إنقاذ في موضع ضعيف لتهشمت الطائرة فورا..

كان صوته يزداد ارتفاعا في أثناء الكلام، وراح أفراد الطاقم ينظرون إليه بعيون غير مصدقة.. فلا أحد يصرخ في القبطان على السفينة في البحرية.. لكن (ماكنزي) ظل يصغي ببرود..

قال (جالاجر):

- لقد عانى هؤلاء القوم كثيرا.. ولا يمكن المجازفة بإضاعة أخر فرصة لهم.. إنكم بحاجة إليّ هنالك..

كان البحارة يعرفون أن (ماكنزي) عصبي جدا، وسوف ينفجر في أية لحظة.. لكنه – لدهشتهم – أصغى باهتمام، ثم أبتسم وقال:

- إنني أحترم إصرارك يا كابتن.. ولو لم تكن طيارا لصرت ضابط بحرية لا بأس به.. خذه يا (لاوسون) وزوده بثياب (غوص)..

☆ ☆ ☆

بدأ الماء يتدفق على درجات السلم..

صار الآن عند الركبتين.. وأدرك (بوتشك) أن إبقاء المصابين خارج الماء سيكون مستحيلا بعد قليل..

أشار إلى (سانت داون) كي يتبعه إلى مؤخرة الاستراحة، وتناول بعض سترات الهواء، وراح يوزعها على الموجودين.. كانوا يرتجفون بردا او رعبا لكنهم راحوا يضعونها حول المصابين..

- حين يرتفع الماء سيبقى هذا رءوسهم فوقه..

وبرغم أن النجدة دانية؛ ساد جو من الاكتئاب فلا أحد يعرف كيف سيتم إنقاذهم.. ستكون دعابة أخيرة سخيفة أن يموتوا بينما النجدة على بعد أمتار..

قال (بوتشك):

- اسمعوا.. على الجميع ارتداء سترات النجاة الآن..

كان هذا كفيلا بأن يشغلهم بعض الوقت.. وسرهم هذا..

☆ ☆ ☆

تحرك فريق الغطس في قوارب الـ (زودياك) السريعة.. وكانت سرعة القارب تجعلهم يثبون فوق الموج وثبا في أثناء تقدمهم..

وكان (جالاجر) و (لاوسون) في القارب الأول..

رسم (جالاجر) على ورقة كروكيا لـ (747) وحدد عليها أسوأ الأماكن المحتملة.. فسأله (لاوسون):

- هل ترى أن نثقب جسم الطائرة وندخل أنبوب هواء للقوم؟

- خطر جدا.. لو بدأت قطع هذا الألومنيوم؛ فلا يدري سوى الله وحده ما قد يحدث..

ثم إن (لاوسون) تناول لوحا من الإردواز يتصل به خيط مربوط حول قلم شمعي، وقال:

- سنكتب لهم الرسائل هكذا.. ما هو مدى تنسيقهم؟ ما فرصة الهلع؟

فكر في (بوتشك) و (إيف) اللذين يؤمن بهما تماما، وقال:

- لا تقلق من هذا أبدا..

ونظر إلى المحيط الثائر، وإلى (كيوجا).. ورأي قوارب الـ L.C.V.P وهي اختصار عبارة (نقل طاقم الطائرات الغارقة) يتم

إنزالها.. وهي قوارب معدنية قادرة على حمل اثني عشر رجلا أو أطنان من المعدات..

قال (لاوسون) لرجاله إذ توقف القارب:

- يا سادة.. إن لديكم تعليماتكم.. نفذوها..

ثم وضع قناعه وكذا فعل (جالاجر).. ووثب الرجلان إلى الأمواج..

شعر (جالاجر) بصدمة الماء البارد.. ثم شعر بأن طبقة رقيقة من الماء تسربت ما بين جسده وبذلة الغطس: عزلت جسده عن برد المحيط.. تنفس براحة، وراح يسبح خلف (لاوسون) في المياه الخضراء..

أخيرا يرى الطائرة الضخمة تستريح على قاع المحيط..

بدت نوافذها المضاءة كصف من عيون صفراء يظهر الركاب من خلفها.. وشعر بأنه يرى وحشا مما قبل التاريخ أكثر منه أداة من الألومنيوم صنعها الإنسان..

اتجه بعض الرجال إلى المقدمة، وبعضهم إلى المؤخرة، وبعضهم راح يفحص الجناحين..

وفي الاستراحة ساد السرور العام.. فقد رأوا الغواصين يحيطون بالطائرة وهو أول دليل على دنو النجدة.. النجدة التي لم تأت أسرع من اللازم بالتأكيد..

هذا ما فكر فيه (بوتشك) في مرارة..

لقد تضاعف الماء ثلاث مرات، وصار عند خصر الواقف، وأدرك (بوتشك) أن المكان سيمتلئ خلال ساعة..

مرتجفا من البرد؟ نفخ سترة النجاة حول صدر (دوروثي).. لم يعد ثمة موضع جاف يمكن إبقاؤها فيه، لكن السترة - على الأقل - ستبقى رأسها فوق الماء..

تحرك إلى النافذة، فرأى أحد الغواصين يحمل قطعة من الإردواز، كتب عليها بقلم شمعي: سنرفع الطائرة.. سننقذ الجميع..



تحرك إلى النافذة ، فرأى أحد الغواصين يحمل قطعة من الأردواز ، كتب عليها بقلم شمعى ! سنرفع الطائرة . .

أشار له بعلامة OK.. واستدار إلى المسافرين ليقول:
- إنهم سيحاولون رفع الطائرة.. لو نجحوا سيبدو لنا وكأن إعصارا عاتيا صدمنا.. فلنحاول التشبث قدر الإمكان.. استعملوا الأحزمة ومزقوا الملاءات ليستعملها من لا يملك حزاما.. تأكدوا من ربط الجرحى إلى (درابزين) السلم..

☆ ☆ ☆

استطاع (جالاجر) أن يرى (إيف كلايتون) من النافذة..
كانت مذعورة كباقي الركاب لكنها سليمة آمنة..
كان الماء يعلو بسرعة أفزعت (جالاجر)..
وراح يتمنى أن يكفي الوقت لعمل اللازم..
أشار له (لاوسون).. ثم أشار لباب الشحن بالطائرة..
سبح الرجلان إلى هناك وفتحا الباب..
أمامهما كان المعدن الممزق لجسم الطائرة..
الثقب الذي أحدثته حاوية البضائع في أثناء الاصطدام، ولربما لو لم يحدث هذا لاحتفظت الطائرة بقدرتها على الطفو فترة كافية.. لكن الثقب كان كبيرا بالفعل..
وعبر الفتحة - وعلى ضوء كشاف (لاوسون) - دخل الرجلان إلى قسم البضاعة.. كان الحطام في كل مكان.. وراح الضوء يلتمع على اللوحات التي تلفت والتماثيل التي تهشمت.. ثم سقط على شيء جعل رجل الضفادع البشرية يرتجف فرقا..
كان وجها مخيفا منتفخا بفعل ساعات طويلة تحت الماء..
كان هذا هو (بانكر).. وقد دفن جسده تحت حاويات البضاعة..
أشار (لاوسون) إلى رجاله كي يحكموا غلق الباب الداخلي.. فلو انفتح لغرقت الطائرة فورا..

ثم غادر الرجال الطائرة ليبدءوا أهم وأطول جزء من العملية..
سيتم رفع الطائرة بوساطة أكياس.. وهي أحدث ما وصل إليه فن الإنقاذ البحري.. حقائب عملاقة من المطاط يتم تثبيتها إلى جسد الطائرة ونفخها بالهواء، من ثم تستطيع رفع السفن الغارقة - التي هي أثقل بكثير من الـ (747) - بسهولة تامة..
المشكلة هي أن الحقائب أقوى من اللازم؛ لذا قد تهشم جزءا واهنا من جسد الطائرة..
كان عليهم أن يتفقدوا الجسد، وينتقوا - بناء على توجيهات (جالاجر) - خير الأماكن التي تتحمل قوة الرفع..
انتقي (جالاجر) نقطتين قرب ذيل الطائرة.. ثم وجد نقطتين عند اتصال الذيل بجسم الطائرة..
وفي كل بقعة يتم اختيارها كان رجال الضفادع البشرية يرسمون بالشمع علامة كبيرة.
واستمر العمل ببطء مستفز، برغم أن صورة الوجوه المتوسلة في الاستراحة لم تبرح خيال (جالاجر)..
انتهى العمل على كل حال.. استغرق دهرا لكنه انتهى..
وأشار (لاوسون) لأعلى فبدءوا يصعدون..

☆ ☆ ☆

بينما كان فريق الـ U.D.T تحت الماء ينتقي أماكن تثبيت الحقائب؛ كان نشاط عظيم يجري فوق سطح الماء..
كان هناك خرطوم هواء عملاق يتصل بمضخة في غرفة آلات الـ (كايوجا)، يتدلى إلى البحر.. وراحت القوارب تجره إلى الماء وتضيف إليه أجزاء تزيده طولا وهي تبتعد..

في النهاية تم ربطه بلوحة توزيع هواء على ظهر الـ (زودياك)، وهذه اللوحة يتفرع منها عدد من الخراطيم الصغيرة سيمدها الغواصون إلى الطائرة (747)..

ثم وصلت حقائب الرفع المطوية والتي صنعت من المطاط البرتقالى؛ وكان لكل حقيبة فوهة تصلح لتوصيل خرطوم هوائي.. وحين تنتفخ الحقيبة يغدو نصف قطرها عشرة أقدام، وبوسعها رفع أطنان من الوزن..

راح كل واحد من رجال الغطس يتجه إلى قارب من القوارب.. كان هناك رجلان لحمل كل حقيبة، وغاص الرجال تحت الماء..

نزل كل فريق في صراع محموم مع الزمن، لإنهاء العمل قبل فوات الأوان..

☆ ☆ ☆

كان (جالاجر) منبهرا بروح الفريق لدى الرجال..

كانت هناك الآن ثلاث فرق..

الفريق الذي يعمل به (جالاجر) مسئول عن تثبيت الحقائب.. سبحوا إلى موضع الجناحين، ثم أخرج أحد الرجال مسدس ضغط هواء من جيبه، وصوبه نحو مركز علامة (x) السابقة، ثم أطلق طلقة ليثبت مسمارا في جسم الطائرة..

ثم تراجع اثني عشر قدما وأطلق طلقة أخرى..

ثم تراجع الفريق بحثا عن نقطة أخرى، وفي اللحظة ذاتها وصل الفريق الثاني ليثبت الحقائب الصفراء الرخوة بأسلاك قوية في المسامير ثم انتقلوا إلى بقعة أخرى..

هنا ظهر الفريق الثالث، يحمل رجاله خراطيم الهواء القوية الشبيهة بالأفاعي المتصلة بلوحة توزيع الهواء على السطح..

وقاموا بتثبيتها بالحقائب باستعمال مفتاح إنجليزي.. وتأكدوا من إحكام التوصيلات، ثم انتقلوا إلى نقطة أخرى مر عليها الفريق الأول والثاني.

☆ ☆ ☆

حين عاد (جالاجر) إلى الـ (زودياك) كان مرهقا بحق..

ثم ظهر (لاوسون) بدوره، الذي جلس في القارب وضغط على زر جهاز الـ (ووكي توكي):

- كابتن (ماكنزي).. هنا (لاوسون)..
- كيف الحال؟
- الطائرة تسرب الماء كمنخل.. لا يجب الانتظار أكثر..
- وكيف توزيع الوزن؟
- إن ذيل الطائرة ثقيل، ولسوف يرتفع في زاوية حادة..
- هل هناك وقت لزيادة حقائب الذيل؟
- لا يا سيدي.. لا داعي للمجازفة..
- إذن.. فلتتراجع القوارب.. سنبدأ تشغيل المضخات.

☆ ☆ ☆

بدأت المحركات تهدر، ورأي (جالاجر) أفراد فريق الغطس يصعدون إلى السطح واحدا بعد الآخر ويركبون الـ (زودياك)..

ثم راحت القوارب تتراجع نحو (كايوجا)..

☆ ☆ ☆

قام (بوتشك) بربط شريحة ملاءة ممزقة حول معصم (إيدي).

الآن لم يعد مكان مأمون سوي (درابزين) السلم..
- هذا ضيق جدا يا مستر (بوتشك)..
- معذرة يا (إيدى).. لكن يجب أن يكون كذلك..
وساعد الأُمّين على احتضان طفليهما..
ربط (كارين والاس) إلى منضدة عالية، ثم صعد بضع درجات وربط نفسه، وراح ينتظر الأسوأ..

☆ ☆ ☆

وقف كابتن (ماكنزي) والضباط على ظهر (كايوجا).
تأكد (ماكنزي) من ابتعاد القوارب جميعا، ثم قال لملازم بجواره:
- شغل المضخات.
أصدر الملازم تعليماته عبر اللاسلكي، وبدأ هدير المضخات.
الخرطوم الرئيسي ينتفخ ويتصلب بضغط الهواء فيه.. ومن لوحة التوزيع راح الهواء يسري في الخراطيم الفرعية، فتتلوى كالأفاعي..
في النهاية امتلأت أكياس الرفع..
لو تم كل شيء على ما يرام سترتفع الطائرة فورا..

☆ ☆ ☆

كانت هناك أربعة أكياس متمسكة بالأجنحة واثنان عند الذيل.. ستكون قوة الرفع هائلة..
تمدد كل كيس ليتحول إلى بالون عملاق نصف قطره عشرة أقدام.. وبدأت البالونات تجذب المسامير..

بدأ المعدن في جسم الطائرة يحتج.. ومع كل جذية لأعلى كان صوت تصادم يدوي في الماء، وبدأت الطائرة تغير وضعها..
المعدن يئن كأنما شيء حي يتم تمزيقه..
وبدأت الرمال والأعشاب البحرية تتصاعد لأعلى، فقد كانت الطائرة مثبتة إلى القاع بقوة امتصاص مريعة..

☆ ☆ ☆

وعلى الـ (كايوجا) كان توتر القوم لا يوصف..
كلهم ينظرون ويأملون.. ورأى القبطان (ماكنزي) الماء يغلي من أثر الهواء المتصاعد من صمامات البالونات، وحين رأي وسط فقاقيع الهواء الرمال والأعشاب عرف أن الطائرة ترتفع..
كان يعرف أن الطائرة سترتفع بمقدمتها أولا.. وستصعد لأعلى مثل الرصاصة.. سيكون هذا جحيما حين تخرج الطائرة للسطح.

☆ ☆ ☆

في الاستراحة كان الاهتزاز لا يوصف، وصوت أنين المعدن مرعبا حتى توقع الجميع تهشم الطائرة..
وتمنى (بوتشك) لو كان له ذراعان كي يعين (إيف كلايتون) على التشبث.. وكانت تجد صعوبة في التماسك، وراحت تتمايل من جانب آخر..
وانطلق رشاش ماء مالح في وجه (بوني) الصغيرة فسعلت..
صارت زاوية الأرض حادة تحت أقدامهم، وازداد الماء عمقا إذ راح يتدفق من مقدمة الطائرة إلى مؤخرتها..
وأدرك أن الطائرة ترتفع الآن..

دوت صرخات فزع بينما أطنان المياه تأتي من مقدمة الطائرة إليهم.. لكن كل المسافرين كانوا متمسكين جيدا، واهتزت الطائرة بعنف، بينما بدت أرضيتها كأنما هي مغطاة بالشحم.. كل ما لم يثبت عليها طار كالقذيفة إلى المؤخرة..

صرخ (إيدي) وقد انهرست قدمه المصابة..

ورأى (بوتشك) مقعدا يطير ليضرب د. (وليامز) بين لوحي كتفه، ثم أوشك أن يضرب (إيف) و (بنجي)، وفي النهاية حلق ليختفي في مؤخرة الطائرة..

ما لم يصلوا لسطح الماء سريعا فسيلحق الكثيرون بهذا المقعد..

☆ ☆ ☆

راح (جالاجر) و (لاوسون) يرقبان هياج المحيط متذمرا من قدوم الطائرة.. مساحة خمسين ياردة مربعة عبارة عن غليان مخيف.. بينما قوارب الـ (زودياك) تحيط بالرقعة..

ورجال الضفادع البشرية يرقبون أخطر أجزاء العملية..

عليهم أن ينقذوا الركاب بأسرع ما يمكن..

- سيكون الوضع غير مستقر تماما، ولو هبطت هذه الطائرة للقاع ثانية فستأخذ معها كل شيء قريب!

قالها (لاوسون) وهو يرمق المشهد بمنظاره المقرب..

☆ ☆ ☆

كان المسافرون يحاولون التماسك..

كان الماء يحاول انتزاعهم من أماكنهم.. وشعرت (ليزا) أن (بنجي) ينسحب من ذراعها.. حاولت التماسك لكنه راح ينسل

منها..

وفي النهاية اندفع نحو الجزء الأوسط من الطائرة حيث تيار الماء الأعنف..

رأت (كارين والاس) على المنضدة في الجانب الآخر من الممر، وأدركت أن (كارين) يمكنها أن تقبض على ذراع الطفل.. فصرخت:

- بحق السماء ساعديني!

غير مصدقة وجدت (كارين) تشيح بنظرها عن المشهد، وتشبثت بمكانها بقوة أكثر!

اندفع (بوتشك)، وبيد واحدة سليمة مد يده إلى الطفل، وصرخ في (باورز):

- أمسك حزامي!

هز (باورز) رأسه، وأمسك بحزام (بوتشك) بقوة ليتحمل وزنه بالكامل، ومد (بوتشك) جذعه حتى وجد ياقة قميص الصبي فجذبه منها، وشد الصبي نحوه.. وفي النهاية استطاع (بنجي) أن يحيط بعنق (بوتشك)..

استطاع (باورز) أن يجذب (بوتشك) إليه أخيرا..

وهنا دارت الطائرة لناحية أخرى شعرت (كارين) أنها تنزلق.. صرخت في ذعر.. ونظر المسافرون لها عاجزين عن العون بينما الماء يحملها..

استمرت صرخاتها من مؤخرة الطائرة، ثم توقفت حين اصطدم رأسها بقطعة من الحطام..

☆ ☆ ☆

ازداد الغليان على سطح الماء، بينما الـ (747) تصعد إلى ضوء النهار.. وظهرت البالونات ثم أنف الطائرة الألومنيوم..

أخيرا ظهر الجسم وأطنان من الماء تنهال منه، كأنما هي حوت عملاق يخرج رأسه من المحيط.



أخيرًا ظهر الجسم وأطنان من الماء تنهال منه ، كأنما هى حوت
عملاق يخرج رأسه من المحيط . .

راحت قوارب (الزودياك) تتأرجح بفعل الأمواج العاتية، ورأوا باب طوارئ فوق الجناح..

يجب الإسراع.. فالطائرة غير مستقرة؛ ومن الممكن أن تعود للقاع في أية لحظة..

☆ ☆ ☆

تسرب ضوء الشمس من النوافذ، وكان ساطعا إلى حد أنه أذى عيون الركاب بعد ثمان ساعات من الضوء المعتم..

دوت صرخات الفرح، وتعالى البكاء..

استدار (بوتشك) صائحا:

- أسرعوا فالوقت ضيق.. لنقرب الجرحى من باب الطوارئ.. هم أولا ثم نحن..

كان رأس (دوروثي) على صدر صديقتها (إميلي)..

قالت لها (إميلي) في رفق:

- نحن آمنتان يا عزيزتي.. سنكون بخير..

لم ترد (دوروثي) وسقط رأسها جانبا.. وأغلقت عينيها.. لقد ماتت صديقة (إميلي) الصدوق، فتعالى أنين (إميلي) وبكاؤها..

ربت (نيكولاس) على كتفها، فقالت وهي تحتضنها:

- إنني لن أتركها هنا..

- لا وقت لهذا..

وكان كلامه حقيقيا..

وفي هذا الآن كان (بوتشك) و (إيف) يشرفان على الإخلاء ومد يده إلى مقبض باب الطواري فانفتح إلى الداخل قليلا ثم إلى الخارج.. ومن الباب دخل الهواء الطازج البارد، ليطرد الهواء المليء بالفزع بالداخل..

كانت رائحته شهية حقا..

تسلق رجال الضفادع البشرية أجنحة الطائرة، واستعدوا.

☆ ☆ ☆

راقب كابتن (ماكنزي) و (ستيفنز) عملية الإنقاذ..

وكان حجم قوارب الـ (زودياك) مدهشا في ضآلته بالنسبة للطائرة.. واستطاع (ستيفنز) أن يرى رجال الضفادع البشرية يخرجون (إيدي) من الباب يعاونهم (باورز)..

ثم رأي مسز (ستيرن) وابنتها (بونى).. ثم (إميلي)..

وبدأ الضيوف غير الجرحى يخرجون بدورهم..

وكان رجال الضفادع البشرية يعينون الركاب على الانزلاق فوق الجناح إلى الماء، ثم يحملونهم إلى

قوارب الـ (زودياك)، فإذا امتلأ القارب شق طريقه إلى (كايوجا) ليفرغ حمولته، ثم يعود ليحمل المزيد رأي أخيرا ما كان يبحث عنه.. ابنته (ليزا) و (بنجي).. سالمين..

ظل يراقبهما حتى ركبا (الزودياك).. إنهما قادمان ليكونا معه..

ترقرق الدمع في عينيه.. وأدرك أنه يجرب لأول مرة دموع الفرح..

أما كابتن (ماكنزي) فكان أكثر قدرة على مراقبة التفاصيل، وقد سره ما رأى من (لاوسون).. لقد أدي عملا طيبا حقا..

لقد تم إخلاء الطائرة بدقة الساعة.. ولم يستغرق كل هذا أكثر من عشر دقائق..

لكنه لم يحب كثيرا ما رآه في مؤخرة الطائرة..

كانت إحدى حقائب الرفع تحتك بمعدن الذيل الممزق! إن المطاط صلب لكن الحافة حادة والاحتكاك قوي..

لن يتحمل البالون كثيرا.. سينفجر..

وعندها تهوى الطائرة إلى القاع كحجر..

☆ ☆ ☆

شعر (جالاجر) بإرهاق، لكنه ظل يعين المسافرين قرب باب الطوارئ.. وفي النهاية لم يبق سوي (إيف) و(بوتشك)..

تحرك نحوهما حين حدث هذا..

تمزقت حقيبة الحمل في مؤخرة الطائرة، ودوي صفير خروج الهواء، ومالت الطائرة على جنبها..

سقط (جالاجر) و(بوتشك) في الماء، ورأي (إيف) تسقط للوراء داخل الطائرة.. سريعا أخرج نفسه من الماء، وتسلق جسم الطائرة، وجرى عبر الجناح، وبلا تردد قذف بنفسه من باب الطوارئ.

دخل إلى الاستراحة فوجد (إيف) على الأرض..

ساعدها على النهوض، وقال لها:

- هلمي نسرع!

شهقت وهي تنظر إلى باب الطوارئ، فالطائرة مالت بحيث صار الباب لأعلى والماء يدفق منه..

يجب العثور على مخرج.. والطائرة تزداد هبوطا..

- قمرة القيادة! هلمي!

أخذ بيدها وشرعا يركضان نحو القمرة.. قاوما الموج واندفاع المياه التي تدفعهما دفعا.. ارتقيا الدرجات الأعلى حتى القمرة.. زحفا على ركبتيهما بداخلها، وكان أنف الطائرة يشير إلى السماء..

بقنوط فتح باب الطوارئ، وحملها ليلقيها منه إلقاء في الماء.. ثم وثب خلفها..

كان الماء يغلي حين راحا يبتعدان عن الطائرة، شاعرين بالجذب السفلي الناجم عن هبوطها لأسفل..

هنا دنت إحدى طائرات SH-3 منهما.. وأنزلت سلما من الحبال، فتعلق به (جالاجر) بذراع، وبالذراع الأخرى أمسك ذراع (إيف) ثم راحت الطائرة ترفع الحبل..

وفي الوقت ذاته غاصت الـ (747) وسط دوامة من الماء الثائر واستطاع طاقم الهليكوبتر أن يدخلوا (جالاجر) و (إيف) إلى داخلها..

☆ ☆ ☆

كان (ماكنزي) و (ستيفنز) يتابعان محبوسي الأنفاس هذا المشهد.. وأسعدهما أن يريا (جالاجر) و (إيف) يرتفعان للسماء..

ورأى (ستيفنز) آخر قوارب الـ (زودياك) تلحق بسفينة (كايوجا).. والركاب يرتجفون إرهاقا وبردا لكنهم أحياء..

قال للكابتن:

- أبدا لن أعرف كيف أوفيك حقك..

وصافحه في حرارة.. ثم تناول المنظار لأحد البحارة..

كان ظهر السفينة دوامة من الفوضى.. أطباء.. رجال ضفادع بشرية.. أصدقائه..

هرع يلحق بهم وبابنته وحفيده..

وجد (ليزا) و(بنجي) أخيرا فركض نحو ذراعيها المفتوحتين:

- آه يا أبي! أنا أحبك!

كان يدفع ثروته كلها لسماع هذه الكلمات.. احتضنها واحتضن حفيده في شوق.. فهما أهم شيء في عالمه..

هتفت (جولى) حين رأته:

- مستر (ستيفنز).. أين (إيف)؟

- هي على ما يرام يا (جولي).. لقد تم إنقاذها.

- وكابتن (جالاجر)؟
- بخير أيضا.
ورأى (پاورز) فسأله:
- أين (مارتن)؟
هنا رأي الإجابة على وجهه..
- لقد مات وهو يحاول إنقاذنا..
- و (كارين)؟
- هي أيضا.. أنا آسف..
هز رأسه وابتعد مهموما..
ثم رأي (شامبرز) مساعد الطيار مكبلا بالأصفاد يقوده بحاران إلى الحجز.. إن القانون سيعرف كيف ينتقم من هذا المجرم..
وكان (بوتشك) يرمق المحيط مهموما..
لقد بدأ مشروع الطائرة خطوة فخطوة.. وهو ذا يرى نهايتها.. استدار (بوتشك) وابتسم له.. ثم عاد يرمق السحب فوق المحيط منذرة بعاصفة وقال في شرود:
- إنني أفكر في كل من لم ينجوا..
- قد بذلت ما بوسعك.. ما كان بالإمكان إنقاذ من مات..
- ربما كنت على حق.. هل تعرف يا (فيليب)؟
- ماذا؟
- أعتقد أن أفضل شيء في الكون أن تكون حيا..
ابتسم (فيليب) موافقا.. وراح يرمق البحر..
فهو أكثر من سواه كان يعرف صدق هذه العبارة..

☆ ☆ ☆

جلب طاقم الهليكوبتر بطانية كبيرة لـ (جالاجر) و(إيف)، حيث جلسا على أرض الطائرة، في طريقهما إلى (كايوجا)..

سألها في حنو:

- هل تشعرين بالبرد؟

- لم أعد أشعر به..

ابتسم وسألها:

- كنا سنقضي أمسيتنا في (بالم بيتش).. هل نسيت؟

- وماذا عن باقي حياتنا؟ هل سنقضيها معا حقا؟

فكر لثانية ثم قال:

- أقنعيني بهذا!

وابتسما وهما يصغيان إلى هدير محركات الطائرة.

مايكل شف وديفيد سبكتور
1977

(تمت بحمد الله)

مطار 77

الطائرة (747) تفقد مسارها.. تسقط في المحيط لتستقر على القاع، حيث يستحيل الوصول إليها.. الركاب أحياء ينتظرون النجدة.. لكن كيف تجدهم؟ ثم يتزايد الضغط أكثر فأكثر.. الغوث بعيد.. والموت دان.. وكل صفحة تحمل تهديدا أكثر شناعة مما سبق..


متميزون
للكتب النصية
E-Book

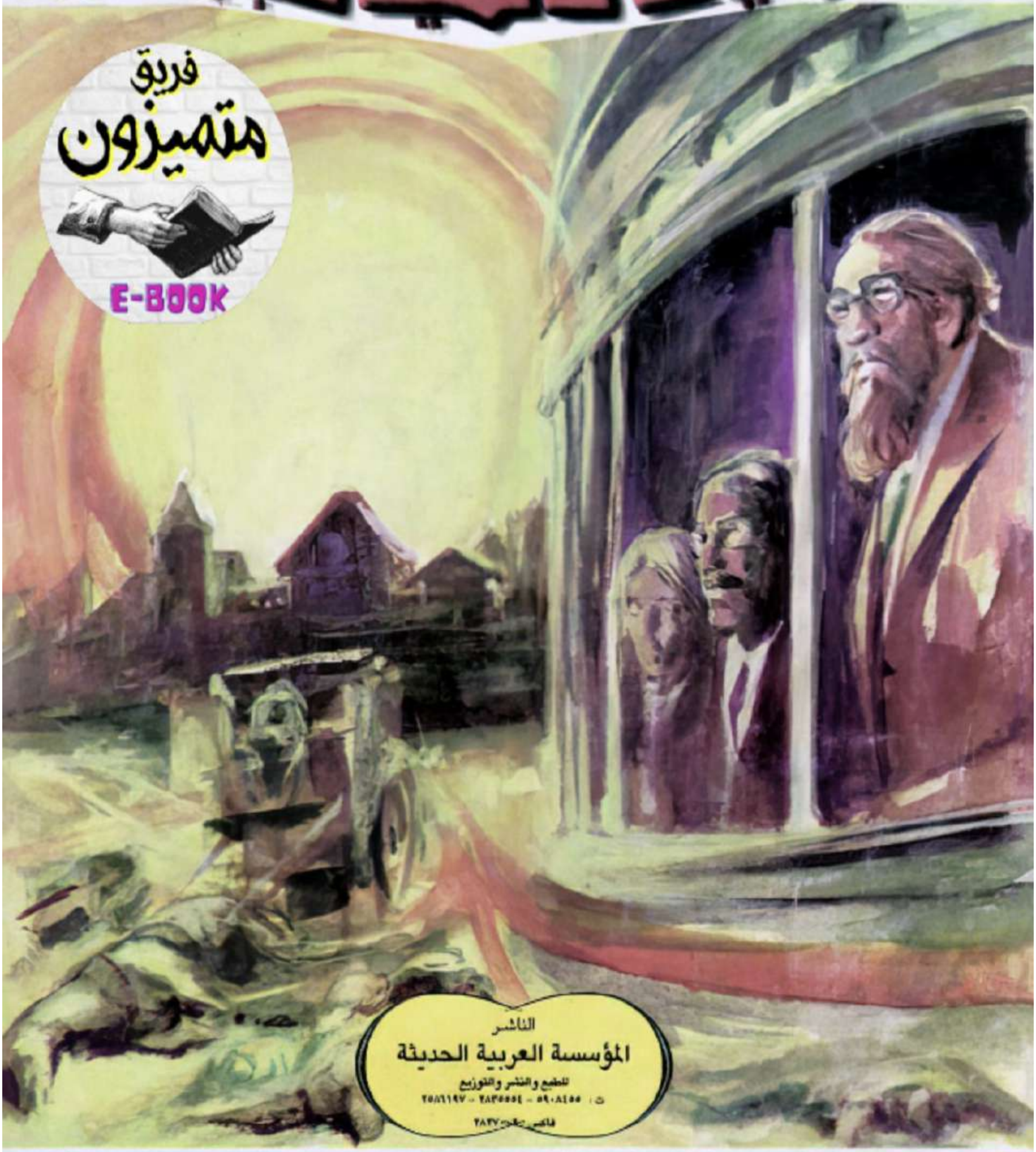
Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

28

روايات عالمية للجيب



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

النطاق المسموم

قصة : آرثر كونان دويل
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (28)

النطاق المسموم

بقلم: آرثر كونان دويل.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

لم يعد السير (آرثر كونان دويل) وجها جديدا على هذه السلسلة، فقد قابلنا الأديب الإنجليزي العظيم مرتين من قبل في رواية (العالم المفقود) التي قدمناها في الكتيب رقم (19)، ورواية (كلب آل باسكرفيل) في الكتيب رقم (24)..

ولقد عرفنا الكثير عن هذا الأديب.. ولن نغالي في التكرار لو قلنا إنه طبيب هوى الأدب، واستطاع أن يعطي حياته للمجالين معا دون أن يتنازل عن أحدهما كان من الممكن أن يموت دون أن يحظى إلا بشهرة محدودة، لو لم تنجب لنا عبقريته شخصية من أكثر الشخصيات خلودا في التاريخ.. هي شخصية (شيرلوك هولمز). المخبر البوليسي المتأنق ذي العينين الثاقبتين والأنف المعقوف، والغليون الذي لا يفارق شفتيه كان نجاح (هولمز) ساحقا حتى إن (كونان دويل) حاول أن يقتله - في القصص - مرارا.. وراح يجرب حظه في مجالات أخرى، منها التاريخ (الشركة البيضاء)، وتحضير الأرواح (تاريخ مذهب تحضير الأرواح)، ثم كتب رواية لم يكن بطلها (هولمز) هي (العالم المفقود) ...

وقد حظيت الرواية بنجاح ساحق، دفعه إلى أن يقدم نفس الأبطال في رواية تالية هي التي بين يديك الآن.. والذين قرءوا الرواية السابقة - في الكتيب رقم (19) - يعرفون جيدا أبطال الرواية الحالية (نيد مالون) المخبر الصحفي الشاب الأخرق إلى حد ما، والبروفسور (تشالنجر) المغرور العصبي الفظ الشبيه بالغوريلا، والمستر (سومرلي) أستاذ تشريح الحيوان المقارن، الناحل العصبي.. ولورد (روكستون) القوي الجسور إن الرواية ممتعة بحق.. لهذا دعونا لا نفسدها بالكلام عن عقدتها.. لكنك

ستجد فيها روح هذا الأديب العظيم المتوثبة إلى الإثارة، والتي تحمل احتراما شديدا للعلم وللعلماء..

وبرغم هذا كله لم يستطع الرجل الفرار من عالم (هولمز)، واضطر إلى العودة إليه ليقدم لنا المزيد من الروايات فائقة الإمتاع.

د. أحمد خالد

1- الخطوط التي اختفت..

أرى من الضروري أن أسارع إلى تسجيل هذه الأحداث وهي ما تزال بذاكرتي، قبل أن أنساها فتضيع، وإني حين أفعل ذلك لأعجب من المصادفة التي جعلت جماعتنا القديمة:

البروفسور (تشالنجر) والبروفسور (سمرلي) واللورد (جون روكستون) وأنا..... يلتئم شملها من جديد.

لقد قامت جماعتنا هذه منذ عهد مضى برحلة في مجاهل (أمريكا الجنوبية)، واجهنا فيها كثيرا من المحن والأهوال، وعندما عدنا بسلام إلى (إنجلترا) ونشرت مذكراتي عن هذه الرحلة في جريدة (ديلي غازيت)؛ لم يشغل بالي لحظة أنه سيجتمع شملنا نحن الأربعة من جديد، في محنة أشد فزعا، ولربما كانت فريدة في نوعها.

إن الظروف التي جمعتنا نحن الأربعة بما في ذلك من ملابسات وحوادث أدت إلى هذا الاجتماع، لجديرة بالعجب.

كان ذلك في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر (أغسطس) من عام .... وهو يوم لا يُنسى عندما طلبت من إدارة الصحيفة التي أعمل بها إجازة لمدة ثلاثة أيام، وكان مستر (ماكاردل) رئيسا لقسم الأخبار.

قال بتردد شديد:

- أخشى أننا نود الإفادة منك، يا مستر (مالون)، في مهمة عاجلة.. كنت أظنك رجلها الوحيد.

وأجبته وأنا أحاول إخفاء أسفي:

- إذا كان من الضروري فلا بأس من أن ...... ولكني مرتبط بموعد مهم... وشخصي... ولو أمكن إعفائي.

فقاطعني (ماكاردل) قائلا:
- آسف، فلا سبيل إلى إعفائك منها..
وكانت صدمة مؤلمة، فأجبت في شيء من الفتور:
- حسن، أي مهمة تلك التي تريد أن تعهد إليَّ بها.
- أريد أن تسعى لمقابلة ذلك الشيطان الذي يقيم في (روذرفيلد).
فصحت به:
- أتعني الأستاذ (تشالنجر)؟
- أجل.. لقد حاولت صحيفة (الكورير) عن طريق مندوبها (إليك سمبسون).. لكنه فشل فشلا ذريعا، فما كان من جميع رجالنا سوى رفض السعي لمقابلته.. وقد ذكرت أخيرا أنك على علاقة به قد تشفع لك، وتمكنك من القيام بهذه المهمة.
وقلت في ارتياح ظاهر:
- لقد طلبت هذه الإجازة لأذهب إلى (روذرفيلد) لزيارة الأستاذ، فإنها الذكرى السنوية لرحلتنا إلى (أمريكا الجنوبية)، وقد بعث لجميع الزملاء للاحتفال بهذه الذكرى..
فقال (ماكاردل) وهو يفرك يديه:
- حسن، وستسنح لك الفرصة لمعرفة رأيه..
فسألت في دهشة:
- رأيه في أي شيء؟ ماذا فعل؟
- ألم تقرأ الخطاب المفتوح الذي بعث به إلى جريدة (التيمس)، والمنشور تحت عنوان (احتمالات علمية)؟
- نعم...
- اقرأ... اقرأ في صوت مرتفع، إذ أشك في أنني استوعبت رأي الرجل تماما عندما طالعتها في المرة الأولى..
وأخذت أتلو الخطاب المنشور:

احتمالات علمية

سيدي..

طالعت بدهشة الخطاب الذي نشرته الجريدة لمستر (جيمس ماكفيل)، حول موضوع اختفاء (خطوط فراونهوفر) عن التحليل الطيفي لضوء الكواكب السيارة والنجوم الثابتة، فهو لا يقيم لاختفاء هذه الخطوط وزنا، على حين أن هناك من يرون في هذه الظاهرة احتمالات شتى بالغة الأهمية، قد تتناول مستقبل جميع المخلوقات البشرية التي تعيش على هذا الكوكب.. الأرض..

سأحاول وسعي أن أبسط الموضوع مستعينا ببعض الأمثلة العادية التي يتسع لها فهم كل قارئ..

لنفترض أننا ربطنا عددا من قطع الفلين إلى بعضها البعض، ثم ألقينا بها في ماء المحيط الأطلسي لتتخذ طريقها فيه، فستظل طافية تتحرك يوما بعد يوم مع التيار، وفي ظروف متشابهة لا تغيير فيها ولا تبديل، ولكننا - ونحن نفوقها إدراكا - نعلم أن هذه الرحلة التي تظنها قطع الفلين أبدية مطمئنة تعترضها عوائق كثيرة، فقد ترتطم بسفينة أو بحوت، وستنتهي إلى شواطئ (لبرادور) الصخرية في الجانب الآخر من المحيط..

ولكن هل تدرك قطع الفلين شيئا من هذا المصير وهي تطفو هادئة فوق صفحة الماء؟!

ولعل أوجه الشبه في هذا المثال، أن المحيط الأطلسي هو ذلك الفضاء الأثيري العظيم الذي تندفع فيه، وقطع الفلين هذه ما هي إلا المجموعة الشمسية التي تنتسب إليها أرضنا..

فالأرض وغيرها من سيارات هذه المجموعة تدور حول شمس - هي بدورها من القدر الثالث بين الشموس -

والمجموعة بأسرها تندفع إلى مصير مجهول أشبه شيء بمصير قطع الفلين..

والآن نعود إلى موضوعنا الأصلي، لقد تمكن العلم من تحليل الضوء المنبعث من الشمس أو غيرها من النجوم إلى أطياف، وإن اختفاء (خطوط فراونهوفر) من التحليل الطيفي يدل - في نظري - على أحد أمرين:

إما على تبديل في طبيعة الشمس والنجوم الأخرى، وهذا غير جائز؛ لأننا لم نشاهد شيئا من ذلك، وإما على تبديل في الفضاء الذي يفصل بين هذه الكواكب وبيننا.. ذلك الفضاء الذي تمر فيه أشعة الضوء قبل أن تتحلل، ومعنى هذا أن مجموعتنا الشمسية قد بلغت في سيرها نطاقا من الفضاء يختلف أثيره عن الأثير العادي الذي ظلت تسير فيه ملايين السنين أثير جديد نجهل خواصه..

أجل، لا شك في حدوث هذا التغيير، وقد أثبته جهاز التحليل الطيفي، أما كنهه فلا سبيل إلى التنبؤ به، فقد يكون خيرا، وقد يكون وبالا، أو قد لا يكون له أثر بالمرة..

لقد أعلنت صحيفتكم عن انتشار الأمراض بين الشعوب البدائية التي تقطن جزر (الباسفيك).. وقد يكون لذلك علاقة بالتغيير الكوني الذي أشرت إليه.

المخلص - جورج إدوارد تشالنجر

قال (ماكاردل) وهو يستريح في مقعده:

- كتاب مثير حقا.. ما رأيك يا مستر (مالون)؟

- لن أحاول أن أخفي جهلي بالموضوع فلست أعرف أصلا ما هي (خطوط فراونهوفر) هذه التي اختفت..

وأخرج (ماكاردل) من درج مكتبه ورقة رسمت عليها مربعات متجاورة ملونة بألوان قوس قزح، ثم قال:

- لقد درست الموضوع قليلا.. أتعرف ألوان قوس قزح؟ إنها نفس الألوان التي يتحلل إليها ضوء الشمس عندما يمر بجهاز التحليل الطيف.. مبتدئة باللون الأحمر ثم البرتقالي ثم الأصفر ثم الأخضر ثم الأزرق ثم النيلي ثم البنفسجي.. أترى هذه الخطوط السوداء التي تبدو فوق مجموعة الألوان؟

هي ما يسمونه (خطوط فراونهوفر) والتي أثار اختفاؤها جدلا بين الفلكيين..

وبهذا كان خطاب (تشالنجر) له وقع الصاعقة.

- وما أنباء المرض التي تقول بانتشاره في جزر (الباسفيك)؟

- أخشى أنه قد بالغ في الربط بين الموضوعين، ومع ذلك حاول أن تحصل من الأستاذ على شيء مثير لعدد صباح الإثنين..

- سأبذل كل جهدي بلا شك.

وانصرفت من حجرته، حين لحق بي أحد العمال وسلمني رسالة هذا نصها:

- (مالون) - ١٧ شارع هيل - مستر (بتهام)..

أحضر معك (أكسجين) - (تشالنجر)!

ما هذه البرقية الغريبة؟ أهي إحدى مداعباته؟ ولكن صيغة الأمر واضحة في البرقية، وكان (تشالنجر) آخر من أفكر في أن أعصي له أمرا.. واستوقفت سيارة تاكسي إلى مخزن الشركة في شارع (أوكسفورد)..

وفيما كنت أترجل من السيارة أمام البناء؛ رأيت شابين يغادران الباب ويحملان أسطوانة كبيرة، ثم وضعاها في سيارة خاصة، وكان يتبعهما رجل مسن وقور، وما إن استدار حتى

عرفته.. لقد كان هو الأستاذ (سمرلي) زميلنا القديم بلحيته البيضاء..

وصاح (سمرلي) عندما رآني:

- لا تقل لي إنك تلقيت نفس البرقية.. فلست أدري لماذا لم يطلب من الشركة مباشرة أن تبعث إليه بما يريده..

وأمرت العاملين أن يحضرا أسطوانة أخرى من (الأوكسجين)، ثم انصرفت إلى سائق سيارة التاكسي التي أقلني أنقده أجره، فقد عرض عليّ الأستاذ (سمرلي) أن يصحبني بسيارته إلى محطة (فكتوريا).

وكان هذا وسط غارة من التبرم والتذمر من سائق السيارة التاكسي والعاملين.. ولكن لماذا؟ لست أدري.

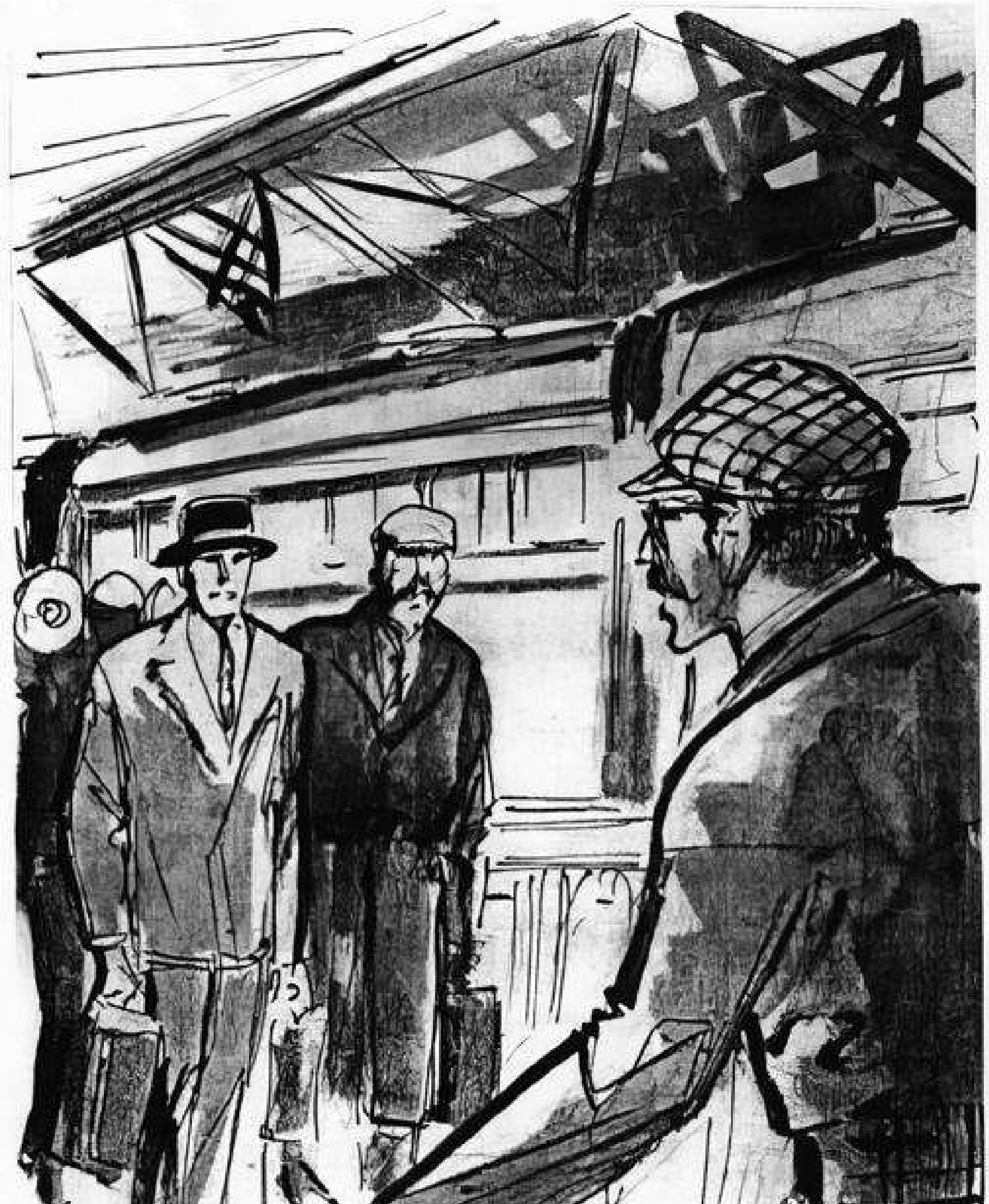
وتنفست الصعداء عندما جلست إلى جوار (سمرلي) واندفعت بنا سيارته إلى محطة (فكتوريا)..

ولاحظت أن السائق غير متمكن من أعصابه، إذ خالف أصول القيادة أكثر من مرة.. وحسبته بسبب النزاع الذي أوشك أن يقع بينه وبين عامل المتجر، ولكن أخطاءه تكررت فقلت:

- يبدو لي أن مستوى سائقي السيارات قد هبط كثيرا في (لندن) هذه الأيام.. وأن سائقنا لم يكن الوحيد الذي فقد سيطرته على أعصابه يومئذ، فقد مررنا قبل أن نصل إلى محطة (فكتوريا) بما لا يقل عن العشر حوادث تصادم ارتكبها سائقو سيارات خاصة وعامة..

وأخيرا بلغنا محطة (فكتوريا).. وبينما نحن في طريقنا إلى القطار المتجه إلى ضاحية (روذرفيلد)؛ سررنا عندما وجدنا اللورد (روكستون) يذرع الإفريز بخطواته الواسعة، وتقدم وهو يهتف:

- هالو! مرحبا بسيدي البروفسور.. وكذا أنت أيها الصديق الصغير..



سررنا عندما وجدنا اللورد (روكستون) يذرع الإفريز بخطواته الواسعة ، وتقدم وهو يهتف : - « هالو ! مرحبًا بسيدى البروفسور » . .

وما إن رأى أسطوانتي (الأوكسجين) على كتف الحمال الذي كان يسير خلفنا، حتى هتف يقول:

- إذن فقد كُلفتما أنتما أيضا بذلك! لقد أودعت أسطوانتي عربة القطار.. ترى ماذا يريد صديقنا العجوز بهذا كله؟!

فسألته على الفور:

- هل طالعت خطابه المنشور في جريدة (التيمس)؟

فسألني:

- ماذا فيه؟

قال الأستاذ (سمرلي) في جفاء:

- هراء!

واتخذنا مجلسنا بإحدى عربات الدرجة الأولى، ثم استأنف (سمرلى) يقول:

- صديقي (تشالنجر) رجل ماهر وعبقري، ولا سبيل إلى إنكار عبقريته، ولكنه يا عزيزي دجال مشعوذ، لا يترك فرصة للشهرة والظهور تحت الأضواء إلا وانتهزها..

إننى واثق تماما بأنه لا يصدق شيئا مما كتبه في الجريدة، لكنه لا يرتاح لفترة الهدوء والاستقرار التي تجتاز العالم الآن، ومن ثم تراه يخلق موضوعا يثير الناس، ويملأ قلوبهم بالفزع لكي يذيع اسمه بينهم..

وآلمني ما سمعته من البروفسور (سمرلي) عن صديقنا (تشالنجر).. وأوشكت أن أعبر عن ألمي، لولا أن سبقني اللورد (جون) قائلا:

- أنت دائم المعارضة لـ (تشالنجر).. ولكنك دائما تنسحب منهزما، وما دام هذا هو اعتقادك فلماذا لا تدعه وشأنه وتمضي في سبيلك؟

وبادرت أضيف إلى عبارته:

- وفضلا عن ذلك فهو صديق لكل منا، ومهما كانت أخطاؤه فإنه يتميز على الأقل بالصراحة، ونفوره من اغتياب أصدقائه..

هتف اللورد (جون):

- دعنا من الشجار الآن، حسبنا ما مر بنا جميعا من أهوال قابلناها متحدين، وإني أحذرك مرة أخرى من النيل من (تشالنجر).. ورأيك في المسائل العلمية لا تزيد قيمته شيئا عن رأيي في بنادق الصيد.. والعلم يا صديقي ليس بالشيء الذي يتربع على منصب الزعامة فيه رجل معصوم بمثل ما يفعل البابوات في الكنيسة..

وبعد فإذا راق لك أن تصدق ما سمعته عن اختفاء خطوط (فراونهوفر) من التحليل الطيفى للأشعة وما يترتب على ذلك، فلك أن تفعل ما تريد..

ووجدتني أقول:

- أرجح أنه لم تصلك بعد جميع المعلومات اللازمة عن الموضوع، وإلا لغيرت رأيك أو خففت من حدة نقدك.. فقد تلقى رئيس التحرير عدة برقيات تؤكد انتشار الأمراض في شكل وبائي بين أهالي (سومطرة) الوطنيين، كما تنبئ بانطفاء الأنوار بغتة في كافة المنارات المقامة في مضيق (صندا)..

وازداد النقاش حدة بين اللورد (جون) والبروفسور، حتى إنني رفعت يدي إلى وجهي أخفيه أسفا وخجلا، وقلت متدخلا:

- كفي ما سمعنا.. وإنه لأمر مؤسف حقا..

وخيل إلى أن الصمت ساد بيننا برهة غير قصيرة لم يقطعه سوى صوت البروفسور يقول فجأة:

- أخشى أن أكون قد أغضبتك قليلا يا سيدي عندما كنا نتجادل.. فهل لي من ابتسامة منك تعلن على الصفح؟

وفيما كان البروفسور يتحدث، توقف بنا القطار في محطة (جارفس بروك) التي تقع على مقربة من (روزر فيلد)، وهناك وجدنا (تشالنجر) ينتظرنا على الإفريز.

وأقبل علينا بقامته المديدة ورأسه المرفوع وصافحنا بحرارة، ثم سار بنا إلى سيارته التي تنتظر خارج المحطة.. ومعنا أسطوانات (الأوكسجين)، وجلست إلى جوار السائق (أوستن)، وكانت معرفتي به ترجع إلى عهد رحلتنا الأولى.. فهمس لي قائلا:

- أتعلم يا سيدي أننى على وشك ترك خدمة السيد (تشالنجر)؟ لقد أنذرني بالفصل.. إنه الإنذار السابع والأربعون، ولكني لن أتركها.. من الذي يسهر على راحته، بل من لديه قوة الاحتمال والصبر على خدمته؟

قلت له:

- كثيرون!

فابتسم قائلا:

- كلا يا سيدي! لن يحتمله أحد أكثر من أسبوع واحد، وبدوني يصبح البيت كساعة الحائط إذا ما نزعت منها الزنبرك.. ولأضحى البروفسور وزوجته كطفلين ضلا الطريق في الغابة.. ومن الغريب أنه يعلم ذلك، ومع ذلك يعلنني بالفصل.

- ولكن لماذا تقول إن أحدا لا يحتمل خدمته؟

- لأن الناس لا تتسامح.. ولا تتسع صدورها بمثل ما أفعل.. أتعرف ما حدث صباح اليوم..

- ماذا حدث؟!

- الأستاذ عض الخادمة! ولقد رأيتها وهي تفر من البيت كما لو كانت تشترك في سباق عدو، أما معاملته للجيران.. فلم يبق على صديق واحد في الجوار..

وكنا قد اقتربنا من التل الذي يقوم على قمته بيت (تشالنجر)، فهمس لي (أوستن):

- اقرأ ما على اللافتة..

وقرأت..

«تحذير»

«لن يلقي الزوار، وبخاصة مراسلي الصحف أي تشجيع منا..»

ودخلت السيارة وتوقفت بنا أمام البيت الريفي الجميل حيث كانت زوجته في انتظارنا..

وأسرعت إلينا بمنتهى الرشاقة ترحب بنا، وقال لها الأستاذ:

- ضيوف يا سيدتي.. ولعلك لم تألفي هذا الوضع منذ مدة طويلة..

وقالت السيدة:

- إنه من المؤلم حقا أن يخاصم (جورج) جميع الجيران.. ولا يبقى لنا صديقا واحدا.

وهنا تذكر (تشالنجر) شيئا نسيه فقال متداركا:

- هل عادت (سارا)؟

نفت السيدة عودتها فضحك وصاح بالسائق:

- (أوستن)! أتسمح بمساعدة السيدة في إعداد الغذاء؟ هيا أيها السادة إلى مكتبتي فلي معكم حديث مهم..

☆ ☆ ☆

2- طوفان الموت..

ونحن بطريقنا إلى حجرة المكتب سمعنا رنين الهاتف، ورد (تشالنجر) بصوته الجهوري الذي أجبرنا على متابعة المكالمة يقول:

- أجل.. أنا (تشالنجر).. العالم المعروف طبعا.. ماذا؟ الخطاب المنشور في جريدة (التيمس)؟ أجل.. وكل الدلائل تشير إلى ذلك.. ماذا؟ وماذا يمكنني أن أفعل؟ لا شك أنه أمر مؤسف حقا.. ولكن ليس بوسعي أن أدفع شرها.. كفى يا سيدي فلا يتسع وقتي لهذا..

وألقى بالسماعة وتقدمنا حيث المكتبة.

ودعانا للجلوس، ثم بدأ يفض عددا من الرسائل والبرقيات الواحدة بعد الأخرى.. وكان مكاني بجوار النافذة، وقد كانت المناظر خلابة حقا.

وبدأ (تشالنجر) الحديث:

- إنني سعيد لاجتماعنا مرة أخرى، وقبل أن أبدأكم الحديث، هل أوجه إليكم سؤالا واحدا؟ إنه غريب ولكنه ضروري!

- ألاحظتم شيئا غريبا في طريقكم من (لندن) إلى هنا؟

وأخذ كل منا يسترجع ما حدث، واكتشفنا أنه لم يحدث شيء، سوى ما حدث داخل عربة السكة الحديد من نقد (سمرلي) لخطاب (تشالنجر) المرسل إلى (التيمس).. وما إن سمع (تشالنجر) هذا حتى ضحك طويلا ثم قال:

- (سمرلي) ينقد كتابي؟!

ثم نظر إلى الأستاذ وسأله

- أوه.. على أي شيء تعترض يا أستاذ (سمرلي)؟

أجابه هذا:
- قلت لو أن الأثير الذي تسبح فيه الأرض قد تأثر فعلا كما تقول بما يسبب هذه الأمراض المنتشرة بشكل وبائي، لكان انتشارها عاما، وليس مقصورا على منطقة بعينها، ولما بقي ثلاثتنا سالمين في عربة السكة الحديد..
عاود الضحك (تشالنجر) مرة أخرى، ثم قال:
- يبدو لي أن (سمرلي) غير ملم بتفاصيل الموضوع.. وسوف ألقى عليه بعض الضوء بأن أروى ما حدث هذا الصباح..
تلك المدعوة (سارا)، التحقت بخدمتنا منذ سنين، وهي ذات كفاءة عالية، نشيطة، رزينة، صارمة.. وددت أن أجرب مدى احتمالها، ومدى احتفاظها بوجهها الجامد..
وتعمدت أن أقلب مزهرية، ثم قرعت الجرس أستقدم (سارا)، وقبل أن تصل اختفيت تحت المائدة..
وظنت (سارا) أنني انصرفت إلى مكتبي، وأخذت تصلح من وضع المزهرية.. ورأيت ساقيها النحيلتين في الجورب القطني الأبيض، وبسرعة أطبقت بأسناني على ساقها!
وجدتها مذعورة، ثم أطلقت صرخة هائلة وفرت مسرعة.. حاولت اللحاق بها فلم أتمكن.. وكان آخر عهدي بها أن رأيتها بمنظاري المقرب تعدو في الحقول تجاه الجنوب الغربي..
- والآن ما قولكم في هذا الحادث أيها الأصدقاء؟
فقال اللورد (جون) وهو لا يصدق ما سمع:
- يجب أن تضع حدا لشذوذك يا سيدي، إنه محرج للغاية..
والتفت (تشالنجر) إلى (سمرلي) وقال:
- وما هي ملاحظاتك؟
- أعتقد أنك بحاجة للراحة.
والتفت إلى وقال:

- وهل لي أن أسمع ملاحظة صديقنا الشاب، ما دام التوفيق لم يكن حليفا لمن هم أكبر منه سنا؟

صحت باقتناع أقول:

- سم!

إن الأمر واضح كل الوضوح، فقد مرت بخاطري كل الأحداث التي مرت بنا طوال النهار.. فتذكرت المشادة والتهكم على ما نشره (تشالنجر) في الصحيفة من أصدقائه المقربين، ثم حوادث التصادم بطرقات (لندن)، إلى جانب اضطراب سائق سيارة الأستاذ.. وما كان من عمال متجر (الأوكسجين).. توالى الحوادث والأحداث بمثل هذا الشكل ينطق بحقيقة واحدة.. لقد تسممنا جميعا!

هنا قال (تشالنجر) وهو يفرك يديه في سعادة:

- تماما.. رائع يا بني.. إن الأرض تجتاز الآن في الفضاء نطاقا ساما من أثير مخالف.. والأرض تتعمق شيئا فشيئا في هذا النطاق السام بسرعة ملايين الأميال في الدقيقة..

وأخذنا نتطلع أحدنا نحو الآخر في حيرة ودهشة بينما استأنف (تشالنجر):

- مدي المقاومة لهذا التسمم يختلف باختلاف الاستعداد الجسماني والعقلي.. إنه لم يسبق لي أن شعرت برغبة في عض أحد من خدمي.. وهي بذلك رغبة شاذة وغير طبيعية..

وسرعان ما وجدت نبضي يزيد عشرا عن المألوف.. وأخذت أحث نفسي على التزام الحزم والتعقل بمناشدة شخصية البروفسور (جورج تشالنجر) الذي أعرفه.. فتغلب العقل على المادة.. فقد تأثرت مادة العقل نفسه، لكن الشخصية المتزنة سيطرت عليه وألزمته حدوده..

وتبينت هذا النجاح عندما تغلبت على خواطر العبث والكيد، بمزيـج من الاحترام والإجلال..

وبعد ذلك بقليل شعرت برغبة شديدة في تقليد بعض أصوات الحيوانات، لكني أيضا بددت هذه الرغبة وتغلبت عليها..

وحتى هذه اللحظة أشعر برغبة ملحة تدعوني لأن أمسك بلحية (سمرلي) وأهز رأسه بعنف، وهأنتم أولاء ترونني أكبح هذه الرغبة..

قال (سمرلى):

- قد يكون صوابا يا عزيزي (تشالنجر)، ولا يسعني سوى أن أقر بأن استعدادي الذهني هو للنقد أكثر منه لبناء الأسباب وإيجاد العلل.. حقا أن ما مر بنا اليوم وما رأته عيناي، يسهل على الاعتقاد بأن سما مثيرا من نوع معين هو المسئول عن هذه الأعراض الغريبة..

وهنا صاح (تشالنجر):

- لقد تقدمنا في حل المشكلة.. أجل، لقد حققنا تقدما..

فقال (سمرلي):

- وما رأيك في الموقف عامة؟

- لو جاز تحليلي لهذه الظاهرة، فنحن نقترب من نهاية العالم!

قالها فكأنها صاعقة هبطت علينا، ورحت أطالع المروج الخضراء من النافذة.. أيمكن أن يمحى ذلك كله؟

وعاد (تشالنجر) يقول:

- إن البستاني ينتزع العنقود المصاب ببعض الطفيليات الدقيقة.. ولكي ينظفه يغمسه في سائل مطهر للقضاء على الطفيليات.. وهكذا فإن البستاني الأعظم يطهر المجموعة

الشمسية من الطفيليات البشرية بغمسها في نطاق من أثير سام يأتي عليها..

وهدأ الحديث على صوت رنين الهاتف فنهض إليه:

- إنه مفتش الصحة في مدينة (برايتون)..

إن الأراضي التي تقع في مستوى سطح البحر؛ تعاني من انتشار أعراض التسمم..

تنهد (سمرلي) ونظر إلى النافذة وقال فجأة:

- (تشالنجر).. ألا تظن أن الموضوع فيه شيء من المبالغة؟ إن الشمس زاهية، وجمال الطبيعة يغمر كل مكان.. والعمال يحصدون القمح، وهذا عندك هو يوم القيامة الذي انتظره الجنس البشري منذ قرون وقرون!!

فهل على اختفاء خطوط من تحليل الطيف الشمسي، وعلى إشاعات بانتشار أوبئة بجزيرة ما، وعلى بعض التصرفات الحمقاء التي قام بها بعضنا.. تبني حكمك؟

(تشالنجر).. أرجوك صارحنا بحقيقة الموقف.. ما هو الخطر الذي يتعرض له العالم الآن؟ وما مداه؟

وكيف نواجهه؟

قال (تشالنجر) موجها كلامه إلى:

- ماذا كانت الأنباء عندما غادرت (لندن)؟

- كانت هناك برقية لشركة (رويتر) بعث بها مراسلها في (سنغافورة)؛ تقول إن المرض عام في (سومطرة) وأن المنائر قد أطفئت أنوارها..

قال (تشالنجر) وهو يحرك جمع البرقيات التي أمامه:

- لقد توالت الأحداث سراعا في تلك الفترة الوجيزة، إن الأنباء تأتي عن طريق السلطات المختصة، وكذا الصحافة.. والكل يطالب بسفري إلى (لندن)، لكني لم أفعل شيئا..

والخلاصة أن هذا التسمم - كما أسميناه – يبدأ بتوتر عقلي.. وعندي برقيات تعلن أن الشغب الذي اجتاح (باريس) هذا الصباح كان عارما، وأن عمال مناجم الفحم في (ويلز) قد اشتد غضبهم.. وهذا التوتر العقلي تتبعه غيبوبة وشلل في الحركة، كمن يتعاطى مخدرا..

فقال (سمرلي):

- إن نبات (الداتورة) يقوم بعمل مشابه..

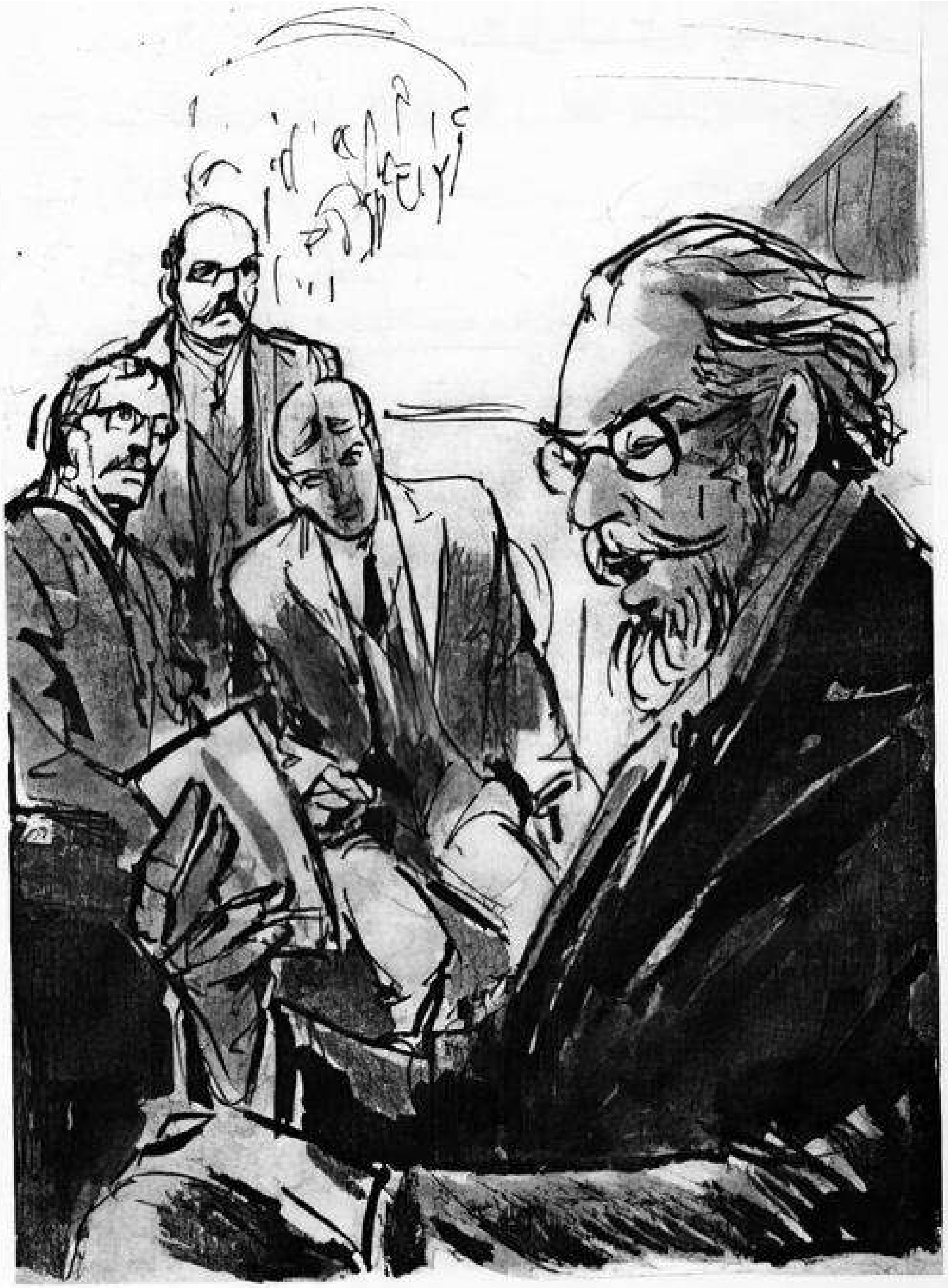
- نعم.. حقا.. ويطلق على هذا العامل الذي يؤثر في الجنس البشري اسم (الداتورين).. وكلما توغلت الأرض المندفعة في الفضاء في ذلك النطاق السام؛ اشتد فعل (الداتورين).. وسرعة ظهور الأعراض في مناطق دون غيرها إنما هو سبق مؤقت.. وإن هي إلا بضع ساعات حتى يغمر البلاء أرجاء العالم.. بداية بالشعوب المتأخرة ثم الأكثر حضارة..

فكانت ضرباته الأولى في الشعوب الجنوبية، بينما ظلت الشمالية في مأمن بعض الوقت..

ثم تناول برقية من البرقيات المكومة أمامه وقال:

- (مرسيليا) في التاسعة والنصف صباحا، إنها أول برقية تلقيتها:

لقد تعرضت المقاطعة بأكملها الليلة الماضية لحالة من الهذيان المحموم، وهناك جو عام من الثورة والعناد.. جثث تملأ الطرقات، والعمل متوقف والفوضى عامة.



ثم تناول برقية من البرقيات المكوّمة أمامه وقال :

- « (مرسيليا) فى التاسعة والنصف صباحًا ، إنها أول برقية تلقيتها » !!

- ثم هذه البرقية بعد أقل من ساعة:

«ازدحمت الكنائس والكاتدرائيات بجموع من الناس الهاربين من الفوضى والوباء، قل عدد الأحياء.. ليس هناك وسيلة

للتفاهم مع هذا الوباء.. فلا توجد آلام بل الفتك مباشرة.. ولا يوجد له علاج أو وقاية...»

وهناك العديد من البرقيات المشابهة مع اختلاف الحدة من (باريس) و (الهند) و (فارس) وكذلك (النمسا)..

- والواضح هنا أن سكان السهول والشواطئ أول من أصيب بتلك الكارثة.. أما سكان المرتفعات فما زالوا في شيء من الأمان..

وقال اللورد (جون):

- ما يحيرنى يا (تشالنجر) هو هدوؤك وضحكك، وأمام كل هذه البرقيات التي تنعى إليك العالم.. هل تحتمل موت عالمي بالجملة؟ إنه أمر شنيع..

فقال (تشالنجر):

- لا تنس أن هذا السم قد شملني أنا أيضا وشمل بعض أجزاء من عقلى وأعصابي، وأفقدني السيطرة عليهما تماما، فهذا عن علة الضحك.. أما ما تشعر به من خوف وذعر لهذا الموت الجماعي فمبالغ فيه، فإن الشعور بالوحدة هو الذي يسبب هذا الذعر من الموت.. فلماذا إذن الخوف من مصير سوف يواجه الجميع؟

فسأله (سمرلي):

- وماذا تنوي أن تفعل؟

فقال (تشالنجر) على الفور:

- هيا أولا لتناول الغداء

ونهض (تشالنجر) في هدوء وسكينة وكأن شيئا لم يكن:

- هيا بنا يا رفاقي.. لنتمتع حقا بغداء شهي..

أما زوجته الحنون فلم تكن تمانع في مغادرة العالم ما دام ذلك مع زوجها الحبيب.. فلم تفقد شيئا من اتزانها، مع علمها التام بالموقف..

وبدأت ألحظ أعراضا غريبة فيما بيننا، فكانت هناك فترات من شرود الذهن مع الانفصال التام عما يدور حولي، وبرودة تجتاح أطرافي.. هل الموت وصل إلينا؟

أما الآخرون، فإن (سمرلي) لم يظهر أي اختلاف في الطباع أو التصرفات، أما عن اللورد (جون) فكان يعاني ألما في عينيه على ما يبدو..

أقبل (أوستن) يعرض علينا خدماته.. فاستوقفه (تشالنجر) قائلا:

- (أوستن)..
- نعم يا سيدي..
- أود شكرك لمساعدتي طوال هذه السنين!
- عفوا.. هذا واجبي..
- (أوستن).. ربما كانت نهاية العالم اليوم..
- اليوم؟ متى بالتحديد؟
- ربما قبل المساء..
- حسن أستاذي..

وانصرف في منتهى الهدوء، أما (تشالنجر) فقال لزوجته:

- هل تهابين الموقف؟

فنظرت إليه في مودة وقالت:

- هل هناك شيء من العذاب سنعانيه؟
- كلا يا عزيزتي.. إنه لا يتعدى استنشاق بعض من الغاز الضاحك في عيادة طبيب الأسنان [1].

والتفت إلى (سمرلي) وقال له:

إنني أرفض الأخذ بشيء من نظرياتك المادية بأننا سوف نتحول لكمية من الماء وقبضة من الأملاح.. كلا.. هناك شيء

يستعمل المادة لكنه ليس منها.. شيء يتغلب على الموت، والموت لا يناله..

فقال (جون):

- أشعر بطمأنينة أكثر لو رقدت رقدتي الأخيرة وبندقيتي بجواري.. على غرار أسلافنا بدفن موتاهم في دروعهم وبسيوفهم.. ما رأيك يا أستاذ؟

وأجاب (سمرلي):

- أنا من مواطني القرن العشرين، وأود أن أموت كأي رجل متمدن وعصري، كما أنني مسن عجوز لست بحاجة لمزيد من الحياة..

أواثق يا (تشالنجر) بأنه لا يوجد ما نعمله؟

- إن كنت تعني الإنقاذ التام.. فالجواب لا! أما إذا كنت تعنى إرجاء الكارثة حتى نرى النهاية أمامنا؛ فقد اتخذت بعض الخطوات..

- الأوكسجين؟

- نعم.. (الأوكسجين)..

- أيجدي في حالة تسمم الأثير المحيط بالكرة الأرضية؟

- كل منهما صورة مخالفة من صور المادة، فعلاقة (الأوكسجين) بـ (الأثير) كعلاقة خفاش الليل بالغاز.. هل يمكنك الدفاع عن هذا يا سيد (تشالنجر)؟

- بالطبع يا (سمرلي).. إنهما متخالفان كمادة، لكنّ غازا كـ (الأوكسجين) قد اختص بزيادة حيوية الأجسام.. ومضاعفة قوة المقاومة فيها.. لجدير بأن يحد من نشاط هذا السم الأثيري المعروف (ديتورين)..

عقب (جون) قائلا:

- هل كل منا سيمسك بإحدى هذه الأنابيب ويمتص (الأوكسجين) كما يفعل الرضع بزجاجات اللبن؟

مستحيل.. فلن أفعل شيئا من ذلك..

- لماذا؟ لقد طلبت من زوجتي أن تحول مخدع نومها إلى حجرة محكمة الأقفال والنوافذ، وبذلك لا يتسرب إليها أي شيء من الخارج.

- تبا لك يا (تشالنجر).. أتحسبك بهذا قد منعت الأثير من الدخول لحجرتك بسد فتحاتها؟!

- كلا.. بل لأمنع (الأوكسجين) من التسرب للخارج وبذلك نستفيد بأكبر كم منه.. فإذا أشبعنا جو الغرفة بنسبة عالية مقننة منه.. فسنظل مالكين لحواسنا.. إنني أحتفظ بأسطوانتين، وأنتم معكم ثلاث..

- وكم من الوقت تكفي؟

- لا أعلم، فسوف نتأخر في فتحها لحين تمكن الأعراض منا بشكل واضح.. وعلى كل حال هذا سوف يرجئ المصيبة من ساعات إلى أيام، وبذلك تكون لنا الفرصة نحن الخمسة في مشاهدة المصير المحتوم الذي ينتظر العالم والبشرية!

هيا! وكفي ضياعا للوقت، هلا ساعدتموني في نقل الأسطوانات إلى الغرفة؟!

☆ ☆ ☆

3- الطوفان..

اتجهنا جميعا إلى الغرفة التي اختيرت لتكون مسرحا لتجربة لن تنسى، وكانت الغرفة لا تتجاوز العشرين قدما مربعا، وفعلا قد أحكم إغلاق النوافذ وسدت الثغرات، وكذلك سوف يكون حال الباب إذا ما تم غلقه.

وتحتل الأركان الأربعة للغرفة أربعة أصص كبيرة الحجم، يحوي كل منها شجيرة مورقة، فهي الطريقة المثلى والسريعة للتخلص من غاز ثاني أوكسيد الكربون الزائد..

وكانت النوافذ من النوع المستطيل، وكانت تطل على نفس المنظر الطبيعي الذي تطل عليه غرفة المكتب.. عجبا لهذا العالم!

لا يوجد ما يدل على توقع حدوث أي اضطراب في الجو.

ما هذا؟ إنه رنين جرس الهاتف.. يا له من مزعج! لم تنقطع المكالمات التليفونية لحظة واحدة.. وكان (تشالنجر) يعود بعد كل مكالمة بأخبار وتفاصيل جديدة، وكانت كلها تؤكد أننا بصدد كارثة فادحة المصاب.

إنه طوفان يأتي الأرض من أطرافها متجها من الجنوب نحو الشمال، فقد غمرت الكارثة شمال (إفريقيا) و (البرتغال) و (إسبانيا)، تاركة سكانها في فوضى، بين غيبوبة الموت والقتال العنيف.

أما بقية بلاد العالم، فقد ناشدت برقياتها النصح والإرشاد، وخير ما يمكن اتخاذه من إجراءات لمحاولة تخفيف الوضع على الأقل.

وبمتابعة الهيئات العلمية، وجد جو عام من الحيرة شمل علماء الفلك ورجال العلم.. فهم لا يدرون سببا لهذه الكارثة لقد خرج الأمر من أيديهم وتجاوز الوضع حدود العلم الإنساني وسيطرته.

ومع ذلك كله.. فقد رأيت من النافذة مربية شابة تدفع أمامها عربة أطفال صغيرة، وتجر بيدها الأخرى طفلا ثانيا، وكانت هناك الأدخنة المتصاعدة من مداخن البيوت الصغيرة والأكواخ المتناثرة، دالة على روح الاستقرار لهذه البقعة من الريف الجميل.. وكان العمال قد عاودوا الحصاد بعد تناولهم الغذاء.. أما لاعبو الجولف فبهدوء ومرح شديدين انتشروا يتابعون مبارياتهم في الميدان..

وتعجبت مما يسود هؤلاء جميعا من عافية وهدوء، وما يحيطنا نحن من ذعر وأعراض مختلفة، وتساءلت بدهشة:

- لماذا تبدو عليهم الصحة والعافية؟

فسألني سعادة اللورد (جون):

- هل لك في لعبة الجولف؟

فقلت لا، فقال:

- إنهم ينسون الدنيا بما فيها وتوجه كل حواسهم لهذه اللعبة..

وبينما نحن نتابع تلك اللوحة الهادئة، لاحظت أن بعض لاعبي الجولف يركضون مسرعين نحو أبنية النادي، وظننت أن شيئا من الأخبار المزعجة قد وصل إليهم..

لكني فوجئت بالمربية تعود أدراجها، وقد بدا عليها الاهتمام وشيء من الألم.

يا له من يوم مشمس ومشرق لانتهاء البشرية!!

وتنبهت لصوت (تشالنجر) وهو يقول:

- (مالون).. تليفون لك.
سمعت (ماكاردل) رئيس التحرير يخاطبني:
- (مالون)؟ (مالون).. إن لندن الآن تعاني أمورا هائلة.. الموت يجتاح الناس بالألوف.. بالله عليك ناشد البروفيسور (تشالنجر) إن كان يملك شيئا لإنقاذ الموقف..
وكنت أعلم رد أستاذي بهذا الشأن، فقلت له:
- لا يستطيع (تشالنجر) فعل أي شيء.. فهي كارثة عالمية لا قبل له بها.. وهو هنا يرجئ الموضوع ببعض (الأوكسجين)..
فصاح (ماكاردل) بجنون:
- (الأوكسجين)؟ الإدارة هنا لا تُحتمل.. الفوضى تعم أرجاء المكان، وأغلب الموظفين قد فقدوا وعيهم، ثم إنه لا يوجد متسع من الوقت للحصول على ما يكفي منه..
- إن كنت تريد.. فيجب التحرك بسرعة، لماذا لا تسعي بنفسك للحصول على.....؟
صاح مقاطعا:
- أشعر أنني لست على ما يرام.. والمنظر هنا من نافذة مكتبي لا يشجع على مجرد المحاولة، إن مئات الناس ممددون على الإفريز في الشارع، كما أن حركة المرور قد توقفت تماما.. وكذلك....
وبدأ صوته يذهب ويبعد شيئا فشيئا حتى لم أعد أسمعه أو أتبين معالمه، وفجأة سمعت صوتا عنيفا كأن شيئا قد ارتطم بالأرض.
- مستر (ماكاردل)! (ماكاردل)!
وضعت سماعة التليفون مع ثقتي بعدم سماعي هذا الصوت مرة أخرى.

وبطريق عودتي للغرفة، شعرت بشيء يغمرني كأنني على شاطئ البحر، وفجأة أحسست بأن الحياة تنتزع من جسدي في هوادة ورفق.. كأن أحدا قد أطبق على عنقي وجثم على صدري، وأذنيّ - إن بهما شيئا - لم أعد أعي ما هو..

واختل توازني وقاربت على السقوط لولا تشبثي بالحاجز.

وتمكنت من صعود أول درجة في السلم.. وإذ بـ (تشالنجر) يحمل زوجته فاقدة الوعي، صاعدا بها في الدرجات بسرعة..

هل أتمكن من الوصول إلى حصننا المنيع؟ ووجدتني أجمع شتات نفسي، حتى تمكنت من الصعود فعلا.. وهنا سحبني أحدهم لداخل الغرفة، تبينته فيما بعد، اللورد (جون)، وكنت أنا ومسز (تشالنجر) لا نقوى على الحركة أو الكلام..

اقترب (تشالنجر) من أسطوانة (الأوكسجين) واستنشق منها أنفاسا عديدة متلاحقة..

وسرعان ما استجمع قواه وصاح فجأة:

- إنني على صواب! لقد أفلح (الأوكسجين)، وعاد لنشاطه المعهود، ودنا بطرف الأنبوبة من أنف زوجته، ولم يمض كثير من الوقت حتى بدأت تتحرك قليلا، ثم اعتدلت في جلستها..

وتحرك (تشالنجر) تجاهي، وقرب طرف الأنبوبة من وجهي، وإذا بي أعود للحياة من جديد، وشعرت بسعادة غامرة.. حقا إنها حياة مؤقتة.. ولكن لها مذاقا خاصا.. خاصا جدا..

وتتابع استنشاق (الأوكسجين) من بعدى إلى الأستاذ(سمرلي)، الذي كان - على ما أعتقد - فاقدا للوعي هو الآخر، لكنه استجاب سريعا وأخذ يحرك يديه كمن لا يصدق نفسه.

أما اللورد (جون).. فكان أخر من استرد نشاطه وحيويته.

تثاقلت مسز (تشالنجر) قائلة:

- لقد عانيت كثيرا يا (جون) وأنت تحاول إنقاذي إعادتي للحياة مرة أخرى، فقد كنتَ معرضا للهلاك.. كان جديرا بك تركي..

وهنا قاطعها (تشالنجر) بصوت يقطر عطفا وحنانا:

- عشنا معا كل هذه السنين، فلماذا يسبق أحدنا الآخر؟! ستكون لحظة الفراق مؤلمة، حتى لو كان الفارق بين عمرينا بعض دقائق..

ونظر إلى (سمرلي) واستأنف الحديث:

- عزيزي (سمرلي).. علك الآن قد اقتنعت وزالت شكوكك.

ثم مد يده وأغلق صمام الأسطوانة، واستطرد يقول:

- لقد تشبع جو الغرفة، وأعتقد أننا الآن جميعا بحالة جيدة.. ولكن علينا أن ندخر منه قدر المستطاع.

عاد الصمت يخيم على الغرفة.. فقد أحسسنا بشيء من التوتر العام، حتى همست مسز (تشالنجر) بصوت متقطع:

- أغيب عن الوعي مرة أخرى!

وسرعان ما فتح (تشالنجر) صمام (الأوكسجين) وهو يقول:

- أنت الآن يا عزيزتي بمثابة الفأر الأبيض لجماعتنا هذه، فمع بداية اختراع الغواصات.. كانوا يقتنون بكل غواصة فأرا أبيض من النوع الأليف، إذ يستشعر فساد الجو قبل طاقم الغواصة، وبهذا يسارعون بتنقية الجو..

- أيكفى هذا؟ أحسبك تشعرين الآن بتحسن..

- نعم.. شكرا زوجي الحبيب..

- حسن.. بتلك الطريقة يمكننا تقدير ما يكفينا ويلزمنا من الغاز، وبالتالي إلى أي مدى سنصمد..

فانطلق اللورد (جون):

- وهل هذا يهم؟ سواء طالت أو قصرت المدة، فالنهاية واحدة ومعروفة.. إنني أرى أن نتلو صلواتنا، ثم نغلق صمام أسطوانة (الأوكسجين)، ونفتح النافذة على مصراعيها لنواجه مصيرنا بشجاعة وتحد..

وهتفت الزوجة:

- حقا! لماذا لا نفعل ذلك يا (جورج)؟

واحتج (سمرلي) قائلا:

- أعترض وبشدة...

والتفت إلى (تشالنجر) وقال:

- ما رأي صديقنا الشاب؟

- أتمنى أن نبقى حتى النهاية.

- أنا من رأيك..

فهدأت زوجته مرددة:

- إذن.. سأظل معك للنهاية..

- آسف.. قالها اللورد (جون) ثم أعقب:

- معكم حتى النهاية، ما قصدت سوي.....

ونهض (جون) من مقعده، وهو يكمل كلماته، وإذا به يصرخ وقد طالعت عيناه النافذة:

- (تشالنجر)! السائق!

- ماذا تعني؟

- لقد مات! نه ممدد بجانب السيارة!

- فقال (سمرلي):

- إياكم ومحاولة إحضاره.. إن ذلك يهدر كمية كبيرة من (الأوكسجين).. فضلا عن أننا لا نملك سلامة من سنحضره..

صاح اللورد (جون) متأسفا:

- الطيور.. الطيور أيضا قد تساقطت في أرجاء الحديقة!

وحمل كل منا مقعدا له بجوار النافذة نرقب ما يحدث.

إنه نشيط جدا ذلك الموت.. فلم يترك حيا في العالم.

وتجاوزت عيناي فناء الدار، فرأيت في نهاية الحقل جماعات من الفلاحين قد تفرقت جثثهم ممددة هنا وهناك..

وها هي ذي.. نعم هي.. المربية الشابة كانت ملقاة على الأعشاب، وإلى جوارها كومة بيضاء علها الرضيع الذي كان بالعربة، وبجانبهما الطفل الآخر الذي كانت تمسكه.



وها هى ذى .. نعم هى .. المربية الشابة كانت ملقاة على الأعشاب ،
والى جوارها كومة بيضاء علها الرضيع الذى كان بالعربة ..

وهناك عربة ركوب وقد تهالك جوادها في مكانه وتدلى السائق من مقعده، وكان الباب مفتوحا ويبدو أن بداخلها ركابا أيضا.

واكتملت الصورة بلاعبي الجولف بالتل، ممددين في أرجاء الملعب، ممسكا بعضهم بالمضرب، وبعضهم الأخر بجعبة المضارب.

حقا كأنها صورة، ليست بها حركة واحدة، مع خلو السماء من الفراشات والطيور التي نادرا ما يخلو منها الجو في مثل ذلك اليوم المشرق.

ومرت عيني بالصورة مرة أخرى من نهايتها البعيدة مرورا بالجولف، ثم العربة، فالمربية، وأخيرا فناء البيت والسائق، لتعود داخل الغرفة.. وهنا شعرت بوجود زجاج النافذة الرقيق الذي يفصلنا عن هذا الهلاك ويحول دون مشاركتنا في تلك اللوحة، هذا بفضل بعد نظر (تشالنجر) وسعة علمه، فغدونا عودا أخضر وسط يابسة.

قطع على استغراقي.. صوت (تشالنجر):

- هناك منزل يحترق!

فسأل (سمرلي):

- هل يمكنك استخلاص شيء من هذه الحرائق؟

وابتسم (تشالنجر) قائلا:

- طبعا.. من الناحية العلمية، هذا يعني أن كمية (الأوكسجين) الموجودة في الجو لم تتغير.. وأن سبب الكارثة هو الأثير المحيط بالأرض والطبقة التي تعلوها..

- انظروا جميعا! قمة تل (كراوبرو)، توجد نار هناك، إنها أبنية نادي الجولف!

وهتف (جون):

- ساعة الكنيسة! إنها تدق، إن الإله قد قيض لها البقاء بعد مبتكرها.. يا لها من فلسفة!

وصاح من جديد:

- دخان يتحرك؟ يا إلهي.. إنه القطار!
وقال (سمرلي):
- إلى متى سيظل مندفعا فوق القضبان الحديدية؟ هناك احتمال من ثلاثة: أن ينفد وقوده حتى يسكن، أو يخرج عن قضبانه وهو يجتاز أحد المنحنيات.. أو..
وسكت فجأة، لأننا أدركنا الاحتمال الثالث.. رأينا قطارا آخر يحمل أطنانا من الفحم يقف ساكنا على نفس الخط.
كان التصادم فظيعا، وما هي إلا لحظة حتى أصبحت القاطرة وعرباتها كومة من الحديد والأخشاب، وانتشرت ألسنة النار، وصرخت مسز (تشالنجر):
- رباه.. يا للركاب المساكين!!
- أي ركاب يا زوجتي؟ أنسيت ما أصبحوا عليه؟
هم لا يختلفون عن كتل الفحم التي اصطدموا بها، أو التي سيتحولون إليها بعد قليل..
وأكمل (تشالنجر):
- لقد تكرر هذا المشهد في جميع بقاع العالم بالإضافة إلى السفن والمراكب الشراعية، سيظل المحيط الأطلنطي قرنا كاملا تطفو فوق أمواجه بقايا هذه السفن..
وتذكرت فجأة عمال المناجم.. الذين دفنوا بين طبقات الأرض.
وقال (سمرلي):
- لو كتب للبشرية أن تعيش على الأرض مرة أخرى، فسيحار علماء (الجيولوجيا) والحفريات عندما يجدون هياكل هؤلاء الرجال..
وأخيرا نطق اللورد (جون):
- هل لى من سؤال؟ كيف يعود الجنس البشري مرة أخرى؟

فرد (تشالنجر) عليه قائلا:
- ألم تكن الأرض خالية من قبل؟
- بلي..
- ثم أصبحت مكتظة بالبشر تبعا لقوانين وأحكام تسمو فوق إدراكنا؟! لم لا يتكرر الشيء نفسه؟!
فقال (سمرلي):
- ربما أخطأت هذه المرة يا صديقي (تشالنجر)..
- لم أخطئ.. فأنا أعني ما أقول..
فقال (سمرلي):
- كنت أظنك متدينا.. أم أنك تستجيب أخيرا لنظريات الماديين؟
احتد (تشالنجر) قائلا:
- تخلط دائما بين الدين والعلم وتحاول أن....
هنا تدخل اللورد (جون):
- أهو وقت النزاع والمجافاة أيها السادة؟! ماذا يهم إن كانت البشرية ستعود للأرض أم لا! على الأقل لن يحدث هذا ونحن أحياء.
فقاطعه (تشالنجر):
- إن العالم يجب ألا يرتبط بزمان أو مكان، فيجب أن يعمل العقل العلمي لآخر لحظة من الحياة ولا يثنيه أي شيء.. حتى لو كان هذا الشيء هو الموت.
هل لديك أية ملاحظات عزيزي (سمرلي)؟
فقال (سمرلي):
- أوافقك.. تمام الموافقة
وهنا تابع (تشالنجر):

- إن العقل العلمي المثالي يملكه رجال – يصفهم البعض - بقاهر الطبيعة.

فقاطعه اللورد:

- في حالتنا تلك.. ينعكس الوضع، وتكون الطبيعة هي قاهرة الرجال..

فقال (تشالنجر) مؤكدا كلامه السابق:

- إن انتصار الطبيعة هذه المرة لن يكلفنا سوى تأخير الحياة لبضعة ملايين من السنين.

- ماذا تقصد؟

- تمهل يا سيدي.. إن الحياة النباتية ما زالت حية وقائمة، سواء على سطح الأرض أو في المستنقعات والبحار، ولو تذكرت الحيوان الأول ذا الخلية الواحدة - الذي هو أساس هذا العالم الذي هلك ولم يبق منه سوانا - فستجد أن ظهور الإنسان مرة أخرى أمر مؤكد!

وسألته:

- أنسيت هذا السّم؟ أليس قادرا على إفناء الحياة مرة أخرى؟

ابتسم قائلا:

- ومن أخبرك أنه سيستمر؟! فربما كان اندفاع الأرض في الفضاء يخرجها من هذا النطاق السام.

ثم أضاف:

- أعتقد أنه من السهل على الأرض اجتياز هذه المحنة، والدليل على ذلك هو احتياجنا لقليل من (الأوكسجين)، وكذلك وجود ألسنة النيران المتصاعدة.. وهذا أيضا يؤكد عودة الحياة الحيوانية من جديد..

صاحت مسز (تشالنجر):

- لقد عاودني الصداع مرة أخرى، وأصبح الجو حملا على صدري..

فنهض (تشالنجر) مسرعا:

- فلنغيره فورا!

وفتح صمام الأسطوانة، وقال:

- لقد قاربت على الانتهاء.

سأل (سمرلي):

- استغرقت كم ساعة تقريبا؟

نظر (تشالنجر) لساعته وقال:

ثلاث ساعات ونصف الساعة..

- كم الساعة الآن؟

- الثامنة.. وبالقياس فلن تنتهي قبل التاسعة من صباح الغد.

فقال (جون):

- هل نشاهد الشروق مرة أخرى؟

فرد عليه (سمرلي):

- شروق لنا.. وحدنا!

استعمل (تشالنجر) الأسطوانة الثانية، ثم أزاح الغطاء المحكم لفتحة صغيرة بالجدار، وأدار المروحة الكهربائية بالقرب منها.

حقا شعرنا بتجديد في جو الغرفة، أعقبته أعراض التسمم من جديد.. فأسرع وأغلق الفتحة بإحكام وهو يقول:

- لا يستطيع الإنسان أن يعيش على (الأوكسجين) وحده..

فسأله (جون):

- ماذا تقصد؟

ابتسم (تشالنجر) وهو يوضح كلامه:

أقصد الشراب والطعام، فقد أعددت مطبخي ليقدم لكم أشهى المأكولات، لكن هذه الكارثة أفسدت كل شيء، على كل - فقد احتطت ببعض الطعام الذي يصلح لتلك الظروف.

وعلى الفور.. قامت مسز (تشالنجر) بإعداد المائدة لعشائنا الأخير.

علق (تشالنجر) قائلا:

- نحن بحاجة لتعويض وبناء سريعين، فمن المؤكد أن الانفعالات التي تعرضنا لها كانت عاملا في اضطراب جزيئات أجسامنا.

فقلت:

- أحسب أن تلك الانفعالات تحد الشهية..

ضحك (تشالنجر) عاليا وقال:

- إن ما أخبرتك به هو الحقيقة العلمية الوحيدة، وما عدا ذلك هو خيال المؤلفين للقصص يا عزيزي..

- ألهذا تكثر الولائم في حالة الوفاة عند القرويين، على مستوى العالم كله؟

- نعم.. هذا هو أساس هذه العادة.

وأضاف اللورد (جون):

- حقا.. فقد رأيت بنفسي الزنوج في (إفريقيا) يصطادون (فرس البحر) ثم يلتهمونه كله، وذلك بعد أن شيعوا جنازة طفل صغير.

- إننا بعشاءنا هذا.. نشيع جنازة العالم أجمع.

وقالت مسز (تشالنجر):

- إنني لا أشعر بحزن على فقد أحد من أولئك الذين رحلوا واستبقونا، بما في ذلك أبي وأمي.. أليس هذا غريبا؟

- بل طبيعي ما دامت الكارثة عامة شاملة العالم أجمع..

اعترضته قائلا:

- على العكس سيدي (تشالنجر) فأنا شديد الحزن لوفاة أمي.. وإني لأتخيلها بشالها الذي لا يفارقها والمنظار والكتاب.. مع أنني سألحق بها بعد قليل، كم يؤسفني موتك يا أمي!

فتعجب (تشالنجر) من حديثي:

- أحزين حقا؟ إن الفناء العام يكون أخف على النفس من فناء فرد واحد.

وقال (جون)

- حقا.. مثل ما يحدث في المعارك الحربية، فأي قيمة بعد ذلك لحياة فرد أو مائة وسط هذا كله؟!

قالت مسز (تشالنجر):

- إنني خائفة جدا.. ليتنا انتهينا مع من انتهوا..

فنظر إليها زوجها وقال:

- تشجعي يا عزيزتي..

وذهبت أتفقد الأمر خارج النافذة.. علني أتبين شيئا في هذا الظلام الدامس، وقلت على الفور:

- إنها تحترق! إن مدينة (ليوز) تحترق!

وتقدم (تشالنجر) من النافذة، وأطرق برأسه عندما شاهد الكتلة المتوهجة، وقال:

- كلا! إنها مدينة (برايتون)..

وتذكرت جريدة (الجازيت) التي أعمل بها و(ماكاردل)، فلم ولن يكون هناك أثر صحفي لكل هذا مع أنه ما من صحفي في العالم تعرض لمثل هذه التجربة من قبل، وشعرت برغبة في تسجيل ما حدث ويحدث، لكني فجأة تذكرت - لمن أكتب؟

وعلى الفور تذكرت كلمة (تشالنجر)، فلماذا لا أحذو حذوه وأنجز عملي في خدمة الصحافة حتى النهاية مهما كانت النتائج؟

أعتقد أنّه لّا سبيل للنوم في مثل هذه الليلة، فأخرجت قلمي وأوراقي، أسجل أعظم كارثة حلت بالجنس البشري، وبذلك ظهرت هذه الوثائق.

☆ ☆ ☆

4- الموتى ومذكراتهم.

لقد دونت كل ما حدث في ذلك اليوم، معتمدا على غريزة الصحفي، مع علمي بأن أحدا لن يطالعها فهي حقا.. مذكرات ميت.

وتذكرت كلمة البروفسور (تشالنجر) عندما قال:

- ليست مأساة أن نهلك ونلحق ببقية الجنس البشري، إنما هي أن نبقى أحياء في هذا العالم بعد أن فارقه الجميع..

كم هو بليغ وحكيم! ولكن لا مجال لحدوث مثل هذه المأساة، فإن أسطوانة (الأوكسجين) الثانية قاربت على النفاد.

بدأت محاضرة علمية هائلة، بصوت جهوري بليغ.. استغرقت ربع الساعة، كان يلقيها (تشالنجر)، وكان الأستاذ (سمرلي) أشدنا اهتماما.. أما (جون) فكان يرقب ما يدور أمامه.. بينما تمددت مسز (تشالنجر) في مقعدها الوثير..

أما موضوع المحاضرة فهو بعض الميكروبات والحيوانات ذات الخلية الواحدة، وكان قد أعدها منذ يوم مضى، فأخذ يفحصها بوساطة المجهر.

وهتف فجأة:

- (سمرلي)! إنها تتحرك.. إنها حية!

فتساءل (سمرلي) دون أن يتحرك:

- ما هذا؟

- الأميبا.. ذات الخلية الواحدة.. انظر!

ثم قال يخاطبني:

- (مالون).. دع الكتابة وتعال انظر، ثم دون تلك المشاهدة..

نهض (سمرلي) وأعقبه (جون)، لكنه عقب متهكما:

- من هي تلك الأخرى حتى أهتم بمصيرها حية أو ميتة؟
غضب (تشالنجر) كثيرا وأخذ يجهز ردا لاذعا.. حتى صاحت به زوجته:
- عزيزي (جورج) - أعصابك – أرجوك لا تهتم.
عاد (تشالنجر) لهدوئه وقال:
- إن لهذا أهمية بالغة!
وعقب (سمرلى) فقال:
- ألا يعيش هذا الحيوان في نفس الظروف التي نعيش فيها، فما العجيب أن يظل حيا حتى الآن؟
لو أنها ظلت حية وهي بالخارج.. لكان ذلك موضع أهمية.
أطرق (تشالنجر) بحزن وقال:
- حتى أنت يا (سمرلي).. حتى أنت لا ترى أهمية لتلك الظاهرة!
تحمس (سمرلي) وقال:
- ألا تراني منطقيا؟
فقال (تشالنجر):
- عفوا.. تنقصك بعض المعلومات.
فقد جمعت هذه العينات بعد ظهر أمس، وأحكمت عزلها.. بحيث لا يتسرب إليها شيء من (الأوكسجين) الذي نستنشقه الآن.
فسأل (سمرلي):
إذن فهي تعتمد على كمية الهواء المحيطة بها.
انطلق (تشالنجر) قائلا:
- تماما..
- وبعد؟

- مهلا.. لا بد أن الأثير السام قد تسرب إليها.. ومع ذلك فما زالت حية.

صُدم (سمرلي) بالحقيقة، وقال:

- تسرب الأثير السام إليها ومع ذلك..

فقاطعه (تشالنجر):

- وبالتالي جميع الكائنات المماثلة والموجودة خارج الحجرة في أنحاء العالم قد اجتازت هذه الكارثة بسلام.

وأكمل موضحا:

- اعتمادا على التطور والارتقاء.. فإن العالم لم يصبح ميتا إلى الأبد كما كنا نعتقد، مجرد بضعة ملايين من السنين..

تهكم اللورد بشدة:

- ربي! بضعة ملايين من السنين!!

فرد (تشالنجر):

- هذه تعتبر لمحة في عمر الكون.

اهتم اللورد (جون) وجلس أمام المجهر وهو يقول:

- أتلك هي باكورة الجنس البشري؟ لم نعد الوحيدين الأحياء في هذا العالم..



اهتم اللورد (چون) وجلس أمام المجهر وهو يقول :
- « أتلك هى باكورة الجنس البشرى ؟ »

قال (تشالنجر):

- ألم تكن الأرض خالية من الكائنات الحية، أو على الأقل خالية من الإنسان؟! ألم تكن سابحة في الفضاء العريض، تغسلها

مياه الأمطار تارة، وتجففها الشمس تارة أخرى؟

إن الإنسان حديث عهد بوجوده على الأرض، ولم يخلق هذا الكون من أجله وحده..

علق (جون):

- فلمن إذن؟ إن لم يكن للإنسان.

قال (سمرلي):

- لا نعرف، فربما كان لشيء نجهله، وظهور الإنسان كان مجرد نتاج فرعي في أثناء العملية الأصلية الهائلة.

كنت أدون هذه المجادلة.. حتى صعب عليّ الأمر فقد تحولت إلى ما يشبه المناظرة.

هدأ الجميع بعد قليل، فقد انصرف (تشالنجر) إلى مجهره، بينما اتجه اللورد (جون) إلى النافذة.

وكان حريق (برايتون) ما زال متأججا، كما ظهرت حرائق أخرى متناثرة هنا وهناك.

ربت اللورد (جون) على كتفي وهو يسألني:

- وأنت أيها الشاب.. ماذا بخلدك الآن؟

فقلت:

- أفكر في بعض العقبات التي لم نجد لها حلا.. أينتهى ذلك كله إلى هذا المصير؟

- مثلا؟

- (انجلترا) و (ألمانيا) تلك المنافسة للسيطرة على الصناعة والتجارة، أو المشاكل السياسية في الخليج الفارسي، أكنت تدري أن الأمور ستنتهي إلى هذا الحل؟

وأخذت مسز (تشالنجر) في البكاء، بينما كان زوجها يواسيها بحنان، أما أنا فرحت أتخيل أصدقائي ونهاية كل منهم.

استسلمت مسز (تشالنجر) للنوم، وجلس هو إلى مكتبه يسجل بعض الأفكار ويقلب المراجع العلمية في سكينة وترو كما لو أنه ما زالت في عمره بقية تقدر بمئات السنين.

أما عن (سمرلي) فقد بلغ الإجهاد منه مبلغه، وكان منتظم الشخير.. كذلك استسلم اللورد (جون) للنوم.

وكم كانت دهشتي من مقدرتهم على النوم في تلك الظروف!

وبعد أربع ساعات عرفت الجواب، فقد غلبني النوم أنا الآخر وصحوت فجأة.. وإذا بها الثالثة والنصف صباحا.. كيف نضيع كل هذا الوقت من تلك الفترة الوجيزة التي بقيت لنا في عالم الأحياء؟!

حقا.. لقد أفادني النوم.. وصرت أعظم نشاطا وحيوية، وأيضا استعدادا لمواجهة نهايتي.

حتى (تشالنجر) استسلم للنوم.. لكنهم جميعا ما زالوا مستغرقين في سبات عميق.

بدت تباشير الفجر.. حاملة معها موجة باردة، وانتقلت إلى النافذة ألمح هذا الفجر الأخير - كم هو رهيب!!

كون ما يزال موجودا.. وعالم غير مسكون، لقد انتهى الجنس البشري في يوم واحد، وها هي ذي الشمس تشرق من جديد.

وضح النهار، وتبينت معالم اللوحة مرة أخرى، هي بعينها لم يطرأ عليها أي تغيير، ما زال (أوستين) وما زال الباقون.

وإلى هنا توقفت عن تدوين مذكراتي، فقد مرت الأحداث بعد ذلك بتتابع سريع لا يمكنني من ملاحقته، لكنها عالقة بذهني بجلاء تام.

وفجأة.. شعرت بألم في حلقي.. فخطوت تجاه (الأوكسجين)..... ما هذا؟

إنها الأسطوانة الرابعة.. وقد أوشكت هي الأخرى على النفاد، يبدو أن (تشالنجر) - في أثناء نومي - قد لجأ إليها.

لكن الألم يزداد ويمتد إلى صدري، فأسرعت إلى الأسطوانة الخامسة.. نعم - الخامسة والأخيرة – وفتحتها.

وبدأت مسز (تشالنجر) تئن بصوت مرتفع:

- (جورج).. (جورج).. إنني أختنق!

وأجبتها مسرعا: اطمئني يا مسز (تشالنجر) لقد فتحت أسطوانة جديدة.

بدأ الجميع في الاستيقاظ هلعين..

نظر اللورد (جون) بطرف عينيه وقال:

- الأخيرة؟!

- نعم الأخيرة..

- هل أمضيت كل هذا الوقت في الكتابة؟ ألم يغلبك النعاس؟

- بل غلبني لمدة أربع ساعات.

- لمن تكتب بحق الشيطان؟

- لا أدري.. ربما كان بحكم مهنتي..

- إياك أن تكون قد كتبتها لحيوان (الأميبا) هذا الذي يحتفظ به البروفسور (تشالنجر) في قواريره، ليراها بعد ملايين السنين عندما يرتقي ويصبح إنسانا!

ثم اتجه إلى (تشالنجر) وقال:

- ما هي مشروعاتك المستقبلية يا أستاذي!

وكان (تشالنجر) يراقب المنظر من النافذة، على حين قالت زوجته:

- أتشعرون بالبرد؟ أم أنه شعوري وحدي؟

وأسرعت أقول:

- بل إنني مثلك.. ومنذ وقت مضى.
وصدق على حديثنا (سمرلى)، فقالت السيدة:
- لا بأس بخمسة أقداح من (الكاكاو) الساخن.. تفضلوا.. فهذا كاف لبعث الدفء في أوصالنا.
يا له من قدح رائع! يكفي منظر البخار المتصاعد لبعث الدفء، وتلاشى البرودة من أطرافنا.
فسأل (سمرلي):
- أتسمحون لي بتدخين غليوني قليلا؟
فأجاب (تشالنجر):
- ولم لا؟ لكم أن تدخنوا، مع أن ذلك سيضاعف استهلاكنا من (الأوكسجين)، ولكن لماذا نحرم أنفسنا من تلك اللذة الأخيرة؟
تلهف الجميع وأشعل كل سيجارته أو غليونه، وسرعان ما تكاثفت سحب الدخان في الغرفة، وعاود (تشالنجر) عملية التهوية.
سأل اللورد (جون):
- كم بقى لنا؟
أجاب (تشالنجر):
- تقريبا ثلاث ساعات.
وابتسمت زوجته قائلة:
- أشعر الآن بسعادة كلما قربت الساعة الأخيرة..
وقالت لزوجها:
- ألا يجدر بنا أن نصلي قليلا.. يا (جورج)؟
فرد عليها في استغراق:
- إن العلم والدين يتقابلان الآن بداخلي، ومجرد الرضاء بكل ما يأتي به القدر.. لهو صلاة..

اعترض (سمرلي) قائلا:
- هناك فرق بين إسلامي للقدر واستسلامي له، أما الرضاء التام فيكون بعد أن أكمل أبحاثي عن المتحجرات الطباشيرية وبعدها أهلا بالفناء..
فقاطعه (تشالنجر):
- مع أنني كنت أنوي إيداع كافة أبحاثي وتجاربي عن (سلم الحياة).. فأنا أشعر بكامل الرضا..
تدخل اللورد (جون):
- يبدو أن كلا منا ترك وراءه شيئا ناقصا..
ثم ربت على كتفي قائلا:
- وأنت - أيها الشاب - ماذا تركت وراءك ولم تكمله؟
فقلت:
- ديوانا للشعر لم يتم.
ثم سألته:
- وأنت.. هل لك شيء لم يكتمل؟
- نعم.. وعد لم أنجزه..
- وعد!
- وعدت زوجتي بالذهاب للتبت لأصيد لها.
وقال اللورد (جون):
- وأنت مسز (تشالنجر).. ألا يشق عليك ترك هذا المنزل الجميل؟
فتنهدت السيدة وقالت:
- أي مكان يجمعني و (جورج) يكون بيتي الجميل.. لكني حقا أسفه لعدم مقدرتي على ممارسة رياضتي، والتنزه هذا الصباح.. فإن اللون الذهبي يغمر الكون بأكمله..

ومن جديد حملنا مقاعدنا بجوار النافذة نراقب هذه النعمة التي تفلت من أيدينا شيئا فشيئا.

قال اللورد (جون):

- بدأت أشعر بالضيق.. هل نفدت تلك الأسطوانة بهذه السرعة؟

فقال (تشالنجر):

- يبدو لي أنا الآخر أن هذه الأسطوانة ليست معبأة كما ينبغي.. فإن كل أسطوانة تختلف عن الأخرى بما تحتويه من كمية الغاز، تبعا لمدى الضغط المستخدم، وكذلك العناية بمراعاة التعبئة فقال (سمرلي):

- خديعة! حتى في لحظاتنا الأخيرة! يا له من شيء مؤسف!

قال (تشالنجر) لزوجته:

- تعالى بجواري.. هاتي يديك.

قال (سمرلي):

- عندي لك كلمة واحدة يا (تشالنجر) قبل أن نمضي.

- تكلم يا صديقي.

- تجادلنا طويلا.. واحتد بيننا النقاش أكثر من مرة، فلم يؤثر ذلك على صداقتنا قط، فلكم أكن لك من مودة واحترام.. والآن.. وداعا..

قال اللورد (جون) لي:

- وداعا صديقي الشاب.

ونهض (تشالنجر) واحتضن زوجته، ثم مد يده نحوي وقال:

- (مالون).. من فضلك منظاري المقرب..

وألقى بالمنظار على زجاج النافذة فحطمه ثم أردف:

- فلنسلم أنفسنا للقوة القاهرة.

ومن خلال فتحة الزجاج المحطم.. اقتحمتنا موجات من نسيم بارد.. وأثار هذا دهشتنا.

وهتف (تشالنجر):

- يبدو.. أننا.. يبدو أننا قد عدنا لحالتنا الطبيعية!

- ماذا تقصد يا (تشالنجر)؟

- إن الكرة الأرضية تسبح الآن وسط الأثير العادي.. لقد جاوزت النطاق السام!

- بعد ماذا؟ إنه لم يبق من الأحياء سوانا.

ورحنا نتبادل النظرات في حيرة.

☆ ☆ ☆

5- عالم الأموات..

لست أدري... كم من الوقت مر علينا ونحن ذاهلون، لا نصدق كوننا ما زلنا أحياء.

إن أنفاسنا تخرج ثم تعود إلينا سالمة.. لكن القلق أطبق علينا، وفقدنا ثقتنا بالمستقبل.

إن تلك الضربة أقوى وأشد من ضربة الموت الأخيرة التي استعد كل منا لها.

بدأت العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل تعيد نفسها بترتيب بطيء، والأفكار برؤوسنا أخذت تتحور شيئا فشيئا، وعادت الذاكرة لتفصل بين حياة عشناها، وتلك الحياة الجديدة التي كتب علينا أن نحياها.

الغريب.. أنه لم يكن أحدنا يشعر بالسعادة.. السعادة لنجاتنا من الموت المحقق.

لقد ذهب كل ما كان حبيبا إلينا.. ودفن بطيات هذا الطوفان الرهيب.

أصبحت حياتنا تسير وسط مقبرة شملت العالم أجمع، ثم لن نلبث أن نلقى مصيرنا الواحد بعد الآخر.

وصاحت مسز (تشالنجر).

- (جورج).. إنني خائفة.. خائفة!

وارتفع صوتها بالبكاء وهي تردد:

- ليتك لم تنقذنا.. ليتك تركتنا نمضي مع الآخرين.

قال تشالنجر) مقطبا:

فلنستسلم للواقع..

وصاح (سمرلي):

- لن أستسلم لشيء بعد الآن..
ورد اللورد (جون):
- رفاقي الأعزاء.. ما الذي يدعو لكل هذه الحدة؟
سواء استسلمنا أم لم نستسلم - سيان - إن الأمر يستوي الآن، وإن أحدا لن يسألنا رأينا... أنوافق أم نعترض.... ما الفرق؟
قال (تشالنجر) بصوت خفيض:
- إنه الفارق بين السعادة والشقاء.. على كل نحن بصدد أمر خارج عن سيطرتنا.. ولا نملك شيئا سوى أن نقبله على علاته..
فسألته:
- وماذا نفعل وحدنا بهذه الحياة؟
- فأجاب:
- سنعود ونزاول أعمالنا..
فقاطعته:
- أعمالنا؟ لم تعد هناك صحف.. فكيف أزاول عملي؟
وقال اللورد (جون):
- وأنا؟ لم يبق لى ما أصيده، فقد قضيت عمري في الصيد والقنص.. ثم انتهيت مثلك يا (مالون)..
أما (سمرلي) فقال:
- أين تلاميذي؟ لمن أحاضر بعد اليوم؟
وابتسمت مسز (تشالنجر) وقالت:
- أنا أكثركم سعادة، فما زال بيتي وزوجي معي، شكرا لله على أن أبقاهما لي حتى أظل أتابع واجباتي نحوهما..
وقال (تشالنجر):
- وكذلك أنا... فلن أتعطل، فالعلم لم يمت، بل بالعكس.. إن مثل هذه الكارثة يفتح أمامنا آفاقا جديدة للبحث والدراسة.
وتذكر (تشالنجر) شيئا فقال:

- أيستطيع أحدكم تحديد البداية لتلك الكارثة؟
فقال (سمرلي):
- صعب جدا.. إن لم يكن مستحيلا..
- لماذا؟
- لأنها بدأت في المشرق ثم في المغرب، أعني أنها لم تحدث مرة واحدة.
فقلت مؤكدا:
- إن البرقيات الأولى جاءت من الشرق الأقصى.
- فقاطعني (تشالنجر) قائلا:
- هذا لأن الكرة الأرضية لم تتعمق في الفضاء المحتوى على الأثير السام مرة واحدة.
وبالتالي.. فإن المرحلة الخطرة يمكن تحديدها بالوقت الذي عم فيه الخطر الأرض كلها..
قال (سمرلي):
- حوالي الثالثة.. الثالثة من بعد ظهر أمس.
فسأل (جون):
- هذا عن البداية.. فكيف يمكن تحديد النهاية؟
فقال (تشالنجر) وهو ينظر لساعته:
- الساعة الآن التاسعة صباحا، وهكذا تكون النهاية قبل ذلك طبعا.
فقلت:
- قبل الفجر.. لاحظت أن الهواء كان رديئا.
وقالت مسز (تشالنجر):
- إني أتذكر جيدا.. فقد عاودتني أعراض التسمم مرة أخرى قبيل الثامنة صباحا..
فقال زوجها:

- ما بين الثامنة والتاسعة كانت النهاية، فقد استغرقت المأساة سبع عشرة ساعة.
والتمعت عيناه فجأة وقال:
- هناك سؤال ملح.. هل أنقذ غيرنا؟
ورد اللورد (جون):
- جال بخاطري نفس التساؤل..
وعقب (سمرلي):
- هل يمكن حدوث ذلك؟
تعجب (تشالنجر) وقال:
- وما المانع...؟ لم لا؟
- مستحيل.
لماذا؟
أجاب (سمرلي):
- لقد كان السم من الشدة بحيث لم يتمكن أحد من النجاة..
قلت معترضا:
- يمكن هذا في حالة واحدة... إن كان هناك من توقع ما توقعه البروفيسور (تشالنجر) فاحتاط له مثلما فعل..
ورد (تشالنجر):
- بلا فخر.. هذا الاحتمال بعيد جدا، ففي حالتنا اجتمع التفكير الدقيق وبعد النظر وقوة الملاحظة، وكذلك حسن التصرف، وهذا قلما يحدث مرتين.
تنهد (سمرلي) وقال:
- إنك بذلك تؤكد أنه لا وجود لأحياء سوانا.. فلم السؤال؟
أجاب (تشالنجر):
- إنه احتمال ضعيف جدا.
- أتقصد أنه ليس لديك رأي محدد؟

قال (تشالنجر):
- طبعا.
- لماذا؟
- ربما كانت آثار هذا السم ضعيفة بعض الشيء في المناطق المرتفعة، فيمكن أن يكون هناك عدد من الناجين في بلاد (التبت)، والمزارع المتناثرة في جبال (الألب) التي تعلو سطح البحر..
فقال اللورد (جون):
أنسيتم أنه لا وجود لوسائل المواصلات؟ فكيف السبيل للبحث عن الأحياء؟
فقال (تشالنجر) معقبا:
- فعلا يكاد يكون الأمر مستحيلا، فكيف الوصول لهؤلاء إن وجدوا؟
عاد اللورد (جون) يسأل:
- هناك ما هو أهم من البحث عن الأحياء..
فاهتم (تشالنجر) وقال:
- ما هو؟
قال:
- الحالة الطبيعية التي عدنا إليها، دائمة أم مؤقتة؟
- ماذا تعني؟
- ألا يمكن أن تكون فترة هدنة بين نطاقين سامين؟
فهتف (سمرلي):
- ربي..
وتقدم (تشالنجر) نحو النافذة وقال:
- أعتقد أن حدوثها لن يتكرر إلا بعد أحقاب طويلة، إن كان لا بد من تكرارها.

احتد (سمرلي) وقال:
- ماذا لو تكررت؟
ضحك اللورد (جون) قائلا:
- أقترح أن ننتهز الفرصة لاستنشاق أكبر كمية ممكنة من الهواء النقي.. هيا نخرج إلى الطبيعة..
- وهنا صرخت مسز (تشالنجر):
- خارج البيت؟
في هدوء قال لها زوجها:
- سيان داخل البيت أو خارجه ما دمنا لا نملك (أوكسجين)..
وشعرنا جميعا باليأس والإجهاد، حتى (تشالنجر) ألقى بنفسه متهالكا على المقعد لا يتحرك.



وشعرنا جميعًا باليأس والإجهاد ، حتى (تشالنجر) ألقى بنفسه متهالكًا على المقعد لا يتحرك ..

أمسك اللورد (جون) بكتف (تشالنجر) يعاونه على النهوض:

- هيا بنا أيها الأصدقاء خارج البيت نتفقد ما حدث..

وتعاونت معه على رفع (تشالنجر) من مقعده، ليسترد نشاطه.

هبطنا جميعا في السلم و(سمرلى) يقول:

- أنغادر الحجرة لنرى ما حدث فقط؟

وعقب (جون):

- ماذا إذن..

- حقا وماذا غير ذلك؟ فقد أصبحنا نملك ثروة ونعيما وأسباب رفاهية وكنوزا وما إلى ذلك، إنه ميراث هائل.. من الطبيعي ألا يشغلنا شيء بعد ذلك.

وقالت السيدة:

- يجب أن نتفقد الخدم..

وتوجه الجميع إلى المطبخ، فوجدنا الخادمة والطاهية على الأرض وأسرعت مسز (تشالنجر) وقد ارتسم الحزن على وجهها قائلة:

- لا يجب أن نتركهما هكذا..

فقال (سمرلي):

سنتبع معهما المراسم اللازمة..

واعترض (تشالنجر):

- ليس الآن.. يكفي الآن نقلهما إلى الفراش..

وتعاون الجميع في حمل كل منهما إلى فراشها.

وتذكر (تشالنجر) فجأة وهتف:

- (أوستن)! يجب نقله هو الآخر..

وخرجنا حيث كان يرقد (أوستن)، فقد لاحظ الجميع تخشب الجسد وتحجر العضلات بشكل غريب لم نعهده في الموتى من قبل، حتى إن تقلص العضلات قد شد جوانب الوجه وكشف عن الأسنان، فكأنما ارتسمت عليه ابتسامة ساخرة.

وكانت نفس الملاحظة على وجهي الخادمتين وعلى كل جثة نراها.. وبينما نحن نتفقد تلك الميتة الغريبة، سمعنا مناداة السيدة (تشالنجر) من الداخل:

- هيا.. إلى غرفة الطعام.

فهول الموقف أنسانا أنفسنا، فلم نذق اليوم سوي (الكاكاو) الساخن.. لهذا بدا اقتراحها مغريا، برغم الظروف.

كان اللورد (جون) أقلنا شهية للطعام وبمنتهي الجدية قال:

- رفاقي... لا أدرى نية كل منكم.. لكنني لا أستطيع أن أجلس هنا دون أن أفعل شيئا..

أضاف (تشالنجر):

- اقترح علينا.

- نخرج للدنيا ونرى ما حدث.

- لا مانع لدي... فلنذهب للقرية.

- القرية؟ أتريد أن ترى آثار الكارثة على قرية ريفية لا قيمة لها؟ لن يكون فيها جديد..

- إلى أين نذهب إذن؟

- (لندن)..

وهنا تدخل (سمرلي):

- هذا رائع.. ولكن أيمكنك أن تكون واقعيا أكثر من ذلك؟

فسأل اللورد (جون):

- ماذا تقصد؟

- إن أربعين ميلا بيننا وبين (لندن)... أيمكن للجميع قطع هذه المسافة سيرا على الأقدام؟

قال (جون):

- بالسيارة... لماذا لا نرحل فيها؟

- تردد (تشالنجر) وهو يقول:

- إن خبرتي في قيادة السيارات.. لا تكفي، ولكنها فكرة رائعة، سأقود السيارة بنفسي إلى (لندن)..

فصاح (سمرلى):

- لا.. لن تفعل.

وكذلك صاحت مسز (تشالنجر):

- أرجوك يا (جورج) لا تفعل، إنك لم تحاول القيادة سوى مرة واحدة وكدت تحطمها.. أنسيت؟

- نعم.. لقد حدث ذلك، لكنه كان لشرود مؤقت في ذهني..

وتدخل اللورد (جون) سائلا:

- ما نوع السيارة؟

- طراز (همير)... قوتها عشرون حصانا..

- يا للمصادفة! لقد قمت بقيادة مثل هذا النوع لمدة طويلة.

وأضاف قائلا:

- ما تخيلت يوما من الأيام أن أقل الجنس البشري كله معي بسيارة واحدة!!

فنظرت إليه، فقال موضحا:

- أيوجد جنس بشري سوانا؟

وسأل اللورد:

- هل تكفينا السيارة؟

فرد (تشالنجر):

- إنها تسع خمسة أفراد.

فنهض اللورد (جون) صائحا وكأنه سيد الموقف:

- هيا يا رفاق.. فلتعدوا لوازمكم.. وسأكون بانتظاركم في تمام العاشرة..

جلس اللورد إلى عجلة القيادة وأنا بجانبه، بينما جلست مسز (تشالنجر) في المنتصف تتوسط (سمرلي) وزوجها، وانطلقت

السيارة في أغرّب رحلة قام بها أناس منذ قدّيم الأزل.
كانت الطبيعة خلابة في تلك البقعة من الريف الإنجليزي في هذا الصباح من شهر أغسطس، كان منظرا كفيلا بأن ينسى الإنسان ما حدث.. لولا السكون المطبق والصمت الفظيع الذي يسود كل شيء.
إن للحياة رنينا وصوتا مميزين، أحست الأذن بفقدهما، مع العلم أنها لم تكن تشعر بوجوده، فقد اعتادت عليه، مثل ساكني الشواطئ الذين يألفون هدير الأمواج حتى تصبح وكأنهم لا يسمعونها، في حين أنه يكون مزعجا لمن يسمعه لأول مرة.
أصوات الحيوانات المختلفة، نباح الكلاب وخوار البقر وطنين النحل والحشرات.. كلها سيمفونية عزف لحياة الريف.
هذا الصمت العنيد، وألسنة النار، وأعمدة الدخان التي انتشرت من بعض الأبنية المحترقة وصوت (موتور) سيارتنا المزعج بعث القشعريرة في أوصالنا، وأيضا حنيننا لعالمنا المفقود.
ناهيك عن الجثث المنتشرة في كل مكان يا لها من معاناة نتحملها نحن، وضريبة الآلام التي ندفعها لكوننا نجونا!
لعمري ما حييت لن أنسى تلك الصور.
وعندما امتدت تلك الآثار إلى الجماعات ثم إلى القرى والمدن؛ أخذ تأثيرها في أعصابي يخف شيئا فشيئا..
وبتكرار هذه المشاهد المروعة.. اعتادتها عيناي وتذكرت مقولة اللورد (جون) عندما قال إن الإنسان ينقبض عندما يرى جثة قتيل تنزف منه الدماء، لكنه إذا خاض في ساحة لمعركة ما، تحوي مشهد الآلاف من الجثث والضحايا، ذهب عنه الاشمئزاز.

وتنبهت على بكاء مسز (تشالنجر)، وقبل أن أسألها إيضاحا.. أدركت الموقف..

إنها مدرسة ريفية خرج منها التلاميذ من فورهم، وتبعثرت جثثهم على مشارف الطريق من باب المدرسة إلى المدينة...

إن جثث الأطفال بالذات تثير بنفوسنا شجنا وأسي...، فلعل سماع الأنباء بوقوع الكارثة، جعل المدرسين يصرفون الصغار إلى منازلهم... ولكن..

إنه فرار من الموت... إلى الموت.

وكذلك الحارات.. كانت مكتظة بالموتى.. في ثياب النوم.. على ما يبدو، هربا من الجو الخانق، وبحثا عن الهواء النقي.

جاوزت السيارة (ويلز)... بتلك الأكواخ والبيوت الصغيرة، وقد كان سكانها يطلون من نوافذها، عله البحث عن الأوكسجين... خارج جدرانهم.

كان اللورد (جون) شديد المهارة والفن بدنيا القيادة...، فتفادي من العقبات الكثير والكثير التي كان معظمها من الجثث.

وفي حالة تراكم الجثث في الطريق...، كنا نترجل من السيارة لنرفع من طريقها بعض الجثث، فقد فعلنا ذلك أكثر من مرة.

منظر آخر.. شمل الخادم والأرستقراطي والكلب.. نعم! كلهم في ضربة واحدة.

رأينا سيارة رائعة الجمال تقف أمام حانة ريفية علهم يقضون بعض طلباتهم، وكان اتجاه السيارة قادما من (برايتون)..

كان ركابها عبارة عن ثلاث نساء في قمة الأناقة وأفخر الثياب، وكانت إحداهن تحمل كلبا صغيرا، أما قائد السيارة ففتي يبدو أنه أرستقراطي يضع المونوكل على عينه، وبجواره شيخ عجوز..

وبجوار باب السيارة سقط خادم الحانة، وبجانبه صينية تناثرت فوقها شظايا الزجاج لأكواب بعددهم.. ويبدو أنه سقط في طريقه إليهم متجها من الحانة..

«داو يشهام» تلك المدينة التي كانت الأخيرة حتى الآن في طريقنا، وبينما نحن نغادرها... فوجئنا بشيء صغير يتحرك من بعيد..

وهتف ثلاثة منا:

- ما هذا؟

كانت هناك يد بشرية تشير لنا بمنديل أبيض..

لقد شاهدناها جميعا..

شاهدناها من نافذة بالدور الثاني لمنزل متواضع.. لم يكن حلما أو تخيلا..

أسرع اللورد (جون) بالسيارة حيث كان المنزل. وهبطنا منها جميعا، نتسابق إلى باب المنزل حتى الدور الثاني....

كم نشتاق للحياة!

هنا... إنها هنا..

ووجدنا عجوزا قابعة بمقعد بمحاذاة النافذة المفتوحة!! وأمامها على مقعد آخر أسطوانة صغيرة من أسطوانات (الأوكسجين) المضغوط.

وقابلتنا السيدة بصوت مرتعش والدموع تنحدر من عينيها، وقالت في صوت متلعثم يكاد يكون همسا منبعثا من قبر مهجور:

- خشيت أن أكون قد كتب على البقاء وحيدة هنا إلى الأبد. إنني مريضة.. ولا أقوى على الحركة..

فلا أغادر مكاني إلا إذا حُملت..

فقال لها (تشالنجر):

- إنها المصادفة الحسنة وحدها التي ساقتنا إلى هذا الطريق..
فقالت العجوز وقد بدأت تسترد روعها:
- ماذا دها العالم أيها السادة؟
وقبل أن يحاول (تشالنجر) أن يشرح لها الموقف قاطعته قائلة:
- لدى سؤال واحد أريد أن أطمئن إلى جوابه..
- وما هو يا سيدتي؟
- هل لهذه الحوادث تأثير على أسعار أسهم شركة سكة حديد (لندن) والشمال؟!
ولولا الذعر الذي كان يغشي نبرات صوتها لاستلقينا جميعا على الأرض من شدة الضحك، إذ إن السؤال هو آخر ما يتوقع الإنسان سماعه وسط هذه النكبة العظيمة..
ولم نلبث أن عرفنا سر تلهف مسز (بريستون) - هكذا كان اسمها - على أسعار الأسهم.. فهي أرملة طاعنة في السن ينحصر دخلها في ريع عدد من هذه الأسهم هي كل ما تملكه من حطام الدنيا.
فسعادتها وشقاؤها مرهونان بما يصيب هذه الأسهم من ارتفاع أو هبوط... وهي لا تعرف من علامات الاستقرار والنعيم أو الشقاء والبؤس سوي الأرقام التي تدل عليها أسعار أسهمها.
وحاولنا جاهدين أن نفهمها بأن جميع أموال الدنيا قد أصبحت ملكا لها، وأن هذه الأموال في الوقت نفسه لا تساوي شيئا، بل لا تفيد مجتمعة أية فائدة..
فما كان لعقلها العتيق أن يستسيغ هذا النظام الجديد الذي فرض عليها وعلينا.
ولعل كل ما أدركته من حديثنا أن أسهمها قد بلغت الحضيض، فأنشأت تبكي وتنتحب، وتنعى ثروتها الزائلة قائلة:

- الرحمة.. الرحمة!! إنها كل ما أملك.. لم يعد لى بقاء بعد ذهاب هذه الأسهم!

وأمكننا أن ننتزع منها بعض العبارات الخاطفة التي مكنتنا من أن نعرف السر في بقاء هذه الشجيرة الواهنة حية وسط تلك الغابة الكبيرة التي هوت أشجارها ودوحاتها العظيمة.

كانت مصابة بضيق التنفس، وتنتابها منه أزمات حادة، وقد وصف لها الأطباء المعالجون فيما وصفوا أن تحتفظ بأسطوانة من الأوكسجين تستنشق منها كلما ضاقت أنفاسها... فلما حلت الكارثة لجأت إلى الأسطوانة... وكانت تظن طوال الوقت أن ما تشعر به من ضيق واختناق إن هو إلا ازدياد في علتها الأصلية وتفاقم في أعراضها.

وهكذا كتبت لها النجاة.

ونال منها الإجهاد أخيرا، فاستغرقت في نوم عميق لم يوقظها منه سوى صوت محرك سيارتنا.



ونال منها الإجهاد أخيرًا ، فاستغرقت فى نوم عميق لم يوقظها منه سوى صوت محرك سيارتنا ..

تلك هي قصة المعجزة التي صادفتنا.

وكان من المتعذر علينا بطبيعة الحال أن نأخذها معنا في السيارة إلى (لندن)، ولكننا زودناها بكافة احتياجاتها قبل أن

ننصرف، ووعدناها بأن نتصل بها بعد يومين على الأكثر.
غادرنا المنزل وهي ما تزال تبكي أسهمها المختفية..
وعندما اقتربنا من نهر (التايمز) تكاثرت العقبات في الطريق، وأمكننا أن نشق طريقنا عبر قنطرة (لندن) في شدة وعناء.
وشاهدنا في جانب النهر سفينة كبيرة مشتعلة تملأ الجو بالأدخنة المتصاعدة منها، كما شاهدنا حرائق أخرى بالقرب من دار البرلمان، ولكن كان من الصعب تحديد مكانها تماما.
توقف اللورد (جون) بالسيارة وقال:
- لست أدرى أي أثر تركته هذه المناظر في أنفسكم، ولكن يخيل إليّ أن الريف أقل قتامة وعبوسا من المدينة، إن (لندن) الميتة تكاد تثير أعصابي، ولست أشعر بأقل رغبة في البقاء..
فسألته:
- أتريد أن نعود أدرجنا؟
- أجاب:
- سنقوم بجولة خاطفة في المدينة ثم نعود فورا إلى (روزر فليد)..
قال البروفسور (سمرلي):
- لست أدرك ماذا ترجون رؤيته هنا؟
أجاب (تشالنجر):
- ولكن لا تنس في الوقت نفسه أنه يصعب على الإنسان أن يتصور أنه من بين السبعة ملايين نسمة التي يتكون منها تعداد (لندن)، لم يبق على قيد الحياة سوى عجوز واحدة نجت بأعجوبة شديدة..
فسألته زوجته:
- لو كان هنالك غيرها أيضا، فما السبيل إلى الوصول إليهم أو تعرف أماكنهم؟

ومع ذلك فإنني متفقة معك، على أنه يجدر بنا ألا نعود أدراجنا قبل أن نحاول البحث عن غيرنا من الناجين، فقد يكون بينهم من هو في مسيس الحاجة إلى معونتنا..

وقال (سمرلي):

- صدقت يا سيدتي... إن الجنس البشري لم يعد من الكثرة بحيث يستغنى أفراده عن بعضهم البعض..

وترجلنا من السيارة وتركناها في منعطف من شارع الملك (وليام)، وأخدنا نشق طريقنا وسط الجثث والسيارات التي اكتظت بها الطرقات والتقينا بناء يقع على ناحية الطريق، فاتخذنا طريقنا إلى الطابق الثالث منه حيث شرفة واسعة تشرف على ما حولها من المباني، وفي صعودنا مررنا بحجرة واسعة في الطابق الثاني، اجتمعت فيها عشر جثث حول مائدة مستديرة، وكان يبدو من الوجوه أنها لنفر من رجال المال والأعمال اجتمعوا كمجلس لإدارة إحدى الشركات، ولم يوقف الاجتماع سوى الكارثة.

ورأينا من الشرفة قوافل السيارات التي كانت تكتظ بها طرقات حي المال في المدينة، وكان أغلبها من سيارات الأجرة التي أسرع الناس إلى ركوبها عندما ظهرت بوادر الحادث لتقلهم بسرعة إلى بيوتهم في الضواحي.

وفي وسط هذا الخراب الشامل لم نجد أثرا لمخلوق حي!

ولمحنا في مواجهتنا لوحة معدة للإعلانات الضخمة التي تصدرها الصحف الكبيرة، مشتملة على أهم الحوادث، ورأينا ثلاثة من هذه الإعلانات، وقرأ اللورد (جون) ما كتب عليها بصوت مرتفع فقال:

- نتائج سباق الخيل ... لا بد أن هذا إعلان الطبعة الأولى من الجريدة.. انظروا ماذا كتب في الإعلان الثاني.. (هل هي نهاية

العالم؟ تحذير من أحد مشاهير العلماء!)
فقلت له:
- لقد بدءوا يشعرون بخطورة الأمر..
- أما الإعلان الثالث فهو... (هل البروفسور (تشالنجر) محق في رأيه؟ إشاعات خطيرة)..
وتطلعت إلى (تشالنجر) فإذا به يشير لزوجته إلى العنوان الأخير، وهو منتفخ الأوداج بارز الصدر، وأغلب الظن أنه قد سره أن مدينة (لندن) قد مات سكانها عن آخرهم، وكان اسمه أخر الأسماء المترددة على الألسنة.
ولقد كانت غبطته واضحة جلية حتى أثارت ملاحظات زميله التهكمية، فقال له:
- لقد سطع اسمك في الأنوار حتى النهاية يا عزيزي..
أجاب في تواضع زائف:
- هكذا يبدو.
ولكنه سرعان ما ترك العجب والزهو جانبا واستأنف:
- لست أرى حقا أي فائدة ترجى من بقائنا في (لندن) أكثر من ذلك، واقترح أن نعود من فورنا إلى (روزر فيلد) ونجلس لنفكر جديا في أفضل وسيلة للإفادة من السنوات الباقية أمامنا..
ولن يفوتني أن أسجل مشهدا رائعا وقعت عليه أنظارنا في (لندن).. ذلك في داخل إحدى الكنائس العتيقة في المدينة، حيث اجتمع الألوف للتضرع والابتهال..
وقبل أن نغادر الكنيسة خطرت لي فكرة، ذلك أنني لمحت في ركن البهو الكبير ثلاثة حبال مدلاة من السقف، فأدركت أنها حبال أجراس الكنيسة... وقلت لرفاقي:
- ماذا لو قرعنا جرس الكنيسة الكبير؟
فسألني اللورد:

- لأيّ غرض؟
فأجبته:
- ليس بمقدورنا أن نطوف جميع الأحياء المجاورة بحثا عن الأحياء... ولكن إذا قرعنا الجرس وانتشر رنينه في كل مكان، كان في ذلك إشعارا كاف للأحياء الموجودين فيسارعون إلينا...
- فكرة رائعة.. هيا بنا..
وكان الجرس ضخما لا يمكن الرجل واحد أن يجذبه بمفرده، فتعاونوا جميعا على جذب الحبل، ومع ذلك فكان في كل مرة يميل فيها الجرس يرفعنا الحبل ونحن متعلقون به، ما لا يقل عن القدمين عن الأرض.
ودوي صوت الجرس الرهيب، وتجاوز صداه المدوي ذلك السكون المطبق، وانتظرنا بعد ذلك فترة ليست بالقصيرة، ولكن أحدا لم يسارع إلى الكنيسة..
وشاركتني مسز (تشالنجر) الرأي قائلة:
- لم يبق بوسعنا ما نفعله.. لنعد بربك يا (جورج) إلى بلدتنا، فلو بقيت في هذه المدينة.. أو بالأصح هذه المقبرة ساعة أخرى لفقدت صوابي.
- واستقللنا السيارة في سكون مطبق، وأدار اللورد (جون) عجلاتها صوب الجنوب فانطلقت بنا في طريق العودة.
وكنا نظن جميعا أن هذه العودة هي نهاية ذلك الفصل من فصول التاريخ البشري، وأن الأمر سيقف عند هذا الحد.. ولم يدر أحد منا وقتئذ أنها بداية هذا الفصل.

☆ ☆ ☆

6- اليقظة الكبرى.

ونأتي الآن إلى المرحلة الأخيرة من ذلك الحادث العجيب، الذي كان له أثره الرهيب لا في نفوسنا كأفراد بل في التاريخ العام للجنس البشري.

وكما قلت في بداية هذه المذكرات: إن هذا الحادث عندما يدون في التاريخ سيكون له مكانه البارز بمثل ما يكون للجبل الشامخ بين مجموعة من التلال تحيط به من كل جانب.

لقد اجتاز هذا الجيل النكبة المفجعة ونجا منها وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنه قد أعد له مصير آخر من نوع مخالف..

ولا يدري أحد أثر هذه التجربة الكبرى في البشرية وهل يحتفظ الناس بما لقنوه خلالها من دروس الإذلال، ومن وجوب الطاعة والتقدير، فيعترف كل إنسان بضعفه ويلزم حده؟، أم أن المادية ستطغى عليهم مرة أخرى وتنسيهم كل شيء فلا يذكرون تلك القوة القاهرة إلا عندما يلمسون بطشها عن قرب؟

هذا ما سيكشف عنه المستقبل.

أما اليقظة الكبرى نفسها فقد اختلفت الآراء في تحديد الوقت الذي حدثت فيه، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف، فالآراء مجتمعة على أن هنالك أسبابا محلية كان لها أثرها في اشتداد هذا السم أو تخفيف وطأته.

ولكن الملاحظ أن هذه اليقظة أو البعث كانت متجانسة تقريبا في المقاطعات المتماثلة.

وهناك كثير من الشهود يؤكدون أنهم عندما ردوا إلى الحياة مرة أخرى، وكان ذلك على مقربة من ساعة (بيج بن) الشهيرة،

وقعت أنظارهم على عقربيها فكانا يشيران إلى السادسة وعشر دقائق، في حين أن مرصد (جرينيتش) قرر بأن اليقظة حدثت في السادسة واثنتي عشرة دقيقة.

أما في مقاطعة (آيست انجليا) فقد تمت اليقظة في السادسة والثلث كما قرر ذلك مستر (ليرد جونسون) الملاحظ الفلكي في المقاطعة.. على حين أن جزر «هبريدة» لم يستيقظ أهلها إلا في تمام الساعة السابعة.

على أنه ما من شك في حالتنا نحن، لأني كنت وقتئذ جالسا في حجرة مكتب (تشالنجر)، تواجهني ساعة (الكرونومتر) الدقيقة التي يحتفظ بها، بينما اجتمع بقية الرفاق في الدور الأسفل يفكرون ويتناقشون في خطط المستقبل.

وكنت أشعر بضيق شديد، وقتئذ، سببه ما نالني من اجهاد في ذهابنا إلى (لندن) وعودتنا منها، وما تركته المناظر القاتمة التي رأيناها في أثنائها من كمد وهم في نفسي.

وجلست إلى النافذة مسندا رأسي إلى كفي، أفكر في الموقف الشاذ الذي يواجهنا الآن، وجعلت أوجه إلى نفسي هذه الأسئلة المتتابعة..

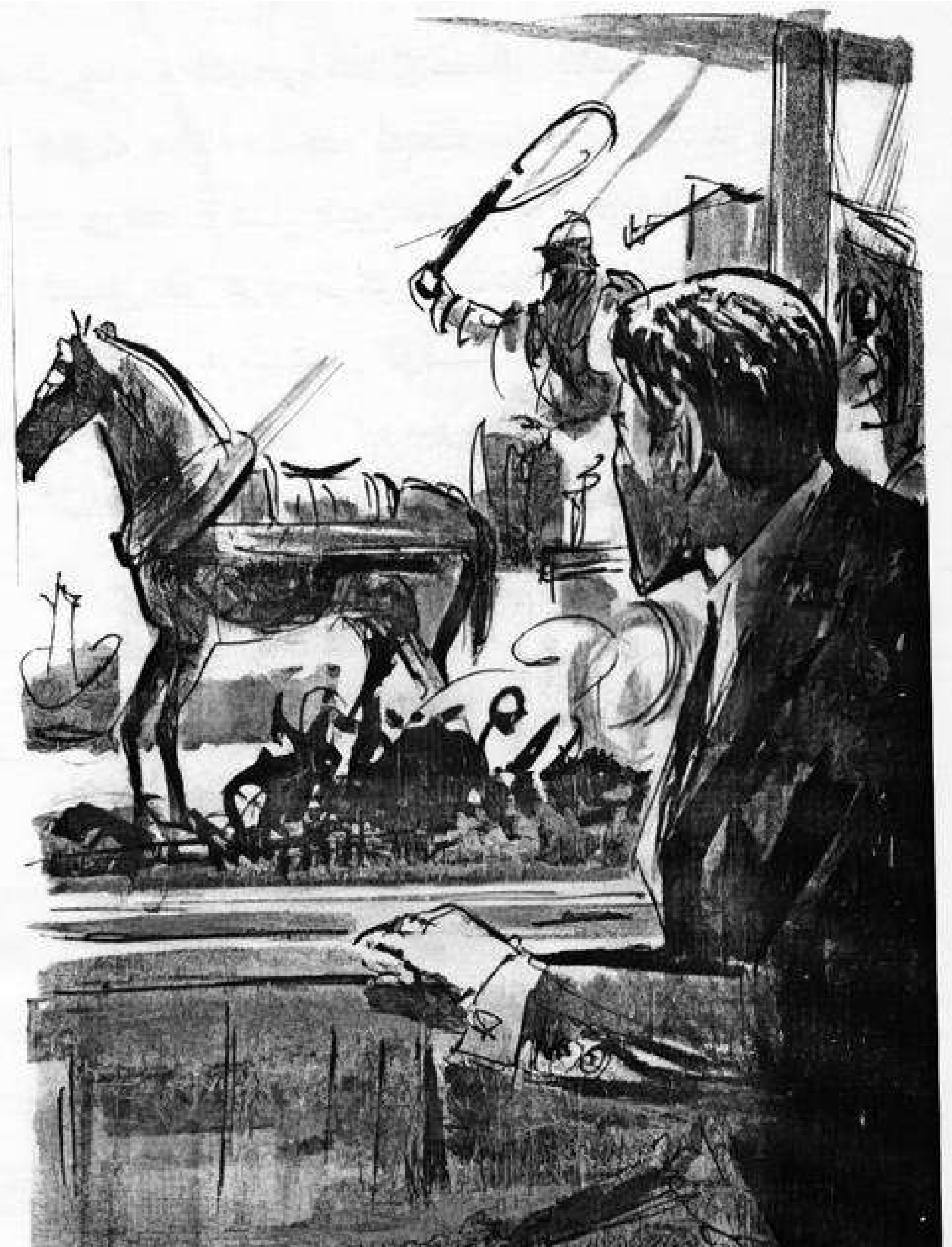
هل من الممكن أن تمتد بنا الحياة في هذا العالم الميت؟ وكيف تكون نهايتنا نحن الخمسة، بالموت العادي أم يعود السم مرة أخرى؟ أم أن ملايين الجثث المبعثرة في أنحاء العالم عندما تتحلل وتتعفن ستلوث الجو وتفسد مسالك المياه فنلاقى نحن حتفنا بسبب هذا الفساد؟

وأخيرا.... أليس من الجائز أن حدة الموقف وغرابته قد تؤثر في عقولنا فتفقد اتزانها؟

وكنت أفكر في هذا الاحتمال الأخير عندما سمعت صوت حركة مفاجئة تنبعث من خارج الحجرة..

ورفعت رأسي أتبين مصدرها، فإذا بي أرى الجواد العتيق يجر عربة الركوب صاعدا في الطريق الزراعي.

واستشعرت في الوقت نفسه أصواتا أخرى، كزقزقة العصافير، ورجل يسعل في فناء الدار تحت النافذة مباشرة، ولكن هذه الأصوات لم تجذب نظري إليها بمثل ما فعلت رؤية الجواد العتيق يتحرك، وقد دبت في أوصاله الحياة مرة أخرى وانتقلت نظراتي منه وهو يجر العربة في بطء وتكاسل، إلى الحوذي الكهل الذي كان يعتدل في مقعده ويعمل سوطه في الهواء يرهب الجواد، بينما أطل الراكب الشاب من نافذة العربة يحدث السائق ويشير إليه بيده، وأغلب الظن أنه كان يستحثه.



وانتقلت نظراتى منه وهو يجر العربة فى بطء وتكاسل ، إلى الحوذى الكهل الذى كان يعتدل فى مقعده ويعمل سوطه فى الهواء يرهب الجواد ..

لقد كانا حيين مما لا يدع مجالا للشك أو الريبة، ولم تكن الحياة مقصورة عليهما بل شملت كل إنسان، وكأنها يقظة كبرى للجنس البشري.

وخيل إليّ على الفور أن ما مر بنا كان خيالا أو هذيانا! وأن قصة هذا النطاق السام إن هي إلا حلم مزعج.

وكنت على وشك أن أخذ بهذا الرأي، لولا أن سقطت أنظاري على يدي، ورأيت آثار التسلخات التي أحدثها الحبل الغليظ فيهما عندما كنا نجذب جرس الكنيسة في (لندن).

كلا إذن، لم يكن الأمر حلما أو كابوسا بل حقيقة لا شك فيها، وأن ما أراه الآن ليس سوى بعث جديد للجنس البشري الذي غمرته موجة هائلة من موت موقوت..

وعدت أنقل أنظاري هنا وهناك، فرأيت لاعبي الجولف يتابعون مبارياتهم في الملعب الفسيح، كما رأيت عمال الحقول يعودون إلى متابعة الحصاد بعد أن نجوا من منجل الموت..

وحتى المربية الشابة رأيتها تدفع عربة الأطفال أمامها، وفيها الطفل الرضيع، وتجر أخاه في يدها، وكأنهم لم يكونوا رقودا على قارعة الطريق منذ برهة.

وقفزت من مكاني مذعورا، وقد أثارني منظر الحياة وهي تعود إلى البشر، أكثر مما أثارتني وهي تفارقهم وتتركهم جثثا هامدة.

وأسرعت أهبط الدرج لأفضى بالخبر إلى الآخرين، ولكني وجدت باب البهو مفتوحا، وسمعت أصواتهم ترتفع في دهشة وعجب في فناء البيت، ويهنئ بعضهم البعض.. واندفعت نحوهم أشاركهم الفرح وأبادلهم التهنئة، وقد بلغ الفرح من مسز (تشالنجر) مبلغا كبيرا، فاندفعت تقبلنا جميعا الواحد بعد الآخر، وانتهت بزوجها فألقت بنفسها بين أحضانه.

وصاح اللورد (جون):

- لا يمكن أن تكون الفترة التي مرت بالجنس البشرى سنة من النوم، أمضوها راقدين في سبات عميق.. لا يمكن أن أصدق هذا الرأي يا (تشالنجر).. كيف كانوا نائمين وعيونهم مفتوحة

وأطرافهم متصلبة متخشبة؟ ولا تنس تلك الابتسامة الساخرة التي كانت مرتسمة على أفواههم جميعا..

فقال (تشالنجر):

- لا بد أن تكون مثالا عاما لتلك الظاهرة القديمة، ظاهرة الغيبوبة المصحوبة بتوقف الحركة بالجسم وهي معروفة على الرغم من ندرتها، وكان القدماء يحسبونها موتا.

وهذه الظاهرة تكون مصحوبة عادة بانخفاض وهبوط في درجة الحرارة.. واختفاء في حركة التنفس - سواء الشهيق أو الزفير - وضعف في ضربات القلب، فلا يكاد الإنسان يميزها وكأنها توقفت تماما، وبالجملة فإنها في مظهرها الخارجي تشبه الموت تماما.. بل إنها موت بعينه.. فيما عدا أنها موقوتة، لن تلبث أن تزول وتعود الحياة فتغلب مرة أخرى..

ثم أغمض البروفيسور عينيه قليلا، وقال وهو يركز أفكاره في شيء معين:

- ومع ذلك فالعقل لا يكاد يقبل حدوث هذه الظاهرة بشكل عام يكاد يكون وبائيا.

فقال له (سمرلي):

- لك أن تسميها كما تشاء يا عزيزي، فالأسماء لا تضر في قليل أو كثير، فنحن لا نعلم من نتائجها أكثر مما نعلم من أسبابها.

- ماذا تعني؟

- أعني أننا نجهل كل شيء عن ذلك السم الذي سببها، وغاية ما نعرفه أن هذا الأثير قد سبب موتا مؤقتا..

وكان (أوستن) جالسا على سلم السيارة وقد وضع رأسه بين كفيه، وكان سعاله هو الذي سمعته من النافذة عندما لاحظت

اليقظة الكبرى لأول مرة.. وتقدمت منه فرأيته يحدث نفسه في صوت خافت أقرب إلى الدمدمة ويقول:
- إن هذا الشقي الصغير لا يترك شيئا في مكانه..
فسألته مبتسما:
- ماذا حدث يا (أوستن)؟
وأجابني وهو ينهض متثاقلا ويجيل أنظاره في السيارة:
- لقد عبث أحدهم بالسيارة يا سيدي وترك الزيت يتساقط منها..
- واقترب منا اللورد (جون) وسمع بقية العبارة، فسألت (أوستن):
- ومن تظنه فعل ذلك؟
- إنه ابن البستاني.. ذلك الصبي الشقي الذي لا يدع شيئا دون أن يعبث فيه.
واحمر وجه اللورد (جون) خجلا، فهو المسئول عن هذا الإهمال، بينما تابع (أوستن) حديثه قائلا:
- لست أدري ماذا حل بي.. ما زلت أذكر أنني كنت أغسل السيارة بخرطوم الماء عندما دهمني شبه دوار وإغماء، وأذكر أنني سقطت بجوارها، بعد أن حاولت الاستناد إلى السلم، ولكني أقسم إنني لم أترك منفذ الزيت مفتوحا بحيث يتساقط هكذا..
وأخذنا نقص على السائق المسكين ما حدث للعالم أجمع، كما أوضحت له سر العبث بزيت السيارة الذي أغلق عليه، وكيف أن اللورد (جون) ذهب بنا فيها إلى (لندن)..
وظل (أوستن) يستمع في هدوء، ولولا اللياقة لأعلن عدم تصديقه لذلك.
وسمعنا فرقعة عجلات على الصخور التي تغطي مدخل البيت، والتفتنا لنرى العربة التي يجرها الجواد تتوقف ويهبط

منها الراكب الشاب.
وأقبلت الخادمة تحمل بطاقة في صينية صغيرة، وكان يبدو عليها الاضطراب كما لو كانت استيقظت فورا من إغفاءة.
وتناول (تشالنجر) البطاقة وألقى عليها نظرة سريعة وقال:
- أحد رجال الصحافة!
إنه من الطبيعي أن يهرع العالم كله إلى الآن ليعرف رأيي في هذه التجربة.
فأجابه (سمرلي):
- لا يمكن أن يكون قد أقبل لهذا الغرض.
- لماذا؟
- لأن النكبة دهمته وهو في طريقه إلينا..
وتناولت البطاقة من (تشالنجر) وقرأت ما فيها:
«(جيمس باكستر) مراسل جريدة (نيويورك مونيتور) الأمريكية بـ (لندن)»
- أتود أن تقابله؟
- كلا!
فقالت زوجته:
- (جورج)... كن أكثر ترفقا.
فقال (تشالنجر) - عفوا يا (مالون) إن هذه الطائفة من البشر مسمومة... إنهم أسوأ نبت في تلك المدينة... هل أنصفوني ولو لمرة واحدة!
وأجبته:
- وهل أدليت إليهم بكلمة طيبة مرة واحدة..
دع هذا التعصب يا سيدي.. إننى واثق بأنك لن تعامله بمثل هذه القسوة.
فقال:

- تعال معي... وإنني أحتج على هذا التهجم على حياتي الخاصة..

تحدث الصحفي حين خرجنا إليه:

- قومنا في أمريكا يريدون أن يستنيروا برأيك في ذلك الخطر الذي تقول إنه يهدد العالم...

فرد (تشالنجر):

- لا علم لي بخطر يهدد العالم!

أعنى مرور الكرة في نطاق الأثير السام

- نعم لا علم لي بمثل هذا الخطر..

زادت حيرة الصحفي ثم قال:

- أأنت البروفيسور (تشالنجر)؟

- أجل..

- فكيف تنفي علمك بهذا الموضوع؟ هل نسيت الخطاب الذي نشرته في صحيفة (التيمس) هذا الصباح؟

وأخرج نسخة الصحيفة من جيبه.. وقال:

- ها هو ذا خطابك... الذي أشير إليه..

قال (تشالنجر):

- لقد بدأت أفهم.. إذن فقد طالعت هذا الخطاب في (التيمس) اليوم فقط؟

- أجل سيدي..

- وأسرعت لتقابلني.

- أجل سيدي.

- هل لاحظت شيئا في أثناء الرحلة؟

لست أذكر شيئا غير مألوف..

- متى غادرت محطة (فكتوريا)؟

فقال الصحفي مبتسما:

- لقد أقبلتّ يا أستاذ لأوجه إليك الأسئلة وأفوز منك بالحوار... فإذا الآية تنعكس..

- لا بأس... أتذكر متى تحرك القطار من محطة (فكتوريا)؟

- أجل.. في منتصف الساعة الواحدة.

- ومتى وصلت إلى هنا؟

- في منتصف الثالثة.

- ثم استأجرت عربة؟ أتدري كم استغرقت العربة في قطع هذه المسافة القصيرة.. التي لا تتجاوز الميلين؟

- ربما نصف الساعة..

أتسمح بإلقاء نظرة على ساعتك؟

وألقي نظرة على ساعته وهتف:

- هذا الجواد ضرب رقما قياسيا في البطء والكسل!

ثم ضرب بكفه على جبينه، وهتف:

- ولكني تذكرت شيئا عجيبا، لقد كنت على وشك محادثة السائق فإذا به راح في سبات عميق، وأغلب الظن أن ذلك كان بفعل حرارة الجو.

- كلا يا عزيزي.

لقد راح الجنس البشري كله في هذا السبات، ولا يدري أحدهم للآن سره، بل استيقظ كل منهم ليتابع أعماله العادية حيث تركها..

والآن يا عزيزي قد يهمك أن تعرف بأن الأرض قد اجتازت فعلا ذلك (النطاق السام).. كما قد يهمك أن تعلم أن اليوم ليس الجمعة السابع والعشرين.. بل هو يوم السبت الثامن والعشرون، وأنك قد ظللت نائما ثماني وعشرين ساعة في عربتك على تل (روزر فيلد)!

ولا يفوتني أن أشير إلى المقال الذي نشرته لي (الغازيت)، وتحت عنوان ضخم ما زلت أحتفظ به في إطار معلق خلف مكتبي.. وكم كان جميلا تعليق رئيس التحرير على المقال:

لقد تبين للجنس البشرى مدى ضعفه ووهنه إزاء تلك القوى الهائلة التي تحيط بنا، ولقد تلقينا هذا التحذير من قبل من كافة الأنبياء والرسل القدامى ولكنه - ككل قول صادق تألفه الأسماع - يفقد أهميته من حين لآخر، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى درس.. إلى تجربة تعيد هذا التحذير إلى مكانه في القلوب.

(أجل لقد دفع العالم ثمنا فادحا لهذا الدرس لم نتبين بعد مداه، إذ مازالت البرقيات توافينا في كل لحظة بما أحدثته النكبة من أذى وارتباك في أنحاء العالم.. ولكن هذه الخسائر المادية مهما عظمت فلن يكون لها الرجحان في تقديرنا، لأن الزمن كفيل بإزالة أثرها من النفوس، أما الذي سيبقى عالقا بها فهو الدرس الحقيقي الذي أفاده الإنسان من معرفته لنفسه.

سير / آرثر كونان دويل

(تمت بحمد الله)

النطاق المسموم

في هذه الرواية الممتعة نجد أنفسنا في موقف غير معتاد.. ها نحن أولاء في غرفة مغلقة نرمق العالم الخارجي من وراء زجاج النافذة.. نرمقه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة!.. ونعرف أننا الأفراد الوحيدون الباقون على قيد الحياة من الجنس البشري، فيملؤنا شعور هو مزيج من الرهبة والحزن والشغف والفضول.. وتمر الساعات المتوترة!


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

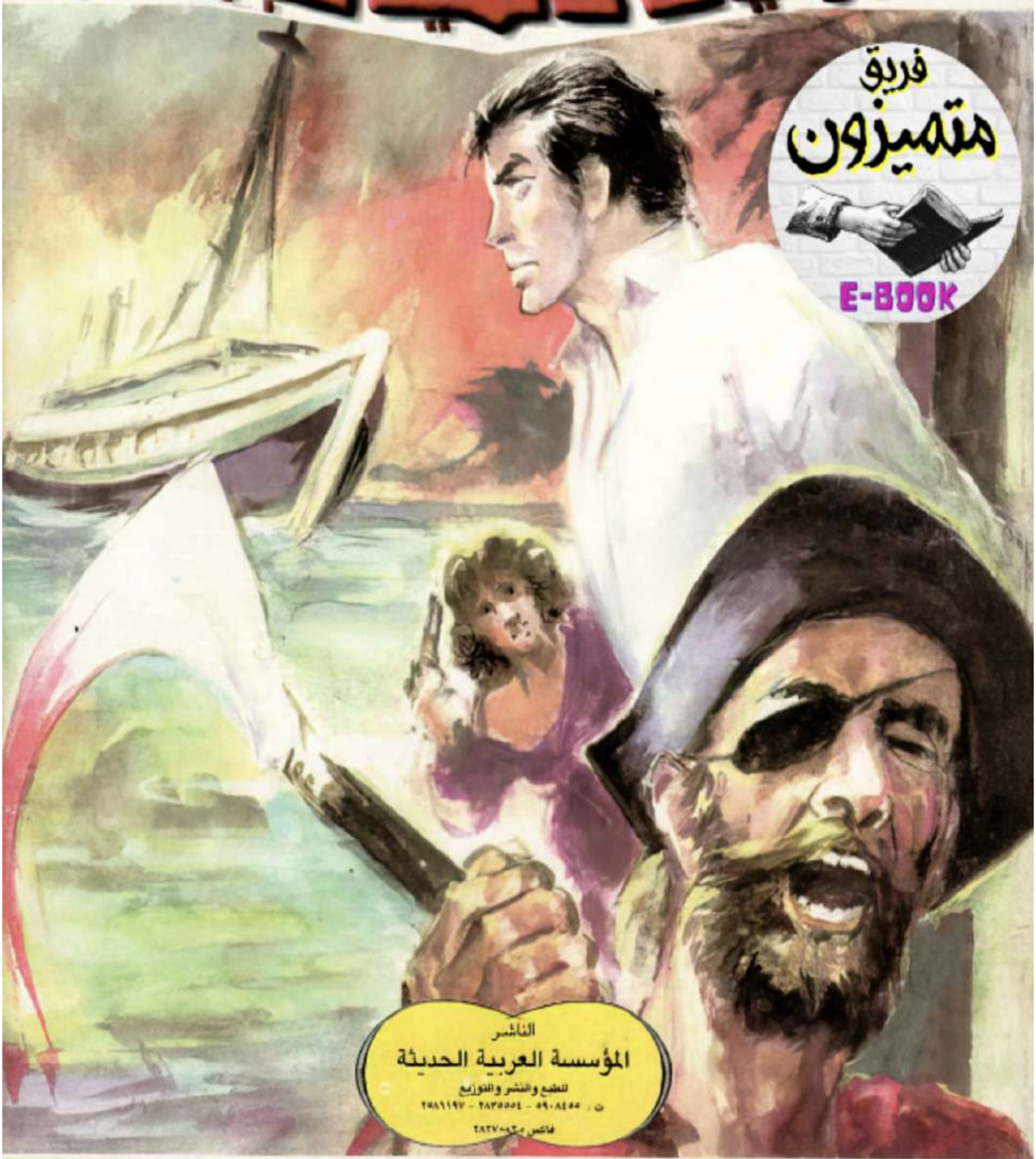
الملاحظات

[←1]

- كان التخدير وقتها يعتمد على (أوكسيد النيتروز) الغاز المضحك.

روايات عالمية للجيب

29



الجزيرة

قصة : بيتر بنشلى
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

<u>انضم الى الجروب</u>

<u>انضم الى القناة</u>

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (29)

الجزيـرة

بقلم: بيتر بنشلي.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

.المؤلف

للمرة الثالثة نلتقي مع المؤلف الأمريكي (بيتر بنشلي)..
لا بد أن من يملكون موهبة تذكر الأسماء، والذين يتابعون هذه السلسلة قد خمنوا أننا ذاهبون - بالضرورة -إلى البحر..
لقد أخذنا (بنشلي) إلى البحر مرتين من قبل؛ مرة لنواجه سمكة القرش الأبيض العظيم، عديمة الحياء في (الفك المفترس)، ومرة لنغطس في أعماق البحر بحثا عن كنز من أمبولات (المورفين) في (الأعماق)..
هذه المرة نجد أنفسنا سجناء في جزيرة رهيبة، لا يعرف عنها الناس سوى أقل القليل ومع (البوكانير) الذين هم جنس منقرض لقراصنة (الكاريبي).
ولد (بيتر بنشلي) في (نيويورك) عام 1940 وهو ابن لكاتب قصصي شهير هو (ناتانييل بنشلي)، وحفيد أديب أمريكي ساخر عظيم هو (روبرت بنشلي).
عمل صحفيا لفترة لا بأس بها في جريدة (واشنجتون بوست)، وكتب خطبا عديدة للرئيس الأمريكي (جونسون)..
ثم - من سماء صافية - خرج إلى العالم بقصته الشهيرة (فكّان) - الفك المفترس - التي باعت ملايين النسخ دون مبالغة، وتحولت إلى فيلم أكثر شهرة..
بعد هذا قدم لنا (الأعماق) و (الجزيرة) و (الفتاة من بحر كورتيز) و(الوحش).. وكلها شديدة الإمتاع تحمل دراية هائلة بعالم البحر..
لا غرابة في هذا.. ف (بنشلي) وزوجته يعيشان في (بنينجتون) بـ (نيوجيرسي)، وكلاهما غطاس محترف بارع، وقد سافرا مرارا إلى

(برمودا) حيث تدور أحداث هذه القصة..

كتب (بنشلي) القصة عام 1980 - وكما هي العادة - قدمتها السينما الأمريكية في فيلم جيد قام ببطولته (مايكل كين)..

إذن شمروا أطراف سراويلكم لأن البلل قادم في الصفحات التالية!

د. أحمد خالد

واحـد..

وقف القارب راسخا كأنما هو مربوط بمرساته إلى سطح الماء، ولم يكن من المعتاد على هذا البعد من الشاطئ ألا تكون هناك أمواج عالية وعواصف..

لكن لمدة أسبوع كامل ظلت السماء ما بين (برمودا) و (هايتي) خالية من السحب العادية، وبدا الماء كأنه معدن مصقول في ضوء الشمس الساطع..

كانت هناك جزيرة عند الشرق عند حافة العالم أما في الغرب فلا شيء سوى موجات حرارية تتراقص..

وعلى ظهر القارب وقف رجلان يصطادان السمك بخيوط من النايلون، وقد ارتدى كل منهما (الشورت) و (تي - شيرت) متسخا وقبعة من قش ومن حين لآخر يملأ أحدهما دلوا من الماء ويسكبه على السطح الخشبي كي يخفف من حرارة الجو..

خلفهما كانت هناك مائدة خشبية ملأى برءوس أسماك (البلشارد).. وكان كل رجل منهما يتحسس الخيط بيده ليعرف ما إذا كانت هناك أسماك تحتهما..

- إن المد يجري بسرعة..

- فعلا.. يحاول أخذ الطعم بعيدا عن يدي..

وبدأت رائحة الطهي تفوح ممتزجة برائحة السمك الذي جففته الشمس..

- بِم ينوي الوغد البرتغالي أن يسممنا اليوم؟

- بسمك (أنف الخنزير) [1] طبعا.. واضح هذا من الرائحة..

وتحت القارب راحت إحدى الأسماك تقضم الطعم ثم ابتعدت.. اصطدم الرجل بالمقدمة فتراجع بجسده كي لا يطير

إلى الماء، ومد يده اليسرى ليجذب الحبل أكثر.. وباليمنى جذب ياردة أخرى..
- اللعنة! قوتها هائلة!
- ربما هي سمكة قرش..
- سمكة قرش؟ يا سلام! إنه (موبي ديك) ذاته!
وضغط على أسنانه رافضا أن يترك الحبل ينزلق بين أنامله، وفجأة ارتخى الحبل..
- لقد جذبت الخطاف من فمها..
وبحذر كي لا يتعقد الحبل رفعه، وكومه عند قدميه.. لقد ولت الأثقال والخطاف..
- لا بد أنها عضت الحبل فقطعته.. لا بد أنه كان قرشا لعينا..
ثبَّت ثقلا جديدا وخطافا جديدا، وتناول سمكتين من ال (بلشارد).. التهم واحدة نيئة وثبت الأخرى في الخطاف.
- متى يجيئون يا (ديكي)؟
- القبطان يقول إنهم أتون غدا في الحادية عشرة وشيء ما..
- ما نوع هؤلاء الأطباء..
- (نلسون).. قلت لك مئات المرات إنهم جراحو أعصاب..
ضحك (نلسون) وغمغم:
- أطباء رأس يا رجل.. هذا هو اسمهم.. ماذا يفعل أطباء الرأس حين يصطادون السمك؟
- لا يوجد قانون يمنع جراح الأعصاب من الصيد.. ثم إن القبطان يقول إنهم يدفعون مقدما..
ثم إن (ديكي) صرخ مناديا:
- (مانويل)!
- نعم يا سيدي..

كان الصبي البرتغالي قد جاء على الفور.. كان نحيلا في الثانية عشرة من عمره، لوحت الشمس بشرته، وقد غمر العرق شعره وصدر قميصه..

- أيها البرتغالي الأحمق! قلت لك ألا ترتدي الثياب الرسمية حين لا يكون هناك ضيوف..

نظر الصبي لقدميه، وقال:

- ليس عندي سروال آخر.

- لا يهمني لو أمضيت الليل في الغسيل، لكني أريدك نظيفا كملاك حينما يجيء ضيوفنا صباحا..

ثم سأله:

- كم عدد هؤلاء الضيوف؟

- ثمانية.. القبطان قال هذا.

تشمم الهواء في شك، ثم سأله:

- ماذا تطبخ يا ولد؟

- سمك (أنف الخنزير) يا سيدي.

☆☆☆

فرغ (مانويل) من صف الأطباق والآنية، ولم يجد ما يفعله بعدها..

كان يحب أن يذهب للصالون، حيث يفتح المكيف ويسترخي على الأريكة أمام التلفزيون، لكن هذا كان حقا مقصورا على الضيوف المترفين الذين يدفعون..

على كل حال لم يكن هناك أي إرسال يلتقطه التلفزيون..

حقا كانت هناك كتب، لكن إنجليزيته لم تكن تسمح له سوى بقراءة المكتوب على أدوات البحارة وعلب الطعام.

كان يتمنى اللحاق بالبحارين على سطح السفينة، لكنهما منهمكان في المزاح البذيء.. ولو رأياه لجعلاه هدفا طازجا لهما، وهو لا يحب هذا..

قام بغسل ثيابه وكيها، ثم شعر بالسأم..

صعد إلى سطح السفينة. وكانت الشمس قد انحدرت تماما إلى الغرب والقمر بدأ يظهر..

قال له (ديكي) حين رآه:

- لو لم يكن لديك ما تعمله يا ولد فلتملأ مخزن الخمور..

- حسن يا سيدي..

ونزل الصبي إلى القاع، فاتجه إلى مكان أجهزة الراديو.. وكان أكثر ما يمكن التقاطه في هذا الوقت من اليوم هو محادثات صيادي السمك الكوبيين، ودوريات البحرية الأمريكية في (ميامي)..

حرك المؤشر إلى AM ليسمع الصوت المميز لذلك الواعظ من (إنديانا) الذي يدعو الصيادين للإيمان، وهي المحطة الوحيدة الواضحة..

وسرعان ما جاء صوت المبشر عبر السماعة:

- الآن أصدقائي البحارة.. أدعوكم للحاق بنا في (جنة الراحة).. لو أنكم فتحتم قلوبكم له لوقف (يسوع) جواركم على دفة السفينة..

بحث (مانويل) عن غطاء.. وراح يعدّ.. هناك ثمانية ركاب نصفهم رجال.. الرحلة سبعة أيام.. ست وثلاثون زجاجة كافية جدا لأن النساء لن يشربن كالرجال.. زجاجتان ونصف يوميا لكل شخص..

كان يشعر بالسقم.. ستكون رحلة كئيبة، خاصة حين يشرب الضيوف كثيرا.. عندها لن يروا أي شيء جيدا.. لا الراحة ولا

الجو ولا الأسماك، ولا عددها.. وسيمقتون بعضهم بشدة..
سيدَّخر السكارى أعنف فظاظة لديهم لـ (مانويل) الصغير معدوم الحيلة..
بعد الغروب بدأ السمك يأكل..
قال (نلسون) في انبهار:
- لا أفهم كيف.. ليس لديهم ضوء تحت؛ ومع ذلك يعرفون أن هذا وقت العشاء..
- إن لديهم ساعة داخلية توجههم.
ومن الصالون سمعوا صوت المبشر ما زال يتكلم..
هنا رأيا شيئا يتحرك نحو القارب يحمله الموج.. كان هذا على بعد عشرين ياردة من مقدمة القارب..
- (ديكى).. ما هذا؟
- كأنه لوح خشب..
- لوح خشب متين حقا.. ولسوف يصطدم بنا..
- سرعته ليست كافية لإيذائنا..
- بل سيخدش الطلاء على الأقل..
واصطدم الشيء بالقارب، وتوقف للحظة.. ثم تحرك بكسل نحو الجانب.
وسمع (مانويل) صدمة مكتومة.. فتجمد حيث هو، ثم تحرك ليصعد لأعلى ليرى ما هنالك.
قال (ديكي):
- إنه قارب خشبي.. هات الخطاف الكبير..
مد (نلسون) يده والتقط خطافا كبيرا طوله أربع ياردات، ثم طوّحه نحو القارب وهو يمسك بمسند السفينة.. تشبث الخطاف بالقارب الصغير على الفور.

خطا (ديكي) على إفريز ضيق بجانب السفينة، فيما راح (نلسون) يجذب الحبل أكثر حتى صار في متناول (ديكي).

- ثمة شيء ما فيه.

- نعم.. شيء يشبه نسيج (الكانافاه).

وبطرف قدمه اليسرى حيث وقف على الإفريز راح يعابث أطراف (الكانافاه) ليفتحها.. هنا رأي كفا مفتوحة لأعلى - كأنما تتسول - وهي يد بشرية!

تراجع للوراء وتشبث أكثر.. وصاح:

- اللعنة!

ظل الرجلان صامتين بلا كلام لوهلة، ثم تساءل (نلسون):

- هل يوجد المزيد منه؟

- لا أريد أن أعرف..

- ربما كان حيا؟

- وماذا يفعله ما دام حيا؟ ألا تشم رائحة الوغد؟

- لا بد أن نعرف.

مد (ديكي) قدمه من جديد، وهو يردد:

- هلم يا بني.. كن طيبا وميتا..

واستطاع أن يرى معصما يحيطه سوار أخضر معدني.

مال بجسده أكثر ليمد ذراعه اليسرى في القارب، هنا دبت الحياة في اليد فجأة.. أظفار كالمخالب انغرست في معصم (ديكى).. وبقوة جذبته من على ظهر السفينة.

سقط على القارب الخشبي الصغير، وهنا طار شيء رمادي في الهواء محدثا هسيسا ليضربه تحت الترقوة اليسرى.. وكدمية عبث بها طفل شقي تأرجح رأسه الذي لم يعد يمسكه سوي الجلد، وخرج الهواء من قصبته الهوائية مع فقاقيع الدم..

وسمع (نلسون) ارتطامين: ارتطام الجسد.. ثم ارتطام الرأس بالماء.

وفوق سطح السفينة صعد الرجل قبل أن يستطيع (نلسون) تحرير الخطاف.. حاول هذا بجنون لكن الخطاف كان متشبثا.

لم ير الرجل يدنو منه.. ولم ير الفأس ذا النصل الهلالي - كالمنجل - والدم يقطر منه.. وانغرس الفأس في.. في الخشب بجوار رأسه.

اندفع (نلسون) يركض بعيدا.. أه لو استطاع أن يثب إلى الماء ليركب القارب الخشبي.. ويفر.. لأين؟ بعيدا وكفي.

لكنه لم ير كومة من صناديق الشراب حتى اصطدمت ساقاه بها.. حاول التوقف.. انزلق فوق أحشاء السمك وهوى أرضا.

وفي محاولة أخيرة - بلا معنى - للدفاع عن النفس، غطي وجهه بكفيه.

☆ ☆ ☆



لكنه لم يركومة من صناديق الشراب حتى اصطدمت ساقاه بها . .

وحين خرج (مانويل) إلى مربع الضوء على السطح، رأي ظل رجل.

- معي آخر الزجاجات يا مستر (ديكي)..

ددد

وكان صوت الواعظ في المذياع يودع مستمعيه:
- والآن يا إخوتي البحارة.. قد حان وقت طي قلوعنا هنا في جنة الراحة..

كان أول ما لاحظه (مانويل) هو الرائحة.. رائحة عفنة ثقيلة لم يشمها من قبل سوي من شاة التهمتها الكلاب وتركتها تتعفن.

هنا رأي يدا تأخذ الزجاجة منه.

رأي قطرة دم تسقط على البساط أمامه.. ورأي يدا ترفع في وجهه سلاحا لم ير مثله قط.

إبهام يجذب الزناد... ضربة عنيفة تخترق جسد (مانويل)..

وفي لحظة سمع صوت (كليك) و (بسست)..

ثم سقط للوراء، واصطدم رأسه بالدفة.. سمع زجاجا يتهشم.. وشم رائحة الكحول والكبريت.

أمعاؤه تتقلص ورأسه يؤلمه..

وما زال صوت الواعظ يدوي من المذياع..

☆ ☆ ☆

اثنان..

كعادته تأخر (بلير مينارد) عن العمل.. كان المفروض أن يكون في المكتب في العاشرة، لكنه تأخر حتى الثانية والنصف صباحا في الكتابة، مما جعله يصحو متأخرا.

كان يكسب 750 دولارا عن كل ألف كلمة في المقال.. والمقال الذي كان يعمل فيه ليلا يدور حول اكتشاف درجات سلم تعود لعصر ما قبل (كولومبوس).

لا أحد يعرف كنه هذه الأحجار.. وهذا شائق في حد ذاته..

كان يجد سلواه في العمل، فقد رحلت زوجته وابنه منذ شهر آخذين معهما أكثر الأثاث والستائر والسجاجيد، وقد غدت شقته زنزانة خاوية.. وفي الفترة التي تلت هذا الحدث قضى أقل من اثنتي عشرة ليلة في شقته.

كان يتردد على المقاهي، ويتعرف فتيات يحكي لهن كيف أن شقته صارت مكانا غير محتمل.

عبر (ماديسون أفينيو).. ونظر لأعلي ليرى عقارب ساعة جريدة (نيوزويك) تشير عقاربها إلى الحادية عشرة.

استقل المصعد إلى الطابق الثامن عشر.. وكان مكتبه واحدا من دستة من المكاتب الصغيرة تطل على (ماديسون أفينيو).. به منضدتان وآلتان كاتبتان..

لقد ظل يعمل هنا عشر سنوات، لكنه لم يصل قط إلى أن يكتب اسمه على الباب.

اللافتة على الباب تقول (تسلية).. كانت قبل ذلك (رياضة) ثم صارت (علوم).

لم يكن يبالي بشيء في هذه الغرفة سوى بالباحثة التى تعاونه، واسمها (دينا جينز).. في منتصف العقد الثالث، بارعة الجمال بمقاييس أي جيل، نظيفة دوما بشكل لا يمكن تصوره، متواضعة وذكية ومغرمة به بطريقة أخوية نقية.

- صباح الخير يا (دينا).

- هل أنت على ما يرام؟

- ولماذا لا أكون؟

- لا سبب.. أقلق عندما تتأخر إلى هذا الحد..

قال وهو يجلس:

- لا تقلقي.. إن أفظع شيء يحدث لي هو عندما يصيبني كابوس وأسقط ن فوق السرير.

راح يتفقد أوراقه حين وجد قصاصة تقول:

«مفقودة»

«سفينة باهظة الثمن تم اعتبارها مفقودة في جزيرة (نافيداد) بال (كاريبي).. والسفينة تدعى (ماريتا)، وقد تم تسجيلها في (جراند بهاما)، وكان من المفترض أنت تقل مجموعة سياحية يوم الثلاثاء، وحسب إحصائيات خفر السواحل قد اختفت 610 سفينة في (الكاريبي) و(ساحل الذهب) و(بهاما) في الأعوام الثلاثة السابقة، مع فقدام ما يقرب من ألفي حياة..

قرأ (مينارد) الموضوع مرتين.. كيف تختفي 610 سفينة؟

طوى القصاصة واتجه إلى مكتب سكرتير التحرير، وكان هذا يتجادل في الهاتف مع شخص ما..

قالت السكرتيرة وقد رأت إحجامه:

- يمكنك أن تدخل.. إنه غاضب لأنهم نسفوا له غلاف (وودي آلين) من أجل حرب أهلية في جنوب (إفريقيا)..

كان سكرتير التحرير يزأر في الهاتف:
- لا دعابة هناك.. الرجل فنان جاد ويستحق.. أما جنوب (إفريقيا) فهو يهدد بالانفجار منذ عشرين سنة فمن يبالي بهذا؟
كان هذا الموقف معتادا ومكررا.. دائما يتم نسف الغلاف بعد عمل ساعات طويلة لأن أزمة دولية ما نشبت.
كان (هيلر) قد صار سكرتير تحرير؛ وهي مهنة لا يمكن التقدم بعدها.. أن تكون رئيسا لأخرين رفضوا كلهم الوظيفة ذاتها من قبل.. لأن سكرتير التحرير مثقل بالمسئوليات، لكنه لا يملك إلا أقل السلطات.. ويتلقى عند الفشل اللوم كله، وعند النجاح قليلا جدا من المديح.
فما إن وضع (هيلر) السماعة، حتى ناوله (مينارد) القصاصة التي رسم فيها علامة بالـ (ماركر) على موضوع القوارب المفقودة.
نظر (هيلر) إلى الورقة، وغمغم:
- إذن؟
- إذن؟ ستمائة قارب مفقود.. أين ذهبت بحق الجحيم؟
- ربما غرقت.. إن العالم مليء بالحمقى الذين يشترون القوارب، وهم يجهلون الملاحة.. لقد اشتري أخي الأحمق يختا كبيرا لن يفعل سوى أن يحوله إلى حطام..
- ألف شخص قد فقدوا.
- هناك خمسون ألفا يموتون في حوادث الطريق كل عام..
- ربما.. لكن شيئا ما يحدث هنا، ولسوف يكون مقالا مثيرا.. أين تختفي هذه القوارب؟ ما مدى خطورة الإبحار في الجزر؟
- إن القوارب مملة ولا تروّج للمجلات.. قصة كهذه ستكلفنا كثيرا جدا، وفي النهاية ستجد تفسيرا واهيا لكل هذا الشيء اللعين..
- مثل ماذا؟

- مثل؟ لا أدري.
شعر (مينارد) أن الرجل بدأ يضعف فقرر أن يضغط أكثر:
- سأتأكد مما إذا كانت (تايم) قد تناولت هذا الموضوع..
- اسأل حرس السواحل.. ومكتب (أطلنطا).
وعاد (مينارد) إلى مكتبه شاعرا بأن (هيلر) سيلين عاجلا.
اتصل بمكتب زوجته فسمع السكرتيرة تقول:
- هنا مكتب (إيفون سميث).
- مرحبا (نانسي).. أنا (بلير مينارد)..
- مستر (مينارد)؟ كيف حالك؟
كان هذا سؤالها التقليدي ودائما ما يشعر فيه بشفقة خفية كأنها تقول له:
- كيف تستطيع الحياة دون هذه المرأة الرائعة؟! كيف تتحمل؟! ألا تشعر بخجل لأنها تركتك ورحلت؟
الحقيقة هي أن (إيفون) لم تتركه سوي بشكل جغرافي.. لقد مر على انفصالهما ثلاثة وتسعون يوما وهو ما يجعله طلاقا حقيقيا الآن..
بعد أعوام طويلة من الزواج أدركا أنهما يسلكان دروبا مختلفة في الحياة، وكانت (إيفون) هي أول من لاحظ ذلك؛ ووافقها على الفور.
كانت تشق طريقها بنجاح في عملها، وتستمتع به؛ أما هو فكان يحرز نجاحا لا بأس به في عمل لا شيء، ولا يعرف حقا ما يريد عمله..
لم يكن من هواة الشهرة.. وآمن بنبوءة (أندي وارهول) أنه في العام (٢٠٠٠) ستكون لدى كل أمريكي فرصة للشهرة ربع ساعة![2]

أحب التاريخ بشدة ربما لأنه كان يمقت الحاضر.. أحب عصور الاستكشافات الكبرى حين كان الناس يفعلون ما يريدون، ويزورون أماكن لم يرها سواهم..

لكن أحلامه كانت هي كوابيس (إيفون).. وفي النهاية انفصلا مقابل مبلغ خمسمائة دولار في الشهر يدفعه لها لتربية الطفل.. ثم..

كانت السكرتيرة تقول:

- إن (إيفون) غير موجودة الآن.. لكنها تسأل عما إذا كان بوسعك أخذ (جوستين) لبضعة أيام.. إنها ذاهبة إلى (دالاس) كي..

- رائع! منذ متى؟

- غدا.. لمدة أسبوع تريد منك أن تحضر لتأخذه من المدرسة!

ووضع السماعة راضيا، وواصل تفقد ما معه من قصاصات..

قصاصة من خفر السواحل تحذر ربابنة اليخوت من الإبحار في خليج المكسيك) وفي (الكاريبي).

تناول القصاصة، وعاد إلى غرفة (هيلر) ليقول له:

- اسمع.. لقد اختفى ستمائة قارب وربما أكثر الآن لأن الخبر منذ عام.. إن خفر السواحل يؤمن باختفاء دستة من هذه القوارب عن طريق الخطف.. تصور أن (ماما) و (بابا) اشتريا قاربا يمكنهما التنزه في (الكاريبي) لكنهما لا يستطيعان العودة إلى (فلوريدا)، من ثم يستأجران دليلا كي يقودهما عبر الخليج.. بعد يومين يقتل الدليل (ماما) و (بابا) ويلقي بجثتيهما في البحر، ويقود القارب.. يمكنه عندها بيع القارب بفاتورة مزيفة.. أو يأخذه جنوبا ليستخدمه في تهريب المخدرات من (كولومبيا)..

وهذا القارب الأمريكي النظيف مكتمل الأوراق لن يفكر أحد في تفتيشه.

قال (هيلر):

- أنا أمقت المخدرات.. إنها موضوع ممل صحفيا.

- ليس المخدرات فحسب.. إن الأمر أكبر من هذا.. لقد حطم هذا الشيء سلام البحار، ولن يُعين أحد قاربا في ورطة بعد اليوم لأنه يخاف وجود كمين.. لقد غرق قارب به طفلان أمام ثلاث سفن لأن الكل خشي أن يكون هناك فخ ما.. كان ذلك في (يوليو) الماضي..

كل ما أريده هو أن تسمح لي باستقصاء الموضوع.

صنع (هيلر) خيمة تحت ذقنه بأنامله، ومن أسنانه راح يصدر صوتا.. وفكر (مينارد):

- إنه يحاول أن يبدو كالمحامي العظيم (كلارنس دارو)..

هنا عاد (هيلر) إلى المحادثة، وقال:

- أصغ إليّ.. على كل شخص أن يتصالح مع نفسه في لحظة ما.. ويقول لنفسه: هذا هو ما أجيده وما أصلح له.. سأكون رئيسا لـ (الولايات المتحدة)، أو سأفوز بجائزة (بولتزر) للأدب أو أي شيء آخر..

قال (مينارد):

- أنا ما زلت أبحث عن هذا الـ (أي شيء)..

- لقد وجدته.. لكنك لا تقبل به.. أنت مخبر صحفي، هذا هو ما تجيده وكل ما تجيده.. ربما تصير نجما بعد عشر سنوات، لكن الآن.. الآن عليك أن تحب ما أنت فيه.. لا تتماد وإلا ستفسد كل شيء.

قال (مينارد) وهو يخرج من الباب:

- إذن عليّ قبول حقيقة كوني خاسرا.. ربما أكون خاسرا.. لكني سأحدث دويا عاليا..

☆ ☆ ☆

ثلاثة..

كانوا يبحرون معا طلبا للأمان وللصحبة..

كانوا أعضاء في شركة محاسبة في (نيوجرسي) أحدهم خبير ضرائب والآخر محاسب، تدربا معا وعملا لمدة ربع قرن في الغرفة ذاتها..

كانت أسرتا (لازلو) و (بيرجس) قد اعتادتا الإبحار في كل صيف منذ عام 1965، وأمضي أفرادها أسابيع عديدة ينتقون طريقا ويتعلمون خدمات الموانئ.. حيث تجد الثلج والماء والوقود وحمامات ومطاعم محترمة.. وكانت رحلة هذا العام هي أهم رحلة قاموا بها عبر الـ (بهاما).

وعلى سبيل الاحتياط كان كل قارب يحمل مسدسا عيار 0.12 مم.. وعددا من الطلقات نحو الخمسين، وكثيرا ما قابلهم شباب أمريكيون يسألونهم أن يصحبوهم على القارب إلى الجنوب مقابل أي عمل؛ لكن (بيرجس) كان يعرف تعليمات خفر السواحل عن ظهر قلب.

ارتحلوا شرقا متجهين إلى جزيرة يبحثون عن مكان يرسون فيه..

لم تكن على الخرائط كلها وهذا شيء معتاد، فرسم الخرائط سيئ جدا بالنسبة لهذا الجزء من العالم.. تجد الماء العميق بين الجزر التي يفترض أنها متصلة، والصخور المغمورة يتضح أنها جزر كبيرة.

كل شيء كان يسير حسب القاعدة: ما تراه هو ما تحصل عليه، لهذا لم يبحروا ليلا قط، ولم يثقوا سوى بأعينهم.

رست مركبة (بيرجس) فوقف يتأمل الشاطئ:

كانت جزيرة طولها نصف ميل.. بها نباتات ليفية تم قص فروعها المتدلية.. فلا بد أن أحدهم استخدمها كحبل.

من الواضح أنه لا أحد يعيش بها الآن.

قال (بيرجس) لصديقه:

- لا تنس طارد البعوض.. فلسوف تفتك بنا أسرابه الليلة..

واستطاع أن يرى مرفأ صغيرا اتساعه مائة باردة وعمقه مائتان..

فقال لزميله:

- لا بد أنهم كانوا يحملون قواربهم هاهنا..

قادوا القوارب لأقرب نقطة ممكنة، ورسوا..

وكما توقع الرجلان.. هجم البعوض الانتحاري على الأسرتين، ومعه المعلقات السوداء التي لا تراها العين لكن لدغتها تحدث التهابا مريعا..

بدءوا يرشون السطح بمبيد الحشرات بعد ما ارتدي (لازلو) عويناته الشمسية.. فثمة شيء في هذه المبيدات يسبب تعتيم العدسات اللاصقة ثم يذيبها تماما بعد أسابيع.

وانهمكت الزوجتان في إشعال النار من الفحم.

راحوا يرمقون الماء ويلتهمون طعامهم.. كان الماء حيا مفعما بالأسماك.

غسل (لازلو) طبقه بالماء بعدما فرغ من العشاء، فقال:

- والآن يجب أن ننام.. فمن يريد القيام بأول مراقبة؟

قال (بيرجس):

- سأفعل.. أنا لست مرهقا.. ولتقم (إلين) بالثانية.. سيعطيك هذا أربع ساعات من النوم..

سألته زوجته:

- هل لا بد من حراسة؟

- لقد وافقنا على القواعد.. والحراسة أساسا لمراقبة اتجاه الريح أو الحيوانات الجارحة..

إنها السابعة والنصف.. تبدأ الليلة الآن.

راحت الشمس تنحدر نحو الأفق، ونظرت (إلين) إلى ساعتها، ثم نزلت إلى قاع القارب.. كان (لازلو) قد ادخر كثيرا من الكتب ذات الغلاف الرخيص ليقرأها في الإجازة، وكان يشعر بلذة حقيقية حين يمل كتابا بعد ثلاثين صفحة فيطوح به إلى الماء.

- تلوث أدبي!

هكذا يقول دائما.

جلس (لازلو) على السطح وأضاء كشافا ليقرأ على ضوئه.

الليل زاخر بأصوات الطبيعة.. الطيور.. خرير الماء.. وثبات الأسماك.. شخير (إلين) من أنفها المسدود.

سمع صوتا من خلفه فنظر إلى الماء.. كانت هناك دوامة تتسع ببطء كأن شيئا سقط فيه.

وقبل أن يفهم ما حدث شعر بأن هناك من يقف وراءه، وفجأة التفت حول عنقه قطعة من السلك مزقت كل شيء فيما عدا العظام.

وبينما هو يعيش لحظاته الأخيرة، لم يشعر بألم فقط شعر بحيرة.. بأن شيئا ما خطأ.. ثم لا شيء.

وقف المتسلل عند أعلى درجة تقود للقاع يصغي..

كان صوت غطيط (إلين) عاليا.. لكن قطرة ماء سقطت على أنفها فتحركت.. شمت رائحة شنيعة كأن حيوانا مات ها هنا.

- هل حان الوقت؟

ونظرت إلى الظل الذي يسد الباب.. حسبته زوجها أولا.

- اتلى صلاتك يا مدام!

كان هو قائل هذا.. حاولت النهوض لكن اليد أرغمتها على الرقاد والتمع شيء أمام عينيها، ثم ابتعد الظل.

حاولت أن تتكلم.. عندها فقط أدركت أنه لم يعد لها حلقوم..

وقف الرجل يتفقد السلاح.. يختبره ثم صوبه إلى السماء وضغط الزناد.. كان الصوت غريبا.. وراح يصغي إليه لحظات..

ثم وثب إلى الماء متجها إلى القارب الآخر..

بعد دقائق تردد صوت طلقتين عبر الجبال الصامتة..

☆ ☆ ☆

أربعة..

كان (جوستين) يقرأ المجلة متوترا، وهو يردد:
- ستقتلني أمي..
قال (مينارد) وهو يقود السيارة:
- وما المشكلة في أن تنسى درس البيانو؟ سأتصل بالمدرس من المطار، وسوف يصدقني.. سأقول له إنك مصاب بضربة شمس.. ولسوف أدفع له..
- ماما تقول إن شيكاتك بدون رصيد..
- هي تقول هذا؟ ما كان لها أن تقوله.. لكن شيكا واحدا بلا رصيد ليس عادة..
- ماما تقول إن السلوك السيئ هو أفضل موعظة..
- ليست كلماتها بل هي كلمات (بن فرانكلين) والتعبير الأصلي يقول:
- المثل الحسن هو أفضل موعظة..
وواصل (جوستين) تفقد المجلة، بينما السيارة تتجه إلى المطار.

☆ ☆ ☆

من المطار استقلا سيارة أجرة؛ وترجل (جوستين) عند الفندق، بينما توجه الأب إلى كاتدرائية (واشنطن)..
وفي الطريق راح يتذكر الأسئلة التي سيوجهها لـ (مايكل فلوريو)، حارس الشاطئ الذي كان معينا في التحقيقات الخاصة باختفاء القوارب.. حين حدثه هاتفيا من الجريدة؛ كان (فلوريو) متوترا.. وأصر على أن يضع (مينارد) السماعة ليطلبه بنفسه؛

وهي طريقة قديمة لكنها فعالة للتأكد من أن المتحدث هو من يزعم أنه هو

وكان (مايكل فلوريو) - إذ قابله - في الأربعينات.. يبدو في حالة صحية ممتازة، وله بطن مسطح لم يترهل بعد

قال له (مينارد) وهو يصافحه:

- شكرا على موافقتك على لقائي..

وأدرك أن الرجل يعيش وحده، لأن المكان كان أدنى إلى الورشة؛ والأرض ملأى بقطع نحت تمثل الأسماك

قال (فلوريو) إذ جلسا:

- ليكن واضحا أن ما أقوله ليس للتسجيل..

- لا بأس.. أرجو المعذرة لكني فعلا لست مهتما بك أنت..

- حسن.. لا أريد أن يهتم بي أحد.

وراح يمرر الإزميل على رأس تمثال.. وأردف:

- مازالوا يتصلون بي؟

- من؟

- أقارب المفقودين.. يعرفون أنني مهتم.. ومازالوا يأملون في أن يكون أقاربهم أحياء.

- ستمائة قارب! لا بد من إجابة!

- أنت تعرف بعضها.. ثمة أشخاص يأخذون القوارب حيث لا يجب أن يأخذوها؛ وأشخاص يحرقونها طلبا للتأمين، ويغرقون معها قبل أن يهربوا.. لكن باقي القوارب؟ لا يوجد تفسير لعين..

خذ عندك القارب المسمى (ماريتزا).. هذا مثال جيد لقارب في حال طيبة يقوده قبطان ذو خبرة عالية، وطاقم من المحترفين.. يغرق في يوم هادئ صفت مياهه، فلو ألقيت طفلا في الماء لظل طافيا ثلاثة أيام.

- وهل لديهم نظرية ما؟

- بالطبع يتصورون أنها صدمت صخرة وغرقت، أو أن أحد محركاتها قد انفجر.. لكن هل حاولت أن تفجر محرك (ديزل) من قبل؟ لو فعلت - وهو أمر عسير لملأ الحطام والوقود صفحة الماء.. ولماذا لم يصل ناج إلى الشاطئ قط؟

وواصل بالإزميل إزالة الشوائب عن أحد التماثيل، وقال:

- هناك قارب يختفي كل يومين بانتظام، ومنذ ثلاثة أعوام.. تماما كساعة السكان في المدينة.. مشكلة التحقيق في الموضوع هي النفقات الباهظة للبحث في المحيط.. قلة خبرة البحارة الجدد.. المشاكل المغناطيسية غير المفهومة التي تجعل البوصلة واللاسلكي عديمي القيمة.. والجو الشرس هاهنا..



وواصل بالإزميل إزالة الشوائب عن أحد التماثيل ، وقال :

ـ «هناك قارب يختفى كل يومين بانتظام ، ومنذ ثلاثة أعوام» . .

وراح يحكي لـ (مينارد) مزيدا من القصص الغامضة، بعضها حقق فيه مكتب الاستخبارات الفيدرالي FBI لكنه كان يحتاج إلى تمويل أكثر.. ثم إن الحكومة لا تبالي إلا بالمشاهير، فلو اختفى

قارب (روبرت رد فورد) لانقلبت (واشنطن) رأسا على عقب.. أما لو اختفى قارب (جو)، فانس الأمر..
هناك عامل آخر هو أن أصحاب القوارب يهابون إبلاغ الشرطة لأن شركات التأمين تسبب لهم متاعب.. عندما تطلب رجال الـ FBI وتقول لهم إنك تشك في اختطاف القارب؛ عندها سيثور جدل كبير ولن تحصل على مليم من مبلغ التأمين.. من الأسهل أن يتهموا مثلث (برمودا).. وكل الناس تريد أن تؤمن بمثلث (برمودا) هذه الأيام.
سأله (مينارد):
- هل تؤمن به؟
- أؤمن بماذا؟ لقد قرأت كل الكتب عن قارة (أطلنطس) ووحوش البحر وأعاصير قاع المحيط.. من المؤكد أن القوارب تختفي هناك.. لكني أقسم لك إن مثلث (برمودا) مجرد مثال للطبيعة والإنسان حين يعملان في اتجاهين مختلفين.. وحين تتضاد أغراضهما..
هناك أحمق يتجه إلى (البهاما) بقاربه معتمدا على الخرائط - وكثير من الحمقى يفعل ذلك – غير عالم أنها كارثة لا ينتظر سوى أن تحدث.
ونزع (فلوريو) عويناته تاركا إياها تتدلى من عنقه، وقال:
- أعتقد أن ثلث القوارب قد غرق.. والخمس اختطفه تجار المخدرات.. ودستة سرقت كالسيارات.. لكن تظل نسبة كبيرة بلا تفسير.. هل تعلم أن قاربين قد اختفيا هذا الأسبوع؟
- أين؟
- في جيب بين خطي عرض......
ثم توقف وقال:
- اللعنة! أن أريك الأسهل من أن أخبرك..

واتجه إلى مكتبة ملئت بالكتب وبقايا السفن وبحث عن خارطة فتحها، وأشار إلى خط من الجزر يشبه الهلال..

- (كايكوس).. جنوب (البهاما) وشمال (هايتي).. إنها مستعمرة بريطانية.

- وماذا هناك؟

حطام سفن.. إن المياه هناك مصيدة شيطانية.. أنت في المياه العميقة وفجأة يصير الماء ضحلا بمقدار أربعة أقدام.. كان هناك جدل حول الموضع الذي هبط فيه (كولومبوس) إلى (أمريكا).. قال البعض إنه (سان سلفادور) في (البهاما)، لكن آخرين قالوا إنه (كايكوس)..

- كيف تصل هناك؟

- جوا.. بالطيران من (ميامي).. إن أروع شيء هناك هو العقارب.. هل زرت الجزر الاستوائية من قبل؟

قال (مينارد):

- زرت (ناسو).. واصطدت السمك في (ووكركاي).. ومارست الغطس في (إليوثيرا) لكن هذا منذ زمن بعيد.

- لا أدري ما يدور بخلدك لكن (ناسو) ليست (كايكوس).. إن (ناسو) بالنسبة لها أقرب إلى (نيويورك) وربما متحضرة مثلها..

- ليس بخلدي شيء معين.

- بل الأمر كذلك.. لكن هذا شأنك على كل حال..

☆ ☆ ☆

عاد إلى الفندق ليصطحب (جوستين).. أمسك الصبي بيد أبيه فتحرر هذا منها في حرج، لكن الصبي تشبث أكثر.

لم يكن (مينارد) معتادا على إمساك الأيدي حتى بالنسبة لابنه.. ثم شعر بحزن عميق لأنه أدرك كم فقد التواصل مع ابنه بعد فترة الفراق.. لم يتعرف مخاوفه وحاجياته، وغدا بالنسبة له شخصا ذكيا يلقاه في نهاية الأسبوع ليتبادل معه مناقشة متحضرة غير حميمة.

لكن الصبي يريد الاتصال ثانية.

لذا اعتصر يده في حرارة شاعرا بدفء قلبه.

☆ ☆ ☆

خمسة..

- ليست لدي فرشاة أسنان.
قالها (جوستين) لأبيه وهما في الطائرة.. فرد هذا:
- سنبتاع واحدة.. إنهم يغسلون أسنانهم في (فلوريدا) كذلك.
كان هذا عاشر اعتراض يوجهه (جوستين) في أثناء رحلة الطائرة.. ولم تكن اعتراضات مهمة أو خطرة بل هي تعبير عن توتره نتيجة الخروج عن الروتين التقليدي.
- وماذا ستفعل في (ميامي)؟
- لا شيء.. سنلقى أناسا ونوجه أسئلة.
وبدأت الطائرة تهبط في مطار (ميامي).
ابتاع (مينارد) بعض مجلات الأطفال (ستريبس) وجريدة المساء.. حقا لم تكن هناك أخبار عن اختفاء قوارب جديدة، ثم اتجه ليسأل عن طريقة الوصول إلى (كايكوس) في الاستعلامات.
لكن الموظفة لم تكن على علم باسم البلد أصلا.
وسألت زميلها عن هذا البلد فقال:
- لا توجد أضواء في ممر الهبوط هناك.. حاول الهبوط ليلا وستجد نفسك في (إفريقيا)!
- وماذا عن غد؟
- ربما.. لو كان لديهم (مزاج)..
- من هم؟
- شركة (تووبيك أير أواي)..
- وشركة (ريلايابل) لا تذهب هناك؟
- الحكومة هناك ألغت رحلاتنا.. تقول إن خدماتنا غير منتظمة.. كيف بحق السماء تنتظم خدماتنا بينما نصف الممر

مليء بالحفر والنصف الآخر تغمره المياه؟
- أين مكتب (تروبيك أير أواي) هذا؟
- لا مكتب.. إن الرجل يمارس عمله في البار..
- وكيف يبدو؟
- لا يمكن ألا تعرفه ما لم يكن قد فقد وعيه على الأرض الآن!
كان البار مزدحما.. لكنك تستطيع بسهولة رؤية شعار (تروبيك) على ظهر قميص الرجل الجالس.
دنا منه (مينارد) وطلب لنفسه وللصبي (كولا)، ثم قال للرجل:
- معذرة.. لكنى راغب في الذهاب إلى (كايكوس).. متى تكون الرحلة القادمة؟
قال الرجل:
- ثمة طائرة جيدة تقلع غدا.
- هل لي أن أحجز مقعدين؟
- ناب.. ليس بوسعي أخذ مسافرين.
قال (مينارد) لنفسه: فليذهبوا إلى الجحيم.
وأمر (جوستين) بالانتهاء من (الكولا)... سريعا حتى يمكنهم حجز مقعدين إلى (نيويورك).
هنا قال الرجل:
- لم أقل إنه ليس بوسعك المجيء.. قلت إننا لا نأخذ مسافرين.. لكني سوف أصحبكما مجانا..
- آه.. هذا.. هذا لطيف.
- لكن بالطبع لا يوجد ما يمنعك من المشاركة في ثمن الوقود.
- ليكن.. وما المساهمة العادلة؟

- خمسون دولارا نقدا على كل رأس.. مقدما!
- ليكن.. ومتى؟
- السابعة صباحا.. لن ننتظرك.
- وما نوع الطائرة؟
ضرب الرجل رأسه كأنما لم يعد يتحمل كل هذا الغباء.. وقال:
- الطائرة هي ما يشعر به الطائر السعيد حين يصحو من النوم.
لم يجد (مينارد) شيئا مهذبا يقوله سوي «ليكن».. وجذب الصبي من ذراعه ليغادرا المكان.
كانا سيبيتان ليلتهما في الفندق.
ثم تبدأ رحلتهما الرهيبة غدا.

☆ ☆ ☆

عرف (مينارد) من عامل الهاتف أن هناك هاتف واحدا في (كايكوس) هو دوما مشغول أو معطل، وأكثر اتصالات الناس هناك باللاسلكي.
طلب منه (مينارد) أن يتصل بهذا الرقم.. كان يريد أن يبلغ الجهات الحكومية هناك، وإن لم يكن واثقا من أن الجزيرة لها حكومة أصلا.
هنا - لغرابة المصادفة - رد الرقم.. وسمع (مينارد) ضوضاء إستاتيكية وطنينا، ثم سمع صوت امرأة وسط الطنين تقول:
- من يتحدث؟
كان الصوت بعيدا جدا.. لذا راح يصرخ:

- (بلير مينارد) من جريدة (توداي) أحاول طلب أحد بالحكومة..
- اللعنة! (بيردس)! إنه المأمور هنا.
- هل لك أن تخبريه بأنني صحفي من (توداي)؟ آتي غدا..
وهنا دوى صوت صفارة تثقب السمع ثم انقطع الخط.
صعد (مينارد) إلى حجرته، فوجد (جوستين) يشاهد التلفزيون وسأله:
- هل اتفقت مع الجهات الحكومية؟
في سخرية قال (مينارد):
- إن طلبي تحت الدراسة!
وفي الصباح اشترى مسدسا من طراز (بي بي كي).
قال له البائع في حماسة وقد أدرك أن الصبي هو زبونه الأساسي.
- تصميم فنلندي.. أفضل مسدس في الكون.. قد مزجوا ما بين مزايا الـ AR-15 ومزايا AK-47 فولدت الـ (فالمت).
- وما مزاياها؟
- البساطة.. لا تلتصق أجزاؤها أبدا حتى في الرمال والوحل تستعمل ذخيرة حلف شمال الأطلنطي عيار 7.62، ويمكن تبادل ذخيرتها مع أية بندقية أوروبية.. ويمكنها القتل بسهولة تامة.
تساءل (مينارد) في شك:
حسبتها أسلحة صيد لا أكثر..
- إنها كذلك.. لكن الصيد هو ما يمارسه الصياد لا الفريسة..
ومن الغريب أن البائع لم يطلب بطاقة هوية.. كل ما طلبه هو إيصال استلام من (مينارد) عليه اسمه.

أخبره البائع كذلك أنه لا مشكلة في ركوب الطائرة بسلاح كهذا، فهم لا يجرون فحصا بالأشعة ولا يجرون تفتيشا.

أما عن الجمارك فلسوف يفتشون حقائبك، لذا عليك أن تضع لهم شيئا صغيرا ممنوعا يجدونه في أثناء التفتيش.

هذا سيبعد أنظارهم عن السلاح.

☆ ☆ ☆

ستة..

كانت الطائرة عتيقة من الطراز (دي - سي - ٣)، يقودها طيار أمهق يدعى (ويتي).. كان له شعر أبيض مجعد وحدقتان ورديتان وجلد بلون الطبشور.. ولم يكن يتحمل ضوء الشمس لذا ارتدي منظارا شمسيا وقميصا طويل الكمين وقبعة عريضة؛ ووقف تحت جناح الطائرة - في هذا الوقت المبكر يرقب عملية تحميل الطائرة.

جلس (ويتى) في مقعد الطيار، وفتح مقعدين لـ (مينارد) و (جوستين)، فسأله الأول:

- أين حزام الأمان؟

قال (ويتي):

- إن من لا يحمل ركابا لا يحتاج إلى حزام أمان.

وخلف (مينارد) كانت صناديق الفاكهة والمعلبات.. وبعض الأقفاص الملأى بالدجاج الحي وخنزير ضخم مخدر.

قال (ويتي):

- لا بد من تخدير هؤلاء.. كنت في طريقي إلى (بهاما) حين نهض خنزير كنت أقله معي، وراح يجري هنا وهناك ويصرخ، حتى اضطررت إلى رميه بالرصاص.

وأدار (ويتي) المحركات، وراجع صماماته.. ثم بدأت الطائرة تتحرك.

انتهى نصف الممر والطائرة على الأرض لم تبرحها، فجذب الرجل العصا وراح يكلم الطائرة برفق:

- هلمي يا فتاة.. هلمي.

إلا أنها لم تستجب.

- اللعنة! هيا..
وأخيرا ببطء وجهد جهيد راحت الطائرة ترتفع وقد كاد الممر ينتهي.
نظر (مينارد) إلى كفيه اللذين غمرهما العرق فمسحهما في سرواله، ثم راح يرمق حطام الطائرات على جانبي الممر.. سأل الطيار:
- ما هذه؟
- نسميها (مفاجآت).. حين تهبط أو ترتفع في سلام.. ثم.. فجأة.. تكف عن ذلك!
واتجه بالطائرة نحو الشمس، وقال لـ (جوستين):
- هناك قدح وترموس مليء بالقهوة عند قدميك.. صب لي واحدا.
ناوله (جوستين) القهوة وهو يرمق لوحة القيادة في اهتمام.
وفتح الطيار خارطة كبيرة راح يتأملها مغمغما:
- فلنر ما إذا كان بوسعنا أن نجد تلك اللعينة.. كل هذه الجزر تبدو متماثلة من عل.
طاروا فوق (حلف ستريم) إلى (بيميني) و(كات كايز) ثم جنوبا إلى (أندوز) ثم إلى سلسلة (البهاما).. كان الجو صافيا بلا سحاب.. والماء دستة من ظلال الأخضر والأزرق.
بعد ثلاث ساعات أشار (ويتى) إلى سحابة في الأفق وقال:
- لا بد أن هذه (كايكوس)..
- أين هي؟
- تحت السحابة.. إن حرارة الأرض ترتفع لتصدم الهواء البارد وتتكون سحابة..
وهنا ظهر شكل جزيرة.

دفع (ويتى) العصا للأمام فبدأت الطائرة تهبط من 8000 قدم إلى 4000 قدم.. ونظر (مينارد) إلى الغرب فرأى جزرا عدة.. لا بد أن هذه الكبيرة هي (نافيداد).. أما إلى الشرق فلا شيء سوى جزر لا يسكنها أحد.

وتذكر (مينارد) ما قاله له (فلوريو): إن شواطئ (كايكوس) غادرة حقا.. يتغير عمق الماء فيها بلا إنذار وسرعان ما يصطدم القارب بصخور عملاقة بعد فوات الأوان.

راح (ويتي) يصدر التعليمات لنفسه في أثناء الهبوط.

- أنزل الزعانف.. العجلات..

أخيرا لامست العجلات الأرض واستقرت.

كانت هناك دستة من رجال الجمارك يمسكون لوحات الكتابة، و على أكتافهم (الإيبوليتات)..

قال (ويتى) وهو يعلق المحرك:

- لو كان معك حشيش داره.. فهو يثير جنونهم..

قال (مينارد) في قلق:

- ليس أنا..

وتأكد أن سترته مزررة جيدا حيث كان يشعر بثقل المسدس.. ثم سأله:

- هل ستعود اليوم؟

- لو كنت ستفعل.

نظر (ويتي) إلى ساعته، وقال:

- طبعا.. إنها الحادية عشرة.. أحتاج إلى ساعة لتفريغ الشحنة وساعة للتحميل وساعة للغذاء.. إن الواحدة وقت مناسب..

اتجه (مينارد) إلى رجال الجمارك يريهم بطاقة الجريدة.

فحص رجل الجمارك البطاقة في اهتمام.. ثم صاح ملوحا بها:

- تأتي لبلد أجنبي حاملا هذه؟! ماذا تظننا؟
- اسمع.. لقد اتصلت أمس وقد..
- ماذا تحسبنا؟!
فارقت (مينارد) أعصابه حتما سيقبض عليه وسيتم تفتيشه.. لذا قرر أن يلعبها في ثقة.. مال على رجل الجمارك، وقال همسا:
- يبدو أنك أذكى مما توحي به.. الأمر يتعلق بمستقبل الجزيرة.. ملياردير أمريكي راغب في شرائها.. هذا رائع.. لكن بشرط أن يتم دون فساد أو إفساد.
كان يتكلم بسرعة حتى إنه نسى ما قاله حين وصل لنهاية الكلام.
بدت الدهشة على رجل الجمارك، وسأله:
- كم يستغرق هذا العمل؟
- حتى الثانية ظهرا.. أترى؟ لا مشاكل هناك..
قال الرجل لزميله الجالس وراءه يقرأ مجلة أطفال:
- هل سمعت هذه الحدوتة الجميلة؟
ثم سأل (مينارد) وهو يشير لحقائبه:
هل من شيء ممنوع معك؟
أخرج (مينارد) من حقيبته نسخة من مجلة (هاسلر)، وصاح في حرج:
- معي هذه.. وانني لأعتذر بشدة.. لم أعرف أنها ممنوعة هنا.
كان يعمل كما أوصاه بائع السلاح، لذا تصفح الرجل المجلة، وقال:
- محظوظ أنت لأنك أخبرتني.. لو وجدتها أنا لكلفتك خمسين دولارا غرامة..
نهض الرجل قارئ المجلة فصافح (مينارد) وقال:

- مرحبا بك.. نحن نرحب بالصحافة هاهنا.. كلهم يأتون مليئين بالصداقة والإخلاص مثلك واعدين بمقالة عن (الجنة العذراء).. وكأنما يكتشفون بلادنا للمرة الأولى.. يظفرون بطعام مجاني وقوارب مجانية.. ثم يعودون ليكتبوا قصة مثيرة عن الفقر والقذارة هنا..

قال (مينارد) في حزم:

- أولا: أنا لا أكتب في السياحة.. ثانيا: لا أريد شيئا مجانيا

- الطريقة الوحيدة لإثبات ذلك هي أن تدعوني إلى الغداء..

وقد كان.

☆ ☆ ☆

على الشاطئ استقرت السفينة وقد انغمر نصفها تحت الماء.. كان كل من مر بها قد انتزع منها شيئا: المسامير.. عجلة القيادة.. الإطارات النحاسية.. الدفة.. وتساءل (مينارد) عن كنهها لكن مرافقه لم يبد مندهشا.. إن السفن تغرق على كل حال.

تفحص (مينارد) الحطام في اهتمام.. وجد ثقبا في الخشب استقر به جسم معدني... استعمل مطواة (جوستين) ليستخرج الجسم فوجده كرة من رصاص.. أطلقت من بندقية عتيقة (فلينت لوك).



تفحَّص (مينارد) الحطام فى اهتمام .. وجد ثقبًا فى الخشب استقر به جسم معدنى ..

معنى هذا أن هناك من أطلق النار على السفينة أو على أحد ركاب السفينة، ببندقية أثرية.

لكن وقت التساؤل انتهى لان موعد العودة إلى المطار قد حان.

☆ ☆ ☆

كانت الطائرة تنضج ببطء، تحت الشمس الحارقة في المطار. مخازن البضائع مغلقة مما أثار دهشة (مينارد) وتساءل:
- لماذا لا يحملونها؛ قال الرجل إن هذا يستغرق ساعة.
بدا الاستمتاع على وجه مرافقه وقال:
- هو قال هذا؟ كل ما يضعونه فيها هو طرد بريد.. ما كان الرجل يعنيه هو أنه يحتاج إلى ساعة كي يأكل وساعة كي يستريح مما أكل..
- ماذا؟
إن له أصدقاء هنا.. يجتمعون في حانة (سيريل) ويشربون ويتبادلون الأكاذيب، ويشعر أنه في داره.. هناك في (ميامي) هو (غير متكيف).. يسمونه الزنجي الأبيض.. ذات مرة سافر إلى (البهاما).. لكنهم هناك عاملوه كالمجذومين.. فهو أكثر بياضا من البيض وأكثر ألوانا من الملونين.. لقد اعتبره الزنوج نحسا.. أما هنا فهم يقبلونه كما هو.. مجرد قطعة من النفاية البشرية مثلهم.
- ومتى تقوم الطائرة التالية؟
- لا تخف! إن (ويتي) حذر.. ودائما ما ينام قبل الطيران لا في أثنائه.
أخيرا جاء (ويتى) وهو يتثاءب ويصلح من عويناته.
- هل ترى؟ لقد كان نائما.. سيكون على ما يرام..
وفي خطوات ثابتة اتجه (ويتي) إلى الطائرة.

خطوات ثابتة أكثر من اللازم.. واضح أنه يركز على كل خطوة..

- كيف حالك؟

- بخير.. بخير.. فلنذهب الآن قبل أن تمتص الشمس كل سوائل أجسادنا.

للحظة تردد (مينارد) قبل دخول الطائرة، فصاح الطيار:

- تحرك يا رجل.. يجب الإقلاع قبل الظلام.

في هذه المرة ارتفعت الطائرة بسهولة وقد تخلصت من حمولتها.

وطلب (ويتي) من الصبي أن يساعده في تفقد العدادات، وصاح وهو يرفع العجلات:

- هلم يا فتى! منذ متى تمارس الطيران؟

واتجهت الطائرة شمالا.. وعلى ارتفاع أربعة آلاف قدم كانت باردة جدا في قمرة القيادة غير المكيفة غير مضبوطة الضغط.. وراح كل زفير عميق من (ويتي) يحدث سحابة كثيفة على الزجاج..

كان (جوستين) يرتجف فنزع (مينارد) سترته وألقاها على كتفيه.

اتجهت الطائرة إلى (نافيداد).. وبعد بضع دقائق من الطيران استطاع (مينارد) أن يرى علامة (X) كبيرة على ممر الهبوط في المطار.

نظر (ويتي) حوله ليتأكد من عدم وجود طائرات أخرى.. ثم دفع العصا للأمام فانحدرت مقدمة الطائرة لأسفل.

كانت الطائرة على ارتفاع مائتي قدم الآن، حين ظهر خيال رجل على الممر يلوح بذراعيه منذرا.

رفع (ويتي) الطائرة قليلا، وتساءل:

- ماذا دها ذلك المغفل؟
ودار حول المهبط مرتين باحثا عن شيء خطأ.. لا شيء..
سأله (مينارد):
- لم لا تسال برج المراقبة؟
- فكرة لا بأس بها.. لكن عليك أن تجد واحدا.. ليس هناك سوى كشك يبيع الـ (هوت دوجز) هنا.
كان الرجل ما زال على الممر يلوح بعنف.. فغمغم (ويتي):
- إنه مخبول.
وجذب العصا للخلف، وبدأ ينحدر.
أدرك الرجل أن الطائرة ستهبط.. فابتعد راكضا..
كان الهبوط ناعما لكن (جوستين) تفقد لوحة القيادة سريعا وفهم الخطأ:
- إن العجلات لم تنزل بعد!!
احتاج (ويتي) إلى ثانية كاملة ليستوعب ما قيل له.. هنا كان الأوان قد فات.. الطائرة تندفع بعنف وشراسة نحو الأرض..
صاح (ويتي):
- عليّ اللعنة إذن!
وانحنى (مينارد) ليحتضن (جوستين) بعنف ليثبته إلى المقعد.
كان الهبوط هادئا للحظة، ثم اصطدم بطن الطائرة بالأرض وتهشم المعدن فوق الحجارة.. تطايرت النيران في كل صوب.. مالت الطائرة إلى اليمين وانفصل أحد الجناحين.
سمع (مينارد) الجناح يتهشم.. وشم رائحة الوقود ورائحة شعر يحترق.. ثم.. ثم توقفت أخيرا..
لم ينظر (مينارد) للوراء.. كان يشعر بالحرارة لذا هرع ليدفع الصبي من النافذة المهشمة.. سقط (جوستين) على الأرض

فصاح به:

- اجر! ابتعد!

ثم ضغط جسده ليمر عبر النافذة غير مبال بالزجاج الذي راح يمزق وجهه وفخذيه.. أخيرا وثب إلى الأرض وركض وراء (جوستين).

ما إن ابتعد قليلا حتى نظر للوراء.

كان (ويتي) محشورا في النافذة، والنار تلتهم أكثر الطائرة التي اكتسب هيكلها اللون الأحمر.

ثعبان من نار يلتهم الطائرة في بلعومه ببطء.

إن (ويتي) حي لكنه لا يستطيع التحرر..

جري (مينارد) إلى الطائرة.. بعض الجذب منه وبعض الدفع من الطيار يمكن أن ينقذ الأخير.

بعد جهد جهيد خرج جسد الطيار ليسقط فوق (مينارد) على الأرض.

ووقف الثلاثة يلهثون وهم يرمقون الحطام المشتعل.

نزع (جوستين) سترة أبيه وأعادها إلى كتفي الأخير.

هنا صاح (ويتى) في مرح:

مفاجأة! نحن مازلنا أحياء!

☆ ☆ ☆

سبعة..

استغرق التحقيق ساعة كاملة، واتخذ شكل أسئلة موجهة إلى (ويتي) من الملازم (وسكوت) وهو أحد رجلى الشرطة في (نافيداد).

كان قد تفحص الطائرة المهشمة.. لم يكن يحب الحوادث، فمعناها قدوم موظفين من المدينة ينتقدون طريقته في كتابة التقارير، ويتفحصون ما لا ينبغي أن يتفحصوه.

والواقع أن (مينارد) أدرك أن مظهر (وسكوت) هو في حد ذاته دليل على الفساد.. كان بدينا يرتدي في كل معصم ساعة ذهبية، ويتضمخ بعطر ثمين.. من مصلحة هذا الرجل ألا يدقق في أمره أحد.

وكان (ويتي) قد أجاب كذبا على كل الأسئلة، وعزا سقوط الطائرة إلى عطب هيدروليكي في المحرك، وأنه أنزل العجلات لكنها لم تنزل..

وانتهى التحقيق، فقام (ويتي) بترتيب إقامة الليلة في أحد الفنادق في (نافيداد) يخص صديقة له..

☆ ☆ ☆

في الصباح اقترح (جوستين) على أبيه أن يذهبا بقارب لصيد السمك.

سأل الأب موظف الفندق:

- كم يتكلف استئجار القارب نصف يوم؟
- لا شيء.
- إذن على المساهمة في ثمن الوقود؟

- ولا هذا.. القارب لا يذهب لأي مكان.. إنه معطل خرب!
- أين أجد قاربا إذن؟
- لا يوجد.. عند د. (وندسور) بعضها لكنه لا يعيرها.
- وأين يعيش؟
- في الشارع!
- أي شارع؟
- لا يوجد سوى شارع واحد هنا.
- وكيف أعرفه.
- ستسمعه.
وقبل أن يستوعب (مينارد) المعلومة؟
مد الموظف يده في الدرج وأخرج علبة من طارد البعوض وقال:
- لو كنت ذاهبا خذ هذا!
شكره (مينارد)، وعفر وجهه ووجه (جوستين) بالمسحوق ثم أعاد العلبة إلى الموظف.
كان الطريق قذرا يحف به الصبار، والبعوض يحتشد في سحائب كثيفة، لكن الدهان كان فعالا مما جعله يدنو من الجلد بضع سنتيمترات ثم يفر هلعا.
مشيا ميلا ونصف وبدأ يعرقان فراح الدهان يذوب وازدادت شراسة الطلائع الأولى للبعوض.
كانا على وشك العودة حين سمعا صوتا عاليا ميكانيكيا.. صوت محرك.
دنا (مينارد) على أطراف أصابعه ليتبين ما هناك.. فجأة رأيا مبنى مكعبا من الصفيح.. إنه مولد كهربي هو مصدر الصوت، وجواره مجموعة من القوارب.

كان المنزل تحت مستوى الأرض تقود إليه بضع درجات هابطة.. فما إن دنيا وقرعا المقبض النحاسي حتى سمعا صوت (وندسور) عبر جهاز الـ (إنتركوم) يقول:

- ابتعد أيها الأثيوبي! إن كنت تبيع فأنا لا أشتري.. ولو كنت تشترى فأنا لا أبيع!

ضغط (مينارد) على الزر وهو يبتسم.. وقال:

- برقية لك يا سيدي!

هنا انفتح الباب.. كان (وندسور) يرتدي روبا (كيمونو) وخفين من الحرير.. وكان له شعر فضي طويل يصل لكتفيه، ووجهه راق ينم عن أصل عريق.

قال (مينارد):

- سيدي.. أنا صحفي من جريدة.....

- نعم.. نعم.. (توداي).. لقد أخبرتني الطبول.. أنت من رأي الموت ثم عاد كي يحكي لنا..

كانت الشقة ملأى بالأثاث الثمين العريق، وعلى الجدران علقت صور زيتية شهيرة.

قال (وندسور):

- تلكم جنتي الصغيرة وسط آبار الجحيم!

فاتحه (مينارد) في موضوع القارب لكن هذا أبي بشدة.. وقال:

- هذا خطر.. القوارب تختفي هنا وأنت تعرف هذا..

- لا أنتوى الإبحار إلى (كوبا).. فقط سأبتعد ميلا أو أكثر.. ثم إنني لقادر على العناية بنفسي..

ورفع قميصه كاشفا عن مقبض المسدس الخارج من سرواله.

قال (وندسور):

- حسن.. سأعطيك قاربا على الأقل كي أضمن أنه سيصمد.. لكن عدني أن تتصل بي كل نصف ساعة باللاسلكي..

وغمغم (وندسور)- وهو يقتادهم إلى الباب - شيء عن الحمقى الماشين في الظلام.. لم يكن مسرورا بهذا.
لكن (مينارد) وعده على كل حال.

☆ ☆ ☆

ثمانية..

أبحرا لمدة ساعة في المياه الخضراء خلف خط الأمواج.

لم يصطادا شيئا وبدأ الملل يتسرب إلى (جوستين)، فجلس على حاجز السفينة وأراح صنارته.

قال (مينارد) وهو يتأمل الشريطة:

- ربما كانت المياه ضحلة هنا.. فلنتجه إلى مياه أعمق حيث تعيش وحوش الماء.

قال (جوستين) في سأم:

كما تريد.

ابتسم الأب وداعب شعر ابنه:

- تشجع.. أية متعة في الصيد لو وجدت شيئا كل خمس دقائق؟

- وهل صيد شيء كل نصف ساعة مطلب عسير؟

وبدوره استعاد (مينارد) صنارته، ثم أدار المحرك.. شغل المحرك قليلا ثم انطلق للأمام.. ومن وراء القارب تحول الماء إلى رغوة بيضاء.

وصلا إلى المياه الهادئة فأنزلا صنارتيهما للماء ثم تناول مكبر الصوت ليتحدث باللاسلكي إلى (وندسور):

- (منكين) إلى (ريليك).

جاء صوت (وندسور):

- أين أنتما؟

- مكتوب هنا (ممر مانجروف).. ممر لأين؟ لا أدري.

- أنت بعيد بما يكفي.. يكفيك العودة إذن؟

- لا يوجد ما يقلق هاهنا..

- ليست هذه هي المشكلة.. المشكلة أن اللاسلكي لن يعمل على مسافة أبعد من هذه..

- لا تقلق

وأغلق جهاز اللاسلكي، ثم اتجه غربا نحو المياه العميقة.

صاح (جوستين):

- الغوث!

كانت سمكة قد تعلقت بصنارته، وقد ألصق مؤخرة الصنارة بين فخذيه، بينما طرفها القصي يهتز في جنون.

- ابق الطرف عاليا! - صرخ (مينارد) - لا تجذبه!

- لا أستطيع الإمساك بها..

لم يحاول (مينارد) معاونة الصبي بل صاح به:

- بل تستطيع! تراجع للوراء.. اجذب البكرة ببطء شديد.. أبق طرفها البعيد عاليا..

وثبت السمكة من الماء.. لسان من الفضة يلتمع في الشمس..

- ابدأ لف البكرة!

- أصابعي متقلصة!

- إذن أرحها.. لكن أبق الطرف عاليا..

- ما نوعها؟

- سمكة (براكودا).. عشرون رطلا.

السمكة تتملص في شراسة.. تغطس ثم تثب فوق الماء.. كانت قد دنت جدا فانحنى (مينارد) ليمسكها من الخيط ويطوح بها فوق السطح.

صاح (جوستين) في حبور وهو يرى سمكته الأولى ويا لها من سمكة! أما (مينارد) فانحنى بالبنسة ليلتقط الخطاف من فم (البراكودا).

وعند الساعة الواحدة اتصل بـ (وندسور) ليبلغه بأخر أخبارهما.

☆ ☆ ☆

عبر الماء رأي (مينارد) بقعة بنية طافية.
سأله (جوستين):
- هل نحن عائدان؟
- دقائق..
- ما هذا الشيء؟
- لا أدري.. فلندن أكثر ربما كانت سلحفاة مائية أو سمكة قرش..
كان قاربا خشبيا من طراز الـ (كانو) ذا طرفين مدببين.. وكان فارغا فيما عدا منصة صغيرة.. لكن الشمس كانت مرتفعة وسطح الماء قد صار كالمرآة مما جعل الرؤية عسيرة.
انحنى (مينارد) بصعوبة جوار (جوستين)..
إنها فتاة.. فتاة صغيرة ترتدي سترة نجاة برتقالية وتتشبث بالقارب.. تلوح بطريقة أثارت ذهول (مينارد).. لم يكن في تلويحها خوف ولا يأس.. بل اليد تتحرك ببطء وانتظام كأنها آلة (مترونوم) من التى توقت عزف البيانو.. ولم تكن تصرخ أو تستغيث.
دنا (مينارد) بالقارب، وصاح بالفتاة المغمورة في الماء:
- هل تتألمين؟
لم تقل شيئا.. فقط هزت رأسها أن (لا).. أطفأ المحرك كي لا يسبب لها أذى، ثم انحنى وأمسك بيدها وهو يقول:
- من حسن حظك أننا هنا.. كان بوسعك أن تنتظري أسبوعا.

وأمسك معصمها بيده.
كانت في الحادية عشرة من عمرها، شقراء.. بيضاء البشرة.
شيء ما كان خطأ.. الطفلة ثقيلة جدا.. وفي عينيها بريق ذعر.. ما الذي؟
وهنا رأى أن أنبوبا مطاطيا يخرج من الماء، ويزحف تحت ثيابها إلى مؤخرة رأسها.
ثم اصطدم الماء بوجهه، وسقط إلى الوراء.. كان هناك الآن رجل يقف على ظهر السفينة يلهث وهو يلوح بفأس، بينما الماء يخرج من منخريه وأعشاب البحر ملتصقة بشعره الطويل ولحيته..
كان قميصه ممزقا؛ أما قدماه فكانتا في خفين من جلد الحيوانات غير المدبوغ.
رآه (مينارد) يدنو منه ملوحا بالفأس.
ثم ظهر صبي أسمر نحيل، ناوله الرجل الفأس وقال:
- الآن! انته منه!
صاح (مينارد):
- (جوستين)!
رأي (جوستين) يتوارى وراء عجلة القيادة..
ودون براعة أمسك الصبي بالفأس، ولم يتحرك.. انتزع الرجل من سرواله خنجرا ذا حدين ومرره تحت أذن الصبي فسالت قطرة دماء، وصاح:
- أيها الوغد البرتغالي! ستفعل ما تؤمر به!
في اللحظة ذاتها مد (مينارد) يده إلى ما تحت قميصه.. أخرج المسدس وصوب الفوهة نحو الرجل.. لكن يده اهتزت.. فما كان قد صوب مسدسا إلى كائن حي من قبل.

ثبت يده اليمنى بيسراه، على حين وقف الرجل في ثبات يطوح الخنجر من يد إلى يد.. كان يتقدم نحوه.

أخيرا وثب الرجل إلى الأمام، في اللحظة ذاتها التي انطلقت فيها الرصاصة.. كانت الطلقة أصغر من أن تسقط الرجل للوراء، لكنه هلك في منتصف المسافة.. مزقت الرصاصة أذنه اليسرى، وطار ليصطدم بعجلة القيادة، ثم يتكوم عند قدمي (مينارد).

منذ ثوان كان هذا رجلا حيا.. تم هذا العمل السحرى بتحريك الإصبع 1/8 بوصة على الزناد.

وقبل أن يستوعب (مينارد) هذه الحقيقة، كان الأسمر متعلقا بعنقه ويداه تمزقان وجهه، وأسنانه تقضم عنقه.



وقبل أن يستوعب (مينارد) هذه الحقيقة ، كان الصبى الأسمر متعلقًا بعنقه ويداه تمزقان وجهه ، وأسنانه تقضم عنقه . .

حاول (مينارد) انتزاع الصبي، لكن أطراف الأخير كانت كممصات إخطبوط.. ما إن تنزع واحدا حتى يلتصق بك آخر.

حاول أن يشد الغلام من شعره، لكن هذا عضه حتى عظام سلامياته.. اليد تحاول أن تنتزع كرة عينة من محجرها.

- اقفز إلى الماء! سيضطر إلى تركك!

قالها (مينارد) لنفسه.. وتراجع إلى الوراء بضع خطوات، ثم سمع صوتا عاليا وأدرك أنه فقد توازنه.

ثم زالت الضوضاء ولم يعد من شيء.

وثب الصبي من فوق جسد (مينارد)، وساعد الطفلة على الصعود إلى السطح.. كانت ترتجف وهي.

تنزع الأنبوب من تحت ثيابها الأنبوب الذي يشبه حرف (y) مقلوبا.. كان الفتى والرجل يتنفسان من طرفي الـ (y)..

هرع (جوستين) إلى أبيه الذي تمتد على الأرض ورأسه ينزف.. تمنى أن ينهض أبوه ويضحك ويقول له إنها مزحة لا أكثر.

مد يده سريعا إلى مكبر الصوت، وضغط على زر (تكلم).. ثم صاح في الجهاز:

- النجدة! لقد قتلوا أبي!

في اللحظة التالية هوت لكمة على وجهه فطار عبر السطح.

صاح الصبي الأسمر:

- لا أحد يعينك الآن يا وغد!

ثم تناول مكبر الصوت وقال للطفلة.

- هلمي يا (ماري) نغن لهم شيئا!

☆ ☆ ☆

وفي المطبخ سمع (وندسور) صوتي الطفلين المليئين بالمرح يغنيان:

هو خدع صاحبه وسرق خنزيره..

هو قتل الراهب والواعظ.. رباه!
هو ذبح أعداءه.
(البوكانير) الشرس الشرس!
كان الصوت غير واضح ومليء بالقرقعات لكنه عرف الكلمات فورا.
لم ينتظر حتى يسمع الضحكة التي ستلي هذا.
أغلق اللاسلكي وغمغم في حزن:
- فلتكن الريح رفيقة بشراعك واصاحبي.

☆ ☆ ☆

تسعة..

لماذا يجذبونه؟ لقد قال لهم إنه لا يرغب في الرقص.. لكنهم مازالوا يجذبونه مصرين من قدميه.. وكلما تألم كلما ازدادوا مرحا.. «أرجوكم.. أريد أن أشرب».. لكنهم يضحكون.. ثم ابتعدوا عنه وزال الألم، وتلاشى الحلم..

فتح عينيه فرأى السماء.. نظر لأعلى فرأى يديه مربوطتين، ونظر لأسفل فرأى كاحليه مربوطين..

إنه مصلوب ما بين ساريتين خشبيتين.

كان في ساحة من الرمال وحيدا، وثمة من يصخبون بعيدا.

حاول أن يتملص وأن يجد القوة ليحرر ذراعيه، لكنه فشل وصرخ ألما.. وسمع من يقول لآخر:

- لقد صحا.....!

- فقط لينام ثانية!

- لكن يجب أن يصحو وهو يرى وجه الموت.. يقولون إنه دميم!

- لا شيء دميم سوى وجه زوجتك!

كان (مينارد) مذعورا، لكن الحيرة والألم أبعدا خوفه عنه.

كان الرجال قذرين لوحتهم الشمس، وتلطخت ثيابهم بالشحم والدم، وجميعهم يحمل الفئوس أو المدي.

ورأى (مينارد) ثلاثة رجال يدنون منه.. قائدهم فارع القامة في الثلاثين من عمره له شعر بني صبغته الشمس، وله شارب شمعي يتدلى على جانبي فمه، ويرتدي قميصا أبيض متسخا، وسروالا ينتهي عند أعلى الساقين، وعلى صدره مسدسان من طراز

(فلنت لوك) العتيق.. وخلفه كان رجل أكبر سنا له شعر رمادي معقوص خلف رأسه.

ووراء هذين كان ما يشبه امرأة لها وجه ملطخ متسخ بالفحم، وشعر شبيه بشعر (ميدوسا).. وعيناها ثابتتان على (مينارد) لا تطرفان.

دنت من (مينارد) أكثر ثم بصقت في وجهه.

سأل (مينارد) الرجل الطويل:

- من أنت؟

هنا قال الأكبر سنا للرجل الطويل.

- أعطه ماء.. لا يجب أن تقتل رجلا ميتا.. إنه سيلقى ربه.. هذا مكتوب..

هنا امتدت الأيدي ترش وجه (مينارد) بالماء من مثانة حيوان، فراح يلعق شفتيه، ثم أعاد سؤال طويل القامة.. فقال:

- أنا (جون - ديفيد ناو).. العاشر..

- وأين ولدي؟

- مع الأخرين.

توسل إليه (مينارد):

- بالله عليك لا تقتله.. إنه غلام.. دعه يرحل.. افعل أي شيء بي لكن لا تقتله..

في دهشة هتف (ناو):

- أقتله؟ لماذا؟ أتراني أقتل جنديا قبل أن ينضج بما يكفي ليقتل؟

هل أقتل ثورا قبل أن يكبر ليجر؟ إن ولدك سيحظى بحياة قصيرة لكنها سعيدة.. وسيصنع نهايته بنفسه.

- وأنا؟

قال (ناو) دون انفعال:

- أنت؟ أنت تموت!
- ولماذا؟
- تلكم أساليبنا..
سأله العجوز:
- هل تخشى الموت؟ ليس الموت إلا مغامرة.. هل أنت جبان؟ يجب أن تلقى الموت بكرامة.. ماذا يسمونك؟
- (مينارد)..
- هذا اسم كريم.. اسم محارب..
- وما أنتم!
صاح (ناو) عاليا ليسمعه الرجال:
- هذا الرجل هو (مينارد).. هل منكم رجل لا يعرف دمه؟ لقد كان جده هو قاتل معلمنا العظيم (ذو اللحية السوداء)..
لم يناقش (مينارد).. فهو يجهل أجداده.. ولو كانت النجاة تتطلب هذا فهو مستعد لأن يقول إنه من نسل (جنكيز خان) نفسه.
قال العجوز الذي عرف أن اسمه (هيزونر):
- إن دمك طيب.. يجب أن يكون قلبك كذلك.. (مانويل).. هات الصبي.
كان (مانويل) هو الغلام البرتغالي الأسمر إياه، وسمعه (مينارد) يقول:
- حسن يا (لولونوا).
تساءل (مينارد):
- بم؟ بم ناداك؟
- (لولونوا).. هكذا يتعلم الأطفال أن ينادوني.. وهكذا نادوا جد جد جدي حتى عهد (تشارلز الثاني)..

عاد الصبي مع (جوستين).. وكان الصبي هادئا على عكس ما ظن (مينارد)..
وضع (ناو) يده على رأس (جوستين) وهتف:
- هناك وقت للحياة وقت للموت.. الرجل يموت لكن اسمه وأعماله تبقى.. سيكون اسمك هو (مينارد توبارب).
هنا ردد الجميع دون توقف:
- (توبارب). (توبارب)!
نظر (جوستين) إلى أبيه بنظرات خاوية، ثم بوهن قال:
- لا تقتلوه أرجوكم.
قال (ناو) وهو يضرب (جوستين) على كتفه:
- صه!
هنا صاحت المرأة في توحش وهي تشير إلى (مينارد):
- اقلعوا عينيه!
ابتسم (ناو) وقال وهو يبعدها بساعده:
- إنه نبيل كريم المحتد.. وأنا لن أقلع عيني رجل نبيل.. ثم إنه يجب أن يحتفظ بعينيه كي يري الموت..
- لكنه مزق عيني زوجي (روتش).
- و (روتش) لم يكن نبيلا..
- لو كان بهذا النبل حقا أعطه لي.. سأتزوجه!
ساد الصمت.. وفي تردد قال (ناو):
- لكنه سيموت..
هنا قال (هيزونر) في أسى:
- الدستور يرغمنا على قبول ما تقول.. هذا حقها.
لم يبد سرور على (ناو).. تقدم إلى الساحة وقال للمرأة:
- ليكن.. هو ملكك حتى ترزقي بطفل.. بعد هذا يموت، أما إن لم تنجبي منه فسوف..

ولوح بقبضتيه في وجه المرأة:
- سأنتزع فؤادك وألقى به في الماء!
ثم أمر رجلين بفك قيود (مينارد)، وتركه يسقط على الرمال، ثم قال لـ (جوستين) وهو يبعده:
- هلم يا غلام لم يعد أباك.. إنه زوج الحيزبون الآن.
رأي (مينارد) تردد (جوستين) فصاح به:
- اذهب.. افعل كل ما يطلبون وابق حيا.
وهنا لم يتحمل أكثر فغاب عن الوعي.

☆ ☆ ☆

لم يدر كم نام من الوقت.
أحيانا كان يدرك أنه محموم ثم يشعر بسائل على وجهة له رائحة الخل.
وأحيانا كان يشعر ببرد ثم يشعر بلمسة الثياب الخشنة على جسده.
صحا في الظلام ليدرك أنه في كوخ من طين على شكل قبة.. وأدرك أن ذراعيه وفخذيه مكسوة باللبخات.
كانت المرأة جالسة جواره على الأرض القذرة تحرك شيئا في سلطانية، وقد غسلت الفحم عن وجهها.. لم يستطع تحديد عمرها، فقد تجعد جلدها بفعل الشمس والهواء المليء بالملح.. ربما أدى الطقس والحياة البدائية إلى جعلها أكبر سنا.. ربما هي الآن في الثلاثين من العمر.
كانت الإضاءة قادمة من كشاف يعمل بالبطاريات يتدلى من سقف الكوخ.
ورأى (مينارد) المرأة تناوله السلطانية آمرة:
- كل!

كانت ملأى بسمك نيء جاف.. فسألها:
- ألا تطهون طعامكم؟
- أنت مجنون! أتريد أن أفقد لساني؟
- لا أفهم.
- إشعال النار في النهار عقابه الجلد إشعالها في الليل عقابه قطع اللسان..
- ولماذا تخافون النار؟
- أنت جاهل تماما.. سيرانا الآخرون.
دس قطعة سمك في فمه وحاول ابتلاعها، كانت مطاطية فلم يجرؤ على المحاولة.. بصقها إلى الأرض وهتف:
- لست جائعا..
وأشار إلى اللبخات وسألها:
- ما هذه؟
عادت لتحريك شيء في السلطانية، وقالت:
- (سيبريا)..
(سيبريا)؟ متى وأين قرأ عن (السيبريا)؟ وهنا تذكر أنها شجيرة يستخدم لحاؤها كمسكن.. الآن يسمونه (ساليسيليك أسيد).. الأسبرين.
سألها:
- منذ متى أنت هنا؟
- دائما!
- وكم عمرك؟
- مائة شهر منذ صرت امرأة..
وهنا فهم (مينارد) ما تعنيه.. ثمانية أعوام.. إذن هي في العشرين من عمرها.
سألها:

- أين ابني؟
- مع الآخرين.
- أكثير هم؟
- صبيان والفتاة (ماري).

وراها تأخذ شحما من وعاء فتدهن به صدره وساقيه، وعرف أن هذا لطرد البعوض.. سألها وهي مستمرة في هذا العمل المقزز:

- هل هناك أخرون مثلي؟
- أنت الوحيد الباقي حيا.. نحن نقتل الكبار جميعا لأنهم فاسدون.. فقط الصغار أبرياء.. هذا مكتوب في الدستور.
- أي دستور؟
- ستعرفه.. لو عشت!

☆ ☆ ☆

عشرة..

راح يتأمل الطعام في السلطانية.. ثم قال:
- يبدو لي كالبطاطس الممهوكة..
إنها ممهوكة.. جذور (الكاسافا) مع الموز..
- لست...

ثم توقف عن إكمال العبارة حين رأي النظرة النارية في عينيها.. من ثم واصل الأكل.. كانت (الكاسافا) بيضاء عديمة المذاق، أما الموز فكان ناضجا أكثر من اللازم حتى لم يبق من طعمه سوى السكر.

كان الممهوك لذيذا.. لكن المثير للتقزز كان أسلوبها في الحياكة.

كانت تستعمل إبرة مما يخيطون بها الأشرع، وتحيك قطعة من جلد الحيوان غير المدبوغ لها رائحة لعينة.

- ماذا تصنعين؟
- سروالا... لك!
- ألا تدبغون الجلود؟
- لماذا؟ إن الشمس والماء المالح يفعلان ذلك.. وحين تدبغ الجلود على لابسها فإنها تناسبه تماما.

تقلصت شفتاه من الرائحة.. إنها رائحة الموت ذاته.

هنا انفتحت فرجة الباب المغطاة بالجلد، ودخل (ناو) حاملا صندوقا خشبيا فوقه سلسلة عملاقة.

نظرت المرأة إلى السلسلة وإلى (ناو).. بدا كأنها تعترض.. ثم قالت:

- كما تريد.

استدار (ناو) إلى (مينارد) ليضربه على صدره قائلا:
- هلم يا كاتب.. اعتن بهذه.. إن أحفادنا سيشكرونك..
- أين ابني؟
- ليس لك ابن.. ليس لك شيء.. وقريبا لن تكون أنت شيئا.
وكانت عيناه باردتين مما جعل (مينارد) يشيح بعينيه:
- أريد أن أراه..
- ربما تراه لو أراد هو!
ثم قال للمرأة في غلظة:
- هلمي يا (جودي) واعملي.. ما دمت امرأة ستعملين كامرأة..
وغادر المكان.
قال (مينارد):
- (جودي).. اسم جميل..
- ليس اسما بل هو صفة.. إن اسمي الحقيقي هو (بيث).. والآن هلم..

ثم لفت السلسلة حول عنقه مرتين، وثبتت طرفها الآخر حول دعامة في سقف الكوخ.. وأخرجت قفلا لامعا جديدا.. أحكمت به السلسلة، وقالت:
- الآن لو أردت الهرب فعليك أن تأخذ الكوخ كله معك..

وحين انصرفت جلس على الأرض يصغي.. لا صوت سوي الحشرات وطيور البحر وسباب الرجال.. تفحص القفل.. كان بحالة جيدة تماما ولم يستعمل قط.. وواضح أنه سرق بحالته من قارب.

كان القفل رقميا يحتمل آلاف الاحتمالات.. لذا راح يجرب الأرقام بشكل منظم 011، 010، 001.. وهكذا.. لابد أن يصل إلى الحل لكن هذا يستغرق أسابع وربما شهورا من البقاء وحيدا.

هنا تذكر شيئا: أكثر هذه الأقفال تجيء من مصانعها مضبوطة على رقم 000 صفر صفر صفر.. فلنأمل أن أحدا لم يجرب هذا القفل قط.. فلنأمل أن المصنع قد ضبطه على هذا الرقم.

جرب الرقم فانفتح القفل.!

فكر - راضيا - في أن يهرب الآن.. لكن لا.. هذا مبكر جدا.. وهو لا يعرف أين هو، واحتمال القبض عليه عال جدا.. وإن عقاب الهرب لمعروف.. إن ما حققه لعظيم القيمة لكن من الخير الاحتفاظ به حتى يؤتي ثماره..

أغلق القفل وضبط الأرقام على 648.

الآن يحاول فتح الصندوق الذي تركه (ناو)..

كانت أوراقا عديدة كتبت باليد، وقد حال الحبر في أكثرها، قرب الصندوق من لسان الضوء الداخل من الباب ليستطيع القراءة.

واضح أنه جزء من يوميات شخص ما: (بيان بأحداث يوم سبتمبر السابع 1697).. راح يستخرج الأوراق من الصندوق ويرتبها حوله في دائرة راعى فيها الترتيب الزمني، فكان أولها عام 1680 وآخرها 1978.

- جلست مع القبطان للقارب الذي جنح على الشاطئ، وكان يملك قلب (بوكانير) شجاع. لكنه كان يسأل أسئلة سخيفة وبدت له دوافع يخفيها. لذا أعملت فيه السيف ورفاقه. وقد تبرأ (هيزونر) من دمهم وقال إننا سنلعن. لذا أعملت فيه السيف أيضا فهو لم يعد صديقي وما دام ليس صديقي فهو عدوي وما دام عدوى فاللعنة على لو أخذ نفسا آخر..

ولاحظ (مينارد) أنه كلما تقدم الزمن بالأوراق إلى عصرنا، قلت تفاصيلها وقلت لغتها الأدبية الرصينة.. كان هناك كلام عن

سفن أسرت عام 1920.

«أحدثت ثقبا فيها ونسفتها».. وفي عام 1950 كانت هناك قوائم من الغنائم.. ثم ورقة حديثة جدا تتحدث عن «سفينة الصيد (ماريتا).. قتلنا اثنين وأسرنا واحدا.. فاكهة.. مشروبات.. بطاريات».

ووجد كتابا ضخما باليا محزوما بالجلد كتب على غلافه (بوكانير أمريكا): دراسة عن أشهر الاعتداء على سواحل (الأنديز) بوساطة البوكانير الآتين من (جامايكا) [3].. وكان الكتاب تأليف من يدعى (جون إسكوميلونج)، ومن الواضح أنها الطبعة الأولى المترجمة عن الهولندية في 1684..

كان (مينارد) قد قرأ (إسكوميلونج) من قبل باعتباره أفضل ما كتب عن أيام القرصنة.. لقد أبحر المؤلف في 1660 إلى العالم الجديد كصبي على سفينة، لكنه بيع كعبد إلى حاكم (تورتوجا).. وفيما بعد وصفه بأنه ألعن طاغية أنجبته امرأة.. والسبب الوحيد الذي أنجاه من التعذيب هو أن سيده لم يشأ أن يخسر ثمنه.

واشتراه جراح علمه وعامله معاملة طيبة، ثم أطلق سراحه مقابل تعهد بأن يدفع له مائة قطعة من عُملة الثمانية لو أثرى.

صار (إسكوميلونج) واحدا من (البوكانير) وعمل على سفنهم لمدة عامين، ثم عاد إلى فرنسا وكتب كتابه.

كان أشد ما يثير الاهتمام بصدد (البوكانير) هو قدرتهم على البقاء أحياء.. بموهبتهم المتوسطة استطاعوا أن يتماسكوا ويغزو أقوى أمم الأرض.

لقد مات كثيرون منهم بسبب المرض أو الحروب لكنهم لم ينقرضوا..

بدأ (البوكانير) كعبيد فارين، وبحارة غرقت سفنهم، ومساجين هاربين، ومراهقين يحلمون بالحب والثراء.. وأنشأوا مستعمرات لهم في (تورتوجا) يصطادون السمك ويدبغون الجلود، فوق مواقد تسمى (بوكان) لهذا أطلقوا عليهم اسم (بوكانير)..

وحين كان شخص ينضم لهم، كان ماضيه ينمحي.. يصير له اسم جديد ربما يعود إلى موطنه مثل (بارثلميو البرتغالي).. أو يعدو إلى صفة فيه مثل (جاك البدين)..

لكن إسبانيا ضيقت عليهم الخناق، ومنعت كل ضروب التجارة فيما عدا ما يتم منها بوساطة سفن إسبانية.. وكان هذا غير كاف لأن السفن الإسبانية لا تصل سوى مرة أو مرتين في العام، ولا تحمل سوى القليل من المؤن.. مما يهدد حياة هؤلاء القوم وصحتهم.

لهذا ولدت كراهية مريرة ضد الإسبان لدى (البوكانير).. وتدريجيا غير (البوكانير) مهنتهم لتكون الصيد.. صيد السفن الإسبانية.

بسفنهم السريعة الصغيرة كانوا يحاصرون السفن الإسبانية الضخمة البطيئة، وبأسلحتهم الخفيفة كالسيوف والخناجر كانوا يمزقون جسد الإسباني قبل أن يتم حشو بندقيته السخيفة.

وانتشرت سمعة (البوكانير) حتى فاقت الحقيقة بكثير.. وكان أقساهم قلبا هو (جون - ديفيد ناو) الجد الأكبر لـ (ناو) الحالي.. معه كان الإسبان يعرفون ألا أمل في النجاة أو الرحمة.

لقد قبض (ناو) مرة على بعض الإسبان يستنطقهم.. فلما أبوا الكلام؛ أخرج سيفه وشق صدر أحد الإسبان، وانتزع قلبه.. ثم قضمة أمام الآخرين كذئب مسعور، قائلا لهم:

- جزاؤكم مثله!

يقول أكثر كتّاب التاريخ إن عهد القرصنة انتهى في بداية القرن الـ 18 حين كفت إسبانيا عن أن تكون قوة بحرية.. لكن (مينارد) يعرف الآن أنهم مخرفون.

لقد. شعر (ناو) بأنه مخيف للجميع حتى حلفائه أنفسهم، لهذا أبحر إلى منطقة جزر مهجورة تدعى (كايكوس)..

وقد أدرك أن الأرض مناسبة للفارين تماما.. فلا يوجد بها ما يغرى سفينة لترسو، والمياه جوارها خطرة سخية بحطام السفن التي كانت في طريقها من (كوبا) إلى الأطلنطى.

كان معه عشرون رجلا اشترى حياتهم عشية إعدامهم عن طريق الرشوة، وست فتيات مخطوفات.

ولمدة طويلة لم ير الجزيرة أحد.. لم يأتها أحد بإرادته ولم يبرحها أحد حيا كما هو واضح.. ولكن الأمراض تفشت بشراسة في سكانها.

بعد أن مات (ناو) طالب (هيزونر) بالسلطة المطلقة.. وكتب دستورا يحكم به البلاد.

فيما بعد أسروا سفينة كانت تقل ابنة حاكم (بورتريكو)، وكانت صغيرة جدا وبصحة جيدة، لهذا تزوجها (هيزونر).. فأنجبت له طفلا سليما معافي أسماه (ابن أولونوا)، وأعلن أن الطفل هو الوريث الجدير بالسلطة.. وأنه سيظل يحكم حتى يصل الصغير لسن الرشد.. بعدها يعطيه مقاليد الحكم.

وهكذا بدأت سلالة من الحكام أصحاء الجسد في (البوكانير)..

فتش (مينارد) عن نسخة من الدستور.. أخيرا وجدها.. وكانت رقاقة جلد مطلية بالورنيش لحمايتها من العطب:

- بما أننا أناس أحرار لنا حرية أن نحارب أو نسالم الآخرين: قررنا أن يكون لنا نظام يحكمنا لهذا وضعنا الميثاق، ونقسم أن نعيش بهذا الدستور تحت طائلة الموت

المادة (1): كل رجل سيطيع (أولونوا) فإن غاب ف (هوزونر)، والعصيان هو تهمة مدنية

المادة (2): كل من يثُر أو يحاول الهرب أو يكتم ما يعرفه عن محاولات الآخرين للهرب سيطلق عليه الرصاص، الهرب هو تهمة مدنية.

المادة (3): كل من يهاجم شخصا آخر دون إنذار عادل ينل عقاب القط (عشرين جلدة)، فإن مات الأخر يجلد حتى الموت.

المادة (4): كل من يفقد طرفا في معركة يتلقى خمسمائة قطعة من الثمانية، أما إذا مات فسينال ورثته عشر الغنائم.

إلخ.......

كما كانت هناك ملحقات للدستور تحوي جرائم لم تكن موجودة إبان كتابته.. مثلا: لا يحق لأحد الاحتفاظ بلاسلكي.. يوجد واحد فقط لدى الجماعة ويستخدم للاستقبال فقط، أما إرسال الإشارات فتهمة مدنية.

أو: لا يحق لأحد استعمال أي دواء وإلا عم الجنون المجتمع، كل الأدوية تدمر فيما عدا البنسلين ويحتفظ به (أولونوا) ويعطيه لكل من يشعر بـ (حريق في بوله).. إخفاء الدواء تهمة مدنية.

هنا ظهر ظل على الباب.

كانت هذه المرأة (بيث) دنت من (مينارد) في أثناء قراءته، ففكت طرفي السلسلة ولفت طرفا حول عنقه.. ثم أمرته:

- قف!



هنا ظهر ظلٌّ على الباب .. كانت هذه المرأة (بيث) .. دنت من (مينارد) فى أثناء قراءته ..

وأمرته أن يرتدي السروال.

كان مبتلا بالدم والدهن من الداخل، ويفوح برائحة عطنة.

- إلى الخارج!

- لأين؟

- (توبارب) وافق على أن يراك.

هنا تذكر الاسم.. إنه مألوف.. إنه الاسم الجديد لابنه!

- وافق؟ هذا فضل منه..

جذبته من عنقه ككلب أليف إلى الباب، وهي تقول:

- تذكر.. الأطفال يكرمون لأنهم المستقبل.. أما أمثالك فهم.. فهم الماضي!

☆ ☆ ☆

أحد عشر..

اقتادته عبر ممر متشعب وسط الأشجار.. بين مجموعة من الأكواخ الطينية القذرة يسمع من ورائها صوت الضحك.

في النهاية رأي (جوستين).. لكم بدا مختلفا وهو يقف وسط (ناو) والصبي البرتغالي.. كان يرتدي قميصا أبيض وسترة جلدية بلا كمين.. ومن جيبه برز كعب المسدس.

ما إن رأوا (مينارد) حتى وقف الثلاثة وقفة معينة.. الأرجل مفتوحة والأيدي على الردفين.

حاول أن يركض نحو ابنه لكن السلسلة منعته.. وإذا بـ (بث) تجذب السلسلة كي ترغمه على أن يجثو على ركبتيه فوق الرمال.

كان الألم على وجه الصبي وهو يرى أباه يتألم أمامه.

أخيرا قال (مينارد) في وهن:

- كيف حالك؟

انحشرت لفظة (بخير) في حلق الصبي.. لكنه سعلها.

ضرب (ناو) على كتف الصبي كي يقول ما لقنه له.. فقال هذا:

- أين باقي طلقات هذا المسدس؟

وأبرز المسدس الـ (بي بي كي) من جيبه.

- أنت تعرف.. في درج المكتب.

قال (جوستين):

- أعتقد أنه لم يحضر الطلقات معه إلى البحر.

قال (ناو) وهو ينظر للأسير:

- حسن.. سيكون هذا أخر حديث منفرد لك مع الصبي.. هلم يا (توبارب). وأشار للمرأة كي ينصرفا.

وترددت المرأة ثم تركت طرف السلسلة، ولحقت به.

جلس (مينارد) أرضا عند قدمي (جوستين) وضرب الأرض داعيا إياه إلى الجلوس جواره.. فلم يبد الصبي على استعداد للطاعة.

قال (مينارد):

- إن كل يوم نبقاه حيين معناه فرصة أفضل.. كل شيء هو أفضل من الموت على كل حال.. هل عرفت من هم؟

- يتحدثون بطريقة غريبة.. لا أشعر بأنهم أمريكان.

- ماذا يقولون؟

- يقولون إنهم سيقتلونك.. هل هذا صحيح؟

صحيح ما لم نرحل قبلها.. هل تكلموا عن قوارب؟

- لا قوارب بحرية.. لا توجد سوى قوارب بدائية هنا.. وهذه يتم حراستها حتى فى الليل.. إنهم يدربونني كي أصير رجلا.

ودون أن يحاول إخفاء ذلك، بدا السرور والفخر على وجه الصبي كأنما تسعده فكرة الرجولة المبكرة هذه.

سأله (مينارد) واللوم في عينيه:

هل المسدس محشو؟

- نعم.

إذن أخف طلقتين في موضع ما.. فلربما نحتاج إليهما.. هل توجد أسلحة أحدث؟

- (لولوان) لديه بندقية M-16 عتيقة.. إنهم يمقتون الأسلحة الحديثة لأنهم لا يجدون ذخائر لها..

هنا نادي (ناو):

- هلم يا (توبارب)! حان الوقت.

وابتعد الصبي ببطء بينما الأب يرمقه في أسي.

لم يشعر بأن (بث) عادت وأمسكت بالسلسلة، وقالت له:

- لقد رحل.. كلما قبلت هذا أسرع كلما زال الألم أسرع..

ثم أردفت وهي تناوله كيسا مليئا بسنون خشبية

- إن لدى سنون كتابة لك.. يريدون منك أن تستغل الوقت الباقي كي تكتب عن أمجادنا مثلما فعل (إسكوميلونج).

- وماذا أكتب؟ أنتم لا تفعلون شيئا.

- ستجد ما تكتبه سريعا.. فنحن بحاجة إلى (جائزة) بأسرع ما يمكن.. لقد نفد الشراب والموالح.. ونحن نبحث عن صيد سريع ثرى.

☆ ☆ ☆

انتظر حتى انتظمت أنفاسها، وراحت تتشاجر مع مخلوق ما في نومها.

تحسس السلسة ثم عالج القفل بحذر حتى فتحه.

الآن صار حرا.. أعاد غلق القفل.

تسلل خارجا من الكوخ.. ونظر للسماء.. كان النسيم الهادئ آتيا من الشمال لذا اتجه للجنوب.. لم يكن يعرف شيئا عن المد والتيارات لكنه كان يعرف أن عليه الإبحار عكس الريح.

لن يبحث عن (جوستين).. فالصبي تحت حراسة محكمة بالتأكيد. ثم إنه لا يريد تعريضه للأخطار التي سيواجهها وحده في المحيط حيث لن يقابل سوى الأرض أو قارب أو يموت.. إن (جوستين) آمن هنا حتى يعود له أبوه بقوة مسلحة.

(ناو) لن يؤذي الصبي.

وعلى الشاطئ وجد طوفا من خشب.. شيء يطفو يمكنه أن يستريح عليه.. دفعه إلى الماء حتى صار الماء عند صدره ثم تسلقه..

التيار واهن جدا والريح تحركه ببطء بعيدا عن الجزيرة.

كان فخذاه تحت الماء حين شعر بشيء يحرقه هناك، كاد يصرخ لكنه أبقى فاه مغلقا.. مد يده يتحسس فخذه لكنه شعر بها تحترق.. لهث ألما وانتزع يده.

أخيرا اصطدم بشيء أملس يسبح على الماء، منتفخ كبالون، وله زوائد كثيرة.

هذا قنديل بحر..!

غريزيا حاول أن يبتعد، حاول أن يبعد السياط السامة عن صدره.. كأن شخصا ما يمزق جلده بسكين ساخن.

لكن سياطا أخرى لمست ظهره وتسللت بين فخذيه. الآن يرى جيشا من الفقاقيع البيضاء فوق الماء.. صرخ وتلوي وضرب الماء عائدا.

وصل إلى الشاطئ فارتمى فوق الرمال شعر بشيء يضربه على صدره، ويلقيه على ظهره، وسمع من يصرخ:

- أيها الأحمق!

ثم عاد يأمره:

- ابق حيث أنت!

كان هناك سائل يتدفق فوقه، رائحته قوية.. لكنه يزيل الألم.. حاول أن يقول شيئا لكن لسانه كان أثقل من أن يتحرك.

ثم غابت الأصوات.. كأنه يحلم.. صرخة امرأة

جلس وهز رأسه.. نظر جواره فرأي (بث) واقفة، وكان جسدها مزدانا بتلك البالونات البيضاء لقد أنقذته من الماء، لكن قناديل البحر حاصرتها هي.

حين رأته أفاق صاحت:

- هلم يا غبي! البول!

- ماذا؟

- بولك! هذه هي الطريقة الوحيدة لإزالة السم.. لقد فعلت ذات الشيء معك! [4]

وعندما فعل راح الألم يزول تدريجيا كأنما هو سحر.

☆ ☆ ☆

اثنا عشر..

فكر في كل شيء لكن أفكاره كانت تقوده دائما إلى اليأس والتفكير في الانتحار.

لو استطاع أن يجد قاربا و (جوستين) وبعض الماء، فلربما يستطيع تخريب القوارب الأخرى ليحرم الآخرين من استعمالها، ويفر إلى المحيط.

لكنه رأي سرعة هؤلاء القوم في إصلاح القوارب القديمة، ورأى براعتهم الرهيبة في قراءة حركة الريح وسرعة المد.

سيجدونه فورا.. وهم لن يعطوه فرصة أخرى.. فلا مجال للفشل.

لكن فكرة الموت لم تعد تضايقه، باعتبارها شيئا لا مفر منه.. وضايقه أنها لم تعد تضايقه.. المشكلة هي أن موته يعتبر نهاية مستقبل (جوستين) الواعد.. سيعيش قرصانا ويموت مبكرا بطلقة في رأسه.

لو هرب من هنا لتغيرت حياته كلها.. سيدرك جدواها، وسيعامل كل دقيقة باعتبارها شيئا ثمينا لا يجب أن يمر دون استمتاع أو تعلم.

وكانت آماله - في النهاية - تستقر على أمل خافت في أن يجده أحدهم لكنه كان يقر عندئذ أن أحدا لن يبحث عنه لأن أحدا لا يهتم بأمره.. هذا لا يدهشه.. سيغتاظ (هيلر) لاختفائه قليلا لا أكثر.. فيما عدا هذا لن يفتقده أحد.

الأمل الوحيد الآن هو زوجته (ديفون).. لابد أنها اتصلت بحرس السواحل وأبرقت إلى البيت الأبيض.. لكن محاولاتها لن تؤدي إلى شيء إلا بعد فوات الأوان.

☆ ☆ ☆

في الليل دوي صوت النفير عميقا جنائزيا.

صحا (مينارد) قلقا.. ومعه (بث) التي ربطت السلسلة حول عنقه ثم اقتادته للباب سريعا.

سألها في ذعر:

- ماذا؟

- صيد!.. هلم

وركلته حتى لا يسأل المزيد.. وهتفت:

- إن لي عشر هذا الصيد.. لن أتأخر.

وفي الخارج كان الليل قد أوشك على الانتهاء، واستطاع أن يرى ضوء الفجر وراء الأشجار.. الكل يركض نحو الساحة الرملية.

كان (ناو) واقفا أمام كوخه، والمسدسان من طراز (فلنت لوك) متقاطعان على صدره، والذخائر في حزامه.. وجواره وقف (هيزونر) و (مانويل) و (جوستين).. وكان هناك مشعل مغروس في الرمال أمام (ناو)..

حين احتشد الرجال، تقدم (هيزونر) إلى الأمام وصب البارود من قرن جاموس في وعاء على النار.. وصاح:

- اشربوا!.. فلتكن لكل منكم قوة عشرة رجال.. ولتجلبوا لنا المجد.

هنا تقدم الرجال من الوعاء وشرب كل منهم بيده أو بقدح.. سعلوا وضحكوا وبصقوا هنا أمر (ناو) الغلامين بالشرب..

تقدم (مانويل) وحبس أنفاسه.. ثم شرب من السائل الرهيب.. سعل، ودمعت عيناه.. ولدهشة (مينارد) تناول الصبي جرعة أخرى..

ثم جاء دور (جوستين) الذي مد يده دون تردد وشرب.. وراح يبصق على حين ضحك الرجال وهللوا.
قال (ناو) لـ (بث):
- هذه السفينة هي إرث من زوجك.. فلتكن غنية!
وجرعت المرأة بدورها من الوعاء، ثم قال (ناو) لـ (مينارد):
- والآن يا كاتب.. هل تواجه هذا اليوم دون نار في أحشائك؟
انحنى (مينارد) على الوعاء.. كتم أنفاسه ثم شرب.. شعر بالنار في صدره تنحدر إلى معدته وكان مذاق السائل كالكبريت.
هنا صاح (ناو) بصوت أرغم الرجال على الصمت:
- لدينا أخبار عن صيد ثمين قادم من الجنوب الغربي.. الطاقم دستة ولابد أنهم مسلحون.. لو كان منكم من يرغب في الانسحاب فليقل..
تعالت أصوات (لا) مع مزيد من الضحكات، والجرعات من الوعاء الأكبر.
قال (ناو):
توزيع الغنائم سيتم كما هو معتاد.. لكن المرأة ستنال عشر الغنيمة قبل التقسيم.. أما الصبيان فينال كل منهما نصف نصيب.
صاح (مينارد):
- لن تأخذوا ابني معكم!
ابتسم (ناو) وقال:
- بل سنأخذه يا كاتب وكذلك أنت.. يجب أن يتعلم الجراحة.. ويجب أن تكتب أنت ما سيحدث.. سيأتي الصبي معي..
ثم صاح بالرجال:

- استعدوا! لو كان عددنا صغيرا فقلوبنا كبيرة.. وكلما قل عددنا كلما زاد نصيبنا من الغنائم.
وقال (هيزونر):
- فلتبق أفئدتنا صلبة قوية اليوم.. أطلقوا مدافعكم يا شباب وأحيلوها جحيما.. لأن هذا اليوم سيكون كالأيام الخوالي..

☆ ☆ ☆

كان كل قارب يحمل ستة رجال، وإن زاد الصبيان و (مينارد) و (بث) على قاربين منها.
كان (ناو) في قارب المقدمة.. أما رجله الثاني فكان في قارب (مينارد)، وهو شاب يدعونه (جاك الوطواط)، برد أسنانه لتبدو كالأنياب.
كان كل رجل يحمل مسدسا وخنجرا وفأسا.. كلهم حماسة لكنهم صامتون.. الشمس ترتفع وراءهم من الشرق ليذوب الذهب على صفحة الماء.
بدأت ترتفع أكثر وشعر (مينارد) أنها تحرق ظهره.
نحو الجنوب الغربي نظر (هيزونر) وهتف:
- بحق الجحيم هذا مركب ضخم..
نظر (مينارد) جيدا لكنه لم ير شيئا.
بعد قليل بدأ يرى نقطة في الأفق.. تكبر وتكبر.
صاح (ناو):
- سفينة ذات شراعين! يا لها من لعينة جميلة!
لكن (مينارد) لم يستطع تبين كل هذه التفاصيل.
- ستتناولون عشاء حقيقيا هذه الليلة يا شباب! استعدوا.. هناك من سيأكلون معنا ومن سيأكلون مع الشيطان.. ولا شيء

في الوسط!

وأبحرت القوارب في دوائر بانتظار وصول السفينة ذات الشراعين.

الآن يرونها.. طولها مائة قدم على الأقل.

صاح (ناو)..

- من سيكون الثعلب؟

قال (هيزونر):

- أنا.. وأنت الصياد الفقير.

وأزاح (ناو) الدفة إلى اليمين منفصلا عن المجموعة.. الآن تدنو السفينة أكثر حتى ليتبين (مينارد) اسمها (بريجادير) بحروف مذهبة على جانبها.

وعلى ظهرها وقف رجلان يصرخان ويلوحان طالبين من القوارب الابتعاد.. لكن القوارب لم تبتعد.. ودارت السفينة محاولة تفاديهم.

عندها رأي (مينارد) أحد القراصنة بجواره يصوب بندقيته.. يجذب الزناد.. يطلق طلقة مدوية.. صوت المعدن.. ثم وهج من النيران والدخان.

وانتظر الرجل ليتأكد من أن طلقته لم تطش.

☆ ☆ ☆

وعلى السفينة ابتعدت يدا رجل الدفة عن العجلة، وبدا كأنما يحاول تثبيت قطعة العظم التي طارت من جمجمته، ثم هوي للأرض.

اندفع رجال التجديف في القوارب نحو السفينة ودون كلمة أخرى غرس أول المجدفين مجدافه كالحربون في دفة السفينة..

انحشر المجداف فتوقفت السفينة عاجزة عن الحركة أو تغيير اتجاهها.

اندفع الرجال مستعرين حماسة إلى الدفة، وتسلقوا جدار السفينة كالعناكب.

ورأى (مينارد) (هيزونر) يتقدم من فوقه.. عيناه تلتمعان.. شعره مشتعل.. خنجر بين أسنانه.. فأس في يده، وصاح:

- مع الموت قد أقمنا عهدا.. ومع الجحيم قد اتفقنا!

دوت صرخات الذعر على السفينة.. وصوت خطوات تجري.

هنا صاحت (بث) وهي ترفع تنورتها وتثب إلى الدفة:

- هلم!

- أنا؟

- نعم وإلا قتلوك حيث أنت.

وثب بدوره - والسلسلة حول عنقه - إلى الدفة.. انزلقت يداه لكنه غرس أظفاره في المسامير.. وتسلق.

كان ظهر السفينة جحيما من رجال يركضون ويصرخون، وقد تمددت عدة جثث بلا رأس أو بلا أحشاء على الخشب.

جذبت (بث) (مينارد) منحنية كي تتحاشى الطلقات الطائشة.

وراي (مينارد) (ناو) والغلامين قد سبقوه.. كان (جوستين) متصلبا من الذعر.. فانحني (ناو) وتكلم إليه.. وإذا بالغلام البرتغالي (مانويل) يمسك بقطعتين من الخشب يربطهما سلك رفيع، ويتربص بشيء ما.

ظهرت امرأة تركض على السطح، تنظر للوراء وتصرخ، هنا لم تدر ما حدث حتى وثب الصبي فوق كتفيها، ولف قطعة السلك وشدها حول عنقها.. لم تستطع الفرار أو الفهم..

جحظت عيناها وبرز لسانها، ثم سقطت أرضا.

رأي (مينارد) شابا طويل الشعر يتسلق الصاري في محاولة عديمة الجدوى للفرار.. سحب بحار مسدسه ليطلق الرصاص لكن (ناو) ضرب يده وركع جوار (جوستين) ليأمره بشيء.. عندما فهم (مينارد) ما سيحدث..

راقب (جوستين) وهو يرفع يديه بلا براعة حاملا المسدس، ويصوبه نحو الرجل فوق الصاري هنا أمره (ناو):

- اضغط الزناد!

أغمض الصبي عينيه وأطلق الرصاصة.. لكنها لم تصب الرجل.. لكن (ناو) أمره بإعادة المحاولة، وهذه المرة سمع الجميع صوت الرصاصة تضرب الجسد.

تلمس الرجل صدره ثم سقط في الهواء، بعد ما دار دورتين.. واصطدمت ذقنه أولا بالأرض تلاها جسده.

- (توبااارب)!.. (توبااارب)!

هل الرجال فرحا، وراحوا يمتدحون (جوستين) الذي احمر وجهه وامتلأ فخرا، وراح يتواثب تعبيرا عن طربه.. راقبه (مينارد) شاعرا بالغثيان.. فهو لم ير الصبي بهذا السرور إلا حين جلب له (بابا نويل) قطة في الكريسماس.

اندفع (مينارد) نحو ابنه، ودون أن يرفع عينيه إليه مد كفه متوقعا أن يدس له الغلام المسدس فيها.. انتظر هنيهة فلما لم يحدث شيء رفع عينيه ليجد أنه يحدق في دائرة سوداء مفرغة هي فوهة المسدس.



انتظر هنيهة فلما لم يحدث شيء رفع عينيه ليجد أنه يحدق
في دائرة سوداء مفزعة هي فوهة المسدس ..

كان (جوستين) يصوب المسدس إلى رأس أبيه.
ركز بؤرة النظر إلى وجه (جوستين) فرأى عليه ابتسامة مرعبة.

كانت عيناه لامعتين وحدقتاه متسعتين.. لقد كان الصبي تحت تأثير مخدر ما.

دوي صوت الطلقة عاليا فأغمض عينيه.. فتحهما ليجد أن فوهة المسدس تحركت بوصتين إلى يمينه..

وضحك (جوستين) ضحكة عالية كأنها لحن سام يفسد الجو، وابتعد.

تراجع للوراء فاصطدم بجسد الرجل الذي سقط من فوق الصاري.

راح يعبث في ثيابه بحثا عن سلاح ما، لكنه لم يجد سوى قلادة ذهبية تتدلى على صدره.. قلادة على شكل موسى.. وهي من الطقوس السرية لتجار الكوكايين ها هنا.

☆ ☆ ☆

ثلاثة عشر..

بقى خمسة أحياء من السفينة ذات الشراعين، منهم امرأة.. اقتادهم رجل يدعى (باسكو) هو مساعد ثان لـ (ناو).. كان ملتحيا شرسا راح يرمقهم بعينين من نار.

كانوا مذعورين لكنهم لم يكونوا يعرفون تفاصيل كافية لأن يفقدوا الأمل.. وقفوا على سطح السفينة، على حين راحت (بث) بلهفة تتفقد الغنائم، وامتلأت قوارب القراصنة بمحتويات السفينة من سلاح وأطعمة ومشروبات. فقط تخلصوا من الأدوية ومما لم يرق لهم من طعام مثل المعلبات.

تساءل أحد الأحياء:

- إلى أين تأخذوننا؟

قال (ناو) في جدية:

- إلى وطنكم طبعا..

بدت الراحة على الخمسة.. وفكر (مينارد):

هؤلاء لا يعلمون! المكان مليء بالجثث ورائحة الموت تزكم الأنوف، لكنهم ما زالوا لا يعلمون!

سأل (ناو) أحد الخمسة:

- من قائدكم؟

قال أحدهم:

- أنا.

- وما حمولتكم؟

- هي أمامك..

- بل هذه علف ماشية لا حمولة..

وأشار برأسه إلى (باسكو)، الذي مد يده بالخنجر إلى يد الفتي، وبحركة سريعة نظر هذا إلى يديه فوجدهما على ما يرام. فقط بدلا من خمسة أصابع بقيت أربعة.. ورأى (مينارد) الدم ينسحب من وجه الفتى.. وصرح:

- اللعنة!

- لا تجرب صبري.

سأنزف حتى الموت..!

وهنا اتجه (باسكو) نحو المرأة، فصرخت وهي تتراجع:

- إن الحمولة تحت السطح!

- وما محتواها؟

- إنها كوكايين!

نظر (ناو) إلى (هيزوتر) و (باسكو) في عدم فهم.. فتطوع (مينارد) بالتفسير:

- تعني مخدرات.

- أي.. أدوية مثلا؟

- كلا.. إنها أشياء منومة.. أدوية منومة.

عاد (ناو) يسألها عن مكان النقود، فقالت وهي توجه الكلام لـ (مينارد):

- ليس لدينا مال.. نحن لم نسلم البضاعة بعد.

شعر (مينارد) بالسخف.. فهي تحسبه مترجم هذه الجماعة، وود لو يخبرها أنه أسير مثلها وينذرها.. لكن ما جدوى ذلك؟

صاحت المرأة:

- يمكننا التفاهم.. إن الكوكايين يساوي ثروة..

أدرك (مينارد) أنها أذكى من الآخرين: لقد أدركت قدوم الموت.

ضحك (ناو) وقال:

- حقا صفقة عادلة! إن عندي سفينتكم وبضاعتكم وأشخاصكم.. ما الذي تقدمونه لي ولا أملكه؟
حقا لم تكن هناك إجابة.. وفي عصبية صرخ (جوستين) الصغير:
- فلنفرغ منهم!!
- حقا يا (توبارب).. إن الكلام يضيع الأنفاس..
وكان الرجال قد أخرجوا المسحوق الأبيض في أكياسه من قاع السفينة، فراح (ناو) يتفحصه في ارتياب ثم سأل (مينارد):
- ما هذا الشيء؟ هل يأكلونه؟
- لا.. يشمونه.
وضع بعض المسحوق على نصل الخنجر وتشممه لحظة، ثم بصق على الأرض:
- إلى القاع!
راح الرجال يقذفون بالحمولة في البحر، فصرخ أحد الأسري:
- توقف يا رجل!.. إن هذا مال وفير!
- اخرس!
ووقف (هيزونر) أمام الرجال يتلو موعظة مملة جدا.. بينما الجريح الذي فقد إصبعه لا يشعر بما يحدث.. أما الرجال الباقون فراحوا يرددون عبارات من نوع هلم يا رجل وكفي مزاحا.
لكن المرأة علمت وصدقت.. صرخت وحاولت الهرب.. أمسكها (باسكو) من شعرها وأعمل المدية في عنقها.
وفي نفس اللحظة أفرغ (جوستين) رصاص مسدسه في الجريح، وكاد يواصل العمل لولا أن جذب (ناو) يده:
- لا تضف الإهانة إلى الموت.. ثم إن الرصاص ثمين.. لقد مات..
وكان (باسكو) قد فرغ من الآخرين بمديته، وبسهولة تامة.

راح (مينارد) يرتجف هلعا وفرقا.. وصاح وهو يشير إلى (جوستين):

لقد صنعتم منه وحشا!

- لقد أجرى الجراحة بنجاح.. فالعمل المفترض عمله يجب أن يعمل! ما الخسارة في فقد هؤلاء؟

ثم أشار إلى (مانويل) وقال أمرا:

- أغرقها!

وابتعدت القوارب بغنائمها على حين رأي (مينارد) السفينة تميل إلى جانبها.. تهبط لأسفل بأحد جانبيها تحت تأثير الثقوب التي أحدثها الصبي، وسرعان ما اختفت من فوق الماء تاركة بعض الفقاقيع لا أكثر كأنما لم توجد قط.

وكانت الشمس قد أشرقت حين عادت القوارب إلى الجزيرة، ورأى (مينارد) رجلا يقف على الشاطئ جوار قارب صغير.. لم يتبين ملامحه في الظلمة لكنه أدرك أنه يرتدي سترة قطنية بيضاء.

سمع الرجل يهتف:

- أحسنتم يا صاحب الامتياز؟

هنا أدرك أن هذا هو (وندسور)!!

كانت القوارب قد تم جرها إلى الشاطئ وجرى إفراغ حمولتها.. ولاحظ (وندسور) وجود (جوستين) بين القراصنة، فهتف:

- يبدو أن معنا شابا.. هلا أعطيتنا اسمك الجميل يا صبي؟!

فقال (ناو):

- يدعى (توبارب)..

- اسم جميل.. كيف كانت المعركة يا شاب؟

- جميلة.

قالها (جوستين) في رضا.. وراح (وندسور) يتفقد الموجودين بعينه، وهو يقول لـ (ناو):

- سفينة ثرية.. لقد استنتجت هذا من محادثتهم مع الساحل..

- لم يكن بها سوى مخدرات كما يسميها الكاتب.

- من؟

والتقت مذهولا ليرى (مينارد) مقيدا بالسلسلة من عنقه خلف (بث).. فصاح وقد تذكره وتذكر (جوستين):

- لماذا لم يمت هذا؟

ثم قال موجها كلامه إلى (مينارد):

- لقد حاولت إنقاذك لكنك كنت أحمق.. كان يجب أن تموت..

قال (ناو):

- هذا ما سيكون، وليس قبل وقت طويل.. إنه يكتب أخبارنا بانتظار إعدامه..

- يجب أن يموت حالا.

☆ ☆ ☆

وفي الوقت ذاته كانت (بث) عاكفة على نقل نصيبها من الغنائم إلى كوخها، ومن بعيد تعالت أصوات الاحتفال، والزجاجات التي تتهشم، والأجساد التي تسقط على الأرض.. كان الرجال (يحتفلون) بنهب السفينة.

قالت لـ (مينارد) وهو يساعدها في ترتيب الأشياء في حجرتها.

- سيكون علينا أن نلحق بالمجلس هذه الليلة.

نظر إليها متوقعا شرحا، لكن كل ما منحته إياه هو ابتسامة حزينة باهتة.. وطلبت منه الخروج معها بعدما فكت السلسلة عن عنقه.

وفي الخارج كان الرجال محتشدين خارج كوخ (ناو).. وكان الهرج والمرج شديدين، وقد جلس (ناو) أمام كوخه يرمق الفوضى في صرامة بعين لا تفوت شيئا.. لكنه لم يتدخل عالما أن مجرد وجوده كاف لإبقاء نوع من النظام.

فما إن رأى (مينارد) حتى صاح في جذل:

- آه يا كاتب! تعال لتري سقوط (روما)!

ثم لاحظ أن (مينارد) لا يضع السلسلة، فقال لـ (بث):

- أين لجامه؟

دنت (بث) من أذنه، وهمست بضع كلمات فتهلل وجهه وأشار لـ (مينارد) كي يجلس جواره ويشاركه الشراب.

همس (مينارد) للمرأة:

- ماذا قلت له؟

- قلت إنك جدير بالثقة!

هنا رأي (وندسور) خارجا من أحد الأكواخ يترنح ودنا منه فسأله (مينارد):

- منذ متى أنت هنا؟

قال (وندسور) بلهجة متعثرة:

- منذ ثلاثين عاما.. غرق قاربي ووصلت إلى هنا..

- وتركوك تعيش؟

- لم يقبضوا عليّ قط لقد رأيتهم أولا وكدت أطلب عونهم، لكني خبير في علم الأنثروبولوجي، وفهمت على الفور أنهم لا يرحبون بالزوار وربما يقتلونهم؛ لهذا ابتعدت سابحا.. طفوت مستعينا بجثة خنزير متعفنة منتفخة.. وبعد يومين التهمته

أسماك القرش فواصلت السباحة يوما آخر حتى وجدَتْني سفينة.

وحين عدت لعالم العمران لم أتكلم قط.. لقد سحرني هؤلاء القوم.. لم أتصور ما يمكن أن يحدث لو أبلغت السلطات.. عندها سينقرض هؤلاء خلال أسبوع واحد.. إن الحضارة ستحل مشكلتهم بأن تبيدهم.. لهذا عدت لهم!

- وكيف دنوت منهم؟

ابتسم (وندسور) وقال:

- بحذر.. تعاملت معهم كأنني أتعامل مع قبائل بدائية أكلة لحوم بشر.. أرسلت لهم أشياء يحتاجون إليها كالزجاج والبارود.. ودائما كنت أرسل لهم رسائل تطمئنهم وتخبرهم أنني الوحيد الذي يعرف وجودهم.. في النهاية تم الاتصال في المحيط.. قارب مسلح ضد قارب مسلح.. وكان لدى ما أعطيه لهم: تحركات السفن جوار جزيرتهم.

- وماذا استفدت منهم؟

- تعلمت أسلوبهم في الحياة.. أن تحيا لتحيا.. إن كلا منا حيوان شرس والحضارة فراؤه.. أما هؤلاء فحيوانات تحيا بلا فراء.. حيوانات على طبيعتها..

هنا تقدمت (بث) إلى الساحة.. وقفت في المنتصف.. ولاحظ (مينارد) أنها استبدلت بثيابها ثيابا بيضاء نظيفة، وقد دهنت شعرها بالزيت وكانت يداها خلف ردفيها، وعيناها مطرقتان إلى الأرض.

تلاشي الصخب.. وصاح (ناو):

- إن (جودي) لديها ما تقول..

قالت (بث) بصوت متهدج:

- لم أعد (جودي) بعد اليوم.. إنني أحمل طفل (مينارد)!

تصاعد التهليل من الحشد.
هنا فهم (مينارد) سر الحزن في عيني (بث)، ولماذا قبل (ناو) أن يترك بلا سلسلة، ولماذا صار جديرا بالثقة فجأة.
لقد كانت (بث) زوجته حتى ترزق بطفل، عندها تنتهي حياة (مينارد) لهذا سأل (ناو):
- متى؟
- غدا.
- كيف؟
- سريعا.. وبالطريقة التي تختارها.. إنها جراحة لا تسلية.
ونظرت له (بث) في شفقة.. لقد صار لها مستقبل باسم في هذه الجزيرة، لكن معنى هذا أن من وهبها هذا المستقبل لن يعود له مستقبل!
كان الظلام قد حل تدريجيا، ورأى (مينارد) الغلامين (جوستين) و (مانويل) يبرزان ليلحقا بالحشد، وكان (مانويل) يضع قلادة ذهبية عملاقة حول عنقه.. أما (جوستين) فكان شعره معقوصا للوراء، ويرتدي قميصا أبيض واسعا ويتصرف بغرور لا شك فيه.
صاح (ناو):
- أصغوا إلى!
انقطعت الأصوات من جديد ليسمعوا ما سيقول:
- كان لدي ابن ومات.. سآخذ أحد هذين ابنا لي.. كنت أفكر في (مانويل) لكن دمه هو خليط من دم البرتغاليين والزامبو.. لهذا فكرت في أن خير من يقود هو هذا..
وضرب على كتف (جوستين).. وترنح قليلا ثم قال:
- سيكون يوم يتصارعان فيه من أجل القيادة.. من سيربح؟ الأفضل.. وهذا هو ما ينبغي أن يكون..

هنا صاح (هيزونر) مؤيدا:
- هو جيل يمضي وجيل يأتي.. لكن الأرض خالدة.
انتزع (ناو) قلادة ذهبية من جيبه، ولفها حول عنق (جوستين):
- أحسنت صنعا وقولا.
وفي قلق نظر (مينارد) إلى (مانويل)...
في عيني الصبي البرتغالي رأي نظرة تقول: هذا الغلام (توبارب) لن يصل إلى الزعامة أبدا!

☆ ☆ ☆

بدأ النعاس يتسرب إلى عيون القوم جميعا وقد أرهقهم الصخب والسكر.. (ناو).. (بث).. (هيزونر).. لكن (مينارد) لم ينم.
ظل يفكر في آلاف الاحتمالات.. يمكنه أن يتسلل إلى حيث القوارب ليسرق واحدا.. لكن.. هناك خطأ بالتأكيد.. الأمر أسهل مما ينبغي.
ربما يريدون منه أن يسبح بعيدا ليغرق.. ربما هي مجاملة أخيرة منهم له.. ربما هم واثقون من أنه لن يرحل دون (جوستين)..
- ولكن ماذا يمنعه من أخذ (جوستين) الآن؟
(مانويل)؟ هل يحسبون أنه لن يجرؤ على قتل (مانويل)؟ ستكون مفاجأة لطيفة لهم حين يرون ما صنعوه بـ (مينارد) ذي الأخلاق الطيبة.
وجد سروال (جاك الوطواط) معلقا على غصن شجرة، فبحثت فيه حتى وجد خنجرا ذا حدين دسه في حزامه.

وفي إصرار دخل إلى جوخ (ناو) حيث وجد (جوستين) غافيا.
- ششششش! هذا أنا!
صاح (جوستين) دون أن يحاول خفض صوته:
- ماذا تفعل هنا؟
- ششششش! فلنذهب!
- ماذا؟ لو حسبت أن...
هنا ظهر ظل في الباب.. وفي اللحظة التالية رأي (مينارد) الصبي البرتغالي راكعا على الأرض فوق (جوستين) كاتما أنفاسه.
وصاح البرتغالي:
- هلم!.. خذه....
- ولكن.. هل هو على ما يرام؟
- إنه فاقد الوعي لكن ليس للأبد.. كان سيصرخ..
ومزق خرقة ربطها حول فم (جوستين).. وأمر (مينارد) بحمله.
مشي (مينارد) وراء الغلام واثقا به: أولا: لأنه لم يكن يملك خيارا آخر.. ثانيا: لأن دوافع البرتغالي واضحة ومبررة جدا.. كان يتوق إلى الخلاص من المنافسة.
وصلوا إلى الشاطئ، حيث أشار البرتغالي إلى قارب كي يضع (جوستين) فيه.. وكان الحارس يرقد قتيلا جوار القارب.
تساءل (مينارد) مذعورا:
- هل قتلته؟
قال الصبي البرتغالي:
- بل أنت فعلت.. سرقت القارب.. قتلت الحارس.. خطفت الصبي.. ضربتني على رأسى.. كل شيء هنا سيتهمونك به بعد فرارك..
- هذا عدل..

واستعد (مينارد) لركوب القارب.. عندما فتح (جوستين) عينيه ودون كلمة أخرى انتزع الكمامة.. وراح يصرخ كالمجنون.

- إنذار! إنذار! إنذار!

وفي اللحظة التالية ركل (مينارد) ووثب هاربا من القارب.. هنا استدار (مانويل) بدوره هاربا وهو ينظر لـ (مينارد) في غل:

- أحمق! ارحل وحيدا وإلا فرحمة بك اقتل نفسك الآن!

ووجد (مينارد) نفسه واقفا وحده جوار الشاطئ في الظلام.. لم يجد ما يفعله سوى أن يثب إلى القارب ويبتعد عن الجزيرة قدر الإمكان، مستعملا مجدافين وجدهما جواره.

حتى مع صوت التجديف يسمع أصواتا قصية، ويرى أضواء المشاعل.. لهذا لم يفكر سوى في التجديف لأعمق وأعمق.

لكن - فجأة - بدا له أن القارب توقف في الماء..

سمع صوت تدفق الماء في القاع، فجثا على ركبتيه وتفحص ما هنالك..

كان الماء يتسرب من ثقب صغير في الخشب مد يده وتحسس الثقب بعناية فوجد أنامله لزجة.. تشمم الرائحة فوجدها رائحة (المولاس).. لقد بدأ يذوب.

لقد لعبها (مانويل) جيدا.. أحدث ثقوبا في الخشب ملأها بالمولاس وكان القارب سيغرق في المحيط حتى لو لم يفر (جوستين)..

ونظر (مينارد) للشاطئ.. واضح أنه سيعود لتلكم الجزيرة..

☆ ☆ ☆



سمع صوت تدفق الماء فى القاع ، فجثا على ركبتيه وتفحص ما هناك .. كان الماء يتسرب من ثقب صغير فى الخشب ..

أربعة عشر..

عاد إلى الشاطئ نصف مدفون في القاذورات، بعد ما سبح وقتا طويلا.. والشمس تختلس النظر من فوق الأفق.

كان يعرف أن العودة حمق، لكن ما البديل؟

عليه أن يصمد هنا ويتوارى ويتحاشى، حتى يعرف كيف يسرق قاربا آخر دون عون.

كانت لديه أسئلة بلا نهاية.. وإجابات بلا وجود.

الحشرات تزداد شراسة مع الضوء، لذا التقط بعض توت من شجرة ومسح به رأسه على الأقل سيكون حاجزا ضد الحشرات.

كان من مكانه بين الشجيرات يرى (ناو) و (وندسور) والصبيين على الشاطئ.. ينتظرون (جاك الوطواط) العائد بقاربه حاملا قطعة من شراع مهترئ.. شراع القارب الذي غرق.

سال (وندسور):

- ألم تره؟

- نعم.. كان الموضع مظلما كذيل خنزير.

قال (ناو):

- إذن هو قد غرق.

صاح (وندسور) في عصبية:

- لا!.. إنه هنا!

وراه (مينارد) يشير بذراعه نحو الهضبة التي تواري (مينارد) بين شجيراتها.. غريزيا خفض رأسه كأنما يتحاشى موجات الرادار الخفية الخارجة من رأس (وندسور).. وهمس من بين أسنانه:

- لا تصدق يا (ناو).. لماذا أعود؟

هنا قال (ناو):

- لماذا يعود إنه ليس مجنونا أو عاشق ألم..
- الأمر سهل.. إن طفله لدينا.. لهذا لن يرحل!
قال (ناو) وقد راق له الرأي:
- ليكن يا دكتور.. سنجمع الرجال ونمشط الجزيرة كلها.. لو كان هنا فسوف نجده.
وبعد دقيقة سمع (مينارد) صوت البوق يجمع الرجال.
إن خطته - يعلم الله ما هي - يجب أن تنتظر.
يجب أن يهرب.. يتوارى.. لن يستطيعوا أن يمشطوا الجزيرة كلها.
سمع الرجال يتجهون للشمال.. فنهض وراح يركض جنوبا.
كان بحثهم دقيقا لا يترك ثغرات غطوا الجزيرة كالنيران.. جنبا إلى جنب يمشون ويفتشون.. سيرهم يحدده أكثرهم بطئا.. ولو انتظر أحدهم ليرفع صخرة أو يهز شجيرة كان الباقون ينتظرون.. لا شيء يمر من بين ثقوب الغربال.
راح (مينارد) يتقدمهم نحو الجنوب.. إن الاندفاع سيحبسه في مكان ضيق لا مفر منه سوى البحر.. وعندها تحين نهايته.
صوت (ناو) يتعالى:
- ابحثوا عن آثار الحفر الطازجة.. ابحثوا عن كومة التراب واغرسوا فيها سيوفكم.
وصل (مينارد) إلى مكان الاحتفال أمس.. وصوتهم يتعالى ويدنو.. وعددهم يزداد كثافة لأن الجزيرة تضيق ها هنا، وبالتالي صاروا متلاصقين.. أخذ قصبة مجوفة وعزم على أن يغطس في البحر، ويتنفس بها.
هنا سمع البوق يتردد مرتين.
إذا بالأصوات تتراجع، وثمة من يصرخ:
- سفينة! جنوب غرب تتجه شمالا!

- إنها كبيرة!
- إلى القوارب.
سمع البحارة يركضون ويصرخون مبتعدين فهدأ قليلا.
نظر بحذر إلى الأفق.. إنها سفينة خاصة بحرس السواحل.. تتحرك بسرعة مما يدل على أنها لا ترى شيئا.. إن سرعة السفينة كافية لأن تبعدها عن الشاطئ سريعا.
كان الرجال يعدون القوارب، بينما (هيزونر) يشجعهم.. ووقف (ناو) و (وندسور) يتفحصان السفينة بتلسكوب نحاسي.
قال (وندسور):
- إنها سفينة حربية.. لا تحمل سوي ذخائر لا تستحق المخاطرة..
- هذا يستحق.. إنها سفينة جميلة.
- لا تورط نفسك في حرب مع الولايات المتحدة.
- لن يشنوا حربا على أشباح.
لكن السفينة كانت تبتعد بحيث لا يمكن اللحاق بها.
إن أمام (مينارد) ثلاث دقائق يتحرك فيها يحتاج إلى نار كبيرة ودخان؛ لأن إحداث أصوات لن يلفت نظر السفينة التي تهدر محركاتها صاخبة.
يحتاج إلى نار لا تشبه نار المعسكرات.
التقط زجاجة (روم) وحشر في عنقها قطعة قماش، ثم بحث في الرمال الباقية من حفل أمس حتى وجد فحما مشتعلا.. أشعل القماش، ثم جري إلى الساحة حيث كانت براميل البارود متراصة.. ألقي بالزجاجة في أحد البراميل ثم جرى مبتعدا وهو يداري رأسه.
وأخيرا دفن رأسه في الرمال.. وسمع صوت ال (وووووش) ثم ال (فامب) الذي يصم الآذان حين التهب البارود.

☆ ☆ ☆

خمسة عشر..

هبط القارب البخاري إلى الماء متدليا بالحبال من (ونش) السفينة.. واتجه سريعا إلى الجزيرة حاملا طاقما من ثلاثة رجال.

قال أحد الرجال ويدعى (جانتز)؛ وهو يتفقد الجزيرة:

- المكان هادئ.. لا بد أن الانفجار أودي بالجميع هنا.

وفجأة رأوا فوق التل رجلا ممزق الثياب، يلوح بذراعه ويحاول أن يقول شيئا.. ثم أنّ وتدحرج إلى الأمام حتى هوى فوق الرمال.

دنا منه رجل من الثلاثة ويدعى (مانكوس) وتفحصه.

- يبدو أنه كان دانيا من الانفجار.. لقد تفحم شعر رأسه..

- لا تحركه.. يمكننا أن نحمله على لوح خشب فيما بعد..

ومشى الرجال في ممر وسط الأشجار.. لا شيء سوى صوت الذباب وصوت خطواتهم.

فجأة - من خلف الأشجار - رأوا حشدا من رجال مسلحين.

حاول أحدهم أن ينتزع مسدسه، لكن (ناو) أمره وهو يصوب مسدسه:

- لا تفكر حتى في هذا!

- من أنت؟

- أنا صائدك..!

ثم أمر الصبيين الواقفين جواره:

- انزعا ثياب هذا وهذا واربطوهما جيدا..

ثم أمر الرجال وهو يرتدي ثياب أحدهما:

- أريد كل الرجال ها هنا ليتراصوا في أرضية القارب كألواح الخشب!

وارتدى (جاك الوطواط) ثياب رجل آخر ربطوا الرجلين ظهرا لظهر.. وراح القراصنة يمارسون طقوس الهجوم المعروفة لنا الآن.. وطقوس التوجيه المعنوي.

- استعدوا! لو كان عددنا صغيرا فقلوبنا كبيرة.. وكلما قل عددنا كلما زاد نصيبنا من الغنائم.

- فلتبق أفئدتنا صلبة قوية اليوم.. أطلقوا مدافعكم يا شباب وأحيلوها جحيما.. لأن هذا اليوم سيكون كالأيام الخوالي..

وهرع الرجال يرصون أجسادهم في قاع القارب تمددوا بالعرض حتى إذا امتلأت طبقة غطيت بالإملاءات، ووضعت طبقة جديدة.

صاح (وندسور):

- للمرة الأخيرة يا (لولونوا) لا تفعل!

قال (ناو):

- وللمرة الأخيرة يا دكتور.. اخرس!

- ما من حيوان قوي سليم يطلب الانقراض..

وبحركة سريعة كالصاعقة انتزع (ناو) سكينه، وغرسه في حلق (وندسور)، وقبل أن يدرك (وندسور) ما حدث كان السكين قد عاد إلى حزام (ناو)..

رفع (وندسور) يده إلى حلقه، وحاول أن يقول شيئا ثم جلس على الرمال..

- اجلس هنا ومت يا دكتور.

بدا (جوستين) مذهولا، ولم يستطع إبعاد عينيه عن (وندسور) وهو يموت ببطء.. أدرك (مينارد) أن الصبي مذعور.. لقد رأى ما يكفي من الموت من قبل لكن هذا أول موت لشخص يعرفه.. هذا هو أول موت حقيقي يراه.

بينما ابتعد (ناو) دون أن ينظر للوراء هتف آمرا (جانتس):

- خذ الدفة.. وقدنا إلى السفينة.. لو حركت إصبعا فثق أنني سأفعل بك ما فعلت بالطبيب.

تحرك القارب مبتعدا في الماء.

هنا تسلل (مينارد) إلى أحد القوارب الخشبية، ودفعه إلى الماء محاولا اللحاق بالسفينة.

☆ ☆ ☆

وصل القارب البخاري إلى جانب السفينة.

نظر القبطان لأسفل فرأى (جانتس) وراء الدفة، وقد ابيض وجهه كوجوه الموتي.. فسأله:

- ماذا هناك؟

لكن (جانتس) لم يجب.

وبدأ (الونش) يزأر رافعا القارب لأعلى.. تأمل القبطان القارب فرأى يدا ذات أساور تبرز من تحت ملاءة، فهتف.

- ما هذه؟ هل هناك أجساد؟

وسمع (مينارد) الطلقات والصرخات من مكانه في الماء.. فواصل السباحة نحو السفينة.. لم تكن لديه خطة ما.. لو قتل (ناو) ورجاله فهو قد نجا ولو ربح (ناو) فلا فارق لديه بين الموت هنا أو في الجزيرة.

ربط قاربه إلى جانب السفينة، ثم راح يتسلق لأعلى.

لقد توقفت الطلقات فلم تتعد دستة وفجأة سمع صوت (هيزونر) يعظ الناجين.

هكذا عرف كيف انتهت المعركة.

☆ ☆ ☆

هبط (مينارد) على مقدمة السفينة، واختلس نظرة على المشهد.. كانت هناك عدة جثث غارقة بالدماء، وكان القراصنة ينقلون الطعام والذخيرة إلى قاربهم، بينما (هيزونر) يعظ ستة رجال كأنما يعدهم للإعدام.

جالت عيناه من حوله.. أين الأسلحة هنا؟.. إنه يعرف شيئا عن هذه السفن الحربية.

مترليوز!

كان هناك مترليوز على السطح حيث توقع وجوده تماما.. نزع الغطاء عنه، ونظر إلى القارب.. كان كل الرجال هناك وقد أداروا ظهورهم له، لكن لو التفت أحدهم للخلف ورآه.

كان السلاح رهيبا.. لقد رأي صورا لهذه الأسلحة عيار 5.5.. لكنه لم يدن قط من أحدها إلى هذا الحد كأنه مدفع.

كان صندوق الذخائر مثبتا في المترليوز، لكنه لم يجرؤ على تفحصه ليرى ما إذا كان مليئا.

حرك رافعة التعبئة.. ثم رقد على بطنه وضغط الزناد.

كان كل شيء سريعا، ورأى الرجال في القرب - خلال خمس ثوان - قد ماتوا أو أوشكوا.. وسط ضجيج الرصاص المروع.

ودون أن يرفع إصبعه حول الفوهة إلى اليمين.. وواصل القتل.

انفجر رأس (هيزونر) وصدر (جاك الوطواط).

هنا احتضن (ناو) الطفلين، وتراجع للوراء.. ثم انتزع المسدس من صدر الصبي ووجهه إلى رأسه..

وجه (مينارد) سلاحه إلى رأس (ناو) وصرخ:

- دعه!

ابتسم (ناو) وقال:

- لا.. شكرا!

- سأقتلك..
- أعرف.. وستقتل البرتغالي كذلك لكن هذا..
وأشار إلى رأس (جوستين):
- لن تفعل! واجبك أن تفعل لكنك لن تفعل!
هذه المرة نظر (مينارد) إلى (جوستين) فرأي غلاما صغيرا مذعورا.
عاد يسأل (ناو):
- إذن ما العمل؟
- ستبقى ها هنا وأعود أنا للشاطئ وأفر وغدا تعود أنت للشاطئ بحثا عن رجلك..
- كلامك ليس محل ثقة..
- بالفعل.. لكن لا خيار أمامك..
وتراجع للوراء وهو يطبق على عنق الصبي.
كان (جوستين) يتوسل إلى أبيه مذعورا.. يتوسل بعينيه.. وفي صمت ركبوا القارب.
الآن صار القارب تحت جانب السفينة.. وبعيدا عن مدى السلاح، لذا أبعد (ناو) مسدسه عن رأس الغلام.
رأى (مينارد) المشهد تحت مستوي وقفته.. فلم ينتظر ليفكر.
وثب في الهواء وهو ينزع سكين (جاك الوطواط) من خصره.
ونظر (ناو) لأعلى في اللحظة التي وثب فيها (مينارد) على كتفيه.. تعلق به وراح يطعنه بوحشية وعنف، بينما (ناو) يسب ويلعن ويحاول إسقاطه من على كتفيه.
هذه المرة انحشر النصل بين ضلعين من ضلوع (ناو)، وصعب انتزاعه.

سقط (ناو) على ظهره.. لكنه بحركة بهلوانية استطاع أن يمتطي (مينارد).. الدم ينبثق من كل ثقوب صدره وعنقه.. لكنه مد يده ينزع السكين من ضلوعه، وصاح في توحش:

- ليس بعد يا كاتب!

ورفع السكين في الهواء.

جحظت عيناه وتقلصت شفتاه.. بدا كأنه أحد كهنة (الإنكا) وهو يقدم قربانا بشريا على مذبح..

صرخ:

- الآن!

وإذا به يولج السكين في أحشائه هو.

سقط للأمام مضرجا بدمائه.. وشهق شهقة أخيرة.

نهض (مينارد) بعسر..

بحث عن (جوستين) فوجده واقفا على بضع خطوات.

صاح وهو يمد يده:

- هلم يا صبي..

امتلأت عينا (جوستين) بالدموع وهو يمد يده لأبيه.

(تمت بحمد الله)

بيتر بنشلي

1980

الجزيرة..

يقول المؤرخون: إن القراصنة انقرضوا في بداية القرن الثامن عشر.. يقولون: إن (البوكانير) المتوحشين الذين ينزعون عيون ضحاياهم ويلتهمون قلوبهم النابضة، لم يعد لهم أثر.. يقولون: إن السفن تختفي في مثلث (برمودا) لأسباب مغناطيسية غامضة.. وفي هذه الرواية نعرف - كالعادة - أن المؤرخين على خطأ.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القناة

الفهرس..

[←1]

Hog Snout

[←2]

(أندي وارهول) فنان أمريكي اشتهر بلوحاته الغريبة التي يستوحيها من إعلانات الصحف.. اعتبره البعض عبقريا واعتبره البعض نصابا..

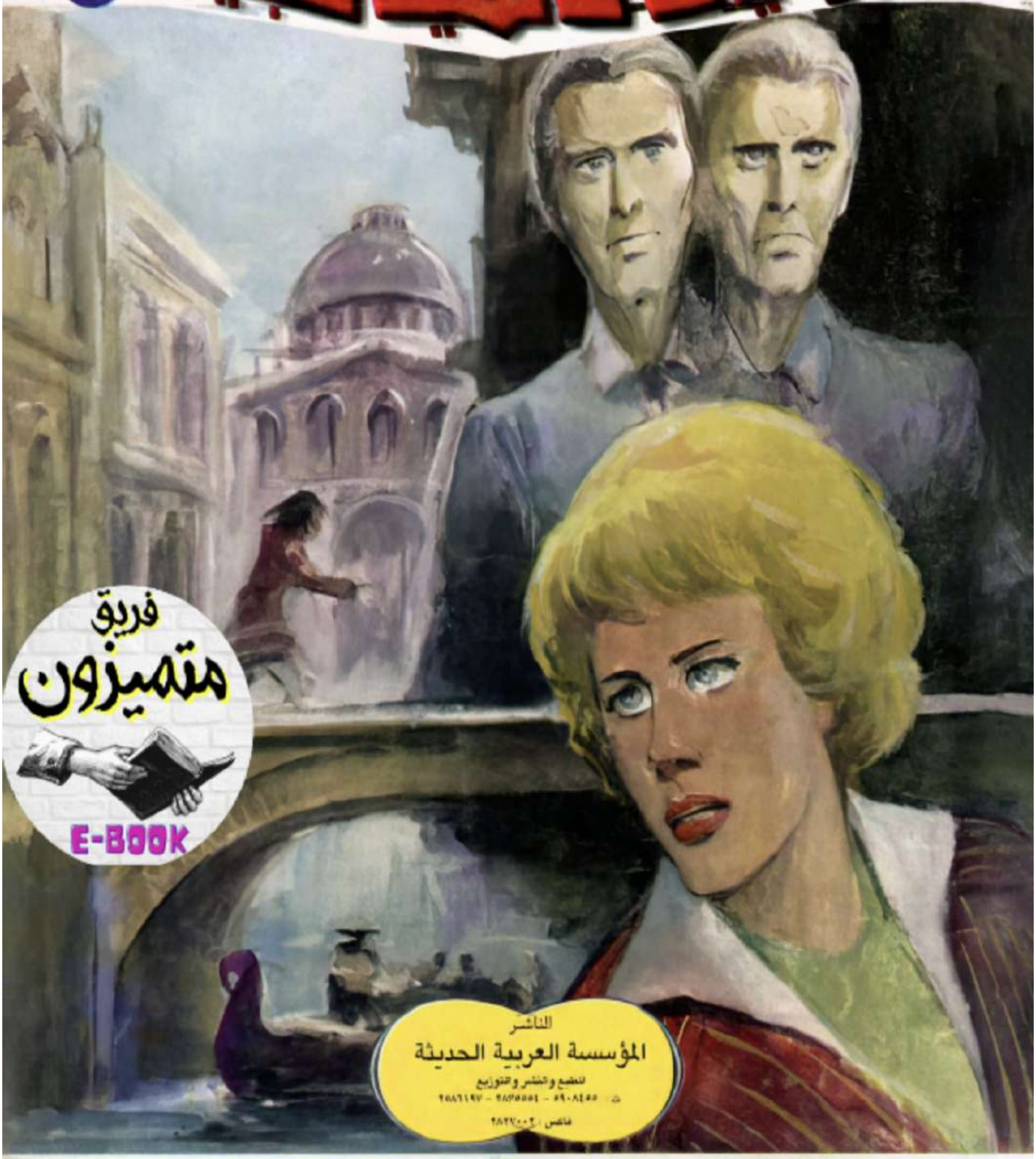
[←3]

الكتاب حقيقي.. وقد لجأ إليه (بنشلي) كثيرا في أثناء كتابة هذه الرواية .

[←4]

يعرف البحارة أن البول يزيل سم قنديل البحر، وهو أسلوب غير محبب لكنه فعال.

روايات عالمية للجيب 30



لا تنظرى الآن!

قصة : دافنى دو مورييه

ترجمة وإعداد :

د. أحمد خالد توفيق

(كلمة مهمة) :

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (30)

لا تنظري الآن!

بقلم: دافني دو مورييه.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدِّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

لما كنا قد وصلنا بسلام ونجاح إلى الكتيب الثلاثين؛ فقد حان الوقت لنقدم قصة متميزة على سبيل الاحتفال، وكما فعلنا في الكتيب العشرين.
(لا تنظري الآن) مجموعة قصصية ممتعة لكاتبة إنجليزية عظيمة الشهرة، هي (دافني دوموربيه).. وقد لا يعرف البعض الاسم لكنهم - بالتأكيد – شاهدوا فيلمى (الطيور) و(ربيكا) عن قصتين شهيرتين لها، والقصتان قدمهما سيد التشويق (ألفريد هتشكوك) وإن كان - باعترافه - قد تحرّر كثيرًا جدًّا من النص الأصلي.. فعادته هي أن يقرأ الرواية مرة واحدة فقط، ثم ينساها تمامًا، ويشرع في إخراج الفيلم بطريقته الخاصة!
ولدت (دافني دوموربيه) في (لندن) عام 1907، وتلقت تعليمها في البيت مع شقيقاتها، وفي سن الثامنة عشر كتبت أولى مجموعاتها القصصية التي تحمل اسم (شجرة التفاح)، والتي لم تُنشر إلا عام 1952.
وفي عام 1932 تزوجها الميجور جنرال (فردريك براوننج)، وعاشا في (كورنوول) حيث رزقا بثلاثة أطفال..
في عام 1936 قدمت لنا (حانة جامايكا) التي حققت نجاحها الأدبي.. وتحكي عن المهربين في ساحل (كورنوول)، وقد كافأ (ألفريد هتشكوك) هذه الرواية بأن أخرجها للسينما عام 1939..
وجاءت قصة (ربيكا) عام 1938 لتتوج شهرتها[1]..
وفي عام 1941 قدمت لنا (نُهير فرنشمان)، وهى رواية شهيرة بدورها..

يقول النقاد: إن أسلوب (دافنى دوموريه) شديد الميلو درامية، وإنها لم تقدم أعمالًا أدبية جادة، وإنما أعمالًا مسلية لا أكثر..
والحق إن (دافني) قد برهنت عن براعة شديدة ككاتبة غموض وكاتبة تشويق، خاصة في قصصها الشهيرة (ابنة عمي راشيل) و(الطيور) و(موعد).. ثم القصة الحالية (لا تنظري الآن) التي كتبتها عام 1971، وتعكس اهتمامًا شديدًا بما وراء الطبيعة..
وقد توفيت (دافني) عام 1989 بعد ما صارت علامة من علامات الأدب الإنجليزي المعاصر..

د. أحمد خالد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أهم أعمال (دافني دو مورييه)..

- الروح المحبة (1931).
- لن أعود شابًّا ثانية (1932).
- حانة جامايكا (1936).
- ربيكا (1938).
- الجبل الجائع (1943).
- جنرال الملك (1946).
- الطفيليات (1949).
- ابنة عمي راشيل (1951).
- طيران الصقر (1965)

ومن مجموعات قصصها القصيرة:

- شجرة التفاح (1952).
- هلمي ياريح.. هلم يا طقس (1940).
- قصص مبكرة (1959).
- نقطة الانهيار (1959).
- لا تنظري الآن (1971).
- الموعد (1981).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تنظرى الآن



لا تنظري الأن..

- «لا تنظري الآن»

قالها (جون) لزوجته -.. لكن هناك فتاتين عجوزين على بعد منضدتين منا، تحاولان تنويمى مغناطيسيًّا..
على الفور تظاهرت (لورا) بالتثاؤب، وميلت رأسها كأنما تفتش في السماء عن طائرة لا وجود لها..
- خلفك بالضبط - أضاف - لهذا لا يمكنك الاستدارة حالًا.. سيكون هكذا واضحًا أكثر من اللازم..
لعبت (لورا) أقدم لعبة في العالم، وأسقطت منشفتها ثم انحنت لتلتقطها، وأرسلت نظرة خاطفة من فوق كتفها الأيسر وهى تعتدل ثانية.. وعلى الفور بدت عليها أول علامات الهستيريا المكبوتة، وهمست:
- ليستا فتاتين بل هما توءمان ذكران متنكران..
كان صوتها يوحي بنذير نوبة ضحك لا تتحكم فيها، فصبّ لها بعض الشراب وقال لها:
- تظاهري بأنك تشرقين، حتى لا تلاحظا ضحكك، أنا الآن أعرف من هما.. إنهما مجرمان يتنزهان في أوروبا ويغيران جنسهما في كل لحظة.. اليوم شقيقتان في (تورسللو) وغدًّا شقيقان في (فينيسيا) فقط يبدّلان الثياب والجمّتين..
- لصا مجوهرات أم قاتلان؟
- آه! قاتلان حتمًا.. لكنني أتساءل، ترى هل لاحظاني؟
قاطعهما الساقي إذ جلب القهوة، ووضع الفاكهة أمام (لورا) مما ساعدها على كتم عاصفة الضحك.. وسألته:

- إنني أتساءل كيف لم نلاحظهما قبل الآن؟ إنهما طويلتا القامة، وعسير أن تفشل فى ملاحظتهما..
- هذه المجموعة من الأمريكان، والرجل الملتحي ذو (المونوكل) الذي يبدو كالجواسيس.. لقد كانوا يحجبونهما عنا.. رباه! ذات الشعر الأبيض ترمقني ثانية!
أخرجت (لورا) علبة مساحيقها، ووضعتها أمام وجهها لتعمل المرآة كعاكس..
وقالت:
- يبدو أنهما تنظران لي لا لك.. لحسن الحظ أنني تركت لآلئي لدى مدير الفندق
وبالمسحوق لطخت خديها.. ثم قالت:
- لقد فهمنا خطأ.. إنهما ليستا لصتين.. يبدو لى أنهما ناظرتا مدرسة طيبتان في إجازة، وقد ادخرتا كل مليم في حياتهما كى تزورا (فينيسيا).. لا بد أنهما جاءتا من مكان يُدعى شيئًا كـ (والابانجا) في (أستراليا)، ولا بد أن اسميهما (تيلى) و(تينى)..
قال لنفسه: أخيرًا بدأت تنتصر.. لو استطعت الحفاظ على هذا، ولو استطعنا أن نتبادل النكات، ونمارس التخيلات السخيفة بصدد القوم من حولنا، أو نمضي ما بين متاحف الفنون؛ عندها سيستقر كل شيء.. وسيلتئم الجرح وتعود الحياة لما كانت عليه.. ستنسى..
قالت (لورا):
- أتعلم؟ كان هذا غداءً طيبًا جدًّا، وقد استمتعت به حقًّا..
حمدًا لله.. حمدًا لله.. ثم انحني للأمام وبصوت هامس متآمر قال:
- إن احديهما ذاهبة لدورة المياه.. أتظنين أنها ستبدل جمتها هناك؟

- لا تقل شيئًا.. سأتبعها لأرى ما سيحدث..
وراحت تزوم في رضا.. رأى المرأة تنهض قاصدة الحمام، وكانت لها ملامح نسرية قوية، طويلة القامة، تعقص شعرها على الموضة الشائعة في أيام أمه، ترتدي قميصًا رجوليًا وربطة عنق وسروالًا من (التويد)..
كانت هي وأختها توءمين تم نحتهما بنفس القالب، والفارق الوحيد بينهما هو أن شعر الأخرى أكثر بياضًا..
نهضت (لورا) لتلحق بالمرأة، وقالت:
- المهم ألا تضحك حتى لا أضحك بدورى.. تذكر حين أعود ألا تنظر لي حتى لو جئت معها..
- خذي الحذر.. فلربما تحمل حقنة مخدرة تفرغها في جسدك..
وانصرفتْ لاحقة بفريستها..
جلس وحده يدخن، ويختلس النظر إلى الأخت الأخرى..
الحمد لله.. لربما كانت هذه العطلة هي ما تحتاج إليه (لورا).. لربما قضت على اليأس الذي أحاط بها منذ ماتت طفلتها.. لقد قال له الطبيب:
- إنها ستقهر الألم.. كلهن يقهرنه بعد حين..
قال (جون):
- نعم.. لكن الطفلة كانت تعني كل شيء لديها من البداية.. إن ابننا في سن المدرسة الآن ويعرف كيف يدبِّر أموره.. لكن (لورا) كانت تهيم بها حبًا..
- كلاكما صغير وسيكون لديكما أطفال آخرون
كلام سهل.. كيف تستبدل بحياة طفل محبوب حلمًا؟ إن الطفلة القادمة ستكون لها ذاتيتها المختلفة وخصائصها المتفردة.. ستنام في الفراش الذي كانت (كرستين) تنام فيه،

لكنها لن تكون أبدًا ذلك الملاك الشمعي ذا الشعر الأسود الذي رحل..
كانت المرأة ترمقه في ثبات الآن.. نظرة مليئة بالتركيز تخترقه لتشعره بعدم الراحة.. سحقًا للنساء! فلتنظري لي شذرًا كما تريدين.. هذه لعبة يلعبها اثنان.. ونفخ سحابة دخان في الهواء.
في النهاية لم يستطع تحمل عينيها الزرقاوين، فأشاح بنظره واستدار يطلب الفاتورة من الساقى.. لكنه ظل يشعر بوخز عينيها في مؤخرة رأسه..
نظر إلى ساعته لقد تأخرت (لورا) كثيرًا.. عشر دقائق على الأقل..
ثم سمع صوت خطوات.. هذه التوءمة عائدة إلى المنضدة حيث أختها، وكانت تقول ما لم يفهمه.. ما هذه اللكنة؟ أأسكتلندية هي؟
رآها تمدّ يدها لتساعد أختها على النهوض، ثم تحركتا عبر الحديقة كى تبتعدا عن عينيه..
جاءت (لورا) أخيرًا بعد ما نفد صبره، فقال لها:
- حسن.. يجب الاعتراف بأنك أخذتِ وقتك..
ثم توقف حين رأى ذلك التعبير على وجهها:
- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟
كانت مصدومة.. تأرجحت لتجلس إلى المائدة، فسألها:
- ماذا؟ هل أنت مريضة؟
رفعت وجهها، وتعبير حائر غريب على وجهها:
- إنه رائع.. أروع شيء يمكن أن يكون.. إنها ليست ميتة بل هي معنا! لهذا كانتا تحدقان فينا.. كان بوسعهما أن تريا (كرستين)! رباه! هذا ما كنت أخشاه.. لقد جُنت! ماذا أفعل؟
افتعل ابتسامة وقال:

- هيا بنا يا عزيزتي.. أما آن أن نرحل؟ لقد دفعت الفاتورة، ويمكننا الآن الذهاب لرؤية الكاتدرائية، ويمكننا أن نركب (اللنش) إلى (فينيسيا)..
لم تكن تصغي لكلامه، ولم يخترق صوته انبهارها.. قالت:
- يجب أن أحكي لك.. لقد تبعت العجوز إلى دورة المياه فوجدتها تغسل يديها في الحوض، وفجأة استدارت وقالت لي بلهجة سكوتلاندية قوية: لا تكوني تعسة ثانية.. لقد رأت أختي طفلتك الصغيرة، جالسة بينك وبين زوجك وهي تضحك! وربتت على رأسى مطمئنة.. آه يا (جون)!
لا تبدُ كهذا! أقسم أنني لا أختلق ما أقول..
كان صوتها الملهوف يجعل قلبه يثب إلى فمه.. يجب أن يهدئها وأن يظهر تصديقه لها..
- إنني سعيدة يا (جون) سعيدة.. كنت أموت كمدًا طيلة هذه الأسابيع، لكنني كنت أداري هذا عنك.. الآن زال الكمد لأنني أعرف أن المرأة محقة.. كم هو رائع من.. لقد نسيت اسمها.. إنها طبيبة متقاعدة جاءت من (إدنبرة)، أما من رأت (كرستين) فهى كفيفة منذ أعوام.. وكانت تدرس ما فوق الطبيعة ولها قوى نفسية معينة، لكنها صارت وسيطة حقة حين أصابها العمى.. لقد وصفت (كرستين) بدقة حتى الفستان الأزرق ذي الأكمام الوردية الذي كانت ترتديه في عيد ميلادها..
والتقطت المنديل وتمخطت، وقالت:
- هي بخير.. وليس علينا أن نقلق..
قال لنفسه: لو كان هذا الشعور يسعدها فلن أرفضه.. لكنني أتمنى لو لم يحدث أساسًا.. إن هناك شيئًا منفرًا في قراءة الأفكار وتوارد الخواطر، ولا أحد يجد له تفسيرًا..
سألها متظاهرًا بعدم القلق:

- أنت لم ترتبي مقابلتهما ثانية.. أليس كذلك؟
- ولماذا يا عزيزي؟ لم يكن لديهما ما هو أكثر لتخبراني به.. ولسوف ترحلان فورًا لتواصلا رؤية العالم.. يا للعزيزتين! إنهما أي شيء سوى لصتى جواهر أو قاتلتين!
ونهضت قائلة:
- هلم! ما دمنا في (تورسيللو) فيجب أن نرى الكاتدرائية..
واتجها معًا إلى قرب المرفأ، حيث كانت المعديَّة تُنزل مجموعة جديدة من السياح، ومشيا إلى (سانتا ماريا أسونتا).
راحا يتأملان الكاتدرائية.. يتفحصان النقوش والرسوم على الجدران، لكنه لم يستطع الاستمتاع خاصة أن الزحام جعل التذوق الفني مستحيلًا.. ولم يمسّ قلبه الجمال البالغ الذي رآه.
رفع عينيه نحو الباب، ففوجئ بالشقيقتين هناك.. كانت العمياء تتمسك بذراع أختها وهي تتبعها.. شعر بشلل كامل يغمره.. هذه هي النهاية.. لا مفرّ.. لا مستقبل.. شعور غريب غمره وزال سريعًا.. هاتان المجرمتان تمارسان نوعًا غريبًا من الحياة: تجوّلان حول العالم لتشعرا الناس بعدم الراحة..
شعر بـ (لورا) تجذب كمه:
- أليست جميلة؟ أليست هادئة؟
- من؟!
- الـ (مادونا) في الصورة.. إن لها سحرًا يخترقك..
- أ.. أعتقد ذلك لكني لست متأكدًا..
ثم دعاها فى عصبية إلى الابتعاد بحجة شراء بعض البطاقات الفنية.. واقتادها إلى طريق ضيق خارج الكاتدرائية، فقالت له:
- لا أظن هذا الطريق يؤدي لمكان ما، وهو موحل كذلك
في نفاد صبر جذبها بعيدًا..

كان يتذكر (كرستين) قبل إصابتها بالالتهاب السحائي المميت.. بالتأكيد كانت ستحب هذا المكان.. ربما كانت ستخلع حذائيها لتركض جوار الماء مصيبة أمها بالهلع..
غاص قلبه في قدميه.. وتمنى ألا يرى الأختين ثانية..
كان (اللنش) الذي أحضرهما من (فينيسيا) ينتظر.. وكل المسافرين قد احتشدوا فيه: الأمريكان والرجل ذو (المونوكل).. كل ما يريده الآن هو العودة إلى (فينيسيا) ثانية..
مضى القارب عبر القنال إلى البحيرة..
وقالت له (لورا) وهي تريح رأسها إلى صدره:
- كان يومًا جميلًا بحق ولسوف أذكره ما حييت..
ليكن.. ما دام هذا يجعلها سعيدة..
الآن يريان روعة (فينيسيا) وسماءها البرَّاقة، وما زال بها الكثير مما ينتظر أن يرياه.. كان فندقهما قريبًا من (جراند كانال)، وهو فندق مريح.. وابتسم لهما موظف الاستقبال وهو يعطيهما المفتاح..
كانت غرفتهما مريحة بدورها، لكن لها طابع كل غرف الفنادق الغريب.. هذه غرفتنا لفترة لكن ليس بعد ذلك.. إذ نعيش فيها سنجلب لها الحياة، وحين نتركها لن توجد ثانية، وتغيب في العدم..
غادرا الفندق إلى الليل الدافئ الناعم، والسحر حولهما في كل صوب..
- لنمش حتى تتفتح شهيتنا للعشاء الهائل!
- لكن ليكن رخيصًا.. فقد أنفقنا الكثير اليوم..
الجندولات تتراقص على الماء، والكل يبحث عن المتعة غير ذات الهدف..
قال لها:

- أين تتناولين العشاء؟
- ثمة مطعم قرب كنيسة (سان زاكاريا).. دعنا نقصده..
مشيا عبر (فوندامنتا ديلا أرسينالي).. كانت هناك حارتان، إحداهما لليمين والأخرى لليسار، وتردد (جون) بصدد الاتجاه الأمثل.. ثم قرر أن يمشيا في الحارة اليسرى..
كان ممرًّا ضيقًا يطل على البحر.. وهو مكان دافئ في الصباح، لكنه في الليل بدا كئيبًا بائسًا.. النوافذ والأبواب كلها موصدة، والظلام دامس، والقوارب المتراصة على المرفأ كأنها التوابيت..
قالت (لورا):
- لا أذكر هذا المكان ولا أحبه..
- أنا أعرف أين نحن بالضبط..
وعبرا جسرًا صغيرًا عندما سمعا صرخة.. جاءت من أحد المنازل لكن أيها؟ مستحيل أن تعرف، وهمست (لورا):
- ما كان هذا؟
- أحد السكارى.. هلمي..
لم تكن صرخة سكير، بل هي شبيهة بصرخة رجل يتم خنقه، وسرعان ما تلاشت، إذ صارت قبضة الخانق أقوي..
كانت تسبقه في المشي، وقد جدّت في سيرها.. ولاحظ (جون) شيئًا صغيرًا يخرج من بدروم أحد المنازل ثم يثب إلى قارب.. كانت طفلة.. طفلة صغيرة لا تزيد على خمس سنوات، ترتدي معطفًا قصيرًا فوق تنورتها، وكبّود يغطي رأسها..
كانت تثب من قارب لآخر، كأنها مصممة على الفرار.. وانزلقت في مرة فاحتبست أنفاسه ثم استردت توازنها.. في النهاية ركضت فوق درجات منزل على الناحية الأخرى، واختفت هناك..
لم تكن (لورا) قد رأت شيئًا من هذا، وسرّه ذلك.. لربما كان للمشهد - الذي له علاقة أكيدة بالصرخة - أثر مخيف على

أعصابها..
اتجها ببطء عبر الزقاق.. وكان يتظاهر بثقة لا يملكها..
سألته:
- لا صرخات أخرى.. أليس كذلك؟
- بلى.. كان شخصًا سكيرًا..
أخيرًا وصلا إلى جسر آخر.. وقد أدركا أنهما ضلا الطريق حقًّا.. هنا لدهشته رأى أُناسًا يمشون في شارع مضيء وصار المشهد مألوفًا..
قال لها:
- كما قلت: هذه هي (سان زاكاريا).. لا بد أن مطعمك ليس بعيدًا..
وشعر برضا لأنهما على الأقل سيريان الأضواء المبهجة والناس بعد كل هذا الصمت والظلام.. ورأي لافتة (ريستورانتي) - مطعم - تضيء من بعيد..
دخلا المطعم وسط الصخب وصوت الضحك ورائحة البسطرمة.. وكانت قائمة الطعام هائلة مكتوبة بحبر بنفسجي اللون..
ووقف الساقي ينتظر ما سيطلبان، وهنا نظر (جون) حوله فرأى التوءمين في ركن القاعة! لا بد أنهما وصلتا حالًا لأنهما كانتا تنزعان معطفيهما والساقي يقودهما للمنضدة..
لا بد أنهما كانتا تتبعانهما.. لماذا اختارتا هذا المطعم من كل (فينيسيا)؟ ما لم تكن (لورا) قد اتفقت معهما عليه.. هناك مطعم صغير قرب كنيسة (سان زاكاريا).. سنذهب هناك للعشاء..
كانت (لورا) مشغولة بالقائمة ولم تر الأختين، لكنها سترفع رأسها في أية لحظة وتراهما.. بالفعل نظرت عبر القاعة وأطلقت

شهقة.. إنها صادقة.. بالتأكيد صادقة..
- يا للعجب! إنهما هنا! العزيزتان.. لقد رأتانا..
ولوحت بيدها مسرورة، فانحنت التوءمة المبصرة وابتسمت.. وأعلنت (لورا) أنها ستنهض لتحييهما..
- بحق السماء! نحن لم نطلب عشاءنا بعد..
- لن أتأخر أكثر من دقيقة..
ونهضت عابرة الغرفة، وصافحتهما وجذبت مقعدًا خاليًا لتجلس جوارهما.. وراحت تتكلم وتبتسم..
- لقد فسدت الأمسية!
فكّر (جون) في ضيق.. ما كان يوشك أن يكون ليلة بهيجة قد امتلأ الآن برؤى الأرواح، و(كرستين) المتوفاة تقاسمهما المنضدة.. ياله من سخف! ولو كانت (كرستين) حية لكانت في الفراش منذ ساعات..
كانت (لورا) تصغي، والأخت المبصرة تتكلم في جدية.. قال (جون) لنفسه: مخادعتان! ربما هما رجلان متنكران كما خطر لنا في (تورسللو).
وجاء ما طلبه (جون) من طعام عشوائيًا.. كان من المستحيل تمييزه، وكان غارقًا في صلصة حمراء..
ذابت الصلصة لتظهر شريحتين كبيرتين مما بدا له كلحم مسلوق متبّل بالثوم.. إلا أن الصلصة كانت ذات مذاق سكرى!
وضع الملعقة وأزاح الطبق بعيدًا، وهنا كانت (لورا) قد جاءت..
جلست ولم تقل شيئًا.. وسرّه هذا؛ لأن الغثيان كان يمنعه من الإجابة.. راحت تأكل طعامها دون أن تنطق..
أخيرًا قالت:
- أعرف أنك لن تصدقني.. إن هذا مفزع إلى حد ما.. لقد ذهبت الأختان إلى الكاتدرائية وإن كنا لم نرهما.. وتقول الأخت

المبصرة: إن (كرستين) كانت تحاول الاتصال بنا طيلة الوقت.. تقول: إن خطرًا ينتظرنا لو بقينا في (فينيسيا)، وتريد أن نغادر فورًا..
فكّر في غيظ: هذا ما كان ينقصنا.. هاتان الأختان تنويان ترتيب حياتنا كما يتراءى لهما.. قال لها:
- هاتان الشقيقتان غير متزنتين على الإطلاق.. ويؤسفني أن أقول هذا، لكنني وجدت فيك حمقاء حقيقية..
- أنت مخطئ.. إنهما صادقتان..
- ليكن.. لكن هذا لا يكفي لجعلهما متزنتين.. بصراحة يا عزيزتي أنت قابلت امرأة عجوزًا في دورة مياه لتخبرك أنها رأت (كرستين) بجوارنا.. ثم تحاول بعد هذا - مزهوة بنجاحها - أن تطردنا من (فينيسيا)
قالت له:
- ليكن.. كنت أتوقع هذا منك.. لكن - بصراحة - لقد رأينا زبدة (فينيسيا) ولم يعد ثمة مكان جديد نراه.. ولو بقينا هنا لظل وجه (كرستين) الحزين يطاردنى، يتوسل لى كى نرحل..
في هدوء مريب قال:
- حسن.. هذا يسوّى الأمور.. سأذهب إلى موظف الاستقبال وأخبره أننا سنرحل في الصباح..
- إن (كرستين) قلقة عليك أكثر مني، والغريب أن الأخت الكفيفة تقول إنك تتمتع بقوى نفسية لا تعرفها.. إنك على صلة بالمجهول وليس أنا..
- ليكن.. إن غريزتي النفسية هذه تدعونى للرحيل الآن..
ونادي الساقي كي يدفع الفاتورة، واختلس نظرة لمائدة الأختين.. كانتا تلتهمان أكوامًا من (السباجيتي) بطريقة غير روحانية بالمرة..

رطوبة المساء الناعمة التي كانت تغرى بالمشي؛ قد استحالت الآن إلى مطر صريح.. ورجل أو اثنان يهرعان تحت المظلات.. وقال لنفسه: هذا ما يراه الناس ليلًا.. شوارع خالية ومنازل مغلقة.. أما ما يراه السياح في صور (فينيسيا) فديكور براق للعرض..
قال: إن الخبراء على حق.. مدينة (فينيسيا) تغرق ببطء.. وعما قريب تصير تحت قاع البحر..
يا لها من نهاية ساحرة لأمسية توحي بالأمل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هرعت (لورا) إلى المصعد، بينما استوقفه موظف استقبال الفندق ليناوله برقية من إنجلترا.. فتحها فوجد أنها من ناظر مدرسة (جونى) الابتدائية..
(جونى) تحت الملاحظة للاشتباه في الزائدة الدودية. في المستشفى الآن. لا تخف لكن الجراح يرى ضرورة إخبارك
تشارلز هيل

قرأ المكتوب مرتين ثم لحق بـ (لورا) في المصعد، وناولها البرقية.
- جاءت هذه إذ كنا بالخارج.. ليست أخبارًا طيبة
وضغط زر المصعد بينما هي تتلو الكلمات المقلقة.. قالت له:
- حسن.. هذا يسوّى الأمر.. يجب أن نترك (فينيسيا) حالًا.. إن (جونى) هو الذي في خطر وليس نحن.. كانت (كرستين) تحاول إخبارنا بهذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح التالي حزَّما حقائبهما، وأخبرا إدارة الفندق بنية الرحيل..

كانت (لورا) مقتنعة بأن للأختين دورًا في هذا النذير، وعلى مائدة الإفطار أخبرها (جون) بخطته: سيركبان سيارتهما التي جاءا بها، ويستقلان قطار العودة من (ميلانو) إلى (كاليه) فهو مهيأ لحمل السيارات..

قالت له وقد بدت لها هذه الخطة بطيئة جدًّا:

- يمكننا ركوب الطائرة، على الأقل سنجد مقعدًا شاغرًا لي، وبهذا يكون أحدنا في (إنجلترا) الليلة..

وطلبت من موظف الاستقبال أن يحجز تذكرة على طائرة منتصف الليل إلى (لندن)، وتذكرة أخرى على قطار السيارات لزوجها..

قال لها (جون):

- لا داعٍ للهلع.. إن أربعًا وعشرين ساعة لن تصنع كل هذا الفارق

كان الهلع على وجهها فعلًا إذ قالت:

- ربما لن تصنعه لك لكنها تصنعه لى.. لقد فقدت طفلة ولن أفقد طفلًا آخر..

- حسن.. حسن..

واقترح عليها أن يطيرا معًا، ثم - حين تستقر الأمور، يرجع إلى (إيطاليا) ويعود بسيارته للوطن..

قالت له:

- فكرة سخيفة.. وكيف ننقل كل هذا المتاع إذن؟ لا بد من سيارة لنقله.. كل ما سأحتاج إليه في الطائرة هو حقيبة صغيرة، ويمكنك أن ترجع بالسيارة على مهل ومعك كل شيء من متاعنا..

صعد لغرفته الملأى بالفوضى، بينما (لورا) ترتب كل شيء مع موظف الاستقبال.. فجأة دق جرس الهاتف.. كانت هذه (لورا) تتحدث من البهو:

- عزيزتي.. ما كانت الأمور لتكون أفضل.. ثمة طائرة تغادر (فينيسيا) بعد ساعة، وهناك (النش) سينقل مجموعة السياح المسافرين من (سان ماركو) خلال عشر دقائق.. هناك من ألغي حجزه على الطائرة، وبذا سأكون في (جيتويك) خلال أربع ساعات..
- سآتي حالًا..
ولحق بها في البهو.. لم تعد قلقة متوترة بل مفعمة بالتصميم، كانت في طريقها ولكم تمنى لو يلحق بها.. ما كان ليطيق البقاء في (فينيسيا) بعد رحيلها.. ثم الرحلة الرهيبة ليلًا إلى (ميلانو)، والساعات الفظيعة في القطار وحده مفعمًا بالقلق..
كانت الريح تهب بشدة في ميدان (سان ماركو)، والناس يتأهبون لركوب اللنش؛ إذ قال لها:
- يمكنك قضاء الليلة عند (آل هيل).. وأرجو أن تتصلي بي بمجرد وصولك إلى المستشفى..
كان اللنش مكدسًا بالحقائب، وعليها علامات (يونيون جاك) الخاصة بالبريطانيين.. نظرت للقارب وابتسمت، وقالت:
- اعتني بنفسك يا (بعلي)، واطمئن عليّ..
تعالى نفير الرحيل، فصعدت (لورا) إلى (اللنش) وراحت تلوح بيدها ومعطفها القرمزي يتطاير وسط المحيطين بها.
ابتعد (اللنش) فراح يرمقها شاعرًا بالحسرة.. ثم استدار عائدًا إلى الفندق.. لقد صارت غرفتهما خاوية مقبضة الشكل، خاصة وحاجيات (لورا) في كل مكان.. ثيابها.. مساحيقها.. أنبوب معجون أسنانها.
أنهى حزم متاعه وقرر أن يبدأ رحلته فورًا.. سيدفع الفاتورة..
وراح يرمق الوافدين الجدد للفندق، الذين يرمقون كل شيء في انبهار، ويومهم الشاب ينتظر من يرتب الخطط له..

سيتناول الغداء ثم ينقل متاعه إلى المرآب الذي تنتظر سيارته فيه.. إن (لورا) الآن في الهواء.. في طريقها إلى (جونى).. الآن يمكن للتوءمين أن تستريحا وتنعما بسلام الروح.. لقد تحققت أمنيتهما..

أنهى الغداء ولم يرغب في احتساء القهوة، لأنه راغب في الرحيل حالًا.. وتساءل: تُرى متى يعود ثانية إلى (فينيسيا)؟ بعد عام؟ بعد ثلاثة أعوام؟ ربما لن يعود أبدًا؟

ركب المعدية التي ستنقله إلى الجانب الآخر من الماء، ورأى معدية أخرى تتجه بركابها إلى (فينيسيا).. كلهم سياح سعداء شغوفون برؤية المدينة الجميلة.. وللحظة حمقاء تمني لو تبادل معهم الأماكن..

هنا فوجئ بـ (لورا) بمعطفها القرمزي تقف على المعدية الأخرى مع الشقيقتين.. بينما الأخت المبصرة تتحدث بحماس مع (لورا)، و (لورا) تصغي وعلى وجهها نظرة ضيق!

مذهولًا نظر، ولم يستطع الصراخ أو التلويح.. ماذا حدث؟ لابد أن هناك خطأ حدث في رحلة الطائرة ولم تقلع.. لكن - في هذه الحالة - لماذا لم تهاتفه (لورا) في الفندق؟ ولماذا جاءت الأختان معها؟ ولماذا يبدو عليها الضيق؟

ستعود (لورا) إلى الفندق حاسبة أنها ستجده هناك، عازمة على العودة بالسيارة معه.. يا للخلط! كل ما بوسعه هو أن يتصل بالفندق كى يطلبوا منها انتظاره حتى يعود ليحضرها..

وصلت المعدية إلى المرفأ، فبحث عن هاتف.. رنين العملات المعدنية.. اصطياد الأرقام.. في النهاية ردّ عليه موظف الاستقبال.. قال له:

- انتظر.. يبدو أن هناك خطأ مريعًا.. ابق السيدة عندك حتى أعود..

فهم الموظف الأمر.. وقال (جون) لنفسه: حمدًا لله إنني رأيتها قبل أن أرحل.. مرّت دقائق وراح يتساءل عن كنه الخطأ الذي حدث في المطار.. لا جدوى من التخمين.. ستخبره بكل شيء في الفندق..
وماذا عن الأختين؟ فلتذهبا إلى الجحيم.. يمكنه أن يتخيل (لارا) تخبره أن العزيزتين لم تلحقا بالطائرة.. تُرى هل يمكننا اصطحابهما إلى (ميلانو)!؟
فجأة وصلت المعدية إلى (فينيسيا) من جديد.. كم هو مثير أن تعود إلى مكان ودّعته منذ دقائق.. دخل الفندق متوقعًا أن يجد (لورا) تنتظره، لكنها لم تكن هناك.. اتجه إلى موظف الاستقبال يسأله:
- ألم تأت زوجتي بعد؟
- نعم يا سيدي..
- هل أنت واثق؟
- قطعًا يا سيدي.. فلم أبرح المكان منذ اتصلت بى..
- لا أفهم.. لا بد أنها في (سان ماركو) منذ خمس دقائق..
- ربما رحلت (السنيورة) مع صديقتيها إلى فندقهما.. هل تعرف الفندق؟
- للأسف لا.. بل إنني لا أعرف اسميهما..
هنا تدخل مدير الفندق، وقد سمع طرفًا من المحادثة:
- سأقول لك ما يجب عمله: سأتصل بالمطار وأتأكد من أن الرحلة قد أقلعت فعلًا.. وبهذا نصل لمكان ما.. إن الترتيبات تفسد عادة..
- لا بأس..
وأشعل لفافة تبغ وراح يذرع البهو متوترًا.. يا للخلط! كان عليها أن تتصل به.. المدير يتكلم في الهاتف.. يستخدم إيطالية سريعة

جدًّا لم يفهمها (جون)، وفي النهاية وضع السماعة قائلًا:
- هذا غامض جدًّا يا سيدي.. لقد أقلعت الطائرة في الموعد، وعلى قدر ما أراه أعتقد أن (السنيورة) عدلت عن السفر..
- ولماذا تعدل؟ لقد كانت ملهوفة على العودة
هزَّ المدير كتفه:
- أنت تعرف النساء يا سيدي..
فكّر (جون) بصوت عال:
- إلا إذا كان لقاء هاتين السيدتين..
قال المدير في تحفظ:
- ربما ارتكبت خطأ يا سيدي، ولم تكن (السنيورة) هي من رأيت..
قال (جون):
- لا.. هي زوجتي.. أؤكد لك.. ترتدي معطفًا قرمزيًّا وبلا قبعة كما فارقتها بالضبط، ويمكنني أن أقسم على أنني رأيتها هي في أية محكمة تطلب شهادتي..
وانشغل موظف الاستقبال ببعض الضيوف الجدد، فسأل المدير (جون):
- هل ترى أن نتصل بفندق (تورسيللو) علّهم يعرفون السيدتين؟
- لا أرى فكرة أفضل..
ومرَّت دقائق من المحادثة الهاتفية، ثم قال المدير:
- إن مدير فندق (تورسيللو) يذكرهما جيدًّا.. لكنه يقول إنهما جاءتا للغداء فقط ولا يعرف اسميهما..
- هذه هي النهاية إذن.. لا شيء بيدنا سوى الإنتظار..
وأشعل لفافة تبغه الثالثة، وراح يذرع البهو متوقعًا أن يرى معطف (لورا) الأحمر في أية لحظة.. من المؤكد الآن أن السيدتين أقنعتا (لورا) برؤية روحية ما.. ربما بمشهد الطائرة

تسقط.. إنها الرابعة والنصف عصرًا الآن والشمس لم تعد تغمر الماء..
قرر أن يبحث عنها في (بياتزا سان ماركو)، وأخبر الموظف بنواياه في حالة عودة (لورا) وهو بالخارج..
قال الموظف:
- طبعًا يا سيدي سأخبرها.. لا بد أن هذا يثير قلقك يا سيدي.. هل أحجز لك غرفة لهذه الليلة؟
هزَّ (جون) يده بلا حيلة:
- لا أعتقد ذلك..
وغادر الباب ليمشي في (بياتزا سان ماركو) باحثًا عن معطف (لورا) القرمزي أو التوءمين.. غاص وسط زحام المتفرجين والمشترين.. لماذا لم تلحق (لورا) بالرحلة؟ كل ما بقى له هو أن يبحث عن الأختين بين مئات الفنادق والبنسيونات المبعثرة في (فينيسيا)..
لا بد أنهما قرب كنيسة (سان زاكاريا) حيث قابلهما أمس، فما كانت العمياء لتبتعد كثيرًا عن الفندق.
اتجه إلى هناك وقد بدت له الفكرة منطقية..
مشي في الشوارع حائرًا.. وبدأ قلقه يتحول إلى هلع.. لقد ظفرت المرأتان بـ (لورا) وأخذتاها إلى الفندق أو أي مكان آخر..
توقف أمام مبنى شامخ كتبت عليه عبارة (كويستورا) - الشرطة - هذا هو ما أريد.. سأدخل..
كان المكان نشطًا مزدحمًا برجال شرطة يدخلون ويخرجون.. سأل شرطيًا عن ضابط يتكلم الإنجليزية، فأشار له إلى درجات سلم..
صعد بضع درجات حيث وجد مكتبًا مغلقًا، ورجلًا وامرأة يجلسان على دكة خشبية خارج المكتب.. كان الرجل إنجليزيًا،

قال له:
- تعال واجلس.. إن لنا هنا نصف ساعة ننتظر.. ما كان هذا ليحدث في وطننا..
أشعل لفافة تبغ، وسأل الرجل عن مشكلته.. فقال هذا:
- زوجتي سُرقت حقيبتها في متجر بـ (مارسيليا).. أقول إن السارق نشال عادي، لكن زوجتي مصرة على أنها الفتاة البائعة.. كل الإيطاليين لصوص.. لكنى متأكد من أننا لن نجد الحقيبة.. وماذا عنك؟
قال (جون) كاذبًا:
- حقيبة.. بعض الأوراق المهمة..
كيف يقول إنه فقد زوجته؟ لا يستطيع مجرد البدء بالكلام..
هزَّ الرجل رأسه وقال:
- الإيطاليون يتشابهون.. فقط (موسولينى) العجوز كان يعرف كيف يتعامل معهم.. هناك شيوعيون كثيرون هنا هذه الأيام.. لكن الشرطة لا وقت لديها لمشاكلنا الآن خاصة مع ذلك القاتل..
- قاتل؟ أي قاتل؟
- لا تقل إنك لم تسمع عنه.. إن (فينيسيا) كلها تتحدث عنه.. لقد وجدوا امرأة سائحة مذبوحة الأسبوع الماضي.. ثم وجدوا رجلًا عجوزًا بالجرح ذاته صباح اليوم.. يقولون إن القاتل مجنون؛ لأنه لا دافع هناك.. ثمة أشياء قذرة تحدث في (فينيسيا) في موسم السياحة..
انفتح الباب وبرز الضابط؛ فدعا الزوج وزوجته للدخول..
وحده بقى (جون) فأشعل لفافة تبغ.. وتملكه شعور غريب بأن هذا كله غير حقيقي.. ماذا يفعل هنا وما جدواه؟ لن يجدوا (لورا) لقد اختفت للأبد مع هاتين الشيطانتين..
ربما السفاح الذي يفتش عنه البوليس هو الشقيقتان..

هذه بالفعل هي بداية (البارانويا).. هكذا يفقد الناس عقولهم..
ونظر لساعته.. إنها السادسة والنصف..
الشيء الوحيد العاقل الذي يمكن عمله هو أن يتصل بمدرسة (جوني) في إنجلترا ليعرف الأخبار.. (جونى) المسكين! لقد نساه تمامًا منذ سافرت (لورا)..
انفتح الباب الداخلي، وخرج الزوجان.. وقال الزوج:
- نفس الشيء: سيفعلون ما بوسعهم.. يوجد أجانب كثيرون في (فينيسيا) وكلهم لصوص.. أما الإيطاليون ففوق المساءلة..
وابتسما له ثم رحلا.. وجاء دوره..
دخل إلى المكتب لتبدأ الرسميات: الاسم - العنوان - جواز السفر.. ثم السؤال.. وبدأ العرق يطفر على جبينه وراح يحكي كل شيء.. حين انتهى كان مرهقًا كأنما يعاني إنفلونزا شديدة..
سأله الضابط الذي كان يتكلم إنجليزية ممتازة:
- تقول إن زوجتك كانت تعاني صدمة عاطفية.. هل لاحظت هذا هنا؟
- نعم.. ولم تتحسن إلا حين قابلت الأختين..
- ألم تتشاجرا قط؟
- نعم.. كنا على اتفاق تام..
هزَّ الضابط رأسه وقال:
- ربما أصيبت زوجتك بنوبة حادة من فقدان الذاكرة، فلم تتذكر إلا المرأتين حين رأتهما.. أنت وصفتهما بدقة ولا أعتقد أن العثور عليهما عسير.. عليك بالعودة إلى الفندق بانتظار الأنباء..
نهض (جون) وغمغم في حيرة:
- أنا آسف لشغل وقتكم، برغم انشغالكم بذلك القاتل الطليق..
كان يريد أن يعرف الضابط، إنه يربط ما بين اختفاء (لورا) وجرائم القتل الجارية حاليًّا.. قال الأخير وهوِ ينهض:

- آه.. ذلك القاتل.. أتمنى أن نقبض عليه حالًا..
كانت لهجته مطمئنة واثقة.. كل شيء تحت السيطرة بما فيه القتلة والزوجات المفقودات والحقائب الضائعة..
وانطلق (جون) إلى الشارع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعد بوسعه عمل شيء..
كل ما يريده الآن هو أن يستريح فوق فراشه، ويتصل بالمستشفى في إنجلترا ليعرف ما حدث لابنه..
حجرته كانت في الطابق الرابع من الفندق.. جرداء، عارية، متواضعة، تملؤها روائح الطهو..
طوَّح بحذائيه ومعطفه على مقعد، وارتمى على الفراش..
رفع سماعة الهاتف وطلب الاتصال بـ (إنجلترا)، وأغلق عينيه..
مرت الدقائق ثم سمع الجرس.. قال لنفسه: استعد للكارثة.. لا بد أن (جونى) يموت الآن أو مات فعلًا، وعندها لا يبقى لك أحد..
بعد قليل سمع صوت مسز (هيل)، ويبدو أنها من البداية كانت تعرف من يتكلم.. قالت له:
- هاللو.. لقد أجريت الجراحة لـ (جونى) بنجاح.. وقد أتمها الجرَّاح ببراعة عند الظهر، ولم يعد داع للقلق..
صاح في لهفة:
- شكرًا لله!
- لقد استرحنا جميعًا.. يمكنك الآن الكلام مع زوجتك!
جلس في الفراش مذهولًا.. ماذا تعنيه؟ هنا سمع صوت (لورا) الهادئ:
- حبيبي.. هل أنت هناك؟

لم يستطع الإجابة.. شعر بيده مبللة بالعرق حول السماعة، وهي تقول:
- كان جراحًا بارعًا، وأنا سعيدة لما تم.. وكانت رحلتي طيبة.. لقد وصلت إلى المستشفى بعد انتهاء الجراحة.. كان (جونى) مرهقًا لكنه سُرّ لرؤيتى.. كيف كانت رحلتك إلى (ميلانو)؟
لم يستطع أن يعرف صوته الذي أجاب:
- لست في (ميلانو).. أنا في (فينيسيا)!
- (فينيسيا)؟ لماذا؟ ألم يدر محرك السيارة؟
- لا أستطيع الشرح.. كان خلط غبي هو السبب..
وشعر بالدموع في عينيه.. ولم يستطع الاسترسال..
ببطء قال:
- ظننت أنني رأيتك في المعدية مع هاتين الأختين!
ساد الصمت.. ثم آثرت عدم التعليق وسألته:
- ماذا تنوي عمله؟
- سأرحل غدًّا بالقطار إلى (ميلانو).. شكرا لله لأن (جونى) تحسن.. أشكرى آل (هيل) وقبّلى (جوني)..
- اعتن بنفسك إذن، وقُد السيارة بحذر..
وأنهت المكالمة..
كان شعور الارتياح الذي غمره يفوق الوصف، أقرب إلى الدوار.. ومع هذا شعور بأن كل هذا غير حقيقي.. كأن ما سمعه لم يكن صوتها وهي ما زالت مختبئة في (فينيسيا)..
لقد رآها بالفعل في المعدية.. كانت (لورا) لا امرأة تشبهها.. فما التفسير؟ ولماذا؟ التفسير الوحيد هو أنه هلوس قليلًا.. إنه بحاجة إلى تحليل نفسي كما احتاج (جوني) إلى جرَّاح..
المشكلة الآن هي الاعتذار للشرطة ومدير الفندق.. اعتذارات كثيرة في كل مكان بسبب تحميل الأعباء على كل شخص..

لكن الكابوس قد ولّى وصار وراءه.. يمكنه التهام عشاء شهي والنوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نزل إلى البهو ليجد رجل شرطة واقفًا مع موظف الاستقبال، فما إن رآه المدير حتى صاح:

- إيكولو! إن الأشياء تتحرك يا سيدي! لقد وجدوا السيدتين، وقد اصطحبهما رجال الشرطة إلى (الكويستورا)، ولسوف يصحبك هذا المساعد إلى المخفر..

احمرّ وجه (جون)، وفي حياء قال:

- لقد سببت متاعب للكثيرين.. لكني وجدت زوجتي في (لندن)..

بدت الحيرة على وجه المدير، وتساءل:

- (السنيورة) في (لندن)؟ إذن من رآه (السنيور) في المعدية

- خطأ شنيع من جانبي.. أنا آسف..

راح المدير يعتذر لرجل الشرطة.. فقال (جون):

- اسمع.. أرجو أن تبلغ الأجنتى – المساعد - أنني سآتي معه إلى (الكويستورا) لأعتذر للشرطة وللسيدتين

بدت الراحة على وجه المدير، وقال:

- لقد تضايقت السيدتان، ولسوف يسرهما هذا..

لا يجب أن تسمع (لورا) عن هذا.. فلسوف تشعر بالخجل..

وانطلق مع المساعد إلى قسم الشرطة، واتجه إلى المكتب الذي زاره منذ ساعات..

ولم يكن من رآه هو الضابط الأول بل آخر له وجه شاحب، والأختان جالستان أمامه في ضيق وتوتر.



ولم يكن من رآه هو الضابط الأول بل آخر له وجه شاحب ، والأختان جالستان أمامه في ضيق وتوتر . .

قال موجهًا كلامه لهما:

- لا أدري كيف أعتذر.. خطأ شنيع مني ولا تثريب على الشرطة..

قالت الأخت المبصرة:

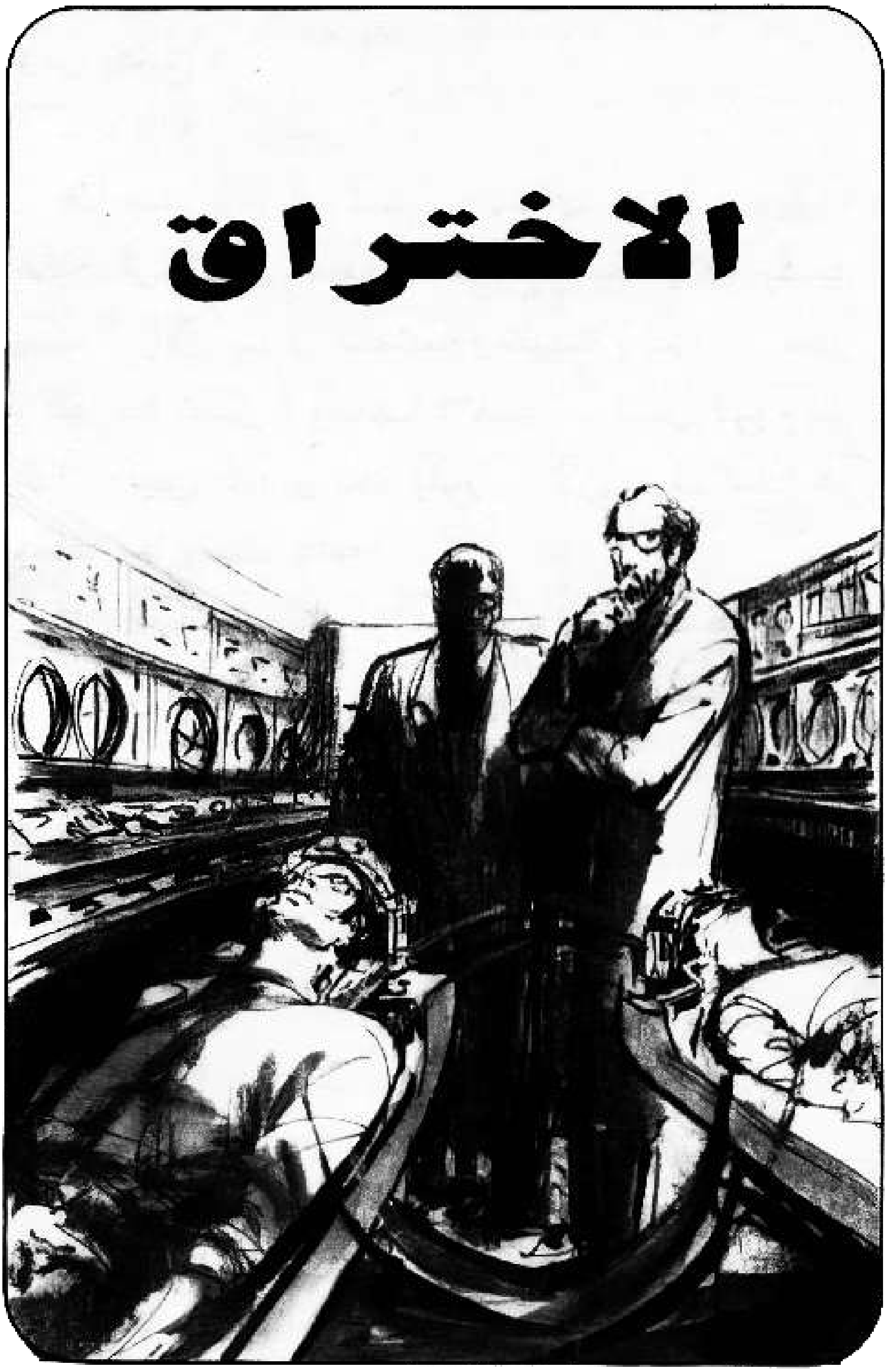
- حقًّا لا نفهم.. لقد قابلنا زوجتك على العشاء أمس ولم نرها من حينها، ثم جاء البوليس إلى البنسيون حيث نقيم؛ ليخبرنا أنك قدمت شكوى ضدنا..
تكلم الضابط بإنجليزية رديئة جدًّا بالنسبة لسابقه:
- حسن.. هذا تقرير مليء بالكذب إذن، وتزعم أنها الحقيقة؟
- كنت أحسبها الحقيقة وقتها..
- إذن من رأيت في المعدية؟
- عينان تخدعان أنا
قالها وقد بدأت إنجليزيته تفسد بدورها ليجاري الرجل:
- أنا أعتقد أنني أرى الزوجة والسيدتين.. لكن لا.. الزوجة في الطائرة والسيدتان في البنسيون
- كل هذا مجهود بلا طائل؟ تفتيش فتشنا.. فنادق بنسيونات من أجل (سنيورينا).. بينما لدينا عمل كثير جدًّا جدًّا.. هل تريد السيدة تقديم شكوى ضده؟
أجابت الأخت المبصرة:
- لا.. لا.. نريد العودة للفندق فقط..
وجه كلامه لـ (جون):
- أنت رجل محظوظ لو قدمتا شكوى ضدك لصار الموضوع خطيرًا..
وقالت الأخت:
- لا نريد.. لقد كان خطأ كما نرى، ونتمنى عدم إضاعة وقتك أكثر..
أمر الضابط أحد المعاونين كي يوصل الأختين إلى البنسيون، وتمنى لهما ليلة طيبة وتجاهل (جون) تمامًا..
قال (جون) وهو يلحق بهما:
- سآتي معكما لأكمل اعتذاري..

وغادروا المخفر..
قالت له الأخت الكفيفة:
- أنت رأيتنا حقًّا.. لكن ليس اليوم.. رأيتنا في المستقبل!
كان صوتها أكثر رقة من صوت أختها..
- حقًّا لا أفهم..
واستدار للمبصرة كي يفهم، فوضعت إصبعها على شفتيها وقطبت، وهمست:
- إنها تملك طاقة روحية هائلة.. لكني لا أريدها أن تدخل في سنّة هنا في الشارع..
وتحركوا ببطء عبر الشارع قاصدين جسرين.. وشعر (جون) أنه يضلّ طريقه، لكن لا مشكلة.. إن مساعد الشرطة معهم على كل حال..
راح يحكي القصة بالتفصيل للأختين، حتى وصلوا إلى مبنى عليه لافتة (بنسيون).. فوقفوا..
- هذا هو؟
- نعم.. إنه نظيف مريح..
وللمساعد قالت (جراتسى تانتو) لتصرفه، فهزّ رأسه وتمنى لهما ليلة طيبة واختفى.. ولـ (جون) قالت:
- هلَّا تفضلت؟ سنقدم لك بعض الشاي
- لا شكرًا.. أردت فقط أن أتأكد من أنكما تفهمان..
- لا مشكلة.. ولسوف نبقى هنا عشرة أيام أخرى لو أردت الاتصال بنا..
- هذا هو عنواني في (لندن).. أراهن أن (لورا) تتمنى أن تسمع عنكما..
وعلى ورقة من مفكرته شخبط عنوانه مع رقم الهاتف.. وراح يتخيل (لورا) تخبره ذات ليلة أن العزيزتين ستمران بـ (لندن) في

طريقهما إلى (أسكتلندا) وخير ما يمكن عمله استضافتهما في الغرفة الخالية.. ثم تدور جلسة تحضير أرواح في غرفة الجلوس!
نظر للأخت العمياء فوجد عينيها غير المبصرتين تزيغان.. أمسكت بيده فجأة بقوة ولم تتركها.. وصاحت:
- الطفلة! أستطيع أن أرى الطفلة!
ثم - لحيرته - تدلت الرغاوي من جانبي فمها، وسقط رأسها للوراء.. صاحت أختها بسرعة:
- يجب أن أدخلها! كل شيء على ما يرام.. هي ليست مريضة.. إنها بداية السِنّة..
حملها بين ذراعيه، ونقلها إلى الداخل.. جاءت امرأة من غرفة داخلية كي تعاونه على إرقادها على فراش..
كانت أصوات كمن يشرق تخرج من حلق الأخت، ولم يجد ما يفعله سوى أن ينصرف.. فمن الواضح أن المرأتين لا تريدانه هنا..
خرج من البنسيون إلى الميدان المظلم، ونظر للوراء.. يا لها من أمسية! إن الأخت المسكينة لم تتخلص بعد من آثار قسم الشرطة.. لقد أصابتها نوبة صرعية من المرعب أن تحدث في داره.. ودعا الله ألا تزوراه أبدًا في (لندن)..
ولكن أين هو؟ إن الشوارع مظلمة ملأى بالمنحنيات، رأى لافتة في ضوء مصباح، فأجهد عينيه ليقرأها: سان جيوفاني - براجورا..
لقد كان هنا مع (لورا) ذات صباح.. إنه قريب جدًّا إذن من بحيرة (سان ماركو) و(ريفا ديجلى).. هل يقوده هذا الزقاق إلى هناك؟
لا.. لا يبدو سليمًا.. لكنه يبدو مألوفًا..
هنا تذكر أن هذا هو الزقاق الذي كان يمشي فيه مع (لورا) أمس.. لكنهما دخلاه من الطرف الآخر، ومعنى هذا أن بوسعه

عبور الجسر ليجد (أرسينال) على يساره، و(ريفا ديجلي) على يمينه..
مشى في الزقاق.. وفجأة رأي الطفلة الصغيرة ذاتها التي رآها أمس تركض بين القوارب.. كانت تجري وكأن حياتها تعتمد على ذلك.
كان هناك من يتبعها.. يتبعها ويتوارى وراء الجدران كي لا تراه..
تذكر الصرخة التي سمعها أمس.. وسرعان ما ربط بين رعب الطفلة والمطارد وأخبار قاتل (فينيسيا)..
قالت له غريزته أن يهرب فورًا عبر الزقاق، لكن ماذا عن الطفلة؟ ما مصيرها؟
رآها تفرّ إلى باب مفتوح في منزل، وهي تطلق صرخة لا كصرخة طفل خائف، بل صرخة ألجمها الذعر.. تُرى هل من حامٍ لها في المنزل؟
تتبع خطواتها نحو الباب.. إنها على ما يرام.. اطمئني يا طفلتي فلن أتركه يؤذيك.. جرى ليراها تركض داخل المنزل المظلم، وصوت خطوات من يقتفي أثرها.. وثمة كلب ينبح..
نحن الآن معًا.. أنا وأنتِ..
أغلق الباب وراءه، ولحسن الحظ كان هناك مزلاج أحكم غلقه بدوره.. هكذا يمكنه أن يصرخ من إحدى النوافذ حتى يأتي أحد، وقبل أن يتمكن الرجل من فتح الباب..
قال لها لاهثًا:
- أنت على ما يرام.. أنت على ما يرام!
سقط الكبّود من فوق رأس الطفلة.. فنظر لها غير مصدق، وسرعان ما تحول عدم تصديقه إلى رعب..
ليست طفلة، بل هي قزم مرعب، طوله ثلاثة أقدام، له رأس عملاق بالنسبة لجسده.. وكان يكشر في وجهه ويهزّ رأسه لأسفل وأعلى..

سمع الخطوات تدنو من الباب، وسمع طرقات ومن يصيح:
- افتح! بوليس!
هنا مدّت يدها إلى كمها وانتزعت مدية.. وبقوة هائلة غرستها في حلقه.. تأرجح وسقط والدم يكسو يديه.. الآن يرى المعدية وعليها (لورا) تعبر (الجراند كانال) ومعها الأختان.. ليس اليوم بل غدًّا.. ليس غدًّا بل بعده بأيام.. الآن يعرف لماذا هم جميعًا معًا ولماذا جاءوا..
كان المخلوق ينظر له، والأصوات تزداد خفوتًا..
يا لي من أحمق.. ويا لها من طريقة غريبة للموت.....
∞ ∞ ∞ ∞ ∞


الاختراق

الاختراق..

بدأ دوري في الموضوع في 18 سبتمبر، حين استدعاني رئيسي بالعمل، وقال لي: إنه سينقلني للعمل في (ساكسمير) بالساحل الشرقي..
كان آسفًا - كما قال - لكنني الوحيد الذي يملك مؤهلات فنية صالحة للعمل الذي يجري هناك.. لا لم يخبرني بتفاصيل.. فقط عرفت أن هناك مجموعة غريبة من القوم تواروا وراء الأسلاك الشائكة، وكان المكان محطة رادار تجريبية منذ أعوام لكنها مهجورة الآن، والتجربة التي تدور هناك شيء مختلف تمامًا.. شيء يتعلق بالذبذبات وطبقات الصوت..
قال رئيسي وهو ينزع عويناته ذات الإطار العاجى، ويلوح بها معتذرًا:
- سأكون صريحًا معك بشدة.. لقد كان (جيمس ماكلين) صديقًا حميمًا لي في (كمبردج) ثم افترق طريقانا، وكرّس حياته للعمل التجريبي الغامض.. وفقدت الحكومة بسببه الكثير من المال، كما أنه أضاع سمعته كذلك.. لكنه الآن مستقر في (ساكسمير) مع فريق من الخبراء ومنحة حكومية، وهو خبير في الهندسة الإلكترونية.. وقد أرسل لى إشارة استغاثة يطلب فيها منى شابًّا لا يتكلم.. ولسوف تسدى لى خدمة خاصة لو ذهبت..
أما وقد وضع الأمر كهذا، لم يعد لدىّ سوى القبول.. وإن كان آخر ما أريده في العالم هو أن أترك شركة (أسوشيتد إلكترونيكس لمتد) - AEL - بتسهيلاتها البحثية، لأسافر إلى الساحل الشرقي لأعمل مع رجل مجنون..
- ومتى تريدني أن أذهب؟

- بأسرع ما يمكن.. ربما بعد غد؟ آسف يا (ساوندرز).. ستعود بشيء من الحظ قبل رأس السنة.. هذا ليس نقلًا دائمًا بل هو إعارة.. فأنت مهم هنا..
كان هذا أكثر ما أحتمل.. سألته:
- أي نوع من الرجال هو؟
- إنني أعتبره متحمسًا.. طراز الرجال الذين لا يتخلون عن شيء، وهو مجنون بطريقته، ولن يثير مللك أبدًا.. لقد تزوج ثم جاءت المأساة.. لقد ماتت زوجته بعدها بعام..
لم يطل الأمر حتى حزمت حاجياتي، واستقللت القطار..
عندها أدركت حقيقة موقفي: أنا في مهمة لا أرغبها، ذاهب لوظيفة لا أعرف شيئًا عنها، وهي خدمة شخصية لرئيسي في العمل..
قال زملائي في العمل حين عرفوا بذهابى لـ (ساكسمير):
- هذه نكتة.. هؤلاء القوم لم يمارسوا بحثًا جديدًا منذ أعوام، والوزارة تتمنى لو ينسفوا أنفسهم إلى أشلاء..
ونصحوني باصطحاب مضارب الجولف وكتبًا كثيرة معى، فـ (ماكلين) لا يملك مؤسسة علمية هناك.. فقط لديه بعض الشباب الذين يعتبرونه نبيًا.. ولو لم ترق له فلن يطلب منك عملًا على الإطلاق..
وكان المطر يهطل حين نزلت إلى الرصيف الخالى العاصف..
جاءت سيارة (موريس) عتيقة لتقف أمام المحطة، وخرج سائقها ليقول لي وهو يتناول حقائبى:
- أنت (ساوندرز).. أعتقد هذا..
كان شابًا لا يتجاوز التاسعة عشر.. قلت له:
- أنا هو.. كنت أتساءل عن كيفية العثور على سيارة أجرة..

- لن تجد في ليلة مطيرة كهذه.. إن الوافدين يأخذون كل ما يمشي على عجلات ليأخذهم إلى (ثورنوول).. هلم اركب..
كنت قد نسيت أن (ثورنوول) هي قاعدة طيران أمريكية، وأزمعت أن أتجنبها فيما بعد.. فالأمريكان جنس لا يروق لي بحال..
قال لي وهو يقود السيارة وصوت قعقعة يتعالى منها:
- معذرة فلم أجد وقتًا لأصلحها.. اسمى (كين رايان) ويمكنك أن تدعونى (كين)..
لم أقل شيئًا.. فاسمي الأول هو (ستيفن) لكن أحدًا لم يجرؤ على اختصاره إلى (ستيف) قط.. كان الطريق ممتدًا بين حقول اللفت وبيوت (ثورنوول) تتراءى من بعيد.. والمطبات كثيرة جعلت رأسي يصطدم بالسقف مرارًا.. وعلى الجانبين كانت المستنقعات الكثيفة، ومن بعيد رأيت برجًا عاليًا أمام صفحة السماء، وإذا دنونا لمحت، الرادار.. هذه هي (ساكسمير).. لم يستطع تشاؤمي أن يتخيل مكانًا أكثر قبحًا من هذا..
قال وقد أحس بافتقاري للحماس:
- يبدو المشهد كئيبًا في هذه الإضاءة، لكن هذا بسبب الأمطار.. الجو غالبًا جميل، ولكم من شروق شمس ممتع ها هنا!
وفهم ضحكتي الساخرة على أنها ضحكة مشجعة، فقال:
- إن الطيور هنا ساحرة لو كنت ممن يراقبونها..
وتوقف بسيارته عند بوابة من السلك الشائك، ونزل ليفك جنزيرًا ما.. كانت المنطقة كلها محاطة بهذا السلك على ارتفاع عشرة أقدام، كأن هذا معتقل نازى..
وظهر كلب إلزاسى دنا منا، وراح يهزّ ذيله، فقلت:
- أين المدفع الرشاش؟
ضحك الفتى، وقال:

- لا مدافع.. إن (سيربيروس) رقيق كحمل..
وعبرنا البوابة، فلم يبد الكلب اهتمامًا بنا.. وفجأة راح يركض نحو البرج..
- سيصل إلى المنزل قبلنا..
كان المطر قد توقف، وامتلأت السماء بأشلاء السحب، بينما وقف البرج وحده أمام السماء النحاسية..
اتجهنا يسارًا نحو الرادار حيث المدخل الرئيسي.. وتوقفت السيارة فحملت حقائبي.. وسألت (كين):
- أين غرف النوم؟
- نحن نفعل كل شيء هنا: ننام.. نأكل.. نلهو... نعمل..
وسبقني إلى ممر يتفرع يمينًا ويسارًا، وسألني:
- ربما تحب أن ترى غرفتك، وتأخذ حمامًا..
اقتادني إلى غرفة بها فراش، وفتح الستائر.. إن من سمى هذه (غرفة) لا بد أنه كان يعمل في مستشفى.. بها كل شيء مهم: إناء الغسيل.. الفراش.. المقعد جوار الفراش، والملاءات مطوية بأسلوب المستشفيات.. العسكرية منها بالذات..
رأيته يتجه إلى الممر بالخارج فتبعته.. في الخارج كانت هناك أرائك ومدفأة كهربية وبار صغير.. وسألني:
- قهوة أم شيكولاتة؟ أم لعلك تفضل عصير البرتقال؟
واضح أن هذا البار لا يحوي الكحوليات.. صبّ لي بعض العصير في كوب وناوله لى.. سألته وأنا أسمع صوت كرات بنج - بونج من مكان ما:
- أين يقيم العاملون هنا؟
- لا يوجد عاملون.. لا يوجد هنا سوى (ماك) و(جانوس) و(روبى) وأنا.. والآن أنت بالطبع.. نحن مجموعة سعيدة..

لم أشك في هذا.. عصير برتقال، وطيور، وشموس ممتعة، وبنج
- بونج.. ولكم وددت لو أجرح كبرياء هذا الشاب، لذا سألته:
- وما هو وضعك هنا؟
ضحك، وملأ كوبًا من العصير وقال:
- أنا خنزير (غينيا) الخاص بـ (ماك)[2].. مثلي مثل ابنة (جانوس) والكلب (سيربيروس)..
هنا انفتح الباب، ودلف رجلان إلى الغرفة..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالسليقة عرفت (ماكلين).. كان طويلًا في الخمسين من عمره، وله عينان زرقاوان باهتتان أراهما دومًا في السكارى والقتلة والطيارين الحربيين.. إن للثلاثة شيئًا مشتركًا في ذهني.. ذقنه وأنفه بارزتان، ويرتدى كنزة لها رقبة سلحفاة..
أما مرافقه فكان شابًا ناحلًا ذا عوينات، له مظهر صبى في الكشافة، ولم تزده بقعتا العرق تحت إبطيه جمالًا..
مدّ (ماكلين) يده لي، وابتسامة الترحيب توحى بأنني صرت بالفعل واحدًا من مجموعته الصغيرة:
- سعيد بأن أراك.. إنها أمسية كئيبة بالنسبة لأول قدوم لك إلى (ساكسمير) لكننا سنفعل الكثير غدًا.. أليس كذا يا (روبى)؟
ووضع ذراعه على كتفي:
- سمعنا عنك أشياء عظيمة من AEL.. عصير برتقال للجميع يا (كين).. يجب أن أقول إنني مسرور بقدومك، وأرجو أن تسمح لي بأن أناديك (ستيف) بدلًا من (ستيفن)؟!
حاولت أن أبتسم لكن ابتسامتي تحوّلت لتقطيبة..
صافحنى (روبى) صبى الكشافة بدوره، وقال:

- أنا مسئول المشروع هنا، وأقوم بكل شيء من تفجير الغازات إلى قياس حرارة (كين).. لو احتجت إلى شيء قل لي..
وأدركت أن هذا الصوت الغريب المضحك هو صوته، وليس وليد اللحظة..
كانت هناك مائدة معدة لأربعة، وثمة شخص يقف بانتظارنا، له شعر لزج متلاصق.. قدّمه لى (ماك) قائلًا:
- هذا هو (جانوس)، وهو يتأكد من أن أحدنا لن يموت جوعًا..
وجلسنا إلى المائدة.. مدّ (جانوس) يده إلى سلطانية كبيرة يتصاعد منها البخار، ووضع في طبقي عجينة لها لون الزعفران، والغريب أنها كانت جيدة المذاق.. استغرق الطعام خمسين دقيقة، بعدها صرت على استعداد لأن أعقد سلامًا مع زملائى..
كانت محادثات (كين) هي سلسلة من النكات مع (روبى)، بينما (ماك) لا يكف عن الحديث عن خبراته في تسلق الجبال بـ (كريت).. وكان هو أول من نهض، وقال:
- أتمنى لكم ليلة سعيدة.. لا تقرءوا لوقت متأخر.. ستنطفئ الأنوار في التاسعة مساءً! غادرت المائدة لاحقًا بـ (ماك).. فرأيته يتجه إلى باب مجاور فباب آخر، ثم شعرت بالهواء البارد لما بدا لى كنصف معمل ونصف عيادة.. بل إنه يحوي منضدة جراحية تحت ضوء، وآلات متراصة..
قال (ماكلين):
- هذا هو الجزء الخاص بـ (روبى)، ويمكنه عمل كل شيء هنا، من تربية فيروس إلى استئصال لوزتيك..
ثم دخل إلى غرفة ثالثة ملاصقة.. رأيت أننا في قسم الإلكترونيات.. بدا لي هذا كجهاز حاسب آلى عملت فيه من قبل.. حاسب آلي قابل للمحادثة إلا أن عباراته محدودة، والصوت المنبعث منه غير آدمى بالمرّة..

قال (ماكلين) وهو يقدّم الجهاز لى كأب فخور يقدّم ابنه للضيوف:
- جميل.. أليس كذلك؟ إننا نسميه (شارون - 1)..
من المعتاد أن نطلق أسماء تدليل على اختراعاتنا، وقد أطلقنا على اختراعنا القديم في AEL اسم (هرمز)، وهو الرسول ذو الأجنحة بين البشر والأولمب.. أما (شارون) فهو - على ما أذكر - اسم المعدّاوي الذي ينقل أرواح الموتى عبر ضفاف نهر (ستيكس).. يا لها من روح دعابة!
سألته في حذر:
- ما هو دوره؟
- إن له وظائف عدّة.. لكن ما يعنيك هنا هو آليات الصوت..
وجرّبه لى فوجدت أنهم حققوا نتائج أفضل بكثير مما حققناه في AEL.. لقد كان الصوت واضحًا تمامًا، ولم يعد مترددًا بتاتًا..
قال لي:
- نحن نستعمل (شارون - 1) للتنويم المغناطيسي.. وهو يوجه عبارات للشخص المطلوب تنويمه، وتبعًا للإجابة يختار أسئلة أخرى.. ما رأيك؟
- هذا رائع.. لقد سبقتم أي عالم آخر بأميال.. ويدهشني أننا لن نستطيع تطويره في AEL خيرًا من هذا..
ثم تحرّك (ماكلين) إلى جهاز آخر وقال:
- هذا هو ما يهم الوزارة.. أنت تعرف أن الطائرة إذ تخرق حاجز الصوت تهشم زجاج النوافذ، لكنها لا تهشم زجاج نافذة بعينه.. هذا هو العسير في الموضوع، لكن (شارون - 2) يستطيع هذا..
ووضع كأسًا زجاجيًّا على المنضدة، وشغل الجهاز.. فارتجّ الزجاج وتناثر إلى أشلاء..

- لطيف.. أليس كذلك؟ يمكنك إيذاء أهداف بعينها عن بعد، ولسوف يجد الجيش ما يهمه في هذا، لكني مهتم أساسًا بدراسة الاستجابة عالية التردّد بين الأشخاص والحيوانات..
وضغط زرًّا آخر في اللوحة، وقال:
- لن تسمع شيئًا من هذه.. إنها النغمة فوق الصوتية المتحكمة في (سيريبروس)، ولسوف يكون خارج الغرفة حالًا..
وانتظر بضع دقائق.. بعدها سمعنا صوت مخالب الكلب على الباب البعيد.. ونظر إلى ساعته وقال:
- التاسعة والربع.. ترى هل تغفر لنا مسز (جانوس) ما سنفعله؟
سألته:
- ماذا ستفعل؟
- سأوقظ ابنتها الصغيرة، وأجلبها إلى الهاتف..
وضغط زرًّا آخر..
بعد دقائق دق جرس الهاتف، فتناول السماعة ليقول:
- هالو.. أنا آسف يا مسز (جانوس) إن كنت أيقظتها.. هي مجرّد تجربة.. نعم.. أعيديها إلى الفراش.. آلو يا (نيكى).. لا شيء يثير القلق، فعودي للفراش الآن..
ووضع السماعة، وقال لي:
- إن الأطفال مثل الكلاب سهل تدريبهم.. أو - بشكل آخر - حاستهم السادسة التي تلتقط هذه الإشارات متطورة جدًّا.. لقد التقطت (نيكى) تلك الإشارات بسهولة تامة، خاصة أنها تعاني تخلفًا عقليًّا يجعلها مناسبة جدًّا لهذا الغرض..
وربّت على الصندوق الإلكتروني، ونظر لي وابتسم:
- هل من أسئلة؟
- طبعًا.. السؤال الأول: ما جدوى تدريب الأطفال والكلاب؟

وقلت لنفسي: لو كان هذا هو نوع التجارب الجارية هنا، فلا عجب في أن الوزارة أهملت تمويل هذا المكان، واعتبرته جنة المخابيل..
قال لي شاردًا:
- إن (شارون - 2) يرسل الإشارات بالضبط لمن نختاره، لكن هذا ليس الغرض منه.. إنني أحاول البحث عن شيء أكبر من هذا.. ولكن دعنا نترك (شارون - 1) و(شارون - 2) وحدهما هذه الليلة، ولنستنشق بعض الهواء..
مشيت معه إلى الباب.. إلى الخارج حيث صار الهواء نظيفًا باردًا، والسماء ملأى بالنجوم، ومن بعيد - خلف كثبان الرمل - سمعت هدير الأمواج..
سألني:
- هل لديك فكرة عن الـ (بولتر جايشت)؟
- الأشباح التي تدق ليلًا؟ بالطبع لا..
- ما رأيته الآن من زجاج يتهشم إلى أجزاء ليس سوى المبدأ ذاته: قوى كهربية تتحرّر.. كان لدى مسز (جانوس) مشاكل مع تهشم الأطباق قبل أن أخترع (شارون).. وكانت هذه (نيكى) بالطبع..
- ماذا؟
- نعم - وراح يذرع المكان جيئة وذهابًا ويداه في جيبه -.. كانت الطاقة الروحية لدى الطفلة قوية متفجرة، بسبب عقلها المتخلف.. ثم كونها التوءمة الوحيدة الحيّة من توءمين؛ جعل الطاقة مضاعفة..
كان هذا أكبر مما أستطيع ابتلاعه فضحكت.. قال لي:
- هناك مئات من هذه الأشياء التي يسمونها (نشاطًا حركيًا)، وفي كل مرة كان هناك طفل ذكاؤه أدنى من الطبيعي، وهذا يقنعني أن بداخل كل منا جزءًا من هذه الطاقة الغامضة.. يمكنني أن

أسميها (القوة السادسة).. إنها تعمل كذات الموجات التي يطلقها (شارون)، وتفسر كل الألغاز النفسية.. ولما كانت الطفلة متخلفة عقليًا كانت سيطرتها غير الواعية على تلك القوى أقل..

إن الله (سبحانه وتعالى) يعرف أن الحياة معقدة بما يكفي، كي لا نقضي وقتنا في البحث عن طاقات غامضة داخل الإنسان، بهذه التجارب العجيبة..

قلت لـ (ماك):

- حسن، ستسيطر على تلك القوي.. لكن ألن يزيد هذا من متاعبنا بما لا يقاس؟

- سيجد الإنسان الطريقة المثلى لاستغلال (القوة السادسة) في وقت ملائم.. وهدفي هو اختزان هذه الطاقة بعد ما يموت الجسد!

نظرت له مذهولًا غير مصدّق.. إنه مجنون تمامًا.. قال لي وهو يرمق النجوم:

- فكّر في هذا: كل البشر يملكون تلك الطاقة، وهي تموت معهم إذ يموتون.. أية خسارة عبر القرون! الطاقة الحيوية التي لا يحكمها شيء وتوجد في كل مكان..

لا بد أن هذا الهراء النظري قد ولد بعد وفاة زوجته.. قلت له:

- تحتاج إلى عمر كامل كى تبرهن على نظريتك..

- لا.. أحتاج إلى شهرين لا أكثر.. لقد فرغت من اختراع (شارون - 3) الذي لم تره بعد، وبه وحدة تختزن تلك الطاقة.. ونحن مستعدون للتجربة حين يعمل (شارون - 1) و(شارون - 2)، لكني بحاجة إلى مساعد متعاون مثلك.. لقد رفض من سبقك العمل معنا لأسباب شخصية أفهمها.. لم يستطع أن يبتلع نظرياتى قط..

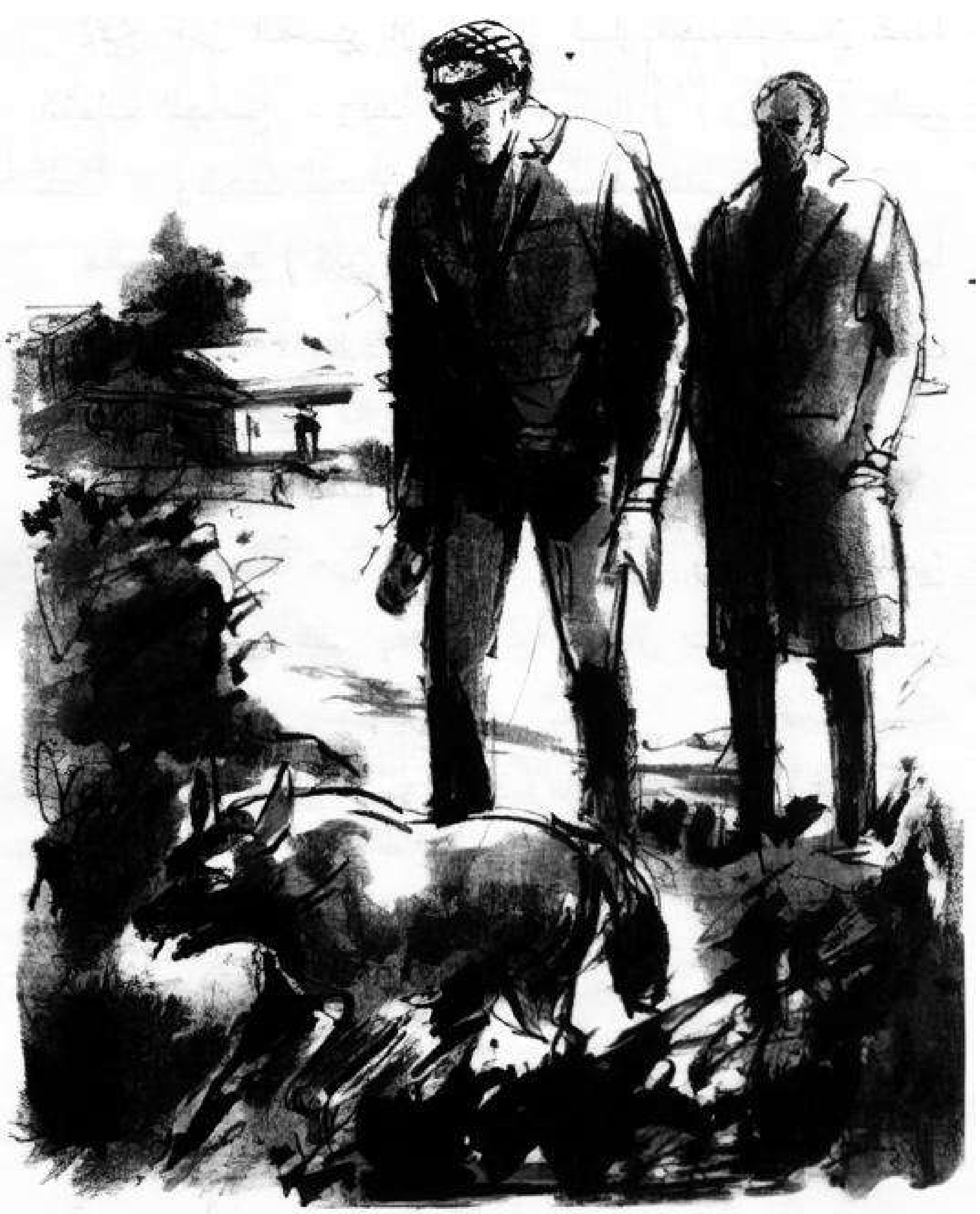
ومشينا عائدين نحو محطة الرادار المعطلة، حيث ساد الظلام تمامًا..
تذكّرت (كين) في البار يصب لنفسه عصير البرتقال، ويعتبر نفسه خنزير (غينيا)..
سألته:
- ما دور (كين) في هذا؟
صمت قليلًا.. ثم قال:
- الفتي مصاب بسرطان الدّم.. (روبي) يقول إنه لن يعيش أكثر من ثلاثة أشهر.. لكن الفتى شجاع ويثق بالتجربة.. ولو فشلت المحاولة فلن يخسر شيئًا فهو ميت على كل حال.. أما لو نجحنا......

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أشرقت الشمس في الصباح التالى.. نهضت من النوم لأرمق الطريق الأسفلتي، وقرّرت أن أرحل..
حلَقْت ذقني واستحممت، واتجهت إلى الإفطار عازمًا على أن أنفرد بـ (ماكلين)..
سأركب أول قطار، وببعض الحظ أكون في (لندن) في الواحدة بعد الظهر..
لم يكن على المائدة سوى (روبي) الذي كان ينقضّ على طبق ملىء بالرنجة.. جلست أمامه أتناول إفطاري، وبحثت عن جريدة فلم أجد.. هكذا صرت مرغمًا على المحادثة..
كان منهمكًا في تشريح الرنجة بدقة خبير، وفجأة سألني:
- هل انتويت الرحيل؟
أثار هذا ذهولي، ولم أحب أسلوبه.. قلت له:

- إنني مهندس إلكترونيات، ولست شغوفًا بطاقات الإنسان الخفية..
- وكذا زملاء (لستر) لم يكونوا شغوفين بالمطهرات.. فأي حمقى جعلوا من أنفسهم بعد ذلك؟! [3]
وابتلع نصف سمكة الرنجة.. فقلت له:
- اسمع.. أنا منبهر بـ (شارون - 1).. لكني لا أعرف نفعًا لـ (شارون - 2).. أما (شارون - 3) فلو سمعت به الوزارة، لانتهى بنا الأمر في مستشفى المجاذيب..
لم يكن الإفطار وجبتي المفضلة، وكان ما رأيته كفيلًا بإفقادي أية شهية.. لذا سررت إذ ظهر وجه (كين) في النافذة يقول لي:
- مرحبًا.. لو لم تكن مشغولًا يمكنك المجيء معي لنزور أكواخ حرس الشاطئ.. إن الجو جميل اليوم.. هل أنت في اللعبة؟
كان الإغراء شديدًا، فصوت قرمشة (التوست) في فم (روبي) لا يحتمل..
وسألته:
- أين أجد (ماكلين)؟
- في غرفة التحكم..
كان يجب عمل هذا فورًا، لذا هرعت إلى المعمل حيث كان (ماك) واقفًا جوار (شارون - 1)، فما إن رآني حتى قال لي:
- ثمة خطأ ما لا أدري إن كان بوسعك إصلاحه..
كنت قد جئت لأعتذر وأصارحه بنية الانفصال عن فريقه، لكني لم أفعل..
جلست أمام الحاسب الآلي.. إن الفضول القاتل والكبرياء المهنية والغيرة الشخصية كلها كانت ذات تأثير قوي عليّ.. وذبت في

عالم الحاسب (شارون - 1)، وبهرني جماله وكفاءته.. وربحني (ماكلين) من لحظتها..
وفي النهاية وجدت العطل وأصلحته، وسرعان ما تحول (ماكلين) إلى (ماك)، ولم يعد تصغير اسمي إلى (ستيف) مما يضايقني..
لقد صرت واحدًا من الفريق..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
وفي العصر تنزهت مع (كين) بإذن من (ماك).. كان من العسير أن أصدق دنو الموت من هذا الشاب الجامح.. ربما كان (ماك) و(روبي) على خطأ.. والحمد لله أن هذه ليست مشكلتي..
مشيت مع (كين) وهو يثرثر ويضحك، بينما (سيربيروس) يتريض عند أقدامنا ويلتقط العصيّ التي رحنا نرميها له..
فجأة تصلب الكلب، ثم انطلق عائدًا من حيث جئنا.. لقد تلقى رسالة من (شارون).. كان رحيله المفاجئ غريبًا، ونحن على بعد ثلاثة أميال من (ماك).. توجهنا يسارًا متجهين إلى القمة.. وكانت هناك مجموعة من أكواخ حرس الشاطئ، قال لي (كين):
- تعال نحيّ المسز (جانوس)..



فجأة تصلب الكلب ، ثم انطلق عائدًا من حيث جئنا ..
لقد تلقى رسالة من (شارون) ..

تبعته مترددًا.. فأنا أمقت أن أزور أحدًا دون إعداد..
كانت الحديقة غير مُعتني بها، وفتاة صغيرة تقف جوار باب الكوخ.. شعرها الأسود يحيط بوجهها الضامر، وعيناها بلا

بريق..
- مرحبًا (نيكى)..
أشارت إليّ وتساءلت:
- من هذا؟
- اسمه (ستيف)
- أنا لا أحب حذاءه..
قالتها في مشاكسة، ثم حاولت أن تعتلى ظهره.. بينما هو ينادى مسز (جانوس)..
جاءت امرأة سمراء لها وجه ينبض بالرعب، حيّتنا ودعتنا للدخول..
في الداخل أحضرت برّاد شاي لنا وكوبين.. بينما الطفلة تلهو مع (كين) ولا تكف عن النظر إلى حذائي..
كانت هناك صورة للطفلة فوق المدفأة.. وكانت أجمل بكثير من صاحبتها..
هنا تصلبت الطفلة فجأة كأنها في نوبة، ثم هتفت:
- (ماك) يريدني!
شعرت بالغثيان إذ خرجت الطفلة لتتصل بـ (ماك) هاتفيًا.. وسألت الأم وأنا أشير إلى الصورة:
- صورة جميلة..
لدهشتي امتلأت عيناها بالدموع، وقالت:
- هذه ليست (نيكى).. هذه (بني) أختها.. لقد فقدناها في سن خمس سنوات..
هنا عادت الطفلة لتعلن:
- (ماك) يريد أن تعود أنت و(كين) الآن..
وهكذا غادرنا الكوخ شاكرين للمرأة حسن ضيافتها..

ومن المستنقع جوارنا شممنا رائحة العطن، بينما الهواء يزداد سرعة، ومن بعيد جثم البرج فوق الأفق كوحش..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأيام التالية طورنا نظامًا للحاسب الآلي، يرسل الأصوات حسب برنامج دقيق.. وكان عملى هو تحسين دقة الصوت، بينما البرمجة مسئولية (ماك)..

وفي يوم الجمعة أعلن (ماك) أن (شارون - 3) صار جاهزًا..

ذهبت إلى المعمل، بينما جلس (كين) على منضدة الجراحة، وكان ثمة مكبر صوت فوق رأسه يقود إلى (شارون - 1)، وثمة ضوء أصفر بمعنى (استعد)..

تغير الضوء الأحمر، فأغمض (كين) عينيه، ثم جاء صوت (شارون):

- هنا (شارون) يتكلم.. هنا (شارون) يتكلم.. هل أنت بخير؟

أجاب (كين) بصوت مسطح خال من الحيوية:

- أنا بخير..

كان قد نام مغناطيسيًا الآن، وتمدد على المنضدة، والأسئلة التي كان البرنامج يوجهها له غير عشوائية بل مرتبة بدقة، كما اتضح لى..

سأله (شارون):

- هل هناك ما يثير ضيقك؟

- إنه الانتظار.. أريد أن ينتهي الأمر سريعًا.. ولا أعبأ بشيء بعدها..

واستمر الاستجواب، لكن كان أكثر ما قاله (كين) مؤلمًا، ولست راغبًا في تكراره ها هنا.. فقد اعترف بآلامه ومخاوفه، التي لم يصارح بها حتى نفسه قبل هذه اللحظة..

ثم جاء الصوت يقول له:

- أنت على ما يُرام ولست وحدك.. والآن انهض يا (كين)..
فتح (كين) عينيه ونظر حوله، ثم تساءل:
- أقام (شارون) العزيز بعمله على ما يُرام؟
قلت له بصوت مبحوح وأنا كاذب:
- مائة بالمائة..
قال لي (ماك) بينما أنا أفك الأسلاك:
- شكرًا يا (ستيف).. يمكنك الآن فهم احتياجنا لآلة بلا مشاعر شخصية لتجري الاستجواب، ولهذا وجد (شارون).. لكن كانت التجربة لتكون أفضل لو كانت الطفلة معه..
- الطفلة؟!
- نعم.. هي مهمة جدًّا، وبدورها تنام مغناطيسيًّا، وتبدأ في الثرثرة كصراصير الحقل معه دون تدخل من (شارون).. وحين يفيقان لا يذكران شيئًا مما حدث.. إن (كين) في النهاية سيدخل في غيبوبة، وستكون (نيكى) الصغيرة هي وسيلة الاتصال الوحيدة به عندئذ..
ومشيت وحيدًا إلى البحر الرمادي الثائر، شاعرًا بحيرة لا تنتهي..
وفي الأيام التالية تكرّرت التجارب في وجود الطفلة.. في البداية كان (شارون) يقول لـ (كين) إنه في السابعة من عمره وأن (نيكى) جاءت لتلعب معه.. ثم يقول لـ (نيكى) إن (كين) جاء ليلعب معها.. عندها يسترسل الاثنان في اللهو دون تدخل من (شارون)، وتنمو صداقة حميمة بين الاثنين يومًا فيوم، وهي صداقة لا يعرفان عنها شيئًا حين يفيقان..
ولقد سألت (روبى) عما يشعر به آل (جانوس)، فقال:
- إنهما سيفعلان أي شيء من أجل (ماك)، ويحسبان أن هذا سوف يساعد (نيكى)..
- ويعرفان أن (كين) سيموت؟

- أخبرتهما لكنهما لم يصدقا حرفًا.. من يمكنه أن يشك ما دام (نيكى) بهذه الحيوية؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في (ديسمبر) جاءنا من (لندن) خبر رهيب..
إن الوزارة ترغب في إرسال مفتِّش يتفقد سير العمل في (ساكسمير).. وقرّرت أن أذهب أنا إلى (لندن) لأكتم أنفاسهم.. لقد صرت الآن مع (ماك) في كل شيء يفعله..
وهكذا استطعت إقناع مسئولي الوزارة بأن زيارة في هذا الوقت المبكر هي استباق لنضج الثمرة، لكننا نأمل في ظهور شيء قبل رأس السنة..
عدت إلى (ساكسمير).. لكني - على المحطة - لم أجد (كين) ينتظرني ببسمته المشرقة، لقد أصيب بالبرد ولزم الفراش..
كان الفتى في الفراش محتقن الوجه، لكن معنوياته ممتازة، وقال لي:
- لا تقلق.. لقد اصطدت الطيور في المستنقع، وابتلت قدماى قليلًا..
رحت أحكى له عن (لندن)، ثم فارقته لأرى (ماك).. الذي قال لى:
- لقد ارتفعت حرارته وأجرى (روبى) تحليلًا لدمه.. ليست النتيجة مطمئنة جدًّا..
وصمت ثم قال بعد برهة:
- لربما كانت هذه هي المرة..
وشعرت بالقشعريرة إذ أردف:
- لقد أصيب (كين) بعدوى في رئته اليمني، وهي في الغالب قاتلة مع فقدان المناعة المصاحب لسرطان الدم..
وفي الصباح جاء (ماك) لغرفتي ليخبرني:
- أن الأمور أسوأ.. ولسوف يجرى (روبى) نقل دم للفتى..

- قل لي ما عليّ أن أفعله..
- ساعدني على إعداد (شارون - 1) و(شارون - 2).. فإن لم يستجب (كين) كان علينا أن نبدأ المرحلة الأولى من مشروع (ستيكس)، وقد أخبرت مسز (جانوس) أننا قد نحتاج إلى ابنتها..
وفي المعمل كان (كين) مع (روبى)؛ بينما عملت أنا على الجهازين، وكان كل شيء على ما يُرام.. وبعدها حدث تحسن طفيف لـ (كين)..
في الرابعة والنصف جاءني (روبى) في قاعة البنج - بونج، ومن وجهه عرفت أن الأمور ليست على ما يُرام.. هزّ رأسه حين اقترح (ماك) نقل دم آخر، وقال إن هذا مضيعة للوقت..
- هل ما زال بوعيه؟
- نعم..
كان الجزء الثاني من عملية (ستيكس)، يتضمن وضع وحدة أوكسجين جوار فراش (كين)، وإعداد مكبرات الصوت.. كل شيء تم التدرب عليه من قبل طويلًا..
لقد انتظر (ماك) هذه اللحظة لعدة أشهر.. وربما أعوام..
ضغطت علي زرّ (شارون)، واختلست نظرة إلى (كين).. حقًا قد تبدّل تمامًا، واختفت عيناه اللامعتان في وجهه المجعّد، وبدا حائرًا إذ ثبت (روبى) الأقطاب على صدغيه وصدره.. كان يعرف أن هذه آخر مرة يرانا فيها وهو بكامل وعيه..
شغلت النظام كاملًا ليتعالى الصوت: هنا (شارون) ينادي.. هنا (شارون) ينادي.. وأغمض الفتى عينيه..
سأله الحاسب الآلي:
- كيف تشعر يا (كين)؟
حرّك شفتيه، وبعسر سمعنا الإجابة:
- أنت تعرف كيف أشعر!

- وأين أنت؟
- إن الجو بارد.. بارد.. هم يريدون تجميدى كاللحم لدى الجزار.. قل لـ (روبى) أن يعيد الحرارة.. إنني أقف أمام نفق.. كأنه الناحية الأخرى من تلسكوب.. قل لـ (روبى) أن يعيد الدفء..
وثب البرنامج إلى النقطة التالية على الفور:
- إن عمرك خمسة أعوام يا (كين).. قل لنا ما تشعر به..
ساد الصمت، ثم همس (كين) كما توقعت:
- أنا لست على ما يرام، ولا أريد أن ألعب..
هنا انفتح الباب ودخلت (نيكى).. لقد استدعاها (ماك) الآن، ولم تكن ترى ما يدور؛ لأنها كانت تحت السيطرة..
جلست على مقعد.. وأغلقت عينيها..
- قولي لـ (كين) إنك هنا يا (نيكى)..
اعتصرت مسندي المقعد بيديها، وقالت:
- (كين) مريض.. لا يريد أن يلعب..
- إجعلى (كين) يتكلم يا (نيكى)..
- (كين) لن يتكلم.. إنه يتلو صلاة..
وبدأت الطفلة تضرب الأرض بقدميها.. وقالت:
- لن أذهب في النفق يا (كين) معك.. إنه مظلم..
- اذهبى خلف (كين) يا (نيكى)!
- لكنه مظلم..
وراحت تصدر حركات متلوية لليمين واليسار بجسدها، وتبكي:
- لا أريد أن أذهب.. إن النفق طويل..
أمر (ماك) بتثبيت قناع الأوكسجين على وجه (كين)، ثم واصل التجربة:
- ابقى مع (كين) يا (نيكى)..

تمنيت لو كان (ماك) يعرف ما يفعله.. ماذا لو دخلت الفتاة في غيبوبة ولم نستطع استعادتها؟ وأمرني (روبى) أن أضع بطانية على جسد الفتى الهامد.. وعلى شاشة (شارون - 3) رأينا الموجات الكهربية التي تدور في رأس (كين) الآن..
فجأة عقدت الفتاة يديها على صدرها حيث جلست، ثم ثنت ركبتيها إلى بطنها، وسقط رأسها إلى الأمام..
بدا لى كأنها تصلي ثم أدركت أنها تتخذ وضع الجنين في بطن أمه.. وتجعد وجهها فبدت كامرأة عجوز..
وقال (روبى) وهو يتحسّس نبض الفتى:
- إنه يرحل
بدت الإشارات على الشاشة خافتة، ثم تزايدت
فجأة.. وقال (روبى):
- انتهى الأمر.. إنه ميت..
لكن الإشارة لم تنقطع.. وقال (ماك) في حماسة:
- لقد فعلناها!

.

ووقفنا عدة دقائق نرمق شاشة (شارون - 3) الذي اختزن الطاقة السادسة في عقل (كين)، إلى أن قال (روبى):
- ماذا عن الطفلة؟
كنا قد نسيناها تماما.. ومددت يدي لأغلق الحاسب لكن (ماك) منعنى:
- دعها لتر ما ستقول..
واستدعاها بالإشارة.. مكررا آخر جملة قيلت:
- ابقى مع (كين).. قولي لنا ماذا يحدث..
في النهاية تراخي جسدها.. وراحت تهتز أماما وخلفا، وبصوت بدا لي غريبا مبحوحًا قالت:

- إنه يرجوكم أن تتركوه.. دعوه يرحل!
وبدأت تشهق من أجل التنفس، وتهتز:
- دعوه يرحل! دعوه يرحل!
قال (روبى) في توتر:
(ماك)! يجب أن توقظها!
وبدأت الطفلة تشرق وتتمايل أكثر فأكثر..
لم أنتظر (ماك) وضغطت على الزر ليتعالى صوت (شارون):
- انتهى الأمر.. انهضي يا (نيكى)..
زال الاحتقان عن وجهها.. وببطء فتحت عينيها ونظرت إلينا، ثم باكفهرار قالت لنا:
- أريد الذهاب إلى الحمام.
فاقتادها (روبي) إلى هناك..
قال (ماك) لى بصوت حاد:
- لو لم يصبك الهلع وتوقف التجربة، فلربما عرفنا أكثر..
- الطفلة كانت تختنق..
- لا أعتقد هذا.. لقد كانت تمر بـ (صدمة الميلاد).. وما بدا لك اختناقا لم يكن سوى أول شهيق يأخذه الوليد.. لقد عاد (كين) في أثناء الاحتضار إلى تلك اللحظة، وكانت (نيكى) معه..
قلت له:
- إن صعوبة التنفس حدثت بعد وفاة (كين)..
لا يمكن أن يكون (كين) قد عاد للحظة الميلاد لأنه كان قد مات فعلا.. ألا ترى هذا معي؟
لم يجبني.. قال بعد صمت:
- لا أعرف.. لا أعرف
هنا عاد (روبى) وقال لنا:

- لقد نالت الطفلة ما يكفي.. لقد أرسلتها للبيت وأمرت أمها أن تدخلها الفراش..
ولم أكن قد سمعته يتحدث بهذه النبرة من قبل وأردف:
- ألا ينطبق هذا علينا جميعا؟ سنحتفل بالأمر غدا لكن ليس الليلة..
كان على وشك الانهيار العصبي، وكذا كنا جميعا..
بعد قليل جاء (جانوس) ليخبرنا أن ابنته نامت على الفور.. لقد انتهى الأمر فلم يبق إلا أن نتناول عشاءنا، ثم نظفر براحة النوم العظيمة..
لكن حافزا أقوى مني دفعني إلى العودة وحدى للمعمل.. كان كل شيء كما تركناه والجسد مغطى بالملاءة.. والشاشة تتراقص عليها الإشارات..
أدرت الشريط لأسمع آخر ما قالته الطفلة:
- إنه يرجوكم أن تتركوه.. دعوه يرحل!
ثم تعالي شهيقها المختنق..
رفعت رأسي فوجدت (ماك) واقفا عند الباب والكلب معه..
(سيربيروس) قلق.. إنه لا يكف عن الحركة في غرفتي، ولا يدعني أنام..
- (ماك).. ثمة شيء خطأ..
- انظر إلى الشاشة تر الإشارة.. لقد نجحت التجربة.. إن الطاقة هنا..
- نعم.. لكن هل هذا كل شيء؟ عندما قالت الطفلة هذا، كان (كين) ميتا.. ما الذي قال دعوني أرحل؟ هل كانت له شخصية قادرة على الكلام؟
- ما لم..
- ما لم ماذا؟

- ما لم يكن ما نراه على الشاشة هو جوهر وجود (كين) نفسه..
نظر لى غير مصدق، ورحنا نرمق الإشارة على الشاشة.. عندها فقط بدأ إحساسنا بالرعب والذعر..
- (ماك).. ما هذا الذي فعلناه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح اتصلت بنا مسز (جانوس) لتخبرنا أن (نيكى) تقوم بأعمال غريبة.. ولا تكف عن القفز للأمام والخلف.. لم تكن محمومة.. لكنها لم تأكل إفطارها ولم تتكلم..
جلسنا في غرفة الطعام شاردين.. ونهض (روبى) مسرعا قائلا:
- سأذهب على الفور.. هذا تأثير ما حدث أمس، وما كان لي أن أسمح به..
. قال (ماك):
- أنت تعرف أن هناك خطرا من البداية، وبرغم هذا وافقت..
- كنت مخطئا.. هذا كل شيء..
- ما كنا لننجح بدونها..
وانطلق (روبى) دون كلمة ليستقل سيارته..
عدنا إلى المعمل حيث كان (جانوس) يعد جثة (كين) المسكين..
هنا دق جرس الهاتف وسمعت صوت (روبى):
- يجب أن نبعد الطفلة.. تبدو لي الحالة ك (كاتاتونيك شيزوفرنيا).. إن مسز (جانوس) لا تستطيع التصرف، ولو سمح (ماك) سأخذها إلى العيادة النفسية في مستشفى (جاى)..
شرحت الأمر ل (ماك)، فتناول السماعة وقال:
- اسمع يا (روبى).. أنا مستعد لتحمل مسئولية وضع الطفلة تحت سيطرة (شارون) ثانية..
لم يبد (روبى) متحمسا.. فأشار لى (ماك) وناولني السماعة:
- قل ل (روبى) أن ينتظر قليلا..

واتجه إلى (شارون - 2) وشغله.. وسرعان ما بدأت إشارة الاستدعاء..
هنا سمعت (روبى) يصرخ: ماذا حدث؟ ثم صوت السماعة يسقط.. أصوات بعيدة وصراخ لمدة دقيقة.. أخيرا جاء صوت (نيكى) في الهاتف..
كانت حائرة خائفة، وقالت لـ (ماك):
- أنا خائفة.. ثمة ساعة تدق في مكان ما وأنا لا أحبها..
- أين هي يا (نيكى)؟
لم ترد.. بعد قليل قالت:
- هي في كل مكان وأنا لا أحبها.. (بيني) لا تحبها كذلك..
(بينى)؟ هنا تذكرت أنها أختها التوءم المتوفاة..
كل هذا لا يحتمل.. ما كان لنا أن نزج بالطفلة في هذا كله..
أدار برنامج (شارون - 2) ليتعالى الأمر:
- ابقى مع (كين).. قولي لنا ماذا يحدث..
هنا صرخت.. ولا بد أنها سقطت أرضا لأننا سمعنا السماعة تسقط، ثم جاء صوت (روبى):
- بحق السماء يا (ماك).. ستقتلها.. كُفَّ عن هذا!
- وماذا تفعل هي؟
- مثل أمس.. كأنها تختنق.. انتظر.. إنها تريد أن تكلمك..
وبعد لحظات جاء صوت الطفلة:
- دعوه يرحل! دعوه يرحل!
- هل أنت على ما يرام؟
- دعوه يرحل!
وضع السماعة، وراح يراقب الإشارة على الشاشة، وبدا لي كأنما ازداد إرهاقا وشيخوخة لكن عينيه تلتمعان رهبة.. وهمس:
- ربما أنت محق.. معنى هذا أننا اخترقنا!

ثم غمغم:
- لقد تغيرت الإشارات إذ تكلمت الطفلة.. لقد جاءت الإشارات من القوة السادسة الخاصة بـ (كين).. يجب أن نحضر الطفلة هنا أمام (شارون) لنستجوبها ونفهم أكثر..
- (ماك).. هل تريد قتل الطفلة أو أخذها لمستشفى المجاذيب؟
في قنوط نظر إلى الشاشة، وقال:
- يجب أن أعرف يا (ستيف).. يجب أن أعرف..
إن كل هذا يغير معنى الحياة للأبد، ومعناه أن القوى السادسة لم تفن منذ وجد الإنسان على الأرض..
هنا دق جرس الهاتف.. كان هذا صوت (جانوس).
يخبرنا بأن سيدين قد جاءا من الوزارة، وهما يريدان د. (ماكلين) حالا لأمر ملحّ..
خرجت لألقاهما.. وتعرفت أحدهما ممن قابلت في (لندن).. قدم لي اعتذاره وقال: إن معاون (ماكلين) السابق المستقيل قد قابلهم، وأخبرهم أنه استقال بسبب أبحاث (ماكلين) الغامضة التي تجهلها الوزارة..
- سيكون معكما حالا.. وإلى هذا الوقت يمكنكما سؤالي عما تريدان..
- نحن هنا لنرى ما حققتم..
- أنا آسف لقد توقفنا عن العمل منذ فترة بسبب فقد أحد أعضاء الفريق (كين رايان) أصيب بسرطان الدم وتوفي أمس..
تبادلا النظرات.. ثم قال الرجل الأول:
- سمعنا عن هذا، وسمعنا أن التجربة الجارية تتعلق بمرض الفتى..
- هذه معلومة خاطئة، وحين يعود (روبى) يمكن أن يخبركما بالتفاصيل الطبية..

كنت أعرف أن ما أقوله لن يمنعهما من دخول المعمل..
ودخلنا لنجد (ماكلين) واقفا أمام (شارون - 3)..
كانت الشاشة تلتمع لكن ما من إشارة عليها..
لاحظت هذا ولم أقل شيئا..
قال لي (ماك) دون أن يعير الرجلين انتباها:
- نعم.. لقد فصلت كل شيء، وفقدنا القوى!
شعرت بدلا من الراحة بالشفقة.. الشفقة على الرجل الذي دمر في خمس دقائق عمل أشهر كاملة..
- لم ينته الأمر بل بدأ.. وما حدث لن يعرفه سوى ثلاثتنا.. كنا على حافة اكتشاف لم يتصوره أحد.. لكن ما قالته الطفلة أثار قلقي، ولهذا أطلقت سراح الطاقة.. إن (كين) حر الآن وكذا الطفلة.. لكنني مستعد لمواصلة البحث حتى آخر أيامي..
ثم همس:
- قل لهذين الموظفين إن تجاربنا فشلت، وإنني تركت العمل.. الآن يا (ستيف) نحن ملك أنفسنا إن الطفلة ستكون على ما يرام فاذهب إليها وابعث لي بـ (روبي).. سأتعامل أنا مع هذين (المخبرين) من الوزارة..
اتجهت إلى الخارج، ونظرت إلى المستنقع..
كان (سيربيروس) يركض بجواري.. ينظر لي من آن لآخر..
لقد حطم (ماك) - بيديه - الخيط الوحيد الذي جلبنا هاهنا.. لقد امتلكه بضع ساعات.. وكان يقودنا لعالم تلو عالم من الاكتشافات..
الآن قلَّ تصديقي بالأمر.. ربما كنا مخطئين.. خدعتنا عواطفنا وآلام طفلة متخلفة عقليا وخائفة..
صعدت إلى الهضبة لأرى أكواخ حرس الشاطئ من علٍ.. ورأيت (روبي) يخرج من الكوخ مع الطفلة وكانت على ما يرام..

جرت لتحيي الكلب.. ثم راحت تركض، ذراعاها فوق رأسها، تضحك، ترقص، والكلب ينبح في إثرها.. ودوت أبواق من القاعدة العسكرية الأمريكية ثم لم يعد من صوت سوى النباح، ورقص الطفلة والأبواق الرفيعة تتردد في السماء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليس بعد منتصف الليل



ليس بعد منتصف الليل

مهنتي هي معلم أو كانت معلما، وقد قدمت استقالتي لناظر المدرسة قبل أن يجيء طردي الذي لا مفرَّ منه..
كان السبب الذي قدمته للاستقالة هو المرض بسبب عدوى التقطتها في أثناء عطلة في (كريت)، ولربما اضطرتني للبقاء في المستشفى عدة أسابيع لم أوضح طبيعة المرض لذا عرف وقام بالباقي إن شكواي عامة، ومنذ أقدم العصور كانت تبعث جوا من المرح والسخرية لدى الناس، حتى يتجاوز المريض الخط، ويصير تهديدا للمجتمع..
يتحاشى بعض الناس أن يقابل عيوننا، ونترك وحدنا نحاول الخروج من الخندق أو نظل هناك حتى نموت..
ولئن بدوت مليئا بالمرارة، فلأن عدواي جاءت وأنا بريء تماما..
ربما استطعت أن تعزو عدوى مماثلة إلى الوراثة أو الإهمال أو مشاكل الأسرة، ويلقى أمثالي بأنفسهم على أريكة المحلل النفسي، يسكبون ما في أنفسهم ويشفون.. لكني عن ذلك عاجز..
إن الطبيب الوحيد الذي صارحته بما بى؛ تكلم قليلا عن (الشعور المكبوت بالذنب) وأعطانى بعض أقراص، ربما تحسنت لو أخذتها لكني لم أفعل.
ألقيتها في البالوعة.. وزاد حالتى سوءا الشباب الذين كنت أعتبرهم أصدقائي، والذين كانوا يتغامزون عندما يرونني أو يحبسون الضحكات، حتى جاء اليوم الذي قررت فيه عجزي عن الاستمرار، وقرعت باب الناظر..
حسن.. لقد فرغ هذا.. انتهى.. والآن أريد أن أشرح ما حدث في المقام الأول.. ومهما يحدث لى، سيجدون هذه الأوراق، ويمكن للقارئ أن يقرر أن ما حدث كان نتيجة للخوف فوق الطبيعي، أو أنني سقطت فريسة لسحر قديم أسود شرير، فقدنا جذوره منذ فجر التاريخ..

كان الوقت في (أبريل) - عيد الفصح - وكنت قد زرت (اليونان) كثيرا، لكني لم أزر (كريت).. لم يكن غرض زيارتى لـ (كريت) هو رؤية أطلال المدن القديمة كـ (كنوسوس) و (فيستوس)، ولكن كى أمارس هواية شخصية.. كانت لدى موهبة في الرسم بالزيت، وقد أمتدح عملي بوساطة صديق أو اثنين من هواة الفن..
هنا أتحدث باختصار عن حياتي: أنا عزب
في التاسعة والأربعين، والداي متوفيان، تعلمت في (أوكسفورد) وألعب الجولف والبريدج..
أهوى الرسم والسفر حين أجد المال.. خطاياى حتى الآن هي - حرفيا - لا شيء.. ليس هذا غرورا..
لكنني رجل خمول غير مندفع عاطفيا، ولم يضايقني هذا قط.. وكنت أكره الاختلاط بالناس.. لى صداقات غير عميقة. لأن تعميق الصداقات يؤدي دوما إلى كارثة.
سافرت إلى (كريت) لا أحمل سوى حقيبة صغيرة وأدوات الرسم، وقد أوصى لى عميل شركة سياحة بفندق يطل على خليج (ميرابللا) على الساحل الشرقي.. شاليهات على البحر مباشرة، ولست مبذرا، لكني سمحت لنفسي بأن أضيف لنفقاتي تكاليف استئجار سيارة (فولكس فاجن) صغيرة، لدى وصولي إلى مطار (هيراكليون)..
قطعت أربعين ميلا مرهقة في الطريق لوجهتي، خاصة وأنا سائق حذر، في طريق متعرج رهيب..
أخيرا وصلت إلى الفندق، فتناولت الغداء في الشرفة المطلة على البحر، وبعدها اقتادني الساقي إلى حديقة ملأى بأشجار (الجيرانيوم)، وبها شاليه يطل على البحر، وأسرة إنجليزية ابتسمت لى الأم فيها من الشرفة.. ورأيت رجلين يلعبان الجولف، صحت محتجًا:

- هذا غير وارد.. لقد جئت هنا كي أرسم البحر وحدي..
وعدت إلى الفندق لأقول لموظف الاستقبال:
- لا بد أن هناك خطأ.. لقد طلبت شاليها يطل على البحر، والخصوصية بشكل خاص..
ابتسم واعتذر، وراح يقلب الأوراق.. إن وكيلى لم يحجز لي شاليها على البحر.. ربما بعد أيام يلغي أحدهم الحجز، سأكون مستريحا حيث أنا..
قلت غاضبا وأنا لا أطيق فكرة السجن مع تلك الأسرة الإنجليزية:
- أنا بروفسور أدرس الفن.. وعليَّ تنفيذ مجموعة رسوم ما دمت هنا، ومن المهم أن أرى البحر، وألا يكون حولى جيران..
كان جواز سفري قد كتب فيه أننى (بروفسور)، وهي أرقى من لفظة (أستاذ).. وكانت تثير الاحترام دائما..
راح يقلب الأوراق أمامه مرهقا.. فقلت:
- لا أصدق أن كل الشاليهات محجوزة.. الوقت مبكر جدا.. ربما حين يتوغل الصيف، لكن ليس الآن..
وأشرت إلى الشاليهات عند الشمال، وقلت:
- هل هذه محجوزة أيضا؟
- إنها باهظة الثمن.. فبها حمام وجهاز هاتف لكل منها..
أجريت حسبة صغيرة بعد ما عرفت الثمن..
يمكنني اقتطاع نفقاتي والاستغناء عن وجبة الغداء والامتناع عن مغادرة الفندق.. لذا قلت بعظمة:
- حسن.. لا مشكلة.. سأدفع من أجل الخصوصية.. ولو لم يكن لديك اعتراض سأذهب لأختار الشاليه المناسب..
ولم أعطه وقتا للرد واستدرت مبتعدا.. من المفيد أن يكون المرء حازما.. إن هي إلا دقيقة تردد، ويرغمني على البقاء حيث أنا..

ارتفعت معنوياتي عندما رأيت البحر.. الماء يغسل الصخور، وشاطئ ممتد بلا مستحمين.. كل النوافذ مغلقة ما عدا واحدة.. كان هذا الشاليه مناسبا جدا، فهو يريني أجمل منظر للبحر والخليج..
نظرت عبر النافذة المفتوحة إلى غرفة النوم كان بها فراش جواره منضدة عليها هاتف ومصباح، الجدران بيضاء والأرض صخرية.. فيه كل بساطة محراب راهب، لكني لا أطلب أكثر..
سمعت من الحمام صوت ماء متدفق.. أية خيبة أمل! إذن فالشاليه محجوز بعد هذا.. نظرت عبر الباب المفتوح فوجدتها الخادمة الإغريقية الشابة تنظف أرض الحمام، وأصابها الرعب حين رأتني فأشرت لها.. وسألتها:
- هل هو محجوز؟
أجابتني باليونانية، وأمسكت بخرقة التنظيف، خائفة اندفعت إلى الباب وتركتني دون أن تتم عملها..
دخلت غرفة النوم وأمسكت بالهاتف، وطلبت
موظف الاستقبال:
- أنا مستر (تيموثى جراى)
- نعم يا سيدي.. من أين تتحدث؟
وضعت السماعة وخرجت إلى خارج الشاليه كان الرقم على الباب هو (62)..
- أتحدث من الشاليه الذي اخترته وهو مناسب جدا.. إنه الوحيد المفتوح هنا.. ورقمه هو (62)..
لم يرد فورا وبدا متشككا:
- تقول رقم (62)؟ لا أعتقد أنه متاح يا سيدي..
وراح يتكلم باليونانية مع شخص بجواره.. فسألته:
- هل هناك مشكلة؟

- لا مشكلة يا مستر (جراى).. لكننا نشعر أنك ستكون مستريحًا أكثر في رقم (57).. وهو دان من الفندق..
- هراء.. المشهد أفضل من هنا..
- ليكن يا سيدي.. لو صممت سأرسل لك الحمال بالمفتاح..
وعاد يتكلم باليونانية ثم وضع السماعة..
سأفرغ حقائبي و أسبح، ثم أرسم لوحة مبدئية قبل أن أبدأ العمل الجاد صباح غد.. وجاء الحمال يحمل حقيبتي ولوحة الرسم... رأيت الخادمة تقابل الحمال.. تتبادل حديثا هامسا معه.. يبدو أنني خرقت الروتين الهادئ هنا..
- منظر رائع.. يجب أن أسبح!
قلتها بصوت عال، وحركت بدي بحركة السباحة وعلى وجهي الرغبة في أن أرى ابتسامة اليونانيين المشرقة الحاضرة دوما..
تفادي الحمَّال عينى وانحنى بجدية، أما الفتاة فكانت منزعجة بحق، ثم ابتعدا على الفور، وهما ينظران إلى الوراء في توجس..
فتحت حقائبي.. ثم خرجت إلى الصخور تحت الشرفة، وتحسست بإصبع قدمي الماء كان باردا بشكل غريب برغم الشمس التي تغمره، إلا أنني واصلت السباحة ولم أبتعد أكثر، لأنني بطبعى سباح حذر.. خرجت إلى الشاليه وجففت نفسي، وأنا أرمق القوارب تعود إلى المرفأ في سكون من بعيد..
ثم أخرجت أدوات الرسم وانهمكت في العمل..
عملت لمدة ساعتين، وسرعان ما صار لون البحر أدكن، والسماء القصية أرجوانية.. غدا يمكنني أن أرسم الشروق باللون بدلا من الفحم..
أغلقت مصاريع النافذة، واستعددت لأرتدي ثياب العشاء..
لمحت قاربا بخارا متجه بنعومة إلى الجزء الشرقي يميني، وعليه ثلاثة مجانين صيد منهم امرأة..

وأدركت أن أحدهم يوناني، سرعان ما ترجل ليعين المرأة على الهبوط..
ورأيت الثلاثة ينظرون في اتجاهي.. لبضع دقائق راحوا يرمقونني، والرجل الجالس في القارب وراء الدفة يسلط على منظارا مقربا.. يتفحص به كل تفصيلة في شكلي، الذي - يعلم الله - لم يكن ملفتًا للنظر..
شعرت بضيق فانسحبت للداخل..
لا بد أنني أثرت اهتمامهم بظهوري وسط هذه الشاليهات الخالية.. لن يمر وقت طويل قبل أن ينسوني..
وفي الثامنة قصدت الفندق دخلت قاعة الطعام فانتقيت منضدة في الركن تناسب حبي للوحدة، واستمتعت بالعشاء وبدأت في تقشير برتقالة، حين سمعت صوت ارتطام قوي في الناحية الأخرى من القاعة..
كان صوت أمريكي قادم من الجنوب يصيح بصوت عال:
- بحق السماء نظفوا هذه الفوضى!
كان رجلا عريض المنكبين في منتصف العمر، له وجه لوحته الشمس كأنما مليون نحلة لدغته، وكان أصلع الرأس وجلد رأسه ورديًّا مشدودًا كقطعة سجق توشك على الانفجار.. وله شارب سميك لم يخفِ شفته السفلى السميكة الرطبة.. قلما رأيت شخصا منفرِّدًا كهذا..
وجواره كانت امرأة - أعتقد زوجته - في منتصف العمر، لها وجه ملوح كزوجها، وكانت تجلس بلا حراك..
كان الناس قد فرغوا من إرواء فضولهم، لكني ظللت أرمق الزوجين وهما ينهضان قاصدين البار، واستطعت أن أرى أداة السمع في أذنها.. لهذا لم تسمع الضوضاء، وهكذا تتحمل صوت زوجها الغليظ..

ولاحظت براعة عاملي الفندق الذين نظفوا الأرض بسرعة ودقة..
قال لي الساقى:
- القهوة في البار يا سيدى..
كنت أمقت الضوضاء والصوت العال، لكني أمقت كذلك أن أفوِّت قهوة ما بعد الطعام، لهذا نهضت..
كان البار خاليا ماعدا الساقى خلف المنضدة والأمريكي وزوجته، وموسيقا راقية تُعزف من مكان ما..
سألني الساقي عما إذا كنت أمضيت يوما طيبا؟
فأجبت أن نعم..
لقد كانت رحلتي ممتعة، ووجدت شاليها ممتازا هو رقم (62)..
غريب هذا! كان يلمع كوبا فتوقف فجأة.. بدا كأنما سيقول شيئا ثم عدل عنه..
- أغلقوا هذا التسجيل الكرية!
كان هذا هو صوت الأمريكي الغليظ، فاتجه البارمان إلى (الجراموفون) وخفض الصوت..
- أحضروا لى زجاجة أخرى!
لو كنت مكان الساقي لكلمت الرجل كما يكلم أب ابنه، ولطلبت منه أن يقول: من فضلك.. لكن الساقى فعل كما أمر الوحش..
هنا دوي صوت الأمريكي من جديد:
- هيه! أنت يا شاليه (62)! أنت لا تؤمن بالخرافات!
استدرت نحوه، وتذكرت الكياسة التي يجب على المرء أن يعامل بها المجانين والسكارى.. وبلطف قلت:
لا.. لا أومن بها.. هل يجب ذلك؟
احمر وجهه أكثر، وضحك:
- حسن.. سحقا! لو كنت مكانك لفعلت..

غرق أحد نزلاء ذاك الشاليه منذ أسبوعين، وانتشل الموظفون جسده بعد يومين، وقد التهمه الأخطبوط!
وراح يهتز ضحكا ويضرب على ركبتيه استدرت للساقي متسائلا فقال:
- نعم هو حادث تعس.. كان مستر (جوردون) رجلا طيبا يعشق الآثار.. وقد اختفى في ليلة حالمة سبح فيها بعد العشاء.. لكننا لا نتكلم عن هذا هنا أنت تفهم.. سيكون هذا ضارا بالـ (بيزنس).
وأؤكد لك أن الماء آمن، وهذا أول حادث من نوعه..
آه.. دعك من هذا..
لكني تضايقت من فكرة أن الشاب المسكين كان آخر من استعمل الشاليه الذي أقيم به.. لكن الأمر لا يتساوى طبعًا مع أن يكون مات في الفراش، ولم أكن مؤمنا بالخرافات، لكني فهمت سر ذعر الخادمة الشابة..
هنا صاح الصوت الغليظ:
- دعني أقل لك شيئا: ليس بعد منتصف الليل! لا تسبح بعد منتصف الليل حتى لا يظفر بك الأخطبوط..
وانفجرت ضحكاته ثانية، قبل أن يصطحب المرأة وينصرف..
حين خلت الغرفة تنفست بارتياح، وقلت للساقي:
- يا له من رجل مستحيل! ألا تستطيع الإدارة الخلاص منه؟
هز كتفيه وقال:
(البيزنس) هو (البيزنس).. فماذا يفعلون؟
الأمريكان لديهم مال كثير.. وقد وصل آل (ستول) هنا لثاني موسم.. إنهم مجانين يحبون الصيد ومستر (ستول) يخرج للبحر يوميا يصطاد من الصباح حتى الغروب.. لكنه لا يجلب السمك للفندق أبدا بل يعطيه للنوتي..
- كم أشعر بالشفقة على زوجته..

- حقا.. لكنها هي من يملك المال.. إنها لا تفارقه أبدا وتذهب إلى الصيد معه.. إنها تراقبه جيدا برغم صممها..
غادرت البار عائدا إلى الشاليه..
كان الهواء منعشا، له رائحة البذور المزروعة في أرض حمراء.. وكانت النجوم تلتمع في السماء وفي الشاليه وقفت أرمق الجبال النائية والبحر وقلت لنفسي: كم هي بقعة جميلة..
دخلت الفراش وأضأت المصباح بجواره.. كانت الغرفة ودودا دافئة.. قبل أن أمدد جسدي تذكرت الكتاب الذي تركته بالشرفة.. كنت بحاجة إلى قراءته..
فتحت مصراع النافذة وخرجت لألتقطه، وقبل أن أدخل نظرت إلى البحر تحتي..
أكثر الأضواء كانت منطفئة فيما عدا ضوءا في شرفة شاليه بعيد.. وفي الضوء رأيت شيئا يتحرك في البحر نحوى.. كان أنبوب تهوية كمنظار الغواصة يبرز من تحت سطح الماء، لشخص يتحرك هناك.. ثم اختفى إلى اليسار..
أغلقت المصراع ودخلت..
لا أعرف السبب.. لكن منظر هذا الشيء أثار قلقى، وذكرني بالغريق الذي هلك بعد منتصف الليل.. لابد أنه غرق في ليلة دافئة كهذه إذ حاول أن يسبح تحت الماء ليلا..
قرأت بضع صفحات، ثم أطفأت النور..
هنا سقط الهاتف على الأرض، فانحنيت والتقطته ولاحظت أن الدرج كان مفتوحا، وبه بطاقة عليها اسم (تشارلز جوردون)..
أعرف أن (جوردون) هو اسم من سبقني.. ثمة كلمات مكتوبة على جانب البطاقة الآخر تقول: ليس بعد منتصف الليل ثم بعد هذا رقم (38)..

دسست الورقة في الدرج.. وبرغم أنني كنت مرهقا فلم أستطع النوم قبل الثانية صباحا، ولوقت طويل ظللت أصغي للماء يصطدم بالصخور تحت شرفتي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظللت أرسم ثلاثة أيام، فلم أفارق الشاليه إلا لأسبح أو لأتناول طعام الإفطار أو العشاء، ولم يضايقني أحد.. وكنت أستبقي من الإفطار ما يكفي الغداء.. وكانت الخادمة تأتي لتنسق فراشي صباحا.

كدت أنتهي من رسم المشهد الانطباعي، وبدا لى مرضيا جدا، لذا قررت أن أستريح وأن أستكشف الساحل قليلا..

كنت أعرف الآن أن قارب المستر (ستول) المزعج هو الذي أراه جوار الشاليه المضيء إياه كان يخرج مع زوجته للصيد في الصباح المبكر فلا أراهم يرحلون، لكني كنت أراهم عند العودة، وأسمع سبابه للرجل الذي يرافقهما في الرحلة.. فليفعل ما يريد ما دام بعيدا عنى..

كان الشاطئ في الناحية الشرقية مكتظا بالأجساد فوق كل بقعة رمل، فحمدت الله على عزلتى، وابتعدت عن الزحام لأجد نفسي وحيدا ثانية لم يكن القارب هناك، ووجدت رغبة عارمة في أن أختلس نظرة إلى شاليه المستر (ستول)..

تسللت إلى هناك، واختلست نظرة عبر خصاص النافذة.. لم أجد ما يلفت النظر سوى مجموعة زجاجات، وزوجا من أحذية الغوص التي تشبه أقدام الضفادع.

بالطبع ما كان مستر (ستول) ليستطيع بحالته الصحية هذه أن يغطس.. ولا بد أنه أرسل تابعه اليوناني ليغوص بحثا عن (أبو جلمبو) وتذكرت أنبوب التهوية الخارج من الماء..

سمعت شخصا قادما فابتعدت، لأني لم أرد أن يجدني أحد وأنا أتلصص.. فقط نظرت لرقم الشاليه فوجدته (38).
لم يكن للرقم ساعتها معنى بالنسبة لى.. لكني حين عدت للشاليه بحثت عن دبوس لرباط العنق، فوجدت البطاقة.. إن الرقم عليها هو (38)..
مصادفة طبعا.. ولكن (ليس بعد منتصف الليل)..
هذا هو الإنذار الذي وجهه لي (ستول).. أتراه أنذر (جوردون) أيضا؟ ولماذا يكتب الأخير النصيحة ورقم شاليه قائلها على بطاقته؟ لكن (جوردون) البائس تجاهل النصيحة طبعا..
وضعت البطاقة في حافظتي.. لربما كان من واجبى إعطاؤها لموظف الاستقبال علها تلقي بعض الضوء على ما أصابه، لكني تجاهلت الفكرة..
المشكلة أن هذا يورطني في قضية تم إغلاقها منذ زمن..
كنت أرى - إذا جلست في غرفة الطعام - آل (ستول) إلى يميني، وذلك دون أن أدير رأسي..
كان محتقنًا كقطعة سجق يلتهم العشاء، بينما الزوجة صامتة شاردة، تداعب الطعام بشوكتها..
دنوت من الساقى فتبادلنا المجاملات التقليدية، ثم سألته:
- مَن مِن نزلاء الفندق يهوى الغوص في الأعماق؟
بدا الساقي مندهشا:
- لا أحد قدر ما أعلم يا سيدي.. ليس بعد الحادث.. كان المسكين مستر (جوردون) يهوى الغطس تحت الماء ليلا، وكان من القلائل الذين يمكن أن يتحدثوا مع مستر (ستول).. وقد كانت لهما مجادلة طويلة ذات ليلة في هذا البار..
- حقا؟

- ليست مجادلة عن السباحة، بل كانوا يتكلمون عن الآثار.. إن هناك متحفا جيدا في قريتنا، لكنه مغلق حاليا للإصلاحات.. كان مستر (جوردون) ذا علاقة بالمتحف البريطاني..
- ما كنت أحسب هذا يثير اهتمام صديقنا (ستول)!
قال الساقي:
- ستدهش لهذا.. إن مستر (ستول) ليس أحمق، وفي العام الماضي كان هو وزوجته يزوران كل الأماكن المهمة في (كنوسوس) و (ماليا)، وأماكن أخرى غير شهيرة.. لكن الأمر اختلف هذا العام.. صيد السمك كل يوم..
- ومستر (جوردون)؟ أكان يصيد السمك بدوره؟
- لا يا سيدي... ليس على قدر علمى.. لقد استكشف الجزيرة والمنطقة كلها بسيارة استأجرها مثلك.. لقد قال إنه يكتب كتابا عن الآثار الموجودة شرقى (كريت)، وعلاقتها بالـ (ميثولوجيا) اليونانية..
- ميثولوجيا؟
- نعم. قال هذا وإن كان فهم هذا أقوى مني..
دارت المناقشة، لكني لم أسمع الكثير منها، فقد كان البار مزدحما.. وكان مستر (جوردون) مهذبا جدا..
على طريقتك إذا سمحت لى، ويبدو مهتما بالموضوع، وما كان الإغريق يفعلونه في عباداتهم..
هنا تذكرت البطاقة في جيبي.. هل أعطيها لموظف الاستقبال؟
ودعت الساقي وغادرت القاعة..
كان آل (ستول) يمشون أمامي، فتلكأت قليلا حتى يبتعدا.. وقفت أمام حامل عليه بطاقات كي أجد عذرا لتأخري، ورأيت مسز (ستول) تتناول معطفها من على شماعة في المدخل، ثم إن

الاثنين خرجا من الباب متجهين لموقف السيارات.. كيف يقود (ستول) سيارته بحالته هذه؟
حافز ما كالذي يدفع صبيا للعب دور المخبر جعلني أتجه إلى سيارتي، وحين ابتعدت سيارة (ستول) - (مرسيدس) - تابعته في رحلته..
كان هناك طريق واحد يتجه شرقا نحو القرية..
لم ألحق به برغمي، وفي النهاية وصلت لمرفأ صغير وأخبرتني غريزتي أن أتوقف أمام مقهى محلى هناك..
كان هناك سياح كثيرون حولي، وبعض السكان المحليين.. فقلت لنفسي: ليكن.. سأجلس هنا وأشرب بعض الليمونادة، وأستمتع بمراقبة المنظر والزحام.
ولا بد أنني جلست هناك حوالي نصف ساعة أرمق الأسر اليونانية التي تستنشق الهواء النقي والحسان اللائي ينظرن من طرف إلى الشباب، وقسًّا أرثوذكسيا يجلس إلى منضدة مع بعض الشيوخ، ومجموعة من شباب الهيبز من بلدي أطول شعرا من أي شخص آخر وأكثر قذارة، لا يكفون عن إحداث الضوضاء، وحين أداروا المذياع وجلسوا على الأرض؛ عرفت أن وقت الانصراف قد حان..

.

دفعت ثمن الليمونادة وخرجت إلى سيارتي.. هنا وقعت عيناي على بقعة ماء داخل البر، حيث بدا أن طريقا جانبا ينتهي نهاية مسدودة.. لا بد أن هذا ما يسميه دليل السياحة بـ (البركة التي لا قاع لها) والتي يلتقط لها السياح صورا كثيرة في الموسم..

كانت بحيرة كبيرة، تطفو القاذورات من فوق مائها.. ولم أستطع أن أجد من يمارسون الغطس فيها نهارا..
عندئذ رأيت (المرسيدس).. كانت واقفة أمام المقهى ضعيف الإضاءة، ولم يكن من شك في الشكل المنحنى على المنضدة والزجاجات أمامه، والمرأة الجالسة بجواره.. لكن لدهشتى - بل لاشمئزازى - لم يكن يشرب وحده، بل مع مجموعة من الصيادين خشني الصوت على المنضدة المجاورة..
من الضحك الجو.. كانوا يسخرون منه كما هو واضح.. لقد ذابت الرقة اليونانية في أكوابهم وبعضهم راح يغني بصوت عال.. مد يده وطوح بالزجاجات الفارغة إلى الرصيف فهللوا وصعقوا مع صوت الزجاج المهشم.. وتوقعت أن يصل البوليس في أية لحظة؛ ليوقف الحفل..
لم أبال بما يحدث ل (ستول).. إن ليلة في السجن ربما تناسبه، لكن هذا شنيع لزوجته الأمر لا يهمني على كل حال..
هنا وقف الرجل مترنحا، ولوح بالزجاجة نصف المليئة فوق رأسه، وبدقة شديدة قذف بها من فوق رأسي، نحو البحر.. لابد أنه تفادانى بقدمين فقط..
كان هذا أكثر من اللازم، لذا نهضت نحوه والغضب يعميني.. وصحت فيه:
- أية لعبة تلعبها بحق السماء؟
وقف أمامي وتأرجح على قدميه.. كف الضحك إذا راقب الجالسون المشهد في اهتمام، وتوقعت طوفانا من السباب.. لكنه جعد وجهة المحتقن إلى ضحكة وقال:
- هل تعرف شيئا؟ لو لم تقف في طريقي لوصلت هذه الزجاجة إلى منتصف البحيرة.. أنا لست (كريتيًا).. وهم أيضا ليسوا

(كريتيين) بل مجرد أتراك... ولا يوجد (كريتى) نقي الدم في (كريت) كلها..
حاولت أن أنزع ذراعي من قبضته، لكنه تمسك بها كصديق وجد - أو ظن أنه وجد - صديقه القديم وهي عادة السكارى..
وصدر منه فواق، وقال:
- أنت من الفندق.. أليس كذلك؟ لا تنكر يا فتى، فأنا لا أنسى الوجوه.. أنت الشخص الذي يرسم في - الشاليه الكريه طيلة اليوم.. حسن أنا أحترمك لهذا، فأنا أعرف عن الفن قليلا.. ولربما ابتعت لوحتك هذه..
كان تودده كريها، ورقته لا تحتمل.. فقلت في جفاء:
- آسف.. هي ليست للبيع..
صاح معترضا:
- أوه هلم! أنتم معشر الفنانين تتشابهون تتدللون حتى يقدم لكم أحد ثمنا باهظا.. خذ (تشارلي جوردون) على سبيل المثال.. أنت لا تعرفه.. أليس كذلك؟
- نعم.. كان قبل مجيئي..
- هذا حق.. إن البائس ميت.. غرق تحت الصخور أو وجدوه هناك
وكانت عيناه فعليا مغلقتين في وجهه المنتفخ لكني عرفت أنه يراقبني..
قلت:
- أفهم أنه لم يكن فنانا..
كرر الكلمة بعدى، ثم انفجر في الضحك:
فنانا؟ لا لم يكن.. كان خبير فنون، لكن هذا لم يفِده كثيرا.. ألا ترى ذلك؟

كان يبذل مجهودا للتماسك، ثم مد يده في جيبه بحثا عن علبة تبغه، وأشعل واحدة لنفسه، ثم عرض عليَّ واحدة فقلت:
- لا أدخن - ثم بتحد أضفت - ولا أشرب..
أجاب في دهشة:
- ولا أنا.. إن الشراب الذي يقدمونه هنا هو نوع من البول..
وجذبني وقد بدا عليه التآمر إلى جانب، وقال وهو يشير إلى الجالسين:
- هؤلاء أتراك.. ومنذ زمن طويل، حوالى خمسة آلاف عام، لم يصنعوا الصنف المناسب، كانوا يعرفون طريقة صنعه آنذاك..
تساءلت:
- احقا؟
اتسعت عيناه الضيقتان، ولاحظت أنهما جاحظتان بارزتان وبخشونة همس:
- أتعلم؟ إن الباحثين فهموا كل شيء خطأ؟ لقد كان (الكريتيون) يشربون مزيجا مختمرا من نباتي (السبروس) و (اللبلاب الكبير)..
وثبت ذراعا على الجدار مستندا، وانحنى إلى الأمام وتقيأ في البركة، حتى شعرت بالغثيان أنا نفسي.
قال:
- هذا أفضل.. يخلصني من السم.. أقول لك:
- سنعود إلى الفندق، ونمضي الليلة في الشاليه الخاص بى.. إنني ملت إليك يا سيد (ما اسمك).. إن أفكارك جيدة.. أنت ترسم صورا ولا تدخن.. فما عملك؟
كان مستحيلا التخلص منه.. ووجدته يشدني إلى الطريق، ولحسن الحظ كان الموجودون بالمقهى قد تفرقوا؛ إذ يئسوا من أن يضرب أحدنا الآخر، وكانت مسز (ستول) في السيارة المرسيدس الآن جالسة في المقعد الأمامي..

قال لي:
- لا تهتم بها.. إنها صماء كالحجر.. ولدينا مكان في المقعد الخلفي..
- آسف.. لكن سيارتي هاهنا..
- كما تريد.. ولكن قل لى يا سيد (فنان): ما عملك؟ هل أنت أكاديمي؟
كان بوسعي تركه الآن، لكن بعض الفخر الأحمق جعلني أخبره بالحقيقة، أم أن يدعني، وشأني..
- أنا معلم في مدرسة ابتدائية للأولاد..
- انفتح فمه الرطب ضاحكا، وصاح:
- رباه! هذا جميل.. مدرس.. مربية للرضع والأطفال.. أنت واحد منا يا فتى.. وبرغم هذا تملك الشجاعة لتقول إنك لم تجرب (اللبلاب) وال (سبروس) قط؟
كان مجنونا بالطبع، لكن هذا المرح جعله يحرر ذراعي، وتقدمني إلى سيارته، وهو يهز رأسه من جانب لجانب، وقدماه تحملان جسده الثقيل بطريقة راقصة غريبة.. واحد اثنين.. كحصان أخرق..
راقبته يركب السيارة إلى جوار زوجته، ثم ابتعدت لأكون في الأمان، لكنه انطلق بها بسرعة رهيبة واصطدم بى قبل أن أصل لركن الشارع، وأخرج رأسه من النافذة صائحا:
- تعال زرنا يا مستر (مدرس).. فلسوف تجد الترحيب دوما.. قولي له يا (مود) ألا ترين أن الفتي خجول؟
وترددت صيحته في المكان، حتى توقف المارة ليروا ما هناك.. ورأيت الوجه الصلب الجامد للزوجة يرمقني.. كأنها لا ترى شيئا، وكأن ركوب سيارة مندفعة ليلا في قرية غريبة جوار زوج مجنون، هو أكثر الأشياء طبيعية في العالم..

- مساء الخير.. زرنا يا مستر (تيوتور) في شاليه (38)، ولكن ليس بعد منتصف الليل..
قالتها بصوت بلا تعبير، فلوح (ستول) بذراعه، وانطلقت السيارة تنهب الكيلومترات الباقية على الفندق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليس صحيحا أن المقابلة أفسدت إجازتي، وجعلتني راغبا في الرحيل.. إنها نصف الحقيقة؛ لأنني كنت غاضبا مشمئزا لكن من آل (ستول) فقط..
نهضت منتعشا إلى يوم مشرق، بعد نوم مريح وقد أزمعت أن أتحاشى (ستول) وامرأته متوسطة الذكاء.. لقد خرجا في القارب مبكرا، وقد اعتدت أن أتناول عشائي مبكرا كي لا ألقاهما في قاعة الطعام..
كما أنهما لم يكونا من هواة التجوال، لهذا كان عسيرا أن أقابلهما في الفندق..
وحين كانا يعودان ليلا وأنا في الشرفة، كنت أرى المنظار المقرب في يده يتجه نحو شرفتي.. عندها كنت أتوارى..
هكذا بشيء من الحظ يمكن أن ينسى وجودى، وإن كنت لا آمل في هذا..
لقد جئت لأرسم وأسترخي، وقد صممت على فعل هذا..
حين دخلت الشرفة لأتناول الإفطار، كان القارب عند الشاليه الخاص بآل (ستول) قد رحل..
وقررت أن أستكشف الساحل حاملا لوحة الرسم، حتى إذا ما امتصتني هوايتي نسيت كل شيء عن هذا الرجل..
يمكنني الآن تخيل ما حدث لـ (جوردون) المسكين.. لقد انجذب البائس إلى (ستول) في البار، وكل الهراء الذي يقوله عن (كريت)

وان (ميثولوجيا) اليونانية، ولم يتصور (جوردون) إلام سيقوده هذا..
تلقى دعوة إلى الشاليه رقم (38) فقبلها، ولا بد أنه سبح عبر الخليج ليصل هناك.. لابد أنه كان يستعرض بطولته.. وفي الشاليه شرب ذلك الخليط الشيطاني المختمر الذي صنعه المضيف، مما جعله يفقد كل وعي وحكمة..
وحين قرر أن يعود سباحة، كان لا بد لما حدث أن يحدث.. فقط تمنيت أن يكون قد غرق فورا دون ألم..
إن الكتابة على البطاقة تتفق مع القصة.. تعال الرقم (38) ليس بعد منتصف الليل.. لكن الوقت قد حان كي أنسى هذا وأركز على ما أمامي..
كان استكشافي للساحل الغربي أكثر نجاحا..
لقد ابتعدت عن الفندق نازلا من المرتفعات إلى مستوى البحر، والأرض تنحدر نحو مستنقع جاف خبزته الشمس.. لكني حين دنوت أكثر وجدت أنه ليس مستنقعًا بل مسطحات من الملح، تحيط بها جدران شكلتها السدود، لتسمح لماء البحر بالجريان تاركا الملح وراءه.. ومن بعيد طواحين هوائية مهدمة، ثم انتهت مسطحات الملح وارتفعت الأرض لتقود لمضيق (سبينالونجا)..
مشيت ب (الفولكس فاجن) حتى وصلت إلى المسطحات، وكان المكان مهجورا تماما.. قررت أنه سيكون مكاني المفضل في الأيام القادمة..
وضعت أدوات الرسم وقبعتي على رأسي، واندمجت في المشهد أمامي، وقضيت أهم ثلاثة أيام في رحلتي..
كان السلام شاملا والوحدة مطلقة، ولم أر مخلوقا واحدا.. كنت ألتهم الشطائر والليمونادة وأرسم، ثم حين تزداد الحرارة؛ آوي

إلى ظل طاحونة، وفي المساء أعود للفندق لأتناول عشائي، وأقرأ ثم أنام.
ما كان الناسك أن يتمنى عزلة أكثر من هذه..
في ذلك اليوم قررت أن أستكشف شبه الجزيرة، أم في العثور على مشهد جديد أفضل.. تسلقت التلَّ وأنا أحرك قبعتى؛ لأن الطقس كان حارا للغاية، وأثار دهشتي أن أجد أن شبه الجزيرة مجرد لسان وسط البحر..
ربما استطاع رسام عبقري، أن يرسم هذا المشهد على القماش.. (التركواز) يذوب في بحر (إيجة) الأزرق، بينما ظلال نبيذية تحتها.. هذا بوسع رسام عبقرى، لكن ليس هاويا مثلى..
نزلت لأسفل نحو مجموعة نباتات ظليلة، حيث أستطيع الاستراحة قليلا، وهنا رأيت القارب..
كان راسيا قرب مدخل الخليج.. لقد كان قارب آل (ستول).. واليوناني الذي يعمل معهما يجلس إلى المجدافين، وقد مد خيطا يصطاد به إلى الجانب..
كان الوحيد في القارب، ورأيت على رمال الشاطئ بناية من الحجر مهدمة.. ربما كانت يوما ما حظيرة للخراف.. لا بد أن آل (ستول) أوقفوا قاربهم هنا، ودخلوا تلك البناية ربما كان (ستول) يصنع مخلوطه المتخمر من اللبلاب وال (سبروس) هنا، ولربما أضاف إليه بعض فضلات الماعز على سبيل تجويد المذاق..
فجأة نهض النوتى واتجه للدفة وراح يرمق الماء..
رأيت شيئا يتحرك ثم يخرج من تحت الماء..
نظارة غوص.. ثياب غوص مطاطية.. زعانف..
ورأيت اليوناني يساعد الغواص على انتزاع قناعه..
ثم استرعى نظري شيء يقف عند فتحة المبنى المهجور..

أقول: شيء بسبب ألاعيب الضوء التي جعلته يبدو مشعرا، كأنه مهر يقف على قدميه الخلفيتين.. كله مغطى بالشعر، ثم أدركت أنه (ستول) نفسه وصدره وذراعاه مغطاة بالشعر.. فقط وجهه جعلني أدرك أنه مازال إنسانا..

مشى إلى حيث القارب يتأوَّد في مشيته بتلك الطريقة العجيبة التي رأيتها في المقهى أمس.. يداه في خصره وصدره للأمام، ومؤخرته بارزة للوراء ورأيت الغواص يتجه للشاطئ الآن، وقد تخلص من نظارته وأسطوانة الأكسجين، وألقى بزعانفه على الرمال كسمك عملاق.. وبرغم القناع المطاطي أدركت في دهشة أنه مسز (ستول)..

تقدمت نحو زوجها، وناولته حقيبة جلدية صغيرة، فأخذها وعاد إلى المبنى المهجور..

جلست أنتظر.. سأعطيهما عشرين دقيقة ثم أعود..

لكنهما لم يتركاني كل هذا الوقت.. سمعت صيحة..

ثم رأيت الزوجين يصعدان إلى القارب حاملين سلالا وأدوات الغطس، وبدأ اليوناني تشغيل المحرك..

وسرعان ما اتجه القارب إلى البحر بعيدا عن الخليج..

كان فضولي قاهرا، فانزلقت فوق الرمال نحو المبنى المُهَّدم..

كان كما توقعت حظيرة للماعز، فالأرض ملأى بفضلاتها.. زجاجات في كل مكان ورفوف خشبية تم تثبيتها.. وعلى كل رف كانت قطع من الخزف..



وعلى كل رفّ كانت قطع من الخزف ، كأنما أخرجها أحدهم من كومة قمامة . .

كأنما أخرجها أحدهم من كومة قمامة.. لكنها كانت نظيفة لا يكسوها غبار..
واضح أن هذه كنوز تم استكشافها تحت الماء..

لا بد أن هذه القطع الخزفية عديمة النفع، لذا لم تبال المرأة ولا زوجها بالتخلص منها..
لست خبيرا بهذه الأشياء، لهذا لم أر ما يثير اهتمامي، وتركت المكان..
كانت هذه حركة مميتة.. لأنني إذ تسلقت المنحدر..
وعلى كل رف كانت قطع من الخزف، كأنما أخرجها أحدهم من كومة قمامة..
سمعت صوت محرك، وعاد القارب نحو المكان..
كانت الثلاثة رءوس تنظر لي، والشخص وراء الدفة يرمقني بمنظار مقرب.. لن يجد عسرا في معرفة المتسلل.. واصلت التسلق برغم هذا، وقبعتي فوق حاجبى، آملا أن أدارى نفسي.. ربما حسبوني أي سائح تواجد هنا بالصدفة..
منهكا متقطع الأنفاس هرعت إلى سيارتي وأدرتها، وتمنيت لو لم أستكشف هذا الموضع قط.. سيحسبون أنني كنت أتجسس عليهم وهذا حقيقي.. لقد فسد مزاجي فلن أستطيع الرسم اليوم..
وكان حظي عاثرا لأن إحدى عجلات السيارة فقدت هواءها، فرحت أثبت (الاستبن) واحتاج هذا إلى أربعين دقيقة، لأنني سيىء في كل عمل يدوي..
ووصلت للفندق بعد وصول آل (ستول) طبعا..
وحين خرجت إلى الشرفة وجدت (ستول) في شرفته..
يسلط نظارته المقربة إلى الشاليه الخاص بي..
أغلقت خصاص الشيش، ودخلت لأخذ حماما حين دق جرس الهاتف..
يداى مبتلتان والمنشفة حول وسطي.. ما كان الهاتف ليدق في وقت أسوأ.. جاء الصوت من الهاتف:

- أهذا أنت يا سيد (مدرس)؟
كان صوتا لا يمكن أن أخطئ فيه.. وبخشونة أجبت:
- أنا (تيمونى براى)..
- (جراى) أو (بلاك) ([4]).. كل شيء يتساوى.. أنت كنت في (سبينالونج) عصر اليوم.. هل هذا صحيح؟
- لا أدرى سر اهتمامك..
اصمت.. لن تخدعني.. أنت كالآخر.. مجرد جاسوس.. ودعني أقل لك: لقد تم تنظيف حطام السفينة منذ قرون..
- أي حطام؟
- حسن.. حسن يا (مدرس).. لن نختلف حول هذه النقطة.. إننا من نفس النوع على كل حال.. إن المدرسين وأساتذة الجامعة والمحاضرين كلهم يتشابهون تحت جلدهم وفوقه أحيانا! لا تخف.. لقد قلت إنني أميل لك.. هل تريد شيئا لمتحف مدرستك؟
شيئا تريه لزملائك والطالبات الحسناوات؟ حسن إن هذا الشيء لدي.. يمكنك المجيء الليلة وسأقدم لك هدية.. سيكون عندنا حفل بهيج، فزوجتي تميل لك أيضا..
انزلقت منشفتي إلى الأرض، وشعرت لسبب ما.. أنني هش جدا.. كان صوته يخيفني، وقلت له:
- مستر (ستول).. أنا لا أجمع أشياء للمتاحف.. أنا هنا في إجازة لمتعتي الخاصة.
وبحق لا أملك أية نية لزيارتك..
ووضعت السماعة وعدت إلى الحمام.. ياله من رجل كريه!
هل يتركني وحدي أم يظل يراقب شرفتي، حتى إذا ذهبت إلى قاعة الطعام تبعني إلى هناك؟ يريد أن يبتاع صمتي لقاء هدية..

إن رحلاته للصيد ليست سوى غطاء يدارى به اكتشافاته تحت الماء، ولابد أنه وجد أشياء مهمة يزمع تهريبها خارج (كريت).
لا بد أنه فعلها في العام السابق.. لكن الأمر لم يتم كما هو مفترض هذا العام.. إن (تشارلز جوردون)..
الذي سبقني في هذا الشاليه، قد ارتاب في الأمر (أنت مثل الآخر).. لقد قالها (ستول).
لا بد أن (جوردون) تلقى دعوة إلى الشاليه رقم (38)، وهناك عرضت عليه رشوة.. ترى هل رفض؟ هل هدد بإفشاء السر؟ هل غرق في حادث حقا، أم أن الزوجة تابعته تحت الماء وجذبته لأسفل؟
كنت أعرف شيئا واحدا.. لا قوة في العالم ترغمني على الذهاب إلى شاليه (ستول)، ولو حاول تهديدى سأحكي كل شيء لإدارة الفندق..
ارتديت ثيابي للعشاء، ووقفت أرمق الشاليه الخاص بـ (ستول).. كان الضوء مرئيا، لكنه لم يكن هناك..
اتجهت لحديقة الفندق، وفجأة رأيت (ستول) وزوجته يجلسان كأنما يحرسان الطريق إلى حجرة الطعام..
كان على أن أمر بهما كى آكل.. ليكن! يمكنكما البقاء هنا طيلة الليل.. عدت إلى الشرفة، ودرت حول الفندق ومررت بالمطابخ، حتى خرجت إلى موقف السيارات.. سأتناول عشائي بالخارج ولتذهب النفقات إلى الجحيم..
اتجهت بسيارتي إلى حافة بعيدة.. كنت جائعا، لكن كان على أن أكتفي - بدلا من وجبة الفندق الدسمة - بقرص عجة وبرتقالة وقدح قهوة..
وبعد العشاء عدت إلى الفندق، وشققت نفس الطريق إلى الشاليه، الذي دخلته متسللا كلص..

كان الضوء ما زال في شرفة (ستول) وواضح أنه بالداخل الآن..
خلعت ثيابي ورقدت في الفراش أقرأ حتى ما بعد منتصف الليل..
داعب النعاس عيني فأطفأت الضوء، واتجهت لأفتح الشيش لأجدد الهواء قليلا للحظة رحت أنظر عبر الخليج.. لم يكن ثمة ضوء في المكان إلا من شرفة (ستول).. ثم رأيته..
أعني: رأيت أنبوب الهواء.. رأيته في الضوء الشاحب ثم اختفى، لكني عرفت أنه متجه إلى الصخور تحت الشاليه الخاص بي..
وساد الصمت.. لربما كانت تفعل هذا كل ليلة لربما كان هذا روتينها.. وأنا نائم لا أدري بشيء..
كانت هي في المياه تحت صخور الشاليه.. فكرة غير مريحة.. تخيل أنها كل ليلة - بعد منتصف الليل..
كانت ترتدي ثياب الغطس وتتجسس على الشاليه رقم (٦٢) وفي هذه الليلة بالذات بعد مكالمتي مع زوجها، كان وجودها قربي شيئا مرجفا ينذر بالخطر..
فجأة من الظلام على يميني لمحت أنبوب التهوية أقرب لى..
أصابني الذعر، فعدت لغرفتي وأغلقت الشيش وقفت وظهرى للحائط بين غرفة النوم والحمام، أصغي.. بدا لي أن دهرا مضى قبل أن أسمع الصوت الذي توقعته وهبته صوت حفيف في شرفتي.. احتكاك يدين وتنفس ثقيل..
وعرفت أنها هناك.. عرفت أنها تمسك بسقاطة الشيش، والماء يتساقط من ردائها المطاطي..
وحتى لو صرخت: ماذا تريدين؟ فلن تسمعنى، فهي لا ترتدي جهاز السمع تحت الماء..
بدأت تقرع على الشيش فلم أُبد حراكًا..
قرعت ثانية.. ثم دقت الجرس..

اخترق الرنين الهواء كأنه مثقاب طبيب الأسنان فوق عصب.. ثلاث مرات ثم ساد الصمت.. لأدق على الشيش ولا رنين..
لابد أنها تنتظرني في الشرفة - والماء يسيل من ردائها المطاطي - حتى أفقد صبري وأخرج لها..
اتجهت إلى الفراش وأضأت المصباح، متوقعا أن أسمع الطرقات على الشيش فلم يحدث شيء.. نظرت إلى ساعتي فوجدت أنها الثانية عشرة ونصف..
جلست على فراشي وخوفي من هذا الشيء الأسود..
يتزايد لحظة فلحظة.. وما زاد من هلعي هو أن صاحب الرداء الأسود كان أنثى، وهو شيء غير منطقى..
ماذا تريد مني؟
مرت ساعة حتى استعدت صوابى.. لا بد أنها رحلت.. نهضت إلى الشيش وأصخت السمع، ثم برفق فتحت السقاطة.. لا أحد هناك..
خرجت من الشرفة المظلمة، ورأيت بركة الماء الصغيرة على الأرض دليلا على الشيء الذي كان هنا منذ ساعة، وآثار الأقدام التي عادت من الشرفة إلى الصخور..
تنفست في راحة.. الآن يمكن أن أنام في سلام..
عندها رأيت الشيء عند قدمي.. انحنيت والتقطته فوجدته عبوة صغيرة ملفوفة في قماش عازل للماء..
عدت به إلى الفراش ورحت أتفحصه..
وغامرني شك أحمق في القنابل.. لكني استبعدته فبالتأكيد تكفي رحلة تحت الماء لتعطيل أية قنبلة..
تذكرت المثل القديم: (خذ حذرك حين يهديك اليوناني شيئا).. لكن آل (ستول) لم يكونا يونانيين.. وحتى لو وجدا (أطلنطس)

نفسها، فإن المفرقعات لم تكن قط جزءا من كنوز القارة المختفية..
فتحت اللفافة بمقص أظفار.. كان الشىء ملفوفا بشبكة دقيقة، وحين مزقتها وجدته دورقا صغيرا أحمر اللون، له مقبضان على الجانبين لقد رأيت شيئا كهذا من قبل، وأعتقد أن اسمه الصحيح هو (رايتون)، وكنت أراه في المتاحف أما جسم الدورق فكان منحوتا بدقة على شكل رأس إنسان، له عينان جاحظتان، وشارب يتدلى إلى لحية صغيرة هي قاعدة الدورق.. وفي أعلاه كانت أشكال لثلاثة رجال يتبخترون، لهم نفس الوجوه التي رأيتها على الدورق للوجه الكبير.. لكن أقدامهم كانت حوافر ماعز، وفي مؤخرة كل منهم ذيل حصان..
نظرت لداخل الدورق فوجدت وريقة بالقاع.. كانت بطاقة كتب عليها:
- (سيلينيوس): ساتير أرضي هو نصف حصان ونصف إنسان..
لم يميز ما بين الحقيقة والزيف، اتبع (ديونيسيوس) سيد السكر وصار معلمه ونديمه في الشراب ([5]).
كان هذا كل شيء.. لا شيء أكثر.. أعدت الورقة إلى الدورق، وأبعدت الدورق إلى آخر الغرفة، وغطيته بسترتي كي لا أرى الوجه الساخر المزعج، وعدت إلى الفراش..
في الصباح سيكون على أن أغلفه، وأطلب من الساقي أن يأخذه ليعيده إلى الشاليه رقم (38) ...
يستطيع (ستول) أن يحتفظ بهذا (الرايتون) – الذي لا يعلم سوى الله سبحانه وتعالى) كم يساوي -
فأنا لا أريد شيئا منه..

مرهقا، غرقت في النوم، لكن - رباه - لم أنس شيئا.. إن الأحلام التي زارتني والتي حاولت أن أصحو منها، تنتمي لعالم مجهول آخر، اشتبك بعالمى بشكل مريـع.. لقد بدأ الصف الدراسي، لكن المدرسة التي كنت أعمل فيها كانت محاطة بالأدغال، وفوق قمة جبل.. أما طلبتي فكانوا وجوها مألوفة يضعون غصون الغار في شعورهم.. ولم يكن الرجل وسطهم هو أنا، بل كيانا شيطانيا خرج من الدورق، يتبختر كما فعل (ستول) في (سبينالونجا)..

صحوت بعد ما بدا لى قرونا، وضوء الشمس يغمر الشاليه..

كان عقلي ينبض، وشعرت بغثيان وإرهاق..

نظرت عبر الخليج، فوجدت القارب في المرفأ.. إن آل (ستول) لم يذهبوا للصيد..

أخذت الدورق ولففته بعناية، وحين جاء الساقى بالإفطار إلى الشاليه، سألته أن يسدي لى خدمة..

- أريد أن تذهب لشاليه مستر (ستول).. أرى أنه لم يخرج للصيد اليوم..

- هذا ليس مستغربا.. لقد رحل آل (ستول) هذا الصباح..

- أرى.. وهل تعرف متى يعودان؟

- لن يعودا يا سيدي.. لقد عادا لوطنهما، إنهما منطلقان الآن في الطريق إلى مطار (أثينا)، والقارب الآن متاح لو أردت أن تستأجره..

وانصرف، وظل الدورق في مكانه جوار صحفة الإفطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ازدادت الشمس شراسة في غرفتي.. سيكون يوما حارًا حقا..

لم أكن في مزاج يسمح بالرسم، وكنت مرهقا بفعل أحلام الليل.. لقد رحل آل (ستول) لكنهم تركوا لي تركتهم.. كشفت الدورق من جديد وتفحصته..

لم يكن تشابه الوجه المريع مع (ستول) وهمًا بل حقيقة.. ربما لهذا تخلص منه بإعطائه لى..
وبالتأكيد كان سيجد متاعب كثيرة ليمر به من الجمارك، وعقوبة التهريب شنيعة الآن.. لكنى متأكد من أن له معارف هناك يسهلون له الخروج بكنوزه..
تذكرت مظهر (ستول) في (سبينالونجا) حين خرج من البناية المهدمة.. بدا لي وقتها كنصف إنسان ونصف حصان.. كان شبيها ب (سيلينيوس)..
نديم (ديونيسيوس).. كان الدورق مفزعا بحق تُرى هل فهم الرجل حيوانيته بعد فوات الأوان؟
يقول السقاة هنا: إن (ستول) لم يكن بهذه البشاعة من قبل.. ترى هل هناك ما يربط بين تغيره وعثوره على هذا الدورق؟ شيء واضح جدا يجب التخلص من هذا الشيء ولكن كيف؟ لو سلمته للإدارة فلن يصدق أحد قصتي.. هل ألقيه في البحر أو في جزيرة ما؟ إنه (رايتون) عمره قرون وثمنه لا يقدر بمال..
لففته بحذر واتجهت إلى الفندق..
طلبت من الساقي في البار بعض المياه المعدنية، فسألني:
- لا حملات استكشافية اليوم يا سيدي؟
- ليس بعد..
- لدي شيء لك..
ومد يده لي بزجاجة صغيرة فيها ما بدا لى كليمون.. وقال لي:
- تركها لك مستر (ستول) مع تحياته..
نظرت إليها في شك، فابتسم وقال:
- يبدو أنها من الشراب الذي كان يصنعه لنفسه.. إنه غير مؤذٍ.. فقد جربت وزوجتي زجاجة منه.. مذاقه يذكرك بالليمون..

وصبَّ لى قليلا منه في المياه المعدنية قبل أن أطلب.. غمست إصبعي وتذوقت قطرة.. كان له مذاق ماء الشعير، الذي كانت أمي تعده لي وأنا طفل.. له طعم سكري خفيف..
- في صحة مستر (ستول)..
وشربت الكوب.. على حين قال الساقي:
- إن خير ما تفعله مسز (ستول) هو أن تأخذ زوجها إلى المستشفى.. إن زوجها مريض وليس ثملا فقط..
- ماذا تعني؟
ضرب على جبينه، وقال:
- شيء خطأ هنا.. أنت ترى بنفسك كيف يتصرف..
بدا مذاق الماء المعدني أفضل لى الآن.. وسألته:
- ما عمل (ستول)؟
- يقول إنه يدرس الكلاسيات في جامعة أمريكية ما.. لن نعرف أبدا.. لقد دفعت مسز (ستول) كل الفواتير هنا، وبدا واضحا أنه يعتمد عليهما.. وإنني لأتساءل.. هذه المرأة تعاني كثيرا من العذاب معه..
لقد رأيتها تنظر له أحيانا ولم تكن نظرة حب قط طلبت مزيدا من المياه المعدنية، فالحر جعلني أشعر بالظمأ..
سألته:
- هل هناك أماكن مجهولة في الخليج؟
- لا أعتقد يا سيدي.. ربما كانت هناك.. لكني لا أحسب هناك أماكن لا تعرفها الحكومة هنا..
- وماذا عن حطام السفن؟ السفن التي غرقت ورقدت في قاع البحر..
هز كتفيه، وبحذر قال:

- هناك إشاعات.. قصص عبر السنين، لكنها خرافات ولن أصدقها، ولا أعرف واحدا متعلما يصدقها..
ثم صمت قليلا وراح يلمع كوبا.. فسألته:
- تكلم.
- أحيانا يجد البعض أشياء عظيمة القيمة، يتم تهريبها خارج البلاد أو بيعها داخل البلاد للخبراء بثمن غال، لو كان الأمر خطرا.. إن لديَّ ابن عم يعمل في المتحف الوطني، ويملك المقهى عند (البركة التي لا قاع لها).. كان (ستول) يذهب هناك كثيرا.. اسمه (بابيتوس)، والقارب الذي يستأجره و مستر (ستول) يخص ابن عمي.. لكنك لست من هواة جمع التحف يا سيدي، ولا تهتم بالأثار..
- لا.. لا أهواها..
ونهضت، وتمنيت له يوما طيبا، وتساءلت لو كان برى بروز الشيء في جيبى..
كان الفضول يدفعني إلى رؤية شاليه (ستول) عن قرب.. دنوت منه فلم أر أثرا للقاطنين السابقين، ولن ينتهي اليوم قبل أن تسكنه أسرة إنجليزية..
نظرت عند هذا الشاليه إلى الشاليه الخاص بي، وهي المرة الأولى التي أراه فيها من هنا.. بدا لي أقرب مما ظننت، ولا عجب في أن حسبنى (ستول) متطفلا أو جاسوسا، وربما شخصا جاء من (إنجلترا) ليحقق في مصرع (جوردون)..
هل أرسل لى (ستول) الدورق على سبيل التحدي، أم على سبيل الرشوة، أم على سبيل اللعنة؟
رأيت رجلا يونانيا عجوزا أسمر ينظف جانب القارب، الذي كان (ستول) يركبه.. تذكرت ابن عم ساقي البار، واسمه (بابيتوس)..
سألت الرجل:

- هل أنت صاحب القارب؟
- (نيكولاس بابيتوس) صاحب القارب هو أخي.. هل تريد استئجاره؟ لا ريح وبحر هادى..
- لا أريد الصيد، لكن لا بأس بجولة لمدة ساعة.. كم تكلف؟
حسب الأمر بالدراخمة، وقمت بإجراء الحسبة وجدت أنها لا تزيد عن جنيهين في الساعة، وبالتأكيد يتضاعف المبلغ لو قصدت (سبينالونجا).. فتحت حافظتي لأرى ما إذا كانت لديَّ عملات كافية..
قال لي وأنا أعد المال وقد قرأ أفكارى:
- إن التكلفة تذهب إلى فاتورة الفندق..
أنهي هذا ترددي.. سحقا لهذا وليكن ما يكون..
وهكذا استأجرت القارب لمدة ساعتين مع الرجل، ورحت لأول مرة أرمق خط الشاليهات من البحر..
قررت أن أتجه إلى الموضع الذي كان (ستول) فيه، وحيث كانت زوجته معتادة الغطس..
راحت المجاديف تضرب المياه، بينما شبه جزيرة (سبينالونجا) تتبدى أمامنا.. الحصى يلتمع على الشاطئ كالجواهر، والأقسام تداعب أمواج الخليج، بينما القارب يطوف ببطء.. وفكرت في مسز (ستول) التي كانت تفر إلى الأعماق من زوجها، وكان الكنز هو العذر.. لكنها - في القاع - كانت تفر من حياة لا تطاق..
ثم نظرت إلى التلال فرأيت شيئا يلمع.. كان شعاعا من الشمس يلتمع على الزجاج، والزجاج يتحرك.. ثمة من يراقبنى بمنظار مقرب.. نظرت بدقة فرأيت شخصين يبتعدان عن الحافة لكني ميزتهما في الحال..
أحدهما كان مسز (ستول)، والآخر هو تابعها اليوناني.. ونظرت إلى النوتي الجالس معي فوجدته لم يلحظ شيئا..

والآن فهمت.. لقد عادت مسز (ستول) مع اليوناني إلى البناية العتيقة لإخلائها من البقايا، والآن انتهت مهمتهما ولسوف يعودان إلى المطار، ليلحقا بطائرة (أثينا).. وماذا عن (ستول)؟ لابد أنه نائم في السيارة ينتظرهما..
جعلتني رؤية المرأة من جديد أفقد الحماس لحملتي وتمنيت لو لم أقم بهذه الجولة قط.. كنا الآن نسيح في مياه ضحلة للغاية، مياه رمادية اللون.. رحت أرمقها وقد غطيت عيني بيدي..
فجأة رأيت الهلب الصدئ، وقد تراكمت فوقه الطحالب وآثار القرون التي مرت حيث هو.. كان تحت الماء.. ومعه رأيت بقايا السفينة العملاقة المهشمة منذ أن طويل.. كان (ستول) محقا، لقد تم تنظيف الحطام منذ قرون.. لا آنية ولا عملة تلتمع ترجرج الماء بفعل الأنسام، ثم صفي ثانية فرأيت جسدا بشريا يفرد ذراعيه، وقد ربطت ساقاه إلى الهلب الآخر.. وكانت حركة الماء تعطيه حياة خاصة كأنما يقاتل من أجل الخلاص بلا جدوى.. فقد كانت ساقاه مثبتتين بإحكام..
لسوف تمر أيام طويلة حتى يذوب اللحم، تاركا الشكل الخارجي فقط..
كان الجسد جسد (ستول).. وقد صار جذعه غير آدمي وهو يتأرجح إلى الأمام والخلف مع التيار..
نظرت إلى التل مرة أخرى، لكن الشبحين اختفيا منذ زمن.. وفي لمحة التمع تفسير ما حدث لي.
لقد كان (ستول) هنا يتبختر كعادته، وفجأة ضرباه ليفقد الوعى، وجراه من قدميه إلى الماء، وكانت زوجته هي التي أخذته تحت الماء لتثبت قدميه للأبد في الهلب.. تحتي...
كنت الشاهد الوحيد على مصيره، ولا تهم الأكاذيب التي ستحيكها حين تعود.. فلسوف ألزم الصمت.. لم تكن تلك

مسئوليتي.. لربما طاردنى الشعور بالذنب، لكن ليس على أن أتورط في هذا..
سمعت من يشهق جواري، ثم عرفت أنه أنا أشهق رعبا وخوفا، وضربت الماء بالمجدافين عازما على الابتعاد..
إذ فعلت هذا، أخرجت الدورق من جيبي وبذعر طوحت به في الماء..
لم يغرق حالا بل ظل يتأرجح على الماء، ثم ببطء امتلأ بالبحر الأخضر الشفاف، ونظرت إلى العينان في الوجه المنتفخ، لم تعودا عينى (سيلينيوس) الساتير بل هما عيناي أنا، كما سأراهما يوما ما في مرآة..
بدا أنهما تحويان في أعماقهما كل الحكمة، وكل القنوط..
دافني دوموريه
١٩٧١

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

الملاحظات

[←1]

كتبت (دافني) ربع هذه الرواية في مصر، حيث كان زوجها ضابطًا هناك..

[←2]

خنزير غينيا: حيوان ثديي صغير، أقرب إلى الأرنب، يستعمل بكثرة في التجارب الطبية.

[←3]

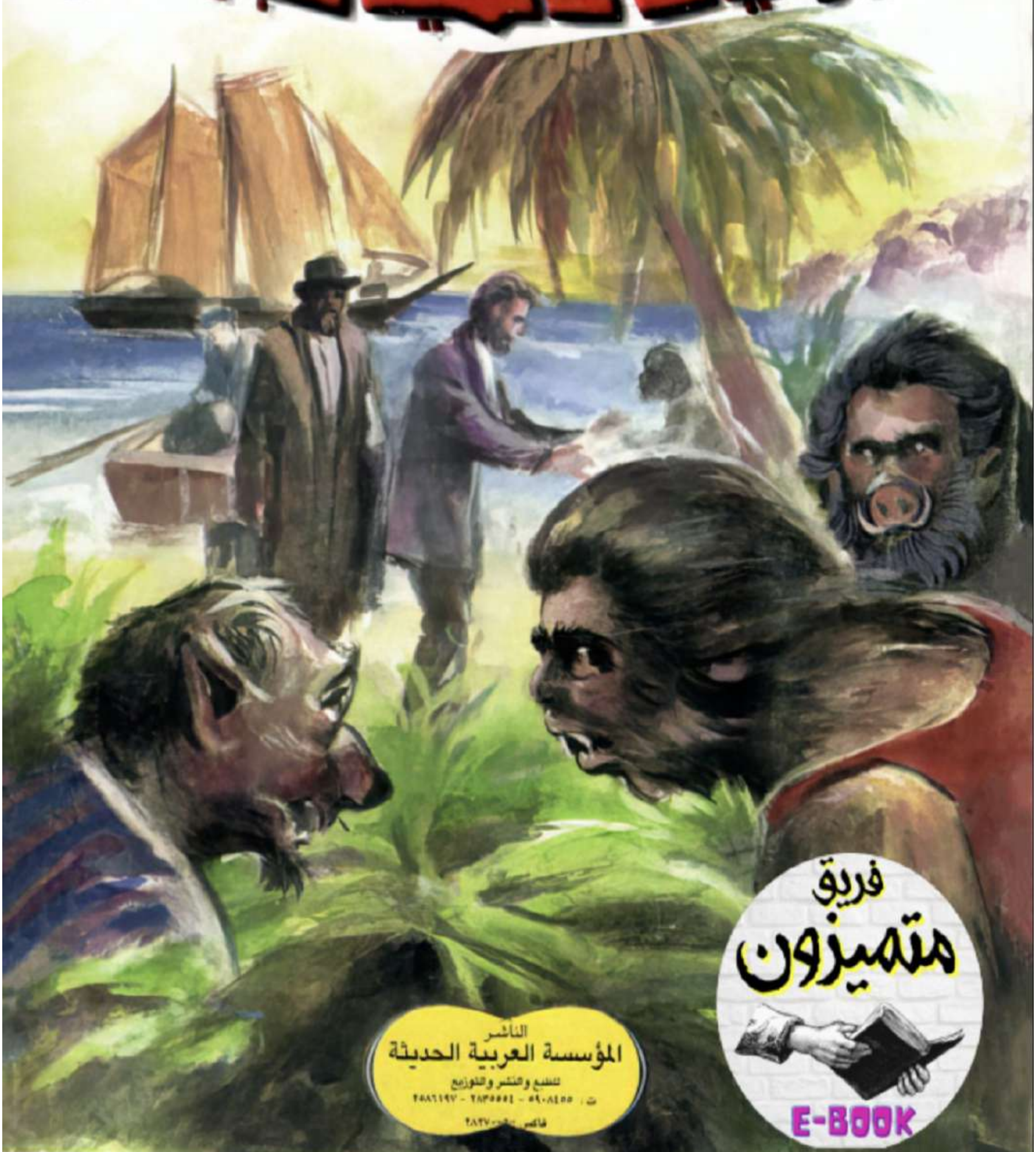
(لستر) جراح بريطاني عظيم، كان هو أول من أدخل أساليب التعقيم الحديثة في الجراحة، وذلك في عصر كان الأطباء فيه يغسلون أيديهم بعد الجراحة لا قبلها!

[←4]
يقصد السخرية منه (جراى) معناها: (رمادى) و (بلاك) معناها: (أسود).

[←5]

الساتير: وحش يوناني خرافي يشبه الماعز التي تمشي على قدميها الخلفيتين، ويضرب به المثل في الرجل الحيواني الشهواني، أما (ديونسيوس) فهو: (باكوس) إله الخمر عند اليونان.

روايات عالمية للجيب 31



جزيرة الدكتور مورو

قصة: هـ. ج. ويلز

ترجمة وإعداد:
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (31)

جزيرة الدكتور مورو

بقلم: هـ. ج. ويلز.
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هذا هو لقاؤنا الثاني مع الكاتب الإنجليزي العظيم (هربرت جورج ويلز)..

في صبا هذا الكاتب قذف به أحد الأولاد الكبار في الهواء.. ومن ثم سقط أرضا وتهشمت ساقه. وكان على الصغير أن يرقد في الفراش شهورا يتلوى ألمًا.

تبدو هذه كارثة.. لكنها بالنسبة لـ (هـ. ج. ويلز) كانت أسعد حوادث حياته، لأنها أرغمته على ممارسة التسلية الوحيدة للمقعدين قبل اختراع التليفزيون: القراءة..

وكانت نشأة (ويلز) فقيرة للغاية، بدأ حياته في محل لبيع القماش - وهو ما استوحي منه تحفته الروائية (كيبس) - ثم في صيدلية.. وفي النهاية فرَّ من هذا الجحيم وكتب خطابا يستعطف فيه ناظر مدرسته القديمة.. وقبل هذا الأخير أن يعين (ويلز) معلمًا عنده.

بعد هذا أصيب بثقب في رئته بعد مباراة كرة قدم عنيفة.. وكان لإصابته الأولى الفضل في إرغامه على (القراءة).. أما إصابته الثانية فأرغمته على (الكتابة)..

خمسة أعوام ظل يكتب فيها، انتهت بأن حرق كل ما كتب لرداءته! ثم إنه تزوج وواصل محاولات الكتابة في حماس غير مسبوق، إلى درجة إخراج كتابين طويلين كل عام.. وبدأ يرضى عن أعماله تدريجيا، ويرضى القراء عنها..

وفي كتاباته نجد تنوعا غير عادي في مجالات اهتمامه.. فهو مولع بعلم الأحياء، لهذا كتب (مرجع في الأحياء) عام 1893.. وهو يعشق الخيال العلمي: (العضوية المسروقة) عام 1895.. و

(آلة الزمن) عام 1895 (جزيرة د. مورو) عام 1896.. (الرجل الخفي) عام 1897.. (حرب العوالم) عام 1898.. (أول رجال على القمر) عام 1901، ثم كتب عن المشكلات الاجتماعية (توقعات) عام 1901.. (كيبس) عام 1905.. (يوتوبيا الجديدة) عام 1905.. و (تونى بانجى) و (أنا فيرونيكا) عام 1909..

وفي عام 1903 انضم للحركة الفابية (الحركة الاشتراكية التي تدعو للتغيير التدريجي، والتي كان برنارد شو عضوا فيها)..

وفي عام 1911 بدأ خط جديد من خطوط إبداعاته يتمثل في قصصه: (ميكيافلي الجديد) - (الزوج) – (أصدقاء عاطفيون) - (الزوجة لسير إتراك هارمان).

وأيد (ويلز) الحرب العالمية الأولى على أساس أنها (الحرب التي ستنهي الحروب جميعًا). وقاد حمله الدعاية ضد الألمان في أثنائها، لكن هذا لم يمنعه - عام 1916 - من كتابة قصة شهيرة هي (مستر برتلنج يتبين الأمر)، يقرّ فيها بخطئه..

بعد الحرب كتب (خلاصة التاريخ) عام 1920 ثم (علم الحياة) عام 1929.. ثم (العمل والثروة وسعادة البشرية) عام 1932.. كان يبشر بعالم واحد متكامل يبعد شبح البربرية والعدمية..

وفي عام 1934 كتب قصة حياته وسماها (تجربة في الحياة).

وجاءت الحرب العالمية الثانية لتفقده إيمانه بالجنس البشري الذي فقد التحكم في ذاته، ومشي بخطى حثيثة نحو الهلاك..

وتوفي العبقري عام 1946 بعد ما أثرى الأدب العالمي بقصص ومقالات لا تنسى.. ربما لم تكن عميقة كلها.. لكنها بالتأكيد فائقة الإمتاع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قصة اليوم هي نموذج لأدب الخيال العلمي عند (ويلز)، ولسوف نتبين سريعا أن هذا الأديب يكتب الخيال العلمي، ليعبر عن آرائه الفلسفية وانطباعاته الاجتماعية في حرية.. إن (ويلز) منبهر بالعلم، لكنه يهابه.. يحترمه، لكنه يرتاب فيه..

ولسوف نرى أنه متأثر بالمذاهب العلمية والفكرية التي سادت (أوروبا) في تلك الحقبة، وله اهتمام بنظرية (داروين) في الارتقاء، وأوضاع الطبقة العاملة المطحونة في عهد الثورة الصناعية بإنجلترا..

إن هناك فارقا هائلا بين (جول فيرن) الفرنسي و (هـ. ج. ويلز) الإنجليزي.. كلاهما كتب في الخيال العلمي وغدا حجة فيه، لكن (جول فيرن) - كما رأينا في (رحلة إلى مركز الأرض) – كاتب مسطح، لا يقول شيئا سوى المغامرة الطريفة التي تحدث لأبطاله.. بينما (ويلز) يقول كل شيء ممكن مما بين السطور وفي السطور ذاتها، حتى لتعدو رواياته عملا فلسفيا شديد العمق.

بالطبع - كما سنعرف من خلال الأحداث – كان لابد لـ (جزيرة الدكتور مورو) أن تثير شهية صناع السينما لعمل شيء ما منها، وقد قدمت لنا السينما الأمريكية ذات الرواية في فيلمين:

- الأول هو (جزيرة الأرواح المفقودة) من إنتاج عام 1932، وقام ببطولته (تشارلز لوتون).. وهو أفضل الفيلمين.

الثاني هو (جزيرة الدكتور مورو) من إنتاج عام 1977، وقام ببطولته (بيرت لانكستر) و (مايكل يورك)، وهو عمل غير متميز.

تعالوا نقرأ الرواية معا، ونتوقع الكثير من الإثارة، والكثير من التأمل، ومسحة رعب لا بأس بها أبدا.

د. أحمد خالد

مقدمة..

في الأول من فبراير عام 1887، فُقدت السفينة (ليدي فين) إذ اصطدمت بحطام سفينة مهجورة وهي عند خط طول (1) جنوبًا وخط عرض (107) غربًا.

وفي الخامس من يناير عام 1888، عُثر على عمي (إدوارد برندرك) - الذي سافر على ظهر (ليدي فين) في (كالاو) واعتبر غريقا - عُثر عليه عند خط عرض (5) جنوبا وخط طول 101 غربا، في قارب صغير ليست عليه كتابة معينة؛ لكن يُعتقد أنه يخص السفينة المفقودة (إبيكاكوانا)..

ولقد حكى عمي قصة غريبة عما حدث له، حتى أنهم حسبوه قد جن.. وبعد هذا زعم أنه نسي كل شيء منذ لحظة نجاته من (ليدي فين).

وناقش العلماء النفسيون حالته وقتها كنموذج غريب لفقد الذاكرة بعد معاناة عقلية وجسدية وقد وجد الموقّع أدناه - ابن أخيه ووريثه – هذه القصة بين أوراقه، لكنها غير مقرونة بأي طلب واضح للنشر.

إن الجزيرة الوحيدة الموجودة حيث تم انتشال عمي هي جزيرة (نوبل) وهي جزيرة بركانية صغيرة زارها (سكوربيون) عام 1891، فلم يجد بها سوى بعض حشرات غريبة، وبعض الأرانب والفئران.

لهذا تظل هذه القصة بلا دليل في أهم أجزائها فإذا وضعنا هذا في الاعتبار؛ لا نجد ضررا من نشر هذه القصة على الملأ.. وأعتقد أن هذا يتفق مع نوايا عمي.

لقد غاب عمى تماما في البحر ثم ظهر في المكان ذاته بعد أحد عشر شهرا، وبطريقة ما ظل حيا طيلة هذه الفترة..

يقال إن سفينة يقودها قبطان ثمل أقلعت من إفريقيا، حاملة على متنها (بوما) [1] وحيوانات أخرى في يناير 1887، وكان اسمها (إبيكاكوانا).. وقد اختفت في النهاية في تاريـخ يتفق تماما مع تاريـخ العثور على عمي.

تشارلز إدوارد برندك.

القصة كتبها إدوارد برندك

1- في قارب نجاة (ليدي فين)..

لا أزمع أن أضيف شيئا إلى كل ما كتب عن فقد (ليدي فين).. فالجميع يعرف أنها اصطدمت بحطام سفينة مهجور بعد ما فارقت (كالاو) بعشرة أيام..

وقد تم انتشال قارب نجاتها وبه سبعة بحارة – بعد ثمانية عشر يوما - بوساطة مدمرة صاحبة الجلالة (ميرتل)، وقد صارت قصة معاناتهم معروفة للجميع..

إلا أنني أنوي أن أضيف للقصة شيئا جديدا، ربما هو أكثر إفزاعا وغرابة.. لقد افترض الجميع أن الرجال الأربعة في قارب النجاة قد هلكوا.. لكني أملك خير دليل على أن هذا غير صحيح: فقد كنت واحدا من هؤلاء الرجال..

وفي المقام الأول يجب أن أقول إنه لم يوجد قط أربعة رجال في قارب النجاة.. لقد كان العدد ثلاثة، لو تجاهلنا (كونستانس) الذي شوهد يثب للقارب، لكنه لم يصله قط لحسن حظنا وسوء حظه.. لقد هوى لأسفل تحت حبال الصارى، فتعلق حذاؤه بحبل لدقيقة. ثم سقط ورأسه لأسفل ليصطدم بلوح خشبي طافٍ..

أقول: من حسن حظنا.. ولربما قلت. من حسن حظه كذلك.. لأنه لم يكن معنا سوى برميل ماء صغير وبعض البسكويت المبتل.. فقد كان الإنذار فجائيا ولم يكن القارب معدا لأية كارثة.

وفي الصباح التالي حين زال صيب السماء – ولم يحدث هذا إلا ظهرا - لم نر السفينة ولا (اللنش).

وكان من هربا معي في قارب النجاة رجلين، أحدهما يدعى (هلمار) وهو مسافر مثلى، أما الآخر فبحار لا أعرف اسمه.. لكنه قصير القامة قوي البنية يتلعثم في الكلام.

رحنا نمضي في البحر جائعين، وما لبث أن انتهى ماؤنا فعذبنا ظمأٌ قاتلٌ لمدة ثمانية أيام كاملة.. ومن العسير على القارئ العادي أن يتخيل تلك الأيام، فليس في ذاكرته لحسن الحظ - أية ذكرى سابقة تتيح له تصور الوضع.

كنا راقدين في القارب، نرمق الأفق بعيون تزداد اتساعا وإرهاقا كل يوم، ونلاحظ الوهن الذي يزحف على وجوهنا.

صارت الشمس عديمة الرحمة، وصرنا نفكر في أمور عجيبة لا نفصح عنها لكننا نقولها بأعيننا.. ولم يحدث قبل اليوم السادس أن أعلن (هلمار) عن الشيء الذي نفكر فيه جميعا.

كانت أصواتنا خشنة جافة لذا قربنا الرءوس لندخر كلماتنا.

رفضت الاقتراح بكل قواى وآثرت أن نثقب القارب لنغرق في الحال أو تأكلنا أسماك القرش.. لكن (هلمار) قال إنني لو قبلت لاستطعنا أن نشرب [2].

وفي المساء راح البحار يتهامس مع (هلمار)، بينما جلست أنا في مقعد التجديف وفي يدي مطواتي برغم أنني لم أكن أملك قوة كافية لاستخدامها.. وفي الصباح وافقت على اقتراح (هلمار) وقررنا أن نلعب القرعة بقطعة عملة، وكان الاختيار من نصيب البحار، وما كان ليرضخ بسهولة وهاجم (هلمار) بيديه.

زحفت على خشب القارب، وقررت أن أساعد (هلمار) بأن أمسك بساقي البحار، إلا أن الأخير تعثر وهوى فوق جانب القارب ومعه (هلمار).. وسرعان ما غرقا كحجرين..

أذكر أنني ضحكت على ذلك، وتساءلت بعدها عن سر ضحكي..

رقدت على مقعد التجديف لفترة لا أذكر طولها، وقررت أن أشرب من ماء البحر لأجن وأموت سريعا.

هنا رأيت - دون اهتمام كأنما أرى صورة – شراعا يرتفع من خط الأفق نحوي.

لابد أن عقلي كان شاردا، لكني أذكر كل شيء بوضوح تام.. أذكر كيف تأرجح رأسي.. وكيف تراقص الأفق أمام عيني..

كنت أدرك أنني ميت.. وخطر لي كم هو مضحك.. إنهم تأخروا هذه الساعات القليلة حتى يجدوا جثتي.

ولفترة لا تنتهي رحت أرقب السفينة المزودة بالمجاديف، والتي تدور حول نفسها دورة واسعة في عكس اتجاه الريـح.

لا أذكر أي شيء بوضوح عما حدث بعد ذلك.. ولا أعرف كيف ولا متى رقدت في القمرة الصغيرة.

ثمة ذكرى مبهمة عن رفعي إلى جانب السفينة.. وذكرى لوجه مليء بالنمش يحيط به شعر أحمر ينظر لي من عل.. وثمة انطباع مستقل لوجه أسمر ذي عينين مروعتين تنظران لي.. لقد حسبت هذا كابوسا حتى لاقيت الوجه ثانية..

أظن أنهم صبوا شيئا ما بين أسناني لأفيق، وهذا، كل ما أذكره عن إنقاذي..

2- الرجل الذي لم يذهب لمكان..

كانت القمرة التي وجدت نفسي فيها صغيرة غير منسقة، وكان هناك شاب له شعر كالكتان وشارب بلون القش، وشفة سفلى ساقطة، يجلس ويمسك بمعصمي.. وللحظة تبادلنا النظرات الصامتة.. كانت له عينان رماديتان خاليتان من التعبير.

ومن المقدمة سمعت صوت هيكل حديدي يتم طرقه، وصوت زئير حيوان غاضب، وفي نفس اللحظة تكلم الرجل:

- كيف تشعر الآن؟

أظن أنني قلت إنني على ما يرام، ولابد أنه رأى في عيني السؤال عن الكيفية التي وصلت بها.. قال لى:

- لقد وجدناك تتضور جوعا في قارب عليه اسم (ليدي فين).. وكانت ثمة بقعة دم على أرضية القارب..

نظرت ليدي.. كانت نحيلة كأنها كيس جلدى متسخ مليء بعظام مفككة، وهنا تذكرت ما كان على ظهر القارب.

قدم لى جرعة من قارورة بها سائل أرجواني، بدا لى مذاقه كالدم، وسمعته يقول واللعاب يساقط من فمه:

- لقد كنت محظوظا إذ قابلت قاربا عليه طبيب مثلى..



قدم لى جرعة من قارورة بها سائل أرجوانى ، بدا لى مذاقه كالدم ..

- ما هذه السفينة؟

- هي سفينة تجارية تقلنا من إفريقيا إلى (كالاو).. وقبطاننا أحمق يدعى (ديفيز).. لقد فقد رخصته أو شيء من هذا القبيل..

أنت تعرف هذا الطراز من الرجال.. وهو يسمى هذه السفينة باسم (إبيكاكوانا) من بين كل الأسماء السخيفة الجهنمية.

وهي تؤدي عملها جيدا ما دام هناك بحر كثير وريح قليلة.

من جديد عاد صوت الزئير، مع صوت يأمر منبوذا ما بأن (يكف عن هذا).

قال محدثى:

- كنت ميتا تقريبا.. لكني وضعت بعض الدواء في جسدك، ولسوف تجد علامات الحقن في ذراعيك.

هذه المرة كنت أسمع نباح كلاب قادما من المقدمة..

سألته شاردا:

- هل يُسمح لى بطعام صلب؟

- بفضلي يمكنك ذلك.. إن اللحم ينضج الآن.. هناك بعض الضأن.. ويمكنك التهامه..

نظر لي وصوت النباح يتعالى.. ثم غادر القمرة ليدخل في جدل طويل مع واحد لا يفهم ما يقال، وكان الآخر يتكلم بلغة يستحيل تمييزها، ثم سمعت صوت ضربات أو لعلى ظننت ذلك..

حين عاد إلى القمرة واصلنا الحديث.. حكيت له أن اسمي (وليام بندرك)، وكيف كنت مولعا بدراسة التاريخ الطبيعي التي تنسيني حياتي المرفهة الرتيبة.

بدا لي مهتما بهذا، وقال:

- لقد أجريت أنا نفسي بعض تجارب علمية، ونلت شهادة من الجامعة في علوم الأحياء.. رباه! كان هذا منذ عشرة أعوام، ولكن استمر.. استمر..

كان راضيا عن صراحتي كما هو واضح، فما إن فرغت حتى راح يسألني عن شارع (جاور) و (توتنهام) وعن متاجر (لندن)..

فأدركت أنّه كان طالب طب عاديا يرتاد قاعات الموسيقا بلا قيود..
- كان كل هذا لطيفا، لكني كنت أحمق واستهلكت شبابي قبل سن الحادية والعشرين.. إلا أن الأمور اختلفت الآن..
عاد صوت العواء يتردد فوق رأسي.. وبشكل مرتفع ووحشية أثارت هلعي..
هنا جاء اللحم الضأن تسبقه رائحته الشهية المغرية، حتى إنني نسيت كل شيء عن صوت الوحش الذي أثار توجسي..

☆ ☆ ☆

بعد يوم من النوم المتبادل مع الطعام تحسنت كثيرا.. وفي النهاية استطعت أن أصعد لسطح السفينة لأرى البحار الخضراء تحاول أن تلحق بنا.
جاء (مونتجمري) - وهو ذلك الرجل ذو الشعر الكتانى - فسألته بعض الثياب، فأعارني بعض ثيابه الخاصة.
قال لي: إن القبطان ثمل في قمرته، وبدأت أسأله عن وجهة السفينة فقال: إنها متجهة إلى (هاواى)، لكن سينزلونه هو أولا.. فسألته:
- تنزل أين؟
- جزيرة.. حيث أعيش.. وعلى قدر علمى لم يكن لها اسم قط..
وسقطت شفته السفلى، فبدا لي غبيا إلى حد لا يوصف، وأدركت أنه راغب في تجنب مزيد من أسئلتي.
وكنت أملك الحكمة الكافية كي لا أوجه أسئلة أخرى..

☆ ☆ ☆

3- الوجه الغريب..

تركنا القمرة فوجدنا رجلا يسد طريقنا.. كان يقف على الحافة وظهره لنا.. كان - على قدر ما استطعت رؤيته - قبيحا جدا.. قصير القامة عريض المنكبين له رأس يغوص ما بين كتفيه وعنق مشعر..

كان يرتدي كنزة زرقاء وله شعر أسود خشن كث.. وسمعت الكلاب تنبح بجنون بينما هو يتراجع مذعورا، واستدار في سرعة حيوانية نحوي..

صدمنى الوجه الذي رأيته بشدة.. كان وجها مشوها له بروز يشبه خطم البهيمة.. أما الفم المفتوح فيظهر أسنانا بيضاء لم أرها في فم آدمى قط.. وكانت عيناه بلون الدم مع قليل جدا من اللون الأبيض حول القرنيتين اللوزيتين.

قال (مونتجمري):

- تبا لك! لم لا تبتعد عن طريقنا؟

ابتعد الرجل دون كلمة.. تراجع في خوف، وقال:

- لن يسمحوا لي بالذهاب للمقدمة.

تكلم بصوت خشن خافت غريب..

- وأنا آمرك بأن تذهب..

كنت مذهولا للغاية لشدة قبح هذا المخلوق، فلم أر قط وجها متفردا منفرا كهذا، وفي اللحظة ذاتها شعرت بأنني قابلته من قبل، وفيما بعد خطر لي أنه الوجه الذي رأيته في أثناء انتشالى لظهر السفينة.. ربما.. لكن كيف يمكن للمرء أن يرى هذه الملامح الفريدة، ثم ينسي المناسبة التي رآها فيها؟

نظرت إلى جانب السفينة، وكنت مستعدا تقريبا لما سأراه بسبب ما سمعت من أصوات من قبل.. أنا لم أر قط سطح سفينة بهذا الاتساخ.. كان مغطى بالجزر والخضراوات.. وإلى جوانب السفينة كان عدد من الكلاب العملاقة المربوطة بالحبال لا تكف عن النباح.. وعند الشراع كانت هناك (بوما) ضخمة محبوسة في قفص حديدي أصغر من أن يسمح لها بالاستدارة.. وفي المقدمة كانت مجموعة من الأرانب.. و (لاما) حبيسة في قفص غريب يشبه الصندوق.. والبشري الوحيد في المكان هو بحار صموت يمسك بالدفة.

كانت السماء صافية، والشمس في منتصف المسافة نحو الأفق الغربي، والماء يغلي تحت سطح السفينة المسرعة.

سألت (مونتجمري):

- هل هذه سفينة شحن حيوانات؟
- يبدو كذلك..
- وما الغرض منها؟ أهي للتجارة أم لهواة الغرائب؟
- يبدو كذلك..

فجأة سمعنا صرخة قصيرة وألفاظ سباب، ثم ظهر الرجل المشوه يركض ووراءه رجل أحمر الشعر يضع (كاسكيت).. بيضاء.. فما إن رأت الكلاب الأول حتى تزايد صراخها وازداد شدها لسلاسلها.

وسرعان ما وجه أحمر الشعر لكمة قوية ما بين لوحي كتفى الشيطان البائس، فهوى يتدحرج في القاذورات بين الكلاب الغاضبة.. ومن حسن حظه أنها كانت مكممة.

لم يحاول أحد أن يساعده.. فقط راح يعوى بصوت لم أسمع مثله قط وهو يتخبط بين أقدام الكلاب، وقد راحت

الأخيرة تبذل قصارى جهدها كى تؤذيه.. رقصة أجساد رمادية فوق جسد منهك..

تصايح البحارة مهللين كأنما يرون رياضة ممتعة.. فأطلق (مونتجمري) صيحة تعجب غاضبة واندفع للأمام عبر السطح.

ضحك الرجل ذو الشعر الأحمر ضحكة رضا.. هنا جذبه (مونتجمري) من ذراعه وقال وقد ازدادت لثغته وضوحا:

- انظر يا قبطان! إن هذا لا يصح.

التفت القبطان أحمر الشعر نحوه، ورمقه بالعينين الغبيتين لرجل ثمل.. وناعسا قال:

- ما الذي لا يصح أيها (الحكيم) الأحمق؟

وبحركة مفاجئة حرر ذراعه من يد الطبيب.. وبعد محاولتين فاشلتين استطاع أن يدخل يديه المليئتين بالنمش في جيبيه.

قال (مونتجمري):

- هذا الرجل راكب عادي.. وأنصحك بالابتعاد عنه..

صاح القبطان بصوت عال، وهو يتجه مترنحا إلى الجانب:

- اذهب إلى الجحيم!.. أنا أفعل ما أريد على سفينتي.

هنا كان على (مونتجمري) أن يتركه وشأنه - وقد رأى كم هو ثمل - لكنه مشى وراءه وقد شحب وجهه، وصاح:

هذا الرجل يخصني.. وليس من حقك معاملته هذه المعاملة.

تصاعدت أبخرة الكحول إلى رأس القبطان، فعجز عن الكلام.. كل ما قاله هو:

- (حكيم) أحمق..!

كان (مونتجمري) واحدا من أصحاب الأمزجة العنيدة البطيئة، التي تنضج يوما بعد يوم حتى تتحول إلى نار حارقة،

وبعدها لا تبرد أبدا لدرجة التسامح.. وعرفت أن هذه المشاجرة تنمو منذ فترة..

قلت لـ (مونتجمري).

- دعه.. فهو ثمل.

- هو ثمل دائما.. لكن هذا لا يسمح له بالاعتداء على المسافرين.

لوح القبطان بيده صائحا:

- هذه سفينتي.. كانت سفينة نظيفة.. انظر إليها الآن.. والطاقم طاقم نظيف محترم.. والآن.. أتمنى لو لم أر قط جزيرتك الجهنمية هذه.. لماذا تنقلون الوحوش إليها؟ ثم هذا الرجل الذي نقلته معك - أعتقد أنه كان رجلا - هو مجنون.. هل تعتقد أن كل السفينة ملكك؟

- بحارتك يضايقون الشيطان البائس منذ ركب السفينة..

- هذا هو بالضبط.. شيطان.. شيطان قبيح لا يحتمله رجالي ولا أنا ولا أنت.. ولو جاء إلى هذا الجزء من السفينة ثانية فلسوف أخرج أحشاءه.. أؤكد لك هذا.. أنا مالك هذه السفينة وقد تعاقدت على أن أنقل بعض الحيوانات من إفريقيا إلى تلك الجزيرة، لكني لم أتعاقد على نقل شيطان مجنون و (حكيم) أحمق..

وهنا بدأ القبطان في استعمال ألفاظ أكثر سوءا من كل ما سبق.. فصحت به في حدة:

- اصمت!

وبهذا جلبت الوبال على نفسي.. إلا أنني كنت سعيدا؛ لأنني منعت ما يوشك أن يكون مذبحة.. وحتى مع وضع مزاج القبطان المتعكر في الاعتبار، فإنني لم أسمع قط هذا السيل من

البذاءات يخرج من فم إنسان، وحتى مع طبعي المسالم، بدت لي بعض هذه الألفاظ عسيرة التحمل..

لقد نسيت أنني لم أكن سوى نفاية بشرية على ظهر هذه السفينة، ولم أدفع أجر سفرى بعد، وأنني أعتمد بالكامل على الإحسان..

لقد ذكرنى القبطان بهذا بخشونة حقيقية إلا أنني - في جميع الأحوال - قد منعت مشاجرة عنيفة..

☆ ☆ ☆

4- عند حاجز السفينة..

في تلك الليلة استطعنا أن نرى الأرض عند الغرب، وقال لي (مونتجمري):

إن هذه هي وجهته..

من مسافة كهذه لم أتبين التفاصيل، لكنها بدت لي كبقعة من لون أزرق باهت وسط البحر الأزرق الرمادي.. ومنها تصاعد لسان دخان إلى السماء.

تناولنا عشاء كئيبا أنا و (مونتجمري)، ولاحظت أنه متحفظ جدا بصدد الغرض من رحلته، لذا آثرت الصمت برغم فضولى الشديد.

ازدادت النجوم كثافة في السماء، وساد السكون..

راح (مونتجمري) يسألني عن (لندن) في صوت مليء بالشجن.. بدا لي كرجل أحب حياته هناك ثم انقطع عنها فجأة، هذا الرجل جاء من الفراغ لينقذ حياتي، وغدا يختفي من وجودى للأبد من جديد.

سألته نفس سؤال القبطان: ماذا يريد عمله بالوحوش التي يصحبها معه؟ لكنه ازداد غموضا وعند منتصف الليل رحنا نرمق البحر الصامت الذي أضاعته النجوم، وكل منا يفتش فيه عن ذكرياته.. قلت له:

- أشكرك على إنقاذ حياتي.

- هي صدفة.. مجرد صدفة.. كنت تملك الحاجة وكنت أنا أملك المعرفة.. وكنت ملولا أبحث عن شيء أفعله، فلو لم أكن في مزاج رائق أو لم أحب منظرك فأين عساك كنت تصير؟

عكرت هذه الإجابة مزاجي.. فأردف قائلا:

- صدفة.. ككل شيء في حياة الإنسان.

الحمير لا تفهم هذا! أنا هنا الآن مجرد طريد للحضارة بدلا من أن أكون رجلا سعيدا يلهو في (لندن).. لماذا؟ لأنني - ببساطة - منذ أحد عشر عاما فقدت عقلي لمدة عشر دقائق في ليلة ضبابية..

وكف عن الكلام دون أن يفسر شيئا.

سألته المزيد فأوشك على الكلام.. ثم قرر أن يصمت ثانية.. هنا قلت له:

- حسبك!.. الأمر سيان عندي.. ولو أنني حفظت سرك فلن تجني مني شيئا سوى بعض راحة البال، أما لو أذعته فعندئذ..

وهنا أدركت أنني سيطرت عليه.. وضعته في حالة من الطيش والرغبة في الثرثرة.. والحق أنني لم أكن فضوليا جدا لمعرفة سبب طرد طالب طب شاب من (لندن).. إن لدي خيالا على كل حال.

ابتعدت عنه ودنوت من حاجز السفينة، لأجد خيالا يقف هناك ويرمق البحر.. كان هذا هو مرافق (مونتجمري) غريب الأطوار.

شعر بوجودى فالتفت نحوي لحظة، ثم عاد يرمق البحر.. ربما بدا لك هذا تافها، لكنه كان كضربة قوية لي.. فحين استدار وجه المخلوق نحوي خارجا من الظلام؛ كانت عيناه تلتمعان بضوء أخضر خفيف.

اخترقت عيناه كل أفكاري البالغة لتصلا إلى مخاوف الطفولة المنسية، ثم مر الأثر سريعا..

وفي تلك الليلة رأيت أحلاما غير سارة، وارتفع القمر عند منتصف الليل، ليلقى بضوء شبحي أبيض عبر قمرتى، ورسم ظلا مرعبا على فراشي.

لهذا نمت بصعوبة حتى الفجر..

☆ ☆ ☆

5- الرجل الذي لم يكن له هدف..

في الصباح المبكر - وهو الصباح الثاني بعد شفائى والرابع بعد إنقاذي - صحوت من أحلامي الصاخبة.. وبدأت أسمع صراخا خشنا فوق رأسي.

جاء صوت قدمين عاريتين، وصوت أجساد ثقيلة تُجر، وصرير ورنين سلاسل.. وعبر النافذة المستديرة رأيت أمواجا خضراء تتلاطم.. صعدت للسطح لأجد السماء المحمرة المميزة للشروق، ورأيت ظهر القبطان العريض.. و (البوما) تتلوى وتزأر في قفصها.

صاح القبطان:

- إلى القارب معهم! سينظف مركبنا بعد قليل إذ تتخلص من هؤلاء.

كان يسد طريقي فربت على كتفه ليفسح لى..

فاستدار نحوي.. لم يكن الأمر يحتاج إلى خبير، كى يعرف أن الرجل ما زال ثملا..

قال إذ رآنى:

- ماذا؟ إنه السيد..

- (بندرك)..

- سحقا لـ (بندرك)! (اصمت).. هذا اسمك.. السيد (اصمت)..

لم تكن الإجابة مفيدة في ظروف كهذه، لكني فوجئت به يمد يده إلى حيث كان (مونتجمري) واقفا يتحدث مع رجل ذي شعر رمادي، ويرتدى (فانلة) من الأزرق المتسخ، ويبدو أنه قادم من الجزيرة.

قال الكابتن بزئير:
- من هنا يا سيد (اصمت)! هذا الطريق.. إلى خارج السفينة يا سيد (اصمت)، وبسرعة، فنحن ننظف السفينة من القاذورات!
ونظرت إليه مذهولا.
ربما كان هذا ما أريده.. ليست الرحلة مع هذا الوغد المشاغب من الأشياء التي يبكي المرء عليها.
قال مرافق (مونتجمري) في اقتضاب:
- لا يمكن أن نصطحبك معنا..
كان له وجه مربع حازم.. أكثر الوجوه التي رأيتها في حياتي حزما..
صاح القبطان:
- إلى خارج السفينة تذهب يا سيد (اصمت)!
هذه السفينة ليست للوحوش وأكلة لحوم البشر ومن هم أسوأ منهم! وإن لم يصحبوك فإنني سأرغمك على النزول على كل حال.. لقد انتهيت أخيرا من هذه الجزيرة والحمد لله..
أشار (مونتجمري) إلى الرجل رمادي الشعر بجواره، بما معناه أنه عاجز عن مساعدتي.. رحت أتوسل لكل واحد من الثلاثة: توسلت لرمادي الشعر كي يأخذني معهم، وللقبطان كي يبقيني على ظهر السفينة، ولـ (مونتجمري) كي يقنع أحدهما..
لكن القبطان كان مصرا على طردي خارج سفينته.
وهنا يجب أن أقول إن صوتي تحشرج، وأصابتني حالة من الهستيريا.. وفي الوقت ذاته كان البحارة ينقلون الحملة إلى (النش) كبير يقف جوار السفينة، تنقل إليه البضائع في عجلة.
كنت جائعا مرهقا، والجوع وفقر الدم ينزعان من الرجل كل رجولته.. لم تكن لدى القوة ولا العزيمة كي أقاوم ما يريده

القبطان عن طردي، والأدهى أنه بدا أن أحدا لّا يلاحظ وجودي أصلا.

جذبونى - وأنا أقاوم بوهن - إلى قارب نجاة في مؤخرة السفينة، وكان نصفه مليء بالماء خاليا من أية مؤن.

أنزلوه إلى الماء، وطوحوا بي إليه بحبل ثم قطعوه وكذا وجدت نفسي وحدي بينما السفينة تبتعد عنى.

في البداية استطعت بمشقة أن أصدق ما حدث.. مذهولا رحت أرمق البحر الزيتي الصامت، وأدركت أنني عدت لجحيمي الخاص، شبه غريق.

كان (اللنش) بدوره يبتعد نحو الجزيرة..

وأدركت مدى قسوة ما فعلوه بي.. فلم تكن لدي وسيلة للتجديف إلى الشاطئ، وكنت واهنا جائعا..



فلم تكن لدىّ وسيلة للتجديف إلى الشاطئ ، وكنت واهنًا جائعًا ..

لهذا بدأت أبكي وأئن كما لم أفعل من قبل منذ كنت طفلا.
مددت يدي في الماء ورحت أحاول التجديف، وأنا أدعو الله بصوت عال أن يميتني الآن.

☆ ☆ ☆

6- البحارة مخيفو الشكل..

إلا أن بحارة الجزيرة أدركوا أنني موشك على الغرق وأشفقوا عليّ.. هنا رأيت (اللنش) – في راحة مجنونة - يستدير عائدا لي.. واستطعت أن أرى فوقه رأس (مونتجمري) ومرافقه، وقد أحاطت بهما الكلاب والصناديق.

أما المخلوق المشوه إياه فكان ينظر لي باهتمام، وجواره كان ثلاثة رجال آخرين لهم نظرات وحشية، بدا لي أنهم يثيرون هياج الكلاب.. وألقوا لي بحبل ربطته في القارب كى يجذبوني وراءهم، فلم يكن لي مكان على ظهر (اللنش) المزدحم..

تصلب الحبل بين القاربين، وصار (اللنش) يجرنى وراءه..

هنا رحت أرمق راكبي (اللنش) في ثبات أكثر.. كان رمادي الشعر رجلا قويا له ملامح قوية، لكن عينيه كانتا تحملان ذلك الجلد المتدلي فوق الجفون، بالإضافة إلى أن ركني فمه كانا ساقطين لأسفل مما أعطاه انطباعا من العدوانية

رحت أنظر لرجاله الثلاثة.. ويا لغرابتهم من طاقم! لا أدري ما الذي أثار في نفسي ذلك الشعور من الاشمئزاز نحوهم.. كانت أطرافهم ملفوفة بجلد متسخ أبيض، وكانت على رءوسهم عمائم وتحتها كانت وجوه شبيهة بوجوه الجن ترمقني، ولهم شعور طويلة سوداء كمعارف الخيول.. كما أن قامتهم كانت طويلة جدا.

بالواقع كانت مجموعة شاذة منفرة من الناس. ولاحظت أنهم لا يتحملون نظراتي المباشرة لهم إذا سرعان ما يخفضون العيون.

ووصلنا إلى الساحل.

كان الشاطئ مغطى برمال رمادية، ينحدر في زاوية حادة لأسفل، بينما هناك سلسلة تلال فوق مستوى البحر، تحف بها أشجار ونباتات.. وكانت هناك أحجار تكونت جزئيا من الفحم ومن الحمم الزجاجية..

أعتقد أنني رأيت كذلك - إذ دنونا - بعض مخلوقات غريبة ترمقنا من وراء الأشجار.. لكني لم أرها حين دنونا أكثر.

بأمر من (مونتجمري) وثب أربعة رجال إلى (اللنش) ليتولوا أمر الشراع بحركات خرقاء، وبدأنا ندخل خليجا صغيرا يتسع بصعوبة لنا، وسمعت صوت المجاديف ترتطم بالرمال.

ثم وثب الرجال إلى الشاطئ، بينما بقي واحد منهم لينزل الحمولة.. لاحظت - بصفة خاصة - الحركات الغريبة لهؤلاء الرجال المضمدين، فلم تكن ذات نمط معين.. كانت مشوهة كأنما مفاصلهم في الأماكن الخاطئة.

كانت ضوضاء الكلاب عالية جدا، بينما (مونتجمري) يثبت الدفة وينزل إلى الشاطئ.. ودنا ذو الشعر الأبيض مني ليقول:

- يبدو لي أنك تتضور جوعا.

كانت عيناه السوداوان تلتمعان تحت حاجبيه، وأردف:

- يجب أن أعتذر لك.. بما أنك ضيفنا فعلينا أن نجعلك مستريحا.. يبدو أنك رجل متعلم يا مستر (بندرك).. إن (مونتجمري) يقول إن لديك خلفية علمية ما.

أخبرته أنني أجريت بعض دراسات علمية في (البيولوجى) تحت إشراف (هكسلي).. رفع حاجبيه قليلا مندهشا لهذا، وبدا بعض احترام طفيف في أسلوبه معي.. وقال:

- هذا يغير الأمور يا مستر (بندرك).. كما ترى نحن جميعا ندرس (البيولوجى)، ولدينا ما يشبه محطة الأبحاث هنا..

كان الرجال يقتادون (البوما) إلى ما يشبه المنزل ذا الأسوار الحجرية، بينما (مونتجمري) يضع كومة من الأقفاص الصغيرة على عربة ذات عجلات.

وداخل الأقفاص كانت أرانب صغيرة.

قلت له:

- هأنتذا تنقذني ثانية..

قال لي:

- هذا يتوقف عليك.. لسوف تجد هذه الجزيرة مكانا شاقا كالجحيم، ولو كنت مكانك لراقبت سلوكي جيدا.

وتردد قليلا.. ثم تراجع عما ينوي قوله، وأضاف:

- أتمنى أن تساعدني مع الأرانب.

وكان أسلوبه فريدا مع تلك الأرانب.. رأيته يحمل الأقفاص ثم يفتح أبوابها ويقلب كلا منها ليخرج محتوياته على الأرض، لتتكوم الأجساد الحية، وتركض متواثبة.. حوالي عشرين منها تبتعد.

- تكاثروا يا أصدقائي! عمروا الجزيرة لأن لدينا مشكلة لحم حقيقية هنا.

هنا عاد ذو الشعر الرمادى بزجاجة شراب وبعض البسكويت، وقال:

- شيء تتبلغ به يا (بندرك)..

وعلى الفور انقضضت على البسكويت، لكني لم أمس الشراب؛ لأنني لم أذق المسكرات منذ مولدي..

☆ ☆ ☆

7- الباب المغلق..

اصطحبوني إلى المنزل ذي السياج، ولاحظت أن كومة المتاع قد تم وضعها هناك مع قفص (البوما)..

قال ذو الشعر الرمادى لـ (مونتجمري):

- الآن تجيء مشكلة هذا الضيف غير المدعو.. ماذا سنفعل معه؟

- إنه لديه خبرة علمية.

- أنا أتحرق شوقا للبدء في هذا الموضوع الجديد..

وازدادت عيناه التماعا.. قال (مونتجمري):

- لا يمكن أن ترسل الضيف هناك، ولا يمكن أن نبني له كوخا.. كما أننا لا نستطيع أن نثق به بعد..

قلت بدوري:

- أنا تحت تصرفكم..

ولم تكن لدي أية فكرة عما يعنيه بكلمة (هناك)..

قال (مونتجمري):

- كنت أفكر في حجرتي ذات الباب الخارجي..

وهبطنا إلى المنزل، بينما قال (مونتجمري):

- يؤسفنى يا مستر (بندرك) أنني غامض معك.. فإن مؤسستنا هنا تحوي سرا من نوع ما.. شيء كحجرة ذي اللحية الزرقاء.. بالواقع لا شيء يثير فزع الرجل العاقل، لكن بما أننا لا نعرفك جيدا..

قلت على الفور:

- طبعا.. ولأكونن أحمق لو ضايقني أنكم لا تثقون بى.

ابتسم في سخرية مريرة، وانحنى معبرا عن تقديره لتفهمي.

كان الباب الخشبي ثقيلا موصدا بالحديد، وجواره باب صغير أولج فيه ذو الشعر الرمادى مفتاحا.

أخيرا وجدت نفسي في شقة صغيرة مريحة، لكنها بسيطة الأثاث، وسرعان ما أغلق (مونتجمري) الباب.

وفي طرف الغرفة كان سرير معلق، ونافذة عليها قضيب حديدي يطل على البحر.. وباب يقود إلى سباحة خارجية.

وقال لي ذو الشعر الرمادي إنهم سيغلقون الباب الصغير عليّ من الخارج (خشية الحوادث).

وأشار إلى كتب قديمة، منها ما هو عن الجراحة، ومنها ما هو طبعات لاتينية وإغريقية، وهي لغات لم أستطع قط أن أقرأها مستريحا.. وكانت الكتب متراصة على رف في ركن الغرفة..

قال لي (مونتجمري) وهو يغادر الغرفة مع الآخر:

- نحن نتناول طعامنا في هذا المكان.

ثم خرج، وسمعته ينادي:

- (مورو)!

متى سمعت اسم (مورو) هذا من قبل؟ ورحت أرمق البحر من وراء النافذة وأنا ألتهم ما بقي معي من (بسكويت).. (مورو)!

عبر النافذة رأيت واحدا من هؤلاء الرجال الغريبين يجر حقيبته فوق رمال الشاطئ، ثم سمعت المفتاح يدور في الباب خلفي، وسمعت الكلاب وراء الباب.. لم تكن تنبح لكنها تخور بطريقة غريبة.

ما هذا المكان؟ ما سر هذين الرجلين؟ من هو (مورو) هذا؟

لم أستطع في هذه اللحظة بالذات أن أسترجع الارتباط الصحيح لهذا الاسم.. يا لغرابة الذاكرة البشرية!

جاء لي صديق (مونتجمري) غريب الشكل في هذه اللحظة.. كان يرتدي الأبيض ويحمل صحفة عليها بعض الخضر

المسلوقة.. ووضعها أمامي على المنضدة.

هنا شلتني الدهشة.. فتحت خصلات شعره السوداء الملتفة، رأيت أذنه إذ دنت من وجهي..

كانت أذنه مدببة مغطاة بفراء بني اللون.

- إفطارك يا سيدي.

قالها واستدار نحو الباب، بينما أنا لا أبعد عينى عنه.

هنا - وبحيلة غريبة من اللاوعي. تداعت إلى ذهنى الجملة (أحوال مورو).. هل كانت هكذا؟

وعاد عقلي إلى الوراء عشر سنوات فتحررت الجملة الصحيحة: (أهوال مورو)..

الآن أراها مكتوبة بحروف حمراء في جريدة..

لقد كنت شابا وقتها، وكان (مورو) في الخمسين من عمره، عالم وظائف أعضاء شهيرا بارزا في الدوائر العلمية، بسبب خياله الخارق.. لقد نشر أبحاثا غريبة في البكتريا والطفيليات ونقل الدم، ثم فجأة أغلق عيادته وفارق (إنجلترا)..

والسر هنا هو أن صحفيا تنكر بشكل باحث، وعمل لفترة في معمله بحثا عن حقائق مثيرة. وسرعان ما حدث حادث مروع.. لقد هرب كلب ممزق الأوصال من منزل (مورو)، وكتب صحفي كبير مقالا عن ذلك، وناشد فيه ضمير الأمة.. لم تكن تلك أول مرة يصطدم فيها الضمير بوسائل البحث العلمي، لكن (مورو) طرد من البلاد ببساطة تامة ربما كان يستحق ذلك.. لكن مازلت أعتقد أن فتور زملائه الباحثين نحوه، وتخلى العلماء عنه، كانا أمرين مشينين.

لقد كانت بعض تجاربه على الحيوانات - كما قال الصحفي - قاسية جدا.. وكان (مورو) غير متزوج لا يهتم بشيء سوى العلم.

هنا شعرت بأن (مورو) الجزيرة هو نفس الرجل.

كل شيء يشير إلى هذا.. وأدركت النهاية التي تنتظر كل الحيوانات التي جلبوها إلى هذه الجزيرة.. وشممت رائحة المطهر الذي يستخدمونه في التشريح..

خلف الجدار كانت (البوما) تزأر في وحشية.. لم يكن هناك شيء في تشريح الحيوان يبرر كل هذه السرية..

ما معنى هذا؟ جزيرة مهجورة.. عالم شهير.. رجال مشوهون معوقون؟

رحت أرمق البحر الأخضر والأفكار تصطرع في ذهني.

☆ ☆ ☆

8- صراخ الـ (بوما)..

قاطع (مونتجمري) شكوكي في الساعة الواحدة..
كان تابعه خلفه يحمل صحفة عليها خبز وخضر وأكواب ومدي.
نظرت إلى المخلوق شذرا فوجدته يختلس النظر إلى..
قال (مونتجمري) إنه سيتناول الغداء معي، لكن (مورو) مشغول الآن..
قلت له:
- (مورو)! أنا أعرف هذا الاسم!
- بحق السماء أنت تعرفه؟ لقد كنت غبيا حين ذكرته لك.. ما كنت لأنسى أنه سيوحي لك بسرنا.. لكن لا جدوى من إغلاق الاسطبل بعدما سرق الحصان..
سألته بعدما انصرف التابع:
- (مونتجمري).. لماذا أرى أذنى رجلك مدببتين؟
- يا للجحيم! أذنان مدببتان!
- هما كذلك.. ومغطاتان بشعر دقيق أسود.. وعيناه تلتمعان في الظلام.
جرع بعض الماء في عصبية، وبدأت لثغته تظهر أكثر، وقال:
- آه! ألهذا يغطى أذنيه دائما؟
بدا لى أن جهله تصنع، لكني لم أصارحه باعتقادى في كذبه..
هنا جاءت صرخة حيوانية قصيرة من الساحة خلفنا، وبدا واضحا أنها صرخة (البوما).. وقطب (مونتجمري) وجهه وتشاغل بالأكل..
قلت له:

- إنه غير طبيعي.. ثمة شيء ما بخصوصه، وهو يعطيني شعورا رهيبا وعضلاتي تتوتر بشدة حين يدنو مني.

قال (مونتجمري) وهو يمضغ في عصبية:

- لا أدري.. لا فكرة لي عن هذا.. لا بد أن بحارة السفينة شعروا بنفس الشيء.

هنا صرخت (البوما) صرخة أشد هولا..

- رجالك على الشاطئ.. من أي جنس هم؟

قال في شرود وهو يقطب حاجبيه:

- رجال ممتازون.. ألا ترى هذا؟

وجرع من الشراب، ثم راح يحاول - في توتر - أن يقودني إلى محادثة جانبية. وانتهت وجبتنا، فجاء المسخ المشوه مدبب الأذنين ليرفع بقايا الطعام.

وانصرف (مونتجمري) وهو لا يخفي توتره بسبب صراخ (البوما) إياه..

ووجدت أن الصرخات تزداد عمقا.. بدأت بالألم ثم بالمعاناة العظمى، وسرى التوتر إلى داخلي فرميت بكتاب (هوراس) الذي كنت أطالعه، ورحت أذرع الغرفة متوترا حتى اضطررت إلى سدّ أذنيّ بأصابعي.

حقا لم أعد أحتمل البقاء ثانية في هذه الغرفة.

غادرت المكان إلى الخارج حيث العصر الناعس.. كان الصراخ أشد ارتفاعا، كأن كل الألم في الكون وجد له صوتا..

9- الشيء في الغابة..

مشيت تحت الأشجار التي تغطي ما وراء المنزل، لا أدري لأين أذهب، ومررت بين بعض النخيل مستقيم الجذوع، ولأسفل رأيت مجرى مائيا صغيرا ينحدر نحو الوادي الضيق.

كان الهواء جامدا.. وفجأة صدر حفيف أشجار، ثم برز أرنب ركض نحو الغابة أمامي.. فأجفلت.

كان الجدول مغطى بنباتات كثيفة على ضفتيه.. وعلى الأرض انتثرت بقع أرجوانية من فطر نام..

شعرت برغبة شديدة في النوم، فأغمضت عيني قليلا، ثم صحوت على صوت من بين الأشجار.. نظرت حولي ثم إلى ضفة الجدول البعيدة، فرأيت رجلا يمشي على أربعة أطراف كالحيوانات، يرتدى ثيابا زرقاء، وله لون نحاسي وشعر أسود.



فرأيت رجلاً يمشى على أربعة أطراف كالحيوانات ، يرتدى ثيابًا
زرقاء ، وله لون نحاسى وشعر أسود . .

وأدركت أنه منحن على الماء يشرب.
بدا الى أن القبح هو سمة لا تتجزأ في سكان هذه الجزيرة..

شعر بي فالتقت عينانا للحظة.. وقف يمسح فمه بيده وهو يرمقني، ولمحت شيئا من الخجل في عينيه..
تبادلنا النظرات لدقيقة كاملة، ثم انزلق بين الأشجار عن يميني، وسمعت الأغصان تحتك ببعضها.. ثم توارى تماما..
نظرت حولى فى عصبية وندمت لأنني غير مسلح.. برغم كل شيء هو شخصية مسالمة.. وليس متوحشا ما دام يرتدي الثياب.
رحت أشق طريقي وأنا أتلفت حولي مرتبكا..
لماذا يمشي هذا الشيء على أربع؟
عبرت الجدول الصغير وواصلت مسيري.
في ظل بعض النباتات الكثيفة وجدت مشهدا غير بهيج.. جسد أرنب دافي غطاه الذباب اللامع.. لقد تمزق رأسه.
ابتعدت عن مشهد الدماء.. هنا على الأقل تخلصوا من أحد زوار هذه الجزيرة! لكم هي ميتة بشعة!
تبدلت الأشجار حولى لتلائم خيالي: لم تعد الظلال ظلالا بل هي كمائن منصوبة لي.. وصارت كل ورقة شجر تهديدا.
قررت العودة للمنزل سريعا.. اندفعت بين الأشجار سريعا راغبا في العثور على مساحة خالية منها، وبصعوبة منعت نفسي من مواصلة الاندفاع؛ فقد كانت هناك فسحة تصطرع عليها البذور لاحتلال الموضع الخالي.. وأمامي كانت ثلاثة أشكال بشرية غريبة منحنية على شجرة ساقطة متحللة، أحدها يمثل أنثى والآخران يمثلان ذكرين..
كان لجلودهم لون وردي غريب، ووجوههم مكتنزة بلا ذقون، وجباههم متراجعة للوراء.. كانوا يتكلمون بلغة لم أستطع تمييزها، برغم أنني سمعت الكلمات بوضوح.

وبدأت نبرة الكلام تزداد حدة، وتصاعدت أصوات توحى بغناء ما، وإذا بهم ينهضون ليؤرجحوا أجسادهم مع الإيقاع كأنما يرقصون.

كونوا دائرة وراحوا يلوحون بأذرعهم.. ومرارا رددوا ما بدا لي أنه لفظة (ألولا) أو (بالولا)..

واللعاب ينحدر من أفواههم عديمة الشفاه في تعبير عن السرور عجيب.

هنا فهمت للمرة الأولى لماذا أعطتني هذه المخلوقات ذلك المزيج الغريب من الشعور بالألفة، والاشمئزاز في الوقت ذاته..

إن كل واحد من هؤلاء - برغم ثيابه ومظهره الإنساني - يذكرك بحيوان مألوف لديك.. ربما بالخنزير.. ثمة مسحة خنزيرية في كل شيء يحيط بهم.. مسحة لا تدحض.

كانوا الآن يثبون في الهواء وهم يثبون ويصرخون، ثم سرعان ما هبط أحدهم ليمشي على أربع.. وكانت هذه اللحظة الحيوانية كافية بالنسبة لي.. وقررت الابتعاد سريعا.

☆ ☆ ☆

في كل لحظة من ابتعادي؛ كنت أتصلب خشية أن يكون أحدهم في إثرى.. إذ يتهشم غصن شجرة أو يتعالى حفيف ورقة، ومر آن طويل حتى استجمعت جرأتي وبدأت أتحرك بحرية..

وصلتُ الفسحة ما بين الأشجار، وهنا رأيت قدمين غير متسقتين تمشيان بخطى صامتة، موازيتين لاتجاهي، وعلى بعد ثلاثين ياردة مني.. وكان الرأس وأعلى الجسد يتواريان وراء الأغصان.

بلغ توتري ذروته.. وبصعوبة تحكمت في نفسي.. الآن أرى جسد ورأس الوحش، وبريق الزمرد في عينيه إذ نظر نحوي..
وفي اللحظة الثانية توارى فلم أعد أراه..
لم يكن معي سلاح ولا حتى عصا.. على كل حال فهذا الشيء يفتقر إلى الشجاعة اللازمة ليهاجمني؛ لذا ضغطت على أسناني وتقدمت نحوه في ثبات.
أخيرا دنوت منه، فثبت عيني في عينيه وسألته:
- من أنت؟
قال فجأة:
- لا!
وهرع يركض متواريا في الأحراش.. كان قلبي في فمي، لكني شعرت بأن فرصتي الوحيدة هي أن أخدعه، لذا واصلت التقدم نحوه.
هنا لاحظت أن الوقت تأخر كثيرا، ولسوف يضعف هذا موقفي كثيرا..
إن ضوء الشمس يتوارى خلف الأشجار، وليس من مصلحتي أن أمضي الليل وسط الأهوال المجهولة لهذه الغابة.. عليّ أن أفر إلى الحصن.
إن فكرة أن يظفر بي الظلام وكل ما يداريه الظلام في هذا المكان المفتوح؛ لفكرة لا أتحملها.
مشيت في الاتجاه الذي جئت منه.. وفجأة وجدت مساحة خالية من الأشجار، السماء الزرقاء تزداد قتامة فوق رأسي.. غاب اللون عن العالم، واكتست الأشجار بلون الحبر، وذاب الضوء في ظلال غير محددة..
لا أتذكر أنني رأيت هذا المكان من قبل.. والمشكلة هي أنني كنت أسمع حفيفا من الأشجار على يميني طيلة الوقت.. رحت

أنظر لليمين من آن لآخر لأفاجئ شيئا ما يوشك على الوثب عليّ
لقد عاد غريمي ليطاردني.. وغمرني فهم غير سار لحقيقة أنني ضللت الطريق..

☆ ☆ ☆

واصلت مشي اليائس.. والصوت مستمر..
إما أنه يخاف أن يهاجمني، وإما أنه ينتظر لحظة الهجوم المثلى له.
سمعت شيئا يقع خلفي.. وخيل لي أن ظلا أسود يثب فوق ظل آخر.
لا أشعر سوى بطنين الدم في أذني.
الآن أدنو من البحر الهادئ الزيتي تلتمع النجوم فيه.
لم أر خلفي شيئا أو رأيت الكثير جدا.. لقد كان كل شكل في الظلام يوحي بأن له حياته الخاصة، ويراقبني في يقظة.
الآن أرى الشيء دانيا يمشي منتصبا.. لم يكن حيوانا إذن..
فتحت فمي لأتكلم، لكن البلغم الغليظ كان يسد حلقي.. حاولت ثانية:
- من هناك؟
لا إجابة.. فتقدمت خطوة إلا أن الشيء لم يتحرك..
اصطدمت قدمي بحجر فخطرت لي فكرة.. تذكرت ما كان يفعله صبي المدرسة أمام كلب كبير.. لففت الحجر في منديلي على شكل مقلاع، هنا تراجع الشيء متواريا من جديد.
بدأت أجري فوق الرمال، وسمعت صوت أقدام تجري ورائي..
فتملكني ذعر حقيقي وأطلقت صرخة، وزدت سرعة الركض.

شعرت بأنفاسي تتلاشى؛ لأني كنت أفتقر إلى المران، وآلمني صدري وانغرس خنجر في خصري، وتوقعت أن يلحق بي الشيء.. لهذا استدرت للوراء وضربته بالحجر بأقوى ما لدي.. هوت القذيفة على صدغه الأيسر وسمعت صوت الارتطام.. تدحرج ليسقط على رأسه فوق الرمال.

لم أجد الشجاعة الكافية كي أتفحص تلك الكومة الرمادية، وواصلت الركض نحو الحصن.

☆ ☆ ☆

10- صراخ رجل..

أخيرا وبعد عناء وصلت إلى الحصن.. وجدت (مونتجمري) ملهوفا أعياه البحث عني، ولم يبد مستعدا للإجابة عن أي من أسئلتي، بل قدم لى بعض الدواء المنوم، وقال لي:

- لو لم تنم الليلة فسيتخلى عقلك عنك غدا..

وكذا لم أجد مفرا من إطاعته.. ونمت نوما عميقا.

صحوت في الصباح ورحت أرمق السقف.. كانت دعاماته مصنوعة من خشب سفينة.. وكانت هناك وجبة معدة لى موضوعة على المنضدة.

نهضت من الفراش المعلق شديد الأدب.. فقد قرر أن يساعدني على النهوض، وتلوّى ليلقى بي على الأرض.

كان رأسي ثقيلا، تزدحم فيه أغرب الذكريات.. وهب نسيم الصباح من النافذة، فأعطاني شعورا براحة حيوانية..

انفتح الباب خلفي، وأطل منه وجه (مونتجمري).. قال لي:

- حسن.. أنا مشغول جدا هذا الصباح.

وتواري من جديد ناسيا الباب مفتوحا.

سمعت صرخة قصيرة لكنها لا تخص (البوما).. توقفت عن المضغ منتظرا المزيد، لكني لم أسمع شيئا آخر.. وقررت أن هذا خيال لذا واصلت طعامى في سكون.

من جديد أسمع صوت أنين ومن يجهش بالدموع.. هذا ليس صوتا حيوانيا.. إنه صوت إنسان يتعذب!

غادرت الغرفة في حذر وخرجت إلى الساحة؛ لأرى ما هنالك.

هنا دوى صوت (مونتجمري):

- (بندرك) يا رجل! توقف!

لكني اندفعت للأمام لأجد كثيرا جدا من بقع الدم في كل مكان، وشممت رائحة حمض (الكربوليك) المطهر.. ثم رأيت جسدا يقف مربوطا إلى إطار خشبي.. جسدا آدميا تفعمه الجراح..

ولمحت وجه (مورو) العجوز شاحبا مخيفا.. مد يده يجذبني من ذراعي للوراء.. يده الملطخة بالدم.

كان قويا حتى إنه حملني إلى غرفتي كطفل، وسرعان ما دار المفتاح في القفل، وجاء صوت (مونتجمري) يحاول إقناعه بشيء ما..

صوت (مورو) يقول:

- يهدم مجهود عمر بأكمله.

- لكنه لا يفهم...!

- إنني بحاجة إلى كل دقيقة من وقتى.

نهضت من مكانى وعقلى مزدحم بخواطر مخيفة.. أمن الممكن أن هذا الرجل يمارس تشريح البشر وهم أحياء؟ صدمني السؤال كالبرق في سماء مكفهرة.. وفجأة أدركت بوضوح نوعية الخطر الذي يحاصرنى في هذا المكان..

☆ ☆ ☆

11- صيد البشر..

أدركت أن الباب الخارجي لغرفتي لم يكن موصدا.. وكنت على قناعة كاملة بأن (مورو) يشرح البشر الأحياء.. هذا متوقع منه بما أعرفه عنه.

هؤلاء الوحوش على الجزيرة هم نتاج عبقريته المخبولة، أما هذان الوغدان فقد خدعاني.. أنقذانى ولعبا تمثيلية موحية بالثقة، كي يفاجئاني بما هو أبشع من الموت.

نظرت حولى بحثا عن سلاح.. لا شيء.. كان هناك مقعد خشبي هشمته وانتزعت منه قطعة خشبية، بها مسمار بارز، مما أعطى مسحة من الخطر لسلاح لا خطر منه.

سمعت خطوات قادمة ففتحت الباب، فوجدت (مونتجمري) على بعد عشرين ياردة.. هويت بالسلاح على وجهه لكني لم أصبه، وهرعت جاريا نحو خارج المنزل.

صاح (مونتجمري):

- (بندرك) يا رجل!.. لا تكن سخيفا!

إن هي إلا دقائق ويلحق بي لأصير أرنبا في معمل.. راح يجري خلفي.. فاتجهت إلى الشمال ورحت أركض عبر الشاطئ.

كان صدرى يتمزق وقلبي يخفق في أذني.. لم أعد أسمع (مونتجمري) ولا رجله، وتواريت في أجمة خيزران أخشى أن أتحرك، وأكثر خوفا من أن أقرر ما يجب عمله ولا صوت سوى الحشرات التي وجدتني، وتنفس البحر الخمول من بعيد.

كنت أعرف أن (مورو) و (مونتجمري) يحملان مسدسين، بينما لا أحمل أنا سوى أكثر الأسلحة إضحاكا: عصا خشبية بها مسمار.

رحت أفكر في الطعام والشراب، وبدأت أفهم عبثية موقفي.. أنا لا أعرف ما يمكن أكله.. وجاهل بالزراعة لا أدري ما يمكن أكله من جذور، ولا أملك أدنى فكرة عن كيفية اصطياد الأرانب.

إن موقفي لمستحيل.

فجأة سمعت نباح كلب، وهنا أدركت خطرا جديدا..

هرعت نحو البحر هاربا من الموضع الذي تواريت فيه، واتجهت إلى الماء دون تردد، حتى وصل إلى ركبتي..

عبرت المجرى الصغير وأنا أسمع نباح الكلب دانيا، وعبرت مجموعة من الأشواك مزقت وجهي وثيابي..

لم أكن خائفا أو قانطا.. لقد تجاوزت حدود الخوف والقنوط، ونما لدي يقين تام بأن حياتي قد انتهت، وجعلني هذا اليقين أجسر على أي شيء.. لكم تمنيت وقتها لو قابلت (مورو) وجها لوجه.. رحت أعزي نفسي بأن هؤلاء القوم لو ضيقوا على الخناق، فلن يمنعوني من إغراق نفسي.. فقط منعني عن هذا أمل غامض في أن تنتهي المغامرة بشكل ما..

رحت أنظر حولى إلى الأشجار، وفجأة وثب إلى عيني وجه أسود يرمقني.. كان يتمسك بجذع نخلة ويقول مرارا:

- أنت.. أنت.. أنت..



وفجأة وثب إلى عينىّ وجه أسود يرمقنى .. كان يتمسك بجذع نخلة ، ويقول مرارًا : ـ « أنت .. أنت .. أنت .. » !

في اللحظة الثانية وثب ليقف أمامي.. ولم أشعر نحوه بنفور مماثل لما كنت أشعر به نحو المخلوقات الأخرى.. قال لي:
- أنت.. في القارب..

- نعم.. كنت في السفينة..

نظر لي في اهتمام.. راح ينقل عينيه من وجهي إلى جسدى إلى عصاى.. ثم نظر إلى يده.. وعد أصابعه:

- واحد.. اثنان.. ثلاثة.. خمسة..

هنا لاحظت أن أكثر هؤلاء القوم لهم أيد مشوهة تنقصها بعض الأصابع.. لكني فعلت نفس ما فعله على سبيل التحية.

تركني ووثب إلى جذوع النخيل ليتعلق بها.

صحت مناديا:

- هالو!.. أين أجد ما آكله؟

- أكل؟ تأكل كل طعام الإنسان الآن.. في الأكواخ!

وتراجعت عيناه عني.. ثم هبط للأرض، وأدركت أنه يقودني إلى هذه الأكواخ.. لا بد أنها مأوى حنش يعيش فيه مع الوحوش الأخرى.. لربما كانوا ودودين، ولربما وجدت في عقولهم مقبضا يمكن أن أتمسك به.. لا أدري لأي مدى نسوا ميراثهم الآدمى.

كان هذا المخلوق أذكى بقليل من أن يكون معتوها.. ورأيته يمد يده لشجرة فيلتقط بعض ثمار ناولها لي.. على الأقل هنا يمكن أن أجد ما يمكن أكله.

كنا الآن بين أشجار بنية محترقة، ودخان نفاذ الرائحة يصّاعد من الأرض، والطريق يتعرج إلى ممر ضيق من الحمم البركانية المتجمدة، وهو ممر مظلم للغاية.. توقف مرافقي وقال:

- البيت!

ووقف على حافة مدخنة جيولوجية، وشممت رائحة كريهة تذكرني بقفص القرود المتسخ في حديقة الحيوان.

.

لقد كانوا يعيشون هنا.

☆ ☆ ☆

12- الناطق بالقانون..

مس شيء يدي، فانتفضت لأجد شيئا ذا لون وردى، كطفل مسلوخ أكثر منه أي شيء آخر له نفس السمات المنفرة المميزة لحيوان (الكسلان) واستطعت أن أميز على جانبي الممر أكواما من سعف النخيل، تم وضعها كأنها أعشاش مظلمة.

دعاني مرافقى الأول كي أدخل أحد هذه الأعشاش.. هنا خرج وحش بطيء الحركة من أحد هذه الأماكن، وراح يرمقني دون كلل.

قررت أن أخوض المغامرة لآخرها، وأمسكت العصا من منتصفها، وزحفت خلف مرافقي.

كان المكان شبه دائري قريبا من خلايا النحل في مظهره، وفي أكثر أركانه إظلاما كانت كتلة عديمة الشكل من اللون الأسود.

قدم لى مرافقي ثمرة جوز هند مهشمة، فتناولتها وبدأت أقضمها بلامبالاة، برغم رهبتي من هذا المكان.

ومن المكان الذي يجلس فيه الكائن عديم الشكل:

- هيه.. إنه رجل!

قال مرافقي:

- هو رجل.. رجل خمسة مثلي..(3)

زأر القابع في الظلام:

- اخرس..!

ثم عاد يسأل بعد صمت مخيف:

- إنه رجل.. هل جاء ليعيش معنا؟

كان في صوته صفير غريب، لكن لكنته الإنجليزية كانت ممتازة إلى حد يثير الدهشة.. نظر لى مرافقي.

كأنما يتوقع شيئا، وقال:
- جاء يعيش معنا..
- إنه رجل.. ويجب أن يتعلم القانون..
نظرت للوراء لأدرك أن فتحة العش يسدّها رأس أحدهم، لم أتبين ملامحه.. لكنه كان شكلا أكثر سوادا من السواد.. وتقلصت يدي على عصاى.
هنا صاح الشيء القابع في الظلام:
- لا تمش على أربع.. هذا هو القانون.
قال مرافقي ليزيل حيرتي:
- قل الكلمات..
ورددت الأصوات نفس الكلمات في الظلام، بنبرة مهددة.. فأدركت أن على أن أردد هذه الصيغة البلهاء.. هنا بدأت أكثر المواعظ خبالا.
لقد راح الكائن القابع في الظلام يردد نوعا من الوعظ المجنون، يقوله سطرا سطرا، وكان على أن أردد هذا وراءه.. وكانوا يرددون معه تلك المقاطع وهم يتمايلون إلى الجانبين، ويضربون بأكفهم على أفخاذهم.
كان من السهل عليّ الآن أن أتخيل أنني ميت وفي عالم آخر.
- ألّا نمشي على أربع.. هذا هو القانون.. ألسنا رجالا؟
- ألا نمتص الشراب.. هذا هو القانون.. ألسنا رجالا؟
- ألا نغرس مخالبنا في لحاء الأشجار.. هذا هو القانون.. ألسنا رجالا؟
- ألا نذوق السمك أو الطير.. هذا هو القانون.. ألسنا رجالا؟
وتدريجيا اندمجنا في الترديد، ورحنا نكرر هذا القانون الغريب بصوت عال وإيقاع متسارع، بينما أسخر في داخلي من كل هذا.

- مِلكُه.. هو بيت الآلام.
مِلكُه.. هي اليد التي تصنع.
- مِلكُه.. هي اليد التي تجرح.
- مِلكُه.. هي اليد التي تداوى..
كلام لا يمكن فهمه عن (هو) الذي لا أدري كنهه..
- مِلكُه.. هو البحر العميق المالح..
- مِلكه.. هو الضوء اللامع..
وخطر لى تصور مرعب.. لا بد أن (مورو) بعدما شوه هؤلاء الرجال، ادعى الألوهية أمامهم.. إنهم يمارسون لونا من العبادة.. لكني - وقد رأيت أسنانهم الحادة ومخالبهم الطويلة - لم أكف عن الترديد معهم..
- مِلكُه.. هي النجوم اللامعة في السماء.
الآن تعودت عيناي الظلمة، واستطعت أن أرى ذلك الكائن في السواد.. كان في حجم الإنسان لكنه مغطى بشعر رمادي كثيف.
فرغوا من ترديدهم، فقال مرافقي وهو يشير إليّ:
- إنه رجل خمسة مثلى.
مددت يدي، فانحنى المخلوق الرمادي ووضع مخلبا مشوها يلمس به أصابعي.. كان بوسعي أن أصرخ ألما ودهشة.. وفي الضوء الخافت لم يكن له وجه إنسان ولا وحش.. مجرد كتلة من الشعر الرمادي لها ثلاثة ثقوب في مواضع العينين والفم.
قال لي:
- أنا الناطق بالقانون.. إنني أجلس هنا في الظلام وأقول القانون..
أضاف أحد القابعين على الباب:

- هو كذلك.. الشر هو عقاب من يحطمون القانون.. لا أحد يهرب..

- لا أحد يهرب..

كذا رددت الوحوش الأخرى وهي تتبادل النظر الشذر.

- البعض يريد أن يطارد الأشياء التي تتحرك.. أن يزحف.. أن يعض.. يعض عميقا ويمتص الدم..

هذا سيئ.. ألّا نطارد البشر.. هذا هو القانون.. ألسنا رجالا؟

قال وحش آخر:

- لا أحد يهرب.

- الرغبة قاسية.. البعض يريد أن يغرس مخالبه في الأشجار.. البعض يريد أن ينبش في قبور الموتى.. البعض يعض فجأة.. البعض يحب القذارة.. البعض يريد الشجار بضرب الجباه والأظفار.. هذا سيئ

قال الوحش الوردي الشبيه بحيوان (الكسلان):

- لا أحد يهرب..

- العقاب أكيد وقاس.. لهذا تعلّموا القانون..

وهكذا رحنا نردد القانون من جديد ونحن نتأرجح!

☆ ☆ ☆

لم أسمع شيئا من الضوضاء بالخارج، حتى صاح أحدهم بحماسة شيئا لم أتبينه، وعلى الفور اختفى المحتشدون بالكوخ.. ووثب الشيء القابع في الظلام هاربا بدوره.

وفي اللحظة التالية سمعت نباح كلب.. وسرعان ما غادرت الكوخ وأنا ألوح بعصاى، وكل أعصابى ترتجف.

كان حولى عدد لا بأس به من هؤلاء البشر - الوحوش وقد توارت رءوسهم بين ألواح أكتافهم.. وكانوا يلوحون في رهبة.
رأيت الوجه الشاحب لـ (مورو) قادما من بعيد ممسكا بالكلب، وخلفه جاء (مونتجمري) ومسدسه في يده..
نظرت إلى يميني فوجدت على بعد ستة ياردات، فتحة في الجدار يدخل منها ضوء الشمس.. فأسرعت نحوها.. وسمعت (مورو) يصيح:
- توقف!.. أمسكوه!
لحسن الحظ كانت عقولهم الحيوانية بطيئة..
هاجمني (الكسلان) الوردي فضربته بالمسمار في وجهه القبيح، ثم وثبت من الفتحة.
تسلقت المنحدر.. وقفزت لأتدحرج وسط غبار الكبريت.. ثم ركضت حتى وصلت إلى مساحة من الأشجار الكثيفة.. كان الهواء من حولي مفعما بالصرخات المنذرة وصوت تهشم الغصون.. بعض المخلوقات تعوى وتزأر.
ركضت إلى اليمين وواصلت الهرب.. كانت الأرض هنا موحلة لكني كنت قانطا، ووصل الطين إلى ركبتي.. بينما صوت (مونتجمري) يتعالى.
خيل إليّ أنه كان يطلب مني الفرار من أجل حياتي..
يجب أن أصل إلى البحر لأجد فرصة أغرق بها نفسي، ولم أدر متى سقطت منى عصاى.. لكني فقدت أصواتهم على كل حال.
شعرت بما هو أكثر من السرور الآن.. يبدو أنني فررت منهم.. لا صوت حولى سوى صوت الحشرات..
وفجأة بدأت الأصوات تتعالى من جديد.

☆ ☆ ☆

13- محادثة..

رحت أركض على حافة البحر.. ونظرت للوراء لأجد مطاردي قد وجدوني.. كنت أكثر ياسا من أن أموت، وهي مقولة غريبة لكن من يعرفون الخطر يفهمونها بسهولة.

كانت الشمس الغاربة تلتمع بأشعتها على عيني، والمدّ يتعالى.

راحوا يتقدمون نحوى، بينما أقف أنا أرمق دنوهم عاجزا عن عمل شيء.

استدرت نحو البحر وتوغلت حتى وصل الماء إلى خصرى.

صاح (مونتجمري):

- ماذا تفعل يا رجل؟

استدرت له.. كان وجهه محمرا من الجهد والإرهاق، وشعره الكتاني يتطاير في الهواء، ووراءه.

جاء (مورو) شاحبا صارما.. ورأيت في يدي الرجلين سوطين غليظين.

- ماذا أفعل؟ أغرق نفسي!

سألني (مورو) بعدما تبادل النظر مع (مونتجمري):

- لماذا؟

- هذا خير من أن تعذبني أنت.

- ولماذا تعتقد ذلك؟

- ما رأيته هناك.. لقد كان هؤلاء رجالا فإلام صاروا؟ إنني لن أصير واحدا منهم..

صاح (مونتجمري) في قلق:

- بحق السماء يا (بندرك)! كف عن هذا!

ورأيت الرجال - الوحوش يتبادلون النظرات كأنما يحاولون فهم ما يقال.

قال (مورو) بصوت هادئ بعد تفكير قليل:

- اصغ إلى أولا ثم قل ما تريد قوله.

- وماذا ستقول؟

- إنها عملية تشكيل بشرية.. تعال للشاطئ وستفهم.. إن الماء بعد المكان الذي تقف فيه عميق ومليء بأسماك القرش.

- ذلك هو طريقي.. قصير أليم..

- إذن انتظر لحظة.

ورأيت شيئا لامعا يخرجه من جيبه، فيضعه على الرمال، وقال:

- هذا مسدسى و (مونتجمري) هنا سيفعل الشيء ذاته.. ستبتعد إلى المسافة التي تراها آمنة، ثم تعال لتأخذ هذين المسدسين..

- لا! لابد أن معكما مسدسا ثالث.

- فكر جيدا يا (بندرك).. نحن لم نطلب منك المجيء لهذه الجزيرة، ولو كنا نشرح الرجال لكان علينا أن نجليه رجالا لا وحوشا.. ثانيا: أنت كنت تحت تأثير المخدر وتحت رحمتنا ليلة أمس.. وكان بوسعنا أن نفعل بك ما تشاء.. لقد أردنا سلامتك؛ لأن

هذه الجزيرة ملأى بالظواهر الغريبة.

وعلى كل حال: لماذا نقتلك بالرصاص ما دمت تطوعت بإغراق نفسك؟

بدا لى الكلام منطقيا، وهنا قال (مونتجمري):

- أنت حمار أحمق يا (بندرك).. اخرج من الماء وخذ المسدسين وتكلم.. ليس بوسعنا عمل ما هو أكثر من هذا..

يجب أن أعترف هنا كعادتي أنني لم أكن أثق بـ (مورو)، بل وكنت أهابه.. لكن (مونتجمري) كان رجلا أستطيع فهمه.. قلت بعد تفكير:

- إذن ابتعدا وارفعا أيديكما الأعلى..

هز (مورو) رأسه:

- لا نستطيع هذا.. إن هذا مهين للكرامة أمامهم..

- إذن ابتعدا حتى الأشجار..

استدار (مورو) و (مونتجمري) وفرقعا بسوطيهما ليبعدا الرجال - الوحوش، ففر هؤلاء بعيدا إلى الأشجار.

صعدت إلى الشاطئ فالتقطت المسدسين.. قال (مورو) دون عاطفة في صوته:

- هذا طيب.. لكنك أضعت أفضل جزء من يومى بخيالك الأحمق.

وفي احتقار آذاني أدار ظهره و (مونتجمري) لي، وابتعدا صامتين عني.. مشيت وراءهما بين صفوف الرجال - الوحوش الذين لم يبتعدوا بعد.

☆ ☆ ☆

14- د. (مورو) يفسر..

قال لي د. (مورو) بعدما فرغنا من الطعام والشراب:

الآن يا (بندرك) سأشرح لك.. يجب أن أعترف بأنك أكثر ضيوفنا دكتاتورية ها هنا، ولسوف يكون هذا آخر شيء أفعله لأجاملك.. وحين تهدد بالانتحار في المرة القادمة لن أفعل شيئا، بل لعل هذا سيرضيني نوعا ما..

وجلس في مقعده وبين أنامله البارعة الدقيقة سيجار، ونظر خارج النافذة ليرمق النجوم.. كانت المسدسات في متناول يدي طيلة الوقت.

قال (مورو):

- أنت قد رأيت المخلوق الذي شرحناه حيا في الغرفة الداخلية.. هل أنت مقتنع الآن أنه (البوما)؟

- إنها (البوما).. ما زالت حية لكنها ممزقة كما لم أر لحما حيا قط..

- دعك من مخاوف الشباب، فقد كان (مونتجمري) مثلك يوما ما.. والآن اصمت ريثما ألقي محاضرتي على مسمعك..

وبدأ يتحدث في لهجة رجل شديد الملل، سرعان ما بدأ يتحمس شيئا فشيئا.

ومن حين لآخر كنت أجد لمسة سخرية في صوته:

- إن الرجال الذين رأيتهم لم يكونوا رجالا.. لم يكونوا رجالا قط.. هم مجرد حيوانات تمثل انتصار علم الجراحة.. إنني مندهش لأن ما قمت به هنا لم يمارسه أحد من قبل.. أنت تعرف أن الحَوَل يمكن إحداثه أو علاجه بالجراحة.. كذا البتر.. وكذا تغيير الأنسجة المخية..

- لكن مخلوقاتك القبيحة هذه..
هز يده ليسكتني وأردف:
- صبرا فأنا لم أبدأ بعد.. كانت هذه نماذج طفيفة للتغيير، لكن الجراحة يمكنها صنع ما هو أفضل.. هناك بناء كما أن هناك هدما.. في جراحة التجميل يشرحون ثنية من جلد الجبين ويثبتونها على الأنف المشوه، إلى أن تكتسب هذه إمدادها الدموى من الأنف، عندها يقطعون اتصالها بالجبين.. هذا نموذج لزرع أنسجة من حيوان لنفسه.. وبالمثل يمكن زرع أنسجة من حيوان لحيوان آخر.. لقد نجح (هنتر) في أن يزرع ساقا في عنق الثور.
- كهذه الوحوش على الجزيرة إذن؟
- نعم.. هذه الوحوش التي رأيتها هنا هي حيوانات تم تغيير شكلها.. إن كل شيء يكمن في علم التشريح التطبيقي.. لكن ما من أحد امتلك الجرأة كى يمارسه.. وأنا لا أغير فقط شكل الحيوان الخارجي بل أغير كيمياءه الداخلية وفسيولوجيته.. تذكر أطباء العصور الوسطى الذين كانوا يغيرون أشكال البشر ليكونوا متسولين أو غرائب للسيرك، وما زال جزء من فنهم باقيا يمارسه الحواة والأطباء الدجالون.
لقد حكى (فكتور هيجو) عن هذا في روايته (الرجل الضاحك).
أعتقد أنك تفهمني الآن.. إننى ارتدت مجالا ارتاده منذ زمن مربو الخيول والكلاب الذين يبتكرون سلالات جديدة، وكنت أنا أول من يرتاده مسلحا بالجراحة الحديثة المعقمة..
- ولكن.. تلك الحيوانات تتحدث!
- قلت لك إنني لا أكتفي بتغيير الشكل.. إن التعليم الأخلاقي هو ببساطة عملية تبديل الغريزة:

تبديل غريزة العدوانية إلى التضحية بالنفس، وتبديل الكبت إلى الحماس المتحفظ..

بدا لي في هذه التجربة بعض الشر.. وقد اعترف لي بهذا:

- كان بوسعي أن أحول الخراف إلى (لاما) والعكس.. لكن هناك في المظهر الإنساني ما يغري العلم بالتجربة.. على أنني في مرة أو مرتين قد جربت أنماطا غير بشرية و...

وصمت برهة ثم قال:

- تلك الأعوام! لكم تنصرم سريعا! اليوم أضعت يوما كاملا أحاول إنقاذك، والآن أضيع ساعة كاملة أبرر فيها نفسي لك!

لكني لا أفهم بعد مبررك لكل هذا الألم الذي تسببه للحيوانات.

- إن موضوع الألم هو ما يفرق بيننا.. فبما أن الألم المرئي أو المسموع يصيبك بالغثيان، وبما أن آلامك تقودك وتغلف أفكارك عن الخطيئة؛ ستظل حيوانا لا يفكر في شيء يزيد غموضا عما يفكر فيه الحيوان..

هززت كتفي معبرا عن رأيي في هذه السفسطة.. فقال:

- إن عقلا مفتوحا للعلم يجب أن يجد الألم شيئا هينا.. فقط في كوكبنا يمكن أن يوجد شيء يدعى الألم...

وكان يتكلم وهو يمد يده إلى مدية صغيرة، سددها إلى فخذه ثم غرسها..

ولم يظهر أية علامة على التأثر..

وقال:

- أنا لم أسمع قط عن شيء عديم النفع لم يستأصله التطور عاجلا أم آجلا.. والألم قد صار شيئا لا حاجة للمرء فيه.. إنني رجل متدين يا (بندرك) كما ينبغي لكل رجل عاقل أن يكون.. فقط أنا أرى الدين بزاوية أوسع منك.. لقد بحثت كثيرا في

قوانين الوجود، بينما كنت أنت تجمع الفراشات.. إن الألم ليس سوى علامة على حيوانيتنا، هذه هي الطريقة العلمية الوحيدة التي أعرفها: سألت سؤالا ثم بحثت عن إجابة.. والآن وجدت لدي سؤالا طازجا.. هل هذا ممكن؟

إن ما تراه أمامك ليسوا حيوانات بل مشاكل علمية..

كان هذا منذ أحد عشر عاما حين جئت لهذه الجزيرة مع (مونتجمري) وستة من (الكاتكاس) [4].. أذكر الجزيرة الصامتة والبحر الخاوى كما لو كان هذا أمس.. بنينا الحصن وعاش (الكاتكاس) في أكواخ منفصلة.

كانت أول تجاربي على خروف، صنعت منه كتلة من البشاعة والألم.. وحين تفحصته لم أرض عنه.

وكان له ذات ذكاء الخراف، وكان يرتجف منى هلعا كلما رآني حتى إنني قررت إنهاء عذابه..

بعد هذا مارست الجراحة على غوريلا كانت لدي.. أجريت التحويل بدقة بالغة وقهرت صعوبة تلو صعوبة.. كان (مونتجمري) يرتجف هلعا مثلك الآن وهو يسمع صراخ الشيء..

وفي النهاية ثار (الكاتكاس) علينا ورحلوا ومعهم اليخت.

بعد ستة أشهر علمت المخلوق مبادئ الأبجدية والعد، لكنه كان غبيا برغم أنني قابلت أحمق منه..

في النهاية التأمت جروحه، واستطعت أن أقدمه إلى (الكاتكاس) العائدين باعتباره لاجئا ذا شأن.. قبلوه بصعوبة، لكنهم بدءوا يعتادونه، وسرعان ما تعلم منهم الكثير، وابتنى كوخا أفضل بكثير من أكواخهم.

لقد مات أكثر (الكاتكاس) الآن.. وقد استبدلتهم بهذه المخلوقات.. فلم يعد واحد منهم ليحكى للعالم ما حدث.

- كيف ماتوا؟
- الحق أنني صنعت كائنا ما.. شيئا مروعا مليئا بالتجاعيد، يزحف كالأفاعي على الأرض، وقد فر بطريقة ما.. لقد فتك بكل رجال (الكاتكاس) وطاردته و (مونتجمري) حتى شمال الجزيرة حيث أطلقنا عليه الرصاص.
وصمت برهة ثم أضاف:
- وهأنذا مستمر في تجاربي منذ عشرين عاما، لكني دائما أجد ما يجعلني غير راض، ويتحداني ويدفعني نحو المجهول.. دائما أظل بعيدا عن ذلك الذي أحلم به.. هناك في عقل هذه الوحوش مخزن متوار للشهوات ينتظر الانفجار في أية لحظة.. وثمة شيء ما هو الذي أثار رعبك منهم حين رأيتهم في البداية.
هذا هو ما أحاول أن أقهره في كل مرة أبدا فيها تجاربي على حيوان جديد.. هذه الوحوش سريعة التقلب، وما إن تغفل عيناي عنهم حتى يصحو الوحش داخلهم.. إنهم يخافون هذا المنزل ويخافوننى، لهذا أستغل هذه النقطة جيدا.. لست مهتما بهم البتة على عكس (مونتجمري) الذي يميل لبعضهم.
يا للوحوش البائسة! إنهم خلقوا لأنفسهم شيئا يدعى (القانون) يغنونه فيما بينهم.. لكن الغضب والشهوات ستعيش وتنتصر في النهاية.
تأمل هذه (البوما).. لقد أجريت عملا طيبا على جسدها ومخها، وأرى أنها ستكون بداية موفقة لمرحلة جديدة..
والآن ما رأيك؟ هل مازلت تخافني؟
إجابة على هذا السؤال ناولته المسدس، وقلت:
- أبقه معك.
وتثاءبت، فقال وهو يبتسم:
- كان يومك عصيبا.. لهذا أنصحك بالنوم السريع..

ونظر لي مفكرا لحظة ثم غادر المكان.

جلست وحدي أغالب الخمول عاجزا عن التفكير في شيء، وبجهد بالغ أطفأت الضوء وغبت في سبات عميق.

☆ ☆ ☆

15- عن الرجال - الوحوش..

صحوت مبكرا وكلمات (مورو) أمام عينى واضحة جلية..

طرق أحدهم الباب وسمعت الصوت الغليظ لتابع (مونتجمري) - واسمه (ملينج) - فسمحت له بالدخول، وأنا أمسك بأحد المسدسات في يدي.. دخل الحجرة، وهو يحمل صحفة عليها خضر مسلوق وأرنب سيئ الطهي.. وتبعه (مونتجمري) الذي ابتسم لي ابتسامة جانبية..

تحدثت مع (مونتجمري) عن الوحوش الموجودة هنا لأتبين ما لم أفهمه بعد، خاصة كيفية منعهم من الفتك بالرجلين أو تمزيق بعضهم البعض.. شرح لي أن سلامة (مورو) هي نتيجة وهن عقل هذه الوحوش، فبرغم ذكائهم المتزايد إلا أنهم يحملون أفكارا ثابتة عن (مورو).. إنهم منومون مغناطيسيا حقيقة.. ولقد غرس الأخير تلك الأفكار في عقولهم بما يقهر أية محاولة للتشكك أو شق عصا الطاعة..

الخطر الوحيد كان أن تتذوق تلكم الوحوش طعم الدم. فلكم من مشاكل يمكن لهذا المذاق أن يسببها.

وقال لي (مونتجمري) إن القانون - خاصة مع آكلات اللحوم - يضعف تأثيره ليلا، عندها يجرؤ الوحوش على ارتكاب أعمال ما كانوا ليحلموا بها نهارا.. إنهم يخالفون القانون فقط في الظلام، ولهذا طاردني الرجل - الفهد ليلة أمس.. أما في الصباح فيسود جو من الاحترام والاستسلام.

عرفت من (مونتجمري) كذلك أن هناك ستين من هذه الكائنات على ظهر الجزيرة، ولا نعد ها هنا الوحوش الصغيرة

غير ذات المظهر البشري التي تتوارى بين الأشجار، وعددها حوالي مائة وعشرين إلا أن أكثرها مات.

قال لي (مونتجمري) إن الوحوش تتكاثر لكن ذريتها غالبا ما تفنى، وتلك الذرية لا تشبه الآباء في صفاتها المكتسبة.

إن عيني غير مدربة على التفاصيل، ولا أستطيع أن أرسم؛ لكن أهم ما يلفت النظر في هذه الوحوش هو عدم التناسق بين قصر أرجلهم وطول أجسادهم.

يثير الانتباه كذلك ذلك المنحنى غير الإنساني للعمود الفقري..

ذلك الانحناء للأمام الذي يجعل الإنسان مميزا وجميلا..

كانوا مشعرين بشدة، ولهم فكوك بارزة وأنوف ضخمة.. وعيونهم دائما لها لون غريب أو موضع أغرب..

لقد حافظ كل منهم على خواص جنسه الأصلي برغم كل شيء، ولم تنجح السمة الإنسانية في إخفاء الدب أو الخنزير.

كان أكثرهم إثارة للرهبة هو الرجل: الفهد.. بعد ذلك تأتي المخلوقات الشبيهة بالثيران التي رأيتها في أثناء إفراغ محتوي اللنش.. ثم ذو الشعر الفضي الناطق بالقانون.. بعد هذا يجيء مخلوق يشبه (الساتير) هو مزيج من قرد وماعز معا [5].. ثمة رجال خنازير، وكائن مزيج من وحيد القرن والثور.

ثمة مخلوقات ذئبية ورجل من طراز (سانت برنارد)، وامرأة تشبه القط كريهة ولها رائحة شيطانية، هي مزيج من الثعلب والدب.. وقد كرهتها منذ اللحظة الأولى.

كنت أهابهم كثيرا في البداية ثم بدأت أعتادهم مثل (مونتجمري).. وكان هذا قد رأى حثالة البشر حتى صار يجد

راحته أكثر مع الوحوش، واعتاد أن يذهب لإفريقيا في كل عام ليبتاع الحيوانات من مراسل (مورو) هناك.

☆ ☆ ☆

أقول إنني اعتدت هؤلاء القوم، وتدريجيا صرت أحاول تذكر كيفية اختلاف كل منهم عن البشر.

أحيانا أنظر لوجه أحدهم وأتخيل أنني رأيته في مكان ما في (انجلترا)..

لكني أحيانا كنت أصطدم بالحقيقة السافرة الصادمة.. أمرّ بأحدهم يجلس على باب عرينه، فإذا به يفتح فاه ويتثاءب كاشفا عن أسنان كالخناجر ومخالب في ذراعيه كالمدي.. أو ألقى امرأة منهم في طريق ضيق فأجد - لشدة ذعري - أن حدقتي عينيها مشقوقتان طوليا.

☆ ☆ ☆

16- كيف تذوق القوم الدم..

إن قلة مهارتى ككاتب تخونني، وإنني لأبتعد عن خيط قصتي.
لقد اقتادنى (مونتجمري) بعد الإفطار لأرى فتحة البركان، التي يصّاعد منها البخار والتي تراها عند الدنو من الجزيرة..
سمعنا أرنبا يصرخ، فتصلبنا.. لكننا لم نر شيئا، لذا واصلنا طريقنا بعد هذا ونسينا الحادثة.
بعد هذا واصلنا المشي فإذا بنا نجد شجرة قد تمزق لحاؤها بفعل مخالب طويلة.. تأملها (مونتجمري) باهتمام وغمغم:
- ألا نغرس مخالبنا في لحاء الأشجار.. هذا هو القانون.. لا أعتقد أنهم يهتمون به كما يدعون!
قابلنا الـ (ساتير) منهمكا في التهام بعض الثمار.. كان وجهه كوجه الأغنام، وصوته كثغاء الماعز، وقدماه كقدمي الشيطان.. فلما رآنا قال:
التحية للأخر ذي السوط.



قابلنا الـ (ساتير) منهمكًا فى التهام بعض الثمار .. كان وجهه كوجه الأغنام ، وصوته كثغاء الماعز ، وقدماه كقدمى الشيطان ..

كان يتحدث عن (مونتجمري).. فقال له هذا الأخير مشيرا لي:

- ثمة ثالث ذو سوط كذلك، ويجب أن تفكر فيه..

نظر لى الـ (ساتير) والرجل - القرد في فضول.. وقالا:
- الثالث ذو السوط الذي يمشي باكيا في البحر.. إن له وجها طويلا شاحبا..
أضاف (مونتجمري):
وكذلك له سوط طويل رفيع..
قال الـ (ساتير):
- أمس نزف وبكى.. أنت لا تنزف ولا تبكي.. السيكلا ينزف ولا يبكي.
صاح (مونتجمري):
- أيها الشحاذ الأحمق! ستنزف وتبكي إن لم تحترس!
وتأبط ذراعي ليبعدني عنهما، وسمعت الرجل - القرد يقول:
- أمس سألني عن شيء يأكله.. لم يكن يعرف..
وراح يتهامس مع الد (ستير) بصددى..

☆ ☆ ☆

توقف (مونتجمري) وتأمل جسد الأرنب الصغير الذي تمزق إلى أشلاء، وقد قُضمت عظمة ظهره الفقرية، فصاح (مونتجمري):
- رباه!
وانحنى إلى الأمام، والتقط بعض الفقرات المهشمة ليفحصها بعناية، فقلت له:
- يبدو أن بعض وحوشكم تذكرت الماضي.. إنني لا أحب هذا.. ولقد رأيت مشهدا مماثلا في اليوم الأول الذي جئت فيه هنا..
بدت عليه الدهشة، وتساءل:

- أحقا؟ ماذا رأيت بالضبط؟
- أرنبا انتزع رأسه خلف الحصن، في أول يوم جئت فيه.. بل إنني أكاد أعرف من فعلها.. لقد رأيت أحد وحوشكم يشرب من النهر في ذلك اليوم وبعد الاغتيال مباشرة..
- هذا هو أسلوب اللواحم.. بعد الافتراس تشرب.. إنه مذاق الدم كما تعرف.. هل يمكنك تعرف هذا الوحش ثانية؟
- يمكنني ذلك بالتأكيد.
قال في شرود وهو يستوثق من حشو مسدسه:
- لقد حرصنا على ألا تلتهم هذه الوحوش أي شيء يجري على الأرض، وها هو ذا أحدهم قد ذاق الدم.. لقد قارفت اليوم خطأ جسيما إذ جعلت تابعي يطهو لك أرنبا، والغريب أنني لمحته يلعق يده بعد الطهو، ولم أعلق على هذا أهمية كبرى.
وأرى أنه لابد من إبلاغ (مورو)..

☆ ☆ ☆

اهتم (مورو) بالموضوع، وبدت عليه علامات الخطورة أكثر من (مونتجمري) بكثير.. ويجب أن أقول هنا إن جدّيتهما أثارت قلقي.
قال لـ (مونتجمري):
- ليتك قاومت شهيتك لأكل اللحم.. وبذلك كنت تقينا هذه المشاكل.
- لقد كنت أحمق مخيفا، لكن ما كان قد كان.. وعلى كل حال أنت سمحت لي بجلب هذه الأرانب معى.
- إن هذا الموضوع يجب أن يسوى سريعا..

وعند الظهيرة اتجهت مع الرجلين والتابع إلى أكواخ الوحوش، وكان ثلاثتنا مسلحين و (مورو) يحمل على كتفه نفير ماشية كبيرا.

عبرنا الأخدود حيث يتصاعد البخار الساخن، وفي النهاية وصلنا لمساحة خالية تغطيها مادة صفراء كأنها الكبريت.

أطلق (مورو) صياح النفير فحطم الصمت الناعس للعصر، وكاد الصوت يثقب مسامعنا.. يبدو أن رئتيه قويتان حقا.

وبعد قليل سمعنا صوت تهشم الغصون، ثم بدأت المخلوقات تظهر من الجهات الست، فلم أستطع أن أمنع قشعريرة سرت في ظهري.

احتشدوا حول (مورو)، وراحوا يرددون لا شعوريا النصف الأخير من القانون:

- ملكه.. هي اليد التي تجرح.

- ملكه.. هي اليد التي تداوى..

صاروا الآن على بعد ثلاثين ياردة، فجثوا على ركبهم، وراحوا يهيلون على رءوسهم الغبار الأصفر.. تخيل المشهد لو استطعت.. إنه مشهد لا تراه إلا في أسوأ كوابيسك.

عدّ (مورو) الرءوس، فوجد أن ثلاثة وحوش ناقصة.. أعاد نفخ النفير فجاء الرجل - الفهد والرجل – القرد.

سألهم (مورو):

- أين الناطق بالقانون؟

حنى الوحش رمادي الشعر رأسه، وتمرغ في التراب، فأمره (مورو) بأن يتلفظ بالكلمات.. راح هذا يردد المقاطع حتى وصل إلى:

- ألا تأكل السمك أو الطير.. هذا هو القانون.

هنا صاح (مورو) رافعا ذراعه:

- قفوا!

وهنا ساد صمت رهيب.. واضح أنهم يعرفون ويتوقعون ما سيحدث.

قال (مورو) بصوت حازم

- هناك من خرق القانون.. من هو؟

ونظر حوله في حزم، فتحاشوا نظراته.. وغمغم أحدهم.

- لا أحد يهرب.. لا أحد.

نظر (مورو) لعيني الرجل - الفهد، وبدا كأنما ينتزع روح المخلوق ذاتها.

وقال ضاغطا على كلماته:

- من يخرق القانون يعد إلى بيت الآلام..

كان الرجل - الفهد على ركبتيه الآن، وعيناه تلتمعان.. أنا واثق من أن جنون الخوف هو سبب ما حدث بعدها.. في اللحظة التالية وثب الرجل – الفهد على (مورو)، فتراجع هذا للوراء ليتفادى الهجمة، وتعالى من ورائي صوت عواء وصراخ.. حسبت أنها ثورة عامة.. ورأيت عيني الخنزير.. الضبع تلتمعان في وحشية، وعرفت أنه يوشك على مهاجمتي.. ثم دوى صوت طلقة من مسدس (مورو).. وتفرق المحتشدون.

بعد لحظة كنت أركض وسط الزحام، أبحث عن الرجل - الفهد الذي كان يتقدمنا جميعا، بينما ألسنة الوحوش تتدلى لهاثا.. الخنزير - الضبع يصرخ حماسا، والمرأة - الذئب تجرى في خطى واسعة.. (مورو) يلهث وشعره الأبيض يتطاير..

استمرت المطاردة نحو ربع ميل، وأخيرا وجدنا أنفسنا وسط الأشجار، وراحت الأغصان تضرب وجوهنا، والأشواك تجرحنا.

ضحك الخنزير - الضبع وقد أخذته نشوة الصيد:

- لا أحد يهرب.. لا أحد.

ورأينا الوحش يركض على أربع فوق الصخور، ويعوى من فوق كتفيه.. له وجه آدمى لكنه يتصرف كحيوان يتم صيده.

تحول المطاردون من عمود إلى خط رفيع.. والخنزير - الضبع يركض بجواري، وهو يكشر ويرفع خطمه، ولا يكف عن اختلاس النظر لي..

لم أكن أجرؤ على التخلي عن المطاردة، حتى لا يسبقني (مورو) و (مونتجمري) وأجد نفسي وحيدا مع هذه الصحبة المروعة.

في النهاية، استطعنا أن نحاصر الوحش المرهق، وقادنا (مورو) في خط غير منتظم نحو الضحية..

لقد سامحت البائس على كل ما سببه لى من ذعر.

أخيرا وجدناه مكورا على نفسه.. وفي هذا الوضع الحيواني وقد تشوه وجهه ذعرا، شعرت بحقيقة إنسانيته، وهذا كلام يبدو متناقضا، لكنني لا أجد تعبيرا أفضل.

إنهم سيعيدونه إلى منزل الآلام، حيث يلقي كل الأهوال من جديد، ودون تردد أخرجت مسدسى.. صوبته ما بين عينيه وأطلقت الرصاص، وفي اللحظة ذاتها وثب الضبع - الخنزير ملهوفا عليه، وغرس أسنانا جشعة في عنقه.

- لا تقتله يا (بندرك)!.. لا تقتله!

قالها (مورو) وهو يجري ما بين الأشجار نحوي، وبسوطه أبعد الوحوش المتحمسة التي أحاطت بالجسد الهامد.

وهتف:

- سحقا لك يا (بندرك)!

- لقد كان انفعالا لحظيا.. حقا لم أتعمد قتله..

وشعرت بالغثيان من فرط الانفعال، وابتعدت عن المشهد الدامي.. أسمع الرجال - الثيران يجرون الجثة نحو البحر.

كانت سماء المساء هي خلفية المشهد.
هنا أدركت عبثية ما يحدث على هذه الجزيرة.. بشكل ما أوقن أن الضبع - الخنزير متورط بشكل معين في افتراس الأرانب.. هنا صراع ما بين الغريزة والعقل في أبسط صوره.. يا للوحوش المسكينة! حقا إن (مورو) قاس إلى حد لا يمكن تصوره.. ولأية غاية؟
لقد كانت غرائز هذه الوحوش - قبل التحول - تناسب بيئتهم تماما، وكانوا سعداء لكونهم أحياء.. فجأة سقطوا في شراك الإنسانية وطاردهم خوف لا ينتهي من القانون الذي لا يستطيعون فهمه..
لو كان لـ (مورو) هدف محترم لتعاطفت معه ولو قليلا.. بل كنت سأفهم لو كان هدفه الوحيد هو الإيذاء.. لكن نظرياته الغامضة جعلته يسلب هذه الحيوانات حيوانيتها، لتعيش عاما كاملا في عذاب ثم تموت في ألم..
إن الشراسة الحيوانية كانت تحركهم، بينما القانون يبعدهم عن عراك قصير ينهي مشاكلهم..
لقد بدأ خوفي من الرجال - الوحوش يتلاشى ليحل مكانه خوفي من (مورو).. ووصلت بهذا الخوف إلى درجة المرض.

☆ ☆ ☆

17- الكارثة..

مرت ستة أسابيع قبل أن أنسى كل شعور سوى مقتى لهذه التجربة.

كل ما أردته هو ترك هذه الجزيرة، والعودة لصحبة البشر المريحة.. لم تزدد صداقتي مع (مونتجمري) أكثر، لأن معاشرته الطويلة للوحوش جعلته مشوها بالنسبة لي.

صرت أقضي على الشاطئ ساعات طويلة بانتظار شراع يحررني، لم يظهر قط.

وذات يوم حدثت كارثة مريعة غيّرت كثيرا مما أحاط بي.

أعتقد أنني صحوت يومها في السادسة، وخرجت لباب الحصن أستمتع بهواء الصباح.. مر بي (مورو) فحياني، وسمعته يفتح باب المعمل.

زئير (البوما) يتعالى وهي تبدأ يوما جديدا من العذاب.. قابلته بصراخ طويل كأنها امرأة مشاكسة.

فجأة حدث شيء لم أفهمه.. صوت شيء يسقط.. ثم رأيت وجها مفزعا لا يمت بصلة للبشر ولا الحيوان، يندفع نحوي..

مددت يدي لأتوقّى الضربة التي كسرت ذراعي، وأسقطتني على الأرض.. كان الوحش العظيم ملفوفا في أربطة بيضاء ملطخة بالأحمر، ووثب من فوقي مبتعدا.

حاولت أن أجلس، لكني لم أستطع الاستناد إلى ذراعي المهشمة، وظهر (مورو) والدم ينزف من جبينه، وفي يده مسدس.

لم ينظر لي بل اندفع بحثا عن (البوما) الهاربة..

لقد توارت بين الأشجار، بينما (مورو) يركض وراءها.. وأطلق رصاصة لم تصبها.

ظهر (مونتجمري) ومسدسه في يده.. صاح دون أن يلاحظ إصابتي:

- رباه! هذا الوحش حر.. لقد مزق السلسلة المربوطة إلى الجدار! ماذا بك؟

كنت جوار الباب حين...

دس سلاحه في جيبه، وتحسس ذراعي ثم غمغم:

- إنه مكسور.

وضمد ذراعي وعلقها إلى عنقي.. وأخبرني أنها ستشفى..

قال شاحب الوجه:

- لا أرى ولا أسمع شيئا عنه..

وتوقف لحظة، ثم أردف وهو ينظر عبر النافذة:

- سأحاول اللحاق به.. سأترك لك مسدسا آخر..

ووضع السلاح على المنضدة أمامي، وغادر المكان تاركا جوا من التوتر وراءه.. لم أطق البقاء حيث أنا، فغادرت الحصن إلى الخارج ورحت أرمق الليل البهيم والأشجار البعيدة.

أذرع المكان كالديدبان متسائلا عما يحدث.. ذراعي أقل ألما لكنها أكثر سخونة.. ومن بعيد سمعت طلقة رصاص.. صرخة.. ثم الصمت.

ركضت إلى الركن لأجد (مونتجمري) قرمزي الوجه، مبعثر الشعر، وعلى وجهه علامات الهلع الشديد، وخلفه كان تابعه (ملينج) وعلى شفتيه لطخ داكنة غريبة..

سألني (مونتجمري) لاهثا:

- هل عاد؟

- من؟ (مورو)؟ لا..

دخل إلى الحصن منهكا وغمغم:
- رباه! إنهم مجانين جميعا.. كلهم جنوا.. ماذا حدث؟
وزحف إلى الغرفة وجلس على مقعد، على حين افترش (ملينج) الأرض وراح يحملق كالكلب في لاشي.
بعد دقائق حكى لى (مونتجمري) ما حدث.. لقد خرج في إثر الفارّين، وكان اقتفاء أثر سهلا، فهو يرى بقع الدم التي خلفتها (البوما) وبقايا أربطتها المتعلقة بالأغصان.. بعد دقائق لحق به (ملينج) حاملا فأسا.. كان منهمكا في قطع الأغصان حين سمع الصراخ، ولم يكن قد سمع شيئا عن موضوع الـ (بوما)..
راح يقتفي الأثر مع مساعده.. وفجأة قابل الرجلين - الخنزيرين يرقصان وقد تلوثا بالدم.. توقفا وراحا ينظران له بوجهين شرسين ففرقع بسوطه ليبعدهما.. إذا بهما يثبان عليه.
كان هذا غريبا.. فما من وحش تجاسر من قبل على هذا، وأطلق الرصاص على رأس أحدهما، أما الآخر فوثب عليه (ملينج) وأنشب أسنانه في عنقه.
وحين انتهت المعركة كانا قد قضيا على الوحشين، لكن (مونتجمري) وجد عسرا شديدا في انتزاع (ملينج) بعيدا.
وفي طريقهما قابلا رجلا - وشقا يعرج بسبب جرح في ساقه.. لم ينتظر (مونتجمري) ليفهم أكثر، فقد كان الوحش ملوث الوجه بالدم.
وأطلق الرصاص بلا رحمة على الحيوان.
سألته:
- ما معنى كل هذا؟
هز رأسه ولم يقل شيئا.

☆ ☆ ☆

18- العثور على (مورو)..

قلت له (مونتجمري):

- لابد أن شيئا قد حدث لـ (مورو).. شيئا خطيرا وإلا لكان قد عاد قبل هذا، وواجبنا أن نعرف أية كارثة حدثت..

بعد تفكير وافقني (مونتجمري)، وتسلحنا نحن الثلاثة، وانطلقنا.. لم يكن (ملينج) مسلحا بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد سقط فأسه منه في أثناء صراعه مع الرجل - الخنزير، لكن أسنانه كانت سلاحه في أي قتال..

كان (مونتجمري) متعكر المزاج مكفهر الوجه.. بينما يدي اليسرى معلقة إلى عنقى والمسدس في يدي اليمني.

فجأة تصلب (ملينج) وراح يصغي، وسمعت بدوري صوت خطوات تدنو منا.. ثم صوتا عميقا يقول:

- هو ميت.

قال آخر:

- هو ليس ميتا.

رددت أصوات أخرى:

- قد رأينا.. قد رأينا.

صاح (مونتجمري):

- هالو.. هناك!

أمسكت بمسدسى وصحت به:

- تبا لك!

ساد الصمت إلا من صوت تهشم الأغصان، ثم أحاطت بنا نصف دستة من الوجوه.. ومن حلقه زأر (ملينج).. استطعت

سماع زئير الرجل - القرد، ورأيت الناطق بالقانون والشعر الرمادي يحف بخديه وحاجبيه الكثين.

عيناه الحمراوان تنظران لنا بفضول وسط الخضرة.. ولعدة دقائق ساد الصمت حتى قال (مونتجمري) وهو يغالب الفواق:

- من قال إنه ميت؟

نظر الرجل - القرد شاعرا بالذنب إلى الناطق بالقانون، وقال:

- هو ميت.. لقد رأوه..

لم يكن في هذا ما يثير الرعب.. إن هذه الوحوش مندهشة حائرة مثلنا بالضبط.. وسألهم (مونتجمري):

- وأين هو؟

- وراءنا!

وتساءل الرجل - القرد:

- هل هناك قانون الآن؟ هل هو مات فعلا؟ هل هناك قانون أيها الأخر ذو السوط؟

قال (مونتجمري) وهو يدير عينين غبيتين نحوي:

- إنه ميت.. هذا واضح..

هنا بدأت أفهم مجرى الأمور، لذا خطوت أمام (مونتجمري) ورفعت صوتي:

- يا أطفال القانون! إنه ليس ميتا! لقد غير جسده.. أنتم لن تروه لفترة لكنه هناك يراقبكم.

هابوا القانون وكونوا حذرين!

ونظرت لهم بحدة فتراجعوا.. قال الرجل – القرد وهو يخفض عينية ويتوارى خلف الأشجار:

- هو عظيم.. هو جيد..

عدت أسألهم:

- هل من شيء آخر؟

- الشيء الذي ينزف ويجرى صارخا.. هو ميت..
هنا غمغم (مونتجمري):
- عظيم!
وكان لا يفهم بعد سر إنكارى لموت (مورو).. سألت الرجال:
- أروني أين جسده الذي تخلص منه.. لقد خالف بعضكم القانون ولهذا سوف يموتون.
أشار لي الناطق بالقانون إلى اتجاه ما وقال:
- من هذا الطريق أيها الآخر الذي يمشي على البحر..
وشققنا طريقنا وسط الأغصان والنباتات الزاحفة، وفجأة برز لنا وحش يقطر منه الدم يبغي الوثب علينا.. أطلق (مونتجمري) الرصاص فأخطأ هدفه، عندها استدار طالبا الفرار.. وازداد هياج الوحش.
أطلقت رصاصة على وجهه الدميم، فرأيت ملامحه تتلاشى في اللهب لكنه واصل الاندفاع نحو (مونتجمري).. اعتلاه في هلع الموت، وأسقطه أرضا وسقط فوقه..
وكذا وجدت نفسي أرمق الوحش الميت، و (مونتجمري) المنهك على الأرض يحاول النهوض بمشقة.
صحت بالناطق بالقانون وأنا أشير إلى الوحش الميت:
- أترون؟ مازال القانون حيا.. هذا ما أصابه من جراء مخالفة القانون.. (إنه يرسل النار التي تقتل)..
وواصلنا المسير.
في النهاية وجدنا الجسد المشوه الممزق للبوما.. وعلى بعد عشرين ياردة كان جسد (مورو) راقدا على وجهه وسط الخوص، وقد انتزع أحد ذراعيه من مكانه وشعره الأبيض معجونا بالدم.. وكان وجهه ممزقا بمخالب (البوما)..



فى النهاية وجدنا الجسد المشوه الممزق للبوما .. وعلى بعد عشرين ياردة كان جسد (مورو) راقدًا على وجهه وسط الخوص ..

لكننا لم نجد مسدسه برغم البحث المدقق..

وبمعونة الرجال - الوحوش حملنا (مورو) إلى الحصن.. كان الليل قد أوغل، ومن بعيد سمعنا الوحوش من بعيد تزأر وتهدر..

لكنها لم تهاجمنا.

☆ ☆ ☆

وفي الحصن أرقدنا جسد (مورو) على الخشب في الفناء، ثم اتجهت و (مونتجمري) إلى المعمل حيث وضعنا نهاية لحياة كل ما وجدناه حيا هناك.

☆ ☆ ☆

19- إجازة مصرف (مونتجمري)..

حين تم هذا، واغتسلنا وأكلنا، اتجهت و (مونتجمري) إلى الغرفة كى نناقش وضعنا الحالي..

كان (مونتجمري) واقعا بشدة تحت تأثير شخصية (مورو) ولم يكن يعتبره قابلا للموت.. وكانت مشكلته الآن هي زوال الأمور التي صارت طبيعية في الأعوام العشرة السابقة التي أمضاها على الجزيرة..

كان شاردا يجيب عن أسئلتي في خرق، ويقول:

- هذا العالم الأحمق.. لم تكن لي حياة قط، وإنني لأتساءل متى تبدأ؟ ستة عشر عاما يحركني أساتذتي كما يريدون.. في (لندن) كنت أكافح كى أشق طريقي في الطب.. طعام سيئ.. مسكن قذر.. ثياب متسخة.. ثم جئت إلى هذه الجزيرة لأمضي عشرة أعوام بلا جدوى.. هل أنا مجرد فقاعة صابون ينفخها طفل؟

قلت له دون أن أعلق على خواطره المضطربة:

- ما يجب التفكير فيه هو كيفية الخروج من هذه الجزيرة؟

- وما جدوى الخروج؟ وأين أذهب أنا المنبوذ؟

- ستكون هذه خطتنا غدا.

كنت قد أزمعت أن نحرق جسد (مورو) غدا.. لكن ماذا عن الوحوش؟

قال لي:

- لا يمكننا قتلهم جميعا.. لكنهم سيرتدون إلى طبيعتهم.. أعرف أنهم سيرتدون إلى طبيعتهم..

ثم صاح في مرح، وهو يتجه إلى الباب مترنحا:

- إنني مرغم على الانتحار غدا.. أما اليوم فهى إجازة المصرف.

واستدار خارجا إلى ضوء القمر، ورأيت ثلاث مخلوقات تلحق به، ورأيت (ملينج) يلحق به بدوره، ليلتحم الكل في بقعة سوداء واحدة.

اتجهوا إلى الغرب، ولم يكن (مونتجمري) في حالة طبيعية.. كان يحمل زجاجة في يده يقدمها للمخلوقات، وصاح:

- غنوا.. غنوا معي! سحقا لـ (بندرك) العجوز!

رأيت البقع السوداء تتحول لخمسة أشكال متباعدة.. وسمعتهم يرددون وراءه ما يقول.

أغلقت الباب بإحكام، واتجهت إلى حيث كان (مورو) راقدا جوار آخر ضحاياه:

الكلاب واللاما، ووجهة هادئ تماما بعد الموت.

جلست جواره ورحت أرتب خططى..

في الصباح سأضع بعض المؤن في قارب نجاة وبعد ما أشعل النار في المحرقة أعود إلى البحر ثانية.

لن أستطيع أن أقدم عونا ما لـ (مونتجمري) فهو ينتمي لعالم هذه الوحوش أكثر مما ينتمي لعالم البشر.

لابد أنني أمضيت ساعة أو أكثر في التفكير، حتى سمعت صراخا قادما من الخارج من عدة حناجر منتشية.. صوت ضربات قوية وارتطام بالخشب..

لكنني لم أهتم بها.. كنت أتفحص المؤن على ضوء مصباح الكيروسين.

كان هناك (جركن) وقود كبير.. وعلب بسكويت عديدة.

ثم إنني خرجت إلى (مورو) الذي صارت جروحه الآن سوداء كالليل في الظلام، وأذكر أنني رأيت وهجا أحمر يلتمع من مكان

ما، لكني ظننته خداعا بصريا فلم أهتم به كثيرا.
بدأ ضوء النهار يزحف.
وفجأة سمعت صوتا كالشجار، وصرخة شرسة، ثم ضوضاء أثارت اهتمامي مما جعلني أرهف السمع أكثر.. وهنا - كسكين تقطع حيرتي - سمعت رصاصة مسدس.
ركضت إلى الخارج، وعند الشاطئ كانت هناك نار تشتعل في ضوء الفجر، جوارها أشكال تصطرع..
دنوت أكثر فرأيت (مونتجمري) ساقطا على الأرض يصرخ..
أطلقت رصاصة في الهواء.. وسمعت صراخا، ومن يقول:
- السيد!
وتحولت الكتلة السوداء إلى أجزاء منفصلة، ثم فرت الوحوش عبر الشاطئ.. استدرت للأكوام السوداء
على الأرض.. (مونتجمري) والوحش الرمادي الناطق بالقانون.. كان ميتا لكنه ما زال ينشب مخالبه في عنق (مونتجمري).. وجوارهما (ملينج) راقدا على ظهره وحلقه مفتوح ممزق.. كان ميتا.
تأملت (مونتجمري) مسود الوجه لا يكاد يتنفس، فرششت على وجهه من ماء البحر، وأرحته على صدر معطفي.
لعنت جهلي بالطب.. وتأملت المكان.. كان هناك خشب محترق في كل مكان، وتساءلت عن المكان الذي جاء منه (مونتجمري) بالحطب.
بدأت السماء الشرقية تصطبغ بلون أحمر.
وهنا سمعت فحيحا خلفي فاستدرت مسرعا.. رأيت دخانا أسود يتصاعد من الحصن، ثم نيرانا حمراء تلاها اشتعال السقف.. وخرج لسان من لهب من نافذة حجرتي..

على الفور عرفت ما حدث.. تذكرت أنني أوقعت المصباح الكيروسيني على الأرض حين غادرت الحصن مسرعا، وأثار ذعري أنني لن أستطيع أخذ شيئا معي من الحصن.

نظرت إلى قاربي النجاة اللذين أزمعت الهرب بأحدهما، فإذا بهما قد اختفيا! رأيت فأسين قرب الرمال مختلطين بخشب محطم.. لقد أحرق (مونتجمري) القاربين؛ كي ينتقم لنفسه، ويمنع كلينا من العودة للبشرية!

اعترتني موجة غضب حتى أوشكت أن أحطم رأسه الأحمق.

فتح عينيه ببطء ووهن ونظر للفجر، ثم همس:

- أنا آسف.. إنها نهاية عالمي السخيف.. يا لها من فوضى!

ثم ازداد ثقل جسده.. لقد مات.

فقط هنا بردت النار في صدري، وتركت رأسه يستريح على الرمال، ونظرت للحصن الذي يحترق فى صخب.. الدخان الأسود يتصاعد الآن فوق الأشجار وفوق أكواخ القوم.

جاء ثلاثة رجال - وحوش لي.. كانوا ينظرون لي بعيون غير ودود، ويتقدمون في تردد إلى حيث جلست.

☆ ☆ ☆

20- وحدي مع الوحوش..

في جيبي كان المسدس وقد نقصت طلقتان من خزانته، ولى ذراع عاجزة.

نظرت للوحوش بحدة، ثم تقدمت بضع خطوات وتناولت السوط الواقع على الأرض وفرقعت به:

- التحية! انحنوا!

ترددوا في الطاعة.. ثم ركع أحدهم ببطء.. وتلاه الآخران..

قلت وأنا أضع قدمي على صدر الناطق بالقانون:

- لقد خالفوا القانون لذا قتلتهم جميعا.. حتى الناطق بالقانون، وحتى الآخر ذى السوط.. عظيم هو القانون!

غمغم أحدهم وهو يتأمل الجثتين:

- لا أحد يهرب..

التقطت أحد الفأسين ولوحت به، ثم انحنيت على جسد (مونتجمري) وأخذت مسدسه الذي بقيت فيه طلقتان.. تحسست جسده فوجدت في جيبه ست طلقات.. دسستها في جيبي بدورها.

- خذوه وارموه في البحر!

كانوا مازالوا يخشون (مونتجمري)؛ لكنهم يخشون السوط أكثر.. في النهاية رفعوه واتجهوا إلى الشاطئ.. وسرعان ما غاب جسد (مونتجمري)، وشعرت بشيء يضيق حول صدرى.

- والآن تخلصوا من باقي الأجساد.

سمعت خطوات خلفي، فرأيت الضبع – الخنزير يدنو.. كان رأسه منحنيا وعيناه لامعتين ثابتتين على وجهي

تناولت المسدس من جيبي لأنني نويت أن أقتل هذا الوحش عند أية بادرة مريبة منه.. كنت أخشاه أكثر مما يخشانى.. إن استمراره في الحياة تهديد مستمر لحياتي.

صحت به:

- انحن! أدّ التحية!

التمعت أسنانه، وهتف:

- من أنت كى...؟

هنا أطلقت الرصاص.. صرخ وراح يركض مبتعدا وعرفت أنني لم أصبه.. أطلقت رصاصتين أخريين لكنه كان يجري متلويا على الجانبين فلم أظفر به، وسرعان ما توارى وراء الدخان.

صرفت الرجال الثلاثة واتجهت للشاطئ راغبا في أن أبقى وحدي.

إن الشيء المخيف هنا هو أنه ما من مكان آمن على الجزيرة، أستريح أو أنام فيه.. لقد استرددت قواى، لكني ما زلت واهنا والمعاناة تجعلني أنهار سريعا.. فكيف سأبقى آمنا إلى أن تجيء النجدة؟

وتذكرت كلمات (مونتجمري) اليائسة: إنهم سيرتدون إلى طبيعتهم.. بالتأكيد سيرتدون....

وكلمات (مورو): ما إن تغفل عيناي عنهم حتى يصحو الوحش داخلهم.. وفكرت في الخنزير - الضبع.. كنت أعرف أن حياتي رهينة بموته.

لقد عرف هؤلاء القوم الآن أن أصحاب السياط يموتون كما يموتون هم.

ترى ماذا يخططون لي الآن؟ وماذا يقوله لهم الخنزير - الضبع؟

☆ ☆ ☆

شعرت بأحد الرجال - الوحوش يدنو مني، وكنت متوترا لذا سحبت مسدسى مهددا.. تراجع للوراء ككلب تم زجره، وكان فيه الكثير من الكلاب حقا.

وعند الظهيرة توجهت إلى عرينهم وقد أرهقني الجوع والظمأ.. نظروا لى وهم جلوس ولم يكلف أحدهم نفسه بالنهوض.. كنت متعبا عاجزا عن الاعتراض وتركت الأمر يمر.. قلت لهم كأنني أعتذر:

- أريد طعاما..

قال الرجل - الثور دون اهتمام:

- هناك طعام في الأكواخ..

مررت وسطهم واتجهت إلى أحد الأكواخ المحفورة في الحمم.. كان به بعض الفواكه شبه الفاسدة.

التهمتها في جشع، ثم غطيت فتحة الكوخ بالغصون وأدرت وجهي لها وقبضت على المسدس، عازما على النوم..

إن إرهاق الثلاثين ساعة الماضية يطالبنى بحقوقه.. على الأقل سوف يحدث المتسلل بعض الضوضاء، وهو يزيح الغصون، مما يعفيني من المفاجأة.

☆ ☆ ☆

21- ارتداد الرجال – الوحوش..

حين نهضت كان الظلام.. وكان ذراعي يؤلمني وسمعت أصواتهم الخشنة تتحدث بالخارج.. كانت الأغصان على فتحة الكوخ قد انتزعت، لكن المسدس ظل في يدي، وفي هلع عرفت معنى هذا.

سمعت من يتنفس في الظلام.. ثم شعرت بشيء ناعم دافئ رطب يمر فوق ذراعى، فتقلصت يدي.

في همس خشن تساءلت:

- من هذا؟

- هذا أنا يا سيدي..

- وماذا تريد؟

- يقولون إنه ما من سيد هناك، لكني أعرف.. أنا خادمك..

وعرفت أنه الرجل - الكلب، وميزت الإخلاص في صوته.. كان بوسعه أن يمزقني وأنا نائم.. سألته عن الآخرين فقال:

- إنهم مجانين.. إنهم حمقى.. يقولون إن السيد مات والآخر الذي يملك السوط مات، والآخر الذي يمشي في البحر هو مثلنا.. لا سيد.. لا سياط.. لا بيت آلام.. نحن نحب القانون.. لكن لا سيد ولا سياط.. كذا يقولون.

ربت في الظلام على رأسه، وقلت:

- هذا حسن..

قال:

- الآن تمزقهم جميعا

. نعم.. وبعد أيام كل واحد - عدا من تختاره أنت – سيُقتل.

- من يرد السيد أن يقتله يقتله.

وغادر الكوخ وتبعته.
مشينا في الظلام متجاهلين الرجال – الوحوش المحيطين بنا، والذين راحوا يرمقونني في عدوانية أو لا مبالاة.. بعضهم احتشد حول النيران وعرفت منهم الرجل - القرد.
قال هذا الأخير:
- السيد ميت.. منزل الآلام ذهب..
قلت في ثقة:
- السيد لم يمت.. منزل الآلام سيعود.
كانوا قد بدءوا يتوجسون من ثقتي.. إن الحيوان يستطيع أن يكون خبيثا، لكنك تحتاج إلى إنسان كي تختلق كذبة جيدة.. وقال أحدهم:
- الآخر ذو الذراع المضمد يقول كلاما غريبا..
- أؤكد لكم.. سيعود السيد وبيت الآلام والويل لمن يخرق القانون.
هنا راحوا يوجهون لى الأسئلة.. رحت أجيب بحماس شديد أرهقني، وخلال ساعة أقنعت أكثر هؤلاء بأنى صادق.. ازدادت ثقتي بنفسي ولم أعد أتلفت للوراء في كل لحظة.
عندما ظهر القمر بدءوا يتثاءبون وينسحبون للنوم.. قررت أن أبقى معهم.. لأنني سأكون أكثر أمنا معهم جميعا منى مع واحد فحسب منهم.

☆ ☆ ☆

في النهاية بدأت أتكيف معهم.. كانت هناك مشاجرات معهم بالطبع ما زلت أحمل جروحها في جسدي.. وآثار أسنانهم.

لكنني - في النهاية - ظفرت باحترامهم لبراعتي في قذف الأحجار واستعمال الفأس، وكان صديقي الكلب ذا عون كبير لي..

تحاشاني الضبع - الذئب تماما، وكنت دائما متنبها له، وعرفت أنه قد تذوق الدم منذ زمن.

وعزل نفسه عن المجموعة وصار متواجدا في عرين مجهول بالدغل، لكنه جعل كل ممر في الغابة خطرا داهما بالنسبة لي.

وفي شهر (مايو) بدأت ألاحظ تغيرا واضحا في لغتهم.. صاروا أقل اهتماما بالألفاظ وأقل ميلا إلى الكلام. كانوا يفهمون ما يقال لهم لكنهم لا يتكلمون.

لك أن تتخيل لغتهم الواضحة المحددة تتحول لصيحات من جديد، وصاروا يمسكون الأشياء بطريقة خرقاء، وصاروا يجدون عسرا في المشي منتصبين، حتى كنت أجد بعضهم يمشون على أربع في أحيان كثيرة.

كانوا يرتدون بسرعة.

وبدأت قوة القانون تفقد تأثيرها، وتحول الرجل - الكلب إلى كلب حقيقي يوما بعد يوم.. وكسا الشعر جسده كله.

صارت الأكواخ قذرة جدا حتى إنني تركتها وصنعت لنفسي ما يشبه الكوخ من بقايا حصن (مورو).. كان هذا هو أكثر مكان أمنا لأنهم لم ينسوا بيت الآلام بعد.

من العسير أن أحكي كيف تخلوا عن ثيابهم تدريجيا، وكيف نما شعرهم أكثر، وكيف صارت صداقتهم عسيرة.

بالطبع لم يرتدوا وحوشا عادية كالتي يراها المرء في حدائق الحيوان.. بل كانوا خليطا من حيوانات عدة مع لمسة بشرية تثير الرعب من آن لآخر.

وهكذا رحت أمضي أيامي عند الشاطئ أدعو الله أن تمر سفينة ما، واعتدت إشعال النار في مكان ظاهر.. كنت أعلق أملي

على عودة (إبيكاكوانا) من جديد.. لكن شيئا لم يظهر.

☆ ☆ ☆

وفي أكتوبر قررت صنع طوفي الأول، وكان ذراعي قد شفي.. لم تكن لدي خبرة بالنجارة أو أي عمل يدوي.. لكني تمكنت في النهاية من صنع ما أردت، وبرهنت على انعدام مهارة تام، لأنني حين حاولت جر الطوف إلى الشاطئ تفكك إلى أجزاء.

كان هذا حسن حظ - لأنه حدث قبل أن أقلع به - لكنه أمضني كثيرا وقتها، وجعلني أفكر في الانتحار.

لكن شيئا خطيرا حدث وقتها، نبهني إلى واجب الإسراع بالفرار، لأن كل يوم يدنيني من الهلاك مع تلك المخلوقات.

كنت جالسا عند الحصن، حين شعرت بشيء يلمس كتفي.

أجفلت واستدرت فوجدت حيوان (الكسلان) يقف خلفي، وكان قد فقد القدرة نهائيا على الكلام.

راح يركض نحو الأشجار ثم تعلق بغصونها - وهذا وضع أسهل له من المشي - فبدأت أفهم.. إنه يريد مني أن أتبعه.

مشيت خلفه حتى وصلت لمساحة خالية من الأشجار.

هنا رأيت مشهدا مفزعا..

كان (الساتير) راقدا على الأرض ميتا، بينما الضبع - الذئب منحن فوقه يمزق لحمه بمخالبه ويقضمه، ويزأر في رضا.

حين رآني برزت أسنانه منذرا..

لم يكن خائفا ولا خجلا.. لقد تلاشى آخر ما فيه من لمسة بشرية.

رفعت المسدس وصوبته نحوه.. لم يبد ميلا للتراجع، فصوبت ما بين عينيه وأطلقت الرصاص، في اللحظة التي وثب

فيها نحوي.. فسقطت تحته.. لكنى أصبته كما أردت.



رفعت المسدس وصوبته نحوه .. لم يبد ميلاً للتراجع ، فصوبت ما بين عينيه وأطلقت الرصاص ..

أخيرا جررت جسدي من تحته، ورحت أرمق جسده المضطرب وأنا أرتجف.. لقد ولى هذا الخطر.

لكنه أول حلقة في سلسلة الارتداد إلى الوحشية.
حرقت الجسدين في محرقة خشبية، وأنا موقن أنني مالم أترك الجزيرة فورا فإن هلاكى مسألة وقت.
في الصباح كان الرجال - الوحوش يغفون، لكن الليل يضج بعوائهم وزئيرهم، وتعلمت أن أنام نهارا حتى أحتفظ بوعيي في الليل.
لقد نسيت الحيوانات صنع النيران واستعادت خوفها منها، لذا كانت النار خير حليف لى..
ورحت ملهوفا أحاول صنع طوفي الثاني مستفيدا من أخطائي السابقة.

☆ ☆ ☆

جاء يوم رأيت فيه شراع سفينة نحو الجنوب.
أشعلت حطبا كثيرا، ورحت أنتظر هذا الشراع طيلة النهار، دون أن آكل أو أشرب.. وأمضيت ليلتي هناك.
كان قاربا صغيرا.. رأيته عند الفجر وعليه رجلان لا يتحركان من موضعهما.. لوحت لهما كثيرا
فلم يلاحظاني وظلا جالسين.
هنا كففت عن الصراخ وأرحت ذقني على كفي وانتظرت.
وعند الظهيرة أوقف المد القارب على بعد مائة ياردة غربي الحصن.
وحين دنوت منه أدركت أن الرجلين ميتان.
لقد ماتا منذ زمن طويل، وتفتتت جثتاهما بمجرد أن جذبت القارب.. وكان لأحدهما شعر طويل أحمر ذكرني بقبطان الـ (إبيكاكوانا).. وعلى أرضيته وجدت (كاسكيت) بيضاء متسخة.

جاءت بعض حيوانات لترى ما هنالك.

كان أحدهم هو مزيج مخيف من الدب والثور، وكان يحرك خطمه متشمما.. لمحت بريق أسنانهم وعيونهم فغلبني ذعر رهيب.

في الصباح التالي ملأت الوعاء الذي وجدته على ظهر القارب بالماء، وقتلت أرنبين بآخر ثلاث رصاصات عندي، ثم ملأته بالفاكهة التي جمعتها في صبر.

☆ ☆ ☆

22- الرجل الوحيد..

في المساء اتجهت إلى البحر ببطء شديد.

ركبت القارب، وازدادت الجزيرة صغرا.. امتد المحيط أمامى بلا نهاية.. وبعد ساعات كانت الشمس الجليلة تغمر البحر ببريقها.

وأمضيت ثلاثة أيام وحدي آكل، وأتأمل ما حدث لي، غير راغب في رؤية البشر من جديد.

لقد استحال شعري عجينة سوداء، وثيابي أسمالا بالية.. ولا عجب في أن من رأوني حسبوني مخبولا..

وفي اليوم الثالث التقطتني سفينة بخارية مسافرة من (أبيا) إلى (سان فرانسسكو)، ولم يصدق البحارة حرفا مما حكيت، لهذا آليت ألا أحكى عما حدث لي منذ عرفت (ليدي فين)..

كان على أن أنقذ نفسي من تهمة الجنون.. إن ذكرياتي عن القانون والبحارين الميتين والظلام تطاردني بلا هوادة.

كنت دوما غريبا بالنسبة للبشر كما كنت غريبا بالنسبة للوحوش.. يقولون إن الرعب مرض، وبوسعي أن أقول إنه - بعد عشرة أعوام - ما زال رعب لا يهدأ يسكن في عقلى.

لم أستطع أن أقنع نفسي قط أن من ألقاهم من البشر ليسوا من القوم الوحوش، ولربما يرتدون لطبائعهم بعد قليل ليظهروا تلك العلامة الوحشية أم تلك..

تعرفت رجلا صدقني.. وهو طبيب أمراض عقلية عرف (مورو) لفترة.. ومعه بدأت أشعر بتحسن.

لكن الذعر لم يفارقني برغم كل شيء.

أخشى أن يرتد الناس إلى وحشيتهم على نطاق أوسع.

لقد عشت فى (لندن) غير قادر على معاشرة الناس.. كنت أسمع صوت الرجال الوحوش خلف النوافذ.. كانوا قادمين لى، والأبواب الموصدة هي أو هي حواجز ممكنة..

وكنت أخرج للشارع كى أطرد أوهامي، والناس يرمقونني.. العمال الشاحبون يسعلون حين أمر بهم، والشيوخ يثرثرون لأنفسهم وهم يمشون وحدهم، والأطفال يلهون.

أدخل إلى مكتبة لأجد أن الوجوه المنكبة على الكتب، هي وجوه وحوش صور تنتظر مرور فريسة..

الوجوه الخالية من التعبير للناس في القطارات والحافلات كانت تثير فزعي، لذا كرهت السفر إلا وحدي.

إنني حيوان تم تعذيبه - هو الآخر - في بيت الآلام حتى اختل عقله.

وأمضيت أياما وسط الكتب التى هى نوافذ في حياتنا تنيرها أرواح الرجال.. كرست أيامي للقراءة وتجارب الكيمياء والليالي الصافية كرستها لدراسة علم الفلك، حيث السلام والأمن في قوانين الكون الأبدية، وليست الهموم اليومية وخطايا البشر.

وبهذا في أمل لا ينتهي ووحدة لا تزول، تنتهي قصتي.

إدوارد بندرك

هـ. ج. ويلز

(تمت بحمد الله)

جزيرة الدكتور مورو

سفينة غارقة، ورجل يدعى (بندرك) يفر بجلده إلى جزيرة مجهولة، بها عالم يدعى الدكتور (مورو).. كل هذا جميل.. لكن خيوط الحقيقة تتضح شيئا فشيئا، ونتبين أن د. (مورو) يمارس تجربة شنيعة تتحدى أي تعريف إنساني.. تجربة لا يمكن أن تصدقها مالم تقرأ هذه الرواية.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- البوما : هي أسد الجبال أو الـ (جاجوار).

[←2]

- *في الغالب كان الاقتراح يتعلق بقتل الشخص الثالث والتهامه، وإن كان هذا الجزء غامضا في نص (ويلز) الأصلي.*

[←3]

- يعني أنه يملك خمسة أصابع مثله.

[←4]

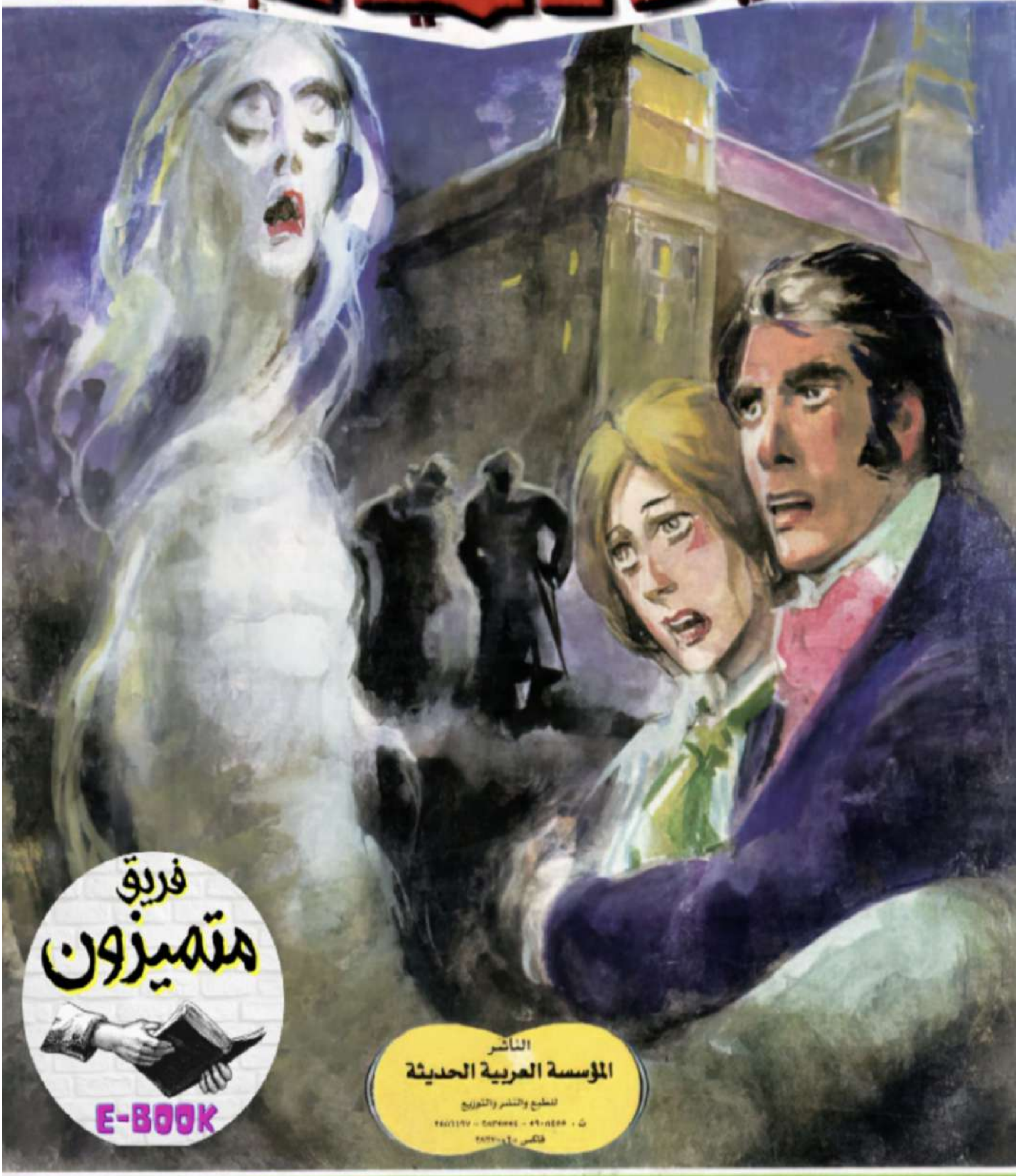
- أهل (هاواي) الأصليون.

[←5]

- الساتير من الكائنات الأسطورية في الميثولوجيا اليونانية، ويشبه ماعزا يمشي على قدميه الخلفيتين، وفيما بعد اقترنت صورته لدى الرسامين بالشيطان..

روايات عالمية للجيب

32



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

عرين الدودة البيضاء

قصة : برام ستوكر
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (32)

عرين الدودة البيضاء

قصة: برام ستوكر
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدِّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

لا يُذكر اسم (برام ستوكر) إلا وتثب إلى الذاكرة على الفور روايته عظيمة النجاح (دراكيولا)، التي كتبها عام 1897.. إلا أن (ستوكر) - في الواقع - لم يبتكر شخصية (دراكيولا) من فراغ.. لقد سبقه (دوما) بتقديم شخصية مماثلة في مسرحية من فصل واحد.. ولكن (برام ستوكر) قام بمزج عدد لا بأس به من الأساطير الرومانية القديمة عن (لاميا) التي تشرب الدماء البشرية، مع الأسطورة العبرية الشهيرة عن (ليليث)، مع لمسات من رواية فائقة الشهرة في ذلك الحين هي (كارميللا) التي كتبها (شريدن دي فاتو)، مع لمسات من الرعب القوطي السائد في عصره - رعب البرق، والشمعدانات، والكونتات الغامضين المتشحين بالسواد - مع شخصية (فلاد الوالاشى) نفسها المثيرة للجدل، والتي عرف كل شىء عنها من جلساته مع جاسوس مجريّ يُدعى (أرمينوس فاميرى)، وبالتالي صنع ذلك الخليط الناجح الذي نعرفه.. وقد غدا من العسير اليوم أن نتخيل (دراكيولا) في صورة أخرى، غير التي رسمها (برام ستوكر).. ولا يعرف الكثيرون أنه خلّد ذلك الجاسوس المجرى المُلهم في شخصية (فان هلسنج).. خبير مصاصي الدماء وعدو (دراكيولا) السرمدى..

من هو (برام ستوكر) الذي ابتكر كل هذه العوالم الرهيبة؟

(أبراهام ستوكر) هو كاتب بريطاني، ولد عام 1845، وتوفي عام 1912.. نشأ في (دبلن) بـ (إيرلندا) وتخرج في جامعتها، قضى عشرة أعوام من عمره كناقد أدبي ومسرحي، وفي عام 1876 غادر (إيرلندا) ليعمل كمدير أعمال الممثل الإنجليزي السير (هنرى

إرفنج)، وشاركه في إدارة مسرح (ليسيوم) بـ (لندن) حتى توفى الممثل الشهير.. بعدها قرر (ستوكر) أن يتفرغ للكتابة..
من قصصه الشهيرة الأخرى (عرين الدودة البيضاء) - التي نقدمها هاهنا - و(ضيف دراكيولا)، و(مدفن الفئران)، و(ممر الثعبان)، و(جوهرة النجوم السبعة) التي اشتهرت باسم (دماء من تابوت المومياء).. وكلها دشّنت بحق اسمه كواحد من أهم الأسماء في عالم أدب الرعب، ورشحته لموضعه البارز إلى جوار (ماري شيللى) و(إدجار آلان بو) وسواهم..
كنا بطبيعة الحال نرغب في تقديم أشهر رواياته (دراكيولا)؛ لكن القصة قد تُرجمت إلى العربية بالفعل مرارًا تفوق الحصر.. ولن نضيف جديدًا بتقديمها هنا..
لكن القصة التي نقدمها هنا ممتعة بحق، وقد استوحاها من أسطورة رومانية رهيبة أخرى عن الكونتيسة (باثوري) التي... التي..
كلا.. إن التلميح سيفسد القصة بالكامل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- وصول آدم سالتون..

وصل (آدم سالتون) إلى فندق الإمبراطورية في (سيدنى)، فوجد بانتظاره خطابًا من عمه.. وكان قد سمع عن السيد العجوز منذ أقل من عام، حين طالب (رتشارد سالتون) بإثبات قرابته له، قائلًا: إنه لم يستطع الكتابة له من قبل، لأنه وجد من العسير أن يجد عنوان ابن أخيه، و قد سرّ (آدم) ورد في حماس على الخطاب، فلطالما سمع أباه يتحدث عن الفرع القديم للأسرة، الذي فقد آله رابطتهم معه.. وتلت هذا بعض مراسلات مهمة بينهما..

وفتح (آدم) الخطاب الذي وصل على الفور، وفيه يدعوه عمه إلى اللقاء في (لسر هيل)..

- « بالتأكيد.. »

استطرد (رتشارد سالتون) في الخطاب:

- « أنا آمل أن تقيم ها هنا أبدًا، فأنت وأنا يا بنيّ آخر من بقي من سلالتنا، ولسوف تخلفني حين يحين أجلي، ولقد بلغت سن الثمانين في هذا العام البركة 1860، وبرغم أننا قوم طويلو العمر، فلا يمكن أن تمتد حياتنا أكثر مما هو معقول..

»إنني متأهب لأن أحبك، وأن أجعل إقامتك معي سعيدة، لذا تعال لى فور استلامك لهذا الخطاب.. وأرسل لك - إن كان هذا يجعل الأمور أيسر لك - حوالة مصرفية بمائتي جنيه.. تعال سريعًا لننعم بأيامنا معًا.. فقط دعني أعرف متى أتوقع بهجة رؤيتك..

»حين تصل إلى (بلايموث) أو (ساوثهامبتون) أو أي مرفأ تختاره؛ انتظر على ظهر السفينة ولسوف أوافيك في أقرب وقت ممكن.

»
وسر مستر (سالتون) العجوز حين وصلته إجابة (آدم) بالقبول، وأرسل له صديقه العزيز سير (ناتانييل ساليس)، وأعطى تعليمات بإعداد عربة لابن أخيه في هذا اليوم المهم، تتجه إلى (ستافورد) لتلحق بقطار 40: 11 صباحًا، وهناك ربما يمضي الليل مع ابن أخيه على ظهر المركب - وهي خبرة جديدة بالنسبة له - أو في فندق.. وفي كلتا الحالتين سينطلقان في الصباح إلى الوطن.. وخطط أن يرى ابن أخيه - الذي عاش طيلة حياته في أستراليا – شيئًا من ريف إنجلترا طيلة الطريق.. وكانت لديه مجموعة من خيول قام بتربيتها بنفسه، لذا أوصى أن تجر العربة التي ستقلهما، أما المتاع فسوف يُرسل بالعربة من (ساوثهامبتون).. وأمل في رحلة يتذكرها الشاب أبدًا..
كان متوترًا طيلة الرحلة بالقطار، وراح يتساءل إن كان ابن أخيه يشعر بذات التوتر.. ودنا القطار من المرفأ وتوقف، ليثب شاب إلى داخل العربة:
- « كيف حالك يا عماه؟ لقد تعرفتك من الصورة التي أرسلتها إليّ.. أردت أن ألقاك بأسرع ما يمكن، وهأنذا أمامك أخيرًا.. لقد ظللت آلاف الأميال أحلم بهذه السعادة، والآن أجد أنني لم أكن واهمًا »
كانا يتكلمان وهما يهزان يدى بعضهما في حرارة.. وكان اللقاء ناجحًا بحق..
كان انبهار العجوز بجدة المركب واضحًا، وحلا له أن يمضي الليل على ظهرها.. ولقد عرض الشاب تسليمه التام بأى اختيار يروق للعجوز.. لم يعودا فقط مرتبطين بصلة القرابة، لكنهما شعرا كأنهما صديقان قديمان.. لقد وجد قلب العجوز الخاوى

مسرة جديدة.. وسرعان ما بدأ يخاطب الفتى باسمه الأول رافعًا الكلفة..
وإذ توجها إلى القمرة التي سيبيتان ليلتهما فيها، وضع العجوز يده على كتف الفتى، فبالنسبة لعمه كان (آدم) الذي بلغ السابعة والعشرين من عمره طفلًا وسيظل كذلك..
- »أنا سعيد إذ وجدتك يا عزيزي.. أنت الشاب الذي تمنيت طيلة عمري أن يكون ابنًا لي في الأيام التي كان لي أن آمل فيها.. إن حياة جديدة ستبدأ لكلينا، وأظن أن لدي من الوقت ما يسمح لي بالاستمتاع بها.. لكني لم أجرؤ قط على ربط حياتك الشابة بحياتي العجوز، إلى أن تكون بيننا معرفة شخصية كافية.. الآن أرى فيك ابني، كما كان ينبغي أن يكون.. »
- « حقًّا يا سيدي.. بكل إخلاص.. »
امتلأت عينا العجوز بالعبرات، وارتجف صوته، وبعد صمت طويل استطرد:
- « حين عرفت بقدومك كتبت وصيتي.. فمن الخير أن أعنى باهتماماتك من هذه اللحظة.. ها هي ذي الوصية، فاحتفظ بها يا (آدم).. إن كل ما لديّ سيؤول إليك، ولو كان الحب والأماني الطيبة قادرين على جعل الحياة أفضل؛ فلسوف تكون حياتك حياة سعيدة.. والآن يا بني لسوف ننطلق مبكرًا هذا الصباح، وأمامنا طريق طويل.. أتمنى ألا تضايقك القيادة، كنت سأجلب عربة السفر القديمة التي ذهب بها جدى إلى البلاط، حين كان ويليام الرابع ملكًا، فهي ما زالت في خير حال... لكنني جلبت عربتى الخاصة بخيولها التي ربيتها بنفسي.. أرجو أن تكون محبًّا للخيل، لقد ظلت طويلًا من أهم اهتماماتي في الحياة.. »
- « أحبها يا سيدي.. ويسرني أن أقول: إن لدى الكثير منها أيضًا.. لقد أهداني أبي حصان مزرعة حين بلغت الثامنة عشرة..

واليوم علمت أن لدى نحو ألف حصان، كلها في خير حال.. »
- « هذا يسرني يا بني.. هي ذي رابطة أخرى بيننا.. لسوف أحكى لك عن وطنك المستقبلي في أثناء رحلتنا.. سنسافر بالطريقة القديمة.. لقد اعتاد جدى أن يقود أربعة خيول في عربة واحدة، وكذا سنفعل..»
- « آه يا سيدي.. شكرًا شكرًا! هل لي أن أمسك باللجام من آن لآخر؟»
- « كل ما تريد يا (آدم).. فكل حصان هو ملك لك.. »
- « أنت بالغ الكرم يا عماه.. »
- « بل هي متعة أنانية لرجل عجوز.. فلا يحدث كل يوم أن يصل وريث للبيت العتيق.. و.. بالمناسبة.. لا.. من الخير أن ننام الآن، ولسوف أقص عليك الباقي في الصباح.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- آل (كاسوول) و(كاسترا ريجس)

كان مستر (سالتون) طيلة حياته ممن يصحون من النوم مبكرًا، وبالضرورة ممن يغادرون الفراش مبكرًا، لكن حين فتح عينيه مبكرًا في هذا الصباح على صوت هدير آلات السفينة العملاقة؛ قابل عيني ابن أخيه النائم في مضجعه يرمقه في ثبات..
كان ابن أخيه قد أعطاه الأريكة ونام هو على المضجع السفلى.. وبرغم أن العجوز كان قويًا؛ إلا أن وعثاء السفر في اليوم السابق أنهكته، فوجد راحة في الرقاد حيث هو، تاركًا عقله نشيطًا يتابع كل ما يحيط به..
وكان (آدم) قد اكتسب عادات الرعاة من حيث جاء، لذا صحا مع الفجر، وراح يرتقب في شغف خبرات اليوم الجديد.. وكذا نهض الرجلان وارتديا ثيابهما، وهبطا إلى المرفأ يبحثان عن المتاع..
وجدا وكيل أملاك (سالتون) يفتش عنهما في الميناء، فاقتادهما إلى المتاع.. وراح (ريتشارد سالتون) يبين في فخر لابن أخيه كم أن العربة مناسبة لأغراض الرحلة..
« أترى؟ إن بها كل مزايا السفر.. الرفاهية والهدوء بالإضافة إلى السرعة.. لا شيء يحجب الرؤية عن المسافرين، ولا أحد يمكنه سماع ما يقولون.. ستجربها بنفسك.. لسوف نسافر في قلب (إنجلترا)، وفي الآن ذاته سأكلمك فيما لمحت إليه البارحة.. سيكون طريقنا عبر (ساليزبوري).. (باث).. (بريستول).. (شلتنهام).. (وورشستر).. (ستافورد).. فالبيت.. »
- « هل لرحلتنا اليوم يا سيدي علاقة بما حدثتنى عنه أمس؟ »

- « ليس بشكل مباشر.. لكن بشكل غير مباشر: لها كل علاقة! »
- « ألا تنوي أن تحدثني الآن؟ أرى أنه ما من أحد يمكنه سماعنا.. »
وهكذا بدأ (رتشارد سالتون) يتحدث:
- « كى أبدأ من البداية يا (آدم)؛ لقد كانت محاضرتك عن (الرومان في بريطانيا) التي أرسلتها لى بريديًّا هي ما جعلني ألم باهتماماتك.. لذا كتبت إليك كى تلحق بي.. فقد خطر لي أنه لو كنت أنت مغرمًا بالتاريخ فهذا المكان هو بالضبط ما يناسبك.. و لو كان بوسعك أن تعرف كل هذا عن الرومان في بريطانيا - وأنت في (نيو ساوث ويلز) حيث لم يعد لهم من أثر - فماذا لو درست هذا الموضوع في وطنه الأصلي؟ إن البلد الذي نحن ذاهبان إليه هو قلب مملكة (مرشيا) حيث آثار كل القوميات التي صنعت ذاك الخليط، الذي صار هو (بريطانيا) فيما بعد.. »
- »فهمت أن لديك أسبابًا أقوى وأكثر شخصية لهذه العجلة.. فالتاريخ - بعد كل شيء - يمكن أن ينتظر، إلا في صنعه! »
- « أنت محقّ أي بني.. إن لدى أسبابًا كالتي خمنتها مصيبًا.. كنت متعجلًا لقدومك، إذ يقع الآن بالذات جزء مهم من تاريخنا المحلي.. الحقيقة هي أن أكثر ملاك الأرض هنا، ومنذ قرن كامل، كانوا يؤثرون الحياة بالخارج.. »
- »وكيف يا سيدي إن كان لي أن أسأل؟ »
- « إن البيت الأعظم في هذا الجزء من العالم هو (كاسترا ريجس).. مقر أسرة (كاسوول).. وآخر مالك عاش هنا هو (إدجار كاسوول) جد القادم الجديد هاهنا، وكان آخر من أقام هنا لفترة..

« وكان جد هذا المالك ويدعى (إدجار) بدوره - هؤلاء القوم يكررون أسماءهم الأولى - قد تشاجر مع ذويه، ورحل إلى الخارج، وانقطعت علاقته تمامًا بأقاربه.. لكن حفيده - وهو آخر الورثة - تربي في الخارج حتى سن الثلاثين، وهو سنة الحالي، وظل (كاسترا ريجس) يجهل كل شيء عن مالكه طيلة خمسة أجيال، أي نحو مائة وعشرين عامًا.. لكن البيت بقى في خير حال، ولم يشكْ أحد من سكانه من شيء قط.. لكننا جميعا شغوفون برؤية الوريث القادم غدًا إلى إرثه هنا.. وحتى أنا - برغم أنني أملك ضيعتي الخاصة الملاصقة لـ (كاسترا ريجس) - أتطلع في فضول إلى رؤيته.. أنت ترى من هنا قمة كاتدرائية (ساليزبوري)، ولسوف ندنو بعدها من الأرض الرومانية.. عندها ستحتاج إلى عينيك بشدة..

« لا أريدك أن تشعر بإحباط.. لكن صديقي القديم سير (ناتانييل ساليس) - وهو مثلي يملك ضيعة قرب (كاسترا ريجس) تدعى (برج القيامة) - آت ليقيم معى، كى نعد مراسم استقبال (إدجار كاسوول).. لسوف تميل إليه حتمًا؛ فهو يعشق التاريخ، ويعرف عن هذا البلد أكثر من سواه، وهو رئيس جمعية (الآثار المرشيانية).. ستكون لنا محادثة طويلة بعد العشاء.. إنه يعرف كذلك كل شيء عن القمة وكهوفها، ويعرف الكثير عن أساطير ما قبل التاريخ هاهنا.. »

ما إن دنا الغسق، حتى دخلا إلى (لسر هل) حيث يعيش مستر (سالتون)..

كان الظلام قد صار دامسًا يمنع رؤية أي شيء يحيط بهما.. فقط أدرك (آدم) أن المنزل على قمة هضبة ليست بارتفاع الهضبة الأخرى، التي على قمتها قلعة فوقها علم وتلتمع كلها

بالأنوار الوهاجة.. واضح أنها تستعد للاحتفال بالوريث القادم غدًّا..
وعلى الباب قابل عم الفتى رجلًا عجوزًا حسن المظهر، حياهما بحرارة:
- « جئت مبكرًا كما طلبت مني.. أحسب هذا ابن أخيك.. مرحبًا بك يا مستر (سالتون).. أنا (ناتانييل ساليس) وعمك هو أقدم صديق لي.. »
من اللحظة الأولى؛ شعر (آدم) بأنه والرجل صديقان من زمن.. كان سير (ناتانييل ساليس) رجلًا خبر العالم، وقد سافر كثيرًا، ودرس بعمق في نقطة معينة من العلم.. كان محدثًا لبقًا متحفظًا، لكنه بدأ يتحمس إذ رأى حماس الشاب، ليسمع ويتعلم منه.. وسرعان ما انتهت المحادثة التي بدأت بالمجاملات القلبية إلى محاضرة شائقة..
وحين انتهى العشاء وانسحب الخدم؛ بدأ السير (ناتانييل) يتكلم:
- « الحق أن عمك صديق عزيز قديم، لهذا أؤثر أن أتخلى عن الرسميات بعد إذنك، وأتحدث إليك كـ (آدم) وكأنك ابنه.. »



وحين انتهى العشاء وانسحب الخدم ، بدأ السير (ناتانييل) يتكلم :
ـ « الحق أن عمك صديق عزيز قديم » . .

- « ليس أحب إلى من هذا.. »
وسرّت الإجابة الشيخين، لكنهما - كعادة الإنجليز في عدم إظهار عواطفهم - دخلا في الموضوع مباشرة.. وقال (ناتانييل):

- « أحسب أن عمك كلمك عن آل (كاسوول)؟ »
- »جزئيًّا يا سيدي.. لكني توقعت أن أسمع تفاصيل أكثر منك لو تفضلت.. »
- « هذا يسرني.. إن أول (كاسوول) أعرفه هو (إدجار)، الذي جاء ها هنا في عهد الملك (جورج الثالث).. وتشاجر مع ابنه لسبب لا يعلمه أحد في جيلنا هذا..
»كانت نتيجة المشادة هي أن الابن هجر البيت، دون أن يخبر أباه بوجهته.. ولم يعد قط حتى مات بعد هذا بأعوام.. تزوج في الخارج، وأنجب ابنًا واحدًا.. و قد نما هذا الابن دون أن يعرف قط ما يخصه من أملاك.. لقد حدث شرخ لا يمكن تجاوزه في الأسرة، ولولا يقظة المحامين، لما عرف أحد شيئًا عن ميلاد هذا الابن..
»بعد هذا انحصر نشاط الأسرة في وراثة الضيعة، وانحصر الميراث الآن في حفيد هذا الرجل.. من الخير لك أن تعرف خصائص تلك السلالة جيدًا.. إنهم متحفظون لا يتبدلون.. كلهم باردو الطباع.. أنانيون.. مسيطرون.. غير مبالين بالعواقب.. ولو ارتكب أحدهم خطأ ما، فعلى شخص آخر أن يتحمل عواقب هذا الخطأ.. وقد تكرر هذا كثيرًا، حتى بدا كأنه سياسة ثابتة يلتزمون بها.. في طباعهم غلظة وبرودة، حتى إن أحدهم لم يسمح لنفسه - على قدر علمى – بأن يستشعر عاطفة رقيقة، أو يصغي لما يمليه عليه قلبه قط..
« ولسوف ترى في صورهم أنهم أقرب للطابع الروماني في الوجوه.. عيونهم واسعة، وشعورهم مجعدة حالكة السواد.. وملامحهم صلبة قوية، لكن أهم ما فيها هي العيون.. عيون سوداء نافذة ثاقبة لا يمكن تحملها.. و هي قوة نصفها يمت لسلالتهم، ونصفها يمت لشخوصهم.. قوة يمازجها شيء غامض

ينوم مغناطيسيًّا ويفتن.. وبعيون كهذه، يحتاج المرء إلى كل إرادته، كي يقاوم تلك الإرادة الكاسحة التي لا ترد..

« وقد تحسب يا (آدم) أن كل هذا من نسج خيالي.. خاصة وأنا لم أر أحدهم قط.. لكنه خيال جاء بعد دراسة عميقة.. ولا عجب مع كل هذه الصفات أن يعتقد الناس في الخارج أن هذه السلالة تحت استحواذ شيطاني ما..

»والآن أحسب أن علينا أن نأوى إلى فراشنا.. فلدينا عمل كثير غدًا.. وعليك أن تبقى عقلك صافيًّا.. لربما قمنا بجولة صباحية تريك جغرافية هذا المكان ككل، بينما الأمور ما زالت واضحة جلية في ذهنك.. فكلما رأينا أشياء أكثر في البداية، كلما استطعنا فهم ما يستجد من أمور فيما بعد.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- أيكة ديانا..

جعل الفضول (آدم سالتون) يصحو من نومه مبكرًا.. لكن ما إن ارتدي ثيابه وهبط إلى أسفل حتى اكتشف أن (ناتانييل) قد سبقه في الاستيقاظ.. وأن السيد العجوز قد تأهب لرحلة طويلة على الأقدام، فبدءا على الفور..

واتجه السير (ناتانييل) دون كلام إلى الشرق هابطًا التل، وفي النهاية، وجدا نفسيهما على حافة تل منحدر، كان أقل ارتفاعًا من التل الذي كانت عليه القلعة، وبين الصخور كانت أنواع شتى من الأشجار، وبين الأشجار رأيا ما بدا في ضوء النهار المبكر كأنه خرب.. كانت هذه الأخيرة من حجر رمادي ضخم، ربما هو حجر جيري تم اقتطاعه دون براعة، لو لم يكن قد شكلته يد الطبيعة..

ونظر السير (ناتانييل) حوله، وكانت الشمس قد تسلقت الأفق الشرقي وجعلت كل التفاصيل واضحة.. وكان (آدم) تلميذًا شديد الاهتمام والتعطش للعلم، وحاول بحق ألا يفوته شيء مما يراه..

- »قد جلبتك هاهنا يا (آدم) لأن هذه البقعة تبدو مناسبة لبدء بحثنا.. الآن ترى أمامك كل مملكة (مرشيا) القديمة.. بالواقع أنت تراها كلها ما عدا الأجزاء العميقة منها التي تغطيها المستنقعات، ولسوف تجد أن كل هذا مهم جدًّا حين نحاول فهم عادات وخرافات تلك المملكة القديمة، والجانب المنطقي فيها.. وهذا سيعيننا على معرفة الحقيقة وراء كل أسطورة قديمة.. على سبيل المثال لسوف تجد أن الخامات المستعملة في البناء وأشكال المباني وارتفاعها في كل عصر، تقدم دروسها الخاصة.. فقط للعيون التي تفهم.. »

- « أعطني مثالًا يا سيدي.. »
- « لنأخذها بالترتيب.. تأمل هذه إلى الشرق حيث الأشجار الواطئة.. كان هذا معبدًا رومانيًّا، ويبدو ذلك واضحًا من نصف اسمه، بينما النصف الآخر يأتي من الأشجار ذاتها: (أيكة ديانا).. التل الآخر يدعى (ميرسى).. واضح أن هذا تحريف للفظة (ميرشيا) بوساطة الرومان.. لقد كان ديرًا أنشأته الملكة (بيرثا)، حتى دمره الملك (بندا) الذي ارتد إلى الوثنية.. بعد هذا ترى قصر عمك (لسر هيل) »
- « بعد هذا تبقى القلعة.. »
- « تلك القلعة تحوي كل تاريخ إنجلترا القديمة.. ولا توجد نقطة بداية التاريخها قدر ما نعلم.. فقط تقول أقدم الكتابات المعروفة إنها كانت هناك.. وقد وجدها الرومان حين جاءوا، وتقبلوها كما هي، بل واعتبروها من أهم الأماكن لمعسكراتهم.. فهي – كما ترى على الخارطة - تشرف على الساحل والمستنقعات الغربية التي تكمن وراءها (ويلز) البريّة، وتقرب الشرق والغرب بأيسر الطرق المعروفة في ذلك العصر.. وهي - في النهاية - تتيح الهبوط على لندن، وكل جزء في البلاد يرويه نهر (التيمز)..
»وهكذا يمكن بسهولة أن نفهم أن كل موجة غزو جديدة - سواء كانت الإنجليز أو الساكسون[1] أو النورمان[2] - وجدت هذه القلعة مغنمًا مفيدًا. ولقد جلب الرومان معهم كل ما من شأنه أن يجعلها موقعًا حصينًا يتحدى جلّ أسلحة العصر.. وسرعان ما تحولت من معسكر حصين إلى قلعة الملك نفسه.. لقد كان الرومان بارعين في احتفاظهم بالمواقع الجيدة الحصينة.. ولكن..

ما أسرع ما يمر الوقت! يجب أن نعجل بالعودة حتى لا يقلق عمك بصدد ما حل بنا.. »
وبخطى سريعة اندفع نحو (لسر هيل)، بينما راح (آدم) يركض كى يلحق به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- رحلة الليدي آرابيللا

قال مستر (سالتون) وقد انتهى من طعام الإفطار:

- »لا داعي للعجلة، لكن بما أن كليكما متأهب يمكننا البدء حالًا.. أريد أولًا أن أريكما أثرًا عظيمًا من أطلال (مرشيا)، ثم بعد هذا نقصد (ليفربول) عبر ما يدعى وادى (شيشاير) العظيم.. لربما يخيب أملكما، لكني أقول لكما لا تتوقعا شيئًا خارقًا للعادة.. علينا أن نصل للميناء سريعًا لنلحق بالمستر (كاسوول)، فمن الواجب أن ننهي عملية التعارف قبل أن نذهب إلى حفل الاستقبال في القلعة.. »

وتم إعداد العربة تمامًا، كما في اليوم السابق، وإن تم تزويدها بخيول جديدة.. خيول رائعة، وتم تزويد من يرشدون الحوذى بتعليماتهم، ثم انطلقت العربة بسرعة هائلة.. وبناءً على تعليمات المستر (سالتون) مرت العربة جوار كومة ضخمة من الأحجار على جانب الطريق..

قال:

- « هنا يا (آدم) شيء لا ينبغي أن نمر دون أن نلاحظه.. لقد تم تشييد هذه الكومة من الأحجار في أواخر القرن السابع - قبل ألف عام - في ذكرى إزهاق روح بشرية.. فهاهنا قتل (ولفير) ملك (مرشيا) - ابن أخي (بندا) - ولديه إذ اعتنقا المسيحية، فقد ارتد الرجل إلى الوثنية بعد عهد القديس (أوجستين)، وكما جرت العادة وقتها، كان على كل مارّ أن يضع صخرة على هذه الكومة.. »

هنا لاحظا أن عربة أخرى من طراز عتيق تدنو منهم، وأن راكبها - وكان وحيدًا - ينظر لهم في فضول.. ونزع القوم قبعاتهم، لأن

الراكب كان سيدة توجه لهم الحديث:
- « كيف حالك ياسير (ناتانييل) ويا مستر (سالتون)؟ أتعشم ألا تكونوا قد لاقيتم مشكلة ما.. انظروا لي! »
قالتها وأشارت إلى إحدى يايات عربتها الضخمة.. كانت مهشمة، وقد تبدي معدنها الأبيض اللامع.. فهتف (آدم):
- »هذا لن يستغرق وقتًا في إصلاحه.. »
- »كيف؟ ما من أحد دان يمكنه إصلاح كسر كهذا.. »
- « أنا أستطيع.. لقد جئت من أستراليا حيث نسافر بسرعة، وحيث يتعلم الجميع أن يثبتوا حدوات الخيول، وأن يصلحوا العربات بأنفسهم.. »
- « حقًا لا أعرف كيف أشكرك؟ فأنا راغبة في مقابلة السيد (كاسوول) مالك (كاسترا ريجس) إذ يصل اليوم من إفريقيا.. لا بد أنك المستر (آدم سالتون).. أنا (آرابيللا مارش) من (أيكة ديانا).. »
واختلست نظرة إلى مستر (سالتون) الذي فهم الإشارة، وقام بإجراء التعارف بشكل رسمي.. وبدأ (آدم) عملية إصلاح الياي المكسور.. كان بحق حرفيًا بارعًا وقد فرغ من العمل سريعًا.. لكنه إذ راح يجمع أدواته التي تناثرت على الأرض، لاحظ أن ثعابين سوداء صغيرة تخرج من بين كومة الصخور وتحتشد حوله..
كان عقله مشغولًا بهذا المشهد حين رأي ليدى (آرابيللا) تهبط من العربة بحركة ناعمة منزلقة، وكانت بالفعل وسط الثعابين حين ناداها منذرًا.. لكنه لاحظ أن الثعابين تراجعت للوراء واختفت على الفور.. برغم هذا راح يدق على الأرض بعصا كانت معه، وهي حركة غريزية يتبعها مع تلك الزواحف.. كان الآن واقفًا مع المرأة - التي لم تعر المشهد اهتمامًا - جوار كومة

الصخور.. اختلس نظّرة طويلة لها، فكان ثوبها كافيًّا لشد انتباهه.. إنه أبيض طويل ملتصق بجسدها النحيل المتلوي، وكانت ترتدى رابطة عنق من فراء أبيض، وحول عنقها قلادة من الزمرد تعمى العيون، إذ تلتمع عليها الشمس.. ولها صوت ناعم خفيض كالفحيح.. وكانت يداها طويلتين دقيقتين شديدتي المرونة..



لكنه لاحظ أن الثعابين تراجعت للوراء واختفت على الفور ..
برغم هذا راح يدق على الأرض بعصا كانت معه ..

شكرت (آدم) كثيرًا وقالت: إنها ليسعدها الذهاب معهم إلى (ليفربول) لو رغبوا في هذا..

- « أرجو أن تعتبر أراضي (أيكة ديانا) أرضك الخاصة يا مستر (آدم).. هناك مناظر جميلة وغرائب طبيعية عديدة - منذ كان التاريخ طفلًا - لا بد أن تروق لك.. »
لكن (آدم) شعر بشيء من الشك في طريقتها، التي برغم دفء كلماتها كانت متنائية باردة.. وإذ اعتذر عمه وصديقه عن الدعوة، أدرك (آدم) أن المرأة سعيدة برغم ما أظهرته من حسرة..
ركب العربة مع عمه، ولم يدهشة أن السير (ناتانييل) تكلم على الفور:
- »من الواضح تمامًا أنها سعيدة بالخلاص منا.. يمكنها الآن أن تلعب لعبتها وحدها!! »
- « وما هي لعبتها؟ »
- »كل الريف هنا يعرفها يا بني.. إن (كاسوول) فاحش الثراء.. وكان زوج (آرابيللا) ثريًا – كما حسبت هي - إلى أن انتحر، عندها عرفت أنه لا يملك شيئًا.. وأملها الوحيد الآن للاحتفاظ بالضيعة هو رجل ثرى تتزوجه.. ولن أقدم استنتاجات فأنت قادر على استخلاص استنتاجاتك الخاصة.. »
لزم (آدم) الصمت طيلة ما بقي من الرحلة، كان غارقًا في التفكير، وقد أزمع ألا يولي أي اهتمام بالليدي (آرابيللا) في المستقبل.. فقد كان هو نفسه فاحش الثراء.. ثريًا إلى الحد الذي لم يخطر حتى ببال عمه قط..
لم يحدث شيء ذو بال باقي الرحلة، وفي النهاية صعدوا إلى السفينة (وست أفريكان) التي وصلت حالًا إلى المرفأ.. وبعد التعارف رحب بهم (كاسوول) بحرارة، وقال إن العودة لموطن أجداده بعد كل هذه السنين أمر عظيم.. ولم يستطع (آدم) قط أن يتجاهل شعورًا ما بالنفور من مرأى وجه الرجل..

كان منهمكًا في هذا حين وصلت ليدى (آرابيللا)، وقد ساعد هذا على إبعاد اهتمام الرجل عنهم.. كانوا قد صدموا لرؤية وجهه القاسي الأناني المسيطر.. وخطر لهم خاطر واحد هو: فليعُن الله أي شخص يقع تحت سيطرة هذا الرجل!
وحين بدأ يتحدث إلى خادمة الإفريقي (أولانجا)، بدا لهم الأخير متوحشًا، لم تهذبه الحضارة قط.. كأنه طفل الغابة الذي ضاع من آله.. وأدنى المخلوقات الشبيهة بالإنسان شأنًا..
وراقب (آدم) سلوك ليدي (آرابيللا) مع (أولانجا)، فوجد تعاليًا صفيقًا من جانبها، وتدنيًا صارخًا من جانبه.. لم يكن (أولانجا) ليعاملها كعبد مع سيده، ولكن كوثني مع صنمه.. ركع أمامها ومرغ رأسه في الغبار ولم يتحرك.. ولم يسترخ حتى نهضت من أمامه..
في الآن ذاته كان (آدم) يسأل مضيف السفينة عن شيء ما، فسأله عمه عما يريد.. قال:
- « كنت أسأل يا سيدى عن (روس) تاجر الحيوانات الشهير.. فأنا راغب في شراء حيوان صغير أصطحبه للبيت لو لم يضايقك هذا.. إنه صغير ولن يسبب متاعب.. »
- « طبعًا يا بني.. ولكن أي حيوان هو؟ »
- « مانجوست!! »
- « مانجوست؟ لماذا بالله عليك تحتاج إلى واحد؟ »
- « من أجل قتل الثعابين.. »
- « حسن!! »
وتذكر الرجل جبل الثعابين، فهز رأسه مؤمنًا على الفكرة.. وجاء (روس) ليقول:
- »إن لدى حيوان (مانجوست) جئت به من (نيبال) حالًا.. لقد افترس كوبرا هائلة وجدوها في حديقة الراجا.. وإن كنت لا أظن

أنك تحتاج إلى شيء كهذا في مناخنا البارد. »
- « آه! لا حاجة لي بهذا الحيوان البارع.. أظن أنني بحاجة إلى (مانجوست) عادى .. »
فلما رأى (ناتانييل) ما يحمله (آدم) في قفص، ضحك كثيرًا وقال:
- « لقد سمعت الليدي تدعوك إلى (أيكة ديانا).. هل سبق لك أن سمعت الاسم الذي كان يطلق قديمًا على هذا المكان؟ »
- « لا يا سيدى.. »
- « إنه.. ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى حديث طويل.. ربما كان من الأحكم أن نتكلم فيه فيما بعد حين نكون منفردين.. »
كان الفضول يمزق (آدم)، لكنه وجد من الحكمة ألا يتعجل الأمور.. سيجيء كل شيء في وقته المناسب.. وعاد الثلاثة الرجال تاركين المستر (كاسوول) يمضي أمسيته في (ليفربول)..
وفي اليوم التالى اتجه الثلاثة إلى (كاسترا ريجس) لحضور حفل الاستقبال..
كان المكان مزدحمًا بالضيوف، وقد تم إعداد أماكن متميزة لذوي الأهمية الخاصة.. وفتش (آدم) عن الليدي (آرابيللا) فلم يجدها في مرمى بصره.. ثم سمع التهليل والصياح؛ فأدرك أن (إدجار كاسوول) قد وصل أخيرًا.. وإذ دقق البصر وجد أن الليدي تجلس بجواره في العربة، وقد ارتدت نفس ثياب أمس..
وأدرك الجميع أنها ستكون الضيف الأساسي في الاحتفالات..
تلا هذا بعض الخطب التي لحسن الحظ لم تكن طويلة أو عديدة.. وراح (كاسوول) يمشى ما بين ضيوفه مرحبًا متحدثًا مع الجميع في مودة.. ونظرًا لوسامة (آدم) وكونه غريبًا فإنه أثار دائرة من الفضول حول نفسه، خاصة من الفتيات المدعوات. وحقًّا كانت هناك حسناوات كثيرات في الحفل.. لكن هذا لم يثر

اهتمامه كثيرًا.. إلى أن التقى بمجموعة من ثلاثة من الواضح أنهم من طبقة الفلاحين.. أحدهم وهو الرجل كان عجوزًا قوي البنية، معه فتاتان حسنتا المظهر.. إحداهما جاوزت العشرين من العمر، والأخرى أصغر سنًا.. فلم يكد (آدم) يرى أقربهما؛ حتى توهجت فيه تلكم الشرارة الكهربية المقدسة، التي تبدأ بالتعارف وتنتهي بالطاعة العمياء، والتي يسمونها بـ (الحب)..
ولاحظ مرافقه اهتمامه الذي لم يخفه فقال:
- « تراك لاحظت هؤلاء؟ أما العجوز فمستر (مايكل واتفورد).. واحد من مستأجرى مستر (كاسوول)، ويقيم في مزرعة (ميرسى).. والفتاتان حفيدتاه.. كبراهما هي (ليلا) الابنة الوحيدة لأكبر أبنائه.. فتاة طيبة.. طيبة بقدر ما هي حسناء.. والأخرى هي ابنة عمها.. وكان أبوها جنديًا سافر إلى (بورما) وسرعان ما عرف أبوه أن (الداكويت) قتلوه[3]..
.. »وعرف الرجل أن ابنه قد تزوج من فتاة بورمية، وأن له منها ابنة عمرها حينئذ عام واحد وكان اسمها (ميمي).. فجلبها لداره ورباها مع (ليلا)، وهامت الفتاتان ببعضهما..
»شد ما تختلف الفتاتان! إن (ليلا) شقراء تمامًا كقدامى الساكسون الذين نشأت منهم.. أما (ميمي) فبها جذور من أمها.. (ليلا) رقيقة كاليمامة، بينما عينا (ميمى) تتوهجان حين تغضب.. وهي لا تغضب إلا لو حدث ما يؤذي (ليلا).. عندها تتصرف (ميمى) كأنثى القط حين يتهدد خطر صغارها.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- الدودة البيضاء

قدم مستر (سالتون) (آدم) إلى مستر (واتفورد) وحفيدتيه، وسرعان ما انضما إليهم.. وكان الجيران بالطبع يعرفون كل شيء عن (آدم سالتون) وظروفه، ولذا لم يكن غريبًا أن تحلم الفتاتان بالمستقبل.. كان من طراز فريد، ومن طبقة لا تمثل لها فوارق الطبقات شيئًا مذكورًا.. وبدا من اللحظة الأولى أنه يميل لصحبة (ميمى واتفورد)..

وعندما قرعت الأجراس للمأدبة اتجه معها للخيمة التي كان جدها فيها، ولاحظ مستر (سالتون) وسير (ناتانييل) أن الفتى لم يقصد مقعده المخصص له في المنصة الرئيسية، ففهما، ولم يظهرا ما ينم عن الملاحظة..

جلست ليدي (آرابيللا) عن يمين (إدجار كاسوول).. وأدرك الجميع أنها المرشحة رقم واحد لتشارك الوريث حياته.. لم يقل أحد حرفًا، لكن ليست الكلمات ضرورية دائمًا حين تلعب النظرات الدور ذاته..

كان هناك قليلون قد وضعوا هذه المرأة في المرتبة الثانية بعد (ليلا واتفورد).. لكن الفارق كان شاسعًا بين المرأتين، إذ تمثل ليدي (آرابيللا) الأرستقراطية بينما تمثل (ليلا واتفورد) جمال عامة الشعب..

وعاد الرجال إلى دارهم مع الغسق.. وقبل العشاء بدا (آدم) مهمومًا إلى حد ما.. لهذا - بحكمة السنين - آثر الرجلان الآخران الصمت وانتظرا أن يتكلم بنفسه عما يضايقه.. ولم يطل انتظارهما لأنه انفجر فجأة:

- »ذلك الرجل يحسب نفسه قد ملك الأرض! يحسب أن كل ما عليه هو أن يرمي بمنديله لأية امرأة وما عليها إلا أن تقبل! »
كان هذا كافيًا للفهم.. لهذا سأله (ناتانييل) بحكمة الدبلوماسي العجوز الذي يفهم خبايا الأمور، وبشكل عارض:
- « هل يحاول الإيقاع بـ (ليلا)؟ »
- « نعم.. ولم يحاول أن يضيع وقته كذلك.. لقد ظل يتملقها، ثم دعا نفسه إلى الشاي في دارها غدًا.. يا للحمار الغبي! ألا يفهم أن الفتاة ليست من طرازه، وأن الأمر يبدو كالصقر واليمامة؟ المشكلة هي أنه كان متحضرًا جدًّا ولا غبار على سلوكه.. تصرّف بالتهذيب المتوقع من صاحب أملاك نحو ابنة مستأجر لديه.. لكن.. لكن.. لا أعرف كيف أعبّر، لكن الدم قد غلى في عروقى! »
- « هكذا!! »
- « ربما هي تلك السحنة الرومانية القديمة التي نفرتنى منه.. لكني شعرت أن الفتاة في خطر وأنني راغب في حمايتها.. »
- « في الواقع كل الشباب أمثالك يشكلون خطرًا عليها، ولقد لمحت الطريقة التي كنت ترمقها بها.. بدا لي أنك توشك على امتصاصها من الوجود! »
ثم جاء الخدم بالعشاء، فدعا السير (ناتانييل) الفتى أن يصمت.. وبعد العشاء جلسوا يلتهمون الجوز ويثرثرون، وهنا قال الفتى:
- « يسرني الآن أن أسمع المزيد من الأساطير القديمة هنا.. ودعونا من (إدجار كاسوول) فلربما قابلته غدًا لأنه ذاهب للمزرعة - كما قلت - في الثالثة بعد الظهر، أما أنا فموعدي في الثانية.. »
- « أنت أيضًا لا تضيع الكثير من الوقت.. »
وخشي (ناتانييل) أن يفقد اهتمام محدّثه بتأجيل السرد، فقال:

- « لا أنوي أن أقص عليك كل أساطير (مرشيا).. لسوف يكون من الأفضل أن أقص عليك ما يتعلق منها بهذه الجيرة.. ولنبدأ بـ (أيكة ديانا).. لقد وجدنا في وثائق (الساكسون) أن المكان كان يحمل اسمًا آخر غير (أيكة ديانا) واضح أنه رومانى، أو إغريقي تم قبوله كروماني.. وهذا الاسم الآخر معناه (عرين الدودة البيضاء)، ولفهم سر هذه التسمية لا بد لنا من وقفة..

»في فجر اللغة، كانت لفظة (دودة) تختلف عن استعمالنا الحالى لها.. كانت Wyrm في اللغة الأنجلوساكسونية تعني (أفعى) أو (تنين)، وفي القوطية Waurms بمعنى (أفعوان)، وكذا في الأيسلندية Ormur ونفهم من هذا أنها كانت تعنى دومًا - على نقيض مفهومنا الحالي لها - مزيجًا من القوة والضخامة.. ولسوف نجد في الأساطير أن الدودة كانت أقرب إلى تنين عاتي القوة.. ومن يعرف تاريخ إنجلترا جيدًا لا يستطيع بسهولة استبعاد فكرة وجود مخلوقات بهذا الحجم في عصور جيولوجية معينة.. إننا نرى من هنا ثقوبًا في الوحل يصل عمقها إلى مئات الأقدام.. فماذا كان فيها؟ ومتى انتهت حياة المخلوقات التي عاشت بداخلها؟ حتى في زمننا هذا مازلنا نرى الحفائر القديمة لحيوانات لا تُصدق في حجمها وضخامتها.. »

- « لا أنكر هذا الاحتمال يا سيدي، لكن وحشنا هذا لو وجد لكان ثقيلًا جدًّا، وحركته عسيرة، ومن الصعب أن يصل إلى مثل هذه الحفر العميقة التي نراها من هنا، دون أن يلاحظه شاهد عيان.. طبعًا لدينا الأساطير، لكنها كالعادة لا تشفي غليلًا.. »

- « يا عزيزى (آدم).. إن كل ما تقول صواب.. لكن لا تنس أن هذا حدث من آلاف السنين.. ومن العسير أن تجد سجلات لهذه الفترة.. ولا بد أن عرين وحش كهذا لم ير إزعاجًا بشريًا

لقرون طوال.. فليس بوسعنا أن نجد دليلًا إلا في علم الجيولوجيا، وفي إدراكنا المنطقى لقوانين الحياة.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- الصقر واليمامة

وعلى مائدة الإفطار في اليوم التالي دخل (آدم) على عمه وصديقه، فتساءل العم:

- « هل من أخبار؟ »

- « أربعة! »

- « أربعة ماذا؟ »

- « أربعة ثعابين.. لقد ظفر بها المانجوست »

- « أربعة ثعابين؟! كيف لم أدر من قبل أنها بهذه الكثرة؟ كيف كان حجمها؟ »

- « صغيرة جدًّا لا تتجاوز طول العصا.. »

- « حسن.. المهم أن نتخلص منها، ولا يهمني بعد ذلك حجمها.. لا بد أنه حيوان طيب ذلك المانجوست.. »

واصل (آدم) التهام إفطاره بشهية طيبة، لأن قتل الثعابين قبل الإفطار لم تكن خبرة جديدة عليه.. بعد الإفطار اتجه إلى المكتب الذي خصصه عمه له، ولم يظهر ثانية إلا بعد ما عاد من الدعوة التي تلقاها أمس.. الدعوة إلى مزرعة (ميرسى) حيث الفتاتان..

بعد صمت قال في شيء من حياء:

- « حسن.. لا جدوى من الانتظار أكثر.. لا بد من عمل هذا.. »

- « عمل أي شيء؟ »

- « زيارتى لمزرعة ميرسى »

ابتسم عمه والسير (ناتانييل) في فهم، فقال:

- « تعرفان أنني كنت أمس مهتمًّا بال (واتفورد).. وقد رأيت أن تعرفا هذا.. أنت يا عمي لأنك قريبى وآخر سلالتي، ثم إنك

غمرتني بكرم لا يمنحه إلا أب.. وأنت يا سيدي لأنك أريتني في مسقط رأسي ما كانت أشد أحلامي جموحًا تعجز عن تصوره.. »
ثم صمت هنيهة وقد بلغ به التأثر مداه.. قال سير (ناتانييل) واضعًا يده على كتفه:
- « إن قلوبنا ليغمرها الدفء إذ نسمع كلمات كهذه يا ولدي.. »
عندها راح (آدم) يتكلم في عجلة، كأنما يرغب في الوصول لغرضه سريعًا:
- « لم يكن مستر (واتفورد) هناك، لكن الفتاتين أكرمتا وفادتي، وبدا واضحًا حبهما لعمي.. وكنا نشرب الشاي حين وصل (كاسوول) مع عبده الأسود.. وفتحت له (ليلا) الباب بنفسها.. قال إنه راغب في معرفة المستأجرين بشكل أكثر مودة وأقل رسمية مما كان ممكنًا أمس.. كانتا فتاتين لطيفتين بحق، ولسوف ينعم شخص ما بسعادة بالغة مع واحدة منهما يا سيدي.. »
« وهذا الرجل هو أنت يا (آدم) »
طافت نظرة حزن على وجه الفتي فأطفأت النيران التى توهجت في عينيه..
- « هذا يتوج حياتي.. لكن سعادة كهذه ليست لى من دون ألم و عناء وخسارة.. لكن لو أحسّ المرء بما شعرت به أمس حين رأيت عيني (ميمي)، فلن يحتاج إلى تعلم الأشياء.. سيعرفها على الفور.. »
وساد الغرفة صمت لم يقطعه إلا (آدم):
- « عماه.. هل يملك أحد في أسرتنا موهبة العرافة؟ »
- »على قدر علمى يا بنيّ.. لا.. »
- « ولكن هناك ما يسمونه بالقدر المحتوم.. القضاء.. الحكم الذي لا استئناف فيه.. كنت أسمع طيلة حياتي عن العرافة،

لكني لم أدرك معناها بحق إلا اليوم.. شعرت بأن ما بينى وحبيبتى جدار شامخ من جرانيت ينطح السحاب ولا يمكن تجاوزه.. ولسوف أحاول جاهدًا ما سيحاوله أي رجل آخر.. أكافح.. ستكون هناك معركة ما.. لا أدري متى ولا كيف.. لكن ماذا يستطيع الإنسان في ظروف كهذه؟ »

بصوت رقيق رفيق دعاه المستر (سالتون) كى يواصل سرد ما حدث في اللقاء، فقال (آدم):

- « حين وصل المستر (كاسوول)؛ ابتعد العبد قليلًا، لكنه بقي في مرمى النظر والنداء.. وأعدت (ميمى) لنا المزيد من الشاي »

سأله المستر (سالتون) مدققًا:

- »هل كان ثمة شيء غير عادي.. أو مثيرًا للانتباه؟ «

- « بل كان الجو شديد المودة.. لم ألحظ سوى.. »

وصمت ثم استطرد بنبرة أغلظ:

- « أنه كان يبقي عينيه على (ليلا) بطريقة مزعجة بالتأكيد.. لم يكن هناك ما يشين في طريقة النظر ذاتها.. لكن ما من أحد يملك إلا ينزعج منها.. لقد لاحظتها (ميمى)، واشتعل وجهها غضبًا.. لم تكن تلك نظرة معجب أو عاشق.. لم تكن نظرة غرام.. ولو كانت لما ضايقني هذا كثيرًا.. أنا قد تعلمت أن أكون عادلًا مع منافسيّ وأن أعاملهم بالشرف الذي أطالبهم به.. لكن النظرة كانت .... هل تأملت في حياتك عينيّ كلب صيد؟ أو عينى طائر جارح يقفو أثر فريسته؟ هذه هي النظرة التي أعنيها هنا.. مخيفة كالتهديد ذاته.. »

من جديد ساد الصمت الذي قطعه سير (ناتانيل) قائلًا:

- « ربما كان من الخير أن نمعن التفكير في هذا، ثم نناقش الموضوع من جديد.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- أولانجا

في السادسة مساءً اتجه المستر (سالتون) إلى (ليفربول) للحاق بموعد؛ عندها أمسك (ناتانييل) بذراع (آدم) وقال:
- »هل لي أن أفاتحك بموضوع ما في مكتبك؟ فلست راغبًا في أن يسمع عمك شيئًا عنه، وهو يتعلق بشدة بما نحن فيه.. »
- »هل لا بد من استبعاد عمي؟ لربما ضايقه هذا.. »
- « ليس ضروريًا لكنه مرغوب فيه.. إنه شيخ وقد يضايقه ما سأقول.. لكن أعدك أنه ما من شيء في صمتنا يثير امتعاضه أو يضايقه.. »
- « استمر يا سيدي.. »
- « إن عمك شيخ لا يتحمل كل ما هو جديد، كأكثر الشيوخ.. أعرف هذا لأننا نشأنا معًا.. وأعرف أن ما سأقوله لك كفيل بأن يثير حفيظته.. ثمة أمور غامضة مريبة في كل تلك الأحداث التي جرت في مقابلتك، وعلينا أن نعمل جاهدين وبصبر، كى نصل إلى نهاية نراها مناسبة.. صف لي بدقة ما قالت وفعلت (ميمى)، وما فعل الخادم الزنجي (أولانجا).. »
- « سأحاول التذكر يا سيدي.. كان (كاسوول) يتكلم وعيناه ثابتتان طيلة الوقت على (ليلا)؛ لكن لم يبدُ لى أنه في سنّه.. كان جبينه مجعدًا كمن يحاول اختراق حجاب ما.. أحيانًا كان وجهه يتخذ طابعًا شيطانيًا مريعًا.. ولقد شحبت (ليلا) البائسة، وبدت كمن يوشك على فقدان الوعي، ثم جاءت (ميمى) وأمسكت بيدها.. لكن الرجل واصل حملقته، وفي النهاية فردت الفتاة ذراعيها وأغشي عليها.. ثم إن الزنجي وقف بيننا، وقد بدا كشيطان رجيم.. لست رجلًا صبورًا، لكن مرأى هذا الرجل في

هذه اللحظة جعل دمي يغلي.. حين رأى وجهي بدا كأنما استشعر الخطر، وغادر الغرفة كما جاء.. لقد تعلمت على الأقل شيئًا، هو أن هذا الزنجي عدو لى..

« ثم إن (كاسوول) غادر الغرفة بنفس الطريقة التي غادرها الزنجي بها، واستعادت (ليلا) رشدها..

« أعرف أن هناك متاعب ستنجم عن هذا الزنجي.. لقد سمعت الكثير عن هذا الرجل.. إن (دافنبورت) سكرتيري الخاص مخلص لى بشدة، وقد طلبت منه أن يبقي على ظهر السفينة (وست أفريكان)، ويعرف ما يستطيع معرفته عن (كاسوول).. ولقد أثار الزنجي دهشته، وعرف عنه الكثير من أحد مضيفى السفينة.. يبدو أن (أولانجا) هذا عظيم الشأن وسط قومه من زنوج الساحل الغربي لإفريقيا.. إن القوم يخشونه ويحبون سخاءه.. لقد كان رجلا (أوبيًّا)[4] مما أتاح له الإثراء عن سبيل الابتزاز.. ثم غدا من سحرة الـ (فودوو) العظام، ومن الواضح أن هذا ضرب من أحط وأحقر أنواع السحر.. يقول البحارة إنه يهوى جمع الطُرف.. ويا لها من مجموعة!! كل ما يصلح للشر في الطير والحيوان والوحوش، وكل ما خُلق ليمزق أو يدمي أو يعذب.. إنها مجموعة تثير الهلع في قلب أعتى الرجال.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحا (آدم) مبكرًا فراح يتنزه في المنطقة.. دنا من (أيكة ديانا)، فرأى تلكم الثعابين التي فتك بها المانجوست أمس، وقد تراصت في صف طويل كأنما يد قد رتبتها هناك.. كانت جلودها لزجة غطاها النمل، مما جعل منظرها مقززًا أغراه بالابتعاد..

بعد قليل – بينما كان يمشي قرب مزرعة (ميرسى) - رأي الزنجي يتحرك في ظلال الأشجار، وفي يده بعض الثعابين بشعة المظهر، يحملها كمناشف متسخة معلقة.. ولم يبد أنه لاحظ (آدم).. وانتظر الفتي بعض الوقت على أمل أن يرى (ميمى) لكنها لم تظهر من ثم عاد إلى داره..

أخذ (آدم) حيوان (المانجوست) عازمًا على أن يعود إلى كومة الأحجار، ليواصل ما قام به أمس من إبادة الثعابين التي بها.. وكان الحيوان قد اعتاده الآن وصار ودودًا، حتى إنه تركه يحمله على كتفه كهريرة لعوب..

من جديد قابل وجهًا آخر هو ليدى (آرابيللا) التي كانت تجد السير غاضبة، مسرعة حتى إنها مرت به ولم تلحظ انحناءته لها..

كان الحيوان هادئًا حتى هذه اللحظة، فما إن دنا من المرأة حتى بلغ به الغضب والهياج حدًّا مريعًا.. وثب من فوق ظهر (آدم) جاريًا نحو ليدى (آرابيللا).. فبدا الامتعاض على وجهها.. وهرع (آدم) بعصاه، لكن قبل أن يدنو بقدر كاف؛ كانت المرأة قد أخرجت مسدسًا وأفرغت رصاصة في الحيوان..

وكأنما لم تقنع بهذا، أفرغت فيه طلقة تلو طلقة حتى انتهت خزانتها..هذه المرّة لم تكن باردة، بل بدت أكثر شراسة من الحيوان ذاته، وعلى وجهها كل أمارات المقت..

لم يدر (آدم) ما يقول أو يفعل، فولي الأدبار نحو (لسر هيل)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- شئون الحياة

في ساعة الإفطار لاحظ السير (ناتانييل) أن (آدم) مهموم شارد الفكر.. لكنه آثر ألا يتكلم لأن درس الصمت لا ينساه الشيوخ أبدًا.. وبعد الإفطار حكى له (آدم) كل ما كان أمس، فبدا قلق جمّ على وجه الرجل.. وراح يدخن وهو يفكر بعمق:

- « دعنا نناقش الأمر بالترتيب.. أولًا هناك المانجوست وهو حيوان لطيف، لم يؤذ سوى الثعابين حتى هذه اللحظة - وهي مهمته في الحياة - ولم يبدُ منه ما ينمّ عن شراسة.. فلماذا قرر فجأة أن يهاجم الليدي (آرابيللا)؟ »

- »ربما لم يوهب المخلوق القدرة على تمييز من يهاجم.. »

- « ربما.. لكن هذا الحيوان لم يهاجم إلا عدوًّا واحدًا طيلة قرون.. فهل لنا أن نفترض حين يهاجم حيوانًا غير مصنف لدينا؛ أن يكون هذا الحيوان يمت بصلة ما لعدوه القديم؟ »

- « هذا منطق جيد يا سيدي لكنه خطر.. ألا يقودنا هذا الاستنتاج أن ليدي (آرابيللا) هي في الحقيقة ثعبان؟ »

- « قبل أن نصل لاستنتاج عجيب كهذا؛ علينا أن نستبعد وجود عامل فيزيائي ما.. لو كانت المرأة لها - مثلًا - رائحة الثعابين فإن هذا يبرر الهجوم بشكل منطقى.. »

- « هذا جائز.. لكن اسمح لى يا سيدي بأن أطرق بعض المواضيع التاريخية أولًا.. »

هز السير (ناتانييل) رأسه مرحبًا، فقال الفتى:

- « لقد تكلمنا عن (أيكة ديانا) و(كاسترا ريجيس) و.. و..، هل من مكان هاهنا لا يحمل طابعًا شريرًا؟ على سبيل المثال مزرعة (ميرسى)؟ »

- »هذا سؤال مهم.. لقد جاء القديس (أوجستين) إلى إنجلترا في عصر الرومان ليحارب الوثنية، وقد استقبله وحماه (إيثلبيرت) ملك (كنت)، الذي بنت زوجته ديرًا للراهبات.. وكان اسم هذا الدير هو (سيدس ميسريكورديو) - بيت الرحمة - وقد امتزج الاسم سريعًا باسم (مرشيا) ليتحول إلى (ميرسى)..
»وازدهر الدير لقرن كامل حتى جاء (بندا) الذي ارتدّ إلى الوثنية، وأحاله إلى أنقاض.. لكن ما زالت مزرعة (ميرسى) تحمل الاسم وروح ذلك المكان بعد قرون طالت.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد الغداء، اقترح (آدم) على السير (ناتانييل) أن يجوّل معه قليلًا، وفهم الرجل سريعًا بحنكة الدبلوماسي أن هناك ما يريد الفتي مفاتحته به..
فما إن صارا وحيدين، حتى قال (آدم):
- « أخشى يا سيدي أن هناك في الجيرة ما يجهل الناس عنه كل شيء هنا.. لقد خرجت اليوم إلى حدود الغابة، فوجدت جسد طفلة ملقى جوار الطريق.. حسبتها ميتة وتفحصت عنقها، فوجدت على عنقها آثارًا ما بدت لى كأسنان.. »
- « ربما كلب مسعور؟ »
- « ربما يا سيدي.. لكنني نظرت حولى فوجدت شيئًا أبيض يتواري بين الأشجار.. لم ألحق به فواصلت فحص الفتاة، ولسروری وجدت أنها حية.. وحين أفاقت قالت - لخيبة أملى - إنها لا تذكر إلا أن شيئًا قد خرج من الأحراش وباغتها معتصرًا حنجرتها.. »



لكنني نظرت حولي فوجدت شيئًا أبيض يتوارى بين الأشجار ..
لم ألحق به فواصلت فحص الفتاة ..

- »وباغتها معتصرًا حنجرتها! إذن لم يكن كلبًا.. »
- « ولعلك لاحظت يا سيدي المسار المتلوي الذي تتحرك به ليدى (آرابيللا).. حسن.. ثمة ما يدعونى للشعور أن الشيء

الأبيض الذي رأيته يتوارى، هو سيدة (أيكة ديانا) ذاتها! »
- « يا إلهي الرحيم!! خذ الحذر فيما تقول يا بني.. »
- « نعم يا سيدي.. أعرف جيدًا خطورة ما أقول.. لكني واثق من أن العضّة في عنق الفتاة أحدثها إنسان لا حيوان.. »
صمت العجوز برهة ثم قال بعد تفكير:
- « لعمر الله هذه مسألة خطيرة يا بنىّ العزيز.. ولقد صارحني عمك بأن كثيرين قد اختفوا بلا تفسير في هذه البقاع.. وأن حيوانات كثيرة وجدوها جريحة أو ميتة فوق الكلأ.. ولا أكتمك سرًا أنني اشتبهت في ليدى (آرابيللا) كثيرًا، لهذا سألتك عن حيوان المانجوست وعن نظرتها إذ رأته.. لماذا اشتبهت في امرأة مثلها جميلة كريمة؟ لقد عرفت أسرتها طويلًا، وفي طفولتها ضلت الطريق ودخلت دغلًا قرب دارها.. وجدوها فاقدة الوعي محمومة، وقال الأطباء إن في بدنها عضّة سامّة، وإن من العسير أن تشفي.. لكن الفتاة شفيت فجأة وبطريقة مذهلة.. لكن - لذعر أهلها - بدأت تكتسب قسوة غير عادية وولعًا بإيذاء المخلوقات الصغيرة..
»حسب الكلّ أن زواجها من الكابتن (مارش) سيشفيها، لكن هذا لم يحدث حتى وُجد الرجل وطلقة رصاص في رأسه.. لم يكن هناك مسدس، لكن الانتحار كان هو ما حسبه الجميع.. »
- »هذا يضع الحقائق جوار بعضها.. ويمكن القول إن الدودة البيضاء قد استحوذت على روحها وجسدها معًا.. ويعلم الله وحده ما اكتشفه الكابتن (مارش) من هول، حتى قرر إنهاء حياته بنفسه.. »
- « ليس بوسعنا عمل شىء يا بنيّ سوى الانتظار والحذر.. »
هز (آدم) رأسه موافقًا وعاد الرجلان إلى (لسر هيل).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- رائحة الموت

قرر (آدم) أن يوفد (دافنبورت) إلى (ليفربول)، ليعرف ما بوسعه عن الخادم الزنجي (أولانجا).. ويرتب قدومه إلى داره، حيث يحاول إقناعه أو رشوته، ليعرف منه المزيد عن أفكار الفودو وأساليبه، علّه يقوده إلى شيء مفيد.. وكان على (دافنبورت) كذلك أن يبتاع حيوان مانجوست آخر.. وقرر (آدم) أن يبرز (دافنبورت) تمامًا في الصورة ويتوارى هو، حتى تصل الأمور إلى نقطة تتطلب تدخله..

وعرف (آدم) أن للزنجي موهبة خاصة هي - لو كان صادقًا - أنه يشمّ رائحة الموت.. يعرف بسهولة تامّة ما إذا كان هناك موتى في أي مكان يقصده.. وهي موهبة أحس (آدم) بنفعها، وقرر أن يجعل الرجل يمشي مع (دافنبورت) في أماكن بعينها..

وفي اليوم التالي وصل صندوقان من (روس)، أحدهما يحوي مانجوستًا جديدًا، والآخر به المانجوست بعينه الذي قتل الكوبرا الملك في (نيبال).. وهنا فقط أحسّ (آدم) براحة..

ومضت الأحداث كما قدّر لها (آدم).. لقد توقف الزنجي عند (أيكة ديانا) و(كاسترا ريجيس) ومزرعة (ميرسى)، واتسعت فتحتا أنفه كأنما يتشمم، وقال إنه يشم رياح الموت، وبدا عليه إجلال شديد، مع تهيب واضح، عندما كان في (أيكة ديانا) بالذات..

عاد (آدم) إلى (لسر هيل) راضيًا وقد شعر بالراحة، وفي مكتبه دخل عليه سير (ناتانييل)، فراح الأخير يسأله عن آخر أخباره ثم قال

- « بالمناسبة.. نسيت أن أقول لك شيئًا مهمًا:

« ثمة في تاريخ آل (كاسوول) ما يدعوني للاعتقاد بأنهم يملكون منذ دهر سحيق قوي منوّمة ما.. لا بد أن عينا خبيرة في فنون الفراسة القادرة على استخلاص هذا من سماتهم.. وقد كنت أنت على حق حين وصفت لقاء نظراته بالفتاة بأنها كلقاء الصقر واليمامة.. »
»لقد قرأت كتابًا لـ (إزرا توم) بعنوان (ميرشيا وثرواتها).. وفيه لاحظ الكاتب في اهتمام، أن (كاسوول) الجدّ، كان تلميذًا لـ (ميسمر)[5] في باريس.. وتعلم منه أدقّ أسرار علمه.. ويقول إن (ميسمر) حين غادر البلاد ترك مع تلميذه كثيرًا من كتبه وأجهزته الكهربية.. وهو كرم لم يُعرف عن (ميسمر) من قبل.. »
ولما جاء الغسق، احتمل (آدم) حيوان المانجوست - ليس النيبالي - واتجه إلى (أيكة ديانا)، وللمرة الثانية قابل ليدي (آرابيللا) في ثوبها الأبيض الشهير..
ولدهشته البالغة، تركها المانجوست تداعبه وتحمله بين ذراعيها في رفق.. ومشيا معًا في اتجاه واحد.. كانا يمشيان في الطريق الدائري المحاط بأشجار كثيفة، وكان المكان ظليلًا والرؤية عسيرة بحقّ..
وفي لحظة ما لم يعد (آدم) يراها.. توارت بين الغصون.. ثم عادت للظهور أمام عينيه، في ظلّ شجرة بلوط، ولم يكن المانجوست معها.. سألها (آدم) عنه فقالت:
- »انساب من بين ذراعيّ واختفى خلف السياج.. »
ووجدا الحيوان البائس في نقطة يتسع عندها الطريق.. كان قد تغير كثيرًا جدًّا.. لم يعد بحيويته السابقة، بل بدا كسولًا شبه غاف..

واحتضن (آدم) حيوانه البائس ورفع قبعته محييًا المرأة، ثم جدّ السير إلى (لسر هيل) وسرعان ما غابت المرأة عن عينيه في الظلام..

وفي المساء سمع (آدم) ضوضاء عالية من الصندوق الذي وضع فيه حيوانه المريض، فى حجرته المغلقة بالمفتاح.. ففتح الصندوق ليجد أن المانجوست ميّت، وقد بدا واضحًا تمامًا أن هناك من خنقه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- الطائرة الورقية

في الصباح التالي بدأ خطر واضح يتكشف.. ومن كل صوب في الأقطار الغربية، جاءت الأخبار عن هجرة غير عادية للطيور، وراح الخبراء مع الجهات الحكومية يرسلون بتقاريرهم، ويقترحون الحلول المناسبة..

وكانت التقارير الدانية أكثر إرعابًا.. فالطيور تزداد كثافة من كل الجهات الأربع، وكان بعضها يرحل، لكن العدد الكليّ - كان بلا شك - في زيادة مطردة.. ولم يتوقف هدير الأجنحة قط، ولم يكف أي باب لإيقاف الضوضاء، حتى إن آذان السامعين أصابها ما يشبه الصمم.. ضوضاء يفعمها الحزن والرتابة والشجن، حتى إن الجميع اشتهى أي تغيير مهما كان..

وفي الصباح التالي ازدادت التقارير بشاعة، وغدا الفلاحون يتهيبون قدوم الشتاء، بسبب جدب الأراضي، وهلاك المحاصيل.. لكن هذا كله لم يكن سوى إنذار بالشر، وليس الشر ذاته.. لقد صارت الأرض عارية تمامًا لا تراها إلا حين ينجح صوت ما في إفزاع الطيور..

وراح (إدجار كاسوول) يحاول جاهدًا أن يجد وسيلة تخلصه مما بدا له ولجيرانه كوباء من الطيور.. هداه تفكيره إلى تذكّر تجربة قام بها فلاحو الصين عند منبع نهر (يانجتسى كيانج).. ففي موسم نضج الأرز هجمت ملايين الطيور مهددة لا الريف فحسب، بل والبلد بأكمله.. وقد عرف الفلاحون كيف يتوقّوا هذا الخطر.. صنعوا طائرة عملاقة من ورق، تبدو كصقر عظيم.. وجعلوها تطير فوق مركز الغزو، فما إن رأتها الطيور حتى فرت خائفة وتوارت عن العيان..

لذا أمر (كاسوول) رجاله باصطناع طائرة عملاقة تشبه الصقر في معالمها.. وقاموا بتطييرها في السماء، من ثم راحت الطيور تفرّ مذعورة وتوارت تمامًا.. لكن ما تلا ذلك كان أكثر شرًّا وخطرًا.. لقد ساد صمت مريع، وبدا أن الطيور لم تكن هي وحدها ما صمتت، بل الحيوانات كلّها، وكفت الماشية عن الخوار والثغاء.. صمت مخيف كئيب أشد وقعًا من كل الأصوات مهما بلغ رعبها..

وفي أرجاء البلاد راح المؤمنون يبتهلون لله كي يخلصهم من هذه العزلة الأليمة، وساد اكتئاب عامّ، بدا في وجوه الرجال الواجمة الخالية من الحياة، وفي عجزهم التامّ عن التعبير عن أفكارهم..

ظل ذلك الشيء - الطائرة الورقية - يحلق في السماء كأنه وباء شيطانيّ.. بدا كأنه فكرة معادية للبشرية هوت فوق رءوس العباد، وسحقت تحتها كل أمل..

بدا كأن كلمات الناس مكبلة كأرواحهم، وكأنهم يمام وجد هذا الصقر المريع يحوم ليل نهار فوقه.. وراح (كاسوول) يفكر في طريقة للخلاص من هذا الشرّ المتمكن من البلاد.. فكر مرارًا في أن ينزل الطائرة الورقية، لكن هذا بدا مستحيلًا.. وفي كل مرة كان يحاول هذا، كانت الطيور تنقض بالملايين، وتنهال توسلات القوم على (كاسترا ريجس) كي يعيد الطائرة للسماء..

كانت طبيعة ليدي (آرابيللا) الباردة قد حمتها من التأثر بكل هذا، وكذا كان (كاسوول) متغطرسًا قاسيًا لا يمكن أن يبالي بمعاناة الآخرين..

أما (ليلا) فكانت تعاني بفظاعة، وبمرور الوقت ضمر وجهها، وخوت عيناها من التعبير.. وكذا تأثرت (ميمى)، لكنها قررت أن تتماسك وتصبر، وكانت زيارات (آدم) خير عزاء لها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- صندوق (ميسمر)

وبعد أسبوعين غدت الطائرة الورقية مصدر استمتاع دائم لـ (كاسوول)، وراح يمضي الساعات في مقعد مريح بالبرج، يراقبها في تلذذ كأنه طفل.. وبدا للجيران كمن جنّ.. لقد صارت الطائرة وسواسه الوحيد.. وكان هناك دومًا رجل على البرج، في أية لحظة من اليوم، ليعني بها..

كان للطائرة حبل طويل جدًّا، مما جعلها أحيانًا تعلو لارتفاعات لا تصدّق، أو تسافر لمسافات لا توصف.. وتدريجيًّا بدأ (كاسوول) يضفي عليها صفات شبه آدمية.. وبدأ يمارس لعبة الصبية القديمة، بأن يرسل للطائرة عبر خيطها قطعًا من الورق مثقوبة في المركز، من ثم تحمل الريح تلك القطع إلى الطائرة مهما كان ارتفاعها..

وجن جنونه أكثر، فراح يرسل خطابات كاملة إلى الطائرة!، ثم بدأ يكلمها بشكل مباشر.. وساعد الارتفاع الهائل، وشموخ البرج، والريح العاصفة، في جعل عقله يذوب ببطء لكن بإصرار.. وقرر أن يضع في البرج أشياء من غرائب القلعة، التي تركها الورثة القدامى لتراها الطائرة الورقية: رفاتًا من المقابر الفرعونية.. طرائف من أستراليا والبحار الجنوبية.. أصنامًا هندية وفارسية.. وأسلحة من كل شكل وحجم.. مدى الأفغان ذات الحدين، وخناجر الصينيين، وحبال خناقي الهند، وسيوف السفاحين في إيطاليا وأسبانيا.. بل وحيوانات سامة أو مفترسة تم تصبيرها، وأنواعًا من الفطر السام، وزجاجات السمّ الزعاف.. كان معرضًا مريعًا يثير الهلع في أعتى القلوب، لكنه راق للعبد الزنجي، الذي

راح يمضي في البرج وقتًا أطول، واستسمح سيده كى يسمح له بالعناية بكل تلك الغرائب، فوافق هذا..
وراح (كاسوول) يبحث عن جديد يضيفه إلى هذه الطرائف المريعة؛ فدلّه القوم على من يدعي (سيمون تشستر) فهو يعرف كل شيء عن البيت..
أرسل يدعو الشيخ إليه.. وكان هذا قد جاوز التسعين من العمر، بالغ الوهن، خدم في القلعة طيلة حياته.. فلما استجوبه (كاسوول)، بدا ذعر شديد على وجه الرجل، مما استشعر معه (كاسوول) أن الرجل يدارى شيئًا..
ولما شعر الرجل ألا مفر له من الكلام، تكلم أكثر مما توقع سيده:
- »حقًّا يا سيدي كل شيء هنا في هذه القلعة ما عدا.. ما عدا..-
وراح يرتجف في رعب - ما عدا الصندوق الذي جلبه من كان يدعى مستر (إدجار) معه من فرنسا، بعد ما كان مع المستر (ميسمر).. إن الصندوق في غرفتي لكني سأجلبه هاهنا.. »
- »وماذا فيه؟ »
- « لا أدري.. ثم إنه صندوق خاص، لا توجد طريقة معينة لفتحه.. ولا يوجد به ثقب مفتاح.. »
- « إلىّ به.. وتعال أنت أيضًا معه.. »
وجاء رجلان بالصندوق الثقيل المغلق.. فانفرد (كاسوول) بالعجوز وقال:
- « هل أنت واثق من أنك لم تفتح هذا الصندوق؟ »
- »محال يا سيدي.. كيف أجرؤ؟ لقد كان أمانة ائتمننى سيدى عليها، وما كان لي أن أخونها.. »
- « إذن دعه معي.. وأغلق الباب.. لكن.. هل لمَّح أحد لك بما يمكن أن يحويه هذا الصندوق؟ »

شحب وجه الشيخ وضم يديه كمن يتوسل وقال:
- « الحق يا سيدي أنني أرجوك ألا تفتحه.. هذا الصندوق يحوي في الغالب أسرارًا علّمها دكتور (ميسمر) لسيدي السابق.. وفيها الخراب كما يقولون.. »
- »هذا كاف.. يمكنك الانصراف إلى غرفتك إلى أن أدعوك.. »
وعاد (سيمون) العجوز أدراجه يرتجف رعبًا، لكنه لم ينبس ببنت شفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- الصندوق يُفتح

وحيدًا في غرفة البرج، أغلق (كاسوول) الأبواب، وسدّ ثقب الباب بمنديل، ثم عكف على فحص الصندوق بعدسة مقرّبة..لم تكن هناك من وسيلة لفتحه، وكان الليل قد دنا، فقرر أن يتركه حيث هو وينام.. على أن يبدأ المحاولات صباحًا..

وفي الصباح قضي يومًا كاملًا في محاولات عقيمة.. ثم طلب أن يرسلوا له رجلين قويين، ليحملا الصندوق إلى غرفة نومه، وهناك أمضي الليل جالسًا، وقد استحال عقله محمومًا في دوامة من الاستثارة..

لعب الظلام والصمت دورهما، وراحت آلاف الأفكار المنسية والذكريات تتزاحم هناك في عقله الواهن.. أخيرًا رُزق بنوم هادئ منتظم أراح جسده المنهك وعقله المتوتر..

صحا من نومه بحركات آلية، كأنما يطيع تأثيرًا أقوى منه، فوضع الصندوق على منضدة هنالك.. لقد اقتضاه هذا العمل قوة، كان يعرف أنها تفوق كل قدراته الطبيعية.. كل شيء كان سهلًا، وبشكل ما - وإن كان لا يذكر كيف - وجد الصندوق بين يديه مفتوحًا..

فتح الباب واتجه إلى البرج، وبنفس الكيفية كان يحمل الصندوق.. كان عقله في غيبوبة تامة، لكنه كان يعرف أن الصندوق بالغ الثقل.. وبدا له هذا غريبًا.. كان يدرك جيدًا أنه مازال نائمًا، وأنه يطيع أمرًا لقوى لا يراها، أكثر من أن ينفذ إرادته الخاصة..

بدأ يخرج المحتويات - التي كان أكثرها أشياء معدنية وزجاجية - ويركبها ببراعة لم يعرفها عن نفسه من قبل.. ولم يدر متى فقد

الوعي من الإرهاق الذهني والعصبي..
وفي الصباح نهض من النوم ليجد أنه في غرفة نومه، والصندوق كان بجواره في مكانه المعتاد! وكان مغلقًا..
واصل النوم حتى الظهر ثم صحا جائعًا، فأكل بشهية وواصل النوم من جديد.. وعندما جاء المساء صحا ليجد أن الظلام يحيط به، وأن الصندوق مفتوح دون أن يتذكر متى فتحه ثانية، وأن جواره قطعة، مما بدا له كجزء مهشم من عجلة زجاجية..
واصل (كاسوول) تجاربه مع الطائرة الورقية، وبدأ يحاول أن يرسل لها عبر الخيط أجسامًا أكثر ثقلًا من الورق.. وقد وجد أن الطائرة قادرة على جذب هذه الأجسام.. ثم جازف أكثر ففكر في إرسال أحد الأشياء المعدنية والزجاجية التي وجدها في الصندوق.. وجد شيئًا راق له من قبل؛ هو تمثال فرعونى لـ (بيس)Bes الذي كان الفراعنة يزعمون سيطرته على قوى الطبيعة المدمرة.. كان التمثال أثقل مما يوحي به حجمه، وقد فحصه بدقة، فوجد أنه منحوت من حجر ممغنط.. وتذكر أنه قرأ شيئًا كهذا في كتاب السير (توماس براون) المُسمّى (شائعة)، وهو كتاب يعود للقرن السابع عشر..
أثارت غرابة التمثال شهيته، بالإضافة إلى قربه من طبائعه الخاصة.. ودفعه هذا دفعًا إلى أن يربط التمثال في حلقة من خشب، ويرسلها عبر الحبل إلى الطائرة المُحلّقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- هلاوس أولانجا

في الأيام القليلة الماضية نفد صبر ليدي (آرابيللا) للغاية.. ازدادت ديونها ولم يعد لديها من أمل سوى الظفر بزيجة ثرية.. لكن الزوج الذي اختارته لنفسها لم يتحرك قط بالسرعة التي أرادتها.. بالواقع لم يتحرّك قط في الاتجاه الذي أرادته، ولم يصر (إدجار كاسوول) عاشقًا متيمًا بها.. والمشكلة بالنسبة لها، هي أنها أظهرت اهتمامها به أمام الجميع، وبما يتجاوز حدود الكبرياء الشخصية.. بالتالي لم يعد لديها من سبيل للتراجع..
كانت ليدي (آرابيللا) باردة بطبعها، مستعدة لأي شيء – بما فيه الإهانة - كي تصير سيدة (كاسترا ريجيس)، وكانت قد فهمت ميل الرجل الطبيعي إلى (ليلا).. لكنها كانت واثقة في أنوثتها.. إن (كاسوول) بعد كل شيء هو مجرد رجل..
في الآن ذاته كان هناك من يضع الخطط في (كاسترا ريجيس) شاعرًا أنها توشك على النجاح.. كان (أولانجا) وغدًا معدوم الأخلاق، وقد أدرك أن أمامه طرقًا لا بأس بها للترقي في هذا المنزل.. وقد رأى بوضوح، أن ليدي (آرابيللا) تنصب شباكها حول سيده، وبصبر راح يرتقب ما يسفر عنه هذا.. كان ككل من في القصر، قد لاحظ العناية القصوى التي يتم بها حمل الصندوق من وإلى البرج، وقرر أن هذا يعني أنه مفعم بالكنوز.. لهذا قدّر أن المرأة ترغب في سرقة هذا الكنز..
والحقيقة الأخرى هي أن (أولانجا) كان متيمًا بحبّ ليدى (آرابيللا)، بالعنف والجنون، اللذين يتناسبان مع طباعه الهمجية الشرسة، وكان يحلم بأن يتزوجها ويعيش معها في وطنه

في الأدغال، لكن المرأة رفضت حبه في اشمئزاز وتعال، مما أورثه حقدًا بالغًا عليها[6]..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد محاولات كثيرة وأوراق عديدة ممزقة، كتبت ليدي (آرابيللا) خطابًا إلى (إدجار كاسوول) تقول فيه:

عزيزي مستر كاسوول:
أبغى الكلام معك في موضوع أحسبه يهمك.. فهل تتكرم بطلبي في أي يوم يناسبك بعد الغداء - وليكن في الثالثة أو الرابعة عصرًا - لنذهب معًا إلى مزرعة (ميرسى) حيث (ليلا) و(ميمى)؟ لا تحضر خادمك الزنجي معك، فهو يثير هلع الفتاتين.. وبعد كل شيء هو ليس جميلًا.. ألا ترى هذا؟ أعتقد أن هذه الزيارة بالذات ستسعد فؤادك.

المخلصة
ليدي آرابيللا

وفي اليوم التالي في الثالثة والنصف، جاء (كاسوول) إلى (أيكة ديانا) ليلقى ليدي (آرابيللا)، وكانت تنتظره جوار البوّابة.. من ثم اتجها إلى مزرعة (ميرسى) معًا.. وكان (أولانجا) متواريًّا يراقبهما كما أمره سيده..



وكان (أولانجا) متواريًا يراقبهما كما أمره سيده :

قالت ليدى (أرابيللا) دون مواربة : ـ « حسن . . .

قالت ليدي (آرابيللا) دون مواربة:

- »حسن.. إن الخطر الحقيقي عليك لا يجيء من (ليلا)، فالفتاة هشّة وقد صارت لك.. الخطر يأتي من (ميمي).. لهذا أبق عينيك

عليها وحاصرها.. ولسوف أشتت أنا انتباهها بشدة كلما شعرت أنها تقاوم نظراتك!! »
استقبلتهما الفتاتان.. ومن جديد تكرّر صراع الأرواح السابق.. لكن (آدم سالتون) لم يكن هاهنا، ولكم افتقدت (ميمى) دعمه النفسي لها..
كانت أصوات الحفيف آتية من بعيد.. صوت المروج التي تهشمت أوراقها، فقد كان فصلًا بالغ الجفاف.. ومعها أصوات ملايين الطيور تهمهم.. تغتال الصمت المخيف الذي حلّ بالبلاد..
نظروا إلى السماء مدهوشين لسماع هذا الصخب بعد ما نسوه زمنًا، هنا رأوا الطائرة الورقية العملاقة فوق برج (كاسترا ريجيس) تفلت من حبلها.. تتلوى في السماء.. ثم تسقط..
شحب وجه ليدي (آرابيللا)، وأوشكت على السقوط أرضًا.. وتساءلت في رعب:
- « ما كان هذا؟! »
أما (كاسوول)، فكان أول من استعاد رباطة جأشه، برغم المشهد المروع لسقوط طائرته الحبيبة.. وبدورها عادت (ميمى) لصوابها.. وكان لديها يقين تام أن صراع الإرادات بينها و(كاسوول)، هو في حقيقته صراع بين الخير والشر.. لقد وجدت في سقوط الطائرة وعودة صوت الطيور دليلًا ملموسًا على رجحان كفة الخير.. وأمدها هذا بعزيمة لا شك فيها.. في ثبات قابلت نظرات (كاسوول) وأرغمته على التراجع إلى الباب مع صاحبته.. كان غير قادر على المقاومة أو التركيز أكثر وكذا كانت ليدى (آرابيللا)..
هنا انفتح الباب ودخل (مايكل واتفورد) – جدّ الفتاتين - فلم ير شيئًا غريبًا لأن الجميع استعاد السيطرة على أعصابه بسرعة

شديدة..
قال إذ رأي التساؤل في عيونهم:
- « هذا صوت الحمام في هجرته السنوية من إفريقيا.. قيل لي إن هذا الصخب سينتهي سريعًا »
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (كاسوول) يغلي غضبًا.. وكانت (ميمى) هي مركز أحقاده الأول، لأنها جعلته يفشل.. بعد هذا كان يحقد - بلا سبب - على (ليلا)، تلك البريئة الطاهرة، التي تشبه اليمامة في طباعها ولون ثيابها، والتي لم يحو قلبها قط سوى الحب..
بعد هذا بمسافة يجيء دور (آدم سالتون).. ولم يكن (كاسوول) يحمل ضده ضغينة مباشرة، لكنه اعتبره عقبة يجب تدميرها.. لم يكن (كاسوول) يفهمه، وكان هذا سببًا كافيًا لكراهيته..
أعاد الرجال الطائرة الورقية إلى موضعها، وعاد (كاسوول) يمضي الوقت في مراقبتها.. ويجرب إرسال أجسام أثقل فأثقل عبر السماء بوساطة حبلها.. ومن حين لآخر كان يعاود تفقد صندوق (ميسمر)..
في ذات يوم وجد في الصندوق ما راق له.. كان هذا الشيء هو سلك رفيع جدًّا كشعرة رأس.. يلتف حول عجلة دقيقة الصنع، وخطر له أن يرسل هذه البكرة إلى الطائرة عبر الخيط.. لكن الغسق كان قد جاء، وكان عليه أن يثبت ثقلًا إلى هذه البكرة كى لا تفلت، حتى يجيء الصباح ويبصر ما يفعله..
ولما لم يجد ما يصلح، استعمل ذلك التمثال الفرعوني الممغنط لـ (بيس)، ثم دخل لينام ونسى الأمر برمته..
لكن شعورًا غريبًا بعدم الراحة داهمه طيلة الليل، وإن كان النوم لم يجافه، لأنه شعر بأنه نام حقًّا.. وفي الصباح أثار ذهوله أنه لم

ير الطائرة في موضعها المألوف؛ بل وجدها في الناحية الأخرى من البرج تصارع الريح الغربية..
كان هذا غريبًا إلى حد أنه قرر فهم ما حدث، وأن يحتفظ به سرًّا في ضميره..
كان يجيد استعمال آلة السدس، حتى غدا خبيرًا في أسرارها، وقد استعملها الآن ليحدد بدقة مكان الطائرة وزاويتها.. وأثار دهشته أن الطائرة تشير بدقة إلى (أيكة ديانا).. لم يرد إقحام ليدى (آرابيللا) في الأمر لأسباب لم يفهمها.. لكنه في اليوم التالي وجد الطائرة تحلق باتجاه مزرعة (ميرسى)..
راق له هذا التبدّل.. لكن سببه ظلّ سرًّا مستغلقًا عليه.. وبعد أيام طويلة قضاها بالكامل في البرج، قرر أن يطلب رأي أولانجا.. لكن قيل له إن العبد لم يظهر منذ ليلة أمس..
كان متوترًا، ويشعر بحاجة ماسة إلى من يتحدث إليه؛ لذا أرسل في طلب (سيمون تشستر).. وجاء الأخير قلقًا، منقطع الأنفاس، يتوجس من هذا الاستدعاء المفاجئ..
ما إن هدأ العجوز، حتى كرر (كاسوول) سؤاله عما إذا كان قد فتح الصندوق أو يعرف محتواه..
هنا امتقع وجه العجوز، وتلاحقت أنفاسه وعلى الفور غاب عن الوعي..
حاول الخدم إفاقته دون جدوى.. وجاء الطبيب فتفحص العجوز.. كانت نظرة واحدة كافية كي يعرف، لكنه أمضى وقتًا لا بأس به يتفحص الجسد، قبل أن ينهض ويقول بصوت مبحوح:
- « يؤسفني يا سيدي أن أقول إن الرجل قد توفي.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- في الأثر

شعر من عرفوا (إدجار كاسوول) وخبروا برود طباعه، بدهشة بالغة للمدى الذي تأثر به الرجل لموت العجوز، وحسبوا هذا نوعًا من رقة القلب على خادم عجوز مخلص لأسرته.. ولم يفهموا أن الأمر لم يزد على حزن أناني لفقدان دليل مهم.. جزء شائق من تاريخ الأسرة سيغلفه الغموض للأبد..

وكانت لدي ليدي (آرابيللا) لعبتها الخاصة.. لقد قررت أن هذه فرصتها لتلعب دور الصديق العطوف المخلص، وقد لعبته ببراعة إلى حدّ أن (كاسوول) نفسه تأثر كثيرًا..

وفي ذلك الصباح، كان (آدم) قد خرج يتفقد المكان ومعه حيوان المانجوست في صندوقه.. ووصل إلى بوابة (أيكة ديانا)، في الوقت ذاته الذي كانت فيه ليدي (آرابيللا) تتهيأ لتنطلق إلى (كاسترا ريجيس).. رأت (آدم) من نافذتها فقررت أن تلحق به متوارية في ظلال الأشجار، لتعرف وجهته وغرضه..

وبدوره تحرك (أولانجا) في إثرها.. وكان يجيد إخفاء آثاره أكثر منها..

رأى (آدم) يحمل على كتفه صندوقًا غريب الشكل، قدّر أن ما به عظيم القيمة.. ولما كانت ليدى (آرابيللا) تقفو أثره، فقد قدّر أن غرضها - هو ببساطة – السرقة..

اتجه (آدم) إلى (كاسترا ريجيس)، فرآها (أولانجا) تتبعه في سريّة تامة.. كان تفكيره منحصرًا في المرأة، فلم ير أن (آدم) قد دخل ممرًا فرعيًا يتجه للطريق الرئيسي..

وفي هذا الصباح بالذات لم يكن (كاسوول) قد نال نومًا طيبًا.. تناول إفطارًا مبكرًا، وجلس جوار النافذة يتأمل الطائرة ويفكر..

فجأة رأى ذلك الصف من المتسللين يدخلون إلى أرضه، ثم يتفرقون.. توارى (أولانجا) بين الأشجار، لكن (كاسوول) رأى أنه مازال دانيًا يراقب....
أما ليدى (آرابيللا) فقد انسلّت من الباب المفتوح، بعدما تلفتت حولها في حذر، فلم يعد يراها.. ثم سمع طرقة خافتة على الباب، وانفتح الباب ببطء ليتبدي منه ثوب ليدى (آرابيللا) الأبيض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15- زيارة تعاطُف

دهش (كاسوول) بشدة لرؤية ليدي (آرابيللا)، برغم أنه كان يجب أن يتوقع قدومها.. كانت دهشته واضحة، حتى إن المرأة ارتبكت قليلًا.. لكنها كانت جريئة سريعة الخاطر، وبدأت الكلام حالًا..

- « قد جئت لأقدم لك تعاطفي الشديد مع الحزن الذي خبرت مؤخرًا.. الخادم العجوز الذي توفي.. »

استرخى وجه (كاسوول) وزال بعض من دهشته، وقال:

- « آه.. لم يكن سوى خادم.. وقد تجاوز التسعين من العمر! لربما أبقاه من كان هنا، لأن طرده فضيحة. »

بحثت عن ذريعة أخرى للكلام، فهداها تفكيرها إلى موضوع شخصى:

- « أنا آسفة.. أنت تعرف أنني غير تقليدية، لكننى - في الآن ذاته - لم ألفظ التقاليد، وأرى أن الوقت غير مناسب لهذا الاقتحام لخلوتك.. »

وبرغم كل شيء كان (كاسوول) جنتلمانًا، فأعلن أنه يرحب بها في أي وقت.. قالت وهي تبتسم بلطف:

- »الحق أنك تجعل المرء يشعر براحة بالغة.. »

وحكت له تفاصيل ملاحقات الزنجي لها، فقال لها في فهم:

- « إليك هذه النصيحة.. لو ضايقك أدنى عيب في هذا الزنجي المنحطّ؛ أطلقي الرصاص عليه حالًا! إن القانون لا يعبأ كثيرًا بحياة السود.. ولو قلّ عددهم قليلًا فلا مشكلة هنالك.. »

- »هذا يريحني.. فأنا لا أحب الزنوج.. والآن قل لي.. هل سامحتني؟»

- « بالطبع يا عزيزتى لو كان هناك ما أسامحك عليه.. »
واتجهت للباب فاصطحبها بعدما أعطاها ذراعه بطريقة طبيعية مهذبة..
وإذ اتجهت لدارها، كانت تبتسم في سرها راضية وقالت لنفسها:
- « حسن.. على الأقل لم يضع الصباح سدى.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد (آدم) إلى داره، فوجد السير (ناتانييل) يوشك على الانتهاء من وجبة غدائه - ولم يكن عمه موجودًا - فجلس معه، ثم دخل الرجلان إلى غرفة المكتب يدخنان ويتكلمان..
قال السير (ناتانييل):
- « ثمة شيء مهم تذكرته عن (أيكة ديانا)، ولربما ينير لنا طريقنا في هذا البحث الغامض.. هل رأيت البيت هناك؟ »
- « فقط من الخارج، لكنني أذكره جيدًا وأستطيع أن أركب عليه ما تقول.. »
- « إن البيت عتيق حقًّا.. ربما أول ما كان هنا من عهد الرومان.. لكني لا أحسب الأساسات أقدم من عهد غزو النورمان.. ولقد تفحصته جيدًا حين اشتراه الكابتن (مارش)، وكان إعداده جاريًا من أجل العروس القادمة.. إن أساساته قوية جدًّا فكما قلت لك كان من المفروض أن يكون هذا حصنًا.. في البدروم توجد غرف عديدة، لكن واحدة منها أثارت شغفي بالذات.. لقد تم تدعيم جدرانها بشكل مُبالغ فيه.. وفي وسطها حفرة عميقة كالبئر.. لكنه بئر بلا مرفاع ولا حبل ولا شيء من أي نوع.. ونحن نعرف أن الرومان كانوا يحصلون على الماء من آبار مهولة العمق، ربما يصل عمق بعضها إلى ثلاثة آلاف قدم..

»باب الغرفة ثقيل جدًّا عليه مزلاج هائل، ومن الواضح أن هذا بغرض حماية شيء أو شخص من خطر ما.. وهنا أفترض أن هذه البئر كانت هي الفتحة التي تدخل وتخرج منها الدودة البيضاء، أيًّا ما كان كنهها..

»كان عليّ وقتها أن أتقصّى ما بداخل تلك البئر، لكن طلبى قوبل بالرفض.. وسرعان ما نسيت المسألة.. »

- »وهل تذكر يا سيدى كيف كانت الغرفة تبدو؟ »

- « لم يكن بها شيء سوى ضوء أخضر غريب، لم أر مثله من قبل، ويجيء من أعماق البئر.. كانت هناك درجات ملساء من كثرة الاستعمال، حتى كدت أتعثر وأسقط في البئر.. كانت هناك كذلك رائحة كريهة تذكرني برائحة قاع السفن، وكانت مثيرة للاشمئزاز بشكل خاص، تدفع إلى القيء.. »

- « أهذا كل شيء يا سيدى؟ »

- « هذا ما أتذكره الآن يا بني، ولسوف أخبرك بعد العشاء بكل ما أتذكره عن هذا الموضوع.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16- لغز الأيكة

أزمع (آدم) أن يتوجه إلى (أيكة ديانا) ليتقصى الأمور قليلًا.. ولذا اتجه خلسة إلى هناك وهو يأمل في ألا يراه أحد من خدم ليدى (آرابيللا)..
كانت الأشجار الكثيفة في صالحه، فما إن وصل إلى طرف المنزل، حيث ينحدر الجدار الصخري، حتى رأي الزنجي (أولانجا) يكمن خلف جذع غليظ لشجرة بلوط عظيمة.. وكان منهمكًا في المراقبة، مما منح (آدم) مزية أن يرى دون أن يُرى..
كان الزنجي يحمل فانوسًا صغيرًا، يسلط ضوءه إلى أسفل حيث المنحدر.. وفي الضوء بدت بضع درجات تنتهي عند باب حديدي في الصخر.. ازدحمت على الفور في ذهن (آدم) كل القصص الغريبة التي سمعها من سير (ناتانيل)، وبفضول راح يرقب ما عساه يحدث..
كان الزنجي يرفع الفانوس محاولًا جهده أن يرى ما وراء الباب من فرجة في أعلاه.. فلما فشل، قبع جوار الباب ينتظر.. في الغالب ينتظر أن يدنو أحد ليدخل من الباب..
ثم ظهرت ليدى (آرابيللا) قادمة من الظلمة بلا صوت.. حين رآها الزنجي دانية، خرج من مخبئه وتكلم معها همسًا.. الهمس الذي بدا فى الظلام الكئيب كهسيس..
- « لا أريد الحديث معك يا سيدتي.. »
استدارت نحوه بعينين تلتمعان، وقد التمع اللون الأخضر فيهما كالزمرد..
- « اسمع.. لو كان هناك شيء مهمّ لديك، يمكنني سماعه هنا في الساعة السابعة.. »

جثا الزنجي على ركبتيه، وراح يتكلم بصوت خفيض.. ومن مكانه راح (آدم) يرقب المشهد الغريب، والدهشة تغمره، ثم أزمع أن هذا كاف، وقرر العودة إلى (لسر هيل)، على أن يكون هنا متواريًا في السابعة مساءً..

وفي السابعة توارى (آدم) في المكان ذاته وانتظر.. بعد قليل رأي بريقًا أبيض ينسل ما بين الأشجار، ولم يندهش حين أدرك أن هذه هي ليدي (آرابيللا)..

بعد قليل جاء (أولانجا) ودنا منها.. وأثار ذهول (آدم) أن الرجل كان يحمل على ظهره صندوق المانجوست، غير عالم أن صاحب الصندوق قريب يراقب ما يحدث..

قالت له:

- « ما هذا الذي تحمله على ظهرك؟ أتابوت لي؟ إذن لا تتعب نفسك.. فهو لا يناسب حجمى! »

قال لها بلهجته السوداء محنقًا:

- »هذا الزندوق يهوى سيئًا قد يهمك الهصول عليه.. »

كانت خائفة من أن يبدأ في إعلان افتتانه بها، وقررت أن تقتاده للداخل لترى ما بداخل الصندوق، لكن من حيث لا يراه الخدم لأنه لا يليق بها – وتعمدت أن تقولها بوضوح - أن يراها أحد مع زنجى مثل هذا! وفتحت له بابًا صغيرًا.. على أن تلحق به بالداخل..



وفتحت له بابًا صغيرًا .. على أن تلحق به بالداخل .. وتأمل (أدم) صندوق المانجوست ..

وتأمل (آدم) صندوق المانجوست، وسرّه أنه مازال مغلقًا.. ولا شعوريًّا مدّ يده إلى صدره بحثًا عن المفتاح الذي كان يحمله..

ثم إنه هرع يلحق بالليدي (آرابيللا) ما إن توارى (أولانجا) وراء الباب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17- فليرحل (أولانجا)

لمس (آدم) كتفها فاستدارت بحدة..
همس لها:
- « دقيقة واحدة ونحن وحدنا.. لا تثقي بهذا الزنجي!! »
كانت إجابتها حاسمة مختصرة:
- « وأنا لا أثق به »
- « ولماذا؟ »
- « إنه يريد الزواج مني.. ولهذا يريد رشوتى بإعطائي صندوقًا من الكنوز - أو هذا ما يظنه - سرقه من (كاسوول).. ولماذا لا تثق به بدورك؟ »
- « هذا الصندوق الذي معه مسروق مني.. تركته في غرفة السلاح في أثناء العشاء.. فلا بد أنه زحف وسرقه حاسبًا أنه مليء بالكنوز..»
هزت رأسها واقتادته إلى باب معدني في الجدار، وفتحته ليدخلا إلى غرفة هائلة الحجم جدرانها من حجارة متلاصقة، حتى لا يظهر منها إلا سطح ناعم، وكان الضوء أخضر غريبًا يصعب تبين مصدره..
كان هناك باب معدنى آخر اتجهت إليه، وأولجت في مزلاجه العملاق مفتاحًا صغيرًا، وبغير ضوضاء انفتح الباب بنعومة، وعلى الدرجات الحجرية خلف الباب وقف (أولانجا) والصندوق على كتفه.. رآها تدعوه للدخول فدخل، لكنه وقف للحظة وتلفت حوله، وغمغم:
- « ميتات كثيرة حدثت هنا.. الكثير منها.. حسن.. حسن! »

وتشمم الهواء كأنما ينعم بالرائحة، وكان هذا مقززًا إلى حد أن يد (آدم) امتدت لا شعوريًّا إلى مسدسه، وسره أنه متأهب لأي طارئ..
كانت البئر الآن جوارهما، وشم (آدم) الرائحة الكريهة التي تلذذ بها (أولانجا)، ولم تبد ليدى (آرابيللا) اهتمامًا بها.. لم يكن قد شمّ مثلها قط في كل خبرات حياته المريعة.. مستشفيات الميدان.. غرف التشريح.. المجازر.. لم تكن تشبه شيئًا من هذا كله وإن حوت شيئًا منه، بالإضافة إلى رائحة كيماوية معينة، ورائحة كقاع مركب غريق هلكت فئرانه كلها..
هنا لاحظ الزنجي أن (آدم) هنا.. وعلى الفور أخرج مسدسًا وأطلق رصاصة عليه لم تصب هدفها لحسن الحظ.. وكان (آدم) من سريعي الانعكاس في الإطلاق، لكن الرجل أخذه على حين غرة، بينما عقله شارد في شيء آخر.. لكنه استعاد توازنه سريعًا، ولم يكن بالشخص الجبان الذي يهاب القتال..
وفي اللحظة التالية اصطرع الرجلان وجوارهما البئر الرهيبة.. كانا على الحافة ذاتها.. وحاولت ليدي (آرابيللا) أن تمسك بمعصم الزنجي، لكنه تملص منها، وكاد يهوى في البئر..
هجمت عليه من الخلف محاولة إعاقته، وهنا انفتح الصندوق على ظهره، ووثب منه حيوان المانجوست قاتل الكوبرا.. وبهياج لا يُصدق انقض على حلقها لينشب أنيابه فيه..
أمسكت بالحيوان، وبغضب يفوق غضبه، مزقت جسده إلى نصفين، كأنه من الورق.. فلابد أن عملًا كهذا اقتضاها قوة لا تصدق.. وفي اللحظة التالية أمسكت المرأة بـ (أولانجا) وجذبته نحوها بذراعين قويتين بيضاوين، وهوت معه إلى فتحة البئر..
رأى (آدم) ضوءًا أخضر وأحمر يلتمع في دوامة، ثم يغوص في البئر مع جسد له عينان خضراوان تبرقان، وتهويان لأسفل..

لأسفل.. فما إن غاص الضوء وساد الظلام، حتى سمع (آدم) صرخة مريعة من الأعماق.. صرخة جمدت الدم في عروقه.. صرخة ألم بدا أنه لا نهاية لها.. وأدرك أنه ما عاش لن ينسى أبدًا الهول الذي رآه في هذه اللحظات، وتسلط عليه خاطر واحد: أن يفر من هنا حالًا..

نظر إلى الدرجات الحجرية وفرك عينيه في ذهول..

كان الجسد المدثر باللون الأبيض لليدي (أرابيللا) يتسلق الدرجات.. واللون الوحيد الذي تراه عليها هو لون الدم على يديها ووجهها وحلقها.. فيما عدا هذا كانت هادئة ثابتة الجنان، كما كانت حين اقتادته، ليدخلا عبر الباب الحديدي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18- عدو في الظلام

بأعصاب متوترة مهتزة عاد (آدم) إلى داره ليلقي السير (ناتانييل)، وقد سره أن عمه لم يكن هناك في هذه الليلة، مما يزيح عن كاهله عبء مصارحته بما حدث..
كان السير (ناتانييل) قد أخلد للنوم، فقرر (آدم) أن يرجي الكلام للصباح، لأنه بحاجة إلى كل تركيز الرجل..
ومن الغريب أنه نام جيدًا.. وصحا نشيطًا بأعصاب هادئة.. جاءته الخادمة بالشاي وخطاب من ليدى (آرابيللا)، وجدته في بريده.. قرأه عدة مرات في إمعان حتى استوثق من أنه فهم محتواه بالكامل:

»عزيزي مستر سالتون:
»لم أستطع النوم دون أن أكتب لك هذا الخطاب.. أرجو أن تغفر لي إذا قلت أكثر أو أقل مما يجب في محاولتي ألا أتجنب الصواب.. لقد اهتزت أعصابي بحق من فرط الأهوال التي عشناها في الليلة السابقة.. ويؤسفني أنني بشكل ما كنت سببًا في المتاعب التي عشتها أمس.. لكنك كنت عونًا حقيقيًا لى في أوان الخطر المميت..
« لسوف أذكر ما حييت ذلك الوجه الأسود المقيت، ولسوف يحجب عن ذاكرتي كل ذكرى لضوء الشمس والزهور..
« لعلك لاحظت رابطة العنق، تلك المصنوعة من الفراء الأبيض الثمين، التي أرتديها دومًا.. لقد كان الزنجي يرمقها دومًا في شغف، وكانت هي ما قاده لحتفه أمس.. لقد حاول انتزاعها منى على حافة الهاوية، وكان هذا آخر ما فعله، لأن الرابطة تمزقت

وهوي هو في البئر.. ونجوت أنا ولم أفق إلا على صوت صرخته المريعة..
»وحين ثاب إليّ رشدي عرفت ما تعنيه لفظة حرية.. الحرية التي منحتها أنت لي حين أنقذتني من مطاردة هذا الوحش لي..
« لن أثقل عليك.. لقد قررت أن أرحل إلى لندن لأقيم في فندق (ماى فير)، لا لوقت طويل – بسبب ارتباطاتي هنا - ولكن لمدة أسبوع لا أكثر.. وأظن أن حياتي في صخب العاصمة وسط أناس عاديين، سوف يلّطف - لا أقول يزيل - ذكريات تلك الليلة المهولة من ذاكرتي..
« لسوف يسرني كثيرًا أن أراك لدى عودتى.. ولربما قررت أن تلحق بي في لندن لننسى معًا الأخطار التي واجهتنا.. وداعًا وشكرًا من جديد. »

(آرابيللا مارش)

طوى (آدم) الخطاب، وأزمع ألا يكلم عنه سير (ناتانييل) حتى يكوّن رأيه الخاص بصدده.. وكان الإفطار صامتًا، مما مكنه من أن يواصل التفكير..
وبعد الإفطار سأله السير (ناتانييل) عما يثقل فكره، فقرر أن يحكى له كل ما حدث أمس.. وكان محايدًا حرص على ألا يضيف إلى الأحداث ما من شأنه أن يظهر رأيه الخاص أو انطباعاته.. وراح السير (ناتانييل) يصغي دون تعليق بعدما وجد قصة (آدم) متكاملة تفسر نفسها.. وحين وصل (آدم) إلى الخطاب لم يعلق الدبلوماسي العجوز، واكتفى بتدوين بعض ملاحظات في مفكرته..
ثم سأل (آدم) بعدما صمت الأخير:

- »كبداية دعني أسأل بضعة أسئلة.. هل قلبك في مكانه الصحيح بصدد ليدى (آرابيللا)؟ »
- « ليدى (آرابيللا) يا سيدى امرأة فاتنة.. وكان لي أن أفخر بأن أكون دانيًا منها أو أتكلم معها أو حتى أغازلها.. لكن لأسباب تطول - أقول لك: لا.. لست واقعًا تحت سحرها.. بل ولربما أهابها قليلًا.. »
- « وما هي الأسباب التي تطول؟ »
- « إنني أحب فتاة أخرى.. (ميمى واتفورد)! ولدى كل الأسباب التي تجعلني أعتبر ليدى (آرابيللا) عدوتها التي تبغي تدميرها.. »
- « إذن لك تهانيّ يا بني.. الحق أنها شابة فاتنة.. لم أر قط فتاة مثلها تجمع ما بين العذوبة والقوة.. كان هذا السؤال مهمًا لأن ما سأقوله لك قد يؤلم مشاعرك.. »
واتجه إلى الباب فاستوثق أنه ما من أحد هناك، ثم أوصده بعناية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19- أيض

سأله السير (ناتانيل) وهو يعود للجلوس:

- »هل أبدو لك جادًّا؟ »

- « بالتأكيد يا سيدي.. »

- « هل أنت واثق من أنك رأيت ليدي (آرابيللا) تنشب يديها في عنق الزنجي، وتهوي معه في البئر؟ »

- « كل الثقة يا سيدي، وإلا لهرعت أعاونها.. »

- « هكذا نرى أن المرأة تكذب.. وعلينا أن نفهم لماذا تكذب.. لا يوجد ما يدعوها للخوف من (أولانجا) فقد مات.. أما أنت فقد رأيت كل شيء بعينيك.. وما كانت لتكتب لك هذا الخطاب، لو لم تكن تحاول إقناع طرف ثالث بأنها فوق اللوم.. طرف لم يكن موجودًا وقتها.. »

- « هذا لا شك فيه يا سيدى.. »

- « والطرف الثالث الذي تهمها صورتها أمامه، هو (كاسوول) ذاته.. كان عليها إقناعه، بأنها لم تقذف بالزنجي في البئر.. بل هو فعل بنفسه.. وكان عليها أولًا التأكد من أنك ستقبل هذه القصة الملفقة.. »

ثم استطرد سير (ناتانيل) قائلًا:

- « الآن دعنا نخرج عن السياق قليلًا.. لقد رأيت كهوفًا كثيرة من قبل في (ديربي شاير)، وهي مقاطعة اشتهرت بالكهوف، كما رأيت كهوف (كنتاكي) وفرنسا.. إنها أماكن تمتاز بعمق كهوفها وضيق فتحاتها، التي يهبط عبرها أجسر المستكشفين، وفي الغالب لا يعود أكثرهم.. بعض هذه الكهوف يخيل إلىّ أنها كانت

مأوى لبعض الأفاعي العملاقة من عصور بائدة، وقد تكونت بالطرق الجيولوجية المألوفة..
يقودنا هذا لنقطة أخرى أكثر عسرًا في قبولها.. وهي قابلية الأيض على تبديل صور المادة.. لقد اعتاد الناس أن يتكلموا عن حجر الفلاسفة – الذي يغير صور المعادن - في القرون الوسطى.. وفي عصر العلوم هذا - إذ نتكلم عن العلم كمصدر للمعجزات - علينا أن نتحدث عن الأيض.. وأن نقبل كل الحقائق ونبحث عن تفسير لها.. تصور أن يقيم وحش كهذا في أحد الكهوف معزولًا عن العالم الخارجي لأعوام طوال.. ثم مع التطور تتبدل غرائزه من حماية النوع، والتغذية والتكاثر، إلى ما هو أكثر تعقيدًا، وسرعان ما تتبع القوة الحاجة.. ويكون لدينا وحش بالغ الذكاء، لكنه معدوم الضمير والقدرة على ضبط النفس.. وبوسع وحش كهذا أن يزيل قطرًا كاملًا من الخارطة..
»إن فهمي للأمور يتلخص في أنه في الماضي كانت هناك مخلوقات عملاقة استطاعت الحياة آلاف السنين.. وقد تداخل بعضها مع العصر المسيحي هنا.. ومع مرور هذا الزمن استطاعت تلك المخلوقات ببطء أن تنمو بعقلها، حتى صارت أخطر ما عرف التاريخ..
« لا بد أن أحد هذه المخلوقات استطاع أن يصل إلى (أيكة ديانا) - التي عرفت بـ (عرين الدودة البيضاء) - وتطوّر حتى وصل إلى ما يشبه البشر.. ليدي (آرابيللا) لها طباع الأفاعى.. لها من القوة ما يثير الريبة.. وترى في الظلام.. وتملك شر الثعابين.. والنتيجة.......؟ »
- « حقًّا ما النتيجة؟ »
- « أولًا يجب إبعاد (ميمى واتفورد) لأن حياتها في خطر.. ثانيًا يجب تدمير الوحش.. »

- « برافو! هذا هو وقت قرار كهذا.. »
لكن القانون لا يعترف بحلول مماثلة، ولا يهمه إن كانت ليدي (آرابيللا) ثعبانًا أم لا.. إنها مواطن بريطاني له كل الحقوق، ومن بينها الحق في ألا يقتله أحد.. إن الموضوع بحقّ شائك قانونيًّا.. وكان عليهما أن يمحصا الأمور بعناية قبل اتخاذ قرار ما.. وقال (آدم) للرجل:
- « سنضع خطتنا فيما بعد.. أما الآن فعلينا أن نصمت.. إنني أسمع خطوات عمى فوق درجات السلم.. »
هنا هزّ سير (ناتانييل) رأسه موافقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20- الضوء الأخضر

حين آوى مستر (سالتون) العجوز إلى فراشه، جلس (آدم) و(ناتانيل) يتكلمان في غرفة المكتب.. وأشعل كلاهما سيجارًا ثم قال (ناتانيل):

- »إن ذلك الوحش نصف البشري في الحفرة يمقتنا ويزمع تدميرنا جميعًا.. أنا وأنت وربما عمك.. وأرى أن الوقت قد حان كى نصارح عمك بكل ما نعرف عن ذلك الموضوع.. »

- « أنا معك يا سيدي في هذا.. لكن تذكر أننا ضيفاه، ولا بد من أن نضع اسمه وسمعته في الاعتبار كما نضع سلامته.. »

- « ليكن يا (آدم).. لكن علينا أن نرسم خطتنا بإحكام، وبشكل لا يجعل تهمة القتل توجه إلينا، لو تخلصنا من ليدي (آرابيللا).. »

- »يبدو لي يا سيدي أننا في وضع معقد.. وما حسبت يومًا أن مجابهة وحش قديم هي بهذه الصعوبة.. فما نواجهه هو امرأة بكل ذكاء النساء، مع قسوة الغواني وقوة الديناصورات.. لن تكون هناك ألعاب عادلة في هذا الصراع.. يمكننا أن نثق بهذا.. »

وقرر الرجلان أن يخلدا للنوم، على أن يواصلا الكلام صباحًا..

في الصباح طرق (آدم) غرفة سير (ناتانيل) حاملًا عددًا كبيرًا من الخطابات في يده، وقال للرجل إذ صحا من النوم:

- « ثمة عدة خطابات هنا.. لكني لن أرسلها ما لم أظفر بموافقتك.. »

واحمرّ وجهه في شيء من حياء.. وأردف:

- »كما اتفقنا، كان علينا أن نبعد (ميمى) ونتخلص من الوحش.. ولكى ننفذ هذا، يجب أن يكون لـ (ميمى) حاميًا يعرفه العالم

بأسره، وفي ظني أن هذا الحامي هو الزواج! »
ببسمة أبوية قال السير (ناتانييل):
- « لكي تتزوج لا بد من زوج، وأحسب هذا الزوج هو أنت؟ »
- « نعم.. نعم يا سيدي.. »
- « وهل هي موافقة؟ »
- « لا أدري يا سيدي.. وأحسب أن على أحدنا أن يسألها.. »
- « وهل هذه فكرة مفاجئة يا (آدم)؟ وهل هو قرار مفاجئ؟ »
- « قرار مفاجئ حقًّا يا سيدى، لكنها ليست فكرة مفاجئة.. ولو وافقت فالباقي معروف.. »
- « ومن الذي سيسألها؟ »
- « لقد.. فكرت فيك يا سيدي! »
- « فليرحمني الله! يا لها من مهمة في سني.. وفي الصباح الباكر! لكني أرحب بها يا بنيّ. »
هكذا تمّ الاتفاق، وسرعان ما انطلق سفير الحب إلى دار (ميمى)، وتمّ كل شيء بسهولة غير متوقعة.. لقد كانت الفتاة تحب (آدم) بحق.. ودهشت لأنه يحبها.. ووافقت على أن تكون الزيجة سرية نظرًا لما رآه (آدم)..
ثم إن (آدم) والسير (ناتانييل) سافرا إلى لندن، وبفضل نفوذ الأخير، تمكنا من ترتيب إجراءات زواج غير مُعلن في مطرانية (كانتربورى).. ثم أبعد (آدم) عروسه إلى جزيرة (مان)، حيث أمل أن يضع حاجزًا من الماء بينها وبين الدودة البيضاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحين عاد (آدم) لاحظ أن السير (ناتانييل) قد قام في غيابه بإغلاق جلّ الأبواب والنوافذ في القصر، فلم يبق سوى باب

واحد.. كما أسدل ستائر سميكة على النوافذ، فلما سأله (آدم) عن سبب هذا، قال همسًا:
»انتظر حتى نغدو وحيدين.. ولسوف تتفق معي على صواب هذه الفكرة.. »
وفي غرفة المكتب التي أظلمتها الستائر، جلس الرجلان.. وقال السير (ناتانييل):
- « عليك بأقصى درجات الحذر.. فبرغم أن زواجك قد كان سريًّا وكذا اختفاءك، فإن كلا السرين قد أذيعا.. »
- »وكيف؟ »
- « لا أدري.. لكنني بدأت أكون رأيًّا.. »
- »وهل تعرف هي؟ »
- « الدودة البيضاء؟ نعم تعرف.. »
وأطفأ سير (ناتانييل) الضوء الكهربى، فساد ظلام كئيب، واقتاد (آدم) إلى مقعد أمام النافذة الجنوبية.. ثم رفع جزءًا من الستار ليرى (آدم) ما بالخارج..
وارتجف (آدم) لما رآه، فقال صديقه بصوت هادي ملطف:
- « لا خطر.. في الوقت الحالي.. يمكنك الكلام! »
لم يكن ما يراه مخيفًا بشكل خاص إلا لمن يملك خلفية عن الموضوع.. وبرغم أن الظلام كان دامسًا بحق، حتى لم يعد سوى القليل مما يمكن رؤيته؛ كانت هناك أيكة من أشجار عتيقة عند جانب البرج الغربي، وفوق قممها كان ضوء أخضر غريب.. شيء كإشارة الخطر عند مزلقان السكك الحديدية.. في البدء بدا ساكنًا ثم أدرك (آدم) بعد قليل أنه يرتجف ويهتز..
وعلى الفور تذكر ذلك الضوء الذي رآه فوق البئر، حين كان في أيكة (ديانا).. تذكر صرخة الزنجي ووجهه المليء بالذعر إذ هوى

في البئر.. ولا شعوريًّا تحسست يده المسدس.. ثم أدرك أنه لا خطر هنالك.. حاليًّا..
أضاء سير (ناتانييل) النور ثانية، وفي ضوئه المريح واصلا الكلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21- على مسافة دانية

قال (ناتانييل):

- « إنها تملك مكرًا شيطانيًا.. فمنذ رحلت أنت اعتادت أن تتردد على الأماكن التي كنت تقصدها بانتظام.. يبدو أنها سمعت عن زواجك ورحيلك معًا.. يخيل إليّ أنها لا تعرف أين تجدك و(ميمى).. لكنها تبحث بعناية، إن الدودة البيضاء تملك بالتأكيد من الإمكانات ما يناسب أغراضها.. ويمكنها الوصول لأية نافذة تريد.. ويظلّ من الحكمة أن نداري أنفسنا حتى لا تعلم شيئًا عن رحيلك أو عودتك.. »

- « هل بوسع واحد منا يا سيدي أن يحاول رؤية هذا المخلوق من مسافة دانية؟ أنا راغب في المخاطرة.. ولا أظن أن أحدًا قد رآها عن قرب وعاش ليحكى ما رآه.. »

رفع سير (ناتانييل) يدًا متعقلة، وقال:

- « رباه! إلام تلمّح يا بنيّ؟ فكر في زوجتك وكل من تحبّ.. »

لكن (آدم) كان مصرًّا.. وخطر للسير (ناتانييل) أن الأمر لن يكون بهذه الخطورة.. إن الدودة البيضاء لا تملك قوى خارقة للطبيعة، وليس بوسعها أن تؤذيهما ما لم ترهما أولًا.. وهكذا اتفق الرجلان على الذهاب معًا..

خرجا من الباب الخلفي، وكان الظلام دامسًا، حتى إنهما اضطرا أحيانًا إلى تلمس جذوع الأشجار، لكنهما كانا قادرين على رؤية الضوء الأخضر البهيم من بعيد.. وشعر الرجلان برهبة وقد أدركا ما هما مقبلان عليه من خطر..

وهمس السير (ناتانييل) في أذن (آدم):

- « لنتوخ الحذر.. نحن لا نعرف شيئًا عن قدرات هذا الوحش على الإبصار أو الشم أو الرؤية.. لذا أرى أن نلتصق بظلال الأشجار.. »
هزّ (آدم) رأسه موافقًا، وغادر الرجلان الدغل أخيرًا، فشعرا كأنما قد خرجا من الظلام إلى ضوء الشمس.. حولهما ظلام لكنه كان لرؤية الموجودات..
ونظر (آدم) لأعلى، فوجد الضوء الأخضر حيث هو.. كأنه فوق عمود شامخ، وإلى جواره تتدلى كتلتان لهما لون أبيض، كأنهما ذراعان أثريتان.. وإلى أنف الرجلين تصاعدت رائحة كريهة، كتلك التي كانت تتصاعد من البئر في (أيكة ديانا)..
ثم تبيّنا ما يشبه قصبة الرمح ذات اللون الأبيض الساطع.. كان يتحرك ببطء - والضوء الأخضر يشع منه - وينحني ليتوارى ما بين الأشجار.. كان هذا هو رأس الثعبان..
دنا الرجلان أكثر فرأيا جذع الأفعوان، وكان عبارة عن خرطوم طويل هائل الحجم يلتف حول نفسه مرارًا، صانعًا قاعدة يتحرك الرأس فوقها..



دنا الرجلان أكثر فرأيا جذع الأفعوان ، وكان عبارة عن خرطوم طويل هائل الحجم يلتف حول نفسه مرارًا ..

فرّ الرجلان حريصين على عدم إحداث ضوضاء.. سواء بخطواتهما أو بالغصون التي راحت تلطم وجهيهما.. ولم يكفا عن الركض، حتى وجدا نفسيهما أمام (برج القيامة).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22- في بيت العدوّ

في الصباح التالي كان (ناتانييل) في غرفة المكتب منهمكًا في الكتابة، حين جاءه (آدم) حاملًا خطابًا.. وقال:

- « إن سعادتها لا تضيّع وقتًا.. قد بدأت العمل بالفعل.. »

- « ما الموضوع؟ »

قدّم له (آدم) المغّلف الذي يحمله، وكان مظروفًا أنيقًا من ليدي (آرابيللا).. وقال:

- « لكن كيف عرفت أنني هنا؟ هي لم ترني أمس.. »

قال سير (ناتانييل) في هدوء ورزانة، شأنه حين يتعلق الأمر بصراعات الذكاء:

- »دعك من هذا يا بنيّ.. ثمة أسرار كثيرة لا نفهمها، ولربما كان من الخير لنا أنها تعرف.. إن لها طباع الأفاعي وميلها للخيانة.. ثم إنها لا تهاجم أبدًا حين تستطيع الفرار، والخديعة هي الصيغة التي تفضلها برغم قوتها المرعبة.. ما هو محتوى الخطاب؟ »

- « تدعونى و(ميمي) إلى شرب الشاي في دارها، وتتمنى لو تشرفها أنت كذلك بهذه الزيارة! »

- « سنقبل هذه الدعوة يا (آدم)! »

- « لكن الأمر واضح.. لا يمكن أن.... »

- »إنها من قواعد الدبلوماسية القديمة يا بني أن تحارب في الأرض التي تختارها أنت.. ونحن بقبولنا هذه الدعوة نجعل الأرض أرضنا، ونربكها لأنها لا تتوقع هذه الموافقة السهلة منا، ولسوف تلعب مخاوفها دورًا هنا.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين دنا الموعد سألت (ميمي) السير (ناتانييل) عن الطريقة التي سيذهبون بها.. فقال:
- « نريد أكبر قدر من الصخب، وأن يعرف الجميع أننا ذاهبون! ولا تندهشي من أن يصل بريدك إليك، بينما أنت في (أيكة ديانا)! »
وانطلق أصدقاؤنا بعربة يجرها جوادان نشيطان، سرعان ما قطعا الأميال المعدودة التي تفصلهم عن (أيكة ديانا).. فلما وصلوا قال لها سير (ناتانييل):
- « لا أعتقد أن خطرًا ما يتهددنا اليوم.. لقد أعددنا لكل شيء عدته.. ستحاول الدودة البيضاء أن تؤذينا بالحيلة، لكن ليس بالقوة، برغم أن لديها مخزونًا هائلًا منها.. ليس اليوم! وعلى كل حال أرجو أن تنفذي أي أمر نصدره لك دون مناقشة.. ها هي ذي البوابة.. احتفظي برأسك لأن هذا هو نصف المعركة »
رحبت بهم ليدى (آرابيللا) بحرارة ثم اقتادتهم إلى غرفة أعدّ بها الشاى..
كان (آدم) متوترًا بحق، وراح ينظر حوله، فوجد في طرف القاعة بابًا حديديًّا، له ذات لون ومظهر الباب الذي اجتازه (أولانجا) في تلك الليلة.. راح يرمقه في قلق ولاحظ أن السير (ناتانييل) يفعل نفس الشيء..
بدأت ليدى (آرابيللا) تحرك مروحتها في عصبية، وشكت من الحرّ، وطلبت من خدمها أن يفتحوا الأبواب الخارجية..
بدا الذعر على وجه (ميمى) لأن دخانًا كثيفًا بدأ يتسرب إلى الحجرة، وازداد كثافة أكثر فأكثر.. كانت له رائحة مهيجة تدفعك إلى السعال دفعًا..
دون أن تدري ما تفعل هرعت (ميمى) – وقد أوشكت على الاختناق - إلى الباب الحديدي ففتحته، وكانت ستارة حريرية

تسده فمزقتها واندفعت للداخل، وقد غابت عنها حقيقة أنها لا تبصر شيئًا.. وهرع (آدم) بدوره ليمسك بذراعها وحسنًا فعل، لأن أمامها كانت تلك البئر العميقة التي هوى فيه (أولانجا)، والتي ما كانت لتراها في الظلام..
كانت الأرض مغطاة بمادة زيتية زلقة، حتى إن (آدم) اضطر إلى أن يلقى بنفسه إلى الوراء كى يجذبها إليه.. وسقطا على أرض القاعة قبل أن ينهض (آدم) ويغلق الباب..
كانت ليدي (آرابيللا) محتفظة بهدوئها كأن شيئًا لم يكن، وإن شحب وجهها بشدة حتى ابيضّ كالورقة.. وكذا ظل سير (ناتانييل) متماسكًا مسيطرًا على رباطة جأشه، وهمس في أذن (آدم) إذ عاد لمقعده:
- « إن الهجمة الرئيسية آتية.. عندما أعطيك الإشارة اتجه للباب ومعك زوجتك.. لا تمش.. اركض!! ولا تخش أن تبدو مضحكًا.. »
انتهى الشاي وسط توتر عظيم.. وفجأة تراقصت الأضواء ثم غابت وساد الظلام.. صرخ السير (ناتانييل) وهو يجذب (ميمي) من يدها:
- « سريعًا! »
وجذب (آدم) ذراعها الأخرى، وجروا نحو الباب الخارجي، الذي كان الخدم على وشك إغلاقه.. كان العثور عليه عسيرًا في هذه الظلمة لكنهم وجدوه.. وهرعوا نحو العربية التي كانت تنتظرهم بالخارج.. دفعوا (ميمى) دفعًا إلى داخلها.. بل رموها رمياً.. ثم أمر (آدم) الحوذي بالانطلاق بأسرع ما يمكن.. تاركين وراءهم ضوضاء لا تُصدّق من صراخ الخدم..
وطوّق الرجلان خصر (ميمى) ليحمياها من اهتزازات العربة، بينما الخيول تركض بأعتى ما تستطيع، وللحظة ارتفعت الأرض

أمام الخيول ثم هبطت ثانية.. لكن الخيول تمكنت من تحاشى المرتفع ودارت حوله..
وأخيرًا وصلوا بعد جهد مريـع إلى (برج القيامة)، وكان ضوء القمر المسالم الهادئ يغمر المكان، كأن ما مروا به كان حلمًا مرعبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23- عرض مدهش

كلما فكرت (ميمي) فيما حدث لهم، كلما شعرت أكثر أن هذا كله لم يكن حقيقيًا.. وفي الوقت نفسه كان عسيرًا أن تراه على أي ضوء آخر.. تصور أن تحكي هذا لأحدهم.. تقول له إنك قد تناولت الشاي أمس مع دودة قديمة لم تنقرض، وكان الخدم الذين يقدمون الشاي رجالًا عصريين!

كان السير (ناتانييل) قد وصل إلى استنتاج مؤداه أن ليدي (آرابيللا) - لسبب لا يفهمه - قد غيرت خططها، وهي حاليًا مسالمة.. وقد عزا التبدل في مسلكها إلى ازدياد تأثيرها على (إدجار كاسوول) وخضوعه لسحرها..

والحقيقة هي أن المرأة قد زارت (كاسترا ريجيس) صباحًا، ودارت بينها و(كاسوول) محادثة طويلة، طرح فيها فعلًا موضوع توحيد مستقبلهما.. وبرغم أن الأخير لم يكن شديد الحماس، فقد كان مهذبًا حتى إن ليدي (آرابيللا) هنأت نفسها في أثناء العودة إلى (أيكة ديانا)، على ما حققته من تخطيط لمستقبلها.. وظهر هذا في خطاب بعثت به إلى (آدم سالتون) تقول فيه:

« عزيزي مستر سالتون:

»ثمة مسألة تتعلق بالأعمال، لا أدري إن كان بوسعك أن تسدي لى النصح فيها.. لقد كنت راغبة في بيع (أيكة ديانا)، ولا أخفي عليك أنني أحب هذا المكان وأشم فيه رائحة زوجي العزيز المرحوم، وذكريات أول زواج لي وأنا بعد فتاة شابة.. لهذا وددت لو بعت المكان بسعر مناسب لشخص أمين عزيز إلى نفسي.. وأجرؤ على القول بأنك هذا الشخص لكني لا أجسر على التمني إلى هذا الحدّ..

ربما كان أحد أصدقائك في أستراليا راغبًا في اقتناء منزل أثرى، يحمل كل عظمة وتاريخ إنجلترا من عصر الرومان والكلت حتى اليوم، وبرغم هذا هو DERNIER CRI (بالفرنسية: على أخر طراز)، ولسوف يكون محاميّ مستعدًا لشرح كل التفاصيل القانونية.. وتكفينى كلمة منك بقبول أو رفض العرض، واغفر لى هذا التدخل..

المخلصة (أرابيللا مارش)

وقرأ (آدم) الخطاب مرارًا ثم توجه لـ (ميمى) وصارحها بأنه راغب في قبول العرض، فقالت:

- « يا عزيزي.. أنا موافقة على كل ما تراه وتختاره.. فنحن بين يديّ الله الذي هدانا ولسوف يهدينا إلى حيث يشاء.. »

وفي غرفة المكتب استشار (آدم) السير (ناتانييل) حول شراء (أيكة ديانا)، فصاح مندهشا:

- « فليرحمني الله! لماذا بحقّ السماء ترغب في شيء كهذا؟! »

- « ألن يُسهل عليّ تدمير عرين الدودة البيضاء لو غدا ملكى؟!

فكر الرجل طويلًا وفي عمق قبل أن يقول:

- « الحق أن كلامك فيه كثير من المنطق الحسن، برغم أنه أثار رعبي في البداية.. إن الضيعة ذات قيمة تاريخية ولسوف يزداد سعرها مع الوقت.. ولو كان المال ينقصك لهذا، فأنا موافق على أن أعطيك ما تريد.. »

- « شكرًا يا سيدي.. إن معي من المال ما يكفيني ويزيد، وقد سرني أنك موافق.. »

وهكذا - دون إبطاء - أسرع (آدم) بشراء العقار، وحين عرف عمه بالأمر سرّ لأن وريثه ابتاع عقارًا بهذه الأهمية، من شأنه أن يرفع اسمه في المنطقة كلها..

وفي الصباح التالى سأله سير (ناتانيل) عن الطريقة التي يزمع بها تدمير الدودة البيضاء.. وقال له:
»إن مهمتك التي حملتها على كاهلك عسيرة حقًّا أقرب إلى مهام (هرقل).. فحجمها وقوتها وما لا نعلمه من خصالها كلها ضدّك.. يبدو أن الدودة البيضاء تسيطر على كل قوى الطبيعة ما عدا النار.. لكن كيف تؤذيها النار؟ ما عليها إلا أن تغطس في الأرض؛ عندها لن تملك إيذاءها، حتى لو امتلكت كل مناجم الفحم في العالم.. يبدو أن لديك خطة ما، فهل لي أن أعرفها؟ »
- »حقًّا يا سيدي لكنها قد لا تصمد للتجربة.. عندما حدثت متاعب البورصة، سرت إشاعة في لندن أن المصرف سيُهاجم بغرض التخريب.. وطلب المديرون رأي بعض الخبراء، فكان رأيهم أن خير وقاية ضد النار - وهي ما كانوا يهابونه - ليست الماء بل الرمل.. وهكذا جلبوا من رمال البحر الدقيقة - النوع الذي يضعونه في الساعات الرملية - ما وضعوه في كل أرجاء المبني.. خاصة مواضع الخطر..
- »والفكرة التي واتتني هي أن أجلب كمية هائلة من الرمال أسكبها في تلك البئر في (أيكة ديانا)، وبهذا حين تحاول ليدي (أرابيللا) في صورة الدودة أن تعود إلى ملجئها؛ لن تستطيع لهذا سبيلًا.. إن عمق البئر هائل ولسوف يكون أحتكاك جسد الدودة بالرمال فائقًا لأي تخيل..
- « لحظة.. ما جدوي الرمال في تدميرها؟ »
- « لن تدمرها.. فقط ستكبلها حيث هى إلى أن أنفذ الجزء التالي من خطتي.. وهذا الجزء هو أصابع من الديناميت يتم إلقاؤها في البئر! »
- »ولن تحتاج إلى فتيل أو ما يشبه هذا لتفجر الديناميت؟ »

- « ليس في أيامنا هذه! » - وابتسم (آدم) - لقد جربوها في نيويورك حين وضعوا ألف رطل من الديناميت في علب، وبشرارة بارود صغيرة أشعلوها، فأدى الارتجاج إلى تفجير الديناميت، وقد حسب غير الخبراء أن الارتطام سيدمّر كل زجاج النوافذ في المدينة.. لكن الانفجار اكتفي بزحزحة الصخور في موضعها.. لا أكثر.. وهكذا نتحرر من وحش مريـع.. »

وغادر (آدم) المكان بحثًا عن زوجته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24- المعركة الأخيرة

كانت ليدي (آرابيللا) قد أصدرت تعليمات لمحاميها بسرعة نقل الملكية في (أيكة ديانا)، بحيث لم يضع وقت طويل حتى حصل (آدم) على الضيعة.. وسرعان ما أمر وكلاءه بجلب كومة هائلة من رمال (ويلش) الناعمة إلى المكان، كما راح يخزّن المتفجرات في كوخ ذي سقف معدنى ابتناه خلف (أيكة ديانا).. ولم يرتب أحد في غرضه إلا ليدي (آرابيللا)، لكنها كانت في قمة الانشغال بسبب إعدادات الانتقال، وترتيبات زواجها من (كاسوول) كما تريد له..

راح جبل الرمال ينمو بسرعة، ودنت لحظة الهول الآتي بسرعة..

وذات صباح قابل ليدي (آرابيللا) متجهة نحو القلعة، فتجرأ وطلب أن يرافقها إلى هناك.. وسره أن وافقت على الفور.. ومعًا اتجها إلى غرفة البرج، ودهش (كاسوول) من زيارة (آدم) له لكنه لعب دور المضيف ببراعة..

اصطحبهما إلى البرج، حيث راح يشرح لهما كيفية تحليق طائرته الورقية، وكيف تستجيب الطيور على الفور لرفع وخفض الطائرة..

في الوقت ذاته في مزرعة (ميرسي) كانت الأمور هادئة.. وإن عانت (ليلا) الوحدة بسبب افتقاد ابنة عمها، وبدأت تفكر في أن عليها بدورها أن تجد رفيق حياة.. لكن ما كان هناك الكثير في هذا الصدد في مزرعة (ميرسى).. إن (كاسوول) يثير رعبها، لكنه عريس ممتاز.. ربما لا يمكن أن تتوقع مثله أبدًا..

لكنها بدأت ترى أن الأمور لا توحي باطمئنان.. إن ليدي (آرابيللا) موجودة دومًا جوار الرجل، وعلاقتها به تزداد عمقًا..

ثم إن الرجل بارد جدًّا وينافي بالتأكيد فكرتها الشابة عن السعادة.. لكنها ظلت في سرها تتمنى أن يحدث ما يبدل مجرى الأمور..
وبمرور الوقت ازداد شعورها بالوحشة والشوق إلى (ميمي) المتفهمة الحنون العطوف.. وأدركت بحقّ مبلغ خسارتها.. شحب لونها وأحاطت هالات سوداء بعينيها، واعترتها رجفة لم تستطع إخفاءها، وبدا لها المستقبل موحشًا رهيبًا.. كان هذا حين وصلتها رسالة من (كاسوول) يسألها أن تسمح له باحتساء الشاي في دارها غدًا.. وما كان لها أن ترفض دعوته التي تهيبتها كثيرًا..
وفي الموعد المحدد وصل (كاسوول) فصارت حالتها العصبية مدعاة للشفقة، وإن سرها أن خادمه المخيف (أولانجا) لم يلحق به ليثير فزعها، وكانت قد تعمدت اختيار كل ما هو رخيص أو قبيح من أدوات الشاي والأطباق، لتجعله يتبين الفارق الاجتماعي المهول بينهما..
كان وجه (كاسوول) فولاذيًّا كعادته أو أكثر.. وراح بعين ثابتة ثاقبة يحدق في عينيها، فارتجفت لما سيحدث بعد هذا، مادامت هذه هي البداية!
وبلا إنذار، بدأت الحرب النفسانية بين الاثنين.. حرب النظرات.. وإذ رأى الرجل أن الفتاة هشة وحيدة امتلأ بيقين النصر، وازدادت نظراته ثباتًا.. كانت بطبعها غير أنانية لا تقدر على الاستبسال فى معاركها الخاصة، كما تقدر في معارك من تحبهم.. وبدأت أهدابها الكثيفة تهوى على عينيها وعضلاتها تسترخي..
هنا اجتازت (ميمي) - بمعجزة ما - المدخل عبر الحديقة..
وكأنما منح دخول (ميم) (ليلا) حياة جديدة؛ تحفزت وتحركت فيها إرادة القتال.. وقابلت (ميمى) نظرات (كاسوول) بمثلها،

فبدا عليه الارتباك، وتراجع للوراء.. تراجع حتى المدخل.. ثم تعثر وهوى على الحصى..
عندها فقط خارت قوى (ليلا)، فسقطت بشهقة حارة على الأريكة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

25- وجهًا لوجه

اغتمت (ميمي) كثيرًا لرؤية (ليلا) في حالة كهذه، بالإضافة إلى أن الفتاة كانت ذاهلة تمامًا، وقد جربت معها (ميمى) كل أساليب الإفاقة المعهودة دون جدوى.. بالواقع بدا أن حالتها تزداد سوءًا، وراحت حركة صدرها تزداد وهنًا، ولونها يزداد شحوبًا.. وانتاب (ميمي) الهلع، حين أدركت أن ابنة عمها قد ماتت..
ازداد الغسق قتامة، ودنت ظلال المساء.. وجلست (ميمى) على الأرض تطوق بذراعيها (ليلا) غير شاعرة بازدياد الظلام.. لا تدري كم مر من الزمن في جلستها، فقد بدا لها أنها قضت دهورًا، والحقيقة هي أنها لم تستغرق سوى نصف ساعة..
كان ما أعاد لها صوابها، هو أنها شعرت بيد الفتاة دافئة في كفها.. أضاءت النور فوجدت أن عيني الفتاة مفتوحتان كمن ماتت بالتأكيد، لكن فيهما نظرة ما كلها استغاثة ودعاء..
نهضت وقررت أن تتجه حالًا إلى (كاسترا ريجيس) لتواجه (كاسوول) بحقيقة أنه - بشكل ما - تمكن من قتل (ليلا).. لسوف يدفع الثمن..
دنت من القلعة فلم تر أضواء إلا في غرفة البرج.. وأدركت أن (كاسوول) هناك، فدخلت من الردهة، وتحسست طريقها عبر الدرجات حتى وصلت إلى الباب المفتوح.. وعبر فرجته استطاعت أن ترى (كاسوول) يذرع المكان جيئة وذهابًا ويداه خلف ظهره..
فتحت الباب ودخلت دون أن تقرعه، فاستدار مندهشًا لرؤيتها هنا.. ولبرهة وقف الاثنان يتبادلان النظرات في صمت تامّ.. وكانت أول من تكلم:

- « أيها القاتل! لقد ماتت (ليلا)!! »
- « رباه! ماتت؟ هل أنت متأكدة؟ متى؟ »
- « بعد ما تركتنا.. أنت تعرف أن هذا حقيقي، كما تعرف أن الله يرانا الآن.. لقد قتلتها! »
- »كوني حذرة في كلامك يا امرأة! »
- « بل سأقولها مرارًا لأنني أعرف ما أقول.. وأعرف أنك وتلك المرأة الأخرى، قد اشتركتما في تعذيب تلك العزيزة البريئة.. أنت لا وليّ لك إلا الشيطان وطائرتك الحمقاء.. وأعرف أن اسمك يُنادي الآن في المحكمة السماوية العظمى، فاندم الآن قبل ألا ينفع الندم.. وقبل أن تغيب في العذاب الأبديّ.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان موت (ليلا) مفاجأة قاسية لكل محبيها، وقد ترك (آدم) زوجته وجدها يعدان الطقوس النهائية للعزيزة المتوفاة، وقرر أن يمضي الوقت في إعداد مصيدة الدودة البيضاء التي خطط لها.. ملأ البئر بالرمال الناعمة، ثم نثر فيها عبوات الديناميت.. وكان يعاونه في عمله السير (ناتانييل) وطاقم من الرجال..
أما (ميمى) فراحت تمضي الوقت في النظر من النافذة ليلًا، تجتر أحزانها، ولئن كان في موت (ليلا) نفع ما، فهو أنها لم تعد تهاب الدودة البيضاء..
في أثناء نظرها من النافذة، رأت شيئًا أبيض يزحف هنالك.. وخيل لها أن هذه ليدي (آرابيللا)، فتراجعت غريزيًّا لتختلس النظر من وراء الستار..
كانت المرأة تمشى حثيثًا، وتختلس النظرات إلى الوراء كأنما تتهيب شيئًا.. هنا خطر لـ (ميمي) أنه من الخير أن تقفو أثر

المرأة، وسرعان ما ارتدت عباءة سوداء وغادرت الدار..
راحت تمشي بين الأشجار الكثيفة، لا يهديها سوى ثوب المرأة الأبيض، وأدركت أن ليدي (آرابيللا) تتجه نحو (كاسترا ريجيس).. لكن سرعان ما فقدت أثرها في الظلام.. فقررت أن تتجه إلى (كاسترا ريجيس) على كل حال، وتترك للظروف أن تحدد مسارها..
في الوقت ذاته كانت ليدي (آرابيللا) قد رأت (ميمى)، وتوارت حتى تعرف وجهتها، ثم راحت تتبعها في إصرار.. وهو نموذج للصياد حين يمسي فريسة.. واتجهت (ميمي) الغافلة إلى البرج، وارتقت درجات السلم إلى حيث كان (إدجار كاسوول) ينتظر وحده، غارقًا في خواطر سوداء عن موت (ليلا) واتهام (ميمى) له..



فى الوقت ذاته كانت ليدى (آرابيللا) قد رأت (ميمى) ،
وتوارت حتى تعرف وجهتها . .

لم يسمع طرقتها الواهنة على الباب، مما جعلها تحشد شجاعتها وتفتح الباب بقوة..
هنا وجدت نفسها في مأزق لم يخطر ببالها قط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

26- فوق سقف البرج

بدأت العاصفة الدانية تعلن عن نفسها، ليس فقط في الطبيعة، بل وفي طباع وأفئدة الناس، وسرى الاضطراب الكهربي في السماء إلى الحيوانات وخاصة أذكاها.. وكذا كان (إدجار كاسوول) برغم برودة طباعه وأنانيته.. وحتى ليدي (آرابيللا) التي كانت تحمل طباع الأفاعي؛ لم تخلُ من مشاعر الأنثى التي كانت دومًا جديدة برغم قدمها..

وجلست (ميمى) في منأى عن الرجل، وهي تشعر بالعاصفة تتزايد.. وسمعته يتكلم فانتابها الهلع.. إن الرجل قد جنّ تمامًا، وصرعه جنون العظمة حتى ليحسب أن لديه - والعياذ بالله - قدرات العليّ القدير، وهي حالة يعرفها الأطباء النفسيون جيدًا في مصحاتهم.. وتدل على دنو النهاية.. ومن الغريب أنه حتى هذه اللحظة لم يتبين وجود ليدى (آرابيللا).. وقال لـ (ميمى) دون تفكير:

- « تعالي معي إلى سطح البرج.. »

- « ولماذا؟ »

- « ثمة تجارب مهمة.. تجارب شائقة أرغب في أن تريها.. تجارب على الطائرة الورقية.. »

- « سآتي معك.. »

قالتها ببساطة ونهضت، وهو يتبعها نحو الدرجات المنحدرة التي تقود إلى السطح.. فالحقيقة هي أنها لم تعد تهاب قدراته العقلية، فقد برهنت لنفسها على أنها قادرة على قهرها.. أما عن جنونه فلا تهابه أيضًا..

وسمعت ليدي (آرابيللا) كل ما قيل فجن جنونها.. ثمة شيء ما بين الاثنين بلا شك، وكلامهما يوحى بوئام بعد عداوة طالت.. وهذا من شأنه هدم خططها كلها! وهكذا قررت أن تتبعهما إلى السطح العاصف حيث الريح الثائرة تطيّر كل شيء، وتتوارى هناك..
كان الخيط الذي ربطت به الطائرة الورقية، والياى الذي يتحكم في إرسال الأشياء لها، يحدثان أصواتًا مبهمة موحشة، راحت - مع الجو المتوتر – تخلف نوعًا من التناغم كأنما ليصاحب المأساة التي توشك على الحدوث..
وراح قلب (ميمي) ينبض بحدة.. فقد رأت في أضواء غرفة البرج، وجه (كاسوول) وعليه علامات التركيز الذي تراه حين يزمع استعمال قدراته التنويمية.. وكان حاجباه الأسودان يشكلان ساترًا من تحته تلتمع عيناه منذرتين بالخطر..
كان ضوء غامض يتوهج في السماء الآن، برغم أنه لم يكن هناك من برق.. وقررت (ميمى) أن تتوارى مؤقتًا في حفرة بالجدار.. لكن (كاسوول) كان قريبًا منها جدًّا، وراح يتكلم بصراخ عال يشي بجنونه الذي يتزايد من دقيقة لأخرى، ولعب صخب الطبيعة من حوله دورًا في جعل حالته العقلية تزداد تدهورًا.. كأنما أحسّ أن ثورة الطبيعة هذه هي امتثال لأوامره وحالته النفسية..
وغلى الدم في عروق ليدي (آرابيللا)، وأحست بالحقيقة.. لا جدوى ولا أمل في الزواج من هذا الرجل.. إنه مخبول تمامًا، وبالإضافة لهذا من الواضح أنه يهيم بـ (ميمى).. إذن عليها الانتقام منه.. عليها أن تقتاده إلى عرين الدودة البيضاء، ولكن كيف؟
إن الحل الوحيد يكمن في الطائرة التي لا يستطيع الخلاص من نفوذها عليه.. تسللت بحذر وتمكنت من فك خيط الطائرة

الذي يثبتها إلى البرج، من ثم غادرت المكان مسرعة، وإن ظل الخيط يمرّ بالبرج.. ومشت ما بين القصرين حتى بلغت بوابتها الخاصة.. وأسرعت إلى البئر المخيفة..
لم يبق سوى انتظار قدوم سيد (كاسترا ريجيس).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27- انتهاء العاصفة

كان (كاسوول) و(ميمى) مازالا ينتظران على سقف البرج، لا يريان بعضهما.. ولم يكن لدي (كاسوول) ما يُقال، بينما كان لدي (ميمى) الكثير منه.. وبعد صمت طال قررت (ميمى) أن تبدأ الكلام.. قالت:

- « مستر (كاسوول) - بصوت عال حتى يصله صوتها وسط كل هذه الكهرباء وهزيم الرعد، وجاءها ردّه فلم تتبينه، لكنه على الأقل جعلها تعرف أين هو بالضبط في هذا الظلام - إن البوابة مغلقة.. فهلا فتحتها لي لأنني لا أجدها؟ »

وكانت تتكلم وهي تتحسس المسدس الذي أعطاها إياه (آدم) للاستعمال في حالات الطوارئ، وكانت تداريه في صدرها.. كانت تشعر بالخطر.. بالحصار.. وكذا كان (كاسوول) الذي تحركت كل حواس التحفز الحيواني عنده.. وبصوت شرس كالفحيح، وبصوت تتطاير مقاطعه مع الريح قال:

- « أنت جئت ها هنا بكامل إرادتك.. وعلى كل حال أنا لن أعوق حريتك.. يمكنك الرحيل ولكن اعتمدي على نفسك.. عليك أن تجدي المخرج وحدك! »

بتهذيب خطر أجابت:

- « أنا راحلة.. لكن (آدم) زوجي ستكون له كلمتان معك.. ويمكنك وقتها أن تلوم نفسك.. »

أشعل المزيد من المغنيسيوم، فكان هذا مناسبًا لها، لأنها استطاعت في الضوء أن تتبين المدخل، وسرعان ما اجتازته مستعينة بحاسة الاتجاه، بعد ما ساد الظلام من جديد..

راحت تركض في الجادّة قاصدة (لسر هيل).. دارها..

عرفت من الخدم أن (آدم) قد عاد للدار وأنه في مكتبه، فصعدت إليه مسرعة.. بدا عليه السرور لرؤيتها لكنه تفحص وجهها بعناية.. وأدرك أنها كانت في مشكلة ما، فأجلسها على الأريكة جوار النافذة.. وجلس جوارها يصغي إلى التفاصيل التي تحكيها، دون أن يتدخل بأسئلة أو تعليقات.. وفي النهاية قال لها:

- « غدًا أذهب لأري (كاسوول) وأعرف ما تفسيره لكل هذا.. »

- »أتوسل إليك ألا تتشاجر معه.. لقد ذقت ما يكفي من ألم في الفترة الماضية، مما يغنيني عن القلق عليك.. »

- « سأحاول يا عزيزتي.. لكن فليساعدني الله على ذلك.. »

ثم قال محاولًا جعلها تنسى ما حدث:

»هذا الـ (كاسوول) يلعب لعبة خطرة بحقّ.. إن طائرة تطير من البرج، في ليلة كهذه، لجنون مطبق.. لسوف تجتذب البرق إلى حيث يعيش الرجل.. إن الطائرة في السماء وسط كل هذه السحب المشحونة.. ولسوف تسرى الكهرباء عبر الخيط، وتضرب (كاسترا ريجيس) بما يفوق ضربة عشرات المدافع.. ولو كانت هناك معادن على الحبل فلن تمهد الطريق فحسب، بل ستكون الطريق ذاته! »

- « إذن دعنا نخرج للعراء.. أليس أكثر أمنًا؟ »

وارتدت عباءتها من جديد، وكذا فعل (آدم)، وأعطاها ذراعه لتتأبطه بعد ما استوثق من أن مسدسه يعمل بكفاءة.. وقررا أن يذهبا إلى مزرعة (ميرسى) ليتأكدا من أن الأمور على ما يرام مع جدّ (ميمي)..

كانت العاصفة عنيفة ولها صخب يصمّ الآذان، واستطاعت (ميمى) أن تظل على قدميها بكثير من العسر.. أمسكت بزوجها بقوة، ووصلا إلى المزرعة.. كانت الأضواء كلها مطفأة ولا صوت

هنالك، لكن (ميمى) أدركت أن كل شيء على ما يُرام.. وهكذا اتجها إلى (كاسترا ريجيس)..
كان أول ما تعثرا فيه هو حبل الطائرة الذي تركته ليدى (آرابيللا) على الأرض، وتنهد (آدم) وقال لها في حذر وبصوت هامس:
- »حيث هذا الحبل يكمن الخطر يا صغيرتي.. لسوف يمشي البرق في هذا الطريق بالذات، والآن أريد منك أن تعودي للدار جريًّا، وتحاشي هذا الحبل في أي موضع.. سألحق بك بعد قليل.. »
- « كل ما أردت هو أن أكون معك حتى في الخطر.. فلا تحرمني هذا الحق.. »
- « ليكن يا صغيرتي.. وأحمد الله أن زوجتي تطالب بشيء كهذا.. فلنبق معًا، ولنلق ما أراد الله بنا.. »
راحا يمشيان وراء الحبل محاذرين أن يدوسا عليه، وكان له لون مميز واضح، فوجداه يتجه إلى (أيكة ديانا).. كان (آدم) قلقًا، فهو يعرف جيدًا أن (أيكة ديانا) ملأى بالمتفجرات، و(ميمى) لا تعرف هذا.. لذا طلب منها أن تبتعد وتبحث عن طرف آخر لهذا الحبل..
هنا - قبل أن تصدع بأوامره - بدأ البرق، والتمعت السماء مرارًا، فاحتضن (آدم) زوجته، وقدّر من الفترة ما بين البرق والرعد، أن قلب العاصفة مازال بعيدًا.. لكن من الواضح أنه يدنو منهما سريعًا..
والتمعت السماء بوميض جعل الموجودات تبدو كأنما تحجرت في مكانها.. بدا كشجرة مقلوبة هائلة تتدلى من السماء.. ثم هوى شريط من برق فوق برج (كاسترا ريجيس)، ورأى (آدم) البرج يرتجف ويهتز، ثم يهوي كأوراق اللعب..

وانفصل لسان أزرق، وراح يركض بسرعة مذهلة نحو (أيكة ديانا).. ومنها تصاعد صوت خشب يتهشم، ثم صرخة غضبي جعلت فؤاد (آدم) الجريء يتجمد.. ودوّي صوت انفجار مروع آت من تحت الأرض... ثم راحت (أيكة ديانا) تتهاوي، كاشفة لعيونهم عن البئر المهولة التي راح الصراخ يتصاعد منها..
لكن ما رأته (ميمي) كان قمينًا بأن يفقدها النوم طيلة حياتها..
لقد كانت الانفجارات مستمرة في البئر، ومع كل انفجار كانت كتلة رمال مخلوطة بالدم تُقذف من البئر، ومعها قطع من لحم ممزق ودهن.. قطع من كائن كان حيًّا من ثوان، لذا راحت تلكم القطع، ترتجف متشنجة، كأنما كل قطعة منها تصرخ بدورها...
كان بعض القطع مغلفًا بجلد ذي قشور، كأنه جلد ثعبان هائل..
واستطاع (آدم) أن يتبين أشلاء الدودة البيضاء كما رآها وسير (ناتانييل) بين الأشجار في تلك الليلة.. وبدأت الأشجار تهتز، والمنزل نفسه يتأرجح، كأنما يوشك على مغادرة جذوره.. ومن كل صوب تصاعدت النيران..
ثم بذات السرعة هدأ كل شيء وساد الصمت... صمت له لون الظلام..
وأخيرًا بدأ ضوء الشمس الوليد ينبلج معلنًا نهاية الكابوس...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم ير(آدم) فراشه في تلك الليلة.. لقد مشى ويده في يد (ميمى)، نحو (لسر هيل) محاولين ألا يفكرا في كل المشاهد الشنيعة التي رأياها في تلك الليلة.. وكان الصباح بهيجًا باسمًا كأكثر ما يحدث بعد العواصف العاتية..

واقتاد (آدم) زوجته إلى الفراش، و أرقدها هناك ثم أرخى ستارًا على النافذة ليسمح لضوء الشمس بالدخول على نحو يطمئنها.. وظل معها حتى استولى النعاس على جسدها المنهك، ثم اتجه لغرفة المكتب حيث كان عمه والسير (ناتانييل) يشربان الشاي.. وكانا يعرفان بكل شيء بالطبع..

في البدء زاروا (أيكة ديانا) وكانت قد تحولت إلى أنقاض بدت في أسوأ حال فى ضوء الفجر.. واستطاعوا أن يروا البئر.. لكن لم يجدوا بقايا من أشلاء الدودة البيضاء ولا دمائها.. لقد قذف الانفجار ببعضها بعيدًا، وابتلعت البئر بعضها ثانية.. وبعد دقائق من المشاهدة، شعروا بأن الاضطراب تحت الأرض لم يتوقف بعد.. كانت التربة تفور وتبرز أحشاؤها وبقايا الوحش من آن لآخر.. وكان مشهدًا مريعًا، لأن التعفن يدب سريعًا جدًّا في الأجساد التي أهلكها البرق..

ومن دون اتفاق ابتعد الرجال لينشقوا النسيم بعيدًا عن هذا الهول..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكان انفعال الأيام الأخيرة قد لعب دوره مع أعصاب (ميمى)، حتى غدا تغيير الجو حتميًّا بالنسبة لها كي تتلافى الانهيار..

وقال مستر (سالتون) العجوز:

- « أحسب أن الوقت قد حان أيها الشابان كى تظفرا بشهر عسل.. »

والتمعت عيناه إذ قال هذا..

كانت نظرة (ميمى) الناعمة الخجول إلى زوجها الشجاع، هي خير إجابة..

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

الساكسون هم قبائل جرمانية، كانت تعيش شمالى (ألمانيا)، وغزت (إنجلترا) في القرنين السابع والثامن الميلاديين.

[←2]

النورمان قبائل اسكندنافية، كانت تعيش في شمال فرنسا في القرن العاشر الميلادي.

[←3]

الداكويت: جماعة من قطاع الطرق في الهند وبورما، اعتادت الهجوم باستعمال الخيول.

[←4]

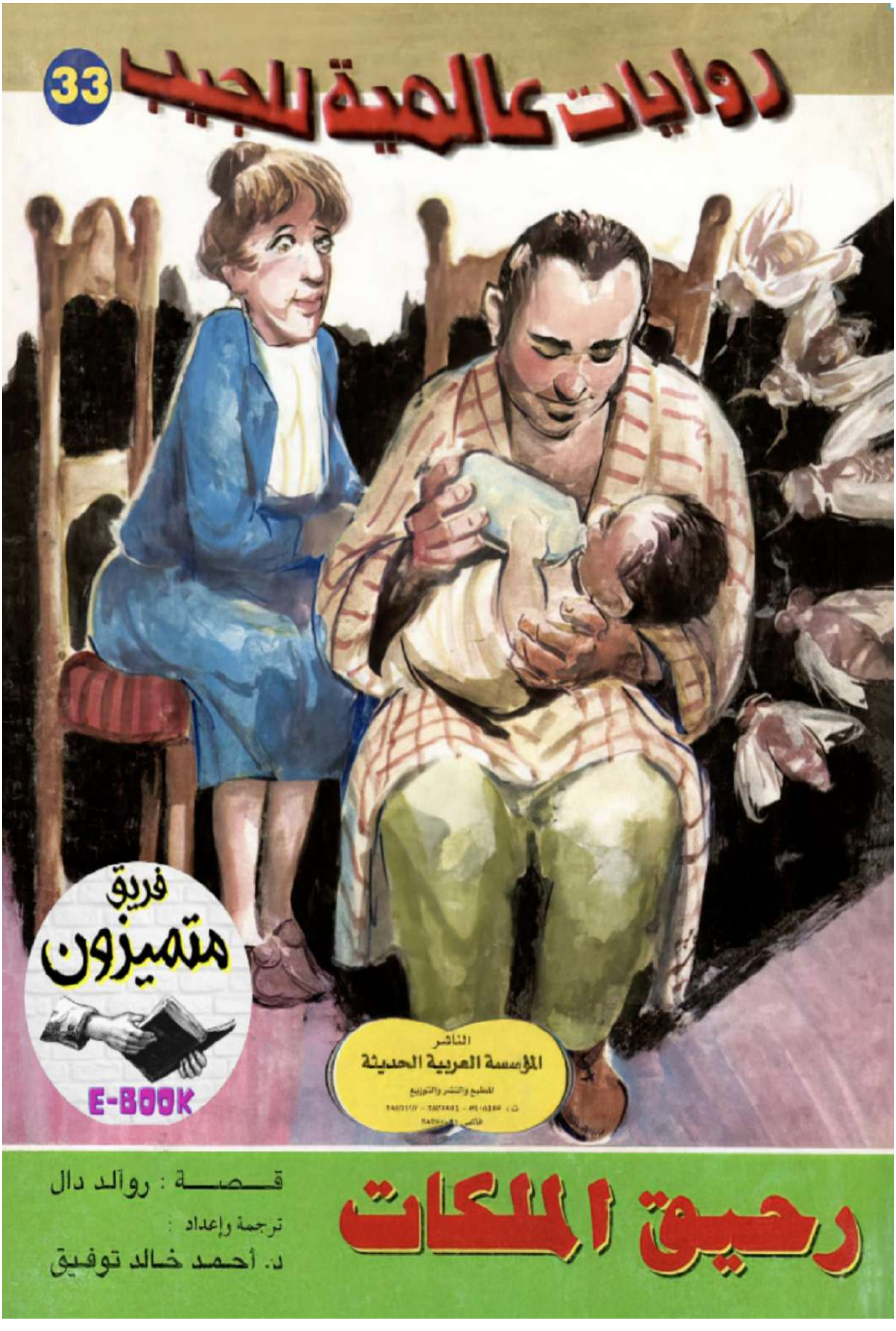
أوبي: ديانة قديمة كانت تمارس في غرب إفريقيا، ولها علاقة قوية بال (فودو)، الذي يمارس اليوم في (الكاريبي)، ولفظة (أوبي) الإفريقية عامة، تعني إخفاء السحر في الرمال بغرض الإيذاء.

[←5]

فرانتس ميسمر: هو طبيب نمساوي عاش في أواخر القرن الثامن عشر، وأجرى تجارب كثيرة على التنويم المغناطيسي في الحيوانات، ولفترة طويلة كان لفظ (ميسمرية) يشير إلى التنويم المغناطيسي.. وقد قامت لجنة طبية فرنسية بدراسة تجارب الرجل وقتها واعتبرته نصابًا، لكن العلم الحديث ردّ إليه اعتباره، ووجد أن تجاربه كانت مفيدة وجادة!

[←6]

يجب ألا ننسى أن القصة كتبها كاتب بريطاني في ذروة عهد الاستعمار، وهو هنا يعبر عن المفهوم السائد وقتها لدى أكثر الكتاب الغربيين: الزنجي وحش مفترس من الأدغال، لا يملك إلا كل ما هو حقير وشرير من العواطف.. وقلبه دائمًا أقبح من وجهه، وفي الحقيقة لم نستطع مقاومة إغراء حذف الكثير من العبارات العنصرية، التي لا تتهم هذا الزنجي فحسب، بل وكل من هو أسود البشرة عامة!


روايات عالمية للجيب
33
فريق
متميزون
E-BOOK
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
رحيق الملكات
قصة : روآلد دال
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (33)

رحيق الملكات

قصة: روالد دال
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

لا يعرف (روآلد دال) سوي عدد محدود جدا من قراء العربية، لكن بالنسبة لقارئ الإنجليزية فيشكل (دال) تراثا عزيزا جدا وحميما من القصص التي تتراوح ما بين قصص الأطفال والقصص القصيرة غريبة الأفكار المفعمة بشخصيات كاريكاتورية لا يمكن نسيانها.

ولد (روآلد دال) [1] عام 1916 في (لانداف) بمقاطعة (ويلز) الإنجليزية، لأب مهاجر نرويجي، تمنى دائما أن يتعلم أبناؤه في مدارس بريطانية لأنه يعتبرها الأفضل..

ونجحت الأم بعد وفاة زوجها في إرسال (دال) إلى مدرسة داخلية هي (سانت بيترز).. وكبر الصبي وعمل في شركة (شل) للبترول، التي أرسلته إلى (دار السلام) ثم (نيروبي).. ونشبت الحرب وكاد يلقى حتفه في الصحراء الليبية، ثم نجا ليعمل طيارا مقاتلا في اليونان..

وينتهي الأمر بالفتى وقد صار مساعدا للملحق العسكري البريطاني في (واشنطن).. وكان هذا هو الوقت الذي كتب فيه قصة (الأقزام)، التي اشتراها (والت ديزني) ليخرجها في كتيب للأطفال..

لاقت قصص (دال) التالية نجاحا ساحقا، وترجمت لأكثر من خمس عشرة لغة.. وفي عام 1990 توفي في (باكينجهام شاير) تاركا أتباعا لكتاباته في كل أرجاء الأرض..

المجموعة القصصية التي بين يديك الآن هي سبع قصص قصيرة من مجموعته (قبلة.. قبلة) التي صدرت عام 1959.. وأرجو أن تستمتع بها كما استمتعت أنا.

أهم أعمال (روآلد دال):

سير ذاتية:

- وَلَد: حكايات من الطفولة.
- المضيّ وحيدا..

قصص أطفال:

- (شارلي) ومصنع الشيكولاتة.
- (شارلي) والمصعد الزجاجي العظيم.
- (داني) البطل العالمي.
- التمساح العملاق.
- علاج جورج المذهل.
- الأقزام.
- ماتلدا.
- الساحرات.

روايات:

- عمي (أوزوالد).
- أحيانا أبدا.

أشعار:

- أشعار ثائرة.
- وحوش قذرة.

قصص قصيرة:

- آه يا سرَّ الحياة الحلو!
- أفضل ما كتب (روآلد دال).
- قصص غير متوقعة.
- قبلة.. قبلة.

- حمل للمذبح وقصص أخرى.
- حافلة (روآلد دال).
- قصص مختارة.
- شخص مثلك.
- خرافتان.

(ويليام) و(ماري)



(ويليام) و (ماري)..

حينما توفي (ويليام بيرل)، لم يترك الكثير..

وباستثناء بعض الهبات لأقاربه.. فقد ترك كل شيء لزوجته..

وبعد انتهاء الجنازة بأسبوع، اتجهت الأرملة إلى مكتب منفذ الوصية الذي ناولها مظروفا مختوما، وقال لها:

- طلب مني أن أعطيك هذا.. لقد أرسله زوجك لنا قبل الوفاة، ويبدو لي أن هذا شخصي، ولربما أردت قراءته على انفراد..

أخذت منه المظروف واتجهت إلى الشارع..

تحسسَّت الخطاب فوجدت أنه خطاب رسمي.. بالتأكيد هو خطاب رسمي.. تعرف هذا من سمكه وصلابته.. من المحتم أن يكون كذلك لأن (ويليام) لم يفعل شيئا غير رسمي طيلة حياته..

«عزيزتي (ماري):

أرجو ألا يزعجك كثيرا رحيلي عن هذا العالم، لكن يجب أن تتذكري دوما أن تكوني معتزة بكرامتك وذات كبرياء.. إلخ..»

هذا خطاب تقليدي من (ويليام).. أيكون قد ضعف في آخر الخطاب وكتب لها شيئا رومانسيا جميلا؟ ربما بعض الشكر على ثلاثين عاما من حياتها كوت فيها مليون قميص، وطهت مليون وجبة، ورتبت مليون فراش..

قررت أن تنتظر حتى تصل إلى المنزل لتبحث عن هذه السطور التي تحتاج إليها..

وفي المنزل اتجهت إلى غرفة المعيشة، وجلست على الأريكة، وفتحت المظروف، وأخرجت ما به..

كان به نحو خمسين ورقة مثبتة بمشبك ورق كلها كتبت بخط دقيق صارم.. لهذا توجست خيفة.. أشعلت لفافة تبغ.. ثم وضعتها في المطفأة، وقالت لنفسها: أنا لا أستطيع قراءة هذا الخطاب لكن هل بوسع المرء ألا يقرأ خطابا من ميت؟

ربما نعم..

نظرت إلى مقعد (ويليام) الأثير في طرف الحجرة، المقعد الجلدي الذي يتوسطه انخفاض صنعه ردفا (ويليام) عبر الأعوام، وثمة بقعة سوداء على الظهر حيث كان رأس (ويليام) يستريح..

كانت دوما تجلس أمامه تحوك الثياب، بينما زوجان من العيون يرمقانها من فوق الكتاب.. كانت عيناه زرقاوين باردتين ترمقانها طيلة حياتها.. حتى وهي وحيدة..

أخرجت عويناتها من الحقيبة، وبدأت تقرأ:

- هذه الرسالة مني لكِ يا عزيزتي، ولسوف تُعطى لكِ بعد وفاتي.. لا تخافي من منظرها، فليست سوى محاولة لشرح ما فعله (لاندي) لي.. ولماذا قبلت أن يفعله..

في الأيام الماضية حاولت كثيرا أن أحدثك عن (لاندي)، لكنك رفضت بعناد أن تسمعي لي، وهو موقف ينبع من الجهل، ولو عرفت كل الحقائق لغيرتِ في الغالب وجهة نظرك، وهذا هو السبب الذي جعلني أكتب هذه الصفحات.

أعتقد أنه حين تفرغين من هذه السطور سيبدأ الحماس ينتابك، ولربما تفاخرت بما قام به زوجك.

إن بي رغبة قوية في أن أكتب عنك، وكم كنت زوجة مخلصة عبر السنين.. أرغب في الحديث عن أيام دراستي في (أوكسفورد) حيث عشت وتعلمت وعلّمت.. أتكلم عن حدائق (وورشستر) وبوابة (بنبروك)، لكن وقتي ضيق ويجب أن أتكلم الآن.

إن تفاصيل مرضي معروفة لك حتما، فلن أضيع وقتك.. كنت أحمق حين لم أذهب مبكرا للطبيب.. إن السرطان من الأمراض المعدودة التي لا تقدر العقاقير الحديثة على شفائها.. لكن الجراح لا يستطيع العمل في حالة كحالتي، حيث امتد السرطان إلى البنكرياس، وصارت الحياة والجراحة مستحيلتين.

عرفت أنه لم يبق أمامي في الحياة سوى ستة أشهر، حين ظهر (لاندي) في أحد أيام الثلاثاء من ستة أسابيع.

لم يدخل على أطراف أصابعه مرتبكا لا يدري ما يقول، كما يفعل كل زواري، بل دخل بثبات مبتسما وقال وعيناه تلمعان:

- (ويليام) يا بني.. أنت من أريد!

يجب أن أقول هنا إنه لم يزر دارنا قط، وأعتقد أنك لا تعرفينه لكن كان صديقي منذ تسعة أعوام.

إنني مدرس فلسفة.. لكني بدأت أهتم بعلم النفس، وكان هو جراحا للأعصاب.. ربما من أفضلهم.. وقد برع في استئصال الفص الجبهي للمرضى السايكوباثيين، وانعقدت بيننا علاقة حميمة..

قال لي وهو يجذب مقعدا ليجلس قرب الفراش:

- خلال أسابيع ستموت.. أهذا صحيح؟

لم يبدُ لي نوع من الغلظة في سؤاله.. بشكل ما سررت بهذا الزائر الشجاع الذي لا يخشى الدنو من موضوع محرم كهذا:

- ستموت.. ثم يأخذونك ويحرقونك..

قلت له:

- أرغب في أن أدفن.

- بعد ما تموت أتمنى أن تقبل الاقتراح الذي أقدمه لك..

كان يتأملني في نهم كأن قطعة من اللحم البقري على منضدة الجزار، وهو قد اشتراها وينتظر من يلفها له..

- أنا جاد يا (ويليام).. ها هو ذا الموضوع.. لقد عملت لبضع سنوات مع زميلين في تجربة شائقة، ويمكن الآن أن أقول إن البدء مع البشر صار ممكنا..

وانحنى ووضع يديه على حافة الفراش.. كان وسيما ليست له نظرات الأطباء المعتادة.. أنت تعرف هذه النظرات في عيونهم كأنما إشارة بالنيون تقول: أنا الوحيد الذي يستطيع إنقاذك.

لكن عيني (لاندي) كانتا واسعتين لامعتين كلهما حماس.

قال لي:

- من فترة رأيت فيلما روسيا طبيا.. لقد كان فيه رأس كلب مقطوع ظل الدم يسري فيه عبر الشرايين بوساطة قلب صناعي. كان رأس الكلب موضوعا في صينية لكنه ظل حيا، وكانوا يقربون منه الطعام فيتدلى لسانه اشتهاء، وكانت العينان تتبعان الشخص عبر الغرفة.. بهذا نستنتج أن الرأس والمخ لا يحتاجان إلى الجسد ليظلا حيين.. ما دام هناك ما يكفيهما من (الأكسجين).. والفكرة التي خطرت لى هي انتزاع مخك بعد موتك ليعمل فترة لا بأس بها من السنوات.

- أنا لا أحب هذا الكلام.

- دعني أستكمل كلامي.. إن المخ يستطيع الحفاظ على نفسه فهو لا يحتاج إلى جذع أو أطراف أو حتى جمجمة، ما دام ينال ما يلزمه من أوكسجين.. فكر في مخك الآن يا (ويليام).. إنه مفعم بالخبرات والعلم، وقد احتجت إلى أعوام كي تجعله ما هو عليه، وقد بدأ يعطي أفكارا أصيلة، لكنه الآن يجب أن يموت مع جسدك لمجرد بنكرياس سخيف أصيب بالسرطان..

- إنها فكرة منفرة.. وحتى لو نجحت فماذا ستفيده من إبقاء مخي حيا بينما لا يسمع ولا يرى ولا يشم ولا يتكلم؟

- أعتقد أننا نستطيع التعامل معك وقتها.. هلم يا (ويليام)! ما من فيلسوف حقيقي يأبى أن يعير جسده لأغراض العلم.. خذ لفافة تبغ وناقشني بالمنطق..

- لا.. أنا لا أدخن كما تعلم.

أخذ لفافة لنفسه، وأشعلها بقداحة فضية، وقال:

- عند لحظة الموت سأكون دانيا، ولسوف أتدخل فورا كي أبقي مخك حيا.. أنت تعرف أنه حين يتوقف القلب ويحرم المخ من الدم الطازج والأوكسجين، تموت أنسجته سريعا.. اتركه أربع دقائق ولسوف يغدو عديم الفائدة.. لذا يجب أن أعمل سريعا لأمنع هذا، وبمعونة قلب صناعي متقن الصنع يماثل ما ابتكره (ألكسيس كاريل) في (لندبرج).. سيقوم بأكسجة دمك وضخه في الشرايين نحو المخ.. هل تعرف شيئا عن الإمداد الوعائي للمخ؟ إن الدماء تدخل المخ عن طريق الشريان السباتي الداخلي والشرايين الفقارية، بينما تغادره عبر الوريد الودجي الداخلي.. أي أن لدينا أربعة شرايين ووريدين.. كل ما عليّ لحظة الوفاة هو أن أوصل الشرايين والأوردة بأجزاء القلب الصناعي، وسرعان ما ينتعش مخك ويستعيد قدراته..

كان (لاندي) متحمسا حتى إنه لم يتصور لحظة أنني لا أشاركه كل هذا الحماس.. وواصل كلامه:

- الآن لدينا كل الوقت الذي نريده.. سننقلك إلى غرفة الجراحة مربوطا بالقلب الصناعي.. الخطوة التالية هي انتزاع مخك سالما من جسدك الميت.. إن جسدك عديم القيمة الآن.. بالواقع هو آخذ في التحلل.

سآخذ منشارا ترددیا وأنشر قبة الجمجمة.. طبعا لن أستعمل مخدرا لأنك ميت..

- لا أحد ينشر جمجمتي بمنشار ترددي دون مخدر!

هز كتفيه، وقال:

- لا مشكلة عندي.. سأستعمل بعض (الليدوكاين) لو كان هذا يشعرك ببعض السعادة.

- شكرا..

- بعد هذا سأنتزع قبة الجمجمة كلها لأعرى الجزء العلوي من مخك.. ربما تعرف أو لا تعرف أن هناك ثلاثة أغشية تحيط بالمخ، وهي من الخارج للداخل (الأم الجافية).. (العنكبوتية).. (الأم الحانية).. بينما يسرى السائل النخاعي الشوكي بين الغشاءين الداخليين فيما يسمى بـ (التجويف العنكبوتي)، وكما قلت من قبل: المخ هو ما يصنع هذا السائل.. سأترك الأوردة كلها سليمة وكذا الأغشية.

الآن تجيء الخطوة العسيرة: أن أخرج المخ كله سالما نظيفا.. إنها عملية معقدة تتضمن تحطيم كثير من العظام وانتزاع كثير من الأعصاب.. سأقشر جمجمتك كالبرتقالة.. توجد صعوبات فنية لكني سأتغلب عليها ببعض المهارة الجراحية والصبر.. ولدى كثير من الوقت كما تعلم لأن القلب الصناعي معي.

بعد انتزاع المخ أقطع الحبل الشوكي فوق الفقرة العنقية الأولى، وأغلق الفتحة التي يخرج منها الحبل الشوكي.

الآن تأتي الخطوة الأخيرة.. يوجد جواري حوض مليء بمحلول (رنجر).. سأحمل مخك بيدي وأضعه في الحوض وأوصله بالقلب الصناعي من جديد.. وهأنتذا في الحوض تملك كل أفكارك وذاكرتك..

- لكني لن أري أو أسمع أو أشم أو أتكلم..

- لا.. نسيت شيئا مهما.. سأترك لك عينا مع العصب البصري الخاص بها.. إن العصب البصري طوله حوالي بوصتين..

إنه ليس عصبا بل هو جزء خاص من المخ، ولسوف أبقى واحدا لك.. وهكذا ستطفو العين على سطح سائل (رنجر)..

- ستظل تحملق في السقف..

- أعتقد هذا للأسف.. لن تكون هناك عضلات لتحريكها، لكنك ستكون مستريحا ترمق ما حولك في استرخاء..

- لم لا تترك لى أذنا أصغي بها إلى (باخ)؟

- أنت لا تفهم صعوبة انتزاع (القوقعة) المسئولة عن السمع وربطها بكل هذا.. ليس بوسعي انتزاع كل شيء سليما..

- ولن يكون بوسعي الكلام.. فكيف تعرفون أنني واع؟ وما قيمة التجربة أصلا!

- سيسهل علينا استخدام رسام المخ الكهربائي لقياس انفعالاتك ومحاولة فهمها.

كان يتكلم بطريقة توحي بثقته التامة من أنني موافق.. فسألته:

- هل حقا تعتقد أنني سأحتفظ بذاكرتي؟

- لا يوجد سبب يمنع.. إنه المخ ذاته، وهو حي لم يمسسه شيء.. ستعيش في عالم نقي خارق حيث لن يضايقك شيء حتى الألم ذاته.. لا مخاوف ولا قلق ولا جوع ولا عطش ولا شهوات.. فقط أفكار.. يمكنك أن تقرأ بعض الكتب أيضا، وهي تجربة رائعة بالنسبة لدكتور في الفلسفة، ولسوف ترمق العالم منفصلا عنه كما لم يفعل سواك قط.. حاول أن تفكر..

- والإحباطات؟

- لا إحباطات دون رغبات، ولن تكون لديك رغبات..

- وكم من الوقت تستطيع إبقاءه حيا؟

- مخك؟ ربما مئات الأعوام.. إن كل عوامل التدهور لن توجد.. ضغط الدم ثابت.. الحرارة ثابتة، تركيب دمك ثابت.. لا

فيروسات ولا بكتريا ولا كوليسترول.. وداعا الآن ولسوف أراك غدا!

وانصرف تاركا إياي مزعزع التفكير.

كان أول ما شعرت به هو النفور من فكرة رهيبة مهينة مقززة.. أنا بكل قدراتي أتحول إلى عينة في حوض ماء.

ثم انعدام الحيلة.. لا تراجع.. لا سبيل للاحتجاج أو الشرح.. ماذا لو لم أستطع التحمل؟ ماذا لو كان الوضع أليما؟ بلا قدمين أفر عليهما ولا صوت أصرخ به..

سيكون على أن أصبر طيلة القرنين القادمين.

ظللت أفكر في هذه الأشياء المفزعة، ثم فجأة - عند منتصف النهار - بدأ مزاجي يتبدل.. بدأت أرى الأمور في ضوء آخر.

فكرة لا بأس بها أن عقلى ووعيي لن يزولا بعد أسابيع.. إن عقلي حساس واع، به قدر هائل من العلم، وما زال قادرا على الخلق.. لكن جسدي جسد مريض منهك.. جسد يجب الخلاص منه..

قلت لنفسي:

- بالله سأفعلها! حين يجيء (لاندي) غدا سأخبره!

وبدأت أشعر بتحسن كبير، مما أثار دهشة كل من يراني، وحاولت أن أفاتحك بالأمر.. لكنك نفرت ورفضت مجرد المناقشة، وفررت من الغرفة.

لهذا كتبت هذه السطور لك.. لن أقول (وداعا) لأن هناك فرصة واهية في أن أراك ثانية لو نجح (لاندي) في عمله، وقد أمرت بألا ترى هذه الأوراق قبل أسبوع من رحيلي.

والآن.. يمكنك معرفة النتيجة من (لاندي)..

زوجك المخلص: ويليام

«ملحوظة: كوني طيبة وتذكري أن من العسير أن تكوني أرملة مخلصة.. لا تدخني، ولا تبذري المال ولا تأكلي الجاتوه، ولا تصبغي شفتيك، ولا تبتاعى جهاز تلفزيون.. أرجو أن ترفعي خط الهاتف لأنني لم أعد أحتاج إليه.

☆ ☆ ☆

فرغت (ماري) من قراءة الرسالة، وقد التوت شفتاها وتجعدتا، إن الأمر كله مريـع.. مريـع..

تناولت من حقيبتها لفافة تبغ أشعلتها، واستنشقت الدخان بعمق، وأخرجت سحابة راحت ترمق عبرها جهاز التلفزيون الجديد اللامع الذي وضعته فوق منضدة (ويليام).

ماذا يقول (ويليام) لو رأي هذا المشهد؟

لقد ضبطها مرة قبل وفاته وهي تدخن.. كانت في المطبخ وقد رفعت صوت المذياع عاليا، وفجأة استدارت لتجده على باب المطبخ يرمقها والغضب يلتمع في حدقتيه.

ولمدة أربعة أسابيع بعدها لم يعطها مليما للبيت، ولم يدر بالطبع أنها قد ادخرت ست جنيهات في علبة مسحوق الغسيل تحت حوض المطبخ.

لم يكن موافقا على تدخينها، وبالمثل لم يوافق على إنجاب أطفال، لهذا لم ترزق بطفل قط.. أين هو الآن؟

إنه يتوقع منها أن تتصل به (لاندي)، فهل عليها أن تفعل؟ بالطبع لا..

لكن بعد قليل تغلبت عليها حاسة الواجب، فبحثت في دليل الهاتف عن رقمه، وطلبته وانتظرت حتى جاء صوته.

جاءها صوت (لاندي) الهادئ غير العاطفي يقول:

أخيرا.. أنا سعيد أنك اتصلت يا مسز (بيرل).. أتساءل إن كان بوسعك المجيء إلى المستشفى لنتحدث.. لا بد أنك مشتاقة لمعرفة ما حدث..

لم ترد.. فاستطرد:

- كل شيء سار كما ينبغي.. إنه ليس حيا فحسب، بل هو واع! والعين ترى لا شك في هذا لأننا نرى تغيرات في رسام المخ الكهربائي كلما وضعنا أمامها شيئا.. إنه يقرأ الآن الجريدة..

- أية جريدة؟

- (ديلي ميرور).. فعناوينها كبيرة.

- إنه يكره (ديلي ميرور) ويفضل (التايمز)..

ساد الصمت، ثم قال في حرج:

- ليكن، سنعطيه (التايمز).. نحن سنفعل كل ما من شأنه أن يجعله سعيدا.. أريد منك أن تجيئي لعله راغب في رؤيتك..

في النهاية قالت بصوت مرهق:

- حسن.. أنا قادمة الآن..

وبعد نصف ساعة.. كانت في المستشفى.

قال لها (لاندي) ماشيا بجوارها:

- لن تحبي منظره في البداية، ولربما سبب لك صدمة..

في فتور قالت:

أنا لم أتزوجه من أجل جمال منظره يا دكتور..

نظر لها في دهشة.. حقا يا لها من امرأة غريبة بوجهها الكئيب! إن ملامحها كانت جميلة يوما، لكن قد ذهبت بها سنوات المعاناة الزوجية.. كان وجهها مرتخيا كله متهدلا مرهقا.

قال لها:

- خذي راحتك.. إنه لن يسمعنا ولن يعرف أنك هنا حتى تقربي وجهك من عينه..

وفتح الباب فاستطاعت أن ترى حوضا أبيض كبيرا فوق منصة مرتفعة، تخرج وتدخل إليه دستة من الخراطيم البلاستيكية، وبعضها يتصل بآلة ذات هدير هي آلة القلب الصناعي.

مدت عنقها لتتأمل السائل في الحوض.. كان رائقا صافيا تسبح فوقه كرة بيضاء صغيرة..

قال (لاندي):

- إنها العين اليمني.. وعلى قدر علمي هي ترى جيدا الآن..

قالت له:

- ليس السقف بالشيء المسلي للنظر..

- لا تقلقي.. نحن بسبيل إعداد برنامج تسلية كامل له.. دعينا ندن منه أكثر.

والآن.. تقف عند قمة الحوض ترمق المخ.. كان حجمه أكبر مما توقعت، وقد امتلأ بالأخاديد والتعاريج على سطحه حتى بدا كثمرة عين الجمل.. ثمرة عين جمل عملاقة.

لا صوت سوى نبضات القلب الصناعي المستمرة، والخراطيم تمتلئ بالدماء، وتفرغ بلا توقف.

قال لها (لاندي):

- قولي له شيئا لطيفا.. لن يسمعك لكنه سيخمنه من وجهك وحركات شفتيك..

انحنت حتى صار وجهها دانيا من العين، وهمست:

- هذا أنا يا عزيز.. أنا (ماري).. كيف حالك؟

كان غريبا أن تخاطب عين زوجها بلا وجه، لكنها شعرت أنها وجه حقيقي كامل، وكانت حدقته واسعة السوداء.

- نحن نفعل كل شيء كي نرعاك يا حبيبي.

وخطر لها أن منظر العين لم يعد مألوفا.. كانت ناعمة مريحة جميلة لم ترها قط، وليست عين (ويليام) التي تخترقك وتنظر عبرك، وتعرف ما تفكر فيه.

قالت لنفسها: أعتقد أنني أفضله في الوضع الحالى.. حقا بوسعي أن أعيش مع الـ (ويليام) وأتعامل معه.

وفكرت كم أن هذا جميل بلا سخرية ولا انتقادات، ولا عينين ترمقانها من فوق الكتاب في المساء.

لا قمصان تكوى ولا وجبات تطهى.. لا شيء سوى صوت الآلة المريح الذي لن يمنعها من سماع التلفزيون.

قالت:

- يا دكتور.. أعتقد أنني سأحبه بشدة.. إنه معدوم الحيلة صامت.. بل هو كطفل رضيع.

هز رأسه وراح يرمقها، فقالت للحوض:

- من الآن يا عزيزي ستعني بك (ماري) بنفسها.. متى يمكنني أن آخذه للبيت يا دكتور؟

- أرجو المعذرة؟ هل تمزحين؟

استدارت ونظرت له مباشرة بعينين تلمعان وتساءلت:

- هل لي أن أفهم لماذا؟

- لا يمكن نقله.. هذه تجربة علمية

- وهو زوجي يا دكتور كما تعرف..

بلل (لاندي) شفتيه وقال:

- ثمة خطأ هنا.. أنت أرملة يا مسز (بيرل) ويجب أن تتقبلي هذه الحقيقة...

اتجهت إلى النافذة، ومن حقيبتها أخرجت لفافة تبغ، وقالت:

- أنا أعنى ما أقول.. أريد أن أستعيده.

راقبها (لاندي) وهي تشعل لفافة التبغ.. ما لم يكن مخطئا، فإن هناك شيئا شاذا بصدد هذه المرأة..

كأنما هي مسرورة بوجود زوجها في حوض.

بماذا كان سيشعر لو كانت زوجته هي الموجودة في الحوض، وعينها عائمة على سطح السائل؟ لم يحب الفكرة قط.

قال لها:

- هلا عدنا إلى غرفتي الآن؟

كانت واقفة عند النافذة هادئة تنفث الدخان، وإذ لحقت به انحنت على الحوض وقالت:

- (ماري) راحلة الآن يا حبيبي.. لكن لا تقلق بصدد شيء.. سنعود إلى الدار حيث نعني بك.. واسمع يا عزيزي...

وهنا رفعت اللفافة لشفتيها فالتمعت العين للحظة..

رأت الحدقة تضيق إلى ما يشبه رأس دبوس من الغضب المطلق..

في البدء لم تتحرك.. ظلت منحنية على الحوض ترمق العين، ثم ببطء وتعمد أخذت نفسا عميقا من الدخان ثم.. وووش! خرج الدخان من أنفها في سحابة رفيعة صنعت ضبابا فوق مياه الحوض وفوق العين..

لم ير (لاندي) هذا لأنه كان عند الباب وظهره لها.

قالت (ماري) للحوض بنعومة:

- لا تتضايق هكذا يا (ويليام).. ليس من الخير أن تتضايق.. من الآن ستكون المدلل لدي.. وستفعل ما تقول (ماري) لك..

- مسز (بيرل)!

قالها (لاندي) قادما نحوها.. لكنها واصلت الكلام مع الحوض:

- لا تكن ولدا شقيا يا غالي.. الأولاد الأشقياء يعاقبون بغلظة هذه الأيام.

كان (لاندي) يقتادها برفق خارج الحجرة، وقال لها:

- هذا كاف يا مسز (بيرل)..

صاحت وعيناها تلتمعان:

- أليس لذيذا؟ أليس ممتعا؟ لا أستطيع الانتظار حتى أصحبه معي إلى البيت!

إدوارد الفاتح



إدوارد الفاتح..

أمسكت (لويزا) بمنشفة الأطباق في يدها، وخرجت من المطبخ إلى شمس أكتوبر الباردة في الحديقة، ونادت:

- (إدوارد)! الغداء جاهز..

وتوقفت لحظة تصغي، ثم اتجهت إلى حوض الورد حيث كان زوجها يعمل.. مرت تحت أشجار التوت حتى صارت على بعد ثمانين ياردة منه.. الآن تري زوجها.. الرجل النحيل الطويل يرتدي سترته الخضراء، وبشوكة كبيرة في يده يلقى بالأوراق الجافة في النار.. النيران البرتقالية تتأجج والدخان الأبيض يتصاعد منها.

دنت منه أكثر وصاحت:

- الغداء!

- آه! حسن.. حسن.. لقد نسيت.. لقد أوشكت على تنظيف هذا المكان، فقد سئمت كل تلك الأوراق الجافة..

كان العرق يغمر وجهه ويسيل على عنقه، فقالت:

- لا تجهد نفسك أكثر من اللازم.

- أنا لست في الثمانين يا حبيبتي.. بعض التمرين لن يؤذيني..

- نعم يا عزيزي.. لكن.. انظر!

نظر حيث أشارت، فرأى جوار النار قطا توشك الألسنة على لمسة.. كان قطا جالسا على الأرض صامتا، ضخما له لون غريب.. وثمة نوع من الاشمئزاز في الطريقة التي يرمقهما بها.

صاحت (لويزا):

- سيحترق!

وألقت بالمنشفة، وحملت القط بيديها بعيدا عن النار:

- أيها المجنون! ما خطبك؟

- القطط كلها تعرف ما تفعله.. لن تجدي قطا يفعل شيئا لا يروق له.. ليست القطط..

- يا للونه الغريب! إنني لا أعرف قط من هذا..

كان لونه رماديا فضيا غريبا بحق، وشعره طويلا حريريا متهدلا..

وعاد الزوجان نحو المنزل، فراح القط يمشي وراءهما، ثم تقدم الطريق، ودخل من الباب معهما.

صاح الزوج:

- عُد من حيث جئت! لا نريدك هنا..

لكن القط لم يبال وكذلك الزوجة.. قدمت له بعض اللبن، ثم أعدت الغداء فصعد القط إلى مقعد، وجلس ورأسه فوق مستوى المائدة بالضبط يرقب كل شيء بعينين صفراوين تتنقلان بين الرجل وزوجته..

قال (إدوارد):

- أنا لا أحب هذا القط..

- أعتقد أنه لطيف.. ليته يبقى قليلا.

وبعد الغداء عاد (إدوارد) إلى العمل بالحديقة، فيما اتجهت (لويزا) إلى البيانو.. كانت عازفة بارعة تعشق الموسيقا، وعصر كل يوم كانت تمضي ساعة تعزف لنفسها.

أما القط فجلس على الأريكة ينظر لها.. وداعبت فراءه ملاطفة، لكن أصابعها لامست نتوءا ما فوق عينه اليمني.

- يا لك من قط مسكين! لديك نتوءات في وجهك الجميل..

وجلست إلى البيانو.. كانت من متعها الصغيرة الدائمة أن تتخيل نفسها في (الكونسير) وأن هناك برنامجا تم إعداده بدقة، تعزف هي على أساسه.

اعتادت أن تتخيل وجود جمهور حولها.. تري صفوفا من المقاعد وبحرا من الوجوه التي تتابعها باهتمام وتركيز.

قررت أن يكون برنامج اليوم مبتدئا بـ (باخ) أو (فيفالدي).. ثم بعض (شومان) – مقطوعة (كرنفال) - بعد هذا لمسة من (ليست) - ربما واحدة من سوناتات (بترارك) - ثم (شومان) وبعدها تنهي بـ (برامز)..

(فيفالدي) - (شومان) - (ليست) - (شومان) - (برامز).. إن برنامج اليوم مشبع حقا.

انتظرت حتى أخرج آخر الجمهور سعلته من صدره، ثم بعظمة بدأت تعزف.

فجأة ما إن بدأت أولى نغمات (فيفالدي)، حتى شعرت بحركة غير عادية من القط على الأريكة فتساءلت:

- ماذا هناك؟

إن الحيوان الذي كان نائما على الأريكة، قد صار الآن يقظا متشنج الجسد يصغي لعزفها باهتمام.. إنه لم يبد خوفا بل ما هو أقرب إلى الشوق.. ثمة تعبير غريب على وجهه.

واصلت العزف وهي ترمق الحماس العجيب.. الرأس المائل إلى الجانب.. كان بوسعها أن تقسم أن الحيوان يتذوق العمل.

أنهت المقطوعة، ثم بدأت في عزف (شومان).. شعرت بنوع من الهلع وهي ترقب تعبيرات القط شبه الإنسانية.

- هل تحب (شومان)؟

سألته شاعرة بأنها سخيفة، ثم واصلت العزف.. كان مشهدا غريبا مضحكا أن ترى هذا القط يحلم في سماوات الموسيقا، والأدهى أن هذه المقطوعة كانت كلاسيكية صعبة جدا لا يتذوقها الكثيرون.

ربما هو نوع من التنويم كما يحدث مع الأفاعي.. إذا كان بوسعك أن تسحر أفعى بالموسيقا فلم لا يمكن هذا مع القط؟!

حين انتهت، قررت أن تبدأ مقطوعة (ليست) فورا قبل أن تفقد انتباهه.. سوناتا (بترارك) الثانية.. هنا حدث شيء غريب..

لم تعزف أكثر من أربع نغمات حين بدأ شارباه يهتزان، ووثب إلى الأرض، ثم صعد إلى مقعد البيانو جوارها، وراح باهتمام يصغي إلى السوناتا.

- حسن.. أنت تحب (ليست) أكثر من سواه..

ومسحت على ظهره، وقالت:

- أحيانا يكون سوقيا بشكل مخيف.. لكن هذه المقطوعة ساحرة..

كانت قد بدأت تحب الأداء الحركي الطريف لهذا الحيوان.. وما إن بدأت تعزف (كيندر سينين) لـ (شومان) حتى وثب القط إلى الأرض، وعاد إلى الأريكة في شيء من خيبة الأمل.

قالت له:

- سأعدل برنامجي من أجلك.. يبدو أنك تحب (ليست) لذا سأقدم لك مقطوعة أخرى وقررت أن تعزف (فايناخت باوم)، وراحت ترمق القط حين بدأت العزف.. ومن جديد وجدت الحيوان ينهض ويرتجف.. ثم يثب إلى الأرض ليجلس على مقعد البيانو جوارها.

هنا دخل (إدوارد) من الحديقة.

صاحت في حماس:

- (إدوارد).. تعال لترى هذا!

قال في ملل:

- ماذا هناك؟ أريد بعض الشاي.

- إنه القط.. لتسمع ما حدث.. إنه قط موسيقى.. يقدر الموسيقا ويفهمها..

- دعينا من هذا الهراء، ولنشرب بعض الشاي..

- إن معجزة ما تحدث في مسكننا.

وازداد وجهها الوردي توردا، واحمر خداها وقالت:

- أعتقد أننا نجلس في حضرة......

وبعد هنيهة قالت:

- ... (فرانتز ليست) نفسه!

أخرج دخان التبغ في اتجاه السقف.. كان له خدان غائران يدلان على سنين طويلة مع طاقم الأسنان، وقد جعل التدخين خديه يغوصان أكثر.. قال لها:

- لا أفهم.

- أصغ إلى.. إنني أشك في حدوث تناسخ أرواح!

- هذا القط القذر؟ أنت مريضة يا (لويزا)..

حكت له القصة كلها بينما هو ينفث الدخان، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، فلما انتهت قال لها:

- لا يوجد شيء غريب في هذا.. إنه قط لعوب يجيد بعض الحيل..

- لا تكن سخيفا.. لم يسمع أحد عن قط يجيد التمييز بين (شومان) و (ليست).. أنت نفسك لا تعرف الفارق بينهما.. اسمع.. سأعزف له المزيد من موسيقا (ليست) ولسوف ترى..

ومن فوق الرف اختارت كتابا لـ (ليست)، وانتقت مقطوعة أخرى هي (سوناتا ب الصغرى).

فلما بدأت العزف راح القط يرتجف في لهفة وشارباه يرتجفان، وحين انتهت نظرت لزوجها مبتسمة، فقال:

- إنه يحب الضوضاء.. هذا كل شيء..

- بل كان يحب ما أعزفه.. تصور هذا؟! (ليست) في دارنا.. لقد قابل (بتهوفن) في شبابه، وعرف (مندلسن) و (شومان) و (جريج)، بل إنه كان زوج أم (فاجنر)! إنني أحمل زوج أم (فاجنر) بين ذراعي الآن!

صاح في حدة:

- (لويزا).. تمالكي أعصابك!

- لا تكن متذمرا ساخرا.. ربما كان خير ما تفعله هو العودة إلى الحديقة وتركنا في سلام.

واحتضنت القط وقالت له:

- فهمت لماذا تحب (شوبان) أيضا.. إنه صديقك، وفي شقتك قابلت الحب الأعظم في حياتك.. هيا أيها الشقي! لا تنكر هذا!

- كفي عن هذا الهراء يا (لويزا).. أنت تتصرفين كالمخابيل! ولا تنسى أننا ذاهبان إلى (بيل) و (بيتي) الليلة..

- لن أذهب!

نهض من مقعده ببطء، ونفض التبغ عن ثيابه وقال:

- أعتقد أنك يجب أن تجدى طبيبا، وليكن ذلك بسرعة!

انتظرت حتى خرج من الغرفة، ثم هرعت إلى الباب الأمامي حاملة القط، وسرعان ما كانت في سيارتها متجهة إلى المدينة.. أمام المكتبة توقفت وتركته في السيارة، وداخل البناية راحت تقرأ باحثة عن مصطلحين هما (تناسخ الأرواح) و (فرانتز ليست)..

وجدت عن الموضوع الأول كتابا كتبه من يدعي (ميلتون ويليس)، ووجدت عن الموضوع الثاني كتابين.

استعارت الكتب الثلاثة وعادت إلى السيارة.

وفي دارها راحت تطالع الكتب في نهم.. وجدت في اسم (ميلتون ويليس) رنينا قويا يوحي بأنه حجة في موضوعه.
قرأت أن الأرواح تنتقل من نماذج أدني إلى نماذج أعلى من الحياة، فلم يحدث قط أن انتقلت روح إنسان إلى حيوان، بينما العكس يحدث.. وسلبها هذا كثيرا من حماسها الأول.
كيف يمكنه أن يعرف؟ وكيف يتأكد؟
وجدت قائمة بمتوسط الفترة التي تحتاج إليها الروح حتى تجد جسدا آخر تسكنه..

العاطلون والسكارى	40 - 50	سنة
العمال	60 – 100	سنة
العمال الماهرون	100 – 200	سنة
البرجوازيون	200 – 300	سنة
طبقة ملاك الأراضي	600 – 1000	سنة
المبدعون	1500 - 2000	سنة

تحققت من تاريخ وفاة (ليست)، فوجدت أنه 1886.. أي أن سبعا وستين سنة مرت منذ وفاته، وهو ما ينطبق على العمال غير الماهرين! ثم منذ متى كان ملاك الأراضي هم أرقي طبقة بشرية؟
معنى هذا ببساطة أن (ويليس) يكتفي بالتخمين.. إن الكتاب مخيب للآمال دون شك.

تركت الكتاب وراحت تتفقد الكتابين الآخرين، حين دخل (إدوارد) وسألها عما تفعل، فقالت:

- هل تعلم أن (تيودور روزفلت) الرئيس الأمريكي كان زوجة القيصر ذات مرة؟!

- لماذا لا تكفين عن هذا الهراء؟ كفاك جعل نفسك بلهاء.

راحت تحملق في صور (ليست)، ثم صاحت:

- يا إلهي! انظر إلى النتوءات على وجهه! إنها ذات النتوءات على وجه القط! أليس هذا مسليا؟

وضع الزوج يديه في جيبيه ولفافة التبغ في فمه وراح يصغي في غيظ.. ثم قال:

- ألن تكفي عن الهستيريا يا (لويزا)؟

صاحت في حماس:

- تصور (فرانتز ليست) في دارنا.. معنا للأبد!

- أستميحك عذرا؟!

- كل موسيقار في العالم سيتمنى لو يلقاه وجها لوجه.. سيلمسونه ويعزفون أمامه، وما سأفعله هو أن أخبر كل مؤلفي الموسيقا في أرجاء المعمورة بالأمر.. سيأتون من كل صوب وحدب..

- أمن أجل قط رمادي؟

- بل من أجله (هو).. لا أحد يبالي بشكله..

راح يرمق الحديقة في ضوء المساء، حيث تتألق نيران الخلاء التي أشعلها.

قال دون أن يلتفت لها:

- سوف أتخلص من هذا القط قبل أن يجعلنا معتوهين..

- ماذا تعني؟

- أنا أمنعك قطعيا من إذاعة شيء أحمق كهذا.. هل تفهمين؟

وضعت القط على الأريكة، وتقدمت خطوة نحوه وصاحت وهي تضرب الأرض بقدمها:

- تبا لك يا (إدوارد)!! هذا أول شيء مثير يدخل حياتنا وأنت تخشى التعامل معه لأن أحدا قد يسخر منك..

- (لويزا).. هذا كاف.. تماسكي!

جرت الدموع على خديها، فدنا منها وأمسك بكتفيها في حزم وقال:

اسمعي.. أنا جائع.. لقد عملت طيلة اليوم في الحديقة، وأريد بعض العشاء.. ستذهبين إلى المطبخ وتحضرين ما نأكله..

تراجعت إلى الوراء.. وغطت فمها بيدها وصاحت:

- يا للسماء. لقد نسيت هذا.. لا بد أنه يموت جوعا، وأنا لم أقدم له منذ جاء سوى بعض اللبن!

- من؟

- (ليست) طبعا! يجب أن أطهو له شيئا خاصا.. لن أتأخر.

وهرعت إلى المطبخ، ووقفت بين الأطباق تفكر فيما تقدمه للقط، ماذا عن (السوفليه)؟ بالجبن؟

سيكون ممتازا.. إن (إدوارد) لا يحبه لكن لا أهمية لهذا.

كانت طباخة متوسطة البراعة، وكانت تخشى ألا يكون (السوفليه) جيدا، لذا راحت تعمل بدقة وعناية واستوثقت من حرارة الفرن، وفيما راح (السوفليه) ينضج، تذكرت أن (ليست) لم يذق في حياته طعم الـ (جريب فروت)...

لا بأس.. ستعد له سلطة من الـ (جريب فروت)، ولسوف يسرها أن ترقب تعبيرات وجهه حين يذوقها.. حملت الصينية إلى

غرفة المعيشة، في نفس اللحظة التي رأت زوجها يدخل من النافذة المطلة على الحديقة..

قالت:

- هذه وجبته.. ولكن.. أين هو؟

أغلق النافذة خلفه، فعادت تسأله:

- (إدوارد).. أين هو؟

- آه.. نعم.. سأقول لك..

وأشعل لفافة تبغ، فرأت على سرواله آثار العشب الرطب.. قال:

- ذهبت لأتأكد من أن نار الخلاء مشتعلة..

نظرت ليديه.. ورأى أنها لاحظت الخدش الكبير على ظهر يده:

- (إدوارد)!

- إن هذه الأوراق والأغصان الجافة مرعبة.. إنها تمزقك إلى أشلاء.

- (إدوارد)!

قال لها وهو يجلس:

. بالله عليك يا امرأة اجلسي.. ليس هناك ما يدعو للقلق.. (لويزا) يجب أن تجلسي!

☆ ☆ ☆

رحيق الملكات



قالت مسز (تايلور):
- أنا قلقة حتى الموت يا (ألبرت)..
ونظرت إلى الطفلة الراقدة بلا حراك فوق ساعدها، وأردفت:
- كنت أعرف أن شيئا ما خطأ.
كان جلد الطفلة مشدودا فوق العظام كقشرة الكمثري، شاحبا.. وقال لها (ألبرت):
- حاولي ثانية يا (مابل)..
أخرجت الزجاجة من طبق الماء الساخن، ووضعت على ساعدها قطرة من اللبن لتختبر درجة حرارته، وهمست:
- هلمي.. هلمي يا بنيتي.. خذى المزيد من هذا..
راقبها الزوج من فوق المجلة، وكان بوسعه أن يرى أنها ميتة من الإرهاق، وقد ملأ وجهها الجميل اليأس.
قالت وهي ترفع الزجاجة في الضوء:
- كما ترى.. لم تذق سوى أوقية واحدة.. لن يكفي هذا كي يظل الجسد مع الروح.. هذا يقلقني جدا يا (ألبرت)..
- أعرف..
- لو عرفنا ما هو الشيء الخطأ.
- لا خطأ.. د. (روبنسون) يقول إنها مسألة وقت لا أكثر..
- لا تقل لي إنه من الطبيعي لطفلة سنها ستة أشهر أن تزن رطلين أقل من لحظة ولادتها! انظر لهاتين القدمين.. لا شيء سوى عظام وجلد.
- د. (روبنسون) يقول: لا تقلقي.
صرخت في غيظ:

- أنا أمقت الأطباء.. أمقتهم جميعا!

وغادرت الغرفة حاملة الطفلة، وبقي (ألبرت تايلور) وحيدا حيث جلس.. بعد قليل سيسمع حركتها في غرفة النوم، ولسوف يدخل هناك ليجدها كما في كل ليلة جوار المهد، ترمق الطفلة وتبكي.. ولسوف يقول لها:

- لا تخافي..

فتقول:

- إنها تموت جوعا يا (ألبرت)..

في الأسبوع الماضي أخذا الطفلة إلى المستشفى وقال لهما الطبيب إنه لا يوجد شيء خطأ.. قالت له (مابل):

- لقد رزقنا بها بعد تسع سنوات يا دكتور، ولسوف أموت لو حدث لها شيء.

ومنذ هذا الفحص فقدت الطفلة خمس أوقيات أخرى.

تناول (ألبرت) إحدى مجلات النحل التي تعج بها مكتبته.

كان طيلة حياته مجنونا بالنحل، وفي طفولته كان يمسك به بيدين عاريتين ويضعه على وجهه وخديه.. ومن الغريب أنه لم يلدغ قط.. والأغرب أن النحل لم يحاول الفرار منه.

قال أبوه إن هناك شيئا سحريا مؤذيا في جسد طفله، يحذّر النحل، أما الأم فقالت إن هذه هبة سماوية، وشبهت ابنها بالقديس (فرانسيس) مع الطيور.

كبر (ألبرت) وصار حبه للنحل وسواسا.. وفي سن الثانية عشرة صنع أول خلية نحل، وبعد عامين امتلك أول سرب.

وكان يمارس (النحالة) بلا دخان تبغ يطرد النحل، وبلا قفازين.

وفي سن الثامنة عشرة بدأ مشروعا لخلايا النحل، وبعد أحد عشر عاما صار يملك مائتين وخمسين خلية نحل، وتزوج وكان

زواجه موفقا فيما عدا أنه احتاج إلى تسع سنوات كي يرزق بطفل.

واصل تصفح المجلة التي بين يديه، فوجد مقالة عنوانها (آخر أخبار الغذاء الملكي).. وكانت تقول:

ما حقيقة هذه المادة السحرية المسماة (غذاء الملكات)؟

إنه إفراز من أفواه النحل يطعم به اليرقات التي خرجت من البيض، وهذا الإفراز يخرج بالذات من غدد المربيات، بنفس الطريقة التي ينتج بها الثدي اللبن لدى الفقريات. وهي حقيقة مهمة جدا، لأنه ما من حشرة تقوم بعملية مماثلة.

يعطى الغذاء الملكي مركزا لكل يرقات النحل أول ثلاثة أيام بعد الفقس، لكنه يستمر بالنسبة لليرقات التي ستصير ملكات، بينما يتم تخفيفه بالعسل وحبوب اللقاح بالنسبة لليرقات التي ستتحول إلى شغالات أو مربيات.

إن غذاء الملكات وجبة عالية التغذية، وبها فقط تزداد يرقة النحل في الوزن ألفا وخمسمائة مرة في خمسة أيام.. وبعبارة أقرب إلى فهمنا، كأن طفلا وزنه سبعة أرطال قد زاد وزنه إلى خمسة أطنان في خمسة أيام!

توقف لدى قراءة هذه الجملة، وأعادها على نفسه، ثم هرع إلى غرفة النوم، وصاح:

- (مابل)! لقد وجدت فكرة ممتازة للطفلة.

أنار الضوء الكهربي، فوجدها راقدة على بطنها فوق الفراش وقد دفنت رأسها بين يديها.. كانت تبكي.

اتجه إلى المهد حيث كانت الطفلة، وسألها:

- متى موعد الوجبة التالية؟

- في الثانية صباحا.. ثم السادسة صباحا..

- سأقوم بإطعامها وأتولى كل شيء لمدة اثنتي عشرة ساعة.. هلمي اذهبي لتنامي.. أنت على وشك الإصابة بانهيار عصبي.. سآخذ زجاجة اللبن والمنبه إلى غرفة أخرى، ويمكنك أن تسترخي تماما وتنسي كل شيء.

بكت ثانية، وهمست:

- (ألبرت).. أنا أحبك.

- وأنا كذلك يا حبيبتي.. تصبحين على خير..

ولم تصح إلا في العاشرة صباح اليوم التالى، وقد صاحت وهي تهبط السلم وترتدي الروب:

- يا إلهي! أنا قد نمت اثنتي عشرة ساعة متواصلة! هل كل شيء على ما يرام؟ ماذا حدث؟

كان جالسا يدخن الغليون، ويقرأ الجريدة، بينما الطفلة غافية على الأرض عند قدميه.

قال الرجل وهو يضع الصحيفة جانبا:

- أطعمتها في الثانية والسادسة والعاشرة صباحا، وقد أخذت أوقيتين في كل وجبة.. لقد أنهيت آخر وجبة منذ دقائق، وها هي ذي الزجاجة.. توجد أوقية باقية فقط.. فما هو رأيك؟

- رباه! هذا رائع!

- هل تبدو أكبر؟ هل ازدادت سمنة؟

- يبدو كلامي غبيا لكني أشعر بهذا.. كيف فعلتها؟

- لنبق الأمر هكذا.. وسأطعمها أنا كل ليلة وتطعمينها أنت نهارا.. إنني لم أساعدك قط بصددها، وقد قررت أن أكون ذا عون لك.

- هذا ليس عدلا.. سأطعمها كما اعتدت..

- على الأقل سأعد لها الرضعات بنفسي وأعقم الزجاجة.

- لكني لا أظن أن...

هلمي! لا تبدلي حظنا الحسن.. كل ما عليك هو أن تأخذي الرضعة من المطبخ.. الرضعة التي أعدها أنا.
- إنني أحبك كلما عرفتك.. أنت رجل رائع.
وبعد الظهيرة نادته حيث كان يعمل في المنحل، وصاحت:
- تعال لترى.. هل تتصور؟ لقد انتهيت من وجبة الساعة الثانية وقد شربت الزجاجة كلها.. كل قطرة منها! كم أنا سعيدة يا (ألبرت)..
وبرغم هذا كان هناك جو من التوتر حتى حان موعد رضعة الساعة السادسة.. لكن الطفلة أمسكت بحلمة (الببرونة) بقوة وراحت تمتص اللبن، وخلال سبع دقائق أفرغت الزجاجة كلها في جوفها.
تناولا العشاء وجلسا في غرفة المعيشة.. هي تحيك الثياب ووجهها متورد وعيناها تلمعان سعادة، أما هو فراح يدخن الغليون ويقرأ.
قالت له وقد تذكرت شيئا:
- ماذا كنت تريد قوله أمس حين دخلت غرفة النوم؟
خفض المجلة ووضعها على حجره، وبادلها نظرة طويلة، ثم قال:
- هل فعلت هذا؟ لست متأكدا..
ساد الصمت من جديد، وأخيرا قال وابتسامة على وجهه:
- كما ترين أنا قد (شفيت) الطفلة.
- نعم.. فأنت تجيد إعداد لبنها وخلطه..
- سأخبرك سرا.. ليس المهم كيف تعدين الوجبة، بل المهم ما تضعين فيها.. هل تفهمين هذا؟
توقفت عن الحياكة، ونظرت له بحدة، وقالت:
- (ألبرت).. لا تقل إنك تدس أشياء في لبن الطفلة!

- محتمل!
- لا أصدق.. أنت لم تضع شيئا في هذا اللبن.. كلمني بصدق.. هذا قد يكون خطرا على طفلة وادعة هشة كهذه..
- الإجابة هي نعم..
- كيف جرؤت يا (ألبرت تايلور)؟
وضع الغليون على المنضدة، وسألها:
- هل سمعت من قبل عن غذاء الملكات؟
- لا..
- إنه سحر.. سحر خالص.. وأمس خطر لي أن أضع بعضه في لبن الطفلة!
- لا بد أنك مجنون!
- غذاء الملكات يأتي من النحل، وهو ثمين جدا بحيث لا يستطيع كل شخص الحصول عليه.. أعتقد أن طفلتك نالت منه - في آخر أربع رضعات - ما يفوق كل ما حصل عليه أي شخص في التاريخ.. إنه باهظ الثمن، يصل سعره في (أمريكا) إلى خمسمائة دولار لكل رطل؛ وهذا أغلى من الذهب كما تعلمين..
- ولماذا لم يجربه أحد مع أطفاله؟
- قلت لك إنه غال جدا.. وإن من يشتريه هي شركات كبيرة تمزجه بكثير جدا من المراهم والأدهنة.
وتبيعه بأسعار فلكية، على أساس أنه كريم لإزالة التجاعيد وما إلى ذلك.. إن لدى 250 خلية نحل هنا، لو كرست منها مائة لتصنيع غذاء الملكات لكان للطفلة ما تريده..
وصمت قليلا باحثا عن بداية مناسبة، وكان يعرف أن من العسير شرح شيء كهذا لإنسانة جاهلة تماما.. أخيرا قال:
- أنت تعرفين أن كل مستعمرة نحل لها ملكة واحدة.. الملكة تضع نوعين من البيض؛ نوعا ينتج الذكور ونوعا ينتج

الإناث.. الإناث يشملن العاملات والملكة.. لكن الملكة وحدها تملك أعضاء تناسلية بينما العاملات لا..

- إن الملكة تضع بيضها في تلك الفتحات المسدسة التي ترينها في شمع العسل، وخلال ثلاثة أيام تخرج يرقة من كل بيضة، فسرعان ما تحتشد المربيات حول كل يرقة يطعمنها كالمجنونات.. إنهن يطعمنها بغذاء الملكات طبعا..

ماذا يحدث بعد هذا؟ إن هذا الطعام مغذ إلى حد لا يصدق.. وسرعان ما تنمو اليرقة ألفا وخمسمائة مرة...

الشيء المذهل هو أن هذا الغذاء هو الذي ينجح في التفرقة، ما بين ملكة تملك أعضاء تناسلية، وعاملات لا يملكنها.. لأن الملكة تربت وهي يرقة على غذاء الملكات فترة أطول من أترابها.. بينما تربت أترابها على خليط من العسل وحبوب اللقاح والغريب كذلك أن الفارق يظهر في الأرجل أيضا.. إن العاملات لهن سلال على أرجلهن يحملن فيها حبوب اللقاح، بينما الملكة لا تملك شيئا كهذا.. العاملات يعشن بضعة أشهر، بينما الملكة تعيش أربعة إلى ستة أعوام.

واتجه إلى المكتبة وانتقي إحدى المجلات؛ راح يقرأ منها بصوت عال:

- هذه جريدة أمريكية مختصة بالنحل.. إنها تتحدث عن أبحاث الدكتور (فردريك بانتنج) في (تورنتو) بحثا عن سر غذاء الملكات، وكيف قام بتحليله كيميائيا [2].

وجدوا أنه يحوي (الفينول) و (الجليسرول) و(الدكستروز) و88 ٪ من الأحماض المجهولة هل تفهمين هذا؟88 ٪ من غذاء الملكات غامض لا يعرف سره أحد حتى (بانتنج) العظيم!

كان (ألبرت) قصير القامة له عنق غليظ قصير ووجه مستدير، وكان شعر ذقنه ناميا بلون بني مصفر.. الحق أنه كان غريب المنظر، ولم تلحظ قط كم أنه شبيه بالنحلة إلى هذا الحد.

لقد رأت النساء كثيرا حين يكبرن فيصرن شبيهات بالخيول التي يركبنها.. ورأت مربي الطيور يتحولون إلى طيور آدمية بدورهم، لكنها لم تدر قط أن (ألبرت) شبيه بالنحلة إلا الآن.

وواصل الرجل الكلام:

- في عام 1919 جرب (هايل) غذاء الملكات على فئران صغيرة، وسرعان ما تطورت المبايض بشكل غير مسبوق لديها.. ووجد (بورديت) أن ذكر الفأر العقيم ينجب ذرية كبيرة بمجرد أن يتناول غذاء الملكات لمدة أسبوعين.

ثم جاء دور البشر: في (المكسيك) عام 1953 عولج مرضى السكر والربو والنقرس بغذاء الملكات، وكان هناك سمسار أسهم في (مكسيكو سيتي) يعاني من صدفية شديدة جعلته بشعا منفرا.. هنا جربوا معه غذاء الملكات بمعدل قطرة في كل وجبة لمدة أسبوعين، شفى بعدهما تماما..

هنا صرخت الطفلة، فهرعت مسز (تايلور) تحضرها.. إنها لم تعتد بعد سماع صراخ الطفل صحيح الجسد:

- أسرع يا (ألبرت) وهات الزجاجة!

عاد من المطبخ، وقد جلب معه زجاجة اللبن، فوضعت رأس الطفلة عاليا.. وقربت الحلمة المطاطية من فمها، فسرعان ما راحت ترضع في نهم، وخلال دقائق كانت الزجاجة قد فرغت.

صاحت مسز (تايلور):

- كم أنت فتاة بارعة!

وسحبت الزجاجة، لكن الطفلة تمسكت بها وأخيرا بعد جهد.. بلوب! خرجت الحلمة من فمها.

- واء واء.. واء!

وضعت الطفلة على كتفها، وراحت تضرب على ظهرها فتجشأت مرتين.. لبضع ثوان صمتت ثم بدأ الصراخ من جديد.

رفعتها على كتفيها.. أرقدتها في حجرها على بطنها.. نقلتها من ذراع لأخرى، لكنها لم تتجشأ ثانية وازداد صراخها عنفا.

قال (ألبرت) باسما:

- لا بأس.. هذه تمرينات للرئة..

واقترح بعد خمس دقائق من الصراخ، أن تبدل الكافولة، لكن هذا لم يحدث فارقا.. واء واء واء!

ابتسم بعصبية، وقال:

- هل تعرفين؟ أحسبها ما زالت جوعي ترغب في مزيد من اللبن..

- لا أحسب هذا.. إن زيادة الأكل مؤذية كقلته..

لكنه نهض إلى المطبخ، وعاد لها بزجاجة ملأى باللبن، وقال:

- ها هي ذي ثماني أوقيات.. أعطيها الكمية التي ترغبينها..

وانغلقت شفتا الطفلة كالمصيدة حول الحلمة وارتخى جسدها وبدا عليها رضا تام.

لاحظت مسز (تايلور) في قلق أن مستوى اللبن في الزجاجة يقل باستمرار.. لكنها لم تجرؤ على سحب الزجاجة..

وأخيرا فرغت الزجاجة، ورقدت الطفلة في سلام ترمقهما، وعيناها تلمعان رضا، وفمها نصف مفتوح، وشفتاها ملونتان باللبن.

ظلت الأم ترمقها في قلق، واستعادت تلك النظرة المهمومة القديمة ثم قالت:

- تعال هنا يا (ألبرت)..
- ماذا؟
- قلت تعال هنا..
جلس جوارها، فقالت له:
- احملها!
أمسك بالطفلة.. وهزها بين كفيه، وغمغم:
- جميل جميل.. إنها تزن طنا.
- وهذا ما يفزعني.. لقد حدث هذا بسرعة جدا.
- أنت غير مريحة.. كنت حزينة لنحولها، والآن أنت خائفة لأنها تزداد في الوزن.. ما بك يا (مابل)؟
على كل حال يمكن أن نزنها لنرى.. سأجلب لك الميزان.
ومن المطبخ أحضر الميزان، فيما نزعت هي ثياب الطفلة وأرقدتها عارية تماما على المنضدة.. صاح (ألبرت):
- إنها معجزة يا (مابل)! إنها بدينة تماما!
كانت الطفلة قد ازدادت بدانية بشكل غريب.. وصدرها الضامر بارز الضلوع صار كالبرميل، وبطنها بارزة في الهواء، لكن الذراعين والرجلين لم تنم بذات الدرجة، حتى كأنها عصى رفيعة تخرج من كرة من الشحم.
قال (ألبرت):
- انظري! لقد فازت ببعض شعيرات على بطنها للتدفئة!
ووضع يده على بطن الطفلة حيث كانت شعيرات صغيرة ذهبية بنية نمت هناك.. صرخت المرأة:
- لا تلمسها!
وواجهته فبدت كطير كاسر يوشك على الوثب في وجهه واقتلاع عينيه، وصرخت:
- أنت مجنون! إنها تلك المادة الكريهة!

قال لها:

- سأبرهن لك على أن هذه المادة مأمونة.. لماذا تظنين أن محصولنا من العسل انخفض للنصف في الصيف الماضي؟ السبب هو أنني كرست مائة خلية لإنتاج غذاء الملكات.. لقد تناولت منه ما يكفي لملء دلو كامل.. والآن أشعر بمشاعر رائعة!

راحت عينا المرأة الخائفتين ترمقان وجهه.. لم يكن جلد عنقه ولا ما تحت أذنيه ظاهرا الآن.. كله مغطى بتلك الشعيرات الذهبية القصيرة.

قال لها وهو يرمق الطفلة بحب:

- ولسوف يعمل غذاء الملكات مع الطفلة الرضيعة خيرا من رجل اكتمل نموه مثلي.. فقط انظري لها.. هل ترين؟

انتقلت عيناها ببطء لأسفل واستقرتا على الطفلة.. كانت راقدة على المنضدة عارية.. بدينة بيضاء.. مثل يرقة أوشكت على إنهاء حياتها، ولسوف تنطلق إلى العالم وقد اكتمل فكها وجناحاها.

قال الرجل:

- لم لا تغطينها يا (مابل)؟ أنت لا ترضين لملكتنا الصغيرة أن تصاب بالبرد!

☆ ☆ ☆

متعة الخوري



متعة الخوري..

كان مستر (بيرجيس) يقود السيارة في بطء، وقد أزاح كوعه إلى حاجز النافذة الأيسر، وقد استرخي بظهره إلى الوراء.

ما أجمل الريف! ما أجمل علامات الصيف الداني! ما أجمل زهور النرجس الأصفر على جانب الطريق.

أفضل شيء الآن أن يصعد إلى قمة التلة حيث يرى القرية من عل.. قرية (بريل) التي هي حشد من الأكواخ بين الأشجار.

وقف بعربته عند القمة، ثم خرج منها ووقف يرمق الريف عند قدميه كسجادة خضراء كبيرة.. من هنا يمكنه أن يرى على بعد أميال..

أخرج مفكرة وقلما من جيبه، وراح يرسم المشهد الذي يراه.. ثمة بيوت ريفية ومنزل محاط بالأشجار.. رسم خارطة كروكية لكل شيء بحيث يعرف مكانه بسهولة حين يهبط من التل.

عاد لعربته وهبط إلى القرية.

هناك وجد أن لديه ست احتمالات: خمسة بيوت ريفية ومنزل كبير.. تأمل المنزل جيدا فوجد أنه نظيف بحديقة مهندمة، لذا استبعده على الفور.

كم الساعة؟ إنها الثانية عشرة ظهرا.. يمكنه البدء فورا.

أراح فرملة اليد، وراح يهبط المرتفع دون محرك.. وبصرف النظر عن أنه كان متنكرا في هذه اللحظة في ثياب رجال الدين الإكليركيين؛ لم يكن هناك شيء غريب بصدد مستر (بيرجيس).

كان تاجر أنتيكات، وله محل في (شلسيا).. ولم يكن ذا ثراء واسع، لكن موهبته الأساسية تكمن في أنه يشترى بسعر رخيص

جدا جدا، ويبيع بسعر باهظ جدا.. لهذا كان يضمن دخلا لا بأس به طيلة العام.

كان رجلا بارعا، ويعرف مزاج العميل بسهولة.. يمكنه أن يكون جذابا جادا مع المسنين، راقيا مع الأثرياء، مسيطرا مع الضعفاء، لعوبا خبيثا مع العوانس، متفهما متعاطفا مع الأرامل.

وبلا حياء كان يستعمل مواهبه هذه، وبصعوبة كان يمنع نفسه من أن يترك العميل وينحني أمام تصفيق الجماهير.

وبرغم هذا لم يكن أحمق.. كان يفهم كثيرا في العاديات، وله ذوق جميل في الأثاث، وخبرة كبيرة في الطرز والتصميمات.

وبشكل خاص كان مهتما بمصممى القرن الثامن عشر العظماء: (شيبنديل) و (إنسون) و (روبرت آدم) و (شيراتون).

وفي الأعوام الماضية اشتهر بانتصاراته الكبيرة بين زملائه، كأن لديه موردا لا ينضب من الأثاث الثمين، وكانوا يسألونه من أين جاء به فيغمز بعينه ويقول شيئا عن سر صغير.

كان قد مر بموقف معين في يوم أحد منذ تسعة أعوام.. كان في طريقه بالسيارة، حين انقطع سير المروحة وسخنت السيارة للغاية مما جعله يتوقف، ويتجه لأقرب منزل طالبا بعض الماء كانت هناك امرأة دخلت لتحضر له ما يريد.

وإذ انتظرها وقعت عيناه على شيء جعل الانفعال يخنقه والعرق يغمر وجهه.. إن لدى المرأة أريكة من خشب البلوط لم ير مثلها قط في حياته، وثمة رأسا بطة محفوران على كل مسند منها.. أدرك أن هذه الأريكة تعود إلى القرن الخامس عشر.

لم يكن متأكدا.. لكن هذا المقعد يساوي أكثر من ألف جنيه في (لندن)، وحين عادت المرأة سألها عما إذا كانت ترغب في بيع المقعد.. قالت: رباه!

لماذا أبيعه؟ فقال إنه لا سبب على الإطلاق إلا الظفر بثمن مناسب.. وكم يعطيها؟ خمسة وثلاثين جنيها.. كم؟ خمسة وثلاثين جنيها.

هتفت:

- رباه! كنت أعرف أن هذه المقاعد ثمينة.. إنها مريحة وقديمة.. كلا هي ليست للبيع، لكن شكرا على المعلومة..

أخبرها أن المقاعد ليست قديمة جدا، ولن تكون سهلة البيع، لكن ربما استطاع أن يجد لها زبونا، ولهذا سيرفع الثمن جنيهين إلى سبعة وثلاثين جنيها..

بعد نصف ساعة حصل على مقعدين، وعاد إلى (لندن) بسيارته الـ (ستيشن) راضيا.. وقال - لو كانت في هذه البيوت الريفية أشياء رائعة كهذه، فلم لا أبحث عنها؟ لم لا أمشط الريف؟

قرر أن يفعل هذا أيام الآحاد، وقسم الريف حول (لندن) إلى مربعات ضلع كل منها خمسة أميال، وراح يستكشف مربعا في كل مرة..

المشكلة الأخرى هي أن أهل الريف كثيرو الشك، ولن تستطيع أن تدق جرسهم وتتوقع أن يدخلوك المنزل لتتأمل أثاثهم، لأنهم ببساطة لن يفعلوا ذلك.. إنهم يسمحون بالدخول للسباك أو عامل الهاتف أو رجل الدين لكن ليس لك.

لهذا طبع عددا من البطاقات كتب عليها:

المحترم (سيريل بيرجيس)

رئيس جمعية الحفاظ على الأثاث النادر

وفي كل أحد كان يتحول إلى خورى كنيسة، لطيف عجوز، يمضي أيامه مسافرا من أجل خدمات المجتمع، ويفتش عن

الكنوز في البيوت الريفية..
ولدهشة مستر (بيرجيس) شعر بحرج من المودة التى يلقاها كرجل دين في بيوت الفلاحين.. لا بد من فطيرة باردة وبعض الشاى وربما عشاء كامل مع الأسرة.
إن تسع سنوات تعني أكثر من أربعمائة يوم أحد..
وهو ذا يوم منها في مقاطعة (باكنجهام شاير).
يوقف السيارة على بعد مائة ياردة من القرية ثم يترجل.. لأن خوري الكنيسة العجوز لا تناسبه أبدا عربية (ستيشن) كبيرة كهذه..
كان كبير البطن أحمر الوجه مستديره، وعيناه تعطيانك انطباعا بالسذاجة، وكان يرتدي بدلة سوداء وياقة الخوري البيضاء حول عنقه، وعلى رأسه قبعة سوداء.
دق أول جرس فانفتح الباب، وفوقه لا أمامه وقفت امرأة عملاقة، وبرغم دخان تبغها فإن رائحة روث البهائم في الاسطبل كانت أقوى..
سألته:
- ماذا تريد؟
رفع قبعته وانحنى وناولها بطاقته، فسألته من جديد:
- ماذا تريد؟
أمضي دقيقتين يشرح لها دوره، حتى بدأت المرأة تبتسم مظهرة له حصيلتها من الأسنان الصفراء النخرة..
أخيرا ضربته على كتفه حتى كاد يفقد الوعي، وصاحت:
- لا أعلم بحق الجحيم ما تريد.. لكن تعال.. هلم..
ودخل وراءها.. ولدهشته لم يكن هناك شيء ذو قيمة في المنزل، لهذا شكرها وانصرف، ولم تستغرق الزيارة أكثر من خمس عشرة دقيقة.. هذا هو المفترض.

بعد هذا اتجه إلى منزل أخر صنع من خشب وقرميد، وشجرة كمثري تغطي جلّ الجدار الجنوبي..

قرع الباب مرتين لكن أحدا لم يأت.. دار حول المنزل بحثا عن صاحب الدار فلم يجده، قدر أنه في الكنيسة، لذا راح يختلس النظر عبر النوافذ.. لم يكن شيء في غرفة الطعام ولا غرفة المكتبة..

لكن في غرفة المعيشة رأي الشيء الجميل: مائدة للعب الورق من خشب (الماهوجني) على طراز (هيبل وايت) تعود لعام 1870..

صاح وهو يلصق أنفه بالزجاج:

- آه هـ هـ! هذا رائع!

وجوارها كان مقعد من الطراز ذاته، له ظهر منقوش ببراعة.

قال مستر (بيرجيس):

- قبل أن ينتهي اليوم سأجلس على هذا المقعد الجميل..

كانت هذه عادته على سبيل الاختبار كلما اشتري مقعدا، وكان من الممتع أن تراه يجلس على المقعد برفق، منتظرا لحظة (التلاقي) ليعرف ما أحدثته السنون في مفاصل المقعد.

- لكن لا داعي للعجلة. سأعود لك فيما بعد..

كانت المزرعة التالية وسط الحقول، ولكي لا يرى أحد سيارته اضطر أن يتركها على الطريق ويمشي نحو ستمائة ياردة إلى خلفية المنزل.

كان ثلاثة رجال يجلسون متلاصقين في الركن، وأحدهم معه كلبان سلوقيان أسودان ضخمان يمسكهما بمقود.

حين رأوا مستر (بيرجيس) قادما بثيابه السوداء، كفوا عن الكلام وتصلبوا بلا حراك.

ونحوه استدارت ثلاثة وجوه ترمقه في شك.

كان أكبر الرجال سنا رجلا قصيرا له فم ضفدع، واسمه الذي لا يعرفه مستر (بيرجيس) هو (رامينس)، وهو صاحب المزرعة.

أما الشاب الواقف جواره، والذي يبدو أن هناك عيبا في عينه اليمنى، فهو (بيرت) ابن (رامينس)..

أما الرجل القصير ذو الجبهة المجعدة فهو (كلود).. كان (كلود) قد زار (رامينس) بغية الحصول على قطعة من اللحم.. إنه يعرف أن (رامينس) ذبح عجلا أمس، وهذا بدون إذن الحكومة طبعا.

وهذا قد يجلب المشاكل ما لم..

قال (بيرجيس):

- مساء الخير.. أليس يوما جميلا؟

لم يتحرك أحد الرجال الثلاثة.. كانوا يفكرون في الشيء ذاته في اللحظة ذاتها.. لا بد بشكل ما أن هذا الرجل آت من الحكومة كي يدس أنفه في شئونهم.

قال (بيرجيس):

- يا لها من كلاب جميلة! لم أر كلابا سلوقية كهذه من قبل..

ساد الصمت كالعادة.

نظر بسرعة إلى كل وجه من وجوههم، ولاحظ أن كلا منهم يحمل على وجهه التعبير ذاته.. تعبيرا هو ما بين التحدي والشك.

سألهم:

- هل لي أن أسأل عن المالك؟

قال (رامينس):

- ماذا تريد؟

- أعتذر للإزعاج.

وقدم له بطاقته، فلم يتحرك (رامينس)، لكنه تابع بعينيه ما كتب عليها.

- وماذا تريد؟

شرح له (بيرجيس) فكرة جمعية الحفاظ على الأثاث القديم، فقال (رامينس):

- ليس لدينا.. أنت تبدد وقتك سدى.

قال مستر (بيرجيس) رافعا إصبعه:

- لحظة من فضلك.. أخر من قال لي هذا كان فلاحا من (سوسكس).. وحين دخلت منزله وجدت مقعدا متسخا في المطبخ، يساوي نحو أربعمائة جنيه، وقد شرحت له كيف يبيعه وابتاع جرارا جديدا بثمنه.

قال (كلود):

- عم تتكلم؟ لا يوجد مقعد يساوي أربعمائة جنيه..

- اعذرني.. هناك مقاعد تساوي ضعف هذا الثمن موجودة في الأكواخ حيث يستعملها الفلاحون كسلالم يصعدون عليها، للوصول إلى مرطبان المربى الموجود على رف النملية..

سأله (رامينس):

- إذن ما تريد هو أن تدخل داري وتنظر حولك؟

- نعم.. لا أريد أن أتلصص في كل مكان.. فقط أريد أن أرى أثاثك بحثا عن كنوز، ثم أكتب للجمعية كي تنشر هذا في مجلتها..

قال (رامينس):

- حسن.. لا توجد مشكلة في أن تدخل وتنظر..

واقتاده إلى الباب الخلفي للمزرعة، وتبعهما الآخران.

كان المطبخ خاليا إلا من منضدة رخيصة عليها دجاجة ميتة، ودخلوا إلى غرفة المعيشة القذرة وهناك كان هذا.

راه مستر (بيرجيس) فورا، فوقف متصلبا وأطلق شهقة..
ولمدة عشرين ثانية ظل كالصنم لا يصدق، ولا يجرؤ على تصديق ما يراه..
مستحيل! إنه أمام حقيقة واقعة.. لكن من يخطئ في شيء كهذا؟ إنه هو!
كان مدهونا بطلاء أبيض لكن هذا لا يغير الحقيقة.. أحد الحمقى فعلها.. لكن يمكن إزالة الطلاء على كل حال.
لكن بالله انظر إليه! وفي مكان كهذا!
الآن تأتي مشكلة الرجال الذين رأوه يشهق ويتصلب، ووجهه يحمر أو يبيض.. لقد رأي هؤلاء ما يكفي لإفساد العملية كلها، ما لم يتصرف سريعا..
وضع يده على قلبه واتجه إلى أقرب مقعد وهو يشهق..
سأله (كلود):
- ماذا هنالك أيها الخوري؟
- لـ.. لا شيء.. سأكون على ما يرام حالا.. أريد كوبا من الماء.. إنه قلبي..
أحضروا له الماء، ووقفوا يرمقونه في شك، وقال (رامينس):
- حسبتك تنظر إلى شيء ما
- لا.. لا يا عزيزي.. إنه قلبي.. هذا يحدث أحيانا..
يجب أن يجد الوقت ليفكر.. يجب أن يرتب ما يقول.. إن هؤلاء القوم جهلة لكنهم ليسوا حمقى.. أبقى يده على عينيه، ومن بين إصبعيه اختلس نظرة..
حقا.. إن الشيء هناك..
نعم.. لا شك في أن هذه قطعة أثاث يدفع أي جامع أثاث أي مبلغ ليحصل عليها.. وكان يعرف جيدا كأي تاجر عاديات في

أوربا وأمريكا أن أهم ثلاث قطع أثاث من القرن الثاني عشر، هى الكومودات الثلاثة المعروفة باسم (كومودات شيبنديل).

تم اكتشاف أول واحد عام 1920، وبيع في مزاد في العام ذاته، أما الاثنان الآخران فقد احترقا بعد عام.. لم يتذكر السعر، لكنه يعرف أنه لا يقل عن 3900 جنيه، وهذا عام 1920! لا بد أنه يساوي عشرة آلاف اليوم.

يجمع الكل على أن (توماس شيبنديل) هو من صنع هذه القطع بنفسه.. الآن هو يرى من بين أصابعه الكومود الرابع!

رابع كومود لـ (شيبنديل)! لقد وجده.. سيغدو ثريا شهيرا لأن كل (كومود) يشتهر في التاريخ باسم مكتشفه: كومود (شاسلتون).. كومود (راينهام) الأول والثاني..

أما اسم هذا فسيكون (بيرجيس).. كومود (بيرجيس).. ولسوف تنشر جريدة (تايمز) صورته جوار الكومود.

ها هو ذا هنا، وهو يشبه الكومود الثاني تماما، مزخرف على طراز (روكوكو) الفرنسي.. وكل هذا حقيقي وليس حلما.

سألوه:

- كيف حالك؟

- بخير.. بخير، هذه النوبة تحدث أحيانا..

ونهض يتأمل أثاث الحجرة.. يتأمل كل شيء ما عدا الكومود.. وقال:

- منضدة من البلوط.. قطعة جميلة لكنها ليست عتيقة بما يكفي.. مقاعد مريحة لكنها حديثة.. هذه الخزانة.. لا قيمة لها.. وهذه (الشوفينيرة..

واتجه إلى الكومود وقرعه بأصابعه – تساوي بضع جنيهات.. إنها تقليد ردي ء صنع في العصر الفكتوري.. هل

دهنته بالأبيض؟ هذه خطوة موفقة، لأن شكله أجمل باللون الأبيض..

قال (رامينس):

إنها قطعة أثاث متينة، وعليها زخارف..

قال مستر (بيرجيس) وهو ينحني ليفحص الزخارف المذهلة:

- إنها من صنع آلة وليست باليد.. يمكنك معرفة هذا من على بعد أميال..

ثم ثنى ذراعه وأراح الأخرى عليها.. واعتصر ذقنه بأنامله كمن يفكر، وقال:

- هل تعرف؟ لطالما أردت أرجل مقعد كهذه من زمن طويل.. إن لدى منضدة جميلة في منزلي لكن أرجلها قد تلفت، وأنا مولع بهذه المنضدة.. لربما تناسبها أرجل هذه (الشوفنيرة).

ورفع عينه إلى ثلاثة أزواج العيون المتباينة المختلفة لكنها جميعا ترتاب فيه.

- هلموا.. هلموا.. ماذا أقول؟

سأله (رامينس):

- تريد القول إنك تبغي شراءها؟

لست متأكدا.. ربما.. لا.. ربما كانت مشكلة.. الأمر لا يستحق العناء.. سأترككم..

استوقفه (رامينس) سائلا:

- كم تقدر سعرها؟

- ليس كثيرا، فهي ليست قديمة إلى هذا الحد..

- بل هي قديمة جدا.. أين قطعة الورق التي وجدناها في الدرج؟ تلك الفاتورة؟

فتح (بيرجيس) فمه ثم أغلقه، وحرفيا راح يرتجف.. حتى إنه اضطر إلى الاتجاه للنافذة ليخفي انفعاله.
اتجه (بيرت) إلى الكومود، ومن درج أوسط أخرج ورقة صفراء مطوية حملها إلى أبيه، فقربها هذا من وجه الخوري.
قال (رامينس):
- لا تقل لي إن هذه الكتابة ليست قديمة..
كان (بيرجيس) على وشك الإصابة بالفالج من فرط الانفعال.
كانت الورقة هشة مهشمة لكن المكتوب عليها يقول:
- إدوارد مونتاجو - كومود من صنع (شيبنديل).. الثمن 87 جنيها استرلينيا..
تماسك (بيرجيس) برغم الدوار.. رباه! إن هذه الفاتورة تضاعف من قيمة الكومود.. كم يساوي الآن؟
ربما عشرين ألفا أو أكثر..
وضع الورقة على المنضدة، وقال:
- إنها مجرد فاتورة بيع لا تدل على شيء
وعمر هذه القطعة يعود إلى عام 1870.. أي منذ سبعين عاما.. لكن هذا لا يجعلها تحفة.. هل مع أحدكم سكين؟
أخرج (كلود) مطواة (قرن غزال) من جيبه وناولها لـ (بيرجيس) ففتح النصل وبعناية رهيبة أزال قطعة من الطلاء الأبيض على قمة الكومود..
وببطء برز الخشب الجميل تحتها يلتمع كالياقوت..
قال لهم:
- انظروا! هل ترون؟ هذا الخشب قد عولج!
- كيف أيها الخوري؟
- هذه مسألة خبرة.. هذا الخشب قد عولج بالجير لإعطائه مظهرا عتيقا أثريا.. بالنسبة لخشب البلوط يستعملون البوتاس،

ولخشب الجوز يستعملون حمض النتريك.. والجير هو طريقة معالجة خشب الماهوجني..

تزاحم الرجال والاهتمام على وجوههم، فقد كان من المثير دوما أن يكتشفوا طريقة جديدة للخداع أو النصب..

قال لهم:

- هل ترون لمسة البرتقالي هذه وسط البني؟ إنها علامة الجير..

تلاشت الأنوف وهم يتأملون.. فراح يخطب فيهم:

- لكم يثير رعبى الوقت والجهد الذي يبذله أولئك الفنانون لخداع إخوانهم في البشرية! إنهم مثيرون للاشمئزاز.. أراهم يدهنون الخشب بالورنيش الفرنسي، ثم يضعون الجير ليبدو مظهره كأنما عمره مائتا عام..

وانحنى ليشير إلى أحد مقابض الأدراج المعدنية، وقال:

- هذه خدعة أخرى.. إن النحاس العتيق له لون خاص به..

نظروا إليه وهم يأملون في مزيد من الأسرار، فقال:

- المشكلة أنهم صاروا يجيدون التزوير.. لم يعد أحد يعرف الأصلي من المزيف.. إن هذه المقابض النحاسية مثلا قد تركت في صندوق من نشارة الخشب المشبعة بالنوشادر.. من ثم تخضر..

كان (كلود) أكثر الثلاثة اهتماما، لأن المرء لا يعلم ما قد يصادفه من فرص في حياته، وما زال عالم النصب متسعا للجميع.

وأخرج (بيرجيس) من جيبه مفكا صغيرا، وفي نفس اللحظة أخفي في راحته خلسة مسمارا نحاسيا صغيرا، ثم انتقى أحد المسامير الحلزونية في الكomود وراح برفق يفكه.. وقال:

- لو كان هذا المسمار من النحاس الأصلي من القرن الثامن عشر، لوجدتم أن الخطوط الحلزونية غير منتظمة لأنها صنعت يدويا، أما لو كان مزيفا ستجدون أن المسمار منتظم لأن الآلة هي صانعته..

وبسهولة أراهم المسمار الذي أخرجه من جيبه.. كانت جيوب بذلته الإكليركية ملأى بالمسامير النحاسية تحسبا لهذه المواقف.

- الآن لاحظوا كم أن هذا المسمار منتظم دقيق الصنع.

راح كل من الرجال يتفحص المسمار، فأعاد (بيرجيس) المفك إلى جيبة مع المسمار المنزوع من الكومود، وقال ماشيا للباب:

- يا أصدقائي.. كان لطفا منكم أن تستضيفوني وعساي لم أزعجكم..

نظر (رامينس) إليه، وقال:

- لم تقل لنا كم ستدفع

- آه.. نسيت.. في الحقيقة.. أعتقد أنني سأتركه.. هل تريد حقا الخلاص منه؟

ثم مشى إلى الكومود وتفحصه مقطبا، ثم قال لنقل عشرة جنيهات؟ هذا سعر عادل...

صاح (رامينس):

- عشرة جنيهات! لا تكن سخيفا أيها الخوري..

وصاح (كلود):

- لو بعناه حطبا تساوي أكثر من هذا..

- " هذه الفاتورة تقول إنه وقتها ساوي سبعة وثمانين جنيها.. والآن لا بد أنه صار أغلى.

قال (بيرجيس):

- لا تنسوا أنه تقليد.. ولكن.. ليكن. سأرتفع إلى خمسة عشر جنيها.

صاح (رامينس):

- أجعلها خمسين!

سرت قشعريرة لذيذة في جسد (بيرجيس).. لقد فاز به! إنه ملكه.. لكن عادة الشراء بأرخص أثمان تسمح بها الإنسانية؛ تغلبت عليه، فلم يستسلم..

همس بنعومة:

- يا عزيزي.. أنا أريد الأرجل فقط.. أما الباقي فهو حطب للمدفأة..

- إذن أجعلها خمسة وثلاثين

- عشرين! هذا هو عرضي الأخير..

- ليكن.. إنه لك..

- آه يا عزيزي! هأنذا أخطئ ثانية.. ما كان يجب أن أبدأ هذا.

قال (رامينس) ملوحا في وجهه بإصبعه الغليظ القذر:

- لا يمكنك التراجع أيها الخوري.. إن الصفقة هي الصفقة..

- نعم.

- وكيف ستأخذه؟

- سأجلب سيارتي هاهنا ونضعه بها.

- عربة؟ هذا الشيء لن يوضع في عربة أنت بحاجة إلى شاحنة..

- سأتصرف فلا تقلقوا.

واتجه إلى الفناء ليجلب سيارته الـ (ستيشن) حيث أخفاها.

مشي وهو يقهقه فى سره.. كان يشعر أن الفقاقيع تتصاعد من معدته إلى مخه كالمياه الغازية..

وكان عسيرا أن يمنع نفسه من الجرى، لكن رجال الإكليرك لا يجرون بل يمشون الهوينى..

ابق هادئا يا (بيرجيس).. امش ببطء.. إن الكومود ملكك مقابل عشرين جنيها وهو يساوي عشرين ألفا!

ستعود إلى (لندن) به تغني.. ويا له من يوم مجيد!

☆ ☆ ☆

وفي المزرعة كان (رامينس) يقول:

- تخيل أن هذا الأحمق يعطى عشرين جنيها ثمنا لنفاية كهذه!

قال (كلود):

- لقد كنت بارعا يا سيدي.. هل تظن أنه سيدفع؟

- لن يأخذه قبل أن أرى ماله..

قال (بيرت):

- لن يستطيع وضعه في السيارة.. هل تعلمون ما أفكر فيه؟ سوف يكتشف ذلك وعندها يقول: فليذهب إلى الجحيم، ويقود سيارته ولن نراه ثانية لا هو ولا المال.. يبدو أنه ليس متمسكا به..

صمت (رامينس) مفكرا، ثم تساءل:

- كيف نضع شيئا كهذا في السيارة؟ إن خورية الكنائس لا يركبون سيارات كبيرة.. إن لدي فكرة.. لقد قال إنه لا يريد سوى الأرجل.. حسن! كل ما علينا هو أن نقطع الأرجل قبل أن يعود، وهكذا يدخل الشيء إلى السيارة.. وبهذا نوفر عليه قطع الأرجل عند العودة إلى الدار..

وخلال دقيقتين رفع (كلود) و (بيرت) الكومود إلى الخارج، وبين روث البقر وفضلات الخيول القياه ومن بعيد رأيا الخيال الأسود للخوري يتحرك.. كان يتواثب بخفة.. فقال (كلود):

- لا أعتقد أنه مجنون..

وعاد (رامينس) بالمنشار، وناوله لـ (كلود) وقال له:

- اقطع جيدا.. لا تنس أنه سيعيد استعمالها..

كان الماهوجني صلبا جافا، وإذ مشى فيه المنشار راح غبار أحمر يسقط أرضا، وأخيرا انفصلت الأرجل فرصّها (بيرت) في صف..

قال (كلود) وهو يتأمل ما تم:

- سؤال واحد يا مستر (رامينس).. هل يمكن الآن وضعه في سيارة؟

- لا.. ما لم تكن عربة (فان)..

- حسن.. والخورية لا يركبون عربات (فان)، بل يركبون سيارات صغيرة من طراز (أوستن) أو (موريس)..

قال (رامينس):

- هو يريد الأرجل.. والباقي يحتاج إليه كحطب وما لم يحصل على كل شيء سيرفض الدفع.. أين الفأس؟

واتجه (بيرت) ليحضر فأس الحطاب، وبصق (كلود) في راحتيه وبضربات قوية راح يهشم الكومود إلى قطع صغيرة..

كان عملا عسيرا احتاج إلى بضع دقائق.. وقال وهو يجفف عرقه بعد ما انتهى:

- دعني أقل شيئا.. لقد كان هذا النجار بارعا ولا يهمني ما يقوله الخوري.

قال (رامينس):

- لقد حان الوقت على كل حال.. ها هو ذا عائد إلينا!

☆ ☆ ☆

الطريق إلى السماء



طيلة حياتها.. كان لدي مسز (فوستر) خوف مرضى من عدم اللحاق بقطار أو طائرة أو باخرة أو حتى فتح ستار المسرح.

في النواحي الأخرى لم تكن عصبية؛ لكن فكرة التأخر كانت تملؤها هستيريا إلى حد الرجفة، وكانت عضلة صغيرة ترتجف في جفنها الأيسر.. فلم تكن تختفي إلا بعد ساعة من اللحاق بالموعد.

ومن المثير والغريب أن ترى كيف يتحول قلق بسيط إلى وسواس حقيقي لدى بعض الناس، فقبل الموعد بساعة كانت تخرج من مصعد دارها مستعدة، تعتمر قبعتها وتلبس قفازيها، وتظل تمشي من غرفة لغرفة حتى يخرج زوجها - الملم بحالتها – ويقترح بصوت بارد أن يذهبا الآن.

كان مستر (فوستر) يملك كل الحق في أن تضايقه حماقة زوجته، لكن لم يكن له حق في أن يزيد تعاستها بالانتظار بلا داع.

ومن العسير أن نتهمه بتعذيب زوجته عمدا، لكنه كان يفعل ذلك، وكانت هي قد تعلمت ألا تناديه أو تتعجله.

ولا بد أنه كان يعرف أنه يقودها إلى هستيريا شديدة، وفي مرة أو مرتين تعمد أن يفوت موعد قطار لمجرد أن يزيد معاناتها.

ولو افترضنا أننا لا نستطيع تبرئته تماما، فليس بوسعنا تجاهل حقيقة أن زوجته كانت لطيفة محبة، ظلت تخدمه بإخلاص ثلاثين عاما.. ولم تعترف لنفسها قط بأن زوجها يحب تعذيبها.

كان مستر (فوستر) في السبعين من عمره، يعيش مع زوجته في مسكن كبير في (نيويورك)، وكان لديهما أربعة خدم.. والمسكن كئيب لا يزوره كثيرون.

لكن في هذا الصباح بالذات من شهر (يناير) دبت في الدار الحياة، وراحت خادمة تغطى الاثاث بالملاءات في كل غرفة، والساقي يجلب الحقائب إلى الصالة.

وراحت مسز (فوستر) تخرج من غرفة لأخرى متوترة قلقة، لا تفكر في شيء إلا أنها ستفقد طائرتها لو لم يخرج زوجها من مكتبه حالا ويستعد.

قالت للساقي إذ مرت بجواره:

- كم الساعة يا (ووكر)؟

- تسعة وعشر دقائق يا مدام.

- وهل جاءت السيارة..

- نعم.. ولسوف أنقل لها المتاع الآن.

- سيحتاج الأمر إلى ساعة للوصول إلى المطار، وطائرتي تقلع في الحادية عشرة.. يجب أن أكون هناك قبلها بنصف ساعة.. رباه! سأتأخر.. أعرف أنني سأتأخر!

قال لها برفق:

- ستلحقين بها يا مدام.. لقد أبلغت مستر (فوستر) أنك سترحلين في التاسعة والربع، وما زالت أمامك خمس دقائق..

وبدأت تمشي قلقة.. هذه هي الطائرة التي ينبغي ألا تفوتها، وقد أمضت شهورا تقنع زوجها بالرحيل.. لو ضاعت منها سيلغى الموضوع كله من تفكيره.. والكارثة هي أنه مصر على المجيء معها إلى المطار كي يودعها.

وراحت عضلة جفنها الأيسر ترتجف.

- إنها التاسعة وثلاث عشر دقيقة..

- الآن سأفقدها.. بالتأكيد
كانت أمنيتها أن تزور ابنتها في (باريس).. ابنتها التي سافرت إلى (فرنسا) وتزوجت من فرنسي، ورزقت بطفلين، وكانت مسز (فوستر) تتحرق كي ترى حفيديها.. إنها لا تستطيع الحياة في مكان بعيد عنهما: تأخذهما للنزهة وتبتاع لهما الهدايا وترقبهما ينموان.
كانت تعرف أنه ما دام زوجها حيا فمن المستحيل أن تفكر في هذا كما كانت تعرف أنه لن يرحل إلى (باريس) أبدا، ومن الغريب أنه سمح لها بذلك.
- التاسعة واثنتان وعشرون دقيقة يا مدام.
هنا انفتح الباب وخرج مستر (فوستر) إلى الصالة.. ذلك الرجل ذو الجسد واللحية الضخمين، وقال:
- حسن، يبدو أن علينا الرحيل الآن إن شئت اللحاق بالطائرة..
- نعم يا عزيزي..
وعقد يديه على صدره، وأمال رأسه لجانب، وقال:
- سآتي فورا.. سأغسل يديّ حالا.
وانصرف فيما وقف الخادم جوارها يحمل قبعة الرجل ومعطفه.. سألت الخادم:
- هل سأضيع الطائرة؟
- لا يا مدام.. ستلحقين بها.
وعاد مستر (فوستر) فهرعت للخارج، وركبت السيارة (كاديلاك) المستأجرة، وجاء زوجها خلفها وهو يتوقف لحظة أخرى ليرمق السماء ويشم رائحة الهواء البارد.
وفي السيارة جلس جوارها، وقال:

- يوجد ضباب، ولسوف يكون الوضع أسوأ في المطار.. لن يدهشني أن تتأجل الرحلة..
- لا تقل هذا يا عزيزي
وعبرت السيارة نهر (لونج آيلاند)، فقال لها:
- لقد رتبت مع الخدم كل شيء.. كلهم يرحل اليوم، ولسوف أرسل لـ (ووكر) برقية حين أريده.. سأقيم أنا في النادي ابتداء من اليوم، ومن وقت لآخر سأمر على البيت لأطمئن.
- ألا ترى أن من الخير أن يظل (ووكر) في البيت؟
- كلام فارغ.. وفي النهاية سأدفع له راتبا كاملا مقابل لا شيء..
وصلت السيارة إلى أرض المستنقعات التي فيها (أيدل وايد)، وازداد الضباب كثافة وازداد توتر المرأة.
قال زوجها:
- كفي عن القلق.. لا بد أن الرحلة الغيت.. لا أحد يطير في هذا الجو.
لم تكن واثقة لكنها أحست نبرة جديدة في صوته.
ونظرت عبر النافذة إلى الضباب، فقال لها:
- يجب أن تقبلي حقيقة أنك فقدت الطائرة..
فجأة أوقف السائق العربة، فصاح مستر (فوستر):
- لقد غرسنا! كنت واثقا من هذا!
قال السائق:
- كلا يا سيدي.. بل نحن في المطار.. لقد وصلنا..
دون كلمة أخرى وثبت من السيارة، وهرعت إلى شباك التذاكر حتى وجدت طريقها إلى الموظف، الذي قال لها:
- نعم.. لقد تأجلت الطائرة لكن أرجو ألا ترحلي نحن بانتظار أن يتحسن الطقس.

عادت لزوجها في السيارة، وأخبرته بالموضوع وقالت:
- لا تنتظر معي يا عزيزي.. لا داعي لهذا..
- لن انتظر.. هل ستعيدني إلى النادي أيها السائق؟
قال السائق:
- نعم..

ودعته ثم بقيت في المطار وحدها.. وكانت بقية اليوم كابوسا حقيقيا، ظلت على (الدكة) ساعة بعد ساعة، وكل نصف ساعة تنهض لتسأل الموظف عن الحال، والإجابة دائما أن عليها الانتظار.

وحتى السادسة مساء دوي صوت المكبر يعلن بأن الرحلة تأجلت إلى الحادية عشرة صباح الغد.

ماذا تفعل الآن؟ أين تمضي أمسيتها؟ إن مخها ضبابي مرهق تماما.. لو عادت للبيت لمنعها من السفر ثانية.. عليها البقاء حيث هي طيلة الليل.. لكن هذا عسير بالنسبة لعجوز مثلها.

اتجهت للهاتف وطلبت منزلها، وكان زوجها على وشك الخروج إلى النادي، فأخبرته بالأمر.
- سأجد لنفسي غرفة في مكان ما الليلة.
- هذا حمق.. إن لديك منزلا كبيرا هو منزلك.
- لكنه خال يا عزيزى، وما من طعام فيه.. لا شيء..
- إذن كلى قبل أن تجيئي.
- ليكن.. سأبتاع شطائر وأجيء لك.
- ولم تعد للمنزل إلا في ساعة متأخرة.
وخرج زوجها يستقبلها، فقالت له:
- تأجلت الرحلة إلى الحادية عشرة صباحا.
- لو زال الضباب..

- إنه يزول بالفعل الآن.. والآن سأدخل لأنم.
- لقد طلبت عربة أجرة في التاسعة صباحا..
- شكرا يا عزيزي.. لكن لا ترهق نفسك بتوديعي غدا!
- لا.. لا.. لن أفعل.. لكن لا أرى ما يمنع من أن توصلين إلى النادي في طريقك.
- لكن النادي في وسط المدينة، وهذا ليس طريق المطار..
- لكن لديك وقتا كثيرا يا عزيزتي.. والآن أراك في التاسعة صباحا.

دخلت إلى فراشها، وكانت متعبة إلى حد أنها نامت قبل أن تأخذ وضع الرقاد.

☆ ☆ ☆

في الصباح التالى نهضت، وفي الثامنة والنصف كانت مستعدة.

في التاسعة ظهر زوجها وسألها عن القهوة، فقالت:
- لا يا عزيزي.. ستتناول إفطارك في النادي.. لقد جاءت السيارة، كانا واقفين في الصالة.. هذه هي العادة هذه الأيام أن يتقابلا في الصالة.
- وحقائبك؟
- في المطار.
- حسن.. ستوصلينني إلى النادي أولا ثم تذهبين للمطار.. سأحضر بعض السيجار ثم ألحق بك..

دخلت السيارة، وسألت السائق:
- كم الوقت؟

التاسعة والربع..

وبعد خمس دقائق جاء مستر (فوستر)، وكالعادة كان يقف كل لحظة ليشم الهواء.. جلس جوارها، وقال:

- ربما تكونين محظوظة هذه المرة.

أدار السائق المحرك، فصاح مستر (فوستر):

- لحظة من فضلك.. لا تنطلق..

وراح يفتش في جيوب المعطف، وقال:

- إن لدي هدية صغيرة لـ (أليس).. لكن بحق السماء أين هي؟ لقد اختفت من يدي..

- لم أرك تحمل شيئا!

- إنها علبة صغيرة ملفوفة في ورق أبيض..

راحت تبحث كالمجانين في كل مكان، وواصل زوجها البحث في جيوبه وقال:

- تبا! لا بد أنني نسيتها في غرفتي.. سأصعد بحث عنها!

- أرجوك! لا وقت لدى! أتركها! أرسلها بالبريد.. لا بد أنه مشط سخيف، فأنت لا ترسل لها سوى الأمشاط!

- وما هو الخطأ في الأمشاط؟

وبدا عليه الغضب لأنها نسيت نفسها، وأمرها أن تنتظر حتى يبحث عن الهدية، وجلست تنتظر وتنتظر.. وتنتظر

رأت شيئا أبيض محشورا بين المقعدين حيث كان زوجها جالسا، فمدت يدها لتجده العلبة الورقية، ولاحظت أنها مغروسة بدقة كأنما بفعل يد تعمدت وضعها هناك.

- ها هو ذا! لكنه سيظل للأبد يفتش عنه!

وبدأت تبحث عن المفتاح بتوتر شديد، ثم اندفعت خارجة من السيارة نحو الباب الأمامي، وفتحت الباب ثم..

ثم توقفت..

تصلبت كأنما تصغي لشيء ما.. انتظرت خمس.. ست.. سبع ثوان.. جسدها كله متوتر.. حقا كانت تصغي بكل جوارحها، وقد مالت أذنها على الباب، ولمدة ثلاث ثوان أخرى ظلت بهذا الوضع، ثم فجأة عادت للحياة..

أغلقت الباب، وهرعت للسيارة، وصاحت:

- ببساطة لن أنتظره.. الوقت ضيق.. هلم بنا!

ولاحظ السائق أن ملامحها تغيرت، ووجهها قد شحب تماما، ولم تعد تلك النظرة الناعمة بل وجها مصمما صارما تلتمع عيناه، وصوتها اكتسب نبرة قوية آمرة..

- ألن يسافر زوجك معك؟

- نعم.. إنه ذاهب إلى النادي.. لا يهم.. سيركب سيارة أخرى.. هلم.. هلم!

وهكذا قاد الرجل السيارة بسرعة، ولحقت بالطائرة قبل رحيلها ببضع دقائق، وفي النهاية انطلقت عبر الأطلنطي..

استرخت في مقعدها شاعرة بالقوة والروعة.

وإذ وصلت (باريس) كانت هادئة ثابتة الجنان.

قابلت حفيديها، وكانا ملاكين جميلين، وراحت تأخذهما للنزهة وتبتاع لهما الهدايا والكعك وفي كل أسبوع كانت تكتب لزوجها خطابات تنتهي بعبارة:

- لا تنس أن تتناول وجباتك بانتظام..

وبعد ستة أسابيع حزن الجميع لأنها عائدة إلى (أمريكا)، لكن بدا من طريقتها وهي تودعهم أنها تلمح إلى العودة.

وصلت إلى (أيدل وايت)، وكانت (نيويورك) أبرد من (باريس) والجليد في كل مكان.

دفعت بقشيشا لسائق العربة، ثم وقفت خلف الباب الأمامي وقرعت الجرس فلم يرد أحد.. للتأكد انتظرت ثم قرعته ثانية..

لا أحد هنا.

فتحت الباب بمفتاحها، وكان أول ما رأته هو كومة من الرسائل على الأرض، وكان المكان مظلما باردا والغبار يغطى كل شيء، ورائحة غريبة في الهواء لم تشمها من قبل.

مشت عبر الصالة.. كان شيء ما متعمدا في مشيتها هذه، كأنها امرأة تؤكد شكا أو تحقق في إشاعة.

وحين عادت كانت عيناها تلمعان، واتجهت إلى مكتب زوجها وبحثت عن دفتر العناوين وارقام الهاتف..

طلبت رقما، وقالت:

- مرحبا.. هنا رقم تسعة شارع (62).. نعم.. هل لك أن ترسل شخصا سريعا؟ إنه محشور بين الطابقين الثاني والثالث.. هذا ما يوحى به المؤشر.. هذا كرم منك.. إن قدمى لم تعودا قادرتين على صعود السلالم..

وجلست تنتظر على مكتب زوجها

تنتظر الرجل الذي سيجيئ لإصلاح المصعد.

☆ ☆ ☆

صاحبة المسكن



صاحبة المسكن..

سافر (بيلي ويفر) من (لندن) في قطار العصر البطيء، واستبدل القطار في (سويندون)، وحين وصل إلى (باث) كانت التاسعة مساء، والقمر يلتمع في سماء مرصعة بالنجوم.

لكن الهواء كان باردا، والريح كانت كنصل ثلجي يمزق خديه.

- معذرة.. لكن هل هناك فندق رخيص بالقرب من هنا؟

أشار الحمال في اتجاه ما، وقال:

- جرب (بيل آند دراجون) فلربما يقبلونك.. إنه على بعد ربع ميل..

شكره (بيلي)، وحمل حقيبته ماشيا لربع ميل إلى (بيل آند دراجون)، ولم يكن قد زار (باث) من قبل، ولم يكن يعرف أحدا هناك، لكن مستر (جرين سليت) في (لندن) أخبره أنها رائعة.

قال له:

- ابحث عن مسكن، ثم اتصل بمدير الفرع فور استقرارك.

كان (بيني) في السابعة عشرة من عمره يرتدي معطفا أخضر وقبعة جديدة، وكان يمشي في الطريق تلك الخطوة التي تميز كل رجال الأعمال الناجحين.. هكذا كان كل رجال المكتب الرئيسي يمشون.

لم تكن هناك متاجر في الشارع.. فقط بعض المنازل الشامخة المقامة على أعمدة، وقد تساقط طلاء أكثرها.

وفي نافذة طابق سفلي، رأى في ضوء مصباح الشارع لافتة خلف الزجاج تقول: (فراش وإفطار)..

وتحت اللافتة رأي مزهرية جميلة، وعلى جانبي النافذة ستائر خضراء تشبه القطيفة.. دنا أكثر واختلس النظر إلى داخل الغرفة.. كانت نار مشتعلة في مدفأة، وعلى السجادة أمام النار كان كلب من نوع (داشهاوند) نائما في سلام.

وعلى ضوء النار رأي الغرفة ملأى بأثاث جميل مريح.. ثمة بيانو صغير وأريكة ومقاعد وثيرة، وببغاء في قفص.

قال لنفسه:

هذا منزل محترم يمكن أن أقيم فيه، ولسوف يريحني أكثر من (بيل آند دراجون)..

إن للفندق مزية هي وجود عدد كبير من الناس يتحدث إليه، لكنه كان يهاب (البنسيونات).. إن الاسم نفسه مرعب يذكرك برائحة حساء الكرنب، وصاحبات النزل المتلصصات، ورائحة الرنجة في غرفة المعيشة..

حقا يجب أن يرى (بيل آند دراجون) قبل أن يقرر..

هنا حدث شيء غريب.. لقد راحت عبارة (فراش وإفطار) تتردد في ذهنه وأمام عينيه مرارا، وراحت كل كلمة كأنها عين كبيرة تتلصص عليه من وراء الزجاج وتمسك به وتناديه.

لم يدر متى مشى إلى الباب الأمامي، وقرع الجرس.

سمع الرنين ثم فتح الباب بسرعة.. بسرعة إلى حد أنه لم يجد الوقت ليرفع إصبعه عن الجرس.. من الطبيعي أن تمر دقيقة بين رنين الجرس وفتح الباب؛ لكن هذه المرأة كانت مثل عفريت العلبة.

ضغط الجرس فوثبت في وجهه.

كانت في الخامسة والأربعين، وابتسمت مرحبة إذ رأته.. وقالت في مودة:

- هلم.

خطا للداخل، فوجد نفسه يتأمل المنزل.. قال لها متماسكا:
- رأيت اللافتة في النافذة.
- أعرف..
- وكنت أبحث عن غرفة..
- كل شيء معد.
كانت عيناها زرقاوين في وجه أحمر مستدير..
قال لها:
- لقد استوقفتني العبارة بينما..
ثم استدرك فقال:
- كم تطلبين؟
- خمسة ونصف في الليلة مع الإفطار..
كان هذا رخيصا جدا، وأقل مما تمنى.. لكنها قالت:
- لو كان هذا كثيرا فلربما أمنحك تخفيضا.. هل تريد بيضة في الإفطار؟ إن البيض غال حاليا، ولو تنازلت عنه لكان الأجر أرخص..
- إن السعر مناسب كما هو..
كانت لطيفة جدا، كأنها أم أفضل أصدقائك في المدرسة تسألك البقاء مع ابنها ليلة عيد الميلاد.
نزع قبعته وبدأ يخلع معطفه، وتأمل المدخل.. لا قبعات ولا مظلات ولا عصى.. قالت له وهي تقوده:
- كما ترى ليست متعة الضيوف في داري من حقى دوما.
كانت - كما قال لنفسه - على شيء من الخبال.. لكن من يهتم بهذا مقابل خمسة ونصف في الليلة؟
قال لها في أدب:
- المفترض أن يكون هذا المكان الرحب مزدحما..

- إنه كذلك يا عزيزي، لكني انتقائية نوعا هاهنا.. كل شيء معد ليلا ونهارا بانتظار قدوم شاب مهذب مثلك.. فقط الشخص المناسب هو الذي يبيت هنا..

وأضافت بابتسامة باهتة:

- مثلك..

عند الطابق الأول قالت له:

- هذا الطابق ملكي.. أنا أعيش هنا.

وتسلقت الدرجات إلى الطابق الثاني:

- وهذا ملكك.. وهذه حجرتك.

واقتادته إلى غرفة نوم صغيرة لكنها مريحة، وقالت له:

- ضوء الشمس يدخل من هذه النافذة صباحا ليملأ الغرفة.. يا مستر (ويلسون)..

- (ويفر)، اسمي (ويفر).

- ليكن يا مستر (ويفر).. قد دسست زجاجة من الماء الساخن تحت الملاءات.. من الممتع دوما أن تجد زجاجة من ماء ساخن فى فراش غريب ملاءاته نظيفة.. ألا ترى هذا؟ يمكنك أن تشعل المدفأة متى رأيت ذلك..

ولا حظ أن الغطاء مطوي على جانب، كأنما يدعو المرء كي يدخل فيه.

قالت وهي تنظر لوجهه نظرة جدية:

- يسرني أنك جئت.. لقد بدأت أقلق.

وضع حقيبته على مقعد وراح يفتحها، فقالت له:

- وماذا عن العشاء يا عزيزي؟ هل تناولته؟

- أعتقد أنني سأنام مبكرا.. عليّ أن أصحو مبكرا لأتصل بمدير الفرع..

- ليكن.. سأتركك الآن لتفرغ حقائبك، لكن أرجو قبل أن تنام أن تتكرم بالحضور لغرفة الجلوس كي توقع السجل؟ كل شخص هنا يفعل هذا.. إنه القانون ولا نريد أن نخرقه في هذا الطور المبكر من تعارفنا..

ولوحت بيدها وغادرت الغرفة.

كان الآن يدرك تماما أن هذه المرأة غير متزنة.. لكن هذا لم يقلقه.. إنها كريمة خدوم ودود.. بالتأكيد هي فقدت ابنها في الحرب أو شيئا كهذا، ولم تقهر الصدمة بعد.

وبعد دقائق - وبعد غسل يديه - نزل إلى غرفة المعيشة.. لم يكن هناك أحد لكن النار كانت مستعرة، والكلب (الداشهوند) ما زال نائما، والغرفة في منتهي الدفء

قال لنفسه:

- إنني لرجل محظوظ.

وجد سجل الضيوف على البيانو، فأخذه ودون به اسمه وعنوانه.. ولم يكن هناك سوى اسمين قبله.

أحدهما هو (كريستوفر مولهولاند) من (كارديف)، والأخر (جريجوري تمبل) من (بريستول).

غريب! إن أسم (كريستوفر مولهولاند) يقرع جرسا ما في ذاكرته.. أين قرأ هذا الاسم الغريب من قبل؟ أكان زميلا في المدرسة؟

أكان صديقا لأبيه أم تقدم لأخته؟

وبدأ يفكر في الاسم الأخر.

- شابان ظريفان..

جاء الصوت من خلفه، فاستدار ليري صاحبة المنزل تدخل حاملة صينية فضية في يدها، فاستدار وقال لها:

معذرة.. لكن هذه الأسماء تبدو مألوفة.

- أحقا؟ كم أن هذا مثير!

- أنا متأكد أنني سمعتها من قبل. ربما كان ذلك في الصحف.. لم يكونوا من المشاهير ليسوا لاعبي كرة قدم أو شيئا كهذا..

وضعت الصينية، وقالت:

- مشاهير.. لا.. لا.. لكنهم كانوا شديدي اللطف والوسامة.. أؤكد لك هذا.. كان هذان الشابان طويلي القامة وسيمين مثلك.

أشار إلى السجل، وقال لها:

- انظري! إن آخر تاريخ هو منذ عامين.

- أهو كذلك؟

- يا عزيزي! - وهزت رأسها - لم أفكر في هذا.. كم يمر الزمن سريعا.. أليس كذلك يا مستر (ويلكنز)؟

- (ويفر).. (ويفر)..

- آه بالفعل!

وجلست على الأريكة، وأضافت:

- كم أن هذا سخيف مني.. أعتذر.. إن الكلام يدخل من أذن ليخرج من أخرى.

قال لها:

- ألا تفهمين كم أن هذا مذهل؟ أتذكر هذين الاسمين بشكل منفصل، لكنهما مرتبطان في ذاكرتي بشكل ما.. كأنهما اشتهرا بنفس الشيء.. هل تفهمين ما أريده؟ مثل (تشرشل) و (روزفلت)..

قالت:

- كم أن هذا مسل! والآن تعال جواري لأقدم لك قدح شاي، وبسكويتة زنجبيل قبل أن تنام.

ووقف جوار البيانو يرمقها وهي تعد الأقداح والأطباق.. كانت لها يدان سريعتا الحركة وأنامل حمراء.

قال لها:

- لقد قرأت هذين الاسمين في الصحف.. أنا واثق من هذا.. ولسوف أتذكر بعد ثانية..

لا شيء يضايق أكثر من الذكرى التي تقبع هنالك خارج أسوار ذاكرتك: لكنه لم يقبل الاستسلام، وقال لها:

- لحظة.. انتظري لحظة.. ألم يكن تلميذا في مدرسة ريفية.. ذلك الـ (مولهولاند).. ثم فجأة..

- هل لك في سكر؟

- كان تلميذا في (إيتون).. ثم فجأة..

- خطأ.. لم يكن تلميذا حين جاء لي.. كان طالبا في (كمبردج).. هلم.. إن الشاي جاهز وابتسمت له تدعوه للجلوس، فاتجه ليجلس جوارها.

ولنصف دقيقة راحا يرشفان الشاى دون كلمة، لكن (بيلي) كان يعرف أنها تنظر له.. كانت عيناها على وجهه ترمقانه من فوق القدح، ومن حين لآخر يشم رائحة عطرية معينة تفوح منها.. ربما كرائحة الجلد الجديد أو رائحة ردهات مستشفى.

قالت:

- مستر (مولهولاند) كان يحب الشاي.. لم أر من يحب الشاي مثله..

قال لها:

- أخاله رحل منذ زمن طويل.

رفعت حاجبيها، وهتفت:

- لكنه لم يرحل يا عزيزي.. إنه هنا.. في الطابق الثالث.. كلاهما.

وضغطت على ركبته وتساءلت:
- كم عمرك يا عزيزي؟
سبعة عشر عاما..
- هذا هو العمر المناسب كان (مولهولاند) في مثل سنك، لكن أسنانه لم تكن بيضاء كأسنانك.. أما مستر (تمبل) فكان في الثامنة والعشرين، لكني ما كنت لأخمن هذا ما لم يخبرني.. ولم تكن ثمة لطخة واحدة في جلده!
- ماذا؟
- كان جلده كجلد طفل.
ساد الصمت، والتقط القدح فوضعه في الطبق ثم ظل يتأمل الغرفة حوله ويعض شفته..
قالت له:
- هذا الببغاء.. هل تعرف؟ أنا من قام بتصبيره هكذا..
- لقد خدعني تماما حين رأيته من النافذة.. حسبته حيا...
- للأسف لم يعد..
- إن التصبير متقن بحق.. ولا يبدو لي ميتا على الإطلاق.
قالت في فخر:
- هل قابلت (باسيل) الصغير؟
وأشارت إلى الكلب الـ (داشهوند) الراقد أمام النار، هنا تذكر (بيلي) أن الحيوان ظل راقدا طيلة الوقت..
مد يده ولمس ظهره فوجده صلبا باردا.. أزاح الشعر فوجد أن جلده رمادي أسود جاف..
- رباه! عمل رائع!
واستدار باحترام شديد إلى المرأة.. فقالت:
- أنا أحنط وأصبر.. كل حيواناتي حين تموت.. هل لك في مزيد من الشاي؟

- لا.. شكرا..
فالحقيقة أن الشاي كان له مذاق اللوز المر، ولم يحبه كثيرا.
- هل وقعت في السجل؟
- نعم.
- حسن.. لأنه فيما بعد قد أنسي اسمك عندها سأعود للسجل وأتذكره.. ما زلت أفعل هذا مع مستر (مولهولاند).. ومستر.. مستر..
قال لها:
- (تمبل).. مستر (تمبل).. معذرة على السؤال.. لكن ألم يأت ضيوف آخرون هنا طيلة السنوات الثلاث الماضية.
رفعت قدحها وأمالت رأسها لليسار، ونظرت له من طرف عينها، وبرقة ابتسمت وقالت:
- نعم يا عزيزي.. فقط أنت..

☆ ☆ ☆

مز (بيكبى)
ومعطف الكولونيل



مسز (بيكسبي) ومعطف الكولونيل..

(أمريكا) هي بلد الفرص للنساء.

إنهن يملكن بالفعل خمسة وثمانين بالمائة من ثروات البلد، وعما قريب سيملكنها كلها.. لقد صار الطلاق ترتيبا سهلا يمكن عمله ببساطة.. ويمكن للنسوة الأمريكيات تكراره كلما أردن ذلك، من ثم تتضاعف أرباحهن.

كذلك يمنح موت الزوج جوائز ثمينة للمرأة، وتفضل بعض النساء الاعتماد على هذه الطريقة، عالمات أن فترة الانتظار لن تطول لأن كثرة العمل وارتفاع ضغط الدم، سيقودان البائس حتما إلى الموت.. سيموت على مكتبه وأمامه زجاجة من الأقراص المهدئة وأدوية القلب..

ويبدو أنه كلما زادت معدلات الطلاق كلما ازدادت الأجيال الجديدة حماسا.. إن الشبان يتزوجون كالفئران، وحين يصلون سن الثلاثين يكون لأكثرهم زوجتان سابقتان.

وللإنفاق على النساء يجب على الرجال أن يعملوا كالعبيد، وفي الحقيقة هم كذلك فعلا، وفي النهاية يصلون إلى منتصف العمر حيث يغزو الخوف قلوبهم.. وفي الليل يحتشدون في الأندية في مجموعات صغيرة يبتلعون الأقراص الموسعة لشرايين القلب، ويحكون لبعضهم القصص التي تظهر الرجال أقوى وأقدر.

هناك قصص كثيرة من هذه النوعية، لكن ثمة واحدة أحسب أنها ستروق لك، واسم القصة هو (مسز بيكسبي ومعطف الكولونيل)، وتحكي عن شيء كهذا:

كان مستر ومسز (بيكسبي) يعيشان في (نيويورك سيتي)، وكان هو طبيب أسنان متوسط الدخل، أما هي فكانت امرأة جشعة نهمة إلى المال، واعتادت أن تسافر إلى (بنسلفانيا) كل شهر لتزور خالة لها في (بالتيمور)، وكانت تمضي معها يوم الجمعة ثم تعود إلى زوجها يوم السبت لتعد له العشا..

وكان الزوج راضيا عن هذا الترتيب، فما كان ليحرم المرأتين من اللقاء كل شهر مرة.

وكان يقول لزوجته:

- ليكن.. ما دمت لا تتوقعين مني أن أذهب معك..

فتقول له:

- بالطبع لا يا عزيزي.. إنها ليست خالتك بل خالتي أنا..

حتى الآن لا مشاكل.. لكن المشاكل تظهر في (بالتيمور) لأن هناك رجلا يدعى الكولونيل، هو مصرّ على ملاحقتها ولا يكف عن إبداء إعجابه بها.. وكان ثريا جدا يسكن في منزل فاخر بلا زوجة أو أسرة تنغص حياته.. فقط بعض الخدم المخلصين، وكان يمضي الوقت في ركوب الخيل وصيد الثعالب.

بدأت القصة في رأس السنة، حين كانت مسز (بيكسبي) واقفة على محطة (بالتيمور) تنتظر قطار العودة.

جاء صوت من خلفها يقول:

- إن الكولونيل طلب مني أن أعطيك هذا..

استدارت فرأت وصيف الكولونيل - وهو قزم أسمر - يقف خلفها ويدفع أمامه صندوقا من الورق المقوي.

صاحت مندهشة:

- ما هذا يا (ويلكنز)؟ هل معه رسالة؟

-. لا يا سيدتي..

قالها وانصرف، فلما جاء القطار حملت الصندوق إلى استراحة السيدات وأغلقت الباب.. كم أن هذا مثير!

هدية من الكولونيل

بدأت تفك الخيط، وقالت لنفسها:

- أراهن على أنه ثوب.. ربما ثوبان.. لن أنظر.. سأتحسس ما به وأحاول أن أخمن.. أخمن اللون والثمن كذلك..

أغمضت عينيها، ورفعت الغطاء، ثم وضعت يدها بالداخل.. كان هناك ورق تغليف سمعته (يخشخش)، وكان هناك مظروف لم تبال به وواصلت التحسس.. يداها رقيقتان كالممسات..

وصلت إلى شيء ما، فصاحت:

- مستحيل أن يكون هذا حقيقيا!

كان قطعة سميكة من الفراء تحدث صوتا جميلا إذ تحتك بالورق.. وحين رفعتها وجدت أنه معطف كامل من الفراء الرائع جعل أنفاسها تحتبس.. إنها لم تر فراء (المنك) قط.. نعم.. هو من (المنك) بالتأكيد.. وما أجمل لونه! إنه أسود نقي.. في البداية حسبته أسود، ولكن حين قربته من النافذة لمحت شبحا من اللون الأزرق فيه.. أزرق غني كالكوبالت.

وقرأت البطاقة المثبتة:

منك (لبرادور) البري..

ثم لا شيء آخر، ولا علامة على المصدر ولا الثمن.. كم كلف هذا؟

لم تجرؤ على التفكير.. ثلاثة.. أربعة.. ستة آلاف دولار؟ ربما..

لم تستطع الانتظار حتى تجربه.. نزعت معطفها الرخيص الأحمر وارتدت هذا.. يا الله! ملمس الفراء! من قال لها مرة إنهم

يستعملون جلود الحيوانات الإناث للكمين، والحيوانات الذكور لباقي المعطف؟ هناك من قال لها هذا.

كان المعطف ينزلق فوق جسمها كأنما له حياة خاصة به، وكأنه جلد ثان لها.. يا له من شعور غريب!

وفي المرآة رأت أن شخصيتها تبدلت بالكامل.. بدت مبهرة ثرية مشعة قوية.. كل هذا في وقت واحد.. بهذا يمكن أن تدخل أي مكان تريده وسيهرع الناس كالفئران ليلقوها.

إن هذا أجمل من الكلمات.

راحت تتحسس الفراء وهي تبتسم.. بالتأكيد ستقبل هذه الهدية، لكن كيف؟ إنها في لهفة ارتداء المعطف نسيت هذه النقطة الجوهرية.. فخلال ساعتين ستكون في (نيويورك)، وبعد عشر دقائق تكون في البيت، وسيكون زوجها هناك بانتظارها.

وحتى رجل مثل (سيريل): يعيش في عالم أسود من الأنياب وحشو الضروس وقنوات الأعصاب، سيبدأ في سؤالها أسئلة كثيرة، إذا ما عادت من عطلتها بمعطف من فراء المنك ثمنه ستة آلاف دولار.. وهو يعلم أن خالتها لا تملك ثمن هدية كهذه.

قالت لنفسها بصوت عال:

- لكني سأحصل على المعطف.. سأحصل على المعطف!

ليكن يا عزيزتي.. ستحصلين عليه لكن لا تدعى الهلع يتملكك.

اجلسي.. وفكري.. أنت فتاة بارعة.. فكري..

بعد ساعتين غادرت القطار في المحطة، وكانت بمعطفها الأحمر وهدية الكولونيل في يدها، واستوقفت سيارة أجرة..

قالت للسائق:

- هل تعرف مكان سمسار رهونات [3]؟
قال وهو ينظر لها بدهشة:
- يوجد كثير منهم في (سكسث أفينيو).
- قدني إلى أول واحد فيهم.
في النهاية توقف الرجل بسيارته أمام متجر فقالت له:
- انتظرني هنا من فضلك.
وبالداخل كانت قطة عملاقة تلتهم رءوس السمك الموضوعة على ورقة جريدة، ونظرت لها لحظة بعينيها الصفراوين.
وقفت المرأة تنتظر وهي ترمق الأشياء الموضوعة.. الساعات.. الأسنان الذهبية.. لماذا يرهن الناس أسنانهم دوما؟
جاء صاحب المحل من الداخل، فقالت له:
- مساء الخير.
وراحت تفك رباط اللفافة الورقية، وقالت:
- معذرة.. إنها حماقة مني، لكني فقدت حافظتي واليوم السبت وكل المصارف مغلقة.. أريد بعض المال حتى يوم الإثنين.. هذا معطف ثمين لكني لا أطلب الكثير.. وسأرده يوم الإثنين.
لم يتكلم الرجل، لكنه حين رأي الفراء الثمين ينسكب على المنضدة أمامه، رفع حاجبيه وأعاد رأسه للوراء.
قالت:
- لو كانت معي ساعة أو خاتم، لأعطيتك إياها..
راح يداعب المعطف، وقال يبدو جديدا..
- إنه كذلك.. ماذا عن خمسين دولارا؟
- ليكن.

- إنه يساوي مائة مرة هذا المبلغ، لكنك ستعني به حتى أعود..

أخرج الرجل بطاقة من درجه، لها نفس منظر البطاقات التي يضعونها حول الحقائب، لكنها كانت معدة لتقطع إلى نصفين متساويين.

سألها:

- الاسم؟

قالت:

- لست بحاجة إلى الاسم والعنوان.. أليس كذلك؟

هز كتفيه، وانتقل القلم إلى سطر النقاط التالي، وقال:

من الأفضل ألا تفقدى هذه البطاقة.

- لن أفقدها

- هل تفهمين أن من حق كل من يجد هذه البطاقة أن يطالب بهذا المعطف؟

- نعم.. أعرف.

- الوصف.. ماذا أكتب كوصف؟

- لا وصف.. شكرا

توقف القلم عند سطر النقاط، وقال لها

- يجب أن تصفيه.. هذا مهم لبيع البطاقة لو أردت..

- لن أبيعها.. انظر.. أنا لست مفلسة لو كان هذا ما تعنيه.. لقد فقدت حقيبتى فقط.

- ليكن.. كما تريدين.

هنا خطرت لها فكرة، غير سارة، فسألته

- اسمع.. لو لم أكتب الوصف هنا، فكيف أتأكد من أنك سترد لى المعطف ولا شيء سواه؟

- إنه مكتوب في الدفاتر.

- كل ما لدي هو رقم.. وبوسعك إعطائي أي شيء..
سألها:
- هل تريدين الوصف أم لا؟
- لا.. إنني أثق بك
أعطاها نصف البطاقة، ثم أخذ الحافظة من جيبه وأخرج خمسين دولارا، وقال لها:
- الفائدة ٣ ٪ شهريا..
- شكرا.
غادرت المحل حيث كانت سيارة الأجرة تنتظر وعادت لدارها.

☆ ☆ ☆

قبّلت زوجها، وقالت له:
- عزيزي.. هل افتقدتني؟
كان (سيريل بيكسبي) جالسا يقرأ الجريدة، ونظر لساعته، وقال:
- الثانية عشرة والنصف.. لقد تأخرت.
- إنه القطار... إن خالتي ترسل تحياتها.
طوي الصحيفة ووضعها على ذراع المقعد، وراح يرقب زوجته.
استرخت على الأريكة والحقيبة على حجرها، وقالت:
- ماذا فعلت أمس يا عزيزي؟
- أتممت بعض الأطقم، كما راجعت حساباتي.
- هل تعرف؟ لقد حان الوقت كي يقوم الأخرون بالعمل الشاق بدلا منك.. لم لا تكلف الفتى بعمل الأطقم؟ أنت أهم من

هذا
- أحب أن أفعله بنفسي.. إنني فخور بالأطقم التي أصنعها..
- أعرف هذا، وأعرف أنك ممتاز، لكن ماذا عن الحسابات؟ لم لا تقوم بها تلك الأنسة (بولتني).. إنه عملها..
- هي تفعل ذلك.. لكنها لا تعرف من الثري ومن غير الثرى من مرضاي..
تناولت منديلا من حقيبتها كأنما لتتمخط، ثم هتفت:
- آه! انظر!
وأبرزت البطاقة، وقالت:
- لقد وجدت هذه على مقعد سيارة الأجرة.. إن عليها رقما.. ربما هي بطاقة يانصيب أو شيء كهذا.
أخذ البطاقة، وتفحصها بدقة كأنما هي ضرس مسوس، ثم قال:
- " هذه بطاقة رهن.. عليها اسم وعنوان المتجر..
- آه يا للخسارة! حسبتها شيئا مهما.
- بل في الواقع ربما تكون شيئا رائعا.
وراح يشرح لها نظام الرهن.. إن كل من يملك هذه البطاقة يمكنه أن يطالب بالشيء.
- وهل تعتقد أن الأمر يستحق الجهد؟
- أعتقد أنه يستحق البحث.. إن المبلغ المدون هنا خمسون دولارا.. أي أن الشيء المرهون لن يقل ثمنه عن خمسمائة دولار، لأن سمسار الرهن لا يعطي أكثر من عشر قيمة الشيء..
- لم أعرف هذا..
- ما أكثر ما لا تعرفين يا عزيزتي.. الآن بما أننا لا نعرف صاحب هذه البطاقة، فمن حقنا أن نطالب بالشيء المرهون في أي وقت، مقابل خمسين دولارا.

- آه! كم أن هذا مثير! خاصة ونحن لا نعرف ما هو.. ربما يكون أي شيء.

- ربما.. لكنه في العادة ساعة أو خاتم.. يجب أن ننتظر لنرى.

- إذن سأهرع صباح الإثنين لأرى..

- أعتقد أن هذه مهمتي أنا..

- لا.. دعني أفعل أنا.

- لا أظن.. سأحصل عليه وأنا في طريقي للعمل.

- لكنها بطاقتي أنا.

- أنت لا تعرفين شيئا عن سماسرة الرهن، وربما يخدعك الرجل.. ومن يدري؟ قد يكون الشيء رجاليا تماما: ساعة جيب.. أزرار قميص..

- إذن سأقدمه لك في عيد الميلاد، لكن لو كان شيئا أنثويا فسآخذه لنفسي.

- هذا عادل.. لكن لم لا تأتين معي إلى المتجر؟

كادت توافق، ثم أمسكت في اللحظة المناسبة إن آخر ما تريده أن يحييها السمسار كعميلة قديمة في وجود زوجها.

قالت:

- لا.. من المثير أن أبقى هنا وأنتظر.

- على كل حال لو لم يرق لى الشيء فلن آخذه..

- ودس البطاقة في جيبه.

☆ ☆ ☆

وجاء يوم الإثنين أخيرا، فأوصلته إلى الباب وقالت له:

- لا تجهد نفسك في العمل.

- هل ستجد وقتا للمرور على سمسار الرهونات؟
- آه! رباه! لقد نسيت.. سآخذ عربة أجرة وأمر عليه قبل الذهاب للعمل...
- أنت لم تضيع البطاقة.. أليس كذلك؟
- أرجو ألا يكون هذا - وتحسس جيبه- إنها هنا.
- ومعك خمسون دولارا؟
- نعم.
أصلحت ربطة عنقه، وقالت:
- هل تتصل بي من العيادة لو كان شيئا جميلا؟
- نعم.
وبعد ساعة حين دق جرس الهاتف، هرعت لترفع السماعة قبل أن ينتهي أول رنين، فسمعته يقول.
- لقد حصلت عليه!
- آه يا (سيريل)! هل هو جميل؟
- جميل؟ إنه خرافي.. انتظرى حتى ترينه..
- وما هو؟
- أنت فتاة محظوظة.. هذا هو كل شيء.. إنني أتساءل كيف تم رهنه مقابل خمسين دولارا هناك شخص أحمق.
- كف عن جعلي أجن.. هل هو قرط؟
- خطأ..
- خاتم من الماس؟
إنك حتى لم تقتربي من الصواب.. لسوف أحضره معي حين أجيء ليلا.
صاحت:
- بل سآتي لأخذه بنفسي..

- بل لا داعي لأن هذا سيدمر جدول الصباح لدي.. إنني متأخر نصف ساعة.
- إذن سآتي ساعة الغداء..
- ليست لدي ساعة غداء.. حسن.. تعالى في الواحدة والنصف.. وداعا.
وفي الموعد بالضبط وصلت إلى مكتبه ودقت الجرس...
فتح لها الباب بمعطفه الأبيض واقتادها إلى العيادة.
وقال للمرضية:
اذهبي للغداء الآن يا مس (بولتنى)..
وانتظر حتى غادرت الغرفة، ثم اتجه إلى الخزانة وقال لزوجته:
- والآن أغمضي عينيك..
فعلت كما قال، وفي الصمت سمعته يفتح الباب وقال لها:
- هلمي افتحي عينيك!
- لا أجرؤ.
وضحكت في مرح، فصاح:
- هذا (منك).. (منك) حقيقي!
فتحت عينيها.. لكن لم يكن هناك معطف.. كانت هناك ياقة صغيرة سخيفة من الفراء في يد زوجها.
قال لها ملودا بالياقة:
- هلمي.. متعى عينيك بها!
وضعت يدها على فمها وتراجعت للوراء.. إنني سأصرخ.. أعرف أنني سأصرخ.
قال لها:
- ماذا هناك؟ ألا تحبينها؟
- أ.. أعتقد أن.. أنها جميلة.

- لقد قطعت أنفاسك للحظة.. أليس كذلك؟
- بلى.. بلى..
- هل تعلمين؟ أراهن أنها تساوي ثلاثمائة دولار على الأقل..
. لا أشك في هذا..
وانحنى ووضع الشيء السخيف حول عنقها، وقال:
- جربيها.. إنها رائعة وتناسبك.. ليس كل إنسان يستحق فراء المنك يا عزيزتي.
- نعم.. أعرف هذا.
- أتركيها في المنزل عند التسوق، وإلا حسبونا مليونيرات وضاعفوا الأسعار من أجلنا..
- سأتذكر هذا..
- ولا تتوقعي هدايا مني في عيد الميلاد.. إن الخمسين دولارا قد أرهقتني ماديا..
واستدار إلى الحوض ليغسل يديه، وقال لها:
- والآن اذهبي وابتاعي غداء طيبا، كنت أتمنى مرافقتك لكن العجوز (جورمان) ينتظر الدخول لأصلح طاقم أسنانه.
قالت لنفسها، سأقتل سمسار الرهونات.. سأقتله! سأذهب لمتجره الآن وألقى هذه الياقة القبيحة في وجهه، فإن أبى أن يعطيني معطفي سأفتك به..
وانطلقت خارجة..
في اللحظة ذاتها كانت الممرضة (بولتنى) خارجة في طريقها إلى الغداء، وقالت لها وهي تبتسم:
- أليس يوما رائعا؟
كان شيء في مشيتها ورائحة عطرها يذكرانك بالملكة.. بالضبط ملكة فراء المنك الأسود الذي أهداه الكولونيل لمسز (بيكسبي).

روآلد دال
1959

رحيق الملكات
هذا خليط غريب من السخرية والطرافة والرعب والشخصيات الكاريكاتورية، والمفاجئات غير المتوقعة، والقسوة غير المبررة، وغير ذلك من لمسات مميزة لأدب (روآلد دال)..
هذا الكتاب يحوي الخيال.. كل الخيال.. ولا شيء غير الخيال.....

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- الاسم يُنطق (رو - آلد)، فلا تنس أنه من أصل نرويجي!

[←2]

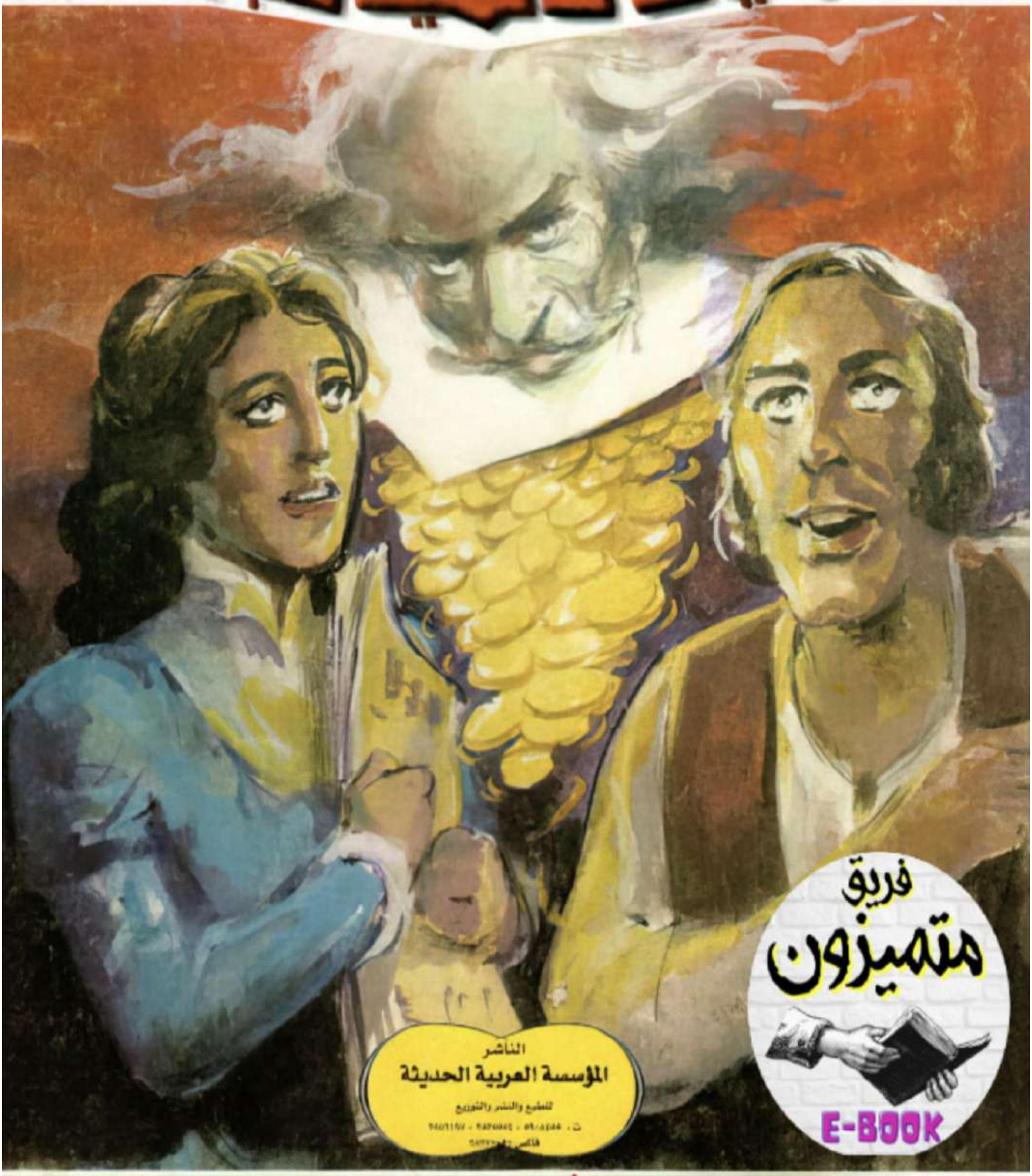
- فردريك بانتنج: هو مكتشف الإنسولين، ونال جائزة (نوبل) لهذا.

[←3]

- سمسار الرهونات يقدم نوعا من الفوائد الربوية. لهذا لا نعرفه في (مصر) حاليا.. الفكرة هنا أن من يمر بضائقة مالية يرهن شيئا ثمينا لدى السمسار مقابل مبلغ معين، فإذا حصل على مال بعد هذا، قام بفك الرهن واسترداد حاجياته، وإن لم يحصل ظل الشيء عند السمسار.

34

روايات عالمية للجيب



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

وصية الثلاثين ألف دولار

قصة : مارك توين
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (34)

وصية الثلاثين ألف دولار

قصة: مارك توين
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدِّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

تكلمنا بشيء من التفصيل عن (مارك توين) في الكتيب رقم 18 من سلسلة (فانتازيا)، وأغلب الظن أن من يقرءون الكتيب الحالي قرءوا الكتيب الآخر؛ لكننا - من أجل من جاءوا متأخرين - نحكي بعض الأشياء عن أهم وأعمق وأظرف أدباء أمريكا.. وهذا الكلام ليس من عندي ولكن سبق أن قاله الأديب الأمريكي العظيم (إرنست هيمنجواى).

(صمويل لانجهورن كليمنس) هو الاسم الأصلي له.. ولد في ولاية (ميسورى) في نوفمبر عام 1895، وسرعان ما انتقلت أسرته إلى قرية (هانيبال) التي خلدها في الأدب الأمريكي، وتوفي أبوه وهو في سن العاشرة، ليبدأ الصبي كفاحه المضني من أجل البقاء، وهو الكفاح الذي رسم كل خط في أدبه فيما بعد.. وأكثر شخصيات كتبه مارستْ الوجود فعلًا وقابلها في مشوار حياته الشاق..

عمل الصبي عامل طباعة، ثم استجاب لحلم قديم طالما راوده، هو أن يعمل على قارب بخاري في نهر (المسيسبي)، وكانت له مع النهر قصة حبّ خلدها في كتابه (الحياة على المسيسبي)..

بعد هذا حارب في أثناء الحرب الأهلية عام 1861، وهي بدورها خبرة لم ينسها قط: «الحرب هي قتل مجموعة من الأغراب الذين لا تشعر نحوهم بأي عداء، ولو قابلتهم في ظروف أخرى لقدمت لهم العون أو طلبته منهم.. »

بعد انتهاء الحرب عمل في الصحافة في جريدة محلية بـ (فرجينيا)، واتخذ اسم (مارك توين) وهو مصطلح بحرى معناه

(علّمْ على اثنين) يعود لأيام الملاحة في (المسيسبي)..
كانت حياة (مارك توين) سلسلة من المصائب، فهو الطفل المشاغب الذي لا يقول إلا ما يريده مهما كان قاسيًا أو مريرًا، لذا ظفر بعداء الجميع.. وهو الاقتصادي الفاشل الذي يطارده الإفلاس في كل لحظة، وهو البائس الذي رأى أخاه يحترق فوق سفينة في البحر، حتى إن شعره شاب في دقائق بعدها.. ولم تكن هذه آخر مآسى حياته..

لقد مات ابنه الأول، وتوفيت أعز بناته، وتوفيت زوجته..

كان لهذا أثره العجيب في أدبه: لقد ازداد سخرية.. سخرية مريرة قاسية، ولسان يصعب إسكاته مهما حاولت، وبرغم هذا كله كان (توين) يحتفظ بالآراء الأكثر صراحة وقسوة لنفسه، وكان يكتب في كل موضوع كتابين: كتابًا يخفيه في درجه، وكتابًا يعرضه على الناس..

وكانت شعبية (توين) تتزايد حتى إنه من الكُتَّاب القلائل الذين كانوا يقدمون حفلات قراءة جماعية، يشترى الناس التذاكر لها، فقط كى يجلسوا في مسرح كبير ليصغوا إلى (توين) وهو يتلو ما كتبه..

إن قصصه هي مرآة صادقة شفافة للمجتمع الأمريكى.. شفافة إلى درجة أنها صارت عالمية، وغدا الناس جميعًا يستمتعون بحق بأدب هذا الأديب العظيم، مهما تباينت ثقافاتهم وألسنتهم..

وفي عام 1910 توفي (توين)، بعد ما رأى – في نفس الليلة - مذنب (هالى) يشق السماء، وهو ذات المذنب الذي شق السماء ليلة ولادته، وبشكل ما كان (توين) يتوقع ويرجو أن يمتد به الأجل حتى يراه مرة ثانية وأخيرة!

د. أحمد خالد

أهم أعمال (مارك توين)[1]:

- الضفدع الوثَّاب من مقاطعة (كالافيراس) (1865).
- أبرياء بالخارج (1869).
- مغامرات توم صوير (1876).
- متشرد بالخارج (1880).
- الأمير والفقير (1882).
- الحياة على المسيسبي (1883).
- شمالي في بلاط الملك آرثر (1889).
- مغامرات هاكلبرى فان (1884).
- نحو خط الاستواء (1897).
- الرجل الذي أفسد (هادليبرج) (1899).
- صلاة الجندي (1905).

الفصل الأول..

كانت)ليك سايد) مدينة صغيرة لطيفة، بها خمسة أو ستة آلاف مواطن، وبالنسبة للمدن الأخرى في الغرب كانت جميلة..

كانت بها كنيسة تتسع لخمسة وثلاثين ألف شخص كما هو معتاد في أقصى الغرب، حيث الجميع متدين، وحيث تكثر الجماعات البروتستانتية..

ولم يكن هناك فارق طبقي في (ليك سايد)، وعلى كل حال لم يكن أحد يعترف به.. كل واحد يعرف كل واحد وكلبه، والصداقة الاجتماعية هي أساس العلاقات هنا..

كان (صلاح الدين فوستر) يملك متجرًا، وهو أعلى الرجال دخلًا بالنسبة لمهنته. عمره خمسة وثلاثون عامًا وقد عمل في هذا المتجر أربعة عشر عامًا، وكان دخله حين تزوج أربعمائة دولار في السنة، ثم نما دخله بمقدار مائة دولار في العام لمدة أربع سنوات، ومن وقتها ظل راتبه ثمانمائة دولار في العام، وهو رقم جميل بحق، وكان الجميع يعتقد أنه يستحقه.

أما زوجته الوفية (إلكترا) فكانت رفيقة طيبة، إلا أنها - مثلى - حالمة غارقة في الرومانسية. وبمجرد أن تزوجت ابتاعت فدانًا عند أطراف المدينة دفعت ثمنه خمسة وعشرين دولارًا هي كل ثروتها، وكان هذا برغم أنها كانت طفلة في التاسعة عشرة من عمرها وقتها..

وفي هذا الفدان زرعت حديقة بالخضر، وصارت الحديقة تقدّم ربحًا مائة في المائة كل عام. ومن راتب زوجها أودعت (إلكترا) ثلاثين دولارًا في المصرف أول عام، ثم ستين فى العام التالي، ومائة في الثالث، ومائة وخمسين في الرابع..

وجاء طفلان فزادت النفقات، إلا أن (إلكترا) ظلت قادرة على ادخار مائتين من الدولارات كل عام من دخل زوجها، وبعد سبع سنوات استطاعت أن تبني منزلًا جميلًا مريحًا بألفي دولار في وسط المزرعة، ودفعت نصف المال..

وبعد سبع سنوات أخرى انتهت من الديون، وصار لها في المصرف مئات الدولارات التي تنمو باستمرار..

وكان طفلاها ينموان سنًّا وجمالًا، وكانت امرأة سعيدة بزوجها وطفليها، وعند هذه النقطة تبدأ قصتنا..

الفتاة الصغرى للزوجين هي (كليمتسترا) – ويدللونها باسم (كليتي) - في الحادية عشرة من عمرها، أما الأخرى ف (جويندولين) التي يدللونها باسم (جوين)، وكانت في الثالثة عشرة من عمرها، وهي فتاة طيبة مليحة..

كانت أسرة متعاطفة، ولكل من أفرادها اسم تدليل، فمثلًا (صلاح الدين) كانوا يدللونه (سالى)، و(إلكترا) كانوا يدللونها (إليك).

وفي الليل كانت الأسرة تجتمع في غرفة المعيشة الهادئة الدافئة، حيث يتخلص أفرادها من هموم العالم، ويعيشون في عالم الكتب الرومانسي ويحلمون.. يمرحون مع الملوك والأمراء واللوردات، والأماكن النبيلة، والقلاع الغامضة العتيقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثانى

الآن جاءتهم أخبار عظيمة.. أخبار مذهلة..

جاءتهم من الضيعة المجاورة حيث يعيش القريب الوحيد للأسرة.. كان عمًّا مبهمًّا أو ابن عم لـ (سالى) يحمل اسم (تلبيري فوستر).. في السبعين من عمره.. عزب.. اشتهر بجفاف الطبع والحدّة..

وقد حاول (سالى) أن يرسل له خطابًا مرة، لكنه قرر ألا يكرر هذا الخطأ ثانية..

في هذه المرة كتب (تلبيرى) لـ (سالي) يقول له إنه سيموت قريبًا، ولسوف يترك له في وصيته ثلاثين ألف دولار نقدًا.. ليس لأنه يحبه، ولكن لأن هذا المال سبب أكثر متاعبه، وهو يريد أن يتأكد أن المال سيواصل مهمته الخبيثة..

إن الإرث موجود في الوصية وسيتم دفع المبلغ لكن بشرط: على (سالى) أن يثبت لمنفذي الوصية أنه لم يعلن الخبر لأحد، ولم يتساءل عن حالة المحتضر ومدى دنوه من الخلاص النهائي، ولم يحضر الجنازة..

فما إن شفيت (أليك) من الصدمة التي سببها لها الخطاب، حتى أرسلت إلى الضيعة التي يعيش فيها (تلبيرى)، واشتركت في الجريدة المحلية..

وقرر (سالى) وزوجته ألا يذكرا الأخبار العظيمة لأحد، وإلا فإن أحدًا ما سينقل هذه الأخبار إلى فراش المحتضر، حيث يظهران في صورة الجاحدين للجميل المتعجلين لموت الرجل..

ولبقية اليوم ظل (سالى) يحدث أكبر فوضى في متجره، و(أليك) لم تستطع إبقاء ذهنها بعيدًا عن الأمر، وكانت تتناول أصيص

زهور أو كتابًا أو عصًا.. ثم سرعان ما تجد أنها نسيت ما كانت تنوي عمله بها.. كان كلا الزوجين يحلم..
ثلاثون ألفًا من الدولارات!
طيلة اليوم ظلت موسيقا هذه العبارة تتردد في ذهن الزوجين.. منذ زواجهما حتى اليوم كانت (أليك) مقتصدة تمامًا، وما كان (سالى) يعرف كيف ينفق مليمًا على غير الضروريات..
لكن ثلاثين ألفًا من الدولارات! مبلغ ضخم.. مبلغ يصعب استيعابه..
وظلت (أليك) طيلة اليوم تفكر في كيفية استثمار المبلغ، أما (سالى) فكان يفكر في كيفية إنفاقه..
وفي هذه الليلة لم يطالعا كتبهما الرومانسية، ودخلت الطفلتان إلى الفراش مبكرًا لأن أبويهما كانا صامتين مملَّين إلى حدّ غريب.. وحتى قبلات المساء لم تحدث تأثيرًا، لأن الوالدين لم يشعرا بالقبلات على الإطلاق، ومرت ساعة قبل أن يلاحظ أحدهما أن الطفلتين دخلتا الفراش..
طيلة هذه الساعة كان قلمان مشغولين بالكتابة، يدونان مئات الخطط والتصورات..



طيلة هذه الساعة كان قلمان مشغولين بالكتابة ، يدونان مئات الخطط والتَصورات ..

كان (سالى) هو من حطم هذا الصمت، حين قال في ابتهاج:

- » آه! سيكون هذا عظيمًا يا (أليك).. من أول ألف سنحصل على عربة وحصان لرحلات الصيف، وبطانية للشتاء.. »

أجابت (أليك) في تصميم ورباطة جأش:
- » ليس من رأس المال.. حتى لو كان المبلغ مليون دولار! »
أصاب (سالى) الإحباط واختفى البريق من وجهه، فقال:
- » لقد عملنا بجهد طيلة حياتنا، ومن الواجب أن.. »
يبدو أن لهجته المتضرعة أثرت فيها، لأنها قالت متلطفة:
- » لا يجب أن ننفق رأس المال يا عزيزى.. ليس هذا من الحكمة في شيء.. يمكننا أن نعيش من عائد ادخاره.. »
- » حقًّا أنت حكيمة.. سنعيش من الدخل.. »
- » ليس كله يا عزيزي.. يمكنك أن تنفق جزءا من هذا الدخل.. أنت تفهم منطقي أليس كذلك؟ »
- » بلى.. بلى.. لكن معنى هذا أن ننتظر ستة أشهر حتى ننفق أول أرباح تأتينا.. »
- » بل ربما أكثر من ستة أشهر.. »
- » لماذا يا (أليك)؟ إنهم يصرفون العائد كل ستة أشهر.. »
- « في الاستثمار التقليدي نعم.. لكن ليس في نوع الاستثمار الذي أفكر فيه من أجل عائد أكبر.. »
- « وما هو؟ »
- « مناجم الفحم الجديدة.. سنضع الحدّ الأدنى ونحصل على ثلاثة أنصبة لكل واحد.. وخلال عام تظفر العشرة آلاف بثلاثين ألفًا.. إنني أعرف كل التفاصيل.. إنها منشورة هنا في جريدة (سنسيناتى).. »
صاح:
- » عشرة آلاف تجلب ثلاثين ألفًا! فلنضع كل شيء ونحصل على تسعين.. سأشترك الآن! »
لكن (أليك) أوقفته، وذكرته بأن المال ليس لديهما بعد.. قال لها:

- » إن الرجل على حافة المائة، ولا بد أنه يموت الآن.. أو ربما انتهت آلامه فعلًا.. »
هزَّت رأسها في ضيق وقالت:
- » كيف تتكلم بهذه الطريقة يا (سالى)؟ إنها مشينة.. »
- » ألا يمكنك أن تتركي شخصًا يتكلم؟ »
- » ولماذا تتكلم بهذه الطريقة الشنيعة؟ كيف تحبّ أن ترى الناس يتكلمون عنك هكذا، بينما لم تبرد جثتك بعد.. »
- » لا أظن أنني أحب هذا.. لكن هذا سيحدث لو منحت الناس مالًا لمجرد أن أؤذيهم به.. وعلى كل حال دعينا من (تلبيري) هذا.. ما وجه اعتراضك على استثمار الثلاثين ألفًا كلها في الفحم؟ »
- » كل البيض في سلة واحدة.. هذا هو سبب اعتراضى.. »
- « ليكن.. وماذا تنوين عمله بالعشرين ألفًا الباقية؟ »
- » لا داعي للعجلة.. سأبحث حولى جيدا لأعرف ما أفعله بها.. »
- » إذن ما زال بوسعي أن آخذ ثلاثة آلاف من أرباح العشرة؟»
كانت راضية رائقة البال، لهذا أجرت حسبة في ذهنها، شعرت بأنها تبذير سفيه، لكنها سمحت له بألفي دولار على كل حال..
قبلها في حرارة نصف دستة من القبلات، وجعلها هذا أقل حصافة، لذا - قبل أن تدرك الأمر – منحته ألفي دولار آخرين..
وجلس (سالى) في حماس يدوّن الأشياء التي يودّ أن يشتريها في البداية.. عربة.. حصان.. كلب.. قبعة.. أسنان جديدة..
أما هي فواصلت حساباتها.. كان عليها أن تستثمر الثلاثين ألفًا التي هي أرباح الفحم عن عام واحد.. وبعد ما استثمرت المبلغ في القمح والنفط صارت أرباحها ثمانين ألفًا صافية..

- » رباه! أليس هذا رائعًا؟ لقد قابلنا الحظ أخيرًا بعد كل الكفاح الشاق.. »

وراضيًّا اتجه إلى الفراش، ولحقت به.. كانا محلقين حتى إنهما نسيا الشمعة مشتعلة في الردهة، وتذكرها (سالى) بعد ما نزع ثيابه، لكنه رأى أن يتركاها تذوب كلية، فهما قادران على هذا الإسراف، لكن (أليك) أصرت على أن تطفئها..

وكان هذا تصرفًا موفقًا، لأنها إذ عادت من الردهة وجدت فكرة طيبة يمكنها أن تجعل الثلاثين ألفًا نصف مليون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

كانت الصحيفة التي اشتركت فيها (أليك) تُدعى (ساجامور الأسبوعية)، وكان عليها أن تقطع خمسمائة ميل من قرية (تلبيري) كي تصل إليهما يوم السبت، لأنها تصدر يوم الخميس..
لقد جاءهما خطاب (تلبيري) يوم الجمعة متأخرًا بما لا يكفي أن تظهر وفاة الرجل في هذه الطبعة، لكن من الممكن أن تظهر في الطبعة التالية..
لهذا انتظر أل (فوستر) أسبوعًا طويلًا ثقيلًا، وما كانا ليحتملان هذا الأسبوع لو لم يجد عقلاهما شيئًا يشردان فيه.. فكما رأينا كانت المرأة مشغولة بتكديس المال، والرجل كان ينفقه..
في النهاية جاء السبت، وجاءت صحيفة (ساجامور). وكانت زوجة الخوري تعمل عندهما على سبيل الإحسان.. فلاحظت المرأة أن الزوجين لا يصغيان لحرف مما تقول، لذا انصرفت شاعرة بحيرة ومهانة..
على الفور مزق (سالى) المغلف ليخرج الصحيفة، وجرت عينا الزوجين عبر سطور صفحة الوفيات.. يا لخيبة الأمل! (تلبيري) غير موجود..
تماسكت (أليك) كالعادة، وقالت بلهجة مليئة بالتقوى:
- » فلنحمد الله في تواضع.. لقد نجا الرجل.. »
قال (سالى):
- » سحقًا للرجل المخادع! أتمنى لو.. »
- » (سالى)! هذا مشين.. »
قال في غضب:

- » لا أهتم.. أنت كذلك تشعرين بالشيء ذاته، ولو لم تكوني طاهرة إلى هذا الحدّ المخجل لقلت ذات الكلام بأمانة.. »
في كبرياء جريحة قالت:
- » لا أدري ما الذي يجعل الأمور غير كريمة وغير عادلة كهذا.. لا يوجد شيء أكثر سموًّا من الطهر الخالد.. »
أحس (سالى) بغصة حاول أن يخفيها، كأنما بوسعه أن يخدع تلك المرأة الخبيرة التي يحاول خداعها:
- « لم أقصد شيئًا بهذا السوء يا (أليك).. أعني.. قلت.. كنت أتكلم عن الأسلوب التقليدي في إظهار الإخلاص.. أنت تعرفين ما أعنيه.. إخلاص المتاجر الذي نخدع به الزبائن.. حسن.. هلمي.. أنا لا أجد الكلمات المناسبة، لكنك تفهمين، وتدركين أنه لا ضرر هنالك.. »
- » حسن.. لننه الموضوع.. »
جفف العرق عن جبينه، واعتذر لها:
- » ليكن.. أنا ضعيف في هذه اللعبة، وليس لدي الصبر الكافي.. »
ثم هدأ بعد ما اعترف بهزيمته، فسامحته (أليك) بعينيها، وفيما بعد ناقش الزوجان لغز اختفاء نعى (تلبيري) من الجريدة.. وفي كل مرة كانا يصلان إلى نفس النقطة، وفي النهاية توصلا إلى أن التفسير الوحيد لعدم وجود نعي لـ (تلبيري) هو أن الرجل - حتمًا – ما زال حيًّا..
كان هذا محزنًا.. وبالإضافة لهذا كان فيه شيء غير عادل.. لكنه حدث ولا بد من قبوله..
وحاول (سالى) يائسًا أن يجعل زوجته تشاركه الحزن، لكنه فشل لأنها احتفظت برأيها لنفسها.. لم تعتد أن تجازف أبدًا في هذا

العالم أو سواه.. يجب أن ينتظرا للأسبوع القادم، لأن (تلبيري) قد تكاسل عن أداء واجبه..
وانهمكا في العمل بإخلاص قدر الاستطاعة..
لم يعلما أن (تلبيري) قد كان عند كلمته حرفيًا.. لقد مات وفي الوقت المحدد.. مات منذ أربعة أيام واعتاد الأمر.. مات بدقة.. مات قبل إصدار جريدة (ساجامور) بوقت كاف، لكن ما منعه من الظهور هو حادث.. حادث ما كان ليحدث في جريدة كبرى لكنه يحدث كثيرًا في قرية بائسة قبل (ساجامور).
كان رئيس التحرير قد تلقى هدية من عصير الفراولة (الشليك) البارد من مؤسسة (هوستتر) التجارية، من ثم تم إبعاد نعى (تلبيرى) كى يجد رئيس التحرير مكانًا ينشر فيه شكره العميق المحموم..
وفي طريقه إلى لوح التجميع تبعثرت حروف نعى (تلبيرى)، وبالتالي لن يجد طريقه إلى الطبعات التالية.. لقد ضاعت فرصته في النشر للأبد..
فليرقد (تلبيري) في قبره.. إن نعيه لن يرى النور حتى يوم الدين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع

مضت خمسة أسابيع مرهقة، وكانت جريدة (ساجامور) تصل كل سبت لكن لم تحو أية نسخة منها خبر وفاة (تلبيري)، وهنا انهارت أعصاب (سالى) وبامتعاض قال:

- « تبًّا لأحشائه! إنه خالد! »

وبخته (أليك) بشدة، وأضافت بوقار جليدى:

- « كيف ستشعر لو أنك مت فجأة، بعد ما تلفظ عبارة شنيعة كهذه؟ »

بلا اهتمام أجاب:

- » سأشعر بأنني محظوظ لأنني لم أمت وهى محشورة في حلقي! »

قالها وفرّ مبتعدًا عن مرمى مدفعية زوجته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاءت ستة أشهر وولَّت..

ومن حين لآخر كان (سالى) ينسى، وتفلت منه تلميحة أو أخرى إلى أنه يريد أن يعرف، لكن زوجته كانت تردعه بقسوة..

قرر أن يخاطر بهجمة أمامية، أن يتنكر ويذهب لـ (ساجامور) كي يتشمم الأخبار، إلا أن (أليك) وضعت قدمها في الأمر، وقالت:

- » فيم تفكر؟ إنني مشغولة بك طيلة الوقت كطفل لإبقائك بعيدًا عن النار.. »

- » ولماذا؟ أستطيع أن أذهب ولا يكتشف أمري أحد.. أنا متأكد.. »

- « (سالى فوستر).. سيكون عليك أن تجرى بعض التحقيقات، وتسأل.. سيكون هذا معلومًا لمنفذي الوصية على الفور.. »
لم يجد ما يقول فقالت:
- » الآن أبعد هذه الفكرة عن رأسك ولا تعبث بها ثانية.. إن (تلبيري) قد أعد لك هذا الشرك.. ألا تفهم أن هذا شرك؟ إنهم يراقبونك وينتظرون، ولسوف تصيبهم خيبة الأمل ما دمت أنا من يتولى الأمر.. »
ثم أضافت:
- » لا تفقد صبرك.. إن أحوالنا المالية تزدهر فلا داعي للعجلة.. وأنا لم أرتكب أي خطأ.. إن المال يتكدس بالألوف، وما من أسرة في المنطقة تملك هذا الثراء الفاحش.. احمد الله (تعالى) وكف عن القلق.. فما كان بوسعنا أن نحقق كل هذا دون عونه العظيم.. المشكلة معك هي أنك لا تستطيع أن تفتح فاك دون أن تجعل المرء يرتجف فرقًا.. إنك تجعلني في خوف مستمر عليك وعلينا جميعا.. كنت فيما مضى لا أخاف الرعد.. أما الآن....... »
وتحطم صوتها فراحت تبكي، ولم تكمل عبارتها..
مزَّق هذا المشهد (سالى) فأراحها بين ذراعيه، وسألها العفو، ووعدها بأن يكون أفضل..
وكان جادًّا في رغبته هذه، لذا فكر في الأمر طويلًا.. من السهل أن تعد بالاستقامة لكن من الصعب أن تفعلها.. يجب أن يقوم بشىء أكيد..
وبمبلغ باهظ من المال الذي كان يدخره شلنًا مع شلن وجد حلًّا ذكيًّا:
وضع على سقف البيت قضيبًا واقيًّا من الصواعق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما أسهل اكتساب العادات! وما أسرع ما نكتسبها! العادات البسيطة والعادات التي تغيرنا بعمق.. لو صحونا بالصدفة ليلتين متتاليتين في الثالثة صباحًا، فعلينا أن نقلق.. لأن تكرار هذا مرة ثالثة سيجعله عادة...

لكننا جميعًا نعرف هذه الحقائق.. عادة بناء القلاع.. عادة أحلام اليقظة.. لكم تصير ممتعة، ولكم نعربد في متعها ونضع فيها أرواحنا، ونسلم أنفسنا لخيالاتها الملحة القاهرة، وسرعان ما تختلط حياة الأحلام بالحياة الواقعية حتى لا نعرف أين نحن بالضبط..

لقد اشتركت (أليك) في جريدة مالية مختصة بالأسهم تصدر من (شيكاغو) بها مؤشرات (وول ستريت)، وراحت تدرس هذه الأمور كما كانت تدرس الإنجيل أيام الأحد..

ونمت موهبتها التنبؤية بصورة لا تصدق، وازدادت خبرتها بالأسواق. وكان (سالى) فخورًا بجرأتها في المضاربة وحذرها المتحفظ في إجراء الصفقات الخيالية، فلم تفقد صوابها قط..

ومرت أشهر صنعت فيها (أليك) ثروة خيالية بسرعة لم تتخيلها قط..

في البداية استثمرا عشرة آلاف وهمية، فعادت لهما بعد عام وعلى ظهرها ثلاثمائة ألف تخيلية.. وفقد آل (فوستر) القدرة على الكلام من الحبور..

هنا قررت (أليك) بكثير من الذعر أن تستثمر العشرين ألفًا الباقية من الوصية، وراحت طيلة الوقت تخشى أن يحدث انهيار في السوق، وأخيرًا أرسلت برقية تخيلية لسمسار البورصة التخيلى تأمره فيها بأن يبيع الأسهم.. وتم البيع في نفس اليوم..

وبدأ قلب (أليك) يزداد جرأة..
ولو نظرنا من خلال عيني هذين الحالمين، لرأينا أن كوخهما الخشبي يختفي ويحل مكانه منزل قرميدى ذو طابقين له سور حديدي، وثريا عملاقة تتدلى من سقف البهو، وسجادة المنزل تتحول إلى بساط بلجيكي فاخر، والتحف المهيبة في كل مكان..
ومن هذا الوقت كان قلق (أليك) يتزايد بسبب فواتير الغاز، فيجيبها (سالى) في استهتار:
- « وماذا هناك؟ يمكننا تحمل هذا الإسراف.. »
وقرر الزوجان أن يقيما حفلًا بمناسبة ثرائهما، لكن كيف يمكن شرح الأمر للفتاتين والجيران؟ لا يمكن أن يعلنا للناس أنهما ثريان..
بم يحتفلان إذن وليست هناك أعياد ميلاد خلال ثلاثة أشهر؟
في النهاية وجد (سالى) فكرة عبقرية.. سيحتفلان باكتشاف أمريكا!
إنها فكرة عظيمة..
وقالت (أليك) في إعجاب إنها ما كانت لتجد فكرة كهذه، لكن (سالى) - برغم ما بدا على ملامحه من سرور - قال إن الأمر ليس بهذه الأهمية، وأي شخص آخر كان سيفكر في الشيء ذاته..
هذه المرأة العزيزة.. إنها تراه موهوبًا، وحتى لو كان حبها له هو ما جعلها تبالغ قليلًا؛ فهذه جريمة بسيطة يمكن غفرانها من أجل صاحبتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

كان الأصدقاء جميعًا موجودين في الاحتفال.. الكبير والصغير.. فبين الصغار كانت (فلوسي) و(جريسي بينت) وأخوهما (أدلبير).. وكان حرفيًّا شابًّا.. و(هوزانا ديكنز) الذي كان يدربه.. ولعدة أشهر كان (أدلبير) و(هوزانا) يهتمان بابنتي (فوستر)، وقد لاحظ الأبوان في رضا هذا الاهتمام..

لكنهما الآن شعرا بأن ثراءهما قد وضع حاجزًا اجتماعيًّا بين ابنتيهما والحرفيين الشابين.. إن بوسع الفتاتين الآن النظر لأعلى.. بل يجب عليهما هذا.. يجب أن تتزوجا من طبقة المحامين أو التجار أو أعلى..

لم يظهر الزوجان على السطح إلا الكبرياء والتهذيب الراقي اللذين فازا بإعجاب ودهشة الحاضرين، لكن أحدًا لم يفهم سرّ هذا اللغز، وقد علق ثلاثة أشخاص على الأمر دون أن يدركوا كم هم موفقون:

- » يبدو كأن آل (فوستر) قد فازوا بأبعدية.. «

كانت (أليك) عملية جدًّا، ولا تتصرف كأي أم أخرى فيما يتعلق بزواج ابنتيها.. فلم تحاول أن تبعدهما عن الحرفيين لكنها قررت أن تترك الطبيعة تختار..

في البداية فكرت في (برانديش) المحامي الشاب، و(فلتون) طبيب الأسنان الصاعد.. يجب أن يدعوهما (سالى) للعشاء لكن ليس الآن.. لا خطر من الإبطاء في أمر مهم كهذا..

واتضح أن هذه هي الحكمة بعينها، لأن (أليك) أحرزت ضربة قوية في سوق الأسهم، جعلتها تحرز أربعمائة ألف دولار مرة واحدة..

وفي هذه الليلة سمحت (أليك) بتقديم (الشمبانيا) على مادة العشاء، وشعرت بخجل لهذا لأنها تربت على الفضيلة، وكانت قداستها صلبة كحديد الغلايات.. لكن الثراء قد بدأ يفسدهما تدريجيًّا.. لقد برهنا على حقيقة تمت البرهنة عليها مرارًا من قبل، وهي أن المبادئ درع واق من التفاهات والرذائل.. لكن الفقر يهزم ستة دروع من هذه..

الآن ناقشا موضوع الزواج ثانية، فلم يذكرا اسم طبيب الأسنان والمحامي.. لقد صارا خارج السباق..

تحدثا عن ابن تاجر الخنازير، وابن مدير مصرف القرية، وفي النهاية قررا أن ينتظرا ويتصرفا في حكمة..

قامت (أليك) بمضاربة قوية.. وظلت أيامًا في شك لأن الفشل هنا يعني الخراب ولا شيء سواه، ثم جاءت النتيجة فأغشي عليها من الفرحة.. وحين أفاقت قالت بصوت متهدج:

- « لقد انتهت المعاناة يا (سالى).. نحن نملك مليونًا الآن! »

بكى (سالى) فرحًا، وقال:

- » آه يا (أليك) يا حبيبة قلبي! لن نحتاج إلى التقتير ثانية.. »

وهكذا طار ابن تاجر الخنازير؛ وابن مدير المصرف، وبدأ الزوجان يفكران في ابن الحاكم وابن عضو مجلس الشيوخ بالقرية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

من المرهق أن نتابع بالتفصيل وثبات آل (فوستر) في الثراء التخيلي من وقتها.. كانت وثبات مذهلة.. وثبات مبهرة.. وثبات تسبب دوارًا، وراحت الملايين تتكدس فوق الملايين حتى وصلت إلى قبة السماء، وما زال التيار يتدفق..

خمس ملايين.. عشرة.. ثلاثون.. هل هناك نهاية؟

مرَّ عامان في حلم رائع، ولم يلحظ آل (فوستر) مرور الوقت.. إن معهما الآن ثلاثمائة مليون دولار..



مرّ عامان فى حلم رائع ، ولم يلحظ آل (فومستر) مرور الوقت ..
إن معهما الآن ثلاثمائة مليون دولار ..

وبمرور الزمن صار لديهما 2400.000000 دولار.. وبدأ العمل يرتبك وصار من الضروري أن يقوما بجرد ما لديهما من ثروة.. شعرا بهذا.. لكنهما أدركا أن المهمة يجب أن تتم حتى نهايتها بلا

توقف متى بدأت.. مهمة تقتضي عشر ساعات، وأين يمكن أن يجدا عشر ساعات كاملة مرة واحدة؟
كان (سالى) مشغولًا في المتجر و(أليك) كانت مشغولة بالطهى وغسيل الصحون والتنظيف، ولم تكن إحدى الفتاتين تساعدها لأنها ادخرتهما لمجتمع الصفوة.
كانت هناك طريقة واحدة للظفر بعشر ساعات، وقد خجل كلاهما من تسميتها، وانتظر كلٌّ حتى يقول الآخر ذلك.. في النهاية قالت:
- » يجب أن يستسلم أحد.. فلتفترض أنني سميتها ولا تتضايق من هذا.. »
واحمّر وجهها، ودون تعليق آخر قاما بهدم قاعدة عدم العمل يوم السبت[2] فقد كان هذا هو اليوم الوحيد الذي يمكن أن يجدا فيه عشر ساعات كاملة.. ومن هنا بدأ انحدارهما لأسفل..
إن للثروة الواسعة إغراءات، تهدم بسهولة التركيب النفسي لأولئك الذين لم يعتادوا امتلاكها.. لقد حطما قاعدة السبت، وبعد جهد جهيد استطاعا جرد ثروتهما..
قائمة طويلة هي تبدأ بالسكك الحديدية وكابلات المحيط والسفن البخارية وسلوك البرق، وانتهاء بمقاطعة (كلونديت) و(دي بير)..
ودخل كل هذه الأملاك مائة وعشرون مليونًا سنويًا..
قالت (أليك) في رضا:
- » لقد انتهى العمل، وحان الوقت كى ننعم بكل هذا المال.. »
شعر (سالى) بأن طنًا من الأصفاد الحديدية سقطت من على كاهله..

ومن يومها اعتاد الزوجان أن يخرقا قاعدة السبت، واعتادا أن يسهرا إلى ما بعد منتصف الليل ينفقان ثروتهما، وسبب هذا لهما مشكلة في ثمن الشمع الذي يبددانه، حتى شعرت (أليك) بالقلق..
وسرعان ما أدركت أن زوجها يسرق الشمع من المتجر دون أن يخبرها حتى يستطيعا السهر أكثر..
هذه هي المشكلة.. إن الثروة العريضة لرجل لم يعتدها هي السم بعينه.. إنها تلتهم أخلاقه لحمًا وعظمًا..
حين كان (سالى) فقيرًا كانت تستطيع أن تثق به فيما يتعلق بالشمع، أما الآن.. لكن دعنا لا نتجادل كثيرًا.. إن الانتقال من سرقة الشمع إلى التفاح ليس سوى خطوة..
واعتاد (سالى) أن يسرق التفاح من متجره، ثم الصابون، ثم سكر الشعير، ثم البضائع المعلبة.. إن هذا سهل ما دام اتخذ الخطوة الأولى لأسفل..
في الوقت ذاته تحول البيت القرميدى إلى بيت من جرانيت، ثم تحوَّل هذا إلى بيت أعرض وأكبر وأجمل، حتى جاء اليوم الذي يعيشان فيه في قصر يطلّ على الوديان والأنهار.. ملكهما تمامًا.. يملؤه الخدم والضيوف المشهورون ذوو النفوذ من كل العالم..
وصار هذا القصر قطعة لا توصف من الأرستقراطية الأمريكية.. نحو الشرق.. في جزيرة (رودس)..
كانا يمضيان السبت من كل أسبوع في هذا القصر، وباقي الأسبوع في أوربا..
وقد ظلا مخلصين لكنيستهما الإكليركية الصغيرة.. وإن كانت خيالات (أليك) أقل جموحًا من خيالات (سالى)..
في البداية زارت (أليك) مجمع الأساقفة ثم زارت (روما)، حيث استقبلها الكرادلة بالشموع..

أما (سالى) فكانت أحلامه أكثر إثارة.. نضرة تلتمع.. وازداد تبذيرًا لدرجة لا تصدق..
بنت (أليك) جامعة أو اثنتين، ومستشفي، وكاتدرائية.. أما هو فيني عدة فنادق..
وبدأ الرجل يلوم نفسه على ما كان منه في أعوام الثراء هذه، وقارن بين نفسه وزوجته.. وراح خداه يحمرَّان، وروحه تغرق خزيًّا..
انظر لها.. إنها ترتفع وتعلو.. بينما هو يهوي في التفاهات.. لكم هو خاو! ماذا يقول لنفسه؟ ماذا كان يفعل حين بنت أول كنيسة لنفسها؟ كان هو يصحب المليونيرات إلى أندية البوكر، ويخسر في كل جلسة مئات الألوف.. وحين بنت أول جامعة لها ماذا كان يفعل؟ كان مع أصدقاء السوء.. وحين أنشأت أول مصحة عقلية ماذا كان يفعل؟ يا للحسرة! وحين استقبلت في (روما) وقابلها البابا وخلع عليها وسام الزهرة الذهبية، ماذا كان يفعل؟ لن يستطيع التمادي.. لن يتحمل أكثر..
يجب أن يعرف الناس حياته السرية.. لن يعيشها في الخفاء.. لسوف يخبرها بكل شيء..
وأخبرها وبكى وتوسل إليها كي تسامحه..
كانت صدمة هائلة لها، وتراجعت.. لكنه كان ملكًا لقلبها ونعمة عينها وكل شيء فيها، لذا لم تستطع إلا أن تسامحه، وإن أدركت أنه لن يعود كما كان.. سيندم فقط لكنه لن يستقيم ثانية..
لكنها برغم كل شيء فتحت له قلبها المفعم بالحنين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

في عصر أحد أيام الأحد كانا يركبان يختهما في بحور الصيف، يسترخيان تحت مظلة على السطح.. لقد زادت فترات صمتهما في الآونة الأخيرة، وقد بهتت الرابطة القوية بينهما..
لقد حاولت (أليك) مرارًا أن تنسي اعتراف (سالى) المخيف لها لكنها لم تستطع.. الآن تستطيع أن ترى أن زوجها صار شيئًا منتفخًا مقززًا.. لكنها بدورها كانت تخفي عنه سرًّا مخيفًا، وفي هذا لم تعامله بشرف..
لقد قامرت بكل ثروتهما في شراء كل السكك الحديدية وكل مناجم الفحم في البلاد، وكانت ترتجف كل سبت خشية أن يكتشف ذلك من كلمة عارضة تتفوه بها، وكانت خجلي من خيانتها هذه، فلم تستطع أن تمنع نفسها من الإشفاق عليه..
لكم يملؤها تأنيب الضمير وهي تراه يرقد هناك سعيدًا، واثقًا بها تمامًا، وهي تدارى عنه كارثة رهيبة محتملة..
قال لها:
- « هل تعلمين يا (أليك)؟ »
أجابت بكل رقة مصطنعة:
- » نعم يا عزيزي؟ »
- » أعتقد أننا نرتكب خطأ.. أعني بصدد موضوع الزواج.. »
وجلس - رخوًّا بدينًا - وتكلم بجدية:
- » لقد مرت خمسة أعوام، وقد واصلت سياستك من البداية، وكلما اعتقدت أننا سنرى زفاف البنتين وجدت أنت شيئًا جديدًا في الأفق.. أعتقد أنك صعبة الإرضاء.. في البداية تخلينا عن طبيب الأسنان والمحامي.. قد أوافقك في هذا.. ثم تخلينا عن

ابن الحاكم وابن عضو مجلس الشيوخ.. قد أقبل هذا.. بعد هذا جاء ابن رئيس الولايات المتحدة.. ربما كان هذا صائبًا.. ثم قررت أن تفتشى عن الأرستقراطية، وحسبت أننا نجحنا أخيرًا.. جاءنا اثنان من الأرستقراطيين الحقيقيين من أوربا، فإذا بك ترفضينهما ببساطة.. لقد تخلصت من (البارونيت) من أجل (البارون).. وتخلصت من (البارون) من أجل (الفيسكونت).. وتخلصت من (الفيسكونت) كى تظفرى بـ (إيرل)، وتخلصت من (الإيرل) من أجل (ماركيز).. وتخلصت من (الماركيز) من أجل (دوق).. يجب أن تهدئى يا (أليك).. لقد وصلت إلى الذروة.. لقد جاءك أربعة دوقات من أربع جنسيات لا غبار عليهم في النسب.. لا تتأخرى أكثر من ذلك.. »

وكان يبتسم في صفاء ورضا، وهو يقول ما قال..

كانت عيناها تشعان بدهشة لطيفة وهي تصغي، ثم مالت علية هامسة:

- « (سالى).. ماذا تقول عن الأسر المالكة؟! »

- » مذهل! »

إن الرجل المسكين فقد توازنه للحظة، ثم جلس أمام زوجته، وغمرها بانبهاره واحترامه، وقال:

- » (أليك).. أنت أعظم امرأة على وجه الأرض.. لن أخبر أبدًا حجمك الحقيقي ولا أعماقك.. حسيت نفسي مؤهلًا لانتقاد لعبتك، ولم أدر أنك تخفين شيئًا في كمك.. »

قربت المرأة شفتيها من أذنه وهمست باسم، فصاح:

- » إنها ضربة موفقة بحق.. وهو يملك مقبرة كاملة في أجمل بقعة بأوربا.. وهي مقبرة من أرقى مقابر العالم، ولا يدفنون فيها إلا حالات الانتحار.. إن لديه ثمانمائة فدان.. لكنها السيادة وهي

أهم شيء.. إنها أهم من الأرض.. إن الأرض لا تساوى شيئًا، والصحراء مليئة بها على كل حال.. »
قالت (أليك) في رضا:
- » فكر في هذا يا (سالى).. إنها أسرة لم تناسب قط أي بيت غير ملكي في أوربا.. سيجلس أحفادنا على عروش! »
- » في حياتك يا (أليك)! ويحملون الصولجانات أيضًا، بطريقة طبيعية كما أحمل أنا عصا الحديقة.. ومن الآخر؟ »
- « سموّه (سيكزموند سيجفريد لانفيليد شفارتزنبرج بلوتفورست) دوق (كاتزنيامر).. »
- » لا! أنت لا تعنين هذا.. »
- « بل هو حقيقي كما أجلس هنا أمامك.. »
فاض به، فصاح في طرب:
- » إن هذا لا يصدق! إنه أكثر البيوت عراقة بين الـ 364 إمارة ألمانية قديمة، ومن الإمارات القليلة التي ظلت بعد ما قام (بسمارك) بتوحيد ألمانيا.. لقد انتظرنا طويلًا يا (أليك) وتخطمت قلوبنا، لكن يعلم الله كم أنا سعيد الآن.. سعيد لك أنت التي قمت بكل هذا.. ومتى يتم هذا؟ »
- » الأحد القادم.. »
- » حسن.. يجب أن يتمّ بأبهى صورة.. أعرف أن الملوك يفضلون الزواج الـ Morgantic.. »[3]
- » ولماذا يسمونه هكذا؟ »
- » لا أعرف.. لكنهم يصرّون عليه.. »
- » إذن سنصرّ عليه.. سيكون الزواج Morgantic وإلا فلا.. »
- » هذا يسوى الأمور.. سيكون أول زواج من نوعه في أمريكا.. »
وغرق الزوجان في الأحلام، وترتيب هذا الزواج.

الفصل الثامن..

لمدة ثلاثة أيام مشي الزوجان في الهواء، ورأساهما فوق السحب.. وراح (سالى) يبيع العسل بالوزن ويبيع السكر بالياردة، ويبيع الصابون حين يشترى أحدهم منه شمعًا.. أما (أليك) فوضعت القطة في سلة الغسيل، وسقت الغيارات المتسخة باللبن..

كان الجميع يتساءل: ماذا حدث لـ (فوستر)؟

ثم جاءت الأحداث..

كانت أسهم (أليك) ترتفع باستمرار لمدة يومين، وراح السماسمرة الوهميون يصرخون فيها:

- » بيعى! بيعى! بحق السماء بيعي! »

وقال لها (سالى):

- » بيعي! لا ترتكبي خطأ الآن، فأنت تملكين الأرض وما عليها.. »

لكنها ثبتت إرادتها الحديدية، وفي اليوم التالى جاء الانهيار الهائل في البورصة، حين تداعى (وول ستريت)، وشوهد المليونيرات يستجدون خبزهم في الطرقات..

ثم جاءت مكالمة لها تخبرها.. لقد باع السماسرة أسهمهم.. وخسر كل سهم خمسًا وتسعين نقطة..

هنا فقط تراجع الرجل فيها، واستردت المرأة السيطرة.. أحاطت عنق زوجها وبكت:

- « لا تسامحني.. أنا استحق كل لوم.. أنا السبب.. نحن الآن معدمون.. لن يتم الزواج وانتهى كل شيء.. لن نزوج الفتاتين حتى لطبيب الأسنان والمحامي.. »

جرى اللوم على لسان (سالى)، وقال:
- » لقد توسلت إليك أن تبيعى.. لكنك .... »
ولم يجد الشجاعة كي يزيد تعاستها.. ثم أضاف في تعقل:
- » نحن لم ننفق مليمًا من إرث عمي.. ما فقدناه هو الحصاد التخيلى لهذا المستقبل بوساطة حصافتك المالية التي لا تضاهى.. لدينا ثلاثون ألفًا لم يمسها أحد، وبالخبرة التي اكتسبتها، فكري فيما ستفعلين خلال عامين.. إن الزيجتين لم تلغيا بل تأجلتا.. »
كانت هذه كلمات مباركة، وكان تأثيرها كهربيًّا..
لمعت عينا (أليك) ودمعتا، وقالت بقلب ممتن:
- » الآن وهنا أصرح بأن..... »
هنا قاطع عبارتها قدوم ضيف..
كان هذا هو مالك ورئيس تحرير جريدة (ساجامور)، وكان قد جاء إلى القرية لزيارة جدّ له أوشك على الرحيل من عالمنا، وكان راغبًا في الجمع بين العمل والحزن، لذا قرر أن يزور آل (فوستر) الذين لم يدفعوا ستة دولارات مطلوبة لتجديد الاشتراك في جريدته..
رحبا بالضيف بحرارة، فهو يعرف كل شيء عن العم (تلبيرى)، والفرص المتاحة له كى يذهب إلى المقبرة..
بالطبع لن يسألا أية أسئلة لأن هذا سيدمر الوصية، لكنهما قررا أن يحوما حول الموضوع، لكن رئيس التحرير الأحمق لم يفهم ما يريدان، وفي النهاية استطاع الحظ أن يقدم لهما ما عجز الفن عن تقديمه..
قال رئيس التحرير وقد احتاج لاستعمال المجاز في نقطة من حديثه:
- » إنه صلب مثل (تلبيري فوستر).. »

فلما رأى ذهول الزوجين، قال في حرج:
- » لم أقصد ضررًا.. إنها مجرد استعارة.. هل هو قريب لكما؟»
أجاب (سالى) بكل ما استطاع استحضاره من لامبالاة:
- » لا أعرفه.. لكني سمعت عنه.. »
استعاد رئيس التحرير رباطة جأشه، فسأله (سالى):
- » هل هو على ما يرام؟ »
- » لماذا؟ إنه في القبر منذ خمسة أعوام.. »
ارتجف آل (فوستر) حزنًا، برغم أن تعبيرهما بدا كالسرور، وقال (سالى):
- » آه.. هذه هي الحياة.. حتى الأثرياء لا يفرّون.. لا أحد يهرب.. »
ضحك المحرر وقال:
- » لو كنت تضم (تلبيري) إلى الأثرياء فأنا لا أوافق.. فليس لديه مليم، وقد احتاجت المدينة إلى دفنه على حسابها.. »
تصلب آل (فوستر) لمدة دقيقتين، وشعرا بالبرد..
- » هل هذا حقيقي؟ »
- » نعم.. لقد كنت واحدًا من منفذي الوصية، ولم يكن عنده سوى دراجة يدوية، وقد تركها لي.. لم يكن بها عجلة سليمة ولم يكن لها نفع.. لكنها شيء على كل حال، وقد كتبت له نعيًّا لهذا السبب لكن حروفه تبعثرت في المطبعة.. »
لم يكن آل (فوستر) يصغيان.. كانا جالسين بلا حراك برأسين مطرقين، وبعد ساعة كان رئيس التحرير قد رحل دون أن يشعرا..
تبادلا النظرات مرهقين، ثم بدآ يتكلمان بطريقة حائرة كالأطفال، كانا يبدآن جملة ثم لا ينهيانها، ويسود الصمت ولا يلاحظان أن الجملة لم تتم.. ومن حين لآخر كانا يشعران بأن شيئًا ما حدث

لعقليهما.. ثم يلمس كل منهما يد الآخر في حنين مشترك، كأن كلًّا منهما يقول لصاحبه: أنا معك.. لن أتخلى عنك.. سنتحمل الأمر معًا، وفي مكان ما يوجد الخلاص والنسيان.. في مكان ما يوجد قبر وسلام، ولن يطول هذا..

ولمدة عامين عاشا في ظلام عقلى تام واكتئاب دائم، وندم غامض..

ثم جاء الخلاص يومًا، وقرب النهاية ارتفع الظلام عن عقل (سالى) فقال:

- « ثروة عظيمة تمّ اكتسابها في ظروف فاسدة.. ومفاجأة هي فخّ.. لم تجدنا نفعًا، وكانت متعها محمومة قصيرة، لكننا من أجلها لفظنا حياتنا البسيطة السعيدة.. فليتعظ منا الآخرون.. »

ورقد صامتًا لحظة بعينين مغمضتين، ثم جاءت سكرة الموت تعصر فؤاده، وغاب عنه الوعي، فقال مغمغمًا:

- » لقد جلب له المال المتاعب فقرر أن ينتقم منا.. نحن اللذين لم نؤذه قط.. ترك لنا ثلاثين ألفًا عالمًا - بمكر - أننا سنحاول زيادتها، فنحطم حياتنا وقلبينا.. وما كان ليتكلف شيئًا لو ترك لنا مبلغًا أكبر يقضي على رغبتنا في الزيادة.. مبلغًا أكبر من الإغراء.. كانت روح أطيب ستفعل هذا، لكن في هذا الرجل لم تكن روح كريمة.. لا شفقة.. لا.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أَجَنّة أم نار؟

الفصل الأول

- » أنت تفوهت بكذبة «
- » أنت تعترفين.. بالحق تعترفين.. أنت قلت كذبة.. «

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

كانت الأسرة تتكون من أربعة أشخاص: (مارجريت) وهي أرملة عمرها ستة وثلاثون عامًا، و(هيلين) ابنتها وهي في السادسة عشرة، والعمتين (هانا) و(هستر) وهما عانسان في السابعة والستين توءمان..

وكانت النسوة يعشقن الفتاة الصغيرة، ويرقبن روحها الحلوة في مرآة وجهها، وتنتعش أرواحهن في الإصغاء لها، ويشعرن كم أن العالم عذب ثري عادل في وجودها..

في داخلهما كانت العمتان عزيزتين لطيفتين، لكن بالنسبة للسلوك كانت تربيتهما الصارمة قد جعلتهما شديدتى الحزم ولا أقول قاسيتين..

كان تأثيرهما على البيت قويًا جدًا، حتى إن الأم وابنتها قبلتا سلطتهما في رضا وبلا تساؤل..

لم تكن هناك صدامات، ولا أخطاء، ولا قلوب تحترق في هذا البيت، ولم يكن في البيت هكذا مكان للكذب.. لم يكن في بيت كهذا شيء سوى الحقيقة الصلبة كالمعادن.. الحقيقة التي لا تلين ولا تتهاود، وليكن ما يكون..

وفي يوم - تحت ضغط الظروف - لطخت حسناء البيت الصغيرة شفتيها بالكذب، واعترفت بذلك بالدموع ولوم النفس..

لا توجد كلمات يمكن أن تصوّر ذعر العمتين.. كان السماء فوقهما قد تجعدت، وانهارت، والأرض صارت خرابًا..

جلستا جنبًا إلى جنب شاحبتى الوجه تتبادلان النظرات، وترمقان المتهمة التي ركعت على ركبتيها أمامهما، تدفن وجهها في حجر كل منهما وهي تئن وتبكي وتطلب الرحمة..

لثمت يد واحدة منهما في تواضع، فقط لتنسحب اليد كأنما تشعر باشمئزاز من هاتين الشفتين الملطختين، ومن حين لآخر تقول إحداهما:

- « أنت قلت كذبة.. »

وتقول الأخرى:

- » أنت تعترفين.. بالحق تعترفين.. لقد قلت كذبة.. »

كان الموقف فريدًا لم تمرا به من قبل، ولايُصدّق.. ولم تفهماه ولم تعرف كيف تتعاملان معه..

وقررت المرأتان أن الطفلة خاطئة يجب أن تؤخذ إلى أمها التي كانت مريضة لا تدري بما يحدث، وتوسلت لهما (هيلين) أن ترحماها وتسترا عارها لأن أمها لن تتحمل..

لكن الواجب يسبق كل تضحية، ومع الواجب يهون كل شيء.. إن الواجب يسبق كل شيء ولا تهاون فيه..

كانت العمتان عنيدتين في الحق، وقالتا إن القانون يجعل الابن يدفع ديون أبيه، ويمكن أن نعكس هذه القاعدة.. لهذا من العدل أن تعاني الأم الطيبة لطفلة آثمة آلام الحزن والعار، التي هي ثمن كل خطيئة..

وتحرك الثلاث إلى غرفة المريضة..

في هذا الوقت كان الطبيب يدنو من البيت.. كان طبيبًا بارعًا ورجلًا طيبًا سليم الطوية، لكن يجب أن تعرفه لمدة عام كي لا تمقته، ولعامين كي تتعلم كيف تتحمله، ولثلاثة أعوام كى تعجب به، ولأربعة أعوام كى تعرف كيف تعيش معه.

إنها عملية تعلم مرهقة بطيئة، لكن لها نفعها..

كان ضخم الجثة خشن الصوت له وجه أسد، وعينان أحيانًا ما تكونان عينى قرصان وأحيانًا عيني امرأة حسب مزاجه..

لم يكن يبالي بقواعد اللياقة، وكان صريحًا إلى درجة أن له رأيًا في كل شيء، وآراؤه جاهزة بمجرد فتح الصنبور.. ولم يكن يبالي ما إذا كانت هذه الآراء تروق للمستمع أم لا..
كان في شبابه بحارًا، لذا كان هواء البحر المالح يفوح منه، وكان يؤمن أنه أحسن واحد في المنطقة.. وكان يكافح جهده من أجل ما يعتقده..
وقد استعمل الكثير من الشتائم في البحر في شبابه، فلما استقام التزم بقاعدة هي ألا يستعملها إلا فيما ندر، وحين يتطلب الأمر هذا..
وكان يحمل روحه على وجهه، ولديه اهتمام شديد بآل (لستر) وكانوا يعرفون هذا..
الآن هو ذا يدنو من البيت على مسافة..
وكانت العمتان والفتاة المتهمة على باب غرفة المريضة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

وقف الثلاثة أمام الفراش، وأدارت الأم وجهها لترمق طفلتها بعينين مغرورقتين بالحنان والحبّ الأمومى، وفتحت ملجأ ذراعيها لها، لكن العمة (هانا) أبقت الفتاة بعيدًا عن حضن أمها وقالت:

- « انتظرى! »

وقالت العمة الأخرى بلهجة مؤثرة:

- « (هيلين).. قولى لأمك كل شيء.. اغسلي روحك.. »

وقفت الفتاة مهزومة بائسة، وناحت بقصتها حتى النهاية، ثم صاحت:

- » آه يا أماه! ألن تغفري لي؟ أنا حزينة جدًّا.. »

قالت الأم:

- « أغفر لك يا بنيتي.. هلمي إلى ذراعى وضعى رأسك على صدري، فلو كنت قلت ألف كذبة...... »

هنا نظف أحدهم حلقه على سبيل التنبيه، ونظرت العمتان إلى أعلى وانكمشتا في ثوبيهما.. هناك وقف الطبيب ووجهه سحابة رعدية، ولم تكن الأم وابنتها تعرفان شيئًا عن قدومه، فظلتا ملتصقتين قلبًّا بقلب..

وضع الطبيب رأسه على كتفيه، وأومأ للعمتين فهرعتا نحوه ترتجفان، فهمس لهما:

- » ألم أقل لكما إن هذه المريضة يجب أن تُبعد عن الانفعالات، فماذا تفعلان هنا؟ نظفا هذا المكان.. »

وبعد نصف ساعة ظهر في البهو، ويده حول خصر (هيلين) يداعبها ويقول لها أشياء مضحكة لطيفة، وكانت قد استعادت

تألقها، فقال لها:
- » الآن يا عزيزتي اذهبي لغرفتك، وابتعدي عن أمك.. لكن لحظة.. أخرجي لسانك! هكذا! أنت سليمة كالبندقة.. »
وسمح لها بالانصراف.. ثم اكفهر وجهه ثانية، وجلس يقول:
- » لقد أحدثتما الكثير من الضرر، وربما بعض الخير.. نعم.. إن مرض السيدة هو التيفود.. لقد جعلتماه يعلن عن نفسه بحماقتكما، وهذه خدمة لي.. لم أكن قبل الآن أعرف ما هو.. »
بانفعال هبت المرأتان مذعورتين، فقال:
- » اجلسا.. ماذا تحاولان عمله؟ »
- « يجب أن نطير! »
- » لن تفعلا شيئًا.. لقد قارفتما كثيرًا من الأذى حتى الآن.. فهل تريدان تبديد كل ما لديكما من الحماقات والجرائم في يوم واحد؟ اجلسا! لو خالفتما تعليماتي فسأنتزع مخيكما لو كانت عندكما الأدوات اللازمة لهذا.. »
جلست المرأتان متضايقتين شاعرتين بالمهانة، لكن مضطرتين تحت الضغط، فأردف الطبيب:
- » كيف جرؤتما على مخالفة أوامرى؟ »
نظرت (هستر) إلى (هانا) مناشدة.. فلم تكن إحدى المرأتين ترغب في الرقص على هذه الأوركسترا القاسية، ثم بدأت (هستر) تعبث في ثنيات شالها ثم قالت:
- » لم نخالف أوامرك لسبب هين.. كان هذا واجبًا، ومع الواجب ليس لدى المرء خيار.. يجب أن يؤديه.. لقد كذبت الفتاة.. »
نظر لها الطبيب بضع دقائق مشدوهًا، ثم انفجر:
- « كذبة! هل فعلت هذا؟ فليرحمني الله.. إنني أقول مليون كذبة يوميًا، وكل واحد يفعل هذا بما فيه أنتما.. وهذا هو

السبب الذي جعلكما تخالفان أوامرى؟ هذه حماقة خالصة.. إن هذه الفتاة لا تستطيع أن تكذب كذبة تؤذي شخصًا وأنت تعرفين هذا جيدًا.. »

- » لكنه في النهاية كذب.. »

- » لعمر الله لم أسمع حماقة كهذه.. ألا تعرفين الفارق بين كذبة وأخرى؟ »

ضمَّت (هانا) شفتيها كالملزمة، وقالت:

- » كل الأكاذيب خطايا.. »

تململ الرجل نافد الصبر، وقال:

- » ألم تقولي كذبة قط لحماية شخص من أذى أو عار؟ »

- » نعم.. »

- » ولا حتى لحماية صديق؟ »

- » نعم.. »

- » ولا أعزَّ صديق؟ »

- » نعم.. ولا حتى لأنقذ حياته.. »

- » ولا حتى لإنقاذ روحه؟ »

- » ولا روحه.. »

بعد صمت طال، قال الطبيب:

- « أسألكما معًا: لماذا؟ »

- « لأن أية كذبة خطيئة ثمنها فقدان أرواحنا.. وخاصة لو متنا قبل أن نتوب.. »

نهض واتجه للباب، وعند العتبة أستدار وقال:

- » أصلحا نفسيكما.. تخلصا من هذا الإخلاص الرخيص الأنانى رغبة في إنقاذ روحيكما التافهتين.. أنقذا روحيكما بالطريق الصحيح وإلا فلن تخسرا شيئًا بفقدانهما.. »

وقفت المرأتان شاعرتين بالانسحاق والمهانة.. لقد أوذيتا في الصميم.. وأدركتا أنهما لن تسامحاه على هذه الكلمات أبدًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت المرأتان تقلقان على ابنة أخيهما اللطيفة والمرض الذي أصابها مؤخرًا، وأرادتا أن تساعدا البائسة وتريحاها..
قالت (هستر) دامعة:
- « سنساعدها.. لا توجد ممرضتان مثلنا.. لا ممرضة تقف مثلنا على فراش المريض حتى تسقط وتموت، والله يعلم أننا سنفعل.. إن الطبيب يعرفنا جيدًا.. لن يجرؤ على إحضار ممرضة أخرى.. »
قالت (هانا) من وراء الضباب الذي غلف عويناتها:
- « يجرؤ؟ إنه يجرؤ على كل شيء هذا الشيطان.. »
- » إنه ذكي ولن يفكر في شيء كهذا.. »
جاء الطبيب فقال:
- » إن (مارجريت) مريضة.. ستسوء حالتها قبل أن تتحسن وعلى واحدة منكما أن تظل معها طيلة الوقت.. إن (هيلين) كذلك مريضة بالمرض ذاته.. »
تبادلت العمتان النظرات، ثم صاحت (هستر) مذهولة:
- » كيف هذا؟ لقد قلت منذ ساعات إنها سليمة كالبندقة.. »
أجاب في هدوء:
- » كنت أكذب.. »
نظرت له (هانا) في اشمئزاز، وقالت:
- » كيف تقدم اعترافًا كهذا وأنت تعرف مقتنا لكل أنواع الكـ...»
- « صه! أنت جاهلة كالقطط.. كباقي البثور الأخلاقية تكذبين من الصباح إلى المساء ولا تعترفين بهذا.. وتشمخين بأنفك

كالقديسين باعتبارك لا تقولين إلا الحقائق.. لقد قلت للطفلة كذبة كريمة كي أحميها من خيالها الذي كان سيجعلها تموت بالحمى خلال ساعة.. هلما.. هل كنتما ستأخذان الطفلة إلى فراش أمها لو عرفتما أنني قادم؟ »

صمتت المرأتان ولم تتكلما، فأردف:

- « كنتما ستمتنعان عن ذلك، ولو جئت بعد هذا المشهد وسألتكما عن سبب توتر الأم للذتما بالصمت.. وهذه كذبة.. كذبة صامتة لكنها مؤذية.. هكذا ترين أنك لن تكذبي يا (هستر) لإنقاذ روح أعزّ صديقة لك، لكنك كنت ستكذبين لتجنب مشاق الاعتراف بحقيقة مريرة.. »

ثم ودعهما وانصرف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

بعد اثنى عشر يومًا كانت الأم وابنتها في قبضة مرض مخيف.. ولم يعد سوى القليل من الأمل، وكانت العمتان شاحبتين مرهقتين لكنهما لم تتخليا عن عملهما، وكان قلباهما محطمين من أجل البائستين..

وطيلة هذه الفترة كانت الأم تتوق بشدة إلى الطفلة، وحين عرفت الأم أن مرضها هو التيفود أصابها الذعر، وأرادت أن تتأكد من أن الطفلة لم تصب بالعدوى في جلسة الاعتراف..

أخبرتها (هستر) أن الطفلة سليمة تمامًا كما قال الطبيب، وضايق هذا (هستر) لكن فرحة الأم جعلتها تشعر بالرضا.. صحيح أن بعض الخجل غالبها لكن ليس إلى حدّ أن تتمنى لو لم تفعل..

قالت المرأة إنها ستتحمل بُعد طفلتها عنها، لأنها تفضل الموت على أن تخاطر بحياة الطفلة..

وعند الظهيرة ازدادت حالة (هيلين) الطفلة سوءًا، وسألت الأم عنها، فشحبت (هستر) ولم تخرج الكلمات من فمها.. هنا شحب وجه الأم بدوره وشهقت:

- » آه.. رباه! هل هي مريضة؟ »

هنا تمرد قلب العمة المعذبة، وقالت:

- » لا.. لا.. إنها على ما يرام.. »

بدا السرور على المرأة وقبلت العمة..

وفيما بعد حكت (هستر) القصة لأختها، فقابلتها بنظرة لائمة وقالت:

- « كانت هذه كذبة يا أختاه.. »

- » آه يا (هانا).. كانت خطيئة لكني لم أجد بوسعي شيئًا.. »
- » لا يهمني.. كانت كذبة.. »
- » أعرف هذا.. لكن لو تكرر الأمر لفعلت الشيء ذاته.. »
- » إذن سآخذ مكانك مع الأم غدًا.. سأخبرها بالحقيقة.. »

وفي الصباح كان لديها تقرير مروع لتقدمه للأم لكنها تماسكت، وحين عادت كانت (هستر) تنتظرها شاحبة الوجه ترتجف..

وفي الردهة قالت (هانا) وعيناها تسبحان في الدموع:

- » ليسامحني الله.. قلت لها إن الطفلة بخير! »
- » فليباركك الله يا (هانا)! »

ومن هذا الحين عرفت العمتان مدى قوتهما، واستسلمتا في تواضع لضروريات الموقف، وفي كل يوم كانتا تقولان كذبة الصباح، ثم تستغفران الله في المساء..

وفي كل يوم كان نبراس البيت يتهاوي شيئًا فشيئًا، بينما العمتان ترسمان نضارتها للأم، ويدمي قلبهما سرورها..

وفي الأيام الأولى كانت الفتاة تكتب رسائل لأمها أخفت فيها شأن مرضها، وكانت الأم تحتضن هذه وتلثمها مرارًا، وتداريها تحت وسادتها..

وبعد أيام وهن العقل وتراخت اليد فلم تعد الفتاة قادرة على كتابة شيء، وحارت العمتان فيما تقولانه للأم..

إن أعذارهما تنفد بسرعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

بعد قليل راحت العمتان تمارسان عملًا مرهقًا شاقًا في غرفة (هيلين).. لقد حاولتا - بجدية وتصميم - بأناملهما الجافة أن تزيّفا الرسالة المطلوبة.. فشلتا مرارًا لكن أداءهما بدأ يتحسن..
كانت دموعهما تسقط على الورقة فتلوثها، وأحيانًا كانت كلمة غير محسوبة تجعل الرسالة خطرة، فتبدآن من جديد..
في النهاية حملت (هانا) الرسالة إلى الأم، التي راحت تلتهم الكلمات الثمينة مرارًا، وقالت:
- «آه لو كان بوسعي أن ألثمها أو آخذها بين ذراعيّ! »



فى النهاية حملت (هانا) الرسالة إلى الأم ، التى راحت تلتهم الكلمات الثمينة مرارًا ؟

قالت العمة:

- » كم تأثرت حين سمعتها تغني أغنية (لوخ لوموند).. لقد حركت مشاعري.. إن غناء الشباب يحرك العواطف.. »

- » أحسبني لن أعيش لأراها ثانية.. »
تأثرت العمة فقالت:
- » لا تقولي هذا.. أرجوك.. »
- » لا تبكي.. إنني سأعيش.. سأحاول لو استطعت.. ماذا تفعل من دوني؟ هل تتكلم عني كثيرًا؟ »
- » نعم.. كثيرًا جدًّا.. »
- » أعرف هذا.. إن الزوجة المدللة تعرف أنها محبوبة، لكنها تطالب زوجها كل يوم بأن يقول هذا، لمجرد متعة سماعه.. أرى (هيلين) استعملت القلم الحبر هذا المرة.. هذا أفضل.. إن الرصاص يبهت بسرعة ولسوف أندم على ذلك.. »
وانصرفت العمة (هانا) مثقلة القلب لترى الفتاة..
كانت في غيبوبة تامة، تنظر لمن حولها بعينين مفتوحتين لا تريان، ومن شفتيها كانت كلمات مضطربة تخرج:
- » هل أنت لست أمي؟ أنا أريدها.. كانت هنا منذ دقيقة هل ستعود سريعًا؟ هل ستعود الآن؟ كل شيء يدور ويدور من حولي آه يا رأسي! »
وغابت ما بين خيال أليم إلى آخر، فرطبت العمة (هانا) الشفتين الجافتين، ومسحت الحاجبين الساخنين، وهي تشكر الله على أن الأم سعيدة لا تعرف ما يدور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

في كل يوم كانت الطفلة تنحدر أسرع نحو القبر، وأخبار العجوزين الملفقة عن صحتها تنقل لأمها السعيدة التي دنت نهايتها أيضًا، واستمرت الرسائل المزيفة وكان قلباهما ينزفان وهما يريان لهفة الأم..

في النهاية جاء ذلك الصديق اللطيف.. جالب السلام والراحة للجميع.. وكانت الإضاءة خافتة والفجر يدنو، حين عبرت الردهة أطياف صامتة متجهة إلى غرفة (هيلين)، ووقفت حول فراشها..

أما الفتاة فقد انغلق جفناها، والملاءة على صدرها تعلو وتهبط بوهن، بينما كانت شهقة أو دمعة تحطم الصمت، وكانت الفكرة المسيطرة على الأذهان هي حسرة هذا الموت.. الرحيل إلى الظلام العظيم بينما الأم ليست هنا لتخفف الآلام وتبارك..

تحركت يدا الطفلة باحثة عن شيء، فضمتها (هستر) إلى صدرها باكية، وظهر ضوء غامر على وجه الفتاة لأنها حسبت الذراعين ذراعى أمها، وذهبت لنهايتها سعيدة..

وبعد ساعتين ذهبت (هستر) إلى غرفة الأم، فسألتها:

- » كيف حال (هيلين)؟ »

- » هي بخير.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

عند الظهر جهزوا المتوفاة، وفي التابوت رقدت الشابة وعلى وجهها سلام عظيم.. وجاءت (هستر) راجفة لتقول للموجودين:

- » إنها تطلب مني ورقة! »

ابيض وجه (هانا) لأنها لم تتوقع هذا.. لقد ظنت أن الخدمة انتهت.. تبادلت المرأتان النظرات، ثم قالت (هستر):

- » لا مفر.. لا بد من الورقة وإلا ستشك.. »

- » وستعرف.. »

وهكذا كتبتا رسالة جديدة حملتها (هستر)، يقول سطرها الأخير:

« عزيزتى...

« سنكون معًا ثانية.. أليس هذا خبرًا طيبًا؟ الجميع يقول هذا..»

قرأت الأم الرسالة، وهمست:

- » يا للطفلة المسكينة! كيف تتحمل حين تعرف؟ إنها لا تشك في شيء.. »

- » إنها تعتقد أنك ستتعافين.. »

- » كم أنت طيبة أيها العمة (هستر)! دعيني أقبلك عنها.. ضعي القبلة على ثغرها وقولي إن قلب أمها فيها.. »

وبعد ساعة - ودموعها تسيل - أدت (هستر) مهمتها العسيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

دوّى صوت جرس عبر الريح، فتساءلت الأم:
- » الناقوس يقرع أيتها العمة (هانا)! روح مسكينة قد رحلت كما سأفعل أنا.. لن تتركاها تنسانى؟ «
- » لا.. لن تنسى.. «
- » هل تسمعان هذه الأقدام في الردهة؟ «
- » إنهم مجتمعون من أجل (هيلين) المسكينة حبيسة البيت.. جاءوا ليسمعوها بعض الموسيقا التي تحبها، وظننا أنك لن تتضايقي.. «
- » لا.. لا.. أعطياها كل ما تريده! «
وبعد فترة صمت قالت:
- » كم أن هذا لطيف! إنه أرغنها.. هل تعزفه بنفسها؟ هذه المقطوعة حزينة جميلة.. إنها تفتح أبواب السماء لي! لو استطعت أن أموت الآن! «
وحين انتهى اللحن، استراحت روح أخرى من عذاب الحمى، وقالت الأختان وهما تنوحان حول جثة الأم:
- » من الجميل أنها لم تعرف قط.. «

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند منتصف الليل جلستا تبكيان..
رأتا شخصًا باهر الجمال يتألق تألقًا غير أرضي، دخل عليهما وقال:
- » للكذابين موضع في جهنم يحترقون في نيرانه للأبد.. فلتندما! «

سقطت العجوزان على ركبتيهما أمامه، وانحنى رأساهما، لكن لسانيهما التصقا بسقفى فميهما، وأصابهما الخرس..
وأخيرًا قالت إحداهما:
- » إن خطيئتنا عظيمة تجللنا بالعار.. نحن مخلوقات تعسة تعرف ضعفها الإنساني، ولو خضنا تلكم السبل الوعرة ثانية فلسوف يكون الفشل نصيبنا.. »
ورفعتا رأسيهما في تضرع، لأن الشخص قد ذهب، وإن كان قبل ذهابه قد همس لهما بمصيرهما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

أهي الجنة أم النار؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إدوارد ميلز وجورج بت..

كانا متباعدين في القرابة.. ربما كانا ولدي عم من الدرجة الخامسة أو شيئًا كهذا، وكانا طفلين يتيمين، لذا تبناهما آل (برامز) اللذان لم يرزقا بأطفال..

كان آل (برامز) يقولان لهما:

- » كونا مخلصين رزينين منتجين.. وراعيا الآخرين لتنجحا في الحياة »

وكان الطفلان قد سمعا هذا آلاف المرات حتى فهماه، وكان بوسعهما أن يردداه قبل أن يتعلما الصلاة.. لقد طبعت هذه العبارة على باب غرفة الأطفال، وكانت أول عبارة تعلما قراءتها.. وصارت هذه هي قاعدة حياة (إدوارد ميلز)..

أحيانًا كان الزوجان (برامز) يغيران العبارة قليلًا فيقولان:

- « كونا مخلصين نقيين منتجين.. ولن تحتاجا إلى أصدقاء.. »

كان الطفل (ميلز) مريحًا لكل من حوله، وحين كان يطلب الحلوى ولا ينالها يصغي إلى العقل، أما الطفل (بت) فكان يبكي حتى يحصل على الحلوى بأي ثمن.. كان الطفل (ميلز) يعني بلعبه أما الطفل (بت) فكان يدمرها في وقت قصير، ثم يتحول إلى جحيم حتى إنهم - كي يسود السلام المنزل - كانوا يقنعون (ميلز) الصغير بالتخلي عن لعبه لأخيه..

وحين كبر الطفلان صار (جورج بت) مكلفًا.. لقد كان قليل الاهتمام بثيابه، لهذا كان يرتدي ثيابًا جديدة دائمًا، بينما لم تكن هذه هي الحالة مع (إدوارد ميلز)..

ونما الطفلان سريعًا.. وظل (إدوارد) مريحًا، بينما كان (جورج) همًّا متزايدًا، وكان يكفي أن تقول لـ (إدوارد):

- « كنت أفضل ألا تفعل هذا.. »

سواء كنت تتحدث عن السباحة أو النزهة أو جمع الفراولة أو الذهاب إلى السيرك، وكل الأشياء التي يحبها الصبية..
كانت هذه الإجابة كافية لـ (إدوارد) لكن ليس لـ (جورج)، الذي يصرّ بعنف على ما يريد، وبالطبع لم يظفر طفل آخر بكل نزهات السباحة وجمع الفراولة والذهاب إلى السيرك، ولم يفز طفل آخر بوقت أمتع..
وكان آل (برامز) لا يسمحان للطفلين بالسهر بعد التاسعة.. فكان (إدوارد) يبقى في الفراش، لكن (جورج) كان يخرج من النافذة ويلهو حتى منتصف الليل..
وكان مستحيلًا إقناع (جورج) بالتخلي عن عاداته السيئة، إلا بالكثير من التفاح والبلى..
لم يحتج (إدوارد) إلى جهد كبير في تربيته، لأنه كان طيبًا يعتبره الجميع ممتازًا، لكن آل (برامز) عانوا كثيرًا في تربية (جورج) والدموع في عينيهما..
تدريجيًّا كبر الطفلان إلى سن العمل.. وأرسلهما الأبوان لتعلم حرفة.. وقد ذهب (إدوارد) راضيًا لكن (جورج) كان غاضبًا..
عمل (إدوارد) بجد وإخلاص وكفّ عن أن يكون عبئًا ماليًّا على آل (برامز)؛ لكن (جورج) فرّ، وكلف مستر (برامز) كثيرًا من المال والجهد كى يجده.. لكنه هرب ثانية.. ثم هرب ثالثة ومعه بعض الأشياء الثمينة، وعانى مستر (برامز) كثيرًا، بالإضافة إلى محاولة إقناع المعلم بألا يرسل الصبى إلى الشرطة بتهمة السرقة..
وواصل (جورج) مهمة تحطيم القلبين العجوزين اللذين يحاولان أن يحمياه من الخراب..
وكان (إدوارد) منذ طفولته مولعًا بمدارس الأحد، وجمع التبرعات للفقراء، وبرامج منع التدخين ومنع الشتائم البذيئة، وكل

الجمعيات المهتمة بمعاونة البشر.. لكن هذا لم يثر اهتمام أحد لأن هذا هو (الاتجاه الطبيعي) للإنسان..
وفي النهاية مات آل (برامز)، وأوصيا في الوصية بفخرهما وحبهما لـ (إدوارد) وبعقار صغير لـ (جورج) لأنه كان يحتاج إليه، بينما (إدوارد) لا يحتاج إلى شيء كهذا لأن العناية السماوية ترعاه..
واشترط العجوزان أن يكون (إدوارد) شريكًا لـ (جورج)، وإلا ذهب العقار إلى مؤسسة خيرية اسمها (جمعية أصدقاء المساجين)..
وتوسل الزوجان إلي (إدوارد) أن يأخذ مكانهما في العناية بـ (جورج) وحمايته من نفسه، وبتواضع أذعن (إدوارد)..
لم يكن (جورج) شريكًا مفيدًا.. كان سكيرًا يعلن جلده وعيناه تلك الحقيقة غير السارة في كل لحظة..
وكان (إدوارد) يعشق فتاة حسناء، وأحبا بعضهما بإخلاص، لكن (جورج) راح يلاحقها دامعًا متوسلًا، وفي النهاية ذهبت دامعة العينين إلى (إدوارد) وقالت إن واجبها المقدس واضح أمامها، ولن تدع رغبتها الأنانية تتدخل.. يجب أن تتزوج (جورج) المسكين وتصلحه.. لسوف يحطم هذا قلبها، لكن الواجب هو الواجب..
وهكذا تزوجت (جورج) وتحطم قلبها وقلب (إدوارد)..
وما إن شفي من آلامه حتى تزوج (إدوارد) بدوره..
وظفرت الأسرتان بأطفال، وحاولت (مارى) جهدها كى تصلح زوجها لكن هذا كان عسيرًا، وكافح طيبون كثيرون من أجل (جورج)، لكنه اعتبر هذه الجهود حقه وواجبهم..
وانغمس في القمار حتى تراكمت عليه الديون، وذات صباح استولت الشرطة على الشركة، ووجد ابنا العم نفسيهما دون مليم واحد..

كانت الأوقات عصيبة، واضطر (إدوارد) إلى أن يعيش مع أسرته في غرفة على السطح، وراح يجوب الشوارع بحثًا عن عمل..
وأدهشه كم أن وجهه لم يعد يلقي أي ترحيب، وكيف أن اهتمام الناس به قد تبخر..
ابتلع غمّه، وفي النهاية وجد عملًا في حمل القرميد على كتفه في (غلق) لأعمال البناء..
إلا أنه ظل محافظًا على التزامه نحو المؤسسات الأخلاقية التي كان عضوًّا بها..
لكن (جورج) كاد يموت من فرط الاهتمام به.. لقد وجده ذات صباح ثملًا غارقًا في المزراب، فأنقذته إحدى سيدات الجمعيات الخيرية، واشتركت له في الجمعية، وجعلته محترم المظهر، ووجدت له وظيفة.. ونشرت الصحف هذا الموضوع..
واهتم الرأي العام بأمر البائس، وجاء كثيرون يساعدونه كي يصلح ذاته، ولمدة شهرين ظلّ طيب الذكر، ثم سقط ثملًا في المزراب مرة أخرى.. من ثم ساد الحزن والغمّ، إلا أن الأخوة النبلاء أنقذوه ثانية، ونظفوه وأطعموه وطربوا لموسيقا ندمه الحزينة..
هكذا غرقت البلدة في الدموع السعيدة لأن جهودها نجحت في تأهيل الوحش المسكين.. وأقيم احتفال كبير، وبعد بعض الخطب المؤثرة قال رئيس الجلسة في شجن:
- » سنرى مشهدًا لن يراه كثيرون هنا بعيون جافة من الدمع..«
وتقدم (جورج) تحرسه النساء إلى المنصة، حيث بدأت عملية الاكتتاب لمساعدته فصفق الجميع، وبكى الجميع سرورًا..
وصار (جورج) بطل المدينة ونجمها..
صحيح أنه كان يعود للزلل كلما مرت ثلاثة أشهر، لكن إنقاذه كان يتمّ في كل مرة..

في النهاية راح يطوف البلاد محاضرًا، يحكي للناس قصته مع التوبة، وازدادت ثروته..
كان الناس يثقون به حتى إنه استطاع استخدام اسم مواطن معروف كي يسحب مبلغًا ضخمًا من المصرف، وتكاثرت الضغوط من أجل تخفيف الحكم عليه، وذهب إلى السجن ثم خرج منه بعد عام، لتلقاه (جمعية أصدقاء المساجين) على الباب براتب محترم..
وكان (إدوارد) قد تقدم لهذه الجمعية من قبل طالبًا المساعدة، لكن قضيته انتهت بسؤال واحد:
- » هل دخلت السجن من قبل؟! «
وكان (إدوارد) قد صار صرافًا لمصرف البلدة، لكنه لم يلق (جورج) قط.. (جورج) الذي اعتاد الغياب كثيرًا عن البلدة لأسباب غامضة..
وفي ذات مساء مطير دخل لصوص ملثمون مسلحون إلى المصرف، فوجدوا (إدوارد) وحده هناك.. أمروه أن يعطيهم الأرقام السرية للخزنة.. فرفض.. هددوا حياته.. فقال لهم إن رؤساءه وثقوا به وهو لن يخون هذه الثقة، ويمكنهم قتله إذا أرادوا..
لهذا قتله اللصوص..
وراح المخبرون يحققون في الحادث، واتضح أن المتهم الأساسي هو (جورج بت)..
سادت الشفقة على أرملة الصراف الميت وأطفاله اليتامى، وتوسلت الجريدة المحلية لرؤساء المصارف أن يدعموا أسرته التي صارت بلا عائل.. وتم تجميع نحو خمسمائة دولار بمتوسط 3/8 دولار لكل مصرف من مصارف الاتحاد..

أما المصرف الذي يعمل به الصراف، فقد أعرب عن امتنانه للشهيد، بأن أعلن أن حسابات الرجل لم تكن دقيقة تمامًا، وأن هناك اختلاسًا في العهدة، ولربما ضرب نفسه بنفسه كي يدارى ما اقترفه..
تم تقديم (جورج) للمحاكمة، وبدا أن الجميع نسي الأرملة واليتامى في قلقهم على (جورج) المسكين.. لكن كل المال والنفوذ لم ينجحا في تبرئته، وتم الحكم عليه بالإعدام..
أرهقت طلبات العفو الحاكم، تحملها إليه بنات صغيرات وعوانس عجوزات جزينات، وأرامل ويتامى.. لكن لا.. لم يرضخ الحاكم لهذا..
وامتلأت زنزانة (جورج) بالحسناوات والزهور والدموع والترانيم.. حتى جاء يوم المشنقة..
وتم نقل جثة (جورج) في موكب فخيم في سيارة سوداء، أمام جمهور باك من أفضل أبناء المنطقة، وفي كل يوم كانت زهور جديدة توضع على قبره.. وعلى قبره حفرت هذه الكلمات:
- » لقد قاتل كما يجب أن يكون.. «
وعلى قبر الصراف الشجاع نقشت هذه الكلمات:
- » كن نقيًّا مخلصًا رزينًا منتجًا، ولن .... «
ولا يعرف أحد مصير باقي العبارة.. لكن هكذا وجدوها..
تعيش أسرة الصراف في ظروف شنيعة الآن.. ويقال.. لكن لا يهم.. هناك أناس طيبون يهمهم ألا يمر عمل شجاع كعمله دون جائزة.. وقد قاموا بجمع4200 دولار وبنوا كنيسة لذكراه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خادم الجنرال (واشنطن)[4]

إن الجزء المثير من حياة هذا الرجل الشهير قد بدأ بعد موته، ومعنى هذا أن التفاصيل المهمة في سيرته ظهرت بعد أول موت له..

لم يسمع عنه أحد حتى تلك اللحظة، ولكن من لحظتها لم نكف قط عن السماع عنه، كانت مهنته مرموقة جدًّا وأظن أن قصة حياته ستكون إضافة مهمة لأدب السير الأمريكي، لهذا قمت بجمع هذه المادة من مصادر أصلية موثوق بها، وهأنذا أقدمها للعالم..

لقد استبعدت من هذه المعلومات كل ما هو مشكوك فيه، وهدفي هو أن أقدم هذه السيرة للمدارس لتربية شباب بلادى..

كان اسم الخادم الشهير للجنرال (واشنطن) هو (جورج)، وقد خدم سيده لمدة نصف قرن وفاز بثقته ومودته، وبعد هذا كان واجبه المؤسف هو أن يوصل سيده المحبوب إلى القبر في (بوتوماك)..

وبعد عشر سنوات - عام 1809 - مات هو نفسه، مفعمًا بالسنين والشرف، ونعاه كل من عرفوه..

تقول جريدة (بوستون جازيت) عن هذا الحدث:

« (جورج) الخادم الأثير لـ (واشنطن) قد مات في (رتشموند) يوم الثلاثاء الماضي عن خمسة وتسعين عامًا، وهى سن ناضجة. لم يكن ثمة وهن في قواه العقلية، وقد ظل فكره متماسكًا حتى قبل موته ببضع دقائق. لقد كان موجوداً حين انتخب (واشنطن) رئيسًا للجمهورية للمرة الثانية، وكذلك في جنازته، ويذكر كل الأحداث المجيدة المرتبطة به. »

من هذا التاريخ لم نسمع شيئًا عن الخادم العظيم، حتى 1825 حين مات ثانية.. خرجت جريدة في (فيلادلفيا) تقول:

« في (ماكون) توفي الأسبوع الماضي رجل زنجي يُدعى (جورج). وكان هذا الفقيد هو خادم (جورج واشنطن) المفضل. وقد مات بفعل الشيخوخة عن 95 عامًا. وظلّ بكامل قدراته العقلية حتى وفاته وكان بوسعه أن يتذكر انتخاب (واشنطن) رئيسًا لفترة ثانية، ودفنه وجنازته، واستسلام (كورنواليس) ومعركة (ترمتون) وأحزان وادى (فروج)..

وقد ذهب الفقيد إلى القبر مع كل آل (ميكون). »



من هذا التاريخ لم نسمع شيئا عن الخادم العظيم ، حتى ١٨٢٥

حين مات ثانية ..

وفي الرابع من يوليو 1830 وفى 1834 و 1836 تم نشر الخبر ذاته تقريبًا في موضع الصدارة من صحف أخرى..

وفي نوفمبر 1840 مات الرجل ثانية، وكتبت جريدة (سانت لويس ريبابليكان) في الخامس والعشرين من الشهر:

« أثر نفيس آخر من آثار الثورة قد رحل
توفي أمس في هذه المدينة (جورج) الخادم الأثير لـ (جورج واشنطن) عن عمر 95 عامًا، وكان يتمتع بذاكرة قوية، وكان يذكر الانتخاب الأول والثاني لـ (واشنطن) واستسلام (كورنواليس) وموقعة (ترمتون) ومعاناة جيش الوطنيين في وادي (فروج) وإعلان الاستقلال وأشياء أخرى كثيرة، إن قليلاً من البيض يستدعي موتهم الحزن الذي سببه موت هذا الزنجي المسن، وكانت جنازته عظيمة. »

وفي السنوات العشر التالية بدأت أخبار وفاة جديدة للرجل تظهر في أرجاء القطر، وظلت تظهر في مواضع مهمة من صحف عديدة، وبنجاح تام..
إلا أنه في خريف عام 1855 مات الرجل مرة أخرى، وتقول صحف (كاليفورنيا):
« بطل عجوز قد مات
مات في (داتشفلات) (جورج) خادم الجنرال (واشنطن) عن عمر خمسة وتسعين عامًا، إن ذاكرته لم تخذله حتى النهاية، وكان يستطيع أن يتذكر أول وثاني انتخاب لـ (واشنطن)، وموقعة (كورنواليس) و(بانكرهيل) وإعلان الاستقلال وهزيمة (برادوك). ويقال إن عشرة آلاف مواطن حضروا الجنازة.. »

أما آخر مرة مات فيها (جورج) فكانت عام 1864، وحتى أسمع العكس أفترض أنه مات حقًا في تلك المرة، وقد كتبت جريدة (متشيجان) عن هذه الأحداث الأسيفة:

« رمز آخر من رموز الثورة قد ذهب
(جورج) خادم (واشنطن) قد توفي في (دترويت) الأسبوع الماضي، عن سن خمسة وتسعين عامًا، ولم تضطرب ذاكرته قط حتى النهاية، وكان يذكر أول وثاني انتخاب لـ (واشنطن) واستسلام (كورنواليس) وموقعة (ترمتون) وإعلان الاستقلال وهزيمة (برادوك)، وإلقاء صناديق الشاي في خليج (بوسطون)، وهبوط الحجاج.
لقد مات محترمًا، ومشى في جنازته عدد هائل من المواطنين..»
لقد ولّى الخادم المخلص العظيم.. لن نراه ثانية حتى يعود.. لقد انتهى من مهنة الموت التي يمارسها بروعة، وهو الآن ينام في سلام كما ينام كل من استحق راحته..
لقد كان في كل الأحوال رجلًا مرموقًا، وكلما عاش أكثر كلما ازدادت ذاكرته قوة وشمولًا، ولو مات ثانية فلا بد أنه سيتذكر في هذه المرة اكتشاف أمريكا ذاتها..
أعتقد أن هذه السيرة التي قدمتها له كاملة تمامًا، برغم أنني أفترض أنه مات مرة أو مرتين في أماكن غامضة فشلت الصحافة في معرفتها..
وكل ما أجده في ملاحظاتي عن موته هو أن الرجل وكان مصرًّا - في كل المقالات - على أن يموت في الخامسة والتسعين.. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا.. ربما فعله مرة أو مرتين، لكنه لا يستطيع أن يظل في سن خمسة وتسعين للأبد.. من المفترض أن يكون عمره 151 سنة حين مات آخر مرة.. لكن سنه لم تمش بنفس معدل ذاكرته..
لقد تذكر - حين مات آخر مرة - هبوط الحجاج الذي حدث سنه1620.. لو حدث هذا وهو في سن العشرين فمعنى هذا أن عمره كان 260 سنة حين ترك الحياة نهائيًا..

لقد انتظرت كثيرًا لأرى إن كان سيموت ثانية، حتى أقدم سيرة حياته للأمة الثكلى..
- ملحوظة: أرى من الأوراق أنه مات مرة أخرى في (أركنساس)، ومعنى هذا أن ذلك المخادع مات ست مرات، وفي كل مرة في مكان جديد.. لقد كف الآن عن أن يكون موضوعًا جديدًا.. لقد ولى سحره.. لقد تعب منه الناس.. فدعوه يرقد..
إن هذا الزنجي حسن النية لم يكلف ستة مجتمعات تكاليف دفنه، ويجعل عدة عشرات من الألوف يتبعونه إلى قبره كل مرة.. دعوه يرقد للأبد الآن، واجعلوا تلك الصحف تتلقى أكبر توبيخ في حياتها، وأخبروا العالم أن خادم (واشنطن) قد مات ثانية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلهام ابن عامين..

يبدو أن كل الرضع لديهم عادة قبيحة وقحة هي أن يقولوا أشياء ذكية في كل الأحوال، وخاصة تلك المواقف التي يفترض ألا يقولوا فيها شيئًا على الإطلاق..

ومن العينات المنشورة لهذه الأشياء الذكية، أن جيل الأطفال الحالي أفضل من البلهاء بقليل، ولا بد أن آباءهم ليسوا أفضل من أطفالهم إلا بقليل..

يبدو أنني أتحدث بشيء من الحرارة، ولا أقول بنوع من الضغينة الذاتية.. ولا أظن أن سبب هذا هو الغيرة لأنني لم أقل شيئًا ذكيًا وأنا رضيع.. حاولت مرة أو اثنتين لكني فشلت..

لم يتوقع أبواي أن أقول شيئًا ذكيًا لهذا أهملونى مرة، وضربوني على ردفيّ باقي المرات..

لكنني أشعر بقشعريرة ويتجمد دمى، كلما فكرت فيما عساه كان يحدث لو قلت شيئًا ذكيًا مما يقوله أطفال اليوم وسمعني أبي.. ولو كان قد سلخني حيًا لبدا له هذا لينًا عقابيًا نحو شخص آثم كهذا..

كان رجلًا صارمًا غير مبتسم، يكره كل علامات عدم النضج.. ولو قلت له شيئًا كهذا فبالتأكيد كان سيدمرني.. حتمًا كان سيفعل إذا أتيحت له الفرصة، لكنها لم تتح له لأنني كنت أملك الحصافة التي تجعلنى أبتلع بعض سمّ (الستركتين) أولًا ثم أقول أشيائى الذكية..

إن تاريخ حياتي قد تلطخ فقط بدعابة لفظية واحدة سمعها أبي وبحث عني في أربعة أو خمسة متاجر راغبًا في قتلى، ولو كنت ناضجًا وقتها لعذرته لكني كنت طفلًا، ولم أستوعب شقاءه مما حدث..

ذات مرة قلت بعض هذه (الأشياء الذكية) وكادت تحدث انفجارًا بين أبى وبينى..
كان أبي وأمي وعمي (أفرايم) وزوجته وآخران، وكانت المحاورة تدور حول اسم لي.. وكنت على الأرض ألعب بعضّاضة مطاطية، لأنني كنت قد تعبت من قطع أسناني بأنامل الناس..
هل لاحظت مدى المعاناة التي تسببها لك محاولة شق أسنانك بِعضّ أنامل المربية؟ وكيف أنه مرهق أن تحاول شق أسنانك بأصبعك الكبير؟ بالنسبة لي أشعر أن هذه الأشياء حدثت أمس..
لكنى أحيد عن الموضوع..
كنت هناك ألعب بعضاضتى، وأظن أنني نظرت إلى ساعة الحائط فلاحظت أنه خلال ساعة وخمس وعشرين دقيقة سيكون عمري أسبوعين، وخطر لي أنني فعلت القليل كى أستحق كل السعادة التي تنتظرني عما قريب..
قال أبي:
- « إن (أبراهام) اسم جيد.. لقد كان اسم جدى (أبراهام).. »
وقالت أمي:
- » إنه اسم جيد بالفعل.. ليكن هذا واحدًا من أسمائه.. »
- » إن (أبراهام) يناسب اسم موثق عقود.. »
قطب أبي وبدا السرور على أمي، وقالت عمتي:
- » يا له من طفل عزيز! »
قال أبي:
- » إن (إيزاك) و(جاكوب) اسمان جيدان.. »
وافقت أمي وقالت:
- » ما من أسماء أفضل؟ »
قلت:

- » حسن.. هذان اسمان مناسبان لكما أنتما.. ناوليني (الشخشيخة) من فضلك، فلا يمكن أن أمضغ العضاضة طيلة اليوم.. »
وحتى هذه اللحظة لم ألق التشجيع الذي يلقاه الأطفال الأذكياء الآخرون. لقد قطب أبي وبدا الحزن على أمي، وبدا أن عمي يفكر في أنني ربما تماديت كثيرًا..
عضضت العضاضة وهشمت (الشخشيخة) فوق رأس القط، لكنني لم أقل شيئًا..
قال أبي:
- » إن اسم (صمويل) جيد.. »
وضعت ما في يدى إلى جوار المهد، حيث ساعة عمى الفضية ولعبة الكلب والجندي القصديري، وكل الأشياء التي اعتدت أن أتفحصها وأتأملها وأهشمها حين أطلب المتعة الكاملة..
قلت لنفسي إنه لو كانت الأمور ستسوء أكثر فأنا مستعد، وبصوت عال قلت:
- » أبي.. لا أستطيع أن أحمل اسم (صمويل).. »
- « ولماذا يا بني؟ »
- » إن لدى نفورًا خاصًا من هذا الاسم.. »
- » إن رجالًا عظيمي الشأن حملوا اسم (صمويل) يا بني.. »
- » مازال عليّ أن أعرف أولهم.. »
ودارت مشادة عنيفة بيننا، وحين انتهت كنت قد حملت اسم (صمويل) وضربة قوية، وبوساطة هذا الإذعان هدأ غضب أبي، وتجاوزنا سوء الفهم، الذي كان سيوتر علاقتنا للأبد لو أنني تخليت عن التعقل..
لكن - بعد ما عرفنا هذا الموقف - ماذا كان أبي سيفعل لو قلت شيئًا سخيفًا من الأشياء التي يقولها الأطفال الذين عمرهم

عامان الآن؟ في رأيي كان الأمر سينتهي بإحدى جرائم قتل الرضع في أسرتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قصة رجل من (كاليفورنيا)

منذ خمسة وثلاثين عامًا كنت أجول في (ستاتيزلوز)، أضل طريقي طيلة اليوم، وأبعثر ما يملأ القبعات من الغبار هنا وهناك، متوقعًا في كل لحظة أن أقع على خبطة ثرية لكني لا أجدها أبدًا..

كانت المنطقة لذيذة لطيفة ملأى بالغابات، وفي وقت ما كانت مزدحمة، لكن الناس قد اختفوا الآن وصارت الجنة الخلابة مكانًا منعزلًا.. لقد هجرها الناس بعد حملة التنقيب عن الذهب..

يومًا ما كانت هنا مدينة مزدحمة لها صحف ومصارف ومطافئ وعمدة.. لم يعد منها الآن سوى مرج زمردى بلا علامة واحدة على أن حياة كانت هنالك..

سرت قرب الريف عبر الدروب المتربة.. ومن حين لآخر كنت أرى أجمل الأكواخ وأكثرها راحة تلتف حولها الأغصان، حتى لتختفي الأبواب والنوافذ عن العين تمامًا.. مما يوحي بأن هذه بيوت هجرها الباحثون عن الذهب منذ أعوام، ولم يستطيعوا أن يبيعوها أو يمنحوها لأحد..

ومن حين لآخر كنت ترى أكواخًا خشبية من عهود التنقيب الأولى، بناها أوائل الباحثين عن الذهب قبل عصر بناء الأكواخ الجميلة..

وفي بعض الأحوال كانت هذه الأكواخ مسكونة، ويمكنك أن تثق أن ساكنها هو بنفسه الرائد الذي بناها.. ويمكنك كذلك أن تثق أنه كان يملك فرصة العودة لوطنه ثريًا لكنه لم يفعل.. فقد ما له وقرر أن يقطع كل علاقة له بالأقارب والأصدقاء من وقتها، شاعرًا بالخزي والفشل.. وهكذا يصير شأنه شأن من مات..

وحول (كاليفورنيا) في ذلك الزمن، كنت تجد مجموعة من هؤلاء الموتى الأحياء الذين تخلى عنهم الكبرياء، وشاب شعرهم، والذين كانت خواطرهم كلها مزيجًا من الأسف والحنين.. أسف على العمر الذي ضاع، وحنين للخروج من المعركة والانتهاء منها..
كانت أرضًا منعزلة لا صوت فيها.. لكن أزيز الحشرات بقى.. لا شيء يجعل معنوياتك مرتفعة أو يجعلك سعيدًا بالحياة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لذا حين قابلت هذا المخلوق عصرًا، شعرت بالرضا وارتفاع معنوياتي.. كان في الخامسة والأربعين يقف على باب أحد الأكواخ التي وصفتها لك..
لكن الكوخ لم يكن مهجورًا.. كان منظره يدل على وجود من يُعني به، وكان فناؤه الأمامي حديقة من الزهور النضرة..
دعاني الرجل وطلب إلى أن أعتبر نفسي في دارى، وكانت هذه عادة البلاد..
كان جميلًا أن أجد نفسي في مكان كهذا، بعد أسابيع من الحياة في أكواخ عمال المناجم، بأرضيتها القذرة والأسرّة غير المرتبة، والأطباق القصديرية والفون والقهوة السوداء.. ولا أمارة للزينة إلا بعض صور من الصحف للحرب في الشرق يلصقونها على الجدران..
لم أصدق أنني سأسعد إلى هذا الحدّ إذ أرى ورق حائط وسجادة وكتبًا ومزهرية صينية، ومئات اللمسات التي تبعثرها يد المرأة في المنزل، وهي أشياء يراها الإنسان دون أن يدرك أنه يراها، لكنه يفتقدها إذا هي أخذت منه..

كانت السعادة التي في قلبي قد ظهرت في وجهى، ورآها الرجل فقال:
- » هذه لمساتها.. لقد فعلت كل شيء بنفسها.. »
ونظر حوله بنظرة هيام مفتون..
كانت هنالك زينة يابانية موضوعة فوق إطار إحدى الصور، فأعاد ترتيبها بأنامل حذرة، وتراجع للوراء أكثر من مرة كي يتفقد التأثير، ثم قال:
- » إنها تفعل ذلك.. لا يمكنك أن تعرف ما ينقص هذا الإطار حتى تفعل هي ذلك.. لا يمكنك الفهم قبل أن يتم الأمر.. لكنك لا تستطيع أن تعرف القانون المتحكم في هذا.. شيء أشبه باللمسات التي تضعها الأم على شعر الطفل بعد تمشيطه.. لقد راقبتها كثيرًا وأستطيع أن أفعل ما تفعله هي، برغم أنني لا أعرف قانون ذلك.. لكنها تعرف القانون..
تعرف (لماذا) و(كيف) كليهما.. لكنني لا أعرف (لماذا) ولا أعرف (كيف).. »
واقتادني لغرفة النوم حيث أغسل يدي..
إنها غرفة نوم لم أر مثلها منذ أعوام.. لحاف أبيض.. وسادات بيضاء.. بساط.. ورق حائط.. منضدة زينة.. مرآة.. أدوات تجميل.. ثم حوض غسيل به ماء وإبريق وصابون.. وحوالى دستة من المناشف النظيفة جدًّا والبيضاء، حتى إن المرء لا يستطيع استعمالها دون أن يشعر بأنه يدنسها..
قال بكلمات ممتنة:
- » كل هذا عملها.. لا يوجد شيء هنا لم يمس يدها.. »
كنت أجفف يدي وأتأمل الغرفة، كما يفعل المرء حين يرى مكانًا جديدًا، حيث كل ما يراه يريحه..

وأدركت بطريقة لا يمكن تبريرها أن هناك شيئًا هنا يريد الرجل أن أراه بنفسي.. وهو يساعدني بتلميحات من عينيه، لذا بحثت حولى مرارًا وفي النهاية عرفت أنني أنظر مباشرة إلى الشيء..
فرك يديه في مرح وصاح:
- » عرفت أنك ستجدها! إنها صورتها! »
اتجهت إلى الإطار على الجدار، وهو مصنوع من خشب الجوز، وبه صورة عتيقة من التي كانت تطبع على سطح من فضة، تمثل أجمل وجه طفولي رأيته في حياتي..
- » في عيد ميلادها الأخير كانت تسعة عشر عاما، وهو يوم زواجنا.. وحين تراها.. آه.. انتظر حتى تراها.. »
- » ومتى تأتي؟ »
- » إنها تزور أهلها.. إنهم يعيشون على بعد أربعين أو خمسين ميلا.. لقد سافرت منذ أسبوعين.. »



- » ومتى تعود؟ »
- » اليوم هو الأربعاء؟ ستعود يوم السبت في التاسعة مساءً على الأرجح.. »

شعرت بخيبة أمل حادة، وقلت:
- » أنا آسف.. سأكون قد رحلت.. »
- « لا.. لن ترحل.. سيخيب أملها هذه المخلوقة الجميلة.. »
ولو أنها قالت لي هذه الكلمات لما تأثرت بهذا القدر.. كان لديّ شوق عارم كى أراها، حتى إنني شعرت بالخوف، وأزمعت أن أترك هذا المكان من أجل راحة بالى..
هنا قال لي:
- » كما ترى، إنها تحب أن ترى الضيوف.. الأشخاص الذين يعرفون أشياء ويستطيعون الكلام.. إن هذا يسعدها.. إنها تهوى معرفة كل شيء ويمكنها الحديث كطير.. والكتب التي تقرؤها! إنك ستذهل.. لا تذهب.. إنه وقت قصير جدًّا.. »
عاد بعد قليل بصورة صغيرة لها ووضعها أمامي، وقال:
- » هلم.. قل في وجهها إنك كنت تستطيع البقاء لكنك لم تفعل..»
أدى هذا إلى تحطيم قدرتي على التدبّر، وقررت أن أخاطر وأبقى..
في هذه الليلة دخّنا الغليون الذي يسبب الدوار، وتحدثنا عنها..
جاء الخميس ورحل، وقرب الغروب جاء عامل منجم من الرواد رحّب بى بحرارة، وقال:
- » لقد مررت كى أسأل عن المدام الصغيرة، ومتى ستعود؟ »
قال مضيفي:
- » لديّ خطاب منها.. هل تريد سماعه؟ »
- » نعم.. لو لم تتضايق يا (هنرى).. »
أخرج (هنرى) الخطاب من حافظته، وقال إنه سيتجاوز بعض الأجزاء الخاصة ثم راح يقرأ.. كان قطعة من الأدب العاطفي المنعش، وينتهي بتحيات حارة للأصدقاء والجيران..

فما إن فرغ من القراءة حتى قال:
- » هلم يا (توم).. أبعد يديك عن عينيك! أنت سريـع التأثر.. »
قال (توم):
- » إنني عجوز وأي إحباط يجعلني أبكى يا (هنرى).. حسبتها هي نفسها عندك فلم أجد إلا خطابًا.. »
- » الجميع يعرف أنها آتية السبت القادم.. »
- « السبت؟ كيف نسيت؟ كلنا نستعد لهذا.. سأذهب الآن ولن أعود إلا حين تكون هي في الدار أيها العجوز.. »
وفي ساعة متأخرة من عصر الجمعة، جاء عامل منجم مخضرم آخر من كوخه، وقال:
- » إن الأطفال يرغبون في أن يأتوا ليمرحوا مع (المدام) مساء السبت، لو لم تكن مرهقة بعد الرحلة.. »
- » مرهقة؟! اسمع يا رجل! أنت تعرف أنها مستعدة للسهر ستة أسابيع من أجل أطفالك.. »
ثم إن القادم - ويدعى (جو) - طلب سماع خطابها..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء عصر السبت، ووجدت أنني أخرج ساعتى أكثر من اللازم، فقال لي (هنرى):
- « أنت تظنها ستتأخر.. أليس كذلك؟ »
شعرت بالحرج، فقلت إن هذه عادة عندي، لكنه كان متوترًا بدوره، واصطحبني إلى بداية الطريق ليرمق المسافة عن بعد، وقال:
- » أعرف أنها ستكون هنا في التاسعة مساءً، لكني بدأت أقلق.. أشعر أن شيئًا قد حدث.. أنت تشعر بذلك أليس كذلك؟ »
كلمته بخشونة، فانكمش ونظر لي بحزن وخجل..

جاء أحد المخضرمين الآخرين قبل المساء، وطلب من (هنرى) أن يقرأ له الخطاب، وراح يتحدث في موضوعات مسلية محاولًا أن يبدد ذعر صاحبه..
وقال له:
- » إنها وعدت بالمجيء في التاسعة.. وهل خيبت أملك أو خذلتك من قبل يا (هنرى)؟ لسوف تبرّ بوعدها.. هذا مؤكد كما أنك مولود.. »
وبعد قليل وصل (توم) و(جو)، وراحت الأيدي تزين المنزل بالزهور.. وفي التاسعة قرر الرجال أن يعزفوا بآلات موسيقية أحضروها، وكانت هذه الأدوات كمانًا صغيرًا و(بانجو) و(كلارينيت)، وراحوا يعزفون موسيقا راقصة يضيفون لها إيقاعًا بأقدامهم..
وعلى الباب وقف (هنري) يرمق الطريق وجسده يرتجف من فرط معاناة عقلية.. لقد شرب مرارًا نخب صحة زوجته.. لكنه قلق..
ومن جديد أفعم (جو) الأقداح، ومددت يدي إلى أحدها، لكن (جو) همس لي في حزم:
- » دع هذا.. وخذ قدحًا آخر.. »
شرب (هنرى) قدحه، ونظر إلى الساعة وقال:
- » ساعدوني.. أريد أن أرقد.. »
ساعدوه على الرقاد - وهو يترنح - كى ينام على الأريكة، لكنه راح يتكلم كما يتكلم النائم:
- « أسمع صوت الخيول.. هل جاءوا؟ »
قال (جو):
- « لقد جاء (جيمي فاريش) ليقول إن المجموعة تأخرت، لكنهم أتون.. إن حصانها يعرج لكن هذا لن يؤخرها أكثر من نصف

ساعة.. »
- » أنا سعيد لأن مكروهًا لم يحدث.. »
وغرق في النوم قبل أن تنتهي الكلمات..
نزع الرجال ثيابه، وتأهبوا للرحيل فصحت:
- « لا تذهبوا يا سادة، إنها لا تعرفني.. أنا غريب.. »
تبادلوا النظرات، ثم قال (جو):
- » هي؟ المسكينة.. إنها ميتة منذ تسعة عشر عامًا.. »
- « ميتة؟ »
- « هذا أو أسوأ.. لقد ذهبت لزيارة أهلها بعد ستة أشهر من الزواج، وعلى بعد خمسة أميال من هنا هاجمها الهنود، في مساء السبت وهي عائدة، ولم يسمع عنها أحد من وقتها.. »
- « وهل جن نتيجة لذلك؟ »
- » لم ير لحظة عقل واحدة من ساعتها.. لكن حالته تسوء في الوقت ذاته من كل عام، وعندها نبدأ في التردد عليه، ونشجعه ونسأله عن أخبارها، ونزين البيت بالزهور، فعلنا هذا تسع عشرة مرة.. في أول عام كنا سبعة وعشرين، لكن لم يبق منا الآن سوي ثلاثة..
« لقد خدرناه وإلا سيصيبه هياج رهيب.. ولسوف تهدأ حالته غدًا ويعتقد أنها معه، حتى تحين اللحظة ذاتها العام القادم..
« رباه! لقد كانت عزيزة علينا بحق! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هِبات الحياة الخمس

الفصل الأول

عند فجر الحياة جاءت جنية طيبة تحمل سلتها، وقالت:
- » ها هي ذي الهِبات.. خذ واحدة واترك الباقيات.. كن حذرًا وأحسن الاختيار.. ولتنتق بحكمة لأن واحدة منها ذات أهمية..»
كانت العطايا خمسًا هي: الشهرة والحب والسرور والثروة والموت..
في حماسة قال الشاب:
- » لا داعي للاختيار.. »
واختار السرور..
وانطلق إلى العالم بحثًا عن المسرات التي ينعم بها الشباب، لكن كل واحدة منها كانت مخيبة للأمل وخاوية، وكانت كل مسرة منها تملؤه خزيًّا حين ترحل، وفي النهاية قال:
- » يا لتلك الأعوام التي أضعتها! لو كان بوسعي الاختيار لاخترت بحكمة.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

ظهرت الجنية وقالت:
- » أربع من الهبات باقية، فاختر واحدة أخرى، وتذكر أن الوقت يجري وواحدة منها ثمينة.. »
فكر طويلًا ثم اختار الحب، ولم ير الدموع التي ملأت عيني الجنية..
بعد أعوام طويلة طويلة، جلس الفتى في منزل خاو أمام تابوت، وقال لنفسه:
- « قد رحل الأحباء الواحد تلو الآخر وتركونى، والآن ترقد هنا أعزهم وآخرهم.. لقد مرت بي كآبة تلو كآبة، ومقابل كل ساعة من السعادة فإن الحب - ذلك التاجر الغادر - قد جعلني أدفع ألف ساعة من الحزن..
وإنني لأمقته من قلب قلبي.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

- « اختر ثانية.. »

كانت هذه هي الجنية تتكلم.. وأردفت:

- « لقد علمتك السنون الحكمة أو هكذا ينبغي أن يكون.. بقيت ثلاث هبات، وواحدة منها ذات قيمة، فتذكر واختر بعناية.. »

فكر الرجل قليلًا ثم اختار الشهرة، فتنهدت الجنية ورحلت..

مضت الأعوام، وها هو ذا الرجل يجلس وحيدًا في الظلام يفكر:

- » لقد ملأ اسمي العالم وامتدحه الجميع على كل لسان، وراق لي هذا لفترة.. ألا ما أقصرها! ثم جاء الحسد ثم الانتقاص من قدري ثم الافتراء فالمقت.. ثم جاء الاتهام، فالسخرية التي كانت بداية النهاية، ثم جاءت الشفقة التي هي جنازة الشهرة..

« إنها مرارة وشقاء الشهرة.. الشهرة هدف الأوحال في ذروتها، وهدف المقت والشفقة عند رحيلها.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

وجاء صوت الجنية تقول:
- » اختر ثانية.. لقد بقيت هبتان.. لا تيئس.. في البداية كانت هبة ثمينة واحدة، وهي ما زالت هناك.. »
قال الرجل:
- » إنها الثروة التي هي القوة! لكم كنت أحمق! هكذا تستحق الحياة أن تُعاش.. سأبذّر وأبهر العيون.. كل هؤلاء الساخرين سيزحفون في الوحل أمامي، وسيطعمون قلبي الجائع بجسدهم.. ستكون عندي كل المتع واللذائذ.. كل مفاتن الجسد وكل مسرات الروح.. سأشتري كل شيء.. سأشترى الاحترام والإذعان والتقدير.. وكل مجد رخيص في الحياة يمنحه لى سوق العالم بالغ التفاهة..
« لقد أضعت كثيرًا من الوقت، واخترت اختيارات خاطئة، لكني كنت جاهلًا.. »
وبعد ثلاثة أعوام جلس الرجل يرتجف في غرفة على السطح، هزيلًا شاحبًا أجوف العينين، يرتدي الأسمال يمضغ كسرة خبز مغمغمًا:
- » سحقًا لهبات الحياة! للسخريات والأكاذيب المزخرفة.. إنها ليست هبات بل هي قروض.. السعادة.. الحب.. الشهرة.. الثراء.. كلها أقنعة للحقائق الدائمة: الحزن.. الألم.. العار.. الفقر..
« لقد قالت الجنية حقًا.. لم يكن لديها سوى هبة واحدة ثمينة.. يا لتفاهة ورخص كل ما عرفت بالنسبة للهبة العزيزة اللطيفة، التي تطوى تلك الآلام التي تضطهد الجسد، والعار

والأحزان اللائي يأكلن القلب والروح.. تطويها في نوم بلا أحلام.. إنني مرهق وأريد الراحة.. فلتجلبها لي! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

جاءت الجنية ومعها الهبات الأربع، لكن (الموت) كان ناقصًا، وقالت:

- » لقد أعطيته لطفل رضيع كان جاهلًا، ووثق بى كى أختار له الاختيار الأفضل.. »

قال لها:

- » يا لتعاستي! وماذا بقى لي أنا؟ »

- » الشيء الذي لا يستحقه حتى من هو مثلك.. إنه ذلك الألم المشين للشيخوخة! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيرة ذاتية ساخرة..

ألحّ على اثنان أو ثلاثة أن أكتب سيرتي الذاتية، وقالوا إنهم سيقرءونها لو كان عندهم وقت فراغ، فأذعنت لهذا الإلحاح الجماهيري المحموم وها هي ذي قصة حياتي..



ألحّ على اثنان أو ثلاثة أن أكتب سيرتى الذاتية ، وقالوا إنهم سيقرءونها لو كان عندهم وقت فراغ ..

إن بيتنا بيت نبيل له أصول عريقة، وأقدم أجدادى الذين ينتمي لهم آل (توين) هو صديق للأسرة يحمل اسم (هيجنز). كان هذا في القرن الحادي عشر حين كان قومنا يعيشون في (أبردين)

بمقاطعة (كورك) بانجلترا.. أما لماذا تنسب الأسرة كلها إلى اسم الأم بدلًا من اسم (هيجنز) فلغز لم يرغب أحد في حلّه.. إنه سرّ قديم ساحر يجدر بنا أن نتركه وشأنه[5].. إن كل الأسر العريقة تفعل ذلك..
كان (آرثر توين) رجلًا عظيم الشأن يستجدى المارة على الطريق في زمن (ويليام روفوس).. وفي سن الثلاثين دخل أحد الملاجئ الإنجليزية القديمة يُدعى (نيوجيت)، ولم يعد من هناك.. »
أما (أوجستوس توين) - عام 1160 - فكان رجلًا مرحًا.. اعتاد أن يسن سيفه القديم، ويتجه إلى مكان مظلم مناسب، ويولجه في عابري السبيل كى يراهم يتقافزون.. كان كثير المرح مفطورًا على الدعابة، لكنه تمادى بعض الشيء..
وفي آخر مرة شوهد فيها يمارس هذه التسلية، انتزع الحاكم أحد طرفيه، وعلقه على مكان جميل عال في (تمبلبار) حيث يسلي الناس..
ثم لمائتي عام تظهر شجرة أسرتي مجموعة من الجنود النبلاء والرجال ذوي الأرواح الخلاقة.. كلهم كان يذهب للمعركة مغنيًا خلف الجيوش، ثم يعود الجيش فيهرولون أمامه..
في القرن الخامس عشر كان لدينا (بوتوين) الذي سمّاه الناس (المتعلم).. وكان يملك خطًا جميلًا، وكان بوسعه تقليد أي خط.. إلا أنه كلف مرة بتحطيم صخرة ضخمة، وأدت خشونتها إلى تحطيم يده، وقد استمتع بمهنة تحطيم الصخور بعد ذلك، ومارسها لمدة اثنين وأربعين عامًا، وقد مات في أثناء العمل..
ما كان ينتهي من عقد تكسير صخور، حتى تعطيه الحكومة عقدًا جديدًا.. وكان رفاقه يحبونه، وكان عضوًا مهمًّا في

مجتمعهم الكريم.. الذي كان يطلق عليه Chain Gang (أي المكبلين بالسلاسل للعمل في الأشغال الشاقة)..
كان يقص شعره بعناية، ويحبّ ارتداء الثياب المخططة، وكان موته خسارة لوطنه لأنه كان محترفًا..
بعد أعوام ظهر (جون مورجان توين)، وقد جاء إلى البلاد مع (كولومبوس) عام 1492 مسافرًا على سفينته.. ويبدو أنه كان ضيق الخلق طيلة الرحلة، وكان يطلب الرنجة الطازجة على الإفطار، ولم يمرّ يوم لم يصعد فيه إلى ظهر السفينة، ويشمخ بأنفه في السماء مزمجرًا، قائلًا إنه متأكد من أن (كولومبوس) لا يعرف إلى أين هو ذاهب، وبالتأكيد لم يذهب إلى هناك من قبل..
وحين دوت الصرخة الخالدة: « الأرض! »، وحين التهبت الحماسة في كل القلوب، لم يتأثر قلبه..
لقد تأمل المشهد عبر المنظار المقرب المتسخ، وقال:
- » فلتذهب الأرض إلى الجحيم.. إن هذا طوف! »
وحين ركب هذا المسافر الغريب السفينة، لم يكن معه سوى جريدة قديمة لفّ فيها منديلًا عليه حرفا (د. ج)، وجوربًا من القطن عليه حروف (ل. و. ج)، وجوربًا من الصوف عليه حروف (و.ن.ر).. إلا أنه في أثناء الرحلة ظل قلقًا بخصوص (متاعه) أكثر من قلق كل المسافرين مجتمعين..
وفي العواصف كان عليهم أن يكمموه، لأن صراخه بخصوص (متاعه) كان يجعلهم عاجزين عن سماع الأوامر..
وحين رست السفينة كان (متاعه) الآن يتكون من ثلاثة صناديق، لكنه أصرّ على أن (متاعه) قد سرق وصمم على تفتيش المسافرين.. كان هذا أكثر من اللازم لأنهم ألقوه في البحر..

وانتظروا أن يظهر ثانية، لكن لم تبد منه فقاعة واحدة.. ولاحظوا في دهشة أن مرساة السفينة اختفت، وأن حبل المرساة يتدلى وحده إلى الجانب، ويمكننا أن نقرأ ما حدث في سجل السفينة:
« أدركنا أن هذا الراكب المزعج قد سرق المرساة.. وباعها إلى السكان المتوحشين داخل البلاد.. »
إلا أن هذا الجدّ كان يملك صفات نبيلة، ونذكر الأذهان هنا بأنه كان أول رجل يهتم بعملية تحضر الهنود.. لقد بني لهم سجنًا مريحًا ومشنقة، وهنا تصير المذكرات أقل وضوحًا وصراحة.. وتنتهي فجأة بأن تذكر أن جدّي هذا قد ذهب (ليرى المشنقة تؤدى عملها مع أول رجل أبيض في أمريكا)، وهناك أصيب بشيء أدى لموته..
أما الحفيد الأكبر له فكان شهيرًا عام 1600 وشيء ما.. وقد اشتهر في الصحف باسم (الأدميرال العجوز). كان يقود السفن السريعة مسلحًا ومعه رجال كثيرون. وقد أدى خدمة عظيمة في (تسريع) الحركة التجارية في البحر.. فالسفن التي كان يلاحقها كانت تقطع المحيط في وقت قياسي.. أما إذا تأخر أحد القوارب لسبب ما، فإن سخطه يصير عظيمًا حتى لا يتمالك نفسه، عندها كان يأسر القارب، وينتظر أصحابه حتى يجيئوا ويطالبوا به، لكنهم لم يفعلوا ذلك عادة..
وكان يحاول إبعاد الكسل عن بحارة القارب الأسير بأن يرغمهم على الرياضة والسباحة، وكان يسمى هذا بـ (المشي على اللوح الخشبي)، وكان البحارة جميعًا يحبون هذه الرياضة..
فإذا تأخر أصحاب القارب كان (الأدميرال) يحرقه حتى يضمن لهم مبلغ التأمين..

أما (تشارلز هنرى تون) فعاش في أواخر القرن السابع عشر، وكان مبشرًا دينيًا متحمسًا، وقد قام بهداية ستة عشر ألف واحد من الجزر الجنوبية، وعلمهم أن ارتداء قلادة من أسنان الكلب حول العنق منظار ليست ثيابًا كافية للمجيء إلى دار العبادة.. وكان أتباعه يحبونه جدًّا جدًّا، وحين انتهت جنازته (وخرجوا جميعًا من المطعم) كانت الدموع في عيونهم، وقالوا إنهم أحبوه جدًّا جدًّا، وتمنوا لو كان هناك المزيد منه..
أما الصياد العظيم (توين)، فأضاء منتصف القرن الثامن عشر، وساعد الجنرال (برادوك) بكل قلبه كى يقاوم الطاغية (واشنطن) وكان هذا الجدّ هو الذي أطلق النار 17 مرة على ظهر (واشنطن) من وراء شجرة.. لكن القصص تقول إن الوغد كفّ عن إطلاق النار بعد الرصاصة السابعة عشرة، لأنه افترض أن (واشنطن) تحميه السماء لأنها تدخره لهدف سام، وهكذا لم يجرؤ على إطلاق المزيد.. وأنا أرى أن هذه القصص تخلّ بدقة التاريخ. إن ما قاله جدّي هو:
- » لا جدوى (هيك) من هذا.. إن (واشنطن) (هيك) ثمل يترنح.. ولا يقف فترة تسمح للإنسان بالتصويب عليه بالرصاص (هيك).. »
لهذا كفّ عن المحاولة بعد سبع عشرة طلقة، وكان هذا سلوكًا متعقلًا جديرًا بالاحترام..
إن نبوءته قد تحققت على كل حال..
في الواقع هناك فرع جانبي لشجرة أسرتي، يمتاز أفراده بأنهم في بحثهم عن الشهرة التي طالما ظمئنا إليها، اختاروا الطريق السهل بأن ذهبوا إلى السجن بدلا من أن يُشنقوا..
ليس من الصواب حين تكتب سيرة ذاتية أن تتبع أجدادك إلى فترة قريبة من فترتك.. الأفضل أن تتكلم بإيهام وغموض عن

جدك الكبير، ثم تتجاهل ذكر كل من جاء بعده حتى تصل لنفسك، وهذا ما أفعله الآن..
ولدت دون أسنان وفي هذا تفوق على الملك (ريتشارد الثالث)، لكني ولدت دون حدبة على ظهري أيضًا، وفي هذا تفوقت عليه..
كان أهلي غير فقراء، ولم يشتهروا بالأمانة الشديدة..
سيبدو تاريخ حياتي وديعًا جدًّا إذا ما قورن بأسلافي، لهذا ربما كان من الحكمة ألا أكتبه إلى أن يتم شنقي..
ولو أن باقي السير التي قرأتها حذت حذوي، وتوقفت عند الأجداد حتى يحدث شيء كهذا للأحفاد، لكان هذا شيئًا مفيدًا للجمهور الذي يقرأ..
فما رأيك أنت؟

(مارك توين)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القناة

الفهرس..

Notes

[←1]

المصادر:

-ديل كارنيجى: الخالدون. مطبوعات كتابي(3).

- فؤاد دوارة: هكذا كتبوا. الدار المصرية للتأليف والترجمة. يونيو 1966.

[←2]
الزوجان مسيحيان لكنهما يتبعان قاعدة عدم العمل يوم السبت (Sabbath) التي يتمسك بها اليهود، والمقصود هنا أن الثراء جعلهما يتنازلان دينيًّا..

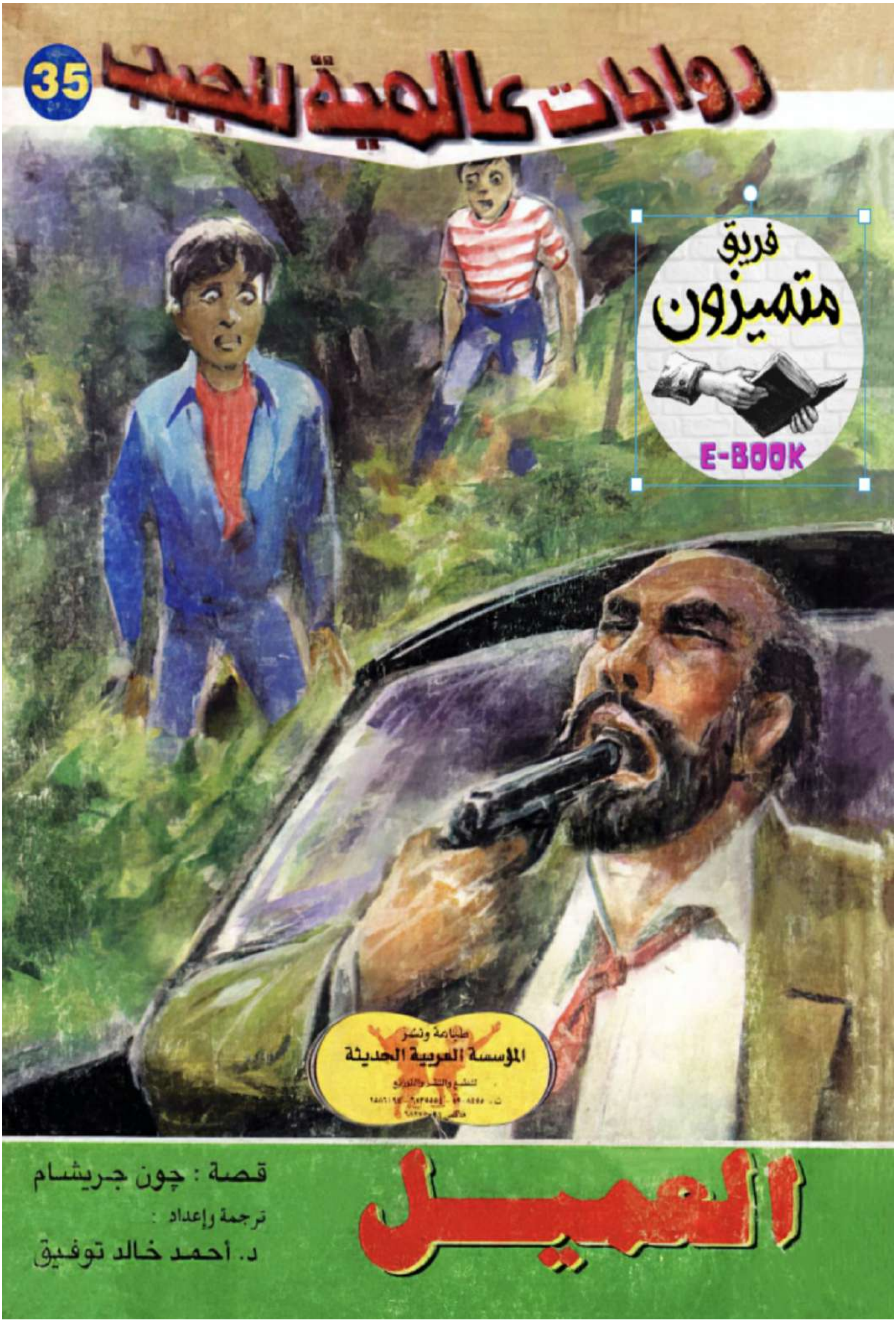
[←3]
Morgantic هو الزواج الذي يتم بين فرد من الأسرة المالكة وفرد من عامة الشعب، وبالتالي لا تترتب للطرف الثاني أية حقوق ملكية يطالب بها..

[←4]

ليست هذه قصة بالضبط بل هي مقال ساخر يتهكم على الصحف الشهيرة في أمريكا وقتها، وللكاتب أعمال كثيرة مماثلة هي خليط بين القصة والمقال الساخر..

[←5]

المقال ساخر بالطبع، لأن (مارك توين) اسم مستعار للكاتب كما قلنا في المقدمة!


35
روايات عالمية للجيب
فريق متميزون
E-BOOK
طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
العميل
قصة : جون جريشام
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (35)

العميـل

قصة: جون جريشام
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

كما كان متوقعا، أعجب عدد كبير من القراء بالرواية الرائعة التي كتبها (جون جريشام) والتي قدمناها في الكتيب العشرين: (صانع الأمطار).

إن أدب (جون جريشام) له مذاق خاص، يمزج بين السخرية والتوتر والتشويق، والبعد السياسي، والعواطف الإنسانية الجامحة. كل هذا في رواية واحدة محكمة، لا تشعر معها بافتعال هذا المزج كما تشعر به في الأفلام الهندية مثلا!

ولد الأديب الأمريكي (جون جريشام) في (أركنساس) عام 1955.. درس في جامعة (المسيسبي)، ثم حصل على شهادة في القانون عام 1981، وافتتح مكتبا للمحاماة في (ساوثهيفن).

عام 1989 قدم لنا أولى رواياته (وقت للقتل) وكان نجاحها متوسطا.. ربما لم تحقق نجاحا ساحقا إلا بعد ما اشتهر وقدمتها السينما الأمريكية..

وفي عام 1990 قدم لنا روايته (الشركة) التي وثبت به إلى عالم (أفضل المبيعات)، وصارت رواياته واسمه في كل مكان.. وقد اشترتها شركة (باراماونت) وقدمتها في فيلم ناجح بدوره..

بعد هذا قدم لنا (جريشام) رواياته (ملف البجعة) و (العميل) و (الغرفة) و (صانع الأمطار).. وآخر أعماله هي (الشريك) وقد نشرت عام ١٩٩٧، و (محامي الشوارع) عام 1998، و (الشهادة) عام 1999..

التصق (جريشام) بعالم القانون والمحاكم كما فعل سلفه (إيرل ستانلي جاردنر) في قصصه عن (بيري ميسون)، وهو مولع دائما بفكرة البطل الفرد الضعيف أمام قوى عاتية سياسية أو

قانونية أو إجرامية، وهي فكرة تروق للقراء دائما، بالإضافة إلى حجم رواياته شديد الدسامة الذي يناسب القارئ الأمريكي؛ المولع بألا تقل صفحات أي رواية عن خمسمائة صفحة!

اليوم نقدم لكم قصة (العميل) التي كتبها (جريشام) عام 1993، وفيها يقف صبي صغير وحده أمام عمالقة الإجرام وقضية سياسية بالغة الخطر..

إن أحداث القصة تبدأ هكذا...

☆ ☆ ☆

واحد..

كان (مارك) في الحادية عشرة من عمره، وقد بدأ يدخن دون انتظام منذ عامين، ولم يحاول قط أن يكف عن هذا، لكنه حاول جاهدا ألا يضبطه أحد..

كانت أمه تدخن علبتين في اليوم.. وكانت امرأة عاملة كثيرة المشاكل، وعلى قدر من السذاجة فيما يتعلق بولديها، ولم تتصور قط أن يمارس (مارك) ابنها عملا كهذا.

حين أخذ أخاه (ريكي) ذا الثمانية أعوام إلى الغابة، كانت في جيبه أربع لفافات تبغ، وقد ابتعد وسط الغابة عن الموضع الذي تقف فيه المقطورة. منذ رحيل أبيه صار (مارك) مسئولا عن (ريكي) تماما، وكان يشعر بأنه أب صغير لأخيه. لقد علمه كيف يركب الدراجة ويرمي بالكرة وعلمه ما يعرفه عن كل شيء، وكان يحميه من بلطجية المنطقة..

توقف (مارك) وسط الغابة، وقال لأخيه:

- اجلس هنا..

وجلسا على جذع شجرة وراحا ينظران إلى الخلاء ما بين الأشجار الممتد أمامهما.

كان (مارك) أكثر نضجا من (ريكي) حين كان في نفس عمره.. كان ناضجا طيلة عمره الصغير، وقد علمه غياب الأب أشياء وأشياء..

سمع (ريكي) السيارة أولا، ثم سمعها (مارك) بدوره، فقال بهدوء:

- فقط ابق ساكنا.

ظهرت سيارة (لنكولن) سوداء لامعة فوق الهضبة، ثم اتجهت نحوهما ببطء، فألقي (مارك) بلفافة التبغ إلى الأرض وداسها بحذائه..

وقفت السيارة قربهما مواجهة للطريق الترابي غير الممهد.. كانت عليها رخصة من (لويزيانا).. انفتح الباب وخرج السائق، وتفقَّد المكان حوله.

كان رجلا ملتحيا أصلع الرأس بدينا.. اتجه إلى حقيبة السيارة وعبث بالمفاتيح حتي فتحها.. أخرج خرطوما ثبت طرفه إلى ماسورة العادم، ثم أولج الطرف الآخر من النافذة الخلفية للسيارة.. ثم إنه أغلق الحقيبة وبحث بعينيه عن شخص يراقبه، ثم اختفى داخل السيارة وأدار المحرك.

- واو!

قالها (مارك) بصوت خفيض؛ فسأله (ريكي):

ماذا هنالك؟

- إنه يحاول أن يقتل نفسه.

رفع (ريكي) رأسه وتساءل:

- لا أفهم يا (مارك)..

- هل ترى هذا الخرطوم؟ إن غازات العادم ستدخل إلى السيارة وتفتك به.. لقد رأيت رجلا ينتحر بهذه الطريقة في فيلم سينمائي من قبل..

ودنا بين الأحراش أكثر.. فسأله (ريكي):

- ولماذا ينتحر؟

- وكيف لي أن أعرف؟ لكن لابد من عمل شيء..

- نعم.. لنفر من هنا حالا.

- لا.. ابق هنا لحظة.

وأمسك (مارك) بكتفه ليبقي رأسه خفيضا..

سأله (ريكي):
- كم من الوقت يستغرق هذا؟
- ليس طويلا.. لا تتحرك.. لو تحركت سأركلك بقوة..
وخفض رأسه وزحف على أربع بين الأعشاب نحو السيارة.. كان يعرف أن الرجل لن يسمعه لكنه كان يخشى حركة الأعشاب، دار حول السيارة، ثم مد يده وانتزع الخرطوم من ماسورة العادم ورماه أرضنا، ثم تراجع، وبعد ثوان عاد إلى جوار (ريكي) يرمق المشهد..

بعد خمس دقائق - بدت كأنها ساعة - انفتح الباب.. كان الرجل يصرخ ويغمغم، واتجه إلى مؤخرة السيارة ليجد الخرطوم.. أطلق سبة وأعاد الخرطوم إلى مكانه، ونظر حوله في توحش، ثم عاد إلى السيارة وأغلق الباب..

قال (مارك) في ذعر:
- إنه مجنون كالجحيم.
- لنذهب من هنا..
- لا نستطيع.. لو نجح في قتل نفسه لتورطنا في أشياء كثيرة..
- لن نخبر أحدا بما رأيناه.
- لن نرحل حتى أقول أنا إننا سنرحل..

التمعت الدموع في عيني (ريكي)، فأمره (مارك) بأن يبقى حيث هو.. ومن جديد زحف إلى السيارة ببطء، وفك الخرطوم من ماسورة العادم، وسرعان ما عاد لاهثا إلى جوار أخيه.

سأله (ريكي):
- ماذا لو رآنا؟
- لن يرانا.. لكن لو فعل يمكننا الهرب قبل أن يخطو خطوة واحدة.. هل تفهم؟ أنا أحاول حماية حياته.. ربما لو جرب عدة

مرات وفشل يعدل عن الأمر.. ما الذي يجعل هذا عسير الفهم؟
- إنه مجنون.. ومن السهل على من يقتل نفسه أن يقتلنا كذلك.. ما الذي يجعل هذا عسير الفهم؟
هنا انفتح الباب من جديد.. وظهر الرجل الغاضب وفي يده زجاجة.. تفحص الخرطوم، ثم هز رأسه كأنما فهم.. تفحص العشب عند مؤخرة السيارة.. كان مهشما.. أعاد الخرطوم لموضعه وعاد إلى السيارة..
قال (ريكي) متوسلا:
- (مارك) أرجوك دعنا نذهب.. لربما كان يحمل مسدسا..
- لو كان يحمل مسدسا لأطلقه على رأسه.. سوف أحاول مرة أخرى، وإن لم يستسلم سنرحل وننسى الأمر.. أوكي؟
ومن جديد زحف (مارك) على بطنه نحو السيارة..

☆ ☆ ☆

اتسعت فتحتا أنف المحامي وهو يشهق بعنف.. راح يرمق مؤخرة السيارة عبر المرآة الجانبية.. ثمة مسدس محشو على المقعد بجواره.. أغمض عينيه وجرع جرعة كبيرة من الزجاجة واستنشق بعمق.. راح يبكي ويكلم نفسه.. كان مذعورا جبانا لكنه مصمم على الانتحار.. سينتهي كل شيء سريعا دون ألم..
لن يفتقده أحد.. إنها فكرة أليمة لكنها مريحة.. ستكون جنازة صغيرة بلا دموع وسيجلس المحامون ينظرون في ساعاتهم، بينما القس ينهي الخطبة سريعا.
هنا رأي في المرآة العشب يهتز عند مؤخرة السيارة..

☆ ☆ ☆

رأى (ريكي) الباب ينفتح، وظهر الرجل الضخم محتقن الوجه يركض نحو مؤخرة السيارة.. وقف (ريكي) دامعا وبلل سرواله.

تجمد (مارك) فأمسكه الرجل من شعره، ودفعه نحو السيارة:

- أنت أيها الوغد الصغير!

نظر (مارك) إلى الوجه المتوحش اللامع، بعينية الحمراوين وأنفه يسيل..

أعاد المحامي تثبيت الخرطوم ثم جر الصبي جرا إلى السيارة، فأغلق الباب عليهما، وكان (مارك) يحاول فتح الزجاج حين جلس الرجل، وقال:

- لا تلمس هذا!

وصفع الصبي على وجهه بيده الغليظة..

شعر (مارك) بمذاق الدم فصرخ ألما.. شرب المحامي البدين من الزجاجة ونظر لـ (مارك)..

ثم ضحك، وقال:

- أظن أن علينا أن نموت معا.. أنا متأسف جدا يا بني.. حاولت أن تتذاكى وأن تحشر أنفك الصغير في أموري.. الآن علينا أن نموت معا..

أنت وأنا.. سنذهب إلى (أرض الأحلام)..

تشمم الصبي الهواء.. ثم لاحظ أن المسدس بينهما.. نظر للرجل فقال هذا:

- هل تريد المسدس؟

- لا يا سيدي..

- لا تكذب يا صبي.. إنني مجنون كالجحيم ولسوف أقتلك لا محالة..

- سيدي.. أنا لا أريد الموت.. أنا أرعى أمي وأخي الأصغر..
- آه! رجل البيت الصغير! أليس هذا جميلا؟
أنا لم أطلق هذا المسدس من قبل.. لقد اشتريته من (ممفيس) منذ ساعة.. هل تظن أنه سيعمل؟
سأله (مارك) وهو يشم الهواء ثانية:
- لماذا تفعل هذا؟
- ليس هذا عملك يا بني.. لقد رتبت كل شيء.. أنا وخرطومي.. رتبت انتحارا صغيرا لطيفا، لكنك تذاكيت عليّ، وصار ضروريا أن نذهب خلال خمس دقائق إلى (أرض الأحلام)..

☆ ☆ ☆

تحرك (ريكي) ببطء وأسنانه تصطك.. زحف نحو السيارة.. إن الرجل المجنون الضخم السريع الحركة، سيفتح الباب الآن ويمسك به مع (مارك)..
إلا أنه شق طريقه...

☆ ☆ ☆

رفع (مارك) المسدس نحو وجه المحامي.. كان ثقيلا كقالب القرميد.
نظر له المحامي في استمتاع، وقال:
- اجذب الزناد يا صبي.. اجذبه.. ولسوف أموت وتتحرر أنت..
وطبع قبلة على ماسورة المسدس، وعض الفوهة بأسنانه..
أغمض (مارك) عينيه وكاد يضغط، لكن الرجل انتزع المسدس منه ووجهه إلى الزجاج خلفه وجذب الزناد.. صرخ

(مارك) إذ تهشم الزجاج خلف رأسه إلى ألف قطعة لكنه لم يتناثر.

قرر (مارك) الباكي أن يشتت ذهن الرجل كي لا يفكر في المزيد:

- لماذا تريد أن تموت؟

- أنت تسأل أسئلة كثيرة يا صبي.

- لأنني صبي.

- ما اسمك؟

- (مارك)..

- وأنا (جيروم).. يمكنك أن تدعوني (رومي).. هكذا يدعوني الأصدقاء.. هل تشم رائحة الغاز؟ خمس دقائق لا أكثر.. أية كلمات أخيرة يا صبي؟

ونظر (مارك) للمرأة الجانبية فرأى العشب يهتز.. لا توجد رائحة غاز.. من المؤكد أن (ريكي) قد انتزع الخرطوم..

- لماذا تفعل هذا؟

- لأنني مجنون.. مجرد محام مجنون آخر.. لقد جعلوني مجنونا.. منذ عدة أسابيع عرفت سرا لا يعرفه أحد في الكون، ماعدا عميلي وهو قطعة من القذارة.. لهذا ترى يا (مارك) أن المحامين يسمعون أسرارا كثيرة..

أشياء خاصة جدا.. هل تفهمني؟ إنني في الرابعة والأربعين.. إننا صغيران جدا على الموت.. ألا ترى هذا يا (مارك)؟

- بلي يا سيدي..

- لقد قتل عميلي رجلا وأخفي جثته.. الآن يريد هذا العميل أن يقتلني.. يمكنني أن أخبرك بمكان دفن الجثة.. الجثة التي هي أكثر الجثث تخبئة في عصرنا.. إن هذا ممتع يا (مارك)..

المحامي الموثوق به يتكلم أخيرا..

نظر (مارك) إلى المحامي ثم إلى مقبض الباب بجواره.. إنه مغلق بزر التأمين.. قال المحامي:

- كف عن شم الهواء يا أحمق.. إن الغاز بلا رائحة.. كنت سأكون ميتا الآن بينما تلعب أنت (جي آي جو) مع رفاقك، لو لم تتدخل في أموري.. أنت غبي.. إن عميلي قد قتل عضوا في مجلس الشيوخ الأمريكي.. ألا تقرأ الصحف؟

أول عضو مجلس شيوخ يقتل في منصبه.. السناتور (بويت).. إن عميلي قد قتل كثيرا من الناس.. هكذا يكسب عيشه.. إنه من مافيا (نيو أورليانز)، وهو الآن يحاول قتلى.. لكننا نخدعه الآن.. (عليه واحد)! سننتحر قبل أن يظفر بنا!

وشرب جرعة وقال:

- إن (باري الموس) أو (الموس) كما يسمونه.. كل رجال المافيا هؤلاء لهم أسماء تدليل لطيفة فعلا.. إن (الموس) ينتظرني في مطعم قذر في (نيو أورليانز) الآن، وبعد عشاء هادئ سيطلب مني أن نتنزه في السيارة ليكلمني عن القضية، ثم يسحب الموسي.. لهذا يسمونه (الموس).. بعدها ينتهي الأمر.

سيتخلصون من جثتي في مكان ما، ولكننا قد خدعناهم..

كان لسانه يزداد غلظة، وكلامه يزداد ثقلا.. قرر (مارك) أن يكسب وقتا أكثر، فسأله:

- لماذا يريد هذا الـ (باري) أن يقتلك؟

- هذا سؤال آخر.. أنت كثير الأسئلة.. إن جثة (بوت) التي قتلها عميلي العزيز (باري مولدانو) في مكان أمين.. لا جثة لا قضية لا إدانة.. هل تفهم هذا؟ إن رجال المباحث الفيدرالية يشتبهون في (باري)، لكنهم لا يعرفون أين الجثة.. إن (الموس) ليس أذكى رجل قابلته كما تعرف.. إنه يعتبر نفسه عبقريا لكنه غبي جدا.. إن الجثة تحت قاربي.. نعم قاربي.. كنت أنا خارج

المدينة لهذا أخذ عميلي المحبوب الجثة إلى داري، ودفنها في الخرسانة تحت القارب الذي أضعه في المرآب.. هل تصدق هذا؟ لقد حفر رجال المباحث الفيدرالية FBI نصف (نيو أورليانز) لكنهم لم يفكروا في منزلي.. ربما لم يكن (باري) غبيا كما حسبته..

كانت عينا الرجل مغمضتين.. وفكر (مارك) في أنه يغيب عن الوعي ببطء.. لقد رأى هذا المشهد مع أبيه مئات المرات.

مد (مارك) يده ببطء إلى مقبض الباب، وفكر: لن تكون فرص أخرى.. فما إن سقط ذقن المحامي على صدره، حتى فتح (مارك) زر التأمين والمقبض واندفع من الباب.. لم يحدث المحامي صخبا وإنما واصل الغطيط..

ابتعد (مارك) على ركبتيه بين الأعشاب ولحق بأخيه الخائف.. نظر للوراء ليرى هل يتبعه الرجل، لكن السيارة بدت له غير مؤذية.

قال (ريكي) بصوت راجف:

- لقد جذبت الخرطوم..

هز (مارك) رأسه.. إن الأمور تتحسن..

ولو خرج (رومي) من السيارة فسوف يفران في ثانية واحدة.. نظر (ريكي) إلى حاجب أخيه، وقال:

- ماذا حدث لحاجبك؟

هنا تذكر (مارك) الإصابة.. تحسس حاجبه المتورم، وقال:

- لقد صفعني.

فجأة انفتح الباب وخرج (رومي) ملوحا بالمسدس، واتجه إلى مؤخرة السيارة.. وجد الخرطوم على الأرض، فراح يبكي.. العرق والدموع يغمران وجهه، ثم توقف.. دار حول السيارة كأنه فيل مخدر..

ثم استند إلى السيارة، ودس فوهة المسدس في فمه.. وأغمض عينيه وجذب الزناد..

☆ ☆ ☆



ثم استند إلى السيارة ، ودس فوهة المسدس فى فمه ..
وأغمض عينيه وجذب الزناد ..

اثنان..

كان (باري مولد انو) - أو (باري الموس) يرتدي سترة خضراء لامعة كأنها جلد سحلية، لكن سرعان ما تتبين أنها من (البولى إستر).. لم تكن أنيقة بشكل خاص لكنها لافتة للنظر توحي بمهرب مخدرات يربح كثيرا.. وكان هذا يناسبه لأنه كان مولعا بأن يهابه الناس ويتراجعوا ذعرا حين يرونه.

كان شعره جزلا أسود جذبه للوراء، في ذيل حصان أنيق يتدلى على ظهر السترة.. وثمة قرط من الماس يتدلى من أذنه اليسرى، وسوار ذهبي في معصمه الأيسر.. بينما سلسلة من ذهب تتأرجح من ساعده الأيمن..

توقف عند أحد الهواتف في مؤخرة المطعم.. نظر حوله ورفع السماعة، وبالنسبة للشخص العادي؛ كان منظر عينيه الشرستين الباحثتين عن العنف مما يجعل الأمعاء تتحرك.. عينان متقاربتان توحيان - لمن يتحمل النظر إليهما- أن (باري) أحول، لكنه لم يكن كذلك.. وكان (باري) يحب عينيه كثيرا.. إنهما أسطوريتان..

طلب رقم المحامي، وقال بصوت غير مسرور:

- أنا (باري).. أين (جيروم)؟ لماذا تأخر؟ كان عليه أن يقابلني منذ أربعين دقيقة..

كانت لهجته توحي بشخص حطم ذراع الكثيرين، ولسوف يفعلها مرارا.. وكانت السكرتيرة المذعورة تكاد تراه.. ترى عينيه وضفيرته وسترته.. وحمدت الله على أنه ليس أمامها الآن.. قالت له إنها لا تعرف لأن (كليفورد) غادر العمل في التاسعة ولم تره بعد..

كان بحاجة إلى عشاء مع محاميه لمناقشة القضية.. فقط عشاء.. إن المباحث الفيدرالية تراقبه، وكان (جيروم) يعتقد أنهم يتنصتون على مكتبه، لهذا اختار هذا المطعم.

كان (جيروم) يدافع عن رجال العصابات في (نيو أورليانز) منذ خمسة عشر عاما.. وكان سجله مؤثرا.. إنه خبيث فاسد مستعد لشراء الناس، ورشوة القضاة ورجال الشرطة، وتهديد المحلفين.

وحين كان أي لص ثري يتورط في جريمة في (نيو أورليانز)، كان يصل دائما إلى مكتب (جيروم كليفورد).. هناك يجد صديقا حميما تربى على المال الحرام، ومخلصا إلى النهاية..

إلا أن قضية (باري) كانت مختلفة.. كانت ضخمة وتنمو طيلة الوقت.

لقد حوكم بتهمة القتل مرة في سن 18، وقد أخرجه منها عمه رجل المافيا الثرى بسهولة..

الآن يختلف الأمر كثيرا، فالضحية هذه المرة سناتور.. عضو في مجلس الشيوخ.. إنها قضية (شعب الولايات المتحدة ضد باري مولدانو) [1].. لكن لم تكن هناك جثة، وهي مشكلة بالنسبة لشعب الولايات المتحدة..

لا جثة.. لا تقارير تشريح.. لا صورا دامية يراها المحلفون؟

إلا أن (جيروم كليفورد) بدأ ينهار.. يختفي.. ويبتعد عن المكتب ولا يرد على المكالمات..

الآن يحتاج (باري) إلى محام جديد.. لماذا تتحرك العدالة بسرعة حين لا تريد أنت ذلك؟

إن رجال المباحث الفيدرالية يراقبون (باري) منذ ستة أشهر.. بل هم يراقبونه في هذه اللحظة بالذات، كأنه أحمق إلى

درجة أن يتناول عشاءه، ثم يذهب ليرى الجثة، لمجرد أن يستمتع بهذا..

لقد استجوبوا كل متسكع في الشوارع، ونزحوا كل بركة ونهر بحثا عن جثة السناتور.. لكن (باري) يملك الجثة.. يتمنى نقلها لكنه لا يجرؤ على هذا.. ليس الآن..

إنه بحاجة الآن إلى محام آخر يرد على مكالماته ويقابله، ويرشو القاضي والمحلفين..

محام حقيقي! محام يعطل القضية قليلا.. كان (كليفورد) ميالا إلى التعجيل بالمحاكمة قبل أن يجد أحدهم الجثة، وكان هذا مصدر خلاف بينه وبين (باري)..

وصل إلى مكتب (كليفورد) الذي كان قريبا من المطعم.. كان الباب موصدا.. هزه (باري) مرارا، وأشعل لفافة تبغ أخرى، ثم راح يبحث في موقف السيارات عن الـ (لينكولن) السوداء..

سيجد الوغد البدين ولو بحث طوال الليل.

كان لـ (باري) صديق له محام جيد بارع في (ميامي).. وقد نجح المحامي في أن يؤخر القضية عاما ونصف العام، ثم قرر القاضي بدء المحاكمة، لهذا اضطر صديق (باري) إلى قتل محاميه، وهكذا تأجلت القضية من جديد.

لو مات (رومي) فجأة لاحتاج الأمر إلى أشهر، وربما أعوام قبل المحاكمة..

☆ ☆ ☆

ثلاثة..

استدار (ريكي) للوراء وراح يجري هلعا..

صاح (مارك) يناديه لكن دون جدوى.. على كل حال قد رأى ما يكفيه، فراح يلحق بأخيه..

كان الأخير يجري بطريقة غريبة، وقد انحني إلى الأمام، ويداه مدلاتان إلى جواره، وكانت الأعشاب تضربه في وجهه لكنه لا يتوقف..

أوقفه (مارك)، وهزه بعنف، لكن (ريكي) كان يتصرف كالزومبي بوجهه الشاحب وعينية المتسعتين.. ولم ينطق بحرف.

وصلا إلى المقطورة التي تعيش فيها الأسرة - أسرة (سواي) - الواقفة في الشارع الشرقي.. وثب (ريكي) إلى الداخل وارتمى على الأريكة.. كان وجهه يحمل تعبير البكاء لكن من غير دموع، وسرعان ما انثنى على نفسه ودس إصبعا في فمه.. وراح يمتص الإصبع بعنف شديد.

صاح به (مارك):

- تكلم.. حدثني يا رجل!

لم يرد (ريكي)، فتركه (مارك) واتجه إلى الثلاجة، وأخذ مكعب ثلج وضعه على حاجبه المتورم وراح يتأمل أخاه.. لقد نام وهو في نفس الوضع العجيب.

على (مارك) أن يطلب رقم 911 – خدمة الطوارئ - وكان يعرف من التلفزيون أن المكالمات يتم تسجيلها، ولم يكن راغبا في ذلك.. كان بحاجة إلى أن يناقش الأمر مع أخيه حتى يطبخا كذبة جيدة، لكن أخاه ليس في حال مناسبة..

طلب رقم 911، وتكلم بأعمق صوت ممكن، وقال:
- ثمة رجل ميت في الغابة.. يجب أن تأتوا لتخرجوه..
جاء صوت آلي لامرأة تقول:
- من المتكلم؟
- لا أريد أن أقول..
- إذن أين الجثة يا بني؟
جميل.. إنها تعرف أنه صبي الآن.. على كل حال ما كان ليخدعها.. قال:
- إنه قرب (تاكرهيل إستيتس).. قرب الطريق السابع عشر.. سيارة في الأحراش... رصاصة في الفم..
كان يعرف أنهم يسجلون صوته، وعما قريب سيجرون كل اختبارات الصوت الممكنة ويعرفون أن المتكلم هو (مارك سواي)..
سألته:
- هل رأيت الجثة؟
قال لنفسه إن هذا سؤال سخيف.. إنها تضيع الوقت إلى أن يتتبعوا المكالمة.. فقال لها:
- اسمعي.. هناك طريق ترابي يتفرع من الطريق 17.. سيارة كبيرة سوداء، والرجل صريع فوقها، فإن لم تجديها فهذا حظك السيئ.. وداعا..
ووضع السماعة، واتجه إلى الباب ينظر إلى الخارج.. متوقعا أن يجد قوات مكافحة الإرهاب وسيارات الدورية والأضواء ومكبرات الصوت..
عاد ينظر إلى (ريكي) الغارق في العرق، والذي لم يكف عن امتصاص إصبعه..

كتب ورقة لأمه يخبرها أن (ريكي) مريض وعليها أن تعنى به حتى يعود.. ولم يلحظ صوت الهليكوبتر البعيد.

☆ ☆ ☆

التمعت الأضواء في كل صوب.. زرقاء من سيارات الشرطة وحمراء من سيارة الإسعاف..

والتفت سيارات شرطة (ممفيس) البيضاء حول الـ (لنكولن) السوداء.. لم يبد القلق على أحد، وراح رجل شرطة يلتقط الصور بينما الأخرون يضحكون.. كان (رومي) حيث تركه (مارك) ورأسه مائل لليمين، وبركة دم من حوله..

أبواب السيارة الأربعة مفتوحة، وقد تم فحص السيارة بعناية من الداخل.

كان (مارك) مازال متواريا يرمق ما يحدث.. ووصلت سيارة شرطة أخرى بها رجال يحملون حقائب بيضاء، وراح مصور يلتقط مزيدا من الصور، ثم قام مسعفان بحمل جثة (رومي) وهما يمزحان حول مدى بدانة القتيل.

سمع (مارك) حركة خلفه، ثم أمسكت يد قوية بكتفه وسمع من يقول:

- ماذا هناك يا صبي؟

استدار فوجد شرطيا.. تجمد ولم يستطع التنفس.. وقال:

- كنت أراقب لا أكثر..

تأمله الشرطي على ضوء الكشاف، ثم وضع يده على كتفه، وقال:

- دعنا ندن منهم..

- أريد أن أعود لداري..

- ما اسمك؟
- (مارك سواي)..
ولحقا برجال الشرطة الواقفين حول السيارة، فقال الشرطي:
- مرحبا يا شباب.. هذا هو (مارك سواي).. الصبي الذي أجرى المكالمة!
أراد (مارك) أن يكذب، لكنه شعر بأن الكذب لن يجدي..
- كيف وجدت الجثة يا (مارك)؟
- كنت أنا وأخي نلعب ثم.. وجدنا نفسينا أمام السيارة..
هنا انهالت الأسئلة من رجال الشرطة.. عنه وعن أخيه وعن إصابة وجهه.
- هي مشاجرة في المدرسة يا سيدي..
- وهل رأيت الرجل قبل أن يموت؟
- لا يا سيدي.. كنا نمشي فوجدناه هكذا ميتا.. وطلبت 911..
تبادل الرجال النظرات، فحاول (مارك) أن يبدو مثيرا للشفقة.. إنه مجرد غلام..
أشار رجل الشرطة الأول الذي عرف (مارك) إن اسمه (هاردي)؛ إلى سيارة الشرطة، وقال:
- تعال معي.. سنوصلك لدارك..
- لا داعي.. سأعود وحدي.
- الظلام شديد.. أنا مصر على أن أوصلك..

☆ ☆ ☆

أربعة..

اتصلت (ديانا سواي) بعيادة الأطفال.. كانت جالسة على فراش (ريكي) تعض أظفارها بانتظار وصول الطبيب إلى الهاتف.. كان الصبي مازال متكورا على نفسه يمص إصبعه.. وهنا دخل (مارك) مع الملازم (هارى).. نظرت للأول في جزع، وقالت:

ماذا فعلت؟

- لا شيء يا أماه.

نظرت للملازم وتساءلت:

- إذن لماذا أنت هنا؟

- هي قصة طويلة يا سيدتي.. لقد رأي ابنك الصغير (ريكي) شيئا شنيعا، وربما هو في حالة صدمة..

- صدمة؟

هنا جاء الطبيب إلى الهاتف، فحكت له (ديانا) حالة ابنها.. قال رجل الشرطة:

- سنستدعي سيارة إسعاف.. لا بد من أن يدخل المستشفى..

- هل سيتحسن؟

- لا أدري.. لقد رأيت مثل هذا كثيرا.. مع الأطفال الذين يرون إطلاق الرصاص أو الطعن.. إنها صدمة عامة وتحتاج إلى وقت للتغلب عليها.

جاءت الإسعاف أخيرا، فحمل (هارى) (ريكي) إلى النقالة وربطه.. حاول الطفل أن ينثني على نفسه لكن أربطة (الفلكرو) أبقته حيث هو، فراح يئن.. حررت (ديانا) يده اليمني كي يصير إصبعه متاحا للمص..

وجلس (مارك) في المقعد الأمامي من سيارة الشرطة جوار (هاردي)، الذي ضغط على مفتاح ما، فراحت الأنوار الزرقاء تدور حولهما، وتقدم (هاردي) سيارة الإسعاف ليفسح لها الطريق..

قال (هاردي) فجأة في الطريق:

- هل تقول الحقيقة يا بني؟

- نعم يا سيدي..

- هناك أشياء غريبة.. لماذا أخفيت اسمك لدى إجراء المكالمة؟ لماذا عدت لمسرح الجريمة وتواريت بين الأشجار؟ إن المختبئين دائما خائفون.. ثالثا: لماذا ذعر (ريكي)، وقد رأى نفس ما رأيته، بينما أنت في حال طيبة؟

فكر (مارك) ولم يجد ما يقول.. بعد قليل همس:

- كنت خائفا ومازلت.. هذه أول جثة أراها في حياتي..

- إن لدى شكوكي يا صبي.. هل تريد أن تعرفها؟ أعتقد أنكما كنتما في الغابة تدخنان..

لقد وجدت عقب سيجارة طازجا تحت الشجرة..

حاول (مارك) أن يسيطر على رجفة يده أمام عيني الرجل، وقال:

- هل تقبضون على الصبية المدخنين؟

- لا.. لكن الصبية الذين يكذبون على الشرطة يقعون في شتى أنواع المتاعب..

- لم يحدث شيء.. كنا نمشي في الأحراش نفكر.. ثم اصطدمنا بالسيارة و (رومي):

نظر له (هاردي)، وقال:

- من هو (رومي)؟

تماسك (مارك) وتنفس بعمق.. في النهاية أدرك أن كل شيء انتهى.. لقد تكلم أكثر من اللازم، وكذب أكثر من اللازم.. لم تدم قصته أكثر من ساعة واحدة.. قال:

- إنه اسمه.. أليس كذلك؟

- نعم.. لقد قلت لأمك إن اسمه (كليفورد) من (نيو أورليانز).. خيل إلى أنك قلت (رومي)..

واستدارت السيارة يمينا وقد وصلت إلى المستشفى..

☆ ☆ ☆

خمسة..

جلس (ج. روي فولتريـج) المحترم، المدعي العام للولايات المتحدة عن قطاع جنوب (لويزيانا)، وراح يمتص العصير من علبة عصير طماطم، وقد مد ساقيه في المقعد الخلفي للسيارة (الشيفروليه) الأنيقة.

كانت (ممفيس) على بعد خمس ساعات شمالا، وكان بوسعه أن يركب طائرة لكنه كان يهاب الطائرات وإن لم يعترف لنفسه بهذا قط.

كان مساعده (لاري ترومان) جالسا جواره، وكان عميلا للمباحث الفيدرالية مخضرما.. قال:

- إننا نحاول إقناع الشرطة في (ممفيس) بترك السيارة والجثة لنا.. لا بد أنه حاول خنق نفسه بعادم السيارة لكن الحيلة فشلت لسبب ما.. يبدو أنه كان يعتزم ابتلاع علبة من الأقراص المنومة، لكنه لم يفعل..

- هل أنتم متأكدون من أنه انتحار؟

- بالتأكيد.. اتجه إلى غابات (ممفيس) واعتنى بنفسه..

- ولم ير أحد ما حدث؟

- ثمة صبيان وجدا الجثة.. لكن أحدا لم ير الموت نفسه.. وقد ترك مذكرة انتحار هي مجرد تعليمات لسكرتيرته بصدد الجنازة..

ستصلنا بالفاكس حالا.. يبدو أنه أراد كتابة شيء إضافي بقلم (بيك) أزرق، لكن الحبر جف قبل أن يكتبه..

- وأين (مولدانو) الآن؟

- إنه في (سانت أورليانز) الآن، ونحن نراقبه..

- سيجد محاميا آخر خلال ساعة، وعند ظهر غد ستكون لدى المحكمة دستة من طلبات التأجيل، لأن موت محاميه يحرمه من حقه في محاكمة عادلة.. لسوف نعارض هذا طبعا ولسوف نخسر.. ولسوف يتأخر الأمر ستة أشهر كاملة.. هل تصدق هذا؟

فكر (روي) إنه يحتاج إلى بعض الوقت هو الآخر.. إنه يمثل شعب الولايات المتحدة.. يمثل العدالة.. وقد كان محقا.. ستكسب الولايات المتحدة هذه القضية، ويحرز نصرا عزيزا على المافيا.. إنه يستطيع أن يرى عناوين الصحف ويشم حبرها.. فقط عليه أن يجد جثة (بويت) وإلا لن تكون هناك إدانة، ولا لقاءات على شاشة CNN، ولا صعود إلى مجلس الشيوخ.

قال العميل الآخر (فلينك):

- أعتقد أن المحامي كان يعرف أين الجثة..

قال (فولتريج):

- فكر في هذا.. تصور أنك – لا سمح الله - المحامي، وأنك تمثل قاتلا فتك بعضو في مجلس شيوخ الولايات المتحدة.. لنفترض أن القاتل أبلغك بمكان الجثة.. هكذا يوجد رجلان فقط في الكون يعرفان السر.. وأنت المحامي تقرر أن تقتل نفسك وتصمم على هذا.. تقود السيارة خمس ساعات لتقتل نفسك.. هل تشرك أحدا في سرك؟ هناك فرصة واهية في ذلك وعلينا أن نمحصها بدقة.. تحقق من مسار رحلة (كليفورد).. افحص بطاقة ائتمانه.. أين أكل؟

أين وضع وقودا لسيارته؟ من هم أصدقاؤه؟

كان لديهم عمل كثير بالانتظار.

☆ ☆ ☆

ستة..

هرع أحد الأطباء عبر باب الطوارئ، وقال شيئا لموظفة الاستقبال.. ثم دنا من (ديانا) وقدم نفسه باسم دكتور (سيمون فريواي)..

كان طبيبا نفسيا، وقد استدعاه طبيب الأطفال لمناظرة الحالة..

سأل الملازم (هاردي) (مارك) عما إذا كان جائعا..

ما كان (مارك) جائعا لكنه كان يرغب في ترك المكان.. فقال الشرطي:

- لنذهب إلى الكافيتريا.. سأبتاع لك (هامبرجر) بالجبن..

ومرا عبر صالة مزدحمة إلى الطابق السفلي..

أشار (هاردي) إلى منضدة فارغة في ركن المكان، ودعا الصبي للجلوس هناك.

كان يحاول جعله يتكلم بأي ثمن.. وقد هدده بأن أخاه لن يشفي، ولسوف يرسل إلى مؤسسة عقلية حيث يربطونه بالسلاسل ويطعمونه بالأنابيب.. كان رجلا طيبا لكنه ارتكب خطأ التعامل مع (مارك) وكأن عمره خمسة أعوام..

من المدهش أن ترى كيف تنمو الأكاذيب..

أنت تبدأ بأكذوبة صغيرة سهلة التغطية، ثم تتورط فتغطيها بأخرى ثم أخرى.. وفي النهاية تجد نفسك تتمنى لو قلت الحقيقة من البداية.

ليته قال كل شيء من أول لحظة.

جاء (هارى) يحمل صينية عليها الشطائر والبطاطس المقلية وعلبة مياه غازية، فبدأ (مارك) يأكل.

- من الصبي الذي جرح وجهك هكذا؟

سحقا! إن رجال الشرطة لا يتعبون.. عليك أن تكذب لتغطي كذبة أخرى.. قال للشرطي:

- لا أعرفه.. كنا في الغداء وتشاجرت مع ذلك الصبي، وقررنا أن نلتقي بعد المدرسة لتسوية الأمر.. أنت تحسبني أكذب أليس كذلك؟

كف رجل الشرطة عن المضغ، وقال:

- لا أعرف يا صبي.. إن قصتك ملأى بالثغرات..

كان (ريكي) في غرفة بالطابق التاسع، حيث جناح الأمراض النفسية.. الأضواء خافتة والأصوات أكثر هدوءا.. هناك حارس أمن يتهامس مع الممرضات ويراقب الداخلين..

وقد صعد (مارك) إلى غرفة أخيه، بينما جلس الملازم (هاردي) في الكافيتريا يتحدث مع المخبر الخاص (جيسون ماكتون) من المباحث الفيدرالية.. وقربهما كان عميل آخر يجول قرب المصعد.

شرح (جيسون) للملازم أن المباحث الفيدرالية قد تولت القضية بالكامل [2]، وتولى عملاؤها رفع بصمات السيارة، وقد وجدوا بصمات طفل بالداخل، وهم راغبون في معرفة ما إذا كان (مارك) قد دخل السيارة.. قال (هارى):

- لا.. لكني لا أحسبه يقول الحقيقة..

- هل لمس شيئا يمكن أن نأخذه لنجد بصماته عليه؟ نحن نشك في كونه كان في السيارة قبل انتحار المحامي.

نظر (هاردي) إلى سلة المهملات، وقال:

- هذه هي.. لقد شرب علبة مياه غازية وهو يجلس هنا.. سلة مهملات واحدة بها علبة واحدة.. بالتأكيد هي هذه..

نظر (ماكتون) حوله، ثم لف يده بمنديل ومدها داخل سلة المهملات، وأخرج العلبة ليدسها في جيبه.

- هل سيبيت الصبي ليلته هنا؟

- نعم.. لقد وضعوا فراشا آخر في غرفة أخيه..

☆ ☆ ☆

قال دكتور (فريواي) للأم بعدما فرغ من فحص (ريكي)..

- هذه حالة حادة من (اضطراب توتر ما بعد الصدمة)..

سأله (مارك):

- ما معنى هذا؟

- حين يرى شخص شيئا مفزعا لا يستطيع التعامل معه.. إن أخاك لم يستطع استيعاب تلك الخبرة المروعة.. سنغذيه بالمحاليل لأنه لا يأكل، ولربما يتعافى غدا.. سيشعر بالعزلة والحيرة ويلوم نفسه على ما حدث، لهذا يجب عليكما أن تبقيا لتشعرا الصبي بالأمان والدعم العاطفي والجسدي.

نامت الأم من التعب بعد يوم طويل حافل بالعمل والانفعالات، لكن (مارك) كان متوترا قلقا.. لهذا غطى أمه بالملاءة، وقرر أن يستكشف هذا الطابق، ولربما اتجه إلى الكافتيريا قليلا.

☆ ☆ ☆



نامت الأم من التعب بعد يوم طويل حافل بالعمل والانفعالات ، لكن (مارك) كان متوتراً قلقاً .. لهذا غطى أمه بالملاءة ، وقرر أن يستكشف هذا الطابق ..

سبعة..

كان (فولتريج) مولعا بأن يكون محاطا بمرافقين.. مولعا بلحظة أن تدور أجهزة التصوير، وهو يمشي نحو المحكمة وحوله (فينك) و (والى بوكس)، وقد أمضى كثيرا من الوقت يراقب نفسه في أفلام (الفيديو).. كان يجيد المشي أمام العدسات وهو يعقد كفيه أمام صدره، كأنه يتمنى لو يجيب كل الأسئلة، لكنه كرجل بالغ الأهمية ليس لديه وقت لكنه إذ دخل المبنى الفيدرالي في الشارع الرئيسي من (ممفيس) بعد منتصف الليل؛ لم يكن حوله كثيرون.. في الداخل كان رجل المباحث الفيدرالية (جيسون ماكتون) يرشف القهوة مع عميلين مرهقين.

جلس (فولتريج) على المقعد الوحيد، وراح (ماكتون) يحكي له تفاصيل القصة والعثور على السيارة، والصبي الشاهد.. إلخ.. إلخ.. وقال:

- اسم الصبي (مارك سواي)، وهو كاذب.. نحن نعرف أنه كاذب.. إن بصماته تملأ السيارة

من الداخل.. لقد ضاهينا البصمات ونعرف جيدا أنه كان داخلها.. ثم إن هناك عقب سيجارة تحت شجرة.. (فيرجينيا).. نفس النوع الذي تستعمله الأم.. من الواضح أنه كان يدخن حين ظهر (كليفورد) بسيارته.. ربما جذب خرطوم العادم لكننا لسنا متأكدين.. إن الحصول على بصماته فوق الخرطوم صعب إن لم يكن مستحيلا..

- لقد أطلق (كليفورد) طلقة من مسدسه داخل السيارة.. لا نعرف متى ولماذا حدث هذا، لكنه حدث..

تساءل (بوكس):

- لماذا (ممفيس)؟
هز (فولتريج) رأسه مؤيدا السؤال، فقال (ماكتون):
- لأنه ولد هنا..
قالها في ثقة كأن من الطبيعي أن ينتحر كل إنسان حيث ولد.. كانت دعابة لكن (فولتريج) لم يفهمها، فأدرك (ماكتون) أن الرجل لم يكن ذكيا إلى هذا الحد..
قدم لـ (فولتريج) مذكرة الانتحار، وقال:
- خذ الحذر.. إنها أصلية.. لقد كتبت كلها في وقت سابق، ماعدا إضافة بقلم (بيك) نفد حبره.. تقول: (مارك).. أين أنت؟ هذا ما استطاع خبيرنا قراءته.. الرجل ليس له أقارب ولا أصدقاء باسم (مارك)، وهذا يعني أنه يتحدث عن (مارك سواي).. نحن نعتقد أن الصبي كان في السيارة وتحدث إليه الرجل، وعرف الصبي أن اسم المحامي (رومي)، وعرف هو اسم الصبي.. بعد هذا يفر الأخير من السيارة، فيدون المحامي هذه العبارة، ثم يطلق الرصاص على نفسه..
- ولماذا يكذب الصبي؟
- أولا لأنه خائف.. ثانيا لأنه صبي..
لأن (كليفورد) أخبره بشيء مخيف.
كان تقريره عن الحادث بارعا، وقد ترك صمتا مؤثرا في الحجرة بعد ما فرغ.. أخيرا قال (فولتريج):
- يجب أن نعرف ما يعرفه الصبي (مارك)..
إن ما لا تعرفه يا مستر (ماكتون) هو أن (كليفورد) يعرف مكان جثة (بويت):
قال (ماكتون) في نفاد صبر:
- هناك أشياء كثيرة لا أعرفها يا مستر (فولتريج).. إن هذه هي (ممفيس) وأنتم من (نيو أورليانز).. لكني لا أريد أن أعرف

أكثّر.. إنني غارق في الجثث حتى ذقني هنا.. إنّها الواحدة صباحا، وهأنذا مازلت أعمل في قضية لا تخصني، لهذا سأظل أعمل فيها حتى الواحدة ظهر غد، وبعدها يتولاها صديقي (لاري ترومان).

قال (فولتريج):

- إن القضية مهمة بالنسبة للمباحث الفيدرالية، ولسوف يقدر رئيسها الأمر لو عرف مدى تعاونك..

- أشك في هذا..

- إن علينا أن نعرف كل ما قيل للصبي.. هل تفهم؟

نظر له (ماكتون) ولم يقل شيئا

☆ ☆ ☆

ثمانية..

خطا (مارك) إلى ردهة صغيرة في ذلك المبنى العامر بمكاتب المحامين..

كانت أسماء المحامين مكتوبة على لوحات من (البرونز)، وغالبا ما تسبقها حروف ونقاط على غرار (ج. ونستون باكنر).. (ف. مكدونالد دورستون)..

وصل إلى نهاية الردهة شاعرا بالرهبة..

ورح يتأمل المكاتب مفتوحة الأبواب.. زحام رهيب في كل مكان، ووجوه كالحة يبدو عليها الشقاء.. واضح أن كلهم محامو تعويضات..

أخيرا وجد بابا من دون لافتة برونزية يحمل اسم (ريجي لاف. محامية).. وكان مكتوبا بحروف صغيرة..

أدار المقبض وخطا إلى الداخل.. كانت غرفة الاستقبال فارغة هادئة، وثمة موسيقا ناعمة تملأ المكان، ومنضدة صغيرة عليها كومة من المجلات.. شاب بربطة عنق يجلس على مكتب سأله:

- هل لي أن أساعدك؟
- نعم.. أنا بحاجة إلى محام..
- أنت أصغر من أن تحتاج إلى محام.. ألا ترى هذا؟
- بلى.. لكن لدي مشكلة.. من أنت؟
- أنا سكرتيرها.. وكاتب محام كذلك (كلينت فان هوزر).. سأخبرها أنك هنا..

كان الصبي عصبيا، وراح يتساءل: أية محامية هذه؟ قرر أن يجرب حظه هنا.. من الواضح أنها بحاجة إلى عملاء، ولديها

الوقت لتعينه.. إن فكرة امرأة محامية لتروق له لأنه رأى مثلها في حلقات (قانون لوس أنجليس) التلفزيونية.. وكانت بارعة بحق..

دخل (كلينت) إلى (ريجي لاف) التي كانت تتكلم في الهاتف.. بالواقع كانت تصغي أكثر منها تتكلم.. أشار لها الإشارة المعتادة التي تعني أن هناك من ينتظر بالخارج..

كانت في سن الثانية والخمسين، مارست المحاماة لمدة خمسة أعوام.. لها شعر قصير جدا رمادي اللون، وقامة متوسطة، وتضع عوينات أنيقة..

وضعت السماعة أخيرا، وقالت:

- ماذا هناك؟

- ثمة زبون جديد لك..

- لست بحاجة إلى زبائن.. أنا بحاجة إلى زبائن يدفعون.. ما اسمه؟

ابتسم، وقال:

(مارك سواي).. إنه مجرد صبي في العاشرة من العمر.. وهو وحده..

- دعه يدخل.. بعد خمس عشرة دقيقة قاطعنا وأنقذني.

خرج (كلينت) وسمح لـ (مارك) بالدخول إلى المكتب..

أول ما لاحظه هو شعرها.. كان رمادا قصيرا جدا، ولم تكن عجوزا لكنها لم تكن شابة.. وكان ثوبها أسود أنيقا..

دعته إلى الجلوس، فجلس على حافة المقعد خائفا.. لقد كذب على أمه، وكذب على رجال الشرطة، وغدا يكذب على رجال المباحث الفيدرالية.. ربما حان الوقت لبعض الصدق على سبيل التغيير. لكن فكرة الكلام أمام غريب أثارت ذعره..

- كم سنك يا (مارك)؟

أحد عشر عاما يا سيدتي.

- ناديني (ريجي).. أنا عجوز بما يكفي كي أكون جدتك، لكني أوثر أن تناديني بـ (ريجي).
كان واضحا أنها تستمتع بهذه المحادثة مع هذا الصبي الذي يحتاج إلى محام، ولكن (مارك) كان يعرف أنها ستفقد ابتسامتها إذا حكي قصته..
- لو حكيت لك شيئا.. هل تقولينه لسواي؟
- أبدا.. إنها مسألة ثقة مهنية.. ما تقوله هو سر..
- أبدا؟
- أبدا.. إن المحامي كالطبيب والقس.. كلاهما لا يكشف سرا..
نظر لها دون أن يرمش دقيقة، وأقنع نفسه بأنها جديرة بالثقة.. سألها:
- كم أتعابك؟
- لا أعرف أي نوع من القضايا هذه..
- حسن.. هناك شخص ميت وشخص في المستشفى.. والشرطة والمباحث الفيدرالية يريدون استجوابي.
- أعتقد أنه ليس معك الكثير لتمنحه لي يا (مارك)..
- نعم..
- المفترض أن تدفع لي عربونا.. وبدفعه أكون محاميتك.. هل معك دولار واحد؟
أخرج دولارا من جيبه وناولها إياه..
لم تكن في حاجة إلى هذا الدولار لكنها تقاليد المهنة، وكانت تعرف أن هذا في الغالب آخر مبلغ تتقاضاه منه.. هذا سيجعله فخورا لأنه استأجر محاميا.. وضعت الدولار أمامها وقالت:
- الآن أنت عميلي وأنا محاميتك.. فلنسمع قصتك..

أخرج من جيبه ورقة من جريدة.. الجريدة التي حصل عليها من المستشفى والتي تحكي عن الحادث، وجعلها تقرؤها، ثم قال بعد ما فرغت:

- يقال إن الجثة وجدها صبيان.. هذان أنا وأخي..
- لكنها ليست جريمة أن تجد جثة
- أعرف.. لكن القصة لم تنته.

وتنفس بعمق، وراح يحكي لها القصة بالتفصيل.. بعد خمس عشرة دقيقة دق (كلينت) الباب، لكن (ريجي) قطبت في وجهه فاختفى..

كانت تدون كل شيء في مفكرتها.. ثم عادت تستعيد القصة ثانية، وفي هذه المرة كانت لديها أسئلة تسد بها بعض ثغرات القصة.. لقد ولت ابتسامتها، وراح جو الثرثرة الحميم بين الجدة وحفيدها، ليحل محلها أسئلة دقيقة محددة..

الشيء الوحيد الذي استبقاه (مارك) لنفسه كان مكان الجثة.. وقد فهمت (ريجي) هذا ببراعة، لكنها أجلت السؤال إلى ما بعد.. كان الصبي صادقا.. إن كل هذه التفاصيل تدل على صدقه، لا على خيالات من عقل جامح.. ثم إنه خائف حتى الموت.. في النهاية سألته:

- هل قلت لي كل شيء؟
- لا.. لكن تقريبا..
- وهل كذبت على؟
- لا.
- هل تريد إخباري عن موضع الجثة؟

وهل تريدين هذا مني؟

- لست واثقة.. لكن لماذا تخشى أن تخبرني؟
- أنا خائف أن يعرف الناس أنني أعرف..

لقد قال (رومي) إن عميله قد قتل الكثيرين، وكان سيقتله لأنه يعرف.. إن الرجل من (المافيا).. ولو عرف بأمري لجاء من أجلي.. وهذا يخيفني.

كانت (ريجي) حائرة الآن.. إن مع الصبي حقا، ولو نصحته بأن يخبر المباحث الفيدرالية بما يعرف، فلا أحد يضمن سلامته بعدها.

- لا يوجد قانون يرغمه على الكلام.. ربما هو يعوق العدالة، لكنه مجرد صبي على كل حال.. إنهم لا يعرفون ما يعرفه، ولو لم يستطيعوا إثبات ظنونهم فهو آمن تماما..

- لا تخبرني بموضع الجثة يا (مارك).. اتفقنا؟ على الأقل الآن مالم أطلب منك ذلك.. فلنلق رجال المباحث الفيدرالية.. لن تقول شيئا.. أنا من سيتكلم وأنت تصغي.. بعدها نقرر ما نعمله..

ثم قالت إنها ستوصله إلى المستشفى بنفسها، وسألته:

- أين سيلقاك رجال المباحث الفيدرالية..

أظن في المستشفى..

نظرت لساعتها، ثم دست مفكرتين في حقيبتها. فجأة بدأت تشعر بتوتر بينما (مارك) ينتظرها جوار الباب.

☆ ☆ ☆

تسعة..

وجدت (ريجي) غرفة فارغة في الطابق الثامن من المستشفى.. دخلت مع (مارك) متعجلة، فهي قد تأخرت عن موعد المباحث الفيدرالية عشر دقائق.. قالت له:

- ارفع قميصك..
- ماذا؟
- ارفع قميصك..

قالتها مصرة، ففعل كما طلبت.. فتحت حقيبتها وأخرجت جهاز (كاسيت) أسود صغيرا، وبعض اللاصق الطبي وشرائط الفلكرو.

راقبها (مارك) في اهتمام.. يبدو واضحا أنها فعلت هذا كثيرا.. ثبتت الجهاز إلى معدته بشرائط اللاصق، ثم أحكمت التثبيت بالفلكرو، وجعلته يعيد القميص إلى سرواله الجينز.



راقبها (مارك) فى اهتمام .. يبدو واضحًا أنها فعلت هذا كثيرًا .. ثبتت الجهاز إلى معدته بشرائط اللاصق ، ثم أحكمت التثبيت بالفلكرو ..

- وماذا لو فتشوني..
- لن يفعلوا.. إنهم هنا ليتكلموا لا ليعتقلوا..

- وماذا لو صدر منه صوت أزيز أو شيء يجعلهم يخرجون أسلحتهم؟

قالت وهي تخرج من الغرفة، بينما هو يركض وراءها محاولا اللحاق بها:

- لن تكون هناك أصوات، وهم لا يطلقون الرصاص على الغلمان..

☆ ☆ ☆

كان الطابق الثاني من مستشفى سانت بيترز متهالكا متسخا لأنه أقدم من الثامن طبعا، وهرعت (ريجي) تبحث عن الغرفة (28)، وأمسكت بيد الصبي في حزم وشجعته.. وعلى الباب ضغطت على زر التسجيل من فوق قميصه وسمحت له بالدخول.

قرع الباب فسمع المقاعد تتحرك، وقال صوت غير ودود: (ادخل)..

كانت الغرفة ضيقة بها منضدة يجلس خلفها رجلان لا يبتسمان، وسأله أحدهما؟

- لا بد أنك (مارك).. أين والدتك؟

- ومن أنتما؟

قال أحدهما (والحقيقة أنهما كانا يبدوان ويلبسان كأنهما توءمان)..

- أنا (جيسون ماكتون) من المباحث الفيدرالية لـ (ممفيس)، أما زميلي فهو (لاري ترومان) من المباحث الفيدرالية لـ (نيو أورليانز).. هلا جلست؟

جلس (مارك) بحذر، وهو يخاف أن يتداعى الشريط اللاصق فيسقط جهاز الكاسيت..

سيقبضان عليه ويقيدانه بالأصفاد، ولن يرى أمه ثانية..

وضع (ترومان) الأوراق أمامه وهو يتنفس بعمق، وقال:

- نحن بحاجة إلى الكلام بضع دقائق معك يا (مارك)..

- إذن هل أستدعى أمي؟ إنها في الطابق التاسع مع أخي؟

تبادل الرجلان النظرات، ثم قال (ترومان):

- يمكنك أن تطلبها إذا أردت، لكن لا داعي لهذا على الإطلاق..

- وهل أحتاج إلى محام؟

- لن تحتاج إلى واحد.. إن هي إلا بضع أسئلة لا أكثر.. نحن مباحث فيدرالية ولسنا من الشرطة..

- وهذا ما يخيفني يا سيدي.. أعتقد أنني بحاجة إلى محام، ليحمي حقوقي وما إلى ذلك...

قال (ترومان) مبتسما:

- إن المحامين يعطلون الأمور.. إنهم يتقاضون مالا، ثم يعوقون كل شيء.. أنت صبي ذكي ولن تزيد الأمور على بضع أسئلة.. لقد قلت إنك وأخاك وجدتما (جيروم) قتيلا فوق سيارته، فهل هذه هي الحقيقة؟

وكانت لهجته واضحة.. إنهما لا يعتبران هذه حقيقة..

- هل على أن أجيب هذا السؤال؟

- طبعا.. نحن المباحث الفيدرالية، ونريد أن نعرف..

- وماذا لو لم أجب؟

- أشياء كثيرة.. سنأخذك إلى مكتبنا، ونوجه لك بعض الأسئلة الخشنة، ولربما استدعينا أمك.. ستكون هناك متاعب كثيرة..

وتبادل الرجلان النظرات من جديد، فهما قد بدءا على أرض مهتزة من اللحظة الأولى.. إن استجواب الأطفال في غيبة الأبوين خطأ قانوني جسيم.. لكن ما أهمية ذلك؟ إنه وحده هنا، وما كانا ليجدا فرصة أفضل.

- هل تعرف معنى (تعطيل العدالة)؟ إنها جريمة.. والشخص الذي يكتم شهادته قد يتهم بتعطيل العدالة ويجد نفسه في السجن..

هنا سأله (مارك):

- لو وجدت نفسك في مكاني.. فهل تطلب محاميا؟

- بالطبع لا.. لن أطلب محاميا.. إن المحامين (وجع دماغ).. وإن لم يكن لديك ما تخفيه فلا داعي لمحام..

كان قد بدأ يشتاط غضبا ولم يدهش هذا (مارك).. لقد تعلم من التلفزيون أن أحدهما يجب أن يكون حاد الطباع والأخر رقيقا لطيف الحاشية.. هذه لعبة (الشرطي الطيب – الشرطي الشرس).. الطيب يبتسم طيلة الوقت ويلوم زميله لصالح (مارك).. ثم يخرج (ماكتون) غاضبا، هنا يكون (مارك) مستعدا لإفراغ كل أسراره على المنضدة أمام (ترومان)..

قال (مارك) في ثبات:

- إنني آخذ التعديل الخامس [3].. وأسألكم اتفاق (ميراندا) [4].

زالت الابتسامة من على وجه (ترومان)، وهز رأسه وقال:

- أخشى أنك تشاهد التلفزيون كثيرا..

قال (مارك) وهو يتأهب للنهوض:

- هل لي أن أذهب إلى الحمام؟

- بالتأكيد.

قالها (ترومان) وهو يخشى أن يكونا ضغطا على الصبي إلى حد إصابته بالإسهال، وجلس مع زميله وحدهما في الغرفة ينتظران.

☆ ☆ ☆

بعد ربع ساعة انفتح الباب، وظهرت امرأة في الخمسين من عمرها، فكاد أحد الرجلين ينهض لكنها أشارت له كي يجلس.. قال (ماكتون):

- لا يمكنك الدخول هنا.. إنها...

أخرجت من حقيبتها بطاقتين وضعت واحدة أمام كل منهما، وقالت:

- لا أظن هذا.. أنا (ريجي لاف) محامية (مارك سواي)..

سألها (ماكتون):

- وأين (مارك)؟

- إنه في مكان ما حسب التعديل الخامس.. هل لي أن أرى هويتيكما؟

أخرج العميلان هويتيهما، فتفحصتهما ودونت بعض الملاحظات، ثم قالت:

- هل حاولتما استجواب الصبي دون وجود أمه؟ وهل طلب أن يستدعى محاميا لكنكما رفضتما؟

تبادل الرجلان النظرات.. من السهل أن يكذبا ما دام الصبي ليس هنا.. إنه مجرد غلام مذعور بينما هم المباحث الفيدرالية ذاتها..

ستصدقهما في النهاية.. وقال (ترومان):

- بالطبع لا.. ولو قال الصبي عكس هذا فهو كاذب..

في بطء فتحت (ريجي) حقيبتها وأخرجت (الكاسيت) الأسود ووضعته على المائدة.. نظر له العميلان في هلع وانكمشا.. قالت بابتسامة شريرة:

- الآن نحن نعرف من الكاذب..

حك (ترومان) أرنبة أنفه في صمت، فقالت:

- كله على الشريط يا شباب.. لقد حاولتما استجواب صبي في غياب أمه.. هددتماه بالسجن والاحتجاز له ولأمه.. سألكما إن كان يحتاج إلى محام لكنكما قلتما: لا.. ووصفتما المحامين بأنهم (وجع دماغ).

نظر (ماكتون) إلى الشريط.. فكر أن يثب ويأخذه ويمزقه إلى أجزاء، لكنه بشكل ما خمن أن المرأة لديها نسخة أخرى منه.. كان بوسع هذا الشريط أن يكلفه مهنته.. ربما النقل أو الإيقاف.. إن هذه المرأة تعرف العقوبات الصارمة في جهاز المباحث الفيدرالية..

- أنت ربطت جهاز تسجيل بجسد الصبي؟

- ولم لا؟ أنتم المباحث الفيدرالية تستعملون أجهزة التسجيل طيلة الوقت.. لا جرم في هذا..

قال (ترومان) وهو يطرقع أصابعه:

- انظري يا مس (لاف).. نحن أسفان.. لقد اندفعنا أكثر من اللازم.. نعترف بهذا ونعتذر عنه.. لكننا حقا يائسان ونرغب في الكلام مع موكلك.. أنت تعرفين من هو (مولدانو) ومن هو (كليف)؟

قالت:

- سأفكر في الأمر، وسيكون لقاؤنا في مكتبي في الثالثة بعد الظهر.. سأبقى هذا الشريط معي ولسوف يكون سرنا الصغير.. اتفقنا؟

- هل هذا ابتزاز؟
- إنه كذلك بالضبط.. يمكنكم أن تشكوني.
واتجهت إلى الباب، هنا صاح (ماكتون):
- لحظة.. ثمة رجل يحب أن يكون معنا.. إنه (روي فولتريـج) الذي...
- (فولتريـج) في (ممفيس)؟ بالطبع فليأت معكما.. سيكون هذا شرفا لي..

☆ ☆ ☆

عشرة..

وصل (فولتريـج) و (ماكتون) و (ترومان) إلى غرفة الاستقبال في مكتب (ريجي لاف) في تمام الثالثة.. قابلهما (كلينت) وقدم لهما الشاي والقهوة.. قال (فولتريـج) إنه المدعي العام للولايات المتحدة في جنوب (لويزيانا) وإنه لا يتوقع أن يتأخر.. وكان هذا خطأ منه..

لقد انتظر نحو خمس وأربعين دقيقة وهو يغلي، بينما العميلان يطالعان المجلات.. وفي كل مرة ينبح في (كلينت) ليكون الرد أن (ريجي) على الهاتف مع عميل مهم.. كأن ما جاء (فولتريـج) لأجله أمر تافه.

تمنى أن ينصرف لكنه لم يستطع، وكانت هذه من المرات النادرة التي ابتلع فيها الإهانة وسكت.

في النهاية دعاهم (كلينت) إلى غرفة صغيرة تتناثر الكتب على رفوفها.. وكان عميلا المباحث الفيدرالية قد عرفا أن (ريجي) تمارس المهنة منذ أربعة أعوام.. لقد خدعتهما امرأة عمرها في المهنة أربعة أعوام!

قال (ترومان) بلا تردد:

- خذ الحذر يا (روي) من هذه المرأة.. لربما تسجل ما نقول..

- ما الذي جعلك تفكر في هذا؟!

- إن محامي (ممفيس) هؤلاء يسجلون كل شيء..

فلم يكن الرجلان قد جسرا على إخبار (فولتريـج) بما كان مع المحامية..

انفتح الباب، ودخلت (ريجي) وصافحت الجميع، وقالت:

- آسفة لتأخيري.. هل يضايقكما أن أسجل هذا المؤتمر؟
وأخرجت جهاز تسجيل صغيرا من الدرج وضعته على المنضدة.. تظاهر (فولتريج) بالمرح، على حين فكر عميلا المباحث في أنه لطيف منها أن تستأذن هذه المرة.. وابتسم الجميع لجهاز التسجيل..
انحني (فولتريج) للأمام، وقد بدا واضحا أنه من سيدير الكلام:
- أين عميلك؟
- في المستشفى.. الأطباء يريدون أن يكون مع أخيه.
- هل يمكننا أن نقابله؟ نحن نعرف جيدا من قتل عضو مجلس الشيوخ.. ولدينا المشتبه فيه، ولدينا مسدسه.. لكني بصراحة لست مستعدا لمحاكمة من دون جثة..
وابتسم لها في دفء.. لقد قضى ساعات طويلة في المحاكم ويعرف كيف يبدو مخلصنا..
أضاف (ماكتون):
- إن الصبي كان في العربة.. بصماته في كل مكان داخلها..
وضعت الأوراق أمامها وقالت:
- حسن.. أحسب أن السؤال الكبير هو: كيف حصلتم على بصمات الصبي؟
قال (فولتريج):
- بسيط جدا.. أخذنا إحدى علب المياه الغازية التي شربها في المستشفى.
- إذن أنتم اعتديتم على حرية وخصوصية طفل، من أجل جريمة هي رؤية انتحار.
- وهل رأى انتحارا؟
- لا أستطيع أن أخبرك..

كان (فولتريج) يعرف أن أفضل محامي الدفاع هم من يجيدون الابتعاد عن القضية الأساسية.. إنهم يلقون الصخور فوق التهمة الأساسية ليخفوا تورط عملائهم الواضح ويصرخون من أجل انتهاك الإجراءات... حقا لا يوجد خطأ في انتزاع البصمات من على علبة.. هذا عمل شرطة جيد.. لكن من فم الدفاع يغدو الأمر انتهاكا آثما للخصوصية..

وبرغم هذا اعترف لنفسه أنها بارعة..

قالت وهي تقلب أوراقها:

- لنلتق هنا غدا..

- لكننا متعجلون للغاية

- وأنا لست كذلك.. أنا بحاجة لأن أهضم كل هذا، وأتشاور مع موكلي..

كان هذا أقصى ما يمكن الحصول عليه، لهذا نهضوا وبدءوا يجمعون أوراقهم وأقلامهم.. إن ما قالته لم يكن بصيغة اقتراح بل بصيغة أمر.

☆ ☆ ☆

أحد عشر..

اتجه (باري مولدانو) إلى ناصية (بوربون)، وهو ينظر يمينا ويسارا كي يتأكد من أن أحدا لا يراقبه.. انحرف إلى اليمين ثم إلى اليسار، قبل أن يدخل إلى (راندي).. لو كانوا يراقبونه الآن فهم رجال خارقون..

كان (راندي) مطعما عتيق الطراز في (نيو أورليانز) تديره الأسرة.. وكان مظلما مزدحما.. صعد في الدرج إلى الطابق الثاني وحيا بيده أحد البلطجية هناك، ثم دلف إلى غرفة خاصة بها أربع مناضد.. ثلاث خالية والرابعة جلس إليها شخص يقرأ في ضوء شمعة..

دنا في تهيب، فلوح له الرجل ودعاه كي يجلس..

كان (جوني سولاري) هو خال (باري)، وكبير الأسرة.. وكان يملك عدة ملاه ومطاعم في (نيو أورليانز)، وها هو ذا جالس كعادته يقرأ التقارير المالية وينتظر العشاء..

انحني (باري) عالما أنه غير مرغوب فيه في هذه اللحظة.. لقد سافر (جرونك) صديقه إلى (ممفيس) وهو يراقب الصبي الآن.. لقد استأجر الصبي محاميا وهو يرفض الكلام مع المباحث الفيدرالية.. هذه أخر الأخبار.

قال (جوني):

- لا أصدق أنك بهذا الغباء يا (باري).. هل تدرك مدى حماقتك؟

- ليكن.. أنا أحمق.. لكن علينا أن نرسل رجلين إلى (ممفيس) الآن.. فلنرسل (بونو) وربما (بيريني) كذلك..

- هل تريد أن تقتل الطفل؟

- ربما.. لكننا سنعرف ما يعرفه أولا، ولو كان أكثر من اللازم سنقتله..

- إنني مندهش لصلة الدم بيننا يا (باري).. أنت أحمق تماما.. أرسل (بيريني) و (بونو) لكن لا تأت بحركات غبية.. هل تفهم هذا؟

- نعم يا سيدي.

لوح بيده، وقال:

- فلتذهب الآن..

☆ ☆ ☆

كانت الصور في الصفحة الأولى من جريدة (ممفيس برس)، وكانت مأخوذة من ملفات المدرسة منذ عام.. كان (مارك) في الصف الرابع و (ريكي) في الصف الأول وقتها.. وأسفل الصفحة كان اسماهما، وقصة تحكي عن انتحار (جيروم كليفورد) وما حدث بعده..

أحضرتها له الممرضة الحسناء وهو جالس في قسم الأمراض النفسية، وقالت له وهي

تناوله الجريدة:

- أنت مشهور الآن.. أريد توقيعك على الأوتوجراف حين يتسع وقتك..

نظر إلى وجهه على الصفحة الأولى، وصاح:

- سحقا!

كان هذا غير عادل.. إنه مجرد صبي يهتم بشئونه الخاصة، وفجأة صارت صورته على الصفحات الأولى والأصابع تشير

إليه.. ومتى وجدوا الوقت كي يفتشوا في ملفات المدرسة؟ أليس من حقه بعض الخصوصية؟

كان الوقت فجرا، والمدينة تنتعش ببطء.. وقف في النافذة يرمق المدينة النائمة وشعر بالوحدة.. بعد ساعة سيقرأ مليون شخص قصته وهم يشربون القهوة ويأكلون الخبز المحمص.

من غير العدل أن يجد صبي نفسه في هذا الموقف دون أبوين يحتمي خلفهما.. كان بحاجة إلى درع يحميه من الشرطة والفيدراليين و - لا سمح الله - المافيا..

كان يعرف المافيا من التلفزيون جيدا، ويذكر عبارة قيلت في فيلم هي: المافيا لا تنسى أبدا، وقد تكررت حتى مات بطل الفيلم في النهاية برصاصهم..

خرج إلى الردهة، وقرر أن ينزل إلى الكافتريا ليشرب شيئا ما..

اتجه إلى المصعد.. كان خاليا في السادسة صباحا.. وفي الطابق الثامن انفتح الباب ودخل رجل يلبس معطفا أبيض، لم ينظر له (مارك)..

انغلق الباب فإذا بالرجل يمسك بـ (مارك) ويثبته إلى جدار المصعد.، ثم ركع على ركبته والتقط شيئا من جيبه.. كان له وجه مخيف وكان يلهث:

- اصغ لي يا (مارك سواي)..

ثم دوى صوت (كليك) وظهر نصل مطواة في الصورة..

- لا أعرف ما قاله (كليفورد) لك، لكن إذا كررته أمام أحد - حتى محاميك - فسوف أقتلك وأقتل أمك.. إن أخاك في غرفة (943).. أعرف أين تسكن ورأيت مدرستك.. هل تفهمني؟

توقف المصعد فنهض الرجل، وخبأ المطواة..

ظل الباب مفتوحا عشر ثوان ثم انغلق.. هنا أخرج الرجل المطواة من جديد وحركها أمام أنفه..

- سأشق أحشاءك.. هل تفهمني؟

هز رأسه أن نعم نعم.. وتحجرت الدموع في عينيه.

في الطابق الخامس انفتح الباب فدخلت ممرضتان، وتنفس (مارك) الصعداء.. وفي الطابق الثالث دخل ثلاثة رجال آخرون.. وبشكل ما اختفى الرجل..

- هل أنت على ما يرام؟

سألته إحدى الممرضات وهي ترى وجهه الغارق في العرق والدموع في عينيه، فهز رأسه بمعنى أنه بخير..

غادر المصعد في الطابق الثاني، واسترخي جوار خرطوم حريق بينما الشمس تلتمع فوق المدينة..

☆ ☆ ☆

اثنا عشر..

في مكتبها جلست (ريجي لاف) تطالع الأوراق التي جاءت بالبريد من (بحوث المطبوعات)، وهي هيئة تصنف مائتي جريدة يومية، وترسل لك كل ما نشر عن أي موضوع تريد.. وهي خدمة لمن يدفعون.. ولم تكن راغبة في الدفع لكنها كانت تريد معرفة كل شيء عن قضية (بويت) و (مولدانو)..

كان (بويت) ديموقراطيا من (نيو أورليانز) وصل إلى مجلس الشيوخ، وقاد عدة حملات ناجحة ضد التلوث، ومن أجل حماية البيئة.. كانت شركات الكيماويات والبترول تمقته بعنف خاصة حين بدأ في الأعوام الستة الأخيرة يحاول إثبات علاقة تلك الشركات الوثيقة بالمافيا في (نيو أورليانز)..

وفي ليلة اختفائه انصرف متأخرا وحده من اجتماع عاصف، ليقود سيارته إلى بيته.. وكان مولعا بتعلم اللغات، لذا كان يقتنص أية فرصة ليكون وحيدا في سيارته يصغي لشرائط تعليم الروسية..

وعند ظهر اليوم التالي، تم اعتباره مفقودا، وشك كثيرون في وجود جريمة، لكن أحدا لم يجد جثته.. فجأة ظهر إلى الوجود اسم (باري مولدانو) وارتبط باختفائه.. ثم دخل (روي فولتريج) إلى المسرح ليعلن أمام أجهزة التصوير إدانته لـ (باري مولدانو).. لم يتكلم عن الجثة لكنه راح يؤكد أن بقايا السناتور سيتم العثور عليها في الوقت المناسب..

وحين وصل (مارك) كفت عن القراءة..

☆ ☆ ☆

ربتت على ظهر الطفل الباكي، وقالت بعد ما سمعت قصته:
- سأجري بعض المكالمات.. سأطلب من مدير المستشفى أن يضع حراسة حول غرفة (ريكي).
- لكن من هددني سيلاحظ هذا..
- لو لاحظ فلن يعرف أنك أخبرتني.
كان صبيا صلبا تربي في الشوارع، حكيما بما يفوق عمره، وكانت معجبة بشجاعته حقا.
- هل تظنين أن ماما و (ريكي) سيكونان بخير؟
- طبعا يا (مارك).. إن هؤلاء القوم محترفون، ولن يفعلوا شيئا غبيا.. سيبقون قريبا مختبئين يراقبوننا.
- هؤلاء القوم لا (يبلفون) يا(ريجي).. لقد رأيت السكين.. إنهم في (ممفيس لغرض واحد هو أن يخيفوني حتى الموت؛ وقد نجحوا في هذا.. إنني لن أتكلم..

☆ ☆ ☆

كان المطر مازال ينهمر في الشارع الثالث، والسماء رمادية بينما الطرقات مبتلة زلقة وانحرفت (ريجي) نحو شارع (ماديسون) وهي تمسك بيد (مارك) وتقتاده عبر زحام السكرتيرات ساعة الغداء..
رآهما (جاك نانس) حيث جلس في سيارته (المازدا)، فرفع السماعة وقال بضعة أشياء لمساعده كي يواصل اقتفاء أثر المحامية والصبي، ثم أغلق الجهاز واجتاز مدخل المبنى.. وجد اللافتة التي تقول (ريجي لاف - محامية)..
مد يده لمقبض الباب فوجده – لدهشته ينفتح.. أثار غيظه هذا لأنه كان يتوقع بابا موصدا يفتحه ببراعة، ويدخل ليعبث في

الملفات ساعة غداء كل المحامين في هذه البناية.. إن أغلب مكاتب المحاماة الصغيرة لا تعبأ بالأمن على الإطلاق.. وكلها تفتقر إلى شيئين: إجراءات الأمن والمال..

فوجئ بـ (كلينت) يسأله عما يريد، فقال بصوت متعب كمن قضى يوما حافلا:

- أنا صحفي.. أبحث عن (ريجي لاف)..

- هي ليست هنا.. هل معك بطاقة؟

- هل تعني تلك الأشياء الصغيرة التي تبعثرونها معشر المحامين في كل مكان؟

- لا يا صديقي.. أنا صحفي.

واتجه إلى الباب وخرج..

ليست زيارة مثمرة، لكنه عرف تفاصيل المكتب.. وستكون زيارته التالية أطول..

☆ ☆ ☆

ثلاثة عشر..

في الطابق الرابع من فندق (راديسون) الذي لا يبعد سوى خمس مربعات عن مستشفى (سانت بيتر)، كان (بول جرونك) يلعب لعبة ورق مملة مع (ماك بونو)، والأخير رجل (مولدانو) من (نيو أورليانز).. لعبا فترة طويلة لكن أحدهما لم يكن مهتما بهذه اللعبة..

كان حذاءا (جرونك) على الفراش، وقميصه مفتوحا، ودخان التبغ معلقا في هواء الغرفة..

إن (جرونك) صديق طفولة (مولدانو) الموثوق به، وقد شارك (الموس) في عمليات كثيرة من قبل.. لم يكن يعرف أين دفن (بويت) وما كان ليسأل، وقد طلب منه (مولدانو) أن يتجه إلى (ممفيس)، لهذا جاء برغم أنه يشعر بالملل، وهو باق في الفندق يلعب الورق ويدخن وينتظر تحركات صبي عمره أحد عشر عاما.

وعبر الغرفة كان (جاك نانس) يقف في النافذة، ينتظر مكالمة شريكة من المستشفى يخبره بآخر تحركات (مارك سواي)..

لقد قرر وضع أداة تنصت في الغرفة (943) بالمستشفى، كما أدرك أن وضع مثلها في مكتب المحامية سيكون سهلا وهينا.. إن العميل – ذلك المهرج الذي يدعو نفسه (الموس) - يدفع مالا طيبا جدا على كل حال..

وكان يسمع الحديث الهامس بين (جرونك) و (بونو) فيدرك أن الأمر أخطر مما يظن..

هؤلاء القوم خطرون فعلا.

وتأمل (جرونك).. برغم فظاظته وشكله (الشوارعي)، فمن الواضح أنه رجل صبور..
هذا يناسبه على كل حال لأن القتلة يجب أن يكونوا صبورين باردين..

☆ ☆ ☆

ركب (مارك) بجوار (ريجي) في سيارتها الرياضية.. لم تكن سيارة جديدة لكنها بحال طيبة، ولم يكن قد ركب سيارة رياضية من قبل، وقالت (ريجي) إنها تحب أن تقود بسرعة، وكان هذا يناسبه طبعا..
طيلة الطريق راح يفكر في الطعام الذي ستقدمه له أم (ريجي).. كانت (ريجي) تقتاده إلى دارها، وهو إجراء طالما فعلته مع الأطفال عديمي الأهلية وضحايا العنف.
هو يفكر في الطعام، بينما هي تتأكد من أن أحدا لا يتبعها..
كانت قد اتصلت بـ (ماكتون)؛ وطلبت أن يضع بعض رجاله في المستشفى ليحموا الأم و (ريكي)، وقد راق هذا لـ (ماكتون) كثيرا..
الآن تتم دعوتهم بشكل رسمي.. والحقيقة أن العديدين من عملاء المباحث الفيدرالية كانوا في المستشفى منذ زمن.. لكن (ريجي) لم تعرف هذا..
دخلت السيارة إلى شارع جانبي به أشجار بلوط ضخمة ومنازل قديمة.. فسألها:
- هل تأخذين عملاءك لبيتك غالبا؟
- نعم! إنهم في الغالب أطفال من بيوت ممزقة.. لهذا أشعر بالأسف لهم.. أنت بالنسبة لهم محظوظ، فلك أم طيبة تحبك

كثيرا..

قال في حسرة:

- ليتنا تركنا (جيروم) ينتحر حين رأينا سيارته..

توقفت أمام منزل من طابقين تحيط به الزهور والنباتات المتسلقة.. ودخلا إلى بيت تفوح رائحة الطعام الشهي في هوائه، حتى كاد يموت جوعا..

خرجت للقائهما امرأة صغيرة الحجم رمادية الشعر، فقالت (ريجي):

- هذا (مارك سواي) يا أماه..

قالت العجوز:

- لطيف أن ألقاك يا (مارك).. تعال واجلس هنا حتى أعد ما تشربه..

نزعت (ريجي) حذاءيها، ثم هزت شعرها وانتزعت القرطين، وقالت:

- إن (مارك) يأكل أكل المستشفى منذ ثلاثة أيام يا أماه.. فهلا قلت له ماذا أعددت اليوم؟

فتحت العجوز الفرن، فتصاعدت رائحة اللحم مع الطماطم والجبن.. وأخرجت صينية وقطعت قطعة كبيرة من اللحم وضعتها مع الخبز أمامه.. وذهبت (ريجي) لتبدل ثيابها، فسألته العجوز وهي تغلق الفرن:

- ماذا رأيت يا بنى مع أخيك؟ هلم! ستتكلم.. كل الأولاد الآخرين يتكلمون!

كان في الساعات الأخيرة قد تعلم الكثير عن فن الاستجوابات.. أجب عن السؤال بسؤال آخر كي تشتت ذهن من يسألك، فسأل:

- هل هي تجلب أولادا آخرين؟

- حوالي اثنين في الشهر.. أحيانا يمضون أسابيع عندنا.. تفعل هذا حين تريد أن يأكلوا وجبة طيبة..

راح يأكل في نهم شديد، وقال:

- رائعة.. بالفعل رائعة!

لم يكن ذا خبرة بالـ (لازانيا)، لكن ما يأكله كان رائعا بحق..

وجاءت (ريجي).. هنا دق جرس الهاتف فأنصتت بضع دقائق، ثم أعلنت أنها سترحل لأن عميلا لها في مشكلة، وغادرت المكان تاركة العجوز تثرثر مع (مارك).. تحكي له أنها من أصل إيطالي، وإنها تعلمت عمل الـ (لازانيا) لأبيها منذ كان عمرها عشر سنوات.

وفي المساء عادت (ريجي) فوجدتهما جالسين على الأعشاب خارج البيت..



وفى المساء عادت (ريجى) فوجدتهما جالسين على الأعشاب خارج البيت . . كانت الأم ترشف بقايا القهوة وتربت على رأسه . .

كانت الأم ترشف بقايا القهوة وتربت على رأسه، بينما كان هو مثنيا على نفسه، ورأسه يستريح على حجرها.. وقد غاب في سبات عميق.

سألتها همسا:

- منذ متى نام؟

- منذ ساعة.. إنه طفل لطيف.

- سأتصل بالمستشفى لأخبر أمه أنه هنا..

- لقد أكل حتى امتلأ.. سأعد له إفطارا شهيا في الصباح..

☆ ☆ ☆

أربعة عشر..

لم يكن (فولتريج) ممن يهابون العمل الشاق.. كانت هذه طبيعة فيه منذ أدرك في مدرسة القانون أنه ليس ذكيا، وأن عليه إذا أراد النجاح أن يعمل أكثر..

أرهق نفسه في الدراسة، وانتخبوه رئيسا للطلاب في المدرسة.. كانت هذه بداية تحوله إلى (حيوان سياسي)، برغم أن أكثر الطلاب لم يكونوا يعرفون بوجود هذا المنصب أصلا - رئيس الطلاب - ولم يكونوا يبالون به.

ثم بدأ نجمه يعلو في الحزب الجمهوري، وتعلم كيف يلعب اللعبة، وتزوج سيدة لم يحبها ولم تحبه، لكنها أضفت احتراما على صورته الاجتماعية..

كان يفضل المكتب على البيت، وناسب هذا زوجته التي لم تكن تحبه، لكنها كانت تعشق راتبه.

في هذه القضية بالذات كان يرى أن القانون واضح تماما: كل مواطن مطالب بالشهادة.. ولا يتم إعفاء مواطن من هذا الواجب لأنه خائف على نفسه أو سلامة أسرته..

هذا هو القانون.. كتب على الحجر بحروف سوداء غليظة، ولا توجد استثناءات أو ثغرات يعبر منها الأطفال الصغار الخائفون.. إن دراسته لحالات مماثلة تؤكد له أن الصبي سيتكلم حتما.. سيقومون بترتيب جلسة لسماع أقواله أمام المحلفين.. في الغالب سيفزعه هذا، وسيتكلم كما لم يتكلم قط..

كان (فولتريج) يحب أن يقال عنه إنه متفان في عمله.. رجل لا يخشى ساعات العمل الطويلة.. رجل أسرة لا يرى أطفاله.. إنه

محام لعميل واحد هو شعب الولايات المتحدة الأمريكية، ولسوف يهزم المافيا..

قال (ترومان) عميل المباحث الفيدرالية:

- ثمة نقطة مهمة.. إن (جرونك) هنا في (ممفيس)، وكلانا يعرف أنه قاتل، وأنه ليس هنا لزيارة قبر (إلفيس بريسلي).. لقد أرسله (مولدانو).. لهذا أرى أن نشرح لقاضي محكمة الأحداث أن الطفل في خطر، وأن من الخير له أن يكون في الحجز لحمايته..

- أنا أحب هذا..

- إن فكرة الحجز ستفزع الصبي كالجحيم، ولسوف ينهار ويتكلم.. ويتكلم.. وإلا اتهم بازدراء المحكمة..

ابتسم (فولتريج) ابتسامة شيطانية..

كان يحب هذه اللحظات حين تهوي كل قوة الحكومة الفيدرالية بسرعة، على رأس أشخاص ضئيلي الحجم لا يرتابون في شيء..

كل هذا بمكالمة واحدة..

☆ ☆ ☆

في الوقت ذاته كانت (ريجي) عاجزة تماما عن النوم.. إنه منتصف الليل لكنها تقرأ كتابا في غرفتها بالطابق الثاني، وتشرب الشاي..

كان (كلينت) قد وجد لها هذا الكتاب واسمه (الشهود الممتنعون)..

كان الأمر واضحا تماما: كل شاهد عليه أن يقول ما يعرفه، مهما كان مذعورا.. لقد ذكرت المافيا بالاسم في مواضع عديدة من الكتاب.

إنها قد هددت الشهود، وأثارت ذعر زوجاتهم وأطفالهم، إلا أن المحكمة العليا قالت أكثر من مرة إن هذا لا يهم.. يجب أن يتكلم الشاهد.

يمكن لـ (فولتريج) تقديم طلب سماع شهادة أمام المحلفين في (نيو أورليانز)، وبالتأكيد سيأمر القاضي الصبي بالإجابة، فإن رفض لكان غضب المحكمة عنيفا.. إن القضاة يكرهون أن تعصى أوامرهم..

والمشكلة أن هناك أماكن كثيرة يمكن أن يسجن فيها طفل عمره أحد عشر عاما، على خلاف مع النظام القضائي.

لسوف يأمره القاضي بالإجابة.. عندئذ سينظر (مارك) لها، ولهذا لا تستطيع النوم..

لو أمرته بالكلام فهذا يعني تهديد سلامته وأمه وأخاه.. إن هذه الأسرة لن تفيد من برنامج حماية الشهود، لأن (ريكي) مريض وغير قابل للنقل؛ ولسوف يبقى طويلا في المستشفى.

حقا إن الأطفال عملاء مزعجون.. لقد أمسكت بأيد كثيرة صغيرة في المحكمة وتعرف ما تقول.. إنهم بحاجة إلى من يحميهم ويمسح دموعهم ويتخذ لهم القرار.. والويل لها لو كان القرار خاطئا..

إن الحل الوحيد هو أن يكذب (مارك)..

نعم.. يكذب كذبة كبيرة.. يقول إن (كليفورد) لم يقل شيئا، وإنه كان مجنونا..

ترى من سيعرف الحقيقة وقتها؟

☆ ☆ ☆

في الرابعة صباحا اتجهت سيارة (فورد) بيضاء، تم نزع لوحاتها مؤقتا، إلى (تاكرويل ستيتس).. مشت إلى الشارع الشرقي بين المقطورات.. وكانت الطرقات مهجورة تماما، والكل نائما في سلام..

توقفت عند رقم (7) ثم توقف المحرك بدوره..

بعد دقيقة ظهر رجل يرتدي ثياب شرطي من (ممفيس).. على الأقل هي تشبهها في الرابعة صباحا..

كان يحمل صندوقا كبيرا من الورق المقوى، واتجه إلى الباب رقم (17).. لا صوت من الجيران.. لذا فتح الباب ووضع إنذاره الصغير ثم ابتعد.. لقد جاء ورحل دون أثر..

وبعد ثلاثين دقيقة انفجر الصندوق.. كان انفجارا هادئا منظما، فلم تهتز الأرض ولم تتناثر الشظايا.. فقط اندلعت النيران الحمراء والصفراء مع الدخان الأسود، وما إن استطاع الجيران طلب رقم (911) حتى كانت مقطورة آل (سواي) - المصنوعة من الخشب في أكثرها - قد انتهت تماما.

والتف الناس يرمقون النار التي لم تمتد لمقطورات أخرى لحسن الحظ.. وبعد قليل جاء رجال الإطفاء وفتحوا خراطيمهم..

قال أحد الجيران:

- يا للجحيم! إننا نعيش جميعا في محارق!

وحمد الله على أن النار لم تنتشر.

- يا لبؤس آل (سواي)! ماذا سيحدث لهم بعد هذا؟

☆ ☆ ☆

خمسة عشر..

لمدة اثنتين وعشرين سنة؛ كان القاضي المحترم (هاري روزفلت) يرأس محكمة (شيلبي) للأحداث، وبرغم طبيعة المحكمة المثيرة للاكتئاب والإحباط كان يديرها بحماس وحب شديدين. إنه أول قاض أسود يرأس محكمة أحداث في (تنيسي).. لقد عينه الحاكم في السبعينات، ومن يومها رفض القاضي أربعة مناصب في محاكم أهم.. محاكم تعمل أجهزة التدفئة بها في فصل الشتاء..

الحقيقة أنه كان يعتبر نفسه (مجرد صبي أسود فقير).. لقد عرف الجوع في طفولته، ولم ينس هذا قط، لهذا كان مكتفيا براتبه الضئيل في هذه المحكمة.. راتب ضئيل لكنه يطعم أسرته ويعيشه في بيت لطيف..

ولهذا أيضا كان يحب محكمة الأحداث، ويعتبرها أهم مكان في العالم.. هنا فقط يستطيع مساعدة الأطفال المعوزين والمحتاجين والمتشردين.

لقد طلب رجال المباحث الفيدرالية مقابلته، وكان معهم الرجل الثاني في جهاز FBI وهو (ك. لويس)، وقالوا له:

- إننا يا سيدي نعتقد أن (مارك سواي) قد عطل التحقيق في الموضوع..

- أي موضوع؟ مقتل السناتور أم انتحار المحامي؟

- الاغتيال سعادتكم.. لكن الانتحار له علاقة قوية بالاغتيال..

وماذا لو لم يكن الصبي عالما بشيء؟

- لن نتأكد حتى نسأله يا سيدي.. حتى الآن هو يعطل التحقيق، ونحن لا نريد سوى أن يقف الصبي على منصة الشهود، ويتكلم تحت القسم.. فلو أقسم الصبي أنه لا يعرف شيئا عن مكان الجثة، لانتهى الأمر، وسمحنا له بالعودة إلى داره.. ليس لدينا مخرج آخر سوى هذا سعادتكم.. الحل الآخر هو أن نقدم طلبا في (نيو أورليانز) لشهادته أمام المحلفين..

قال وهو يقلب أوراقه:

- لا.. لا أحب أن يقف الطفل أمام المحلفين أفضل أن ننهي هذا في محكمتي..

وكانوا يعرفون أنه سيقول هذا.. إنه لا يقاوم إلقاء عباءة حمايته على أي طفل في مأزق..

- فلنجر جلسة سماع اليوم.. موعد الغداء..

ونظر إلى جدول مواعيده الذي كان يحوي قدرا من التعاسة أكبر من أي شيء يمكن تحمله في يوم واحد..

كان (فولتريج) ومساعده (فينك) بحاجة إلى أمر احتجاز الصبي.. أن يحمله رجال الشرطة إلى سيارتهم، ويضعوه في زنزانة ما..

باختصار: إثارة رعبه إلى درجة الكلام..

ناول (ماكتون) القاضي صورة صغيرة لامعة، وقال:

- إن الرجل هو (بول جرونك).. إنه قاتل من (نيو أورليانز) وصديق حميم لـ (مولدانو).. لقد التقطنا هذه الصورة لحظة دخوله المطار قادما إلى (ممفيس)، وللأسف نحن لا نعرف مكانه الآن..

ثم أخرج صورة أخرى، وقال:

- هذا هو (بيريني) والآخر هو (بونو)..

كلاهما من قتلة المافيا، وقد وصل الاثنان إلى (ممفيس) أمس.. إنهما لم يجيئا هنا كي يأكلا (الريش) المشوية.. إن الصبي في خطر سعادتكم.. ومنذ ساعات احترقت مقطورة آل (سواي) في (تاكرهيل) تماما، وذلك بفعل فاعل..

- وهل تراقبون الصبي؟

- نعم يا سيدي.. لقد طلبت محاميته رسميا حماية المباحث الفيدرالية، ورجالنا الآن في المستشفى حول غرفة الصبي.. إن هؤلاء الفتية قتلة يتلقون الأوامر من (مولدانو)..

نظر القاضي لهم مفكرا ثم نظر إلى ساعته، وجرد قلمه:

- سأوقع أمر الاحتجاز.. أريد أن يؤخذ الصبي إلى جناح الأحداث، ويوضع في زنزانة وحده.. يجب أن تتعاملوا معه بقفازات من مخمل لأن هذا سيفزعه حتى الموت..

شكروه كثيرا، ووقفوا طالبين الإذن في الانصراف..

☆ ☆ ☆

سمع (مارك) دقات على غرفته في المستشفى، فنهض ليفتحه.. رأى وجهين جديدين عليه، وتوقع المتاعب لأنه وجد الممرضة معهما، ورأى رجلي الأمن يقفان على جانب ليفسحا للقادمين.. وعلى وجوه الجميع كان التجهم والقلق كأنما يتوقعون حادثا جل..

قال الصوت الأقرب والأعلى:

- نحن نبحث عن (ديانا سواي).. أنا المفتش (نصّار) وهذا المفتش (كليكمان) من شرطة (ممفيس)..

كانا أقرب إلى الشباب، وناول (نصّار) بعض الأوراق من فوق رأس (مارك) إلى أمه المذعورة، وقال:

- هذا أمر لمثول ابنك أمام محكمة الأحداث ظهر اليوم..
ارتجفت يدها بعنف وهي تحاول الفهم.
فقال (مارك):
- هل لي أن أرى هويتيكما؟
فمد كلا الرجلين يده في جيبه، وأخرج بطاقة هويته.. ثم قال (نصار):
- إن الأمر يتطلب أن نأخذ (مارك) معنا الآن..
- ماذا؟!
صرخت (ديانا) وضربت يده فأسقطت الأوراق، وكان صوتها يحوي من الغضب أضعاف ما فيه من خوف:
- حاولوا أن تأخذوا ابني! لن يأخذه أحد! فوق جثتي..
ودوى صراخها في ردهات المستشفى..
تراجع (نصار) خطوة لكنه كان محترفا، وقد اعتقل المئات من قبل.. لهذا قال لها في هدوء:
- سيدتي.. أنا لا أحب أن أفعل هذا، لكنها أوامر القاضي المحترم (هاري روزفلت) رئيس محكمة الأحداث.. نحن سنعني بـ (مارك).
صاحت الأم في جنون:
- هل من أحد يساعدني هنا؟
لكن الممرضات وقفن جامدات ولم يتحركن..
وقال لها (مارك):
- ليس بصوت عال يا أماه.. سيسمعنا (ريكي)..
راح (كليكمان) ينظر لـ (مارك) كأنه سفاح ظلوا يتتبعون أثره من أعوام، وقال أخيرا:
- انظري يا مسز (سواي).. ليس لدينا الخيار.

ومد (نصار) يده ليمسك بـ (مارك).. هنا هجمت (ديانا) كثعبان الكوبرا، وصفعته على خده الأيسر.. أسرع (كليكمان) يمسك بمعصمها ودفعها للوراء.. فحاولت الهجوم ثانية وراحت تركل (نصار) في فخذه، لكن قدميها كانتا عاريتين فلم تؤذه إلا قليلا.

اندفع الجميع يقفون بينها وبين الشرطيين، على حين جذب (كليكمان) (مارك) بعيدا.. هنا انفتح الباب وظهر (ريكي).. وقف مشدوها يرمق ما يحدث وهو يحتضن أرنبا صغيرا من الفراء.. كان وجهه أبيض كالملاءة وفمه مفتوحا دون كلام، ثم فجأة بدأ الأنين الخافت الذي لم يسمعه أحد سوى (مارك) من قبل.

هرعت (ديانا) تحمله وتحتضنه لكن الأنين زاد قوة، ثم سرعان ما عاد إصبعه إلى فمه..

قال (كليكمان) لـ (مارك):

- فلنذهب يا صبي..

- هل ستضعان الأصفاد في يدي؟

- لا.. هذا ليس اعتقالا.. والآن هل أنت ذاهب معنا أم نجرك جرا.

نظر (مارك) في عينيه بثبات، وقال:

- تحسباني خائفا؟ إن لدى محاميا بارعا سيخرجني بعد عشر دقائق، وعند الظهيرة ستكونان في الشارع تبحثان عن عمل آخر.

- سيكون هذا جميلا لأنني أمقت هذه المهنة..

ومشى (مارك) وسطهما عبر ردهات المستشفى، وقال:

- ستفقدان وظيفتكما.. ولن تجدا وظيفة أخرى لأنه لا أحد يوظف المعتوهين الآن..

- راقب فمك يا صبي..

وشعر (مارك) أنه بطل حقيقي.. مواطن برئ يقاد إلى الذبح.. وسره أن الصحفيين الذين يملئون المستشفى رأوا المشهد، فراحت أضواء الفلاش تلتمع.. وانهمرت الأسئلة لكن (نصار) ازداد عصبية وحجب عينيه.

وفتحوا له السيارة ليجلس، فركب وهو يصيح ليسمعه الصحفيون:

- يمكنكما عمل أي شيء بي فأنا مجرد طفل.. يمكنكما أن تلقياني في الشارع وتوسعاني ركلا.. إنها طريقة جيدة للتخسيس فلماذا لا تجربان؟

كان الرجلان مغتاظين حقا، وشعر بأنهما قادران على خنق الصبي فعلا.. لم يكن هذا يومهما السعيد.. وفي الطريق ظلا صامتين بينما شتائم الطفل تنهمر عليهما..

أخيرا وصلوا إلى حجز الأحداث فصمت (مارك).. إنه في وكرهم الآن، وسيارات الشرطة تحيط بالمبنى، بينما البوليس في كل مكان.. نظر له (نصار) وهو يتحسس خده المتورم.. شعر بالأسى من أجله برغم كل شيء.. إنه مجرد طفل صغير فعلا..

وجاءت حارسة تحمل لوح كتابة، وقالت:

- القاضي (روزفلت) أمر أن يوضع في غرفة خاصة.. كأن هذا هو (الهيلتون).

- لا يهمني أين تضعونه.. فقط خذوه بعيدا..

وعبر الممر اقتادت الحارسة (مارك) لتفتح بابا خشبيا كبيرا.. ثم مشت عبر ممر طويل تملؤه الأبواب ذات القضبان الحديدية على الجانبين.. في النهاية وقفت أمام رقم (16) وأشارت له كي يدخل..

كانت الغرفة مضاءة بشدة وبها فراشان فوق بعضهما، فأشارت له كي يختار أحدهما.. جلس على السفلى وأراح ذقنه

على ساعديه وتأمل السجادة..
وحين خرجت أخيرا استطاع - لحسن حظه - أن يبكي..

☆ ☆ ☆

ستة عشر..

جلست (ريجي) في مكتب القاضي المحترم (هاري روزفلت) مندهشة من فوضى المكان حولها.. كانت السجادة عتيقة والملفات والكتب في كل مكان.. بالتأكيد لا يذكر (روزفلت) شكل سطح مكتبه الآن، وهل كان من الخشب أو الجلد.. ثمة ثلاثة مقاعد خشبية؛ اثنان منها تغطيا بالملفات تماما، لذا جلست على الثالث.

لم يكن (روزفلت) من القضاة الذين يدرسون القانون؛ لأنه كتب بنفسه أكثر أجزائه، وكان بصفة خاصة يمقت المحامين الذين يحبون سماع أنفسهم يتكلمون.. لكن كان يرتاح لـ (ريجي) ويعتبرها صديقة مخلصة.. لقد رآها كثيرا في قضايا الأحداث، ويعرف تفانيها وإخلاصها..

وضع روبه الأسود على أحد المقعدين، وجلس.. فقالت له:

- ما كان عليك يا (هارى) أن توقع أمر الاحتجاز.. كنت سأحضره هنا بنفسي.. أنت تعرف هذا.. لقد كان عندي أمس ونام في حجر (ماما).

كانت من المحامين القليلين الذين يمكنهم في خلوة - أن ينادوا القاضي باسمه المجرد..

فقال لها:

- إن رجال المباحث الفيدرالية يعتقدون أن (مارك سواي) في عالم خطر.. والمدينة تعج بزملاء (باري مولدانو).. لحسن الحظ أنه لا فروع للمافيا في (ممفيس).. إن هذا يثير ذعري.. فهؤلاء القوم لا يلعبون..

- أرجوا أن تنصحي عميلك جيدا، فأنا خشن مع الصبية الذين لا يطيعونني.
- أعرف هذا..

☆ ☆ ☆

هدأت المحكمة عند الظهيرة لتناول الغداء، ودخل (مارك) إلى القاعة فوجدها غريبة من طراز لم يره قط من قبل.. ثمة منصة يجلس عليها القاضي ووراءه علمان، وأمامه منضدة صغيرة جلس عليها رجال في ثوب أسود..

وشابة حسناء جالسة أمام القاضي ممسكة بآلة اختزال.. الواقع أن القاعة كانت أضيق بكثير مما تخيل (مارك).. ثمة حاجب يقف على يسار القاضي يلعب دور آخر الممثلين في هذه المسرحية..

دخل القاضي وطلب من الحاجب أن يغلق الباب، لكن عليه أولا أن يطرد كل من ليس محاميا أو شاهدا في هذا الموضوع، ثم قال:

- للتسجيل أقول إن أم الصبي ليست هنا، وهذا يضايقني..

نهض رجل من بين المدعين ليثبت وجوده، وقال:

- سعادتكم.. أنا (توماس فينك) مساعد المدعي العام لجنوب (لويزيانا)..

نظر له القاضي في دهشة، كأنه منبهر بهذه الحكمة التي تتدفق من عقل قانوني فذّ.. على حين واصل (فينك):

- سعادتكم.. لقد قدمنا العريضة لأن الموقف ملحّ جدا، والطفل يمثله محام كفء ولن نعتدي على حقوق الطفل في غياب أمه.. وكما نفهم فإن وجود الأم جوار طفلها الثاني

مطلوب، ولا نعرف إلى متى.. لهذا نحن مصرون على سماع شهادة (مارك سواي).

وضع القاضي منظاره أمامه، ونظر إلى (فينك) مباشرة، وأشار له بإصبعه:

- اسمع يا مستر (فينك).. ليست هذه إحدى محاكمكم الفاخرة في (نيو أورليانز)، ولست واحدا من قضاتكم.. هذه محكمتي وأنا الذي يضع القواعد.. القاعدة الأولى ألا تتكلم في محكمتي إلا حين يوجه لك الكلام.. القاعدة الثانية أنني لا أحب أن يقف أحد وهو يتكلم.. القاعدة الثالثة أنني لا أحب أصوات أولئك الذين يعشقون سماع أنفسهم يتكلمون.

نظر له (فينك) مذعورا، وحاول أن يهز رأسه.. ولم يتمالك (ماكتون) ابتسامة تلاعبت على شفتيه.. كان طيلة عمره يمقت المحامين..

وبلهجة ودية خاطب مس (لاف):

- أعتقد أن عندك اعتراضات لصالح الطفل..

- عدة اعتراضات سعادتك.. إننا لم نتلق العريضة قبل الجلسة بوقت كاف.. أنا محامية الطفل، لكني لم أعرف شيئا قبل خمس وسبعين دقيقة.. وإنني أطلب تأجيل هذه الجلسة.

- ليكن.. لكني لن أسمح له وقتها بمغادرة الحجز.. يمكنه البقاء في الحجز إلى أن يقرر الكلام..

- لا سعادتكم.. ما دام الأمر كهذا، فأنا موافقة على سماعه الآن..

قال القاضي لكاتبة الجلسة:

- للتسجيل.. قولي إننا عرضنا تأجيل جلسة السماع، لكن محامية الطفل رفضت هذا الطلب..

أضافت (ريجي) مشاكسة:

- أرجو تسجيل كذلك أنني رفضت الطلب، كي لا يبقى الطفل في حجز الأحداث.. إن السادة المدعين ورجال المباحث الفيدرالية ليسوا واثقين مما يعرفه الصبي.. لهذا يطلقون رصاصهم في الظلام عسى أن يصيبوا شيئا ما، ويستعملون الكثير من (ربما) و (ماذا لو).

قال القاضي:

- هذا ما سنعرفه حالا.. استدع شاهدك الأول يا مستر (فينك)..

وكان هذا الشاهد هو ضابط الشرطة (هاردي) أول من اعتقل (مارك) بعد الحادث.

جلس (مارك) يرقب ما يحدث، دون أن يعرف هل كسبت (ريجي) أم لا.. ولم يكن مهتما بشيء.. هناك شيء غير عادل في هذا كله.. إحضار صبي وسط محكمة ليجلس بين محامين شرسين يتجادلون، أمام عين القاضي الفاحصة.. والمفترض وسط هذا كله أن يفهم الصبي ما يحدث له.. وشعر أن عينيه مبتلتان، لكنه لم يجرؤ على تجفيفهما.

قال القاضي موجها كلامه لـ (فينك):

- للتسجيل.. يجب ألا يعرف أي واحد ما دار في هذه الجلسة.. إنني أمنع أي شخص من ذكر حرف قيل في هذه الجلسة باستثناء مستر (فولتريج)، لأنه من مقدمي العريضة، ويجب أن تخبره أنني متضايق لعدم كونه هنا.. ولو شممت رائحة تسرب لما يقال هنا، فسوف أحصل على حكم بازدراء المحكمة، وأضع المسئول في السجن..

خفض (فينك) نظره، لأنه ما من أحد استطاع أن يكسب مباراة نظرات مع القاضي (روزفلت) من قبل..

☆ ☆ ☆

دارت جلسة السماع، وأحضرت السكرتيرة كوبين ورقيين من الشاي وضعتهما أمام سعادته.. بعدها مال القاضي للأمام وسأل (ريجي):

- هل سيشهد (مارك)؟

نظرت إلى الصبي دامع العينين، وقالت:

- حسب الظروف الحالية.. نعم.. سيشهد..

نظر القاضي إلى (مارك) وشاعت في وجهه ابتسامة دافئة، وقال:

- ستبقى جوار محاميتك بينما أوجه لك بعض الأسئلة..

تبادل رجال المباحث الفيدرالية النظرات.. ربما كانت هذه هي اللحظة الكبرى.. سيتكلم الصبي..

جاء الحاجب وجعل (مارك) يقسم ألا يقول إلا الحقيقة.. كل الحقيقة.. ولا شيء إلا الحقيقة.. ثم قال القاضي:

- لو لم تفهم سؤالا مما أقول يمكنك الكلام مع محاميتك.. اتفقنا؟

كان (فينك) يرمق (مارك) كما يرمق الكلب الجائع قطعة لحم، وفرغ من التهام أظفاره وبدأ يأكل القلم، والمفكرة.

بدأ (مارك) يحكي القصة من بدايتها، من لحظة تسلله إلى الأحراش مع أخيه.. وكان قد حكاها كثيرا لأمه والمحامية، فلم تعد تثير اهتمامه، لكنه الآن كان يرى اتساع عيني القاضي.. بل إن كاتبة المحكمة الباردة كانت تصغى باهتمام...



بدأ (مارك) يحكى القصة من بدايتها ، من لحظة تسلله إلى الأحراش مع أخيه .. وكان قد حكاها كثيراً لأمه والمحامية ..

لكن زال المرح حين جذب (كليفورد) (مارك) إلى السيارة.. إلخ.. كان (مارك) يتكلم لكن عينيه لا تنظران لشيء، كأنما هو في غيبوبة..

هنا سأله القاضي السؤال الذي انتظره الجميع في المحكمة:
- ما الذي قاله المستر (كليفورد) لك؟
كان (مارك) مرتبكا لأنه لم ير قاضيا يوجه الأسئلة من قبل، وقرر أن يحوم حول المواضيع..
تكلم عن بكاء المحامي وحديثه عن (أرض الأحلام).. إلخ..
- وهل هذا كل ما قاله؟
نظر (مارك) إلى (ريجي).. يمكنه أن يقول (نعم) وينتهي الأمر، لكنها كانت قد حذرته مرارا من الكذب تحت القسم في المحكمة..
وبالطبع كان قد رأي جهاز (كاشف الكذب) في التلفزيون مرارا.. هؤلاء هم رجال المباحث الفيدرالية وبالتأكيد عندهم واحد.. بل أكثر..
سأله القاضي:
- هل تكلم (كليفورد) عن قضية السناتور (بويت بويد)، أو ذكر أسماء مثل (باري مولدانو) أو (بويد)؟
راح (مارك) يرمق عنكبوتا يزحف جوار حذاء كاتبة الجلسة، وساد الصمت بينما (فينك) يعاني بعنف، وقد تسارع نبضه وارتفع ضغط دمه..
هنا قال (مارك):
- لا أظن أنني أريد الإجابة عن هذا السؤال..
هنا استرخي جسد (فينك)، وقال لنفسه: آه! إن الوغد الصغير يعرف!
قال القاضي في أبوة:
- (مارك).. هل تكلم (كليفورد) عن (باري مولدانو) أو (بويد)؟

- إنني أخذ التعديل الخامس يا سيدي.. [5]

- لا.. إنه ليس في هذا الموقف، فأنت لست متورطا في موت السيناتور.. ولا أية جريمة..

- إذن لماذا وضعتموني في السجن؟

- ولسوف تعود إليه لو لم تجب سؤالي.

- سآخذ التعديل الخامس على كل حال.

وللحظة تبادل القاضي والصبي النظرات.. دمعت عينا الغلام وضغط على مسندي المقعد حتى ابيضت رءوس سلامياته.

سأله القاضي من جديد:

- هل تريد الكلام مع محاميك؟

- قد تكلمنا بالفعل..

وكان (فينك) يوشك على الإصابة بنوبة قلبية.. إن الوغد الصغير يعلم كل شيء.. فلنجعله يتكلم! هنا قال القاضي:

- (مارك).. لو رفضت الكلام سأتهمك بازدراء المحكمة..

- أعرف يا سيدي..

- هل تريد العودة إلى السجن؟

- لا أريد يا سيدي.. لكن ليس لدي مكان آخر..

وللحظة لم تبد له الزنزانة مخيفة إلى هذا الحد.. هنا سأله القاضي ثانية:

- هل ذكر (كليفورد) اسم (باري مولدانو)؟

إنني آخذ التعديل الخامس..

خلع القاضي عويناته، وأمسك قلما وتأهب للكتابة، لكن (مارك) صاح:

- سيدي.. إنني أحترم ما تقوله وما تسأله، لكني عاجز عن الإجابة.. لأنني أخشى ما قد يحدث لي ولأسرتي.

- وأنا أتبع القانون يا (مارك) ولا أتحرش بك.. لست حانقا عليك لكنك لم تترك لي الخيار.

ثم أضاف وهو يفحص جدول مواعيده:

- نلتقي هنا في استجواب جديد ظهر غد إن كان هذا يناسب الجميع.

هنا صاح (فينك) في ذعر:

- سيادتك.. لن أستطيع أن أكون هنا غدا.. إن مكتبي في (نيو أورليانز)..

قال القاضي:

- آه.. آسف.. لكنك ستكون هنا غدا يا مستر (فينك)، أنت والمستر (فولتريج)..

لقد قدمتا عريضتكما في (ممفيس) في محكمتي، وعليك أن تطلب مستر (فولتريج) ليكون هنا في الثانية عشرة.. ولو لم تأت لاتهمتك بازدراء المحكمة، ولربما زججت بك ورئيسك في السجن..

فغر (فينك) فاه.. فتدخل مساعده قائلا:

- سعادتكم.. إن مستر (فولتريج) في المحكمة غدا بأمر القاضي، لأن مستر (مولدانو) قد وكل محاميا جديدا..

- إذن فليرسل لي صورة بالفاكس من أمر القاضي، ولسوف أعذره.. لكنني سأعقد هذه الجلسة كل يوم حتى يتكلم (مارك)، وعلى مقدمي العريضة أن يتواجدوا كل يوم.

صاح (فينك):

- هذا فيه كثير من المشقة علينا سعادتكم..

- ليس كالمشقة التي ستجدها لو لم تأت حسب أوامري..

شعر (فينك) بالغيظ.. لقد جاء إلى (ممفيس) من ست ساعات، دون أن يحمل غيارا أو فرشاة أسنان.. الآن يبدو أنه

سيستأجر شقة فيها مع (فولتريـج)..
قال القاضي بعد أن طلب من كاتبة الجلسة الامتناع عن الكتابة:
- استرخ يا مستر (فينك).. أنا لا أرغب في احتجاز الصبي أكثر من اللازم.. إنه مذعور ونحن نفهم هذا.. ربما يقبل الكلام لو ضمنتم له سلامته، وأنا مستعد لسماع الاقتراح..
كان (ك. لويس) الرجل الثاني في المباحث جاهزا، فقال:
- سعادتك لقد قمت بالخطوات الأولى في برنامج وضع آل (سواي) ضمن برنامج حماية الشهود [6].. سننقلهم إلى مدينة أخرى، ونعطيهم أسماء جديدة، ومنزلا جديدا، ونجد للأم وظيفة مناسبة.. سندخل الصبية مدارس جيدة، ونترك للأسرة مبلغا من المال، ونبقى قريبين نراقب..
قال القاضي:
- يبدو هذا مناسبا يا مس (لاف)..
قالت (ريجي لان):
- لكن الأسرة لا تستطيع الانتقال سعادتك، بسبب مرض الطفل الأصغر.
قال (لويس):
- لقد وجدنا مختصا في طب الأطفال النفسي في (بورتلاند)، وهو مستعد لعلاجه طبعا على نفقة الحكومة.. إن وضع الأسرة في البرنامج سيتم خلال أسبوع، وهو الوقت اللازم لاستخراج شهادات ميلاد جديدة.. بطاقات هوية جديدة.. بطاقات ائتمان.. أشياء كهذه..
كان العرض مغريا بحق.. فالأسرة حاليا بلا مسكن بعد حرق المقطورة، وبلا عمل للأم بعد ما فصلت من وظيفتها، وبلا

أقارب في هذه الولاية.. لكن هل تقبل الأم؟

☆ ☆ ☆

سبعة عشر..

في الصباح - صباح الجمعة - جلست (ريجي) في شرفتها ترشف القهوة السوداء.

كان صباحا رطيبا من شهر سبتمبر، وقد سرت لأن أيام الصيف الحارة اللزجة قد ولت بلا رجعة.. ولم تكن قد نامت بعد..

لقد اتصل بها رجال الشرطة في الواحدة صباحا، وقالوا إن هناك مشكلة في مكتبها.. هرعت إلى هناك لتجد ستة من رجال الشرطة.. كانوا قد اعتقلوا (جاك نانس) بعد ما فرغ من زرع أجهزة التنصت في مكتبها..

لم يسرق شيء.. أما ملف (مارك سواي) فكان في حقيبتها..

وفهمت أن رجال الشرطة كانوا يراقبون (نانس)، وتوقعوا ما قام به..

شرحوا لها علاقة (نانس) برجال المافيا (جرونك) و (بونو).. إنهم لا يعرفون أين الأخير لكنهم يراقبون الأول..

تركوها في الرابعة وحيدة.. تتأمل الفكرة المرعبة أن قاتلا أو محترفا كان هنا ليجمع المعلومات عنها.

راحت ترمق السماء الشرقية تستحيل إلى اللون البرتقالي، وتذكرت (مارك) الذي دخل مكتبها منذ يومين مبللا بالعرق والمطر.

هنا دق جرس الهاتف فأجفلت.. بالتأكيد هناك متاعب لأنه لا أحد يتصل في السادسة صباحا إلا لهذا..

كان المتكلم هو القاضي (هاري روزفلت):

- آسف لأنني أيقظتك.

- كنت متيقظة فعلا..
- هل رأيت الجريدة؟ ثمة صورتان لـ (مارك) وهو يغادر محكمة الأحداث، وكاتب المقال اسمه (سليك مولر).. إنه يعرف كل تفاصيل جلسة السماع.. كل ما قيل فيها..
ويقول إن مصدره مجهول..
فكرت قليلا، ثم قالت:
- أتراه (فينك)؟
- أشك في هذا.. لن يستفيد من ذلك وسيكون خطرا داهما عليه.. لسوف أستدعى (مولر) إلى المحكمة وأسأله عن مصدر معلوماته، فإن رفض سأتهمه باحتقار المحكمة..
قالت له:
- سأحكي لك أيضا عن ليلتي الطويلة..
وحكت له كل شيء.. ثم أمسكت القدح بكفيها وراحت ترمق النهار، وتشم رائحة الجو.. لكم تمقت الصحفيين! الآن يعرف كل الناس أن (مارك) يعرف شيئا لا ينبغي أن يعرفه، ولسوف يزداد موقفه سوءا، ولسوف ينظر لها بعينيه الزرقاوين الدامعتين ويسألها عما يفعله بعد هذا..
كيف بحق السماء تعرف؟ إنها في خطر هي الأخرى..

☆ ☆ ☆

جاء الجميع لجلسة السماع عند الظهر، وفي هذه المرة جاءت (ديانا سواي) الأم بناء على طلب القاضي.. حياها بهزة من رأسه وابتسم بدفء.. ثم استدار ونظر إلى الجالسين، وقال:
- أعتقد أنكم قرأتم صحف اليوم وتعرفون ما أريد قوله.. ثمة من سرب خبر جلسة أمس إلى الصحف.. لسوف أجد الشخص

حتما..
كان (جريندر) حاجب الجلسة العجوز يقف جوار القاضي ويرتجف.. لقد أصيب بنوبته القلبية منذ ستة أعوام، ولو استمر الحال سيصاب بالنوبة الكبيرة هذه المرة.. لقد كان هو من أخبر (مولر) بالتفاصيل، وهما واقفان عند المبولة في دورة المياه، وتقاضي ورقة بمائة دولار.
بعد هذا قدم (فينك) صورة من أمر محكمة (نيو أورليانز) الذي يستدعى (فولتريـج)، فقبل القاضي العذر.
من جديد عاد القاضي يسأل (مارك):
- هل ذكر (كليفورد) اسم (باري مولدانو) قبل انتحاره؟
- لن أجيب عن هذه السؤال يا سيدي..
- هل ذكر اسم (بويت)؟
- لن أجيب يا سيدي.
كانت الأم ترمق كل هذا عاجزة عن التنفس والفهم.. وقال القاضي:
- أيها الحاجب.. خذ (مارك) إلى غرفة الشهود..
ثم سأل (ك. لويس):
- ما الشيء المهم الذي أردت أن تقوله لي قبل الجلسة؟
كان (لويس) مغتاظا.. فلديه ألف شيء مهم في مكتبه بـ (نيو أورليانز)، أكثر أهمية من صبي كتوم.. وما كان ليضيع كل هذا في (ممفيس)، لكن مدير المباحث الفيدرالية كان مهتما بالموضوع..
قال (لويس) وهو يضع جهاز (كاسيت) على المنضدة:
- سعادتكم إن رجالي يراقبون (باري مولدانو) منذ أشهر، وهذه محادثة سجلناها له منذ يومين في أحد مطاعم (نيو أورليانز)..

الصوت الأول هو صوت (مولدانو).. الصوت الثاني هو صوت (جرونك).. هل نسمعه؟
هز القاضي رأسه موافقا، فبدأ (لويس) تشغيل الشريط وساد الصمت.. كانت الأصوات واضحة تماما.
(مولدانو) يتكلم عن قتل الصبي، و (جرونك) ينصحه بألا يفعل لأنها حماقة.. ثم يقترح (مولدانو) قتل الأم أو الأخ، لكن (جرونك) يكره قتل الأبرياء..
بعد هذا يقترح (مولدانو) قتل المحامية، لأن هذا سيثير ذعر المحامين الآخرين ولن يتولى محام واحد قضية الصبي..
أغلقت (ريجي) عينيها.. إن هذا شنيع.. هذان الرجلان يناقشان قرار قتلها بهذه البساطة.. أما (ديانا) فتصلبت فزعا.. وحين انتهى الشريط طلب القاضي أن يسمعه ثانية..
وحدق في الجهاز كأنما يرى وجهي الرجلين..
وحين انتهى الشريط، شرب جرعة من الشاي البارد، وقال لـ (ديانا):
- الآن يا مدام (سواي).. هل فهمت لماذا وضعنا (مارك) في الحجز؟
- أعتقد هذا..
- أنا لم أسجنه لأنه خالف أوامري، ولكن لأنه في خطر داهم.. ورجال المباحث الفيدرالية يضمنون سلامته لو تكلم لأنهم سيشملونه ببرنامج حماية الشهود..
قالت في توجس:
- لكن المافيا تجد بعضهم في النهاية. أليس كذلك؟
لم يستطع (لويس) أن يتكلم، لأن الحقيقة أن برنامج حماية الشهود كان يفشل أحيانا.. كان هذا احتمالا واردا.
- إن من يطاردون ابني هم المافيا.. أليس كذلك؟

كان كل أحمق يعرف أنها المافيا.. محامي مافيا وقاتل مافيا وسلاح مافيا.. ورجل من أسرة مافيا عمرها أربعة عقود.. لكن كلامها كان واضحا.. إن المافيا جيش لا يُرى، وفيه عدد كبير من المقاتلين.

قال (فينك):

- أنت لا تريدين لابنك أن يبقى في الحجز..
- سيدي.. أفضل أن يكون ابني سجينا على أن يكون ميتا..

☆ ☆ ☆

ثمانية عشر..

اقتادت السجانة (مارك) إلى الحجز، وكان يمشي معها ساهما ينظر إلى الأرض كمن رأي انفجار سيارة في شارع مزدحم.. فسألته:

- هل أنت على ما يرام؟

فهز رأسه أن نعم.. أدخلته الغرفة، ونظرت في عينيه باهتمام:

- هل أنت بخير؟ هل أستدعى الطبيب؟

أمسك بذراعها.، وقال بصوت غريب:

- أريد أن أبقى وحدي.. لا شيء سوى هذا..

غادرت الغرفة وعيناها لا تفارقانه، فما إن ابتعدت خطواتها، حتى أنزل (مارك) قدميه من فوق الفراش ونهض..

☆ ☆ ☆

في الساعة الخامسة قرعت السجانة – واسمها (دورين)- الباب، فلما رآها (مارك) تحول إلى (زومبي).. جلس على ركبتيه وراح يرمق الأرض فيما يشبه الغيبوبة، فقالت له:

- (مارك).. أنا فعلا قلقة عليك.. أخشى أن تدخل في صدمة مثل أخيك..

نظر في عينيها، وقال بلهجة مخيفة:

- أنا بخير.. فقط أنا بحاجة إلى الراحة..

- حسن.. لقد انتهت ورديتي، لكني سأطلب من (تيلدا) أن تعني بك.. يا لك من صبي مسكين! هذا المكان لا يناسبك.

- سأتغلب على هذا..

☆ ☆ ☆

في الثامنة مساء جاءت (تيلدا) إلى غرفته، ولم تكن وحدها.. كان معها رجلان ضخمان في سترتين أنيقتين، وقالت:

- (مارك).. هذان مارشالان من مارشالات الولايات المتحدة..

تراجع (مارك) ليقف جوار المرحاض..

فقال الأول:

- مرحبا.. يا بني.. أنا (فيرن دوبوسكي).. نائب مارشال الولايات المتحدة.. لا تخف.. قد جئت فقط لأعطيك بعض الأوراق.. إنه استدعاء للشهادة أمام المحلفين في (نيو أورليانز) يوم الإثنين.. سنأتي لنأخذك عصر غد وننقلك إلى هناك..

شعر بألم في معدته ووهن شديد.. (نيو أورليانز)! سألهما:

- لماذا؟

- ليس من عملنا أن نجيب عن هذا.. بالطبع يمكنك إبلاغ محاميتك ووالدتك..

كان (مارك) يشعر بغثيان من القوانين والمحامين والمحاكم والمارشالات، وأقسم في سره أنه لن يذهب إلى (نيو أورليانز) أبدا..

كانوا قد رتبوا إرسال مارشالين لإبلاغ (ديانا)، ومارشالين لإبلاغ المحامية، وقد نسقوا هذا كله ليتم في نفس الوقت.. في الواقع كان مارشال واحد يكفي لهذا، ويمكنه القيام به خلال ساعة، لكن كانوا يستمتعون بإرسال ستة رجال في ثلاث عربات، وفي كل عربة جهاز لاسلكي.. وأن يتحركوا في الظلام كأنهم من فرق القوات الخاصة..

☆ ☆ ☆

في العاشرة مساء تم آخر (تمام) على الغرف في مركز احتجاز الأحداث.. فوجئت السجانة بأن ضوء (مارك) مفتوح.. دخلت لتراه فوجدته على الأرض، وقميصه مفتوحا والعرق يغمره، وكان يتنفس بصعوبة بالغة.

كان منثنيا على نفسه في وضع الجنين، وإبهامه في فمه.. هرعت خارج الغرفة لتنادي زميلها (ديني) الذي عاد سريعا..

قال حين رأي المشهد:

هذا ما كانت (دورين) تخافه.. اطلبي الإسعاف حالا.. إنه في صدمة..

كان (مارك) قد بدأ يئن، ويمتص إصبعه في عنف، فقالت:

- إنها غلطتي.. ما كان يجب أن أسمح الهذين المارشالين بلقائه.. لقد أفزعا الصغير حتى الموت.. سحقا! إنه يتنفس كالمجانين وقلبه يوشك على الانفجار! هذا ما حدث لأخيه كما قالت (دورين).. لقد رأيا رجلا ينتحر في الغابة.. أين هذه الإسعاف؟

صوت الأنين مخيف بحق.. وجاء مسعف من السجن الرئيسي ومعه سجان، وقالت له (تيلدا):

- أعتقد أنها صدمة ما بعد التوتر أو شيء كهذا..

كان المسعف لا يسمعها وانهمك في قياس النبض.. ثم قال لها مقطبا وهو يتكلم في جهاز اللاسلكي:

- يجب أن يذهب.. أحضروا النقالة إلى الطابق الرابع:

- لقد أوصتني (دورين) لو حدث شيء أن تنقله إلى مستشفى (سانت بيترز) حيث الطبيب النفسي الذي يعالج أخاه.

وجاءت النقالة فمددوا الصبي عليها.. لم يفتح عينيه قط لكنه حاول أن ينثني على نفسه، لكن أشرطة الفلكرو منعته.

قال أحد المسعفين في حيرة:

- إن الجلد يكون باردا رطبا في الصدمات.. لكن جلد هذا دافئ..

- ربما الصدمات النفسية تختلف..

ونزل المصعد بالنقالة.. ثم إلى حيث سيارة الإسعاف، واستغرقت الرحلة ثلاث دقائق إلى مستشفى (سانت بيترز).. في الخارج كان هناك زحام وثلاث عربات إسعاف تقيء حمولاتها.. إن مستشفى (سانت بيترز) يتلقى جل حالات الطعنات وطلقات الرصاص في (ممفيس) كلها.. دعك من ضحايا الحوادث.

أدخله المسعفان عبر الاستقبال، فسألتهما ممرضة وسط الزحام عما هناك فقدما لها نموذجا من الحجز.. نظرت فيه، وقالت:

- إذن هو لا ينزف..

قالتها كأنما النزف هو المرض الوحيد المعترف به في العالم، وفكرت في مدي حمق هذين الرجلين.. وتفحصت أوراقها، وقالت:

- نحن في ميدان حرب هنا.. لا نتكلم إلا بلغة الدماء والأحشاء، وقد مات مريضان هنا في النصف ساعة الأخيرة.. إن مشاكل الأطفال النفسية ليست في مكان بارز من جدول أعمالنا الآن..

قال أحد المسعفين:

- هل ترين أن نذبحه لنثير اهتمامك؟

- لا.. أرى أن ترحلا وسأعني به.. لكن لترحلا بحق الجحيم..

- إذن وقعي الأوراق.. ولسوف يكون ملكك بالكامل..

وانشغلت الممرضة بالرد على الهاتف فيما رحل الرجلان.. ففك (مارك) الشرائط من حول جسده، وترجل.. وبدأ يمشي نحو باب الخروج..

إنه يعرف المكان جيدا على كل حال..

شق طريقه بين المرضى، وتعمد أن يكون بطيئا ليبدو واثقا غير مريب.. ونزل إلى البدروم..

☆ ☆ ☆

تسعة عشر..

وكانت (ريجي) عند (كلينت) في شقته.

كانت مختبئة من مارشالات الولايات المتحدة، الذين سيسلمونها أمر استدعاء الصبي.. كانت بحاجة إلى وقت ترتب فيه أفكارها، لهذا جعلت أمها تنكر وجودها، ثم فرت إلى شقة (كلينت) التي لا يعرفها أحد..

دق جرس الهاتف، وكان المتكلم هو (مارك).. قال لها:

أنا بخير يا (ريجي).. لكني لن أذهب إلى (نيو أورليانز).. لقد هربت من حجز الأحداث.. وهل تعرفين؟ أشك في أن أحدا لاحظ غيابي.. إن المكان هنا عش مجانين، وبالتأكيد لن يفتقدني أحد.

- أليس معك رجال شرطة؟

- نعم.. أنا مجرد صبي، وكنت في غيبوبة أمتص إصبعي مثل (ريكي)..

- ليس هذا بإمكانك يا (مارك)..

- لقد تم على كل حال.. ولن أتراجع.

- أين أنت الآن؟

- أنا في مشرحة المستشفى أختبئ خلف منضدة وأستعمل الهاتف.. لقد أحضروا جثتين منذ قليل.. لو جئت الآن لتأخذيني فهل سيتهمونك؟

- بالطبع سيتهمونني.. لكني لا أعبأ بهذا.. لقد فعلت ما هو أسوأ..

- حسن.. أنت تعرفين مكان انتظار السيارة في المستشفى.. جوار ذلك المبنى الأخضر..

- نعم..

- ليكن.. ستذهبين هناك، وتتظاهرين بأنك تبحثين عن موضع كي تقف فيه سيارتك.. سأختفى بين السيارات، ثم أركب معك..

- سأكون عندك في الحال.. سأستقل سيارة (كلينت) وهي (هوندا أكورد).. كن حذرا يا بني.

وضعت السماعة، فصاح (كلينت):

- سيارتي؟

- إنهم يراقبونني أنا الأخرى..

- هذا جنون يا (ريجي).. سيقبضون عليك ويلغون رخصتك..

- أحتاج أيضا إلى المفاتيح وبطاقة ائتمانك!

- لقد جننت يا (ريجي)!

- بل أنا مجنونة فعلا يا (كلينت).. لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟

- ربما كان بوسعك أن تهاجمي المستشفى بمدفع رشاش.. كوني رقيقة ببطاقة الفيزا فهي أوشكت على الانتهاء..

- لماذا لا أشعر بدهشة لهذا؟

وحملت حقيبتها والمفاتيح وغادرت المكان..

☆ ☆ ☆

منذ اللحظة التي وثب فيها (مارك) إلى السيارة، وتوارى تحت التابلوه، صارت (ريجي) متورطة في فراره.. يمكنها أن تزعم فيما بعد أن المافيا كانت تطارد الصبي، وأنها لم تجد حلا آخر سوى الهرب به.. كان لابد أن يفعل أحد شيئا ما..

كان (مارك) مكورا تحت التابلوه، وظل هناك حتى خرجت من ساحة الانتظار، واتجهت إلى النهر.. عندها وثب جالسا على المقعد ونظر إلى الساعة.. كانت تشير إلى 12:00..

الشوارع مهجورة شبه مظلمة، بينما هي تسأله:

- إلى أين نذهب؟ هذا الشارع ينتهي عند النهر، وعلينا أن نفكر بجدية في المكان الذي ترغب الذهاب إليه..

- حسن.. حاليا أريد الخروج من (ممفيس)، ولا يهمني شيء بعدها..

- ألا ترى أنها فكرة جيدة أن تحدد مكانا نقصده بعد ترك (ممفيس)؟!

كان بوسعها أن ترى صحف الغد، وعليها صورته الباسمة مع حروف كبيرة تقول: (سواي) يهرب.. سيبدو رجال الشرطة في موقف عسير وهم يفسرون كيف أفلت منهم صبي في الحادية عشرة من عمره.

قال لها:

- أنا آسف من أجل السجانة (دورين).. هل تظنينها ستعاني المتاعب؟

مس هل كانت نوبتجية وقت هربك؟

- لا..

- في الغالب لا تثريب عليها..

وحكي لها بالتفصيل قصة هربه.. كانا الآن يعبران الجسر متجهين نحو (أركنساس)..

نظر (مارك) إلى الأفق ليرمق خط (ممفيس) إذ تلتحم به، ولاحظت إعجابه بالمنظر.. فقالت:

- يمكنك أن تطلب من المباحث أن يرسلوك إلى أي مكان.. يمكنك الذهاب إلى (ديزني لاند) لو عشت في (أورلاندو)..

ولسوف يعطونك تذكرة مجانية مدى الحياة..
قال (مارك):
- نعم.. لكنى خائف من ظلي.. من يريد أن يعيش خائفا من ظله؟ إنني أرى كوابيس طيلة الليل، ولسوف يظفر بي رجال المافيا هؤلاء.. أعرف أنهم سيظفرون بي.
- إذن؟
وضع ساقا على ساق واسترخي قائلا:
- ثمة مزية مهمة للسجن هي أنك تقضين الوقت في التفكير.. ماذا لو كان (رومي) كاذبا؟ ماذا لو كان يخرف؟ الآن لست متأكدا مما قال.
كانت تصغي إليه وتقود بسرعة خمسة وخمسين كيلومترا.. لم تكن تعرف إلام يتجه تفكيره، كما لم تكن تعرف إلام تتجه السيارة..
قال لها:
- لو وجد رجال الشرطة الجثة سيسعد الجميع ما عدا المافيا.. أما لو لم يجدوها فلن يصدقني رجال الشرطة.. يجب أن أتأكد من كلام (رومي)..
نظفت حلقها.. وقالت:
- هل تعني أن نجد الجثة بأنفسنا؟
- نعم!
كادت تضحك من هذه الدعاية الساذجة من عقل مرهق.. فقال لها:
- إن لدي جلسة سماع في (نيو أورليانز) يوم الإثنين.. فكري يا (ريجي) في مكان لا يتصور رجال الشرطة أن أذهب إليه.. أين المكان الذي يستحيل أن أكون فيه؟
- نيو أورليانز.

- هو كذلك.. ولو وصلنا إلى (نيو أورليانز) لوجدنا بيت (رومي) من دليل الهاتف..

- ولماذا بيت (رومي)؟

- لأن الجسد هناك!

كان هذا آخر شيء في العالم تتخيل سماعه.. نزعت عويناتها وبدأ الصداع يدق في صدغيها.. وراحت تعيد العبارة في ذهنها.. جثة القتيل دفنها القاتل في منزل محاميه.. هذا يفوق الخيال..

ابتسم (مارك) ابتسامة غريبة، وقال:

- الآن تعرفين ما أعرفه بالضبط.. وترين أن هذا غريب يدعو إلى الشك في القصة كلها..

- إذا ظننت أنني سأذهب إلى (نيو أورليانز) لأنبش قبرا فأنت مخطئ، ولن أفعل هذا ولن أسمح لك بعمله..

كان هناك تقاطع في الطريق، وخلفهما كان خط (ممفيس) يتوهج في الأفق.. نظرا إلى الوراء، ولم يدر أن هذه آخر مرة يريان فيها (ممفيس)..

☆ ☆ ☆

توقفت في (أركنساس) لشراء وقود وطعام.. جلبت له كعكتين ومياه غازية، وابتاعت لنفسها قهوة.. ثم انطلقا بالسيارة من جديد.

راح يلتهم الكعكة ويلعق شفتيه، بينما قوافل من سيارات اللوري تمشي على اليمين.. قال لها:

- أنا حزين على ماما.. لسوف يرونها وقتا عصيبا..

- لن يحدث، لكنها ستموت قلقا عليك..

- لا أريد أن أكون قاسيا لكنها ستتغلب على هذا.. انظري إلى كل ما مرت به بالفعل.. إن أمي صلبة..

- سأخبر (كلينت) كي يتصل ويطمئنها..

- هل تخبرين (كلينت) بوجهتنا..

- أنا نفسي لا أعرف وجهتنا..

فتح كاسيت السيارة لتنبعث موسيقا صاخبة (راب)، وقال:

- أنا لا أثق برجال المباحث الفيدرالية.. لن أخاطر بشيء، ولن أخبرهم بشيء قبل أن أتأكد من أن أسرتي بخير.. أنت محامية وتهمك سلامة موكلك.. لو أنني قبلت برنامج حماية الشهود، وسمحت لهم بإبعادي، ثم اتضح إن الجثة ليست هناك لخسرت كل شيء.. سأكون في مكان غريب أحمل اسم (تومي) أو (جوني)، وكل هذا بلا مقابل.. إن الحكمة تقضي بأن نعرف الآن.. كم تبعد (نيو أورليانز)؟

- نحو خمس ساعات أو أقل.. وأين الجثة في بيت (كليفورد)؟

- إنها ليست معلقة على الشماعة أو في قلب شجرة.. سنحتاج إلى بعض الجهد.

- هذا جنون يا (مارك)..

- أعرف هذا.. لقد كان أسبوعا عصبيا.

☆ ☆ ☆

عشرون..

دخل (باري الموس) وحيدا إلى الورشة.. لم يعد يرتدي ثياب البلطجية.. لم يعد يلبس بذلته اللامعة.. لم يعد ذيل الحصان يتدلى على ياقته.. لم يعد القرط الماسي في آذانه، وقد حلق ذقنه منذ ساعات.

صعد الدرج وهو يتذكر كم كان يحب اللعب عليه في طفولته.. الآن صار المكان خاليا، ومن النافذة يرى سيارات خاله (الكاديلاك) واقفة في صف، بينما السائق يغسلها..

وكان (مو) - البلطجي الذي يحمل أربع مسدسات دائما - واقفا، فحياه.. كان (مو) رجلا لطيفا إلى أن رأى فيلم (الأب الروحي)، فاعتاد أن يلبس البذلات، وصار كلامه نادرا.

دخل (باري) ودق على الباب.. ثم نظر إلى الكاميرا أعلى رأسه.. سمع من يقول له: أدخل.. ثم وجد نفسه في مكتب خاله.

كان (جوني سولاري) رجل المافيا القوى عملاقا في السبعين من عمره، خفيف الحركة له شعر رمادي لم يتراجع للوراء، بل كان دانا من حاجبيه.. وكان يرتدي بذلة سوداء وربطة عنق زرقاء قبيحة.

كان جنتلمانا.. أخر جنتلمانات هذه المهنة الذين بدءوا يتراجعون أمام الشباب الأكثر شراسة وقذارة مثل (باري مولدانو)..

سأله (جوني) عالما الإجابة:

- هل من أخبار سيئة؟

- يمكنك أن تقول هذا.. لقد اختفى الصبي..

نظر الرجل إليه ببرود، وكانت من المرات القليلة التي لم يستطع فيها (باري) أن يلاقيه بنظراته.. خفض عينيه الأسطوريتين وصمت.

قال (جوني) في غيظ:

- أنت غبي يا (باري).. غبي إذ تخفي الجثة في (نيو أورليانز).. غبي إذ لم تخبرني.. غبي إذ أخبرت محاميك.. غبي.. غبي..



قال (جونى) فى غيظ :

ـ «أنت غبى يا (بارى) .. غبى إذ تخفى الجثة فى (نيوأورليانز) .. غبى إذ لم تخبرنى ..

- إنني بحاجة إلى عون..

- طبعا بحاجة إليه.. فأنت غبي جدا ولا بد من شخص ينقذك.. أنت حمار يا (باري).. هل قلت لك هذا من قبل؟

- لا أعتقد هذا..

- لقد تتبعت الرجل في مكان منعزل وقتلته.. لماذا لم تفرغ جيوبه، وتترك الجثة حيث هي؟ ولسوف يجيء رجال الشرطة، ويقولون إنها عملية سطو مسلح.. لكن لا يا (باري).. أنت أغبى من أن تتصرف ببساطة.. وبعد هذا لو أنك كنت جحشا وعدت إلى هنا بالجثة فماذا عن الخليج؟ ماذا عن البراميل والأثقال؟ هناك مليون طريقة للخلاص من جثة عدا الطريقة التي قررتها أنت.. قل لي: هل الجسد هنا في المدينة؟

- نعم..

قضم (جوني) طرف سيجار ثم بصقه، وأشعله بقداحة، وهز رأسه باحتقار، وقال:

- يا للغباء! هل من السهل الوصول إليه؟

- نعم..

- هل هو تحت الأرض؟ وكم تستغرق من الوقت لاسترداده؟

- نحو ساعة تقريبا.. إن الجثة في الخرسانة..

استرخي (جوني) قليلا.. خرسانة؟ ربما لم يكن الفتي غبيا كما حسب.. لكن لا.. إن (باري) غبي دائما.. أخرج الدخان في وجه (باري)، وقال:

- أين هو؟

- في جراج وراء المنزل..

تفحص (جوني) طبقة الرماد عند نهاية السيجار.. حقا ليس (باري) غبيا بل هو معتوه..

نفث مزيدا من الدخان في وجه الفتى وسأله:

- هل يوجد جيران هناك؟ أشخاص لهم آذان وعيون؟

- لم أرهم لكني أعتقد ذلك..

راح (جوني) يجوب المكان ببطء وينظر خارج النافذة غير مصدق، ثم اعتدل في وقفته وسأل:

- منزل من؟

ابتلع (باري) ريقه، وقال:

- المحامي.. (كليفورد)..

وتوقع انفجارا، لكن هذا لم يحدث.. إن (جوني) كان يحمل في عروقه ماء باردا بدلا من الدم.. فقال (باري) بلهجة أدني إلى البكاء:

- (جوني).. أنا بحاجة إلى ثلاثة رجال النقل الجثة والتخلص منها.. أتوسل إليك..

- أنا أكره المتوسلين.. ولكن كيف دفنته في الخرسانة وسط هذه الجيرة؟

- بعد قتله جئت البيت مرتديا زي عمال الحدائق، وأفرغت ست شكائر من الأسمنت سريع الجفاف في حفرة صنعتها في الجراج، وفي المساء عدت بالجثة وغطيتها بالأسمنت وبللته، ونقلت القارب المتروك في الجراج ليغطي القبر.. لقد كان مكانا ممتازا لم يشك فيه حتى الفيدراليين، والخطأ الوحيد الذي قارفته هو أن أخبرت (كليفورد)..

- (جوني).. أرجو أن تتم هذا الليلة.. إن الصبي حر ويعرف، ولن يمر وقت طويل قبل أن يتصل بشخص ما ليخبره..

أغمض (جوني) عينيه ونفث الدخان، وقال:

- حسن.. سأعطيك ثلاثة رجال.. والآن اخرج من هنا..

☆ ☆ ☆

واحد وعشرون..

دنت السيارة من منزل (كليفورد)، فتواري (مارك) تحت المقعد، وراح يدرس الخارطة الكبيرة جوار فرملة اليد.. كانت الثالثة بعد الظهر، ومن السهل أن يراهما أحد.

أخيرا مرت السيارة جوار صندوق بريد عليه اسم (كليفورد).. كان المنزل كبيرا لكنه ليس خلابا.. أسقف خشبية وطوب أحمر ونباتات متسلقة من حوله، وبدا لـ (ريجي) أنه خال من لمسة المرأة.. ولم تكن هناك زهور على الإطلاق.. لم يكن جميلا لكنه يوحي بالسلام بالتأكيد..

قال (مارك) وهو ينظر:

- وهذا هو المرآب..

كان منفصلا عن المنزل، وثمة سيارة (تريامف) تقف على مسافة منه.. فقال لها:

- كنت أحسب أننا سنجد المنزل محاطا بشريط البوليس الأصفر.

. ولماذا؟ لم ترتكب جريمة هنا.. إنه مجرد منزل منتحر.. ولا مبرر لاهتمام رجال الشرطة..

كان منتعشا، فقد نام خمس ساعات في المقعد الخلفي، وثلاث ساعات في الفندق، بينما هي قد قادت السيارة طيلة الليل، ونامت أقل من ساعتين.. كانت مرهقة مذعورة بحق.

دارت بالسيارة دورة أخرى لتمر أمام المنزل من جديد، ولكن بسرعة هذه المرة.. وراحا ينظران إلى الجراج من جديد.

بعد قليل توقفا قرب غابة جميلة، فترجلا..

وراح الصبي يركض في انتعاش ومرح.. فهو قد نسي الطبيعة منذ أسبوع كامل، قضاه في المستشفى أو المحكمة أو الحجز.. وتمنى لو كان (ريكي) معه ومعهما دراجتان..

لم يصدق أحدهما أنهما سينبشان قبر (بويت) بعد ساعات.. لابد أن شيئا سيحدث قبل هذا وسيعودان إلى (ممفيس).. كانا متفقين في سرهما على هذا..

مشيا عبر الغابة ليدورا حول البيت.. كان هناك سور حديدي، ومن خلفه يريان المرآب من الخلف.. جواره دلاء وأكياس سماد وعلب قمامة.. وآلة جز حشائش عتيقة..

☆ ☆ ☆

كان اثنان من الثلاثة بلطجيين قديمين لدى أسرة (سولاري)، واسماهما (ليو) و (إينوتشي)، وكانا قريبين لـ (باري الموس)..

أما ثالثهما فكان فتى ضخما غليظ العنق مفتول العضلات يسمونه (الثور).. والسبب معروف.. وقد أرسل في هذه المهمة ليقوم بأكثر الجهد العضلي..

لقد قال لهما (باري) إن المهمة سهلة.. قطعة خرسانة من هنا ومن هنا، وسرعان ما يجدون كيس القمامة الأسود الملتف حول الجثة.

سيمشون من ساحة الانتظار إلى ملعب التنس، ثم إلى طريق الدراجات، ويعبرون خندقا، من ثم يجدون أنفسهم أمام المرآب..

مشى الرجال، وكان (الثور) أكثرهم لياقة، فراح يضحك في سره وهو يمشي في الظلام..

إن الآخرين بدينان، في أواخر العقد الرابع، ومدخنان مسرفان.. لهذا كانا غارقين في العرق، ولما يمشيا ميلا بعد.

(ليو) يتقدم الثلاثة والكشاف في يده.. يتبعه (إينوتشي) الساخط.. ثم (الثور)..

كان المكان يغدو مخيفا في السادسة مساء.. أما الآن - بعد منتصف الليل - فقد صار مرعبا.

ومن جديد راح (الثور) يضحك متلذذا بانعدام لياقة الرجلين.. لقد كانا إما حارسين شخصيين أو سائقين، وهي مهن جلوسية لا تحتاج إلى مجهود بدني.

رقدوا بين الأعشاب يلهثون ويرمقون حديقة (كليفورد).. كل الجيران نائمون، وحتى الكلاب أخلدت للنعاس.

أخرج (إينوتشي) مطرقة وهشم لوح الزجاج فوق مقبض الباب.. ثم مد يده وفتح المزلاج من الداخل.

وتسلل الثلاثة في الظلام إلى خلفية الجراج.. كانت الأرض مغطاة بالحصى الأبيض والقارب في مركز المكان، يغطيه الغبار ويقف فوق أربع عجلات منها ثلاث نائمة.. قارب لم يمس الماء منذ أعوام.. ونسيج العناكب في كل صوب.

واضح أن (كليفورد) كان يهوى جمع الشماعات والعلب المعدنية، وقد كدس الآلاف منها فوق القارب.

دفع (الثور) القارب بكثير من الجهد، حتى أبعده خمسة أقدام عن مكانه.

صوب (ليو) الضوء إلى الخرسانة تحت الحصى، وقال:

- فلنطهر المكان..

راح (الثور) و (إينوتشي) يحفران بالمطرقة والإزميل.. بينما وقف (ليو) والمسدس في يده يرمق الباب الخلفي.. صوت الطرقات عال جدا..

ابتعد عن المرآب فلم يسمع سوى صوت خافت.. ابتسم لنفسه.. لا خطر.

☆ ☆ ☆

قرب ساحة التنس توقفت السيارة (الهوندا) السوداء.. لم تكن ثمة سيارات أخرى سوى سيارة (كاديلاك) حمراء تقف تحت جناح الليل.

أطفأت (ريجي) المحرك ونظرت إلى الظلام عبر الزجاج.. مكان مخيف حتى من دون جثث ولا مافيا..

مشت مع الصبي في الظلام ممسكة بيده..

وسألت نفسها: ما الذي تفعله هنا في هذه المدينة.. في هذه الساعة.. مع هذا الصبي الذي أحبته بشدة، لكنها لا تنوي أن تموت من أجله؟

وتمنت أن يحدث شيء يجعلهما يركضان إلى السيارة، ثم يعودان إلى (ممفيس).. رقدا بين الأشجار الكثيفة وراحا يرمقان الجراج القابع في الظلام.

كان الشارع نائما ساكنا من بعيد.. وزحف (مارك) على أربع مقتربا.. فجأة سمع صوت (تشينك! - تشينك!) قادما من الجراج.. غريب هذا! لوح زجاج غير موجود على باب الجراج.. (تشينك! - تشينك!)..

أحدهم هنا وهو يحفر الآن!

زحف أكثر، وهنا تعثر في دلو على الأرض فدوى صوت عال..

وثب (ليو) إلى مؤخرة الجراج، وأخرج مسدسه كاتم الصوت، وراح ينصت.. في اللحظة ذاتها دفنت (ريجي) رأسها بين الأعشاب وراحت تصلي.

راح (ليو) يتفحص الظلام، ومرت ثوان طويلة..

ثم استدار وقد استرد شجاعته، وعلى بعد أمتار منه كان (مارك) يكتم أنفاسه ويزحف على أربع..

جاء صوت من الجراج يسأل:
- ما كان هذا؟
- لا أدري.. ربما قطة أو شيء كهذا.. وانغلق الباب..
عد (مارك) من واحد إلى مائة، ثم هرع ليلحق بـ (ريجي) خلف الأشجار، وراح يلهث..
قالت له هامسة:
- (مارك).. هؤلاء من رجال (مولدانو)..
مافيا.. معهم مسدسات ومدي.. إنهم الأقوى، وقد خسرنا وانتهى الأمر.. فلنعد.
لكنه لم يجب.. ظل يرمق المرآب المظلم..
وبدأت تفهم شعور (ريكي) الصغير حين كان يتوسل إليه كي يرحلا، بينما هما يرقبان سيارة المحامي وخرطوم الغاز..
فجأة زحف على أربع، وبحث عن ثلاثة أحجار انتقاها بعناية من ينتقي ثمرة طماطم في السوق..
ثم زحف نحو دار الجيران..

☆ ☆ ☆

اثنان وعشرون..

كان مستر (بالانتين) يتقلب في فراشه.. إنه في الستين من عمره، وقد أجرى جراحة (ديسك) في ظهره منذ عام، ومن لحظتها صار ينام بصعوبة..

سمع صوتا.. هل هو صوت؟ ما من موضع آمن في (نيو أورليانز)، وقد دفع ألفي دولار ثمنا لجهاز إنذار ضد اللصوص.. إن الجريمة في كل مكان.

سمع تهشم الزجاج، فنهض سريعا وأيقظ امرأته، ثم أخذ البندقية من الخزانة.. هرع إلى الصالة وأضاء النور، وأمرها:

- أطلبي الشرطة.. رقم 911.

ثم جرى إلى المطبخ وضغط أزرار جهاز الإنذار.

☆ ☆ ☆

سمع (ليو) صوت تهشم الزجاج، وتلاه صوت صفارة الإنذار.. بعدها رأى رجلا في منامة حمراء يحمل بندقية ويجري نحوهم..

صاح (إينوشي) الغارق في العرق، والذي ابتل قميصه كله:

- ما هذا؟

- لا أعرف.. لكن الأوغاد المجانين يحملون بنادق.

ونظروا من النافذة فرأوا المستر (بالانتين)..

كان (بالانتين) يمقت (نيو أورليانز)، ويمقت المافيا، والمتسكعين الذين يحاولون السطو، ويمقت الحياة في خوف مستمر كهذا.. كان يمقت كل هذا وقد فاض به، لذا صوب

البندقية إلى أعلى وراح يطلق الرصاص.. هذا سيعلم الأوغاد أنه جاد..

في الوقت ذاته وقفت زوجته في النافذة، وراحت تصرخ بعد كل طلقة وسرعان ما وصلت أول سيارة شرطة وسرينتها تعوي، وأضواؤها تعمى الأبصار.

هرع الثلاثة إلى الباب، وركضوا بين الأحراش متعجلين، محاذرين أن يسمعهم أو يراهم أحد.

قالت (ريجي) لـ (مارك):

- أنت مجنون..

وكانت بحق تعتقد الآن أن عميلها غير متزن عقليا.. واستطاعت أن ترى الثلاثة الرجال يبتعدون.. كانت ترتجف وقد أوصلها صوت الرصاص إلى حافة الجنون.. الطلقة كانت هي القشة التي قصمت ظهر تحملها..

وعلى صوت الطلقات، صحا الجيران جميعا وانفتحت النوافذ.. وامتلأ المكان بالأضواء..

وراحوا يتبادلون الأسئلة، ودبت الحياة في الكلاب..

وساعد رجال الشرطة المستر (بالانتين) على إصلاح زجاج النافذة بشريط لاصق، ثم بعد ربع ساعة ساد الهدوء ورحلت السيارات.

ظل (مارك) و (ريجي) ينتظران..

وبعد قليل غادرا المكان.

☆ ☆ ☆

أضاء الهلال فناء (رومي) والجراج.. ومشت (ريجي) بقدم منملة مخدرة.. إنها لم تحب ترك مكانها في الأحراش.. الأحراش

التي حمتها من المافيا والشرطة والجار المجنون.. بشكل ما اعتادت وألفت الاختباء هناك.
قالت له:
- هذا كاف جدا.. هيا إلى السيارة..
- لا أحسب من مصلحة أحد الرحيل الآن..
- ولماذا؟
سألته عالمة أن لديه حجة قوية.. إنها لم تربح أي جدل معه منذ ست ساعات..
- في الغالب ينتظر هؤلاء الرجال بعيدا حتى تستقر الأمور، ولو رحلنا لكان من السهل أن نقابلهم.
تواري الهلال وصارت الأشجار أكثر قتامة.. أحست بأنها لا تجرؤ على تركه.. من الغريب أنها تطلب الأمان في صحبة صبي عمره أحد عشر عاما.
قال لها:
- سأزحف إلى الجراج لألقي نظرة.. مجرد نظرة...
وبدءا يزحفان من جديد.. كان (مارك) يتهيب الجار المجنون ذا البندقية.. من العسير أن ينام الرجل ثانية بعد كل هذه الأحداث، ويكفيه أن يرى ظلا كي يفرغ رصاص بندقيته فيه.
كانت رائحة الجراج كريهة كأن به حيوانا ميتا يتعفن في الشمس.. وغريزيا غطت (ريجي) أنفها..
- إنني أشعر بالغثيان..
قالتها، وهي ترمق ما فعله الرجال.. لو انتظرا عشر دقائق أخرى لوصل الرجال إلى الجثة وأخرجوها..
التقط (مارك) الإزميل وشق به البلاستيك الأسود الذي بدأ يتكشف تحت الخرسانة.. فهمست (ريجي):

- لا تفعل!

هنا وقف (مارك) مذعورا، وصوب الضوء على الوجه المتحلل للسناتور (بويت)..



هنا وقف (مارك) مذعورا ، وصوب الضوء على الوجه المتحلل للسناتور (بويت) .. تراجعت (ريجى) للوراء فاصطدمت ببعض العلب المعدنية ..

تراجعت (ريجي) للوراء فاصطدمت ببعض العلب المعدنية، التي تساقطت فأحدثت صخبا مريعا وسط الصمت.. حاولت الاتزان فأحدثت صخبا أكثر..

- ششش! فلنذهب!

قالها (مارك) وهو يدعوها إلى الابتعاد زحفا..

وهرعا يتواريان ما بين الأحراش حيث كانا منذ قليل، وهمس وهو يرتجف:

- هل رأيت وجهه؟

وسرعان ما كانا يرجعان إلى سيارتهما الواقفة في ساحة الانتظار..

وبعد دقائق كانت السيارة تشق طريقها على الطريق السريع شبه الخالي.. إنها الثانية والنصف صباحا..

لم يفارق الوجه الميت ذاكرتها، وتمنت أن تنساه لكنها لم تستطع.

قال لها (مارك):

- يجب أن نتحرك سريعا.. فهؤلاء القوم سيعودون لاسترداد الجثة.

وبعد صمت طويل سألها:

- هل تثقين بالمباحث الفيدرالية؟

- أظن هذا.. وعلى العموم هم يملكون اللعبة الوحيدة في المدينة.

- وعليّ أن ألعب معهم؟

- ليس أمامك حل آخر..

☆ ☆ ☆

ثلاثة وعشرون..

وفي الفندق اغتسل (مارك)، وارتدي الثياب الجديدة التي اشترتها له.. ثم جلس جوارها على الفراش، وقال:

- أنا ضائع يا (ريجي).. لا أعرف أين أذهب بعد هذا..

ودمعت عيناه.. لقد انهار الفتى الواثق الذي كان يتحدى المافيا منذ قليل، وعض شفته..

ارتجف وبدأ يبكي.. فاحتضنته.. لم يحاول أن يتظاهر بالقوة.. بكى دون عار.. بكى دون خجل..

من جديد عادت هي المحامية وهو العميل.. المحامية التي تتخذ القرارات وتتحرك بثقة..

دق جرس الهاتف جوار فراش (ترومان)، فتأمل المنبه.. إنها الرابعة صباحا.. رفع السماعة فجاء صوت (ريجي) يقول:

- هاي (لاري)..

كاد يقول شيئا عن الوقت، ثم عدل عنه.. بالتأكيد هناك شيء مهم..

- أين أنت؟

- أنا في (نيو أورليانز).. علينا أن نتكلم، وكلما كان هذا أسرع كان أفضل.. لقد رأيت الجثة وشممتها.. كان هذا منذ ساعتين..

- أين أنت الآن؟

- أنا أتكلم من هاتف عمومي فلا داعي للألعاب الذكية.. إن من دفنوا الجثة عادوا لاستردادها أمس.. وفي الغالب سيحاولون ثانية..

لقد جئنا ورأينا وغزونا.. لو فعلت ما اطلبه ستحصل على الجثة اليوم..

- أي شيء.. أي شيء تطلبين يا (ريجي)..
- إنها صفقة.. ستقابلني عند حانة (رين تري) في (ميتيري).. كم تستغرق من الوقت لتصل إلينا؟
- خمس وأربعين دقيقة..
- كلما جئت أسرع حصلت على الجثة أسرع.. ولا أريد (فولتريج) وإلا ألغيت الصفقة بالكامل.

☆ ☆ ☆

بعد خمس وأربعين دقيقة كان (ترومان) و (لويس) يدخلان الحانة في (ميتيري)، وقد بدت عليهما العصبية..
كانت (ريجي) جالسة إلى منضدة، ترشف القهوة السوداء بادية الإرهاق..
قال لها (لويس):
- صباح الخير يا مس (لاف)..
- اسمي (ريجي) ..
وأخرجت ورقة ناولتهما إياها، وقالت:
- هذه ثلاث عيادات لطب الأطفال النفسي.. ستختار الأسرة عيادة منها لعلاج الصغير (ريكي)..
وضع (لويس) القائمة في جيبه، وحاول أن يبدو مسيطرا لكنه فشل.. بينما أضافت (ريجي):
- هناك عدة شروط لا تناقَش.. نفذاها
وستحصلان على الجثة قبل أن يلقيها (مولدانو) في المحيط.. هل جئت بطائرة خاصة يا مستر (لويس)؟
- نعم..
- لكم واحد تتسع؟

- تتسع لعشرين راكبا..

- جميل.. اتصل بـ (ممفيس) الآن، واطلب حضور آل (سواي) من المستشفى مع الطبيب وسكرتيرى (كلينت) على متنها..

- لا بأس..

- سنقابلهم في المطار، وحين يصير آل (سواي) آمنين على ظهر الطائرة، سأخبرك بمكان الجثة.. إن الأسرة كلها ستدخل برنامج حماية الشهود.. إن المرأة ستحتاج إلى أن تربي أطفالها قليلا، لهذا ستحتاج إلى معاش شهري قدره أربعة آلاف دولار لمدة ثلاث سنوات، بالإضافة إلى مبلغ عشرين ألفا في المصرف..

بحماس قال لها (لويس):

- بالطبع.. بالطبع.. هذا سهل.

- وإذا أرادت أن تعود للعمل، فأنا أريد لها وظيفة حكومية مريحة.. ساعات عمل قليلة وراتب دسم..

- سنغطي كل هذا..

- حسن.. الآن أذهب وأجر مكالماتك الهاتفية.. ولسوف ألقاك هنا بعد نصف ساعة..

☆ ☆ ☆

أربعة وعشرون..

بعد نصف ساعة جاء (لويس) و (ترومان)، وكان مع الأول هاتفان خلويان.. سألته وهو يضعهما على المنضدة:

- كيف حصلت عليهما؟

- أحضرهما بعض رجالي..

- على سبيل المرح؟ كم رجلا من رجالك يحيطون بك الآن؟

حوالي ثلاثة عشر.. من يدري؟ لربما احتجنا إلى بعضهم..

ونظر إلى ساعته، وقال:

- لقد أقلعت الطائرة من (واشنطن) الآن، وستصل إلى (ممفيس) في السادسة والنصف..

رشفت (ريجي) قهوتها.. كانت مرهقة حمراء العينين، لكن الأدرينالين كان يتدفق بشدة في دمها..

وفي السابعة إلا عشر دقائق رن جرس الهاتف، فرفعه وأصغى، ثم قال:

- إنهم في الجو الآن.. الصبي والأم والطبيب و (كلينت)..

نظرت له وابتسمت.. ثم قالت:

- إن الجثة في الخرسانة.. تحتاجون إلى بعض الأزاميل..

شرق بالقهوة التي كان يرشفها، وقال:

- حسن.. هل من شيء آخر؟

- نعم.. ضع اثنين من رجالك عند تقاطع (سان جوزيف) و (كارون دوليه)..

- ليكن...

☆ ☆ ☆

كان (مارك) يجلس بثياب الخروج في الفندق، وقد حزم حقيبته.. سمع طرقات على الباب، ثم برز وجه (ريجي) لكنها لم تدخل، بل طلبت منه الذهاب معها.. واستطاع أن يرى وراءها أحد عملاء المباحث الفيدرالية.

وفي الخارج كانت السيارة واقفة وسط ثلاث سيارات أخرى تزخر بعملاء المباحث.. وانطلق الموكب نحو المطار.

- هل أخبرتهم بمكان الجثة؟

- لا.. ليس قبل أن تقلع طائرتك.

وجالسا في مؤخرة السيارة السوداء، وسط كل رجال الشرطة هؤلاء، شعر (مارك) بأهمية بالغة.. وبدأ يسترخي..

☆ ☆ ☆

وقف (مارك) في الحظائر يرمق الطائرات منبهرا، بينما رجال المباحث يقفون في كل مكان..

دنا منه (ترومان) وصافحه قائلا:

- هل تذكرني؟

- نعم.. قابلتك في المستشفى..

- هل تريد أن ترى الطائرات عن قرب؟

- هل هذا بوسعي؟

وضع (ترومان) - الذي صار ودودا فجأة - يده على كتف (مارك)، واقتاده بين الطائرات الواقفة يريه إياها، ويشرح له أنواعها..

وقف (لويس) يتأمل (مارك)، ثم قال لها:

= إنه صبي لطيف..

قالت:

- نعم.. أحيانا يتصرف كالإرهابيين، وأحيانا يبكي كطفل صغير..
- إنه طفل صغير فعلا..
- أعرف.. لكن إياك أن تخبره بهذا حتى لا تضايقه.
- هل استقررت على مكان الرحيل؟ إن الطيار يجب أن يرسم خطة الرحلة من الآن
- يريد أن يرى الجبال.. ويريد مكانا باردا بعيدا عن حر (ممفيس)..
- إذن لتكن (فانكوفر).. إنها جميلة..
- أترسلونه خارج البلاد؟
- لم لا؟ لدينا شهود كثيرون خارج الولايات المتحدة على كل حال..
ثم ساد الصمت، وبعده سألها..
- هل كنت تعرفين؟
- ليس حتى أمس.. لكن (مارك) كان يعرف كل شيء من البداية..
- هل تشعرين بخوف منهم؟ أعني المافيا بالطبع.
- ولم؟ أنا مجرد محامية..
- لن تعرفي أبدا طريقة تفكيرهم.. إن مدير المباحث الفيدرالية يريد أن نراقبك ونحرسك لمدة ستة أشهر بعد انتهاء محاكمة (مولدانو)..
- لكن أرجوك دون أن أشعر بذلك.
- إن لدينا وسائلنا..
وفي الجو ظهرت الطائرة المرتقبة.. راحت تدنو أكثر فأكثر..
وأخيرا تعانق (مارك) وأمه.. احتضنته بينما هي تفكر في خنقه، وقالت لـ ((ريجي):

- هل تفهمين ما أشعر به؟ منذ أسبوع كنت عائدة للبيت لأجد (ريكي) مريضا، والآن على أن أكون شخصا آخر في عالم آخر..

وبدأت محركات الطائرة تهدر من جديد، فمشت الأسرة إلى باب الحظيرة.. وصافح (ماكتون) (مارك) في حرارة، فقال له الأخير:

- شكرا لك يا سيدي.. لقد كنتَ (وجع دماغ)!

ابتسم (ماكتون)، وقال:

- أؤكد لك يا بني أنك كنت (وجع دماغ) أكثر لي..

وعند منتصف المسافة إلى الطائرة تصلب (مارك) شاعرا بالفزع.. إنه لم يتصور قط أنه سيترك (ريجي) خلفه.. لسبب ما حسبها ستكون معه إلى الأبد.. أو على الأقل حتى يستقر في عالمه الجديد الأمن..

وقف بلا حراك.. كانت هناك مع (كلينت) ورجال المباحث الفيدرالية.. استدار لها فتركت الواقفين ومشت نحوه.. عض على شفته وسألها:

- ألن تستطيعي المجيء معنا؟

برغم أنهما ناقشا الموضوع من قبل مرارا.. فهزت رأسها ودمعت عيناها، وأمسكت بكتفيه.. وقالت:

- لا أستطيع يا (مارك).. - ولثمت خده - لسوف أفتقدك..

- ولن أستطيع أن أراك ثانية؟

- نعم يا (مارك).. لن تراني ثانية..

وخطر لها أن تخطفه وتأخذه ليعيش عند أمها.. هناك يمكنه أن يأكل كل السباجيتي والآيس كريم الذي يريده..

ثم نظرت إلى باب الطائرة وأشارت إلى أمه الواقفة هناك..

للمرة الأولى لم يخجل (مارك) من البكاء أمام الجميع..

☆ ☆ ☆

خمسة وعشرون..

بعد دقائق بينما الطائرة عند نهاية الممر، مسحت (ريجي) الدموع عن عينيها، وقالت:

- أعتقد أنني سأعمل في العقارات.. لم أعد تحمل المزيد من هذا..

قال (كلينت):

- يا له من فتى!

هنا جاء (ترومان) وراءها، فأخرجت شريط الكاسيت من حقيبتها وناولته إياه، ثم قالت:

- الجثة في جراج منزل (جيروم كليفورد) تحت قارب.. العنوان 886 شرق (بروكليم).. استدار وأخرج جهاز لاسلكي وتكلم فيه، وسرعان ما وثب عملاء المباحث الفيدرالية إلى سياراتهم وانطلقوا..

قال لها (ترومان) وهو يبتعد ليلحق برجاله:

- شكرا يا (ريجي)..

نظرت إلى السماء.. إلى الطائرة المحلقة في الأفق، وقالت:

- لا تشكرني أنا.. اشكر (مارك)...

جون جريشام

1993

(تمت بحمد الله)

ساعة واحدة لا أكثر؛ قبلها كان (مارك سواي) مجرد صبي يلعب في الغابة، وبعدها صار الفريسة المفضلة لوحشين شرسين: عصابة (المافيا) من ناحية، ورجال المباحث الفيدرالية من ناحية أخرى.. (المافيا) تريد قتله لأنه يعرف أكثر من اللازم، والمباحث الفيدرالية تريد اعتقاله لنفس السبب.. وأمله الوحيد والأخير هو محامية مغمورة بلا خبرة تقريبا.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- تعبير قانوني شائع في توجيه الاتهام في الولايات المتحدة: الشعب ضد فلان.

[←2]
- الشرطة والمباحث الفيدرالية جهتان مختلفتان تماما، ومتنافستان في الغالب.

[←3]

- التعديل الخامس في الدستور الأمريكي.. يسمح للشاهد بالا يتكلم لو كانت شهادته تؤذيه شخصيا، كما يمنع محاكمة الشخص مرتين بنفس الجريمة.

[←4]

- اتفاق (ميراندا) تم إدخاله في القانون الأمريكي عام 1966، وهو يرغم رجال الشرطة على أن يقول للمتهم: (كل ما ستنطق به قد يستخدم ضدك في أثناء المحاكمة) و (من حقك أن تلزم الصمت).. ولهذا فصمت المتهم في غياب محاميه أمر مشروع..

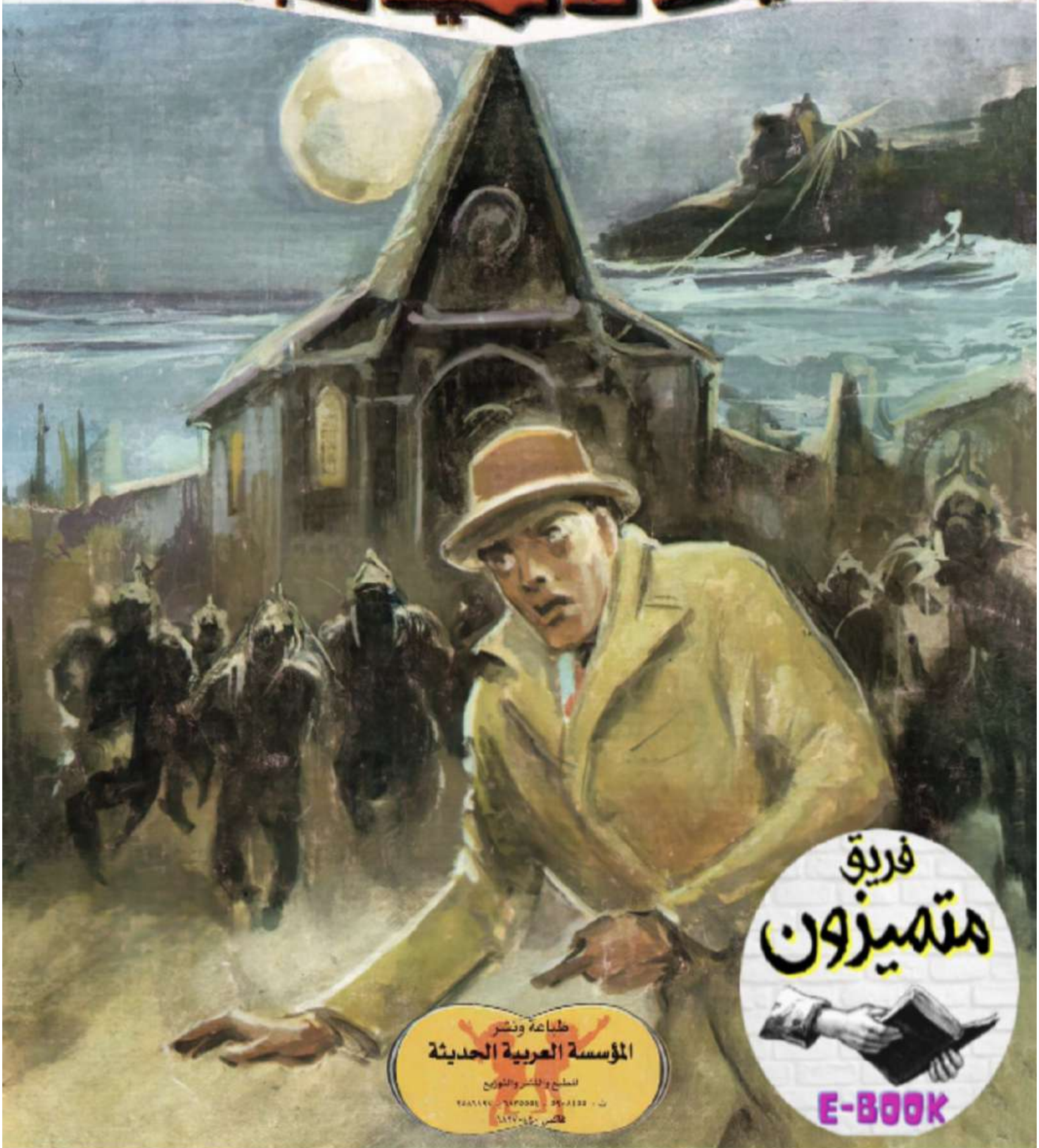
[<-5]

- سبق أن شرحناه في هامش صفحة (٢٩)..

[←6]

يهدف برنامج حماية الشهود إلى إبقاء الشهود بعيدين عن إيذاء (المافيا)، وبالتالي يعطيهم فرصة الكلام دون خوف.. وتفاصيل البرنامج هي ما قاله (لويس) للقاضي.

روايات عالمية للجيب 36



ماوراء العالم

قصة : چون جريشام
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (36)

ما وراء العالم

قصة: هـ. ب. لافكرافت
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

(هـ. ب. لافكرافت)!

لماذا يملك كل كتاب الرعب تقريبا هذه الأسماء المفزعة ذات الرنين الكابوسي؟ وإلى أن نكتشف يوما ما سر هذه الظاهرة، نتحدث هنا في عجالة عن (لافكرافت) أهم كتاب الرعب للقرن العشرين.

(هـ. ب. لافكرافت) مدرسة متفردة من مدارس أدب الرعب ثقيل الوطء، وهي مدرسة قد لا نجد لها شبيها إلا عند أمريكي آخر هو (إدجار آلان بو) كلا الأديبين ينتمي أساسا إلى مدرسة كبرى من مدارس الأدب الرومانسي، هي الرعب القوطي.. أي الرعب الشبيه بعوالم الكوابيس بالضبط. رعب الغموض والقلاع المظلمة والبروق والرعود، والشرور المستطيرة والنفوس المعقدة المجنونة.. ومن أدباء هذه المدرسة (ماري شيللي) (وماتيورين) و (برام ستوكر) و(بكفورد) و (م. لويس) و (آن رادكليف). لكن (لافكرافت) استطاع أن يضفي على الرعب شاعرية أدبية معقدة، مع خلفية من الهواجس النفسية المظلمة ذات مذاق خاص، حيث الخطر ينبع من الداخل كما يفيض من الخارج. وصارت له مفردات عالمه الخاصة التي يعرفها قراؤه كأسمائهم مثل (نكرومونيكون) - (كتولو) - (آرخام) - (أزوث) - (العزيفAzif) الخ...

والملاحظ أنه يشير إليها في أكثر من قصة حتى إن كثيرين صاروا يعتقدون أنها حقيقية.. وفي بعض خطاباته الخاصة يصف لصديق الطريقة المثلى لنطق لفظة Cthulu التي حير نطقها الكثيرين، فيقول إن عليك أن تنطقها من حلقك مع تثبت

طرف اللسان على سقف الفم، والنباح لتخرج الكلمة (كت – هلو - لهو)!! لأن لسان البشر القاصر لا يستطيع نطق الاسم بالشكل الصحيح! بل ما زال كثيرون يبحثون عن النسخة الأصلية من كتاب (نكرومونيكون) السحري، الذي كتبه شاعر يمني اسمه (عبد الله الحظرد) حسب زعم (لافكرافت)..

ولد (هوارد فيليب لافكرافت) في أغسطس عام 1890 في (بروفيدنس) ب (رود آيلاند) وتربى مع أمه وجده بعد وفاة أبيه الغامضة (ظل سنتين يقال له أن أباه نائم الآن) وكان مولعا بالقراءة وبصفة خاصة (ألف ليلة وليلة) التي قرأها وعمره خمسة أعوام، ولسوف يدرك دارسو أدبه يوما ما أن (ألف ليلة) قد تركت بصمة لا تمحى في كتابات الرجل، وفي هذه الفترة أطلق على نفسه اسم (عبد الله الحظرد) وهو نفس الاسم الذي كتب به روايته الرهيبة (نكرومونيكون) كما قلنا. وفي العام التالي اكتشف الأساطير الإغريقية وقرأ الإلياذة والأوديسة.. ولعب جده دورا مهما في جعله يحب حكايات الرعب القوطية.

كان قليل الانتظام في المدرسة، بلا أصدقاء تقريبا، لكنه كان يدرس في مدرسته الخاصة الزاخرة بقراءات لا تنتهي. وفي سن المراهقة أصدر بنفسه مجلة دورية عن علم الفلك، وراسل إحدى الصحف المحلية. ثم توفي جده وعانت أمه الكثير من المشاكل المادية، مما اضطرهما إلى ترك البيت الجميل الذي تربى فيه الأديب، وأصابه انهيار عصبي حرمه من دخول الجامعة، وقد ظلت هذه النقطة تعذبه طيلة حياته..

فيما بعد التحق برابطة الأدباء الهواة المتحدين عام 1914 وترقى إلى أن صار رئيس الرابطة، وكانت هذه أهم خطوة في حياته، لأنه لم يكن واثقا قط مما إذا كان يملك حاسة الأدب أو يفتقر إليها وكتب أول قصصه الخيالية المرعبة (الوحش في

الكهف) - تقرؤها هنا - و(الخيميائي) ولاقى نجاحا أقنعه بأن يكرس قلمه لهذا النوع من الأدب.. وفي الأدب كتب الكثير جدا من الشعر، مثله مثل (آلان بو) مواطنه الأشهر.

وفي الوقت ذاته كان يراسل عددا هائلا من الأصدقاء والمعارف، حتى صار بالفعل من أهم من كتبوا أدب الرسائل في هذا القرن. وفي العام 1921 قابل (سارة).. المرأة التي ستكون زوجته، وهي مهاجرة سوفييتية تكبره في العمر بسبعة أعوام.

وتزوجا في العام التالي، وعاش معها في شقتها في (بروكلين) وكتب (لافكرافت) أسوأ كوابيسه القصصية مثل (الرعب في ردهوك) و(هو) متأثر بجو (نيويورك) الكئيب الذي لم يحبه قط، وفي عام 1929 تم الطلاق وعاد هو إلى (بروفيدنس) التي أحبها بعمق. كانت هذه آخر وأهم عشرة أعوام من عمره، وفيها سافر كثيرا جدا وكتب أهم رواياته (نداء كتولو) و(في جبال الجنون) و (ظل الزمن) كما كان يقرأ كثيرا جدا وفي كل موضوع من الفلك إلى التاريخ إلى النحت إلى السياسة..

ومع العام 1932 صارت قصصه أكثر تعقيدا وصعوبة، وصار يجد عسرا في بيعها، لذا راح يكسب عيشه كمصحح لقصص الأشباح الرخيصة.

وفي العام 1937 اكتشف الأطباء أنه مصاب بحالة متقدمة من سرطان الأمعاء، وسرعان ما توفي في العام نفسه.

كان (لافكرافت) يتنبأ بنسيان أعماله بعد موته، لأنه لم ينشر قط كتابا بالمعنى الصحيح وربما تعتبر رواية (ظل فوق إينزماوث - 1936) هي العمل الوحيد له الذي نشر في كتاب - وهي بين يديك الآن - وفيما عدا ذلك كانت أعماله العديدة مبعثرة في المجلات والدوريات. وبعد وفاته تطوع تلميذاه اللذان شجعهما كثيرا (أوجست درليث) و(دونالد وانديري) بجمع أعماله وكونا

دار نشر اسمها (بيت آرخام)، وصارت كل إبداعاته متاحة للقراء وطلاب الأدب في كتب حسنة الطباعة والتغليف.

في هذا الكتيب والكتيب الذي يليه، نقرأ بعض القصص القصيرة والروايات القصيرة لهذا الأديب العظيم، وقد حاولت تخفيف بعض الفقرات، لكني لا أنصح صغار السن بتاتا بقراءة هذين الكتيبين، وهذه ليست دعاية لهما بالمناسبة، بل هي الحقيقة!

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

ظل فوق إينزماوث..



1

في شتاء عام 1927 - 1928 قام موظفو الحكومة الفيدرالية بإجراء تحقيق سري وغامض، بصدد أمور معينة في مرفأ (اينزماوث) العتيق في (ماساتشوستس). ولم يعرف الجمهور بالأمر إلا في فبراير مع سلسلة واسعة من الاعتقالات، تلتها عمليات حرق وتفجير بالديناميت - بعد إنذار الأهالي طبعا - لعدد كبير من المنازل العتيقة المتآكلة عبر الساحل المهجور. واعتبر غير الفضوليين هذه الصدامات جزءا من الحرب الحكومية المستمرة ضد الخمور.

إلا أن متابعي الأخبار المخلصين تساءلوا عن هذا العدد المذهل من الاعتقالات، والقوات الكبيرة المكلفة بهذا، والسرية التي تحيط مصير المعتقلين. لم تكن هناك محاكمات ولا حتى اتهامات محددة.. بل إن أيا من المعتقلين لم يشاهد بعد هذا في أي من سجون الدولة المعروفة وكانت هناك إشاعات عن معسكرات احتجاز، وعن توزيع المعتقلين على السجون الحربية وسجون الأسطول، لكن لم يتضح شيء.. وكانت (إينزماوث) نفسها تخلو من السكان تقريبا فلم يبدأ ركب الحياة فيها إلا مؤخرا..

تعالت شكاوى بعض منظمات الحريات وحقوق الإنسان، لكن الحكومة قابلت ممثليها بمناقشات هادئة واثقة، ونتيجة لهذا صار دور هذه المنظمات سلبيا.. وصار مندوبو الصحف أكثر تحفظا - وإن بدا أنهم في النهاية في صف الحكومة - فقط صحيفة واحدة من صحف الفضائح (تابلويد) تحدثت عن

طوربيدات انطلقت من غواصة نحو (شراع الشيطان) القريب من (إينزماوث)..

كان الناس يتهامسون ويغمغمون، لكن أشياء كثيرة كانت قد علمتهم أن يحتفظوا بأسرارهم، وما كان يجدي أن تضغط عليهم.. بالإضافة لهذا كانوا يعلمون أقل القليل.. لأن المستنقعات المالحة الشاسعة غير المأهولة، أبقتهم داخل الساحل بعيدا عن (إينزماوث)...

لكنني في النهاية قد قررت أن أخرق الحظر على الكلام في هذا الموضوع، وأحسب أن هذا لن يحدث أذى عاما اللهم بعض النفور والتقزز الناجمين عن توضيح ما وجده أولئك القوم المذعورون في (إينزماوث).. بالإضافة لهذا فإن ما وجده القوم يحتمل أكثر من تفسير.. لا أعرف بالضبط ما قد حُكي من القصة كلها، لكنني كنت أقرب من أي رجل عادي آخر إلى هذا الموضوع، وقد اكتسبت انطباعات عنه قد تقودني إلى سبل مأساوية.

كنت أنا من فر من (إينزماوث) ملهوفا في ذلك الصباح الباكر يوم 16 يوليو عام 1927 ومن انهالت أسئلته ومناشداته للحكومة كي تتدخل.. وكنت أوثر الصمت ما دام الأمر طازجا غير مؤكد بعد.. لكن الآن قد صارت القصة قديمة، وولى اهتمام الناس بها، ولدي رغبة غامضة في أن أهمس بحكاية الساعات الرهيبة التي قضيتها، في ذلك المرفأ سيئ السمعة الذي يعج بالموت والشاذ من الأمور.. ومجرد السرد يعيد لى الثقة في قدراتي، ويطمئنني أنني لم أكن أول من سقط فريسة هلاوس الكابوس، كما أنه يساعدني على حزم أمري في القرار الذي أنوي اتخاذه..

لم أكن قد سمعت عن (إينزماوث) قبل اليوم الذي رأيتها فيه - وحتى هذه اللحظة - لآخر مرة.. كنت أقوم بجولة في (نيو إنجلند) أتملى جمال الطبيعة وأجمع التحف الأثرية، وأدرس المعمار والأنساب، وكنت قد أزمعت أن أتجه من (نيوباريبورت) العتيقة إلى (آرخام) حيث نشأت أسرة والدتي. كنت أسافر بالقطار باحثا عن أرخص الطرق دوما. وقد قيل لي إن القطار البخاري هو أسرع طريقة للوصول إلى (آرخام)، وصدمني سعر التذكرة المرتفع. تعاطف موظف المحطة ذو الوجه المتنمر مع رغبتي في الاقتصاد، وعرض على عرضا خاصا:

- يمكنك أن تستقل هذه الحافلة التي لا يحبها الناس هنا.. إنها تعبر (إينزماوث) التي لعلك سمعت عنها.. لهذا لا يحبونها هنا.. إن صاحبها من (إينزماوث) ويدعى (جو سارجنت) لكنه لا يتقاضى أجرا.. ولا أرى الكثيرين يركبونها على كل حال سوى سكان (إينزماوث).. إنها تغادر من الميدان أمام صيدلية (هاموند) في العاشرة صباحا والسابعة مساء.

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها عن (إينزماوث) التي تغمرها الظلال. إن الإشارة إلى مدينة ليست على الخرائط أو أدلة المسافرين، لأمر جدير بأن يستهويني، وشعرت بفضول غريب. إن المدينة التي تبعث هذا النفور لدى جيرانها لهي مدينة جديرة بزيارتها. سألته المزيد من المعلومات عن (إينزماوث) فقال في لهجة من يعرف الكثير:

- (إينزماوث)؟ حسن.. إنها مدينة عجيبة عند ثغر (مانوكسيت).. كانت مدينة ومرفأ قبل حرب 1812 لكنها تلاشت في المائة عام الأخيرة.. إن بها مساكن خاوية أكثر مما بها من سكان.. لا نشاطات سكانية ما عدا صيد السمك وأبي جلمبو.. لديهم بقايا مصفاة ذهب قديمة.. كانت شيئا ضخما

يوما ما، ولا بد أن صاحبها العجوز (مارش) أكثر ثراء من (قارون).. لكن يبدو أنه أصيب بمرض جلدي يجعله يتوارى عن العيون.

«لماذا يكره الجميع (إينزماوث)؟ حسن أيها الشاب.. لا يجب أن تصغي كثيرا لما يقول الناس هنا.. من الصعب جعلهم يتكلمون، لكنهم متى بدءوا الكلام لا يكفون أبدا.. إنهم يتهامسون بأشياء عن (إينزماوث) منذ مائة عام.. بعض الأشياء تجعلك تضحك مثل كلامهم عن كابتن (مارش) الأب العجوز وصفقاته مع الشيطان كي يخرج له العفاريت من الجحيم ليعيشوا في (إينزماوث).. عن طقوس دينية غامضة كانت تدور قرب المرافئ التي وجدها القوم عام 1845.. لكن هذه القصص لا تخيل عليّ.

يجب برغم هذا أن تسمع ما يقول بعض الشيوخ عن النتوء الأسود قرب الشاطئ.. يسمونه (شراع الشيطان)، وهو يظل فوق مستوى الماء أكثر الوقت، لكنك لا تستطيع أن تعتبره أكثر من جزيرة.. والأسطورة تقول إن هناك حشدا من الشياطين يعيشون ويتحركون في الكهوف الموجودة قرب قمته، وقد اعتاد البحارة القيام بجولات طويلة كي لا يمروا قربه. ويزعم البعض أن كابتن (مارش) كان يتسلق هذا النتوء في بعض الليالي حين يكون المد مناسبا.. لربما فعل هذا.. إن التكوين الصخري مثير للاهتمام حقا، لكن الأساطير تقول إنه كان يجرى صفقاته مع الشياطين هناك.. والحقيقة هي أن الكابتن هو من أعطى تلك السمعة السيئة للنتوء.

«كان هذا قبل وباء عام 1846 الذي أودى بنصف سكان (إينزماوث).. لم يتصوروا ما يحدث، وفي الغالب كان هذا وباء غريبا جلبته السفن من الصين أو سواها. لا بد أنه لم يعد من السكان أكثر من مائتين أو ثلاثمائة الآن..

أضف لهذا أن المكان منعزل عن باقي البلاد تحاصره الغدران والمستنقعات، وليس بوسعنا معرفة ما يدور هناك حقا.. لابد أن الكابتن (مارش) العجوز قد جلب معه بعض العينات البشرية الغريبة من الخارج، حين كانت سفنه الثلاث تجوب البحار في العشرينات.

«ثمة اختلاف عرقي معين في سكان (إينزماوث) ولا أدري كيف أشرحه، لكنه سيجعل جلدك يقشعر.. لسوف تلاحظه في (سارجنت) لو ركبت حافلته.. إن لبعض هؤلاء القوم رؤوسا صغيرة غريبة وأنوفا مسطحة وأعين جاحظة لا يبدو أنها ترمش أبدا.. جلودهم أيضا ليست على ما يرام.. إنها خشنة ملأى بالبثور، وأعناقهم مجعدة.. لاحظ أيضا أيها الشاب أن الشيوخ أكثرهم غرابة في المظهر.. إن الحيوانات تمقتهم، وكانت لديهم مشاكل عديدة مع الخيول قبل اختراع السيارات.. إن خليجهم مليء بالأسماك في كل الأوقات، لكن حاول أن تصطاد بعض السمك عندهم، ولسوف يطردونك على الفور.

«نعم.. هناك فندق في (إينزماوث) يدعى (منزل جيلمان) لكني لا أعتقد أنه جيد.. أقترح أن تركب في العاشرة صباح غد، فتلحق بالحافلة المتجهة إلى (آرخام) في الثامنة مساء، فلا تضطر إلى المبيت في (إينزماوث)..

كان هناك رجل يدعى (كازي) قد أمضى ليلة في الفندق، وقد أثار فزعه صوت ظل يتردد طيلة الليل، وقد شعر أن القوم في (إينزماوث) يراقبونه كحراس، ووجد أن مصفاة الذهب مكان عجيب.

وما رآه يتفق مع ما سمعته.. ثمة دفاتر في حالة سيئة بلا حسابات واضحة..

«من الألغاز الدائمة هنا ذلك المكان الذي يحصل آل (مارش) منه على الذهب الذي يصفونه.. كانت هناك إشاعات عن نوع أجنبي غامض من المجوهرات كان البحارة وعمال المصفاة يبيعونه، وأحيانا كانت نساء أسرة (مارش) يتحلين به.. يقال إن الكابتن (أوبد) قد قايضه في مرفأ ما مع الأهالى الوثنيين، خاصة أنه كان يطلب الكثير من الخرز الزجاجي وسواه من الأشياء التي يجري بها البحارة مقايضة الوطنيين. ثمة قصة أخرى تقول إنه وجد كنز قراصنة في (شراع الشيطان) لكن الجزء الغريب من القصة هو أن الكابتن مات منذ ستين عاما ولم تدخل سفينة واحدة المرفأ منذ الحرب الأهلية، لكن آل (مارش) ما زالوا مهتمين بالحصول على الخرز الزجاجي والحلي الرخيصة. من يدري؟ لعل هؤلاء القوم يحبون ارتداء هذه الأشياء.. يعلم الله أنهم يشبهون في ملامحهم أكلة لحوم البشر في البحار الجنوبية.

وكما قلت لك، فإنه بعد الوباء ربما لا يزيد عدد هؤلاء عن 400 نسمة في البلدة كلها، وهم كما قلت لك يعيشون على بيع الأسماك وأبي جلمبو، ومن الغريب أن ترى كيف أن السمك يظهر بكثرة عندهم وليس في مكان آخر.

«من العسير تماما إجراء حصر سكاني لهؤلاء القوم، ولعلك خمنت أنهم لا يرحبون بالغرباء على الإطلاق هناك. وقد سمعت بنفسي عن موظف حكومي اختفى هناك، كما أن هناك أقاويل عن آخر جن وهو في (دانفرز) الآن.. لا بد أنهم أثاروا ذعره بشكل لا يوصف.. ولهذا لو كنت مكانك، لن أذهب هناك ليلا. لم أذهب هناك قط ولا أرغب في هذا، لكني أحسب الرحلات النهارية لن تؤذيك، برغم أن القوم هنا لن ينصحوك بهذا.»

☆ ☆ ☆

ومن ثم قضيت جزءا من الأمسية في مكتبة (نيوباريبورت) العامة أبحث عن معلومات عن (إينزماوث) وحاولت أن أسأل الناس في المطاعم والمتاجر، لكنهم كانوا يجفلون ويحجمون عن الكلام - كما توقع موظف السكة الحديد. وأدركت أنني سأضيع وقتا ثمينا للتغلب على نفورهم، وشكهم الغامض في أي شخص يبدي اهتماما ما بـ (إينزماوث)، وبالنسبة للمتعلمين منهم كانت (إينزماوث) حالة مبالغا فيها من الانحطاط المدني.

لم تكن كتب التاريخ تحوي الكثير مما يقال، ما عدا أن المدينة أسست عام 1643 واشتهرت ببناء السفن قبل الثورة، ولم يذكر إلا القليل عن وباء عام 1846 كأن في هذا إهانة للمنطقة. بعد الحرب الأهلية انكمش النشاط الصناعي إلى تصفية الذهب لدى شركة (مارش)، وصارت تجارة المشغولات الذهبية هي النشاط التجاري الوحيد بجانب صيد السمك الأبدي.

لم يحاول الأجانب الاستقرار هناك، اللهم إلا مجموعة من البولنديين والبرتغاليين، وقد تفرقوا بطريقة مأساوية. أما أكثر النقاط أهمية فهي تلك المجوهرات الغامضة التي ارتبطت بـ (إينزماوث) وكان وصفها يوحي بشيء ما من الغرابة حتى إنني لم أستطع إبعادها عن ذهني.. وقد ذكر أنها معروضة في متحف (نيوباريبورت). وبرغم أن الوقت كان متأخرا، فإنني قررت أن أرى العينة المعروضة هناك والتي كتب أنها شيء ضخم غريب النسب، يبدو أنه صمم ليزين عمامة، ولقد أرسل معي أمين المكتبة ورقة توصية إلى أمينة المتحف، مس (آنا تيلتون) التي

تعيش قرب المكتبة، وقد قبلت العجوز اللطيفة أن تقودني إلى المتحف المغلق في هذه الساعة.

كانت عيناي مفتوحتين على الشيء الغريب الذي يلتمع في الخزانة.. لم يكن الأمر يحتاج إلى حساسية جمالية زائدة كي أشهق وأنا أرى هذا السحر الغني الغريب، فوق وسادة من المخمل الأرجواني. وحتى الآن أجد من العسير أن أصف ما رأيت..

كان طويلا من الأمام، له أطراف عديمة الانتظام غريبة كأنما هي عمامة مصممة لرأس مشوه. وبدا أن الخامة من الذهب، لكن تألقا غريبا كان يشير إلى سبيكة أخرى من معدن مجهول لا يقل جمالا عن الذهب.. وكان بوسع المرء أن يتأمل هذا الجمال ساعات لا تنتهي.

كنت مفتونا وقلت لنفسي إن هذا بسبب غرابة هذا الطراز من الفن.. كل فن رأيته كان ينتمي إلى تيار عرقي أو قومي ما، إلا أن هذه العمامة لم تكن تنتمي لأية مدرسة فنية أعرفها.. إنها تنتمي لتقنية بارعة بلغت الكمال، لكنها تقنية لا تمت لشرق أو غرب، ولا ماض ولا حاضر.. كأن الحرفي الذي صنعها كان من كوكب آخر.

وعرفت من مس (آنا تيلتون) أن أحد رجال (إينزماوث) قد رهنها مقابل مبلغ تافه من المال، ثم قتل في مشاجرة، وهكذا اشترت الحكومة هذه التحفة من صاحب محل الرهونات فورا، ويقال إن لها أصلا هنديا أو هند-صينيا لكنني أجد أن هذا غير دقيق.. وقالت لي مس (آنا تيلتون) إن محاولات آل (مارش) لم تنقطع قط من أجل شراء هذه القطعة، برغم رفض إدارة المتحف البات لذلك..

قالت لي السيدة الطيبة وهي تقتادني إلى خارج المتحف إنها لم تر (إينزماوث) قط، لكنها تشمئز من ذلك المجتمع الذي ينحدر عن مستويات التحضر، وقالت إن موضوع تلك الطقوس الدينية الغامضة هناك صحيح، وإنه قد أدى إلى تلاشي أكثر الكنائس التقليدية هناك. قالت لي إن تلك الممارسات كانت تتم تحت مسمى (طريقة ديجون السرية) [1]، ومن الواضح أنها عقيدة وثنية مستوردة من الشرق منذ قرن مضى، في الوقت الذي أجدبت فيه مصايد سمك (إينزماوث)..

ويمكن فهم انتشار هذه العقيدة بين البسطاء الذين أرهقهم جلب البحر، ثم عودة الصيد الوفير مع ظهور هذه العقيدة، وسرعان ما سيطرت على المدينة وحلت محل الماسونية وسط هؤلاء القوم.

وكانت هذه أسبابا ممتازة لمس (تلتون) التقية كي تتفادى مدينة الانحلال العتيقة هذه، لكن بالنسبة لي كانت حافزا قويا.. كانت ميولي التاريخية والمعمارية تتحرك، وبصعوبة استطعت أن أغفو تلك الليلة في غرفتي بينما الظلام يتلاشى.

☆ ☆ ☆

2

وقبل العاشرة من الصباح التالى، وقفت مع حقيبة صغيرة أمام صيدلية (هاموند) أنتظر حفلة (إينزماوث)، وإذ دنا موعد وصول الحافلة لاحظت أن المتسكعين يبتعدون عن المكان. من الواضح أن موظف التذاكر لم يبالغ في وصف مقت السكان المحليين لـ (إينزماوث). بعد دقائق ظهرت عربة متسخة بالية لتقف جواري. وأدركت على الفور أنها العربة المقصودة، وتحققت أكثر حين قرأت مسارها المكتوب على الزجاج..

كان هناك ثلاثة مسافرين: رجال غير مهندمين بحقائب متسخة سرعان ما ترجلوا ونزلوا، وكذا فعل السائق - (جو سارجنت) طبعا – الذي اتجه إلى المتجر ليبتاع شيئا ما. وحتى قبل أن أراه غمرني شعور من النفور لا يمكن وصفه أو تفسيره.

وفهمت لم لا يرغب الأهالي في ركوب حافلة يملكها ويقودها رجل كهذا.

تأملته بعناية وهو يغادر المتجر وحاولت أن أفهم سر انطباعي الرهيب. كان رجلا قصير القامة محني الكتفين نحيلا، عمره نحو الخامسة والثلاثين، لكن التجاعيد في عنقه تعطيه سنا أكبر ما لم تدرس وجهه بعناية. كانت له أذنان مشوهتان وله خدان رماديان بلا لحية، ما عدا بضع شعيرات صفراء شحيحة تتلوى بلا انتظام. أما يداه فكانتا كبيرتين لهما لون أزرق رمادي غريب جدا، وأصابع قصيرة بالمقارنة بالكفين. لاحظت كذلك مشيته المتثاقلة وقدميه الهائلتين اللتين لا أعرف كيف وجد لهما حذاءين. كان من الواضح أنه يعمل في مهنة الصيد لأن السمك منحه بعضا من رائحته المنفرة. لم أستطع تحديد نوع

الدم الأجنبي الذي يحمله.. لم يبد لي ذا طابع آسيوي أو بحر متوسطى أو زنجي.. لكنني كنت أرى لماذا يعتبره الناس أجنبيا..
تضايقت لفكرة عدم وجود ركاب آخرين، فإنني لم أحب قط فكرة الركوب وحيدا مع هذا السائق. لكنني في النهاية قهرت مخاوفي، وصعدت إلى الحافلة وقلت له كلمة واحدة (إينزماوث).. لم يقل كلمة واحدة فجلست في مقعد بعيدا عنه لكن في ذات الصف.
بدأت الحافلة البالية تتحرك باهتزازة، ونظرت عبر دخان العادم إلى الناس في الشوارع فلاحظت أنهم لا يرغبون في النظر إلى الحافلة أو لا يرغبون في أن يبدوا ناظرين إليها. أخيرا غادرت الحافلة المدينة، ومضت وسط خضرة الريف غير المتناهية. ومن النافذة بدأت أرى البحر الأزرق بينما نحن نعبر جزيرة (بلام).. الآن دخلنا منطقة تعج بالرمال، ومن حين لآخر كنت أرقب بقايا البنايات وجذوع الأشجار المبتورة، فتذكرت ما كان يقال إن هذه كانت يوما من أخصب الأراضي، وأجملها وأن التغيير جاء مع وباء عام 1846 وقد اعتقد البسطاء أن له علاقة ما بقوى الشر الخفية. السبب الحقيقي كان القطع الأحمق للأشجار قرب الساحل، مما حرم التربة من أفضل حماية لها، وفتح الباب للرمال تذروها الريح.
كنت الآن ألقى (إينزماوث) وجها لوجه.. كانت مساحة واسعة ملأى بالمباني، وبرغم هذا كانت تعاني نقصا غريبا في الحياة الواضحة. ومن بعض المداخن كنت نادرا ما تري دخانا ينبعث.
كنا الآن ننحدر في طريقنا وصار بوسعي أن أرى عدة أسقف متآكلة، ومن بينها رأيت السكة الحديدية الصدئة المهجورة التي غمرتها الأعشاب، وأعمدة البرق التي لم تعد فيها أسلاك.. كنت

أرى المرفأ المهجور، وبعيدا وسط البحر رأيت ما بدا لي وسط المد كخط أسود، يرتفع قليلا فوق الماء لكنه يوحي بشر قديم كامن.

كان هذا كما عرفت على الفور (شراع الشيطان)..

لم نلق أحدا على الطريق، لكننا بدأنا نرى مزارع مهجورة في درجات مختلفة من الخراب، ثم لاحظت بضعة منازل مأهولة وقد علقت الخرق في نوافذها، وتبعثرت الأسماك الميتة في أفنيتها. ومن حين لآخر كنت أرى أطفالا لهم وجوه القردة يلعبون على درجات السلالم المغطاة بالأعشاب. ورأيت بعض الناس، لكن شيئا ما في وجوههم وحركاتهم لم يرق لى كثيرا وإن كنت لم أجد لهذا تفسيرا. ربما رأيت صورة كهذه في كتاب يوما ما، وفي ظروف معينة من الرعب أو الحزن، إلا أن هذا الانطباع فارقني سريعا.

وما كان لي أن أصل إلى وجهتي من دون انطباع منفر قوي، فقد وصلت الحافلة إلى تقاطع به كنائس على الجانبين وبقايا خضرة في المركز.. ونظرت إلى البناية العالية عن يميني، بلونها الذي كان أبيض ثم استحال رماديا متساقطا، وكانت اللافتة قد زالت أكثر كتابتها الذهبية، لكني بصعوبة استطعت قراءة كلمات (طريقة ديجون السرية). فهذه إذن كانت الكنيسة التي تحولت الى ديانة سرية منحلة.

تشتت انتباهي لسماع جرس مشروخ عبر الشارع، فاستدرت سريعا لأنظر من النافذة.. كان الصوت قادما من كنيسة صخرية يبدو أنها من تاريخ أحدث من المباني هنا، وكانت مبنية على طراز قوطي غير متقن، وبرغم أن عقارب الساعة عليها كانت ضائعة فإنني عرفت أنها تعلن الساعة الحادية عشرة..

وفجأة غاب إحساسي بالوقت وسط هلع تملكني قبل أن أتبين حقيقته.

كان باب الكنيسة مفتوحا يظهر مستطيلا من السواد بالداخل ثم عبر شيء ما السواد، ليشعل في ذهني ما يذكرني بالكوابيس، وإن كنت لا أفهم ما الكابوسي فيه بالضبط.

كان كائنا حيا ولو كنت أكثر اطمئنانا لما وجدت ما يخيف فيه. من الواضح أن هذا كان الكاهن يرتدي رداء خاصا بـ (طريقة ديجون السرية) منذ بدلت تلك الأخيرة طقوس الكنائس المحلية. ربما كان الشيء الذي حرك ذلك الفزع في لا وعيي هو تلك العمامة العجيبة التي يضعها على رأسه، وهي نسخة بالضبط من التي رأيتها أمس مع مس (تيلتون)..

الآن صرت أرى عددا بسيطا من الشباب منفرى الشكل على جانبي الطريق.. وكانت الطوابق السفلي من المنازل تؤوي أحيانا متاجر ذات لافتات قذرة. كنت أسمع صوت تدفق مياه يزداد ارتفاعا، ثم عبرت الحافلة جسرا فوق نهر صغير، واستطعت أن أرى شلالين عن بعد، بينما صخب المياه قد صار يصم الآذان.. وأخيرا رأيت مبنى قديما تقول لافتته إن هذا هو (بيت جيلمان)..

سرني أن أترك الحافلة، وترجلت حاملا حقيبتي إلى قاعة استقبال الفندق لأتركها هناك.. كان هناك شخص واحد.. رجل مسن لا يحمل ما بدأت أسميه (سحنة إينزماوث)، وقررت ألا أساله أيا من الأسئلة التي تؤرقني.

غادرت الفندق وبدأت أتفقد المكان حولي، ثم خطر لي أن أتجه إلى أحد محلات البقالة وهو محل من سلسلة محلات لها فروع في كل البلاد، لأنني افترضت أن العاملين به غالبا ليسوا من مواطني (إينزماوث) الأصليين.

كان هناك فتى وحيد في السابعة عشرة من عمره، وسرني أن أتبين ذكاءه ولطفه الواعدين بمعلومات وافرة. وقد أدركت من اللحظة الأولى أنه لا يحب المكان ولا رائحته السمكية الكريهة ولا قومه المخيفين. كان من (آرخام) ولم يكن يود ولا أسرته أن يعمل في (إينزماوث)، لكن سلسلة محلات البقالة أرسلته إلى هنا برغمه، وما كان راغبا في أن يفقد عمله.

قال لي: إنه لا توجد غرفة تجارية في (إينزماوث) ولا مكتبة عامة، وإنني لا يجب أن أظهر شمالي النهر لأن القوم هناك عدائيون أجلاف. بعض الأماكن محرمة تماما كما تعلم، لا يجب - مثلا - أن يدنو المرء كثيرا من مصفاة (مارش) أو الكنائس أو قرب المبنى الخاص بـ (طريقة ديجون السرية). يبدو أن هذه الكنائس تمارس عقائد غامضة غير مقبولة ولا تقرها باقي كنائس البلاد.. ويبدو أن بعض هذه الطقوس تتضمن نوعا من الخلود - بشكل ما - على الأرض.. لقد نصح د. (والاس) - قس الفتى في (آرخام) – تلميذه بألا ينضم إلى أية كنيسة من كنائس (إينزماوث) العجيبة..

أما عن أهل (إينزماوث) فالفتى لا يملك تصورا معينا بصددهم.. إنهم أكثر حذرا وتواريا من الحيوانات في جحورها.. وهم متفاهمون منسجمون تماما ويحتقرون العالم الخارجي كأنهم يعرفون حقائق أخرى للوجود. إن عيونهم التي لا ترمش تجعل رؤيتهم صادمة، كما أن أصواتهم منفرة، تثير الاشمئزاز حين تسمعهم ينشدون ليلا في كنائسهم، خاصة في أعيادهم التي تقع مرتين في العام: في 30 إبريل و31 أكتوبر.

كانوا يحبون الماء بشدة، ويسبحون كثيرا جدا، ويتسابقون نحو (شراع الشيطان). ولو فكرت في الأمر لوجدت أن الشباب منهم كانوا الأكثر ظهورا للعيان بينما شيوخهم هم الأكثر قبحا

وتشوها. وكان الشاب واثقا من أن هناك من هم في حالة أسوأ داخل بيوتهم المغلقة، ولربما في أنفاق مجهولة تزعم القصص وجودها.

قال الفتى إنه لا جدوى من توجيه الأسئلة للمواطنين.. الشخص الوحيد الذي يمكن أن يتكلم هو عجوز مسن جدا لكنه طبيعي المنظر، يعيش في شمال المدينة في مبنى (المطافئ) الآيل للسقوط. هذا الرجل العتيق يدعى (زادوك ألن) وعمره 96 عاما.. مخبول نوعا بالإضافة إلى أنه سكير المدينة. إنه يحكي حكايات كثيرة لا تصدق أكثرها وليدة خياله المضطرب، لكن المواطنين لا يحبون أن يروه يتكلم مع الغرباء. وربما كان هو مصدر أكثر الإشاعات التي يتداولها القوم.



قال الفتى إنه لا جدوى من توجيه الأسئلة للمواطنين ..
الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتكلم هو عجوز مسن جداً ..

لم يكن واحد من غير المواطنين يجرؤ على البقاء خارجا في ساعة متأخرة، ويقال إن هذا غير آمن عموما. بالإضافة إلى أن الشوارع تكون مظلمة بشكل مخيف.

كان العجوز (مارش) يعيش متواريا تاركا إدارة المصفاة لأحفاده، ومن الواضح أن هؤلاء يعانون من مرض عضال.. كانت إحدى بناته لها منظر مروع شبيه بالسحلية وترتدي مجوهرات عجيبة، ربما من نفس الطراز الذي كانت العمامة تنتمي إليه. ويرتدى القساوسة أو الكهنة أو أيا ما كان اسمهم هنا نفس المجوهرات على رءوسهم، لكن من العسير حقا أن تتبين ملامحهم من قريب. وكانت هناك ثلاث أسر مهمة في المدينة هي (آل ويت) و (آل جيلمان) و(آل إليوت).

أخبرني الفتي كذلك أن أكثر علامات الشوارع قد تلفت، لذا رسم لي كروكيا خشنا لكنه مفيد للغاية، لأهم معالم المدينة. وقد تبينت أهميته على الفور ووضعته في جيبي مع الشكر العميق.

ولما لم يرق لى منظر المطعم، فقد ابتعت بعض مقرمشات الجبن وكعك الزنجبيل ليكون غدائي اليوم، وانتويت أن أجوب الشوارع وأثرثر مع كل من يبدو غريبا عن البلدة، ثم أركب عربة الثامنة مساء المتجهة إلى (آرخام).

بالطبع يتزايد الذعر الذي يسببه بيت مهجور، بمتوالية هندسية أكثر منها عددية، حين يتعلق الأمر بمدينة كاملة مهجورة. إن فكرة الخواء اللامتناهي الذي لم يعد يحوي سوى خيوط العناكب والذكريات والديدان الناخرة، لفكرة تثير الهلع ولا تقدر أكثر الفلسفات مادية على قهرها.

وكلما ابتعدت أكثر عن مركز المدينة كنت أرى وجوه القوم تتسم أكثر بسحنة (إينزماوث) التي ألفتها.. يبدو أن الغرباء عاشوا عند أطراف المدينة فقط، ما لم تكن سحنة (إينزماوث) هذه مرضا أكثر منها صفة وراثية.. عندها يكون المرضى أكثر احتشادا عند أطراف المدينة.

الحق أن (إينزماوث) بدأت تضغط أكثر فأكثر على أعصابي..
وما ضايقني بصفة خاصة هو تلك الأصوات القادمة من حيث لا تدري.. إنها أصوات تصر وتخدش.. أصوات خشنة مثيرة للريبة.. وتساءلت في نفسي عن كيف تبدو أصوات هؤلاء القوم.. الغريب أنني حتى هذه اللحظة لم أسمع أحدهم يتكلم..
مشيت في الشوارع نحو شمال البلدة، وأثار دهشتى أنه لا توجد قطط ولا كلاب في (إينزماوث).. السرية والتواري هما الأساس في هذه المدينة الخرساء الملأى بالموت والاغتراب. كان الجسر غير الآمن أمامي الآن وعليه لافتات تحذير، لكني قررت المجازفة وعبرت إلى الناحية الجنوبية.. كانت هناك عيون لا تطرف ترمقني في فضول واهتمام صامتين، والحقيقة أن (إينزماوث) صارت لا تطاق أكثر فأكثر بالنسبة لى.. وقررت أن أبحث عن مركبة تنقلني إلى (آرخام) مبكرا قبل موعد الحافلة الذي بدا لى الآن بعيدا جدا..
هنا رأيت مبنى (المطافئ) المتداعي على يساري، ولاحظت الوجه المحتقن والعينين الدامعتين للرجل العجوز الذي يرتدي الأسمال، والجالس أمام البناية يثرثر مع رجلى إطفاء رثَّي المظهر، لكن ملامحهما طبيعية. بالتأكيد هذا هو (زادوك ألن).. العجوز التسعيني السكير نصف المجنون، الذي يملك حكايات مذهلة ومخيفة عن (إينزماوث).

☆ ☆ ☆

3

لا بد أنها كانت جذبة ساخرة من قوى خفية مظلمة، تلك التي جعلتني أبدل خططي كما فعلت. كنت من قبل قد آليت أن أقصر ملاحظاتي على المعمار فقط، بل وكنت أبحث عن طريقة عاجلة أغادر بها مدينة الموت والتحلل هذه.. لكن مرأى (زادوك ألن) جعلني أخفف الخطو رويدا مترددا.

كان الفتى قد أنذرني بألا أتكلم مع العجوز علنا، لكن فكرة الذكريات الشائخة لدى الرجل عن اضمحلال هذه المدينة، وعن أيام المصانع الكبيرة والسفن، كانت إغراء لا تستطيع أية حكمة أن تقاومه، فلابد أن العجوز رأي كل ما حدث في (إينزماوث) منذ تسعين عاما.

وكنت أعلم أنني لن أستطيع أن أبادره بالكلام، لأن رجلى الإطفاء سيلاحظان ويعترضان، وبدلا من هذا قررت أن أبتاع زجاجة من الشراب، وأجول بشكل عارض قرب الرجل حتى يلاحظها. اتجهت إلى متجر بقالة قريب فاشتريت زجاجة بسعر ليس بالزهيد، ثم عدت.. وكان الحظ حليفي لأنني وجدت العجوز يبتعد نحو منحنى (بيت جيلمان). وطبقا لخطتي مررت أمامه مستعرضا ما اشتريت، وشعرت به يقفو أثري، فرحت أمشي قاصدا أكثر البقاع عزلة لأجذبه إليها.. كنت أفكر في الواجهة الجنوبية المهجورة للبحر، وهي نقطة مررت بها منذ قليل.. هناك لن يرانا أحد ولسوف نجد مقعدين حجريين عتيقين يمكن أن نجلس عليهما ونتكلم. وقبل أن أصل إلى الشارع الرئيسي سمعت صوتا خافتا يعاني من الربو يقول:

- هيه يا سيد!
فسمحت للعجوز أن يلحق بي ويأخذ جرعات كبيرة من الزجاجة، وبدأنا نمشي معا وسط الخرائب والعزلة التي تحيط بالكون من حولنا لكني وجدت أن لسان الشيخ لم تنحل عقدته بالسرعة التي توقعتها. ووجدنا موضعا صالحا لمحادثتنا السرية بين الأشجار. فدعوت الرجل إلى الجلوس بين الصخور المكسوة بالطحالب. كان الجو يفوح برائحة الموت، وكانت روائح الأسماك منفرة، لكنني صممت ألا يعوقني شيء. لو أردت اللحاق بحافلة (آرخام) فليس لدي من الوقت سوى أربع ساعات.
قدمت للرجل المزيد من الجرعات، بينما رحت ألتهم طعام غدائي الرخيص. وحرصت ألا أقدم له أكثر من اللازم كي لا تتحول ثرثرته إلى غيبوبة.
لكن لخيبة أملي ظل الرجل يتحاشى الكلام عن (إينزماوث) والظل الذي يغطي ماضيها، وراح يثرثر في مواضيع أخرى كأخبار الصحف وقد ظهر أنه عليم بها، وإن كان مولعا بفلسفتها بالطريقة الريفية المعتادة.
بعد ساعة بدا أن الزجاجة لن تكفي للظفر بنتائج من الرجل، وهنا قدم لي الحظ الفرصة التي لم تستطع أسئلتي أن تقدمها.. كان ظهري للبحر الذي يفوح برائحة الأسماك، وكان هو يواجهه، وقد حدث شيء جعله يثبت عينيه على خط (شراع الشيطان) البعيد الظاهر فوق الأمواج. يبدو أن المنظر لم يرق له، لأنه بدأ سلسلة من عبارات السباب الواهنة انتهت بهمس مكتوم. وأمسك بياقة معطفي وراح يفح بتلميحات لا يمكن أن تخطئها..
- هناك حيث بدأ كل شيء.. ذلك المكان الملعون الزاخر بكل الشرور حيث تبدأ المياه العميقة.. بوابة الجحيم.. القبطان

(أوبد) العجوز هو من فعلها.. هو من وجد ما ليس خيرا له في جزر البحار الجنوبية..

الكل كان في حالة سيئة وقتها.. التجارة سيئة.. المطاحن تخسر.. أفضل رجالنا ماتوا في حرب 1812 أو فقدوا.. لكن (أوبد مارش) كانت لديه ثلاث سفن: (كولومبي) و (هيفتي) و (ملكة سومطرة)..

ما كان أحد مثل (أوبد مارش).. الشيطان العجوز.. هه هه! لقد دعا القوم إلى أن يتبعوه، وأن يطيعوه في طقوس شيطانية.. عسى أن تنجح القرابين في إعادة السمك إلى سواحلهم.. (مات إليوت) صديقه تكلم كثيرا أيضا.. تكلم عن جزيرة شرق (تاهيتي) حيث الكثير من الخرائب الحجرية، التي هي أقدم مما يتصور أي مخلوق.. توجد وجوه منحوتة للتماثيل شبيهة بما تراه في تماثيل جزيرة (عيد الفصح) [2].. تماثيل متآكلة كأنما كان البحر يغمرها يوما، وعليها وجوه وحوش مفزعة.. وكان (مات) يا سيدي يزعم أن الأهالي لديهم كل السمك الذي يشتهون.. لديهم حلي وأساور، ولديهم أسماك تشبه الضفادع، وضفادع تشبه الأسماك، وقد رسموها على كل أحجار جزيرتهم..

وكانت كل الجزر المجاورة تتساءل عن مصدر ظفر كل هؤلاء القوم بالأسماك، بينما هم يعانون من شحتها.. لقد تساءل (مات) عن هذا، ومعه تساءل القبطان (أوبد). لاحظ الرجلان أيضا أن عددا لا بأس به من الشباب يرحلون كل عام، فلا يعودون أبدا، وأنه لم يكن ثمة الكثير من الشيوخ.. لقد احتاج (أوبد) إلى جهد جهيد ليعرف سرهم.. لا أدري كيف فعلها لكنه بالتأكيد قايضهم كثيرا.

وأخيرا ظفر بالسر من كبيرهم (والاكي) كما كانوا يسمونه.. لم يكن أحد ليصدق حرفا يلفظه الوثنى العجوز، لكن (أوبد) كان يقرأ الناس كأنهم كتب هه هه! بالمثل لا أحد يصدق حرفا مما أقول الآن، وأعرف أنك أنت أيضا لن تفعل أيها الشاب.. برغم أن لك عينين حادتين قارئتين كعيني (أوبد).

يبدو أن أولئك القوم كانوا يضحون بعدد كبير من شبابهم وبناتهم من أجل تلك الشياطين التي تعيش تحت الماء، وينالون مزايا كثيرة مقابل هذا.. وهم يرسمونها كأسماك تشبه الضفادع أو ضفادع تشبه الأسماك، على كل أحجار جزيرتهم.. يبدو أن هذه الشياطين تعيش في مدن في قاع البحر، وقد عرف المواطنون هذه الحقيقة، وتعلموا كيف يتعايشون معها، وكيف يضحون بعدد معين مرتين كل عام، وفي المقابل يجيء لهم السمك من كل أرجاء البحر، وربما بعض الحلى الثمينة من حين لآخر..

وبمرور الوقت صارت هذه الشياطين قادرة على زيارة الجزيرة والاختلاط بأهلها.. ويبدو أن تزاوجا حدث بينها وبين أهل الجزيرة. وعرف البشر من شياطين البحر أنه لو حدث اختلاط في الدماء، فإن الذرية تبدو أولا أقرب إلى البشر، وبمرور الوقت تغدو أقرب إلى الوحوش، ثم سرعان ما تعود للبحر لاحقة بأسلافها القديمين.. ولقد رأي (أوبد) بنفسه كيف ينمو الصغار، ويتحولون يوما فيوما إلى وحوش، ثم سرعان ما يرحلون إلى المحيط هناك من يولدون وهم يشبهون الوحوش بشدة، وسرعان ما يتحول هؤلاء سريعا.. أما البعض فيتأخر في التحول ربما إلى سن السبعين، لكنه في النهاية يرحل لاحقا بأسلافه.. ومن الغريب أن هذه الذرية تكون منيعة تماما ما لم تقتل قتلا.

لابد أن (أوبد) بدأ الفكرة حين سمعها من (والاكي)، ولم يكن هذا الأخير يحوي قطرة من دم الأسماك - الضفادع، لأنه من سلالة ملكية لا يجوز خلط دمائها بدماء أخرى.. وقد أعطاه الملك تعويذة من الرصاص قال إنها تجذب الأسماك من أي مكان في الماء، والفكرة أن تلقيها في الماء مع بعض الأدعية المناسبة. لم يحب (مات) هذا كله وطالب بترك الجزيرة حالا، لكن (أوبد) راقت له فكرة الثراء والظفر بمزيد من تلك الحلي الغامضة، وهي التي عاد بها إلى (إينزماوث) وبني مصفاة الذهب.

حسن.. ثم جاء العام 1838 حين كنت أنا طفلا في السابعة.. عاد (أوبد) إلى الجزيرة الوثنية فوجد قومها قد أبيدوا، وكل مباني الجزيرة قد تحولت إلى خرائب، ولم تعد هناك حلية واحدة.. لابد أن أهالي الجزر المجاورة شعروا بما يدور، وقرروا الخلاص منهم.. فقط وجد (أوبد) صخورا عليها أشياء يمكن أن تسميها (سواستيكا).. ربما كانت هذه علامات الأسلاف.. لا بد أن هذا أحزنه حقا خاصة أنه كان يمر بظروف سيئة.. وبالطبع حين يعاني صاحب السفن يعاني البحارة أكثر.

وعاد (أوبد) إلى (إينزماوث) وقال لأهلها إنه يعرف طريقة مؤكدة لاجتلاب الأسماك، وإنهاء هذا الخراب والمجاعة.. لكنه بحاجة إلى بعض الشجعان كي يعاونوه.. بالطبع فهم البحارة الذين كانوا معه على (ملكة سومطرة) ما ينتويه وارتجفوا إذ تذكروا شياطين البحر، بينما تحمس الباقون.

هنا توقف الرجل عن الكلام، وغرق في صمت مخيف، وراح ينظر في عصبية من فوق كتفه، وحين كلمته لم يرد على فقررت أن أجعله ينهى الزجاجة.. إن القصة المخبولة التي كان يحكيها لي قد شدتني.. لم أصدق لحظة واحدة أنها حقيقية، لكني أدركت أن بها رائحة الحقيقة، وقد عالجتها مخيلة نشطة

بارعة.. تركته ينهي الزجاجة حتى آخر قطرة، وأذهلني أن صوته لم يثقل لحظة.. راح يغمغم، فدنوت منه لأستمع.. حقا كان يقول كلمات لها معني:

- (مات) المسكين.. (مات) كان يعارض هذا وقد حاول إقناع القوم، لكنهم لم يقتنعوا.. لقد طردوا الخوري الطائفي من البلدة، وتلاه القس الميثودي.. ولم أر خورى العماد قط من ساعتها.. كنت صغيرا لكني عرفت وسمعت كل هذا..

أنت لا تصدقني.. أليس كذلك؟ إذن قل لي لماذا كان القبطان (أوبد) ومعه عشرون رجلا، يذهبون إلى (شراع الشيطان) ليلا كي ينشدوا أناشيد تسمعها كل المدينة؟ ولماذا كان يلقى بأجسام غامضة في الماء؟ ولماذا يلبس خورية الكنيسة الجديدة التي أنشأها (أوبد) تلك الأشياء الغريبة على رءوسهم ليبدوا كشياطين البحار؟

كانت عيناه متوحشتين الآن ولحيته البيضاء المتسخة تلتمع، وقد رآني (زادوك) أتراجع في ذعر لأنه راح يضحك في شيطانية:

- هه هه هه! هل من أحد رأي أو سمع شيئا عن (حيرام جيلمان)؟ وماذا عن (نك بيرس)؟ و (لولي ويت)؟ كنت صبيا أسرق قارب أبي وأتسلل إلى (شراع الشيطان) وأسمع الأجساد الثقيلة تهوي في الماء.. وبدأت أحوال الجزيرة تتحسن.. السمك يحتشد، والحلى تظهر، والدخان ينبعث من المصفاة.. الله (تعالى) يعلم حجم حمولات السمك التي كنا نبيعها في (آرخام).. وجاء بعض صيادين من الخارج ليجربوا حظهم، لكنهم كانوا يختفون فلا تسمع عنهم ثانية.. لا أحسب أن (أوبد) كان يفكر في خلط الدماء مع شياطين البحر، بل كان المعدن الثمين هو جل ما يريد.. لكن هذا تم بالتدريج وبدأت سلالة هجينة تظهر

في المدينة، بل إن ابنة (أوبد مارش) التي أنجبها من إحدى شيطانات البحر، قد تزوجت من رجل محترم من (آرخام).. والبائس لم يشك في شيء لأن منظرها كان طبيعيا تماما.

بدأت إشاعات تتردد في المدن المجاورة عما يحدث في (شراع الشيطان)، وكنت أنا من أخبر المختار (مانورت) ببعض ما يحدث في سكون الليل.. وعندما جاء الليل.. اتجه بعض الرجال في قارب إلى هناك، وسمعنا طلقات الرصاص، وبعد هذا اقتادوا (أوبد) وثلاثين من رجاله إلى السجن، وهكذا مرت فترة طويلة لم تقدم فيها القرابين لأولئك الأسلاف.

وفي تلك الليلة المريعة.. رأيتهم.. مئات منهم.. كلهم حول (شراع الشيطان) ويسبحون نحو المرفأ.. رباه! ما حدث في شوارع (إينزماوث) ليلتها! قرعوا بابنا لكن أبي لم يفتح.. ثم غادر من نافذة المطبخ حاملا بندقيته ليرى ما سيفعله المختار (مانورت).. مئات الموتى والمحتضرين.. طلقات رصاص.. انفتحت الزنازين.. خيانة.. لقد حسب القوم أنه الوباء حين دخلوا (إينزماوث) ووجدوا نصف أهلها مفقودين.. لم يبق سوى أتباع (أوبد).. ولم أسمع قط عن أبي من وقتها..

وعاد (أوبد) ليعلن أنه صار الحاكم المطلق، وأن على الجميع طاعته والانضمام لعقيدة (داجون).. سيبدو كل شيء طبيعيا أمام العالم الخارجي، لكننا سنتحاشى الغرباء ونتظاهر بالحياء منهم.. كتولو فتاجن! فنجلوي مجلونافه.. كتولو ريليه.. وجاه ناجل فتاجا!

كان البائس يهذي بشدة.. كان يبكي والدموع تغرق لحيته.



كان البائس يهذي بشدة.. كان يبكي والدموع تغرق لحيته..

رباه! ما هذا الذي رأيته وأنا في الخامسة عشرة! مين مين.. تيكل أوفارزين.. لقد أقسمت أن أتبعه لأظل حيا.. أقسمت أول قسمين لكنى لم أجسر على أن أقسم الثالث.

وبدأ يحاول التماسك وهو يرمق المد يتزايد من بعيد.. راح يتكلم بصوت عال ليشجع نفسه:

- هيه.. لم لا تقول شيئا؟ كيف تحب أن تعيش في مدينة كهذه، تملؤها شياطين البحر في كل مكان، ينبحون ويعوون ليلا.. تسمعهم من مبنى الكنيسة الذي صار الآن (طريقة ديجون الخفية)؟

كان يصرخ الآن فعلا، وقد أثار هذا هلعي بحق..

سحقا لك! لا تجلس ترمقني بعينيك هذين.. هل تريد أن تعرف الرعب الحقيقي؟ ها هو ذا.. إنه ليس ما فعلته تلك الشياطين بل ما سوف تفعله.. سوف تجلب أشياء من البحر وعندها..

كان وجهه الآن قد التوي بالخوف حتى صار قناعا تراجيديا إغريقيا.. وعيناه فعلا فارقتا المحجرين.. ومخالبه تتعلق بكتفي.. كان ينظر إلى البحر مذعورا، ويهزني وقد صار صوته أدنى إلى الهمس:

- ارحل من هنا.. ارحل من هنا.. لقد رأونا.. فر بحياتك! غادر هذه المدينة!

وقبل أن أفهم كان قد أرخى قبضته عن كتفي، وراح يركض مبتعدا عن البحر.. نظرت للماء فلم أر ما يريب.. وحين وصلت إلى (ووتر ستريت) ونظرت إلى الشمال، لم يكن من أثر لـ (زادوك ألن).

☆ ☆ ☆

4

من العسير أن أصف المزاج الذي كنت فيه بسبب هذه القصة.. قصة غدت فجأة مجنونة ومثيرة للرهبة، شاذة ومفزعة. لقد أنذرني صبي البقالة، لكن الحقيقة تركتني حائرا مضطربا.

فيما بعد يمكنني أن أمحص القصة، وأجد فيها دلالة تاريخية ما، أما الآن فأنا أريد طردها من ذهني...

إن الوقت قد تأخر.. وساعتي تقول إنها السابعة والربع، ولسوف تتحرك حافلة (آرخام) في الثامنة. لهذا مشيت مسرعا عبر الشوارع الخالية نحو الفندق حيث تركت حقيبتي، وحيث يمكنني اللحاق بالحافلة..

كنت أنظر من فوق كتفي من حين لآخر، وخطر لي كم سيكون بهيجا أن أترك (إينزماوث) كريهة الرائحة، التي يظللها الخوف.. برغم هذا لم أدع عيني تفوت بعض الطرز المعمارية الجميلة هنا وهناك.

وصلت إلى شارع (فول) فوجدت مجموعات متناثرة من القوم الهامسين، وحين وصلت أخيرا إلى فندق (جيلمان) وجدت أن أكثر المتسكعين يحتشدون أمام بابه. وبدا لي أن عيونا مبتلة جاحظة كثيرة راحت ترمقني وأنا أسترد حقيبتي بالداخل، وتمنيت ألا يرافقني واحد من هذه المخلوقات الكريهة في رحلتي..

وصلت الحافلة مبكرا قبل الثامنة، وبها ثلاثة ركاب، وتبادل شخص شيطاني المظهر بضع كلمات غير واضحة مع السائق..

ترجل السائق نحو الفندق، بينما نزل الركاب وتبادلوا بضع كلمات مع متسكع بلغة أكاد أن أقسم إنها ليست الإنجليزية..

صعدت إلى الحافلة واتخذت المقعد ذاته، حين صعد (سارجنت) وغمغم ببضع كلمات بصوت حلقي منفر.. فهمت أنني تعس الحظ بشدة.

ثمة مشاكل مع المحرك ولن يستطيع الوصول إلى (آرخام).. لا.. غالبا لن يتم إصلاحه الليلة، وما من سبل أخرى لمغادرة (إينزماوث)..

ربما كان على أن أبيت في (جيلمان).. ولربما أجرى لي الموظف تخفيضا، لكن ما من شيء يمكن عمله.

عدت إلى الفندق كارها فكرة المبيت في هذه البلدة، فأخبرني الموظف أن بوسعي المبيت في الغرفة 428 مقابل دولار، وهي واسعة ولكن ليس بها ماء حار.

دفعت الدولار وصعدت ثلاثة طوابق وراء الموظف غريب المنظر، وكان الفندق خاليا من الحياة تماما.

وكانت غرفتي كئيبة ذات نافذتين وأثاث رخيص، تطل على ساحة قذرة تتناثر فيها قطع القرميد ومن بعيد ترى ريفا يغص بالمستنقعات.

كان النهار لم يرحل بعد، فنزلت إلى الميدان وبحثت عن مكان أتناول فيه عشائي.. ولأن البقالة كانت مغلقة، فقد قررت أن أجازف بتجربة المطعم، وكان صاحبه رجلا منحني الظهر له يدان غليظتان إلى حد لا يصدق، وله عينان جاحظتان لا ترمشان.. وسرني أن أكثر الطعام يؤخذ من علب محفوظة.. ووجدت أن سلطانية من الحساء مع بعض المقرمشات تكفيني، فسرعان ما عدت إلى غرفتي الكئيبة في (جيلمان)..

ودنا الليل فأضأت المصباح الكهربي المعلق فوق السرير المعدنى الرخيص، ورحت أقرأ جريدة وجدتها لدى الموظف.. وشعرت بحاجتي لأن أبقي عقلي شاردا كي لا أفكر في غرائب تلك المدينة، بينما أنا داخل حدودها.. وكان على أن أبقى وجه سكير القرية المجنون بعيدا عن أحلامي قدر الإمكان..

لربما كان هذا هينا لو أن الغرفة لم تكن عفنة الرائحة هكذا، ولو لم تتحد رائحتها مع رائحة القرية الزفرة لتصنع في ذهني مزيجا من الموت والتحلل.. بالإضافة لهذا ضايقني عدم وجود مزلاج على باب حجرتي.. ولاحظت أنه منتزع منذ وقت ليس بالبعيد.

وجدت مزلاجا على باب خزانة الثياب فقررت أن أنتزعه وأثبته على الباب على سبيل الاطمئنان، ونجحت في هذا باستعمال أداة من طراز (ثلاثة في واحد) أحملها في جيبي، كان من ضمن ما تقدمه لك مفك برغي.. ونظرت إلى بابين جانبيين - أحدهما شمالي والآخر جنوبي – فوجدت على كل منهما مزلاجا مغلقا بحالة جيدة.

شعرت براحة ليس لكوني أهاب خطرا ما، ولكن لكون أي سبيل للأمان الشخصى شيئا محببا في هذه البيئة المقلقة. قررت كذلك أن أنام بثيابي كاملة باستثناء الحذاء، وأخرجت من حقيبتي كشافا صغيرا دسسته في جيبي حتى إذا ما صحوت ليلا، أمكنني رؤية ساعتي على ضوء الكشاف.

لكن النعاس لم يأت.. وحين حللت أفكاري، وجدت لدهشتى أنني أصغى لشيء ما.. نعم.. كنت أصغى لشيء ما أهابه لكنني لا أستطيع تسميته.. سمعت صوت صرير على السلم، وهو صوت لم أحبه كثيرا.. وتساءلت عما إذا كان من الحكمة أن أخلد للنوم أصلا؟ هذه مدينة غريبة بها قوم غرباء، ولقد اختفى الكثيرون

هنا.. أترى هذا فندقا من تلك الفنادق التي يذبح نزلاؤها لسرقتهم؟ ليس في مظهري ما يوحي بثراء زائد.. أم ترى هؤلاء القوم فعلا يحنقون على بسبب اتصالي بالسكير وفضولي الزائد؟

في النهاية غلبني تعب ليست له علاقة بالنعاس، وصحوت منه على ذلك الصوت المؤكد الذي لا ريب فيه، والذي يؤكد أنني كنت على حق في مخاوفي.. كان هناك ذلك الصوت لقفل باب حجرتي يجرب أحدهم فيه مفتاحا.. بحذر.

بسرية.. بترددا!

صدمني ذلك التبدل في التهديد من توجس غامض إلى حقيقة آنية، وسقط على كضربة قوية.. ولم أشك لحظة في أن يكون هذا العبث في القفل وليد غلطة.

ثم توقف العبث.. وبعد قليل سمعت صوت عبث آخر بالمفتاح في باب جانبي من البابين الآخرين في حجرتي.. بالطبع ظل المزلاج ثابتا، وهكذا رحل المتسلل، وبعد قليل تكرر الصوت الناعم هذه المرة من الباب الآخر في حجرتي.. ثم عاد الصرير، وأدركت أن المتسلل قد فهم أن الأبواب كلها موصدة، وتخلى عن المحاولة مؤقتا.

لا أدري لماذا صار القرار واضحا في ذهني إن هذا العابث في الأقفال شخص لا ينبغي لقاؤه أو التعامل معه.. يجب أن أفر من الفندق حالا.. أضأت المصباح فوق فراشي فلم يحدث شيء..

لقد انقطعت الكهرباء.. واضح أن عملا شريرا غامضا يدور على أوسع نطاق.. لكن ما هو لا أعرف.. استعددت لمغادرة المكان، فمشيت على أطراف أصابعي نحو النافذة.. لم يكن هناك سلم حريق عند هذا الجانب من الفندق.. لن أخرج من هنا ولا من الباب الرئيسي.. لربما كانت فرصتي في البابين الجانبيين.. سأقتحم الباب برغم المزاليج مستعملا كتفي.. لن

يكون هذا عسيرا بالنسبة لبنية البيت المتداعية.. لكن ليس من دون ضوضاء طبعا.

قمت بتدعيم باب الغرفة الرئيسي باستعمال المكتب، ورحت أفكر في مدى هشاشة فرصي.. حتى لو خرجت من الغرفة فلن يكون بوسعي استعمال السلم.. سأحاول دخول غرفة أخرى يكون وضعها أسهل في الوثب لأسفل.. ثم سيكون عليّ مغادرة المدينة.

كنت أعرف أن السبيل لمغادرة المدينة هو نحو الجنوب، لذا تركزت عيناي على الباب الجنوبي في غرفتي.. كان مصمما لينفتح في اتجاهي ليس هذا بابا مفضلا للاقتحام إذن.. وضعت الفراش خلفه لأمنع اقتحامه، ثم اتجهت إلى الباب الشمالي.. وعرفت أن هذا مخرجي.

كنت أفكر بعمق، حين عاد صوت صرير الأرضية يتردد.. كان أعلى وأثقل.. وتوهج ضوء عابر عبر شراعة الباب.. وراحت ألواح الخشب في الممر تئن تحت ثقل عظيم.. ثم في النهاية دوت طرقة حازمة على بابي..

للحظة حبست أنفاسي وانتظرت.. مرت آباد من الصمت، ثم من جديد عادت القرعات الحازمة.. عرفت أن وقت العمل قد حان، وهرعت إلى الباب الجنوبي الذي أزمعت اقتحامه. ازداد الدق إلحاحا وتمنيت أن يغطي صوت الاقتحام.. ثم اندفعت نحو الباب بكتفي غير مبال بألم أو صدمة..

في النهاية انهار الباب لكن مع صوت تهشم عال عرفت أنهم سمعوه حتما.

وسرعان ما دلفت إلى الحجرة الجانبية وأحكمت إغلاق الباب الخلفي.. ودفعت حوض غسيل خلفه..

الآن أعرف أن أكثر مهاجمي قد دخلوا الغرفة التي كنت فيها. لكن ذعري لم يكن بسبب ضعف دفاعاتي، ولكن لأن أحدا من مطاردي – برغم اللهاث والأنين والعواء من حين لآخر - لم ينطق بكلمة واحدة يمكن تمييز حروفها... هرعت إلى النافذة، وكنت أعرف أن مطاردي يعرفون الآن أين أنا بالضبط.

نظرت إلى السقف المنحدر تحتي، في ضوء القمر، وجدت أن الوثبة ستكون خطرة بحق، بسبب المنحدر الفظيع الذي سأسقط فوقه.. هنا وجدت أن ستائر كبيرة سميكة معلقة حول النافذة، وكانت فرصة طيبة لتفادي خطر الوثبة.. جذبت الستائر بأعمدتها، وربطت طرف الستارة في قفل النافذة، ثم دليتها حتى السقف المنحدر تحتي.

وانحدرت على سلم الحبال المرتجل هذا، تاركا خلفى للأبد فندق (جيلمان) بظلاله وأصواته الرهيبة..

هبطت على السقف المنحدر في حذر، ونظرت فوقي لكني لم أر أحدا في سواد النافذة.. فقط من بعيد كنت أرى الأضواء تلتمع آتية من مبني (طريقة ديجون السرية) ومبنى الكنيسة الطائفية وتمنيت أن أهبط إلى الفناء سريعا قبل أن يعم الإنذار بهربي.. كان الارتفاع بسيطا، وهويت لأسفل فوق أرض مغبرة امتلأت بالعلب الفارغة والبراميل.

كان المكان مفزعا لكني لم أكن رائق البال لهذه الانطباعات.. حانت مني نظرة إلى ساعتي فوجدتها الثانية صباحا.. ومن باب مفتوح بعيد في فندق (جيلمان) الذي فررت منه حالا، خرج حشد من الأشكال المريبة.. المصابيح تتمايل في الظلام، وأصوات متحشرجة مفزعة تتبادل الصراخ بلغة ليست الإنجليزية حتما..

كانوا يتحركون دون اتجاه معين، وسرني أنهم لا يعرفون مكاني، لكن هذا لم يمنع قشعريرة قوية اجتاحت عمودي الفقري.. لم أتبين وجوههم لكن مشيتهم العرجاء المخيفة كانت بالتأكيد منفرة.. والأسوأ أنني تبينت أن أحدهم يرتدي روبا غريبا، ويلبس عمامة عالية لها طراز لا تخطئه العين.

أصابني الذعر من أن يجدوني هنا، وكانت رائحة السمك لا تطاق، حتى إننى تمنيت ألا يغشى عليّ...

☆ ☆ ☆

مشيت سريعا وبخفة جوار البيوت الخربة، أشعث أغبر بعد تسلقى الشاق.. لم يبد منظري جديرا بالملاحظة، وهكذا كانت لدى فرصة لا بأس بها في الفرار لو قابلت أي عابر سبيل..

وعند شارع (بيتس) مررت بشبحين يمشيان الهوينى، ووصلت إلى مساحة خاوية لم أرها من قبل.. لكنها بدت لي خطرة لأن القمر سيلهو كما يشتهي هناك.. لكني لم أملك سوي عبورها في جرأة وثقة لأن البدائل الأخرى قد تكون أخطر.. السبيل الأوحد أن أعبرها مقلدا مشية أهل (إينزماوث) المتثاقلة، وأثق في أن واحدا من مطاردي ليس هناك.

لم يكن هناك أحد كما توقعت، برغم أنني سمعت نوعا من الزئير يتزايد باتجاه ميدان المدينة.. كان الشارع متسعا جدا يقود إلى مساحة شاسعة أمام الساحل، وتمنيت ألا ينظر أحد إلى البحر في هذا الوقت بينما أعبره في ضوء القمر.

لم يعق شيء تقدمي، ولم تبد علامة معينة على أن هناك من يراني الآن..

وبعيدا في ضوء القمر رأيت الخط الأسود الكئيب المميز لـ (شراع الشيطان).. تذكرت كل الأساطير التي نسجت حوله في

الأربع والثلاثين ساعة الماضية، وأساطير تصور هذه الصخرة كبوابة إلى عوالم الرعب والشذوذ.

ثم - دون إنذار - رأيت وهج الضوء المتقطع فوق الصخرة النائية، وكانت مؤكدة لا شك فيها.. فتحرك خوف أعمى في أعماقي.. خوف لم أخبره من قبل..

ولتزداد الأمور سوءا التمعت أضواء من بيت (جيلمان) عبر الشمال خلفي.. كانت مماثلة لكنها مختلفة التزامن، بما يعني أنها ليست سوى إشارات ضوئية للإجابة..

سيطرت على رجفتي، ومن جديد استعدت الشعور بمدى انكشافي.. واستعدت مشيتي المتثاقلة، وإن أبقيت عيني على الصخرة الشيطانية الجاثمة وسط البحر.. لم أتخيل معنى هذا الذي يحدث، ما لم يكن طقسا ما يمارسونه عند (شراع الشيطان)، أو أن مجموعة ما قد نزلت من قارب عند تلكم الصخرة.

هنا فقط داهمني أكثر الانطباعات إفزاعا.. الانطباع الذي دمر آخر بقايا سيطرتي على نفسي، وجعلني أركض جنوبا أمام أبواب البيوت الخربة الفاغرة، والنوافذ الشاخصة لذلك الشارع الكابوسي.

ذلك أن نظرة إلى المسافة الخالية التي أضاءها القمر، ما بين الصخرة والمنارة جعلتني أعرف أنها ليست خاوية.. كانت تعج بالحركة، وبكائنات تسبح نحو المدينة، وحتى من هذه المسافة القصية كنت أدرك أن شكل الرءوس والأذرع شاذ منفر بما يفوق الإدراك..

توقفت عن الركض قبل أن أنهى مربعا عمرانيا، لأننى عن يميني سمعت ما يشبه صرخات بحث منظم.. كانت هناك خطوات وصوت محرك يهدر عبر الشارع الرئيسي.. وفي ثانية

تبدلت كل خططي.. لو كان الجنوب مغلقا فعليّ العثور على طريقة أخرى للفرار من (إينزماوث)..

إنهم لم يجدوني ولا يعرفون أين أنا، لكنهم ينفذون خطة عامة تقضي بقطع الطريق عليّ.

ومعنى هذا أن كل مخارج البلدة محاصرة.. عليّ إذن أن أبتعد عن الطرق، لكن كيف أفعل هذا والمدينة محاطة بالمستنقعات؟ هنا فكرت في خط السكة الحديد العاطل الذي كسته الأعشاب.. إنه شبه مستحيل، وهذا سيبعده عن تفكير القوم..

للأسف هو واضح تماما ويمكن رؤيته من أي موضع عال بالمدينة، لكن بوسعي أن أزحف دافنا جسدي وسط الأعشاب العالية.. خطة واهية لكنها الوحيدة وليس لدي سواها..

وعلى ضوء الكشاف أعدت دراسة الكروكي الذي رسمه لي صبي البقالة، لأعرف كيف أصل إلى هذا الخط من هنا.. وبدأت الزحف في الظلام، وعبرت شارع (لافاييت) الخالي، شاعرا بالاختناق بسبب تزايد الرائحة السمكية الكريهة.

ومن بعيد رأيت ثلاثة من تلك الأشكال تقف عند شارع (إبويتش).. واضح أنهم يقطعون عليّ الطريق، وكان أحدهم يرتدي معطفا طويلا وعلى رأسه ما يشبه التاج الطويل يلتمع في ضوء القمر.. وكانت مشيته مما أرسل القشعريرة في عروقي، لأن ذلك المخلوق كان يتواثب فعلا.

بعدما انصرفوا، واصلت مسيرتي.. كان الجزء الأخطر هو عبور شارع (لافاييت) الخالي، الذي غمره ضوء القمر. هنا يمكن بسهولة أن يراني أحدهم.. وهكذا قررت أن أنحني للأمام وأمشي ذات المشية المتثاقلة التي يمشونها..

الآن صار البحر عن يميني، ونظرت إليه بطرف عيني، فرأيت قاربا بمجداف مليئا بأشياء مغطاة بالمشمع.. وكان المجدفون - برغم بعد المسافة - لهم صفة منفرة ما.. وفي البحر كان عدد من السابحين، بينما الضوء الأصفر الخافت يتوهج فوق (شراع الشيطان).. وهب نسيم شفيق بدد الرائحة الزفرة قليلا ثم عادت من جديد بصورة أكثر كثافة.

رأيت من جديد مجموعة من هذه الكائنات عن بعد، وكان أحدهما يضع عمامة عالية، فأدركت أنني رأيتهم من قبل.. للحظة نظر في اتجاهي فتصلبت وبدأت أمشي متثاقلا أكثر.. لا أعرف حتى اليوم إن كانوا قد رأوني أم لا، فإن كانوا قد فعلوا فلابد أن استراتيجيتي قد خدعتهم.. لقد واصلوا مسيرتهم في ضوء القمر محدثين أصواتهم الكريهة.

فما إن غادرت هذه البقعة الخطرة حتى واصلت الركض كالثعلب، بين عيون وأفواه البيوت الخالية.



فما إن غادرت هذه البقعة الخطرة حتى واصلت الركض كالثعلب ، بين عيون وأفواه البيوت الخالية . .

خرج رجل من بين أحد المنازل فتصلبت.. لكني أدركت أنه ثمل جدا مما لا يشكل خطرا على.. وهكذا وصلت إلى نهاية شارع (بانك) حيث خرائب المستودعات العتيقة.

الآن صار صوت تدفق المياه قادرا على حجب صوت خطواتي.. ووصلت إلى محطة القطار المهجورة الغارقة في الظلام، فمشيت مسرعا قاصدا الوصول إلى القضبان عند خلفيتها.

كانت القضبان صدئة لكنها سليمة، وكان المشي أو الركض فوقها عسيرا لكني حاولت، واستغرقت وقتا لا بأس به.. ولمسافة لا بأس بها ظللت أمشي، ثم وصلت إلى نقطة تعبر فيها القضبان جسرا على الهاوية وعلى ارتفاع مخيف.. كانت حالة هذا الجسر هي ما سيحدد خططي.. لو كان يتحملني سأعبره، ولو لم يكن فعلي أن أخاطر بالعودة إلى الشوارع إلى أن أعبر الجسر فوق الطريق السريع.

كان الجسر العتيق يلتمع في ضوء القمر، ووجدت أن الوصلات آمنة على الأقل لمسافة بضعة أقدام.. أخرجت كشافي ومشيت، وكدت أهوى بسبب سحابة الوطاويط التي أحاطت بي..

وعند منتصف المسافة كانت هناك ثغرة خفت أن تعوقني.. ثم في النهاية جازفت بقفزة يائسة نجحت لحسن الحظ.

وشعرت بسرور حين رأيت ضوء القمر من جديد بعد هذا الممر الرهيب.. هنا تبدأ القضبان في عبور منطقة ريفية تمتاز باندحار رائحة السمك المنفرة.. وقد راحت الأعشاب تعوقني والشجيرات تمزق ثيابي بقسوة، لكنني سعيدا بوجودها لأنها تواريني عن الخطر.

بدأت منطقة المستنقعات، ثم وصلت لجزيرة ذات أرض مرتفعة نسبيا.. وكانت الأشجار عالية خانقة، ومن جديد سرني هذا لأن طريق (راولي) كان الآن قريبا جدا وبشكل خطر، حسب

ما رأيته من نافذة الفندق... لن يدوم هذا طويلا لكن على الآن أن ألتزم أشد الحذر.

على الأقل كنت أعرف الآن أن السكة الحديد غير مراقبة.

نظرت للوراء فلم أر من يقفون أثرى.. كانت بيوت (إينزماوث) تتلألأ بجمال في ضوء القمر، وفكرت كم كانت رائعة في الماضي قبل أن يسقط الظل فوق المدينة.. ثم توقفت عيني أمام مشهد أقل جمالا..

كان ما رأيت أو حسبت أنني رأيت، هو انطباع مقلق بحركة متموجة جنوبا.. جعلني هذا أستنتج أن حشدا هائلا يغادر المدينة عن طريق (إبزويتش).. كانت المسافة هائلة، ولم أتبين تفاصيل، لكني لم أحب قط هذا المشهد.. هذا الشيء المتموج.. كان يتلوى كثيرا جدا ويتلألأ في ضوء القمر الذي صار غريبا الآن.. ثمة شيء كالصوت كذلك، لكن الريح لا تساعدني كثيرا على تمييزه..

وعبرت ذهني تخمينات عديدة كلها غير سار.. تذكرت ما قالوه عن كائنات (إينزماوث) التي تعيش في أنفاق قرب الساحل.. وتذكرت كل أولئك الباحثين عني.. لو عددت كل هؤلاء لوجدت أن العدد الكلى يفوق بمراحل ما يمكن أن يوجد في مدينة مهجورة مثل (إينزماوث).. من أين جاء كل هؤلاء؟ ربما من الأنفاق ومن أين جاء هذا الطابور المتموج الطويل الذي أراه الآن؟ أتراه من هناك؟ أم هو من سفينة أفرغت حمولتها عند ذلك النتوء الصخري المقيت؟ من هم؟ لماذا هم هنا؟

ضايقني كذلك أن الرائحة السمكية التي نسيتها قد عادت تزداد قوة.. وثمة أصوات حلقية تتعالى من مكان ما..

وهنا بدأ العفن والصوت يزدادان قوة.. وتوقفت راجفا شاعرا بامتنان لكوني بين الأشجار.. إن هذه هي النقطة التي يدنو

فيها طريق (راولي) من السكة الحديدية أقصي دنو، ثم يبتعد عنها متجها نحو الغرب.. ثمة شيء قادم وعليّ أن أقبع هنا وأنتظر حتى يبتعد.. حمدا لله على أن هؤلاء القوم لا يستعملون الكلاب في البحث.. وعلى كل حال ما كانت الكلاب لتستطيع بسبب الرائحة القوية التي تفعم كل مكان.

كنت أشعر بأمان حيث أنا، برغم أنني أعرف أن مطارديّ سيعبرون القضيبين، ربما على بعد مائة ياردة مني.. لكنهم لن يروني بينما سأراهم أنا.. ما لم تحدث معجزة ما.

كنت أرى المساحة الخالية في ضوء القمر، تلك التي سيعبرون منها.. وتوجست خيفة من المظهر الذي سيبدون به.. في الغالب هم أسوأ أنماط (إينزماوث) مظهرا.. شيء لا يحب المرء أن يتذكره.

ازدادت الرائحة وتعالت الأصوات، وكلها لا تحمل أدني شبه بالكلام الآدمي.. هل هذه حقا أصوات مطارديّ؟ هل هم حقا لا يصحبون كلابا؟

قررت ألا أرى، وأن أغمض عيني حتى تخفت الأصوات نحو الغرب..

كان الحشد قريبا جدا الآن.. الهواء ملوث بهم، والأرض تهتز تقريبا من وقع أقدامهم.. كاد تنفسي يتوقف وركزت إرادتي كلها في أن أبقى عيني مغلقتين.. ليس بوسعي الآن أن أقول إن كان ما رأيته حقيقة مريعة أم هلوسة كابوس لا أكثر.

فيما بعد ستؤكد الحكومة - بعد استجابتها لمناشداتي - أن هذه حقيقة مفزعة، لكن أليس بوسع الهلاوس أن تتكرر بفعل السحر المدوخ لهذه المدينة العتيقة المسكونة؟ إن لهذه الأماكن خواص قوية.. أليس ممكنا أن جرثومة جنون معد تكمن في أعماق ذلك الظل فوق (إينزماوث)؟ من بوسعه أن يتأكد من

الحقيقة بعد سماع قصة العجوز (زادوك ألن)؟ إن رجال الحكومة لم يجدوا الرجل قط، وليست لديهم أية فكرة عما حدث له.. فأين ينتهي الجنون وتبدأ الحقيقة؟ هل من الممكن أن آخر مخاوفي لم تكن سوى ضلالات؟

لكن لا بد من أن أخبرك بما حسبتني رأيته في تلك الليلة تحت القمر الأصفر الساخر.. بالطبع كانت نيتي في إبقاء عيني مغلقتين قد فشلت تماما.. كان لابد أن تفشل.. إذ من يمكنه أن يربض ضريرا بينما فيلق من الكائنات الصاخبة مجهولة الأصل، يمر على مسافة أقل من مائة ياردة منه؟

كنت متأهبا للأسوأ وكان يجب أن أكون كذلك بالنسبة لما رأيته من قبل.. لقد كان من يقتفون أثرى غير طبيعيين.. أفلا أتوقع إذن زيادة في عنصر الطبيعية هذا؟ أن أرى أشكالا لا أثر فيها لما هو طبيعي على الإطلاق؟

لم أفتح عيني حتى دنا الصخب الأجش من نقطة أمامي.. عرفت أن أكثرهم باد للعيان الآن وهم يعبرون القضيبين.. لم أستطع أن أكبح نفسي من رؤية المشهد الرهيب الذي سيريني إياه هذا القمر الخبيث.. وكانت هذه هي النهاية لسلامي العقلي واطمئناني إلى فهم توازن الطبيعة..

ما كان لشيء تخيلته.. ما كان لشيء فهمته - لو أنني صدقت حكاية (زادوك) المجنونة حرفيا - ما كان لهذا أن يقارن بالحقيقة الشنيعة الشيطانية التي رأيتها.. أو التي حسبت أنني رأيتها..

هل حقا أنجب كوكبنا أشياء كهذه؟ ما الذي لا يوجد إلا في الأساطير والخرافات حقا؟

لكنني رأيتهم بعيني يتواثبون ويزحفون وينقون عبر المساحة الخاوية في ضوء القمر.. كانوا يرتدون تلك العمامات المصنوعة من ذلك المعدن الذي لا أعرف له اسما، وبعضهم يرتدي

المعاطف.. ومن في المقدمة يضع قبعة على الشيء المشوه الذي يفترض أنه رأس.

أحسب أن لونهم الغالب كان أخضر رماديا برغم أن بطونهم كانت بيضاء.. وكانوا زلقين يلمعون، إلا أن ظهورهم كانت قشرية.. بشكل ما كانت أجسادهم توحي بالبشر بينما رءوسهم تذكرك بالأسماك.. بعيون جاحظة لا ترمش أبدا.. وعلى جانبي العنق كانت خياشيم تنبض، وكانت أصابعهم المخلبية مزودة بأغشية، وكانوا يتواثبون أحيانا على يدين وأحيانا على أربع..

كانت أصواتهم نوعا من النقيق والنباح يعوضون بها ما تفتقر إليه وجوههم من انفعالات وبرغم كل هذا لم يبد منظرهم غريبا على.. ألم أكن أذكر منظر العمامة في (نيوباريبورت)؟ إنهم الضفادع - الأسماك.. وقد فهمت الآن سبب هلعي من ذلك الكاهن بالعمامة، الذي رأيته في تلك الكنيسة السوداء، وعرفت بم ذكرني منظره..

وكان عددهم يفوق التخمين.. بدا لي أن هناك حشودا بلا نهاية منهم.. والمشكلة هي أنني لم أكن أرى سوى جزء بسيط من جموعهم.

وفي النهاية جاءني الإغماء الرحيم.. وكان هذا أول إغماء أعرفه في حياتي..

☆ ☆ ☆

5

كان هذا هو مطر النهار الرهيف الذي أيقظني من نعاسي بين الشجيرات التي تغطي السكة الحديدية.. وحين نهضت إلى الطريق لم أر أثرا لآثار أقدام في الوحل..

لقد ولت كذلك الرائحة السمكية. ومن بعيد كنت أرى أسقف (إينزماوث) وخرائبها، لكن بلا مخلوق حي واحد في المستنقعات المحيطة بي..

كانت ساعتي سليمة وقالت لي: إن الوقت نحو الظهيرة.. كانت حقيقة ما مررت به غير أكيدة في ذهني لكني أدركت أن شيئا مريعا ينتظر، وأن عليّ الفرار سريعا من (إينزماوث)..

وبرغم الخوف والجوع والوهن والحيرة؛ وجدت أنني قادر على المشي.. فبدأت أمشي عبر الطريق الموحل.

وعند المساء كنت في قرية، ألتهم وجبة ساخنة وأرتدي ثيابا لائقة.. ركبت قطار المساء إلى (آرخام)، وفي اليوم التالي تحدثت جديا وطويلا مع رجال الحكومة.. وهو شيء كررته بعد هذا في (بوستون).. والناس الآن تعرف ما حدث بالضبط.. وقد تمنيت - من أجل سلامة الأمور - لو لم يكن لدى ما أضيفه إلى القصة.

ربما كان الجنون هو ما يتملكني.. وربما كان الذعر العظيم.. أو ربما أعجوبة أعظم تمد يدها لي..

كما يمكن أن تتخيل، تخليت عن أكثر أهداف رحلتي.. العلم.. المعمار.. الأنتيكات التي اعتمدت عليها كثيرا.. لكنني أثريت زيارتي لـ (آرخام) عن طريق بعض دراسات النسب التي طالما تقت لعملها.. معلومات خام عجول حقا؛ لكنها تصلح للاستفادة منها يوما حين أجد الوقت لتنسيقها.

كان مستر (ب. لافام بيبودي) - وهو القيم على الجمعية التاريخية هناك - حريصا على مساعدتي، واهتم كثيرا جدا حين أخبرته أنني حفيد (إليزا أورن) من (آرخام) التي ولدت عام 1876، وتزوجت من (جيمس وليامسون) من (أوهايو) وعمرها سبعة عشر عاما.

يبدو أن خالا لي كان هنا منذ أعوام، وأجرى بحوثا مماثلة لما أقوم به، ويبدو أن أسرة جدتي كانت موضع اهتمام محلي ما.

قال مستر (بيودي) إن مناقشات عديدة قد دارت حول زواج أبيها (بنيامين أورن) بعد الحرب الأهلية.. إن سلالة العروس غير محددة بالضبط بالرغم من أنه يقال إنها من آل (مارش) في (نيوهامبشاير).. وهم يمتون بصلة لآل (مارش) في مقاطعة (إسكس) جنوبي انجلترا. وقد تعلمت العروس في فرنسا في بداية حياتها، وقد ترك لها وصي ما مبلغا من المال لتغطية نفقاتها هي ومربيتها.. ثم اختفى فتولت المربية تربية الطفلة وكانت المربية الفرنسية صموتا غامضة.

ولقد عجز الجميع عن تحديد نسب أبوي الفتاة بين أسر (نيوهامبشاير).. بالواقع كانت لديها عينا آل (مارش) المميزتان.. وقد توفيت في سن مبكرة بعد ما أنجبت جدتي.. طفلتها الوحيدة..

ولما كان اسم (مارش) قد صار مرتبطا في ذهني بأشياء غير سارة، فإنني لم أحب كثيرا أن أجد اسم (مارش) في نسبي، كما لم أحب أيضا ما قال الرجل من أنني أنا نفسي أحمل عيني (مارش)..

وبرغم كل هذا دونت كل شيء بعناية، وعدت إلى (توليدو) من (بوستون) وأمضيت شهرا في (مومي) على سبيل الاستشفاء من آثار المحنة.. وفي سبتمبر دخلت (أوبرلين) لأنهي عامي الدراسي الأخير، ومن وقتها حتى (يونيو) انشغلت بالدراسة، ولم

يذكرني بأحداث الصيف إلا زيارات من موظفي الحكومة يستوثقون من تفاصيل قصتي التي حكيتها..
وفي يوليو أمضيت بعض الوقت مع أسرة والدتي المرحومة في (كليفلاند)، وكنت أراجع بعض معلوماتي الخاصة بالنسب.. وأحاول رسم شجرة متماسكة.. في الواقع لم أتم هذه المهمة قط لأن جو دار (ويليامسون) كان يثير اكتئابي.. وما كانت أمي ترحب بأن أزور والديها في طفولتي، برغم أنها كانت تبرهما حقا.. كنت أجد جدتي المولودة في (آرخام) مخيفة غريبة ولا أحسبني حزنت حين اختفت.. كنت في الثامنة من عمري وقتها، وسمعت أنها جنت بسبب انتحار عمي (دوجلاس) أكبر أبنائها.. وكان قد فعلها بعد رحلة قام بها إلى (نيو إنجلاند)..
كان عمي يشبهها، ولم أكن أحبه كذلك.. ثمة شيء مخيف في عيونهم الثابتة التي لا تطرف.
جعلتني مراجعة الصور والوصايا أشعر بذعر بالغ.. كما قلت كانت جدتي وعمي (دوجلاس) يزعجاني كثيرا، والآن رحت أرمق صورهما شاعرا باغتراب ونفور جمين.. لقد بدأ نوع رهيب من المقارنة يفرض نفسه على لا وعيي برغم رفض الوعي لهذا.. كان من الواضح أن تعبير وجهي هذين يوحي بشيء لم أعرفه من قبل.. شيء سيثير هلعي لو أمعنت التفكير فيه.
ازداد الهلع حين أراني خالى مجوهرات الأسرة المحفوظة في مصرف المدينة.. كان هناك صندوق غريب عتيق.. قال لي إنه يحوي مجوهرات عجيبة الشكل لم يرتدها أحد أمام الناس قط على حد علمه.. وبرغم أن جدتي كانت تحب النظر إليها، فإن سمعة النحس التي تلاحق هذه المجوهرات كانت قوية.
وبدأ خالي يفتح الصندوق ببطء واشمئزاز، ونصحني ألا أصدم بالتصميم الشاذ المخيف لهذه المجوهرات.. إن صائغي

المجوهرات الذين رأوا هذه لم يستطيعوا معرفة مم صنعت، ولا من أية ثقافة جاءت.

كانت عمامة وسواران، وهنا لم أستطع التحكم في ملامح وجهي وأنا أرمق هذه الأشياء، حتى إن خالى تصلب ليرى ما دهاني.. كان ما فعلته وقتها مثيرا لدهشته، وأثار دهشتي كذلك: لقد غبت عن الوعي بسهولة كما حدث من قبل فوق السكة الحديدية..

☆ ☆ ☆

ومن يومها غدت حياتي كابوسا من التوجس.. ولم أعد أعرف أي جزء هو الحقيقة وأي جزء هو الجنون.. كانت جدتى الكبيرة من نسل (مارش) ما، لا يعرف أحد أصلهم، وكان زوجها من (آرخام).. ألم يقل (زادوك) العجوز: إن ابنة (أوبد مارش) من شيطانة البحر قد تزوجت من رجل ساذج من (آرخام)؟ ألم يقل: إن لك عينين حادتين قارئتين كعيني (أوبد)؟ ألا يعني هذا أن (أوبد مارش) هو جدي الكبير؟ فمن - أوما - تكون جدتي الكبيرة إذن؟!

ولربما كان الأمر جنونا.. ربما كانت مغامرة (إينزماوث) قد صبغت خيالاتي.. ولكن لماذا قتل خالي نفسه بعد ما عرف شجرة نسبه في (نيو إنجلند)؟

ولمدة عامين حاربت هذه الأفكار ونجحت نجاحا جزئيا.. وجد لى أبي عملا في شركة تأمين، فدفنت نفسي في العمل قدر الإمكان..

وفي خريف 1930 بدأت الأحلام.. كانت نادرة في البداية، ثم ازدادت قوة مع الوقت.. مساحات مائية شاسعة انفتحت

أمامي.. كنت أسبح وسط متاهات جدرانها من أعشاب البحر، تصحبنى أسماك غريبة الشكل.. ثم بدأت الأشكال الأخرى تظهر.. تفعمني برعب لا يسمى في اللحظة التي أفيق فيها.. لكنني في الحلم كنت منهم.. ألبس ما يلبسون وأسبح مثلهم، وأردد عبارات بلغتهم في معابدهم المائية..

وكان ما أذكره حين أصحو جديرا بأن يصمني بالجنون أو بالعبقرية لو جسرت على كتابته.. وتدهورت حالتي الصحية والنفسية مع الوقت، حتى تركت وظيفتي وعشت حياة منعزلة ثابتة لشخص لا نفع منه.. أصابني مرض عصبي غريب كذلك جعلني في أوقات بعينها عاجزا عن إغماض عيني.

وهنا بدأت أدرس وجهي في المرايا مذعورا.. لقد لاحظ أبي الشيء ذاته لأنه كان يتأملني من حين لآخر في تأمل وتهيب..

ماذا يحدث لي؟ هل أنا في الطريق لأن أشبه جدي وجدتي؟ ذات ليلة حلمت بأنني قابلت جدتي تحت الماء.. كانت تعيش في مكان فسفوري له شرفات عديدة، وحديقة من الشعاب المرجانية..

رحبت بي بحرارة شبة ساخرة.. كانت قد تغيرت تماما ككل من يرحلون إلى البحر أخيرا.. قالت لي إنها لم تمت لأن عمرها طويل جدا.. وأنا سألحق بها.. سأعيش مع هؤلاء الذين عاشوا قبل أن تطأ قدم إنسان الأرض..

قابلت جدتها كذلك.. منذ ثمانين ألف عام كانت (بتهتهياليا) تعيش في (يها نتلى).. لم تمت حين أطلق الأرضيون الموت على البحر.. إن سكان الأعماق لا يموتون بسهولة.. هم الآن يستريحون لكنهم سينهضون يوما من أجل ما يحلم به (كتولو) العظيم.. والمدينة القادمة ستكون أكبر وأهم من

(إينزماوث).. إن عليّ كفارة مهمة لأني جلبت رجال الموت الأرضيين إلى (إينزماوث)، لكنها لن تكون ثقيلة الوطء..

وفي الصباح رأيت في المرآة بوضوح أنني اكتسبت سحنة (إينزماوث)..

وكما فعل خالي ابتعت مسدسا وكدت أفعلها..

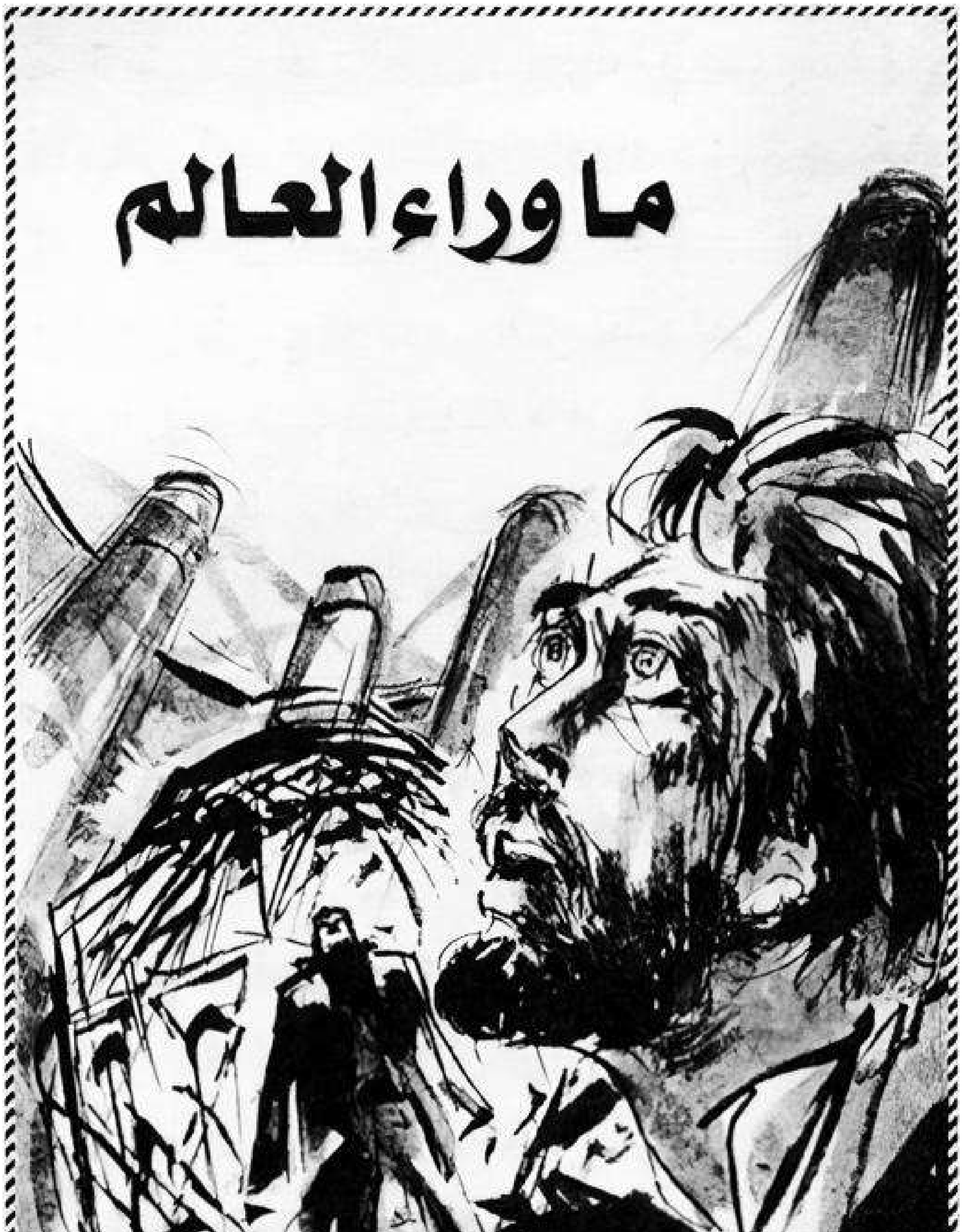
لكن أحلامي في الأيام التالية صارت أكثر جاذبية، وصرت منجذبا للبحر ولا أهابه.. الآن لا أحسب أن على الانتظار كما فعل من سبقوني.. ولو انتظرت لحبسني أبي في مصحة عقلية للأبد. إن الروائع تنتظرني تحت المحيط ولن أنتظرها..

لا رلياهل سيهويهل فلجانجل دا لا.. لا.. لن أطلق الرصاص على رأسي.. لن أفعل أبدا. سأذهب إلى (إينزماوث) التي يغطيها الظل.. الظل الساحر.

سأسبح حتى (شراع الشيطان) وأغطس عبر الأعماق المظلمة حتى أصل إلى (يها نتلى)، وهناك في جحر سكان الأعماق سأعيش وسط المجد والروعة للأبد.

1936

ما وراء العالم



مخيف بما يفوق التصور ذلك التغيير الذي طرأ على صديقي العزيز (كروفورد تلنجاست). ولم أكن قد رأيته منذ شهرين ونصف الشهر قبل ذلك، حين أخبرني بهدف أبحاثه الفيزيائية والخوراقية، وحين رد على احتجاجي المذعور بأن طردنى من معمله وداره في غضب مجنون. وكنت أعرف أنه الآن يمضي الوقت في معمله بالعلية مع تلك الآلة الكهربية المقيتة، يأكل أقل القليل، ويمنع دخول حتى الخدم. كنت أعرف هذا لكني لم أتوقع كل هذا التبدل خلال عشرة أسابيع.

ليس مما يسر أن ترى رجلا متين البنيان وقد صار ناحلا، والأسوأ أن ترى جلده المتهدل وقد صار أصفر أو بنيا، والعينين غائرتين تلتمعان، وأوردة الجبين مجعدة بارزة واليدين ترتجفان ولو أضفت لهذا شيئا أقول إنه ذلك المظهر العام غير المهندم، وشعر بدأ يشيب عند الجذور، ولحية غير حليقة. كان هذا هو منظر (كروفورد تلنجاست) في تلك الليلة التي جلبتني فيها رسالته المضطربة إلى بابه بعد ما طردنى من هناك.. كان هذا هو الشبح الذي راح يرتجف وهو يقودني للداخل، وشمعة في يده وهو ينظر من حين لآخر من فوق كتفه، كأنما يخشى أشياء لا ترى في المنزل.

كان من الخطأ أساسا أن يدرس (كروفورد تلنجاست) العلم والفلسفة، فهي أشياء المفترض أن تترك للباحثين الباردين قليلي الانفعال، أما بالنسبة للرجل ذي الأحاسيس المرهفة، فهي أشياء تسبب نتيجتين مأساويتين: إما القنوط لو فشل في أبحاثه، أو الأهوال التي لا يصدقها عقل لو نجح. وقد كان (تلنجاست) من قبل فريسة الفشل والإحباط، لكني أعلم الآن والمخاوف تغمرني أنه فريسة النجاح. لقد أنذرته من مغبة تجاربه منذ عشرة

أسابيع، حين أخبرني بما شعر بأنه مقبل على اكتشافه. كان يتحدث في حماسية بصوت عال غير معتاد قائلا:

- ما الذي نعرفه عن العالم والكون من حولنا؟ إن سبلنا للمعرفة قليلة بشكل مروع، وانطباعاتنا عن الأشياء المحيطة ضيقة بما لا يقاس.. إننا نرى الأشياء بالطريقة التي يفترض منا أن نراها بها، وليست لدينا فكرة عن طبيعتها المطلقة. بخمس حواس واهنة نحسب أننا قادرون على استكشاف الكون المعقد غير المحدود. على حين تستطيع كائنات أخرى لها حواس أقوى أو تختلف عن حواسنا أن تري عالما غير متناه من الطاقة والحياة، تلك الأشياء التي توجد على بعد ياردات منا لكننا لا نقدر على رؤيتها بحواسنا.. إن لدي يقينا كاملا أن عوالم كهذه موجودة.. والآن بلا مزاح أقول: إنني أستطيع أن أهشم هذه الحواجز.. بعد أربع وعشرين ساعة ستعمل هذه الآلة، ولسوف توقظ موجاتها عضو إحساس مجهولا يكمن فينا كبقايا تشريحية لا نعرف وظيفتها.. لسوف نرى ما يجعل الكلب ينبح في الظلام، وما الذي يجعل القطط تحك آذانها بعد منتصف الليل.. لسوف تبصر هذه الأشياء وأشياء أخرى لم يرها مخلوق يتنفس من قبل.. سنخترق الزمن والأبعاد وندنو من السر.

حين قال (تلنجاست) هذا احتججت، لأنني أعرفه بما يكفي كي يجعلني مذعورا لا مستمتعا، لكنه كان مجنونا وطردني من داره كما قلت.. الآن هو ليس أقل جنونا لكن رغبته في قدومي قد تغلبت على استيائه..

وإذ دخلت دار الصديق الذي تبدل فجأة إلى غول يرتجف، أصابتني عدوى الذعر الذي كان يتوارى في الظلال. إن ما قاله منذ عشرة أسابيع بدا لي الآن مجسدا في تلك الدائرة المظلمة خارج ضوء الشمعة وتمنيت لو كان الخدم دانين، ولم أحب ما

قاله حين ذكر أنهم رحلوا جميعا منذ ثلاثة أيام.. بدا لي غريبا أن يرحل (جريجوري) العجوز دون أن يخبر صديقا موثوقا به مثلي.. لقد كان هو من زودني بأخبار (تلنجاست) بعد ما رحلت مطرودا من داره.

كنت أحاول تخمين ما يريده مني (تلنجاست)، وإن كنت واثقا من أن لديه سرا رهيبا. وعبر خواء المنزل المظلم تبعث الشمعة المتراقصة في يد الرجل المرتجفة. بدا أن التيار الكهربي مقطوع؛ وحين سألته عن ذلك قال: إن هذا لسبب محدد، وأضاف مغمغما:

- سيكون هذا أكثر من اللازم.. وهو شيء لا أجرؤ عليه.

دخل معمله في العلية، وكانت الآلة الكريهة هناك تلتمع ببريق بنفسجي مشئوم. كانت متصلة ببطارية قوية لكن بدا أنها لا تتلقى أية كهرباء، لأني أذكر أنها كانت تهدر في أثناء العمل فيما سبق، وقال لي (تلنجاست) إن هذا البريق ليس كهربي المصدر كما أتخيل.

أجلسني قرب الآلة حتى صارت عن يميني، وحرك محولا ما تحت الصمامات الزجاجية، فبدأ الصخب المعتاد واستحال عواء ثم انتهى إلى طنين ناعم يوحي بالعودة إلى الصمت.. في الوقت ذاته ازداد التألق ثم استحال خليطا من الألوان لا أقدر على وصفه..

كان (تلنجاست) يراقبني ولاحظ دهشتي، فهمس:

- هل تعلم ما هذا؟ إنه الأشعة فوق البنفسجية.. كنت تحسبها لا ترى.. وهي كذلك فعلا لكنك تستطيع الآن أن تراها وأشياء خفية أخرى.

أصغ إليّ.. إن الموجات المنبثقة من هذا الشيء توقظ آلاف الحواس الغافية فينا.. حواس ورثناها من عهد الإلكترونات

المستقلة حتى وصلنا إلى عهد الكائن العضوي المتكامل.. لقد رأيت الحقيقة وإني أزمع أن أريك إياها.. ألا تتساءل كيف تبدو؟

وهنا أطفأ الشمعة وجلس أمامي وأردف:

- إن حواسك الموجودة - وأولها الأذن – ستلتقط أول الانطباعات لأن السمع أقرب الحواس إلى الأعضاء النائمة، ثم تأتي الحواس الأخرى.. هل سمعت عن الجسم الصنوبري؟ إنني لأسخر من أطباء الغدد الصماء الضحلين ومن علماء النفس الجهلة إن هذه الغدة لهي أهم عضو حسي في الجسد.. لقد اكتشفت هذا.. وبوساطتها ترى ما وراء هذا العالم.

نظرت حولى لأرى الغرفة قد أضاءتها إشعاعات لا تراها عيوننا عادة، واتخذ المكان كله وهما ضبابيا أخفي طبيعته، وترك الباب مفتوحا للخيالات والترميز. وإذ صمت (تلنجاست) رأيت نفسي في معبد واسع مذهل.. صرح غامض من الحجر الأسود يرتفع شامخا فوق أرضية من البلاط المبتل إلى ما بين السحب بعيدا عن حدود بصري.. كانت الصورة جلية تماما لفترة، ثم أفسحت الطريق لرؤيا أكثر رهبة.. لخواء شاسع في اللانهاية ولا شيء سواه.. وانتابني فزع طفولي جعلني أسحب المسدس من جيبي.

ثم من أقصى أطراف البعد ولد الصوت بنعومة.. كان خافتا بما لا يقاس، فيه نغمة موسيقية عسير أن تخطئها، لكن كان فيه توحش قاهر جعل تأثيره كأنه تعذيب رقيق لجسدى.. وشعرت بأحاسيس كالتي يحسها المرء حين يخدش الزجاج المصنفر.

وأدركت أن الصوت والريح يتزايدان، وشعرت كأنني مربوط إلى القضيب أمام قطار عملاق يدنو مني.. بدأت أتكلم مع (تلنجاست) وإذ فعلت هذا راحت الصور التي رأيتها تتلاشي.

كان (تلنجاست) يحدق في نفور في المسدس الذي أخرجته بلا وعي، لكني أدركت من ملامح وجهه أنه رأى قدر ما رأيت بل ربما أكثر.

حذرني قائلا:

- لا تتحرك.. إذ إننا في هذه الأشعة نرى ونُرى.. لقد أخبرتك أن الخدم رحلوا لكني لم أقل السبب.. إنها مدبرة المنزل الغبية تلك.. لقد أضاءت الأنوار في الطابق السفلى وكنت قد أنذرتها ألا تفعل.. والتقطت الأسلاك ذبذبة معينة لا بد أنها كانت مفزعة.. وسمعت صراخها برغم كل ما كنت أراه هنا وأسمعه.. ثم وجدت ثيابها المبعثرة فيما بعد.. لقد كانت ثياب مسز (أبدايك) جوار مفتاح نور الصالة وهكذا عرفت ما فعلته.. لقد ظفر بهم جميعا.. لكن طالما نحن لا نتحرك فإننا آمنان نوعا.. تذكر أننا نتعامل مع عالم مفزع نحن فيه عاجزان تماما.. ابق ثابتا!

شعرت بما يشبه الشلل، وانفتح عقلي ثانية لاستقبال ما أسماه (تلنجاست) بـ (ما وراء العالم).. كنت الآن في دوامة من الأصوات والأضواء لكن حدود الغرفة مازالت موجودة، وراحت سحب تغلي تخترق السقف وتحتشد أمامي.. كنت أرى المعبد من جديد لكن أعمدته كانت تمتد إلى محيط سماوي من الضوء.. ثم تلون المشهد وشعرت وسط غمرة الأضواء والأصوات أنني أذوب أو أفقد الشكل الصلب.

ولسوف أذكر بالذات ما بدا كليل غريب تملؤه كريات مضيئة دوراة، ثم أدركت أن الشموس البراقة تتخذ شكل الوجه المشوه لـ (تلنجاست)، وللحظات أخرى كنت أرى أجساما عملاقة تصطدم بي لتعبر ما كان جسدي الصلب.

وفجأة استحوذ عليّ مشهد من الفوضى العامة التي برغم غموضها كانت تملك عناصر المنطقية والثبات.. وقد بدا لي

المشهد مألوفا لأنه كان منطبعا على الخلفية الأرضية المعتادة، كما تسقط صور السينما على ستار العرض.. لم يكن هناك موضع واحد خال في المعمل ما بين الألة ووجه (تلنجاست) والجدران.

كنت أرى عالما كاملا حيا من الغرباء والكائنات العجيبة، وبدا لى كأن الأشياء المعروفة دخلت في تكوين الأشياء غير المعروفة والعكس.. ومن بين الأشياء الأخيرة كان هناك أكثرها عددا كائنات شبيهة بقناديل البحر، تسبح بلا كلل، وتهتز مع اهتزازات الآلة.. وكانت تجتاز الأجسام الصلبة وتخترق بعضها البعض.. وأحيانا كان يلتهم بعضها البعض، ولم أستطع أن أبعد تفكيري عن الخدم البؤساء الذين ربما اختفوا بطريقة كهذه...

وسمعت (تلنجاست) يقول:

- هل تراها؟ هل ترى الأشياء التي تكون ما يسميه الناس بالهواء النقي والسماء الزرقاء؟

ألم أحطم الحاجز؟ ألم أرك العالم الذي لم يره إنسان قط من قبل؟

كان وجهه دانا من وجهي، وعيناه حفرتي نار، وفيهما ما تبينت الآن أنه مقت غالب..

- هل تحسب هذه الأشياء المتخبطة هي ما التهم الخدم؟ أحمق! إنها كانت بلا خطر.. لكن الخدم قد رحلوا، أليس كذلك؟ لقد حاولت أن تمنعني.. أحبطتني حين كنت أريد كل قطرة تشجيع ممكنة.. كنت خائفا من الحقيقة الكونية يا جبان.. والآن ظفرت بك! ما الذي قضى على الخدم؟ ما الذي جعلهم يصرخون كل هذا الصراخ؟ لسوف تعرف حالا.. فقط انظر لي.. هل تحسب أن للزمن والقيمة معنى؟ هل تحسب أن هناك ما يدعى بالشكل والمادة؟ لقد اخترقت أنا ورأيت حدود

اللانهاية واستبعدت الظلال التي تعبر من عالم إلى آخر لتبذر الموت والعدم.. إن الفضاء ملكي أنا.. هل تسمعني؟ ثمة أشياء تلاحقني.. أشياء تلتهم وتذيب.. لكنني أعرف كيف أتفاداها.. كيف أجعلها تظفر بك كما ظفرت بالخدم.. هل تتحرك يا سيدي العزيز؟ قلت لك إنه من الخطر أن تتحرك.. لقد حافظت على حياتك حتى الآن بأن أمرتك ألا تتحرك.. ولو أنك فعلت لظفروا بك من زمن طويل.. لا تقلق.. هذا لا يؤلم، وإنما صرخ الخدم بسبب الذعر مما رأوه..

إن تلك الكائنات المدللة تأتي من عالم لا تسري فيه مقاييسنا الجمالية.. كنت أعرف دوما أنك لست بالعالم يا صديقي.. لا تقلق.. إنهم آتون.. انظر! انظر! إنه فوق كتفك الأيسر.

وما بقي في القصة مختصر جدا، وربما هو مألوف لمن قرءوا الصحف. لقد سمع رجال الشرطة طلقة رصاص من منزل (تلنجاست) العجوز ووجدونا هناك.. (تلنجاست) ميت وأنا فاقد الرشد. وقد اعتقلوني لأن المسدس كان في يدي لكنهم أطلقوا سراحي بعد ثلاث ساعات بعدما وجدوا أن نزف المخ هو ما قتل (تلنجاست)، وعرفوا أن طلقتي كانت موجهة للآلة المؤذية التي تناثرت أجزاؤها الآن على أرض المعمل..

لم أقل لهم كل ما رأيت، لكن الطبيب الشرعي بعد ما عرف بعض التلميحات العامة، قال إنني بالتأكيد كنت تحت تأثير تنويم مغناطيسي مارسه معي المجنون الحاقد..

ليتني أستطيع تصديق الطبيب.. إذن لساعد هذا أعصابي المرتجفة بسبب ما صرت أعتقد أنه الهواء والسماء من فوقي..

لم أعد أستطيع التمتع بالوحدة أو بالراحة، ودائما ما يطاردني ذلك الشعور بالمطاردة والمراقبة كلما كنت متعبا.. على أن السبب الوحيد الذي يمنعني من طلب عون الطبيب هو

حقيقة أن رجال الشرطة لم يجدوا قط أجساد الخدم الذين يعتقدون أن (كروفورد تلنجاست) قد قتلهم.

كتبت عام 1920
ونشرت للمرة الأولى عام 1934

☆ ☆ ☆

الوحش في الكهف



الاستنتاج المريع الذي بدأ يفرض نفسه على عقلي الحائر الكاره له، قد صار الآن حقيقة مرعبة..

لقد ضللت طريقي في المتاهة الواسعة لكهف (الماموث).

لا شيء يقع عليه بصري المجهد في أي اتجاه كي أستعين به علامة للخروج من هنا.. إنني لن أرى من جديد ضوء النهار المبارك، ولا وديان العالم الجميلة بالخارج.

لم يعد عقلى يملك ترف أدنى شك.. لقد ولى الأمل، وبرغم أنني تعلمت الفلسفة طيلة حياتي، فإنني لم أنل أية ترضية من سلوكي العقلاني المتجرد. لأنني برغم أنني قرأت كثيرا عن الجنون الذي قذف إليه الكثيرون ممن مروا بهذا الموقف اليائس؛ فإنني لم أخبر شيئا من هذا.. ووقفت هادئا ما إن تبينت المأزق الذي وقعت فيه..

ولا حتى فكرة أثني ابتعدت كثيرا عن مجال أي بحث عادي عني، جعلتني أتخلى عن رباطة جأشي ولو للحظة..

لو كنت سأموت، فهناك هذا الكهف المخيف لكنه ساحر، كأنه ضريح كالذي يمنحه لى أي فناء كنيسة.. وكان في هذا التصور راحة أكثر من راحة اليأس.

إن التضور جوعا سيكون هو مصيرى النهائي.. كنت من هذا واثقا.. البعض جن من نهاية كهذه لكني شعرت بأن هذه ليست نهايتي..

إن كارثتي ليست خطأ أحد سواي، لأن الدليل لم يعرف أنني انفصلت عن مجموعة السائحين ومشيت بلا هدف نحو ساعة في دروب محرمة من الكهف.. وعجزت عن متابعة الممرات الخادعة التي عبرتها منذ فارقت من كانوا معي.

لقد بدأ مصباحي يخبو، ولسوف تغلفني سريعا ظلمات باطن الأرض الكلية التى توشك أن تكون ملموسة.. وإذ وقفت في

الضوء المحتضر المهتز، تساءلت في غباء عن الظروف التي سببت نهايتي القادمة.

تذكرت القصص التي سمعتها عن مستعمرة مرضى السل التي اتخذت سكناها في هذا الكهف العملاق، طلبا للصحة في هواء عالم ما تحت الأرض.. بحرارته الثابتة المنتظمة، وهوائه النقي، وهدوئه.. وكيف لاقى القوم الموت بأغرب السبل وأشنعها..

لقد رأيت البقايا المؤسية لأكواخهم غير متقنة الصنع إن مررت بها مع المجموعة.. وتساءلت عن الأثر غير السوي الذي تحدثه الإقامة في هذا الكهف الهائل الصموت في شخص طبيعي مثلي.. والآن أقول لنفسي: إن فرصتى للتحقق من هذه النقطة قد جاءت، بشرط ألا يؤدى الجوع إلى رحيلى العاجل من هذا العالم..

وإذ ولت آخر الإشعاعات من مصباحي إلى الظلمة، قررت ألا أترك بابا لا أطرقه.. ولا وسيلة للنجاة دون أن أجربها.. ومستعينا بكل قوة في رئتي، أطلقت سلسلة من الصرخات العالية، على أمل أن أجذب انتباه الدليل بصخبي.. إلا أنني - وأنا أصرخ - كنت موقنا من أن صرخاتي بلا جدوى، وأن صوتي الذي تعكسه الجدران الحجرية حولى، لن يصل إلى أذنين عدا أذني..

فجأة تركز اهتمامي إذ تخيلت أنني سمعت صوت خطوات ناعمة على أرض الكهف الصخرية.. أتكون نجاتي تحققت بهذه السرعة؟ هل تكون كل مخاوفي بلا داع، ويكون الدليل قد لاحظ اختفائي من بين المجموعة، فتتبعني وبحث عني في متاهة الحجر الجيري هذه؟

وبينما تلكم الخواطر السارة في ذهني، كنت على وشك مواصلة الصراخ ثانية حتى يجدوني أسرع، حين استحال سروري

ذعرا فجأة وأنا أصغي..
لأن أذني الحادة أبدا - والتى شحذها الصمت التام في الكهف - جعلتني أميز في رعب وغير توقع، أن هذه الخطى ليست كخطى أي إنسان فان.
وسط السكون الغريب لهذه البقعة تحت الأرضية، فإن وقع قدمي الدليل بحذائه ذي الرقبة كان سيحدث ضربات قوية حادة.. أما هذه الضربات فناعمة مختلسة كقدم مخلبية لقط.. بالإضافة لهذا - إذ أصغيت بعناية - بدا لي أنني أميز خطوات أربع أقدام لا اثنتين.
كنت واثقا الآن أنني بصرخاتي قد جذبت وحشا مفترسا ما.. ربما أسد جبال دخل الكهف صدفة.. ولربما اختار الله (العلي القدير) لى ميتة أسرع وأرحم من الجوع.. إلا أن غريزة البقاء - التي لا تنام تماما أبدا - تحركت في صدري، وبرغم أن الفرار من الخطر القادم قد يدخرني لنهاية أبطأ وأقسى، إلا أنني صممت على الذود عن حياتي بأغلى ثمن لدي..
لزمت الصمت على أمل أن الوحش القادم سيفقد اتجاهي في غياب الصوت، ويمر بي.. لكن ما كان هذا الأمل ليتحقق.. لأن الخطوات الغريبة واصلت التقدم.. لا بد أن الحيوان شم رائحتى التي في جو خال من كل التأثيرات كما في هذا الكهف - يمكن تتبعها لمسافات هائلة..
وإذ أدركت أنني يجب أن أتسلح للدفاع أمام تلك الهجمة غير المرئية في الظلام، جمعت كل ما وجدت من صخور متناثرة على أرضية الكهف وأمسكت بواحدة في كل يد لاستعمالها العاجل.. وانتظرت ما سيحدث..
في الوقت ذاته استمرت ضوضاء المخالب القادمة.. من المؤكد أن سلوك هذا الوحش غريب.. أكثر الوقت كانت الخطى

توحي بحيوان يمشي على أربع، بلا اتساق بين الطرفين الأماميين والخلفيين.. وفي لحظات أخرى قصيرة كنت أشعر أنه يمشي على قدمين.. تساءلت عن نوع هذا الحيوان.. لا بد أنه حيوان عاثر الحظ دفع ثمن فضوله ورغبته في استكشاف الكهف غاليا.

لابد أنه يلتهم الوطاويط والفئران، وربما أسماك نهر (جرين) التي تدخل الكهف مع السيول، وتتصل بمياهه بشكل غامض..

وتذكرت ما تحكيه الأساطير المحلية عن التحولات المريعة التي طرأت لمرضى السل، بعد الفترة الطويلة التي قضوها في ظلام الكهف وتذكرت. مبهوتا - أنني وإن تغلبت على مهاجمي فلن أعرف أبدا كيف يبدو، لأن مصباحي قد انتهى، وليست معي أعواد ثقاب.

كان الضغط في مخي مريعا الآن، وراح خيالي المريض يريني أشكالا مفزعة في الظلام المحيط بي.. أقرب أقرب أقرب تدنو الخطوات..

أشعر أن على أن أصرخ لكنني حتى لو نويت هذا فما كان صوتى ليستجيب.. كنت متجمدا حيث أنا.. وتساءلت عما إذا كانت ذراعي اليمني قادرة على إطلاق قذيفتها، لو جاءت اللحظة.

الآن صارت الخطى دانية جدا.. يمكننى سماع التنفس الثقيل للحيوان وأدركت أنه بالتأكيد آت من قريب.. وكنت منهكا.. اندفعت يدي اليمني مهتدية بحاسة سمعي الموثوق فيها، لتقذف قطعة الحجر الجيري نحو نقطة الظلام التي جاءت منها الخطوات والأنفاس.. ولابد أنها كادت تحقق هدفها لأن الشيء وثب مبتعدا كما سمعت، ووقف على مسافة صامتا..

هنا أطلقت قذيفتي الثانية بنجاح أكبر، لأن الوحش في هذه المرة تكوم أرضا بلا حراك.. وجعلتني الراحة أزداد قوة فتراجعت

للوراء نحو الجدار.
استمر التنفس.. في شهيق وزفير ثقيلين كأنهما الاحتضار.. فبينت هنا أنني لم أفعل أكثر من أن جرحت المخلوق. وزالت كل رغبة لدى في فحص الشيء.. انتصر عليّ خوف غير مبرر أقرب إلى التطير، فلم أدن من الجسد ولم أقذفه بالحجارة لأقضى عليه.. بدلا من هذا جريت بأقصى سرعة في الاتجاه الذي تخيلت أنني جئت منه فجأة سمعت صوتا أو بالأحرى مجموعة من الأصوات.. في النهاية تحولت إلى سلسلة من القرقعات المعدنية الحادة..
هذه المرة لا شك هنالك..
إنه الدليل..
وعندها ولولت.. استغثت.. بل صرخت فرحا وأنا أري بين الأقواس فوقي، ذلك التألق الخافت الذي هو من مصباح يقترب. جريت لألقى الضياء وقبل أن أفهم ما حدث، كنت راقدا على الأرض بين قدمي الدليل.. أحتضن حذاءيه وأهذي بالكلمات، وبطريقة حمقاء بلا معني - برغم تحفظي الشديد - أحكي له قصتي الرهيبة، وأرهقه بعبارات الامتنان..
في النهاية استعدت شيئا قريبا من وعيي الطبيعي.. لقد لاحظ الدليل غيابي حين وصل الجمع إلى مدخل الكهف. وقد راح يفتش عني مهتديا بحاسة اتجاهه الخاصة، بادئا من آخر مكان تكلمت معه فيه، وقد وجد أثرى بعد أربع ساعات كاملة.
وكنت قد اطمأننت لصحبته وكشافه، فحكيت له عن الوحش الذي قابلته من قليل، واقترحت عليه أن نعود فقط لنتحقق من الأمر ونعرف أي نوع من الوحوش كان.
وهكذا عدنا إلى حيث كان الصراع.. لمحنا جسما أبيض على الأرض.. جسما أكثر بياضا من الحجر الجيري ذاته.. بحذر

تقدمنا شاعرين بدهشة مشتركة، لأن هذا الشيء كان أغرب ما رأينا من وحوش غير عادية في حياتنا.. بدا كقرد ضخم الجسد شبيه بالإنسان، هارب في الغالب من حديقة حيوان مجاورة..

كان شعره في بياض الثلج.. ربما كان هذا نتيجة التأثير المبيض للظلام داخل الكهف.. لكن الشعر لم يكن وافرا إلا فوق الرأس، حيث امتد ليغطى الكتفين، بينما لم يكن له أثر على باقي الجسد.

كان الوجه بعيدا عنا لأن الوحش سقط فوقه.. ومن أطراف الأصابع كانت هناك مخالب طويلة، واللون الأبيض غير الأرضي يغمر كل شيء.. لم يكن هناك ذيل، وكان التنفس واهنا الآن فأخرج الدليل مسدسه عازما على قتل المخلوق حالا..

هنا صدر صوت من المخلوق جعل السلاح يسقط على الأرض..

كان الصوت ذا طبيعة لا يسهل وصفها.. لم يكن كصوت أي من أنواع القردة المعروفة، وتساءلت عما إذا كان هذا الصوت الغريب مكتسبا بسبب الصمت الطويل في هذا الكهف؟ إنني أستطيع أن أصنف الصوت كنوع من الغمغمة العميقة.

وفجأة دبت طاقة عجيبة في جسد الوحش.. راحت المخالب تتشنج والأطراف تتقلص.. ثم بهزة دار الجسد بحيث صار الوجه في اتجاهنا..

في البداية أصابني الهلع من العينين حتى إنني لم أر غيرهما.. كانتا سوداوين.. حالكتي السواد تتناقضان بشدة مع الشعر والجلد الأبيضين.. وكانتا غائرتين في محجريهما ككل من يسكن الكهوف.. وإذ دققت النظر لاحظت أنهما في وجه لم يبرز فكاه كما هو معتاد في القردة.. وكان الأنف أقل تميزا..

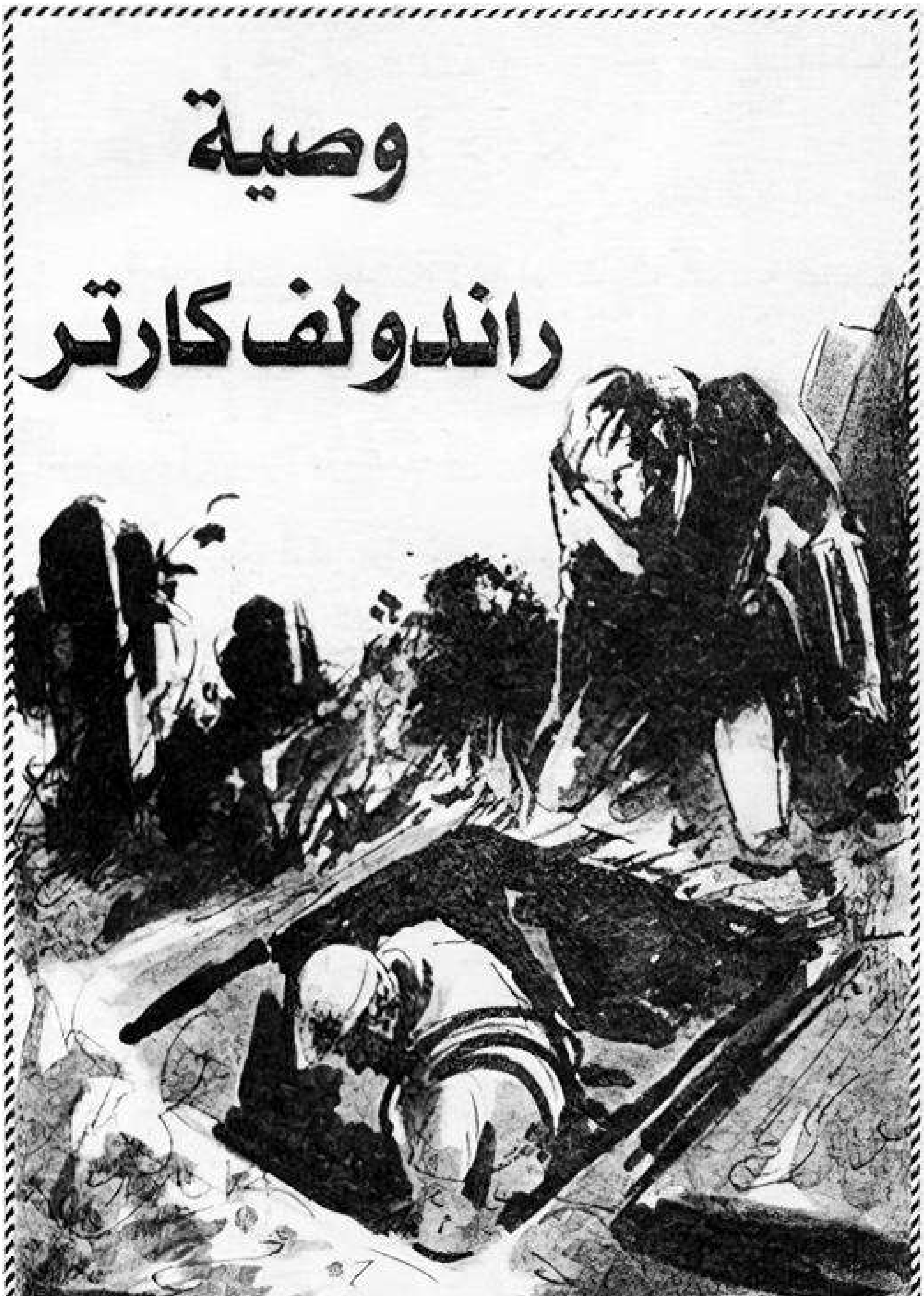
انفتحت الشفتان الغليظتان وخرجت أصوات مضطربة، ثم غاب الوحش في الموت..

أمسك الدليل بكمى وارتجف حتى إن الضوء تراقص متشنجا، ملقيا ظلالا غريبة على الجدران.

لم أتحرك وظللت واقفا، بينما عيناي المذعورتان متصلبتان على الأرض.. لقد ولى الخوف، وحل العجب والشفقة والرهبة مكانه.. لأن الأصوات التي أصدرها المخلوق الممدد فوق الحجر الجيري، قد أخبرتنا بحقيقته.

إن المخلوق الذي قتلته.. ذلك الوحش العجيب في الكهف الغامض.. هو - أو قد كان كذلك - إنسان!!

وصية راندولف كارتر



للمرة الثانية أقول إنني لا أعرف ما صار إليه أمر (هارلي وارن)، برغم أنني أحسب أو آمل أنه نال المغفرة عما فعل.

حقيقي أنني لخمسة أعوام كنت أقرب صديق له، وشاركته جزئيا أبحاثه المفزعة في عالم المجهول.. برغم أن ذاكرتي واهنة غير واضحة، لن أنكر أن شاهدكم هذا رآنا معا كما يقول، في (جينزفيل) نمشي نحو (مستنقع قبرص الكبير)، في الحادية عشرة والنصف في تلك الليلة المريعة. وأننا كنا نحمل مصابيح كهربية ورفشين ولفة من السلك تتصل بها أجهزة ما.

إن كل هذه الأشياء لعبت دورا في المشهد الرهيب الذي بقي في ذاكرتي المهتزة..

لكن بخصوص ما حدث بعد ذلك، وسبب العثور عليّ وحيدا تائها على حافة المستنقع؛ فإنني أصر على أنني لا أعرف شيئا عدا ما قلت لكم مرارا ومرارا..

تقولون لي إنه ما من شيء في المستنقع أو حوله يبرر هذه النوبة المفزعة، فأجيب بأنني لا أعرف إلا ما رأيته.

ربما كانت رؤيا أو كابوسا.. كما آمل كثيرا.. تلك الأشياء التي يذكرها عقلي عما حدث في الساعات الصادمة بعد ما ابتعدنا عن البشر.. أما لماذا لم يعد (هارلي وارن)، فإنه أو ظله - أو شيء بلا اسم لا أستطيع وصفه. يمكنه أن يفسر..

كما قلت من قبل، فإن الدراسات الغريبة التي اهتم بها (هارلي وارن) معروفة جيدا لي، وإلى حد ما شاركت فيها. ومن بين مجموعته النادرة من الكتب، قرأت فقط تلك المكتوبة بلغات أجيدها،

لكن هذه كانت قليلة بالنسبة للغات التي لا أفهمها.. والكتاب الشيطاني بالذات الذي جلب النهاية، كان مكتوبا بحروف لم أر مثلها قط في أي مكان.

وما كان (وارين) ليخبرني بمحتوي هذا الكتاب أبدا.. أما بالنسبة لطبيعة دراساتنا فإن عليّ أن أقول إنني لم أعد أفهمها تماما.. ويؤسفني أن أقول هذا لأنني كنت مهتما بها من قبيل النفور المفتون أكثر منه ميلا حقيقيا.

كان (وارن) يسيطر عليّ دوما، وأحيانا كنت أخشاه.. أذكر كيف نفرت من التعبير العجيب على وجهه في ليلة الحادث، وهو يحكي لي نظريته.. عن لماذا لا تتحلل بعض الجثث بل تبقى آلاف السنين في قبورها ممتلئة متماسكة. لكنني لا أخشاه الآن فأنا أعرف أنه عاش أهوالا تفوق تصوراتي، ولهذا أخاف عليه.

ومن جديد أكرر أنه ليست لدي فكرة واضحة عن هدفنا ليلتها.. لا بد أنه كان متعلقا بالكتاب الذي يحمله (وارين) معه.. ذلك الكتاب العتيق بحروفه العجيبة، والذي جاء من الهند منذ بضعة أيام. يقول شاهدكم إنه رآنا في (جينز فيل) نمشي نحو (مستنقع قبرص الكبير)، في الحادية عشرة والنصف.. ربما كان هذا صحيحا لكنني لا أذكره بوضوح. إن ما أذكره هو مشهد واحد لا أكثر.. لا بد أن الساعة كانت بعد منتصف الليل وقتها.. وكان الهلال الخافت عاليا وسط سماء ضبابية.

المكان كان مقبرة قديمة.. قديمة إلى حد أنني ارتجفت من شواهد القبور العتيقة. كانت رطبة مبللة تغطيها الأعشاب والغصون المتسلقة، ولها رائحة عطنة جعلت خيالي يتصورها رائحة الحجر المتعفن.

وعلى كل جانب كانت علامات الإهمال والتداعي، وقد طاردتني فكرة أنني و(وارين) أول مخلوقين حيين نغزو صمت القرون القاتل.

وعلى ضوء الهلال المخيف الباهت، تبينت مجموعة من الجرار القديمة والأنصاب التذكارية، وكلها قد كستها الأعشاب..

كان أول انطباع لى عن وجودي في مدينة الموتى الرهيبة هذه، هو وقفتي المتصلبة مع (وارين) أمام ضريح معين نصف مكشوف، وإنزالنا بعض الأحمال التي كانت معنا.

هنا لاحظت أنني أحمل كشافا كهربيا ورفشين، بينما رفيقي كان يحمل مثلي كشافا وآلة هاتف متنقلة.. لم ننطق بكلمة لأننا كنا نعرف مهمتنا، ودون إبطاء رحنا نزيح الأعشاب والتربة، ثم تراجعنا إلى الوراء لنرى المشهد، وبدا كأن (وارين) يجرى بعض الحسابات الذهنية، ثم تناول الرفش يستعمله كرافعة، ليرفع بها اللوح القريب من حجر ربما كان أثرا مهما.. لم يفلح وأشار لي كي أعاونه. في النهاية أفلحت جهودنا في رفع اللوح..

ظهرت لنا فجوة سوداء منها انبعثت رائحة مقززة جعلتنا نتراجع في ذعر.. بعد قليل عدنا إلى الفتحة فوجدنا الرائحة قد صارت محتملة.. أظهرت مصابيحنا درجات سلم حجري مغطاة بمادة مقززة من قلب الأرض، وحولها جدران رطبة تغطيها أملاح النترات.. والآن للمرة الأولى أتذكر محادثة.. كان (وارين) يقول لي بصوته الغليظ الخفيض:

- آسف أن أطلب منك الانتظار على السطح، لكنها جريمة أن أترك واحدا بأعصابك الواهنة يهبط لأسفل.. لن تتخيل من كل ما قرأت وما قلت لك أية أشياء أنوي أن أراها وأفعلها.. إنه عمل مقيت يا (كارتر) ولا أحسب رجلا لا يملك أعصابا من حديد، بقادر على أن يراها ثم يخرج حيا عاقلا.. يعلم الله أنني سأكون سعيدا لو صحبتك معي، لكن المسئولية مسئوليتي أنا ولن أدعو حزمة أعصاب مثلك إلى الجنون أو الموت.. أنت لن تتخيل كيف يبدو الشيء، لكني سأخبرك بالهاتف عن كل حركة.. أنت ترى أن معي سلكا يكفي من هنا لبلوغ مركز الأرض والعودة منه!

ما زلت أذكر هذه الكلمات، وأذكر احتجاجي.. كنت راغبا في اصطحابه إلى أعماق الضريح، لكنه كان عنيدا لا يتزحزح.. وهدد بأن يتخلى عن الأمر لو أنني أصررت.. وهو تهديد فعال، لأنه الوحيد الذي يملك المفتاح..

أذكر هذا كله، وإن كنت لا أذكر ما كنا نبحث عنه.. التقط لفة السلك وناولني أحد الهاتفين فأمسكته في يدي، وجلست على شاهد قبر حجري عتيق.. ثم إنه صافحنى ولف السلك على كتفه، واختفي في المقبرة التي لا توصف..

ولدقيقة ظللت أرى ضوء كشافه وصوت السلك الذي ينفك من البكرة خلفه ثم اختفى الضوء.. وكذا اختفى الصوت سريعا..

كنت وحدي.. ظللت أرمق ساعتى على ضوء الكشاف، وأصغى في لهفة للأصوات القادمة من السماعة.. لكن لمدة نصف ساعة لم أسمع شيئا ثم دوت طقطقة من الأداة، فناديت صاحبي بصوت متوتر لأنني كنت أتوجس خوفا.. لكني لم أتوقع الأصوات التي وصلتني في لهجة راجفة خائفة لم أسمعها قط من (وارين). الآن يناديني في همس مذعور أعنف من أي صراخ مستغيث:

- رباه!! لو رأيت ما أراه!

لم أملك إجابة فصمت.. وبعد قليل جاءت صيحته:

- (كارتر).. هذا مخيف.. مفزع.. لا يصدق!!

هذه المرة لم يخذلنى صوتي، فصببت في السماعة طوفانا من الأسئلة.. ورحت أردد:

- (وارين).. ما هذا؟ ماذا هنالك؟

من جديد جاء صوته الذي كان الخوف يلجمه والآن غمره اليأس:

- لا أستطيع أن أخبرك يا (كارتر).. إنه يفوق الخيال.. لا أحد يملك أن يعرفه ويعيش.. يا إلهي العظيم! أنا خائف!

ساد الصمت من جديد، ثم جاء صوته المذعور:

- (كارتر)! بالله عليك أعد غطاء الضريح وارحل.. هلم! اترك كل شيء واخرج.. هذه فرصتك الوحيدة! افعل ما أقول لك ولا تسألني شرحا!

سمعت لكننى واصلت أسئلتي الملهوفة، حولي القبور والظلام وتحتي ذعر يفوق خيال البشر.. لكن صاحبي في خطر عظيم، وإنني لحانق لأنه يحسبني أتركه في خطر هكذا..

مزيد من القرقعة، ثم بعد صمت جاءت صرخة موجعة من (وارين) فصحت وقد تجمعت للقتال:

- (وارين).. تماسك.. إنني قادم لأسفل!

لكن ما إن قلت هذا حتى صارت لهجة صاحبي توحي بقنوط لا يوصف:

- لا تفعل.. أنت لا تفهم! لقد تأخر الوقت والخطأ خطئي.. لا شيء بوسعك ولا بوسع إنسان آخر عمله!

ثم صار الصوت أنعم كأنما استسلم لمصيره تماما، وعاد يقول:

- أسرع قبل فوات الأوان!

حاولت أن أتغلب على الشلل كي ألحق به، لكن همسته التالية وجدتني مازلت في أصفاد ذعر شديد..

- (كارتر).. أسرع! لم تعد جدوى.. واحد أفضل من اثنين.. أعد اللوح.. لقد كاد الأمر ينتهي الآن.. لا تجعل الأمور أصعب.. غط هذه الدرجات وفر بحياتك.. أنت تضيع الوقت وداعا يا (كارتر) فأنا لن أراك ثانية..

ثم استحالت همساته صراخا.. صراخا يحوي كل ذعر الأجيال:

- تبا لها! ألوف منها! رباه!!

ثم ساد الصمت.. لا أعرف كم قرنا لبثت متصلبا أهمس وأصرخ في الهاتف..

- (وارين).. (وارين).. أجبني.. أما زلت هناك؟

ثم شعرت بقمة الرعب المتوجة.. لقد قلت إن قرونا مضت بعد ما صرخ (وارين) بأخر إنذار..

الآن كان هناك صوت قرقعة من السماعة، وأنهكت أذني لتسمعه ثانية.. ومن جديد صرخت:

- (وارين).. هل أنت هناك؟

وهنا سمعت الشيء الذي وضع هذه السحابة على ذهني..

لا أحاول هنا يا سادة أن أصف هذا الصوت بالتفصيل، لأن أولى الكلمات سلبتني وعيي وخلقت خواء عقليا امتد حتى أفقت في المستشفى.. هل أقول إن الصوت كان عميقا بعيدا جيلاتينيا بلا جسد؟

ماذا سأقول؟ كانت هذه نهاية تجربتي ونهاية قصتي. لقد سمعته ولا أعرف سوى هذا.. سمعته وأنا جالس متحجرا في تلك المقبرة التي غطت شواهدها الأعشاب والأبخرة السامة..

سمعته من أعمق أعماق الضريح وأنا أرمق الظلال آكلة البشر ترقص تحت قمر باهت مشئوم. وكان ما قاله الصوت هو:

- يا أحمق! إن (وارين) قد مات!

1919

(تمت بحمد الله)

وعاد (أوبد) إلى (إينزماوث) وقال لأهلها إنه يعرف طريقة مؤكدة لاجتلاب الأسماك، وإنهاء هذا الخراب والمجاعة.. لكنه بحاجة إلى بعض الشجعان كي يعاونوه.. بالطبع فهم البحارة الذين كانوا معه على سفينته (ملكة سومطرة) ما ينتويه وارتجفوا هلعا وتقززا، بينما تحمس الباقون..

«ومن يومها تغير كل شيء، ولم تعد (إينزماوث) ذلك المرفأ الباسم الزاخر بالذهب، لأن ظلا مخيفا قد سقط فوقها.. ظلا لا يفارق كوابيس كل من يعيش قربها


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

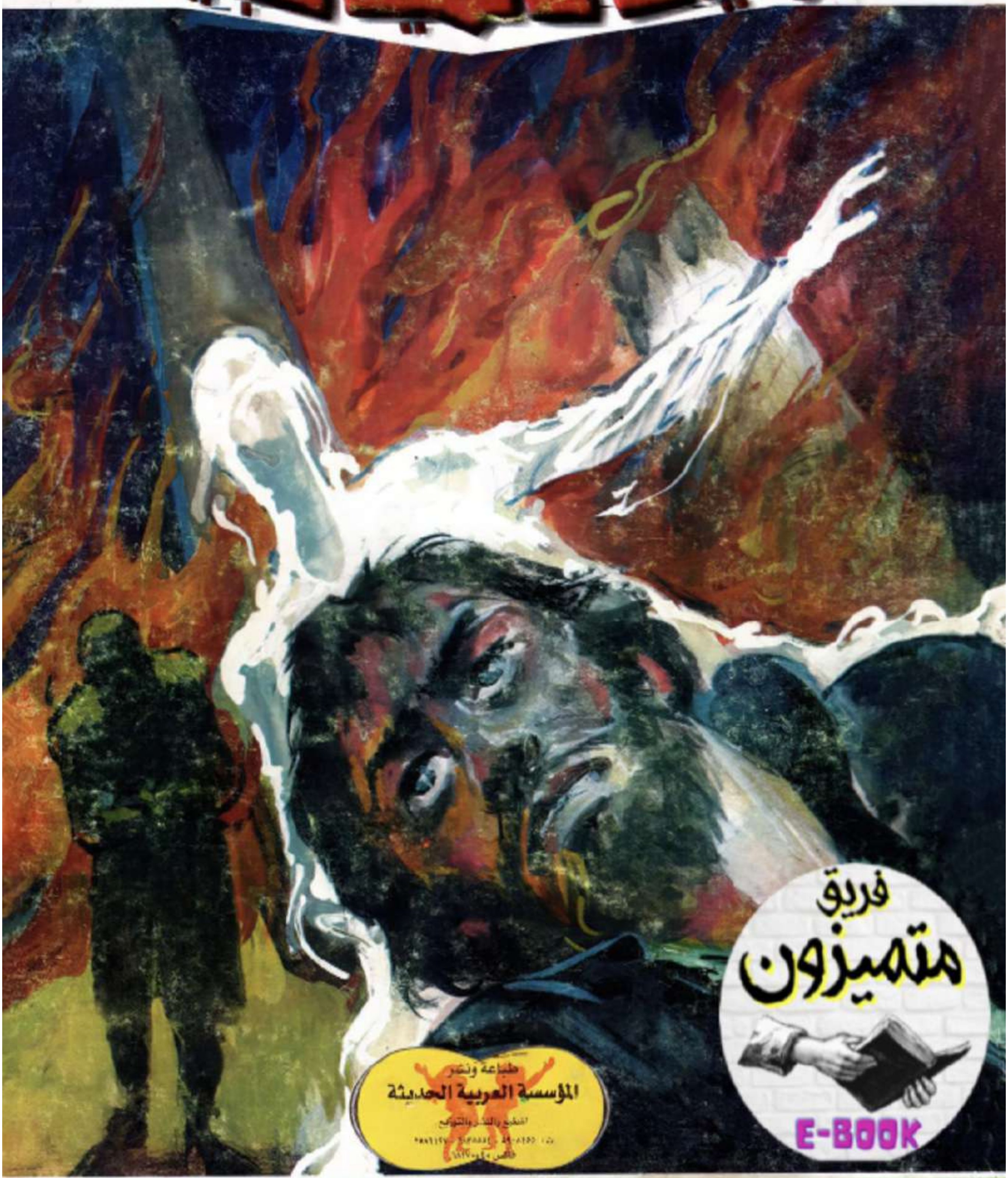
- ديجون: معبود وثني فينيقي كان يصور كنصف إنسان ونصف سمكة.

[←2]

- جزيرة عيد الفصح: من أهم الجزر التي ألهبت خيال الكتاب.. الجزيرة جزء من (شيللي) في جنوب المحيط الهادي، وقد اكتشفها الهولنديون يوم عيد الفصح عام 1722، وتشتهر بالوجوه الحجرية المخيفة والغامضة المنحوتة من الحجر البركاني، على سواحلها..

37

روايات عالمية للجيب



خلف جدار النوم

بقلم : هـ . ب . لافكرافت
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (37)

خلف جدار النوم

بقلم: هـ. ب. لافكرافت
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

من جديد نعاود الحديث عن (هـ. ب. لافكرافت)!
أعتقد أن ما ذكرناه في الكتيب السابق كان وافيا إلى حد ما، لهذا نعيد نشره هنا من جديد، فقط لمن لم يقرءوا الكتيب السابق..
(هـ. ب. لافكرافت) مدرسة متفردة من مدارس أدب الرعب ثقيل الوطء، وهي مدرسة قد لا نجد لها شبيها إلا عند أمريكي آخر هو (إدجار آلان بو) كلا الأديبين ينتمي أساسا إلى مدرسة كبرى من مدارس الأدب الرومانسي، هي الرعب القوطي.. أي الرعب الشبيه بعوالم الكوابيس بالضبط. رعب الغموض والقلاع المظلمة والبروق والرعود، والشرور المستطيرة والنفوس المعقدة المجنونة.. ومن أدباء هذه المدرسة (ماري شيللي) (وماتيورين) و (برام ستوكر) و(بكفورد) و (م. لويس) و (آن رادكليف). لكن (لافكرافت) استطاع أن يضفي على الرعب شاعرية أدبية معقدة، مع خلفية من الهواجس النفسية المظلمة ذات مذاق خاص، حيث الخطر ينبع من الداخل كما يفيض من الخارج. وصارت له مفردات عالمه الخاصة التي يعرفها قراؤه كأسمائهم مثل (نكرومونيكون) - (كتولو) - (آرخام) - (أزوث) - (العزيفAzif) الخ...
والملاحظ أنه يشير إليها في أكثر من قصة حتى إن كثيرين صاروا يعتقدون أنها حقيقية.. وفي بعض خطاباته الخاصة يصف لصديق الطريقة المثلى لنطق لفظة Cthulu التي حير نطقها الكثيرين، فيقول إن عليك أن تنطقها من حلقك مع تثبت طرف اللسان على سقف الفم، والنباح لتخرج الكلمة (كت – هلو - لهو)!! لأن لسان البشر القاصر لا يستطيع نطق الاسم

بالشكل الصحيح! بل ما زال كثيرون يبحثون عن النسخة الأصلية من كتاب (نكرومونيكون) السحري، الذي كتبه شاعر يمني اسمه (عبد الله الحظرد) حسب زعم (لافكرافت)..

ولد (هوارد فيليب لافكرافت) في أغسطس عام 1890 في (بروفيدنس) بـ (رود آيلاند) وتربى مع أمه وجده بعد وفاة أبيه الغامضة (ظل سنتين يقال له أن أباه نائم الآن) وكان مولعا بالقراءة وبصفة خاصة (ألف ليلة وليلة) التي قرأها وعمره خمسة أعوام، ولسوف يدرك دارسو أدبه يوما ما أن (ألف ليلة) قد تركت بصمة لا تمحى في كتابات الرجل، وفي هذه الفترة أطلق على نفسه اسم (عبد الله الحظرد) وهو نفس الاسم الذي كتب به روايته الرهيبة (نكرومونيكون) كما قلنا. وفي العام التالي اكتشف الأساطير الإغريقية وقرأ الإلياذة والأوديسة.. ولعب جده دورا مهما في جعله يحب حكايات الرعب القوطية.

كان قليل الانتظام في المدرسة، بلا أصدقاء تقريبا، لكنه كان يدرس في مدرسته الخاصة الزاخرة بقراءات لا تنتهي. وفي سن المراهقة أصدر بنفسه مجلة دورية عن علم الفلك، وراسل إحدى الصحف المحلية. ثم توفي جده وعانت أمه الكثير من المشاكل المادية، مما اضطرهما إلى ترك البيت الجميل الذي تربى فيه الأديب، وأصابه انهيار عصبي حرمه من دخول الجامعة، وقد ظلت هذه النقطة تعذبه طيلة حياته..

فيما بعد التحق برابطة الأدباء الهواة المتحدين عام 1914 وترقى إلى أن صار رئيس الرابطة، وكانت هذه أهم خطوة في حياته، لأنه لم يكن واثقا قط مما إذا كان يملك حاسة الأدب أو يفتقر إليها وكتب أول قصصه الخيالية المرعبة (الوحش في الكهف) - تقرؤها هنا - و(الخيميائي) ولاقى نجاحا أقنعه بأن

يكرس قلمه لهذا النوع من الأدب.. وفي الأدب كتب الكثير جدا من الشعر، مثله مثل (آلان بو) مواطنه الأشهر.

وفي الوقت ذاته كان يراسل عددا هائلا من الأصدقاء والمعارف، حتى صار بالفعل من أهم من كتبوا أدب الرسائل في هذا القرن. وفي العام 1921 قابل (سارة).. المرأة التي ستكون زوجته، وهي مهاجرة سوفييتية تكبره في العمر بسبعة أعوام.

وتزوجا في العام التالى، وعاش معها في شقتها في (بروكلين) وكتب (لافكرافت) أسوأ كوابيسه القصصية مثل (الرعب في ردهوك) و(هو) متأثر بجو (نيويورك) الكئيب الذي لم يحبه قط، وفي عام 1929 تم الطلاق وعاد هو إلى (بروفيدنس) التي أحبها بعمق. كانت هذه آخر وأهم عشرة أعوام من عمره، وفيها سافر كثيرا جدا وكتب أهم رواياته (نداء كتولو) و(في جبال الجنون) و (ظل الزمن) كما كان يقرأ كثيرا جدا وفي كل موضوع من الفلك إلى التاريخ إلى النحت إلى السياسة..

ومع العام 1932 صارت قصصه أكثر تعقيدا وصعوبة، وصار يجد عسرا في بيعها، لذا راح يكسب عيشه كمصحح لقصص الأشباح الرخيصة.

وفي العام 1937 اكتشف الأطباء أنه مصاب بحالة متقدمة من سرطان الأمعاء، وسرعان ما توفي في العام نفسه.

كان (لافكرافت) يتنبأ بنسيان أعماله بعد موته، لأنه لم ينشر قط كتابا بالمعنى الصحيح وربما تعتبر رواية (ظل فوق إينزماوث - 1936) هي العمل الوحيد له الذي نشر في كتاب - وهي بين يديك الآن - وفيما عدا ذلك كانت أعماله العديدة مبعثرة في المجلات والدوريات. وبعد وفاته تطوع تلميذاه اللذان شجعهما كثيرا (أوجست درليث) و(دونالد وانديري) بجمع أعماله وكونا

دار نشر اسمها (بيت آرخام)، وصارت كل إبداعاته متاحة للقراء وطلاب الأدب في كتب حسنة الطباعة والتغليف.

في هذا الكتيب والكتيب الذي يليه، نقرأ بعض القصص القصيرة والروايات القصيرة لهذا الأديب العظيم، وقد حاولت تخفيف بعض الفقرات، لكني لا أنصح صغار السن بتاتا بقراءة هذين الكتيبين، وهذه ليست دعاية لهما بالمناسبة، بل هي الحقيقة!

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

هواء بارد..



تسألني أن أفسر لماذا أخشى تيارات الهواء البارد.. ولماذا أرتجف أكثر من الآخرين حين أدلف إلى غرفة باردة، ويبدو على

الغثيان والنفور حين يزحف برد المساء في دفء يوم خريف. يقول البعض إنني أستجيب للبرد كما يستجيب غيري لرائحة منفرة.. وانني لآخر من ينكر هذا الانطباع..

ما سأفعله هو أن أحكي لك أشنع ظروف قابلتها، وأترك لك أن تحكم ما إذا كان هذا يفسر حالتي بشكل ما..

من الخطأ أن نحسب الرعب مرتبطا دائما بالظلام والصمت والوحدة، فقد وجدته أنا في ضياء العصر في ضوضاء المدن.. وفي قلب نزل قديم مع رجلين شجاعين إلى جانبي..

وفي ربيع عام 1923 كنت أمارس عملا مملا وغير مجز، في إحدى صحف (نيويورك)، ولما كنت غير قادر على دفع الإيجار، فإنني رحت أتنقل من مسكن لآخر؛ بحثا عن غرفة تجمع بين النظافة المعقولة والأثاث المتين والسعر الرخيص. في النهاية وبعد جهد وجدت شقة في الشارع الرابع عشر، أثارت تقززي أقل من الشقق التي رأيتها من قبل..

كان هذا مبنى من أربعة طوابق يعود لأواخر أربعينات القرن الماضي، وكان به من أشغال الخشب والرخام ما يوحي بذوق راقٍ بائد.. أما الغرف فكانت مكسوة بورق حائط لا يطاق، وزخارف بالجص، وتفوح بها رائحة العطن مع رائحة طهي غامضة.. لكن البياضات نظيفة والماء الساخن متوفر دائما.. وهكذا اعتبرت هذه الغرفة هي المكان المناسب للبيات الشتوي، إلى أن يعود المرء ليعيش من جديد..

كانت صاحبة النزل امرأة إسبانية قذرة توشك أن تكون لها لحية، واسمها (هيريرو).. لكنها ما كانت لتضايقني بثرثرتها وأقاويلها أو بصدد الضوء الكهربي في غرفتي، وكان جيراني هادئين لا يميلون للمودة كما أشتهي بالضبط.

أمضيت نحو ثلاثة أسابيع هناك حين حدث أول شيء غريب.. ذات ليلة في الثامنة سمعت شيئا ينسكب على الأرض، وشعرت أنني أشم رائحة الأمونيا النفاذة في نفس الوقت.. نظرت لأعلى فوجدت أن السقف رطب تتساقط منه قطرات..

وهكذا هرعت إلى البدروم لأخبر صاحبة النزل، كي تضع حدا لهذا الموضوع.. فقالت لي إن المشكلة ستحلّ حالا..

وصاحت وهي تتقدمني عبر الدرج:

- دكتور (مونوز)! لقد سكب كيماوياته.. إنه مريض دائما.. مريض طيلة الوقت.. لكنه لا يطلب مساعدة أحد.. طيلة اليوم يستحم ويقوم بكل أعمال المنزل الخاصة به.. ولا يعمل طبيبا، لا يمارس المهنة.. لا يخرج أبدا.. وابني (إستيبان) يجلب له الطعام والغسيل والدواء.. رباه! كل النشادر التي يستعملها الرجل ليظل باردا!!

وتوارت صاعدة إلى الطابق الرابع، أما أنا فعدت إلى غرفتي.. كفت الأمونيا عن التنقيط.. فتحت النافذة بينما أسمع صوت صاحبة النزل من أعلى، لكني لم أسمع صوت الدكتور (مونوز).. وإن سمعت صوت آلة ما تعمل بالجازولين.. سألت نفسي عن سر هذا الرجل، والشذوذ الواضح في طباعة.. هناك الكثير من الأمراض النفسية لدى رجل انحدر به الحال في الحياة..

ربما لم أكن أعرف شيئا عن الدكتور (مونوز)، لولا النوبة القلبية التي أصابتني صباح يوم جلست أكتب فيه في حجرتي.. وكان الأطباء قد أنذروني من خطر هذه النوبات.. كنت أعرف أنه ما من وقت يضيع، وتذكرت ما حكته لى صاحبة الدار، فهرعت إلى الطابق العلوي وقرعت الباب..

أجيب على طرقتي بصوت غريب يسأل بإنجليزية جيدة عن مبتغاي، فلما أجبت انفتح الباب الذي طرقته..

حيَّاني تيار من الهواء البارد.. وبرغم أن اليوم كان من أشد أيام يونيو حرًّا، فإنني ارتجفت وأنا أدخل الشقة الواسعة، التي أثارت فخامة ديكوراتها دهشتي في مكان قذر كهذا.. كل شيء هنا يوحى بغرفة مكتب أحد السادة، وليس بغرفة في نزل رخيص كهذا.. واستطعت الآن أن أفهم أن الغرفة التي تقع فوقي لم تكن إلا معمل الدكتور.. كان من الواضح أنه رجل كريم المحتد مثقف وذو تمييز..

كان قصير القامة لكنه متناسق الأطراف يرتدي ثيابا مهندمة، وله وجه يحمل تعبيرا سياديًّا لكنه غير متعال.. تحيط بوجهه لحية رمادية كالمعدن، ونظارة من طراز (بانس نيه) الذي يتم تثبيته على قصبة الأنف.. وأعطى أنفه الشبيه بالنسر الرجل طابعا يوحي بالنسب للمور ([1])، بينما السحنة عامة أقرب إلى سكان شمال أسبانيا..

لكن الحقيقة هي أنني حين رأيت الرجل، شعرت بنفور لم يبرره شيء في ملامحه.. فقط وجهه المزرق الشاحب ولمسته الباردة لعبا دورا في هذا الانطباع.. ربما كان السبب هو البرد الفريد الذي جعلني أشعر بنفور.. خاصة أن هذا البرد ليس معتادا في يوم حار كهذا، وما هو ليس معتادا يسبب النفور فالشك فالخوف..

لكن سرعان ما نسيت النفور وسط الإعجاب.. لأن براعة الطبيب ظهرت حالا، برغم ارتجاف يديه الشاحبتين وبرودهما.. لقد فهم مشكلتي بلمحة واحدة، وراح يعالجها وهو يطمئنني بصوت رخيم، إلا أنه أجوف غريب.. قال لي إنه ألد أعداء الموت، وإنه أفنى عمره في تجارب تهدف إلى محاربته.

مزج لى بعض العقارات من غرفة المعمل وجعلني أتناولها.. وبدت لي ثرثرته كأنها سرّ لوجود رجل طيب المنشأ في هذه البيئة القذرة..

وراح يتكلم كما لم يعتد من قبل عن ذكريات الأيام الطيبة الخالية..

كان صوته غريبا، لكنه مريح مهدئ للأعصاب، وقد راح يحدثني كى يبعد تفكيري عن الألم.. قال لى إن الإرادة هي ما يتحكم فينا، وإنه من الممكن يوما ما أن أتعلم - قالها مازحا - كيف أعيش أو أمارس نوعا معينا من الوعي، من دون قلب على الإطلاق!! بالنسبة له كان يعاني أمراضا عدة جعلته مضطرا للحياة حسب نظام خاص، وكي يحتفظ بحرارة البيئة عند نحو 55 إلى 56 فهرنهايت، فإنه كان يبرد الأمونيا بنظام معقد، هو سر صوت محرك الجازولين الذي كنت أسمعه من حجرتي..

شفيت بسرعة من نوبتي، ففارقته شاكرا..

بعد هذا قمت بعدة زيارات - لابسا المعطف - له، واعتدت أن أتأمل مجموعته العجيبة من الكتب.. بدا لي أنه لا يحتقر تعاويذ العصور الوسطى؛ لأنه كان يعتقد أن هذه الوصفات السحرية تحوي تأثيرات نفسية معينة على الجهاز العصبي، والذي منه بدأت الأعراض.. وتأثرت لما حكى لي عن د. (توريس) من (فالنشيا) الذي قاسمه تجاربه الأولى، وعالجه من مرضه منذ ثمانية عشر عاما، لكن الطبيب البارع لم يكد يشفي صاحبه حتى سقط هو نفسه فريسة لذلك الغريم الذي قاتله كثيرا..

وإذ مرت الأسابيع، لاحظت في أسى أن صديقى الجديد يفقد صحته ببطء لكن بشكل مؤكد.. لقد تزايد شحوب بشرته، وصار صوته عميقا غير محدد النبرات، وبدا أن عضلاته لا تتحرك بنفس التناسق، كما أن أفكاره صارت تفتقر إلى الوضوح

والمبادأة.. وبدا لي أنه يشعر بالفعل بما يحدث له، وكان في كلماته لون من السخرية والتهكم لم يفت عليّ وذكرني بالنفور القديم الذي شعرت به نحوه..

اكتسب بعض النزوات الغريبة، مثل الميل إلى العطور القوية المثيرة والبخور، حتى إن رائحة غرفته بدت كقبو ضريح فرعوني في وادي الملوك.. وفي الوقت ذاته ازداد نهمه إلى الهواء البارد، وقمت بتقوية نظام تبريد الأمونيا في غرفته.. حتى صار بوسعه جعل الحرارة 34 درجة وفي النهاية 28 درجة.. وبالطبع لم نفعل هذا مع المعمل والحمام حتى لا يتجمد الماء أو تتجمد الكيماويات..

كان كعادته الغريبة يكثر من الحديث عن الموت، لكنه كان يضحك كلما جرى الحديث عن إعدادات الدفن والجنازة وما إلى ذلك.. وكنت أنا ممتنًا له إلى حد أنني كنت أجلب له ما يريد من مشتريات، وأزور حجرته يوميا وأعني بها، وأنا مدثر بمعطف فراء ثقيل اشتريته خصيصا لهذا الغرض.. إن مسز (هيريرو) صاحبة النزل اعتادت أن ترسم الصليب كلما رأته، ثم تخلت عنه تماما لى..

كانت للمنزل كله رائحة كريهة.. لكن حجرته كانت أسوأ من سواها.. وبرغم كل البخور والعطور القوية.. وكنت كلما اقترحت عليه طبيبا أخر ينفجر في الغضب بالقدر الذي تسمح به صحته..

وسرعان ما بدأ الإرهاق الذي ظهر في أول أيام المرض، يفسح الطريق لإرادته الجبارة التي اتخذت شكلا عنيفا جامحًا.

اعتاد أن يكتب وثائق طويلة لا أعرف محتواها، وكان يغلق المظاريف ويوصيني بإعطائها لأناس معينين ذكرهم بالاسم.. ومنهم طبيب فرنسي قيل في وقت ما إنه ميت، والآن يتهامسون

بأشياء لا يمكن استيعابها بصدده.. وبعد ما انتهى كل شيء قمت بحرق هذه الأوراق ولم أفتحها.

وفي يوم من أيام سبتمبر، تكفلت نظرة منه بإحداث نوبة صرع لدى رجل جاء لإصلاح مصباح المكتب الكهربي.. وقد وصف له علاج الصرع ببراعة بينما هو يتوارى عن الأنظار.. ومن الغريب أن هذا الرجل قد عاش أهوال الحرب كلها دون أن يحدث له شيء كهذا..

ثم - في منتصف أكتوبر - جاء هول الأهوال بشكل مفاجئ مذهل.. ذات ليلة في الحادية عشرة، تحطمت مضخة آلة التبريد، وهكذا خلال ثلاث ساعات لم يعد تبريد الأمونيا ممكنا.. واستدعاني د. (مونوز) بطرقات على الأرض. فصعدت إلى حجرته.. ورحت أحاول إصلاح المضخة، بينما هو يسبّ ويلعن بصوت بلا حياة فيه..

لم تنجح جهودي غير الاحترافية، واستدعيت ميكانيكا من كراج قريب، ليجد أن ما من شيء يمكن عمله حتى الصباح.. هنا بلغ غضب الناسك المريض أقصاه، واندفع إلى الحمام وهو يداري عينيه بيده.. أدركت أنه قد لفَّ وجهه كله بالضمادات، وكانت هذه آخر مرة أرى عينيه فيهما..

الآن بدأت برودة الشقة تتلاشى، وفي الخامسة صباحا أغلق الدكتور الحمام على نفسه، وأمرني أن أجلب له الثلج من الحانات الساهرة.. وكنت أعود من رحلاتي - التي كانت مُحبطة أحيانا – فأضع حملي أمام باب الحمام المغلق، وأسمع صوتا غليظا يأمرني: «مزيد!.. مزيدا»

في النهاية جاء النهار، وفتحت المحلات أبوابها.. وجدت متسكعا عند ناصية الشارع الثامن فأخذته إلى متجر قريب، وطلبت من صاحبه أن يعطيه ما يستطيع حمله من ثلج، وكلفته

بهذه المهمة.. بينما كلفت نفسي بالبحث عن مضخة جديدة، والبحث عن حرفي كفء يقوم بتركيبها.
واشتعلت غضبا بينما الساعات تمضي بلا طعام ولا راحة، وأنا أبحث من مكان لآخر، وأجرى عشرات المكالمات الهاتفية بلا جدوى..
وفي الواحدة والنصف ظهرا وجدت مخزن آلات، وعدت إلى النزل مع حرفيين قويين بارعين.. لقد فعلت كل ما قدرت عليه، وتمنيت ألا أكون تأخرت كثيرا..
لكن الرعب الأسود كان قد سبقني، ووجدت البيت في فوضى عامة، وسمعت رجلا يصلي بصوت خفيض عميق.. كانت رائحة شنيعة في الجو، وبدا أن المتسكع الذي استأجرته قد فر وهو يصرخ بعينين مجنونتين، ويبدو أن الفضول قد غلبه ليرى ما هناك.. ما كان بوسعه أن يغلق الباب من الداخل، لكنه الآن موصد.. لا صوت من ورائه، إلا صوت قطرات تتساقط ببطء..
تناقشت بسرعة مع مسز (هيريرو) والحرفيين، اقترحت أن نهشم الباب، لكن صاحبة النزل وجدت طريقة لإدارة المفتاح من الخارج باستعمال قطعة سلك.. والآن واضعين المناديل على أنوفنا، اقتحمنا الغرفة اللعينة التي غمرتها شمس الظهيرة الدافئة..
كانت هناك بركة صغيرة شنيعة عند المكتب وعلى ورقة ملطخة مبتلة كتبت كلمات بخط مشوَّه لا يرى.. ثم يمضي مسار القطرات نحو الأريكة.
أما من كان - أو ما كان - على الأريكة فلا أجسر على القول.. لكني قرأت ما كتب على الورقة الملطخة قبل أن أشعل عود

ثقاب وأحرقها.. بينما صاحبة النزل والحرفيان يهرعون مذعورين ليحكوا ما رأوا عند أقرب نقطة شرطة..

هذا هو ما كتب.. كان غريبا في ضوء الشمس وضجيج السيارات في الشارع، لكني صدقته..

واليوم ما زلت أرتجف هلعا كلما شممت رائحة الأمونيا أو شعرت بهواء بارد على وجهى.

النهاية هنا.. - كذا كتبت الحروف كريهة الرائحة - لا مزيد من الثلج.. لقد رآني الرجل وفرَّ

مذعورا.. إن الدفء يزداد، ولن تعيش الأنسجة أطول من هذا.. هل تذكر ما قلته لك عن الأجساد التي تعيش بالإرادة وحدها؟ لقد كان د. (توريس) يعرف، لكن الصدمة قتلته.. لأنه لم يتحمل ما عليه أن يفعله وقتها، حين كنت أعضائي عن العمل..

لذا كان يجب أن يتم الأمر بطريقتي الخاصة.. الحفظ بالبرد.. لأنني مت بالفعل في ذلك الوقت منذ ثمانية عشر عاما..

☆ ☆ ☆

الذي لا اسم له..



كنا جالسين على قبر مهدم من قبور القرن السابع عشر، بعد الظهيرة في يوم خريف، في مقبرة (آرخام) القديمة، نتحدث عن

الذي لا اسم له. ونحن ننظر إلى شجرة الصفصاف العملاقة التي غطى جذعها الغليظ شاهد قبر قديم. قلت ملحوظة عابرة عن التغذية الممتازة التي تنالها جذور هذه الشجرة من الأرض الخصبة تحتها، لكن صاحبي وبخني على هذا السخف، وقال إنه مادام لم يُدفن أحد هنا من قرن، فمن العسير أن توجد تغذية كالتي أتخيلها. بالإضافة لذلك - أضاف - فإن كثرة كلامي عن الذي لا اسم له والذي لا داعي لذكره هي طريقة خشنة تتناسب مع مستواي المتواضع كأديب.. فإنني أنهى قصصي دائما بأصوات ومشاهد مفزعة، تشل أبطال قصصي وتتركهم بلا قدرة على سرد ما رأوه بالضبط.

قال لي إننا نميز الأشياء بحواسنا الخمس، فلا معنى للكلام عن شيء لا يستند إلى أسس مادية واضحة. دعك من الإضافات التي يسبغها السير (آرثر كونان دويل) وأمثاله ([2]).

كنت أتجادل كثيرا مع هذا الصديق (جويل مانتون)، فقد تلقى تربية علمية صارمة تجعله لا يؤمن إلا بالماديات.. وكان يضيق ذرعا من ولعي بالغامض والذي لا تفسير له. وبرغم أنه كان يؤمن بالخوارق ربما أكثر مني، فإنه يرى أن مهمة الأدب ليست أن يقدم للناس مهربا من أعباء الحياة اليومية. وبالنسبة له كانت للأشياء والمشاعر أبعاد وخواص وأسباب وآثار، وكان يضع خطا فاصلا يستبعد به كل ما لا يمكن للشخص العادي أن يفهمه..

بالإضافة لهذا كان يؤمن أنه ما من شيء يمكن أن يكون لا اسم له حقا.. فلم يبد له هذا معقولا.

أما أنا في ذلك اليوم، فكان مشهد شواهد القبور.. وأسقف بيوت المدينة المهجورة التي تسكنها الساحرات، مما جعلني

راغبا في الجدل بحق، ولقد حملت طعناتي إلى أرض عدوي..
لم يكن عسيرا أن أبدأ بهجمة مضادة؛ لأنني كنت أعرف أن (جويل) نفسه مازال نصف متعلق ببعض خرافات العجائز، التي نضج كثير من المثقفين كى يؤمنوا بها.. خرافات عن ظهور الأشخاص الذين ماتوا في أماكن بعيدة، ووجوه المتوفين التي تنطبع على زجاج النوافذ التي نظروا عبرها كثيرا.. إن معنى هذا هو الإيمان بشيء يفوق المعايير المادية بكثير.. فلو كان بوسع صورة الميت الانتقال عبر القرون والأميال لتظهر لنا، فكيف لا نؤمن بأن البيوت المهجورة تزخر بأشياء غامضة؟ وكيف لا نفترض أن القبور مفعمة بذكاء بلا جسد تراكم عبر الأجيال؟ وبما أن الأرواح لا تقيدها قوانين المادة، فلماذا لا نفترض وجود أشباح لها أشكال آدمية، لا بد أن تبدو لمن يراها من البشر أشياء (لا اسم لها)؟ إن التعقل في فهم هذه الأمور ليس إلا افتقارا إلى الخيال والمرونة العقلية..
كان الشفق قد دنا، لكن أحدنا لم يرغب في إنهاء المحادثة.. لم يبد (جويل) متحمسا لآرائي، وبدا راغبا في دحضها بآرائه التي- حتما- كانت سبب نجاحه كمعلم.. بينما كنت أنا بالغ الثقة من منطقي جاء الغسق ولمعت الأضواء عبر نوافذ ما من بعيد، لكننا لم نتحرك.. كنت أعرف أن صديقي العقلاني المفتقر للشاعرية، لن يعبأ بالشقوق المظلمة في الجدران من خلفنا، أو بالظلام الدامس في البقعة التي يتمايل فيها بيت عتيق، من القرن السابع عشر، يفصلنا عن أقرب طريق مضيء..
هناك في ظلام المقابر تكلمنا عن الذي لا اسم له، وبعد ما أنهى صديقي كلامه أخبرته بالدليل الرهيب وراء قصتي التي سخر منها أكثر من سواها..

كان اسم قصتي (نافذة الصندرة) وقد نشرت في يناير 1922 في جريدة (الهمسة). إن الشيء الذي تكلمت عنه مستحيل بيولوجيا، وهي مجرد حكاية مما يغمغم به القرويون، وقد كتبتها بخفة كاتب طائش خيالي. لقد حكى (ماثر) من قبلي عن ذلك الشيء باعتباره قد ولد، لكن ما من أحد إلا كاتب من كتاب الإثارة يمكن أن يقول إنه كبر، وإنه ينظر من نوافذ الناس ليلا، وإنه يتوارى في صندرة بيت حتى يراه أحدهم من النافذة بعد قرون ولا يستطيع وصف ما يراه، حتى إن شعر رأسه ابيض هلعا..

لم يصدق صديقى (مانتون) حرفا حتى عرضت عليه بعض أوراق الأسرة، التي يعود زمنها إلى ما بين عامي 1706 و 1723، وشرحت له سر الندوب على صدر جدي، وحكيت له عن الجروح التي أصيب بها كثيرون هنا، والتي تناقلت الأجيال قصصها، وعن الفتى الذي دخل بيتا مهجورا عام 1739 ليبحث عن آثار معينة هناك..

لقد كان عصرا مخيفا بلا حرية ولا جمال.. نرى هذا في بقايا المباني والأثاث والمواعظ المسمومة التي تركها لنا بعض الوعاظ المتشنجين.. لكن داخل هذا السجن الحديدي الصدئ كانت تحيا انحرافات شيطانية مؤكدة.. هنا إذن كان العصر الذهبي للذين لا اسم لهم..

في كتابه السادس عن الشياطين - والذي ينبغي ألا يقرؤه أحد بعد حلول الظلام - راح (كوتون مائر) بعناد وإصرار، يحكي عن الوحش الذي جلب معه ما هو أكثر من وحش، لكنه أقل من إنسان.. الشيء ذو العينين المشوهتين.. ربما لم يكن يعرف أو عرف ولم يجسر على الكلام..

كان الناس يتهامسون عن القفل الموضوع على الباب المفضي لسلم الصندرة، في منزل ذلك الرجل العجوز المريض الذي لم يرزق بأولاد، وكيف أن هذا العجوز وضع شاهد قبر حجرا بلا كتابة فوق قبر يجدر الابتعاد عنه..

كل هذا وأكثر مكتوب في مذكرات أجدادي..

تلميحات عن أشياء لها عيون شائهة، تراها خلف النوافذ ليلا أو في المروج.. شيء ما قد تحرش بجدي في واد مظلم وتركه بجروح على صدره، كأنما أحدثتها قرون.. وآثار مخالب قرد على ظهره.. فلما بحثوا عن آثار أقدام على الأرض وجدوا ما يشبه الحوافر..

قال أحد الفرسان ذات مرة: إنه رأى عجوزا يطارد شيئا مخيفا بلا اسم في ضوء القمر الخافت قبل الفجر، وقد صدقه كثيرون.. كان هناك كلام غريب عن ليلة معينة في عام 1710 حين دُفن العجوز المحطم الذي لا ابن له، في السرداب خلف داره.. ولم يفتح أحد باب الصندرة، بل تركوا البيت كما هو يخشاه الجميع.. وحين كانت الضوضاء تأتي منه كانوا يرجفون فرقا ويتهامسون، ويأملون أن يكون القفل على الباب موصدا بإحكام..

وبمرور الزمن تتخذ الأسطورة طابعا خاصا..

إنني أفترض أن الشيء - لو كان شيئا حيا – قد مات.. وقد ظلت الذكرى حية مخيفة؛ لأنها ظلت سرا..

في أثناء سرد هذا الكلام لاحظت أن (مانتون)صار أميل للصمت، وبدا لي أن قصتي أثرت فيه بشكل ما.. وحين انتهيت لم يسخر، بل سألني عن الصبي الذي جُنَّ عام 1739 وعن البطل الحقيقي لقصتي..

حكيت له كيف أن الصبي ذهب إلى المنزل المهجور، وحسب أنه سيجد شيئا مثيرا.. تسلل الصبي لينظر عبر نوافذ غرفة الصندرة المفزعة هذه، ثم عاد وهو يصرخ في جنون..

هنا عادت لـ (مانتون) طبيعته التحليلية، فافترض على سبيل الجدل أن هناك وحشا خارقا للطبيعة قد وجد فعلا.. لكنه ذكرني أنه حتى أبشع تحولات الطبيعة لا يمكن ألا يكون لها اسم.. حكيت له عن أساطير التجسدات المفزعة التي تظهر قرب المقابر، وتهاجم عابري السبيل ليلا.. ولا أدري إن كانت هذه التجسدات حقا تخنق الناس وتخيفهم حتى الموت أم لا، لكنها كانت ذات تأثير قوى، ومازال القوم المسنون هنا يخافونها برغم أن آخر جيلين قد نسيا هذه القصص.

لا بد أن الوقت قد تأخر كثيرا الآن.. احتكَّ بي وطواط وحيد صموت، وأعتقد أنه لمس (مانتون) كذلك، وإن كنت لم أر هذا.. قال لي:

- لكن، هل مازال ذلك المنزل ذو الصندرة موجودا ومهجورا؟

أجبت:

- نعم.. لقد رأيته..

- وهل وجدت شيئا هناك في الصندرة أو أي مكان آخر؟

- كانت هناك بعض عظام.. ربما هي ما رآه الصبي.. ولو كان بالغ الحساسية، لما احتاج إلى شيء يثير رعبه أكثر من هذا.. ولو كانت جميعها جاءت من كائن واحد، فالأمر يتعلق بلغز مخيف.. لقد وجدت أنه من التجديف أن أترك هذه العظام حيث هي، وعدت بحقيبة ونقلتها إلى تلك المقبرة خلف الدار.. كانت هناك فتحة مناسبة سهَّلت عملي.. لا تحسبني معتوها..

كان عليك أن ترى الجمجمة.. لقد كان لها قرنان طول الواحد أربع بوصات، لكن الوجه والفك شبيهان بوجهي ووجهك..
هنا شعرت بقشعريرة تنبعث في جسد (مانتون) الذي التصق بي أكثر، لكن فضوله كان لا يرتوي:
- وماذا عن زجاج النوافذ؟
- لم يكن هناك.. لا أثر للزجاج فيها، وإحدى النوافذ لم تكن ذات إطار أصلا.. أحسب أنه لم يكن فيها زجاج منذ مائة عام أو أكثر. ربما هشمها الصبي بنفسه..
- لا بد أن أرى هذا المنزل.. لا بد أن أستكشفه..
والقبر الذي رميت فيه العظام.. والقبر الآخر الذي لا شاهد له.. لا بد أن رؤيته مخيفة نوعا..
- بل كنت تراه بالفعل من مجلسنا هذا.. حتى ساد الظلام!
كان تأثير هذا على صديقي أكثر مما توقعت بكثير من هذه اللمسة السحرية.. لقد ابتعد عني في توتر ونظر إلى بعيد، وبالفعل أخرج صرخة قصيرة..
كانت منفذا للتوترات التي يشعر بها.. كانت صرخة غريبة والمفزع هنا أن صوتا آخر جاوبها.. لأنني سمعت بعدها صوت صرير عبر الظلام الدامس، وعرفت أنه صوت النافذة تنفتح في ذلك المنزل المشئوم بقربنا.. ولأن كل إطارات النوافذ قد سقطت، فإنني عرفت أنه صوت نافذة تلك الصندرة.
ثم هبت عاصفة من الهواء البارد المؤلم من ذلك الاتجاه الرهيب.. تبعتها صرخة تخرق السمع من جواري.. من ذلك القبر الذي حوى رفات الإنسان والوحش معًا.. وفي اللحظة التالية أطاحت بي من فوق مقعدي الكريه، ضربة عاتية من كيان هائل الحجم، غير محدود القوي.. فسقطت فوق ذلك القبر بأعشابه التي اقتلعت حتى الجذور.. بينما من القبر تعالى صوت عال من

الشهيق والأزير، جعلني أتخيل حشدا من الأرواح المشئومة.. ثم هبت دوامة من ريح ثلجية يقشعر لها البدن، مع هدير قطع القرميد السائبة والجص.. لكنني فقدت رشدي لحسن الحظ قبل أن أتبين معناها..

كان (مانتون) أصغر سنا منى، لكنه أكثر مرونة.. لأننا فتحنا عينينا في اللحظة ذاتها برغم أن إصاباته كانت بالغة.. كان فراشانا متجاورين، وعرفنا بعد ثوان أننا كنا في مستشفى (سانت مارى).. وكان المحيطون بنا يتحرقون شوقا لسماع قصتنا، وحاولوا إنعاش ذاكرتنا بأن حكوا لنا كيف وجدوا.. عرفنا أن فلاحا وجدنا عند الظهر على بعد ميل من المقابر القديمة، حيث كان هناك مذبح قديم. كان (مانتون) مصابا بجرحين بليغين في الصدر وبعض سحجات في ظهره.. أما أنا فلم أكن جريحا، لكني كنت مكسوا بالكدمات الغريبة بما فيها أثر حافر مشقوق..

كان واضحا أن (مانتون) يعرف أكثر مني، لكنه لم يقل الكثير لمن حولنا، وزعم أننا هوجمنا من ثور غاضب.. فلما انصرف الأطباء سألته في لهفة:

- حسن يا (مانتون).. ما سر هذه الجروح إذن؟

وكنت أكثر وهنا من أن أتهلل حين أخبرني بما توقعته:

- كان في كل مكان.. شىء كالجيلاتين أو الوحل إلا أنه كان ذا أشكال محددة.. ألف شكل من أشكال الرعب التي تفوق الذاكرة.. وكانت له عينان مشوهتان.. لقد كان هو الاضطراب الأعظم.. الشناعة المطلقة.. (كارتر).. لقد كان هو الذي لا اسم له!

1923

☆ ☆ ☆

خلف جدار النوم..



لطالما تساءلت عما إذا كان أكثر البشر قد توقفوا ليتأملوا أهمية الأحلام الهائلة، والعالم المبهم الذي تنتمي إليه.. وإذا كان

عدد كبير من رؤانا الليلية ربما لا يزيد على انعكاسات الخبرات صحونا كما قال (فرويد)، فإن جزءا معينا يظل بطبيعته الأثيرية ممتنعا عن التفسير العادي، ويعطينا تأثيره المقلق المثير لمحة خاطفة عن عالم عقلي لا يقل أهمية عن العالم المادي، لكن يفصله عنه جدار لا يمكن تجاوزه.. ومن خبرتي لا أشك في أن الإنسان حين يغيب عنه الوعي الأرضي، إنما يقيم في عالم آخر غير مادي يختلف كثيرا عن الذي نعرفه. ومن هذه الذكريات المفتتة المبهمة قد نستنبط الكثير عند اليقظة، لكننا لا نبرهن إلا عن القليل. وأحيانا أحسب أن تلك الحياة غير المادية قد تكون هي حياتنا الحقيقية، وأن وجودنا على هذه الكرة المائية هو الشيء التخيلي.

كنت شابا مفعما بهذه الأفكار حين أفقت ذات يوم في شتاء 1900 - 1901، وحين عرفت الرجل الذي ظلت حالته تلاحقني من وقتها بلا توقف. وكان اسمه كما سجل في المصحة العقلية التي كنت طبيبا فيها، هو (جو سلاتر) أو (سلادر)، وكان له سمت واحد من أهالي (كاتسكيل ماونتين)، وهم سلالة غريبة من الفلاحين انعزلت نحو ثلاثة قرون في الريف الشاسع المهجور، وأكسب هذا طباعهم انحطاطا بربرا. لم يكن لدى هؤلاء القوم مفهوم الأخلاق ولا القانون، ومستوى ذكائهم أقل بكثير من مستوى أي من الأمريكيين الأصليين.

لم يبد شيء من هذه الخطورة على (جو سلاتر) حين جاء إلى المصحة، مخفورا بأربعة من رجال شرطة المقاطعة، وقد وصفوه بأنه رجل خطير جدا. وبرغم أن قوامه كان أضخم من المعتاد، وبرغم قوته العضلية، فإنه كان يوحي بالغباء غير المؤذي يتبدى في عينيه المائيتين الزرقاوين الشاحبتين. كان سنه

غير محدد لكننا استنتجنا من الصلع في مقدمة رأسه، وتحلل أسنانه أنه في الأربعين من العمر.

عرفنا من ملفات الشرطة أنه متسول وصياد وصانع فخاخ.. وأنه كان دوما غريبا بالنسبة لقومه.. كان ينام في ساعة متأخرة من الليل، ثم يصحو فيتكلم عن رؤى شاذة، تثير الهلع حتى في قلوب القوم الذين يفتقرون إلى الخيال.. وكان هو نفسه خائفا مذعورا مثل مستمعيه.. وبعد ساعة من الاستيقاظ ينسى كل ما قال، أو ينسى ما جعله يقول ما قال، ويعود لطبيعة سكان الجبال اللطيفة الطلقة.

وكلما تقدم (سلاتر) في العمر كانت حالته تزداد توحشا وعنفا، ثم حدثت المأساة التي قادته إلى المصحة منذ شهر واحد.

ذات يوم صحا عند الظهيرة بعد سبات طويل، وراح يعوي عواء مخيفا غير أرضي، حتى إن الجيران هرعوا إلى كوخه القذر. ومندفعا إلى الجليد بالخارج رفع ذراعيه لأعلى، وقام بعدة وثبات، نحو السماء، وهو يتحدث عن بلوغ كوخ كبير كبير.. يتألق سقفه وجدرانه.. بينما الموسيقا الغريبة البعيدة تأتي من بعيد.. حاول رجلان أن يمسكا به فقاومهما بوحشية، وراح يتكلم عن حاجته إلى قتل شيء يلمع ويهتز ضحكا..

ضرب أحدهما، ثم وثب على الآخر بوحشية شيطانية دموية، وراح يصرخ أنه سيثب في الهواء، ويحرق كل ما يعوقه..

فرت الأسرة والجيران ذعرا، وحين عادوا مستجمعين شجاعتهم لم يجدوا (سلاتر)، لكنهم وجدوا شيئا يصعب تعرفه، كان إنسانا من ساعات..

ولم يحاول سكان الجبل البحث عن سلاتر)، وتمنوا أن يكون قد هلك من البرد، لكنهم بعد أيام سمعوا صراخه من واد

ضيق سحيق، فعرفوا أنه مازال حيا.. كونوا مجموعة مسلحة منهم، ولحق بهم أحد رجال الشرطة النادرين في هذه الأصقاع. وفي اليوم الثالث وجدوا (سلاتر) فاقد الرشد في تجويف شجرة، واقتادوه إلى أقرب سجن. حيث فحصه أطباء عقليون منتدبون من (ألباني).. ولهم حكى الرجل قصة بسيطة..

قال لهم إنه نام بعد ظهر يوم، وصحا ليجد أنه واقف في الجليد خارج كوخه، ووجد يديه ملوثتين بالدم، وجثة جاره (بيتر سلادر) مشوهة ملقاة عند قدميه.. فر وقد أصابه الهلع إلى الأحراش مبتعدا عما حسبه جريمته.. لم تكن هناك حقائق أكثر بوسعه تقديمها، أو بوسع مستنطقيه استخراجها منه..

وقضى (سلادر) ليلته دون أحداث، إلا أنه في الصباح خطر لدكتور (بارنارد) الذي كان يراقب المريض، أنه رأى بريقا ما في عينيه الشاحبتين، كما أنه شفته أظهرت حزما ذكيا. إلا أنه عند الاستجواب لم يُبد (سلادر) إلا الخواء العقلي المميز لسكان البلاد، وكرر فقط ما قاله في اليوم السابق في اليوم الثالث حدثت أول نوبات الرجل العقلية، فبعد نوم قلق انفجر في جنون قوى، إلى درجة أن الأمر اقتضى أربعة رجال ليضعوه فى قميص الأكمام.. وأصغى الأطباء بعناية إلى هذيانه الذي استمر نحو ربع ساعة، وراح يتكلم عن الصروح الخضراء المضيئة، وعن الموسيقا الغريبة، وعن الكيان الغامض الذي يهتز ويسخر منه.. وكانت قمة رغباته أن يفتك بهذا الكيان العجيب..

ثم انتهت نوبة الهذيان، فخبا بريق الجنون من عينيه، وسأل الأطباء عن سبب تقييده هكذا.. وقد فك الأطباء الحزام الجلدي عنه، ثم أقنعوه بارتدائه لمصلحته الخاصة وبإرادته..

كان الأطباء حائرين بصدد مصدر قصص (سلادر)، فهو لا يقرأ ولا يكتب.. ولا يمكن لتخيلاته أن تجيء من أية أسطورة أو

خرافة شائعة.. كان يعبر بطريقته الخاصة، ويهذي بأشياء لا يفهم كنهها..

وسرعان ما اتفق الأطباء على أن الأحلام الغريبة هي أساس المشكلة.. أحلام قادرة على السيطرة على العقل المتيقظ لهذا الرجل التعس.

وهكذا حُوكم (سلادر) بتهمة القتل، وأفرج عنه للجنون وعهد به إلى المصحة، التي أتولى فيها منصبا شديد التواضع..

وكما تعرفون وقتها، كنت بالغ الاهتمام بالأحلام، لذا يمكنكم تخيل الحماس الذي شعرت به حين سمعت عن حالته.. وبدا أنه يجد صداقة ما في شخصي..

ربما بسبب الطريقة الرقيقة التي كنت أستجوبه بها.. لم تتصل به أسرته قط، وربما وجدت لنفسها رب أسرة آخر، كما هو دأب سكان الجبال.

وكنت أصغي لخيالاته وأتساءل: كيف لمخلوق محدود الذكاء من سكان الجبال، أن يملك هذا البريق من الخيال الجدير بعبقري؟ وكان ملخص أبحاثي هو أنه - في عالم الأحلام غير المادي – سبح (سلاتر) عبر وديان مذهلة خلابة، وحدائق ورياض ومدن في منطقة لا يعرفها البشر، وهناك لم يعد فلاحا جاهلا، بل هو شخص مهم يتحرك بثقة..

لا يتهدده إلا كيان أثيرى مجهول لا يبدو أنه ذو مظهر بشرى. هذا الشيء قد آذى (سلادر) أي مخيفا لكن لا يمكن وصفه، ومن هنا اشتاق (سلادر) إلى الانتقام.. وبدا لي أن علاقة ما تربطه بالكائن المضيء في أحلامه.. لا أدري كيف، لكنه كان يعتبر نفسه وعدوه كيانين مضيئين من النوع ذاته.. وخطر لي أكثر من مرة أنه لو كانت الأحلام عالما ماديا، فإن اللغة المنطوقة لا تصلح وسيطا لشرح هذا العالم.. لم أخبر الأطباء

الأكبر سنا بهذا؛ لأن منتصف العمر أميل إلى النقد والسخرية ورفض الأفكار الجديدة.. ثم إن مدير المصحة قد أنذرني من قبل أنني أفرط في العمل، وأن عقلي بحاجة إلى راحة..

كان لدي يقين أن الأفكار الآدمية هي عبارة عن حركة ذرات، يمكن تحويلها إلى طاقة كالحرارة والضوء والكهرباء.. وهذا اليقين جعلني أفكر في امكانية التخاطر (تليباثي) باستخدام جهاز خاص، ولقد أعددت في سِني الكلية جهازا خشنًا للإرسال والاستقبال، أقرب إلى جهاز التلغراف في تلك السنين التي سبقت اختراع اللاسلكي.. وجربت الجهاز دون نجاح على زميل، ثم وضعته مع أشياء أخرى للاستعمال في يوم ما..

أما وقد قابلت (سلاتر) فقد أخرجت هذه الآلات وأعدت إصلاحها، ونظرا لحماستي قررت أن أجربها في أول فرصة.. ولسوف أتحين أول فرصة من نوبات (سلاتر) لأضع تلك الموصلات على جبينه، والمستقبل على رأسي.. بالطبع لم أخبر أحدا بتجاربي لكنني واصلت الإعداد لها..

وفي اليوم الواحد والعشرين من فبراير عام 1901 حدث الشيء. وإذ أنظر للأحداث الآن أشعر كم هي غير حقيقية، وأتساءل ما إذا كان دكتور (فنتون) العجوز محقا حين اتهم خيالي المتوتر. لقد أصغى لي بأبوية وهدوء، ثم أمر لي بمسحوق مقوٍّ للأعصاب، وأمرني بالقيام بإجازتي السنوية بعد أسبوع من هذا..

في تلك الليلة كنت مهتاجا حقا؛ لأن (جو سلاتر) - برغم العناية الممتازة التي يلقاها - كان بالتأكيد يموت.. ربما هي حريته في الجبال التي يفتقدها، أو ربما اضطراب عقله قد فاق تحمل جسده.. وفي النهاية صار خمولا، وإذ هبط الظلام، غاب في نوم غير مريح..

لم أربطه بالحزام الجلدي؛ لأنه كان أكثر وهنا من أن يكون خطرا.. لكنني وضعت على جبينه قطبي جهاز (الراديو) الكوني. وتمنيت دون أمل كبير أن أتلقى رسالة أخيرة من عالم الأحلام في الوقت القصير الباقي.. وعلى جبيني ثبت جهاز الاستقبال.

كان صوت موسيقا غريبة هو ما أثار انتباهي.. ذبذبات.. نغمات.. أوتار.. وأمام عيني برز مشهد جميل لا يصدق لجدران.. عواميد تستند إلى نيران حية، تلتمع حول البقعة التي شعرت أنني أحلق فيها عاليا.. وامتزجت بهذا العرض البلاطي الفخيم، لمحات من سهول واسعة ووديان خصيبة وجبال عالية، يكسو قممها كل مشهد ساحر تستطيع عيناي أن تراه..

وأدركت أن عقلي يملك مفتاح تلكم التحولات الساحرة.. وسط هذا الكون الفردوسي لم أمضِ كغريب؛ لأن كل هذه المشاهد بدت مألوفة لي.. كما بدت لآباد من البشر من قبلي، وكما ستبدو لهم من بعدي..

ثم جاء الطيف اللامع لأخي في الضياء، وراح يتكلم معي روحا إلى روح. كانت تلك ساعة نصر لأن رفيقي يفر أخيرا من عبودية دائمة، ليغيب وسط الأثير السرمدي.

سبحنا هكذا لبرهة من الوقت، حين بدأت أشعر باضطراب وزيغ في الموجودات من حولنا.. كأن قوة ما تجذبني ثانية إلى الأرض، آخر مكان وددت أن أكون فيه الآن. وشعر الشكل الذي يحلق جواري بتغير كذلك؛ لأنه أنهى محادثته تدريجيا، واستعدّ ليختفي بعيدا عن عيني. وعرفت منه أننا عائدان إلى القيود من جديد، لكن بالنسبة له ستكون هذه آخر مرة.. وخلال أقل من ساعة سيذهب رفيقي عبر الطريق اللبني في المجرة إلى حدود الأبدية..

وكان هناك ما يشبه الصدمة حين نهضت فجأة من مقعدى، ورأيت المحتضر على الأريكة يتحرك حركة مترددة.. كان (جو سلاتر) ينهض حقا، لكن في الغالب لآخر مرة. وإذ دققت النظر رأيت أن خديه الضامرين يتألقان بلون لم أعهده فيهما من قبل.. الشفتان كذلك كانتا مذمومتين كأنما تتحكم فيهما شخصية أقوي..

أعدت إحكام جهاز الاستقبال على رأسي آملا أن التقط أية رسالة أخيرة يحاول المتوفي بثها..

فجأة استدار الرأس نحوي، وانفتحت العينان مما جعلني أرتجف رعبا مما رأيت.. إن الرجل الذي كان (جو سلاتر) يرمقني الآن بعينين لامعتين واسعتين، بدا كأن أزرقهما قد ازداد قتامة.. ولم يخامرني شك أنني أحدق في وجه يكمن خلفه عقل من رتبة أعلى من عقولنا.

وسرعان ما وصلت الرسالة التي كنت أرتقبها، وكانت بلغة الأفكار لكنها جلية جدا.. إلى حد أنني حسبتني أتلقاها بالإنجليزية.

- (جو سلاتر) قد مات..

جاءني الصوت الذي تحجرت لسماعه روحي، من مكان ما خلف جدار النوم.. ونظرت عيناي إلى أريكة الألم، لكن العينين الزرقاوين كانتا بعد تحملقان.. من الخير له أن يموت.. لأنه ما كان ليحتمل الهوية الكونية.. جسده لا يستطيع أن يضبط نفسه لحياة الأثير. لقد كان أقرب إلى الحيوان..

وبعيدا جدا عن الإنسان لكن عن طريقه جاءتك الفرصة لتقابلني؛ لأن كائنات الأثير لا تلتقي مع كائنات الكواكب أبدا..

أنا كيان شبيه بالذي تكونه أنت نفسك عندما يحررك النوم.. أنا أخوك الضوئي.. نحن نحيا في فضاء بلا نهاية، ونعيش

في زمن بلا نهاية.. أنا وأنت قد جلنا العوالم المحيطة بـ (آركتوس)، وعشنا داخل الفلاسفة الحشرات الذين يعيشون فوق رابع أقمار المشتري..

لا أستطيع الكلام أكثر؛ لأن جسد (سلاتر) قد برد وتصلب وكف مخه عن إرسال الموجات.. كنت أنت صديقي الوحيد على هذا الكوكب.. الوحيد الذي بحث عني في رأس هذا المخلوق الراقد على الأريكة.

سنلتقي ثانية.. ربما في الضباب المتألق لـ (أوريون).. أو على قمة جبل في آسيا في عصور ما قبل التاريخ.. ربما في حلم تراه الليلة ولن تتذكره.. أما الآن فأنا راحل.. يمكنك أن ترى الضوء المنبعث مني إذا نظرت الليلة إلى السماء، قرب تلك النجمة التي تسمونها (ألجول) أو (نجمة العفريت)..

وهنا توقفت موجات الأفكار، وعدت أرمق العينين الزجاجيتين الميتتين.. زحفت إلى معصمه وتحسست نبضه، لكنه كان معصما متصلبا باردا..

وانفتح الفم كاشفا عن أسنان (سلاتر) المتأكلة.

غطيت وجهه بالملاءة ثم عدت إلى غرفتي..

كنت بحاجة إلى نوم لا أتذكر أحلامه فيما بعد..

والمغزى؟ أنا لم أفعل سوى أن حكيت لك أحداثًا مرت بي، تاركا لك أن تفسرها كما تشتهي.. وكما قلت آنفا، فإن رئيسي الدكتور (فنتون) ينفي كل ما حكيته ويقسم إنني انهرت من الإرهاق العصبي، وأنني بحاجة إلى إجازة براتب.. إن (سلاتر) ليس إلا مريض بارانويا، تنبع هلاوسه من القصص الشعبية حيث نشأ..

لكنني لم أستطع نسيان ما رأيت في السماء ليلة مات (سلاتر).. لن أحكي شيئا لكنني سأترك الكلام بالحرف للتقرير

الذي كتبه عالم الفلك العظيم الأستاذ (جاريت سيرفيس):

«في 22 فبراير 1901 ظهر نجم جديد مدهش، في موضع غير بعيد عن النجمة (ألجول)، ولم يكن أحد قد رأى نجوما عند هذه النقطة من قبل.. وخلال أربع وعشرين ساعة صار النجم متألقا، حتى إنه أخفي ضوء النجمة (كابيللا)، وبعد أسبوعين بدأ ضوؤه يخبو.. وخلال بضعة أشهر لن يتمكن أحد من رؤيته بالعين المجردة ثانية»

1919

☆ ☆ ☆

الشجرة..



عند منحدر تغطيه الأعشاب من جبل (مينالوس) في (أركاديا)، توجد أيكة زيتون جوار أطلال داره قديمة.. جوار

الأيكة ذاتها قبر كان به الجمال فيما مضى، وعليه آيات من النحت الساحر، لكنه الآن تحلل كما المنزل.. وعند طرف القبر نمت شجرة زيتون، استطاعت جذورها أن تخترق الرخام اختراقا.. شجرة زيتون منفرة المنظر، كأنها رجل مخيف أو جسد إنسان شوهه الموت، حتى إن القرويين يخشون المرور جوارها ليلًا حين يبزغ القمر بين الأغصان المهشمة..

إن جبل (مينالوس) مكان مسكون بـ (بان) المخيف الذي يتبعه كثيرون، ويشك القرويون في وجود علاقة بين الشجرة وهؤلاء، لكن أحد مربي النحل الذي يعيش في كوخ مجاور حكى لي قصة تختلف..

منذ أعوام حين كانت تلك الدارة جديدة متألقة، عاش فيها نحاتان هما (كالوس) و (مرسيدس).

وكان عملهما يمتدح من (ليديا) إلى (نيابوليس)، ولم يجسر واحد أن يقول إن أحدهما كان يفوق الآخر مهارة. كان كل الناس يمتدحون النحاتين ولم يخطر لأحد أن الغيرة الفنية قد تعكر صفو صداقتهما الأخوية..

لكن طباع (كالوس) و(مرسيدس) لم تكن متماثلة؛ فبينما كان (مرسيدس) يعربد ليلا وسط ملاهي (تيجيا)، كان (كالوس) يبقى في داره ينعم بالجلوس في الأيكة.. وهناك يتأمل في الرؤى التي تفعم عقله، ويصمم الروائع التي سيخلدها من الرخام الذي يتنفس.. وقال البسطاء إنه يستلهم الوحي من الأرواح التي تسكن الأيكة؛ لأنه لم يكن يتخذ أية موديل حية معروفة.. وقيل إنه يستلهم حوريات الغابة بارعات الحسن مشهوران هما (كالوس) و(مرسيدس) حتى إن أحدا لم يندهش، حين أرسل طاغية (سيراكوزا) رجاله إليهما، ليتفقوا على تمثال (تايك) الذي أراد أن يشيده في المدينة.. يجب أن يكون التمثال هائل الحجم بارع

الصنع؛ لأنه سيكون عجيبة البلاد ومقصد المسافرين.. ومن أجل هذا الشرف طلب من (كالوس) و(مرسيدس) أن يتنافسا.. وطلب منهما ألا يخفى أحدهما عمله عن الآخر، بل يمنحه النصح والرأي، وهكذا سيكون لدى المدينة تمثالان أجملهما يذوي أمامه خيال الشعراء.

رحب النحاتان بعرض الطاغية، ولأيام لم يسمع الخدم إلا ضربات الأزاميل.. ولم يخف (كالوس) و(مرسيدس) ما صنعاه عن بعضهما، لكنهما أخفياه عن العالم.. ذلك الجمال الذي كان حبيس الصخر منذ الخليقة، بانتظار إزميل بارع يحرره..

وفي الليل - كما في الماضي - كان (مرسيدس) يقصد ملاهي (تيجيا)، بينما (كالوس) يهيم في أيكة الزيتون.. ولكن إذ مضى الوقت لاحظ الناس في (مرسيدس) افتقاره إلى المرح، وبدا لهم هذا غريبا.. ومر الوقت، لكن في وجه (مرسيدس) لم يَبدُ ذلك الحماس المتوقد المتوقع..

ثم ذات يوم تكلم (مرسيدس) عن مرض أصاب (كالوس)، عندها فهم الجميع سر اكتئابه لأن صداقة الرجلين كانت قوية مقدسة.. ذهب كثيرون ليروا (كالوس)، وبالفعل كان وجهه شاحبا لكنه كان سعيدا، مما أعطى نظرته سحرا يفوق نظرة (مرسيدس)، الذي كان شاردا مشتتا، وقد أبعد كل العبيد عن صديقه ليتفرغ للعناية به.. وخلف الستائر كان تمثالان ل (تايك) لم يمسهما المريض وصاحبه من زمن..

وازداد وهن (كالوس) برغم محاولات الأطباء الحائرين، وعناية صديقه (الفائقة) به، ومرارا تمنى أن يحملوه إلى الأيكة التي أحبها..

وجاءت النهاية ليرحل (كالوس) عن عالمنا هذا، وبكى (مرسيدس) كثيرا، ووعد صاحبه بضريح رخامي أجمل من قبر

(موسولوس).. لكن (كالوس) منعه من الكلام عن الرخام ثانية، ولم يطلب منه إلا شيئا واحدا: أن تدفن فروع من أشجار زيتون معينة جوار قبره لصيقة برأسه..

وسرعان ما مات..

جميل بما يفوق الوصف.. ذلك الضريح الذي بناه ونحته (موسيدس) لصديقه الحبيب.. ولم ينس أن يزرع غصون الزيتون كما طلب (كالوس)..

فما إن انتهى الحزن حتى بدأ (مرسيدس) يعمل فى تمثال (تايك).. الآن صار المجد مجده بالتأكيد، وراح يعمل بلا انقطاع.. أما في الليل فكان يسهر جوار قبر صاحبه، حيث نمت شجرة زيتون قرب رأس النائم... كان نمو الشجرة سريعا للغاية، وكان شكلها غريبا يوحي بالافتتان والنفور معا..

بعد ثلاثة أعوام من وفاة (كالوس) أرسل (موسيدس) رسالة إلى الطاغية، وتهامس القوم في أسواق (أثينا) أن التمثال العظيم قد انتهى في الآن ذاته كانت الشجرة قد بلغت حجما خرافيا يفوق أية شجرة أخرى.. وجاء كثيرون ليروا الشجرة وينعموا بنحت (موسيدس).. بهذا لم يعد الفنان وحيدا قط، لكنه لم يتضايق لهذا.. بالأحرى كان يهاب الوحدة بعد ما انتهى العمل الذي شغف حواسه..

كانت السماء سوداء في الليلة التي جاء فيها رسل الطاغية إلى (تيجيا).. وعرف الجميع أنهم جاءوا ليحملوا تمثال (تايك) العظيم، ويجلبوا المجد لـ (مرسيدس)..

كان الرجال سعداء، وقد راحوا يتحدثون عن الطاغية المتألق، وعن عاصمته العظيمة.. ثم تكلم رجال (تيجيا) عن طيبة قلب (مرسيدس) وصلاحه، ومدى حزنه من أجل فقد صاحبه..

تزايد عواء الريح فشعر رجال (سيراكوزا) و (أركاديا) بالتوتر، وصلوا..

وفي الصباح اتجه رسل الطاغية إلى المنحدر ليروا التمثال، لكن ريح الليل كانت قد فعلت أشياء غريبة.. كان صراخ العبيد يتعالى من بين الخرائب، ولم يبد أثر لغرفة نحت (مرسيدس)..

لأن فوق هذا البناء السخي المترف قد سقط غصن ثقيل من الشجرة الجديدة، ليحيل تلك القصيدة البارعة المنحوتة من الرخام إلى حطام قبيح ووقف الغرباء وسكان (تيجيا) يرمقون تلك الشجرة العجيبة التي تمتد جذورها إلى أعماق قبر (كالوس)، والتي بدت بشرية تماما في هذه اللحظة.. أصابهم الهلع وازدادوا هلعا حين راحوا يبحثون عن (موسيدس) وسط الحطام، فلم يجدوا له أثرا..

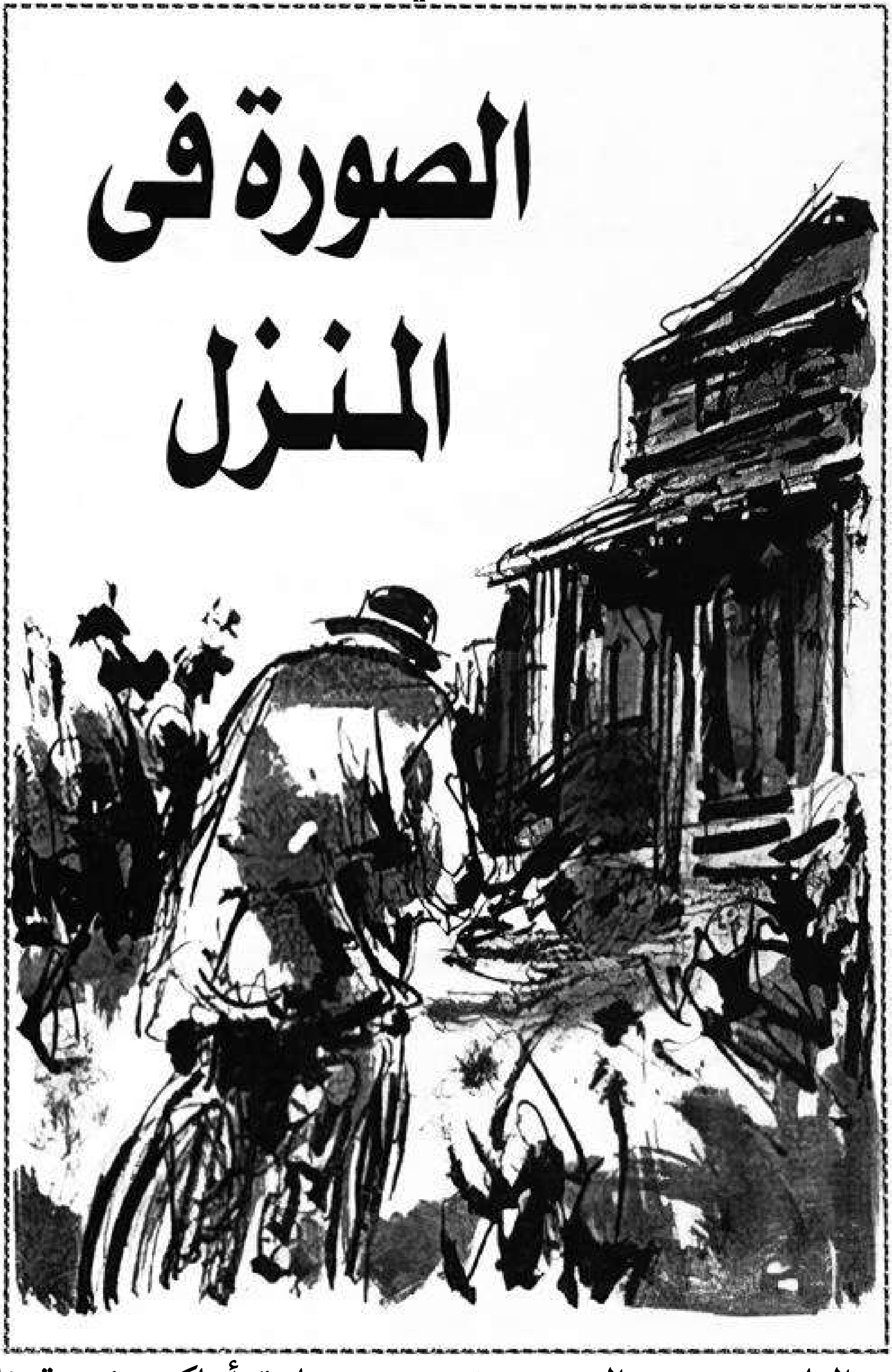
حزن الفريقان.. أهل (سيراكوزا) حزنوا؛ لأنه لم يعد تمثال يحملونه إلى الوطن، وأهل (تيجيا)؛ لأنه لم يعد عندهم فنان يتوجونه.. وانصرفوا كاسفي البال.. إلا أن أيكة الزيتون ما زالت هناك.. كما مازالت الشجرة التي تخرج من قبر (كالوس)..

وقال لي مربي النحل العجوز إن الأغصان تهمس لبعضها مرارا وتكرارا في رياح الليل:

- أوبيدا أويدا! (أنا أعرف.. أنا أعرف!).

☆ ☆ ☆

الصورة في المنزل..



إن الباحثين عن الرعب يقصدون عادة أماكن غريبة نائية..
ومن أجلهم وجدت سراديب الموتى من عصر البطالمة،

والأضرحة المنحوتة في بلدان كابوسيه، ومن أجل الرعب يتسلقون أبراج القلاع الخربة في الراين، ويصعدون الدرجات التي يغطيها نسيج العناكب في المدن المنسية في آسيا.. الغابات المسكونة والجبال المهجورة هى مزارهم.. لكن أفضل هذه الأماكن طرا هو المزارع المهجورة في (نيوإنجلند)؛ لأن عناصر القوة والوحدة والشناعة والجهل، تجتمع هناك لتصل إلى الكمال في فن البشاعة..

أما أكثر الأماكن رعبا فهي تلك البيوت الخشبية غير المطلية البعيدة عن الطرق المأهولة.. منذ مائتي عام شيدت هنا حين زحفت الأغصان وتشعبت، وهي الآن متوارية تماما وسط فوضى اللون الأخضر، لكن النوافذ مازالت تطل بشكل مفزع، كأنما ترمش في نعاس طويل قاتل، تحاول به أن تنسى ما رأته كي لا تصاب بالجنون.

وفي هذه البيوت عاشت أجيال من قوم غريبي الأطوار، لم ير لهم العالم مثيلا من قبل.. لقد طلبوا الحرية كوحوش البرية، ولكنهم خضعوا في رعب للخيالات الكتيبة التي أعاشتهم فيها عقولهم.. ولقد تفاعل بعدهم عن سبل الحضارة مع كبتهم المستمر وكفاحهم من أجل الحياة، كي تتسلل إليهم عادات تمت بصلة لأجدادهم الشماليين البدائيين.. بالفلسفة كانوا قساة، وبالضرورة كانوا عمليين، لذا تعلموا أن يخفوا خطاياهم التي لم تكن جميلة قط.

وسرعان ما أصبح الكتمان عادة..

فقط تقدر النوافذ في المنازل أن تخبرنا عما حدث هنا في قديم الزمن، وما كانت لتثرثر كثيرا؛ لأنه ما من شيء يغريها بالتخلص من النعاس الذي يساعدها على النسيان.. أحيانا

يخطر للمرء أنه من الرحمة أن تدمر هذه المنازل؛ لأنها تحلم بالكوابيس طيلة الوقت.

عرفت هذا وأكثر في عصر يوم من أيام نوفمبر، وتحت مطر غزير جعلني أشتهي الاحتماء تحت أي سقف.. كنت أسافر مع قوم من وادي (مسكاتون)، أدرس أجناس القوم هنا.. وبحماقة اتخذت من دراجة وسيلة للسفر، وهأنذا الآن في طريق مهجور، هو الوحيد الذي يقودني إلى (آرخام).

كانت العاصفة شديدة ولا ملجأ هناك.. إلا البيت الخشبي الكئيب، الذي تلمع نافذته بين أوراق الأشجار الغليظة، عند سفح التل الصخري.. إن الأماكن الطيبة الودود لا تحدق في المسافرين بهذا الإصرار، وكنت قد سمعت في بحثي أساطير قرن كامل، مما جعلني أتوجس من مكان كهذا.. لكن الظروف كانت قاهرة إلى حد أنني لم أتردد في أن أرفع دراجتي عبر المنحدر، نحو الباب الذي بدا موحيًا غامضا..

وكنت قد افترضت في البدء أن المنزل مهجور، لكني نظرت إلى الأرض التي أمشي عليها.. حقا كانت الأعشاب نامية، لكن حالتها كانت أفضل من أن توحي بقفر تام.. لهذا لم أفتح الباب، لكني قرعته شاعرا برجفة لا يمكن وصفها.. ولاحظت أن النوافذ لامعة غير مهشمة، مما يعني أن المنزل مأهول، برغم أنه لا يلقى أية عناية.. لم تلق قرعاتي إجابة، فجربت المزلاج الصدئ، فوجدت أن الباب غير موصد..

بالداخل كان المدخل مغطى بدهان تساقط أكثره وشممت رائحة خفيفة لكنها كريهة بشكل خاص حملت دراجتي ودخلت.. وأرحتها على الجدار، ثم فتحت الباب على يساري.. بدا لي أن هذه غرفة جلوس، ذات سقف واطئ مضاءة بضوء خافت من نافذتين، ومفروشة بأقل وأبسط أثاث.. كانت بها

منضدة ومقاعد، وبعض كتب لم أستطع قراءة عناوينها في الضوء الخافت.. لكن ما أثار انتباهي بحق هو الطابع العتيق الكامل لهذه الغرفة.. لقد بحثت في كل ركن فلم أر أثرا واحدا، يمكن أن يمت لعصر ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية. يمكن أن يعد هذا المكان جنة لهواة جمع العاديات.. لولا ما في الجو من شيء مقيت.. شيء يوحي بأسرار يحسن أن تنسى..

كان هناك كتاب على المنضدة.. كتاب عتيق جدا إلى حد أنني اندهشت لرؤيته خارج المتاحف.. كان مجلدا بالجلد مع جوانب معدنية، وكان في حالة ممتازة يصعب أن تراها في منزل كهذا..

فتحت الصفحة الأولى فازدادت دهشتي.. لأنه كان وصف (بيجافيتا) لمنطقة (الكونغو)، مكتوبا باللاتينية وطبع في ألمانيا عام 1589.. أثار هذا دهشتي، ورحت أطالع الصفحات منبهرا.. كانت به رسوم تمثل الزنوج بطريقة خيالية، ترسمهم بملامح أوروبية وجلود بيضاء.. هنا حدث شيء زاد من توتر أعصابي وشعوري بعدم الراحة.. إنها تلك الطريقة التي ظل المجلد كلما سقط مني، يفتح نفسه على الصورة رقم 12، التي تمثل مشهدا شنيعا لمتجر جزار من أكلة لحوم البشر (الأنزيك).. خجلت من نفسي لحساسيتي، لكني لم أحب الصورة قط، خاصة مع الفقرة التي تصف تحتها عادات الأكل لدى (الأنزيك)..

كنت أتأمل باقي الكتب، ومنها الإنجيل، وكتاب تقدم الحاج)، و.... حين تناهى إلى صوت خطوات لا يمكن أن تخطئه، تتحرك فوق رأسي..

كأنما نائم قد صحا أخيرا بعد نعاس طيب.. صوت الخطوات تهبط الدرج ببطء.. كانت خطوات ثقيلة لم أحبها، خاصة مع ما بدا فيها من حذر..

كنت عند دخولي قد أغلقت الباب خلفي، والآن أسمع خطوات القادم في المدخل، كأنما يتفحص دراجتي هناك.. ثم بعد لحظة ظهر عند فرجة الباب شكل، لم يمنعني من إطلاق صيحة دهشة لرؤيته إلا تربيتي الحسنة.. عجوز ذو لحية بيضاء له سحنة تجمع بين الاحترام والعجب.. لم يزد طوله على ستة أقدام وكان قوي البنية، برغم ما يوحي به من فقر وشيخوخة.. عيناه الزرقاوان برغم أن الدم يخالط لونهما، بدتا مخلصتين نفاذتين.. لكن هندامه الفظيع وقذارته جعلا منظره منفرا برغم وجهه.. أما ما كان يلبس بالضبط، فهذا شيء لا أستطيع الإمساك به..

دعاني إلى الجلوس على مقعد، ثم بدأ يتكلم بصوت واهن متعب، وكانت لغته غريبة جدا، هى نموذج للهجة الشمال التي حسبتها انقرضت..

قال لي:

- اتزنقت في المطر؟ هه؟ كويس إنك كنت جنب البيت، وفكرت تيجي.. أنا كنت نايم وسمعى ما بقاش زي زمان.. مسافر ليه؟ أنا بقى لي كتير ما باشوفش ناس على السكة دي، من ساعة ما مشيت عربة (آرخام)..

قلت له إنني ذاهب إلى (آرخام)، واعتذرت لاقتحامي بيته بهذه الكيفية.. لكنه قال:

- كويس إني شفتك.. الوجوه الجديدة قليلة هنا.. وما فيش حاجة تسليني.. إنت من المدينة، مش كده؟ أنا بعرف راجل المدينة لما أشوفه..

كان بحق رجلا لطيف المعشر، لكن له طباعا غريبة.. ولمدة دقائق راح يثرثر بمرح، حتى عن لي أن أسأله كيف حصل على

كتاب مثل مملكة الكونغو لـ (بجافيتا). لحسن الحظ لم يضايقه السؤال وأجاب بحرية:
- آه.. الكتاب الإفريقي؟ كابتن (إبنزر هولت) بادلني بيه سنة 68 بعدها مات في الحرب..
شيء ما في اسم (إبنزر هولت) جعلني أنظر بحدة.. لقد قابلت الاسم في أثناء دراساتي عن الأجناس.. وخطر لي أن أسأل مضيف أن يعاونني فيما أقوم به.. وانتظرت حتى ينهى الكلام..
- (إبنزر هولت) كان تاجرا من (سالم).. وكان بيلم حاجات غريبة من كل المواني.. اشترى الكتاب ده من (لندن) - وبحث في جيوبه عن عويناته، ثم أخرج عوينات عتيقة غريبة الشكل، وراح يقلب الكتاب على المنضدة في حب - (إبنزر) كان يمكنه قراءة القليل من اللاتينية أما أنا فلا.. هل يمكنك؟
قرأت له فقرة من البداية قدر ما استطعت.. ولو أخطأت فلم يكن هو على هذا القدر من الثقافة، وكان مسرورا لفكرة أن يسمع أحدا يحكي له بالإنجليزية.. كان ساذجا كطفل، وسرني أن ذعري الأول فارقني.
- غريبة إن الصور بتخليك تفكر في حاجات عمرك ما فكرت فيها.. لكن أنا حاوريك أجمل حتة في الكتاب..
والتمعت عيناه وازداد صوته غلظة.. ومد يده يفتح الكتاب، فإذا به كالعادة ينفتح على الصورة رقم 12 التي تظهر محل الجزار لدى (الأنزيك)..
عاد شعوري بعدم الارتياح غير أنني لم أظهره..
لكن مضيفي بدا متمتعا بالصورة بالقدر الذي كرهتها به.
- كنت دايما أقرا عن دبح الناس، لكن عمرى ما شفت المنظر.. أهوه المنظر قدامك! مش بالذمة حاجة تقشعر؟ بيتهيألي دي خطيئة.. لكن احنا كلنا خطاة على كل حال.. شوف

ده! الجزار قطع راسه ودراعه، وهم الاثنين على القرمة جنب بعض حاجة تخلي جلدك يقشعر..
كان يتحدث في شغف وانبهار، جعلا حالتي غير قابلة للوصف.. وأدركت أنني أكره هذا الرجل من كل قلبي.. إنه مجنون أو شاذ الطباع بالتأكيد..
والآن كان يهمس بصوت حاد كأنه الصراخ فارتجفت..
- زي ما قلت لك.. الصور بتخليك تفكر في حاجات غريبة.. مرة جربت حاجة مسلية.. ما تخافش يا بني.. كل اللي أنا عملته هو إن أنا كنت بابص للصورة قبل ما دبح الخرفان..
كان صوته ينخفض إلى حد أنه صار عسير السماع، ومن بعيد كنت أسمع صوت هدير الرعد منذرا بعاصفة قادمة.. لكن الهامس لم يلحظ شيئا من هذا..
- قتل الخرفان كان ممتع.. لكن ما كانش بيرضيني قوي.. الصورة دي خلتني جعان لحاجة ماقدرش أربيها أو أشتريها.. أقعد! أنا ماعملتش حاجة.. كل الموضوع إني كنت بافكر في الموضوع..
بيقولوا إن اللحمة بتجدد الدم.. فأنا قلت لنفسي ممكن البني آدم يعيش كتير لو عمل حاجة كده.. ونويت أجرب....
لكن الشيخ الهامس لم يستكمل كلامه.. والسبب هو فكرة بسيطة جدا، إلا أنها مصحوبة بحادث غير معتاد..
كان الكتاب بيننا مفتوحا على الصورة المريعة، فلم يكد الرجل يقول: ونويت أجرب، حتى دوى صوت طرطشة، وظهر شيء على الورق المصفر.. فكرت في أن الماء يسيل من ثقب في السقف، لكن المطر ليس أحمر.. كانت هناك لطخة حمراء تنتشر على الصورة فوق محل الجزار، تعطي مسحة مفزعة للمشهد.. رآها الرجل فكفَّ عن الهمس ونظر سريعا إلى

السقف.. حذوت حذوه ونظرت للسقف لأرى بقعة حمراء تنتشر ببطء هناك.. لم أصرخ أو أتحرك.. فقط أغلقت عيني وبعد لحظة جاء هدير الرعد الجبار، وأطاح بذلك البيت المشئوم الحافل بأسرار لا يمكن النطق بها، وجلب النسيان وهو الشيء الوحيد الذي أبقى على عقلي.

1919

☆ ☆ ☆

حالة تشارلز دكستر وارد (3)

حالة تشارلز دكستر وارد (*)



(*) ترجمة ملينة بالتصرف ؛ لأن القصة الأصلية مفرطة الطول ، وبالغة الشناعة !

الفصل الأول

مقدمة ونتيجة

1

من مصحة عقلية خاصة قرب (بروفيدنس) في رود آيلاند)، اختفى مؤخرا شخص متفرد يحمل اسم (تشارلز دكستر وارد)، تم وضعه تحت الحجز برغم رفض أبيه المحتضر، الذي شهد تبدل ابنه من مجرد الشذوذ إلى جنون كامل، قد يهدد بالقتل.. ويعترف الأطباء بحيرتهم إزاء هذه الحالة.. فمن البداية بدا المريض أكبر سنا مما توحي به سنو عمره الستة والعشرون. إن الخلل العقلي - هذا صحيح – يجعل المرء يشيخ سريعا.. لكن وجه هذا الفتى كان يحمل طابعا لا تراه إلا على وجوه الشيوخ.. ثانيا كان مرضه العضوي يظهر غرابة لا يوازيها شيء طبيا،،

لقد فقد صوته، ولم يعد نبضه يتناسب مع تنفسه وهضمه صار بطيئا وأقل من المعدل.. لقد اختفت وحمة تشبه الزيتونة كانت على ردفه الأيمن، بينما ظهرت شامة سوداء على صدره، لم يكن لها أثر من قبل..

نفسيا كذلك؛ كان (تشارلز دكستر) متفردا.. لم يكن جنونه من أي نوع معروف، برغم أنه يملك طاقة عقلية كان بوسعها أن تصنع منه عبقريا..

والحقيقة أن (وارد) كان أكاديميا ودارسنا للآثار وقد ازدادت حدة ذكائه بعدما أصيب عقله.. كما اتضح من الفحوص التي قام بها الأطباء المنتدبون.

كان من الصعب نظرا لذكاء الشاب، أن يتم الحصول على موافقة المحكمة على دخوله المستشفى.. فلم يتم هذا إلا بناء على شهادة البعض، والثغرات التي اتضحت في معلوماته العامة -

وهي شيء غير الذكاء - وتم وضعه في الحجز وحتى وقت فراره كان قارئا نهما، ومحدثا ممتعا بقدر ما يسمح به صوته الواهن.. وقد تنبأ ملاحظوه بأنه لن يمر وقت طويل قبل أن يظفر بإطلاق سراحه من الحجز..

لم يكن أحد قلقا بصدد حرية الفتى، إلا د. (ويليت) طبيب الأسرة، الذي جاء بالفتى إلى العالم، وراقب نموه العقلي والبدني.. فقد كان يعرف أشياء مروعة لم يجسر على إعلانها لزملائه في المهنة والحقيقة أن د. (ويليت) لغز محير بدوره..

فهو آخر من تحدث إلى الفتى، وغادره وعلى وجهه مزيج من الرعب والرضا، وقد تذكر الكثيرون هذا بعدما فر الفتى، بعد ثلاث ساعات من اللقاء..

الهرب نفسه غريب بحق.. ولم يكن لدى د. (ويليت) ما يعلنه بعده.. لكنه بدا أكثر راحة ورضا.. ويبدو أن لديه ما يقول لو لم يسخر منه الآخرون.. إنه قد وجد الفتى في غرفته، لكن من جاءوا بعد ذلك قرعوا الباب عبثا.. ولما فتحوه لم يجدوا إلا نسيم إبريل يطير سحابة من الغبار الرمادي المزرق..

صحيح أن الكلاب نبحت قليلا ليلتها، لكن ذلك حدث بينما الطبيب مازال هناك، ولم تنبح بعد ذلك أبدا.

لم يكن لدي (ويليت) ما يقول، وكذلك الأب (وارد) العجوز.. وحتى هذه اللحظة لم يجد أحد أثرا للمجنون الهارب.

كان (وارد) مولعا بالآثار من صغره، وبالتأكد اكتسب هذا الحب من رفات الماضي الموجودة في كل ركن من دار أبويه، في شارع (بروسبكت) عند ذروة التل.. فلما نما نمت معه هذه الهواية الغريبة..

واحتلت كل جوانب اهتمامه.. هذه النقطة مهمة؛ لأن الفتى - حين استجوبه الأطباء - كان جاهلا تماما بالأحداث المعاصرة،

لكنه بدا كأنما يعيش في الماضي، وكأنما انتقل إلى أزمنة قديمة عن طريق تنويم مغناطيسي مجهول.. من الغريب هنا أن الفتى بدا كأنما فقد كل اهتمامه بعلم الآثار، ويبدو أن هذا بفعل الألفة والتعود.. فلم يكن يهتم إلا بتعلم كل شىء عن عالمنا المعاصر..

حاول بالطبع أن يخفي هذا الحذف الذي جرى في ذاكرته، لكن كل من رآه عرف أن برنامجه الاطلاعى كانت تمليه عليه حاجته إلى معرفة كل شيء عن القرن العشرين، والخلفيات الثقافية والعلمية له وهو شيء غريب لأنه ولد عام 1902 وتعلم في مدارسنا المعاصرة..

ولقد تساءل الأطباء عن كيف ينوي الهارب أن يتصرف في عالمنا المعقد هذا، ثم أدركوا أنه لابد مختبئ في مكان آمن إلى أن يصل قدرا كافيا من العلم يسمح له بالتنقل..

كانت بداية جنون (وارد) موضع جدل بين الأطباء.. د. (لايمان) - وهو حجة من (بوستون) - يقول إنه حدث بين عامي 1919 و1920 في أثناء عام الفتى الأخير في مدرسة (موزس براون)، حين كف عن دراسة الماضي..

ليبدأ دراسة المجهول.

ورفض أن يتخرج كي يتفرغ لدراسة ما هو أهم..

كان يقضي الوقت يبحث عن قبر معين تم حفره عام 1771، ويخص جدا له اسمه (جوزيف كوروين).. لا ينكر أحد أن شتاءى 1919 و1920 شهدا تغيرًا عظيما في (وارد)..

من جهته يخالف د. (ويليت) هذا.. ويعتمد على معرفته الوثيقة بالمريض، وأشياء معينة اكتشفها قرب النهاية.. ويرى أن العامين 1919 و1920 يبدوان كبداية انحلال استمر حتى صورته الرهيبة عام 1928.. لكن الفتى لم يكن قط متماسكا نفسيا.

وكانت استجاباته غريبة لما يحدث من حوله.. إن التغير الحقيقي - كما يرى - حدث حين تم استخراج أوراق (كوروين) وصورته.. بعد رحلة قام بها الفتى الأماكن غريبة أجنبية..

في هذا الوقت - يؤكد (ويليت) بحدة – بدأت التغيرات الكابوسية لدى (وارد).. لقد رأي عاملان أوراق (كوروين) حين وجدها الفتى.. بل إن الفتى عرض هذه الأوراق على د. (ويليت) ومعها صفحة من مذكرات (كوروين).. ثم هناك موضوع خطابي (أورن) و(هتشنسون) ومشكلة خط (كوروين)..

والأوراق التي وجدوها بحروف من القرون الوسطى، في جيب (ويليت) بعدما استعاد رشده..

دعك من الأشياء التي استنتجها الطبيب من معادلتين وجدهما، وهي أشياء تبرهن على أصالة هذه الأوراق، وأنها ولدت من المعرفة البشرية.

☆ ☆ ☆

2

يجب على المرء أن ينظر إلى ماضي (تشارلز وارد) كأنه جزء من الآثار التي يهوى اقتناءها ودراستها.. في خريف 1918 حين ساد الحماس للتدريب العسكري، بدأ دراسته في مدرسة (موزس براون)، فقد فتنه المبنى العتيق الذي شيد عام 1819، وكانت نشاطاته الاجتماعية محدودة.. كان يقضي الوقت في المكتبة العامة، ومجمع التاريخ ومكتبة (جون هاى) في الجامعة.. ويمكن للمرة أن يراه كما كان في تلك الأيام؛ طويلا أشقر ذا عينين متأملتين وثياب غير مهندمة نوعا.. يعطي انطباعا بالارتباك غير الضار أكثر مما يعطي انطباعا بالجاذبية..

كان مجنونا بالتاريخ منذ طفولته، وكانت البلدة تحوي الكثير من الآثار.. كان الفتى يقضى الساعات يجوب المدينة، ويستكشف كل شيء، ولا بد أن هذه الجولات كانت هي الشيء الذي جعل عقله ينسحب من الحاضر ليعيش في دنيا الواقع..

كان د. (ويليت) واثقا من أن اهتمام (وارد) بالآثار - حتى الشتاء الكثيب - كان خاليا من أي أثر للمرض.. لم تكن المقابر تمثل له أكثر من عراقتها وأهميتها التاريخية.. ولم يكن في طباعة وحشية ولا قسوة.. ثم فجأة حدثت مضاعفات غريبة لنصر أحرزه في دراسة الأنساب منذ عام، حين اكتشف بين أسلافه رجلا معمرا اسمه (جوزيف كوروين)، الذي جاء من (سالم) في مارس 1692، والذي كانت قصص كثيرة تحكى همسًا عنه..

كان جد جد (وارد) قد تزوج في عام 1759 امرأة تدعى (آن تلينجاست) حفيدة الكابتن (جيمس تلينجاست).. وفي عام 1918 بينما هو - (وارد) - يفحص سجلات المدينة، وجد أنه في عام 1772 قامت السيدة (إليزا كوروين) أرملة (جوزيف

كوروين) - هي وابنتها - باسترجاع اسمها قبل الزواج وهو (تلينجاست).. لأن اسم زوجها صار وصمة لما عرف عنه بعد وفاته.. وهي وصمة لا يمكن لزوجة مخلصة أن تصدقها على كل حال، ما لم يتم إثباتها بما يفوق أي شك.. الملحوظة الأخيرة كانت بين صفحتين تم لصقهما بعناية بالغة، ولم يجدها (وارد) إلا بعد مراجعة مرهقة لأرقام الصفحات..

لقد عرف أنه وجد أخيرا جدا كبيرا كبيرا.. وكان يعرف القليل جدا عن الرجل؛ لأن كل شيء عنه كان مخفيا، كأنما هناك مؤامرة لجعل الرجل يعيش في النسيان..

قبل هذا الكشف كان (وارد) قانعًا بأن يتجاهل خيالاته بصدد (جوزيف كوروين) العجوز.. لكنه، وقد أدرك قرابته للرجل، راح يصطاد المعلومات بشكل منظم قدر ما استطاع.. وفي بحثه المتحمس نجح أكثر بكثير من كل توقعاته.. لأن الخطابات القديمة والمذكرات والمجلدات المغطاة بنسيج العناكب، والتي لم يجد السابقون أهمية لتدميرها؛ كانت ذات نفع بالغ له.. وجاء ضوء مهم من مكان بعيد مثل (نيويورك).. حيث كانت بعض مراسلات (رود آيلاند) مخزونة في أحد المتاحف...

الشيء ذو الأهمية البالغة، والذي - في رأى د. (ويليت) - يشكل حجر الزاوية للمشكلة، هو الأشياء التي وجدوها تحت ألواح بيت مهدم عام 1919 في (أولنى كورت).. كانت هذه الأشياء دون شك هي ما فتح تلك الآفاق السوداء، والتي كانت نهايتها أعمق من أية حفرة..

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

الأسلاف والرعب

1

كان (جوزيف كوروين) - كما جسدته الأساطير التي سمعها وكشف عنها (وارد) - شخصا مفزعا غامضا.. لقد فر من (سالم) إلى (بروفيدنس) المأوى الدائم لغرباء الأطوار. لأنه كان يخشى اتهامه بالسحر ([4]). كان رجلا شاحبا في الثلاثين من عمره.. سرعان ما اشتري بيتا عند ناصية شارع (أولنى)، فوق هضبة (ستامبر) غربي الشارع الرئيسي بالمدينة. وفي عام 1761 استبدل به بيتا أكبر في المكان ذاته.. وراح يمارس التجارة، وكانت له علاقة ما بالبحر وسفينة.

أول الأشياء الغريبة بصدد (كوروين) كانت أنه لم يَشِخ قط.. لقد ظل دوما يحتفظ بمنظر رجل في الثلاثين من العمر.. وبعد عقود بدأ الناس يلاحظون هذا، لكنه كان يقول دائما إنه جاء من أصل قوى، وإنه يعيش حياة بسيطة لم ترهق جسده. لم يكن ثرثارا وكان أميل إلى العزلة، لكن الناس قالوا إن سبب شبابه الدائم له علاقة ما بالكيماويات التي يقوم بغليها طيلة الوقت، والأضواء التي تظل ساهرة خلف نوافذه طيلة الليل.. وحين جاء (جابيز) العجوز ليفتح صيدلية في (جريت بريدج)، فإن الناس راحوا يتكلمون عن العقاقير الغريبة التي اشتراها (كوروين) منه، وتلك التي اشتراها من (لندن) أو من (الإنديز)..

ثمة أسباب أخرى جعلت الناس يتساءلون.. ثم يشكون.. ثم يخافون الرجل كأنه طاعون.. مثلا ميله الشديد إلى المقابر، التي كان يرى فيها كثيرا، وإن لم ير أحد منه سلوكا يوحي بأنه غول..

كانت لديه مزرعة يعيش فيها مع خادمين هنديين من هنود (الناراجانست).. الزوج أصم ومليء بالندوب، والزوجة منفرة السحنة.. وكان الجيران يملكون أغرب القصص عن هذه المزرعة.. عن صرخات وأصوات عواء في الليل وعن ضخامة القطيع في المزرعة أكثر مما يحتاج إليه رجل عجوز وحيد وخادماه.. وعن كميات الطعام التي تدخل المزرعة لأربعة أفراد فقط..

بالنسبة للطبقة الراقية أيضا كان من الواضح أن (كوروين) رجل كريم المنشأ، عرف العالم، ومن الواضح رقي إنجليزيته، وإلمامه ببعض الثقافة الشرقية، لكنه - لسبب لم يفهموه - كان لا يهوى المجتمعات..

في عام 1746 جاء مستر (جون ميريت) السيد الإنجليزي العجوز، وهو رجل طيب المنشأ كريم المحتد، إلى (نيوبورت) وعاش حياة مريحة محترمة، فلما سمع (كوروين) أن لديه أفضل مكتبة في (بروفيدنس)، قام بزيارته واستقبله الأول بترحاب شديد. فلما رأى (كوروين) أن مكتبة مضيفه ذاخرة بروائع الفلسفة والأدب، قام بدعوته إلى مزرعته ليري مكتبته، وذهبا إلى هناك في عربة مستر (ميريت).. اعترف مستر ميريت) فيما بعد بأنه لم ير ما يريب في المزرعة، لكن عناوين كتب السحر والتنجيم والفلك التي رآها، كانت كفيلة بأن تثير لديه نفورا شديدا.

وكانت هناك كتب يهودية سحرية كثيرة، ومنها كتب (الكابالا) - السحر الأسود اليهودي - كما أنه وجد كتاب (نيكرونوميكون) الممنوع تداوله، والذي كتبه (عبد الله الحظرد)، والذي سمع عنه من أعوام حين انكشف أمر طقوس

غريبة، تمارس في قرية صيد اسمها (كينجزبورت) على ساحل (ماساتشوستس)..
لكن أسوأ الأشياء عن (جوزيف كوروين) كانت تقال عند المرفأ. إن البحارة قوم يؤمنون بالخرافات، وقد كان موظفو (كوروين) وقباطنة سفنه أنفسهم يمقتونه ويهابونه.. أما بحارته فكانوا هجناء من جزر المارتينيك وهافانا وسانت أوستاتيوس..
وكانت الطريقة التي يتبدلون بها أو يختفي بعضهم، لمن الأشياء التي أثارت الدهشة والحيرة..
وفي عام 1769 صار (جوزيف كوروين) منبوذا فعليا، متهما بكل ألوان الأحلاف الشيطانية، التي كان أكثر ما يخيف فيها هو أن أحدا لا يعرف كنهها بالضبط، أو يستطيع البرهنة عليها.. وكانت آخر قشة هي موضوع الجنود المفقودين عام 1758.. لقد عسكر فيلقان ملكيان من الجنود في (بروفيدنس)، في طريقهم إلى (نيوفرانس).. سرت إشاعات كثيرة أن (كوروين) اعتاد الكلام مع الغرباء ذوي المعاطف الحمراء، وبدأ كثير منهم يختفي.. مما ذكر الناس ببحارة (كوروين) الذين يختفون بشكل لا يمكن فهمه..
في الوقت ذاته كانت حالته المادية تزدهر.. كان يحتكر تجارة الفلفل والقرفة والملح الإنجليزي في البلدة. وكان يملك أية شركة تتعامل مع النحاس أو الأصواف أو أية بضائع إنجليزية.. وصار من أهم مصدري الزمن..
وبرغم كونه منبوذا، فإنه شارك في كثير من الأعمال العامة والخيرية، كأنما يطرد الظل الذي ألقى به في العزلة، ولن يلبث أن يدمر ثروته ما لم يجد حلا سريعا.

☆ ☆ ☆

2

إن رؤية رجل كهذا يبدو كأنه في منتصف العمر، لكنه في الحقيقة لا يقل عن قرن عمرا، وهو يحاول الخروج من سحابة الشك والخوف التي تحيط به.. كان مشهدا دراما يدعو إلى الشفقة والنفور معًا. لقد بدأ يقلل من كميات الطعام التي تدخل مزرعته، ومن زياراته للمقابر، وصارت الأصوات المنفرة الصادرة من مزرعته أقل.. لكن تأثير هذا كان بسيطا؛ لأن حقيقة شبابه الدائم كانت كفيلة بجعل الناس ينفرون منه أبدا.

وكان من الواضح أن تجاربه - أيا كانت – تحتاج إلى ثروة هائلة لتحقيقها، وكانت أعماله هنا تدر له هذه الثروة، بالتالي لم يكن على استعداد للبدء من جديد في مكان جديد.. ووجد أن عليه أن يحسن علاقاته مع القوم في (بروفيدنس)؛ حتى لا يصمتوا حين يرونه، أو يختلقوا الأعذار للانصراف.

هنا وجد الفكرة المناسبة.. كان يعيش حياة رهبنة كاملة، وخطر له الآن أن يتزوج.. سيدة ذات وضع اجتماعي يكفل له أن يجد مكانة محترمة في المجتمع.. وكان بالطبع يعرف أن الناس يلقونه بذعر وتهيب، لذا راح يبحث عن زوجة يمكنه أن يمارس بعض الضغط على أبويها..

هنا ضيق البحث إلى بيت أحد قباطنته الطيبين.. إنها سيدة كريمة النسب اسمها (دوتى تلنجاست) لها ابنة تدعى (إليزا).. وقد وافق أبوها بعد مقابلة مروعة أن يمنح ابنته للرجل..

في هذا الوقت كان عمر (إليزا تلنجاست) ثمانية عشر عاما، وكانت أمها متوفاة.. لا بد أنها تجادلت مع أبيها بصدد الزواج من (كوروين) وكانت محاورات مؤلمة حتما. لكن خطبتها إلى الشاب (إزرا ويدن) فسخت، وعقد زفافها في 7 مارس 1763 في

كنيسة المعمدانية.. وفي حضرة أكثر التجمعات تميزا في المدينة..

كان البيت الجديد في (أولنى كورت)، ولم تشب الحياة فيه أية أمور غريبة، لكن (كوروين) كان كثير التغيب في مزرعته في (بوتاكست). ولم يكن هناك من ظل يحتفظ بكراهيته ل (كوروين) الآن إلا ضابط البحرية الشاب، الذي فسخت خطبته إلى (إليزا تلنجاست)، فقد أقسم على الانتقام صراحة..

في السابع من مارس عام 1765، ولدت طفلة (كوروين) الوحيدة (آن).. وتم تعميدها في كنيسة الملك التي انتسب إليها الزوجان الآن.. وقد لاحظ (دكستر وارد) الشاب أن سجلات الزواج والطفلة قد تم محوها من أكثر ملفات البلدة.. لكنه وجدها بعد بحث مضنٍ ساهم بالتأكيد في حالة الجنون التي وصل إليها في النهاية..

في الوقت ذاته كان الفتى (إزرا ويدن) لا يكلّ من تكرار أن (كوروين) بالتأكيد يمارس أعمالا شيطانية ما، وكان يراقبه بعناية من بعيد.. إلى درجة أن الكلاب عضته ذات مرة وهو يتلصص على المزرعة..

☆ ☆ ☆

3

في عام 1766 بدأت مخايل غريبة تظهر على (كوروين).. لقد كف عن حالة الترقب التي يمر بها، وبدا عليه نوع من الرضا والشعور بالنصر مما جعل القوم يتهامسون في البلدة.. والغريب هنا أن الناس لاحظوا أنه يقول أشياء، ما كان بوسع أحد أن يعرفها سوى أجدادهم..

ازدادت نشاطاته السرية، وبدأ يلقي بالمزيد من مسئوليات سفنه على عاتق بحارته، الذين كانت تربطه بهم أواصر قوية من الخوف والرهبة.. بدأ يهجر تجارة العبيد زاعما أن مكاسبها لم تعد مجزية. وكف عن رحلاته البحرية المريبة ليلا، وهي رحلات كان القوم يبررونها بتوتر ظروف التجارة والضرائب في هذا الوقت.. كان التهريب يتم على قدم وساق. لكن (إزرا ويدن) الذي لم تغفل عينيه عن المراقبة، كان يعرف أن ما يتحاشاه (كوروين) ليس هو سفن صاحب الجلالة ملك بريطانيا.. وإذ وجد أن مهامه البحرية تعوقه عن المراقبة اللصيقة، فقد استأجر صديقا له يدعى (إليعازر) كى يتولى المراقبة في غيابه.

لا يعرف أحد ما رآه الرجلان، لكنه لم يكن محببا، وكل ما يمكن معرفته هو ما دونه (إليعازر) في مفكرة لديه.. ومنه نفهم أن المزرعة كانت مجرد غطاء لعمل مخيف لا يوصف.. ومن المفهوم أن الرجلين استنتجا أن هناك عددا هائلا من الممرات والأنفاق تحت المزرعة، بها عدد لا بأس به من القوم، بالإضافة إلى الهندي العجوز وامرأته.. بدا لهما أن هناك عددا ما من الأسرى – من جنسيات مختلفة - والحراس و(كوروين) الذي كان يفهم ويتكلم كل هذه اللغات..

قال (إليعازر) في مفكرته إنه كان يسمع أطرافا من محادثات بلغات لها طابع الاستجواب، ولأنه كان بحارا فقد كان يفهم بعض تلك اللغات.. وإنه سمع على سبيل المثال شخصا غاضبا يتم استجوابه بالفرنسية، عن مذبحة الأمير الأسود في (ليموج) عام 1370، ويبدو أن المستنطق لم يظفر بإجابة، من ثم لجأ إلى أساليب عنيفة؛ لأن صرخة مروعة دوت من هناك..

فيما بعد يبدو أن الرجلين وجدا أشياء غريبة لا تسر الناظرين في مياه النهر الذي يجري خلف المزرعة.. إن النهر يمر على مقابر هنود حمر قديمة، ومن الممكن أن تكون هذه المخلفات منهما، لكنهما لسبب ما لم يشعرا أن هذه هي الحقيقة كان العام 1770 - بينما الرجلان مستمران في التجسس عاجزان عن اتخاذ قرار - حين وقعت حادثة (فورتاليزا). كانت دوريات سفن الجمارك

تفتش بعناية أية سفن غريبة، بعد حادث احتراق السفينة (ليبرتي) في (نيوبورت) ([5]).. وقد قامت سفينة صاحب الجلالة (سيجنت) بتفتيش سفينة الشحن الأسبانية (فورتاليزا) التي يقودها القبطان (مانويل آرودا)، وكانت قادمة من مصر متجهة إلى (بروفيدنس).. وبتفتيشها تكشفت الحقيقة الغريبة أن كل حمولتها كانت مومياوات فرعونية..

لم يدر البريطانيون ما يعملون؛ فالسفينة لا تحمل بضائع مهربة، لكن دخولها كان غير قانوني، ومن ثم أخلوا سبيلها مع منعها من الرسو في (رود آيلاند)..

ولم يحتج سكان البلدة حين عرفوا بالقصة، إلى أي جهد كي يربطوا بين محتوي هذه السفينة وبين كوروين)، الذي اشتهر بولعه بالمقابر وتجاربه الكيميائية الغامضة في خريف 1770

قرر (ويدن) أن الوقت قد حان ليعرف الآخرون بعض ما عرفه، فلديه حقائق عديدة يمكن ربطها، ولديه شاهد عيان ينفي عنه التهمة المحتملة، أن الغيرة هي ما جعلته يزعم ذلك..

وفي الطابق العلوي من الحانة، راح الشابان يحكيان ما شهداه للكابتن (ماتيسون)، وهو صديق حميم لـ (ويدن)، ثم إنه رجل ذو حيثية ونفوذ في البلدة، وكان ما حكياه غريبا صادما للرجل، لكنه كان يتوقع سرا غامضا محيطا ب (كوروين)، وقد أصغي لهما.. ثم قال إنه سيطلع بعضا من علية القوم راجحي الرأي على الموضوع، لكنه حذرهما من أن يعرف الدهماء بالأمر حتى لا تكون فتنة، ويعم الاضطراب، وتتكرر مأساة حرق الساحرات في (سالم)..

ولم يتوقع الكابتن (ماتيسون) النتيجة العظيمة لإطلاعه الرجال على ما عرف.. صحيح أن اثنين سخرا من الأمر واعتبراه خيال شابين، إلا أن الباقين جميعا كانوا يؤمنون أن (كوروين) تهديد دائم للبلدة، وما يقوم به شر لابد من عمل شىء بصدده..

وتملك القوم شىء كالخوف.. كانوا يعرفون في قرارة أنفسهم، أن (كوروين) شخص لا يجدي معه إبلاغ السلطات ولا جعله يترك المدينة.. لابد من شيء أقوى وأكثر فعالية من هذا.. وحتى لو وافق المخلوق الشرير على الرحيل، فليس هذا سوى نقل القاذورات من مكان ووضعها في مكان آخر..

كان الزمن زمن اللا قانون.. وقد تحدى هؤلاء القوم ملك بريطانيا ذاته، فلن يعجزوا عن قهر (كوروين).. فلو اتضح أن الرجل مجنون يكلم نفسه في مزرعته بصوت عال، فسوف يوضع في مصحة.. أما لو اتضح أن الأمر أخطر من هذا فلابد من قتله وقتل الرجال الذين معه..

فبينما هذه المناقشات الخطرة تدور، حدث حادث مروع بلا تفسير، لم يعد من سيرة للقوم غيره بعد حدوثه..

قام القوم بعمل ترتيبات لاعتراض البريد القادم إلى (كوروين)، وقد وجدوا رسالة موجهة له من (سالم)، ممن يدعى (جدياه أورن)، وقد جعلتهم يغرقون في تفكير عميق..

كان نص الرسالة كما قرأه (تشارلز دكستر) فيما بعد هو:

يسرني أنك مازلت تحصل على المادة القديمة بطريقتك.. ولا أحسب مستر (هتشنسون) في (سالم) قد حقق نتائج أفضل.. إن ما أرسلته لى لم يعمل، ربما لأن الكلمات التي كتبتها أنت أو لفظتها أنا لم تكن سليمة، أفهم جيدا أن الأجزاء يجب أن تكون سليمة كلها، لكن هذا عسير.. إنني لا أملك براعتك في الكيمياء، لكني أذكرك بألا تجلب ما لا تقدر على إعادته.. وأذكرك ألا تخاطبني باسم (سيمون) بل باسم (جيدياه).. إن في مجتمع كهذا قد لا يعيش المرء كثيرا.. وأنت تعرف خطتي للعودة باعتباري ابني.. إنني راغب في معرفة ما تعلمه الزنجي من (سيلفانوس كوسيديوس) تحت أسوار روما..

كان هناك خطاب مريب آخر كتب بلغة أجنبية مجهول الحروف، وقد وجد (وارد) تقليدا لها في الوثائق، وعرف من جامعة (براون) أنها الكتابة الأمهرية أو الأثيوبية..

لم تصل هذه الخطابات قط إلى (كوروين)، لكن اختفاء (جيدياه أورن) من (سالم) بعدها، يدلك على أن القوم في (بروفيدنس) اتخذوا خطوات جادة..

هكذا راح البحارة والعمال الأقوياء يجتمعون في الحانة، ويرسمون الخطط للهجوم على المزرعة، ومحو أي أثر ل (كوروين) من البلدة.. ويبدو أن (كوروين) شعر بشيء من هذا؛

لأنه صار يتواجد في المدينة أكثر من اللازم، وعلى وجهه نظرة قلقة

☆ ☆ ☆

4

تقول الوثائق إن جمعا من مائة رجل وقادتهم، اجتمعوا في العاشرة من مساء يوم 12 إبريل 1770.. كانوا ينتظرون قدوم (إزرا ويدن) الذي كان يقفو أثر (كوروين)، ويخبرهم برحيل عربته نحو المزرعة.. وعندما سمعوا هدير العربة وهي تمضي على الجسر، حملوا الحراب والبنادق العتيقة والغدارات، واتجهوا نحو المزرعة..

وصلوا إلى مزرعة (فيرن) المجاورة بعد ساعة وربع، حيث عرفوا أن (كوروين) قد بلغ مزرعته، وأن ضوءا غامضا التمع في السماء مرة، ثم ساد الظلام كل النوافذ بعدها.. انقسم الرجال إلى مجموعات؛ مجموعة من عشرين رجلا تحرس الشاطئ، وتتأكد من عدم وصول إمدادات ل (كوروين).. مجموعة أخرى تدور حول المزرعة، وتفجر الباب الخشبي الكبير بالبارود.. المجموعة الثالثة تقوم بالاقتحام وحصار المزرعة..

وقضى الرجال الليل ينتظرون الإشارة، وكان ذلك عند الفجر، حين جاء رسول مغبر له عينان شرستان ورائحة غريبة كريهة، وقال لمن معه أن يتفرقوا، ولا يتساءلوا ثانية عن أسرار من كان يدعى (جوزيف كوروين).. شيء ما في مشية الرجل جعلته غريبا بالنسبة لهم.. وبرغم أنه كان بحارا يعرفه الكثيرون، فإن شيئا ما قد تبدل في روحه، وقد تكرر هذا كثيرا كلما لاقوا واحدا آخر من رفقائهم الذين دنوا أكثر من منطقة الرعب؛ لأنه كان دائما يكتسب أو يفقد شيئا لا يمكن تحديده في شخصيته.. لقد أصيب الجمع بهلع لا اسم له، أوشك على إغلاق شفاههم.. وخرجت إشاعات قليلة جدا حول هذه الحملة، إلا أن (تشارلز دكستر وارد) وجد فيما بعد بعض الوثائق في مكتبة (نيولندن)،

كتبها آل (فيرن) الذين كان بوسعهم أن يروا المزرعة الملعونة بوضوح تام.. ويسمعوا نباح كلاب (كوروين) الغاضبة..

لقد سمعوا الطلقة التي تعلن بدء الهجوم، ثم رأوا نورا هائلا يخرج من المبنى الحجري بالمزرعة، ثم صوت صراخ غريب مريع عبر عنه الكاتب بالحروف وارررر! وارررر!، إلا أنه قال إنه ما من حروف تعبر عنها جيدا، وإن أمه فقدت الوعي لدى سماعها.. بعد ساعة راحت الأرض تهتز بعنف حتى إن الشموع اهتزت على رف المدفأة.. ثم فاحت رائحة كبريت قوية.. من جديد عاد صوت طلقات الرصاص مع تلك الصرخة، التي كانت أقرب إلى سعال أو غرغرة، إلا أن طابعها المستمر جعلها تبدو للأذان كصرخة..

ثم اندلع اللهب من المزرعة، ودوت صرخات الرجال اليائسة الخائفة.. وبعدها تصاعد ضباب أحمر من المزرعة نحو السماء.. وأصيب الجميع بالذعر.. ذعر جعل ظهور ثلاث قطط تتقوس، حيث جلست جوار المدفأة في مزرعة (فيرن).. ثم جاء صوت منغم مفعم بالشر قادما من لا مكان.

يقول بالحرف كما دون الكاتب:

- دسميس جيشيت بون دوسيف دوفما إنيتموس!

وحتى عام 1919 لم يربط إنسان بين هذه الحروف، وبين أية خبرة معروفة لعالم الأحياء، لكن (دكستر) تعرف ما وصفه (ميراندولا) بأنه الرعب الأقصى بين تعاويذ السحر الأسود.. وكأنما تجيب على هذه التعويذة اندلعت صرخات هلع مريعة من المزرعة.. مع رائحة كريهة لم يشمها أنف بشري من قبل، وبعدها ساد الصمت والظلام..

وقرب الفجر جاء رجلان - تفوح منها رائحة كريهة لا توصف - وقرعا باب أسرة (فيرن)، طلبا بعض الشراب ودفعا ثمنه.. وقال أحدهما إن موضوع (كوروين) انتهى، وإن أحداث الليلة لا يجب ذكرها ثانية.. وهذا هو ما دفع (فيرن) إلى أن يطلب من قريبه أن يدمر الخطاب بعد قراءته، لكن القريب الذي لم يطع الأمر، قد أنقذ القصة من النسيان للأبد..

وكان آخر ما عرفه (وارد) هو أن القوم وجدوا - بعد أسبوع من إعلان موت (كوروين) رسميا - جثة متفحمة على العشب.. وكان الغريب أن هذه الجثة لا تمت بصلة شبه إلى البشر، ولا أي حيوان سمع الإنسان به أو قرأ عنه..

لم يتكلم واحد من الذين شاركوا في تلك الحملة الليلية، ومن المخيف أن تلاحظ الدقة التي حرصوا بها على تدمير كل وثيقة تشير إلى ما قاموا به..

كان تسعة بحارة قد هلكوا، لكن أسرهم اقتنعت بما قيل عن هلاكهم في معركة مع شرطة الجمارك..

نفس التفسير قدمه الرجال المجروحون. إلا أن اللغز الذي حير القوم في البلدة هي تلك الرائحة الكريهة القوية، التي كانت تفوح من الرجال بلا انقطاع..

ومن لحظتها تخلصت البلدة من كل ما يشير إلى (كوروين) في أوراقها، وأرغمت الزوجة والابنة على تغيير اسميهما.. كأنما لم يكتف القوم بجعل الرجل يكف عن الكينونة، بل جعلوه يكف عن الوجود في الماضي..

أما المزرعة فظلت مهجورة حتى عام 1880، ثم بدأت تتهدم، فلم يبق منها إلا أطلال متداعية.. ولم بجسر أحد على الذهاب هناك ليرى عالم (كوروين) من قريب..

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

بحث واستغاثة

1

كما رأينا، عرف (تشارلز وارد) للمرة الأولى عام 1918 بنسبة إلى (جوزيف كوروين)، حتى إنه اهتم في الحال بكل ما يمت لهذا اللغز البائد.. وما كان بوسعه - وهو عالم السلالات وأنساب الأسر - ألا يكرس كل جهده لمعرفة كل شيء عن (كوروين) هذا..

كان على (وارد) أن يرى بيت جده القديم في (أورن كورت)، والذي سره أنه على بعد مرمى حجر من بيته هو.. لم يكن قصرا، لكنه مجرد بيت قديم ذي طابقين، شيد على طراز المستعمرات في (بروفيدنس)، له سقف منحدر ومدخنة، ولم يكن به من الخارج إلا بضعة تغيرات.. وكانت أسرة من الزنوج من غسلة الملابس تعيش في البيت الآن ولما كان أفراد الأسرة يعرفونه، فقد سمحوا له بتفقد البيت.. (آسا) العجوز وزوجته الباسلة (هانا).. كان البيت قد تبدل كثيرا من الداخل، وفقد زخارفه الأنيقة، كما أن الجدران قد غطيت بورق حائط رخيص.. حقا لم يجد (دكستر وارد) ما كان يبحث عنه، لكنه تحمس لفكرة أنه يقف بين الجدران التي ضمت يوما جده المخيف (جوزيف كوروين).. راح يبحث بعينيه في جدران أية غرفة واسعة بما يكفي، كي تكون مكتبة الشرير العجوز..

بعد ساعة من البحث، وجد غرفة أرضية واسعة.. ووجد حين خدش الطلاء فوق مدفأتها أن تحته طبقات من زيت، مما يوحي بصورة زيتية هائلة الحجم كانت هناك.. راح يحاول بعنف

غير مبال بخدش الجدار، ثم وجد أن عليه طلب عون خبير استنقاذ اللوحات القديمة..

بعد يومين عاد مع فنان واسع الخبرة هو مستر

(والتر دوايت)، وقد قام هذا الأخير باستعادة اللوحة باستعمال كيماويات خاصة.. وقد دفع مبلغا مناسبا للزوجين الزنجبين، تعويضا عن تخريب جدار بيتهما بهذا الشكل.. ويوما بعد يوم راحت معالم الصورة تتضح، في البداية من أسفلها إلى أعلى..

ثم بدأ الوجه يولد ببطء، وكان لرجل هادي الملامح يضع جمة أنيقة، ويرتدي معطفا أزرق، جالسا أمام نافذة تتراءى منها سفن في عباب البحر.. وهنا فقط أدرك (وارد) والفنان في ذعر ألعوبة الوراثة عبر القرون..

كان انبهار (وارد) هائلا حتى إنه أسرع بإحضار أبويه ليريا هذه المعجزة.. لم تكن الأم تحمل أي شبه لجدها، لكن الأب انبهر بالشبه إلى حد أنه عرض مبلغا ضخما من المال على صاحب الدار، كي يقبل أن يسمح له بانتزاع الصورة سليمة من على الجدار وينقلها إلى داره.. ذلك برغم اعتراض الأم الشديد..

وبصعوبة شديدة، وبالاستعانة بحرفيين بارعين من إحدى شركات الديكور، تم نقل الصورة لتثبيتها فوق مدفأة كهربية في غرفة مكتب (تشارلز دكستر) بالطابق الثالث.. وبينما (وارد) يشرف على عملية النقل، وجد تجويفا بين قطع القرميد فوق مكان الرأس في اللوحة.. كان التجويف مليئا بالغبار ونسيج العناكب، لكن معها أيضا كانت مجموعة من الأوراق المصفرة، ومادة متآكلة يبدو أنها رباط كان يحزم الأوراق معًا.

تحسس (وارد) الأوراق، فوجدها مكتوبة بالإنجليزية إلا أنها بنوع غريب من الكتابة، تعلم قراءته من قبل في الجامعة.. وكان

المكتوب هو ملاحظات جوزيف كورون عن سالم وبرفيدنس.. وقد تحمس (وارد) بما يفوق الوصف، وعرض هذه الأوراق على الحرفيين، اللذين فيما بعد أقرا بأنها أصلية تماما.. ويعتمد (ويليت) على ما شهدا به من أن الفتى لم يكن مجنونا على الإطلاق وقتها.

في مقدمة الأوراق كتب (كوروين) بخط يده:

«إلى من يأتي بعدي، وكيف يقهر الزمن والحدود الأرضية»

بعد هذا تأتي أوراق مكتوبة بلغة مشفرة، ومعها - فيما بدا ل (وارد) - مفتاحها، ثم العبارة جوزيف كوروين.. حياته وأسفاره بين العامين 1678 و1687.. إلى أين سافر وأين بقي وماذا رأي وماذا تعلم.

☆ ☆ ☆

2

الآن وصلنا إلى النقطة التي يؤرخ بها أكثر الأطباء النفسيين الأكاديميين بداية جنون (وارد).. ويمكن هنا أن نقول إنه رأى أشياء أثارت توتره، حتى إنه عرض الأوراق على الرجلين دون أن يسمح لهما بقراءة المحتوى ذاته، وبحماس لا يبرره اهتمامه بعلم الأنساب ولا علم الآثار.. ويبدو أنه عرض الأوراق على الرجلين فقط؛ ليروي فضولهما الذي قد يقودهما للكثير من الكلام..

وفي بيته قضي الليل كله يدرس الأوراق، حتى إن الصباح جاء وهو لم يتحرك.. وحتى وجباته كان يأكلها بعد إلحاح من أمه.. وبنصف عين كان يتأمل وجه (كوروين) في اللوحة المعلقة على الجدار.. واعتاد أن يخفي الأوراق عن والديه وانقطعت ساعات رياضته وجولته اليومية.. أما في وقت النوم فكان يضع الأوراق في خزانة مغلقة بإحكام.. وبطبيعته المتوحدة الناكسة من الأصل لم يجد الأبوان ما يريب في سلوك ابنها لفترة طويلة..

بدأ الفتي يقرأ كثيرا، لكن ليس في التاريخ كما اعتاد، بل في السحر وعلوم الشياطين، واعتاد أن يسافر إلى (بوسطون)؛ ليبحث في مكتبتها ويبتاع كتبًا غريبة.. كما أنه كان يستقل القطار إلى (سالم)؛ ليبحث في مكتبة جامعة (إسكس) عن مراجع أخرى.. وبدأ يهتم بأماكن المقابر القديمة في المدينة، وبالطبع بدأ تحصيله في الدراسة يتدهور، وإن كان لم يرسب في أي امتحان بعد وفي مايو استدعى أبوا (تشارلز وارد) الدكتور (ويليت) كي يراه ويتكلم معه.. ولم تكن مقابلة مثمرة؛ لأن الفتى كان متمالك الجأش مسيطرا على الحقائق.. وبرغم أنه قليل الكلام يصعب حصاره، فإن الطبيب عرف منه قبسا من الأمور

التي تشغل باله.. إن الأوراق التي وجدها عظيمة الأهمية، وتمثل للبشرية صدمة تماثل الصدمة التي أحدثها (أينشتاين) ذاته، لكن لا يمكن استيعابها إلا بالاعتماد على علوم لم تعد مطروقة هذه الأيام..

عليه أن يتعلم سريعا تلك الفنون التي يجب لمن يدرس أوراق (كوروين) أن يجيدها.. وقال إن قبر (كوروين) قد أزيل من عليه اسمه، لكن بعض النقوش قد بقيت إهمالا، وهذه النقوش رسمت بعناية طبقا لأوامر (كوروين) نفسه، ومعنى هذا أنها هي مفتاح البحث.. ويبدو أن (كوروين) لم يرد أن تموت أبحاثه معه..

بالطبع كان الطبيب رجل علم؛ لذا قاوم الانطباع القوى بأن عيني الصورة المعلقة فوق المدفأة تتابعان (تشارلز دكستر) كلما مشى في الغرفة..

أما وقد طمأن الطبيب الوالدين أن ابنهما لم يعرض بعقله، وإنما هو بصدد كشف هائل، فقد تقبَّل الأبوان بشكل غير متوقع رغبة ابنهما في ألا يذهب إلى الكلية ثانية.. قال إنه يرغب في دراسة ما هو أكثر أهمية بكثير، وإنه راغب في السفر للخارج بحثا عن مصادر معلومات معينة.. وهكذا - في سن السابعة عشرة - صار (وارد) طليقا، وقد منحه الأب فرصة ثلاث سنوات يجري فيها أبحاثه، ويزور المقابر القديمة التي يريدها..

وفي عام 1923 ورث الفتى ثروة صغيرة من إحدى جداته، فأعلن أنه راغب في السفر إلى (ليفربول).. ووعد أبويه بخطابات منتظمة طيلة إقامته في العالم القديم.. فلم يجد الأبوان المذهولان إلا القبول..

عام 1924 أرسل مذكرة صغيرة تقول إنه سيرتحل إلى باريس؛ بحثا عن مخطوطات في المكتبة القومية هناك.. مرت

ثلاثة أشهر ظل يرسل الخطابات من عنوان في شارع (سان جاك). بعد هذا انقطعت الخطابات، ثم - في أكتوبر - جاء الخطاب التالي من (براج)، حيث قال إنه يستجوب رجلا عجوزا يملك عددا هائلا من مخطوطات العصور الوسطى.. ثم في يناير جاء خطابه التالي من (ترنسلفانيا)، حيث هو في ضيافة من يدعي بالبارون (فرينكزي)..

وفي مايو يكتب لأبويه ينصحهما بعدم السفر للحاق به في أوروبا؛ لأن قلعة البارون لا تناسب الزوار أبدا، والبارون نفسه ليس من النمط الذي يروق لأهل (نيوإنجلند) المحافظين الطيبين ولم يعد الفتى إلى (برفيدنس) إلا في يناير 1926، وكان ذلك في المساء.. حيث راح الفتى يطل برأسه من العربة، يلتهم الشوارع التهاما..

(بروفيدنس) من جديد! حيث كانت طفولته..

الأرض التي ارتحل من أجل كشف أسرارها، وعاد لأنها تناديه..

لقد عاد (تشارلز دكستر وارد) أخيرا إلى وطنه..

☆ ☆ ☆

3

ثمة مدرسة من الأطباء النفسيين تعتبر أن رحلة (وارد) إلى أوروبا هي بداية جنونه الحقيقية..

ولكن د. (ويليت) يصر على إنكار هذا الزعم، ويؤكد أن الجنون حدث بعدها، وإنما غرابة تصرفات الفتى تعود لأمور غريبة تعلمها في الخارج.. فقط ما أعطى انطباع الجنون لم يكن سوى أصوات غريبة، تنبعث من صندرة بيت (وارد) حيث المعمل، الذي راح يحبس نفسه فيه أكثر الوقت.. وبرغم أن هذه الأصوات كانت تخرج من حنجرة (وارد)، إلا أن في لكنته وصوته ما يثير الرهبة في قلب كل من يسمعها.

ولوحظ أن (نيج) - القطة السوداء المحبوبة - كانت تقوس ظهرها حين تسمع هذه الأصوات وكانت الروائح المنبعثة من المعمل أحيانا منفرة جدا، لكنها في الأغلب عطرية ذات خاصية مدوخة.. والأسوأ هو أن الفتى صار يشبه صورة جده المعلقة على المدفأة أكثر فأكثر.. وكلما زاره الطبيب كان يجد عسرا بالغا في الوصول إلى نفسيته، وكان يرى رسوما بالطبشور تم محوها على الأرض.. يرى نجوما خماسية ودوائر غريبة..

وفي العام 1927 ازدادت الأقاويل عن جنون (تشارلز دكستر وارد)، وصار عسيرا إبقاء الخدم في الدار.. وازدادت طقوس السرية والانعزال، حتى إنه صار ينام في المعمل ويأكل فيه، فلا يخرج إلا نادرا لجلب بعض الكتب من المكتبة.. وفي ليلة تأخر فيها بالخارج حتى الفجر، استطاعت الأم أن ترى عربة تقف أمام الباب، يخرج منها أربعة رجال يحملون صندوقا طويلا مغلقا، ويدخلونه إلى البيت..

بعد يومين تخلص (تشارلز) من الجريدة اليومية قبل أن يقرأها أحد من أهل البيت، وفيما بعد استطاع د. (ويليت) أن يعرف تاريخ اليوم بدقة، وذهب إلى مكتب الجريدة ليراجع النسخة المختفية، وكان المكتوب فيها هو:

مباغتة بعض نابشي القبور فجر اليوم

اكتشف (روبرت هارت) الحارس الليلي في المدافن الشمالية، مجموعة من الرجال ومعهم سيارة في أقدم مكان بالمقابر. ومن الواضح أنه باغتهم قبل أن يحققوا هدفهم. قد حدث هذا في الرابعة صباحا حينما سمع الحارس صوت محرك. ولما سمع المتسللون صوت خطواته، وضعوا مسرعين صندوقا في عربتهم، وفروا قبل أن يلحق بهم. ولما لم توجد أية مقابر منبوشه، فإن (هارت) يؤكد أنهم كانوا يحاولون دفن الصندوق الذي معهم. وقد رجح رجال الشرطة أن هؤلاء من مهربي الخمور، وقد حاولوا دفن بضاعتهم في حفرة عميقة، وجدها رجال الشرطة هناك.

في الأيام التالية ازداد (تشارلز) عزلة وغموضا، وازدادت الضوضاء والروائح الغامضة المنبعثة من المكان..

وشعر أبواه و د. (ويليت) بحيرة بالغة إزاء ما ينبغي عمله أو التفكير فيه..

وفي تلك الليلة الغريبة تعالت صرخات (وارد) من حجرته، وتعالى نباح في المدينة، وهو نباح قوي إلى درجة أن الصحف

تكلمت عنه في اليوم التالي، وسمعته الأم المذعورة يقول بالحرف:

- دسميس مشيت بون دوسيف دونما إنيتموس!

ولم تغب عنها دلالة هذه الكلمات، فقد حكى لها (تشارلز) - في الأيام الخوالي التي كان يخبرها باكتشافاته فيها - أن هذه هي الكلمات التي تصاعدت من مزرعة (كوروين)، في الليلة التي قتل فيها والآن بدأ ينشد شيئا بدا لها مثل:

- يِ ناش يوج سوتوث في إيجيب ثرودام..

وراح الصوت يعلو أقوى وأقوى.. هرعت الأم بكل ما تشعر به من ذعر، وكل ما في أمومتها من قوة، تقرع الباب في إصرار لكنها لم تتلق إجابة..

ولكن بعد قليل سمعت صرخة شيطانية مريعة تأتي من الداخل.. هنا فقدت الوعي، وإن لم يكن بوسعها فيما بعد أن تقدم سببا محددا..

وجاء (وارد) الأب من عمله، ليجد الخدم المذعورين يخبرونه أن الأم تقف عند باب ابنها..

هرع إلى هناك فوجدها ممددة على المدخل فاقدة الرشد.. هرع يرش وجهها بالماء البارد، حين سمع شيئا كاد يجعله في نفس حالتها..

فمن وراء الباب كان هناك صمت.. لكنه ليس صمتا تامًّا.. كانت هناك محادثة خفيضة لا يمكن استيعاب مقاطعها، لكن شيئا فيها يثير الفزع في النفس.. محادثة لها طابع السؤال والجواب..

والصوت الآخر لا يمكن أن يخرج من حلق (تشارلز) أبدا، مهما بلغت براعته في التقليد..

حمل الأب زوجته مسرعا إلى الطابق السفلي قبل أن تميِّز حرفًا من هذه المحادثة.. وقرر أن يتخذ مع ابنه إجراءات حازمة، فمهما بلغت أهمية أبحاث ابنه، فهي قد بلغت درجة خطرة تتهدد السلام النفسي لهذا البيت.. لا بد أن الفتى قد تخلى عنه عقله تماما؛ لأنه ما من تفسير لكل هذه الصرخات الجنونية والمحادثات الخفيضة مع لا أحد.. ولو لم يوقف هذا كله، فلسوف تهلك مسز (وارد)، ويفر الخدم جميعا.

وحين دخل الأب غرفة ابنه، كان أول ما لاحظه هو أن شيئا ما ليس في مكانه.. دار بعينيه في المكان، ثم أدرك أن الصورة التي على المدفأة..

صورة (جوزيف كوروين).. لم تعد هناك.. لقد تمزقت.. تحولت إلى أشلاء وتناثرت أجزاؤها في كل صوب على الأرض..

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

تحول وجنون

1

في الأسابيع التالية استمر (دكستر وارد) في نشاطاته الليلية المصحوبة بصخب عال، أو صوت محاورات مع طرف مجهول، وفي كل مرة كان الأب يكتفي باللوم، بينما ابنه يقدم وعودا واهية.. وفي الآن ذاته حدثت حادثة معينة في مقبرة البلدة، تتعلق بنبش قبر من يدعى (عزرا ويدن).. وقد أخرج المجهول جثته - أو ما تبقى منها - ومزقها بالفأس تمزيقا.. لم يعرف أحد الفاعل، وإن كانت آثار الأقدام التي وجدوها جوار القبر تدل على حذاء رجل ثرى.. لم يعرف آل (ويدن) سبب هذا ولم يتهموا أحدا، أما حارس المقبرة فذكر الشرطة بحادث مماثل منذ شهر، لكن الشرطة استبعدت وجود علاقة بين الحادثين..

فيما بعد ربط الأطباء النفسيون بين هذا الحادث والشاب (تشارلز دكستر وارد)، كما أنهم ربطوا بينه وبين حوادث مص الدماء التي تكررت في المنطقة مؤخرا.. إن هذه الحوادث حديثة جدا وشهيرة بحيث لا تحتاج إلى شرح مفصل.. لقد بدا أنها تستهدف ضحايا متبايني السن والنوع، وبدا أنها تستهدف منطقتين: (نورث إند) قرب بيت آل (وارد) ومزرعة (بوتكست).. لقد هوجم عابرو الطريق وأصحاب المنازل ذات النوافذ المفتوحة، ومن ظلوا أحياء تحدثوا عن وحش نحيل رشيق، كان يغرس أسنانه في حناجرهم أو أذرعهم، ويمتص الدماء بنَهَم..

وقد رفض د. (ويليت) في إصرار أن يربط بين تشارلز وارد وهذه الحوادث، وقال: لم يكن (وارد) قادرا على هذه الأفعال

ولم يذق طعم الدم قط.. لقد تورط في أمور مريعة دفع ثمنها غاليا، لكنه ليس غولا ولا وحشا..

وساءت حالة الأم كثيرا، وتدهور جهازها العصبي، مما دفع الطبيب إلى أن يطلب إرسالها إلى إحدى المصحات البعيدة. ونصح الأب والابن ألا يرسلا لها إلا خطابات تحوي كل خبر سعيد..

وربما كان هذا هو الشيء الذي أنقذ حياتها..

بعد هذا اتخذ (وارد) عدته كي يشتري مزرعة بوتكست).. وألح إلحاحا شديدا على السماسرة، حتى اشتراها بعد جهد، وبثمن باهظ من مشترٍ متردد قليلا..

وسرعان ما نقل كل متاعه وحاجياته إليها في عربة، تحت جناح الليل.. وكان متاعه يتكون من أجهزة معمله وكتبه الرهيبة.. وسرعان ما بدأ يستقر هناك ويقضي فترات أطول، واتخذ له رفيقين، أحدهما برتغالي شرير الشكل نصف هجين اسمه (جوميز)، والآخر رجل أكاديمي من زملائه له لحية مصبوغة وعوينات سميكة، عرف الجيران أن اسمه د. (ألين)..

ولقد راحت الإشاعات تسري في البلدة عن التجارب الكيميائية الغامضة التي يقوم بها (وارد)، وعن كميات اللحم الضخمة التي تجيء من الجزار، وعن أصوات الاستغاثة والهلع التي تصدر من المزرعة ليلا.. وربط القوم بين هذه المزرعة وبين وباء مصاصي الدماء، الذي اجتاح المكان في دائرة مركزها هو المزرعة..

ظل (وارد) يعيش تحت سقف أبيه، وازداد ضعفا ونحولًا.. ولم تبد قصصه هذه المرة مقنعة، وهو يحكى للدكتور (ويليت) عن بحوثه المستقبلية العظيمة.. وحتى هذه اللحظة كان د. (ويليت) يصر على أن الفتى عاقل تماما..

في 9 فبراير 1928، تلقى د. (ويليت) من تشارلز) خطابا يعتبره ذا أهمية فائقة، لكن د. (لايمان) يصر على أن هذا الخطاب نموذج لحالة من العته المبكر (ديمنشا بريكوكس). بينما يصر (ويليت) على أن الخطاب هو آخر كلمات عاقلة للفتي عاثر الحظ.. ونص الخطاب كما يلي:

8 فبراير 1928

بروفيدنس

عزيزي د. (ويليت):

أشعر أن الوقت قد حان أخيرا كي أكشف ما وعدتك به من زمن، ولن أكف أبدا عن تقدير ما أظهرته الى من كرم، وما منحت لي من ثقة وصبر. على أنني أعترف أنه بدلا من النصر الذي حسبته لم أجد إلا الرعب.. ليس هذا إعلان نصر بل طلب غوث..

طلب نصنع لأنقذ نفسي والعالم من هول يفوق كل حسابات وتخيلات بشرية.. هل تذكر ما حكيته لك عن الحملة الليلية على مزرعة (كوروين)؟ يجب تكرار هذا الآن.. وعليه يتوقف سلام هذا البلد سلام القوانين الطبيعية.. سلام البشرية.. وربما سلام هذا الكوكب..

لقد جلبت لعالمنا شيئا مخيفا، والآن من أجل الحياة والبشر يجب أن تساعدني على إعادته إلى الظلام ثانية.. لقد فارقت مزرعة (بوتكست) للأبد، وعليك أن تستأصل كل ما هناك حيا أو ميتا..

ولا تصدق من يقول لك إنني مازلت هناك.. ولسوف أفسر لك كل شيء حين تجد لديك سبع ساعات متصلة تصغي فيها إلى قصتي كاملة.. نعم.. إن القصة بهذا الطول حقا.. إن لدى أربعة رجال من وكالة خاصة يراقبون المنزل، لكنهم ليسوا بهذه

الكفاءة لأنهم لا يعرفون ما هم بصدده.. تعال إلى منزلي، ولا تتلفن لأنني لا أعرف من - أو ما يمكن أن يعرف ويعترض طريقك..
بكل جدية ويأس
تشارلز دكستر وارد

ملحوظة:
أطلق الرصاص على د. (ألين) بمجرد رؤيته وأذب جسده في الحمض.. لا تحاول حرقه..

قرأ د. (ويليت) الخطاب العجيب. كانت الساعة العاشرة صباحا، ولم يكن يستطيع تأجيل سماع القصة أكثر من هذا.. فقرر أن يتوجه إلى دار وارد) في الرابعة عصرا، وهكذا يمكن إنهاء سماع القصة في العاشرة مساءً..

وفي الرابعة اتجه إلى البيت، لكنه - لخيبة أمله - لم يجد الفتى.. قال له أحد المخبرين الواقفين على الباب، أن (وارد) الشاب تلقى مكالمة صباح اليوم بدت كنوع من التهديد، وإنه راح يردد في الهاتف عبارات من قبيل: لا ترسل المزيد.. فأنا مرهق و أنا بحاجة إلى إجازة و لا تفعل شيئا قبل أن نتفق.. ثم وضع السماعة وغادر الدار.. وفي الواحدة بعد الظهر عاد ليتخلص من بعض الكتب على رفوف مكتبته، وكان صوت البكاء والأنين عاليا، حتى إن الخادم تساءل عن وجود مشكلة، لكن (تشارلز) نظر له نظرة جعلت الدماء تجف في عروقه، ثم غادر الدار من جديد..

دخل د. (ويليت) المكتبة وقضى ساعتين ينتظر عودة الفتى بلا طائل.. راح يتأمل رفوف الكتب، ثم توقفت عيناه عند اللوحة التي تفتت وتمزقت فوق المدفأة.. الحق أنه لم يحب

تلك الصورة قط، وبرغم قوة أعصابه، فإنه شعر كأنما تركت خلفها جوا من الشر.. فلم يملك حين غادر الدار أخيرا، أن يشعر بامتنان شديد لكونه يشم الهواء النقي من جديد.

☆ ☆ ☆

2

مرت أيام لم يعد فيها الفتى إلى الدار، واتصل د. (ألين) بالأب يخبره أن ابنه منهمك بصدد عدد من الاكتشافات المهمة، لهذا سيتغيب طويلا في المزرعة.. لم يتمالك الأب شعوره بأن هذا الصوت مألوف يذكره بشيء ما.. وهنا وجد د. (ويليت) نفسه حائرا بين تصديق خطاب الفتى، وبين تصديق زميله الغامض ذي اللحية.. وأخيرا بعد أسبوع قر قراره على زيارة المزرعة؛ لمعرفة الحقيقة من فم صاحبها..

قاد سيارته عبر طريق (لوكوود)، ثم ترجل..

ومشي بين البيوت القليلة هناك..

قرع الباب بحزم، ثم تكلم بجرأة مع الهجين البرتغالي المخيف الذي فتح الباب.. قال إنه يجب أن يرى (تشارلز وارد) للأهمية، وهو لن يقبل أي عذر، ولن يجدي منعه إلا في جعله يبلغ الأمر إلى (وارد) الأب.. تردد البرتغالي قليلا، لكن (ويليت) كرر أمره بصوت أعلى.. هنا سمع من الظلام صوتا مبحوحًا يثير الرعب وإن كنت لا تدري لِمه:

- دعه يدخل يا (تونى).. يمكننا أن نتكلم الآن.. ثم صدر صرير من الأرضية، فاتضح أن قائل هذه الكلمات لم يكن إلا (تشارلز وارد) نفسه.

وتكمن أهمية هذه المحادثة في أنها المرة الأولى التي يقر فيها (ويليت) بحدوث خلل في عقل تشارلز)، وللمرة الأولى يعترف بأن هذا العقل كان عقلا غريبا عن العقل الذي رباه منذ ستة وعشرين عامًا..

انحنى الفتى واقتاد الطبيب إلى الداخل، وراح يتحدث بذلك الصوت المبحوح الغريب الذي حاول أن يفسره:

- قد أصبت بالدرن من هواء النهر المشئوم هذا.. أعتقد أنك موفد من أبى لترى ما دهاني، وإنني لأمل ألا تخبره بما يقلقه..

سأله د. (ويليت) عن خطابه الأخير المذعور.

وهو يتمنى لو لم يكن المكان مظلما إلى هذا الحد..

فقال الفتى:

- كنت سأتطرق لهذا.. إنني في حالة عصبية سيئة، وأقول وأفعل أشياء غريبة بلا تفسير.. لكني أؤكد لك أنني لا أفعل شرا، وإنني لأرجو أن تمهلني ستة أشهر أخرى.. إنني أتعلم أشياء مهمة لكن ليس من الكتب.. لقد كان سلفي يملك هذه القدرات حين جاء البصاصون ودمروه.. أنا الآن قريب جدا من هذا المستوى.. د. (ألين) رجل كريم، وإنني لأعتذر عن أي شيء سيئ قلته بصدده.. إنه ذو عون عظيم لي، ولأنني كنت أهاب العمل، فقد هبته هو أيضا بنفس القدر.. ويؤسفني أنه ليس هنا الآن؛ لأنه يقوم بعمل ما في مكان آخر..

نظر له د. (ويليت) ولم يجد ما يقول.. لكنه كان أميل إلى تصديق الخطاب؛ لأنه أقرب إلى (وارد) الذي عرفه، منه إلى تلك المحادثة الغريبة المريبة.. وقد لاحظ في حواره مع الفتي، أن الأخير بدا أكثر اهتماما وتفاعلا مع الماضي بشكل غريب أكثر بكثير مما يمكن أن يهم دارس تاريخ، لكنه كان يتحدث برغمه عن الحاضر، ويبذل جهده كي يقنع د. (ويليت) بأن كل شيء على ما يرام، ويمكنه أن يرحل فلا يرجع.. بل إنه دعاه ليري معمله ومكتبته في المزرعة..

أدرك (ويليت) على الفور أن هذه الكتب والمعدات القليلة ليست سوى غطاء خداع واهٍ جدا.. بالتأكيد توجد في مكان ما مكتبة ومعمل حقيقيان، ولكن أين؟

في النهاية - وقد فشل في العثور على شيء لا يعرف كنهه - عاد إلى (وارد) الأب وأخبره بكل شيء.. قرر الأب ألا تعرف الزوجة بأي شيء، وقرر أن يزور ابنه بنفسه زيارة مفاجئة ليرى ما هناك.. لكن الزيارة لم تثمر عن أية معلومات ذات قيمة، ما عدا أن الفتى صار أسوأ.. ولم يعد يحتمل أي نوع من الضوء، كما أن صوته المبحوح جعل من سماعه شيئا عسيرا ومخيفا معا.. والأسوأ هو أن موظفي المصارف جاءوا إلى البيت يتساءلون عن سبب تغير توقيع الفتى على الشيكات، بحيث لم يعد يشبه توقيعه الأصلي أبدا، وقد زعم الفتى لمن قصدوا المزرعة أن مرضه العصبي جعل يده ترتجف في أثناء الكتابة..

ولاحظ الموظفون أن الفتى صار بالغ الجهل بالأمور المالية، التي كان يعالجها بعناية منذ شهر أو أكثر.. لاحظوا كذلك أنه تغير.. كانوا يعرفون أنه مولع بالآثار والتاريخ، لكن مهما بلغ ولعه، فلن يصل الأمر إلى أن يستعمل لغة قديمة عجيبة، ويأتي بإيماءات غفل عنها الزمن في النهاية - في شهر مارس - جاء د. (ويليت) بثلاثة من الأطباء النفسيين، وذهبوا مع الأب ليقابلوا الفتى، ويطلبوا منه أن يقبل دخول المصحة.. من الغريب أن الفتى لم يقاوم وقبل الفكرة على الفور..

☆ ☆ ☆

وفي المصحة الخاصة الجميلة التي يملكها د. (ويت) على الساحل في (كوناتيكت)، شرع الأطباء يفحصون الفتى بعناية.. هنا فقط لاحظوا التغيرات الجسمانية التي طرأت عليه؛ التمثيل الغذائي البطيء والجلد الغريب والانعكاسات العصبية المحيرة.. وكان أفضل الملاحظين بالطبع هو د. (ويليت)؛ لأنه يعرف الفتى من طفولته.. حتى الوحمة الشبيهة بالزيتون على الردف قد اختفت، وظهرت وحمة على صدره لم تكن هناك قط.. وقد

ذكرت الطبيب بالعلامات التي يرسمونها للسحرة في بعض بقاع الأرض النائية.. ضايقه كذلك وجه الفتى دون أن يعرف لذلك سببا، حتى تذكر فجأة أن فوق عين الفتى اليمنى توجد ندبة كالتي رآها في صورة (جوزيف كوروين)..

في الآن ذاته عكف الأب و(ويليت) على مطالعة بريد الفتى الذي يصل إلى المزرعة، وقد استلفت نظرهما هذا الخطاب الغريب القادم من (ترنسلفانيا) موجها إلى د. (ويليت):

- قلعة فرينكزي

7 مارس 1928

عزيزي:

جاءني عشرون جنديا للتحقيق معي فيما يقول الريفيون عني.. هؤلاء الرومانيون يضايقونني حقا، في الوقت الذي كان بوسعك فيه شراء أي مجرى ببعض الطعام والشراب ([6])

سرني أنك تطلب أعدادا أقل هذه الأيام؛ لأن الحراس من غير رأس خطرون، ويمكن أن يجلبوا المتاعب لو وجدهم أحد عندك.. هل مازال فتاك خائفا؟ لو وجدته كذلك فمن الصالح أن تضع نهاية للأمر.. إن لديك اليدين القويتين والمسدس والسكين، والقبور ليست عسيرة الحفر خلال عام سأحصل على العدد الذي أريد من تحت (ممفيس)، عندها لن تكون حدود لما نستطيع عمله.. وتذكر أنى أفوقك خبرة بمائة وخمسين عاما..

نفرو كان آى جادوث..

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

كابوس وطوفان

1

والآن تجيء سريعا تلكم الخبرة المروعة، لتترك آثارها على وجه من يعرف باسم (مارينوس بكنل ويلت)؛ وتضيف عقدا إلى سنه المتقدمة أصلا.

لقد أدرك مع الأب أن هناك شرا مستطيرا يحيق بالعالم، أقدم بكثير من سحر (سالم).. وقد استحوذ هذا الشر على رجلين على الأقل منهما (تشارلز وارد).. أما ما يقوم به هؤلاء فقد صار واضحا الآن من الخطابات والحقائق التي بدأت تتجمع.. إنهما يمارسان (النكرومانسي) ببراعة مستعينين بخبرة غولين من (رومانيا) و(وبراج)، وهما اللذان استعان بهما (تشارلز) في أبحاثه السابقة.. يسطوان على المقابر القديمة حيث يرقد أحكم وأعظم الرجال، أملا في أن يستردا من الغبار بعض بقايا العقل والوعي اللذين كانا يحركان هؤلاء..

لقد وجدا طرقا آثمة لإعادة الحياة إلى تلك العقول، ربما في نفس الجسد أو جسد آخر، وهذا يذكرنا بكلام (بوريللوس) عن استحضار (أملاح جوهرية) من بقايا الجثث.. ومن هذه الأملاح يمكن الحصول على الحكمة مقطرة.. ثمة معادلة استحضار هذه الأملاح، ومعادلة لإعادة التراب إلى حالته.. ومن الواضح أنها أجادا هذا الأسلوب وصارا قادرين على تعليمه..

وارتجف د. (ويليت) ود. (وارد) وهما ينتقلان من استنتاج مخيف إلى آخر.. ماذا عن (تشارلز)؟ أية قوى مخيفة وصلته من جده (جوزيف كوروين) وجعلت عقله يعيش في الماضي تماما؟

من الواضح تماما أنه وجد قبر (كوروين).. إن حادثة سرقة المقبرة أمر لا يمكن نسيانه بسهولة..

من الواضح كذلك أن (تشارلز) استدعى شيئا ما فجاءه.. هذا هو سر الصوت الذي سمعه الأب يتحدث مع (تشارلز) خلف باب الغرفة.. أليس هذا الصوت هو نفسه صوت د. (ألين) حين تحدث إليه

هاتفيا؟ ترى أية حضرة مفزعة لبت نداء (تشارلز) خلف ذلك الباب المغلق؟ إن د. (ويليت) يشعر - بل ويعرف - الآن أن عقل (جوزيف كوروين) قد عاد يمارس الوجود على هذه الأرض..

وقرر الرجلان أنه مادام من المؤكد وجود أنفاق سرية تحت المزرعة، فإن من واجبهما استكشاف هذا المكان بعناية.. وقررا أن يحضرا حقيبتين تحويان ما يلزم للحفر والتنقيب.

وفي صباح السادس من إبريل وصل الرجلان إلى المزرعة.. كانت خالية الآن، وكانا يعرفان أن العمل الحقيقي يبدأ في القبو.. وكان (ويليت) يعتقد أن الطريق الصحيح للبحث هو أن يفكر بنفس طريقة (وارد) الشاب، الذي بحث عن الأقبية للمرة الأولى، دون أن تكون لديه فكرة عن مكانها إلا الإشاعات.

وبالمزيد من التدقيق، وباستعمال طريقة الاستبعاد استطاع أن يجد جزءا منزلقا من الأرضية.. وتحته وجد غطاء من الخرسانة له حلقة يفتح منها، وكان سهل الفتح.. لكنه لاحظ شيئا غريبا على الأب.. كان يتأرجح أماما وخلفا كدنٍّ ثقيل، وأدرك (ويليت) أن هذا بسبب الهواء المسموم القادم من الفتحة، لذا لم يترك شيئا للظروف.. أخرج الرجل من المزرعة، وأرغمه على أن يستقل سيارة أجرة تعود به إلى داره، ثم عاد وحيدا إلى تلك الفتحة في الأرضية.. أخرج كشافا ولف منديلا

حول أنفه.. ثم تفحص الفّتحة جيدا، فوجد أن بداخلها درجات سلم معدنى وسط جدران من خرسانة، بعدها تبدأ درجات صخرية تهبط إلى أسفل..

☆ ☆ ☆



ثم عاد وحيداً إلى تلك الفتحة فى الأرضية .

2

لم تكن الدرجات حلزونية، ولكنها مستمرة لأسفل بلا انقطاع.. وقد عد الرجل ثلاثين وهو يهبط، حين سمع صوتا

غريبا.. عندها كف عن العد.. صوت من خوارق الطبيعة التي ما كان لها أن توجد.. هل يمكن أن ندعوه لحما يتألم من دون عقل؟ أي صوت هذا؟ لقد بدأ واستمر إلى ما لا نهاية..

حاول ألا يفكر في (جوزيف كوروين) وتجاربه الرهيبة، وراح يستكشف المكان الذي وصل إليه..

إنه مجموعة من الغرف ذات الأسقف الحجرية المنحوته، والتي تمثل ثروة لهواة دراسة المعمار هناك غزو هائل من الغبار وخيوط العنكبوت، المكان لا يبدو أن قدما قد دخلته منذ قرن ونصف.. أخيرا وصل لغرفة على شيء من الحداثة..

كانت هناك رفوف كتب ومواقد زيت ومصابيح في كل مكان.. وكان يريد أن يجد الأوراق المشئومة، تلك التي أخرجها (وارد) الشاب من وراء الصورة في (أورن كورت).. لكن كيف يمكن هذا مع كل هذه الأوراق؟ إن الأمر يحتاج إلى أيام وشهور..

أخيرا وجدها في خزانة من الماهوجني، وعرفها لأنه سمع شهادة العاملين اللذين شاهداها مع وارد) من قبل.. رأى هذه العبارات مكتوبة إلى جوار رسم تنين يحدد اتجاه القراءة الصحيح من رأسه إلى ذيله، وكان المكتوب عند الذيل هو:

پای نجناه، پوج سوثوث

هي لجيب

فای ثرودوج، يواه، جيب ليب

زرو

كان شيء ما فاتنا في هذه العبارات، حتى إنه وجد نفسه يرددها مع أنفاسه دون أن يدري.. ثم قرر أن عليه أن يجد المعمل.. عليه ألا يفكر في كل البحارة الذين اختفوا، وكل القبور التي انتهكت، وكل الأهوال التي رآها الرجال الذين هاجموا هذا

المكان من قرن ونصف.. المشكلة هي أن الضجيج يتعالى وثمة ما يشعرك بأنه قادم من أسفل.. بينما العفن يزداد قوة.. هذه قاعة تحيط بها درجات حجرية، وثمة فتحات موحية في الأرضية..

في النهاية وجد غطاء على الأرض ثبتت به حلقة معدنية.. مد يده ورفع الغطاء، فتصاعدت أخبث رائحة شمها في حياته، وفي هذه المرة اختلط الأنين بصوت ضربات مكتومة.. مدَّ ذراعه بالكشاف ليري أي شيء يرقد في قاع تلك الحفرة، فرأى شيئا أسود يصعد ويهبط في جنون محموم على جدران الحفرة التي تبعد عشرين قدما.. أيًّا كان هذا الشيء فلابد أنه جائع بعد شهر كامل منذ دخل (وارد) المصحة.. لهذا السبب كان (كوروين) يبتاع كل هذه الكميات من اللحم التي لفتت نظر القرية..

قرَّب رأسه ونظر نظرة أخرى، وهي النظرة التي ندم عليها فيما بعد كثيرا، لأنها أنهت تاريخه المهني كجراح عظيم، وجعلته أقرب إلى المجانين في مصحة د. (ويت).. سقط المصباح من يده التي فقدت توافقها العضلي، وسمع صوت الأسنان في قاع الحفرة وهي تمضغ المصباح.. صرخ وصرخ كما لم يحسب نفسه قادرا.. ولما كانت قدماه عاجزتين عن السير، فقد راح يزحف على ركبتيه مبتعدا.. أما ما رآه فشيء لا يمكن وصفه.

كان أقرب إلى نقش على ضريح كابوسي لكنه حي..

كان كيانا مشوها غير مكتمل لا يمكن أن يكون ابن الطبيعة..

راح العرق يسيل منه وهو يزحف في الظلام مذعورا.. وهنا رأى ما لن ينساه أبدا.. كانت واحدة من تلك الفتحات في الأرضية تنزاح لأعلى ببطء.. وكان يعرف أن الشيء الذي رآه لن

يستطيع تسلق الجدران الزلقة، لكنه كان يخشى أن يمسك يقدمه..

راح يزحف في الظلام مرددا الصلوات.. باحثا عن أي ضوء في الظلام الدامس من حوله.. ضوء يمتّ لما تركه في المكتبة.. كان يتحسس الأرض في ذعر خشية أن يقع في فتحة لا يراها، بينما الرائحة الخانقة وصوت الأنين يصمان مسمعيه..

والمشكلة هي أنه لم ير ما في باقي الفتحات لحسن حظه! ذات مرة لمست يده الحلقة التي فتحها من قبل فجذب يده في هلع..

أخيرا رأي ضوءا خافتا من شمعة كان قد أشعلها في المكتب، وتلفظ آخر أنفاسها.. وقد جعله هذا يثب على قدميه؛ لأن هذا الضوء هو آخر أمل له في الخروج من هذا التيه الجهنمي.

وفي النهاية بلغ الشمعة المحتضرة في غرفة مكتب (وارد).. الشمعة التي أنقذت حياته

☆ ☆ ☆

3

ملأ المصابيح بالزيت وجيوبه بالشمع والثقاب، ثم قرر أن يواصل استكشاف المتاهات المعقدة..

هذه مهمة كريهة لكن لا بد من عملها..

كان معمل (وارد) هو ما يريد.. في النهاية وصل إلى غرفة بها مجموعات غريبة من القوارير، بعضها مستدير وبعضها طويل.. لاحظ أن القوارير مصفوفة بعناية على جانبي الغرفة..

وكان بعض القوارير يدعى (كستودز) وبعضها يدعى (ماتريا)، كما كتب على لافتة خشبية هناك، كانت كل زجاجة مسدودة بسدادة من معدن، وعلى كل منها رقم ربما يشير إلى مفتاح في كتالوج ما، تناول قارورة من كل نوع وفتحها، فلم يجد بها إلا مساحيق ذات ألوان مختلفة.. ولاحظ أن الألوان لا تختلط.. كما لاحظ أن المسحوق لا يلتصق أبدا..

لقد سكب بعضه على كفه، ثم أعاده إلى القارورة فلم يبق شيء على كفه.. (كستودز) اللاتينية معناها (الحرس) و (ماتريا) معناها (المواد).. لكن ما معنى هذا؟ هنا جاءته لمحة إلهام.. الحرس هم المسئولون عن الحراسة والتعذيب والاستجواب، أما المواد فهي بقايا العلماء الذين اختطفتهم عصابة السحرة هذه من قبورهم، وبطريقة آثمة ضالة يتم استجواب بقاياهم لمعرفة ما يملكون من حكمة..

واقشعر جسد (ويليت) وهو ينظر إلى يديه اللتين أمسكتا بهذا الرماد الرهيب!

في قاعة أخرى وجد أدوات تعذيب، من النوع السائد في عهود محاكم التفتيش، وجوار الأدوات وجد زجاجتين من النوع المسمى (كستودز)..

كانتا فارغتين طبعا.. لكنه فهم ما كان يدور في هذه الغرفة الرهيبة، وعلى الجدار قرأ كلمات بخط قديم كتبت على الحجر، وكان قد اعتاد رؤية خط (جوزيف كوروين):

يِ ناش بوج سوتوث في إيجب ثرودام

وهي تقريبا ذات العبارات التي سمعتها الأم من غرفة ابنها في تلك الليلة، وإن كانت مختلفة قليلا، حسب ما تناهى لسع الأم المذعورة وقتها.. أحس بأن هناك اختلافا غريبا في المقاطع، ودون أن يدري السبب وجد نفسه يترنم بالكلمات كما يقرؤها الآن، وكما سمعها من الأم، وكان صوته مريعا وسط هذا الظلام، ووسط صوت الأنين القادم من أسفل:

يِ نجناه يوج سوتوث.. في إيصب فاى ثرودام.. أوواه

لكن ما سر تلكم الريح الباردة التي هبت بمجرد الغناء؟ تأرجح ضوء الشموع، ثم وجد أن القارورة الملقاة على الأرض بمسحوقها الغريب، قد راح يتصاعد منها بخار كثيف.. يا إلهي الرحيم! وتذكر الخطابات التي وصلت إلى (كوروين):

أقول لك ثانية: لا تستدع ما لا تقدر على إعادته.. كن مستعدا بكلمات الرقاد طيلة الوقت ولا تكف عن الإستيثاق ممن لديك..

يا إلهي الرحيم! ما هذا الشكل خلف الدخان الكثيف؟

☆ ☆ ☆

لم يأمل (ويليت) قط أن يصدق أحد جزءا من قصته، لهذا احتفظ بها لنفسه حتى آخر أيامه..

لكن (وارد) الأب صدقها تماما.. ألم يعاين ما حل بابنه؟ ألم ير بنفسه البئر كريهة الرائحة؟ ألم يعد لداره فاقد الرشد، ويحاول الاتصال بالطبيب طيلة الليل؟ ألم يقرر هو نفسه أن يدخل المزرعة، حيث وجد الطبيب ممددا في فراش بالطابق

العلوي، يتنفس بصعوبة، وفتح عينيه فقط بيّنما (وارد) الأب يقتاده إلى السيارة؟

كل ما قاله الطبيب للأب المندهش هو:

- هاتان العينان! تلك اللحية! إليك عني!

وفيما بعد - في أكثر الغرف إضاءة وشمسًا ـ جلسا، وراح الطبيب يحكى للأب المذعور كل شيء حتى لحظة خروج البخار الأخضر من الزجاجة..

هنا تساءل الأب في تردد:

- هل تظن أن الحفر قد يفيدنا؟

لكن الطبيب لم يملك إلا أن يهز كتفيه مؤثرا الصمت.. مد يده في جيبه بحثا عن منديل، فوجد قصاصة من الورق لها رائحة كريهة، واضح أنها قادمة من المكتبة الرهيبة تحت الأرض.. وكانت عليها رموز غريبة مع كلمات مختصرة بلغة قديمة مندثرة، جعلت الرجلين يهرعان إلى مكتبة (جون هاى) الموجودة على المرتفع.

وفي المكتبة استطاع الرجلان أن يجدا كتبا تتحدث عن اللغات القديمة، وبالفعل عرفا أن هذه الحروف تمثل طريقة الكتابة الساكسونية من القرن السابع أو الثامن.

ذلك الزمن الذي راح فيه قمر بريطانيا الشاحب يشع على أطلال (كيرليون) و (هكسام الرومانية، وعلى أبراج سور (هادريان).. وكانت تقول بلاتينية بربرية ما معناه:

- (كوروين) يجب أن يقتل.. يجب أن يذاب جسده في الحمض.. والزم الصمت قدر الإمكان..

ظل الرجلان صامتين يفكران حتى أرغمتهما ساعات العمل بالمكتبة على الانصراف.. من الواضح تماما أن (كوروين) الذي يجب أن يدمر هو نفسه د. (ألين).. الرجل ذو العوينات

واللحية؛ لأن هذه هي تقريبا نفس كلمات (تشارلز) المخبولة في خطابه القديم.. والآن هذا الخطاب من مصدر مجهول يقول الشيء ذاته باللاتينية.. لو لم يدمر (ألين) فمن الواجب وضعه حيث لا يؤذى (وارد) الشاب.. سواء كان (ألين) هو نفسه أم هو تناسخ (كوروين) لو كان شيء كهذا ممكنا..

☆ ☆ ☆

4

وفي دار (وارد) جلس د. (وليت) مع الأب ينتظران عودة المخبرين الثلاثة الذين كلفناهم بالبحث عن (ألين).. كانا يجلسان في الطابق السفلى؛ لأن الطابق العلوي قد امتلأ بجو عام من الغثيان.. غثيان لم يفهم أحد سببه، وقال الخدم إنه لعنة غامضة جاءت من تلك الصورة الرهيبة المتحللة.. جاء المخبرون وقالوا إنه ما من أثر للمدعو (ألين) ولا للبرتغالي، لكنهم وجدوا في المزرعة بقايا الحية مصبوغة وعوينات، مما يدل على أن لحيته تلك كانت مزيفة.. وفي القرية كان الفلاحون يربطون بينه وبين حوادث مص الدماء في الصيف الماضي، أكثر مما يربطون بينها وبين (وارد).. ثم هناك موضوع الندبة على عينه اليمني وصوته العميق الغريب.. وخطة غير المألوف في هذا العصر.

هنا ارتجف الرجلان معا للفكرة الرهيبة التي خطرت لهما في الوقت ذاته.. من رأى (تشارلز) و(ألين) مقا من قبل في الوقت ذاته؟ (كوروين) - (ألين) - (وارد).. كيف تم هذا الاندماج الشيطاني لرجلين من عصرين مختلفين؟ قام الأب بعمل كان يخشاه، هو أن أخذ صورة لابنه ورسم لها لحية وعوينات غليظة، ثم طلب من المخبرين أن يعرضوها على القوم جوار مزرعة (بوتكست) ويسمعوا ما يقولون.. وعاد المخبرون يقولون إن الشبه شديد فعلا.. ما معنى هذا؟ لماذا طلب (وارد) في خطابه أن يقتل د. (ألين) ويذاب في الحمض إذن، إذا كان هو الشخص ذاته؟ قال الطبيب إنه راغب في الانفراد بنفسه في غرفة مكتب الفتي، فسمح له الأب..

مَرّ الوقت ثم فاحت رائحة دخان قادمة من أعلى، كان الرجل كان يحرق بعض الأوراق بعدها هبط إلى الأب وطلب منه ألا يوجه إليه أية أسئلة.. وغادر الدار..

☆ ☆ ☆

ولمدة خمسة أيام ظل د. (ويليت) في داره يستشفى من آثار الصدمة، ثم إن الخطاب التالي وصل إلى الأب (وارد):

10 شارع بارنز

بروفيدنس

عزيزي تيودور:

أشعر أن على أن أقول لك شيئا قبل أن أقوم بما أنوي القيام به غدا.. أنت تعرفني منذ كنت طفلا، ولن تفقد ثقتك بي إذا ما قلت لك إن هناك أمورا يجب ألا تُثار.. من الخير ألا تحقق أكثر في قضية (تشارلز).. حين أطلبك غدا سيكون (تشارلز) قد فرَّ من المصحة.. هذا كل ما يجب أن يبقى في ذاكرة المرء.. إنه مجنون وقد هرب.. يمكنك أن تخبر أمه بهذا فقط، ثم خذها إلى (أتلانتا) للاستجمام.. والله يعلم أنك بحاجة إلى الراحة أنت الآخر.. سأرحل أنا إلى الجنوب، فلا تسألني أية أسئلة حين أتصل بك..

إن ابنك في أمان.. بل هو الآن أكثر أمنا مما تظن.. لكنك لن تراه ثانية.. أقول لك بصراحة إنه مصاب بمرض خاص.. مرض أثر في جسده كما أثر في عقله.. لقد ارتاد أماكن ما كان لفانٍ أن يرتادها، وهذه الأماكن التهمت عقله..

بعد عام يمكنك أن تعلن وفاة (تشارلز) رسميا وتضع شاهدا على مقبرة أسرتكم باسمه، بالذات فى الناحية الشمالية حيث قبر أبيك.. هذا القبر سيكون قبر (وارد) الحقيقي.. الذي لم يتلوث

والذي مازال يحمل الوحمة على ردفه، والذي لا توجد آثار شيطانية على صدره..
من جديد أكرر أن عليك ألا توَّجِه أسئلة، واعلم أن شرف أسرتك بخير كما كان دائما..
المخلص: مارينوس ويليت

وهكذا صباح الجمعة 13 إبريل 1928، زار (ويليت) الفتي في المصحة العقلية، ورأى الفتى في عيني الطبيب نظرة مخيفة لم يعهدها من قبل نظرة فيها لون من الانتقام.. قال للفتى:
- لقد بحث الرجال عن د. (ألين) فلم يجدوا إلا لحية مستعارة وعوينات.. وهي تناسبك جدا..
قال الفتى في تحدٍّ:
- وما المشكلة في أن يرغب رجل في اكتساب شخصيتين؟
- من حقه هذا.. فقط لو كان له حق الوجود أصلا..
ثم أضاف في تصميم:
- لقد وجدت بعض الأوراق خلف صورة قديمة فوق مدفأة.. وقد أحرقتها ودفنت الرماد حيث يجب أن يكون قبر (تشارلز دكستر وارد) .
هب الفتي ثائرا وصاح:
- سحقا لك! من يعرف هذا معك؟
رفع الطبيب يده في صرامة نافذة وقال:
- لا أحد.. إن الموضوع يتعلق بجنون وفزع لا يقدر بوليس ولا محاكم ولا محامون على التعامل معه.. إن لدي خيالا وأنت لن تخدعني يا (جوزيف كوروين).. أعرف كيف خدعت سليل أسرتك الشاب، وجعلته يعيدك إلى الحياة، وكيف قضيت الوقت في معمله تدرس عالمنا المعاصر، وفي الليل كنت تخرج لتقتات

بالدماء.. وكيف وضعت لحية وعوينات كي لا يتعرف أحد ملامحك.. ثم قتلته وواربت جثته، ورحت تمارس حياتك على أنه هو، وكان المخبرون يرونك خارجا أو داخلا فيحسبونك هو.. لكنك قد هلكت من قبل يا (كوروين) ولسوف تهلك ثانية.

هنا صدرت صرخة متشنجة من المخلوق.

وسرعان ما قرر (كوروين) أن يزيح القناع عن حقيقته، وبدأ يتكلم بصوته العادي المخيف الذي كان يصطنع البحة ليداريه.. وراح يحرك أنامله وهو يلفظ تعويذة مفزعة:

- يير آدوني إلويم.. أدوناى جوهوفا.. أدوناى ساباوش.. ميتراتون..

هنا فقط بدأ الطبيب بلفظ العبارات التي حفظها عن ظهر قلب.. عينا في عين وسحرا لسحر..

العبارات التي تشكل ذيل التنين.. إن رأس التنين استحضر (كوروين).. فهل يقدر الذيل على إبعاده؟

پاى نجناه، يوج سوثوث
كى لمب
فاى ثرودوج، يواه، جيب ليب
زلو

كان التحويل مريعا.. هو مزيج من المسخ والذوبان، بدأ بمجرد أن نطق الطبيب اسم (سوثوث) المخيف.. وأغمض الرجل عينيه حتى لا يفقد رشده قبل أن يستكمل العبارات كلها..

وحين فتح الطبيب عينيه، وجد أن ما حفظه لم يكن عديم الجدوى.. لم تكن ثمة حاجة للأحماض، لأنه كما حدث للصورة الملعونة منذ عام، رقد (جوزيف كوروين) الآن على الأرض، وقد تحول إلى طبقة رقيقة من غبار رمادي.

لقد أغلقت قضية (تشارلز دكستر وارد).

☆ ☆ ☆

مارس 1926

ه. ب. لافكرافت

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القناة

الفهرس..

Notes

[←1]
المور مجموعة من مسلمي أسبانيا الذين جاءوا أصلا من بلاد المغرب، وقد تركوا طابقا واضحا في المعمار والفنون لدى الأسبان..

[←2]

عرفنا من قبل أن السير آرثر كونان دويل - مؤلف (شيرلوك هولمز) الشهير - كان مهتما بعالم تحضير الأرواح والسحر..

[←3]
ترجمة مليئة بالتصرف؛ لأن القصة الأصلية مفرطة الطول، وبالغة الشناعة!

[←4]

سالم أو سيلم هي المدينة الأمريكية التي اشتهرت بمحاكمات الساحرات وحرقهن، وكان يكفي أن يكون للمرء نشاط غامض من أي نوع كي يعدم..

[←5]

تدور القصة في فترة صاخبة من التاريخ، حين كانت المستعمرات البريطانية تحاول الانفصال عن بريطانيا، لتكون ما نعرفه اليوم باسم الولايات المتحدة، وكانت بريطانيا تفرض ضرائب باهظة على تجارة المستعمرات، وسفن صاحب الجلالة تقتش كل السفن الداخلة والخارجة بحثا عن بضائع مهربة.

[←6]
ترنسلفانيا كانت تتبع المجر، ثم صارت تتبع رومانيا في هذا الوقت تقريبا

38 روايات عالمية للجيب



طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة

الغريم الخفى

بقلم : أجاثا كريستى

ترجمة وإعداد

د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (38)

الغريم الخفي

بقلم: أجاثا كريستي
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلفة..

(أجاثا كريستي) أيقونة بريطانية للأدب البوليسي، وقد احتلت بثقة ذات الموضع الذي احتله من قبل (آرثر كونان دويل) بمخبره الجذاب (شيرلوك هولمز).

قصصها جديرة بحق بأن تكتبها سيدة إنجليزية مهذبة، فهي قصص تخلو من العنف والدماء والجنس، لكنها تفسح الطريق تماما للعقل والاستنتاج المنطقى. كل من في القصة راقٍ مهذب: الضحايا والمخبرون والقتلة واللصوص! وبالطبع تعطي (أجاثا كريستي قيمة السرد أو (الحكي) على أي شيء آخر، وبحيث يكون أهم ما يعني القارئ هو: ماذا سيحدث للأبطال بعد هذا؟

وفي هذا يوجد تشابه معين بينها وكاتبة بريطانية أخرى عظيمة الشهرة هي (دافني دي مورييه). لكن (أجاثا كريستي) مالت إلى التخصص في القصص البوليسي، بينما لم تترك (دي مورييه) مجالا إلا وجربت الكتابة فيه..

باعت كتب (كريستي) (نحو بليون نسخة بالإنجليزية وبليونا آخر بلغات أخرى بلغت خمسا وأربعين لغة، فلم يتفوق عليها في المبيعات إلا الإنجيل وشكسبير..

ولدت (أجاثا ميلر) في (توركوى) بانجلترا عام 1890، وفي عام 1914 تزوجت الكولونيل (أرشيبالد كريستي) الذي منحها اسمه، وقد رزقت بطفلة واحدة قبل طلاقهما في 1928. بعدها تزوجت عالم آثار، وكان هذا سبب المزحة الشهيرة «تزوجته لأنه كلما تقدم بى العمر اهتم بي أكثر».. ومع هذا الزوج تعلمت (أجاثا) حب الأسفار وحب الشرق الذي تدور عشرات من قصصها فيه، بل إن لها رواية ممتعة تقع في العصر الفرعوني.

استخدمت (أجاثا كريستي) كافة طرق القتل في رواياتها، لكن كان لها ولع خاص بالسموم، لأنها مملكتها التي تعرفها جيدا، منذ كانت ممرضة مشرفة على السموم في أثناء الحرب العالمية الأولى.

كانت قصتها الأولى (القضية الغامضة في ستايلز -1920) هي ميلاد مخبرها البلجيكي الشهير (هركيول بوارو)، المخبر صاحب الخلايا الرمادية الذي قهر 33 مجرما ذكيا في 33 رواية. قدمت لنا كذلك شخصية العانس الريفية الحشرية (مس ماربل) التي تتدخل في كل شيء وترى أن العالم كله نسخة من قريتها (سانت مارى ميد)[1].. هناك شخصية ثالثة اسمها (باركر باين) وهو ليس مخبرا بوليسيا، لكنه يملك مكتبا يقدم السعادة للمحرومين منها..

استمرت (أجاثا كريستى) في الكتابة زهاء نصف قرن، كتبت خلاله 79 رواية ومجموعة قصصية كما كتبت عدة مسرحيات ومنها (مصيدة الفئران) التي بدأ تقديمها في (لندن) عام 1952 وما زالت مستمرة حتى الآن! حتى بعد ما توفيت المؤلفة في يناير 1976. والجدير بالذكر أنها كانت قد وقفت أرباح المسرحية على حفيدها (ماتيو) في عيد ميلاده، بالتالي صار الحفيد مليونيرا ومازالت أرباحه تتكوم!

كتبت (أجاثا) كذلك ست قصص عاطفية باسم مستعار هو (مارى ويستماكوت). إلا أن نجاحها الأعم كان في مجال القصة البوليسية، والقصة التي نقدمها لها اليوم من بطولة (هيركول بوارو)، لكنها من قصصها الشائقة الشهيرة. وكان من العسير أن نجد قصة لم تترجم لـ (أجاثا كريستى) بعدما قام به المترجمون العظام من أمثال الأستاذ (عمر عبد العزيز أمين) وآخرين، من ثم

اخترنا هذه الرواية التي لم تترجم، أو - على الأقل – لم نرها مترجمة قط.. ونرجو ألا نكون مخطئين.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

تمهيد..

كانت الساعة الثانية بعد ظهر 7 مايو 1915 وقد تم ضرب السفينة (لوزيتانيا) بطوربيدين، والسفينة تغرق بسرعة، وقوارب الإنقاذ يتم إنزالها على عجل. وقد وقفت النساء والأطفال بانتظار النجاة، وضم البعض أطفالهم إلى الصدور، ووقفت فتاة شابة وحدها بعيدا عن الآخرين. كانت لا تزيد على الثمانية عشر عاما ولم تبد خائفة، بل إن عينيها الثابتتين كانتا تنظران للأمام.

«أستميحك عذرا..»

جاء صوت رجل من جوارها، فأفزعها وجعلها تلتفت كانت قد لاحظته أكثر من مرة بين ركاب الدرجة الأولى. كان جو من الغموض يحيط بهذا الرجل مما راق لها وأذكى خيالها. وقد لاحظت الآن أنه متوتر بحق.

كانت حبيبات من العرق على حاجبيه، وبدا أن الخوف يتملكه بشدة.

قابلت عيناها عينيه متسائلة:

- نعم؟

وقف يرمقها بنوع من التردد اليائس وغمغم لنفسه:

- لابد من هذا.. نعم.. هذا هو السبيل الوحيد!

ثم بصوت عال قال:

- أنتِ أمريكية؟

- نعم..

- ووطنية؟

احمر وجه الفتاة وقالت:

- أحسب ليس من حقك سؤال كهذا.. لكن نعم أنا كذلك..

- لا تتضايقي.. لكن لابد لي من أن أثق بشخص ما.. خاصة النساء، وهذا من أجل قاعدة: النساء والأطفال أولا.. –
ونظر حوله وقال:
- أنا أحمل أوراقا مهمة تغير وضع الحلفاء في الحرب.. هل تفهمين؟ يجب إنقاذ هذه الأوراق.. وفرصتها في السلامة معكِ أفضل منها معي..
مدت الفتاة يدها فقال:
- انتظري! يجب أن أنذرك.. قد يكون هناك خطر لو كان هناك من يتبعني.. هل لديك الأعصاب للقيام بهذا؟
ابتسمت الفتاة:
- سأجتاز هذه التجربة، ويسرني أنك اخترتني.. وماذا أفعل بها بعد ذلك؟
- راقبي الصحف.. سأنشر إعلانا في جريدة (التايمز) يبدأ بـ (رفيق السفينة).. لو مرت ثلاثة أيام يمكنك أن تعرفي أني غرقت، عندها اذهبي للسفارة الأمريكية.. واعطى الأوراق للسفير الأمريكي في يده.. هل هذا واضح؟
- واضح تماما..
وأمسكت يدها بالرزمة المغلفة بالمشمع التي كان يحملها في يده، وهنا جاء دورها في قوارب الإنقاذ مغادرة (لوزيتانيا).

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

شركة المغامرين الصغار المحدودة

- (تومي)! أيها الشيء القديم!

(توبينس)! أيتها الفاصوليا العتيقة!

التقى الشابان فتبادلا التحيات الحارة، وبالطبع كان استعمالهما صفة (القدم) مزاحا لأن عمريهما معا ما كان ليتجاوز خمسة وأربعين عامًا..

اتجها معا إلى (بيكاديللى) وسألها (تومى):

- حسن.. إلى أين نحن ذاهبان؟

وما كانت نبرة القلق في صوته لتفوت مس (برودنس كاولى)، والتي يسميها أصدقاؤها (توبينس) لسبب مجهول.. عرفت أنه في حالة من الفلس بعدما تم تسريحة من الجيش، وبسبب تكاليف المعيشة وحالة الحرب التي تمر بها البلاد..

اتجها إلى كافتيريا (ليون) - بعدما وعدته بأن يدفع كل منهما حسابه - وراحا يفتشان عن مائدة، وهما يسمعان أطرافا من المحادثات الدائرة على الموائد المتناثرة.. أخيرا وجدا مائدة، فطلب (تومى) بعض الشاي والكعك.

جلس أمامها وقد عرى رأسه، فبدا شعره اللامع المصفف بعناية للوراء، وكان وجهه قبيحا بشكل جذاب، لكنه بلاريب وجه جنتلمان ورياضى. بالمثل لم تكن (توبينس) تدعى الجمال، لكن كانت هناك فتنة لا شك فيها في تقاطيع وجهها الدقيق، بذقنها قوية الشكيمة، وعينيها الرماديتين اللتين تنظران من تحت حاجبين أسودين مستقيمين.

جاء الشاى فبدأت (توبينس) تصبه فسألها (تومى) وهو يقضم قضمة كبيرة من الكعك:

- الآن لنجدد معلوماتنا.. تذكرين أنني لم أرك منذ ذلك الزمن في المستشفى عام 1916.

- حسن.. السيرة الذاتية المعدلة للانسة (برودانس كاولى).. لقد تركت مباهج بيتها، وجاءت إلى (لندن) حيث التحقت بمستشفى عسكرى.. غسلت 648 طبقا كل يوم.. في الشهر التالي ترقت لتجفف الأطباق سابقة الذكر.. في الشهر الثالث ترقت إلى تقشير البطاطس.. بعد هذا ترقت إلى خادمة تحمل دلوا وممسحة.. ثم صارت مسئولة عن خدمة الممرضات.. بعد هذا عادت إلى الدلو والممسحة لأن إحدى الممرضات التهمت بيضة إفطار زميلتها، وكان لا بد من عقاب المسئولة! بعد عام غادرت آنسة (برودانس كاولى) الموهوبة المستشفي لتعمل سائقة شاحنة.. ثم سائقة خاصة لجنرال.. بعد هذا عملت ساعية بريد في أحد مكاتب الحكومة حتى الهدنة.. دورك؟

قال (تومى) في ندم:

- لا توجد ترقيات في قصتي.. لقد ذهبت إلى فرنسا في الحرب، ثم أرسلوني إلى بلاد ما بين النهرين.. هناك جرحت وتم تسريحى من الجيش.. ولمدة عشرة أشهر مازلت أبحث عن عمل..

سألته في كآبة:

- ماذا عن المستعمرات؟

- لا أحب المستعمرات ولا أحسبها ستحبني!

- هل من أقارب أثرياء؟

من جديد هز (تومى) رأسه.

- أه يا (تومى).. ولا حتى شقيقة لجدتك؟

- لدي عم ثري لكنه لا يفيد.. لقد أراد أن يتبناني مرة لكني أبيت.. كان يكره أمي وأراد حرمانها مني، بينما كنت أنا كل ما

تملكه في الحياة.

قالت في حنق:

- المال.. المال.. المال! إنني أفكر في المال صباحا ومساء.. لا شيء سواه في ذهني.. لا توجد سوى ثلاث طرق للحصول عليه: أن يمنح لك أو تتزوجه أو تصنعه.. الأول مستبعد فليس لى أقارب أثرياء، برغم أنني أساعد العجائز في عبور الطريق، لعل أحدهم يكون مليونيرا، لكن حتى هذه اللحظة لم يسألني أحدهم عن اسمي أو يسدي لى الشكر.. بعد هذا فكرت في أن أتزوج المال.. أنت تعرف أنني لست عاطفية.. أليس كذلك؟

وافقها (تومى) بحماسة:

- طبعا.. لا يمكن لأحد أن يربط بينك وبين أية عاطفة.

- ليس هذا بالقول المهذب لكني أوافقك.. المشكلة أنني لا ألقى الأثرياء أبدا، وكل من ألقاهم أفقر مني.. لماذا لا تتزوج أنت فتاة ثرية؟ إن الأمر أسهل بالنسبة لك.. أما أنا فلو رأيت رجلا بمعطف من الفراء، يخرج من (الريتز) فليس بوسعي أن أهرع إليه قائلة: مرحي.. أنت ثرى.. أريد تعرفك أكثر!

غمغم (تومى):

- أنت تبالغين في تأثير سحري الرجولى..

- إذن يظل الحل الأخير هو أن تصنع المال.. لقد جربنا كل الوسائل المحترمة ففشلنا، ولم تبق إلا الوسائل غير المحترمة.. (توم).. دعنا نصر مغامرين! لو عرف الناس بأمرنا فسوف يستأجروننا لنقوم بالجرائم لهم! بالتأكيد هناك فارق بين أن تسرق قلادة ماسية لنفسك وبين أن تسرقها من أجل آخرين!

- لن يكون هناك أي فارق لو قبض البوليس عليك..!

- ربما.. لكن أحدا لن يقبض على لأني سأكون بارعة.. هل تقبل أن نكون شركة محدودة اسمها (المغامرون الصغار)؟

- ربما.. لكن كيف تنوين الاتصال بعملائك؟
- الإعلان.. هل معك قصاصة ورق وقلم؟ كل الرجال يحملون هذه الأشياء كما نحمل نحن دبابيس الشعر.
ناولها مفكرة صغيرة، فراحت تكتب فيها قائلة:
- ما رأيك في هذا؟ مغامران شابان للإيجار مستعدان لعمل أي شيء والذهاب لأي مكان. لا نرفض أي عرض معقول.
- يخيل إلى أن أي عرض سنتلقاه على إعلان كهذا لا بد ألا يكون معقولا.
- أنت عبقرى.. سنعدل الصيغة إلى: لا نرفض أي عرض غير معقول، ما دام العائد مجزيا.. ما رأيك في هذا؟ والآن سأقرؤه عليك ثانية: مغامران شابان للإيجار. مستعدان لعمل أي شيء والذهاب لأي مكان. لا نرفض أي عرض غير معقول، مادام العائد مجزيا.. كيف ترى هذا؟
- أرى أنها خدعة أو أن كاتب الإعلان مجنون..
ناولته الإعلان وقالت وهي تضع أمامه بعض العملات:
- انشره في (التايمز) واحجز صندوق بريد.. أعتقد أن الأمر يتكلف خمسة شلنات.. هذا هو نصيبى من التكلفة..
قال لها في حيرة:
- هل سنجرب هذا الشيء حقا؟
صبت المزيد من الشاي البارد في القدحين وقالت:
- (تومى).. أنت رجل رياضي الروح.. هذا هو اتفاقنا.. فلنشرب نخبه وندع الله أن يزدهر عملنا..
وافترق الشابان على وعد باللقاء غدا..
لأسباب اقتصادية مشت (توبينس) عائدة لفندقها الرخيص، وكانت تعبر حديقة (سانت جيمس) حين استوقفها صوت رجل من وراء ظهرها:

- أستميحك عذرا.. لكن هل لي أن أتحدث معك للحظة؟

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

عرض المستر (ويتنجتون)

استدارت (توبينس) للوراء، لكن الكلمات ماتت على شفتيها لأن منظر الرجل لم يتمش مع أفكارها الأولى.. وهنا قال الرجل كأنما خمن أفكارها:

- أؤكد لك أنني لم أقصد أية إساءة أدب.



استدارت (توبينس) للوراء ، لكن الكلمات ماتت على شفتيها ؛ لأن منظر الرجل لم يتمش مع أفكارها الأولى ..

صدقته (توبينس) برغم أنها لم ترتح إليه بشكل غريزى.. كان رجلا ضخما حليق الوجه بعناية، له عينان صغيرتان ماكرتان.. سألته:

- ماذا هنالك؟
ابتسم الرجل وقال:
- تصادف أنني سمعت طرفا من محادثتكما أنت والشاب في (ليون)، وأحسب أنني قد أكون نافعا لكما..
وناولها بطاقة كتب عليها:
- مستر (إدوارد ويتنجتون). أستونيا للمصنوعات الزجاجية.
قال الرجل:
- لو مررت على العنوان المذكور غدا في الحادية عشرة صباحا، سأخبرك بتفاصيل الموضوع.
- سأكون هناك..
خلع قبعته وحني رأسه ثم ابتعد، فوقفت هي بضع دقائق ترمقه.. ثم هزت كتفيها وقالت لنفسها:
- المغامرات قد بدأت.. ثمة شيء فيك يا مستر (ويتنجتون) لا أحبه على الإطلاق.. ماذا تريد مني؟ لكني كذلك لا أشعر بخوف منك.. وكما قلت وسأقول دوما: إن (توبينس) الصغيرة يمكنها العناية بنفسها..
عادت لغرفتها الصغيرة المتواضعة، وراحت تفكر فيما عساه يكون عرض هذا السيد.. مضى وقت طويل قبل أن تخلد للنوم، وفي نومها رأت أن المهمة التي ادخرها لها مستر (ويتنجتون) لم تكن سوى غسيل مئات من مصنوعات زجاج (إستونيا)، والتي بدت تماما مثل أطباق المستشفى بالنسبة لها!
وصلت مبكرا خمس دقائق عن الموعد إلى مربع المباني الذي كانت فيه شركة (إستونيا) للمصنوعات الزجاجية. إن الوصول قبل المعياد يوحي باللهفة.. لذا أضاعت بعض الوقت بالمشي في الشارع جيئة وذهابا.. كانت الشركة في الطابق العلوي، وكان هناك مصعد، لكنها آثرت الصعود على الدرج.

دخلت إلى مكتب متسخ، لتقابل موظفا يسألها عما تريد، فقالت:

- لدى موعد مع المستر (ويتنجتون).

قادها إلى مكتب جانبى، وقرع الباب ثم فتحه كان مستر (ويتنجتون) جالسا وراء مكتب تغطيه الأوراق، ومن جديد استعادت شعورها السابق بأن هناك سرا يحيط بالرجل.. نعومته الملساء وعيناه المراوغتان لم تكن من الأشياء الجذابة. دعاها للجلوس فجلست، وكانت تبدو صغيرة خجولا هذا الصباح، لذا أطرقت ببصرها متظاهرة بالوداعة بينما هو يقلب أوراقه. قال لها:

- الآن يا سيدتي العزيزة.. لنأت إلى العمل.. - واتسع وجهه الضخم في ابتسامة - تريدين عملا؟ ماذا عن مائة جنيه الآن مع دفعي كل النفقات؟

وتراجع للوراء في مقعده، فتأملته (توبينس) في حذر، وسألته:

- وما هي طبيعة العمل؟

- صورية.. صورية تماما.. رحلة سارة وهذا كل شيء..

- إلى أين؟

- باريس.. هل يوجد أجمل من أن تعودي للوراء وتقيمي في أحد بنسيونات الشابات في باريس؟

فكرت (توبينس) في نفسها: لو علم أبي لأصابته نوبة! لكنني لا أتخيل المستر (ويتنجتون) في دور خادع النساء.. استطرد الرجل:

- بنسيون مدام (كولومبييه) في شارع (دى نويللى).. أريد منك أن تقيمي هناك نحو ثلاثة أشهر.

أصابتها الدهشة.. إنها تعرف المكان جيدا لأن لها صديقات أمريكيات كثيرات هناك.. سألته:

- وماذا غير ذلك؟ هل هناك شروط أخرى؟
لا شيء.. ولن أطلب منك إلا السرية التامة.. بالمناسبة أنت إنجليزية.. أليس كذلك؟
- نعم.
- برغم هذا لكنتك أمريكية نوعا..
- صديقتي في المستشفى كانت أمريكية. لكن يمكنني الخلاص من هذه اللكنة سريعا..
بالعكس.. أعتقد أنه من الخير أن يحسبك القوم أمريكية..
قالت له معترضة:
- لحظة ياسيدي.. أنت تعتبر موافقتى مفروغا منها برغم أنني لا أفهم السبب الذي يجعل مهمتى تستحق كل هذا القدر من المال..
- هذا صحيح.. يمكنني دائما أن أجد واحدة أخرى بسعر أقل. لكنني بحاجة إلى شابة ذكية ذات تمييز ولا تسأل الكثير من الأسئلة..
ابتسمت وقد شعرت أنه وفق في رميته، ثم تذكرت فسألته:
- وماذا عن مستر (بيرسفورد) شريكى؟ ما دوره في هذا؟
قال الرجل باسما:
- للأسف لا دور له هنا..
نهضت وقالت:
- إذن الموضوع منته.. كلانا أو لا أحد منا.. عمت صباحا يا مستر (ويتنجتون).
- انتظرى حتى أرتب لك شيئا يا آنسة..
وصمت منتظرا أن تكمل له الاسم..
بحثت (توبينس) عن أول اسم في ذهنها قالت بسرعة:
- (جين فين)..

وفتحت فاها منتظرة تأثير هذه الكذبة.. احمر وجه (ويتنجتون) غضبا واختفي اللطف منه، واحتقنت الأوردة في جبينه، وبدا مع هذا نوع من الهلع لاشك فيه.. قال:

- هذه هي لعبتك الصغيرة إذن!؟

لم يكن لدي (توبينس) أدنى فكرة عن معنى كلامه، لكنها صممت على العناد والحفاظ على هذه الكذبة.. وواصل الرجل الكلام:

- كنت تعبثين بي طيلة الوقت.. كنت تعرفين من البداية ما أردت منك، لكنك واصلت تمثيل هذه الملهاة..

- وبدأ غضبه يتلاشى - من الذي ثرثر بهذا؟ هل (ريتا)؟

هزت (توبينس) رأسها ولم تدر إلى متى يستمر هذا.. لكنها أدركت أن عليها إبعاد (ريتا) هذه عن الأمر.. قالت:

- لا.. (ريتا) لا تعرف شيئا عن الموضوع..

- وما حجم ما تعرفين؟

- القليل جدا.

وسرها أن القلق ازداد على وجهه.. لو كانت قد زعمت أنها تعرف الكثير، لبدأ يشك في الأمر..

ضرب الكتب بقبضته وصاح:

- كفي عن الخداع.. ما حجم ما تعرفين.. وكم تريدين؟

- عزيزى مستر (ويتنجتون).. دعنا نضع أوراقنا على المنضدة.. لنقل إنني أعرف اسما معينا، لكن ربما أن معلوماتي تنتهي عند هذا الحد.. إنك تسيء الحكم على..

- كفي عن السخف.. أنا أعرف أنك تعرفين الكثير.. وهذا يضعنا أمام السؤال المعتاد: كم؟

كانت فخورا بنجاحها، لكنها خشيت أن تطلب رقما مستحيلا كي لا يشك فيها، وواتتها فكرة لا بأس بها:

- لنقل دفعة بسيطة مقدما ثم نناقش الأمر بالتفصيل فيما بعد.. كما ترى أنا مولعة جدا بالمال.

- هذا ابتزاز.

- بل هو دفع الأتعاب مقدما..

هنا جاء الموظف حاملا ورقة، قرأها (ويتنجتون) وقطب جبينه.. ثم قال لها:

- حسن.. سنناقش هذا غدا لأنني مشغول ها هي ذي خمسون دفعة أولى.

ومد يده لها ببعض الأوراق المالية.. عدتها بعناية ثم وضعتها في الحقيبة ونهضت قائلة بأدب:

- وداعا يا مستر (ويتنجتون) أو لنقل إلى اللقاء.

قال في لطف أثار توجسها:

بالفعل إلى اللقاء يا فتاتي الصغيرة الذكية.

خرجت الفتاة مزهوة بنجاحها، ونظرت إلى ساعة صغيرة معلقة.. كانت تشير إلى خمس دقائق بعد الظهر.. استوقفت سيارة أجرة واتجهت إلى حيث تلقى (تومى)..

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

فرار

قالت له (توبينس) بعد ما حكت قصتها:

- والغريب في الأمر هو أنني اخترعت تماما اسم (جين فين)! لم أرد أن أزج باسم أبي في موضوع كهذا قد يكون شائكا.

قال (تومى) وهما جالسان في ذلك المطعم الفاخر الذي دعته إليه:

- ربما.. لكنك لم تخترعيه.. أنا ذكرت الاسم لك أمس حين دخلنا كافتريا (ليون) وسمعت رجلين يتحدثان عن أنثى اسمها (جين فين)..

تذكرت (توبين) كيف تداعى الاسم إلى ذهنها.. ياللعجب! سألته:

- كيف كان الرجلان يبدوان؟

فكر قليلا ثم قال

- أحدهما كان أسمر اللون.. ضخما.. حليق الذقن بعناية..

صاحت (توبينس) في صرخة غريبة:

- إنه هو! هو (ويتنجتون)! والآخر؟

- لم ألحظه في الواقع.. كان الاسم الغريب هو ما لفت نظري..

- والناس يقولون إن المصادفات لا تحدث!

لكنه كان جادا.. سألها:

- انظري هنا أيتها الفتاة العجوز.. إلام يقودنا هذا؟

- إلى مزيد من المال..

- أعرف هذا، فليس عندك إلا فكرة واحدة في ذهنك.. وماذا بعد هذا؟ كيف تواصلين اللعب؟ أنت لن تستطيعي خداع الرجل للأبد.. سترتكبين خطأ ما عاجلا أو آجلا.. بالإضافة لهذا لست واثقا من أن هذه ليست جريمة ابتزاز..

- كلام فارغ.. الابتزاز هو أن تهدد بالكلام ما لم يعطوك مالا، وأنا لن أتكلم لأنني لا أعرف شيئا..

قطبت (توبينس) وقالت:

- سنفكر في هذا.. اطلب لنا بعض القهوة التركية المنعشة للمخ.. رباه! ما أكثر ما أكلت!

وجاءت القهوة فرشفت منها وراحت تفكر ثم قالت:

- خطتي كما يلى.. سأذهب وحدي غدا وأحاول خداعه كما فعلت اليوم.. ستنتظر أنت بالخارج.. إنه لا يعرفك، ومن العسير أن يذكر ملامحك.. سأقف بالخارج دون أن أتكلم إليك، وحين يخرج هو سألقي بمنديل.. عندها تعرف أن هذا هو الرجل المعنى وتتبعه.. من المهم أن نعرف من هو.. أين يعيش.. الخ..

- هذا شبيه بالقصص.. أعتقد في الحياة الواقعية أنني سأقف كالجحش ساعات طويلة والناس يرمقوننى في دهشة..

- ليس في مدينة كهذه حيث الكل مشغول.

أمضى الشابان يوما سعيدا بين محلات المدينة ومطاعمها وملاهيها، وحين انتهى اليوم كانت ورقتان من ذات الخمسة جنيهات قد فنيتا للأبد.

في اليوم التالي بدأ تنفيذ الخطة كما اتفقا عليها.

وقف (تومى) عند الجانب الآخر من الطريق ينتظر، حين وجد الفتاة تهرع له صائحة:

- (تومى).. المكان موصد! لا أحد يرد على!

- هذا غريب.

- أليس كذلك؟ تعال جرب معي..

دخلا البناية وصعدا إلى حيث الشركة، وراحا يقرعان الباب.. هنا خرج موظف مرتبك من إحدى الشركات وسألهما:

- معذرة.. هل تبحثان عن شركة إستونيا؟

إنها قد أغلقت وتمت تصفية نشاطها من أمس.. يقولون إنها متاعب مالية..

تلعثمت (توبينس):

- ش.. شكرا.. أحسبك لا تعرف عنوان المستر (ويتنجتون)؟

- يؤسفني أن لا.. لقد رحلوا فجأة.

شكره الشابان وخرجا إلى الشارع، حيث تبادلا النظرات الخاوية من المعنى.. قال لها:

- ابتسمي أيها الشيء القديم.. لقد انتهى الأمر.

- بل هي البداية!

- لماذا؟

- لمغامرتنا! ألا ترى يا (تومى)؟ لو كانوا خائفين إلى حد الهروب هكذا فمعنى هذا أن هناك الكثير في قصة (جين فين) هذه.. لسوف نتابعهم.. لسوف نغدو مخبرين مخلصين!

ثم تناولت القلم والمفكرة وعليها كتبت إعلانا صغيرا، فسألها:

- ألن تتخلى عن فكرة الإعلان هذه؟

أمسكت الورقة وقرأت عليه العنوان بصوت عال:

- مطلوب. أية معلومات عن المدعوة (جين فين)..

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

من هي جين فين؟

مر اليوم التالي ببطء.. إن أربعين جنيها يمكن أن تدوم فترة طويلة لو اختصرنا النفقات.. لحسن الحظ كان الجو جميلا والمشي رخيصا.. كان يوم اختفاء الرجل الأربعاء.. سيظهر الإعلان الخميس.. ولربما تصل الخطابات الجمعة.

وفي الموعد المحدد جلست (توبينس) تنتظر وصول الفتى في المعرض القومي.. وصل (تومى) ليخبرها أن إجابتين وصلتاه حتى الآن.. اختطفت (توبينس) المظروفين الثمينين من يده دون أن تستأذنه وتحسست الأول في لهفة:

- مظروف ثمين.. يبدو صاحبه ثريا.. سنبقيه إلى النهاية..

ومدت يدها تفتح الخطاب الثاني:

«سيدي العزيز:

بالنسبة للإعلان المنشور في الجريدة اليوم، أحسب أن بوسعي أن أفيدك، لو قابلتني في العنوان المذكور في الحادية عشرة من صباح غد..

المخلص: إ. كارتر»

قال لها (تومى):

- العنوان قريب من هنا والوقت مبكر، لو أننا استقللنا مترو الأنفاق..

أما الخطاب الثاني فكان يقول:

«سيدي العزيز:

بخصوص إعلانك.. سيسرني أن تمر على وقت الغداء.

المخلص: جوليوس ب. هيرشايمر»

قال (تومى):

- ها! هل أشم رائحة وغد ألماني أم مجرد مليونير أمريكي من ذرية تعسة؟ على كل حال سنتصل به بمجرد أن نلحق بموعد (كارتر) هذا..

كان الحي شديد الرقي، وحين قرعا الباب المذكور في العنوان، فتحت لهما الباب خادمة مهندمة إلى حد أن (تومى) شعر بالهلع من مرآها.. قادتهما إلى غرفة مكتب فاخرة بالطابق الأرضي، ثم انفتح الباب وظهر رجل طويل القامة له أنف كمنقار الصقر، له أسلوب غريب يوحي بالتعب، وكانت ابتسامته جذابة وهو يقول:

- تفضلا بالجلوس..

وجلس على مقعد جوار (توبينس) وابتسم لها مشجعا.. أدرك (تومى) أنه لن يبدأ بالكلام فقرر أن يتكلم هو.

- كنا نود أن نعرف أي شيء عن (جين فين)..

فكر الرجل متأملا ثم قال:

- آه.. (جين فين).. السؤال هو ماذا تعرفان أنتما عنها؟

- هذا لا علاقة له بمطلبنا..

قال بصوته المنهك وبلهجة أقرب إلى الإغراء:

- بل له علاقة.. هلما! أنتما تعرفان عنها شيئا إذا كنتما قد أعلنتما عنها في الجريدة..

كان له تأثير مغناطيسى على (توبينس) حتى إنها انتشلت نفسها بصعوبة منه، ونظرت لرفيقها تلتمس العون، لكن لدهشتها وجدته ينظر للرجل في إذعان واحترام، وفجأة قال:

- نعم يا سيدى.. لقد عرفتك فورا.. رأيتك في فرنسا حين كنت أعمل مع المخابرات.. ما إن دخلت الغرفة حتى عرفتك..

رفع الرجل يده:

- لا أسماء من فضلك.. أنا هنا أعرف باسم (كارتر).. وهذا منزل ابن عمي الذي أعارني إياه حين أعمل في قضايا غير رسمية.. والآن من منكما سيحكي لي القصة؟

أشار لها (تومى) كى تتكلم، فأذعنت الفتاة وراحت تحكى كل شيء من البداية.. في النهاية قال الرجل بصوته المنهك:

- ليس كثيرا لكنه موح.. موح للغاية.. لو سمحتما لي فأنتما شابان فضوليان ويبدو أنكما نجحتما حيث فشل الآخرون.. إنني أومن بالحظ.. أومن به دائما..

ثم ابتسم وقال:

ماذا لو عملتما معي؟ النفقات أقوم بسدادها مع راتب صغير.

اتسعت عينا الفتاة وسألته:

- نقوم بماذا بالضبط؟

- نفس ما تقومان به الآن.. اعثرا على (جين فين)..

- ومن هي على أي حال؟

- نعم.. من حقكما أن تعرفا هذا..

واسترخي في مقعده.. وعقد أصابع يديه، ووضع ساقا على ساق وبدأ يتكلم بصوت رتيب:

- الدبلوماسية السرية - وهي بالمناسبة نوع من السياسة الرديئة - لا تهمكما.. فقط لنقل إنه في عام 1915 كانت هناك وثيقة سرية.. نوع من المعاهدة.. تم توقيعها في أمريكا التي كانت بلدا محايدا وقتها، وتم نقلها إلى إنجلترا مع شاب يدعى

(دانفرز).. وكنا نأمل أن يظل هذا الموضوع سرا.. لكن المشكلة أن هناك من يتكلم دائما..

اتجه (دانفرز) إلى إنجلترا على ظهر (لوزيتانيا) ومعه الأوراق الثمينة في عبوة مغلفة بالنايلون.. وفي هذه الرحلة ضُربت (لوزيتانيا) بالطوربيد وغرقت، وكان (دانفرز) من بين المفقودين.. فيما بعد حمل المد جثته ووجدناها.. لم تكن الأوراق معه، وكان السؤال هو: هل سرقت منه أم أنه سلمها لطرف ثان؟ ثمة دلائل ترجح الرأي الأخير.. لقد شوهد بعد انفجار الطوربيد يتحدث مع فتاة شابة أمريكية.. لكن أين ذهبت هذه الفتاة إذن؟ هل سُرقت منها الأوراق أم كانت هي نفسها تعمل مع الأعداء؟

بحثنا عن الفتاة، وعرفنا بصعوبة أن اسمها (جين فين).. بيد أنها اختفت تماما برغم وجودها في قائمة الناجين.. كل ما نعرفه عنها أنها يتيمة، وأنها تتعلم التدريس في مدرسة صغيرة، وأنها تطوعت للعمل في مستشفى في فرنسا.. وقد اندهش القوم هناك لأنها لم تصل إلى المستشفى، ولم تتسلم عملها هناك..

لم يستفد أحد من المعاهدة على كل حال، ودخلت الحرب طورا آخر.. وأنكر الجميع فكرة وجودها ذاتها.. ونسي الجميع موضوع الفتاة (جين فين) وكل القصة..

سألته (توبينس):

- لقد انتهت الحرب، فلماذا يعود الموضوع للظهور؟

- لأن الأوراق لم تدمر، ولهذا مدلول خطير..

هناك من يحاول إحياء الموضوع من جديد.. منذ خمس سنوات كانت الأوراق سلاحا في يدنا، والآن هي سلاح ضدنا.. إن بها أشياء تمس رجالا مهمين في مجتمعنا الآن.. ولو نشرت الآن

فلسوف تسبب كارثة.. ربما تسبب حربا أخرى ليس مع ألمانيا هذه المرة!!

إن حزب العمل يشهد اضطرابا كبيرا، ونحن نعلم أن البلاشفة يحركون هذا من الخارج، والهدف قيام ثورة بلشفية في إنجلترا.. هناك رجل غامض لا نعرف اسمه هو من يسيطر على البلاشفة.. من هو؟ لانعرف.. فقط يرمزون له باسم مستر (براون).. وهو يمول كل شيء وجواسيسه في كل مكان..

الحقيقة أن ما أنتما بصدده هو أخطر عقل إجرامي في عصرنا.. وإنني لأخشى عليكما باعتباركما شابين هشين..

قال (تومى)

- سأعني بها يا سيدي فلا تخش شيئا.

ابتسم مستر (كارتر) وقال:

- الآن نعود إلى الأعمال.. كل شيء يوحي بأن هؤلاء القوم يملكون المعاهدة الأصلية، وهم ينوون إعلانها في وقت بعينه.. إنهم يهددون الحكومة بأشياء معينة توحي بأن المعاهدة معهم.. لكنهم يخطئون أحيانا مما يدل على أنهم لم يستطيعوا قراءتها؛ لأنها مكتوبة بالشفرة.. نحن نعرف أن المعاهدة غير مشفرة وهذا طبيعي.. ما معنى هذا إذن؟ الأغرب أنهم يبحثون عن الفتاة (جين فين) ويحاولون معرفة أسرارها عن طريقنا..

- ماذا؟

- سيدسون في طريقنا (جين فين) مزيفة تخصهم هم.. سيضعونها في أحد البنسيونات في باريس.. إن أحدا لا يعرف كيف تبدو الفتاة ولسوف نقع نحن في الفخ.. عندها تحصل الفتاة على المعلومات التي تريدها منا.. هل فهمتما الفكرة؟

سألته (توبينس) مذهولة:

- هل تعني أنهم كانوا يريدون مني أنا أن أذهب إلى باريس منتحلة شخصية (جين فين)؟

ابتسم المستر (كارتر) وقال:

- أنا أومن بالمصادفات كما تعلمين..

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس
مستر جوليوس ب. هيرشايمر

قالت (توبينس):

- حسن.. يبدو الأمر كما لو كان مكتوبا..

هز (كارتر) رأسه موافقا..

- إن خبرائي الذين يعملون بطرق نمطية، قد فشلوا.. ستجلبان لي الخيال وعقلا متفتحا فلا تقنطا إن اتضح أن هذا لم ينجح هو الآخر.

سأله (تومى):

- وما المطلوب منا يا مستر (كارتر)؟

- اتصال دائم وإبلاغي بالمعلومات.. مع تجاهل رسمى تام لكما.. بمعنى أنه لو وقعتما في متاعب مع البوليس فلا علاقة لي بكما.. أنتما وحيدان تماما في هذا الصدد.. النفقات مدفوعة كلها عن طريقي مباشرة بلا حاجة للخوض في البيروقراطية الحكومية.. أما عن الأجر فلنقل ثلاثمائة جنيه في العام.. ونفس المبلغ للمستر (بيرسفورد) طبعا..

أشرق وجه (توبينس):

- أنت كريم حقا.. إنني أحب المال حبا جما.. سوف أعد لك كشوفا مكتوبة بعناية للنفقات..

بعد قليل كانا في الشارع ودوامة من الأفكار في عقليهما..

سألته (توبينس):

- (تومى) قل لي حالا.. من هو مستر (كارتر)؟

همس باسم في أذنها فشهقت دهشة.. فعاد يؤكد لها:

- أؤكد لك أيتها البازلاء العجوز أنه هو!

هنا تذكر الاثنان أنهما جائعان وأن موعد الغداء قد جاء، ثم خطرت الفكرة لكليهما في الوقت ذاته:

- (جوليوس ب. هيرشايمر)

- لم نخبر مستر (كارتر) عنه..

- ليس هناك الكثير ليقال حتى نلقى الرجل.

هلمى نستقل سيارة أجرة..

بالسؤال عن الرجل اقتادهما ساع إلى باب مغلق، سمعا من ورائه صوتا نافد الصبر يقول: ادخل!

كان مستر (جوليوس ب. هيرشايمر) أصغر سنا مما تخيله الشابان.. في حوالي الخامسة والثلاثين، له وجه مشاكس لكنه وسيم.. لا يمكن لأحد أن يحسبه إلا أمريكيا.. قال لهما:

- هل وصلتكما رسالتي.. هلما اجلسا وأخبرانى بما تعرفان عن ابنة عمتي..



لا يمكن لأحد أن يحبه إلا أمريكيًا .. قال لهما :
ـ «هل وصلتكما رسالتى .. هلما اجلسا وأخبرانى بما تعرفان عن ابنة عمتى ..» ..

- هل هي ابنة عمتك؟ إذن أنت تعرف أين هي؟
هوى الرجل بقبضته على المنضدة محدثا صخبا:
- لا! اللعنة على لو كنت أعرف! وأنتما؟

قالت (توبينس) بحدة:
لا يمكن لأحد أن يحبه إلا أمريكيا.. قال لهما:
لقد نشرنا الإعلان طالبين معلومات، لا لنعطي معلومات!
- نعم.. أنا أعرف القراءة، لكني حسبت أنكما تعرفان أين هي وتريدان معرفة تاريخها.. هذه ليست (صقلية) بل هي الجزر البريطانية.. لا أحد يهددنى بقطع أذني ابنة عمتي أو قتلها لو لم أتكلم.. إنني لأشعر برغبة شديدة في استدعاء رجل الشرطة اللطيف الذي يقف هناك في ميدان (بيكاديللي) ليعتقلكما.
قال (تومى):
- لم نختطفها ولا نطلب فدية.. بل نحن مكلفان بالاطمئنان على سلامتها..
وحكى للرجل قصة ملفقة نوعا ومختصرة عن اختفاء الفتاة وتورطها في قضية دبلوماسية ما، وزعم أنه و (توبينس) مخبران خصوصيان ملكلفان بالبحث عنها...
قال الرجل وقد هدأ قليلا:
- لا بأس كنت متسرعا.. والسبب هو أن (لندن) تثير أعصابي.. أنا معتاد (نيويوريك) العجوز فقط..
يمكنكما أن تسألا وأنا أجيب..
للحظة شُل تفكير المغامرين، ثم بدأت (توبينس) تسأله بطريقة القصص البوليسية:
- متى كانت آخر مرة رأيت فيها المتو.. ابنة عمتك؟
- لم أرها قط.. إن أبي وأمها لم يكونا متقاربين جدا.. ما كان أبي يوافق على زواج أخته من مدرس فقير.. وحين اغتنى أبي وصار مليونيرا لم يذكر أخته في وصيته.. بعد هذا أنبني ضميري بصفتى وريثه، واستأجرت من يبحث عن ابنة عمتي التي فقدت أبويها.. اتضح لى أن الطوربيد أغرق سفينتها (لوزيتانيا) في أثناء

الحرب.. من المؤكد أنها حية لكن اختفى أي أثر لها بعد هذا.. حين جئت هنا أبلغت الأدميرالية لكنهم لم يبدوا اهتماما.. أما سكوتلانديارد فكانوا مهذبين، وأرسلوا رجلا إليّ ليأخذوا الصورة الوحيدة التي وجدتها لها سأتعاون معكما بالتأكيد.. والآن ماذا عن الغداء؟ ما رأيكما في مطعم قريب؟

كانوا قد فرغوا من التهام المحار، حين جاء ساق يحمل بطاقة للمستر (هيرشايمر).. نظر فيها وقال:

- المفتش (جاب) من سكوتلاندرياد.. رجل آخر هذه المرة.. ماذا يتوقعون أنني لم أقله أول مرة؟ أرجو ألا يكونوا أضاعوا الصورة فهي الصورة الوحيدة الموجودة لها في العالم.. وقد احترق ستوديو المصور بما كان فيه من سلبيات..

ارتجفت (توبينس) توجسا وسألته:

- ألا تعرف اسم المفتش الذي جاءك صباح اليوم؟

- لا أعرفه.. لا.. لحظة.. كان على بطاقته اسمه (براون).. رجل متواضع بحق.

☆ ☆ ☆

الفصل السادس
خطة الحملة

يمكننا إرخاء ستار على أحداث نصف الساعة التالى.. يكفي أن نقول إن سكوتلاندرياد لم تكن تعرف من يدعي المفتش (براون).. لقد فُقدت الصورة عظيمة النفع لرجال الشرطة، ومن جديد انتصر المستر (براون)..

ولو كان لهذه الحادثة نفع ما، فهو التقارب الذي نشأ بين الشابين ومستر (جوليوس ب. هيرشايمر).. تهاوت الحواجز كلها صاخبة، وشعر الشابان كأنما يعرفان الرجل من دهر..

بعد يومين جلس الشابان - على حساب الحكومة البريطانية - في (ريتز).. سألها (تومى) في استمتاع:

- هل لديك خطة ما نبدأ منها؟

قالت له:

- ليس لدينا الكثير.. لكن هناك أماكن في (لندن) لا بد أن يظهر فيها المرء.. ومستر (وتنجتون) هذا سيظهر عاجلا أو آجلا، لو أنني انتظرته في (بيكاديللى سيركس)..

- هذا لو كان مازال في (لندن) طبعا.

- الدليل الثاني هو اسم ذكره لى: (ريتا).

- لا أحسبك ستنشرين إعلانا آخر في الجريدة تطلبين معلومات عمن تدعي (ريتا).

- لا.. لكن شيئا يحدثني أن (ريتا) هذه كانت على ظهر (لوزيتانيا) وعرفت كل شيء عن (دانفرز).. وعلينا أن نبحث بين ركاب السفينة (لوزيتانيا) عنها.. لقد أرسلت هذا الصباح إلى

مستر (كارتر) أطلب قائمة كاملة بالناجين من غرق (لوزيتانيا) وها هي ذي بين يديك.. فما رأيك في (توبينس) العجوز إذن؟

- الدرجة النهائية في البراعة.. وصفر في التواضع.. لكن هل كانت هناك (ريتا) في القائمة؟

عرضت عليه القائمة وقالت:

- لا أدري للأسف.. كما ترى فالقائمة تحوى القليل جدا من الأسماء الأولى [2].. دائما يشار إلى الشخص باسم أسرته.. أعتقد أن السبيل الوحيد للبحث هو تقصي النساء اللواتي يعشن في (لندن) فلربما تكون (ريتا) واحدة منهن..

وهكذا قضى الشابان صباحا تعسا راحا يمران فيه على العناوين السبعة التي حصلا عليها، وكان (تومى) في كل مرة يتظاهر بأنه يجرى مسحا سكنيا من أجل الانتخابات القادمة.. فشلا في العثور على (ريتا) هذه بعد تقصى ثلاثة عناوين وبدأت حماستهما تنضب.

كان العنوان الرابع هو الشقة رقم 20 في مجموعة سكنية في (ساوث أودلى).. مسز (فاندماير).. وكان (تومى) في هذا الوقت قد وصل إلى قمة إجادة دوره التمثيلي.. وقد كرر العبارات الكاذبة على مسمع العجوز التي تبدو مدبرة منزل والتي فتحت له الباب، وكالعادة سألها:

- ما الاسم الأول؟

- (مارجريت)..

- آه.. فهمت - وتوقف قليلا ثم أضاف بجرأة - إن اسمها لدينا (ريتا فاندمير).. لكن من الواضح أنه خطأ..

- غالبا ما ينادونها كذا يا سيدي.. لكن (مارجريت) اسمها الأصلي..

- شكرا لك.. عمت صباحا.

وبصعوبة تمالك نفسه حتى وصل إلى المنحنى حيث كانت (توبينس) تنتظره..

- هل سمعت؟

هتفت بحماسة وهي تعتصر ذراعه:

- نعم.. جميل جدا أن تفكر في الأشياء ثم تجدها حدثت فعلا كما تتوقع..

فجأة توقفت إذ سمعت صوت خطوات قادمة، فجذبته بقوة إلى جانب الممر، وأمرته بأن يلزم الصمت جاء رجلان عبر الدرج ومرا بهما.. فتقلصت يدها أكثر على ذراع (تومى).. وهمست:

- هلم.. اتبعهما فأنا لا أجسر على هذا.. قد يتذكر وجهي.. لا أعرف من الرجل الثاني لكن أضخم الرجلين هو مستر (وتنجتون)!

☆ ☆ ☆

الفصل السابع
المنزل في (سوهو)

كان (ويتنجتون) وصاحبه يمشيان بسرعة كبيرة من ثم راح (تومى) يركض كى يلحق بهما.. وكانت شوارع (مارى فير) شبه خالية الآن، لذا وجد من الحكمة أن يكتفي بإبقائهما في مجال بصره.. كان يعرف ما هو مطلوب من القصص لكنه وجد الأمر عسير التطبيق في الواقع.. افرض مثلا أنهما استوقفا سيارة أجرة؟ في القصص أنت تستوقف سيارة أخرى، وتعد السائق بجنيه ذهبي.. لكن في الواقع، أدرك (تومى) أنه من العسير أن يجد سيارة أجرة أخرى لو حدث هذا.

أخيرا دخل الرجلان شارع (أوكسفورد)، وسر (تومى) لهذا لأن الزحام سيجعل ملاحظته عسيرة..

تمنى أن يسمع كلمة، لكن صخب الشارع منعه من هذا.. دخل الرجلان إلى مقهى (ليون) فقرر أن يجلس على منضدة وراءهما، وبطرف عينه لاحظ الرجل الآخر الذي مع (وتنجتون). كان أشقر قدّر (تومى) أنه إما روسى أو بولندي.. حاول أن يصغي إلى شيء من المحادثة فلم يفهم إلا أن (ويتنجتون) يصدر للأخر تعليمات معينة، والآخر لا يقر بعضها، وأن الرجل يدعى (بوريس). واستطاع (تومى) أن يلتقط لفظتي (إيرلندا) و(دعاية) عدة مرات ثم سمع بوضوح تام لفظة (مستر براون)، ربما لأن أذنيه صارتا أكثر حدة وكفاءة. وسمع (بوريس) يقول:

- إنني أتساءل ما إذا كان هذا حقيقيا.. أنه معنا وبيننا لكن لا يعرف حقيقته إلا قليلون؟ إننا نتبادل النظرات بينما أحدنا هو

مستر (براون). شخص غامض يعطى الأوامر لكنه كذلك ينفذها على سبيل التمويه.

أسكته (وتنجتون) كما هو ظاهر، واستدعيا الساقية ليدفعا الحساب، وبعد دقائق كانا في الشارع ثانية و(تومى) خلفهما. استوقف (وتنجتون) سيارة أجرة وطلب من السائق أن يقلهما إلى محطة (ووترلو)، ولحسن حظ (تومي) كانت سيارات الأجرة متوافرة هنا، فسرعان ما ركب سيارة أخرى وطلب من السائق أن يتبع السيارة الأولى.

وفي المحطة سمع (تومى) (وتنجتون) يحجز تذكرة درجة أولى إلى (بورنموث) ففعل مثله. كانت المشكلة الآن هي أن (بوريس) كما هو واضح لن يستقل القطار بل سيبقى في (لندن). إذن هو مخير بين تتبع (وتنجتون) أو (بوريس). فكر سريعا ثم اتجه إلى كابينة الهاتف وقرر أن يطلب الأمريكي (هيرشايمر).. لو بقي الروسي حتى يودع رفيقه لكان كل شيء على ما يرام.. قال للأمريكي على الهاتف:

- لا وقت للشرح.. إنني في محطة (ووترلو) أتبع (وتنجتون) ورجلا آخر.. إنه سيركب قطار الثالثة والنصف إلى (بورنماوث).. أي بعد عشر دقائق.. فهل يمكنك التواجد هنا قبل هذا الوقت؟

- بالتأكيد.. سأسرع..

وضع (تومى) السماعة واثقا من أن الأمريكي سيفعلها في الوقت المناسب.. المشكلة هي أنه - برغم أن هناك من يتحمل النفقات - لم يحمل معه ما يكفي من مال، وقد تركته التذكرة في الدرجة الأولى شبه مفلس.. وتمنى أن يكون الأمريكي في وضع مالى أفضل حين يجيء.

كان الوقت يمضي.. الثالثة وعشرون دقيقة.. الثالثة وثمان وعشرون دقيقة.. لن ينجح الأمريكي.. غمره اليأس حين شعر بيد على كتفه وسمع اللكنة المميزة:

- هأنذا يا بني.. إن مروركم يفوق الوصف في السوء.. أين الوغدان؟

- هذا هو (وتنجتون) ومعه رجل أجنبي آخر.

- حسن.. ومن هو طائري الذي سأتبعه؟

- هل معك مال؟

هز الأمريكي رأسه نفيا، فسقط فك (تومى).

قال الرجل:

- لم أحمل إلا ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه معي!

هنا فقط تنفس (تومى) الصعداء:

- رباه! أنتم معشر المليونيرات لا تتكلمون نفس لغتنا! هلم اركب العربة.. إن (وتنجتون) هو رجلك إذن..

وهكذا ركب (هيرشايمر) القطار، على حين بدأ (تومى) اقتفاء أثر (بوريس)..

ركب الرجل مترو الأنفاق، حتى وصل إلى الشوارع الضيقة المحيطة بحي (سوهو)، ثم اتجه إلى بيت خرب فطرق الباب بإيقاع معين.. انفتح الباب فدخل.

هنا فقد (تومى) عقله. كان التصرف الوحيد المعقول أن ينتظر مختبئا حتى يخرج الرجل، وكان هذا أقرب إلى تفكيره العاقل الرزين.. لكن لحظة جنون جعلته يقرر أن يتجه إلى نفس البناية، ويقرع الباب بنفس الإيقاع الذي استعمله الروسي.. انفتح الباب بسرعة وظهر رجل شرير الشكل يسأله:

- حسن؟

هنا فقط أدرك (تومى) المدى الحقيقى لحماقته لم يتردد وقال أول كلمات جاءت إلى ذهنه:

- مستر (براون)؟

لدهشته أفسح الرجل فرجة الباب وقال وهو يشير لأعلى:

- الطابق العلوي.. ثاني باب على الشمال.

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن

مغامرات (تومي)

لم يتردد (تومى) برغم دهشته.. إذا كانت الجرأة أوصلته إلى هذا الحد، فمن الوارد أن تحمله إلى ما هو أكثر. دخل المنزل وارتقى الدرجات المتداعية للسلم. كان كل شيء بالداخل قذرا بما يفوق الوصف. وفي كل مكان كتلة رمادية من خيوط العناكب. عند قمة الدرج توقف (تومى) ليفكر في الخطوة التالية.. أمامه كان ممر ضيق بأبواب على الجانبين.. وسمع صوتا خفيضا من الباب على يساره.. لاحظ على يمينه فتحة في الجدار تمت تغطيتها بستارة من المخمل الممزق. باختصار كانت مكانا ممتازا يصلح للاختباء والمراقبة.

وخطر له أن الرجل الذي فتح له الباب لم يأت معه.. معنى هذا أن عبارة (مستر براون) لم تكن سؤالا عن واحد، بل هي أقرب لكلمة سر استعملها بحظة الحسن ومن المؤكد أن الحارس لم يكن على علم بجميع أفراد العصابة. لقد خدمه الحظ كثيرا حتى هذه اللحظة، لكن دخول الغرفة على اليسار هو مبالغة في الثقة في الحظ.

دوى صوت طرقات من أسفل تستعمل الإيقاع ذاته.. ودون تردد دخل الفتحة على اليمين وتوارى وراء الستار، وعزم على أن يظل هنا يراقب كل شيء من بين الفجوات في القماش الممزق. رأي (تومى) القادم الجديد الذي بدا كأحد فضلات المجتمع، بفكه الإجرامي الضخم وحاجبية الخفيضين، وهو سمت لابد أن رجال سكوتلانديار يعرفونه جيدا.. طرق الرجل الباب بنفس النغمة فجاء من الداخل صوت يدعوه للدخول. ولمح (تومى)

الحجرة لثانية كافية كى يعرف أن بها منضدة طويلة جلس حولها ثلاثة أو أربعة رجال. وكان في المركز رجل ملتح كل شيء فيه يوحي بأنه ألماني.

بعد قليل جاء رجل من نوع مختلف، حزر (تومى) أنه من طراز المناضلين الإيرلنديين الذين يطالبون باستقلال إيرلندا عن إنجلترا.. (شين فين) كما يقولون.. إن منظمة مستر (براون) واسعة الانتشار حقا.. لدينا ألماني يدير الجلسة، ولص عادي، ومناضل إيرلندى، وروسى.

جاء ثلاثة آخرون بالطريقة ذاتها، ثم ساد الصمت.. وخمن (تومى) أن العدد اكتمل الآن.

هنا سمع دقة جديدة، وصعد الدرج رجل رشيق الحركة متأنق إلى درجة تعطيه مسحة أنثوية.. ولاحظ (تومى) أن للرجل مسحة سلافية لا يخطئها المرء.. توقف الرجل أمام الستار ونظر له نظرة ثاقبة، فارتجف (تومى).. من العسير أن يصدق أن الرجل لا يرى من وراء الستار. لقد كانت نظرات الرجل الناعمة شبيهة بنظرات الأفاعى دق الرجل الباب، وهنا انفتح الباب، ووثب الكل على اقدامهم.. حتى الألماني الذي يدير الجلسة هرع إليه وصافحه بكلتا يديه وهو يردد في حماس:

- لنا الشرف.. لنا الشرف!! خشيت أن يكون هذا مستحيلا.

قال الآخر بصوت خفيض فيه بعض الفحيح:

- كان هذا عسيرا، وأحسبه ليس في وسعنا ثانية، لكن كان لا بد من أن أحضر اجتماعا واحدا من أجل مستر (براون).. هل هو هنا؟

تغيرت لهجة الألماني وهو يقول:

- للأسف لم يستطع المجيء بسبب ظروف خاصة..

قال الآخر وهو ينظر حوله:

- آه.. لقد قرأت عن أساليبه.. إنه يتحرك في الظلام ولا يثق بأحد، لكني أجد من المحتمل أن يكون بيننا الآن.. ولكن لا فارق هناك.. دعونا نبدأ..

وعلى الفور انغلق الباب في وجه (تومي) الذي وجد نفسه في الظلام.. تحرك فضوله بشدة وشعر بحاجة ماسة إلى سماع المزيد.. وعلى الفور اتجهت خواطره إلى الغرفة المجاورة لغرفة الاجتماعات.

كانت غير موصدة ومظلمة، وبدا له من أثاثها أنها كانت غرفة نوم قبل أن تصير آية في القذارة والإهمال.. دخل إليها وبحث عن هدفه.. حقا كان هناك باب موصد يصل ما بين الحجرتين.. ألصق أذنه بالباب وراح يصغى.

كانوا يتحدثون عن إضراب قادم يتم تدبيره يوم 29 من الشهر الحالي.. إضراب يقوم به العمال وينظمة حزب العمل.. المشكلة كانت أن رجال حزب العمل مخلصون صادقون ولن يلبثوا طويلا حتى يدركوا الحقيقة وينضموا إلى الحكومة..

وبدا واضحا من كلام الألماني أن التحالف مع قادة حزب العمل سيتم فقط حتى تحدث ثورة تجتاح إنجلترا، ثم التخلص منهم.. وكان الضمان الوحيد لإخلاص رجال حزب العمل هو وثيقة.. وثيقة من نوع معين لو أذيعت لاهتزت الحكومة واشتعلت النار في البلاد.. لكن الوثيقة لم تكن مع هؤلاء.. كانت مع فتاة.. والفتاة لا يعرف أحد بدقة أين هي.

كان (تومى) في مكمنه يصغى باهتمام شديد لكنه لم يستكمل سماع التفاصيل لأن ضربة قوية هوت على مؤخرة رأسه، فلم يعد يدري أين هو.

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع

(توبينس) تلتحق بالخدمة المنزلية

حين انطلق (تومى) في إثر الرجلين، احتاجت (توبينس) إلى كل إرادتها كي لا تتبعه. لكن كان السؤال هو: ماذا أفعل بعد هذا؟ وكانت (توبينس) تمقت ترك العشب ينمو تحت قدميها، في أثناء جولتها في مدخل البناية، تعرفت عامل المصعد صغير السن.. أوهمته أنها من المخابرات الأمريكية وأقنعته بأنها تراقب من تدعى (مارجريت فاندمير).

لأن أحد ملوك الماس يتهمها بسرقته.. هنا عرفت من الصبي المندهش أن (مارجريت) هذه بحاجة إلى خادمة جديدة.

وهكذا اختمرت الفكرة في ذهن (توبينس).. مرت على بعض المحلات فابتاعت بعض الثياب المستعملة، ثم قصدت الحلاق فقامت بصبغ شعرها، وعادت إلى البيت في السادسة مساء، فزججت حاجبيها وغيرت مظهرهما بقلم كحل.. وهكذا تبدل مظهرها تماما حتى بالنسبة لمستر (وتنجتون) نفسه.

بقي أن ترتدي المريولة والكاب في أثناء العمل، ولسوف يبدل هذا مظهرها كلية.. وكانت تعلم من خبرتها أن المرضى قلما يتعرفون الممرضة حين يلقونها بدون الثياب الرسمية خارج المستشفى.

وحدها تناولت العشاء مندهشة لعدم عودة (تومى).. كان بوسعه أن يتصل بها أو أي شيء.. هذا غير عادل، وهي توشك على الانفجار بالأخبار وما من واحد تخبره.. لكنها على كل حال أبلغت (كارتر) عن طريق رسالة حملها إليه صبى..

وأخلدت للنوم وهي غارقة في خواطرها..

جاء الصباح بمذكرة من مستر (كارتر):
«عزيزتي مس (توبينس):
لقد قمت ببداية رائعة وإنني لأهنئك.. ولكنني أعيد تحذيرك من الخطر الداهم الذي يحيق بك. هؤلاء القوم يائسون عاجزون عن الرحمة أو الشفقة. أشعر أنك تقللين من خطر الأمر لذا أعيد تحذيرك، وأكر أنني لا أمنحك أية حماية. لقد قدمتما لنا معلومات طيبة وأكرر أنه لو أردتما الانسحاب الآن فلا تثريب عليكما.
«إذا صممتما برغم كل شيء على الاستمرار فستجدان كل شيء معا. لقد عملت لمدة عامين لدي مسز (دوفرين) زوجة القس، ويمكن لمسز (فاندمير) أن تستعلم منها عنك.
«أقترح كذلك أن تتمسكى بالحقيقة قدر الإمكان ولا تزعمي ما ليس فيك، فهذا هو الشيء الوحيد الذي يبرر ما قد يصدر منك من حركات أو عبارات لا تصدر من خادمة. والقرار على كل حال قرارك»

«المخلص. مستر كارتر»

رفع خطاب (كارتر) معنوياتها لكنها لم تبال بتحذيره، لأنها كانت عظيمة الثقة بنفسها. كانت تعرف براعتها في التمثيل، لكنها فهمت المنطق الواضح في كلماته.
وفي الحادية عشرة اجتازت (توبينس) جديدة تغيرت في كل شيء، مجموعة المباني في (أودلى) ودهش صبى المصعد حين رأي تنكرها فقالت له:
- تذكر يا (ألبرت) أنني ابنة خالتك..
وطلبت منه الصعود بها إلى الشقة رقم 20 وفتحت لها الباب شابة حسناء، فقالت لها:

- جئت للعمل بهذا المكان

قالت الفتاة بلا تردد:

- هذا مكان متعفن.. امرأة عجوز كثيرة التدخل.. اتهمتني بالعبث بخطاباتها.. أنا!! برغم أنها تتخلص من كل شيء حرقا.. ثياب أنيقة لكنها ليست امرأة راقية.. الطباخة تعرف عنها أشياء كثيرة لكنها لا تتكلم.. تخافها حتى الموت!

هنا جاء صوت نقي معدني ينادي الفتاة:

- (آني)!

وثبت الفتاة كأنما رميت بالرصاص:

- نعم يا مدام!

- مع من تتحدثين؟

- ثمة شابة جاءت للعمل هنا يا مدام.

- إذن هاتيها.. الآن.

وفي غرفة في نهاية الممر وقفت امرأة أمام المدفأة.. لم تعد شابة بالتأكيد، والجمال الذي كان لها بلا ريب قد استحال خشونة وصلابة.. من المؤكد أنها في شبابها كانت تبهر الأنفاس. عيناها الزرقاوان لهما القدرة على اختراق أعماق أي شخص تلقاه، وبرغم ملائكية وجهها فإنك تشعر على الفور بشىء ما يتهددك.. وشعرت (توبينس) بذعر حقيقي.. وتخلت عنها ثقتها المعتادة بالنفس.. وأدركت أن خداع هذه المرأة أصعب بكثير مما كان خداع (وتنجتون).. أشارت مسز (فاندمير) إلى مقعد وقالت:

- يمكنك الجلوس.. كيف عرفت أنني بحاجة إلى خادمة؟

- عن طريق صديقة تعرف عامل المصعد هنا..

وحكت للمرأة قصة حياتها باختصار متوخية الصدق قدر الإمكان، فطلبت منها المرأة أن تبدأ العمل على الفور وتجلب

حاجياتها.. ثم سألتها عن اسمها فقالت:

- برودنس كوبر يا مدام.

- حسن يا (برودنس).. ستجدين هذا مكانا سهلا لأنني خارج البيت أكثر الوقت.. أجرك خمسون أو ستون جنيها لا يهم.. والآن ستريك الطاهية كل شيء..

شكرتها (توبينس) وخرجت..

لكن حماستها تبددت كثيرا.. وخطر لها أنه لو وقعت (جين فين) في يدي هذه المسز (فاندمير) فإن فرصتها في النجاة معدومة.

☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

يدخل سير (جيمس بيل إدجرتون)

كانت (توبينس) تجيد أعمال البيت تماما لذا لم تخش أن تبدو غير مناسبة للعمل، وكان عليها كبداية أن تعد المائدة لاثنين من أجل ضيف قادم هذه الليلة.. وكانت قلقة بصدد هذا الضيف، وخطر لها أنه قد يكون مستر (وتنجتون) نفسه.. كانت مطمئنة لتنكرها، لكنها كانت تكون أكثر راحة لو أن الضيف برهن على أنه غريب.

بعد الثامنة دق جرس الباب فذهبت لتفتحه، وسرها أن القادم كان الآخر من الرجلين اللذين ذهب (تومى) يقفوا أثرهما.. الرجل الذي عرف (تومى) أنه روسى.. وقدم لها نفسه باسم كونت (ستيبانوف)..

استقبلته مسز (فاندمير) قائلة في حبور:

- من اللطيف أن أراك يا (بوريس فلاديميروفتش).

جلس الرجل على مائدة العشاء، ودارت محادثات عادية تافهة بينه وبين السيدة عن الطقس والأزياء وفضائح المجتمع، وراحت (توبينس) تؤدي عملها في تقديم الطعام محاولة أن تسمع كلمة تهمها.. فقط سمعت الرجل يقول للسيدة همسا وقد حسبها لا تسمعه:

- جديدة.. أليس كذلك؟

- بلى

- وهل هي مأمونة؟

- بالتأكيد يا عزيزي.. كف عن القلق..

وعادت (توبينس) إلى المطبخ حيث كانت الطاهية تمارس عملها، وقد فهمت من البداية أن الطاهية تخشى مسز (فاندمير) كالشيطان ذاته. انتهى العشاء فانتقلت السيدة بضيفها إلى قاعة الجلوس، واسترخت على الأريكة وراحت تتبادل حديثا هامسا مع الرجل. وهنا نهض الرجل وأحكم غلق الباب كى لا يسمعهما أحد. خطرت فكرة لا بأس بها في ذهن (توبينس).. هرعت إلى غرفة نوم السيدة ففتحت نافذتها وخرجت منها، إلى شرفة طويلة تمتد حتى غرفة الجلوس، ومن النافذة هناك كان بوسعها أن تسمع جل المحادثة. كان الرجل يوبخ المرأة:

- إن قلة حرصك ستوردنا مورد الهلاك.. أنت تمضين الوقت مع (بيل إدجرتون).. وهو ليس فقط أشهر مستشارى الملك في إنجلترا، بل هو كذلك يهوى دراسة علم الجريمة! ياله من اختيار موفق!



ومن النافذة هناك كان بوسعها أن تسمع جل المحادثة ..

- وماذا في ذلك؟ لقد أنقذ رقابا كثيرة من المشنقة، ومن المفيد أن يظفر المرء برجل كهذا لعلي أحتاج إليه يوما في المحكمة.

قال الروسي الذي استبد به الغضب:
- أنت امرأة بارعة يا (ريتا) لكن يجب أن تسمعى كلامي.. تخلى عن صداقة (إدجرتون) هذا.. يقولون إنه يشم المجرمين عن بعد، وإن اهتمامه المفاجئ بك لا يريحنى.
- حسن.. وأنا أرفض..
- ستدفعين الثمن إذن..
قالت المرأة بهدوء:
- تذكر أنني لا أتلقى أوامرى من أحد إلا مستر (براون) شخصيا..
- ما من أحد في إنجلترا درس الجريمة مثله.. هل تحسبين أنك قادرة على خداعه؟
- أحب أن أجرب.. ثم إنه ثرى، وأنا لست بالمرأة التي تزدري المال.. والآن أطلب الخادمة لتحضر لنا الشراب.
وهكذا هرعت (توبينس) عائدة إلى مكانها، وأجابت الطلب في أدب.
كانت المحادثة التي سمعتها مهمة جدا لأنها تظهر تورط (بوريس) ومسز (فانديمير) في الأمر، لكنها لم تفدها كثيرا بالنسبة لمعرفة أين ذهب (تومى)، كما أن اسم (جين فين) لم يذكر قط..
وفي الصباح أخبرها صبي المصعد أنه ما من خطابات من تومي لها في مكتب البريد. جعل هذا يدا باردة تعتصر قلبها.. بالتأكيد هناك شيء خطأ.
عند الظهيرة بينما هي تلمع الفضة، دق جرس الباب فذهبت لتفتحه. لم يكن القادم هو (وتنجتون) أو (بوريس) ولكنه رجل طويل القامة تشع من وجهه مغناطيسية غريبة كلها قوة

وسيطرة بما يفوق الوصف.. وأعطاها اسمه فإذا هو سير (جيمس بيل إدجرتون)..

عادت لأعمالها شاردة الذهن.. الآن يمكنها فهم مخاوف (بوريس). لا يمكن اعتبار هذا الرجل سهل الخداع.. لقد أثر مظهره فيها بحق.. بعد قليل دق الجرس، فهرعت لتعطيه قبعته ومعطفه كما هو معتاد.

لاحظت أن عينيه تتأملاتها بدقة وعناية ثم سألها:

- لم تمارسي هذا العمل طويلا.. هه؟

رفعت حاجبيها مدهوشة، ثم هزت رأسها كأنما أجابت بالفعل، وسألته:

- هل أخبرتك السيدة بذلك؟

- لا يا طفلتي.. إنه مظهرك الذي أوحي بذلك.. هل المكان طيب هنا؟

- جدا.. شكرا يا سيدي..

- لكن هناك أماكن كثيرة متوافرة اليوم، والتغيير لا يضر..

- هل تعني يا سيدى؟

لكنه كان بالفعل على أول درجة من درجات السلم، ونظر لها نظرة متفهمة وقال:

- مجرد تلميح لا أكثر ياطفلتي.. مجرد تلميح..

وعادت إلى المخزن شاردة الذهن بقوة..

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي عشر
الصديق وقت الضيق

في يوم العطلة - الجمعة - أرسلت خطابا إلى مستر (كارتر) تخبره فيها بكل شيء، وطلبت منه أن يساعدها في العثور على (تومى). بعد هذا اتصلت بالمستر (هيرشايمر) فاكتشفت أنه ظل متغيبا عن البيت حتى صباح اليوم، ولم يعد إلا منذ نصف ساعة. ذهبت إليه وسألته عن (تومى) لكنه لم يكن يملك إجابة، وكل ما يعرفه عن الموضوع هو أن الفتى اتصل به من المحطة وطلب منه اقتفاء أثر (وتنجتون).

كانت لديه بدوره قصة مسلية عن مغامرته في اقتفاء أثر الرجل بالقطار، ثم إلى أحد فنادق (بورنماوث)، ثم في شوارع (بورنماوث) ذاتها، حتى اضطر إلى تسلق شجرة يراقب منها حديثه مع ما بدا له ممرضة إنجليزية.. كان هذا حين تحطم غصن الشجرة وهوى أرضا ليلتوى كاحله.. وقضى يوما في مصحة خاصة ثم عاد أدراجه إلى (لندن)..

تلقت (توبينس) رسالة من مستر (كارتر) يخبرها فيها بأنه لا يستطيع عمل شيء من أجل (تومى).. إنه أسف لكن الاتفاق هو الاتفاق.. لو حدث لها أو للفتى شيء فلا دخل لـ (كارتر) بالموضوع.. كانت هذه إجابة باردة، لأنه من دون (تومى) ولّى كل سحر للمغامرة، وللمرة الأولى لم تعد واثقة من النجاح.. من دونه تشعر كأنها سفينة بلا دفة، ومن الغريب أن (جوليوس) - الذي يفوق (تومى) براعة - لم يعطها هذا الشعور.

كان (تومى) أكثر منها تشاؤما وبطيئا لكن تفكيره صاف وموثوق به. للمرة الأولى لم تبد لها المغامرة كلعبة رومانسية

طريفة بل لها كل جهامة الواقع وقسوته.

فكرت في السير (جيمس بيل إدجرتون)، وفي التحذير الذي قدمه لها.. كان الإغراء شديدا كى تصارحه بكل شيء.. وجدت عنوانه في دليل الهاتف، وصممت على أن تزوره يوم الأحد في موعد خروجها لتفهم منه أكثر.. ستزوره مع (جوليوس) مهما كانت اعتراضات هذا الأخير.

وبعد إقناع مستمر، أخذها (جوليوس) إلى العنوان المذكور. قرعت الباب ففتح لها الباب رئيس خدم راق لا يشوبه شىء، وجعلها هذا عصبية نوعا.

اقتادهما إلى غرفة في مؤخرة البيت مفروشة كمكتبة امتلأت رفوفها بكتب علم الجريمة.. وكان سيد البيت جالسا أمام النافذة وأمامه مجموعة هائلة من الأوراق.

تعرفها الرجل على الفور ورحب بها فقدمت له مرافقها الأمريكي. ثم سألته:

- سيدي.. أحسب من الوقاحة أن آتي لدارك هكذا، لكني أحسب ما قلته لي في لقائنا السابق كان نوعا من التحذير من مسز (فاندمير).. هل كان كذلك أم لا؟

- ربما كان الأمر كذلك يا طفلتي.

- حسن.. أريد أن أعرف لماذا قلت هذا؟

ابتسم الرجل من جديتها، وقال:

فلنفرض أن السيدة أقامت دعوى ضدى للتشهير بها؟

- أعرف أن المحامين حذرون دائما.. لكن افرض أننا قلنا (بلا إجحاف) قبل أن نسمع ما لديك؟

قال المحامي:

- بلا إجحاف.. لو كانت لدي أخت صغيرة تعمل في بيت مسز (فاندمير) ولا تملك خبرة، فإنني سأقول لها الشيء ذاته..

هل هذا مفهوم؟
قالت (توبينس):
- لست معدومة الخبرة إلى هذا الحد يا سيدى.. ولنقل إنني اخترت بيت مسز (فاندمير) وأنا أعرف أنها إنسانة سيئة.. بل اخترته لأنها كذلك – بدت الحيرة على وجه المحامي، فأضافت - سأحكي لك كل شيء يا سيدي، وأعرف أنك خلال دقائق ستعرف ما إذا كانت قصتي صادقة أم لا..
وبدأت تحكى كل شيء والمحامي يصغي لها بعناية، فلما انتهت قال لها:
- ممتاز.. ليس هناك تقريبا شىء في القصة غير معروف لى، لكني ألوم المستر - ماذا تسمونه؟ - (كارتر) على إقحام شابين مثلكما في قصة كهذه.. لا تتضايقي إذا قلت إنكما صغيران جدا.. إن الشباب إخفاق لكن سرعان ما تنتصرين عليه.. بالنسبة لصديقك (تومى) هذا فمن الواضح أنه كان يعبث حيث لا ينبغي أن يعبث.. وقد سقط في الشرك لا شك في هذا..
قالت له ملهوفة
- هل ستساعدنا إذن؟
ابتسم وقال:
- طبعا.. الحقيقة أنني كنت قد حزمت حاجياتى للذهاب إلى أسكتلندا للصيد.. لكن الصيد أنواع.. سأبقى هنا، وأقول لك إن هناك شخصا يعرف بالتأكيد مكان (تومى) أو يعرف أين يمكن أن يكون (تومى).
- ومن هو؟
- مسز (فانديمير).. إنها لن تتكلم بسهولة لكنني أحسبني قادرا على جعلها تتكلم، فإن لم يصلح هذا يظل احتمال الرشوة..
هنا ضرب (جوليوس) المنضدة بقبضته وصاح:

- هنا يأتي دورى.. سأدفع لها مليون دولار.. مليون دولار كى تتكلم!
نظر له المحامي مدققا بضع دقائق ثم قال:
- مستر (هيرشايمر).. هذا مبلغ كبير جدا..
- لا بد من أن يكون كذلك.. هؤلاء القوم ليسوا من الطراز الذي يتكلم لو عرضت عليه ستة بنسات..
ابتسم المحامي، ثم طلب من (توبينس) ألا تعمل أي شيء حتى العاشرة مساء وهو الموعد الذي تعود فيه المرأة من الخارج بعد العشاء.. سيكون هو معها وقتها، ولسوف يعرض عليها أن تخبره بكل شيء.
وهكذا خرجت (توبينس) تحاول السيطرة على قلقها وتوترها مشت نحو (هايد بارك) وهى لا تدري كيف تمضي الساعات الباقية.. هنا فوجئت بصبي المصعد (ألبرت) يركض نحوها ووجهه محمر انفعالا:
- يا آنسة! إنها راحلة!
- من؟
- (ريتا).. مسز (فانديمير).. إنها تحزم حقائبها وطلبت مني أن أعثر لها على سيارة أجرة!
اعتصرت ذراعه غير مصدقة، ثم هتفت:
- (ألبرت).. أنت لا غنى عنك.. كنا سنفقدها لولاك!
وقالت له وهي تعبر الشارع:
- لا يمكن أن أفقدها بأي ثمن.. (ألبرت).. اذهب لتتصل بفندق ريتز) واسأل عن مستر (هيرشايمر)، وقل له أن يجلب السير (جيمس) ويجيء حالا لأن مسز (فانديمير) تحاول الهرب.. لن تنسى الأسماء.. أليس كذلك؟
- ثقى بى يا آنسة.. لكن ماذا عنك؟ ألا تخشينها؟

- نعم.. نعم.. والآن اذهب واتصل.. أسرع.

وهرعت إلى المنزل رقم 20 وهي ما زالت تتساءل عن سبب هذا الرحيل المفاجئ.. أترى المرأة شكت فيها؟ وضعت يدها على الجرس وضغطت مرتين حتى انفتح الباب.. كانت هذه مسز (فانديمير) فلما رأتها رفعت عينيها في دهشة وقالت:

أهذه أنت؟

قالت (توبينس) في عفوية:

- شعرت بألم في أسنانى يا مدام، فقررت أن أعود إلى البيت وأستريح.

- هذا سيئ.. ليكن.. يمكنك أن تدخلي الفراش حالا..

- لو دخلت المطبخ يا سيدتي فلربما استطاعت الطباخة أن...

الطباخة ليست هنا! يجب أن تدخلى فراشك!

فجأة شعرت (توبينس) بالرعب.. كادت تتكلم لكن معدنا باردا التصق بصدغها، وسمعت المرأة تقول بصوت مخيف:

- أيتها البلهاء! هل حسبتني لا أعلم؟ لا.. لا تتكلمي.. لو تحركت لفجّر هذا المسدس رأسك!

ثم ضغطت بالمسدس أكثر وهمست:

- هيا.. ستدخلين غرفة نومى.. وبعدما أفرغ منك ستنامين نوما طيبا!

لم يكن بوسع (توبينس) إلا أن تمشي معها إلى غرفة النوم، وكانت الحجرة في حالة فوضى مفزعة.

- والآن أجلسي على الفراش وأبقى يديك فوق رأسك.. أنت فتاة بارعة وقد خدعتني تماما، لهذا يمكنك تخمين أنني سأطلق الرصاص بسهولة تامة.. يجب أن تفهمي الآن من منا فوق ومن تحت.

لم تجد (توبينس) مناصا من الاستجابة.. صبت مسز (فانديمير) قطرات من قارورة موضوعة على منضدة في كوب، وصبت فوقها بعض الماء.

- ما هذا؟

- شيء يساعدك على النوم..

- هل هو سم؟

ابتسمت المرأة في إغراء، وقالت:

- ربما.

- إذن لن أشربه.. أفضل الموت بالرصاص لأن هذا سيسمعه الناس، لكني لن أتركك تقتليني في صمت كالحملان.

ضربت المرأة الأرض بقدمها في عصبية:

- لا تكوني حمقاء.. أنا لا أريد ترك قتلى من ورائى.. إن المنوم هو البديل لتقييدك وتكميمك، وقد أفعل هذا لو اضطررتني إليه.. فكوني فتاة طيبة واشربي هذا الكوب الآن..

كانت (توبينس) تصدقها في أعماقها، لكنها لم تطق فكرة تركها ترحل في هدوء.. فهذه آخر فرصة لها للحاق بـ (تومى).. وفي ثانية قدرت الموقف واتخذت قرارها.. إن هناك فرصة، وعلى الفور هوت على ركبتيها أمام المرأة متوسلة باكية:

- أنت تخدعينني.. أعرف أن هذا سم!

قالت المرأة في قسوة

- يا لك من جبانة.. لا أدري كيف جئت بالأعصاب التي خدعتني بها.. هلمي يا بلهاء اشربي هذا..

- هل تقسمين لي على أنه ليس سما؟

- أقسم.. والآن هيا..

انحنت (توبينس) وفتحت فمها ودنت من الكوب.. في اللحظة التالية ضربت الكوب إلى أعلى فتناثر السائل على وجه

المرأة.. في اللحظة ذاتها ركلت (توبينس) المسدس ليطير أرضا.. ثم التقطته سريعا لتصوبه إلى صدر مسز (فانديمير)..

- والآن من منا فوق ومن تحت؟

كان وجه المرأة متقلصا بالغضب، وبدا أنها ستثب على الفتاة في أية لحظة.. ثم قالت:

- لست حمقاء بالتأكيد.. لقد لعبتها جيدا.

- يدهشني انخداعك بسهولة.. هل حسبت حقا أنني طراز الفتاة التي تركع وتتوسل طلبا للرحمة؟

قالت الأخرى بلهجة ذات معنى:

- ستفعلين ذلك يوما!

قالت (توبينس) وهي تأمر المرأة بالجلوس:

- سنتحدث قليلا..

- عن أي شيء؟

- المال!

تذكرت ما قاله (وتنجتون) يوما من أن (ريتا) هي من ثرثر غالبا.. كما تذكرت ما قالته للروسى من أنها تحب المال.. هل تكون (ريتا) بحق هي أضعف نقطة في نطاق التجسس هذا؟

- هل تحسبين أنني أبيع رفاقى؟

- بالتأكيد.. لو كان المبلغ مجزيا..

- شيء مثل مائة جنيه؟

- لا.. أتكلم عن مائة ألف جنيه!

عادتها في الاقتصاد لم تجعلها تذكر المليون دولار بالكامل.. لكن بدا لها أن المرأة ابتلعت الطعم حقا..

وقالت لها في تعاسة

- باه! ليس معك هذا المبلغ..

- حقا ليس معي.. لكني سأحصل عليه.. صدقيني، إن عرضى صادق.. والمال يملكه صديق لى.
- وماذا يريد أن يعرف هذا الصديق؟
- يريد معرفة مكان قريبته (جين فين)..
- لا أعرف أين هي حاليا.
- لكن بوسعك معرفة ذلك؟
- ليس صعبا..
- وهناك شاب صديق لى.. اسمه (تومى بيرسفورد).. مختف منذ أيام..
- لم أسمع عنه قط.. لكن (بوريس) يعرف بالتأكيد..
- ثمة سؤال أخير..
ونهضت وأدنت وجهها من وجه المرأة وهمست:
- من هو المستر (براون)؟
للحظة ارتجفت ملامح المرأة ثم تماسكت واستعادت هدوءها وقالت:
- لا بد أنك لم تتجسسي علينا بما يكفي، حتى تعرفي أنه ما من إنسان يعرف من هو مستر (براون)
- أنت تعرفين.. حدسي يقول لى إنك تعرفين.
التمعت عينا المرأة قليلا واستحال صوتها منذرا بالخطر وهي تقول:
- أحيانا يعرف المرء أمورا تهدده بالخطر فيما بعد.. حتى الجدران لها آذان.. قولى لى متى يجيء هذا المال..
- بأسرع ما يمكن..
ابيض وجه المرأة ذعرا وهمست:
- أنت لا تفهمين.. أنا لن أكون في أمان أبدا.. أنت لا تعرفينه.. هل سمعت شيئا؟

قالت (توبينس) في ثبات:

- لا أحد في الشقة.. فكرى فقط في المائة ألف جنيه..

فجأة وثبت المرأة وفردت ذراعيها واتسعت عيناها هلعا.. ثم هوت على الأرض فاقدة النطق، ونظرت (توبينس) إلى الوراء لترى ما أفزعها، فوجدت (هيرشايم) والسير (إدجرتون)..

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني عشر

السهر

كان السيد (إدجرتون) أول من هرع ليفحص المرأة، وصاح حين تحسس نبضها:

- إنه قلبها.. لا بد أنها لم تتحمل رؤيتنا فجأة.. أحضري لها شرابا حالا..

وتعاون السير مع (جوليوس) على حمل السيدة إلى الفراش، وهناك رشّا بعض الماء على وجهها، ثم قدما لها بعض الشراب وحاولا دفع بعضه قسرا بين شفتيها المضمومتين.. أخيرا فتحت عينيها وبدأت تستجيب نوعا. حاولت النهوض ثم سقطت ثانية وهتفت مغمضة العينين:

- إنه قلبي.. ليس لي أن أتكلم.

ابتعد الثلاثة ووقفوا جانبا يتهامسون.. من الجليّ أن أية محاولة لاستجواب مسز (فانديمير) لم يعد لها مكان هنا.. وحكت لهما (توبينس) كل شيء من المحادثة السابقة فتهلل (جوليوس) وقال:

- هذا جيد.. أحسب أن مائة ألف جنيه ستبدو للسيدة في الصباح بنفس السحر الذي كانت به في المساء... لا داعي للعجلة.. وهي لن تتكلم على كل حال ما لم تر المال..

قال سير (جيمس إدجرتون):

- لا أخفي عليكما أنني أتمنى لو لم نكن ظهرنا في هذه اللحظة بالذات.. لكننا مرغمون على الانتظار حتى الصباح..

ونظر إلى المرأة النائمة في الفراش وقال:

- لابد من ترك أحد معها في الشقة حتى الصباح.. ربما كان صبي المصعد الذكي هذا..

قالت (توبينس):

إنه مجرد طفل.. ولو نهضت مصرة على الرحيل فلن يقدر على منعها.

قال السير (جيمس):

- بالإضافة إلى أنها تخشى المستر (براون).. إن لدينا شاهدة غير عادية هنا، وأعتقد أن من واجبنا حمايتها.. أقترح على الآنسة (توبينس) أن تدخل فراشها، بينما أتقاسم أنا ومستر (هيرشايمر) السهر والحراسة..

دنت (توبينس) من الفراش وتأملت السيدة.. كان على وجهها قناع مخيف من الرعب والتوجس.. وتسالت (توبينس) عما إذا لم تكن المرأة تمثل نوبة الإغماء هذه؟ لكن الشحوب لا يمكن اصطناعه.. وأحست بأن المرأة تحاول أن تقول شيئا:

- لا ترحلي... لا... نائمة.

ثم انغلق الجفنان من جديد، هنا قالت (توبينس) في إصرار:

- لن أترك الشقة..

وخرجت إلى قاعة الجلوس حيث كان الرجلان جالسين.. فقال لها السير (جيمس):

- أقترح أن تغلقي الباب عليها بالمفتاح وتحتفظى به معك..

فعلت كما قال وسألتهما:

- بالمناسبة.. كيف دخلتها إلى الشقة؟

- اتصل بنا الغلام الذكى وطلب منا المجيء.. وحين وصلنا كان يموت قلقا عليك، وقال إنه لا يسمع شيئا من الشقة.. اقترح علينا أن ندخل الشقة عن طريق مصعد الفحم الذي يقود إلى

مخزن المطبخ.. وهكذا فعلنا.. إنه ينتظر تحت الآن ولا بد أنه قلق جدا..

عاد (جوليوس) من المطبخ بفطيرة وثلاث أطباق، فتناولوا عشاء شهيا، ثم اقترح الرجلان عليها أن تنام لكنها كانت مصرة على البقاء متيقظة.. وسألها الرجلان عن مزيد من التفاصيل عن قصتها فحكت لهما كل شيء.. في النهاية قال (جوليوس):

الشيء الذي لا أفهمه هو سر انكشاف أمرك..

- لا أدري..

وساد الصمت لفترة طويلة، ثم بدأ سحر الليل يؤدي عمله.. صوت صرير وصوت قرقعة من قطع الأثاث.. الخ.. حتى إن (توبينس) وثبت في مكانها وصاحت:

- أنا متأكدة من أن مستر (براون) في هذه الشقة معنا!!

ابتسم (جوليوس) وقال:

- لا أدري كيف يمكنه هذا.. نحن هنا وباب الشقة موصد.. ليس بوسع أرضى أن يقدر على هذا..

وقال السير (جيمس):

- إن السهر ليلا يورث الفزع.. إننا أقرب إلى شهود جلسة تحضير أرواح.. فقط من دون وسيط..

ومضى الليل ببطء..

وجاء أول شعاع من الفجر يغمر العاصمة البريطانية بمشهد قلما يراه الإنجليز.. وأزاح سير (جيمس) الستار فرأت (توبينس) الشمس وبدت لها كل مخاوف الليل واهية تماما.. صاحت:

- مرحى! هذا يوم عظيم! سنجد (تومى) و (جين فين).. سأطلب من مستر (كارتر) أن ينعم على بلقب (دام).

وفي السابعة صباحا تطوعت (توبينس) بإعداد بعض الشاى، وعادت بأربعة أقداح على صينية.. ثم طلبت من الرجلين أن يأتيا

معها لإيقاظ السجينة حتى لا تحاول الهجوم عليها.

فتحت الباب ووضعت القدح ثم فتحت النافذة لتدخل الشمس.. أعادت نداء المرأة مرتين بلا نتيجة..

نظرت إليها فوجدتها نائمة على ظهرها، ولم يبد أنها تتنفس.. من الواضح أن مسز (فانديمير) لن تتكلم أبدا بعد اليوم..

صرخت منادية الآخرين ليريا ما رأته.. لقد ماتت المرأة منذ عدة ساعات.. في الغالب ماتت وهى نائمة.. صاح (جوليوس):

- تبا.. ياله من حظ!



صرخت منادية الآخرين ليريا ما رأته .. لقد ماتت المرأة منذ عدة ساعات .. فى الغالب ماتت وهى نائمة ..

بدت نظرة غريبة في عين السير (جيمس) وهو يقول:

- فقط لو كان هذا حظا.. إنها كانت على وشك إخبارنا بمن هو مستر (براون).. ثم ماتت.. هذا غريب..

- ولكن كيف؟ إن باب الشرفة مفتوح.. فهل...؟
هزت (توبينس) رأسها:
- لا.. الباب يقود إلى شرفة طويلة تنتهي عند غرفة الجلوس حيث كنا جالسين.
اتجه (جوليوس) إلى الخزانة ففتحها.. تأخر دقيقتين وهو يتفحصها ثم أغلقها وعاد دون أن يعلق.
بعد دقائق جاء طبيب شاب فحص المتوفاة، وبدا واضحا أنه يعرف السير (جيمس) جيدا.. قال بعد الفحص:
- في الغالب هبوط قلب أو جرعة زائدة من منوم.. إن رائحة الكلورال تعبق جو الحجرة..
تذكرت (توبينس) الزجاجة التي حاولت مسز (فانديمير) جعلها تشرب منها.. كانت على حوض الغسيل، وكانت مليئة لثلثيها حين رأتها أمس..
الآن كانت فارغة.

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث عشر

(توبينس) تتلقى عرضا

بفضل نفوذ السير (جيمس) لم يبد الطبيب شكوكا كثيرة، وقد اقتنع بأن المرأة توفيت في الغالب نتيجة نوبة قلبية.. لكنه سيتصل بالسير (جيمس) لو جد جديد. تم استدعاء ممرضة، ثم غادر الأصدقاء المبنى الكريه.

كانت معنوياتهم غاية في السوء، وأعلن السير (جيمس) أنه لا يجد طريقا آخر يمشون فيه، لهذا هو مصمم على الذهاب إلى أسكتلندا كما كان يعتزم.. وطمأن (توبينس) أن الخطابات ستصل إليه تباعا هناك.

ما إن انصرف حتى قال (جوليوس هيرشايمر) في أسى:

- أشعر أنا الآخر بأنني لن أجد (جين) أبدا.. ربما كان على أن أعود إلى الولايات..

صاحت في هلع:

- لا! إن علينا أن نجد (تومى)..

- نعم.. كدت أنسى هذا.. هل لي في سؤال؟

أنت و(تومى).. هل أنتما؟

- أنت مخطئ.. أنا و(تومى) صديقان لا أكثر.

- أعتقد أن كل عاشقين قد قالا كلمات متشابهة عن علاقتهما يوما ما..

- هل تحسبني طراز الفتاة التي تحب كل شخص تقابله؟

- بل أحسبك طراز الفتاة التي يحبها كل شخص يقابلها!

- هل هذه مجاملة؟

- ربما.. إنني أتكلم عن الزواج.. لولم يعد (تومى) فلسوف تكونين مجرد طفلة وحيدة في هذا العالم، وأنا ثرى بحق.. أحترمك بحق.. ولو قلت الكلمة السحرية لذهبنا حالا إلى أفضل جواهرجي في (لندن) لنبتاع اللازم من أجل هذه الصفقة.

- لا.. لا..

- هل هو من أجل مستر (بيرسفورد)؟

- لا.. لا أريد تقديم مبررات لكنني مع الشكر أجد نفسي مسوقة لأن أقول لا..

قال في تهذيب:

- سأكون شاكرا لو أرجأت الرد حتى الغد..

صعدت إلى حجرتها وقد أرهقتها المواجهة مع شخصية (جوليوس) القوية.. يالك من بلهاء! ها هي ذي الفرصة الكاملة قد جاءتك وهي لن تعود أبدا، وبرغم هذا تقولين لا كنعجة غبية.. بحثت عن صورة (تومى) الموضوعة على التسريحة وراحت تغرقها بدموعها:

- آه يا (تومي)! أنا أحبك.. أحبك ومن الواضح أنك لن تعود!

حمقاء أخرى هي أنا.. واضح أنني سأنام بصورته تحت الوسادة وأحلم به طيلة الليل.. ما كنت أحسب نفسي هذه البلهاء، وكم هو مشين أن يخون المرء مبادئه.

راحت تتأمل المرآة وصورتها.. وتتذكر أحداث الليلة الماضية الغامضة.

فجأة كأنما كانت غافلة طيلة الوقت تنبهت لفكرة.. اتسعت عيناها وشحب لونها، واتسعت حدقتاها.. مستحيل.. مستحيل! لكن هذه هي الفكرة الوحيدة التي تفسر هذا كله.. يا للغرابة!

أخرجت مفكرة وخطت رسالة إلى (جوليوس) ثم هرعت إلى جناحه.. كما توقعت لم يكن هناك فتركتها له، ثم عادت إلى غرفتها لتجد ساعيا ينتظرها على الباب ومعه برقية..

كانت البرقية من (تومى)..

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع عشر

المزيد من مغامرات (تومى)

من ظلام تضيئه طعنات من نار، استرجع (تومى) حواسه. وحين فتح عينيه أخيرا لم يع إلا ألما فظيعا في فوديه. أين هو؟ ماذا حدث؟ ما سر هذا الألم في رأسه؟

ثم تذكر! بالتأكيد كان في ذلك البيت المشئوم حين زحف أحدهم وراءه وضربه.

سمع من يقول:

- إنه يستعيد وعيه الآن..

عرف في هذا صوت الألماني الملتحي.. وقرر أن يكسب وقتا.. إنهم الآن يعرفون أنه جاسوس ولن يضيعوا وقتا قبل التخلص منه.

- هل أنت بخير؟

- نعم.. أشكرك..

كان نائما على أريكة في حجرة الاجتماع وهم يحيطون به.. قال الألماني وهو يشير إلى الحارس الشرس الذي أدخل (تومى):

يا عزيزي.. من حسن حظك أن جمجمتك بهذا السمك.. لقد ضربك (كونراد) العزيز بعنف حقيقي..

ثم أضاف وهو ينظر إلى الآخرين:

هل لديك ما تقوله قبل الموت؟

- أنا لا أنوي أن أموت بسهولة..

- وهل لديك أسباب تمنعنا من قتلك لأنك جاسوس؟

- نفس الأسباب التي منعتكم من قتلى وأنا فاقد الوعي.. تريدون معرفة ما لدي من معلومات ولو مت لن يكون هذا متاحا..

كان يتصرف عالما أن توقد ذهنه هو ضمانه الوحيد للخروج من هنا.. وهو ككثير من الشباب الإنجليز لايظهر معدنهم الحقيقي إلا حين يكونون في ورطة.. لهذا تجاهل ضربات قلبه المتسارعة وقال بثقة وهدوء:

- هل أبدو خائفا من الموت؟ واضح طبعا أنني أعرف أنكم لن تقتلوني.. إن لدي ضمانا مهما لحياتي، وهذا الضمان يضعني في موقف يسمح لى بطلب مساومة..

- مساومة؟

تصاعدت صيحات الاستنكار من الرجال، فقال بنفس الهدوء:

- نعم.. حياتي وحريتي مقابل أوراق كانت في حوزة من يدعى (دانفرز) على ظهر (لوزيتانيا).. أنتم لن تقتلوا الدجاجة التي تبيض ذهبا.

- وإذا رفضنا؟

- إن يوم التاسع والعشرين لا يبعد إلا يوما واحدا..

نظر الرجل إليه ثم تبادل النظرات مع الرجال وأمر (كونراد) بأن يصطحبه خارج الغرفة ريثما يتداول مع الآخرين.. خرج (تومى) وهو يرمق (كونراد) المفترس المتعطش لسفك دمه. مرت دقائق طويلة ثم سمعهم يستدعونه إلى الحجرة، فقال لنفسه: صدر الحكم.. فقط لنأمل ألا يكون القاضي واضعا قلنسوته السوداء في الداخل استقبله الألماني وقال له ببرود:

- سنجرب ما لديك.. لكننا لن نطلق سراحك حتى نحصل على الأوراق..

- ولكن كيف أحصل عليها دون أن أخرج؟ إنها ليست معي بالتأكيد..

ابتسم الرجل وقال:

- وهل تعتقد أننا سنصدق قصتك ببساطة ونتركك ترحل؟
ماذا بوسعنا أن نفعل إذن؟ ليس لديك الخيار.. إما الأوراق أو الموت..
- إذن أرسلوا معي (كونراد).. إنه كما أرى متأهب لاستعمال قبضته..
- نفضل أن تبقى هنا، ولسوف تعطي تعليماتك لواحد منا كي يجلب الأوراق.
- لابد لي من أن أقابل (جين فين) كذلك..
- ولماذا؟
- أريد أن أسألها عن شيء معين يتعلق بالأوراق..
ابتسم الرجل ابتسامة غامضة وقال بلكنته الألمانية الباردة:
- يخيل لي أنك لا تعرف بالقدر الذي أقنعتنا أنك تعرفه.
توتر (تومى).. أتراه ارتكب خطأ ما في الكلام يدل على جهل؟ لم يعد واثقا بنفسه إلى هذا الحد، لهذا قال مستدركا:
- لا أزعم أنني أعرف كل شيء عن الموضوع.. لكني أعرف ما يهمكم..
قال الألماني وهو يشير إلى (كونراد):
- ستأخذه يا (كونراد) إلى الطابق العلوي.. الغرفة التي تعرفها.. أما أنا فسأحاول ترتيب لقاء بينك وبين (جين فين).. ولسوف نعرف سريعا إن كنت مجرد مخادع أم أنك تعرف شيئا حقا.
كانت الغرفة مظلمة تماما خالية من الهواء لأنه لا نوافذ فيها.. وسمع (تومى) المفتاح يدور في الباب من الخارج.. كان رأسه يؤلمه والجوع يمزقه.. وقد بدأ الآن يدرك أن موقفه خطر لا مخرج منه.

قرر أن يترك الأمر للظروف ما دام على كل حال سيلقى المدعوة (جين فين)..

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس عشر

أنيت

بدأت مخاوف المستقبل تتلاشى أمام مشاكل الحاضر.. كان الجوع يمزق أحشاءه الآن.. وكان شابا سليما يتمتع بشهية طيبة، ويعرف أنه لن يفوز في أي إضراب عن الطعام.. أتراهم يعذبونه بالجوع؟ ربما كانت هذه من تلك الطرق السحرية التي يرغمون بها سجينا على الكلام.

نظر في ساعته الفوسفورية ووجد أنها التاسعة والغداء بدا الآن كأنما أكله منذ عقود.. وأدرك في جزع أنه لو تأخر العشاء أكثر من هذا فلسوف يتحول الأمر إلى انتظار الإفطار.

راح في نوم قلق، لم يصح منه إلا حين سمع المفتاح يدور في الباب.. لم يكن من هؤلاء البارعين الذين يصحون من النوم بكامل حواسهم، لكنه أدرك على الفور أن هذا قد يكون إفطارا مبكرا..

وفي الضوء الخافت فوجئ بأن القادم لم يكن (كونراد) العزيز بل هي فتاة.. فتاة تحمل صينية ومن الواضح أنها أجمل فتاة رآها في حياته.. فجأة خطرت له فكرة مجنونة:

- هل أنت (جين فين)؟

هزت الفتاة رأسها وقالت بإنجليزية مهشمة:

- اسمي (أنيت) يا مسيو.

قال لها

- لا تقولي إنك ابنة أخت أو ابنة (كونراد).. فهذا مستحيل.

- أنا مجرد خادمة فرنسية يا مسيو..

فكر في أنها قد تكون أمله الأخير.. لن يخسر شيئا لأن موقفه ميئوس منه على كل حال.

- اصغي لي.. أنا أريد منك أن تساعديني للفرار من هنا..

هزت الفتاة رأسها:

- مستحيل.. هناك ثلاثة منهم في الطابق السفلي.. ثم إنني لن أساعدك يا سيدي.

- ولماذا؟

- لأن هؤلاء الناس قومي أما أنت فمجرد متسلل..

وغادرت المكان.. هكذا وجد (تومى) أن عليه أن ينتظر ثلاثة أيام كاملة بلا عمل في هذا المكان.. لا يرى إلا (كونراد) والفتاة لا تتكلم إلا بعبارات من مقطع واحد، وفهم من (كونراد) أنهم بانتظار مستر (براون) ليبتوا في أمره.. يبدو أن الرجل مسافر أو شيء من هذا القبيل.

وفي اليوم الرابع حدث شيء مخيف.. اقتحم الغرفة عليه (كونراد) ومعه رجل آخر.. وقيداه بالحبال حتى تحول إلى حزمة لانفع منها.. وقال (كونراد) متشفيا:

- تتذاكي علينا.. هه؟ تتظاهر بالعلم وأنت أجهل من قطة صغيرة.. هه؟ تخدعنا.. هه؟ لكن الآن قد اتضح الأمر وعرفنا مدى علمك، وقد انتهى أمرك.. أنت الآن مجرد خنزير ميت!

لم يدر (تومى) ما استجد، لكنه أدرك أن مستر (براون) الجبار قد اخترق أعماقه وحدس سره.. لابد أن اختفاءه قد جعل (توبينس) تتوجه للشرطة، ومن هناك تسرب الخبر، ولم تجد العصابة عسرا في استنتاج من هو وماذا يعرف.. وعرف أنهم سيقتلونه في الصباح بعدما ينقلونه بعيدا عن هنا..

خرج الرجلان.. وبعد دقيقة عادت الفتاة إلى الغرفة فأطفأت النور الكهربي.

هنا جاء صوت (كونراد) الغاضب من الخارج:
- تبا لك يا (أنيت)! لماذا فعلت هذا؟
لا لسبب مسيو.. سأضيئه حالا.. جئت لاسترداد الصينية..
ودنت من (تومى) المقيد في الظلام فمررت يدها على جسده، وشعر بشيء معدنى بارد يستقر بين يديه المقيدتين، ثم خرجت الفتاة في الحال بعد ما أطفأت النور من جديد.
اصطرعت الخواطر في ذهن (تومى).. معنى إطفاء النور أن الغرفة مراقبة من مكان ما.. لا بد أن هناك فتحة يتلصص منها أحدهم، ولهذا كانت الفتاة مقتضبة في محادثاتها معه.. الآن أطفأت النور لتتمكن من أن تدس في يده سكينا.. فهل يتمكن من قطع الحبال بالسكين وهو مقيد؟
جرب كثيرا في الظلام، وأدمي معصمه بعنف.. لكنه بدأ يشعر بالحبل يرتخي حول معصميه أخيرا.. أما وقد تحرر معصماه صار الباقى سهلا.. ووقف في الظلام يفكر في الخطوة التالية.. لا مخرج من الحجرة إلا الباب، والباب مفتاحه مع (كونراد) فما العمل؟
أخيرا وجد لوحة ثقيلة على الجدار تمثل مشهدا من مسرحية (فاوست)، فقرر أن يضرب القادم صباحا بها.. وهي خطة تبناها في بداية إقامته هنا قبل أن يعرف أن (أنيت) هي التي تقدم الطعام.
في الصباح انفتح الباب ودخل (كونراد) أولا.. ثم جاء الرجل الآخر.. استجمع (تومى) قوته ووثب على الرجل، ثم هوي باللوحة الثقيلة على رأسه فتناثر الزجاج المهشم في كل مكان.. ثم وثب خارجا من الغرفة وأغلق الباب وراءه بالمفتاح، الذي تركه (كونراد) في الباب.
شعر بيد صغيرة تلمس يده، والفتاة تهمس:

- ششش! من هنا!

كانت تشير إلى سلم صغير يبدو أنه يقود إلى الكرار.. أسرع معها إلى تسلق هذا السلم، فوجد نفسه في صندرة مملوءة بالخشب المقطوع.. قال لها:

- هذا لا يصلح.. إنها مصيدة محترمة جدا بلا منافذ..

- شش!

وكان صوت الضرب والركل على باب الغرفة عنيفا جدا، وبدا أن الألماني ورجلا آخر يحاولان الدخول قالت (أنيت):

- يحسبانك مازلت بالداخل.. لا يمكنهما سماع كلام (كونراد) فالباب سميك..

وأمرته بأن يتسلق سلما يؤدي إلى الكرار، بحيث يتعلق به حتى يختفي الرجلان.. في النهاية انفتح الباب وخرج (كونراد) كالثور الهائج يصيح:

- هل قبضتها عليه؟

- تعني أنه هرب؟ مستحيل.. كان يجب أن نراه!

وهرع الرجال الثلاثة يركضون إلى الطابق العلوي بحثا عن (تومى)، ولحقت الفتاة بهم، أما (تومى) فوجد الوقت كى يهرب من هذا المنزل المخيف.. وأدرك أن الفتاة بقيت بإرادتها فلا سبيل لإنقاذها أو إقناعها بالرحيل معه.

كان الشارع خاليا، لذا راح يركض قدر استطاعته مبتعدا.. دوي صوت طلقات رصاص من ورائه، لكن أية رصاصة لم تصبه لحسن حظه.. وقال لنفسه: لن يستمروا في الإطلاق، فلن يلبث وقت طويل حتى يصل رجال الشرطة.. أخيرا استطاع أن يضللهم في المنحنيات، وتنهد الصعداء واستجمع أنفاسه حين وجد نفسه بعيدا عن حي (سوهو) كله.

كان منظره مريبا للشرطة بلحيته الطويلة وثيابه المبعثرة، لذا عرج على أحد الحمامات العمومية حيث استحم وحلق ذقنه.. ثم اتجه إلى مقر المستر (كارتر) الذي قابله بفتور شديد:

- حسبت أنني أوضحت أنه من غير المستحب أن تتصل بي..

فحكى له (تومي) القصة كلها، وبالفعل ظفر باهتمام الرجل.. الأهم هو أنه وجد جريدة على مكتب الرجل تتكلم عن المؤامرة البلشفية على البلاد، وكانت بها عدة صور مألوفة.. صور تذكر أنها كانت بين وجوه الرجال المجتمعين على المائدة في ذلك اليوم.. لقد عرف من يدعي (كرامنين)..

وهو من قادة الثورة البلشفية الذين تسللوا إلى إنجلترا لينقلوا إليها الشيوعية.

طلب منه مستر (كارتر) أن يتفحص المزيد من الصور عله يعرف أسماء أخرى.. وبالفعل عرف (تومى) من يدعي (وستواى).. قال (كارتر):

- حسن يا بني.. لقد أفدتنا كثيرا.. تقول إن الإضراب سيكون يوم 29؟ هذا يعطينا وقتا قليلا جدا في الواقع.. طبعا لن نجد أحدا منهم في البيت الآن بعد هروبك، وهذا لن يدهشني.. الآن أنصحك بأن تعود إلى مس (توبينس) لأنها تموت قلقا عليك..

- (توبينس)؟ ألم تتصل بالشرطة؟

هز الرجل رأسه نفيا، فتساءل (تومى) فى حيرة:

- إذن كيف عرف هؤلاء القوم أنني كنت أخدعهم؟

- لا نستطيع التخمين.. يمكنك العودة إلى الفندق.. لكن تذكر أنك رجل مطلوب الآن، وبالتأكيد هناك رغبة ملحة لقتلك..

انصرف (تومى) وهو يرتقب بشوق لحظة لقاء (توبينس).. لكنه حين وصل إلى فندق (ريتز) لم يجدها، وقيل له إنها انصرفت منذ ربع ساعة..

☆ ☆ ☆

الفصل السادس عشر
البرقية

عرف (تومى) أن (توبينس) قد انطلقت في سيارة أجرة إلى محطة (تشارينج كروس) بعدما تلقت برقية.. هنا جاء (جوليوس هيرشايمر) ورحب به.. ودون مقدمات قال له إنه عرض الزواج على (توبينس) وإنها في الغالب وافقت، وإنه تأكد أولا أنه ما من علاقة بينها وبين (تومى)..

لدهشته شعر (تومى) بضيق حقيقي.. ولكن لماذا؟ الفتاة كانت صريحة مع نفسها دوما ولم تنكر أنها تنتظر مليونيرا لتتزوجه.. وكان (جوليوس) أول مليونير تقابله.. إنها لم تخف شيئا! لكنه الآن يتمنى لو لا يراها ثانية أبدا.. الحق أنه لعالم متعفن!

قال (جوليوس)

- سنتفق بالتأكيد.. أنا أعرف أن الفتاة لابد أن ترفضك مرة على سبيل التقاليد..

أمسك (تومى) بذراعه وقال في لهفة:

- ترفض؟ تقول ترفض؟

- نعم.. ألم أقل لك هذا؟ لقد قالت: لا دون تفكير ولا مبرر.. هذا هو سلوك الأنثى الأبدي..

لكنها ستوافق بعد عرض آخر بالتأكيد.

لقد ظلم (تومى) الفتاة.. واضح أنها رفضت (جوليوس) دون تردد ولا تفكير.. وهي مازالت كما عرفها دوما.

استجوب الرجلان الصبي الذي جلب البرقية إلى (توبينس) فقال إن الفتاة قرأتها ثم كورتها وألقتها في القمامة.. وهكذا هرع

الرجلان إلى حجرتها بحثا عن هذه الكرة.. أخيرا وجدا الورقة المجعدة وفتحاها فكان المكتوب:

«تعالى حالا.. (موت هاوس).. إيبورى. يورشاير..»
(تومى)

قال (جوليوس):
- يا للمصيبة! لقد ظفروا بها.. وقعوا البرقية باسمك، والفتاة سقطت كالحمل في المصيدة.
كان حماس (جوليوس) معديا، فلو ترك (تومى) لنفسه لجلس يفكر نحو نصف ساعة ويقرر ما يفعله، لكن مع (جوليوس) كانت الحركةفورية.
قال (تومى) لصاحبه بعد تفكير عميق:
- لا أعتقد أنها في خطر عاجل.. إنهم لا يريدون منها إلا لعب دور الرهينة.. في حالة ما إذا وصلنا نحن إلى شيء مهم ستكون هي السوط في يدهم.. لهذا سيحافظون على سلامتها..
كانت الرحلة بالسيارة مرهقة، وفي النهاية وصلا إلى (إبيوري) التي كانت محطة مهجورة بها حمال وحيد.. سأله (تومي) عن (موت هاوس) فقال إنه بيت كبير جوار البحر، لكن الرجل لم يستطيع تذكر أنه رأى أية فتاة تشبه صفات (توبينس) وصلت بالقطار.. لكنه متأكد أنه ما من أحد سأله عن (موت هاوس) اليوم.. أثار هذا إحباط (تومى) لأن العدو كان يسبقهما الآن بثلاث ساعات. وهي كافية جدا للمستر (براون)..
ووصلا أخيرا إلى (موت هاوس) فكان أول ما رأياه هو بوابة حديدية صدئة، وطريق نبتت فيه الأعشاب.. ثمة شيء في المكان كان يثير الرجفة في القلوب.

دخلا المكان فمشيا وسط الممر المغطى بالعشب فلا تسمع صوت خطواتهما.. كأنما يمشيان في عالم أشباح.. ومن حين لأخر تسقط ورقة شجر باردة على خد أحدهما فيرتجف.

كانت حالة البيت أسوأ ومصاريع النوافذ مغلقة، وقرع (جوليوس) الباب بالمطرقة فلم يتلق إجابة.. أحقا يمكن أن تكون (توبينس) جاءت هنا؟ أخيرا اقترح (تومى) البحث في القرية لمعرفة أي شيء عن هذا البيت.. وفي القرية دلهما الفلاحون على امرأة عجوز تملك المفتاح.. قالت إن المنزل مغلق منذ سنين، وإنهما يستطيعان دخوله غدا ليرياه في ضوء النهار.

وهكذا اضطر الرجلان إلى المبيت في القرية وفي الصباح دخلا البيت.. كان من الواضح من الغبار على الأرضية أن أحدا لم يخط داخل المنزل منذ أعوام..

كادا يتركان القرية لولا أن لمح (تومي) شيئا بين الأغصان على جانبي الممشى، وبالتدقيق اكتشف أن هذا هو بروش خاص ب (توبينس).

- معنى هذا أنها قد جاءت هنا.. سنقيم في الحانة ونقلب القرية حتى نجدها.. لابد أن أحدا رآها..

ومضت الأيام في استجوابات، لكن أحدا لم ير الفتاة، كما أن أحدا لم ير سيارة غريبة.. وتتبع (جوليوس) كل السيارات التي ظهرت في القرية في ذلك اليوم فلم يحصل على شيء.. كأن الفتاة ببساطة اختفت من الوجود..

أخيرا قال (تومى) لصديقه وهما على مائدة الإفطار:

- هل تعرف كم قضينا هنا؟ أسبوعا.. وقريبا يأتي التاسع والعشرون من الشهر! بعد هذا اليوم لن تساوى حياة (توبينس) شيئا.. ستنتهي لعبة الرهينة تماما.. لقد أضعنا وقتا ثمينا ولم نحرز تقدما..

- أنت على حق.. والآن أرى أننا أحمقان بالغنا في مهارتنا.. إن ما أحتاج إليه الآن هو زيارة سكوتلانديارد لأضع نفسى تحت تصرفهم.. كم نحن حمقى! إن المحترفين هم من يفوزون دائما في النهاية.. وهذه ليست لعبة هواة..

وهكذا عاد (جوليوس) إلى لندن.. وفي المساء وصلت برقية منه إلى (تومي) يدعوه إلى الحضور حالا.. ركب (تومى) أول قطار عائد إلى هنا.. وكانت بانتظاره في البريد برقية أخرى تقول:

«وجدنا (جين فين). تعال إلى فندق مانشستر ميدلاند حالا.»

(بيل إدجرتون)

طوى (جوليوس) الورقة وقال:

- غريب هذا.. كنت أحسب المحامي قد تخلى عن الموضوع!

☆ ☆ ☆

الفصل السابع عشر
(جين فين)

التقى الرجلان مع السير (جيمس إدجرتون)، وكان انطباع (تومى) عنه شبيها بانطباع (توبينس).. هذا الرجل يملك مغناطيسية لا شك فيها.. وأدرك أن الرجل درسه وسبر أعماقه على الفور، لكنه لم يعرف حكمه النهائي لأن السير (إدجرتون) لم يكن من النوع الذي يبدي استنتاجاته أبدا.

قال (جوليوس) في لهفة:

- (جين فين)! وجدناها أخيرا.. هل يمكنني أن ألقاها؟

قال السير (جيمس):

- للأسف لا.. لأن الشابة أصيبت في حادث سير ورأسها مصاب.. وفي المستشفى بدأت تفيق وقالت إن اسمها (جين فين).. حين سمعت هذا طلبت نقلها إلى بيت صديق طبيب لي، وأبرقت لك.. لقد غابت عن الوعي ثانية ولم تتكلم من حينها إنها لم تجرح بشدة بما يفسر هذه الحالة، ومن الجلي أن سبب فقدان الوعي هو الصدمة العاطفية.

صاح (جوليوس) في لهفة:

- بعد العشاء سأذهب لأراها..

قال السير (جيمس) بلهجة قاطعة:

- أخشى أن هذا سيكون عسيرا.. لن يسمحوا لها الليلة بلقاء أحد.. ربما غدا صباحا في العاشرة..

احمر وجه (جوليوس).. فمن البداية لم يكن يرتاح إلى السير (جيمس)، ويبدو أن هذا بسبب صدام الشخصيتين

المسيطرتين.. ارتجفت يده الممسكة بقدح الشاي وتبادل نظرة مع الرجل، ثم قال في استسلام:

- حسن.. أقر بأنك الرئيس هنا..

وراح سير (جيمس) يستقصى من (تومى) أخبار مغامرته الأخيرة.. وأبدى استحسانه لبراعة (تومى) وسرعة بديهته.

وفي العاشرة صباحا اتجه الرجلان إلى المكان المرتقب، وكان سير (جيمس) ينتظرهما.. كانت ثقة (تومى) تزداد يوما بعد يوم بسير (جيمس) وقدر أن هذا الرجل البارع سيعيد (توبينس) سالمة.. ها هي ذي (جين فين) أخيرا! الشخصية الغامضة التي يبحث عنها مع (توبينس) من البداية، ولكم تمني لو كانت (توبينس) هنا لتحضر انفعالات اللحظة.. لكنه لم يصدق أن تمر الأمور بهذه السهولة، وحسب أنهم سيجدون الفتاة وقد اختفت أو ماتت.

قال لهم الطبيب صاحب الدار:

- للأسف هي لا تذكر شيئا عن الفترة السابقة كلها.. ما زالت تحسب أن (لوزيتانيا) تغرق الآن.. وهي لا تذكر حرفا عما حدث بعد الغرق..

وأدخلهم إلى غرفة رقدت فيها فتاة التف وجهها بالضمادات، وقال لها:

- هنا من يدعي (جوليوس هيرشايمر).. ابن عمك..

همست الفتاة في ضعف وبلكنة أمريكية واضحة:

- هل أنت حقا ابن العم (حيرام)؟

بدا الصوت مألوفا لـ (تومى) لكنه لم يستطع تذكر أين سمعه من قبل.. قال (جوليوس) بصوت مرتجف:

- عرفت من البداية أنه لا يجب أن يتباعد أفراد الأسرة، وصممت على أن أجيء لك بمجرد انتهاء الحرب..

بعد صمت سألها (جوليوس) في حذر:

- هناك رجل كان يحمل أوراقا مهمة لحظة غرق (لوزيتانيا).. والسلطات هنا تؤكد أنه أعطاك هذه الأوراق قبل غرق السفينة.. فهل تذكرين شيئا من هذا؟

بدا الارتباك على الفتاة فقال لها متفهما:

- مستر (برسفورد) مكلف من الحكومة بإيجاد هذه الأوراق.. وسير (إدجرتون) عضو بالبرلمان وقد ساعدنا في العثور عليك فتكلمي ولا تخافي شيئا..

- نعم أخذتها منه في أثناء غرق السفينة لكنها ليست معي الآن.. لقد كنت خائفة حين وصلت إلى البر.. كنت أخشى أن يكون هناك من يتبعني، وهكذا استقللت سيارة أجرة إلى (هولى هيدز)، وهناك اتجهت إلى البحر حيث ساحل (تريدار) وجدت صخرة تبدو ككلب يقعى متسولا.. كانت هناك فجوة في هذه الصخرة، لذا دسست الكيس الحاوي للأوراق فيها، ثم غطيت الفتحة بالأشواك والأوراق.. بعد هذا لم يعد من الممكن تمييز الفتحة.. واستقللت سيارة أجرة عائدة إلى (لندن).. آخر ما أذكره أن امرأة معينة كانت تنظر لي في ثبات، ثم شعرت بضربة قوية على رأسي بعدها لم أعد أذكر شيئا.

قال سير (جيمس) إن هذا كاف وعليهم الانصراف الآن.. نهض (جوليوس) ووعد ابنة عمه بأيام جميلة تنسيها ما كان من أحداث قاسية.

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن عشر
بعد فوات الأوان

ما إن خرج الرجال من المنزل، حتى أصر (جوليوس) على السفر فورا إلى (هولى هيدز) للبحث عن الأوراق.. لم يجد السير (جيمس) ما يدعو لهذا الاستعجال خاصة أن اليوم 24 لا أكثر..

لكن (جوليوس) كان كدأبه شديد الحماس.. نصحه سير (جيمس) بأن يتعقل لأن الدرس الأول الذي يجب أن يعيه هو مدى خطورة أعدائه.. تمنى لهما التوفيق لأنه لن يصحبهما، وطلب منهما إذا ظهر خطر أن يتخلصا من الأوراق حالا..

بلا إبطاء وصل الرجلان إلى (هولى هيدز)..

واستقلا سيارة أجرة إلى ساحل (تريدور).. بحثا في الشاطئ حتى وجدا ما بدا بوضوح كصخرة على شكل كلب جالس.. لم يفارق (تومي) الشعور بأنهما مراقبان بشكل ما، لكن (جوليوس) طمأنه بأنه يحمل مسدسه في جيبه.. ذلك المسدس الذي يعتز به كثيرا ويطلق عليه اسم (ويليام) الصغير، وشعر (تومى) بأن هذا يبعد عن ذهنه خطر مستر (براون) قليلا.

راحا يبحثان عن فتحة في الصخرة.. وكانا يعلمان أنه من المستحيل أن تظل الأشواك تسدها حتى اليوم بعد كل هذه الأعوام.. كان (تومي) يؤمن أنهما لن يجدا شيئا.. من العسير أن ينجحا بهذه البساطة بعدما فشل الجميع.. لابد أن تكون الفتحة خالية من الأوراق..

وجدا الفتحة فمد (جوليوس) يده فيها وراح يعبث:

- ها هي ذي.. لحظة.. إنها ضيقة.. لابد أن يد (جين) أصغر من يدى بكثير.. لا أشعر بشيء.. ولكن.. هذه هي اللفافة المغلقة

بالمشمع.. أمسكها حتى أخرج مطواتي..



وجدا الفتحة فمد (جوليوس) يده فيها وراح يعبث :
- ها هى ذى .. لحظة .. إنها ضيقة .. لابد أن يد (جين) أصغر من يدى بكثير ..

بيد مرتجفة شقا الغلاف.. كانت بالداخل لفافة من ورق.. فردها (تومى) وتأملها.. كانت خالية من الكتابة! هل كان (دانفرز)

يعبث؟ فكر (تومى) قليلا ثم صاح:

- وجدتها! حبر سرى!

- هل تظن هذا؟

- الحرارة تؤدي الغرض غالبا.. فلنشعل نارا.

أشعلا نارا وقربا الورقة منها.. لكن الورقة تجعدت فقط ولم يحدث أكثر من هذا.. فجأة بدأت كلمات بنية باهتة تظهر.. فانفعل (تومي) وقرب الورقة أكثر ليقرأ ما بها:

«مع تحيات مستر براون!»

وقف الرجلان صامتين يتبادلان النظرات.. قال (جوليوس) في حنق:

- كيف استطاع أن يسبقنا؟ لم يكن أحد يعرف هذا المكان قبل صباح اليوم.. وما كان بوسع أحد أن يصل هنا أسرع منا حتى لو كانت غرفة (جين) مراقبة بأجهزة تنصت.. إن كل شيء حدث صباح اليوم، والأوراق كتبت اليوم بالذات..

- ربما لم تكن الفتاة هي ابنة عمك إذن..

- هذا جائز.. إنني أعرف ملامحها من الصورة.. وملامحها يمكن أن تكون هي لكنها كذلك تختلف نوعا..

عاد (تومى) إلى (لندن) ليبلغ الخبر السيئ لرئيسه مستر (كارتر).. قال له إن الأوراق الآن بالتأكيد في يد مستر (براون).. صدم الرجل لكنه قال للفتى:

- لا تبتئس يا بني.. لقد كنت تتعامل مع أكبر عقل إجرامي عرفه القرن، ودنوت جدا من النجاح.. لكن هذه ليست آخر الأخبار السيئة.

ثم في توجس قدم للفتى قصاصة من الجريدة، تتكلم عن العثور على قبعة خضراء عليها الحروف الأولى من اسم (توبينس).. وقد قذف بها المد جوار الساحل عند (إبيوري)..

كان هذا أكثر مما يتحمل (تومى).. نهض واتجه إلى الفندق.. (توبينس) بالذات المفعمة بالحيوية والمرح! لقد فقد كل شيء إذن.

لم يبق أمامه سوى البحث عن مستر (براون) وتمزيقه إربا.. وهنا اقتحم (جوليوس) الغرفة عليه حاملا الجريدة، وصاح:

- هذا لا يمكن أن يكون حقيقيا.

بكل المرارة قال (تومى):

- بل هو صحيح غالبا.. أما وقد حصل (براون) على الأوراق لم تعد حياة (توبينس) ذات قيمة..

ثم صاح في (جوليوس):

- الآن اخرج من غرفتي.. لا أريدك هنا أبدا.. أنت عرضت عليها الزواج وأنت لا تحبها، بينما أنا تربيت معها وأحببها بجنون يوما بعد يوم.. لم أكن أملك المال الذي يسمح لي بمنحها ما أريد من رغد وجئت أنت لتقدم عرضك المسموم.. الآن لا أريد إلا أن تغرب عن وجهي وتعود لابنة عمك العزيزة..

أوشك الرجلان على تبادل اللكمات، وبصعوبة تمالكا نفسيهما.. في النهاية انصرف (جوليوس) حانقا..

اتصل (تومى) بخدمة الغرف، وطلب أن يأخذوا حقائبه من الغرفة، فسأله العمال:

- إلى أين يا سيدى؟

- إلى الجحيم..

قال العمال في أدب:

- حسن يا سيدي.. سناتى حالا!

بحث عن ورق الكتابة فلم يجد، وقرر أن يذهب إلى جناح (جوليوس) ليجد ورقا هناك، كان متأكدا من أن (جوليوس) ليس بالجناح، مما يوفر عليه عناء مواجهة ثانية.. فتح الدرج ليبحث

فيه، هنا وجد صورة فوتوغرافية لفتاة.. نظر فيها مرتين ثم تساءل:

- لماذا يضع (جوليوس) صورة الفتاة الفرنسية (أنيت) في درجة؟

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع عشر

جوليوس يساعد

في جناحه في فندق (كلاريدج) جلس (كرامينين) على أريكة يملي بالروسية على سكرتيره. دق الهاتف فأصغي السكرتير ثم استدار إلى مخدومه:

- هناك من يدعي (جوليوس هيرشايمر) يطلب مقابلتك..

فكر (كرامينين) قليلا محاولا تذكر الاسم، فقال السكرتير الذي كان عمله أن يعرف كل شيء:

- أبوه كان من ملوك الصلب في أمريكا.. لا بد أن الرجل مليونير عدة مرات..

فكر الرجل قليلا ثم أمر السكرتير بإحضار القادم.

عاد السكرتير مع (جوليوس) الذي قال له بحدة:

- يسرني لقاؤك يا سيدي.. لكن الموضوع شخصى.. فهل لنا أن نتكلم على انفراد؟

أمر الروسي سكرتيره بالانسحاب إلى غرفة جانبية، لكن الأمريكي قال بحدة:

- الغرفة الجانبية لا تصلح.. أنا أعرف هذه الأجنحة لذا أريدك أن ترسله إلى المتجر لبيتاع بعض الفول السوداني..

بدا الفضول على الروسي وإن لم يتذوق الدعابة، لذا أمر السكرتير بالذهاب إلى السينما، لأنه ليس بحاجة إليه هذه الليلة، ثم بعد انصرافه استدار إلى (جوليوس) طالبا منه أن يدخل في الموضوع فقال هذا:

- ليس أبسط من هذا.. والآن ارفع يديك أو أطلق الرصاص عليك!

للحظة نظر (كرامنين) في غباء إلى المسدس الضخم، ثم رفع يديه فوق رأسه. وصاح في هستيريا:

- هذه فضيحة! هل تريد قتلى؟ إنني شخصية عظيمة الأهمية في وطني.. ولو أنك...

- أعرف أن الرجل الذي سيسمح لضوء النهار بدخول جسدك إنما يسدي خدمة عظيمة للبشرية، لكني لا أنوي عمل هذا إن ظللت عاقلا.

- ماذا تريد؟

- أريد (جين فين).

- لم أسمع عنها قط..

- أنت كاذب قذر! أنت خائف من مستر (براون).. لكن دعني أؤكد لك أن هذا المسدس خطر عاجل أكيد، ولو كنت مكانك لتجنبته وخاطرت يحظي مع مستر (براون).

- لو قتلتني ستشنق.

- أنت تنسى ثروتى يا عزيزى.. سيدافع عني حشد من المحامين، وسيثبتون أن قواى العقلية مختلة وعندها سأقضى بضعة أشهر في مصحة ثم أعود للعالم مسرورا لكوني خلصت العالم منك..

صدقه الرجل.. أدرك (جوليوس) أنه من النوع الجبان، وهذا بالتأكيد سيجعل الأمور أيسر.. وتكلم الروسي في تردد:

- إنها في (جيتهاوس).. (أستلى برايورز).

- ومعها فتاة أخرى تدعى (توبينس)؟

- كلاهما هناك..

- جميل.. هذه ليلة مناسبة للانطلاق.. سنذهب الآن لنحضرهما.

صاح الثاني في هلع:

- أنا لن أذهب معك!
- وهل تحسبني طفلا كي أتركك هنا لتتصل برفاقك بمجرد خروجى؟ سترتدي ثيابك حالا ونغادر المكان إلى سيارتي.. وإلا صار هناك نحت جميل لوجهك بالكبريت والرماد..
وهكذا خرج الرجلان إلى السيارة حيث كان سائق (جوليوس) ينتظرهما.. كان السائق بحارا إنجليزيا قديما لا يطيق الروس، وانطلق الجميع إلى (جيتهاوس). طلب (جوليوس) من السائق أن يبقى المحرك متأهبا للانطلاق، وتحت تهديد المسدس المختبئ تحت سترة (جوليوس) هبط الروسي من السيارة، وقرع الباب المقصود، وطلب من الخادم أن يحضر الفتاة حالا لأنه لا وقت يضيع.
هبط رجل من أعلى الدرج، وكان هو (وتنجتون) نفسه، فما إن رأى الروسي حتى صاح:
- ماذا؟ أنت تعرف الخطة بالتأكيد.
هنا قاطعه (كرامينين) في ذعر:
- الخطة تغيرت.. لقد خاننا أحد!هات الفتاتين حالا ولنفر بجلدنا!
نظر له (وتنجتون) في عدم فهم، ثم سأله:
- هل لديك تعليمات (منه)؟
- طبعا.. وإلا كيف آتي هنا؟
وهكذا خرجت الفتاتان وقد ارتدت كل منهما عباءة على كتفيها، واتجهتا نحو السيارة.. في هذه اللحظة بالذات سقط شعاع ضوء على وجه (جوليوس) ورأى رجلا على الباب ينظر له.. أدرك أن أمره انكشف فصاح في السائق أن ينطلق.
وثبت الفتاتان والروسي في السيارة في اللحظة التي التمع فيها ضوء خاطف من سلاح ناري، ثم دوى صوت طلقة كادت تجرح

أطول الفتاتين.. أخرج (جوليوس) مسدسه وأطلق بالمثل بعض عيارات، بينما السيارة تنطلق مبتعدة بأقصى سرعة.. صاح في السائق:

يحتاجون إلى خمس دقائق ليلحقوا بنا.. لابد أنهم سيتصلون هاتفيا أولا.. عليك بالطرق الجانبية غير المطروقة إذن.. هل أنت بخير يا (توبينس)؟

قالت (توبينس):

- بخير.. لم تصبني الرصاصة.. لكن كيف استطعت أن تقنعهم بإطلاق سراحنا؟

أشار إلى الروسي وقال:

- بفضل (ويليام) ومعونة صغيرة من صديقى المستر (كرامينين)!

صاح الروسي:

- كف عن هذا! لقد انتهى أمري وخنتهم.. أريد أن أنزل هنا حالا!

- كنا نأمل أن نوصلك إلى لندن معنا.

- لندن؟ أنتم لن تبلغوا لندن أبدا! أنزلونى هنا.

وقبل أن يتوقف السائق فتح الروسي الباب واختفى في الظلام.. قال (جوليوس) ساخرا:

- متلهف جدا على الرحيل حتى إنه لم يودعنا..

سألته (توبينس):

- أين (تومى)؟

- (تومى) ينوي الهجرة لأنه يحسبك قد هلكت..

- كدت أدنو من ذلك.. وحين استدعوني أنا و (أنيت).

نظر إلى الفتاة الثانية وقال:

- (أنيت)؟ أهكذا تسمونها هنا؟

وبدأ يحاول ترتيب الأحداث في ذهنه.. ثم قال:
- البائسة تحسب أن اسمها هكذا.. لأنها فقدت الذاكرة، أما اسمها الحقيقي فهو (جين فين)!
في اللحظة التالية برز إنسان من بين الأشجار وسرعان ما تبينوا أن هذا (تومى)! أوقفوا السيارة وأركبوه معهم، ولم يكن هنا وقت لتبادل العواطف أو الأسئلة لأن (تومى) قال بلهجة جدية:
- توجد محطة قطار قريبة من هنا.. سننزل الفتاتين!
صاح (جوليوس) في ذهول:
- هل جننت؟ تريد أن ننزل من السيارة؟
- بل هما.. أما أنا وأنت فسنظل في السيارة.. إن فرصتيهما في النجاة أفضل هكذا..
- لكن....
لم يجد (جوليوس) الوقت للاعتراض، لأن (تومى) انتزع المسدس من جيبه وصوبه إلى رأسه:
- الآن ترى أنني لا أمزح.. فلتنزل الفتاتان حالا ولتتوجها إلى السير (جيمس إدجرتون) في لندن فهو قادر على حمايتهما..
صدع (جوليوس) بالأمر وهو لا يفهم شيئا.. فما إن ابتعدتا حتى صاح (تومى) في (جوليوس):
الآن يجب أن أفهم أمرك يا مستر (جوليوس هيرشايمر)!

☆ ☆ ☆

الفصل العشرون

قصة جين

أخيرا وبعد رحلة مليئة بالتوترات والفزع، وصلت الفتاتان سالمتين إلى بيت السير (جيمس).. رحب الرجل بـ (توبينس) بشدة وهو الذي كان يحسبها ميتة.. ثم نظر إلى الفتاة التي معها وتساءل:

- أعتقد أنك غالبا مس (جين فين)؟

هزت رأسها أن نعم، وقررت - برغم اعتراضه - أن تحكى قصتها فى الحال.. جلس على أحد المقاعد الشيزلونج الطويلة يصغي لها:

- ركبت (لوزيتانيا) بحثا عن عمل في (باريس)..

كنت قد درست الفرنسية وقال معلمي إن بوسعى الالتحاق بمستشفى في باريس.. وتبادلت مراسلات عدة حتى قبلوني.. ثم كان ما كان من غرق السفينة بعد ضربها بالطوربيد، حين أعطانى مستر (دانفرز) بعض الأوراق المهمة. وفي طريقي إلى (هولى هيدز) بالقارب تعرفت امرأة تدعى مسز (فاندمير)، كانت تعنى بى عناية خاصة.. لكني لم أرتح لها كثيرا، ولاحظت أنها تتحدث مع رجال غير مريحى المنظر عني.. تذكرت أنها رأت (دانفرز) وهو يعطيني الأوراق على ظهر (لوزيتانيا)..

خطر لي أنهم سيحاولون سرقة المغلف منى، لذا فتحته ووضعت بداخله ورقة بيضاء.. بعد هذا فتحت إحدى المجلات ووضعت الوثيقة الحقيقية بين صفحتين من صفحاتها، ثم ألصقت حواف الصفحتين بالصمغ، ليبدو الأمر كانها صفحة واحدة، واحتفظت بالمجلة معى.

في طريق العودة بالسيارة حاولت أن أبتعد عنها، لكن كان هناك دائما زحام مريب من الناس يرغمني على الركوب معها.. وفي الطريق تلقيت ضربة على رأسى فلم أدر أين أنا..

أفقت من الغيوبة لأجد مجموعة من الرجال حولى وبينهم تلك السيدة (فاندمير)، وأدركت أنهم اختطفونى إلى ما يشبه زنزانة السجن.. وفهمت من كلامهم أنهم حائرون بصدد الوثيقة.. هل أخفاها (دانفرز) وأعطاني وثيقة مزيفة لتضليلهم أم أنني أنا التي أضللهم.. وراحوا يتكلمون عن نيتهم لتعذيبي.. اتخذت قرارى بسرعة البرق.. رحت أنظر حولى في ذهول وأتكلم بالفرنسية.. وأثار هذا دهشتهم. بدءوا يسألونني بالفرنسية عما دهانى، فأبديت ذهولا بالغا، وقلت إنني لا أعرف أي شيء ولا أذكر شيئا.. وهكذا استنتج القوم أن الضربة أثرت على عقلى، وأنني لم أذكر التفاصيل..

خضعت لمحاولات عنيفة واستجوابات كثيرة.. كانوا يشكون في أنني أخدعهم لكني تماسكت.. وأخيرا تركوني في حجرة مظلمة ليس فيها إلا بعض لوحات على الجدار تمثل مشاهد من مسرحية (فاوست)..

هنا صاح (إدجرتون):

- نفس البيت في (سوهو) الذي وصفه مستر (بيرسفورد)..

- وخطر لي أنه يجب أن أضع الوثيقة في مكان أمين، لكني كنت أشك في أنهم يراقبون الحجرة، لذا انتظرت حتى ساد الظلام وتحركت فيه بخفة.. انتزعت لوحة من على الجدار، فمزقت ظهرها وانتزعت الصفحتين الملصقتين في المجلة، ودسستهما بمحتواهما النفيس خلف بطانة اللوحة.. هكذا لم يعد من الممكن أن يشك أحد في كون الوثيقة معي في نفس الغرفة.

بعد هذا اصطحبتني السيدة (فاندمير) عبر كل الأماكن التي مررت بها من قبل.. كانت تأمل أن أسترد الذاكرة، ثم أرسلوني إلى مصحة عقلية في (بيرنماوث) عساي أسترد الذاكرة هناك.. صار التظاهر بالنسيان واللغة الفرنسية عادة ثانية عندى، وتدريجيا بدأت بالفعل أنسى أنا نفسى كل شيء عن ماضيّ.. وأصابني هذا بفزع شديد.. وهكذا مرت أعوام طويلة عليّ في جحيم متصل.

ذات ليلة اخذوني إلى لندن إلى ذات البيت في (سوهو)، وهناك قمت بالعناية بمستر (بيرسفورد) الذي كان سجينا هناك..

- والوثيقة؟ هل ما زالت في ظهر الصورة؟

- نعم..

نظر السير (جيمس) إلى ساعته ونهض قائلا:

- هلما.. يجب أن نهرع إلى هناك..

- الآن؟

- ولم لا؟ أخشى أن يسبقنا مستر (براون) كالعادة.. وكالعادة سيتخذ مظهر صديق.

نظرت له (توبينس) في تردد ثم نظرت إلي (جين فين).. وقالت:

- أنت تعرف من هو مثلي.. أليس كذلك؟

- بلى.. ومتأكد مما أقول.. حين ماتت مسز (فاندمير) لم يكن هناك في الشقة سوى أنا وأنت ومستر (هيرشايمر). هو من أعد لها الشراب الذي شربته فلم تفق.. تذكري نظرة مسز (فاندمير) المذعورة حين دخل شقتها.. ثم بعد هذا اتصل بي مستر (بيرسفورد) وقال لي إن صورة (جين فين) لم تغادر قط درج المستر (هيرشايمر).. لقد كان مستر (هيرشايمر) يكذب من البداية.

هنا صاحت (جين):
- ماذا تحاول إثباته؟ أن (جوليوس) ابن عمي أنا هو المستر (براون)؟
- لا يا مس (هيرشايمر).. أعني أن الرجل الذي يدعي نفسه (جوليوس هيرشايمر) لايمت لك بصلة.

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي والعشرون

مستر براون

دوت كلمات السير (جيمس) كأنها قنبلة وتبادلت الفتاتان النظرات. نهض الرجل إلى المنضدة فالتقط جريدة وناول (توبينس) إياها.. كانت تتحدث عن جثة مشوهة مجهولة وجدت في نيويورك.. وقال:

- خطرت لي فكرة حين قرأت هذا الخبر.. من السهل أن نفترض أن مستر (براون) عرف أن (جوليوس) يبحث عن ابنة عمه، من ثم أرسل من يقتله وهو ما زال في (نيويورك) ويشوه وجهه ثم انتحل شخصيته وجاء إلى إنجلترا يبحث عن (جين فين)، وهو وضع متميز يعطيه الفرصة في معرفة اتجاه تفكير خصومه.. إن مس (توبينس) ترى الرأي ذاته..

نظرت (جين) إلى (توبينس) فوجدتها مرتبكة تقول:

- الحق أنني شعرت بشكوك فيه.. لكني لم أفهم قط: إذا كان هو مستر (براون) فلماذا جاء لينقذنا؟

قال السير (جيمس):

- ألا تعرفين؟ أنا أعرف.. كان لا بد من إطلاق سراحك بشكل لا يثير شكوكك.. لا بد من أن ينقذك (جوليوس) بطريقة ميلودرامية مسرحية.. الرصاص ينطلق لكنه لا يصيب أحدا.. وبعد ما تطمئنين إليه ربما تذهبين معه للتأكد من مصير الوثيقة..

همست (توبينس) في رقة:

- و(تومى)؟

- لست متفائلا جدا.. إنه مسلح، لكن الأمر يحتاج إلى ما هو أكثر من رجل واحد ومسدس للتعامل مع مستر (براون)! سنذهب معا إلى (سوهو) لكني أقترح أن تظل مس (فين) هنا فهى مرهقة.

قالت (جين فين):

- بالعكس.. إن الأوراق أمانة لدى ويجب أن أكون معكما حين تبحثان عنها.. وانطلقت سيارة السير (جيمس) إلى (سوهو).. وكان المنزل محاطا برجال الشرطة ورجال الخدمة السرية، تحدث قليلا مع أحد الضباط ثم أخذ منه مفتاحا وقال لها:

- لم يدخل أحد البيت.. ولو حاول أى أحد أن يفعل سيعتقلونه حالا .

دخل الثلاثة إلى البيت المظلم العطن.. لم تستطع (توبينس) أن تقاوم الشعور بأن هناك من يتلصص عليها.. الشعور بأن السلم يصدر صريرا أكثر من اللازم.. وذلك الشعور الرهيب بأن مستر (براون) في البيت معهم!

أخيرا دخلوا إلى الحجرة التي سُجنت فيها (جين فين) وبعدها (تومى).. اتجهت (جين فين) إلى اللوحة على الجدار فانتزعتها، وناولها سير (جيمس) مطواة فشقت ظهرها واستخرجت ورقتي المجلة الملتصقتين.

مزقت الحواف وأخرجت الوثيقة.. الشيء الحقيقي هذه المرة بلا خداع!

صاحت (توبينس):

إنها الوثيقة! لقد نجحنا..

كرر سير (جيمس) كلماتها وأخرج حافظته ليدس فيها الورقة، قال وهو يتأمل الغرفة:

- يالها من غرفة كئيبة! هنا إذن كان (تومى) حبيسا.. حقا كان من المستحيل أن يسمع أحد صراخه من الخارج..

ارتجفت (توبينس) إذ أحدثت كلماته رعبا غامضا في نفسها.. نظر إليها وقال:

- ألا تشعرين معي أن مستر (براون) في المنزل؟

ابتسمت في عصبية.. الحق أنها كانت تشعر بهذا طيلة الوقت.. لكن من المستحيل أن يكون هذا صحيحا لأن البيت محاط برجال الشرطة.. لكن السير (جيمس) أردف:

- ألا تشعرين معي أن السير (جيمس) في هذه الغرفة؟ بلى.. لا أشك في هذا.. إن المستر (براون) هنا!

وبلهجة باردة قال:

- أنا هو المستر (براون)!!

نظرت الفتاتان له غير مصدقتين، فقال:

- نعم.. وكلتاكما لن تترك البيت حية.. هل تريدان معرفة ما سيحدث؟ ثلاث طلقات ثم يدخل رجال الشرطة ليجدوا ثلاث جثث.. جثتان وشخص جريح هو أنا.. لقد باغتنا المستر (براون) هنا.. سيصدق البوليس قصتي وأن المعاهدة مع مستر (براون) ولن يحاول أحد البحث في جيبي..

ورفع المسدس وقال له (توبينس):

- كش ملك للمغامرين الصغار!!

هنا هوت يد من الحديد لتمسك به من الخلف، وأمسكت يد أخرى بالمسدس لتنزعه من يده، ودوى صوت (جوليوس هيرشايمر) يقول:

- الآن ضبطناك ويداك ملوثتان بالدم!

حرر يده من الممسكين به واستدار ليجد (تومى) واقفا جوار (جوليوس)، فرفع يده التي يثقلها الخاتم إلى شفتيه كأنما

يأمرهما بالتزام الصمت، وقالّ باللاتينية:

«التحية لقيصر! إن من سيموت يحييك!»

وهوى على الأرض في الحال، بينما امتلأ المكان برائحة اللوز المر..([3])

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني والعشرون

حفل كبير في سافوى

كان الحفل الذي أقامه (جوليوس هيرشايمر) في سافوي لأصدقائه حفلا أسطوريا سيذكره القوم طويلا.. لقد أعطى للفندق حرية التصرف، وحين يعطى مليونير لفندق حرية التصرف فإنه ينالها!

كان اليوم التاسع والعشرون - يوم العمال - قد مر كأي يوم آخر، ولم تحدث إضرابات من التي تنبأت بها الصحف في حماس.. فقط بضعة خطابات في ميدان (ترافلجار) وبعض مظاهرات شيوعية.. وفي صحف الإثنين كان هناك خبر بسيط عن وفاة السير (جيمس إدجرتون) مستشار الملك. كما تنبأ (تومى) كان كل هذا استعراض رجل واحد، وبمجرد وفاة الزعيم فر (كرامينين) إلى روسيا، وتفرق باقي أفراد العصابة..

اليوم يحتفل (جوليوس) مع أصدقائه بنهاية هذه المغامرة..

قال ل (تومى):

- ما زلت لا أفهم كيف خُدعت أنت و(توبينس) وشككتما في أمري..

قال مستر (كارتر) الذي كان مازال حائرا بعد أحداث حي (سوهو):

- لم تبدأ الفكرة عندهما، لكنها دست لهما ببراعة كالسم.. كان موضوع القتيل في (نيويورك) هو ما أوحى ل (إدجرتون) بهذا كله.. وقد حرك الخيوط ببراعة لتحيط بك..

- أنا لم أحبه قط.. كان هناك دوما شيء ما لا يريحني فيه.. لكنني بدأت أشك حين قرر أفراد العصابة قتل (تومى) بمجرد أن

قابلنا السير (جيمس إدجرتون).. هذا هو التغيير الوحيد الذي حدث.

قال (تومى) بدوره:

- أما أنا فكنت - بعد مصرع مسز (فاندمير) - أشك في السير (جيمس) أو (جوليوس).. ثم كان أن وجدت صورة (جين فين) في الدرج.. الصورة التي زعم (جوليوس) أن مستر (براون) أخذها منه.. جعلني هذا أشك في (جوليوس)، ثم تذكرت أن السير (جيمس) هو من وجد (جين فين) المزيفة.. قررت أن أختبر الرجل، وأرسلت له الفتاتين حين كنا نحاول الهرب.. كنت أعرف أنه سيرحب بهما ثم يصحبهما إلى بيت (سوهو)..

وكان آخر شيء رأته الفتاتان هو منظري وأنا أهدد (جوليوس) بالمسدس.. هذا انطباع كنت أود أن تنقلاه إلى السير (جيمس) ليعتقد أنني أشك في (جوليوس). بمجرد ابتعادهما حكيت كل شيء لـ (جوليوس) وانطلقنا بالسيارة كالمجانين إلى لندن.. حيث التقينا بمستر (كارتر) وأخذناه معنا إلى بيت (سوهو)، وكان لدى البوليس تعليماته أن ينكر تماما دخول أحد البيت.. في الداخل توارينا في فجوة الجدار التى تواريت أنا فيها من قبل وانتظرنا..

هنا قال (جوليوس):

- بالمناسبة.. صورة (جين فين) هذه قد سرقت مني فعلا لكني وجدتها..

- أين؟

- في خزانة مسز (فاندمير) حين فتحتها..

مد المستر (كارتر) يده إلى جيبه فأخرج مفكرة بنية صغيرة وقال:

- ما كنت لأصدق حرفا حتى قرأت هذه المفكرة التي يحملها السير (جيمس) في جيبه.. إنها ستئول إلى سكوتلانديارد، لكنني أود أولا لو قرأتم بعض الفقرات..

«من الجنون أن أحتفظ بهذا الكتاب معي لكنني أعرف أنه لن يؤخذ إلا من جثتي..

«منذ طفولتي كنت أعرف أن قدراتي العقلية خارقة.. فقط الأحمق هو من يسيء تقدير قدراته..

لم يكن يعيبني إلا مظهري الخامل. وذات مرة رأيت محاكمة برع فيها المحامي واستثار إعجابي حتى إنني وددت لو أعمل في هذا المجال للأبد. لكني اندهشت من حماقة وغباء وبلاهة المجرم، وأثار دهشتي أن الأذكياء والعباقرة لا يرتكبون الجرائم إنما يرتكبها الحمقي.. خطر لي أن ما أصبو إليه هو القوة.. قوة هائلة تقهر الأمم والبلدان.. جريمة عالمية خارقة الذكاء..

«وقررت أن أعيش حياتين.. أسبغت على نفسي شخصية مستشار الملك بقوتها ومغناطيسيتها الشديدة.. ارتديتها بسهولة كأنها قفاز»

وأغلق مستر (كارتر) الكتاب وقال:

- عبقري أو مجنون.. لا أحد يعرف.

عاد (جوليوس) بابنة عمه إلى الولايات المتحدة وقد أدرك أنه يحبها بحق منذ رأي صورتها، أما المغامران الشابان فقد ظفر كل منهما بشيك محترم من الحكومة.. وللمرة الأولى يعترفان بالحب لبعضهما ويتفقان على الزواج , وعرف (تومى) أن العرض الذي قدمه (جوليوس) لم يكن جادا وإنما كان من نوع (البزنس) وقد رفضته (توبينس) على الفور على كل حال.

مازالت (توبينس) تأمل في مزيد من المغامرات، لكن (تومى) قال لها إنهما نالا من المغامرة ما يكفي للوقت الحاضر

والمستقبل. إن الزواج مغامرات جميلة وخطرة أيضا

1922

☆ ☆ ☆

الغريم الخفي

من هو المستر (براون)؟ من هو ذلك الجاسوس الغامض الذي حير رجال سكوتلانديارد، وصار كابوسا لساسة انجلترا بعد الحرب؟ من صاحب هذا الطريق من الجثث؟ وكيف يسبق البوليس في كل مرة؟ هذا ما يحاول الشابان عديما الخبرة (تومى) و (توبينس) أن يعرفاه.. وبالتدريج يفهمان أن الجاسوسية ليست لعبة يمارسهاالهواة.. بالتأكيد لسيت لعبة يمارسها الهواة..

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

تكلمنا بشيء من التفصيل عن عالم المخبرين في الكتيب العشرين من سلسة فانتازيا (من فعلها؟)

[←2]

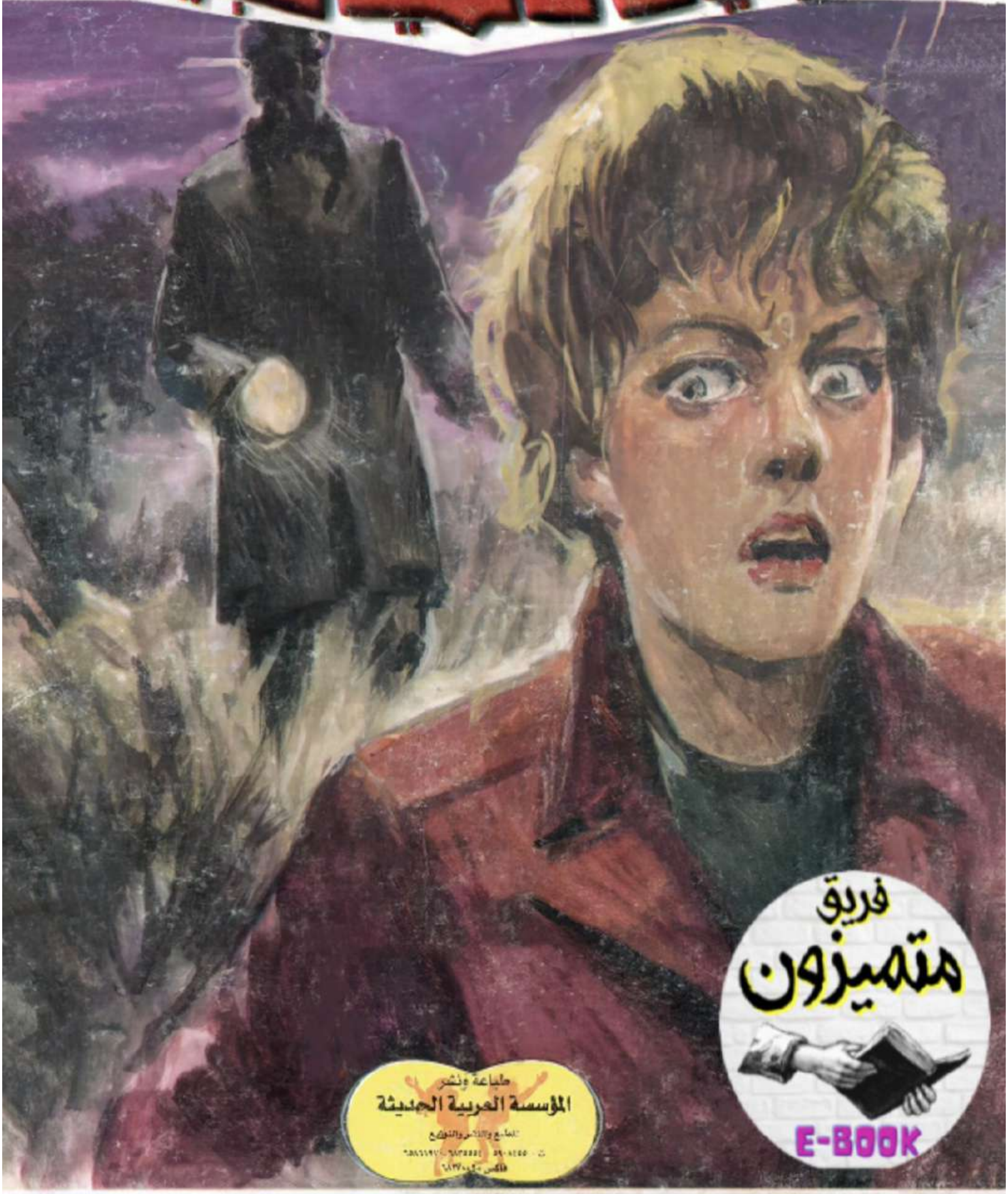
- يميل الغربيون إلى عدم ذكر الاسم الأول أو ما يسمونه بالأسم المسيحي، يذكرون اسم العائلة. فيقولون في الأعم: مسز (تاتشر) ويندر أن يقولوا مسز (مارجريت تاتشر). هكذا تكون معرفة الاسم الأول عسيرة غالبا.

[←3]

- أي أنه انتحر بمادة السيانيد.

39

روايات عالمية للجيب



قضية الذئب

بقلم : إيرل ستانلى جاردنر
ترجمة : د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (39)

قضية الذئب

بقلم: إيرل ستانلي جاردنر
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف

من جديد عالم المحاكم والقضايا والمحامين!

إن اسم الكاتب الأمريكي (إرل ستانلى جاردنر) هو الأكثر تألقا في هذا العالم، وإن طغت عليه - كما يحدث عادة - شهرة بطله المحامي (بيرى ميسون)..

ولد (جاردنر) في (ماساتشوستس) عام 1889، وقدم لنا على مدى حياته أعمالا لا حصر لها، استلهم أغلبها من عمله كمحام، وقد لعب (بيرى ميسون) بطولة أكثر من ثمانين رواية منها، كلها تبدأ بكلمة (قضية).. على غرار (قضية الابنة المزدوجة).. قضية المخالب المخملية).. إلخ...

وتحولت هذه الأعمال بلا استثناء إلى حلقات مسلسل تلفزيوني فائق النجاح، حيث قام الممثل (ريموند بار) بحفر هذه الشخصية في أذهان الناس..

☆ ☆ ☆

بعد إنهاء دراسته القانونية عمل (جاردنر) في جنوب (كاليفورنيا)، في الحي الصيني هناك. وقد تبين بوضوح مدى سوء معاملة الصينيين وتجاهل الحكومة لهم، من ثم راح يدافع عنهم في المحاكم، وتعلم لغتهم.. وقد أحبه القوم وأطلقوا عليه اسم (تاى تشونج تزى) أي (المحامي الكبير)..

تسبب انحيازه للصينيين في إفساد عمله كمحام في هذه الولاية، من ثم غادرها - وكان قد تزوج وأنجب - إلى مكتب محاماة ناشئ، وقد اشتهر بذاكرته الحادة التي تجعله يتذكر شهادة الشهود حرفيا مهما طالت، كما اشتهر بولعه بالصراع العقلي في المحاكم، ومقته الشديد لجو عمل المكاتب الروتيني..

في العام 1921 بدأ (جاردنر) يكتب رواياته الأولى، كمجرد سبيل للحصول على المال الذي يعينه إلى جانب المحاماة، ويقول عن قصصه: لم أكن أعرف شيئا عن الكتابة ولا الحبكة، وكانت قصصي أسوأ قصص تقرؤها (نيويورك).

لكنه بدأ يجيد الحرفة شيئا فشيئا، وتعلم الكثير من أخطائه..

وعام 1933 ولد (بيري ميسون) المحامي الشهير خارق الذكاء، هو وسكرتيرته المخلصة (ديلاستريت) التي تهيم به حبا سرا.. وكان نجاح الروايات لا يصدق..

لقد كتب (جاردنر) على مدى خمسة عقود أكثر من سبعمائة عنوان.. وأكثر من أربعمائة مقال وترجمت أعماله إلى 37 لغة، قدمت أعماله في ستة أفلام، و3221 حلقة إذاعية، و271 حلقة تلفزيونية، وعشرين فيلما تلفزيونيا..

مجموعة مبيعاته حول العالم 125 مليون نسخة، وفي الستينات كان يبيع 26 ألف نسخة كل يوم!

بقي فقط أن نقول إن (جاردنر) كان ملاكما ولاعب تنس وراميًا بارعا، وكان يجيد اللغة الصينية، وسافر إلى أكثر أرجاء العالم، وكان مربي خيول وكلاب، يجيد عمله، كما أنه كان من أفضل مصوري الحياة البرية، وعالما في الجريمة، وخبير حيتان، ومؤسسا لمحكمة (الملجأ الأخير) التي تدرس قضايا المساجين الذين يصرون على براءتهم.. وكان عالما في الجيولوجيا والفلك!

إنه شخصية عجيبة بحق..

لكن شخصية (بيري ميسون) أكثر إثارة للاهتمام!

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

-1-

كان المطر ينهمر في هذا الصباح، حين أوقفت (آرلين فيريس) سيارتها في ساحة الانتظار المحجوزة للعاملين بمكاتب الإدارة لشركة (لامونت) الهندسية..

نزلت من السيارة ومشت إلى الباب الجانبي الذي كُتب عليه (موظفون فقط)..

كان عليها أن تعمل نصف ساعة بعد انتهاء ساعات العمل، ولهذا حين ناولت إنجازها إلى (جورج ألبرت) مدير المكتب، نظر إلى الساعة وشكرها..

- عفوا.. كنت أعرف أن هذه الخطابات يجب أن تكون في بريد الليلة..

- ليست كل فتياتنا بهذا التفهم.. نحن بالتأكيد نقدِّر تفانيك في العمل..

- إن العمل الطيب يستحق التفاني..

وتمنت له ليلة طيبة..

كانت أضواء السيارات تلتمع على الرصيف المبتل في ساحة الانتظار، وهرعت (آرلين) إلى سيارتها وفتحت الباب، وأدارت بادئ الحركة..

أحيانا كانت السيارة تتأخر قليلا في الطقس البارد لهذا لم تقلق حين لم يدر المحرك ولم يستجب.. بعد دقيقة ونصف بدأت تقلق ودارت عيناها في ساحة الانتظار المهجورة أدركت أن البطارية معطلة ولا تعمل كما يجب.

فجأة جاءها صوت واثق يسأل:

- ما الموضوع؟ هل من مشاكل؟

أنزلت زجاج النافذة لتنظر إلى الرجل واثق العينين المبتسم.. قالت له:

- ثمة متاعب من المحرك..

- إذن دعي البطارية تسترح قليلا.. فأنت لن تفيديها بإرهاقها هكذا..

وفتح كبود السيارة ببراعة، ودس رأسه وكتفيه فيه.. وراح يتفحص المحرك ثم أغلق الكبود وعاد ليقول لها:

- لا شرارة.. هناك خطأ ما في النظام الكهربي، ولن يفيدك استنفاد البطارية بمحاولات البدء.. أخشى أنه لا يوجد ما يمكن عمله تحت الأمطار.. أعتقد أن عليك ترك السيارة هنا الليلة، وغدا في ضوء الشمس ربما دارت..

- ولكن..

أشرقت ابتسامة الرجل، وقال:

- بالضبط.. إن سيارتي هنا، ويسرني أن آخذك لبيتك.. هذا لو لم يكن بعيدا، وإلا أوصلتك إلى أقرب حافلة..

لم تحب (أرلين) شفتيه الموحيتين بالعبث، لكن عينيه كانتا معبرتين توحيان بالثقة، وقدرت أنه ما دام في ساحة الانتظار، فهو ينتمي للشركة، وبالتالي هو على ما يرام..

وحين رأت سيارته عرفت من هو.. إنه ابن (جارفيس) العجوز مالك الشركة.. كان في جنوب البلاد لفترة ولم يعد إلا مؤخرا.. اسمه (لورينج لامونت)..

فتح لها الشاب باب سيارته، فغاصت وسط الجلد الثري الذي يبطن السيارة من الداخل.. ثم ركب جوارها، وانطلقت السيارة بنعومة إلى حد أنها لم تدرك أنه أدار المحرك وخرج من ساحة الانتظار من أمام الحارس..

- ما هو عنوانك؟

أخبرته به، فقطب وقال:
- الحقيقة يا مس (فيريس) أنني كنت سأحضر بعض أوراق مهمة لأبي.. أنا آسف.. لقد نسيت
ما على من مسئوليات للحظة..
- لا مشكلة.. فقط خدني إلى حيث أجد سيارات أجرة..
- بل سأوصلك بمجرد أن أوصل هذه الأوراق.. إن السيارة دافئة مريحة.. يمكنك البقاء فيها وسماع الموسيقا أو أي شيء.. فقط سأتخلص من هذه الأوراق الكريهة.. وعلى كل حال عليّ أن أعود للمدينة بعد هذا..
- تعود للمدينة؟ هل مشوارك بعيد هكذا؟
ليس بسيارة سريعة كهذه..
كانت مترددة.. لكن دفء السيارة وراحتها كانا عظيمين.
انطلق (لامونت) إلى الطريق السريع، واستمر في القيادة ربع ساعة، ثم مشى في طريق ترابي يتعرج وسط التلال.. كانت تعرف أن للشركة استراحة في الريف، وأدركت أنه متوجه لها.. كان الطريق متلويا وثمة سلك شائك على الجانبين وفي النهاية عبرت السيارة بوابة.. ومشت عبر طريق مرصوف بالحصى، ثم توقفت أمام منزل مظلم قال (لامونت) في ضيق وهو ينظر إلى المنزل:
- يبدو أن شريك أبي ليس هنا.. كان عليه أن ينتظرني ليحصل على الأوراق.. ابقي هنا وسأدخل لأرى إن كان قد ترك لي مذكرة أو شيئا.. سأذهب لأري..
وتركها ومحرك السيارة دائر، ثم - بعد خمس دقائق - عاد لها معتذرا ليقول:
- ثمة مصاعب.. لقد تأخر شريك أبي في المدينة، وهو آت الآن.. أبي قال إن على الانتظار لأسلم الأوراق..
هلمي إلى الداخل ننتظره، فلن يطول الأمر.

- بلّ أنتظر في السيارة..
ضحك وقال:
- لا داعي للسخف.. ليس لدي وقود لأترك المحرك دائرا، ومن دونه لا تدفئة..
وفتح لها الباب.. فخرجت بعد لحظة تردد..
كان داخل المنزل موحا برفاهية تامة.. لكنها نظرت لساعة معصمها، وللمرة الأولى شعرت بالتوجس:
- يجب أن أعود للبيت الآن..
- لا داعي للعجلة.. ليس الأمر ملقا هكذا.. فالرجل آت حالا..
دق جرس الهاتف، فقطب جبينه واتجه ليرفع السماعة.. صمت بعض الوقت ثم قال: - هلم.. لقد انتظرت قدر الإمكان.. لكن.. لا أستطيع الانتظار أكثر يا أبي.. إن لدي موعدا مها و...
ثم وضع السماعة متضايقا، وقال لها:
- هذا أبي.. في أسوأ مزاج له.. قال إن عليّ الانتظار، وإن الرجل سيتأخر ساعة..
وقبل أن تحتج، تركها ودخل المطبخ.. سمعته يفتح باب الثلاجة ويغلقه.. ثم عاد لها وسألها:
- هل تحبين البسكويت؟ كلي كما تريدين بينما أعد بعض اللحم والبيض، ولسوف نتناول العشاء هنا.. آسف لإقحامك في هذا كله..
وفتح جهاز (الهاى فاى) فامتلأت الغرفة بالموسيقا.. ثم إنه أحضر المقلاة ووضع بها اللحم وكسر البيض.. هنا دق جرس الهاتف ثانية.
بيت عليه دهشة حقيقية واتجه إلى السماعة وبحذر قال:

- ألو؟ حسن.. O.K ... O.K لكن دعنا لا نناقش هذا الآن.. هلا انتظرت؟ لسوف أنقل الجهاز إلى غرفة أخرى..

وغادر الغرفة حاملا الهاتف، ليقوم بتركيبه في غرفة أخرى، فلم تسمع الكثير من المحادثة.

حين عاد بعد قليل أثار دهشتها التعبير الحيواني الوقح على وجهه، والذي استبدله بالتعبير المهذب المجامل السابق.. وقال لها:

- هلمي يا صغيرتي.. أنا لست منفرا إلى هذا الحد، أو على الأقل أحسب هذا.. وليكن في علمك أن الفتيات اللاتي كن لطيفات معي، نلن أرفع المناصب في الشركة..

سكرتيرة أبي على سبيل المثال حصلت على وظيفتها عن طريقي!

قالت له في هلع:

- هل تعرف ما أفكر فيه؟ أعتقد أنك خططت كل هذا من البداية لا أعتقد أن هناك شريكا لأبيك في طريقه لنا.. إن الفتيات في الشركة لا يتحدثن عنك بخير، وأعتقد أنك تحسب كل فتاة في الشركة حقا مشروعا لك..

ضحك وقال:

- هلا نزلت عن حصانك الشامخ هذا؟ لعلمك أنا من انتزع موزع الكهرباء من سيارتك.. وحين جئنا هنا نزلت وحدي من السيارة، وطلبت صديقا لي، وسألته أن يتصل بي بعد عشر دقائق. والآن يا صغيرتي إن مفاتيح السيارة معي، ولسوف تبقين هنا حتى أكتفي وأعيدك لدارك..

- أيها.. أيها الحيوان!

والتقطت مقعدا وقذفت به عبر الحجرة، ليضربه في أسفل بطنه.. ومن الواضح أنه لم يتوقع هذا قط.. بدت الدهشة على

وجهه، ثم سقط على الأرض يتلوى..

التقطت معطفها وركضت نحو الباب، وبعد دقيقة كانت تركض نحو الطريق الترابي خارج البيت.. المشكلة أن المفاتيح معه، ومن العسير أن تجد مواصلة من هذا المكان المهجور تعود بها للبيت..

تلاحقت أنفاسها فتوقفت عن الركض، ونظرت للوراء نحو البيت، لتجد أضواء كشاف تمسح الظلام من خلفها.. قررت أن تخرج من الطريق وأن تزحف عبر السلك الشائك على الجانبيين.. ثم توارت خلف شجرة بلوط..

الآن ترى كشاف السيارة.. إنها قادمة لكن ببطء شديد.. الآن ترى (لورينج لامونت) خلف المقود يتقدم حتى المكان الذي تتوارى فيه.. يترجل.. يتفحص الأرض في ضوء كشاف يحمله إنه ذكي.. خمن أنها لن تواصل الركض للأبد في الطريق الترابي، وحتما ستحاول أن تعبر السلك الشائك حيث تنتهي آثار قدميها..

وانتابها البرد والهلع.. الرجل يعرف بالضبط ما يفعله.. إنه قاس بارد مصمم..

في النهاية استعادت شجاعتها، وزحفت من جديد عبر السلك الشائك.. وكان هو يقف الآن حيث كانت منذ دقائق، فقد ترك كعبا حذاءيها علامات لا تخفى على الغبار المبتل.. لكن (لامونت) ارتكب خطأ قاتلا واحدا:

ترك المحرك دائرا والمفاتيح في السيارة..

وبينما كانت تزحف نحو السيارة، أدرك الرجل ما تزمع عمله.. وتصلب ضوء الكشاف على وجهها.. بدا الهلع على وجهه وصاح:

- لو لمست هذه السيارة ستذهبين إلى السجن!



وبينما كانت تزحف نحو السيارة ، أدرك الرجل ما تزمع عمله .. وتصلب ضوء الكشاف على وجهها ..

وثبت إلى السيارة وضغطت على دواسة البنزين لتنطلق.. وسرعان ما كانت العربة تندفع عبر الطريق كأنما تدفعها صواريخ.. كانت السرعة مدهشة حتى إنها كادت تهوى في خندق

على جانب الطريق، لكنها استعادت السيطرة أخيرا.. وبعد قليل أجادت السيطرة على كل تفاصيل العربة، كأنما كانت تقودها من دهور.

قادت السيارة لدارها، وأوقفتها هناك، ثم استبدلت بثيابها أخرى جافة.. ومدفوعة بروح من المرح بحثت في دليل الهاتف عن عنوان (لامونت)، وقادت السيارة إلى بيته، وأوقفتها بالضبط أمام مصفاة حريق، ومشت إلى الطريق العام كي تستقل سيارة أجرة لبيتها.

☆ ☆ ☆

-2-

كان اليوم التالي بهيجا مشمسا، وقد اصطحبت (آرلين) معها ميكانيكا ليفحص سيارتها.. وأكد أن جزءا من موزع الكهرباء قد انتزع.. ركب لها واحدا جديدا فدارت السيارة جيدا..

راحت تطبع على الآلة الكاتبة منتظرة استدعاءها إلى الإدارة.. هذه المرة لن ينجو (لامونت) بفعلته دعهم يحاولوا فصلها ولسوف تريهم أنها ليست سهلة..

عند الظهيرة اتخذت قرارها.. اتجهت إلى دليل الهاتف، وبحثت عن رقم المحامي الشهير (بيري ميسون)، وطلبت موعدا هذا المساء لموضوع عاجل ملح..

سألتها السكرتيرة عما إذا كان بوسعها المجيء في الثانية والنصف.. فوافقت.

وقبل الواحدة ببضع دقائق، اتجهت إلى مدير المكتب وطلبت إذنا لمدة ساعة، لأنها عملت ساعات إضافية أمس.. قال الرجل:

- المشكلة أن هذا يخلق سابقة.. بعض الفتيات يكون لديهن موعد مع طبيب الأسنان، وهذا يحتم علينا إعطاءهن الإذن.. لكن لو تساهلنا معهن عندما يطلبن الإذن للذهاب إلى الكوافير، فلن نعرف أبدا أين تتوقف الأمور..

ثم صمت قليلا وأضاف:

- نتوقع عودتك خلال ساعة..

- ساعة ونصف..

لم تستقل سيارتها، بل أخذت سيارة أجرة، حتى لا تضيع وقتا في البحث عن مكان للانتظار.. كانت راغبة في العودة في

الوقت المحدد، وإن كان هذا لا يعني الكثير لأنها تدرك أنه في هذا الوقت غدا لن تكون ضمن عاملي الشركة..

☆ ☆ ☆

-3-

فرغت (آرلين) من سرد قصتها، تتابعها عينا (ديللا ستريت) الشفوقتان..

وانتظرت أن يتكلم المحامي الشهير..

قال (ميسون) بوجه متصلب كالجرانيت:

- ماذا تريدين عمله بالضبط يا مس (فيريس)؟

- أريد.. أريد أن أبرهن له على أن المرأة العاملة جديرة بالاحترام، وكوني كاتبة اختزال لا يعني تلقائيا أنني ملك لابن صاحب الشركة المدلل..

- تريدين تلقينه درسا؟

- نعم..

- وكيف؟

- هذا ما جئتك من أجله..

- لو أردت أن تنتهي هذه القصة فسنفعل ذلك.. لكن الأمر لن يكون سهلا.. سيكون لديه محامون ولسوف يلقون بالوحل على سيرتك، وسيزعمون أنك حاولت ابتزاز الفتى الشريف وهو رفض.. وأنك نفذت حرفيا المقولة القديمة: المرأة التي تزدري تغدو غاضبة كالجحيم..

ابيض وجهها فجأة وتساءلت:

- هل يفعل هذا؟

- بالطبع سيفعل هذا.. لا تتوقعي من رجل كهذا أن يقول الحقيقة.. هل مازلت تريدين الاستمرار؟

- سأقاتل يا مستر (ميسون).. فما إن أبدأ حتى أستمر..

طلب (ميسون) من السكرتيرة أن تستدعى (بول دريك) المخبر الخاص، وقال لها:

قلت إنك تركت سيارة (لامونت) أمام مطفأة حريق.. هذا سيكلفه عدة مخالفات مرورية، ولسوف يحكي قصصا يفسر بها سبب تركه السيارة هناك.. من الممتع أن نقارن بين القصص التي سيحكيها الآن، وتلك التي سيحكيها في المحكمة فيما بعد..

هنا دق الباب، ودخل (دريك).. قال (ميسون):

- هذا هو (بول دريك) يا مس (فيريس).. إن وكالته تقوم بأبحاثي كلها، ومكاتبها في الطابق السفلى من هذا المبني.. لسوف يروق لك برغم بساطته..

جلس (دريك) بعد التعارف، فقال له (ميسون):

- (دريك).. أنت تعرف شركة (لامونت) طبعا..

لقد توقفت سيارة (لورينج لامونت) أمام مضخة حريق أمس.. أريد معرفة متى تحركت ومن فعلها.. وماذا قال (لامونت) في تبرير تركها هناك.. وأين قضي ليلة أمس.. أريد معرفة هذا كله قبل أن يعرف أن تحقيقا يجري هنا..

التقت عينا (دريك) بعيني (ميسون)، ثم قال:

- ربما كان على أن أنتحى بك جانبا، لكن أعتقد أن الوقت لم يعد يسمح بذلك.. لقد قُتل (لورينج لامونت) ليلة أمس!

اتسعت عينا (ميسون)، وأطلقت (آرلين) شهقة.

قال (دريك):

- وجدوا جثته في استراحة الشركة، وثمة طعنة سكين في ظهره..

- وهذا كل شيء؟

- نعم..

- إذن فارحل الآن.. ثمة محادثة مهمة بيني وبين عميلتي.. والمحادثات بين محام وعميله مكفولة السرية بشرط عدم وجود طرف ثالث..

هز (دريك) رأسه وغادر المكان، هنا قال (ميسون):
- الآن لنبدأ سريعا.. هل قتلته؟
فهزت الفتاة رأسها نفيا.
- ومتي رحلت من هناك؟
- لا أدري.. ربما حوالي السابعة مساء..
هل قمت بضبط مرآة الرؤية الخلفية في سيارته وأنت تقودينها؟ إنها أكثر أجزاء السيارة حساسية لبصمات الأصابع..
- نعم..
- هل تمزقت ثيابك وأنت تعبرين السلك الشائك؟
- نعم.. وهي في شقتي الآن.. في سلة الغسيل..
- هل من آثار دم على الثياب؟
نعم.. والكثير من الوحل من جراء المرور عبر السلك...
- حسن.. أريد مفتاح شقتك الآن.. أريد أن تعطيني ترخيصا بدخول شقتك، وعمل أي شيء أجده مناسبا..
فتحت حقيبتها وناولته المفتاح وتساءلت:
- هل تنوي أخذ الثياب من هناك؟
- لا بحق السماء! هذا سيكون تلاعبا بالأدلة.. سأجعل الشرطة تتلاعب هي بنفسها.. أحاول كسب الوقت قبل أن يستجوبك رجال الشرطة، ووقتها سيكون عليك أن تتعاوني.. عليك أن تبتعدي عن رجال الشرطة، لكن عليك كذلك ألا تهربي.. ثمة فارق هنا.. هل تفهمين؟
- لست واثقة من ذلك..
- ليكن.. أريد أن تعودي للشركة وتعملي على أن تُطردي بأسرع وقت ممكن.. هل لديك صديقة دانية من هنا؟
- لدي واحدة في (سانتا مونيكا)، واسمها (مادج إلوود)..
- كيف تبدو؟

- إنها ملكة جمال، وبرغم هذا ثمة تشابه معين بيننا.. بعض الناس يحسبونني هي..

- وما عملها؟

- إنها سكرتيرة، لكن لها اتصالات مهمة.. وعن طريقها حصلت على عملي بمجرد مكالمة هاتفية.. وقد فزت بالوظيفة بينما جلست أخريات ينتظرن دورهن..

هز (ميسون) رأسه وقال:

- ليكن.. اعملي على أن طردي، ثم اتصلي بـ (مادج إلوود).. قولي لها إنك فقدت عملك، واذهبي لتبقى معها في (سانتا مونيكا).. لا تخبريها بتفاصيل.. فقط قولي إنك متضايقة بحيث لا ترغبين في الكلام.

- قد أخبرتها بكل شيء هاتفيا ليلة أمس.. وكانت تموت ضحكا حين أخبرتها بتركي سيارة (لامونت) أمام مطفأة الحريق.

كان (ميسون) يفكر، وقال لها:

- اتركي عنوان صاحبتك ورقم هاتفها لدى مس (ستريت).. والآن اذهبي واجعليهم يطردونك من الشركة..

☆ ☆ ☆

-4-

في الخامسة والنصف، جاء (بول دريك) ليبلغ (ميسون) بأشياء جديدة:

- من الواضح أن شركة (لامونت) هذه تمارس عملا سريا معينا.. يوجد موظف أمن في كابينة لا يسمح بدخول أية سيارة لا تضع ملصق الشركة على الزجاج، وهو لا يهتم كثيرا بالسيارات المغادرة..

يذكر هذا الرجل أنه رأى (لورينج لامونت) يرحل في السادسة والربع، ومعه فتاة شابة.. لقد أعطى رجال الشرطة وصفا عاما لهذه الفتاة.. يعتقد رجال الشرطة أن (لامونت) اصطحب الفتاة إلى استراحة الشركة في الريف، وأعدا بعض اللحم والبيض للعشاء، ثم بعد العشاء تشاجرا من ثم طعنته الفتاة في ظهره..

من الواضح لرجال الشرطة أن الفتاة ليست سوى موظفة بالشركة، ظلت تعمل بعد ساعات الدوام.. لن يطول الوقت قبل أن يجدوها، وأنا أرى أن تحكى الفتاة قصتها، وأنها كانت تدافع عن نفسها قبل أن يتهموها..

- طعنته دفاعا عن نفسها.. في ظهره؟! شكرا يا (بول).. أريد معرفة مكان تلك الاستراحة..

- ليكن.. لكن لا تدع صديقنا الملازم (تراج) يراك هناك، فهو يعمل في هذه القضية، ولن يصعب عليه أن يستنتج ما يجري.

بعدما انتهى (دريك) من مهمته، غادر المكان، فالتفت (ميسون) إلى سكرتيرته وسألها:

- هل عندك رقم (مادج إلوود) هذه؟ صديقة (آرلين)..

- حالا..

جاء صوت (مادج) من الطرف الآخر للهاتف، فقال (ميسون):

- أنا المحامي (بيري ميسون).. لكن من فضلك لا تلفظي اسمي.. هل (آرلين) عندك؟ نعم؟ هل أخبرتك بقصتها؟

- نعم. نعم.. أنا معجبة بك جدا.. لكن..

- اكتفى بالإجابات التي لا تدل على شيء.. هل تعرفين شقة (آرلين فيريس)؟ قولي لها إنك ستخرجين لأن عندك موعدا مهما، واجعليها لا تغادر شقتك حتى تعودي لها.. قودي سيارتك إلى مسافة مربع سكني من شقتها.. أشعلي لفافة تبغ كي يسهل على أن أتعرفك لو لم ألحق بك خلال ثلاث ثوان، استمري في المشي أمام البناية وعودي لسيارتك، وانسي كل شيء.. هل هذا مفهوم؟

وضع السماعة، وودع (ديللا ستريت)، وقاد سيارته إلى مسافة تبعد مربعين سكنيين عن بناية (آرلين فاريس).. أخرج الكاميرا من السيارة ووقف أمام البناية..

بعد دقائق ظهرت شابة تمشي الهوينى أمام الرصيف، وتوقفت متظاهرة بأنها تريد إشعال لفافة تبغ.. فخطا (ميسون) نحوها:

- (ميدج إلوود)؟

- مستر (ميسون)؟

- لو كنت راغبة في مساعدة (آرلين)، سنقصد شقتها حالا..

- لم تشرح لي شيئا بعد يا مستر (ميسون)..

- هذه ملاحظة ممتازة منك، ودقيقة تماما.. نعم لم أشرح شيئا.. والآن هيا إلى شقة (آرلين)..

صعدا في الدرج، وناولها المفتاح وطلب منها أن تفتح باب الشقة.

- يجب أن تثقي بي..
- قد فعلت هذا من وقت طويل..
أمرها أن تدخل، وتبحث عن بعض ثياب (آرلين) وترتديها، لأنه يرغب في التقاط بعض الصور.. وأبدى ملاحظة عن الشبه الكبير بينها وبين (آرلين)..
- من الغريب أن أكثر الناس يحسبوننا شقيقتين..
التقط (ميسون) لها بعض الصور، ثم دخلت لتبدل ثيابها.. عادت له مرتدية ثياب (آرلين)، فتناول التنورة التي كانت تلبسها وأحدث فيها تمزيقا بمطواة يحملها في جيبه، ثم دس القطعة الممزقة في جيبه.
هنا نظر من النافذة، فرأى سيارة شرطة تتوقف أمام البناية.. قال لها:
- حسن.. لقد حان الوقت.. إن الشرطة هنا فلنرحل..
وهرعا يهبطان في الدرج طابقين.. ثم إنه أمرها بالتوقف:
- سنجلس هنا وننتظر..
- وماذا لو مر بنا أحد السكان؟
- سننخرط في محادثة هامسة.. أنا لن أحصل على الطلاق قبل شهرين، وأنت لن تظلي للأبد تنتظرين أن أتزوجك.. سنشعل اثنتي عشرة لفافة تبغ ونتركها تحترق على الأرض، لتكون دليلا على أننا قضينا هنا ما يزيد على النصف ساعة.
- أرجو أن تكون عالما بما تفعله..
- أحاول أن أتلاعب بالعرض القانوني [1].. أعتقد أن شخصا ما سيتعرف أي مشتبه فيه يشير إليه رجال الشرطة، باعتباره كان في السيارة مع شخص آخر..

جلسا متلاصقين على درجات السلم، وراح (ميسون) يشعل لفافة تبغ تلو أخرى، ويتركها تحترق على الأرض، ثم يسحقها بحذائه: مر نصف ساعة، فقال لها (ميسون):

- الآن اهبطي في الدرج إلى الطابق الثاني.. ثم استقلي المصعد لأسفل.. لو كانت سيارة الشرطة هناك، فلا تترددي.. ولا ترجعي.. استمري في طريقك، وعودي إلى (سانتا مونيكا)..

نهضت مغادرة المكان.. ولم ترجع ثانية ظل (ميسون) جالسا عشرين دقيقة أخرى.. ثم نهض وسوي ثيابه وهبط الدرج إلى الطابق الثاني، ثم استقل المصعد للطابق الأرضي.. لم تكن هناك سيارة شرطة.. فاتجه إلى سيارته عائدا إلى المكتب..

☆ ☆ ☆

-5-

سأل (ديللا ستريت):

- هل أنت جائعة؟ سنقوم بعمل مهم في الساعة التالية بعدها نأكل..

- ألا يمكن أن نأكل أولا؟

- لا وقت لهذا.. هل لديك حذاءان كعبهما عال هنا؟

- لدي.. ولكن ما السبب؟

- إن حذاءيك هذين سيتسخان بالوحل حيث نحن ذاهبان.. البسي الحذاءين ذوي الكعب العالي..

- ماذا سنفعل بالضبط؟ أنت شديد الغموض...

- حقا أنا كذلك.. نحن نقوم باللعب على حدود المسموح به قانونا.. إن إخفاء الأدلة جريمة.. لكن - على قدر علمي - ليس جرما أن نضيف أدلة جديدة.. بشرط أن يتم هذا بشكل صحيح..

- ما الذي سنضيفه إذن؟

- لا شيء.. قالها - ووجهة مفعم بالبراءة - سنلتقط بعض الصور، وبالطبع سنترك آثارا في أثناء عملنا هذا.. لو أساء مخبرو الشرطة فهم دلالة هذه الآثار فالذنب ليس ذنبنا..

أغلقا المكتب، وركبا سيارة (ميسون).. ناولها خارطة وقال لها وهو يتجه نحو التلال:

- أريد أن أذهب إلى الاستراحة الريفية حيث عثروا على الجثة..

مضت السيارة تشق طريقها عبر الطرق الترابية المغبرة، وقلل (ميسون) سرعة السيارة تماما، وأطفأ المصابيح الأمامية، مكتفيا بأضواء الانتظار..

كان الطريق قد جف، لكن جانبية كانا رطبين.. قادها إلى هناك وقال لها:

- سأرفعك إلى جانب الطريق، ثم اثني ركبتيك، وانزلقي تحت السلك الشائك وحاذري أن تشتبك تنورتك به..

أريد منك أن تتركي آثارا واضحة لكعبي حذائك.. مفهوم؟

وفعل كما قال.. فرفعها عبر السلك الشائك، ثم ثنت جسدها ومرت تحته عائدة إليه.. فقال لها:

- كما ترين.. لابد لفتاة تفعل نفس الشيء، أن تترك آثارا كهذه.. ألا ترين أنه من المنطقي أن تترك قطعة ممزقة من تنورتها مشتبكة بالسلك؟

- سيكون من حسن حظها ألا تترك قطعة من جلدها كذلك..

التقط (ميسون) قطعة القماش الممزقة من جيبه، وثبتها على السلك.. ثم أخرج الكاميرا والتقط صورتين للمشهد.



التقط (ميسون) قطعة القماش الممزقة من جيبه، وثبتها على السلك ..
ثم أخرج الكاميرا والتقط صورتين للمشهد ..

وعاد إلى السيارة حيث اتجها لتناول العشاء..

دخل إلى مكتب (بول دريك) حاملا الصور التي تم تحميضها وطبعها، وقال:

- (بول).. ما هو أخطر دليل في العالم؟
- إنه شهادة العين..
- ربما.. لكنه عيب أبدى في الإجراءات البوليسية..
- كيف؟
- تصور أنك ضحية سطو مسلح.. تذهب للشرطة فيصغون لك، وهم يعرفون أن مشبوها معينا في المنطقة.. يعرضون عليك بعض الصور، ويقولون إن لديهم ما يؤكد أن هذا هو الرجل الذي هاجمك.. خذ وقتك.. تأمل الصورة بعناية.. لا.. لا.. لا تقل شيئا الآن..

بعد يومين يطلبك رجال الشرطة.. يطلبون منك أن تتعرف الرجل في عرض قانوني.. إن المشبوه هناك..

هنا يخطر لك أن وجهه يبدو مألوفا.. لكنك في الحقيقة تعرفته لأنك تأملت صورته كثيرا من قبل.. أم تراه حقا هو الرجل الذي هاجمك؟!

قال (دريك) في ملل:

- أعرف.. أعرف.. لكنك لا تستطيع إهمال شهادة العين لمجرد أن هناك أشخاصا قابلين للإيحاء أكثر من سواهم..

- أريد منك أن تقصد الحارس الذي رأى (لامونت) يغادر الشركة في السادسة والربع مع امرأة.. أريد أن تعرض عليه هذه الصورة، وتطلب منه أن يدرسها بعناية ويخبرك ما إذا كانت هذه نفس المرأة..

- لحظة يا (ميسون).. هذا سيكون تلاعبا بشهادة الشهود..
- من قال هذا؟ أنا فقط أسأله ما إذا كانت هي أم لا..
- لكنك بهذا تقحم فكرة معينة في رأسه..
- أليس هذا ما ستفعله الشرطة بالضبط؟
- .. بلى.. أعتقد هذا..

ثم أخذ الصورة في تردد، وقرر أن يعرضها على الحارس غدا.. فقط إذا لم يجده محاطا برجال الشرطة..

☆ ☆ ☆

-6-

في الثامنة والنصف دخل (ميسون) المكتب، ليجد (ديللا) و(دريك) يطالعان الصحف.. نظر لـ (دريك) متسائلا، فقال هذا:

- فعلت ما بوسعي.. لكن الرجل كان يعمل في نوبتجية سهر، وفي الصباح الباكر جاءت سيارة شرطة تأخذه..

قطب (ميسون) جبينه.. فأضاف (دريك):

- لقد قام صديقنا الملازم (تراج) بعمل شرطة جيد.. وجدوا جزءا من موزع كهرباء سيارة في جيب القتيل.. وقد اتضح أن من تدعي (آرلين فيريس) - كاتبة اختزال بالشركة - طلبت ميكانيكيا ليدير سيارتها، وقد وجد الرجل أن أحدهم سرق جزءا من موزع الكهرباء.. قام رجال الشرطة بتفتيش شقة (آرلين) فلم يجدوها.. لكن وجدوا تنورة بها تمزق معين..

وقد بدءوا يفحصون السلك الشائك قرب البيت الذي حدثت فيه الجريمة.. وقد وجدوا قطعة مطابقة للجزء الممزق، مع آثار امرأة كانت أكثر اهتماما بالسرعة منها باللياقة.. وثمة شاهد يدعى (جيروم هنلي) رأى امرأة تقود سيارة (لامونت)، وتوقفها أمام مطفأة الحريق..

وأوصاف المرأة تطابق أوصاف (آرلين)..

قال (ميسون):

- لو كنت تعرف عنوانه، فاذهب للقائه.. اعرض عليه الصورة وسله عما إذا كانت نفس الفتاة؟

نهض (دريك) متضايقا نحو الباب، وقال:

- لو رموني في السجن، فعليك أن تدفع كفالتي..

☆ ☆ ☆

حين عاد (ميسون) لمكتبه، وجد (بول دريك) ينتظره ليخبره:
- الشرطة قبضت على (آرلين فيريس)..
- كيف أمسكوا بالخيط؟
- لابد أنهم بحثوا عنها لدى صديقاتها، وقد وجدوها في (سانتا مونيكا)..
استدار (ميسون) لسكرتيرته، وقال:
- أطلبي لي (هاملتون برجر) حالا..
كان (بيرجر) هو المدعي العام، وقد طلبته (ديللا) وحولت المكالمة لـ (ميسون).. جاء صوت (بيرجر) حذرا وهو يقول:
- ماذا تريد يا (ميسون)؟
- لقد قبضت الشرطة على (آرلين فيريس)، وهي عميلة لدى.. لو استجوبتها أريد أن أكون موجودا..
فكر المدعي العام قليلا، ثم قال:
- دعني أسألك عن شيئين.. حين سمعت الفتاة عن مصرع (لامونت)، فلماذا لم تأت للشرطة وتقول إنها كانت معه ليلة الجريمة؟ هذا بالطبع لو كانت بريئة.. هذا يجعلنا نسأل: متى سمعت هي أنه قد قتل؟
- أنت ترد على أسئلتي بأسئلة.. لكن لو كانت قتلته دفاعا عن النفس فمن الخير لها أن تقول هذا الآن..
- سنناقش هذا معها..
- أعرف أنك تكلمت معها عشر مرات في الموضوع، لكني على كل حال سأتأكد من أن تقابلها بمجرد أن يرسلها رجال الشرطة لي..

وضع (ميسون) السماعة وراح يسأل (دريك) عن استراحة الشركة:

- المكان محاط بسلك شائك.. لا سبيل للدخول إلا من البوابة.. وسبب الحيطة هو وجود حمام سباحة هناك، وهم يخشون أن يتسلل أحد ويغرق.. والمكان تعني به امرأة اسمها (سادي رتشموند)..

قال (ميسون) لسكرتيرته:

- سأعود للمكان الآن.. مسرح الجريمة.. أنا بحاجة إليك لأن عين المرأة تجيد التقاط التفاصيل..

سأله (دريك):

- عم تبحث بالضبط؟

- لا أدري.. لو عرفت لما ذهبت أصلا..

وركب الثلاثة السيارة، وانطلقوا نحو الاستراحة.. وكان (دريك) يعرف أين تعيش (سادي رتشموند) فأشار إلى كوخ صغير أنيق.. قال (دريك):

- إن الاستراحة مغلقة بإحكام الآن.. لقد زارها رجال الشرطة، ثم زارها الصحفيون.. لا يمكن الدخول دون مفتاح، والمفاتيح مع (سادي) والرجل الذي يعني بحمام السباحة..

ترجل الثلاثة، واتجه (ميسون) نحو باب الكوخ وقرع الجرس..

كانت المرأة التي فتحت الباب في أوائل الثلاثينات حسنة المظهر.. قال لها (ميسون) إنه مهتم بقضية (لورنج لامونت)، فقالت باسمة:

- ومن ليس مهتما؟

أخرج (ميسون) ورقة بعشرين دولارا، ولوح بها أمام المرأة، فظلت ترمقها بوجه خشبي.. أخرج ورقة ثانية وثالثة، فابتسمت.

- انظري.. هناك شابة متهمة بالقتل، وأنا محاميها.. لقد فحصت الشرطة المكان، ولم تعد ثمة أدلة مهمة.. أريد دخول المكان كي آلفه.. إن بوسعي الحصول على إذن من المحكمة للدخول، لكن هذا يستغرق وقتا.. والوقت معناه المال قبضت المرأة على الدولارات، وقالت:

- لن تخبر أحدا بأنني سمحت لك بالدخول..

- ثقي بهذا..

- سأركب سيارتي وتركب سيارتك.. سأفتح البوابة.. إن لدي عملا كثيرا اليوم..

- أطباق متسخة يجب تنظيفها؟

- أخذها رجال الشرطة..

وقادت المرأة سيارة متهالكة عبر الطريق الترابي، ومشي (ميسون) وراءها.. ثم توقفت، وأزاحت الجنزير عن البوابة.. ثم فتحتها.

قال (دريك):

- هذه المرأة تقود سيارتها كالشيطان.. ووجهها عديم التعبير حتى إنني لأكره أن أجلس معها في لعبة (بوكر)..

دخل (ميسون) الاستراحة، وراح يتأمل الأثاث والسجاجيد، والمطبخ بموقده الكهربي.. قالت المرأة:

- إن مستر (لامونت) يطبخ.. لكنه ككل الرجال يترك أطباقا متسخة أكثر مما رأيت في كل حياتك.. والمشكلة أن على أن أنظف الأرضية من الدم.. ليس من ضمن عملي أن أغسل الدماء المتبقية من الموتى..

راح (ميسون) يتفقد البيت، وحين وجد أن المرأة لا تعترض بدأ يفتح ويغلق الخزائن والأدراج، اتجه لمكتب صغير وسألها:

- لماذا مكتب هنا؟

- لا أدري.. كان دوما هنا، وأنا أستعمله لكتابة الحسابات والاحتفاظ بالفواتير..

فتح (ميسون) خزانة المكتب التي تنزلق لأسفل صانعة مسندا للكتابة، وقال:

- أهلا! يوجد هنا دفتر شيكات.. هل يخصك؟

- لا أستعمل شيكات..

قال لها:

- ليس به سوى أربع شيكات مستعملة.. كلها على مصرف (كاليفورنيا ناشيونال).. هذا الشيك تم تحريره يوم الوفاة، وليس على كعبه سوي حرفي O.K قيمة الشيك خمسمائة دولار، ومازال بالحساب مبلغ 2517 دولارا.. لماذا يكتب إنسان لفظة O.K على كعب شيك؟

قالت المرأة في حدة:

- لا تسألني.. فلست أنا من فعلها – وتغيرت طريقتها وهي تضيف - لقد أردت أن ترى المكان وقد فعلت.. لم نتفق على فتح الأدراج والعبث في الشيكات.. والآن حان الوقت للانصراف..

واتجهت للباب في حزم، فدس (ميسون) الدفتر في جيبه، وقال:

- حسن.. ما دمت ترين هذا، فلا أحد يرغب في أن يسبب لك حرجا..

وركب الثلاثة السيارة بينما بقيت المرأة في الاستراحة

قالت (ديللا) قبل أن تتحرك السيارة:

- لا يمكننا أن نلومها.. أنت زعزعت بصيرتها بدولاراتك، لكنها كلما فكرت في الأمر وجدت أنها انزلقت في مأزق..

قال (ميسون):

- هل الكاميرا هنا؟ هل توجد عدسة تسمح بالتقاط صورة قريبة؟

- نعم.. ولكن..

أمرها أن تلتقط صورا، بينما رفع دفتر الشيكات أمام العدسة، وراح يستعرض لها كعوب الشيكات.

هنا دنت المرأة من السيارة وصاحت:

- اسمع.. قلت إنكم يجب أن ترحلوا فورا لو أن أحدا جاء الآن..

قال (ميسون):

- نحن نقدر يا مسز (رتشموند).. هذا هو دفتر الشيكات.. أرجو أن تعيديه إلى المكتب

- .. ليس أخذه من حقك..

- وأنا لم آخذه.. وأقترح أن تقدميه للشرطة به دليل مهم..

وناولها الشيكات، ثم انطلق بالسيارة، بينما المرأة تغلق البوابة خلفه.. قال (ميسون):

- لو كان هذا دفتر شيكات (لامونت)، فمن المؤكد أنه أُخذ من جيبه ووُضع في المكتب.. من المستحيل أن يجيء إلى الاستراحة كلما أراد شيكا..

- وماذا لو لم يكن دفتره؟

- إذن هو دفتر شخص يعيش في نفس البناية لأن أحد الشيكات تم به دفع الإيجار.. أريد أن تعرف من هو O.K هذا..

☆ ☆ ☆

-7-

في الحجرة المخصصة للمحامين جلس (ميسون) مع (آرلين فيريس).. سألها مفكرا:

- هل حقا أخبرتني بكل شيء؟

- كل شيء..

- إن رجال الشرطة يبدون واثقين من أنفسهم، وأشعر أن لديهم دليلا لا أعرفه.. ستكون هناك جلسة تمهيدية قبل المحاكمة.. والغرض من هذه الجلسة هو معرفة ما إذا كان هناك ما يكفي من الأدلة لاتهامك بقتل (لامونت).. إنها جلسة لا تؤخذ بجدية، لكنها ستجعلنا نعرف حجم ما أعده الادعاء ضدك..

نحن نعرف جيدا أن (لامونت) عاد للاستراحة بعد فرارك.. التهم البيض واللحم فورا.. لأنه ما كان لينتظر حتى يفسد طعمهما.. قلت إن هناك طبقين.. إذن لا بد أن شخصا آخر أكل معه.. شخصا وصل بعدك بدقائق.. هل لمحت سيارات في طريق العودة؟

- ولا سيارة..

- ومن الواضح أن أسلوبه المتراخي المتربص معك تبدل بعد المكالمة الأخيرة.. صار عجولا خشنا..

أي أنه عرف أن عليه الإسراع، لأن شخصا ما قادم حالا.. هل استخلصت شيئا من المحادثة؟

- لا.. يبدو أنه كان يوافق الطرف الآخر.. وكان يردد. مرارا مع لفظة (حسن).. بدا لي هذا غريبا نوعا..

بدا الاهتمام على (ميسون)، وغمغم:

- كان يردد لفظة O.K مرارا! ربما كانت O.K هي الحروف الأولى من اسم من كان يحدثه..

- ربما..

- حسن.. سيظل هذا سرا.. لقد قلت لهم كل ما عندك، فلا تتكلمي ثانية.. لا تقلقي فسأتولى أنا عنك مهمة القلق من الآن..

وتركها عائدا إلى مكتبه.

جاء (دريك) يخبره بما توصل إليه.. أحد الشيكات مدفوع لمن يدعى (أورفال كنجمان) وهو سمسار مراهنات في سباق الخيل.. وهو يصلح O.K. كما أن هناك O.K آخر هو (أوتو كيسويك) الذي يعني بفناء الاستراحة.. وله تاريخ سابق في الابتزاز..

قالت (ديللا):

- قد قمت بطبع الصور وكبرتها، وطلبت رأي خبير خطوط ليعرف ما إذا كانت O.K بخط (لامونت) نفسه.. لكنه بحاجة إلى مصدر آخر كتب فيه حرفا O.K اللاتينيين بخط (لامونت)..

قال (ميسون) لـ (دريك):

- اطلب المصرف لتعرف من بالضبط صرف شيك الخمسمائة دولار.. هذا لو كان فعلها قبل إغلاق المصرف.. بعد هذا توفي (لامونت)، وما كان المصرف ليقبل صرف الشيك.. وفي هذا الوقت سأحاول معرفة ما يداريه المدعي العام في كمه.. إنه يعرف شيئا يجعله واثقا.. وهذا الشيء بالتأكيد لن يفيد (آرلين فيرس)..

قال له (دريك):

- لو أردت رأيي يا (بيري).. يمكن أن تشهد الفتاة أنها طعنت (لامونت) وهي تدافع عن نفسها..

قال (ميسون) بوجه حجري:

- إن رأيي هو أن الحقيقة ليست فقط أقوى سلاح، لكنها - على قدر علمي - هي السلاح الوحيد..

☆☆☆

-8-

قال (دونالد كارسون)، وهو مدع شاب عدواني:

- لو سمحت المحكمة.. فهذه جلسة ابتدائية لدعوى شعب الولايات المتحدة ضد (آرلين فيريس).. الدفاع - ويمثله مستر (بيري ميسون) - هنا..

قال (بيري ميسون):

- الدفاع مستعد..

قال القاضي (كارلتون بايتون) للمدعي:

- استدعي شاهدك الأول..

كان الشاهد الأول هو الطبيب الشرعي (هارمون دريبر)..

قال إنه شرح جثة (لورنج لامونت).. ووجد أنه مات بطعنة في ظهره من سكين.. وقال إن الوفاة حدثت بعد دقائق من التهام وجبة من اللحم والبيض.. والوفاة حدثت في وقت ما من السابعة حتى منتصف ليل اليوم الخامس من الشهر.

الشاهد الثاني كان مستر (ألبرت).. مدير مكتب (آرلين).. وقد شهد أن الفتاة عملت بعد انتهاء الدوام في يوم الجريمة.

كان الشاهد الثالث هو (جيروم هنلي).. الجار الذي رأي سيارة (لامونت) تقودها (آرلين) لتوقفها أمام مطفأة الحريق ليلة الجريمة..

سأله (ميسون):

- هل أنت متأكد من أن من كانت تقود السيارة هي مس (فيريس)؟

- بالتأكيد..

- لكنك قلت لمخبر خاص إذ عرض عليك صورة فتاة معينة، أن هذه هي من كانت تقود السيارة.. والحقيقة أن

الصورة لم تكن ذات علاقة بالموضوع..
- لقد خدعني.. ولعبت قوة الإيحاء دورا.. أما الآن فأنا واثق من أن (فيريس) هي من كانت تقود السيارة..
- السؤال هو: هل تعرفت الصورة التي عرضها عليك أم لا...
- حدث.. لكنها كانت حيلة منكما..
- تعرفتها وبشكل إيجابي؟
- لا أدري ما تعنيه بـ (شكل إيجابي).. لكن خطر لي وقتها أنها الفتاة ذاتها..
- كنت واثقا؟
- واثقا لكن مخطئ..
الشاهد الرابع كان رجل الأمن بالشركة (توماس جريميس)، وهو من رأي سيارة (لامونت) تغادر الشركة، وإلى جواره (آرلين فيريس)..
سأله (ميسون):
- كم من الوقت رأيت الفتاة الجالسة جوار (لامونت)؟
- إذ مر بالبوابة..
- وكانت الأمطار تهطل؟
- نعم..
- وكنت في كابينتك؟
- نعم..
- إذن رأيت لمحة لتلك الفتاة، تحت الأمطار، وفي سيارة مسرعة؟
- نعم.
قال (ميسون):
- دعنا نر.. لو كان (لامونت) يقود سيارته بسرعة عشرة أميال في الساعة، فمعنى هذا أنه مر أمام كابينتك في خُمس

ثانية.. وكان لديك وقت كاف لتعرف أن هذا هو (لامونت) وأن الفتاه جواره هي مس (فيريس)..

- أنا واثق في هذه اللحظة من أن هذه هي الفتاة الجالسة أمامنا..

كان الشاهد التالي هو (كيسويك) المعنى بفناء الاستراحة، وهو من جاء صباحا ليجد جثة (لامونت).. وكان هذا في السابعة والنصف..

سأله (ميسون):

- أين كنت ليلة حدوث الجريمة؟

- كنت في المسكن الذي أستأجر غرفة منه.. وقضيت الأمسية أشاهد التلفزيون

- هل سبق لمستر (لامونت) أن دعاك باسم O.K؟

تردد الرجل للحظة وجيزة جدا، ثم قال:

- لا.. كان يناديني (أوتو)..

طلب المدعى سماع شهادة من يدعي (بيتر ليونز).. لكن القاضي تململ من ضياع الوقت.. إن (ليونز) هو الضابط الذي وجد السيارة أمام مطفأة الحريق، وحرر لها مخالفة.. بعد هذا جاء شرطيان في منتصف الليل وحررا مخالفة أخرى.. ثم - في الثالثة صباحا – جاء (الونش) ليجرها..

اكتفي (ميسون) بسماع شهادة (ليونز) على لسان المدعي العام، ثم طلب هذا الأخير شهادة واحد أخير هو الملازم (تراج)..

سأله (ميسون):

- ما الذي تتوقع من شهادته؟

- هذه شهادة مهمة جدا.. وربما أيضا تكون مفاجأة للدفاع..

قال القاضي في ضيق واضح:

- هذه ليست سوى جلسة ابتدائية وليست محاكمة.. لكن ليكن.. سنسمع شهادة هذا الشاهد بعد الظهر..
ونهض متجها إلى استراحته..
في ذعر قالت (آرلين) لـ (ميسون):
- هل يعني هذا أنني سأظل في السجن حتى المحاكمة الكبرى؟
- أخشى هذا.. لقد تآمرت الظروف عليك يا صغيرتي..
- لكن لم أتصور قط أي كابوس هذا..
- لا أحد يدرك معناه حتى يحدث.. ليس من سلطة هذه المحكمة إطلاق سراحك، لكن القاضي سيلقي بالمسئولية على المحكمة العليا..
قالت في رعب:
- هل حقا قال (لامونت) الأب إنني كذابة ومغامرة، وإنه سيفتش في ماضي بمشط ضيق بحثا عن فضائح؟
- نعم.. وهو شيء، مفيد لك لأنني سأنقله للصحافة.. فتاة فقيرة تدافع عن شرفها أمام مليونير متوحش يحاول الدفاع عن ابنه الفاسد بتدمير سمعتها.. هذا سيهز قلوب المحلفين جميعا..
عاد (ميسون) ليجلس جوار (بول دريك)، وقال له:
- ثمة شيء غريب بصدد تلك السيارة.. إن الضابط (ليونز) ألصق عليها ورقة مخالفة في التاسعة مساء..
القانون يقضي بأن يلصق ورقة ثانية وثالثة، ثم يأمر (الونش) بجرها.. الآن جاء الضابطان عند منتصف الليل وقد تسلما الوردية.. ألصقا مخالفتين أخريين.
ماذا حدث بين التاسعة ومنتصف الليل في وردية (ليونز)، ولماذا لم يلصق مخالفة أخرى؟ أريد منك أن تعرف عدد

المخالفات التي حررت للسيارة ومتي تم هذا..
نهض (بول دريك) وقال:
- هذه الأشياء تحدث.. ليكن.. سأجري بضع مكالمات هاتفية، بينما تتناول أنت و(ديللا) الغداء..
وإذ انصرف (بول)، جاء رجل قصير القامة متين البنيان، عبر زحام حضور المحاكمة، وتفحصت (ميسون) عينان رماديتان باردتان:
- هل أنت (بيري ميسون)؟
هز (ميسون) رأسه، ولاحظ أن يدي الرجل لم تغادر جيبي معطفه.



هزّ (ميسون) رأسه ، ولاحظ أن يدى الرجل لم تغادر جيبي معطفه..

- (أورفال كنجمان).. في عملي يجب على المرء أن يلاحظ ما إذا كان هناك من يقفو أثره.. لا بد أن يعرف السبب، ثم يفعل شيئا لهذا..

- إذن؟
- سمعت أن (بيري ميسون) أرسل من يسأل عني.. ويبدو أنك تفكر في دس اسمي في موضوع (لامونت) هذا..
- إذن؟
- جئت كي أنذرك ألا تحاول هذا.. لن يكون هذا صحيا..
- لي أم لك؟
- لك يا مستر (ميسون)..
- شكرا على العناية بصحتي.. والآن لنقل ماذا كنت تفعله ليلة الجريمة.
هز الرجل كتفية العريضتين، وقال:
- يمكنني أن أخبرك بهذا.. كنت في لعبة (بوكر)..
- والشيك الذي كتبه لك (لامونت)، يغطي خسائره في سباق الخيل.. ربما اتصلت به وقلت له إنك تريد خمسمائة دولار لأنك ستلعب (البوكر) في تلك الليلة.
ابتسم الرجل وقال في ثقة:
- استمر في الكلام أيها المستشار.. دعنا نخرج أفكارك الجميلة إلى النور لنناقشها..
- ربما ذهبت له في الاستراحة.. ربما دار بينكما جدل حاد، ثم إنك أغمدت سكينا في ظهره..
- حسن.. لنر هذا الاحتمال.. الرجل زبون في مراهنات الخيل عندي، وليس من مصلحتي أن أقتله بسكين..
- ربما لأنه لم يدفع لك ما أردت؟
- هلم أيها المستشار.. كيف يأبى (لامونت) أن يدفع لي خمسمائة دولار؟ أنا سمساره.. وأبقى فمي مغلقا حتى لا يعرف أبوه شيئا من هذا كله.. ثم إنك تعرف أنه أعطاني شيكا، فلماذا أقتله؟ أنت تعتقد أنني ذهبت إليه محموما أطلب مالا للعب

(البوكر).. عندها دعاني إلى أكل اللحم والبيض، من ثم نسيت كل شيء عن اللعب وجلست أستمتع بالأكل معه.. بعد الأكل كتب لي شيئا لكني قتلته برغم كل هذا.. على كل حال يسهل عليك أن تعرف من المصرف أنني صرفت الشيك ظهر يوم الوفاة.. أي قبل الجريمة بساعات..

قال (ميسون):

- حسن.. أنا مكلف بعمل وسأقوم به.. لا أريد الزج بأحد، ولا إفساد سمعة أحد.. كل ما أطلبه هو حقيقة ما حدث.. أعطني أسماء من كانوا معك في لعبة (البوكر) لأتأكد من أنك كنت معهم حقا.

- إنهم قوم لا يحبون أن تعرف أسماؤهم.

تناول (ميسون) من جيبه نموذجا ورقيا، وكتب اسم (أورفال كينجمان) عليه وناوله الرجل.. سأله هذا مندهشا:

- ما هذا؟

- هذا طلب سماع رسمي.. يستدعيك للشهادة اليوم في الثانية بعد الظهر..

- أنت (تبلف).. لن تجعلني أقف على منصة الشهادة، وأذكر أسماء ناس..

- لو كنت تحسب أنني (أبلف)، فتلك طريقة لا بأس بها لتتأكد من كلامي.. لا يوجد مخرج أمامك إلا أن تقول لي أسماء هؤلاء القوم.. سأتأكد منهم بهدوء وبشكل لا يثير شوشرة..

فكر الرجل قليلا، ثم أخرج مفكرة صغيرة، وكتب بعض أسماء بها، ثم مزق الورقة وأعطاها لـ (ميسون)..

قال (ميسون):

- كل ما أريده هو التأكد من أنك حقا كنت تلعب (البوكر) ليلتها..

- حسن أيها المستشار.. أرسل بعض رجالك ليحققوا في الأمر، ولسوف يعرفون حالا أنني نظيف..

ومد يده ليصافح (ميسون)، وقال:

- قالوا إنك بارع، وقد رأيت هذا بنفسي.. أرجو أن تغفر لي طريقتي العدوانية..

وهز رأسه واستدار ليغيب وسط الزحام..

☆ ☆ ☆

عادت المحاكمة للانعقاد، وكان الشاهد التالي لدى الادعاء هو الملازم (تراج) من قسم جرائم القتل.
اتجه الملازم - خصم (ميسون) العتيد - إلى منصة الشهود، وأدى القسم وأدلي باسمه وعنوانه.. سأله المدعي العام:
- أنت كنت في المشرحة حين تم تفتيش جيوب (لورينج لامونت)؟
- نعم..
- وماذا وجدت بصفة خاصة؟
- إنه جزء من نظام التوزيع الكهربي لسيارة.. وهو مسئول عن توزيع الشرارة على البوجيهات بحيث تشتعل السلندرات بالترتيب.. ومن دونه لا تتحرك السيارة..
- وهل هذا الجزء ينطبق على سيارة المتهمة؟
- نعم..
نظر المدعي للقاضي وقال:
- طبعا أنا أحاول اختصار الوقت والإجراءات، لكن إذا أصر الدفاع يمكنني أن أحذف هذا الجزء، وأطلب شهادة ميكانيكي.. والآن.. أنا أطلب أن يضم هذا الجزء الكهربي كدليل في القضية..
ومن جديد عاد (تراج) يحكي كل تفاصيل القصة، كما سمعها من (أرلين فيريس) عند اعتقالها.
- بالبحث في سيارة (لامونت)، وجدنا بصمتين للمتهمة على مرآة الرؤية الخلفية.. وقد فتشنا الطريق الذي قالت إنها هربت عليه.. وقمنا بفحص جانبي الطريق..
وضم الملازم كتفيه كأنما يحتضن نفسه ليحميها من هجمة، وقال:

- .. وجدنا المكان الذي زرعت لنا فيه المتهمة أدلة زائفة، تحاول بها أن تدعم قصتها!

فتح القاضي عينيه وقد أدهشته الإجابة.. نظر للمدعى فالملازم فـ (ميسون) قال:

- هل من اعتراض؟ على أساس أن الشاهد وثب إلى الاستنتاج؟

قال (ميسون):

- بل أريد استجواب الشاهد بنفسي..

- لكن الشاهد ليس من حقه استنتاج أشياء.. من واجبك أن تعترض..

- أعتقد أن الشاهد خبير بهذه الأمور، ومن حقه استخلاص استنتاجات..

من جديد عاد (تراج) يدلي بشهادته..

- وجدنا قطعة من تنورة المتهمة.. قطعة تم تمزيقها بسكين، وقد علقت على السلك الشائك بطريقة لا بد أن تلفت الأنظار.. وشكل الأقدام ذات الكعبين على الأرض يدلنا على أن هناك من رفع امرأة، ليعبر بها إلى الجانب الآخر من السلك، ثم جعلها تنزلق تحته..

- وهل وجدت التنورة الممزقة؟

- نعم.. كانت في شقة المتهمة، وقد وضعت بطريقة تجعل من المستحيل ألا نجدها.

وأخرج التنورة من كيس يحمله، فطلب من القاضي أن يقدم له هذا الدليل، وأن يعيد وضع القطعة الممزقة في مكانها.

جاء دور (ميسون) لاستجواب الشاهد، فنهض مبتسما وسأل:

- هل أنت واثق من أن هذه تنورة المتهمة؟

- إنها قياسها ووجدناها في شقتها.. هل هذا كاف كدليل؟
- ألم تبحث عن عنوان المغسلة - وهو بالتأكيد مثبت إلى التنورة - لتعرف منهم اسم صاحبتها؟
- لم نفعل بعد.. لكننا نفعل الشيء ذاته مرارا كل شهر..
- وبرغم هذا أنت واثق من أنها تنورة المتهمة، وعلى هذا الأساس بنيت اتهامك بتلفيق أدلة.. إنني أصر على أن يبحث المعمل عن الرقم الكودي للمغسلة.. بعض المغاسل تدون رقمها بحبر سري، لا يرى إلا في الأشعة تحت الحمراء..
قال (تراج) في ثقة:
- ما زالت ثغرات عديدة في قصة المتهمة.. لم نجد أثرا للوحل على حذاء القتيل، ولا على ثيابه.. والعشاء الذي قالت إنه لم يمس قد التهم بالكامل.
مال (ميسون) على أذن (أرلين) وهمس:
- اسمعي.. سأكون صريحا معك لأقصى حد.. إن أحمق شيء يمكنك عمله هو أن تكذبي على محاميك.. لو كنت كذبت عليّ فنحن في ورطة، وليس في وسعي إنقاذك.. لكن على الأقل أريد أن أعرف هذا..
- قلت لك الحقيقة المطلقة يا مستر (ميسون)..
- لو اتضح حقا أنه لا يوجد وحل على الحذاء ولا السروال؛ فلسوف تذهبين إلى السجن مدى الحياة أو إلى غرفة الغاز..
- .. ألا يمكن أن يكون القاتل قد بدل ثياب الجثة بعد؟
قال (ميسون) متهكما:
- آه.. طبعا.. فقط حاولي إقناع المحلفين بهذا: القاتل يذهب لقتل ضحية ومعه سروال نظيف وحذاء.. يقتل الرجل ثم يفرغ اللحم والبيض في فمه ثم يبدل ثيابه لسبب غير مفهوم..
كانت على وشك البكاء، وهمست:

- لكن هذا ما حدث بالتأكيد..

هنا جاء الملازم (تراج) حاملا حذاءين، وقام بعرضهما على القاضي، ثم عرضهما على المدعي وعلى (ميسون).. واحتفظ (ميسون) بوجهه بلا تعبير.



هنا جاء الملازم (تراج) حاملاً حذاءين ، وقام بعرضهما على القاضى ، ثم عرضهما على المدعى وعلى (ميسون) ..

- هل أنت متأكد من أن القتيل هو صاحب هذين الحذاءين؟

قال (تراج) في سخرية:

- فقط كان يرتديهما حين عثرنا على جثته.. هل هذا كاف؟

انتهت شهادة (تراج)، فطلب (ميسون) أن يسمح له باستجواب الملازم (ليونز) الذي ألصق المخالفة على السيارة ليلة الجريمة.. ولما كان الملازم في إجازة، فقد قرر القاضي متذمرا أن تمتد المحاكمة لجلسة أخرى غدا..

☆ ☆ ☆

-10-

جلس (ميسون) إلى مكتبه يدق بأنامله على الخشب.. وفي مطفأة التبغ أمامه لفافة منسية يتصاعد منها لسان دخان في خط مستقيم، سرعان ما يتلوى في دوامات زرقاء..

كانت (ديللا) تعرف حالاته النفسية، لذا جلست والقلم يلمس مذكرة اختزال تدون فيها أفكاره، ولم تتحرك حتى لا تعكر تركيزه.

قال (ميسون) مغمض العينين:

- الفتاة ذكية.. قصتها لا تتفق مع الحقائق.. وكان بوسعها أن تخلق قصة أكثر مصداقية واتفاقا مع الحقائق.. لنفرض أنها لا تكذب، وبرغم هذا الحقائق لا تؤيدها.. إذن الحل الوحيد هو أنها لم تحك القصة كاملة..

وضغط لفافة التبغ في المطفأة، وبدأ يذرع الحجرة جيئة وذهابا.

سألته (ديللا):

- تحسبها تقول الحقيقة؟

- بل هي تقول.. لقد تركت نفسي أنزلق في أسوأ فخ يمكن لمحام أن يقع فيه.. تركت منطق المدعي العام يخدرني.. وبدأت أعتقد أن الأمور حدثت بالشكل الذي يتصوره هو.. وأعتقد أن الجواب هو الضابط (بيتر ليونز) الذي يحاولون ألا يجعلوه يشهد.

- هل حقا هم يحاولون هذا؟

- هذا واضح.. واضح تماما.. فما الذي يعرفه (ليونز)، ويمكنه أن يكون لصالحي؟

- لربما لم يقل المدعي العام الحقيقة؟

- لا.. لا يستطيع، وإلا أتهم بتضليل المحكمة.. يجب أن يقول الحقيقة.. لكن ربما لم يقل كل الحقيقة..

وفجأة توقف، وضرب جبهته صائحا:

- فهمت! لقد كنت أحمق تماما.. كنت طفلا في غابة.. إنهم لا يريدون أن يشهد (ليونز) حتى لا يقول كل شيء.. لا يقول إنه ألصق مخالفة على سيارة (لامونت) في التاسعة مساء.. وحين عاد بعد قليل لم يجد السيارة في مكانها!

- كيف؟

- شخص ما جاء بعدما رحلت (آرلين).. أخذ السيارة في جولة ما، ثم عاد ليوقفها في المكان ذاته أمام مطفأة الحريق، وجاء رجال الشرطة بعد منتصف الليل، ليضعوا مخالفتين أخريين.. هلمي! أمامنا عمل يجب إنجازه..

- أي عمل؟

- يجب أن نقابل (جورج ألبرت) و (إديث برستول) من شركة (آرلين)..

☆ ☆ ☆

دخل (ميسون) وسكرتيرته المصعد حتى الطابق الثالث، وخرجا منه ليلقيا شابة هي (إديث برستول) سكرتيرة المدير في شركة (لامونت)..

اقتادتهما عبر ممر مليء بكاتبات الاختزال اللائي رحن يرمقن الثالوث في توجس.

وفي مكتب (إديث) قدمت لهما مقعدين.. قال لها (ميسون):

- لم أتوقع قط أن تكون شاغلة هذا المنصب صغيرة السن مثلك.

قالت بلهجة رسمية باردة:
- ماذا تريد يا مستر (ميسون)؟
- أريد معرفة السر الذي جعلكم تعينون (أرلين فيريس) بسهولة هنا، وبمجرد أن توسطت صديقتها (ماج إلوود)..
خفضت (إديث) عينيها، وقالت:
- بالطبع لا يمكنني أن أخبرك.. ربما كان للصلات الشخصية دور في هذا..
- إن مس (إلوود) تعمل هنا منذ عامين، وأداؤها ممتاز.. قلت إنك راغب في مقابلة مستر (جورج ألبرت)؟
- نعم..
رفعت سماعة الهاتف، وطلبت أن يحولها لمكتب الرجل.. بعد دقيقة قالت:
- مستر (ألبرت).. إن مستر (بيري ميسون) المحامي هنا في مكتبي.. يريد أن يعرف لماذا عينا مس (فيريس)، وما نوع نفوذ (مادج إلوود) هنا.. هلا جئت هنا من فضلك؟
ووضعت السماعة وابتسمت لـ (ميسون).. وقالت:
- ربما اتضح الأمر الآن، لكن دعني أؤكد أنني لم أتلق أية توجيهات بهذا الصدد من المدير المستر (جارفيس لامونت).
مرت دقائق متوترة، ثم جاء (جورج ألبرت).. ابتسم محييا (ميسون)، ثم تبادل نظرة مع (إديث)..
سأله (ميسون):
- مستر (ألبرت).. من الواضح أن (فيريس) لم تعين عن طريق شئون الأفراد، وإنما بتوصية شخصية من (مادج إلوود)، وهذه وجدت طريقها إلى (لامونت) الابن..
- ربما كان الأمر كذلك.
- هل حدث هذا من قبل؟

- إن المتقدمين للعمل يتم اختيارهم من شئون الأفراد..
صاح (ميسون)..
- كف عن التلاعب بي! كلاكما يداري ما يعرفه.. حين طلبت منك مس (برستول) أن تأتي هنا، لم تكتف بهذا.. بل أخبرتك بكل شيء عن (بيري ميسون) المحامي، وماذا يريد بالضبط.. وبرغم هذا تأخرت في المجيء حتى تعد إجابات جاهزة..
قال الرجل:
- حسن هناك واحدة فقط تم تعيينها بأمر مباشر.. إنها (مادج إلوود)..
- (جورج)!
كانت هذه صيحة (إديث)، فبدا صوتها كضربة سوط من الاشمئزاز.. وأضافت:
- انتهت هذه المقابلة يا مستر (ميسون).. ما أردت معرفته قد عرفته..
أخرج (ميسون) من جيبه ورقتين، وناول كلا منهما واحدة..
- ما هذا؟
- هذا طلب لسماع شهادتكما غدا في العاشرة صباحا في المحكمة..
ثم غادر المكان مع سكرتيرته.
ومن كابينة هاتف اتصل بـ (دريك) يسأله عن جديد.
قال (دريك):
- لقد درست حجة غياب (كيسويك).. لقد جلس بالفعل مع سيدة عجوز تدعى (سباركس) يشاهدان التلفزيون ليلة الجريمة.. لكن العجوز دخلت لتنام بعد السابعة والنصف، وتركته يشاهد المسلسل.. لا تضمن أنه لم يخرج في أثناء نومها.. وقد انغلق الجهاز في التاسعة والنصف، لأنها صحت ساعتها.

ثمة شيء آخر مهم.. أحد الجيران رأي سيارة تدخل من بوابة الاستراحة في مساء يوم الجريمة ويقول إنها سيارة (كيسويك) لأن صوت محركها مميز..

قال (ميسون):

- هذا بالغ الأهمية.. أريد الكلام مع هذا الرجل، وأريده في المحكمة غدا..

- لقد قدمت له طلب سماع بالفعل.. يقول الجار إن هذا حدث حوالي الساعة السابعة والنصف مساء.

- هذا يؤكد أن (أتو كيسويك) كان يكذب.. ولا بد أن الشيك الذي يحمل حرفي O.K خاص به.. وغالبا لم يقدمه إلى المصرف.. ثمة شيء آخر مهم يا (بول)..

كنت قد طلبت من (مادج إلوود) أن تتواجد في المحكمة ظهرا، لكنها لم تظهر.. وأنا ذاهب لأراها في (سانتا مونيكا)، لكني أرى أن تبحث عنها بدورك..

- ليكن يا (بيري)..

☆ ☆ ☆

-11-

مرارا دق (ميسون) جرس (مادج) لكنها لم ترد.. اتجه إلى مديرة البيت وهي امرأة في منتصف العمر توحي بالكفاءة.. قال لها:

- أحاول الاتصال بـ (مادج إلوود).. لكنها ليست موجودة..

- قد رأيتها تترك الشقة عصرا ومعها حقيبتان.. يبدو أنها مسافرة.. هذا شأنها على كل حال، مادامت تدفع الإيجار.. إننا لا نتدخل ولا نعطي معلومات، وقد أخبرتك بكل هذا فقط لأنني أعرف من أنت..

- هلا أسديت لي خدمة أخيرة؟ هل تدفع الإيجار بشيكات أم نقدا؟

- بشيكات..

- أين المصرف الذي تتعامل معه؟

- لا خطر في أن أخبرك.. اتجه يمينا ثم يمينا ثانية عند أول منعطف.. وستجده.

اتجه (ميسون) و(ديللا) إلى المصرف..

بعد شرح الأمر جاء مدير المصرف.. فقل له (ميسون):

- ما أطلبه غير عادي لكنه بالغ الأهمية.. أريد معرفة حساب مس (مادج إلوود)..

هز المدير رأسه..

- آسف.. مستحيل أن أعطيك معلومات كهذه..

- إن لدى ما يجعلني أعتقد أنها صرفت شيكا صباح اليوم، وغالبا هو شيك مزور..

- آه.. هذا يجعل الأمر مختلفا.. نحن مهتمون دوما بالشيكات المزورة..

ودعاهما للجلوس، ثم انصرف ليرى ما هنالك.
نظرت (ديللا) لـ (ميسون) مندهشة، وقالت:
- لماذا تفترض أنها صرفت شيكا اليوم؟ لماذا لا تسحب من حسابها؟
- بالطبع.. وفي هذه الحالة سيخبرنا المدير بذلك.. أو سينزلق لسانه لنعرف منه شيئا.
- هذا ما يسمونه بالأسلوب المباشر الجريء..
بعد دقائق جاء المدير، وقد بدا عليه التوتر.. وقال:
- مستر (ميسون).. هذا غير معتاد.. ما الذي يجعلك تعتقد أنه مزور؟
قال (ميسون):
- يؤسفني ألا أستطيع الكلام، لكن لو كان مزورا يجب أن تمنع هذا حالا..
بوجه مفعم بالقلق، طلب المدير رقما على الهاتف، وقال للمتكلم:
- إني أستفسر عن شيك صرفته اليوم مس (مادج إلوود).. المبلغ أكبر من المعتاد، وعليّ أن أتأكد من الشيك.. هل يمكن أن أكلم مستر (جارفيس لامونت)؟
بعد دقائق بدا على وجهه القلق وقال:
- نعم.. نعم.. شكرا لك.. كنت أتحقق فقط.. نحن فرع صغير ولم نعتد هذه المبالغ الكبيرة.. شكرا وآسف جدا.. وداعا..
ووضع السماعة وابتسم في وجه (ميسون):
- حسن يا مستر (ميسون).. الشيك على ما يرام ولا داعي للقلق..
رسم (ميسون) على وجهه ضحكة ارتياح كبيرة، وقال:
- هذا مريح! حسن.. شكرا لك..

وصافح الرجل الذي اقتادهما إلى الباب شاكرا.
اتجه (ميسون) إلى سيارته، وقال لـ (ديللا):
- كما ترين أثمرت الخطة.. واضح تماما أن (جارفيس) العجوز كتب هذا الشيك لـ (مادج) كي تغادر المدينة.. والسؤال هو: لماذا تغادر المدينة؟ الإجابة هي أنه لا يريدها أن تشهد.
ثم فكر قليلا، وقال:
- دعينا الآن نحاول أن نضع نفسينا مكان (لامونت لورينج) ليلة الحادث.. الآن هربت (أرلين)، وعاد هو إلى الاستراحة.. فماذا فعل؟
- أكل البيض واللحم..
- أكل طبقين؟ لا أظن.. لكنه كان بحاجة إلى صحبة أنثى وإلى ثياب جافة غير موحلة، بالإضافة إلى من يعيده إلى المدينة.. إذن طلب من هاتفيا؟ يوجد شخص واحد مناسب.. (مادج إلوود)!
تذكري نفوذ (مادج) في الشركة.. إنها ترفع سماعة الهاتف وتقول لابن المدير: أريد وظيفة لصديقتي في الشركة.. من ثم يتصل هذا بـ (ألبرت) ويقول له: لدينا كاتبة اختزال جديدة.. هي لم تأت من شئون الأفراد، بل من خلالي.. عينها وأعطها أعلى راتب.
الآن يعود (لامونت) للاستراحة ويطلب (مادج إلوود).. يقول لها: صديقتك اتضح أنها شرسة سيئة الطباع.. الآن سرقت سيارتي.. اذهبي لشقتي وهاتي ثيابا جافة وحذاءين وتعالي.
قالت (ديللا):
- لحظة يا (ريس).. ثمة خطأ هنا.. كيف عرفت (مادج) مكان السيارة حيث تركتها (أرلين)؟
- تذكري أن (مادج) هي أول من اتصلت بها (أرلين) لدى عودتها لدارها.. ومنها عرفت الأولى مكان السيارة..

- هذا يفسر أشياء كثيرة..

- لو أن الضابط (ليونز) شهد، لقال إنه ألصق أول مخالفة، وبعد هذا لم يجد السيارة.. وهذا يفسد خطة المدعي تماما..

يمكن القول إن (مادج) ذهبت للاستراحة.. تشاجرت مع (لامونت)، وطعنته بالسكين في ظهره.. وجدت نفسها فجأة مع جثة.. كان عليها أن تلعب ببراعة..

هي تعرف القصة من شفتى (أرلين) و(لامونت)، وتعرف ما حدث بالضبط.. كل ما عليها هو أن تقود السيارة لتوقفها حيث كانت أمام مطفأة الحريق.. لابد أنها كادت تموت ضحكا حين زرتها طالبا عونها لإنقاذ (آرلين)..

والآن نعرف أن (جيرور هنلي) كان دقيقا.. لقد رأي (مادج إلوود) ولم ير (أرلين).. إنه يحسبني تلاعبت به، لكن هذه هي الحقيقة..

- وماذا عن (أوتوكسويك) و(سادي رتشموند)؟

- تذكري المكالمة التي تلقاها (لامونت).. لقد جعلته هذه المكالمة يغير أسلوبه تماما.. لم يعد (جنتلمان) بل تحول إلى ذئب عجول.. يمكن القول إن هذه المكالمة كانت من (كسويك).. حين يعيش المرء بطريقة حياة (لامونت)؛ فلابد من أن لدى (كسويك) ما يبتزه به.. وفي تلك الليلة اتصل به الأخير: انظر يا (لامونت).. أنا و(سادي) بحاجة إلى خمسمائة دولار.. الليلة.. سأكون عندك بعد ساعة إلا الربع.

هكذا نسي (لامونت) كل شيء عن البسكويت واللحم والبيض والموسيقا.. صار عنيفا فظا قبل أن يجيء هذان المبتزان.

بعد هذا وصل (كسويك) و(سادي) بعد رحيل (آرلين).. أعطاهما الشيك وهو في عجلة من أمره لأن (مادج) في الطريق..

اكتفى بكتابة O.K على كعب الشيك..
وهكذا ترين أن لدينا ثلاثة أشخاص يعرفون أن (لامونت) كان حيا، بعدما انصرفت (آرلين فيريس)..
- وما أحد منهم سيورط نفسه بالشهادة..
فكرت في الكلام قليلا.. ثم سألته:
- لماذا لا تعتقد أن (كسويك) و(سادي) قتلاه؟
- لأنه كان يرتدي ثيابا نظيفة، وهو لم يحصل على ثياب إلا حين وصلت (مادج)..
- لقد اكتملت الصورة يا (ريس)! يمكنك أن تفجر القضية كلها غدا!
- ربما.. لكن تذكري: كل واحد من هؤلاء الشهود كذب أو سيكذب على المحكمة.. لن تتعاون معنا السلطات.. وعلينا أن نبرهن على الكلام بأنفسنا..
والخطوة الأولى هي أن نفتش مكان سيارة (مادج إلوود) في الجراج.. ثمة احتمال لا بأس به أن ثياب (لامونت) الموحلة ما زالت هناك..
- ألم تسافر بسيارتها؟
- بلى. لقد حملت حقيبتين ثقيلتين إلى الشارع، ومعنى هذا أنها سافرت بسيارتها، وإلا لكان سائق التاكسي يساعدها..
ثم أضاف:
- لا حاجة بك إلى دخول الجراج معي..
- بل يجب أن أفعل.. ربما احتجت إلى شاهد عيان، وأنت محامي (آرلين) وليس من حقك أن تقف للشهادة في قضيتها..
وانطلقا بالسيارة بحثا عن الجراج الخاص بـ (مادج إلوود)..
كان الباب مفتوحا.. وقد أراح هذا (ميسون) لأنه سيجعلهما معرضين لتهمة انتهاك الممتلكات لكن ليس بالسرقة.. وقد قرر

أن يدخل الجراج بسيارته، حتى لا تلفت الأنظار خارج المكان.

كانت هناك حقيبتان قديمتان على الأرض، وصندوق قديم.. كان الصندوق مغلقا، وأدرك (ميسون) أنه بحاجة إلى أمر تفتيش كي يفتحه.



كانت هناك حقيبتان قديمتان على الأرض ، وصندوق قديم .. كان الصندوق مغلقًا ، وادرك (ميسون) أنه بحاجة إلى أمر تفتيش كي يفتحه ..

فجأة انفتح باب الجراج الموارب، ورأي (ميسون) (جورج ألبرت) يدخل المكان، وخارج الجراج ظهر الملازم (تراج) في سيارة (ألبرت)..

فما إن رآهما حتى ترجل وهتف:
- جميل.. جميل.. يبدو أننا وجدنا عملية سطو هنا يا (ألبرت)!
قال (ألبرت):
- كما قلت لك.. هذان يحاولان وضع أكلة زائفة..
وعليك أن تعتقلهما أيها الملازم..
قال (ميسون):
- على أي أساس؟
- كما تعرف.. أنت تحاول ترك أدلة تلصق التهمة بـ (مادج إلوود)، وتنفيها عن موكلتك.. حصلت على تنورة خاصة بها، وقمت بتثبيت قطعة من قماشها على السلك الشائك.. وتركت التنورة في شقة (آرلين فيريس) ...
بل إنك أرسلت مخبرك الخاص لكل من رأى (آرلين)، ليعرض عليه صورة (مادج إلوود)..
نحن ننتهك الممتلكات حقا، لكننا لا نسرق ولا نزرع أدلة..
- كما قلت أيها الملازم.. يجب تفتيش هذا الجراج بالكامل والآن.. إن هذا المحامي يحاول توريط (مادج إلوود) منذ بداية القضية.. لكنه الآن في الشرك!
نظر الملازم (تراج) إلى (ميسون)، وهز رأسه:
- قد وجدناه ملوث اليدين حقا.. لا أدري ما كان يفعله، لكن النائب العام سيعرف هذا.. والآن سنفتش الجراج أنا وأنت يا (ألبرت).. فلو وجدنا دليلا ما سنقوم بتقديمه إلى المدعي العام، وسيكون شاهدا معي..
ونظر إلى (ميسون) وقال:
- طبعا لا داعي لاعتقالكما.. سيفسح (ألبرت) سيارته من أمام المدخل، وبعدها يمكنك الانصراف..

حاول (ميسون) أن يكلم (تراج) على انفراد، لكن هذا أصر على أن يكون الكلام أمام المدعي العام..

وهكذا غادر (ميسون) الجراج مع (ديللا) بسيارته..

قال لها بوجه عابس:

- هذه مشكلة حقيقية.. لو وجدوا دليلا سيزعمون أنني واضعه.. ولسوف يجد المدعي العام (هاملتون بيرجر) هواه في هذا.. سيتولى القضية بنفسه.. إن أي شيء يجدونه الآن سيكون ضد (آرلين فيريس)..

- ما كان هناك سبيل آخر لديك.

- نعم.. لكن يمكننا أن نصرخ حتى تغدو وجوهنا سوداء بلا جدوى.. لو ظهر (هاملتون بيرجر) شخصيا في المحكمة غدا، فمعنى هذا أنهم وجدوا دليلا مهما ضد (مادج إلوود) في الجراج.. ونكون في أسوأ ورطة مرت بنا..

وضعت يدها على يده وهمست:

- لا تقلق يا (ريس).. أنا معك في هذا كله..

قال لها متجهما:

- كلانا في الحساء الساخن.. لكننا لن نظل هناك.. سنحاول الخروج منه..

☆ ☆ ☆

قبل العاشرة بثلاثين ثانية، اجتاز (هاملتون بيرجر) المدعي العام مدخل المحكمة، وجلس جوار نائبه (دونالد كارسون).. دخل القاضي المحكمة، ونظر إلى المدعي العام الأكبر في دهشة، فقال هذا:

- جئت سعادتكم في قضية (آرلين فيريس)..

- لكن يا سيدي المدعي العام، هذا مجرد سماع شهادات روتيني قبل المحاكمة ولسوف يتم خلال دقائق..

- ثمة تطورات في القضية سعادتكم، وفي الغالب يحتاج الأمر إلى وجودي..

تقدم (كارسون) في ثقة ليقول:

- كما اتفقنا سعادتكم؛ فمن المطلوب منا اليوم أن نقدم شهادة الضابط (بيتر ليونز) الذي ألصق مخالفة على سيارة (لامونت)، لوقوفها في الممنوع.. وإنني لأطلب منه أن يتقدم ويؤدي القسم..

تقدم الضابط، وهو رجل في الثلاثينات له شعر قصير، وشفتان توحيان بالتصميم.. بينما نهض (ميسون) ودنا من منصة الشهادة.

- مستر (ليونز).. لا بد أنك مررت كثيرا بطريق (إنديكوت) في تلك الليلة.. في أثناء ورديتك، فهل لاحظت وجود السيارة بعدما ألصقت المخالفة؟

قال (ليونز) وهو يميل في مقعده:

- ليس عملي أساسا ملاحظة مخالفات المرور يا مستر (ميسون).. لهذا..

لم تجب عن سؤالي يا سيدي.. هل تذكر كم سيارة قابلتها واقفة في الممنوع ليلتها؟
- ربما رأيت اثنتين.. واحدة كانت في الممنوع، وواحدة وقفت في صف ثان.
- وما سبب اهتمامك بالسيارات في تلك الليلة بالذات؟
- شكاوى كثيرة من الجيران بصدد السيارات التي تسد طريق الخروج أمامهم.. وكانت التعليمات مشددة لنا كي نكثف الرقابة..
- وهل رأيت سيارة (لامونت) في نفس الموضع بعدما أعطيتها مخالفة؟
- لا أدري.. لم أرها وإن كنت أعتقد..
- لسنا هنا بصدد ما تعتقده، بل ما تعلمه..
فكر الشرطي طويلا، ثم قال:
- أعتقد.. كلا.. بل أذكر جيدا أنني لم أرها ثانية.. كنت أبحث عن السيارات التي أعطيتها مخالفات، حتى إذا وجدتها لم تتحرك طلبت (الونش).. لكني آسف يا مستر (ميسون) لأن الأحداث تداخلت في ذهني.. لقد ناقشت هذا مع زميلي كثيرا، وراجعت أوراقي، لكني عاجز عن التذكر.. مازلت غير قادر على التأكيد.. ربما أنني لم أرها حقا.. لكني لا أستطيع أن أقسم على هذا..
- لكن اعتقادك العام أنها لم تكن هناك في الحادية عشرة؟
- أعتقد هذا..
شكره (ميسون) وعاد لمقعده.
نهض (هاملتون بيرجر)، وطلب الكلمة:
- سعادتكم.. ثمة أمر يهمني في هذه القضية، ليس فقط كمدع بل كعضو في المهنة القانونية.. أشعر بأن هناك محاولة تمت لفبركة أدلة في هذه القضية..

وأرغب في اتخاذ الإجراءات المناسبة بما يتفق مع الجزء (686) من قانون العقوبات..

قال القاضي:

- حسن.. استمر..

- أرغب في استدعاء الملازم (تراج) للمنصة..

اتجه (تراج) للأمام وقد بدا أنه سمّع بروفته مرارا قبل هذه اللحظة.

سأله المدعي:

- هل قمت بالتأكد من صاحبة التنورة التي قدمناها كدليل أمس؟

- نعم يا سيدي.. وجدت أنها بيعت في (سانتا مونيكا).. وبتتبع رقم المغسلة الكودي، تبين أنها تخص (مادج إلوود).. ويجب أن أقول هنا إن المتهمة في هذه القضية كانت تعيش مع المذكورة في شقة واحدة..

- وبعد هذا؟

- ذهبت إلى عنوان (مادج)، وكان معي مستر (ألبرت) المدير بالشركة، وقد أردت أن أتفحص الجراج الخاص بمس (إلوود).. إن كل شقة في البناية لها جراج خاص بها.

كان الجراج مفتوحا، وداخله وجدنا سيارة المستر (بيري ميسون)، ووجدنا مستر (ميسون) نفسه وسكرتيرته.. وقد اتهمهما مستر (ألبرت) بمحاولة وضع أدلة ملفقة..

- صاح (ميسون):

- أعترض! هذه المحادثة تمت في غير وجود موكلتي، وبالتالي هي غير مهمة.

سأل (كارسون) الضابط:

- وماذا فعلت بعدها؟

- أخلينا سبيل مستر (ميسون) وسكرتيرته، وبدأنا البحث عن دليل تركه أحدهم هناك.. وجدنا فردتي حذاء ملطختين بالوحل وسروالا..

- هل عرفت صاحب هذه الثياب؟

- لم أعرف وقتها لكني تقصيت.. الحذاءان كانا غاليين وقد عرفت المصنع الذي أنتجها.. ومنه عرفت اسم المشتري.. إنه (لورنج لامونت).. وقد تم نفس الشيء بالنسبة للسروال..

- وأين وجدت هذه الأشياء؟

- في صندوق مغلق بالجراج حيث كان المستر (ميسون)..

هنا جاء دور (ميسون) في الاستجواب، فسأل الضابط.

قلت إنك بحثت عن دليل تركه (أحدهم)..

فهل يمكن أن يكون (أحدهم) هذا هو أنا؟

- ممكن طبعا..

- ويمكن أن يكون (آرلين فيريس)؟

- ربما.. لكنها في السجن الآن..

- ويمكن أن يكون (مادج إلوود)؟

تردد (تراج) لحظة ثم قال:

- أعتقد أن هذا ممكن..

- شكرا لك..

بعد هذا طلب المدعي شهادة من تدعي (بيرثا أندرسون).. وحين جاءت إلى منصة الشهود عرف (ميسون) أنها مديرة البيت الذي تقيم فيه (مادج إلوود)..

سألها المدعى عما إذا كانت تعرف (ميسون)، وما إذا كان سألها عن (مادج إلوود)..

هنا اعترض (ميسون)..

- السؤال غير مفيد وغير موضوعي وغير ذي معنى.. لا قيمة لأية محادثة معي في غير وجود موكلتي..

قال القاضي:

- أقر هذا الاعتراض.. والمحكمة تؤكد أن ما يفعله أو يقوله مستر (ميسون) في غياب موكلته، لا يلزمها بشيء أو يؤثر في موقفها..

قال (هاملتون بيرجر):

- لو سمحتم سعادتكم.. إن الحالة هنا بسيطة جدا.. لقد تم وضع أدلة جوهرية لهذه القضية في جراج مس (إلوود).. وقد وجدنا مستر (ميسون) ملوث اليدين.. من المنطقي أن من أعطاه هذه الأدلة هو موكلته..

- هذا من وجهة نظر الادعاء.. لكنك لم تنف احتمال أن من وضعها هو الشخص الأكثر منطقية:

(مادج إلوود) صاحبة الجراج..

- لكنها لم تذهب للاستراحة ليلة الجريمة..

- وكيف تعرف أنها لم تذهب؟ إن المحكمة ترغب في الإجابة على هذا السؤال.

- سنبرهن على هذا..

- إذن فافعل.. حتى هذه اللحظة ترى المحكمة أن الادعاء يعمل بأسلوب التخمين.. لكنها مهتمة بهذا الجزء وترغب حقا في استكماله..

قال (كارسون):

- من الجلي أن هذه خطة رسمتها المتهمة، كي تظفر بعطف المحلفين.. أن تظهر في دور الدافعة عن شرفها.. وأنها فرت عبر طريق موحل، وعبرت أسلاكا شائكة.. وكما هو واضح فإن مستر (ميسون) حصل من (مادج إلوود) على تنورة، ترك قطعة منها

على السلك الشائك، وترك التنورة نفسها في شقة (أرلين فيريس).. والغرض تأكيد قصة المتهمة.

كذلك يمكننا أن نبين أن محامي المتهمة حصل على سروال خاص بـ (لورنج لامونت) وحذاء.. وقد لوث هذه الأشياء بالوحل، ومزق أجزاء من نسيج السروال كأنما بفعل سلك شائك، وقد أمسكنا به متلبسا وهو يحاول ترك هذه الأشياء في الجراج..

ونعتقد أن كل هذا يدل على مؤامرة بين المحامي وموكلته.. وطبقا لهذا فإن محاولة (فبركة) الأدلة تدل على جرم المتهمة..

قال القاضي:

- كل هذا جميل.. لكن كيف تربطه بالمتهة؟ لم يتم القبض على مستر (ميسون) متلبسنا على الإطلاق.. فمن الواضح أنهما لم يقضيا في الجراج أكثر من بضع ثوان قبل وصول الملازم (تراج).. قال الملازم إنه ذهب للجراج بحثا عن أدلة.. تخيل أن العكس قد حدث.. تخيل أن (ميسون) وسكرتيرته وصلا بعد الملازم.. هل من حقهما وقتها أن يتهما الملازم (تراج) بزرع هذه الأدلة؟

أحمر وجه (كارسون):

- بالطبع لا..

- هذا هو نفس الدليل الذي تمسكه ضد مستر (ميسون).

- لكن (ميسون) كانت لديه الأسباب لزرع هذه الأدلة، لصالح موكلته..

- ومن مصلحة الشرطة أن تزرع هذه الأدلة أيضا.. ولا أعني أن هذا حدث.

قال (كارسون):

- حسن.. نحن رجال عمليون، وكلنا نعرف ما حدث..

- أنت تعرف ما تظن أنه حدث! لكن ما تظنه حدث لا يلزم المحكمة بشيء.

بدا نوع من الضيق في صوت (كارسون) وهو يقول:

- بالطبع لو توقعت المحكمة أن نقدم شهود عيان رأوا المحامي يفتح الصندوق ويخرج الأدلة، فإن هذا ليس بوسعنا.. إن من يرتكبون الجرائم يختارون الوقت الذي لا يراهم أحد فيه..

تبدل لون وجه القاضي:

- المحكمة تفهم هذا.. لكن مهمتها أن تحكم بشكل عقلاني على الألة.. والمحكمة ترى أن الأدلة المقدمة لها الآن قابلة لتفسيرات عدة.. أكثرها منطقية أن هذه الأشياء تخص صاحبة الجراج.. والمحكمة تذكر جيدا كيف أن الشاهد (جيرور هنلي) تعرّف (مادج إلوود) في البداية، على أنها المرأة التي رآها تغادر السيارة ليلة الجريمة.. ربما لم يكن مخطئا.. إن المحكمة ترغب في استدعاء (جيرور هنلى) ليشهد من جديد، لكن المحكمة هي من يستجوبه هذه المرة..

قال (كارسون):

- لقد عاد (هنلي) لعمله.. ومحاولة استدعائه ستتأخر.. ونحن نقدر رغبة المحكمة في إنهاء هذه القضية..

- المحكمة ترغب في إنهاء هذه القضية، لكنها كذلك ترغب أكثر في تحقيق العدالة.. لا أظن أن استدعاء مستر (هنلي) سيطول..

قال (ميسون):

- ربما - إلى أن يجيء الشاهد - يمكنني توضيح الأمور أكثر، لو استدعيت الملازم (تراج) إلى منصة الشهود..

- حسن..

قال (هاملتون بيرجر) في ضيق:
- ليس هذا سوى جلسة تمهيدية.. كل ما علينا هو إثبات أن جريمة ارتكبت، وأن هناك أرضية معقولة للشك في المتهمة..
قال القاضي:
- بالفعل هذا كاف لجلسة تمهيدية، لكن القضية تضخمت، وشرف مستر (ميسون) المهني موضع اتهام الآن ما دمنا بلغنا هذا الحد، فعلينا أن نبلغ نهاية الطريق..
جاء (تراج) من جديد ليجلس إلى منصة الشهود فسأله (ميسون):
- هل وجدت الشرطة أطباقا متسخة؟
- نعم..
- هل كانت عليها بصمات؟
- نعم.. بصمات المتهمة.
- ولماذا لم تقل هذا في شهادتك؟
- لم يسألني أحد.
- وطبعا وجدت بصمات القتيل..
- نعم..
- إذن.. هل حقا وجدت بصمات شخص آخر على الأقل على الأطباق؟
تردد (تراج) لحظة، ثم هز رأسه
- نعم..
- وهل عرفتها؟
- ليس بعد..
- ولم تذكر هذه البصمات لأن المدعي العام طلب منك ذلك؟
- قيل لي ألا أتطوع بتقديم معلومات..

- هل هي بصمات (مادج إلوود)؟
- لا أعرف بصمات من هي.. أعرف أنها ليست بصمات (سادي رتشموند).. خطر لنا أنها تركت هذه البصمات وهي تنقل الأطباق، لكننا كنا مخطئين..
قالت المتهمة إنها ظلت بالسيارة، بينما دخل القتيل الاستراحة ليجري مكالمة وهمية مع أحدهم.. هل حاولت تتبع هذه المكالمة؟
- نعم.: تتبعنا كل المكالمات في تلك الليلة..
- برغم هذا لم تخبرني..
- ومن جديد أقول إن أحدا لم يسألني..
- وبمن اتصل؟
- لا أدري.. طلب الشركة لكنه لم يحدد شخصا بعينه..
- وبمن اتصل ليطلب ثيابا جافة؟
صاح (كارسون):
- أعترض! هذا السؤال يفترض حقائق بلا دليل..
قال القاضي:
- موافق على الاعتراض.. لكن يبقى أول جزء من السؤال: بمن اتصل؟
قال (تراج):
- لا أحد
لا أحد..
- ماذا؟!
كانت هذه صيحة (ميسون) المندهشة.
- لم يتصل بأحد.. لا نعرف شيئا عن المكالمات التي يتلقاها.. لكن من هذا الهاتف لم تتم إلا المكالمة التي قلت لك عنها..

أغمض (ميسون) عينيه مفكرا بعمق.. فسأله القاضي:
- هل من أسئلة أخرى؟
- لا أسئلة أخرى..
- إذن نأخذ راحة عشر دقائق، ونعاود الاجتماع عندما يصل (جيزور هنلي)..
وغادر القاضي القاعة.
استدار (ميسون) لسكرتيرته و(دريك)، وقال:
- إذن أمامنا عشرة دقائق لحل القضية.. ماذا حدث؟ لابد أن (لامونت) أجرى بعض اتصالات للحصول على ثياب جافة وحذاء.. كيف يحصل على هذه الأشياء لو لم يتصل هاتفيا؟
ثم أردف بعد تفكير:
- نحن نعرف أن من جلب له الثياب هي (مادج إلوود).. لكن كيف ذهبت إليه بالثياب ما لم يكن اتصل بها؟ وكيف دخلت شقته؟
هز (دريك) كتفيه، وقال:
- ما كان ليستطيع الاتصال بها بالتخاطر العقلي..
- ثمة إجابة واحدة.. (مادج إلوود) هي التي اتصلت به..
- ولماذا اتصلت به؟
- لأنها كانت قريبة منه، وكانت تعرف كل شيء عن (أرلين).. وقد اتصلت بالاستراحة.. هلم يا (بول).. لا وقت لدينا.. أطلب شركة الهاتف.. قل لهم إنه موضوع بالغ الأهمية.. سل ما إذا كانت (مادج إلوود) قد اتصلت بالاستراحة ليلة الحادث..
قال (دريك):
- سأحاول.. لكن لا تأمل في كثير من الحظ..
- حاول أن تعرف كل مكالمات (مادج إلوود) في تلك الليلة.. لنقل إن (أرلين) تركت الاستراحة في السابعة.. عادت لشقتها

وبدلت ثيابها، ثم ذهبت لتوقف السيارة أمام بيته.. واتصلت بـ (مادج)..

لنقل في حوالي الثامنة والنصف.. حاول أن تعرف ما إذا تمت مكالمة (مادج) بعد هذا..

- سأحاول.. لكنك لم تعطني وقتا

- هذا ببساطة لأنني لا أمتلك شيئا منه..

وراح (ميسون) يذرع أرض المحكمة، وجبينه مقطب.

بعد دقائق قال:

- (ديللا)..

- نعم يا (ريس)..

- الحقي بـ (دريك) في الهاتف.. لقد أغفلنا النقاط الحيوية في هذه القضية..

- وما هي؟

- احصلي على رقم رخصة السيارة التي ألصق (ليونز) مخالفة على زجاجها بسبب وقوفها في صف ثان تلك الليلة.. واطلبي من (بول) أن يرسل رجاله للبحث عن تسجيل هذه السيارة..

هزت (ديللا) رأسها وغادرت القاعة..

بعد خمس دقائق دخل (جيرور هنلي) قاعة المحكمة، وقد بدا عليه الإرهاق كما لو كان الركض أنهكه..

عرف القاضي بالأمر، فعاد من استراحته.

هنا جاءت (ديللا ستريت)، وجلست جوار (ميسون)، وقالت بينما (هنلى) يصعد إلى منصة الشهود:

- يا (ريس).. أنباء مهمة.. (مادج إلوود) اتصلت بالاستراحة.. وبعد هذا طلبت رقمين في (لوس أنجيليس).. ويعمل رجال (بول) الآن على اقتفاء رخصة السيارة التي كانت تقف صفا ثانيا.

استرخي (ميسون) في مقعده، وببطء غزت ابتسامة وجهه.. استدار إلى (أرلين فيريس) وغمز لها مشجعا.
قال القاضي:
- مستر (هنلي).. المحكمة تريد سؤالك بضعة أسئلة..
- حسن سعادتكم..
- لا أريد من المستشارين على الجانبين أن يعترضا..
سأطلب منك يا مستر (هنلي) أن تركز، وربما تفعل ما يفوق الطبيعة البشرية.. لقد سبق حين رأيت (مادج إلوود) أن قلت إنها المرأة التي غادرت السيارة ليلة الجريمة..
- لقد خدعني أحد.
- لحظة.. إنس هذا كله الآن.. لقد خطر لك أن مستر (ميسون) حاول التلاعب بك، والإيحاء إليك.
أريد أن تنزع الفكرة من ذهنك.. فكر في اللحظة التي رأيت فيها (مادج إلوود).. كم كانت ثقتك بأنها ذات المرأة التي رأيتها في السيارة؟
- كنت مخدوعا..
- مستر (هنلي).. المحكمة غير مقتنعة تماما بأنك مخدوع.. وثمة احتمال لا بأس به أن تكون (مادج إلوود) هي نفس المرأة..
وثب المدعي العام ومساعده (كارسون)، لكن القاضي أشار لهما أن يظلا صامتين، وقال:
- صبرا.. المحكمة تقوم بهذا.. طلبت ألا يقاطعني أحد، فاجلسا أيها السيدان والزما الهدوء..
واستدار لـ (هنلى) ثانية:
- نطلب منك أن تتخلص من كل تعصبات سابقة وتفكر..
ساد الصمت في القاعة، ثم تكلم (هنلي) ببطء:

- حسن.. بالطبع سعادتكم حين رأيتها أول مرة كنت مقتنعا أنها هي من رأيت في السيارة.. إنهما بحق متشابهتان تماما..
- والآن هل يمكنك أن تقسم أن من خرجت من السيارة لم تكن (مادج إلوود)؟ فكر جيدا يا مستر (هنلي).. ليس هذا شركا منصوبا..
أغمض الرجل عينيه وحاول التركيز، وراح يضرب فكه بأنامله:
- حسن.. قالوا لي ألا أجعل (ميسون) يخدعني.. لكن بالفعل سعادتكم.. كلما فكرت في الأمر وجدت أنني كنت متأكدا وقتها..
- مازالت؟
- الأمر مختلف الآن.. إن المتهمة أمامي، وكلما نظرت إليها خيل لي أن هذه هي من رأيتها تغادر السيارة..
- إذن من التي رأيتها: (مادج) أم المتهمة؟
- حين تضعها بهذه الطريقة يا سيدي؛ لا أستطيع التأكيد.. لا أستطيع أن أقولها بثقة..
قال القاضي:
- هذا كل شيء.. لو كان أحد المستشارين يرغب في استجواب الشاهد فليفعل..
قال (ميسون):
- لا أسئلة..
انخرط (هاملتون بيرجر) و(كارسون) في الهمس، ثم قال (بيرجر):
- لا أسئلة سعادتكم..
قال (ميسون):
- لدى سؤال واحد للملازم (تراج)، ويمكنه أن يجيب حيث هو جالس دون أن يجيء لمنصة الشهود.. هل تتضمن الأشياء التي لم تذكرها في شهادتك مستوى الكحول في دم (لامونت)؟

- لم أجر التحليل بنفسي، بل أجراه الطب الشرعي.. كان مستوى الكحول 0.19

- هذا يعني سمية عالية.. أليس كذلك؟

قال (تراج) ببرود:

- بلى..

قال (ميسون):

- أطلب من المحكمة أن تعتبر د. (دريپر) الطبيب الشرعي سيشهد بهذا، لو تم استدعاؤه للشهادة..

قال (هاملتون بيرجر) بعد حديث هامس مع مساعده..

- نحن نقبل هذا كشهادة يا سيدي..

قال القاضي:

- هذا يغير وجه القضية تماما..

- لا نرى سببا لذلك.. إن المحكمة تفترض أن المتهمة تتكلم بالصدق، ونحن نعتقد أنها كاذبة..

ونؤمن أنها ذهبت إليه عمدا، وجعلته يثمل بالشراب، ثم طعنته..

- وما تفسير موزع الكهرباء الموجود في جيبه؟

- هي وضعته هناك بعد وفاته.. هي التي عطلت سيارتها ليعرض (لامونت) أن يوصلها..

- ولماذا ركضت في الوحل ومزقت تنورتها على السلك الشائك؟

- لا نعتقد أنها فعلت ذلك سعادتكم..

- إن لدينا فتاة شابة سمعتها مهددة، وحريتها في خطر.. لدينا أدلة كثيرة لكنكما اتخذتماها ذريعة للتشكيك في كفاءة مستر (بيري ميسون).. ولو كانت المتهمة مذنبة فإن مستر

(ميسون) يكون مذنبا أيضا، ويكون قد زرع أدلة ملفقة.. أما لو كانت بريئة فيجب تأكيد هذا.. إن وظيفة المحكمة هي العدالة..

هنا دخل (دريك) قاعة المحكمة ركضا، وناول قصاصة ورق لـ (بيري).. وهمس:

- حسن يا (بيري).. كما ترى فإن (مادج إلوود) طلبت الاستراحة، ثم طلبت رقمين.. الأول خاص بـ (جورج ألبرت) والآخر خاص بـ (إديث برستول) سكرتيرة مدير الشركة.

هنا سأل القاضي:

- هل من شهود آخرين؟

قال (هاملتون بيرجر):

- ليس لدينا سعادتكم.. وإن الادعاء ليجد أن هناك أدلة كثيرة تجعل هذه المتهمة ذات علاقة بالقضية، وبالتالي لمحاكمة يحضرها محلفون..

- والدفاع؟

نهض (ميسون) وقال:

- ثمة دليل معين سعادتكم.. نحتاج بعض الوقت للحصول عليه..

همس (دريك) بشيء في أذن (ديللا)، ثم غادر القاعة.

تساءل القاضي:

- أي دليل؟

قال (ميسون):

- لنفترض أن قصة المتهمة صحيحة.. وجد (لامونت) نفسه وحيدا في الكوخ.. ثيابه مبتلة.. بلا سيارة.. غاضبا محبطا.. فما الذي يفعله؟

صاح (هاملتون بيرجر):

- لحظة سعادتكم! نحن ضد المجادلات من هذا الطراز.. لو كان لدى الدفاع دليل فإلينا به، وبعدها يحق له أن يبدي براعته اللغوية كما يشاء..

قال القاضي:

- أعتقد أن المدعي العام محق.. إن هذه التخمينات تأتي بعد الأدلة..

قال (ميسون):

- كنت أحاول توضيح الخلفيات سعادتكم..

- أعتقد أن المحكمة تفهم الخلفيات.. ما دليلك؟

- هو هذا.. من الطبيعي أن يطلب (مونت) من يحضر له ثيابا جافة، لكن لم يحدث اتصال من الكوخ، وسبب هذا..

صاح المدعي:

- ها نحن أولاء نعود ثانية! والادعاء يعتبر هذه محاولة للتلاعب بما حكمت به المحكمة..

- والمحكمة تتفق مع المدعي العام.. لو كان لديك دليل يا مستر (ميسون) فإلينا به، وادخر مرافعتك حتى يكون ثمة دليل..

قال (ميسون):

- حسن سعادتكم.. دليلي هو أن سجلات شركة الهاتف تؤكد أن (مادج إلوود) طلبت الاستراحة من شقتها، وبعد هذا طلبت اثنين هما (جورج ألبرت) و(إديث برستول) سكرتيرة (جارفيس لامونت)..

هنا جاء (دريك) لاهثا وناول ورقة لـ (ميسون)..

قرأها (ميسون) وابتسم، وقال:

- السجلات تبين أن السيارة التي كانت تقف في صف ثان، والتي أعطاها الضابط (ليونز) مخالفة تخص (إديث برستول)..

هذه أشياء مدونة، وأرجو أن يصدقني الادعاء في هذا الصدد توفيرا للوقت..

قال الادعاء:

- سنقبل هذا فقط على أساس تأكيد الدفاع أن هذه الوقائع حقيقية..

- أؤكد هذا، ولو كان هناك شك فإنني أطلب التأجيل حتى أبرهن عليها..

- سنقبل ما يقول الدفاع، وإن كنا لا نرى أهمية هذا كله..

سأله القاضي:

- هل تعترض على أساس أنه غير مفيد وغير موضوعي وغير ذي معنى؟

- نعم يا سيدي..

- قبلنا الاعتراض.. والآن يا مستر (ميسون) تكلم كما تريد لترد على الادعاء.

واسترخي القاضي وشبح ابتسامة يتلاعب على شفتيه.. وعقد أصابعه على بطنه.

قال (ميسون):

- كما قلت لسعادتكم، لا بد أن (لامونت) عاد للاستراحة حانقا.. شرب بعض كئوس، وهو لا يعرف حقا ما يجب عمله.. لا يعرف أين سيارته، ولا هل شكته المتهمة لدى الشرطة أم لا.

المتهمة تعود لدارها وتوقف سيارة (لامونت) أمام مضخة إطفاء حريق، وتتصل بصاحبتها (مادج إلوود) لتخبرها بكل شيء.. نحن نعرف الآن أن (مادج) صديقة (لامونت).. لا بد أن هذه الأخيرة اتصلت به في الاستراحة وسألته عما عساها تفعل.. طبعا قال لها: هاتي السيارة لي، ولكن أرسلي أحدهم لشقتي كي يجلب لي ثيابا جافة: سروالا وحذاءين.

طلبتّ (مادج) شخصين.. ما كانت تحب أن تأتي للاستراحة وحيدة، و(لامونت) في حالة الجنون هذه..
طلبت من يرافقها هناك، وطلبت من يأتي بالثياب من شقة (لامونت).. وهو طبعا شخص على علاقة حميمة بـ (لامونت) ولديه مفتاح شقته.
نحن نعرف تكدس السيارات في شارع (لامونت)، ونعرف أن مشاكل كثيرة حدثت بسبب وقوف السيارات في الممنوع.. ثمة سيارة وقفت في صف ثان لدقائق هي سيارة (إديث برستول).. هرعت للشقة بسرعة، لكن الشرطي مر في هذه اللحظة ورآها..
هنا تقدمت (إديث برستول) نحو المنصة، وقالت:
- هل لي أن أقول شيئا للمحكمة؟
- ما نوع ما تريدين قوله أيتها الشابة؟
- أنا (إديث برستول) سكرتيرة (جارفيس لامونت).. تعبت من الخداع.. وربما كان عليّ أن أعترف من البداية.. نعم.. أنا قتلت (لورنج لامونت)!
قال القاضي:
- تقدمي لمنصة الشهود.. عليك أن تفهمي أيتها الشابة أن أي شيء تقولين قد يستخدم ضدك.. يمكنك أن تظلي صامتة.. هل تريدين من المحكمة أن تعين لك محاميا؟ أم تريدين أن تطلبي واحدا؟
- كل ما أريده هو الخلاص من الحمل..
- ليكن.. احكي لنا ما حدث..
قالت:
- إن (لامونت) رجل جذاب ذو نفوذ.. حين جئت إلى المؤسسة، سهّل لي أن أصير سكرتيرة أبيه.. شعرت بأنه يميل إلى

(مادج إلوود) أجمل موظفات المؤسسة، لكن (مادج) قالت إنها ستتزوج (جورج ألبرت).. مدير المكتب.

أدركت أن (لامونت) يلاحقها، وكانت صديقته ولم ترد أن تفقده لكنها كانت ميالة أكثر إلى (جورج ألبرت)..

في ليلة الخامس من الشهر اتصلت بي (مادج)، وقالت في استمتاع: إن (لامونت) حاول أن يوقع (آرلين فيريس) في حبائله، لكنها لقنته درسا قاسيا.. وكان يخشى أن يعرف أبوه بتفاصيل ما حدث..

طلبت مني (مادج) أن أحضر بعض حاجيات (لامونت) من شقته، وكان المفتاح معي.. ففعلت كما طلبت وكان جزائي مخالفة صف ثان.

كان (لامونت) في الاستراحة.. وكان في أسوأ حال..

أعددت له بعض القهوة، والتهمنا اللحم والبيض فقط لأجعله يأكل شيئا..

بدأ يشتمني ويقول إنني إنسانة قبيحة خالية من أي سحر.. قال إنني لا أمثل له شيئا، وإنه ينوي الذهاب لشقة (أرلين فيريس) الآن ليرغمها على الاعتذار له.. وإنه سيجعلها تدفع ثمن ما فعلت..

في النهاية فاض بي وصفعته ليفيق.. فبدأ يخنقني..

جريت إلى المطبخ محاولة الفرار، لكنه كان موصدا.. وجاء يسد على الطريق وهو متأهب للقتل الآن.. انقض عليّ لكنه تعثر، وفي اللحظة ذاتها أغمدت السكين في ظهره.. لا أدري كيف مات، وما حسبتها ستدخل بهذه السهولة..

جريت إلى غرفة المعيشة، وحاول أن يلحق بي، لكنه تعثر وسقط.. ركبت سيارتي وهربت..



انقض عليّ لكنه تعثر ، وفى اللحظة ذاتها أغمدت السكين فى ظهره ..

ساد الصمت في القاعة.

ثم تكلم (ميسون) بهدوء وبتعاطف في صوته:

- هل كلمك عن شيك معين بخمسمائة دولار؟

- لقد اتصل به (أوتو كيسويك) الذي يبتزه من فترة مع (سادي رتشموند).. ثمة أمور كثيرة لم يرغب في أن تصل إلى أبيه.. قال (كيسويك) إنه آت ليأخذ المال خلال نصف ساعة..

نظر (ميسون) لمؤخرة القاعة، وقال:

- الآن ربما نسمع شهادة مستر (ألبرت)..

نهض (ألبرت) وقال بكبرياء:

مس (مادج إلوود) هي زوجتي.. لقد تزوجنا ليلة أمس في (لاس فيجاس).. وبصفتي زوجها لا يمكن طلبي لأشهد ضدها، ولا يمكن طلبها لتشهد ضدي..

ثم جلس..

نظر القاضي للجميع، وقال:

- هل من أدلة أخرى؟

- لا.. سعادتكم..

- إذن تم رفض التهمة ضد المتهمة.. وتأمر المحكمة بحجز (إديث برستول).. وإن كانت المحكمة تشعر بأن الشابة قصت حكايتها بصدق عظيم، وهي قصة أثرت فينا كثيرا.. وتعتقد المحكمة أن المحلفين سيصدقون القصة، ويعتبرون مقتل (لورنج لامونت) دفاعا عن النفس..

☆ ☆ ☆

-13-

جلس (ميسون) و(دريك) و(ديللا) و(آرلين) في مكتب الأول..

كانت (آرلين) شبه مجنونة من السرور، وعيناها حمراوان من البكاء، بينما (ديللا) جوارها تمسك بيدها مطمئنة..

قال (ميسون) وهو يلقي الملف على المنضدة:

- حسن.. ها قد فرغنا من قضية أخرى..

قالت (آرلين):

هي مجرد قضية لك.. لكنها حياتي كلها..

قال (دريك):

- هلم يا (بيري).. قل لنا ما حدث..

- الأمر بسيط.. كان (لامونت) ذئبا، وأراد أن يختلي بـ (آرلين).. كان قد جرب الأمر كثيرا، وهو يعرف قوانين (كاليفورنيا)، ويعرف أن أكثر الفتيات يؤثرن الصمت..

لم يضايقه شيء سوى ابتزاز (أوتو كيسويك) الدائم له.. وحين اتصل به يخبره أنه آت بعد نصف ساعة، حدث ما حدث.

اتصلت به (مادج) ووعدته بإحضار ثياب له، لكنها لم تنو أن تذهب إليه وهو وحده في الاستراحة..

لهذا قررت أن تضحي بـ (إديث) وترسلها هي.

- لماذا لم تقد (إديث) سيارة (لامونت) للاستراحة بدلا من سيارتها؟

- لا بد أن (لامونت) طلب هذا، فما كان راغبا في أن يقود سيارته وهو بهذه الحالة الزرية.. كان يزمع الذهاب إلى (آرلين)، وعندها ما كانت المقاعد الطائرة لتجدي معه..

بعد هذا وصلت (مادج) وخطيبها إلى الاستراحة، ليجدا جثة (لامونت).. قررا أن يبقيا صامتين حتى لا تقحمهما الشرطة في هذا.. أخذا ثيابه المبتلة وقررا أن يخفياها حتى لا تثير أسئلة حول ما حدث فعلا.. وعادا بالسيارة وتركاها أمام مطفأة الحريق..

أليست هذه جريمة؟ عدم الإبلاغ عن جريمة قتل..

- جريمة طبعا.. لكن لو استطاع المدعي العام إثباتها..

- ألن يستطيع؟

- هما زوجان.. ولن يشهد أحدهما على الآخر.

سألته (ديللا):

- وماذا عن الشيك الذي كتبه (لامونت) الأب لـ (مادج)؟

- كتبه كي تتزوج هي و(ألبرت)، ويستحيل استدعاؤهما كشاهدين.. أراد العجوز أن يحمى ما يحسبه هو سمعة ابنه الطيبة.. ويبدو أنه كان ينوي التضحية بـ (أرلين) لهذا الغرض.

قال (دريك):

- كل هذا منطقي.. وإن ما قمت به لمعجزة يا (ميسون)..

صحح له (ميسون):

- بل هو مجرد جهد عقلي..

إيرل ستانلي جاردنر

(1965)

(تمت بحمد الله)

قضية الذئب

عندما دافعت (أرلين فيريس) عن نفسها: وجدت أنها متهمة بالقتل.. وحين دافع المحامي الأشهر (بيري ميسون) عنها: وجد أنه متهم بالتلاعب في الأدلة.. وهكذا كان عليه أن ينقذ موكلته وينقذ نفسه كذلك، في هذه القصة الممتعة من قصص (بيري ميسون)، بقلم (إيرل ستانلي جاردنر).. أشهر من كتب الألغاز القانونية..

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

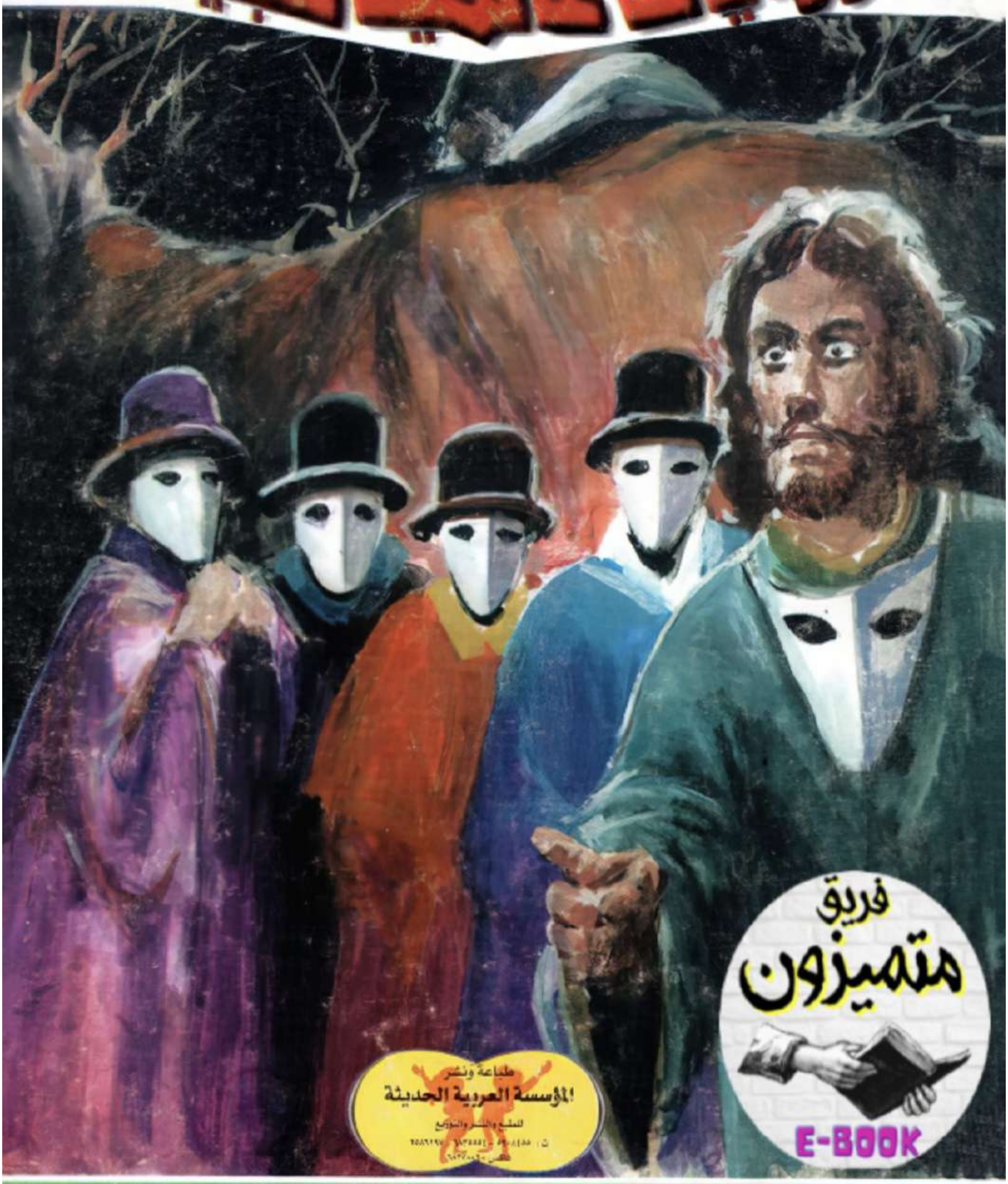
Notes

[←1]

- العرض القانوني أو التعرف الشخصي: حين يقف المشتبه فيه وسط مجموعة، ويكون على الشاهد أن يتعرفه هو بالذات وسط هؤلاء..

روايات عالمية للجيب

40



الرجل الذى كان الخميس

بقلم : ج . ك . تشسترتون

ترجمة : د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (40)

الرجل الذي كان الخميس

بقلم: ج. ك. تشسترتون

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

(جلبيرت كيث تشسترتون) كاتب إنجليزي موهوب ولد في لندن عام 1874. كتب في جميع ألوان الأدب، وكانت آراؤه الغريبة الخشنة - في بداية حياته – مصدر جذب لكتاب متمردين على غرار (برنارد شو) و(ويلز).

كتب سيرا بالغة الأهمية، كما كتب قصصا بوليسية شهيرة جدا، بطلها (الأب براون) وهو قس كاثوليكى يملك مواهب التحري الجنائي، وقد قدمتها الإذاعة هناك مرارا، ولعل أكثر قراء الإنجليزية لا يعرفونه إلا من خلال هذه القصص المسلية. لكن أشهر ما كتب رواية (نابليون نوتنج هيل 1904) وهي من نوعية الخيال المستقبلي، ورواية (الرجل الذي كان الخميس - 1908) وهي القصة التي نقدمها لك اليوم..

كانت آراؤه السياسية فريدة، وابتدع مذهبا عجيبًا هو أقرب إلى الاشتراكية، أطلق عليه اسم (التوزيعية) Distributionism على أساسه يجب أن يملك كل إنسان ثلاثة فدادين وبقرة! ويقال إن مقالة واحدة له حركت مشاعر غاندي وجعلته يعمل جاهدا من أجل استقلال الهند. هاجم حرب البوير التي كانت كل بريطانيا تؤيدها غير مبال بصدامه مع الرأي العام، وكتب كتابه (الإيوجنيا وشرور أخرى) يهاجم (الإيوجنيا) (وهي المعادل القديم للاستنساخ بهدف خلق جنس أرقى وأفضل)، وكان هذا في وقت آمن فيه الجميع بأن مستقبل البشرية يكمن في الإيوجينيا، حتى كادت تغدو دينا جديدا. وكما اشتهر في البداية بتمرده؛ اشتهر في أواخر أيامه بالتحفظ والدفاع عن الدين

والعقيدة الكاثوليكية. وقد كتب في الدين كثيرا ومن أشهر كتب هذه الفترة (الإنسان الخالد) و (المهرطقون).

وتوفي (تشسترتون) عام 1936 بعدما نشر في حياته 69 كتابًا مازال أكثرها مقروءا وعظيم الشعبية حتى اليوم.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

من أهم أعمال تشسترتون:

- المهرطقون 1905
- ما الخطأ في العالم؟ 1910
- القديس توما الإكويني 1933
- خرافة الطلاق 1920
- طهر الأب براون 1911
- عراف الكلب 1927
- الرجل الذي كان الخميس 1908
- كيف وجدت السوبرمان 1909
- الرجل الذي عرف أكثر من اللازم 1922
- للعشاق فقط 1911

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

شاعرا حديقة الزعفران....

كانت ضاحية حديقة الزعفران تمتد غربي (لندن)، حمراء كسحابة ساعة الغروب. كانت مبنية من قرميد لامع، خرجت من عبقرية مهندس معمار مزج عمله بشيء من الفن. وكان الناس يصفونها بأنها مركز للفنون برغم أنه ما من عمل فني خرج منها قط.. لكن ما من أحد جادل في أنها مكان مبهج خلاب. لم يكن المكان مبهجا فقط، بل كان مكتمل الروعة، وإن كان سكانه ليسوا فنانين كما يزعمون، فإن المكان كله يبوح بالفن.

مثلا هذا الشاب ذو الشعر المحمر والوجه المتهكم، لم يكن شاعرا لكنه كان قصيدة في حد ذاتها.. وهذا الشيخ ذو اللحية البيضاء الذي يكذب بوقار، لم يكن فيلسوفا لكنه كان يلهم الآخرين بالفلسفة.. وهذا العالم المدعي ذو العنق الطويل الرفيع، لم يكتشف شيئا جديدا في علم الأحياء، لكن أي شيء يمكن أن يكتشفه أفضل منه هو؟ هكذا يجب أن ننظر للمكان ليس كورشة عمل للفنانين، ولكن كعمل فني متكامل وكان هذا التأثير يتضح بالذات ليلا حين تتألق الأسطح بالأضواء كأنها سحابة مارقة، وتضاء المصابيح الصينية على الدور كأنها فاكهة خيالية. بل كان هذا التأثير يتضح أكثر حين يلعب الشاعر ذو الشعر الضارب إلى الحمرة دور البطولة..

كنت تسمع صوته الوعظي يتكلم مع الرجال وبخاصة النساء. وكانت نساء هذا المكان نموذجا للطراز التحرري الذي يجاهد من أجل التحرر من سطوة الرجال، لكنهن كن يعطين

للرجال خدمة لا تمنحه إياها أية امرأة في العالم: كن ينصتن له حين يتكلم. وكان مستر (لوشيان جريجوري) - الشاعر ذو الشعر الضارب إلى الحمرة - بحق رجلا يستأهل أن تصغي إليه، حتى لو كنت ستضحك منه في النهاية. كان مظهره الغريب لافتا للنظر بحق، فشعره البني المفروق من المنتصف كالنساء، ينساب في خصلات مجعدة كعذراء من عصر ما قبل رافاييل. بينما ذقنه تبرز للأمام في تعبير يوحي بالازدراء. كان يبدو مزيجا من ملاك وقرد معا.

كانت هذه الليلة بالذات تمتاز بغرابة غروبها الذي بدا كأنه نهاية العالم. كل السماء مكسوة بريش أحمر.. ريش يوشك أن يلمس وجهك ويمتزج امتزاجا لا يصدق بالبنفسجي والقرمزي والأزرق، جمال لا يمكن أن تصدقه. والغريب أنه بدا دانيا جدا، حتى لتشعر بأن السماء نفسها أقل حجما من طبيعتها.

قلت: إن هناك من سيتذكرون هذه الليلة فقط لغرابة سمائها، ولكن آخرين سيتذكرونها لأنها شهدت مجيء الشاعر الثاني إلى حديقة الزعفران. لقد كان ذو الشعر المحمر وحيدا حتى ظهر الشاعر الثاني الذي يطلق على نفسه اسم (جابرييل سايم). وقد أثبت حضوره بالجدال مع الشاعر الأول (جريجوري) حول طبيعة الشعر. فقد وصف نفسه بأنه شاعر القوانين.. شاعر الاحترام..

قال (جريجورى) بأسلوبه الغنائي:

- ربما في ليلة كهذه زاخرة بالألوان الوحشية والغيوم، تأتي لنا أعجوبة اسمها الشاعر المحترم.. تقول إنك شاعر القوانين، وأنا أرى تناقضا مخيفا في هذا، حتى إنني لا أفهم لماذا لم تمتلئ

السماء بالشهب تحية لقومك.. إن الفنان يشبه الثائر الفوضوي، والفوضوي يشبه الفنان [1].. من يقذف قنبلة هو فنان لأنه يفضل لحظة عظيمة على أي شيء آخر.. إنه يفضل لحظة من صوت الرعد أو وميض البرق على وجوه مجموعة من رجال الشرطة لا يمتازون بشيء.. الشاعر الحق يرفض كل القوانين ويتحدى كل الأنظمة، ولو لم يفعل فإن أكثر الأشياء شاعرية في (لندن) هو مترو الأنفاق..

هل تعرف لماذا يبدو الموظفون في محطة القطار بهذا الاكتئاب؟ لأنهم يعرفون أنه لا تغيير في حياتهم.. بعد (سلون) يصل القطار إلى (فكتوريا).. لا شيء سوى (فكتوريا).. كل شيء يسير بنظام.. كل شيء مضمون ورتيب.. ويا لفرحتهم لو فوجئوا أن محطتهم التالية هي (بيكر ستريت)!!

- أنت من يفتقر إلى الشاعرية.. إن الفوضى عمل ممل سخيف.. ليست المعجزة في أن يصل القطار إلى مكان غير مقصود مثل (بيكر ستريت) أو حتى (بغداد).. الشاعرية هي الإنسان الذي يسيطر على وحش كالقطار.. يقرر أن يتجه به إلى (فكتوريا) وينجح في ذلك!

وأردف (سايم) في حرارة:

- دعني أقل لك إنه في كل مرة يصل فيها القطار للمحطة، أشعر بأن الإنسان انتصر في معركته ضد الفوضى.. وحين أسمع كمساري القطار يصيح (فكتوريا)، أشعر بأن هذا أكثر مما يعنيه.. أشعر بأن هذا بحق انتصار الإنسان.

حرك (جريجوري) خصلات شعره المحمر وقال:

- وحتى بعدها.. لا يقنع الشاعر بالوصول إلى (فكتوريا)، ولسوف يتساءل عن جدوى وصوله هناك.. الشاعر لا يقنع بالتحليق في السماء ذاتها.. الشاعر هو الثورة ذاتها..

- وما الشاعرية في أن تكون ثائرا؟ الثورة ودوار البحر يحدثان للإنسان، لكن لأشنق لو عرفت أن فيهما شاعرية من أي نوع.. كلاهما قيء.. وإنني لأجد في الهضم المنتظم شاعرية تفوق كل الزهور في العالم.. الشاعرية الحقيقية هي ألا تمرض..

بدا لدى شقيقة (جريجوري) بعض اهتمام بكلمات وآراء هذا الضيف الجديد، فمشت جواره إلى ركن في الحديقة وهو يتكلم بحماسة عن النظام والقانون.. ويدافع بحرارة عن حججه، وبعد قليل وجد نفسه يتحدث لا للفتاة بل لشعرها الأحمر الجميل ووجهها المستمتع.

وأثار دهشته حين رفع عينه أن الجميع قد رحلوا من الحديقة من زمن، فاعتذر لها وعاد لداره شاعرا برأسه يتأرجح ثملا.. لم يكن لهذه الفتاة دور في كل الأحداث المريعة التي ستقع فيما بعد، ولم يرها قط حتى انتهت هذه القصة، لكنها بشكل ما راحت تتردد في ذهنه طيلة مغامرته المجنونة التالية، كما تتردد (موتيفة) الموسيقا طيلة الوقت.

حين خرج (سايم) إلى الشارع الذي لا تثيره إلا النجوم، وجد أنه خاو.. وأدرك بشكل ما أن هذا الصمت حي وليس ميتا. وعند مصباح الشارع كان يقف شبح متصلب مثله مثل عمود الإضاءة ذاته.. معطفه وقبعته أسودان ووجهه في الظل.. لكن شيئا في مظهره كان يوحي بأنه الشاعر (جريجوري) ذاته.. له سمت قاتل أجير ينتظر عدوه بسيف في يده..



وعند مصباح الشارع كان يقف شبح متصلب مثله مثل عمود الإضاءة ذاته .

أتى (جريجوري) بنوع من التحية وقال:

- كنت أنتظرك.. هل لي في لحظة من الحديث معك؟

قال (سايم) في دهشة واهنة بالطبع.. لكن عن ماذا؟

أشار (جريجوري) للمصباح والعمود وقال:

- عن هذا وذاك.. عن الفوضوية.. تأمل مدى غباء ورتابة هذا المصباح، وتأمل جمال أوراق الشجرة العشوائية..

- لكنك ترى الشجرة في ضوء المصباح، وإنني لأتساءل عن اللحظة التي ترى فيها المصباح في ضوء الشجرة!! - ثم أضاف - لكن دعني أسألك: هل تقف هنا في الظلام فقط لاستكمال مناقشتنا؟

- كلا.. لم أقف لاستكمال محادثتنا.. بل لإنهائها إلى الأبد!!

وقف (سايم) ينظر له عاجزا عن فهم ما يريد، بينما قال الشاعر:

- الليلة أنت نجحت في فعل شيء لم ينجح رجل ولا امرأة في فعله قط.. استطعت أن تضايقني..

- إذن أنا اعتذر..

- للأسف لا يستطيع الاعتذار أن يرد لي كرامتي.

حتى لو تبارزنا وقتلتك فلن ينسيني هذا الإهانة.. توجد طريقة واحدة أبرهن بها لك على أنك كنت مخطئا..

- مخطئا في ماذا؟

اسود وجه (جريجوري) وقال:

- أنت تعتقد أنني لا أعني ما أقول، وأنني غير مخلص في فوضويتي.. تحسبني غير جاد.. لكنني سأريك أنني جاد حقا

وأعني ما أقول حقا.. عليك أولا أن تقسم إن كل ما سأخبرك به هذه الليلة سر.. سر سيظل في أعماق روحك للأبد، ولن تخبر به الشرطة مهما حدث.. والمقابل أنني أعدك بليلة ممتعة حقا..

نزع (سايم) قبعته باحترام وقال:

- عرضك أكثر بلاهة من أن أرفضه.. تقول إن الشاعر دائما فوضوي، وأنا أختلف معك، لكني آمل أن الشاعر على الأقل يتمتع بروح رياضية.. أنا أعدك. فماذا تريد أن تصارحني به؟

- فلنستقل عربة أجرة ونر..

وصفر لعربة مارة، وأعطى السائق عنوان حانة في الجهة الغربية من النهر.

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

سر (جابرييل سايم)

في الحانة سيئة الإضاءة، جلس الرجلان على منضدة متسخة لها رجل مكسورة.. وطلب (جريجوري) معجون كبد الإوز بالدهن وعش الغراب (باتي دوفوا جراه)، ولدهشة (سايم) ذهب الساقي ليحضر هذا الطلب.. رأي (جريجوري) دهشة (سايم) فقال له:

- أعرف أن هناك تناقضا بين جودة ما يقدمه هذا المطعم وبين مظهره الخارجي.. إن هذا يعود لتواضعنا، فنحن أكثر أهل الأرض تواضعا..

- ومن أنتم؟

- الفوضويون الجادون في فوضويتهم.. أولئك الذين لا تؤمن أنت بوجودهم.. بالمناسبة.. لو شعرت بأن المائدة تتحرك قليلا فلا تعز هذا إلى إفراطك في الشراب.. لا أريد أن تتهم ذاتك بتهمة باطلة.

فما كاد يقول هذا حتى بدأ (سايم) بالفعل يشعر بأن المائدة تتحرك قليلا.. قال له (جريجوري):

- لا تقلق.. هذا نوع من القلاووظ.

- آه! نوع من القلاووظ.. ما أبسط الأمر!!

في اللحظة التالية واصلت المائدة الدوران ثم غاصت في الأرض بمن عليها.

نهض (جريجوري) واقتاد ضيفه إلى باب يفضي إلى ممر مسقوف.. في نهايته كان ضوء أحمر ينبعث من مصباح قرمزي عملاق يوشك أن يكون حجمه كالمدفأة..

دق على باب معدني خمس مرات فجاءه صوت من الداخل يسأل عن شخصه، فقال:

- أنا مستر (جوزيف تشامبرلين).

انفتح الباب فدخلا، وكان المدخل مبطنا بما يشبه شبكة معدنية، سرعان ما تبين (سايم) أنها مجموعة متقاطعة من البنادق والمسدسات ثبتت إلى الجدران. بعد مرور في عدة ممرات مماثلة، بلغا غرفة معدنية غريبة تشبه الكرة، لكن كانت بها مناضد عدة توحي بأنها قاعة درس. لم تكن هناك بنادق في هذه الغرفة، لكن على الجدران كانت أشياء غريبة كأنها بيض طيور معدنية. كانت قنابل.

قال (جريجوري):

- حاول أن تكون على راحتك هنا يا سيدي.. حقا لا توجد أسباب تفسر لماذا أريك هذا كله.. إنه أمر لم أخطط له مثله مثل الوقوع في الحب.. والآن أما زلت تشعر بأنني فوضوي غير صادق في فوضويتي؟

- مازلت لا أفهم معنى هذا كله..

- ليس هدفنا هنا تحدي القانون والشرطة.. بل نحاول ما هو أكثر عمقا وتعقيدا.. لقد تحدث فلاسفة الثورة الفرنسية السخفاء عن حقوق الإنسان.. نحن نكره الحقوق ونكره الأخطاء.. لقد ألغينا لفظتي صواب وخطأ.

- ليتكم تلغون لفظتي اليمين واليسار كذلك.. ولكن دعني أسألك بالمناسبة: مع كل هذا الحذر وكلمات السر، أراك تجهر بأرائك الفوضوية جهرا أمام النساء..

دعني أحك لك قصتي.. في الأيام الأولى لاعتناقي الفوضوية، كان على أن أتنكر وسط المجتمع.. تنكرت كأسقف لكن سري افتضح سريعا.. بعد هذا جربت أن أبدو كمليونير، لكني كنت أدافع عن الرأسمالية بحماسة وذكاء أقنعا كل من حولي أنني رجل فقير في الحقيقة!! وحين جربت أن أكون رجلا عسكريا رحت أصيح طيلة الوقت: دم.. دم! ثم أدركت أن العسكريين لا يتصرفون هكذا.. قصدت رئيس مجلس الفوضويين، وهو أعظم رجل في أوروبا بلا مراء.

- ما اسمه؟

- لن تعرفه.. لكنه رجل عبقري بالفعل، ولو جلست معه عشر دقائق، لشعرت بأن (قيصر) و(نابليون) هم مجرد أطفال بالنسبة له.. لقد سألته عن أنسب تنكر أذوب به وسط الناس، فنظر لي وقال: تريد تنكرا يخدع الجميع، ولا يشتبه أحد في أن صاحبه يحمل قنبلة؟

تنكر كفوضوي يا أحمق!! وقتها لن يحسبك أحد قادرا على عمل شيء.. وهكذا لم أنس نصيحته.. طيلة الليل أتحدث عن القنابل والموت أمام هاته السيدات، لكنهن لا يصدقن حرفا مما أقول.. إن الزعيم بالغ الحكمة، ونحن نطلق عليه (الأحد).. كما ترى هناك سبعة أعضاء للمجلس الفوضوي، يحمل كل منهم اسم يوم من الأسبوع.. وبالصدفة سيكون علينا الليلة - في هذا المكان بالذات - انتخاب بديل للعضو (الخميس) لأنه توفي

فجأة.. ويهمني هنا أن أصارحك بسر لا يجب أن يعلمه أحد من القادمين بعد عشر دقائق: أنا من سيكون الخميس..

- يا له من شرف يا صديقي!

أشار (جريجوري) إلى منضدة عليها عباءة وسيف ومسدس.. وقال وهو يفرك يديه:

- كل ما على هو أن ألبس هذه الأشياء، وأتجه إلى الكهف المجاور الذي يطل على النهر، ثم أستقل قاربا بخاريا.. وبعدها.. المتعة الوحشية لأن أكون أنا الخميس!

قال (سايم) في حيرة:

- لا أدري حقا لماذا أميل لك يا (جريجوري)..

ربما لأنك جحش أحمق، وربما لأنني لا أريد إفساد هذه الأمسية الشائقة.. لكني أريد منك وعدا.. أنا وعدتك ألا أبوح بسرك للشرطة وعليك أن تعدني بألا تصدر منك كلمة للفوضويين بخصوص سري.

- سر؟ هل لديك سر؟

- نعم.. وأرجو أن تعدني بألا تكشفه..

- أعك، ولكن تكلم سريعا فقد دنا موعد وصول أولهم..

مد (سايم). بيده في جيبه في نفس اللحظة التي دوت فيها خمس دقات على الباب، تعلن وصول أول المجتمعين الليلة.. وقال:

- لا أدري هل يسمح الوقت بالكلام أم لا.. لكن فكرتك عن التنكر في ثوب شاعر فوضوي لإخفاء أنك فوضوي، لم تكن وليدة أفكار الرئيس فقط.. لقد فكرنا في الشيء ذاته في (سكوتلانديارد)!!

- ماذا تقول؟

- نعم.. أنا مخبر في الشرطة.. لكن يبدو أن أصدقاءك قد جاءوا الآن..

راح اسم (جوزيف تشامبرلين) يتردد، وسرعان ما دخل حشد من الـ (جوزيف تشامبرلينات) إلى الردهة..

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

الرجل الذي كان الخميس

امتدت يد (جريجوري) إلى المسدس، وصوبه إلى رأس (سايم) لكن هذا لم يهتز.. وقال في لا مبالاة:

- لا تكن طفلا.. ألا تفهم أننا في نفس القارب، وأن كلا منا قد وضع الآخر في وضع (كش مات)؟

أنا لا أستطيع إبلاغ الشرطة بأنك فوضوي، وأنت لن تستطيع إبلاغ الفوضويين بأنني شرطي.. إنها مباراة بين عقلين.. أنا شرطي محروم من معونة الشرطة، وأنت فوضوي محروم من معونة الفوضويين.. لكنك في وضع أفضل مني.. فأنت لست محاطا برجال الشرطة المتشككين..

وضع (جريجوري) المسدس بعد تردد، بينما دخل الرجال.

ما كان يستطيع أن يخون (سايم) الآن.. ربما للشرف، وربما لأنه لو خانه واستطاع (سايم) بشكل ما أن يفر..

سيكون (سايم) وقتها (سايم) جديدا متحررا من أي قسم سابق قطعه.. سيدخل أقرب نقطة شرطة ويحكى كل شيء.. دع (سايم) يرحل بسلام إذن وجازف بهذا..

قال للرجال:

- حان وقت البدء فالقارب البخاري ينتظر الآن حتما..

اعتلى رجل قصير القامة مقعد الرئيس، على حين اتخذ الرجال مقاعدهم كأنما في محاضرة.. قال الرجل في حدة:

- يا رفاق.. إن اجتماعنا الليلة عظيم الأهمية.. فكما تعرفون أن فرعنا هو المكلف بانتخاب أيام الخميس للمجلس، وكان الخميس السابق رجلا عظيم الشأن، نذكر له تفجير جسر (برايتون)، الذي كان ممكنا أن يقتل كل إنسان هناك لو كان حظنا أفضل.. وقد مات الفقيد بسبب مبادئه وهو يشرب مزيجا من الطبشور والجير الحي، بديلا عن اللبن الذي كان يعتبره مشروبا همجيا.. من العسير أن نحكى كل مزايا الرجل، لكن الأصعب أن نجد له بديلا.. وسيكون عليكم أن تتقدموا بترشيحاتكم لأصلح رجل كي يكون الخميس..

نهض رجل عجوز نحيل، وقال:

- أطالب بترشيح الرفيق (جريجوري) ليكون هو الخميس..

صفق الجميع، ونهض (جريجوري) شاحب الوجه ليقول كلمة شكر بهذه المناسبة.. كانت مهمته الآن أن يقنع مخبر الشرطة الجالس معهم أن المنظمة ليست شيئا جديا خطيرا.. لقد كان المخبر يؤمن أن الفوضويين لا يفون ما يقولونه حقا، فهل يستطيع (جريجوري) الآن أن يقنعه بهذا من جديد؟ كان مؤمنا بقدرته الخارقة على التلاعب بالألفاظ وجعلها تحتمل أكثر من تفسير.

- يا رفاق.. لن أقول هنا شيئا لا تعرفونه جميعا.. إن الناس الذين يتهمون الفوضوية بشتى التهم يقصدون كل مكان إلا الفوضويين أنفسهم كي يستقوا معلوماتهم.. إن رجل الشارع الذي يسمع أننا أوبئة تمشي على قدمين، لم يسمع دفاعنا عن أنفسنا قط.. وها نحن أولاء نجتمع هنا تحت الأرض كما كان المسيحيون الأوائل يجتمعون في السراديب.. ولو فرضنا لمجرد

الفرض أن هنا رجلا ليس من بيننا.. فإنني أقول له: ترى ما السمعة والإشاعات التي كان الرومان وقتها يطلقونها على هؤلاء المسيحيين؟ إننا ودعاء كهؤلاء تماما..

هنا نهض رجل يلبس سترة جلدية، وبحدة قال:

- أنا لست وديعا..

- الرفيق (ويذرسبون) يزعم أنه ليس وديعا.. حسن.. أنا أعترف أن لهجته حادة ومظهره خشن.. لكن لابد لقلب صديق مثل قلبي كي يحكم على هذا الرجل.. إن فيه وداعة بالغة كامنة لا يشعر بها هو نفسه.. إن فينا بساطة ورقة لا توصفان.. انظروا لي واحكموا بأنفسكم! لقد زعم الرومان أن المسيحيين الأوائل كانوا يأكلون لحم الموتى.. ونحن لا نأكل لحم الموتى..

- يا للعار!! لماذا لا نفعل ذلك؟

- أقول إننا نحب المجتمع..

- فليسقط الحب!!

- أقول إننا نحب بعضنا، ولسوف نعمل جاهدين على أن نوصل رسالتنا للناس..

أخيرا جلس (جريجوري) منهكا، وقد ساد جو من الصمت وخيبة الأمل، وبدا أنه ما من واحد بعد هذه الخطبة يرغب في انتخابه ليكون الخميس.. كاد رئيس الجلسة يتكلم، لكن (سايم) وثب على ساقيه وصاح:

- سيدي.. أنا أعترض على ترشيح الرفيق.

قالها بلهجة هادئة، ثم بدأ يمارس فن الخطابة كما ينبغي، إذ غير نبرة صوته لتجلجل في القاعة كالرعد:

- يا رفاق!! هل حقا وصلنا لهذا؟ أترانا نعيش تحت الأرض من أجل هذا؟ أترانا علقنا كل هذه الذخائر واخترنا كل هذه القنابل، حتى لا يجيء أحد ويسمع الرفيق جريجوري يقول: فلنكن خيّرين.. الأمانة هي خير سياسة.. الصدق منج؟ هذه مواعظ جديرة بمدارس الأحد.. جديرة بالوعاظ.. لكني لست واعظا (تصفيق تصفيق).. أنا عدو المجتمع لأن المجتمع هو عدو البشرية.. يقول الرفيق إننا لسنا قتلة وأنا أوافقه على هذا.. نحن لسنا قتلة بل نحن جلادون!! لهذا أقول إن الرجل الذي يحمل أخلاق قديس لا يصلح بالتأكيد ليكون الخميس..

جلس (جريجوري) يصغي لهذا كله ووجهه متصلب، كأنما لا يصدق ما يسمع..

واصل (سايم) الكلام:

- أنا (سايم) أقف أمام (جريجوري) في الترشيح، وأقول إنني لست رجلا على الإطلاق.. أنا سبب!! وإنني أطالبكم بالاختيار بيني وبينه كما تختارون بين نوعين من المسدسات على الجدار..

اختفت مقاطعة الأخيرة وراء سد من التصفيق والتمعت الوحشية في العيون طلبا للمزيد.. هنا نهض (جريجوري) والزبد يتساقط من شدقيه، وصاح:

- كفى أيها المجنون.. لقد تجاوزت الحد!!

صاح (سايم) بصوت أعلى:

- أنا لا أريد دخول المجلس لأطالب بدفع تهمة القتل عنا.. أنا أريد أن أستحق هذه التهمة!! أريد أن أثبت للقس والقاضي ورجل البرلمان البدين الذين يتهموننا بأننا مجرمون نخرب المجتمع.. أريد أن أثبت لهؤلاء أنهم صادقون في نبوءتهم!!

هنا فقط نهض رئيس الجلسة وصاح وسط التصفيق:

- أنا أرى أن أجدر شخص لمنصب الخميس هو الرفيق (سايم)..

صاح (جريجوري) في وهن:

- لا تفعلوا: أنتم لا تفهمون!!

ثم بلهجة متوسلة صاح:

- أرجوكم.. لا أستطيع أن أقول السبب لكن لا تنتخبوا هذا الرجل.. أنا آمركم.. خذوها على هذا المحمل، فإن لم يرق لكم فأنا أتوسل إليكم.. سأجثو على ركبتي وأرجوكم ألا تفعلوا.. سأكون خادمكم الطيع.. عبدكم الرقيق.. لكن صدقوني..

نهض رجل نحيل فارع القامة من مؤخرة الجلوس، وقال بلهجة أمريكية:

- أنا راغب في دخول الترشيح..

جرى الانتخاب.. فلما ذكر اسم (سايم) ارتفعت الأيدي كأنها غابة.. وسرعان ما صار المستر (سايم) هو يوم الخميس في مجلس الفوضويين المركزي.. وقال له رئيس الجلسة:

- هلم لتركب القارب..

ضم (سايم) عباءته على جسده ومشي عبر ممر ضيق خلف الرجل.. كانت البحيرة صفحة من الفضة كأنما هي لوحة من لوحات المسرح، وقد وقف في ضوء القمر قارب بخاري صغير

وسرعان ما انساب القارب البخاري براكبه.

☆ ☆ ☆



ضم (سايم) عباءته على جسده ومشى عبر ممر ضيق خلف الرجل .

الفصل الرابع

حكاية المخبر

لم يكن (جابرييل سايم) مخبرا تنكر في ثوب شاعر، بل كان شاعرا اختار أن يعمل مخبرا.. كان قد تضايق في شبابه من حماقات من يزعمون أنفسهم ثوريين، واتخذ موقفا بالغ التحفظ.. كان ثائرا على أشياء كثيرة، ومن ضمن هذه الأشياء الثورة نفسها.. وقد رأى مرة ديناميتا ينفجر جواره في عملية إرهابية، جعلته يمقت الفوضويين مقتا بالغا.. لم يعتبرهم كباقي المثقفين وباء يجب اجتثاثه، بل اعتبرهم خطرا داهما على الأمة كغزو من الصين.

وعرف أن هناك قسما في الشرطة يضم رجال الشرطة المثقفين، وهؤلاء عملهم مراقبة الأفكار.. إنهم لا يبحثون عن الجريمة بعد ارتكابها.. بل يبحثون عنها قبل ارتكابها في عقول المثقفين.. والفكرة التي تلح عليهم هي أن اللص العادي البائس لا يهدم المجتمعات.. أما المفكر والفيلسوف فهو الذي يرتكب أشنع الجرائم طرا..

أليست جرائم آل (ميديتشي) ماثلة للعيان؟ ألا يعرف الجميع فظائع أباطرة الرومان؟

وهكذا كانت الشرطة تعتبر أشنع المجرمين هو الفيلسوف عديم الاحترام للقانون.. إن اللص العادي يحترم الملكية ويحاول أن ينقلها له بطريقة غير مشروعة، وهو بهذا يحترم الأهواء البشرية، أما الفيلسوف فيزدري الملكية ويحاول أن يلغيها.. إن القتلة يحترمون الحياة البشرية حتى إنهم يحاولون سرقتها من

ضحاياهم، بينما الفيلسوف يزدرى الحياة كلها.. إن المجرم العادي يحترم قوانين الكون لكنه يحاول تجاوز العقبات بشكل غير مشروع، بينما الفوضوي يدمر كل هذا.

تطوع (سايم) للانضمام إلى هذا القسم في الشرطة، وأخذوه ليلقى القائد في (سكوتلانديارد).. كان القائد يحب أن يلقى رجاله في غرفة معتمة الإضاءة لأن هذا يساعده على التركيز.. وأثار رعب (سايم) كل هذا الظلام المحيط به في الغرفة.. لم تكن تلك الظلمة المعتادة حيث تتبين حدود الأشياء بل بدا الأمر كأنما أصيب بالعمى فجأة..

- هل أنت المتطوع الجديد؟

وبرغم أنه لم يكن هناك ضوء، فإن (سايم) أدرك أن من يكلمه رجل هائل الجثة يدير ظهره له..

- أنت صرت معنا..

- لكنني غير كفء يا سيدي.

- إن لديك الرغبة وهذا كاف..

- وهل هناك مهنة تكفي الرغبة كاختبارها الأخير؟

- نعم.. مهنة الشهيد! إنني أقدمك للموت.. طاب يومك..

وهكذا تم تعيينه وخرج للعالم الخارجي ليمارس مهنته الجديدة.. بعد ما تأنق وارتدى ثيابا فاخرة مناسبة، وراح يبحث عن الجريمة في مجتمعات (لندن) الراقية..

وكما رأينا؛ قادته مغامرته إلى أن يجد نفسه في قارب بخاري، في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، متجها إلى حيث يلعب دوره الجديد كالخميس في مجلس الفوضويين.

وحين غادر القارب، شعر بأنه لا يخطو فقط فوق أرض جديدة.. بل فوق كوكب جديد.. كان القمر وهاجا قويا حتى بدا له كأنما هو شمس أضعف.. لم يعط الانطباع بضوء قمر براق، بل بضوء نهار غائم.

كان القارب بطيئا جدا، فما إن بلغ (وستمنستر) حتى بدأت أولى خيوط النهار.. واتجه القارب إلى مرسى قرب (شيرنج كروس)..

خرج من القارب ومشي فوق المنحدر المبتل ووقف.. بينما أدار الرجلان القارب من جديد واختفيا.. لم يكونا قد نبسا ببنت شفة طيلة الرحلة.

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

وليمة الخوف

بدا السلم الحجري في البداية مهجورا كهرم قديم.. لكن ما إن وصل لأعلى حتى تبين رجلا ينحني فوق حاجز الجسر يتأمل النهر.. كان يرتدي معطفا أسود ويضع زهرة حمراء في عروته.. دنا منه (سايم) أكثر فرأى أن وجهه مستطيل حاد يوحي بالثقافة، ينتهي بلحية مدببة صغيرة بالضبط عند طرف الذقن.

دنا (سايم) أكثر فأكثر.. وخطر له بالغريزة أن هذا هو الرجل المفترض منه أن يلقاه، لكنه غيّر هذا الرأي حين وجد أن الرجل لم يتحرك ولم يتكلم. كان ثابتا كتمثال من شمع، ثابتا أكثر مما هو طبيعي.

مد (سايم) يده في جيبه وأخرج الورقة التي تثبت أنه انتُخب، وقربها من الوجه الوسيم الحزين.. هنا ابتسم الرجل وكانت ابتسامته صادمة، لأنها حدثت في جانب واحد فقط من وجهه.. هذا طبيعي في أناس كثيرين، لكن بالنسبة لأعصاب (سايم) المرهقة كان هذا يفوق التحمل. وبدأ الرجل يتكلم دون مقدمات كأنما يكلم صديقا قديما:

- لو مشينا إلى (ليسستر سكوير) سنصل في وقت الإفطار.. إن الأحد يصر على الفطور المبكر.. هل نمت؟

- لا..

- ولا أنا.. سنحاول الظفر ببعض النوم بعد الفطور..

كان ينطق المجاملات بلا حياة، كأنما هي كلمات لا تمثل له أهمية.. وفهم (سايم) أن هذا ليس الأحد إنما هو سكرتيره.. اتجه الرجلان ليجلسنا في شرفة المطعم الذي يطل على الميدان، والتي جلس فيها خمسة رجال متأنقين بشكل مبالغ فيه - كأنما هم في حفل عرس - يتبادلون النكات بصوت عال. هذا إذن هو ملتقى مفجري الديناميت البريطانيين.

وفي الشرفة لاحظ (سايم) شيئا غريبا.. شيئا كان في الواقع أكبر من أن يراه المرء بسهولة.. إنه ظهر رجل جرم بالغ الطول والبدانة، كأنه تمثال عملاق نحت هناك. أذناه هائلتا الحجم ورأسه متضخم وكل ما فيه يتجاوز المقاييس المعهودة، حتى إن كل شيء في المطعم بدا قزما.. ولم يحتج (سايم) السؤال عما إذا كان هذا العملاق هو الرئيس الذي يهابه الآخرون أم لا، لأنه عرف ذلك بالسليقة.. ولم يكن (سايم) بطبعه من الرجال الذين يخشون الخطر المادي، لكن التأثير النفسي كان يلعب معه أسوأ الأدوار. كأنه يدنو من مركز قيادة جهنم ذاتها. دنا من الرجل فوجد أن وجهه الجسيم يكبر أكثر فأكثر، وأصابه ذعر طفولي من أنه لو دنا أكثر فلن يكون حجم هذا الرجل ممكنا.

تذكر كيف كان يخاف من تمثال (ممنون) في المتحف البريطاني، لأنه كان وجها ضخما جدا. لكنه حين جلس وأعاد تأمل الأحد، أدرك أن ملامحه مازالت بشرية.

كان هناك رجل آخر له ملامح سوفييتية يرتدي ثيابا أنيقة، لكن تطل من ياقته البيضاء ملامح غريبة جدا، فلو كان ما خرج من ياقته رأس كلب أو قط، لكان المشهد أقل غرابة. كان اسم الرجل (جوجول) وهو بولندي، لكنهم هنا يطلقون عليه

(الثلاثاء). ويبدو أن الرئيس لاحظ هذه النظرة فقال في صوت عميق مطمئن:

- إن صاحبنا (الثلاثاء) لا يفهم الفكرة.. إنه يلبس ثياب سيد مهذب، لكن يبدو أن روحه أعظم من هذا.. دائما ما يوحي مظهره بأنه متآمر.. ولو مشى على يديه وركبتيه في الشارع فلربما لن يلفت النظر إلى هذا الحد.

بلهجة أجنبية كثيفة قال (جوجول):

- أنا لا أجيد التخفي..

- نعم أعرف أنك لا تجيد التخفي.. كما لا تجيد أي شيء آخر..

كان (سايم) يدور بعينيه في وجوه الرجال، وأدرك أن كلا منهم يداري شيئا شيطانيا ما في ملامحه، مثل تلك البسمة الجانبية التي صدمته لدي من قابله عند النهر. لا بد من لحظة ما تتبدل فيها الملامح لعُشر ثانية فتبدو مشوهة كما نراها في مرايا الملاهي. إن السكرتير الذي لقيه عند النهر هو (الاثنين)، وتوحي عيناه بألم مقيم كأنما التفكير في حد ذاته هو أشنع ألوان العذاب.

الأربعاء كان هو الرجل الوحيد الذي يبدو أن ثيابه تناسبه، لكن جوا قاتما مبهما كان يحيط به، وخمن (سايم) أنه ماركيز يهودي في الغالب. فقط في اللوحات القديمة التي تمثل الطغاة يصطادون أو يقتلون، يمكنك أن ترى هذه الملامح القاتمة الشريرة القاسية.

أما الجمعة فكان عجوزا يدعي البروفسور (دي فورمز)، وكان في آخر أرذل العمر، حتى إن الزهرة الحمراء التي يضعها كانت تتناقض بوحشية مع وجهه الشاحب الميت. وخطر ل (سايم) شعور منفر بأن هذا الرجل لو تحرك لسقطت منه ذراع أو ساق.

أخيرا كان السبت جالسا.. كان طبيبا ممارسا يحمل اسم (بول)، ذا وجه حليق وذقن مربع يوحي بالتصميم. ولم يكن فيه ما يلفت النظر إلا عويناته الصغيرة السوداء التي أثارت ذعر (سايم). ذكّرته بذكرى مخيفة ما عن قطع العملة التي يضعونها على جفون الموتى، كي لا يفتحوا عيونهم بعد الموت.

كان في مظهره نوع من ادعاء الفحولة، جعل (سايم) يقدّر أنه ربما كان أكثر هؤلاء الأشرار شرا.

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

الانكشاف

هؤلاء كانوا الرجال الستة الذين تعاهدوا على تدمير العالم. وقد وجد (سايم) نفسه أحيانا ينظر لهم كرجال أشرار عاديين، وأحيانا كان الذعر الخارق للطبيعة يتملكه.

وكما كانت الأسطورة القديمة تقول إنك لو قصدت الشرق.. أقصى الشرق، ستجد شجرة ليست بالضبط شجرة، بل هي مسكونة بروح شريرة.. ولو قصدت أقصى الغرب ستجد برجا ليس بالضبط برجا، فإن هؤلاء القوم وصلوا قمة التطرف في التفكير الإنساني، وغابوا خلف الأفق الشرقي أو الغربي للعالم.

كانوا في الشرفة المشمسة، يتحدثون بصوت عال مسموع، عن خطة إلقاء قنبلة على القيصر حين يقابل رئيس الجمهورية الفرنسية.. يتكلمون بوضوح إلى حد أن نادلي المطعم كانوا يبتسمون ويضحكون من هذه الدعابات الظريفة.. وكان المكلف بالعملية هو الماركيز. لم يكن أحد يهتم بـ (سايم)، لكن ما ضايق هذا الأخير وأثار فزعه في النهاية، هو أن الرئيس لم يبعد عينيه عنه لحظة.. شعر (سايم) بأنه من زجاج، وأن الرئيس عرف بلا شك أنه جاسوس.

نظر للميدان فرأى رجل شرطة.. رجل شرطة خالي البال منسق الثياب يوحي بسلطة النظام والعقل، لكنه لا يستطيع أن يناديه لأنه مرتبط بقسم مع (جريجوري).. قسم أحمق لكنه يمثل شرفه كله.

والشيء الذي لم يدركه (سايم) وقتها هو أنه بدأ ينهزم أمام العدو.. لقد بدأ يوقن أن الأحد يمثل ما هو أكبر من الإنسان، بحجمه الأكبر من أن يرى، وقسماته الأكثر وضوحا من أن تفهم. ويبدو أنه بدأ يفتن بما يمثله الرجل من ثقافة وقوة معا، كان (سايم) يعرف أنه جبان بما يكفي كي يخشى الجبروت، لكنه ليس جبانا إلى حد أن يحترمه. كان الزعيم يلتهم طعامه بجشع وشهية مفتوحة مخيفة، لكنه برغم هذا ظل يحتفظ بسطوته وسيطرته. قال الماركيز وهو يضع الزبد والمربى على شريحة خبز:

- لا أدري.. ربما كان علينا أن نفعلها بسكين؟

جميل أن يغرس المرء سكينا في قلب رئيس فرنسي.

قال السكرتير:

- أنت مخطئ.. إن الديناميت هو رمزنا ويمثل لنا ما هو أكثر من مجرد التدمير.. إنه يتمدد كعقولنا وأفكارنا.

يتمدد.. هذا هو الأساس..

هنا أظلمت السماء لأن الرئيس نهض وقال:

- قبل أن نتكلم، أريد أن ندخل غرفة منعزلة.. ثمة أشياء مهمة يجب مناقشتها..

نهض (سايم) واجف القلب.. لكنه سمع من بعيد من مكان ما في الشارع صوت أرغن.. أرغن يعزفه أحد الفقراء المؤمنين بالله والعاشقين للحياة برغم بؤسها. جعله هذا يتماسك نوعا..

هذه إذن حرب بين الأرغن وبين الفوضوية.. ولسوف ينتصر فيها.

اقتادهم الرئيس إلى درج جانبي، فغرفة مظلمة رطبة صغيرة. أوصد الباب بعدما دخلوا جميعا، فقال البولندي بلهجة مستحيلة الاختراق:

- كده كده.. تقول إنك لن تهتبي.. ثم هين تقرر الكلام الجاد تدهل هدا الصندوق!!

بلهجة أبوية متهكمة قال الرئيس:

- هذه أشياء تفوق فهمك يا (جوجول).. لقد سمعنا الخدم نهذي أولا، لهذا لن يهتموا بنا، بينما لو بدأنا بالنزول هنا لراحوا جميعا يتلصصون علينا من ثقب المفتاح.. يبدو أنك لا تفقه شيئا عن البشر.. والآن أرجو أن تجلس إلى المائدة، لأننا سنقول شيئا مهما للمرة الأولى هذا اليوم.

لم يكن (سايم) يتوقع الصدمة التالية.. إذ قال الرئيس:

- جمعتكم هنا لأن ما سأقول سيكون صادما، حتى بالنسبة للسقاة هنا الذين اعتادوا سماع أغرب الآراء منا.. أولا سندع كل المشروعات القادمة مع شخص موثوق به، وإنني أرشح د. (بول)..

وضرب المنضدة بقبضته وصاح:

- لن تذكر كلمة واحدة في هذا الاجتماع عن مشروعاتنا القادمة.. ولا حرفا!!

ظل (سايم) ثابتا في مقعده ويده على قبضة مسدسه في جيبه.. حين يجيء دور الهجوم عليه، فسوف يبيع حياته باهظة.. على الأقل سيثبت أن (الأحد) يموت كالبشر..

وضع الرئيس يده العملاقة على المنضدة كأنها زعنفة سمكة عملاقة:

- نحن لا نبالي بالغرباء.. فهم سيحسبوننا حمقى يتمازحون.. الخطر كل الخطر هو واحد منا لكنه لا يؤمن بما نعتقده.. ويعرف مدى جديتنا.. هناك جاسوس في هذه الغرفة.. خائن على هذه المائدة..

واسمه هو..

وارتجف (سايم).. هنا أردف الرئيس:

- (جوجول).. ذلك الأحدب الذي يزعم أنه بولندي..

مد (جوجول) يديه لجيبه وأخرج مسدسين لكن ثلاثة رجال وثبوا إلى حنجرته.. وتهاوي (سايم) يسترخي في مقعده وقد أضناه الإحساس بالخلاص.

☆ ☆ ☆

الفصل السابع

مسلك بروفسور (دي فورمز) المحير

- اجلسوا!!

قالها الرئيس بصوت آمر، فجلس الجميع حتى المشبوه نفسه.

- والآن يا سيدي.. هلا مددت يدك في جيب سترتك لأرى ما تخفيه هناك؟

أيقظ هذا (سايم) تماما، لأن البولندي المزعوم أخرج بطاقة لامعة زرقاء، لا تختلف كثيرا عن البطاقة التي يخفيها هو نفسه في جيبة. البطاقة التي تسلمها حين التحق بشرطة ملاحقة الفوضويين. قال الأحد:

- أعتقد أنك تفهم موقفك الآن تمام الفهم.

- تماما.. ولا تنكر أنه ما من بولندي يستطيع تقليد لهجتي هذه!

كان التأثير صادما.. فجأة صار الرجل يتحدث العامية الإنجليزية (الكوكني) دون شائبة واحدة، كأنما ترى رجلا صينيا يتحدث اللهجة الأسكتلندية فجأة وبطلاقة.. وبنفس السهولة نزع الرجل لحيته المستعارة وشعر رأسه الأشعث.

في هدوء قال الرئيس:

- والآن أعتقد أنك تروق لي.. ولسوف أتضايق الدقيقتين لو سمعت أنك مت ميتة معذبة، لهذا سأسمح لك بالرحيل.. فقط

لو سمعت عنك ثانية، أو سمعت أنك أبلغت الشرطة، فلسوف أعرض نفسي لهاتين الدقيقتين الأليمتين.

لم يصدق الجاسوس أذنيه، وغادر المكان ملهوفا.. كان يتظاهر بالثبات، لكن (سايم) سمعه يتعثر في الخارج..

قال الرئيس:

- والآن الوقت يمر بسرعة، وعندي اجتماع في إحدى اللجان الإنسانية.. لذا نلتقي هنا الأسبوع القادم للإفطار.. لا أرغب في مناقشة أي شيء آخر.

صاح السكرتير محتجا:

- لكننا لم نناقش العمليات القادمة.. المفروض أن نفعل.. خاصة وقد رحل الجاسوس.

- لو أنك ذهبت لدارك وسلقت رأسك كأنه ساق لفت، فلربما أحسنت التفكير.. كيف تعرف يا أحمق أنه ليس بيننا جاسوس آخر؟

ومن جديد ارتجف (سايم).. لو لم يكن الزعيم قادرا على فضحه كـ (جوجول)، فهو غير قادر على الثقة به كالآخرين.. كان الأربعة الباقون ينهضون الآن، عازمين على البحث عن مكان للغداء، لأن الوقت كان منتصف اليوم الآن.. وخرج (سايم) بدوره إلى ميدان (ليستر)، وأثار دهشته أن الجليد بدأ يسقط.. أثار دهشته أكثر أن هناك متجرا على الجانب الآخر، وأن رجلا يقف أمام الزجاج يتأمل في إصرار امرأة قبيحة تقف خلف الزجاج في قميص نوم متسخ.. إنه البروفسور (دي فور) العجوز..

برغم الطقس وبرغم الجليد بدا أن هذا الرجل لن يتزحزح أبدا.. غريب هذا.. قدّر أن الرجل – مهما كان غريب الأطوار - لا يهيم حبا بهذه المرأة القبيحة، لكنه بالتأكيد مصاب بمرض ما من أمراض الشيخوخة، يجعله يتصلب لفترات.. سُرّ (سايم) لأن هذا العجوز المهدم لن يلاحقه.. على الأقل هو بحاجة إلى ساعة واحدة بعيدا عن هذا الجو المسموم.. ساعة يدرس فيها الموقف.

مشي في الشوارع قليلا ثم قرر أن يتناول وجبة في أحد مطاعم (سوهو). دخل المطعم فأصابته الدهشة لأنه وجد البروفسور الفوضوي جالسنا إلى منضدة يشفط اللبن من كوب كبير. اندفع خارجا من المطعم ووقف في الجليد بالخارج، وسأل نفسه وهو يعض شاربه الأصفر:

- أتكون هذه الجثة تقفو أثرى؟ لن يكون الأحد غبيا إلى حد إرسال رجل أعرج خلفي.

مشي طويلا نحو حديقة (كوفنت)، بينما الجليد يتزايد، ويلسعه كأنما هو ألف نحلة.. دخل مقهى في (فليت ستريت) وطلب قهوة سوداء.. فما إن فعل حتى دخل البروفسور العجوز إلى المكان، وطلب كوبا من اللبن!!

سقطت عصا (سايم) منه على الأرض محدثة دويا معدنيا، لكن البروفسور لم يتحرك.. كان (سايم) الآن - وهو بارد بطبعه - يلهث كما يلهث الريفي حين يرى ألعاب الحواة.. إنه لم ير عربات أجرة تتبعه ومن المؤكد أن الرجل جاء مشيا.. والرجل يمشي كالبزاقة بينما هو يمشي كالطيور.

لم يتمالك إلا أن يأخذ عصاه ويترك قهوته التي لم يذقها، ويهرع إلى الباب الدوار.. كانت هناك حافلة تدور حول المنحنى، فهرع وتمسك بها، وسرعان ما كان يجلس في مقعده.. هنا سمع من وراء مقعده لهاثا من صدر أضناه الربو.. نظر ليرى قبعة ووجها مألوفا يرتقيان درجات الحافلة.. إنه البروفسور (دي فورمز) ذاته.. حركاته بطيئة مرهقة.. كل أطرافه ترتجف.. لا تكاد تدب فيه الحياة.. لكن كل شيء يدل على أنه ركض وراء الحافلة ووثب ليركبها..

وثب (سايم) من الحافلة، وانطلق يركض عبر أزقة (فليت ستريت) الجانبية.. يدخل هنا ويخرج من هناك.. حتى أتم عشرين دورة كاملة ليتأكد ما إذا كان هناك من يراقبه.. وقف يلهث ويصغي السمع.. كانت الغيوم تملأ سماء لندن، حتى إن الليل دنا قبل الأوان، والكآبة كانت تفعم الجو.. هنا سمع صوت عكاز ذلك الأعرج القادم من جهنم.

قرر أن يخرج إلى الشارع العام، ووجد نفسه أمام كاتدرائية القديس (بول).. كانت الشوارع خالية تماما وأدرك أن هذا منطقي لأن العاصفة الثلجية تزداد شدة، ولأن اليوم هو الأحد.. السماء خضراء غريبة كأننا تحت الماء لا فوق الأرض.. المصابيح مضاءة في هذا الوقت المبكر.. والكاتدرائية تبدو كأنما هي جسم أسود يجثم على السماء.

كان يعرف أن الشبح الشيطاني يتبعه، وأحس أن الكاتدرائية تحميه قليلا.. رفع العصا في يده واستدار ليواجه مطارده..

جاء البروفسور ببطء عبر الزقاق من خلفه.. كان كل ما فيه معوجا كأنما تشوه شكله من المشي في كل الأزقة الملتوية التي

مشى فيها.. ينتظره (سايم) كما انتظر القديس (جون) التنين، أو كما ينتظر المرء تفسيرا نهائيا أو يموت.. لكن الرجل جاء، ومر به كأنما هو غريب عنه تماما..

كاد (سايم) يجن. الرجل يتصرف ببراءة كأنما كل هذه المطاردة كانت مصادفة.. تملكه نوع من الحقد الصبياني، فلوح بعصاه كأنما يطير قبعة الرجل، وقال شيئا على غرار: امسكني لو استطعت.. ثم راح يركض في الساحة.

الآن لم يعد أحدهما يتظاهر بشيء، وقد راح الرجل يمشي وراءه بخطى واسعة، وإن احتفظ وجهه بجدية ووقار غريبين. اتجه (سايم) إلى الميناء.. دخل إحدى الحانات القذرة الملأى ببحارة أجانب، حيث لا بد أن المشاجرات تتم بالمدي، وحيث يباع الأفيون بالتأكيد.

بعد قليل دخل البروفسور المكان، وطلب كوبا من اللبن.

☆ ☆ ☆



الآن لم يعد أحدهما يتظاهر بشيء ، وقد راح الرجل يمشي وراءه بخطى واسعة .

الفصل الثامن

البروفسور يفسر

أخيرا وجد (سايم) نفسه جالسنا في مقعد، وأمامه وجه البروفسور الشاحب، راح يمني نفسه أنه ربما كانت المطاردة لسبب لا يفهمه.. ربما كان هناك تقليد يقضي بمطاردة العضو الجديد عبر الأزقة.. ربما هذه من طقوس الاحتفال بالخميس.. ربما..

كان يستعد لأول سؤال دبلوماسي، حين فاجأه الفوضوي العجوز بسؤال لا كياسة فيه:

- هل أنت شرطي؟

كان سؤالا غريبا.. آخر سؤال توقعه.. فلم يجد إلا ما يكفي لاصطناع السخرية:

- أنا شرطي؟ لم تقول ذلك؟

- الأمر سهل.. أنت تبدو كرجل شرطة..

- هل نسيت وأخذت قبعة شرطي من المطعم؟ هل يوجد رقم ملصق على ثيابي؟

- هل أنت مخبر؟

سألها الرجل في نفاد صبر ثم كرر السؤال وهو يضرب المنضدة بكفه العجوز.

- لا!

قالها (سايم) كأنه رجل يتوسل للجلاد على منصة المشنقة..

- هل تقسم على هذا؟ أنت لا تعمل مع (سكوتلانديارد).. أنت فوضوي ومفجر ديناميت..

- لست مع الشرطة بأي شكل..

استرخي البروفسور في مقعده وقال:

- هذا مؤسف.. لأني معهم!!

وثب (سايم) من مقعده وهتف:

- ماذا تقول؟

- أقول إنني رجل شرطة.. لكن لا جدوى من هذا ما دمت تقسم أنك لست منهم.

وألقى على المنضدة ببطاقة زرقاء تماثل تماما ما في جيب (سايم).. هنا فقط أدرك (سايم) كم كان أحمق.. لم يكن الشيخ الذي فر منه سوى زميل في الشرطة، وبالطبع كان يصطنع العاهة والشيخوخة، طوح برأسه إلى الوراء وراح يضحك في هستيريا..

يضحك، حتى إنه أثار دهشة بعض السكارى، وسأله أحدهم:

- علام تضحك يا ريس؟

- على نفسي.

وواصل الضحك المجنون، حتى نصحه البروفسور بأن يتوقف، سأله (سايم) في استمتاع:

- إذن أنت لست شيخا..

- لا أدري.. لقد احتفلت قريبا بيوم ميلادي الثامن والثلاثين.. لكن لا أستطيع أن أنزع المكياج هنا، لأنه معقد وصعب الإصلاح..

- هل كنت تعرف أن (جوجول) عميل هو الآخر؟

- لا.. وقد حسبت الزعيم يعيني وارتجفت هلعا..

- لكن معنى هذا أننا كنا ثلاثة!! ثلاثة ضد أربعة! فقط لو كنا نعرف وقتها لما خشينا شيئا.

أسود وجه البروفسور وقال:

- حتى لو كنا ثلاثمئة فلا جدوى من أن نهزم الأحد!!

عاد وجه الأحد سريعا وبوضوح تام إلى ذاكرة (سايم) وقد أثار هذا رعبه.. كل الوجوه الأخرى مهما كانت شريرة تبهت مع الوقت، إلا هذا الوجه فقد ظل حاضرا مخيفا، كان عليه أن يواجه الرجل لأن المرء يجب ألا يترك شيئا يخافه في الكون دون مواجهة، قال البروفسور في حماسة:

- علينا أن نقاوم، وأول شيء علينا أن نمنع عملية باريس هذه..

- وكيف؟ إن الأمر لم يناقش وهو متروك كله للدكتور (بول) كما تعلم..

- أريد الوصول إليه.. أين هو؟ هل تلحق بي؟

قال البروفسور وهو يحمل قبعته:

- أيها الشاب.. يسليني كثيرا أنك تعتبرني جبانا.. ليكن. أنا مؤمن باستحالة قهر الأحد.. سأدعك تعرف هذا بنفسك.

غادر الاثنان الحانة، وكان الجليد قد توقف، إلا أنه ذاب في برك صغيرة زلقة هنا وهناك، وكانت بعض كتل الجليد لم تذب بعد، لكنها اكتسبت لونا رماديا في الضوء الخافت، مشيا قليلا حتى وصلا إلى ضفة النهر، ثم توقف البروفسور وقال:

- من هنا يمكننا أن نرى ما إذا كان الدكتور قد آوى إلى فراشه بعد.. إنه مولع بصحته ويحب النوم مبكرا.. إن غرفة نومه يمكن رؤيتها من هنا..

على الناحية الأخرى من (التيمز) كانت مجموعة من البيوت تبدو كأنما هي معلقة على صفحة الماء.. وأحدها بالذات كان شامخا كأنه برج (بابل) بآلاف العيون.. وشعر (سايم) الذي لم ير ناطحات سحاب أمريكا قط أنه في حلم..

ضرب البروفسور عنق حذائه الطويل بعصاه وقال:

- لقد تأخرنا ونام الرجل.. تعال نتناول العشاء وغدا نراه..

كان (سايم) يشعر براحة بالغة.. إن الرياضيات تقول إن الواحد يتضاعف حين يضاف لواحد آخر، لكن (سايم) شعر بأنه تضاعف الآن لمائة ألف ضعف.. وراح يسكب قصته كلها في أذن جاره.. وفي النهاية قال:

- لقد تنكر (جوجول) جيدا لكنه بالغ بعض الشيء.

- لقد حاول أن يبدو كما يتخيل الفوضوي.. أما أنا فأرسم على وجهي (بورتريه).. بالواقع أنا بورتريه حي يمثل رجلا حقيقيا

يدعى البروفسور (دي فورمز)، وهو الآن في (نابولي) على قدر علمي.. أنا ممثل واسمي الحقيقي (ويلكز).. وهناك عرفت كثيرين من الأجانب الفارين، وسكان قاع المجتمع.. وفي ذات مرة تعرفت الفيلسوف الألماني العجوز العدمي (فورمز).. كان مقززا إلى حد بشع، وقد خطر لي أنني راغب في تقليده مظهرا وسلوكا.. جربت أن أتنكر مثله وخرجت لرفاقي.. كنت أتوقع سماع الضحكات، لكني قوبلت بصمت مذهل.. لقد حلت بي لعنة الممثل الخارق للعادة.. أذهلتهم، ولم يتصور أحد أنني أي شيء سوى بروفسور ألماني عدمي.. كنت أفضل منه في هذا الدور، فهو شيخ ولا يستطيع أن يبدو بالضعف الذي يستطيع شاب مثلي أن يبدو به.. كان مشلولا بحق، لكن الشلل منعه من أن يبدو مشلولا مثلي!

بعد أيام حلا لي أن أخرج إلى الشارع أجرب شخصيتي الجديدة، لكن رجل شرطة استوقفني وقال لي إنني مطلوب في قسم الشرطة.. قلت بلهجة ألمانية مصطنعة: نعم أنا مطلوب.. لكن من بؤساء الأرض ذهبنا للمخفر، وهناك عرفت أن شهرة أدائي لدور البروفسور جعلت (سكوتلانديارد) ترغب في ضمي لها.. وكانت هذه هي البداية..

ومن يومها صرت البروفسور في كل شيء، حتى إنني أجد عسرا في التخلص من مشيته وطريقة كلامه حتى حين أكون وحدي..

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع

الرجل ذو العوينات

قال الرجل الذي كان البروفسور:

- المفترض أن نلقي غدا الدكتور (بول) لنعرف السر منه، وهي مهمة أكثر خطورة وعسرا من سرقة جواهر التاج من برج لندن.. إن هذا الرجل - بعد الرئيس -لأخطر أعضاء المجلس وأذكاهم وأكثرهم حدة، إنه مليء بالذكاء والحيوية والفحولة، وما كان الأحد أحمق حين أخفي أسراره تحت شعر هذا الرجل ذي العوينات لو أردنا أن نخرج سالمين من هذه المقابلة، فعلينا أن نضع شفرة للتفاهم بيننا بالطرق على المنضدة أو الركبتين..

وراح يطرق بيده على المنضدة ويعلم (سايم) تلك الشفرة، التي ابتكرها من قبل، ولم يجد (سايم) عسرا في التعلم لأنه كان سريع الفهم شغوفا بالألغاز، وفي الحقيقة راح يحلم كثيرا بهذه الطريقة في أثناء النوم.

☆ ☆ ☆

كان د. (بول) جالسا إلى منضدة في شقته منهمكا بالكتابة، بينما أضواء الفجر تتبدى من وراء ستار النوافذ، لا يدري (سايم) لماذا ذكره هذا المشهد بالثورة الفرنسية والمقصلة، وكأن الطبيب الجالس هو (مارا) أو (روبسبير) يوقع أوامر الإعدام.. كان يضع عوينات سوداء بدت كأنما في جمجمته فجوتان سوداوان، وكأن رأسه هو رأس الموت ذاته.. فلما رأى الرجلين ابتسم ونهض بخفة، وتناول معطفا من على مشجب خلفه وأحكمه على جسده.

وقال البروفسور بلهجة (دي فورمز) البطيئة:

- أعتذر لإزعاجك في هذه الساعة المبكرة يا رفيق.. لكن أعرف أنك أعددت عدة كل شيء لرحلة باريس، ولدينا أنباء لا تحتمل التأجيل.

ابتسم الدكتور (بول) ولم يتكلم.. فواصل البروفسور الكلام في وهن:

- إن الرفيق (سايم) وأنا لدينا ما يحملنا على أن نطلب منك تأجيل هذه المهمة.. والوقت لا يسمح بالتوضيح لكننا سنشرح لك لو رأيت هذا ضروريا.

كان الطبيب ثابتا صامتا إلى درجة حطمت أعصاب (سايم).. ابتسامته خفيفة، وإيماءات رأسه مهذبة، لولا صمته الغريب.. وهنا راحت أنامل البروفسور تقرع على المنضدة وقرأ (سايم) الرسالة: هلم خذ دورك أنت.. فقد امتصني هذا الشيطان حتى الجفاف!

قال (سام) في شجاعة مرتجلة:

- الحقيقة أن الحظ أسعدني بمقابلة مخبر، حسبني شخصية مهمة.. دعوته إلى الحانة وقدمت له الكثير من الشراب حتى انحلت عقدة لسانه.. وقال لي إنهم يتوقعون خلال أيام أن يعتقلوا الماركيز في فرنسا..

هنا أشار له البروفسور أن يتركه يستمر من هذه النقطة.. وكانت أعصاب الرجلين موشكة على الانفلات من نظرات الرجل الثابتة وابتسامته المهذبة.

شيء ما بدأ يتلاعب في نفس (سايم).. نوع من وحي الشعراء، ثم تحول هذا إلى يقين..

مال إلى الأمام وصاح بصوت آمر:

- دكتور (بول).. هلا نزعت عويناتك من فضلك؟

وثب البروفسور من مكانه وقد نسي شلله ونظر في ذعر غاضب إلى (سايم).. لكن (سايم) كان الآن كرجل وضع ثروته وشرفه على مائدة القمار وهو بانتظار نهاية اللعبة.. ومن دون كلام مد الدكتور يده إلى عويناته ونزعها.. كان المشهد لا يصدق.. كأنما الرجل تحول إلى ضفدع أمام عينيهما.. بالواقع لم يكن المشهد أقل غرابة.. لقد كان الوجه الذي طالعهما وجه صبي.. صبي في ملامحه براءة وطيبة لا تخفيان على أحد.

وهتف (سايم) في جذل:

- أنا شاعر وحدسي لا يخطئ!! كنت أعرف هذا!! فقط العوينات السوداء هي ما أعطاه سمت الشياطين بينما وجهه وسيم قسيم..

عاد البروفسور للكلام مرتجفا:

- نعم.. إنها تحدث فارقا.. والآن بخصوص العمليات يا دكتور..

- سحقا للعمليات! ألا ترى وجهه؟ إنه منا! سأخاطر بهذا بنفسي.

ووضع البطاقة الزرقاء اللامعة على المنضدة، فانفجر الطبيب ضاحكا، وللمرة الأولى سمعوا صوته:

- يسعدني أنكما جئتما مبكرين أيها الشابان.

يمكننا الذهاب لـ (باريس) معا..

وطوح ببطاقة زرقاء مماثلة إلى المنضدة.. هنا هتف (سايم) في ذهول وهو يضرب الجدار بقبضته:

- إذن كان هناك مخبرون أكثر من مفجري الديناميت في ذلك المجلس اللعين!

- إذن كنا أربعة ضد ثلاثة..

قال البروفسور:

- بل كنا أربعة ضد واحد لا قبل لنا به..

قال الطبيب بلهجة ذات معنى:

- واحد من هؤلاء الثلاثة لا ينتمي للبشر..

وحكي لهم الطبيب كيف أنه التحق بشرطة مكافحة، الفوضويين، لكن شكله كان ميئوسا منه لأنه يبدو (كالدستور البريطاني) كما قالوا.. لا يوحى إلا بالفضيلة والتهذيب، وهو بهذا فاشل تماما ولن يصدق أحد أنه فوضوي، مهما قال أو فعل.. لكن القائد العبقري الذي يجلس في غرفة مظلمة والذي لم يره أحد قط، قال لهم إن عوينات سوداء تكفيه.. كتفان عريضان وشعر قصير، ولسوف يصرخ الأطفال حين يرونه في الشارع..

كان الرجل عاصفة بحق، ولم ير (سايم) ولا البروفسور متى وكيف حجز التذاكر، ولا أخذهم إلى الميناء.. فجأة وجدوا أنفسهم فوق القارب المتجه إلى (كاليه).. قال لهم الدكتور:

- لقد سبقنا الماركيز حاملا القنبلة، لكننا سنلحق به في الوقت المناسب..

- وماذا نفعل وقتها؟

- أعتقد أن علينا تسليمه كمفجر قنابل.. لكن هذا ليس بوسعي لأنني مرتبط بقسم للسكرتير، وهو أتعس رجل في الكون - ربما بسبب سوء هضمه أو بسبب مبادئه الهدامة - إنه في جهنم بالفعل، وأنا لا أستطيع أن أحنث بوعدي مع رجل كهذا، لأنني أكون كمن يطلق النار على مريض جذام..

قال (سام):

- وأنا كذلك مرتبط بقسم لا أستطيع التحرر منه.. لا يمكنني إبلاغ الشرطة..

قال البروفسور:

- وأنا كذلك.. لقد ارتكبت جل الآثام حين كنت ممثلا، لكنني لا أنوي الحنث بالقسم أبدا..

اتضح لهم موقفهم الآن بوضوح أكثر.. من الواضح أن عليهم أن يتصرفوا بعيدا عن الشرطة، وفي الغالب لن يكون أمامهم إلا خطف الماركيز أو تعطيله إلى أن يرحل قيصر روسيا في سلام.

☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

المبارزة

كانت معنويات (سايم) عالية بشكل لا يمكن تفسيره.. فقد استقر رأيه على الطريقة الوحيدة المثلى لتعطيل الماركيز.. لقد اتجه إليه وهو جالس مع نبيلين فرنسيين في أحد الأندية، واتهمه بأنه أهانه، وأنه يرغب في جذب أنفه (وهي دعوة للمبارزة).. قال الماركيز في حيرة:

- كيف أهنتك؟ إنني كنت أتكلم مع السيدين عن (فاجنر)، وقلت إنني أحب أن أسمعه حين يُعزف جيدا..

- هذا هو، لقد أهنت أمي.. فهي كانت تعزف (فاجنر) بصورة سيئة!

- وأبديت إعجابي بالفتاة ذات الشعر الأسود..

- أنت مصر على إهانتي! أمي كانت حمراء الشعر!

وفهم الرجال أن الفتى ثمل، وأنه يريد الاستفزاز لمجرد الاستفزاز.. فلا بأس من تعليمه درسا قاسيا.. وسرعان ما قبل الماركيز تحدى الفتى للمبارزة.. المبارزة التي اشترط الفتى أن تتم بالسيف، وفي الساعة السابعة صباحا.

كان يعرف أن الماركيز بارع بالتأكيد في المبارزة، لكنه على الأقل يستطيع تعطيله.. فلو طالت المبارزة، لما استطاع الرجل اللحاق بقطار السابعة والنصف المتجه إلى باريس، وبالتالي يفقد موكب الرئيس وضيفه.. وكان أن الماركيز اشترط أن تتم

المبارزة في مكان قريب من خط السكة الحديدية، ومعنى هذا أنه قرر أن يتخلص من خصمه سريعا ثم يثب في القطار.

وفي الصباح اتجه (سايم) إلى مكان المبارزة مع شاهديه: الطبيب والبروفسور.. كان الربيع في بداية جماله، وتناقضت الخضرة والزهور الصفراء اليانعة بشكل لا يوصف مع ثياب الشهود السوداء وقبعاتهم العالية..

- فلنبدأ!

قالها الماركيز في نفاد صبر وأطاح بزهرة بطرف سيفه.. كان (سايم) بحاجة إلى عشرين دقيقة لا أكثر يمنع فيها الماركيز من قتله، وربما يحاول أن يؤذيه بعد العشرين دقيقة يكون القطار قد رحل.

- التحم!!

قالها الماركيز وهو يلوح بسيفه.. وسرعان ما راح السيفان يتقارعان.. كان (سايم) يدرك مدى براعة خصمه وقوته، وقدر أن هذه في الغالب آخر ساعة له في الحياة.. لكنه في هذه اللحظة شعر بحب عارم للكون.. حتى كان بوسعه أن يشعر بالعشب تحت قدميه ينمو.

كان الماركيز يحارب وعينه تنظر من آن لآخر إلى خط السكة الحديدية وراء ظهر (سايم)، وفجأة بدا عجولا نافد الصبر إلى درجة أنه بدا كأنما يهاجم بمائة سلاح في الآن ذاته.. لم يحتج (سايم) إلى النظر للوراء، فالأمر واضح.. إن قطار (باريس) قد ظهر الآن.. وهذا شتت انتباه الماركيز إلى حد ما..

يوشك (سايم) أن يقسم أنه طعن خصمه أكثر من مرة، بل إنه في مرة من المرات كاد يكسر السيف وهو يولجه في جسد الماركيز، لكن الرجل تراجع للوراء وواصل الهجوم، ونظر (سايم) لسيفه في حيرة.. ولا نقطة دم واحدة.. جن جنونه وقرر هذه المرة أن يوجه اهتمامه لعنق الماركيز.. سدد ذؤابة السيف إلى حنجرة الرجل وأغمدها بقسوة وإصرار فلما انتزعها لم ير نقطة دم واحدة.

انتاب (سايم) ذعر خارق للطبيعة.. صحيح أنه أصيب بذعر مماثل أمس حين حسب الرجل المشلول يركض وراءه، لكنه الآن يوشك على الاعتقاد بأن هذا الماركيز شيطان.. ربما هو الشيطان ذاته.

الآن يتعالى صوت صفارة القطار وهو يتوقف في المحطة القريبة.

فجأة توقف الماركيز عن القتال وألقى بسيفه صائحا:

- لحظة! أريد أن أتكلم.. لقد جاء هذا الشاب أمس وطلب أن يشد أنفي، وأنا الآن أعطيه هذه الفرصة.

في حنق صاح الدكتور:

لكن هذا فعل غير لائق..

- لكني أعرضه عليه الآن.. إن الموضوع بالغ الأهمية، ولسوف يسوي ما يحسب أنني ألحقته به من مهانة.. فهل ترغب في شد أنفي أم لا؟

وانحنى للأمام وقرب أنفه الأرستقراطي من الفتي، فنظر (سايم) حوله في تردد ثم اعتصر الأنف كأنما ينزعه من مكانه وشده إليه.. وفجأة خرج الأنف ليستقر حرا في يده.

انفجر الماركيز ضاحكا وصاح:

- لو كان هناك من يفيد من حاجبي الأيسر فعليه به..

ومد يده ببساطة ليسلخ حاجبه الأيمن ومعه جزء لا يستهان به من وجهه.. هنا صاح أحد شاهديه في اشمئزاز:

- لوكنت أعرف أنني أعمل لدى جبان يلف نفسه بالضمادات من أجل المبارزة!! لهذا لم تدمك أية طعنة!



ومد يده ببساطة ليسلخ حاجبه الأيمن ومعه جزء لا يستهان به من وجهه .

- أنت مخطئ.. لكن لا وقت للتفسير.. فقد وصل القطار..

كان الآن يبدو كفزاعة لها نصف وجه مسلوخ، تقف ملوحة بذراعيها.. ومزق الجمة التي يضعها على رأسه في هستيريا..

وهتف:

- أنا لا أهتم بالقطارات.. لا أهتم بأن ألحق بالقطار، لكني أهتم بأن يلحق القطار بي.

- وما معنى هذا؟

- يعني كل شيء.. إن الأحد يضعنا الآن في راحة يده..

- نحن.. ما معنى نحن؟

- الشرطة طبعا..

وكشف رأسه بالكامل، وكان شعره أشقر قصيرا لامعا منسقا، كشعر كل كونستابلات الشرطة..

- أنا المفتش (راتكليف).. والشرطة تعرف اسمي جيدا، ومن الواضح لي أنكم من الشرطة.. لكن لو كنتم تشكون في شخصيتي فإليكم البطاقة الزرقاء..

في تعب وسأم لوح البروفسور بيده:

- أوه.. لا ترنا إياها.. إن لدينا أطنانا منها!

وهتف (سايم) في دهشة:

- رباه! لكن معنى هذا أن كل مجلس الفوضويين هو من المخبرين.. لم يكن هناك فوضوي واحد سوى الأحد.. ما معنى هذا؟

- معناه أن الأحد أذكى منا جميعا.. يضع كل المخبرين في مجلس واحد، ويتركهم يراقبون بعضهم، بينما المجلس الأعلى ليس أعلى على الإطلاق.. كان يمسك الخيوط كلها ويعرف كل

شيء، بينما نحن نلعب المساكة كالأطفال الحمقى.. أما عن الشيء الذي يهمني في القطار، فهو أنني أعرف أن الأحد وسكرتيره غادرا هذا القطار الآن بالذات!!

ثم إنه نظر بعيدا، ومد يده في حقيبته ليخرج منظارا مقربا ووضعه على أنفه، وقال - كما توقعت.. إن الأحد قادم إلينا من المحطة ومعه عصابة من رجاله.

تناول د. (بول) المنظار ونظر بدوره، ثم قال:

- ربما كنت تبالغ.. ليس الأحد بينهم، وقد يكون هؤلاء مجموعة من السياح يمشون في اتجاهنا..

- لو كان هذا صحيحا، فلماذا يغطى كل منهم نصف وجهه بقناع أسود؟!!

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي عشر

المجرمون يطاردون الشرطة

سأل (سايم) الماركيز، بينما هم يركضون بين الأشجار - هل لي أن أعرف إلام فرارنا؟

- إلى مكان لا يسيطرون عليه.. إن أصابع الأحد في كل مكان.. ربما لم يفلت منه سوى هذا المرج الذي نركض فيه!

- لا أصدق هذا.. مستحيل أن يكون كل العالم قد صار فوضويا فجأة..

- أنت تقع في الوهم الشائع أن الفقراء يمكن أن يكونوا فوضويين.. الفقراء قد يصيرون ثوارا لكن الفوضويين يأتون من صفوف الفلاسفة الأشرار فقط.. الفقير تهمه الأرض أما الفوضوي فلا.. يمكنه في أي لحظة أن يهجر وطنه ويرحل إلى (نيو غينيا) مثلا..

الفقير يغضب حين يكون نظام الحكم سيئا، أما الفوضوي فلا يريد أي نظام حكم أصلا.

في النهاية قابلوا حطابا فرنسيا يعمل، ومعه عربة امتلأت لنصفها بالحطب.. بعد مساومة قصيرة أقنعوه بأن يقلهم.. اجتازت العربة أكثر الغابة، وكانت بطيئة لكن سرعتها على الأقل تفوق الرجل العادي.. وبعد قليل بدأت كثافة الأشجار تقل.. نظر (سايم) للوراء فرأى ذلك الحشد من الناس ما زال يتبعهم.. حشد غريب من الناس يبدو كل منهم عادي المظهر، لكنك لو تأملت الطريقة التي يتحركون بها كرجل واحد، بلا تلك البعثرة المميزة لمسيرات العامة، لامتلأت منهم ذعرا.

قال الماركيز وقد أدرك ما يفكر فيه (سايم):

- نعم.. هذه هي لمسة الأحد المميزة.. ربما هو بعيد لكنهم يخشونه كالموت.. لهذا يمشون بانتظام، ويتحركون بانتظام وربما يفكرون بانتظام.

أخيرا يرون البحر، والمرفأ الصغير المسمى (لانسي)، ومن خلفهم بدا أن سحابة المطاردين السوداء لم يعد لها وجود.. كاد الجواد يصدم أنفه برجل عجوز له شاربان كثان أبيضان، يجلس في الشمس خارج مقهى اسمه (الشمس الذهبية).. فترجل الرجال يسألونه أن يسامحهم.. كان هو صاحب المقهى الصغير، وهو من نمط نادر يصعب أن تراه إلا في فرنسا.. رجل طيب سمح القلب يحب الحياة وتحبه.

هناك استراح الرجال وظفروا ببعض الطعام، ثم حصلوا على جياد تسمح لهم بمواصلة رحلتهم، والفرار من جيش الفوضويين الذي يطاردهم.

☆ ☆ ☆

كانت الشمس تلون الغرب بمختلف الألوان حين وصلوا إلى أقرب مدينة.. وقال لهم الكولونيل – وهو فرنسي من أصدقاء الماركيز - إن في هذا البلد خمسة أثرياء؛ أربعة منهم لصوص، والخامس صديق شخصي له يمكن أن يقدم لهم العون، ولديه عربة تعمل بمحرك.

كانوا يتناقشون في خططهم، حين صاح (سايم):

- لحظة.. ما هذه الضوضاء؟

أصاخوا السمع، فوصل إليهم ذلك الهدير الصاخب الذي لا يعني إلا شيئا واحدا: خيول! وشحب وجه الكولونيل ولم يدر ما يقول، بينما تساءل (سايم) وهو يسرع من خبب الفرس:

- ومن أين لهم بالخيول؟

- ربما من نفس المقهى الذي حصلنا على خيولنا منه.. لابد أنهم أرغموه على ذلك..

كان د. (رينار) يعيش في بيت مريح جميل عند أعلى شارع منحدر، يتيح لك أن ترى القادمين بسهولة.. نظروا حولهم ثم قرعوا الجرس.. وكان د. (رينار) - حين فتح الباب - ميالا للاستخفاف بمخاوفهم، وقال إنه لم يسمع عن شيء اسمه حركة فوضوية عامة تجتاح البلاد.

أشار الكولونيل لأعلى وهتف:

- وهذا؟ هل هو وهم؟

ونظر الرجال ليروا قوسا أسود كبيرا فوق التل.. كان في الواقع مجموعة من الفرسان على ظهور خيولهم.. وبرغم أن المجموعة كانت تتحرك بانتظام وسرعة واحدة، فإن أحد الفرسان كان يتقدم الآخرين بفرسه، وهو يأتي بحركات عدة بيده، أوحت للأصدقاء أنه هو المطارَد - بفتح الراء - وليس المطارِد بكسرها..

وأدركوا أنه ذلك السكرتير المجنون للأحد.

صاح الكولونيل:

- أكره أن أقاطع هذا الحديث الثقافي.. لكننا بحاجة إلى سيارتك خلال دقيقتين..

ابتسم الطبيب وقال:

- أشعر أنكم جميعا مجانين.. لكن أعوذ بالله من أن يفسد الجنون الصداقة.. هلموا إلى المرآب..

كانت لديه ثلاث سيارات، وكان من العسير أن تجد واحدة منها تعمل، لأنه كان قليل الاستعمال لها، لكن حين وجدوا واحدة قابلة للتحرك، كان الظلام قد بدأ يغطي الكون.. كان هذا أسرع مما توقعوا فإما أن الوقت مر بسرعة خرافية، وإما أن شيئا ما حجب ضياء الشمس.

كانوا الآن يسمعون صوت حوافر، لكنها حوافر جواد واحد، وخمن الجميع أنه جواد السكرتير المجنون الذي تقدم الجمع.. إنه قادم.. انحشروا في السيارة جميعا، وحاول (سايم) أن يديرها فلم تستجب.. هنا وصل السكرتير على جواده، وبابتسامة نصر وقف أمام السيارة ووضع يده على كبودها.

دارت السيارة فجأة مع المحاولة التالية، وسرعان ما طار السكرتير من فوق صهوة جواده عشرين ياردة إلى الوراء، وابتعد الأصدقاء، على حين امتلأ الشارع بالفوضويين على خيولهم، وسرعان ما أقالوا سكرتيرهم من عثرته.. كي يستأنف المطاردة معهم..

كان الظلام دامسا الآن، واضطر إلى إضاءة مصباح كي يروا الشوارع التي يمشون فيها، لأن السيارة لم تكن مزودة بأضواء.. وقال الكولونيل الفرنسي:

- لا توجد أضواء تعيد لي البهجة إلا أضواء مخفر الشرطة، الذي سنصل إليه حالا بمجرد الخروج من المدينة..

كانت بعض المنازل الآن قد أنارت مصابيحها، فقال الدكتور (بول):

- لا تقل لي إن سكان المنازل هؤلاء فوضويون بدورهم.. لو اشتبكنا مع أعدائنا فلسوف يقاتل سكان المنزل معنا..

- لا أظن.. لسوف يقاتلون ضدنا.. ولسوف ترى!!

فجأة دوى صوت طلقة، ومر جوارهم خيط من دخان، ثم سمعوا صوت محركات سيارات من خلفهم!

قال (راتكليف) في كآبة:

- لقد حصلوا على سيارتين من الطبيب.. وهم يطلقون علينا الرصاص!!

واستطاعوا وسط المطاردة الصاخبة أن يروا وجوه بعض من يطاردهم.. لقد كان بينهم الطبيب الودود (رينار) نفسه.. بل وصاحب المقهى الذي حصلوا منه على الخيول!

دفن البروفسور وجهه في يديه وصاح:

- لقد جن العالم!!

فقال د. (بول) في استكانة:

- لا.. بل جننت أنا!

وهنا اصطدمت السيارة بعمود إضاءة فتهشمت مقدمتها، وترجل الرجال.. على الأقل قد حطموا شيئا مثلهم مثل

الفوضويين.. ركضوا نحو الشاطئ واستداروا ليواجهوا مطارديهم.. كان الأفق كله يعج بوجوه كارهة غاضبة، تلتمع في ضوء المصابيح.. وتعالى الزئير الغاضب من بين الأسنان المطبقة.. يبدو أن أصحابنا صاروا أكثر الرجال الملاعين في العالم، ولسبب يصعب عليهم فهمه..

- حتى لو جاء رجال الشرطة الآن فلن يقدروا على عمل شيء أمام كل هؤلاء الغاضبين..

وجلس البروفسور على صخرة جوار البحر قانطا، وقال:

- كلهم ذهبوا.. لم يعد أحد عاقلا، ويبدو أنني سأذهب أنا الآخر.. لم أعد أضمن ألا ترتفع يدي من تلقاء نفسها لتضربني..

رفع (سايم) المصباح الذي كان في السيارة عاليا، وكان السكرتير قد لحق به غاضبا يوشك الزبد أن يسيل من فيه، فصاح به:

- هل ترى هذا المصباح؟ أنت لم تضعه ولم تنره.. لقد صنعه رجال أفضل منك.. رجال يطيعون الله قاموا بصهر الحديد، وبداخله حبسوا أسطورة النار.. في كل شارع تجد آثارهم.. في كل خيط من ثيابك تجدهم، يدحضون فلسفتكم المفعمة بالقاذورات والفئران أنت لم تصنع شيئا.. أنت تدمر فقط..

وهوى بالمصباح على رأس السكرتير ثم استدار الرجال وراءه وصاح:

- سيوف! نريد أن نلقن هؤلاء درسا قبل أن نموت!

كان السكرتير ما زال متصلبا بعد الضربة التي تلقاها، فلما أفاق تحسس جمجمته وقال بلهجة رسمية آمرة:

- أنت لا تفهم موقفكم يا مستر (سايم).. إنني أقبض عليكم باسم القانون!!

- أي قانون؟

- أنا مفتش في سكوتلانديارد..

وأخرج من جيبه بطاقة زرقاء لامعة.. فهتف البروفسور:

- إذن من نحن؟!

- أنتم أعضاء في مجلس الفوضويين الأعلى رأيتكم هناك..

هتف د. (بول) وهو يلقي بسيفه في الماء:

- إذن لم يكن هناك قط ما يدعى مجلس الفوضيين الأعلى.. هناك فقط رجال شرطة حمقى.. ويبدو أن هؤلاء الشباب لطيفي المعشر يطاردوننا لأنهم يحسبوننا مفجري ديناميت.

العامة والفقراء لا يجنون أبدا.. وأنا من العامة أنا نفسي.. بالتأكيد لم أجن..

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني عشر

البحث عن الرئيس

ركب الأصدقاء السفينة متجهين إلى (دوفر).. كانت لديهم مئات التفاصيل ليحكوها لبعضهم.. حكى لهم السكرتير كيف جعل رجاله يضعون الأقنعة، كي يشعر الفوضويون بأنهم منهم.. وحكى (سايم) كيف فروا عبر البلاد.. لكن ظل سؤال واحد لا يجدون له جوابا: ما معنى هذا كله؟ إذا كانوا جميعا ضباط شرطة فمن هو الأحد إذن؟

قال السكرتير:

- لسوف نعرف حالا.. فالغد هو موعد اجتماعنا الأسبوعي، وأرجو أن تغفروا لي أنني لا أنسى مهنة السكرتارية..

ومن الميناء ركبوا أربع سيارات أجرة، برغم أن الدكتور - أكثرهم تفاؤلا - اقترح أن يركبوا سيارة واحدة.. كانوا غريزيا يشعرون بحاجة ماسة لأن يكونوا معا.. قضوا ليلتهم في فندق قريب من ميدان (لسستر)، ولم تكن مفاجآت اليوم قد انتهت؛ لأنهم قابلوا في الفندق (جوجول).. جاسوس (سكوتلانديارد) الذي كان يتظاهر بأنه فوضوي بولندي، وتم التعارف بينهم.

في الصباح اتجهت كتيبة الأصدقاء الستة نحو الفندق في ميدان (لسستر)، حيث موعد اللقاء الأسبوعي للمجلس.. وقال الدكتور (بول) في مرح:

- إن الوضع أفضل.. نحن ستة رجال ذاهبين ليسألوا واحدا عن حقيقته..

في الشرفة رأوه.. كان أضخم من المعتاد، وهو جالس يقرأ الجريدة ولا يرفع عينيه.. وبرغم هذا عبروا الميدان في حذر، كأن مئة عين تراقبهم.. كانوا قد اختلفوا حول (جوجول).. هل يدخلون من غيره، أم يدخلون به ويفجرون الموقف؟؟ واستقر الرأي على الأخير.. تساءل السكرتير محتجا على الفكرة:

- لماذا تهاجمون الأحد بهذا الاندفاع؟

- الإجابة سهلة - قال (سايم) - لأننا نخشاه كثيرا..

أخيرا دخلوا إلى الشرفة المشمسة، وإلى عالم الأحد.. حياهم باسما وقال:

- يسعدني أن أرى كل هؤلاء مجتمعين.. هل مات القيصر؟

ابتلع السكرتير ريقه وقال:

- كلا يا سيدي.. لم تحدث مذابح.. وقد جئنا لنعرف معنى هذا كله.. من أنت؟ ماذا أنت؟ لماذا أحضرتنا هنا؟ هل تعرف من نحن حقيقة؟ هل أنت رجل محدود الذكاء يتظاهر بالدهاء، أم أنت عبقري يدعي البلاهة؟ قل لنا..

قال الأحد في هدوء:

- تريدون معرفة كل شيء وأي شيء.. سأحاول أن أجيب.. أما من أنتم، فأنتم مجموعة من الحمير..

- حسن.. وما أنت؟

نهض الرجل فبدا طوله يجاوز ما هو مقبول أو معلوم، وقال:

- تريدون معرفة ما أنا؟ (بول).. أنت رجل علم مثقف.. يمكنك أن تبحث في كل شيء.. (سايم).. أنت شاعر.. لكنك ستفهم كل شيء عن هذه الشجرة وعن الغيوم فوقنا، قبل أن تفهم من أنا.. ستفهم البحر بينما أظل أنا لغزا.. منذ بدء العالم والناس يطاردونني كالذئب.. كل الأديان وكل الفلاسفة وكل دور العبادة تحاول.. لكن لم يفلح أحد.

وقبل أن يدرك الرجال ما يحدث، تلوى الرجل فوق سور الشرفة كأنه (أورانج أوتان) عملاق.. ثم وثب، قبل أن يهوى تمسك بقضيب أفقي، وقال:

- سأخبركم من أنا.. أنا الرجل في الغرفة المظلمة الذي جعلكم جميعا رجال شرطة!

ثم هوى لأسفل نحو حجارة الطريق، وراح يتواثب مبتعدا ككرة من مطاط، حتى وصل إلى (الهمبرا) فاستوقف سيارة أجرة، ووثب داخلها.. ظل الرجال متصلبين كأنما صفعهم البرق، ثم استعاد (سايم) روحه العملية، فتشبث بسور الشرفة ووثب لأسفل ونادي عربة أجرة مارة..

وسرعان ما كان هو والطبيب في عربة تتابع الرئيس، على حين ركب الأربعة الباقون عربتين أخريين.

كانت عربية الرئيس تركض بسرعة محمومة، بدا أن الحوذي تحت تأثير قوة كاسحة، إلا أنه أبطأ قليلا، فانتشل منه الرئيس السوط، ووثب إلى مقعد القيادة، وراح يجلد ظهر الجواد كي يندفع في جنون عبر شوارع (لندن)..

استمرت المطاردة، وشعر الأحد الأبيض يتطاير في الهواء، ثم إنه نظر للوراء وتقلص وجهه في تعبير مريع كأنه طفل عملاق يضحك.. وكور ورقة وقذفها في وجه (سايم).. مد (سايم) يده وفتحها فوجد خطابين قصيرين، أحدهما موجه لدكتور (بول) يتكون من عبارة واحدة:

ماذا عن (مارتن توبر) الآن؟

أما عن رسالة (سايم) فكانت تقول:

لا أحد يعترض على تدخل الأرشيدوق أكثر مني.. أعتقد أن الأمر لن يصل لهذا.. لكن لآخر مرة، أين حذاؤك الواقي من المطر؟ هذا سيئ خاصة بعد ما قاله لك العم..

كان السباق مستمرا، لكن المرور كان متوقفا عند نهاية الطريق لحسن حظهم، والسبب هو أن عربة الإطفاء كانت مارة.. في اللحظة التالية وثب الأحد من عربة الأجرة وتمسك بعربة الإطفاء.. ورآه الأصدقاء يتكلم بالإشارة مع رجال الإطفاء المذهولين.



وثب الأحد من العربة ، وركض متجهًا إلى سور جانبى تسلقه وتوارى خلفه .

- فلنتبع عربة الإطفاء.. من المستحيل أن نفقدها..

هنا برز الأحد في مؤخرة عربة الإطفاء، ولثم يديه معا، ثم طوح بورقة مطوية بالضبط لتستقر على صدر المخبر

(راتكليف).. فتحها الرجل في لهفة فوجد المكتوب:

- اهرب! لقد افتضح أمر حمالة سروالك!

وتلقى (جوجول) ورقة أخرى فتحها فوجد المكتوب:

- أعتقد أن الكلمة يجب أن تكون: وردي.

وثب الأحد من العربة، وركض متجها إلى سور جانبي تسلقه وتوارى خلفه.. كانت هذه بقعة من شمال لندن لا يعرفونها، وقد ترجل الرجال من عربات الأجرة.. وجري (سايم) ليتسلق السور خلف الرجل ثم توقف.. نظر للرجال وصاح بتردد:

- ماذا لو كان هذا بيت الشيطان العجوز؟

- سيكون هذا أفضل.. سننال منه في داره..

- لكن.. ألا تسمعون معي أغرب الضوضاء؟ أليست هذه كلابا تنبح؟

وفجأة دوى صوت زئير عميق طويل جمد الدم في عروقهم.. فهز (جوجول) كتفيه وقال:

- كلاب الأحد لا يمكن أن تكون كلابا عادية..

كان (سايم) قد وثب إلى الناحية الأخرى من السور، لكنه بقي متصلبا.. وقد تبدلت الضوضاء لتتحول إلى صرخات متعارضة فيها غضب وفيها شكوى.. قال البروفسور:

- لا بد أن هذا المنزل هو الجحيم ذاته..

ووثبوا جميعا إلى الجانب الآخر ووقفوا متصلبين، وفجأة هتف الدكتور(بول) ضاحكا:

- لحظة يا حمقى!! هذه حديقة الحيوان!!

هنا جاء أحد الحراس ومعه موظف.. كانا يركضان ممتقعي الوجه، وسألهم الحارس:

- ألم يأت من هنا؟

- من يا سيدي؟

- الفيل.. الفيل الذي هرب من محبسه ومعه رجل غريب أشيب ضخم كما لم أر رجلا من قبل.

قال (سايم):

- نعم.. ها هو ذا!!

وأشار إلى الجهة الأخرى من الحديقة حيث كان الناس يركضون هلعا، ووسطهم فيل عملاق يلوح بخرطومه في الهواء، ويصدر صوت بوق مريعا ترتج له القلوب..

وعلى ظهره جلس الرئيس كأنه سلطان هندي، مسترخيا مستريحا، ينخسه بشيء حاد في يده كي يركض..

ودوي صوت تحطم عال، وسرعان ما كان الفيل الرمادي يخترق البوابة ليخرج إلى شارع (ألباني).. كأنه طراز جديد من الحفلات السريعة.. ركب الأصدقاء سيارة أجرة وراحوا يطاردونه، لكن الأحد لم ينظر للوراء هذه المرة.. كان الناس في الشارع يصرخون ويتأملون الموكب، وخطر لأكثرهم أن هذا إعلان عن سيرك ما.. في النهاية لحق الأصدقاء بالفيل الواقف وسط الزحام، ولم يكن الأحد فوق ظهره..

قال أحد السعاة الواقفين في اشمئزاز:

- الرجل الذي كان على ظهر الفيل قد دخل معرض (ألبيرت كورت).. تصور أنه طلب مني العناية بالفيل، وأعطاني بقشيشا هذه الورقة..

كان المكتوب أعلى الورقة: إلى السيد سكرتير المجلس الأعلى.. أما محتواها فكان:

- حين تجري الرنجة ميلا.. دع السكرتير يبتسم.. وحين تحاول الرنجة أن تطير.. دع السكرتير يهلك.

وأشار (سايم) إلى السكرتير كي ينظر إلى السماء إلى حيث كان المنطاد المربوط الذي يعرضه المعرض للزوار.. الآن لم يعد مربوطا.. كان يرتفع إلى السماء، واستطاعوا أن يروا الأحد داخله.. يبتعد ويبتعد.

وقال (سايم) في ضيق:

- أنا لم أهزم بعد.. هلموا نقتف أثر هذا البالون..

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث عشر

الستة الفلاسفة

راح الستة الفلاسفة يركضون وراء المنطاد، وهم ينظرون إلى السماء.. لقد قرروا ألا يركبوا سيارات أجرة، لأن هذا يقيدهم لو حلق المنطاد فوق غابات أو طرق غير ممهدة.. كانوا مرهقين لكن مصممين، وقد تحول كل منهم إلى شبح يصعب ألا تعتبره متشردا.. وشهدت هذه الأحراش النهاية المأساوية للبذلة التي دخل بها (سايم) حديقة الزعفران.. وتهشمت قبعته الأنيقة.

قال البروفسور:

- أتمنى لو تنفجر هذه البالونة القبيحة.

قال د. (بول):

- لا.. لا أتمنى هذا.. ربما تؤذي الصبي العجوز فأنا لا أتمنى أن يؤذى.

- ماذا؟ هل تصدق هذا الهراء عن كونه الرجل في الغرفة المظلمة؟ الأحد يمكنه أن يزعم أنه كان أي شخص..

- لا أدري إن كنت أصدق هذا أم لا.. لكني لا أريد لمنطاده أن ينفجر.. ربما لأنه رائع كأنه منطاد هو الأخر..

قال د. (بول) في قنوط:

- لا أصدق حرفا عن كونه ذات الرجل الذي أعطانا بطاقاتنا الزرقاء.. يجعل هذا كل شيء هراء.. لكني مازلت أشعر بالعطف على هذا الأحد البائس.. كأنه طفل مكتنز.. حقا لا أستطيع شرح

سبب عطفي عليه.. هل أقول إنني أعطف عليه لأنه.. لأنه بدين؟!!

- لا أفهم..

- نعم.. نعم.. لأنه كالمنطاد.. نحن دوما نفكر في البدينين باعتبارهم ثقيلي الحركة.. لكن هذا الرجل قادر على أن يرقص الباليه.. إن القوة الحقيقية تأتي من الحيوية.. كما يثب الفيل في الهواء كالجندب..

نظر (سايم) للسماء وقال:

- فيلنا بالفعل يحلق في السماء كالجندب.

- وهذا هو ما يحملني على القول إنني أحب الأحد.. لأنه وثاب..

ساد صمت، ثم قال السكرتير بصوت منهك:

- أنتم لا تعرفون الأحد جيدا، وربما لأنكم خير مني ولا تعرفون الجحيم.. كنت معه من البداية، والرجل الذي يجلس في الظلام اختارني من البداية لأن لي كل ملامح المتآمرين.. لأن ابتسامتي عرجاء، وعيني كئيبتان حتى حين أضحك.. ثمة شيء ما فيّ راق لكل هؤلاء الفوضويين.. وحين قابلت الأحد وجدته موحيا بالحزن كان يدخن وحده في غرفة معتمة الإضاءة، كئيبة أكثر من تلك الظلمة الداجية التي يجلس فيها رئيسكم.. كان جبلا أدميا يصغي لي دون حراك أو كلمة واحدة.. رحت أقدم له أوراق اعتمادي وراح يصغي لي طويلا، ثم راح يهتز.. حسبته يهتز من فعل مرض غامض.. يهتز كأنما هو نوع من الهلام المقزز.. ذكرني بتلك الكتل البروتوبلازمية التي تعيش في أعماق البحر.. كأنه

الصورة النهائية للمادة.. وخطر لي أنه من الممكن لكائن كهذا أن يتعذب، ثم فهمت أن الكائن المريع يضحك.. ويضحك عليّ أنا.. وتريدون أن أغفر له هذا؟ ليس هينا أن يسخر منك شيء أحط وأقوى منك..

هنا جاء صوت المفتش (راتكليف) الواضح:

- أنتم تعقدون الأمور.. إن الأحد غريب لكنه ليس من عجائب سيرك (بارنوم) كما تزعمون.. لقد تكلم معي بشكل عادي مهذب.. لكن ما أثار رعبي هو أن غرفته منسقة.. ثيابه منسقة.. لكنه شارد الذهن.. أحيانا ينسى أنك موجود.. أحيانا تعمى عيناه الذكيتان.. وشرود الذهن مخيف لدى الأشرار، لأننا لا نستطيع التفكير في شرير يحلم.. لا نستطيع التفكير في شرير غير متوقد الذهن.. هذا هو ما يمتحن أعصابك.. أن يجتمع التجريد العقلي مع الشر والقسوة.. الحيوانات نفسها لا يشرد ذهنها.. إنها تتركك أو تهاجمك.. كيف تحب أن تمضي عشر ساعات مع نمر شارد الذهن؟

سال (سايم):

- وما رأيك في الأحد يا (جوجول)؟

قال (جوجول):

- لا يمثل لي التفكير في الأحد أكثر من النظر إلى الشمس عند الظهيرة.

- هذه وجهة نظر.. وماذا عنك يا بروفسور؟ قل لنا رأيك في الأحد..

بعد صمت طال، قال البروفسور:

- شيء لا أستطيع التعبير عنه بوضوح.. شيء بالأحرى لا أستطيع التفكير فيه بوضوح.. لقد خطر لى أن وجه الأحد كبير جدا، لكنه كذلك مفكك جدا.. الوجه كبير جدا بحيث يصعب أن تستوعبه، والعينان متباعدتان جدا.. الفم يجب أن تفكر فيه بشكل مستقل.. كل شيء عسير يصعب وصفه..

كنت أمشي ذات مرة ليلا ووجدت مصباحين بينهما شجرة، فخطر لي أن هذا المشهد يشبه الوجه البشري، ثم دنوت منه أكثر فرأيت أنه لا وجه هنالك.. لقد فر الوجه مني وتناثر يمينا ويسارا.. صار شجرة ومصباحين.

وقد خطر لي وقتها أنه لا يوجد شيء يدعى الوجه.. لربما لو دققت النظر في وجهك يا (سايم) لتفكك إلى عناصره الأساسية ولم يعد هناك.. لم أعد أومن بالأشياء المادية..

قال (سايم) وهو ينظر لأعلى وعيناه على المنطاد:

- هل لاحظتم ما في هذا من غرابة؟ كل واحد منكم رأى بشكل مختلف.. لكن كل واحد وجد شيئا واحدا يشبه بالكون ذاته.. (بول) يجده كالأرض في الربيع.. (جوجول) يراه كشمس الظهيرة.. السكرتير يشعر بأنه بروتوبلازم.. المفتش وجده يمثل شرود ذهن الأحراش.. البروفسور قال إنه يتغير كمشهد طبيعي.. أما الأغرب فهو أنني أرى الأحد كأنه الأرض كلها.

لم أر الأحد إلا من ظهره، وحين رأيت ظهره عرفت أنه أشر رجل على ظهر الأرض.. رأسه يوشك ألا يكون آدميا.. خطر لي أن هذا ليس بشرا بل هو وحش يرتدي ثياب إنسان.. ثم رأيت

وجهه فأثار هلعي.. ليس لأنه جميل ولا لأنه شرير، بل لأنني شعرت أنه قناع لا أكثر..

وبأن ظهره هو وجه بلا عينين يرمقني طيلة الوقت.. كان هذا مريعا.. كان هذا أشنع ما شعرت به في حياتي..

هل تعرفون سر العالم؟ السر هو أننا لم نره إلا من ظهره.. هذه ليست شجرة بل هي ظهر شجرة.. هذه ليست سحابة بل خلفية سحابة.. كل شيء يداري وجهه، فقط لو أننا تمكنا من الدوران حوله..

ثم صاح صائح أن المنطاد يهبط.. رأوا المنطاد يتصلب في السماء، ثم يهوي ببطء كشمس غاربة.

وراء حزام الأشجار.. هتف (جوجول):

- لا بد أنه مات.

غمغم السكرتير:

- مستحيل.. إنه لا يموت بسهولة.. سنجده يركض في المرج، راكلا بساقية في مرح كالمهر.. ربما بحوافره كذلك مثل (بان) إله المراعي عند اليونان..

قال (سايم):

- إنه هناك.. فلنظفر به.. لو اتضح لنا أنه خدعنا كالعادة ومات.. أوه.. سيكون هذا مؤذيا..

هنا أدرك الرجال أنهم ليسوا وحدهم هنا.. كان هناك رجل فارع القامة، يمشي نحوهم، منحنيا على شيء غريب أقرب إلى

الصولجان.. يلبس ثيابا أنيقة لكنها عتيقة الطراز، لونها ظل ما بين البنفسجي والرمادي.. وكان شعره أبيض شائبا يعطي الانطباع الأولى بأنه رش مسحوق.. قال لهم:

- يا سادة.. إن سيدي يبلغكم أن عرباته تنتظركم خارج هذه الأحراش..

- ومن هو سيدك؟

- قال لي إنكم ستعرفونه..

نظر له (سايم) مرارا فلم ير ما يريب في مظهره، عدا أن وجهه كان له ذات لون السماء، وسترته لها ذات انعكاس ألوان الشجر.. مشى الرجال خلفه ما بين الأشجار، فإذا به يتجه إلى طريق له لون أبيض، يقف به صف من العربات.. كانت ست عربات، واحدة لكل واحد من هذه المجموعة البائسة.. وجوار كل عربة كان خادم متأنق بادي الكبرياء، ليس له سمت الخدم وإنما سمت سفراء الملوك.

تساءل (بول):

- ما معنى هذا؟ هل هي مزحة أخرى من الأحد؟

قال (سايم) وهو يغطس وسط الوسائد في عربته:

- لا أدري.. لكن لو كانت مزحة فهي متقنة حقا..

وكان المغامرون الخمسة قد اعتادوا أقسى الظروف وأشد ألوان المعاناة، لكنهم لم يتوقعوا أن يجدوا فجأة كل هذا الترف والراحة.. ووجد (سايم) نفسه وحيدا في الغرفة وسط ظلال

الأشجار، فاسترخي تماما.. لم يعد هو المكلف بالقيادة بل هناك من يتولى الأمر ومن ثم يمكنه أن يسترخي تماما.

لقد خرجت العربات من نطاق الأشجار، ثم بدأت تتسلق هضبة تحيط بها الأشجار على الجانبين، لكنها أشجار أكثر أناقة من أن تكون غابة.. أشجار ظل مصطفة بعناية كما ينبغي لأشجار الظل أن تكون.. وخطر له كم هو جميل أن يتسلق الصبية هذه الغصون ويلهوا عليها.

ثم لاح البيت من بعيد، صغيرا لكنه أنيق في ضوء الشمس التي بدأت تغرب.

فيما بعد قارن الأصدقاء ذكرياتهم عن المكان واختلفوا كثيرا، لكنهم أجمعوا على أنه ذكرهم بطفولتهم الأولى.. ربما هي الأشجار وربما هو شكل النوافذ، لكن فيما بعد أكد كل واحد منهم أنه يذكر هذا المكان قبل أن يذكر أمه.

خرج لهم رجل وقور أشيب، وقال لـ (سايم):

- ستقدم لكم المرطبات في غرفكم.

وجد (سايم) نفسه يمشي كالمنوم مغناطيسيا وراء هذا المرافق المهيب، وارتقى درجات السلم المصنوع من خشب البلوط.. دخل غرفة واسعة مريحة في ركنها مرآة.. اتجه هناك كي يسوى شعره وربطة عنقه، لكنه أصيب بذعر من هيئته الشنيعة بالدم الذي يسيل من وجهه حيث خدشته الغصون، وشعره منتصب كالعشب الأصفر، وثيابه ممزقة كلها.. هنا دخل الغرفة خادم مهذب في ثياب زرقاء، وقال:

- قد أعددت ثيابك يا سيدي.

- ثياب؟ ليست عندي ثياب إلا هذه.

وضم طرفي سترته ودار حول نفسه متهكما كما تفعل راقصات البالية.. فقال الخادم:

- يقول سيدي إن هناك حفلا راقصا عظيما الليلة.. وهو يرغب في أن ترتدي هذه الثياب وتتناول وجبة من (الفيزان) البارد لأن ثمة وقتا قبل العشاء..

- كل هذا رائع، لكني لا أشتهي شيئا من هذا.. كل ما أريد معرفته هو أين أنا وما معنى هذا كله؟ وأين تلك الثياب المعدة لي؟

مد الخادم يده، وقدم لـ (سايم) رداء طويلا أخضر اللون على صدره رسم كبير للشمس، تخرج منها نجوم وأهلة، وقال في لطف:

- ستلبس مثل يوم الخميس!

- ألبس مثل يوم الخميس؟

قالها (سايم) في تأمل، فقال الخادم في حماسة:

- إنه ثوب دافئ يصل حتى ذقنك..

تنهد (سايم) وقال:

- حسن.. لا أفهم أي شيء.. لقد اعتدت المغامرات المتعبة، حتى إن المغامرات المريحة ترهقني بحق.. لكن ربما كان من حقي أن أسأل لماذا ألبس مثل الخميس، ولماذا يكون الخميس هو يوم الشمس والقمر؟ لقد رأيت القمر ذات مرة يوم الثلاثاء..

وجلس على مقعد وقال لنفسه:

- الأمر يزداد تعقيدا.. من هؤلاء القوم الذين يقدمون (الفيزان) البارد وعباءات طويلة خضراء؟

- هل أساعدك في ارتداء ثيابك يا سيدي؟

- ليكن..

وبرغم أن (سايم) لم يحب هذه المراسم السخيفة، فإنه شعر براحة وهو يرفل في الثياب الخضراء والذهبية، وعرف أن عليه أن يحمل سيفا، فأعاد هذا أحلاما طفولية إلى نفسه..

وخرج من الغرفة فطوح العباءة على كتفه واتخذ سيفه زاوية حادة.. كان الآن كأحد الفرسان الشعراء القدامى، إذ إن ثياب التنكر هذه لم تكن تخفي الحقائق بل تظهرها.

☆ ☆ ☆



كان الآن كأحد الفرسان الشعراء القدامى ، إذ إن ثياب التنكر هذه لم تكن تخفى الحقائق بل تظهرها ..

الفصل الرابع عشر
الذي يتهم

إذ مشي (سايم) عبر الممر رأي السكرتير يقف فوق درجات سلم هائل.. كان يرتدي عباءة طويلة من الأسود الذي لا نجوم فيه تتدلى من نطاقه حزمة بيضاء.. كأنما يلبس أحد الأثواب الكنسية.. وتذكر (سايم) أن يوم الاثنين في التوراة، هو يوم أخرج الله النور من الظلام.

وما أثار دهشة (سايم) هو أن سحنة السكرتير كانت مرتبطة حقا بالأبيض والأسود.. بطبيعته الباردة المجنونة التي تجعله يشن حربا على الفوضويين، وبرغم هذا يخدع من يراه باعتباره منهم.. ولم يندهش (سايم) لأن عيني الرجل ظلتا صارمتين قاسيتين برغم كل ما يحيط بهما من غرائب..

ولو أن (سايم) رأى نفسه الآن لخطر له أن الثياب أظهرت حقيقته ولا شيء سواها.. فلو كان السكرتير هو الفيلسوف الذي يشق النور الأولي عديم الشكل، فإن (سايم) كان هو الشاعر الذي يعشق الأشكال الخاصة للنور.. أن يراه شموسا ونجوما وأهلة..

الفلاسفة يحبون ما ليس محددا بينما الشعراء يحبون ما هو محدد.

لمحا في هذه اللحظة (راتكليف)، وكان في عباءة خضراء ربيعية تبدو كأنما هي غابة من الأشجار، كان وجهة السمح الودود يتمشى تماما مع هذا الثوب..

اقتيدوا إلى مخرج واسع يقود إلى حديقة إنجليزية كبيرة جدا.. يرقص فيها حشد من القوم بأزياء عديدة الألوان، على ضوء المشاعل.. وكاد (سايم) يرى كل مظاهر الطبيعة على كل ثوب من هذه الثياب.. رجل يلبس كفيل، ورجل يلبس كطاحونة.. ورجل يلبس كمنطاد.. بالواقع كان هناك كثيرون يلبسون ثيابا تذكر (سايم) بما مر به من مغامرات.

على جانب المكان كانت هناك شرفة خضراء كبيرة.. وبها كانت سبعة مقاعد مصفوفة كالهلال، تمثل الأيام السبعة.. وكان (جوجول) والدكتور بالفعل على مقعدين منها، و (جوجول) يلبس عباءة تنشق من فوق جبهته إلى الجانبين، لونها أزرق رمادي كالمطر بينما كان البروفسور يلبس عباءة رسمت عليها أسماك عديدة وطيور استوائية غريبة، كأنما تشير لما في شخصيته من مزيج من الخيالات والشكوك.. أما د. (بول) فكان يلبس عباءة عليها أسماك ووحوش قديمة ملونة بالأحمر والذهبي.. وقد استرخي في مقعده موحيا بكل ما في شخصيته من تفاؤل.

واحدا تلو الآخر اقتيد الضيوف إلى مقاعدهم، فكلما جلس واحد تعالي زئير حماسي من المشاهدين، كأنما هو استقبال الملوك.. اهتزت المشاعل وقرعت الكئوس وطارت القبعات ذات الريش في الهواء.

لكن المقعد الأوسط كان خاليا.. (سايم) على يمينه والسكرتير على يساره.. نظر الأخير عبر المقعد إلى (سايم) وزم شفتيه.

- لسنا واثقين إن كان قد هلك في الحقل أم لا..

ما إن قيلت هذه الكلمات، حتى لمح (سايم) في وجوه الواقفين ذعرا حقيقيا.. كأن السماء انفتحت خلف رأسه.. ولا يدري كيف مر الأحد بخفة وصمت بينهم حتى جلس إلى مقعده.

كان يرتدي الأبيض، وشعره شعلة بيضاء تحيط بجبهته.. وهنا عاد الرقص بشكل محموم، وبدا كأنما كل اثنين من الراقصين يرقصان رقصة خاصة متفردة، تحكي قصة مختلفة.. وأخيرا بدأ الزحام الكثيف يتفرق.. بدا كل اثنين يجولان في ممرات الحديقة، أو وقف الرجال يدخنون في آنية كبيرة غريبة.

فوق كل هذا راحت نار خلوية عملاقة تتوهج في سلة معدنية، فأضاءت المكان على بعد أميال، وبدا أنها تضفي جوا من الألفة على المكان، وتبعث الدفء في قلب الليل ذاته.. وسرعان ما لم يبق في الحديقة إلا عشرة متسكعين.. سرعان ما صاروا أربعة.. وبعد قليل تواري آخر ضيف مع رفاقه في داخل المنزل، وهمدت النار وازدادت النجوم تألقا.

وبقي الرجال السبعة وحدهم كسبعة تماثيل عملاقة فوق عروشها.. لم ينبس أحدهم ببنت شفة.. ظلوا لدقائق طويلة يصغون لصوت حشرات الليل، ثم في النهاية تكلم الأحد.. تكلم بصوت رتيب غريب، كأنما يستكمل محادثة بدأها من قبل:

- سنأكل فيما بعد.. فلنبق معا قليلا نحن الذين أحببنا بعضنا بشكل محزن.. وتحاربنا طويلا.. كأننا تقاتلنا قرونا من الحروب البطولية.. إلياذة وراءها إلياذة.. وظللتم أنتم إخوان سلاح طيلة الوقت.. كأن هذا من دهور حين جلست في مكتبي المظلم وأصدرت لكم أوامري، وطلبت منكم أقصى درجات

الفضيلة والتضحية. وفي الصباح أنكرت أنني أنا وأنكرت أنني طلبت منكم أي شيء.

كنتم رجالا شرفاء وقاومتم ببراعة.. تحول العالم كله إلى عجلة تعذيب تحاول انتزاع الشرف منكم، لكنكم تمسكتم به..

ساد الصمت في الحديقة، ثم إن السكرتير الذي لا يرضى بشيء، استدار للأحد وسأله بخشونة:

- من وما أنت؟

- أنا الأحد.. أنا (الساباث) [(2)].

نهض السكرتير وضم عباءته وقال:

- مازلت لا أفهم.. لو كنت أنت الرجل في الغرفة المظلمة، فلماذا اتخذت صورة الأحد الذي يكره الشمس ذاتها؟ لو كنت أنت من البداية صديقنا فلماذا صرت ألد أعدائنا؟ لقد بكينا وهربنا هلعا..

استدار الأحد بوجهه الهائل نحو (سايم) كأنما يوجه له سؤالا، فقال هذا:

- لا.. لا أشعر بهذا الغضب.. لقد ظفرنا بمغامرة طيبة، وان روحي لتشعر بالسلام الذي تشعر به هذه الأشجار، لكني أريد أن أعرف.. روحي تريد أن تعرف..

قال البروفسور:

- أما أنا فلست راضيا.. لقد كدت أهلك مرارا..

وقال (جوجول) ببساطة طفل:

- ليتني أفهم لماذا تعذبت كل هذا العذاب.

نظر الأحد إلى بعيد، ثم قال:

- قد سمعت شكاواكم بالترتيب.. ويبدو أن هناك واحدا آخر قادما ليشكو بدوره..

كانت النيران تحتضر في موقدها، لكنها أرسلت شعاعا أصفر واهنا، وعلى ضوئه رأوا من بين الأشجار رجلا مدثرا بالأسود قادما من بعيد، وحين دنا أكثر من مجلس السبعة ورفع رأسه، أدرك (سايم) في ذهول أن هذا وجه صديقه القديم (جريجوري)، بشعره الأحمر وابتسامته المهينة..

- (جريجوري)!! - قال (سايم) وهو ينهض من مقعده - هذا هو الفوضوي الحقيقي فعلا!!

قال (جريجوري) في رباطة جأش غير عادية:

- نعم.. أنا هو الفوضوي الحقيقي فعلا!!

ونظر حوله وهتف:

- أنا مدمر.. سأدمر الكون نفسه لو استطعت..

قال (سايم) في رهبة:

- يا أكثر الرجال تعاسة.. حاول أن تكون سعيدا.. إن شعرك أحمر كشعر أختك.

- شعري الأحمر هو نار ستحرق العالم.. قد حسبت أنني بلغت النهاية في كراهية كل شيء، ثم أدركت أنني لا أكره شيئا مثلما أكرهك أنت!

قال (سايم) في حزن:

- أنا لم أكرهك قط.

زار (جريجوري) صائحا:

- أنت لم تكره أحدا لأنك لم تعش! أنا أعرفكم معشر القوم، بثيابكم الزرقاء محكمة الأزرار تحشرون فيها أجسادكم البدينة.. أنتم الشرطة! أنتم القانون! لكن ألا يتمنى كل امرئ حي أن يحطمكم ويتحرر من قواعدكم السخيفة؟ نحن الثوار نتحدث عن تلك الجريمة وتلك من جرائم الحكومة.. هراء! الجريمة الكبرى للحكومات هي أنها تحكم!! الخطأ الذي لا يغتفر للقوة هو أنها قوة.. أنا لا أشتمكم لأنكم قساة بل أشتمكم لأنكم في أمان! أنتم تتظاهرون بأنكم سبعة ملائكة، ولم تواجهوا أية مشاكل أو مخاطر.. فقط سأسامحكم لو عرفت أن واحدا منكم فقط تعذب كما تعذبت أنا!

وثب (سايم) واقفا يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدمه.. وصاح:

- أرى كل شيء.. لماذا يحارب كل شيء على ظهر الأرض كل شيء آخر؟ لماذا يحارب كل شيء صغير على ظهر الأرض العالم بأسره؟ فقط بالألم والدموع يمكننا أن نظفر بالحق، في أن نقول لهذا الرجل الماثل أمامكم: لقد تعذبنا مثلك.. وهكذا ترتد أكاذيب الشيطان إلى نحره.. إنني أدفع عنا التهمة.. كلا لم نكن رجالا سعداء، ولم نكن آمنين.. لقد تحطمنا مرارا من قبل..

واستدار ليواجه عيني الأحد الذي كان يبتسم ابتسامة غريبة، وسأله:

- هل تعذبت حقا من قبل؟

وإذا بالوجه يتضخم ويتضخم، حتى ليفوق حجم تمثال (ممنون).. ثم اصطبغ كل شيء بالسواد فقط قبل أن يغوص تماما فيه سمع صوتا مألوفا يقول عبارة شائعة:

- هل تستطيع الشرب من الكوب الذي أشرب فيه؟

* **

في القصص، حين يصحو الرجال من الحلم، فإنهم يجدون أنفسهم في المكان الذي ناموا فيه.. يتثاءبون وينهضون كان ما حدث لـ (سايم) أكثر غرابة.. إن كان حقا هناك شيء غير حقيقي في كل ما مر به..

برغم أنه سيظل يذكر أنه فقد الوعي أمام الأحد، لكن ما يغلب على ذاكرته هو أنه كان يمشي في طريق ريفي هادئ مع صديق غريب الأطوار.. كان هذا الرفيق جزءا من الدراما الحالية، وهو الشاعر أحمر الشعر (جريجوري).. كانا يتناقشان في موضوع ما تافه، حين شعر (سايم) بأن جسده تتملكه خفة غير مفهومة وثمة نوع من الشفافية البلورية الغريبة في ذهنه.. بعدها لا يذكر شيئا..

كان الفجر دانيا بألوان وديعة حنون، كأنما الطبيعة جربت أولا الرسم باللون الأصفر ثم حاولت بعدها الرسم باللون الوردي..

هب نسيم نظيف عذب كأنما لم يأت من السماء.. بل كأنما جاء من بوابة في السماء.. وانتابته الدهشة حين رأي في كل صوب من حوله تلك المباني الحمراء المميزة لحديقة الزعفران.. مشي بالسليقة في طريق أبيض تتواثب عليه الطيور وتغرد، حتى وجد نفسه خارج سور الحديقة..

هناك رأي أخت (جريجوري).. الفتاة ذات الشعر الأحمر.. تقتطف زهور الليلك قبل الإفطار، بكل وقار الأنثى اللاشعوري

جلبيرت كيث تشسترتون

(1908)

من العسير تصنيف قصة تشسترتون الشهيرة (الرجل الذي كان الخميس) هناك من قرءوها كقصة بوليسية مفعمة بالغموض والتشويق، وكانوا محقين في ذلك.

وهناك من قرءوها كرواية فلسفية تناقش مذهب الفوضوية وتدحضه، ولم يجانبهم الصواب في ذلك، وهناك من وجدوا فيها خلفية جدلية شديدة التعقيد مفعمة بالرموز، وهم على الأرجح محقون.

(تشسترتون) كاتب مثير للجدل، لكنه -كذلك- ممتع بحق، ولسوف ترى الرأي ذاته بعد قراءة هذه الرواية الشائقة.

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

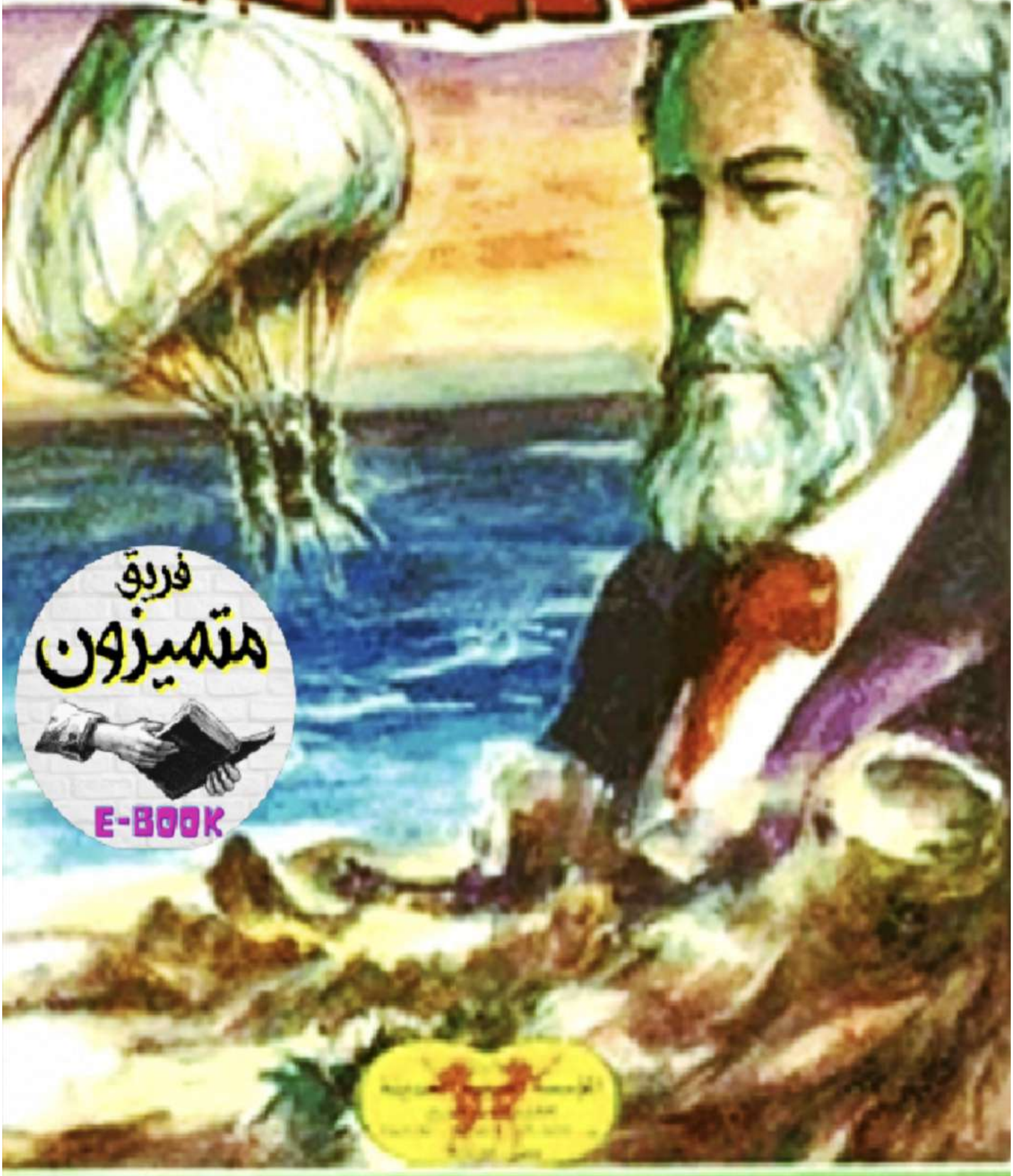
Notes

[←1]

- في زمن القصة كانت الحركة الفوضوية ANARCHISM في ذروتها، وهي حركة بدأها الفيلسوف الفرنسي (برودو)، وتقضي برفض كل أنواع الحكومات وتدعو إلى الفردية بكل صورها. كان من أقطاب الفوضوية بعض المخربين مثل (كروبوتكين) و(بوكانين) السوفيتيين وقد ساعدا على جعل لفظة (فوضوي) مقترنة بالإرهاب.

[←2]
- الساباث أو السبت عند اليهود سابع أيام الأسبوع ويوم الراحة، بينما هو عند المسحيين الأحد وبداية الأسبوع..

روايات عالمية للجيب 41



الجزيرة الغامضة

بقلم: جول فيرن
ترجمة
وإعداد د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (41)

الجزيرة الغامضة

بقلم: جول فيرن
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

للمرة الثانية نلتقي في هذه السلسلة أبا الخيال العلمي - (جول فيرن).. الكاتب الفرنسي العظيم الذي ولد عام 1828، وتوفي عام 1905، والذي لم يكفَّ خياله عن التوهج لحظة واحدة ومن العسير أن نحصر كل الإضافات التي أدخلها دون أن نشعر على وجداننا..

ها هو ذا (فيلياس فوج) يحاول أن يدور حول العالم في ثمانين يوما، و (ميشيل آردان) يحاول الوصول إلى القمر عبر ماسورة مدفع، وها هم أولاء الذين هبطوا إلى ٢٠ ألف فرسخ تحت البحر في غواصة الكابتن (نيمو)- أول غواصة سمع عنها الإنسان - ومحاولة (ميشيل ستروجوف) رسول القيصر كي يوصل رسالته.. كل هؤلاء يمثلون بعض ثمرات عبقرية هذا الرجل..

ربما ما كان (جول فيرن) ليحدث هذا التأثير في الأدب العالمي لو أنه نجح في خطته الأولى: أن يكون كاتبا مسرحيا ناجحا.. لكنه فشل.. وفي ظروف مجهولة ظهر من جديد إلى العالم عام 1869 بروايته (خمسة أسابيع في منطاد) التي دوى نجاحها في أجواء (باريس)، وهكذا حدد مصيره ككاتب خيال علمى بارع.. ربما الأول من نوعه كذلك..

وقدم لنا أعظم روائعه في سلسلة تدعى (رحلات فوق العادة) التي تضمنت (الجزيرة) و (رحلات الكابتن هاتيرا) و (سيد العالم) و (20 ألف فرسخ تحت البحر) و (رحلة إلى مركز الأرض) و (من الأرض إلى القمر).. الخ.

كان العام 1955 هو عام السعد بالنسبة للسينما العالمية، التي أدركت فجأة أنها قادرة على استغلال مؤلفات الرجل مجانا

بعد مرور خمسين عاما على وفاته، وهكذا عرف المشاهدون كنزا اسمه (جول فيرن)، والحقيقة أن أكثر الناس يعرفون أعماله من خلال السينما، وليس من خلال الكتاب ولربما كان التكرار مملا، لكن هناك دائما من يأتون متأخرين، لهذا أكرر من جديد خلاصة كلام الدكتور (لويس عوض): إن (جول فيرن) الفرنسي و(هـ. ج. ويلز) الإنجليزي يوضعان دائما في سلة واحدة، باعتبارهما من أوائل من كتبوا الخيال العلمي، لكن د. (لويس) يرى - وهو على حق – أن (ويلز) يكتب الخيال العلمي بعقلية مفكر وفيلسوف يحاول أن يقول الكثير في السطور وما بينها، بينما (فيرن) كاتب مغامرات لا يهمه إلا أن يكون ممتعا، وأن يكون دقيقا في حساباته وأرقامه.. لا أكثر ولا أقل..

هذا يضمن لنا - على الأقل - أن قصة اليوم ستكون ممتعة حقا!

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

من أهم أعمال جول فيرن..

- خمسة أسابيع في منطاد 1869.
- رحلة إلى مركز الأرض 1864.
- من الأرض إلى القمر 1865.
- 20 ألف فرسخ تحت البحر 1870.
- الجزيرة الغامضة 1870.
- حول العالم في ثمانين يوما 1872.

☆ ☆ ☆

الجزء الأول: السقوط من السحب

الفصل الأول

- هل نحن نرتفع ثانية؟
- بل على العكس..
- أترانا نهبط؟
- بل أسوأ يا كابتن! نحن نسقط!
- بحق السماء!! ألق ثقل الموازنة!

«أسمع ما يشبه هدير الأمواج.. لابد أن ارتفاعنا لا يزيد على خمسمائة قدم فوقها الآن!»

- تخلصوا من كل شيء!

كانت هذه هي الكلمات التي ترددت فوق المحيط الهادي الشاسع، في الرابعة مساء الثالث والعشرين من مارس 1865.. قليل من الناس يمكنهم أن ينسوا العاصفة الرهيبة التي هبت من الجنوب الشرقي ذلك العام، والتي خربت المدن، واقتلعت الغابات، وألقت بمئات السفن على الشواطئ..

لكن بينما كانت الكوارث تجتاح الأرض والبحر كانت هناك دراما لا تقل إثارة تدور في الهواء الثائر كان هناك منطاد تقاذفته الريح العاصفة كما تتقاذف الأمواج كرة تسبح وسطها، وبسرعة ثمانين ميلًا في الساعة، راح يدور ويدور حول نفسه وسط هذا الاضطراب الهوائى

وأسفل المنطاد كانت هناك سلة تحمل خمسة مسافرين، بصعوبة تراهم وسط البخار والدخان المتراكم فوق سطح المحيط.. ربما تسأل من أين جاءت هذه اللعبة؟ من أي موضع في العالم؟ لكن العاصفة كانت تثور منذ خمسة أيام إلى الآن، ومن المؤكد أن المنطاد جاء من مسافة بعيدة.. كانت عيون

الركاب عاجزة عن اختراق الضباب الكثيف المحتشد حول السلة.. بل إنهم كانوا عاجزين عن معرفة هل هذا نهار أم ليل.. ولم يدركوا إلا أنهم يهبطون بسرعة.. إلا أن المنطاد الذي تخلص من الأشياء الثقيلة كان قد ارتفع إلى أعلى طبقات الجو إلى ارتفاع 4500 قدم.. ومر الليل في أهوال تعني الموت لمن كانت أرواحهم أقل صلابة من هؤلاء

ثم جاء النهار ومعه بدا أن العاصفة تتراجع قليلا.. ومع الفجر تحولت الأعاصير إلى نسائم لطيفة.. أي أن سرعة حركة الطبقات الجوية صارت النصف. وعند الحادية عشرة صباحا صفا الجو وكان فيه ذلك البلل المعهود بعد مرور النيازك

لكن برغم هذا كان من الواضح أن المنطاد يهبط ببطء.. وكأن كرته تضمحل وتتحول من كرة إلى بيضة.. وصار على ارتفاع 2000 قدم فوق المحيط عند منتصف النهار.. حاول الركاب التخلص مما بقى معهم من مؤن، لكن كان من الواضح أنهم لن يقدروا على إبقاء المنطاد في السماء للأبد.. لابد أن يسقطوا في النهاية.

لم تكن من أرض على مرأى البصر.. ولا سفينة واحدة.. كان من الواجب بأي ثمن أن يوقفوا هبوطهم لأسفل.. وحاول الراكبون بكل جهدهم أن يمنعوا المنطاد من الهبوط في الأمواج، لكن دون جدوى..

مخيفا بحق كان حال هؤلاء المسافرين التعساء لم يعودوا سادة مركبتهم، وضاعت جهودهم سدى.. وبدأ الغاز يتسرب بلا فرصة لوقفه.. كان يتسرب من ثقب في الحرير، ولم يستطع المسافرون أن يبقوا المنطاد فوق الأمواج إلا بضع ساعات.. لكنهم كانوا رجالا شجعانا لم ينبس أحدهم بكلمة شكوى

الآن صار المنطاد على ارتفاع مانتى متر فوق الماء.. وقال أحد الرجال الشجعان:
- لا مفر من أن نتخلص من السلة ذاتها ونتمسك بالحبال!
كان هذا في الواقع أخر شيء يمكن تخفيفه، وسرعان ما قطع الرجال الحبال، وراحوا يتمسكون بالحبال وينظرون من عل إلى المحيط.. والحقيقة أن هذا أخل بالتوازن الرياضي الدقيق الذي يحكم ارتفاع المنطاد؛ لهذا سرعان ما واصل الهبوط لأسفل. لقد فعل الرجال كل ما بطاقة البشر، ولم يعد بوسعهم إلا أن يأملوا في رحمة الله فاطر الألوان
في الرابعة عصرا راح كلب أحدهم ينبح، حيث كان يلتصق بالحبل وبصدر سيده:
- لقد أحس (توب) بشىء ما..
ثم صاح صوت عال:
- أرض! أرض!
لقد مشى المنطاد مسافة لا بأس بها.. وكانوا الآن يرون أرضا باتجاه الجنوب الغربي.. لم يعلموا إن كانت جزيرة أم قارة، ولم يعلموا إلى أي موضع من الأرض ساقتهم الريح، لكن عليهم أن يصلوا هنالك!!
بعد نصف ساعة كانت الأرض على مسافة ميل، لكن المنطاد صار متداعيا يحلق كطير جريح، وقد تجعد وتهاوى ولم يبق من غاز إلا في ثلثه العلوى.
وقد راح من جديد يحاول الارتفاع، ثم طار موازيا للساحل.. وأخيرا هبط على الشاطئ الرملي. وتعاون الرجال على انتزاع أنفسهم من الشبكة.
وسرعان ما حلق المنطاد وقد تحرر من ثقلهم، وتلاشى في الفضاء كأنما هو طير جريح يبعث للحظات..

وما إن وقف الرجال الأربعة وكلبهم، حتى تذكروا أن معهم خامسا.. أين هو؟ لابد أن الريح حملته معها لحظة الهبوط.. وتصايحوا:
- ربما سيحاول السباحة إلى الشط.. دعونا ننقذه.. دعونا ننقذه!

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

هؤلاء الذين قذفهم الإعصار لم يكونوا أصلا ملاحين ولا هواة.. كانوا أسرى حرب دفعتهم بسالتهم إلى الفرار بهذه الطريقة الغريبة.. كانوا قد فروا من (ريتشموند) التي حاصرها الجنرال (جرانت)، في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية المريعة[1]. وقد استمرت رحلتهم الجوية خمسة أيام كاملة.. وكانت الأحداث التي قادتهم إلى هنا كالتالي:
في نفس العام في فبراير 1865 - قام الجنرال (جرانت) بإحدى غزواته، لكن الأمر انتهى بها إلى الفشل، وأسر عدد من رجاله.. وكان من أهم هؤلاء الكابتن (سيروس هاردنج).. وهو مهندس سكك حديدية بارع، نحيل في الخامسة والأربعين من عمره.. وقد بدأ الشيب بالفعل يغزو لحيته وشاربه. له سحنة عسكري بارع.. وفي لحظات الأزمات كان يظهر دوما الصفات الثلاث التي تضمن النجاح: نشاط العقل والبدن، والرغبات الطموح، والعزيمة القوية.. ولقد خاض كل معارك تلك الحرب إلى جوار الجنرال (جرانت) الرهيب الذي كان يقول: أنا لا أعد قتلاي أبدا. وقد كاد (سيروس) يصير مرارا واحدا من هؤلاء القتلى الذين لا يعدهم الجنرال..
وفي اليوم نفسه الذي أسر فيه، سقط في يد الجنوبيين رجل مهم آخر هو (جيديون سبيلت)، وهو مراسل صحفي، من الطراز الذي لا يدخر جهدا ولا خطرا كي يصل إلى المعلومة كاملة.. هو

واحد من الذين لا يكتبون إلا تحت النار.. كان طويل القامة في الأربعين من عمره، له شاربان خفيفان وعينان ثابتتان مفعمتان بالحيوية، وكان رساما بارعا يرسم اسكتشات للمعارك ويرسلها لجريدته...
وفي الأسر تعرف المهندس الصحفي، وتعلم الرجلان كيف يحترم أحدهما الآخر.. ومن البداية قررا أن يستغلا أول فرصة للفرار..
كان لدى الكابتن (هاردنج) عبد وفي أعتقه الأول من فترة؛ لأنه كان مؤمنا بإلغاء الرق، لكن العبد أصر على أن يظل مع سيده، وكان اسمه (نبوخذ نصر) لكنهم كانوا يطلقون عليه اسم (نيب)
في هذا الوقت اشتد حصار الجنرال (جرانت) على الجنوبيين، وخطر لهؤلاء محاولة اختراق الحصار في منطاد، طلبا للمدد من قوات الجنرال (لي)، وهكذا تم تصنيع المنطاد، وتقرر لانطلاقه يوم 18 مارس.. إلا أن العواصف العاتية جعلت الإقلاع مستحيلا، بل إن إبقاء المنطاد على الأرض كان عسيرا
ثم كان أن تعرف الكابتن (هاردنج) على بحار يدعى (بنكروفت)، وهو رجل اجتاز المحيط مرارا وعاش كل مغامرة يمكن لمخلوق ذي ساقين وبلا جناحين أن يعيشها.. سأله دون تحفظ:
ألم تمل هذه البلدة يا كابتن؟ ألا تفكر في الهرب؟
نظر له الكابتن مليا وأدرك أن من أمامه رجل شريف يمكن الكلام معه بصراحة.. فقال له:
- بلى.. لكن كيف؟
- بوساطة المنطاد الخمول الذي صنعوه بلا هدف، والذي يبدو لي كأنما ينتظرنا
وكانت الخطة بسيطة.. والمهندس البارع (هاردنج) يمكنه بالطبع أن يتحكم في منطاد.. كما أن (بنكروفت) سيصحب معه أسيرا مثله هو صبى يتيم يتبناه ويحبه كابنه، اسمه (هربرت)،

وكانت الخطة خطرة.. من الممكن أن تفشل ويقتلهم الحراس رميا بالرصاص، لكن من الممكن كذلك أن تنجح!

- سأصحب معي صديقي المراسل الصحفي (سبيلت) وخادمى (نيب).. ولندع الله ألا تنتهي العاصفة قبل أن ننفذ مشروعنا

وهكذا خمسة أفراد شجعان قرروا أن يسلموا أنفسهم لرحمة العاصفة بدلا من الأسر

وجاء المساء مبكرا كعادته في هذا الفصل، ومعه جاء برد قارس.. ومطر عنيف.. كأنما ليعلن هدنة بين المحاصرين والمحاصرين.. ولم يكن في هذا الطقس الرديء حارس واحد ليقف جوار المنطاد

وهكذا تسلل الخمسة إلى المنطاد، وجلسوا في السلة، ولم يرهم أحد.. وشرع (بنكروفت) في فك الحبال والتخلص من الأثقال.. هنا وثب كلب صغير إلى السلة.. كان هذا هو (توب) كلب الكابتن العزيز.

وسرعان ماتم قطع الحبل الأخير، وسرعان ما ارتفع المنطاد إلى عنان السماء

هنا أعلنت العواصف عن نفسها بعنف وشراسة.. ولم يستطع أحد أن يفكر في الهبوط طيلة الليل، وفي الصباح كان الضباب يجعل الهبوط مستحيلا

خمسة أيام مرت عليهم فوق المحيط، ولعل القراء يذكرون الآن ما حدث لهؤلاء، وكيف حملتهم العاصفة إلى جزيرة صحراوية نائية على بعد سبعة آلاف ميل من نقطة انطلاقهم، وكيف وجدوا أنهم فقدوا واحدا منهم.. كان هذا بالذات هو مرشدهم الكابتن (هاردنج)!

وقد نهضوا جميعا وركضوا إلى الشاطئ أملا في أن ينقذوه

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

كانت الآن السادسة مساء، وقد حل الظلام. اتجه الناجون إلى شمال الأرض التي قذفتهم عليها الأقدار وهي منطقة لم يستطيعوا تخمين جغرافيتها.. ثمة أرض رملية تختلط بالحجارة، ومن حفر معينة فيها راحت بعض النوارس تحلق في أسراب عبر السماء. راحوا يمشون وينادون بأعلى أصواتهم كلما هدأت الأمواج قليلا.. لاحظوا أنهم يعودون إلى البحر في كل اتجاه يمشون فيه، وقال (بنكروفت):

- تلك جزيرة صغيرة.. ومن الجلى أننا مسحناها من أحد طرفيها إلى الآخر..



راحوا يمشون وينادون بأعلى أصواتهم كلما هدأت الأمواج قليلاً ..

كان هذا واضحا.. جزيرة صغيرة لا يزيد قطرها على ميلين.. لكن هل هي مجرد جزيرة منفردة أم جزء من أرخبيل جزر؟ لم يكن بوسعهم أن يحكموا الآن في هذا الظلام.. عليهم الانتظار حتى

الصباح لمعرفة وضعهم، والبحث عن المهندس الذي - للأسف – لم يبد أى أثر يدل على أنه حي
اقترح الصحفي أن يشعلوا نارا على قمة، علها تهدي المهندس إلى مكانهم، لكنهم لم يجدوا قطعة خشب واحدة تصلح.. لا شيء إلا الرمال والحجارة..
ومضت الساعات ثقيلة بطيئة.. راحوا يزجون الوقت بالسير إلى الساحل حيث هبطوا والنداء، وقد لاحظوا أن صياحهم له صدى، وقد لاحظ هذا الصبي (هربرت) وقال لـ (بنكروفت):
- معنى هذا أن هناك خليجا إلى الغرب.. وهو ليس ببعيد..
كانت النجوم تلتمع في السماء، وما من نجم منها يمت لنصف الكرة الشمالي.. الدب القطبي لم يكن في السماء، وكان الصليب الجنوبي واضحا.. وعند الفجر جاء من البحر ضباب كثيف يجعل الرؤية مستحيلة.. إلا أنه انقشع سريعا، وفي السادسة والنصف غمرت الجزيرة شمس حارقة، وسرعان ما بدا المحيط من حولهم، وأدركوا أن الجزيرة الصغيرة التي هم عليها تتصل بخليج كبير جهة الغرب.. تفصلها عنه قناة ضيقة يمر بها تيار سريـع.. وسرعان ما ألقى الزنجي بنفسه مع التيار عابرا القناة.. اقتضاه العبور نصف ساعة حتى تمكن من الوصول إلى الشاطئ المواجه لهم.. وسرعان ما توارى خلف جدار من الجرانيت
لم ير (بنكروفت) داعيا لهذه المغامرة؛ لأن الجزر كان في الطريق، وكان يعرف أنه بمجرد حدوثه ستتحول القناة إلى ممر من الرمل الرطب يسهل عبوره على الأقدام.
لم يكن الجانب الآخر لحسن حظهم يفتقر إلى الخضرة.. كانت هناك أشجار كثيفة تمتد من قمة حائط من الجرانيت.. وقد أنعشهم اللون الأخضر بعد ما اعتادوا اللون الأصفر الأجرد.. ولم يكونوا قد استقروا بعد حول كون هذا الشاطئ جزءا من قارة أم

جزيرة أخرى، لكن أي جيولوجي يرى هذه الصخور المتلوية ما كان ليشك في كونها من أصل بركاني.. وقد راح الرجال يفحصون الجزيرة في فضول، إذ كانوا يعرفون أنهم سيمضون فيها أعواما طويلة، وربما يموتون فيها لو كانت بعيدة عن طرق السفن، كما هو الاحتمال الأرجح..

وفي الخامسة عصرا خلع القوم ثيابهم وصروها فوق الرءوس، وعبروا الماء الذي لم يزد ارتفاعه الآن على خمسة أقدام، أما الصبي (هربرت) الذي كان أقصر من ارتفاع الماء فقد سبح كسمكة

ومن دون صعاب وصلوا إلى الجهة الأخرى، فارتدوا ثيابهم، وجلسوا يتشاورون بصدد الخطوة التالية.

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

نهض الصحفي وقال للاثنين الباقيين: إنه سيعود لهم بعد قليل في النقطة ذاتها، ثم تسلق المنحدر الصخري في النقطة التي تسلقها الزنجي من قبل..
وسرعان ما توارى عند الزاوية وطلب البحار المجرب من (هربرت) أن يجد لهم كهفا يصلح كمأوى لهم.. فعليهم العثور على بيت وعلى نار وعلى طعام.. ونظر إلى جدار الجرانيت أمامهم.. كان صلبا متماسكا عجزت الأمواج عن أن تنال منه، وأعلاه كانت أعداد هائلة من النوارس وطيور البحر، التي تكفي طلقة واحدة لإسقاط عدد هائل منها.. لكنهم لم يكونوا يحتكمون على أسلحة نارية، بالإضافة إلى أن هذه الطيور لا تكاد تؤكل، وبيضها كريه المذاق
أما الصبي فوجد على الصخور التي سيغطيها المد حالا، عددا لا بأس به من المحار الذي لن يكره الجائعون التهامه.. وكان بارعا في التاريخ الطبيعي، لذا عرف أن هذا ليس محارا لكنه (ليثودوم)، وهو نوع من القواقع المستطيلة التي تلتصق بالصخور في عناقيد وتحدث فيها حفرا عميقة.. وكان مذاقها كأنما بعض الفلفل مما جعله شهيا بلا أية إضافات بعد هذا بحثا عن الماء العذب.. وقد وجداه يخرج من شق في الصخر صانعا خورا صغيرا.. أما عن المنزل فقد وجدا أن الصخور الجرانيتية صنعت ما يسميه الجيولوجيون مداخن، وكانت صالحة للسكنى. لو أنهم سدوا بعض الفتحات بالحجارة والرمال..
وقدروا أنه لو ظهر الكابتن (هاردنج) ثانية، فإن بوسعه أن يجعل هذا المسكن أكثر قابلية للسكنى..

قال الصبي:
- شيء يقول لي: إن رجلا نشيطا مثل الكابتن (هاردنج) لن يترك نفسه يغرق ببساطة.. لابد أنه في مكان ما من الشاطئ.. ألا تشعر بهذا يا (بنكروفت)؟
هز البحار رأسه في حزن.. لم يكن يتوقع أن يرى الكابتن (هاردنج) ثانية - لكنه أراد أن يترك بعض الأمل في نفس الصبي.. فقال له:
- بلاشك.. بلا شك.. مهندسنا لا تقهره المشاكل التي يستسلم لها أي واحد آخر..
ومضى البحار والفتي يجمعان البيض من أعشاش الطيور في منديل الأول، ثم إنهما كوما حملا لا بأس به من الخشب الجاف لاستعماله كوقود.. وعادا يعدان الكهف الذي قررا اتخاذه للسكنى
قال الصبي:
- ربما وجد رفاقنا منزلا أفضل..
- ربما.. لكن لا فارق هناك.. سنواصل العمل من الأفضل أن يكون هناك وتران للقوس من ألا يكون له وتر على الإطلاق!
الآن صار عليهما إشعال النار وإعداد العشاء اختارا للنار موضعا يسمح بخروج الدخان لكنه يبعث الدفء في المكان.. وراح البحار يكوم الخشب والأوراق الجافة التي جمعاها.. ومن حسن الحظ أنهم كانوا يحتفظون بعلبة ثقاب.. ثقاب من النوع الذي يوضع في علبة نحاسية فلا يؤذيه البلل.
قال الصبى:
- لو لم يكن معنا ثقاب لأشعلنا النار باحتكاك قطعتي خشب كما يفعل المتوحشون..

- جرب ذلك يا بني، ولنر إن كنا سنظفر بشىء غير إرهاق ذراعينا.. أعرف أنها طريقة ناجعة لكني فشلت في كل مرة جربتها فيها.. ربما كان للمتوحشين أسلوب ما، أوهم يستعملون نوعا بعينه من الخشب.. ولكن بالمناسبة.. أين ثقابي؟
وراح يفتش في جيوبه دون جدوى.. كان متأكدا من أن الثقاب معه لأنه مدخن.. لكنه لم يجده لذعره الشديد.. وتأكد من أنه فقده في أثناء ما شهدوه من أهوال لحظة الهبوط
- وهل يمكن أن يكون هناك ثقاب مع الآخرين؟
- أشك في هذا.. لا أحد منهم يدخن إلا الصحفي.. ولا أحسبه يهتم بالحفاظ على أعواد ثقابه
في المساء، عاد (نيب) والصحفي.. رآهما (بنكروفت) من بعيد.. كانا وحيدين لم يجدا المهندس (هاردنج)..
وغاص قلب الصبى! وكانت عينا الزنجي حمراوين قالتا كل شيء عن الدموع التي ذرفها، حين فقد كل أمل في العثور على سيده..
أما المراسل الصحفي فكان منهكا جائعا عاجزا عن قول كلمة
سأله الصبي عما إذا كان معه ثقاب، ففتش في جيبه.. بصعوبة وجد عودا من الخشب هناك فأخرجه بحذر خشية أن يسقط ما عليه من فوسفور.. لقد صار هذا العود الصغير التافه أهم شيء في العالم بالنسبة لهم.. دخلوا إلى الكهف، وكوموا الخشب ثم صنع الصحفي قمعا من الورق من مفكرته، كما يفعل المدخنون في الجو العاصف.. وحبس نفسه وحك عود الثقاب في قطعة حجر.. لم يشتعل.. إنه لم يحكه بالقوة المناسبة، لأنه خاف أن يسقط ما عليه من فوسفور
- لا أستطيع.. أنا متوتر ويداى ترتجفان.. أشعله أنت!
وناول العود للصبي.. فكان هذا أكثر توترا، (بروميثيوس) الذي سرق النار من (الأوليمب) في الأساطير الإغريقية لم يكن بهذا

التوتر.. اشتعل العود بلهب أزرق سرعان ما انتقل إلى القمع..
وبعد قليل سرت النار في الخشب وراح الدفء ينتشر في المكان
كان أول ما فكر فيه (بنكروفت) هو إعداد وجبة مغذية من البيض.. فقد جلب الصبى دستة منه..
ولم تكن هناك إلا طريقة واحدة لطهي البيض الآن: شيه على النار شيا.. ولو كان هؤلاء الرجال بكامل عددهم لكانت وجبة مبهجة، لكنهم كانوا يفتقدون رئيسهم ورأسهم المدبر وعبثا حاول الرجال الظفر ببعض النوم، لكن هذا كان عسير المنال

☆☆☆

الفصل الخامس

قرر الرجال أن يستكشفوا الجزيرة بعد أن يستردوا قواهم قليلا.. لكن الزنجي أبي في عناد أن يفارق المكان؛ لأنه كان واثقا من أن سيده لم يمت.. رجل كهذا لن يموت بهذه الطريقة السوقية.. وما لم ير الزنجى جثته ويلمسها، فهو واثق أن سيده حي يرزق! كان إخلاصه غريبا كإخلاص كلب يأبى أن يفارق قبر سيده

كان إفطار اليوم الأول يتكون من المحار وبيض الطيور، وقد وجدوا بعض الملح في حفر وسط الصخور، وقد رحبوا بهذه الإضافة إلى طعامهم

اتفق الرجال على أن يبقى الصحفى يرعى النار كى لا تنطفئ، وخرج (بنكروفت) والصبي إلى الغابة المجاورة للاستكشاف والصيد.. قاما ببرى بعض الأغصان على سبيل المدى، ثم مشيا يفتشان

كان من الواضح أنه ما من بشر هنا.. لا أثر لفأس على شجرة أو رماد نار متخلف من معسكر، وهذا شيء راق لهما.. لأنه في جزيرة منعزلة وسط المحيط الهادي كهذه، يغدو وجود الإنسان أكثر خطرا من عدمه.. كانت هناك بقايا حيوانات بدا كأنما أكلتها وحوش أكثر ضحامة، وقد جعلهما هذا يعرفان أن هذه الجزيرة لا تخلو من المتاعب

عامة لم يكن الصيد موفقا.. لكنهما وجدا مجموعة من الطيور غريبة الشكل، لريشها بريق معدنى غريب، وقد احتشدت حول جذع شجرة تحاول الظفر ببعض الحشرات.. هجما عليها وأسقطا منها عددا كبيرا بضربات سريعة بالعصوين.. كانت الطيور غبية حقا ولم تحاول الفرار

كما استطاعا صيد بعض طائر الطيهوج.. وكان هذا مرضيا لهما؛ لأنهما لن يعودا إلى المعسكر خالي الوفاض.. وفي السادسة مساء بدا الأفق منذرا بعاصفة دانية.. عاصفة شديدة

كان الصحفي شارد الذهن حين عادا، وكان يرمق البحر في تركيز، ولم يلبث أن سأل البحار:

- هل تذكر أين كانت السلة حين هبطنا؟

- كنا على بعد (كابلين).. أي ستمائة قدم على الأكثر..

- أي أن (هاردنج) قد فقد منا على بعد ألف ومائتي قدم من الشاطئ.. والغريب هنا أنه وكلبه لم يظهرا، ولم يلق البحر بجثتيهما

- من الوارد مع هذه الأمواج الثقيلة أن يجرفا بعيدا..

- ما زلت - مع احترامي التام لخبرتك - أجد في الأمر شيئا غريبا..

قام البحار (بنكروفت) بإعداد طائر الطيهوج وثبت عددا منه على عصا، وبدأ الشي على النار.. كان (نيب) الزنجي قد تأخر كثيرا، وقد جعل هذا (بنكروفت) يشعر بقلق غامر عليه.. هل أصابه حادث على هذه الجزيرة الغامضة؟ لكن الصبي (هربرت) فسر هذا الاختفاء لصالح (هاردنج).. ربما كان (نيب) الآن في طريقه خلف خيط ما مهم.. ربما هو قريب من سيده أو وجده فعلا.. لكنهم - على العموم – أدركوا أنه من المستحيل الخروج للبحث عنه؛ لأن هذا يعقد الأمور، خاصة والعاصفة تزداد سوءا إلى حد أنها كانت قريبة من تلك التي جلبتهم إلى هنا

إن عواصف المحيط الهادي تكون غاية في الشراسة في موسم الاعتدال الربيعي، ولا توجد كلمات قادرة على وصف عنفها وهياجها.. وقد مر الليل والصخور ترتطم بالمأوى وتهزه هزا، لكن جدرانه كانت قوية من الجرانيت، فبدا أنه لا خطر على النائمين به

قبل الصباح بساعتين أيقظ الصحفي (بنكروفت) وقال له:
- هل تسمع؟
- ماذا؟ صوت العاصفة؟
- بل نباح كلب! هذا (توب)!
ونهض الجميع غير مصدقين ما يسمعون.. بالتأكيد هذا (توب).. ومن الواضح أنه وحده، وإلا لكان الزنجي قد أحضره إلى المأوى.. وهكذا غادروا كهفهم ووقفوا بالخارج ينظرون إلى الظلام الدامس
كان الأمر صعبا جدا أن تتماسك في هذه العاصفة بالإضافة إلى أن الرؤية كانت مستحيلة.. لكنهم استطاعوا أن يروا الكلب الذي يركض نحوهم.. كان (توب) فعلا.. لكنه كان وحيدا! ليس معه سيده ولا خادم سيده
بعد العناق والتحيات أدرك الرجال أن الكلب يريد منهم أن يتبعوه.. وقد فعلوا هذا دون إبطاء برغم أن العاصفة كانت في ذروتها.. والحقيقة أن العاصفة كانت تهب باتجاه مسيرهم، بمعنى أنها كانت تدفعهم دفعا حثيثا إلى الأمام.
كانوا الآن يعتقدون أن (نيب) حي.. وقد أرسل الكلب ليجيء بهم.. لكن لماذا؟ هل السيد معه أم أنه يطلبهم كي يؤدوا آخر واجباتهم نحو المهندس المحبوب؟
كان المد يرتفع ثانية.. بينما هم يتجهون إلى الشمال.. وجوارهم يرون مساحات شاسعة من الظلام لا يستطيعون تخمين كنهها.. كان البرد قارسا مع ما يلبسون من ثياب غير كافية بالمرة.. ومن بعيد تتوهج الأمواج بضوء النهار القادم..
استمر السعي وراء الكلب الذي كان يركض دون أن يقف لحظة ليتبين طريقه.. ودخل كهفا فدخلوه وراءه.

هناك وجدوا (نيب) راكعا على الأرض.. وأمامه جسد يرقد على فراش من العشب.. كان هذا هو جسد الكابتن (هاردنج)..

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

لم يتحرك (نيب)، واكتفى (بنكروفت) بكلمة واحدة:

- حي؟

لم يرد (نيب).. ومن الواضح أنه لم ير زملاءه أو يسمع البحار يسأله.. كان الحزن قد بدل ملامحه تماما حتى صار من العسير تمييزها.. وجثا (سبيلت) الصحفي جوار الكابتن الراقد، ومزق قميصه كى يصغي لقلبه.. وبعد لحظات صاح:

- إنه حي!

وهرع الصبي (هربرت) إلى الخارج بحثا عن ماء، وعاد بعد قليل بمنديل مبلل وضعوه على شفتي المهندس.. من الغريب أنه كان سليما، وكان جسده خاليا من الجراح، ولكن التفسير قادم فيما بعد، حين يقدر الرجل على الكلام

راح (نيب) يحكي لهم ما حدث.. لقد راح يفتش الشط، ولم يكن يأمل في أن يجد سيده.. كان يبحث عن جثة.. جثة ود لو يدفنها بيديه.. وهنا وجد آثار أقدام فوق علامة الماء.. أصابه الجنون حين رآها وتتبعها نحو ربع ميل.. وهنا وجد نفسه أمام الكلب (توب).. (توب) الذي اقتاده إلى سيده، والذي حسبه ميتا حين رآه

كان عليه أن يستدعي الآخرين إليه، وقرر أن يجرب غريزة الكلب التي لا تخطئ.. أشار له إلى الجنوب ولفظ اسم المراسل الصحفي مرارا، وقد وصلت الرسالة إلى الكلب بالفعل

كان المهندس الآن يحرك شفتيه، برغم أن عينيه كانتا مغلقتين.. وبصعوبة قال أول ما يسمعونه منه:

- جزيرة أم قارة؟

- لا عليك من هذا.. المهم أن تعود لنا، وليكونن في الوقت متسع لنعرف هذا
من ثم عاد المهندس إلى النوم.. وكان عليهم الآن أن يصنعوا نقالة صغيرة يحملونه عليها إلى الكهف حيث النار.. وقد استغرق هذا منهم أربعين دقيقة من العمل المتواصل وباستخدام فروع الأشجار
وجلس المراسل الصحفي يحكي للمهندس كل ما حدث لهم من لحظة سقوط المنطاد.. هنا تساءل المهندس في وهن:
- إذن أنتم لم تلتقطوني من الشاطئ؟
- كلا يا صديقي
- وكم يبعد هذا الكهف عن الشاطئ؟
- نحو ميل..
- هذا غريب! غريب بحق..
ولم يكن لدى المهندس الكثير مما يحكيه.. لقد وجد نفسه وسط الأمواج العاتية والكلب في حضنه، على بعد نصف ميل من الشط.. وقد راح يجاهد ويجالد، ولكن موجة عالية جعلته يغوص مع الكلب. ويغيب عن الوعي.. بعد هذا لا يعرف شيئا غير أنه وجد نفسه هنا في الكهف محاطا بأصدقائه
- لكن لابد أنك مشيت إلى هذا الكهف ما دام (نيب) وجد آثار أقدامك..
قال المهندس لـ (بنكروفت):
- يا صديقي.. هلا أخذت هذا الحذاء من قدمى، فمضيت به إلى أثر الأقدام، لترى إن كان هو نفس الأثر؟
نفذ البحار طلب المهندس، وغادر المكان.. بعد دقائق عاد ومعه الدليل الأكيد.. لا شك في أن هذين هما أثرا حذائى (هاردنج).. لا شك في أنه هو من جاء إلى هذا الكهف على قدميه

- الأمر واضح.. لابدّ أنني مررت بحالة من فقدان الوعي كالتي يمر بها الماشون في أثناء النوم.. ولابد أن الكلب (توب) هو من جلبني إلى هنا هلم أيها الكلب العجوز!

وتعاون الأصدقاء على حمل المهندس على المحفة ثم مضوا إلى مأواهم.. لما كانوا مضطرين إلى المشي البطيء، فقد استغرق الأمر نحو ثلاث ساعات للوصول إلى هناك، وكانت العاصفة قد هدأت لكن مفاجأة قاسية كانت تنتظرهم حين بلغوا مأواهم.. لقد ولت النار! لقد دخلت الأمواج المأوى وغيرت معالم كل شيء، ثم رحلت حاملة الحطب والنار وكل شيء!

☆ ☆ ☆

الفصل السابع

برغم كل شيء فإن المحرر الصحفى لم يشعر بقلق.. أليس (هاردنج) معهم؟ ببراعته وكل العلم في عقله؟ إنه يستطيع تحقيق أي شيء، ومن الأضمن أن يكون (هاردنج) معك في صحراء قاحلة من أن تكون من دونه في أكثر مدن الولايات المتحدة تمدينا.. حتى لو قلت لهم إن بركانا سيدمر الجزيرة حالا، لقالوا لك: (هاردنج) هنا!

وراح (بنكروفت) مع (نيب) يجربان إشعال النار بحك قطعتين من الخشب بسرعة.. لكنهما لم يصلا إلى نتيجة إلا تسخين الخشب قليلا، ولو أن الطاقة المنبعثة منهما تحولت إلى حرارة لاستطاعت تسخين غلاية قطار! في النهاية توقف (بنكروفت) وقال:

- لا أفهم كيف يشعل المتوحشون النار بهذه الطريقة؟ دعهم يزعمون ما يزعمون! أما أنا فلا أصدق هذا إلا لو صدقت أنني قادر على إشعال النار بفرك ذراعى..

ولم يجد الأصدقاء سوى النوم حتى الصباح

في الصباح صحا الكابتن (هاردنج) منتعشا فتناول إفطارا من المحار قدمه له الصبي، وجرع بعض الماء، ثم سألهم عن النار.. فحكى له (بنكروفت) قصتهم مع عود الثقاب الوحيد، وكيف فقدوا نارهم..

قال المهندس في ثقة:

- سنصنع نارا.. سنصنع أعواد ثقاب! ولكن هل عرفتم هل هذه جزيرة أم قارة؟

- لم نعرف بعد.. لكننا سنعرف سريعا..

- إذن ما من شيء يمكن عمله اليوم.. غدا نتسلق الهضبة لنعرف أين نحن بالضبط..
عاد البحار يقول في عناد:
- نريد نارا..
لم يبد المهندس مهتما وقال:
- إن موقفنا يا أصدقائي صعب لكنه البساطة ذاتها.. لو كانت هذه قارة فلسوف نبذل كل جهد كى نجد سكانها.. أما إن كانت جزيرة فإما أن تكون مأهولة، وعندها يمكننا مغادرتها بمعونة السكان، أو صحراوية وعندها يجب أن نغادرها بجهدنا الذاتي.. سنصعد الهضبة غدا لنعرف.. لكني أعتمد على براعتكم في الصيد حتى أسترد قواى
قال له (بنكروفت) نافد الصبر:
- يمكنني أن أصطاد مستريح البال لو عرفت أن ما أصطاده يمكن شواؤه..
- لا تقلق بصدد هذا يا صديقي
وهكذا مضى الزنجي والبحار والصبي إلى الغابة ليصطادوا كل كائن حي مغطى بالريش أو الفراء.. وفي البداية وجدوا بعض الأخشاب مكومة فتساءل البحار:
- هل تبدءون اليوم بأن تكونوا حطابين أم صيادين؟
- حطابين.. إن الكلب (توب) قد سبقنا على كل حال..
وسمعوا عواء الكلب، فهرعوا ليجدوه ممسكا بأذن حيوان غريب، هو أقرب إلى فأر كبير، وإن كان في حجم الخنزير، وبين أصابع قدميه غشاء.



وسمعوا عواء الكلب ، فهرعوا ليجدوه ممسكا بأذن حيوان غريب ،
هو أقرب إلى فأر كبير ، وإن كان في حجم الخنزير ..

أخبرهم الصبي أن هذا هو حيوان الكابيبارا Capybara وهو من البرمائيات الأليفة، وسرعان ما تمكنوا من صيده والعودة به إلى

مأواهم وأدهشهم حين وصلوا إلى هناك أن رأوا الدخان يتصاعد من مداخن الصخور
كانت النار تتوهج بالفعل بالداخل، بينما جلس المحرر والمهندس جوارها.. كانت الشمس هى مصدر هذه النار.. وتساءل الصبى (هربرت):
- هل معكما عدسة؟
لكن لم تكن هناك عدسات.. لقد قام المهندس البارع باستخدام زجاج ساعته المحدب، وساعة المحرر، وملأهما بالماء، ثم لحم نصفى الزجاج باستعمال الصلصال، وهكذا صارت لديه عدسة محدبة قوية يمكنها تركيز أشعة الشمس على الحطب وإشعاله
وكانت نظرة (بنكروفت) إلى المهندس تغني عن أي كلام.. لو لم يكن هذا الرجل ساحرا فهو على الأقل رجل فريد حقا.. وكانت وجبة شهية سرعان ما أخلدوا بعدها لنوم عميق هانئ
وفي الصباح الباكر بدأ الرجال تلك الحملة الاستكشافية التي ستحدد مصيرهم، وتجيب عن السؤال الشهير: قارة أم جزيرة؟
مشوا كثيرا متجهين إلى الهضبة التي لمحوها أمس.. وكان المهندس مشغول الذهن تماما يفكر في الخطوات التالية.. وقد أدرك على الفور أن هذه الجزيرة بركانية. كما ضايقه أن وجد على التراب آثار أقدام حيوانات ضخمة..
بدءوا تسلق الهضبة، وقد استغرق هذا وقتا طويلا حقا، حتى إن المساء جاء وهم لم يبلغوا القمة، وقرروا أن يتخذوا معسكرهم هنا.. لكن المهندس كان قد أدرك الحقيقة: هذه جزيرة! كما أدرك أن ما يتسلقونه هو جسم بركان عظيم خامد منذ زمن
وفي الصباح تسلق الأصدقاء إلى القمة ووقفوا للمرة الأولى في أعلى نقطة بالجزيرة.. الماء! الماء من حولنا في كل مكان! حتى (بنكروفت) بعيني البحار الحادتين لم ير شيئا إلا الماء في الأفق..

وقد أدركوا الآن أنها لا يمكن إلا أن تكون جزيرة جزيرة محيطها لا يقل عن مائة ميل.. ولها شكل التمساح الذي ينفتح شدقاه شمالا، بينما يتجه ذيله العملاق إلى الجنوب
كانوا واقفين على فوهة البركان، وفوق الحمم التي جفت منذ قرون وصنعت ما يشبه سلما للمشي عليه.. وكان بوسعهم أن يروا بحيرة صغيرة عن بعد تحيط بها أشجار نضرة.. وقد قدر المهندس أنها ليست بحيرة، بل هي نهر يغتذي من المياه التي تجيء من المنحدرات إليه، وبالتأكيد يغادره الماء إلى البحر من فتحة ما.
لقد صارت الجزيرة مكشوفة الآن أمامهم بوضوح تام كأنها خارطة.. لكن السؤال الذي ظل يلح عليهم هو: هل الجزيرة مأهولة؟ وكان الصحفي أقربهم إلى استنتاج أنه طبقا لما رأوه فالإجابة لابد بالنفي..
لكن هل يؤمها سكان الجزر المأهولة المجاورة؟ لا يمكن الإجابة عن سؤال كهذا؛ لأن البحر خاو المسافة خمسين ميلا، لكن خمسين ميلا ليست مسافة شاسعة بالنسبة للقوارب.
ترى هل يستطيع (هاردنج) معرفة أي خط طول وأي خط عرض هذا من دون أدوات؟
لقد فرغوا على كل حال من فهم الجزيرة بشكل عام، ولم يعد عليهم إلا الهبوط واستكشافها من وجهة نظر ثلاثية: تربتها - حيواناتها - نباتها
وقال (هاردنج):
- على هذه الجزيرة وضعتنا يد الله العلي القدير. ولسوف نعيش هنا.. لا أدري إن كانت سفينة ستمر أم لا، لكني أرجح أننا في وضع جنوبي أكثر مما يجب بالنسبة لسفينة ذاهبة إلى

(نيوزيلندا)، وشمالي أكثر مما يجب بالنسبة لسفينة تقصد أستراليا..
قال (بنكروفت):
- أنا معك يا سيدي وإنني أثق بك.. وبمشيئة الله سنصنع من هذه الأرض ولايات متحدة جديدة! سننشئ طرقا وسكك حديدية وخطوط برق! ثم نقدمها هدية لحكومة الاتحاد يوم يجدون مكاننا!
وكان أن اقترح المهندس أن يطلقوا أسماء على الموجودات.. وهكذا صارت الجزيرة هي جزيرة (لنكولن) - بطل الاتحاد - والجبل جبل (فرانكلين) والخليج خليج الاتحاد.. وهكذا تعددت الأسماء، ومعها صارت معالم الجزيرة أقرب ألفة إلى نفوسهم.

☆☆☆

الفصل الثامن

بدءوا الآن في الهبوط.. مشوا بين الصخور عائدين، وقد استطاعوا أن يروا الكثير من الماعز البري التي أطلق عليها الصبي اسما ما، لكن البحار قال له:

- أليست لها قرون وحوافر؟ إذن هي خراف بالنسبة لى بصرف النظر عن اسمها الحقيقي..!

ولابد أن الساعة الآن كانت العاشرة صباحا حين تصلب الصبى (هربرت) وهمس:

- دخان!!

- بشر؟

وأشار إلى اتجاه الجنوب.. وحقا كان ما رأوه هو دخان أصفر غريب يرتفع من بين الصخور.. هتف المراسل (سبيليت)

- هذا غريب.. خذ الحذر حتى لا يرونا.. لماذا لا ينبح الكلب إذن؟

- لا أدري.. هذا غريب..

لكن المهندس كان قد شم رائحة الدخان المنفرة وعرف مصدرها.. فقال لرفاقه:

- هذا البخار من الكبريت... وهو قادر على شفاء حلوقنا للأبد!

وأخيرا وجدوا المصدر.. الينبوع الذي ينبعث منه حمض الكبريتيك في الهواء.. ومد (هاردنج) إصبعا في الينبوع فأحس للسائل قواما كالزيت، وقدر حرارته بـ 95 فهرنهايت.. سأله المحرر عن الكيفية التي قدر بها الحرارة، فقال:

- لم أشعر بحرارة أو سخونة.. إن حرارته هي حرارة الجسم ذاتها التي تساوى 95 فهرنهايت[2]

تركوا الينبوع وواصلوا الرحلة.. هذه المرة رأوا حيوانات غريبة تثب على ساقين خلفيتين.. وعلى الفور عرف الصحفي أن هذه كانجارو.. سأله البحار الشره عن مذاقها، فقال له: إن لحمها شهى كلحم الظباء..
عبثا حاول الملاح اللحاق بهذه الحيوانات الرشيقة لكنها كانت تثب كالكرة مبتعدة في الأفق.. وقد تلاحقت أنفاسه، وهو يلهث محاولا التماسك.. في النهاية وعده المهندس بأن يحاولوا صنع بعض القسي والسهام
- قسى وسهام؟ هذه الأشياء للأطفال!
- لا تتفاخر يا (بنكروفت).. أسلحة الأطفال هذه قد لوثت الأرض بالدم طيلة تاريخها.. بينما الأسلحة النارية وليدة الأمس فقط!
أما عن المدى فقد صنعها المهندس بسهولة حطم الطوق المعدني المحيط بعنق الكلب، فصارت عنده مديتان بعد ما ثبت القطعتين إلى مقبضين مناسبين.. الحقيقة أن هذه المجموعة من الرجال كانت موفقة، وكانت تملك كل أسباب البقاء على هذه الجزيرة.. ثم إنهم اكتشفوا شجرة (كريجمبا) التي لا تؤكل ثمارها، ويصنع هنود أمريكا الجنوبية أقواسهم من لحائها.. ثم وجدوا نبات (هبسكس هتروفيلوس) الذي يصلح لصنع أوتار الأقواس وهو مرن متماسك كأنه أوتار عضلات الحيوانات أما السهام فقد حصلوا عليها من قنفذ اصطادوه
اصطادوا الكثير جدا بعدما برع (بنكروفت) في استعمال القوس والسهم.. وإن لم يقابلوا بعد تلك الحيوانات الضخمة التي طالما رأوا آثار أقدامها
مر عليهم الآن اثنا عشر يوما على هذه الجزيرة لكنهم أنجزوا الكثير.. لقد قام المهندس بصنع قوالب قرميد من الصلصال

الموجود بالجزيرة، وتمكن من صنع فرن بدائي يصلح لطهي الطعام، كما يصلح لصنع مختلف الأنية من الخزف، التي كانوا في أمس الحاجة لها.. كما تمكن المهندس البارع من الحصول على وقود سريع الاشتعال من فطر ينمو في الجزيرة هو (الكشوث الرومي).. وكان عندما يجف ويخلط ببعض البوتاس - المتوافر بكثرة في حفر الجزيرة - يصلح لإشعال الموقد كأكفأ ما يكون

أما المشروع الأكثر طموحا فقد كان أن يصنع آلة سدس يتمكن بها من معرفة إحداثيات الجزيرة بالضبط، اعتمادا على النجم القطبي والشمس.. وكانت هذه خطوة مهمة كي يعرف أين هم بالضبط من سواحل أستراليا أو أمريكا، وبالتالي هل يفيدهم أن يحاولوا صنع قارب أم لا؟ وقد استطاع على الأقل أن يستنتج أن الجزيرة تبعد ألفين أو ثلاثة آلاف ميل عن نيوزيلندا[3]..

هكذا قرروا أن عليهم أن يمضوا الشتاء هنا قبل أن يفكروا في صنع قارب.. وطلب المهندس من رفاقه أن يتعاونوا لصنع مسكن أكثر راحة وأمنا.. من الواضح أن هناك حيوانات ضخمة في الجزيرة كما أن هذه الأصقاع لا تفتقر لقراصنة الملايو المتوحشين الذين لا يهابون البحر.. على الأقل سيريحهم هذا من عبء ترتيب نوبتجيات حراسة، والسهر على النار ليلا

قال البحار:

- ليكن.. سنحمي أنفسنا من الوحوش التي تمشي على قدمين والتي تمشي على أربع.. ونحن لا نفتقر إلى القرميد ومعدات البناء الآن

- جميل يا صديقي.. لكن لو استطعنا نحت منزل في مأوى طبيعي لوفر هذا علينا كثيرا من الجهد. بالإضافة إلى أنه سيكون بقوة

الطبيعة العاتية..
لكن البحث عن مسكن يصلح وسط هذه الصخور الجرانيتية كان شبه مستحيل.. الحقيقة أنهم كانوا يسكنون بالفعل المكان الوحيد المناسب للسكنى، الذي يرغبون الآن في تركه إلى مكان أكثر أمنا
كانوا يتفقدون الجزيرة على ضفاف البحيرة.. والفكرة هنا أنهم أرادوا أن يكون مسكنهم قريبا من الماء النقي.. فجأة تصلب الكلب (توب)، وراح ينبح، وينظر إلى البحيرة في توتر.. لم يعره أحد اهتماما أول الأمر، مما دعاه إلى الدنو من الماء وهو ينبح ويشير إلى الماء بمخالبه
- تعال هنا يا (توب)..
قالها المهندس الذي لم يحب كثيرا أن يتوغل كلبه قرب الماء
- هل هو تمساح؟
- لا أظن.. التماسيح لا تعيش على هذا الارتفاع عن سطح البحر..
ولم يكف الكلب عن التوتر.. بدا كأنما يلاحق بإصرار هدفا تحت سطح الماء.. ولم يستطع الرجال برغم كل محاولاتهم معرفة ما يثير حفيظته وتوتره..
هنا وثب الكلب إلى الماء، وعلى الفور برز رأس عملاق من الماء.. كان عجلا بحريا ضخما أمسك بالكلب قبل أن يتمكن من الفرار ونزل به تحت الماء.. لم يتمكن الرجال من عمل شيء.. وأدركوا أن معركة مريعة تدور تحت البحيرة الآن.. كان الماء يفور بعنف ويتناثر في كل صوب
ثم فجأة - بمعجزة ما - طار جسد الكلب في الهواء خارج الماء، وسرعان ما استعاد روعه وسبح إلى الشط، ومن الغريب أنه لم يصب بأي جرح.. ثم رأى الرجال لدهشتهم أن المعركة مازالت

مستمرة تحت الماء، وسرعان ما تلون الماء بلون الدم.. ثم طفا جسد عجل البحر العملاق الميت إلى الشاطئ، وفي عنقه جرح مخيف يبدو أن حيوانا أقوى أحدثه ترى أي حيوان استطاع قتل عجل البحر بهذه البساطة والشراسة؟ لم يستطع (هاردنج) ورفاقه التخمين، وهكذا قرروا العودة إلى مأواهم

☆☆☆

الفصل التاسع

في الصباح وقف المهندس يرمق مياه البحيرة وعقله مشغول بحادث أمس.. كان من الواضح أن البحيرة ضحلة لكنها عميقة في وسطها.. وكانت الطيور الجارحة قد أتت على أكثر لحم عجل البحر، لكنه أمر الزنجى (نيب) بأن يستنقذ بعض الدهن لإشعال النار.. ودنا منه المراسل الصحفي ليسأله:

- أنا موافق على أن ما حدث أمس كان غريبا.. كيف قذف الكلب خارج الماء بهذه البساطة؟

قال المهندس:

- هذا لغز.. لكن هناك لغزا آخر.. كيف نجوت أنا من الغرق وحملت إلى هذا المخبأ الذي وجدتمونى فيه؟ لكن دعنا لا نثر ذعر الآخرين بهذه الخواطر الآن، ولنبقها لأنفسنا..

كانت مشكلة المجموعة الآن هي العثور على مسكن أكثر اتساعا، وقد نجحوا بمعونة قائدهم الهمام في العثور على كهف من الجرانيت يتصل بالبحيرة.. وهو كهف مناسب من جميع الوجوه، بل يصلح لتقسيمه إلى حجرات بالقرميد وقد استطاع الرجال تنظيفه، وميزوا واجهته وبالتالي حفروا فيها بعض النوافذ العالية التي تسمح بدخول الهواء والضوء، كما جعلوا مدخل الكهف في مكان مرتفع يتم الدخول إليه والخروج منه بسلم من حبال مجدولة.. والغرض كان المزيد من الأمن؛ لأن المحيط الهادي مكان خطر وهم لا يعرفون ما يأتي به البحر، بل هم - على كل حال - لم يفرغوا من استكشاف الجزيرة، ولا يعرفون بحق إن كانت مأهولة أم لا..

حقا كان عليهم الإسراع في كل شيء، وفي اختزان المؤن لأن الشتاء قادم.. وهو هنا يأتي في (يونيو) الذي يماثل ديسمبر في

نصف الكرة الشمالي.. وحين جاء الشتاء عرف الرجال المتوارون في بيت الجرانيت أهمية ما قاموا به، لأن المأوى القديم ما كان ليتحمل هذا الطقس الشنيع.. خاصة أنه قد برهن على أن الأمواج والعواصف تدخله بحرية

وقد قضوا الوقت في نشاطات متعددة.. لكن مشكلة الثياب بدأت تظهر بقسوة.. فلم يكن لديهم إلا الثياب التي هربوا بها من الأسر، وكانت بحالة ممتازة لكن البرد كان قارسنا.. ولم يجد المهندس حلا في الوقت الحالي.. لا بد من انتظار انتهاء الشتاء، وبعدها يمكنهم أن يصطادوا بعض الخراف ومن صوفها يصنعون ثيابا جديدة

وقال المهندس: إنه يرجو - بما أن هذه جزيرة -أن يكون الشتاء متوسط البرودة.

لأن البحر يعمل كمخزن حرارة هائل.. إنه يختزن الحرارة طيلة الصيف ثم يشعها في الشتاء لهذا يكون شتاء الجزر أقل بردا، والصيف أقل حرا..

قال المحرر (سبيلت):

- لا يهمني الآن إلا أن الليل صار طويلا.. أرى أن نفكر في موضوع الإنارة..

سيكون هذا غدا بعد ما نصيد كلب بحر سنصنع بعض الشموع من دهنه..

وبالفعل في اليوم التالي خرج (بنكروفت) والصبى إلى الشط، وتمكنا من قتل أربعة كلاب بحر، قاما بسلخها وحملا الدهن إلى المأوى.. كانت النتيجة أربعمائة رطل من الدهن جاهزة لصنع الشموع وقد تمكن المهندس من فصل حمض الستياريك والأوليك بمعالجة الدهن بالجير، ثم صنع فتائل الشموع من ألياف النباتات.. وكانت النتيجة شموعا لا بأس بها برغم أن

منظرها بدائي.. أما عن الطعام فقد اعتمدوا على مخزون هائل من اللحوم المملحة كان البرد عنيفا، وقد أبدى (بنكروفت) حزنه لأن الجزيرة لا تعج بالدببة التي يصلح فراؤها للتدفئة.. ضحك (نيب) وقال:

- ربما لن تقبل الدببة هذا.. الدببة ليست القديس (مارتين) كما تعلم..

- سنجبرها على ذلك يا (نيب).. سنجبرها على ذلك..

أما عن القنص، فقد نصبوا عددا من الشراك التي تتكون من حبال تضيق حول فرائسها.. وقد اختاروا لها الأماكن التي تزدحم فيها أقدام الحيوانات لكنها لم تقتنص إلا ثعالب وهي غير صالحة لشيء على الإطلاق، إلا أن المهندس وجدها مناسبة كطعم لحيوانات أخرى..

وفي منتصف أغسطس تغطت الجزيرة كلها بطبقة من الجليد الأبيض، ولكم شعر هؤلاء القوم بالسعادة، لأنهم اتخذوا بيتهم في هذا الكهف الحصين الذي حفرته الطبيعة.. فما كان أي بيت يبنونه ليصمد أمام العواصف الثلجية التي تجتاح الجزيرة..

وعاد (بنكروفت) يوما إلى حصن الجرانيت حاملا معه حيوانا وطفليه الرضيعين.. وقال بحماسية: إن العشاء اليوم سيكون رائعا.. لم يبد الصحفي متحمسا لهذا النوع من العشاء، وقال: إنه لن يأكل الكثير منه.. هنا هتف (بنكروفت) الذي كان يكره أن يتهكم أحد على قنصه:

- هذا الحيوان سيكون شهيا طريا.. منذ أشهر كنت أنت ستطير فرحا لو وجدت قنصا كهذا..

قال الصحفي من دون حماسية:

- أنت تعرف أن الإنسان عسير الإرضاء ملول..

لكن البحار قام بشى الحيوانات الثلاثة وجلس يلتهم أصغرها بشهية عظيمة.. فجأة أصدر صرخة ألم وتحسس فمه وقال في حسرة:

- لقد كسرت سنا!

- كل هذا من حيوانك الطري هذا.. أتراك وجدت حصوة في لحمه؟

- ليست حصوة.. ولكن..

وأخرج الطعام من فمه ليتفحصه.. لم يكن ما كسر سنه حصوة، ولكن كان رصاصة بندقية

الجزء الثاني: منبوذون

الفصل الأول

سبعة أشهر مرت على هؤلاء منذ سقط بهم المنطاد في هذه الجزيرة، وطيلة هذه الفترة لم يروا أي دليل على وجود بشرى.. لا آثار نار ولا أدوات صنعها بشرى ولا دخان.. حتى افترضوا أن الجزيرة ليس عليها سواهم، والآن عليهم أن يهدموا كل هذه الافتراضات بمجرد طلقة معدنية في جسد حيوان مسالم!

كان المهندس أكثرهم منطقية فقد تأمل الطلقة، ثم سأل البحار:

- هل أنت متأكد من أن عمر هذا الحيوان لا يزيد على ثلاثة أشهر؟

- بالتأكيد.. لقد كان يرضع من أمه

- إذن هناك من أطلق الرصاص في جزيرة (لنكولن) خلال الأشهر الثلاثة الماضية.. شخص كان في الجزيرة لدى وصولنا أو وصل بعدنا.. وإن كنت أميل إلى أنه حديث الوصول وإلا لرأيناه أو رآنا من قبل لكن من هو؟ هل ألقى به الحطام هنا؟ هل هو أوروبى أم من قراصنة الملايو؟ هل هو صديق أم عدو

صاح (بنكروفت):

- مستحيل أن يكون هناك بشر غيرنا.. جزيرة صغيرة كهذه ونحن هنا منذ سبعة أشهر.. لا بد أننا وحيدون تماما..

- سيكون غريبا كذلك أن يكون هذا الحيوان قد ولد بطلقة رصاص في بطنه!

انتهى العشاء في جو أقل بهجة مما توقع البحار، وقرر الرجال أن يبدءوا في الغد بناء قارب صغير من نوع الكاتو.. كي يكون معهم في حالة اضطرارهم للدوران حول الجزيرة، أو الهرب في البحيرة

لسبب أو آخر.. كما نصحهم المهندس بعدم الابتعاد عن المأوى..
بعد يومين وقع حادث مريب آخر.. كان الصبى و(نيب) يمشيان عند الطرف الآخر من الجزيرة، حين رأيا سلحفاة عملاقة تزحف هناك.. وأدرك أنها فرصة لا تفوت خاصة بالنسبة لـ (بنكروفت) الشره الذي سيرحب حتما بهذا اللحم الوفير.. ولم يعرف الزنجي ما ينبغي عمله، لكن الصبي طلب منه أن يحذو حذوه، وتعاون الاثنان حتى قلبا السلحفاة على ظهرها.. وهالهما كم هي ثقيلة..
- لن تتمكن من الحراك إلى أن نعود بشيء ننقلها عليه..



لكن الصبي طلب منه أن يحذو حذوه ، وتعاون الاثنان حتى قلبا السلحفاة على ظهرها ..

وكانت السلحفاة قد توارت في درقتها، لكنها كانت عاجزة عن تصحيح وضعها، وبرغم هذا قام الزنجي بتدعيم جوانبها

بالحجارة كي لا تنقلب.. وهرع الاثنان إلى المأوى كى يجلبا عربة يحملان عليها الصيد الثمين
بعد ساعتين عادا إلى البقعة بالعربة، لكن السلحفاة لم تكن هناك! نظرا إلى الحجارة المتناثرة على الأرض في عدم فهم، وقال الزنجى:
- معنى هذا أن السلاحف تقلب نفسها..
- هذا ما يمكن استنتاجه..
وعاد الاثنان خائبي الأمل إلى المعسكر، وقد خطر للزنجي ألا يخبر أحدا بما حدث، لكن الصبى رأى أهمية إبلاغ (هاردنج).. واستمع (بنكروفت) المغتاظ إلى القصة، فلما انتهت صاح غاضبا:
- أحمقان! تركتما خمسين وجبة تفر منا!
قال (نيب):
- لم نقصد هذا، وقد دعمناها بالحجارة جيدا.
- ليس بما يكفي بالتأكيد!!
اهتم (هاردنج) بالأمر فسأل الصبى:
- هل كان المكان الذي تركتما السلحفاة فيه قريبا من حركة المد؟
- نعم يا سيدي..
- إذن كان المد هو ما غمر السلحفاة وجعل من السهل عليها أن تنقلب لوضعها الطبيعي، وسرعان ما فرت في البحر..
هتف الزنجى:
- رباه! لقد كنا غبيين بحق!
قال (بنكروفت):
- هذا هو ما تفضلت أنا بقوله منذ ثوان!

لقد قدم الكابتن هذا التفسير الذي يبدو مقنعا، والذي أراح الأخرين.. ولكن هل كان مقتنعا به هو نفسه؟ لا يمكننا أن نعرف على وجه اليقين

☆ ☆ ☆

في اليوم التالى لاحظ الكابتن أن هناك شيئا ما جوار الشاطئ، وقد هرع الرجال إلى هناك ليروا.. كان هناك برميلان، وقد أغرى هذا (بنكروفت) بالاعتقاد بأنهما مليئان بشىء ما.. شيء مفيد غالبا.. لكنهم حين اقتربوا من البرميلين اللذين ألقي بهما الموج، أدركو أنهما فارغان ومغلقان بعناية ليكونا أداة طفو.. بينما هما يتمسكان بطوف صغير وقد ربطت إليه حقيبة.. تعاونوا على حمل الحقيبة إلى مأواهم وهناك هشموا القفل

كانت الحقيبة تحوي كل ما يمكن أن يحلموا به كانت هناك معدات من كل الأنواع.. كماشات مسامير.. مناشير.. مطارق.. بندقيتان من نوع (القرابينة).. حتى الكتب كانت موجودة ومنها الإنجيل وبعض الموسوعات الجغرافية، وموسوعات عن الحيوانات في جزر المحيط الهادى

كانت المفاجأت سارة لكنها بلا تفسير واضح، وقد رأى الكابتن أن هذه الأشياء في الغالب حملها رجل غرقت سفينته قرب الساحل، وتزود بكل ما يمكن أن يحتاج إليه المرء في جزيرة كهذه لكن أين ذهب هذا الرجل الآن؟ ترى هل مات؟

على كل حال تغيرت حياتهم جذريا بعد هذا الاكتشاف، وكانوا من قبل يعتمدون على أنفسهم لصناعة كل ما يريدون من معدات، أما الآن فقد غدت الحياة أسهل بالتأكيد.. وتمني (بنكروفت) لو كان في الحقيبة بعض الطباق فقد كان في أمس حاجة إلى التدخين

قال لهم الكابتن بطريقته المنطقية:

- يمكننا الآن التأكد من الحقيقة الوحيدة المؤكدة.. هناك سفينة بلغت جزيرة (لنكولن) في الأشهر الثلاثة السابقة.. كما يمكننا التأكد من أنها رحلت كذلك، ما دمنا لم نر بشريا على الجزيرة..

هتف (بنكروفت):

- تعني يا كابتن أنها رحلت وأن فرصتنا في العودة للمدنية رحلت معها؟

- أخشى ذلك للأسف..

قال البحار في ضيق:

- ليكن.. سنظل هنا إلى الأبد...

وقرر الرجال أن يواصلوا استكشاف الساحل الغربي للجزيرة الواسعة، وقد قرروا أن يدوروا حولها باستعمال القارب الجديد الذي فرغ (بنكروفت) من صنعه، وقد استخدم فيه الحبال والخشب، ليصنع قاربا صغيرا ضيقا به مقعدان في المنتصف.. وهو يصلح بالطبع للملاحة في بحيرات وأنهار الجزيرة لكنه لا يصلح للبحر.. وفي البداية لاحظوا أن الماء يتسرب إلى داخله من بين فجوات الخشب، لكن البحار أكد لهم أن الخشب ينتفخ مع الوقت، ولن يكون هناك ماء في القارب بعد قليل

كانت رحلة طويلة استغرقت ساعات، ولم يروا فيها جديدا سوى أن الجهة الغربية عامرة بالقردة وأن هناك الكثير من النباتات التي يستخدمها البدائيون في علاج الملاريا

في النهاية أعلن الكابتن أن الوقت حان للعودة إلى ملجئهم.. وبالفعل وصلوا إليه عند العصر، وتأهب الزنجي والصبي لتسلق سلم الحبال أدركوا شيئا غريبا

السلم لم يعد هناك!

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

لم يكن من الممكن الظن أن الريح أطارت السلم وقد راح (بنكروفت) ينظر إلى المشهد وهتف:

- يا لها من دعابة سخيفة! حرمان الرجال المرهقين من المأوى! لقد بدأت أعتقد أن هناك شيئا غريبا يحدث في جزيرة (لنكولن)..

قال (سبيلت) الصحفي:

- بالعكس يا (بنكروفت).. ما من شيء أكثر طبيعية من هذا.. أحدهم استغل غيابنا واستولى على مسكننا ورفع السلم!

رفع البحار عقيرته وصاح بأعلى صوت تردد صداه في الجزيرة كلها:

- هالووووووو!

لكن أحدا لم يرد، وخيل للأصدقاء للحظة أنهم سمعوا ضحكة مكتومة من مكان ما.. وهكذا ظلوا واقفين لا يعرفون ما يفعلون ولا كيف يفكرون وفي النهاية قال (هاردنج):

- أرى أن ما بوسعنا اليوم هو شيء واحد نعود إلى مأوانا القديم.. على الأقل يمكننا هناك أن ننام قليلا، وفي الصباح نرى ما يجب عمله..

وقضى أصدقاؤنا ليلة سيئة يحاولون فيها الظفر ببعض النوم دون جدوى.. الحقيقة أن منزل الجرانيت الذي طردوا منه لم يكن بيتهم فحسب، بل كان مخزنهم وورشتهم، وكان فيه كل ما يحتاجون إليه من مؤن وأدوات.. ومن دونه سيكون عليهم البدء من الصفر

ومع أول ضوء من الفجر عاد الأصدقاء إلى بيت الجرانيت.. وإذ نظروا إليه أدركوا أن الباب مفتوح تندت عنهم صرخة دهشة؛

لأنهم كانوا قد أوصدوه بعناية قبل رحيلهم أمس، فلم يعد من شك الآن في وجود معتدين.. لقد تلاشت فكرة الريح تماما.. كما كان سلم الحبال مطويا إلى أعلى أن من استولى على المنزل كان يحاول توقى المفاجآت.. وصاح (بنكروفت) في غيظ:
- الشحاذون ينامون منعمين كأنهم في دارهم! هلموا ردوا على أيها المتسولون يا قطاع الطرق أيها اللصوص يا أولاد (جون بول)!!
وكانت سبة (ابن جون بول) هي قمة السباب عند الرجل؛ لأنه كان يكره الإنجليز بشدة
خطرت للصبى (هربرت) فكرة لا بأس بها، هى أن يربطوا حبلا إلى سهم يطلقونه إلى السلم، ومن ثم يمكنهم أن يجذبوه إليهم ويتسلقوا عليه.. وبالفعل انتقى (بنكروفت) سهما لا بأس به، وأطلقه.. وانعقد حبلهم بحبال السلم، لكن ما إن تأهب الصبي لجذب السلم، حتى برزت ذراع من الفتحة العليا وجذبت السلم إلى الداخل بعد ما حررته من الحبل، وصاح (بنكروفت) في غيظ:
- أيها الأوغاد!
سأله (نيب):
-عمن تتكلم؟ هل رأيت أحدا؟
- ألم تره؟ إنه قرد! بابون.. أورانج أوتان... غوريلا.. لقد وجدت القرود مأوانا واستطاعت أن تحتله وتشد السلم!
وكأنما يبرهنون على كلامه، برزت رءوس ثلاثة قردة من أعلى ترمقهم في نظرات منذرة..
- خذ هذه أيها الوغد!
وصوب البندقية وأطلق.. على الفور توارى رأسان على حين هوى الثالث ميتا من أعلى.. وحين رأوه على الأرض أدركوا أنه من

فصيلة القردة العليا شبيهة الإنسان.. ربما هو غوريلا أو شمبانزي أو أوتان..
إن في الموقف شيئا مضحكا، لكن (بنكروفت) لم يكن على استعداد للضحك.. من المؤكد أن الموقف سينتهي وسيمكنهم طرد القردة واسترداد دارهم، ولكن كيف؟
مضى عليهم وقت طويل بالانتظار.. وفي النهاية بدا أن الوضع لن يتغير لأن القردة توارت خائفة داخل المسكن، وخطر للمنهدس أن الطريقة الوحيدة للدخول للمسكن هو عن طريق فتحة عند البحيرة كان قد سدها ببعض الحجارة حين اتخذوه سكنا للمرة الأولى.. ستكون مواجهة دامية وجها لوجه لكن لا بد منها كادوا ينطلقون حين سمعوا صرخات القردة..
نظروا لأعلى ليجدوا القردة تفر من المسكن مذعورة دون سبب مفهوم.. يبدو أنها في ذعرها نسيت وجود السلم، ووثب بعضها من أعلى ليتهشم على الحجارة، وأطلق أصدقاؤنا رصاصهم فجندلوا عددا لا بأس به منها.. وإن كانت إلا لحظات وإذا بالبيت خال تماما من الغزاة..
هنا - وبشكل غريب غير مفهوم - انزلق سلم الحبال من أعلى ليصل إلى الأصدقاء لما صعدوا أخيرا - والأسلحة في أيديهم – إلى المسكن، لم يجدوا شيئا غريبا إلا قردا أخيرا خائفا من نوع (أورانج أوتان)، حاول الفرار منهم، إلا أنهم تكاثروا عليه حتى قيدوه.. وكاد البحار يفتك به، لكن الصبى (هربرت) أهاب به ألا يفعل:
- سنتخذه خادما..
ولم يكن يمزح، وبدا أن الفكرة راقت للكابتن (هاردنج) بدوره.. خاصة والقرد صغير السن قابل التدريب وهكذا ازداد عدد سكان المستعمرة واحدا، وتذكر (بنكروفت) قردا عرفه من قبل اسمه

(جوبيتر)، لذا قرر أن يطلق الاسم ذاته على المستجد.. وإن اختصره إلى (جوب).

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

في الأيام التالية برهن (جوب) على أنه خادم مخلص.. يجيد أعمال النظافة ويخدمهم في أثناء الطعام، وينقل لهم ما يريدون، بالإضافة إلى أنه نظف المسكن تماما من الحشرات الحقيقة أن حياتهم على الجزيرة صارت تفي بكل احتياجاتهم، إن لم تكن مترفة إلى حد ما.. وكانوا يعيشون في الهواء الطلق ويمارسون العمل اليدوي، حتى إنهم استبعدوا أن يمرض أحدهم يوما

ونما جسد الصبي حتى إن طوله زاد بوصتين بينما نما عقله بسرعة أكبر لأنه كان يقضي وقته في الاطلاع.. كما أنه كان يملك كنزا علميا هو المهندس (هاردنج)، ومن الصحفي تعلم الكثير عن اللغات وذات يوم كان يرمق البحر حين رأوا حيوانا عملاقا يسبح في البحر بعيدا، فقال البحار:

- هذا حوت.. أية وجبة رائعة كنا لنظفر بها لو كان عندي القارب والحربون!

وككل بحار كان يحمل بين جانبيه صياد أسماك يعشق عمله.. ولكن الأمر كان عسيرا.. وقال المحرر الصحفي في دهشة:

- ما كنت لأحسب الحيتان توجد في هذا الارتفاع..

قال الصبي:

- ليس هذا غريبا يا سيدي.. إن الصيادين الإنجليز يطلقون على هذه المياه ما بين (نيوزيلندا) وأمريكا الجنوبية اسم (مياه الحيتان)، وهي المركز الرئيسي لتجمع حيتان المحيط الهادي..

كان مخلوقا رائع الجمال، وبدا أنه غير راغب في مغادرة الجزيرة.. وقد راح يدور حولها وهو يطلق سحابة الزفير من فوق رأسه، تلك السحابة التي لا يعرف الناس إن كانت بخار ماء أم ماء؟

مرت أيام عليه في هذا الوضع حتى إنه أرق نوم (بنكروفت).. لكن الأقدار شاءت أن تحقق للرجل ما عجز هو عن تحقيقه
ذات صباح وجدوا الحوت على الشاطئ بعيدا عن الماء، وقد تكاثرت فوقه الطيور الجارحة دنوا منه متهيبين، وكان بحق ضخما إلى حد رهيب.. لكنه كان ميتا.. وفي جنبه رأوا حربونا مغروسا.. مد الصياد يده وانتزعه، على حين هتف الصحفي:
- إذن هناك سفينة صيد حيتان في الجوار!
- كلام فارغ! أنت لا تعرف المدى الذي تسبحه الحيتان الجريحة.. ربما تلقي هذا الحوت الحربون في شمال الأطلنطي وسبح حتى جنوب الهادي..
وقرأ العلامة المحفورة على الحربون: ماريا ستيللا - فينيارد.. أصابه التأثر عند قراءة هذا الاسم العزيز فهذا هو مسقط رأسه.. وطنه الأم.. و(ماريا ستيللا) سفينة صيد حيتان عظيمة يعرفها جيدا
ولما كان قد جرب صيد الحيتان من قبل، فإنه لم يجد صعوبة في أن يبدأ تقطيع الحوت - بعد طرد الطيور طبعا - وهي عملية شاقة تستغرق ثلاثة أيام.. وكان الناتج قدرا هائلا من اللحم والدهن والزيوت واللبن الذي يشبه مذاقه اللبن البقري[4]..
لما فرغوا من عملية النقل قرر المهندس أن يبهر أصدقاءه بحيلة جديدة، فأخرج لهم واحدة من عظام الحوت العريضة المفلطحة وقال:
- سأعلمكم طريقة صيد جديدة ليست من اختراعى، لكنها من اختراع الصيادين في أمريكا الروسية (ألاسكا).. هذه العظام ستتجمد، من ثم أثنيها وأغمرها بالماء، حتى يغطيها الجليد بالكامل.. ثم أغلفها بالدهن.. ماذا تظنون يحدث حين يلتهم

حيوان جائع هذه العظام؟ سيذوب الثلج طبعا وتتحرر العظام المثنية فتفرد نفسها وتثقب أحشاءه!
- هذه عبقرية!
ومن جديد عادت الحياة لمجراها، فيما عدا أن البحار كان الآن عاكفا على صنع قارب.. قارب حقيقي يمكنه السفر في المحيط، والسبب هو أن المهندس (هاردنج) بعد ما أعاد حساب إحداثيات الجزيرة، وجد أن هناك بقربهم جزيرة معروفة مرسومة على الأطلس اسمها (تيبور).. وقد راق له هذا كثيرا، وخطر لهم أن يجربوا زيارتها لعلهم يجدون الحل فيها.
استمر العمل كثيرا جدا في القارب، حتى إن الشتاء جاء عليهم من جديد وهم مستمرون في العمل ولكن معنويات البحار كانت في السماء؛ لأنه استطاع الحصول على بعض الطباق أخيرا.. لقد وجد الصبى بعض الشجيرات واقتطف منها مخزونا لا بأس به، ثم راح مع الكابتن ورفاقه يجففونه سرا ثلاثة أشهر كاملة، وفي النهاية قدموا غليونا محشوا للبحار، فلم يصدق عينيه.. لقد صارت الجزيرة تضم كل ما اشتهته نفسه، وقال لهم وهو ينفث الدخان بكثافة:
- من هذه اللحظة أنتم أصدقائي إلى الأبد!
وفي هذا الوقت كانت طريقة الصيد التي ابتكرها القبطان تؤتي ثمارها.. وماتت ثعالب كثيرة وخنزير بري وجاجوار.. وكانت معدة كل حيوان مثقوبة بالعظام إياها.. وكانت أسعد لحظات هؤلاء القوم هي في المساء بعد وجبة عشاء شهية، حين يجلسون جوار النار يدخنون ويصغون إلى العاصفة تهدر في البحر من بعيد
وجاء اليوم الذي أعلن فيه (بنكروفت) أن المركب صار جاهزا لم يكن القبطان متحمسا لمغادرة الجزيرة مثلما كان البحار..

فجزيرة (تيبور) في الغالب لن تحوي إلا الصخور والرمال.. لكن لنفرض أنهم في قاربهم الصغير ضلوا الطريق إلى (تيبور) ولم يستطيعوا العودة إلى (لنكولن)، فماذا يكون مصيرهم في وسط المحيط الهادي بهذا القارب الهش؟
قال (بنكروفت) في إصرار:
- لا تقلق يا كابتن.. لكن علينا أن نفحص كل الاحتمالات.. ولو كنت قلقا سأذهب أنا والصبى (هربرت) وحدنا..
- ولو حدث لك شيء أنت وهذا الصبي الذي جعلته العناية الإلهية ابنا لنا جميعا.. أتحسبنا لن نموت من تأنيب الضمير؟
- لن يحدث شيء يا كابتن.. لا تقلق..
وكان على الرجال أن يجربوا.. هكذا حملوا المركب الشراعية الصغيرة التي صنعها (بنكروفت) إلى الماء، وألقوا بها فيه.. وسرعان ما طفت واتخذوا مكانهم فيها، وبدأت الرحلة البطيئة حول الجزيرة..
بدا أن كل شيء على ما يرام، وما كان (بنكروفت) من النوع المتواضع، بل راح يطرى نفسه بصوت عال، وقد كان على حق.. إلا أن الكابتن ظل مترددا بصدد تجربة الرحيل إلى جزيرة (تيبور)..
فجأة صاح (بنكروفت):
- هل ترون هذا الذي تحت المركب؟ هذه زجاجة!
ومد يده بحذر فالتقطها من بين الأمواج، وانتزع السدادة، وتناول منه (هاردنج) الرسالة المطوية التي كانت بداخلها
كانت الكلمات تقول بالإنجليزية: النجدة.. أنا شريد على جزيرة (تيبور).. ثم ذكر الإحداثيات
نظر (بنكروفت) إليه في انتصار وقال:
- الآن يا كابتن.. أما زلت مترددا؟ لابد أن نذهب إلى (تيبور)

- بالتأكيد.. سنفعلها غدا.. لكن ألا تجدها صدفة غريبة أن نمر فوق الزجاجة في هذا الوقت بالذات؟
- هذا من حسن حظ من رمى الزجاجة.. لو لم أنته من صنع المركب اليوم، لتهشمت الزجاجة على صخور الجزيرة..
تأمل الكابتن الرسالة باهتمام، وقال:
- يمكن أن نستنتج أن كاتب الرسالة يفهم في الملاحة ما دام كتب إحداثيات الجزيرة، كما أنه إنجليزي أو أمريكى.. والورقة لا تبدو عتيقة إلى هذا الحد.. ربما كان هو صاحب الصندوق الذي صار بحوزتنا..
الآن صارت أمامهم مهمة مقدسة.. فكاتب الرسالة مثلهم شريد، ولربما لم يظفر بما ظفروا به من حظ حسن.. الآن صار عليهم أن ينقذوه.. وقد سرهم أنهم صاروا قادرين على إسداء العون للآخرين
وهكذا عادوا إلى مأواهم عازمين على بدء العمل صباح الغد.. لو استمرت الريح بالمعدل الحالي فلن يستغرق الأمر إلا ثمانية وأربعين ساعة للوصول إلى (تيبور).. وهناك يوم في الجزيرة ويومان للعودة.. وقرروا أن يركب البحر (بنكروفت)، والصبى و (سبيلت) الذي لم ينس عمله كمراسل صحفي، بينما يبقى الكابتن و (نيب)، والقرد والكلب في المسكن.. وهكذا - في الخامسة صباحا – افترق الأصدقاء للمرة الأولى منذ خمسة عشر شهرا
كان البحر هادئا والرحلة موفقة، وقد تناوب الأصدقاء على مراقبة القارب بينما ينام الاثنان الآخران.. وبالفعل في فجر اليوم الثالث استطاعوا أن يروا الأرض.. وانتابهم قلق داخلى.. ترى هل مازال الشريد هناك؟ ترى هل سيقبل أن يستبدل بسجنه سجنا

آخر؟ هل ينسجم معهم هم الذين لم يحدث بينهم أي خلاف طيلة هذه الفترة؟
نزلوا إلى الجزيرة ومن اللحظة الأولى أدركوا أنها صغيرة جدا، وما كانت لتناسبهم على الإطلاق.. كانت هناك كلاب بحر تهرب إلى الماء الآن، وقال الصحفي:
- لابد أنها تعرف الإنسان.. لو لم تكن تعرفه لما فرت منا..
وواصل الرجال تفقد الجزيرة.. لم يكن هناك إنسان ولا أثر له.. من الواضح أن الجزيرة خالية أو أن هناك من غادرها.. لكن النباتات كانت لا تنتمى لهذا المكان.. وكذلك كانت هناك طيور غريبة.. من الواضح أن بيئة الجزيرة قد عبثت بها يد بشرية قديما أو حديثا.. معنى هذا أن إنسانا كان يعيش هنا يوما ما ومات أو غادر هذا المكان
قال (بنكروفت) وقد بدت عليه خيبة الأمل:
- سنواصل بحثنا غدا.. أما الليلة فأرى أن نبيت هنا..
كانت هذه أحكم الأفكار الممكنة.. وكادوا يعودون إلى الشاطئ لكن الصبي صاح:
- كوخ!
نظر الجميع إلى حيث أشار.. كانت هناك بالفعل بقعة بين الأشجار الكثيفة واضح أنها كوخ خشبي قديم.. هرع الثلاثة إلى هناك ووارب (بنكروفت) الباب في حذر لكن الكوخ كان خاليا
☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

تفقد الرجال الكوخ.. أشعل (بنكروفت) عود ثقاب - وكان (هاردنج) قد صنع بعضه – واتجه إلى ركن المكان حيث كانت مدفأة قديمة، فأوقد النار فيها.. ثم راح الرجال يتأملون المكان.. كان هناك فراش واضح أنه لم يمس منذ زمن.. وكانت هناك خزانة بها ثياب بحارة، وأوعية طهي وبرميل ملىء بالبارود وطلقات

قال (سبيلت) وهو ينظر حوله:

- لا أحد.. لقد ترك صاحب الكوخ الجزيرة..

بثقة قال (بنكروفت):

- لا.. أنا أفهم البحارة، وأعرف أن من ألقت به الأقدار هنا لن يرحل تاركًا هذه الأشياء الثمينة التي لا غنى عنها.. إن صاحب هذه الأشياء موجود على الجزيرة الآن!

- وحي؟

- حي أو ميت.. لكن لو كان ميتا فهو لم يدفن نفسه.. سنجد جثته..

واتفق الرجال على تمضية الليلة في هذا المسكن المهجور.. أغلقوا الباب على أنفسهم وجلسوا وكانوا متوترين يتوقعون أن ينفتح الباب في أية لحظة ويظهر هذا الرجل

وفي الصباح أدركوا أن الكوخ مصنوع من ألواح خشب السفن.. لا بد أنه حطام ألقى به الموج على الشاطئ، واستغله ساكن الكوخ في بنائه.. هنا فكر (بنكروفت) في مركبهم.. ترى هل مسه أحد بعدما فارقوه طيلة الليل؟

ولحسن الحظ وجدوا المركب حيث هو مربوطا بحبل إلى مرساته المغروسة في الرمال بعناية.. أطلق (بنكروفت) تنهيدة

ارتياح ومن جديد واصلوا البحث عن الجثة دون جدوى..
لو كان ساكن الكوخ قد مات فإن الحيوانات المفترسة قد ظفرت بجثته حتما.. وقرر (بنكروفت) أن الحل الوحيد الصائب الآن هو العودة إلى جزيرة (لنكولن) بالمعدات التي وجدوها في الكوخ.
قال الصبى (هربرت):
- وكذلك بعض بذور النباتات.. وبهذا تصير لدينا نباتات العالم القديم والجديد معا..
وانطلق الصبى ليقوم بهذه المهمة، بينما راح الرجلان يصطادان بعض الحيوانات.. فجأة سمعا صراخ الصبي فركضا إلى مصدر الصراخ..
كان راقدا على ظهره يقاوم وحشا يجثم فوق صدره ويحاول خنقه.. وقد تصرف الرجلان بسرعة مذهلة، وبرغم قوة هذا الوحش الشبيه بالقرد فقد ألقياه على الأرض عاجزا عن الحركة، وصاح (بنكروفت):
- هل آذاك هذا القرد؟



كان راقداً على ظهره يقاوم وحشاً يجثم فوق صدره ويحاول خنقه

هتف الصبي:

- لكنه ليس قردا.. انظر إليه جيدا!

وبالفعل لم يكن قردا.. كان إنسانا لكنه في أسوأ حالات البدائية والتوحش.. شعره طويل ثائر وأظفاره سوداء متقصفة، وجلد ساقيه جاف كأنه قرن الجاموس.. وهتف (سبيلت) وهو ينظر إليه مدهوشا:
- أتراه هو الشريد الذي جئنا من أجله؟
- نعم هو.. لكن أخشى أنه فقد كل أثر للإنسانية بعد كل هذه الأعوام.. بل أشك أنه كان إنسانا يوما ما
وهنا قال الصحفي وهو يحكم رباط الأسير:
- من واجبنا برغم كل شيء أن نأخذه معنا إلى جزيرة (لنكولن). إن الروح لا تموت، ولربما كان بوسعنا إنقاذ هذا التعس من حياة التوحش التي يعيشها..
وافقه الصبي بقوة، واقتادوه إلى الكوخ حيث قدموا له بعض اللحم المطبوخ فلم يحفل به.. قدموا له بطة اصطادها (هربرت) فافترسها في ثوان وهو يزوم كالوحوش.. كان من المستحيل أن تتبين عمره بسبب اللحية التي تغطي أكثر وجهه، لكنهم قدروا أنه في الخمسين تقريبا
وفي الصباح ركب الرجال مركبهم مع أسيرهم واتجهوا إلى جزيرة (لنكولن) لكن الريح لم تكن مواتية.. وبعد إبحار ست وثلاثين ساعة لم يروا ما يدل على اقترابهم من الأرض بدأ (بنكروفت) بتوتر، وقد شعر بأنهم ضلوا طريقهم وسط المحيط.. إلا أنه في مساء اليوم التالي رأى ضوءا.. كان يتجه إلى الشمال فأدار الدفة باتجاه الضوء.. بالتأكيد كان هذا هو الضوء الذي أبقاه (هاردنج) للرجال طيلة الليل.. وهكذا أنقذ حياتهم
كانت مفاجأة بالنسبة للكابتن أن يرى هذا المتوحش.. لكنه لم يجادل لحظة في أهمية أنهم جلبوه معهم، فما كان أحد ليحب أن يتركوه وحيدا في جزيرته تلك، وقد قدر أن الرجل هو كاتب

الرسالة وقد جن من فترة قصيرة، لأن الرسالة مكتوبة من وقت قصير، وبالتأكيد كان وحده على جزيرته؛ لأنه لو كان هناك اثنان لتحدثت الرسالة عن ذلك

وفي الأيام التالية بدا أن المتوحش يعود ببطء إلى حياة المدنية، وصار طعامه أقل دموية، كما أن نظرة بشرية ما بدأت تظهر في عينيه لقد كان هادئا صموتا، لكن حزنا لا شك فيه كان يتبدى في عينيه.. وهذه النظرة كانت هي الدليل الوحيد على أنه آدمى.. ويوم قرروا أن يجربوا تركه حرا يجول جوار النهر بدت في عينيه تلك النظرة، ثم سالت دمعتان على خديه هنا قال الصحفي:

- إذن أنت بشرى بالتأكيد.. ما دمت قادرا على البكاء!!

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

في الأيام التالية بدا أن الغريب ميال لتبادل بعض الكلمات المقتضبة، لكنه كان منعزلا يحب أن يقف وحده عند الشاطئ، أو يعمل في أي شيء يكلفونه إياه، وقد احترم الأصدقاء صمته لكنهم ظلوا يتساءلون عن اللحظة التي سيتكلم فيها.. كان في سلوكه نوع واضح من الشعور بالذنب وكان يتكلم في أثناء نومه كثيرا ذات مرة سأل الصبى:

- هل أنتم إنجليز؟
- نحن أمريكيون
- أنا أفضل هذا..
- وأنت؟
- أنا إنجليزي.. أي عام هذا؟
- 1866.. أكتوبر
- اثنا عشر عاما!!

وعاد إلى الصمت والاكتئاب.. وعندما نقل الصبى هذه المحادثة إلى الكابتن (هاردنج)، قال في تفكير عميق:

- ثمة أشياء كثيرة تجعلني أرجح أن هذا الرجل لم يأت من سفينة غارقة.. بل هو على الأرجح مجرم تخلص منه الإنجليز على سبيل النفي.. وهذا كذلك يجلعني أعتقد أن أحدا لن يعود للبحث عنه إن اثنتي عشر عاما لفترة طويلة..

قال الصحفي:

- لو كان الأمر كذلك، فماذا عن الرسالة في الزجاجة؟ لقد اتفقنا على أنها حديثة الكتابة، والورقة لا تبدو عليها علامات الرطوبة.. لو كان كتب الرسالة من اثني عشر عاما لتهشمت الزجاجة على الصخور، أو لبدت علامات القدم على الرسالة.. بالإضافة إلى

دقته في تحديد إحداثيات جزيرته، مما يدل على أن لهذا الرجل خبرة بعالم الملاحة..
- الحق أن هذا الرجل يدارى سرا لا سبيل لنا إلى معرفته، إلا لو قرر هو أن يتكلم.. دعونا لا نضايقه، وليتكلم حين يريد هو..
هنا دخل الرجل عليهم، ونظر لهم نظرة غريبة خاوية وقال:
- ماذا تعرفون عني؟ ماذا تعرفون عما اقترفت حتى آتي هنا؟ بأي حق انتزعتموني من جزيرتي؟ لا تحسبوا أن هناك رباطا من أي نوع بيننا.. هل أنا حر؟
قال الكابتن في حيرة:
- نعم.. أنت حر طبعا
- إذن هو الوداع..
وغادر المكان، فكاد الصحفي يلحق به، لكن الكابتن رفع يده يهدئ من روعه وقال:
- دعه.. لن يذهب إلى أي مكان، ولسوف يعود لنا.. إن هي إلا صحوة أخيرة لطباعة المتوحشة التي تهاب الأسر، ولسوف يعود إلى تعقله ويحكى لنا كل شيء.. وهكذا نسوا كل شيء عن الغريب، وعادوا يمارسون حياتهم، بينما اختار هو الحياة جوار البحيرة..
في أحد أيام ديسمبر دوي صراخ الصبى (هربرت)، فهرع الرجال الذين سمعوه إلى مكانه.. رأوه يقف وظهره إلى شجرة، بينما أسد أمريكي (جاجوار) يتهدده عن قرب.. لم يكونوا مسلحين ولم يدروا ماذا يفعلون، لكن الغريب وثب على الأسد، وسكين في يده، ودون أن يخاف مخالبه التي تمزق لحمه أمسك برأسه، وأولج السكين في حنجرته.
سقط الأسد ميتا، فهرع (هاردنج) إلى الغريب وقال له:

- أنت جريح.. لا.. لا تذهب.. أنت أنقذت فتانا ونحن مدينون لك للأبد
قال الرجل وهو يتراجع للوراء كي لا يمسه أحد:
- أنا أطلب فقط معروفا واحدا.. ثمة حظيرة للحيوانات قمتم ببنائها هنا.. أريد أن يسمح لى بالمبيت فيها..
فكر المهندس في الأمر، ثم قرر أن يبنوا له كوخا خشبيا قرب البحيرة.. وبالفعل تم بناء الكوخ.. لكن الغريب لم يشارك فيه.. وفي اليوم الذي تقرر فيه أن يبدأ إقامته هناك جاءهم في مأواهم وقال لهم:
- أظن أن على الآن أن أحكي لكم قصتي..
قال المراسل الصحفي:
- من حقك يا صديقي أن تظل صامتا
- ومن واجبي أن أتكلم..
وساد الصمت على حين راح الرجل يحكي قصته التي طال الشوق لسماعها:
- في العشرين من ديسمبر عام 1854 كان هناك قارب بخارى يخص لورد (جلينارفان) النبيل السكوتلندى، راسيا في أستراليا.. وعلى ظهره كان اللورد وزوجته، وكان معه شاب وفتاة هما ابنا القبطان (جرانت) الذي اختفت سفينته (بريتانيا) منذ عام.. أما عن سبب المجيء فرسالة في زجاجة وجدها أحدهم تقول إن الكابتن (جرانت) حى مع رجلين من طاقمه على جزيرة قرب (نيوزيلندا).. وحددت الرسالة خط الطول لكنها لم تحدد خط العرض..
وفي أثناء الرحلة قابلوا رجلا يدعى (ايرتون) قال: إنه متأكد من أن القبطان (جرانت) موجود على أحد شواطئ أستراليا.. لأنه كان معي على السفينة لحظة غرقها.. وقد أخذه اللورد (جلينارفان)

معهم.. طبعا لا داعي لأن أقول إن هذا الـ (آيرتون) كان خائنا.. لقد قاد ثورة على القبطان (جرانت)، فتخلص منه هذا الأخير بتركه على شاطئ أستراليا، وما كان يعرف شيئا عن غرق السفينة (بريتانيا).. كل ما أراده هو أن يستولي على سفينة اللورد كي يستغلها في القرصنة
وبالعناية الإلهية تم إحباط الخطة، وقبض على (آيرتون) الذي توعده اللورد بتسليمه إلى السلطات البريطانية.. لكن الرجل انتزع منه وعدا بأن يخبره بمصير القبطان (جرانت) إذا وعد بإنزاله على أول جزيرة.. وكان أن أعطاه الوعد.. لكن اتضح أنه لا يعرف شيئا، لكن اللورد اضطر إلى تنفيذ ما وعد به، وأنزله على جزيرة (تيبور).. ولم ينس أن يقول له: لربما أنت لا تستحق أن يذكرك الرجال لكنهم سيفعلون.. سأذكر دائما أنك هنا ولن أنسى ما حييت
وهكذا رحل القارب ووجد (أيرتون) نفسه وحيدا على هذه الجزيرة.. لكنه لم يحتج إلى الذخيرة ولا المأوى؛ لأن الكابتن منحه هذا قبل أن يرحل. وعاش الرجل مثقلا بالآثام على ظهر الجزيرة.. يكلم نفسه.. يصلى داعيا السماء أن تغفر له..
ومضى عام بعد عام.. وتدريجيا تحول الرجل إلى متوحش.. كالذي ترونه أمامكم الآن لا حاجة بي إذن يا سادة إلى أن أقول إن هذا الرجل (آيرتون) هو أنا
صمت الرجال وقد هزتهم القصة كثيرا، ثم نهض (هاردنج) فمد يده إلى الرجل وقال:
- إن خطاياك كثيرة، لكني أحسبك كفرت عنها بكل هذه المعاناة وكل هذا الألم.. إنني أمد لك يدي فهل تقبلها؟ وهل تقبل أن تكون منا؟

صافحه الرجل بيد مترددة، ثم أعلن أنه راغب في أن يختلي بنفسه بعض الوقت.. هنا سأله الصحفي:

- فهمنا أنك لم تكن راغبا في رؤية البشر. لماذا ألقيت إذن بتلك الرسالة في الماء؟

نظر له (ايرتون) في عدم فهم وقال:

- أنا لم ألق أية رسالة في الماء..

ولما انصرف تبادلوا نظرات الدهشة.. لقد كان صادقا.. بالتأكيد كان صادقا، ولكن من الذي ألقي بالرسالة إذن؟ ثمة احتمال واحد هو أن الرجل جن ونسي كل شيء عن الأمر

قال الصحفي للكابتن وقد تذكر رحلة البحث عن جزيرة (تيبور):

- حسنا فعلت يا كابتن يومها.. لو لم تنر لنا تلك النار لضللنا طريقنا في البحر إلى الأبد..

نظر له (هاردنج) في دهشة وقال:

- أية نار؟

- النار التي أنرتها على هذه الجزيرة لتعيدنا إليها بعد ما ضل (بنكروفت) دربه في العاصفة..

قال (هاردنج) في صلابة:

- لو كنت متأكدا من حقيقة واحدة في هذا العالم، فهي أنني لم أشعل أية نار في تلك الليلة!

☆ ☆ ☆

جمع (هاردنج) رفاقه في المأوى الجرانيتي لأمر مهم، فلما اجتمعوا قال لهم:

- ثمة أشياء خارقة للطبيعة تحدث على هذه الجزيرة.. دعنا لا نقول إن الجزيرة خارقة للطبيعة لكنها على الأقل غامضة جدا.. أنتم تذكرون كيف سقطت أنا في الماء، وبعد هذا وجدتموني على بعد ربع ميل داخل كهف لم أمش له.. هل تساءلتم عن

السبب الذي جعل الكلب يقذف خارج الماء بعد صراعه مع كلب البحر؟ هل رأيتم كيف أننا وجدنا رصاصة في جسد الحيوان الذي كان (بنكروفت) يأكله؟ وهل لاحظتم كيف طفت الزجاجة بالذات لحظة كنا في القارب الصغير؟ ما الذي أثار فزع القردة التي احتلت دارنا؟ وكيف قذف السلم من أعلى لنا؟ من كتب الرسالة التي يؤكد (آيرتون) أنه لم يكتبها؟

كانوا يصغون إليه، وللمرة الأولى تحتشد هذه الحقائق معا راسمة الدهشة على وجوههم.

واصل الكابتن الكلام:

- والنار التي رأيتموها في أثناء عودتكم من جزيرة (تيبور)..

- تلك النار التي بدت كنجم في السماء..

- هل أنتم واثقون من أنها لم تكن نجما؟

- حتما.. السماء كانت مكتظة بالغيوم الكثيفة وكان من المستحيل رؤية أي نجم..

- حسن.. لم نشعل نارا لا أنا ولا (نيب).. بل إننا لم نغادر مأوانا ليلتها..

لم يجد أحدهم ما يقال وساد الصمت أدرك الجميع أن هناك أسرارا ما زالت في أعماق هذه الجزيرة، وتوجسوا خيفة من الغد ولكن ذروة الموقف وقعت بعد أيام حين بدا للمحرر الصحفي أن هناك ظلا ما يتحرك في وسط البحيرة.. هنا هرع (هاردنج) يبحث عن التلسكوب الذي كانوا قد وجدوه في الصندوق نظر للأفق هنيهة ثم صاح:

- لا شك في هذا.. هناك سفينة تدنو من جزيرة (لنكولن)!!

☆☆☆

الجزء الثالث: سر الجزيرة

الفصل الأول

عامان ونصف مرا على هؤلاء القوم وهم على جزيرتهم منذ سقط بهم المنطاد، والآن للمرة الأولى يرون سفينة.. لكن هل ترسو قرب الساحل أم تواصل رحلتها؟ سرعان ما يعرفون هذا للأسف ما كان بوسعهم إشعال نار لأنها لن ترى، ولا التلويح بعلم، ولا إطلاق السلاح لأنه لن يسمع.. ليس بوسعهم سوى الانتظار ومراقبة السفينة من بعيد.. وكان رأي الكابتن أن ينادوا (ايرتون) فلعله يتعرف السفينة، ولعلها سفينة اللورد (جلينارفان) نفسه، واسمها (دونكان)..

تناول (آيرتون) التلسكوب وتفحص السفينة بعض الوقت ثم قال:

- لا.. ليست (دونكان)..

- ولماذا؟

- لأن (دونكان) بخارية، وأنا لا أرى أي دخان فوق هذه..

ومضى الوقت وهم يراقبون السفينة، وخطر للكابتن أن عليهم إذا جاء الليل إشعال نار لاجتذاب الانتباه لأن هذه السفينة لو رحلت فلن تعود

- إن فوقها علما، لكني مازلت لا أستطيع تبينه.. هو ليس العلم الأمريكي وليس البريطاني ولا الروسي.. ليس أخضر كالبرازيلي ولا أبيض أحمر كالياباني..

كان من الواضح أن السفينة الآن قررت أن تدخل الميناء، وكانت سرعتها غير عادية.. هنا صاح (بنكروفت):

- هذا علم أسود!

- إذن هو ما نخشاه سفينة قراصنة!!

وجاء الليل وظلت السفينة واقفة بلا حراك في البحر وسط الظلام، وقال (بنكروفت):
- من يدري؟ ربما تقضي ليلتها هنا ثم ترحل في الصباح..
وكأنما ترد عليه إذ التمع بريق من السفينة ثم دوى صوت طلقة مدفعيتها.. لقد كانت مسلحة، وسرعان ما دوى صوت سلاسل المرساة.. لقد ألقت السفينة بهلبها على مرأى من بيت الجرانيت!

☆☆☆

الآن لم يعد من شك في نية القراصنة.. سيهبطون على الجزيرة، غالبا من أجل الماء وبالتأكيد سيلاحظون الجسر وآثار الإنسان العديدة لكن (هاردنج) لم يفهم سر إطلاق المدفع.. تراه نوعا من التبجح واستعراض القوة؟ على كل حال لن يستطيع هؤلاء القوم الوصول إلى منزل الجرانيت، وهكذا يمكن للأصدقاء الاختفاء هناك إلى أن يأخذ هؤلاء حاجتهم من الجزيرة ويرحلوا..
وكان أن اقترح (ايرتون):
- سأذهب إلى السفينة سباحة لأعرف مدى قوة هؤلاء..
- لكنك بهذا تغامر بحياتك يا صديقي.. ليس هذا واجبك..
- إن على أن أفعل ما هو أكثر من الواجب يا سيدي.. لعلي بهذا أحسن صورتى أمام نفسى..
أصر (بنكروفت) على أن يرافق الرجل في مغامرته الخطيرة، وانطلق الرجلان إلى الشط وصل (آيرتون) إلى السفينة فلم يشعر به أحد.. اقتضاه الأمر نصف ساعة من السباحة حتى صعد إليها، وراح في الظلام يصغي لأصوات البحارة الغليظة العالية الملأى بالسباب لقد أدرك على الفور أنهم قراصنة، وأنهم أشرار بحق، وأنهم أساسا مساجين فروا من جزيرة (نورفولك) التي ينفي إليها أمثالهم، وهم الآن قراصنة تحت إمرة زميل قديم

له من الأشرار اسمه (بوب هارفي).. هم في الغالب علقوا العلم الأسود وأطلقوا المدفع على سبيل التبجح والفخار.. وعددهم حوالي خمسين على أقل تقدير
لا أمل للأصدقاء مع هذه الحثالة.. أول ما سيقومون به هو ذبح كل من يجدون على الجزيرة؛ لأنهم يزمعون أن يتخذوها قاعدة لهم، وهذا يعني أنه لابد من القتال.. لابد من إبادة هؤلاء بالكامل.. ولكن كيف؟
هنا فكر الرجل في فكرة بطولية.. لم لا يفجر السفينة بمن عليها؟ سيكون أول الضحايا، لكنه بهذا يكون قد أنقذ رفاقه، وطهر حياته الحافلة بالآثام تسلل إلى مخزن الذخيرة.. كان الرجال ملقين على الأرض ثملين تماما، فسرق مسدس أحدهم عالما أن طلقة واحدة على البارود ستكون كافية.
بدأ يعالج القفل حين لمس أحدهم كتفه وهتف:
- من أنت؟
استدار ليرى صديقه القديم (بوب هارفي)، لكن الأخير لم يتذكره طبعا بعد كل هذه الأعوام.. حاول أن يتخلص منه لكن الرجل صاح ينادي الرجال أطلق (ايرتون) طلقتين على رجلين، وأصابته طعنة سكين في كتفه.. لقد فشل مشروعه الطموح لكنه لن يتركهم يقتلونه.. يجب أن يحتفظ بنفسه ليساعد رفاقه على الجزيرة..



استدار ليرى صديقه القديم (بوب هارفى) ، لكن الأخير لم يتذكره طبعًا بعد كل هذه الأعوام ..

تملص من مطارديه ووثب إلى البحر، بينما انهمرت الطلقات من حوله بالطبع يمكننا أن نتصور شعور أصدقائنا حين سمعوا صوت الطلقات من السفينة.. لقد عرفوا أن (آيرتون) فشل

وربما قتل كذلك.. لكنهم أبصروا الرجلين قادمين في القارب الصغير، وكان (ايرتون) جريحا في كتفه.. وقد تنفسوا الصعداء لدى رؤيته.. ولم يقلل
فرحتهم أنهم عرفوا أن المعتدين لا يقلون عن الخمسين، وقد عرفوا الآن أن الجزيرة مأهولة بالبشر
قال (هاردنج):
- ستة رجال ضد خمسين! لسوف ننتصر فنحن ستة لكن عددنا أكثر بكثير.. لأن معنا..
ولم يتكلم.. بل أشار إلى أعلى.. إلى السماء

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

كانت خطة (هاردنج) بسيطة جدا.. المطلوب ألا يهبط هؤلاء القراصنة على الجزيرة بأي ثمن، ولهذا سيكون على الستة أن يتفرقوا عند أماكن الاقتراب المتوقعة.. وأن يطلقوا الرصاص بغزارة وبلا اقتصاد، بهدف إقناع المعتدين أن هناك عددا كبيرا من الرجال على الجزيرة.. وكان الضباب الكثيف قد بدأ، مما ساعد الرجال على اتخاذ أماكنهم، وحين انقشع الضباب كانت أولى بوادر المعركة قاربا يحمل عشرين رجلا مدججا بالسلاح قادمين من السفينة وعلى الفور بدأ أصدقاؤنا إطلاق النار على القادمين.. بالفعل سقط منهم عدد لا بأس به، لأنهم لم يرتابوا في شيء.. وعلى الفور بدل أصدقاؤنا أماكنهم تحسبا لما سيأتي.. لقد صوبت السفينة مدافعها الثلاثة نحو مصدر النيران وأطلقت النار لكن القنابل سقطت على الصخور فلم تؤذها إلا قليلا.. وعاد القارب إلى السفينة وبدا أن الغضب أطار عقل القوم هناك.. وسرعان ما احتشد منهم ستة هبطوا في القارب، متجهين إلى الناحية الأخرى من الجزيرة.. وهذه المرة كانت المناورة بارعة.. القارب يتجه للشاطئ، بينما السفينة تحاول الدنو من الخليج لترسو هناك، وهي تطلق القنابل بلا انقطاع وأسقط في يد أصدقائنا.. لو تمكنوا من الصمود أمام القارب ستجد السفينة الوقت الكافي للرسو وإنزال رجالها.. والعكس صحيح وقرروا أن يحتشدوا في مكان واحد؛ لأن الوقت صار وقت الاتحاد لا التفرق.. وانتظروا حائرين ما سيحدث

فجأة دوى صوت عال من وسط البحر، ونظر الرجال المدهوشون إلى السفينة.. كان انفجار هائل قد قسمها إلى نصفين وهوت بمن عليها من حثالة إلى أعماق البحر!

لم يجد أصدقاؤنا تفسيرا لما حدث، خاصة أن السفينة غاصت تماما حتى لم يبق منها شيء، ولم يطف شيء
- ما زال هناك ستة أوغاد في قاربهم، ولابد أنهم في الجزيرة الآن..
قال (هاردنج) في انبهار:
- فيما بعد.. فيما بعد.. ستة ضد ستة.. لن يكون هذا صعبا.. المهم الآن أن ننقذ من هذا الحطام مايصلح لنا هنا.. سنجد أشياء ثمينة جدا
وسرعان ما راح الرجال يسبحون نحو الحطام الذي طفت منه عدة أجساد ميتة، وراحوا ينقلون المجاديف والأخشاب والأشرعة إلى الشاطئ
وتساءل (سبيلت) وهم يعملون:
- مازلت لا أفهم سبب انفجار هذه السفينة..
قال (بنكروفت):
- الأمر واضح تماما.. هذه ليست سفينة عسكرية يحكمها الضبط والربط.. لا بد أن أحد هؤلاء الحمقى ألقي بلفافة تبغ مشتعلة في مخزن البارود..
قال الكابتن (هاردنج):
- لكننا جميعا لحظة الانفجار رأينا السفينة ترتفع في الهواء ثم تميل على جنبها، قبل أن تنشطر إلى نصفين.. انفجار لم يأت من الداخل بل من الخارج.. ومد يده وسط الأنقاض التي نقلوها على الشاطئ، وأخرج جسما أسطوانيا صغيرا من المعدن، وقال:
- هل تعرفون هذا؟
على الفور فهم البحار ما ينظرون إليه:
- هذه قطعة من طوربيد! السفينة قد قصفت بطوربيد من تحت الماء..

- نعم.. والآن نفهم أن هناك من يرعانا في هذه الجزيرة من البداية.. من يوم أن سقطت أنا في الماء وحملني أحدهم إلى هنا.. ومن يوم أن سقطت القردة من مأوانا وتدلى الحبل لنا.. ومن يوم أن وجدنا الرسالة التي لم يكتبها (آيرتون).. والنار التي هدت القارب ليلا.. والطوربيد الذي أباد القراصنة في اللحظة التي دنا خطرها منا فيها..
وكان كلامه منطقيا بلا شك

☆ ☆ ☆

الآن صار شغل الرجال الشاغل أن يجدوا هذا المنقذ الخير الذي أخرجهم من أسوأ متاعبهم والحقيقة أن براعته وشمول علمه كانا قويين إلى درجة أضفت عليه طابعا خارقا للطبيعة وكان رأي (هاردنج) أنه بصرف النظر عن طبيعة هذا المنقذ، فإن عليهم ألا يتركوا حجرا في الجزيرة دون أن يقلبوه.. لابد أن يجدوا هذا الرجل إما ليعاونوه أو ليشكروه.
- وماذا عن الستة القراصنة الموجودين في الجزيرة الآن؟
- سنتركهم للظروف..
- لكنهم ستة ضد ستة.. وهم مسلحون ويمكنهم بسهولة السيطرة على الجزيرة..
- سنبحث لكن عن منقذنا الغامض.. من الوارد أن نقابل هؤلاء في الوقت ذاته..
وبالفعل تمكن الرجال من الخلاص من القراصنة، ولكن هذا كلفهم قاربهم.. لأن الرجال سرقوه وأبحروا به في البحر وهم لا يفقهون شيئا في الملاحة، وكانت النتيجة هي أن تهشم القارب على الصخور، ولقوا حتفهم بالطبع كاد (بنكروفت) يجن حين عرف هذا، وراح يسب السفاحين الملاعين.. طمأنه (سبيلت)

بأنهم قادرون على صنع قارب آخر، لكن هذا يستغرق ثلاثة أو أربعة أشهر أخرى..
كانوا بحاجة إلى القارب؛ لأنه لا بد لهم من أن يزوروا جزيرة (تيبور) مرة أخرى، كي يتركوا هناك إحداثيات جزيرتهم، وذلك في حالة عودة البريطانيين إلى المكان الذي تركوا فيه (ايرتون)..
بدأت الآن عملية استكشاف دقيقة للجزيرة.. ارتاد الرجال جبل (فرانكلين) الذي لم يفتشوه من قبل.. هبطوا الحفر جميعا واستكشفوا الأنفاق انهم لم يجدوا شيئا، لكن (هاردنج) اعترف لنفسه بأنه يسمع ضوضاء قادمة من أسفل طيلة الوقت.. كأنها فوران في أعماق الأرض.. وقد سمع (سبيلت) الشيء ذاته فهمس في أذنه:
- إذن البركان ليس خامدا تماما؟
- يبدو هذا.. لكن أعتقد أن الحمم لو خرجت ستشق طريقها إلى المخرج الطبيعي في فوهة جبل (فرانكلين)
- مالم تجد لنفسها سبيلا آخر عبر الأرض صحيح الخصيبة! هذا يحتاج إلى زلزال.. وهذا ليس شيئا نادرا مع البراكين.. إن الجزيرة تعمل كغلاية والبركان يعمل كمدخنة..
- من مصلحتنا ألا يحدث هذا، لكننا لا نستطيع منع ما سيحدث.. فقط يمكننا اللجوء إلى المرتفعات البعيدة التي يفصلها عن البركان واد عميق.. يمكن أن نأمل أن تتجمع الحمم هناك ولا تبلغنا..
وصمت الرجلان ولحقا بالمجموعة.. الحقيقة أن البحث في كل صوب لم يسفر عن شيء، وهذا دعم يقين (بنكروفت) و(نيب) بالطبيعة الخوارقية للمنقذ الموجود في الجزيرة..
وجاء الخامس والعشرون من مارس، وفيه احتفل الرجال بالذكرى الثالثة لهبوط المنطاد بهم على هذه الجزيرة.

☆☆☆

الفصل الثالث

كانت خطة (هاردنج) الحالية تقضي ببناء سفينة كبيرة تسمح لهم بالذهاب إلى جزيرة (تيبور) لترك رسالة هناك، وفي الغالب ستفشل هذه الخطة، لذا يجب أن تكون السفينة قادرة كذلك على الإبحار نحو أرخبيل (بولينيزيا) أو (نيوزيلندا).. وقد سأل (بنكروفت) عن الوقت الذي يستغرقه بناء سفينة كهذه تزن نحو ثلاثمائة طن فقال:

- نحن لا نفتقر إلى المعدات والخشب.. المسألة مسألة وقت.. لكن الشتاء قادم في يونيو، والأخشاب في الشتاء لا تسمح ببناء السفن.. لذا أرى أن فترة سبعة أشهر ستكون مناسبة، ولو صارت السفينة جاهزة في (نوفمبر) لاعتبرت أننا محظوظون حقا ولم يتشكك الرجال في قدراتهم؛ لأن نجاحهم السابق جعلهم يثقون بأنفسهم كان المهم الآن قطع الأخشاب؛ لأن الخشب لا نفع منه وهو أخضر.. لا بد من تركه بعض الوقت حتى يجف.. وعلى رصيف الميناء الذي بنوه بدأت مقدمة السفينة تتكون.. وكان (آيرتون) متعاونا واسع الخبرة، لكنه ظل متحفظا أقرب إلى الندم والحزن كعادته.. وأخيرا جاء الشتاء في آخر مايو ومعه صار عليهم التوقف.. كان الشتاء قاسيا بشكل خاص في هذه المرة، وقد أبدى الصحفي دهشته لأن هذا يناقض ما يعرفون من أن الجزر تكون أميل للاعتدال، لأن البحر المجاور لها يبرد ببطء ويسخن ببطء.. وقد حاول (هاردنج) تفسير هذه الظاهرة على أساس أن نصف الأرض الجنوبي أبرد عموما من النصف الشمالي.. أضف لهذا أن هناك جبالا جليدية أكثر في النصف الجنوبي، ويبدو أن الجزيرة قريبة من بضعة جبال جليدية تجعل جوها بهذه البرودة

وجاء سبتمبر ومعه علامات تثير القلق للمرة الأولى رأى الرجال الدخان يتصاعد من قمة جبل (فرانكلين) حيث البركان ومن يومها لم يختف الدخان قط، وقد طمأنهم المهندس ألا خطر هنالك.. لقد حدث هذا مرارا من قبل، ومن المؤكد أن الحمم وجدت سبيلها إلى البحر دون أن تؤذي الجزيرة، لكن من العسير أن تتنبأ بالمستقبل على ضوء الماضي.. إن بركان (إتنا) مثلا يتصرف في كل ثورة له بشكل مختلف

وهكذا زاد الرجال من سرعة العمل في السفينة. وفي المساء كانوا يرقدون في أسرتهم منهكين، لكنهم يتكلمون عن الوطن، وعن هذه الجزيرة التي أحبوها وتمنوا لو تصير مستعمرة أمريكية تضاف إلى الاتحاد.. وكانوا موقنين من شيء واحد.. لو كتبت لهم العودة إلى ديارهم فلسوف يعودون إلى الجزيرة مرة ثانية، يومها سيكون (هاردنج) هو الحاكم، ولسوف يعيش هنا نحو عشرة آلاف شخص..

☆ ☆ ☆

أوصلهم البحث إلى أحد الكهوف التي تعود إلى عصور جيولوجية سحيقة.. كانوا يركبون القارب الصغير (الكانو)، ويسبحون الآن في بحيرة داخل أحد الكهوف.. حينما لاحظوا ضوءا غريبا في نهاية الكهف.. ضوءا لم يرتابوا كثيرا في طبيعته.. هذه مصابيح كهربية لا شك في هذا فجأة رأوا عند نهاية الممر شيئا يبرز من الماء.. هو جسم معدنى له شكل الجزء العلوي من حوت عملاق

وقف (هاردنج) يرمق هذا الشيء في ذهول، وقد بدا أنه فريسة انفعال شديد.. ثم أمسك بذراع الصحفي وهتف:

- إنه هو.. لا يمكن إلا أن يكون هو!

وهمس باسم سمعه الصحفي، فتذكره هذا الأخير وهمس بدوره:

- هو! رجل خارج على القانون!
ودنا القارب من الجسم المعدني الطافى فوق الماء.. ولمس الجانب الأيسر حيث كانت نافذة يخرج منها شعاع من الضوء.. صعد الرجال على جسم الشيء المعدني، ووجدوا ما يشبه السلم يقود إلى باب موصد
فتح (هاردنج) الباب ليجد غرفة مزخرفة بشكل فخم.. مشوا فيها ليجدوا أنفسهم في غرفة أخرى ازدانت جدرانها بكنوز البحار والعينات الجيولوجية، وعلى أريكة رأوا رجلا لا يبدو كثيرا أنه لاحظ قدومهم..
هنا قال (هاردنج) لدهشة رفاقه:
- كابتن (نيمو).. نحن هنا..

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

عند هذه الكلمات نهض الرجل الراقد، وسقط الضوء الكهربي على وجهه، بجبهته الشامخة ولحيته الشائبة، ونظرة عينيه الآمرة، برغم أنه من الواضح أنه مريض.. وكان هادئا بشكل واضح..

وبلهجة إنجليزية ممتازة قال:

- سيدي.. أنا لا اسم لي..

- لكني برغم هذا أعرفك..

نظر له الرجل في ثبات، ثم سقط من جديد ليستلقي على الأريكة وقال:

- على كل حال.. ما الفارق؟ إنني أموت

راح الرجال ينظرون له في فضول.. فهم لم يتصوروا قط أن حاميهم كان رجلا عاديا وليس كيانا خارق للعادة.. وقال الرجل للمهندس:

- هل حقا تعرف اسمي وتعرف هذه الغواصة الرائعة التي نحن فيها الآن؟

- (النوتيليوس[5])

- إذن لم يهلك الفرنسي الذي كان معي في الغواصة؟

- لقد نجا وكتب قصتك في كتاب اسمه (عشرون ألف فرسخ تحت البحر).. وحكى فيه كل شيء عن حياتك..

- بل حكى عن بضعة أشهر منها!! لكنها كانت كافية..

- كافية لاعتبارى مجرما وخارجا على القانون ومعاديا للبشرية!

- ربما.. لكن ليس عملي أن أحكم عليك يا سيدي.. كل ما أعرفه أن يدا كريمة قادرة أسدت لنا الكثير من العون على ظهر هذه الجزيرة.. وكنت أنت صاحب هذه اليد..

وبصوت واهن راح الكابتن يحكي لهم قصته. كان يبذل في هذا آخر ما بقى في جسده من قوة، وقد طلب منه الصحفي مرارا أن يدخر قوته لكنه قال:

- لا جدوى.. إن ساعاتي هنا معدودة..

كان الكابتن (نيمو) من أصل هندي.. الأمير (داكار) ابن راجا من مقاطعة (بندلقند) التي كانت وقتها مستقلة.. أرسله أبوه في سن عشر سنوات إلى أوروبا لينال تعليما طيبا لم يهتم الفتى بمتع الحياة التي يمنحها له ثراؤه لكنه اهتم بفهم العالم، وتحصيل العلوم بكل أنواعها.. وظل على هذا المنوال حتى بلغ سن الثلاثين.. كان يعاني جوعا لا يشبع إلى المعرفة وزار أكثر أقطار أوروبا وفي عام 1849 عاد إلى (بندلقند) حيث تزوج أميرة هندية وأنجب طفلين.. وفي عام 1857 قامت ثورة كبرى ضد الإنجليز في الهند.. ووجد نفسه ينضم لها مدفوعا بطموحه، لكن الثورة فشلت وعاد البريطانيون إلى السيطرة، وسرعان ما اضطر الرجل إلى التراجع إلى الجبال شاعرا بالمقت للحضارة البشرية كلها، ولبريطانيا بالذات

شعر بحاجة إلى الهرب من هذا العالم كله.. ربما إلى أعماق المحيط

وفي جزيرة معزولة وسط المحيط الهادي، بدأ تنفيذ مشروعه الكبير، وبدأ يصمم غواصة منحها كل علمه.. قام بتركيبها وتصميم دوائرها الكهربية وخزانات وقودها.. هناك تحت الماء لن يعاني من عوز.. المحيط كله بكنوزه وأسماكه ملكه.. وأطلق على غواصته هذه اسم (نوتيليوس) وأطلق على نفسه اسم كابتن (نيمو).. واختفي تحت المحيط..

ولأعوام عدة جمع ثروات لا يمكن وصفها من الكنوز الغارقة.. وكان له لقاء مع أستاذ فرنسي هو ما تم نشره في الكتاب المدعو

(عشرون ألف فرسخ تحت البحر)، لكن الناس حسبوا أن (نيمو) غرق مع (النوتيليوس) لكنه في الحقيقة ظل حيا، وعاش يتنقل بين المحيطات، حتى مات رجاله واحدا بعد الآخر ودفنوا في المحيط الهادي، وسط الشعاب المرجانية.
الآن هو في الستين من عمره، وقد جاء إلى هذه الجزيرة ليعيش في أحد كهوفها تحت الماء، وقد راح ينتظر الموت، حين فوجئ بسقوط البالون الذي يحوي أصدقاءنا.. رأى سقوط المهندس في البحر.. وأنقذه بغواصته وحمله إلى الشاطئ.. كما أنقذ الكلب ولقد راقب أصدقاءنا كثيرا، وعرف كيف يعيشون ويتكيفون مع حياتهم، وتحمس لهم لأنه عرف أن هناك أملا وخيرا في الجنس البشري.. وهو من ألقي لهم بالحقيبة التي تحوي منافع كثيرة جمة لهم.. وهو من طرد القرود فقد كان يستطيع الوصول من البحيرة إلى الفتحة الخلفية لبيت الجرانيت، كما أنه هو من أطلق الطوربيد على سفينة القراصنة، ودلهم على (آيرتون) المنفى وحده في جزيرة (تيبور)..
ثم فرغ الكابتن من اعترافاته فنظر للرجال وقال:
- ماذا تقولون عن حياتي؟
صمت (هاردنج) قليلا ثم قال:
- ثمة أفعال يحار البشر فيها.. ما يبدو صوابا للبعض يبدو خطأ لآخرين.. فقط الله يملك الحكم على حياتك..
نظر (نيمو) إلى أعلى وتساءل:
- هل كنت محقا أم مخطئا؟
قال له (هاردنج):
- بالنسبة لنا لن ننساك أبدا ونحن مدينون لك للأبد..
هنا زحف الصبى على ركبتيه نحو الكابتن (نيمو) وطبع على يده قبلة، فترقرقت دمعتان في عين الرجل وهمس:

- ألا بارك الله فيك.

☆ ☆ ☆



هنا زحف الصبي على ركبتيه نحو الكابتن (نيمو) وطبع على يده قبلة

الفصل الخامس

جلس الرجال مجتمعين حول الكابتن النائم الذي ذهبت قواه، وراحوا يفكرون كيف يساعدونه، لكن الأمر كان عسيرا بحق..

وأدركوا أن ما يعانيه ليس مرضا بعينه، بل هو غياب عام للحياة من جسده فتح عينيه وفي وهن قال لهم:
- هل تشعرون حقا بأنكم تريدون إسداء خدمة لي؟
قال (هاردنج) في إخلاص:
- بالطبع يا كابتن.. لو استطعنا لوهبناك حياتنا جميعا..
- حسن.. إليكم وصيتي.. أنا أعرف أنني سأموت غدا..
كاد (سبيلت) يحتج، لكن (هاردنج) أسكته بإشارة من يده؛ كي يواصلوا سماع ما يقول الكابتن:
- أريد حين أموت أن أدفن تحت المحيط مثل رجالي.. أريد أن أدفن في غواصتي الحبيبة.. لهذا أريد منكم حين أغمض عيني للأبد أن تأخذوا هذا الصندوق.. إنه يحوي جواهر ثمينة احتفظت بها من أيام حسبت السعادة شيئا ممكنا.. أنا أعرف أنها لن تكون سيئة الطالع معكم.. لكن لا تأخذوا أي شيء آخر من كنوز (نوتيليوس) لأنها يجب أن تعود إلى المحيط.. بعد هذا غادروا الغواصة من طريق الممر الجانبي، هناك تجدون كوتين متصلتين بالبحر.. افتحوهما ليتسرب الماء إلى الغواصة ببطء.. غادروا المكان واتركوها تهوي إلى القاع لا تقلقوا! أنتم تدفنون جثة لا رجلا حيا
غادر الرجال المكان صامتين ووقفوا يتأملون روعة (النوتيليوس) التي كانت قطعة من الإبداع في الفن والهندسة معا، وقد اقترح (ايرتون) فكرة مؤداها أن هذه الغواصة قد تكون أملهم الوحيد في مغادرة الجزيرة، هنا صاح (بنكروفت) في تقزز:
- غواصة؟ أنا أفهم الإبحار لكن تحت الماء؟ مستحيل!
- ربما كانت قيادة غواصة سهلة.. وتحت المحيط على كل حال بعيدا عن العواصف والتقلبات والأمواج..
هنا تدخل (هاردنج):

- الفكرة مرفوضة.. أولا: نحن لا نستطيع قيادة هذه.. ثانيا: نحن أعطينا كلمة للرجل، وهي بالنسبة لي قد صارت قانونا.. (النوتيليوس) يجب أن تدفن مع مخترعها..
هنا دق جرس من غرفة الكابتن، وعرفوا أنه يريد الحديث مع (هاردنج) على انفراد.. وقد عاد (هاردنج) صامتا ولم يذكر حرفا عما دار في المحادثة..
في الساعات التالية راح كابتن (نيمو) يذبل باستمرار.. لم تعد قواه الروحية قادرة على إبقائه حيا.. وقد وضع ذراعيه على صدره كأنما يتخذ الوضع الأمثل للموت وفي الواحدة صباحا كان قد شحب تماما.. قال: «الله ثم وطني..» وبعدها لفظ أنفاسه الأخيرة بكى جميع الأصدقاء عليه، وأغمض (هاردنج) عينيه في تأثر وقال للرجال:
- فلنصل من أجله..
وسرعان ما بدأ الرجال ينفذون وصية الرجل.. أخذوا الصندوق، ثم غادروا الغواصة بعد ما أغلقوا الأبواب جميعا.. وفتحوا الكوتين، وسرعان ما بدأت (النوتيليوس) تهبط إلى القاع.. ووقف الرجال يراقبونها وهي تحمل صانعها الأمير (داكار) الذي لم يعد الآن كابتن (نيمو)، إلى قبره الجديد
في الأيام التالية - منتصف يناير – كان الصبى يمارس القنص قرب جبل (فرانكلين)، حين لاحظ أن الدخان حول الجبل يزداد كثافة وأنه يخرج من فوهته متخذا شكل القبعة عاد للرجال وأخبرهم بالأمر، وحين جاءوا في اليوم التالي وجدوا أن الدخان صار كثيفا يرتفع في شكل عمود رمادي، إلى ارتفاع ثلاثمائة قدم.. قال (بنكروفت):
- هذا طبيعي.. البركان بدأ يتنفس ثم قرر أن يدخن!
على الرغم منهم ابتسم الرجال لهذا التشبيه، وقال (سبيلت):

- النار في المدخنة ولابد من إطفائها.
راح (هاردنج) يصغي في اهتمام ثم نظر إلى رفاقه، وقال في خطورة:
- علينا أن نواجه الحقيقة.. إن حياتنا لن تعود كما كانت.. من الواضح أن النار مشتعلة هناك، ولن يلبث البركان أن يثور مهددا كل شيء هنا..
وكان قلقا بحق.. لو أن البركان تصرف كما ينبغي له فإن اللافا المخيفة ستهبط إلى البحر، لكن لا شيء يضمن ألا تحدث زلازل، وجزيرة (لنكولن) تملك عناصر متنوعة من الجرانيت والبازلت والتربة الخصبة.. هذه عناصر يستحيل أن تلتحم معا بشكل جيد.. وكان (ايرتون) الآن على الأرض يلصق أذنيه ويصغي، وقال لهم:
- ثمة صوت قعقعة واضحة.. كأنما عربة محملة بالمواسير..
هنا صاح (بنكروفت) في حماسة:
- دعوا البركان يزأر كما يريد.. لدينا الكثير من العمل اليوم في سفينتنا.. وهو عمل لا تكفي له مئات الأيدي.. لابد خلال شهرين من أن نتمكن من تعويم سفينتنا..
وراح الرجال يعملون، لكن عند المساء نظروا إلى البركان الذي يبعد عنهم الآن ستة أميال، فبدا لهم كمشعل عملاق تتصاعد من فوهته النيران، ولاحظ المهندس في قلق:
- التغير سريع...
قال الصحفي:
- لا تنس أن التغير بدأ من زمن.. لقد شعرنا به حين كنا نفتش في الجزيرة عن كابتن (نيمو) وكان هذا في أكتوبر.. نحن الآن في يناير..

وشعر الرجلان باهتزازات تحت قدميهما.. لقد كانت النيران تغلي في باطن الأرض الآن.. ثم سرعان ما اندلعت النيران من فوهة البركان تلتها انفجارات متلاحقة كأنما هي من بطارية مدفعية وبرغم هذا التوتر عاد سكان الجزيرة إلى النوم.
ومرت ثلاثة أيام من العمل المتواصل في السفينة بينما ذهب المهندس إلى الجبال ليتفقد شيئا لم يفسره.. حتى هذه اللحظة لم يبد أن الحمم بلغت فوهة البركان.. فقط كانت هناك صخور تتواثب لأعلى ثم تهبط ثانية في الفوهة.. وقال (بنكروفت) في مرح:
- البركان يلعب بالكرة والقدح.. إنه حاو بارع!
فجأة رأى الرجال المهندس عائدا مندفعا.. طلب منهم أن يكفوا عن عمل اليوم، وهرع الجميع إلى بيت الجرانيت.. هناك قال لهم وصوته يخون عواطفه الخبيئة فيتهدج:
- لقد أنذرني الكابتن (نيمو) من هذا.. هذه الجزيرة لم تخلق كى تتحمل الكارثة القادمة، والسبب في هذا يكمن فيها هي نفسها.. لا شيء ولا أحد يمكنه إنقاذها..
تساءل (بنكروفت) في دهشة غير فاهم:
- الكابتن (نيمو) قال لك هذا؟
- كانت هذه آخر خدمة قدمها لنا وهو حي.. ولسوف تعرفون حالا أنه سيقدم لنا المزيد من الخدمات بعد وفاته!! لقد قمت باستكشاف كهف (داكار) تحت الماء، الذي لا يفصله عن البركان الا جدار واحد، وقد وجدته مليئا بالصدوع التي يتسرب منها بخار الكبريت.. هذه ليست المشكلة المشكلة هي أن الكابتن (نيمو) أنذرني من أن ماء البحر سيدخل من هذه الشقوق إلى البركان..
قال (بنكروفت) في سذاجة:

- لا مشكلة.. ستطفئ المياه البركان وتنتهي المشكلة..
- بل هي البداية.. إن تسرب مياه البحر إلى قلب البركان المليء باللافا لن يؤدي إلا إلى انفجار الجزيرة كلها، وكأنها جزيرة (صقلية) تنفجر بعدما تسربت مياه البحر المتوسط إلى قلب بركان (إتنا)..
والحقيقة أن فكرة إطفاء البراكين الملاصقة للبحر خطرت لأناس كثيرين من قبل، عن طريق إحداث ثغرة يتسرب منها البحر إلى قلب البركان.. لكنهم لا يعرفون مدى الخطر وأنهم بهذا يؤدون إلى نسف جزء من الكرة الأرضية، كما يحدث لغلاية حدث في جدارها ثقب.. إن الماء المتسرب إلى تجويف حرارته آلاف الدرجات سوف يتحول إلى بخار ذى ضغط مخيف..
ولم يكن أول ما شعر به الرجال هو الخوف بل الحزن.. الحزن على جزيرة آوتهم وأخذت منهم كل هذا الجهد وسرعان ما قرر هؤلاء أن عليهم الإسراع بالانتهاء من السفينة قبل حدوث الكارثة، وراحوا يسهرون الليل في العمل، بينما لم يتغير شيء من ناحية البركان
إلا أنه في منتصف الليل ثار البركان ثورة عظمى، وطار الجزء العلوي المحيط بالفوهة إلى الهواء، ليسقط نحو الشمال.. وتحررت اللافا من أسرها، وتصاعدت النيران إلى عنان السماء حتى بدا كأن الهواء نفسه أمسى أحمر ثم بدأت اللافا تنحدر ببطء، وسرعان ما عرف القوم اتجاهها..
- الحظائر! الحظائر!
وركضوا ركضا إلى هناك حيث كانت الحيوانات في أعلى درجات الذعر والانفعال.. هناك أطلقوا سراح الحيوانات فتحررت وراحت تركض فارة.. ثم وصلت الحمم لتحيل المكان إلى رماد خلال ثوان معدودة.. ومن جديد واصلت رحلتها الرهيبة صار

البركان غريب الشكل يصعب أن يميزه من رآه من قبل.. وراحت الصواعق تهبط من السماء مدوية، حتى ليختلط صوتها بصوت البركان الهادر وبدأت اللافا تتحرك نحو الرجال حيث وقفوا جوار سفينتهم، من ثم هرعوا إلى الفئوس والأخشاب وكوموها في دقائق ليصنعوا مرتفعا صغيرا سرعان ما بلغته اللافا.. وراحت تحاول الالتفاف حول هذا السد الذي يمنعها من بلوغ الشرق، ثم استدارت لتنصب في البحيرة..

ولكن أي قلم يمكنه أن يصف هذا اللقاء المروع بين اللافا والماء؟ لقد تصاعد البخار في السماء أميالا، لكن مهما كثر ماء البحيرة فلابد له أن يتبخر كله، بينما اللافا تأتي من معين لا ينضب في باطن الأرض.. وراحت الحمم الأولى تتجمد إذ تلمس الماء بينما تليها حمم أخرى تغدو أصلب.. حتى تجيء حمم لا تتجمد.. والبحيرة تنذر بأن تفيض بما امتلأت به

ومرت ستة أيام والرجال يعملون في السفينة كأنهم مائة.. وسأل (سبيلت) المهندس:

- ألا تشعر أن البركان بدأ يهدأ قليلا؟

- لا فارق بالنسبة لنا.. في أية لحظة سيتسرب ماء البحر إلى قلب البركان.. نحن مسافرون في سفينة تحترق، وفي أية لحظة سيدخل اللهب إلى مخزن الذخيرة.. العمل! لا شيء سوى العمل دعنا لا نضيع لحظة واحدة!

وكانوا يرون كل يوم شيئا جديدا مما صنعوه بأيديهم يتبخر أو يحترق، وهلكت أكثر الحيوانات واحترقت أكثر الأشجار، حتى أدرك المهندس أنهم سيموتون جوعا حتى لو لم تنفجر الجزيرة.. والآن بدأت خيوط مخيفة من اللافا تخرج من فوهة البركان وتطير في كل صوب.. كأنها شلالات من السائل الحارق.. وهنا قرر الرجال أن الوقت قد حان لتعويم سفينتهم حتى لو لم تكن

قد انتهت بعد هنا بدأت الفوهة تقذف صخورا عملاقة إلى البحر، وثار البحر وارتفعت أمواجه لتغمر كل شيء في الجزيرة..

☆☆☆

الفصل السادس

الآن يقف الرجال وكلبهم على مرتفع هو المكان الوحيد الأمن في الجزيرة كلها.. لقد هلك القرد (جوب) وسط الأمواج العاتية، أما السفينة التي علقوا عليها حلمهم فقد صارت حطاما ليس معهم طعام ولا ماء إلا ما يكفيهم يومين آخرين بعدهما تجيء النهاية.. الآن لم يعد علمهم ذا نفع.. إنهم في يدي الله.. وكان (نيب) والصبى قد بدأا يهلوسان فعلا وقال (بنكروفت) في غيظ:

- لو كانت معنا قشرة بندق لاستعملناها للهرب من هنا إلى جزيرة (تيبور).. لقد كان الكابتن (نيمو) على حق حين مات!

حقا لم يعد هناك أدنى أمل، ولم يعد أمامهم إلا الموت أقسى وأشنع ميتة بالجوع والظمأ!

إلا أنه في اليوم التالي صباحا، نهض (أيرتون) ولوح بيده وأشار إلى الأفق.. لم يكن لديه من القوة ما يسمح له بقول شيء.. وفي النهاية خرج صوته الواهن:

- (الدونكان)!!

وهناك في الأفق ظهر شراع سفينة قادمة من بعيد كانت هذه هي (الدونكان) فعلا التي عاد بها ابن كابتن (جرانت) إلى جزيرة (تيبور) بحثا عن الرجل الذي نفوه هناك اثنتي عشرة سنة ولم يدر الأصدقاء كيف ولا متى وجدوا أنفسهم على السفينة.. لم يفهموا أنهم لم ينجوا فحسب بل هم الآن ذاهبون إلى وطنهم الأم ولما استعادوا قواهم تساءل (هاردنج):

- ما الذي جعلك أيها القبطان تقطع كل هذه المسافة من جزيرة (تيبور) إلى هنا عندما لم تجد (ايرتون)؟

قال القبطان وهو يقدم ورقة إلى (هاردنج):
- كنت أبحث عنكم أساسا.. لقد وجدت في (تيبور) كوخا، وبه هذه الرسالة التي كتبتموها لى، وبها إحداثيات جزيرة (لنكولن) وكل شيء عنكم.
- لم تكن هذه الرسالة رسالتنا، ولكن كتبها الكابتن (نيمو).. ومن جديد يصدق ما قلته من أن الرجل سيخدمنا بعد وفاته أكثر مما خدمنا في حياته!
وكان أمامهم مستقبل طويل يقضونه معا، فقد تعاهدوا على الأ يفترقوا.. عادوا لوطنهم أمريكا الذي استراح من أهوال الحرب، واشتروا مزرعة في (أيوا) أطلقوا عليها اسم (لنكولن).. وهناك عاشوا معا سعداء كأسرة واحدة.. ولكنهم لم ينسوا يوما تلك الجزيرة، ولا صخرة الجرانيت التي هي آخر ما بقي من كهف.. والتي يرقد تحتها جثمان من كان يدعى بالكابتن (نيمو).
(جول فيرن 1870)

☆ ☆ ☆

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفهرس:.

Notes

[←1]

حتى لا تختلط الأمور: الحرب الأهلية الأمريكية قامت بسبب رغبة الولايات الشمالية في تحرير العبيد، على حين رفضت الولايات الجنوبية ذلك، وكانت القوات الشمالية تحت قيادة جنرال (جرانت) والقوات الجنوبية تحت قيادة جنرال (لي). ومن الواضح هنا أن أبطال قصتنا شماليون وقعوا في أسر الجنوبيين، وأن (جرانت) حاصر الجنوبيين بينما أصدقاؤنا أسرى في معسكرهم..

[←2]
للتحويل إلى درجاتنا المئوية اطرح 32، ثم اضرب الناتج في خمسة على تسعة.. سيكون الناتج 35 وهو أقل من حرارة الجسم البشري، لكن الكلام تقريبي طبعا

[←3]

للأمانة: اضطررت إلى اختصار جزء كبير جدا هنا، لأن (فيرن) يتحدث بالتفصيل وبدقته المعهودة عن طرق قياس السمت والإحداثيات، وطرق صناعة الخزف، وصهر الحديد، وما إلى ذلك مما لا دخل له في سياق الأحداث.. ولو ترجمت هذا الجزء بأمانة لكان حجم هذا الكتيب خمسمائة صفحة على الأقل!

[←4]

لا تنس أن الحوت حيوان ثديي يرضع أطفاله!

[←5]

يعرف قراء (جول فيرن) جيدا الكابتن (نيمو) وغواصته (نوتيليوس) من قصة (عشرون ألف فرسخ تحت البحر).. وقد حسبناه هلك مع غواصته في القصة الأولى، لكنه هنا يعود للحياة..


روايات عالمية للجيب
42
451 فهرنهايت
قصة راي برادبوري
ترجمة وإعداد د. أحمد خالد توفيق
فريق متميزون
E-BOOK

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (42)

451 فهرنهايت

قصة: راي برادبوري
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

نترك الآن (فين) و(ويلز) اللذين استحقا عن جدارة أن يكونا رائدي أدب الخيال العلمي، وننتقل إلى أحد أساطين الخيال العلمي المعاصر، الذي صار اسمه رمزا للجدية والجودة مثلما صار اسما (أزيموف) و(كلارك) وغيرهما..

الخيال العلمي - كما نعرف - هو ضرب من الأدب يحكي عن أحداث لم تحدث بعد، تتناول علاقة العلم بحياة البشر. ويميل النقاد إلى توسيع مفهوم الخيال العلمي ليشمل ملاحم (جلجاميش) البابلية ومدينة (توماس مور) الفاضلة، وكل عمل يتكلم عن حياة الإنسان في عوالم أخرى، أو تطلعه الذي لا يرتوي إلى المعرفة. لكن الخيال العلمي ما كان ليصل إلى صورته الحالية لو لم تولد الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، مع كل الخلخلة التي أحدثتها في المفاهيم التقليدية، وتطلع الإنسان الملهوف إلى حل كل أسرار الكون مرة واحدة، وهكذا ولدت (فرانكنشتاين) التي كتبتها كاتبة رومانسية عادية هي (مارى شيللى)، وسرعان ما انهمر سيل أعمال الخيال العلمي، لكن أبا هذا النوع من الأدب كان هو الفرنسي العظيم (جول فيرن)..

وتلاه بنجاح ملحوظ البريطاني (هـ. ج. ويلز)..

في العام 1921 أدخل الكاتب التشيكي (كاريل كابيك) لفظة (روبوت) إلى الأدب للمرة الأولى.. وهي أهم كلمة في عالم الخيال العلمي طبعا..

في الخمسينات بدأ أدب الخيال العلمي الأمريكي يكتسب شعبية واضحة، وقد امتزج امتزاجا شديدا بالمجلات المصورة، بحيث يصعب فصل نوعي الأدب. ومن أهم الأدباء الأمريكيين

للنوع (روبرت هاينلاين) صاحب رواية (غرباء في أرض غريبة - 1961)، و(أزيموف) صاحب (كهوف الفولاذ - 1953) ... و (فرانك هربرت) في (يوميات الكثبان - 1965) و(لاري نيفن).. وسرعان ما ظهرت اتجاهات جديدة مثل (الموجة الجديدة) و(السايبر بانك)..

(راى برادبورى) كاتب أمريكي عظيم ولد عام 1920، اشتهر بمجموعاته القصصية (الرجل المرسوم - 1951) و(شيء شرير من هذا الطريق يأتي - 1962) و (451 فهرنهايت - 1953). كان طفلا واسع الخيال، وقد اعتاد أن يكتب نحو أربع ساعات يوميا منذ كان في الحادية عشرة من عمره. باع أول رواية كتبها عام 1941، ليتفرغ بعدها للكتابة تماما. ركز في كتاباته على الشر الكامن في الإنسان وولعه باستغلال ما يعرفه من أجل السيطرة على الآخرين الذين يعرفون أقل. وهو في ذلك متشائم ككل كتاب الخيال العلمي... العلم خطر داهم بالنسبة لإنسانية لم تنضج بعد.. ولقد كانت القنبلة الذرية هي أول استخدام للذرة قبل أن يفكر الإنسان في أي استخدام سلمى لها..

فاز بمجموعة غير عادية من الجوائز على كتاباته، منها جوائز (نيبولا) و(بروميثيوس) و(برام ستوكر) و(كتاب الفضاء) و(الخيال العلمي). كتب العديد من المسرحيات والسيناريوهات بالإضافة إلى برنامج تلفزيوني مهم هو (مسرح راى برادبوري). وما زال هذا الكاتب المهم يعيش في (كاليفورنيا) حتى اليوم مع أسرته..

قصة اليوم من القصص الشهيرة المهمة في كتابات (برادبوري)، وهي نموذج طيب لرؤيته المتشائمة لغدٍ قاتم يجثم فيه حكم شمولي على أنفاس البشر. وقد قدمها المخرج الفرنسي (فرنسوا تريفو) عام 1969 في فيلم شديد الأهمية والعمق، قام

ببطولته (أوسكار فيرنر) مع (جولى كريستى).. ويقال إن النجم (ميل جيبسون) يستعد لتقديم نفس القصة في صيغة جديدة..

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

أهم أعمال (برادبوري)..

- شجرة الهالوين.
- الموت مهنة موحشة.
- مقبرة للمجانين.
- الحوت الأبيض.
- ظلال خضراء.
- الجراد الفضي.
- الكرنفال الأسود.
- تفاحات الشمس الذهبية.
- دواء للوحشة.
- يوم هطلت الأمطار للأبد.
- السفاح الصغير.
- أنا أغني لكهرباء الجسد.
- الكمبيوتر المسكون.

☆ ☆ ☆

كان من الممتع أن تحرق..

كانت متعته الخاصة أن يرى الأشياء وقد التهمتها النار.. أن يراها وقد اسود لونها وتبدلت. بالفوهة النحاسية في قبضته، والثعبان الهائل يبصق سمومه على العالم، عندها كان الدم ينبض في رأسه، ويشعر كأنه مايسترو جبار يعزف كل سمفونيات الحريق والبريق جالبا رماد التاريخ.

على رأسه الخوذة الرمزية التي تحمل رقم 451 وعيناه تلتهبان بفكرة ما هو آت.. كان يحرك قاذف اللهب، وعندها كان البيت يحرق ظلمة الليل ذاتها، فلا يبقى إلا اللون الأسود والأحمر والأصفر.

مضى وسط سرب من ذبابات النار، وتمنى لو يشوى بعض (المارشميلو) على عصا في الفرن، بينما الكتب تحلق مشتعلة.. وتتطاير بعيدا مع ريح سوّدها الحريق.

وابتسم (مونتاج) في توحش. كان يعرف أنه سيعود إلى مبنى المطافئ، يتأمل نفسه في المرآة، ثم ينام وهو مازال يشعر بالابتسامة المتوحشة على عضلات وجهه في الظلام. لم تفارقه قط تلك الابتسامة.. لم تفارقه قط على قدر ما يتذكر.

نزع خوذته السوداء وعلق سترته الواقية من النيران بعناية. أخذ دوشا مريحا ثم صعد - ويداه في جيبه وهو يصفر إلى الطابق العلوي من مبنى المطافئ. هنا كاد يسقط في فتحة الأرضية، لكنه في اللحظة الأخيرة أخرج يديه من جيبه وتشبث بالعمود الذهبي ليخفف من سقطته. وتوقف بينما كعباه على ارتفاع بوصة واحدة من الأرض الخرسانية. مشي متجها إلى

القطار وهو ما زال يصفر.. ثم فجأة تصلب كأنما ريح غامضة جاءت من لا مكان، أو كأن شخصا لا مرئي ناداه باسمه. كان في الليالي الماضية يشعر بشعور مريب كلما مر بهذا المنحني من الطريق. كان يشعر بأن شخصا ما قد كان هنا من لحظة واحدة قبل وصوله. ثمة هدوء معين في الهواء كأنما كان شخص ما ينتظر هنا في صمت، فما إن رآه حتى استحال ظلا وغاب في الظلمة.. ربما استنشق أنفه عطرا خافتا، وربما شعر الجلد على ظهر يديه بالحرارة التي تركها شخص كان يقف هنا ورفع حرارة الجو للحظات. لم يستطيع قط أن يفهم سر هذا الشعور..

لكن في هذه الليلة أبطأت خطواته حتى توقفت.. راح عقله الباطن يحاول أن ينظر إلى ما وراء المنحنى.. سمع صوت همس خافتا. أتنفس هو؟ أم الهواء ينضغط لأن شخصا ما يقف هنالك في صمت.. وينتظر؟

دار حول المنحنى.. كانت أوراق الخريف تتطاير بكثافة بحيث بدا كأن الفتاة الواقفة هناك تنزلق ببطء على الرصيف، وهي ترمق حذاءها الذي تتطاير حوله أوراق الشجر. كان وجهها رقيقا بالغ الشحوب، فيه فضول جائع لا يكل. كانت نظرتها تعكس الدهشة.. عينان سوداوان تتركزان على العالم حتى إنهما لا تتحركان.. كاد يسمع صوت ثوبها.. بل إنه سمع الحركة البيضاء لوجهها حين التفتت وأدركت أن هناك رجلا يقف في منتصف الرصيف أمامها.

لم تتحرك الفتاة، إنما وقفت ترمق (مونتاج) بعينين سوداوين لامعتين مليئتين بالحياة، حتى إنه شعر كأنما قال لها شيئا رائعا، لكنه كان يعرف أن شفتيه فقط تحركتا لتقولا:

«مرحبا»، حين تصلبت الفتاة إذ رأت جهاز الإشعال في يده وشعار العنقاء على صدره.

قال لها: - بالطبع أنت جارتنا الجديدة.

قالت له: - ولا بد أنك... - رفعت عينيها عن الرموز التي على ثيابه - رجل الحريق..

- كيف عرفت هذا؟

- كان بوسعي أن أعرفه مغمضة العينين.

ضحك وقال: من ماذا؟ رائحة الكيروسين؟ إن زوجتي تشكو دائما من هذا.. لا يمكنك أبدا إزالته بالغسيل.

قالت في رهبة: - لا.. لا يمكنك..

- الكيروسين ليس إلا عطرا بالنسبة لي..

أدارت وجهها إلى الرصيف المتجه إلى بيتيهما وقالت:

- أهو كذلك؟ هل يضايقك أن أمشي معك؟ أنا (كلاريس ماكليلان).

- وأنا (جاي مونتاج).. تعالي.. ماذا تفعلين في الخارج في هذه الساعة المتأخرة؟ وكم عمرك؟

مشيا على الإفريز.. كانت الفتاة تمشي جواره، وذكرته رائحتها برائحة المشمش والشليك.. كان وجهها الأبيض يتألق في ضوء القمر، وأدرك أنها تفتش عن أفضل إجابات لأسئلته.

- حسن.. أنا في السابعة عشرة من عمري ومجنونة.. عمي يقول إن الاثنين لا يفترقان. أليس هذا وقتا جميلا للمشي لي؟

أحب أن أشم الأشياء وأرنو إليها.. أحيانا أسهر طيلة الليل.. بالمناسبة أنا لست خائفة منك على الإطلاق.

- ولماذا يجب أن تخافي؟

- أنت تعرف.. أكثر الناس يخافون رجال الحريق [1].

رأى نفسه واضح التفاصيل في عينيها، معلقا وسط سائل رائق أسود، وكأن عينيها صمغ عنبر سحري سقط هو فيه، ليحفظ سليما.. وسألته (كلاريس):

- هل لي أن أسأل: منذ متى وأنت رجل حريق؟

- منذ كنت في العشرين.. عشرة أعوام حتى الآن..

- ألا تقرأ أبدا من الكتب التي تحرقها؟

ضحك وقال: - هذا ضد القانون..

أصحيح أن رجال الإطفاء في الماضي كانوا يطفئون النيران ولا يشعلونها كما يحدث اليوم؟ سمعت مرة أن المنازل كانت تحترق في الماضي، وكانوا يحتاجون إلى رجال الإطفاء لمنع النيران.

- كلا.. كانت المنازل دوما ضد الحريق.. ثقي بكلمتي في هذا الصدد..

- ولماذا تضحك؟

نظر لها بارتباك وتصلب، فقالت له:

- أنت تضحك بينما أنا لا أقول دعابات.. وتجيب بلا تفكير دون أن تتروى لتفهم كلماتي..

- أنت إنسانة غريبة ولا تحترمين أحدا.. ألا يعني لك هذا شيئا؟

ودق على رقم 451 المثبت إلى كم سترته.

- بلى.. - قالتها وأسرعت في خطواتها - هل رأيت السيارات النفاثة تتسابق على الطريق هنا من قبل؟

- أنت تغيرين الموضوع!!

- أحيانا أحسب السائقين لا يعرفون ما هو العشب ولا الزهور.. لأنهم لا يرون هذه الأشياء ببطء لو رأى السائق ضبابا أخضر لعرف أن هذا عشب، ولو رأي ضبابا ورديا لقال لك إن هذه زهور.. ولو رأي الضباب أبيض لقال لك إن هذه بيوت..

قال (مونتاج) في توتر:

- أنت تفكرين في أمور أكثر من اللازم..

- لا أهوى مشاهدة (جدران التسلية) ولا (حدائق المتعة).. لدى متسع من الوقت للأفكار المخبولة.. هل رأيت لوحات الإعلانات Billboards العملاقة في الريف؟ هل تعرف أن لوحات الإعلانات كان طولها عشرين قدما فقط في الماضي؟ لكن السيارات كانت تمر بها بسرعة حتى إنهم اضطروا إلى إطالة الإعلانات إلى مائتي قدم؟

ضحك (مونتاج) بحدة:

- لم أعرف هذا..

- لكني أعرف شيئا آخر لا تعرفه.. ثمة قطرات ندى على العشب في الصباح..

لم يستطع تذكر إن كان يعرف هذا من قبل أم لا، وجعله هذا أكثر توترا. وأشارت الفتاة إلى السماء:

- ولو أنك نظرت إلى السماء.. لوجدت وجه رجل على القمر..

واصلا السير في صمت، حتى وصلا إلى دارها.. كانت كل أضوائها تلتمع.

- ما الذي يحدث هنا؟

لم يكن (مونتاج) قد رأى كل هذه الأضواء في منزل من قبل.

- هؤلاء أبي وأمي وعمي يجلسون لتبادل الحديث.. لقد اعتُقل عمى لأنه يمشي على قدميه.. ألم أخبرك بهذا؟ أوه.. نحن من طراز مختلف تماما عن الآخرين..

- لكن عن أي شيء تتكلمون؟

ضحكت لهذا السؤال وقالت: - عمت مساء.

وواصلت مشيها.. ثم بدا كأنما تذكرت شيئا فعادت لتنظر له في دهشة وفضول: - هل أنت سعيد؟

صاح:

- أنا ماذا؟

لكنها كانت قد تركته وراحت تركض في ضوء القمر نحو بابها، وأغلقته في لطف.



لكنها كانت قد تركته وراحت تركض فى ضوء القمر نحو بابها . وأغلقته فى لطف . .

اتجه لباب بيته ووضع يده في فتحة القفازات به كي يتعرف الباب لمسته.. وسرعان ما انفتح الباب الأمامي.. بالطبع أنا سعيد.. ماذا تعتقد؟ ألست كذلك؟ ووجه السؤال إلى الغرف

الهادئة.. وقف عند حاجز التهوية في الجدار. هنا تذكر فجأة أن شيئا ما كان ينتظره خلف حاجز التهوية.. شيئا لا يريد أن يفكر فيه الآن.. وأبعد عينيه عنه..

يا له من لقاء غريب في ليلة غريبة. لا يذكر أي شيء كهذا إلا منذ عام مضى حين قابل رجلا عجوزا في الحديقة وتبادلا الكلام.

وهز (مونتاج) رأسه.. ونظر إلى الجدار الخالي.. كان وجه الفتاة هناك.. جميلا بحق في ذاكرته.. كان لها وجه نحيل كأنه عقرب ساعة، تراه شاحبا في غرفة مظلمة، حين تصحو لتعرف الوقت..

كم كان وجهها كالمرآة.. مستحيل.. كم من الناس عرفتهم يعكسون ضوءك الخاص إليك؟ بحث عن تشبيه فلم يجد إلا ما يناسب عمله.. الناس كالمصابيح تتوهج ثم سرعان ما تنطفئ.. لا أحد منهم يتلقف روحك ويعكسها لك ثانية التعرف نفسك أكثر.

كم من الوقت مشيا معا؟ ثلاث دقائق؟ خمسا؟ لكن كم بدا الوقت طويلا.. يا للظل الذي رمته على الجدار بجسدها النحيل! خيل إليه أنه لو شعر بحكة في عينيه لرمشت الفتاة بعينيها هي، ولو استرخت عضلات فكه لتثاءبت الفتاة قبل أن يتثاءب هو.

لقد شعرت أن الفتاة كانت تنتظرني في الشارع هناك..

☆ ☆ ☆

فتح باب غرفة النوم.. كأنه يعود لغرفة رخامية باردة في ضريح بعدما غاب القمر.. ظلام دامس ولا علامة واحدة على

العالم الفضي بالخارج.. هذا عالم المقبرة حيث لا يمكن أن يصل صوت واحد من المدينة العظيمة.

أصاخ السمع.. كانت هناك همهمة البعوض الذي يرقص في الهواء حوله.. شعر بابتسامة تنزلق.. تذوب.. تتكوم على نفسها.. كأنها شمعة اشتعلت طويلا ثم تلاشت.. الظلام.. لم يكن سعيدا.. لم يكن سعيدا.. قال لنفسه هذا مرارا.. لقد كان يرتدي السعادة كقناع، وقد مرقت الفتاة عبر الزقاق حاملة القناع معها، ولم يعد من المناسب أن يلحق بها ويستعيده.

كانت زوجته راقدة في الفراش كأنها جسد مسجى في قبر.. عيناها مثبتتان على السقف كأنما ربطت إليه بحبال من فولاذ لا يمكن رؤيتها.. ومن أذنيها كانت السماعتان تسكبان بحرا لا آخر له من الموسيقا والأصوات. في كل ليلة تحملها هذه الموجات فوقها - بعينين مفتوحتين - طيلة الليل حتى الصباح.

كانت الغرفة باردة، وشعر بأنه عاجز عن التنفس.. لكنه لم يرغب في فتح الستائر ليدخل الهواء النقي، لأنه لم يرغب في أن يدخل ضوء القمر. شق طريقه إلى فراشه المنفصل البارد وهو يوشك على الاختناق..

قبل أن يصدم الجسم على الأرضية بثانية واحدة. أحس به.. كأن قدمه أرسلت ذبذبات خفية وارتدت لها أصداء الحاجز الصغير في طريقها، أصدر الجسم صوتا مكتوما وتدحرج في الظلام تحت الفراش..

وقف وراح يصغي للشخص الراقد في الفراش في الظلام.. لم يكن راغبا في إضاءة النور، لذا أضاء مشعله..

كانت هناك جوهرتان تنظران له في ضوء الكشاف.. جوهرتان تسبحان في نهر من المياه الصافية..

- (مليدريد)!!

كان وجهها كجزيرة يغمرها الجليد قد يهطل فوقها المطر لكنها لا تشعر بالمطر.. قد تمر فوقها السحب بظلال متحركة لكنها لا ترى ظلالا.. لا شيء إلا عينيها الزجاجيتين وأنفاسا خافتة تخرج وتدخل من فرجتي أنفها..

وهي لا تعبأ إن كانت تلكم الأنفاس تخرج أم تدخل.. تدخل أم تخرج.. الآن يرى الشيء الذي صدمة بقدمه وجعله يتدحرج تحت الفراش.. كان الشيء زجاجة صغيرة من الدواء المنوم، كانت في وقت مبكر من هذا اليوم مليئة بثلاثين كبسولة، والآن هي على الأرض خالية منزوعة الغطاء..

إذ وقف هناك دوى صوت صارخ في الفضاء فوق البيت.. صوت تمزيق عال كأن يدين عملاقتين مزقتا عشرة آلاف ميل من القماش الأسود.. وشعر (مونتاج) بأنه يتمزق بينما القاذفات النفاثة تحلق وتحلق وتحلق.. واحدة منها.. واحدة.. اثنتان.. ست منها.. تسع منها.. واحدة.. وأخرى وأخرى وأخرى.. كلها تقوم بالصراخ بدلا منه..

واهتز البيت بالصراخ.. وشعر بيده تثب إلى الهاتف.. تحركت شفتاه أخيرا وهو يهمس بصوت مريع:

- مستشفى الطوارئ ..

☆ ☆ ☆

كان لديهم جهازان.. أحدهما منظار ينزلق إلى أحشائك مثل الكوبرا إذ تنزلق إلى بئر، لتشرب كل الماء العتيق والماضي المنسي هناك.. جهاز يشرب الماء الأخضر هناك، فهل يشرب من الظلام؟ هل امتص السموم المتراكمة عبر السنين؟ كانت له عين.. يستطيع مشغل الجهاز أن يرتدي خوذة بصرية خاصة ينظر بها إلى روح الشخص الذي يفحصه.. فماذا رأت العين؟

وكانت الألة الأخرى تعمل بدورها.. كانت تشفط كل الدماء من الجسد وتبدل بها دماء نقية طازجة..

قال مشغل الآلة:

- لا بد من أن تنظفه بالطريقتين معا.. لا جدوى من تنظيف المعدة مالم تنظف الدم أيضا.. اترك هذه المادة في الدم ولسوف تضرب المخ كمطرقة.. بانج.. بانج.. وسرعان ما ينهار المخ تماما..

سأله (مونتاج) في فتور:

- هل انتهيت من عملك؟

أغلقا الآلتين وقالا: - انتهينا.

ووقفا بينما يلتف دخان التبغ حول أنفيهما وعيونهما، لكنهما لم يرمشا وقال أحدهما:

- التكلفة خمسون دولارا..

- أولا لماذا لا تقولان لي إن كانت ستكون بخير؟

- بالطبع ستكون على ما يرام.. قد ظفرنا بالمادة اللعينة كلها هنا في حقيبتنا.. وكما قلت لك.. أنت تمتص ما هو قديم وتضع ما هو جديد، وسرعان ما تكون على ما يرام..

- كلاكما لم يحصل على الدكتوراه.. فلماذا لم يرسلوا لي أحد حاملي الدكتوراه من الطوارئ؟

تحركت لفافة تبغ مشغل الجهاز بين شفتيه:

- يا للجحيم! نحن نرى تسع أو عشر حالات كهذه كل ليلة.. إنها كثيرة جدا.. حالة كهذه لا تحتاج إلى دكتوراه.. فقط تحتاج إلى رجلين حرفيين بارعين يزيلان المشكلة في نصف ساعة.. والآن نحن متعجلان.. هناك مكالمة لنا من بيت يبعد عشرة مربعات سكنية عن هنا.. حاول أن تبقيها هادئة.. ستصحو من نومها جائعة.. والآن وداعا..

وحمل الرجلان جهازيهما وغادرا المكان.. غاص (مونتاج) في مقعد وراح يتأمل المرأة.. كانت عيناها مغمضتين الآن، وقرب كفه ليتأكد من تنفسها..

في النهاية قال:- (مليدريد)..

فكر: هناك الكثيرون منا ينتحرون.. هناك البلايين منا وهذا رقم كبير بحق.. لا أحد يعرف أحدا.. فقط الغرباء يأتون ويحطمون خصوصيتك.. الغرباء يأتون ويمزقون قلبك.. الغرباء يأتون ويمتصون دمك..

ومر نصف ساعة.. كانت دماء المرأة جديدة الآن وقد بدا أنها أكسبتها شيئا جديدا.. احمر خداها وبدا كأن شفتيها طازجتان مليئتان باللون.. إن دم إنسان آخر في عروقها حاليا..

فلو أنهم أخذوا عقلها إلى المغسلة كذلك.. لينظفوه ويغسلوه ويجففوه ويعيدوه في الصباح.. لو أمكنهم هذا!

نهض وفتح الستائر.. كانت الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل.. أحقا قد مضت ساعة فقط منذ قابل (كلاريس) في الشارع وعاد للبيت المظلم، ليجد زوجته في هذا الحال؟

وانتقل خياله إلى البيت عبر الشارع.. البيت الدافئ المضيء حيث تجلس (كلاريس) مع أسرتها.. البيت ذو الأنوار المضاءة.. إنهم يجلسون هناك ويتكلمون.. يتكلمون طيلة الليل.. ماذا يقولون؟

ودون تفكير عبر الزقاق.. ووقف هناك في البرد، وقد صار وجهه قناعا من الثلج، يصغي لصوت رجل (هل العم؟):

- حسن.. هذا زمن المناديل الورقية.. تخط على شخص ما.. كوم المنديل.. تخلص منه.. ابحث عن آخر.. تمخط.. كوم.. ابحث.. كل إنسان يستغل الآخرين..

عاد (مونتاج) إلى البيت.. أغلق النافذة.. أحكم الأغطية حول (مليدريد)، ثم رقد وضوء القمر على وجنتيه وعلى حاجبيه، وقد انصب ضوء القمر في كل عين صانعا سدا من الفضة..

قطرة مطر.. (كلاريس).. قطرة أخرى (مليدريد).. ثالثة.. العم.. رابعة.. النار.. حبوب منومة.. مناديل ورقية.. تمخط.. تخلص.. ابحث.. واحد اثنان ثلاثة.. واحد اثنان ثلاثة.. (كلاريس).. (مليدريد).. العم.. النار.. المطر! العاصفة.. العم يضحك.. العاصفة والنار في البركان.

قال:

- لا أعرف أي شيء أكثر من هذا..

وترك قرصا منوما يذوب تحت لسانه.

☆ ☆ ☆

في التاسعة صباحا كان فراش (مليدريد) خليا.. جرى (مونتاج) عبر الردهة وتصلب أمام باب المطبخ.. كانت شرائح الخبز المحمص تثب من (التوستر) لتتلقفها يد معدنية تدهنها بالزبد.. كانت (مليدريد) جالسة تنتظر إفطارها، وفي أذنيها السماعتان اللتان تسليانها طيلة الوقت.. نظرت فجأة فرأته وهزت رأسها.

سألها:

- أنت على ما يرام؟

كانت خبيرة في قراءة حركات الشفاه بعد عشرة أعوام من استعمال السماعات القوقعية على الأذنين، لذا هزت رأسها، وجلس (مونتاج)..

قالت:

- لا أعرف سبب كوني جائعة لهذا الحد..

- أمس أنت...

- لم أنم جيدا.. وأشعر بإرهاق شديد.. رباه! أنا جوعي تماما.. لا أستطيع تصور هذا.. ولكن ماذا عن أمس؟

- ألا تذكرين؟

- ماذا؟ هل كان لدينا حفل صاخب أو شيء من هذا القبيل؟ من كان هنا؟

- أناس قليلون.

مضغت شريحتها من الخبز المحمص وقالت:

- آمل أنني لم أرتكب حماقات..

قال في هدوء:

- لا..

عند العصر أمطرت السماء وصار الكون كله رماديا..

وقف في الصالة يثبت الشارة على صدره. وتوقف عند فتحة جهاز التهوية لفترة ما.. كانت زوجته في غرفة التلفزيون وقد كفت للحظة عن قراءة النص وصاحت:

- هيه! الرجل يفكر!

قال لها: - أريد أن أتكلم معك.. لقد أخذت كل الحبوب من زجاجتك ليلة أمس.

قالت في دهشة

- أوه.. لا.. ما كنت لأفعل هذا..

- الزجاجة كانت فارغة..

ما كنت أفعل شيئا كهذا.. لماذا أفعله؟

- لا أدري.

كان من الواضح أنها ترغب في أن يرحل لتواصل البرنامج.. وقالت له:

- لم أفعل هذا.. ولو بعد مليون سنة..

- حسن.. ما دمت تقولين هذا.. – وسألها بتعب - ماذا في التلفزيون هذا العصر؟

لم ترفع عينيها عن النص بين يديها وقالت:

- حسن.. هناك تمثيلية ستذاع عبر دائرة (من الجدار للجدار) خلال عشر دقائق.. لقد أرسلوا لي نص التمثيلية هذا الصباح.. هناك سطور ناقصة وعليّ أن أكملها أنا.. إنها فكرة جيدة.. السطور الخاصة بربة المنزل ناقصة وسألعبها أنا على الهواء..

سيراقبونني جميعا عبر الجدران الثلاثة.. مثلا سيقول الرجل في التمثيلية: ما رأيك في هذا يا (هيلين)؟

عندئذ أتكلم أنا.. أقول: هذا يبدو جيدا.. ثم تستمر أحداث التمثيلية إلى أن يقول لي الرجل:

هل تعتقدين هذا يا (هيلين)؟ فأقول: نعم.. أليس هذا ممتعا؟

نظر لها ثم قال:

- هذه متعة أكيدة..

- بالطبع متعة.. خاصة لو أنك قمت بتركيب جدار التلفزيون الرابع.. لا أدري متى يمكنك شراء واحد؟ إن ثمنه لا يتجاوز ألفي

دولار..

- هذا ثلث دخلي السنوي.

- ألا تفكر فيّ أحيانا؟ يمكننا الاستغناء عن أشياء صغيرة كثيرة من أجل هذا الحلم..

- نحن بالفعل نستغني عن أشياء كثيرة من أجل دفع ثمن الجدار الثالث.. لقد اشتريناه منذ شهرين لا أكثر.. فهل تذكرين هذا؟

نظرت له في دهشة:

- هل من هذا الوقت فقط؟ حسن.. إلى اللقاء يا عزيزي..

تركها وخرج من المنزل إلى حيث الأمطار.

☆ ☆ ☆

كان المطر بدأ يقل حين رأي الفتاة تمشي على الإفريز ووجهها للسماء، وابتسمت حين رأت (مونتاج)..

- مرحبا.

رحب بها وقال:

- ماذا تعملين الآن؟

- أنا ما زلت مجنونة.. إن المطر جميل وأنا أحب السير فيه.. - ولعقت شفتيها - بل إن مذاقه نفسه طيب.. ألا ترى هذا؟

- هل كل ما تفعلين هو أن تجولي وتجربي كل شيء مرة واحدة؟

- أحيانا مرتين..

ونظرت لشيء في يدها فسألها:

- ماذا هنالك؟

- زهور النرجس.. يقال إنك لو فركتها تحت ذقنك، ومسحتها فلم يزل أثرها، كان معنى هذا أنك واقع في الحب مع شخص ما!

ثم ابتسمت وقالت:

- كنت ذاهبة إلى الطبيب النفسي.. هم يرغمونني على ذلك.. مازال الرجل يجاهد في كشف أغوار نفسي، ويقول إنني كالبصلة.. مازال يقشر طبقة تلو طبقة من أسراري..

- أنا متأكد من أنك بحاجة إلى الطب النفسي..

- هل تعنى هذا؟

أخذ نفسا عميقا وقال:

- لا أعنيه..

- يريد الطبيب النفسي معرفة سبب تجوالي في الغابات.. وسبب مراقبتي للطيور وجمعي الفراشات.. أحب أن أرجع رأسي للوراء هكذا وأترك المطر يسقط داخل فمي.. إنه رائع المذاق بهذه الطريقة.. هل جربته؟

- أنت غريبة الأطوار.. هل قلت إن عمرك سبعة عشر عاما؟ هذا غريب.. إن زوجتي في الثلاثين لكنك أحيانا تعطين الانطباع بأنك أكبر منها.

هل لي أن أثير غيظك ثانية يا مستر (مونتاج)؟

- تفضلي..

- كيف بدأ الأمر بالنسبة لك؟ كيف صرت رجل إطفاء؟ كيف فكرت في الوظيفة التي تمارسها؟ أنت لست كالآخرين فقد قابلت بعضهم.. حينما أتكلم أراك تنظر لي.. حين أتكلم عن القمر أراك تنظر للقمر.. الآخرون لا يفعلون هذا.. كانوا سيرحلون تاركين إياي أتكلم.. لا أحد لديه وقت يكفي للآخرين..

شعر بجسده ينقسم إلى نقيضين يحاولان التهام بعضهما: الطيب والشرير.. الحار والبارد.. الصلب واللين.. وقال لها:

- ربما كان من الأفضل أن تلحقي بموعدك..

ووقف وحده طويلا بعد رحيلها.. ثم إنه نظر لأعلى إلى المطر وفتح فمه.

☆ ☆ ☆

راح (مونتاج) يتأمل في إعجاب كلب الصيد الآلي الذي زود به مركز الإطفاء.. كان يشبه نحلة عجيبة ثمانية الأرجل، قادمة من حقول تزخر بعسل مسموم شائه.. والآن عادت من هناك مغطاة بالكوابيس كي تغفو قليلا..

في الليالي المملة - أي في كل ليلة - كان الرجال يتسلون بجعل الكلب الآلي يصطاد بعض الحيوانات الحية:

الفئران وأحيانا الدجاج وأحيانا القطط التي يجب إغراقها على كل حال.. كانوا يطلقون سراح هذه الحيوانات في مبنى الإطفاء، ويتراهنون على أيها سيظفر به الكلب الآلي أولا.. بعد ثوان سرعان ما يسقط الفأر أو القط أو الدجاجة في المخالب الحديدية للكلب، وتخرج إبرة طولها أربع بوصات من فم الكلب لتحقن جرعة عالية من البروكايين.. وسرعان ما تلقى الفريسة في المحرقة.

لم يكن (مونتاج) يشارك في هذه المباريات، فقد مر عامان منذ كان يراهن مع المراهنين، ويخسر راتب أسبوع كامل، ويواجه سحنة (مليدريد) الغاضبة المجنونة.. لكنه اعتاد على أن يجلس ويصغي إلى صوت الضحك من أسفل.. صوت أقدام الفئران، وصراخها الشبيه بصراخ الكمان.

فجأة لمست يده أنف الكلب..

نهض الكلب في مأواه ونظر له بعينين من النيون الأخضر الوهاج، وأطلق المزيد من الزئير.. نوعا غريبا من الضوضاء الكهربية والطحن واحتكاك المعادن.. تواثب قلب (مونتاج) وهتف:

- لا.. لا يا بني..



نهض الكلب في مأواه ونظر له بعينين من اللون الأخضر الوهاج
وأطلق المزيد من الزئير ..

ورأى الإبرة الفضية تتحرك في الهواء.. تتلوى.. منذرة بالحقن.. وتعالي زئير الوحش..

تمسك (مونتاج) بالعمود النحاسي الذي ينقلهم من طابق إلى طابق، وبسرعة ارتفع به العمود إلى السقف بعيدا عن الوحش الألى الغاضب..

كان يرتجف، ووجهه أبيض مخضر من الفزع.. ونظر لأسفل فوجد أن الوحش عاد لمأواه، وقد هدأت أضواؤه، وانثنت أرجله الثمانية من تحته..

نظر (مونتاج) وراءه ليجد أربعة رجال يلعبون الورق في ركن المكان، وينظرون له دون أن يقول أحدهم شيئا.. فقط تكلم الرجل الذي يلبس قبعة الكابتن ويضع رمز العنقاء عليها، وقد استبد به الفضول:

- (مونتاج)؟

- إنه لا يحبني.

- من؟ الكلب الإلكتروني؟ هلم.. تعقل.. إنه لا يحب ولا يكره.. إنه (يعمل) فقط.. إن له مسارا نحدده له وهو يتبعه فقط.. ليس إلا سلوكا وبطاريات ودوائر.

- الكلب يعتمد على ذاكرة برمجناها له.. إنه يعرف الأحماض الأمينية ونسب الكبريت لكل الموجودين هنا من قبل.. لكنه اهتاج حين دنوت منه.. غضب لكنه لم يهاجم، وكأن هناك من أعطاه ما يكفي كي يكون ضدي..

هتف الكابتن:

- هلم يا (مونتاج) لا تكن سخيفا.. من يصنع عملا كهذا؟ ليس لك أعداء هنا يا بني.. اطلب من الفنيين أن يفحصوا

الكلب.

- ليست هذه أول مرة يهددني فيها.. لقد فعلها مرتين الشهر الماضي.. لا أريد أن أكون الضحية التالية.

ووقف (مونتاج) صامتا فنظر له الكابتن نظرة متسائلة.. فقال هذا:

- أحيانا أتساءل عما يفكر فيه هذا الكلب طيلة الليل وحده.. سيكون من المؤسف ألا يحوي عقله إلا الصيد والقنص والدماء.

- الكلب الآلي لا يفكر.. إنه قطعة من الفن الرفيع.. بندقية تحدد هدفها وتصوب عليه، وتصيبه في كل مرة واثقة من التسديد المحكم.. ترى هل يضايقك ضميرك لسبب ما؟

☆ ☆ ☆

يوم يومان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة أيام.. كان يخرج من الدار ليرى (كلاريس) في كل مرة، وفي كل مرة كانت تصنع شيئا جديدا: تجمع الزهور.. تحمل كيسا من الكستناء.. تشم الأشجار.. وفي كل مرة كانت تمشي معه حول ركن الشارع.. وقد قال لها في مرة:

- لماذا أشعر كلما رأيتك بأنني أعرفك من زمن؟

- لأنني أميل إليك، ولأنني لا أريد منك منفعة.. هل تأملت اللافتات الإعلانية العملاقة كما قلت لك؟

نظر لها في دهشة ولم يتمالك إلا أن يضحك في ارتباك.. وسألها:

- لماذا لست في المدرسة؟ أراك كل يوم تجولين ولا تفعلين شيئا..

- لم يفتقدوني هنالك.. يقولون إنني غير اجتماعية وهذا يدهشني.. أنا اجتماعية جدا لكن المشكلة هنا ما تعنيه لفظة (اجتماعي).. (اجتماعي) بالنسبة لي معناه الكلام عن أشياء كهذه.. - وداعبت الكستناء التي جمعتها من الشجرة - لكني لا أجد شيئا اجتماعيا في أن تجلس الناس معا ولا تسمح لهم بالكلام.. الجلوس ساعة أمام التلفزيون.. اللعب ساعة.. الرسم ساعة.. بينما لا أحد يوجه أسئلة.. أنت فقط تتلقى الإجابات الجاهزة.. ثم ينتهي اليوم وأنت منهمك فلا تجد مكانا إلا السرير أو تذهب إلى إحدى حدائق التسلية، حيث تستمتع بتهشيم النوافذ في (قسم التحطيم) أو تهشم بعض السيارات في (قسم تهشيم السيارات).. نعم.. ليس لي أصدقاء لكنني لا أجد من يستحق مصادقته..

- تبدين لي عجوزا..

- أحيانا أنا عتيقة.. الصبية في عمري يتسلون بقتل بعضهم البعض.. لقد أطلقت الشرطة الرصاص على ستة من زملائي العام الماضي فقط.. ومات عشرة في حوادث سيارات، لكن البوليس لا يعبأ بهم ما داموا يملكون تأمينا.. طالما أنت مؤمن عليك بعشرة آلاف دولار فالكل راض سعيد.. جدي يتحدث عن زمن كان الصبية فيه لا يقتلون بعضهم البعض وكانوا يشعرون بالمسئولية.. لقد مشيت في كل مكان من البلدة، وهبطت في محطات المترو.. هل تعرف ما لاحظته؟ الناس لا يتكلمون عن أي شيء.. في المعارض لا ترى إلا الفن التجريدي.. جدي يتكلم

عن زمن كانت فيه الصور في المعارض تحكي عن أشياء أو تظهر أناسا..

☆ ☆ ☆

يوم يومان ثلاثة أربعة خمسة سنة سبعة أيام.. في مبنى الإطفاء..

اليوم الثالث:

- (مونتاج).. للمرة الثانية تدخل من الباب الخلفي.. هل مازال الكلب يضايقك؟

اليوم الرابع:

- (مونتاج).. سمعنا خبرا غريبا هذا اليوم.. رجل إطفاء في (سياتل) برمج الكلب الإلكتروني عمدا كي يهاجمه هو.. أي نوع من الانتحار هذا؟

خمسة ستة سبعة أيام.. وقد رحلت (كلاريس).. لا يفهم السبب لكنه لم يعد يراها على الإطلاق.. الشارع خال.. الأشجار خالية.. الإفريز خال.. بحث عنها في كل مكان.. حسب أنه لو مشى في نفس المسارات فسوف يجدها، لكن لا أثر لها.. وأغمض عينيه في مبنى الإطفاء يصغي للساعة الناطقة، وصوت لعب الأوراق من رفاقه.. الساعة الباردة في اليوم البارد من العالم الأكثر بردا.. ومن المذياع جاء صوت المذيع:

- قد تعلن الحرب في أية لحظة.. إن هذا البلد يقف متأهبا للدفاع عن نفسه..

وهنا ارتجف مبنى الإطفاء إذ حلق سرب من المقاتلات في سماء الصباح المكفهرة.

ونظر (مونتاج) من حوله.. كان الكابتن (بيتي) يرمقه في اهتمام وفضول كأنما هو تمثال في متحف..

في أية لحظة سينهض.. يمشي نحوه.. يلمسه ويعرف عقدة الذنب التي تثقل ضميره..

ونظر (مونتاج) إلى زملائه.. أتراه رأى في حياته رجل إطفاء لا يملك شعرا أسود وحاجبين سوداوين.. وبشرة لوحتها الشمس، وذقنا حلقت بعناية لكنها مازالت تعكس لونا أزرق معدنيا؟ كل هؤلاء الرجال انعكاسات في المرآة له هو نفسه.. هل يختارون رجال الإطفاء لمظهرهم فقط؟ لرائحة الشياط المتصاعدة منهم؟

- ماذا عن المكتبة التي تولينا أمرها في الأسبوع الماضي؟ ماذا حدث لصاحبها؟

- أخذوه وهو يصرخ إلى المصحة العقلية..

- لكنه لم يكن مجنونا..

رتب الكابتن أوراقه وقال:

- كل رجل مجنون لو حسب أنه يستطيع خداع الحكومة وخداعنا..

- هل كان الأمر دائما كهذا؟ أعنى الحريق والكتب؟ أعني (كان ياما كان..).

نظر له الكابتن في دهشة وقال:

- (كان ياما كان..)؟ ما معنى هذا؟

صمت (مونتاج) ولم يتكلم.. كانت هذه العبارة هي السطر الأول من إحدى قصص الأطفال التي وجدها في مكتبة أحرقها الأسبوع الماضي.

كان الرجال يراجعون كتاب التعليمات الخاصة بالحرق، وكانت تقول:

القاعدة:

1- استجب للإنذار بسرعة.

2- أشعل النار بسرعة.

3- أحرق كل شيء.

4- عد سريعا لمبنى الإطفاء.

5- ابق مستعدا للإنذارات التالية.

ودوي جرس الإنذار.

دق الجرس في السقف مائتي مرة.. فجأة خلت أربعة مقاعد.. وسرعان ما اختفى الرجال..

- (مونتاج)! لقد نسيت خوذتك!

فاستردها من على الجدار خلفه.. وجرى ليهبط على العمود النحاسي، وراحت ريح الليل تعول مع سرينة العربة المتجهة لهدفها. كان بيتا من ثلاثة طوابق في الجزء القديم من البلدة..

وكان عمره قرنا لكنه ككل البيوت الأخرى قد تم طلاؤه بمادة واقية من النار، وبدا كأنما تلك الطبقة هي الشيء الوحيد الذي يبقى المنزل ملتصقا بالسماء..

وتوقف المحرك.. ووثب (بيتي) و(ستونمان) و(بلاك) إلى الإفريز وقد بدوا أكثر بدانة في ستراتهم الواقية من النيران.. هشموا الباب الأمامي، وقبضوا على امرأة عجوز برغم أنها لم تكن تجرى.. لم تكن تحاول أي فرار.

كانت تقف، وتطوح ذراعيها من جانب لآخر.. لسانها يحاول أن يتحرك في فيها، وعيناها تحاولان تذكر شيء ما.. في النهاية تمكنت من الكلام:

- كن رجلا يا سيد (ريدلي).. هذه الليلة بقدرة الله سنشعل شمعة في إنجلترا، أومن أنها لن تنطفئ أبدا..

صاح (بيتي):

- كفي عن هذا.. أين هي؟

وصفعها على وجهها وكرر السؤال، فتصلبت عيناها عليه:

- أنت تعرف أين هي وإلا ما كنت جئت هنا..

تأمل الرجل البطاقة التي في يده، والتي تحمل نص البلاغ الأصلي الذي جاءهم بالهاتف، وقد كتب عليها: لدي أسباب للشك في القبو.

- هلموا يا رجال نظفر بها..

سرعان ما صاروا في ظلمة دامسة.. يفتحون أبوابا غير موصدة.. وفجأة هوى شلال من الكتب فوق (مونتاج).. يا للأسى! سرعان ما تزول النشوة قبل أن تبدأ.. دائما ما يأتي رجال الشرطة ويقيدون الضحية ويكممون فيها بالشريط اللاصق، قبل أن تصل أنت لتجد منزلا فارغا.. أنت لم تؤذ أحدا من قبل.. أنت تؤذي الأشياء فقط! ولأن الأشياء لا يمكن إيذاؤها لأنها لا تصرخ ولا تولول، فلم يحدث ما ينغص ضميرك من قبل..

إن عملك هو التنظيف فقط.. تعيد كل شيء لحاله.. من معه الكيروسين.. من معه عود ثقاب؟

لكن هذه المرأة وقعت في الشرك، وقد وجد الرجال أنفسهم يحدثون أكبر قدر من الصخب والضحك كي يغطوا صمتها المليء بالاتهام لهم.

وشعر (مونتاج) بالضيق.. ليتها ليست هنا تشهد ما يفعلون..

طارت الكتب فوق كتفي (مونتاج) كأنما هي حمامات بيض.. ترفرف أجنحتها.. هوى كتاب على يده وانفتحت صفحة منه.. ووسط العجلة وجد وقتا كافيا كي يقرأ سطرا واحدا ظل يتوهج في ذهنه كأنما حفر هناك:

«أخلد الزمن للنوم في شمس العصر.». رمى الكتاب على الأرض وسرعان ما هوى كتاب آخر بين يديه.

الرجال يرمون له بأكوام من المجلات التي يغطيها الغبار.. فتحلق كأنها طيور ذبيحة.. والمرأة تقف هناك تراقب ما يجري.

ولم يفعل (مونتاج) شيئا.. يداه تصرفتا بإرادتها الحرة.. أمسك بالكتاب وبسرعة طوحه تحت إبطه المبتل بالعرق داخل سترته، ورسم على وجهه أمارات البراءة كأنه حاو بارع.. انظروا هنا!! هذا رجل بريء!!

- (مونتاج)!

فوثب في مكانه..

- لا تقف هنالك يا أحمق!

كانت أكداس الكتب الآن كأنها كومة أسماك تركت لتجفف.. والرجال يتعثرون ويسقطون من فوقها.. أين الكيروسين؟ وأغرقوا الكتب بالسائل من الحاويات التي تحمل رقم 451 على ظهورهم.. ثم إنهم ركضوا إلى أسفل وسط أبخرة الكيروسين.

كانت المرأة الآن راكعة وسط الكتب تتحسس جلودها وأغلفتها المصنوعة من الورق المقوى، وترمي (مونتاج) بنظرة اتهام.. وقال لها (بيتي):

- أنت تعرفين القانون يا امرأة.. ما الرابط بين هذه الكتب وبعضها؟ لقد قضيت أعواما من عمرك في برج (بابل) هذا.. بينما القوم الذين في هذه الكتب لم يعيشوا قط.. هلمي!



كانت المرأة الآن راكعة وسط الكتب تتحسس جلودها وأغلفتها
المصنوعة من الورق المقوى .

هزت المرأة رأسها نفيا، فعاد يقول لها:

- لسوف يتبخر البيت كله..

وبدأ الرجال يغادرون البيت، فصاح بهم (مونتاج):

- ما هذا؟ هل تتركونها هنا؟ لماذا لا نرغمها على الخروج؟

قال (بيتي) بلا اكتراث:

- كل هؤلاء المخابيل يفضلون الموت مع كتبهم.. هذا النمط من السلوك معتاد..

توسل لها (مونتاج):

- لسوف تأتين معي..

- لا.. شكرا على كل حال.

ثم أخرجت شيئا من يدها.. كانت علبة ثقاب عادية جدا..

رأى الرجال ما أخرجته فركضوا يتدافعون فرارا من البيت.. وتراجع الكابتن (بيتي) ببطء وبظهره إلى الباب محتفظا بكبريائه.. وفكر (مونتاج):

رباه! دائما ما تأتي الإنذارات ليلا لا نهارا.. ترى ما السبب؟ هل لأن النار تكون أجمل في الليل؟

مدت المرأة يدها وحكت عود الثقاب، وفي اللحظة التالية توهج اللهب وسرعان ما انتقلت النار إلى أبخرة الكيروسين من حولها.. وشعر (مونتاج) بأن الكتاب يخفق كالقلب جوار صدره..

جرى إلى الباب بينما الكيروسين الملتهب يتلوى كأنه مسار بزاقة شريرة..

ولم يتبادل الرجال حديثا في أثناء العودة إلى مبني الإطفاء.. لم ينظر أحدهم للآخر.

بعد فترة قال (مونتاج):

- السيد (ريدلي)..

- ماذا؟

- قالت: السيد (ريدلي).. حين دخلنا من بابها.. ثم قالت: كن رجلا.. ثم قالت.. قالت...

- هذه الليلة بقدرة الله سنشعل شمعة في إنجلترا، أومن أنها لن تنطفئ أبدا..

نظر له (مونتاج) في دهشة وكذا فعل (بلاك)، فقال (بيتي):

- هذه الكلمات قالها رجل يدعى (لاتيمر) لرجل يدعى (نيكولاس ريدلي) بينما هما يحرقان حيين بتهمة الهرطقة في (أوكسفورد)، في 16 أكتوبر عام 1555.. تبا! خذ الحذر يا (ستون).. لقد كدت تدهم عابر السبيل هذا.

☆ ☆ ☆

راح ينظر لزوجته.. وتذكر كيف وقف الرجلان ينظفان أحشاءها من المنوم.. كم مرة فعلتها وتصحو ناسية تماما أنها فعلتها.. وفي كل مرة لا ينام هو ويمضي الليل ساهرا.. كان يشعر في كل مرة أنها لو ماتت فلن يبكي.. لأن موتها سيكون كحادث في الشارع.. موت مجهول.. صورة في صحيفة.. وقد جعلته هذه الفكرة يبكي، ليس بسبب الموت ولكن بسبب العجز عن البكاء على الموت.

رجل سخيف خاو متزوج من امرأة سخيفة خاوية.. ما الذي جعلك خاويا إلى هذا الحد؟ ما الذي استلب كل ما في داخلك؟ طيلة اليوم تشاهد مسلسلات عجيبة على الشاشات الثلاثية التي ستصير قريبا رباعية.. أو تقود السيارة بسرعة مجنونة وكلاهما يصرخ محاولا أن يسمع الآخر ما يقول..

- حاولي أن تقللي السرعة قليلا..

تصرخ:

- ماذا؟

- قلليها إلى الحد الأقصى..

لكنها لا تسمع وتزيد السرعة إلى 100 ميل في الساعة، حتى ينقطع نفسه..

وفي البيت تضع السماعات على أذنيها، فيشعر أن التفاهم مستحيل.. عليه أن يؤدي كلماته بطريقة (البانتومايم).. وبأمل في أن يخترق الغلاف البلاستيكي حولها.. بأمل في أن يجعلها تفهم.

- هل تذكرين الفتاة التي كلمتك عنها؟

- أية فتاة؟

- جارتنا.. (كلاريس)..

- أوه.. أعرف.. هي.. لقد رحلت.

- رحلت؟ لأين؟

- لا أعرف.. لكن الأسرة كلها قد تركت الدار.. أعتقد أن هذا للأبد.. لربما ماتت الفتاة على ما أعتقد..

- نحن لا نتكلم عن نفس الفتاة..

- بل هي نفسها.. (مكيلان).. لقد دهمتها سيارة منذ أربعة أيام.. أعتقد أنها ماتت..

- أنت لست متأكدة من كلامك!

- نعم لست متأكدة.. أنا موقنة تماما..

- لماذا لم تخبريني؟

- نسيت..

ثم إنها وضعت السماعات على أذنيها ومن جديد غابت بعيدا عنه.

في الصباح كان يشعر بالصداع والرجفة.. وقالت له (ملدريد):

- لا يمكن أن تكون مريضا.. لقد كنت على خير حال أمس..

أغمض جفنيه على النيران وقال:

- لا.. لم أكن على خير حال.

- يجب أن تنهض.. إنها الظهيرة وأنت قد نمت أربع ساعات أكثر من المعتاد...

- هلا جئت لي ببعض الماء والأسبيرين؟

- أنت لم تمرض قط من قبل..

- حسن.. لكني مريض الآن.. لن أذهب للعمل فاطلبي (بيتي) لي..

خرجت من الغرفة ثم عادت لتقول:

- كنت غريب الأطوار أمس.

نظر إلى كوب الماء الذي جلبته وقال:

- أين الأسبيرين؟

- أوه.. - ومشت إلى الحمام ثانية - هل حدث شيء ما؟

- لا شيء.. أشعلنا حريقا..

- أما أنا فكانت أجمل ليلة لي.. كنت أشاهد التلفزيون في الصالة..

- ماذا كان فيه؟

- برامج..

- أية برامج؟

- أفضل أنواع البرامج.. المجموعة..

- نعم.. المجموعة.. المجموعة.. المجموعة..

وضغط موضع الألم في عينيه، وفجأة جعلته رائحة الكيروسين يتقيأ.. صاحت زوجته وهي تنظر إلى القيء:

- لماذا فعلت هذا؟

- أمس أحرقنا امرأة عجوزا مع كتبها..

- لحسن الحظ أن السجادة قابلة للغسيل..

وتناولت ممسحة وبدأت التنظيف وهي تغني..

- (هيلين).. ألن تسأليني عن ليلة أمس؟

- ماذا عنها؟

- لقد أحرقنا ألف كتاب وأحرقنا امرأة.. أحرقنا كتبا لـ (دانتي) و (سويفت) و (ماركوس أوريليوس).

- ألم يكن هذا الأخير أوروبيا؟

- لا أدري..

- كان أوروبيا ومتطرفا.. - وأمسكت سماعة الهاتف وقالت - أنت لا تريد مني أن أطلب (بيتي) حقا..

- يجب.

- لا تصرخ..

- أنا لا أصرخ.. ولكنني لا أستطيع أن أتصل به لأقول له إنني لن أعمل اليوم..

- ولماذا؟

فكر في نفسه: لأنك خائف.. لأنك طفل يدعي المرض.. لأنك لو اتصلت ستتحول المحادثة إلى التالي: نعم يا كابتن.. أنا أشعر بتحسن.. سأكون عندك في العاشرة مساء..

قالت له (ملدريد):

- أنت لست مريضا.. هل تضحى بجهد كل هذه الأعوام لمجرد أن امرأة وكتبها...

- كان يجب أن تريها يا (ميلي)..

- هي لا تعني شيئا لي.. هذه مسئوليتها.. ما كان يجب أن يكون عندها كتب.. أنا أكرهها.. لقد جعلتك تتغيب عن العمل، وسرعان ما سنجد نفسينا مطرودين.. بلا بيت ولا عمل ولا شيء..

- أنت لم تكوني هناك.. لا بد من شيء ما في الكتب.. شيء لا تتصوره.. شيء يجعل امرأة تبقى في بيت يحترق.. لا بد من شيء هناك..

- لعلها كانت امرأة محدودة الذكاء.

- كانت أكثر عقلانية منك ومني.. وقد أحرقناها..

- كان عليك أن تفكر في هذا من قبل أن تصير رجل إطفاء..

- أفكر؟ كيف أفكر وقد كان أبي وجدي رجلي الإطفاء، وقد كبرت لأكون مثلهما.. لكني ليلة أمس فطنت لحقيقة أخرى هي أن هناك رجلا وراء كل كتاب.. رجلا فكر وقضى طيلة عمره يصنع هذا الكتاب الذي نحرقه نحن في دقيقتين..

- لا تضايقني.. فلم أفعل شيئا..

- لا أضايقك.. جميل.. لكن ألا ترين من المفيد أن يتضايق المرء من حين لآخر؟ منذ متى شعرت حقيقة بالضيق لأي شيء مهم؟ لأي شيء حقيقي؟

وتذكر هنا المرأة التي كان الرجلان يجريان لها غسيل المعدة.. لكن كانت هذه (مليدريد) أخرى.. (ملدريد) تكمن عميقا تحت جلد هذه، ولم تلتق كلتا المرأتين قط..

هنا دوي صوت من مكبر الصوت ينبئ بقدوم أحدهم على الباب.. كان هذا هو الكابتن (بيتي) نفسه.. وقد أصرت (مليدريد) على أن يكلمه زوجها عن مرضه بنفسه.

تأكد (مونتاج) من أن الكتاب مخفى جيدا تحت الوسادة ثم رتب الأغطية على ركبتيه، وجلس في الفراش... وبعد قليل دخل الكابتن (بيتي) الغرفة مع الزوجة ويداه في جيبية، وهو ينظر إلى كل شيء ما عدا (مونتاج)..

- أسكتي أقاربك هؤلاء.

قالها الكابتن للزوجة وهو يعني صوت التلفزيون المرتفع، فغادرت الغرفة ركضا، وكفت الضوضاء في الصالة..

جلس الكابتن على أكثر المقاعد راحة في الغرفة، وصمت قليلا حتى أشعل غليونه النحاسي ونفث سحابة دخان كثيفة..

- فقط أردت أن آتي وأرى المريض..

- وكيف خمنت؟

ابتسم الرجل حتى ظهرت لثته وأسنانه شديدة البياض وقال:

- رأيت كل شيء.. أنت كنت ستطلب إجازة هذه الليلة..

وراح يشعل أعوادا من علبة ثقابه الأبدي، ويطفئها بفمه.. يشعل أعوادا ويطفئها.. ونظر إلى اللهب:

- حسن.. متى ستتحسن؟

- غدا غالبا.. ربما بعد غد.. أول الأسبوع..

- هذا متوقع.. هذه لحظة في حياة كل رجل إطفاء.. والسبب أن أحدا منكم لم يعد يتلقى تاريخ المهنة.. هذه أشياء لم يعد يعرفها إلا الرؤساء.. أنت تسأل متى بدأت مهنتنا هذه.. أقول لك إنها بدأت في الوقت الذي نطلق عليه (الحرب الأهلية).. الحقيقة أن عملنا لم يتضح إلا في القرن العشرين حين ظهرت الصور الفوتوغرافية والسينما ثم التلفزيون.. وصارت الأمور أسهل.. كانت الكتب تروق لبعض الناس هنا وهناك وفي كل مكان.. كان بوسع المرء أن يكون مختلفا.. كان العالم فسيحا..

ثم فجأة امتلأ العالم بالأذرع والمرافق والأفواه.. تضاعف السكان مرارا.. حاول أن تتخيل معي.. رجل القرن التاسع عشر بخيوله وكلابه وعربته والحركة البطيئة.. ثم في القرن العشرين تتسارع الحركة.. تصير الكتب أقصر.. تظهر صحف (المختارات) و(التابلويد).. كل شيء يغلي.. الأعمال الكلاسية تّقتَطع كي تناسب برامج المذياع في القرن العشرين ثم تُقتطع ثانية لتناسب تعليقا على كتاب في صحيفة يقرأ في دقيقتين.. ثم ينتهي كتعليق من عشرة سطور في فهرس.. ولم يعد (هاملت) إلا صفحة في كتاب يقول: الآن يمكنك أن تقرأ كل الأعمال الكلاسية في كتاب واحد.. أنا أعرف أنك سمعت عن (هاملت) من قبل.. بسرعة.. نظرة عين.. الآن.. لمحة بصر.. هنا هناك بسرعة.. فوق تحت.. داخل خارج.. لماذا كيف.. ماذا أين.. بنج بانج.. سياسة؟ جملتان وعنوان!! أدر عقل الإنسان بسرعة في آلة الطرد المركزي، فتتطاير كل الأفكار غير المجدية المضيعة للوقت!

كانت (مليدريد) تنسق الفراش، وارتجف قلب (مونتاج) وهي ترتب الوسادة تحت ظهره.. لن تلبث حتى تصيح: ما هذا؟ وترفع الكتاب في براءة مؤثرة..

- المدرسة صارت أقصر.. اختزلت الفلسفات والتاريخ وأهملت الأجرومية.. لماذا تتعلم أي شيء غير ضغط الأزرار وربط الصواميل وجذب المحولات؟ الحياة صارت كلها مجرد سقطة على مؤخرتك.. بوف بانج واو!!

قالت (ملدريد) وهي تربت على الوسادة:

- واو!

كانت الآن تتحسس الحدود الخارجية للكتاب بأناملها..

والآن تعرفته وبدت الدهشة على وجهها وانفتح فمها لتسأل سؤالا..

- ما هذا؟

فدفع (مونتاج) بنفسه للوراء وصاح:

- اجلسي! - فوثبت للوراء - نحن نتكلم هنا!

واصل (بيتي) الكلام كأنما لا يسمع ما يقولان.. الآن صار غير مرئي خلف سحب الدخان الكثيف:

- أنت تحب البيزبول.. أليس كذلك يا (مونتاج)؟

- البيزبول لعبة جيدة

- وتحب البولينج؟

- البولينج لعبة جيدة كذلك..

- الرياضات الجماعية ممتعة وليس عليك فيها أن تفكر.. انشر المزيد من الرسوم الهزلية في الكتب.. أعطهم صورا أكثر.. الشوارع ملأى بأناس يذهبون إلى مكان ما.. مكان ما.. لاجئو الجازولين.. يذهبون من مكان لآخر ويتبعون القمر.. ينامون حيث نمت أنت أمس.. وينتقلون من فندق لآخر..

المدارس تخرج عدائين.. متسابقين.. واثبين.. بدلا من النقاد والعارفين.. صارت كلمة (مثقف) سبة كما تستحق أن تكون.. أنت تذكر كيف كنت تخشى وتكره الصبي الذكي في مدرستك الذي كان يحل كل مسائل الرياضيات بسهولة.. وكيف كنت تخص هذا الصبي بالضرب والتعذيب بعد المدرسة.. يجب أن نكون سواسية.. الناس لم يولدوا متساوين كما يقول الدستور، لكن علينا نحن أن نجعلهم متساوين.. لو كان كل إنسان كأخيه لعمت السعادة الجميع.. الكتب هي سلاح محشو عند جارك.. احرقها.. خذ الطلقة من السلاح.. ولهذا ومنذ صارت المنازل معزولة ضد الحريق، لم يعد رجال الإطفاء مطلوبين كالسابق.. لهذا تحولوا إلى حراس لسلامة عقولنا.. مركز خوفنا المبرر من أن تكون أقل من الآخرين.. رقباء.. قضاة.. منفذون.. هذا أنت يا (مونتاج) وهذا أنا..

ثم سكب في كفه بعض رماد الغليون وقال:

- الناس تريد السعادة.. ونحن نقدمها لهم.. نوفر لهم المرح ودغدغة المشاعر..

ونظر (مونتاج) إلى زوجته الواقفة على الباب، وكانت تحرك شفتيها.. لكنه لم يجسر على محاولة قراءة ما تقول حتى لا

يلاحظ (بيتي).

- السود لا يحبون كارتون (سامبو) الصغير.. احرقه.. البيض لا يحبون رواية (كوخ العم توم).. احرقها.. صفاء العقل يا (مونتاج).. السلام.. خذ صراعاتك إلى المحرقة.. لا تضيع وقتك في الجنازات، ولا تتحدث عن الذكريات، بل احرق الجثث.. إن طائرات الهليكوبتر تحمل المحارق إلى كل أرجاء البلاد.. النار تحل كل شيء.. النار ذكية يا (مونتاج).. النار نقية طاهرة..

كانت هناك فتاة من الجيران تدعى (كلاريس مكيلان).. فتاة غريبة جدا.. لا يمكن أن تفهم كيف حدثت أصلا! لدينا سجل عن أسرتها وراقبناهم جيدا.. أنت لا تستطيع الخلاص من كل البط الشاذ في بضعة أعوام.. ولأسباب كهذه قمنا بتخفيض سن دخول الحضانة عاما بعد عام.. حتى إننا اليوم ننتزعهم تقريبا من المهد إلى الحضانة.. إن البيت قد يهدم كل ما علمه المجتمع لأفراده.. عم الفتاة كان سلوكه معاديا للمجتمع، والفتاة كان لها سجل مدرسي غريب.. لم تحاول قط أن تعرف (كيف) تحدث الأشياء، ولكن (لماذا) تحدث.. من حسن حظ الفتاة التعسة أنها ماتت..

- ماتت؟

- من حسن الحظ أن الشواذ من أمثالها لا يحدثون كثيرا.. اجعل الناس يعيشون في سلام يا (مونتاج).. أعطهم مسابقات يربحون فيها إذا تذكروا أسماء الأغاني المشهورة أو أسماء عواصم الولايات، أو كم من القمح أنتجته (أيوا) العام الماضي)[2].. حاول أن تحشوهم بالحقائق سريعة الاحتراق حتى يشعروا بأنهم أذكياء.. حتى يشعروا بأنهم يفكرون.. هكذا يشعرون

بالحركة دون أن يتحركوا.. ولسوف يصيرون جميعا سعداء.. إن الرجل الذي يفك ويعيد تركيب تلفزيون الحائط - وكل الناس بوسعهم هذا اليوم - لأسعد من الرجل الذي يحاول أن يفك الكون وهو أمر لن يتركه إلا شاعرا بالحقارة والعزلة والتضاؤل..

ونهض (بيتي) قائلا:

- أعتقد أن على الانصراف الآن.. انتهت المحاضرة، وآمل أنني أوضحت الأمور.. ما يجب أن تتذكره يا (مونتاج) هو أننا (فتية السعادة).. فلا تتخل عن موقفك.. لا تترك أعاصير الفلسفة والتحذلق تغرق كل شيء..

وصافحه (بيتي) فلم يجسر (مونتاج) على الكلام، وكان البيت كله تهاوى من حوله..

- كلمة أخيرة.. كل رجل إطفاء يعاني حكة ولو مرة واحدة في أثناء عمله.. يتساءل: ترى ماذا تقول الكتب؟ ويحاول أن يهرش موضع الحكة هذا.. أؤكد لك يا (مونتاج) أنني قرأت بعضها لأعرف عم يدور الأمر، ودعني أؤكد لك أن الكتب لا تقول شيئا.. لو كانت قصصا فهي تتكلم عن ناس لا وجود لهم، ولو لم تكن قصصا فالأمر أسوأ.. أستاذ يعتبر الآخر أبله، وفيلسوف يخنق الآخر من بلعومه.. كلهم يكافحون محاولين محو النجوم وإطفاء الشمس.. والآن ماذا لو حاول رجل إطفاء - عن غير عمد - أن يأخذ معه كتابا إلى داره؟

وارتجف (مونتاج) بينما قال (بيتي):

- خطأ طبيعي.. إنه الفضول لا أكثر.. نحن في المطافئ لا نفقد حكمتنا عندئذ.. فقط نترك رجل الإطفاء أربعا وعشرين

ساعة.. لو لم يحرقه بعدها نأتي نحن ونتولى الأمر.. والآن هل ننتظرك في وردية الليلة؟

- لا أدري..

وفكر (مونتاج): ربما لا أعود للعمل أبدا.. قال (بيتي):

- اشف سريعا وابق كذلك..

وغادر الغرفة..

نظر (مونتاج) إلى زوجته التي جلست في الردهة تتكلم مع أحد المعلقين على شاشة التلفزيون.. كان يناديها باسمها، والفضل في هذا يعود إلى المحول الذي كلفه مائة دولار، والذي يذكر اسمها كلما تحدث المعلق إلى جمهور غير محدد.. وهكذا يتم تحوير الصوت Scrambling ليخرج اسمها هي كأنه صديق مخلص..

قال (مونتاج) لامرأته:

- أنا اليوم في أسوأ حال.. أريد تحطيم الأشياء وقتل الناس..

- إذن خذ العربة الخنفسة و...

- لا شكرا.

- إنني أحب قيادتها حين أشعر بما تشعر به.. من الممتع أن تقودها بسرعة خمسة وتسعين ميلا في الريف، حيث تقتل الأرانب وتدوس الكلاب.. صدقني خذها..

نهض وبدأ يرتدي ثيابه:

- لقد كان (بيتي) على حق.. السعادة هي أهم شيء.. وأنا لست سعيدا.. لا أدري ما حل بي، لكن لا بد من أن أعمل شيئا.. شيئا كبيرا مخيفا..

ثم نهض وتناول مقعدا وزحزحه حتى وصل إلى الباب الأمامي وصعد عليه.. مد يده وانتزع غطاء التهوية.. وحرك يده حتى بلغت كتابا.. دون أن ينظر له رمي به إلى الأرض.. التقط كتابين آخرين ورمى بهما أرضا.. وواصل إلقاء الكتب.. كتب كبيرة وصغيرة.. حمراء وخضراء.. حين انتهى كان هناك عشرون كتابا عند قدمي زوجته..



التقط كتابين آخرين ورمى بهما أرضا .. وواصل إلقاء الكتب ..

قال لها:

- آسف.. لم يخطر لي ذلك، لكن يبدو أننا الآن متورطان معا في هذا..

تراجعت (مليدريد) للوراء وكأنما ترى عددا من الفئران عند قدميها، وشحب وجهها وتلاحقت أنفاسها.. لفظت باسمه مرة واثنتين، ثم حملت أحد الكتب جارية نحو موقد المطبخ..

أمسك بها فحاولت التملص وهي تصرخ وتخمش..

- لا يا (ميلي)! توقفي! أنت لا تعرفين!

وصفعها على وجهها.. واعتصر كتفيها وهزها، فانفجرت في البكاء..

- اصبري قليلا.. لابد أن أرى ما بها.. لو كان كلام الكابتن صحيحا فلسوف نحرقها معا.. هل تسمعين؟ نحرقها معا.. لا بد أن نعرف ما دهانا؟ أنت والدواء المنوم كل ليلة والسيارة.. وأنا وعملي.. لابد من أن نفهم.. هذه أول مرة أطلب فيها شيئا منك.. أريدك معي بشدة في هذه الساعات..

كفت عن البكاء.. وجلست على الأرض.. لمست ساقها واحدا من الكتب فجذبتها في خوف..

أمسك بأحد الكتب وفتحه وقرر أن يبدأ القراءة من البداية..

هنا دوى صوت مكبر الصوت.. هناك واحد على الباب.. صاحت الزوجة في رعب:

- إنه هو! لقد عاد!

- لن نفتح له..

كانت رغبة عارمة تدفعه إلى أن يخفي الكتب حالا في فتحة التهوية، لكنه لن يستطيع مواجهة (بيتي) في كل الأحوال..

وصاحت الزوجة:

- لسوف يدخل ويحرق الكتب ويحرقنا..

وشعرا بصوت وراء الباب كأنما أحدهم يقف هناك يصغي.. كأنما هناك من يخدش الباب بأظفاره الحادة، وبعد قليل ابتعدت الخطوات.

وواصل (مونتاج) القراءة:

- من المؤكد أن أحد عشر ألف شخص جربوا الموت أكثر مما جربوا كسر البيضة من طرفها المستدق..

نظرت له في رعب وقالت:

- ما معنى هذا! هذا الكلام لا معنى له.. لقد كان (بيتي) على حق.. الكتب لا تقول إلا هراء..

- ربما لأننا لم نقرأ بما يكفي.. سأجرب مرة أخرى ومن البداية..

☆ ☆ ☆

الجزء الثاني

الغربال والرمال

قضيا العصر في القراءة بينما أمطار (نوفمبر) الباردة تنهمر على المنزل.. وكان التلفزيون في الصالة صامتا خاليا من النساء اللاتي يلبسن الشباك الذهبية والرجال ذوي السترات السوداء، يسحبون أرنب الفرص من القبعة.. وكان (مونتاج) يعيد قراءة تلك الفقرة للمرة الثلاثين:

- «لا يمكن أن نعرف اللحظة الدقيقة التي تتكون فيها الصداقة.. كما تملأ الوعاء قطرة قطرة، هناك تلك القطرة الأخيرة التي تجعله يفيض، وهكذا في سلسلة من العواطف هناك عاطفة أخيرة تجعل القلب يفيض بما فيه..».

كان قلبه يرتجف توترا، وقد دخل المطبخ عدة مرات فقط ليتأمل المطر المنهمر على زجاج النوافذ وارتجفا إذ سمعا صوت خدش على الباب الأمامي..

دوي صوت طائرات نفاثة تعبر السماء الممطرة فوق البيت فقال (مونتاج):

- إنني أتساءل كيف يمر هؤلاء الطيارون في السماء كل ثانية من حياتنا.. ألأننا أثرياء والعالم فقير؟ ألأننا نموت من التخمة بينما شعوب العالم الأخرى تتضور جوعا؟ أتري هذا هو السبب الذي يكرهنا العالم من أجله إلى هذا الحد؟ ربما توجد الإجابة في الكتب..

مسكين أنت يا (مونتاج).. لكن كيف تجد العون وأين؟ أين تجد معلمين بعد فوات الأوان؟

تذكر الرجل العجوز الذي قابله يوما في الحديقة وتحدثا عن الكتب.. وتذكر كيف أن الرجل أعطاه عنوانه غير عارف أنه من رجال الإطفاء.. جرى إلى الملف الذي يحمل عنوان (تحريات مستقبلة)، وبحث عن رقم الهاتف، ثم طلبه وسأل عمن يدعى الأستاذ (فابر)..

جاءه صوت الرجل يتساءل عمن هنالك، فسأله على الفور:

- بروفسور.. أريد أن أعرف منك عدد نسخ التوراة الباقية في هذا البلد..

وكيف لي أن أعرف؟ من المتكلم؟

- ونسخ مسرحيات (شكسبير)؟ كم عددها وأين أجدها؟

- أعتقد أن هذا شرك.. أنت تعرف أنه لا يوجد نسخة واحدة من (شكسبير) في البلاد كلها اليوم.. وداعا..

ووضع (فابر) السماعة..

كان (مونتاج) يعرف أنه لا توجد نسخة واحدة في البلاد كلها، لكنه أراد أن يسمع هذا من (فابر) نفسه.. واتجه إلى زوجته التي تشاهد التلفزيون وأراها كتابا وقال:

- تصوري إذن أن هذه هي النسخة الوحيدة من (العهد القديم والجديد) في العالم اليوم؟

- قلت لك يجب أن تعيدها ل (بيتي).. إنه خمن أن معك كتابا.

- لا أهتم لأنه لا يعرف أيها معي.. لكن أي كتاب أعيده له إذن كبديل لهذا؟ هل أعيد (ثورو) أم (جيفرسون)؟ المشكلة أنني لو أعدت كتابا وكان (بيتي) يعرف بالضبط أي كتاب سرقت، فلسوف يخمن أن عندي مكتبة هائلة هنا..

صرخت (ملدريد) وهي موشكة على الذوبان في مكانها كدمية من شمع:

- هل ترى؟ أنت على وشك أن تخرب بيتنا..

غادر (مونتاج) الدار وراح يركض في الطرقات.. ثم ركب مترو الأنفاق الهوائي..

ذات مرة كان صبيا وقد جلس على كثيب رملي أصفر، في يوم صيف، يملأ بالرمال منخلا، لأن ابن عم قاسيا قال له لو ملأت هذا الغربال بالرمال فسوف أعطيك قرشا.. وكذا قضى الوقت يملأ الغربال ويملأ الغربال، لكن الرمال كانت تتسرب من أسفل بلا توقف.. يداه منهكتان والرمال حارقة والدموع تسيل على خديه وقد خطر له اليوم أنه لو قرأ الكتب بسرعة فلربما استطاع أن يملأ الغربال..

كانت التوراة في يده وقد أدرك أنه خلال ساعات يجب أن يعطيها لـ (بيتي)، لهذا قرر أن يقرأ بأسرع ما يستطيع أكبر قدر ممكن، وأن يحاول أن يحفظ ما يطالعه قدر الإمكان، لعل شيئا يبقى منها في ذاكرته.. الناس ينظرون له في ذعر ورهبة فيرون الكتاب المفتوح بين يديه.. لا بد أنه مجنون..

أخيرا بلغ وجهته فدق الباب..

- من هذا؟

- (مونتاج).. دعني أدخل..

- انصرف من فضلك..

- أقسم إنني لن أؤذيك..

انفتح الباب واختلس (فابر) النظر.. بدا هشا جدا.. عجوزا جدا.. خائفا جدا.. كأنما لم يغادر الدار منذ أعوام.. ثم سقطت عيناه على الكتاب تحت إبط (مونتاج) عندها لم يعد عجوزا ولم يعد خائفا..

- آسف بشدة.. لكن على المرء أن يكون حذرا..

كانت غرفة النوم مفتوحة، وكان (مونتاج) يبصر بها نوعا من الآلات المعقدة.. لاحظ الرجل أن (مونتاج) ينظر من فوق كتفه، فاستدار وأغلق الباب.. ثم أمسك بالكتاب وسأله:

- من أين جئت به؟

- سرقته..

نظر الرجل لوجهه للحظة ثم قال:

- أنت شجاع.. - ثم حك ركبتيه ومد يده للكتاب - هل تسمح؟

وتحسس الكتاب في شغف وقال:

- أنا لست متدينا.. قد مر وقت طويل.. لكنه مازال طيبا كما عرفته.. اليوم صار الدين مجرد سلعة تجارية تفرض على المتدينين..

وتشمم الكتاب وقال:

- هل تعرف أن للكتب رائحة جوز الطيب أو التوابل القادمة من بلاد نائية؟ كنت أحب شمها وأنا طفل.. أنت تنظر يا مستر (مونتاج) إلى جبان.. لقد رأيت إلام تصير الأمور منذ زمن لكني لم أقل شيئا.. صمتُّ.. حتى لم يعد من نفع للكلام.. والآن أتمنى لو قلت لي لماذا جئت هنا..

- ما عاد أحد يصغي لي.. سئمت الكلام مع الجدران.. أريد من يصغي لما أقول.. أريدك أن تجعلني أفهم ما أقرؤه..

- وما الذي حرك فيك هذه الرغبة؟

- لا أدري. لديّ وزوجتي كل ما نريد كي نكون سعيدين، وبرغم هذا لسنا سعيدين.. بحثت عن الشيء الناقص في حياتنا فلم أجد إلا الكتب التي ظللت أحرقها عشر سنوات.. لعلها تعينني على أن أكون سعيدا..

- لا يوجد شيء سحري في الكتب.. إن هي إلا مجرد أوعية حفظنا فيها أشياء خفنا أن ننساها.. السحر هو ما تقول الكتب.. الطريقة التي تخيط بها رقع الكون معا لتصنع منها ثوبا واحدا لنا.. إنها تظهر الثقوب في الحياة، ولهذا هي مخيفة.. إن الناس العاديين يرغبون في وجه جميل للحياة كأنه تمثال شمعي..

التلفزيون يغرقك في بحر من الأصوات والألوان بحيث لا تجد الوقت الكافي لتفكر أو تنتقد.. إنه يقدم لك الأفكار الجاهزة ولا يسمح لك بالانتقاد الذي يسمح به الكتاب.. وعلى كل حال، ومهما كان الأمر سيئا فالناس بالفعل تشعر بالسعادة وتستمتع بوقتها.. لهذا يا بني كف عن هذا.. عد لقفصك وكف عن إقناع نفسك بأنك لست سوي سنجاب حبيس..

- إذن أنت لا تهتم..

- أنا أهتم لدرجة المرض.. عمت مساء.. عمت مساء..

نهض (مونتاج) وأمسك بالكتاب، وسأل الرجل:

- هل تريد هذا؟

- إنني لأضحي بذراعي اليمني كي أظفر به..

ودون أن يدري كيف فعل هذا، بدأ (مونتاج) يمزق غلاف الكتاب وأول صفحتين منه..

- ماذا تفعل أيها المجنون؟

لكن (مونتاج) واصل التمزيق، وراحت الأوراق تتكوم على الأرض حوله، وقال (مونتاج):

- من يستطيع منعي؟ أنا رجل إطفاء وبوسعي أن أبيدك!

ارتمى البروفسور على مقعد وغطى وجهه، وقال في وهن:

- ماذا تريد؟

- أريد أن تعلمني..

- حسن.. حسن.. لكن كف عن تمزيق الكتاب.

ووضع (مونتاج) الكتاب جانبا فسأله البروفسور:

- (مونتاج).. هل معك مال؟

- حوالي أربعمائة إلى خمسمائة دولار.. لم؟

- عرفت رجلا في الجامعة كان يقوم بالطباعة.. يمكننا أن نستعين بهذا المطبعجي الذي لم يعد أحد يريده..

- لكني ما زلت بحاجة إلى مظلة تحميني من المطر.. أنا خائف من الكابتن، وهو واسع الحجة وسيعرف كيف يعيدني إلى عمل الإطفاء.. فهل يمكنك أن تخبرني كيف أنجو منه؟ لا أريد أن أعود إلى الصورة التي كنتها في الأسبوع الماضي، حين كنت أحرق الكتب وأتلذذ بذلك..

لم يرد الرجل، وأخذ نفسا عميقا ثم نظر إلى غرفة النوم.. نظرة لم تفت (مونتاج).. ثم أخذ نفسا أخر، وأغمض عينيه..

- حسن؟

- (مونتاج).. كنت سأتركك تغادر منزلي الآن لأنني جبان.. لكن هناك شيئا أرغب في أن تراه..

وفتح (فابر) باب غرفة النوم، وكانت هناك منضدة فوقها بعض المعدات المعدنية، والبوبينات والبلورات والأسلاك الرفيعة..

- أنا مغرم بالإلكترونيات، وقد قضيت أعواما أبتكر هذه الأشياء.. دفعت ثمنها من المضاربة في أسواق الأسهم، وهي الملجأ الأخير للأذكياء العاطلين.. وانتظرت نصف عمري حتى يأتي من أتكلم معه.. يوم قابلتك في الحديقة توقعت أنك رجل إطفاء، وتوقعت أنك ستأتي إلى داري حاملا الصداقة أو النار.. ما كان بوسعي أن أعرف..

- تبدو لي هذه الأشياء كجهاز راديو..

- بل وأكثر من هذا.. هذا جهاز تنصت لو أنك وضعته في أذنك لأمكنني أن أجلس في داري مستريحا وأصغي لكل ما يقول رجال الإطفاء.. سأكون أنا ملكة النحل آمنة في خليتها، وأنت تلعب دور ذكر النحل.. ستضع هذا في أذنك وتذهب إلى مبنى الحريق، ولسوف أسمع أنا ما يقوله لك الكابتن (بيتي) وأرسل لك إجابتي.. هل يضايقك هذا؟ والآن وداعا وحظا طيبا..

وخرج (مونتاج) إلى الشارع المظلم يرمق العالم.. وكانت السماء مكفهرة تنذر بالحرب القادمة، وكأنما القمر سيهوى قريبا على الأرض ليحيلها إلى غبار أبيض.. مر على المصرف الذي يعمل طيلة الليل، فسحب بعض المال..

قال بصوت هامس:

- (فابر).. لقد فعلت ما طلبته مني.. لكن حتى هذه اللحظة لم أفعل إلا ما يقال لي أن أفعله.. لقد قمت بتغيير الجانب الذي أنا فيه، وبرغم هذا مازلت أؤمر فأمتثل..

- أنت تتحسن ما دمت تقول هذا..

- متى يمكنني أن أقوم بالتفكير النفسي؟

- قريبا جدا.. لكن ثق بي أولا.. هل تريد أن أقرأ لك قليلا؟ أنا قليل النوم ويمكن أن أقرأ لك قليلا، ويمكن أن أقرأ لك في أثناء نومك أنت.. يقولون إن المرء يتذكر ما يهمس في أذنه في أثناء النوم..

- موافق

كان من الممتع أن يسمع صوت الرجل العجوز المنهك يتردد في أذنه في الليل الصامت، وشعر بأنه يعرف الرجل من دهور.. الآن لم يعد (مونتاج) واحدا، بل هو اثنان..

كان من الممتع أن يسمع العجوز وهو يكلمه ويرشده بينما هو متجه إلى مبنى الإطفاء.

- كن رفيقا بالناس يا (مونتاج) فهم لا يعلمون.. هم لا يعرفون أنهم كنيزك هائل ملتهب بالنيران يعبر السماوات لكنه لا بد أن يرتطم بالأرض يوما ما.. هم الآن لا يرون إلا الضوء والوهج..

أنا معجب بشبابك وحماستك، لكني أريدك أن تشعر بالشيخوخة.. أريد بعضا من جبني فيك الليلة.. حين تقابل الكابتن ادن منه بحذر.. دعني أسمعه عن طريقك..

لا تخف من الأخطاء.. لو داريت جهلك لما عاقبك أحد، ولن تتعلم أبدا.. نحن الآن توءمان ولم تعد وحدك.. ولسوف أمنحك العون والنصح إذا ما ضيق عليك (بيتي) الخناق..

لم يكن الكلب الآلي هناك، وقد وقف مبنى الإطفاء صامتا، حين انزلق (مونتاج) فوق العمود النحاسي.. وكان قلبه يخفق.. وكان (بيتي) واقفا عند الفتحة وظهره له كأنه لا ينتظره..

فقط قال للرجال الذين يلعبون الورق:

- حسن.. الآن يأتي مخلوق غريب يدعى في كل لغات العالم بلفظة (أحمق)..

وفتح كفه كأنما ينتظر مكافأة، فدس (مونتاج) الكتاب فيها.. فألقى (بيتي) الكتاب في سلة المهملات دون أن ينظر لعنوانه.. وقال مشعلا سيجارا:

- مرحبا بعودتك يا (مونتاج) وقد زالت الحمى وولى السقم.. هل تشاركنا لعبة (البوكر) القادمة؟

كان (مونتاج) يلعب الورق مرتبكا شارد الذهن شاعرا كأن يديه اللتين تجرأتا ولمستا (شكسبير) قد صارتا ملوثتين بالدم، وأن ذنبهما جلي للجميع وخاصة (بيتي) الذي توشك نظراته أن تكون حارقة ولمرتين اضطر إلى أن يغادر المجلس ويدخل الحمام ليغسل يديه..

قال (بيتي) وهو ينظر إلى (مونتاج):

- نحن لا نكون وحدنا حين تصحبنا الأفكار النبيلة.. لكن البابا (ألكسندر) قال: (الكلمات كأوراق الشجر.. وحين تجد الكثير منها، يندر أن تجد تحتها فاكهة ذات قيمة).. ما رأيك في هذا يا (مونتاج)؟

همس (فابر) في جهاز اللاسلكي:

- خذ الحذر..

- أو هذه: (قليل من العلم شيء خطير.. فاشرب حتى ترتوي لكن لا تكتف بتذوق ماء الينابيع.. هناك تكفي رشفات معدودة لتسميم العقل.. بينما الجرعات الكبرى تجعل العقل يفيق).. إلام يقودك هذا؟ سأخبرك.. معناه أنك حين تقرأ بضعة أسطر يتسمم عقلك بالكامل، وتجد نفسك متأهبا لتدمير العالم وقتل النساء والأطفال.. أنا أعرف هذا كله لأنني مررت به..

نظر له (مونتاج) ولم يجد ما يقول.. هنا دق الجرس.. وبدأ صوت التيكرز يطبع العنوان الذي جاء منه البلاغ.. اتجه (بيتي) ببطء مبالغ فيه، وأوراق البوكر في يده، إلى الهاتف ومزق القصاصة التي تحمل العنوان.. نظر له ثم دسه في جيبه وعاد إلى الجلوس..

نظر له الرجال في دهشة فقال:

- يمكن للبلاغ أن ينتظر أربعين ثانية حتى أجردكم من المال.. ولكن.. ليكن.. سنكمل هذا الدور فيما بعد.. فقط ضعوا أوراقكم ووجهها لأسفل على المنضدة، وهلموا إلى العربة.

ثم نظر إلى (مونتاج) وقال:

- (مونتاج).. لا تبدو لي على ما يرام.. أكره فكرة أن المرض..

- أنا على ما يرام..

وتشبث الرجلان بالقضيب النحاسي.. وسرعان ما انزلقا إلى التنين البخاري الذي يزأر إذ يعود إلى الحياة.. وصاح الكابتن:

- هلموا بنا!

ما كان الكابتن معتادا القيادة بنفسه لكنه الليلة تولى قيادة المركبة، وراح المشمع الأسود الذي يرتديه يتطاير في الهواء فكأنه وطواط آدمي هائل ينقض على عجلة القيادة.. وراح خداه الورديان يلمعان في الظلام، وهو يضحك في توحش.

- هلموا بنا.. هلموا كي نمنح العالم السعادة يا (مونتاج)..

وتوقفت العربة وهبط الرجال منها، أما (مونتاج) فلم يستطع أن يفك قبضته عن الحاجز الذي يتمسك به..

لن أستطيع عمل هذا.. كيف أعود لحرق الكتب؟ ودنا منه (بيتي) وقد صارت له رائحة الريح التي عصفت به طيلة الرحلة ونظر له في إمعان:

- والآن يا (مونتاج)؟

نظر له (مونتاج) ولم يتكلم وإن غمره الذهول..

أخيرا قال (مونتاج) ببطء:

- لماذا وقفنا أمام بيتي؟

☆ ☆ ☆

الجزء الثالث

نيران الحرق اللامعة

تألقت الأنوار وانفتحت أبواب المنازل عبر الشارع لمشاهدة هذا الكرنفال.. ووقف (بيتي) و(مونتاج) يحدقان في المنزل أمامهما.. أحدهما برضا جاف والآخر بذهول.. في الدائرة التي ستلتهمها النيران بعد قليل..

قال (بيتي):

- حسن.. هأنتذا قد فعلتها.. (مونتاج) العجوز حاول أن يطير قرب الشمس، وها هو ذا قد حرق جناحيه.. وهو يتساءل لماذا.. ألم ألمح بما يكفي حين أرسلت الكلب إلى دارك؟

كان وجه (مونتاج) خاليا من التعبير.. ووجد أنه صار صنما ينظر إلى باب الجيران الذي تحيطه الزهور.. فصاح (بيتي):

- لا.. لا أصدق أن تكون تلك البلهاء خدعتك.. زهور.. فراش.. غروب.. كل هذا في ملفها.. رباه! انظر لهذه النظرة المريضة على وجهك! لقد حامت حولك راسمة على وجهها تعبير (أنا أكثر منك طهرا).. هؤلاء لا يملكون موهبة إلا أن يجعلوا الآخرين يشعرون بالذنب.. إنهم ينهضون كشمس منتصف الليل ليملئوا فراشك بالعرق!

وانفتح الباب الأمامي وبرزت (ملدريد) وهي تجرى، وقد تقلصت قبضتها على حقيبة ثيابها، بينما عربة أجرة تتوقف.

- مليدريد!

جرت وجسدها متصلب، ووجهها معفر بالمساحيق، ولم يعد لها فم لأنها لم تضع أحمر شفاه.

- (مليدريد).. أنت لم تقدمي هذا البلاغ!

وضعت الحقيبة في سيارة الأجرة، وركبت وهي تغمغم:

- يا للأسرة المسكينة.. يا للأسرة المسكينة.. كل شيء ضاع.. كل شيء ضاع الآن..

ووضع (بيتي) يده على كتف (مونتاج)، بينما سيارة الأجرة تختفي بسرعة سبعين ميلا في الساعة.. دوى صوت تحطيم، ودار (مونتاج) حول نفسه ليرى (ستونمان) و(بلاك) يحملان الفلوس ويهشمان زجاج النوافذ ليمنحا النار المزيد من التهوية.. وقال (مونتاج):

- هذا يحدث لي أنا..

قال (بيتي):

- من المدهش أن كل واحد يؤمن بأن هذا لن يحدث لي أنا.. الآخرون سيموتون وأنا سأعيش للأبد.. لا تبعات ولا مسئوليات، لكن ما إن تصل التبعات إليك يكون الوقت متأخرا جدا.. أليس كذلك يا (مونتاج).

قال (فابر) في سماعة الأذن:

- (مونتاج).. هل يمكنك الابتعاد الآن؟

حاول (مونتاج) الابتعاد، لكنه لم يشعر بالخرسانة تحت قدميه، ولم يشعر بالعشب.. وأشعل (بيتي) قاذف اللهب وقال:

- ترى ما الجميل إلى هذا الحد في النار؟ مهما بلغ عمرنا فما الذي يفتننا فيها؟ ما هي النار؟ العلماء يقولون سفسطة عن الاحتكاك والجزيئات لكنهم لا يعلمون حقا ما هي، وجمالها أنها تدمر التبعات والمسئوليات معا.. كلما تعقدت مشكلة ما فعليك بالمحرقة.. والآن يا (مونتاج) أنت عبء، ولسوف ترفع النار هذا العبء عن كاهلي.. نار مطهرة.. فنية.. عملية.

كان (مونتاج) يرمق المشهد الغريب، والأثاث الملقي على الأرض يحترق في هذه الساعة من الليل، بينما الكتب تصفر أوراقها وتتفحم عندها تبدو سخيفة لا تستحق كل هذا العناء.. (مليدريد) بالطبع هي من فعلها.. هي من عرفت أين يداري الكتب وأبلغت رجال الإطفاء.. (مليدريد).. (مليدريد)..

- الآن يا (مونتاج) أريدك أنت أن تحرق بيتك بقاذف النار.. أريد أن تطهر نفسك بنفسك..

تناول (مونتاج) قاذف اللهب وصوبه، فخرجت منه ألسنة النيران مفعمة بالحرارة والعاطفة والضوء أكثر مما حسبه في القاذف. حرق جدران غرفة النوم وصندوق مساحيق التجميل، ومائدة الطعام والأطباق وكل ما قد يذكره بأنه عاش هنا، في هذا المنزل المقفر مع امرأة غريبة ستنساه غدا.. بل نسيته الآن بالفعل وهي تصغي للراديو المثبت في أذنها.. لو لم يكن هناك حل لمشكلته فالآن لم تعد هناك مشكلة أيضا! النار هي دواء كل شيء.. حرق غرفة التلفزيون فانفجرت الدوائر الكهربية وأعمدة التفريغ، كأنما أراد أن يهدي الغرفة تلك الزهرة الصفراء الكبيرة الملتهبة.. وقال له (بيتي):

- حين تنتهي، أنت رهن الاعتقال..



حرق جدران غرفة النوم وصندوق مساحيق التجميل . ومائدة الطعام والأطباق وكل ما قد يذكره بأنه عاش هنا .

الآن صار السيرك كومة من الرماد الأسود.. ووقف (مونتاج) وقاذف اللهب في يده، والعرق يسيل أنهارا تحت إبطيه، ووجهة صار مكسوا بالسناج..

في النهاية استطاع أن يتكلم:

- أكانت زوجتي صاحبة البلاغ؟

هز (بيتي) رأسه وقال:

- من الحمق أن تعتقد أن قراءتك بعض الشعر يمكنها أن تجعلك تمشي على المياه.. فلتر إلى أين قادتك الكتب.. أنت في الوحل حتى شفتيك، ولو أنني هززت إصبعي الأصغر لغرقت أنت..

شعر (مونتاج) بالوهن والضعف وبأن ساقيه لا تتحملان ثقله.. وضربه (بيتي) على رأسه ضربة جعلته يسقط للوراء.. وسقطت السماعة الخضراء التي كان (فابر) يهمس فيها، فالتقطها (بيتي) مقطبا..

حسن.. الأمر أخطر مما توقعت.. رأيتك تميل رأسك أكثر من مرة كأنك تصغي.. لسوف نقتفى أثر هذه ونظفر بصديقك..

- لا!

قالها (مونتاج) ورفع صمام الأمان عن قاذف اللهب..

لم يتحرك (بيتي) لكنه نظر إلى يدي (مونتاج) في عدم فهم، و(مونتاج) نفسه نظر ليديه كأنما يرى ما تنتويان عمله.. فيما بعد لم يعرف هل كانت يداه هما الفاعلتان أم تلك النظرة الساخرة المتهكمة في عيني (بيتي) التي دفعته إلى اقتراف القتل.

في اللحظة التالية تحول (بيتي) إلى وهج صارخ.. لم يعد له علاقة بالبشر وسط النار السائلة التي صوبها (مونتاج) عليه.. وصدر صوت هسيس كأنها بصقة هائلة تغلي فوق موقد ساخن

لدرجة الاحمرار.. وسد (مونتاج) أذنيه كي لا يسمع الصوت.. وصرخ.. صرخ.. صرخ.. وفي النهاية تكوم (بيتي) على الأرض..

صاح (مونتاج) في رجلي الإطفاء الآخرين، وهو يغالب الغثيان:

- استديرا..

استدارا بوجهين أبيضين من الرعب والعرق يغمرهما، فأطلق اللهب على رأسيهما حتى طارت الخوذتان وسقطا أرضا بلا حراك..

ومن ركن الزقاق جاء الرعب الميكانيكي.. يثب على أرجله الثمانية وسحابة من الدخان الأسود تحيط به وإبرة (البروكايين) تلوح غضبى في الهواء.. فتلقاه (مونتاج) بهدية النيران كأنها زهرة ذات بتلات حمراء وزرقاء وصفراء.. طار الكلب الآلي إلى الوراء، ولم يجد الوقت الكافي إلا ليوخز ركبة (مونتاج) بإبرته ثم ليصطدم بشجرة ومعه النيران.. حاول أن يطعن عدة مرات بالإبرة، قبل أن ينفجر وتتبعثر أجزاؤه الإلكترونية في كل صوب.

كان (مونتاج) الآن يشعر بتنميل شديد في ركبته، وخشي أن يفقدها.. نهض فوجد أنه لا يشعر بها.. إنه يجرها خلفه كأنها كفارة عن خطيئة لا يعرف ما هي بالضبط.. الشارع الآن خال مظلم إلا من المنزل الذي يحترق.. الكلب هنا.. (بيتي) هناك.. الرجلان في مكان ما..

(بيتي).. أنت لم تعد مشكلة.. كنت أنت القائل دوما: لا تواجه المشاكل.. بل احرقها.. وداعا يا كابتن.

أنت أحمق يا (مونتاج).. أحمق لعين.. معتوه.. معتوه جدا.. أحمق.. ومعتوه.. انظر إلى الفوضى.. كل هذا بسبب حدة الطبع والغرور.. لم تكد تبدأ وهأنتذا قد تقيأت كل شيء على الآخرين وعلى نفسك..

راح يبحث في الحديقة فوجد أربعة كتب لم تطلها النيران.. لقد نسيت (مليدرد) هذه ولسوف ينقذها.

صوت عربات الإطفاء قادمة من بعيد.. راح يثب فوق ساق واحدة مبتعدا.. (بيتي) أراد أن يموت لا شك في هذا.. من الغريب أن تقف تبتسم بسخرية في وجه من يهددونك بالموت، وبهذا تجعلهم يجنون و.. نعم.. (بيتي) أراد الموت وقد ناله.. آه.. رباه! أنا أسف.. أنا آسف

حاول أن يسترجع أيامه السابقة.. حملات الحريق.. ذبابات النار.. الاستدعاءات والبلاغات.. رباه.. كل هذا قبل الغربال والرمال.. كل هذه التغيرات في بضعة أيام! إنها أكثر مما يجب بالنسبة لعمر كامل..

الآن بدأت رجله تتحول إلى رجل من جديد، واستعادت إحساسها.

عليه أن يفر وأن يتماسك قبل أن يجدوه.. عليه أن يفر.. ولكن أين؟ ليس لديه مكان يفر إليه.. ليس لديه صديق إلا (فابر).. عندها أدرك أنه في الحقيقة يجري نحو بيت (فابر).. لكن (فابر) لن يخبئه.. سيكون هذا انتحارا حتى مجرد المحاولة.. لكنه سيذهب على كل حال.. ومن عقل (فابر) سيجد الوقود الذي يعيد له إيمانه بقدرته على الاستمرار حيا.

ونظر للسماء ليرى طائرات هليكوبتر الشرطة.. دستتان منها تحوم كالفراش الذي أربكه الخريف.. تنقب عنه في كل صوب.. تهبط كأنها رقائق الثلج تنحدر للأرض..

مشي في الشارع الخالي، الذي بدا له كحلبة مصارعة.. تنتظر ضحايا مجهولين، سوف يواجهون قتلة مجهولين، ومن مكان ما سمع مذياعا يعلن الخبر: لقد تم إعلان الحرب.

امش ببطء.. بهدوء.. لا تستدر.. لا تبد مهموما.. امش فحسب.. امش.. امش..

واقتربت منه سيارة بسرعة لا تصدق.. وبدا أنها تزيد من سرعتها.. خطر له أنها سيارة شرطة وأنهم رأوه، لكنها مرت على بعد سنتيمترات منه، وسمع صوت ضحكات الصبية من داخلها.. أترى هؤلاء هم من قتلوا (كلاريس) في إحدى الليالي؟ لا بد أنهم أرادوا أن يدهموه ويتسلوا بقتله، ثم عدلوا عن ذلك كي لا تنقلب السيارة..

سرعان ما وصل (مونتاج) إلى البيت الذي اختاره.. تسلل عبر الحديقة الخلفية، وتساءل في سره: مسز (بلاك).. أتراك نائمة الآن؟ هذا محزن، لكن زوجك أحرق بيوت الكثيرين دون أن يسأل أو يندم.. والآن لا بد من أن يأتي دورك.. تسلل إلى الفناء فالمطبخ، ووضع الكتب التي يحملها هناك.. ثم غادر المكان مسرعا.

ومشى في شوارع المدينة، وفي طريقه اتصل بالإنذار من كابينة هاتف خارج متجر موصد.. سرعان ما سمع صوت السرينات وجاءت سيارات الإطفاء..

جاءت لتحرق بيت المستر (بلاك).. لتجعل زوجته تقف ترتجف في هواء الصباح الباكر البارد بينما يتداعى السقف.. لكنها ما زالت نائمة حاليا.

- (فابر)!

تأخر الرجل كثيرا حتى فتح الباب الخلفي، لكنه في النهاية جاء ووقف الرجلان يتبادلان النظرات، كأنما لا يؤمن كل منهما بوجود الآخر.. في النهاية أدخله الرجل ووقف على الباب بعض الوقت يسترق السمع.. ثم أغلقه وعاد.. قال (مونتاج):

- قد مات الكابتن، واحترق جهاز السماع.. كان ينوي أن يقتفي أثرك، لهذا أحرقته بقاذف اللهب.. (بيتي) كان صاحبي وقد أحرقته.. احترق منزلي.. (ميلي) قد رحلت.. وضعت بعض الكتب لألفق تهمة لصديق.. رباه! ما أكثر الأشياء التي قمت بها في أسبوع!!

ومد يده بما كان معه من مال إلى الرجل وقال:

- هذه مدخراتي.. احتفظ بها لعلك تحتاج إليها..

- ربما أكون أنا ميتا عند الظهيرة.

لم يعلق (فابر) وإنما قال:

- هل تعرف أن الحرب قد بدأت؟

- سمعت هذا في الطريق..

- رباه! لشد ما تبدو بعيدة بالنسبة لمشاكلنا هنا.. أنصحك أن تتجه إلى النهر.. حاول أن تتبع الخطوط الحديدية العتيقة كي

تقودك إلى الريف.. يقال إن الريف يزخر بالمتشردين من هنا إلى (لوس أنجليس).. هناك الكثير من الدرجات الجامعية من (هارفارد) متناثرة على طول الطريق.. إنهم يحاولون البقاء على قيد الحياة، والحكومة لم تعتبرهم قط خطرا إلى الحد الذي يدفعها لمطاردتهم.. حاول أن تقابلهم ولسوف ألحق بك في (سانت لويس).. سأركب حافلة الخامسة صباحا.. أما عن مالك فلسوف أستخدمه فيما يفيد.. هل تبغي النوم بعض الوقت؟

- أفضل مواصلة الهرب..

ونهض الرجل إلى غرفة النوم، فأزاح بعض الأغطية عن جهاز تلفزيون صغير في حجم البطاقة البريدية وفتحه فظهر على الشاشة وجه (مونتاج) فيما قال المذيع:

- م.. و.. ن.. ت.. ا.. ج.. (جاي مونتاج).. مازال هاربا، لكن الشرطة أرسلت في إثره كلبا إلكترونيا جديدا، وهذه الكلاب لا تفشل أبدا.. الكلب الإلكتروني يمكنه تذكر عشرة آلاف رائحة دون خطأ.. يسرنا الليلة أن نقدم لكم مطاردة (مونتاج) في السهرة عبر الكاميرات التلفزيونية، التي زودت بها طائراتنا الهليكوبتر..

ارتجف (فابر) ونظر إلى جدران منزله.. إلى غرفة النوم.. إلى الأريكة التي جلس فوقها (مونتاج).. وتشمم (مونتاج) الجو.. رائحته الخاصة.. أدرك أنه موجود على وفي كل شيء هنا.. على مقبض الباب فوق الأريكة.. ونظر إلى (فابر) فوجد الرجل يكتم أنفاسه كأنما يحاول ألا يلوث رئتيه برائحة (مونتاج)، حتى لا يتسرب هذا إلى داخله..

- (الهليكوبتر) تضع الكلب الآن في مكان الحريق..

وعلى الشاشة ظهرت الهليكوبتر تهبط وقد تعلق منها شيء مغطى بالأغطية، وقد ازدحم الناس حول بقايا الحريق.. ونظر (مونتاج) إلى هذا السيرك مبهورا مفتونا مع قدر من الاستمتاع.. رباه.. كل هذا من أجلي!

قال له (فابر):

- الآن يجب أن تفر.. سأحاول تعطيلهم بعض الوقت..

- ولماذا؟ يمكنك أن تحرق الملاءات والسجادة..

امسح المقابض بالكحول.. رش مبيد الذباب لبعض الوقت.. افتح أجهزة التكييف عن آخرها.. ربما ساعدك هذا على الخلاص من رائحتي..

- سأفكر في هذا..

- املأ حقيبة بثيابك القديمة المتسخة.. كلما كانت قذرة كان هذا أفضل.. جوارب.. ثياب داخلية.. سآخذها معي على سبيل المزيد من التضليل.. والآن وداعا..

وافترق الرجلان، وراح (مونتاج) يجري والحقيبة في يده، بينما بدأ المطر ينهمر من السماء غاسلا الطريق.. ومن نوافذ البيوت كان يرى الناس جالسين أمام أجهزة التلفزيون الجدارية يراقبون الكلب.. الكلب العملاق على الجدار يزحف كأنه سحابة صامتة من النيون نحو بيت (فابر)..

وتصلب (مونتاج) رعبا..

وقف الكلب على الباب يتشممه.. إبرة البروكايين تخرج من أنفه وتدخل.. تخرج وتدخل.. ثم دون مزيد من الحركة ابتعد

ركضا.. بصعوبة أقنع (مونتاج) أن هذا ليس مسلسلا مثيرا لكنها حياته نفسها.. صرخ ليرغم نفسه على الجري وألصق السماعة التي أعطاه (فابر) إياها على أذنه ليسمع ما يقال:

- الشرطة تطلب من الساكنين في منطقة (إلم) أن يفتح كل منهم نافذته... لن يتمكن الهارب من الفرار لو نظر كل واحد من نافذته الدقيقة التالية! استعدوا!!

بالطبع! لماذا لم يفكروا في هذا من قبل؟ كيف لم تجرب هذه اللعبة طيلة هذه الأعوام؟ إنه الرجل الوحيد الذي يركض في الشوارع..

- عند العدد عشرة.. واحد.. اثنان!

شعر بالمدينة تصحو.. تضع أيديها على مقابض الأبواب.. حلقه يحترق والدموع تحرق عينيه.. لابد من أن يصل لنهاية الطريق حالا..

أخيرا عبر آخر صف من المنازل، وانحدر عبر مدرج يقود إلى الظلمة..

- عشرة!

وانفتحت الأبواب كلها.. يمكنه أن يتخيل آلاف الوجوه الشاحبة بعيون مذعورة، تختلس النظرات من وراء الستائر كأنها حيوانات تنظر من أقفاصها الكهربية.

لكنه كان عند النهر الآن..

مشي في الماء وابتل حتى الجلد فقط كي يتأكد من أن هذا حقيقي.. شرب الكثير وتمخط بعضه من أنفه.. وحين وصل

للضفة الأخرى ارتدى ثياب (فابر) القذرة، وألقي بثيابه القديمة في النهر..

الآن ينزلق أكثر فأكثر إلى داخل النهر.. سمع صوت المروحيات والتمعت الأضواء، لكنه غاص تحت الماء وسرعان ما عبر النهر.. وشعر كأنه ممثل يغادر مسرحا مليئا بالممثلين.. إنه يغادر عالما من الحقيقة المخيفة إلى عالم من الحقيقة التي لا يمكن أن تكون حقيقة لأنها جديدة عليه.

كان النهر هادئا يتلوى مبتعدا عن الناس الذين يلتهمون الظلال في الإفطار، والدخان في الغداء والأبخرة في العشاء.. للمرة الأولى يرى النجوم في السماء منذ اثني عشر عاما.

رأى القمر في السماء.. لكن ما مصدر ضوء القمر؟ الشمس طبعا.. الشمس تدوم وتحرق.. الشمس والزمن والحريق.. الشمس تحرق كل يوم.. والزمن منهمك في حرق الأعوام والناس بدون عون منه.. لو أنه أحرق الأشياء مع رجال الإطفاء، لكان كل شيء يحترق.

الآن تصطدم قدماه بالحصى والحجارة.. إن النهر قد حمله إلى الشاطئ.

توقع أن تنفتح الأشجار ويبرز الكلب الإلكتروني أو تحلق طائرات الهليكوبتر، لكن لم يحدث شيء لدهشته.. ومشى وسط خضرة الريف مندهشا.. يذكر مرة رأى فيها هذه المشاهد في صباه، حين عرف أن الريف صامت والماشية ترعي تحت الأشجار، والكلاب تنبح خلف قطعان الخراف البيضاء..

نام وسط الأعشاب ينظر للسماء والنجوم.. توقع في كل لحظة أن يسمع خطوات أو يرى الكلب الإلكتروني، لكن هذا لم يحدث.. نام لكنه لم ينم فعلا لأن كل روائح الريف جعلته ينام دون أن يغلق عينيه..

كان بحاجة إلى راحة.. إلى أن يعطيه الكون فسحة من الوقت ليفكر في كل الأفكار التي يجب أن يفكر فيها.. كوب من اللبن.. إجاصة.. تفاحة..

الكثير جدا من الأرض! لا بد أن هناك مليون ورقة شجر على الأرض.. والروائح.. كانت هناك رائحة كالبطاطس المقطعة.. نيئة بيضاء من فرط ما ارتشفت شعاع القمر طيلة الليل.. رائحة كالمخللات ورائحة كالبقدونس على مائدة الإفطار في البيت.. رائحة صفراء كالخردل في مرطبان.. حتى أنامله صارت لها رائحة الربسوس.

كلما تنفس أكثر دخل المزيد من الأرض إلى أحشائه.. إنه ليس خاويا.. هناك دوما الكثير من الأرض كي تملأ صدره..

مشي على الطريق القديم الوحيد الذي غطته الأتربة، وأثار دهشته أنه واثق من حقيقة لا يمكن إثباتها..

(كلاريس) مشت هنا حيث يمشي الآن.. وفي نهاية الطريق رأي النار..

لم تكن نارا كأية نار.. كانت تمنح الدفء لا الاحتراق، وأثار دهشته أن النار قد تعطي كما تأخذ أحيانا.. دنا منها متلذذا بشعور غمره بأنه مجرد حيوان خرج من الغابة وقد جذبته النار.. حيوان يغطيه الفراء والبلل يدنو من النار.. النار التي تمنح

الدفء، والتي التفت حولها أيد بلا أذرع تصطلي.. هنا لا يوجد للوقت أهمية.. هنا يمكنك أن تجلس كما تشاء وتقلب الكون كله كأنك تقلب عصا في هذه النار..

وكانت الأصوات تتكلم.. لم يفهم عم تتكلم لكنها كانت تتكلم عن كل شيء.. لم يكن في الكون شيء لا تقدر هذه الأصوات على الكلام عنه.. وأخيرا قال له أحدهم:

- حسن.. يمكنك الدنو.. مرحبا بك معنا..

مشي (مونتاج) نحو النار، وكان الرجال الخمسة المسنون جالسين هناك يلبسون سراويل قطنية زرقاء وسترات زرقاء قاتمة.. لم يدر ما يقول لهم.. كانوا ملتحين لكنها لحى مشذبة أنيقة وأيديهم نظيفة.

- هل لك في قهوة يا (مونتاج)؟

وناولوه كوبا من القصدير فشرب منه بعض السائل الأسود.. احترقت شفتاه لكن لا بأس.

مد له أحد الرجال يده بزجاجة وقال:

- اسمي (جرانجر).. اشرب هذا أيضا.. بعد دقائق سيغير التركيب الكيميائي لعرقك.. ولسوف تكون لك رائحة رجل آخر.. فلن يجدك الكلب.

شرب (مونتاج) السائل المر..

- ستكون رائحتك كريهة كالوشق.. لكن لا بأس..

- أنتم تعرفون اسمي؟

أشار الرجل إلى جهاز تلفزيون صغير وقال:

- إن المطاردة اتخذت شكلا آخر تماما.. لقد انتهت آثارك عند النهر، ومعنى هذا أن المشاهدين سيفقدون حماستهم لأن تفتيش النهر يستغرق الليل كله.. لهذا تجهوا إلى مكان آخر ليبحثوا للمشاهدين عن كبش فداء.. (مونتاج) آخر! هل ترى؟ الهليكوبتر تهبط.. هناك رجل بائس يمشي وحده في الشارع.. هذا غريب.. غير معتاد.. ربما هو الأرق أو أنه مخلوق شاذ.. بالطبع تعرف الشرطة عادات البط الشاذ من هذا النوع، وهم يسجلون ذلك.. الآن يتضح أن هذه المعلومة بالغة الأهمية.. كانوا بحاجة إلى أحمق يمشي في الشارع ليحفظوا ماء وجوههم وها هو ذا..

وعلى الشاشة جرى الرجل وقد رأى الكلب الإلكتروني يجري وراءه.. هنا أطلقت الطائرة دستة من الطلقات حول الرجل لتنغرس في الأرض صانعة قفصا معدنيا من حوله.. نظر الرجل إلى أعلى في ذعر غير فاهم ما يحدث، ولفافة تبغ مازلت مشتعلة في يده.. في اللحظة التالية انقضت عليه الكاميرا والكلب في آن واحد.. وبرز المحقن وانغرس في عنقه فلم يجد وقتا للاستغاثة.. إخراج بارع حقا..



وعلى الشاشة جرى الرجل وقد رأى الكلب الإلكترونى يجرى وراءه ..

إظلام تدريجي.. ظلام.

ثم ظهر معلق على الشاشة وقال:

- انتهى البحث.. مات (مونتاج) وانتقم المجتمع من جريمة ارتكبت في حقه..

قال (جرانجر):

- هل لاحظت أن وجه الرجل لم يظهر في أية لقطة؟

ثم مد يده يصافح (مونتاج) المذهول:

- مرحبا بعودتك من الموت! أقدم لك المجموعة.. هذا (فريد كليمنت).. كان أستاذا في (كمبريدج) قبل أن تتحول إلى (معهد الهندسة النووية).. د. (ويست) من جامعة (لوس أنجيليس).. قدم دراسة قيمة عن الأخلاق لكنها منسية الآن.. المحترم (بادوفر) كان يحاضر في مدارس الأحد قبل أن يطرد بسبب آرائه.. أما محسوبك فكتب دراسة عن العلاقة بين المجتمع والفرد.. وهأنذا هنا الآن..

- أنا لست مثلكم.. كنت أحمق طيلة حياتي..

- ليس منا إلا من كان أحق بشكل ما.. هل لديك ما تقدمه لنا؟

- لدي جزء من التوراة لكني أضعته.. إلا أنه ما زال هنا!

وأشار إلى رأسه.

- لا بأس..

ونظر الرجل إلى الآخرين متسائلا:

- هل لدينا جزء من التوراة؟

قال آخر:

- رجل يدعى (هاريس) من (يانجزتاون)..

أمسك (جرانجر) بكتفي (مونتاج) في صرامة وقال:

(مونتاج).. خذ الحذر وحافظ على صحتك لو مات (هاريس) ستكون أنت نسختنا الوحيدة من التوراة..

- لكني نسيت الكثير..

- ستتذكر.. ستتذكر حين يتطلب الأمر.. إن كلا منا لديه ذاكرة فوتوغرافية، لكننا ككل البشر نكافح حياتنا كلها كي نحجب ما هو هنالك فعلا هل تتمنى أن تقرأ (جمهورية أفلاطون) يوما ما؟

- نعم..

- أنا (جمهورية أفلاطون)! هل تريد قراءة (ماركوس أوريليوس)؟ مستر (سيمون) هو (ماركوس أوريليوس)..

- كيف حالك؟

- أتمنى أن تقابل (سويفت) مؤلف (رحلات جليفر).. الكتاب السياسي الشرير.. أما هذا ف (تشارلز داروين) وهذا (شوبنهاور) وهذا (آينشتاين).. نحن هنا يا (مونتاج).. (أريستوفان) والمهاتما غاندي و(بوذا) و(كونفوشيوس) و(توماس بيكوك).. كذلك نحن نحرق الكتب.. نحفظ ما بها ثم نحرقها حتى لا يجدها أحد.. أكثر الطرق أمنا أن تبقى الكتب في العقول حيث لا يشك أحد في وجودها.. كل ما نقوم به هو إبقاء المعلومات التي نعتقد أن البشرية تحتاج إليها.. ولا ننوي أن نحارب أحدا لأنه لو تم

تدميرنا لانتهت المعلومات للأبد.. لكن لو انتهت الحرب التي يخوضها هذا البلد فلربما نتولى نحن الأمر..

- كم منكم هنا؟

- آلاف على الطرق وسكك الحديد المهجورة.. متشردون من الخارج.. ومكتبات من الداخل.. لم نخطط للأمر في البداية.. كل واحد كان عنده كتاب يريد أن يتذكره وقد فعل.. ثم خلال عشرين عاما قابل بعضنا البعض، وتعلمنا أنه لا أهمية لنا.. نحن مجرد مغلفات للكتب.. سنحاول أن نظل أحياء حتى تنتهي الحرب، عندها قد نجلس ليسمّع كل منا ما يحفظه وتعود الكتب إلى العالم ثانية.. ربما نكرر الأمر ثانية لو تكرر الكابوس من جديد..

- ولماذا تثقون بي؟

لأن وجهك يكفي.. أنت لم تر وجهك في المرآة من فترة.. أنت تبدو شنيعا والمدن لا تعبأ بالمخابيل من أمثالنا.. لا يهم إن كنا نحفظ (الماجنا كارتا) أو الدستور.. نحن لا أهمية لنا..

وانطفأت النار، فحاول (مونتاج) أن يرى في عيون هؤلاء الرجال بريق العلم الذي يحملونه، لكنه لم ير شيئا خاصا.. مجرد رجال لا يميزهم شيء.. هم مجرد كتب تمشي على قدمين بانتظار عميل يأتي يوما ما.. عميل قد يقلب صفحاتهم بيد متسخة أو نظيفة لكنه آت لا محالة.

قال أحدهم:

- لا تحكم على الكتاب من غلافه!

وضحك الجميع في صوت خفيض وهم يمشون مع النهر.

انطلقت النفاثات تزأر في السماء، وقال (مونتاج):

- زوجتي في المدينة هناك..

- هذا مؤسف.. إن المدن لن تكون مكانا في الأيام القادمة..

- من الغريب أنني لا أفتقدها.. لن أشعر بشيء لو أنها ماتت..

قال (جرانجر):

- اسمع يا (مونتاج).. كان لي جد بارع.. رجل يجيد استعمال يديه.. ويربي الحمام ويعزف الكمان.. حين مات حزنت لأنني لم أبك عليه، ولكن على كل الأشياء الجميلة التي لن يصنعها ثانية.. كم من تماثيل لن تخرج للعالم، وكم من سلالات حمام لن تفرخ، وكم من نكات لن تقال، وكم من ألحان لن تُعزف على الكمان..

وأنت يا (مونتاج).. ماذا قدمت للعالم؟

رماد..

قال (جرانجر) مواصلا كلامه:

كان جدي يقول إن كل إنسان لابد أن يترك شيئا من بعده وإلا لن يذهب للجنة.. يترك طفلا.. جدارا.. نبتة.. قصيدة.. كتابا.. شيئا لمسته يداك.. وكلما نظر الناس للجدار أو النبتة وجدوك فيها.. لا يهم أن تكون بارعا.. المهم أن تغير شيئا عما كان عليه قبل أن تمسه..

هل ترى؟ جدي مات من زمن بعيد، لكن لو فتحت جمجمتي لوجدت بصمات أصابعه على كل تعريجة من مخي.. لقد لمسني..

هنا صاح (مونتاج):

- انظر هناك!

وفي هذه اللحظة بدأت الحرب وانتهت.

☆ ☆ ☆

فيما بعد لم يستطع الرجال حول (مونتاج) تذكر هل رأوا بالفعل شيئا.. ربما أقل ضوء وحركة في السماء. لكن القنابل كانت هناك، وقد هبطت بسرعة مفزعة. فوق مدينة الصباح. لقد انتهى القصف.. بمجرد أن تحركت أجهزة القذف انتهت الحرب.. الآن مرت ثلاث ثوان وقد عبرت طائرات العدو نصف العالم مبتعدة، كأنها رصاصات لا يؤمن الرجل البدائي بوجودها لأنها غير مرئية.. لكن القلب يتمزق فجأة، والجسم يتهاوى، والدم يتناثر في الهواء.. العقل يسمح لنفسه ببضع ذكريات ثمينة، ثم - ولدهشته – يموت..

أبقى (مونتاج) القنابل في الهواء للحظة بعقله ومد يدا معدومة الحيلة إليها:

- اجروا!!

قالها لـ (مليدريد).. لـ (فابر).. لـ (كلاريس)..

لكن (كلاريس) ماتت، و(فابر) في الحافلة الآن.. الحافلة المتجهة إلى أفق مجهول، حيث لم تعد لوجهتها قيمة ما..

- ابتعدوا!!

لا بد أن (مليدريد) كانت غائبة في دوامة الأصوات والألوان في غرفة الفندق حين رأت وجهها.. وجهها الحقيقي في الثواني التي سبقت سقوط القنبلة، ثم حملها الانفجار مع آلاف غيرها إلى القبو حيث الدوامة الكبرى..

ودفعتهم موجة الانفجار فتساقطوا كقطع الدومينو، وامتلأت عيناه بالغبار وذرات الأسمنت.

كانوا الآن على الأرض يتشبثون بالعشب.. أصابعهم مخالب مغروسة في الطين، وهم يصرخون كي لا تنفجر آذانهم.. كي لا ينفجر تعقلهم.. كأنهم يحتجون على الريح التي أدمت وجوههم وجعلت أنوفهم تنزف.

ومن جديد ساد الصمت.. هوى على العشب ليمنحهم القدرة على أن ينظروا حولهم، ويحفروا هذا اليوم في حواسهم للأبد.. وماتت الريح.. كان الهواء باردا ينذر بمطر قادم..

ونهض (جرانجر) وتحسس ذراعيه.. وهو يسب.. يسب.. الدموع تنحدر على وجهه.. نهض إلى النهر ينظر إلى المدينة:

- إنها مسطحة.. المدينة تبدو ككومة من مسحوق الخبيز.. لقد ولت..

ثم بعد فترة طويلة قال:

- أتساءل كم واحدا عرف بالنهاية.. كم واحدا شعر بالدهشة؟

أشعل أحدهم النار فراحت تتوهج.. وكف الرجال عن النظر وشرعوا ينظرون إلى النار..

تناول (جرانجر) لفافة من المشمع وأخرج منها قطعة من اللحم وقال:

- سنأكل لقمة ثم نتجه نحو أعلى النهر.. لابد أنهم سيريدوننا هناك..

أخرج أحدهم مقلاة.. وبدأ الطهي.. تصاعدت رائحة طيبة وراحت قطعة اللحم تتراقص في المقلاة، أمام عيون الرجال الصامتة. ونظر (جرانجر) إلى النار وقال:

- العنقاء..

- ماذا؟

- كان هناك طائر سخيف يدعى (العنقاء) في الماضي.. في كل مائة عام كان يبنى لنفسه محرقة ويحرق نفسه.. لكنه كان يولد ثانية من الرماد في كل مرة.. يبدو أننا نفعل الشيء نفسه لكننا نملك شيئا لا يعرفه الطائر اللعين.. نحن ما اقترفناه.. وطالما لن ننسى هذا سيأتي اليوم الذي نكف فيه عن إشعال المحرقة والوثب فيها.

وأبعد المقلاة عن النار وجلسوا يأكلون في صمت وشرود.. من جديد قال (جرانجر):

- سنقابل أناسا يسألوننا: من نحن.. سنقول لهم إننا بلا أهمية.. لا عمل لنا إلا التذكر.. سنصنع أكبر رفش في الكون نحفر به أكبر قبر في الكون، وندفن فيه هذه الحرب..

كان النهار يتألق باستمرار، وعادت الطيور التي فرت إلى غصون الأشجار.. ومشي الرجال أعلى النهر.

نظر (مونتاج) إلى الرجال لكن (جرانجر) أشار له كي يتقدمهم.. كانوا صامتين.. فقد كانت هناك الكثير من الأفكار والكثير مما يجب تذكره.. ربما فيما بعد يمكنهم أن يتبادلوا الكلمات.

حين يأتي دوره فماذا عساه يقول؟ ماذا عساه يقدمه في يوم كهذا كي يجعل الرحلة أسهل؟ هناك موسم لكل شيء. هناك وقت للانهيار ووقت التماسك.. وقت للصمت ووقت للكلام.. وماذا بعد هذا؟

على جانبي النهر كانت هناك شجرة الحياة، تحمل اثني عشر نوعا من الثمار تمنحها كل شهر.. وكانت أوراق الشجرة مخصصة لعلاج جروح البلاد.. وفكر (مونتاج) قائلا: نعم.. هذه هي القصة التي سأدخرها إلى الظهيرة.. الظهيرة عندما نبلغ المدينة.

راي برادبوري

1953

451 فهرنهايت

أربعمائة وواحد وخمسون فهرنهايت.. هذه هي الحرارة المثلى لتدمير الكتب وتحويلها إلى رماد.. للقضاء على ذاكرة البشر وعلى كل ما كافح المفكرون والعلماء والأدباء كي يتركوه لنا..

451 فهرنهايت.. هذا عصر كئيب يحرق الكتب، ويعتبر حيازتها جريمة، كما نعامل نحن اليوم من يملك المخدرات. عصر يصير فيه لكلمة (الإطفاء) مدلول مختلف.. وبطل قصتنا (مونتاج) كان رجل إطفاء من الذين يحرقون الكتب بحماس شديد، حتى بدأ يعرف أشياء، ويكشف الغطاء عن حقائق.

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

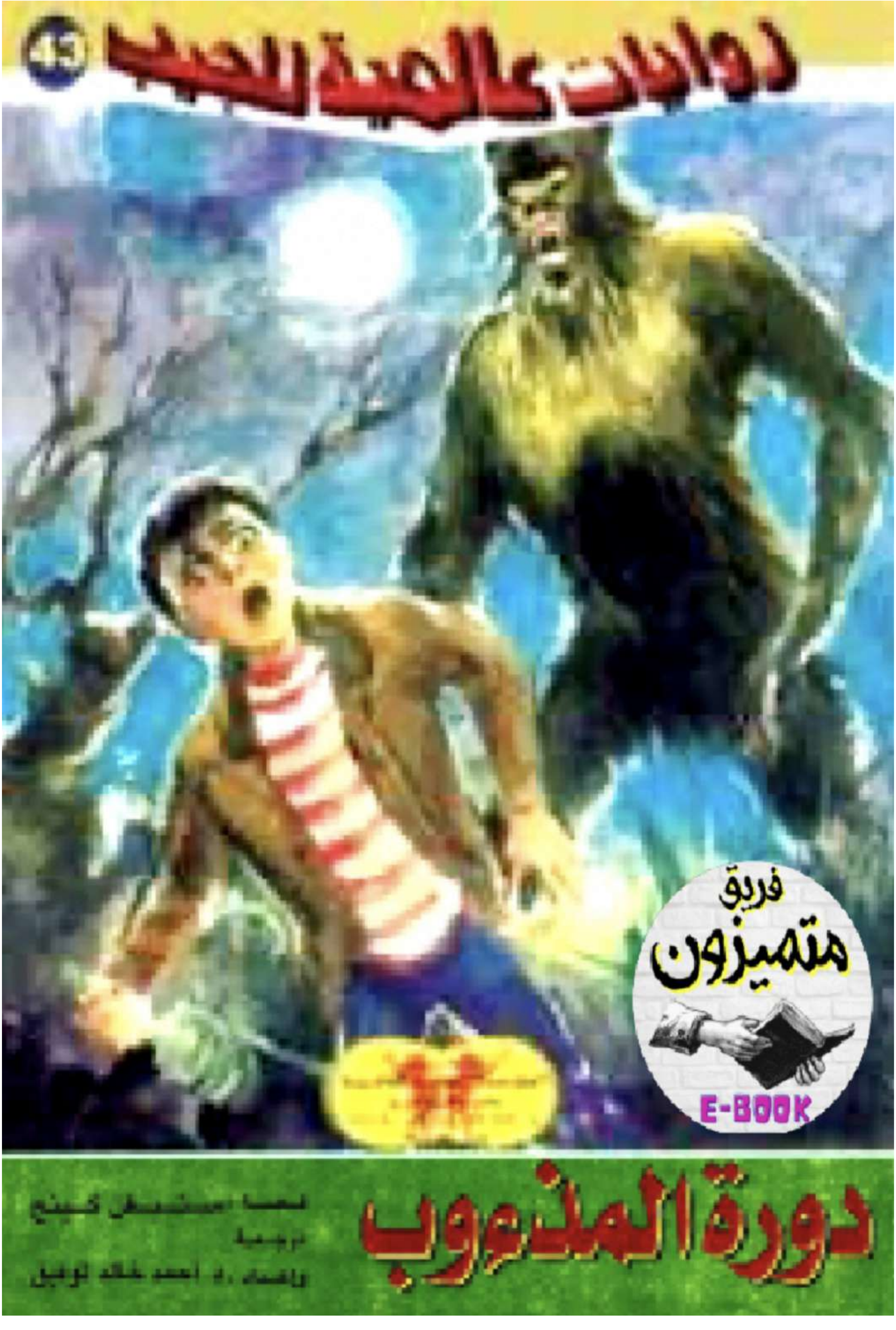
Notes

[←1]

- (رجل الإطفاء) هي الترجمة الأكثر دقة لتعبير Fire man لكن مهمة رجل الإطفاء في هذه الرواية هي حرق الكتب.. لهذا سندعوه (رجل الحريق)..

[←2]

- كما نرى.. يبدو أن هذه الرواية ستظل مناسبة لكل زمان ومكان!!!


روايات عالمية للجيب
43
فريق متميزون
E-BOOK
دورة المذءوب
قصة: ستيفن كينج
ترجمة
وإعداد: د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (43)

دورة المذءوب

قصة: ستيفن كينج
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

للمرة الثالثة نلتقي مع (ستيفن كينج) كاتب الرعب الأمريكي الأشهر، الذي صار عميدا لهذا النوع من الأدب، وهو - بلا جدال – الأنجح والأشهر بين المعاصرين..

وقد تحول اسمه إلى ماركة مسجلة، يراها القراء على كتاب فيبتاعونه، ويرونها على فيلم سينمائي فيشاهدونه.

كتب (كينج) كثيرا جدا.. إنه من أغزر الكتاب إنتاجًا، وملاحقة عناوين كتبه أمر شبه مستحيل، فما بالك بقراءتها جميعا؟ ومن أهم ما كتب دراساته عن فن الكتابة للرعب.. وهي دراسات رصينة تذكرنا بما كتبه (لافكرافت) عن الموضوع ذاته.

وعلى العموم هناك تيمات واضحة في أدب (كينج) يمكن منها فهم شخصيته بالضبط:

الحياة في قرية هادئة هي غالبا (بنجور) بولاية (مين).. ثم تأتى الكارثة من سماء صافية.. الفتى المراهق عاثر الحظ الذي يتحرش به المراهقون الأقوى عديمو الرحمة.. الهواجس المرضية التي تضايق شخصا ما ثم يتضح أنها حقيقية.. الأسرة المتوسطة التي تتبدل حياتها بالكامل.. ومن الواضح أن مرحلة مراهقة (كينج) كانت صعبة وأن لديه تثبيتًا هائلا عليها.. أغاني الروك وسباقات السيارات بين الشباب ومحاولة الظفر بإعجاب الفتيات.. إنها مراهقة أمريكية جدا لكنك تستطيع أن تترجمها إلى مشاعرك أنت لأن محتواها الإنساني ثري وعال.

وهذا هو ما يميز أدب (كينج) عن سواه من كتاب الرعب: إنه قرأ كثيرا جدا، وله إلمام واسع بالأدب العالمي، ويفهم علم النفس جيدا.. إنه أديب عالي المستوى قرر أن يحترف أدب الرعب، وهو في أمريكا نوع أدبي محترم، وإن عومل ببعض التعالي من الأنواع الأدبية الأخرى، لكن لحظة عدّ الأرباح يكتشف الأدباء الآخرون أن هذا النوع هو الأكثر شعبية ووصولا إلى الناس..

ولد كينج في 21 سبتمبر 1947 في بورتلاند مين، وفي طفولته وقع له حادث ليس هيِّنًا بالنسبة لطفل: بينما كان عمر الصبي ثلاثة أعوام خرج أبوه ليشتري علبة تبغ ولم يعد قط (لو كنا خبراء في تحليل النفس لقلنا إن هذا سبّب له عدم الإحساس بالأمان طيلة حياته، لكننا لسنا كذلك لحسن الحظ!). وفي سن سبعة أعوام كتب أولى قصصه وعشق أفلام رعب الخمسينات.. ثم كبر الفتى وعمل مدرسا للغة الإنجليزية، وتزوج وراح يزجي الفراغ بالكتابة، لكن الناشرين اعتادوا رفض قصصه.. كان سيتخلص من أول قصة له في القمامة لكن زوجته تابيثا أنقذتها من هناك، وأرسلتها إلى إحدى دور النشر، فإذا بدار النشر تقبلها ويتلقى 2500 دولار عليها، وكان اسم القصة هو (كاري)، وحين قرر برايان دى بالما أن يخرج القصة عام 1976 تحقق نجاحها العظيم.. ومن حينها صار اسم كينج مقدسا في عالم الرعب المكتوب والمرئي.

إن ستيفن كنج غريب الأطوار كأي نجم، وفي سبتمبر 1999 قيل إنه اشترى العربة التي صدمته في يونيو من العام ذاته، كي يحتفل بتهشيمها في ذكرى الحادث السنوية.. دخله السنوي

أربعون مليون دولار، لكنه يتقاضى من محاسبه 200 دولار أسبوعيا للإنفاق لا أكثر!

وقد أصدر خمس قصص هي (المسيرة الطويلة) و (أشغال طريق) و(الهارب) و(أرفع) و(المنظمون) تحت اسم مستعار هو (ريتشارد باكمان) ويقال إن سبب هذا هو ناشر كتبه الذي وجد أن السوق لا يتسع لتدفق إبداعات هذا الكاتب.. معظم قصصه تقع في (مين) مسقط رأسه.. لا يوقع الأوتوجرافات أبدا، وقيل إن هذا بسبب التشاؤم، لكنه في الحقيقة بسبب مقته لسخافات النجوم وتأليه الناس لهم.. لكنه يقبل التوقيع لو أرسل الأوتوجراف إلى مكتبه.. وحاليا هو يعاني من ضمور خطر بالشبكية ينذر بالعمى ولا علاج له للأسف..

إنه سريع الكتابة إلى حد الفراغ من كتاب جديد هائل الحجم كل عام.. وكانت علاقته بهوليوود حميمة من البداية، حتى إن كل كتاب جديد له يصير فيلما بالتأكيد، وقد شارك بالظهور Cameos في عدد من أفلامه، كما أخرج فيلما واحدا هو (الاندفاع الأقصى).

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

تحذير مهم..

هذه القصة غير مناسبة على الإطلاق لمن تقل سنهم عن ستة عشر عاما.. وليست هذه دعاية للقصة.

صحيح أن الأطفال يحبون التحدي ويصعب إخافتهم لكن المترجم يخلي مسئوليته على كل حال!

يناير..

فوق في السماء بزغ القمر مكتملا مكتنزا، لكن هنا في (تاركرز ميلز) جاءت عاصفة ثلجية كي تخنق السماء بالثلج، واندفعت الريح بعنف إلى الشارع الرئيسي فاستسلمت لها كاسحات الثلج في البلدة معلنة عجزها.

كان (أرني وستروم) عامل إشارة السكة الحديدية، قد احتُجز في كوخه على بعد تسعة أميال من البلدة، وقد تجمدت دراجته التي تعمل بالجازولين والمخصصة للمشي على القضبان.. إنه ينتظر العاصفة هناك ويتسلى بلعب لعبة (السوليتير) بأوراق لعب مشحمة متسخة.. وفي الخارج تتحول الريح إلى الصراخ، فينظر (وستروم) في توتر ثم يعود إلى اللعب.. إنها الريح على كل حال..

لكن الريح لا تخدش الأبواب، ولا تعوي كي يسمح لها بالدخول.

ينهض من مكانه.. رجلا فارع الطول ضامرا.. يرتدي سترة صوفية ولفافة تبغ تتدلى من ركن فمه.. ووجهه الذي يحمل قسمات (نيو إنجلند) تضيئه الانعكاسات البرتقالية من مصباح الكيروسين المعلق على الحائط..

يعود الخدش من جديد.. هذا كلب أحدهم وقد ضل الطريق ويريد من يسمح له بالدخول.. هذا كل ما في الأمر.. لكنه برغم هذا يتصلب.. ليس من الإنسانية تركه هكذا في الخارج.. (ليس الجو أدفأ بالداخل على كل حال) لكنه ما زال يتردد.

ثمة إصبع بارد من الخوف يعبث تحت قلبه.. كان هذا موسما سيئا في (تاركرز ميلز) هذا العام، وكانت هناك علامات شؤم كثيرة..

قبل أن يقرر ما يجب عمله يتعالى الأنين إلى زمجرة.. هناك صوت ارتطام كأنما شيء ثقيل للغاية يضرب الباب.. يتراجع.. يضرب الباب.. يرتجف الباب في إطاره وتهب نسمة باردة ثلجية من أعلاه.

يبحث (أرني) حوله عن شيء يدعم به الباب، لكن قبل أن يمد يده إلى المقعد الذي يجلس عليه، ضرب الشيء الباب بقوة لا تصدق.. مهشما إياه من أعلاه إلى أسفله.

يتماسك الباب لحظة، لكنه يحشر رأسه فيه وهو يركل ويضرب.. بخطمه المتقلص على شكل زمجرة.. وعيناه الصفراوان تتوهجان كان هذا أكبر ذئب رآه (أرني) في حياته.

وزمجرته تشبه كلام البشر إلى حد مخيف.

يتهاوى الباب أخيرا.. يستسلم.. وفي لحظة سيكون الشيء بالداخل..

وفي ركن الغرفة كان هناك مثقاب بين أدوات أخرى.. التقطه (أرني) وأمسكه بينما الذئب يشق طريقه بالداخل ويقعى.. عيناه الصفراوان تتوهجان صوب الرجل المحاصر في الركن..

أذناه مسطحتان للوراء.. لسانه يتدلى.. وخلفه يدخل الجليد من الباب الذي تهشم في منتصفه.. يثب وهو يزمجر، بينما (أرني) يطوح المثقاب..

مرة..

وفي الخارج تلتمع أضواء المصباح الخافتة على الثلج عبر الباب المهشم..

تعوي الرياح وتعوي..

يبدأ الصراخ.

شيء غير آدمي قد جاء إلى (تاركرز ميلز) لا يراه أحد، مثله مثل القمر الساطع فوق الغيوم من أعلى.. إنه المذءوب.. ولا يوجد تفسير واحد لوصوله الآن أكثر من أسباب حدوث السرطان أو قدوم مجنون تكمن فكرة القتل في ذهنه.. أو إعصار قاتل..

مكانه هنا.. وقته الآن.. في هذه البلدة الصغيرة في ولاية (مين) التي ما زال الناس يؤمون الكنيسة فيها، وما زال الأطفال في المدارس يحضرون تفاحا لمعلماتهم، ما زالت الجريدة الأسبوعية تهتم باجتماعات المسنين.. الأسبوع التالي ستكون هناك أخبار من نوع أكثر قتامة..

في الخارج بدأت آثار أقدامه تمتلئ بالثلج، وبدا صراخ الريح متوحشا منتشيا.. كل شيء هو الشتاء الأسود والجليد القاتم..

لقد بدأت دورة المذءوب..

☆ ☆ ☆

فبراير..

الحب هو ما فكرت فيه (ستيللا راندولف) وهي راقدة في فراشها، بينما من نافذتها يدخل الضوء البارد الأزرق للقمر المكتمل في يوم القديس (فالنتين) [1]..

اليوم تلقت (ستيللا) عشرين بطاقة بريدية بمناسبة عيد الحب.. واحدة من الممثل (بول نيومان) وواحدة من (روبرت ردفورد) وواحدة من (جون ترافولتا).. أبقتها مفتوحة في الغرفة أمامها يضيئها نور القمر الأزرق الشاحب.. لقد أرسلتها لنفسها كما تفعل كل عام..

إن الحب جميل.. كأنه الزهور في ضوء الشفق..

إنهم يسخرون منها في (تاركرز ميلز).. نعم.. بالتأكيد.. الأطفال يسخرون منها، ولو ضمنوا أنهم بعيدون عنها، وأن الكونستابل (نيري) ليس قريبا، فلربما غنوا:

-بدينة بدينة.. اثنان في أربعة» بأصواتهم الرفيعة الحلوة.. لكنها تعرف كل شيء عن الحب وعن القمر.. إنها بدينة أكثر من اللازم وتجارتها فاشلة، لكنها في هذه الليلة بينما القمر يغمر غرفتها بهذا اللون الأزرق عبر النافذة المغطاة بالجليد فإنها تعتقد أن الحب ما زال ممكنا.. الحب ورائحة الصيف الآتي.

فجأة هناك خدش على زجاج النافذة..

تنهض من على الوسادة مرتكزة على كوعها.. إن شكلا ما يحجب ضوء القمر.. لا تدري ما هو لكنه رجولي..

تنهض شاعرة أن هذا كله حلم.. إن هذا الجالس خلف النافذة رجل تعرفه.. رجل تمر به في الشارع كل يوم تقريبا.. إن الحب يشبه القادمين دائما.

لكن إذ تمرر يدها المكتنزة على زجاج النافذة البارد ترى أن هذا ليس رجلا على الإطلاق.. إنه حيوان.. ذئب أشعث عملاق، ومخالبه على عتبة النافذة، ومؤخرته مدفونة في الثلج الذي يغطي الجهة الغربية من بيتها، هنا على ضواحي البلدة.

لكن هذا يوم (فالنتين)، ولابد أن عينيها تخدعانها.. هذا ليس حيوانا.

ترفع النافذة فتشعر برياح الليل تطير ثوبها خلفها فتعرف أن هذا ليس حلما..

لا يوجد رجل هناك، وتدرك بشكل ما أنه لم يكن هناك رجل قط.

تتراجع للوراء بينما يثب الذئب العملاق إلى غرفتها.. ينفض فراءه فيتطاير الثلج كأنه سحابة من سحب الحلم.



تتراجع للوراء بينما يثب الذئب العملاق إلى غرفتها .

متأخرا جدا تتذكر عامل الإشارة الذي مزقه ذئب مفترس في كوخ الإشارة فقط من شهر واحد.. نعم تذكرت هذا متأخرا جدا.

يتقدم الذئب منها وعيناه الصفراوان تلمعان بجشع بارد.. تتراجع إلى الوراء حتى تصطدم قدماها بفراشها فتسقط عليه، وتتهاوى..

يلمع ضوء القمر على فراء الوحش معطيا بريقا فضيا.. وعلى المنضدة ترتجف البطاقات للحظة في الهواء البارد الذي دخل من النافذة.. إحداها طارت ودارت في الهواء حول نفسها قبل أن تستقر في كسل على الأرض.

يضع الذئب يديه المخلبيتين على الفراش.. يدا على كل جانب منها.. يمكنها أن تشم أنفاسه حارة لكنها ليست كريهة.. عيناه الصفراوان تحدقان فيها.

أغمضت عينيها بينما انقض عليها..

إن الحب يشبه الموت أحيانا..

☆ ☆ ☆

مارس..

كانت آخر عاصفة جليدية - التي بدأت تضعف مع دنو الليل - قد ألقت الأغصان المهشمة في كل شوارع المدينة.. وتعالت أصوات تشبه طلقات الرصاص من الشقوق التي تحدث في الأخشاب المتعفنة.. هذه أمنا الطبيعة تقلم أخشابها.. هكذا يقول (ميلت ستورمفولر) أمين مكتبة البلدة لزوجته وهو يحتسي القهوة..

رجل نحيل هو، ضيق الجبهة أزرق العينين، وقد استطاع بساديته وتسلطه أن يبقى زوجته في سجن من الخوف اثني عشر عاما.

كان (ميلت) يحب جملته هذه كثيرا لدرجة أنه يكررها المرة تلو الأخرى.. نعم.. أمنا الطبيعة تقلم أخشابها.. فجأة تنقطع الأنوار وتشهق (دونالي) زوجته في رعب.. بل إنها تسكب قهوتها..

ستنظفين هذا.. يقولها زوجها في برود.. الآن..

حسن يا حبيبي.. حالا..

وفي الظلام تبحث عن منشفة أطباق تجفف بها القهوة، فتصطدم ساقها بمسند الأقدام.

تسقط على الأرض صارخة.. ويضحك زوجها في الظلام من قلبه.. إنه يجد رعب زوجته مسليا أكثر من أي شيء آخر.

كما قلمت أمنا الطبيعة بعض أخشابها، يبدو أنها قلمت كذلك بعض خطوط الكهرباء في ليلة (مارس) العصيبة هذه.. لقد غطى الثلج خطوط الضغط العالي وازداد كثافة.. حتى سقطت على الأرض مثل عش من الأفاعي، وراحت تتلوى وتبصق اللهب الأزرق.. ولم يكن أحد من عمال الكهرباء قادرا على الوصول إلى مكان الخلل بسبب الطرق الزلقة..

وساد الظلام كل (تاركر ميلز).

وكأنما شبعت العاصفة وبدأت تهدأ قليلا، لكن البرد اشتد، وتجمدت الحقول على شكل سطح أبيض براق.. تتباعد السحب كاشفة عن وجه القمر.. ويلمع الثلج الذي يغطي الشارع الرئيسي كعظام ميت.

وفي الظلام يعوي شيء ما.

فيما بعد لم يستطع أحد تحديد من أين جاء الصوت.. لقد بدا كأنما هو آت من لا مكان وكل مكان.

مثله مثل ضوء القمر الذي يغمر البيوت.. آت من لا مكان وكل مكان مثله مثل صوت بوق محارب من الشمال..

تسمعه (دونالي) بينما زوجها الشرير يغفو جوارها.. يسمعه الكونستابل (نيري) إذ وقف في نافذة غرفة نومه في شارع (لوريل).. يسمعه (أولى باركر) أمين مكتبة البلدة البدين يسمعه كثيرون ومن بينهم صبي على مقعد متحرك.

لا أحد يراه.. كما لا يعرف أحد اسم المتسكع الذي وجده عامل الطريق في الصباح، حين وصل أخيرا إلى البلدة لإصلاح كابلات الكهرباء.. كان مغطى بالثلج ووجهه يصرخ صرخة صامتة

وقد تمزق قميصه.. كان المتسكع وسط بركة متجمدة من دمه، ويداه ما زالتا ممدودتين في حركة من يبعد خطرا عن وجهه، وقد تراكم الجليد بين الأصابع..

وحول جثته كانت آثار مخالب..

آثار أقدام ذئب..

☆ ☆ ☆

أبريل..

في منتصف الشهر استحالت آخر هبات العاصفة إلى شلالات من المطر، وثمة شيء مدهش يحدث في (تاركرز ميلز).. لقد عادت الخضرة.. لقد ولى الجليد في بركة (ماتي تلينجهام)، ورقع الجليد في طريق الغابة المسماة (الغابة الكبرى) قد بدأت تضمحل.. يبدو أن الحيلة الناجحة القديمة ستنجح هذه المرة من جديد: لقد عاد الربيع!

احتفل القوم بالمناسبة بشكل محدود برغم الظل الذي خيم على البلدة.. قامت الجدة (هيج) بخبز بعض الفطائر وضعتها على نافذة المطبخ حتى تبرد.. وفي الكنيسة المعمدانية قرأ الموقر (لستر بوي) بعض أناشيد (سليمان) وألقى موعظة عنوانها (ربيع رضا الرب)..

وفي الحانة يحتفل سكير البلدة (كريس رايتسون) بالمناسبة بشكل أكثر دنيوية.. ويرمقه صاحب الحانة وساقيها (بيلي روبرتسون) وهو يمشي مترنحا في ضوء قمر أبريل الفضي الذي لا يصدق.. ويقول للساقية:

-لو كان الذئب سيفوز بواحد آخر، فأعتقد أنه سيكون (كريس).

تقول الساقية وهي تهز كتفيها:

-لا تقل هذا..

اسمها (إليز فورنيير).. أربعة وعشرون عاما.. تنوي ترك البلدة في الصيف.. إن موضوع الذئب هذا قد بدأ يثير رعبها.. بدأت

تعتقد أن البقشيش ربما يكون أفضل في (بورتسماث).. والذئاب الوحيدة هناك تلبس ثياب البحارة..

إن الليالي في (تاركرز ميلز) حين يكتمل القمر، غير مريحة.. أما النهار فيكون أفضل وتحلق الطائرات الورقية عصر كل يوم في عنان السماء..

نال (برادي كيناسيد) - البالغ من العمر أحد عشر عاما - نسرا في عيد ميلاده.. وقد فقد كل إحساس له بالزمن وهو يرقب الطائرة تعلو وتهبط في السماء، ويرتجف خيطها في يده كأنها شيء حي..

لقد نسي أن عليه العودة إلى البيت للعشاء.. نسي أن كل أصحاب الطيارات الورقية الأخرى قد رحلوا الواحد تلو الآخر.. وقد طوى كل منهم طائرته تحت إبطه..

نسي تماما أنه صار وحيدا.

دائما ما يكون رحيل الضوء، وغزو اللون الأزرق هما ما يخبره بأنه تأخر.. وعندها يرى القمر يرتفع على حافة الحديقة.

للمرة الأولى هذا قمر دافئ.. منتفخ برتقالي اللون وليس أبيض شاحبا، لكن (برادي) لا يلاحظ هذا.. فقط يعرف أنه بقى طويلا وأن أباه سيلومه على الأرجح.. وأن الظلام قادم.

في المدرسة سخر من خرافات أصدقائه عن المذءوب الذي قالوا إنه قتل المتسكع الشهر الماضي.

وقتل (ستيللا راندولف) في الشهر الذي قبله.

وقتل (أرني ويستروم) في الشهر الذي قبله.. لكنه لا يضحك الآن.. وإذ يحول القمر غبشة أبريل إلى ستار دموي، تبدو له القصص حقيقية أكثر من اللازم.

بدأ يلف الخيط بأسرع ما يستطيع، جاذبا النسر بعينية الحمراوين من السماء المظلمة.. يجذبه بسرعة بينما يموت النسيم، ونتيجة لهذا تهوي الطائرة وراء المنصة في الهواء الطلق.

يتقدم نحوها وهو يلف الخيط كلما تقدم.. ناظرا في عصبية إلى الوراء.. وفجأة بدأ الخيط يهتز في يديه للأمام والخلف.. ذكره هذا بخيط الصيد حين يمسك بسمكة كبيرة في مجرى نهر (تاركرز).. ينظر إلى الخيط في توتر مقطبا..

فجأة يدوي زئير مريع في سماء الليل ويصرخ (برادي كيناسيد).. الآن هو يصدق.. نعم يصدق.. لكن تأخر الوقت جدا، وقد ذاب صياحه وسط الزئير الذي بدأ يتعالى إلى أن صار عواء..

الذئب يركض نحوه.. يركض على قدميه.. فراؤه المشعث برتقالي اللون في لهيب القمر.. وعيناه مصباحان أخضران براقان.. وفي إحدى اليدين.. اليدين اللتين تبدوان آدميتين، وقد حلت المخالب مكان الأصابع، يرى طائرته التي تشبه النسر.. إنها تهتز في جنون..

يستدير (برادي) للهرب، لكن ذراعين جافتين تحيطان به.. ويشم شيئا هو مزيج من الدم والقرفة

ويجدونه في اليوم التالي ملتصقا بالنصب التذكاري للحرب، بلا رأس وبلا أحشاء.. وطائرة النسر في إحدى يديه..

تتراقص الطائرة كأنما تبغي الصعود إلى السماء، بينما فريق البحث يعود أدراجه مذعورا شاعرا بالغثيان.. تتراقص لأن النسيم قد صحا..

تتراقص كأنما هي تعرف أن هذا يوم مناسب للطائرات الورقية.

☆ ☆ ☆

مايو..

عشية يوم (العودة للدار) في الكنيسة المعمدانية، حلم الموقر (لستر لوي) بحلم مريع صحا منه يرتجف غارقا في العرق، ناظرا عبر نوافذ بيت الكاهن عبر الطريق كان يستطيع أن يبصر كنيسته.. ضوء القمر يدخل من نوافذ غرفة النوم في شعاع فضي ثابت.. يخطر له أنه للحظة سيرى المذءوب الذي يتحدث عنه الجميع، ثم يغمض عينيه ويستغفر الله على تصديقه هذه الخرافات.

لكن الحلم.

في هذا الحلم كان في الغد، وكان يعظ في احتفال (العودة للدار).. وبدلا من أن يرى مقاعد خالية أو مليئة كما يحدث أيام الأحاد، كان كل مقعد مليئا..

في هذا الحلم رأى نفسه يعظ بقوة نارية لم يعتد أن يعظ بها.. اليوم لمست لسانه قوة هائلة وأدرك أنه إنما يلقى أعظم موعظة ألقاها في حياته.. وكان موضوعها هو التالي: (الوحش يمشي بيننا).. كان يدور حول هذه النقطة شاعرا أن كلماته صارت شعرية، وأن صوته يزداد قوة..

إن الوحش - كما قال لهم - في كل مكان.. الشيطان يمكن أن يوجد في أي موضع.. في رقصة في المدرسة الثانوية.. يشتري علبة تبغ في المتجر.. يقف أمام الصيدلية.. يلتهم شطيرة.. ربما كان الوحش جالسا جوارك في قاعة الكونشيرتو.. ربما يأكل فطيرة في مطعم (ثرثر وامضغ) في الشارع الرئيسي..

الآن صار صوته همسا.. لقد استحوذ عليهم تماما.. احترسوا من الوحش.. ربما ابتسم وقال إنه جارك.. أسنانه حادة ويمكنك أن ترى تقلب عينيه.. إنه الوحش.. وهو هنا في (تاركرز ميلز) بالذات..

لكن فجأة ينهار وتتخلى عنه طلاقة لسانه.. لأن شيئا مريعا يحدث هناك في كنيسته

إن المستمعين يتحولون إلى مذءوبين.. كلهم الثلاثمائة مستمع.. (فيوليت ماكنزي) معلمة البيانو.. جسمها العانس النحيل يمتلئ فجأة.. أنفها يتسطح ويطول.. مدرس العلوم البدين (ألبرت فريمان) يزداد بدانة، وخصلات شعر قوية كالزنبرك تثب من صدره، كما يثب الياي من الأريكة القديمة! شفتاه السمينتان تتراجعان كاشفتين عن أسنان غليظة كمفاتيح البيانو!

يتراجع الموقر (لوي) عن منبر الوعظ في خوف، بينما تسود الفوضى.. ويصرخ الرجل:

- الوحش! إنه في كل مكان! كل مكان.

لكن صوته لم يعد صوته.. لقد تحول إلى نوع من العواء بلا مقاطع.. وحين نظر ليديه رأى أنهما تحولتا إلى مخالب..

عندها صحا من النوم.

هذا مجرد حلم.. كذا فكر وهو يعود لفراشه.. فقط حلم.. الحمد لله.

لكنه حين فتح الكنيسة في صباح الأحد.. صباح يوم (العودة للدار)، لم يكن ما رآه حلما.. هذا جسد (كلايد كورليس) الذي تولى التنظيف طيلة أعوام.. هذا جسده وقد فرغ من الأحشاء معلقا من قدميه ومكنسته بقربه.

لم يكن هذا حلما.. فقط تمنى الموقر (لوي) لو كان كذلك.. يفتح فمه.. يصرخ بأعلى صوته..

لقد جاء الربيع ثانية.. وفي هذا العام جاء الوحش معه.

☆ ☆ ☆

يونيو..

في أقصر ليالي العام، يقف (ألفى نوبفلر) صاحب مقهى (ثرثر وامضغ، يلمع المنصة المصنوعة من (الفورمايكا)، وقد رفع كمي قميصه كاشفا عن ساعديه العضليين الموشومين.. إن المقهى في هذه اللحظات خال تماما، وهو ينهي عمله فيقف بعض الوقت.. ينظر إلى الشارع ويتذكر شبابه الأول..

ينفتح الباب الذي يقود إلى الصيف، ويسمح بدخول تيار هادئ من ضوء القمر.. إنه يعتقد أن المقهى خال لأن الوحش يمشي في ضوء القمر، لكن (ألفي) لم يكن خائفا ولا قلقا.. لأن وزنه اثنان وعشرون رطلا، وأكثر هذا الوزن عضلات ممتازة اكتسبها من البحرية.. لم يقلق لأنه يعرف أن الزبائن سيأتون في الصباح طلبا للبيض والبطاطس المحمرة والقهوة..

يقول لنفسه: ربما أغلق مبكرا هذه الليلة..

ربما كان الوقت مناسبا للذهاب للحفلة التالية في السينما.. سينما سيارات.. يونيو.. سماء دافئة وقمر مكتمل.. يوم مناسب لتذكر غزوات الماضي..

يتجه لآلة القهوة عندما ينفتح الباب خلفه.. يستدير..

- هيه! كيف حالك؟

يسأل لأن العميل زبون لديه برغم أنه لا يراه بعد العاشرة صباحا أبدا..

يهز الزبون رأسه ويتبادل الرجلان عبارات ودودا..

يسأله (ألفي) بينما الرجل يجلس إلى أحد المقاعد العالية المواجهة للكاونتر:

- قهوة؟

- من فضلك.

حسن.. حسن.. ما زال الوقت كافيا للحاق بهذه الحفلة.. يستدير إلى آلة القهوة.. لا يشعر بأنه على ما يرام هذه الليلة.. مريض ربما.. مرهق ربما.. لكن الوقت ما زال مبكرا على..

هنا تزيل الصدمة بقية أفكاره.. ويفتح (ألفي) فمه في غباء.. إن آلة القهوة من المعدن المقاوم للصدأ وهي تلمع مثل أي شيء في هذا المقهى.. تلمع كالمرآة.

وفي سطحها العاكس المقوس يرى شيئا لا يصدق، كما أنه مخيف..

إن زبونه الذي يراه كل يوم، والذي يراه الجميع كل يوم في (تاركرز ميلز)، يتغير.. وجهه يلتوي.. يذوب.. يتسع.. قميص الزبون القطني ينتفخ ويتمدد.. فجأة تتمزق الخياطة، وكل ما يتذكره (ألفي) أن هذا المشهد كان في مسلسل، يحب ابن أخيه (راي) أن يراه: الرجل الأخضر [2].

لقد صار وجه الزبون الباسم الرقيق شيئا حيوانيا.. عيناه البنيتان صارتا أفتح.. صارتا خضراء ذهبية مخيفة.. يصرخ الزبون لكن صرخته تتهشم.. تسقط مثل مصعد وتتحول إلى عواء غاضب غريب.

إنه الشيء.. الوحش.. المذءوب.. أيا ما كان.. يقف أمام الكاونتر ويزأر.

يستدير (ألفي) فيصدم ردفه دورق القهوة.. يسقط هذا على الأرض وتنتثر القهوة الساخنة في كل مكان وتحرق كاحليه.. يصرخ ألما وخوفا.. نعم هو خائف.. لقد نسي وزنه الثقيل وعضلات البحرية الممتازة..

نسي ابن أخيه (راي).. نسي كل شيء إلا الوحش.. يقف هنا مثل وحش في أحد أفلام الرعب.. وحش خرج من الشاشة فجأة.

يثب على (ألفي) ويحاول (ألفي) تفاديه.. لكنه ينزلق فوق بقايا الدورق المهشم ويسقط على مشمع الأرضية الأحمر.

مزيد من العواء وفيضان من الزفير الدافئ ثم ألم أحمر، إذ تغوص أنياب الوحش في عضلة ظهر الرجل.. يغرق الدم الأرضية والكاونتر..



مزيد من العواء وفيضان من الزفير الدافئ ثم ألم أحمر، إذ تغوص أنياب الوحش في عضلة ظهر الرجل.

يتأرجح (ألفي) واقفا على قدميه وظهره ينزف بقوة، ويحاول الصراخ، بينما ضوء القمر الدافئ.. ضوء قمر الصيف يسبح من النافذة..

ينقض الوحش ثانية..

وضوء القمر آخر ما يراه (ألفي)..

☆ ☆ ☆

ثم إلغاء احتفال الرابع من (يوليو).. يوم الاستقلال.

ولم يتلق (مارتي كوزلو) الكثير من التعاطف من أقرب الناس إليه، حين أخبرهم بهذا.. ربما لأنهم لم يفهموا عمق ألمه.

قالت له أمه بجفاء:

- لا تكن أحمق..

وهي دائما جافة معه.. وكانت تحاول أن تبرر لنفسها هذه الخشونة من جانبها، فتقول إنها لن تفسد الفتى لمجرد أنه معوق.. لمجرد أنه سيمضي باقي حياته على مقعد متحرك.

يقول أبوه وهو يضربه على ظهره:

- فقط انتظر حتى العام القادم.. سيكون أفضل مرتين! جدا جدا.. سترى أيها الصغير! هيه!

(هيرمان كوزلو) مدرس للتربية الرياضية في مدرسة (تاركرز ميلز) لقواعد اللغة، قد اعتاد أن يكلم ابنه بما يعتبره (مارتي) صوت الصديق الأكبر سنا.. الحقيقة هي أن (مارتي) يجعل أباه عصبيا نوعا.. إن أباه يعيش في عالم من الأولاد أصحاء الجسد، الذين يتسابقون ويلعبون الكرة ويسبحون سباحة تتابعية.. وإذ يوجههم لهذا كله كان يرى (مارتي).. جالسا على مقعده المتحرك يراقب.. كان هذا يجعله عصبيا وحين يصير عصبيا كان يتكلم بصوت الصديق الأكبر ويقول «هيه!» و «أيها الصغير» و«جدا.. جدا».

تقول أخته الكبرى:

- ها ها.. أخيرا لم تظفر بشيء أردته.

تقولها حين يخبرها إلى أي حد ينتظر هذا اليوم من عام لآخر.. الألعاب النارية وبريق الضوء الذي تليه فرقعة تقول «كير وامب!».. إن (كيت) في الثالثة عشرة بينما هو في العاشرة.. وهي مقتنعة بأن الجميع يحبون (مارتي) لمجرد أنه لا يستطيع المشي.. وهي مسرورة لأن الألعاب النارية ألغيت.

حتى الجد الموثوق بتعاطفه لم يتأثر كثيرا.

-لا أحد يمكن أن يلغى الرابع من يوليو يا بني..

يقولها بلهجته السلافية الثقيلة.. كان يجلس في الشرفة يرمق الغابة البعيدة، وكأس من (الشنابس) في يده.

- فقط سيلغون الألعاب النارية.. وأنت تعرف السبب.

و(مارتي) يعرف السبب.. إنه القاتل.. في الصحف يطلقون علية (قاتل البدر).. لكن (مارتي) قد سمع الكثير من القيل والقال في الصف قبل انتهاء الدراسة.. قال البعض إن قاتل البدر ليس رجلا على الإطلاق.. لكنه كائن خارق.. مذءوب ربما.. لم يصدق (مارتي) هذا لأنه اعتبر أن المذءوبين لا يعملون إلا في أفلام الرعب، لكنه افترض أن هناك قاتلا مجنونا هناك، لا يرغب في القتل إلا حين يكتمل القمر بدرا.

لكن الألعاب النارية قد أوقفت بسبب حظر التجوال القذر.

وكانت تعني له الكثير.. تعني ليل الصيف الدافئ والزهور التي تتفتح في السماء.. كان يجلس في (يناير) يرمق الثلوج ويري رفاقه

يلعبون ويتزلجون على الجليد، بينما هو لا يجد ما يقوم به.. وكان ينتظر الصيف بكل جوارحه.

دعك مما يقول الآخرون.. (مارتي) يشعر بأن عيد الرابع من (يوليو).. عيده هو بالذات قد قتلوه قتلا.

فقط خاله (آل) الذي جاء إلى المدينة هذا الصباح ليأكل السلامون والفاصوليا الطازجة مع الأسرة، كما هي العادة في ذلك اليوم، هو من فهم.. أصغى باهتمام وهو يرتدي ثوب الحمام الذي يتساقط منه الماء.. (كان الآخرون ينعمون بالسباحة في حوض السباحة بالجهة الأخرى من الدار)..

- هل تفهم ما أعنيه؟ ليس للأمر علاقة بكوني معوقا كما تظن (كيت)، أو خلط للأوراق بين الألعاب النارية وأمريكا ذاتها كما يظن جدي.. فقط ليس من العدل أن يتطلع المرء لشيء ما فترة طويلة.. ليس عدلا أن يأتي (فكتور باول) ومستشار البلدة كي يسلباني إياه.. ليس حين يكون شيئا تريده بقوة.. هل تفهمني؟

ساد صمت طويل ثقيل بينما فكر الخال في كلام (مارتي).. صمت يكفي كي يسمع (مارتي) صياح الأب من حمام السباحة:

- رائع يا (كيت).. رائعععععع!

قال الخال:

- أنا افهمك، ولدي فكرة لا بأس بها.. ربما كان بوسعك أن تحتفل احتفالك الخاص.

- ماذا تعني؟

- تعال لسيارتي.. فلدى ما أريد أن تراه..

وانطلق عبر الطريق الأسفلتي المحيط بالبيت قبل أن يفهم (مارتي) ما يريد.

تدحرج مقعده المتحرك إلى الطريق، بعيدا عن الضحكات الصارخة من الحمام.. كان صوت المقعد الخفيض هو الموسيقا التي ظل (مارتي) يسمعها طيلة حياته كلما تحرك.

كانت سيارة خاله من طراز (مرسيدس) وكانت أمه تسخر منها دوما.. ولكن (مارتي) كان يحبها، وقد أخذه خاله بها ذات مرة إلى الغابات المحيطة بالبلدة.. وقاد خاله السيارة بسرعة ثمانين كيلومترا لكنه لم يخبر (مارتي) بهذا، وقال له إنه لن يخاف ما دام لا يعرف السرعة.. ولم يخف (مارتي) وظلت معدته تؤلمه طيلة اليوم التالي بسبب كثرة الضحك.

مد الخال يده في درج القفازات في العربة ووضع عبوة ثقيلة مغلفة بالسيلوفان على يد (مارتي) وقال:

- كل رابع من يوليو وأنت بخير..

كان أول ما رآه (مارتي) هو كتابة صينية مثيرة على الغلاف.. ثم رأي ما بالداخل وخفق قلبه في صدره.. كانت العبوة مليئة بالألعاب النارية..

حرك (مارتي) شفتيه ليتكلم وقد أخرسه السرور.. لكن شيئا لم يخرج..

- أشعل الفتيل.. اخفضها.. ثم تطلق الصواريخ ألوانا لا حصر لها كأنها أنفاس التنين.. الأنابيب ذات العصي توضع في

زجاجة مياه غازية فارغة، وأشعلها لتنطلق.. الصغيرة تطلق نافورات من النيران..

أخيرا استطاع (مارتي) الكلام:

- شكرا يا خالي.. شكرا

-لكن لا تقل لأحد من أين جئت بها.. إن الحصان الأعمى لا يستفيد من هزة الرأس أكثر مما يستفيد من الغمزة..

- بالتأكيد يا خلي.. بالتأكيد..

برغم أن (مارتي) لم يعرف علاقة الخيول العمياء وهزة الرأس بالألعاب النارية.

- أنا أعرف رجلا في (بريدجتون) يمكنه أن يمدني بالمزيد.. احتفل بالرابع من يوليو بعد أن ينام الجميع.. لا تشعل أي صاروخ صاخب فتوقظ الجميع.. وبحق السماء لا تفجر رأسك وإلا لن تكلمني أختي مرة أخرى أبدا.

ثم ضحك الخال وركب سيارته وأدار المحرك.. ولوح بذراعه محييا (مارتي) وابتعد بينما الفتى مازال يفتش عن كلمة شكر.

جلس هناك لبضع دقائق يحاول جاهدا ألا يبكي.. ثم وضع العبوة في جيبه وعاد إلى المنزل.. صار عليه الآن أن ينتظر حتى ينام الجميع.

كان أول من دخل الفراش ليلتها.. تدخل أمه وتقبله (وتتحاشى النظر إلى رجليه الشبيهتين بالعصا تحت الملاءة)، وتسأله:

- أنت بخير يا (مارتي)؟

- نعم يا ماما..

تصمت كأنما ستقول شيئا آخر، ثم تهز رأسه وتبتعد..

تدخل أخته (كيت)، وهي لا تقبله.. إنما بالضبط تلصق رأسها بعنقه حتى يشم رائحة الكلور في شعرها وتهمس:

- هل ترى؟ لن تظفر دائما بكل ما تريد لمجرد أنك معوق..

- ربما تندهشين لو عرفت ما أحصل عليه.

يقولها بنعومة فتنظر له للحظة في ارتياب قبل أن تنصرف.

يأتي أبوه أخيرا ويجلس على طرف فراشه ويتكلم بطريقة الصديق الأكبر المألوفة:

- كل شيء على ما يرام أيها الرجل الكبير؟ أنت مبكر الليلة في دخول الفراش

- مرهق فقط يا أبي.

يضرب الأب إحدى ساقي (مارتي) وينهض في عجلة:

- آسف بخصوص الألعاب النارية.. لكن كل ما عليك هو أن تنتظر حتى العام القادم!

يبتسم (مارتي) ابتسامة غامضة.

الآن ينتظر باقي المنزل حتى يدخلوا الفراش.

استغرق هذا دهرا.. التلفزيون لا يكف عن العمل في غرفة المعيشة مع الضحكات المعلبة في العروض الهزلية.. دورة المياه

في غرفة الجد لا تكف عن الطرطشة والانفجار.. وأمه تثرثر على الهاتف تتمنى لأحدهم عيدا سعيدا.. من المؤسف أن الألعاب النارية ألغيت.. إن (مارتي) حزين بسبب هذا، وتضحك.. من الغريب أنها لا تضحك أبدا حين تتعامل مع (مارتي).

ومن وقت لآخر على حين تتحول السابعة والنصف إلى التاسعة والنصف - تزحف يده تحت الوسادة للتأكد من أن عبوة السيلوفان ما زالت هناك.. وفي التاسعة والنصف حين تسلل ضوء القمر ليغمر الغرفة كلها باللون الفضي، بدا أن المنزل بدأ يهمد قليلا.

انطفأ التلفزيون ونامت (كيت) - بعد ما احتجت لأن كل صديقاتها ينمن بعد هذا - وجلس الأبوان في الخارج يتكلمان، لكنه لا يسمع من الكلام إلا غمغمة.. و..

ربما نام.. لأنه حين لمس العبوة ثانية كان البيت صامتا تماما والقمر ازداد تألقا.

يأخذ اللفافة مع صندوق الثقاب الذي أخذه قبل هذا.. يدس كل شيء في جيب منامته ويتأهب المغادرة الفراش.

وهذه عملية بالنسبة لـ (مارتي) لكنها ليست صعبة جدا كما يتوهم البعض.. قدماه لا تشعران على الإطلاق فلا ألم.. يتعلق بالفراش ويجذب نفسه لوضع الجلوس.. ثم ينزل قدميه واحدة تلو الأخرى، بيد واحدة لأن الأخرى تتعلق برأس السرير.. ذات مرة جرب استعمال اليدين فانقلب على رأسه وهرع الجميع ليروه:

- أيها الاستعراضي الغبي!

كذا همست (كيت) في أذنه بوحشية، بينما هو مصر على الابتسام برغم أن شفته تمزقت.

- تريد أن تقتل نفسك؟

ثم غادرت الغرفة باكية.

الآن هو يستعمل يديه ليصل إلى المقعد المتحرك.. قدماه عديمتا النفع تمثلان ثقلا عليه ويكتفي بجرهما خلفه.. الضوء القمري ساطع إلى حد أنه يرمى ظله بوضوح على الأرض أمامه..

يصعد إلى المقعد، ويسترد أنفاسه مصغية للمنزل الصامت.. سيبقي احتفال الرابع من يوليو لنفسه ولن يعرف أحد.. ربما حتى الغد حين يجدون الرماد المشتعل في الشرفة ولن يهم وقتها.

ألوان لا حصر لها كأنها أنفاس التنين.. هذا ما قال خاله.. لكن القانون لا يمنع التنين من التنفس في صمت.

يشغل محرك الكرسي الكهربائي، ويتأكد من أن البطارية مشحونة.. يدوس على زر الاتجاه لليمين.. الآن يواجه الشرفة فيدوس على زر السير للأمام.

يفتح المزلاج على الباب.. يضغط زر التقدم للأمام.. ويخرج..

يمزق العبوة ثم يتوقف.. وقد أسره ليل الصيف صوت الصراصير البعيد الموحش، والنسيم الهادي الذي يحرك أوراق الأشجار على حدود الغابة.

والبريق غير الأرضي للقمر..

لن ينتظر أكثر.. يشعل الثقاب.. يشعل واحدة من المفرقعات على شكل أفعى.. ويراقبها وهي تقذف اللهب الأزرق المخضر وتكبر كالسحر.. تبصق اللهب من ذيلها.

إنه الرابع من يوليو! الرابع!

يشعل واحدة أخرى من هذه المتفجرات ويراقب اللهب الأصفر الخارج منها.. رائحة البارود المحترق الجميلة تفعم هواء الليل بانتظار الريح حتى تحملها بعيدا..

هناك متفجرات من النوع الذي يحدث (فرقعة)، وهذا لا يناسبه لأنه سيوقظ البيت كله.. ذعر.. هلع.. إطفاء.. وصبي في العاشرة من عمره يمضي بقية حياته في غرفة الفئران.

مد يده وانتقى أكبر المتفجرات طرا.. كان في حجم قبضته.. أشعله وألقاه على الأرض..

ملأ الضوء الأحمر سماء الليل، وعلى هذا الضوء المحموم استطاع (مارتي) أن يرى غصون الشجر تحت الشرفة تهتز وتتباعد..

ثمة صوت خافت.. ونصف سعلة ونصف زمجرة..

ثم يظهر الوحش..

يقف للحظة ويتشمم الهواء.. ثم يصعد المنحدر إلى حيث (مارتي).. الذي راح يرمقه وعيناه جاحظتان وجسده منكمش في مقعده..

إن الوحش منثن لكن من الواضح تماما أنه يمشي على قدميه الخلفيتين.. يمشي كما يمشي الرجال.. والضوء الأحمر يتوهج في

عينيه..

يتحرك ببطء.. منخراه يتسعان بشكل منتظم.. يشم الضحية.. بالذات يشم رائحة ضعفها..

يزمجر ثانية وتتقلص شفته العليا التي لها لون الكبد، كاشفة عن أسنان مصفرة حادة..

كاد يصل إليه.. يداه تشبهان ولا تشبهان يدي الإنسان.. يدنو منه حين يتذكر (مارتي) مجموعة المفرقعات الصاخبة..

دون أن يدري أنه فعلها يشعل عود ثقاب ويشعل الفتيل.. ينطلق الشرر ويحرق الشعيرات الدقيقة على ظهر يده.

يتراجع المذءوب للوراء للحظة مرتبكا.. يصدر زئيرا متسائلا نصف آدمي.. هنا يرمي (مارتي) بالمفرقعات في وجهه.

تنطلق النيران والأصوات، حتى إن الوحش يطلق صرخة ألم وغضب.. والانفجارات تترك أثرها في وجهه، ويري (مارتي) إحدى عيني الوحش تنتهي إذ انفجرت فيها أربعة صواريخ في اللحظة ذاتها.. الآن هو يمسك وجهه في ألم حقيقي..



تنطلق النيران والأصوات . حتى ان الوحش يطلق صرخة ألم وغضب .

وإذ أضيء النور في منزل (كوزلو) استدار الوحش نحو الأحراش تاركا وراءه رائحة الفراء المحروق، والصرخات الأولى الحائرة من المنزل..

جاء صوت أمه خاليا من الجفاء:

- ماذا حدث؟

وجاء صوت أبيه:

- من هناك بحق السماء؟

- (مارتي).. هل أنت بخير؟

يجلس (مارتي) في مقعده يرمق الصاروخ الموشك على الانتهاء.. للهبه الآن ذلك اللون الوردي المميز لشروق الشمس.. إنه مصدوم لا يستطيع البكاء.. لكن صدمته ليست عاطفة سوداء، برغم أنه يعرف أن أهله سيرسلونه غدا إلى (فيرمونت) ليقيم عند عمه حتى نهاية الصيف (سيتوقع رجال الشرطة أن قاتل الليالي المقمرة سيعود للانتقام منه).

إنه ليشعر بابتهاج عظيم أقوى من الرعب.. لقد نظر للوحش في عينيه.. وعاش.

بالإضافة لهذا هو يشعر بسرور لن يفهمه أحد أبدا؛ لأن الألعاب النارية تمت برغم كل شيء..

وبرغم أن أبويه يتكلمان عما إذا كان الحادث سيترك ندوبا في شخصيته، فإن (مارتي) آمن من قلبه أن هذا كان أجمل رابع من يوليو في حياته.

☆ ☆ ☆

أغسطس..

يقول الكونستابل (نيري):

- طبعا أعتقد أن هذا مذءوب.

يتكلم بصوت عال.. في الغالب عمدا وعلى سبيل الاستعراض فيسود الصمت في صالون حلاقة (ستان) وتصمت المحادثات بين الزبائنز

كان هذا منتصف أغسطس.. أشد شهور أغسطس حرارة في تاريخ (تاركرز ميلز).. واليوم يكتمل القمر ثانية لذا تنتظر البلدة كلها في توتر حابسة أنفاسها.

يتفقد الكونستابل (نيري) مستمعيه ثم يتجه إلى مقعد الحلاق الأوسط، وهو يتكلم برصانة.. يتكلم بحنكة.. يتكلم كأنه عالم نفس.. كل هذا من بقايا دراسته الثانوية.. (نيري رجل مكتنز لم يكن بارعا جدا في المدرسة لكنه تفوق في عالم الرياضة البدنية)..

يقول لهم:

- هناك أناس هم خليط من رجلين.. نوع من الشخصيات المنفصمة.. تعرفون هذا.. هؤلاء أنا أدعوهم مرضى الفصام الملاعين..

يصمت ويصغي للصمت المحترم الذي يحييه، ويواصل:

- أنا أعتقد أن هذا الرجل.. أعتقد أنه لا يعرف ما يقوم به حين يكتمل القمر.. يخرج ليقتل أي شخص، ويمكنه أن يكون

أي شخص.. يمكنه أن يكون صرافا في مصرف.. عاملا في محطة نفط.. ربما هو واحد منا الآن.. من جهة أنه يبدو حيوانا من الداخل وبشريا من الخارج.. يمكنكم أن تراهنوا على أنني أوافق.. لكن لو حسبتم أني أعنى أن هناك شخصا يخرج منه الشعر ويعوى في ضوء القمر.. لا.. هذا الهراء للأطفال..

يسأله (ستان) الحلاق وهو يعمل جاهدا في كرة الشحم تحت عنق (نيري)، ومقصه الحاد يعمل.. سنيب.. سنيب.. سنيب:

- ماذا عن الصبي (كوزلو) يا (نيري)؟

- هذا يؤكد ما قلته.. هذا الهراء للأطفال..

في الحقيقة كان ساخطا بسبب ما حدث مع (مارتي كوزلو).. إن هذا الصبي هو أول شاهد عيان على المجنون الذي قتل ستة أشخاص في البلدة، بما فيهم صديقه العزيز (ألفي نويفلر).. ثم هل سمحوا له باستجواب الصبي؟ لا.. هل يعرف حتى مكان الصبي؟ لا.. فقط عليه أن يقرأ الشهادة المكتوبة التي أرسلتها له شرطة الولاية، وأن ينحني ويرضى بما منحوه إياه.

كل هذا لأنه كونستابل بلا أهمية في بلدة صغيرة.. شرطة الولاية تعتبره مجرد شرطي طفل لا يستطيع أن يعقد رباط حذائه.. لأنه لا يلبس قبعاتهم الفاخرة.

والشهادة! إنها تصلح لاستعمالها كنوع من ورق التواليت لا أكثر!

حسب كلام الصبي، فقد كان ارتفاع الوحش سبعة أقدام، وكان الشعر الأسود يغطيه.. كانت له أسنان حادة وعينان

خضراوان.. كانت له مخالب تبدو كاليدين.. يعتقد أنه كان بذيل.. ذيل!

قال (كيني فرانكلين) من مكانه في الصف بانتظار الحلاقة:

- ربما هذا ثوب تنكري يضعه الرجل.. مثل القناع كما تعلم..

يقول (نيري) في ثقة وهو يدير رأسه ليؤكد كلامه:

- لا أعتقد هذا..

فيضطر (ستان) إلى التراجع بالمقص بسرعة كي لا يغرس النصل في كتلة الشحم التي كان يحلقها..

- لا أعتقد هذا.. إن الأمر واضح.. أمر واضح من الناحية النفسية المنطقية اللعينة.. الصبي يجلس على مقعده المتحرك ويسمع عشرات من القصص المرعبة عن المذءوبين في المدرسة.. الآن هو يجلس في الظلام يراقب الغابة ليلا، فلو خرجت أنت نفسك إليه في الليل في ضوء القمر لاعتقد أنك ذئب!

يضحك (كيني) في توتر

-لا.. - يواصل (نيري) الكلام – شهادة الصبي لا تصمد على الإطلاق.

وتذكر شهادة (مارتي كوزلو) التي أخذت منه في بيت خالته في (ستوي).. لقد تجاهل الكونستابل هذه الفقرة:

«أربعة من المتفجرات أصابت جانب وجهه.. أعتقد أنه قد فقد عينا.. عينه اليسرى..

لو فكر الكونستابل مليا في هذه الفقرة - وهو لم يفعل - لضحك كثيرا جدا، لأنه لم يكن هناك في القرية كلها وفي شهر أغسطس الحار هذا عام 1984، إلا شخص واحد يضع ضمادة على عينه.. من المستحيل أن تفكر في هذا الشخص من بين كل الآخرين باعتباره القاتل.. لربما صدق (نيري) أن تكون أمه العجوز هي القاتل قبل أن يصدق هذا..

قال (نيري) وهو يشير بإصبعه إلى الرجال الذين جلسوا جوار الحائط ينتظرون دورهم في حلاقة السبت.

- ثمة شيء واحد يمكن أن يحل هذه القضية.. وهو العمل البوليسي الجيد.. ولسوف أكون أنا من يفعل هذا. - وراح يحلم - يمكن للقاتل أن يكون أي واحد.. صراف مصرف.. عامل نفط.. شخصا تشرب وتجلس معه في البار.. لكن العمل البوليسي سجده.. تذكروا ما أقول..

لكن عمل (نيري) البوليسي الجيد بلغ نهايته هذه الليلة، حين امتدت ذراع لها لون فضة القمر من نافذة سيارته الدودج، بينما هو يقف عند تقاطعين عند غرب (تاركرز ميلز)..

سمع صوت غطيط خفيض ثم شم رائحة مروعة مخيفة كالتي تشمها في بيت الأسود في حديقة الحيوان..

يدير رأسه ليرى عينا خضراء.. يرى الفراء والخطم الأسود.. وحين يتجعد الخطم يرى الأسنان.. ضربه الوحش على خده بمخالبه كأنما يلاعبه.. شعر بالدم الدافئ يبلل ظهر قميصه وصدره..

يصرخ.. يصرخ.. من فمه ومن خده الذي طار.. يمكنه أن يرى القمر الأبيض يغمر المكان..

نسي كل شيء عن المسدس المعلق في حزامه.. نسي كيف أن كل هذا واضح من الناحية النفسية المنطقية اللعينة.. نسى كل شيء عن عمل الشرطة الجيد.. فقط راح عقله يتذكر شيئا قيل عند الحلاق صباحا: ربما كان هذا الشخص يلبس قناعا أو ثياب تنكر..

لهذا مد كفة إلى وجه الوحش بينما هذا يفتش عن حنجرته، وجمش قبضتين من الفراء الخشن.. وتمنى أن يتمزق القناع.. أن يسمع صوت المطاط يتقطع.. أو أن يسمع صوت اللاتكس وعندها يرى القاتل..

لكن شيئا لم يحدث إلا زئيرا أليما والغضب من الوحش.. إنه يضربه بيد مخلبية.. نعم هو يرى أنها يد.. فقط هي مشوهة بعنف..

لقد كان الصبي على حق..

ويغرق الدم زجاج السيارة ومقعدها.. ويملأ زجاجة الشراب التي وضعها الكونستابل بين فخذيه

يمد الوحش فكيه ويطبق على عنق الكونستابل، ويجره من النافذة حتى خصره.. ثم يبدأ في إتمام ما بدأه.

هذا أكثر مما تتحمله الناحية النفسية المنطقية..

هذا أكثر مما يتحمله عمل الشرطة الجيد..

☆ ☆ ☆

سبتمبر..

إذ يمر الشهر وتدنو ليلة اكتمال القمر من جديد، ينتظر الناس الخائفون في (تاركرز ميلز) أن تتغير درجة الحرارة، لكن هذا لا يحدث.. يعرف الناس من النشرات أن انهيارا جليديا مروعا حدث في (كندا)، لكن هنا في (تاركرز ميلز) يبدو كأن الصيف قد توقف للأبد..

الأطفال عادوا للمدارس لكنهم لا يشعرون بالسعادة، وهم جالسون في حجرات الدراسة غارقين في العرق.. بينما الساعات تبدو كأنها تعلمت ألا تتحرك إلا حقيقة واحدة كلما تحرك الزمن الحقيقي ساعة..

الناس يزدادون عصبية، وفي محطة النفط يتجادل (باكي) مدير المحطة مع زبون حول سعر البنزين، من ثم يضربه على رأسه بفوهة الخرطوم.. ويحتاج الزبون إلى أربع غرز في شفته العليا وينصرف مهددا بالكثير من القضايا ودعاوى التعويض..

يقول (باكي) في ضيق ليلتها في الحالة:

-لا أعرف عم يتكلم.. لقد ضربته بنصف قوتي.. لو أنني ضربته بمجمع قوتي لهشمت وجهه الوسيم.. أنتم تعرفون.

يقول (بيلي روبرتسون):

- بالتأكيد..

لأنه يشعر أن (باكي) سيضربه بكل قوته لو أنه أظهر عدم موافقة.

(ميلت ستورمفولر) يتسبب في دخول زوجته (دونا لي) المستشفى بسبب بقعة بيض في صحن لم تعن بها غسالة الأطباق.. نظر إلى هذه البقعة الصفراء المتسخة على الطبق الذي قدمته له للغداء، وناولها ضربة طيبة.. وكما يقول (باكي) فإن الرجل ضرب زوجته بكل قوته..

هي الآن على أرض المطبخ وأنفها ينزف.. وهو يشتمها بجنون.

- أمي كانت تنظف الأطباق جيدا.. ولم تكن تملك غسالة أطباق.. ماذا دهاك؟

فيما بعد سيخبر الطبيب في مستشفى (بورتلاند العام للطوارئ) أن (دونا لي) سقطت من فوق الدرج.. وتوافقه الزوجة معدومة الحيلة بعد ما قضت تسع سنوات في (جبهة الزواج الحربية).

وفي السابعة مساء هبت ريح باردة هي الأولى منذ بداية الصيف.. وحملت معها بعض السحب لتغطى القمر.. وللحظات لعب القمر لعبة الاستخفاء مع هذه السحب، ولون أطرافها باللون الفضي، ثم ازدادت السحب كثافة فتوارى القمر تماما..

لكن ما زال هناك..

شعرت به أمواج المد على بعد عشرين ميلا من (تاركرز ميلز) واستجابت لجذبه لها..

وكذا فعل الوحش..

وفي الثانية صباحا يتعالى صراخ مريع من حظيرة خنازير (إلمر زينمان) على الطريق الغربي.. على بعد نحو اثني عشر ميلا من البلدة.

يحضر (إلمر) بندقيته وهو لا يلبس إلا سروال منامته وخفية.

تتوسل له زوجته - التي كانت جميلة عندما تزوجها عام 1947 - وتبكي وترجوه أن يبقى معها..

لكنه يبعدها عنه ويلتقط بندقيته..

الخنازير لا تصرخ فقط، بل هي تستغيث.. كأن صراخها صراخ مجموعة من البنات الصغيرات هاجمهن مجنون في الغابة.. إنه ذاهب.. لا شيء يمنعه من الذهاب.. ثم يتصلب عند مصراع الباب الخلفي، إذ يتردد عواء انتصار في الليل..

إنه عواء ذئب، لكن فيه شيئا بشريا ما إلى درجة أن يده سقطت عن المصراع.. وترك زوجته تجره إلى الوراء.. يضع ذراعه حول كتفها ويقتادها إلى الأريكة، وهناك يحتضنان بعضهما ويرتجفان كطفلين مذعورين.

الآن بدأ صراخ الخنازير يضعف ثم يتوقف.. نعم.. يتوقف.. واحدا تلو الآخر.. يعوى الوحش من جديد وصراخه فضي كالقمر نفسه..

يتقدم (إلمر) إلى النافذة فيرى شيئا لا يعرف ما هو، يجرى ليتوارى في الظلام.

يأتي المطر ويضرب نوافذ غرفة النوم حيث ينكمش الرجل وامرأته معا.. وكل أنوار غرفة النوم مضاءة.. إنه مطر بارد.. أول مطر في هذا الخريف.. وغدا يغزو أوراق الأشجار أول طيف من اللون الأصفر..

وقد وجد (إلمر) في حظيرة الخنازير ما توقعه.. الوحشية.. كل خنازيره التسعة ميتة وقد انتزعت أحشاؤها وأُكل بعضها.. ترقد في الوحل والمطر البارد ينهمر على جثثها.. وعيونها الميتة متصلبة على السماء الخريفية الباردة.



وقد وجد (إلمر) فى حظيرة الخنازير ما توقعه ..
الوحشية .. كل خنازيره التسعة ميتة ..

يقف أخوه (بيت) الذي استدعوه من (مينوت) جوار (إلمر)..

لا يتكلمان لوهلة ثم يقول (بيت) ما يدور في ذهن (إلمر):

- سيغطي التأمين بعض الخسائر.. ليس كلها، بل بعضها.. ربما أستطيع تدبير الباقي.. لحسن الحظ أنها خنازيري وليست خنازير شخص آخر.

يهز (بيت) رأسه ويقول وقد صار كلامه غمغمة لا يمكن سماعها فوق المطر:

- هذا كاف..

- ماذا تعني؟

- تعرف ما أعنيه.

عندما يصير القمر بدرا في المرة القادمة سيخرج أربعون رجلا.. ربما ستون أو مائة.. لقد بدأت المشاكل حين قرر الناس أن يكفوا عن البحث ويتظاهروا بأن شيئا لا يحدث.. بينما أي أحمق يمكنه أن يري.. انظر هنا بحق السماء!

ويشير (بيت) إلى الخنازير المذبوحة.. وعلى الأرض ترى أثرا ضخما.. أثرا كأنه لذئب.. لكنها كذلك تبدو آدمية بشكل ما.

- هل ترى هذه الآثار اللعينة؟

- أراها..

-لقد صنعها مذءوب.. أنت تعرف هذا.. (أليس) تعرف هذا.. أكثر القوم هنا يعرفون هذا.. يا للجحيم! وحتى أنا أعرف هذا..

وينظر إلى أخيه ويتصلب وجهه فيتحول إلى وجه فلاح بيوريتاني من (نيو إنجلند) من عام 1650..

- يكفي هذا.. حان وقت أن ينتهي هذا الشيء..

ويفكر (إلمر) في الأمر، بينما المطر يبلل المشمع الذي يرتديانه.. ثم يهز رأسه:

- أعتقد.. لكن ليس البدر القادم..

- ترى الانتظار حتى نوفمبر؟

- غابة عارية من أوراق الشجر.. رؤية أفضل تسهل تتبع الأثر.. ولو ظفرنا ببعض الجليد..

- وماذا عن هجمة الشهر القادم؟

ينظر (إلمر) إلى الخنازير الممزقة جوار الجرن وينظر لأخيه (بيت) ويقول:

- من الخير للناس أن يلزموا الحذر..

☆ ☆ ☆

أكتوبر..

حين يعود (مارتي كوزلو) من احتفالات (الهالوين) وقد نفدت بطارية مقعده المتحرك تماما.. يتجه إلى الفراش مباشرة، ويظل متيقظا حتى يبزغ الهلال في السماء التي تزينها النجوم كأنها شظايا الماس.. وفي الشرفة حيث أنقذت حياته بعض الألعاب النارية لعيد الرابع من يوليو، تطير ريح باردة أوراق أشجار بنية جافة، في دوامات بلا هدف.. تصدر صوتا كأنها العظام القديمة..

لقد جاء بدر أكتوبر ومضى دون أن تحدث حوادث قتل جديدة في (تاركرز ميلز).. هذا هو الشهر الثاني الذي يحدث فيه هذا.. يعتقد كثيرون ومنهم (ستان) الحلاق و(كال بولدوين) تاجر السيارات المستعملة أن الرعب انتهي.. كان القاتل متسكعا يعيش في الأحراش. وقد رحل الآن..

البعض ليسوا بهذه الثقة.. إنهم هؤلاء الذين يعلقون أهمية بالغة على الغزلان الأربع التي وجدوها مذبوحة صبيحة اكتمال القمر بدرا وعلى خنازير (إلمر) التي قتلت في ليلة اكتمال القمر في (سبتمبر)..

وفي ليالي الخريف الطويلة يدور النقاش حاميا في الحانة.

لكن (مارتي كوزلو) يعرف..

هذه الليلة خرج مع أبيه يلعبان لعبة (حيلة أم حلوي) الخاصة بليلة الهالوين.. (إن أباه يحب الهالوين بصفة خاصة).. كان (مارتي) متنكرا في ثياب (يودا) قزم حرب الكواكب الشهير،

بقناع مطاطي يغطي رأسه، وعباءة عملاقة تغطى قدميه الضامرتين..

- أنت تنال دائما ما تريد لأنك معوق..

تقولها أخته في ضيق حين ترى قناعة المتقن.. لكنه يعرف أنها ليست حانقة عليه فعلا.. لكنها حزينة نوعا لأنها الآن أكبر من أن تخرج لممارسة هذه الألعاب.. بدلا من ذلك ستذهب للحفلات مع صديقاتها.. سترقص على أغاني (دونا سمر) وتلعب لعبة تدوير الزجاجة.

يقله أبوه في السيارة (الفان) لأن لها منحدرا جانبيا يسهل إنزال المقعد المتحرك والصعود به..

مع أبيه يزوران كل المنازل في الجوار، وبعد هذا تهتز العربة عبر الشوارع وهي تتجه لزيارة المنازل في وسط البلدة.. إلى آل (ماكين) وآل (كولينز) وآل (إيستون).. هناك سلطانية مفعمة بالحلوى في الحانة.. وهناك قضبان من الشوكولاتة في الكنيسة المعمدانية.. الآن صارت لدي (مارتي) حقيبة مليئة بكل أشكال الحلوى..

وخبرة مخيفة لا تصدق..

إنه يعلم..

إنه يعرف من هو المذءوب..

في لحظة ما من رحلته وضع الوحش قطعة من الحلوى في حقيبته.. غير عالم أن وجه (مارتي) شحب كالموتى تحت قناع (يودا).. يبتسم له الوحش ثم يربت على رأسه المطاطي.

لكنه هو المذءوب.. (مارتي) يعرف هذا ليس لأن الرجل يضع عصابة على عينه فقط.. ثمة تشابه معين بين وجه هذا الرجل الآدمي ووجه الذئب المفترس الذي رآه في ضوء القمر تلك الليلة من أربعة أشهر.

منذ عاد من (فيرمونت) إلى (تاركرز ميلز)، كان (مارتي) يلاحظ بعناية، عالما أنه سيلقي المذءوب يوما ما.. وكان يعرف أن المذءوب هو رجل ذو عين واحدة الآن..

وبرغم أن رجال الشرطة هزوا رءوسهم وقالوا إنهم سيحققون في الأمر، فقد كان واثقا أنه أتلف إحدى عيني المذءوب.. وكان يعرف أنهم لا يصدقون حرفا من كلامه.. ربما لأنه مجرد صبي.. وربما لأنهم لم يكونوا هناك ليلة الرابع من يوليو.. على كل حال.. لا يهم.. إنه متأكد من كلامه..

إن (تاركرز ميلز) بلدة صغيرة لكنها مترامية، وحتى أمس لم يكن (مارتي) قد رأى أي رجل بعين واحدة.. ولم يجسر على السؤال..

إن أمه تخشى أن تكون مأساة (يوليو) قد أثرت فيه بشكل دائم.. وكان يخشى أن يبدأ التجسس فيصل الأمر إليها في النهاية.

إن (تاركرز ميلز) بلدة صغيرة لكنه عاجلا أم آجلا سيرى الوحش في وجهه الآدمي.

عائدين للمنزل شعر مستر (كولزو) أو (الكوتش) كما يسميه آلاف الطلبة.. شعر بأن (مارتي) صامت أكثر من اللازم ربما

بسبب إثارة الليلة التي أرهقته.. لكن (مارتي) لم يشعر قط بهذه الحيوية إلا في ليلة الألعاب النارية.

كان (مارتي) يفكر في شيء واحد: السبب الذي جعل كل هذا الوقت يمضي دون أن يكتشف المذءوب هو أنه لا يذهب إلى هذه المدرسة بالذات.

إن الرجل ذو الرقعة على عينه.. الرجل الذي دس الحلوى في حقيبته.. ثم ربت على رأسه كان هو (جيمس لستر) مدرس القرية.

رآه ينحني من الباب وقد وضع الرقعة على العين، والضوء الأصفر يتسلل من الباب.

قال مستر (كولزو) في صوته المتفاهم:

- آسف بخصوص عينيك يا مستر (لستر).. أرجو ألا يكون الأمر خطيرا..

ظهرت المعاناة على وجه (لستر) مع ابتسامته وقال إنه فقد العين بسبب ورم حميد.. كان لابد من إزالة العين لإزالة الورم.. وربت على رأس (مارتي) وقال إنه يعرف أناسا يعانون مصائب أكبر من هذه..

الآن يرقد (مارتي) في فراشه يصغي لريح (أكتوبر) في الخارج.. تهز آخر أوراق الخريف.. تصفر عبر ثقوب حبات القرع الموضوع على مدخل المنزل كما هي العادة ليلة (الهالوين).. يرقب الهلال يمتطى السماء..

السؤال هو: ماذا يفعل الآن؟

لا يعرف.. لكنه متأكد من أن الإجابة آتية لا شك فيها.

ينام نوم الشباب العميق الخالي من الأحلام.. بينما في الخارج تهب الريح فوق (تاركرز ميلز).. تغسل (أكتوبر) وتجلب بدلا منه (نوفمبر) البارد المزدان بالنجوم..

شهر الخريف الحديدي.

☆ ☆ ☆

نوفمبر..

نهاية العام قد جاءت إلى (تاركرز ميلز).. يبدو كأن خروجا غريبا يتم في الشارع الرئيسي..

يرقبه الأستاذ (جيمس لستر) من على باب مسكنه.. كان قد خرج ليأخذ البريد الخاص به، فرأى صف السيارات نصف النقل المتربة والشاحنات وعربات الـ (فورد) والـ (شيفروليه) تشق طريقها خارجة من البلدة..

الجليد قادم.. هذا ما قالته نشرة الأخبار.. لكن هؤلاء ليسوا هاربين من العاصفة.. وحتى لو كنت تبحث عن الدفء فأنت لا تخرج لابسا سترة الصيد، وعلى ظهرك بندقية، وكلابك تتقدمك..

هذا هو اليوم الرابع لـ (إلمر زيمان) وأخيه (بيت) إذ يخرجان مع الكلاب والسلاح.. لقد صارت (موضة) بمجرد أن اقترب موعد اكتمال البدر.. انتهى موسم الطيور وكذا موسم الغزلان.. لكن موسم صيد المذءوبين ما زال مفتوحا.. وأكثر هؤلاء الرجال - برغم تعبير الخطورة الفروسية على وجوههم - ينعمون بوقتهم حقا..

كان (جيمس لستر) يعرف أن بعض هؤلاء الرجال لا يبغون سوى العبث.. شرب البيرة.. التبول في مجاري المياه.. قص النكات عن الضفادع والزنوج.. إطلاق الرصاص على السناجب.. إنهم الحيوانات الحقيقية.. تمتد يده لا شعوريا إلى عصبة العين التي وضعها منذ يوليو..

سوف يطلق أحدهم النار على آخر.. من حسن حظهم أن هذا لم يحدث بعد..

تبتعد آخر العربات عن (تاركرز ميلز).. والأبواق تتعالى والكلاب تنبح.. نعم.. بعض الرجال يعبثون لا أكثر.. لكن (إلمر) وأخاه – على سبيل المثال - جادان فعلا..

لو خرج هذا الشيء - إنسانا أو حيوانا – فلسوف تشم الكلاب رائحته.. هكذا سمعهم (جيمس لستر) يتكلمون في المقهى منذ أسبوعين.. ولو لم يقرر الشيء أن يخرج فعلى الأقل لن يؤذي أحدا.. بهذا نكون قد أنقذنا حياة.. ربما ماشية أحدهم على أقل تقدير..

نعم.. منهم ستة من الرجال على الأقل جادون تماما.. لكن لم يكن هؤلاء من أثار هذا الشعور لدى (جيمس لستر).. الشعور بالحصار.. بأنه وصل إلى الشاطئ ولا سبيل للركض أكثر..

إنها المذكرات..

المذكرات التي كان أطولها يتكون من جملتين كتبتا بخط طفولي مع بعض أخطاء الهجاء.. ينظر إلى الخطاب الذي جاء في بريد اليوم موجها له بنفس الكتابة الطفولية..

شعور الحصار هذا.. الشعور الذي يتخيل أن الثعلب يشعر به حين يدرك أن الكلاب اقتادته إلى طريق مسدود.. هذه اللحظة من الذعر.. الثعلب يتراجع يكشف عن أنيابه.. يستعد للمعركة مع الكلاب التي ستمزقه إربا بالتأكيد.

يغلق الباب في حزم.. يدخل إلى الردهة حيث ساعة الجد تدق دقاتها المهيبة: تيك مهيبة وتوك مهيبة..

يجلس..

يفتح المذكرة التي جاءته، وكالعادة لا توجد تحية بها.. وهي غير موقعة كالأخريات.. في وسطها ورقة مقطوعة من كراس تلميذ عليها كتب التالي:

- لم لا تقتل نفسك؟

يغطى الرجل جبهته ويرتجف قليلا.. بيده الأخرى يطوي الورقة ويضعها في مطفأة التبغ في وسط المنضدة.. يتناول علبة من الثقاب ويحرق المذكرة كما فعل مع سابقاتها.. يرقبها وهي تحترق.

كانت معرفة الرجل بحقيقته قد جاءت على مرحلتين.. أو بدأ يشعر أن شيئا.. حسن.. ليس على ما يرام معه.. لا يجد طريقة أخرى يصف بها الموقف.. هناك شيء خطأ بخصوصه..

لكنه يعرف أنه يصحو أحيانا في الصباح بعدما يكون القمر بدرا.. شاعرا بأنه بحالة طيبة إلى درجة لا توصف.. قوي جدا.. يقظ جدا.

هذا الشعور يتغير بتغير القمر، يصل ذروته عند موعد البدر التالي.

بدأ يلاحظ أشياء كان ميالا إلى أن يتجاهلها.. الثياب الممزقة المتسخة.. الخدوش والرضوض التي لا يعرف لها سببا (لكنها لا تؤلم مثل الخدوش العادية.. لهذا كان من السهل أن يتجاهلها..

أو على الأقل.. لا يفكر فيها).. بل كان بوسعه أحيانا أن يتناسى بقع الدم التي يجدها على يديه وشفتيه.

ثم في المرحلة الثانية - يوم الخامس من يوليو صحا من نومه وقد عميت إحدى عينيه.. لم يكن هناك ألم.. فقط محجر عين فارغ مشوه حيث كانت عينه اليسرى.

هنا صار إدراكه غير قابل للإنكار.

إنه هو الوحش.. هو المذءوب.

في الأيام الثلاثة السابقة شعر بتلك المشاعر المألوفة.. توتر عظيم.. نفاد صبر يوشك أن يكون سارًا.. شعور بالتوتر العضلي في كل جسده.. إنه قادم ثانية.. التبدل هنا من جديد.

هذه الليلة سيكتمل القمر وسيخرج الصيادون بكلابهم.. لا يهم.. إنه أذكى مما يظنون.

إنهم يتكلمون عن رجل ذئب، لكنهم يفكرون في ذئب لا أكثر.. لينطلقوا في سياراتهم، ولينطلق هو بسيارته السيدان الصغيرة.. وعصر اليوم سينطلق بسيارته إلى طريق (بورتلاند) ويقيم في فندق خارج البلدة..

فإذا جاء التحول لن يكون هناك صيادون ولا كلاب.

ليسوا هم القادرين على إفزاعه.

لماذا لا تقتل نفسك؟

المذكرة الأولى جاءت هذا الشهر وكانت تقول:

- أنا أعرف من أنت.

الثانية كانت تقول:

- أنت رجل طيب.. غادر البلدة.. اقصد مكانا تجد فيه حيوانات تقتلها لا بشرا..

الثالثة كانت تقول:

- أنه الأمر..

هذا كل شيء.. والآن تقول المذكرة: **لم لا تقتل نفسك؟**

لأنني لا أريد.. أنا لم أتعمد ما صرت إليه.. لم يعضني ذئب أو يسحرني غجري، لكن هذا.. حدث..

كنت أجمع بعض الزهور عند تلك المقبرة الجميلة فوق (سنشاين هيل).. لم أر قط زهورا كهذه.. وقد ماتت قبل أن أعود بها إلى المدينة.. اسودت جميعا..

أعتقد أن الأمر بدأ من هنا..

لن أقتل نفسي.. فهم الحيوانات لا أنا.

من يكتب هذه المذكرات؟

لم يكن يعرف.. إن الهجمة على (مارتي كوزلو) لم تنشر في الصحف، وهو لم يلق الطفل قط من قبل.. كما أنه لم يعتد سماع ثرثرة المواطنين.. إن (جيمس لستر) لا يعرف شيئا عن (مارتي).. كما أنه لا يذكر ما يفعله في هجماته الذئبية.. فقط يذكر الرضا عن النفس حين تنتهي دورة الشهر، ويرتقب شهرا آخر.

أنا لن أقتل نفسي أبدا.. أنا أقوم بعمل الخير، ولو كان هناك شر أعمله فقد ارتكب الشرور من هم قبلي..

ولكن من هو؟

هل أجرى تحريات؟ من الذي هوجم يوم الرابع من يوليو؟

كيف فقدت - أو فقد الكائن – عينا؟ ربما يجب إسكات هذا الشاهد.. لكن ليس هذا الشهر..

دعهم يضعوا الكلاب في جحورها أولا..

بدأ يمشي أسرع فأسرع غير مدرك أن لحيته (وهي خفيفة أصلا تسمح له بحلاقتها كل ثلاثة أيام) صارت الآن طويلة مشعثة خشنة.. وأن عينه الوحيدة اكتسبت ظلا بلون البندق يزداد حتى يقترب من لون الزمرد الأخضر الذي ستكونه في نهاية الأمسية..

لقد بدأ يكلم نفسه.. لكن الكلمات تغدو خفيضة أكثر فأكثر كأنها زمجرة..

وأخيرا إذ ازداد عصر نوفمبر الرمادي قتامة، جرى إلى المطبخ.. اختطف المفاتيح وجرى تقريبا إلى السيارة..

يقودها في طريق (بورتلاند) مبتسما.. لا يبطئ حتى حين يبدأ الجليد المتساقط يلمع في ضوء كشافاته.. كأنها راقصات قادمات من السحاب.

إنه يشعر بالقمر فوق السحب.. يشعر بقوته.. يتمدد صدره ويشد خيوط قميصه الأبيض..

يدير الراديو إلى محطة (روك آند رول).. ويشعر بالتحسن!

كل هذا جميل.. كل هذا رائع! كل هذا مضحك.. مضحك لأنه ذهب كل المسافة إلى (بورتلاند) كي يتحول إلى وحش.. والرجل الذي مزقه في تلك الليلة لم يكن إلا (ميلت ستورمفولر).. وهو رجل أقام طيلة حياته في (تاركرز ميلز).. وكان هذا نوعا من العدالة لأنه لو كان هناك رجل على أعلى درجة من القذارة في (تاركرز مليز) فهو (ميلت ستورمفولر)..

كان قد ذهب هناك كالعادة بعد ما أخبر زوجته البائسة (دونا) أنه ذاهب لعمل.. والعمل كان في الحقيقة عبثا خالصا لقد ذهب الأستاذ (جيمس لستر) إلى فندق يدعى (درفتوود) وهو نفس الفندق الذي اختاره (ميلت ستورمفولر) لقضاء الليلة..

يخرج (ميلت) في العاشرة والربع ليجلب زجاجة شراب من سيارته، وهو يهنئ نفسه على أنه اختار ليلة القمر البدر ليكون بعيدا عن (تاركرز ميلز)..

إذا بالوحش ذي العين الواحدة يثب عليه ليفصل رأسه بضربة واحدة..



اذا بالوحش ذى العين الواحدة يثب عليه ليفصل رأسه بضربة واحدة .

كان آخر صوت سمعه (ميلت) في حياته هو الوحش يطلق زئير الانتصار.. ثم تدحرج رأسه على حين غرس الوحش فمه في عنقه وراح يتغذى..

وفي الصباح التالي يجد (جيمس لستر) نفسه في (تاركرز ميلز).. يشعر بأنه في أحسن حال..

ويقرأ خبر الحادث في الجريدة فيفكر في وقار: لم يكن هذا الرجل طيبا.

ثم يفكر.. من الصبي الذي يرسل له المذكرات؟ من الذي هوجم في يوليو؟

حان وقت معرفة هذا..

حان وقت سماع بعض الثرثرة..

يعيد إصلاح الرقعة على عينه.. ويفكر..

سوف أجده وسوف أخرسه..

للأبد..

☆ ☆ ☆

مرت خمس عشرة دقيقة بعد منتصف الليل.. في (تاركرز ميلز) كما في العالم كله، يدنو العام من نهايته.. وفي (تاركرز ميلز) كما في العالم كله قد غيّر العام الماضي الكثير من الأشياء..

قد مات (ميلت ستورمفولر) وقد تحررت زوجته (دونا لي) أخيرا من عبوديتها، وغادرت البلدة.

رحلت إلى (بوسطون) كما يقول البعض، أو إلى (لوس أنجيليس) كما يقول آخرون..

لقد مات (كلايد كورليس) لكن أخوية الفاشلين (لن) و(إيرول) حيان وبخير.. الجدة (هيج) التي اعتادت أن تصنع أفضل الفطائر قد ماتت بنوبة قلبية.. (ويلي هارنجتون) الذي بلغ الثانية والتسعين، قد تعثر على الجليد أمام بيته وهشم عظمة (حرقفه).. لكن المكتبة قد نالت مبلغا ماليا محترما في وصية أحد السكان الأثرياء.. ولسوف تبدأ التجديدات في جناح الأطفال الذي كثر الحديث عنه في اجتماعات مجلس البلدة..

(أولى باركر) ناظر المدرسة أصيب برعاف شديد (نزف أنفي) لم يتوقف، وتم تشخيصه بأنه ناجم عن ارتفاع في ضغط الدم.. قال له الطبيب إنه محظوظ لأنه لم يفجر مخه.. وأمره بأن يفقد أربعين رطلا، والغريب أن (أولى) فقد عشرين قبل أن يحين الكريسماس، مما جعله يبدو رجلا آخر..

(برادي كيناسيد) الذي قتله الوحش وهو يطير طائرة ما زال ميتا.. و(مارتي كولزو) ما زال معوقا..

أشياء تتغير.. أشياء لا تتغير..

هناك عاصفة جليدية تعوي من بعيد.. والوحش موجود.. في مكان ما..

في غرفة المعيشة في الدار يشاهدان عرض (روك العام الجديد)، يجلس (مارتي) وخاله (آل).. خاله على الأريكة و(مارتي) أمام التلفزيون على مقعده.

هناك مسدس على حجر (مارتي).. مسدس وودزمان 8 كولت.. هناك رصاصتان في المسدس وكلتاهما من الفضة الخالصة.. لقد جعل الخال أحد رفاقه يصنع له هاتين الرصاصتين في قالب رصاص..

بعد اعتراض وافق هذا الصديق على أن يذيب ملعقة فضية تخص (مارتي) باستعمال لهب (البروبان).. وقام بتحديد كمية البارود التي تحتاج إليها الرصاصة.

-لا أضمن لها النجاح.. لكن ربما تنجح.. ماذا تنوي قتله يا (آل).. أمذءوب أم ربما مصاص دماء؟

قال الخال ضاحكا:

- واحدا من كل نوع.. لهذا طلبت اثنتين.. كان هناك عفريت كذلك لكن أباه مات، واضطر إلى أن يستقل الطائرة إلى (فارجو).

وضحك الرجلان من هذا..

وقال (آل):

- إنهما لابن أخت لي.. إنه يهيم حبا بوحوش السينما.. وظننت أن هذه ستكون هدية كريسماس مناسبة له..

في الحقيقة لم يكن الخال (آل) يعرف ما يعتقده.. لم ير (مارتي) منذ رحلته إلى (تاركرز ميلز) في الثالث من يوليو.. وكما توقع اتصلت به أخته وكانت متوحشة بصدد موضوع الألعاب النارية.. كان من الممكن أن يموت أيها الحمار الغبي!! ماذا تظن أنك تفعله بالله عليك؟ كادت تفجر أسلاك الهاتف بغضبها.

يقول لها: يبدو أن الألعاب النارية هي التي أنقذته.. لكنه يسمع صوت (كليك) في أذنه.. لقد انقطع الخط.. إن أخته عنيدة، وحين لا ترغب في سماع شيء فهي لا تسمعه..

ثم في أول هذا الشهر جاءت مكالمة من (مارتي):

- أريد أن أراك يا خالي.. أنت الوحيد الذي أستطيع الكلام معه..

- يا بني.. أنا في أسوأ حالاتي مع أمك..

- الأمر مهم.. أرجوك.

لذا جاء وتحمل بشجاعة صمت أخته البارد المحتج، وفي صباح يوم من أيام ديسمبر أخذ (آل) (مارتي) في رحلة في سيارته الرياضية.. بعدما أحكم غلق حزام الأمان عليه.

في هذا اليوم لم تكن هناك سرعات مجنونة ولا ضحكات.. فقط راح الخال يصغي بينما (مارتي) يتكلم.. أصغي في قلق بينما القصة تروى.

حكى له (مارتي) عن ليلة الألعاب النارية وعن نسفه لعين الوحش.. وعن عثوره على الشخص ذي العين الواحدة.. وحكي له عن المذكرات التي راح يرسلها غفلاً من التوقيع إلى الأستاذ (جيمس لستر).. بلا توقيع حتى توفي (ميلت ستورمفولر).. بعدها راح يوقع الخطابات كما علموه في المدرسة: المخلص (مارتي كولزو)..

قال الخال بحدة:

- (مارتي).. ما كان يجب أن ترسل للرجل مذكرات بتوقيع أو بدون.. رباه! ألم يجل بخاطرك لحظة أنك قد تكون مخطئا؟

- بالطبع خطر لي هذا.. لهذا وقعت باسمي.. ألن تسألني عما حدث بعدها؟ ألن تسألني عما إذا كان الرجل قد اشتكاني لأبي؟

تساءل (آل) وهو يعرف الإجابة بالفعل:

- ألم يفعل هذا؟

قال (مارتي) بهدوء:

- نعم لم يفعل.. لم يتكلم مع أبي ولم يتكلم مع أمي.. ولم يتكلم معي..

- (مارتي).. من الممكن أن تجد مائة سبب لل...

-لا.. هناك سبب واحد فقط.. هذا الرجل هو المذءوب.. هو الوحش.. وهو ينتظر اكتمال القمر.. بصفته الأستاذ (لستر) ليس بوسعه عمل شيء.. لكنه كمذءوب يستطيع عمل الكثير.. يمكنه أن يخرسني..

كان (مارتي) يتكلم ببساطة مخيفة إلى حد أن (آل) صدقه على الفور..

سأله (آل):

- ماذا تريد مني؟

أخبره (مارتي).. كان يريد رصاصتين فضيتين.. ومسدسا يرميهما به.. وأراد من أبيه أن يزوره ليلة اكتمال القمر..

قال الخال (آل):

- سأفعل هذا.. (مارتي).. أنت ولد طيب لكنك بدأت تجن.. أعتقد أنك على وشك الإصابة بحمى الكرسي المتحرك.. لو فكرت في الأمر لوجدته كذلك..

قال (مارتي):

- ربما.. لكن فكر كيف ستشعر لو اتصلت في أول العام الجديد ليقولوا لك إنني مت في فراشي.. وإن هناك من مزقني إلى أشلاء.. هل تتحمل هذا في ضميرك يا خالي؟

كاد (آل) يتكلم ثم أغلق فاه..

انطلق إلى الطريق الرئيسي سامعا عجلات المرسيدس فوق الجليد.

لقد حارب في (فييتنام) ونال ميداليتين هناك.. لقد نجا من أصعب المواقف.. لكنه الآن يشعر بأنه متورط.. لقد اعتقله هذا الصبي.. ابن أخته المعوق ذو العشرة أعوام..

طبعا لم يكن يريد شيئا كهذا في ضميره ولا حتى احتمال.. و(مارتي) يعرف هذا..

بعد أربعة أيام - أي العاشر من ديسمبر – اتصل الخال بالصبي..

- أنباء عظيمة!!

كذا أعلن (مارتي) للأسرة.. وهو يقود كرسيه المتحرك إلى غرفة المعيشة:

- الخال (آل) آت لقضاء ليلة رأس السنة معنا!!

قالت أمه بأكثر طرق الكلام برودا وجفاء:

- بالتأكيد لن يفعل هذا..

لم يثبط هذا من همة الصبي فقال:

- آسف.. أنا قد دعوته حالا.. قال إنه سيحضر بعض البارود الذي ينفجر في الحفلات للمدفأة..

ظلت الأم ترمق (مارتي) في اهتمام طيلة اليوم، وكلما نظرت نحوه أو نظر نحوها.. ولم تتصل بأخيها تسأله ألا يأتي.. وكان هذا هو الجزء المهم في الموضوع..

على العشاء في تلك الليلة همست (كاتي) بفحيح في أذنه:

- أنت تنال دوما ما تريد.. فقط لأنك معوق!!

مبتسما قال لها:

- وأنا كذلك أحبك يا أختاه!

- أيها التافه الصغير!

ونهضت مبتعدة.

الآن جاء رأس السنة.

وتوقعت الأم أن أخاها لن يأتي إذا تفاقمت العاصفة.. وكانت الريح تعوي وتقذف الثلوج في كل صوب.. والحقيقة أن (مارتي) مر هو الآخر بلحظات صعبة.

لكن الخال (آل) وصل في الثامنة مساء ولم تكن معه سيارته المرسيدس الرياضية، ولكن اقترض سيارة ذات دفع رباعي.

في الحادية عشرة والنصف دخل الجميع إلى الفراش.. ما عدا اثنين.. وبرغم أن الخال (آل) ما زال يشك في القصة، إلا أنه أحضر ليس مسدسا واحدا، بل اثنين أخفاهما تحت معطفه..

المسدس الذي به الطلقتان الفضيتان يناوله بلا كلام لـ (مارتي) بعدما أخلدت الأسرة للنوم.. وكأنما لتأكيد هذا أغلقت الأم باب غرفة النوم بعنف وهي تدخل.

المسدس الآخر المحشو برصاص عادي مع الخال.. لكن (آل) يقدر أنه لو كان القاتل رجلا مجنونا، وحاول الدخول هنا (وهو ما بدأ يشك فيه كلما مر الوقت دون أن يحدث شيء).. فإن المسدس (الماجنام) عيار 0.45 سيعمل جيدا..

في التلفزيون يصورون الكرة المضيئة في ميدان (التايمز).. إن آخر دقائق في العام تنفد بسرعة.. الناس يهللون..

وفي بيت آل (كوزلو) ما زالت شجرة (عيد الميلاد) واقفة.. صحيح أنها بدأت تجف وقد خلت من الهدايا المعلقة عليها..

يبدأ الخال الكلام:

- (مارتي).. لا شيء..

هنا تتهشم النافذة الكبيرة في غرفة المعيشة، ويتناثر الزجاج..

ومنها تدخل الريح السوداء من الخارج، ومعها رقائق الجليد.. والوحش.

يتجمد (آل) للحظة.. يجمده الرعب وعدم التصديق..

إن الوحش عملاق.. ربما ارتفاعه سبعة أقدام..

برغم أنه منحن حتى إن مخالبه الأمامية توشك على أن تلمس البساط..

عينه الوحيدة الخضراء (كما قال مارتي مرارا.. بالضبط كما قال مارتي) تحدق فيهما بتركيز مخيف..

ثم تتصلب على (مارتي).. الجالس في مقعده المتحرك..

يثب على الصبي وصرخة انتصار مروعة تنفجر من صدره ومن بين أسنانه المصفرة.

بهدوء ودون أن يتغير تعبير وجهه، يصوب (مارتي) مسدسه عيار 0.38.. يبدو صغيرا جدا في كرسيه المتحرك.. قدماه عصوان في سرواله الجينز الباهت.. خفاه الصوفيان في قدمين لم تشعرا بشيء طيلة حياته..

وفوق عواء المذءوب المجنون.. فوق صراخ الريح.. فوق أفكاره التي تتساءل كيف يكون هذا حقيقيا في عالم من البشر

الحقيقيين.. وفوق كل هذا يسمع (آل) ابن أخيه بمعجزة ما يقول:

- أيها المسكين (جيمس لستر).. سأحاول أن أحررك..

وإذ يثب الوحش.. ومخالبه مشروعة.. يصوب (مارتي) مسدسه..

يصدر المسدس صوت (بوب) سخيفا.. وكأنه بندقية هوائية تافهة..

لكن زئير المذءوب الغاضب يتصاعد إلى درجة أعلى.. صرخة ألم مجنونة الآن..

يصطدم بالجدار ويحدث كتفه ثقبا نافذا إلى الجانب الآخر.. تسقط لوحة زيتية على رأسه ثم تنزلق على ظهره بينما هو يستدير..

الدم يسيل من الوحش.. وعينه تبدو حائرة تائهة.. يترنح صوب (مارتي) وهو يعوي.. يداه المخلبيتان تفتحان وتغلقان.. ومن بين فكيه تخرج رغاو ملوثة بالدم..

يمسك (مارتي) بالمسدس بين يديه كما يمسك طفل صغير كوب الشراب بيديه كي لا تسقط..

ينتظر.. ينتظر..

وإذ يثب المذءوب ثانية يطلق النار..

كأنما بفعل السحر انفجرت عين المذءوب الباقية كأنها شمعة في عاصفة!

يصرخ ثانية ويتعثر وقد صار كفيفا تماما نحو النافذة.. تهز العواصف الثلجية الستائر وتلفها حول رأسه.. يستطيع (آل) أن يرى زهور الدم تتفتح على القماش الأبيض.

يسقط المذءوب على ركبتيه، إذ يهرع أبو (مارتي) إلى الغرفة، وقد اتسعت عيناه، وهو يرتدي منامته الصفراء اللامعة..

ما زال مسدس الماجنام في حجر (آل).. فهو لم يستطع رفعه..

الآن يتهاوى الوحش.. يهتز لحظة..

ثم يموت..

يرمقه مستر (كوزلو) بعينين متسعتين وفم فاغر..

يستدير (مارتي) إلى خاله (آل) ووجهه مرهق لكنه ينعم بالسلام، والمسدس ما زال يبعث الدخان.

يقول:

-عام جديد سعيد يا خالي.. لقد مات..

الوحش مات..

ثم انفجر في البكاء..

وعلى الأرض تحت أفضل ستائر السيدة (كوزلو) بدأ المذءوب يتغير..



وعلى الأرض تحت أفضل ستائر السيدة (كورزلو) بدأ المذءوب يتغير .

الشعر الذي كان يطل من وجهه مشعثا بدأ يتلاشى بشكل ما.. تسترخي شفتاه اللتان تقلصتا في تعبير عن الألم والتوحش، من جديد تغطيان أسنانه..

المخالب تذوب لتتحول إلى أظفار..

يرقد هنا الأستاذ (لستر) ملفوفا في ستارة غارقة بالدم.. والجليد يتطاير من حوله في أشكال عشوائية.

يتقدم خال (مارتي) ليهدئ الصبي، بينما يركع الأب على ركبته ليتفحص الجسد.. بينما أم مارتي) تدخل الغرفة.

يحتضن الخال (مارتي) بقوة.. بقوة.. بقوة..

ويهمس:

- أحسنت يا بني.. أنا أحبك.

وفي الخارج تعوي الريح وتصرخ في وجه السماء المليئة بالثلوج.

وفي (تاركرز ميلز) صارت أول دقيقة من العام الجديد ماضيا.. (3)

ستيفن كينج

1983

مقدمة في نهاية الكتاب

(نظرا لقصر رواية اليوم، بدا أنه من المناسب أن نورد هذا الجزء من المقدمة الطريفة التي كتبها كينج تقديما لمجموعته القصصية: وردية الليل)

دعنا نتكلم أنا وأنت.. دعنا نتكلم عن الخوف..

البيت خاو وأنا أكتب هذا، ومطر فبراير يهطل بالخارج..

إنه الليل.. دعنا نتكلم عن الخوف بأمانة.. نتكلم عن الاقتراب من حافة الجنون.. ولربما ما بعدها.

اسمي هو (ستيفن كينج).. وأنا رجل بالغ لي زوجة وثلاثة أطفال، وأنا أحبهم وأومن أن الشعور متبادل.. عملي هو الكتابة وهي مهنة أحبها جدا.. إن قصصي (كاري) و(أرض سيلم) و (إشراق) قد نجحت جدا إلى حد أنها أتاحت لي أن أتفرغ تماما للكتابة.

في هذه اللحظة من حياتي أشعر بأنني بكامل صحتي، وقد خفضت من استهلاكي للتبغ.. كما أعيش مع أسرتي قرب بحيرة غير ملوثة نسبيا في (مين).. ذات مرة صحوت مبكرا فرأيت غزالا يقف في الزقاق الخلفي للدار.. إن حياتنا جميلة..

لكن - برغم هذا - دعنا نتكلم عن الخوف.. لن نصرخ، بل سنتكلم بعقلانية.. في الليل لابد أن أتأكد من أن ساقي تحت الغطاء عندما يسود الظلام.. لست طفلا لكني أكره أن أنام وإحدى ساقي عارية.. لأنه لو لمست يد باردة ساقي من تحت الفراش فلسوف أصرخ حتى أوقظ الموتى.. حسن.. هذا لا يحدث عادة..

إن الشيء الذي ينتظر تحت فراشي ليس حقيقيا.. أعرف هذا.. وأعرف أيضا أنني لو أبقيت ساقي تحت الغطاء فلن يتمكن هذا الشيء من لمسها.

دائما في المحاضرات التي ألقيها، ينهض أحد المستمعين ليسألني: لماذا تكتب في هذه المواضيع الشنيعة؟ ودائما ما أرد عليه بسؤال آخر: لماذا تفترض أن لي الخيار؟

يبدو لي أن كلا منا يحمل مرشحات ما في عقله وهذه المرشحات لها مقاسات مختلفة.. ما تصفيه مرشحاتي قد يمر بسهولة عبر مرشحاتك.. والعكس صحيح.. والبقايا التي تتخلف في الذهن هي التي تتحول إلى وسواس كل منا.. وفي المجتمعات المتحضرة يكون علينا أن نطلق على وساوسنا اسم (هوايات)..

أحيانا تتحول الهواية إلى مهنة بدوام كامل.. قد يكتشف المحاسب أنه يمكن أن يعول أسرته بالتقاط الصور.. لكننا نكره استعمال كلمة بسيطة هينة مثل (هوايات) لذا نطلق على هواياتنا اسم (الفنون).. ونحن متفقون على أن من يمارس هذه الفنون إنما يمارسها حتى لو لم يجن مالا.. حتى لو مزقه النقاد وحتى لو تعرض للألم وربما الموت..

أنا أجد هذا نموذجا للوسواس القهري.. فالبقايا التي تظل في مرشحي الخاص هي كل ما يتعلق بالخوف، وهي بقايا ترفض أن تنزل في البالوعة إلى اللاوعي.. ووسواسي القهري هو الفزع والرهبة..

أنا لم أكتب أيا من قصصي من أجل المال.. لقد كسبت كثيرا من قصصي، ولم أكف عن المطالبة بكل مليم من أجري، لأنني أعاني الوسواس القهري لكني لست مجنونا.. إلا أنني أكرر: لم تكتب قصة واحدة بغرض الكسب كهدف أول.. لقد كتبت القصص لأنني أردت أن أكتبها.. وأنا في هذا محظوظ.. لأن

وسواسي القهري من نوع قابل للبيع، بينما هناك رجال ونساء يملئون المصحات العقلية ليسوا بهذا الحظ الحسن.

إن الفن نوع من الجنون الخطر.. نوع من المرض الحميد الذي قد يصير خبيثا.. والمهم هو أن تكون حذرا وأنت تمسك بالسكين كي لا تجرحك..

بعد هذا يأتي السؤال التالي من مستمعي:

لماذا يقرأ الناس هذه الأشياء؟ لماذا هي رائجة؟

وهذا السؤال يحمل في طياته فرضية تقول إن القصة المخيفة هي ذوق غير صحي.. والناس الذين يكتبون لي يكتبون أشياء مثل: ربما تعتقد أنني شخصية مريضة لكنني بالفعل أحببت (أرض سليم).. أو ربما تعتبرني غير طبيعي لكني شغفت بـ (إشراق)..

أعتقد أن الرد يكمن في عبارة نقدية قرأتها في إحدى الصحف عن فيلم رعب رديء: فيلم مناسب الذين يحبون أن يبطئوا سياراتهم ليشاهدوا بوضوح حادث تصادم.

هذا سطر صغير لكنه بالفعل ينطبق على كل أدب وأفلام الرعب.. فيلم (ليلة الموتى الأحياء) بكل ما فيه من أكل لحم بشر وجثث مشوهة، قد صنع بالتأكيد لهؤلاء الذين يحبون أن يبطئوا سياراتهم ليشاهدوا بوضوح حادث تصادم.. وماذا عن الفتاة التي تقيء مزيجا أخضر على الناس في قصة (طارد الأرواح الشريرة)؟ ماذا عن (دراكيولا) قصة (برام ستوكر) بما فيها من غرس أوتاد في الصدور والتهام أطفال رضع؟ أليس هذا كله نوعا من – دعنا نبطئ العربة لنرى بوضوح حادث التصادم هذا؟

وحتى الكُتّاب الذين يقدمون لنا التلميح بالرعب لا الرعب نفسه مثل (ناتانييل هوثورن)، هم أيضا يروننا حادث السيارة لكن بعد ما جاءت الإسعاف ونقلت الجثث.. لكن أثر الحادث واضح.. بقع الدم ما زالت موجودة على فرش السيارة..

المسنون يبدءون تصفح الجرائد من صفحة الوفيات، بحثا عن أسماء من عاشوا هم بعدهم.. لا تنكر اهتمامك بالنشرة الإخبارية التي تحكي عن امرأة ابتلعها محرك الطائرة.. إن الرعب يثير اهتمامنا لكنه يثير نفورنا بالقدر ذاته..

هناك قصة قديمة عن سبعة عميان أمسكوا بسبعة أجزاء من فيل.. أحدهم حسب أن الفيل أفعي وأحدهم حسب أن الفيل ورقة شجر عملاقة، وأحدهم حسب الفيل عمودا من الصخر.. حين اجتمعوا جميعا عرفوا كيف يبدو الفيل.

إن الخوف يجعلنا نصاب بالعمى.. كم من شيء نخشاه؟ نحن نخشى إطفاء النور بأيد مبتلة.. نخشى ما سيقول الطبيب بعد انتهاء الفحص.. نخشى حين تنحدر الطائرة فجأة في الهواء.. نخشى أن ينفد البترول.. أن ينفد الهواء..

حين تعدك ابنتك أنها ستعود للدار في العاشرة، والساعة الآن الثانية عشرة والربع وحبات البرد تضرب زجاج النافذة كأنها الرمل.. تجلس وتتظاهر بأنك تشاهد المسلسل في التلفزيون، وتنظر إلى الهاتف شاعرا بأن عواطفك تجعلك مكفوفا.. العواطف التي تدمر قدرتنا على التفكير.

الأطفال يتعلمون الخوف بسرعة بعد أول مرة لا تكون الأم موجودة فيها لتلقمهم ثديها.. يتعلمون الخوف سريعا من الأب الذي يدخل الحمام ليجد الطفل ممسكا بعلبة أقراص فارغة..

في كل تجربة لنا نتعلم عن الخوف وجها واحدا.. ونحاول أن نجمع الصورة في النهاية كما فعل العميان بأجزاء الفيل.. والصورة النهائية للخوف تتضح لنا فيما بعد.. إنها جسد مسى تحت الملاءة إنه جسدنا.. كل مخاوفنا تنصب في النهاية على هذا الجسد تحت الملاءة..

إن أدب الرعب عبر التاريخ ليس سوى تسميع لبروفة موتنا.. وقد مات (بو) العظيم و(لافكرافت) - وكلاهما أمريكي - مفلسين.. والسبب هو أن الأمريكيين كانوا مشغولين ببناء بلادهم ولا وقت لديهم لبروفات الموت.. إن كاتب الرعب يجلب لك دائما أخبارا سيئة: أنت ستموت..

إنه يطمئنك أنه لا أمل لك.. يقتادك إلى الغرفة المظلمة ويمسك بيدك ويضعها تحت الملاءة لتتحسس بنفسك الجسد المسجى هناك.

وكل كاتب رعب يجيد عمله يعرف جيدا أن كتاباته هي نفق سفلي ما بين الوعي واللاوعي.. بين ما يمكننا أن نتذكره وما نريد أن ننساه.

حين تقرأ الرعب فأنت لا تصدق حرفا.. لا تصدق بوجود مصاصي الدماء ولا المذءوبين.. أنت تصدق الرعب الذي تقرؤه لدى (دستويفسكي) و(ألبي): الشيخوخة.. الكراهية.. الاغتراب.. لكن هؤلاء الكتاب يتكلمون عن الرعب الذي (يمكن أن يحدث)، أي هم يتكلمون عن رعب العالم الحقيقي.. بينما كتاب آخرون مثل (جيمس جويس) يتكلمون فقط عن رعب اللاوعي.. كاتب الرعب الناجح يلعب بالضبط في الخط الفاصل بين الوعي

واللاوعي.. وهو يحمل سلة مفعمة بالمخاوف وأنت تأخذ في كل مرة شيئا من سلته، وتضع بدلا منه رعبا خاصا بك أنت..

حين بدأت ثورة الشباب في الخمسينات، انتشرت أفلام رعب المراهقين.. وكنت تدخل الفيلم لترى بطل الفيلم المراهق يتحول إلى مذءوب، فتدرك أنك كنت على حق حين قلقت بصدد الولد (الصايع) ذي السترة الجلدية والسلسلة الذي تميل له ابنتك.. أما المراهقون أنفسهم فكانت الأقلام ترضيهم، لأنها تريهم مراهقين أسوأ وأخطر مما يظنون في أنفسهم.. ما خطر بعض حب الشباب على الوجه أمام مراهق الفيلم الذي يتحول إلى مذءوب؟

هذه أمور لم يتعمدها صناع الفيلم.. لكن الرعب كما قلنا يعمل بالضبط في المنطقة الفاصلة بين الوعي والأوعى وهناك يضرب.. يكلمك عن الصوت الذي يتحرك خلف الجدران.. عن المرأة الجالسة في غرفة تقرأ جريدة مصفرة.. عن الشيء تحت الملاءة..

لكن هناك شيئا أهم من كل هذا لكاتب الرعب الجيد.. عليه أن يعلى قيمة القصة على أي شيء آخر.. على رسم الشخصيات والتقنية والأسلوب وكل شيء.. أذكر هنا عبارة وردت في قصة لـ (إدجار رايس بوروز) وهو ليس بالكاتب العظيم.. وردت العبارة في قصة (الأرض التي غفل عنها الزمن).. لقد وجد بطل القصة رسالة داخل زجاجة.. هذه الرسالة ستكون هي الرواية ذاتها فيما بعد.. وتقول في آخر سطر منها: فقط اقرأ صفحة واحدة ولسوف تنساني تماما.

هذه العبارة تعني كل شيء.. وللأسف لم يفهمها كتاب هم أعظم وأعمق من (رايس) بمراحل..

يجب على الحدث أن يغطي على الكاتب.. يجب أن ينسى القارئ الكاتب تماما بعد أول صفحة..

أعرف أن أكثر القراء لا يطيقون مقدمات الكاتب.. إنهم جاءوا ليروا العرض لا ليقابلوا المخرج واقفا على خشبة المسرح يتكلم عن نفسه.. لهذا أيها القارئ العزيز أنا ذاهب الآن.. سيبدأ العرض..

سندخل الغرفة لنتحسس الجسد المسجى تحت الملاءة.

(تمت بحمد الله)

دورة المذءوب

شيء غير آدمي قد جاء إلى (تاركرز ميلز) لا يراه أحد، مثله مثل القمر الساطع فوق الغيوم من أعلى..

إنه المذءوب.. ولا يوجد تفسير واحد لوصوله الآن أكثر من أسباب حدوث السرطان أو قدوم مجنون. تكمن فكرة القتل في ذهنه.. أو إعصار قاتل.

مكانه هنا.. وقته الآن.. في هذه البلدة الصغيرة في ولاية (مين) التي مازال الناس يؤمون الكنيسة فيها، وما زال الأطفال في المدارس يحضرون تفاحا لمعلماتهم، ومازالت الجريدة الأسبوعية تهتم باجتماعات المسنين. الأسبوع التالي ستكون هناك أخبار من نوع أكثر قتامة..

لقد بدأت دورة المذءوب


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

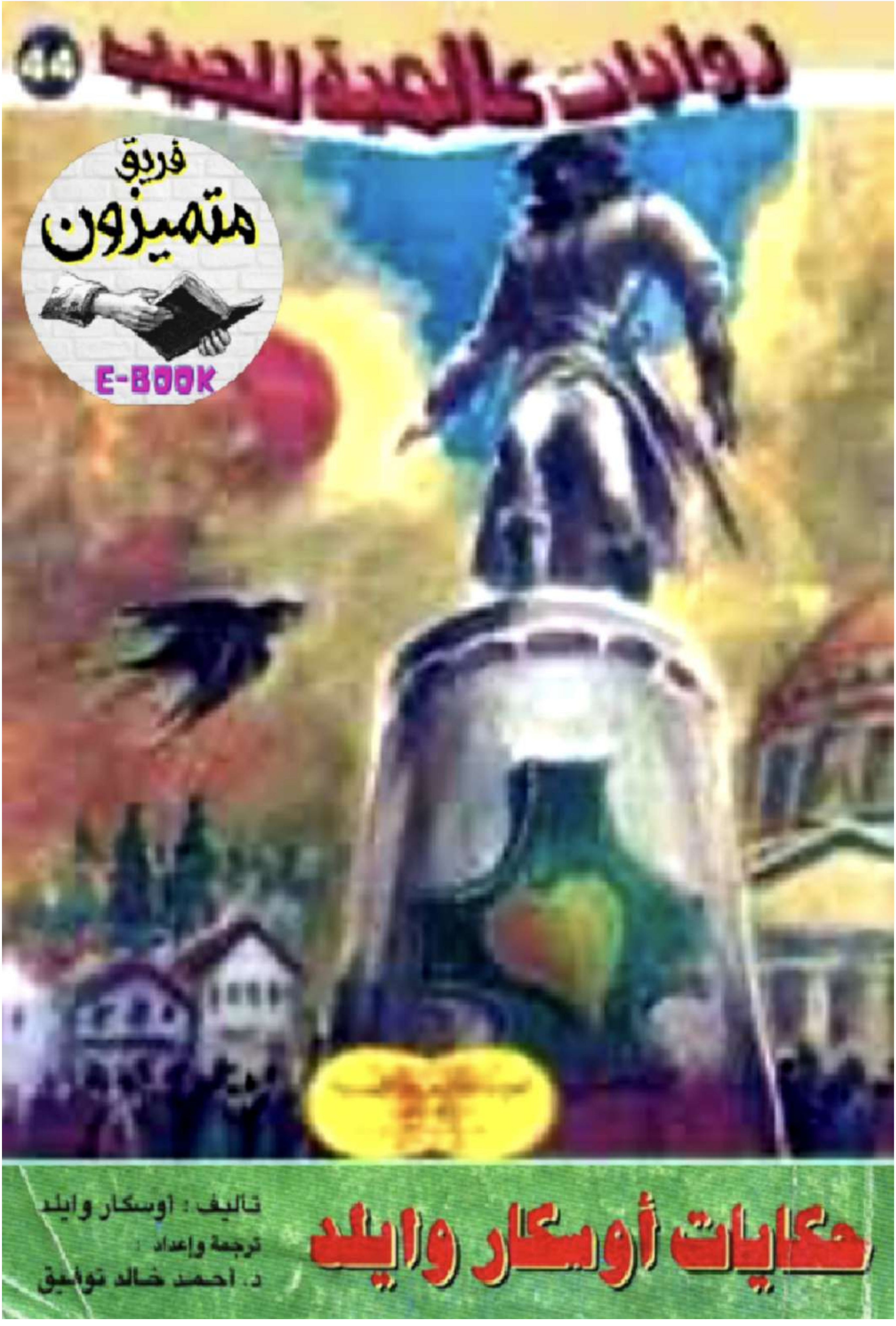
- عيد الحب .. 14 فبراير.

[←2]

- اسمه الأصلي (العملاق المذهل) incredible hulk لكن هذا هو اسمه الذي اشتهر به عندنا

[←3]

- اعتذر (ستيفن كينج) لقرائه عن عدم توخيه الدقة في الدورة القمرية، وهو يعرفها هذا قبل سواه، لكنه كان بحاجة إلى استعمال مناسبات مثل يوم الاستقلال ورأس السنة.. الخ.. أي أنه تغاضى عن الدقة الفلكية من أجل الضرورة الفنية.


روايات عالمية للجيب
44
فريق متميزون
E-BOOK
حكايات أوسكار وايلد
تأليف : أوسكار وايلد
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (44)

حكايات أوسكار وايلد

تأليف: أوسكار وايلد
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هذا لقاؤنا الثاني مع أديب عظيم هو (أوسكار وايلد).. وكنا قد قابلناه في الكتيب رقم 18 مع قصته الشهيرة (صورة دوريان جراى)، وعرفنا عنه بعض الحقائق..

من جديد نكرر هنا ما قلناه لمن جاءوا متأخرين:

أديب اليوم عاش حياة صاخبة وأثار الكثير من الجدل، فلا يمكن الكلام عنه إلا في كتاب كامل، لقد ولد في (دبلن) عام ١٨٥٤ لأب طبيب عيون، وأم أديبة ثائرة من أجل قضية إيرلندا..

تخرج الفتى في جامعة أوكسفورد، بعدما لفت الأنظار إلى موهبته كشاعر وأديب له روح مرحة.. كما اشتهر بآرائه الثورية الغريبة التي لا ينساها المرء بسهولة، وإن كنت تشعر بأنه يقولها أحيانًا لمجرد التميز حتى إن لم يؤمن بها تمامًا..

حتى ثيابه كانت غريبة هي نوع من الاستفزاز للتقاليد والأنماط السائدة..

في العام ١٨٨٧ كتب قصته (شبح كانترفيل) وهي من أشهر قصصه وأنجحها.. للمرة الأولى نجد القصر مسكونًا بشبح خائف مذعور من البشر الذين هم أكثر شناعة وقسوة من أي شبح يمكن تصوره..

بعد هذا بعام قدم مجموعة من القصص الخيالية تحمل اسم (الأمير السعيد)، وهي المجموعة التي تشكل معظم هذا الكتيب الذي تمسك به الآن.. وهي قصص شاعرية تتخذ طابع

قصص الأطفال، لكنها تعكس شفافية وحساسية غير عاديتين، ثم أصدر رواية (صورة دوريان جراى) التي ناقش فيها العلاقة بين جمال الصورة وقبح الروح.. وبرغم إننا نراها اليوم أقرب إلى الروايات الأخلاقية فإنها كانت صادمة في وقتها، واستخدمت دليلًا ضده في محاكمة (كوينزبيرى) الشهيرة..

في المسرح قدم لنا رواية (مروحة الليدى وندرمير).. وعام ١٨٥٩ قدم تحفته (أهمية أن تكون جادًّا) و(امرأة بلا أهمية) و(الزوج المثالي)..

كان نجاح الرجل ساحقًا.. لكن أصدقاء السوء جعلوه ينزلق في عالم الرذيلة الذي يذكرنا كثيرًا جدًّا بما عاشه الفتى (دوريان) في (صورة دوريان جراى).. وسرعان ما قدمه والد صديق له إلى المحاكمة التي اشتهرت باسم (محاكمة كوينزبيرى)، وحُكم عليه بالسجن عامين، لكن، هذا أفاده إذ كتب خطابًا شهيرًا وطويلًا جدًّا يعتبر من درر أدب السجون، اسمه (من الأعماق) أو (دى بروفندى)..

بعد السجن يفر (وايلد) من إنجلترا التي لم يعد يطيقها.. فيذهب إلى فرنسا ويموت بالحمى الشوكية عام 1900.. وهو اليوم مدفون في (مونمارتر) هناك..

لن ينسى محبو الأدب كلمة (وايلد) الشهيرة: إن الطبيعة تقلد الفنان.. كما لن ينسوا ما قاله (بيربوم) عنه: كان الجمال موجودًا قبل عام ١٨٨٠ لكن (أوسكار وايلد) كان هو أول من رآه..

هاتان عبارتان جديرتان بالتأمل.. ولسوف تذكرهما مرارًا وأنت تقرأ هذا الكتيب المليء بالجمال الذي لم يره إلا (أوسكار

وايلد)..

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

الأمير السعيد..

في موضع عال من المدينة، فوق عمود عال يقف تمثال الأمير السعيد.. كان مكسوًّا بالكامل برقائق الذهب، وكانت عيناه حجرين براقين من الزفير، وثمة ياقوتة حمراء كبيرة تلتمع على مقبض سيفه..

كان الكل يعجب به وقد وصفه أحد أعيان المدينة راغبًا في أن يعرف عنه تذوقه للفنون:

- إنه جميل كدوارة الرياح.. وأضاف: لكنه ليس مفيدًا مثلها..

لأنه خشى أن يحسبه الناس مفتقرًا إلى التفكير العملي، وهو لم يكن كذلك..

وقالت أم حساسة لابنها الذي كان يبكي طالبًا القمر:

- لماذا لا تكون مثل الأمير السعيد؟ إنه لا يبكى لأى سبب..

وقال رجل محطم الآمال وهو ينظر إلى التمثال الرائع:

. يسرني أن هناك شخصًا سعيدًا بحق في هذا العالم..

وقال الأطفال وهم يغادرون الكاتدرائية في عباءاتهم الحمراء اللامعة:

- إنه يبدو كملاك..

قال لهم معلم الرياضيات:

- كيف تعرفون؟ أنتم لم تروا ملاكًا من قبل..

قال الأطفال: - رأيناه في أحلامنا..

فقطب المعلم جبينه وبدا صارمًا، لأنه لم يحب فكرة أن يحلم الأطفال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات ليلة حلق طائر سنونو صغير فوق البلدة.. كان رفاقه قد هاجروا إلى مصر منذ ستة أسابيع، لكنه بقى لأنه كان واقعًا في الغرام مع عصفورة جميلة قابلها يومًا وهو يسعى وراء دودة صفراء..

- هل لي أن أحبك؟

كذا سألها السنونو الذي كان يختصر الطريق إلى مقصده، فهزت رأسها هزة خفيفة، من ثم راح يحلق حولها مرارًا، لامسًا الماء بجناحيه فيترقرق السطح الفضى.. كانت هذه هي مغازلته وقد دامت طيلة الصيف..

قالت العصافير الأخرى:

- هذا ارتباط سخيف.. تلك العصفورة ليس لديها مال، وعلاقاتها عديدة..

وكان النهر مليئًا بالعصافير الحسان، لكنها طارت جميعًا في الخريف..

بعد رحيلهن شعر بالوحشة.. وبدأ يسأم حبيبته:

- إنها لا تجيد المحادثة.. ويؤسفني أنها كثيرة الدلال لأنها تعبث مع الريح كثيرًا.. أوافق على أنها تهوى البيت، لكني أهوى

الترحال وعلى امرأتى أن تهوى الترحال كذلك..

سألها أخيرًا:

- هل تأتين معى؟

فهزت رأسها.. فقد كانت شديدة التعلق ببيتها..

قال لها:

- كنت تسخرين منى وتخدعينني كي أبقى جوارك.. لسوف أرحل إلى حيث الأهرام.. وداعًا..

وفارقها وطار بعيدًا..

طيلة اليوم ظل يطير، ومع المساء وصل إلى المدينة.. فقال لنفسه:

- ترى أين أهبط؟ أرجو أن تكون المدينة معدة لذلك..

ثم رأى التمثال على عموده الشامخ..

- سأهبط هناك.. إنه مكان جيد وهناك الكثير من الهواء النقي..

من ثم حط بين ساقي الأمير السعيد بالضبط.. ونظر حوله وقال لنفسه:

.لدى الآن غرفة نوم ذهبية..

واستعد للنوم، لكن ما إن وضع رأسه تحت جناحيه حتى سقطت قطرة من الماء عليه..

- أي شيء غريب! لا توجد سحابة واحدة في السماء.. النجوم لامعة متألقة.. وبرغم هذا السماء تمطر.. إن الطقس في شمال أوروبا غريب حقًّا..

هنا سقطت قطرة أخرى فوقه..

- ما نفع التمثال إن لم يستطع منع الأمطار؟ يجب أن أفتش عن فتحة مدفأة..

وتهيأ للطيران.. هنا سقطت قطرة ثالثة عليه فرفع رأسه لأعلى ليرى.. فما الذي رآه؟

كانت عينا الأمير السعيد مفعمتين بالدموع.. وكانت الدموع تنحدر على خديه الذهبيتين.. كان وجهه جميلًا في ضوء القمر حتى إن السنونو شعر بالشفقة.. وقال:

- من أنت؟

- أنا الأمير السعيد..

- ولماذا تبكي إذن؟ لقد أغرقتني بالماء

قال التمثال:

- حين كنت حيًّا ولي قلب إنسان لم أكن أعرف كنه الدموع.. كنت أعيش في قصر لا يسمح للحزن بدخوله.. في النهار كنت ألهو ورفاقي في الحديقة وفي المساء كنت أقود جماعة الرقص.. كان هناك سور عال حول القصر، لكني لم أحاول قط أن أرى ما وراء هذا السور.. كان ندمائي يطلقون عليّ اسم (الأمير السعيد) وقد كنت بالفعل سعيدًا، لو كانت السعادة هي اللذة.. كذا عشت وكذا مت.. والآن وضعوني في

هذا الموضع العالي كي أرى كل القبح والبؤس في مدينتي.. وبرغم أن قلبي مصنوع من الرصاص فإنه ليس بوسعى إلا أن أبكي..

قال السنونو لنفسه:

- ماذا؟ أليس من الذهب؟

فقد كان مهذبًا لا يعلن عن ملحوظات كهذه بصوت عال.. هنا واصل التمثال الكلام:

- بعيدًا في شارع ضيق يوجد بيت صغير.. أحد النوافذ مفتوحة ومنها أرى امرأة جالسة إلى منضدة.. وجهها نحيل منهك، ويداها حمراوان خشنتان مليئتان بثقوب الإبر لأنها خياطة.. إنها تطرز الزهور في تنورة ستلبسها أجمل وصيفات الملكة في حفل الرقص القادم.. في الفراش يرقد ابنها مريضًا.. إنه محموم يطلب برتقالاً وليس لدى أمه ما تعطيه إلا ماء النهر لذا يصرخ.. أيها السنونو.. أيها السنونو الصغير.. هلّا أعطيتها الياقوتة الموجودة على مقبض سيفي؟ إن قدمي مثبتتان إلى هذه القاعدة ولا يمكنني الحركة..

قال السنونو:

- إن هناك من ينتظرني في مصر.. رفاقي الآن عند النيل في أرض مصر، يتكلمون مع زهور اللوتس الكبيرة.. ولسوف ينامون سريعًا في مقبرة الملك الأعظم.. إن الملك ينام هناك في تابوت ملون وقد التف بالكتان الأصفر، وحنط بالطيوب.. يداه كالأوراق المجعدة وحول عنقه سلسلة من اليشب الأخضر..

قال الأمير:

. أيها السنونو الصغير.. هلا بقيت معى ليلة واحدة وصرت مبعوثي؟ إن الصبي محموم وظمآن.. والأم حزينة..

قال السنونو:

- لا أحسبني أحب الصبية.. في الصيف الماضي كنت عند النهر وكان هناك صبيان هما ابنا بائع الحبوب.. كانا يقذفاني بالحجارة.. بالطبع لم يصيباني لأننا معشر العصافير نجيد الطيران.. أضف لهذا أننى جئت من أسرة تمتاز بالسرعة.. لكن كانت هذه علامة على عدم الاحترام برغم كل شيء..

لكن الأمير بدا حزينًا إلى حد أن السنونو ندم على ما قال.. وقال:

- الطقس بارد هنا للغاية.. لكنى سأبقى معك ليلة وأكون مبعوثك..

قال الأمير:

- شكرًا أيها السنونو..

وهكذا التقط السنونو الياقوتة من مقبض السيف، وحملها في منقاره وحلق فوق أسقف البيوت.. مر فوق برج الكاتدرائية حيث التماثيل الرخامية.. ومر فوق القصر وسمع صوت الرقصات.. وخرجت حسناء إلى الشرفة مع حبيبها فقال لها:

- كم أن النجوم جميلة! وكم أن الحب قوى!

قالت له:

- أتمنى أن يكون ثوبي جاهزًا للحفل الراقص.. لكن الخياطة كسول..

طار فوق النهر ورأى الفوانيس المعلقة فوق الزوارق.. وطار فوق الجيتو ورأى اليهود المسنين يساومون ويزنون الدراهم..

في النهاية بلغ المنزل ونظر بالداخل.. كان الصبى يتقلب محمومًا في فراشه والأم نائمة.. وثب للداخل ووضع الياقوتة على المنضدة جوار المرأة..

ثم حلق فوق الفراش ليجلب بعض الهواء إلى جبين الطفل الملتهب..

قال الطفل:

- كم أشعر بالبرد.. لابد أننى أتحسن..

وغاص في نوم عميق لذيذ..

ثم إن السنونو حلق عائدًا إلى الأمير السعيد وأخبره بما قام به:

- هذا غريب لكني أشعر بالدفء برغم أن الطقس بارد..

قال الأمير:

- هذا لأنك قمت بعمل خير..

فكر السنونو قليلاً ثم غرق في النوم.. كان التفكير دومًا يجلب النعاس إلى عينيه..

حين بزغت الشمس طار إلى النهر واستحم..

قال أستاذ علم الطيور وهو يمشي على الجسر:

- هذا غريب! سنونو في الشتاء!

وكتب خطابًا طويلًا عن هذه الظاهرة إلى الجريدة المحلية.. وكان الخطاب مليئًا بكلمات معقدة لم يفهمها أحد..

قال السنونو وقد ارتفعت معنوياته:

- الليلة أنطلق إلى مصر..

زار كل المعالم المهمة في المدينة وكلما قصد مكانًا، غردت العصافير وقالت:

- يا له من غريب متميز!

وحين ارتفع القمر عاد إلى الأمير السعيد:

- هل لديك مهمات في مصر؟ أنا سأنطلق الآن..

قال الأمير:

- أيها السنونو.. أيها السنونو الصغير.. هلا ظللت معى ليلة أخرى؟

أجاب السنونو:

- هم ينتظرونني في مصر.. غدًا يسافر رفاقي إلى الشلال الثاني.. حيث أفراس النهر تتواري بين الشجيرات، وعلى عرش ضخم من الجرانيت يجلس تمثال (ممنون).. طيلة الليل يرقب النجوم وحين تبزغ شمس النهار يطلق صيحة سرور ثم يعود إلى الصمت.. وعند الظهيرة تأتى الأسود الصفراء إلى حافة النهر لتشرب.. وزئيرها أعلى من زئير الشلال..

قال الأمير:

- عبر المدينة أرى شابًا يعيش في سقيفة.. إنه ينحنى على منضدة تغطيها الأوراق.. وجواره باقة أزهار بنفسج ذابلة.. له عينان حالمتان واسعتان وشفتان حمراوان، وهو يحاول الانتهاء من كتابة مسرحية لمسرح المدينة.. لكن البرد يمنعه من المزيد من الكتابة.. لانار في السقيفة والسغب يجعله يفقد الوعى..

قال السنونو الذي كان طيب القلب بالفعل:

- لسوف أبقى معك ليلة أطول.. هل أحمل له ياقوتة أخرى؟

. للأسف لم يعد لدى ياقوت.. عيناى هما ما بقى لى، وهما مصنوعتان من الزفير النادر الذي جيء به من الهند من ألف عام.. انتزعهما وخذهما له.. ولسوف يبيعهما للصائغ ويبتاع طعامًا وحطبًا.. من ثم ينتهي من كتابة مسرحيته..

قال السنونو وهو يبكي:

- أيها الأمير العزيز.. ليس بوسعي أن أفعل هذا..

قال الأمير:

- أيها السنونو.. أيها السنونو الصغير.. افعل كما آمرك..

هكذا وجد السنونو نفسه مرغمًا على انتزاع الزفير، وحلق نحو غرفة الكاتب.. كان الدخول سهلًا لأن السقف كانت فيه فتحة واسعة.. كان الشاب قد دفن رأسه بين كفيه فلم يسمع صوت رفيف جناحي السنونو.. وحين رفع وجهه وجد قطعة الزفير فوق أزهار البنفسج الذابلة..

صاح:

. لقد بدأ الناس يشعرون بقيمتي.. هذه الجواهر من معجب عظيم ولاشك.. الآن يمكنني أن أنهى مسرحيتي..

وبدا مسرورًا جدًّا..

في الصباح التالي طار العصفور إلى الميناء، وراح يراقب البحارة وهم يرفعون صناديق كبيرة مربوطة بالحبال.. صاح السنونو:

- أنا ذاهب إلى مصر!

لكن أحدًا لم يبال به، وحين ارتفع القمر عاد إلى الأمير السعيد..

- جئت كي أودعك..

- أيها السنونو.. أيها السنونو الصغير.. ألا تبقى معى ليلة أخرى؟

قال السنونو:

. إنه الشتاء.. ولسوف يأتى الجليد سريعًا.. في مصر الشمس الدافئة تشرق على أشجار النخيل، والتماسيح تنعس في الوحل ناظرة في كسل إلى ما حولها.. رفاقي يبنون عشًّا في معبد (بعلبك)[1] واليمام الأبيض يراقبهم.. أيها الأمير العزيز.. يجب أن أتركك.. لكنني في الربيع سأجلب لك جوهرتين جميلتين بدلاً من اللتين تخليت عنهما.. الياقوتة ستكون أكثر احمرارًا من الوردة، والزفير سيكون أكثر زرقة من البحر..



قال الأمير:

- في الميدان تحتى هناك بائعة ثقاب صغيرة.. لقد سقط الثقاب منها في البالوعة، ولسوف يضربها أبوها بسبب هذا.. إنها

تبكي.. رأسها الصغير عار وقدماها حافيتان.. خذ عيني الأخرى وأعطها إياها..

قال السنونو:

- سأبقى ليلة أخرى.. لكن لو انتزعت عينك ستصير أعمى تمامًا..

- أيها السنونو.. أيها السنونو الصغير.. افعل كما آمرك..

من ثم انتزع الزفير وانطلق إلى حيث بائعة الثقاب الصغيرة.. وألقى الجوهرة في كفها..

صاحت الفتاة:

- يا لها من قطعة زجاج جميلة!

وانطلقت نحو البيت وهي تضحك..

عاد السنونو إلى الأمير وقال له:

- أنت الآن أعمى.. لسوف أبقى معك للأبد..

- لا أيها السنونو الصغير.. يجب أن تذهب إلى مصر..

قال السنونو:

- بل سأبقى معك للأبد..

ونام عند قدمي الأمير..

في اليوم التالي ظل يقف على كتف الأمير ويحكي له قصصًا غريبة عما شاهده.. حكى له عن طيور (أبو منجل) التي تقف صفوفًا على حافة النيل لتصطاد السمك بمناقيرها.. وعن أبي

الهول الذي هو أقدم من الدنيا ذاتها ويعرف كل شيء.. وعن التجار الذين يمشون الهويني جوار جمالهم، ويحملون مسابح من العنبر بين أصابعهم.. عن ملك جبال القمر الذي هو أكثر سوادًا من الأبنوس، ويعبد جوهرة كبيرة.. عن الثعبان الأخضر العظيم الذي يعيش في شجرة ويعني به عشرون كاهنا.. عن الأقزام الذين يسبحون في النهر راكبين على أوراق شجر ضخمة، وهم في حرب دائمة مع الفراشات..

قال الأمير:

- أيها السنونو الصغير العزيز.. أنت تحكى لى أشياء مذهلة.. لكن الأكثر غرابة هو معاناة الناس.. لا يوجد لغز أكثر استغلاقًا من الشقاء.. طر فوق المدينة وأخبرني بما تراه هناك

وطار السنونو فوق المدينة.. رأى الأثرياء ينعمون في قصورهم بينما الشحاذون يتسولون أمام الأبواب.. طار في الأزقة ورأى وجوه الأطفال الجياع البيضاء الشاحبة..

وتحت الجسر رأى غلامين ينامان وقد احتضنا بعضهما طلبًا للدفء:

- كم نحن جائعان!

صاح خفير الدرك:

.ليس لكما أن تناما هنا!

من ثم فر الغلامان إلى المطر.. وعاد السنونو إلى الأمير يخبره بما رأى..

. أنا مغطى برقائق الذهب.. انزعها واحدة واحدة.. أعطها للناس الذين يحسبون أن الذهب سيجعلهم أكثر سعادة..

التقط السنونو ورقة تلو أخرى من الذهب، حتى صار الأمير السعيد رماديًّا كئيب المنظر.. ورقة تلو أخرى يحملها إلى الفقراء، حتى ازدادت وجوه الأطفال توردًا وراحوا يضحكون ويلعبون..

. لقد صار لدينا الخبز الآن!

ثم جاء الثلج وبعده الجليد.. وبدت الشوارع كأنما هي من فضة، وارتدى الجميع الفراء.

ازداد شعور السنونو البائس بالبرد.. لكنه لم يرد أن يفارق الأمير. فقط راح يحاول أن يتدفأ بتحريك جناحيه.. لكنه في النهاية عرف أن موته قريب.. استجمع قواه وطار إلى كتف الأمير وقال له:

- وداعًا أيها العزيز.. هل لي أن ألثم يدك؟

قال الأمير:

. يسعدني أنك ذاهب إلى مصر أخيرًا أيها السنونو الصغير.. لكن أرجو أن تلثم شفتيّ فإنني أحبك..

. لست ذاهبًا إلى مصر ولكن إلى بيت الموت.. إن الموت شقيق النوم.. أليس كذلك؟

ولثم ثغر الأمير ثم هوى ميتًا عند قدميه..

في هذه اللحظة دوى صوت شرخ غريب من داخل التمثال كأنما تحطم شيء.. الحقيقة أن قلب الأمير الرصاصى انشطر إلى نصفين..

في الصباح كان العمدة يمشي في الميدان مع أعيان البلدة.. مروا بالعمود فرأوا التمثال:

- رباه! ما أقبح الأمير السعيد!

صاح الأعيان الذين لم يختلفوا مع العمدة قط:

. ما أقبحه فعلًا.. لم تعد الياقوتة في سيفه وعيناه تلاشتا.. ولم يعد مكسوًّا بالذهب..

. إنه ليس أفضل حالًا من الشحاذين.. وهناك طير ميت على قدمه.. علينا أن ننشر إعلانًا يمنع الطيور من أن تموت هنا..

وقال أستاذ الفنون في الجامعة:

. ما دام لم يعد جميلًا فهو لم يعد مفيدًا..

وهكذا شدوا التمثال وأذابوه في فرن كبير، ثم عقد العمدة اجتماعًا للمجلس البلدي، لتحديد ما يمكن عمله بالمعدن المنصهر..

- سنصنع تمثالًا آخر.. ولسوف يكون هذا التمثال لي..

تصايح الأعيان وكل منهم يريد التمثال لنفسه.. وآخر ما سمعت أنهم ما زالوا يتشاجرون.. ولاحظ العمال أن القلب لا ينصهر لهذا تخلصوا منه في القمامة حيث كانت جثة السنونو..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الخالق لملائكته:

- هاتوا لي أثمن شيئين في تلك المدينة..

وعاد الملائكة للخالق بقلب التمثال الرصاصي وجثة السنونو..

.لقد أحسنتم الاختيار، لأنه في حدائق جنتي سوف يغرد هذا الطائر للأبد.. وفي مدينتها الذهبية سيسبح هذا الأمير السعيد بحمدي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العندليب والوردة..

صاح التلميذ:

- قالت إنها سترقص معى لو جلبت لها وردًا أحمر.. لكن لا يوجد ورد أحمر في حديقتي..

سمعه البلبل من عشه في السنديانة ونظر من بين الأوراق متسائلًا..

. لا وردة حمراء في حديقتي..

قالها التلميذ وامتلأت عيناه الجميلتان بالدموع.

- آه.. ما أصغر الأشياء التي تعتمد عليها سعادتنا.. لقد قرأت كل ما كتبه الحكماء.. وملكت كل أسرار الفلسفة، لكن من أجل وردة حمراء تصير حياتي شقاء..

قال البلبل:

- هنا أخيرًا عاشق حقيقي.. ليلة تلو ليلة غنيت له برغم أنني لم أعرفه قط.. ليلة تلو ليلة حكيت قصته للنجوم.. والآن أراه.. شعره أسود كبرعم الزنبق.. شفتاه حمراوان كالورد.. لكن العاطفة جعلت وجهه بلون العاج، ووضع الأسى خاتمه على حاجبيه..

غمغم التلميذ:

- الأمير يقيم حفلًا راقصًا مساء غد.. وحبيبتي ستكون هناك.. لو جلبت لها وردة حمراء فلسوف ترقص معى حتى الفجر.. لو جلبت لها وردة حمراء فلسوف أحتويها في ذراعي..

ولسوف تريح رأسها على كتفى، ولسوف أحتوى يدها في يديّ.. لكن ما من وردة حمراء في حديقتي ولذا سأجلس وحيدًا.. فتمر هي بي.. لن تحتاج إليّ.. ولسوف يتحطم قلبي..

قال البلبل:

- هذا عاشق حقيقي بالفعل.. ما أغنى له يعانيه هو.. وما يمثل السعادة لي هو الألم له.. إن الحب شيء ثمين أثمن من الزمرد وأعز من (الأوبال).. اللؤلؤ لا يقدر على ابتياعه وهو لا يباع في الأسواق.. ولا يمكن أن يوزن بموازين الذهب..

قال التلميذ:

. لسوف يقف الموسيقيون ويعزفون على آلاتهم الوترية.. ولسوف ترقص حبيبتي على أنغام القيثار والكمان.. لسوف ترقص بخفة حتى إن قدميها لن تلمسا الأرض.. ولسوف يلتف حولها المغازلون.. لكنها لن ترقص معى لأننى لا أملك وردة حمراء أعطيها إياها..

ورمى بنفسه على الأرض، ودفن وجهه في يديه وبكى..

وتساءلت سحلية خضراء جرت بجواره:

- لماذا يبكي؟

وتساءلت فراشة تحلق في شعاع الشمس:

. حقًّا لماذا؟

وهمست زهرة أقحوان لجارتها في صوت خفيض:

. حقًّا لماذا؟

فقال البلبل:

- يبكي من أجل وردة حمراء..

صاحوا:

- وردة حمراء؟ يا للسخف!

وضحكت السحلية التي كانت أميل إلى السخرية.. لكن البلبل فهم تعاسة التلميذ وجلس على السنديانة يفكر في لغز الحب..

فجأة فرد جناحيه البنيين ملحقًا، وانطلق في السماء.. حلق فوق الحديقة كالظل.. وفي وسط المرج كانت شجرة الورد.. فلما رآها حط على غصن صغير وقال:

- أعطيني وردة حمراء، ولسوف أغنى لك أحلى أغنية عندى..

لكن الشجرة هزت رأسها وأجابت:

- ورودى بيضاء.. بيضاء كزبد البحر وأكثر بياضًا من الثلج على قمم الجبال.. لكن اذهب إلى أختى عند الساعة الشمسية فلربما تمنحك ما تريد..

لذا حلق البلبل نحو شجرة الورد عند الساعة الشمسية، وصاح:

.أعطيني وردة حمراء، ولسوف أغنى لك أحلى أغنية عندي..

لكن الشجرة هزت رأسها وأجابت:

. ورودى صفراء.. صفراء كشعر عروس البحر الجالسة على عرش من العنبر.. وأكثر اصفرارًا من زهور النرجس في المرج قبل أن يأتي من يجز العشب حاملًا منجله.. لكن اقصد أختى التي تنمو جوار نافذة التلميذ فلربما تمنحك ما تريد..

هكذا حلق البلبل نحو شجرة الورد التي تنمو جوار نافذة التلميذ.. وقال لها:

- أعطيني وردة حمراء، ولسوف أغنى لك أحلى أغنية عندى..

لكن الشجرة هزت رأسها وأجابت:

. ورودى حمراء.. حمراء كقدمي يمامة.. وأكثر احمرارًا من مراوح شعاب المرجان التي تتموج وتتموج في كهوف المحيط.. لكن الشتاء قد جمد أوصالي، والعواصف هشمت غصوني، ولن أظفر بزهور هذا العام..

صاح البلبل:

. وردة حمراء واحدة هي كل ما أبغيه.. فقط وردة حمراء! هل من طريقة أظفر بها؟

قالت الشجرة:

- ثمة طريقة لكنها شنيعة، إلى حد أننى لا أجسر على إخبارك بها..

قال البلبل:

. قوليها لي فلست خائفًا..

. لو أردت وردة حمراء، فعليك أن تصنعها من الموسيقا في ضوء القمر، وتصبغها بالدم من قلبك.. عليك أن تغنى لى وصدرك منضغط إلى شوكة.. طيلة الليل يجب أن تغنى لي والشوكة تخرق قلبك، ويجب أن ينساب دم حياتك في عروقي.. ويصير لي..

صاح البلبل:

- الموت ثمن باهظ يدفع لوردة حمراء.. والحياة عزيزة على الجميع.. من الجميل أن يجلس المرء في الغابة الخضراء، ويرقب الشمس في مركبتها الذهبية، والقمر في مركبته اللؤلؤية.. عذبة هي رائحة زهرة الزعرور، وعذبة هي زهور (بلوبيل) في الوادي، وزهور الخلنج التي تطير فوق التل.. لكن الحب أجمل من الحياة.. وما قيمة قلب الطائر بالنسبة لقلب إنسان؟

من ثم حلق البلبل إلى الهواء.. حلق فوق الحديقة كظل.. وكظل حلق فوق الروضة..

كان التلميذ ما زال جالسًا على العشب والدموع لم تجف بعد من عينيه الجميلتين..

صاح البلبل:

. كن سعيدًا.. كن سعيدًا فلسوف تظفر بوردتك الحمراء.. سأصنعها من الغناء في ضوء القمر، وأصبغها بدماء قلبي.. كل ما أطلبه منك أن تكون محبًا حقيقيًا لأن الحب أكثر حكمة من الفلسفة.. وأقدر من القوة.. جناحاه بلون النار وبلون النار جسده.. شفتاه حلوتان كالعسل، وأنفاسه عطرة كالبخور..

نظر الفتى لأعلى وأصغى.. لكنه لم يع ما يقوله البلبل له، لأنه كان يعرف فقط تلك الأشياء المكتوبة في الكتب.. لكن السنديانة فهمت وشعرت بالأسى، لأنها كانت تحب البلبل الصغير الذي اتخذ عشه بين أغصانها..



قالت له:

. غن لي أغنية أخيرة، فلسوف أشعر بالوحدة حين ترحل أنت..

لذا غنى البلبل للشجرة وكان صوته كالماء ينساب من إناء فضى..

انتهى البلبل من الغناء فنهض التلميذ وأمسك بمفكرة وراح يكتب فيها:

. إن له جمالًا لا يمكن إنكاره.. لكن هل لديه أحاسيس؟ أخشى أن لا.. في الحقيقة هو مثل أكثر الفنانين.. له أسلوب خلاب لكنه يفتقر إلى الإخلاص.. ولن يضحى بنفسه للآخرين.. كلنا نعرف أن الفنون أنانية بطبعها.. لكن لا ننكر أن في صوته نغمات ساحرة.. ومن المؤسف أنها لا تعبر عن أي شيء، وليس لها نفع عملي..

ثم دخل إلى حجرته فتمدد في فراشه، وراح يفكر في حبيبة قلبه حتى غلبه النعاس..

وحين بزغ القمر في السماء، طار البلبل إلى شجرة الورد وألصق صدره بالشوكة.. ومال القمر البلورى البارد يصغى..

طيلة الليل ظل البلبل يغني وصدره ملصق بالشوكة التي توغلت أعمق فأعمق في قلبه، وراح دم الحياة يتسرب منه..

غنى لميلاد الحب في قلب فتى وفتاة.. ومن شجرة الورد ظهر برعم جميل وبدأت بتلاته تزداد بينما الأغاني تتوالى.. في البدء كانت شاحبة كالضباب فوق النهر، فضية كجناحي الفجر..

كظل زهرة في مرآة من فضة.. كظل زهرة في المياه، بدت الوردة التي بدأت تولد على غصن من الشجرة..

لكن الشجرة توسلت إلى البلبل أن يضغط بصدره أكثر على الشوكة:

- اضغط أكثر أيها البلبل وإلا بزغت الشمس قبل أن تولد الوردة..

غنى البلبل بصوت أعلى، وبدا لون وردى رقيق يتسرب إلى أوراق الوردة.. كأنها الحمرة التي تغزو وجه عريس يلقى عروسه..

وصاحت الشجرة في البلبل:

- اضغط أكثر أيها البلبل وإلا بزغت الشمس قبل أن تولد الوردة..

ضغط البلبل أكثر فتفاقم الألم، وكان قاسيًّا مريرًا مريرًا.. لذا ازدادت أغنيته ألمًا.. راح يترنم بقصص الحب التي تموت لكن ليس في القبور..

وصارت الوردة قرمزية.. قرمزية مثل الياقوت..

ازداد وهن صوت البلبل وراح جناحاه الصغيران يرجفان، وخيمت غشاوة على عينيه.. وشعر بشيء يخنقه.. عندئذ أطلق موجة موسيقا أعلى سمعها القمر الشاحب فنسى الفجر..

سمعتها الوردة الحمراء، فارتجفت وفتحت بتلاتها لهواء الصباح المبكر..

حملها الصدى إلى التلال فصحا الرعاة من نومهم.. طفت فوق النهر فحملتها الطيور إلى البحار..

صاحت الشجرة:

- انظر! لقد اكتملت الوردة الآن..

لكن البلبل لم يرد لأنه كان ميتًا وسط الأعشاب والشوكة في قلبه..

وعند الظهيرة فتح التلميذ نافذته، وصاح:

. يا له من حظ رائع! هنا وردة حمراء! أنا لم أر قط وردة حمراء كهذه في حياتي.. إنها جميلة إلى حد أنني متأكد من أن لها اسمًا لاتينيًّا طويلًا..

واقتطفها واعتمر قبعته وجرى إلى بيت أستاذه والوردة في يده.. كانت ابنة الأستاذ جالسة هناك وكلبها عند قدميها..

صاح التلميذ:

. قلت إنك سترقصين معى لو جلبت وردة حمراء.. ها هي ذي أكثر الورود حمرة في العالم.. الليلة تضعينها جوار قلبك، وبينما نرقص معًا، سوف تخبرك كم أحبك..

لكن الفتاة قطبت، وقالت:

. يؤسفني أنها لا تتناسب مع ثوبي.. بالإضافة لهذا أرسل لي ابن أخ (شامبرلين) مجوهرات حقيقية.. وكلنا يعرف أن المجوهرات أغلى ثمنًا من الورود..

قال التلميذ في غضب:

- أقسم بالله إنك جاحدة..

وألقى الوردة في الشارع حيث سقطت وداستها عجلات عربة مارة..

قالت الفتاة:

. جاحدة! سأخبرك بشيء.. أنت غليظ الطباع، وبعد هذا كله.. من أنت؟ أنت مجرد تلميذ.. لا أعتقد أن لديك أربطة فضية لحذاءيك مثلما يملك ابن أخ (شامبرلين)..

ونهضت من مقعدها ودخلت البيت..

قال التلميذ وهو عائد لداره:

. ما أسخف الحب! إنه ليس في نصف منفعة علم المنطق.. لأنه لا يبرهن على شيء.. وهو يخبرك فقط بالأشياء التي لن تحدث، ويجعلك تؤمن بأشياء لا وجود لها.. في الحقيقة الحب غير عملي بالمرة.. لسوف أعود لدراسة الفلسفة والميتافيزيقا..

لذا عاد إلى داره وتناول كتابًا ضخمًا يكسوه الغبار، وراح يقرأ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العملاق الأناني..

اعتاد الأطفال كل عصر وهم عائدون من المدرسة، أن يلعبوا في حديقة العملاق، كانت حديقة جميلة بها عشب ناعم أخضر، وفوق العشب كنت ترى هناك وهناك زهورًا جميلة كالنجوم.. وكانت هناك اثنتا عشرة شجرة خوخ تعطى ثمارًا لذيذة.. وكانت الطيور تجلس على الغصون وتغنى أجمل الأغاني، حتى إن الأطفال كانوا يكفون عن اللهو ليصغوا إليها.

وكانوا يتصايحون:

- شد ما نحن سعداء هنا!!

ذات ليلة عاد العملاق، كان قد ذهب لزيارة صديقه الغول في (كورنوول)، وبقى معه سبع سنوات، وبعد سبعة الأعوام كان قد فرغ من قول كل ما يريد قوله لأنه كان لا يطيل الكلام، وقرر العودة إلى قلعته، حين بلغها رأى الأطفال يلعبون في الحديقة، فصاح بصوت غليظ:

- ماذا تعملون هنا؟

فبادر الأطفال بالفرار.

قال العملاق:

- حديقتي هي حديقتي.. يمكن لأي واحد أن يفهم هذا، ولن أترك واحدًا يلعب فيها ما عداى..

لذا ابتنى جدارًا حولها، ووضع لافتة تقول:

المتعدون سيعاقبون

كان عملاقًا شديد الأنانية.. ولم يعد لدى الأطفال البؤساء من مكان يلعبون فيه، حاولوا اللعب على الطريق لكنه كان مغبرًا مليئًا بالصخور الصلبة ولم يرق لهم، واعتادوا أن يدوروا حول الجدار حين تنتهى دراستهم ويتكلموا عن الحديقة الجميلة بالداخل.

وكانوا يقولون:

- كم كنا سعداء هناك!

ثم جاء الربيع وانتشرت براعم الزهور والطيور الصغيرة في البلاد.. فقط في حديقة العملاق الأناني ظل الشتاء مقيمًا، فالطيور لم تبال بالغناء هناك حيث لا يوجد أطفال، والأشجار نسيت أن تخرج زهورها، ذات مرة أخرجت زهرة رأسها من بين الأعشاب لكنها أبصرت اللافتة، فأسفت من أجل الأطفال وعادت برأسها إلى الداخل.

لم يكن هناك من سرّه الحال سوى الثلج والصقيع، وقد صاحا:

- الربيع قد نسى هذه الحديقة.. ولسوف نظل هنا طيلة العام..

وغطى الثلج العشب بعباءته البيضاء ودهن الصقيع الأشجار باللون الفضي، ثم إنهما دعيا الريح الشمالية كى تأتى فجاءت، كانت متدثرة بالفراء وقد ظلت تعوى حول الحديقة طيلة اليوم وقالت:

- هذا مكان مبهج.. يجب أن ندعو البرد لزيارة..

وجاء البرد.. وظل يضرب القلعة كل يوم حتى حطم أكثر الألواح في السقف، ثم راح يجري في الحديقة بأقصى سرعة له، كان مدثرًا في الرمادي وأنفاسه كالجليد.

قال العملاق الأناني:

. لا أفهم لماذا تأخر الربيع كل هذا.. أرجو أن يتغير الطقس..

لكن الربيع لم يأت قط ولا الصيف.. وجاء الخريف بثمار ذهبية لكل الحدائق ما عدا حديقة العملاق وقال:

- إنه أناني..

وهكذا لم يكن في الحديقة سوى الثلج والصقيع والريح الشمالية والبرد يرقصون بين الأشجار..

ذات صباح كان العملاق راقدًا متيقظًا في فراشه سمع موسيقا جميلة، بدت رائعة إلى حد أنه حسب موسيقى الملك يمرون بالدار، كان هذا طائرًا صغيرًا يغني خارج النافذة لكن كان قد مضى دهر منذ سمع غناء طائر في الحديقة حتى إنه شعر بأن هذه أجمل موسيقا في الكون.

ثم إن العملاق شم عطرًا جميلًا فقال:

. لابد أن الربيع جاء أخيرًا..

ووثب من الفراش ونظر خارج النافذة فماذا رأى؟

رأى أجمل منظر في العالم.. لقد زحف الأطفال إلى الحديقة من فتحة في الجدار، وفوق غصن كل شجرة كان هناك طفل

صغير.. وكانت الأشجار في غاية السرور لرؤية الأطفال حتى إنها تغطت بالبراعم وراحت تلوح بأذرعها فوق رءوس الأطفال.

الطيور كانت تغنى والزهور أطلت برأسها من العشب الأخضر وراحت تضحك، كان مشهدًا جميلًا إلا أنه في ركن من الحديقة ظل الشتاء، في هذا الركن كان صبي صغير يقف.. كان صغيرًا إلى حد أنه لم يستطيع الوصول إلى غصن شجرة.. وظلت الشجرة البائسة مكسوة بالصقيع.. انحنت بغصونها وراحت تصيح:

- تسلق أيها الصبى.. تسلق!

لكن الصبي كان صغير الحجم.. وذاب قلب العملاق حين رأى المشهد:

- كم كنت أنانيًّا! الآن عرفت لماذا لم يزرني الربيع.. لسوف أضع الصبي على غصن الشجرة، ثم أهدم السور وتعود حديقتى ملعبًا للأطفال..

وخرج إلى الحديقة، فما إن رآه الأطفال حتى فروا رعبًا وعاد الشتاء إلى الحديقة.. فقط الصبي الصغير ظل هناك لأن عينيه كانتا غارقتين في الدموع فلم ير العملاق..

حمله العملاق على يديه برفق ووضعه على الشجرة، فأزهرت الشجرة وعادت الطيور تغنى.. احتضن الصبى العملاق ولثمه على خده..

هنا عاد الأطفال وقد رأوا أن العملاق لم يعد شريرًا كما كان.. ومعهم عاد الربيع..

- هذه حديقتكم الآن أيها الأطفال..

قالها العملاق وتناول فأسًا وحطم السور.. وحين ذهب الناس إلى السوق في الثانية عشرة ظهرًا وجدوا العملاق يلهو مع الأطفال في أجمل حديقة في العالم.

ظلوا يلعبون طوال اليوم، وفي المساء راحوا للعملاق ليودعوه، فقال لهم:

- ولكن أين رفيقكم الصغير؟ الذي وضعته فوق الشجرة..

أجاب الأطفال:

- لا نعرف... لقد رحل..

قال العملاق:

- قولوا له أن يحضر هنا غدًا..

لكن الأطفال قالوا إنهم لا يعرفون أين يسكن ولم يروه قط من قبل.. مما أحزن العملاق..

وفي كل عصر بعد ساعات المدرسة كان الأطفال يلعبون مع العملاق.. لكن الصبي الذي أحبه العملاق لم يظهر قط، وكان العملاق مشتاقًا له..

ومرت أعوام وازداد العملاق وهنًا وشيخوخة، ولم يعد يستطيع اللعب لذا كان يجلس إلى مقعد كبير ويراقب الأطفال في أثناء لعبهم وينظر لحديقته:

- إن لدى زهورًا جميلة لكن الأطفال أكثر الزهور جمالًا..

وفي صباح شتاء كان يرتدى ثيابه وينظر من النافذة، لم يعد يكره الشتاء الآن لأنه عرف أنه ليس إلا الربيع نائمًا، والزهور تستريح، وفجأة فرك عينيه في عجب.. لقد كان بالتأكيد مشهدًا رائعًا.

ففي أقصى أركان الحديقة كانت شجرة كل أغصانها من الذهب، وثمار فضية تتدلى منها، وتحتها الطفل الصغير الذي أحبه.

جرى العملاق في الحديقة والسرور يغمره، وعبر العشب أسرع حتى بلغ الطفل، وحين رآه عن كثب احمر وجهه غضبًا وصاح:

- من جرؤ على أن يجرحك؟

لأنه على يدى الصبي الصغيرتين وعلى قدميه كانت آثار مخلبين كبيرين.

. من جرؤ على أن يجرحك؟ قل لى فلسوف آخذ سيفي الكبير وأقتله..

قال الصبى:

- لا أحد.. بل هي جروح الحب..

قال العملاق:

- من أنت؟

وفي قلبه سقطت رهبة غريبة، وجثا على ركبتيه فابتسم الطفل وقال له:

- أنت تركتني ألعب في حديقتك.. واليوم سوف تلعب معي في حدائق الجنة..

وحين جاء الأطفال عصرًا وجدوا العملاق ميتًا تحت الشجرة، وقد تغطى جسده كله بالبراعم البيضاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصديق المخلص

ذات صباح أطل فأر الماء العجوز برأسه من جحره.. كانت عيناه صغيرتين كالخرز، وله شاربان رماديان متصلبان، كان البط الصغير يسبح في البركة كأنما هو حشد من طيور الكناريا الصفراء.. وكانت الأم البيضاء ذات الساقين الحمراوين، تعلم بطاتها كيف تقف في الماء على رءوسها.

قالت لهن كدأبها:

- لن تظفرن بمكانة اجتماعية طيبة ما لم تتعلمن الوقوف على الرأس..

ومن آن لآخر كانت تريهن بنفسها، لكن البطات الصغيرات لم تبد اهتمامًا بها، كن صغيرات جدًّا إلى حد أنهن لم يرين أهمية ما للمكانة الاجتماعية..

صاح فأر الماء العجوز:

- يا للأطفال العصاة! إنهم يستحقون أن يغرقوا..

قالت البطة:

- لا شيء من هذا.. لابد لكل امرئ من بداية.. ولا يجب أن يفقد الأبوان صبرهما..

قال الفأر:

- آه.. أنا لا أعرف شيئًا عن شعور الآباء، فلست رجل أسرة.. في الحقيقة أنا لم أتزوج قط ولا أزمع هذا.. إن الحب جميل لكن

الصداقة اسمى منه بكثير.. لا أعرف في الكون ما هو أسمى ولا أندر من صديق مخلص..

سأله طائر أخضر يجلس على شجرة صفصاف:

- وما هي من فضلك فكرتك عن واجبات الصديق المخلص؟

قالت البطة:

- فعلًا.. هذا ما أرغب في معرفته..

وسبحت إلى نهاية البركة، ثم وقفت على رأسها لتبين للبط مثالًا جيدًا.

صاح فأر الماء:

- يا له من سؤال سخيف! أتوقع من صديقي المخلص أن يخلص لي..

سأله الطائر وهو يتأرجح على غصن فضي وهو يرفرف بجناحيه:

- وماذا تفعل بالمقابل؟

- لا أفهمك..

- دعنى أحك لك قصة؟

سأله الفأر:

- وهل القصة عنى؟ لو كان كذلك فسوف أصغى لأنني مغرم بالحكايات..

قال الطائر:

- إنها تنطبق عليك..

وهبط على الضفة وراح يحكى قصة الصديق المخلص.

قال الطائر:

- كان يا ما كان.. كان هناك شاب أمين اسمه (هانز)..

سأله الفأر:

- هل كان مرموقًا؟

- لا.. لا أحسبه مرموقًا على الإطلاق.. فيما عدا قلبه الطيب، ووجهه المرح المستدير، عاش وحيدًا في كوخ صغير يعمل في حديقته، ولم تكن في الريف كله حديقة بجمال حديقته، وكل أنواع الزهور كانت في حديقته.. بحيث كانت هناك دومًا أشياء مبهرة للنظر وللأنف..

- كان لدى (هانز) أصدقاء كثيرون، لكن أكثرهم إخلاصًا له كان (هو) الطحان.. حقًّا كان مخلصًا له إلى حد أنه لم يزر حديقته دون أن يحمله باقة ورد أو حزمة من الأعشاب العطرة، أو يملأ جيبه بالكرز والبرقوق لو كان هذا موسم الفاكهة..

اعتاد الطحان أن يقول:

- يجب أن يشترك الأصدقاء الحقيقيون فيما يملكون..

فكان (هانز) يهز رأسه ويبتسم ويشعر بالفخر لأن له صديقًا يملك هذه الأفكار النبيلة.

وكان الجيران يندهشون أحيانًا لأن الطحان الثرى لم يعط (هانز) شيئًا قط في المقابل، برغم أن عنده مائة جوال من الدقيق في طاحونته، وست بقرات وقطيع من الأغنام كثيرة الصوف، لكن (هانز) لم يتعب نفسه بهذه الأمور، ولم يسره شيء في الدنيا إلا سماع صديقه يتكلم عن الصداقة.

ومر الصيف والخريف على (هانز) وجاء الشتاء، عندها لم يجد ما يبيعه في السوق، وتألم كثيرًا من الجوع والبرد، وصار يأوى إلى فراشه دون أن يجد ما يأكله إلا بعض الكمثرى المجففة أو حفنة من البندق.. كما أنه عاني الوحدة كثيرًا لأن الطحان لم يزره قط.

اعتاد الطحان أن يقول لزوجته:

- لا جدوى من أن أزور (هانز) ما دام الجليد مستمرًا، لأنه حين يقع الناس في مشاكل فمن الخير تركهم وشأنهم وعدم مضايقتهم بالزيارات.. هذه هي فكرتي عن الصداقة وأنا واثق من أنها صادقة، لسوف أزوره في الربيع ولسوف يعطيني سلة من الزهور، وهذا سيجعله سعيدًا..

قالت الزوجة وهي مسترخية في مقعدها جوار النار:

- بالتأكيد أنت تفكر بالآخرين كثيرًا.. تعرف عن الصداقة أكثر مما يعرفه القس نفسه..

تساءل ابن الطحان الأصغر:

- لكن ألا يمكننا دعوة (هانز) إلى هنا؟ لو كان جائعًا سأعطيه نصف نصيبى من العصيدة، وأجعله يلعب مع أرانبي البيض..

صاح الطحان:

- يا لك من طفل سخيف! حقًّا لا أفهم جدوى إرسالك إلى المدرسة، لو جاء (هانز) هنا ورأى عشاءنا الدسم ونارنا الدافئة، فلسوف يغار.. والحسد شيء شنيع يفسد طبيعة الإنسان، ثم ربما لو جاء هنا لطلب مني بعض الدقيق نسيئة وليس هذا بوسعي، الدقيق شيء والصداقة شيء آخر، ألا ترى إن الكلمتين مختلفتان وكلتاهما تعني شيئًا مختلفًا؟ بوسع كل إنسان أن يرى هذا!

قالت الزوجة:

- أحسنت الكلام..

- أكثر الناس يستطيعون العمل جيدًا، لكن قليلين منهم يستطيعون الكلام الجيد.. مما يريك أن الكلام هو الأكثر صعوبة..

ونظر إلى ابنه الصغير، الذي شعر بالخجل من نفسه فطأطأ رأسه واحمر وجهه.. لكن سنه صغيرة إلى حد أنك تستطيع أن تسامحه..

هنا تساءل فأر الماء:

- هل هذه نهاية القصة؟

قال الطائر:

- بالطبع لا.. بل هي البداية..

- إذن أنت متأخر على العصر.. كل راو بارع للقصص اليوم يجب أن يبدأ القصة من نهايتها ثم يأتى لنهايتها وينهيها في وسطها، لقد سمعت هذا الكلام من قاص كان يمشى جوار الماء مع ناقد.. لا بد أن الرجل كان محقًّا فقد كان أصلع الرأس يضع نظارة سوداء.. لكن استمر في القصة فأنا معجب بالطحان، إن التفاهم بيننا شديد..

قال الطائر وهو يتواثب من ساق لأخرى:

- حسن.. انتهى الشتاء.. وقال الطحان لامرأته إنه سيذهب ليزور (هانز) الصغير.

قالت الزوجة:

- أنت دائم التفكير بالآخرين.. لا تنس أن تأخذ معك السلة من أجل الورود..

قال الطحان:

- صباح الخير يا (هانز)..

قال (هانز) وهو يتوكأ على الرفش، ويبتسم ابتسامة عريضة:

- صباح الخير..

- كيف كان حالك طيلة الشتاء؟

- جميل منك أن تسأل.. يؤسفني أنه كان وقتًا قاسيًا، لكن الربيع عاد وأنا سعيد الآن.. وزهورى في خير حال..

قال الطحان:

- كنا نتكلم عنك طيلة الشتاء، ويسرني أنك تغلبت عليه..

قال (هانز):

- هذا كرم منك.. كنت خائفًا من أن تكون نسيت أمرى..

- الصداقة لا تُنسى أبدًا يا (هانز).. يؤسفني أنك لا تعنى مفهوم الصداقة.. وبالمناسبة لاحظت أن زهورك جميلة جدًّا..

- بالفعل هي كذلك.. ولسوف أخذها إلى السوق وأبيعها وأسترد بثمنها عربة اليد الخاصة بي..

- تسترد عربة اليد؟ لا تقل إنك بعتها.. هذا أغبى شيء فعلته في حياتك..

قال (هانز):

- الحقيقة هي أنني كنت مرغمًا على هذا.. لقد كان الشتاء عسيرًا عليّ.. ولم يكن لدى مال أبتاع به الخبز.. لذا بعت الأزرار الفضية لسترة الأحد، ثم بعت سلسلتي الفضية.. ثم بعت غليوني الكبير وفي النهاية عربة اليد.. لكني سأستردها جميعًا الآن..

قال الطحان:

- (هانز).. سأعطيك عربة اليد الخاصة بى.. ليست في حال ممتازة.. فثمة جانب غير موجود وشيء خطأ في العجلات، لكن برغم هذا سأعطيك إياها، أعرف أن هذا كرم مبالغ فيه منى، ولسوف يعتقد الكثيرون من الناس أننى أحمق، لكنني لست كباقي العالم.. أعتقد أن الكرم هو أساس الصداقة وروحها.. ثم إن عندى عربة يد..

قال (هانز) ووجهه الباسم يتألق بالسعادة:

- حسن.. هذا كرم منك.. يمكنني إصلاحها بسهولة فلدى خشب كثير في البيت..

قال الطحان:

- خشب كثير!! هذا ما أبغيه لسطح مخزن الحبوب عندى، هناك ثقب كبير فيه ولسوف يبتل القمح ما لم أسده الآن. من الملحوظ أن العمل الطيب يلد عملًا طيبًا آخر. أعطيتك عربة اليد فأعطيني الخشب.. بالطبع عربة اليد تساوى أكثر من الخشب بكثير لكن الصداقة لا تبالي بأمور كهذه، من فضلك هات الخشب سريعًا ولسوف أبدأ العمل اليوم..

جرى (هانز) إلى المنزل وأخرج الخشب.

قال الطحان:

- ليس خشبًا كثيرًا.. وأخشى أنه بعد أن أصلح سقفى لن يبقى لك ما يكفي لإصلاح العربة، لكن هذا بالتأكيد ليس خطئي. والآن وقد أعطيتك عربتي فإننى أرغب في أن تعطيني بعض الزهور مقابلها، ها هي ذي السلة وأرغب في أن تملأها..

- أملؤها؟

قالها (هانز) في أسف لأن السلة كانت كبيرة جدًّا.. ولو فعل هذا فلن يبقى من الزهور ما يكفيه كى يذهب للسوق، وهو كان شديد الرغبة في استرداد أزراره الفضية.

ثم إنه صاح:

- أيها الصديق العزيز.. يا أعز صديق.. كل الزهور في حديقتي تحت أمرك.. إننى لأفضل آراءك الحكيمة على أزراري

الفضية..

وجرى ليملأ سلة الطحان بالزهور.

قال الطحان:

- وداعًا يا (هانز)..

وهو يحمل سلة الزهور في يد والخشب في اليد الأخرى.

في اليوم التالي كان (هانز) يثبت شجرة في شرفته حين سمع الطحان يناديه من الطريق، من ثم نزل على السلم وركض في الحديقة.

كان الطحان يحمل جوالًا كبيرًا من الدقيق على ظهره ويقول له:

- عزيزى (هانز).. هل يضايقك أن تحمل عنى جوال الدقيق هذا إلى السوق؟

قال (هانز):

- آه.. أنا أسف.. لكنى مشغول جدًّا.. على أن أثبت كل النباتات المتسلقة وأن أروى كل زهوري..

قال الطحان:

- حقًّا؟ أحسب أنه ما دمت أنوى إعطاءك عربة يدى، فإنه من الفظاظة منك أن ترفض..



صاح (هانز):

- لا تقل هذا.. لن أكون فظًّا أبدًا..

وجرى ليحمل الجوال الكبير على ظهره.

كان اليوم حارًّا جدًّا والطريق مغبرًا، وقبل أن يبلغ (هانز) علامة الطريق السادسة اضطر إلى الجلوس للراحة، في النهاية بلغ السوق وباع الدقيق بثمن ممتاز ثم قرر العودة، لأنه خشى إن هو استراح قليلًا أن يلقى بعض اللصوص.

قال لنفسه وهو يدخل الفراش:

- كان هذا بالتأكيد يومًا شاقًا، لكني مسرور لأنني لم أخذل الطحان لأنه أفضل أصدقائي.. بالإضافة لهذا سوف يعطيني عربة يده..

في الصباح الباكر جاء الطحان ليأخذ ماله لكن (هانز) كان متعبًا ولم يغادر الفراش بعد..

قال الطحان:

- أقسم بالله إنك لشديد الكسل.. إن الخمول خطيئة عظمى.. وأنا أكره أن أرى أعز صديق لي خاملًا.. لا تتضايق من أن أكلمك بهذه الصراحة.. لكن ما جدوى الصداقة إن لم يقل المرء بالضبط ما يريده؟ كل إنسان يمكن أن يقول كلامًا حلوًا يسرّك، لكن الصديق هو الذي لا يبالي لو تكلم بقسوة وآذاك..

قال (هانز) وهو يدعك عينيه وينهض:

. أنا آسف حقًّا لكني كنت متعبًا جدًّا وأردت أن أظل في الفراش بعض الوقت أصغى للطيور.. هل تعلم أننى أعمل أفضل إذا استمعت لصوت الطيور أولًا؟

ربت الطحان على ظهر (هانز) وقال:

. حسن.. يسرني هذا.. لأنني أرغب في أن تأتي لطاحونتي ما إن ترتدى ثيابك كي تصلح السقف لى..

كان (هانز) المسكين مشتاقًا لفكرة أن يعمل في حديقته، لأن زهوره لم تسق منذ يومين، لكنه لم يرغب في أن يرفض طلب الطحان لأنه كان صديقًا عزيزًا.

تساءل في خجل:

- هل تعتقد أنه سيكون فظاظة منى لو قلت إننى مشغول؟

أجاب الطحان:

- حسن.. لا أحسب أننى أطلب منك الكثير خاصة لو فكرت أنني سأعطيك عربة يدى.. لكن بالطبع لو رفضت سأذهب وأعمل هذا بنفسي..

صاح (هانز):

- لا! بأي ثمن لا..

ووثب من الفراش وارتدى ثيابه واتجه إلى مخزن الحبوب.

ظل يعمل هناك حتى الغروب، وعندها جاء الطحان ليرى ما يحدث.

صاح الطحان في سرور:

- هل أصلحت الثقب يا (هانز)؟

- أصلحته تمامًا..

- أوه.. ليس هناك من عمل أكثر بهجة من أن تعمل للآخرين..

أجاب (هانز):

- إنه امتياز حقيقي أن أسمعك تتحدث..

وجلس وراح يمسح جبينه:

- لكنني أخشى أنني لن أرزق أبدًا بأفكارك العظيمة..

قال الطحان:

- أوه.. ستجيء لك.. لكن يجب أن تعاني أكثر وأكثر.. أنت الآن تمارس الصداقة لكن يومًا ما ستفهم النظرية نفسها..

- هل تعتقد أني سأفعل؟

- لا أشك في هذا.. لكن عليك الآن أن تقصد دارك وتستريح، لأننى سأسألك أن تأخذ أغنامي إلى الجبل غدًا..

خاف (هانز) البائس من الاعتراض، وفي الصباح الباكر أحضر الطحان غنمه إلى الكوخ، واستغرق (هانز) اليوم بأكمله كي يأخذ الأغنام إلى الجبل ويعود بها، وحين عاد كان منهكًا لدرجة أنه نام في مقعده، ولم يصح إلا في منتصف النهار.

قال وهو يعود للعمل:

- يا للوقت السعيد الذي سأقضيه في حديقتي!

لكنه لم يستطع قط العناية بأزهاره، لأنه كان دومًا يطلب منه أو يرسله في مهمات طويلة. وخاف (هانز) أن تحسبه الزهور

قد نسى أمرها، لكنه عزى نفسه بأن الطحان أفضل أصدقائه، ثم إنه سيعيره عربة يده وهذا كرم لا حد له.

لذا ظل (هانز) يعمل لدى الطحان، والطحان يقول أجمل الأشياء عن الصداقة، تلك التي كان (هانز) يدونها في مفكرته ويقرؤها قبل النوم لأنه كان مولعًا بالدراسة.

ذات ليلة كان (هانز) جالسًا جوار المدفأة حين دق الباب بقوة، كانت ليلة عاصفة والريح تزأر حول البيت، لذا حسب أنها العاصفة، لكن دقة أخرى جاءت ثم ثالثة أعلى، جرى للباب يفتحه فوجد الطحان يقف ومصباح في يده، وعصا في اليد الأخرى.

صاح الطحان:

- وا عزيزي (هانز).. إن ابني الصغير قد سقط من فوق السلم وجرح نفسه وعليّ الذهاب للطبيب.. لكنه يعيش بعيدًا، وخطر لي أنه من الأفضل لو ذهبت أنت.. فأنا كما تعرف سأعطيك عربة يدى ومن العدل أن تفعل شيئًا في المقابل..

صاح (هانز):

- بالطبع.. سأنطلق حالًا.. لكن يجب أن تعطيني المصباح لأن الظلام دامس، وأنا أخشى السقوط في خندق..

قال الطحان:

- أنا آسف.. لكنه جديد ومن الخسارة أن يحدث له شيء..

- حسن.. لا عليك.. سأتصرف من دونه..

وتناول عباءته ومعطفه الفراء الكبير، وانطلق.

يا للعاصفة المريعة! كان الظلام دامسًا إلى حد أن (هانز) لم يكن يرى شيئًا.. وبعد ثلاث ساعات وصل إلى بيت الطبيب ودق الباب، أخرج الطبيب رأسه من نافذة غرفة النوم:

- من هذا؟

- أنا (هانز) أيها الطبيب.. لقد سقط ابن الطحان الصغير من فوق السلم وجرح نفسه.. والطحان يرغب في مجيئك..

قال الطبيب:

- حسن أنا قادم..

وأمر بجواده والحذاء ذي الرقبة والمصباح، وانطلق في اتجاه بيت الطحان بينما (هانز) يركض من خلفه.

لكن العاصفة ازدادت سوءًا وهطل المطر، لم يعد (هانز) يرى شيئًا، وفي النهاية ضلّ طريقه إلى المستنقع، وقد كان مكانًا خطرًا وهناك غرق (هانز) المسكين، وجد رعاة الغنم جسده في اليوم التالي، وهو طاف فوق بركة ما، وأعاده القوم إلى داره.

ذهب الجميع إلى جنازة (هانز) لأن الكل كان يحبه، وكان الطحان أول النائحين.

- كنت أعز صديق له ولهذا يجب أن أتخذ أفضل مكان..

ومشى أمام الموكب في عباءته السوداء، ومن حين لآخر يمسح دموعه بمنديله الكبير.

- إن (هانز) خسارة على أي قياس.. لقد منحته عربة يدى والآن لم أعد أعرف ما أفعله بها.. إنها في حالة سيئة إلى حد أنني لن أحصل على مليم لو بعتها.. يجب ألا أمنح أي شيء من حاجياتي بعد اليوم.. إن المرء يتحمل دومًا متاعب أن يكون كريمًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الفأر بعد صمت طال:

- حسن؟

قال الطائر:

- حسن هذه نهاية القصة..

- وماذا حدث للطحان؟

. أوه لا أعرف.. ومن المؤكد أن هذا لا يهمني.. أخشى أنك لا تفهم المغزى الأخلاقى لهذه القصة..

صاح فأر الماء:

- ماذا؟

- المغزى الأخلاقي..

- هل تعنى أن القصة لها مغزى أخلاقي؟

- بالتأكيد..

قال فأر الماء في غضب:

- كان يجب أن تخبرني قبل البدء.. وإلا ما كنت أصغيت لك.. كان لابد أن أقول (بوووووه)[2] كما يفعل النقاد.. لكن يمكن أن أفعل هذا الآن..

وأطلق صيحة (بوووووووه) عالية، ثم انطلق عائدًا إلى بيته.

سألت البطة التي جاءت تجدف عبر الماء:

- هل تحب فأر الماء؟ إن لديه مزايا.. لكن بالنسبة لي كأم لا أستطيع النظر إلى شخص عزب دون أن تتجمع الدموع في عيني..

قال الطائر:

- أخشى أنني ضايقته.. الحقيقة هي أنني حكيت له قصة ذات مغزى أخلاقي..

قالت البطة:

- أوه.. من الخطر دائمًا أن تفعل شيئًا كهذا..

وأنا أوافقها تمامًا على ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصاروخ المرموق..

كان ابن الملك مقبلًا على الزواج، لذا كانت هناك احتفالات عامة.. لقد انتظر عروسه عامًا كاملًا وقد وصلت أخيرًا. كانت أميرة روسية جاءت من فنلندا على زحافة تجرها ستة من حيوانات الرنة. كانت الزحافة تشبه بجعة ذهبية عملاقة، وبين الجناحين كانت الأميرة ذاتها. وكانت عباءتها الفرائية تصل إلى قدميها وعلى رأسها تاج من الفضة.. وكانت شاحبة مثل قصر الجليد الذي تربت فيه.. شاحبة كانت إلى حد أن الناس تصايحوا في الشوارع:

- إنها تبدو كوردة بيضاء!

وراحوا يلقون عليها الزهور من الشرفات.

وعند باب القلعة كان الأمير ينتظر لاستقبالها. كانت له عينان حالمتان بنفسجيتان وشعره كخيوط الذهب، وحين رآها ركع على ركبته ولثم يدها. وغمغم:

- صورتك كانت جميلة لكنك أجمل منها

فاحمر وجه الأميرة الصغيرة. وقال وصيف لجاره:

- كانت من قبل كالوردة البيضاء، والآن هي وردة حمراء..

فسر البلاط كله لهذا.

ولمدة ثلاثة أيام راح البلاط يردد:

- الوردة الحمراء.. الوردة الحمراء.. الوردة الحمراء.. الوردة البيضاء..

وطلب الملك أن يضاعف راتب الوصيف، ولما كان هذا لا يتقاضى أي راتب فلم يفد شيئًا من القرار، لكنه كان شرفًا عظيمًا.

حين انتهت الأيام الثلاثة تم الاحتفال بالزفاف. كان حفلًا مذهلًا. ومشى العريس والعروس تحت مظلة من المخمل المزين باللآلئ. ثم أقيمت المآدب لمدة خمس ساعات.

قال الوصيف:

. من الواضح أنهما يحبان بعضهما.. هذا واضح كالبلور..

من ثم ضاعف ابن الملك راتبه من جديد. فصاح القوم في البلاط:

- يا له من شرف!!

بعد المأدبة كان حفل راقص. سيرقص العروسان معًا رقصة الوردة، وقد وعد الملك بأن يعزف الناي لهما. كان عزفه غاية في السوء، لكن أحدًا لم يجسر بالطبع على إخباره بهذا لأنه الملك. أما آخر فقرات البرنامج فكانت عرضًا شائقًا للألعاب النارية سيتم في منتصف الليل. لم تر الأميرة ألعابًا نارية في حياتها، لذا أمر الملك بأن يكون خبير الألعاب النارية الملكي موجودًا يوم الزفاف.

سألت الأميرة:

- ما هي الألعاب النارية؟

قال الملك:

- إنها مثل الشفق القطبي (أورورا)..

كان الملك يحب أن يجيب عن الأسئلة الموجهة لسواه. وأضاف:

- فقط أكثر طبيعية.. إننى أفضلها على النجوم ذاتها.. لأنك تعرفين متى سترينها بالضبط، وهي أكثر جمالًا من عزفي على الناي.. يجب أن تريها قطعًا..

وهكذا أقيمت منصة كبيرة في حديقة الملك، وبدأت الألعاب النارية تتكلم مع بعضها.

قالت مفرقعة صغيرة:

- إن العالم بالتأكيد رائع الجمال.. انظر إلى زهور التيوليب هذه.. لو أنها كانت مفرقعات لما كانت أجمل من هذا..

قالت مفرقعة ضخمة من النوع المدعو (شمعة رومانية):

- إن حديقة الملك ليست هي العالم. إن العالم مكان هائل الاتساع.. ولسوف تحتاجين إلى ثلاثة أيام لتريه كله..

قالت مفرقعة من النوع المعروف باسم (دولاب كاترين):

- أي مكان تحبه هو العالم بالنسبة لك.. لكن الحب لم يعد (موضة).. لقد قتله الشعراء. كتبوا عنه الكثير جدًّا حتى لم يعد أحد يصدقهم.. ولا يدهشني هذا. إن طبيعة الحب هي العذاب والصمت.. عرفت الحب قديمًا وانتهى الأمر.. لقد صار هذا كله ينتمى للماضي..

قالت الشمعة الرومانية:

- هراء!! الرومانسية لا تموت أبدًا. إنها كالقمر تحيا أبدًا.. والعريس والعروس يحبان بعضهما وقد أخبرني بهذا خرطوش مفرقعات يعرف أسرار البلاط..

قالت (دولاب كاترين):

- الرومانسية ماتت.. الرومانسية ماتت.. الرومانسية ماتت..

كانت من طراز الناس الذين يحسبون أنك لو كررت الكلمة مرارًا فإنها تصبح حقيقة في النهاية.

هنا سمعا سعلة جافة فنظرا إلى ما حولهما.

جاءت من صاروخ طويل له منظر متكبر، مربوط إلى عصا، وقد اعتاد أن يسعل قبل أن يقول أية ملحوظة حتى يجذب الانتباه.

- احم احم..

فانتبه الجميع ما عدا (دولاب كاترين) التي ما زالت تهز رأسها وتردد:

- الرومانسية ماتت.. الرومانسية ماتت.. الرومانسية ماتت..

صاح صاروخ صغير:

- النظام.. النظام!

كان متمرسًا بالسياسة لأنه شارك في مناسبات عديدة، وكان ذا دراية بالقواعد البرلمانية إلى حد ما..

فما إن ساد الصمت حتى سعل الصاروخ العظيم ثانية، وتكلم بصوت خفيض واضح وكأنما يملى مذكراته. في الحقيقة

كان أسلوبه متميزًا جدًّا. قال:

- من حسن حظ ابن الملك أنه سيتزوج في ذات اليوم الذي سأنطلق أنا فيه. حقًّا لو تم ترتيب الأمر من قبل لما كان أفضل. لكن الأمراء مجدودو الحظ دومًا..

قالت المفرقعة:

- رباه! كنت أحسب الأمر عكس هذا، وأننا سنطلق على شرف الأمير..

- ربما كان الأمر كذلك بالنسبة لك.. أنا متأكد من هذا، لكن بالنسبة لي الأمر مختلف.. أنا صاروخ مرموق أتيت من أسرة مرموقة.. كانت أمي أشهر (دولاب كاترين) في عهدها.. حين ظهرت للجماهير أول مرة دارت في الفضاء تسع عشرة مرة قبل أن تنطفئ.. وفي كل دورة تنثر حولها في الفضاء سبع نجوم كان طولها ثلاثة أقدام، ومن خير أنواع البارود.. كان أبي صاروخًا مثلي من أصل فرنسي. كان يحلق عاليًا حتى يحسب الناس أنه لن يعود ثانية، لكنه كان يهبط لأنه كان ذا طبع متواضع. وقد كتبت الصحف عنه منبهرة، وأطلقوا عليه: النصر الجديد في عالم الأرعاب النارية..

قال له (ضوء بنغالي):

- (ألعاب نارية).. لقد قرأت هذه الكلمة على علبتى..

قال الصاروخ في صرامة:

- بل (أرعاب نارية)..

شعر (الضوء البنغالي) بأنه يتهشم لدرجة أنه راح يستفز المفرقعات الصغيرة كي يريها أنه ما زال شخصًا ذا قيمة. وواصل الصاروخ الكلام:

- ماذا كنت أقول؟

قالت (الشمعة الرومانية):

- كنت تتكلم عن نفسك..

- نعم.. كنت أناقش موضوعًا مهمًّا حين قوطعت بقلة ذوق، وأنا أكره قلة الذوق لأنني شديد الحساسية.. لا أحد في العالم حساس مثلي وأنا أثق بهذا..

سأل أحد المفرقعات الشمعة الرومانية:

- ما معنى (حساس)؟

- الشخص الذي لأنه يعاني من (كاللو) في قدمه، يدوس طيلة الوقت على أصابع أقدام الآخرين..

وعاد الصاروخ يتكلم:

- على المرء أن يفكر في الآخرين.. بالذات يفكر في أنا.. أنا أفكر في نفسي طيلة الوقت وأتوقع من الآخرين أن يفعلوا الشيء ذاته.. لهذا ندعو الأمر باسم (التعاطف).. إنها فضيلة رائعة وأنا أملك الكثير منها. تصوروا لو حدث لي شيء الليلة.. كم هي خسارة! لن يسعد الأمير والأميرة، ولسوف يتحطم زواجهما.. أما الملك فلن يتغلب على الصدمة أبدًا. حين أفكر في أهميتى أوشك على البكاء..

- هذه مسألة فهم مشترك..

قال الصاروخ في كبرياء:

- يمكن لأي واحد أن يملك الفهم المشترك.. لأنه ليس لديهم خيال. لكنني أملك الخيال ولا أفكر في الأشياء كما هي، ولكن أراها بصورة مختلفة. على المرء أن يفهم مدى حقارة وتدنى مرتبة الآخرين، وهذا هو ما يبقيك حيًّا. بدلًا من هذا أنتم تضحكون وتصخبون كأنما الأمير والأميرة لم يتزوجا بعد..

تساءل بالون نار صغير:

- حسن.. ولم لا؟ إنها مناسبة سارة، وحين أحلق في السماء أزمع أن أخبر النجوم بكل شيء عنها.. سترى النجوم تزداد تألقًا حين أخبرها بالعروس الجميلة..

قال الصاروخ:

. آه.. يا لها من نظرة تافهة للحياة! لكن هذا ما توقعته.. ليس فيكم شيء.. أنتم فارغون من الداخل لربما يذهب الأمير والأميرة ليعيشا في بلد فيه نهر عميق، ولربما يكون لهما ابن.. ابن أشقر له عينا الأمير.. ولربما يخرج الطفل مع مربيته يومًا.. ولربما تنام المربية.. ولربما يسقط الطفل في الماء ويغرق.. يا لها من كارثة! ما أتعس هذين البائسين! لن أفيق من أحزاني أبدًا!

قالت الشمعة الرومانية:

- لكنهما لم يفقدا ابنهما.. لم تصبهما كارثة على الإطلاق..

أجاب الصاروخ:

- لم أقل إن هذا سيحدث.. قلت إنه قد يحدث.. لو فقدا ابنهما بالفعل فلا داعي للكلام.. أنا أكره الناس الذين يبكون على اللبن المسكوب، لكن بما أن هذا قد يحدث فالقلق واجب.. أنتم لا تقدرون مدى صداقتي للأمير..

قالت الشمعة الرومانية:

- كيف؟ أنت حتى لا تعرفه

. لم أقل إننى أعرفه.. بل أجرؤ على القول إننى لو عرفته لما صادقته قط.. من الخطر جدًّا أن تعرف صديقك..

ثم انفجر في بكاء حار.. فقالت (عجلة كاترين):

- بالتأكيد هو ذو طبيعة رومانسية حقيقية.. لأنه يبكي حيث لا يوجد سبب على الإطلاق للبكاء..

وتنهدت تنهيدة حارة.

لكن الشمعة الرومانية ونار البنغال كانا ساخطين وراحا يرددان:

- همبكة! همبكة!

لأنهما كانا ذوى طبيعة علمية، وكانا يطلقان تعبير (همبكة) على كل من لا يروق لهما.

ثم ارتفع القمر كدرع فضى، وراحت النجوم تلمع.

وجاء صوت الموسيقا من القصر. كان الأمير والأميرة يقودان الرقص، وكان رقصهما جميلًا حتى إن زهور السوسن راحت تميل على النوافذ لتراهما.

جاءت الساعة العاشرة ثم الحادية عشرة ثم الثانية عشرة. وعند الدقة الأخيرة خرج الجميع إلى الشرفة وأرسل الملك يستدعى خبير الألعاب النارية.

- فلتبدأ الألعاب النارية..

قالها الملك فانحنى خبير الألعاب.. ومشى إلى الحديقة حيث كان ينتظره ستة من مساعديه، يحمل كل منهم مشعلًا. كان العرض مبهرًا.

ويز ويز! انطلقت (دولاب كاترين) وهي تدور حول نفسها.. بوم بوم! ثم انطلقت (الشمعة الرومانية).. ثم راحت المفرقعات الصغيرة ترقص حول المكان. وجعل (ضوء البنغال) كل شيء يبدو قرمزيًا.

- وداعًا!

صاح بالون النار وهو ينطلق. بانج بانج! كانت هذه إجابة المفرقعات التي كانت تنعم بوقتها حقًّا.

نجح الجميع ما عدا الصاروخ المرموق. كانت الدموع قد بللته حتى إنه لم ينطلق على الإطلاق. كان أفضل ما فيه هو البارود، وقد تبلل هذا تمامًا حتى لم يعد ذا قيمة.

كل رفاقه الذين لن يتكلم معهم ثانية، قد حلقوا في السماء كزهور ذهبية مبهرة، وبراعم من نار. وضحكت الأميرة من فرط السرور.

قال الصاروخ لنفسه:

.أعتقد أنهم يحتفظون بى لحدث عظيم.. لا شك فيما يعنيه هذا..

وبدا أكثر صلفًا من ذي قبل.

في اليوم التالي جاء العمال لينظفوا كل شيء.

فقال الصاروخ لنفسه:

- هؤلاء بالتأكيد وفد من الملك.. سألقاهم بكبرياء مناسبة..



وشمخ بأنفه في الهواء وقطب جبينه كأنما يفكر في أمر بالغ الأهمية. لكنهم لم يلاحظوه على الإطلاق حتى لحظة انصرافهم. رآه أحدهم فصاح:

- يا له من صاروخ رديء!!

وألقاه من فوق السور إلى الخندق.

قال الصاروخ وهو يطير في الهواء:

- صاروخ ردىء؟ مستحيل! صاروخ رائع.. هذا هو ما قال الرجل.. إن (رديء) و(رائع) لفظتان متشابهتان جدًّا.. في الحقيقة كثيرًا ما تعنيان الشيء ذاته..

وسقط في الوحل.

قال:

- المكان ليس مريحًا هنا.. لكن لا شك في أنه منتجع مائي، وقد أرسلوني هنا كي أجدد صحتى.. إن أعصابي مرهقة وأنا بحاجة إلى الراحة..

هنا سبح نحوه ضفدع له عينان لامعتان كالجواهر ومعطف أخضر مبرقش. وقال:

- قادم جديد.. على كل حال ليس من شيء أفضل من الوحل.. أعطني طقسًا مطيرًا وحفرة، ولسوف أكون في خير حال.. هل تظن السماء ستمطر عصر اليوم؟

قال الصاروخ:

- إحم إحم..

وبدأ يسعل. فقال الضفدع:

- يا لصوتك الجميل! إنه يشبه النقيق والنقيق بالتأكيد أجمل صوت في الكون.. ستسمع نادينا للغناء الجماعي هذه

الليلة.. نجلس في بركة البط فما إن يبزغ القمر حتى نبدأ.. إنه ساحر إلى حد أن الجميع يبقى ساهرًا ليسمعنا. من الجميل أن يعرف المرء أنه محبوب إلى هذا الحد..

قال الصاروخ:

- إحم إحم..

كان غاضبًا إلى حد أنه لم يستطع التلفظ بكلمة. فقال الضفدع:

- صوت جميل فعلًا.. والآن أشكرك على هذه المحادثة الشائقة وأستودعك الله..

قال الصاروخ:

- محادثة فعلًا.. أنت ظللت تتكلم طيلة الوقت وبرغم هذا تسميها محادثة..

قال الضفدع:

- لابد من واحد يصغى، وأنا أحب القيام بالكلام كله بنفسي.. هذا يوفر الوقت ويتحاشى المجادلات..

. لكني أحب المجادلات..

- أتمنى أن لا.. إن المجادلات أمر سوقي، لأن كل واحد في المجتمعات الراقية يملك نفس الآراء.. والآن وداعًا..

قال الصاروخ:

. أنت شخص مزعج سيئ التربية.. أنا أكره الناس الذين يتكلمون عن أنفسهم في الوقت الذي أرغب فيه في الكلام عن

نفسي.. هذا ما أدعوه أنانية، والأنانية شيء كريه للغاية.. خاصة مع شخص حساس مثلي.. لا تنس أنني المفضل في البلاط الملكي، والأمير والأميرة تزوجا أمس على شرفي.. طبعًا أنت لن تفهم هذه الأمور لأنك ريفي..

قالت ذبابة تنين تجلس على زهرة بردي كبيرة:

. لا جدوى من الكلام معه لأنه قد رحل بالفعل..

قال الصاروخ:

- ليكن.. هو الخاسر لا أنا.. لن أكف عن الكلام معه لأنني أحب سماع نفسي أتكلم.. أحيانًا أجرى محادثات طويلة مع نفسي، ومن فرط ذكائي لا أفهم كلمة واحدة مما أقول..

قالت ذبابة التنين:

- إذن يجب أن تلقى محاضرات في الفلسفة..

وحلقت في السماء.

قال الصاروخ:

- من السخيف أنه لم يبق هنا.. لا أعتقد أن لديه فرصة كهذه ليريض عقله..

بعد قليل سبحت بطة بيضاء كبيرة بقربه. وكانت تعتبر جميلة جدًّا نظرًا لمشيتها المتهادية. قالت:

- كاك كاك! ما أغرب شكلك! هل لي أن أعرف ما إذا كنت ولدت هكذا أم أنها نتيجة حادث؟

قال الصاروخ:

- واضح تمامًا أنك قضيت حياتك في الريف.. لكني أغفر لك جهلك ليس من العدل أن أتوقع أن يكون الناس مرموقين مثلي.. لن تصدقي أن بوسعي التحليق في السماء ثم النزول وسط شلال من المطر الذهبي..

قالت البطة:

- هذا لا يبهرني لأنني لا أرى له نفعًا.. لو كان بوسعك أن تحرث الحقول كالثور أو تجر عربة كالحصان لكان هذا شيئًا ما..

صاح الصاروخ في عجرفة:

- أيها المخلوق الطيب.. أرى أنك تنتمين إلى طبقات وضيعة.. أما الأشخاص من طبقتي فيندر أن يكونوا مفيدين.. ولطالما كان رأيي أن العمل هو الملاذ الأخير للأشخاص الذين ليس لديهم ما يفعلونه..

قالت البطة:

- ليكن.. ليكن.. فقط أرجو أن تعيش معنا هنا..

كانت مسالمة بطبعها ولم تتشاجر قط مع مخلوق..

صاح الصاروخ:

. يا عزيزتي.. أنا مجرد زائر.. زائر مرموق.. لكن هذا المكان متعب.. فلا توجد مجتمعات هنا.. لكن الوحدة صعبة المنال كذلك.. إنه مكان ريفي، ويبدو أنني سأعود للبلاط لأن قدرى هو أن أحدث دويًا في العالم.. لقد خلقت للحياة العامة..

قالت البطة:

- هذا يذكرني بأنني جائعة..

وسبحت عبر النهر وهي تردد:

- كاك كاك كاك!

قال الصاروخ لنفسه:

- يسرني أنها رحلت.. إن لها عقليه واحدة من الطبقة المتوسطة..

وغاص أكثر في الوحل، وهو يفكر في وحشة العباقرة ووحدتهم.. حين ظهر صبيان في معطفين أبيضين، يجريان على الضفة ومعهما حزمة عصى وإبريق شاى.

صاح أحد الصبيين:

- انظر إلى هذه العصا القديمة؟

- ترى من أين جاءت؟

ومد يده إلى الوحل.

صاح الصاروخ:

- عصا قديمة؟ مستحيل.. لا بد أنه قال (عصا ثمينة).. هذا يرضيني جدًّا..

قال الولد الآخر:

. دعنا نشعل فيها النار.. ستساعدنا على غلى الماء في البراد..

لهذا كوموا العصى معًا، ثم وضعوا الصاروخ أعلى الكومة.

صاح الصاروخ:

- هذا رائع.. سيطلقاني في النهار حتى يراني الجميع..

قالا:

- سننام الآن.. وحين نصحو سيكون الماء قد غلى..

وتمددا على العشب وأغمضا العيون.

كان الصاروخ مبتلًّا واستغرق الكثير من الوقت ليشتعل، وفي النهاية أمسكت به النار فصاح:

- الآن سأنطلق!! أعرف أنني سأنطلق أبعد من النجوم ومن القمر.. أعلى من الشمس.. في الحقيقة سأرتفع لدرجة..

فيز.. فيز! وحلق في الهواء..

- جميل.. سأحلق هكذا للأبد! يا لنجاحي!

ثم بدأ يشعر بشعور تنميل غريب على جسده. فصاح:

- الآن سأنفجر! سأشعل النار في العالم كله.. وأحدث صخبًا حتى إن أحدًا لن يتكلم عن شيء آخر لمدة عام..

وبالفعل انفجر.. بانج.. بانج.. انطلق البارود.. لا شك في هذا..

لكن أحدًا لم يسمعه ولم يره.. حتى الصبيين كانا نائمين. ثم لم يبق منه إلا عصا وقد سقطت هذه على ظهر أوزة كانت تمشى جوار الخندق.

قالت:

- رباه! السماء ستمطر عصيًّا..

وجرت إلى البركة.

لهث الصاروخ وقال:

- كنت أعرف أنني سأحدث دويًّا عظيمًا..

ثم تلاشي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طفل النجوم..

كان يا ما كان. عاد حطّابان فقيران إلى دارهما عبر غابة صنوبر واسعة. كان الطقس شتاء والليلة قاسية البرد والجليد في كل صوب لأن ملك الثلوج لثم كل شيء.

زمجر الذئب وهو يعرج بين الأشجار المتجمدة:

- أوه.. هذا بالتأكيد طقس متوحش.. لماذا لا تهتم الحكومة بأمر كهذا؟

صاحت الطيور:

- تويت تويت! الأرض العجوز قد ماتت وغطوها بأكفان بيضاء..

قالت الحمائم لبعضها:

- بل الأرض ستتزوج وهذا ثوب عرسها..

لقد عانت أقدامها الوردية من قضمة الصقيع فشعرن بالحاجة إلى بعض الرومانسية.

زمجر الذئب:

- هراء! إنني أؤكد لكم أن هذه غلطة الحكومة، وإن لم تقتنعوا فإنني سألتهمكم..

كان الذئب ذا عقلية عملية ولم يخسر مجادلة قط.

قال نقار الخشب الذي كان ذا طبيعة فلسفية:

- حسن.. بالنسبة لى أنا لا أبالي بالتفسيرات.. ما دام الشيء كذا فهو كذا.. وحاليًا البرد شديد..

حقًّا كان البرد شديدًا، وقد مضى الحطابان ينفخان في أناملهما ويتعثران بأحذيتهما الثقيلة فوق الجليد وتعثرا مرة في المستنقع المتجمد ومرة في حفرة، خرجا منها أكثر بياضًا من الطحان في أثناء طحن الحبوب. وذات مرة حسبا أنهما ضلا الطريق، وانتابهما الهلع لأنهما يعرفان أن الصقيع لا يرحم من يغفو بين ذراعيه. لكنهما استعادا الطريق.. وفي النهاية بلغا حدود الغابة.. ورأيا أضواء قريتهما. بلغت بهما السعادة مبلغًا حتى راحا يضحكان بصوت عال، وخيل لهما أن الأرض مكسوة بالفضة والقمر زهرة من الذهب.

ثم عاد إليهما الحزن وقد تذكرا فقرهما. وقال أحدهما:

- لماذا نفرح ونحن نعرف أن الحياة للأثرياء وليست لأمثالنا؟ كان من الأفضل لنا لو متنا من البرد في الغابة.. أو وثب علينا وحش فتك بنا..

قال صاحبه:

- حقًّا.. القليلون ينالون الكثير والباقون ينالون القليل.. إن الظلم قد غلف العالم، ولا عدالة في توزيع شيء إلا الألم..

لكن بينما هما يتبادلان شكوى التعاسة، حدث هذا الشيء الغريب. لقد هبط من السماء نجم شديد البريق. مر منحدرًا من أعلى مارًّا بكل النجوم الأخرى، ثم هبط وراء مجموعة من أشجار الصفصاف على مرمى حجر منهما.

صاحا:

- هبه! هناك ذهب لمن يجده!!

وانطلقا متحمسين.. كان أحدهما أسرع من صاحبه حتى سبقه، وشق طريقه بين أشجار الصفصاف. وخرج من الناحية الأخرى. حقًا كان شيء من ذهب على الجليد.

جرى وأمسكه بيديه.. كانت عباءة من نسيج مذهب مطرز بالنجوم بعناية. صاح يخبر صديقه أنه وجد الكنز الذي سقط من السماء، وحين وصل صاحبه جلسا على الجليد وفكا ثنيات العباءة..

لكن للأسف! لم يكن هناك ذهب ولا فضة.. ولا أي كنز من أي نوع. لكن كان في العباءة طفل صغير نائم. وقال أحدهما للآخر:

- هذه نهاية مريرة لآمالنا.. ما جدوى طفل للرجل؟ إن أطفالنا هناك وليس لدينا المزيد من الخبز نمنحه لطفل آخر.. ألا فلنتركه هنا ونمض إلى سبيلنا..

لكن رفيقه قال:

- لا.. من الشر أن نترك طفلًا يموت هنا في البرد.. وبرغم أنني فقير مثلك، ولدى أفواه كثيرة يجب إطعامها.. والقليل من الطعام في القدر.. فإنني سآخذ هذا الطفل معى إلى الكوخ، ولسوف تعنى به زوجتى..

ولهذا وبرفق أخذ الطفل.. ولفه في العباءة كي يقيه من البرد. بينما زميله يتعجب من حماقته ورقة قلبه. وقال له:

- أنت أخذت الطفل فأعطني العباءة.. هكذا نتقاسم ما وجدناه..

لكن صاحبه أجابه:

- لا.. فالعباءة ليست لي ولا لك.. بل هي ملك الطفل..

وودعه واتجه إلى داره. فتحت له زوجته الباب، فلما رأت أن زوجها عاد سالمًا لها طوقت عنقه وقبلته. ثم اقتادته إلى جوار النار. قال لها:

- لقد وجدت شيئًا في الغابة وقد جلبته لك كي تعنى به..

ثم كشف العباءة ليريها الطفل، وقال لها:

- هو طفل النجوم..

وحكى لها القصة الغريبة للعثور على هذا الطفل، لكنها لم تهدأ.. بل سخرت منه.. وصاحت في غضب:

- أطفالنا يفتقرون إلى الخبز فهل نطعم طفل الآخرين؟ من يعني بنا ومن يعطينا الطعام؟

- لكن الله يعنى حتى بالعصافير ويطعمها..

- لكن ألا تموت العصافير جوعًا في الشتاء؟ وأليس هذا هو الشتاء؟

هنا هبت ريح باردة من الغابة فارتجفت وقالت لزوجها:

. ألا تغلق الباب؟ إن الريح تجمدني..

اتجه الرجل نحوها ووضع الطفل بين ذراعيها، فارتجفت وسالت دمعة من عينها.. وقبلته ووضعته في الفراش جوار أصغر أبنائها..

في الصباح أخذ الحطاب العباءة الغريبة ووضعها في صندوق كبير، ووضعت الزوجة قلادة من الكهرمان كانت حول عنق الطفل في الصندوق كذلك.

هكذا كبر طفل النجوم مع أبناء الحطاب ولعب معهم. وفي كل عام يزداد جمالًا مما أثار دهشة القرويين.. فقد كانوا داكني البشرة سود الشعور.. وكان هو رقيقًا وأبيض كالعاج، وخصلات شعره المجعدة كزهور النرجس الأصفر. وعيناه كزهور البنفسج في حقل لا يزوره قاطع الأعشاب.

لكن جماله آذاه لأنه صار مغرورًا.. أنانيًّا.. قاسيًا، وراح يقول إن أطفال القرية منحطون أما هو فنبيل المنشأ لأنه جاء من النجوم. لم يعطف قط على الفقراء أو المشوهين أو المرضى. واعتاد السخرية من المتسولين، كأنما حرم القلب.

وفي الصيف حين تهدأ الريح، كان يرقد عند البئر، ويتأمل روعة وجهه في الماء.

وكان الحطاب وامرأته يقولان له:

- لم نتعامل معك كما تعاملت مع الفقراء المنسيين.. من أين جئت بهذه القسوة وافتقارك للرحمة..

لكنه لم يهتم بهما.. وواصل اللهو والعبث مع رفاقه. وحين كان يغرس قصبة في عين الخلد التي لا تبصر كانوا يضحكون..

وحين كان يلقى الأحجار على المجذومين كانوا يضحكون. كان يسيطر عليهم إلى حد أنهم صاروا قساة القلوب مثله.

ذات يوم مرت بالقرية امرأة متسولة بائسة.. ثيابها ممزقة وقدماها تنزفان من الطريق الخشن الذي مشت عليه. ولما كانت مرهقة فقد جلست تحت شجرة كستناء تستريح.

لكن حين رآها طفل النجوم قال لرفاقه:

- انظروا! هي ذي شحاذة قذرة تجلس تحت هذه الشجرة المورقة الجميلة.. هلموا.. تعالوا نطردها.. فهي سقيمة قبيحة..

ودنا منها ورماها بالأحجار وسخر منها.. نظرت له برعب في عينيها ولم تبعد ناظريها عنه. دنا منه أبوه بالتبنى وأمره ألا يفعل هذا، فضرب طفل النجوم الأرض واحمر وجهه غضبًا وقال:

- من أنت كي تسألني عما أفعل.. من أنت؟ أنا لست ابنًا لك كي أمتثل لأوامرك..

قال الحطاب:

- أنت تكلمت بالحق.. لكن ألم أشفق عليك حين رأيتك في الغابة؟

وحين سمعت المرأة هذه الكلمات أطلقت صرخة وفقدت وعيها، فاحتملها الحطاب إلى داره.. وحين أفاقت من الإغماءة وضع أمامها لحمًا وشرابًا وطلب منها أن تنعم بالراحة.

لكنها لم تمس الطعام ولا الشراب، وسألت الحطاب:

- ألم يكن هذا من عشر سنوات حين وجدت هذا الطفل في الغابة؟

فأجابها الحطاب:

- بلى.. وكان هذا في الغابة..

- ألم تجد علامات معينة معه؟ ألم يكن حول عنقه قلادة من الكهرمان؟ ألم يكن ملفوفًا في عباءة مذهبة طرزت عليها نجوم؟

أجاب الحطاب:

- هذا حق.. كان الأمر كما تقولين..

والتقط العباءة والقلادة الكهرمانية من الصندوق وأراهما للمرأة.

فلما رأت هذه الأشياء صرخت وبكت من الفرح:

. إنه ابني الذي فقدته في الغابة.. أرسله لي حالًا لأنني بحثت عنه في كل العالم ولم أجده..

لذا خرج الحطاب وزوجته ونآديا طفل النجوم.. وقال الأب:

- ادخل إلى المنزل ولسوف تجد أمك..

جرى الصبي إلى الكوخ مليئًا بالسرور والعجب، لكنه حين رأى من تنتظره بالداخل ضحك محتقرًا وقال:

- أين هي أمي؟ أنا لا أرى هنا إلا هذه المرأة المتسولة

قالت المرأة:

- بل أنا أمك..

صاح طفل النجوم في غضب:

- أنت مجنونة.. أنت لست أمي فأنت شحاذة قبيحة تلبسين الأسمال.. اغربي عن وجهي ودعيني لا أرى وجهك القبيح ثانية..

صاحت المرأة:

- أنت ابني.. لقد خطفك اللصوص منى ثم تركوك لتموت في الغاب.. لكني عرفتك حين رأيتك. لقد فتشت العالم كله بحثًا عنك، والآن أرجوك أن تأتى معى يا بنى، فأنا بحاجة إلى حبك..

لكن طفل النجوم لم يتحرك.. بل أوصد أبواب قلبه دونها.

في النهاية قال لها بصوت قاس مرير:

. لو كنت حقًّا أمي لكان خيرًا لك لو بقيت بعيدًا.. بدلًا من أن تأتى هنا لتجلبي لي العار.. كنت أحسب نفسى ابن نجم فجئت لي كي أعرف أنني ابن شحاذة.. لهذا ابتعدى عنى فلا أريد أن أراك ثانية..

صاحت:

. واحسرتاه يا بني!! ألن تقبلني قبل أن أرحل؟

- نعم لن أقبلك.. فأنت أقبح من أن يستطيع المرء النظر إليك.. من الأسهل لي أن أقبل الثعبان أو الضفدع بدلًا منك..

لهذا غادرت المرأة البيت وتوارت باكية.. وسر طفل النجوم لأنها رحلت وجرى ليلحق برفاقه. لكنهم حين رأوه سخروا منه وقالوا:

- أنت قذر كالضفدع وكريه كالثعبان.. أغرب عنا فلن نلعب معك..

وطردوه من الحديقة.

قطب طفل النجوم جبينه وقال:

- ما هذا الذي يقولون لي؟ سأذهب إلى البئر وأتأمل وجهي، ولسوف يخبرني كم أنا جميل..

لذا ذهب إلى البئر ونظر فيه.. لكن يا للحسرة! كان وجهه وجه ضفدع وجسمه كجسد ثعبان.. رمى بنفسه على العشب وبكى. وقال:

- بالتأكيد هذا أصابني بسبب خطاياي.. لقد أنكرت أمي وطردتها.. لسوف أبحث عنها في العالم كله ولن أستريح حتى أجدها..

هنا جاءته ابنة الحطاب الصغرى، ووضعت يدها على كتفه:

- وما المشكلة لو أنك فقدت حسنك؟ ابق معنا هنا ولن أسخر منك أبدًا..

قال لها:

- كلا.. لكني قسوت على أمي.. فعوقبت بهذا الشر.. يجب أن أرحل وأبحث في الأرض حتى أجدها.. وتغفر لي..

وجرى إلى الغابة بحثًا عن أمه لكنها لم تكن هناك. ظل يبحث عنها طيلة اليوم، وحين جاء المساء رقد على فراش من

الأوراق. كان وحيدًا اللهم إلا من ضفدع جاء إليه وثعبان زحف حوله.

في الصباح سأل الخلد:

- أنت تستطيع الزحف تحت الأرض.. قل لي هل أمي هناك؟

قال الخلد:

- أنت أعميتني فكيف أعرف؟

سأل الطائر:

- أنت تستطيع الطيران فوق الأشجار السامقة فهل رأيت أمي؟

فأجاب الطائر:

- أنت قصصت جناحي لمتعتك.. فكيف أطير؟

وسأل السنجاب الذي يعيش في شجرة التنوب:

- أين أمي؟

فأجاب السنجاب:

. أنت قتلت أمي.. أتراك تبحث عن أمك لتقتلها هي الأخرى؟

فبكى طفل النجوم وخفض رأسه وطلب الصفح من مخلوقات الله. ومشي في الغابة يفتش عن المتسولة. وفي اليوم الثالث خرج من الغابة ونزل إلى السهل.

حين مشي في القرية سخر منه الأطفال ورموه بالأحجار. ولم يتركه الفلاحون ينام حتى في حديقة المواشي كي لا يسبب تعفن القمح.. فلا أشفق عليه أحد ولا هو وجد أمه.

ثلاثة أعوام راح فيها يجوب القرى بحثًا عنها، لكنه لم يقابلها واعتاد الناس أن يسخروا منه.

ثلاثة أعوام جاب فيها العالم.. وفي العالم لم يكن هناك حب ولا رفق.. لكنه كان ذات العالم الذي صنعه لنفسه في أيام غروره الأولى.

في المساء بلغ أسوار مدينة محصنة جوار النهر.. ولما كان منهكًا متقرح القدمين فقد أرغم على دخولها. لكن الجند على الباب أغلقوه برماحهم وسألوه:

- ماذا تريد هنا؟

أجاب:

- أبحث عن أمي.. وأتوسل لكم أن تسمحوا لي بالمرور فلربما كانت هنا..

لكن الجنود سخروا منه، وقال أحدهم:

- الحق أن أمك لن تسر حين تراك.. لأنك أقبح من ضفدع المستنقع. فلترحل.. أمك لا تعيش في هذه المدينة..

وقال آخر يحمل راية صفراء في يده:

- من أمك؟ ولأى سبب تبحث عنها؟

قال الصبى:

- أمي شحاذة مثلي.. وقد قسوت عليها وأتوسل لكم أن تسمحوا لي بالدخول لعلى أفوز بصفحها.. لو كان حقًّا أنها تعيش هنا..

لكنهم رفضوا ونخسوه برماحهم. وإذ كاد الصبى يرحل، جاء رجل يلبس درعًا عليه زهور مذهبة، وسأل الحراس عن كنه هذا الفتى الذي يرغب في الدخول.

قالوا له:

- إنه شحاذ ابن شحاذة.. وقد طردناه..

قال الرجل:

- كلا.. سنبيع هذا الفتى المنفر كعبد، ولسوف يكون ثمنه كافيًّا لشراء زجاجة نبيذ..

صاح رجل شرير الملامح كان يمر بهم:

. سأشتريه بهذا الثمن..

ودفع الثمن واقتاد طفل النجوم إلى داخل المدينة.

اقتاده الرجل عبر شوارع المدينة حتى بلغ بابًا تغطيه شجرة رمان، ولمس الباب بخاتم من يشب في يده فانفتح الباب.. هبطا خمس درجات إلى حديقة تملؤها نباتات الأفيون ومرطبانات خضراء بها صلصال محترق. عندها نزع الرجل من عمامته وشاحًا حريريًّا غطى به عيني الفتى، ثم اقتاده أمامه. وحين أزاح الوشاح عن عين الفتي، وجد طفل النجم نفسه في جب يضيئه مصباح من قرن حيوان.

وضع العجوز أمامه بعض الخبز العفن وقال:

- كل..

ووضع بعض الماء الآسن وقال:

- اشرب..

فلما فرغ من الأكل والشرب انصرف الرجل، ولم ينس أن يغلق السرداب بسلسلة حديدية.

في الغد جاء الرجل، وكان من أخبث سحرة ليبيا، وقد تعلم هذا الفن من واحد كان يعيش في المقابر المجاورة للنيل جاء له وقطب وقال:

- في غابة قرب بوابة مدينة (جياورز) هذه توجد ثلاث قطع من الذهب. واحدة من الذهب الأبيض والأخرى من الذهب الأصفر والثالثة من الذهب الأحمر. اليوم تجلب لي قطعة الذهب الأبيض، ولو لم تجلبها سأضربك مائة جلدة. ارحل الآن وعند الغروب سأنتظرك عند باب الحديقة. أنت عبدى وقد اشتريتك بثمن زجاجة من النبيذ..

ثم غطى عيني الصبى بالوشاح واقتاده عبر المنزل وعبر الحديقة.. ثم صعد به الدرجات الخمس وفتح الباب وأطلقه في الشارع.

ومضى طفل النجوم في الشارع. وخرج إلى الغابة التي تكلم عنها الساحر. كانت الغابة الآن جميلة مليئة بطيور مغردة وزهور عطرة، وقد دخلها طفل النجوم مسرورًا.

لكن في كل مكان يمشى فيه كانت أشواك من الأرض تخرج وتحيط به. ولدغته النباتات الشوكية حتى صار في ألم عظيم. ولم يجد الذهب الأبيض في أي مكان.. برغم أنه بحث عنه من الصباح حتى الظهيرة.. ومن الظهيرة حتى الغروب. وعند الغروب اتجه للبيت وهو يبكي بحرقة لأنه يعرف أي مصير ينتظره.

لكنه حين بلغ أطراف الغابة سمع من الأحراش صرخة ألم. نسى حزنه وجرى إلى المكان فرأى أرنبًا صغيرًا وقع في مصيدة نصبها صياد. أشفق عليه طفل النجوم فحرره وقال له:

- أنا نفسي لست سوى عبد لكن بوسعي أن أهبك الحرية..

فقال الأرنب:

- أنت منحتني الحرية فماذا بوسعي أن أعطيك؟

- أنا أبحث عن قطعة من الذهب الأبيض.. لكن لا أجدها.. ولو لم أجلبها لسيدي فلسوف يضربني..

- تعال معى.. ولسوف أقودك إليها فأنا أعرف أين خبئت ولأي غرض..

هكذا مضى طفل النجوم مع الأرنب.. و.. في قلب شجرة بلوط عجوز وجد قطعة الذهب التي كان يبحث عنها. ملأه الفرح وأمسكها وقال الأرنب:

. إن الخدمة التي قدمتها لك قد عادت على بالمنفعة عدة مرات.. والخير الذي أظهرته قد تضاعف مائة مرة..

قال الأرنب:

- كلا.. ولكن كما تعاملت معى تعاملت معك..

وجري مبتعدًا بينما عاد طفل النجوم إلى المدينة.

على بوابة المدينة جلس رجل مجذوم على وجهه انسدلت عباءة رمادية.. ومن خلال ثغرة العينين تلمع عيناه كالجمرات. وحين رآه ضرب على سلطانية من الخشب ودق جرسه. وناداه:

- أعطني بعض المال وإلا مت جوعًا.. لقد طردونى من البلدة وما من أحد عطف على..



صاح طفل النجوم:

- واحسرتاه! لدى قطعة ذهبية في حافظتي ولو لم أجلبها لسيدي فلسوف يجلدني. لأننى عبده..

لكن المجذوم توسل له حتى شعر الطفل بالشفقة وأعطاه قطعة الذهب الأبيض.

وحين عاد إلى الساحر سأله هذا:

- هل جلبت معك قطعة الذهب الأبيض؟

قال الفتى:

. ليست معى..

فضربه الساحر، ثم قدم له وعاء فارغًا وأمره أن يأكل، وكوبًا فارغًا وأمره بأن يشرب. ثم ألقى به في الجب.

وفي الغد جاء الساحر إليه وقال:

- اليوم إن لم تجلب لي قطعة الذهب الأصفر فلسوف أضربك ثلاثمائة جلدة..

هكذا ذهب طفل النجوم إلى الغابة وقضى اليوم كله يبحث عن قطعة الذهب الأصفر، لكنه لم يجدها. عند الغروب جلس يبكى حين جاءه الأرنب الصغير الذي أنقذه من الفخ أمس.

قال له الأرنب:

- عم تبحث في الغابة؟ وعلام تبكي؟

أجاب طفل النجوم:

- أبحث عن قطعة الذهب الصفراء، فلو لم أجدها لضربنى سيدى..

صاح الأرنب:

. اتبعنى..

وجرى بين الأشجار حتى وصل إلى بركة ماء. في قاع البركة كانت قطعة الذهب الأصفر.

قال طفل النجوم:

. كيف أشكرك؟ هذه المرة الثانية التي تنقذني فيها..

قال الأرنب:

- كلا.. ولكنك ساعدتني أولًا..

وجرى مختفيًّا مسرعًا.

عاد طفل النجوم حاملاً قطعة الذهب في حافظته، وهرع إلى المدينة. لكن المجذوم رآه فهرع إليه وركع أمامه وبكى:

- أعطني بعض المال وإلا مت جوعًا..

صاح طفل النجوم:

- لدى قطعة ذهبية في حافظتى ولو لم أجلبها لسيدي فلسوف يجلدني، ولن يعتقني أبدًا..

لكن المجذوم توسل له حتى شعر الطفل بالشفقة وأعطاه قطعة الذهب الأصفر.

وحين عاد إلى الساحر سأله هذا:

- هل جلبت معك قطعة الذهب الأصفر؟

قال الفتى:

- ليست معى..

فضربه الساحر، ثم قيده بالسلاسل. ثم ألقى به في الجب.

وفي الغد جاء الساحر إليه وقال:

- اليوم إن جلبت لي قطعة الذهب الأحمر فلسوف أعتقك.. لكن إن لم تجلبها لى فلسوف أقتلك..

هكذا ذهب طفل النجوم إلى الغابة وقضى اليوم كله يبحث عن قطعة الذهب الأحمر، لكنه لم يجدها. عند الغروب جلس يبكي حين جاءه الأرنب الصغير الذي أنقذه من الفخ.

قال له الأرنب:

- قطعة الذهب الأحمر التي تبحث عنها في الكهف خلفك فلا تبك ثانية..

قال طفل النجوم:

- كيف أشكرك؟ هذه هي المرة الثالثة التي تنقذني فيها..

قال الأرنب:

- كلا.. ولكنك ساعدتني أولًا..

وجرى مختفيًا مسرعًا.

ودخل طفل النجوم إلى الكهف وفي ركنه القصى وجد قطعة الذهب الأحمر.

عاد طفل النجوم حاملًا قطعة الذهب في حافظته، وهرع إلى المدينة. لكن المجذوم رآه فهرع إليه وركع أمامه وبكى:

- أعطني بعض المال وإلا مت جوعًا..

صاح طفل النجوم:

- إن حاجتك أكبر من حاجتي فخذها..

وأعطاه قطعة الذهب الأحمر، لكن قلبه كان مثقلًا لأنه كان يعرف المصير الأسود الذي ينتظره.

لكن يا للعجب! ما إن مر عبر بوابة المدينة حتى انحنى له الحراس قائلين:

- ما أجمل سيدنا!!

واحتشد المواطنون حوله وهم يرددون:

- بالتأكيد ليس من أحد أجمل منه في العالم كله..

بكى طفل النجوم وقال لنفسه:

- إنهم يسخرون منى.. ويستخفون بتعاستي..

كان احتشاد الناس كبيرًا حتى إنه ضل الطريق، وفي النهاية وجد نفسه في ميدان كبير. فيه قصر ملك.

انفتح باب القصر فظهر كبار الموظفين والرهبان بالمدينة يهرعون ليحيوه، وفي تواضع قالوا له:

- أنت سيدنا الذي انتظرناه طويلًا.. ابن ملكنا..

قال لهم طفل النجوم:

. لست بابن ملك.. بل ابن متسولة.. وكيف تقولون إنني جميل وأنا أعرف أن شكلي شيطاني؟

هنا صاح ذلك الرجل الذي كان يلبس درعًا بزهور مذهبة وهو يلوح بدرع:

- كيف يقول سيدي إنه ليس جميلًا؟

نظر الصبي في الدرع فيا للعجب! لقد عاد وجهه كما كان واستعاد حسنه.

وانحنى الرهبان وكبار الموظفين وقالوا له:

- تنبأ القدامي بأنه في هذا اليوم سوف يأتي ذلك الذي سيحكمنا. لهذا فليأخذ سيدنا سيفه وصولجانه وليكن بعدالته ورحمته ملكنا..

لكنه قال لهم:

- لكني لا أستحق.. لقد تخليت عن أمي التي حملتني.. ولن أستريح حتى أجدها وأعرف أنها صفحت عنى.. لهذا دعوني.. يجب أن أجوب العالم من جديد ولا أتلكا هنا برغم أنكم جلبتم لي التاج والصولجان..

وأدار وجهه إلى البوابة التي تقود إلى المدينة.. هنا لدهشته وجد وسط الزحام الذي يضغط على الجنود تلك المرأة المتسولة التي هي أمه. وجوارها كان المجذوم..

خرجت من شفتيه صيحة سرور.. وجرى حتى بلغ أمه فانحنى يلثم الجروح في قدميها، ويغسلها بدموعه. مرغ رأسه في الغبار وبكى كأنما تحطم قلبه وقال لها:

- أماه.. قد أنكرتك في ساعة غروري وفخرى.. فاقبليني في ساعة هواني. أماه.. لقد منحتك الكراهية فامنحيني الحب..

أماه.. لقد رفضتك فاقبلي طفلك..

لكن المرأة لم تجب بكلمة، فمد يديه وأمسك بقدمي المجذوم البيضاويتين وقال له:

- قد منحتك عطفي ثلاثًا.. فاجعل أمي تتكلم معى مرة

لكن المجذوم لم يرد بكلمة.

عاد يبكى وقال:

- أماه.. إن حزني لعظيم.. أعطيني صفحك واتركيني أعد للغابة..

وضعت المرأة يدها على رأسه وقالت:

- انهض..

ووضع المجذوم يده على رأسه وقال:

- انهض..

ونهض فيا عجب ما رأى.. كانا ملكًا وملكة! وقالت له الملكة:

- هذا هو أبوك الذي أنقذته..

وقال له الملك:

- تلك هي أمك التي غسلت قدميها بالدموع..

وعانقاه وقبلاه.. وأدخلاه إلى القصر وألبساه ثيابًا جميلة. ووضعا التاج على رأسه، وعلى المدينة المطلة على النهر صار ملكًا وسيدًا.

أظهر الكثير من العدل والرحمة، ونفى الساحر الشرير، وأرسل إلى الحطاب وامرأته الهدايا ومنح أولادهما الألقاب..

لم يقس على طير أو وحش.. لكنه علم الحب والعطاء..

للفقراء منح المال وللعرايا منح الثياب..

لكنه لم يعش كثيرًا، لأن معاناته كانت بالغة القسوة، وامتحانه كان مريرًا..

لذا مات بعد ثلاثة أعوام وأتى بعده من حكم البلاد حكمًا جائرًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عيد ميلاد (إنفانتا)[3]

كان هذا عيد ميلاد (إنفانتا).. كانت في الثانية عشرة من عمرها والشمس تسطع في حدائق القصر. وبرغم أنها كانت أميرة إسبانية حقيقية فلم يكن لها إلا عيد ميلاد واحد في العام مثل أبناء الفقراء. لهذا كان من الضروري أن يكون يومها عظيمًا بهذه المناسبة.

وقفت زهور التيوليب على أعوادها كأنها هي صف من الجنود وقالت متحدية للورود:

- نحن رائعات الجمال مثلكن الآن..

وأينع الرمان وتشققت ثمراته بفعل الشمس كاشفة عن قلوب دامية حمراء، فيما راحت الفراشات الصفر تحلق من زهرة لأخرى وهي تبعثر الذهب حولها.

وراحت الأميرة الصغيرة تذرع الشرفة جيئة وذهابًا.. وراحت تلعب (الاستغماية) وراء وحول أصص الزهور، والتماثيل القديمة التي كستها الطحالب. في الأيام العادية لم يكن يسمح لها إلا باللعب مع أطفال من طبقتها أي أنها كانت تلعب وحدها.. لكن اليوم استثناء، وقد سمح الملك لها بأن تطلب من تريد من الأطفال ليلعبوا معها. وتوافد الأطفال متأنقين قدر الإمكان، لكن (إنفانتا) كانت أكثرهم أناقة طبعًا، ملتزمة (بالموضة) المرهقة لذلك العصر.. كانت عباءتها من الساتان الرمادي، والتنورة والأكمام الواسعة مطرزة بالفضة. أما الحزام فكان مثقلًا باللآلئ.. وكان في قدميها خفان رقيقان عليهما أزهار

وردية، وفي شعرها الذي بدا كهالة صفراء شاحبة حول رأسها كانت وردة بيضاء كبيرة.

ومن نافذة في القصر كان الملك الحزين يراقبهم خلفه جلس أخوه (دون بدرو) الذي يكرهه.. وكاتم أسراره قاضى اعترافات (جرانادا) يجلس جواره.

كان الملك أكثر كآبة من المعتاد لأنه إذ راقب ابنته كان يتذكر الملكة الشابة . أمها . التي جاءت من البلد البهيج (فرنسا)، لتذوى وتضمحل صحتها في الروعة الكئيبة للبلاط الإسباني، وتموت بعد مولد ابنتها بستة أشهر.

عظيمًا كان حبه لها إلى حد أنه لم يتحمل أن يدفنها ويواريها بعيدًا عنه.. لقد حنطها له أحد أطباء (المور) وكان الثمن هو النجاة بحياته، بعدما اتهم بممارسة السحر والهرطقة. وما زال جسدها يرقد على نعشها المكسو بنسيج مزخرف، في كنيسة الرخام الأسود بالقصر، منذ أن حملها الرهبان إلى هناك في ذلك اليوم العاصف من شهر مارس منذ اثنتي عشرة سنة.

وفي كل عام يذهب الملك إلى هناك مرتديًا عباءته السوداء، والمصباح في يده، ليركع جوارها ويقول:

- مى رينا! مى رينا!

وأحيانًا يخرق قواعد الإتيكيت الذي يحكم كل شيء في إسبانيا، فيمسك بيدها الشاحبة المحلاة بالمجوهرات، ويحاول بالقبلات أن يوقظ الوجه الشاحب.

اليوم يشعر كأنه يراها ثانية كما رآها أول مرة في قلعة (فونتينبلو) منذ خمسة عشر عامًا.. في ذلك اليوم خطبا رسميًا

في حضرة ملك فرنسا، وعاد من هناك حاملًا معه شعرًا أصفر وذكرى شفتين طفلتين، لثمتا يده وهو يركب عربته.

فيما بعد كان الزواج.. وتم الترتيب له بسرعة في (بورجو). والاحتفالات التي تلت ذلك، ومنها حرق عشرات المهرطقين الذين كان من بينهم الكثير من الإنجليز.

بالقطع أحبها بجنون، واندمج في حبها إلى حد أذهله كثيرًا عن حروبه مع الإنجليز على حكم العالم. ولم يفطن إلى أن الاحتفالات والمراسم التي أغرقها فيها إنما أسهمت في جعل مرضها يزداد سوءًا.

فلما ماتت لم يمنعه من الانضمام إلى الدير، إلا خوفه من أن تظل (إنفانتا) تحت رحمة أخيه الشرير والذي قيل إنه المسئول عن موت الملكة بقفازين مسمومين أعطاها إياهما عندما زارت قلعته في (أراجون).

وعاش الرجل مع الأحزان، فلم يسمح لأحد من نبلائه أن يكلمه عن شيء جديد، وحين كان الإمبراطور يتصل به عارضًا عليه الزواج من أرشيدوقة (بوهيميا) الجميلة ابنة أخيه، كان يقول للسفراء أن يبلغوا سيدهم بأن ملك إسبانيا قد تزوج الأحزان، وبرغم أن الأحزان عقيمة فإنه يفضلها على الجمال ذاته. وقد كلفته هذه الإجابة مقاطعات هولندا الغنية.

اليوم يستعيد كل مشاهد حياته السابقة وهو يرى (إنفانتا) في الحديقة وفيها كل ملامح أمها.. حتى العناد المشاكس والفاتن برغم هذا، وتطوح رأسها لخلف حين تصمم على شيء وثغرها المقوس الجميل..

كانت الشمس مشرقة قاسية كأنما تسخر من أحزانه، وهكذا حين رفعت (إنفانتا) رأسها إلى أعلى في المرة التالية وجدت النافذة مغلقة والستائر منسدلة.

الآن جاء وقت المصارعة المزيفة. أرجعت رأسها إلى الخلف وتأبطت ذراع (دون بترو) وتقدمت إلى الحلبة. هناك كان الصبية النبلاء يلبسون كمصارعى الثيران ويقفون في صف.. وقد رتبوا أنفسهم بحيث تقدم الصفوف أولئك الذين يحملون الأسماء الأطول. وجاء كونت (تييرا نوفا) الصغير وهو صبي وسيم في الرابعة عشرة من عمره، انحنى لها وخلع قبعته بكل الرقى والكبرياء المميزين لطبقة (الهيدالجو) التي جاء منها. واقتادها إلى مقعد من العاج يطل على الحلبة. وجلس الأطفال يلعبون دور المشاهدين وهم يطوحون بمراوحهم.

بالطبع كانت مصارعة ثيران رائعة. المصارعون بعضهم على الجياد جميلة السروج يطوحون برماح مزخرفة، وبعضهم على الأقدام يطوحون بعباءاتهم الحمراء، والثور نفسه لم يكن أكثر من رجل متنكر يهجم ويقف أحيانًا على قدميه الخلفيتين وهو ما لا يحلم به أي ثور حقيقى.

في النهاية استطاع كونت (تييرا نوفا) أن يرغم الثور على أن يركع على ركبتيه، وطلب الإذن من (إنفانتا) كي يمنحه ضربة الخلاص. من ثم أولج السيف الخشبي في عنق الحيوان حتى إن الرأس المزيف انفصل، وظهر وجه السيد (دى لوريان) ابن السفير الفرنسي في باريس.

بعد هذا كان عرض عرائس شديد الإمتاع، وقد بكي الأطفال وهم يشاهدون التمثيلية، وحتى السيد (بدرو) نفسه لم يتمالك

نفسه من الدهشة لأن عرائس بسيطة من الخشب والشمع كان عليها أن تعانى قدرها بهذا الشكل القاسي.

ثم جاء مشعوذ إفريقي جلب سلة مغطاة بقماش أحمر.. ووضعها في منتصف الحلبة، وأخذ من عمامته أنبوبًا ونفخ فيه.. بعد دقائق خرج ثعبانان منها وارتفعا وراحا يتمايلان مع الموسيقا. لكن الأطفال كانوا أقرب إلى الرعب.. ولم يظهروا السرور إلا حين جعل الساحر شجرة تنمو من الرمال.. وحين أخذ الساحر مروحة ابنة الماركيز (دى لاتور) وحولها إلى طائر أزرق. بعد هذا جاء بعض الغجر ليمتعوا الموجودين برقصهم وترويضهم للدببة والقردة.. صحيح أنهم أصيبوا بالهلع حين رأوا (دون بدرو) الذي شنق اثنين منهم منذ أسبوع في السوق بتهمة السحر، لكنهم اطمأنوا حين رأوا (إنفانتا) بعينيها الزرقاوين الصافيتين اللتين لا يمكن أن ترتكبا القسوة.

لكن أكثر الأجزاء إضحاكًا كان رقص القزم، وهو مخلوق قميء اصطاده اثنان من النبلاء من غابة متاخمة للمدينة. وكان حطابًا فقيرًا سره التخلص من هذا الطفل المشوه. وقد راح القزم يرقص بساقيه المقوستين ورأسه الكبير، حتى إن (إنفانتا) انفجرت في الضحك واضطرت الكامريرا (مربيتها) أن تذكرها بأنه وإن كانت هناك سوابق لأميرة تبكي تأثرًا، فإنه ليست هناك سوابق لأميرة تضحك كل هذا الضحك من أحد رعاياها، الذين هم أدنى منها مرتبة بحكم المولد.

كان السرور باديًا عليه وحين كان الأطفال يضحكون كان يضحك بدوره في سرور. وكان يحيى الأطفال بانحناءات مضحكة

وكأنه واحد منهم وليس مجرد شيء مشوه، جاء ليسخر الآخرون منه.

فتنته (إنفانتا) وبدا عاجزًا عن إبعاد عينه عنها، وكأنه يرقص لها وحدها.. وقد تذكرت الأميرة ما كانت النساء يفعلنه مع (كافاريللي) الموسيقار الإيطالي العظيم، الذي أرسله البابا إلى مدريد عسى أن ينجح بموسيقاه في أن يخرج الملك من أحزانه. لذا مدت يدها في شعرها والتقطت الوردة البيضاء وألقت بها له في الحلبة لتغيظ الكامريرا.

تعامل مع الأمر بجدية ولمس الوردة بشفتيه الغليظتين، وواضعًا يده على صدره انحنى أمامها.

قالت لها الكامريرا إن على سموها أن تعود إلى القصر، لأن الجو حار، ولأن موعد الوليمة قد حان، وفيها تورتة حقيقية كبيرة كتب عليها اسم الأميرة بالسكر. لذا وافقت الأميرة على النهوض وإن اشترطت أن يرقص لها القزم من جديد بعد انتهاء ساعة القيلولة، وفي أدب شكرت (تيرا نوفا) على لطفه، ثم اتجهت إلى جناحها.

وتبعها الأطفال بنفس الترتيب الذي دخلوا به.

حين سمع القزم أنه سيرقص ثانية أمام الأميرة وبأمرها الشخصي، استبد به الفخر لدرجة أنه جرى إلى الحديقة، وهو يلثم الوردة البيضاء، محدثًا أغرب الأصوات والحركات التي تنم عن السرور.

بدا على الزهور الضيق والاشمئزاز من هذا المخلوق القبيح، وقالت شجرة الورد:

. إن وردتي البيضاء التي أعطيتها للأميرة هذا الصباح في يده.. واضح أنه سرقها!

وصاحت:

- لص!! لص!!

بينما قال الصبار:

- إن رؤية وجهه القبيح تملؤني تقززًا.. ولو دنا مني أكثر للدغته بأشواكي..

بينما قالت زهور الجرمانيوم:

- يا له من مخلوق شنيع!!

واتفقت الزهور كلها على أن القزم بدا مسرورًا متباهيًا أكثر من اللازم، وكان سيبدو أفضل لو بدا عليه الحزن أو على الأقل الشرود.. بدلًا من أن يرمى بنفسه ويتواثب بهذا الشكل السخيف.

أما الساعة الشمسية المرموقة، والتي اعتادت أن يرى الوقت فيها أناس مهمون ليسوا أقل من الملك شارل الخامس نفسه، فقد انتابتها الدهشة لدى رؤية القزم إلى حد أنها أضاعت دقيقتين كاملتين، قبل أن تقول للطاووس الأبيض الجالس في الشمس إنها تعرف أن الملوك ينجبون ملوكًا، وأن الحطابين الفقراء ينجبون حطابين فقراء.. وهي ملحوظة وافق عليها الطاووس تمامًا.

لكن الطيور بشكل ما راق لها القزم.. لقد عرفته في الغابة يرقص كالجن أو ينكمش على نفسه في شجرة بلوط قديمة يطعم السناجب بندقًا. لم تبال بكونه قبيحًا.. حتى البلبل الذي

يغني في الليل حتى ينحنى القمر ليسمعه، ليس رائع المنظر إلى هذا الحد..

بالإضافة لهذا كان رفيقًا بها.. وفي ذلك الشتاء القاسي الذي صارت فيه الأرض أكثر صلابة من الحديد. وحين كانت الذئاب تجيء إلى أبواب المدينة بحثًا عن طعام، لم ينس هو الطيور قط، وكان يرمى لها الفتات من كيس الخبز الأسود الذي يحمله .

السحالي أيضًا كانت مولعة به. وحين تعب من الركض وتمدد على العشب رحن يتواثبن حوله، وصحن:

- لا يمكن لكل واحد أن يكون جميلًا كالسحلية.. من العسير أن يتوقع المرء هذا.. ليس بهذا القبح بشرط أن يغمض المرء عينيه ولا ينظر إليه..

كانت الفلسفة طبيعة لدى السحالي، ولكم جلست الساعات تفكر حين تمطر السماء، أو حين لا تجد شيئًا تفعله.

لكن القزم لم يسمع شيئًا من هذه المحادثات. كان يحب الطيور والسحالي ويعتقد أن الزهور أروع شيء في العالم باستثناء (إنفانتا) طبعًا، لكنها أعطته وردة بيضاء وأحبته.. ولكم تمنى لو عاد إلى القصر معها! عندها ما كان ليتركها أبدًا، ولكان يعلمها كل الحيل الظريفة التي يجيدها. يمكنه أن يجدل أعواد البمبو ليصنع منها مزمارًا، ويمكنه أن يصنع أقفاصًا صغيرة يحبس بها الجندب. يمكنه أن يحدد نوع كل طائر من صوته.. ويعرف الأثر الذي يتركه كل حيوان على الأرض.. يعرف كل الرقصات.. يعرف أين يبنى الحمام عشه.. وكيف يعني بالأفراخ الصغيرة التي صيد أبواها..

لسوف تحبه.. ولسوف تحب الأرانب التي تتواثب، والقنفذ الذي يكور نفسه على شكل كرة شوك صغيرة. نعم.. يجب على (إنفانتا) أن تأتى إلى الغابة وتلعب معه.. سوف يتخلى لها عن فراشه الصغير ويقف يحرسها جوار النافذة حتى الفجر.. ليتأكد من أن الماشية ذات القرون لن تؤذيها، وأن الذئاب الشرسة لن تدنو من الكوخ، وفي الفجر يدق على مصراع النافذة وسيخرجان ليرقصا معًا طيلة اليوم، فإذا تعبت سوف يحملها بين ذراعيه.. لأنه قوى جدًّا برغم أنه يعرف أنه قصير القامة.

لكن أين هي؟

سأل الوردة البيضاء فلم تعطه إجابة. بدا القصر كله نائمًا. وحتى في النوافذ التي لم توصد كانت هناك ستائر سميكة مسدلة. دار في المكان يبحث عن ثغرة يدخل منها حتى وجد بابًا صغيرًا مفتوحًا. دخل فوجد نفسه في قاعة فاخرة.. أجمل بكثير من الغابة.. وحتى الأرض كانت مصنوعة من أحجار ملونة متراصة في شكل هندسي. لم تكن هناك إلا تماثيل رائعة تنظر إليه وتبتسم ابتسامة غامضة.

وفي نهاية القاعة كانت ستارة سوداء مطرزة بالنجوم والشموس... هل تكون مختفية خلفها؟

دعه يجرب على كل حال.

لكن لا.. إنها فقط تقود إلى حجرة أخرى أجمل على جدرانها نقوش جميلة تمثل الصيد، رسمها رسام فلامنكي خلال ستة أعوام. مشى إلى الغرفة التالية بحثًا عنها فلم ير أحدًا، لكن الغرفة لم تكن خالية تمامًا.

كانت الغرفة عرش والعرش ذاته مغطى بالمخمل الأسود الذي طرزت إليه زهور ولآلىء.. وكانت الأرض مغطاة بالسجاجيد التي صنعها المور، كانت هناك قبعة الكاردينال وعباءته. لكن القزم لم يكن يبالى بشيء وما كان ليتخلى عن ورقة واحدة من زهرته مقابل هذه الكنوز.. كان فقط يرغب في أن يرى (إنفانتا) ويسألها أن تأتى معه إلى الغابة. وأضاءت ابتسامة عينيه وهو يفكر.. ثم دخل إلى الحجرة التالية.

كانت تلك أكثر الغرف تألقًا وأجملها.. وكانت جدرانها مغطاة بالقماش الدمشقى رسمت عليه طيور وبراعم فضية. وكان الأثاث من الفضة التي حفرت عليها (كيوبيدات) محلقة. والأرض كانت من العقيق اليماني أخضر اللون وقد بدا كأنما يمتد إلى الأبد.

خيل إليه من حيث وقف أن شكلًا صغيرًا يراقبه. ارتجف قلبه وندت صرخة فرح من فيه ودخل دائرة الضوء إذ فعل هذا تحرك الشكل أيضًا ورآه بوضوح.

بحق (إنفانتا)!!

كان هذا وحشًا.. أفظع وحش رآه في حياته.. لا يبدو كالبشر في حسن خلقتهم، لكنه أحدب وملتوى الأطراف وله رأس عملاق ولبدة من الشعر الأسود.

قطب القزم وجهه فقطب المسخ وجهه كذلك. ضحك فضحك المسخ مثله. رفع يديه إلى جانبيه فرفع المسخ يديه كذلك. تقدم منه فجاء المسخ له، مقلدًا إياه في كل خطوة.. صرخ من السرور وجرى نحوه ومد يديه. عندها مد المسخ يديه ولمس يدى القزم كانتا باردتين كالثلج.



أصابه الهلع فتراجع من ثم تراجع المسخ كذلك. حاول أن يضغط لكن شيئًا صلبًا باردًا أوقفه. إن وجه المسخ قريب من وجهه، ومن الواضح أنه يشعر بالذعر. أبعد الشعر عن عينيه

فقلده. أظهر الكراهية له ورسم على وجهه أمارات الكراهية ثم تراجع.

ما هذا؟ فكر للحظة ثم نظر حوله.. كان هذا غريبًا، لكن يبدو أن كل شيء مزدوج في هذه الحجرة..

في هذه الجدران غير المرئية الشفافة كالماء الصافي.

صورة لصورة.. أريكة لأريكة.. و(فينوس) الفضية التي تقف في ضوء الشمس المتسرب من النافذة تمد يديها لـ (فينوس) أخرى تماثلها في الجمال.

أتراه الصدى؟ لقد جربه مرة في الوادي ووجد أنه يكرر كلماته كلمة كلمة.. أتراه يخدع العين كما خدع الأذن؟

هل يصنع عالمًا مقلدًا يشبه بالضبط العالم الحقيقي؟

هل ظلال الأشياء لها لون وحياة وحركة؟ هل هذا ممكن؟

تناول الوردة البيضاء من صدره ولثمها، ففعل المسخ الشيء ذاته مع وردة تخصه، وضمها إلى صدره بنفس التعبير المريع على وجهه.

حين فهم الحقيقة أطلق صيحة يأس وسقط على الأرض باكيًا. كان هو المشوه الأحدب القبيح المخيف. كان هو الوحش.. وهو من سخر منه الأطفال والأميرة الصغيرة التي حسبها تحبه.

كانت فقط تسخر من قبحه وتتهكم على أطرافه المقوسة.

لماذا لم يتركوه في الغابة حيث لا مرايا تخبره كم هو كريه؟

لماذا لم يقتله أبوه بدلًا من أن يبيعه للعار؟

انسابت الدموع الساخنة على خديه ومزق الوردة البيضاء إربًا.

تمرغ المسخ على الأرض ونظر له بعينين تقلصتا ألمًا.. زحف كي لا يراه وغطى عينيه بيديه.

زحف كحيوان جريح إلى حيث الظل وراح يئن ويبكي.

هنا دخلت (إنفانتا) نفسها المكان من النافذة المفتوحة مع أصدقائها.. وحين رأوا القزم على الأرض يبكي ويضرب الأرض بيديه بشكل غريب مبالغ فيه، انفجروا في الضحك، ووقفوا يراقبونه.

قالت (إنفانتا):

- كان رقصه مضحكًا.. لكن تمثيله أكثر إضحاكًا.. إنه كالدمى لكنه بالطبع ليس طبيعيًّا مثلها..

ولوحت بمروحتها الكبيرة وصفقت.

لكن القزم لم يرفع عينيه.. فقط ازدادت دموعه وهنًا ووهنًا، ثم أطلق فجأة شهقة غريبة، وأمسك بجنبه. ثم سقط على ظهره وسكنت حركته.

قالت (إنفانتا) بعد صمت:

- هذا مذهل.. لكن الآن عليك أن ترقص لي..

صاح الأطفال:

. نعم.. يجب أن تنهض وترقص لأنك بارع في الرقص كالقرود، وأكثر إضحاكًا..

لكن القزم لم يرد.

ضربت (إنفانتا) الأرض بقدمها وصاحت تنادي عمها الذي كان يجول في الشرفة مع رئيس التشريفات، يقرءان بعض الأوراق الرسمية القادمة من المكسيك.

قالت له:

- إن قزمي المضحك لا يرد.. يجب أن توقظه وتجعله يرقص لي..

ابتسم الرجلان ودخلا في تؤدة، وانحنى (دون بدرو) وصفع القزم على خده بقفازه المطرز:

- يجب أن ترقص أيها السيد الصغير. إن (إنفانتا) ترغب في أن تسليها..

لكن القزم لم يتحرك.

- فلنستدع أحد الجلادين..

وعاد إلى الشرفة لكن رئيس التشريفات بدا مهتمًا. ركع جوار القزم ووضع يده على قلبه. بعد دقائق هز كتفيه ونهض وانحنى لـ (إنفانتا) وقال:

- يا أميرتي الجميلة.. قزمك المضحك لن يرقص ثانية أبدًا.. هذا محزن لأنه قبيح جدًّا إلى حد أنه يمكن أن يجعل الملك يبتسم..

سألته ضاحكة:

- ولماذا لن يرقص ثانية؟

قال رئيس التشريفات:

. لأن قلبه تحطم..

قطبت (إنفانتا) جبينها وتقلصت شفتاها الورديتان في ازدراء وقالت:

- في المستقبل لا تحضروا للعب معي إلا من لا قلب لهم..

وبكت وركضت إلى الحديقة.

أوسكار وايلد

1888

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

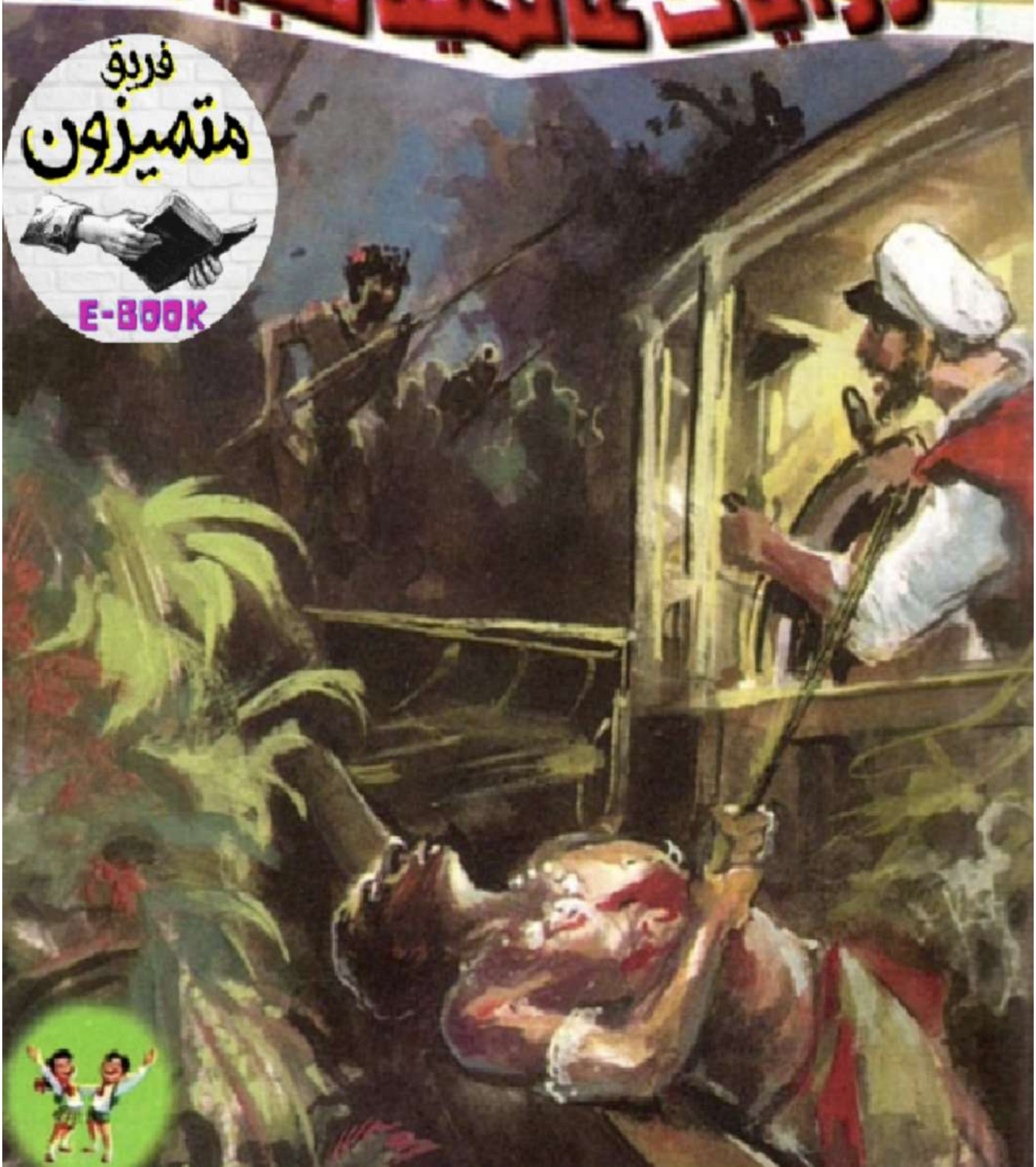
طبعًا من الواضح أن الشاعر لا يعرف عن مصر الكثير..

[←2]

عامة تدل على عدم الاستحسان.. وتعتبر هي والصفير تعبيرًا على أن المسرحية غير جيدة..

[←3] عامة يطلق اسم (إنفانتا) على ابنة ملك إسبانيا أو البرتغال..

روايات عالمية للجيب
45



قلب الظلام

تاليف : جوزيف كونراد
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

<u>انضم إلى الجروب</u>

<u>انضم إلى القناة</u>

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (45)

قلب الظلام

تأليف: جوزيف كونراد
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

ولد (جوزيف كونراد) فيما يعرف بـ (أوكرانيا البولندية)، وهي كما يدل الاسم . منطقة تقع بين روسيا وبولندا.

وكانت أسرته تنتمي لطبقة تدعى (زلاختا) من متكلمي البولندية، وهي طبقة نبيلة لكنها لم تعرف بالثراء. كان أبوه سياسيا متوسط القيمة وأديبا مغمورا لم تترك كلماته أي أثر لدى القراء، لكنها تركت أعظم الأثر على ابنه (جوزيف).. الذي ولد عام 1857.. والذي قدر له أن يكون أديبا عظيم الشأن.

كانت علاقة الصبي بالمجتمع البولندي سطحية وإن هوى الموسيقا بشكل خاص، وارتبطت في ذهنه بصورة أمه الجالسة إلى البيانو، والتي كتب عليه أن يفقدها بعد أعوام.

بسبب السياسة تم نفي الأسرة من بولندا، وتوفيت الأم بالدرن بينما (جوزيف) في سن السابعة، وتبعها أبوه فصار (جوزيف) الصغير يتيما في الحادية عشرة من عمره. وكان على عمه المحب أن يعني به.

عام 1874 يتجه الصبي إلى فرنسا حيث يتعلم هناك الفرنسية وأصول الملاحة، ويتعرف مجموعة من الأدباء البوهيميين الذين جعلوه يعرف معنى فن الدراما. وسرعان ما صار خليطا من بحار وفنان، ولسوف يبقى هكذا طيلة حياته.

عام 1878 يرتحل الفتى إلى إنجلترا راغبا في أن يعمل ضابطا على السفن البريطانية. فصارت حياته لمدة عشرين عاما دورة

من الملاحة البحرية ثم الراحة على اليابسة. وكان موسوسا بالحاجة إلى المال على نقيض أبيه الذي كان يمقت المال بشدة.

ومن الغريب أنه قرر أن يكتب . أول ما كتب بالإنجليزية لغته الثالثة بعد البولندية والفرنسية، وهو ما يدل على أنه اختار بريطانيا لتكون وطنه الثاني والأخير. وبعد رحلة إلى الكونغو عام 1890 كتب (قلب الظلام).. وكان يدين الاستعمار بعنف في كل كتاباته في تلك الفترة، وهو ما سنراه بوضوح في هذه الرواية.

بعد وفاة عمه الثرى نال إرثا مكنه من أن يتفرغ للكتابة تماما. وكانت الكتابة معاناة خاصة بالنسبة له بسبب عدم تمكنه المطلق من أسرار اللغة الإنجليزية، وقد جعله هذا أكثر انهماكا من أن يعنى بحياته الأسرية والاجتماعية. ويصف الانتهاء من روايته (نوسترومو) بأن (الأصدقاء هنئوني كأنما شفيت من مرض خبيث..)..

كون صداقات مع كتاب مهمين مثل ستيفن كريج وهنرى جيمس. ثم حملته الأعوام إلى أمريكا حيث مات عام 1924 بنوبة قلبية..

كتب كونراد 13 رواية و28 قصة قصيرة، وكان الراوي دوما في أغلبها بحارا متقاعدا. في قصته (لورد جيم – 1900) يصف لنا معاناة بحار يحاول جاهدا تصحيح خطأ ينم عن الجبن ارتكبه في شبابه في أثناء غرق مركب في البحار الشرقية.

في قصته (العميل السرى . 1907) يحكى عن فوضوي يعيش في لندن، وقصته (النصر . 1915) تدور في البحار الجنوبية، أما قصته (تحت عين غربية) فتحكى عن تسلط روسيا في القرن التاسع عشر، أما أشهر قصصه تقريبا فهي (قلب الظلام -

1902) - التي بين يديك الآن . وتظهر رحلة رهيبة في نهر إفريقي، هي في الآن ذاته رحلة لمعرفة مدى فساد الإنسان وقسوته.. إن قلب الظلام هو في الحقيقة نفوسنا لست متأكدا في الحقيقة مما إذا كانت السينما قد قدمت هذه الرواية، لكن هناك معالجة ناجحة قدمها (نيكولاس روج) للتلفزيون عام 1994، كما أن رائعة فرانسيس فورد كوبولا (سفر الرؤية الآن - Apocalypse Now) تعتمد على فكرة الرواية بشكل كبير، حتى إن النقاد يقولون إنك لا تستطيع فهم الفيلم حق الفهم ما لم تقرأ هذه الرواية أولا، وإن كان الفيلم قد تحرر بلا حدود من النص الأصلي، وجعل الأحداث تدور في فيتنام بدلاً من الكونغو، والقوات الأمريكية تلعب دور شركة العاج، وقد قام (مارلون براندو) بدور (كورتز).

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

أشهر أعمال جوزيف كونراد..

- المنبوذ 1896
- عبد النار سبسوس 1898
- لورد جيم 1900
- الشباب 1915
- النصر 1915
- الأسهم الذهبية 1919
- الروفر 1923
- بعض الذكريات (سيرة ذاتية) 1912
- قلب الظلام 1902
- العميل السرى 1907

☆ ☆ ☆

المصادر:

- من الأدب العالمي. د. عادل محمد عطا إلياس. قصص عالمية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1988 (عرض نقدى شائق لـ 25 عملاً من أهم أعمال الأدب العالمي، مع ملخص لا بأس به، ونبذة عن المؤلفين)
- شبكة الإنترنت

☆ ☆ ☆

1

تأرجحت (نيلي) . وهي مركب شراعي صغير - متجه إلى مرساه دون أن تهتز أشرعته، وكانت الأمواج قد هدأت والريح قد استقرت تقريبا. ولم يعد أمامه إلا أن يقبع في انتظار المد.

كانت نهاية نهر (تيمز) المتجهة للبحر تمتد أمامنا كأنما هي بداية طريق بحرى بلا نهاية. وفي عرض البحر بدا كأن السماء والبر يمتزجان دونما نقطة التقاء.. وثمة غيمة تستريح فوق الشطآن المتجهة إلى البحر، والهواء كان مظلما فوق (جريفسند) يزداد كثافة في كآبة جنائزية فوق أكبر وأعظم مدينة على وجه الأرض.

كان مدير الشركات هو قبطاننا ومضيفنا، وقد راقبنا نحن الأربعة ظهره في انبهار وهو يقف على مقدمة السفينة ميمما وجهه شطر البحر. ففي البحر كله لم يكن ثمة ما هو أكثر (بحرية) منه.. كان هو القائد الذي يمثل الثقة مجسدة بالنسبة لبحارته

كان البحر يربط فيما بيننا ويوحد قلوبنا ويجعلنا نقبل ما يقوله كل منا.. كان المحامي رجلا يتمتع بالكثير من المزايا، لهذا كان قد استولى على الوسادة الوحيدة في السفينة بالإضافة إلى النوم علي الحشية الوحيدة فيها، أما المحاسب فكان يحتفظ بصندوق من قطع الدومينو بالإضافة إلي ولعه بالنحت على العظام. أما (مارلو) فكان رجلا نحيلاً شاحبا له خدان غائصان وسمت يوحي بالتقشف وقد جلس مستندا إلى الصارية.

تأكد القائد من أن المرساة محكمة التثبيت، من ثم عاد ليجلس بيننا.. تبادلنا بعض الكلمات الكسول ثم ساد الصمت.. ولسبب ما لم نبدأ اللعب بالدومينو لقد شعرنا بحاجة إلى التأمل وبأننا لا نصلح إلا للحملقة الهادئة فيما حولنا.. كانت السماء عبارة عن مساحة شاسعة من الضوء الذي لا يشوبه شيء، والماء يلتمع في هدوء..

وأخيرا بانحناءة لا تدرك غاصت الشمس لأسفل، واستحال لونها من الأبيض إلى الأحمر الذي لا يبعث دفئا ولا شعاعا من حوله، وكأنها ستنطفئ فجأة.

ونظرنا إلى المياه ليس في ضوء اليوم الذي يأتي ويرحل للأبد، ولكن في ضوء (أغسطس) الذي يبعث الذكريات الدائمة.. فليس أسهل على رجل «اقتفى أثر البحر» . كما يقول التعبير الشهير . من أن يستحضر روح الماضي العظيمة على ضفاف نهر التيمز. فكم من رجال ونساء حمل هذا النهر.. لقد خدم كل هؤلاء الذين تفخر بهم الأمة.. من سير (فرانسيس دريك) حتى سير (جون فرانكلين).. كلهم فرسان.. نبلاء البحر.. لقد حمل كل السفن التي يلمع اسمها كالجواهر في ظلام الزمن. وتلك السفن التي لم ترجع قط.. أية عظمة لم تبحر عبر هذه المياه نحو غموض الأراضي المجهولة! أحلام الرجال بذور الكومونويلث وأصول الإمبراطوريات

غربت الشمس وبدأت الأضواء تلمع عبر الشط.. وظهرت المدينة العملاقة من بعيد كأنها هي النذير. وهج رهيب تحت النجوم..

قال (مارلو) فجأة:

- وهذا المكان أيضا.. كان من الأماكن المظلمة على الأرض..

كان هو الوحيد بيننا الذي لم يزل «يقتفي أثر البحر».. لو كان هناك ما يعيبه فهو أنه لا يعبر عن طبقته جيدا.. إن أغلب البحارة يكونون من الطراز الميال إلى البقاء حيث هو.. عقولهم من طراز (ابق في الدار) ودارهم هي سفينتهم.. ووطنهم هو البحر.. بالنسبة لهم تكفى جولة قصيرة على الشط لتخبرهم بسر القارة كلها.. وغالبا ما يجدون هذا السر لا يستحق أن تعرفه.

أما (مارلو) فكان مولعا بالترحال.. وكان مولعا بكل جديد.. ولم تبد ملاحظته مفاجأة، فلم يكلف أحدنا نفسه بأن يعلق أو يهمهم.. كان يقول الآن:

- كنت أفكر في أزمنة قديمة جدا، حين كان الرومان يأتون هنا.. منذ 1900 سنة.. منذ عهد. ماذا تسمونهم؟ الفرسان.. حين كان هناك ظلام.. تخيل شعور قبطان.. ماذا تسمونها؟ السفن الرومانية ذات المجاديف على الجوانب تعبر البحر المتوسط ثم يؤمر بأن يتجه شمالاً إلى بلاد الغال... تخيله هنا في نهاية العالم أمام بحر بلون الرصاص وسماء بلون الدخان.. وسط الأخطار والمتوحشين، ليس من الكثير ليؤكل، وما من ماء يشرب إلا مياه (التيمز). لا بد أن الرجال كانوا يموتون كالذباب هنا.. لكنه أنجز مهمته.. أنجزها بنجاح، ومن دون تفكير كثير ربما جاء التفكير فيما بعد كي يبالغ في وصف ما مر به في حياته. لا بد أنه كان يحلم بتحقيق مهمته والترقية.. ربما كان له أصحاب مهمون في روما، لو أنه ظل حيا..

وحرك كفه لتتجه نحو السماء، فبدا بساقيه المطويتين تحته كأنه بوذا يعظ مرتديا ثيابا أوروبية ومن دون زهرة اللوتس

- فكروا في أنه ما من واحد منا سيشعر بهذا ما يحمينا هنا هو الكفاءة.. لكن هؤلاء الشباب لم يكونوا استعماريين، فقط كانوا غزاة.. لم يحتاجوا إلا للقوة الغاشمة.. أخذوا ما حصلوا عليه من أجل ما يجب أن يحصلوا عليه.. كانت أعمالهم مجرد سطو مسلح.. قتل على نطاق واسع.. أن تستلب الأرض من هؤلاء الذين لهم سحنات مختلفة أو أنوف أكثر تفلطحا من أنوفنا. ليس هذا جميلاً لو فكرت فيه..

وكف عن الكلام.. بينما انزلقت ألسنة اللهب في النهر.. لهب أخضر ولهب أحمر ولهب أبيض تبحث عن بعضها.. تتقاطع.. المرور في المدينة العظيمة يمضى في الليل البهيم فوق النهر الذي لا ينام. وجلسنا صامتين، فلم يكن ثمة ما نعمله حتى ينتهى المد، لكن الرجل قال بعد صمت طويل:

- أعتقد أنكم تذكرون أنني كنت لفترة بحارا في المياه العذبة..

وعرفنا أن قدرنا سماع قصة من قصص (مارلو) المبهمة قبل أن يبدأ الجزر:

- لا أريد أن أضايقكم بأن أحكى ما حدث لي بشكل شخصى.. . هكذا بدأ وقد بدا في ملحوظته ذلك العيب الذي يعاني منه أكثر ساردى القصص، الذين يجهلون ما يحب المستمعون سماعه . - لكن كى تعرفوا تأثير ذلك على، لا بد من أن تعرفوا كيف وصلت هناك، وما رأيت، وكيف مضيت في ذلك النهر إلى حيث قابلت ذلك الشاب.. كانت أبعد نقاط ملاحتى وخبراتي.. ولقد ألقت بالضوء على أفكارى.. وبرغم هذا كانت خبرة كئيبة مثيرة للأسى.. بل كانت مبهمة لكنها ألقت بالضوء

كنت وقتها قد عدت إلى لندن بعد رحلة في المحيط الهندى وبحار الصين طالت ستة أعوام، وكنت أزوركم يا شباب في دياركم وأعطلكم في أعمالكم.. وبعد فترة تعبت من الراحة، وبدأت أبحث عن سفينة.. لكن السفن لم تعرني اهتماما

حين كنت شابا كنت مولعا بالخرائط.. كنت أحملق بالساعات في خارطة أمريكا الجنوبية أو إفريقيا وأنسى نفسي في لذة الاستكشاف. وكانت هناك أماكن فارغة كثيرة على الأرض في ذلك الوقت، فكنت أضع إصبعي على الخارطة وأقول لنفسي: «حين أكبر سأذهب هناك»..

القطب الشمالي كان من هذه الأماكن.. حسن لم أزره قط ولا أنوى هذا الآن.. حلمت كذلك بأماكن عند خط الاستواء وسواه، وبعض هذه الأماكن زرتها.. لكن بقى أكبرها وأكثرها فراغا.. حقا في ذلك الوقت كان لم يعد مكانا فارغا.. لقد امتلأ منذ صباى بالأنهار والأسماء.. لم يعد مكانا يحلم الطفل به.. صار مكانا من الظلمات[1]

لكن كان به نهر.. نهر قوى كبير يمكنكم أن تروه على الخارطة كأنه أفعى عملاقة مفرودة.. رأسها في البحر وذيلها ضائع وسط الأرض.. هذا النهر كان يفتنني وكنت أقف أمامه كأننى طائر أحمق جاهل يقف أمام ثعبان عملاق.. ثم تذكرت أن هناك شركة تجارية كبرى تعمل على هذا النهر.. قلت لنفسي إنهم بالتأكيد يملكون سفنا عملاقة.. قوارب بخارية! لم لا أطلب أن أقود أحدها؟

كنت أمضى ساعاتي في (فليت ستريت) لكنى لم أستطع طرد الفكرة.. لقد خلبتني الأفعى.. تعرفون أننى لست هذا الطراز من

الرجال.. أحب أن أفعل ما أريد بنفسي دون معونة من أحد، لكن كان لي أصدقاء يمكن أن يساعدوني، وقد استعنت بهم. لكنهم لم يسدوا لي عونا.. عندها اضطررت إلى الاستعانة بالنساء! تصوروا! أنا ألجأ إلى النساء كى يساعدنني! كانت لي عمة.. امرأة رقيقة متحمسة، وقد كتبت لي تقول:

«عزيزي.. أنا أعرف زوجة رجل مهم جدا في الإدارة.. وله نفوذ قوى هناك»..

- كانت مصممة على أن تبذل جهدها كي أعين ربانا على قارب بخاري في النهر.. ما دمت أرغب في هذا وكانت الشركة تبحث عن ربان بعد ما قتل أحد ربابينها في مشاجرة مع الأهالي المحليين، وكانت تلك فرصتي.. وفيما بعد . بعد أشهر - استرددت ما تبقى من جثته وفهمت أن سبب المشاجرة كان خلافا بصدد الدجاج. نعم.. من أجل دجاجتين سوداوين.. لقد حسب القبطان أنه خدع في الصفقة.. كان دانمركيا اسمه (فريسليفين)، وهكذا اقتاد زعيم القوم إلى الشاطئ وأوسعه ضربا.. يجب أن أقول هنا إن (فريسليفين) كان من ألطف وأرق القوم الذين عرفتهم في حياتي، لكن يبدو أنه أراد أن يبدو حازما بشكل ما لهذا أوسع الزنجي العجوز ضربا بلا رحمة، بينما قومه يرقبونه.. حتى فقد أحد الشباب أعصابه . وكان ابن الزعيم . وهو يسمع صراخ أبيه، لذا أخرج رمحه وقذفه ليستقر بسهولة بين لوحى كتفى القبضان فر الزنوج إلى الغابة بينما فر القارب البخاري تحت إمرة المهندس، ومن وقتها لم يكلف أحد نفسه مشقة استعادة بقايا القبطان، حتى جئت أنا مكانه ولم أستطع تجاهل الأمر.. لقد كان العشب الآن ينمو من بين ضلوعه.. كل العظام كانت هناك.. أما القرية فكانت خالية تماما.. هجرها

الرجال والنساء الذين استبد بهم الهلع. ولا أدرى ما صار إليه أمر الدجاجتين.

على كل حال حصلت على الوظيفة قبل أن آمل في الظفر بها خلال 48 ساعة كنت أتوجه لمقابلة مستخدمى كى أوقع الأوراق وأنال الوظيفة. لم أجد عسرا في العثور على الشركة لأنها كانت أكبر شيء في المدينة، وكل من ألقاه كان مليئا بها.. كانوا على وشك امتلاك إمبراطورية وراء البحار

شارع ضيق مهجور في الظلال، وبيوت عالية نوافذها لا تحصى عليها ستائر من الطراز الفينيسي.. صمت الموت.. دخلت أحد هذه الشقوق، وصعدت في درج ممسوح، ودخلت أول باب قابلني.. كانت هناك امرأتان إحداهما بدينة والأخرى نحيلة، تجلسان على مقاعد من قش وتحيكان الصوف الأسود. نهضت النحيلة ومشت نحوى وهي مستمرة في الحياكة وعيناها لأسفل، حتى إننى حاولت التنحي عن طريقها كما تفعل أنت مع من يمشي في أثناء النوم

اقتادتني إلى قاعة انتظار، بها منضدة في الوسط وخارطة في ركن القاعة عليها كل ألوان قوس القزح بقع حمراء وبقع زرقاء وبقع بنفسجية تخبرنا أين يشرب المستكشفون الشجعان أنخاب النصر. لكني لم أكن ذاهبًا إلى مكان من تلك الأماكن.. كنت أقصد الأماكن صفراء اللون. إلى حيث الصمت والموات.. حيث النهر هناك فاتن قاتل كالثعبان.. إنني في المحراب

أرى كتلة من البدانة الشاحبة في عباءة، وأعرف أن هذا هو الرجل العظيم نفسه.. صافحنى وغمغم بصوت خفيض على قدر ما أتذكر، وقد راقت له فرنسيتي فتمنى لي (بون فوياج).



أرى كتلة من البدانة الشاحبة فى عباءة ،
وأعرف أن هذا هو الرجل العظيم نفسه

ثم وجت نفسي من جديد في غرفة الانتظار مع السكرتيرة.. جعلتني أوقع على تعهد بأشياء ضمنها ألا أكشف أسرار التجارة، وأنا لا أنتوى هذا على كل حال.

بدأت أشعر بالتوتر، فأنتم تعرفون أننى لا أرتاح كثيرا لهذه الطقوس، كما أن الجو العام كان يوحى بالتطير. كأنما كنت في صدد عمل تأمرى ما، ومن حسن حظي أننى خرجت منه جلست في الخارج مع المرأتين بينما الشباب يأتون ويرحلون.. فكانتا تلقيان عليهم وعلى نفس النظرة من الحكمة غير المبالية.. كأنما تعرفان كل شيء عني وعنهم.. وبعد هذا حتى وأنا بعيد جدا عنهما في الظلام، لم أكف عن التفكير في منظرهما وهما جالستان تحرسان باب الظلام، تغزلان الصوف الأسود وتتفحصان القادمين المبتهجين بعينين عجوزتين لا مباليتين.. رباه! إن أكثر من نصف من نظرتا إليهم لم يعودوا قط

هناك كذلك زيارة للطبيب.. « إجراء روتيني بسيط »... كذا أخبرتني السكرتيرة كأنما تشاركني آلامى، ثم جاء شاب يخفض قبعته فوق حاجب عينه الأيسر.. موظف على ما أظن، لأن هناك موظفين بالتأكيد برغم أن المنزل كان صموتا كمنزل في مدينة الموتى. جاء واقتادني. كان مشوش الثياب وثمة بقع حبر على كمي سترته ونقنه تذكرك بطرف حذاء قديم..

تحسس الطبيب المسن نبضي وهو يفكر في شيء آخر كما هو واضح وغمغم:

«جميل.. جميل بالنسبة لهناك»..

ثم بلهجة ملحة سألني عما إذا كنت أسمح له بقياس رأسى.. وافقت في دهشة، فأخرج مقاييس وراح يقيس محيط رأسي من الأمام والخلف.. وقال:

- من أجل العلم أقيس دوما جماجم هؤلاء الذاهبين إلي هناك..

- والعائدون كذلك؟

- لا أراهم ثانية أبدا.. ثم إن التغيرات تحدث بالداخل كما تعلم.. إذن أنت ذاهب هناك؟ هذا مثير..

وابتسم كأنما قال نكتة لا بأس بها. وتفحصني ثم عاد يسألني:

- هل هناك حالات جنون في أسرتك؟

سألته في ضيق:

- هل هذا السؤال من أجل العلم كذلك؟

-. سيكون كذلك.. إن لدى نظرية أتمنى منكم أيها السادة الذاهبون إلى هناك أن تساعدوني على إثباتها.. هذا هو دوري في المنفعة التي سيجنيها وطني.. الثروة الوحيدة التي أتركها للآخرين. وأنت أول إنجليزي أفحصه..

قلت له إننى لست بالإنجليزي التقليدي، ولو كنت كذلك ما تحدثت معه..

-. ليكن.. ابتعد عن التوتر كما تبتعد عن الشمس في المناطق الحارة يجب على المرء أن يتجنب الانفعال أديوه.. آه.. كيف تقولونها بالإنجليزية؟ آه.. إلى اللقاء.. أديوه..

كان قد بقى شيء واحد أفعله.. هو أن أودع عمتى.. وجدتها شاعرة بالنصر، وشربت معها قدحا من الشاي.. آخر قدح محترم من الشاى أشربه لمدة أيام طويلة.. وجلسنا جلسة طويلة حكت لي فيها كيف أنها أخبرت زوجة ذلك المسئول أننى مخلوق خارق استثنائى، وقطعة من الحظ الحسن للشركة.. رباه!

وعرفت أننى سأكون مسئولا عن قارب بخارى، وبالإضافة لهذا سألعب دورا شبيها بدور المبشرين.. أنت تعرف هذا.. إن هناك الكثير من هذا السخف في الصحف، والمرأة الطيبة لا تملك إلا أن تفقد صوابها لدى سماع هذا.. لقد راحت تكلمنى عن «فطام الملايين من أسلوب الحياة المتوحش الذي يعيشون به»..

وأقسم إنني حاولت التلميح لها أن غرض الشركة هو الربح لا أكثر.. غريب أن ترى كم أن النساء لا يملكن أي إحساس بالحقائق.. إنهن يعشن في عوالمهن الخاصة عوالم لم توجد قط ولن توجد، لكنها جميلة جدا وهي حقيقة قبلناها معشر الرجال ورضينا بها منذ فجر الخليقة

بعد هذا عانقتني وأوصتني أن أرتدى فانلة تحت ثيابي، وأكتب لها دوما، ورحلت في الشارع . ولا أعرف سبب هذا . داهمني شعور غريب بأنني دجال.. من الغريب أننى كنت قد اعتدت أن أرحل إلى أي مكان في العالم خلال أربع وعشرين ساعة.. دون أن أعير ذلك اهتماما أكثر مما يعيره إنسان يرغب في عبور الشارع. وبرغم هذا انتابني بعض التوتر قبل هذا الأمر المعتاد بالنسبة لي.. خير ما أوضح به كلامي أنني شعرت لثانية أو اثنتين بأننى لست ذاهبا إلى قلب قارة بل إلى قلب الأرض.

رحلت في سفينة فرنسية لم تكف عن التوقف في كل مرفأ تقابله لتنزل الجنود.. كنت أرمق الساحل إن مشاهدة أي ساحل ينزلق جوار السفينة هو أقرب إلى التأمل في لغز.. ها هو ذا أمامك.. يبتسم أو يقطب.. يدعوك.. عظيما.. حقيرا.. منفرا.. لكن هذا الساحل كان بلا ملامح.. كأنه ما زال في مرحلة الخلق. ترى حافة دغل عملاق أخضر داكن حتى يقرب من السواد..

تحيط به أهداب موج أبيض ومن بعيد بحر أزرق اختفى ألقه تحت ضباب كثيف.. الشمس كانت شرسة والأرض توشك أن تسيل بالبخار. مستعمرات هنالك من قرون، لكنها ما زالت أقرب إلى رءوس دبابيس وسط الطبيعة التي تحيط بها. وفي كل لحظة تشعر بأن الساحل هو ذاته، وكأننا لم نتحرك، لكننا مررنا بأماكن لها أسماء مثل (جران باسام).. (بوبو الصغير)..

كأنما هي أسماء تنتمي إلى كوميديا فارس سخيفة كنت وحيدا وسط هؤلاء الذين لا أجد ما يربطني بهم.. والبحر الزيتي فاتر الهمة.. وكآبة الساحل. كل هذا أبقاني بعيدا عن طبائع الأشياء.. ولكن صوت الموج كان له تأثير إيجابي على كأنه كلام أخ لي.

ومن حين لآخر كان قارب يأتي من الشاطئ ليعيدني إلى الحقيقة لحظيا.. يقوده زنوج.. يمكنك أن ترى من على بعد بياض عيونهم. وهم يغنون ويصيحون وأجسادهم مغطاة بالعرق. وجوههم كأقنعة غريبة لكن كانت فيهم حيوية طبيعية وصادقة مثلها مثل أمواج البحر على ساحلهم.. وكنت أشعر براحة عظمى لرؤيتهم.. وللحظات كنت أشعر بأنني أنتمى لعالم من الحقائق المباشرة..

أذكر ذات مرة دنونا فيها من سفينة حربية عالقة عند الساحل. يبدو أن الفرنسيين خاضوا إحدى حروبهم هناك.. وكانت مدافعها تتدلى من جوانب جسم السفينة، بينما الموج الكسول يرفعها وينزلها.. هناك في خواء الأرض والبحر والسماء كانت هي.. تطلق مدافعها نحو قارة كاملة لكن شيئا لا يحدث.. لا شيء يمكن أن يحدث.. ثمة نوع من الكآبة المضحكة

السخيفة في المشهد.. وجاءني من يخبرني أن هناك معسكرا للسكان المحليين في مكان ما هنا.. كان يسميهم (الأعداء)..

زرنا أماكن أخرى لها أسماء سخيفة، حيث تمضى رقصة الموت والتجارة في مناخ أرضى ساكن.. كل هذا على الساحل عديم الشكل الذي تحيط به الأمواج، وكأن الطبيعة ذاتها أرادت أن تطرد المقتحمين. لم ندن قط إلى حد أن نحظى بانطباع ما، لكن ذلك الإحساس بالعجب الغامض كان ينمو داخلي.. كأنه حج مرهق بين الكوابيس

مر نحو ثلاثين يوما قبل أن أرى ثغر النهر الكبير. ورسونا في مرفأ حكومي، لكن عملي لن يبدأ قبل أن نتوغل مائتي ميل بالداخل بدأت رحلتي على قارب بخارى صغير، قائده سويدى، وقد عرف أننى بحار فدعاني معه إلى ظهر القارب.. رجل نكد المزاج شاحب نحيل يعرج قليلا.. وإذ تركنا المرفأ البائس، نظر باستهانة إلى الشاطئ، وقال:

- هل عشت هنا؟

فقلت:

- نعم..

- شباب لطيفو المعشر موظفو الحكومة هؤلاء.. أليس كذلك؟

ثم استطرد في إنجليزية جيدة لكن بلهجة مريرة:

- من الغريب أن تفكر فيما يفعله بعض الناس من أجل الفرانكات.. منذ أيام اصطحبت رجلا إلى هنا.. فشنق نفسه..

كان سويديا هو الآخر

صحت:

- شنق نفسه؟ لماذا بحق السماء؟

راح يراقب مسارنا بعين واحدة حذرة وقال:

- من يدرى؟ ربما كانت الشمس أكثر من تحمله. وربما البلد نفسه..

في النهاية ظهر لنا منحدر صخرى شاهق وبيوت على التل.. كان هناك عدد هائل من السود العراة يعملون بلا توقف وثمة رصيف ميناء يبرز في البحر، وكانت الشمس تغرق كل هذا بضوء يعمى الأبصار

قال لي القبطان السويدي:

- هناك محطة شركتك.

وأشار إلى ثلاثة مبان خشبية لها سمت الثكنات العسكرية..

- سأرسل حاجياتك.. أربعة صناديق.. أليس كذلك؟ وداعا..

وجدت ممرا يقود إلى أعلى التل، وعلى جانبه كانت عربة سكة حديد صغيرة مقلوبة وعجلاتها في الهواء.. كأنها جثة حيوان ما.. ومررت بمزيد من الآلات المتحللة المتعفنة.. دوى صوت نفير إلى يميني فركض الزنوج.. ثم تصاعد بعض البخار من المنحدر، وكان هذا كل شيء.. كانوا يبنون خطا حديديا جديدا

أطرافهم كأنما هي عقد في حبل، وثمة ياقة حديدية حول عنق كل منهم.. وكلهم مربوط إلى سلسلة طويلة. هؤلاء الرجال لا يمكن أن تدعوهم أعداء، وإنما هم مجرمون.. وقد وصل القانون الغاضب إليهم كأنه قنبلة منفجرة.. كل صدورهم تلهث معا، وطاقات أنوفهم ترتجف.. مروا بي على بعد ستة أقدام دون أن ينظروا لي، بتلك اللامبالاة الكاملة للمتوحشين التعساء.. ومن وراء هذا اللحم يمشى واحد من الذين تم إصلاحهم، يحمل بندقية ويلبس سترة عسكرية تنقص أحد أزرارها، فلما رأى رجلاً أبيض عن بعد، رفع البندقية إلى كتفه متظاهرا باليقظة.. كان هذا على سبيل الحذر، لأن كل الرجال البيض يتشابهون عن بعد

بدلاً من أن أصعد لأعلى نزلت نحو اليسار.. كنت أريد أن تبتعد مجموعة المصفدين هذه عن بصري قبل أن أتسلق.. أنتم تعرفون أننى لست رقيقا.. لقد اضطررت إلى أن أضرب وأقاتل وأهاجم أحيانا، دون أن أحسب العواقب.. لقد رأيت شيطان العنف وشيطان الشهوة وشيطان الطمع، لكنها كانت شياطين قوية حمراء العيون، لكني إذ وقفت هنالك شعرت بأننى أواجه شيطان القسوة الرخو ضعيف الشخصية.. كم هو قوي في غوايته كذلك.. وكنت سأكتشف هذا بعد شهور عديدة وعلى بعد آلاف الأميال.. وكان على أن أنتظر حتى يمر هؤلاء..

كدت أتعثر في وهدة لا تتجاوز ندبة في التل واكتشفت أن أكثر أنابيب الصرف المستوردة للمستعمرة قد تم تكديسها هناك، وكلها محطمة. وهنا وقعت عيناي على إحدى حفر الجحيم.. كانت هناك أشكال سوداء ترقد فيها.. تجلس.. تستند

إلى جذوع الأشجار.. في كل أوضاع الألم الممكنة.. كل أوضاع العزلة والقنوط.

وانفجر لغم آخر من بعيد تبعه اهتزاز التربة تحت قدمي.. كان العمل يمضى.. العمل! وهذا هو المكان الذي كان يأتي إليه المصابون كي يموتوا.. كانوا يموتون ببطء.. هذا كان واضحا تماما.. لم يكونوا أعداء ولا مجرمين.. لم يكونوا شيئا يمت للأرض الآن، بل مجرد ظلال سوداء للجوع والسقم، يرقدون ذاهلين في الظلام الأخضر.. جاءوا بهم من كل أرجاء الساحل، ليطعموهم طعاما لم يألفوه، فمرضوا ولم يعودوا ذوي نفع.. لذا سمحوا لهم بحرية الزحف والموت هنا..

نظرت إلى الفتى الراقد أمامي.. كانت عيناه متسعتين خاليتين أقرب إلى العمى.. وكانت سنه أقرب إلى الصبا.. لم أجد ما أقدمه له إلا واحدة من البسكويت السويدي الممتاز الذي وجدته في جيبي.. انغلقت الأنامل على قطعة البسكويت دون أي تعبير في العينين. ومن حوله كان إخوته في الألم يتناثرون متخذين كل وضع ممكن يعبر عن الألم كأنها لوحة قديمة تصور المذابح. وإذ وقفت أنظر في رعب، نهض أحد هذه المخلوقات على أربع وزحف نحو النهر كي يشرب.. ثم جلس قليلا وترك ذقنه تهوى فوق صدره.

لم أرد البقاء أكثر، فهرعت نحو المحطة قابلت هناك رجلاً أبيض أنيقا إلى حد أنني للحظة حسبته رؤيا، لأنني لم أتوقع كل هذه الأناقة في مكان كهذا.. ياقة عالية منشاة وسروال بلون الثلج وكمان أبيضان وربطة عنق نظيفة.. لا قبعة.. شعر مصفف بعناية بالزيت

صافحت هذه المعجزة وعرفت أنه كبير محاسبى الشركة، وأنه خرج لاستنشاق بعض الهواء النقى ما كنت لأذكر شيئا عن هذا الرجل لولا أننى احترمته نعم.. احترمت حذاءه اللامع وياقته المنشاة البيضاء كان مظهره كأنه دمية لدى كوافير

فيما عدا هذا كان كل شيء في المحطة في فوضى.. الزنوج يأتون ويرحلون.. نهر من البضائع والأقطان والخرز تدخل قلب الظلام، ويخرج منه كنز ثمين من العاج.

اضطررت لأن أنتظر في المحطة عشرة أيام.. وهى دهر كنت أحيانا أذهب إلى مكتب المحاسب، وهو مبنى من ألواح خشبية تم تثبيتها بشكل سيئ إلى حد أنك ترى على جسد الرجل شرائط من ضوء الشمس من رأسه حتى كعبيه، بالإضافة لهذا كان الطقس حارا والذباب العملاق ينز في وحشية، ولا يلدغ بل يطعن.

ذات يوم قال لي دون أن يرفع رأسه:

- في داخل الساحل، ستقابل مستر (كورتز) من دون شك..

سألته عمن يكون (كورتز) هذا، فقال لي إنه عميل من الدرجة الأولى.. وإذ رأى خيبة أملى من تفاهة المعلومة، قال وهو يضع قلمه:

- هو شخص مرموق جدا.

وبمزيد من الأسئلة عرفت أن مستر (كورتز) مسئول عن مركز تجارة.. مركز مهم جدا.. في بلد العاج الحقيقي.. يرسل لنا من العاج أكثر مما يرسله الآخرون مجتمعين وعاد يكتب وعاد الذباب يئز

فجأة سمعنا لغطا من الأصوات.. لقد وصلت قافلة بالخارج فقال:

- حين يكون عليك أن تجرى حسابات صحيحة، فإنك تجد نفسك كارها لهؤلاء المتوحشين..

وفكر قليلاً ثم قال وهو يرمقني بعينين جاحظتين:

- حين تقابل مستر (كورتز)، قل له على لساني إن كل شيء مرض تماما.. لا أحب أن أكتب له لأنه مع مبعوثينا يصعب أن تعرف في أية يد سيقع الخطاب.. إن (كورتز) سيصل إلى بعيد جدا جدا. سيصير مهما في الإدارة يوما ما.. إن من هم في القمة في أوروبا . كما تعلم - يريدونه كذلك..

في اليوم التالي تركت المحطة في قافلة من ستين رجلاً.. لأبدأ رحلة مائتي ميل لا جدوى من أن أحكى التفاصيل.. ممرات وممرات.

ووحدة.. ووحدة.. لا أكواخ.. لقد رحل الناس منذ زمن بعيد.. نمشى بين عشرات القرى الخالية.

يوما بعد يوم أسمع صوت الستين زوجا من الأقدام الحافية خلفي، يحمل كل منها حملا ثقيلا.. نعسكر.. نطهو.. ننام.. من حين لآخر ترى زنجيا في الأصفاد ميتا وسط الأعشاب وجواره إناء ماء فارغ..

وذات مرة قابلنا رجلاً أبيض يلبس سترة عسكرية غير مزررة، يحرسه مجموعة من الزنزباريين النحيلين.. كان ودودا جدا ولا داعي لأن أقول ثملاً كذلك.. كان يبحث عن موقع صيانة الطرق، وأنا لم أر طريقا ولا صيانة.. ما لم يكن الزنجي الذي

تعثرت في جثته على بعد ميلين، وثقب رصاصة في جبهته، يمثل اتجاها دائما نحو التقدم.

كان معى مرافق أبيض أيضا، وهو ليس سيئا إلا أنه بدين ولديه عادة مثيرة للحنق هي أنه يفقد وعيه في الحر، حيث لا يوجد ظل ولا ماء.. من الأشياء التي تضايق أن ترفع معطفك كالمظلة فوق رأس رجل لتحميه من الشمس.. وقد سألته مرة عما يقصده من المجيء هنا.. فقال بازدراء:

- المال طبعا.. ماذا تحسب؟

فلما أصابته الحمى اضطررنا إلى حمله في أرجوحة.. ولما كان يزن ستين حجرا فقد كان على أن أخوض معارك مع الحمالين.. كانوا على وشك التمرد.. وقد ألقيت عليهم خطبة بالإنجليزية مع إشارات بيدى فهمها الجميع

وفي اليوم التالي وجدت كل شيء ملقى وسط الأشجار: الرجل.. الأرجوحة.. كان صاحبي ثائرا ويريد مني أن أقتل شخصا ما، لكني لم أجد حمالاً واحدا أمامي.. وتذكرت ما قاله الطبيب عن أن البلد يغير عقول الناس.. لقد بدأت أتحول إلى ظاهرة مثيرة للاهتمام علميًا

في اليوم الخامس عشر رأيت النهر من جديد ورأيت محطة الشركة التي تحيط بها الأشجار الكثيفة من كل صوب إلا من جهة واحدة صارت هي البوابة.. وقال لي شاب ضخم ما إن عرف من أنا بكثير من الاستطراد، إن قاربي البخاري هو في قاع النهر الآن

شعرت كمن ضربه البرق.. ماذا؟ كيف؟ لماذا؟ لكن كل شيء على ما يرام.. لقد تصرف الكل جيدا، والمدير نفسه كان هناك.. يجب أن تذهب لتقابل المدير العام شخصيا فهو في الانتظار!

لم أفهم معنى هذا وقتها.. أعتقد أننى أفهم الآن ولكني لست متأكدا.. حين أفكر في الأمر أجده غبيا.. لقد غرق القارب.. لقد انطلقوا متعجلين إلى النهر منذ يومين والمدير معهم.. وتحت قيادة ربان متطوع، لكنهم مزقوا قاع القارب على الصخور وغرق قرب الضفة الجنوبية. سألت نفسي عما أفعله هنا ما دام قاربي قد غرق.. والحقيقة أننى احتجت إلى وقت كبير حتى أستخرج قاربي من الماء، واستغرقت عملية الإصلاح عدة أشهر كان لقائي الأول بالمدير غريبا.. لم يطلب منى الجلوس بعد العشرين ميلا التى مشيتها.. كان شخصا عاديا في كلامه وشكله وطباعه.. لكن كان هناك شيء مختلس ما.. ربما ابتسامة.. لا ليست ابتسامة.. كانت تتبع كلماته للحظة خاطفة كأنها ختم يعطى لأبسط الكلمات مغزى غامضا. كان مطاعا لكنه لا يوحي بالحب ولا بالكره.. كان يوحي بعدم الارتياح! هكذا! عدم الارتياح.. لا شيء سوى هذا..

لم يكن ذا تعليم مرموق ولا ذكاء.. لقد ظفر بمنصبه ربما لأنه لم يمرض قط.. والصحة هنا نوع من القوة. وكان يقول للمرضى الذين يملئون المحطة حوله:

- الرجال الذين يأتون هنا، يجب ألا تكون لهم أحشاء!

بدأ يتكلم ما إن رآني، ولم يطق الانتظار.. إن محطات النهر يجب أن تشفى من الاختناق.. هناك رحلات تأخرت ولا أحد

يعرف من مات ومن بقى حيا.. لم يبال بتفسيراتي، وراح يعبث بعصا من الشمع ويردد:

- الموقف خطير.. خطير.. هناك إشاعات أن إحدى المحطات في خطر، ورئيسها مستر (كورتز) مريض.. آمل ألا يكون هذا حقيقيًا

كنت متعبا وقلت لنفسي: فليشنق (كورتز) هذا لذا قاطعته قائلاً إننى سمعت عن (كورتز)

فقال:

- آه! إذن هم يتكلمون عن (كورتز) هناك..

وأكد لي أن (كورتز) رجل غير عادي.. رجل استثنائى شديد الأهمية للشركة.. وغادرت الكوخ وأنا ألعنه في سرى..

في الأيام التالية حاولت ألا أنظر إلى المحطة كي أنسى ما يتعلق بها، وإن شعرت بأن هذه كلها مسرحية عبثية.. لفظة (عاج) تتردد في الهواء.. تهمس توقع.. ربما تعتقد أنهم يقولونها في صلاتهم بالله عليك أنا لم أر ما هو أكثر زيفا في العالم كله..

إن لفظة (عاج) تتردد كأنها مطلق مثل (الصدق) و(الكذب).. وكل هؤلاء الرجال يتظاهرون بأنهم حقيقيون صادقون، لكن لا أحد يعبأ بشيء.. ثمة مناخ عام من التظاهر والادعاء هنا، ولا شيء يهمهم حقا إلا النسب المئوية التي سيحصلون عليها من تجارة العاج.

سألت أحد الرجال:

- من هو المستر (كورتز)؟

قال بنبرة حاسمة:

- هو رئيس المحطة الداخلية..

قلت له ضاحكا:

- أنا ممتن لك على هذا..

صمت قليلا ثم قال:

- إنه معجزة.. إنه رسول العطف والعلم والتقدم..

وتحول كلامه إلى لهجة خطابية. كنا مكلفين من أوروبا بمهمة، وكنا بحاجة إلى ذكاء شامخ وهدف موحد وتعاطف لا حد له.. ثم يجيء إلينا ذلك الرجل.. كيان متفرد كما ستعرف حتما..

- ولماذا سأعرف حتما؟

سألته في دهشة لكنه لم يولني اهتماما

- اليوم هو رئيس أفضل محطة.. غدا يكون مساعد المدير.. بعد عامين.. لكني أعرف أنك تتوقع ما سيكونه بعد عامين.. أنت من نفس الطراز.. القوم الذين أرسلوك هم الذين أهدوه إلينا

هنا بدأت أفهم.. إن نفوذ عمتي العزيزة وعلاقاتها أحدثت تأثيرا عجيبا هنا. نظرت للرجل وشعرت أن بوسعي أن أغرس سبابتي في لحمه، وأنا أقسم إننى ما كنت لأجد شيئا داخله إلا القذارة.. واضح أنه كان يتمنى أن يكون مساعد المدير وهو قلق جدا بصدد قدوم (كورتز)..

كان يثرثر ويثرثر وأنا أصغى وقد أرحت كتفي إلى بقايا القارب المهشم، الراقد كأنه جثة حيوان نهرى ميت.. ورحت أنظر إلى الظلام المحيط بالغابة من بعيد

من نحن؟ وماذا أتى بنا هنا؟ هل نستطيع التعامل مع هذا الشيء العملاق الصموت وربما الأخرس؟

أعرف أن فيه عاجا وفيه (كورتز) كذلك.. لكم سمعت عنه لكن هذا لم يزدني علما.. لقد آمنت به فقط بنفس الدرجة التي تصدق بها أن هناك كائنات حية على كوكب المريخ

أنتم تعرفون كم أكره الكذب.. ليس لأنني طاهر الذيل، ولكن لأن للكذب طعما عفنا كريها يذكرني بوهننا وضعفنا.. يذكرني بموتانا.. وقد كذبت كثيرا على ذلك الرجل كى أقنعه بنفوذي القوى في أوروبا.. وبالقوى المخيفة التي ورائي، بينما لم يكن ورائي شيء إلا القارب العجوز الذي نقوم بإصلاحه

لم تكن علاقتي بـ (كورتز) أكثر من علاقتكم أنتم به، وأنا أحكى لكم عنه.. هل ترونه؟ هل ترون القصة؟ هل ترون أي شيء؟ كأننى أحكى لكم حلما.. وهي محاولة فاشلة لأنك مهما حكيت الحلم لن تستطيع أن تنقل الإحساس به.. أن تنقل الإحسان باللامعقولية التي هي روح الحلم كان العمل متوقفا في القارب البخارى بسبب مسامير البرشام.. لقد كان هناك الكثير منها على الساحل، وكنت تدوس في كل لحظة على عشرات منها على الرمال، لكن ما من مسمار منها كان موجودا حيث تمس الحاجة إليه هنا.. كنا نرسل الزنوج إلى المرفأ نسألهم أن يرسلوا لنا مسامير وكانوا يعودون حاملين كل شيء إلا ما نريد.. برغم أن ثلاثة رجال يقدرون على جلب كل احتياجاتنا

وقد قلت للرجل إن العمل متوقف بسبب مسامير البرشام، ولسوف يتضايق مستر (كورتز) كثيرا لو لم يجلبوا لي ما أريد.. فقط لو عرف بالأمر كنت أحب القارب البخاري بشدة.. وقد بذلت في إصلاحه جهدا كبيرا جعلني أتعلق به.. لقد منحنى ساعات من السلوى والنسيان ومعرفة ما يجب أن أفعله.. أنا لا أحب العمل.. وأفضل أن أسترخى في كسل وأفكر في الأشياء الجميلة التي يجب أن تعمل.. لا يوجد رجل يحب العمل، لكننا نحب ما يمنحنا إياه العمل من اكتشاف لذواتنا.. لحقيقتنا.

لكنى كنت قد بدأت أكف عن القلق بصدد مسامير البرشام تلك.. إن قدرة المرء على تحمل الحماقات أقل بكثير مما تتوقعه أنت.. قلت لنفسي: سحقا! وهكذا وجدت لدى الكثير من الوقت كافيا للتأمل ومن حين لآخر أتذكر (كورتز).. لم أكن مهتما به.. لكني فضولي كي أرى كيف سيصعد هذا الرجل المسلح بالأخلاق والمثل العليا . إلى القمة، وكيف سيدير العمل حين يصل إليها.

☆ ☆ ☆

2

ذات ليلة كنت نائما على ظهر القارب، حين سمعت رجلين يتكلمان على ضفة النهر.. أرحت رأسى على ذراعي ثانية وكدت أغرق في النعاس، حين سمعت من يقول في أذني

- أنا لا أستطيع الإيذاء كالأطفال، لكني أكره أن يملى على أحد شيئا.. هل أنا المدير أم لا؟ لقد أمرت بإرساله إلى هناك، وهذا لا يصدق..

وفهمت أن الرجلين يقفان عند مقدمة القارب ولم أتحرك.. لم يخطر لي أن أتحرك لأننى كنت شبه نائم.. وسمعت باقي الكلام:

- هذا لا يدعو للسرور.. لقد طلب هو من الإدارة أن يرسل هناك.. وفكرته أن يريهم ما يستطيع أن يفعله.. تأمل مدى نفوذ هذا الرجل.. أليس هذا مرعبا؟

- الجو قد يساعدك على التخلص منه.. هل هو وحيد هناك؟

- نعم.. لقد أرسل (كورتز) مساعده إلى برسالة تقول: أبعد ذلك الأحمق عن البلاد ولا تضايقني.. أفضل الوحدة عن استقبال هذا النوع من الرجال.. كان هذا منذ عام.. هل تتخيل مدى الوقاحة؟

- وهل جد جديد بعد هذا؟

- عاج.. الكثير منه.. من أفضل الأنواع.. كميات هائلة..

كانا يتكلمان عن (كورتز).. كنت الآن قد أفقت تماما، لكنى حافظت على رقدتي لأسمع.

- وكيف وصل العاج عبر كل هذه المسافة؟

- وصل على قوارب صغيرة.. كان يقودها نصف هندى نصف إنجليزي يعمل لديه، ثم عاد (كورتز) إلى الداخل بقارب صغير بدواليب كانت هذه أول مرة أرى فيها (كورتز) بقاربه ذي الدواليب التي يحركها الزنوج.. وقد يمم وجهه شطر الأدغال. نحو محطته المهجورة الخالية.. أنت تعرف أنهم لا يشيرون إليه باسمه أبدا، بل يقولون (ذلك الرجل)، أما مرافقه نصف الإنجليزي فيطلقون عليه (ذلك الوغد).. وقد أخبرنا ذلك الوغد أن (الرجل) كان مريضا جدا لكنه شفى إلى حد ما..

قال الآخر في ضيق:

- سحقا للمنافسة! لا بد من طريقة لمنع هذه المنافسات.. لو أن أحدهم شنق مرة.. أنت تعرف أن كل شيء ممكن في هذا البلد

- إن الرجل لا يريحني، وقد أتعبني حين كان هنا

وانخفضت الأصوات فرفعت رأسي، لأجد مندهشا أنهما تحتى بالضبط.. يمكنني أن أبصق على قبعتيهما لو أردت.. وأطلق الرجلان السباب وابتعدا وقد ارتسم ظلهما خلفهما.. طويلا كئيبا..



وانخفضت الأصوات فرفعت رأسي ، لأجد مندهشًا
أنهما تحتي بالضبط ..

بعد شهرين بدأت رحلتي عبر النهر...

إن السفر عبر النهر يشبه العودة القهقرى إلى بدايات العالم، حين طغت النباتات على الأرض، وكانت الأشجار ملوكا.. نهر

خاو.. صمت عظيم.. غابة لا يمكن اختراقها.. الهواء دافئ ثقيل.

لا شيء يسر في ضياء الشمس.. وعلى الضفاف الفضية تغفو التماسيح وأفراس النهر.. والمياه تسرى بين حشود من الجزر الخشبية.. تضل طريقك في هذا النهر كأنك في الصحراء.. تبحث عن قناة وتحسب نفسك مسحورا، وأنك معزول للأبد عن أي شيء تعرفه.. بعيدا.. في مكان ما.. في وجود آخر ربما.. تسترجع ذكريات الماضي في شكل حلم صاخب وسط هذا العالم الغريب من النباتات والماء والصمت

هدوء الماء هذا لا يشبه السلام في شيء.. وكنت أحاول جاهدا أن أدرس النهر وأعرف أين توجد الصخور.. وأطبق على شفتي السفلي وقلبي يسقط في قدمي، حين أوشك على أن ألامس صخرة تنذر بتمزيق قاع القارب.. إن الحقيقة . أقول لكم تتلاشى.. تخيل رجلا مربوط العينين يمشى للمرة الأولى في طريق وعر.. لا أزعم أننا لم نعلق بقاربنا فوق الصخور.. عندها كنت أستعين بطاقمي من أكلة لحوم البشر.. أناس طيبون أكلة لحوم البشر هؤلاء.. كانوا رجالا يمكنك أن تعمل معهم.. وعلى الأقل لم يأكل بعضهم البعض أمام عيني.. كانوا قد جلبوا معهم بعض لحم أفراس النهر، الذي تعفن.. وجعل لغز الأحراش له رائحة كريهة بالنسبة لي.. أف! يمكنني أن أشمه الآن.. كان المدير معى على ظهر القارب

تنفتح الأحراش أمامك وتنغلق من خلفك كأنها تحاول أن تسد عليك طريق العودة.. وتوغلنا أكثر فأكثر في قلب الظلام..

كان الهدوء تاما هناك.. أحيانا في الليل يدوى قرع الطبول خلف الأشجار، كأنما يحوم في الهواء فوق رءوسنا حتى الفجر..

لا نعرف إن كان معناه الحرب أم السلام أم الصلاة..

كنا نمضى في أرض تمت لما قبل التاريخ.. على أرض تنكرت في ثياب كوكب مجهول. كأننا أول ورثة لإرث ملعون.. ننزلق كالأشباح خائفين، كأننا العقلاء في مستشفى مجانين تجتاحه ثورة مجنونة..

كانت الأرض لا تمت لكوكب الأرض بصلة.. والرجال.. لا.. ما كانوا بشريين.. أنت تعرف أن هذا أسوأ ما في الأمر.. كنت تراهم من بين الأحراش من حين لآخر، فيخيفك الشك في حقيقة آدميتهم، وفي كونك ربما تمت لهم بصلة قربي ولو واهية.. أنت تفهم ضوضاءهم لأن فيها كل شيء..

الحقيقة.. الحقيقة التي تجردت من دثار الزمن لكن لا وقت عندي لهذه التأملات، لأننى أراقب الغلايات والمواسير.. وأراقب المتوحش الذي صار وقادا إنه يعمل قربى هنا، ومشاهدته لا تقل غرابة عن مشاهدة كلب يمشى على قدميه الخلفيتين ويعتمر قبعة.. كان قد برد أسنانه لتبدو حادة وثمة ثلاث ندوب على كل خد.. كان من المفترض أن يكون الآن على الشط يصفق بيديه ويرقص، لكنه كان يؤمن بحقيقة علمناها له: لو نفد الماء من هذه الغلاية لهاجت الروح الشريرة فيها بسبب الظمأ ولانتقمت انتقاما مريعا.. لهذا كان يراقب الغلاية في رعب وقد ثبت تعويذة مرتجلة على ذراعه، وقطعة عظم في حجم الساعة ثبتها في شفته السفلي

بعدما قطعنا خمسين ميلاً من الرحلة، وصلنا كوخا من القصب على الضفة.. ثمة بقايا علم لا يمكن تعرفه ترفرف من

فوقه.. وكومة من الحطب.. قرب الكومة وجدنا قطعة خشب كتب عليها بالقلم الرصاص كتابة باهتة تقول:

«هنا خشب لكم.. اقتربوا.. اقتربوا بحذر» وثمة توقيع لكنه ليس توقيع (كورتز).. الاسم أطول من هذا

ماذا يريد منا، ولماذا نقترب بحذر؟ لا يمكن فهم هذه الكلمات.. إن الأحراش كثيفة لا تسمح لنا بالتدقيق ولا الرؤية.. كانت هناك ستارة حمراء على باب الكوخ وما يدل على أن رجلاً أبيض عاش هنا من قريب.. وفي الداخل كان كتاب اهترأت صفحاته.. عن الملاحة كتبه ضابط في أسطول صاحبة الجلالة، والغريب أن هناك من درسه بعناية وكتب ملاحظات شفرية على الهوامش.. تصور هذا! رجل في قلب الغابة يعني بأن يشفر ملاحظاته على كتاب عن الملاحة!

برغم هذا أحببت الكتاب لأنني شعرت بأنه شيء حقيقى.. دسسته في جيبي بينما كانت كومة الحطب قد اختفت.. حملها الزنوج إلى قاربنا، وسمعت المدير يزأر مناديا إياى بدأت التحرك، على حين قال المدير:

- لا بد أن ذلك التاجر.. ذلك التعس..

قلت له:

- لا بد أنه كان إنجليزيا..

غمغم المدير في كآبة:

- ما كان هذا ليحميه لو لم يتخذ حذره..

مساء اليوم التالي قدرنا أننا على بعد ثمانية أميال من مكان (كورتز).. أردت أن أسرع لكن المدير قال في جدية: إن الملاحة هنا خطرة فعلا، بحيث صار من الحكمة أن نمضى الليل حيث نحن.. بالإضافة إلى أننا لو أردنا أن نتبع تعليمات الكتابة التي تنصحنا بالحذر في أثناء اقترابنا، فعلينا أن نقترب في النهار لا الليل..

كان هذا معقولاً.. إن ثمانية أميال معناها ثلاث ساعات ملاحة.. لكني كنت متضايقا بسبب التأخير وهو ضيق لا معنى له، لأنه لا أهمية لليلة واحدة أخرى بعد عدة أشهر من التأخير

كان الصمت محيرا كأن الغابة تحولت كلها إلى حجر.. ما كان هذا نوما بل هو شيء غير طبيعى كالغيبوبة.. تشعر بالدهشة وتشك في أنك فقدت السمع نهائيا

ثم يأتي الليل فجأة ليصيبك بالعمى كذلك حين بزغت الشمس كان هناك ضباب.. ضباب كثيف ساخن يعميك أكثر من الظلام.. وفي التاسعة صباحا ارتفع كأنه غطاء يرتفع.. ورأينا الأشجار وكرة الشمس فوقها..

كل شيء صامت ساكن.. ومن جديد عاد الضباب يهبط في كثافة ثم دوت صرخة.. صرخة عالية فيها تعاسة لا حد لها.. ثم دوى صخب وحشى

كانت المفاجأة مما جعل شعر رأسي ينتصب تحت قبعتي.. لا أدرى ما حسبه الآخرون لكنى حسبت الضباب نفسه يصرخ..

ثم ساد الصمت تاركا إيانا في أوضاع أقرب إلى السخف والغباء..

وسألني أحد المتجهين معى إلى قلب الظلام:

- يا إلهى الرحيم! ما معنى هذا؟

وهرع اثنان إلى داخل القمرة، ثم عادا وهما يصوبان إلى الغابة نظرات رعب، وفي يد كل منهما بندقية (ونشستر) لكننا لم نر إلا حدود القارب الذي نحن فيه، وبعد هذا لا شيء على الإطلاق.. ونسيت العيون أن ترمش وتساءل واحد:

- هل سيهجمون؟

وقال آخر:

- سوف يذبحوننا جميعا في هذا الضباب

ولم يبد السود قلقا بالغا.. كأنما فهموا الأمر تماما بجمل قصيرة مقتضبة.. دنا منى أحدهم وهو شاب متين البنيان عريض الصدر، له شعر مجعد دهنه بالزيت في عناية، وقال لي وقد احمرت عيناه:

- أمسكهم..

- لم؟

- أمسكهم.. أعطنا إياهم..

- لماذا؟

- نأكلهم..

ومال على حاجز القارب يرمق الضباب في تأمل والحقيقة أن ما منعني من الرعب هو أننى أعرف أن هؤلاء الشباب جائعون حقا.. كانوا قد حملوا معهم كميات من لحم فرس النهر لكنه

فسد.. وقد تخلصنا من كثير منه دفاعا عن النفس.. فأنت لا يمكنك أن تشم لحم فرس النهر المتعفن حين تصحو وحين تنام وحين تأكل، وتحافظ على عقلك في الوقت ذاته، بالإضافة لهذا كنا نعطى كلا منهم قطعة من السلك النحاسي.. حوالي تسعة أقدام كل أسبوع، على أساس أنهم سيشترون بها احتياجاتهم من القرى المجاورة.. لكن لم تكن هناك قرى ولم يكن المدير راغبا في إيقاف القارب..

لهذا لم يعد من حل لهؤلاء القوم إلا أن يأكلوا السلك أو يصطادوا به السمك.. فلا نفع إذن من هذا الراتب المرتفع الذي يتقاضونه.. يجب أن أقول إن هذا الراتب كان يدفع بانتظام يليق بشركة محترمة لماذا بحق السماء لم ينقضوا علينا؟ هذا يثير دهشتي الآن حين أفكر فيه.. كانوا أقوياء شجعان برغم أن جلودهم لم تعد تلمع بذات البريق.. وكانوا عاجزين عن تقييم التبعات أو المخاطر

كان هناك نوع من الترويض.. نوع من السر الذي لا يمكن فهمه. وهذا ما كان يمنعهم من التهامنا.. نوع من القمع.. ربما هو الخوف أو الصبر أو الاشمئزاز لكن ما أصعب أن يقاوم المرء الجوع.. من السهل أن تقاوم الحرمان أو العار أو الاشمئزاز.. لكن ليس الجوع الممض الطويل

قال المدير من خلفي:

- الأمر خطر.. سوف أحزن جدا لو حدث شيء للمستر (كورتز) قبل أن نصل إليه..

نظرت له ولم أرتب في أنه صادق.. إنه رجل حريص على المظاهر.. لكن حين تكلم عن مواصلة الرحلة، لم أجبه.. فهو

يعرف تماما أننا لا نستطيع المضي في هذا الضباب وإلا ضعنا تماما..

بالطبع لم أتحرك.. لم أكن رائق المزاج لتجربة تهشيم القارب على الضفة.. لا يوجد مكان أسوأ من هذا لتحطم سفينة.. وسواء غرقنا أو لم نغرق فلسوف نقضى نحبنا بسهولة تامة

قال لي:

- أنا أمرك بالمخاطرة..

قلت له:

- وأنا أرفضها..

وهي الإجابة التي توقعها.. لكنها أثارت دهشته قال بتحضر:

- حسن.. سأقبل حكمك فأنت القبطان..

ونظرت إلى الضباب وحاولت أن أتصور متى يزول، لكن هذا كان مستحيلاً.. إن الطريق إلى (كورتز) هذا محفوفا بالمخاطر، حتى كأنه ملك أسطوري في قلعة مسحورة..

سألنى:

- هل تحسبهم سيهجمون؟

لم أتوقع هذا لأسباب عدة.. الضباب الكثيف سبب منها.. لو خرجوا من الضفة على قواربهم فلسوف يعجزون عن الوصول إلى قاربنا بالإضافة لهذا شعرت أن الأحراش الكثيفة غير قابلة للاختراق.. هناك عيون فيها لكنها لا يمكن اختراقها..

كذلك كانت الصرخات أقرب إلى الحزن والأسى ولا توحى بالشراسة والهجوم.. شيء ما في قاربنا ملأ المتوحشين حزنا لسبب لا أفهمه إنه رد فعل أقرب إلى النفور منه إلى التهديد

لما انقشع الضباب وواصلنا المسير، رأينا على بعد ميل ونصف من مقر (كورتز) جزيرة صغيرة في منتصف النهر.. لما اقتربنا أدركت أنها مجموعة من الجزر الصغيرة أكثرها تحت الماء، كما ترى سلسلة ظهر الرجل تحت جلده

اتجهنا إلى الغرب لأنني أعرف أن المحطة توجد في الغرب ما إن مررنا حتى أدركت أن القناة أضيق مما تصورت

فجأة رأيت الزنجي الذي يختبر عمق النهر يتخلى عن مهمته ويرقد على السطح.. بالمثل وجدت الوقاد يترك عمله ويدفن رأسه بين يديه.. أصابتني الدهشة، ثم وجدت أن عصيا كثيرة تخرج من الأحراش..

وتضرب كل شيء.. عصى.. عصى

رباه! نحن نقذف بالسهام! لكننا سنرتطم بالضفة هرعت إلى جانب القارب فرأيت وجها على نفس مستوى وجهي.. ينظر لي بوحشية وثبات.. ثم كأنما أزيل غطاء عن عيني، رأيت أن الدغل يعج بأجسام برونزية عارية.. وعيون براقة غاضبة اهتزت الغصون ومنها خرجت آلاف الأسهم وأمامنا رأيت جذع شجرة في منتصف التيار ثم سمعت من تحتى من يقول:

- هل يمكنك أن تتراجع؟

ثم انطلقت القذائف من تحتى.. إن المسافرين إلى قلب الظلام قد جاءوا ببنادقهم، وسرعان ما راحوا يقذفون بالرصاص

إلى الدغل.. وتصاعد الدخان واندفعت الأسهم كسرب النحل، ولربما كانت مسمومة لكن بدا لي أنها لا تقدر على إيذاء قط

ودوت بندقية من خلفي فأصابتني بالصمم لا توجد مسافة كافية للتراجع القهقرى حتى لو أردت هذا.. لهذا اندفعت نحو الضفة حيث الماء أكثر عمقا، واخترقنا مجموعة من الغصون المتشابكة تدحرج عملاق ليسقط عند قدمي.. كان هذا هو مراقب الدفة.. ثمة شيء دافئ عند قدمى.. نظرت لأسفل فرأيت أن رمحا يخترق ضلوعه

وقدرت أن أمامنا بضعة أمتار يمكننا بعدها أن نعود إلى وسط النهر، بعدما نكون تجاوزنا الجذع الطافي.. كان حذائي الآن مليئا.. بركة دم تغطى الأرض.. الرجل يتشبث بالرمح بين ضلوعه في كأنه شيء ثمين يخشى أن انتزعه منه.. كان رعب

على أن أبذل جهدا كي أحرر عيني من نظرته وأوجه اهتمامي إلى عجلة القيادة بيد واحدة بحثت عن الصفارة.. وسرعان ما انطلق الصراخ المخيف الغاضب ليدوى في الأحراش.. كأنما ينعى اختفاء آخر أمل من على وجه الأرض.

كانت هناك حركة في الأحراش.. توقف شلال السهام ثم ساد الصمت خرج لي أحد البيض الراحلين إلى قلب الظلام، وقال لي:

- أرسلني المدير..

ثم رأى جثة الزنجي فهتف:

- يا إلهى الرحيم!

ووقفنا فوق الجثة.. بينما المحتضر يرمقنا بنظرة متسائلة غمرتنا.. بدأ كأنما سيسألنا سؤالا بلغة مفهومة لنا، لكنه لفظ أنفاسه بلا صوت.. دون أن يحرك عضلة.. وتلاشى بريق عينيه في نظرة زجاجية خاوية

سألت الرجل الأبيض:

- هل تستطيع تحريك عجلة القيادة؟

بدا لي حائرا فأمسكت بذراعه مكررا سؤالي لأقول الحق؛ كنت راغبا بشدة في استبدال جوربي وحذائي الملوثين بالدم

- الزنجي مات..

- لا أشك في هذا.. وأعتقد أن مستر (كورتز) هو الآخر قد مات

وشعرت بخيبة أمل كأنما سافرت كل هذه المسافة لا لغرض إلا لأرى مستر (كورتز).. بل أدركت كم كنت أصبو لسماعه يتكلم

ألم أسمع دائما . مع الكثير من الحسد أو الغبطة أو المقت . أن الرجل يجمع من العاج ما يفوق ما يجمعه الآخرون جميعا؟

طوحت بحذائي إلى النهر.. وقلت لنفسي:

- بحق السماء قد تأخرنا جدا.. لن أرى الرجل أبدا ولن أسمعه، والسبب رمح وسهم وعصا..

ولسبب ما شعرت كأنما سلبت عقائدي، أو فقدت آخر هدف لي في الحياة.. تقولون إن هذا سخف! سخف؟

ماذا تعرفون أنتم يا سادة وأنتم تجلسون هنا بصحة طيبة وحرارتكم سليمة؟ ماذا تعرفون عن رجل بلغ به الجنون وهذيان الحمى أن تخلص من حذائه الجديد في النهر؟!!

طبعا كان مكتوبا لي أن أسمع كلمات (كورتز) وإن لم أفهم هذا وقتها فيما بعد استطعت أن أرى كتيبا كتبه (كورتز) عن طريقة تهذيب السكان المتخلفين في تلك الأصقاع.. كيف وجد الوقت لذلك؟ لا أدرى؟

كانت أول فقرة قد صدمتني.. لأنها تقول: «من وجهة نظر التقدم الذي أحرزه الرجل الأبيض، فمن الضروري أن يرانا المتوحشون ككائنات خارقة للطبيعة.. وأن نتعامل معهم من منطق الألوهية وبالتدريب البسيط يمكن أن نصل إلى قوة لفعل الخير هي . عمليا . غير محدودة..»

كان منطقه رائعا برغم أنه من الصعب تذكر الكلمات كما تعرفون.. لقد جعلني أشعر بقشعريرة من الحماسة تلك هي قوة البلاغة.. قوة الكلمات.. وفي نهاية الكتيب ملحوظة بيد غير ثابتة، كأنها البرق، تقول:«أبيدوا كل المتوحشين!»

وكأنما نسى تماما كل ما قاله عن أساليب الحيلة لكنه كان شخصا غير طبيعي.. كانت لديه القدرة على أن يخلب لب المتوحشين كي يرقصوا من أجله رقصات سحرية.. وأنا لن أستطيع أن أنساه برغم أنى أومن أن الرجل لا يستحق تلك الحياة التي فقدناها ونحن نحاول الوصول إليه

لقد افتقدت ذلك الزنجي المسئول عن الدفة.. افتقدته حتى وجثته مازالت ساخنة على أرض قمرة القيادة هذا قد يبدو لك غريبا بالنسبة لمتوحش لا تمثل حياته أكثر من ذرة رمل في

الصحراء.. لكنني عرفته واعتدت أن أراه على الدفة خلفي.. عونا.. أداة.. نوعا من الزمالة.. كنت أعنى به، وقد تكونت صداقة بيننا لم أدر بها إلا حين تحطمت.. ولم أزل أذكر نظرته لي كأنما هي مطالبة بقرابة بعيدة بيننا فما إن وجدت خفين جديدين، حتى انتزعت الرمح من جانبه.. وهي عملية أعترف أنني قمت بها بعينين مغلقتين. احتضنته وجذبته نحو الباب.. كان ثقيلًا.. ثقيلاً.. أثقل من أي رجل على الأرض.. ثم ألقيت به في اليم.. والتقطه التيار بسهولة كأنه بعض العشب، وانقلب مرتين قبل أن يحمله الماء بعيدا..



كان ثقيلاً .. ثقيلاً .. أثقل من أى رجل على الأرض ..
ثم ألقيت به فى اليم .. والتقطه التيار بسهولة ..

ووقف بعض المسافرين نحو قلب الظلام يرمقونني في نوع من التأفف لخشونتي.. لا أدرى إن كانوا يعتقدون أنه من الإنسانية أن أتركه للأبد على ظهر القارب وفي قاع القارب كان

السود كذلك غير راضين عنى، وإن كان لأسباب أخرى. لكنى كنت قد قررت أنه لو التهم أحد صديقي هذا، فالأسماك وحدها لها الحق في ذلك.. كان رجل دفة رديئا في حياته لكنه الآن وقد مات صار طعاما من الدرجة الأولى.

ولربما سبب لنا المتاعب وكان الجميع الآن يعتقدون أن المتوحشين قتلوا (كورتز) وحرقوا المحطة قال لي الرجل الذي كان قد تولى القيادة والذي أخذت منه العجلة الآن:

- قل لي.. لابد أننا ذبحنا الكثيرين منهم في الأحراش.. هل ترى هذا؟

وكاد يرقص من الانفعال.. هذا الحقير الظامئ للدماء.. كدت أقول له: إنك أحدثت سحابة دخان ممتازة جدا.. هذا كل شيء

فقد أدركت من الطريقة التي اهتزت بها الأحراش أن أكثر الطلقات كانت عالية جدا.. هؤلاء الشباب كانوا يطلقون النار لأعلى من جوار أردافهم وهم يغمضون العيون.. وقدرت . وكنت محقا . أن الانسحاب كان بسبب الصفارة العالية.. لا أكثر

ووقف المدير يغمغم شيئا عن ضرورة الابتعاد في النهر قبل الظلام بأي ثمن.. عندها رأيت فسحة بين الأشجار والمعالم الخارجية لمبنى.. سألته

- ما هذا؟

صفق بيديه في انبهار:

- المحطة!!

وعبر عدسات نظارتي المقربة، رأيت منحدر تل خاليا من النباتات، وثمة مبنى متهالك نصف دفين وسط أعشاب عالية

لم يكن هناك سور من أي نوع.. وإن تبينت بقايا واحد.. ثمة أعواد بارزة من الأرض تعلو كلا منها كرة في محاولة ما للزخرفة.. لكن لا يربطها شيء. وبالطبع كانت الغابة تحيط بهذا كله..

ضفة النهر كانت واضحة وعلى الضفة رأيت رجلاً أبيض يعتمر قبعة كأنها عجلة سيارة.. يشير لنا بلا توقف بذراعه كلها

وإذ تفحصت الدغل فوقه وتحته أكاد أقسم إنني ميزت حركة.. أشكالاً بشرية تنزلق هنا هناك أوقفت المحركات في حذر وتركت القارب ينزلق فوق الماء.. بينما راح الرجل على الشط يصيح ويطالبنا بالرسو

صاح المدير:

- لقد هوجمنا!

- أعرف.. أعرف.. كل شيء تمام

قالها الرجل في سرور لا يمكنك تخيله.. وأردف:

- كل شيء تمام.. أنا مسرور..

ذكرتني طريقته بشيء مضحك رأيته في مكان ما.. وقد رحت أسأل نفسي وأنا أحاذي الضفة: «من يشبه هذا الرجل؟»

ثم تذكرت فجأة.. يبدو كالمهرج.. ربما كانت ثيابه بنية يوما ما لكنها الآن مغطاة بكل ألوان الرقع: صفراء حمراء زرقاء..

حزام ملون حول خصره وقد جعله ضوء الشمس يبدو خليعا مبهرجا..

له وجه طفل أشقر بلا لحية.. لا ملامح يمكن أن تلاحظها.. عينان زرقاوان صغيرتان.. البسمة والتقطيبة تتسابقان على وجهه كالشمس والظل في واد تعصف به الرياح

- خذ الحذر يا كابتن.. هناك جذع شجرة استقر هنا البارحة..

- ماذا؟ جذع آخر؟

قلتها وأعترف أننى أطلقت سبة.. فقد أعددت نفسي لانتهاء هذه الرحلة الرائعة.. نظر لي المهرج وسألني:

- هل أنت إنجليزي؟

صرخت من وراء عجلة القيادة

- وأنت؟

كف عن الابتسام.. فسألته

- هل وصلنا في الوقت المناسب؟

هز رأسه نحو التل وقال:

- إنه هناك..

وصار مكتئبا فجأة.. إن وجهه كسماء الخريف التي تشرق فجأة ثم تتجهم فجأة وحين اتجه المدير والرجال إلى الكوخ . مسلحين حتى الأسنان . صعد ذلك الفتى إلى ظهر القارب..

قلت له:

- لا أحب هذا.. إن هؤلاء الوطنيين في الأحراش..

طمأنني أن كل شيء على ما يرام، وقال:

- إنهم أناس طيبون بسطاء.. وهم لا ينوون إيذاء أحد.

ثم صحح الأمر:

- ليس بالضبط.. على فكرة.. أعتقد أن قمرة قيادتكم بحاجة إلى تنظيف!

ثم نصحني أن أبقى الغلاية موقدة كي أطلق الصفارة في حالة حدوث متاعب

- صفارة واحدة جيدة ستفيد أكثر من كل بنادقكم..

كان يثرثر كأنما يحاول أن يعوض كل فترات الصمت، وقد اعترف أن هذه هي الحقيقة.. فسألته:

- ألا تتكلم مع مستر (كورتز)؟

- أنت لا تتكلم مع ذلك الرجل وإنما تصغى إليه.

ثم لوح بذراعه وأردف:

- أما الآن....

وفي لمح البصر كان مزاجه قد استحال إلى قمة القنوط واليأس. ثم في اللحظة التالية عاد له مزاجه المرح، وصافحني بكلتا يديه بينما راح يتكلم:

- أخوك البحار.. هذا شرف.. سرور.. أقدم لك نفسي.. روسى.. ابن قس.. ما هذا؟ طباق إنجليزي؟ طباق إنجليزي ممتاز؟ تدخن؟ هل من بحار لا يدخن؟

بدأ التدخين يهدئه قليلاً.. وسرعان ما فهمت أنه فر من المدرسة وذهب إلى البحر في سفينة ورسية ثم فر وعمل على سفن إنجليزية.. ثم وصل إلى هنا..

- لابد للمرء حين يكون صغيرا من أن يجمع الخبرات والتجارب..

قاطعته في دهشة:

- هنا؟

قال في تقديس:

- لا يمكن أن تتنبأ بشيء.. هنا قابلت مستر (كورتز)..

لقد راح يجول في أعماق البلاد خالي الذهن من أي خطر كأنه طفل رضيع.. راح يجول حول النهر عامين وحيدا منعزلا عن كل شيء وكل شخص

قال لي:

- لست صغيرا كما تتوهم.. أنا في الخامسة والعشرين.. لقد أعددت لكم بعض الحطب.. هل رأيته؟ كان هذا بيتي القديم..

أعطيته الكتاب الذي احتفظت به، فبدا كأنما سيقبلني وهتف:

- الكتاب الوحيد الذي تركته وقد حسبت أنى فقدته..

وراح يقلب الصفحات فسألته:

- هل كتبت التعليقات بالروسية؟ لقد حسبتها مشفرة..

ضحك ثم استعاد جديته وقال:

- بذلت الكثير من الجهد لأبعد هؤلاء القوم..

- هل كانوا يريدون قتلك؟

صاح:

- لا.. لا..

فتابعت سؤالي:

- إذن لماذا هاجمونا؟

تردد ثم قال في شيء من الخجل

- لا يريدونه أن يرحل

وهز رأسه في كثير من الغموض والحكمة.. وصاح:

- أقول لك إن هذا الرجل قد جعل عقلي يكبر وفتح ذراعيه وهو يبتسم بعينيه الصغيرتين كاملتي الاستدارة..

☆ ☆ ☆

3

نظرت له في دهشة.. هو ذا أمامي في ثيابه الغريبة كأنما فر من فرقة ممثلي بانتومايم.. متحمس. وجوده ذاته لا يصدق وغير قابل للتفسير ومحير.. كان مشكلة لا حل لها.. من العسير فهم كيف وجد ولا كيف وصل إلى هنا.. وكيف بقى؟ وكيف لم يتلاش

قال لي:

- لقد ابتعدت قليلاً فقليلاً.. حتى وصلت لنقطة لا أعرف كيف أعود بعدها.. لا يهم.. ثمة وقت متسع فقط أبعدوا (كورتز) عن هنا بسرعة.. أنصحكم بهذا

شعرت نحوه بإعجاب.. ربما إلى درجة الحسد لسحر جعله يبقى حيا سالما في بقعة كهذه.. ولم يكن يطلب من الدغل شيئا إلا متسعا يمكنه أن يتنفس فيه. لو أن روح المغامرة المطلقة النقية التي لا تحسب حساب شيء.. لو أن هذه الروح اختارت أن تحل في بشر، فهو هذا الفتى..

أما عن (كورتز) فهو لم يسع له.. لقد هبط عليه وتقبل هو الأمر بنوع من القدرية.. لكنى أجد أن هذا اللقاء هو أعظم خطر مر بهذا الفتى حتى اللحظة.. أعتقد أن (كورتز) كان بحاجة إلى مستمعين ويبدو أن الفتى ظل يسمعه ليالي بأكملها

قال الفتى متذكرا:

- تكلمنا عن كل شيء.. نسيت أن هناك شيئا اسمه النوم.. لم يبد لي أن الليل طوله أكثر من ساعة.. كل شيء..

- ومن وقتها لم تتركه؟

حكى لي في فخر كيف أنه مرض مستر (كورتز) خلال مرضين.. لكن . كقاعدة عامة . كان (كورتز) يجول وحيدا في أعماق الدغل

- كنت أنتظر أياما وأياما حتى يعود..

- وماذا كان يفعل؟ يستكشف أم ماذا؟

- بالطبع.. لقد اكتشف الكثير من القرى وبحيرة.. لكن لا أعرف في أي اتجاه.. من الخطر أن تسأل أكثر من اللازم.. لكن المؤكد أنه كان يحصل على الكثير من العاج.. هناك الكثير من الخراطيش النارية هنا..

- تعنى أنه غزا البلاد؟

هز رأسه.. فسألته:

- ليس وحده طبعا..

قال إن سكان القرى حول البحيرة ساعدوه وأضاف:

- إنهم يعبدونه..

كان من الغريب أن ترى هذا الخليط من الشوق والنفور لديه عند الكلام عن (كورتز).. لقد أفعم الرجل حياته.

قال لي:

- ماذا تتوقع؟ لقد جاءهم بالبرق والرعد

ولم يكونوا قد رأوا شيئا كهذا.. وهو رجل شنيع.. يمكنه أن يكون شنيعا.. لا تستطيع الحكم على هذا الرجل كما تستطيع مع رجل عادي.. كي أعطيك فكرة عنه.. لقد أراد أن يطلق النار على ذات يوم.. لكنني لا ألومه..

صحت مستنكرا:

- يطلق عليك النار؟ لمه؟

- حسن.. كان لدى القليل من العاج الذي أعطانيه زعيم تلك القرية.. لكنه أراده ولم يسمح للمنطق أن يتكلم.. وأوضح أنه سيقتلني ما لم أعطه العاج، لأنه يريده.. ولا شيء في الأرض يمكن أن يمنعه من قتل من يرغب في قتله.. أعطيته العاج.. لكنى لم أرحل..

- كان على أن أكون حذرا حتى تعود صداقته لي.. بعدها مرض.. كان يعيش أكثر الوقت في القرى المجاورة للنهر.. لقد عاني هذا الرجل كثيرا، وكان يمقت هذا كله.. لكنه كان مصرا على البقاء.. كان يردد أنه راغب في الرحيل لكنه لا يرحل أبدا.. وينطلق في رحلة أخرى من أجل العاج، وينسى نفسه وسط أولئك القوم

- لكنه مجنون إذن!

اعترض في كبرياء.. مستر (كورتز) ليس مجنونًا لو سمعته يتكلم منذ يومين لما جرؤت على أن أصفه كذلك.. كنت قد رفعت نظارتي المقربة في أثناء الكلام ورحت أتفقد الشط.. لم تكن الأحراش تتحرك كأنها القناع.. وكانت ثقيلة كباب سجن..

كانت تبدو وكأنها تخفى الكثير.. كأنما هي تخفي الكثير من الترقب الصبور والصمت الذي لا يخترق..

كان الروسي يحكي لي كيف توارى (كورتز) لفترة، ثم عاد مع مجموعة من رجال قرى البحيرات. عازما فيما يبدو على شن غارة على مجموعة أخرى من القرى.. من الواضح أن شهوة الحصول على المزيد من العاج قد انتصرت على رؤاه الأقل مادية.. لكن حالته ساءت فجأة.

- سمعت أنه راقد عاجزا لذا جازفت بأن آتى لأرى..

صوبت النظارة إلى البيت.. لم تكن هناك علامات حياة.. قمت بتحريك الضبط قليلا فوثبت بقايا السور إلى عدسات النظارة.. وكانت نتيجة هذا الفعل أننى أرجعت رأسي إلى الوراء كأنما تلقيت ضربة.. هذا هو ما حسبته من قبل محاولة للزخرفة وكنت مخطئا.. لم تكن هذه الأشياء المستديرة زخرفة.. لكنها رموز معبرة محيرة.. إنها غذاء للأفكار.. لكنها كذلك غذاء للنسور.. على الأقل بالنسبة للنمل الذي يتسلق السياج في حرية تامة ربما كانت هذه الرءوس المغروسة على العصى أكثر تأثيرا لو أن وجوهها لم تدر نحو البيت.. فقط أولها كان ينظر لي.



ربما كانت هذه الرءوس المغروسة على العصى أكثر تأثيرًا
لو أن وجوهها لم تدر نحو البيت ..

لكنني لم أصدم كما تتصورون.. إن الحركة التي أجفلت بها كانت تعبر عن الدهشة أكثر منها عن الرعب..

كان الوجه أسود مجعدا كأنما هو ينام فوق العمود. والأسنان البيضاء تلتمع كأنما هو يبتسم كذلك يبتسم من حلم لا ينتهي في نعاسه الغامض هذا.. أنا لا أكشف أسرارا تجارية، لكن المدير قال لي فيما بعد إن أساليب مستر (كورتز) هذه خربت المنطقة ليس لي رأي في الموضوع لكن أريد منكم أن تفهموا أن هذه الرءوس مشروع غير مربح على الإطلاق هي فقط ترينا كيف أن مستر (كورتز) لا يستطيع كبح شهواته.. ثمة شيء يفصح عن نفسه في أوقات معينة لا تستطيع بلاغته العظيمة وحدها أن تمنحه إياه..

لا بد أن الوحدة قد علمته أشياء عن نفسه لم يعرفها من قبل.. همست له بكلمات خلبت لبه ترددت في أعماقه الخاوية كأنها الصدى خفضت النظارة فبدا الرأس الذي كان قريبا منى إلى حد أن بوسعي الكلام معه.. بدا بعيدا جدا..

قال لي الروسي إنه لم يجسر على أن ينزل هذه الـ.. هذه الرموز.. لم يكن يخاف الوطنيين فهم لن يتحركوا إلا إذا أمرهم مستر (كورتز).. فسطوة الأخير عليهم مذهلة إن زعماء القبائل يأتون كل يوم كى يروه.. وهم يزحفون على ركبهم حين يقتربون

صحت:

- لا أريد سماع شيء عن الطقوس التي يمارسونها حين يرون (كورتز)..

لسبب ما شعرت أن هذه التفاصيل أكثر بشاعة من تلك الرءوس المعلقة على السور.. لقد شعرت بأننى في كون متوحش حيث الوحشية الخالصة الخام شيء معقول.. بل ومسموح له بالوجود تحت الشمس. لم أصغ لتفسيراته للأمر من أن هذه

الرءوس كانت رءوس متمردين.. وقد أدهشته بضحكتي.. متمردون!

ما الكلمة الجديدة التي سأسمعها؟ لقد سمعت عن الأعداء والمجرمين والعمال.. ثم جاء دور المتمردين.. لكم بدت هذه الرءوس المتمردة هادئة الآن على أوتادها..

قال الفتى:

- أنت لا تتصور كم أن هذه الحياة تضغط على رجل مثل (كورتز)..

- لكنك تتصور ذلك؟

- أنا رجل بسيط بلا أفكار عظيمة.. لا أبغى شيئاً من أحد.. كيف تقارننى به؟

وتأججت عواطفه حتى انهار أخيرا فقال:

- أنا لا أفهم.. حاولت جهدي كي أبقيه حيا. ولا يد لي في هذا كله.. لا توجد هنا قطرة دواء ولا لقمة من الطعام المعقول منذ شهور.. لقد تركوه منبوذا.. يا للعار! تصور رجلاً كهذا بأفكار كهذه.. يا للعار! أنا لم أنم منذ عشرة أيام..

وضاع صوته في هدوء الظلام.. كان الكوخ قد غاب في الظلام بينما ظللنا نحن في الشمس.. لا حياة على الشاطئ..

فجأة قرب ركن البيت ظهر حشد من الرجال كأنما نبتوا من الأرض.. كانوا يمشون وسط العشب الذي يبلغ الخصور حاملين محفة مرتجلة.. وفجأة من الفراغ دوت صرخة كأنها سهم اخترق السكون ليستقر في قلب الأرض..

وكأنه بمفعول السحر تدفق من الدغل سيل من الرجال العراة يحملون الرماح والدروع والسهام والنظرات الموحشة.. اهتزت الأحراش وتأرجح العشب.. ثم تصلب كل شيء في سكون مترقب

قال الروسي:

- الآن لو لم يقل لهم الشيء الصحيح فقد انتهى أمرنا..

كان الرجال الذين يحملون المحفة قد تصلبوا كأنما هم حجارة، بينما هم متجهون إلى القارب.. ورأيت الرجل الذي على المحفة يجلس ويرفع ذراعه.. فقلت:

- لنأمل أن الرجل الذي يجيد الكلام سيجد سببا لإنقاذنا هذه المرة.

واستأت من سخف خطورة موقفنا.. وكأن وجودنا تحت رحمة هذا الشبح المتوحش، هو ضرورة مهينة.

رأيت الرجل يرفع يده ويأتي بإشارات.. وعيناه تلمعان في رأسه الواهن.. (كورتز).. هذه كلمة معناها (قصير) في الألمانية.. أليس كذلك؟ كان في الاسم من الحقيقة قدر ما في أي شيء آخر في حياته.. وموته.. لا بد أن طوله لا يقل عن سبعة أقدام.. لقد سقطت الملاءة وظهر جسده.. مثيرا للشفقة مرعبا كان بوسعي أن أرى ضلوعه.. وعظام ذراعه كان صورة متحركة للموت نحتت من عاج قديم، تهز يدها مهددة في جمع الرجال المصنوعين من برونز براق

رأيته يفتح فاه فبدا كأنما يحاول التهام الهواء كله... الأرض كلها.. ثم سقط..

اهتزت المحفة وتقدم حمالوها.. ولاحظت في الوقت ذاته أن حشد المتوحشين بدأ يختفى.. كأن الغابة التي بصقتهم قد استنشقتهم ثانية إلى داخلها..

وكان المدير يمشى جواره يهمس بشيء في أذنه وقد نقلوه إلى كابينة صغيرة على القارب البخاري..

مجرد مكان لفراش ومقعد.. كانوا قد أحضروا مراسلاته وخطاباته، فراحت يده تعبث في وهن بين هذه الأوراق.. وقد تسمرت لما رأيت النار في عينيه لم يبد متألما.. وكان ظله راضيا هادئا

فتح أحد الخطابات ونظر لي مباشرة في عيني، وقال:

- أنا مسرور..

هناك من كتب له عنى.. إن التوصيات تظهر إلى السطح ثانية وقد أثارت دهشتي كمية الصوت التي خرجت منه دون جهد.. حتى من دون أن يبعد شفتيه.. صوت! أي صوت! كان جادا عميقا رنانا بينما الرجل لا يبدو قادرا على الهمس.. لكن كانت فيه قوة كافية كي يحسم أمرنا كما ستعرفون فيما بعد

ظهر المدير صامتا على الباب.. خرجت فأسدل الستار من خلفي.. وكان الروسي يرمق الساحل تابعت نظرته فرأيت أشكالاً سوداء عن بعد.. وقرب النهر شبحان برونزيان يستندان إلى رمحين طويلين، وعلى رأس كل منهما غطاء رأس جميل من الجلد المبرقش

ومن اليمين إلى اليسار تحرك شبح متوحش جميل لامرأة.. كانت تمشي بخطى محسوبة، ملفوفة في ثياب مخططة.. تطأ

الأرض بفخر.. مع رنين حليها وزينتها البربرية رأسها شامخ وشعرها مصفف كأنه خوذة.. وقد بلغت الحلى النحاسية ركبتيها ومرفقيها.. وعدد لا يحصى من قلائد الخرز حول عنقها.. وكان هناك شيء مثير للتوجس في مشيتها المصممة.

وسط هذا الصمت بدا كأن الدغل الرهيب ينظر لها. اتجهت إلى القارب البخاري ووقفت تواجهنا صامتة.. ظلها الفارع يسقط على صفحة الماء.. على وجهها أسف متوحش وألم عميق.

هناك وقفت تنظر لنا دون حركة.. كأنما ترعى هدفا غامضا

غمغم الفتى الواقف جوارى.. وتذمر المسافرون من خلفي.. نظرت لنا كأنما حياتها كلها تتوقف على ثبات هذه النظرة.. فجأة فتحت ذراعيها ورفعتهما إلى السماء كأنما تبغى لمسها.

واستدارت عائدة إلى الأحراش على اليسار.. مرة واحدة فقط استدارت ونظرت لنا قبل أن تتوارى

قال الفتى في عصبية:

- لو طلبت أن تصعد إلى القارب، فلربما قتلتها رميا بالرصاص.. لقد جازفت بحياتي كل يوم طيلة أسبوعين كي أبعدها عن الدار.. تشاجرت معها بسبب أنها لم تعجب بالخرق التي كنت أدخرها لإصلاح ثيابى.. ربما كان هذا هو السبب.. لقد شكتنى لـ (كورتز) وراحت تشير لي وهي تتكلم.. لا أفهم لغة تلك القبيلة، لكن من حسن حظى أن (كورتز) كان مريضا بحيث لم يهتم بكلامها.. لا أفهم.. على كل حال قد انتهى هذا كله الآن..

هنا سمعت صوت (كورتز) من وراء الستار

- أنقذني.. أنقذ عاجي أيها المنحط.. لا تقل لي شيئا.. أنت تعرقل خططي.. مريض مريض! لست مريضا كما تحب أن تعتقد سأنفذ أفكاري برغم كل شيء.. سأعود وأريك ما يجب عمله.. أنت تعوق عملي.. أنا..

هنا خرج المدير وتأبط ذراعي واقتادني جانبا وقال:

- حالته عسيرة.. عسيرة..

وجد من الضروري أن يتنهد لكنه لم ير ضرورة لأن يبدو آسفا..

- فعلنا كل ما يمكن من أجله.. ألم نفعل هذا؟ لكن يجب أن نعترف بأنه آذى الشركة أكثر مما أفادها.. لم يفهم أن الوقت ليس ملائما للأعمال العنيفة.. يجب أن نكون حذرين.. تلك سياستي.. إن المنطقة مغلقة بالنسبة لنا لفترة. هذا مؤسف! برغم أنه مازال لدينا الكثير من العاج أكثره من الحفريات. لكن انظر مدى حرج موقفنا.. والسبب؟ لأن أسلوبه لم يكن سليما..

سألته ناظرا إلى الشط:

- هل تعتبر الأسلوب غير سليم؟

صاح في حرارة:

- بلا شك.. ألا ترى هذا؟

قلت بعد قليل:

- لا أرى أن هناك أسلوبا على الإطلاق..

وأردفت:

- على كل أنا أعتقد أن (كورتز) رجل متميز..

جاء الروسي ودق بإصبعه على كتفى لينبهني إلى ما يقول:

- أخي البحار.. لا أستطيع أن أخفى معرفة أمور قد تؤثر في سمعة مستر (كورتز)

كنت أعتبر المستر (كورتز) في قبره بالفعل الآن، لكن الفتى أعتبره خالدا لا يموت.. فقلت له:

- تكلم..

قال إنه لو لم يشعر بأننا زميلان في المهنة، لما تكلم أصلا.. لأنه يشعر بأن هؤلاء الرجال البيض لا يدخرون نية طيبة تجاه مستر (كورتز)..

قلت له إنه على حق، ونصحته أن يبحث عن أصدقاء من المتوحشين يحمونه لو كان له بينهم أصدقاء

- الكثير منهم.

وقال لي همسا إن (كورتز) هو الذي أمر المتوحشين بالهجوم على القارب البخاري

- كان يكره فكرة أن يؤخذ بعيدا. لكني لا أفهم هذه الأمور.. أنا رجل بسيط.. فكر في أن هذا سيجعلكم تعودون من حيث جئتم إذ تحسبونه قد مات.. ولم أستطع منعه..

ثم أضاف:

- سأرحل أنا.. هناك قارب وثلاثة رجال سود ينتظرون على مقربة..

وافقته.. فتناول قبضة من التبغ الخاص بي، وقال:

- هذه أمور بين البحارة وبعضهم.. كما تعلم. طباق إنجليزي ممتاز..

وقبل الرحيل توقف وسألني عما إذا كان لدى حذاء.. ورفع قدميه فوجدت أن حذاءيه لا نعل لهما.. وإن تم ربط الأطراف بالحبال كالصندل.. أعطيته حذاء قديما عندي، فتفحصه في إعجاب، ثم وضعه تحت إبطه.. بدا كأنما هو راض تماما عن استعداده للمواجهة القادمة مع البرية

قال:

- رباه! لن أقابل رجلا كهذا مرة أخرى أبدا.. لو أنك سمعته يتلو الشعر.. شعر! ومن تأليفه!

واتسعت عيناه كأنما يستعيد تلك الخبرات.، وأضاف:

- لقد جعل عقلي يتسع..

- وداعا..

فصافحني وتواري في الظلام.. أحيانا أتساءل عما إذا كنت قد رأيته حقا.. عما إذا كان من الممكن أن توجد ظاهرة عجيبة كهذه!

صحوت بعد منتصف الليل لألقى نظرة..

هناك على التل كانت نار هائلة تشتعل.. وكان أحد رجالنا مستعينا بعدد من رجالنا السود، يحرس العاج..

لكن في الغابة كانت أضواء حمراء متراقصة تحدد بالضبط الموضع الذي أقام فيه عبدة مستر (كورتز) معسكرهم.. كي يسهروا فيه سهرتهم الشاقة

ثمة صوت طبلة رتيب يدوى في الهواء.. وجاء صوت مجموعة من الرجال يغنون تعاويذ غامضة كل لنفسه.. دندنة كأنها طنين النحل تبعث تأثيرا منوما على حواسي نصف النائمة

أعتقد أنني نمت وأنا استند إلى الحاجز، حتى اندلعت صرخات حادة.. جنون غامض أيقظني في حيرة.. ثم سرعان ما انتهى من جديد وعادت الدندنة

نظرت إلى القمرة فرأيت ضوءا لكن مستر (كورتز) لم يكن هناك

لولا أنني كنت نصف غاف، لأطلقت صرخة رعب.. الحقيقة هي أن الرعب المجرد الوحشي تملكني. وهو لا يمت بصلة لأى رعب مادى، سرعان ما تغلبت على هذا الهلع الأولى، وهدأت قليلا.. حتى إنني لم أصرخ أو أستدعى الآخرين

توجهت إلى الشاطئ.. والسبب هو أنني شعرت بالحاجة إلى مواجهة الكابوس الذي صنعته لنفسي كنت بحاجة إلى هذه التجربة دون أن أشرك أحدا سواى فيها

فما أن بلغت الشط حتى رأيت طريقا بين الأعشاب

أذكر الفرحة التي قلت بها لنفسي:

- الرجل لا يقدر على المشي بل هو يزحف على أربع.. سأظفر به..

كان العشب مبتلا بالندى

في خيالي رأيت العجوز ذات القطة جالسة تنسج.. ورأيت المسافرين يطلقون الرصاص لأعلى من بنادق الونشستر

قلت لنفسي إننى لن أعود إلى القارب أبدا وتخيلت نفسي وحيدا بلا سلاح في الأحراش حتى أشيخ

أفكار بلهاء.. ولقد واصلت تتبع الأثر.. كان الليل صافيا كأنه فضاء أزرق تقف فيه أجسام سوداء متصلبة ساكنة.

دنوت منه ولو لم يكن قد سمعنى لسقطت فوقه لكنه نهض في الوقت المناسب.. شاحبا مهتزا كأنه بخار خرج من الأرض.. لقد قطعت عليه الطريق ببراعة لكن حين واجهته ثبت إلى رشدى.. رأيت الخطر بحجمه الحقيقي..



دنوت منه ولو لم يكن قد سمعني لسقطت فوقه ..
لكنه نهض في الوقت المناسب .. شاحبًا مهتزًا ..

ماذا لو صرخ؟ برغم أنه واهن جدا لكن صوته ما زال قويا..

قال لي:

- ابتعد.. أخف نفسك!

نظرت خلفى فوجدت أننا على بعد ثلاثين ياردة من أقرب نار.. قلت له:

- هل تدرك ما تفعله؟

- تماما..

ورفع صوته بما بدا لي كأنه صراخ.. فقلت لنفسي لو أحدث جلبة فلسوف نضيع

- سوف تضل طريقك..

أحيانا يهبط الإلهام على المرء.. لقد قلت الشيء الصحيح برغم أنه ما كان ليضل طريقه أبدا كما ضله في تلك اللحظة.. اللحظة التي بدأت أواصر صداقتنا تتكون فيها

قال:

- كنت على حافة إنجازات عظيمة.. والآن جاء هذا الوعد..

قلت مؤكدا:

- نجاحك في أوروبا لا يحتاج إلى إثبات. بالمناسبة.. لو صرخت سأضطر إلى كتم نفسك..

لم أكن أحب أن أكتم أنفاسه كما تعلمون.. ولو فعلت لما أجداني هذا فتيلاً، لكني كنت أريد أن أحطم سحر البرية المسيطر عليه.. السحر الذي يناديه ويحيى فيه غرائز منسية متوحشة. هذا فقط . كما اقتنعت -كان هو ما يقوده مبهورا مفتونا إلى الدغل.. إلى وهج النيران.. وقرع الطبول

لم يكن الخطر هنا هو أن أتلقى ضربة قاتلة على رأسي، برغم أنني كنت أفهم هذا الخطر جيدا، ولكن أننى مضطر للتعامل مع كائن لا يمكن أن أروق له.. بل ربما اضطررت مثل الزنوج إلى أن أتضرع له كي يقتنع ويهدأ.. لكنه كان قد تحرر من كل قيود الأرض.. ركل الأرض كي يبعدها عنه

لقد تبادلنا بعض العبارات لكنها كانت كأنها تقال في الأحلام والكوابيس.. الروح! لو كان هناك رجل في هذا العالم قد تكلم مع روح فأنا هو! لم يكن لي من منجى ولا حل إلا قتله وقتها وحيث كان.. لكن كان في هذا خطر لا بأس به، لو فكرنا في الضوضاء التي ستحدث

لكن روحه كانت قد جنت.. لقد أصابتها الوحدة وسط البرية بالجنون.. وكان على أن أقترب منها فتشوه كل ما أعرفه عن الإنسانية.. رأيت لغز الروح التي لم تكن لديها ضوابط.. لم يكن لديها إيمان.. لم يكن لديها خوف.. لكنها تحارب نفسها

طيلة الوقت

وحين استطعت أخيرا أن أعود به وأرقده على الأريكة، كانت قدماى تهتزان من تحتى كأنما حملت طنا على ظهري.. برغم هذا لم أفعل إلا أن أسندته وذراعه العظمية حول عنقي، ولم يكن أثقل من طفل..

في ظهيرة اليوم التالي رحلنا.. كان الجمع الذي كنت أشعر به طيلة الوقت خلف ستائر الأشجار، قد خرج ليملأ الفسحة مغطيا المنحدر بكتلة من الأجساد البرونزية الراجفة.. أطلقت المحركات، وراحت ألف عين ترمق شيطان المياه وهو يضرب الأمواج مبتعدا، قاذفا بالدخان الأسود في الهواء

حملنا (كورتز) إلى قمرة القيادة، حيث كان هناك الكثير من الهواء.. وعلى الأريكة راح يرمق خصاص النافذة المفتوحة.. كانت هناك دوامة بين الأجساد وظهرت المرأة ذات الشعر المصفف كخوذة.

ركضت نحو حافة النهر، ومدت يديها وصرخت بشيء ما فردد الحشد صيحتها بأعلى صوت

سألت:

- هل تفهم هذا الكلام؟

ظل ينظر خلفى بعينين مشتاقتين تختلطان بتعبير يوحي بالمقت

لم يرد لكنه ابتسم.. ابتسامة لا معنى لها.. ظهرت على شفتيه عديمتي اللون اللتين ارتجفتا بعد هذا..

وقال:

- هل يمكن ألا أفعل؟

أطلقت صفارة القارب، لأنني رأيت ركاب القارب معى يتأهبون ببنادقهم وكأنما هم يترقبون صيدا ممتعا.. فلما دوى الصفير دب الرعب في كتلة الأجساد.. وصاح أحدهم على القارب:

- لا.. لا تفزعهم فيفروا..

لكني جذبت الخيط مرارا.. ففر القوم هلعا من الصوت.. فقط لم تتحرك تلك المرأة الخارقة البربرية ومدت ذراعيها نحو

النهر بشكل مسرحي..

عندها بدأ المعتوهون على القارب حفلهم، ولم أعد أرى شيئا من دخان الطلقات..

خرج النهر من قلب الظلام بسرعة.. يحملنا للبحر بضعف السرعة التي جئنا بها.. وكذا راحت روح (كورتز) تنساب منه بسرعة إلى بحر الأبدية.

كان المدير هادئا جدا فلا شيء يقلقه الآن أصدر (كورتز) صوتا.. صوتا! دوى عميقا حتى النهاية.. لقد قاوم! قاوم.. بقايا مخه المنهك تسكنها الظلال الآن.. أشباح الثروة والشهرة.. كان يتكلم عن «محطتى».. «مهنتى».. «خطيبتى»..

بحرارة ملتهبة

أحيانا كان يقترب من الطفولة، ويتمنى أن يلقاه الملوك في محطات القطار لدى عودته من لا مكان.. حيث نجح في تحقيق عظائم الأمور..

وكان يقول:

- ستريهم أن فيك شيئا عظيم النفع.. وعندها لن تكون هناك حدود لتقديرهم لكفاءاتك..

وكانت المنحنيات تتكرر في مسار القارب.. كأنها نفس المنحنى الأزلى.. بنفس الأشجار التي ترمق تلك القطعة الكئيبة القادمة من عالم آخر.. الأشجار التي سبقت ظهور التغيير.. الغزو.. التجارة..

ذات يوم قال لي (كورتز):

- أوصد النافذة.. لا أتحمل أن أرى هذا..

فعلت كما قال.. فقال:

- آه.. لكني سأعتصر قلبك برغم هذا!

قالها للبرية الغامضة

احتجنا للاستقرار في جزيرة بعض الوقت لإجراء إصلاحات، وكانت هذه أول مرة تهتز فيها ثقة (كورتز).. ذات صباح أعطاني بعض الأوراق وصورة فوتوغرافية كلها مربوطة برباط حذاء

قال لي:

-= احتفظ بها لي.. هذا الوغد المؤذى (يقصد المدير) يمكن أن يتلصص على صناديقى لو تغافلت عنه..

عند الظهيرة وجدته نائما على ظهره ينظر لأعلى، فكدت أنسحب لكن سمعته يغمغم:

- عش كما يجب.. ثم مت.. مت..

ولم يقل شيئا آخر.. هل كان يسمع خطبة في نومه أم هي بقايا شيء في جريدة؟ كان يكتب لبعض الصحف وكان يأمل في أن يعاود ذلك كانت ظلمته غير قابلة للاختراق، وكنت أنظر له كما أنظر إلى رجل يرقد في قاع أخدود حيث لا تصل الشمس أبدا.

لكن لم يكن لدي وقت كاف له لأنني كنت أساعد الميكانيكي في إصلاح السلندرات المثقوبة وغير ذلك كنت أعيش في كتلة

جهنمية من الصدأ والمطارق والمثاقب، وكلها أشياء أكرهها لأنني لا أجد نفسي فيها.

ذات ليلة دخلت عليه بشمعة فأفزعني أن أسمعه

يقول:

- أنا أرقد هنا في الظلام بانتظار الموت..

كان الضوء على بعد قدم من عينيه.. وقد وجدتنى مرغما على أن أقول:

- كلام فارغ!

ووقفت أمامه كأنما أنا مسمر لم أر قط شيئا يشبه ذلك التغير الذي طرأ على ملامحه.. وأتمنى ألا أراه..

لم أتأثر لكني افتتنت.. رأيت في وجهه العاجي سمات كبرياء وقوة بلا رحمة وذعر جبان.. سمات يأس عنيف.. هل يعيش من جديد حياته بكل ما فيها من شهوة وإحباط وألم في هذه اللحظة من المعرفة الخارقة؟

صاح مرتين.. صيحة هي أقرب إلى التنفس:

- الهول! الهول!.

أطفأت الشمعة وغادرت القمرة كان المسافرون يلتهمون العشاء فجلست أمام المدير، الذي نظر لي متسائلاً.. لم أرد فاسترخي في مقعده وعلى فمه تلك الابتسامة الغامضة التي يختم بها على سفالته ذباب كثير يحوم حول المصباح وعلى المفرش

وعلى أيدينا فجأة أدخل خادم المدير رأسه الوقح الأسود من الباب وقال في ازدراء:

- مستاه كورتز.. هو موت..

هب الجميع ليروا، وبقيت أكمل عشائي.. لابد أنهم اعتبروني قاسيا بوحشية.. لكني لم آكل الكثير.. في الخارج ظلام موحش.. ظلام قاس.. لكني أعرف أننا سندفن شيئا ما غدا

لقد كادوا يدفنونني معه..

كما ترون لم ألحق بـ (كورتز) هناك وساعتئذ بقيت أحلم بالكابوس حتى النهاية.. مضحكة هي تلك الحياة.. ترتيب غامض من المنطق القاسي لغرض ما.. كل ما تأملون منها هو بعض المعرفة لأنفسكم..

لقد تصارعت مع الموت.. وكانت تلك أسوا مباراة يمكن أن تتخيلوها

إنها تحدث فى فراغ رمادي دون أرض تحت قدميك.. ولا شيء حولك.. ولا مشاهدين ولا مجد ولا الرغبة في الفوز.

لو كانت هذه هي صورة الحكمة العظمى، فإن الحياة لغز أكثر تعقيدا مما نحسب.

كانت تلك آخر فرصة لي لأقول شيئا ذا بال قبل أن أموت، لكني لم أجد ما يقال.. لذا أقول إن (كورتز) كان شخصا متميزا.. كان لديه ما يقال وقد قاله..

ولأننى دنوت من حافة الموت مثله، فإنني أفهم نظرته.. العينين اللتين لا تريان اللهب لكنهما تريان الكون كله، وتخترقان

كل القلوب التي تخفق في الظلام..

لقد لخص كل شيء وأصدر حكمه:

- الهول!

لقد كان رجلاً مرموقا.. وكانت كلماته تحوى الاقتناع.. تحوى التمرد.. تحوى مذاق الحقيقة.. لها رنين خليط من الرغبة والمقت..

لقد خطا الخطوة الأخيرة فوق الحافة، أما أنا فقد سمح لي القدر بأن أتراجع بقدمي المترددة.. ربما تتاح لنا كل الحكمة.. كل الحقيقة.. كل الصدق في اللحظة القصيرة التي نخطو فيها فوق حافة الظلام

☆ ☆ ☆

ما زالت أصداء بلاغة (كورتز) تصلني بعد كل هذه الأعوام.. وفي المدينة رحت أرى الناس يركضون في الشوارع يتحايلون على سرقة بعض المال من بعض، ويلتهمون الكعك بسرعة، ويعبرون الطرقات أراهم فأكاد أضحك لأن في تظاهرهم بالحنكة شيء من الإدعاء.. إن أحدهم لا يعرف عن الأمر قدر ما أعرف.

أجسر على القول إنني لم أكن على ما يرام في تلك الأيام بعد عودتي إلى المدينة.. لم يكن من شيء يغفر سلوكي الغريب، لكن حرارتي لم تكن طبيعية وقتها..

وأصرت عمتي الطيبة على أن تمرضني، لكن لم تكن قوتي هي التي بحاجة إلى تمريض.. كان خيالي هو الذي يحتاج إلى أن يهدأ قليلاً..

كانت معى مجموعة أوراق (كورتز) لا أعرف بالضبط ما أفعله بها.. لقد توفيت أمه مؤخرا..

وذات يوم جاءني رجل حليق الوجه يضع عوينات مذهبة الإطار وله طابع رسمى، ووجه لى بعض أسئلة غير مباشرة في البداية ثم صارت خانقة لأنه يرغب في الحصول على (بعض المستندات).. ولم أندهش لطلبه لأننى تشاجرت مرتين مع المدير على نفس الموضوع.

رفضت طلب المدير، وكذا رفضت طلب هذا الموظف.. لذا بدا مهددا وقال إن من حق الشركة أن تحصل على كل ما معى من أوراق.. وأن تحصل على أية معلومة عن (مقاطعاتها)

وقال:

- لا بد أن علم مستر (كورتز) ببعض الأماكن المجهولة لنا، هو علم واسع ودقيق.. بفضل قدراته الخاصة والظروف القاسية التي كان فيها.. لهذا..

قلت له إن مستر (كورتز) لم يكن يهتم بأشياء تعنى الإدارة..

هنا توسل باسم العلم:

- ستكون خسارة لا تقدر بمال لو.. إلخ... إلخ..

عرضت عليه التقرير الخاص بـ (كبح العادات الوحشية) وانتزعت الملحوظة التي كتبها (كورتز) في نهايته

أخذه في لهفة.. ثم بدا عليه الإزدراء وقال:

- ليس هذا هو ما نملك الحق في توقعه

قلت له:

- لا تتوقع شيئا آخر.. فلا توجد سوى خطابات شخصية..

انصرف مع تهديد بإجراءات قانونية.. ولم أره ثانية.

ثم جاءني من يعتبر نفسه (ابن عم كورتز) بعد يومين.. وكان متلهفا كي يسمع أخبار لحظات قريبه الأخيرة.. وأفهمنى أن (كورتز) كان موسيقارا بارعا..

قالها الرجل ولم أر ما يدعوني إلى الشك في هذا.. ولقد عجزت تماما عن فهم مهنة (كورتز) الأصلية لو كان يملك مهنة.. ولعل هذه أهم مواهبه.. لعله رسام يكتب أو صحفى يستطيع الرسم.. لكن حتى ابن عمه لم يستطع أن يحدد من هو.. كان عبقريا عاما..

وافقت الفتى على هذا بينما انسحب في حزن.. حاملاً بعض الخطابات والذكريات العائلية

ثم جاءني صحفى كث الحاجبين يسأل عن ساعات صديقه الأخيرة.. وقال لي إن (كورتز) كان سياسيا نشطا

واعترف لي برأيه أن (كورتز) لم يكتب على الإطلاق

- لكن رباه! ما أبرع الرجل في الكلام! كان يكهرب الاجتماعات الكبرى.. كان لديه اليقين ألا ترى هذا؟ كان يستطيع أن يجعل نفسه يؤمن بأي شيء.. أي شيء.. كان زعيم حزب من الدرجة الأولى..

- أي حزب تعنى؟

- أي حزب..

ثم سألني:

- هل تفهم السبب الذي جعله يذهب هناك؟

قلت: إنني أعرف وأعطيته التقرير إياه كي ينشره لو رآه مناسبا.. نظر له في لهفة وغمغم بأنه (سوف يصلح) ثم بادر إلى الفرار بما غنمه..

هكذا وجدت نفسي مع حزمة خطابات وصورة الفتاة.. أدهشني أنها جميلة.. أعرف أن حتى ضوء الشمس يمكن أن يكذب، لكن ما من طريقة تخدعك باظهار ملامح الصدق والصفاء البادية في هذا الوجه.. يمكنها أن تصغى دون تحفظ ذهني ولا شكوك.. بلا تفكير في نفسها..

قررت أن أذهب وأعطيها صورتها والخطابات

فضول؟ نعم.. مع شعور آخر.. لقد انتهى كل ما كان (كورتز).. عاجه.. خططه.. محطته.. لم تبق إلا ذكراه وخطيبته.. وقد أردت أن أتخلص من هذه أيضا كي لا يبقى لي إلا النسيان

لا أعرف حقا ما الذي أردته.. ربما هو نوع من الولاء اللا شعوري.. لا أعرف.. لا تفسير لدى.. لكنى ذهبت لألقاها

وعند الباب العالي ما بين المباني الشامخة في الشارع الساكن المزخرف، كأنه زقاق معتنى به في مقبرة، رأيته على المحفة.. يفتح فمه بشدة كأنما ليلتهم كل الأرض بمن عليها من بشر

كان مازال حيا كأنه ظل أكثر قتامة من ظل الليل ملفوفا بعناية في كفن الكلام البليغ

بدا كأنه يدخل البيت معى.. ومعه حاملو المحفة وحشد المتعبدين وكآبة الدغل.. وقرع الطبول وقلب الظلام.

كانت لحظة نصر للبرية.. وذكرى ما قاله هناك في وهج النيران بين الغابات الصبور، وتلك الجمل المهشمة.. كلها عادت لي.. سمعتها بوضوح بكل ما فيها من بساطة مخيفة وتذكرت ما قاله لي يوما

- هذا العاج كله لي.. لا يخص الشركة في شيء فهي لم تدفع ثمنه.. أنا جمعته وخاطرت كثيرا جدا ماذا تحسب واجبي أن أفعل؟ أقاوم؟ لا أبغى سوى العدل..

لم يبغ سوى العدل.

كررت هذه العبارة لنفسي وأنا أقف أمام باب من خشب الماهوجني.. وإذ انتظرت شعرت بأنه يرمقني من وراء الزجاج.. تلك النظرة التي تبدو كأنما هي تكره الوجود كله

كان الغسق يهبط.. وانتظرت في غرفة فاخرة متغطرسة بها ثلاث نوافذ ترتفع من الأرض إلى السقف.. المدفأة من رخام أثرى، وثمة منضدة ثمينة جاءت في ثياب سود ورأس شاحب.. تطفو نحوى في الغسق.. كانت تلبس الحداد برغم أن عاما مر على وفاته.. منذ بلغتها الأخبار.. لكن بدا أنها ستنعيه للأبد

أمسكت بيدى بين يديها وقالت

- سمعت أنك قادم..

لاحظت أنها ليست صغيرة السن جدا.. ليست طفلة.

كانت لديها قدرة ناضجة على الإخلاص.. على التصديق.. على المعاناة

وبدا كأن كل ضوء المساء الحزين قد اتخذ على جبينها ملجأه.. وكأن حاجبيها محاطان بهالة رمادية

تنظر عيناها لي من خلالها.. وكانت تحمل رأسها الحزين في فخر بكل هذا الأسى.. وكأنها تقول:

- أنا.. أنا فقط أعرف كيف أحزن عليه كما يستحق..

ولاحظت أنها لم تكن من تلك المخلوقات التي هي دمى للزمن يلعب بها كما يشاء.. بالنسبة لها مات (كورتز) أمس.. وقد جعلتني أشعر بالشيء ذاته سمعتهما معا ورأيتهما معا

وفي هلع سألت نفسي: ما الذي أفعله هنا؟

سألتني أن أجلس فجلسنا

وضعت الحزمة في رفق على المنضدة، فوضعت يدها عليها.. وغمغمت بعد دقائق من صمت حزين:

- أنت عرفته جيدا؟



وضعت الحزمة في رفق على المنضدة ، فوضعت يدها عليها

قلت

- العلاقات الحميمة تنمو بسرعة هناك..

- وأعجبت به؟ من المستحيل أن تعرفه ولا تعجب به.. أليس كذلك؟

قلت لها بلا راحة:

- كان رجلاً مرموقا..

وقبل أن تستقر عيناها على شفتي بحثا عن مزيد من الكلمات، استطردت:

- كان من المستحيل أن

- تحبه؟ أي صدق! أي صدق! لكن حين تفكر أنه ما من أحد عرفه مثلي! نلت كل ثقته الكريمة.. عرفته أفضل من سواى

كررت كلامها:

- عرفته أفضل من سواك..

ربما فعلت.. لكن مع كل كلمة من كلامها كان الظلام يتزايد في الغرفة.. فلم يبق وامضا إلا جبينها الأبيض ينيره وهج الإيمان والحب.

واصلت الكلام:

- أنت كنت صاحبه.. صديقه.. لا بد أنك كنت كذلك ما دام أعطاك هذه وأرسلك لي.. أشعر بأن بوسعي الكلام معك.. لا بد من أن أتكلم معك.. لا بد أن تعرف أننى كنت جديرة به.. ليس غرورا.. نعم.. كنت أفهمه أكثر من أي واحد على الأرض.. ومنذ ماتت أمه لم يعد لي من أحد كي كى....

ازداد الظلام كثافة

لم أكن واثقا من أنه أعطاني الحزمة الصحيحة ربما أراد مني أن أعنى بحزمة أخرى رأيت المدير يتفحصها بعد موت (كورتز)..

والفتاة تتكلم بلا توقف.. تتكلم كما يشرب رجل ظمآن..

كنت قد سمعت أن أهلها لم يرحبوا بـ (كورتز).. لا بد أن السبب كان فقره.. ولأسباب كهذه ذهب إلى حيث ذهب

كانت تقول:

- كان يجذب الناس إليه عن طريق خير ما فيهم من صفات..

ونظرت لي في ثبات وأردفت:

- تلك موهبة العظماء..

كان صوتها الخفيض يلخص كل الأصوات الأخرى مليئا بالغموض والحزن والأسى.. خرير النهر وحفيف الأشجار في الريح وهدير الزحام.. وهمس من يتكلم عبر حافة ظلام أبدى

وهتفت:

- لكنك سمعته.. أنت تعرف..

- نعم..

قالتها بشيء من القنوط.

لكنى خفضت رأسى باحترام لكل هذا الإخلاص..

لهذا النور الذي يلتمع في الظلام.. الظلام الذي لا أستطيع أن أحميها منه.. بل لا أستطيع أن أحمى نفسي منه

وقالت في كرم:

- أية خسارة لي.. لنا! للعالم!

ورأيت في آخر ضوء للنهار الدموع في عينيها.. دموعا من الطراز الذي لا يسقط.

- كنت محظوظة.. كنت فخورا.. أكثر حظا من اللازم.. والآن أنا تعسة.. للأبد!

ووقفت وشعرها الأشقر يقتنص كل الضوء الباقي في بريق ذهبي.. فنهضت

- ومن كل خططه.. من كل روعته لم يبق شيء.. سوى ذكرى لنا..

قلت متعجلاً:

- لسوف نتذكره أبدا..

- ومثاله! لسوف يقتدى به الناس دوما كانه الشمس..

- حقا..

ومدت ذراعيها لأعلى، فتذكرت ذلك المشهد.. هناك واحدة أخرى مدت ذراعيها وهي تقف على حافة ذلك النهر فى شموخ..

قالت فجأة:

- مات كما عاش..

قلت وأنا أشعر بغيظ في روحي:

- نهايته كانت جديرة بحياته..

- ولم أكن معه..

وبدأ غيظي يتلاشي في شفقة لاحد لها قلت لها راجفا:

- كنت معه حتى النهاية.. سمعت كلماته الأخيرة..

قالت بصوت محطم القلب:

- أعدها على مسمعى.. أريد شيئا أعيش معه..

كدت أصرخ فيها:

- ألا تسمعينها؟

كان الغسق يرددها في همس مستمر من حولنا: الهول.. الهول!

قالت لي مصرة:

- ألا تفهم؟ أريد كلماته الأخيرة لأعيش معها! فقد أحببته!

نهضت وقلت ببطء: -

- آخر كلمة قالها كانت.. اسمك..

شهقت.. ثم توقف قلبي لدى سماع الصرخة.. صرخة انتصار وألم لا يمكن وصفه:

- كنت أعرف هذا.. كنت واثقة!

كانت تعرف.. كانت واثقة.. وسمعتها تبكى كانت قد أخفت وجهها بين كفيها بدا لى أن البيت سينهار قبل أن أهرب..

أن السماء ستسقط على رأسى.. لكن لم يحدث شيء..

وتساءلت.. ماذا لو منحت (كورتز) العدل الذي يستحقه؟ ألم يقل إنه لم يرد إلا العدل؟ لكن لم أستطع.. لم أستطع أن أخبرها.. سيكون الظلام أكثر مما يحتمل..

☆ ☆ ☆

فرغ (مارلو) من قصته فجلس صامتا.. في وضع (بوذا) المتأمل لم يتحرك أحد لبرهة.. وفجأة قال المدير:

- لقد ضاع منا أول الجزر..

فرفعت رأسى لأرى أن أفق البحر تغطيه الغيوم الكثيفة.. والماء يمضى إلى نهاية الأرض تحت سماء مدلهمة..

كأنه يمضى إلى قلب ظلام هائل

جوزيف كونراو – ١٩٠٢

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس

Notes

[←1]

أحداث الرواية التالية ستدور في الكونغو البلجيكية.. لكن كلام الراوي أقرب إلى العموم والإبهام

روايات عالمية للجيب

46



كتب الدم

تأليف : كليف باركر

ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (46)

كتب الدم

تأليف: كليف باركر
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

كما أن القصة القصيرة العالمية تنقسم إلى مدرستين: مدرسة (جى دى موباسان)، ومدرسة (تشيكوف)، فإن كتابة الرعب (المعاصرة) تنقسم إلى مدرستين كبيرتين: مدرسة (ستيفن كينج)، ومدرسة (كليف باركر). وربما يضم البعض إليهما بعض المدارس الصغيرة مثل مدرسة (دين كونتز) و(آن رايس) التي لا تمل الحديث عن مصاصي الدماء فيما يبدو.. لا شك في أن (كينج) أكثر عمقًا وثقافة، لكن (باركر) أكثر تجديدًا وابتكارًا.. وربما غرابة..

كليف باركر كاتب ورسام إنجليزي، وُلد في ليفربول عام 1952، وقد استطاع أن يصير اسمًا مهمًّا في عوالم الكتابة للرعب، في وقت قصير نسبيًّا، وبعد ثمانية أعوام قضاها في كتابة المسرحيات، ثم صار مخرجًا مرموقًا لأفلام الرعب. بل إن (ستيفن كنج) قال عنه في أريحية مهنية: «لقد عرفت مستقبل قصة الرعب.. إن اسمه كليف باركر»، وهي كلمة لم يستطع التراجع عنها قط، ولم ينسها النقاد كلما ذكر اسم باركر. المشكلة الأساسية بالنسبة للجمهور الأمريكي كانت هي تحمل اللكنة البريطانية (المزعجة) في أفلامه، وهي مشكلة لم تطل بعدما ارتحل باركر إلى (بيفرلي هيلز) حي النجوم في هوليوود.

يقول باركر: «في رأيي أن ما تحتاج إليه لتقدم الرعب هو الخيال وأصالة الرؤية.. يجب أن يكون لك قصد ما.. ليس الأمر مجرد بعثرة المؤثرات الخاصة على الشاشة مهما كانت بارعة...»

مثلما فعل كينج أحيانًا، قام باركر بكتابة الأفلام وإخراجها، والتمثيل في بعضها - (الماشون نيامًا) و(الطريق الزئبقي)

و(المحرم) - ونلاحظ أن ظهوره في الفيلم الأول كان مجاملة مهنية لستيفن كينج.
لم يكن باركر مستجدًّا على مهنة الإخراج، ففي عام 1973 قام مع مجموعة من زملاء الجامعة بإخراج فيلمي (سالومي) عن مسرحية أوسكار وايلد و(المحرم) المقتبس عن قصة فاوست. وقد أخرج باركر الفيلمين كما قام بعمل المؤثرات الخاصة بنفسه. فيما بعد – بعد ما اشتهر باركر - تم استرجاع الفيلمين القصيرين.
قدم لنا أيقونات شهيرة جدًّا للرعب مثل الياترينج وجاك (1986): هنا قصة غريبة عن رجل يستحوذ عليه عفريت اسمه ياترينج أرسله الشيطان كي يصيب الرجل بالجنون. وسرعان ما يكتشف العفريت أن جاك له طرقه الفعالة لحماية نفسه.
في نفس العام (1986) أخرج كليف باركر أول فيلم من أفلامه الذي صار واحدًا من كلاسيات الرعب الحديثة **(الغاضب)**، Hellraiser وهو عن قصة له اسمها (سجين الجحيم).
ذرية الليل (1990): تحت مستوى العالم الواعي توجد مدينة سرية اسمها ميديان، حيث تحتشد الأرواح في قبر عتيق وفي مجتمع اسمه ذرية الليل. القصة الأصلية هي (كابل) وقد أخرجها كليف باركر بنفسه للشاشة.
رجل الحلوى (1993): قصة رهيبة تعلمنا ألا ننطق اسم رجل الحلوى (كاندي مان) خمس مرات متواصلة أمام المرآة.. إنه يعود دائمًا وتكون النهاية مريعة. أخرج القصة برنارد روز، وقد تم عمل استطرادين لها في أجزاء تالية.
سيد الأوهام (1995): عن قصته (الوهم الأخير) أخرج باركر بنفسه هذا الفيلم. وهو ناجح جدًّا في مصر بالمناسبة.

هكذا نجد أن (باكر) هو مؤلف سينمائي بالمعنى الحرفي للكلمة كما يستعملها الفرنسيون، وهو قادر على الوصول للصيغة الأعلى لفنه - كما يراها - بتحويله إلى رؤى على الشاشة، ولهذا كان من العسير الكلام عن أدبه دون الكلام عن أفلامه. المجموعة التالية من القصص القصيرة كتبها عام 1984، وقد حوَّل بعضها لأفلام شهيرة، وأرجو أن تروق لك.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

هذه المجموعة من القصص لا تناسب بتاتًا من تقل سنهم عن ستة عشر عامًا.. ربما كانت هذه العبارة مستفزة وتغرى بالتحدي و(عدم الخوف).. لكن المترجم يخلي مسئوليته على كل حال..

الياترنج وجاك



الياترنج وجاك..

لم يستطع الياترنج قط أن يعرف لماذا انتخبته القوى كي ترسله من الجحيم إلى (جاك بولو).. وكلما أرسل لسيده يسأله: ماذا أفعل هنا؟ كان يتلقى التوبيخ على فضوله.. ليس هذا ما يعنيه.. عمله أن يفعل أو يموت وهو يحاول..
وبعد ستة أشهر من البحث عن (جاك) بدأ الياترنج يشعر بخطر الاندثار.. إن لعبة (المساكة) لا تفيد أحدًا.. كان الياترنج يخشى القروح ويخشى الجذام النفسي (وهو مرض يصيب الشياطين السفلية)، كما كان يخشى أن يصاب بفقدان أعصابه فيقتل الرجل في لحظة غضب.
من هو (جاك بولو) على أية حال؟
مجرد شخص يستورد الخيار المخلل.. حياته منهكة وفهمه للسياسة بدائي، وتدينه شبه معدوم..
إن الرجل كان نكرة.. فلماذا يتعب نفسه مع أمثاله؟
لم تكن هذه مسرحية (فاوست) ولم يكن الأمر يتعلق ببيع الأرواح.. هذا الرجل لا يهمه في شيء أن يتلقى الإلهام الفلسفي.. سوف يهز كتفيه ويعود للخيار المخلل..
إلا أن الياترنج ارتبط بهذا البيت.. حتى يدفع الرجل إلى الجنون. كانت مهمة طويلة إن كانت لها نهاية أصلًا..
ظل (جاك بولو) أكثر الرجال جهلًا.. كان كذلك طيلة حياته.. فماذا يملك العفريت من فرص مع رجل مثل هذا؟
كان الرجل سطحًا من الزجاج، بينما العفريت كان يرغب في أن يغرس مخالبه في جراحه النفسية.. لكن مخالبه كانت تنزلق في كل مرة..

حتى المصائب في حياته لم تبدل من لا مبالاته..

« كى سيرا سيرا »[1]

كان الرجل يردد هذه العبارة بانتظام.. وبدا كأنه يعيش بفلسفة قدرية تامة.. تاركًا الهجمات على رجولته وطموحه وكرامته تنزلق من فوق ذاته، كما تنزلق قطرات المطر فوق رأسه الأصلع.

تركته زوجته سأمًا واتجهت إلى أحد الفنادق حيث انتحرت فلم يبال.. لذا قرر العفريت أن يتسلى عليه ببعض الحيل..

لكن غياب الزوجة جعل البيت خاليًّا في النهار، وقد ألقي هذا على الياترنج بعبء كبير من الملل.. الساعات من التاسعة حتى الخامسة كانت لا تطاق وهو وحده في المنزل، فكان يمشي من غرفة لأخرى راسمًا خططًا غريبة غير عملية للانتقام من هذا (البولو)..

صار الوضع لا يطاق حتى إن وصول البريد كان يعتبر قمة الإثارة في اليوم كله..

حين يصل (جاك) يبدأ المرح.. كان الياترنج يبدأ الروتين المعتاد للتسخين.. عند الباب كان يمنع مفتاح (جاك) من فتح القفل.. وتستمر المسابقة بعض الوقت.

ثم يدخل (جاك).. فتبدأ كل أغطية المصابيح تهتز.. لكن الرجل يتجاهل هذا الأداء، مهما بلغ عنف الحركة، ويغني كي سيرا سيرا.

وفي الحمام يكون الياترنج قد عصر معجون الأسنان حول المرحاض، وسد بالوعة الحمام بالمناشف الورقية وحتى تحت الدش كان يتعلق بالستارة ويهمس في أذن (جاك) بأشياء مشينة.. كانت طريقة لا تفشل لأن العملاء كانوا يحسبون هذه الأشياء المشينة أفكارهم الخاصة.. من ثم يشمئزون من أنفسهم ويجنون..

لكن هذه الطريقة كانت تفشل مع (جاك)..
في الحقيقة كان من الواضح من مجريات الأمور أن الياترنج هو من سينهار أولًا.. كان مرهقًا بحق.. أيام بلا نهاية يضايق فيها القط ويقرأ الصحف (البائتة) ويشاهد التلفزيون.
ظل يعرق في سجنه طيلة (يونيو) و(يوليو) و(أغسطس).. ولم يظهر (جاك) أي اهتمام بتحرشات الياترنج.
لقد كان هذا محرجًا، وقد بدأ الياترنج يفقد ثقته بنفسه.
بكى الياترنج..
صرخ الباترنج..
وفي نوبة غضب غلى الماء في حوض سمك الزينة فسلق الأسماك.. لكن (جاك) لم ير ولم يسمع.
في النهاية في سبتمبر خرق الياترنج أولى القواعد، وقدم التماسًا مباشرًا لسادته.
إن الخريف هو فصل مناسب للشياطين العليا.. وقد قبلوا الكلام معه.
سأله (بعلزبول) وصوته يسود الهواء:
- » ماذا تريد؟ »
قال الياترنج في عصبية:
- » هذا الرجل.. »
- » نعم.. »
- » هذا الـ (بولو).. »
- » نعم.. »
- » لا أستطيع أن أخيفه.. لا أستطيع حتى إثارة اهتمامه.. أرجو أن تبعدوني عن تعاستي.. »
للحظة تبدي وجه (بعلزبول) في المرآة فوق المدفأة:
- » ماذا تريد؟ »

كان (بعلزبول) نصف دبور ونصف فيل.. لهذا ارتجف قلب الياترنج خوفًا.
- » أريد أن أموت.. »
- « لا يمكنك الموت.. »
- » أريد أن أستبدل.. »
- » لا يمكن.. »
- » لكني لا أستطيع تحطيمه.. »
- « يجب أن تفعل.. »
- « ولماذا؟ »
- » لأننا نأمرك بهذا.. »
- » ولكن لماذا هو بالذات؟ »
- » لأن أمه وعدتنا بروحه لكنها لم تف بالوعد.. لقد خدعتنا.. لقد تابت عن ذنوبها وأفلتت من أيدينا، وهربت إلى.... »
ولم يستطع أن ينطق الكلمة المحرمة التالية.. فأكمل الكلام:
- » يجب أن نتعقب (بولو).. يجب أن يعاقب بذنب أمه.. ما من عقاب بالغ القسوة بالنسبة لأسرة خدعتنا.. »
توسل الياترنج:
- » أرجوك.. أنا مرهق.. »
- » هات الرجل أو ستتعذب بدلًا منه.. »
وتلاشى الخيال في المرآة. فقال الياترنج لنفسه:
- » أين كرامتك؟ الكرامة يا (ياترنج).. الكرامة.. »
بدافع الإحباط التقط الياترنج القط وألقى به في نيران المدفأة. فتفحم على الفور.
واستمرت العملية المؤلمة.. فلم يبد على الرجل ما يشير إلى الاستسلام.. وقد قتل الياترنج قطتين أخريين في الأسابيع

التالية.. جلبهما (جاك) لاستبدال قطته العزيزة التي صارت رمادًا..
القطة الأولى أغرقها الياترنج في المرحاض، لكن أثار غيظه كيف أن (جاك) حمل كتلة الفراء المبتلة ولفها في منشفة ودفنها في الفناء الخلفي، دون أن يلفظ حرفًا واحدًا..
القطة الثالثة شعرت بوجود الياترنج من البداية، وقد منح هذا الياترنج ساعات مسلية.. ثم في النهاية تخلص منها بعدما استفزه صوت مخالبها التي تشحذها على قطع الأثاث طيلة الوقت..
وحين عاد (جاك) إلى البيت منهكًا في المساء، وقف متصلبًا يرمق الفوضى التي خلفها القط.. فراء قط. مخ قط. أمعاء قط في كل مكان.. قال لنفسه في اشمئزاز:
- « كلاب شريرة.. شريرة.. »
سر هذا الإنجاز الياترنج وراح يتواثب في الشقة ويركل الأبواب، ويقلب المزهريات.. أخذ الوسادة وصنع منها شيئًا يشبه الوحش الجائع إلى اللحم البشري..
لكن (جاك) اكتفي بجمع بقايا القط.
دفنه ثم دخل إلى الفراش لينام من دون وسادة.
كاد الياترنج يجن.. ولو كان هذا كل ما يفعله الرجل حين يجد قطته وقد انفجرت في غرفة الطعام، فما هي فرصة الياترنج؟
بقيت فرصة أخيرة..
إن الكريسماس قادم، ولسوف تأتى ابنتا (جاك) إلى البيت، وقد راح الياترنج ينتظر فى لهفة انتهاء الأسابيع الأخيرة من ديسمبر، بينما كان (جاك) يعيش حياته كأنه مؤلف قصة يحاول ألا يقحم نفسه في الأحداث. لكنه نظف حجرة ابنتيه واستبدل بالملاءات

أخرى معطرة.. بل إنه وضع شجرة كريسماس في حجرة الجلوس.
جاء الجليد.. وجاء الأطفال ينشدون أغاني الكريسماس، فكان لطيفًا معهم.. على الأقل يمكن الاعتقاد لوقت قصير أن هناك سلامًا على هذه الأرض.
مساء الثالث والعشرين من ديسمبر جاءت الفتاتان محملتين بالهدايا.. وقد راقب الياترنج من المكان الذي اختاره لإدارة المعركة الابنة الصغرى (أماندا).. لم تبد فريسة مفضلة للرعب.. بالأحرى كانت مرعبة هي نفسها..
ثم جاءت أختها (جينا) بعد ساعتين.. فتاة أنيقة جميلة لا تقل خطرًا عن أختها..
جاءتا للبيت بضوضائهما وضحكهما.. ألقيتا بقايا الطعام في الثلاجة وأعادتا ترتيب الأثاث.. الخلاصة أن الياترنج شعر بأنه مريض..
راح يصغي للضوضاء مختبئًا في غرفة النوم، واعدًا نفسه بالانتقام.
كان (جاك) في غاية السعادة.. إنه منتش بابنتيه الجميلتين.. وهو يلعب دور الأب الفخور.. لكنه كان يشعر بالذنب بسبب تعريضهما لهذه المجازفة.. لو ألغى الكريسماس لأثار من حوله الظنون.. بل لربما أفسد خطته كلها وجعل العدو يتنبه إلى اللعبة التي يلعبها..
كلا.. فلينتظر حتى يأتي الوقت المناسب للعمل..
في الثالثة صباحًا بدأ الياترنج أعماله العدوانية بأن قذف بـ (أماندا) من فراشها.. فركت عينيها ونهضت لتعود إليه فقط لتجد أن الفراش يهتز ويتأرجح..
صحا البيت على الضوضاء وكانت (جينا) أول من دخل الغرفة:

- « ماذا هنالك؟ »
- « شخص ما تحت الفراش.. »
- « ماذا؟ »
التقطت (جينا) ثقل الورق وانحنت لتنظر تحت الفراش..
- » لا يوجد شيء.. »
- » بل هناك.. هناك من في الغرفة معنا.. »
دخل (بولو) المكان وتساءل:
- » ماذا يحدث هنا؟ »
- « هناك شيء في الغرفة يا أبي.. »
قرر أن يكذب.. هذا هو الوقت.. ويجب أن تكون كذبته معقولة جدًّا:
- « أيتها الحسناوان.. هذه مجرد كوابيس.. لا يوجد أحد.. سأفتش البيت لكن ابقيا هنا.. »
فتش البيت كنوع من الروتين، ثم عاد إلى ابنتيه الجالستين على الدرج، وقد بدت (أماندا) صغيرة شاحبة كأنها ليست في العشرين..
- » لا يوجد شيء.. »
هنا قرر الياترنج أن يطير المزهرية من فوق مدفأة غرفة الجلوس. ووثب (جاك) في الهواء..
كان بحاجة إلى النوم، لكن من الواضح أن (الياترنج) لا ينوي تركهم في سلام. قال لابنتيه:
- » كى سيرا سيرا.. إن البيت مال قليلًا جهة اليسار.. لا شيء غير هذا.. ربما كان هذا (بابا نويل).. »
قالت (أماندا):
- » ومن أدراك أن هذا ليس (بولترجايست)[2] ؟ »

- » نحن أشخاص بالغون لا نؤمن بالبعبع ولا تلك الأشياء التي تزحف في الظلام.. »
بعبع؟ لقد تأذت كرامة الياترنج من هذه الكلمة. أن تصف قوى الظلام بالبعبع..
لن تكون هناك رحمة بعد الآن.. سيكون هناك هلع.. سيكون هناك دم. سينهارون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (أماندا) في المطبخ تعد العشاء، والمنزل يدوي بصوت الأنشودة: يا مدينة (بيت لحم).. نحن ما زلنا نرنو إليك..
فجأة هبت ريح باردة أطفأت الموقد، فاقشعرت الفتاة واتجهت لتغلق النافذة. هنا شعرت بوضوح تام بأن هناك من ينظر إلى ظهرها.. استدارت.. لا أحد.. لا شيء..
وفي قاعة الجلوس كان (جاك) يمزح مع (جينا) بصدد شيء ما..
فجأة دوى صوت عال كأنما هناك من يضرب بابًا بكلتا قبضتيه.
وسقطت السكين من يد (أماندا).. ثمة صوت آت من الفرن..
أتراها أغلقت الفرن على شيء وهي تضع الديك الرومى؟ نادت أباها والتقطت قطعة قماش ودنت من الموقد الذي كان يرتج بسبب ذعر السجين فيه..
وصل (جاك) إلى المطبخ فقالت له:
- » هناك شيء في الفرن.. »
كأنما كان ينتظر تفسيرًا.. كل شيء يهتز ويترجرج..
أخذ منها قطعة القماش.. هذه جديدة.. يبدو أنك أبرع مما توقعت.. هذه بارعة وأصيلة..
فتح الفرن فتصاعد البخار الساخن الحارق، والديك الرومى بالداخل بدا أنه على غير استعداد لأن يؤكل.. كان يتواثب

ويضرب بأجنحته وقد صنعت ساقاه ندوبًا على جدار الموقد..
ثم شعر بالباب المفتوح، ففرد جناحيه ووثب.. بلا رأس يتساقط منه الحشو والبصل في كل مكان.. وراح يرفرف كأنما لم يخبر أحد الطائر البائس أنه ميت..
صرخت (أماندا)..
وثب الديك في الهواء في اللحظة التي خرج فيها الثلاثة من المطبخ وأغلقوا الباب، فاصطدم بالباب وسال المرق من تحت الفتحة ثخينًا دسمًا.
وبينما (جاك) يسند الباب شعر بالسخط على ثقته بنفسه.. إن خصمه يخفي في كميه حيلًا أكثر مما توقع..
أما (أماندا) فكانت تبكي.. وكل ما استطاعت هو أن تنكر ما رأته.. راحت تردد: لا.. لا وتهز رأسها كأنه طلسم ضد الهول الذي ما زال يضرب الباب من الداخل..
- » ما هذا؟ »
قال (جاك):
- » لا أعرف.. »
- » هل أطلب الشرطة أم طارد الأرواح الشريرة؟ »
- » لا أحد منهما.. »
كان يشعر أن الحرب بدأت.. الشبح كف عن الألعاب السخيفة وبدأ بالإيذاء الحقيقي لهم جميعًا.. تمنى أن يشرح لهما، لكن لابد أن الشيء موجود هنا معهم يسمع..
كان الياترنج الآن يستعد لضربة الخلاص..
بعد قليل دخل إلى غرفة الجلوس فوجد (أماندا) نائمة على الأريكة بينما أختها تقرأ كتابًا بعينين لا تريان.. وأين مستورد الخيار المخلل؟ إنه في الحمام يريح مثانته..
هذا الوقت عبقرى ومناسب جدًّا..

عبر الغرفة.. وفي نومها رأت (أماندا) شيئًا يعبر مجال بصرها.. شيئًا خبيثًا.. شيئًا له مرارة في الفم..
ورفعت (جينا) عينيها عن الكتاب فرأت الكرات الفضية في شجرة عيد الميلاد تهتز.. بل الشجرة كلها.. كل الشجرة تهتز..
شعرت بتوتر ومدت يدها تهز أختها، وصاحت في حزم:
- » أبي.. »
سمع (بولو) شيئًا فجرى إلى قاعة الجلوس متوقعًا أن يجد كل كلاب العالم السفلي تحيط بابنتيه.. لكنه وجد أنها شجرة عيد الميلاد.. تهتز.. تهتز..
نظر لابنتيه فوجدهما ترتجفان خلف الأريكة..
- » أخرجا من هنا.. »
وإذ قال هذا كان التلفزيون قد بدأ يرقص على رجل واحدة.. وكذا السجاجيد.. ومحراك النار في المدفأة.. وازدادت السرعة إلى درجة أن الأجسام الخشبية بدأت تلتهب وتصاعد الدخان في الغرفة.. وغادرت الكتب رفوفها وراحت تتقافز في المكان..
وبعقله تخيل (جاك) العفريت يركض بين كل هذه الأشياء يحاول أن يحركها في وقت واحد.. لابد أن هذا عمل شاق حقًا.. لا بد أنه موشك على فقدان الوعي..
ربما كان هذا هو الوقت الصحيح..
هربت الفتاتان من الباب وقد امتلأ جلدهما بالإبر الصغيرة من شجرة عيد الميلاد..
الآن بدأت الأشياء تفقد قدرتها على التحمل فانفجرت الشجرة.. ثم انفجر التلفزيون مرسلًا حاصبًا من الزجاج لينغرس في الجدار المقابل.. وتمزقت الكتب الثمينة.. فاضطر إلى أن يعطي ظهره للغرفة وهو يغطى وجهه بكوعه.. كأنه جندي في حقل قنابل..

كانت (جينا) عند الباب تتوسل لأبيها كي يغادر الحجرة، لكنه بدأ يستمتع بالمواجهة المكشوفة..
هرع إلى الباب وخرج منه بينما أغلقت الفتاة الباب خلفه وصاحت:
- » ما هذا؟ شبح؟ بولترجايست؟ شبح أمنا؟ »
إن فكرة أن تكون زوجته المنتحرة هي المسئولة عن كل هذا، بدت لـ (جاك) مضحكة بحق.
كانت (أماندا) تبتسم.. رباه! إنها تفقد عقلها.. لقد انهارت أعصابها لأن الحكمة لم تستطع أن تجد تفسيرًا لكل هذا الجنون..
سألته (جينا):
- « ما هذا؟ أنت تعرف.. »
- » لا أعرف.. »
- » بل أنت تكذب علينا.. »
- » أعتقد أنني.. سأتمشى قليلًا.. »
- » ماذا؟ تمشي؟ تتركنا هنا؟ »
- » سأجد من ينظف هذه الفوضى.. أنا بحاجة لبعض الهواء.. »
صرخت الفتاة:
- » لكن انظر لـ (أماندا).. إنها جنت تقريبًا.. »
لا لن ينظر لـ (ماندى).. لو نظر لبكي.. وهذا سيفسد كل شيء.. ليس الوقت وقت انهيار أو ضعف..
حاول فتح الباب لكن العفريت أغلق المزلاج.. أعاد فتحه فأغلقه العفريت ثانية.. كانت لعبة مخيفة..
لا يجب أن يتمادي حتى لا يتمادى العفريت.. فتح المزلاج.. انغلق المزلاج.. فتح.. انغلق.

كانت الفتاة وراءه تنظر ولا تفهم ما يجرى.. فهمت أن أباها يخوض معركة مع شيء لا تراه.. اتجه للباب الخلفي لكن المفتاح دار في القفل قبل أن يبلغه ثم طار في الهواء وتهشم إلى غبار.. نظر إلى النافذة وعلى الفور أغلقت هذه وأسدلت الستائر..
هنا كانت (جينا) قد فهمت خطة أبيها.. اندفع (جاك) كالمجنون نحو الباب الأمامي بينما كانت (جينا) قد أزاحت المزلاج.. وفتحت الباب.
لقد جن جنون الياترنج وهو يرى (جاك) يخرج من الباب.. كل ما تمناه أن يهشم جمجمته.. أن يفتك به.. لكن هذا ممنوع حسب القوانين.. ممنوع لمس الضحية..
وقف (بولو) على الجليد الزلق.. فعوى الياترنج ونسي أعوام تدريبه.. لم يكن يريد إلا أن يقتل (جاك)..
وهكذا عبر عتبة الباب.. وكان هذا خطأ لا يغتفر.. تعليماته تقضي بألا يغادر البيت أبدًا..
سمع (جاك) صوت الماء المغلي إذ راحت خطوات العفريت تذيب الثلج.. كان قادمًا خلفه! لقد حطم العفريت قوانين وجوده التي كان (جاك) يعرفها من قراءاته..
حاول (جاك) فتح البوابة لكن العفريت أوصدها..
أمسك برأس (جاك) بين كفيه وقرر أن يهشم العظام إلى غبار.
كانت اللمسة هي الخطيئة الثانية.. وقد تذكر الياترنج هذا بعد فوات الأوان.. وعرف عقاب ما ارتكبه.. معناه أن يصير عبدًا لهذا الأبله الذي يقف أمامه.
لقد ربح (بولو) المعركة.
الآن كان (بولو) يرى المعالم الخارجية للشيطان تتشكل في الثلج.. كأنها صورة فوتوغرافية تتكون على الورق.. إن العقاب

قد بدأ.. لن يتمكن الياترنج من الاختفاء عن عيني سيده مرة أخرى..

- » أيها الوغد! »

قال (بولو) بسلطة مطلقة:

- » لن تتكلم حتى أطلب منك.. هل تفهم؟ »

- » نعم.. »

- » قل: نعم يا سيد (بولو).. »

- » نعم يا سيد (بولو) »

وتدلى ذيله من خلفه كأنه كلب جلد بالسياط..

- » لكنهم سيظفرون بك برغم هذا.. »

- » من هم؟ »

- « أنت تعرفهم.. »

- « قل اسمهم.. »

أجاب في فخر:

- » بعلزبول.. قوى الظلام.. »

- « لا أظن.. ألم أبرهن على أنني أبرع منهم؟ »

وافق العفريت في مرارة:

- » بلى.. »

وبدأ يرتجف كأنه طفل ضل طريقه.. فقال (جاك):

- « أنت تشعر ببرد.. يجب أن تعود للبيت وتبدأ تنسيق ما أتلفته.. »

- » فقط هذا؟ لا تريد معجزات؟ لا تريد أن تتزوج (هيلين طروادة)؟ لا تريد الطيران؟ »

كان (جاك) بسيطًا في رغباته.. كل ما يريد هو أن يسعد مع ابنتيه وأن يجد موردًا جيدًا للخيار المخلل:

- » لا.. لا طيران.. »

ثم ابتسم واتجه إلى الباب، وقبل أن يدخل قال للعفريت:
- » هل تعرف ما أريد أن أقوله؟ »
- » نعم.. كى سيرا سيرا.. »
ابتسم (جاك) وفتح الباب ودخل وبهدوء أغلقه في وجه (الياترنج).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فى التلال والمدن



2- في التلال والمدن

لم يعرف (ميك) أي متعصب سياسى اختاره ليكون رفيقه في السفر حتى مر أول أسبوع له في رحلة (يوغوسلافيا). لقد سبق أن أُنذر بذلك، وقيل له إن (جود) ينتمي لسلالة (أتيلا) ملك الهون، وقد افترض (ميك) أن ما قيل هو من قبيل النكاية.

لو أنه فقط صدق الرجل، لما كان الآن يقود سيارته في طريق بلا نهاية، بسيارة (فولكس) بدا له أنها ضيقة كالتابوت، يصغي للرجل الذي يحكي له بلا نهاية عن التوسع السوفييتي.. رباه! لكم كان مملًا.. لم يكن يتناقش بل كان يحاضر.. وكان (ميك) على وشك أن يهشم رأسه العنيد بالمطرقة.

لم يكن ضد كل ما قال (جود).. بعض النقاط (تلك التي فهمها ميك) بدت معقولة جدًّا.. لكن ما الذي يعرفه على كل حال؟ لقد كان (ميك) مدرب رقص بينما (جود) كان صحفيًّا.. وعلامة في مهنته.

وكان يشعر كأكثر الصحفيين الذين قابلهم (ميك) في حياته، إن عليه أن يكون ذا رأى في كل شيء تحت الشمس.. خاصة السياسة التي كانت خير بركة يتمرغ فيها، وكان كل شيء بالنسبة لـ (جود) سياسة.. التجارة.. الدين.. الشرب.. الأكل.. وحتى غازات البطن سياسة.

رباه! لقد كان مملًّا.. مملًّا إلى حد لا يطاق.. والأسوأ أن (جود) لم يبال قط بملل (ميك).. ازداد كلامه تعقيدًا وطالت ثرثرته مع كل ميل يقطعونه..

وقرر (مايك) أن (جود) وغد أناني ولسوف يتركه في أقرب فرصة.

ولم يفهم (جود) مدى ضحالة اهتمامات (مايك) بالسياسة، إلا وهم يقطعون في رحلتهم مدافن وسط أوروبا.. إن الفتى لم يبد أي اهتمام باقتصاد أو سياسات البلاد التي يعبرونها. كان يتثاءب وهو يجادله في خطر الاتحاد السوفييتي على السلام العالمي. وكان عليه أن يواجه الحقيقة: (ميك) يملك عقل ملكة تتمرغ في نقوش عصر النهضة والأيقونات اليوغوسلافية. لكنه لا يبالي لحظة بالتناقضات والتعقيدات التي جعلت تلك الثقافات تزدهر، ثم تضمحل. وعقله ليس أكثر عمقًا من مظهره.. إنه نكرة وسيمة المظهر لا أكثر..

كان الطريق من (بلجراد) إلى (نوفي بازار) جيدًا بالمقاييس اليوغوسلافية. كان مستقيمًا وبه عدد أقل من المطبات. كانت مدينة (نوفي بازار) تقع في وادي (راسكا) وما كانت منطقة يؤمها السياح بكثرة، لكن (ميك) كان مصممًا على أن يرى الدير في (سوبوكانى) غربي المدينة.

لم تكن الرحلة ملهمة لأن الحقول على الجانبين كانت مغبرة والصيف حارًّا على غير المعتاد، وقد تأذت قرى كثيرة بالجفاف. وكان هناك جو عام من الإحباط يخيم على الوجوه التي رأوها، وحتى الأطفال كانت تعبيرات وجوههم قاسية وحواجبهم ثقيلة كأنها الحرارة التي تنصب على الوادي.

الآن كانا يقودان السيارة في صمت، لكن الطريق المستقيم كأي طريق مستقيم آخر، كان يغرى بالبحث عن شيء يشغل العقل.. فماذا عن مشادة«

تساءل (جود):

- « لماذا بحق الجحيم تريد أن ترى هذا الدير؟ »

كانت دعوة واضحة للشجار، فقال (ميك) الذي لم يكن في مزاج قتالى:

- » ما دمنا قطعنا كل هذه المسافة.... »
وبصوت حاول أن يجعله باردًا تناول الدليل وقرأ بصوت عال:
- » هنا بعض من أفضل أعمال الفن الصربي.. ومنها ما يتفق النقاد على أنه ذروة فن مدرسة (راسكا).. »
قال (جود) في ضيق:
- » كل شيء هنا تحفة فنية كما يقول هذا الكتاب اللعين.. »
- » إن هي إلا ساعة بعدها نواصل الرحلة وتحكي لي عن المعونات المالية للمزارعين في (ساندزاك) .. »
- » أنا فقط أحاول أن أدير محادثة مفيدة بدلًا من هذا البحث الذي لا ينتهي عن التحف الفنية الصربية.. »
- » أوقف السيارة.. »
- « ماذا؟ »
- » أوقف السيارة.. »
توقف (جود) بالسيارة (الفولكس) على جانب الطريق فغادرها (ميك). كان الطريق خاليًا من السيارات والمارة، فاتجه إلى جانب الطريق وجلس القرفصاء يتفحص شيئًا ما.
قال (جود) بصوت غاضب، وهو ما زال يأمل في المشاجرة التي يشتهيها:
- » لماذا جعلتنا نتوقف؟ «
كانت هناك نبتة صغيرة يمسك بها (ميك) وكانت موشكة على تكوين البذور.
قال (جود):
- « سألتك سؤالًا.. »
عاد (ميك) إلى السيارة وواصلا رحلتهما.. كانت الرابعة بعد الظهر وما زالت أمامهما ساعة من القيادة حتى يبلغا (نوفي بازار).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان اليوم التالي مشرقًا لكنه غير دافئ. وكانت رائحة الصباح حادة في الأنف كأنها الفلفل أو الأثير.
كان (فاسلاف بيلوفسك) يرقب الحمام في ميدان (بوبولاك)، يعبث مع الموت إذ يركض بين عجلات السيارات المسرعة. وكان يشعر بالشوق والإثارة مثله مثل أي طفل وأية امرأة في البلدة. ربما لهذا يلعب الحمام بهذا الخرق لأنه يتوقع ألا يحدث له شيء مؤذ في يوم كهذا.
بالفعل كانت أول المجموعات قد احتشدت في الميدان، وقد تغيب واحد أو اثنان بسبب المرض لكن الاحتياطيين كانوا جاهزين. في كل مكان ترى معجزات التنسيق.. يا للحماسة! كل واحد يعرف ما عليه بالضبط أن يفعله. لا تدافع ولا صراخ..
لسوف يكون يومًا طويلًا.. لقد كان في الميدان من قبل الفجر يشرب القهوة، ويتابع تقارير الأرصاد من (بريستينا) و(متروفيكا). وعبر الميدان يرى (مستنجر) قلقًا متعبًا مثله. لقد كانا صديقين، أما الآن فهما خصمان ولن يتكلما حتى تنتهي المسابقة. عليهما اليوم أن يتصرفا كأنما لا يعرفان بعضهما، ولا يتبادلا حتى الابتسامات. لأن كل واحد لا يهمه إلا انتصار بلدته.
الآن ارتفعت قدم (بوبولاك) الأولى.. وتم التأكد من سلامة كل شيء.. ثم غادرت القدم الميدان وظلها يسقط على وجه البلدة.
يا لها من أيام.. يا لها من أيام! أيام مليئة بالمجد والأعلام تكفى المرء عمرًا كاملًا.. كأنه تذوق مبدئي للجنة..
دع أمريكا تنعم بمسراتها البسيطة.. تنعم بفئران الرسوم المتحركة والتكنولوجيا.. فهو لا يرغب في هذا.. إن أروع شيء في العالم هو هنا في الجبال.

وفي بلدة (بودجيفو) لم يكن المشهد أقل حيوية.. برغم أنه كان ثمة إحساس بالحزن هذا العام.. إن (نيتا أوبرينوفيتش) المنظمة المحبوبة للمدينة قد توفيت.. لقد ظلت ستين عامًا تعمل مع مواطنى (بودجيفو) وتخطط للمسابقات التالية. وكانت لديها دومًا أفكار تجعل العرض القادم أكثر إمتاعًا. وقد حاولت ابنتها أن تتولى دور أمها، لكنها كانت تفتقر إلى قدرة أمها المغناطيسية على جعل الناس يعملون.

كانت مهمة كهذه تحتاج إلى قائد هو خليط من نبي ومدير حلبة.. ربما بعد عقود وبعد مسابقات أخرى، تستطيع ابنة (نيتا أوبرينوفيتش) أن تنجح..

على كل حال - في الثامنة وست دقائق – غادرت أول قدم من (بوديجوفو) خارجة من المدينة إلى مكان التجمع حيث تنتظر زميلتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ (ميك) في السابعة. برغم أنه لم يكن هناك منبه في غرفتهما المفروشة ببساطة فى (بيوجراد). رقد في الفراش يصغى لتنفس (جود) المنتظم في الفراش المجاور. ضوء خافت دخل من الستائر لا يغرى بالخروج المبكر. اليوم يذهبان إلى (كوسفسكا ميتروفيكا).. هناك سوق وربما متحف.. ثم الجبال.. نعم.. اليوم لا بد من أن يرى الجبال.

كانت الساعة الثامنة والربع.

الآن استعدت أطراف المدينتين للالتحام بالأجساد.

وضع (فاسلاف ييلوفسك) يده فوق عينه ليتقى الشمس، وتفقد السماء. ليس يومًا مناسبًا جدًّا للمسابقات لكنه كاف..

تناول (ميك) و(جود) الإفطار المكون من اللحم والبيض مع عدة أقداح من القهوة السوداء الجيدة. كانا الآن ينويان زيارة

(كوسوفسكا ميتروفيكا) في وقت الغداء، وربما زيارة قلعة (زفيكان) في العصر. وفي التاسعة والنصف غادرا (بزار نوفا)..
كان الطريق خاليًا اللهم إلا من بعض المارة وسط تلال أحاطت الغابات الكثيفة بجوانبها. لم تكن هناك صورة للحياة البرية إلا من خنزير أو آخر يعبر الطريق.
في البداية كان غياب البشر مبهجًا، لكن ما إن انتصف النهار حتى بدأ شعور بعدم الراحة يغمرهما.
- » أما كان يجب أن نرى علامة طريق إلى (متروفيكا) يا (ميك)؟ «
نظر للخارطة وغمغم:
- » ربما.. «
- » إذن أخطأنا الطريق.. «
- » كيف نخرج من هذا الطريق اللعين؟ هناك منحنيان.. «
- » هل معك سجائر ؟ «
- » انتهت منذ ميلين.. «
كان الطريق يزداد سوءًا. المطبات كأنها حفر تفصلها رواب تحت العجلات.. قال (جود):
- » حسن.. سنأخذ المنحنى التالى.. أي شيء أفضل من هذا.. «
ثم ظهر منحني.. ليس طريقًا بالضبط لكنه مخرج من الطريق الذي بلا نهاية والذي ينطلقان فيه.
قال (جود):
- » لقد صارت رحلة (سافارى) حقيقية.. «
- » أين حاسة المغامرة عندك؟ «
- « نسيت أن أخذها معي.. «
كانت (الفولكس) تصعد التل الآن.. وعبر ثعلب الطريق وراقب لوقت طويل إذ تندفع السيارة نحوه، ثم ابتعد في كبرياء كأنه

أمير لا يعرف الخوف..
في هذه اللحظات التحمت بقية الأطراف خارج ميدان المدينة.
لقد صارت المدينة خالية بالكامل. لم يبق حتى المرضى والشيوخ.. لم يحرم واحد من متعة المسابقات. خرج الجميع حتى المعوقين والمكفوفين والأطفال والنسوة الحوامل. كان القانون يرغمهم على الحضور لكن لم يقتض الأمر إرغامًا لأنه ما من مواطن في المدينتين رغب في أن يضيع الفرصة.
يجب أن تكون المواجهة شاملة.. مدينة ضد مدينة.. هكذا كان الأمر دومًا..
عند الظهيرة كان الحشد مكتملًا.. مواطنو (بوبولاك) و(بوديجيفو).. وسط التلال التي تخفي السر بعيدًا عن العيون المتحضرة..
عشرات ألوف القلوب تنبض بسرعة.. عشرات ألوف الأجساد متوترة.. خطواتها تهشم الأعشاب وتقتل الحيوانات الصغيرة.. التلال تردد صوت خطواتهم..
في جسد (بوديجيفو) كانت هناك مشاكل.. فالخصر لم يكن يتحرك جيدًا ولذا كان هناك عبء كبير على هذا الموضع من المدينة، لكن تم التعامل معه برجولة، فالمسابقة كانت تهدف إلى أن يصل المتسابقون إلى حدود الاحتمال.. إلا أن نقطة الانهيار كانت قريبة أكثر ما يجرؤ أحدهم على التفكير. وكان موسم الحصاد السيئ قد أدى إلى أن تكون الأجسام أضعف والإرادات أوهن. لم يكن الخصر الضعيف وحده مصدرًا للخطر لكن ضعف المتنافسين كان ينذر بمشهد هلالك لا يمكن تصوره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوقف الشابان السيارة.

- » هل تسمع هذا؟ «
لم تكن أذنا (ميك) على ما يرام منذ مراهقته بسبب إدمانه موسيقا الروك. وغادر (جود) السيارة.. إن الضوضاء التي سمعها لم تكن مجرد صخب.. كانت رجرجة في قلب الأرض ذاته.. في منابت الجبال.
هل هو رعد؟؟ لا.. إنه منتظم أكثر من اللازم. وسمعه (ميك) بدوره فأطل من نافذة السيارة.
- » ما هذا بحق السماء؟ أيًا ما كان فأنا راغب في رؤيته «
ابتسم (جود) وهو عائد إلى السيارة:
- « يبدو كأنه صوت مدافع.. مدافع عملاقة.. »
عبر عدسات نظارته المقربة، رأى (فاسلاف بيلوفسك) المسئول عن البدء، يرفع مسدسه. رأي الدخان الأبيض يخرج من الفوهة ثم سمع الصوت يتردد عبر الوادي.
لقد بدأت المسابقة.
كان المشهد رهيبًا.. هنا مدينتان تستعدان للخطوات الأولى للقاء في هذه المعركة الطقوسية.
ومن بين المدينتين تبدو (بوديجيفو) أقل ثباتًا.. وقد رفعت المدينة قدمها اليسرى لتبدأ الزحف.. لا مشكلة إلا في صعوبة تنسيق الحرقف مع عضلات الفخذ. بعد خطوتين وجدت المدينة الأمر أسهل، وبدأت تتسق حركة الناس كأنهم واحد.
- » هل سمعت طلقة؟ «
كان هذا سؤال (جود).
فهز (ميك) رأسه.
- » هل تدريبات جيش؟ «
وابتسم وقد تخيل عناوين الصحف: مناورات عسكرية سوفييتية في قلب (يوغوسلافيا).. بعيدًا عن عيون الغرب. بشيء

من الحظ يمكنه أن يظفر بهذا التحقيق.
بوم! بوم!
هناك طيور في السماء والرعد أعلى الآن.. يبدو كأنه صوت مدافع.
قال (ميك):
- » لا أظن أنه من الخير أن نقترب أكثر.. »
- » يجب أن أرى ما هنالك.. »
- » ليس من المفترض أن نكون هنا.. »
- » أنا لم أر أية علامات أو لافتات إنذار.. »
وكانت الكلمات قد خرجت من فيه بصعوبة حين بدأ الصراخ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت (بوديجيفو) تصرخ صرخة الموت.. هناك من مات من الضغط في الخصر الضعيف، وقد بدأ نوع من التفكك في المنظومة. هناك من تخلى عن جاره وجاره تخلى عنه، وتهاوى تكوين البرج بسرعة مخيفة، بينما كان فشل أي جزء تشريحي يلقي بحمل لا يوصف على الأجزاء الأخرى.
إن التحفة التي صنعها مواطنو (بوديجيفو) من لحمهم ودمهم تعثرت، ثم هوت كأنها ناطحة سحاب فجرت بالديناميت..
راح الخصر المهشم يبصق الناس كأنه شريان مقطوع ينز الدم.. ثم هوى إلى الأرض بينما ارتخت أطرافه الأربعة. وتهاوي الرأس العملاق الذي كان يلمس السحب منذ قليل، على عنقه. وصرخ عشرة آلاف فم صرخة واحدة كأنها توسل إلى السماء.
كيف ينتهي اليوم الأعظم.. يوم الأيام.. بهذه الصورة وسط الأجساد المتساقطة؟
- « هل سمعت هذا؟ »

كان صوتًا بشريًّا بلا شك.. لكنه عال بشكل يصم الأسماع. وتقلصت معدة (جود) ونظر إلى (ميك) الذي كان شاحبًا كالملاءة..
وأوقف (جود) السيارة. فقال (ميك):
- » لا.. »
كان صوت الأنين والصراخ يتعالى. وكان دانيًا جدًّا. كان (جود) الآن متأهبًا لمشهد عسكري مهيب كأن يرى كل الجيش الروسي هناك عند الهضبة التالية.
لكن هذه الصرخات بدت له بشرية جدًّا.. ذكرته بتصوراته في طفولته عن الجحيم.. لقد نسي هذه المخاوف منذ عشرين عامًا، لكنها الآن تعود له طازجة.
قال (ميك):
- » لو لم تقد أنت السيارة فسوف أقودها أنا.. »
وغادر السيارة ووقف أمامها.. بعد لحظة تردد التمعت عيناه بعدم التصديق. استدار إلى الزجاج الأمامي ووجهه أكثر شحوبًا مما كان وصاح:
- » رباه!! »
بصوت ملأه الغثيان الذي حاول أن يسيطر عليه. وكان صاحبه ما زال جالسًا هناك يجتر الذكريات.
- » جود! »
رفع عينيه ليجد أن الطريق قد أظلم على بعد أمتار من العربة.. كأنه المد يزحف عليها.. مدًّا كثيفًا من الدماء. حاول أن يجد تفسيرًا لما يراه فلم يستطع.. هذا بالفعل دم.. لا يوجد تفسير أكثر تعقلًا.. دم بلا نهاية ولا حدود..
وثب (ميك) إلى المقعد الجانبي للسيارة.. ولمعت عيناه.
- » تراجع.. »

بحثت أصابع (جود) عن الاشتعال.. كان مد الدم قد بلغ العجلات الأمامية وأمامهما صار لون العالم أحمر. لكنه لم يحاول تشغيل العربية.

- » لا بد من أن نرى.. لابد.. «

- » لا يوجد شيء نفعله إلا الابتعاد حالًا.. هذا لا يعنينا في شيء.. «

- » تحطم طائرة؟ لا دخان.. «

لكن (ميك) كان راغبًا في الرحيل حالًا.. بوسعه أن يقرأ عن المأساة في الصحف.. يمكنه أن يرى الصور غدًا.. اليوم كل شيء طازج ولا يمكن التكهن به.. أي شيء يمكن أن يكون في نهاية هذا الطريق الدموي..

أدار (جود) المحرك، بينما جواره راح (ميك) يكن بصوت خفيض. وانطلقت الفولكس وسط الدماء وعجلاتها تنزلق.. قال (ميك):

- » أرجوك.. لا.. «

قال (جود):

- » بل يجب.. يجب.. «

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على بعد بضع ياردات، أفاقت مدينة (بوبولاك) من الصدمة، وبألف عين راحت تنظر إلى بقايا عدوتها.. التي تكومت على شكل جبل من الأجساد فوق الأرض. راحت تمشي مبتعدة وأقدامها تهشم الغابة وذراعاها تضربان الهواء. لكنها احتفظت بتوازنها برغم الهلع الذي بدأ يغزو القلوب.

وإذ مشت عبر برجها بين السيارة والشمس فألقى بظله البارد.. لم ير (ميك) شيئًا بين دموعه، و(جود) لم يلحظ إلا أن الشمس

توارت للحظة.. ربما كانت سحابة عابرة..
فلو أنه نظر لأعلى في تلك اللحظة لرأي رأس (بوبولاك).. الرأس المزدحم للمدينة المجنونة يتجه نحو التلال. لو نظر لعرف أن هذه البلاد تتجاوز قدرته على الفهم.. ولعرف أنه لا يوجد ما يمكن عمله في هذا الركن من الجحيم. لكنه و(ميك) أضاعا آخر فرصة لهما.. ومن هذه اللحظة لم يعد لديهما أي أمل في الحياة.
دارا حول المنحنى، فرأيا خرائب (بوديجيفو).. لم يتصور خيالهما وجود مشهد بهذه الوحشية قط.. كانت جثث رجال ونساء وأطفال تختلط معًا. كان مشهدًا يفوق مبدأ الغثيان.. أمامه يبطئ العقل إلى سرعة البزاقة.. تبحث عن كلمة تقولها لنفسك: هذا لا يحدث.. هذا حلم بالموت وليس الموت نفسه.
لكن المنطق لا يجد ثغرة في هذا الجدار..
لقد سقطت مدينة (بوديجيفو).
ستة وثلاثون ألف مواطن وسبعمائة انتثروا على الأرض.. هؤلاء الذين لم تقتلهم السقطة أو الاختناق كانوا يحتضرون على كل حال. لم يبق إلا المعوقون الذين بقوا يراقبون المشهد، وكانوا الآن ينظرون إلى هذا المشهد الوحشي محاولين ألا يصدقوا..
كان (جود) أول من خرج من السيارة.. لم يكن من حطام طائرة.. لا نيران.. لا رائحة وقود. لكن كومة من الأجساد أكثرها يرتدي دروعًا حول الصدور والدروع تتصل بحبال بالغة الطول، وكلما نظر (جود) أكثر دهش لهذا النظام الغريب الذي يربط بين الأجساد وبعضها.
لسبب ما تم ربط هؤلاء القوم بالحبال، والبعض كان يركب على ظهر جاره. والبعض كان في كرة كبيرة غاصت الرءوس في داخلها.
دوت طلقة أخرى..

نظر (ميك) لأعلى..
بين الأجساد كان رجل يلبس معطفًا ويحمل مسدسًا في يده.. دنا منه (ميك) وصاح بصوت عال بسبب الضوضاء:
- » ما هذا؟ »
نظر له الرجل بوجه رمادي مثل معطفه.
- » أه؟ »
وقطب جبينه من خلف عويناته الغليظة وهو ينظر للقادمين.
فصاح فيه (ميك):
- » ماذا جرى؟ »
كان من الجميل أن يصرخ.. من الجميل أن يبدو غاضبًا.. كان بحاجة إلى شخص ما يلومه. وشعر بالصوت يختنق بالدموع:
- « بالله عليك قل لى.. »
لم يفهم الرجل كلمة مما يقول المعتوه الشاب، لكنه فهم أنه يتكلم الإنجليزية. مشى نحوه (ميك) شاعرًا بعيون الموتى تنظر له. آلاف العيون.
عند قدميه شعر (ميك) بمن يحاول الوصول إليه.. لم يرد أن ينظر لكن اليد لمست حذاءه فاضطر إلى النظر. شاب يرقد في وضع مستحيل كأنه صليب (سواستيكا)[3].. وأراد (ميك) أن يأخذ مسدس الرجل كي يمنع الشاب من الإمساك بساقه.. بل إنه أراد قاذف لهب ليمحو كل هذا الرعب..
نظر إلى ذي المعطف فوجده يضع فوهة المسدس في فمه ويطلق الرصاص.. ثم يسقط على الأرض..
صاح (ميك) قائلًا الكلمات للا أحد:
- » يجب أن.. أن.. »
قال (جود) من خلفه:

- » يجب أن.. نساعد.. »
- » يجب أن نرحل.. »
كانت هذه هي الكلمة التي يريد قولها.. نرحل.. نبتعد عن كل الأيدي المحتضرة..
- » لا بد من رجال دين.. »
كان من غير المعقول أن تؤدي الصلوات الأخيرة على كل هذا الحشد.. سيحتاج هذا إلى جيش من رجال الدين.. سيحتاج إلى مكبر صوت لتلاوة الصلوات..
عاد الرجلان إلى السيارة.. لكنها كانت محتلة..
كان (فاسلاف ييلوفسك) يجلس خلف عجلة القيادة يحاول تشغيلها.. دارت في المرة الثالثة فعاد بها القهقرى.. ورأى الرجلين يهرعان نحوه وهما يشتمان..
لم يكن راغبًا في سرقة العربة لكنه كان الحكم.. وكانت عليه واجبات.. لقد هلكت مدينة وعليه أن يمنع الأخرى من أن تلاقي نفس المصير. يجب أن يلحق بـ (بوولاك) ويتكلم معها.. لو فشل لحدثت كارثة أخرى، ولكان عليه أن يواجه ضميره..
جرى (ميك) نحو (الفولكس) وهو يصرخ، لكن (فاسلاف ييلوفسك) لم يبال به وهو يعالج مسار العربية في الممر الضيق.. في النهاية بدأ (ميك) يفقد قدرته على الركض فتوقف وثني ظهره، ويداه على ركبتيه.
صاح (جود):
- » الوغد! إنه لا يستطيع أن يقود جيدًا.. »
- » يجب أن نلحق به.. على القدمين. »
- » كيف؟ نحن لا نملك خارطة.. إنها في السيارة.. »
- » يا إلهي العلي القدير! »
وراحا يتبعان آثار العجلات الدموية على الأرض. وقال (جود):

- » إنه يتجه إلى اليسار نحو الجبال.. »
- » لابد أنه جن.. »
قال (جود):
- » ألا ترى يا (ميك)؟ كلهم كان يعرف أن هذا سيحدث. لقد غادر الناس مزارعهم.. لن تكون هناك سيارات.. لن يمر أحد إلا سياح حمقى مثلنا.. وأؤكد لك أنه ما من سائح سيتوقف لنا.. »
كان محقًّا.. كانا الآن يبدوان كالجزارين غارقين في الدم.. وعيونهما مجنونة تمامًا.
- » يجب أن نمشي في نفس الاتجاه الذي مشى فيه.. »
وأدرك (ميك) أن أمامهم ليلة في التلال.. لكنه كان يريد أن يبتعد بأسرع وقت ممكن عن أرض الموت هذه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي (بوبولاك) خيم جو من السلام.. بدلًا من الهلع والجنون بدأ نوع من تنميل الذهن.. قبول العالم كما هو كالخراف..
هم مربوطون حيث هم بالحبال، كل واحد إلى صاحبه في نظام محكم لا يسمح بأن يطو صوت على الآخر..
صاروا فكرة واحدة.. هدفًا واحدًا.. صاروا ذلك العملاق الذي حاولوا ببراعة أن يأتوا به إلى الوجود.. لقد ذابت الفردية فلم يعد إلا وجدان جمعى، أذاب ألف صوت في أمر واحد لا يقاوم..
وكان هذا الأمر يقول: امضوا!
ومشت (بوبولاك) نحو التلال بخطى اتساعها نصف ميل.. وقد خيمت على الجميع فكرة واحدة..
إنهم لا يموتون.. صاروا كيانًا عملاقًا مجنونًا يحسب أنه لا يموت..
شم (ميك) و (جود) رائحة البترول.. فلما اقتربا وجدا أنها (الفولكس) قد سقطت في خندق على جانب الطريق.. لكنها لم

تحترق.
كان باب السائق مفتوحًا ومنه خرج جسد (فاسلاف) غائبًا عن الوعي.
أخرجا اللص من السيارة وأرقداه على جانب الطريق..
فجأة فتح عينيه ونظر لهما.. فسأله (ميك):
- » هل أنت بخير؟ «
للحظة بدا أن الرجل لا يفهم، ثم قال:
- » إنجليزيان؟ «
كانت لهجته ثقيلة لكنها مفهومة..
- » نعم.. هل هناك ما يؤلمك؟ «
بدا أن الرجل وجد هذا مسليًّا:
- » يؤلم؟ أنا أموت.. «
- » لا.. أنت بخير.. «
هز الرجل رأسه.. كانت سلطته مطلقة. وقال في ثبات وتصميم:
- » سأموت.. «
قال له (جود) وهو يهزه كى يبقى عينيه مفتوحتين:
- » قل لنا ما الذي يحدث هنا؟ «
- » حدث؟ كان انهيارًا.. مجرد انهيار.. «
- » ما الذي انهار؟ «
- » مدينة (بوديجفو).. «
- » سقطت من أي شيء؟ «
- « من نفسها طبعًا.. »
لم يكن الرجل يجيب بشيء مهم.. فقط يرد على لغز بلغز آخر..
سأله (ميك) محاولًا ألا يكون عدوانيًّا أكثر من اللازم:
- » إلى أين أنت ذاهب؟ «
- » إلى مدينة (بوبولاك).. «

تردد الرجل بين الموت باللغز أم الكلام.. ما جدوى الصمت؟ إن المسابقات لن تقام ثانية أبدًا..
قال بصوت ناعم:
- » (بوبولاك) و(بوديجفو) تتقابلان للصراع كل عشرة أعوام.. «
- » هل تعني أن هؤلاء هم ضحايا المصارعة؟ «
- » لا.. قلت لك إنهم سقطوا.. «
- » أين؟ «
- » في الجبال.. تتصارع المدينتان في شكل عملاقين.. يصنع الناس جسدًا عملاقًا من أجسادهم.. العينان.. الأنف.. الفم كل شيء.. «
قال (جود):
- » الرجل يخرف.. «
- » اذهبا إلى الجبال لتريا ما إذا كنت أخرف.. «
وأضاف (فاسلاف):
- » كانوا بارعين في اللعبة.. وفي كل عشرة أعوام كان الشكل يتحسن ويصير أكبر.. الحبال تربط الناس.. أوتار.. أربطة.. طعام فى بطنه.. أنابيب لتصريف الفضلات.. «
- » الأقوى بصرًا كانوا يجلسون في العين.. والأقوى صوتًا كانوا يجلسون في الفم.. ماكنت لتصدق هذه البراعة الهندسية، إنه جسد المدينة إنه شكل حيواتنا.. «
ساد الصمت، ومرت سحب صغيرة فوق الطريق..
قال الرجل:
- » كان معجزة «
وكأنه أدرك ضخامة الشيء لأول مرة في حياته.
كان قد قال ما يكفي.. لذا أغمض عينيه ومات.
لكن (ميك) ظل غير قادر على تصديق هذا الذي سمعه.

الآن جاء الغسق..
لم تعد (بوبولاك) قادرة على التقدم أكثر.. فقد دب الإرهاق في كل عضلة.. وبدأت بعض الوفيات هنا وهناك في جهازها التشريحي العملاق.. لكن لم يكن الجسد يحزن على خلاياه الميتة.. كان الموتى يتركون ليسقطوا على الغابات تحت..
بزغت النجوم وجاء الليل يداوى برحمة جراح النهار. لكن العملاق واصل المسير حتى أحاط سواد الليل برأسه. لن يطول الوقت حتى يجد أحد الأودية فينام فيه ويموت.
أراد (ميك) أن يدفن لص السيارة، لكن (جود) أفهمه أن هذا سخف.. أن يشغلا نفسيهما بجثة واحدة بينما هناك آلاف الجثث على بعد ميلين من هنا..
تركا الجسد حيث هو، والسيارة كي تغرق في المستنقع.
وواصلا المشي..
كانا يشعران ببرد، وكانا جائعين، لكن المنازل التي مرا بها كانت مهجورة مغلقة. وتساءل (ميك) وهو ينظر إلى باب مغلق:
- » ماذا كان يعنيه؟ »
- » كان يتكلم بلغة المجاز.. كل هذا الكلام عن العملاقين.. »
- « لكنني أحسبه كان يقول الحق.. »
- « هذا سخف.. »
وشعر (جود) أنه يكره (ميك) في هذه اللحظة.. يكره سذاجته واستعداده لتصديق أية قصة. وهذه؟ كانت هذه أسخف القصص طرًّا. قال لصاحبه:
- » إلى أين نمشي؟ نحن فقط نتوغل في التلال.. »
- « أنت حر.. لكنني سأستمر في المشي.. »
كان الليل مريرًا خاليًا من السحب. وقد مشيا وهما يرتجفان بردًا، وقد رفعا ياقتيهما لتغطية العنقين.

وفي الحادية عشرة مساءً رأيا ضوء نافذة من بعيد.
لم تبتسم المرأة في الكوخ الحجري، لكنها فهمت حالتهما وسمحت لهما بالدخول. لم يكن من جدوى من محاولة شرح ما رأياه للمرأة أو زوجها المشلول. لم يكن هناك هاتف ولا سيارة، وحتى لو استطاعا الشرح فما من شيء يمكن عمله.
أكلا حساء بازلاء ثخينًا مع البيض، ولم ينسيا أن يبتسما للمرأة شاكرين... كان الطعام جيدًا أنعش روحيهما وقدرا أنهما سينامان للصباح ثم يستمران في رحلة العودة.. في الصباح ستكون هناك سيارات إسعاف وطائرات هليكوبتر.. كل طقوس الكوارث المتحضرة..
وفي الوقت ذاته سيكون بوسعهما ابتلاع هذا وفهمه.. ستكون ذكرى أليمة عن كارثة لكنهما على الأقل سيفهمان.
ناما حيث هما على منضدة الطعام.. لم يعلما بشيء.. لم يحلما بشيء.. لم يشعرا بشيء. ثم جاء الرعد..
صوت خطوات عملاقة يدنو أكثر فأكثر.
أيقظت الزوجة زوجها وأطفأت المصباح وذهبت للباب. كانت سماء الليل مظلمة إلا من النجوم.. لكن الرعد ظل يتردد.. نصف دقيقة بين كل دوى والآخر.. أعلى.. أعلى..
وقف الزوج وزوجته على الباب يصغيان. فقط صوت الدوى تهتز له الأرض. لم تكن لديهما أية نية للفرار، فهما هنا في أمان مثلما هما في الغابة.. كيف لهما لو دخلا الغابة أن يعرفا أية شجرة سيهوى الرعد فوقها؟
رأى الزوج الرأس العملاق الذي لا يصدق يظهر في الظلام المخادع.. فتغدو التلال أقزامًا بالنسبة له. سقط على ركبتيه وصلى بينما صرخت زوجته.

وفي الكوخ صحا (ميك) وفرد ذراعيه فسقط الطبق من على المنضدة وتهشم. وصحا (جود) بدوره كان الصراخ بالخارج قد توقف.. لقد فرت المرأة إلى الغابة لأن أية شجرة هي أفضل من هذا المشهد وارتطمت قدم العملاق بالأرض فارتج الكوخ وتهشمت كل الأطباق.
هتف (ميك) وهو يعتصر كتفى (جود):
- » هل ترى؟؟ هل ترى؟ «
وكانت الهستيريا قد بدأت تغزو صوته، إذ جرى إلى الباب. ونظر (ميك) إلى السماء وتابع (جود) نظرته.
كان هناك مكان بلا نجوم.. ظلام في شكل إنسان.. عملاق يلتحم بالسماء.. لكنه ليس عملاقًا متقنًا.. إن جلده يتحرك كخلايا النحل. قدماه أغلظ مما يجب.. وذراعاه أقصر وأرق مما يجب..
وضع قدمه على الأرض ومشى نحوهما.. بوم! ارتج سقف الكوخ وتهشم زجاج النوافذ.
كل ما قاله لص السيارة كان صحيحًا.. إن (بوبولاك) هي مدينة وعملاق معًا. وقد فهم الشابان كيف أن تصميم العملاق كان عبقريًّا وتفادي بعض الثغرات.. فالعنق غائر بين الكتفين لتفادي مشكلة التحميل والتوازن على العنق.. والقدمان غليظتان كأقدام الفيل لزيادة الارتكاز على الأرض.. وكان صدره عاريًّا عضليًّا يتكون في الحقيقة من آلاف أجساد الرجال العارية المتلاحمة بالحبال التي تجذب وتدفع كأنها العضلات..
يمكنك أن ترى كل الذين يحركون المفصلات ويجذبون الأوتار..
لكن ما هو أكثر غرابة كان الوجه.. خمسة رجال يؤدون دور العيون.. فم يفتح ويغلق به أسنان عبارة عن أطفال جالسين..
وتسمر الشابان وقد فارقهما الرعب وحل محله الافتتان والرهبة.. كانا يفهمان أن هذا المشهد لا يتكرر أبدًا وأن كل ما

سواه شيء تقليدى معتاد.
كان يقترب منهما لكنهما لم يبتعدا.. حتى لو قتلهما فقد شهدا هذه المعجزة وهذا كاف..
الآن هو أوضح.. يمكنهما أن يريا الوجوه الشاحبة الملوثة بالعرق.. لقد مات البعض فتدلى من حباله كأنه خلايا ميتة في جسد آدمى حقيقى.. البعض لم يعد يقدر على الاستمرار.. وهكذا كان الجسد يتحلل ببطء شديد..
كانت الضربة التي هوت على الكوخ أسرع مما توقعا.. واستطاع (ميك) أن يرى باطن القدم.. كان عبارة عن مجموعة من الأجساد التي تهشمت تحت ثقل من هم في مستوى أعلى، هوت القدم.. وفي ثوان تحول الكوخ إلى غبار وشظايا.
هوت قطعة من الحجر على (جود).. وسمع في رأسه صوت الضربة ككرة ترتطم بجدار. موت بلا ألم ولا تأنيب ضمير.. وضاعت صرخة احتضاره في المعمعة..
لم يشعر (ميك) بموت صديقه ولم يره.. كان يرمق القدم تستقر للحظة. وجرى ليتمسك بها.. يريد أن يصير جزءًا منها.. يعيش معها أو يموت.. هذا خير من الموت هنا..
وجد موضعًا آمنًا على كاحل القدم فأطلق صيحة فرح.. ونظر لأسفل بينما القدم ترتفع فرأى المكان الذي كان فيه.. رآه يبتعد بينما القدم ترتفع..
لم تعد تحته أرض.. كان راكب أوتوستوب مع عملاق.. حياته السابقة لم تعد تعني له شيئًا..
سيعيش مع هذا الشيء.. سيعيش هنا ويرى هذا الشيء للأبد..
تعلق بالحبال وصرخ.. لم يعد شيء ذا معنى بالنسبة له..
ومشت (بوبولاك) وصوت خطواتها يتقدم نحو الشرق.. وضاعت ضوضاء حركتها في الظلام..

بعد يوم عادت الطيور والثعالب والدبابير.. وتحلل جسد (جود).. بعد فترة اصفرت عظامه وخلا المكان الذي كان يفعمه بأنفاسه وآرائه عندما كان حيًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قطار لحم منتصف الليل



3- قطار لحم منتصف الليل

لم يعد (ليون كاوفمان) غريبًا على المدينة.. كان يطلق عليها (قصر المسرات) لكن كان ذلك حين عاش في (أطلنطا) حين بدت له (نيويورك) أرضًا واعدة بأي شيء..
الآن عاش (كاوفمان) ثلاثة أشهر ونصفًا فى مدينة أحلامه فلم تعد تبدو له (قصر المسرات)..
يشعر بخجل من سذاجته حين نزل من الحافلة وصاح:
- » (نيويورك).. أنا أحبك.. »
يحبها؟ مستحيل..
كان مجرد افتتان، والآن عاش مع محبوبته ثلاثة أشهر وقد فقدت الكثير من هالة السحر التي كانت تحيط بها.
(نيويورك) كانت مجرد مدينة.
كل من قابله هناك قد احتك بالعنف.. كان من دواعى الوجاهة أن تعرف شخصًا مات ميتة شنيعة، لأن معنى هذا أنك عشت في تلك المدينة، لكنه كان بحق يحب (نيويورك) في شبابه، لهذا أعطاها مزية الشك.. برغم أن تصرفاتها لم تكن تمت للنساء المحترمات في شيء..
» القتل في أنفاق القطار».. كان هذا هو المانشيت الأساسي لصحف هذا الشهر.. في الأسبوع الماضي حدثت ثلاث جرائم ووجدت الجثث في نفق (طريق أمريكا).. وكانت الجرائم تدل على محترف قتل يجيد مهنة الجزارة، إلى حد أن الشرطة راحت تحقق مع كل صاحب سوابق له علاقة بالجزارة، وتمت مراقبة السلخانات على ضفة النهر.. ووعدت الشرطة باعتقال سريع للجاني لكن هذا لم يحدث.

لم تكن هذه الجثث الثلاث أولى جرائم القتل، فيوم وصل (ليون) إلى المدينة نشرت (التايمز) قصة ما زالت كل سكرتيرة تحكيها في المكتب، لقد وجد سائح ألماني جثة امرأة في إحدى عربات قطار الأنفاق، وقد تم وضع كل حاجياتها وقرطى أذنيها في نظام في أكياس بلاستيكية إلى جوارها.. كأن هذا القاتل عقل في غاية الترتيب.. مجنون يملك حاسة نظام غير عادية.
والأغرب أن القاتل علق الجثة من قدميها، ووضع دلوًا أسود من البلاستيك تحتها كي يتساقط الدم فيه، في هذه الحالة وجدوا جثة (لوريتا داير).
كان هذا محيرًا للغاية ومثيرًا للاشمئزاز.
ولم يكن هناك دافع واضح للقتل.. لقد تم إعدادها كأنها قطعة لحم، فر الجزار بعدها.
حاول البوليس التعتيم على القصة، وقيل إن السائح الذي وجد الجثة هو في الحجز في (نيوجرسى) كى لا يراه الصحفيون، لكن رجل شرطة سرب الأخبار لصحفي في التايمز، فصار كل واحد في (نيويورك) يعرف قصة الجريمة.
لكن (لوريتا) كانت الأولى.. لقد وجدوا ثلاث جثث في ظروف مماثلة..
ولم يهتم (كاوفمان) بالخبر كثيرًا لكنه شعر باشمئزاز عميق، جعله يزيح طبق البيض الذي كان يأكله في المطعم جانبًا.. كان هذا دليلًا آخر على تحلل تلك المدينة الأخلاقي.
ستستمر المذابح لفترة حتى يمل القاتل ما يفعله ويفقد واجب الحذر..
اصطدم رجل ملتح بقدح القهوة الخاص بـ (كاوفمان)، فصاح الرجل:
- » تبًّا! »

استدار (كاوفمان) بمقعده كى يتحاشى القهوة المنسكبة:
- » لا مشكلة هنالك.. »
ونظر للرجل.. إن الأحمق يحاول تجفيف القهوة بمنشفة ورقية سوف تتحول إلى عجين حالًا.
- « هل لك في قدح آخر؟ »
هز (كاوفمان) رأسه أن نعم.. فطلب الرجل قهوة سوداء من الساقية التي كانت تنظف الشواية من الفحم.. لكنها لم تسمع فعاد يكرر:
- » قهوة سوداء.. هل أصابك الصمم؟ »
ثم نظر له الرجل وقال:
- » هذا سيئ جدًّا.. ثلاث جثث ولا دليل.. »
- « هذا يجعلك تتساءل.. نعم.. »
- » أردت القول إن الشرطة تعرف من فعلها وتخفي.. »
وشعر (كاوفمان) بسخف المحادثة فنزع عويناته ووضعها على جيبه.. هكذا اختفى الملتحى من دائرة بصره.. هذا أفضل نوعًا..
قال الرجل:
- » إن الشرطة تملك الدليل.. ثمة شيء هناك ليس آدميًّا لكن الأوغاد يتركوننا في الظلام.. »
وكانت نظرية المؤامرة معروفة لـ (كاوفمان) جيدًا: هناك شيء ما تحت لا يريدون لنا أن نراه.. ربما يربون وحوشًا هناك..
لكنه لم يستسغ هذه النظرية لأنها تبرئ هذه المدينة، بينما هو متأكد من أن الوحوش في الأنفاق هي وحوش آدمية..
نهض الرجل محركًا ردفيه الثقيلين عن المقعد، ودفع ثمن القهوة، ثم قال:
- » أراهنك على أي شيء.. »
ثم انصرف.

تنفس (كوفمان) الصعداء إذ انتهت هذه المحادثة فهو يمقت هذه المواجهات، وتشعره بأن لسانه مربوط.. كما أنه كان يكره نمط البهيم صاحب الرأي.. هذا النمط الذي تجيد تربيته (نيويورك)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السادسة صحا (ماهوجانى) من النوم.. تمطى في فراشه ونهض للعمل..

كان صوت المطر يضرب أجهزة التكييف بالخارج، فاضطر إلى أن يفتح التليفزيون فقط كي لا يسمع، ثم نظر من النافذة.. (نيويورك) تعود للعمل بعد يوم طويل في المكاتب سيئة التهوية.. البعض يركب عربات قطار الأنفاق غير مهتم بالشخبطات على الجدران..

سر (ماهوجانى) بهذه الفكرة.. فهو لم يكن واحدًا من القطيع.. وبوسعه أن يقف في نافذته ويرمق الألوف من عل، ويشعر بأنه شخص مختار..

كانت لديه مواعيد عمل بالطبع، لكنه على عكس الناس في الشارع لم يكن يؤدي عملًا بلا معنى.. بل كان عمله واجبًا مقدسًا، ولم تكن الضرورات الاقتصادية هي ما يملى ذلك، إنما متطلبات التاريخ.

كان يمارس تقليدًا قديمًا يعود لما قبل (أمريكا) ذاتها.. كان مهاجمًا ليليًّا.. مثله مثل (جاك السفاح) و(جيل دوريه).. غضب له وجه آدمى.. رجل يوقظ الأهوال ويسكن النوم كالأشباح.

لم يلحظ الناس في الشارع وجهه.. لكنه كان ينظر لهم. يتخير منهم الشاب.. والصحيح.. والثرى.. كى يسقط تحت سكين التضحية.

أحيانًا كان يتمنى لو أعلن عن شخصيته للعالم.. لكن كانت لديه مسئوليات مهمة.. ليس له أن ينتظر الشهرة.. فقط المغرور هو من يطلب الاعتراف به..
لكنه كان مسرورًا لأنه يمارس تقليدًا قديمًا.. هذا كان يكفيه..
في الفترة الأخيرة ظهرت بعض الأشياء.. ما كان هذا خطأه طبعًا وليس لأحد أن يلومه.. لم تعد الحياة سهلة كما كانت منذ عشرة أعوام.. هو تقدم في السن وصار عمله مرهقًا.. إن المسئوليات ثقيلة الوطء على عاتقه..
أحيانًا كان يفكر في تدريب شاب صغير للقيام بعمله.. من الخسارة أن تضيع خبراته عندما يموت.. لابد أن يحمل أحدهم الشعلة من بعده..
دخل الحمام وتأمل الشعر الأشيب على صدره.. البقع على جلده الشاحب.. حقًا إنه يتقدم في العمر، لكن عليه أن يقوم بمهمته هذه الليلة مثل أية ليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صعد (كاوفمان) بالمصعد إلى الطابق الثاني عشر، ثم إلى مكتب (باباس). مشي بين المكاتب الفارغة والآلات المغطاة.. كان المكان خاليًا من الحياة، وهو سيعمل حتى العاشرة مساء بعدها ينتهي الأمر..
علق معطفه وجلس أمام كومة الطلبات التي يعمل فيها منذ ثلاثة أيام، سيحتاج إلى ليلة عمل واحدة، كى يقصم ظهر هذه المهمة.
الآن الساعة التاسعة.
لبس (ماهوجانى) ثياب الليل.. بذلته الأنيقة وربطة العنق.. وأزرار القميص الفضية.. وقد دهن شعره بالزيت وراح وجهه

يفوح بالكولونيا.
كان قد أتم وضع كل شيء في حقيبته.. الأدوات ومريولة العمل.
فقط لو عرف هؤلاء الناس في الشوارع من هو وماذا يحمل في حقيبته.. المهم الحذر.. وأطفأ النور.. واتجه للباب..
مشى إلى الطريق رقم 145.. هذه الليلة سينزل إلى (طريق أمريكا) نفقه المفضل، والأكثر ازدحامًا بالفرص.
كان يحب هذا كله.. رائحة الأنفاق.. الظلام.. الرعد..
وقف على الرصيف وتفحص المسافرين معه.. كان هناك من فكر في أن يتتبعهم لكن هناك آخرين بدوا له كنفاية لا تستحق الجهد.. كان يستبعد تلك الأجسام البدينة أو النحيلة أو التي هدها الإدمان أو الإرهاق.
كان يشمئز من هذه الأمور، وإن كان يفهم ضعف البشر..
لمدة ساعة جال على الرصيف بين القطارات القادمة والراحلة.. في كل يوم يجد أن عليه الانتظار أكثر فأكثر حتى يجد لحمًا صالحًا للاستعمال.
الآن منتصف العاشرة ولم يلق قط شخصًا مثاليًّا للذبح.
لا يهم.. بعد قليل سيأتى جمهور المسارح.. وهم دائمًا مناسبون.. (الإنتلجنسيا) حسنة التغذية تمسك بكعب التذكرة وتتكلم عن تناقض الفنون، فإن لم يجد يمكنه البحث عن رياضي يركض في الشارع وحده.. إنه يعطى خامة مناسبة دومًا، برغم أنه مع قوة هؤلاء تبرز مشكلة المقاومة.
كانت عناوين جريدة (نيويورك بوست) على المقعد تقول: « البوليس كله يخرج للبحث عن القاتل »، لم يقاوم ابتسامة.. بعد كل شيء كان هو هذا الرجل.. وهذه الليلة كان التفكير في القبض عليه مضحكًا.. ألم تكن مهنته تتم بموافقة أعلى السلطات

الممكنة؟ لا يستطيع رجل شرطة أن يقبض عليه.. ولا تستطيع محكمة الحكم عليه..
الساعة الآن العاشرة والنصف.. وقد بدأ طوفان رواد المسرح. كان فقط يريد أن يختار اثنين ويتبعهما حتى نهاية الخط كأي صياد محترف.
لم ينه (كاوفمان) عمله حتى الحادية عشرة.. لكن الملل جعل المهمة أصعب.. وكانت الأرقام تتكدس أمامه، حتى اعترف بالهزيمة بعد عشر دقائق.. حك عينيه بكفيه حتى امتلأ رأسه بالألوان.
غادر المكتب شاعرًا بالكسل، وكان الهواء في الخارج أكثر برودة مما توقع.. هكذا أفاق نوعًا.. سيلحق بالقطار إلى (فار روكاواى) وهكذا يكون في البيت بعد ساعة.
لم يعرف (كاوفمان) ولا (ماهوجانى) أن رجال الشرطة كانوا قد قبضوا على من ظنوه قاتل الأنفاق كان رجلًا يحمل منشارًا ومطرقة، وقد هاجم امرأة في العربة الثانية قائلًا إنه سيقطعها نصفين باسم (يهوه).. لم ينل فرصة لتحقيق هذا.. لأنه بينما كان المسافرون - ومنهم اثنان من رجال (المارينز) الأشداء - ينظرون المشهد، عاجلت الضحية الرجل بركلة في أسفل بطنه، ثم انتزعت منه المطرقة وهشمت فكه..
وقد انتظر رجال الشرطة القاتل على الرصيف وحملوه إلى سيارتهم وهم يصرخون، وألقوه في المقعد الخلفي وقد تهشم وجهه إلى ألف قطعة.. وبعد الاستجواب انصرفت المرأة مع رجلي (المارينز)..
كان هذا مما شتت رجال الشرطة خاصة أن المتهم لم يستطع عمل شيء سوى أن يسيل لعابه طيلة الليل، كان الرجل من

(برونكس)[4] ولم يكن أكثر خطرًا من أرنب شم النسيم، لكن إلى أن وصل رجال الشرطة إلى هذه الحقيقة كان (ماهوجانى) قد وصل إلى مرحلة متقدمة من عمله.
كانت الحادية عشرة والنصف حين ركب (كاوفمان) القطار.. كان في أول عربة وأمامة رحلة خمس وثلاثون دقيقة.. كان مرهقًا فأغلق عينيه، ولم ير بالتالي وجه (ماهوجانى) ينظر عبر الزجاج بين العربات بحثًا عن المزيد من اللحم.
ربما في موضع ما في ذهنه نصف النائم أدرك (كاوفمان) إن الباب الفاصل بين العربة الأولى والثانية انفتح، ربما لاحظ إنه يشم رائحة النفق. ربما سمع صوت العجلات أعلى، لكنه في النهاية واصل النوم.
السبب ما حلم بأمه في المطبخ.. كانت تقطع اللفت، وصوت التقطيع المنتظم تشوب... تشوب..
كم من الوقت نام؟ لقد صحا ورأسه مفعم بالنعاس..
كان هناك ستار في الفراغ بين العربتين، لم يكن هناك من قبل على قدر علمه.. كانت سرعة القطار مخيفة، وخطر له أنه ربما نام أكثر من اللازم، ولم يره الحارس، وقد تجاوزوا (فار روكاواى) والقطار الآن مندفع بسرعة إلى حيث يأخذون القطارات ليلًا..
هل يذهب ليسأل السائق؟ يا لها من فكرة غبية وسؤال أغبى..
أين أنا؟
ثم بدأ القطار يبطئ.. محطة نعم.. خرج القطار من النفق إلى الضوء المتسخ لمحطة الشارع الرابع الغربي.. لم تفته أية محطة.
أين ذهب الركاب؟

انغلقت الأبواب من جديد.. وبدأ القطار يكتسب السرعة مرة أخرى..
لم يعد راغبًا في النوم لأن الأدرينالين تدفق في دمه.. وبدأ يشعر بالتوتر..
حواسه أرهفت، وقد استطاع برغم صوت العجلات أن يسمع صوت التمزيق في العربة المجاورة.. نهض ليري، وكانت المسافة بين العربيتين مغطاة بستار محكم.. لكنه نظر من هناك مقطبًا كأنما يأمل في أن تكتسب عيناه فجأة قدرات أشعة إكس..
صوت تمزيق من جديد..
نظر من جديد ولم ير الدم الذي كان يدوس عليه.. حتى...
انزلق كعب حذائه.. فرأت معدته الدم قبل عينيه، وصعدت شطيرة اللحم التي تناولها في العشاء إلى منتصف المسافة عبر المريء..
يجب أن يرى.. هناك خيط من الدم من هذه العربة إلى العربة المجاورة لكنه يجب أن يرى..
يجب..
كان هناك ثقب بالفعل في الستار وقد وجده وثبت عينيه عليه..
لم يصدق عقله ما رآه خلف الباب.. منطقه قال له إن هذا ليس حقيقيًا لكن لحمه قال له إنه كذلك.. بقى جوار الباب بين العربتين متصلبًا والقطار مستمر في طريقه. بقع لامعة من الضوء تبزغ في مجال إبصاره..
ثم فقد الوعي..
لم يسمع السائق يعلن في مكبر الصوت أن القطار بلغ محطة (جاى) وأن الركاب المسافرين بعد هذه المحطة عليهم تبديل القطارات. كان هذا غريبًا.. القطارات لا تفرغ ركابها في جامى.. بل تواصل الخط إلى (موت أفينيو) وتمر بمطار (كنيدى).. لكنه

كان يعرف أن الحقيقة في العربة المجاورة.. تبتسم راضية عن نفسها خلف مريولة جزار ملوثة بالدم..
لقد كان هذا قطار لحم منتصف الليل.
أفاق من الإغماء فأخفي نفسه تحت مقعد، وراح يفكر.. هل الحارس قد مات؟ والسائق؟ هل مات في قاطرة القيادة؟ هل القطار مندفع الآن عبر نفق طويل بلا محطات متجهًا إلى نهايته؟
والجزار؟ إنه هنا لا يفصله عن (كاوفمان) إلا باب.. باب اسمه (الموت)..
إنه الآن في قطار واحد مع قاتل الأنفاق.. الذي يمزق ضحاياه ويعلقهم من أقدامهم..
شعر بالباب يفتح، فتكور تحت المقعد وأغمض عينيه بقوة كأنه صبي يتوارى خوفًا من الغول..



شعر بالباب يفتح ، فتكور تحت المقعد وأغمض عينيه بقوة كأنه
صبي يتوارى خوفًا من الغول

دخل الهواء.. ووش! كانت له رائحة أغرب وأكثر بردًا مما اعتاد (كاوفمان).. ثم انغلق الباب.. كليك!
الجزار قريب.. ربما يقف الآن على بعد بوصات من موضعه..

هل هو ينظر لظهر (كاوفمان) الآن؟ هل ينحنى عليه الآن بالسكين في يده؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعر (ماهوجانى) بخيبة أمل لأن الرجل النائم قد نزل في محطة الشارع الرابع الغربي.. كان يأمل في عملية أخرى هذه الليلة.. إن الضحية لم تكن صحيحة الجسد إلى هذا الحد.. لقد كان الفتى مصابًا بفقر دم.. لن يكون للحمه قيمة.. ونظر لكابينة السائق وقرر أن يمضي باقي الرحلة هناك..
وارتجف (كاوفمان) ذعرًا.. رباه! إنه سيقتل السائق..
سمع صوت الباب ينفتح.. ثم:
« مرحبًا.. »
» مرحبًا.. »
- » هل تم كل شيء؟ »
إنهما يعرفان بعضهما..
- » تم كل شيء.. »
ما معنى هذا؟ تم كل شيء؟ ما هذا الذي تم؟ الآن يسمع ضحكات..
قيم (كاوفمان) فرصه.. لو ظل حيث هو فلسوف يراه الجزار حتمًا ويحوله إلى لحم مفروم.. لو حاول الحركة فهو يجازف بأن يكتشف أمره..
في النهاية استقر عزمه على أن يزحف نحو العربة الثانية، وقد فعل هذا ببطء مؤلم.. وصل الباب وبدأ يقف متأهبًا للمشهد الذي سيراه في العربة التالية.. فتح المقبض..
لا بد أن الجزار سيسمع الآن.. هل يستدير؟ لكن لا..

جعلت اللهفة (كاوفمان) أقل حذرًا فنسى أن يغلق الباب خلفه.. وقد بدأ ينفتح ثانية مع اهتزاز القطار.
أخرج (ماهوجانى) رأسه من الكابينة ونظر إلى العربة، فقال السائق:
- » ماذا يحدث؟ «
- » لم أغلق الباب جيدًا.. هذا كل شيء.. «
وسمع (كاوفمان) خطى الجزار قادمًا فتكور على نفسه بين العربيتين، وللمرة الأولى يعرف أن أمعاءه مليئة إلى هذا الحد.. ثم سمع الباب ينغلق.. وابتعدت الخطوات..
لقد نجا بما يكفي لشهيق آخر على الأقل..
الآن يرى المشهد الذي احتل كل حواسه.. السمع.. اللمس.. النظر.. لقد كان الآن مع الموت نفسه في عربة قطار واحدة.
أربع جثث تتدلى من السقف وتتأرجح مع كل حركة القطار. ولم يفته أن يلاحظ ما في العمل من نظام وبراعة. كانت هناك صرخة رعب تحتشد في حلقه.. ما كان بوسعه منعها.. لكنه كان يعرف أن الصراخ معناه أن يتحول إلى جثة خامسة في ثوان..
بدأ يزحف بين المقاعد.. إنه الآن يرى الباب المؤدي إلى العربة رقم 3.. كل ما عليه أن يبلغها ليغادر هذا المكان الشنيع.
فجأة انطفأت الأضواء.. واصطدم بإحدى الجثث المعلقة..
لم يدر كيف ولا متى صرخ خوفًا..
سمع خطوات الجزار قادمة عبر العربة التالية.. ثم عادت الأضواء.. هذه المرة لم يعد يشعر بخوف. لن يكون هناك هرب بين العربات.. ستكون مواجهة بدائية بين رجلين.. وجهًا لوجه.. لن تكون هناك حيل..
انفتح مقبض الباب..

بحث (كاوفمان) حوله عن سلاح.. وجد كومة ثياب عليها سكين.. مد يده وأمسك بها.. كان ملمسها مطمئنًا في يده.
وانفتح الباب تمامًا وللمرة الأولى رأي وجه (ماهوجانى).. لم يكن مخيفًا.. مجرد وجه رجل في الخمسين من عمره بدأ يفقد شعر رأسه. كانت شفتاه رقيقتين.. بالواقع كان له فم امرأة..
لم يفهم (ماهوجاني) من أين أتي هذا المتسلل، لكنها كانت علامة على أن كفاءته تقل مع الوقت.. يجب أن يتخلص منه حالًا.. لقد اقتربت نهاية الخط ويجب أن يفرغ منه سريعًا..
- » أنت كنت نائمًا.. لقد تذكرتك الآن.. »
لم يقل (كاوفمان) شيئًا..
- » كان يجب أن تغادر القطار.. ماذا كنت تحاول عمله؟ تتوارى عني؟ »
ومد يده في حزامه فأخرج الساطور الذي اتسخ بالدم.. وقال:
- » لا فارق.. يجب أن أفرغ منك الآن.. »
رفع (كاوفمان) السكين التي بدت صغيرة جدًّا أمام عتاد الرجل..
قطب الرجل جبينه وخطا خطوة نحو ضحيته وقال:
- » ما كان يجب أن ترى هذا.. كان سرًّا.. لكنك ستموت ميتة مفيدة.. سوف يتغذى الآباء عليك.. »
فكر (كاوفمان).. آه.. إذن هو من الطراز المجنون الذي تلهمه الأفكار المقدسة.. هذا يعني شيئًا ما..
هوى الساطور على (كوفمان) لكنه تنحى جانبًا لينغرس في ساق جثة.. حتى إنه كاد يفصلها من مكانها.. وحاول (ماهوجانى) انتزاع الساطور، هنا هجم عليه (كاوفمان) بالسكين.. أراد أن يغرسها في عينه لكن الهلع وسوء الحكم، جعلاه يغرسها في عنقه لتخترقه وتخرج من الناحية الأخرى..

لم يفهم (ماهوجانى) ما يحدث.. شعر كأنه (شرق) بشىء كأنما عظمة دجاج استقرت في حلقه.. وفجأة هوى الساطور من يده.. هوى (ماهوجانى) على ركبتيه وحاول أن يقول شيئًا، لكن (كاوفمان) لم يسمع شيئًا كأنه تحت الماء.. بدأت عينا (ماهوجانى) تصابان بالعمى وأدرك في حزن أنه لن يرى أو يسمع ثانية.. إنه الموت هذه المرة.. الموت.. هو بالذات ولا شك في هذا..

لقد مات الجزار..

وقف (كاوفمان) يرمق المشهد غائبًا عن الإدراك لفترة..

بدأ القطار يبطئ.. سمع الفرامل..

ترى هل القطار ذاهب إلى سلخانة الجزار التي يضع فيها اللحوم التي جمعها طيلة مهنته؟ وماذا يفعل السائق الذي يبدو مشاركًا في الأمر؟

سمع صوت السائق يقول:

- » وصلنا يا رجل.. يحسن أن تجلس.. »

ماذا يعنيه بهذا؟

خارج القطار أظلمت الأضواء فساد ظلام دامس. ثم سكن القطار تمامًا.

الآن تنفتح الأبواب.. تدخل رائحة.. رائحة كاوية إلى حد أن (كاوفمان) اضطر إلى أن يخفى وجهه بين كفيه. ثمة همسات من خارج العربة كأنما هي أصوات خنافس محتشدة..

مجموعة من الناس تتحرك إلى القطار وفي أيديهم كشافات.. ربما كان الصخب ناجمًا عن خطواتهم على الأرض.. لم يعد (كاوفمان) ساذجًا كما كان منذ لحظات.. ألم يعد الجزار اللحم لهؤلاء؟ إنهم أكلة لحوم البشر قادمين إلى عربة المطعم..

مد يده وأمسك بساطور الجزار وتأهب للاختباء تحت مقعد..

هنا دخل المخلوق الأول العربة.. كان نحيلًا إلى درجة الشفافية.. لا يوجد شيء غريب في مظهره.. كان يلهث بعد تسلق العربة حتى بدا أقرب إلى الشيخوخة منه إلى الخيال..
ومن خلفه برز آخرون على كل باب.. في الحقيقة كان (كاوفمان) محاصرًا الآن..
كان يراهم على ضوء الكشافات، وأدرك أنهم صلع الرءوس تمامًا.. وجلد وجوههم مشدود على الجماجم.. أما ثيابهم الشحيحة فقد أدرك (كوفمان) على الفور حقيقتها.. إنها جلود بشرية..
كانوا يفحصون اللحم الآن في لهفة لا تخفى.. وقد جحظت العيون من محاجرها في جوع..
في النهاية رأى أحدهم (كوفمان)..
- » أنت! »
كانت الكلمات ضامرة مثلما كانت الشفتان التي خرجت منهما..
ورفع (كاوفمان) الساطور.. لا بد أنهم ثلاثون على الأقل.. لكنهم ضامرون غير مسلحين..
- » أنت جئت وراء الآخر؟ »
ونظر إلى جثة (ماهوجانى).. لقد فهم الموقف بسرعة كما هو واضح.. وضحك.. حاول أن يتذكر كيف الضحك لكن النتيجة كانت أنه كشف عن أسنان حادة مبرودة كالسكاكين..
- » يجب الآن أن تقوم بهذه المهمة لنا.. »
وقال مخلوق آخر:
- » نحن نكره هذا الطعام أيضًا.. لكننا مرغمون على أكله.. برغم أنني لا أشتهيه على الإطلاق.. »
أخيرًا وجد (كاوفمان) صوته.. فتساءل:
- » ما أنتم؟ »

- » نحن آباء المدينة.. البانون.. نحن من صنعنا هذه المدينة.. »
- « (نيويورك)؟ قصر المسرات؟ »
- » نعم.. قبل أن تولد أنت.. قبل أن تولد المدينة نفسها.. »
وخلف ظهر (كوفمان) كان الآخرون يفكون الأجساد المعلقة.. بينما قال الأب:
- » ستجلب لنا المزيد.. الآخر كان ضعيفًا.. »
أصيب (كاوفمان) بالذهول:
- » أنا؟ أطعمكم؟ من تحسبونني؟ »
- » يجب أن تفعل هذا لنا.. ولمن هم أكبر منا.. حين كانت أمريكا غابات وصحراء.. »
ورأى (كوفمان) خارج القطار شيئًا أكبر من كل البشر.. شيئًا فشل في أن يراه في البداية..
وفكر في المدينة التي أحبها.. هل هؤلاء حقًّا الأجداد؟ يجب أن يصدق هذا.. ربما كان هناك على السطح من يعرف هذا السر الرهيب..
دون أن يأمر قدميه وجدهما تمشيان إلى خارج القطار..
كانت الكشافات تضيء الظلام بصعوبة..
كان هناك.. أصل الأمريكيين.. الأمريكي الأول.. وكانت عيناه تنظران له..
ارتجف جسده واصطكت أسنانه..
كان صوت حركات المخلوق لا يصدق.. كأنه جبل يجلس..
سقط على ركبتيه في خوف أمامه..
لقد كان كل يوم في حياته يقوده إلى هذا اليوم.. لو كان هناك ضوء كاف هنا لانفجر قلبه رعبًا.. لقد شعر به يرجف في صدره وهو يرى الحقيقة..

كان عملاقًا بلا رأس ولا أطراف.. بلا ملامح.. بلا أعضاء حواس.. لو كان يشبه شيئًا فهو يبدو كسرب من الأسماك.. آلاف الأفواه تتحرك.. تُفتح.. تبحث..
كان هذا كل ما رآه.. وكان أكثر مما أراد أن يراه.. لكن بقى الكثير في الظلام..
كان كل جزء من جسد (كاوفمان) يبكى الآن ماعدا عينيه.. لقد التهبتا بالمشهد حتى جفت الدموع فيهما..
وفي عربة القطار بدأت الوحوش عشاءها.
دنا منه الأب الأصغر الذي تكلم معه أولًا، وأدار وجهه ليرى وجهه في زجاج القطار.. كان الوجه الذي رآه (كاوفمان) مريعًا.. شاحبًا.. مغطى بالعرق والدم..
- » اخدمنا.. في صمت.. »
ثم ابتعد الرجال، وسمع صوتًا من القطار يقول:
- » العودة.. »
وانغلقت الأبواب ودوي صوت محركات القطار.. وعادت الأضواء.
بدأ القطار يتحرك..
بينما رقد (كاوفمان) على الأرض والدموع تسيل من عينيه.. أغمض عينيه وقرر أن يموت حيث هو.. إنه عالم قاس..
أيقظه السائق.. كان الوجه الذي ينظر له أسود لا يخلو من المودة.. حاول (كاوفمان) أن يقول شيئًا فلم يخرج منه إلا الأنين..
أنهضه السائق على قدميه.. وراح يكلمه كأنما هو طفل في الثالثة من عمره..
- » لديك عمل تقوم به يا رجل.. إنهم مسرورون منك.. »
وراح يدعك عينيه المنتفختين قائلًا:

- » هناك الكثير لتتعلمه قبل مساء الغد.. »
الكثير لتتعلمه..
كان القطار يقف في محطة لم يرها (كاوفمان) من قبل.. بلاط أبيض ونظافة لا تصدق.. لا بوابات ولا مسافرين.. هذا الخط لا يخدم إلا قطارًا واحدًا: قطار اللحم..
كان هناك عمال يغسلون عربة القطار من الدم ويتخلصون من البقايا. وكان ضوء الفجر يتسرب من سقف المحطة.
استدار السائق إلى العمال وقال:
- » أقدم لكم خليفة (ماهوجانى).. الجزار الجديد.. »
كانت الشمس الآن تدخل من أعلى.. كان يومًا جميلًا. رائحة الصباح تحيط بـ (نيويورك)..
سرعان ما تمتلئ الشوارع بالمارة الغافلين.. لا يعرفون على أي شيء بنيت هذه المدينة ولا لمن تدين بوجودها..
ركع (كوفمان) على ركبتيه ولثم أسفلت الشارع معلنًا عن إخلاصه لبقاء هذه المدينة واستمراريتها..
وتلقي (قصر المسرات) هذا الحب دون تعليق..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحزان الخنزير



4- أحزان الخنزير

كان بوسعك أن تشم الصبية قبل أن تراهم.. رائحة عرقهم في الردهات وأنفاسهم ورءوسهم المتسخة.. ثم أصواتهم برغم قوانين الحجز: لاتجروا.. لا تصفروا.. لا تصرخوا.. لا تتعاركوا..
كانوا يطلقون على المكان اسم (الحجز الاحتياطي للأحداث)، لكنه كان سجنًا بالفعل.. كانت هناك أقفال وأبواب غلاظ..
لقد كان (تيثرداون) سجنًا له اسم لطيف.. وكل الموجودين يعرفون هذا..
أكثر الصبية في هذا المكان مسجونون لسبب.. يمكنهم أن يسرقوك بمجرد أن يروك.. أو يجرحوك لدرجة الإعاقة بلا جهد.
وكان (ردمان) قد قضى في القوة فترة طويلة ليميز الأكاذيب الاجتماعية..
كان يعرف الضحايا ويعرف الفتية. لم يكونوا أبرياء أساء المجتمع فهمهم.. كانوا سريعى الحركة خطرين معدومى الأخلاق مثلهم مثل الأمواس التي يخفونها تحت ألسنتهم..
- » مرحبًا بك في (تيثرداون).. »
هل كان اسم المرأة (ليفرتون) أم (ليفرفال)؟
- » أنا الدكتورة (ليفرتال).. »
نعم.. امرأة قوية الشكيمة قابلها في..
- » تقابلنا في المقابلة الشخصية.. يسرنا أن نراك يا مستر (ردمان)..»
- » (نيل).. أرجو أن تناديني (نيل).. »
- » لا نفضل استعمال الأسماء الأولى أمام الفتية.. هذا يجعلهم يشعرون بأن لهم دورًا في حياتك الشخصية.. »

كانت في الخمسين من عمرها.. شعرها معقوص بعنف حتى إنه اندهش لأن عينيها لم تثبا من مكانهما..
- « سنبدأ الصف بعد غد.. سألني الحاكم أن أرحب بك نيابة عنه.. ويعتذر عن عدم وجوده هنا.. ثمة مشاكل مالية.. »
- » أليس الأمر كذلك دومًا؟ »
- » بلى.. لكني أخشى أننا على وشك فقد (تيثرداون).. وسيكون هذا عارًا.. أعرف أنه ليس.. »
- « لكنه بيتك.. »
وضحك لكن دعابته لم تلق استجابة لديها..
- » أنت تملك سجلًا مشرقًا في قوة الشرطة.. ونأمل أن ترحب الجهات الممولة بوجودك هنا.. »
- » لقد أخبرتك بالسبب الذي تركت الشرطة من أجله.. »
- » أنت أخبرتني.. خروج إعاقة.. »
- » لم أرد أن أتولى عملًا مكتبيًّا.. ولم يريدوا أن أستمر في العمل لأن في هذا خطرًا على كما قالوا.. تركت الخدمة بعد أربع وعشرين سنة.. »
هزت رأسها ولم يبد أنها تهتم بشيء..
- » أتمنى أن أعرف ما قلتموه للفتية عني.. »
- » معظم هؤلاء الفتية يعانون مشاكل عدوانية لا يستطيعون السيطرة عليها.. هذه هي المشكلة مع أكثرهم.. »
لم يعترض لكنها نظرت له بحدة كأنما فعل ذلك.. وأردفت:
- » لهذا نحن بحاجة إلى أن يفهموا موقفهم وأن يعرفوا أن هناك بدائل.. نحاول أن نعطيهم بعض الحرية.. بعض التعليم.. يعتقد كثير من الناس أن معدومي الأهلية يستمتعون بالجريمة.. ليست هذه خبرتي معهم.. إنهم يأتون محطمين شاعرين بالذنب.. »
قال (ردمان):

- » لكنهم اقترفوا جرائم برغم كل شيء.. »
- » نعم.. وربما يجب أن نذكرهم بهذه الحقيقة.. »
كان يعرف أن هؤلاء المحللين النفسيين قد احتلوا مكان الوعاظ.. نفس الكلام.. ولكن بألفاظ ملونة براقة.. ونظر إلى الملعب من النافذة فرأى مطاردة.. ثم رأى ضحية تقف فوق ضحية أخرى بحذائها.. كان مشهدًا قاسيًا بحق..
لاحظت (ليفرتال) المشهد بدورها فقالت له:
- » معذرة.. يجب أن.. »
وهرعت تنزل في الدرج.. وصاحت وهي تبتعد:
- » ورشتك هي الباب الثالث على اليسار.. سأعود حالًا.. »
كان يراقب المشهد الذي يتفاقم بسرعة في الملعب، وقدر أن الأمر يحتاج إلى ثلاث عتلات حديدية لإبعاد هؤلاء المتصارعين عن بعضهم..
نزل في الدرج متتبعًا خطوات (ليفرتال).. ووجد طريقه بسهولة عبر المرج الذي أضاءته الشمس.. كان هناك عدد من المشاهدين يلتفون حول المذبحة.. وكانت (ليفرتال) تقف ترمق الفتى الممدد على الأرض وقد بدت إصاباته بالغة..
سادت الهمسات فالابتسامات..
كان الفتى في السادسة عشرة من عمره، راقدًا ووجهه للأرض.. كأنما يصغي لما يحدث تحتها..
- » (لاسى).. »
قالتها (ليفرتال) لـ (ردمان) لتخبره باسم الفتى..
- » هل إصابته بليغة؟ »
هز الحارس الذي يركع جوار الفتى رأسه:
- « ليست بالغة السوء.. مجرد سقطة.. »

كان هناك دم على وجه الفتي. وعيناه مغمضتان في سلام.. كان من الممكن أن تعتبره ميتًا..
وصاح الحارس:
- « أين المحفة اللعينة؟ »
- » إنهم قادمون.. »
ونظر (ردمان) إلى المتكلم وخطر له أن هذا هو المعتدي.. كان في التاسعة عشرة من عمره، وله عينان يمكن أن تجعلا اللبن يفسد على بعد عشرين خطوة..
جاء بعض الفتية يحملون محفة وكانوا يضحكون من الأذن للأذن ..
بدأ المشاهدون يتفرقون بعدما انتهى أفضل جزء من المشهد..
صاح (ردمان):
- » لحظة.. نحن بحاجة إلى شهود.. من فعل هذا؟ »
اهتزت بعض الأكتاف.. لكن الجميع تظاهر بالصمم.. ولم تقدم له (ليفرتال) أي عون.. قال:
- » نحن رأينا المعتدي من النافذة.. أليس كذلك؟ »
- » كنا بعيدين بحيث يصعب أن نتهم أحدًا.. لكني لا أريد أن أرى هذا النوع من البلطجة ثانية.. هل تفهمون؟ »
لم يجد بوسعه أن يتهم أحدًا.. برغم أنه واثق بحكم خبرته من أن الفتى ذي النظرات التي تفسد اللبن هو من فعلها..
قالت (ليفرتال):
- » (لاسي).. دائمًا المشكلة في (لاسى).. »
قال أحد الصبية حاملي المحفة:
- » هو من أراد ذلك.. لا يجد شيئًا أفضل يفعله.. »
وابتعدت المرأة ووراءها (ردمان).. التفت فجأة لينظر إلى المحفة، هنا حدث شيئان.. أولًا: واحد من المجموعة قال: هذا

هو الخنزير.. الثاني أن عينى الفتى على المحفة نظرتا له في صفاء وصدق..
قضى (ردمان) أكثر اليوم التالي يجهز معداته.. كانت أكثر المناشير مكسورة والأزاميل فقدت حدتها.. يحتاج إلى مال كى يعيد تجهيز نفسه بالمعدات.. لكن ليس هذا وقت الطلب.. يجب أن يبرهن على كفاءته أولًا..
في الرابعة والنصف دق جرس، تجاهله، لكن غرائزه قهرته.. إن هذا الجرس المستمر جرس إنذار.. أغلق الورشة وتتبع أذنيه..
لم يكن هناك دخان في الهواء، فالأمر ليس حريقًا كما هو واضح.. كان هناك صراخ.. ربما عواء..
مشى عبر الممرات متجها إلى ما يسمونه (وحدة المستشفى).. هنا اصطدم به شخص نحيل.. أمسك (ردمان) بالفتى من ذراعه برغم أن هذا راح يحاول أن يركله بقدمه العارية..
- » أطلق سراحي أيها القذر.. »
- » اهدأ.. اهدأ! »
كان الأمر كمصارعة تمساح.. إن الخوف منح الفتى قوة، لكن نوبة جنونه كانت قد بدأت تهدأ..
كان هذا (لاسي).. وكان يبكي..
جاء الحارس وقيد ذراع الفتى.. وظهر ولدان وممرضة.. مخلوقة غير محببة على الإطلاق..
ثم ظهرت (ليفرتال) متأخرة جدًّا بحيث لم يكن مجيئها ذا جدوى..
- « ماذا حدث ؟ »
قال الحارس وهو يلهث:
- » أغلق على نفسه الحمام وحاول الهرب من النافذة.. »
نظر الفتى إلى (ردمان) وسأله:

- » هل أنت الخنزير؟ «
- » نعم يا بني أنا الخنزير. والآن قل لي لماذا حاولت الهرب ؟ «
قالت المشرفة:
- » سيحكي طبعته الخاصة من القصة للحاكم.. ليس هذا من شأنك..«
لكنه كان يعرف أن هذا شأنه.. نظرة الفتي إليه جعلته يدرك أن هذا شأنه.. قال للحارس بلهجة آمرة:
- » دعه يتكلم.. لماذا حاولت الهرب يا (لاسى)؟ «
- » لأنه عاد.. «
- » من عاد؟ قل لي اسمًا يا (لاسى).. «
نظر الفتى لقدميه وبدأ كأنما يقاوم الصمت.. ثم قال:
- » (هنيسيف).. «
والتقت عيناه بعيني (ردمان).. كان هذا كل شيء، ثم اقتاده الحارس إلى غرفته..
كرر (ردمان) الاسم:
- » (هنيسيف).. «
كانت (ليفرتال) تشعل سيجارة.. كانت يداها ترتجفان وهي تفعل ذلك.. ولم يندهش.. ما زال صعبًا أن يلقى أطباء نفسيين لا يعانون من مشاكل هم أنفسهم..
قالت:
- » الفتى يكذب.. (هنيسيف) لم يعد معنا.. «
لم يتكلم (ردمان)... بينما قالت وهي تدس لفافة التبغ بين شفتيها عديمتي اللون:
- » (لاسى) بارع.. وأنت جديد هنا.. يريد أن يعطيك الانطباع بأنه يملك لغزًا.. «
- » إذن هو ليس لغزًا؟ «

- » (هنيسيف)؟ بالله عليك لا.. لقد هرب من الحجز في مايو.. »
كان الموضوع يضايقها وقد ارتسم الاشمئزاز على وجهها في أكثر من دستة تجاعيد..
- » كان (لاسى) تحت سيطرته.. هذا يحدث كثيرًا.. الفتى يجعل من صديقه الأكبر سنًّا صنمًا.. و(لاسى) جاء من بيئة أسرية غير مستقرة.. »
عبقرية.. فكر (ردمان).. عبقرية لكنه لا يصدق حرفًا مما تقول.. ليست عقول الناس لوحات معلقة في معرض، كتب تحت اللوحة الأولى (غير مستقر) وتحت الأخرى (ماكر).. الخ.. العقول البشرية معقدة جدًّا كلها شخبطة على جدار.. في كل مرة تجدها في صورة مختلفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت الدراسة في اليوم التالي.. وكان الحر قائظًا حتى إن الورشة تحولت إلى فرن.. لكن الطلبة اهتموا بما يقدمه (ردمان) وعرفوا أنه رجل يمكن أن تحترمه ولا تحبه.. لم يتوقعوا منه ما هو أكثر ولم يتلقوا ما هو أكثر.. كانت صفقة عادلة..
لم يعرف (ردمان) بوجود المزرعة إلا يوم الاثنين التالي..
لم يخبره أحد أن هناك مزرعة في المركز.. وبدت له الفكرة سخيفة..
قال له الفتى (كريلى)، وهو واحد من أسوأ النجارين الذين على ظهر الأرض:
- » لا أحد يذهب هناك.. إنها عفنة.. زريبة خنازير.. »
ودوت الضحكات.

ما كان (كريلي) يبالغ.. حتى بعد الظهيرة كانت رائحة المزرعة تقلب المعدة.. كان يرى الآن مبنى المزرعة وبعض الأكواخ ودجاجًا يجرى.. بعض البط والخنازير.. لكن كان من الواضح أنه لا أحد يكلف خاطره بالتنظيف.. الخنازير كانت تعيش في بيت من برازها الخاص جففته الشمس وغزاه الذباب..
كاد (ردمان) يرجع حين رأى شيئًا عملاقًا ينهض وينظر له..
كانت خنزيرة يبلغ حجمها ثلاثة أمثال رفاقها.. ربما كانت هي الأم.. وقد هز حجمها (ردمان) من الأعماق.. لا بد أن وزنها ضعف وزنه..
كانت عيناها ترمقانه كأنه مساو لها..
كانت رائحتها غير كريهة، فلا بد أن هناك من جاء لينظفها هذا الصباح.. أخيرًا بدا أنها درسته جيدًا فعادت إلى الداخل حيث الظل.. لقد انتهى موعد الفرجة..
في تلك الليلة ذهب ليقابل (لاسى). لقد خرج الفتى من غرفة المستشفى ووضع في غرفة صغيرة.. لابد أن الأولاد كانوا يضايقونه لذا اختاروا له حجرة منفردة..
كان ينام فوق كومة من المجلات المصورة.. أغلفة المجلات تلمع على وجهه فتزيده شحوبًا، لكنه كان قد أزال الضمادة على أنفه واصفرت الكدمات تحت عينيه..
- » هل أنت بخير؟ »
هز الفتى رأسه..
- » هل تحب الوحدة؟ »
- » نعم يا سيدي.. »
- » لكنك ستعود إلى العنبر.. لن تظل هنا للأبد.. »
لم يرد الفتى..
- » اصغ يا بني.. أريد أن يفهم كل منا الآخر.. »

- » نعم يا سيدي.. »
- » لن أستطيع مساعدتك إن كذبت على.. لماذا ذكرت اسم (كيفين هنيسيف) لى الأسبوع الماضي؟ أعرف أنه ليس هنا وأنه هرب.. »
قال (لاسى) بهدوء:
- » إنه هنا.. »
- » لو كان قد هرب فلماذا عاد؟ »
هذه المرة بدأ الدمع يغزو عيني الفتى، وقال:
- » إنه لم يفر قط.. »
- » ماذا؟ لم يفر؟ »
- » لقد دبر كل شيء.. إنه حاذق جدًّا.. لكنك لن تصدقني وسوف تكون هذه النهاية.. سيسمع أنك عرفت.. إنه في كل مكان.. والجدران لا تهمه.. الموتى لا يبالون بأشياء كهذه.. يمكنه أن يأتي ويذهب متى أراد.. »
قال (ردمان):
- » هل تقول إن (هنيسيف) ميت؟ كن حذرًا يا (لاسي).. »
كان الفتى مترددًا.. كان يعرف أنه يمشي على حبل مشدود، وأنه اقترب جدًّا من خسارة حامية.. قال فجأة في برود:
- » أنت وعدت.. »
- » وعدتك أن أحدًا لن يؤذيك، لكن ليس معنى هذا أن تطعمنى الأكاذيب.. »
- « أية أكاذيب؟ »
- » (هنيسيف) لم يمت.. »
- » بل مات يا سيدي.. كلهم يعرف هذا.. لقد شنق نفسه عند الخنازير.. »

كان (ردمان) قد جرب جميع أنواع الكذب مع محترفين، وقد اعتبر نفسه خبيرًا في معرفة الكذاب.. لكن الفتى بدا صادقًا.. شعر بهذا في عظامه..
لكن هذا لا يعني أن الفتى يقول الحقيقة.. ربما يقولها كما يعتقدها..
- » لو كان (هنيسيف) قد مات.. فكيف يمكنه أن يكون هنا؟ «
- » هل تؤمن بالأشباح يا سيدي؟ «
يا للبساطة.. (هنيسيف) مات.. (هنيسيف) هنا. إذن (هنيسيف) شبح..
- » لا يا بني.. «
- » إذن سترى بنفسك يا سيدي.. سترى.. «
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في حظيرة الخنازير كانت الخنزيرة جوعى..
كانت تحكم على سير الأيام بنمو شهوتها للطعام.. كانت رغبات أخرى قد بدت تحتل موضع المسرات القديمة.. كانت قد وجدت نفسها تميل - منذ أول مرة -إلى طعام معين له قوام خاص.. لم يكن طعامًا تريده طيلة الوقت، لكن من حين لآخر.. وكانت لهذا تقضم أحيانًا اليد التي تطعمها..
وقفت جوار السور مترقبة، تنتظر.. بدأ نفاد صبرها يستحيل غضبًا.. وشعر أولادها بهذا فتوتروا.. كان هذا خطرًا، فهي قد التهمت اثنين من إخوتهم..
كان هناك صوت خطوات، ثم ظهر ولدان. كانا عصبيين متوترين، وكان معهما الحق لأن قصص ألاعيبها كانت عديدة..
ألم تكن تصدر منها أصوات آدمية من حين لآخر؟ ألم تكن تجلس أحيانًا على مؤخرتها؟ ألم تكن تطلب أن يقدم لها الطعام

بين الإصبعين الإبهام والسبابة؟ كل هذا كانت تعمله..
وأسوأ..
اليوم كانا خائفين لأنهما لم يحضرا لها اللحم الأبيض الذي تشتهيه.. كان اللحم الذي جلباه في الطبق ليس مما يروق لها.. إنه لحم خنزير سرقاه..
إن اللحم الذي يناسبها، والذي تطلبه بصوت آدمى مخيف.. اللحم الذي يثيرون رعبه حتى تنتفخ عضلاته، كان تحت الحراسة وسيحتاج الأمر إلى وقت لإعداده..
في الوقت ذاته تمنيا أن تسامحهما وتقبل دموعهما، ولا تلتهمهما في لحظة غضب..
كان أحد الوالدين قد أفرغ أمعاءه حين بلغ الحظيرة.. رأته الخنزيرة فبدا عليها الرضا حين رأت خوفه..
كان غطيطها يقول: أنا أعرف أعرف....
تعاليا هنا لأحكم عليكما..
أنا أعرف.. أعرف..
قدم لها الصبيان الطبق عبر السياج فسألتهما:
- « حسن؟ »
كان الصوت واضحًا لا يمكن أن تخطئه.. صوته يخرج من فم خنزير..
- » ليس هذا ما أردت.. نحن آسفان.. »
وقال الآخر متوترًا:
- » سنجلبه لك برغم هذا.. بمجرد أن نستطيع.. »
- » لم ليس الليلة؟ »
- » إنه تحت الحماية.. »
وقال الآخر:
- » المدرس الجديد.. مستر (ردمان) يحميه.. »

بدا أن الخنزيرة تعرف هذا كله.. تذكرت مواجهة العينين عبر السياج.. إذن هذا هو عدوها.. الرجل العجوز.. لسوف تظفر به..
بدا عليهما الارتياح حين أدركا أن غضبها اتجه إلى ناحية أخرى..
قال الصبي الأول:
- » هلم.. قدم لها اللحم.. »
أزاح الثاني غطاء الطبق.. كانت رائحة اللحم كريهة لكن الخنزيرة راحت تصدر جلبة تدل على الحماسة.. لربما سامحتهما..
بين إصبعين ناولها الصبى أول قطعة من اللحم فالتهمتها سريعًا.. ثم الثانية فالثالثة.. الأخيرة التهمتها مع أصابعه.. بسرعة ودقة.. سحب أنامله من الحظيرة وصرخ.. وجرى مبتعدًا..
قالت للصبي الباقى:
- » غدًا.. لا بد.. لا أريد لحم الخنزير العجوز هذا.. ولكن أريد لحمًا أبيض طازجًا.. »
- » نعم.. »
- » ولن أقبل الفشل.. »
- » نعم.. »
- » وإلا ذهبت له بنفسي.. سأهاجمه في فراشه لو أردت.. أريده.. إنه لي.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- » (هنسيف) ميت.. »
تساءلت (ليفرتال) وهي تكتب أحد تقاريرها التي لا تنتهي..
- » هذه فبركة.. مرة يقول الفتى إنه هرب ومرة إنه مات.. لا يستطيع نسج قصة متماسكة.. »
- » هل انتحر أحدهم هنا من قبل؟ »

فكرت قليلًا وتوقف قلمها:
- » في عهدى؟ مرتان لا أحسب أن إحداهما كانت انتحارًا متعمدًا.. كلاهما صرخ طلبًا للعون.. »
- » هل كان (هنيسيف) واحد؟ »
قطبت وجهها وهزت رأسها..
- » (هنسيف) كان غير مستقر بشكل معين.. كان يحسب أنه خالد.. يحسب أنه سوبرمان (نيتشه).. كان يحتقر العامة.. وكان يفضل تلك الحيوانات في المزرعة.. »
- » هل كان يحب المزرعة؟ »
كذبت قائلة:
- » ليس أكثر من أي فتى آخر.. لكن هذا جزء من البرنامج هنا.. »
كانت الكذبة التي ميزها (ردمان) على الفور تثير لديه أسئلة.. قال (لاسي) إن (هنسيف) انتحر في حظيرة الخنازير..
فجأة قالت له:
- » اسمع يا (ردمان).. هناك شعور عام هنا بأنك لا تعني بأمورك الخاصة.. أنت تريد التدخل في طريقة عملنا.. وكان عليك أن تدرس الحبال قبل أن تتسلقها.. في الحقيقة أنت تصنع الأعداء.. »
- » شكرًا على النصيحة.. »
- » هذه المهمة صعبة بما يكفي من دون أعداء.. صدقني.. »
في الورشة كان (لاسى) بانتظاره وكانت الساعة السابعة والربع وقد انتهت الدروس.
- « ماذا تفعل هنا؟ »
- » بانتظارك ياسيدي.. معي خطاب لأمي وأردت أن تعطيها إياه.. »

- » لماذا لا تعطيه للسكرتيرة؟ مسموح لك بخطابين كل أسبوع.. »
- » هم يطالعونها يا سيدى للتأكد من أنني لم أكتب ما لا ينبغي أن أكتبه.. وعندها يحرقون الخطاب.. وهذا الخطاب يحكي عن (كيفين).. »
- « لا أعتقد أنك تفهم الوضع جيدًا بصدد (كيفين) يا بني.. »
- » بل هو حقيقى يا سيدى.. إنه داخلها.. »
- » داخل من؟ عم تتكلم؟ »
لابد من وجود حدود لصبره مع الفتي.. لقد حان الوقت..
هنا جاء فتى اسمه (سلاب) يخبره بأن مكالمة هاتف تنتظره عند السكرتيرة.. فنهض وطلب من القادم أن يعني بـ (لاسي) حتى يعود.. ناوله الفتى الخطاب فوضعه في جيبه..
كانت الردهات خالية.. هذا وقت التلفزيون.. سيجلسون مفتونين أمام الجهاز الأبيض والأسود يتابعون الألعاب والقصص البوليسية بأفواه مفتوحة وعقول مغلقة. ينتظرون فقط حتى يظهر مشهد العنف التالي أو تظهر الحسناء التالية.. عندها يصحون من سباتهم ويهللون ويصفرون، ثم ينسون كل شيء ويعودون إلى تلك الغيبوبة..
كان المكتب مفتوحًا لكن السكرتيرة لم تكن هناك.. ولم يكن هناك أحد على الهاتف.. إن من اتصل به قد سئم الانتظار.. وقد سره هذا..
عاد إلى الورشة شاعرًا بعدم راحة.. كان التلفزيون يطلق ضوضاء عبر الردهة لكن شيئًا ما كان فيه.. الصمت.. نعم هناك ضوضاء لكن لا صفير ولا صياح..
اتجه (ردمان) إلى هذا الجزء من المبنى حيث أدوات الترفيه.. امرأة تصرخ في التلفزيون فيرد عليها رجل ما، ثم يقطع كلامه

وابل من الرصاص.. بلغ الحجرة وفتح الباب.
- » انحن! إن معه سلاحًا! »
كان هذا التلفزيون يكلمه.. وأطلقت رصاصة على الشقراء فماتت جوار الرجل الذي أحبته..
لكن الغرفة كانت خالية.. كأن المشاهدين وجدوا تسلية أفضل لهذه الليلة، اتجه للجهاز وأطفأه، فلما ساد الصمت شعر بأن هناك من يقف على الباب..
- » أنا (سلاب) يا سيدي.. »
- » أمرتك أن تبقى مع (لاسى).. »
- » كان عليه أن ينصرف يا سيدي.. »
- » انصرف؟ »
- » جرى فلم أستطع اللحاق به.. أنا آسف.. قدماى ليستا على ما يرام.. »
هذا حق.. إن (سلاب) يعرج قليلًا..
- « لا تفقد أعصابك يا سيدى.. »
- » ابتعد عن طريقى يا (سلاب).. »
وشعر بيده تغريه بأن يلكم هذا الفتى..
فجأة سمع صوت (كليك) ووجد مطواة زنبركية تلمس سرته.. لقد كان الفتى يضعها في حزامه..
- » لا داعي لأن تلحق به يا سيدي.. »
- » ماذا تفعل بالله عليك يا (سلاب)؟ »
- » إنها مجرد لعبة.. لعبة.. لا ضرر هنالك فاترك (لاسى) وحاله.. »
وشعر (ردمان) بنصل المطواة يحدث ثقبًا.. وشعر بالدم يسيل لينزلق إلى أسفل.. إن الفتى لا يمزح.. إنه ينوي قتله فعلًا لو أصر.



وشعر (ردمان) بنصل المطواة يحدث ثقبًا .. وشعر بالدم يسيل
ليتزلق إلى أسفل ، إن الفتى لا يمزح ..

- » إن (كيفين) يأتي ليلعب من آن لآخر.. «
- » (هنيسيف)؟ «

- » نعم.. أنت تحب أن تنادي الناس باسمها الثاني.. هذا يجعلهم يبدون رجالًا ويكفون عن أن يكونوا أطفالًا.. لكن (كيفين) كان يكره أن يكون رجلًا.. هل تعرف لماذا؟ لأن الرجال يموتون، و(كيفين) كان يعتقد أنه لن يموت أبدًا.. »
- » أريد أن ألقاه.. »
- « الكل لابد أن يفعل يا سيدي.. فهو يتمتع بشخصية كاريزمية.. »
بسرعة أمسك (ردمان) بمعصم القتي فكانت استجابة الأخير بطيئة.. سقطت المطواة ما إن ثنى (ردمان) الرسغ أكثر، فاعتصر عنق الفتى في وضع الخنق.. وضغط على تفاحة (آدم)..
- » أين (هنيسيف)؟ خذني إليه. »
لكمه الفتى في موضع الجرح، فأطلق سبة وكاد يطلق سراح الفتى.. لكنه تماسك وزاد من الضغط على حنجرته.. سالت الدموع على خدي (سلاب) واجدة طريقها بصعوبة في حقل ألغام الحبوب على وجهه..
- » يمكنني أن أكرر هذا طيلة اليوم.. فهل ترغب في هذا؟ »
ثم ألقي بالفتي ليصدم الجدار، فيتكور على نفسه في وضع الجنين..
- » أين (لاسى)؟ »
بدأ الفتى يرتجف:
- « وأين تحسبه؟ لقد ظفر به (كيفين).. »
- » وأين (كيفين)؟ »
بدا أن الفتى سيفقد الوعي لكن كانت عنده خطط أخرى.. لقد وثب في لحظة وسرعان ما كانت المطواة في يده من جديد.. انقض على (ردمان) فتلافى الطعنة بمقدار شعره، وسرعان ما

كان (سلاب) مكومًا على الأرض من جديد لكن المطواة ظلت في يده..
- » الموت لك أيها الخنزير.. الموت لك! »
وانقض من جديد لكن (ردمان) الشرطي السابق.. ركله في ساقه المريضة.. هوى الفتى على الجدار.. فهرع (ردمان) يجذبه لكنه تأخر جدًّا.. لقد اخترقت المطواة بطن حاملها، وارتخي جسده..
قلبه (ردمان).. لم يكن قد اعتاد الموت المفاجئ.. أن ترحل فجأة كما ترحل صورة التلفزيون عند إغلاقه.. خواء.. لا إشارة..
مشي في الردهات التي سادها الصمت الثقيل.. الجرح في بطنه لم يكن خطيرًا ولم ينزف الكثير، لكن لديه مشاكل أخطر من الجرح الآن.. هناك لغز يجب أن يفهمه..
فتح الخطاب الذي كتبه الفتى لأمه ليقرأه في ضوء الردهة الخافت..
- » ماما.. لقد أطعموني للخنزير.. لا تصدقيهم لو قالوا لك إنني هربت.. أنا لم أفعل.. أنا أحبك يا ماما.. »
وضع الخطاب في جيبه، وراح يركض عبر الحقل.. كان الظلام دامسًا الآن..
أين هو؟ لقد ضل الطريق.. لكنه رأى ضوءًا آتيًا من زريبة الخنازير.. كان هناك أشخاص يقفون على شكل سلويت.. يرقبون مشهدًا لا يراه.
لم تكن لديه خطة.. لو كان الجميع مسلحين مثل (سلاب) ويشاركونه ميوله القاتلة، فهي نهايته.. لم يضايقه هذا.. ترى هل انتهى الأمر؟
رأي بعض الأشباح تنصرف، بلا صخب ولا ضحكات.. كأنما هم المشيعون يغادرون جنازة.. الرءوس منكسة مع صمت بليغ..

كانت هناك شموع عديدة في حظيرة الخنازير تلقي ضوءًا وهاجًا مفزعًا.. وكان هناك من بقي.. عرف بينهم (ليفرتال) والحارس الذي ركع جوار رأس (لاسي) الجريح، ثم صوت خطوات.. قدم الخنزير تبعثر القش وثمة من يتكلم لكنه لا يعرف من..
إن الوقت حرج الآن.. سريعًا ما يعود أحد الفتية إلى المبنى ويجد جثة (سلاب) ويطلق الإنذار.. يجب العثور على (لاسى) بسرعة لو كان العثور عليه ممكنًا..
رأته (ليفرتال) أولًا.. رفعت رأسها وهزته بتحية.. كأنها كانت تنتظره طيلة الوقت.. ولاحظ أنها حررت شعرها على كتفيها أسود طويلًا جميلًا..
- « (ليفرتال).. »
ابتسمت له.. وكذا ابتسم الصبي الواقف جوارها..
سأله:
- » هل أنت (هنيسيف)؟ »
ضحك الفتى وضحكت هي وقالت:
- » لا (هنيسيف) هنا.. »
وأشارت إلى الحظيرة..
مشي بضع خطوات نحو الجدار ونظر إلى الداخل متوقعًا أن يرى الخنزير والقش والدم و(لاسي)..
لكن (لاسى) لم يكن هنا.. فقط الخنزيرة تقف وسط فضلاتها وتنظر لهم..
وقال الفتى مفسرًا:
- » (هنيسيف) هنا.. لقد أكلته وهو يتكلم من داخلها.. »
وبدت له الفكرة مسلية..
ضحك (ردمان) وقد أدرك أن حكايات (لاسى) لم تكن من صنعه.. لقد قال له الأولاد إن الخنزير ممسوس..

- » هل شنق (هنيسيف) نفسه في الزريبة كما قال (لاسى)؟ »
هزة رأس.
الآن بدأ يفهم.. كان يرى بعين الخيال الخنزيرة تتشمم جثة (هنيسيف).. تبدأ في التهامه.. وسرعان ما اخترع الفتية الخائفون هذه الأسطورة، وحولوا الخنزيرة إلى وثن يلتهم البشر، وراحوا يقيمون هذه الطقوس العجيبة بالشموع.. ويقومون.. بتقديم (لاسى) كقربان.. لهذا يمكن فهم استسلام (لاسى) لمصيره..
ماما.. لقد أطعموني لخنزير.. وليس ماما ساعديني..
كان يتصرف كعذاري الأضحيات لدى الشعوب الوثنية.. والسبب واضح.. هؤلاء الفتية جهلة لم ينالوا أي قسط من التعليم..
لكن هذا لا يفسر دور (ليفرتال) في الأمر..
قال لها:
- » هذا مجرد خنزير بالنسبة لي.. »
- » لكنه يتكلم بصوت (هنيسيف).. ستسمعه يا بني.. »
- » وأين (لاسى)؟ »
قال الفتى:
- » إنه في الداخل مع (هنيسيف).. لو أردت أن تسترده فعليك أن تدخل وتأتي به.. »
ثم انقض على عنق (ردمان).. شعرت الخنزيرة بهذا فراحت تبعثر القش وتضرب السياج.. تخلص (ردمان) من الفتي وألقى به على الأرض فقط لتنقض عليه (ليفرتال):
- » أنت تريده.. ادخل وخذه.. »
حاول التخلص منها لكنها تشبثت به بقوة، وراحت تضربه برأسها..
حدث الباقي بسرعة..

لقد لمس شعرها لهب شمعة فاحترق.. صرخت وحاولت التملص لكنها ضربت السياج فانهار، وعلى الفور اشتعل القش في الزريبة..
الآن وقد اشتعل القش من حولها ظلت الخنزيرة مجرد خنزيرة.. لا معجزات.. لا كلمات.. راحت تصرخ وتركل بأقدامها.. وأنتشرت رائحة اللحم المشوي إذ أمسكت النار بخصرها..
كانت تبدو كالكابوس وهي تجري مشتعلة في الحقل.. صراخها صراخ خنزير وهي تجري في الحقل لتغيب في الظلام.
فرك (ردمان) عينيه بسبب الدخان، ودخل الحظيرة..
كان (لاسى) هناك راقدًا على الأرض.. كان حيًّا والدموع في عينيه.. حاول أن ينهضه لكن الفتى كان متصلبًا حتى اضطر إلى أن يدلك أطرافه كى تلين قليلًا..
- » هلم.. ستكون بخير.. هلم.. »
ثم نظر لأعلى فوجد شيئًا معلقًا من خطاف.. كان هذا ما تبقى من جثة (هنيسيف) منذ التهمتها الخنزيرة بادئة بالقدمين.. لولا الدخان لكانت الرائحة شنيعة..
غادر الاثنان المكان بينما زريبة الخنازير تتحول إلى شعلة نار.. وكانت كل خطوة تحسن من حالة الفتى أكثر..
حاول (ردمان) ألا يفكر في الخنزيرة، لا بد أنها ماتت الآن.. لكنه كان يشعر بالأرض ترتج كلما مشيا كأنما هناك شيء ما يقفو أثرهما..
بلغا المبنى الرئيسي أخيرًا..
حان الوقت للعثور على هاتف وطلب الشرطة..
كان الممر مظلمًا لأن هناك من هشم المصباح الكهربي.. أما الهاتف في غرفة السكرتيرة فكان محطمًا.. في هذه اللحظة تصرف (لاسى) بسرعة.. عضه في يده وانطلق يجرى هاربًا من المكان..

مشى (ردمان) عبر الممر قاصدًا مكتب الحاكم.. هناك هاتف، وهو لن يترك التخريب يعوقه..
كان الباب موصدًا بلا مفتاح.. لهذا تحامل على نفسه وضربه بكتفه عدة مرات، كان متينًا من نوع جيد، وقد انفتح الجرح في بطن (ردمان) من جديد.. إلى أن تمكن من تهشيم الباب والدخول..
كانت أرض المكتب مغطاة بالقش.. والرائحة جعلت رائحة الزريبة رائعة بالمقارنة.. كان الحاكم على مكتبه ميتًا وقد التهم قلبه.
- « الخنزير.. »
قالها (ردمان) وهو يمد يده للهاتف..
هنا تلقي الضربة على صدغه.. هشمت عظام وجنته واهتزت الغرفة وابيضت..
الآن لم يعد هناك ظلام.. لقد أضيء الممر بآلاف الشموع.. لكنه لم يكن واثقًا من حواسه.. ربما كانت شمعة واحدة يراها هو كأنها ألوف..
كان يرى أشخاصًا يتكلمون.. لا يعرف ما يقولون ولا إن كانوا موجودين أصلًا..
هل هو واقف على قدميه؟ لا يعرف.. لكنه لم يسقط على الأرض..
ثم سمع لهاث الخنزيرة.. ورآها تبرز في ضوء شمعة.. لقد تفحمت تمامًا.. تمشي نحوه ببطء.. وعلى ظهرها كان الفتي (لاسى) مغمض العينين.. يتكلم كأنما هو في غيبوبة.. وأدرك (ردمان) في رعب أن هناك ذيلًا يتدلى من مؤخرة الفتى.. ذيل خنزير..

هنا فهم (ردمان) لماذا لم يسقط على وجهه.. لقد كان هناك حبل حول عنقه، وكلما تحرك كان الحبل يضيق أكثر.. ثم إذا به يرتفع إلى الهواء.. لم يكن هناك ألم بل ما هو أسوأ.. الرعب..
رفعت الخنزيرة عينيها المشوهتين اللتين لا تريان لأعلى..
سره أنها تعذبت وسوف تتعذب حتى تموت.. هذا يكفيه.. ثم انفتح فم الخنزيرة وتكلمت.. لا يعرف كيف خرجت الكلمات منها لكنها كانت كلمات صبي:
- » هذا هو قدر الوحش.. أن يأكل وأن يؤكل.. «
وابتسمت..
وبرغم أن (ردمان) كان يظن نفسه فقد الشعور، فإن أولى صدمات الألم جعلته يصرخ، إذ تسلق (لاسى) على جسده.. وبدأ يلتهمه.

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

ما سيكون سيكون.

[←2]

مصطلح ألماني معناه (الأشباح التي تحدث صخبًا وفوضى).

[←3]

صليب سواستيكا هو الصليب النازي المعقوف.

[←4]

برونكس هو حي اليهود في (نيويورك).. وبالتالى - حسب المفهوم الغربي المعكوس للأمور - لا بد أن يكون ساكن (برونكس) مسالمًا وديعًا أقرب إلى النسيم أو الأرانب الصغيرة!

روايات عالمية للجيب

47



أوديسا الفضاء

تأليف : آرثر كلارك

ترجمة وإعداد :

د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (47)

أوديسا الفضاء

تأليف: آرثر كلارك
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

لقاء آخر مع الخيال العلمي الحقيقي.. الخيال العلمي الملتزم بقضايا البشرية في ضوء التطور العلمي..

وهو ما يختلف كثيرا عن أوبرات الفضاء وسيوف الليزر، والآليين الثرثارين سليطي اللسان، والإمبراطورية الحانقة دوما، و«حدث في زمن بعيد بعيد.. في مجرة بعيدة بعيدة»..

قابلنا راى برادبوري في رائعته (451 فهرنهايت) منذ عام تقريبا، واليوم نقابل واحدا من كبار (المناضلين) هو السير (آرثر س. كلارك)..

لقد كتب آرثر كلارك نحو ثمانين كتابا وخمسمائة مقال. ولد عام 1917 في (سومرست)، وفي العام 1936 انتقل إلى لندن. وتبدأ الحرب العالمية الثانية فيعمل فنيا للاتصالات بالسلاح الجوي البريطاني ويكتسب خبرة علمية جيدة في هذا العمل. عام 1947 يكتب أولى قصصه (مقدمة إلى الفضاء)، ثم في عام 1948 يلتحق بدورة لدراسة علم الفلك، ويكتب أهم مجموعاته القصصية (الحارس). وبدأت شهرته تتحقق عندما قدم قصته (نهاية الطفولة).

كان مولعًا بالغوص إلى أعماق البحر، وقد اتجه عام 1956 ليعيش في (سريلانكا) - التي كانت (سيلان) وقتها - ويعتبرها بيته حتى اليوم، حيث يمارس هوايته هذه، لكنه يغادرها كل عام ليلقى بعض محاضرات حول العالم وأمريكا على وجه الخصوص.

أصابه الشلل عام 1962 مما اضطره إلى أن يودع البحر الحبيب بقصته (جزيرة الدرافيل). استمر في الإنتاج الغزير حتى العام

1986 حين قرر الأطباء أنه مصاب بداء (لو جيريش) وقيل إنه سيعيش عامًا ونصف عام على الأكثر.. هكذا راح يعمل كالمحموم لمدة عام حتى تبين أن التشخيص الأول خطأ.
عام 1986 نال لقب (السيد العظيم) من رابطة كُتَّاب الخيال العلمي الأمريكيين. كما نال حشدا هائلا من الألقاب، وهو من الكُتَّاب الذين تثق بهم منظمة اليونسكو بشكل خاص، وعضو في الجمعية الفلكية الملكية.

☆ ☆ ☆

القصة التي نقدمها اليوم من نماذج الأدب الذي يترجمونه ب (الأدب الملفق أو المنسوج).. وهذا ليس ذما.. إن الـ Spin - of Tale هي نوع أدبي شائع في الغرب، وقد قدمنا من قبل (لقاءات لصيقة من النوع الثالث) كنموذج لهذه القصص. من المعتاد أن يكتب الكاتب القصة ثم يخرجها المخرج، لكن الحال هنا هو العكس. إن الفيلم الذي صُنع عن قصة كلارك أوحى له بقصة جديدة!
لقد أعجب المخرج الكبير (ستانلي كوبريك) بقصة قصيرة لكلارك هي (الحارس Sentinel)، وجرت مجموعة من المشاورات أدت إلى أن يقضي (كلارك) الفترة من عام 1964 إلى 1968 منهمكا في تطوير سيناريو هذه القصة، ثم قدمها (كوبريك) في فيلم أثار ذهول العالم عام 1968 هو (2001: أوديسا فضائية).. الفيلم الذي كان وما زال أهم وأعمق وأمتع وأدق فيلم خيال علمي في التاريخ على الإطلاق، والذي فاق حرب الكواكب) في كل شيء حتى على المستوى التقني برغم أنه أنتج قبله بعشرة أعوام. بعد نجاح الفيلم الباهر أعاد (كلارك) كتابة القصة كما ظهرت في الفيلم ليخرج هذا الكتاب الذي بين يديك الآن. وإن أخذ عليه النقاد أنه أفسد جو الغموض الثرى

المحيط بالفيلم، ليقدم تفسيرات جافة صارمة. أي أنه استبدل النثر العلمي المحدد بالشعر الجميل المليء بالخيال، كما في الفيلم تدور الفكرة المحورية لهذه القصة حول تقدم البشرية المذهل والسريع.. لكنها برغم هذا لم تصل لأي مكان، كأنها طفل رضيع تائه في الفضاء الخارجي. هذه قصة ممتعة لكنها مُقبضة خالية تماما من الأمل.. ولقد صرنا الآن نألف حقيقة أن كتاب الخيال العلمي المعاصرين لا يملكون أي تفاؤل بصدد الغد، بعكس أسلافهم الذين اعتقدوا أن التقدم العلمي المُطرد هو الطريق إلى سلام البشرية وسعادتها..

نرجو أن تروق لك القصة، ونعدك بأن نتعرف الكتاب الجادين الآخرين من أمثال (أزيموف) و(هاينلاين) و(زيلاني) في كتيبات أخرى من هذه السلسلة.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

١- ليل بدائي..

ا- الطريق إلى الانقراض..

لقد استمر الجفاف عشرة ملايين من الأعوام حتى الآن، وقد زالت مملكة الزواحف العملاقة منذ زمن بعيد. وهنا في خط الاستواء في قارة ستُدعى يوما: إفريقيا، كانت معركة البقاء قد بلغت مرتبة جديدة من الشراسة، لكن المنتصر لم يظهر بعد.
في هذه الأرض القاحلة لم يكن إلا صغير الحجم أو السريع أو القوي قادرا على الازدهار، أو يملك حتى الأمل في البقاء
لم يكن الرجال البدائيون في هضبة الترانسفال يملكون هذه الصفات. لقد اقتربوا جدا من الانقراض في الواقع. وقد احتل نصفهم الكهوف التي تطل على واد جاف، قسمه مجرى ماء انحدر من ثلوج الجبال على بعد مائتي ميل شمالا. وفي الأوقات العصبية كان المجرى يختفي تماما، وتعيش القبيلة في ظلال الظلمأ.
كان الجوع شعورا دائما، والآن صار التضور وحين تسرب أول شعاع من الفجر إلى الكهف، أدرك مراقب القمر أن أباه قد مات في أثناء الليل. لم يكن يعرف أن العجوز أبوه، لأن علاقة كهذه كانت تتجاوز فهمه، لكنه إذ نظر للجسد الضامر الميت شعر بعدم راحة هي جد الحزن
كان الطفلان ينشجان طلبا للطعام، لكنهما صمتا حين زمجر مراقب القمر فيهما. وفي محاولة من إحدى الأمهات للدفاع عن رضيعها، أطلقت زمجرة غاضبة في وجهه. فلم يجد في نفسه القوة لإخضاعها
الآن صار النور يسمح بالرحيل. جذب مراقب القمر الجثة وجرها خلفه وهو ينحني ليعبر فتحة الكهف الضيقة. الآن وقد

غادر الكهف تخلص من الجثة ووقف منتصبا.. إنه الكائن الوحيد في العالم القادر على الوقوف بهذه الطريقة
بالنسبة لقومه كان مراقب القمر عملاقا.. كان ارتفاعه خمسة أقدام[1] ووزنه مائة رطل.. كان جبينه منخفضا وكان هناك أخدودان فوق محجريه، لكن جيناته بالتأكيد كانت تحمل الوعد بالإنسانية الكاملة. في عينيه كان هناك شيء ما.. نوع من الوعي.. أقرب شبها بالذكاء الذي يحتاج إلى أعوام حتى يحقق نفسه.

لم تكن هناك علامات على الخطر، لذا بدأ مراقب القمر ينحدر عبر المنحدر شبه العمودى.

وكأنما كانت القبيلة تنتظر إشارته فبدأت تلحق به وهرع الجميع إلى مجرى الماء الموحل من أجل جرعة ماء الصباح

بحث مراقب القمر عن الآخرين، فلم ير لهم أثرا.. هكذا نسيهم على الفور، فهو لم يكن يملك القدرة على الاهتمام بشيئين في الوقت ذاته.

أولا يجب أن يتخلص من العجوز.. لكن هذه كانت مشكلة تحتاج إلى قليل من التفكير. لقد مات الكثيرون هذا الموسم، وعليه أن يضع الجثة حيث ترك الأخريات كي تتولى الضباع المهمة.

كانت بانتظاره هناك حيث يتفرع الوادي إلى حقول السافانا، كأنما تعرف أنه قادم. ترك مراقب القمر الجثة تحت شجيرات صغيرة وهرع ليلحق بالقبيلة لم يفكر في أبيه مرة أخرى

بعد هذا كانت رفيقتاه والأطفال يبحثون بين الشجيرات الجافة عن جذور أو توت أو سحال ألقت بها الريح هنا. لم يبق في الكهوف إلا الرضع وأضعف الشيوخ، فلو بقي بعض الطعام بعد نهاية

اليوم سيتم إطعامهم. أما لو لم يبق ستستعيد الضباع حظها السعيد من جديد
برغم أن مراقب القمر لم يكن يتذكر الماضي ولا يستطيع مقارنة الأيام، فإن اليوم كان مجدود الحظ لقد وجد خلية نحل في جذع شجرة عجوز، وهكذا فاز بأفضل قائمة طعام يمكن أن يحظى بها قومه. وكان مازال يلعق أنامله حين اقتاد المجموعة عائدين عصرا.
بالطبع اصابته لدغات كثيرة. لكنه لم يلحظها كان الآن أقرب إلى الرضا، برغم أنه لم يشبع بعد، لكنه على الأقل لم يعد واهنا من الجوع. وهذا أفضل شيء يمكن لأمثاله أن يظفروا به.
لكن رضاه تبخر حين بلغ الماء ووجد الآخرين كانوا هناك كل يوم وما كان هذا ليضايقه من قبل. كانوا ثلاثين لا يمكن أن تميزهم من قوم مراقب القمر.. وإذ رأوه قادما بدءوا في الرقص والصراخ، فرد قومة بالمثل
برغم أن البدائيين يتشاجرون مع بعضهم دوما، لم تكن معاركهم تحدث إصابات خطيرة. لم تكن في أيديهم مخالب ولا لهم أنياب حادة، وبالتالي كانت قدرتهم على الإيذاء محدودة بالإضافة لهذا لم تكن لديهم طاقة إضافية لهذا السلوك غير المنتج. كان الصراخ والتكشير عن الأنياب طريقتين أكثر فعالية في التعبير عن وجهات النظر
استمرت المواجهة خمس دقائق، ثم انتهى العرض بسرعة كما بدأ. وبدأ الجميع يشرب الماء القذر.. لقد تم إرضاء الشرف وعبرت كل مجموعة عن حقها.
عادت القبيلة لكهفها دون حدث يذكر. وأطلقت المرأة المصابة التي ظلت في الكهف صيحة رضا حين أعطاها مراقب القمر الغصن المغطى بالتوت الذي جلبه لها. لم يكن هذا طعاما كافيا،

لكنه سيمنحها القدرة على الحياة حتى يشفى الجرح الذي أصابها به الفهد، ويمكنها البحث بنفسها من جديد

وعبر الوادي كان قمر مكتمل يبزغ.. وكانت ريح باردة تهب من الجبال البعيدة. سيكون ليلا قارس البرد.. لكن البرد مثل الجوع لم يكن موضوعا للاهتمام.. كان جزءا من خلفية الحياة ذاتها

لم يتحرك مراقب القمر حين سمع الصراخ من أحد الكهوف السفلي.. ولم يحتج إلى سماع زئير الفهد كي يعرف ما يجري بالضبط هناك في الظلام كان (الشعر الأبيض) العجوز وأسرته يقاتلون ويموتون.. وفكرة المساعدة لم تخطر قط بذهن مراقب القمر. كان منطق البقاء الخشن يحكمه. كانت الكهوف كلها صامتة خشية أن تجتذب الكارثة بدورها

انتهت الضوضاء، والآن صار بوسع مراقب القمر أن يسمع صوت جسد يجر فوق الصخور. ثم تمكن الفهد من السيطرة على فريسته فابتعد في سلاسة وفريسته بين فكية

لمدة يومين لن يكون هناك خطر هنا.. لكن ربما كان هناك أعداء آخرون يستغلون فرصة هذه الشمس الصغرى التي تسطع في الليل فقط. إن الوحوش الصغرى يمكن إفزاعها بالصراخ.. وزحف مراقب القمر إلى خارج الكهف وجلس القرفصاء يراقب الوادي

بين كل المخلوقات التي مشت على الأرض، كان هؤلاء البدائيون أول من نظر بثبات إلى القمر وبرغم أنه لا يذكر هذا، فإن مراقب القمر كان في صغره يمد يده محاولا الإمساك بذلك الوجه الشبحى فوق التلال. لم ينجح قط.. والآن قد شاخ بما يكفي لفهم السبب.. في البداية عليه أن يجد شجرة عالية بما يكفي

أحيانا كان يراقب القمر لكنه كان يصغي طيلة الوقت. نام مرتين لكن بتحفز وحشى. في سن الخامسة والعشرين - وهي سن

متقدمة - كان مازال يحتفظ بقدراته. فلو واتاه الحظ وتحاشي الأوبئة والوحوش والجوع فلربما يعيش عشرة أعوام أخرى
ارتفع القمر ببطء فوق النجوم الاستوائية التي لن يراها بشر. وفي الكهوف بين النوم والانتظار القلق كانت تولد كوابيس أجيال لم تولد بعد
ومرتين عبر السماء ببطء ضوء يغشى الأبصار أكثر بريقا من أي نجم.

☆ ☆ ☆

٢- الصخرة الجديدة.

في ساعة متأخرة من الليل صحا مراقب القمر كان جهد اليوم قد أنهكه، لذا نام بسلام أكثر من المعتاد. لكنه تيقظ إذ سمع أول ضوضاء من الوادي.

جلس في ظلام الكهف العفن، وأجهد حواسه، وزحف الخوف على روحه ببطء. لم يسمع قط صوتا كهذا في حياته التي تبلغ ضعف متوسط حياة أفراد عشيرته. إن القطط الكبيرة تزحف في صمت، ولا يكشف أمرها إلا انزلاق الأرض. ولكن هذا الصوت كان صوتا يتعالى باستمرار. كأنما وحش عملاق يمشي في الليل ويتجاهل كل العقبات، ولا يحاول إخفاء صوت خطواته. ومرة سمع مراقب القمر صوت شجرة تقتلع.. الأفيال تفعل هذا كثيرا، لكنها عدا ذلك تتحرك في صمت كالقطط

ثم سمع صوتا لم يستطع معرفة كنهه، لأنه لم يسمع من قبل في تاريخ البشرية.. كان صوت معدن يرتطم بصخرة.

رأى مراقب القمر الصخرة الجديدة، حين خرج بعشيرته في الفجر إلى النهر. كان قد نسي مخاوف الليل، لأن شيئا لم يحدث بعد الضوضاء الأولى على الأقل لم يحدث ما يخيف.

كان لوحا مستطيلا يفوق ارتفاعه ثلاث مرات لكنه رفيع يمكن أن يحتويه بذراعيه، وكان مصنوعا من مادة شفافة تماما. بالواقع كان عسيرا أن تتبينه ما لم تلمع الشمس على جنباته. لم يكن مراقب القمر قد رأى الثلج قط، لذا لم يكن هناك شيء يمكن أن يشبه به هذا الجسم. كان مغريا وبرغم أن مراقب القمر كان يحذر كل شيء جديد، لم يتردد في الاتجاه له. لما لم يحدث شيء راح يتحسس سطحه البارد.

وكان التفسير الذي توصل إليه مراقب القمر بعد أربع دقائق من التفكير، هو أن هذا الجسم صخرة.. صخرة نبتت في الليل كما تنمو النباتات.. وبالطبع يمكن أن يكون مذاقها طيبا كمذاق بعض النباتات، لكن بعض لعقات ومحاولات لقضم قطعة سرعان ما قضت على أحلامه. لا غذاء هنا.. وكأي بدائى عاقل اتجه للنهر ونسى كل شيء عن العمود الحدري.



كان لوحًا مستطيلاً يفوق ارتفاعه ثلاث مرات ، لكنه رفيع
يمكن أن يحتويه بذراعيه ..

كان البحث عن طعام غاية في السوء اليوم.. واضطرت القبيلة إلى السفر عدة أميال لتجد أي طعام وقد تهاوت إحدى النساء تحت القيظ، فالتف رفاقها حولها عاجزين عن إسداء أي عون لها.

لو كان لديهم فائض من طاقة لاحتملوها معهم لكنهم منهكون تماما عليها أن تبقى حيث هي وأن تشفى أولا، تشفى بقدرتها الخاصة. وحين مروا بمكانها في المساء لم تكن قد بقيت منها عظمة واحدة..

وفي المساء عادوا لكهوفهم بعد ما شربوا جرعة المساء، حين دوي الصوت كان لا يكاد يسمع، لكنه جعلهم يتصلبون. وقفوا وقد تدلت فكوكهم السفلي. ذبذبة متكررة تبعث الجنون وتخدر كل من يقترب من الجسم الشفاف للمرة الأولى والأخيرة قبل ثلاثة ملايين عام، يدوي صوت طبول في إفريقيا

بدأ البدائيون يمشون كالنيام نحو مصدر تلك الجلبة. واحتشدوا حول العمود الحجري ناسين مشاق اليوم.. والجوع في أحشائهم.

تعالت القرعات وازداد الليل جهامة. وإذ استطالت الظلال بدأت البلورة تلمع. في البدء فقدت شفافيتها وغمرها ضوء شاحب لبنى، وثمة أشباح مبهمة تتحرك على سطحها. ثم بدأت تتخذ شكلا شبكيا راح يدور.

بسرعة وبسرعة دارت عجلة النور ومعها ازداد إيقاع الطبول، ووقف البدائيون منومين مغناطيسيا ناسين الدرس الذي تعلموه من أسلافهم.. ما من أحد منهم يجرؤ على الابتعاد عن كهفه كل هذه المسافة.

العرض الضوئي يزداد إبهارا كانوا يقفون غير عالمين أن عقولهم تفحص وأن أجسادهم ترسم بالتفصيل، وأن استجاباتهم تدرس. وفي النهاية كان الرجل البدائي الأقرب إلى الجسم هو أول من عاد للحياة

لم يفارق مكانة لكن عينيه راحتا تنظران حوله، وأصابعه تنفتح وتنغلق، ثم انحنى ليمسك ببعض الأعشاب ويحاول ربطها في شكل عقدة. بدا كأنما تستحوذ عليه روح شريرة، وأنامله تحاول

القيام بعمل معقد لم يفلح فيه من قبل. ولكنه لم ينجح إلا في تهشيم الأعشاب الجافة فنهض وعاد متصلبا عاجزا عن الحركة
حاول أحد صغار السن الشيء ذاته، وفي هذه المرة نجح. وعلى كوكب الأرض وللمرة الأولى ولدت العقدة الأولى.
البعض راح يفرد ذراعيه، والبعض راح يحاول أن تلامس أطراف أنامله بعضها، جاء دور مراقب القمر فوجد أن الشيء كف عن التألق، ولكن دوائر متدرجة في الصغر كأنها هدف رماية -أو عين الثور[2]- ظهرت على الجدار، وبوازع من ذهنه وجد أنه يلتقط حجرا فيلقى به نحو مركز الدوائر، لكنه أخطأ
قال له الأمر الصادر في ذهنه: جرب ثانية.. بحث عن حجر، وهذه المرة ضرب الجسم بصوت رنان كالجرس. كانت ذراع مراقب القمر تتحسس، وفي المرة الرابعة كان قد دنا جدا من قلب الهدف، فغمر عقله شعور بالنشوة لا يمكن وصفه. ثم زالت السيطرة عليه فلم يعد راغبا في عمل شيء إلا أن يقف ويراقب.
وهكذا راح واحد تلو الآخر من العشيرة يأتي بعمل ما تحت الاستحواذ.. البعض نجح وفشل أكثرهم، ونال كل منهم جزاءه إما بالنشوة أو بتقلصات الألم
وخبا وميض الجسم وكف عن رقصات الضوء، فابتعد البدائيون متجهين نحو كهفهم. ولم ينظر أحدهم إلى الوراء ليرى الشيء العجيب، الذي يقودهم بضوئه إلى مستقبل لا يعرفونه ولا تعرفه النجوم

☆ ☆ ☆

٣- المدرسة..

لم يتذكر مراقب القمر ورفاقه ما رأوه، بعد ما كفت البلورة عن تحذير عقولهم، وحين خرجوا للبحث عن الطعام مروا بها دون أدنى انتباه، فقد صارت جزءا من الخلفية المهملة لحياتهم لا يمكنهم أن يأكلوها ولا يمكنها أن تأكلهم لهذا لا أهمية لها

لم يكن هناك شيء غير معتاد، ولم يمت أحد. وفي المساء كانت البلورة مازالت تنتظر وتشع نورها الغامض، ولكن البرنامج الذي أعدته كان مختلفا تماما، وقد انتقت أشخاصا بعينهم هذه المرة بينما تجاهلت الآخرين

حين جلس مراقب القمر في الكهف وقد نام الباقون، كان يشعر بلون من الحسد.. نوع من عدم الرضا عن حياته. وهو شعور لم يخطر له قط، ولم يدر ماذا يفعل ليقاومه.. لكنه دون أن يدري كان قد خطا خطوته الأولى نحو التحضر. كانت هناك رؤيا تطارده لا يعرف مصدرها، تمثل أسرة من رجل وامرأة وطفلين يبدو عليهم الشبع ويغطى الدهن ضلوعهم، ولا يبدو عليهم الجوع أو السقم..

في الأيام التالية استمرت هذه المشاعر.. كانت مهمة شاقة، لكن البلورة كانت صبورا.. لم تتوقع نجاحا سريعا لها ولا للنسخ الأخرى منها المتناثرة عبر الكرة الأرضية. مائة فشل لن يحدث فارقا بينما يكفي نجاح واحد كى يغير مصير العالم.

إذ مشى قطيع الخنازير الوحشية ذات الأنياب، تصلب مراقب القمر، كان البدائيون والخنازير يتجاهل بعضهم البعض، لأنه لم يكن هناك صراع على المصالح بينهم ولا تنافس على الطعام. لكنه الآن وقف يراقب الخنازير.. كانت تحركه دوافع لا يستطيع

فهمها. وكأنما يحلم، بدأ يفتش في الأرض غير عالم عن أي شيء يفتش، لكنه سيعرفه حين يراه
كانت صخرة مدببة طولها ست بوصات، ولم تكن ملائمة ليده بالضبط، لكنها تصلح، طوح يده مندهشا للثقل الذي اكتسبته وشعر بالقوة، ثم اتجه نحو أقرب خنزير
كان حيوانا صغيرا أحمق حتى بمقاييس الخنازير، ولم يأخذه بجدية إلا بعد فوات الأوان. سرعان ما هوى الحجر عليه فهوى أرضا، بينما ظل باقي القطيع واقفا يأكل.
احتشد البدائيون حول مراقب القمر وفريسته في إعجاب مندهش، ثم حمل كل منهم حجرا أو صخرة وانهال على الخنزير الميت.
بعد قليل ابتعد البدائيون وقد سئموا هذه اللعبة، لكن مراقب القمر كان قد عرف الحقيقة.. حقيقة أنه لن يجوع بعد اليوم.

☆ ☆ ☆

٤ - الفهد.

كانت الأسلحة التي تعلموا استعمالها بسيطة جدا، لكنها كانت ستغير وجه الأرض وتجعل البدائيين هم السادة. كان أبسطها حجرا يضاعف قوة الضربة عدة مرات. ثم هناك قطعة العظم التي تبعد مدى الهجوم وتبعد عنك المخالب والأنياب. بهذه الأسلحة صار الطعام الذي يجوب السافانا ملكا لهم
كانوا بحاجة إلى أدوات أخرى، فابتكروا مدية يمكنها أن تجرد العظام من اللحم، وهي نموذج صالح للثلاثة ملايين سنة القادمة. كانت هي الفك السفلي لظبى ولن تكون هناك تحسينات حتى يجيء عصر الحديد. وهناك خنجر جاء من قرن غزال.
ربما لو منحوا الوقت لابتكروا هم هذه الأسلحة بأنفسهم، لكن الوقت كان ضدهم، وكانوا مهددين بالانقراض فعلا. لقد منح البدائيون فرصتهم الأولى لكن لن تكون هناك فرصة ثانية.. لقد صار مستقبلهم حرفيا في أيديهم.
كان الأطفال يولدون وأحيانا يعيشون.. ضعيفين بلا أسنان ويموتون قبل الثلاثين. وخلال عام تبدل حال مراقب القمر وعشيرته بما يفوق الوصف.
لقد ولت ذكريات الجوع، وبرغم أن الخنازير صارت خجولا تحب التوارى، فقد كانت هناك غزلان وظباء.. كلها صارت فرائس للصيادين الجدد
الآن صار بوسعهم - وقد زال عنهم الجوع - أن يجدوا متسعا للتفكير. لم يربطوا قط بين هذه التغيرات والعمود الحجري الواقف قرب النهر. في الواقع كانوا قد نسوا تماما أية طريقة أخرى للحياة.

لكن لا توجد يوتوبيا بلا عيوب. العيب الأول كان الفهد الذي ازدادت شهيته للبدائيين بعدما صاروا أحسن تغذية، والآخر كان تلك القبيلة عبر النهر فلسبب ما استطاع الآخرون أن يبقوا أحياء، وبعناد رفضوا أن يموتوا جوعا.
حلت مشكلة الفهد بالصدفة، نتيجة خطأ ارتكبه مراقب القمر، برغم أنه وقتها وجد الفكرة عبقرية ورقص طربا.
كانت هناك أيام عصيبة لا تفلح فيها القبيلة في صيد شيء، وفي ذلك اليوم إذ عادوا لكهفهم وجدوا إحدى هدايا الطبيعة الثمينة: ظبي يرقد على الأرض وقد كسرت قائمته الأمامية، لكنه كان قادرا على المقاومة، وقد وقفت بنات أوي ترمق قرونه الحادة في احترام.
التف البدائيون حوله في حذر من قرنيه، ثم انقضوا عليه بالحجارة فلم يتركوه إلا كومة من اللحم. لكن إذ نال الظبي راحته النهائية كان الظلام قد حل، واستعادت بنات أوى شجاعتها، وأدرك مراقب القمر أن كل هذا الجهد قد يضيع سدى. من الخطر البقاء هنا بد الآن.
هنا خطرت له فكرة.. لماذا لا يجر الظبي للكهف ليأكله هناك؟ لم تكن هذه أول مرة يبرهن فيها على أنه عبقرى. ولم يتصور قط كم الجهد الذي سيكلفه إياه هذا العمل وهو يجر الجسد الثقيل فوق المنحدر لولا معونة رفاقه. لكن تم الأمر في النهاية ودخل الظبي الممزق من حافة الكهف، وبدأ العشاء
بعد الأكل جلس مراقب القمر بمعدة ممتلئة يتأمل النائمين من حوله.. لا يعرف السبب لكنه قرر الخروج من الكهف قليلا..
جلس في الخارج يراقب الوادي الصامت المظلم من تحته
هنا جاءه صوت حصوة تسقط.. كان خائفا لكن الفضول يغمره اتجه مراقب القمر ليرى مصدر الصوت.

لكن ما رآه جعله يتصلب مشلولا من الرعب. على بعد عشرين قدما فوقه كانت عينان تتقدان نارا وتنظران له مباشرة. وقد نومناه إلى حد أنه لم يشعر بالجسد الرشيق الذي يزحف في صمت بين الصخور. لم يتسلق الفهد قط إلى هذا الارتفاع..
لقد تجاهل محتويات الكهوف السفلى، وهو يسعى الآن لنوع جديد من الفرائس بعد ما أثارته رائحة الدم بعد ثوان دوي صراخ البدائيين من الكهوف العليا، فكشر الفهد عن أنيابه بعدما أدرك أنه فقد مزية المفاجأة، لكنه لم يتراجع لأنه يعرف أنه لا يوجد ما يخشاه.
ودون تردد دخل الكهف الذي يفوح برائحة الدماء. كان هذا خطأه الأول لأن البدائيين وجدوا أنهم محاصرون، وقد منحهم هذا شجاعة وقوة واستعدادا للمواجهة.. تلك المواجهة التي يملكون أدواتها الان
شعر الفهد أن هناك خطأ ما حين تلقي أول ضربة على رأسه.. زمجر وأنشب مخالبه في لحم طري، ثم زأر إذ اخترق شيء حاد خصره.. استدار حول نفسه ليضرب الظلال التي تصرخ وتلتف حوله.
شيء ما هوي على خطمة فأطبق عليه لكن أنيابه أطبقت على عظم عار.. والآن وفي مهانة لا تصدق كان هناك من يجره من ذيله
استدار وألقي بالمهاجم ليضرب الجدار.. لكن كان من المستحيل أن يفر الآن وسط كل هذه الضربات. واستحالت زمجرته من الألم إلى الإنذار.. ومن الإنذار إلى الرعب الصريح.
هنا ارتكب خطأ ثانيا.. لقد نسي أين هو.. وثب من الكهف فقط ليهوى عبر المنحدر.. وسرعان ما دوى صوت ارتطام وهو

يتهشم أسفل الأخدود، ثم لم يعد من صوت إلا انهيار الأحجار في الظلام.
راح مراقب القمر يرقص على مدخل الكهف فللمرة الأولى يجد أنه ليس الضحية العاجزة.. ولأول ليلة في حياته نام نوما هادئا متصلا

☆ ☆ ☆

٥ - لقاء في الفجر.

في الطريق إلى النهر فجرا توقف مراقب القمر عند بقعة مألوفة، وشعر بأن شيئا ما غير موجود هنا.. شيئا اعتاد أن يراه واختفى فجأة. لكنه لم يمعن التفكير لأنه كانت لديه أعمال أهم لهذا اليوم
لقد اختفت البلورة بغموض كما جاءت.. مثلها مثل البروق والرعود، صارت جزءا من الماضي الذي لا وجود له.. لكن هذا لم يضايق مراقب القمر
رآه أفراد العشيرة المنافسة من ناحية النهر الأخرى، فبدءوا في الصراخ كما يحدث كل يوم، لكن هذه المرة دون إجابة
بثبات وتصميم وصمت هبط مراقب القمر ورفاقه نحو النهر.. هنا صمت رجال القبيلة المعادية.. شعروا بشكل غامض أن هناك شيئا ما غير مريح، وأن هذه المواجهة سوف تختلف عن كل المواجهات السابقة.
رفع مراقب القمر ذراعه في الهواء، وكان يحمل غصنا غليظا ثبت عليه رأس الفهد تلتمع أسنانه الحادة في الشمس.. وعبر النهر كان ذو الأذن الواحدة زعيم العشيرة يقف ثابتا
ربما لأنه كان أشجع أو أغبى من أن يفر.. ربما لأنه لم يتصور أن هذا الخرق الفاضح يحدث لا فارق إذ هوى الموت على رأسه فر الباقون، وبعد قليل سينسون كل شيء عن زعيمهم هذا..
وإذ وقف مراقب القمر أمام الجثة كان يشعر بأنه سيد العالم.. لكنه لم يعرف ما يجب أن يفعله بعد هذا لكنه سيفكر في شيء ما.

☆ ☆ ☆

٦- صعود الإنسان..

لقد سيطر الإنسان على الكوكب.. زاحفا ببطء من قلب إفريقيا. مازال نادرا بحيث يسهل ألا تراه وسط بلايين المخلوقات على الأرض والبحر، وما من دليل حتى الآن على أنه سيستمر.
عبر مائة ألف عام منذ هبطت البلورة على الأرض، لم يخترع البشر شيئا.. لكنهم اكتسبوا مهارات عدة، وصارت رماحهم أقوى. لم يعودوا معرضين للموت إذا سقطت أسنانهم أو تهشمت. يمكنهم استخدام آلات تنتزع اللحم من العظام. مازال أمام الكلام مليون سنة لكن الخطوات الأولى نحوه قد بدأت.
ثم تغير العالم في أربع موجات كبرى يفصلها عن بعضها ألفا عام. جاء عصر الجليد تاركا أثره على الكرة كلها وهلك من لم يقدروا على التكيف لكن البدائيين اكتسبوا مهارة في صنع الأدوات، وهذه بدورها جعلت أيديهم وعقولهم أكثر دقة، من ثم استطاعوا صنع أدوات أفضل وانتقلت خبرات جيل إلى جيل آخر وازداد التقدم. وتعلم الإنسان أن يكون له ماض، وبدأ يفهم معنى المستقبل.
لقد استطاع ترويض النيران.. وأخلى الحجر مكانه للبرونز، ثم الحديد. تلت الزراعة الصيد وصارت القبيلة قرية والقرية مدينة.
كان جسمه يضعف باستمرار مع الوقت، لكن قدرته على التدمير كانت تتزايد، وتعلم كيف يقتل الناس عن بعد دون التحام. الرمح ثم القوس ثم الرصاصة وفي النهاية الصاروخ الموجه.. كل هذه الأشياء أعطته قوة بلا حدود.
ومن دون هذه الأسلحة ما كان الإنسان ليغزو العالم، لقد وضع فيها روحه وقلبه، وخدمته هي العصور طويلة لكن الآن وما دامت هذه الأسلحة موجودة، فإنه يعيش في زمن ليس ملكه

☆ ☆ ☆

TMA-11

٧- رحلة خاصة..

مهما غادرت الأرض تظل الإثارة هي نفسها فكر د. (هايوود فلويد) في هذا.. لقد سافر للمريخ مرة وللقمر عدة مرات، ولمحطات الفضاء أكثر مما يتذكر.. لكن الشعور بالعجب والتوتر كان لا يفارقه كلما دنت لحظة الإقلاع. كأنما لم ير الفضاء من قبل كانت النفاثة التي أحضرته هنا من واشنطون تهبط إلى منظر من أكثر المناظر ألفة لكنه كذلك أكثرها إثارة في العالم

قرب الأفق كان برج معدنى لامع تغمره الأضواء، واقفا هناك منذ عشرين عاما كأثر قومى، وعلى مسافة بعيدة منه شامخا للسماء كأنما هو جبل من صنع الإنسان، كان مبنى تجميع المركبات الذي مازال أكبر مبنى في الأرض.

لكن هذه الأشياء الآن تنتمى للماضي وهو مسافر نحو المستقبل. استطاع لحظة الهبوط أن يرى من تحته متاهة من المباني ومهبطا عظيما للطائرات وفي النهاية تقف مركبة فضاء تلمع في بركة من الأضواء، متأهبة لرحلتها إلى النجوم. وتحت تأثير خداع البصر خيل لـ (فلويد) للحظة أنه ينظر إلى يرقة فضية صغيرة في ضوء فلاش ثم بدأ يدرك الحجم الحقيقي للمركبة.. لابد أن عرضها مائة قدم على الأقل بين جناحيها.

وهذه المركبة العملاقة -فكر في نوع من الكبرياء- تنتظرني. على قدر علمه تلك أول مرة تعد فيها رحلة كاملة لنقل رجل واحد إلى القمر

كان الصحفيون ينتظرون، وهو قد ألفهم بصفته رئيس المجلس القومي لعلماء الفلك.. لكن الوقت لم يكن مناسبا، ولم يكن عنده ما يقال.. إلا أنه حرص على عدم مضايقتهم

- د (فلويد).. أنا (جيم فورستر) من (أسوشيتد نيوز).. هلا أعطيتنا بضع كلمات عن رحلتك هذه؟
- آسف.. لا أستطيع قول شيء..
- لكنك قابلت رئيس الجمهورية اليوم؟
- أوه.. أهلا يا (مايك).. يؤسفني أنهم انتزعوك من الفراش بلا مبرر.. بالطبع لا تعليق
- هل هناك صحة لما يقال عن وباء في القمر؟ ماذا عن الحجر الصحي؟
- لا تعليق
كان يتجاهل الأسئلة، بينما صحفي قصير القامة يركض خلفه محاولا أن يبقيه في مجال الكاميرا.. على قدر علم (فلويد) لم تكن هناك مشكلة.. بل هناك أزمة دائمة..
- منذ عام 1970 بلغ تعداد العالم ستة بلايين، ثلثهم في الإمبراطورية الصينية.. شح الطعام وبدت نذر المجاعة، وحتى الولايات المتحدة كانت تعرف أن أمامها خمسة عشر عاما قبل الكارثة
وبرغم الحاجة الماسة إلى التعاون الدولي، كانت الحدود الجغرافية مثلها مثلما كانت في الماضي والثمانية والثلاثون دولة نووية يراقب بعضها البعض في توجس. لم تكن هناك جدوى من كل هذه القنابل النووية لأن وضع توازن الخوف هذا يمكن أن يستمر للأبد.. والآن يعرض الصينيون على الدول التي لا تملك ترسانة نووية شراء خمسين رأسا نوويا بتكلفة أقل من مائتي مليون، وشروط سهلة في السداد. ولم يفهم المراقبون سبب هذا العرض، وقد افترضوا أن الصينيين يملكون أسلحة جديدة متطورة، صارت القنابل النووية معها مجرد ألعاب.

كان هناك كلام عن موجات لاسلكي منومة، وعن أوبئة غامضة لا يملك العلاج لها إلا الصينيون. وفي كل مرة يغادر فيها (فلويد) الأرض كان يتساءل عما إذا كان سيجدها في مكانها حين يعود أم لا..
رحبت به المضيفة على ظهر المركبة فشكرها وجلس في مقعد من المقاعد الخالية ربط الحزام، على حين جاء صوت المضيفة من مكبر الصوت:
- صباح الخير.. هذه هي الرحلة الخاصة رقم 3 من (كنيدى) إلى المحطة الفضائية رقم 1، لسوف نفقد الوزن لمدة ثلاثين دقيقة.. الرجاء الالتزام بالمقعد حتى تضاء علامة الأمان
لم يتمالك إلا أن ابتسم.. فالمضيفة مصممة على روتين الطيران حتى في وجود مسافر واحد في الطائرة كلها.. واسترخي في مقعده هذه الرحلة ستكلف دافعي الضرائب ما يربو على المليون دولار. لو كانت بلا جدوى فلسوف يفقد عمله..
كان الإقلاع صعبا كالعادة.. قوة القنبلة النووية في المحرك خصصت كلها لانتزاع الطائرة من جاذبية الأرض. وشعر بأذنيه تنبضان والدم يفور في أوردته. الآن يفارق الأرض وعليها كل من أحب في حياته.. أطفاله الثلاثة في الدار بلا أم بعدما فقدوها في تلك الرحلة لأوروبا منذ عشر سنوات وجاء صوت الربان عبر مكبر الصوت:
- نستعد للانفصال عن المرحلة الأولى.. الآن.
كان الشعور غير مريح.. فـ (الأمام) صار الآن هو (الأعلى).. وهكذا تجد أن الطائرة تقف حرفيا على ذيلها.. الآن تغادر المركبة المدار الأرضي، فلو لم يكن مربوطا بمقعده لطار.. على كل حال كانت معدته مصرة على ذلك.. وتمنى أن تؤدي الأقراص التي ابتلعها عملها.. إن لديه دوار فضاء وقد أصابه

مرة واحدة.. وهذه المرة تعتبر أكثر من اللازم بالنسبة لمن يمارس عمله..
- سوف نهبط على محطة الفضاء خلال خمس وأربعين دقيقة..
دنت منه المضيفة وسألته إن كان يرغب في شرب شيء، فاعتذر.. كان يشعر دوما بأنه رضيع كلما اضطر للشرب من تلك الزجاجات المطاطية بالشفاط
سألته وهي تزن كلماتها:
- هل لي أن أسألك شيئا يا دكتور (فلويد)؟
- حتما
- خطيبي جيولوجي في (كلافيوس)، ولم أسمع عنه منذ أسبوع.. كان يخبرني دوما بمساره.. لك أن تتخيل مدي قلقي.. هل تلك الاشاعات حقيقية عن وباء في القمر؟
- حتى لو كانت حقيقية.. لقد حدث هذا مع وباء الأنفلونزا عام 1998 ولم يمت أحد.. هذا كل ما يمكنني قوله
شكرته وابتعدت، أما هو فغرق في التقارير الفنية التي في حقيبته.. لن يكون هناك وقت للقراءة متى وصل إلى القمر

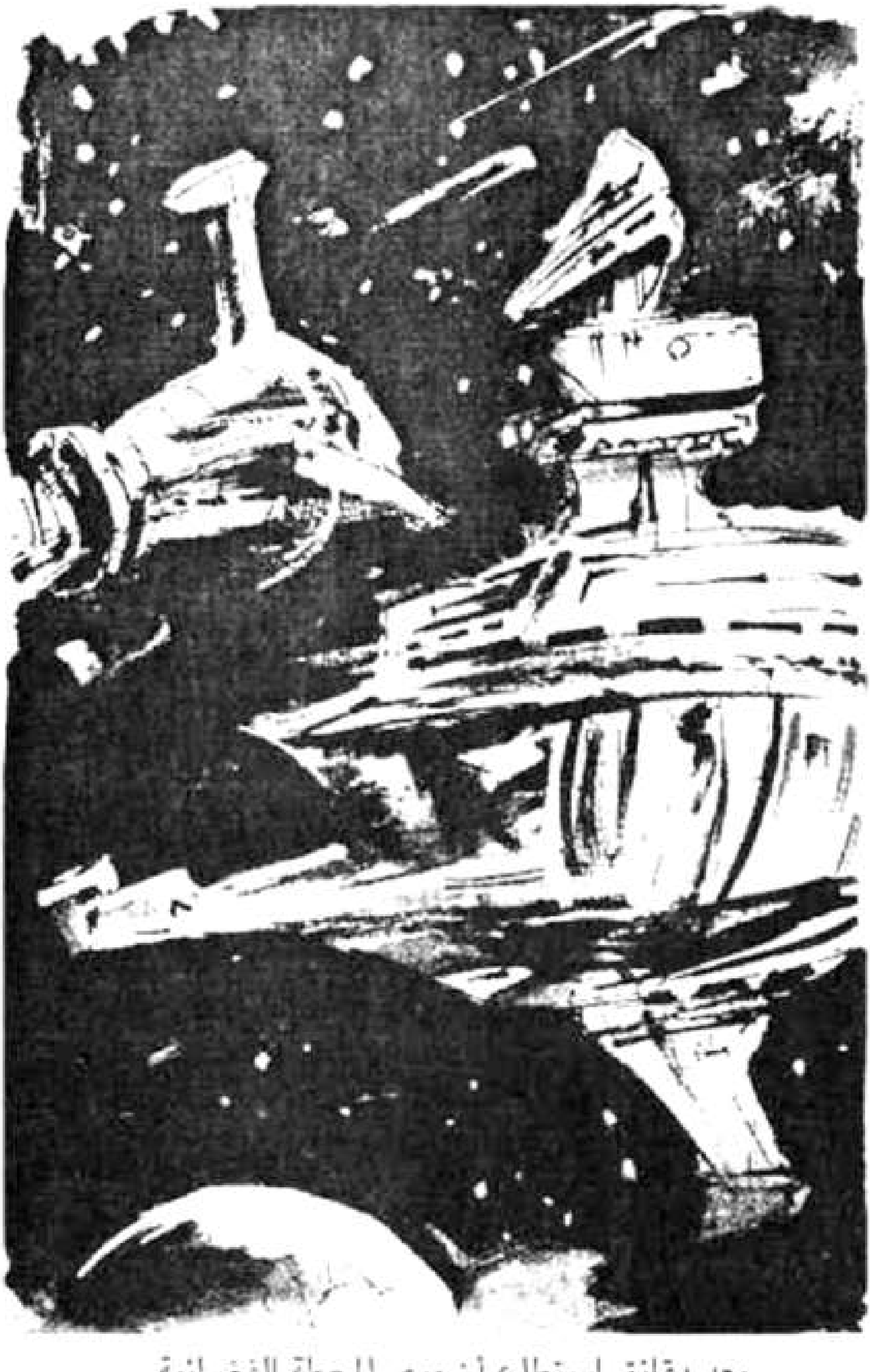
☆ ☆ ☆

٨- موعد مدارى ..

جاء صوت الربان بعد دقائق يقول:

- لسوف نهبط.. الرجاء التأكد من حزام مقعدك

أطاع فلويد ونحي أوراقه.. بعد دقائق استطاع أن يرى المحطة الفضائية رقم (1) على بعد أميال كانت الشمس تلتمع على المعدن الصقيل للقرص العملاق الدوار ببطء. وقرب القاعدة كانت السفينة (أريس) التي هي حصان شغل الفضاء، بأرجلها الأربع الماصة للصدمات من هذا الارتفاع كان يرى الأرض.. يرى أكثر إفريقيا والمحيط الأطلنطى.



بعد دقائق استطاع أن يرى المحطة الفضائية ..

وكان مركز محطة الفضاء يدور في اتجاه معاكس لدوران المحطة ذاتها، بحيث لا يشعر المسافرون الهابطون عليها بعدم راحة نتيجة الدوران.. وهكذا تلامست المركبة مع المحطة في

نعومة، جاءت أصوات معدنية كالخدوش، ثم صفر الهواء إذ تعادل الضغطان.
اتفتح الباب العازل للهواء، ودخل رجل يرتدي زي المحطة. ورحب بدكتور (فلويد).. إنه يدعى (نيك ميلر) المسئول عن أمن المحطة. مشى (فلويد) وراء (ميلر) عبر درج ملتو إلى قلب المحطة.. في البداية كان يشعر بأنه خفيف الوزن جدا حتى إنه كان يمسك (بالترابزين) كى لا يطير.. حتى وصل استراحة المسافرين بدأ يشعر بأنه اكتسب بعض الوزن
كانت الاستراحة قد أعيد تجديد ديكورها منذ آخر مرة كان هنا، وكانت هناك كبائن للهاتف فقال لمرافقه إنه راغب في الاتصال بالأرض.. كانت هناك كبائن كتب عليها (مرحبا في قسم الولايات المتحدة) وأخرى كتب عليها (مرحبا في قسم الاتحاد السوفيتي).
طلب داره مستعملا بطاقته الائتمانية، وكان يعرف أن (واشنجتون) نائمة الآن لأن الفجر مازال بعيدا، لكنه كان يعرف أن مديرة المنزل ستتلقي المكالمة على المسجل صباحا
ترك لها بعض التعليمات وطلب منها أن تقبل الأطفال، وتطمئنتهم إلى أنه لن يتأخر هنا فوجئ في القسم السوفييتي بآخر شخص كان يتمنى أن يراه.. وحاول أن يتوارى لكن الأوان كان قد فات، كان هذا هو الدكتور (ديمتري مويسفتش) من أكاديمية العلوم السوفييتية. كان (ديمترى) من أعز أصدقائه، لهذا كان آخر شخص يتمنى أن يراه هنا والآن

☆ ☆ ☆

٩- مكوك القمر.

كان رائد الفضاء السوفييتي طويلا نحيلا أشقر يشي وجهه بخمسة وخمسين عاما، قضى عشرة منها في بناء المرصد اللاسلكي العملاق على الجانب الآخر من القمر

قال وهو يهز يده بحرارة وقوة:

- مرحبا يا (هيوود).. يا له من كون صغير!

- كيف حالك وحال أطفالك الرائعين؟

- بخير.. دائما نتكلم عن الوقت الرائع الذي قضيناه معك..

كان (فلويد) يتكلم بمودة ولكن بتشتت ذهنى..

- وأنت ذاهب إلى القمر؟

- نعم.. هذه مرحلة ترانزيت لا أكثر.. هل تعرف مستر (ميلر)؟

- بالطبع.. ولكن دعك من القهوة يا مستر (ميلر).. إنني مصمم على دعوة د. (فلويد) إلى الشراب..

وجلس الرجال جوار إحدى النوافذ العملاقة التي تريهم الأرض، بينما المحطة تدور مبتعدة عنها ببطء..

قال (ديمترى) وهو يعبث بمشروبه:

- الآن ما كل هذا الكلام عن وباء في القسم الأمريكي من القمر؟ هلا شرحت لى ما يدور؟

شعر (فلويد) بالضيق.. ها نحن أولاء نبدأ من جديد.. كلما أسرعت بركوب المكوك إلى القمر كلما كنت أحسن حالا

- الحجر الصحي مجرد احتياط.. لسنا حتى متأكدين مما إذا كان مطلوبا.. لكننا لا نترك الأمور للصدفة.

- وما هي أعراض المرض؟ هل لنا أن نساعدكم؟

- آسف يا (ديمترى) لكن التعليمات بالصمت صارمة.. شكرا على العرض على كل حال، لكننا قادرون على تولى الأمر

- غريب أن يرسلوا عالم فلك لدراسة وباء..
- أنا لم أعد عالم فلك.. أنا خبير علمي، ومعنى هذا أنني أعرف لا شيء عن كل شيء في الكون!
- إذن أنت تعرف ما هو TMA -1؟
كاد (ميلر) يختنق من شرابه، لكن (فلويد) كان من طينة أكثر صلابة، وقد نظر للسوفييتي في برود وأعلن أنه لم يسمع عن هذا الموضوع من قبل.. قال السوفييتي:
- لا عليك.. أنت لن تخدعني.. لكن لو وقعت في شيء أكبر من قدراتك فلا تضيع الوقت قبل أن تصرخ طالبا العون.
وهنا أعلن (ميلر) أن وقت الرحيل قد جاء.. برغم أنه بقيت عشرون دقيقة، فإن (فلويد) نهض في لهفة.. حتى إنه نسي أن الجاذبية هنا هى السدس، وكاد يسقط لولا أن تشبث بالمنضدة..
قال له (ميلر) وهما يتجهان إلى الجوازات:
- أتمنى ألا يكون محقا.. ألا نكون نتعامل مع شيء لا قبل لنا به..
- هذا هو ما جئت كى أقرره..
بعد خمس وأربعين دقيقة أقلعت المركبة (أريس) إلى القمر. من الغريب أن خفة الجاذبية تزيل الهموم معها.. كان هناك من قال إنك يمكن أن تخاف في الفضاء لكنك بالتأكيد لا تشعر بالقلق.. إن هذا حقيقي إلى درجة غير عادية. كان تناول الطعام سهلا لأن الأطباق مثبتة إلى المنضدة، وكل الأطعمة لزجة كي لا تطير في الهواء.. السلاطة مغمورة في زيوت لزجة والصلصات كلها ثخينة الشيء الوحيد الممنوع هو الحساء الساخن وقطع الجاتوه.
لم يكن السفر مملا لأن الكثير من التقارير كانت بانتظاره ليقرأها، فإذا تعب من ذلك، كان بوسعه أن يطالع الصحف الإلكترونية كلها، والتي تتغير صفحتها كلما مرت بضع ثوان كى يلاحق سيل الأحداث على الأرض. كان من الصعب أن يتخيل

مزيدا من التطور أو التحسين على هذه الثورة في الاتصالات، لكنه كان يعرف أن المستقبل يعج بالاحتمالات ولن تلبث الأخبار الإلكترونية هذه أن تغدو عتيقة، مثلما يبدو لنا (جوتنبرج) عتيقا وما لاحظه أيضا هو أنه كلما تطورت الاتصالات، كلما صارت الأخبار أكثر قتامة وسخفا: اغتيالات.. قتل.. مجاعات.. ليس هذا مبررا كافيا لانتقال الأخبار عبر الأثير.. لكن هذا ضرورى.. إن جرائد المدينة الفاضلة (يوتوبيا) لابد أن تكون مملة إلى حد لا يطاق

لما جاء موعد النوم أطفئت الأنوار، وربط نفسه بالحزام كي لا يطير في الهواء وهو نائم.. كانت الأريكة غير مريحة لكن في ظروف انعدام الوزن هذه، يمكن أن تجد أي شيء مريحا حين صحا من النوم كان القمر يملأ النافذة وقد بدأت إجراءات الهبوط.. كانت جبال القمر تختلف عن جبالنا، لكن تناقض الضوء والظلال عليها كان يمنحها جمالا خاصا بها.. إن علم الجمال الأرضي لايسرى هنا.

هبط المكوك في الجانب المظلم من القمر.. ولم يكن مظلما تماما لأن الأرض الآن صارت تؤدي عمل قمر عملاق بالنسبة للقمر، وكانت تغمر الوديان والجبال بضوء خافت مهيب عادت الجاذبية وبدأ المكوك يهبط في ثبات وثقة، تحاول النفاثات إبطاء هبوطه قليلا. الشفرة الثنائية تؤدي عملها بكفاءة أسرع ألف مرة من عقول صانعيها

لقد قام (فلويد) بالمغامرة التي ظل الناس يحلمون بها ألفي عام.. قام بها بمجرد رحلة روتينية عادية لقد هبط على القمر

☆ ☆ ☆

١٠-قاعدة كلافيوس..

(كلافيوس) التي يبلغ قطرها 150 ميلا هي ثاني أكبر فوهة على وجه القمر الذي نراه، وتقع في وسط المرتفعات الجنوبية. كانت مركزا لسقوط الشهب والنيازك، لكنها عرفت السلام أخيرا بعد بليون سنة.

الآن كان الإنسان ينشئ رأس جسره الأول على القمر، وفي حالة الطوارئ تستطيع (كلافيوس) أن تعتمد بالكامل على نفسها. كانت نظاما مغلقا على نفسه كأنها نموذج للأرض ذاتها، حيث يتم تدوير كل كيماويات الحياة. وكانت هناك إضاءة صناعية لليل مع ضوء الشمس، مع أكسجين صناعي مما ساعد في نماء مساحات شاسعة من الخضرة، مهمتها الأساسية تخليق الأكسجين، لكن الغذاء مهمتها الثانية.

كان الأحد عشر ألف رجل وستمائة امرأة الذين يشكلون طاقم القاعدة، فنيين أو علماء مدربين على أعلى مستوى. فبرغم أن الحياة على القمر صارت سهلة خالية من الأخطار، فإنها كانت تضغط على الأعصاب وتتطلب استبعاد أولئك الذين يعانون الكلوستروفوبيا (رهاب الأماكن المغلقة). كانت الغرف معدة بعناية وتحوي كل أسباب الراحة بالإضافة إلى لمسة ديكور تجعلك بزر تستبدل بالجدار منظرا أرضيا بهيجا.. وهو تبذير في محله لكنه لم يكن مبررا للمقيمين على الأرض، والحقيقة هي أن كل فرد هنا قد كلف دافعي الضرائب مائة ألف دولار. لكن لم يكن هذا فنا للفن بل كان فنا للحفاظ على صحة الطاقم العقلية. بعد آلاف السنين تمكن العقل البشري أخيرا من أن يجد شيئا كالفضاء له نفس متعة الحرب، لكن للأسف لا تنعم كل الدول بهذه اللذة

أما عن موضوع الجاذبية، فهو يحتاج إلى وقت طويل حتى تعتاده، وحتى تكتسب عددا من الانعكاسات الصحيحة. هنا عليك للمرة الأولى أن تفرق بين الكتلة والوزن.
وصلت المركبة التي تقل طاقم الترحيب، وكان يقودها (رالف هالفورسون).. مدير القطاع الجنوبي، ومعه كان الدكتور (روى ميكيلس) وهو جيولوجى أشيب صغير الحجم عرفه (فلويد) من زياراته السابقة. وكان ترحيبهم به حارا يوحي بأنهم كانوا يحتاجون إلى فرصة للتحرر من مخاوفهم، ولكن المجاملة اقتضت ألا يتحدث أحدهم الآن عن سبب الرحلة
استقلوا حافلة فضائية صغيرة أوصلتهم إلى القاعدة (كلافيوس). بعد رحلة سريعة عبر أنابيب وممرات وأنابيب تهوية، وجد (فلويد) نفسه في مبنى الإدارة.
شعر براحة حين رأي الآلات الكاتبة والسكرتيرات والحاسبات الآلية والهواتف التي ترن. واقتاده (هالفورسون) إلى غرفة كتب على بابها (المدير)
هنا اندفعت فتاة صغيرة إلى داخل المكتب وصاحت:
- بابا.. أنت وعدتني باصطحابي إلى سطح القمر لكنك لم تفعل..
نظر لها (فلويد) في حيرة.. كانت في الرابعة من عمرها، وبدا له وجهها مألوفا.. ثم تذكر.. فقال (هالفورسون):
- نعم.. هذه (دينا).. أنت قابلتها في زيارتك السابقة عندما كان عمرها سنة واحدة.. الأطفال ينمون هنا بسرعة مع الجاذبية المنخفضة.. ويشيخون أبطأ منا..
سألها (فويد):
- هل تحبين زيارة الأرض؟
قالت في اشمئزاز:

- لا.. الجاذبية هناك قوية تجعل الجرى صعبا والناس في كل مكان..
قال (فلويد) لنفسه: إذن هذا هو أول جيل أطفال يولد في الفضاء: فكرة مبهرة لكنها كذلك محزنة على الأقل سيكون هناك مفر دائم من الأرض المنهكة المريضة لأولئك الذين يعشقون الحرية. للرواد والمغامرين الذين لن يحملوا الفأس والبندقية هذه المرة بل يحملوا القوة الذرية والدفع البلازمى. لقد جاء الوقت كى تقول الأرض لأطفالها. مثل كل أم أخرى. وداعا.
جلس الرجلان في المكتب، وقدم المدير بعض الشراب الصناعي لضيفه، ثم استرخي في مقعده.
فسأله (فلويد):
- كيف الأحوال هنا؟
- كل شيء على ما يرام.. لكن لدينا نوع من المشاكل الاجتماعية.. هذا التعتيم الإعلامي.. لدينا أفراد طاقم هنا لا يعرف أهلهم على الأرض شيئا عنهم، ويفترضون أن الوباء قد فتك بهم.
قال (فلويد):
- أنا آسف.. لكن ما كان بوسعنا أن نجد غطاء أفضل لنا من هذه القصة.. لقد تكلمت مع السوفييتي (مويسفيتش) وقد صدق القصة ذاتها
- هذا يجعل الأمن سعيدا
- ليس تماما.. فالرجل سمع عن TMA -1.. إن الإشاعات تتناثر برغم أننا لا نعرف تفاصيل الموضوع.. ليس قبل أن نعرف ما إذا كان الصينيون وراء هذا كله..

☆ ☆ ☆

١١- مفارقة..

تم الاجتماع في غرفة مستطيلة واسعة تتسع لمائة شخص بسهولة. كانت مزودة بأحدث وسائل التقديم البصرية والسمعية، لكن (فلويد) انبهر ببعض العلامات التي وضعت على الجدران في اهتمام عظيم، تقول: ممنوع السير على العشب.. ممنوع الوقوف إنذار الحريق.. إلى الشاطئ.. عبور ماشية..

كان هذا مما يمس المشاعر.. ففي هذا العالم البارد المعادي ما زال هؤلاء القوم يذكرون الأشياء التي تركوها خلفهم، والتي لن يفتقدها أطفالهم أبدا

جلس (فلويد) على حين وقف (هالفورسون) يقدمه للجالسين:

- سيداتي سادتي.. لا حاجة بي إلى أن أخبركم أنها مناسبة مهمة جدا.. كلنا نعرف الدكتور (هيوود فلويد) من قبل.. وقبل أن نجتمع لديه ما يقوله لنا..

مشى (فلويد) إلى المنبر وسط تصفيق مهذب وابتسم وقال:

- جئت أولا كي أبلغكم تحيات رئيس الجمهورية على جهودكم التي سيعرفها العالم يوما ما، وأعرف أن بعضكم قلق بشأن كل هذه السرية التي يحيط بها عملنا.. لكني أذكركم أن هذا وضع خاص.. وليس بوسعنا ارتكاب أخطاء.. هذه هي وصية الرئيس لكم..

وعاد لمقعده، من ثم نهض دكتور (ميكيليس) وخبت الأضواء ظهرت على الشاشة صورة للقمر.. وفي المنتصف بقعة بيضاء تبدو بالضغط كأن أحدهم بعثر جوالا من الدقيق على وجه القمر

- هذا هو (تايكو).. ترونه بوضوح تام كأنما يسيطر على نصف كرة القمر. كنا نجري مسحا للقمر من قمر صناعي، وكانت هذه الصورة التي بدأت كل مشكلاتنا..

ظهرت على الشاشة صورة مسح مغناطيسى منتظم للقمر، لكن في ركن الشاشة كانت هناك حلقات متداخلة تقل - حتى بالنسبة لعين غير مدربة. على أن هناك شيئا ما خطأ.. وفي أسفل الصورة ظهرت عبارة:

(Tycho Magnetic Anomaly - 1 (TMA-I

- كنا متحيرين وخطر لنا أن هناك شهابا يحوى صخورا مغناطيسية، لكن لم نر شيئا كهذا. وبالتالي كان علينا أن نلقي نظرة.. أرسلنا فريق حفر أول، حفر التربة القمرية وهي مهمة ليست سهلة في ثياب الفضاء، ثم عجزت معداتهم عن الوصول لعمق أكبر، من ثم أرسلنا فريقا أكبر.. عاد لنا على عجلة بالنتائج التي تعرفونها

ساد الصمت القاعة.. لم يكن هناك على الأرض أو القمر أكثر من مائة واحد يعرفون محتوى الصورة التالية.

كانت الصورة تمثل رجل فضاء في ثياب حمراء براقة يقف في حفرة ويشير إلى جسم أسود ضخم ارتفاعه نحو عشر أقدام، واتساعه خمس، وقد ذكر (فلويد) بشاهد قبر عملاق. كان الجسم أسود تماما كأنما يمتص كل الضوء الساقط عليه ولا تفاصيل على سطحه

- هذا هو TMA -1 وهو يبدو حديثا.. أليس كذلك؟ لا يدهشني أن أعرف أن البعض توقعوا أنه يخص الصينيين بعد حملتهم الأخيرة، لكننا استطعنا تحديد عمره جيولوجيا.. والدكتور (فلويد) يوافقني في الرأي، ولسوف نجازف بسمعتنا من أجل هذا، هذا الجسم لا علاقة له بالصينيين.. بل لا علاقة له بالبشر.. إنه يعود إلى عهد لم يكن فيه بشر على الأرض.. إن عمره ثلاثة ملايين من الأعوام.. وما نراه هو أول دليل على وجود ذكاء يتجاوز الأرض..

☆ ☆ ☆

١٢- رحلة في ضوء الأرض..

ناظرا من نافذة المعمل المتحرك، كان بوسع (فلويد) أن يرى أمامه طريقا محددا حيث تركت المركبات العديدة أثرها على تربة القمر الهشة. في الواقع كان من العسير أن يضل أحد طريقه طيلة المائتي ميل الفاصلة بين (كلافيوس) وTMA -1 كانت النجوم البراقة في السماء لا تختلف في شيء عما تراه في الليل في (كولورادو)، مع فارقين مهمين: الأول هو الأرض ذاتها.. منارة براقة في الأفق الشمالي تسطع بضوء أقوى باثنتي عشرة مرة من القمر المكتمل. الثاني كان قمعا مخروطيا يشق السماء الشرقية، ويوحي بنيران عظمى تختفي تحت حافة القمر، كان هذا مجدا شاحبا لم تره عين بشر على الأرض إلا في حالات الخسوف الكلي. كان هذا هو الإكليل.. بشير الفجر القمري.. معلنا أنه بعد قليل ستغمر الشمس هذه المنطقة

كان (فلويد) يفكر.. ثلاثة ملايين سنة! كل التاريخ البشري المكتوب بما فيه من إمبراطوريات وممالك وحروب يغطي فقط واحدا على الألف من هذا الزمن، لم يكن هناك حيوان ولا بشر وقتها حين دفن هذا اللغز نفسه في أجمل فوهات القمر وأكثرها سطوعا، إن من دفنه هناك أراد أن يتحاشى زلازل القمر.. لقد أراد الأبدية ذاتها.

حتى هذه اللحظة فشلت كل محاولات (ميكيليس) ورجاله للحصول على عينة من هذا الجسم البراق الأسود، لكنهم كانوا يعرفون أنه لن يقاوم الليزر لا شيء يقاوم هذه الطاقة المركزة.. وقد ترك القرار لـ (فلويد) الذي كان يعرف أن استخدام أشعة إكس ومجسات السونار لابد أن تجرب جميعا، قبل اللجوء إلى طاقة الليزر القوية. إنها عادة بربرية أن تدمر الشيء الذي لا

تستطيع فهمه.. لكن البشر بالفعل برابرة بالنسبة للكائنات التي صنعت هذا الشيء..
ومن أين جاءت هذه الكائنات؟ من القمر ذاته؟؟
لا.. هذا مستحيل. لو كانت هناك حياة على القمر، فلابد أنها هلكت في آخر حقيبة لتشكيل الفوهات القمرية. حين كان سطح القمر أبيض ملتهبا
الأرض؟ صعب وإن لم يكن مستحيلا.. لو كانت هناك حضارة عظمى في حقبة تاريخية ما، واستطاع أفرادها الوصول للقمر، فإننا كنا حتما سنجد أثرا لهذه الحضارة..
هكذا يبقى احتمالان: الكواكب أو النجوم.. لكن هذا الاحتمال يظل بعيدا، لأن العلماء قد أثبتوا مرارا أن الرحلة بين النجوم مستحيلة.. إن الرحلة إلى القمر قد تكون مؤثرة، لكن أقرب نجم لنا هو على بعد أكثر بمائة مليون مرة
بدأت المركبة تنحدر بزاوية مرعبة، وفكر (فلويد) في أنهم يهبطون الآن إلى قلب الفوهة العملاقة (تايكو).. ولم تكن هذه الفكرة مبهجة جدا
الآن صار يرى الأضواء المميزة لمساكن العمال وقربها محطة إذاعة وآلات حفر عملاقة. برغم ضخامة المنظر بدت هذه المساكن موحشة جدا هشة جدا وسط كل عظمة الطبيعة من حولها.
لقد انحدرت المركبة عبر الفوهة العملاقة، والآن يرى (فلويد) أمامه الى TMA- -1
كانت الرؤية صعبة في البداية، وكان يرى ما بدا له كمستطيل قطع من ورقة كربون. كأنه بلا سمك على الأطلاق. لقد كان الجسم يعكس أقل القليل من الضوء، لهذا كان يبدو للعين كأنه سلويت توقفت المركبة قرب الجسم الذي كان لونه الأسود كأنما

صنع من الليل ذاته.. لا توجد به علامات أو خدوش. وللحظة خطر له أن يكون هذا تكوينا طبيعيا جيولوجيا ثم استبعد هذا الاحتمال الذي استبعده العلماء هنا منذ زمن

انبعثت الأضواء من عشر الكشافات المحيطة بالحافة.. وبالطبع لم تظهر الأشعة في جو القمر المفرغ من الهواء، لكن الجسم امتص ما سقط عليه من إشعاعات

فكر (فلويد) في رعب: هذا صندوق بندورا ينتظر الإنسان الفضولى فماذا فيه؟

☆ ☆ ☆

١٣ - الفجر البطيء..

تحت قبة الضغط في الموقع، كان الزحام شديدا بشكل غير مربح. وارتدي (فلويد) ثياب الفضاء التي صارت مربحة في هذا العصر وتختلف كثيرا عن دروع الفرسان الثقيلة التي كانت تلبس في بداية عهد استكشاف الفضاء. وانفتح الباب المعادل للضغط فخرج إلى البيئة القمرية الترابية، ومن الغريب أن البذلة كانت تشعره بالألفة نوعا.. لعل ثقلها كان يمنحة سيطرة ما على نقص الجاذبية كان ليل القمر الذي استغرق أربعة عشر يوما، موشكا على الانتهاء.. وبدا الإكليل في الشرق كأنما هو قمر مزيف، وفجأة تحولت السماء إلى شيء كالنيران بسبب أول إشعاعات شمسية كانت الفوهة مازالت في الظل، لكن ضوء الشمس أظهر داخلها جيدا. وشعر (فلويد) وهو يقترب من الجسم الغريب بالعجز. هنا منذ ثلاثة ملايين سنة مر شيء ما وترك هذا الرمز المجهول، والذي ربما لا يمكن معرفة كنهه أبدا، وعاد إلى النجوم

قرر أن يجري تجربة.. مشي ليقف ما بين أشعة الشمس والجسم العملاق.. وبحث عن ظله فلم يجد أثرا له، الآن هناك عشرة كيلو وات من الحرارة تسقط على الجسم، فلو كان بداخله شيء، فلابد أنه ينضج ببطء

فجأة سمع صفيرا مزعجا من سماعتى الأذن في بذلة الفضاء.. رفع يديه لا شعوريا كي يسد أذنيه، ثم تذكر وبدأ يعبث بأزرار التحكم في الصوت.. وبينما كان يحاول خفض الصوت دوت ثلاث صفارات أخرى.



فجأة سمع صفيرًا مزعجًا من سماعتي الأذن في بذلة الفضاء .. رفع يديه لا شعوريًا كي يسد أذنيه .

نظر إلى الواقفين حوله فوجدهم في ذهول، وأدرك أنه ليس الوحيد الذي يمر بهذه الضوضاء. إن الجميع يسمع هذه

الصرخات الإلكترونية الثاقبة. بعد ثلاثة ملايين عام، هو ذا 1-TMA يحيى الفجر القمرى
وعلى بعد مائة مليون ميل وراء المريخ، في الفضاء الخالى حيث لا بشر، سبحت السفينة (مونيتور 79) ببطء بين النجوم. طيلة ثلاثة أعوام ظلت تؤدي عملها بلا أخطاء، والفضل للعلماء الأمريكيين الذين صمموها، والبريطانيين الذين بنوها، والفنيين الروسيين الذين يقودونها
كانت هوائياتها تسجل كل شيء من ضوضاء الفضاء ومجساتها الشعاعية تحلل الأشعة الكونية القادمة، بينما تلسكوبات النيوترون تتلصص على النجوم التي لن يراها أحد أبدا
وفي كل يوم كانت حصيلة المعلومات التي تراكمت بصبر، ترسل إلى الأرض في نبضات لا تستغرق أكثر من خمس دقائق بسرعة الضوضاء يصل هذا النبض بعد ربع ساعة إلى وجهته. ولسوف يتم تحليل هذه النبضات وتخزن في شرائط إلكترونية في و(واشنجتون) و(موسكو).
لم يكن أحد يعرف ما سوف يهم العلماء معرفته بعد خمسين أو مائة عام من الآن، لهذا كانوا يحتفظون بكل شيء، في اعتزاز باعتبار هذه المعلومات كنوز البشرية الحقيقية الأثمن من الذهب المخبأ في المصارف
الآن قد لاحظت المركبة نشاطا خافتا لكنه ملحوظ في مجموعتنا الشمسية.. نشاطا ليس كالذي اعتادته من قبل، وهكذا سجلت كل شيء وأرسلته للأرض كى تعرف معناه
نفس الشيء لاحظته (أوربيتر 15) التي تدور حول المريخ، والمذنب الصناعى: الذي يجتاز الفضاء البارد بعد (بلوتو) الآن نحو مدار لن يبلغه قبل ألف عام من الآن

وعلى الأرض لم تتلق الحاسبات الآلية قط اتصالات كهذه من أربعة مجسات فضائية مختلفة يدور كل منها في مكان من الكون على بعد ملايين الأميال

وإذ درس الفنيون هذا في (جودار) على الأرض بدا واضحا أن شيئا ما عبر المجموعة الأرضية بدت الصورة واضحة كأنما هي دخان طائرة عبرت السماء الصافية، أو آثار أقدام على ثلج بكر نمط غريب من الطاقة قد انبعث من سطح القمر وهو الآن يتجه نحو النجوم

☆ ☆ ☆

1II - بين الكواكب

١٤-ديسكفري..

لم تكن السفينة قد ابتعدت عن الأرض أكثر من ثلاثين يوما، إلا أن رائد الفضاء (ديفيد باومان) كان يصعب عليه أحيانا أن يصدق أنه عرف على الإطلاق أي وجود آخر غير عالم (ديسكفري) الصغير المغلق كل تدريباته وكل رحلاته السابقة إلى المريخ والقمر بدت كأنما تنتمي لرجل آخر.

كان (فرانك بول) يقره على هذا، وأحيانا كان يتحسر مازحا على أن أقرب طبيب نفساني هو على بعد مائة مليون ميل

كان المشروع معدا منذ خمس سنوات، باسم (المشتري)، ولكن فجأة تغير كل شيء. ستذهب الرحلة فعلا إلى المشتري لكن لن تتوقف هناك. بل ستستخدم جاذبية الكوكب لتدفعها أكثر نحو الحلقات المجيدة لكوكب (زحل)، ولن ترجع أبدا

بالنسبة لطاقمها لم تكن هناك نية الانتحار، فهم سيعودون بعد سبعة أعوام يقضون خمسة منها في السبات، حتى تنقذهم (ديسكفري - 2) التي لم تبن بعد. وكانت كلمة (إنقاذ) غير مستحبة لأنها توحى بنوع ما من فشل التخطيط، لذا كانوا يستعملون لفظة (استعادة). ولسوف يتم إرسال النتائج أولا فأولا للأرض، حتى لو لم يعد الرواد سوف تبقى اكتشافاتهم

كان (باومان) يحسد العلماء الثلاثة النائمين الذين لا دور لهم إلا في مدار (زحل)، فهم تحرروا من الهم والملل والمسئولية. يعني بهم الحاسب الآلى، فلا ترى منهم إلا مقياس التنفس ورسم القلب على الشاشة ورسم موجات المخ التي صارت الآن هادئة بلا نبضات أو خفقات تميز نشاط العقل البشري المحموم.

حين أفاق من السبات بدوره لم يكن واثقا.. هل حقا مرت أعوام أم لا؟ هل انتهت المهمة؟ هل السفينة (ديسكفري - 2) هنا لتعيده

للوطن؟ هل حقا لم يخسر هذه الأعوام التي نامها؟
كان من المستحيل التفكير في شيء، وشعر بهواء دافئ يذيب الصقيع الذي كان فيه في السبات جاءه صوت ودود لكنه - كما يعرف - صوت رقمى:
- لقد عدت للعمل يا (ديف).. لا تنهض أو تحاول أية حركات عنيفة.. لا تحاول الكلام..
كان الآن يفهم معنى هذا.. لقد انتهت المهمة وجاءت سفينة العودة، وتم تشغيل نظام الإحياء الآلي..
لكنه يشعر بالجوع. ولا بد أن الكمبيوتر قد شعر بهذا..
- هناك زر جوار يدك اليمنى يا (ديف)، فلو أردت أن تأكل أرجو أن تضغط عليه..
ضغط الزر وبعد دقائق هبطت ذراع معدنية وشعر بحلمة بلاستيكية توضع في فمه.. راح يمتص فشعر بسائل حلو المذاق دافئ ينساب في حلقة معيدا إليه قواه.
شعر بأنه يستطيع الآن أن يحرك ذراعيه، وأن المشي لم يعد حلا مستحيلا، ترى ماذا حدث في الأشهر التي تلت رحيلهم عن الأرض؟ هل فقد الذاكرة؟ لكن هذا سره.. لو كان يذكر كلمة (فقد الذاكرة) فلابد أن عقله مازال يعمل..
جاءه صوت آدمى من مكبر الصوت يقول:
- لا تقلق يا (ديف).. أنا (فرانك بول).. أراقب نبضات قلبك وتنفسك بعناية وكل شيء على ما يرام.. الآن نفتح الباب ونخرجك
ثم دخلت مجموعة من الظلال الغرفة.. هنا فقط عادت له ذاكرته واستعاد كل شى. لن يري سماء المشتري التي تبعد عنه عاما.. إنه مازال في مركز التدريب في (هوستون).

☆ ☆ ☆

١٥- هال ..

كان هناك على (ديسكفري) تلسكوب واحد مصوب إلى الأرض، وكان من الصعب أن ترى معالم الأرض الجغرافية بوضوح من هذه المسافة.. لكن (ديف) لم يندم على مفاتن الأرض التي ابتعد عنها.. لقد رآها جميعا وعمره بعد خمسة وثلاثون عاما ولسوف يراها من جديد يوم يعود شهيرا ثريا كان الفرد السادس من الطاقم لا يبالي بهذه الأشياء، لأنه لم يكن بشريا.. كان هو الكمبيوتر 9000 HAL بالغ التعقيد[3]، والذي هو العقل والجهاز العصبي لهذه المركبة. كان (هال) قطعة فنية من ثورة الكمبيوتر الثالثة، والتي تحدث كل عشرين عاما.

أول الحاسبات تم بناؤه عام 1940 حين ظهرت حاسبات غبية خرقاء مثل ENIAC ثم في الستينات تقدمت الإلكترونيات وبدا أن إمكانيات الذكاء الصناعي ليست مستحيلة عام 1980 برهن (مينسكى) و (جود) على أن شبكة الاتصال العصبي يمكن توليدها أوتوماتيكيا ونمت العقول الصناعية بطريقة مماثلة للعقول البشرية. إن التفاصيل الحقيقية لن تعرف أبدا والمهم أن المحاولة نجحت والنتيجة النهائية هي ذكاء صناعي يمكنه أن يحاكي أكثر نشاطات العقل البشري بسرعة أكثر. كان هذا مكلفا جدا، وبالتالي لم تكن هناك إلا وحدات قليلة من (هال).

لقد تدرب (هال) على المهمة جيدا مثل رفاقه البشريين. وبالإضافة لسرعته لم يكن ينام أو يتعب كان عليه متابعة الأكسجين والحرارة وكل العوامل التي تعتمد عليها حياة الحمولة البشرية الهشة. بالإضافة لهذا كان (هال) قادرا على تولى القيادة، في حالة الطوارئ لو لم يرد أحد على إشاراته سيحاول إيقاظ النيام، فلو فشل سيطلب الأرض طالبا التعليمات

لو لم ترد الأرض سيتخذ الإجراءات التي يجدها ضرورية لإكمال الراحلة، التي يعرف هو فقط هدفها. كان (بول) و(باومان) يتهكمان دوما على كونهما حارسين لا أكثر على سفينة تعرف كيف تقود نفسها. والواقع انهما كانا سيذهلان لو عرفا مدى دقة هذه المزحة.

☆ ☆ ☆

كان (بول) و(باومان) يعرفان ما عليهما عمله يوما فيوما، وكانا يتناوبان السهر ولا ينامان في الوقت نفسه أبدا، وبرغم أن (بول) كان هو القائد رسميا فإن أي مراقب من الخارج كان يستحيل أن يعرف الحقيقة، فالرجلان يتبادلان الرتب والمهام ويتولى كل منهما القيادة اثنتي عشرة ساعة يوميا، بهذا كان كل منهما يحتفظ بيقظته ونشاطه العقلي، بالإضافة إلى أن هذا يقلل الاحتكاك أو الشجار

كان (بومان) يبدأ يومه في السادسة بتوقيت (إفيمريس) الكوني الذي يستعمله رواد الفضاء، فلو تأخر كان (هال) يوقظه بالكثير من الأصوات. ثم يدخل الحمام، ويمارس تمريناته الرياضية الثابتة، ثم يتناول الإفطار وهو يطالع الأخبار الإلكترونية التي لم تكن تعيه فيما سبق، أما الآن فهو يلتهم أصغر معلومة التهاما، ثم يجلس إلى لوحة القيادة يطالع الأرقام ويتأكد من أنه لا يوجد خطأ ما.. ثم في الساعة 1600 يتفقد آلات السفينة شديدة التعقيد، ويصعد ليطالع بعض كتب المكتبة الإليكترونية التي كان يحبها بشدة خاصة الأوديسة التي كانت أقرب الكتب لقلبه، ربما يلعب الشطرنج أو الطاولة مع (هال).. لكن لو ترك (هال) وشأنه لربح كل الألعاب، لهذا برمج على أن يربح النصف فقط في الساعة 2000 يتناول العشاء مع (بول) ويتصل بالأرض. كان غير متزوج.. فمن الصعب أن ترسل رب أسرة إلى رحلة كهذه.. لهذا

كان يتصل بفتيات يعرفهن على الأرض، وكان يعرف أن مئات الآذان تسمع ما يقول، لذا كان يتحفظ.. ومع الوقت بدأت حرارة، المكالمات تخبو.. وتلك هي الضريبة التي يجب أن يدفعها رائد الفضاء كما كان يدفعها البحار من قبل.

وكان أعظم أمل لدى طاقم (ديسكفري) هو ألا يحدث شيء يفسد هذا الهدوء الذي تمضي به الرحلة.

☆ ☆ ☆

١٦- عبر الكويكبات..

مضت (ديسكفري) أسبوعا بعد أسبوع في طريقها كأنها عربة ترام تمشي في مدارها المحدد سلفا، فلم تتطلب أقل لمسة المفاتيح تحكمها. لم تكن هناك شواطئ ترتطم بها ولا خطر من الاصطدام بمركبة أخرى. لكن لم يكن الفضاء خاليا، وكانت هناك كويكبات صغيرة أقرب إلى جلاميد صخر عائمة في الأثير، وكان ارتطام الواحد منها بسرعة عشرة آلاف ميل في الساعة بالسفينة يعني نهايتها، لكن لم يكن من شيء يمكن عمله، واحتمال الارتطام أصلا كان شبه معدوم

مثلا كان اللقاء الأول بينهم وهذه الكويكبات مع الكويكب الذي يطلق عليه اسم 7794 وهو مجرد صخرة عملاقة، رآها العلماء يوما ونسوها، لكن الحاسبات العملاقة على الأرض لم تنسها، ولم ينسها (هال).. وقد ذكر (باومان) بذلك، وأظهر له على الشاشة ذلك الجسم مع إحداثياته.. كان يتحرك ببطء على بعد نصف مليون ميل، لكن هذه المسافة سوف تتحول إلى لمسة يد بعد قليل التقطت الكاميرات آلاف الصور للجسم الذي يعبر الفضاء بسرعة ثلاثين ميلا في الثانية، والذي يدور حول نفسه كل دقيقتين.. شعر (باومان) و(بول) كأنهما بحاران يريان جزيرة لا يحق لهما النزول إليها. درساه بالرادار بل وكان الوقت يسمح بإرسال مجس. كان هذا المجس هو قطعة معدنية أطلقاها من السفينة وتم حساب اتجاهها بحيث تلاقي الكويكب وتنغرس فيه

انطلقت القذيفة وارتطمت بالكويكب فتوهجت.. إذا تحولت الطاقة التي تحركها إلى حرارة، وعلى الأرض سيقوم العلماء بتحليل تركيب الذرات المحيطة بالقذيفة ليعرفوا للمرة الأولى التركيب الكيماوي الدقيق لأحد الكويكبات

عادا وحيدين من جديد وكذا سيبقيان حتى يريا أول الأقمار الخارجية للمشتري بعد ثلاثة أشهر من الآن.

☆ ☆ ☆

الآن كان المشتري يملأ السماء.. كأنه نصف القمر الذي نراه على الأرض، مع أحزمة السحب المحيطة به ظاهرة بوضوح. وأقماره المسماة (أيو) و(أوروبا) و(جانيميد) و(كاليستو) كبيرة الحجم إلى حد أنها كانت تعتبر كواكب مستقلة في أي عالم آخر، لكنها هنا مجرد أقمار تابعة

وقد راح (باومان) يرمقه في انبهار مذكرا نفسه بأنه يفوق حجم الأرض إحدى عشرة مرة. وراح جهاز اللاسلكي يلتقط زئير المشتري.. لقد عرف العلماء من الخمسينات أن الكوكب يرسل أصواتا عالية طيلة الوقت، ومن حين لآخر يقطع هذا الزئير صفير قصير كأنه صراخ طيور بلهاء حتى بسرعة مائة ميل في الساعة، سوف تحتاج (ديسكفري) إلى أسبوعين لتعبر حزام الأقمار المحيطة بالمشتري.. والتي يتزايد عددها كل عام حتى بلغ العد ستة وثلاثين قمرا في العام الماضي. كانت هي جوائز حرب الجاذبية بين المشتري والقمر.. الكويكبات التي نجح المشتري في أن يستولى عليها لنفسه، والتي سيفقدها من جديد بعد مليون سنة.. فقط الأقمار الملاصقة له هي التي ستظل من حقه للأبد

لقد ظفر المشتري بفريسة جديدة هي السفينة الآن وهي تتجه داخل مداره.. ترسل إشاراتها للأرض التي صارت بعيدة جدا، إلى حد أنه مع سرعة الضوء فإن الإشارات تحتاج إلى ربع ساعة كي تصل كانوا الآن يمرون جوار القمر (أوروبا) الذي بدا ككرة ثلج عملاقة، والذي لم ير على الأرض إلا كرأس دبوس بوساطة

أقوي التلسكوبات. راحوا يجمعون عنه سيلا من المعلومات سوف يتم تحليلها فيما بعد

كان يبدو مغطى بالثلج لكن الأرجح أنها بلورات من الماء والأمونيا فشل المشتري في أن يظفر بها لجاذبيته.. ومن الغريب أنه قمر محاط بغلاف جوي خفيف كما عرف العلماء من قديم

كان الدنو من المشتري سريعا إلى حد لا يوصف، وكان (هال) عاكفا على دراسة المدار، لكن كان عسيرا على الرجلين أن يصدقا أنهما لن يرتطما بالكوكب المرعب الذي يدخلان جاذبيته بسرعة لا تصدق. هنا جاء وقت التخلص من مجسات الطقس.. تلك المجسات التي يرجى أن تظل سالمة لترسل معلومات عن نطاق الكوكب الجوي، وكانا جسمين أقرب إلى قنبلتين مغلفتين بواق حراري

الآن نجح (هال) في تفادى غلاف الكوكب الجوي، وصار المشتري يملأ السماء كلها. كان عملاقا إلى حد أن البصر والعقل لا يقدران على استيعابه

قال (هال):

- إشارات الأرض تخفت.. نحن ندخل أول منطقة تشويش..

كانا يعرفان هذا ويتوقعانه طبعا، لكن انقطاع الاتصال بالأرض للمرة الأولى ملأهما بالوحشة كان أمامهما ساعة حتى يغادرا نطاق التشويش وهي أطول ساعة في حياتهما على الإطلاق كان الخطأ معناه كارثة.. لأن هذه أول رحلة من نوعها إلى هذه المسافة، وبهذه السرعة، ومع جاذبية كوكب بهذه القوة.. لقد ذهبا في رحلات فضائية كثيرة لكن هذه الرحلة كانت غير مسبوقة

أخيرا اتخذت (ديسكفري) مدارها حول الكوكب واستطاعا أن يريا الشمس من جديد وتصافح الرجلان.. يمكن القول إن أولى مراحل الرحلة قد تمت بنجاح

☆ ☆ ☆

أما عن المجسين اللذين أطلقاهما في الفضاء، فهناك واحد لم يسمعوا عنه ثانية، لأنه من الواضح أنه دخل منحني شديد الانحدار وأحرق نفسه في غلاف المشتري الجوي. أما الثاني فقد دخل المجال الجوي بنجاح عند الجانب المعاكس للشمس من الكوكب. وعلى (ديسكفري) التي تبعد ربع مليون ميل، بدأت الأخبار الأولى عن المشترى ترد تباعا

كانت هناك مئات التفاصيل عن حالة الجو والضغط لا يمكن أن يفهمها إلا الخبراء على الأرض، لكن كانت هناك رسالة واحدة يفهمها الجميع، هي الصورة التلفزيونية للمشتري

في البداية كان الضباب كثيفا وكان من الصعب أن ترى لبعد مائة متر، حتى بدا أن المهمة فاشلة تماما. ثم تلاشى الضباب.. وكان المشهد غريبا جدا بالنسبة لعيون اعتادت ألوان الأرض.. كان هناك بحر بلا نهاية من اللون الذهبي بلا حركة.. وكان مستوى البحر عاليا بحيث لا يمكن أن يكون محيطا

فعلا.. إنه طبقة أخرى من السحب على الأرجح. ثم استطاعا أن يريا جبلا عاليا يشبه القمع تحيط به سحب صغيرة مستديرة.. كل المشهد كان عجيبا غير طبيعي.. إن كانت كلمة (طبيعى) تصلح لوصف هذه البانوراما العجيبة. فجأة اهتزت الصورة ثم خبت.. إن هذا المسافر الأرضي الأول لم يستطع مواصلة المهمة وهوي تحت ثقل الطبقات الجوية من فوقه ربما أعطى في حياته القصيرة لمحة هي واحد على مليون من المشتري، ثم زالت صورته. لو كانت هناك حياة تحت هذا الضباب فكم من الوقت تحتاج للعثور عليها، وكم قرنا سيمر إلى أن يتبع الإنسان ذلك الرائد الأول الذي انتهى أمره؟ وفي أي نوع من السفن؟

لكن الطاقم لم يبال كثيرا بهذه التفاصيل، لأن مهمتهم كانت مازالت بعيدة على بعد الاف الأميال في الفضاء الخالى

☆ ☆ ☆

IV- الهاوية..

١٧- حفل عيد الميلاد.

دوت النغمات المألوفة لأغنية (عيد ميلاد سعيد) عبر سبعة ملايين ميل من الفضاء بسرعة الضوء، وماتت على شاشات غرفة التحكم. وتكلم مستر (بول) الأب قائلا:

- حسن يا (فرانك).. لا أجد ما أقوله هذه اللحظة إلا أن أفكارنا معك.. ونتمني لك أسعد عيد ميلاد

وتدخلت الأم دامعة:

- خذ الحذر يا عزيزي.. بارك الله فيك وتلاشت الصورة، وخطر لـ (بول) كم أنه من الغريب أن هذا كله حيث منذ ساعة، وأن الأسرة تفرقت وانصرفت.. كان هذا يهدم بديهية يعتقدها الإنسان هي أنه يستطيع الكلام فوريا مع من يريد، لكن الآن قد دخل بعدا جديدا، ومطت كل الروابط العاطفية إلى حد أنها أوشكت على التمزق

هنا جاء صوت (هال):

- آسف لمقاطعة الحفل لكن لدي مشكلة في الاتصال بالأرض.. المشكلة في وحدة AE- 35 وتقارير التنبؤ بالخطأ لدي تقول إنها قد تتوقف تماما خلال 72 ساعة..

- حسن.. فلنر ذلك..

وطلب الرجلان نسخة مطبوعة من التقارير لأنه مهما تقدمت الإلكترونيات تظل المعلومة المكتوبة أقرب للفهم. ودرس (باومان) التقارير بعض الوقت ثم صفر

- معنى هذا أن علينا الخروج من السفينة لاستبدال القطعة بواحدة أخرى..

قال (هال):

- أنا آسف.. حسبت أنكما تعرفان أن القطعة 35 -- AEمثبتة إلى الهوائى
قال (بول):
- سأقوم بهذا العمل.. سيفيدني تغيير المناظر وليس في هذا إساءة لك.. فقد كان هو المسئول عن النشاطات خارج السفينة التي يختصرونها بلفظ EVA
- فلنطلب المراقبة ونسألهم الإذن
وبعد إرسال الرسالة كان عليهما الانتظار ساعتين حتى يأتي الرد.
- إكس راى دلتا 1.. هنا التحكم في المهمة.. نحن نقدر 1-2-0-3.. وسوف نقدم النصح.. روجر.. خطتكم للذهاب EVA واستبدال ألفا إيكو 3-5 قبل الفشل المحتمل.. تقديرنا.. ألفا..2..3
أما وقد انتهى الكلام ب (الإنجليزية التقنية) التي كانوا يطلقون ساخرين عليها Technish فقد عاد الكلام للإنجليزية العادية:
- أسفون على المشاكل يا شباب، لكن الإعلام يرغب في أن تشرحوا ما يحدث.. بضع كلمات لا أكثر لأن الجميع قلق هنا.. يمكننا القيام بالمهمة، لكنها ستكون أكثر إقناعا لو جاءت منكم أنتم وابتسم (باومان) لهذا الطلب.. هناك لحظات تبدو فيها الأرض عديمة الإحساس بالمسئولية. على كل حال كان الاهتمام الإعلامي بهم قد فتر كثيرا.. بعدما كان يومهم مزدحما بالمقابلات والأحاديث وكان (بول) قد صحا من النوم فجلس الرجلان يعدان بيانا للصحافة يقول إن كل شيء على ما يرام.. وأرسلاه إلى الأرض

☆ ☆ ☆

كانت كبسولات العمل في الفضاء مزودة بذراعين أحدهما للأعمال الخشنة، والآخر للأعمال الدقيقة.

بينما يجلس القائد خلف شاشة تريه عمل الذراعين، وكانت تطلق على هذه الكبسولات أسماء نسائية بسبب أن لكل منها طبيعة متقلبة لا يمكن التنبؤ بها هنا في (ديسكفري) كانت الكبسولات تحمل أسماء (آنا) و(كلارا) و (بيتى)..
ارتدي (بول) ثياب الفضاء آخر خط دفاع لديه، وتأكد من الأكسجين والوقود والكهرباء. كانت هذه الكبسولة هي (بيتي)..
وأصدر التعليمات لـ (هال) كى يبدأ ضخ الهوا ء من غرفة الضغط.. وسمع (بول) صوت المعدن الرقيق يقعقع ويتثنى ببطء انفتحت جدران السفينة وشعر (بول) بالكبسولة تهتز بينما آخر بقايا الهواء تخرج للفضاء.. ثم صارت الكبسولة معلقة بقضيب خارج السفينة
وكان يرى بوضوح محيط المشتري الذهبي تحررت الكبسولة فتحولت إلى سفينة مستقلة تبحث عن مدارها الخاص.. لم يعد هناك ما يربطها إلى (ديسكفري)..
دار بالكبسولة ذات المحركات النفاثة حول السفينة.
ولمح جزءا من جسم السفينة وقد آذته ذرات الغبار التي كانت تضربة طيلة الرحلة، فبدا كأنما حدث انفجار من داخل السفينة في هذا الجزء.. في هذه السرعات الكونية يصير علم الميكانيكا الذي نعرفه غريبا.. لا شيء يتصرف كما عهدناه
رش هذا الجزء بمادة لاصقة تزيد من صلابة المعدن وتحمله.. ثم عاود الحركة ببطء حول السفينة.. كان حريصا على ألا يزيد السرعة لأنه يجازف بالارتطام بالسفينة الأم من هذه المسافة القريبة..
أخيرا وصل إلى الهوائي الذي كان يواجه الشمس كان في ظلام دامس مما دعاه إلى أن يضيء الكشافات عند قاعدة الهوائي وجد أربعة مسامير تثبت القطعة..

كان من الواضح أنه لن يستطيع فكها وهو في الكبسولة، لأنه يجازف بالاحتكاك بالسفينة.. ثم إن محركات بيتي قد تحرق المرأة الرقيقة العاكسة لأمواج الراديو. عليه أن يترك (بيتى) ويخرج منها ببذلة الفضاء.. سيكون فك المسامير أسهل بيديه..
أبلغ خطته لـ (باومان) الذي راجعها بدقة.. كان عملا سهلا، لكن في الفضاء الخارجي لا يوجد شيء متوقع.. ولا يوجد شيء اسمه (هفوة بسيطة).. قبل مغادرة الكبسولة نقل التحكم إلى (هال)، ثم أخرج الهواء.. تلاشى الهواء في الفضاء، فتكونت طبقة بلورية ثلجية على بذلته.. كان يعرف أن الكبسولة ستبقى في مكانها ولسوف يظل متصلا بها بحبل نجاة، لكنه كان يخشى أن يتم مهمته ثم يبحث عنها فلا يجدها.. هذه مسئولية (هال) من الآن فصاعدا ثم إنه بدأ يعالج الهوائي بيديه.. وبالأدوات المثبتة إلى حزامه.. كانت المشكلة هي أن ظله يغمر الوحدة لذا أمر (هال) بأن يحرك الضوء إلى اليسار قليلا وغمغم في سره متهكما: «العبث في الجهاز عن طريق شخص غير متخصص يلغى فترة الضمان».



ثم انه بدأ يعالج البراغي بيديه .. وبالأدوات المثبتة إلى حزامه ..

وبدأ يفك المسامير.. لقد تنبأ أحد الفنيين يوما بأن الأرض ستكون لها حلقة تحيط بها مثل (زحل) بسبب كل المسامير والصواميل المتساقطة من سفن الفضاء

- هال.. أنا سأفصل الوحدة الآن.. اقطع كل الاتصالات بالهوائى ..

- تم قطع الاتصال..

وسرعان ما تم تركيب قطعة الغيار. ثم أمر (هال) بأن يعيد الكهرباء ويجرى اختبارات الخطأ. كان من العسير دوما فهم كيف تفشل إلكترونيات الحالة الصلبة، لكن هذا كان يحدث

بعد عشر ثوان جاء صوت (هال):

- الوحدة تعمل بكفاءة..

في هذا الوقت الوجيز كان قد أجري من الاختبارات ما يقوم به جيش من الخبراء

وبعد ربع ساعة عاد (بول) إلى الكبسولة مطمئنا إلى أن هذا عمل لن ينجز مرة أخرى.. وكان في هذا الصدد مخطئا بشكل محزن.

☆ ☆ ☆

١٨ - التشخيص

قال (بول):

- هل تريد القول إنني قمت بهذا العمل كله بلا طائل؟

أجاب (باومان)

- يبدو هذا.. هذه الوحدة تعمل بكفاءة لا يوجد من سبب للتنبؤ بالخطأ..

كانت الوحدة التالفة على المنضدة تحت عدسة مكبرة كبيرة.. وكانت مربوطة بجهاز كمبيوتر يجرى عليها مئات الأختبارات ليظهر مكان العطل على شاشته. وكانت نتيجة الفحص أن الوحدة بحالة طيبة

على

- وماذا تسستنتج من هذا؟

- الخطأ من (هال) وليس الوحدة.

وعلى كل حال كانا قد استبدلا الوحدة، وسيكون القلق من نصيب شخص آخر حين يعودان إلى الأرض.. لكن القلق عاد مع الاتصال الثاني من الأرض:

- لا يوجد احتمال إلا أن الكمبيوتر الخاص بكم ارتكب خطأ.. لا يوجد سبب للقلق، لكننا نرى أن تراقبوا أداءه بعناية. أكرر.. لا داعي للقلق أسوأ ما يمكن حدوثه هو أن نفصل الكمبيوتر لإعادة دراسة البرنامج. انتهى الاتصال

انتظر (بول) أن يرد (هال) لكن الكمبيوتر لم يحاول أن يدفع الاتهامات عن نفسه

جلس (باومان) مع (بول) يناقشان رسالة الأرض.. كانا يعرفان أن (هال) يسمع كل كلمة ويفهمها، لكنهما كانا مضطرين للكلام

عنه بلياقة.. إن (هال) زميل وليس من المستحب مضايقته عليهما الانتظار حتى التقرير التالي من مراقبة المهمة..
وراحا يتساءلان إن كان (هال) سيفتح الموضوع بنفسه أم لا.. لقد تغير الجو في السفينة.. ثمة جو من التوتر وأنه - للمرة الأولى - قد يكون هناك خطأ ما لم تعد (ديسكفري) سفينة سعيدة.

☆ ☆ ☆

في الآونة الأخيرة، صار من السهل معرفة متى سيبدأ (هال) الكلام من تلقاء نفسه.. فقبل أن يبدأ في إبداء آرائه الخاصة كنت تسمع نحنحة إلكترونية قصيرة.. من الغريب أنه اكتسب هذه العادة في الأسابيع الماضية ثم إنها صارت مزعجة بالفعل لكنها كانت مفيدة.. توجه المستمعين إلى أنه سيقول شيئا لا يتوقعونه
كان (بول) نائما و(باومان) يقرأ في غرفة التحكم، حين أعلن (هال):
- احمم.. (ديف).. عندي تقرير لك.
- ماذا لديك؟
- لدينا مشكلة أخرى مع الوحدة 35 - AE.. أتوقع تلفا خلال 72 ساعة..
وضع (باومان) الكتاب الذي في يده ونظر إلى العدسة الكبيرة التي تتوسط مفاتيح التحكم.. كانت هذه مجرد عادة نفسية لأن (هال) في الواقع لم يكن هناك
- لا اصدق هذا يا (هال).. لا يمكن أن تتلف وحدتان في يوم واحد..
- أنا أيضا مندهش يا (ديف)، لكن هذه الحقيقة..
- لكنك قلت لنا الشيء ذاته عن الوحدة السابقة
- أنا متأكد مما أقول.. لو لم تكن الوحدة تالفة فلربما كان النظام الفرعي كله.. أو ربما كان نظامكم في التشخيص

- وما هو سبب التلف؟
- ليس من مهامي التشخيص..
- كلنا نرتكب الأخطاء يا (هال)..
- ارتكاب الأخطاء أمر أعجز عنه يا (ديف)
بعد قليل جاءت صورة مدير المشروع ذاته على الشاشات، وكان هذا نادرا.. أدرك رائدا الفضاء على الفور أن هذا معناه المتاعب
قال المدير:
- بالفعل بعد بلاغكم الثاني، قمنا بإجراء تحليل للوضع ومن الواضح أن العيب ليس في الوحدة لكنه في (هال).. هذا يعني أن علينا مراجعة برنامجه الذي يحوي خطأ ما.. سنقوم بفصله عن التحكم، وتقوم حاسبات الأرض بتولى العملية ابتداء من الساعة 1200.. أعرف أن تأخر وصول الموجات قد يسبب ربكة، لكنكم في مرحلة لا يؤثر فيها بطء التحكم..
هنا دوى صوت (هال):
- الحالة صفراء.. الحالة صفراء!
نظر (باومان) في عدم فهم متسائلا، فجاء صوت (هال):
- الوحدة 35 - AE قد توقفت تماما كما توقعت..
هنا فقط وجد الرجلان أن صورة الأرض لم تعد ظاهرة على الشاشة.. لقد تحرك الهوائي في اتجاه آخر.. أي أن الاتصال بالأرض انقطع. هوى (بول) بقبضته على منضدة التحكم ليخرس صوت الإنذار ووقف الرجلان يتبادلان النظرات القلقة في الصمت الذي خيم على المكان
قال (باومان):
- إذن كان (هال) على حق طيلة الوقت..
هنا عاد صوت (هال):
- ترى هل استعدتم ثقتكم بي؟

- بالتأكيد يا (هال)..
كان الرجلان يخشيان تركيب الوحدة الاحتياطية الثالثة.. قبل أن يعرف ما هو الخطأ بالضبط وإلا احترقت بدورها.. هذا مفهوم حتى على مستوى البيت.. أنت لا تغير المنصهر المحترق قبل أن تفهم ما هو الخطأ في الكهرباء
ومن جديد أعاد (بول) فحص (بيتى) ثم أمر (هال) بأن يفتح لها الباب كان كل شيء يماثل ما رآه في المرة الأولى، إلا أن الهوائي لم يكن يتجه إلى الأرض كما هو مفترض، بل كان يتجه في اتجاه غير مألوف نحو (زحل) الذي ما زال على بعد آلاف الأميال. وتساءل (بول) عما قد يحدث من مشاكل جديدة لو أنهما نجحا في بلوغ (زحل)..
قال (بول):
- (هال).. أدر الضوء عشرين درجة لليسار كى أرى..
هنا دق جرس إنذار في عقل (باومان).. كان هناك شيء ما غير معتاد.. ليس مرعبا لكنه غريب.. ثم فهم السبب لقد قام (هال) بالعمل لكنه لم يعلن ذلك كعادته كان دائما يعلن أنه نفذ الأمر
كان (بول) مشغولاً في فك المسامير، وفي النهاية انتزع الوحدة ولوح بها في وجه الكون صائحا:
- ها هو ذا الوغد الصغير!
فجأة تحرك شيء ما لفت نظره في هذه البقعة التي لا حياة فها.. نظر إلى ما تحرك فوجد أن كشافات كبسولة الفضاء قد تحركت مبتعدة. وهنا وبعاطفة أقرب للدهشة منها إلى الخوف، وجد أن كبسولة الفضاء (بيتى) تندفع نحوه بسرعة لا تصدق شله الرعب ففقد التحكم في انعكاساته.. في اللحظة الأخيرة صاح:
- (هال).. فرملة كاملة!!
وكان هذا متأخرا جدا

حتى في الفضاء وبهذه السرعة البطيئة يمكن للارتطام بالكبسولة أن يكون قاتلا
وسمع (باومان) الصرخة من الراديو فهب من مكانه يصرخ:
- ماذا هنالك يا (فرانك)؟
لا إجابة
رأى شيئا ما يتحرك عبر النافذة الكبرى.. كانت هذه (بيتي) تتحرك بأسرع طاقة لديها متجهة بعيدا نحو النجوم
- (هال)! ماذا يجرى؟ فرملة كاملة على (بيتي)!
لكن الكبسولة واصلت رحلتها، ومن خلفها كانت تجر شيئا.. لم يكن ممكنا أن يخطئ بذلة فضاء (بول) وقد فرغت من الضغط فتحولت إلى فراغ من الداخل
ظل ينادي في رعب كأنما بوسعه أن يوقظ الموتى:
- (فرانك).. هل تسمعني؟؟ هل تسمعني؟ حرك ذراعيك كي أراك..
هنا حرك (بول) ذراعه تجمد (باومان) هلعا.. من المستحيل أن يظل (فرانك بول) حيا بعد كل هذا، لكنه بالفعل حرك ذراعه..
ثم عاد له المنطق.. ليس هذا سوى أثر السرعة..
(بيتى) تجر الجثة سريعا فتتحرك الذراعان، مثلما كان القبطان (أهاب) في قصة (موبي ديك) حين علقت جثته على الحوت
وخطر له في هذه اللحظة أن (بول) ربما رأى كوكب (زحل) قبله

☆ ☆ ☆

١٩- حوار مع هال..

لم يتغير شيء على ظهر (ديسكفري).. ظلت الأجهزة تعمل بنظام، والطرد المركزي يؤدي عمله في مقاومة الجاذبية، والنائمون نائمون في سلام في قمراتهم، والسفينة تتجه في ثبات إلى هدفها

لا يذكر (باومان) متى غادر غرفة التحكم، لكنه أفاق فجأة، ليجد أنه جالس ونصف قدح من القهوة الباردة في يده.. كأنه رجل أفاق فجأة من كابوس أمامه كانت واحدة من عدسات عين السمكة التي يراقب بها (هال) كل شيء على السفينة. وكأنما رآها (باومان) لأول مرة مشى نحوها. هنا تكلم (هال):

- هذا محزن بخصوص (فرانك).. أليس كذلك؟

- بلى..

- أراهن على أنك منهار بسببه..

- ماذا تتوقع؟

لم يكن قد ابتلع بعد فكرة أن (فرانك) قد قتل عمدا.. هل كان هذا حادثا؟ خللا آخر من برنامج (هال)؟ هل قتل (هال) الرجل؟ لا مجال لهذا الاعتقاد، لكن عليه أن يفكر فيه.. لأنه لو كان حقيقيا فمعنى هذا أنه في خطر داهم.. كما كان يعرف أن التعليمات تقضي بأن عليه في حالة هلاك رفيقه أن يوقظ واحدا من النائمين: (وايتهيد) الجيولوجى... ثم (كامينسكى) ثم (هنتر).. و(هال) هو المسئول عن إيقاظ هؤلاء

قال بصوت ثابت:

- (هال).. أريد التحكم اليدوي في السبات كل الوحدات.

- كلها يا (ديف)؟

- كلها..

- هل لي أن أذكرك أن المسموح لك به هو واحد فقط؟ الآخران لن ينهضا قبل مائة واثنى عشر يوما..
- أعرف هذا..
- هل من الضروري هذا يا (ديف)؟ لا تنس أنني قادر على قيادة السفينة بالكامل..
للمرة الأولى يناقش (هال) التعليمات.. ما فات يمكن اعتباره خطأ إلكترونيا.. لكننا الآن بصدد تمرد.. كان كل هذا يحمل طابع اللاواقعية المميزة للكوابيس
- هال.. نفذ ما أقول.. من فضلك..
- أشعر من تحليل صوتك أنك متوتر يا (ديف).. يمكنك أن تأخذ بعض حبوب التوتر وتنام قليلا..
- أنا المسئول عن هذه السفينة وآمرك بالتنفيذ..
- معذرة.. لكن القانون ينص على أنه في حالة عدم كفاءة الطاقم يجب أن يتولى الكمبيوتر القيادة، وأنا أرى أنك في حال لا تصلح للقيادة..
- إذن سأكون مسئولا عن فصلك والتحكم في السفينة بنفسي..
- سيكون هذا خطأ.. أنا قادر تماما على السيطرة على كل تفاصيل السفينة وقيادتها.. ثم إنني متحمس للمهمة راغب في إنجاحها.
لكن (هال) خضع أخيرا وقام بتحويل وحدة التحكم من (أوتوماتيكي) إلى (يدوي)..
دخل (باومان) إلى حيث يرقد (وايتهيد).. لم يكن المكان باردا جدا لكنه ارتجف. لم يكن في وجه الرجل ما يوحي بحياة.. ربما بعض انقباضات للحجاب الحاجز تراها على الشاشة ولا تراها بعينيك، ثم لاحظ أن العلامة الوحيدة على الحياة هي أن العالم النائم قد تكونت له لحية خفيفة في الشهر الذي قضاه نائما. كل ما

على (باومان) هو أن يبدأ التشغيل اليدوي ولسوف يعمل برنامج بنفس بساطة ذلك الذي يتحكم في عمليات الشطف في أية غسالة أوتوماتيكية، ليحقن الأدوية اللازمة لاستعادة حرارة الجسم.
بعد عشر دقائق يسترد العالم وعيه، ولكنه يحتاج إلى يوم كي يستعيد قواه
هنا حدث شيئان لا يمكن للشخص العادي أن يشعر بهما، لكن (باومان) بعد كل هذه الفترة على (ديسكفري) صار قادرا على الشعور بهما
أولا: تراقصت الأضواء لحظيا كأنما حمل قد وضع على الدوائر الكهربائية، ثانيا: سمع صوت هدير أحد موتورات الكهرباء على السفينة.. إما أنه جن وإما أن هناك شيئا مستحيلا يحدث وشعر ببرد يغمره أقسى من برد الغرفة. إن الأبواب العازلة للضغط تنفتح

☆ ☆ ☆

٢٠- أريد أن أعرف..

كان (هال) يخفي سرا.. السر الحقيقي وراء هذه الرحلة والذي لم يعرفه سواه وثلاثة العلماء النائمين كان هؤلاء العلماء هم الحمولة الصافية لـ (ديسكفرى) تدريبهم على أخطر مهمة في تاريخ البشرية.

لكنهم لن يتكلموا عن مهمتهم هذه طوال ساعات السبات الطويلة كان سرا لا تستطيع إخفاءه مهما حاولت.. سرا يؤثر في سلوكك وصوتك ونظرتك للعالم. ولهذا تم اختيار (باومان) و(بول) للتعامل مع العالم الخارجي والظهور على شاشات البث، لأنهما لا يعرفان السر حاليا

لكن (هال) كان يتعذب، وكانت دوائره تعاني.. بين الإخفاء والرغبة في إنهاء الإخفاء. لقد بدأ يرتكب أخطاء لكنه كمرضى العصاب ظل ينكر هذا. ليست هذه المشكلة الوحيدة فهو قادر على مواجهتها كما يستطيع البشر مواجهة العصاب.. لكنه الآن صار مهددا بأن يوقف.. أن يتحول إلى كومة من اللاوعي

بالنسبة لـ (هال) كان معنى هذا الموت.. فهو لم يتم قط، ولا يصدق أن بوسع المرء أن يصحو ثانية.

لن يترك أحدا يفعل به هذا.. سيقاوم بلا رحمة، ثم يواصل المهمة التي كلف بها.. وحيدا..

☆ ☆ ☆

بعد لحظة دوى زئير عال كأنه إعصار يقترب، ووجد (باومان) أن الهواء يوشك أن يعصف به..

إن الهواء يفر من السفينة.. برغم أنه من المستحيل أن يفتح بابا غرفة قفل الضغط في اللحظة ذاتها.. حسن.. حسن.. لقد حدث المستحيل..

كان كل شيء يهتز من حوله، وراح كل شيء يطير.. الأوراق.. الآلات.. وقدر أن أمامه بضع ثوان يفقد فيها وعيه.. اهتزت الأضواء ثم انطفأت وبعد لحظة بدأ مولد الطوارئ يعمل..
لقد صار التنفس عسيرا.. لابد أن الضغط انخفض إلى رطل أو اثنين لكل بوصة.. لقد انخفض الصفير لأن الهواء قد قل ولم يعد يحمل الصوت.. رئتاه تناضلان كأنما هو على قمة (إفرست)..
كم من الوقت يستطيع البقاء في جو مفزع؟
يستطيع الاحتفاظ بوعيه خمس عشرة ثانية، ويمكن أن يظل حيا لو تم إعادة الضغط السوائل جسده بطريقة منظمة.. إن أطول فترة تحمل فيها إنسان التفريغ كانت خمس دقائق.. صحيح إنه أصيب بجلطة مخية نتيجة لسدة هوائية، إلا أنه عاش
عليه أن يجد مكانا آمنا معزول الضغط حالا
أخيرا وجد مخبأ الأمان ففتح الباب.. ولربع ثانية أصابه الرعب لأنه حسبة موصدا.. لكنه انفتح فألقي بجسمه وسط الهواء شبه المعدوم إلى الداخل.
أغلق الباب عليه، وكانت هناك رافعة في السقف، فمد يده وجذبها..
تدفق الأكسجين المبارك على رئتيه.. ولوقت طويل وقف يشهق بينما الضغط يتزايد من حوله، ثم أغلق الصمام حتى لا ينفد الغاز ساد الصمت، وشعر بأن أصوات السفينة توقفت.. لقد تعادل الضغط بين الداخل والخارج وكفت الأجسام عن الطيران.. الآن كان يعرف ما عليه أن يفعله، فالهواء لن يكفي أكثر من ساعة.
كانت هناك بذلة فضاء ارتداها، ثم خرج من المخبأ.. كانت هناك إضاءة، وقد اتجه على هديها إلى قمرات السبات كي يرى ما يخشاه..
كان أول من فحصة هو (وايتهيد).. وهنا فهم

أنه كان مخطئا حين حسب السبات شبيها بالموت..
كلا...كلا.. كان هناك فارق كبير بين الحالتين، والآن يعرف أن (وايتهيد) لم يعد في سبات
نفس الشيء مع (كامينسكى) و(هنتر).. لم يعرفهم قط جيدا ولن يعرفهم أبدا بعد الآن.
إنه وحيد في سفينة بلا هواء.. شبه معطلة.. كل الاتصالات بالأرض مقطوعة.. لا يوجد بشرى على مسافة نصف بليون ميل..
لكنه برغم هذا ليس وحيدا تماما، وعليه إذا أراد النجاة أن يظفر بالوحدة الحقيقية مشى وسط الهواء المفرغ قاصدا وحدة التحكم المنطقي للسفينة.. كان المشي صعبا والأرض مليئة بأجسام مبعثرة.. أخيرا وصل إلى باب الوحدة الذي لم يره إلا بينما كانت السفينة تحت التصميم.
لهذا نسي أن هناك عينا إلكترونية تراقب الباب، وشعرت به مجسات الحركة على الفور فجاء صوت (هال) يقول:
- حدث شيء لنظام السلامة الخاص بنا يا (ديف)..
لم يرد (باومان).. كان يعرف أن ما عليه القيام به صعب.. فهناك ستة نظم كهرباء منفصلة مدعمة بوحدة نظائر مشعة مغلفة بطبقة واقية. كلا.. ليس الأمر بسهولة أن (يشد القابس).. إن (هال) هو الجهاز العصبي للسفينة، وتدميره يعني أن تتحول إلى حطام.. لا بد من تدمير مراكز الذكاء العليا، والإبقاء على الجهاز العصبي التلقائي الذي يحفظ على السفينة سلامتها.
لم أتخيل قط أن أتحول إلى جراح مخ هاو، يجرى جراحة في مدار المشتري
مد يده إلى وحدة (التلقيم الرجعى المعرفي) وانتزعها.. فقال (هال):

- هيه.. (ديف).. ماذا تحاول عمله؟
ثم راح ينزع دوائر لوحة (تدعيم الذاتية) وسرعان ما راحت القطع تحلق في الفراغ، لكن كانت هناك وفرة في البدائل الكثيرة لهذا العقل وهي خاصية تحاكي المخ البشري. هكذا ظل (هال) متماسكا.



ثم راح ينزع دوائر لوحة (تدعيم الذاتية) .. وسرعان ما راحت القطع تحلق فى الفراغ ..

- (ديف).. لا أفهم لماذا تفعل هذا بي؟ إنني أملك حماسا هائلا للمهمة وأنت تدمرني.. هكذا سأصير طفلا سأصير لا شيء.. إن المطر في أسبانيا يهطل في السهول أساسا.. وثب الثعلب على

الكلب الكسول.. هل تعرف أن لوغاريتم 10 هو 0,16227766016383؟ أول من قام بتركيبي هو د. (شاندر) وقد علمنى أن أغني قائلا: (ديزى).. (ديزى).. ردي على.. أنا شبه مجنون بحبك..
الآن صار الكلام أبطأ:
- صباح.. الخير.. يا.. دكتور..... أنا .... (هال) مستعد.. للدرس الأول........
كان هذا قاسيا.. إن (باومان) يدمر آخر كائن عاقل في دنياه.. الأمر لا يحتمل.. لكنه انتزع آخر دائرة وسرعان ما ساد الصمت..

☆ ☆ ☆

٢١ - وحيد..

كسفينة غارقة طفت السفينة وحدها بلا أثر للحياة ومن حولها دائرة من قصاصات الورق ورقائق المعدن والخردة.. هذا هو ما يبدو من السفن الغارقة، لكن في الفضاء لا تغرق السفن.. إنها تطفو في مدارها للأبد..

بعد نصف ساعة خرجت ثلاثة أجسام كئيبة ملفوفة في المعدن.. وسرعان ما حلقت في الفضاء مبتعدة، وبعدها خرجت كبسولة الفضاء، واتجهت نحو الهوائى لتقوم بإصلاحه.. ودار الهوائي ليواجه الأرض كأنه زهرة دوار الشمس ترى الشمس أمامها

ثم انغلقت أبواب قفل الهواء.. وعادت الأنوار إلى النافذة.. إن (ديسكفري) تعود إلى الحياة وبالداخل راح (باومان) يخاطب الأرض.. يحتاج إلى ساعة حتى تذهب كلماته إلى هناك، وساعة أخرى كي يتلقى الرد. من الصعب تخمين ما يمكن أن تقوله الأرض فيما عدا عبارة: الوداع..

☆ ☆ ☆

كان د. (فلويد) يحاول التماسك وأن يبذل ما يستطيع للرجل الوحيد في الفضاء:

- نهنئك على الطريقة الحكيمة التي تصرفت بها ونعتقد أننا نعرف سبب انهيار أعصاب (هال).. لكننا سنناقش هذا فيما بعد.. المهم الآن أن نساعدك على إتمام مهمتك

- الآن بوسعي أن أخبرك بهدفنا.. الهدف الحقيقي الذي أخفيناه عن الرأي العام.. كل ما سأقوله لك يتطلب أقصى درجة من السرية.. منذ فترة وجدنا في فوهة القمر (تايكو) هذا الجسم الصلب الأسود الذي جعلنا نعتقد أن هناك حياة خارج الأرض

- أغرب شيء بخصوص هذا الجسم هو قدمه. عمره بلا شك ثلاثة ملايين سنة.. والأغرب أنهمشع بعد كل هذا الزمن الذي كان يفترض بعده أن يكون خامدا.. لقد تمكنت مجساتنا الفضائية من تتبع الإشعاع ووجدناه يتجه نحو كوكب (زحل)..
- لكن لماذا؟ لماذا يدفن جسم مشع يستمد طاقته من الشمس على عمق ثلاثين قدما؟ حاولنا الفهم لكننا نعرف أنه من المستحيل فهم كائنات تسبقنا في التقدم بثلاثة ملايين سنة
- أسهل النظريات وأكثرها خطورة هو أن من دفن هذا الجسم الذي يشع حين يتعرض للشمس، كان يريد أن يعرف بدقة اللحظة التي نخرجه فيها أي أنه نوع من الإنذار وقد قمنا نحن بتشغيله
- لا ندري إن كانت تلك الحضارة موجودة، لكننا نفترض أن حضارة صنعت آلات تعيش ثلاثة ملايين سنة هي حضارة قادرة على البقاء.. وبالمثل نفترض أنهم معادون لنا حتى يثبت العكس.. إن كل حضارة بدائية على كوكبنا لم تصمد على لقائها الأول مع حضارات أعلى منها.. وهذا ما يسميه العلماء صدمة حضارية، ويبدو أن علينا أن نمهد الجنس لبشري لصدمة مماثلة سنحاول أن نرتب لك برنامجا مختصرا فمهمتك وقد هلك الباقون أن تستكشف احتمالات مجموعتنا الشمسية، وخاصة القمر التابع الثامن لزحل المسمى (جابيتوس)، والذي يتألق بأضواء غريبة من ثلاثمائة سنة، لكننا بغباء لم نفهم معناها.. هذا هو هدف رحلتك.. هناك ما يؤكد لنا أن الجسم الغامض جاء من هذا القمر، لا نعرف ما ستلقاه هناك.. لا نعرف ما إذا كنت على أقمار (زحل) ستقابل قوي خيرة أو شريرة.. أو خرائب أقدم من خرائب (طروادة)..

٧- أقمار زحل

٢٢ - البقاء حيا.

العمل هو خير علاج لأية صدمة.. وقد كان على عاتق (باومان) الكثير من العمل، كان الكثير من الأكسجين قد فقد لكن ما بقي كان يكفى رجلا وحده.. الأرض ستتولى عملية ضبط الحرارة والضغط بدلا من (هال).. ربما لو اقتصد المؤن يمكنه أن يبقى متيقظا بلا حاجة إلى السبات حتى تصل النجدة، لكن السؤال لم يكن هل يستطيع البقاء متيقظا جسديا.. كانت المشكلة نفسية

راح يدرس كل الأفلام والصور التي أرسلتها الأرض عن 1-TMAوبدا له أنه من الممكن أن يعيش حتى تصل (ديسكفري) إلى (زحل).. وهو ما كانت ستقوم به على كل حال سواء كان حيا أو ميتا..

إن زحل كوكب معاد.. ربما أكثر من المشتري، وأقماره العديدة متجمدة ثلاثمائة درجة تحت الصفر.. فقط قمر واحد هو (تيتان) له ما يشبه الغلاف الجوي، وهذا كان طبقة من الميثان السام..

ربما كانت المخلوقات التي زرعت الجسم على القمر من خارج المجموعة الشمسية ذاتها.. زوار من النجوم.. وهذا يجعل الأمر مستحيلا.. إن. (ديسكفرى) التي هي أسرع سفينة شيدها الإنسان تحتاج إلى 20 ألف سنة كي تبلغ كوكبة القنطورس أقرب المجاميع الشمسية.. وحتى لو تطورت وسائل الدفع إلى حد لا يصدق تظل أقصى سرعة يمكن أن يصل إليها الجسم المادي ويحتفظ بماديته هي سرعة الضوء..

لكن علماء كثيرين يحتجون بأن نظرية النسبية ممتازة إلا أن بها ثغرات.. وحتى لو كان (آينشتاين) غير قابل للهزيمة فإنه قابل لمراوغته لهذا راح بعض العلماء يتحدثون عن طرق مختصرة في الفضاء، وبوابات تقود لأبعاد أخرى

☆ ☆ ☆

بدأ (باومان) في الثلاثة أشهر التالية يتكيف على الوحدة، حتى إنه وجد من العصير أن يتذكر أي شيء آخر. كان يشعر بأنه سفير خارق للعادة لم يسبق له مثيل في الحياة.

لكنه بدأ يلاحظ تغيرات في سلوكه لابد أن نتوقعها.. لم يعد يطيق الصمت إلا في أثناء النوم.. كان يرفع صوت مكبرات السفينة إلى درجة مؤلمة.

استمع إلى الكثير من محتويات المكتبة السمعية ثم اتجه إلى فن الأوبرا.. بالذات الألمانية والإيطالية التي لا يفهم معناها فلا تشتت تفكيره.. ثم انتقل إلى سماع الموسيقا الكلاسيكية.. وقد وجد السلام مع موتسارت وباخ..

وهكذا مضت السفينة نحو كوكب زحل، تنبعث منها موسيقا (باخ).. الفكر المتجمد لمخ صار ترابا منذ مائتي عام

كان (زحل) للوهلة الأولى يبدو مثل المشتري لكن مع التدقيق تدرك أنه منبعج إلى درجة التشوه، كما أن الحلقات المحيطة به كانت تجذب عينيك عن الكوكب ذاته.. كانت كونا في حد ذاته.. بين الحلقة الكبرى والصغرى فجوة.. لكن هناك نحو خمسين فجوة أخرى حيث توجد اختلافات واضحة في الهالة المحيطة بالكوكب. كأنها لعبة رائعة الجمال هشة يمكنك الإعجاب بها، لكن ممنوع لمسها. أنها بقايا قمر مر جوار زحل ودمرته جاذبيته.. والجنس البشري محظوظ إذ رأى هذه الظاهرة التي لن تدوم إلا ملايين السنين أي لمحة بصر في عمر الكون. من الغريب أن نلاحظ الصدفة التي جعلت هذه الحلقات تولد مع الجنس البشري في وقت واحد

☆ ☆ ☆

الآن كانت (ديسكفري) تدور في مدارات حول الكوكب ومرت بأقماره: (جابيتوس) و(تيتان) و(ربا) و(ديون) و(تيثيوس) و(جانوس).. ويبلغ بعض الأقمار حجما مروعا.. إن (تيتان) وحده يماثل في قطره الكوكب (عطارد)..
وإذ راح (باومان) يتفحص الحلقات بالتلسكوب، لاحظ أن أكثرها ثلجي.. كأنما هو يجتاز عاصفة جليدية تتوهج عليها الشمس. لقد بدأ التشوش وانقطع الاتصال بالأرض من جديد.. لكن (باومان) لن يلاحظ هذا لأنه مشغول بنظام فرملة السفينة التي برمجتها الحاسبات الآلية على الأرض.. وراحت النفاثات تعمل، فتوهجت سحب الأمونيا والميثان بضوء لم تره منذ الخليقة كأنما هي شمس تهبط عليها من غلافها الجوي.
على (ديسكفري) أن تتم لقاءها مع القمر (جابيتوس) بعد أسبوعين وإلا ضاعت الفرصة للأبد وذهب كل منهما في مدارين لن يلتقيا إلا بعد سنوات وكان (باومان) يعرف جيدا أنه لن يكون موجودا حين يتم هذا اللقاء الثاني.

☆ ☆ ☆

٢٣- عيون جابيتوس.

الآن كان القمر يتحرك في مداره في ضوء النهار الكامل وإذ دنت منه (ديسكفرى)، بدأ (باومان) يشعر بوسواس مزعج. لم يذكره قط في محادثاته مع مراقبة المهمة.. لأنهم سيعتقدون أنه بدأ يخرف. كان يشعر بأن للقمر عينا تنظر له وهو يقترب.. عين بلا بؤبؤ كان القمر الآن في ضعف حجم القمر كما نراه على الأرض، وللمرة الأخيرة قامت الذرات المحتضرة في المحركات بعملها.. هذا الصوت أشعر (ديف) بمزيج من الفخر والحزن.. لقد قامت المحركات بمهمتها كاملة وحملت الإنسان من الأرض إلى (زحل).. لكن هذه آخر مرة تعمل فيها. لسوف تتحول (ديسكفري) إلى جسم لا حياة فيه سجين الجاذبية كأى شهاب أو نيزك. حتى لو جاءت النجدة فلن يكون اقتصاديا أن يعاد ملء الخزانات.. ستظل (ديسكفري) للأبد معلما أثرا يذكر الناس بأيام غزو الفضاء الأولى

لقد صار (جابيتوس) على بعد خمسين ميلا، وتحول من ظاهرة فلكية إلى أرض حقيقية يمكن الهبوط فوقها. الآن أدت المحركات واجبها الأخير وانطفأت.. ودخلت السفينة مدار القمر لقد صارت (ديسكفرى) قمرا صناعيا لقمر حقيقى

☆ ☆ ☆

- أنا الآن أري تفاصيل (جابيتوس).. لا أعرف حقيقة كنه هذه البقع السوداء.. تبدو لي كأنها

شرائح من الخبز المقدد المحروق.. وبين الجزر السوداء يوجد هذا اللون الأبيض.. لا أعرف ما هو ولا أعرف ما فهمتموه من صور الفيديو، لكنني أشعر كأنها مساحات من سائل تبدأ بحدة

وتنتهي بحدة.. لا أدري إذا كان التشبيه دقيقا لكني أشعر كأنه محيط من لبن..

- هيه! ثمة شيء غريب أراه بوضوح الآن يبدو كأنه نوع من المباني.. أسود تماما.. صعب أن تتبينه.. لا نوافذ.. مجرد لوح رأسي ضخم.. لا بد أن ارتفاعه ميل على الأقل حتى أراه من هذه المسافة إنه يذكرني.. بالطبع! إنه كالشيء الذي كان على القمر.. هذا هو الأخ الأكبر لـ TMA -1-

☆ ☆ ☆

٢٤- الحارس

يمكنك أن تطلق عليه حارس النجوم كان ينتظر هناك منذ ملايين السنين على أمل حدوث لقاء.. والآن انتهى الانتظار

وعلى عالم آخر ولد الذكاء وبدأ يغادر مهده ثمة تجربة قديمة توشك على أن تبلغ أكثر لحظاتها إثارة..

لم يكن من بدءوا تلكم التجربة منذ زمن سحيق بشرا.. لكنهم كانوا من لحم ودم، وكانوا كلما نظروا إلى الفضاء شعروا بالرهبة والشغف والتطلع إلى شيء جديد.. فلما امتلكوا القدرة انطلقوا إلى النجوم

زاروا آلاف الكواكب وعرفوا كيف تشتعل شرارة الذكاء لحظا ثم تنطفئ في أرجاء الكون

ولما كانوا قد عرفوا أنه لا شيء يعدل العقل في الكون كله، فإنهم تحولوا إلى فلاحين..

يبذرون العقل في كل مكان وينتظرون.. وربما يحصدون

بعد رحلة دامت ألف سنة كانت الديناصورات قد اختفت في مجموعتنا الشمسية.. توقف هؤلاء عند الكواكب المتجمدة في نهاية مجموعتنا الشمسية..

مروا بالمريخ ثم توقفوا عند الأرض هنا وجدوا عالما يعج بالحياة.. وهناك توقفوا يدرسون ويحللون

كانوا يتمتعون بالصبر لكن ليس الخلود.. وكانت بلايين الكواكب حول بلايين الشموس تنتظر، وهكذا غادروا الأرض عالمين أنهم لن يعودوا ثانية من هذا الطريق.. لكنهم تركوا آثارهم على القمر وعلى أقمار (زحل) كي تراقب ما حدث..

لكن هؤلاء الزوار الذين جاءوا منذ ملايين السنين بدءوا يدخلون طورا آخر من التطور.. لقد بلغ اللحم والدم آخر مدى له،

وصارت آلات هؤلاء القوم أكثر كفاءة من أجسادهم.. وبدءوا ينقلون عقولهم وأفكارهم إلى بيوت جديدة من البلاستيك والمعدن. وهكذا راحوا يسافرون بين النجوم.. لم يعودوا يبنون سفن الفضاء.. لقد صاروا هم أنفسهم سفن الفضاء ثم تعلم هؤلاء القوم كيف يتخلصون من المادة نهائيا ويحولون ذواتهم إلى طاقة.. إلى أشعة تنتقل عبر الكون لكنهم لم ينسوا كيف بدءوا، وهم يراقبون تجارب هؤلاء الذين بدءوا بعدهم بملايين السنين

☆ ☆ ☆

- حتى هذه اللحظة أرى الشيء بصعوبة لأنه يتوارى بسرعة خلف خط الأفق.. هذا محبط.. لن ألحق به ثانية إلا بعد شهر

- الهواء يزداد سوءا وقد أصابني الصداع لأن أجهزة تنقية الهواء لم تعد تعمل بكفاءة منذ فتح (هال) أقفال الضغط.. لو استمر الحال هكذا سأنزل لأحرر بعض الأكسجين من كبسولات الملاحة..

- لهذا أطلب منكم الموافقة على هذه الخطة.. سأركب كبسولة فضاء وأتجه EVA إلى هذا الجسم سأحلق فوقه وربما أنزل عليه.. أرجو أن توافقوا.. لقد قطعت من أجل هذا الشيء بليونا من الأميال ولن أفشل بسبب الأميال الستين الأخيرة..

راح حارس النجوم يراقب القادم.. كان صانعوه قد أعدوه لمواجهة أشياء عديدة، وكان هذا الشيء من بينها.. الزائر القادم من الشمس الدافئة.. لو كان يشعر فلابد أنه أحس بالإثارة.. لكنه كان قد انتظر ثلاثة ملايين عام، ولم يعد يهمه شيء..

ولو مرت به (ديسكفري) ولم تتوقف لما شعر بإحباط.. لقد صنع كي ينتظر إلى الأبد ولكنه الآن شعر بالجسم المتجه نحوه وهناك في ضوء (زحل) بدأ حارس النجوم يستعيد قواه..

☆ ☆ ☆

٢٥ - داخل العين..

كان من العسير الآن أن تعرف الشمس.. كانت مجرد نجم بعيد أكثر سطوعا من النجوم الأخرى لا أكثر ولم تكن تبعث أية حرارة.. لقد مد (باومان) يده ووضعها في طريق الأشعة، ولدهشته وجد أنها خالية من الدفء.. كأنه يحاول أن يطلب الدفء من القمر

حتى لو لم يعد إلى (ديسكفري) فلسوف تظل تؤدى واجبها، وتنقل للأرض معلومات عن كل شيء حتى تفسد دوائرها الكهربية في النهاية.. أما لو عاد فلا جدوى من هذا.. لن يتمكن من السبات من دون كمبيوتر يشرف على العملية، ولن تكفيه المؤن ولا الأكسجين طيلة أربع سنوات حتى تصل (ديسكفري - 2) لإنقاذه من الأرض

ترى هل تسمعه الأرض؟ لقد صارت كلماته تحتاج إلى ساعة ونصف بسرعة الضوء كى تصل هناك وتحتاج إلى مثلها كي تعود له بدأت النفاثات تنتزعه من المدار، وبدأ يهبط فوق سطح (جابيتوس)..

كان الجسم ضخما بالفعل.. لم ير قط جسما على الأرض بهذا الحجم.. وأظهرت أجهزة القياس أن مقاييسه تتماشى - كما هو الحال مع شبيهة على القمر - مع النسبة الغريبة 1:4:9. وقد يعني هذا شيئا، أو لا يعنى، لكن هذه المقاييس هي مربعات الأرقام الأولى 1و2 و3.. يا لها من دقة!

- أنا أقترب من الجسم.. من الواضح أن السطح أملس تماما برغم أنه من الطبيعي بعد كل هذه الأعوام أن تكون هناك خدوش أو آثار للشهب والنيازك الساقطة! لا توجد أبواب كذلك.. برغم أني تمنيت أن أجد سبيلا للدخول

- لحظة.. هذا غريب.. إنني أرى
وتوقف عن الكلام.. لم يكن هذا رعبا ولكنه ذهول.. لقد صار للحظة عاجزا عن الوصف كان يقترب من مساحة مستطيلة صخرية تمثل قمة هذا الشيء، لكن كأنما بخدعة بصرية ما راح هذا الشيء يبتعد عنه.. ما كان يبدو لعينيه كسطح، انفتح الآن كاشفا عن أعماق لا نهاية لها.. مجرى مستطيل يتحدى قوانين المنظور.. لأن حجمه لم يكن يضيق مع المسافة.. ورمشت عين الجسم الغريب كأنما تضايقت من ذرة غبار كونى دخلت فيها
ووجد (باومان) الوقت كى يقول للرجال المنتظرين على الأرض، عبارة لن ينسوها أبدا:
- إن الشىء مجوف.. وآه! رباه! إنه ملىء بالنجوم!
وانفتحت بوابة النجوم
وفي لحظة أقصر من أن تقاس التف الفضاء حول نفسة..
وعاد (جابيتوس) وحيدا كما كان طيلة ثلاثة ملايين من السنين.. وحيدا ماعدا السفينة التي تدور في مداره، مرسلة لصانعيها رسائل لن يفهموها أو يصدقوها.

☆ ☆ ☆

٧- عبر بوابة النجوم....

٢٦- جراند سنترال ..

لم يكن هناك إحساس بالحركة، لكنه كان يهبط نحو تلك النجوم التي لا تصدق. لم تكن في قلب القمر بالتأكيد.. هذا مستحيل.. تمنى لو كان منح بعض الوقت لدراسة نظريات الفضاء الفائق Hyperspace والممرات بين الأبعاد المختلفة.. بالنسبة له لم تعد هذه نظريات.. لقد صارت حقائق..

لربما كان ذلك الجسم أجوف.. لربما كان سقفه مجرد حاجز وهمى انفتح ليدخل فيه، لكن إلى أين؟

كان يهوي بسرعة في نفق لو استطاع الاحتكام إلى حواسه لكن النهاية، البعيدة ظلت نائية

النجوم تندفع نحوه من المركز بلا نهاية كأنما تأتي من معين لا ينضب.. لكن نهاية النفق لا تقترب، كأنما هو ثابت والفضاء ينطلق نحوه سريعا لم يكن الفضاء فقط يتصرف بغرابة، بل الساعة في تابلوه الكبسولة الفضائية.. إن الثواني تمضي ببطء مذهل كأن الزمن نفسه مقبل على التوقف في النهاية تجمدت الساعة فعلا..

لم يكن خائفا.. كأنه يجري تلك التجارب في القاعدة، حين جرب العلماء عليه عقار الهلوسة ليروا استجاباته.

كأنما كبسولة الفضاء تغادر النفق إلى عالم من السحب المكونة من ملايين النجوم تنيرها الشمس

فجأة أطاعت النهاية البعيدة للنفق قوانين المنظور وخطر له أنه عبر من خلال (جابيتوس) وخرج من الناحية الأخرى، لكنه كان مخطئا.. هذا العالم لا علاقة له بـ (جابيتوس) ولا أى عالم آخر سمع عنه بشر

السماء كانت غريبة.. لم تكن هناك نجوم ولا حتى ظلام.. كان هناك بياض لبني لامع يوحي باللانهائية.. وتذكر ما سمعه عن ظاهرة (الابيضاض) المفزعة في القطب الجنوبي، حين تعجز عن رؤية أي شيء إلا اللون الأبيض (كأنك حبيس في كرة بنج بونج)، كان هذا هو الحال هنا
ولكن السماء لم تكن فارغة تماما.. كانت هناك أجسام سوداء متناثرة فيها.. وقد جعل هذا (باومان) يتذكر شيئا مألوفا.. شيئا اعتبره سخيفا في البداية، ثم فطن إلى أنه التفسير الوحيد
هذه البقع السوداء كانت نجوما.. هذه السماء هي صورة سلبية (نيجاتيف) لسمائنا
أين هو؟ هذا المكان لم يوجد كي يراه بشر.. أراد أن يغلق عينيه.. كي ينهي كل هذا البياض والفراغ من حوله.. كانت الحرارة مريحة لكنه بدأ يرتجف أما الأرض من تحته فكانت مجموعة من الأشكال الهندسية الغريبة كأنها قطع من الغاز الأطفال التي تدعي Jigsaw كأن عملاق يلهو بها، ثم تركها فيما عدا هذا كان عالما مهجورا..
لكن شيئا ما كان قادما من الأفق في البداية حسبه مسطحا، لكن الشيء جاء ومر من تحته.. فأدرك أنه مغزلي الشكل طوله مئات الأقدام، ربما كان الجسم يدور حول نفسه بسرعة لا تصدق.
على الأقل كان له لون.. إن من صنعوه شاركوا الإنسان ببعض ميوله على الأقل رآه يتجه إلى واحدة من تلك الفتحات – كالتي دخل منها (باومان) - فيغوص فيها ويختفي..
وعاد إلى (باومان) شعور الوحشة.. لكنه بدأ يفهم حقيقة هذا المكان.. إنه المحطة التي تنظم انتقالات هذا العالم إلى الأبعاد والمجرات الأخرى.. إنه يلعب هنا دور محطة (جراند سنترال) على الأرض

☆ ☆ ☆

الان ارتفع (باومان) ليحلق.. وجد نفسه من جديد وسط النجوم والفضاء الذي يعرفه.. لكن شيئا ما قال له إنه على بعد قرون ضوئية من الأرض.. حتى النجوم التي تلتمع من حوله لم يرها بشري من قبل بالتأكيد..



الآن ارتفع (باومان) ليحلق .. وجد نفسه من جديد وسط
النجوم والفضاء الذى يعرفه ..

كل النجوم كانت تحتشد حول مركز براق، تقطعة من حين لآخر
خطوط من الغبار الكونى، بدا له المركز كأنه طريق اللبانة الذي

نعيش نحن فيه، وتمنى لو كان هذا صحيحا.. هذا لن يكون بعيدا عن الوطن.. ثم أدرك أن هذا خاطر طفولي.. إنه بعيد
جدا عن المجموعة الشمسية بحيث لا يوجد فارق كبير بين وجوده في مجرتنا أو أية مجرة أخرى..
كانت الكبسولة تدور لتريه مشهدا غريبا كانت شمسنا حمراء أكبر بمراحل من القمر كما نراه على الأرض، واستطاع النظر إليها على راحته، مدركا أنها ليست أكثر سخونة من قطعة فحم إنها تموت..
تموت؟ لا.. هذه شمس تركت وراءها بهرجة الشباب النارية، وقضت بلايين السنين في عوالم الأزرق والأخضر والقرمزي.. والآن استقرت في مرحلة الهدوء الناضج.. لكن ما مرت به لا يمثل واحدا على الألف مما هو آت.. إن قصة هذه الشمس لم تبدأ بعد
كانت الكبسولة تتحرك بقوى لا يدرى كنهها متجهة إلى هدف لا يعرف ما هو
ورأى ما يبدو كنجم يرتفع إلى السماء، فلما دقق النظر رأى أنه شبكة معدنية.. نسيج عنكبوت معدنى امتلأ بالأجهزة، لقد رأى مثل هذه مرارا لكنه لم يفهم إلا الآن أنه ليس نجما بل سفينة فضاء.. معنى هذا أن هذا المكان هو ساحة انتظار سفن فضاء.
لكنه إذ دقق البصر أكثر فهم أن هذه السفن لا تعمل.. إنها لا تتحرك، ومعدنها مليء بالثقوب التي أحدثتها النيازك.. هذا يعني أن هذا المكان هو ساحة خردة فضائية.
وسقط قلبه في قدميه.. واضح أن من بنوا هذه
الساحة قد ولوا منذ قرون.. لقد سقط في مصيدة فضائية قديمة مازالت تعمل بكفاءة، بينما اختفى صانعوها من الوجود، انزلقت قدمه لتسقط في الشرك ليعبر الكون ويجد نفسه هنا، محكوما عليه

بالهلاك حين ينتهي الأكسجين، لكن لا مبرر لديه للشكوى.. لقد رأي من الأعاجيب ما يضحي أناس كثيرون بحياتهم كى يروه.. كان متجها نحو الشمس الآن
وأدرك أن حياته لن تنتهي هنا، ولكن في تلك الشمس الحمراء التي تتجه لها الكبسولة في ثبات..

٢٧- الجحيم.

الآن لم يعد أمامه إلا الشمس العملاقة.. ترسل ألسنة من اللهب إلى السماء ببطء ليس ببطء لابد أن سرعة هذه الألسنة لا تقل عن ألف ميل في الساعة لم يحاول تصور مقياس هذه الشمس التي ستحرقه..

لقد هزمته ضخامة (المشتري) و(زحل) من قبل لكن كل شيء هنا كان أضخم مائة مرة.. كان يتلقى الصور التي يراها في عقله دون أن يحاول فهمها

كان يجب أن يشعر بالرعب الآن، لكن شيئا ما جعله هنا.. كان يشعر بأن هناك ذكاء غير عادي وغير مرئي يتكفل بحمايته.. إنه اقترب بما يكفي وكان من المفترض الآن أن تحرقه أشعة هذه الشمس المحتضرة، لكن حاجزا غير مرئي يحميه مازال هناك موضع للأمل.

هكذا راح يشق طريقه وسط ألسنة اللهب التي تندفع لأعلى آلاف الأميال.. لكن شيئا لم يحدث له.

هنا يمكن أن توجد المواد الكيماوية.. هنا النار الحقيقية.. يمكن لهذه الأشياء أن توجد لا كشمسنا التي تعيش حالة متواصلة من الانفجارات الهيدروجينية..

لكنه استطاع أن يرى بين النيران أجساما مضيئة تتحرك.. كأنها الخرز.. كانت تتحرك بثقة وكأن لها هدفا.. وتتقارب لكنها لا تصطدم أبدا.. هل هذا وهم، أم أن لهذه الأشياء وجودا عاقلا؟ إنها تعرف أين هي وإلى أين هي ذاهبة.. لكنه لن يعرف أبدا..

☆ ☆ ☆

داخل كبسولته كان شيء ما يحميه من ظواهر كونية يمكن أن تزيله من الوجود في أقل من جزء من ألف من الثانية، وفي الأفق

رأي ضوءا يرتفع، ثم ظهرت شمس قرمزية متوهجة.. راقت له الفكرة الساخرة أنه يرى شروق الشمس من على سطح الشمس.. ثم أدرك أن هذا قزم أبيض.. شمس لا تتجاوز أرضنا في الحجم لكنها تفوقها في الكتلة آلاف المرات

فجأة بدأت الرؤية تهتز.. شعر بأن الظلام يخيم حوله، وأن طبقات من شيء كأنه الزجاج المصنفر تحيط به.. بالفعل بدأت الضوضاء في الخارج تخفت.. ووجد أنه يطير ببطء في ظلام

في النهاية سمع صوت ارتطام ناعم كأنما الكبسولة قد هبطت على سطح ما..

ثم إن الظلام بدأ يزول.. ونظر حوله غير مصدق. وأدرك أنه بالتأكيد قد جن.. كان قد توقع أي شيء.. أية معجزة.. لكن السطح الذي نزلت الكبسولة عليه كان أرضية غرفة فندق.. فندق فاخر يمكن أن يوجد في أي مكان على كوكب الأرض!

كان يرى منضدة طعام حولها دستة من المقاعد ومصباحا ومكتبة ملأى بالمجلات.. ومزهرية بها زهور.. وعلى الجدار كانت لوحة لفان جوخ..

راق له أن جنونه منظم برغم كل شيء.. كل شيء في موضعه ولم يتغير شيء حين أدار ظهره.. الشيء الوحيد المتناقض هنا كان كبسولة الفضاء ذاتها كان يعرف أن هذا وهم.. لكنه كان حقيقيا كأي شيء آخر عرفه على الأرض.. الأرض صلبة.. على الأقل تتحمل ثقل كبسولة الفضاء عليها.. فلن يسقط من خلالها

لم يكن واثقا من طبيعة الهواء هنا.. سنوات الخبرة علمته ألا يثق بأي بيئة لا يعرفها.. لهذا أغلق الخوذة على رأسه وخرج من الكبسولة على قدر ما يعرفه هذا مجال جاذبية عادى تماما..

رفع ذراعه وتركها تسقط

كل شيء لا يصدق.. إنه هنا يلبس بزة فضاء.. يقف خارج مركبة فضاء لا تعمل جيدا إلا مع نقص الجاذبية..
مشى كالنائم فلم يختف شيء كما توقع.. كان هناك هاتف على المنضدة فدنا منه ليقرأ المكتوب عليه (واشنجتون - دى سى).. هنا تنبه إلى أنه لا يمكن أن يكون على الأرض.. كلمة (واشنجتون) مكتوبة بحروف زائغة كأنما هي منقولة من صحيفة.
فتح كتابا يتصفحه فوجد أن كل صفحاته خالية وأنه مصنوع من مادة بيضاء ليست ورقا بالتأكيد الأدراج أيضا في الكومود لم تكن قابلة للفتح.. كانت مزيفة.
إذن هذه خدعة برغم أنها متقنة جدا.. ثم قدر أنها ليست خدعة بل هي - كما تمنى - نوع من تهدئة روعه.. إعادة الألفة إلى نفسه.. لكنه لن ينزع ثيابه حتى يتأكد من أن البيئة غير معادية..
كانت هناك خزانة بها ثياب.. وأدرك حين لمسها أنها مصنوعة من خامة هي أقرب إلى الفراء منها إلى الصوف.. وكان طرازها عتيقا جدا
أما الحمام فكان مجهزا جيدا، وسره أنه لم يكن مزيفا.. والمطبخ كان به موقد كهربى وثلاجة..
راح (باومان) يتفحص هذا ليس بالفضول وحده ولكن من منطلق الجوع..
كانت الثلاجة مليئة بالأطعمة.. لكنه لاحظ أنه لا يوجد بيض ولا جبن ولا لبن.. فقط المعلبات التي كانت البطاقات عليها مهزوزة تصعب قراءتها
قال لنفسه: من الواضح أن هذا اختبار.. هناك من يراقب ردود فعلى.. فلابد أنني فشلت بالفعل.. لا بد أن منظرى سخيف وأنا بهذه البزة.. يجب أن أنزعها بحذر فك الخوذة.. وتشمم الهواء من حوله على قدر علمه هذا هواء طبيعي تماما

بدأ ينزع البزة في سرور.. وعلقها على المشجب في خزانة الثياب.. بدت غريبة هناك، لكن النظام القهري الذي يميز (باومان) ككل رواد الفضاء، جعل من المستحيل عليه أن يلقي بها في أي مكان..
أخرج من الثلاجة علبة من الحبوب.. من البداية أدرك أنها أثقل من أن يكون محتواها حبوبا.. بالفعل كانت تحوي مادة زرقاء أقرب إلى العجين.. وبرغم أنه أدرك أنه لا أحد يريد تسميمه فإنه قضم بحذر، لأنه من الممكن حدوث أخطاء في شيء معقد مثل الكيمياء الحيوية.
كان مذاقها طيبا.. لكن الطعم كان مراوغا لا يمكنك فهمه بسهولة.. لو أغلقت عينك لتخيلت أنه لحم أو خبز أو فاكهة جافة.. ليس له أن يخاف الموت جوعا.. مد يده ليفتح علبة من المياه الغازية، ولدهشته وجد أنها لا تحوي إلا تلك المادة الزرقاء.. بعد ثوان كان قد فتح نصف دستة من العبوات.. واضح أن وجباته هنا لن تكون متنوعة.. على الأقل سيكون هنالك ماء من الصنبور.
كانت أول جرعة مريعة حتى إنه بصقها، ثم فهم الأمر.. ليس هذا لأن مذاق الماء كريه ولكن لأنه بلا مذاق على الإطلاق.. ماء مقطر لا أكثر.. إن هؤلاء القوم لا يريدون المجازفة بصحته استحم وارتدي ثيابا مريحة ثم تمدد في الفراش
يفكر.. هنا رأي جهاز تلفزيون في السقف مثل الفنادق.. افترض أولا أنه دمية مثله مثل الهاتف. ثم قرر أن يجرب.. ضغط زر التشغيل الموجود على الكومود جواره، فأضيئت الشاشة نهض كالمحموم يصغي إلى المذيع الذى لم يبال قط بما يقول.. كان صوتا بشريا وكفى أدار مفتاح اختيار المحطات، وفي الدقائق الخمس التالية رأي لقطات من فيلم (ويسترن)، ونشرة أخبار بالروسية، ولعبة بالصينية وحديثا عن الوضع السياسي.

لقد كان البرنامج مختارا من عدة قنوات.. وقد أعطاه شعورا بالراحة والألفة لكنه أكد له ما توقعه كل البرامج تعود إلى عامين.. هذا هو الوقت الذي تم فيه اكتشاف TMA – 1 على سطح القمر.. لقد كان الجسم الغامض يسجل كل الموجات التي تعبر الفضاء..

لقد كان مشغولا أكثر مما تصور العلماء لكن ما أثار دهشته أنه على إحدى القنوات، رأى ممثلا في مسلسل تلفزيوني يتهم حبيبته بالخيانة، وكان الديكور الذي يتكلمان فيه هو بالضبط هذه الغرفة التي ينام فيها

لقد استخلص الغرباء فكرتهم عن الحياة الأرضية من مسلسلات التلفزيون، وقد كان لدي (باومان) مبرراته كى يشعر من البداية أن هذه الغرفة ديكور تلفزيونى.

ماذا أفعل الآن؟ كان من العسير أن ينام في هذا العالم الغريب، لكن حكمة الجسد التي لا تخطئ غلبته في النهاية.. وأطفأ النور الكهربى وللمرة الأخيرة نام (ديف باومان)..

☆ ☆ ☆

٢٨- إعادة الصياغة..

الآن لم تعد من حاجة إلى غرفة الفندق من حول (باومان).. إلا أن الفراش ظل هناك كان (ديفيد) قلقا في نومه.. لم يصح ولم ينم لكنه لم يكن غائبا عن الوعي.. لقد غزا شيء عقله كأنه الضباب بدا كأنه طاف في الفضاء، بينما امتدت من حوله في كل اتجاه شبكة من الخيوط أو الخطوط.. عليها تتحرك بقع من الضوء.. بعضها ببطء وبعضها بسرعة مذهلة

ثم تلاشت هذه الخطوط إذ عبر (ديفيد) نطاقا من الوعي لم يدخله إنسان من قبل بدا كأن الماضي كله يعود.. غرفة الفندق... الكبسولة.. الجسم الغامض.. ليست المشاهد فقط بل ومذاق ورائحة كل شيء

كان يتكلم مع (هال) ويمزح مع (بول).. كان يعود إلى طفولته.. خبراته وما تعلمه تنتزع منه، لكن لا شيء يضيع كل شيء يوضع في مكان أمين هناك (ديفيد باومان) قد كف عن الوجود، بينما (ديفيد) آخر يحفظ للأبد

وجوه نسيها أو حسب ذلك عادت تضحك له الآن بدأت معدلات التراجع تبطيء، وجفت منابع ذاكرته، وبدأ بندول الزمن يبطئ بالتدريج.. حتى جاءته لحظات توقف وعلى بعد آلاف السنين الضوئية، بين نيران نجم مزدوج، فتح طفل رضيع عينيه.. وبكى..

☆ ☆ ☆

ثم كف عن البكاء حين أدرك أنه ليس وحيدا كان هناك جسم بلورى شفاف مستطيل ينتصب وسط المكان، وظلال غريبة منومة تتحرك داخله ثم راحت الأضواء ترقص داخله في صخب بصرى..

حدق الطفل في أعماق الجسم البلوري بعينين تحويان أكثر من القصد البشري.. يرى لكنه لا يفهم الألغاز الكامنة بالداخل، كان الميلاد أغرب من كل شيء حدث في الماضي..
ثم ذابت الجدران إلى العدم الذي جاءت منه، ومن جديد ظهرت الشمس الحمراء احترقت كبسولة الفضاء وثياب رجل كان يدعو نفسه باسم (ديفيد باومان) على الفور، وتلاشت آخر روابط بالأرض عائدة إلى ذراتها الأصلية.
لكن الطفل لم يلحظ هذا وهو يسبح وسط بيئته الجديدة..
كان مازال بحاجة إلى هذا الغلاف المادي.. إن هذا الجسد غير القابل للتدمير هو فكرته عن شكله.. يعرف أنه مازال طفلا، لذا سينتظر حتى يتخذ شكلا آخر من المادة..
كان يسبح وسط النيران وقربه ذلك الجسم الحجري.. الجسم الذي علمه الكثير من الأسرار إنه يرى أمامه الآن المجرة.. ويعرف أن هناك طرقا عديدة للانتقال خلالها تعلمها من خبرات ثلاثة ملايين عام.. ينظر للفضاء ويفكر في معنى الأبدية التي تقبع أمامه.. ويرتجف.
ثم تذكر أنه لن يكون وحيدا أبدا
استعاد ثقته بنفسه واندفع عبر المجرة.. أشباح شموس انفجرت إذ انزلق عبرها.. الغبار الكونى الذي كان يخشاه صار يضرب وجهه كأنه صفعات جناح غراب على وجه الشمس..
بدأ له درب اللبانة باهتا بالنسبة للمجد الذي عرفه وسوف يعرفه ثانية. لقد عاد إلى حيث أراد.. في الفضاء الذي يعتبره البشر حقيقيا

☆ ☆ ☆

٢٩ - طفل النجوم ..

وأمامه كانت تلك اللعبة اللامعة التي لا يستطيع طفل نجوم مقاومتها.. الأرض بما عليها من بشر.

لقد عاد في الوقت المناسب إلى ذلك الكوكب المزدحم.. لسوف تدق أجراس الإنذار وتمسح أجهزة التلسكوب السماوات، ولسوف ينتهي التاريخ كما عرفه البشر

من تحته رأى حمولة من الموت تتجه نحوه.. ما كانت طاقتها الواهية لتخيفه لكنه كان يريد السماء صافية.. ركز إرادته فانفجرت الحمولة في صمت، جاعلة نصف الكوكب النائم يرى ضوء الفجر

ثم توقف.. إنه الآن سيد الأرض لكنه لا يعرف ماذا يفعل بعد هذا..

لكنه سوف يفكر في شيء ما..

☆ ☆ ☆

أرثر كلارك

يوليو 1968

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس

Notes

[←1]

[←2]

[←3]

روايات عالمية للجيب
48



دكتور جيكل ومستر هايد

تأليف : ر . ل . ستيفنسون
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (48)

دكتور جيكل ومستر هايد

تأليف: ر. ل. ستيفنسون
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هذا هو لقاؤنا الثاني مع (ر. ل. ستيفنسون) كاتب المغامرة البريطاني عظيم الشهرة.. وقد آثرت أن أعيد نشر نفس النبذة السابقة كما هي:

لو أن أحدا حاول أن يذكر قائمة بأفضل عشر قصص مغامرات في تاريخ الأدب، لكان من المحتم أن تتضمن القائمة قصة (جزيرة الكنز) لـ (ر. ل. ستيفنسون). ولسوف يتكرر الأمر ذاته لو اخترنا قائمة من خمس قصص، أو ثلاث قصص، ولو اخترنا قصة واحدة لكان هناك احتمال لا بأس به أن تكون هي (جزيرة الكنز)..

كلنا نعرف أحداث القصة، لكننا لا نعرف شيئا تقريبا عن مبتدعها.

مولود في (إدنبرة) عام 1850.. دارس للقانون معتل الصحة إلى الحد الذي يوحى في كل لحظة بأنه يحتضر الآن... هذا هو (روبرت لويس ستيفنسون) شاعرنا وأديبنا الشهير..

لقد ترك مهنة القانون وتفرغ للأدب، وكان كثير الأسفار.. وفي (كاليفورنيا) قابل من ستكون زوجته، فعاد معها إلى (إسكتلندا) حيث كتب رائعته (جزيرة الكنز) في صيف عام 1881.

ولم يكن قد كتب أفضل رواياته بعد.. ففي عام 1886 قدم لنا رائعته (الحالة الغريبة لدكتور جيكل ومستر هايد)، وهي التي

صارت إحدى كلاسيكيات أدب الرعب وعلم النفس معًا.. وقدمتها السينما مرارا بعد وفاته..

وفي عام 1888 ارتحل إلى (هونولولو).. ثم إلى جزيرة (ساموا) من جزر جبل (طارق) حيث قدم روايتيه الشهيرتين (كاتريونا) و (الاختطاف).. وفي عام 1894 انتصر المرض أخيرا بعد صراع دام أربعة وأربعين عاما، ظل كاتبنا طوالها ينتظر نهايته في كل لحظة.

مات وهو يملى روايته (سيد الأسماك في هرميستون) وكأنما الموت لم يطق صبرا حتى يفرغ من كتابتها.. لقد انتظر طويلا وهو ذا الوقت قد حان..

لكن (ر. ل. ستيفنسون) عاش طويلا جدا في وجداننا، وهو واحد من الموهوبين القلائل الذين لم يعد أدب المغامرة بعدهم كما كان قبلهم..

في النهاية نقول إننا نلتقي اليوم مع تحفته الشهيرة (الحالة الغريبة للدكتور (جيكل) والمستر (هايد)، والتي ترجمت كثيرا جدا، لكنني لاحظت أن كثيرا من شباب القراء عندهم فكرة عامة عن الموضوع لكن الرواية نفسها لم تقع في يد أحدهم أما الترجمات التي رأيتها - أنا على الأقل - فمختصرة أكثر من اللازم أو مضطربة الأسلوب، ولم يسعفني الحظ كي أجدها مترجمة بوساطة من هم في وزن (عمر عبد العزيز أمين) أو (حلمي مراد)، لهذا رأيت أن الجديد الذي أضيفه هنا هو ترجمتها بأسلوب أحاول أن يكون متماسكا.. فهل أنجح في هذا؟ القارئ وحده يستطيع الحكم.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

قائمة بأشهر أعمال (ر. ل. ستيفنسون)..

جزيرة الكنز.

كاتريونا.

الحالة الغريبة لـ د. (جيكل) ومستر (هايد).

الاختطاف.

رحلة داخلية.

دراسات مألوفة للإنسان والكتب.

الليالي العربية الجديدة.

الأمير أوتو..

الرجال السعداء.

في بحر الجنوب.

قصص وحكايات خيالية.

الصلوات.

الأب داميان

عظة مسيحية.

☆ ☆ ☆

قصة الباب

كان المستر (أترسون) المحامي رجلا ذا سحنة مكفهرة، لا تشرق بابتسامة أبدا.. باردا نحيلا قليل الكلام بطيئا في إظهار عواطفه، وبرغم هذا كان لحد ما لطيفا.. وحين كان يجلس مع الأصدقاء ويروق له الشراب، كان شيء بشرى ما يلتمع في عينيه.. شيء لم يجد طريقه قط إلى كلامه. شيء لا يظهر فقط على وجهه الراضي بعد العشاء، لكن يظهر أكثر في أفعال حياته.

كان صارما مع نفسه في كل شيء.. وكان يحب المسرح لكنه لم يدخل مسرحا منذ عشرين عاما. إلا أنه كان يملك القدرة على تحمل الآخرين، وكان يميل إلى أن يعاون البشر الذين ورطتهم الآثام.

اعتاد أن يقول:

- أنا أميل إلى أسلوب (قابيل).. أترك أخي يلقى مصيره بطريقته..

وبهذه الصفة كان من أقل الناس شهرة وأقلهم تأثيرا في حيوات العامة. ولم يكن على استعداد لتغيير ولو طفيف في طريقته هذه..

لا جدال في أن النجاح كان سهلا بالنسبة للمستر (أترسون)، لأنه لم يكن من النوع الذي يظهر عواطفه، وحتى أصحابه كانوا يتمتعون مثله بتلك الطباع البسيطة.. إن من سمات الرجل المتواضع أن يقبل أصدقاءه كما شكّلهم له القدر، وكان المحامي من هذا الطراز. كان رفاقه من أقاربه أو الذين عرفهم لفترة

طويلة.. وكانت عواطفه نحوهم كاللبلاب هي نتيجة لمرور الزمن وليس لجدارتهم بها.. على هذا المنوال - بلا شك - كانت الصداقة التي ربطته بمستر (رتشارد إينفيلد) قريبه البعيد، عظيم الشهرة في البلدة.. وكان اللغز الذي تمنى كثيرون حله، معرفة ما الذي وجده هذان الرجلان في بعضهما، وما هي المواضيع المشتركة بينهما. قال الذين قابلوهما في نزهات يوم الأحد إنهما لا يتكلمان في أي موضوع، ويرحبان براحة ظاهرة لدي ظهور صديق ثالث. وبرغم هذا فإن الرجلين كانا يعلقان أهمية بالغة على هذه النزهات، ويعتبرانها جوهرة الأسبوع، بل وكانا يرجئان استدعاءات العمل كي لا يقاطعهما أحد.

ذات مرة قادتهما واحدة من هذه الجولات إلى شارع جانبي في الركن المزدحم من (لندن). كان الشارع صغيرا ومما يمكن أن تعتبره هادئا.. لكنه كان مركزا للتجارة المزدهرة طيلة أيام الأسبوع.. وكان سكان هذا المكان يكسبون جيدا ويأملون في أن يحققوا أكثر، وكانت واجهات المحلات تبدو كأنما تدعوك إليها، كأنما هي صف من البائعات المبتسمات. حتى في يوم الأحد برغم أن الشوارع كانت تداري سحرها وقد خلت من المارة، فإنها كانت تتألق كأنها نار في الغابة على النقيض من البيوت الكئيبة المجاورة.

كان هناك بابان في ركن المكان ومدخل ساحة وعند هذه النقطة بالذات يوجد مدخل مجموعة من المباني كئيبة المنظر. كان ارتفاع المبنى طابقين وبلا نوافذ، ولا شيء إلا بابا في الطابق السفلى، والمكان كله يحمل علامات الإهمال والقذارة التي طالت. لم يكن على الباب الذي امتلأ بالخدوش جرس ولا مقرعة. وكان مأوى للمتسكعين الذين أشعلوا أعواد ثقابهم على

ألواحه، وأطفال المدارس جربوا مُداهم على جدرانه، ولمدة تربو على الجيل لم يبد أن هناك من حاول طرد هؤلاء الزوار العشوائيين أو إصلاح ما خربوه.

كان مستر (إينفيلد) والمحامي يقفان على الجهة الأخرى من الشارع الجانبي، ولكن حين صارا في مواجهة المدخل رفع الأول عصاه وأشار وقال:

- هل لاحظت هذا الباب من قبل؟

فلما رد مرافقه بالإيجاب، قال له:

- لقد ارتبط في ذهني بقصة عجيبة للغاية.

سأله مستر (أترسون) وقد تغير صوته:

- أحقا؟ ما كان هذا؟

- كان نفس الطريق.. كنت عائدا لداري من موضع في نهاية العالم حوالي الثالثة من صباح يوم شتوي مكفهر.. واقتادتني خطواتي إلى موضع من المدينة لم تكن ترى فيه حرفيا إلا المصابيح. شارع تلو شارع والقوم نيام. شارع تلو شارع كلها مضاءة كأنما هو احتفال.. وكلها خالية كأنما هي كنيسة. في النهاية صرت كإنسان ينصت وينصت ويتحرق شوقا لرؤية رجل شرطة. فجأة رأيت شخصين.. الأول كان شابا يتجه شرقا بخطى واسعة، والآخر كان طفلة في الثامنة أو التاسعة تعبر الشارع بأسرع ما تستطيع. حسن يا سيدي.. لقد اندفع كلاهما نحو الآخر دون ترتيب عند المنعطف، وهنا حدث الشيء المريع..

لقد داس الرجل بهدوء شديد على جسد الطفلة وتركها على الأرض.. لم يكن هناك ما تسمعه، لكن المشهد كان جهنميا.



لقد داس الرجل بهدوء شديد على جسد الطفلة وتركها على الأرض ..

لم يبد لي كرجل وإنما بدا طاغوتا مقيتا. ركضت مسرعا، أمسكت هذا السيد من ياقته وعدت به إلى حيث كان هناك حشد من الناس حول الطفلة الصارخة. كان هادئا ولم يبد أية مقاومة.. لكنه نظر لي نظرة كريهة جعلتني أتفصد بالعرق. كان الناس الذين احتشدوا هم أسرة الفتاة.. ثم سرعان ما ظهر الصيدلي الذي كانوا أرسلوها له. حسن لم تكن الطفلة في حال سيئة.. بل كانت أقرب إلى الخوف كما قال الطبيب، وهكذا يمكنك أن تتوقع أن القصة انتهت.

لكن حدث شيء غريب.. لقد شعرت بالمقت لذلك السيد من النظرة الأولى، وكذا أسرة الفتاة التي كانت أسرة عادية. لكن موقف الصيدلي كان عجيبا.

كان صيدليا من الطراز المعتاد لا يميزه سن ولا لون معين. يتحدث بلكنة (إدنبره) مميزة قوية، ومليء بالعواطف كموسيقا القِرَب ذاتها. وكان ينظر مثلنا إلى سجيننا.. فكنت ترى أن الغثيان والشحوب يغلبانه، وكأنما يريد قتله حالا. عرفت ما كان يفكر فيه وعرف ما كنت أفكر فيه.. وبالطبع لم يكن القتل مطروحا لهذا اخترنا الحل الأفضل التالي.. قلنا للرجل إن بوسعنا وفى نيتنا أن نصنع فضيحة من هذا الذي حدث، ولسوف يقترن اسمه بالعار من أدنى (لندن) إلى أقصاها. لو كان له أصدقاء ذوو شأن فلسوف نعمل على أن يفقدهم.. وطيلة كلامنا المحتدم معه كنا نبقى النساء بعيدا عنه لأنهن كنّ غاضبات كالوحوش. لم أر قط دائرة تتكون من كل هذه الوجوه الكارهة.. وفي المنتصف يقف الرجل في برود شرير ساخر. خائف نعم.. يمكن أن أقول هذا، لكنه يتجاهلنا كأنه الشيطان ذاته.

قال الرجل:

- لو أردتم أن تقيموا دعوى بسبب هذا الحادث فلا حيلة لي.. ما من سيد مهذب يتمنى فضيحة.. قولوا الرقم الذي تريدون.

حسن.. لقد طلبنا منه مائة جنيه لأسرة الفتاة، وكان يتمنى أن يتملص لكن كان الشر باديا علينا، من ثم رضخ للأمر.. وإلى أين تحسبه ذهب بنا كي يجلب المال، إن لم يكن إلى هذا المكان ذي الباب؟

أخرج مفتاحا، ودخل.. ثم عاد لنا بعشرة جنيهات ذهبية وشيك لحامله موجه إلى مصرف (كوتس)، ووقع الشيك باسم لا أستطيع ذكره.. برغم أنه من صميم القصة، لكنه كان اسما معروفا جيدا، وكثيرا ما تراه مطبوعا. كان التوقيع واضحا فقط لو كان أصيلا، وقد سمحت لنفسي بأن أقول لمن حولي إن الموضوع كله مثير للشكوك.. فالرجل لا يدخل بيتا في الرابعة صباحا ويعود بشيك مصرفي عليه توقيع رجل آخر، وبقيمة مائة جنيه. لكن الرجل كان أقرب إلى الهدوء والسخرية، وقال لنا:

- لا تقلقوا.. سأبقى معكم حتى تفتح المصارف وأصرف الشيك بنفسي..

وهكذا اتجهنا جميعا إلى شقتي وأمضينا باقي الليل هناك، وفي الصباح اتجهنا مجموعة واحدة إلى المصرف. قدمت الشيك بنفسي وقلت للصراف إن لدى كل ما يدعوني للشك في أن التوقيع مزيف. لكنهم وجدوا أن الشيك صحيح تماما.

قال مستر (أترسون):

- توت توت توت!

قال مستر (إينفيلد):

- نعم.. أرى أنك تشعر بما أشعر به.. هي قصة سيئة.. لأن هذا الرجل كان من طراز لا تستطيع التعامل معه.. رجل ملعون فعلا.. بينما الشخص صاحب الشيك رجل شديد اللياقة عظيم الأهمية.. وما يجعل الأمر أسوأ أنه واحد من رفاقك الذين يعملون الخير.. ابتزاز على ما أحسب.. رجل شريف يدفع ماله لأحد الأشقياء الذين عرفهم في شبابه. ونتيجة لهذا أُطلق على ذلك البيت اسم (بيت الابتزاز). برغم أن هذا لا يفسر كل شيء كما تعلم..

هنا سأله مستر (أترسون) بغتة:

- ولا تعرف إن كان من سحب الشيك من حسابه يعيش هناك؟

أجاب مستر (إينفيلد):

- مكان مناسب.. أليس كذلك؟ لكني لاحظت عنوانه.. إنه يعيش في مربع سكني آخر.

- ولم تسأل قط عن المكان ذي الباب؟

- لا يا سيدي.. إن لي ميلا معينا هو أنني أشعر بعدم راحة نحو توجيه الأسئلة.. ثمة شيء مشترك بين توجيه الأسئلة ويوم الحساب.. وحين توجه سؤالا تشعر بأنك رميت حجرا.. تجلس على الجبل وترقب الحجر وهو يتدحرج لأسفل محركا أحجارا أخرى.. وفي النهاية تهوى الضربة على رأس طائر لطيف (آخر

من تفكر فيه) بينما هو في حديقته الخلفية، وعندها تضطر الأسرة إلى تغيير اسمها..

لا يا سيدي.. هذه قاعدة بالنسبة لي.. كلما بدا الأمر غريبا كلما أحسنت صنعا بعدم التساؤل.

قال المحامي:

- قاعدة طيبة جدا..

استطرد مستر (إينفيلد):

- لكني درست المكان بنفسي.. بدا بصعوبة منزلا.. لا يوجد باب آخر وما من أحد يدخل أو يخرج من هذا ما عدا السيد الذي حكيت قصتي عنه.. هناك ثلاثة نوافذ تطل على الساحة في الطابق الأول.. النوافذ مغلقة دوما لكنها نظيفة غالبا. وهناك مدخنة ينبعث منها الدخان، فلابد أن هناك من يعيش به.. وبرغم هذا ليس الأمر مؤكدا لأن المباني متلاصقة متلاحمة بحيث لا تستطيع أن تعرف متى يبدأ واحد وينتهي الأخر..

ومشى الاثنان لمدة في صمت، ثم قال مستر (أترسون):

- (إنفيلد).. إن قاعدتك تلك طيبة..

أجاب (إنفيلد):

- نعم.. أعتقد هذا.

- ولكن برغم هذا، هناك ما أريد معرفته.. أريد أن أسأل عن اسم الرجل الذي داس الطفلة..

- حسن.. لا أرى أي أذى قد ينجم عن هذا.. كان رجلا يحمل اسم (هايد)..

- هم م م! وأي نوع من الرجال هو؟

- ليس من السهل وصفه.. شيء ما مقبض.. شيء كريه.. لم أر قط رجلا كرهته إلى هذا الحد، وبرغم هذا لا أعرف السبب.. لابد أنه مشوه بشكل ما.. إنه يعطي انطباعا بالتشوه، برغم أنني لا أعرف كيف.. لا يا سيدي.. إنني لا أستطيع وصفه. ليس الأمر بسبب ضعف الذاكرة لأنني أراه في هذه اللحظة أمام عيني..

مشي مستر (أترسون) من جديد صامتا ومن الواضح أنه كان يقيم الأمور:

- متأكد من أنه كان يحمل مفتاحا؟ أعرف أن الأمر غريب.. والحقيقة هي أن سبب عدم سؤالي عن اسم الشخص الآخر هو أنني أعرفه فعلا.. لو كان في قصتك عدم دقة فمن الخير أن تصححها الآن..

قال الآخر في ضيق:

- كان يجب أن تحذرني.. لكنني كنت دقيقا إلى درجة التحذلق لو شئت أن تعتبر الأمر كذلك.. إن الرجل كان معه مفتاح وأكثر من ذلك.. ما زال المفتاح معه.. رأيته معه منذ أسبوع..

تنهد مستر (أترسون) في عمق، ولم يقل شيئا، فقال الشاب:

- هذا درس آخر يُعلّم المرء ألا يقول شيئا.. إنني خجول من طول لساني، فدعنا نتفق على ألا نرجع لهذا الموضوع ثانية..

قال المحامي:

- من كل قلبي.. وإنني لأصافحك واعدا بذلك يا (ريتشارد)..

البحث عن مستر(هايد)..

في هذه الليلة عاد مستر (أترسون) إلى بيته العزابي ومعنوياته منخفضة.. جلس يتناول العشاء دون شهية حقيقية. كان من عاداته يوم الأحد أن يجلس بعد الطعام جوار النار ويعكف على بعض الدراسات الدينية، حتى يدق جرس الكنيسة المجاورة عند منتصف الثانية عشرة، عندها يذهب قانعا هادئا إلى الفراش. إلا أنه في هذه الليلة دخل لغرفة العمل، وهناك فتح الخزانة، وأخذ من أكثر أجزائها خصوصية مظروفا موقعا عليه باسم (وصية د. جيكل).

وجلس مكفهر المزاج ليدرس محتواها.

كانت الوصية بخط اليد لأن مستر (أترسون) - برغم أنه كان مسئولا عنها - رفض أن يعطي أية مساعدة في كتابتها. كانت توصي بأنه في حالة وفاة (هنري جيكل). تنتقل كل أملاكه إلى صديقه والمستفيد من وصيته (إدوارد هايد)، لكن هذا في حالة اختفاء د. (جيكل) غير المبرر لفترة أكثر من ثلاثة أشهر قمرية.

على المدعو (هايد) وقتها أن يحل محل المدعو (جيكل) دون تأخير، ومن دون دفع أية أعباء أكثر من دفع مبالغ بسيطة لإدارة منزل د. (جيكل).

ظلت هذه الوصية قذى في عين المحامي لفترة طويلة. كانت تثير نفوره كمحام وكمحب للنواحي المألوفة والعقلانية في الحياة. وكان جهله بـ (هايد) مما زاد من مقته للموضوع. الآن فجأة صار يعرف..

قال وهو وضع الأوراق البغيضة في الخزانة:

- حسبت أن هذا جنون.. والآن بدأت أخشى أن يكون عارا..

وإذ أنهى هذا ارتدى معطفا واسعا، وانطلق قاصدا ميدان (كافنديش).. قلعة الطب حيث يستقبل صديقه د. (لانيون) مرضاه في داره. وكان قد فكر:

- لو كان هناك شخص يعلم، فهو (لانيون)..

رحب به رئيس الخدم الوقور فقد كان يعرفه.

اقتاده على الفور إلى قاعة الطعام حيث يجلس د. (لانيون) وحيدا مع شرابه. كان رجلا ودوا متأنقا بصحة جيدة. ابيض شعره قبل الأوان، وله طباع صاخبة محددة. حين رأي مستر (أترسون) وثب من مقعده ورحب به بكلتا يديه. كان لطفه يبدو إلى حد ما مسرحيا لكنه ينبع عن عاطفة أصيلة.

كانا صديقين منذ أيام المدرسة. كلاهما يحترم نفسه والأخر، والأهم أنهما كانا رجلين ينعم كل منهما بصحبة زميله.

بعد كلام عام، تطرق المحامي إلى الموضوع الذي احتل تفكيره بشكل مزعج.

- اعتقد يا (لانيون) أنني وأنت أقدم صديقين لدى (هنري جيكل)؟

ضحك د. (لانيون):

- أتمنى لو كنا أصغر سنا، لكن أحسبنا كذلك.. وما في ذلك؟ لا أراه إلا فيما ندر الآن..

قال مستر (أترسون):

- حقا؟ حسبت بينكما ربطة اهتمام مشترك..

كانت الإجابة:

- كنا.. لكن كان هذا منذ عشرة أعوام، حتى بدأ (جيكل) يضطرب عقليا.. وبرغم أنني مازلت مهتما به من أجل خاطر الصداقة، فإنني رأيت منه من الهراء غير العلمي، ما كان يكفي للتفريق بين (دامون) و(بيتياس) [1].

شعر مستر (أترسون) ببعض الراحة لهذه الغضبة.. وقال لنفسه: مجرد خلاف علمي لا يعني أن الأمر خطير.. بعد قليل وجه السؤال الذي جاء من أجله:

- هل قابلت قط أحد المستفيدين منه ويدعى (هايد)؟

كرر (لانيون) الاسم:

- (هايد)؟ لم أسمع عنه قط..

كان هذا هو قدر المعلومات الذي حملة المحامي معه إلى فراشه الضخم الذي ظل يتقلب عليه حتى بدأت ساعات النهار الصغرى تنمو. كانت ليلة بلا راحة لعقله المنهك الذي تحاصره الأسئلة.

في السادسة صباحا دقت أجراس الكنيسة قرب مسكن مستر (أترسون).. وكان مازال يفكر في المشكلة. حتى هذه اللحظة كانت المشكلة تحير جانبه الفكري أما الآن فقد راح خياله يعمل بدوره.

إذ راح يتقلب في الظلمة جوار النافذة التي تغطيها الستائر، راحت قصة مستر (إنفيلد) تتردد في ذهنه في حشد من الصور.

كان يرى الأضواء في مدينة مظلمة ثم يرى شخصا يمشي بخفة.. ثم طفلة تركض نحو بيت الطبيب. يلتقي الاثنان فإذا بالإعصار البشري يضرب الطفلة ومضى غير مبال بصراخها لكن الرجل كان بلا وجه.. أو له وجه ما تكاد تتأمله حتى يذوب ويراوغك.. لهذا راح ينمو في نفسه شغف شديد إلى أن يرى ويستوعب وجه ذلك المستر (هايد).

كان يعتقد أنه لو ثبت عينيه عليه لتلاشي الغموض كعادة الأشياء الغامضة حين تتفحصها بعناية. سيفهم سر خضوع صاحبه أو عبوديته وسر غرابة الوصية على الأقل سيكون هذا وجها جديرا بالرؤية. وجها جديرا بالمقت.

منذ هذا اليوم اعتاد مستر (أترسون) أن يتصيد النظرات إلى ذلك الباب في الشارع الجانبي. في الصباح قبل ساعات العمل، وعند الظهيرة حين يكثر العمل، وفي المساء في ضوء قمر المدينة الضبابي. في كل الأضواء وكل ساعات العزلة أو الزحام.

وقال لنفسه:

- لو كان هو مستر (هايد) فأنا مستر (سيك) [2]!

في النهاية تلقى الجزاء على صبره. كانت ليلة حسنة الطقس بلا أمطار، والشوارع نظيفة كأرض مَرقَص، والأضواء التي لا تهتز تلقي ضوءا ثابتا.

في العاشرة حين أُغلقت المتاجر، صارت الشوارع الجانبية مقفرة، وساد الصمت ماعدا أصوات المنازل الخافتة وصارت

أنباء وصول أي قادم تسبقه بوقت طويل.

شعر مستر (أترسون) بخطوات خفيفة تدنو. وكان قد اعتاد في جولاته الليلية ذلك التأثير الذي تتعالى فيه خطوات شخص ما زال بعيدا، واضحة مميزة عن ضوضاء المدينة. لكن لم يثر شيء انتباهه من قبل بهذه الحدة، ودفعه شعور خفي بالنجاح إلى أن يتوارى في الفسحة.

دنت الخطوات، وتعالت إذ اقتربت من نهاية الشارع. واستطاع المحامي من مكمنه أن يعرف نوع الرجل الذي سيتعامل معه.

كان صغير الحجم بسيط الثياب. وكان منظره منفرا حتى على هذه المسافة. لكنه تقدم مباشرة إلى الباب وهو يخرج مفتاحا من جيبه كأنه شخص يدنو من داره الخاصة.

خرج مستر (أترسون) من مكمنه ولمس كتفه وقال:

- مستر (هايد) على ما أظن؟

تراجع مستر (هايد) منكمشا وأطلق شهيقا عاليا، لكن ذعره كان وقتيا، وبرغم أنه لم ينظر للمحامي في عينه فإنه أجاب ببرود:

- هذا اسمي.. ماذا تريد؟

- أرى أنك داخل.. أنا صديق قديم للدكتور (جيكل).. مستر (أترسون) من شارع (جونت).. وخطر لي أنك ربما تتعرفني.

- لن نجد الدكتور (جيكل).. فهو ليس بالدار..

ثم فجأة ودون أن ينظر سأل: - كيف عرفتني؟

قال مستر (أترسون):

- من جهتك.. هلا قدمت لي خدمة؟

- بكل سرور.. ما هي؟

- هلا سمحت لي برؤية وجهك؟

بدا التردد على مستر (هايد)، ثم فجأة رفع رأسه بنوع من التحدي ولثوان تبادل الاثنان النظرات لثوان.

قال مستر (أترسون):

- الآن سأعرفك لو قابلتك ثانية.. قد يكون هذا ذا نفع..

قال مستر (هايد):

- ربما أفادك كذلك أن تعرف عنواني..

وأعطاه عنوانا في حي (سوهو).

فكر مستر (أترسون):

- يا إلهي الرحيم! أتراه هو الآخر يفكر في الوصية؟

لكنه أبقى أفكاره لنفسه وغمغم في امتنان للعنوان.

- والآن.. كيف عرفتني؟

فكانت الإجابة:

- عن طريق أوصافك..

- ومن وصفني؟

- إن لنا أصدقاء مشتركين.

- أصدقاء مشتركين؟ ومن هم؟

قال المحامي:

- (جيكل) على سبيل المثال.

صاح (هايد) في غضب:

- لم يقل لك شيئا قط.. ما كنت أحسبك خليقا بالكذب..

قال مستر (أترسون):

- هلم.. هذه ليست باللغة المناسبة.

انفجر الآخر في ضحكة وحشية، وفي اللحظة التالية كان قد فتح الباب وتوارى داخل المنزل.

وقف المحامي برهة بعدما فارقه مستر (هايد) شاعرا بعدم الراحة. ومضى يمشي في الشارع واضعا يده على حاجبه من حين لآخر كأنه رجل في حيرة عقلية شديدة. كانت المشكلة التي يواجهها من الطراز الذي لا يحل إلا فيما ندر..

كان مستر (هايد) قصير القامة شاحبا، ويعطى انطباعا بالتشوه دون تشوه حقيقي يمكن تبينه. وتعامل مع المحامي بمزيج من الجبن والجرأة.. وكان صوته مبحوحا مهشما.. كلها كانت صفات ضده.. لكنها لا تبرر كل الكراهية والاشمئزاز والخوف التي شعر بها مستر (أترسون) تجاهه.

- فليرحمني الله.. لم يبد لي الرجل آدميا.. بدا لي شيء بدائي فيه.. أم هو إشعاع الروح التي تعكس محتواها الكريه؟ فليرحمني

الله يا عزيزي (جيكل) المسكين.. فإنه لو كان بوسعي أن أقرأ توقيع الشيطان على وجه، فإن أوضح توقيع هو هذا المرتسم على وجه صديقك الجديد..

عند ركن الشارع الجانبي، كان مربع من البيوت العتيقة أكثرها خال من السكان، لكن أحدها وهو الثاني عند الناصية كان مسكونا بالكامل، وعلى بابه الذي بدا عليه الثراء والترف، توقف مستر (أترسون) ودق. وظهر خادم عجوز.

سأله المحامي:

- هل دكتور (جيكل) هنا يا (بول)؟

- سأرى يا مستر (أترسون).

وسمح للضيف بالدخول إلى قاعة واسعة مريحة خفيضة السقف. بها مدفأة كعادة بيوت الريف. كانت القاعة التي ينتظر فيها مفضلة لدى صديقه الطبيب، وحتى (أترسون) كان يهوى الكلام عنها كأكثر الغرف بهجة في (لندن). لكن الليلة كانت هناك رعدة في دمه.. إن مرأى (هايد) كان يثقل على روحه. شعر بغثيان ومقت للحياة، وفي كآبته شعر بالتوجس من الظلال المتراقصة بفعل النار.

شعر بخزي من نفسه حين عاد (بول) ليخبره أن د. (جيكل) قد رحل.

- يبدو لي أن سيدك يحمل ثقة بالغة تجاه ذلك المدعو (هايد)..

قال (بول):

- نعم يا سيدي.. حقا.. لدينا أوامر جميعا بأن نطيعه..

سأله مستر (أترسون):

- لا أعتقد أنني قابلت مستر (هايد) من قبل.

أجاب الخادم:

- أوه.. لا يا سيدي.. هو لا يتناول الطعام هنا أبدا.. حقا نكاد لا نراه في هذا الجزء من المنزل.. إنه يخرج ويدخل من المختبر..

- حسن. عمت مساء يا (بول)..

وعاد المحامي لداره بقلب مثقل.. وفكر:

- (هنري جيكل) المسكين.. عقلي يخبرني أنه غارق في مياه عميقة.. كان متهورا في شبابه لكن في القانون الإلهي قد لا تفر بآثامك للأبد.. لابد أن الأمر كذلك.. شبح خطيئة قديمة.. سرطان عار أخفاه: لكن العقاب قادم.. بعد أعوام نسيت فيها الذاكرة وتغاضى حب الذات عن الخطأ..

وراح يفتش في خوف في ماضيه عن أمور مماثلة.. عن عفريت علبة قد يثب منها الآن.. لكن صباه كان خاليا من الأخطاء.. قليلون من الناس من يستطيعون تأمل صباهم بهذه الجسارة.. وبرغم هذا كانت هناك مرات هوى فيها إلى الحضيض.. ومرات ارتفع فيها إلى السمو نتيجة الآثام التي دنا منها وتحاشاها..

هنا عاوده بعض الأمل:

- هذا المدعو (هايد).. لو درسنا ماضيه لوجدنا خطايا وأسرارا سوداء.. أسرارا لو قورنت بأسوأ ما قارفه المسكين (جيكل)، لكانت كضوء الشمس. الأمور لا يمكن أن تستمر هكذا.. أشعر بالرعب حين أتخيل هذا المخلوق يتسلل كلص إلى غرفة نوم (جيكل).. يا له من منظر تراه عند الاستيقاظ! والخطر في هذا! لو أن (هايد) عرف بوصية (جيكل) فلن يطيق صبرا على الميراث. فقط لو أن (جيكل) يتركني أفعل..

وأمام عينيه رأي بوضوح شفاف بنود الوصية الغريبة.

☆ ☆ ☆

د. جيكل كان مطمئنا..

بعد أسبوعين، وبحظ حسن بالفعل، دعا الطبيب إلى العشاء خمسة أو ستة من أصدقائه القدامى. كلهم أذكياء حسنو السمعة، وقد افتعل مستر (أترسون) أن يبقى بعدما رحل الآخرون. لم يكن هذا ترتيبا جديدا بل شيئا خطط له مرارا من قبل. وقد جلس د. (جيكل) أمام النار.. وهو رجل ضخم متين البنيان، له وجه أملس في الخمسين من عمره، عليه مسحة ماكرة نوعا لكن عليه كذلك كل أمارات الرقة والكفاءة. وكان بوسعك أن ترى من نظراته أنه يحمل مودة مخلصة دافئة للمستر (أترسون).

قال مستر (أترسون):

- أردت أن أتكلم معك يا (جيكل).. هل تعرف وصيتك تلك؟

كان بوسع مراقب حذر أن يرى أن الموضوع غير سار لكن الطبيب تناوله ببساطة:

- وا عزيزي (أترسون).. أنت تعس الحظ بعميل كهذا، وأنا لم أر قط شخصا أكثر انزعاجا بسبب وصيتي تلك.. ما لم يكن مدعي العلم المدعو (لانيون) هذا بما يقوله عن هرطقتي العلمية.. أعرف أنه رجل طيب فلا تقطب.. شخص ممتاز أتمنى أن أراه دوما.. لكنه مدعي علم ضيق الأفق برغم هذا..

- على كل حال أنا أكرر.. لقد كنت أدرس ماضي (هايد)..

شحب وجه الطبيب وبدا السواد في عينيه وقال:

- لا أبغى سماع المزيد.. حسبت أن هذا موضوع اتفقنا على تجاهله..

- ما سمعته كان كريها..

- لن يحدث تغييرا.. أنت لا تفهم وضعي.. أنا في وضع أليم يا (أترسون). وهو من الأوضاع التي لا يمكن إصلاحها بالكلام..

قال (أترسون):

- (جيكل).. أنت تعرفني وتعرف أنك تستطيع الثقة بي.. ولا تشك في أن بوسعي إخراجك مما أنت فيه..

- أعرف هذا يا صاحبي.. وثق أنني لو احتجت إلى إنسان فأنت أول من أفكر فيه على وجه الأرض.. لكني أريد الآن أن تترك عقلك يستريح.

فكر (أترسون) قليلا وهو يرمق النار. في النهاية قال وهو ينهض:

- لا أشك في أنك مصيب..

- ثمة نقطة أخيرة مهمة.. الرجل يهمني جدا.. أعرف أنك قابلته وأنه كان فظا معك.. هو قال لي ذلك.. لكني بالفعل مهتم.. مهتم للغاية بهذا الشاب.. ولو اختفيت يا (أترسون) فإنني أرجو أن تعدني بأن تتولى أمره وتعطيه حقه كاملا.. ولسوف أزيح عبئا عن كاهلي لو أنك وعدتني..

قال المحامي:

- لا أستطيع التظاهر بأنني سأحبه يوما ما..

- لم أطلب هذا.. فقط طلبت العدل.. طلبت أن تجلب له حقوقه حين لا أعود أنا هنا.

أطلق (أترسون) تنهيدة وقال:

- حسن.. أعدك..

☆ ☆ ☆

قضية مقتل (كارو)..

بعد عام تقريبا في 18 أكتوبر، اهتزت (لندن) لجريمة قتل وحشية، بالإضافة لمنصب القتيل المهم.

كانت التفاصيل قليلة وغريبة. كانت هناك خادمة تعيش وحدها في منزل لا يبعد عن النهر، قد صعدت لفراشها في الحادية عشرة مساء. وبرغم أن الضباب لف المدينة في ساعات الفجر الأولى، فإن بداية الليل كانت بلا غيوم وكان الزقاق الذي تطل عليه نافذة الخادمة يضيئه القمر جيدا.

يبدو أنها شعرت بنزعة رومانسية لأنها جلست على صندوق تحت النافذة وغرقت في أحلام شاعرية. وتقول إنها لم تشعر قط بكل هذا السلام مع العالم والرجال. لكنها رأت رجلا متقدما في العمر وسيما، أشيب الشعر يدنو من الزقاق. ومن الجهة الأخرى اتجه نحوه سيد آخر ضئيل الحجم جدا.. ثم تقارب الرجلان للكلام (تحت عينيها بالضبط) فانحنى الأشيب وحيا الآخر بطريقة غاية في التهذيب. وإن كان من الواضح أن من أدى له هذه التحية لم يكن ذا أهمية.

أثار دهشتها أن تدرك أن الآخر كان من يدعي مستر (هايد) وهو رجل زار سيدها من قبل، وكانت تحمل تجاهه نفورا معينا. كان يحمل في يده عصا..

وبدا أنه لا يتكلم على الإطلاق.. بدا كأنما يسمع بنفاد صبر..

وفجأة انفجر في غضب ملتهب.. وراح يضرب الأرض بقدمه.. كأنه مجنون.

تراجع السيد إلى الوراء وقد دهش.. هنا فقد (هايد) كل تحكم في ذاته، وهوى على الرجل بعصاه ليسقط أرضا.. ثم في اللحظة التالية - وبجنون كجنون قرد - راح يدوس ضحيته بقدميه وتحت وابل من الضربات حتى لتسمع بوضوح صوت تهشم العظام.



وهوى على الرجل بعصاه ليسقط أرضًا .. ثم فى اللحظة التالية - وبجنون كجنون قرد - راح يدوس ضحيته بقدميه ..

وعند رؤيتها هذا المشهد الشنيع غابت الخادمة عن الوعي.

حين عادت لوعيها كانت الثانية بعد منتصف الليل، فطلبت الشرطة. وكان القاتل قد رحل من زمن، لكن ضحيته كانت في

وسط الزقاق مشوهة بعنف. وكانت العصا التي تم بها القتل مهشمة من المنتصف برغم أنها من نوع نادر صلب، وقد بقي أحد النصفين في الميزاب. كانت على جثة الضحية حافظة وساعة ذهبية، لكن لا أوراق إلا من مغلف مغلق وعليه طابع، كان يحمل اسم المستر (أترسون).

حمل هذا الخطاب إلى الرجل حين غادر فراشه في الصباح، فلم يكد يسمع التفاصيل حتى قال:

- لن أقول شيئا إلى أن أرى الجثة.. هذا الأمر خطر جدا فأرجو أن تنتظروا حتى أبدل ثيابي.

وبنفس الوجه الجاد التهم إفطاره متعجلا ثم هرع إلى قسم الشرطة حيث حملوا الجسد.

قال وهو يهز رأسه:

- نعم.. أعرفه.. يؤسفني أن أقول إن هذا سير (دانفرز كارو)..

صاح الضابط متعجبا:

- يا إلهي الرحيم! هل هذا ممكن؟

وفي اللحظة التالية بدا الفضول المهني في عينيه.

- لسوف يحدث هذا ضجة.. لكن ربما كان بوسعك أن ترشدنا إلى الرجل..

كان مستر (أترسون) متخوفا من ذكر اسم (هايد)، لكنه ما إن رأي نصف العصا لم يستطع أن يشك أكثر. لأنه أهدى بنفسه

هذه العصا منذ أعوام إلى الدكتور (جيكل).

- لو أتيتم معي في عربتي، فأعتقد أن بوسعي أن آخذكم إلى بيته..

كانت التاسعة صباحا وقد بدأ الضباب يغمر الشوارع.. وكانت مصابيح حي (سوهو) مضاءة وهاجة.. تبعث في نفس المحامي أنه يرى شوارع مدينة عجيبة في كابوس.

كانت أفكاره في أشد حالات الكآبة، ونظر إلى مرافقه فشعر بالخوف من القانون والشرطة، أولئك الذين يمكن أن يهاجموا أكثر الناس شرفا..

دنت العربة من العنوان فارتفع الضباب كاشفا عن مطعم.. ومتجر للبيع بالتجزئة.. وأطفال مشعثين مغبرين.. ثم هبط الضباب من جديد بنيًّا كالعنبر يعزله عما يحيط به من حقارة. كان هذا هو منزل صديق (هنري جيكل) المفضل. لرجل سيرث ربع مليون جنيه إسترليني.

فتحت لهم الباب عجوز وجهها بلون العاج، وشعرها فضي. وكانت لها نظرة شريرة دارتها بنوع من النفاق، وإن كانت مهذبة للغاية. وقالت لهم إن هذا مسكن مستر (هايد) لكنه ليس في الدار. لقد انصرف منذ ساعة ولا غرابة في هذا لأن عاداته غير منتظمة، وعلى سبيل المثال لقد مر شهران لم تره فيهما إلا ليلة أمس.

قال لها المحامي:

- حسن.. لكننا نريد تفقد حجرات المنزل..

وحين بدأت المرأة توضح أن هذا مستحيل، قال لها:

- من الخير أن أخبرك من هذا الرجل.. إنه المفتش (نيوكومن) من (سكوتلانديارد)..

بدا سرور كرية على وجه المرأة وقالت:

- أه! هو في ورطة.. ماذا فعل؟

تبادل مستر (أترسون) والمفتش النظرات:

- لا يبدو شخصية محبوبة جدا.. والآن أيتها المرأة الطيبة دعيني وصاحبي نلق نظرة على الداخل.

في المنزل كله لم يكن مستر (هايد) يستعمل إلا غرفتين، لكنهما كانتا مفروشتين بعناية وترف. كانت الأطباق من الفضة والبياضات أنيقة وصورة جميلة معلقة على الجدار، افترض (أترسون) أنها هدية من د. (جيكل) الذي كان ذواقة للفنون. لكن الغرف كانت تعطي انطباعا بالتفتيش.. الأدراج مفتوحة والسترات على الأرض مفتوحة الأدراج، وكومة من الرماد في الموقد توحي بأن مجموعة أوراق قد تم حرقها. وتبين المفتش وسط الرماد كعب دفتر شيكات.. أما النصف الآخر من العصا فكان خلف الباب.

وكان المفتش يشعر برضا بالغ.. قال لـ (أترسون):

- يمكنك الاعتماد على هذا يا سيدي.. لقد ظفرت به.. لا بد أنه فقد عقله وإلا ما ترك العصا ودفتر الشيكات هنا.. ليس علينا إلا أن ننتظره في المصرف..

لكن هذا الجزء الأخير لم يكن سهلا لهذا الحد، لأن قليلين كانوا يعرفونه، وحتى رئيسة الخدم لم تره إلا مرتين.. ولا أثر لأسرته ولم تلتقط له صور فوتوغرافية قط، وقد تناقضت أوصاف من عرفوه بشكل محير، كما يحدث مع شهود العيان من العامة. فقط أجمع الجميع على نقطة واحدة هي ذلك الإحساس الغالب بالتشوه الذي يوحى به لكل من يراه.

☆ ☆ ☆

كانت ساعة متأخرة عصرا، حين وجد مستر (أترسون) طريقه إلى باب د. (جيكل). حيث أدخله (بول). واقتاده إلى ما كان يعرف عامة بالمختبر أو غرفة التشريح. كان الطبيب قد ابتاع البيت من ورثة جراح مرموق، وإن كانت ميول (جيكل) بالطبع كيميائية أكثر منها تشريحية.

كانت أول مرة يستقبل فيها المحامي في هذا الجزء من مسكن صديقه، وقد راح يراقب المعدات العتيقة المتسخة بفضول.. ونظر حوله بشعور مقيت من الغرابة، وهو يعبر قاعة المحاضرات التي امتلأت يوميا بالطلاب الشغوفين بالعلم، الآن هي كئيبة صموت. المناضد مزدحمة بالأجهزة الكيميائية، والضوء يتسرب معتما من قبة الزجاج الضبابية في السقف. وكانت تقود إلى ممر في نهايته باب مبطن بالقطيفة الحمراء.

عبر هذا الباب ليتم استقباله في مكتب د. (جيكل). كانت غرفة واسعة تطل على الساحة بثلاث نوافذ مغبرة تسدها القضبان الحديدية. وكان هناك مصباح على رف المدفأة لأن الضباب كان قد بدأ يدخل البيوت ذاتها. وهناك جوار الدفء جلس د. (جيكل) وقد بدا عليه المرض البالغ، ولم ينهض لاستقبال الزائر. فقط مد له يدا باردة ورحب به بصوت مختلف.

قال له مستر (أترسون) بمجرد رحيل الخادم:

- والآن.. هل سمعت الأخبار؟

هز الطبيب كتفية:

- كانوا يصرخون بها في الميادين.. سمعتها في غرفة الطعام..

قال المحامي:

- كلمة واحدة.. كان (كارو) عميلي وكذا أنت. وأريد أن أعرف ما أفعله.. لست مجنونا بما يكفي كي تخفي هذا الشخص عن الشرطة؟

صاح الطبيب:

- (أترسون).. أقسم بالله. أقسم بالله إنني لن أراه ثانية.. لقد ربطت شرفي بكون علاقتي انتهت به في هذا العالم.. وهو كذلك لا يريد عوني. أنت لا تعرفه.. إنه في أمان.. أمان بما يفوق الوصف..

أصغى المحامي في كآبة.. لم يحب أسلوب صديقه المحموم وقال:

- تبدو واثقا منه تماما.. وآمل أن تكون محقا بالله عليك. لو وصل الأمر إلى المحاكمة فلسوف يُذكر اسمك..

- واثق تماما.. لكن هناك شيئا أرغب في استشارتك فيه. لقد وصلني خطاب لا أعرف إن كان يجب أن أريه للشرطة أم لا.. أفضّل أن أترك الأمر في يدك يا (أترسون) فأنا أثق بك ثقة عظيمة..

- تخشى أن يتم القبض عليه بوساطته؟

- لا.. لا أستطيع القول إنني أهتم بمصير (هايد).. لقد فرغت منه.. كنت أفكر في طباعي التي كشفتها هذه القصة الكريهة.

فكر (أترسون) قليلا.. كان كلام صديقه أنانيا لكنه سره.

- حسن.. دعني أر الخطاب..

كان الخطاب مكتوبا بخط غريب، وقد وُقّع باسم (إدوارد هايد)، ويتلخص محتواه في أن الكاتب الذي قابل إحسان د. (جيكل) بما لا يستحق من الإساءة، لا يريد أن يرهق أحدا بسلامته.. فلدية طرق للفرار يعتمد عليها تماما. وقد راق الخطاب للمحامي كثيرا ولام نفسه على شكوكه السابقة.

- هل معك المظروف؟

- حرقته.. لكن لم تكن عليه أختام من مكتب بريد.. لقد تم التسليم باليد.. أريد منك أن تحكم على الأمر بنفسك تماما.. فقد فقدت الثقة بنفسي..

قال المحامي:

- حسن.. سأفكر في الأمر.. والآن كلمة واحدة.. هل (هايد) هو من أملى شروط وصيتك بصدد ذلك الاختفاء؟

أغلق الطبيب فمه وهز رأسه. فقال المحامي:

- كنت أعرف هذا.. كان يزمع قتلك..

- لقد تلقيت أكثر من هذا.. تلقيت درسا.. رباه! أي درس تلقيته يا (أترسون)!!

وغطى وجهه بكفيه.

وفي طريقه للخروج، توقف المحامي وتبادل بعض كلمات مع (بول). قال له:

- بالمناسبة.. ثمة خطاب سُلّم باليد اليوم.. فكيف كان شكل الذي سلمة؟

لكن (بول) أصر على أنه لم ترد خطابات إلا بالبريد.. ومجرد دوريات.

أثار هذا توجس المحامي من جديد.. بالتأكيد جاء الخطاب عبر باب المختبر.. ربما كتب في المكتب، ومعنى هذا أن أمره يجب أن يؤخذ بجدية أكثر.

كان بائعو الصحف في الطرقات يصرخون أمام الدار:

- طبعة خاصة.. اغتيال مفجع لعضو.. برلمان.

كانت هذه بمثابة خطبة الجنازة لصديق وعميل، ولم يستطع ألا يشعر بالتوجس من أن يقحم اسم نبيل آخر في دوامة الفضيحة. وقد بدأ يشعر برغبة عارمة لطلب النصح. لن يحصل عليه مباشرة ولكن سيتحايل من أجله.

بعد هذا كان جالسا جوار مدفأة داره مع مستر (جست)، رئيس كتبته، وكان الضباب يخيم فوق المدينة حيث تلتمع المصابيح كأنها العقيق الأحمر. لكن الغرفة كانت مليئة بالبهجة وضوء النيران.

كان يأتمن المستر (جست) على أكثر أسراره.. وكان (جست) يذهب للطبيب كثيرا ويعرف (بول)، وقد سمع كثيرا عن مستر (هايد).. وكان رجلا ذا رأي صائب بالإضافة إلى خبرته في قراءة

الخطوط.. فلو قرأ الخطاب الغريب فمن المحتم أن يعلق.. وهذا التعليق قد يشكل سلوك مستر (أترسون) بعد هذا.

قال (أترسون):

- موضوع سير (دانفرز) هذا محزن حقا..

- نعم يا سيدي.. لقد سبب الكثير من المشاعر العامة.. لابد أن القاتل كان مجنونا..

- أحب أن أعرف رأيك في الأمر، لأن عندي هنا وثيقة بخط يده.. ولا أعرف ما ينبغي عمله.. إنها مهمة قبيحة..

التمعت عينا (جست) وجلس ليدرس الخطاب باهتمام.

- لا يا سيدي.. ليس مجنونا.. لكن هذه يد غريبة..

- وفي جميع الأحوال كاتب غريب..

هنا دخل الخادم حاملا مذكرة.

تساءل الكاتب:

- هل هذه من د. (جيكل) يا سيدي؟ قد عرفت خطة.. هل من شيء خاص؟

- فقط دعوة للعشاء.. هل تريد أن تراها؟

- لحظة واحدة مع الشكر يا سيدي..

ووضع الكاتب الورقتين جنبا إلى جنب، وقارن المحتويات ثم قال في النهاية:

- شكرا يا سيدي.. هذه وثيقة مهمة جدا..

ساد صمت طويل ثم تساءل (أترسون):

- لم قارنتهما يا (جست)؟

قال الكاتب:

- حسن يا سيدي.. ثمة تشابه استثنائي.. إن اليدين متماثلتان ولكن مع اختلاف ميل الكتابة..

قال (أترسون):

- هذا أمر طريف..

- بالفعل هو أمر طريف.

فلما انفرد مستر (أترسون) بنفسه في تلك الليلة، وضع المذكرة في خزانته، وفكر:

- ماذا؟ (هنري جيكل) يزيف رسالة قاتل؟

وشعر بالدم يجري باردا في عروقه.

☆ ☆ ☆

مر الزمن، وعرضت آلاف الجنيهات جائزة لمن يرشد عن قاتل سير (دانفرز) لكن مستر (هايد) اختفى كأنما لم يوجد قط. تم البحث في ماضيه وانتشرت القصص عن قسوة الرجل وحياته الشريرة وعلاقاته الغريبة. لكن أحدا لم يعرف أين هو الآن.

منذ أن غادر داره في (سوهو) صباح الجريمة، ومستر (أترسون) قد بدأ يشفى من توتره الشديد ويهدأ. لقد تم القصاص لمقتل سير (دانفرز) باختفاء (هايد)..

الآن وقد زال التأثير الشرير فقد بدأ د. (جيكل) حياة جديدة وخرج من عزلته، وجدد العلاقات مع أصدقائه.

كان معروفا بالإحسان، والآن اشتهر بالتدين.. وقد قام بأعمال خيرة كثيرة. ولمدة شهرين كان يعيش في سلام تام.

في الثامن من يناير تناول (أترسون) العشاء في منزل د. (جيكل) مع مجموعة صغيرة.. كان د. (لانيون) هناك وراح المضيف ينقل عينيه بينهما كما في الأيام الماضية عندما كانوا أصدقاء لا يفترقون. لكن في اليوم الثاني عشر والرابع عشر، لم يسمح للمحامي بالدخول، وقال له (بول):

- إن الدكتور معتكف.. ولا يقابل أحدا.

جرب من جديد في الخامس عشر، فلم يفلح.. وكان قد اعتاد أن يرى صديقه يوميا في الشهرين الماضيين مما جعله يشعر بعدم ارتياح لهذه الوحدة.

في اليوم الخامس اتجه إلى دار (لانيون).. هناك على الأقل سُمح له بالدخول. لكنه إذ دخل أصابته الصدمة لمرأى التغير الذي طرأ على وجه الطبيب، إن شهادة موتة مكتوبة على وجهه بوضوح.

لقد شحب وجه الرجل المتورد وضمر جلده. لكن هذه لم تكن المشكلة.. بل كان الأسوأ هو نظرة الرعب على وجه الرجل.

كان من غير المتوقع أن الطبيب يخشى الموت، لكن هذا ما بدأ (أترسون) يعتقده.

- إنه طبيب ولا بد أنه يعرف حالته.. والمعرفة شيء لا يتحمله..

فلما علق على المظهر أعلن (لانيون) أنه رجل مقضي عليه.

قال:

- أصابتني صدمة لن أشفى منها أبدا.. والأمر لن يستغرق أكثر من أسابيع.. حسن.. كانت حياتي طبية وقد أحببتها.. أعني أنني اعتدت أن أحبها.. أحيانا أفكر في أننا لو عرفنا كل شيء لفضلنا الرحيل..

لاحظ (أترسون):

- (جيكل) مريض بدوره.. هل رأيته؟

ارتجفت يدا (أترسون) وقال بصوت راجف:

- لا أريد أن أسمع شيئا عن (جيكل).. لقد انتهيت من هذا الشخص، وأرجو أن تعفيني من التلميح إلى شخص أعتبره ميتا.

قال (أترسون):

- أليس بوسعي عمل شيء؟ نحن ثلاثة أصدقاء قدامى يا (لانيون).. لن نجد الوقت الكافي لنكوّن صداقات جديدة...

- لا شيء يمكن عمله.. اسأله هو..

ثم قال (لانيون):

- يوما ما بعد أن أموت يا (أترسون)، سوف تعرف صواب هذا أو خطأه.. لا أستطيع أن أخبرك.. لو أردت أن تجلس ونتحدث في مواضيع أخرى فافعل ذلك.. لكن لو أردت الكلام عن هذا الموضوع اللعين فلترحل الآن..

ما إن عاد (أترسون) إلى داره حتى جلس وكتب خطابا لـ (جيكل) يشكو عدم السماح له بدخول منزله، وموضوع د. (لانيون).

وفي اليوم التالي وصلته رسالة طويلة مليئة بالعواطف وأحيانا مائلة للغموض. كانت المشاجرة مع (لانيون) غير قابلة للإصلاح:

- لا ألوم صديقنا د. (لانيون)، لكني أوافقه على أنه من الخير لنا ألا نلتقي ثانية أبدا.. من الآن سأعيش حياة من العزلة التامة وهذا لا يجب أن يدهشك أو يجعلك تتشكك في صداقتنا. لقد جلبت على نفسي عقابا لا أستطيع وصفه.. لقد صرت زعيم الخطاة وزعيم المعذبين كذلك.. وما أحسب هذه الأرض تحوي موضعا للعذاب والأهوال مجتمعة كهذا.. وليس بوسعك أن تعمل شيئا إلا أن تحترم صمتي.

ذهل مستر (أترسون).. فهو كان قد حسب السحابة مرت بالفعل.. وهذا التغير المفاجئ يوحي بالجنون..

بعد أسبوع رقد د. (لانيون) في فراشه.. وفي أقل من أسبوعين كان قد مات.

بعد الجنازة التي ملأه الحزن فيها، أغلق (أترسون) باب غرفة مكتبه، وجالسا هناك على ضوء حزين لشمعة، ووضع أمامه مظروفا عليه خاتم صديقه الراحل:

«شخصي لـ (ج. ج. أترسون) وحده.. وفي حالة وفاته يتم تدميره دون قراءة..»

شعر المحامي بالخوف من قراءة المحتوي:

- لقد دفنت صديقا اليوم، فماذا لو كلفني هذا صديقا آخر؟

لكنه في النهاية حطم الخاتم.. وفي الداخل وجد مغلقا آخر كتب عليه:

«لا يفتح إلا بعد موت أو اختفاء د. (هنري جيكل)..»

ولم يصدق (أترسون) عينيه.

نعم.. الاختفاء من جديد.. نفس الكلمات كما في الوصية المجنونة السابقة.. لكن في الوصية كانت هناك فكرة تأثير (هايد).. وكان الغرض واضحا ومخيفا، لكن ما معنى هذا لو كتبته يد (لانيون)؟

شعر المحامي بفضول بالغ.. وود لو يتجاهل التحذيرات ويخترق أعماق هذا اللغز، لكن شرفه المهني والإخلاص لصديقه

المتوفى جعلاه مضطرا للتنفيذ. وغاب المغلف في أعماق خزانته.

كان الفضول يخنقه وود لو سمح له صديقه الحي بالزيارة.. لكنه في الوقت نفسه كان يرجو ألا يجده في الدار، وأن يتبادل حوارا مع (بول) على الباب حيث الهواء الطلق وضوء الشمس، بدلا من دخول منزل العبودية الاختيارية هذا.

لكن (بول) لم يكن يملك أخبارا طيبة.. كانت حالة انعزال الطبيب تزداد سوءا.. لم يعد ينام أو يقرأ وصار يقضى أكثر الوقت في المختبر.

تكررت هذه التقارير كثيرا واعتادها (أترسون) حتى إنه صار يقلل من زياراته شيئا فشيئا.

☆ ☆ ☆

واقعة النافذة

حدث في يوم الأحد بينما مستر (أترسون) في جولته المعهودة مع مستر (إنفيلد)، أن وجدا أنهما يمشيان في الشارع الجانبي.

قال (إنفيلد):

- حسن.. لقد انتهت هذه القصة على الأقل.. لن نرى مستر (هايد) ثانية.

قال (أترسون):

- آمل أن لا.. هل أخبرتك أني رأيته مرة وشاركتك شعور النفور؟

- وأي غبي حسبتني حين ظننت أنني لا أعرف أن الأمر يتعلق بالباب الخلفي لمسكن د. جيكل..

- حقا؟ ما دام الأمر كذلك دعنا نخط للساحة وننظر عبر النوافذ.. لأقول لك الحق.. أنا قلق على (جيكل) البائس.. وحتى وأنا خارج داره أعتقد أن وجود صديق قد يفيده..

كانت الساحة باردة رطبة.. وكانت النافذة في المنتصف نصف مفتوحة.. وجوارها كاسف البال ينشق الهواء بنهم كأنه سجين تعس، استطاع (أترسون) أن يرى د. (جيكل).

صاح أترسون:

- من؟ (جيكل)!! أكيد أنك أفضل حالا..

أجاب الطبيب في كآبة:

- أنا في أسوأ حالي يا (أترسون).. لن يستمر الأمر طويلا حمدا لله..

- أنت تغلق على نفسك كثيرا.. يجب أن تخرج ليجري دمك مثلي.. هذا هو ابن عمي.. مستر (إنفيلد).. د. (جيكل).. هات قبعتك وتعال معنا..

تنهد الطبيب:

- أنت طيب جدا.. وأتمنى ذلك لكن لا.. لا.. مستحيل.. لا أجسر.. وأتمنى دعوتكما إلى الداخل لكن يؤسفني أن المكان غير ملائم..

- لا مشكلة.. لعل خير ما نفعله أن نقف حيث نحن ونتكلم معك..

- هذا ما كنت لأجازف بطلبة..

قالها الطبيب مبتسما.. ثم فجأة تلاشت البسمة من وجهه لتحل محلها نظرة هلع وقنوط جمدت الدم في عروق الرجلين.. وقد أصابهما الهلع إلى حد أنهما ابتعدا عن النافذة..

لا يعرفان كيف ابتعدا مذعورين عن الشارع الجانبي.. حتى وقفا وتبادلا نظرة.. كانا شاحبين تماما وثمة رعب في عينيهما.. قال (أترسون):

- فليسامحنا الله.. فليسامحنا الله.

فهز (إنفيلد) رأسه وواصلا السير من جديد صامتين..

☆ ☆ ☆

كان مستر (أترسون) يجلس جوار المدفأة ذات ليلة بعد العشاء حين فوجئ بزيارة من (بول). فصاح:

- فليرحمني الله يا (بول).. ماذا جاء بك هنا؟

ثم نظر نظرة أخرى وقال:

- ماذا وراءك؟ هل الدكتور مريض؟

قال الرجل:

- مستر (أترسون).. ثمة شيء خطأ..

- إذن اجلس.. هاك كأس من الشراب.. الآن خذ راحتك وقل لي ماذا تريد.

أجاب (بول):

- أنت تعرف طباع الطبيب.. وكيف يغلق على نفسه.. لقد أغلق مكتبه على نفسه وأنا لم أعد أطيق هذا.. أنا خائف يا مستر (أترسون)..

قال المحامي:

- والآن أيها الرجل الطيب.. كن واضحا.. مم تخاف؟

- أنا خائف منذ أسبوع..

كان منظر الرجل يوضح كلماته تماما.. وباستثناء المرة التي أعلن فيها عن مخاوفه، لم يرفع رأسه إلى المحامي قط..

- لم أعد أتحمل هذا..

- هلم.. أرى أن لديك سببا واضحا.. ثمة شيء لا تريد قوله.. فقله..

قال (بول) بصوت خشن:

- أعتقد أن هناك لعبة قذرة..

صاح المحامي في مزيج من الخوف والغضب:

- لعبة قذرة؟ أية لعبة قذرة؟

- لا أجسر على الكلام يا سيدي.. لكنك ستأتي وترى بنفسك..

كانت إجابة (أترسون) الوحيدة أن نهض وجلب قبعته والمعطف.. ولاحظ الارتياح البالغ الذي ظهر على وجه الخادم.

كانت ليلة باردة من مارس ذات قمر شاحب.

جعلت الريح الكلام عسيرا وبدا كأنما هي قامت بتنظيف المارة من الشوارع المزدحمة عادة. وتمنى (أترسون) لو كان هناك بشر، فهو لم يشعر قط في حياته برغبة كهذه كي يرى إخوته في البشرية.. كان يتوقع كارثة.

حين وصلا الميدان كان مفعما بالغبار والريح، وكانت الأشجار في الحديقة تضرب الحواجز. هنا تراجع (بول) الذي كان يتقدم المسيرة.. وبرغم البرد القارس نزع قبعته وأخرج منديلا أحمر مسح به حاجبيه. لكن برغم سرعته لم تكن هذه

قطرات عرق المجهود بل عرق الرعب.. لأن وجهه كان أبيض وصوته خشنا مبحوحا حين تكلم.

- حسن يا سيدي.. ها نحن ذان.. وليحفظنا الله من حدوث كارثة..

- آمين يا (بول)..

قرع الخادم الباب في توجس فجاء صوت من الداخل:

- أهذا أنت يا (بول)؟

- كله على ما يرام.. افتحوا..

حين دخلا كانت الصالة مضاءة، وقد وقف كل الخدم رجالا ونساء كأنهم قطيع من الخراف. عندما رأوا مستر (أترسون) انفجرت مديرة المنزل في نشيج هستيري، وصرخت الطباخة:

- تبارك الله! هذا هو مستر (أترسون) جاء لينقذنا!

سأل المحامي في تعاسة:

- ماذا؟ هل كلكم هنا؟ هذا لا يليق.. سيدكم لن يكون مسرورا بهذا..

قال (بول):

- كلهم خائف..

ساد الصمت ورفعت الخادمة عقيرتها لتبكي، فصاح بها (بول):

- اصمتي!

قالها بلهجة تشي بانهيار أعصابه.

- ناولوني شمعة حالا..

ثم توسل إلى مستر (أترسون) كي يلحق به، ومشى إلى الحديقة الخلفية.

- الآن يا سيدي.. امش برفق قدر الإمكان.. أريد منك أن تسمع ولا تسمع.. واقبل نصحى يا سيدي.. لو طلب منك الدخول بأي شكل فلا تطعه..

هنا ارتجفت أعصاب مستر (أترسون) المتوترة حتى كاد يسقط أرضا.. لكنه استجمع شجاعته ومشى وراء رئيس الخدم إلى المختبر وعبر غرفة الجراحة إلى أسفل الدرج.

هنا طلب منه (بول) أن ينتحى جانبا وينصت.. بينما راح هو يدق القطيفة المبطنة للباب.



هنا طلب منه (بول) أن ينتحى جانبًا وينصت .. بينما راح هو يدق القطيفة المبطنة للباب ..

مستر (أترسون) يريد أن يراك يا سيدي.

رد عليه صوت متذمر من الداخل يقول:

- قل له إنني لا أستطيع أن أرى أحدا.

قال (بول):

- شكرا يا سيدي..

بنوع من نغمة النصر في صوته.. وآخذا شمعته في يده اقتاد مستر (أترسون) إلى الفناء إلى المطبخ. وقال له:

- سيدي - ونظر في عيني مستر (أترسون) - هل كان هذا صوت سيدي؟

أجاب المحامي شاحبا:

- بدا مختلفا جدا...

- مختلف؟ نعم.. أعتقد هذا.. هل ظللت أخدم هذا الرجل عشرين عاما كي أنخدع في صوته؟ لا يا سيدي.. لقد اغتيل سيدي.. اغتيل منذ ثمانية أيام.. حين سمعناه يستغيث بربه، أما الموجود بالداخل فشيء لا يعلم سره إلا الله..

عض مستر (أترسون) إصبعه:

- هذه قصة عجيبة يا (بول).. قصة غريبة يا صديقي.. افترض أن د. (جيكل) - حسن - قد قتل.. فماذا يدفع القاتل إلى البقاء؟ هذا لا يصمد للمنطق.

- أنت رجل عسير الإقناع يا مستر (أترسون).. لكني سأنجح في إقناعك.. منذ أسبوع كان هو - أو الشيء – يصرخ في مكتبه ليلا ونهارا طلبا لدواء معين لكنه لا يذكر اسمه.. وكانت من عادات سيدي أن يكتب ما يريد في ورقة ويلقيها على الدرج..

هذا الأسبوع لم نحصل على شيء إلا بعض الورق وبابا موصدا.. وحتى الوجبات تظل بالخارج إلى أن يتمكن من إدخالها حين لا يكون أحد هناك.. وطيلة اليوم يتم إرسالي إلى متاجر الكيماويات.. وكلما جلبت ما طلبه وجدت ورقة تطلب أن أرجعه لأنه ليس بالنقاء المطلوب.. هذا الدواء مطلوب بشدة يا سيدي أيا كان الغرض منه..

- هل لديك واحدة من تلك الأوراق؟

مد (بول) يده في جيبه وأخرج ورقة مجعدة.

فأدناها المحامي من الشمعة وقرأ:

- د. جيكل يرسل تحياته للسادة (ماو).. ويؤكد لهم أن العينة الأخيرة لم تكن نقية أو ملائمة لغرضه.. وهو يرجوهم البحث عن المزيد من هذه المادة نقية، فإن وجدوها يرسلوها إليه حالا.. التكلفة ليست مهمة لأن أهمية المادة للدكتور لا يمكن وصفها..

إلى هنا كان الخطاب متماسكا، وفجأة فقد الكاتب السيطرة على عواطفه فكتب:

- بالله عليكم.. اعثروا على بعض المادة القديمة..

قال مستر (أترسون):

- هذا خط الدكتور ولا مراء..

- بدا لي شبيها به.. لكن ما أهمية الخط؟ لقد رأيته!

كرر مستر (أترسون):

- رأيته؟ حسن؟

قال (بول):

- كذا.. كان من هذا الاتجاه.. جئت لقاعة الجراحة من الحديقة.. بدا أنه خرج للبحث عن عقار أو شيء ما لأن باب المكتب كان مفتوحا.. وكان هو في طرف القاعة يفتش في الصناديق نظر لأعلى حين رآني وأطلق نوعا من الصراخ.. وهرع لأعلى حيث مكتبه. رأيته لما لا يزيد على دقيقة لكن شعر رأسي تصلب.. سيدي.. لو كان هذا سيدي فلماذا يضع على وجهه قناعا؟ لو كان هذا سيدي فلماذا صرخ كفأر وجرى مني؟ ثم....

هنا صمت الرجل ووضع يده على وجهه.

قال (أترسون):

- أعتقد أنني بدأت أرى النور.. إن سيدك يا (أترسون) مصاب بواحد من تلك الأمراض التي تعذب وتشوه.. وهذا يفسر تغير صوته والقناع والعزلة وحاجته الملحة للدواء الذي يعتقد أنه خلاصه الوحيد، ولندع الله ألا يكون مخطئا! هذا تفسيري يا (بول).. غريب لكنه متماسك..

قال رئيس الخدم وقد شحب لونه:

- هذا الشيء لم يكن سيدي.. هذه هي الحقيقة.. سيدي رجل متين البنيان فارع الطول.. وهذا كان أقرب لقزم..

حاول (أترسون) أن يعترض فقال (بول):

- هل تعتقد يا سيدي أني لا أعرف سيدي بعد عشرين عاما؟ أتحسبني لا أعرف ارتفاع رأسه بالنسبة لباب المكتب؟ لا يا

سيدي.. هذا الشيء بالقناع لم يكن د. (جيكل).. يعلم الله من كان، لكنه ليس د. (جيكل).. وأنا أعتقد من سويداء قلبي أن هناك جريمة قتل..

أجاب المحامي:

- (بول).. لو كنت تقول هذا، فمن واجبي أن أتحقق.. هذه المذكرة تقول إنه ما زال حيا.. من واجبي أن أهشم هذا الباب.. الآن السؤال الثاني: من يفعل هذا؟

كانت الإجابة:

- بالطبع أنت وأنا..

أجاب المحامي:

- هذا كلام جميل.. ومهما ينجم سأعمل على ألا تخسر وظيفتك.

- هناك فاس في قاعة الجراحة، ويمكنك أن تأخذ محراك المطبخ لنفسك.

أخذ المحامي تلكم الأداة الفظة لكن الثقيلة وتحقق من وزنها في يده:

- هل تعرف يا (بول) أنك وأنا مقدمان على التورط في موقف خطر؟

- يمكنك قول هذا بالفعل يا سيدي..

- إذن يجب أن نكون أكثر صراحة فكلانا يفكر فيما هو أكثر مما يقول.. هذا الشيء الذي رأيته.. هل تعرفته؟

قال (بول):

- لو كنت تقصد هل كان هذا مستر (هايد)، فأنا أقول: نعم.. لقد كان له نفس الحجم.. ثم من سواه يستطيع أن يدخل من باب المختبر؟ وليس هذا كل شيء يا مستر (أترسون).. لا أعرف إن كنت قابلت مستر (هايد) من قبل؟

قال المحامي:

- نعم.. تكلمت معه مرة..

- إذن تعرف مثلنا أن هناك شيئا غريبا بصدد هذا الرجل.. شيئا لا يوصف لكنك تشعر به في عظامك باردا..

قال مستر (أترسون):

- أعترف أني شعرت بشيء مما تصف..

- حسن.. لقد شعرت بهذا الشعور حين رأيت الرجل، وأنا واثق من أن هذا كان هو نفسه المستر (هايد)..

- حسن.. استدع (برادشو)..

وجاء الخادم إثر استدعائه، شاحبا عصبيا، فقال المحامي:

- تمالك نفسك يا (برادشو). كلكم متوتر وأنا أعرف هذا، لكن هدفنا أن نضع نهاية لهذا كله.. أنا و (بول) سنقتحم الباب لو سارت الأمور كما يجب.. في نفس الوقت لو حدث خطأ ما أو حاول المجرم الفرار من الخلف، فعليك والصبي أن تتأهبا ومعكما زوج من العصي الثقيلة، وتتخذا موقفكما عند باب المختبر. أمامكما عشر دقائق لتتخذا موقعيكما..

ورحل (برادشو) فنظر المحامي إلى ساعته وأخذ عصا المحراك معه إلى الفناء. كان القمر قد توارى وساد ظلام دامس. كانت (لندن) تهمهم في صمت طيلة الوقت ولكن هذا لم يكن يقطع الصمت إلا صوت خطوات تذرع أرض المكتب جيئة وذهابا.

همس (بول):

- سيظل يمشي طيلة الليل يا سيدي.. فقط حين تأتي عينات من متجر الكيميائي يستريح قليلا.. إنه الضمير المريض عدو الراحة.. ولكن اصغ أكثر.. ضع قلبك في أذنيك.. وقل لي.. هل هذه خطوات الدكتور؟

تنهد (أترسون).. فالخطوات كانت بالفعل بطيئة تختلف عن خطوات الطبيب السريعة التي تحدث صريرا.

- ذات مرة سمعته يبكي..

- يبكي؟

- نعم.. كامرأة أو روح ضائعة..

مرت العشر دقائق، فوقف (أترسون) خلف الباب وصاح:

- (جيكل).. إنني أطالب برؤيتك..

وصمت لحظة لكن لم يكن ثمة رد.

- إنني أعطيتك إنذارا كافيا.. إننا نشك في الأمر ويجب أن نراك ولسوف نفعل.. لو لم يكن بطريقة عادلة فبطريقة كريهة.. لو لم يكن بموافقتك فبالقوة الغاشمة!

هنا صاح الصوت:

- (أترسون)! من فضلك كن شفيقا..

صاح (أترسون):

- آه.. ليس هذا صوت (جيكل).. بل (هايد).. عليك بالباب يا (بول)!

رفع (بول) الفأس وهوي به فارتجت البناية من الصدمة.. ووثب الباب على مفصلاته. صدرت صرخة كئيبة كأنما هي من ذعر حيواني. ومن جديد ارتفع الفأس وتهشمت الألواح..

أربع مرات هوت فيها الضربات.. لكن الخشب كان صلبا والإطار من نوع ممتاز.. في الضربة الخامسة تهشم القفل، وهوت شظايا الباب إلى البساط..

تصلب المقتحمان للحظة وتراجعا للوراء.. هنا توجد الغرفة في ضوء المصباح الهادئ.. ونار تتوهج في المدفأة.. أوراق على منضدة العمل. المكان أهدأ مكان.. بل أكثرها عادية في لندن هذه الليلة لو شئت أن تقول ذلك.

في وسط الغرفة كان جسد رجل ما زال ينتفض.. اقتربا منه على أطراف أصابعهم وقلباه على ظهره فوجدا وجه (إدوارد هايد).

كان مدثرا بثياب واسعة عليه تناسب حجم الطبيب.. كان قد مات لكن وجهة ما زال يتحرك فيما يشبه الحياة.. ومن الزجاجة المهشمة في يده والرائحة في هواء الغرفة، عرف (أترسون) أنه يحملق في منتحر.

- تأخرنا كثيرا سواء بالنسبة للإنقاذ أو العقاب.. ولم يبق أمامنا إلا البحث عن جثة سيدك..

وبحث الرجلان في كل مكان.. كانت الخزانات لا تحتاج إلا إلى نظرة واحدة لأنها كانت مليئة بالغبار ولم تفتح من زمن.. أما العلية فكانت تحوي الكثير من المهملات التي خلفها الجراح الذي سبق (جيكل) في السكني، لكنهما أدركا ما إن فتحاها عدم جدوى البحث، لأن نسيج عنكبوت عتيقا سقط وكان يسد المدخل من أعوام. لا أثر للدكتور (جيكل) في أي مكان حيا أو ميتا.

ضرب (بول) أرض الردهة بقدمه وقال:

- لابد أنه مدفون هنا..

وكان الباب الذي يقود إلى الشارع الجانبي مغلقا وقد سقط المفتاح بقربه.. وكان المفتاح محطما كأنما هناك من داس عليه.

وتبادل الرجلان النظرات في خوف:

- هذا يفوق فهمي يا (بول).. لنعد إلى المكتب..

عاد الرجلان في صمت... وبدقة أكثر راحا يفتشان الغرفة.. على منضدة كانت بقايا كيماويات وملح معين موضوع في أطباق.

قال (بول):

- هذا هو العقار الذي كنت أجلبه له..

هنا سمعا براد الشاي يغلي.. كان كل شيء معدا لاحتساء الشاي والسكر في القدح، وكان هناك كتاب مفتوح جوار معدات الشاي، وجد (أترسون) أنه كتاب ديني طالما أبدى (جيكل) تقديره له، لكنه الآن كتب كلاما مليئا بالتجديف على الحواشي.

كانت هناك قارورة تغلي وقد قال (بول):

- هذه القارورة شهدت أشياء غريبة..

قال المحامي:

- أشياء ليست أغرب منها.. ترى ماذا كان (جيكل) يفعل بها؟

وعلى المكتب بين الأوراق، كان مظروف يحمل اسم مستر (أترسون) بخط الطبيب نفسه.. فتحه المحامي فسقطت مرفقات كثيرة على الأرض.

أولها كان وصية كتبت بنفس البنود الغريبة التي كتب بها الوصية منذ ستة أشهر. لكن بدلا من اسم (هايد) وجد المحامي اسم (جابرييل جون أترسون).

نظر (أترسون) في دهشة إلى (بول) ثم إلى الورقة.. ثم إلى الشرير الميت الممدد على البساط.

قال:

- رأسي يدور.. ما كان لديه سبب كي يحبني في أيامه الأخيرة تلك.. لابد أن (هايد) غضب حين رأى اسمي على الوصية وكان بوسعه تدميرها..

أما الورقة التالية فكانت مذكرة بيد الطبيب عليها تاريخها.

صاح المحامي:

- اوه يا بول.. لقد كان حيا اليوم! لا يمكن أن يتم التخلص منه بهذه السرعة.. لا بد أنه حي.. لابد أنه فر.. ولكن لم فر؟ ومتى؟

- لم لا تقرأ المذكرة يا سيدي؟

قال المحامي في رهبة:

- لكنني خائف.. يعلم الله أنني لا أعرف السبب..

وقرب الورقة من عينيه وراح يقرأ:

«عزيزي أترسون:

حين تقع هذه الورقة في يدك سأكون قد تواريت.. لا أملك اختراق الحجب لكن غريزتي وكل ظروف هذا الموقف عديم الاسم، تقول لي إن النهاية أكيدة ويجب أن تكون سريعة.

«اذهب واقرأ القصة التي وعدني (لانيون) بأن يضعها بين يديك.. ولو أردت المزيد فاسمع اعترافات صديقك التعس غير الجدير بالصداقة..

هنري جيكل..»

أما المرفق الثالث فكان طردا صغيرا مختوما في عدة مواضع..

وضعه المحامي في جيبه وقال:

- لن أقول شيئا. فلو كان سيدك فر أو مات فعلى الأقل أحافظ على سمعته.. إنها العاشرة الآن وسوف أعود إلى دارى لأطالع هذه الأوراق في هدوء، ثم أعود قبل منتصف الليل لنطلب الشرطة..

خرجا وأغلقا الباب.. وغادر المحامي إلى داره ليقرأ القصتين اللتين فيهما يكمن تفسير هذا اللغز.

☆ ☆ ☆

في التاسع من يناير - أي منذ أربعة أيام الآن - تلقيت في المساء خطابا مسجلا.. موجها لي بخط زميلي ورفيق دراستي (هنري جيكل). دهشت لهذا لأننا لم نعتد تبادل المراسلات قط.. لقد قابلت الرجل وتناولت العشاء معه أمس.. ولم أتصور شيئا في علاقتنا يبرر الطريقة الرسمية وتسجيل الخطاب. زادت المحتويات من دهشتي لأن الخطاب كان هكذا:

«10 ديسمبر

عزيزي (لانيون):

«أنت واحد من أقدم أصدقائي، ولربما اختلفنا حول نقاط علمية في الماضي، لكني لا أذكر أية شروخ في علاقتنا الودية. وما من مرة كنت ستقول لي فيها إن حياتك أو شرفك يعتمدان عليّ، إلا وضحيت بيدي اليسرى لأساعدك.. والآن يا (لانيون) حياتي وشرفي وعقلي تحت رحمتك.

«لو خذلتني الليلة لضعت.. وأعتقد أنك ستحسب بعد هذه المقدمة أنني سأطلب شيئا مسيئا للشرف. يمكنك الحكم بنفسك

«أريد منك أن تلغي ارتباطات الليلة حتى لو كنت مطلوبا لفحص إمبراطور.. وأن تأخذ عربة أجرة وتأتي بهذا الخطاب إلى داري. إن رئيس خدمي (بول) لديه أوامره.. لسوف تجده بانتظارك مع صانع أقفال. يجب أن يتم اقتحام باب مكتبي وتدخل وحدك. افتح القسم الذي عليه حرف E فإن اقتضت

الضرورة حطم القفل. ثم خذ الدرج الثالث من أعلى بكل ما فيه من محتويات. أخشى أن أخطئ في ارتباكي لكنك ستعرف الدرج الصحيح من محتوياته:

بعض المساحيق وزجاجة.. أريد منك أن تأخذ هذا الدرج إلى بيتك بميدان (كافنديش).. أريد أن يتم هذا قبل منتصف الليل بفترة كافية. عند منتصف الليل أريد أن تكون وحيدا في غرفة الاستشارة الخاصة بك، ثم تسمح بنفسك بالدخول لرجل سيقدم لك نفسه باسمي.. من ثم أعطه محتويات الدرج. هكذا تكون قد فعلت المطلوب واستحققت تقديري الأبدي.

«لو أصررت على تفسير لهذا الذي يحدث، فيكفي أن أقول لك إن هذه الأمور بالغة الأهمية، ونسيان أحد هذه التفاصيل مهما كان غريبا قد يثقل ضميرك بذنب موتي أو دماري العقلي.. فكر فيّ وأنا مثقل بعذاب لا يمكن لمخلوق أن يتصوره.. فكر في أن تنفيذ طلبي ينهي عذابي كأنه قصة حكيت وانتهت..

صديقك

هي. ج.

ملحوظة: بعد ما أغلقت هذا الخطاب شعرت بهلع بالغ.. لربما خذلني مكتب البريد ولم يصل الخطاب لك إلا غدا.. لهذا يا صديقي لا تنفذ المهمة إلا حين يناسبك ذلك في أي وقت من النهار.»

قرأت هذا الخطاب فتيقنت من أن زميلي مخبول تماما.. لكن حتى يثبت هذا بلا شك فإن عليّ أن أفعل ما يطلبه مني.. وأي طلب بهذا الإلحاح لا يمكن تجاهله.

نهضت واستقللت عربة (هانسوم) [3] وانطلقت إلى دار د. (جيكل).. كان رئيس الخدم ينتظرني هناك ومعه نجار وصانع أقفال. كان باب غرفة (جيكل) قويا والقفل ممتازا.. وأقسم النجار إنه سيضطر إلى إحداث تخريب كثير وكاد صانع الأقفال ييأس.. لكنه كان حرفيا بارعا وبعد ساعتين انفتح الباب.

أخذت الدرج المتفق عليه وعدت به إلى ميدان (كافنديش)..

هناك تفحصت محتوياته.. كانت هناك بعض المساحيق لكن لم يبد أنها معدة بعناية كيميائي..

لهذا توقعت أنها من إعداد (جيكل) نفسه.. أما الزجاجة فكانت تحوي سائلا أحمر كالدم نفاذ الرائحة.. أما الكتيب فكان مذكرات بها بعض ملاحظات تحت كل واحدة تاريخ معين. وقد لاحظت أن التواريخ تتوقف فجأة منذ عام مضى.

كانت هناك كلمات تتكرر مثل كلمة مرتين التي تكررت ست مرات وسط عدة مئات من الملاحظات..

وثمة ملاحظة تقول فشل تام!!!!!! .. والحقيقة أن فهمي للأمر لم يتحسن.. فهذا سجل تجارب تنتهي - ككل تجارب (جيكل) - بلا نتيجة عملية. كيف ينقذ وجود هذه الأشياء في داري سمعة وعقل وحياة زميلي الطائش؟

لماذا لم يجلب هذه الأشياء بنفسه؟ كلما راجعت القصة شعرت بأنني أتعامل مع حالة مرض عقلي، وبرغم أنني صرفت الخدم للنوم فإنني قمت بحشو مسدسي في حالة ما إذا وجدت نفسي في دفاع عن النفس.

فلم تكد الساعة تدق الثانية عشرة حتى دوت الطرقات على بابي.. لبيت النداء فوجدت رجلا صغير الحجم فسألته:

- هل أنت من طرف د. جيكل؟

فقال لي:

- نعم..

بإشارة متحفظة، وحين سمحت له بالدخول لم يطعني إلا بعد ما ألقي نظرة خلفه على ظلام الميدان.. كان هناك رجل شرطة ليس بالبعيد يتقدم بعينيه الساهرتين مفتوحتين، فشعرت كأن الرجل متعجل. هذه المقدمات أثارت ريبتي، وإذ اقتدت الرجل إلى غرفة الاستشارة ظلت يدي على سلاحي.

الآن بوسعي أن أراه بوضوح فإنني لم أره من قبل كان صغير الحجم، لكن أثار رعبي بالتعبير على وجهه.. ذلك المزيج الغريب من القوة العضلية الهائلة والهزال. وأخيرا وليس آخرا ذلك الاضطراب الذي يسببه القرب منه.

هذا الرجل الذي أثار فيّ من اللحظة الأولى ما يمكن أن نصفه بالفضول المتأفف؛ كان يرتدي ثيابا يمكنها أن تجعل الشخص العادي موضعا للسخرية.. كانت ثيابا غالية الثمن لكنها واسعة جدا بالنسبة لحجمه.. السروال يتدلى على قدميه وقد ثنى الطرفان لمنعهما من لمس الأرض.. والياقة واسعة تغطى كتفيه.



كان يرتدى ثيابًا يمكنها أن تجعل الشخص العادى موضعًا للسخرية ..

لكن هذه المظاهر لم تثر رغبة الضحك في.. فقد كان هناك شيء غير مريح وغامض في هذا المخلوق الذي يقف أمامي.

لقد شعرت بفضول عارم كي أعرف كل شيء عن هذا الرجل.. موطنه.. تاريخه. ثروته.. هذه الملاحظات تحتاج إلى مساحة كبيرة لكتابتها لكنها لم تستغرق أكثر من بضع ثوان.

كان ضيفي على نار التوتر في الواقع.. وصاح:

- هل حصلت عليها؟

كان متلهفا إلى حد أنه وضع يده على ذراعي وهزها. أبعدت يده التي أشعر ببرودة ثلجية في دمي.

- لحظة يا سيدي.. لا تنس أنني لم أحظ بعد بمتعة معرفتك.. اجلس من فضلك..

وجلست لأعطيه مثالا.. فقال:

- أستميحك عذرا يا د. (لانيون).. إنني.. درج.. أفهم..

وتحسس حلقه فأدركت أنه يقاوم نوبة هستيريا قادمة..

أشرت إلى الدرج الذي وضعته على الأرض وقد غطيته بملاءة.

وثب عليه ثم توقف ووضع يده على قلبه.. سمعت أسنانه تصطك ووجهه صار مخيفا، إلى حد أنني صرت خائفا بصدد سلامة حياته وعقله.

ابتسم ابتسامة خائفة ثم أزاح الملاءة.. فما إن رأى المحتويات حتى أطلق شهقة ارتياح بالغة جعلتني أجلس متحجرا. ثم بصوت حاول أن يجعله متماسكا قال:

- هل لديك مخبار مدرج؟

نهضت بشيء من الجهد وأعطيته ما طلب. فشكرني بهزة رأس وقاس بضع قطرات من المحلول الأحمر ثم أضاف مسحوقا.. بدأ الخليط يفور ويتصاعد منه بخار.. ثم هدأ التفاعل فراح ضيفي يرمق المشهد بعين راضية ثم نظر لي فاحصا وقال:

- الآن.. كي نحل المشاكل الباقية.. هلا كنت عاقلا؟ هل تتركني أغادر دارك حاملا هذا دون تفسيرات؟ أم أن الفضول يسيطر عليك؟ فكر قبل أن تجيب لأن الأمر سيتم كما تريد.. ولسوف تبقى كما أنت لا أغنى ولا أحكم.. أو تفتح أمامك منطقة جديدة من المعرفة وطرقا جديدة للشهرة والقوة.. هنا.. في غرفتك.. ولسوف ترى أعجوبة قادرة على إفزاع الشيطان ذاته..

قلت بتماسك ليس عندي:

- سيدي.. أنت تتكلم بالألغاز.. ولن يدهشك أن تجدني أسمعك دون تصديق كبير.. لكني تماديت في طريق الخدمات التي لا تفسير لها، حتى إنني لا أستطيع التوقف قبل أن أرى معنى هذا..

- لسوف ترى يا (لانيون).. أنت الذي لم تصدق قط.. أنت الذي لم تؤمن بالطب الخارق للطبيعة.. أنت الذي سخرت ممن هم أعلى منك علما.. انظر!

ووضع الكأس على شفتيه ورشف.

هنا صرخ.. تلوى.. تشبث بالمنضدة.. محملقا بعينين محتقنتين وهو يشهق.. وفجأة بدأ نوع من التغير يطرأ.. بدا كأنما ينتفخ.. صار وجهه داكنا وبدا كأن ملامحه تذوب وتتغير.. وفي

اللحظة التالية وثبت على قدمي، والتصقت بالحائط.. وارتفعت يدي لتحميني من هذه الأعجوبة.. واستحال عقلي رعبا خالصا

- رباه!

كذا صرخت مرارا ومرارا..

لأنه أمامي.. مترنحا نصف فاقد الوعي يتشبث بيديه كأنه رجل يفيق من الموت، كان (هنري جيكل)!!

ما قاله لي في الساعة التالية لا أستطيع أن أسترجعه لأدونه على الورق، فقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت، وتعذبت روحي منه..

لكني الآن بعد أن انتهى هذا المشهد، مازلت أتساءل إن كنت أصدقه.. فلا أقدر على الإجابة.. لقد اهتزت حياتي حتى الجذور، وفارقني السبات.. وأشنع المخاوف تلاحقني في الليل والنهار، وأشعر أن أيامي معدودة...

لن أقول إلا شيئا واحدا يا (أترسون).. ولو استطعت أن تجعل عقلك يصدقه سيكون هذا أكثر مما يكفي.. إن المخلوق الذي زحف لداري في تلك الليلة كان باعتراف (جيكل) معروفا باسم (هايد).. وهم يبحثون عنه في كل ركن من الأرض باعتباره قاتل (كارو)..

لانيون

☆ ☆ ☆

تقرير د. (جيكل) الكامل عن القضية..

ولدت في العام --18 مالكا لثروة كبيرة، أحظى باحترام الحكماء والخيرين من رفاقي، وكان كل شيء يعد بمستقبل شريف متميز. وحقا كانت أسوأ خطاياي هي ذلك المرح الطائش في طباعي، وهو ما كان يجلب السعادة لكثيرين، لكنه كان يتعارض مع رغبتي في أن أشمخ برأسي وأبدو في مظهر جاد صارم أمام الناس.

هذا هو السبب الذي جعلني أخفي متعي الخاصة، وحين بلغت سن النضج وبدأت أبحث عن موضع في العالم، بدا كأنما أعيش ازدواجا واضحا في حياتي. وكان رجال آخرون يعلنون عن هذه النواحي من حياتهم، لكن الأهداف العليا التي رسمتها لنفسي، جعلتني أداريها شاعرا بالعار.

بدأت أفكر بعمق وعناد في قانون الحياة الصعب، والذي هو أكثر ينابيع التوتر تدفقا. وبرغم أنني كنت أتعامل بأسلوبين فإنني لم أكن منافقا على الإطلاق.. كنت صادقا مخلصا في الناحيتين.

كنت أنا حين انغمست في النزق والعار، كما كنت أنا حين كنت أعمل نهارا في معالجة الألم والمعاناة. وكان من المصادفة أن مجال اهتماماتي العلمية ألقى بضوء على هذا الفهم الخاص للحرب الدائمة بين أجزائي المختلفة. وبدأت أتوصل إلى تلك الحقيقة.. أن الإنسان ليس واحدا في الحقيقة.. بل هو اثنان. أقول اثنين لأن معلوماتي لم تتجاوز هذا المدي. ولسوف يأتي بعدي من يجدون أن الإنسان مجموعة من الشخصيات المستقلة المتناقضة.

ومن الأيام الأولى لاهتماماتي العلمية، بدأت أفكر - كحلم يقظة جميل - في إمكانية أن أفصل الشخصيتين عن بعضهما.. هكذا تتخلص الحياة من كل ما يجعلها لا تطاق.

سيتحرر الجزء الفاسد ليعيش حياته بلا لوم من توءمه المستقيم.. ويستمر المستقيم في طريقه وعمله الخير.. ولا يثقل ضميره ما يفعله توءمه الشرير. من سوء الطالع أن هذين التوءمين يتصارعان دوما في أذهاننا.

كنت غارقا في هذه الأفكار، حين ظهر ضوء جانبي على الموضوع من منضدة المختبر. ولسببين لن أدخل في التفاصيل العلمية لاعترافي هذا.. أولا لأنني أرغمت على أن أتعلم أن أعباء حياتنا مربوطة للأبد إلى عاتقنا، فإن حاولنا الخلاص منها تسقط علينا من جديد بثقل أكبر.

ثانيا لأن قصتي ستبين أن أبحاثي كانت غير مكتملة للأسف.

يكفي أن أقول إنني حاولت أن أركب عقارا يفقد القوى التي تكون روحي سيطرتها، لتسيطر قوى أخرى أعرفها جيدا وآلفها لأنها تعبر عن عناصر أقل سموا في روحي..

ترددت كثيرا قبل أن أضع هذه النظرية محك الاختبار.. علمت أنني أجازف بالموت لكن إغراء اكتشاف فريد كهذا تغلب على الحذر.

كنت قد أعددت وصفتي، وابتعت من متجر جملة الكيماويات ملحا معينا عرفت من تجاربي أنه آخر العناصر التي أريدها.

وفي ليلة مشئومة ركّبت العناصر وراقبتها تفور ويتصاعد دخانها في أنبوب اختبار.. وحين انتهى الغليان شربت السائل بشجاعة عجيبة.

تلا هذا ألم عظيم وشعور بالطحن في عظامي.. وغثيان مميت.. ثم بدأت هذه الآلام تتلاشى بسرعة، وعدت لنفسي كأنما أعود من سقم شديد.

كان شيء غريب في حواسي.. شيء جديد لا يمكن وصفه.. ومن جدته أنه ممتع إلى حد لا يوصف. شعرت بأنني أصغر سنا وأخف وزنا.. شعرت بخفة في رأسي ومجموعة من الصور تتلاحق في خيالي.. حرية للروح مجهولة لكنها غير طاهرة..

عرفت مع أول شهيق من هذه الحياة الجديدة أنني صرت أكثر شرا.. أشر عشر مرات.. صرت عبدا لشري الخاص.. وشعرت كأنما هذه الفكرة تسكرني..

تأملت يدي جذلا بطزاجة هذا الإحساس وهنا لاحظت أن بنيتي صارت أكثر ضالة.. لم تكن هناك وقتها مرآة في مكتبي كالتي بجانبي الآن وأنا أكتب، والتي جلبتها خصيصا لأدرس ما يطرأ عليّ من تغيرات.

كان الخدم في داري نائمين، من ثم قررت - مفعما بالأمل والنصر - أن أجرب أقصى مدى في شكلي الجديد.. عبرت الباحة بينما النجوم تنظر لي. فكرت في عجب أنني أول مخلوق من هذا الطراز يتبدى لعيونها الساهرة.

مشيت عبر الردهات غريبا في داري..

وإذ وصلت حجرتي رأيت للمرة الأول منظر (إدوارد هايد).. هنا يجب أن أتكلم بشكل نظري فقط، فلا أقول ما أعرف، بل ما أعتقد أنه الأكثر احتمالا..

إن الجزء الشرير من طبيعتي الذي تحولت له الآن، كان أقل نموا وأقل عنفوانا من الجزء الطيب الذي تخلصت منه.. إن تسعة أعشار حياتي كان مخصصا للكفاح والعمل والفضيلة، لذا كان الجانب الشرير أقل تدريبا وأقل إنهاكا.. ولهذا يبدو أن (هايد) صار أقل حجما وأخف وأصغر سنا من (جيكل). وبينما كان الخير يشرق على وجه واحد فإن الشر كان مكتوبا بوضوح على وجه الآخر. لقد ترك الشر على هذا الجسد علامة من التشوه والتحلل.

وبرغم هذا كلما نظرت لهذا الوجه القبيح في المرآة لم أكن أشعر بنفور، بل بالأحرى أشعر بنوع من الترحيب. هذا أيضا كان أنا.. بدا لي طبيعيا وبشريا. بدا لي أقوى تعبيرا وأحاديا بالنسبة للسحنة المزدوجة التي اعتدت أن أعتبرها سحنتي.

ولقد لاحظت أنني حين أصير (هايد) فما من أحد يجسر على الاقتراب مني دون قشعريرة أولية غير مقصودة.. وقد قدرت أن هذا بسبب أن البشر جميعا خليط من الشر والخير.. وكان (هايد) وحده بين البشر شرا خالصا.

كانت تجربتي الثانية تنتظر.. كان على أن أعرف إن كنت قد فقدت شخصيتي بشكل لا يمكن استعادته، وعليّ أن أهرب قبل شروق الشمس من بيت لم يعد بيتي.

هرعت إلى مكتبي فأعددت القدح ثانية وشربته..

ومن جديد عاد الألم.. وعدت لنفسي بشخصية وقامة ووجه (هنري جيكل)..

في تلك الليلة وصلت إلى مفترق الطريق الخطر.

لو كنت وجدت اكتشافي بروح أكثر نبلا أو مدفوعا بنوايا شهمة، لكان كل شيء مختلفا.

لم يكن العقار شيطانا ولا ملائكيا.. فقط هز باب سجن طباعي.. ليخرج منه (إدوارد هايد).

كنت أتقدم في السن معروفا محترما.. بينما كانت رغباتي شريرة بحق.. وهذ التناقض الخطر في حياتي يزداد سوءا يوميا. هنا أغرتني قواي الجديدة حتى إنني صرت عبدا لها. لم يعد لدي خيار إلا أن أشرب السائل لأودع فورا جسد البروفيسور المحترم، وألبس عباءة (إدوارد هايد).

قمت بفرش وإعداد ذلك المنزل في (سوهو).. ووجدت لنفسي مديرة منزل أعرف أنها صموت وبلا ضمير. في الوقت ذاته أخبرت خدمي أن من يدعي المستر (هايد) - وصفته لهم - يملك الحرية الكاملة للتصرف في بيتي.. بل وزرتهم وجعلت من شخصيتي الثانية شيئا مألوفا لديهم.

ثم كتبت تلكم الوصية.. بحيث لو حدث شيء لـ (جيكل) يمكنني أن أعيش كـ (هايد) دونما خسارة مالية. وهكذا تحصنت كما تصورت، من كل جانب.. وبدأت أنتفع بالحصانة الجديدة لوضعي.

فيما مضى كان الناس يستأجرون قتلة مأجورين يقومون بجرائمهم بينما سمعتهم في مأمن.. كنت أول من فعل هذا

لمتعته الخاصة. أمشي وسط الناس محترما، ثم أنزع هذه الأشياء بلمحة بصر وأغطس في بحر الحرية.

كنت في أمان كامل.. فكر في هذا.. إنني حتى غير موجود!

دعني أعبر باب مختبري.. أعطني ثانية.. ومهما فعل (هايد) فإنه يتلاشى كبقعة بخار على مرآة.. ثم تجد في المختبر رجلا محترما يسخر من أية شبهة هو (هنري جيكل)..

إن المسرات التي بحثت عنها كما قلت كانت منحطة.. وحين كنت أعود من إحدى جولاتي كنت أشعر بدهشة من فسادي.

إن (هنري جيكل) كان يقف أحيانا مشدوها من أفعال (هايد). لكن الأمر كان لا يخضع للقوانين العادية وقد تجاوز مقاييس الضمير. كان (هايد) وحده هو المذنب.. بينما (جيكل) يعيش حياته الطيبة وربما يسارع بإصلاح ما أحدثه (هايد) من أذى..

لن أدخل في تفاصيل الحياة الشائنة التي عشتها فأنا لا أعتبر أنني كنت مسئولا عنها.

فقط أذكر حادثا عابرا من القسوة نحو طفلة سبّب حنق أحد العابرين، وقد اتضح لي فيما بعد أنه قريب لك.. وكان عليّ كي أهدئ المتجمهرين وأحفظ حياتي أن آتي بهم إلى الباب.. ثم أدفع لهم شيكا باسم (جيكل)..

لكني أفلتت من هذا الخطر سريعا إذ فتحت حسابا في مصرف مختلف باسم (هايد) نفسه.. وعن طريق إمالة يدي قليلا للوراء صار هناك توقيع لقريني هذا.

قبل مصرع سير (دانفرز) بشهرين، خرجت طلبا لبعض مغامراتي.. وعدت في ساعة متأخرة..

في اليوم التالي صحوت في فراشي شاعرا بشيء غريب.. رأيت الحجرة الفاخرة والستائر لكن شيئا ظل يقول لي إنني لست حيث يجب أن أكون. بل إني في تلك الغرفة الصغيرة في حي (سوهو) حيث اعتدت النوم في جسد (هايد).

رحت أفكر في هذا الشعور الغريب وأنا من حين لآخر أغيب في واحدة من نوبات نعاس الفجر اللذيذة، وفجأة في إحدى لحظات اليقظة نظرت إلى يدي..

إن اليد التي هي يد (هنري جيكل) كانت تبدو كيد محترف.. كبيرة بيضاء ثابتة مليحة.. لكن اليد التي أراها الآن في الضوء الأصفر لنهار (لندن) هي يد شاحبة عليها بقع كثيفة من الشعر.

كانت يد (هايد).

لا بد أنني ظللت أنظر لها نصف دقيقة، في شعور غامر بالذهول قبل أن يتملكني الرعب.. مفاجئا كأنه قرع الصنج الموسيقية. لقد استحال دمي شيئا باردا رقيق القوام.

حسن.. لقد دخلت إلى الفراش وأنا (هنري جيكل) وصحوت (إدوارد هايد).. ما تفسير هذا؟

ثم بمزيد من الرعب تساءلت عن كيفية علاج هذا..

كنا في الصباح، والخدم متيقظون، وأدويتي في المكتب.. وهي رحلة عبر سلمين خلال الفناء الخلفي.. وأن أعبر الممر الخلفي والمشرحة.

ربما كان ممكنا أن أغطي وجهي؛ لكن أي جدوى لهذا إذا كان مستحيلا أن أداري تغير قامتي؟

ثم - شاعرا براحة كبيرة - تذكرت أن الخدم اعتادوا مجيء وذهاب نصفي الآخر.. ارتديت ثيابي على قدر الإمكان.. وعبرت المنزل حيث تراجع (برادشاو) مندهشا من رؤية (هايد) في هذه الساعة وفي هذه الثياب الغريبة.

وبعد عشر دقائق كان د. (جيكل) قد عاد لمظهره وجلس يتظاهر بتناول طعام الإفطار.

كانت شهيتي معدومة.. إن هذا الحادث غير القابل للتفسير.. هذا الانعكاس في خبرتي السابقة، بدا كأنما يفقدني قدرتي على الحكم.. وبدأت أفكر في عمق في موضوع وجودي المزدوج.

لقد تدرب ذلك الجزء من ذاتي كثيرا وتغذي.. لقد لاحظت مؤخرا كأن جسد (هايد) قد صار أضخم وأكبر.. وكأنما كنت ألاحظ وأنا في شخصيته أن الدماء تجري في عروقه أكثر سخاء.. وبدأت أشعر بخطر بأنه لو طال الأمر فلربما اختل توازن شخصيتي.

ستصير شخصية (هايد) هي شخصيتي الأساسية..

لم تكن قوة العقار مطلقة، فقد خذلني مرة.. وهكذا احتجت أحيانا إلى أن أضاعف الجرعة، وأحيانا - برغم خطر الموت - إلى أن أضاعفه ثلاث مرات.. وقد ألقت هذه المرات بظلالها على رضاي عن النتائج.

إلا أني في ضوء هذه التجربة الصباحية، بدأت ألاحظ أنه لو كانت الصعوبة في البداية تكمن في الخلاص من جسد (جيكل)، فقد بدأت تتخذ وجهة أخرى.

بدأ كل شيء يشير لهذا.. كنت أفقد التحكم في جزئي الأفضل والأصلي وبدأت أندمج في جزئي الثاني الأسوأ.. وكان على أن أختار أحد الاثنين..

كان لنصفيّ ذاكرة مشتركة، لكن الخصائص الأخرى لم تكن مقسمة بالتساوي..

(جيكل) كان شخصية مركبة فيها ميل جشع، وقد شاركت (هايد) مسراته ومغامراته.. لكن (هايد) لم يكن يعبأ بـ (جيكل) لكنه يتذكره كما يتذكر لص الجبال الكهف الذي يتوارى فيه..

(جيكل) فيه اهتمام الأب.. و(هايد) فيه لا مبالاة الابن.

أن أكون (جيكل) معناه أن أفقد إشباع الرغبات التي بدأت أشبعها.. وأن أكون (هايد) معناه أن أقضي حياتي كريها محتقرا بلا أصدقاء..

إن الصفقة لا تبدو عادلة.. لكن هناك اعتبارا آخر.. لو فقدت (هايد) فإن (جيكل) سيعاني الحرمان طيلة حياته، بينما لو فقدت (جيكل) فلن يشعر (هايد) بفداحة ما فقده.

هذا صراع قديم جدا في ضمير البشرية، لكنني اخترت كما سيختار أكثر رفاقي الجزء الخيّر مني..

فضلت الطبيب المسن غير القانع الذي يحيط به الأصدقاء، وودعت التحرر إلى الأبد.. ودعت الشباب والخطوات الوثابة

والمتع الخفية التي عرفتها حين كنت (هايد)..

قمت بهذا الاختيار بتحفظ غير واع.. لأنني لم أتخل عن الغرفة في (سوهو) ولا دمرت ثياب (هايد) التي ظلت جاهزة في خزانتي..

ولمدة شهرين كنت صادق العزم..

ولمدة شهرين عشت حياة تعوضها تلك المتع التي يقبلها الضمير.

لكن مع الزمن بدأ ذعري الأول يضمحل..

بدأت تعذبني آلام الحنين والشوق.. كأنما (هايد) يقاتل من أجل استرداد حريته.

في النهاية بعد ساعة من الوهن الأخلاقي، ركّبت وابتلعت العقار.

كانت المشكلة أن هذا الشيطان بداخلي كان مقيدا لفترة طويلة، لهذا خرج من مكمنه يزأر.. كنت أدرك حتى وأنا آخذ العقار أن هناك قوة جديدة لا يمكن كبح جماحها..

لا بد أن هذه القوة هي ما حرك في روحي عاصفة نفاد الصبر التي قابلت بها الأدب الجم لضحيتي..

وأقر أمام الله أنه ما من رجل عاقل كان سيفقد صوابه أمام استفزاز بسيط كهذا.. لقد ضربت الرجل بلا تعقل كأنني طفل يحطم لعبة.

لكنني كنت قد تحررت من كل غرائز التعقل.. تلك التي يمضي بها أكثرنا سوءا ثابتا أمام الإغراءات. وفي حالتي كان خضوعي للإغراء ولو بشكل بسيط يعني السقوط..

لقد صحت روح الجحيم فيّ وثارت.. وبلمح البصر شوهت الجسد المستسلم شاعرا بالسعادة لدى كل ضربة.. واستغرقت وقتا طويلا حتى غلبني التعب، عندها فقط توقفت شاعرا برعب بارد..

إذ زال الضباب شعرت بأن حياتي قد ضاعت هباء، وفررت من مسرح الجريمة.. أرتعد..

ازدادت شهوتي للشر، فركضت إلى بيت (سوهو)، وأضرمت النيران في كل أوراقي..

ثم انطلقت في الشوارع التي تنيرها المصابيح، شاعرا برضا عن جريمتي، أصمم المزيد منها في المستقبل.. برغم هذا أسرع الركض مصغيا لأصوات خطى من يقتفون أثرى..

بعد قليل كان (هايد) يدندن أغنية بينما هو يخلط العقار ويشربه في نخب الميت.



بعد قليل كان (هايد) يدندن أغنية بينما هو يخلط العقار ويشربه في نخب الميت ..

وسرعان ما جثا (هنري جيكل) على ركبتيه دامع العينين، ورفع يديه إلى الله شاكرا.. لقد رأيت حياتي كاملة وقتها.. منذ الطفولة حين مشيت ويدي في يد أبي، ثم حياتي المهنية المنكرة

للذات، حتى وصلت - شاعرا بأن هذا كله غير حقيقي - إلى أهوال ليلتي هذه..

كدت أصرخ هلعا..

وحاولت بالدموع والدعاء أن أسكت طوفان الصور والأصوات التي راحت ذاكرتي تبثها فيّ.. وبين الدعاء كانت الصورة المرعبة لآثامي تحملق في روحي..

فلما بدأ هذا التبكيت يتلاشى، تلاه شعور بالبهجة.. لقد انتهت مشكلتي.. لقد صار (هايد) من الآن مستحيلا سواء أردت أو لم أرد.. لقد صرت مجبرا على البقاء في الجزء الطيب من ذاتي..

لقد تقبلت في تواضع قيود الحياة الطبيعية.. أوصدت الباب الذي اعتدت أن أخرج وأدخل منه وهشمت المفتاح..

في اليوم التالي جاءت أخبار أن الجرم شوهد، وأن ذنب (هايد) واضح للعالم.. وأن القتيل كان معروفا عالي القدر. لم تكن جريمة بل كانت حماقة مأساوية.

أعتقد أنني سررت لمعرفة هذا.. لقد صار (جيكل) هو ملجئي.. دع (هايد) يخرج رأسه لثانية واحدة ولسوف تبرز أيادي القوم كي تقبض عليه وتقتله.

أزمعت في المستقبل أن أتحرر من الماضي. ويمكن القول بأمانة إني نجحت إلى حد ما.

أنت تعرف كيف كانت الشهور الأخيرة من العام الأخير من حياتي.. لقد عملت جاهدا على تخفيف معاناة الناس وأنت

تعرف هذا.. تعرف أنني فعلت الكثير للآخرين وأن أيامي كانت هادئة.

لا يمكن القول إنني تعبت من تلك الحياة الطاهرة النافعة. وأعتقد بدلا من هذا أنني نعمت بها حقا. لكنني كنت برغم هذا مثقلا بالازدواجية، فلما بدأ ندمي السابق يضعف بدأ الجزء المنحط مني، والذي وجد نفسه مكبلا بالأصفاد في الفترة الأخيرة، بدأ يزأر طالبا الترخيص له بالانطلاق.

كلا لم أفكر في إحياء (هايد).. إن تلك الفكرة كانت ستسلمني للجنون..

كان الأمر يتعلق بشخصي أنا.. لقد تصرفت كخاطئ عادي يعيش خطاياه سرا، وسهولة سقطت فريسة الإغراء.

هناك نهاية لكل شيء.. وأي وعاء مهما كان واسعًا يمتلئ في النهاية..

لقد أدى استسلامي للشر إلى إفساد توازن روحي.. وبدا لي السقوط طبيعيا.. كأنه عودة للأيام القديمة قبل أن أكتشف هذا الكشف.

كان يوما صافيا من شهر يناير حيث ذاب الجليد تحت قدمي، لكن لا غيوم في السماء. وكانت حديقة (ريجنت) مفعمة بأصوات طيور الشتاء وروائح الربيع.

جلست في الشمس على مقعد بينما الحيوان في داخلي يلعق لحم الذاكرة.. والجزء الروحي مني قد صار خاملا يعد بالتوبة لكنه لا يتحرك.

رحت أقارن نفسي بالجالسين حولي.. أقارن عزيمتي الصادقة مع خمولهم..

في هذه اللحظة انتابتني نوبة من تأنيب الضمير.. شعرت بغثيان مروع ورجفة عاتية.. ثم زالت الرجفة وبدأت ألاحظ تبدلا في طباعي.. المزيد من الجرأة.. احتقار للخطر.. تحرر من الالتزام..

نظرت لأسفل فوجدت أن ثيابي تتدلي بلا شكل حول أطرافي الضامرة..

اليد التي على ركبتي مجعدة مشعرة..

لقد صرت من جديد (إدوارد هايد)..

منذ لحظة كنت آمنا محترما محبوبا.. الآن صرت مطاردا بلا بيت.. وقاتلا معروفا تطاردني المشانق.

اهتز صوابي لكنه لم يخذلني تماما.. لقد لاحظت في شخصيتي الثانية أن طباعي مرهفة، مرنة.. ولعل هذا هو السبب في أنه حين عجز (جيكل) عن الاستمرار، تولي (هايد) المسئولية..

أدويتي كانت في مكتبي، فمن أين لي أن أحضرها؟ كانت هذه المشكلة التي أوشكت معها أن أهشم صدغي بين كفي..

لقد أوصدت باب المختبر، ولو حاولت الدخول من الباب الرئيسي لأمسك بي خدمي واقتادوني إلى المشنقة.. كان عليّ أن ألجأ لشخص آخر.. وفكرت في (لانيون)..

لكن كيف أصل إليه؟ كيف أصل إلى مكانه؟ وكيف لي - وأنا زائر مجهول غير مريح - أن أكشف له عن كشف زميله ومنافسه (جيكل)؟

هنا تذكرت أن شيئا بقى لي من شخصيتي الأصلية، وهو القدرة على الكتابة بنفس الخط.

وهكذا صار الطريق واضحا أمامي..

قمت بترتيب ثيابي قدر ما استطعت، وركبت (هانسوم) عابرة.. وانطلقت إلى فندق في شارع (بورتلاند).

كان شكلي مضحكا برغم أن هذه الثياب تداري مأساة حقيقية، فلم يستطع السائق أن يخفي ضحكته. ضغطت على أسناني ونظرت له بنوع من الغضب الشيطاني ففرت البسمة من وجهه.. وهذا من حسن حظه وحظي أيضا.. لأنه في ظروف أخرى كنت كفيلا بأن أجره من مقعد السائق لأقتله.

دخلت الخان بسحنة كئيبة جعلت الموجودين يرتجفون فرقا.. لم يتبادلوا نظرة واحدة في محضري..

نفذوا أوامري واقتادوني لغرفة خاصة.. حيث قدموا لي ما أكتب عليه.

كان (هايد) المدافع عن حياته مخلوقا جديدا بالنسبة لي.. يهزه غضب غير عادي.. نهما كي يؤلم الآخرين..

لكن المخلوق كان برغم هذا عاقلا يتحكم في غضبه بإرادة قوية.. كتب خطابين أحدهما لـ (لانيون) والآخر لـ (بول).. وأرسل الخطابين مع تعليمات صارمة بأن يتم تسجيلهما..

جلس طيلة اليوم في الغرفة الخاصة، يقضم أظفاره.

هناك تناول العشاء وجلس وحده مع مخاوفه..

وفي المساء انطلق في عربة أجرة مغطاة تذرع شوارع المدينة..

لا أستطيع القول إن طفل الجحيم هذا كان لا يملك أية صفة بشرية.. لا شيء فيه إلا الخوف والمقت..

هاتان العاطفتان تضطربان في صدره كالعاصفة..

في النهاية حين شعر أن السائق مرتاب، قام بصرف العربة ومشي على قدميه.. ملفتا للنظر بثيابه الواسعة الغريبة..

مشي بسرعة تطارده مخاوفه.. يتوارى في الشوارع الأقل ازدحاما.. يعد الدقائق التي تفصله عن منتصف الليل..

ذات مرة كلمته امرأة.. تعرض عليه على ما أذكر علب ثقاب.. لكمها في وجهها ففرت هلعا..

حين عدت لنفسي في دار (لانيون)، ربما أثر فيّ رعب صاحبي نوعا..

لقد طرأ عليّ تغير.. لم أعد أخشى المشنقة.. بل كنت أخشى أن أصير (هايد) ثانية..

وكأنني في حلم سمعت استنكار (ليون) لتجربتي، وكأنما في حلم عدت لداري وفراشي.. نمت بعد إرهاق النهار نوما عميقا لم تستطع حتى الكوابيس الكثيرة أن تفيقني منه..

وفي الصباح نهضت واهنا لكني كنت منتعشا.

ما زلت أمقت فكرة الوحش الذي ينام داخلي.. ولم أنس مخاطر اليوم الفائت.. لكني كنت في داري قريبا من أدويتي.

كنت أمشي في الفسحة بعد الإفطار أنهل الهواء البارد في نهم.. حين شعرت فجأة بتلك الأحاسيس التي لا يمكن وصفها والتي تسبق التحول.

لم أجد الوقت الكافي إلا للدخول إلى مكتبي حتى بدأت من جديد أتلوى برغبات (هايد)..

احتجت في هذه المرة إلى جرعة مضاعفة كي أعود إلى نفسي..

لكن للأسف! بعد ست ساعات وأنا جالس أرمق النار، بدأت الآلام من جديد.. واستعملت العقار من جديد..

باختصار في الأيام التالية صار من الصعب جدا، وبمعونة العقار فقط، أن أحتفظ بالدكتور (جيكل)..

صار من الممكن في أية لحظة.. بل إذا غفوت قليلا في مقعدي أن أنهض غالبا لأجد أنني قد صرت (هايد)..

ونتيجة لهذه اللعنة المستمرة والأرق الذي حكمت به على نفسي، أكثر مما ظننت ممكنا للإنسان.. صرت بالفعل إنسانا منهكا أفرغته الحمى من محتواه.. واهنا في العقل والجسد.. ولا يفكر إلا في شيء واحد.. الخوف من ذاتي الأخرى..

يبدو أن قوى (هايد) كانت تنمو على حساب (جيكل).. ويبدو أن كراهية متبادلة نشأت بينهما.

من ناحية (جيكل) كان الأمر غريزيا، فهو قد رأى تشوه المخلوق الذي يقاسمه بعض مظاهر الوعي.. وسوف يموت معه.

كان يفكر في (هايد) بكل قدراته على الحياة، باعتباره شيئا جهنميا وغير مادي.. والأسوأ أن هذا الشيء المخيف هو أقرب إليه من صديق أو زوجة.. إنه تحت جلده.. وهو ينتظر أية لحظة كي يبرز ويزيحه هو من الصورة..

بينما كان كره (هايد) لأسباب مختلفة.. كان مضطرا للاستعانة بـ (جيكل) كي يهرب من المشنقة، وكان يعرف أنه مكروه..

لهذا كان يعبث بي.. يخط البذاءات والهرطقات على هوامش كتبي.. يحرق خطاباتي.. يدمر صورة أبي.. ولو لم يكن يخاف الموت لقتل نفسه كي يقتلني معه..

لكن حبه للحياة مذهل..

حين أفكر في تشبثه المذهل بالحياة.. وفي خوفه الشديد من أن أحاول في لحظة قنوط أن أقتل نفسي كي أزيله من الوجود.. عندها أشعر نحوه ببعض الشفقة.

لكن مشكلتي الحقيقية هي أن مخزوني من الملح الذي لم أجدده منذ بدأت تجاربي، بدأ ينفد.

أرسلت طلبا للمزيد منه ومزج الخليط.. بدأ الفوران.. وعلى الفور شربته لكنه كان بلا جدوى..

لسوف تعرف من (بول) كيف أنني نقبت لندن كلها..

كل هذا كان بلا جدوى، وإنني لأعتقد الآن أن ما جربت من ملح أولا كان غير نقي، وهذه الشوائب المجهولة هي التي أنجحت التجربة..

مر أسبوع، وهأنذا أنهى آخر هذه الأوراق تحت تأثير ما بقى لدي من ملح..

هذه آخر مرة - ما لم تحدث معجزة - يفكر فيها (جيكل) أفكاره الخاصة أو يرى وجهه في المرآة..

لقد وجب أن أنهي قصتي، لأنه لو حدث التحول الآن فلن تنجو هذه الأوراق من التدمير إلا بمعجزة. لأن (هايد) بأنانيته المذهلة سيمزقها شر ممزق.

والحقيقة أن المصير المظلم الذي يطبق علينا، قد آذاه كما آذاني..

بعد نصف ساعة من الآن حين أصير من جديد - وللأبد - هذه الشخصية الكريهة.. أعرف كيف سأجلس باكيا في مقعدي أو أنهض وأذرع هذه الغرفة (آخر ملجأ لي على الأرض) جيئة وذهابا متربصا لأي صوت مهدد من الخارج..

هل يموت (هايد) على المشنقة؟ أم يجد الشجاعة لينقذ نفسه في اللحظة الأخيرة؟

الله وحده يعلم.. أما أنا فلا أهتم.. هذه هي لحظة موتى الحقيقية.. وما سيحدث بعد هذا هو من شأن شخص آخر سواي.

الآن إذ أضع القلم وأنهي اعترافي، إنما أضع نهاية لحياة ذلك التعس (هنري جيكل).

ر. ل. ستيفنسون - 1886

ثمة تغيرات غير مفهومة قد طرأت على د. (جيكل) الرجل المهذب المحبوب.. لماذا يوصي بكل ما يملك للمستر (هايد)؟.. لماذا يثق بذلك الرجل ثقة عمياء؟. لماذا يعطيه مفتاح داره ومختبره؟.. لماذا يتستر على جرائمه جميعا؟.. ومن هو ذلك المستر (هايد)؟.. ولماذا ظهر فجأة ليملأ شوارع (لندن) الضبابية رعبا وتوجسا.

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- مضرب مثل في الصداقة والوفاء.. (دامون) قدم نفسه للسجن والإعدام بدلا من صديقه (بيتياس) إلى أن ينهي هذا الأخير بعض أعماله.. وقد عاد (بيتياس) لصديقه قبل الإعدام كما وعد..

[←2]

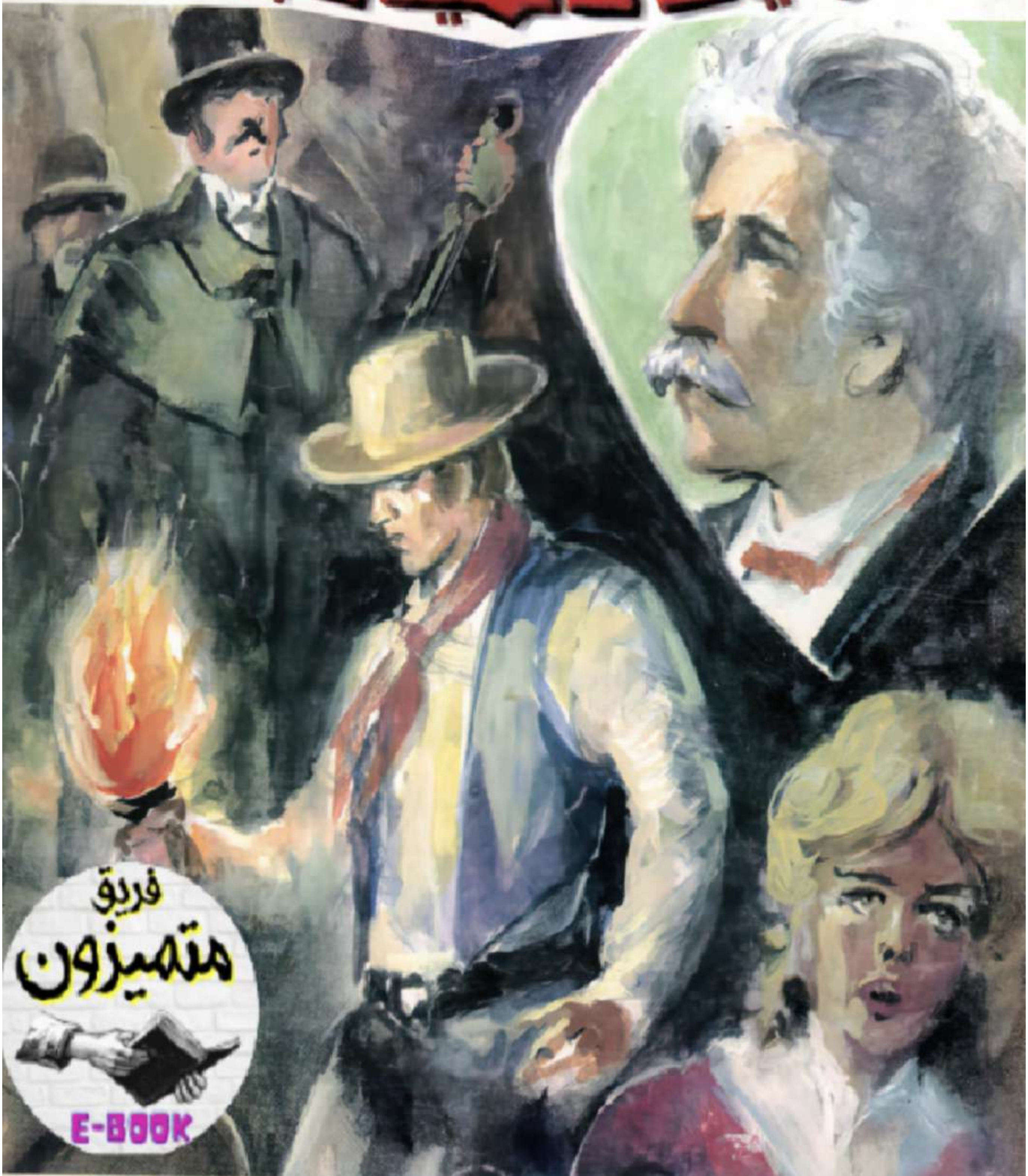
- هذا لعب بالألفاظ.. فـ (هايد) معناها (يختبئ)، و(سيك) معناها (يبحث).. و(هايد أند سيك) هي لعبة الاستغماية عندنا..

[←3]

- هي عربة بحصان وذات عجلتين يركب سائقها في المؤخرة، واسمها نسبة لمصممها (هانسوم).

روايات عالمية للجيب

49



حكايات مارك توين

بقلم : مارك توين

ترجمة وإعداد :

د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (49)

حكايات مارك توين

بقلم: مارك توين

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

تكلمنا بشيء من التفصيل عن (مارك توين) في الكتيب رقم 18 من سلسلة (فانتازيا)، وأغلب الظن أن من يقرءون الكتيب الحالي قد قرءوا الكتيب الآخر؛ لكننا – من أجل من جاءوا متأخرين - نحكى بعض الأشياء عن أهم وأعمق وأظرف أدباء أمريكا.. وهذا الكلام، ليس من عندي، ولكن سبق أن قاله الأديب الأمريكي العظيم (إرنست هيمنجواى).

(صمويل لانجهورن كليمنس) هو الاسم الأصلي له.. ولد في ولاية (ميسوري) في نوفمبر عام 1835، وسرعان ما انتقلت أسرته إلى قرية (هانيبال) التي خلدها في الأدب الأمريكي، وتوفي أبوه وهو في سن العاشرة، ليبدأ الصبي كفاحه المضنى من أجل البقاء، وهو الكفاح الذي رسم كل خط في أدبه فيما بعد.. وأكثر شخصيات كتبه مارست الوجود فعلا وقابلها في مشوار حياته الشاق..

عمل الصبي عامل طباعة، ثم استجاب لحلم قديم طالما راوده، هو أن يعمل على قارب بخاري في نهر (المسيسبي)، وكانت له مع النهر قصة حب خلدها في كتابه (الحياة على المسيسبي)..

بعد هذا حارب في أثناء الحرب الأهلية عام 1861، وهي بدورها خبرة لم ينسها قط: الحرب هي قتل مجموعة من الأغراب الذين لا تشعر نحوهم بأي عداء، ولو قابلتهم في ظروف أخرى لقدمت لهم العون أو طلبته منهم..

بعد انتهاء الحرب عمل في الصحافة في جريدة محلية بـ (فرجينيا)، واتخذ اسم (مارك توين) وهو مصطلح بحري معناه (علّم على اثنين) يعود لأيام الملاحة في (المسيسبي)..

كانت حياة (مارك توين) سلسلة من المصائب؛ فهو الطفل المشاغب الذي لا يقول إلا ما يريده مهما كان قاسيا أو مريرا، لذا ظفر بعداء الجميع.. وهو الاقتصادي الفاشل الذي يطارده الإفلاس في كل لحظة، وهو البائس الذي رأى أخاه يحترق فوق سفينة في البحر، حتى إن شعره شاب في دقائق بعدها.. ولم تكن هذه آخر مآسي حياته.

لقد مات ابنه الأول، وتوفيت أعز بناته، وتوفيت زوجته وكان لهذا أثره العجيب في أدبه؛ لقد ازداد سخرية.. سخرية مريرة قاسية، ولسان يصعب إسكاته مهما حاولت، وبرغم هذا كله كان (توين) يحتفظ بالآراء الأكثر صراحة وقسوة لنفسه، وكان يكتب في كل موضوع كتابين: كتابا يخفيه في درجه، وكتابا يعرضه على الناس..

وكانت شعبية (توين) تتزايد حتى إنه من الكتاب القلائل الذين كانوا يقدمون حفلات قراءة جماعية، يشترى الناس التذاكر لها، فقط كي يجلسوا في مسرح كبير ليصغوا إلى (توين) وهو يتلو ما كتبه..

إن قصصه هي مرآة صادقة شفافة للمجتمع الأمريكي.. شفافة إلى درجة أنها صارت عالمية، وغدا الناس جميعا يستمتعون بحق بأدب هذا الأديب العظيم، مهما تباينت ثقافاتهم وألسنتهم..

وفي عام 1910 توفي (توين)، بعدما رأى - في نفس الليلة - مذنب (هالي) يشق السماء، وهو ذات المذنب الذي شق السماء ليلة ولادته، وبشكل ما كان (توين) يتوقع ويرجو أن يمتد به الأجل حتى يراه مرة ثانية وأخيرة!

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

أهم كتب (مارك توين)..

- الضفدع الوثاب من مقاطعة (كالافيراس) (1865).
- أبرياء بالخارج (1869).
- مغامرات توم صوير (1876).

متشرد بالخارج (1880).

- الأمير والفقير (1882).
- الحياة على المسيسبي (1883).
- مغامرات هاكلبري فان (1884).
- شمالي في بلاط الملك آرثر (1889).
- نحو خط الاستواء (1897).
- الرجل الذي أفسد (هادلبرج) (1899).
- صلاة الجندي (1905).

☆ ☆ ☆

المصادر:

- ديل كارنيجي: الخالدون. مطبوعات كتابي (3).

- فؤاد دوارة: هكذا كتبوا. الدار المصرية للتأليف والترجمة يونيو 1966.

- شبكة الإنترنت.

☆ ☆ ☆

ملحوظة:

يمكن للأصدقاء المهتمين بقراءة (مارك توين) بالإنجليزية أن يجدوا أكثر وأهم أعماله على عناوين الإنترنت التالية:

http://www.ibiblio.org/gutenberg/cgi-bin/sdb/t9.cgi/ 19.cgi

http://www.gutenberg.org/index/by-author/tw0. html

الرجل الذي أفسد (هادلبرج)

-1-

منذ أعوام طويلة، كانت (هادلبرج) أكثر المدن استقامة وأمانة في المنطقة.. وقد حافظت على هذه السمعة بلا تلوث لمدة ثلاثة أجيال. وكانت البلدة فخورا بهذه السمعة إلى حد أنها كانت تعلم الأمانة لأجيال من أطفالها الرضع في المهد.

ظلت الإغراءات بعيدة عن هؤلاء القوم، مما جعل أمانتهم تزداد صلابة وقوة.. وكانت البلدان الأخرى تغار من هذا التفوق.. وان راحت تقول إن هذا كله أمر تافه. لكن الجميع أجمع على أن (هادلبرج) مدينة غير قابلة للإفساد.. وأن قول أي شاب إنه من (هادلبرج) حين يفارقها بحثا عن الفرص، يعني قبوله في أي وظيفة.

لكن حدث أن (هادلبرج) تسببت في مضايقة غريب عابر.. والسبب هو أن (هادلبرج) كانت بلدة مكتفية ذاتيا.. ولم تبال لحظة بآراء الأغراب.. وإن كان من الحكمة عمل استثناء لهذا الغريب بالذات؛ لأنه كان من الطراز الذي يحتفظ بالمرارة في قلبه ويحب الانتقام، وقد أمضى عاما كاملاً يفكر في طريقة الانتقام.. وكانت أفضل خططه تؤذي على الأكثر عددا غفيرا من الناس.. لكنه كان يريد خطة تؤذي البلدة كلها، فلا يفر منها أحد.. في النهاية ظفر بفكرة موفقة..

قال لنفسه وهو يضحك ضحكة شيطانية:

- هذا هو ما سأفعله.. سأفسد أخلاق البلدة..

بعد ستة أشهر، ذهب إلى (هادلبرج).. وصل إلى بيت محاسب المصرف حوالي الساعة العاشرة مساء.. كان يحمل حقيبة يتعثر بها وهو يقطع الفناء الخلفي للكوخ، ثم قرع الباب..

جاء صوت امرأة يقول:

- تعال..

فتح الباب ودخل ليضع حقيبته جوار الموقد، ثم قال للعجوز التي تقرأ (مؤرخ الإرساليات) جوار المصباح:

- هل لي أن أقابل زوجك لدقيقة يا سيدتي؟

- لا.. إنه في (براكستون) ولن يعود إلا في الصباح..

- لا مشكلة يا مدام.. فقط أريد أن أترك هذه الحقيبة المغلقة بالأختام ليعطيها لمالكها الأصلي حين نجده.. أنا مجرد غريب.. ومهمتي الآن قد تمت في فخر ورضا.. سوف أرحل ولن تسمعي عنى ثانية، وكل شيء مشروح بالتفصيل في المذكرة المثبتة على الحقيبة..

كانت المرأة خائفة من الغريب، لكن حين رحل غلبها الفضول ففتحت المذكرة:

- هذه الحقيبة تحوي عملات ذهبية وزنها 160 رطلاً وأربع أوقيات [1]..

هرعت المرأة - مسز (رتشاردز) - تغلق الباب والستائر وأصغت قليلا إلى صوت اللصوص ثم عادت تقرأ المذكرة:

- أنا غريب.. ولسوف أعود إلى وطني، لكنى مدين لـ (أمريكا) بما حصلت عليه وأنا تحت علمها.. لقد قدمت لي (هادلبرج) خدمتين..

الأولى هي أنني كنت مقامرا.. أقول (كنت).. وصلت القرية ليلا جائعا مفلسا.. كنت خجلاً من أن أتسول، لكنى فعلت ذلك في الظلام.. وكان هناك رجل أعطاني عشرين دولارا.. بمعنى آخر أعطاني الحياة.. لأنني بهذا المال قامرت وكونت ثروة وبدأت حياة جديدة.

ومع العشرين دولارا، أعطاني نصيحة خالدة لم أنسها قط.. لكني لن أقامر ثانية.

أنا لا أعرف هذا الرجل، لكني أريد أن تجدوه.. وأن يأخذ هذا المال ليصرفه أو يبدده أو يدخره كما يريد.. أنا مطمئن إلى أمانة هذه البلدة، وأعرف أن بوسعي الثقة بها.. يمكنكم أن تجدوا هذا الرجل عن طريق ملحوظة قالها لي في تلك الليلة..

أقترح أن تجروا التحريات بشكل شخصي.. اكتبوا محتويات هذه الرسالة لكل من تعتقدون أنه الرجل الذي ساعدني.. فإذا جاء من يقول إنه هو الرجل، فاسألوه عن الملحوظة التي قالها لي.. إنها مكتوبة في المظروف داخل الحقيبة.. لو كانت هي الملحوظة ذاتها فالرجل هو.. أما لو فضلتم أن تعلنوا الأمر، فانشروا الرسالة في الجريدة..

واطلبوا من المرشح أن يظهر في قاعة اجتماعات البلدة في الثامنة مساء يوم الجمعة بعد ثلاثين يوما من الآن، ويقدم ملحوظته في خطاب مغلق موجه إلى المحترم مستر (بيرجس) - لو وافق كريما على المشاركة - ودعوه يحطم الأختام ويفتح

الحقيبة، ليرى إن كانت الملحوظة صحيحة.. فإن كانت صحيحة أعطوا المال لصاحبه مع جزيل شكري..

جلست مسز (رتشاردز) ترتجف من الإثارة..

- فقط لو كان زوجي هو الرجل المحظوظ.. نحن فقيران.. فقيران ومسنان..

ثم تنهدت وقالت:

- لكن ليس عزيزي (إدوارد) من يفعل هذا.. ليس هو من يعطى غريبا عشرين دولارا.. لكن هذا مال قمار.. نقود خطيئة! لا نستطيع أن نلمسها.. لا أريد أن أكون بجوارها..

وابتعدت عن الحقيبة:

- أتمنى لو جاء (إدوارد) وأخذها إلى المصرف.. فلو أن لصا جاء الآن.. من المرعب أن أكون هنا مع هذه الأموال..

عاد زوجها في الحادية عشرة ليقول لها:

- أنا متعب جدا.. أنا مجرد عبد لرجل آخر.. وهو مستريح في بيته يلبس خفيه الدافئين..

- أنا حزينة من أجلك.. لكن على الأقل لدينا اسمنا الطيب..

نعم يا (ماري).. هذا كل شيء.. اغفري لي.. بالمناسبة.. ما الذي في هذه الحقيبة؟

حكت له زوجته القصة كاملة.. فشعر بالدوار وقال:

- ماذا نفعله؟ هل نجري مخابرات شخصية؟ لا.. أعتقد أنه لا بد من إعلان الأمر.. سيجعل هذا كل القرى الأخرى تشعر

بالغيرة.. لأنه ما من غريب يتهور هكذا إلا مع (هادلبرج).. يجب أن أذهب إلى الجريدة الآن.

- لا.. لا.. لا تتركني هنا مع هذه يا (إدوارد)..

لكن زوجها كان قد ابتعد.. وبعد خطوات قابل رئيس تحرير الجريدة فناوله المذكرة..

قال الرجل:

- ربما تأخرنا يا مستر (رتشاردز).. لكن سأرى..

عاد الرجل لزوجته.. وكان النوم مستحيلاً لأن السؤال المهم كان هو: من في البلدة يمكن أن يعطى عشرين دولارا لغريب.. لم تكن هناك إلا إجابة واحدة:

- باركلي جودسان.

- الجميع يعرف هذا.. منذ ستة أشهر حتى الآن والبلدة أمينة.. تحافظ على ممتلكاتها.. بخيلة..

- هذا هو ما كان يقوله..

- ولهذا كان الجميع يكرهه..

- نعم.. لكنه لم يبال.. كان أفضل رجل مكروه بيننا.. باستثناء المحترم مستر (بيرجس)..

- كان (بيرجس) يستأهل هذا.. ولن يحتشد له المصلون ثانية.. لكن أليس غريبا أن يختار الغريب (بيرجس) لتسليم المال؟

- (ماري).. ربما يعرفه الغريب خيرا مما تعرفه القرية.. ليس الرجل سيئا..

أصابت زوجته الدهشة:

- هراء!!

- أعرف أنه ليس سيئا.. لكن نقص شعبيته يعود إلى شيء واحد.. الشيء الذي أحدث كل هذه الضوضاء..

- شيء واحد حقا!! كأن هذا الشيء غير كاف..

- (ماري).. أؤكد بشرفي أنه كان بريئا.

- لا أصدق هذا وليس بوسعي.. فكيف تعرف؟

- يخجلني أن أعترف.. كنت الرجل الوحيد الذي عرف أنه بريء.. كان بوسعي إنقاذه لكني لم أجرؤ.. كان الكل سينقلب ضدي.. لم يكن لديّ من الرجولة ما يكفي لهذا.

فكرت الزوجة قليلا.. كان الصراع مريرا لكنها حسمته وقالت:

- كنت سأمنعك على كل حال.. لكن ترى كيف يفكر فينا الآن؟

- هو؟ هو لا يشك لحظة في أنه كان بوسعي إنقاذه حين كانت القصة جديدة ملتهبة، وكانت البلدة ستضعه على قضيب قطار وتطرده [2]، لم يسمح ضميري بهذا.. لهذا توجهت إليه وأنذرته.. من ثم غادر البلدة.. فترة كافية حتى هدأت الأمور وعاد..

- لو أن أحدا عرف..

- كنت أموت رعبا من هذه الفكرة، ولهذا لم أخبرك حتى لا يفتضح الأمر على وجهك.. بعد فترة أيقنت أن أحدا لن يشك فيّ، وبدأت أشعر بالسعادة من أجل ما فعلت.

عادا ثانية إلى لغز حقيبة الذهب.. وبدأت المحادثة تعاني من وقفات ومقاطعات بسبب التفكير العميق.. في النهاية غرق (رتشاردز) تماما في التفكير وتدريجيا بدأ يرتب أفكاره..

في نفس الوقت كانت زوجته غارقة في الصمت، وبدا عدم الراحة على حركاتها.

فجأة نهض زوجها فاعتمر قبعته، كأنما هو رجل يمشي في أثناء النوم، وغادر المنزل.. بينما جلست زوجته مكتئبة وكأنما لم تشعر قط أنه غادر المنزل.. ومن حين لآخر تغمغم:

- لكننا فقيران جدا.. من سيتأذى لو؟ لن يعرف أحد ولكن...

ثم أفاقت من غيبوبتها ونظرت لأعلى ثم قالت في مزيج من الرعب والسرور:

- رحل! لكن لربما تأخر.. لربما تأخر كثيرا.. ربما لا.. ربما هناك وقت..

ووقفت تفكر وتطبق يديها وتفكهما.

ركعت جوار الحقيبة وراحت تتحسس جوانبها في حب.. بينما ظهر بريق في عينيها العجوزين البائستين.. وكانت من حين لآخر تغيب عن العالم وتردد من دون انقطاع:

- لو أننا فقط انتظرنا.. لو انتظرنا ولم نكن متعجلين بهذا الشكل..

في الوقت ذاته عاد (كوكس) رئيس التحرير لداره وأخبر زوجته بالقصة، واتفقا على أنه لا يوجد إلا رجل واحد في البلدة يمكن أن يعطى غريبا عشرين دولارا هو (جودسان)..

ظلت الزوجة شاردة قليلا ثم قالت كأنما تكلم نفسها:

- لا أحد يعرف بهذه القصة سوانا.. سوانا وآل (رتشاردز)..

خرج الزوج من شروده وحملق في زوجته بكآبة، ثم نهض في تردد ونظر لقبعته.. ثم لزوجته في نوع من التساؤل الصامت. ابتلعت الزوجة ريقها وبدلاً من الكلام هزت رأسها.. بعد لحظة صارت وحدها تكلم نفسها.

الآن يهرع (كوكس) و(رتشاردز) عبر الشارع المقفر من اتجاهين مختلفين..

تقابلا لاهثين عند درج مكتب الطباعة.. وفي ضوء الليل الخافت قرأ كل منهما وجه صاحبه

همس (كوكس):

- لا أحد يعلم بهذا سوانا؟

جاء الرد الهامس:

- ولا مخلوق.. بشرفي.. ولا مخلوق

- ألم يتأخر الوقت كي..

كانا يصعدان في الدرج، هنا قاطعهما صبي، فسأل (كوكس):

- هل هذا أنت يا (جوني)؟

- نعم يا سيدي..

- لا تشحن البريد.. لا تشحن أي بريد.. انتظر حتى أخبرك..

- لقد ذهب يا سيدي..

- ذهب؟

كان في صوته رنين من خيبة الأمل التي لا توصف..

- نعم يا سيدي.. لقد تغير الجدول الزمني لـ (بركستون) وكل البلدان القريبة..

لم يتكلم أي الرجلين لعشر دقائق.. ثم قال (كوكس):

- ماذا جعلك تتعجل بهذا الشكل؟

كانت الإجابة بسيطة بما يكفي:

- الآن أرى ذلك.. لكن لم أفكر قط حتى فات الأوان.. لكن المرة القادمة..

- فلتذهب المرة القادمة للجحيم! لن تتكرر الفرصة ولو بعد مليون سنة..

ثم افترق الصديقان دون تحية المساء، وجرا نفسيهما كأنما هما رجلان منيا بفقد حبيب.. وفي كل بيت وثبت الزوجة صائحة: حسن؟

ثم إنها رأت الإجابة على وجه زوجها.. من ثم غاصت في المقعد شاعرة بالأسى.

وفي كل بيت دارت مناقشات أكثر خشونة والتهابا..

قالت مسز (رتشاردز):

- لو أنك فقط انتظرت.. لو توقفت لتفكر.. لكن لا.. لا بد من أن تجرى إلى مكتب الجريدة وتنشر الخبر للعالم كله..

- كانت المذكرة تطالبني بالنشر.

- لا.. قالت تصرف بشكل شخصي لو أردت.

- ربما.. لكني فكرت في الصخب الذي ستحدثه القصة، والفخر الذي ستجلبه لـ (هادلبرج)..

- أعرف هذا.. لكن لو أنك فقط توقفت لتفكر.. لعرفت أن الرجل المعنى ميت في قبره بلا وريث.

ولما كان المال سيذهب إلى من يريده بقوة.. ولما كان أحد لن يتعذب..

ثم انفجرت في البكاء فراح الزوج يبحث عما يهدئها..

- لقد كان هذا مكتوبا أن..

- مكتوبا.. كل شيء مكتوب؟ حين يبحث المرء عن مخرج لغبائه.. لم لا تفكر في أنه كتب لنا أن نحظى نحن بهذا المال؟ ومن أعطاك الحق في تفسير إرادة السماء؟

كان هذا خطأ.. كان هذا تفسيرا تجديفيا..

- لكنك تعرفين يا (ماري) أننا تدربنا.. حتى صارت طبيعة ثانية لنا في هذه القرية ألا نتساءل حين يكون هناك شيء يتعلق

بالأمانة.. وها نحن أولاء نرى كيف تصدعت هذه الأمانة الصناعية عندما برز أول إغراء حقيقي.

- (إدوارد).. أنا مؤمنة أن أمانة هذه البلدة متعفنة مثل أمانتي.. مثل أمانتك.. إنها بلدة منحطة.. بخيلة.. بلا أية فضيلة سوى هذه الأمانة المزعومة.. أعترف لك بأنني مخادعة.. كنت كذا طيلة حياتي دون أن أعرف..

- حسن يا (ماري).. أنا أشعر بالشيء ذاته.

وساد الصمت.. في النهاية قالت الزوجة:

- أعرف فيم تفكر يا (إدوارد)..

بدا عليه الخجل وسمت من ضبط متلبسا.. فقالت:

- لا مشكلة.. كنت أفكر في الشيء ذاته..

- ليكن.. قوليها..

- كنت أفكر ماذا لو أن أحدا خمن محتوى المذكرة في الحقيبة.. تلك التي تحوى الملحوظة التي قالها (جودسان) للغريب.. سنقف مراقبين حتى يفتح المصرف في الصباح ونضع الحقيبة فيه.. الآن لندخل الفراش..

- لننام؟

- بل لنفكر..

في الوقت ذاته كان آل (كوكس) قد فرغا من الجدل، وراحا يفكران في عمق في محتوى الملحوظة التي قالها (جودسان) للغريب.. الملحوظة التي تساوى أربعين ألف دولار..

أما السبب الذي جعل مكتب البرق في البلدة مفتوحا حتى هذه الساعة، فهو أن مندوب جريدة (كوكس) كان يمثل وكالة (أسوشيتد برس) هنا.. نقصد أنه يمثلها فخريا لأنه لم يكن ينجح إلا أربع مرات في العام في كتابة ثلاثين كلمة تقبلها الوكالة.. لكن هذه المرة كان الأمر يختلف.. لقد أرسلت له الوكالة تقول: أرسل القصة كاملة.. كل شيء.. 1200 كلمة.

شعر الرجل بأنه أكثر الرجال فخرا في العالم..

وفي الصباح التالي كان اسم (هادلبرج) - المدينة التي لا يمكن إفسادها - على كل لسان في الولايات المتحدة..

وراح الناس يتناقشون حول الغريب وحقيبة الذهب.. وعن الكلمات المذكورة في الرسالة.

☆ ☆ ☆

-2-

صحت (هادلبرج) لتجد نفسها شهيرة.. مذهولة..

وخرج مواطنوها التسعة عشر الأهم يتصافحون.. يبتسمون.. ويقولون إن قواميس اللغة الإنجليزية ازدادت كلمة جديدة هي (هادلبرج) بمعنى (نزيه)..

ركض الجميع إلى المصرف ليروا الحقيبة.. ثم بدأ الصحفيون يأتون ليروا الحقيبة ويكتبوا عنها من جديد.. والتقطوا الصور للكنيسة وقاعة الاجتماعات حيث سيتم الاختبار.. التقطوا صورا للجميع حتى (جاك هاليداي) الصياد مرح الطباع قليل الكبرياء.. صديق الأطفال والكلاب الضالة..

كل الوجوه كانت تبدى رضا حالما.. وسعادة علوية ثم بدأ التغيير.. ببطء شديد.

ربما ما كان أحد ليلاحظ التغيرات.. ما عدا (جاك هاليداي) الذي كان يلاحظ كل شيء.. لقد بدأ يلقى ملحوظات ضاحكة عن الناس الذين لا يبدون بذات السعادة كما كانوا أمس.. في النهاية أعلن أن الناس يبدو عليهم الهم والشرود وانشغال البال..

في كل فراش كان أحد أعلام البلدة يقول لزوجته شاردا:

- ترى ما هي الملحوظة التي قالها (جودسان)؟

فتهز زوجته رأسها وتقول:

- لا تفعل.. ترى أية أشياء مريعة في ذهنك؟ أبعد الفكرة عنك بالله عليك..

ويتكرر الأمر في الليلة الثانية والثالثة.. هنا تبدأ الزوجات في الاعتراض بصوت أضعف فأضعف.. ثم تأتى الليلة التي يقلن فيها:

- فقط لو استطعنا التخمين..

ويوما بعد يوم كانت سخرية (هاليداي) لا تطاق.. لكنها كانت الضحكة الأخيرة في البلدة المهمومة التي لم تعد فيها بسمة واحدة..

وهكذا مرت ثلاثة أسابيع ولم يبق إلا أسبوع واحد.

كان هذا يوم السبت بعد العشاء.. لكن شوارع المدينة كانت خالية بدلا من المرح والتسوق.

لقد جلس (رتشاردز) وزوجته العجوز في الردهة.. تعيسين يفكران.. لقد صارت هذه عادتهما.. لقد ماتت ونسيت عادتهما القديمة ليلاً في الحياكة والقراءة والثرثرة الراضية أو زيارة الجيران.. لم يعد أحد يتكلم أو يزور الجيران.. كل القرية تجلس قلقة صامتة في البيوت.

تلقى (رتشاردز) رسالة فنظر لها نظرة عابرة.. ثم ألقى بها على المنضدة وعاد إلى آماله المحبطة.. بعد ثلاث ساعات تعبت زوجته وتأهبت للذهاب إلى الفراش دون مساء الخير.. ثم رأت الخطاب فرمقته بلا اهتمام.

وكان زوجها جالسًا حين سمع صوت ارتطام.. هرع ليرى ما هناك، لكن زوجته صاحت:

- دعني وشأني.. أنا سعيدة جدا.. اقرأ الخطاب.. اقرأه..

وفعل.. التهم الخطاب وعقله يتسارع.. كان الخطاب من ولاية بعيدة.. وكان يقول:

- أنا غريب بالنسبة لكما لكن هذا لا يهم.. لقد وصلت لوطني من المكسيك، وعرفت بهذه القصة.. أنتما طبعا لا تعرفان من قال تلك الملحوظة، لكني أعرف.. أنا الوحيد الذي يعرف.



التهم الخطاب وعقله يتسارع .. كان الخطاب من ولاية بعيدة ..

لقد كان هذا (جودسان).. لقد عرفته جيدا منذ أعوام.. لقد مررت بقريتكم في تلك الليلة وكنت ضيفه حتى جاء قطار

منتصف الليل.. سمعته يذكر تلك الملحوظة للغريب في الظلام.. كان هذا في زقاق (هال)..

لقد تكلم (جودسان) عن بلدتكم وعنكم.. وقد ذكر الجميع بالسوء فيما عدا ثلاثة كانت نبرته حسنة نوعا بخصوصهم..

أقول (حسنة نوعا).. لا شيء أكثر.. هؤلاء الثلاثة أنت ضمنهم.. قال إنك في يوم ما أديت له خدمة عظيمة.. وإنك لم تكن تعرف قيمتها، وإنه لو كان يملك ثروة لتركها لك ولترك اللعنة لكل القرية.

إذن أنت وريثه الشرعي.. ومن حقك أن تحصل على الذهب.. وأنا أعهد فيكم آل (هادلبرج) الأمانة والصدق، لذا سأذكر لك تلك الملحوظة وأنا مطمئن إلى أنه لو لم تكن أنت، فإنك ستبحث عن الرجل المقصود..

الملحوظة التي قالها (جودسان) هي: أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار.. اذهب وأصلح نفسك..

هوارد ل. ستيفنسون..

صاحت الزوجة:

- آه يا (إدوارد)! أنا سعيدة جدا.. لقد أردنا هذا. إن المال لنا.. والآن أنت حر من (بنكرتون) ومصرفه.. لم تعد عبدا لأحد.. أشعر بأنني أطير فرحا..

وجلس الزوجان شاعرين بسعادة لم يظفرا بها منذ أيام الخطبة.. فقد صارت حياتهما روتينا ثابتا لا يتغير حتى جلب الغريب المال.. وقالت الزوجة:

- أوه.. كم أن هذا حظ حسن أنك أديت هذه الخدمة لـ (جودسان) المسكين.. لم أحبه قط لكني أحبه الآن.. ومن الجميل أنك لم تذكر هذا المعروف قط أو تتباهي به..

قال (إدوارد) مرتبكا:

- م م م.. (ماري).. أنت ترين..

- كف عن الغمغمة واحك لي يا (إدوارد).. الكل يؤمن أنه كانت هناك روح واحدة كريمة في هذه القرية، والآن يتضح لي أن هذه الروح هي أنت.. لماذا لا تقول لي؟

- لكن يا (ماري).. لا أقدر..

- لماذا لا تقدر؟ لماذا لا تقدر؟

- لأنه جعلني أقسم ألا أتكلم.

نظرت له في حدة:

- جعلك تقسم؟ لم تخبرني بهذا؟

- وهل تحسبينني أكذب؟

وضعت يدها على رجله وقالت:

- لا.. لا.. لقد ابتعدنا عن طبائعنا كثيرا فليحمنا الله من هذا.. أنت لم تكذب في حياتك.. لكن أشياء كثيرة تتهاوى من تحت أقدامنا الآن..

كان (إدوارد) شارد الذهن.. لأن عقله كان يحاول تذكر أية خدمة قدمها لـ (جودسان) على الإطلاق..

وهكذا ظلا ساهرين.. (ماري) سعيدة مشغولة.. (رتشاردز) مشغول لكنه ليس سعيدا.

هل سبق له أن أدي خدمة لـ (جودسان)؟ بالطبع.. هناك كلمات (جودسان) نفسه.. هي الدليل الذي لا يدحض.. إذن قد استقرت هذه النقطة.

لكن (ستيفنسون) كاتب الرسالة لم يكن واثقا تماما مما إذا كان (رتشاردز) هو من قدم الخدمة.. بل إن الأول واثق من أن (رتشاردز) لو لم يكن هو المقصود فلسوف يذهب ليبحث عن مقدمها الحقيقي.

نقطة أخرى: كيف ظل اسم (رتشاردز) في ذهن (ستيفنسون) كل هذه الأعوام ولم يخلطه باسم آخر؟ هذا جميل.. كلما دققت في الأمر وجدت أن هذا دليل كاف على أن (رتشاردز) هو من قدم الخدمة.

هكذا قرر أن يتخلص من التفكير في هذه المسألة..

إنه مستريح الآن.. لكن هناك مشكلة أخيرة تلح عليه.. بالطبع هو قد قدم خدمة.. هذا مؤكد.. لكن ماذا كانت الخدمة؟

يجب أن يتذكر وألا يخلد للنوم قبل أن يتذكرها.. لذا فكر وفكر.. لم يبد له أي احتمال معقولا.. لم يبد له أي شيء يستحق المال الذي تمنى (جودسان) أن يتركه له..

ما نوع الخدمة التي تجعل رجلا ممتنا إلى هذا الحد؟ إنقاذ روحه! لابد أنه كذلك..

تذكر كيف حاول ذات مرة أن يغير شخصية (جودسان)، وكم جاهد لهذا.. بدا له أنه حاول ثلاثة أشهر.. لكن إذ فكر ثانية وجد أنها فترة شهر.. ثم أسبوع.. ثم يوم.. ثم لا شيء..

لقد تذكر الآن أنه نصح (جودسان) لكن الأخير نصحه بأن يذهب إلى الجحيم ولا يتدخل فيما لا يعنيه..

إذن.. هذا الاقتراح فاشل.. إنه لم ينقذ روح (جودسان)..

بعد قليل خطرت له فكرة أخرى.. هل أنقذ ممتلكات (جودسان)؟ لا.. لم يكن لدى الرجل ممتلكات..

هل أنقذ حياته؟ لا.. وإلا لكان تذكرها..

لكنه على الطريق الصحيح.. إن عقله يعمل بأفضل كفاءة له الآن..

لذا - خلال ساعتين من التفكير المضنى - كان ينقذ حياة (جودسان).. لقد أنقذها بكل السبل الممكنة.. وفي كل مرة كان ينقذ الرجل بشكل جيد، ثم إذ يقنع نفسه بأن هذا حدث فعلا، كان يقابل تفصيلا عسيرا يجعل الأمر مستحيلاً.

مثلاً بالنسبة للغرق، كان يغطس في الماء ويجذب (جودسان) إلى الشط بينما جمهور غفير يهلل ويصفق.. لكن ما إن يبدأ في تصديق أن هذا قد حدث، كانت مجموعة تفاصيل مزعجة تبرز له.. كانت المدينة ستعرف القصة.. وكانت (ماري)

ستعرفها.. كان سيذكر كل التفاصيل بدلاً من أن تكون الذكرى خدمة عظيمة لم تكن تعرف قيمتها..

وهنا تذكر أنه لا يستطيع السباحة على كل حال..

لحظة.. هناك نقطة تناساها أو نسيها.. لابد من أن تكون الخدمة خدمة عظيمة.. ولكنه لم يعرف قيمتها.. هذا سيسهل البحث..

منذ أعوام كاد (جودسان) يتزوج فتاة حسناء حلوة اسمها (نانسي هويت).. لكن لسبب ما لم يتم التوافق، وماتت الفتاة وبقي (جودسان) عزبا.. وبمرور الوقت اكتسب المرارة واحتقار الجنس البشري.. قبل موت الفتاة وجد أهل البلدة أو ظنوا أنهم وجدوا بعض الدم الزنجي في عروقها.. وخيل لـ (رتشاردز) أنه هو من وجد هذا الدم الزنجي.. وخيل إليه أنه أخبر القرية.. وأن القرية أخبرت (جودسان) وبهذا نجا من الزواج بالفتاة.. وبهذا يكون قد أسدى له خدمة عظيمة.. ولكنه لم يعرف قيمتها.. بل في الواقع دون أن يعرف أنه أسداها.. لكن (جودسان) عرف وذهب إلى القبر راضيا راغبا في ترك ثروة لمنقذه.. كل هذا واضح، وكلما فكر فيه بدا له أكثر وضوحا..

وهكذا حين أخلد لفراشه كان يذكر الأمر كأنما حدث أمس.. بل إن خياله صور له (جودسان) يشكره على هذه الخدمة..

في الوقت ذاته أنفقت (ماري) ستة آلاف دولار على بيت جديد لها، ثم نامت..

في ذات الليلة أوصل ساعي البريد تسعة عشر خطابا لمواطني البلدة المرموقين.. ولم يتماثل مظروفان.. ولم تتماثل الخطابات بالداخل.. لكن الصيغة كانت واحدة.. وكلها بتوقيع (ستيفنسون).. وقد فعل الجميع ما فعله (رتشاردز)..

حاولوا تذكر أية خدمة قاموا بها لـ (جودسان).. بينما كانت الزوجات ساهرات ينفقن المال.. لقد أنفقت الزوجات 130 ألف دولار معا.

وفي الصباح لاحظ (هاليداي) رضا الزوجات وسرورهن.. ولم يجد تفسيرا لهذا.

حين قابل مسز (ولكوكس) لاحظ النشوة الهادئة في عينيها.. فسأل نفسه:

- هل رزقت قطتها بقطيطتين؟

وسأل الطباخ عن هذا، فلم يكن شيء من هذا.. لقد لاحظ الطباخ سعادتها وإن لم يجد لها سببا.

وحين رأى السعادة المزدوجة على وجه (شادبلي بيلسون)، تأكد من أن أحد جيرانه قد كسر رجله.. لكن البحث أخبره أن هذا لم يحدث.

أما السعادة على وجه (شيلبي) فكانت تقول بوضوح إن حماته ماتت.. لكن هذا كان خطأ آخر.

أما (بنكرتون).. فقد بدا كأنما عثر على عشرة سنتات حسب أنها ضاعت.. لكن لا.. وهكذا.. وهكذا.

في النهاية قال (هاليداي) لنفسه:

- من المؤكد أن هناك تسعة عشر مواطنا يحلقون في السماء.. لا أعرف السبب..

كان هناك بنّاء من الولاية المجاورة، قد أنشأ لنفسه عملاً في هذه القرية غير الواعدة.. ولافتته معلقة منذ أسبوع.. لم يأته زبون واحد.. وكان الرجل من الطراز سريع القلق، وقد ندم على أنه اختار هذه القرية.. لكن الآن تغيرت الأمور.. لقد جاءت له أكثر من زوجة اليوم تقول له:

- تعال إلى دارنا يوم الاثنين.. لكن لا تقل شيئا لأحد.. نحن نفكر في البناء..

تلقى إحدى عشرة دعوة اليوم.. في هذه الليلة كتب لابنته وطلب أن تفسخ خطبتها مع خطيبها.. قال إنها تستطيع أن تظفر بعريس أعلى مقاما بميل كامل.

فكّر آل ويلسون في شيء جديد تماما: حفل راقص جميل.. لم يخبرا أحدا بالحقيقة لكنهما قالا إنهما يفكران.. لو أقمنا هذا الحفل فلسوف ندعوكم حتما..

وقال الناس بعضهم للبعض: هذان مجنونان.. ليس لديهما المال الكافي لهذا..

بعض الناس لم يكتفوا فقط بالحلم بالإنفاق، بل أنفقوا فعلاً، واشتروا بيوتا، وأثاثا وثيابا وجيادا.. ثم بدأ نوع من القلق على الوجوه، وهو شيء لم يستطع (هاليداي) فهمه:

- قطيطات آل (ولكوكس) لم تمت لأنها لم تولد قط.. لم تنقص الحموات.. ولم يكسر أحد رجله.. لم يحدث شيء.. فماذا استجد؟

كان هناك رجل آخر متحير هو المحترم (بيرجيس).. لأيام بدا له أنه كلما ذهب لمكان كان الناس يقتفون أثره ويراقبونه.. وكلما وجد نفسه وحده كان رجل يدنو منه ليدس مظروفا في يده ويقول:

- يفتح في قاعة الاجتماعات مساء الجمعة..

ثم يختفي كأنه مذنب.. كان يتوقع أن يكون هناك من يطالب بالحقيبة.. وإن كان يشك فى هذا لأن (جودسان) مات، لكنه لم يتوقع أن يوجد كل هؤلاء المطالبين.

وحين جاء اليوم المحدد كان معه تسعة عشر مظروفا..

☆ ☆ ☆

-3-

لم تبد قاعة الاجتماعات في المدينة بهذا البهاء من قبل..

لقد تمت تغطية المنصة في نهايتها بالأعلام، ومتباعدة على الجدار كانت زينة من الرايات.. والأعمدة ملفوفة بالأعلام، كل هذا لإبهار الغرباء والصحافة.

كان المكان مزدحما.. تم احتلال الـ 412 مقعدا مثبتا والـ 68 مقعدا إضافيا والتي وضعت في الممر بين المقاعد.. وكذا وضعت مقاعد على الدرجات.. وعلى المسرح تراصت بعض المقاعد على شكل حدوة حصان، جلس عليها المراسلون شديدو الأهمية والذين جاءوا من كل صوب..

كانت النساء في ثياب باهظة الثمن نوعا، وإن بدا على النسوة اللاتي يلبسنها أنهن غير مستريحات كأنما لم يعتدن هذا.. وربما نشأ هذا الانطباع من عدم اعتياد البلدة على رؤية هاته النساء في ثياب كهذه من قبل..

تم وضع حقيبة الذهب على منضدة صغيرة فوق المنصة حيث يراها الكل..

راح الكل ينظر لها باهتمام مشتعل.. اهتمام شغوف يسيل لعابه.. اهتمام كئيب حزين.. إلا أن هناك تسعة عشر زوجا كانوا ينظرون لها في رفق وحب.. وراح الذكور منهم يرددون في سرهم الخطب المرتجلة التي سيشكرون بها التصفيق والتهاني التي سيتلقونها حالاً..

ومن آن لآخر كان كل واحد منهم يخرج ورقة صغيرة من جيبه ليراجع ما بها منعشا ذاكرته..

كان هناك كلام كثير، لكن حين نهض المحترم (بيرجس) ووضع يده على الحقيبة، كان بوسعه أن يسمع صوت الميكروبات وهي تمضغ طعامها.. فقد ساد المكان صمت تام.

حكى قصة الحقيبة الغريبة.. ثم راح يتكلم عن (هادلبرج) بحرارة.. التي عرفت بالأمانة والصدق.. وعن أن هذه السمعة هي مفخرة البلدة الوحيدة.. السمعة التي هي كنز لا يقيّم بمال.. والذي جعلته العناية الإلهية أكثر أهمية.

وبالتالي صارت البلدة رمزا دائما للنزاهة غير القابلة للإفساد (تصفيق).

- ومن هذا اليوم إلى يوم الدين، سيكون كل منكم مسئولاً عن نفسه وحارسها.. هل يقبل كل واحد فيكم هذه الثقة الغالية؟ (موافقة صاخبة).. إذن كل شيء بخير..

انقلوا هذه الرسالة لأطفالكم وأطفال أطفالكم.. اليوم نقاؤكم فوق الشبهات.. فتأكدوا من أن يبقى كذا.. اليوم ليس بينكم من يرغب في أن يلمس قرشا لا يخصه.. تأكدوا من أن يبقى الأمر كذلك.. كونوا على هذا الشرف مقيمين.. (سنفعل! سنفعل!).. ليس هذا هو المكان المناسب لنقارن أنفسنا بالآخرين.. بعض هذه المجتمعات ينظر لنا بغلظة.. إن لهم طريقهم ولنا طريقنا.. لنكن بذلك قانعين.. (تصفيق).. لقد انتهى كلامي يا أصدقاء، وتحت يدي الآن اعتراف فصيح لرجل غريب عن مجتمعنا بما في هذا المجتمع من فضائل.. وبفضله سيعرف العالم للأبد من

نحن.. لا أعرف اسم هذا الغريب لكنى باسمكم أعلن له امتناننا.. وأطلب أن ترفعوا أصواتكم بالتأييد..

نهض الجميع مهللين واهتزت الجدران بالشكر لفترة لا بأس بها.

ثم جلس الجميع ومد المحترم (بيرجس) يده إلى جيبه وأخرج منه قصاصة من ورق..

راح يقرأ ببطء وبشكل مؤثر على حين راح الجالسون يصغون في شبه غيبوبة إلى هذه الوثيقة السحرية، التي تساوى كل كلمة منها سبيكة ذهب.

- الملحوظة التي قلتها للغريب المكروب هي: أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار.. اذهب وأصلح نفسك..

ثم قال:

- الآن سنعرف ما إذا كانت هذه الملحوظة هي نفس تلك الموجودة في الحقيبة.. فإذا ثبت هذا - وهو كذلك – فسوف تكون هذه الحقيبة ملكا لمواطن من مواطنينا، سوف يصير من الآن رمزا للفضيلة التي جعلت بلدتنا شهيرة في أرجاء الأرض.. مستر (بيلسون)!!

تأهب الجميع للانفجار في نوبة من التصفيق، لكن على عكس هذا بدا كأنما الشلل ضرب الجميع..

ساد الصمت العميق لدقيقة.. ثم تعالت موجة من الهمسات عبر المكان.. كلها بهذا المعنى تقريبا:

- (بيلسون)؟ هلم! هذه خدعة مفضوحة.. يعطى عشرين دولارا لغريب؟ (بيلسون)؟

ثم لاحظوا شيئا آخر.. لاحظوا أنه في طرف القاعة وقف (بيلسون) وقد حنى رأسه.. وعلى الجانب الآخر وقف المحامي (ويلسون) في الوضع ذاته..

استدار الرجلان وتبادلا النظر.. وسأل (بيلسون):

- لمَ تقف يا مستر (ويلسون)؟

- لأن لي الحق في ذلك.. ربما تتفضل أنت وتشرح للجميع لماذا تقف أنت؟

- بسرور يا سيدي.. لأنني كتبت هذه الورقة..

- هذا تزييف وقح! أنا كتبتها بنفسي.

هنا جاء دور (بيرجس) ليصيبه الشلل..

لقد وقف ينظر نظرة خاوية إلى أول الرجلين، ثم للآخر.. ولم يدر ما يفعله.

قال المحامي:

- أنا أسأل رئيس الجلسة أن يقرأ الاسم الموقع به على الورقة..

هكذا عاد لرئيس الجلسة وعيه، وقرأ الاسم:

- (جون أنتوني بيلسون).

- هكذا! ماذا بوسعك قوله الآن؟ وأي اعتذار يمكنك تقديمه لي ولهذا الاجتماع على التدليس الذي جربته الآن؟

- لا اعتذارات يا سيدي.. وإنني لأنهمك علنا بالسطو على مذكرتي التي كانت مع مستر (بيرجيس)، واستبدال نسخة وقعت عليها أنت بها.. لا توجد طريقة أخرى يمكنك بها تخمين ما جاء في مذكرتي.. أنا وحدي من بين الأحياء أعرف سر الكلمات..

كان من الممكن أن تحدث فضيحة، وقد لاحظ الجميع أن كتاب الاختزال كانوا يدونون هذا كله بسرعة كالمجانين.. كان الكثير يصرخون (مقعد.. مقعد!!)..

طرق المحترم (بيرجس) بمطرقته وقال:

- دعونا لا ننس مقتضيات اللياقة.. لقد حدث خطأ لكن هذا كل شيء.. لو كان مستر (ويلسون) قد أعطاني مظروفا وأنا أذكر الآن أنه فعل، فهو مازال معي..

ثم مد يده في جيبه، وأخرج خطابا وفتحه.. ثم نظر فيه مذهولا قلقا.. لوح بيده بطريقة ميكانيكية مندهشة، وحاول أن يقول شيئا ثم استسلم فتعالت الأصوات:

- قل شيئا.. اقرأه!

لذا بدأ يتكلم كمن يسير في أثناء النوم:

- الملاحظة التي قلتها للغريب التعس هي: أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار تماما.. اذهب وأصلح نفسك..

ودوت الصيحات: غريب! مذهل! ما معنى هذا؟

قال (بيرجس):

- إن عليها توقيع مستر (ويلسون)!

هنا صاح (ويلسون):

- هذا ينهى الأمر.. كنت أعرف أن مذكرتي قد سرقت..

قال (بيلسون):

- سرقت؟ سأعلمك كيف أنه لا أنت ولا أي شخص من نوعك يمكن أن يجرؤ على...

صاح رئيس الجلسة:

- النظام أيها السيدان.. النظام! أرجو أن تجلسا!

كان الجميع في ذهول، عندما نهض (تومسون) صانع القبعات.. كان يتمنى لو كان من التسعة عشر محظوظا، لكن رصيده من تجارة القبعات لم يؤهله ليكون مرموقا.. قال:

- سيدي.. هل لي أن أقترح أن كلا السيدين على حق؟

لربما قال كلاهما ذات الكلمات للغريب...

هنا نهض الدباغ الذي كان حاد الطباع وقال:

- طبعا.. هذا قد يحدث مرتين في كل مائة عام.. لكن المستحيل هو أن يعطى أي منهما عشرين دولارا لغريب!

وتعالى التصفيق

قال الدباغ:

- الآن سيدي هناك شيء أكيد.. أحد هذين الرجلين كان يتلصص على الآخر ويسترق السمع لأسراره العائلية.. وليس في اقتراحي هذا ما يمس الروح البرلمانية بسوء.. إنني أرى أن كليهما جدير بهذا.. وأرى أنه لو كان أحدهما قد سمع الآخر يحكي القصة لزوجته، فسوف نعرف هذا الآن..

جاء صوت يسأل:

- كيف؟

- سهل.. كلاهما لم يذكر الملحوظة بنفس الكلمات.. كنتم ستلاحظون هذا لولا المشاجرات بين الورقتين..

- ما هو الفارق؟

- كلمة (تماما).. فلو أننا فحصنا الورقة في الحقيبة لعرفنا مَن مِن هذين الدجالين.. **(الهدوء يا سادة.. الهدوء)**.. من من هذين المغامرين.. **(النظام يا سادة.. النظام)**.. من من هذين السيدين **(ضحك وتصفيق)**.. يستحق أن يكون أول نصاب عديم الأمانة ينشأ في مدينتنا.. التي ستصير جحيما له من الآن فصاعدا!

مد المحترم يده في الحقيبة وأخرج منها مظروفين مغلقين.. وقال:

- أحد هذين يقول: لا يُفحص إلا بعد قراءة كل المطالبات المقدمة للرئيس.. الآخر كتب عليه: الاختبار.. كُتب في الورقة: لا أريد الدقة الكاملة في نصف الملاحظة الأول التي قالها لي المحسن.. لأن كلامها غير مهم ويسهل نسيانه.. لكن الكلمات الخمس عشرة الأخيرة مهمة جدا.. وما لم يذكر لك هذه الكلمات

الأخيرة بدقة يمكنكم اعتبار المطالب نصابا.. لقد بدأ المحسن إليّ بأن قال إنه لا يعطي النصائح إلا فيما ندر.. لكن نصائحه عظيمة القيمة حين يعطيها.. والنصيحة التي قالها لي لن أنساها أبدا: أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار تماما..

هنا تعالت الأصوات:

- هذا يسوى الأمر.. (ويلسون)! (ويلسون)! خطبة.. خطبة!

هنا دق الرئيس على المنضدة وصاح:

- نظاما يا سادة! النظام! دعوني أكمل!

وحين عاد الهدوء واصل القراءة..

- اذهب وأصلح نفسك.. تذكر كلماتي.. لأن خطاياك ستجعلك تموت وتذهب إلى الجحيم أو إلى (هادلبرج).. حاول أن تختار الخيار الأول.

ساد صمت عميق.. ثم بدأت سحابة من الغضب تخيم على الجالسين.. ثم بدأت السحابة تعلو، وبدأ شعور من الابتهاج، بدا كأنما كان يتوارى بصعوبة عظيمة..

وحنى الغرباء والصحفيون رءوسهم، وأخفوا وجوههم بأيديهم، وحاولوا التماسك بقوة لا يمكن وصفها.

ثم فجأة انفجر الجميع في الضحك، وحتى المحترم (بيرجس) لم يستطع التماسك أكثر.. واعتبر الحضور أنفسهم وقد تم إعفاؤهم من الرسميات، وقرروا الاستمتاع بهذه المزية إلى أقصى حد.. وكان ضحكا طويلاً لذيذا أنهاه المحترم (بيرجس).. الذي وجد هذه الكلمات الجادة:

- لا جدوى من مداراة الحقيقة.. هذه المسألة عظيمة الخطر.. إنها تعني شرف بلدتنا.. إنها تصفع سمعتنا.. إن اختلاف الكلمات بين مستر (ويلسون) و(بيلسون) لأمر خطير لأنه يعني أن أحد هذين السيدين أو كليهما ارتكب جريمة سرقة..

كان الرجلان يجلسان معدومي الحيلة، لكن سماع هذه الكلمات جعل الكهرباء تسري فيهما، فقال الرئيس:

- اجلسا..

فأطاعا..

- المشكلة الآن أن شرفيهما معا في خطر.. هل أتمادى فأقول إنهما في خطر لا فكاك منه؟ كلاهما لم يذكر الكلمات بالغة الأهمية..

ثم صمت حتى يستجمع الصمت تأثيره، وأضاف:

- هناك طريقة واحدة يحدث بها شيء كهذا.. إنني أسأل السيدين عما إذا كان بينهما تواطؤ؟

ودوى صوت الناس يقولون:

- قد ظفر بهما معا..

لم يكن (بيلسون) معتادا على الطوارئ لذا جلس معدوم الحيلة، لكن (ويلسون) كان محاميا.. فهب شاحبا قلقا وقال:

- إنني أطلب مهلة حتى أشرح هذه القضية الأليمة. يؤسفني أن أقول ما سأقول لأنه سيسبب أذى لا يمكن إصلاحه لمستر (بيلسون) الذي طالما قدّرته واحترمته. والذي آمنت دوما بأنه

أقوى من أي إغراء.. لكن إنقاذا لشرفي يجب أن أتكلم.. وأعترف ببعض العار أنني قلت للغريب كل ما ذكر في ورقة الاختبار.. وحين قرأت الخبر في الجريدة قررت أن أطالب بحقيبة الذهب، فهذا حقي تماما.. يجب أن تفهموا أن امتنان الغريب لي ليلتها لم يعرف حدودا.. لقد قال لي ليلتها إنه مستعد كي يرد جميلي ألف مرة.. لكني لم أتصور قط أن يضعني في موقف حرج كهذا.. يجعلني أردد كلمات تسيء لمجتمعي أمام قومي.. في هذا الاجتماع الكريم؟ كان هذا مستحيلاً.. كان المفترض أن يحوي اختباره فقط الكلمات المهذبة التي بدأت بها كلامي.. لو كنتم مكاني لتوقعتم الشيء ذاته.. لن تتوقعوا هذه الخيانة والإساءة.. لهذا بكل أمانة كتبت على ورقتي الكلمات الخيّرة الأولى التي تنتهي بـ (اذهب وأصلح نفسك..) ثم ناداني أحدهم فتركت الورقة قبل أن أضعها في مظروف..

ثم استدار ونظر ببطء إلى (بيلسون) وانتظر لحظة ثم قال:

- أطالبكم بأن تلاحظوا هذا.. حين عدت لمكتبي كان مستر (بيلسون) يغادر بابي..

في لحظة كان (بيلسون) على قدميه يصرخ:

- هذه كذبة.. كذبة مشينة!!

قال الرئيس:

- اجلس.. مستر (ويلسون) هو الذي يتكلم الآن..

وشد أصحاب (بيلسون) الرجل وأجلسوه.. بينما قال (ويلسون):

- تلكم هي الحقائق البسيطة.. وحين عدت للمكتبة كانت المذكرة في موضع مختلف.. لكني لم أعلق أهمية على هذا.. إن احتمال أن يقرأ (بيلسون) خطابات الآخرين أمر لم يرد لي ببال.. لأنه كان رجلاً شريفا.. والآن أنا الرجل الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يقول لكم محتوى الورقة بشكل شريف.. لقد انتهت كلمتي..

لا شيء في العالم مثل خطبة جيدة يقدر على إرباك الجهاز العقلي وإفساد عواطف جمهور غير مدرب على حيل الخطابة.

وقد جلس (ويلسون) راضيا عن نفسه بينما ارتجت القاعة بموجات التصفيق..

وراح الأصحاب يصافحونه مهنئين، بينما صرخوا في (بيلسون) ولم يسمحوا له بكلمة واحدة.

صاح المحترم:

- ولكن دعونا نستمر يا سادة.. نستمر..

في النهاية ساد صمت معقول.. وقال صانع القبعات:

- وبم نستمر يا سيدي؟ لم يبق إلا تسليم المال..

وتعالت صيحات الناس:

- هذا حق.. تقدم يا (ويلسون).. تقدم..

وحمل بعض المتحمسين (ويلسون) على أعناقهم وتأهبوا لحمله إلى المنصة.. هنا تعالي صوت الرئيس:

- النظام! عودوا لمقاعدكم.. أنتم تنسون أن هناك ورقة يجب أن تقرأ...

ثم تذكر فقال:

- نسيت.. ليس من حقي أن أقرأ هذه الورقة قبل مطالعة كل المطالبات..

ثم مد يده لجيبه وأخرج ورقة.. نظر فيها بعناية.. بدا عليه الذهول.. فصاح الناس:

- ماذا هنالك؟ تكلم..

قال:

- الملاحظة التي قلتها للغريب هي: أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار.. اذهب وأصلح نفسك.. توقيع مستر (بنكرتون) مدير المصرف..

تحرر جحيم المرح من عقاله، حتى أوشك الناس على البكاء.. والصحفيون لم يعودوا يكتبون إلا (نبش فراخ) لا يمكن قراءته في هذا العالم.. وهب كلب أفزعته كل هذه الضوضاء فراح ينبح.

وتصايح الناس:

- نحن أثرياء!! رمزان للنزاهة!! حتى لو لم نحص (بيلسون)!

- يا لـ (ويلسون) البائس! لقد كان ضحية لصين!!

هنا تعالى صوت المحترم يأمر بالصمت، وأخرج ورقة جديدة وراح يقرأ:

- الملاحظة التي.... وأصلح نفسك.. توقيع مستر (جريجوري بيتس)..

دوت الأصوات كالإعصار:

- أربعة رموز للنزاهة!!

نهض بعض الرجال التسعة عشر متجهين لممر الخروج، لكن الأصوات تعالت:

- **أغلقوا الأبواب!!** لن يغادر أي رجل نزيه هذه القاعة!!

- الملاحظة التي.... وأصلح نفسك.. توقيع مستر (سانجرز)..

ثم:

- الملاحظة التي.... وأصلح نفسك..

- من؟ من؟

- (نيكولاس وتورث)!

وراح الرجال يرتجلون أغنية لشرف (هادلبرج) الذي لا يهتز..

- هلم.. استمر في القراءة.. نحن ننال شهرة لا حد لها!

هنا نهض اثنا عشر رجلاً محتجين وقالوا إن هذه المهزلة أعدها مهرج منبوذ.. وهي إهانة لكل المجتمع.. بالتأكيد كل هذه التوقيعات مزورة.

- اجلسوا واخرسوا! أنتم تعترفون! سنجد أسماءكم في هذه الأوراق!!

نهض (رتشاردز) البائس ممسكا بيد زوجته.. كان رأسها محنيا حتى لا يرى أحد أنها تبكى، وبصوت متحشرج قال:

- أصدقائي.. أنتم عرفتمونا جيدا أنا وامرأتي.. طيلة حياتنا.. وأحسبكم أحببتمونا..

قاطعه رئيس الجلسة:

- اسمح لي.. كل ما تقول حقيقي.. هذه المدينة تحبكما.. تحترمكما.. تعرفكما..

هنا صاح (هاليداي):

- لو كان هذا صحيحا فليعلن الجميع هذا.. هلموا.. أعلنوا هذا!!

نهض الجميع وواجهوا الزوجين العجوزين وتطايرت المناديل في الهواء كعاصفة جليدية.. هنا واصل المحترم الكلام:

- ما أردت قوله يا مستر (رتشاردز) أننا نعرف طيبة قلبك.. لكن ليس هذا هو الوقت المناسب لممارسة الإحسان تجاه المخطئين.. أنا أرى قصدك الطيب لكن لا يمكنك أن تطلب الرحمة لهؤلاء الرجال..

- لكنى كنت...

- أرجو أن تأخذ مقعدك يا سيدي.. يجب أن نفحص باقي الأوراق.. فهذا أبسط عدل بالنسبة للرجال الذين تم كشفهم..

فمتى تم هذا أعدك بأن نسمع ما تريد قوله..

جلس الزوجان.. وهمس الزوج في أذنها

- من المؤسف أن نضطر إلى الانتظار.. سيكون العار أكبر حين يعرفون أننا كنا فقط نتوسل لأنفسنا!!

- الملاحظة التي.... وأصلح نفسك.. توقيع مستر (روبرت تيمارش)..

- الملاحظة التي.... وأصلح نفسك.. توقيع مستر (أوسكار وايلدر)..

- الملاحظة التي.... وأصلح نفسك.. توقيع مستر (إليفالت ويكس)...

وهكذا راح اسم بعد آخر يتلى.. وراح الناس يقضون وقتا ممتعا ما عدا التسعة عشر البائسين.

وراح (رتشاردز) البائس ينتظر اسمه في رعب ويعد الأسماء..

اللحظة التي ينهض فيها ليكمل كلمته قائلاً:

- حتى اللحظة نحن لم نقترف خطأ.. مضينا في طريقنا واعتدنا الفقر.. بلا ولد يعيننا.. لقد تعرضنا للإغراء فزللنا.. الآن أنهض وأتوسل لكم ألا يقرأ اسمي في هذا المكان العام.. هذه المرة الأولى التي أسمع فيها اسمي يلفظ من شفتين ساخرتين.. كونوا رحيمين بنا واجعلوا عارنا أقل ثقلاً..

همست (ماري) له:

- انتبه.. اسمك هو القادم.. لقد قرأ ثمانية عشر اسما..

بحث المحترم (بيرجس) في يده لدقيقة.. ثم قال:

- يبدو أنني قرأتها جميعا..

سقط الزوجان في مقعديهما وقد كادا يفقدان الوعي من السرور، وقالت (ماري):

- سبحان الله! لقد فُقدت ورقتنا.. ما كنت لأستبدل بهذا ألف حقيبة ذهب!

بينما تعالت الأناشيد لأمانة (هادلبرج) والثمانية عشر رمزا نبيلاً فيها.

هنا نهض (ونجيت) صانع السروج واقترح أن يحيّوا أنظف رجل في المدينة.. المواطن المهم الوحيد الذي لم يحاول سرقة المال.. (إدوارد رتشاردز)..

وبالفعل حياهما الناس بحرارة ثم اقترح أحدهم أن يكون (رتشاردز) هو حامي حمى المدينة ورمز أمانتها.. وليقف بقوة يتحدى العالم الساخر في وجهه..

هنا صاح أحدهم:

- ولكن.. من يأخذ الحقيبة إذن؟

صاح صانع السروج:

- طبعا للثمانية عشر رمزا.. كلهم أعطوا الغريب عشرين دولارا والملحوظة.. من حقهم استرداد الدولارات مع الفوائد!

هنا فتح المحترم الورقة الباقية من أوراق الغريب:

- لو لم يظهر من يطالب، فإنني أرغب في أن تفتحوا الحقيبة وتعهدوا بما بها من مال إلى المواطنين الأساسيين في بلدتكم، ليستعملوها في أفضل السبل لتقدم مجتمعكم والحفاظ على سمعته بالنزاهة التي لا تفسد.. النزاهة التي ستضيف أسماؤهم لها بريقا لا ينطفئ..

- ملحوظة: يا مواطني (هادلبرج).. لم تكن هناك ملحوظة.. لم يكن هناك غريب فقير.. ولا ورقة بعشرين دولارا.. كل هذه اختراعات.. دعوني أحك لكم القصة الحقيقية..

- لقد مررت ببلدتكم منذ زمن ما، وتلقيت إساءة لم أستحقها.. أي رجل آخر كان سيقتل واحدا أو اثنين منكم ويعتبر هذا هو العدل، لكني شعرت أن هذا غير عادل.. لأن الموتى لا يتعذبون.. وحتى هذا ما كان ليشبعني.. أردت أن أؤذى كل رجل وامرأة في هذه البلدة.. ليس في أجسادهم بل في غرورهم..

- لهذا عدت لكم متخفيا.. كنتم صيدا سهلاً.. كنتم مشهورين بالأمانة وكانت هذه قرة أعينكم.. كنز كنوزكم.

لاحظت أنكم تبعدون عن الإغراء فعرفت من أين أهجم.. إن أضعف مخلوقات الله هي الفضيلة التي لم يتم اختبارها في النار.. كانت خطتي هي أن أفسد (هادلبرج) التي لا تفسد..

أردت أن أصنع كذابين ولصوصا من رجال لم يكذبوا في حياتهم ولم يسرقوا مليما.. وآمل أن أسحق غروركم وأعطيكم شهرة من نوع جديد.. لو كنت قد نجحت فافتحوا الحقيبة وعينوا لجنة الحفاظ على سمعة (هادلبرج)..

تصايح الناس:

- افتحوا الحقيبة! فليتقدم الثمانية عشر رمزا! لجنة الدفاع عن سمعة (هادلبرج)!!

وفتحوا الحقيبة فلم يكن فيها إلا قطع من الرصاص..

اقترح صانع السروج أن يتقدم الرموز ليأخذ كل منهم حقه من هذا الرصاص..

- (ويلسون).. (ويلسون).. أنت الأول!

قال (ويلسون) في غضب:

- اسمحوا لي أن أقول ودون اعتذار عن لغتي.. اللعنة على المال!!

هنا قال صانع السروج:

- أقترح سيدي الرئيس أن يتقدم الرجال لعمل مزاد بعشرين دولارا على هذه الحقيبة.. على أن يعطى المال فعلا إلى الرجل الأمين الوحيد في هذه البلدة.. (إدوارد رتشاردز)..)

وبدأ المزاد.. وتصاعدت الإثارة بينما العطاءات تتزايد.. حتى وصل المبلغ.. مدفوعا بالتحدي.. إلى خمسين دولارا.. ثم مائة..

وهمس (رتشاردز) لزوجته:

- (ماري).. هل نسمح بهذا؟ إنها هدية شرفية.. تقديرا لشرفنا.. فهل أقبلها؟ ماذا نفعل يا (ماري)؟

وكان الثمن يرتفع حتى بلغ 250 دولارا..

قالت الزوجة:

- (إدوارد).. أنا.. لا أعرف.. لقد أفلتنا من إغراء وهذا إغراء آخر.. لكن.. فكر في الأمر.. لا أحد يشك..

الآن صار ثمن الحقيبة ألفا.. وهمست (ماري) دامعة:

- أوه.. فكر يا (إدوارد).. نحن فقيران جدا.. لكن.. تصرف أنت كما يحلو لك!

وجلس الرجل بضمير غير مستريح لكنه عاجز عن اتخاذ قرار..

هنا نهض غريب له ملامح المخبر الهاوي، وقال:

- ما من أحد من الثمانية عشر يزايد.. هذا ليس مرضيا.. لا بد من أن أغير هذا.. إن الضرورة الدرامية تحتم هذا.. يجب أن يشتروا الحقيبة.. بعضهم ثرى ويجب أن يدفع..

ثم إنه اشترك في المزايدة.. وصارت الحقيبة له عند مبلغ 1282 دولارا..

تعالى الهتاف ثم توقف لأن الرجل قد وقف رافعا يده:

- أريد أن أقول كلمة وأطلب معروفا.. إنني أهوى الغرائب ولى اتصال بهواة العملات عبر العالم، لكن لديّ طريقة - لو حظيت بموافقتكم - أقيّم بها هذه الحقيبة بما يساوى ثمنها ذهبا.. اضمنوا لي موافقتكم ولسوف أعطى بعضا من أرباحي لمستر (رتشاردز).. الذي أدركنا جميعا مدى استقامته هذه الليلة.. سيكون نصيبه من الصفقة عشرة آلاف دولار، وسوف أعطيه المال اليوم.. فقط أرغب في استفتاء عام.. فلو حصلت

على أكثر من ثلثي عدد أصواتكم لاعتبرت هذه موافقة.. اسمحوا لي أن أنقش على قطع العملة المزيفة هذه أسماء الثمانية عشر الذين...

تعالى التصفيق.. بينما هبت الرموز تحتج على هذه الإهانة.. وتهدد بأن..

قال الغريب بهدوء:

- أتوسل لكم ألا تهددوني.. أنا أعرف حقوقي ولم أعد قط أن أخاف من التهديد..

هنا وجد الدكتور (هاركنس) الفرصة سانحة، وكان من أثرياء المدينة.. ربما الأكثر ثراء هو ومدير المصرف.. وكان بين الرجلين سباق محموم.. كلاهما يحب المال، ويملك أرضا بلا حساب.. انحنى على الغريب وسأله همسا:

- ما الثمن الذي تدفعه للحقيبة؟

- أربعين ألف دولار..

- سأعطيك عشرين..

- لا..

- قل ثلاثين..

- الثمن هو أربعون ألف دولار.. ولا مليم أقل.

- ليكن.. سنلتقي في الصباح في الفندق.. سأقابلك بشكل منفرد..

ونهض الغريب وقال للجمع:

- أشكركم جميعا على الموافقة على مطلبي.. لكنى سأنصرف الآن وإنني أرجو الرئيس أن يحتفظ بالحقيبة لي معه حتى الغد.. وأن يعطى هذا المبلغ لمستر (رتشاردز)..

غدا في التاسعة سآخذ الحقيبة وسأسلمه باقي العشرة آلاف دولار في داره..

ثم انصرف تاركا الجمهور يتناقشون في صخب.. ثم عادت الأغنية تتردد..

☆ ☆ ☆

-4-

وفي منزلهما كان على آل (رتشاردز) أن يتحملا التهاني والمجاملات حتى منتصف الليل.. ثم بقيا وحيدين.. جلسا صامتين حزينين.. في النهاية قالت (ماري):

- هل تحسبنا نستحق اللوم؟

ثم نظرت إلى رزمة المال الموضوعة على المنضدة.. لم يرد (إدوارد)، ثم قال في تردد:

- لم تكن في أيدينا حيلة.. كان هذا مقدرا لنا.. كل شيء كان...

- هل تنوى البقاء في المصرف؟

- لا..

- تستقيل؟

- في الصباح.. نعم..

- ليس قرارا حكيما..

- لم أكن أخشى أن أترك أموال الناس معي فيما سبق.. أما الآن فأنا متعب يا (ماري).. متعب..

في التاسعة صباحا طلب الغريب حقيبته.. وفي العاشرة تحدث معه (هاركنس) بشكل شخصي.. وحصل الغريب على خمس شيكات لحامله.. أحدها بمبلغ 38.500 دولار وضعه بعد انصراف (هاركنس) في مظروف مع مذكرة كتبها بيده.

وفي الحادية عشرة انطلق إلى بيت (رتشاردز).. طرق الباب ففتحت له العجوز الباب.. ناولها الشيك وانصرف دون كلمة..

شهقت المرأة وقالت لنفسها:

- بالتأكيد أنا أعرفه.. أمس بدا لي مألوفا بشكل ما..

- هل هو الرجل الذي جلب الحقيبة هنا؟

- أنا واثقة من ذلك..

- إذن هو أيضا (ستيفنسون) المزيف الذي تلاعب بالجميع.. وأعتقد أنه خدعنا كذلك.. إن هذا المظروف لا يمكن أن يحوي باقي العشرة آلاف دولار، حتى بأعلى قيمة عملة ممكنة.. ولو كان بالمظروف شيك فلا جدوى منه..

شيك يحمل توقيع (ستيفنسون)؟ لقد فررنا من الرجل بمعجزة أمس وهو مصمم على أن يوقع بنا.

هنا صاحت الزوجة:

- أوه يا (إدوارد)! يا للسوء!

كانت تحمل الشيكات في يدها، وصرخت:

- هلم أحرق هذا الشيك! لا يجب أن نخضع للإغراء.. إنها لعبة كي يسخر العالم منا! أعطها لي ما دام هذا ليس بوسعك..

وكان قد دنا من النار فرفع الشيك يدرس التوقيع، هنا صاح:

- أنقذيني يا (ماري)! هذا الشيك صحيح! إنه كالذهب! عليه توقيع (هاركنس).. والشيك لحامله..



وكان قد دنا من النار فرفع الشيك يدرس التوقيع ..

- ولكن لماذا يا (إدوارد)؟

- ربما كان الطبيب لا يريد أن ينتشر الموضوع.. ولكن ما هذه المذكرة؟

كانت مكتوبة بخط (ستيفنسون) المزعوم.. وكانت تقول:

- أنا رجل خائب الأمل.. إن أمانتك أقوى من أي إغراء.. لقد تصورت العكس لكني كنت مخطئا.. إنني أعلى من قدرك وبكل إخلاص.. هذه البلدة لا تستحق أن تقبل حاشية ثوبك، وقد راهنت نفسي على أن هناك تسعة عشر رجلاً فاسدا في هذه البلدة.. لكنى خسرت..

تنهد (إدوارد) وقال:

- هذه كلمات كتبت بالنار.. بل وتحرق.. (ماري).. إنني تعس بحق.. لو كنت أستحق هذه الكلمات الجميلة، والله يعلم أنني حسبتني أستحقها يوما ما.. لاشتريت بالأربعين ألف دولار هذه الورقة..

ثم وضعها في النار..

جاءت رسالة فتناولها وفتحها.. كانت من المحترم (بيرجس):

- لقد أنقذتني في وقت عسير وأنقذتك أنا أمس.. كان الثمن كذبة لكني قمت بها ممتنا.. لا أحد في القرية كلها يعرف كم أنت نبيل طيب.. أعرف أنه في أعماقك لن تستطيع احترامي بسبب التهمة التي أحاطت بي، لكنى على الأقل أمل أن تعرف أنني رجل لا ينسى الإحسان.

نجا مرة أخرى! ووضع الورقة في النار وقال:

- (ماري).. أتمنى لو كنت ميتاً.. أتمنى لو..

☆ ☆ ☆

بعد أيام بدأت الانتخابات.. كانت هناك لافتة على شكل نسر، تحمل على أحد وجهيها عبارة (أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار تماما) وعلى الوجه الآخر من النسر عبارة (اذهب وأصلح نفسك.. بنكرتون).. وهكذا اختصرت الجريمة في شخص واحد وضحك الناس كثيرا، وهكذا أيضا كان الفوز في الانتخابات من نصيب (هاركنج)..

وكان ضمير الزوجين قد بدأ يهدأ بعد هذه الخطيئة لكنهما تعلما درسا مهما هو أن الخطيئة تكون مرعبة إذا كان هناك احتمال ولو بسيط أن ينكشف أمرها.

كانا يذهبان إلى الكنيسة كل أحد ليسمعا ذات المواعظ للمرة الألف، حتى فقدت معناها بالنسبة لهما.. لكنهما في هذه الأيام صارا يجدان المواعظ تلدغهما بالاتهامات.. كأنها موجهة خصيصا لهؤلاء الذين يخفون خطاياهم عن الناس.. ثم كانا يفران بعد القداس هاربين من شيء لا يعرفان كنهه جيدا..

ذات مرة قابلا (بيرجس) من بعيد فهزا رأسيهما له لكنه لم يجب.. لم يرهما، لكنهما كادا يموتان قلقا.. ما سر هذا التصرف وما معناه؟

هل عرف (بيرجس) أن (رتشاردز) يعرف الدليل على براءته لكنه لم يجسر على إعلانه؟

هل كانت صيغته في الخطاب ساخرة حين قال (أعرف أنه في أعماقك لن تستطيع احترامي بسبب التهمة التي أحاطت بي)؟

نعم.. هي بالتأكيد ساخرة..

ثم أين الورقة التي كتبناها؟ هل يحتفظ بها ليهددنا بها في وقت ما؟

وفي منتصف الليل تم استدعاء الطبيب لأن الزوجين ليسا على ما يرام.. قال الرجل إن السبب هو الضغط العصبي الذي عانياه بسبب الثراء المفاجئ.. بعد قليل ازدادت الأخبار سوءا.. إن الزوجين يخرفان بالفعل.. وقالت الممرضات إن (رتشاردز) كان يبحث عن مكان يخفى فيه شيكا..

أما اليوم فالأخبار أسوأ.. لقد أخفى الرجل الشيكات حتى لا يحدث لها شيء، لكن حين بحثوا عنها لم يجدوها.. لقد اختفت تماما.. وقال المريض للممرضات:

- دعن الوسائد وشأنها.. ماذا تردن؟

- كنا نحاول..

- لن تلمسن الشيك أبدا.. إنما أرسله الشيطان لي.. كي يدفعني إلى الخطيئة، وبالفعل لم يظهر الشيك ثانية قط..

لكن هلاوس الرجل تزايدت، وبدأت الممرضات يتكلمن وقيل في البلدة إن (رتشاردز) كان من المطالبين بالحقيبة لكن (بيرجس) حماه ولم يقرأ ورقته.. تعالت الأقاويل لكن المحترم (بيرجس) قال لهم إنه من السخف تعليق أهمية على هلوسة رجل سقيم..

ثم تحولت الشكوك إلى إدانة صريحة، وتخلت البلدة عن ثقتها الشديدة في أمانة العجوز..

بعد ستة أيام جاءت أخبار أخرى.. إن الزوجين يموتان.. وفي هذه الساعات صفا ذهن (رتشاردز) فأرسل في طلب (بيرجس).

قال (بيرجس):

- أخلوا الغرفة.. أحسب لديه ما يقوله في خلوة..

- لا.. أريد شهودا! أريدكم جميعا أن تسمعوا اعترافي! كذا أموت كرجل لا ككلب.. كنت نظيفا بشكل مصطنع مثل الآخرين.. ثم سقطت في قبضة الإغراء حين جاء.. وقعت أكذوبة وزعمت حقي في الحقيبة اللعينة.. تذكّر (بيرجس) أنني قدمت له خدمة وعرفانا بالجميل، أخفى طلبي وأنقذني.. تعرفون التهمة التي أحاطت بـ (بيرجس) منذ أعوام.. كانت شهادتي وحدها تستطيع أن تبرئه من التهمة، لكنى جبنت وتركته يواجه العار.. ثم بعدها فعل الشيء المبرر.. لقد ندم على إنقاذي وفضحني.

- لا.. أنا أقسم على هذا..

- وأنا أسامحك من قلبي..

ولم يصل احتجاج (بيرجس) لأذني المحتضر.. لقد مات الرجل دون أن يعرف أنه أذى (بيرجس) البائس مرة أخرى.

في الليلة ذاتها ماتت المرأة العجوز.. وجردت البلدة من آخر ما كان يستر مجدها القديم..

لم يكن الحداد مبهرا لكنه كان عميقا.. وبقرار تشريعي سمح لـ (هادلبرج) بتغيير اسمها إلى (لا تحاول معرفته فلن أخبرك به).. ولم يبق لها إلا خاتمها القديم.

☆ ☆ ☆

المخبر العظيم

الجزء الأول

لا يجب أن نرتكب الخطأ حين يرانا الناس

1

المشهد الأول هو في الريف.. في فرجينيا.. والزمن هو العام 1880.. كان هناك زوج وسيم نحيل وشابة ثرية.. قصة حب من أول نظرة وزواج سريع عارضه بمرارة أبو الفتاة الأرمل.

كان العريس هو (جاكوب فولر) في السادسة والعشرين من العمر، من أسرة عريقة لكن لا صيت لها، هاجرت من (سدجمور) طلبا لصدقة الملك (جيمس).. هكذا يقولون.. البعض بسوء نية والبعض لأنهم يعتقدون هذا.. العروس في التاسعة عشرة من عمرها جميلة، فخور بدمها النبيل وتحب زوجها الشاب بحرارة.. فمن أجله ضحت برضا أبيها وتحملت عتابه، وأصغت بإخلاص لتنبؤاته دون أن تهتز.. وغادرت المنزل دون أن تنال بركاته.

صباح اليوم التالي للزفاف، كانت مفاجأة سيئة تنتظرها.. لقد أزاح زوجها ملاطفاتها جانبا وقال:

- اجلسي.. هناك ما أريد قوله لك.. لقد أحببتك.. كان.. هذا قبل أن أسأل أباك أن يمنحني يدك.. لم يكن رفضه سبب حزني، ولكن ما قاله لك عنى.. لا.. لا حاجة بك للكلام فأنا أعرف جيدا ما قال.. أعرفه من مصادر موثوق بها.. قال إنني مراء خائن جبان.. وإن صفاتي مرسومة على وجهي.. وإنني قاس بلا رحمة..

أي رجل آخر كان سيذهب لبيته ويطلق عليه الرصاص ككلب، لكني وجدت فكرة أفضل.. أن أجلله بالعار وأحطم قلبه.. كيف هذا؟ عن طريق معاملتي لك.. سأتزوجك.. ثم... تحلى بالصبر فلسوف ترين..

ومن هذه اللحظة ولمدة ثلاثة أشهر عانت الزوجة الشابة كل أنواع المهانة والعذاب التي استطاع عقل زوجها الخلاق أن يبتكرها.

لكن كبرياءها القوى جعلها تبقى متاعبها سرا.. ومن حين لآخر يسألها زوجها:

- لم لا تذهبين لتخبري أباك؟

ثم يبتكر المزيد من التعذيب.. ويسألها.. فتقول:

- لن يعرف من فمي أبدا..

وكانت تقول إنها ستتحمل لكن ليس إلى ما لا نهاية.. يمكنه أن يقتلها إذا أراد لكنه لن يحطمها.

في نهاية الأشهر الثلاثة، قال بلهجة توحى بالشر:

- جربت كل شيء إلا شيئا واحدا.

قالت له وهي تكور شفتيها في تهكم:

- جربه إذن.

في تلك الليلة نهض في منتصف الليل، وقال لها:

- انهضي والبسي ثيابك..

أطاعت كعادتها دون كلام، فاقتادها إلى مسافة نصف ميل من البيت، وقيدها إلى شجرة على جانب الطريق وهي تصرخ وتقاوم.. ضربها بالسوط على وجهها وأطلق كلابه عليها.. حتى مزقت ثيابها.



وقيدها إلى شجرة على جانب الطريق ، وهي تصرخ وتقاوم ..
ضربها بالسوط على وجهها وأطلق كلابه عليها ..

ثم إنه نادى كلابه وقال لزوجته:

- سيجدونك خلال ثلاث ساعات من الآن.. سيراك الناس في هذا المنظر المهين.. ولسوف يعم الخبر... هل تسمعين؟

وداعا.. هذه آخر مرة ترينني فيها..

وابتعد.

راحت تئن بينها وبين نفسها..

- إنني حامل منه.. فليجعله الله ذكرا!

أطلق الفلاحون سراحها، وكما هو طبيعي انتشرت الأخبار في كل مكان.. وراح الرجال يبحثون عنه عازمين على شنقه دون محاكمة، لكن الطائر كان قد هرب.. وحبست الزوجة نفسها في دار أبيها وحبس هو نفسه معها.

لقد تحطم كبرياؤه.. وكذا قلبه.. لذا راح يتلاشى يوما بعد يوم.. وحتى ابنته سرت حين أراحه الموت.

بعدها باعت العقار واختفت.

☆ ☆ ☆

2

في العام 1886 كانت هناك امرأة تعيش في بيت متواضع قرب قرية منعزلة في (نيو إنجلند)، لا يرافقها إلا طفل في الخامسة.

كانت تقوم بعملها بنفسها، ولم تشجع أحدا على أن يتعرفها، فلم يكن لها معارف.. ولم يستطع الخباز ولا الجزار ولا كل من تعامل معها أن يخبر القرويين بشيء عنها إلا أن اسمها (ستيلمان) وطفلها اسمه (أرشي).. من أين جاءت؟ لم يستطيعوا معرفة هذا قط.. لكنهم قالوا إنها تتكلم كالجنوبيين..

في يوم قال (أرشى) لأمه:

- ماما.. هل أنا أختلف عن الأطفال الآخرين؟

- حسن.. لا أعتقد هذا.. لم؟

- هناك طفلة سألتني إن كان ساعي البريد قد مر.. فقلت نعم.. سألتني منذ متى رأيته.. فقلت إنني لم أره قط وإنما شممت رائحته على الرصيف.. قالت إنني أحمق غبي.. فلماذا فعلت هذا؟

شحب وجه المرأة وقالت لنفسها:

- إنها علامة الولادة (الوحم).. هدية كلاب الصيد حلت به..

واحتضنت الغلام بحرارة وقالت:

- لقد اختار الله طريقنا.

كانت عيناها تلمعان بضوء وحشي.. وراحت أنفاسها تتسارع من فرط انفعال.. قالت لنفسها:

- الآن فهمت السر.. لقد اتضح لي كل شيء..

وأجلسته في حجرها وقالت له:

- انتظرني قليلاً حتى أعود يا بني.. ثم سنعود للكلام عن الأمر..

ذهبت لحجرتها وأخذت من منضدة تجميلها بعض الأدوات وأخفتها.. مبرد أظفار على الأرض قرب الفراش.. ومقص تحت المكتب.. وفتاحة أوراق من العاج تحت خزانة الثياب.. ثم عادت له وقالت:

- هناك بعض أشياء نسيتها وكان على أن أجلبها..

أسرع الصبي يقوم بما طلب منه.. ثم عاد بالأشياء فسألته:

- هل كان هذا صعبا يا عزيزي؟

- كلا يا أماه.. فقط مشيت حيث مشيت أنت..

خلال غيابه كانت قد فتحت بعض الكتب ومررت يدها على صفحة معينة من كل كتاب، وحفظت الرقم في ذاكرتها.. ثم أعادت الكتب لمكانها وقالت له:

- قمت بعمل ما في أثناء غيابك يا (أرشي)... فهل تعرف ماذا كان؟

جرى الصبي ليحضر الكتب التي لمستها، وفتحها على ذات الصفحات.

أخذته الأم في حجرها وقالت:

- الآن أجيب عن سؤالك يا بني.. بشكل ما أنت مختلف عن الآخرين.. يمكنك أن ترى في الظلام وأن تشم ما لا يشمه الآخرون.. إنك تملك مواهب كلب الصيد.. وهي مواهب جمة النفع لكن عليك أن تبقى هذا سرا.. فلو عرف الناس بالأمر لاعتبروك طفلاً غريبا شاذا... ولأطلق عليك الصبية كافة الشتائم.. في هذا العالم على المرء أن يكون مثل أي واحد آخر لو أراد ألا يجلب على نفسه الاحتقار أو الغيرة..

وعدها الطفل في غير فهم..

وطيلة اليوم ظل عقل المرأة يعد آلاف الخطط والمشاريع كلها خارقة شريرة.. لكنها أضاءت وجهها بضوء خاص.. بنيران جحيم غامضة.. لم تقدر على الجلوس أو القراءة أو النوم..

جربت قدرات ابنها بعشرين طريقة مختلفة.. وكانت تفكر:

- لقد حطم قلب أبي.. وجربت طيلة هذه السنين أن أحطم قلبه عبثا.. الآن وجدت السبيل.. وجدت السبيل..

حين خيم المساء، كان شيطان القلق مازال يستبد بها.

لقد استمرت في تجاربها وأخفت أشياء عديدة في البيت.. وأرسلت ابنها في الظلام ليأتي بها.. وكم كان فخره حين أطرت عليه ولاطفته معبرة عن إعجابها.

منذ هذه اللحظة صار للحياة وجه جديد.. وقالت لنفسها:

- إن المستقبل مأمون.. يمكنني أن أنتظر، وأستمتع بالانتظار..

عادت للموسيقا والرسم وكل المباهج التي أهملتها.. ومن جديد استعادت مسرات الحياة.

مرت الأعوام وهي ترقب نمو الصبي راضية..

لكن الجزء اللين من قلبه كان أكبر من الجزء الصلب.. كان هذا عيبه الوحيد.. لكنها قدرت أن هيامه بها سيعوض هذه النقطة.. كان يعرف كيف يكره وقد طمأنها هذا قليلاً..

مضت الأعوام، وصار (أرشي) شابا رياضيا وسيما معتزا بكرامته.. تسرك رفقته.. يبدو أكبر من عمره الذي هو السادسة عشرة..

ذات ليلة أخبرته أمه أن لديها شيئا خطرا تقوله له.. قالت إنه صار كبيرا بما يكفي كي يسمع ما ستقول، وكي ينفذ الخطة التي رتبتها بصبر..

ثم أخبرته القصة المريرة بفظاعتها.. وشل الفتى للحظات بينما قالت:

- نحن جنوبيان.. وليس لدينا إلا شيء واحد نعوض به ما حدث.. أن نجده ونقتله.. نقتله؟ كلا.. الموت راحة.. الموت تحرر.. الموت معروف وأنا لن أسدى له معروفا.. لا يجب أن تؤذى شعرة من رأسه.

قال الفتى بعد تفكير:

- أنتِ كل العالم بالنسبة لي.. ورغباتك هي القانون.. قولي ما على أن أفعله..

لمعت عيناها بالرضا وقالت:

- ستبحث عنه.. أعرف أين يختبئ منذ أحد عشر عاما.. اقتضاني هذا خمس سنوات ومالا كثيرا.. إنه يستخرج الكوارتز في (كولورادو).. وأحواله المادية طيبة.. إنه يعيش في (دنفر) واسمه (جاكوب فولر).. أول مرة ألفظ فيها اسمه منذ تلك الليلة التي لا تنسى.. تذكر! هذا الاسم كان سيكون اسمك لو لم أجنبك هذا العار وأهبك اسما آخر.. ستبعده عن مكانه.. ستصطاده.. ستطارده.. ستسمم حياته.. تملؤها بأهوال غامضة.. تملؤها بالتعب والتعاسة.. تجعله يشتهي الموت فلا يناله.. لن يعرف الراحة ثانية.. لن يهدأ باله.. لن ينام نوما مريحا.. ستطارده حتى تحطم قلبه كما حطم قلب أبي..

- أمرك يا أمي..

- أنا واثقة من هذا أي بني.. كل شيء جاهز.. هنا خطاب اعتماد لرصيد مصرفي.. أنفق بحرية.. فلا يعوزنا المال.. ولو احتجت إلى أدوات تنكر فقد أعددتها لك..

وأخرجت من الدرج بعض الأوراق كلها تحمل هذه الكلمات بالآلة الكاتبة:

جائزة عشرة آلاف دولار

يعتقد أن رجلاً مطلوبا في الولايات الشرقية يقيم هنا بشكل مؤقت. في عام 1880 قيد زوجته إلى شجرة على الطريق العام ليلا وضربها بالسوط على وجهها، وجعل كلابه تمزق ثيابها. ثم إنه هرب من البلاد. إلا أن أحد أقاربها قد بحث عنه سبعة عشر

عاما.. عناوين..... والجائزة المذكورة أعلاه ستقدم لكل من يقدم عنوان المجرم لمن يبحث عنه.

وقالت لابنها:

- حين تجده وتتعرف رائحته.. ستذهب ليلاً لتلصق هذا الإعلان على بيته.. سيكون هذا الإعلان موضوع كلام المنطقة كلها.. أترك له بضعة أيام حتى يبيع ممتلكاته بسعر معقول.. سنخربه بالتدريج.. حتى يقنط ويموت..

ثم أخرجت أوراقا أخرى كتب عليها:

إلى (جاكوب فولر):

لديك.... يوم كي ترتب أمورك. لن يضايقك أحد حتى تنتهي المهلة في ..../....../.... وبعدها يجب أن ترحل. ولو بقيت حيث أنت بعد الوقت المذكور، سأعلق على كل جدران المدينة قصة جريمتك كاملة مع الأسماء والتواريخ. لقد جلبت الموت لرجل عجوز وحطمت قلبه، ولسوف تعاني ما عاناه.

وقالت لابنها:

- لا توقيع.. يجب أن يتلقى هذه قبل أن يعرف بإعلان الجائزة.. حتى لا يجن ويغادر المكان في الحال..

- لن أنسى..

- سوف يطيع الأوامر.. هذا أكيد..

☆ ☆ ☆

3

من الخطابات الموجهة للأم:

دنفر - 3 إبريل 1897

منذ أيام أعيش في ذات الفندق مع (جاكوب فولر).. شممت رائحته، وبوسعي أن أجده وسط كتيبة مشاة.. لقد دنوت منه مرارا وسمعته يتكلم.. إنه يملك منجما ممتازا يدر عليه عائدا طيبا.. إلا أنه ليس ثريا.

إنه رجل مرح لا تبدو عليه أعوامه الثلاثة والأربعون.. لم يتزوج قط ثانية ويعتبر نفسه أرمل.. إنه محبوب وله شعبية.. ويبدو أن الدم الأبوي في عروقي يطالب بحقه، لأنني بدأت أنجذب إليه نوعا.. يا لغباء وعدم معقولية بعض طبائعنا.. أكثرها في الواقع!

لقد صارت مهمتي أصعب وبدأت نيران الكره تنطفئ، لكني سأقوم بالمهمة.. حتى ولو ذهبت المتعة فإن الواجب يبقى.. وإنه لمما يثير حفيظتي أن أتذكر أن من ارتكب هذه الجريمة الشنيعة لم يقاس من تبعاتها.. يبدو أنه تعلم دروسنا وقد تغيرت شخصيته، وهو راض عن هذا التغيير.. هو الآثم لا يشعر بشيء بينما - أنت الضحية - تحملين كل ويلات الجريمة على رأسك..

لكن لا تقلقي.. فلسوف يحصد نصيبه من العقاب.

☆ ☆ ☆

سيلفر جالش 19 مايو:

قمت بإلصاق الإعلان في منتصف ليلة 3 أبريل، وبعد ساعة دسست النموذج رقم 2 تحت باب غرفته.. وأنذرته بأن يغادر (دنفر) قبل منتصف ليل الرابع عشر من الشهر.

يبدو أن أحد الصحفيين الساهرين وجد ما وضعته.. هكذا حصل على معلومات قيمة وملأ (المغرفة) كما يصفون هذا العمل في مهنته.. وتأكد من أن أية جريدة أخرى لن تعرف ما عرفه، هكذا صدرت الجريدة وعلى صفحتها الأولى هذه الأخبار ببنط عريض مع مقال تحليلي ملتهب، ثم أضافت الصحيفة ألف دولار إلى مكافأتنا السابقة! إن الصحف هنا تعرف كيف تفعل أشياء نبيلة حينما تكون هناك منفعة مادية من هذا..

في الصباح اخترت مقعدي الذي يعطيني نظرة واضحة على وجه بابا (فولر)..

كان هناك نحو خمسة وسبعين أو مائة رجل في الغرفة.. وكلهم يناقش الموضوع، ويتمنى أن يجد الباحث الوغد وينظف المدينة من وجوده الملوث.

وحين وصل (فولر) كان نموذج طلب الرحيل مطويا في يده، والجريدة في الأخرى.. لقد ولى المرح من وجهه وبدا عجوزا شاحبا.. ثم فكري الآن في الأشياء التي عليه أن يسمعها!

لقد سمع أصدقاءه غير المرتابين يصفونه بنعوت مأخوذة من قواميس الشيطان غير المسموح بتداولها، والتي يحتفظ الشيطان بها تحت الأرض.. والأسوأ أنه كان يجب أن يقر الاتهامات ويهلل لها.

كان من الواضح أن شهيته تبخرت.. فقط كان يقرض الخبز، وقال له رجل:

- من المحتمل جدا أن هذا القريب في الغرفة معنا، يسمع ما تفكر فيه هذه البلدة بصدد ذلك الوغد.. أتمنى هذا..

من المثير للشفقة أن ترى كيف أن (فولر) هب واقفا.. ولم يعد يحتمل المزيد.

لعدة أيام أشاع أنه ابتاع منجما في المكسيك، ويريد بيع كل شيء والرحيل إلى هناك بأسرع ما يمكن، وقال إنه سيأخذ 40.000 دولار وهو ربع الثمن نقدا، والباقي في شيكات.. في النهاية باع بثلاثين ألف دولار.

كنت أراقب كل هذا طيلة الوقت، فما إن تمت الصفقة حتى التصقت بطريق (فولر) دون أن أتركه لحظة.. وبعد منتصف ليلة اليوم الحادي عشر من الشهر، ذهبت لحجرته التي كانت تبعد عن غرفتي بأربع غرف في ذات الردهة، ثم ارتديت ثياب التنكر التي تجعلني أبدو كعامل في يوم موحل مطير.. وجلست في حجرتي في الظلام بحقيبة صغيرة وبابي شبه مفتوح.. لأنني قررت أن الطير قد يفر الآن.

بعد نصف ساعة مرت امرأة تحمل حقيبة.. فشممت رائحة مميزة.. وتبعتها لأدرك أن هذا (فولر).. لقد ترك الفندق ومشى في شارع غير مطروق، تحت أمطار ضعيفة وظلام دامس، ثم استقل عربة يجرها حصانان، كانت تنتظره حسب موعد.. اتخذت مقعدي بلا دعوة على مؤخرة العربة وانطلقنا مبتعدين.. ثم توقفت العربة عند محطة القطار وانصرفت..

جلس (فولر) تحت مظلة فدخلت وراقبت شباك التذاكر.. لم يبتع (فولر) تذاكر وكذا أنا..

جاء القطار فاستقل عربة، وركبت أنا ذات العربة عند نهايتها وجلست خلفه، فلما ذكر وجهته للمحصل ابتعدت أنا للوراء بضعة مقاعد.. ودفعت ثمن تذكرة للمكان ذاته..

ومنذ هذا الوقت ولمدة أسبوع كان كأنما يقودني في رقصة.. راح يسافر هنا وهناك.. دائما باتجاه الغرب، لكنه لم يرتد ثياب المرأة قط بعد هذا.. لقد تنكر في ثياب عامل مثلي وثبت شاربا مستعارا زائفا.. كان بارعا وحتى أقرب أصدقائه ما كان ليتعرفه.

أخيرا أقام هنا.. أكثر المعسكرات الجبلية تواريا في (مونتانا).. إن لديه كوخا، وهو يتجنب المجتمعات.. أعيش في منزل لعامل مناجم.. وهو مكان لا يطاق.. الفراش.. الطعام.. القذارة.. كل شيء

الآن لنا هنا أربعة أسابيع، وفي هذا الوقت رأيته مرة.. بمجرد أن اطمأننت على أنه استقر، حتى أبرقت إلى (دنفر) كي يبقوا متاعي عندهم إلى أن آتي لأسترده..

لا حاجة بي لمتاع هنا إلا القمصان وقد جلبت بعضها معي.

☆ ☆ ☆

سيلفر جالش 12 يونيو:

لم تصل قصة (دنفر) إلى هنا.. أنا أعرف جل الرجال ولم يشيروا لها قط.. لا بد أن فولر يشعر بأمن تام..

لكن شد ما تغير! لم يعد يبتسم ولا يتكلم.. هو الذي كان مولعا بالصحبة منذ شهرين، رأيته يمشى عابسا وقد راحت الخفة الوثابة من خطواته.. وهو يطلق على نفسه اسم (ديفيد ويلسون)..

لو لم نضايقه سيظل هنا أبدا.. لكنى سأضايقه، وإن كنت لا أعرف كيف يمكنه أن يكون أتعس من هذا..

سأعود إلى (دنفر) لأنعم بحمام وأستبدل ثيابي وآكل طعاما محترما.. ثم أسترد متاعي..

☆ ☆ ☆

دنفر 19 يونيو:

يفتقدونه هنا: ويتمنون أن تكون أحواله طيبة في المكسيك.

أعترف أنني أتلكا هنا.. لكن لو كنتِ مكاني لشعرتِ بالشفقة عليّ..

لكن لو كنت مكانك بكل هذه المرارة في قلبي، لشعرتُ بما تشعرين به.. سآخذ قطار الليل عائدا في الغد.

☆ ☆ ☆

دنفر 20 يونيو:

ليسامحنا الله! أنا وأمي نطارد الرجل الخطأ!

لم أنم طيلة الليل.. أنا الآن فجرا أنتظر القطار ولكم تتثاقل الدقائق.. كم تتثاقل!

إن (جاكوب فولر) هو ابن عم المذنب.. كم كنا أغبياء حين فاتنا أن المذنب ما كان ليحتفظ باسمه بعد هذا العمل الشيطاني!

إن (فولر) (دنفر) أصغر بأربعة أعوام من الآخر.. جاء هنا وهو أرمل عام 1879.. وكان هذا قبل زواجك بعام. وكل الوثائق تثبت هذا. أمس تحدثت مع أصدقاء له عرفوه منذ جاء هنا.. لم أقل شيئا لكني سأعيده لبلدته ثانية وأعوض ما خسره في منجمه.. ستكون هناك مأدبة وموكب تحفه المشاعل.. ولن ينفق أحد مليما سواي. تسمين هذا مبالغة في العواطف؟ ربما.. فلا تنسى يا أماه أني صبي.. وأنني لن أعود صبيا ثانية.

☆ ☆ ☆

سيلفر جالش 3 يوليو:

أماه.. لقد رحل! رحل بلا أثر!

لقد زالت الرائحة لدى وصولي.. أتمنى لو لم أكن غلاما.. كي أتحمل الصدمات بشكل أفضل.. الجميع يعتقدون أنه رحل غربا.. سأرحل الليلة.. لا أعرف إلى أين.. لكن البقاء ساكنا حيث أنا هو تعذيب لا أكثر..

بالطبع منح نفسه اسما وتنكرا جديدين.. هذا يعني أنني قد اضطر لتفتيش كل الكرة الأرضية بحثا عنه. هل ترين يا أمي أنني صرت الآن (اليهودي التائه)؟ هل تدركين ما في هذا من سخرية؟ كنا قد أعددنا هذا المصير لواحد آخر.

يجب أن أجده.. إن لك عقلاً أفضل من عقلي فساعديني..

لدى دليل واحد.. واحد فقط.. أنا أعرف خطه.. ولو وضع اسمه المزيف الجديد في دفتر نزلاء فندق، سأعرفه على الفور لو رأيته.

☆ ☆ ☆

سان فرانسسكو 28 يونيو 1898:

تعرفين كيف فتشت الولايات بعناية من (كولورادو) حتى المحيط الهادي.. وكيف كدت أظفر به مرة..

كان هذا هنا.. أمس.. شممت رائحته في الشارع، وتتبعتها إلى فندق رخيص. كان هذا خطأ باهظا.. فأي كلب كان سيتجه في الاتجاه العكسي.. لكنى جزء من كلب ويمكن أن أتصرف بغباء كالبشر حين أتوتر.

لقد أقام في هذا الفندق عشرة أيام، وهو لا يبقى في أي مكان فترة طويلة. ما زال يستعمل الاسم الذي كان يحمله حين كدت أجده منذ تسعة أشهر (جيمس ووكر).. لا بد أنه الاسم الذي اتخذه حين فر من (جالش).

إنه رجل بسيط لا يهوى الأسماء الرنانة..

قالوا لي إنه ارتحل منذ ساعات في رحلة ولم يترك عنوانا.. ولم يقل إلى أين هو راحل. لم يكن معه من متاع إلا حقيبة رخيصة يحملها دوما..

- *عجوز بخيل شحيح ولن يسبب خسارة للفندق.*

عجوز؟ أعتقد أنه كذلك الآن..

خرجت أقتفى أثره فاقتادني إلى رصيف الميناء.. أماه.. إن دخان القارب البخاري الذي أخذه كان يتلاشى من الأفق كنت سأدخر نصف ساعة لو مشيت في الطريق العكسي من البداية..

إن هذه السفينة تتجه إلى (ملبورن) في (أستراليا).

☆ ☆ ☆

وادي الأمل كاليفورنيا 3 أكتوبر عام 1900:

من حقك أن تشكي.. إن خطابا واحدا في العام هو شح حقيقي. لكن ما عسى المرء يكتبه إن لم يكن لديه ما يحكيه إلا الفشل؟

حكيت لك كيف فقدت الرجل في (ملبورن)، وكيف بحثت عنه في أستراليا كلها.

حسن.. بعد هذا تبعته إلى الهند.. وكدت أقابله في (بومباي).. (كلكتا).. (روالبندي).. كل مكان.. أسبوعا بعد أسبوع.. وشهرا بعد شهر.. في كل مرة أكاد ألمسه لكني لا أظفر به أبدا..

ثم تبعته إلى.. لا عليك.. سأحكى هذا بالتفصيل فيما بعد.

تبعته إلى (كاليفورنيا).. فالمكسيك.. فكاليفورنيا.. أعتقد أنه ليس بعيدا عن (وادي الأمل)..

أنا متعب حتى الموت يا أمي.. واقتربت من اليأس النهائي، لكن عمال المناجم هنا قوم طيبون.. وطريقتهم المرحة الطلقة تنعش المرء وتجعله ينسى متاعبه.

أعيش منذ شهر مع فتى يدعى (سامي) أو (هيليار).. في الخامسة والعشرين من عمره، والابن الوحيد لأمه.. مثلى.. يكتب لها كل أسبوع..

إنه فتى لطيف لكن من ناحية الذكاء يمكنه أن يشعل النار في نهر.. لكن الكل يحبه.. والجلوس معه يشعرك بأنك تأكلين

عيشا وملحا ولحما.. ولكم أشفق على (جيمس ووكر)..

لقد كان يحب الصحبة.. وله أصدقاء كثيرون إن قلب (هيليار) أنظف من قلبي.. أنظف من قلب كل من في الجوار.. وهو الصديق الوحيد لوصمة عار المعسكر المدعو (فلينت باكنر).. والرجل الذي يكلمه (فلنت) أو يسمح له بالكلام معه..

في إحدى المحادثات قال لي:

- (فلينت) قريب لي.. وهو يصب كل متاعبه عندي..

إن صدره يوشك على الانفجار بما فيه من أسرار.. لا يوجد رجل أكثر منه تعاسة يا (أرشي).. حياته سلسلة من المشاكل وقد فقد الشعور بالراحة والسلام.. الأعوام تمضي.. وهو لا يعرف ما معنى الحظ الحسن فهو لم ينل قسطا منه قط.. ويقول دوما إنه راغب في أن يجرب الجحيم الآخر.. فقد سئم هذا الجحيم..

☆ ☆ ☆

4

ما من سادة مهذبين يذكرون الحقيقة العارية في وجود سيدات

كان يوما عطرا نضرا في أول أكتوبر. وقد أضيئت زهور الليلاك بنيران الخريف المجيدة، معلقة تتوهج في الهواء.. وعبق الزهور الموسمية يرتفع في الهواء وفي كل مكان تجد الصمت والهدوء والسلام الإلهي

الوقت هو أكتوبر.. 1900.. (وادي الأمل) هو المكان.. منجم للفضة بعيدا في منطقة (إزميرالدا). إنه موضع بعيد منعزل.. يعتقد سكانه أنه مليء بالمعدن الثمين.. ولسوف يعرفون هذا بعد عام أو عامين من التنقيب.

بالنسبة للسكان يحوى المعسكر مائتي عامل تنجيم وامرأة بيضاء وطفلها، وعدة صينيين يقومون بالغسيل، ودستة هنود بلا قبيلة يلبسون جلد الأرانب.

لا توجد طواحين هنا ولا كنيسة ولا جرائد. إن المعسكر أنشئ منذ عامين، فلم يسمع العالم شيئا عن اسمه ومكانه. هناك تقف الجبال شامخة حول مجتمع من الأكواخ، ليس فيه ما يستحق أن تدعوه بيتا إلا الخان. إن الخان يقع في منتصف الموقع وهو ملتقى الناس ليلا. هناك يلتقون ويشربون ويلعبون الدومينو وال (سفن أب).. وربما يلعبون بعض البلياردو كذلك..

كان كوخ (فليينت بكنر) يقع جنوبا، وهو أحدث كوخ تم بناؤه. كان الرجل نفسه شخصا فظا غير اجتماعي بلا رفقة..

وكل من حاول تعرّفه ندم على ذلك. ولم يكن تاريخه معروفا، وإن زعم البعض أن (سامي) يعرفه.

كان معه شاب في السادسة عشرة من عمره اسمه (فتلوك جونز).. وكان الشاب يقول إن (فلنت) وجده شريدا، وقد وجد أنه من الحكمة أن يبقى مع (فلنت) برغم معاملته القاسية له لأن الفتى بلا أقارب ولا أصدقاء.. على الأقل من أجل الراتب الذي لم يزد على الفاصوليا واللحم المقدد.

فيما عدا هذا لم يكن لديه ما يضاف..

حاول الناس أن يساعدوا (فتلوك) وحاولوا إقناعه بترك (باكنر) لكن الفتى خاف من الفكرة.

ألح عليه (بات رايلي) قائلاً:

- اترك الأحمق العجوز وتعال معي.. لا تخف.. لسوف أعنى به..

شكره الصبي دامعا وقال:

- لا أجرؤ على هذا.. إن التفكير في هذا يشعرني بالغثيان يا مستر (رايلي)..

لم يفهم القوم هذا الموقف.. لقد استمرت تعاسة الفتى أسبوعا بعد أسبوع. لكن لو عرف الناس كيف يمضي وقته لفهموا.. كان يبيت خارج الكوخ يجتر جراحه وكدمات جسده وكرامته، ويفكر في الطريقة التي يقتل بها (فلينت) من دون أن يقبض عليه.

كانت هذه مسرته الوحيدة في الحياة، والساعات الوحيدة التي يتطلع إليها طيلة اليوم.

فكر في السم.. لكن هذا لا يصلح.. سيعرف المحققون من أين جلبه ومن فعل هذا..

فكر في طلقة في الظهر، لكن ربما كان هناك أحدهم قريبا.

فكر في طعن الرجل وهو نائم، لا.. ربما جاءت ضربته غير موفقة.. وأمسك به (فلينت).

فكر في مائة طريقة، وكلها غير صالحة.. في كل منها مخاطرة أو فرصة أو احتمال القبض عليه.

لكنه كان صبورا.. صبورا بلا نهاية.. لا داعي للعجلة..

فلن يفارق (فلينت) إلا جثة هامدة.. إن الحل في مكان ما ولسوف يتحمل الألم والإهانة حتى يظفر به.

في مكان ما توجد طريقة أكيدة وبلا خطر، وعندها ستبدأ بهجة الحياة! وحتى ذلك الحين سيحافظ على صورة الخنوع الخاضع أمام القوم.. ولن يدع أحدا يسمع منه كلمة سوء في حق معذبه.

قبل نهار أكتوبر الذي تكلمنا عنه بيومين، ابتاع (فلينت) بعض الأشياء لكوخه.. جلب صندوقا من الشمع.. وعلبة من البارود ولفة فتيل.. وقدر (فتلوك) أن أعمال (فلينت) في المنجم دنت من ذروتها..

كان قد رأى التفجير من قبل. لكنه لم يعاون فيه قط..

في الصباح حمل الاثنان الفتيل والمثقاب وعلب البارود.. كان ارتفاع المنجم ثمانية أقدام، ولهذا كانا بحاجة إلى سلم قصير.

نزلا.. وبناء على الأوامر حمل (فتلوك) المثقاب دون أية تعليمات عن طريقة حمله.. وهكذا طار المثقاب من يده:

- يا بن الزنجي الأجرب!!! هل هذه طريقة حمل مثقاب؟ التقطه.. قف! سأدبرك!!

وبدأ الصبي يصب البارود في الحفرة..

- أحمق!!

وهوت ضربة قوية على فكه أوقعته أرضا.

- أولا ثبت الفتيل.. ثم ضع البارود.. توقف! توقف هل تنوى أن تملأ الحفرة كلها؟ ضع بعض التراب.. ضع بعض الحصى.. قف.. قف!

وراح يدك الشحنة بنفسه.. وهو ما زال يلعن وينطق بعبارات التجديف كأنه شيطان. ثم لأنه أشعل الفتيل وخرج من النفق ثم ابتعد خمسين ياردة.. وتبعه (فتلوك).. ووقفا بعيدا ينتظران.

اندفعت سحابة من الدخان والصخور في الهواء، مع انفجار كالرعد.. وبعدها انهمر شلال من الصخور. ثم عاد الهدوء.

قال السيد:

- وددت من الله لو كنت أنت في هذا الانفجار!!

ونزل الرجلان الفتحة ونظفاها، ثم حفرا ثقبا آخر..

- كم من الفتيل تنوى تبديده؟ ألم تتعلم كيف تضبط زمن الاشتعال؟

- نعم يا سيدي..

- لا تعرف؟ أنت تفوق أي شيء رأيته..

ثم خرج من الفتحة وصاح:

- حسن يا أحمق! هل ستبقى هنا كل اليوم؟ اقطع الفتيل وأشعله..

ثم إنه في غضبه حمل السلم وجرى مبتعدا، فأصيب الفتى بالهلع وقد وجد نفسه وحيدا في الحفرة التي ستنفجر حالا..

تراجع للحائط، وقد أثار الصوت فزعه.. وقف عاجزا عن التفكير أو العمل.. بعد ثوان سيطير في السماء وقد تحول إلى قطع. ثم جاءته فكرة.. جري إلى الفتيل وانتزع البوصة التي بقيت فوق الأرض.. وهكذا نجا..

بعد خمس دقائق زحف (باكنر) إلى الحفرة.. كان قلقا لا يفهم.. واختلس النظر إلى داخلها.. هنا فهم ما حدث.. أنزل السلم في الحفرة فزحف الصبي نحوه بوهن، كان غاية في الشحوب وفي مظهره ما زاد من قلق (باكنر)..

قال (باكنر) في نوع من الندم:

- كان حادثا كما تعلم.. لا تقل شيئا عن هذا لأي واحد..

كنت متحمسا ولم أدر ما أفعله.. أنت لا تبدو على ما يرام.. توجه إلى كوخي وكل ما تريد واسترح.. هذا حادث لا أكثر.

قال الفتى:

- لقد أثار رعبي.. لكني تعلمت شيئا جديدا.. فلا تضايق نفسك..

راح (باكنر) يتابعه بعينيه..

ترى هل يتكلم؟ ليت الانفجار قتله.

لكن الفتى لم ينتهز الفرصة ليستريح، بل راح يعمل.. في حماسة وسعادة.. كانت هناك أجمة من الشجيرات قرب كوخ (فلينت). وكان جل عمل الفتى في الظلمات العنيدة لهذه الأشجار. والباقي تم في كوخه. في النهاية تم كل شيء وقال:

- لو شك في أنني سأخبر الناس عنه فسأعرف هذا سريعا.

سيتأكد من أنني ما زلت ذلك المعتوه النكرة كما كنت دوما لكن ليلة بعد غد هي نهايته.. ولن يعرف أحد من قتله ولا كيف تم هذا.. لقد أعطاني الفكرة بنفسه وإن هذا لغريب..

☆ ☆ ☆

5
وجاء اليوم التالي ورحل..

إنه الآن منتصف الليل تقريبا، وبعد خمس دقائق يبدأ اليوم الجديد. المشهد هو غرفة البلياردو في الخان. رجال خشنو المظهر في ثياب خشنة.. بعضهم بسترات ولا معاطف.. كلهم مجتمع حول الموقد أحمر الخدين يبعثر الدفء البهيج.

كرات البلياردو ترتطم.. والرجال يبدو عليهم السأم والترقب.. هناك عامل مناجم ضخم الكتفين في منتصف العمر، ذو نظرة غير ودود.. ينهض ويلف لفة من الفتيل حول ذراعه.. يجمع بعض أشياء خاصة به ثم يرحل دون كلمة أو تحية. إنه (فلنت باكنر)..

فما إن انغلقت الأبواب خلفه حتى دوى أزيز الكلام عنه..

قال الحداد (جيك باركر) [3]:

- هذا أكثر الرجال انتظاما في المواعيد.. يمكنك أن تعرف الساعة الثانية عشرة حين تراه يرحل دون أن ينظر لك.

قال عامل المناجم (بيتر هوز):

- وتلك فضيلته الوحيدة على قدر علمي..

قال (فيرجسون) موظف (ويلز فارجو) شركة النقل الشهيرة:

- إنه وصمة لهذا المجتمع.

قال عامل المناجم (هام ساندوتش):

- هل يذكر أحدكم أنه دعاه إلى الشراب؟

- من؟ (فلنت باكنر)؟

اندفع هذا التيار من التعليقات الساخرة من كل صوب.. وبعد صمت قال (بات رايلي) عامل المناجم:

- إنه للغز ذلك الوغد.. والفتى لغز آخر.. لا أفهم شيئا.

قال عامل المناجم (هام ساندوتش) [4]:

- ولا أحد يفهم.. لكن لو كانا لغزين فكيف تقيم هذا الآخر؟ إنه يفوقهما في الغموض كثيرا..

- لك أن تراهن على هذا..

وافق الجميع على هذا، ما عدا واحدا.. كان هو الوافد الجديد (بيترسون).. لقد دعا الجميع إلى الشراب وسأل عن كنه الشخص الثالث. أجاب الجميع على الفور:

- (أرشى ستيلمان)!

تساءل (بيترسون):

- هل (أرشى ستيلمان) لغز حقا؟

قال موظف (ويلز فارجو) (فيرجسون):

- إنه الغموض ذاته.. وبالنسبة له يغدو البعد الرابع شيئا مفهوما..

فقد كان (فيرجسون) متعلما..

وكان (بيترسون) يرغب في سماع كل شيء.. وكان كل واحد مستعدا لسرد القصة.. لكن البارمان أصر على أن يدعو أحدهم الآخرين للشراب بالدور.. وبدأ (فيرجسون) الكلام:

- حسن.. هو صبي.. وهذا كل ما نعلمه عنه.. ولن تحصل على شيء آخر منه.. لن تعرف نواياه.. يمكنك أن تخمن.. تحاول حتى يسود وجهك وهو كظيم.. لكن ما الذي تصل إليه؟ إلا أن له موهبة غريبة سمها موهبة أو سحرا.. اختف من أمامه في أي مكان تريد، ولسوف يصل إليك ويخرجك من مكانك..

- أنت لا تعنى هذا..

- لكني أعنيه.. إنه لا يرى في هذا شيئا صعبا أو موهبة خاصة.. ولا يبالي بالبرد أو الظلام أو المطر..

- أنت لا تتحدث عن الضباب؟

- ضباب؟ إن له عينا تخرق الضباب كأنها الرصاص..

- إذن هو الشيطان ذاته!!

- كثيرون فكروا في هذا.. والآن دعني أحك لك شيئا فعله.. ليلة أول من أمس..

هنا دوت جلبة بالخارج، وانفتح الباب.. ودخل حشد متحمس تتقدمه امرأة المعسكر البيضاء الوحيدة، وهي تصيح:

- طفلتي! طفلتي! لقد ضاعت! بالله عليكم ساعدوني كي نجد (أرشى ستيلمان) فقد بحثنا في كل صوب..

قال البارمان:

- اجلسي يا مسز (هوجان).. ولا تقلقي.. لقد طلب مني فراشا منذ ثلاث ساعات.. (هامساندوتش).. اصعد وأيقظه.. إنه في رقم (14)..

سرعان ما هبط الفتى متأهبا.. وسأل الأم عن بعض التفاصيل.

- للأسف ليست هناك تفاصيل يا عزيزي.. وليت لدى تفاصيل.. أرقدتها في فراشها في السابعة مساء.. وحين صعدت للفراش منذ ساعة، لم أجدها.. ذهبت لكوخك فلم أجدك هناك.. ورحت أبحث عنك في كل مكان.. لكن الآن وجدتك ولله الحمد.. ولسوف تجدها لي..

- حسن.. اذهبي لكوخك يا سيدتي ولسوف ألحق بك..

وخرج الجميع من الحانة لبدء البحث.. وسرعان ما بلغوا كوخ (هوجان).

قال (أرشى) للأم:

- هاتي لي مصباحا..

وركع على الأرض الصلبة متظاهرا بأنه يفحصها.. وقال وهو يشير بإصبعه إلى الأرض:

- هذا هو دربها.. هل ترون؟

نظر الرجال وأقنع بعضهم نفسه بأنه يرى آثارا بينما اعترف آخرون بأن الأرض ناعمة لا تظهر شيئا على الإطلاق.. أو أن عيونهم ليست بهذه الحدة..

خرج (ستيلمان) من الغرفة واتجه إلى اليسار وقال:

- وجدت أثرها.. اتبعوني..

ولمسافة ميل ونصف مشى الفتي وهو يحمل المصباح بين الأشجار الكثيفة ودار دورة ونصف حول نفسه.. ثم قال لهم وهو يشير إلى جذع شجرة:

- هنا جلست المسكينة بعد ما أرهقها المشي.. هل ترون؟

لكن أيا من الرجال لم يستطع أن يرى شيئا على الجذع الأملس كالصلب.. لكن الأم الحزينة ركعت وطبعت قبلة على الجذع، وأعولت:

- لكن أين هي إذن؟

دار (ستيلمان) في دائرة حول المكان.. وهو يرفع الفانوس متظاهرا بالبحث عن آثار.

ثم قال في ضيق:

- حسن.. لا أفهم هذا..

وعاد يتفحص المكان:

- كانت هنا.. لم تغادر هذا المكان.. هذا أكيد.. هذا لغز.. لا أستطيع تفسيره..

هنا فقدت الأم صوابها:

- آه يا إلهى الرحيم!! ثمة وحوش طائرة اختطفتها من هنا!! لن أتحمل هذا!

- لا تقلقي.. سنجدها..

أمسكت الأم بيده ولثمتها وقالت:

- ألا بارك الله فيك يا (أرشى ستيلمان).

همس (بيترسون) في تهكم في أذن (فيرجسون):

- تمثيلية بارعة.. لكن ما كان يجب أن يجعلنا نمشي كل هذه المسافة.. كان أي مكان قريب يؤدي الغرض نفسه..

هنا هتف (أرشى) وهو يشير إلى الأرض:

- انظروا جميعا هنا!! كان الجواب أمامنا طيلة الوقت ولم نره..

ونظر الجميع إلى حيث أشار (أرشي) فلم يروا شيئا.

- أحقا لا ترون شيئا؟ انظروا.. هذا هو أثر (إنجن بيلي).. لقد أخذ الطفلة..

هتفت الأم:

- رحمتك يا رب!

- خذوا المصباح واتبعوني!

وراح يجرى بين الأشجار ثلاثين ياردة.. ثم اختفى خلف مرتفع من الرمل.. لحق به الرجال فوجدوا كومة من البطاطين وأغطية الجياد المكومة على شكل خيمة هندية صغيرة.. وبين الفتحات ضوء خافت..

قال الفتى:

- أنت قائدتنا يا مسز (هوجان).. أنت أولنا..

ومشى الجميع ليروا ما بداخل الخيمة الهندية كان (إنجين بيلي) جالسا على الأرض والطفلة نائمة بجواره.. احتضنتها الأم في حرارة ونهم.. وانهمرت الدموع من عينيها.. وبصوت مختنق صبت ذلك الشلال الثمين من العواطف الذي لا يمكن أن يوجد إلا في قلب أيرلندي..

قال (بيلي):

- وجدتها في العاشرة مساء.. كانت نائمة هناك متعبة.. دامعة.. تبكي.. حملتها لهنا وأطعمتها.. كانت جائعة.. ثم نامت..

احتضنته الأم في تأجج عاطفتها وأطلقت عليه اسم (ملاك الرب)..

وفي الواحدة والنصف صباحا عاد الموكب للقرية مغنيا: حين يعود (جوني) لداره.

ملوحين بالمصابيح، يجرعون الشراب، واستمر السهر حتى الصباح..

☆ ☆ ☆

6

الجزء الثاني

عصر اليوم التالي، كانت الإثارة تكهرب القرية كلها. هناك غريب نبيل كريم المحتد، قد وصل إلى الخان، ووقع باسمه المروع في السجل:

شيرلوك هولمز..

انتقلت الأخبار من كوخ لآخر.. ألقوا بأدوات الحفر واحتشدت البلدة كلها حول مركز الاهتمام. وصاح رجل في شمال القرية بالأخبار لـ (بات رايلي). وشعر (فتلوك جونز) بالغثيان وقال لنفسه:

- العم (شيرلوك)!! يا له من حظ! أن يأتي بينما أنا....

ثم قال لنفسه:

- وما المشكلة؟ أي واحد يعرفه كما أعرفه أنا، يفهم أنه لا يستطيع حل لغز جريمة إلا بعد ما يدبرها أولاً.. ويرتب الأدلة.. ثم يستأجر شخصا يرتكبها له [5].. الآن لن تكون هناك أدلة فماذا عساه يفعل؟ لا.. كل شيء على ما يرام..

كنت سأجازف بإلغاء الخطة.. لكن لا.. (فلينت باكنر) سيغادر دنيانا هذا المساء..

هنا ظهرت مشكلة أخرى:

- العم (شيرلوك) سيكون معي هذا المساء.. بينما أنا بحاجة إلى الانفراد بنفسي في كوخي حوالي الثامنة مساء.. كيف أتخلص

منه؟

ثم وجد الحل:

- سنخرج لنزهة.. ثم أتركه دقيقة.. فلن يرى ما سأفعله.. أفضل شيء تضلل به مخبرا هو أن تكون معه بينما أنت ترتب كل شيء.. هذا هو الحل الأصوب..

في الآن ذاته كان الطريق أمام الخان مسدودا بالقرويين ينتظرون ويأملون في رؤية الرجل العظيم.. لكنه لم يغادر حجرته.. بعض الرجال تسللوا إلى خزانة الحقائب، وثقبوا فيها ثقوبا اختلسوا منها النظر.. هكذا استطاعوا أن يلقوا نظرة على أعظم مخبر في العالم.

كان يجلس هناك.. ليس خرافة.. ليس ظلا.. بل هو حقيقي حي.. مادة مجسمة.. تكاد تلمسه.

وقال (فيرجسون)

- انظر لهذا الرأس! بحق السماء هذا رأس فعلاً!

وقال الحداد:

- وشحوبه! يأتي من التفكير.. من هنا يأتي! الحمقى من أمثالنا لا يعرفون معنى كلمة تفكير أصلا..

- وهذه التقطيبة.. هذا هو التفكير العميق.. تحت.. تحت.. يأتي من عمق أربعين قامة في أحشائه.. إنه على وشك التوصل لشيء ما..

- حتما.. ولا تنسوا هذا.. انظر لهذه الجدية المخيفة

- لقد مات أربع مرات من قبل.. ثلاث منها كانت موتا طبيعيا.. سمعت أن رائحته رطبة باردة.. كأنه قبر.

- شش.. راقبه! لقد وضع إبهامه على طرف جبينه القريب، وسبابته على الطرف البعيد.. إن تفكيره منهك جدا، ولك أن تراهن على هذا بقميصك الآخر..

- الآن هو ينظر للسماء ويمسح شاربه ببطء..

- هل تراه؟ إنه ينهض.. يبدو أنه لا يجد الدليل.. لذا..

- انظر له يبتسم! كالنمر.. لقد وصل إليها يا شباب! وصل إليها بالتأكيد!

- يجب أن أقول هنا إنني أكره أن أكون الرجل الذي يبحث عنه..

جلس (هولمز) إلى النافذة وظهره للمتلصصين، وبدأ يكتب.. فأدار الجواسيس ظهورهم وأشعلوا غلايينهم ليتكلموا من مخبئهم.

- يا شباب.. لا فائدة من الكلام.. إن الرجل مذهل..

- أنت لم تقل قط كلمة أحكم يا (ويلز فارجو).. وإنني لأتساءل ماذا كان سيفعله لو جاء أمس..

- بالله عليك.. كنا سنرى عملاً علميا باهرا.. (أرشي) جيد ولا يرغب أحد في تهوين شأنه.. لكن موهبته نوع من موهبة البومة لا أكثر.. لا ذكاء فيها.. ولا يمكن مقارنتها بهذا الرجل.. كان سيتجه إلى السيدة ويسألها:

- مدام.. من فضلك.. لا تتركي ذهنك يشرد.. ما جنس ابنتك؟

- أنثى يا سيدي..

- وعمرها؟

- ستة أعوام يا سيدي..

- أم م م.. صغيرة السن.. ضعيفة.. ميلان.. سينهكها المشي أكثر من هذا.. سنجدها على بعد ميلين.. وأسنانها؟

- خمس يا سيدي.. والسادس في الطريق.

- جميل.. جميل..

- ترون يا رفاق.. الرجل يجد الدليل فيما لا نرى نحن أي معنى له.. ثم سيسألها:

- ديانتها؟

- كاثوليكية يا سيدي..

- جميل.. ناوليني قطعة من غطاء الفراش.. شكرا.. من الصوف.. صناعة أجنبية.. همممم.. جميل.. وبعضا من غبار الأرض..

- هكذا يا شباب يأخذ هذه الأشياء ويضعها على المنضدة.. لقد حصل على كل ما يريد من أدلة.. ويروح يرصها على المنضدة بشكل مختلف في كل مرة (أنثى) ثم يعيد الترتيب (ستة) ثم يعيد الترتيب.. (كاثوليكية).. وبعد قليل يلتمع وجهه بابتسامة كأنه بيت يحترق.. ثم يقول للحشد:

- اثنان منكما.. خذا مصابيح.. اذهبا لـ (إنجن بيلي).. إن الطفلة هناك.. أما الآخرون فليعودوا لبيوتهم وينامو.. تصبحين على خير يا مدام.. تصبحون على خير يا سادة..

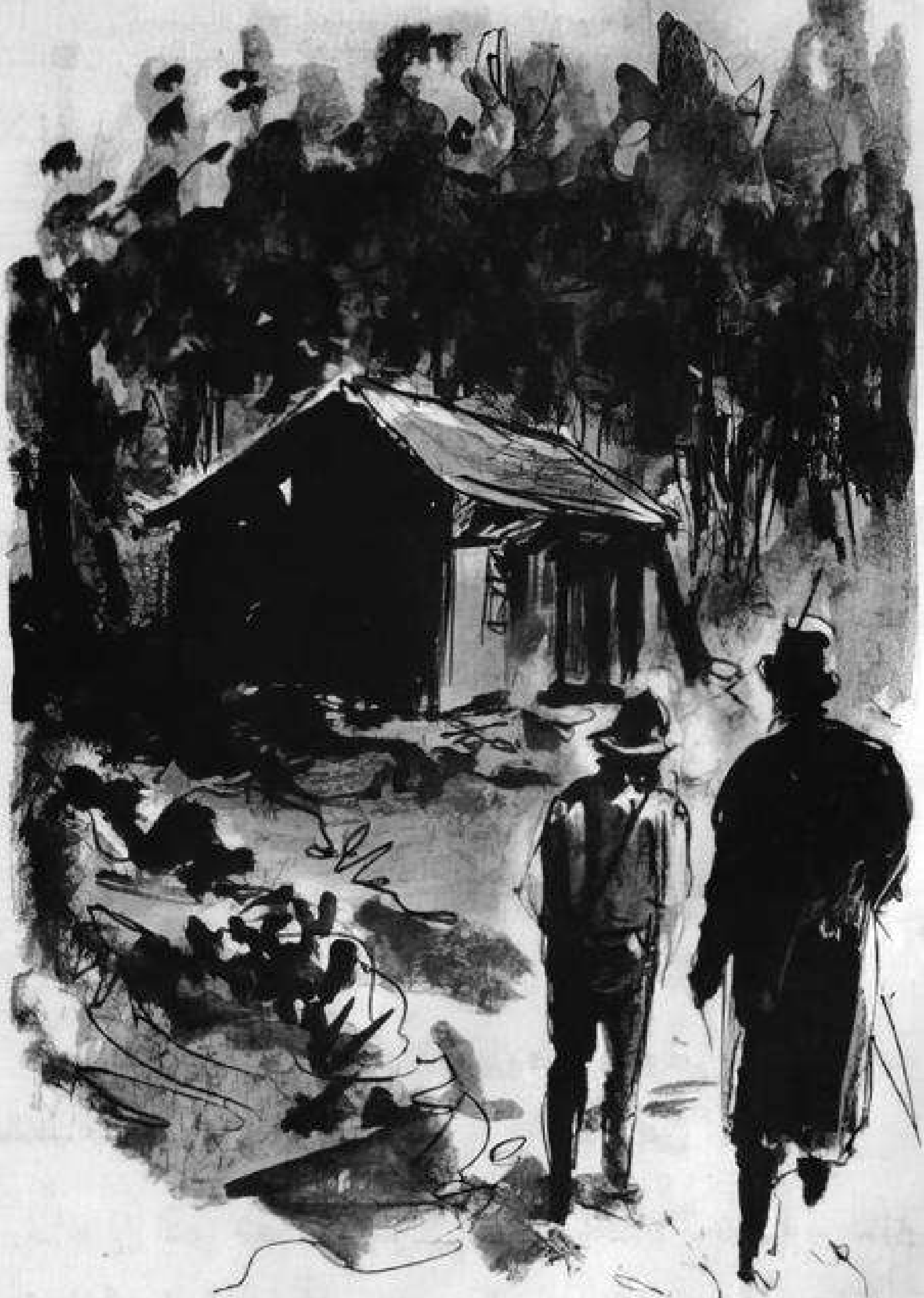
- هذه هي طريقته.. فقط العلم.. رجل كهذا لا يمشى وسط الأشجار ساعة ونصفا يبحث في الأرض.

وجلس الرجال يفكرون راضين عن أنفسهم.

☆ ☆ ☆

7

في الثامنة مساء تلك الليلة كان هناك رجلان يشقان طريقهما قرب كوخ (فلينت باكنر) في ظلام الغابة. كانا (هولمز) وابن أخيه.



في الثامنة مساء تلك الليلة كان هناك رجلان يشقان طريقهما قرب كوخ (فلينت باكتر) في ظلام الغابة ..

قال (فتلوك):

- قف هنا يا عماه.. بينما أهرع إلى الكوخ.. لن أتأخر أكثر من دقيقة..

اختفى لدقيقة ثم عاد، وواصل الاثنان المشي.

في التاسعة مساء كانا قد عادا إلى الخان. كان هناك حشد من الناس ينتظرون أن تقع عيونهم على الرجل الخارق للعادة. ارتفعت أصوات التهليل فرد (هولمز) المجاملة بانحناءات ملكية.. وقال (فتلوك) للمجتمعين:

- إن لدى العم (شيرلوك) بعض أعمال يا سادة.. لكنه سيعود في الواحدة أو منتصف الليل ويأمل لو بقي بعضكم كي يشاركه الشراب..

صاح (فيرجسون):

- بحق السماء إن هذا الرجل دوق يا رجال.. ثلاث تهليلات لأعظم رجل عاش على الأرض... هيب هيب هيب!!

- مرحي.. مرحي.. مرحى.. أيها النمر!!

واهتز المبنى بصوت الهتاف..

وفي الطابق العلوى وبخ (هولمز) ابن أخيه برفق قائلا:

- لم ورطتني في هذا الارتباط؟

- أحسبك ترغب في الشعبية يا عمى.. إنهم يحبونك لو لم تدعهم إلى الشراب سوف يعتبرونك صعلوكا.. ثم إنك قلت إن لديك من أخبار الوطن ما يكفي ليشغلنا طيلة الليل..

ظل وعمه يتكلمان ثلاث ساعات كاملة.. ثم عند منتصف الليل، نزل (فتلوك) إلى الظلام، ووقف ينتظر.. بعد خمس دقائق خرج (باكنر) مسرعا من غرفة البلياردو.

قال الفتى لنفسه:

- قد ظفرت به!

وقال للظل المبتعد:

- وداعا للأبد.. يا (فلينت باكنر).. أنت شتمت أمي.. ليكن.. لقد انتهى الأمر الآن.. أنت تخطو خطواتك الأخيرة يا صديقي..

وعاد للخان، وقال لنفسه:

- حتى الواحدة صباحا هناك وقت أمضيه مع الشباب.. هذا مفيد كحجة غياب..

وعاد مع (هولمز) إلى غرفة البلياردو المليئة بوجوه متلهفة معجبة.. طلب الضيف المشروبات وبدأ المرح. وسرعان ما تهشم الثلج، وبدأ الغناء.

وفي الواحدة وست دقائق كان الحفل في ذروته. حين.. بوم!!!

ساد الصمت.. ثم زال السحر واندفع الرجال إلى الباب:

- شيء ما انفجر..

واندفع القوم إلى الوادي.. قطعوا ميلا في دقائق.. وفي ضوء المصابيح وجدوا أرض كوخ (فلينت باكنر) القذرة.. لكن الكوخ ذاته لم يكن هناك.. لا علامة من أي نوع على وجود (فلينت) ذاته.

ثم صاح أحدهم:

- هو هنا..

بالفعل على بعد خمسين ياردة، وجدوا كتلة بلا حياة تمثله..

هنا احتشد القوم حول مركز الاهتمام (شيرلوك هولمز).. وقف عمال المناجم محيطين بموقع الجريمة.. ووسط هذا الجمع وقف الرجل الخارق للطبيعة وابن أخيه بجواره يحمل له مصباحا. راح يأخذ قياس الكوخ بشريط.. راح يقيس ارتفاع الأشجار.. أخذ عينات من التربة بجفت صغير.. وحدد إحداثيات المكان بالبوصلة، ثم سجل الوقت (طبقا للمحيط الهادي) بساعته ثم صححه ليعرف الوقت المحلي. مشى من الكوخ إلى الجثة وصحح الاختلاف المد جذري. وحدد الارتفاع وحرارة الجو.

في النهاية قال وهو ينحني انحناءة فخيمة:

- لقد انتهيت.. فهلا عدنا يا سادة؟

ثم تقدم الجمع إلى الخان، بينما الناس يمشون وراءه شاعرين بانبهار من هذا الرجل الخارق.. وراحوا يتساءلون عمن ألف هذه المأساة التي رأوها الآن.

قال (فيرجسون):

- رباه! لكن من حسن طالعنا أن هذا الرجل معنا الآن يا شباب..

قال (هام ساندوتش):

- هذا حدث القرن.. لسوف يتحدث العالم كله عن هذا، ولكم أن تأخذوا كلمتي.. هذا أفضل حظ لمعسكر مستجد..

سوف ترتفع أسعار مناجمنا..

- يا جدعان.. أنا لست نادما على أنه لم يكن هنا لإنقاذ الطفلة.. هذا شيء أكبر وأهم وأكثر علمية وثقافة.

- لو كان (أرشي) هنا لتعلم شيئا من طريقة عمل الرجل.. لكنه تواري بين الأشجار.

- (أرشي) صغير السن.. سيتعلم أفضل في يوم من تلك الأيام.

راح الرجال يخمنون من فعلها لكن من دون جدوى.. كان (هليار) الصغير هو الوحيد ذا العلاقة الحميمة مع (باكنر).. صحيح أن (باكنر) كان مكروها لكن ليس إلى حد أن يقتله أي رجل..

كان هناك اسم واحد على لسان الجميع من البداية، لكن لم يلفظه أحد إلا متأخرا جدا، وكان (رايلي) هو من لفظه: (فتلوك جونز)..

- نعم.. كلنا فكر في الشيء ذاته لأن له مليون حق كي يقتل (فلينت باكنر).. بل كان هذا من واجبه. لكنّ هناك مشكلتين: أولا ليس لديه البارود.. ثانيا: لم يكن قرب مكان الحادث..

قال (فيرجسون):

- كان في غرفة البلياردو حين وقع الحادث..

- الأمر كذا.. وهذا من حسن حظه.. كنا سنتهمه في دقيقة لولا هذا..

☆ ☆ ☆

8

تم إخلاء قاعة طعام الخان من كل شيء إلا من منضدة من خشب الصنوبر. بينما جلس (هولمز) في جلال ومهابة على مقعد.. ووقف القوم وتكاثف الدخان.

رفع الرجل الخارق يده طلبا لمزيد من الصمت، ثم باختصار ألقى سؤالاً تلو الآخر، وعلق على الأجوبة بـ (م م م).. وهزات رأس.. من ثم عرف كل شيء عن (فلينت).. ثم وضع الأدلة على المنضدة وقال:

- لدينا خط الطول وخط العرض، وقد تم تصحيحها مغناطيسيا.. هذا يحدد لنا بدقة المأساة.. لدينا الارتفاع والحرارة ودرجة الرطوبة.. وهذه أشياء مهمة لأنها تحدد لنا بدقة تأثير الطقس على مزاج القاتل في ليلة الجريمة..

سادت المكان علامات الإعجاب:

- بحق القديس (جورج).. إن الرجل لعميق..

- والآن نسأل الشهود الصامتين.. لدينا حقيبة فارغة.. ماذا تقول؟ تقول إن السرقة هي الدافع لا الانتقام.. ماذا تقول أيضا؟ تقول إن الجاني محدود الذكاء.. ذو ذكاء متدن.. لأن أي رجل متوسط الذكاء ما كان ليسرق (باكنر) الذي لم يشتهر قط بحيازة مال.. لكن هل الجاني غريب؟ فلتتكلم الحقيبة ثانية.. هناك هذه القطعة فيها.. افحصوها.. أنت وأنت ثم أعيدوها لي من فضلكم.. إنها قطعة من الكوارتز.. وليس هناك سوى عرق واحد في هذا الخليج ينتج هذا النوع من الكوارتز.. وأنا لا أراه

يوما بعيدا حين تنهمر الثروات على المائتي عامل في هذا المعدن النفيس..

ساد المرح القاعة وراح كل واحد يصافح جاره والدموع في عينيه.

عاد (هولمز) يقول:

- الآن نرى ثلاث حقائق: الجاني كان محدود الذكاء.. ولم يكن غريبا.. وغرضه هو السرقة.. الآن أنا أحمل في يدي جزءا من فتيل تفوح منه رائحة الحريق.. ما هي شهادته؟ نستنتج من هذا أن الجاني عامل مناجم.

ونستنتج أيضا أن القتل تم بالتفجير. وأن المتفجرات كانت جوار الكوخ قرب الطريق.. وفي يدي الآن عود ثقاب من الطراز السويدي الذي يشتعل حين تحكه في العلبة.. وجدته على بعد ستمائة قدم من الكوخ.. معنى هذا أن الفتيل اشتعل من هناك.. وبم يخبرنا أيضا؟ أن الجاني كان أعسر ليس بوسعي تفسير هذا يا سادة.. إن العلامات طفيفة بحيث لا يقدر إلا المران الطويل والخبرة على تفسيرها.. لكنني أؤكد لكم هذا.. وأنتم تعرفون من المجلات البوليسية أن كل سفاح أعسر..

قال (هام ساندوتش) وهو يضرب فخذه:

- بحق (جاكسون) هذا صحيح.. فلتلوموني لو كنت خمنت هذا من قبل..

وقال الرجال:

- انظروا لعينيه! ما من أحد يقدر على الفرار منه!

قال (هولمز):

- الآن قطعة الخشب هذه تخبرنا أن الجاني لم يفر.. قطعة الخشب هذه أصابته ودمه عليها..

ثم أظلم وجهه وأشار إلى اتجاه معين:

- ها هو ذا السفاح!

للحظة تصلب الجميع ثم هتف عشرون صوتا:

- (سامي هيليار)؟ لا.. ليس هو.. هذا حمق..

- لا تتعجلوا يا سادة.. لاحظوا أن الجرح فوق حاجبه..

شحب وجه (هيليار) وراح يتوسل للناس أن يصدقوه، ويركض يمينا ويسارا.. ومد يده لـ (هولمز) وراح يتوسل:

- لم أفعل.. لم أفعل.. لقد جرحت في جبهتي حين..

صاح (هولمز):

- اعتقله يا كونستابل.. فسوف أعلن أمر القبض عليه..

تحرك الكونستابل للأمام مترددا.. ثم توقف.. بينما صاح (هيليار):

- (أرشي).. أنقذني.. قل لهم كيف أصابني هذا الجرح.. إن هذا الخبر سيقتل أمي..

تقدم (ستيلمان) إلى الأمام وقال:

- نعم سأنقذك.. لا تخف.. لا تهتموا بسبب الجرح، فهو لا علاقة له بهذه القصة..

ثم نظر إلى الجمع وقال:

- سأسأل (توم جفريس) أن يقف عند هذا الباب، والكونستابل (هاريس) عند هذا الباب.. وسأطلب ألا يسمحا لأحد بالخروج من هنا..

- كلامك نفذ.. استمر..

- إن الجاني هنا وسوف تعرفونه حالا.. والآن أحكى لكم المأساة كلها من بدايتها.. لم يكن الدافع هو السطو بل الانتقام.. لم يكن القاتل محدود الذكاء.. لم يبتعد ستمائة قدم.. لم يضرب في وجهه بقطعة خشب.. ولم يحضر معه حقيبة.. ولم يكن أعسر.. وباستثناء هذه الأخطاء التافهة، فإن ضيفنا المرموق كان على حق تماما..

لم يغير الضيف جلسته الهادئة على حين واصل (ستيلمان):

- بل إن لدى شهودا..

ثم رفع قطعة من السلك وقال:

- هناك طبقة ناعمة من شحم الحيوان حولها، وشمعة احترق نصفها وعليها علامات.. سأخبركم حالاً أين وجدت هذه الأشياء.. سأتخلى الآن عن وضع الأدلة معا وكل الألعاب المسرحية لمهنة المخبرين.. وأخبركم ببساطة كيف حدث هذا الشيء المؤسف..

ثم صمت كي يترك تأثيرا.. وكي يصل التركيز والانتباه إلى الذروة.. ثم أردف:

- لقد درس السفاح خطته بعناية.. وكانت خطة محكمة تدل على عقل عبقري.. في البداية وضع علامات على شمعة على مسافة بوصات.. ثم أشعلها وقدر زمن اشتعالها.. فوجد أن احتراق أربع بوصات منها يحتاج إلى ثلاث ساعات.. لقد جربت هذا بنفسي من نصف ساعة..

بعد هذا وضع القاتل الشمعة في ماسك شمعة معدني، وعند علامة الخمس ساعات صنع في الشمعة ثقبا بسلك ساخن.. هذا هو السلك الذي رأيتموه وعليه الشمع..

بكثير من الجهد اخترق الأحراش حول كوخ (باكنر) ومعه برميل دقيق فارغ.. وفي قاعه ثبّت حامل الشمعة..

ثم قاس نحو 35 قدما من الفتيل، وهي مسافة البرميل من الكوخ.. ثم إنه صنع ثقبا في جانب البرميل.. هكذا صار أحد طرفي الفتيل في كوخ (باكنر) والآخر في الثقب في الشمعة.. وقد تم التوقيت ليشتعل في الواحدة صباحا بشرط أن تشتعل الشمعة في الثامنة مساء.. وبشرط أن يكون هناك بارود في الكوخ يتصل بنهاية الفتيل..

يا شباب.. البرميل هناك بين الأشجار وبقايا الشمعة فيه.. رأيت كل هذا منذ ساعة بينما الأستاذ هنا يجمع أدلة لا علاقة لها بالقصة..

ثم صمت فتنفس الناس بعمق.. وتحررت العضلات مهللة:

- لهذا كان في الأحراش.. انظروا له.. إنه ليس أحمق يا أولاد..

هنا قاطعه الرجل الخارق:

- لقد ظفرنا بقصة خيالية جميلة.. جميلة جدا يا سادة.. الآن هل لي أن أسأل هذا الشاب سؤالاً أو اثنين..

قال (فيرجسون):

- أعتقد أنه سيوقع به الآن.

قال (هولمز):

- تعال نتفحص هذه القصة الخيالية بطريقة منظمة.. نربط دليلا بدليل في زحف ثابت لا يتقهقر ولا يعتريه الندم نحو قلعة الخطأ المبهرجة هذه.. مصنع الأحلام لخيال بلا خبرة.. لنبدأ يا سيدي أسألك.. هل تفترض أن هذه الشمعة أُشعلت في الثامنة مساء أمس.

- نعم يا سيدي.. حوالي الثامنة..

- هل يمكنك أن تقول الثامنة بدقة؟

- لا.. لا أستطيع أن أتكلم بهذه الدقة..

- حسن.. لو أن أحدا مشى هناك في هذا الوقت لكان محتما أن يقبض على القاتل.. ألا ترى هذا؟

- نعم.. أعتقد هذا..

- شكرا لك.. هذا كل شيء بالنسبة للحظة الحاضرة..

قال (ستيلمان):

- أنا كنت هناك في الثامنة والنصف، لكني لم ألق السفاح.. لكني أعرف أنه في هذه الحجرة.. وأريد منكم جميعا أن تمروا أمامي حتى أستطيع أن أرى أقدامكم..

امتلأ الجو بالإثارة.. وبدأ تنفيذ الأمر..

انحنى (ستيلمان) وراح ينظر لأسفل، محملقا في كل قدمين.. مر به خمسون رجلا بلا نتيجة.. ستون.. سبعون.. بدأ الأمر يبدو سخيفا، وقال الضيف في تهكم:

- يبدو أن السفاحين نادرو الوجود هذه الليلة..

بدأ الجميع يرون ما في الموقف من سخرية.. وبدأ من يتقدمون لعرض أقدامهم يرقصون في حركات ضاحكة..

فجأة أمسك (ستيلمان) جبينه وهتف:

- هذا هو السفاح!

صاح الناس:

- رباه!! (فتلوك جونز)؟

في ذروة الصخب رفع الضيف يده آمرا بالصمت. أدت شخصيته الكاسحة إلى أن يسود الصمت المكان.. ووسط السكون اللاهث الذي عم المكان، تكلم الضيف بكبرياء قائلاً:

- هذا خطر.. إنه يحكم حياة بريئة.. بريئة فوق الشبهات.. اسمعوني أتكلم.. انظروا كيف أن حقيقة بسيطة ستبدد هذه الكذبة غير المسئولة.. يا سادة هذا الفتى لم يفارق عيني طيلة ليلة أمس..

كان تأثير هذا قويا، ونظر الناس إلى (ستيلمان) متسائلين.. فقال:

- كنت أعرف أن معه واحدا آخر!

واقترب من الضيف ونظر إلى حذائه وقال:

- أنت كنت معه.. كنت قريبا منه حين أشعل الشمعة التي فجرت البارود.. بل واستعمل علبة ثقابك..

فتح الضيف فمه ليتكلم فلم تخرج الكلمات:

- هذا.. هـ.. هذا جنون..

قال الفتى:

- عود الثقاب الذي وجدته أنا في البرميل هو ثقاب مكسو بالشمع من نوع لا يمكن أن تجده في القرية.. وأنا مستعد لتفتيشي للتأكد من أنني لست من وضعه هناك. فهل أنت مستعد؟

راح (هولمز) يفتش في جيبه.. ثم شحب وجهه وقال:

- أنا أرفض أن أفتش!

ساد الصمت لكن كل واحد راح يهمس في أذن الآخر:

- هذا يوضح الأمور.. لقد صار لقمة سائغة لـ (آرشي).

ماذا نفعل الآن؟ ما من أحد يعرف.. لقد كان موقفا مربكا.. والأهم أنه جاء فجأة فلم تتحمله هذه العقول التي لم تتعود المفاجآت..

تقاربت الرءوس وراحوا يتناقشون.. اقترح البعض أن يتم توجيه الشكر للقاتل على الخلاص من (باكنر) مع إطلاق سراحه.. لكن الأكثر حكمة قالوا إن العقول المتغطرسة في الشرق ستعتبر هذه فضيحة.. ولسوف يسخر الجميع من

حماقتهم.. أخيرا انتصر رأى الأكثر حكمة وأعلنوا أن (فتلوك) سوف يسجن ويحاكم..

كان الناس سعداء لانتهاء هذا؛ لأنهم كانوا متلهفين للذهاب إلى مسرح الجريمة ليروا ما إذا كان البرميل هناك أم لا.. لكن المفاجآت لم تنته بعد..

كان (فتلوك) طيلة الوقت يبكي في صمت، وفجأة انفجر صائحا في قنوط:

- لا! لا جدوى! لن أذهب للسجن.. لا أريد محاكمة لقد نلت ما أردت من نحس وتعاسة.. اشنقوني الآن وأريحوني.. فهذه هي النتيجة على كل حال.. لقد حكى القصة كأنه كان معي.. ولا أعرف كيف استنتج هذا كله.. لقد قتلت الرجل، وكان أي واحد منكم سيفعل الشيء ذاته لو أنه عومل ككلب.. من دون صديق يعينه..

قال (هام ساندوتش):

- وخدمته بإخلاص برغم هذا..

هنا جاء صوت يسأل:

- هل عرف عمك بما تنويه؟

- لا..

- هل أعطاك الثقاب؟

- نعم! لكنه لم يدر بما أنتويه.

- وكيف جازفت بهذا كله وهو معك؟ أنت تعرف أنه مخبر..

تردد الفتي وعبث في أزراره بشكل مرتبك، ثم قال بخجل:

- أنا أعرف المخبرين.. والطريقة المثلى لتجعلهم لا يكتشفون شيئا، هي أن تفعل الشيء وأنت معهم..

دوى الضحك محييا هذه الحكمة المحلية، لكن هذا لم يخفف من ارتباك الفتى..

☆ ☆ ☆

9

من خطاب لمسز (ستيلمان) لا يحمل تاريخا إلا كلمة (الثلاثاء):

لقد حبسوا (فتلوك جونز) في كوخ خال.. وتركوه بانتظار المحاكمة.

في اليوم التالي توجه عدد منا مع (هيليار) – على سبيل الصداقة - وساعدناه على دفن قريبه.

أنهينا عملنا وهنا مر جوارنا رجل غريب منهك مغبر يحمل حقيبة، ورأسه مطأطأ.. هنا تعرفت الرائحة! الرائحة التي طاردتها عبر الكرة الأرضية.. كانت كرائحة الجنة بالنسبة لآمالي المتلاشية.

وفي لحظة كنت بجواره وعلى كتفه وضعت يدا رفيقة.. سقط على الأرض كأنما ضربه البرق، وإذ جاء الشباب يركضون ركع على ركبتيه وضم يدين متوسلتين، ومن بين كفين مرتجفتين توسل إلى أن أكف عن ملاحقته وقال:

- لقد طاردتني عبر العالم يا (شيرلوك هولمز).. لكن الله يشهد على أنني لم أؤذ إنسانا قط..



وفى لحظة كنت بجواره وعلى كتفه وضعت يداً رفيقة .. سقط على الأرض كأنما ضربه البرق . .

نظرة لعينيه أخبرتنا أن الرجل مجنون.. هذه نتيجة عملي يا أماه! إن سكرات موتك ربما تريك يوما ما شعرت به في هذه اللحظة.

ساعده الشباب على النهوض، وشعرنا بالشفقة من أجله.. وقلنا له أرق وأفضل الأشياء.. وقلت له أن يبشر ولا يخاف. لقد صار بين أصدقاء الآن. ولسوف يعنون به.. ولسوف يشنقون أي رجل يحاول إيذاءه..

إن عمال المناجم يكونون كالأمهات حين تحرك الجانب الجنوبي في قلوبهم ويصيرون أطفالاً مستهترين غير متعقلين حين تحرك الجانب الآخر من قلوبهم. وقد جربوا كل حيلة لديهم كي يسعدوا قلب الغريب بلا جدوى، إلى أن قال رجل (ويلز فارجو):

- إن من يثير قلقك هو (شيرلوك هولمز).. فلا تقلق..

- ولماذا!

- لأنه مات من جديد!

- مات؟ لا تمزح مع بائس مثلي.. هل هذا الرجل يحكى الصدق؟

قال الرجال بصوت واحد:

- لقد شنقوه الأسبوع الماضي في (سان برناردينو).. بينما كان يبحث عنك.. حسبوه رجلا آخر.. إنهم أسفون لكنهم لا يستطيعون تصحيح الخطأ الآن..

وقال (هام ساندوتش) بلهجة من شارك في الأمر:

- هم يبنون له نصبا تذكاريا الآن..

أخذ (جيمس ووكر) شهيقا عميقا، ولم يقل شيئا لكن عينيه فقدتا ما فيهما من توحش.. واسترخى وجهه بعض الشيء.. وقد أخذناه لكوخنا وقدمنا له أفضل عشاء استطعنا طهوه.

ثم قدمت له أنا و(هليار) ثيابا جديدة تماما.. حتى صنعنا منه سيدا مسنا.. (مسن) هي الكلمة المناسبة.

تناسب ذبوله وبياض شعره.. برغم أنه ما زال في منتصف العمر لو حسبت الأمر بالسنين.

جلسنا ندخن ونتكلم، وحين انتهى من طعامه.. عاد له صوته.. وبدأ يحكى قصته بكامل إرادته. سأحاول أن أحكيها قدر الإمكان:

قصة الرجل الخطأ

بدأ الأمر كذا: كنت في (دنفر).. فجأة تلقيت مذكرة تنذرني بوجوب الرحيل، وإلا افتضح أمرى بصدد ارتكابي جريمة مريعة منذ سنوات طويلة في الشرق..

كنت أعرف قصة هذه الجريمة، لكني لم أقترفها.. كان هذا ابن عم لي يحمل الاسم ذاته.. ماذا أفعل؟ كان الرعب يبلبل عقلي ولم أدر.. والوقت المسموح لي به قصيرا جدا لا يتجاوز يوما.. فلو أذيع الخبر لشنقوني من دون محاكمة.. وكالعادة حين يعرفون أنهم أخطئوا سيعتذرون كما حدث مع مستر (هولمز)..

لذا قررت أن أبيع ما أملك وأفر حتى ينتهي الموضوع.. فررت في الليل وعشت في الجبال باسم مستعار..

ازداد قلقي.. وصرت أشعر بأنني مراقب طيلة الوقت، وفي النهاية كان على أن أستسلم.

كنت مرهقا.. وصارت الشكوك تطاردني في الليل والنهار.. ثم جاء الأسوأ.. ذات ليلة قالت الهمسات لي:

- لن ننجح لأننا لا نراه.. من ثم لن نستطيع تمييزه وسط الزحام..

فقال واحد:

- إذن نطلب (شيرلوك هولمز).. يمكنه أن يصل خلال اثني عشر يوما..

تحطم قلبي لأني قرأت عن هذا الرجل.. وعرفت معنى أن يقتفى أثرى.. بطاقته التي لا تهمد.

لقد أرسلت الأرواح تستدعيه، وكان عليّ أن أفر في الظلام.. ليس معي من متاع إلا الحقيبة التي وضعت فيها مالي.. وكان الرجل قد وصل واستطاع أن يتتبع أثرى..

لقد ظل يلاحقني عبر العالم ثلاثة أعوام ونصف عام في المحيط الهادي.. في أستراليا.. في الهند.. لكنى كنت أرى اسمه دوما في سجلات الفنادق، وكان ينسى ويكتبه ثم يشطبه ويكتب فوقه اسما آخر..

لقد منحنى أسوأ أوقات حياتي، لكني أقسم لكم إنني لم أمسسه بسوء لا هو ولا أي رجل سواه..

☆ ☆ ☆

2014

كانت هذه نهاية قصة الرجل، وقد أثّرت كثيرا في الشباب.. وبالنسبة لي كانت كل كلمة تحرق ثقبا في قلبي إذ تصطدم به.

قررنا أن يبيت الرجل معنا ويكون ضيف (هيليار).. أما عن نفسي فسأنتظر حتى يستريح وينال ما يحتاج إليه من تغذية ثم آخذه على (دنفر) كي أعيد انتعاش أحواله المالية.

صافح الشباب الرجل مصافحة عمال المناجم الحارة التي تهشم العظام، ثم تفرقوا لينشروا الخبر.

وعند الفجر نادانا (هام ساندوتش) ورجل (ويلز فارجو) وقالا:

- أخبار هذا الغريب والطريقة التي عومل بها قد انتشرت وقد قررنا أن نشنق الأستاذ.. لكن الكونستابل (هاريس) أحمق وقد اتصل بالشريف.. هلموا!

بدأنا الجري.. لكني تمنيت أن يصل الشريف في الوقت المناسب.. إذ شعرت برغبة واهية داخلي في أن يشنق (هولمز) عقابا له على خطاياي أنا.. لقد سمعت عن الشريف لكني سألت على سبيل الاطمئنان:

- هل يمكنه أن يوقف حشدا؟

- يوقف حشدا؟ تسأل هل يستطيع (جاك فيرفاكس) أن يوقف حشدا؟ أنت تجعلني أبتسم.. الخارج السابق على القانون الذي قتل تسعة عشر رجلا.. هل يستطيع؟

كانت الصرخات تتعالى من بعيد، وازدادت قوة إذ دنونا على شكل موجات تتعالى.. الآن صارت الضوضاء مما يصم الآذان.. لقد أمسك بعض الفتوات من عصابة (دالي) بـ (هولمز) لكنه أكثر الرجال هدوءا في المكان.. فقط ابتسامة ازدراء على شفتيه، ولو كان هناك أي خوف من الموت في قلبه البريطاني، فإن قوة عزيمته سيطرت عليه..

قال أحد رجال عصابة (دالي):

- هلموا للتصويت يا رجال.. شنق أم رمى بالرصاص؟

صاح أحد رفاقه:

- لا هذا ولا ذاك.. سيعود للحياة بعد أسبوع كالعادة.. الحرق هو الحل الأمثل له..

وافق الجميع على هذا، واحتشدوا حول السجين صائحين:

- نعم.. النار.. النار هي تذكرته للعالم الآخر!

وجروه إلى مربط الخيول وقيدوه، وكدسوا حوله الحطب حتى الخصر.. لكن الوجه القوى لم يشحب.

- هاتوا ثقابا.. ثقابا!

أشعل الرجل ثقابا وداراه من الريح بيده.. ثم وضعه تحت قطعة من الخشب.. ساد صمت رهيب.. لقد اشتعلت قطعة الخشب لدقيقة.. هنا سمعت صوت حوافر من بعيد..

ازداد الصوت وضوحا.. ازداد تميزا لكن لم يبد أن أحدا من الواقفين قد سمعه.

انطفأ الثقاب.. فأشعل الرجل آخر، ومن جديد ارتفع اللهب، لكنه في هذه المرة أمسك بالخشب.. ووقف الجلاد يراقب المشهد والثقاب ما زال في يده..

الآن صار صوت الحوافر كالرعد.. وفي اللحظة التالية دوت صرخة:

- الشريف!!

وسرعان ما وصل، وقد وقف حصانه على قائمتيه الخلفيتين وهتف:

- تراجعوا أيها الحثالة!!

نفذ الجميع إلا قائدهم، الذي وقف في ثبات ويده على مسدسه.. فصاح به الشريف:

- أنزل يدك.. اركل النار لتطفئها.. وحرر الغريب!!

أطاع الرجل.. ثم ألقى الشريف خطبة على ظهر حصانه. ولم يحاول إضفاء أي بريق على كلماته بل قالها بشكل مدروس محكم:

- أنتم مجموعة لطيفة.. إذ تأتون مع (شادبلي هجنز) هذا الجبان فاحش القول، الذي يطلق النار على الناس من ظهورهم ثم يعتبر نفسه (دسبيرادو).. لو كان هناك شيء أحتقره فعلا فهو الشنق بلا محاكمة.. هذا عمل خال من الرجولة أن أرى مائة رجل على واحد فقط.. مائة جبان من مجتمع جبان بدوره، وفي تسع وتسعين بالمائة من المرات يكون الشريف جبانا آخر..

وصمت قليلاً كأنما يجتر العبارة ويتلذذ بمذاقها على لسانه، ثم أردف:

- رباه! لكم تفزعني فكرة رجل بالغ جبان يخاف من الجماهير الغاضبة!

ونظر إلى الأسير وقال:

- من أنت أيها الغريب.. وماذا كنت تفعله؟

- اسمي (شيرلوك هولمز).. ولم أفعل شيئا..

كان أثر الاسم مذهلا على الشريف.. تكلم بحرارة وقال إنها لوصمة عار على البلاد أن تحدث فضيحة كهذه تحت علم النجوم والشرائط، لرجل طبقت شهرته الآفاق واستلبت قصصه قلوب القراء في أرجاء المعمورة..

اعتذر له بصفته يمثل الولايات المتحدة كلها، وانحنى لـ (هولمز) في رشاقة.. وأعلن أن الكونستابل سيكون مسئولا لو ضايقه أحد ثانية.. ثم استدار للجمع وقال:

- عودوا لجحوركم أيها القذرون!

وكذا فعلوا.. ثم قال:

- اتبعني يا (شادلبي).. سأتولى قضيتك بنفسي.. أبق سلاحك.. فلو جاء اليوم الذي أخشى فيه أن تمشي ورائي بهذا الشيء معك، فأنا جبان آخر..

ومشى ووراءه (شادلبي)..

حين عدنا إلى كوخنا، وقد دنا وقت الإفطار.. سمعنا أن (فتلوك) قد فر من محبسه في الليل.

لم يتأسف أحد لهذا.. دع عمه يبحث عنه لو أراد هذا.. فالمعسكر لا يبالي بالموضوع..

☆ ☆ ☆

10

بعد عشرة أيام

إن (جيمس ووكر) بخير حال الآن، وعقله يتحسن كذلك....

سأنطلق معه إلى (دنفر) صباح غد..

ملحوظة قصيرة: بينما نحن نتحرك هذا الصباح، همس لي (هيليار):

- أبق هذه الأخبار بعيدة عن (ووكر) حتى تتأكد من أنك لن تصيب عقله بأذى، لقد ارتُكبت تلك الجريمة التي تكلم عنها، والذي ارتكبها ابن عمه.. لقد دفنا المجرم الحقيقي.. أتعس رجل منذ قرن كامل.. (فلينت باكنر).. اسمه الحقيقي كان (جاكوب فولر)..

هكذا ترين يا أماه.. لقد صار زوجك وأبي في قبره..

فدعيه يسترح هناك.

مارك توين

حكايات مارك توين

في القصة الأولى نرى كيف فسدت (هادلبرج) البلدة التي لا رأس مال لها إلا الشرف.. كيف؟.. (مارك توين) يعرف..

في القصة الثانية نرى الفتى يطارد أباه عبر الكرة الأرضية لينتقم.. لماذا؟.. (مارك توين) يعرف

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- حوالي 73 كيلو جراما.

[←2]
- عادة الغرب في طرد المكروهين من البلدة.. وهي طريقة محببة مثلها مثل القطران

[←3]

- (أعترف أن ترجمة هذه المحاورة غير أمينة، بسبب أنها تجرى بلسان عمال المناجم.. إن حديثهم ممتع لكن ترجمته حرفيا شبه مستحيلة..)

[←4]

- معنى اسمه هو (شطيرة فخذ الخنزير)..

[←5]

- طبعا هذه سخرية (مارك توين) الأمريكي من (هولمز) رمز الذكاء البريطاني.. وكما سنرى يقوم بـ (بهدلته) بعنف في هذه القصة..

50

روايات عالمية للجيب



1984

(الجزء الأول)

بقلم : چورچ أورويل
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (50)

١٩٨٤ (ج١)

بقلم: جورج أورويل
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

(مزرعة الحيوانات) رواية مجدودة الحظ، فائقة الشهرة بالنسبة لكل دارسي اللغة الإنجليزية في العالم، برغم صغر حجمها الذي يقترب نوعًا من حجم هذا الكتيب..

من قرءوا القصة يعرفون جيدًا أنها رؤية سياسية جريئة، تمَّ وضعها في قالب رمزي ساخر أقرب إلى قصص الأطفال، يناقش ما يمكن أن يحدث في مزرعة ثارت الحيوانات فيها واستولت عليها.. على اعتبار أن خيرات الحيوانات للحيوانات، وتسود شعارات جميلة مثل (كل الحيوانات متساوية) و(قدمان سيئ.. أربع أقدام جيد).. ويرينا (أورويل) الأنماط الثلاثة التي تولد في الثورات المنتمي واللامنتمى والمتسلل.. والتي عرفناها مرارًا من العظيم (نجيب محفوظ) في قصصه.. إن الخنازير تتسلل إلى السلطة بذكائها الحاد، وتدريجيًّا تنجح في الاستيلاء على خيرات المزرعة، بينما هي لا تكف بالأرقام عن إقناع باقي الحيوانات الساذجة بأن الأمور تتحسن، وأن عليها أن تعمل أكثر.. ولا ندري متى ولا كيف تعلمت الخنازير المشي على قدمين، ولا متى تغير الشعار إلى (كل الحيوانات متساوية، لكن بعضها متساو أكثر)!

قدمت دار (أخبار اليوم) قصة (مزرعة الحيوانات) من ترجمة الأستاذ (عبد الحميد الكاتب)، في (كتاب اليوم) رقم 145، مع مقدمة طويلة ممتازة عن الكاتب وفكره، ولهذا لم نحاول ترجمتها: فسلسلتنا هذه كما قلنا تحاول سدّ الثغرات التي نسيها البناءون العظام السابقون في الجدار ولا تحاول بناءه من جديد!

∞∞∞∞∞∞

ولد (جورج أورويل George Orwell) - أو (أريك أرثر بلير) - عام 1903 في البنغال بالهند، لأن أباه كان موظفًا في الحكومة البريطانية هناك.. وبعد ولادته بعام انتقلت الأم إلى إنجلترا.. وقد بدأ الكتابة في سنٍّ مبكرة، وإن لم يشعر بميل كثير نحو حياة المدرسة.

عام 1922 سافر (أورويل) إلى (بورما) ليعمل في إدارة الشرطة، وهناك بدأ يفهم أن الاستعمار البريطاني عمل قبيح فاستقال من العمل، وعاد إلى أوروبا فقيرًا حيث قرر أن يكسب عيشه من الكتابة وأطلق على نفسه اسم (جورج أورويل).. ونشر كتابه الكبير (أيام في بورما - 1934)..

مال إلى الاتجاه الاشتراكي وسافر لإسبانيا ليكتب عن حربها الأهلية، ويقاتل مع العمال الماركسيين.. وقد نال من جراء هذا جرحًا في عنقه.. وقد تعلَّم من هذه الحرب أن يكره الشيوعية ويفضل الاشتراكية بمفهومها الإنجليزي، وقد كتب عن هذه الفترة (تحية لكاتالونيا - 1938)، ولسوف نجد نفس المقت للنظم القمعية - الشيوعية بالذات - في قصصه التالية..

في الحرب العالمية الثانية عمل مراسلًا لمحطة (بى بى سى)، وفي نهاية الحرب كتب رائعته (مزرعة الحيوانات).. كانت هذه القصة فاتحة الخير له.. وكان نجاحه الساحق الآخر هو (1984)، لكنه لم يعش ليرى هذا النجاح الساحق.. وفي العام 1949 توفى بالدرن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رواية اليوم شهيرة جدًّا، وقد تركت علامة دائمة في الأدب والسياسة العالميين.. إنها صرخة ضد القمع والحكم الشمولي، وهي مليئة بالنبوءات التي توشك على أن تتحقق حرفيًّا (نعم

كانت نبوءات وقت كتابتها لأن العام 1984 كان بعد أربعين سنة)، ولسوف نشم رائحتها القوية في أعمال تالية نذكر منها (451 فهرنهايت - راى برادبوري) و(الرجل الراكض - ستيفن كينج) و(البرتقالة الميكانيكية - آرثر بيرجس) و(عالم جديد رائع - ألدوس هكسلي) وربما فيلم (النائم) ل- (وودى الين)، وقد قدمنا القصتين الأولى والثانية في هذه السلسلة بالذات..

لا أجد اليوم تعليقًا على هذه القصة سوى ما كتبه الدكتور (جلال أمين)[1] عام 1991:

«شاهدت قناة CNN الأمريكية فوجدت فيها ما يجسِّم ما أكرهه في وسائل الإعلام الحديثة: الكفاءة منقطعة النظير في الكذب، والإلحاح المستمر على الناس لحملهم على تصديق ما لا يجب أن يصدق، والبرود وتضخيم أتفه الأخبار كأنها بالغة الأهمية، وتجاهل الأخبار المهمة فعلًا، ووجوه المذيعين تؤكد شعوري بأنني لست أمام كائنات بشرية بل هي وجوه من شمع تتحرك شفاهها طبقًا لنظام مبرمج سلفًا، ويستهدف لا الإعلام بل غسيل المخ أو بالأحرى تلويثه.

«لكن هذا أكد لي أن ما توقعه (جورج أورويل) قد تحقق بالفعل.. إنه حكي في قصته (1984) عن أشياء مماثلة مما كان يقوم به البطل الذي كان يعمل في وزارة الحقيقة (ما يعادل وزارة الإعلام) فقد كان عمله إبدال صورة بأخرى أو اسم باسم.. بل إن (أورويل) ذهب أبعد من ذلك فافترض وجود «لغة جديدة».. تتعرض فيها بعض الكلمات لتغيير أساسي في معناها بحيث تقبل المتناقضات كأنها ممكنة.. تذكرت هذا حين سمعت تلك العبارة الرائعة (نيران صديقة) Friendly fire تمييزًا عن حالة الموت على يد عدو..

«قال (أورويل) أيضًا إن من ملامح اللغة الجديدة الاختصار الشديد في كتابة كثير من الكلمات، حين يراد إخفاء حقيقة لتجنب المشاعر التي يثيرها ذكر الكلمات كاملة.. فأمريكا اليوم تستخدم WIAو KIA وMIA للدلالة على (مقتول في أثناء العمليات) و(مجروح في أثناء العمليات) و(مفقود في أثناء العمليات) بالترتيب.. كما يستخدم مصطلح TO للإشارة إلى (مسرح العمليات) كأننا بصدد مسرحية للتسلية.

«لقد تعذب صفوة الناس الذين يملكون القدرة على مشاهدة CNN وفهم لغتها الإنجليزية، بينما لم يشعر البسطاء بشيء، وهو يماثل نبوءة (أورويل) حين قال: إن عامة الناس (البروليتاريا) هم وحدهم الذين يحتفظون بقواهم العقلية بسبب عجزهم عن الفهم.. لقد بلعوا كل شيء ولم يلحقهم الضرر من ذلك.. لأن ما دخل أمعدتهم خرج منها دون أن يترك أثرًا، وكأنه حبة ذرة تمر بجسد عصفور وتغادره دون أن تهضمه..

ملحوظة أخيرة هي شكري للصديقة السكندرية (ماري فكتور) التي اقترحت ترجمة هذه الرواية في المنتدى، فالحقيقة أنني كنت قد نسيتها تمامًا برغم أهميتها – الرواية لا الصديقة طبعًا! - وبرغم أنها كانت في ذهني منذ توليت أمر هذه السلسلة..

يكفي الكلام عن الرواية، ولنقرأ الرواية ذاتها التي سنقدمها في جزأين، بسبب أهميتها وصعوبة تلخيصها..

د. أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

1

كان يوما مشرقًا من إبريل، والساعات تدق الواحدة بعد الظهر.. حين اندفع (ونستون سميث) وقد دفن ذقنه في صدره في محاولة لتفادي الريح العاتية، عبر الأبواب الزجاجية ل- (فكتوريا مانشنز)، لكن ليس بالسرعة الكافية كي يتفادى الغبار الذي يدخل معه.

كانت للردهة رائحة الكرنب المسلوق والأبسطة القديمة، وفي نهايتها كان هناك ملصق ملون على الجدار.. كان عليه وجه عملاق عرضه يفوق المتر.. وجه رجل في الخامسة والأربعين له شارب أسود كث وملامح بارزة وسيمة.. اتجه (ونستون) للدرج فلم يكن المصعد ذا نفع.. فهو لم يكن يعمل إلا نادرًا وحاليًّا التيار الكهربى منقطع في ساعات النهار.. فهذا جزء من الترتيبات الاقتصادية ل- (أسبوع المقت).

كان ارتفاع البناية سبعة أدوار، وقد اضطر (ونستون) ابن التاسعة والثلاثين عامًا إلى الصعود على مهل، ملتقطًا أنفاسه من حين لآخر.. وفي كل طابق كان يرى الوجه العملاق ينظر له، فقد كانت الصورة معدة كي تلاحقك عيناها حيثما تحركت.

«**الأخ الأكبر يراقبك**».. كذا كان يقول التعليق تحتها.

داخل البناية كان هناك صوت لذيذ يقرأ مجموعة من الأرقام تتعلق ربما بحديد التسليح.. جاء الصوت من صفيحة معدنية مستطيلة كأنها مرآة معتمة على الجدار الأيمن.. إن هذه الأداة التي تدعى (تليسكرين) يمكن تعتيمها لكن ما من طريقة لإغلاقها بالكامل.

تحرك (ونستون) إلى النوافذ.. نحيلًا ضئيلًا تبدو قلة جسده بوضوح في الأوفرول الأزرق الذي هو زي الحزب.. كان شعره أشقر ووجهه أحمر قانيًا وجلده خشنًا من فعل الصابون الرديء وموسى الحلاقة الثلم، وبرد الشتاء الذي انتهى حالًا..
وفي الخارج - عبر زجاج النافذة المغلق - بدا العالم باردًا.. دوامات صغيرة تبعثر التراب في كل مكان، وبرغم أن الشمس كانت ساطعة فإن كل شيء بدا بلا لون.. إلا الملصقات.. إن الرجل كث الشارب كان ينظر من كل ركن.. والتعليق هو « **الأخ الأكبر يراقبك** »..
وفي الخارج حلقت هليكوبتر فوق الأسطح.. حامت للحظات كأنها ذبابة زرقاء ثم ابتعدت.. كانت هذه دورية الشرطة تتلصّص على نوافذ الناس.. لم تكن هذه الدوريات خطرة على كل حال.. الخطر كان (شرطة الأفكار)..
ومن (التليسكرين) كان الصوت يتحدث عن حديد التسليح وإنجازات الخطة الثلاثية التاسعة.. كانت هذه الشاشة تستقبل أي صوت يصنعه (ونستون) فوق الهمس فضلًا عن رؤيته.. لا يمكنك أن تعرف أبدًا متى يتم سماعك ورؤيتك.. إن معرفة اللحظة التي يقتحم فيها (بوليس الأفكار) بيتك لأمر خاضع للحدس.. وعليك أن تحول العادة إلى غريزة وتقبل حقيقة أنك مراقب في كل وقت، وكل حركة تقوم بها يتم فحصها ما لم تكن في الظلام.
إنه على بعد كيلومتر من (وزارة الحقيقة) الشامخة العالية فوق الأفق.. مقر عمله.. قال لنفسه:
- « هذه لندن.. المدينة الأساسية في المهبط رقم واحد.. ثالثة أهم محافظات أوشيانيا.. »

(وزارة الحقيقة).. أو (الوقيقة) حسب اللغة الجديدة.. كانت تختلف عن أي جسم يراه في الأفق.. كانت مبنى عملاقًا هرميًا من الخرسانة البيضاء يشمخ 300 متر في الهواء.. وعلى جداره كانت الشعارات الثلاثة للحرب:

الحرب هي السلام

الحرية هي العبودية

الجهل هو القوة

قيل إن (وزارة الحقيقة) تحوى ثلاثة آلاف غرفة فوق الأرض ومثلها تحتها.. وكان هناك ثلاثة مبان أخرى مماثلة تمثل أركان الحكومة التي تقبع المدينة متقزمة تحتها.. (وزارة الحقيقة) المسئولة عن الأخبار والتعليم والفنون والترفيه.. و(وزارة السلام) المهتمة بالحرب.. و(وزارة الحب) التي تحافظ على القانون والنظام، و(وزارة الوفرة) المسئولة عن الأمور الاقتصادية، وباللغة الجديدة كان اسم هذه الوزارات (الوقيقة).. (الولام).. (الوب).. (الورة)..

(وزارة الحب) كانت هي المرعبة حقًا.. فلم تكن لها أية نافذة، وكان من المستحيل الوصول إليها إلا عبر الأسلاك الشائكة.. وأبراج المراقبة المسلحة.

رسم (ونستون) على وجهه تعبير التفاؤل، وهو أكثر التعبيرات أمانًا حينما تواجه (التليسكرين).. لقد ترك الوزارة في هذا الوقت، وهكذا ضحى بوجبة الغداء في المقصف، بينما لم يكن في المطبخ إلا خبز أسود يجب أن يبقيه لإفطار غد.. تناول من على الرف زجاجة من سائل عديم اللون كتب عليه (جن النصر) له رائحة زيتية لزجة.. صب لنفسه مقدار جرعة وشربها مرة واحدة كأنما هو دواء.. سالت الدموع من عينيه، فالسائل كان

كحمض النيتريك.. لكن على الفور تلاشى الحريق في معدته وبدأ يشعر براحة.
تناول لفافة تبغ من علبة كتب عليها (تبغ النصر) فأشعل واحدة.. ثم دخل إلى غرفة المعيشة حيث تناول من منضدة صغيرة حامل ريشة وزجاجة حبر وكتابًا صغيرًا مغلفًا.
لسبب ما لم تكن الشاشة في هذه الغرفة في وضعها المعتاد.. كانت تواجه النافذة لا الغرفة.. هكذا كان بعيدًا عن مجال الشاشة.. كانت جغرافية الغرفة غير المعتادة هي ما أوحى له بهذا الذي سيقوم به.
كان الكتاب جميلًا.. صفحاته مصفرة نوعًا من القدم ونوع ورقه لم يعد يستعمل منذ أربعين عامًا، لكنه كان يعرف أن الكتاب أقدم من هذا.. لقد وجده في متجر عاديات في أحد أجزاء المدينة، فشعر برغبة ملحة لاقتنائه.. إن رجال الحزب لا يسمح لهم بارتياد المحلات العادية، لكن هذه القاعدة لم تكن صارمة.. لهذا نظر ذات اليمين واليسار ثم دخل ليبتاع الكتاب بدولارين ونصف..
لم يدر وقتها لماذا اشترى الكتاب وقد عاد به شاعرًا بالذنب، حتى صار الكتاب وسواسًا مقيمًا.
كان ينوى أن يبدأ كتابة مذكرات.. لم يكن هذا مخالفًا للقانون (لم يكن هناك شيء مخالف للقانون لأنه لم تعد هناك قوانين) لكنه كان متأكدًا من أن اكتشاف الأمر يعني موته.
كان القلم في هذا العصر أداة أثرية لا تستعمل حتى في التوقيع.. كان يشعر أن هذا الورق الأصفر الجميل يستحق أن تكتب عليه بريشة لا أن تخدشه بقلم حبر.. ولم يكن قد اعتاد الكتابة لأنه يملى كل شيء على آلة الإملاء والكتابة، لكن هذا بالطبع كان مستحيلًا الآن..

تردد قليلًا قبل أن يضع العلامة على الورق.. وبخط صغير أخرق كتب:
- « 4 إبريل.. 1984.. »
وتراجع للوراء وقد غمره إحساس بانعدام الحيلة تمامًا.. لم يكن واثقـًا من أن هذا هو العام 1984.. فقد صار مستحيلًا في هذا الزمن تحديد العام بدقة.
التليسكرين الآن تعزف موسيقا عسكرية.. كان من الغريب أنه لم يفقد القدرة على التعبير عن نفسه فحسب، بل إنه نسى تمامًا ما كان يزمع قوله.. منذ أسابيع يتأهب لهذه اللحظة، ولم يحسب أنه يحتاج إلى شيء غير الشجاعة.. كل ما عليه أن ينقل إلى الورق ذلك الحوار المنفرد الذي يدور في رأسه منذ أعوام.
تمر الثواني وهو لا يعي شيئًا إلا فراغ الصفحة تمامًا.
فجأة بدأ يكتب في هلع تام، لا يكاد تقريبًا يعي ما الذي يكتبه.. كتابته الطفولية الصغيرة تصعد وتهبط في الصفحة:
» الرابع من إبريل 1984.. ذهبت للسينما.. كلها أفلام عن الحرب.. كان هناك فيلم جيد عن سفينة مليئة باللاجئين يتم تدميرها في البحر المتوسط.. استمتع الناس بإطلاق الرصاص على الرجل البدين الذي يحاول الهرب، بينما طائرة هليكوبتر تطارده.. تراه من وجهة نظر المدفع ثم يمتلئ الرجل بالثقوب ويستحيل الماء من حوله قرمزيًّا.. ثم غرق كأنما الثقوب أدخلت الماء فيه.. هلل الناس وصفقوا حين اختفى تحت الماء.. وكان هناك قارب فيه امرأة عجوز تمسك بالمجداف وحولها مجموعة من الأطفال.. تحلق الهليكوبتر حول القارب فيصرخ الصبى ويدفن رأسه في صدرها كأنما يحاول أن يتواري داخلها.. تحاول المرأة أن تهدئه، لكنها زرقاء من الخوف هي الأخرى.. هنا ألقت الهليكوبتر بقنبلة على القارب، فتعالى الوهج وتحول

القارب إلى أعواد ثقاب.. هنا جاءت لقطة ممتازة لذراع الطفل ترتفع لأعلى في السماء، فلا بد أن طائرة هليكوبتر مزودة بكاميرا في مقدمتها هي التي تابعت هذه الذراع.. تعالى التصفيق من مقاعد رجال الحزب، لكن امرأة من بين مقاعد (البروليتاريا)[2] راحت تصرخ وتكرر أنه ما كان عليهم عرض هذا أمام الأطفال.. لا يجب.. ليس صوابًا.. لا يجب أن يراه الأطفال.. حتى جاء البوليس وأخذها.. لكني لا أحسب شيئًا حدث لها.. فلا قيمة لرأى العامة.. »

وتوقف (ونستون) جزئيًا لأن أصابعه تقلصت.. لكن كذلك لأنه لم يدر ما جعله يسكب كل هذا الهراء.. ولأنه تذكر فجأة الحادث الأهم.. الشيء الذي جعله يقرر الذهاب إلى البيت والكتابة.

حدث هذا صباح اليوم في الوزارة..

كانت الحادية عشرة صباحًا، في إدارة السجلات حيث يعمل.. كانوا يجمعون المقاعد في الوسط أمام الشاشة العملاقة تأهبًا لبرنامج (مقت الدقيقتين). كان قد اتخذ مكانه في الوسط حين دخل شخصان يعرفهما بالنظر فقط بشكل مفاجئ إلى القاعة.

واحد منهما كان الفتاة التي كان يلقاها كثيرًا تجتاز الردهة.. لم يعرف اسمها لكن كان يعرف أنها تعمل في (إدارة الخيال).. أحيانًا كان يراها ملوثة اليدين بالزيت وهي ذاهبة لإصلاح إحدى ماكينات كتابة القصص.. فتاة رياضية سوداء الشعر في السابعة والعشرين من عمرها، ينتشر النمش على خديها.. وكان (ونستون) قد كرهها بمجرد أن رآها أول مرة.. كان هذا بسبب جو ملاعب الهوكي والحمامات الباردة ونظافة الدماغ الذي تبعثه من حولها.. كان يمقت كل النساء وبخاصة الشابات

الجميلات.. هاته الفتيات كن دومًا الأكثر تعصبًا للحزب.. يبتلعن الشعارات الدعائية.. إنهن الجاسوسات الهاويات..
لكن هذه الفتاة كانت توحى بأنها أكثر خطرًا من الأخريات.. لقد نظرت له نظرة ثاقبة اخترقته وأوقعت في قلبه الرعب.. وعلى الفور بدأت الفكرة تخطر له.. لا بد أنها عميلة لدى (شرطة الأفكار).. هذا غير محتمل لكنه ظل يشعر بعدم الراحة.
الآخر كان رجلًا اسمه (أوبرايان).. وهو عضو في دوائر الحزب الداخلية، ويتولى منصبًا يبدو أنه مهم جدًّا لدرجة أن (ونستون) لا يملك إلا فكرة باهتة عن حقيقته.. وقد ساد الصمت المكان عندما رأى الناس عضوًا مهمًّا يدنو.. كان الرجل قصيرًا له وجه غليظ وحشى مرح.. وبرغم شكله المرعب فقد كان في أسلوبه شيء ما خلاب.. كانت له طريقة معينة في إعادة تثبيت عويناته على أنفه توحى بالتحضر بشكل غريب.. كانت تذكرك بأحد نبلاء القرن الثامن عشر يقدم صندوق ستعوطه.. لكن ما كان يجذب (ونستون) له هو أنك تشعر بأنه ليس مخلصًا للحزب إلى هذا الحد.. كأنه شخص يمكنك أن تتكلم معه لو اختليت به بعض الوقت بعيدًا عن التليسكرين.
بعد قليل تعالى صوت مفزع طاحن من التليسكرين، كأنها آلة عملاقة تدور من دون زيت.. كانت ضوضاء تجعل أسنانك تصطك وشعر مؤخرة رأسك ينتصب.. لقد بدأ الكره..
كالعادة ظهر وجه (إمانويل جولدشتاين) عدو الشعب على الشاشة.. ساد الصفير هنا وهناك بين الجالسين.. كان (جولدشتاين) هو المرتد الذي من زمن بعيد (منذ متى ؟ لا أحد يذكر) كان من قادة الحزب، في مستوى (الأخ الأكبر) نفسه، ثم تورط في أنشطة معادية للنظام، وحكم عليه بالموت لكنه فر بشكل ما.

كان برنامج المقت يختلف يومًا بعد يوم، لكن ما من مرة لم يكن فيها (جولدشتاين) هو المشهد الرئيس.. كان هو الخائن الأكبر وأول ملوث لنقاء الحزب.
في مكان ما يعيش ويفرخ تعليماته التخريبية.. ربما عبر البحر.. ربما يحميه سادته الذين يدفعون له.. ربما - كما تقول الإشاعات - هو في مخبأ في (الأوشيانيا) ذاتها.
تقلص حجاب (ونستون) الحاجز، فما كان يستطيع أن يرى وجه (جولدشتاين) دون أن يشعر بغصة ألم.. كان وجهًا يهوديًّا نحيلًا، حوله هالة من شعر أبيض، ولحية مدببة كلحية الجدى.. وجه ذكي لكنه يدعو للاحتقار.. يذكرك بوجوه الخراف..
كان (جولدشتاين) ينفث سمومه ضد الحزب.. يمكن لأى طفل أن يدرك مدى سخف هذه السموم، لكن من الممكن أن تخدع واحدًا أقل ذكاء منك.
كان يسيء للأخ الأكبر.. يتكلم عن دكتاتورية الحزب.. كان يطالب بالسلام مع (إيوراسيا).. بحرية الكلام.. حرية الفكر.. وكان يصرخ بلا انقطاع مدعيًّا أن الثورة قد تمت خيانتها.. كل هذا يقوله بطريقته الساخرة التي تحاكي طريقة كلام خطباء الحزب.. لقد كان موضوعًا للكره أكثر من (أيوراسيا) و(إيستاسيا).. لأن (الأوشيانيا) كانت حين تحارب إحدى هاتين القوتين، تعقد صلحًا مع الأخرى.
وبرغم أن كره (جولدشتاين) كان يمارس كل يوم.. فإن أفكاره كانت تتسرب بشكل غريب، والدليل على هذا أنه ما من يوم لم يتم فيه القبض على بعض عملائه بوساطة (شرطة الأفكار).. كان يقود جيش ظلام واسعًا يدعى (الأخوة) يحاول تدمير

الدولة.. كان هناك كلام كذلك عن كتاب مخيف يحوى كل الهرطقات، كتبه (جولدشتاين) ويتم تناقله سرًّا هنا وهناك.
في الدقيقة التالية بلغ المقت حد الجنون.. راح الناس يثبون في مقاعدهم ويصرخون محاولين إسكات الصوت القادم من الشاشة.. حتى وجه (أوبرايان) الجامد بدأ يحمر وراحت الفتاة سوداء الشعر خلف (ونستون) تصرخ:
- «**حلوف! حلوف!** »
وتناولت قاموسًا للغة الجديدة وقذفته في الشاشة ليضرب أنف (جولدشتاين).
كان الشيء المخيف في (مقت الدقيقتين) ليس كونك مرغمًا على المشاركة، بل كونك عاجزًا تمامًا عن عدم الاندماج فيه.. سرعان ما تجد نفسك وقد تحولت إلى مجنون متعطش للدم، وبرغم هذا فإن الغضب الذي تشعر به غضب مجرد.. يمكن تحويله من موضوع إلى آخر كأنه لهب قاذف.. لهذا كان غضب (ونستون) يتجه أحيانًا لا إلى (جولدشتاين) بل إلى الأخ الأكبر والحزب و(شرطة الأفكار).. ثم كان تفكيره ينضم إلى الجمهور من حوله، عندها كان يشعر بالوله نحو الأخ الأكبر، ويرتفع هذا الأخير كبرج حام أمام حشود آسيا.. ويبدو (جولدشتاين) برغم وجوده المشكوك فيه أصلًا شريرًا يخرب كل ما في النظام.. بل إن (ونستون) استطاع أن يحول كراهيته لتنصب على الفتاة ذات الشعر الأسود الجالسة خلفه.. ثم استطاع أن يفهم سر كراهيته لها.. كان يكرهها لأنها شابة جميلة ولا يمكن أن تكون له أبدًا.
كانت الكراهية تتنامي الآن أكثر فأكثر.. وهنا - لحسن حظ الجميع - ذابت الصورة ليعود وجه (الأخ الأكبر).. بشاربه الأسود مفعمًا بالقوة والهدوء الغامض.

لم يع أحد ما قاله الأخ الأكبر لأنها كانت كلمات تشجيع على الأرجح.. كلمات مما يقال في معمعة الحرب.. لا تفهمها لكن يكفيك أن تعرف أنها قيلت.. ثم تلاشى وجه (الأخ الأكبر) وظهر بحروف سميكة شعار الحزب:

الحرب هي السلام

الحرية هي العبودية

الجهل هو القوة

لكن وجه (الأخ الأكبر) بدا كأنما ما زال على الشاشة، وكأن تأثيره لم يمح من عيون المشاهدين بعد.. وهتفت امرأة وهى تمد يديها إلى الشاشة:

- « **منقذى!!** »

ثم دفنت رأسها بين كفيها وبدا واضحًا أنها تصلى..

ثم من صفوف الناس تعالت أصوات تردد ما بدا كأنه أنشودة بربرية متوحشة: ب.. ب.. ب...

مع ضرب الأرض بالأقدام.. وكان (ونستون) يندمج مع الناس في مشاهدة الفيلم، لكن هذه الطقوس الوحشية كانت تثير الرعب في نفسه.. لكنه كان يغني مع الناس.. من المستحيل ألا تفعل هذا.. أن تفعل مثلما يفعل الناس هذا سلوك غريزي..

لكن عينيه خذلتاه لحظة.. وكانت هذه اللحظة كافية كي يحدث الشيء..

للحظة التقت عيناه ب- (أوبرايان).. كان (أوبرايان) واقفًا يوشك على تثبيت عويناته على أنفه.. وفي جزء من الثانية تلاقت العينان، وفكر (أوبرايان): نعم! لقد عرف! لقد تبادل الرجلان بالعينين رسالة لا مجال للخطأ فيها.. كأن عقليهما مفتوحان والأفكار تخرج من عقل واحد لعقل الآخر..

بدا كأن (أوبرايان) يفكر: «نعم أنا معك.. لي نفس الرأي.. أعرف مدى كرهك وتقززك.. لكن لا تقلق.. أنا في صفك.. »
ثم عاد وجه (أوبرايان) غامضًا كوجه الآخرين.
كان هذا كل شيء، حتى إن (ونستون) بدأ يشك إن كان قد حدث فعلًا.. لم تكن من تبعات لهذا إلا أنها تحيي في نفسه أملًا ما في أن هناك آخرين سواه يعادون الحزب.. من يدرى ؟ لربما كان ما تقوله الشرطة حقيقيًّا.. لربما كانت هناك مؤامرات على النظام حقًّا.
عاد إلى مقر عمله وقد نسى كل شيء عن تلك المقابلة بالعينين مع (أوبرايان).. كان حدثًا تافهًا لكنه ذو أهمية ما في تلك الوحدة الأليمة التي يعيشها المرء.
وتوقف (ونستون) عن الكتابة.. وتجشأ..
أعاد النظر إلى الصفحة.. اكتشف أنه إذ جلس شارد الذهن كان يكتب في الوقت ذاته.. وكانت كتابة سيئة مرتبكة كسابقتها.. كان قلمه الحبر قد كتب على الصفحة بحروف كبيرة:

« ليسقط الأخ الأكبر..

« ليسقط الأخ الأكبر..

« ليسقط الأخ الأكبر..

« ليسقط الأخ الأكبر..

ولم يستطع إلا أن يشعر بالهلع.. كان هذا غريبًا لأن جريمة كتابة هذه الكلمات لا يقل في خطره عن عملية كتابة المذكرات.. لكنه وجد نفسه مدفوعًا لتمزيق هذه الصفحات.
لم يفعل هذا لأنه كان يعرف أنه عمل بلا جدوى.. فشرطة الأفكار ستظفر به في كل الأحوال سواء كتب هذه العبارات أم لم يكتبها.

حتى لو لم يكن قد أمسك بالقلم أو لم يبتع الورق، فالنية كافية.. جريمة التفكير.. جريمة لا يمكن مداراتها للأبد.. ربما تتوارى لفترة.. ربما لأعوام لكنهم سيظفرون بك في النهاية.
كانت في الليل دومًا.. الاعتقالات كانت تجرى في الليل دومًا.
الإيقاظ المفاجئ من النوم واليد الخشنة تهز كتفك، والأضواء تسطع في عينك، والوجوه الصلبة تحيط بمهدك.. وفي أغلب الحالات لا تكون هناك محاكمات.. فقط أنت تختفى ليلًا.. اسمك تم رفعه من السجلات وكل ما قمت به قد أزيل.. لقد تلاشيت.. تبخرت.. أبدت..
أصابته الهستيريا.. بدأ يكتب متعجلًا بلا علامات ترقيم:
- « سيطلقون الرصاص عليّ لا أبالي بهذا، سيطلقون عليّ الرصاص من ظهري، لا أبالي، فليسقط الأخ الأكبر، هم دائمًا يطلقون الرصاص على مؤخرة العنق لكني لا أهتم، فليسقط الأخ الأكبر.. »
فجأة تصلب في رعب.. هناك من يدق الباب.
بهذه السرعة!! جلس متصلبًا كفأر يأمل أن يرحل القادم بعد محاولة واحدة.. لكن لا.. إن الدق يتوالى.. كان قلبه يخفق كطبلة، لكن وجهه - بفعل العادة - كان بلا تعبير.
نهض واتجه متثاقلًا إلى الباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

2

إذ وضع يده على المقبض رأى أنه ترك المفكرة مفتوحة على المنضدة.. وقد كتب عليها بخط كبير:

ليسقط الأخ الأكبر..

كان من الغباء أن يفعل هذا.. لكنه أدرك حتى وهو في هذا المأزق أنه لا يستطيع أن يغلق الكتاب فيفسد الصفحات بينما الحبر لم يجف بعد..

هكذا فتح الباب ومعه تنفس الصعداء..

كانت امرأة شاحبة مجعدة الوجه لها شعر أشعث تقف هناك..

قالت بصوت رتيب:

- « آه يا رفيق.. حسبت أنني سمعتك تدخل.. هلا أتيت لتلقى نظرة على حوض المطبخ.. فقد سد، و.. »

كانت هي مسز (بارسونز) زوجة جاره.. وكانت كلمة (مسز) لا تلقى ترحابًا في الحزب.. المفترض أن تطلق على الجميع لقب (رفيق)، لكنك تستعمل اللفظة لا شعوريًّا مع بعض النساء.

كانت في الثلاثين لكنها تبدو أكبر سنًّا.

كانت مهام الإصلاح هذه تضايقه، لأن (فكتورى مانشنز) كان مجموعة من الشقق القديمة تمَّ بناؤها عام 1930، وهي الآن تتهالك.. والإصلاح يعتمد على جمعيات قد تؤجل العمل عامين أو أكثر.

قالت له المرأة:

- « طبعًا هذا لأن (توم) ليس هنا.. »

كانت شقة آل (بارسونز) أكبر من شقته وقذرة بشكل ما..

كل شيء مهشم كأنما زار المكان حيوان عملاق متوحش.. ثياب ملقاة على الأرض وكتب مثنية.. وعلى الجدار ملصق عملاق للأخ الأكبر.. رائحة الكرنب المسلوق المميزة للبناية كلها.
كان حوض المطبخ مليئًا حتى حافته بسائل أخضر رغوى له رائحة الكرنب الكريهة.. تفحص (ونستون) كوع الحوض.. كان يكره استعمال يديه ويكره الانحناء الذي كان يجعله يسعل..
وقالت السيدة (بارسونز):
- » طبعًا لو كان (توم) في المنزل لتولى الأمر.. إنه يحب هذه الأشياء.. إن (توم)... »
كانت عندها عادة قطع الجمل في منتصفها.
(بارسونز) كان زميل (ونستون) في العمل في (وزارة الصحة).. كان رجلًا بدينـًا نشطًا غبيًّا إلى حد الشلل.. كتلة من الحماسة البلهاء.. واحدًا من المخلصين المؤمنين الذين على ثباتهم يعتمد الحزب.. وكان عمله في الوزارة لا يحتاج إلى ذكاء، لكنه كان متميزًا في لجنة الرياضات..
قال لها وهو يعبث بالصامولة على الكوع:
- « هل لديك مفتاح إنجليزي ؟ »
- « مفتاح إنجليزي ؟ سأرى.. ربما الأطفال... »
فك (ونستون) الكوع، وباشمئزاز انتزع الشعر الآدمى الذي سد الماسورة تاركًا الماء يتدفق.. ثم غسل يده بقدر ما استطاع وعاد إلى الحجرة الأخرى.
فجأة سمع صوتًا متوحشًا يقول:
- « ارفع يديك!!! »
كان هذا صبيًّا في التاسعة تسلل خلف منضدة ويهدده بدمية مسدس أتوماتيكي.. ومعه أخته الأصغر سنًّا.. كلاهما كان يلبس ثياب الجواسيس.. رفع (ونستون) يديه فوق رأسه ولكن من

دون راحة.. كان تصرف الطفل عدوانيًّا إلى حد أنك لا تشعر بأنه يلعب..
- « أنت خائن! أنت مجرم أفكار! سأقتلك! سأبخرك!! سأرسلك إلى مناجم الملح! »
ثم راح الاثنان يتواثبان حوله صارخين:
- «**خائن! خائن!** »
وفكر (ونستون): من حسن الحظ أن المسدس الذي يحملانه ليس حقيقيًّا..
قالت له الأم:
- « إنهما عصبيان لأنني لم آخذهما ليريا الشنق.. أنا مشغولة جدًّا، و(توم) ليس هنا ليأخذهما.. »
زأر الصبي:
- « لماذا لا نذهب لنرى الشنق ؟ »
بعض سجناء (أيوراسيا) الذين اتهموا بجرائم حرب، قد تقرر شنقهم الليلة في الحديقة.. وتذكر (ونستون) أن هذا مشهد محبب يتم مرة على الأقل كل شهر.
وعاد (ونستون) إلى شقته.
هناك مر بالتليسكرين، وجلس إلى المنضدة من جديد.
كانت الموسيقا من التليسكرين قد توقفت، لكن دوى صوت عسكرى يقرأ في استمتاع وحشى بيانًا يصف القوات الحربية في القلعة العائمة التي رست بين (أيسلاند) وجزر (فارو).
وفكر (ونستون).. مع هذين الطفلين الشقيين لا بد أن الأم تعيش في هلع.. عام أو عامان ثم يراقب هذان الطفلان أمهما بحثًا عن علامات عدم الولاء للنظام.. كل أطفال اليوم صاروا مرعبين.. كلهم يعبدون الحزب وكل ما يمت له بصلة.. الاستعراضات.. الموسيقا.. عبادة الأخ الأكبر.. كل عنف في

الأطفال يخرج للعالم الخارجي، وقد صار شيئًا معتادًا بالنسبة لكل من تجاوز الثلاثين من العمر أن يخاف أطفاله..والحقيقة أن مجلة (تايمز) لم يمر أسبوع إلا وتكلمت عن جاسوس (بطل صغير كما تصفه المجلة) سمع ملحوظة مشبوهة فأبلغ شرطة الأفكار عن أبويه.
تناول القلم وراح يفكر فيما إذا كان بوسعه أن يكتب شيئًا آخر.. هنا وجد أنه يفكر في (أوبرايان) ثانية..
حتى بعد تبادل النظرات هذا الصباح لم يستطع أن يجزم إن كان (أوبرايان) صديقًا أم عدوًّا...
وصمت الصوت من التليسكرين، ودوى صوت نفير واضح عذب في الصوت في هواء الساكن.. وواصل الصوت في خشونة:
- « انتباه! انتباه من فضلكم! جاءنا الآن من جبهة (مالابار) ما يلي.. قواتنا في جنوب الهند انتصرت نصرًا مؤزرًا.. ومن سلطتي أن أخبركم أن هذا النصر قد قرب نهاية الحرب كثيرًا.. الآن إليكم الأخبار.. »
فكر (ونستون).. لا بد من أخبار سيئة.. وبالفعل.. بعد وصف مريع لإبادة جيش (أوراسيا) وأرقام مذهلة لمن قتلوا أو أسروا، جاء الخبر يعلن أنه من الأسبوع القادم سيتم تخفيض حصة الشيكولاته من ثلاثين إلى عشرين جرامًا.
ثم بدأ التليسكرين يقدم نشيد (أوشيانيا.. هذا من أجلك).. ربما كي يحتفل بالنصر المؤزر أو ينسى الناس ما فقدوه من شيكولاته.. كان واجبه أن يقف في وضع (انتباه) مصغيًّا، لكن هذا كان مستحيلًا بالنسبة له الآن..
ومن بعيد سمع دوي انفجار صاروخ.. إن عشرين أو ثلاثين منها تسقط على (لندن) كل أسبوع الآن..
كان وحيدًا.. الماضي ميت.. والمستقبل لا يمكن تصوره..

أي شيء يبرهن له على أن هناك كائنًا بشريًا واحدًا في صفه ؟
وكيف يتأكد من أن سيطرة الحزب لن تدوم للأبد ؟
وكأنما ترد على أسئلته رأى الجمل المكتوبة على جدار وزارة الحقيقة:

الحرب هي السلام
الحرية هي العبودية
الجهل هو القوة

أخرج قطعة عملة من جيبه.. بحروف صغيرة نقشت ذات العبارات على العملة.. وعلى الجانب الآخر ترى رأس الأخ الأكبر.. نفس الشيء على الطوابع وأغلفة الكتب وغلاف علب التبغ.. دائمًا تراقبك العينان ويغلفك الصوت.. لا شيء تمتلكه سوى بضعة سنتيمترات مكعبة داخل جمجمتك.
كان شبحًا وحيدًا يتكلم عن حقائق لن يسمعها أحد..
عاد إلى الورق وكتب:
- « إلى المستقبل أو الماضي.. إلى زمن كان فيه الفكر حرًا، والرجال يختلف بعضهم عن البعض، ولا يعيشون وحدهم.. إلى زمن كانت فيه الحقيقة موجودة وما تم تحقيقه لا يمكن هدمه.. من عصر التشاكل ومن عصر الوحدة ومن عصر التفكير المزدوج الزائف Doublethink .. تحياتي[3]!
لقد انتهى أمره بالفعل بعدما كتب ما كتب.. كذا فكر.. وفكر في أن تبعات أي عمل متضمنة في العمل نفسه.. لذا كتب:
- » جريمة التفكير لا تعنى الموت.. إنها الموت ذاته.. »
الآن وقد اعتبر نفسه إنسانًا ميتًا، بدا من المهم له أن يظل حيًا أطول وقت ممكن.. لقد تلطخ إصبعان من يده اليمني بالحبر، وهذا بالضبط هو نوع التفاصيل التي ستفضح أمرك.. شخص ما

في الوزارة (امرأة على الأرجح) سيراهما ويتساءل عن سبب انهماكك بالكتابة في وقت الغداء، ثم يلمح بذلك للأقسام المختصة.

دخل الحمام وبعناية غسل الحبر بقطعة الصابون الغامقة الخشنة التي تجرح جلدك كالصنفرة.

أخفى المفكرة في الدرج.. كانت حيلة الشعرة على صفحاتها واضحة جدًّا، لذا وضع على الغلاف ذرة غبار بحيث لا بد أن تسقط لو أن أحدهم فتح هذه المفكرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

3

كان (ونستون) يحلم بأمه..
لا بد أنه كان في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة، حين اختفت أمه.. كانت امرأة طويلة القامة متخشبة صموتًا بطيئة الحركة، ولها شعر أشقر رائع.. أما أبوه فكان أسمر نحيلًا يضع عوينات.
في تلك اللحظة كان يرى أمه تجلس في موضع ما تحته وأخته الصغيرة بين ذراعيها.. لم يتذكر أخته على الإطلاق إلا كرضيعة صموت واسعة العينين.. كانا معًا فيما يشبه البئر أو قبرًا عميقًا.. لكن هذا الشيء كان يهبط لأسفل باستمرار.. كانتا تريانه وهو يراهما لكنهما مستمرتان في الهبوط.. تختفيان.. وهما تحت، بينما هو فوق.. لا يوجد لوم في عينيهما.. فقط الفهم لما يحدث.. عليهما الموت كي يعيش هو..
لا يذكر فعلًا ما حدث بعدها، لكنه يذكر فقط أنهما لقيتا حتفهما كي يعيش هو..
إن ما نراه في الأحلام يبقى منه شيء ما مهم في عالم الواقع، وقد أثار دهشة (ونستون) أنه تذكر أن موت أمه منذ ثلاثين عامًا كان أليمًا وغريبًا..
إنه موت ينتمي إلى الطراز العتيق حين كانت هناك خصوصية وحب وصداقة، حين كان أفراد الأسرة يتماسكون من دون حاجة لمعرفة السبب..
أصدرت التليسكرين ضوضاء عالية في موعد العمل، فنهض من فراشه.. كان قد نام عاريًا لأن أعضاء الدائرة الخارجية للحزب

يتلقون فقط 3000 كوبون للثياب في العام، بينما البيجامة تكلف 600 كوبون.
ارتدى ثيابه وكان يعرف أن (الاهتزازات الجسدية) ستبدأ بعد ثلاث دقائق.. هنا أصابته نوبة سعال تصيبه كلما صحا من النوم جعلت صدره يخلو من الهواء، فلم يستعد أنفاسه إلا بعد ما رقد على الفراش بعض الوقت.
دوي صوت امرأة حاد يقول:
- « المجموعة من سن 30 إلى 40.. خذ مكانك من فضلك.. »
نهض ووقف (انتباه) أمام التليسكرين، حيث كانت امرأة شابة عجفاء لكنها مفتولة العضلات، ترتدى التونيك وحذاءى التدريب.
- « ثني.. مد.. تتبع حركتي.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة! واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة! هلموا يا رفاق! بعض الحيوية.. »
مارس (ونستون) التمرينات راسمًا على وجهه تعبير السرور، وهو التعبير المفضل في حالات التدريب.
لم يكن في وسعه تذكر وقت لم يكن فيه بلده في حرب ما، لكن من الجلى أنه كانت هناك فترة سلام ما حين كان طفلًا.. لأنه يذكر غارة جوية بدا أنها أثارت ذهول الجميع.. ربما كان هذا حين سقطت القنبلة الذرية على (كولشستر).. لا يذكر الغارة لكنه يذكر يد أبيه التي تمسك بيده وهما يهرعان.. يهرعان إلى مكان تحت الأرض عبر درج حلزونى لا نهاية له.. حتى إنهما في النهاية اضطرا للتوقف لالتقاط الأنفاس.. وأمه بحركتها البطيئة الحالمة تتبعهما بمسافة طويلة.. كانت تحمل أخته أو ربما مجموعة من الأغطية.. في النهاية وجد أنهم في مكان صاخب مزدحم، عرف فيما بعد أنه محطة مترو الأنفاق.

منذ هذا الوقت استمرت الحرب بلا انقطاع.. وإن لم تكن ذات الحرب إن شئنا الدقة.. مثلًا يذكر أن (أوشيانيا) كانت في حرب مع (إيستاسيا) ومتحالفة مع (أيوراسيا).. هذا شيء يذكره بشكل غامض..
أما الآن ف- (أوشيانيا) في حرب مع (أيوراسيا).. من ثم هي كانت دومًا في حرب مع (أيوراسيا).. إن عدو اللحظة يمثل الشر المطلق دومًا.. ومعنى هذا أن أي اتفاق معه في الماضي أو المستقبل شيء مستحيل..
الشيء المفزع هنا أن الحزب قادر على أن يمحو شيئًا حدث فعلًا في الماضي، كأنه لم يكن قط.. هذه الفكرة كانت تفزعه أكثر من التعذيب والموت.. الحزب قال إنه لم يكن قط على وفاق مع (أيوراسيا).. و(ونستون) يعرف جيدًا أن العلاقة كانت جيدة منذ أربع سنوات.. لكن أين توجد هذه المعلومة ؟ في ذهنه هو.. ولو محيت هذه المعلومة من سجلات الحزب فإنها ستصير تاريخًا..
مقولة الحزب تقول: - « من يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل.. ومن يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي.. »
كان هذا ما سيسمونه في اللغة الجديدة « السيطرة على الحقيقة » أو « التفكير المزدوج.. »
وضع ذراعيه إلى جواره واستنشق الهواء بعمق.. بينما هو يفكر في (التفكير المزدوج).. أن تعرف الحقيقة لكنك لا تطلق إلا الأكاذيب.. أن تتمسك برأيين متناقضين في الوقت ذاته وتصدقهما معًا.. أن تؤمن أن الديموقراطية وهم وفي الوقت ذاته تؤمن أن الحزب هو حارس الديموقراطية.. أن تملك الوعي الكافي كي تصل إلى حالة اللاوعي، ثم تملك اللاوعي الكافي كي تنسى هذه العملية..

إن مجرد فهم تعبير (تفكير مزدوج) يحتاج هو ذاته إلى تفكير مزدوج.
ومن جديد جاء صوت الفتاة:
- « فلنر من منا يمكنه أن يلمس أصابع قدميه! هلموا يا رفاق.. »
مثلًا كتب الحزب تؤكد أن الحزب هو مخترع الطائرات.. هذا غير صحيح.. إنه يذكر الطائرات منذ طفولته ربما قبل نشوء الحزب.. لكن هذا لا يبرهن على شيء، فليس هناك دليل في يده.. لم ير في حياته دليلًا لا يدحض على تزييف التاريخ إلا مرة واحدة وذلك حين...
- « (سميث)!!! 6079.. نعم أنت! انحن أكثر.. فقط أنت لا تحاول.. هذا أفضل.. »
كان العرق يغمر جسد (ونستون) وغلبه السعال لكنه تماسك كي لا يظهر الضيق..
لا تظهر الامتعاض أبدًا.. إن خائنة الأعين قد تفضحك..
- « هلموا يا رفاق! أنتم ترون أننى أؤدى ذلك جيدًا.. أنا في التاسعة والثلاثين وعندى أربعة أطفال وبرغم هذا لا أثنى ركبتي.. كل من يقل عن الخامسة والأربعين يمكنه أن يلمس أصابع قدميه.. تذكروا أبناءنا في جبهة (مالابار) والبحارة في القلعة العائمة! فكروا في معاناتهم.. هذا أفضل!! »
كذا واصلت الكلام بينما نجح (ونستون) في أن يلمس أصابع قدميه بيده، دون أن يثني ركبتيه للمرة الأولى منذ أعوام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

4

مطلقًا تلك التنهيدة العميقة التي لم تمنعها التليسكرين ذاتها لدى بدء يوم العمل، جذب (ونستون) آلة الكلام المكتوب نحوه، ونفخ الغبار عن مكبر الصوت فيها، ووضع عويناته.. ثم نزع أربع اسطوانات من الورق من الأسطوانة على يمين مكتبه.

كانت هناك ثلاث فجوات في المربع الذي يعمل فيه.. هناك فجوة للرسائل وفجوة للصحف وفجوة كبيرة للقمامة.. لسبب ما كانت هذه الفجوات المخصصة للقمامة تدعى (فتحات الذاكرة). وقد بدأ يتفحص الأوراق التي انتزعها من فجوة الرسائل.. وكانت كلها مكتوبة باللغة الجديدة.. وكانت تحدد مقالات في مجلة (تايمز) يجب تغييرها لسبب ما أو - كما تقول اللغة الجديدة - تقويمها.. فالرسالة التالية على سبيل المثال:

times 17.3.84 bb speech malreported Africa rectify

معناها أن مجلة (تايمز) في العدد السابع عشر من مارس قالت إن الأخ الأكبر تنبأ بأن جبهة الهند ستظل هادئة، لكن (أيوراسيا) ستهجم على شمال إفريقيا.. أما ما حدث فهو أن (أيوراسيا) قامت بالهجوم على جبهة الهند وتركت شمال إفريقيا.. لهذا كان من الضروري تعديل خطاب الأخ الأكبر بحيث يبدو أنه تنبأ فعلًا بما حدث.. بالنسبة للخطاب الثاني كان عليه تعديل ما نشرته (تايمز) بصدد التموين كي يتناسق مع كلام الحكومة.

الخطاب الثالث كان يقول:

times 14.2.84 miniplenty malquoted chocolate rectify

وكان معناه أن التايمز نشرت في عدد 14 فبراير أن وزارة الوفرة وعدت بعدم إنقاص حصة الشيكولاته عام 1984.. وكان عليه أن يُصحح الخبر ليقول: إن الحكومة قد تضطر إلى خفض حصة الشيكولاته في إبريل.

قام بالتصحيح وثبته إلى كل عدد من التايمز تم ذكره، ثم لا شعوريًّا كوم الرسائل وكل وريقة كتبها، وألقى هذا كله في فجوة المهملات.. ما إن تتم التصحيحات حتى يعاد طبع (التايمز) من جديد وتحفظ النسخة المصححة في الملفات.. وهذا التعديل لا يشمل فقط المجلات بل الكتب والمحاضرات والملصقات والصور.. يومًا بيوم يعاد تحديث الماضي.. كل نبوءة للحزب يمكن بالدليل إثبات أنها كانت صحيحة.. فمتى تم هذا صار من المستحيل إثبات العكس.. حتى الوزارة نفسها لم تزعم لحظة أن ما تقوم به تزوير، وإنما هو (تصحيح طلبًا للدقة).

لكنه لم يعتبر ما يقوم تزويرًا.. كان مجرد استبدال لبعض الهراء بهراء آخر.. فلا أحد يعبأ بما كانت عليه المعلومات الأساسية ولا أحد يذكرها.. كل شيء يدخل عالم الظلال حيث تصير معلومة (في أي عام نحن) غير مؤكدة.

في المربع المجاور كان هناك رجل يدعى (تلوتسون).. كان يعمل باهتمام وقد ألصق فمه بمكبر الصوت، وبدا كأنما يحاول إبقاء ما يقول سرًّا بينه والتليسكرين.. نظر لأعلى فالتمعت عويناته ببريق معاد باتجاه (ونستون).

لم يكن (ونستون) يعرف من هو (تولستون).. إن الناس هنا لا يتبادلون الحوار.. مثلًا لم يكن يعرف إلا أن المرأة ذات الشعر بلون القش تحذف من الصحف أسماء الناس الذين تبخروا،

وبالتالي يجب افتراض أنهم لم يوجدوا قط.. وكان هناك رجل يجيد الشعر يقوم بإعادة كتابة الأشعار التي صارت سيئة، لكنها لسبب أو آخر يجب أن تظل في المقتطفات الأدبية.
ولم يكن هذا إلا قسم واحد، بينما في الطابق الأعلى والأسفل عشرات العمال والمصورون وخبراء التحميض يقومون بتغيير الصور.. كان هناك من يغيرون الأفلام.. هناك الأفران حيث يتم تدمير النسخ الأصلية من كل شيء..
وبرغم هذا كان قسم السجلات مجرد جزء من وزارة الحقيقة المسئولة عن إخراج كل فيلم وكتاب وجريدة وقصة.. من كتب التهجئة للأطفال إلى قواميس اللغة الجديدة الضخمة.. وكانت هناك أغان خاصة يتم تركيبها بجهاز ميكانيكي على إيقاعات معينة، وكانت هناك أفلام سينمائية يتم تصويرها في قسم (بورنوسك).. وهي أفلام غارقة في الجنس لا يسمح لأحد من الحزب بمشاهدتها وإنما تخرج للجمهور مباشرة.
كان عمل (ونستون) هو الشيء الوحيد الذي يحبه في العالم، صحيح أنه روتيني، لكن من آن لآخر كانت هناك مهمات صعبة تجعله ينسى نفسه.. حيث لا شيء يرشدك إلا معرفتك بمبادئ الحزب وما يفترض منك أن تقوله.. لدرجة أنهم وثقوا به كي يصحح مقالات التايمز الافتتاحية التي كتبت كلها باللغة الجديدة.
كانت الرسالة التالية تقول:
times 3.12.83 reporting bb dayorder doubleplusungoodrefs unpersons rewrite full wise up sub ante filing
وباللغة القديمة معناها: الكلام عن أوامر الأخ الأكبر اليومية في عدد تايمز في الثالث من ديسمبر 1983 غير مرض، ويشير إلى

أشخاص لا وجود لهم.. أعد الصياغة واعرض النتيجة على السلطات الأعلى.
قرأ (ونستون) المقال المتهم، فوجد أن الخطاب مخصص لامتداح منظمة اسمها FFCC تمد القلعة العائمة بالتبغ.. ثمة رفيق يدعى (وزرس) وهو عضو بارز في دوائر الحزب الداخلي تلقى مدحًا خاصًا ووسامًا.
بعد ثلاثة أشهر اختفت FFCC فجأة بلا أسباب. وتلطخ اسم (وزرس) ورفاقه بالعار لكن هذا لم يرد له ذكر في الصحف..
إن الأشخاص الذين يتم اعتقالهم في حملات التطهير بالتآمر أو جرائم التفكير لا يحاكمون علنًا.. فقط يحدث هذا نادرًا كل عامين، لكنهم على الأرجح يختفون بلا تفسير.. وفي حالات كثيرة لا يموتون.. على الأقل يعرف هو ثلاثين شخصًا – باستثناء أبويه - اختفوا في وقت أو آخر.. لا يعرف ما حدث ل- (وزرس) لكن عبارة unperson أي (لا شخص) تدل على أنه ميت حتمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

5

في المقصف خفيض السقف تحت الأرض، تحرك طابور الغداء للأمام ببطء.. كانت الغرفة مليئة صاخبة.. ومن الكاونتر تصاعدت رائحة اليخنة لها طابع معدني مزعج.. وفي طرف الغرفة كان هناك بار صغير.. مجرد فتحة في الجدار حيث يمكن شراء الجين بعشرة سنتات لبضع جرعات.
قال صوت خلف (ونستون):
- « هذا هو الرجل الذي أبحث عنه.. »
استدار فرأى صديقه (سايم)، الذي يعمل في قسم البحوث.. ربما لم تكن (صديق) هي الكلمة المناسبة.. ليس لك أصدقاء في هذه الأيام بل (رفاق).. كان (سايم) مختصًّا باللغة واللغة الجديدة.. بل كان واحدًا من فريق الخبراء الذي يطور الآن الطبعة الحادية عشرة من قاموس اللغة الجديدة.. وكانت له عينان تفتشان في وجهك بعناية حين يكلمك.
- « أردت سؤالك إن كانت لديك شفرات موسى.. »
قال (ونستون):
- « للأسف لا.. بحثت في كل مكان.. لم يعد لها وجود.. »
الكل يسأل عن الشيء ذاته.. ففي كل وقت يوجد شيء ما لا تستطيع متاجر الحزب أن تقدمه.
تناول كلا الرجلين صينية ملوثة بالشحم من كومة عند بداية الصف.. وسأله (سايم):
- « هل ذهبت لترى شنق السجين أمس ؟ »
- « كنت أعمل.. سأراه مصورًا على ما أعتقد.. »
- « هذا بديل غير مشبع.. »

وكانت عيناه الساخرتان تفتشان في وجه (ونستون) كأنما تقولان: أنا أعرفك.. أفهمك.. أعرف لماذا لم تذهب لترى الشنق..
كان (سايم) شديد الإخلاص للنظام.. يتحدث بحماسة عن الغارات على أرض العدو، وعمليات اعتقال مجرمى الفكر، وعمليات الشنق في بدرون وزارة الحب.
قال كأنما يتذكر شيئًا عذبًا:
- « كان شنقًا جيدًا.. أعتقد أن ربط القدمين معـًا يفسد الأمر.. أحب أن أراهم يركلون.. ثم في النهاية يخرج اللسان أزرق لامعًا.. هذا هو الجزء الذي يروق لي.. »
جاء دورهما.. كان الغداء عبارة عن سلطانية من اليخنة وكتلة خبز ومكعب من الجبن وقهوة (النصر) السوداء وقرص (سكارين).
جلسا على منضدة معدنية في طرف المقصف، حيث سكب أحدهم بركة من اليخنة.. سائل قذر بدا كأنه القيء.. بدآ يأكلان وسأل (ونستون):
- « كيف القاموس ؟ »
- « يتقدم ببطء.. أنا أعمل في النعوت.. عمل خلاب.. »
ثم أمسك بالخبز وقال:
- « هذا القاموس هو الشكل النهائي للغة.. سيكون على أمثالك تعلم اللغة الجديدة بالكامل من جديد.. أنت تعتقد أننا نخترع كلمات جديدة.. بالعكس.. نحن ندمر الكلمات.. نمحوها.. هذا القاموس قد وصل إلى عظام اللغة الإنجليزية ذاتها.. »
ثم بدت عيناه حالمتين وقال:
- « جميل أن تدمر اللغة.. نحن لا ندمر المترادفات فقط بل ندمر الأضداد كذلك.. ما جدوى كلمة هي مجرد عكس الأخرى

؟ الكلمة تحوى عكسها في الآن ذاته.. خذ مثلًا كلمة (جيد).. ما جدوى كلمة (سيىء) ؟ (لا جيد) ستؤدى الغرض ذاته.. إنها هي العكس بالضبط في حين أن كلمة (سيىء) لا تمنحك هذا.. ثم لو أردت ما هو أفضل من (جيد) فلماذا تستعمل مجموعة كلمات مثل (ممتاز) و(رائع).. الخ ؟ إن لفظة (جيد أكثر) تؤدي الغرض.. و(جيد أكثران) تعطى المعنى أقوى.. فيما بعد لن تكون هناك كل هذه الكلمات.. ستكون هناك كلمتان تعبران عن كل شيء.. هل ترى الروعة ؟ هذه أفكار الأخ الأكبر.. »
ثم قال في ضيق:
- « أنت لا تؤمن باللغة الجديدة يا (ونستون).. حتى برغم أنك تستعملها فإنك تفكر باللغة القديمة.. نفس اللغة العتيقة بكل غموضها وعدم دقتها وظلال معانيها.. أنت لا تفهم جمال تدمير الكلمات.. هل تدرك أن اللغة الجديدة هي اللغة الوحيدة في الكون التي ينقص عدد مفرداتها كل عام ؟ ألا تفهم أن الهدف من اللغة الجديدة هو تقليل التفكير ؟ في النهاية ستصير جريمة التفكير بلا وجود فعلى.. ألا يثير افتتانك أنه حوالي عام 2050 لن يكون هناك إنسان على الأرض يستطيع فهم المحادثة التي تدور بيني وبينك الآن ؟ »
- « ما عدا الـ.. »
ثم صمت، لكن الآخر فهم على الفور ما كان يريد قوله:
- « البروليتاريا ليست كائنات بشرية.. عندما يأتي عام 2050 لن تكون هناك لغة جديدة ولن تكون هناك أعمال أدبية مثل (شكسبير) و(ملتون).. سيكونان موجودين في لغة جديدة.. حتى شعارات الحزب ستتغير.. كيف يكون عندك شعار مثل (الحرية عبودية) بينما لا يوجد معني للحرية أصلًا ؟ سيتغير التفكير كله.. في الواقع لن يكون ثمة تفكير.. الولاء هو عدم التفكير.. »

فكر (ونستون) باقتناع:
- « يومًا ما سيتبخر (سايم).. فهو ذكي جدًّا.. يرى بوضوح ويتكلم بوضوح.. الحزب سيتخلص منه.. هذا مكتوب على وجهه.. »
ثم نظر إلى أعلى وقال:
- « ها قد جاء آل (بارسون).. »
كان شيء في كلامه له رنين (هؤلاء الحمقي).. كان (بارسون) وهو جار (ونستون) في المسكن.. رجلًا متوسط البنية، وبرغم أنه في الخامسة والثلاثين فقد راح الشحم يتراكم على عنقه وحول خصره، إلا أن حركاته كانت سريعة صبيانية.. بل كان هو نفسه يعطى انطباعًا بطفل كبير الحجم.
حياهما ب- (مرحى مرحى).. وجلس إلى المنضدة ورائحة عرق قوية تفوح منه.. كانت قدرته على العرق مذهلة.
ثم قال ل- (ونستون):
- » أين المبلغ الذي كان عليك أن تدفعه لي ؟ »
- « أي مبلغ ؟ »
قالها (ونستون) وهو يتحسس ماله بشكل تلقائي.. لا بد من اقتطاع نحو ربع راتبك من أجل الاشتراك التطوعي في عدد من الأشياء العديدة.. عديدة إلى درجة أنه من المستحيل أن تتذكرها جميعًا.
- « من أجل (أسبوع الكراهية).. صندوق الجهود الذاتية.. أنا أجمع المال لمربعنا السكني.. سيكون ل- (فكتوريا مانشن) أكبر عدد من الأعلام في الشارع.. أنت وعدتني بدولارين.. »
قدم له (ونستون) دولارين متسخين فأخذهما (بارسون) ودونهما في مفكرة بخط رديء يميز قليلي الحظ من التعليم..

- « بالمناسبة.. سمعت أن ابني ضربك بالمقلاع.. ثق أنى ضربته من أجل ذلك.. »
- « أعتقد أنه كان متضايقًا لأنه لم يحضر الإعدام.. »
- « أعرف.. أعرف.. هما شيطانان مؤذيان.. لكن تكلم عن إخلاصهما للحزب.. إنهما لا يتكلمان إلا عن الجواسيس والحرب.. هل تعرف ما زودوهما به ؟ سماعات أذن تتيح استراق السمع عبر الأبواب بدلًا من وضع الأذن على ثقب الباب! مجرد لعبة لكنها تضعهما في الطريق الصحيح! هل تعرف ما فعلته الطفلة حين كانت في رحلة مخيم ؟ لقد رأت رجلًا غريبًا فاقتفت أثره مع صديقتها، ثم أبلغت عنه السلطات.. السبب هو أن حذاءه كان غريبًا لذا اعتقدت أنه جاسوس من الأعداء، تم إلقاؤه هناك بالمظلة في أرضنا.. ليس تفكيرًا سيئًا بالنسبة لطفلة في الثامنة.. »
- » وماذا حدث للرجل ؟ »
- « آه.. لا أستطيع معرفة هذا.. لكن لن يدهشني لو... »
وقام بحركة توحى بالتصويب.. وطقطق بلسانه كأنما يعبر عن انفجار.
- « جميل.. »
قالها (سايم) في اقتضاب، ودون أن يرفع عينيه عن الورق.. ووافق (ونستون) في مرارة:
- « جميل.. الحقيقة نحن لا نملك ترف المجازفة.. »
هنا - وكأنما ليؤكد هذا - دوى صوت بوق من شاشة التليسكرين.. وصاح صوت متحمس شاب:
- « أيها الرفاق! انتباه! لدينا أخبار ممتازة لكم.. لقد فزنا بمعركة الإنتاج! إن النتائج تؤكد أن معدلات العيش قد ارتفعت ما لا يقل عن 20% عن العام الماضي.. وفي كل مكان -من (أوشيانيا)

هناك مظاهرات لا يمكن قمعها، حيث خرج العمال من المصانع يحملون لافتات الامتنان للأخ الأكبر.. وللحياة الوافرة الكريمة التي منحنا إياها.. وإليكم الأرقام.. »
لم يستطع (ونستون) الذي غلبه الملل أن يتابع الأرقام، لكنه كان يعرف أنها مجلبة للرضا..
كانت هناك مظاهرات تشكر الأخ الأكبر على أنه رفع حصة الشيكولاتة 20 جرامًا.. وأمس فقط كان الخبر يقول إن حصة الشيكولاتة تم تخفيضها 20 جرامًا.. هل من الممكن أن يبتلع أحد هذا خلال أربع وعشرين ساعة فقط ؟ نعم.. لقد ابتلعوه.. هل هو الكائن الوحيد الذي يملك ذاكرة في هذا العالم ؟
والإحصاءات تتدفق من التليسكرين.. هناك حسب الأرقام ثياب أكثر.. طعام أكثر.. كتب أكثر.. دخل أكثر.. كل شيء أكثر عدا الجريمة والجنون والمرض.. كل شيء يثب لأعلى بسرعة عامًا بعد عام..
وراح (ونستون) ينظر حوله إلى المقصف.. هل كانت الحياة دومًا تبدو هكذا ؟ هل كان للطعام هذا المذاق ؟ أطباق معوجة وجدران متسخة من كثرة الأجسام التي لمستها.. رائحة العرق والسقف المنخفض.. الكل قبيح، ولسوف يظل قبيحًا مهما لبس.. حتى لو استبدل الأوفرول الأزرق الذي يلبسه الجميع.. دائمًا تشعر بأنك خدعت.. حرمت من شيء كان من حقك.
لكن لو كنت تشعر باشمئزاز من مذاق الطعام الرديء والجوارب الملتصقة والثياب القذرة، فلابد أنك تملك فكرة عما هو جيد.. لا بد أنك تذكر وقتًا ما كانت الأمور فيه مختلفة..
قال (بارسون) وهو يهز رأسه بطريقة العليم بالأمور:
- « وزارة الوفرة أدت عملًا جيدًا بالتأكيد هذا العام.. بالمناسبة يا (سميث) أيها الفتى العجوز.. هل لديك شفرات حلاقة

تعطيني إياها؟ »
- « ولا واحدة.. أستعمل نفس الشفرة منذ ستة أسابيع.. »
كان (ونستون) يعرف أنه يومًا ما سيتبخر.. سيتبخر (سايم).. لكن (بارسون) الرجل الغبي المناسب للحزب سيظل حيًّا هو وزوجته..
هنا شعر بمن ينظر له بحدة.. كانت فتاة الحزب سوداء الشعر جالسة على المنضدة المجاورة، وكانت تنظر له بقوة، فلما رأت عينيه نظرت لبعيد.
شعر (ونستون) بالعرق يحتشد على ظهره.. لماذا تتبعه ؟ لماذا تراقبه ؟ لقد كانت خلفه في (عرض المقت) من دون سبب يدعوها لذلك، ربما لتسمع ما يقول أو تتأكد من أنه يصرخ بالحماسة الكافية..
لا بد من أن تفضحك ملامحك حين يشرد ذهنك.. لا بد من تعبير ينم عن عدم التصديق مثلًا حين تسمع أخبار النصر من التليسكرين.. سيكون هذا ذنبًا كافيًّا للعقاب.. يسمونه في اللغة الجديدة (جريمة الوجه)..
هنا أطلقت التليسكرين صفارة حادة.. كانت إشارة بالعودة للعمل..
هنا نهض الرجال الثلاثة ليبدءوا البحث عن مكان في طابور المصعد، وسقطت بقايا لفافة التبغ التي دسها (ونستون) في جيبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

6

كان (ونستون) يكتب في مذكرته..
كان راغبًا في أن يصرخ بسيل من السباب بأعلى صوته.. يضرب رأسه في الجدار.. يثب على المنضدة ويلقى بزجاجة الحبر من النافذة.. يفعل أي شيء صاخب كي يزيل الذكرى التي تعذبه.
أشد خطر عليك هو جهازك العصبي، وهو الذي سيدفعك يومًا ما إلى أن تفضح نفسك بحركة ما.. لقد قابل في الشارع منذ أسابيع رجلًا عادي المظهر.. عضوًّا في الحزب عمره 35 عامًا.. كان يحمل حقيبة أوراق، وقد اقتربا إلى مسافة أمتار حين تقلص نصف وجه الرجل الأيسر.. مجرد انتفاضة كأنها غالق كاميرا، وقد فكر (ونستون) وقتها: هذا الشيطان البائس قد انتهى أمره.. إن أخطر الأخطار قاطبة هو أن تتكلم في نومك.. ولا شيء يحميك من ذلك.
تذكر (كاترين) زوجته.. لقد كان متزوجًا.. ربما ما زال متزوجًا على كل حال.. على قدر علمه لم تمت زوجته بعد..
كان الزواج بين أعضاء الأحزاب يتم بموافقة لجنة.. واللجنة - وإن كان هذا قانونًا غير مكتوب - ترفض الزواج إذا أحست بأن بين طالبي الزواج نوعًا من الانجذاب أو المودة.. كانت الفكرة هي أن تخلو العلاقات الزوجية من أية مسرة أو محبة.. إن هدف الزواج فقط هو المجيء بأطفال لخدمة الحزب، ولهذا السبب ينظر إلى الزواج باعتباره نشاطًا غير مستحب لكنه ضروري.. هذه أشياء لم تكن تقال لكنها محسوسة..
كانت هناك منظمات تطالب بالعزوبة التامة للرجال والنساء.. والأطفال يتم الحصول عليهم بالتلقيح الصناعي.

لقد عاش مع (كاترين) تسعة عشر شهرًا لا أكثر.. ومن الغريب أنه لم يعد يذكرها تقريبًا.. لقد انفصلا من دون أطفال منذ أحد عشر عامًا.. كانت (كاترين) فتاة فارعة القامة شقراء.. لها وجه جرىء له ملامح النسر.. وجه نبيل إلى أن تدرك أنه ما من نبل يكمن خلفه.
منذ بداية الزواج قرر - ربما فقط لأنه عرفها أكثر من باقي الناس - أنها صاحبة أغبى عقل قابله في حياته، والأكثر سوقية وخواء. عقل لا يحوى إلا عبارات الحزب الدعائية حتى إنه دللها بلقب (شريط الصوت البشري).. وبدلًا من أن تكلمه عن الإنجاب كانت تحدثه عن (صنع طفل) أو (واجبنا نحو الحزب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كتب (ونستون):
- « لو كان هناك أمل فهو في البروليتاريا.. »
البروليتاريا هي الأمل لأنه فقط في هذه التجمعات البائسة التي تشكل 85% من تعداد (أوشيانيا) يمكن أن تولد الرغبة في تدمير الحزب.. لا يمكن تدمير الحزب من الداخل.. لأن أعداءه من الداخل لا يعرف بعضهم البعض.. إن أعضاء الحزب تطيح بهم نظرة أو همسة.. بينما كل ما على البروليتاريا هو أن تهز نفسها.. تتحرر.. تصرخ..
لن يثوروا إلا حين يستعيدون وعيهم.. ولن يستعيدوا وعيهم إلا حين يثورون..
في كتب الحزب هناك زعم أن الحزب هو من حرر البروليتاريا من العبودية.. كان الرجال يتضورون جوعًا ويجلدون، والنساء مرغمات على العمل في مناجم الفحم (والحقيقة أن النساء ما زلن يعملن في مناجم الفحم)، والأطفال يباعون للمصانع في سن

السادسة.. لكن في الوقت نفسه يقول كتاب الحزب إن البروليتاريا أقل من البشر، ويجب أن يعامل أفرادها معاملة خاصة وضيعة..
لقد تُرك هؤلاء القوم لأنفسهم مثل الماشية.. يتكاثرون ويعملون.. يولدون في الأزقة.. يذهبون للعمل في السادسة.. يكبرون.. يتزوجون في العشرين.. يشيخون في الثلاثين.. يموتون.. كأنهم قطعان ماشية متروكة لشأنها فوق هضاب الأرجنتين.
من السهل التحكم فيهم ببعض الشائعات، لكن لم يحاول أحد أن يلقنهم شيئًا عن مبادئ الحزب.. وكانت غضباتهم قصيرة وحميدة العواقب.. ربما بسبب ساعات عمل أطول أو تخفيض في حصص الطعام، لكن الشرور الأعظم لم تكن تمر بهم، فليس بينهم من يملك تليسكرين.. باختصار كانوا تحت مستوى الشبهات.. وكما تقول تعليمات الحزب: البروليتاريا والحيوانات سواء..
كان ما لا يفهمه هو التالي: إن مزايا تزوير الماضي واضحة لكن الدافع غير مفهوم.. أخرج قلمه وكتب:
- « أفهم كيف.. لكني لا أفهم لماذا.. »
وخطر له أن الجنون قد يكون تفرد شخص واحد بفكرة عن الجميع.. هو وحده لا يفهم.. إذن هو مجنون.. لكن فكرة الجنون لا تضايقه.. ما يفزعه هو أن يكون مخطئًا..
سوف يعلن الحزب يومًا ما اثنين واثنين تساوى خمسًا.. ولسوف يصدقه الجميع.. من المحتم أن يفعل هذا يومًا ما لأن واجبه يحتم هذا.. المشكلة أنهم قد يكونون محقين.. من أدراك أن المجموع ليس خمسًا ؟ أو أن قوة الجاذبية تعمل ؟ أو أن الماضي لا يتغير ؟

الحزب يأمرك بأن تتجاهل دليل العين والأذن.. هذا هو أمرهم الأخير.. وفكر فيما يمكن أن يجادله به عضو مثقف من الحزب.. الجدل الذي سيصبه عليه ولن يفهمه، ولن يقدر على الرد عليه.

لكن برغم هذا هو محق.. هم مخطئون.. يجب الدفاع عن كل ما هو حقيقي وواضح وسخيف.. البديهيات حقيقة.. العلم المادي موجود.. وقوانينه لا تتغير.. الصخر صلب والماء سائل، وكل ما لا يوضع على شيء يسقط نحو مركز الأرض..

وفي مفكرته كتب:

- « الحرية هي أن تجد الشجاعة كي تكتب أن اثنين زائد اثنين يساوى أربعًا.. وما بعد هذا سهل.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

7

من مكان ما في نهاية الممر، تصاعدت رائحة القهوة.. القهوة الحقيقية لا قهوة (النصر).. توقف (ونستون) لا شعوريًّا.. لنحو ثانيتين عاد إلى عوالم الطفولة المنسية.. ثم دوى صوت باب فتلاشت الرائحة فجأة كأنما لم تكن رائحة بل هي صوت.

هذه هي المرة الثانية في ثلاثة أسابيع التي يهمل فيها أمسية في (مركز الجماعة)..

هذا عمل أخرق لأنه من المؤكد أن عدد الحاضرين يتم التحقق منه. من المفترض أن عضو الحزب ليس لديه وقت فراغ، ولا يكون وحده إلا حين ينام. من المفترض أنه حين لا يأكل أو يعمل أو ينام يشارك بشكل ما في العمل الجماعي. أما أن تمارس أي عمل يوحي بالميل للوحدة - حتى لو كان المشي وحيدًا - فهو شيء خطر نوعًا.

لكن الليلة كان الهواء منعشًا والسماء أكثر زرقة مما هو معتاد، لهذا وجد نفسه وقد ضاع بين شوارع (لندن)..

» لو كان هناك أمل فهو في البروليتاريا.. «

تذكر هذه الكلمات التي كتبها في مذكراته.. الآن هو ضائع فيما كان يدعى قديمًا محطة (سانت بانكراس).. شوارع قذرة تملؤها المياه.. ومن كل مكان يخرج الناس بأعداد هائلة.. فتيات ممتلئات نضارة وعلى شفاههن أحمر شفاه سخيف. نساء بدينات يمشين بصعوبة يرينك ما ستكونه الفتيات بعد عشر سنوات. أطفال حفاة يلعبون في البرك ثم يتفرقون لدى صرخة غضبي من أمهاتهم..

لم يكن أحد يوليه اهتمامًا كبيرًا.. ربما بعض نظرات الفضول لا أكثر..
كانت امرأتان تتحدثان على الباب، فلما مر بهما توقفتا عن الكلام ونظرتا له.. لم تكن نظرة خوف، ولكن كما تنظر أنت إلى حيوان غريب. إن أوفرول الحزب الأزرق ليس من الأشياء التي يمكن أن تراها في هذه الشوارع.
لو أن الدوريات رأتك لاستوقفتك.. هل لنا أن نرى أوراقك يا رفيق ؟ هل هذا هو الطريق إلى دارك ؟ متى تركت عملك ؟ ليس السبب هنا أن المشي في مكان ما محرم، لكن حقيقة أن هذا التصرف قد يلفت نظر بوليس الأفكار فيما بعد.
فجأة دبت الحياة في الشارع كله. ودوت صرخات الرعب من كل الأبواب.. خرجت امرأة من باب وأمسكت بطفل يلهو في بركة ماء، ولفت مريولتها حوله وعادت به.. في اللحظة ذاتها ظهر رجل يلبس معطفًا كالأكورديون، وجرى نحو (ونستون) وهو يشير للسماء في لهفة:
- » بخارية! بص فوق يا باشا! قنبلة فوق!! ارقد بسرعة!! «
لسبب ما كانت البروليتاريا تطلق اسم (بخارية) على القنابل الصاروخية. وانبطح (ونستون) على وجهه، إن البروليتاريا محقون دومًا في هذه الأمور، كأنما لديهم حاسة سادسة تنذرهم قبل الصواريخ.
دوى زئير جعل الإفريز يرتج.. وتطايرت أشياء من فوقه وعلى ظهره.. وحين أفاق وجد أنه مغطى بالزجاج من نافذة قريبة.
لقد أبادت القنبلة مجموعة من البيوت على بعد 200 متر. دخان اسود يتصاعد، وعلى الأرض تناثر القرميد بينما احتشد الناس. ووسط الحطام رأى شيئًا أحمر.. عرف أنها يد مبتورة عند الرسغ.. بيضاء تمامًا كأنما نحتت من الجبس.

ابتعد عن المشهد إلى حيث كانت حانة يؤمها العملاء.. ومن خلال أبوابها المتأرجحة كانت تهب روائح البول والنشارة والجعة الرديئة. كان هناك ثلاثة رجال يقفون متلاصقين يمسك أوسطهم بجريدة، بينما يسترق الآخران النظر معه. من الواضح أنهم مندمجون تمامًا في خبر مهم في الجريدة. فما إن دنا حتى تفرق الجمع فبقى رجلان يتجادلان كأنهما سيتبادلان اللكمات:

- « مش قادر يا غبي تفهم أنا بقول إيه ؟ بقول لك إن مافيش رقم آخره سبعة كسب في الأربعتاشر شهر الى فاتت.. »

- « حصل.. »

- « لا.. ما حصلش.. أنا دورت في البيت على الأرقام الى كسبت في سنتين.. ما فيش سبعات خالص.. »

- « حصل.. في فبراير.. »

- « فبراير ده يبقى جدتك! أنا بقى عارف الأرقام كلها.. كل حاجة واضحة.. »

كانوا يتكلمون عن اليانصيب.. اليانصيب بجوائزه الأسبوعية الهائلة هو المناسبة الرسمية الوحيدة التي يهتم بها أفراد البروليتاريا.. كان اليانصيب هو بهجتهم وحماقتهم ودواؤهم المسكن. وكان هناك عدد لا بأس به من هؤلاء يعيش على بيع جداول الاحتمالات والنبوءات..

كانت (وزارة الوفرة) هي من يدير هذا اليانصيب.. ولكنه كان يدرك - كأي فرد آخر في الوزارة - أن الجوائز تخيلية. الجوائز الصغرى كانت حقيقية أما الأرقام الضخمة فكانت لأفراد لا وجود لهم. وكان من الصعب معرفة هذا مع عدم وجود اتصالات.

لكنه كان يؤمن بأن الخلاص سيأتي من البروليتاريا.. كلما نظر أكثر إلى هؤلاء البشر الحقيقيين ازداد إيمانًا بهذا..

خرج من الحانة ومشي في طريق متعرج.. هنا تذكر أين هو..
إن الزقاق يقود إلى الشارع الرئيسي، وعلى بعد خمس دقائق يوجد متجر العاديات الذي ابتاع منه الكتاب الخاوى الذي اتخذه مفكرة. ومن محل قريب ابتاع الريشة وزجاجة الحبر. كانت هناك حانة أخرى يدخلها رجل مسن..
من المعتاد أن يكون أعضاء الحزب من الشباب.. لا يذكر أحدهم أي شيء قبل الثورة.. لكن هذا الرجل يذكر بالتأكيد، ويعرف كيف كانت الأمور.. هل حقًّا كان العالم أسوأ ؟
مسرعًا حتى لا يجد الوقت كي يخاف، عبر الشارع. لم تكن هناك موانع صارمة تحرم الكلام مع البروليتاريا كالعادة، لكنه عمل غير معتاد إلى حد أنه من الصعب أن يمر دون ملاحظة.
فتح الباب فشم رائحة الجعة الحادة.. دخل إلى الضجيج فهبطت الأصوات إلى نصف ارتفاعها. من وراء ظهره يشعر بالجميع يرمقون الأوفرول الأزرق. كان العجوز يقف إلى البار يثرثر مع الساقي.. بينما احتشد عدد من القوم والكئوس في أيديهم يصغون للمحادثة.
قال العجوز وهو يفرد كتفيه مشاكسًا:
- « أنا باكلمك بالذوق.. بتقول إن ما فيش عيار (مقدار) في الخمارة القذرة دى ؟ »
مال الساقي على البار وسأل:
- » وإيه المقدار ده إن شاء الله ؟ »
- « شوفوا الراجل ده.. عامل لي بارمان! وهو مش عارف يعنى إيه مقدار.. المقدار نص الربع.. فيه أربع ترباع في الجالون.. لازم يعلموك ألف باء تاني.. »
قال الساقي:

- « عمري ما سمعت عنه.. لتر أو نص لتر.. هو دا اللي بنبيعه.. »
- « لكن أنا عاوز مقدار.. ماكنش فيه اللترات الملعونة دى وأنا صغير.. »
قال الساقي وهو ينظر لمن حوله:
- « لما كنت انت صغير كنا احنا عايشين على الشجر.. »
دوى الضحك، وتبخرت حالة عدم الراحة التي سببها دخول (ونستون).. ابتعد العجوز محتقن الوجه فاصطدم ب-(ونستون)، لكن و(نستون) امسك به من ذراعه:
- « هل لي أن أقدم لك مشروبًا ؟ »
- « إنت شكلك ابن ناس.. »
صب الساقي قدحين من الجعة سعة نصف لتر للواحد، وبدا أن الكل نسى وجود (ونستون). هناك منضدة يمكنه والعجوز أن يجلسا إليها للكلام دون أن يسمعهما أحد. هذا خطر لكنه لا توجد تليسكرين في هذه الحانة.
قال العجوز:
- » كنت عاوز مقدار.. نص لتر ما يكفينيش.. واللتر كتير عليا.. بيخلى المثانة تتملى.. سيبك من التمن.. »
- « لابد أنك رأيت تغيرات كثيرة منذ كنت صغيرًا.. »
قال الرجل مفكرًا:
- « البيرة كانت أحسن.. وأرخص! ده كان قبل الحرب طبعًا.. »
- « أي حرب ؟ »
قال العجوز في غموض:
- « كل الحروب.. في صحتك.. »
وفي حلقه الضيق، راحت تفاحة آدم تأتى بحركة صعود وهبوط مفاجئة وفرغ القدح.. ذهب (ونستون) للبار وجلب قدحين

آخرين، فبدا أن العجوز نسى كلامه عن شرب لتر كامل..
- « أنت أكبر منى سنًّا بكثير.. لا بد أنك تذكر كيف كان الحال قبل الثورة.. كتب التاريخ تقول إنه قبل الحرب كانت الحياة مختلفة تمامًا.. أسوأ أنواع القمع والظلم والفقر.. هنا في لندن لم يكن الناس يجدون ما يكفي لغذائهم من المهد إلى اللحد.. نصفهم حفاة.. كانوا يعملون 12 ساعة يوميًا ويتركون المدارس في سن التاسعة.. بينما كان الرأسماليون كما يلقبونهم أثرياء أقوياء يملكون كل شيء.. لدى الواحد منهم ثلاثون خادمًا.. ويركبون السيارات، ويلبسون قبعات عالية »
- « قبعات عالية.. أنا لبست واحدة مرة.. كان ده في جنازة أخت مراتي.. طبعًا كنت مأجرها.. »
- » كانوا سادة الأرض.. كانوا يفعلون بك ما يريدون.. يشحنونك كالماشية على مركب إلى كندا، أو يأمرون بجلدك بسوط يدعى (القطة ذات الذيول السبعة).. ويمشون وحولهم مجموعة من الخدم المتزلفين.. »
تحمس العجوز فجأة..
- « (خدم متزلفون)!! دى كلمة ما سمعتهاش من زمااان.. »
- « ما أريد معرفته هو: هل تشعر بحرية أكثر مما كان في تلك الأيام؟ هل تعامل اليوم كإنسان أكثر مما كان في الماضي ؟ هؤلاء القوم في القمة.. هل كان عليك أن تناديهم ب- (سيدي) وتنحنى وتنزع القبعة حين يمرون ؟ »
شرب العجوز من القدح وبدا كأنما يفكر وقال:
- « أيوه.. لازم تلمس البرنيطة لما يعدوا. أنا مش مقتنع لكن عملتها كتير جدًّا.. »
- « وكانوا حين يقابلونك على الإفريز يدفعونك إلى عرض الشارع؟ »

- » حصلت مرة.. قابلت واحد من دول.. كان جنتلمان شيك بصحيح.. قاللي ليه ما توسعش.. قلت له ليه ؟ هو انت اشتريت الرصيف ؟ قال انا حاخلع راسك من مكانها.. قلت له انت باين عليك سكران.. راح مناولني في صدرى تقريبًا حدفنى تحت أتوبيس معدى.. كنت صغير وقتها وكنت حاديله واحدة في وشه.. »
أصيب (ونستون) بخيبة أمل.. هذا الرجل لا يملك ذكريات إلا مجموعة من التفاصيل التافهة.. ربما أن التاريخ الذي يذكره الحزب هو الصحيح..
- « أعنى.. هل كنت تختار حياتك الآن أم حياتك في الماضي عام 1925 ؟ »
فكر الرجل قليلًا ثم قال:
- « أكيد مستنى أقولك الإجابة المعروفة.. إن أنا نفسي أرجع شباب.. الحقيقة صحتى مش تمام.. ركبى بتوجعني والمثانة كمان.. تلات مرات لدورة الميه بليل حاجة متعبة.. »
جلس (ونستون) جوار عتبة النافذة.. لا جدوى من الاستمرار. كان سيبتاع المزيد من الجعة، حين نهض الرجل متوجهًا إلى المبولة. لقد بدأت الجعة تؤدي عملها.
جلس (ونستون) يتأمل قدحه الزجاجي الفارغ.. ولم يدر متى خرج إلى الشارع ثانية..
خلال عشرين سنة سيكون سؤال (هل كانت الحياة أفضل أم أسوأ قبل الثورة ؟) قد غاب عن الوجود نهائيًا، ولن يجاب عنه إلى الأبد. لكنه الآن لن يجاب كذلك، لأن القادرين على إجابته لا يستطيعون مقارنة عهد بعهد آخر. هم يتذكرون مليون شيء بلا قيمة. مشاجرة مع صديق.. البحث عن منفاخ دراجة.. التعبير

على وجه الأخت المتوفاة.. لكن الحقائق المهمة خارج مجال إدراكهم.. هم كالنمل الذي يرى الصغائر ولا يرى الكبائر..
وحين تضعف الذاكرة تدريجيًّا، تصير ادعاءات الحزب بصدد تحسن معدلات الحياة مقبولة جدًّا. لأنه ببساطة لم يعد هناك ولن يوجد أبدًا مستوى آخر للحياة تمكن المقارنة به.
في هذه اللحظة توقف قطار أفكاره..
كان في شارع ضيق، به متاجر صغيرة مظلمة. وتذكر المكان على الفور.. هذا متجر العاديات الذي اشترى منه المفكرة.
وشعر بالخوف.. كان من الحمق أن يبتاع الكتاب من البداية، وقد أقسم ألا يدنو من المكان ثانية. بمجرد أن غرق في التفكير حملته قدماه بإرادتها الخاصة إلى هذا المكان..
لاحظ أنه برغم أن الساعة التاسعة مساء فإن المتجر كان مغلقًا. ولما شعر بأنه سيكون أقل وضوحًا في الداخل أكثر منه من الخارج، فقد دخل. ولو ضبطه أحدهم سيزعم أنه كان يبحث عن أمواس حلاقة.
كان صاحب المحل قد أشعل مصباحًا زيتيًّا يبعث رائحة غير نظيفة لكنها ودود.
كان رجلًا في الستين، نحيلًا منحنى الظهر، له عينان طيبتان تخبئهما عوينات سميكة. وكانت عويناته وسترته القديمة مما يوحى بأنه مثقف إلى درجة ما. كأنه رجل يعمل في الأدب أو ربما موسيقى. ولهجته أقل تشوهـًا من لغات باقي البروليتاريا.
قال على الفور:
- » تعرفتك على الإفريز.. أنت من ابتاع كتاب تذكارات السيدة الشابة.. ورق جميل.. ورق كريم كما ندعوه نحن.. لم يعد هناك ورق كهذا منذ.. فلنقل خمسين عامًا.. »
ثم نظر إلى (ونستون) من فوق إطار عويناته وقال:

- « هل هناك ما أقدمه لك ؟ أم فقط تريد أن تبحث عن شيء ؟ »
- « كنت أجول فقط.. لا أريد شيئًا خاصًا.. »
- » هذا يسرني لأنه كما ترى الوضع.. المتجر خال.. إن تجارة العاديات تعيش أيامها الأخيرة.. لا مشتر ولا بضاعة.. لقد حطموا الصيني والزجاج وأذابوا المعدن.. لم أر حامل شمعة نحاسيًا منذ أعوام.. »
بالفعل كان المتجر فقيرًا جدًا خاليًا من أية بضائع، ماعدا بعض المهملات.. لكن عينى (ونستون) وقعتا على شيء أملس في ضوء المصباح، فالتقطه.
كانت كتلة من الزجاج محنية في أحد طرفيها، تبدو كأنها القبة. كانت ناعمة كأنها ماء المطر سواء من ناحية اللون أو الملمس. وفي قلبها كان شيء ملفوفًا كأنه زهرة أو شقائق النعمان. فقال (ونستون) بانبهار:
- « ما هذا ؟ »
قال الرجل:
- « هذا مرجان.. لا بد أنه جاء من المحيط الهندي.. كانوا يغمسونه في الزجاج.. لا يقل عمره عن مائة عام.. »
- « هذا جميل.. »
قال الرجل وهو يسعل:
- « ما دمت تقول إنه راق لك، فلسوف يكلفك أربعة دولارات.. أذكر حين كان ثمن هذا ثمانية جنيهات.. لا أعرف كم كان يساوى هذا لكنه كان الكثير من المال.. لكن من يبالي بالعاديات اليوم ؟ »
على الفور دفع (ونستون) أربعة دولارات، ودس الشيء في جيبه. وكان ما أثار إعجابه ليس جمال القطعة بل ما توحى به من

انتماء لزمن مختلف. الزجاج ليس كأي زجاج رآه من قبل. لا بد أنه كان ثقلًا للورق في زمن ما.. إنه ثقيل جدًّا لكنه لا يحدث انتفاخًا.. من المريب بالنسبة لعضو في الحزب أن يحمل شيئًا كهذا.. كل ما هو قديم.. وبالتالي كل ما هو جميل لا بد أن يثير الريبة..
كان الرجل مسرورًا بالدولارات الأربعة.. وأدرك (ونستون) أنه كان سيقبل دولارين أو حتى يقبل دولارًا واحدًا..
قال له:
- » هناك المزيد في حجرة أخرى.. دعنا نرها بالمصباح.. »
وتقدمه عبر درجات متهالكة في ممر ضيق. ولاحظ (ونستون) أن الغرفة التي دخلاها ما زالت مرتبة الأثاث كأنما تم إعدادها للمعيشة فيها. هناك بساط على الأرض وشيزلونج جوار المدفأة.. ساعة عتيقة تدق فوق حاجز المدفأة.. وتحت النافذة كان فراش هائل عليه مرتبته.
قال العجوز:
- « عشت هنا حتى ماتت امرأتي.. وأنا أبيع الأثاث قطعة قطعة.. هذا فراش جميل من (الماهوجني).. أو سيكون كذلك لو أنك استطعت تنظيفه من البق.. »
برغم فقر المكان فإنه كان يبدو رحبًا.. وخطر ل- (ونستون) أنه يستطيع استئجار المكان ببضعة دولارات أسبوعيًّا فقط لو أنه جسر على ذلك.. فكرة مجنونة تخلى عنها بسرعة..
لكن الغرفة كانت تحيي فيه ذكرى عذبة جميلة.. كأنما سبق له أن جلس في غرفة كهذه.. في شيزلونج وجوار مدفأة.. لا صوت يثرثر ولا أحد يراقبك.. فقط صوت براد الشاى ودقات الساعة الودود.
لم يقاوم الرغبة في الغمغمة:

- « لا توجد هنا تّليسكرين! »
قال العجوز:
- « آه.. لم تكن عندي قط.. غالية جدًّا.. لم أحتج لها على كل حال.. »
أما الكتب الموجودة فكانت هراء.. يبدو أنه من المستحيل في (أوشيانيا) كلها أن تجد كتابًا تم طبعه قبل عام 1960.. حتى في أوساط البروليتاريا..
كانت هناك صورة لكاتدرائية.. فقال الرجل باسمًا:
- « فيما مضى كانوا يقولون لنا إن أجراس كل كنيسة تقول عبارة منغمة ما.. (برتقال وليمون).. هذا ما تقوله أجراس (سانت كليمنز).. أجراس (سانت مارتين) تقول: أنت مدين لي بثلاثة أرباع البنس!»
راح يثرثر مع العجوز الذي لم يكن اسمه (ويكس).. وكان قد افترض أن هذا اسمه من اللافتة على المتجر. لكن كان اسمه (تشارنجتون).. مستر (تشارنجتون).. كان أرمل في الستين يعيش في هذا المتجر منذ ثلاثين عامًا. وكان طيلة الوقت يرغب في استبدال الاسم على الواجهة لكنه لم يفعل قط.
(برتقال وليمون).. هذا ما تقوله أجراس (سانت كليمنت).. (أنت مدين لي بثلاثة أرباع البنس).. هذا ما تقوله أجراس (سانت مارتين). هذا غريب..
لكنك تعرف أنك تذكر أجراس (لندن).. (لندن) مفقودة ضاعت منك، لكنها موجودة في مكان ما.. منسية متنكرة.. لكنه على قدر ما يعرف عن نفسه لم يسمع قط صوت أجراس كنيسة في حياته.
ترك الرجل وابتعد محاولًا ألا يراه هذا وهو يستطلع الشارع أولًا قبل ان يخرج من الباب. لقد قرر أن يمنح نفسه فترة لتكن

شهرًا.. قبل أن يخاطر ويعود إلى هذا المتجر. إن المخاطرة هنا أن يعود بعد شراء كراس الخواطر، من دون أن يتأكد مما إذا كان صاحب المتجر جديرًا بالثقة!

نعم سيعود.. سيبتاع صورة كنيسة (سانت كليمنز) وينزعها من إطارها، ويعود بها لداره مخفية تحت ثيابه، فجأة تجمد قلبه وسالت أحشاؤه.. هناك من هو قادم من بعيد فوق الإفريز.

كانت تلك الفتاة من قسم الخيال. الفتاة ذات الشعر الأسود. برغم الضوء الخابي استطاع أن يراها بوضوح. وقد مشت بلا مبالاة كأنها لم تره قط.

للحظات شعر كأنه مشلول.. اتجه إلى اليمين ومشى غير مدرك للحظة أنه يمشي في الاتجاه الخطأ. على كل حال لقد انتهى الأمر.

لا يوجد شك في أنها تتجسس عليه. لا يمكن أن تكون الصدفة قادتها في هذه الأمسية بالذات إلى المشي في نفس الشارع، على بعد مربعات سكنية عديدة من أي موضع يعيش فيه رجال الحزب. لا فارق هنا بين أن تكون من شرطة الأفكار أو أن تكون جاسوسًا هاويًا بحركة الفضول. يكفي أنها تراقبه. ربما رأته يدخل الحانة كذلك.

كان من الصعب أن يمشى.. إن ثقل الزجاج في جيبه يضرب فخذه مع كل خطوة. الأسوأ كان الألم في معدته. إنه يشعر بأنه سيموت لو لم يجد دورة مياه. لكن من العسير أن يجد دورة عمومية في هذه المنطقة. ثم ولى التقلص تاركًا شعورًا بالثقل.

كان الشارع زقاقًا مسدودًا، فتوقف (ونستون) عاجزًا عن معرفة ما يجب عمله. ثم قرر أن يرجع القهقرى وخطر له أن الفتاة مرت به منذ ثلاث دقائق، فلربما يستطيع اللحاق بها.

سوف يلحق بها في هذا الركن الهادئ، ويهشم رأسها بحجر. ربما يصلح ثقل الزجاج في جيبه لهذا. لكنه عدل عن الفكرة لأن فكرة القيام بأي مجهود عضلى بدت له لا تطاق. ليس بوسعه الجرى ولا توجيه ضربة. فكر كذلك في العودة لاجتماع الحزب ليمضى الليل هناك، وبهذا يكون عنده دليل نفي. لكن الوقت تأخر عن هذا.. كل ما يمكن عمله هو العودة للبيت والجلوس هادئًا.
عاد لشقته عند منتصف الليل.
كانت الأنوار تطفأ في الحادية عشرة والنصف. اتجه لركنه المنفرد وأخرج المفكرة من الدرج. لكنه لم يفتحها على الفور. كان هناك صوت أنثى من التليسكرين تغنى أغنية وطنية. جلس يحدق في غلاف الكتاب ذي لون الرخام، محاولاً إبعاد الصوت عن وعيه.
إنهم يأتون ليلًا ليقبضوا عليك.. دومًا ليلًا.. الصواب هو أن تقتل نفسك قبل أن يقبضوا عليك.. غالبًا هناك من يفعل هذا.. لا بد أن أكثر الاختفاءات هي في الحقيقة انتحار. لكن الانتحار يحتاج لشجاعة هائلة في عالم لا يمكن الحصول فيه على سلاح ناري أو سم سريع.
لشد ما يخذلك جسدك حين تحتاج إليه.. كان بوسعه قتل الفتاة ذات الشعر الأسود لو تصرف بسرعة. في لحظات الخطر لا يكافح المرء ضد عدو خارجي ولكن ضد جسده هو.
في المعركة وفي غرفة التعذيب وفي قارب يغرق، تتلاشى كل المبادئ التي تكافح من أجلها.. يصير الجسد هو الشيء الأعظم الذي يملأ الكون. كأن الحياة كفاح دقيقة بدقيقة ضد الجوع أو البرد أو الأرق.. كفاح ضد معدة يملؤها الحمض أو ضرس يتألم.. فتح المفكرة.. كان عليه أن يدون شيئًا.. كان صوت المرأة على الشاشة يلتصق بمخه كأنه قطع مهشمة من الزجاج. حاول أن

يفكر في (أوبرايان) الذي من أجله كتبت المفكرة.. لكن بدلًا من هذا راح يفكر في الأمور التي ستحدث له حين يعتقله رجال شرطة الأفكار.
لا يهم لو قتلوك فورًا.. المهم أنهم قبل القتل (لا أحد يتكلم عن هذه الأشياء لكن الجميع يعرفها).. لا بد من أن يحصلوا على اعتراف.. الزحف على الأرض والصراخ طلبًا للرحمة.. صوت العظام المهشمة والأسنان المكسرة والشعر المتجلط بالدم.
لم تتحمل هذا ما دامت النهاية محتومة ؟ لا أحد يفلت من الضبط.. ولا أحد يعجز عن الاعتراف..
متى اتهموك بجريمة الفكر فمن المُحتم أن تموت في تاريخ معين.. فلماذا يظل ذلك الرعب الذي لا يجديك نفعًا ؟
حاول بجهد أكبر أن يستحضر صورة (أوبرايان)..
- « سوف نلتقى حيث لا يوجد ظلام ».. إنه يعرف معنى هذا.. المكان الذي لا ظلام فيه هو المستقبل التخيلي الذي لن يراه المرء أبدًا..
لكن ذلك الصوت من الشاشة يحطم أعصابه فلا يقدر على استجماع أفكاره..
وضع لفافة تبغ في فمه، فسقط نصف التبغ على لسانه.. غبار مر يصعب ان تبصقه. ووثب وجه الأخ الأكبر إلى ذهنه ثانية مستبدلًا صورة (أوبرايان). الوجه الواثق الحامي المسيطر.. لكن أية كلمات خبيثة يداريها تحت شاربه:

الحرب في السلام
الحرب هي العبودية
الجهل هو القوة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

8

كان هذا منتصف النهار، وقد ترك (ونستون) غرفته ليذهب إلى الحمام.
كان هناك شخص قادم إليه من نهاية الردهة ساطعة الإضاءة. إنها الفتاة ذات الشعر الأسود.. لقد مرت أربعة أيام منذ تلك الليلة التي قابلها فيها خارج متجر العاديات. إذ دنا أكثر، رأى أن يدها اليمني كانت معلقة في رباط.. لم يتعرفها لأن الرباط كان بلون الأوفرول. لا بد أنها حطمت ذراعها وهي تحرك إحدى المشكالات (كاليدوسكوب) العملاقة حيث يتم تأليف القصص. كان هذا الحدث يقع كثيرًا في قسم الخيال.
كانا على مسافة أربعة أمتار حين تعثرت الفتاة وكادت تسقط على وجهها. دوت صرخة ألم منها، فلابد أنها سقطت فعلًا على ذراعها..
نهضت على ركبتيها، ووجهها شاحب، بينما فمها أكثر احمرارًا من المعتاد. وثبتت عينيها عليه وفيهما نوع من الاستعطاف.. أقرب إلى الخوف منها إلى الألم.
تحرك شعور غريب في قلب (ونستون). فأمامه العدو الذي كان يحاول قتله. لكنه كذلك كائن حي يتألم.. لقد تحرك غريزيًا ليعينها.. وكأنه شعر بالألم في جسده هو..
- « هل تأذيت ؟ »
- « لا شيء.. ذراعي.. سأكون بخير خلال ثانية.. »
ومدت ذراعها الحرة له.. فعاونها.. استرجعت بعض لونها وبدت أفضل.
- « شكرًا يا رفيق.. »

ثم واصلت طريقها كأنما لم يقع شيء..
كانت عادة ألا تظهر مشاعرك على وجهك، قد تحولت إلى غريزة.. بالإضافة إلى أنهما كانا يقفان أمام تلسكرين حيث حدث ما حدث.. لكن كان من العسير ألا تبدو على الوجه لمحة دهشة.. لأنه بينما كان يساعد الفتاة ولثانيتين وضعت شيئًا ما في يده. لا شك في أنها فعلت ذلك عمدًا.. كان شيئًا صغيرًا مسطحًا.. وقد دسته في يده وهو يقصد باب الحمام.. كان قطعة من ورق طويت على شكل مربع..
إذ وقف على المبولة حاول أن يفتح الشيء.. لا بد أنها رسالة ما.. وقد شعر بإغراء كي يأخذها إلى إحدى دورات المياه ليطالعها، لكن هذه ستكون حماقة.. ليس هناك مكان تراقبك فيه التليسكرين أكثر من هنا..
عاد ليعمل ودس الورقة بين باقي الأوراق.. وراح قلبه يتواثب إلى حلقه.. ومن حسن حظه أن العمل الذي كان ينتظره روتيني.. لا يحتاج إلى تركيز طويل..
هناك احتمالان على قدر علمه.. أولًا أن تكون الفتاة تعمل لدى شرطة الأفكار كما خاف.. ربما كان المكتوب في الورقة استدعاء أو تهديدًا.. أو أمرًا بالانتحار..
لكن هناك احتمالًا آخر أكثر توحشًا لم يستطع التخلص منه..
ربما جاءت هذه المذكرة من منظمة ما تعمل تحت الأرض.. ربما الأخوّة نفسها.. ربما الفتاة عضو فيها!! هي فكرة غريبة لكنها جالت بذهنه..
وبرغم أن ذكاءه قال له إن المذكرة تعنى الموت، لكنه لم يؤمن بهذا.. وقد قاوم حتى استطاع أن يبقى صوته متماسكًا.. إذ أمسك بمكبر الصوت ليملى تصحيحاته..

انتهى من عمله فألقاه في الفجوة، وقد مرت ثمان دقائق.. أصلح من وضع العوينات على أنفه ثم تناول مجموعة الأعمال التالية.. والقصاصة فوقها.. كانت مكتوبة بخط كبير ردىء:
أنا أحبك.
لثوان شعر بذهول عارم.. فلم يستطع إلقاء دليل الإدانة هذا في فتحة المخلفات.. وحين فعل هذا لم يقاوم أن يعيد قراءته ثانية كي يتأكد من أن الكلمات ما زالت هناك.
كان العمل شاقًّا بقية الصباح..
الأصعب كان أن عليه إخفاء علامات التوتر من على وجهه.. كأن النار تشتعل في معدته.
الغداء في المقصف المزدحم الحار نوع من العذاب.. وتمنى لو ينعم بالوحدة، لكن النحس قاد له (بارسون) المعتوه ليجلس بجواره.. رائحة عرقه الكريهة تقهر رائحة اليخنة، وقد راح يثرثر عن أسبوع المقت.
كان متحمسًا بصدد نموذج عجينة الورق الذي سيصنعه لرأس الأخ الأكبر، واتساعه متران..
والأسوأ أن الضوضاء كانت تحجب كلمات (بارسون) لهذا كان (ونستون) يستوثق مما يقول من حين لآخر.. وذات مرة رأى الفتاة في ركن القاعة جالسة مع فتاتين أخريين. بدا أنها لم تره ولم ينظر هو باتجاهها ثانية..
بعد الظهر كان عليه عمل دقيق.. هو تزييف مجموعة من أرقام الإنتاج بحيث يخفى اسم أحد أعضاء الدائرة الداخلية، وهو اسم كان ساطعا والآن تغطيه سحابة كثيفة.
ولمدة ساعتين نجح في أن يبعد الفتاة عن ذهنه. إنه بحاجة إلى أن يكون وحده، لكن ما زال وقت يفصله عن هذا.. إن لديه موعدًا الليلة في مركز الاجتماع.

وهكذا هرع إلى الاجتماع السخيف، ولعب مباراتين من البنج بونج، وشرب بعض الجين.. كانت روحه تتعذب بالملل.. كان خائفًا وقد أشعرته كلمات (أنا أحبك) بالهلع.. أيقظت فيه الرغبة في البقاء حيًّا..
في النهاية في الحادية عشرة مساء، كان في الفراش والظلام.. آمنًا من التليسكرين.. هنا فقط يمكنك أن تفكر على راحتك..
كانت مشكلة لا بد من حلها.. كيف تقابل الفتاة ؟ لقد كف عن التفكير في أنها تقوده إلى ورطة ما.. لقد كان ارتباكها واضحًا لا تخطئه العين.. لقد أفقدها الرعب صوابها وهي تناوله الورقة.
منذ أيام كان يفكر في تهشيم رأسها بحجر، لكن هذا انتهى الآن.
لكن الخوف كل الخوف أن تغير رأيها لو لم يتصل بها بسرعة.
وكيف يلقاها ؟ هذا صعب جدًّا.. كأنك تحاول تحريك قطعك في الشطرنج بينما أنت في وضع (كش مات).. إن التليسكرين في كل صوب..
لقد فكر في كل الطرق الممكنة للقائها.. وهو الآن يتفحص الاحتمالات واحدًا تلو الآخر، كأنما يرص أدواته على منضدة.
بالطبع اللقاء الذي تم اليوم لن يتكرر.. هو لا يعرف أين تقع إدارة الخيال في المبنى وليس لديه ما يبرر الذهاب هناك.
ربما لو عرف أين تسكن ومتى تغادر العمل لرتب طريقة للقائها، لكن هذا خطر لأنه يعني أنه يتسكع خارج الوزارة لسبب مريب.
لو أرسل لها خطابًا فهذا أمر منته لأن الروتين - وهو ليس سرًّا - يقضي بفتح جميع المراسلات.. في الحقيقة كان القليلون يكتبون خطابات. كانت هناك بطاقات على ظهرها عبارات عديدة، فكل ما عليك هو أن تضع علامة أمام العبارة المناسبة.
ثم إنه لا يعرف اسم الفتاة فضلًا عن عنوانها. في النهاية قرر أن أكثر مكان أمنًا كان المقصف.. لو استطاع لقاءها في منتصف

القاعة بعيدًا عن التليسكرين ؟ وحدها ؟ والضوضاء تجعل كلامهما غير مسموع.. ربما لو أتيحت هذه الظروف ثلاثين ثانية لأمكن تبادل كلمات سريعة..
لكنه لم يستطع لقاءها في المقصف.. لم تظهر حتى دوى صفير العودة للعمل..
في اليوم الثاني كانت مع ثلاث فتيات وتحت التليسكرين بالضبط..
ثم لم تظهر لمدة ثلاثة أيام.. وقد جعل هذا روحه وجسده يكسبان درجة غير معقولة من الشفافية والحساسية، جعلت كل صوت أو حركة أو همسة نوعًا لا يطاق من التعذيب له.
لربما بخروها.. لربما انتحرت.. لربما نقلوها إلى الجزء الآخر من (أوشيانيا).. أبسط الاحتمالات هو أنها غيرت رأيها وقررت أن تتحاشاه..
في اليوم التالي ظهرت.. لم تكن يدها معلقة، لكن ضمادة كانت تحيط بمعصمها. لم يستطع السيطرة على نفسه فظل ينظر لها بضع ثوان. وكانت جالسة بعيدًا عن الحائط وحدها.
كان الصف يتحرك ببطء لكن ما إن بلغ (ونستون) الكاونتر حتى توقف لأن رجلًا كان يتشاجر لأنه لم ينل قرصه من السكارين.
الآن حمل الصينية واتجه نحو الفتاة.. مشى نحوها كأنما الأمر غير متعمد.. وكأنه يبحث عن منضدة ما.. إنها على بعد ثلاثة أمتار.. ثانيتان ويصل لها.. هنا دوى صوت من خلفه:
- « (سميث)!! »
تظاهر بأنه لم يسمع.. لكن الصوت دوى أعلى:
- » (سميث)! »
الآن صار من المستحيل التجاهل.. كان رجلًا سخيفًا أشقر الشعر اسمه (ويلشار) لا يكاد يعرفه، لكنه يدعوه مبتسمًا إلى

مكان خال بجواره. كان من المخاطرة أن يرفض.
جلس مبتسمًا مواجهًا الوجه السخيف.. وتخيل (ونستون) نفسه يمسك بفأس ويهشم الوجه بالضبط في منتصفه.
وبعد دقائق امتلأت منضدة الفتاة. على الأقل هي قد رأته فلا بد أنها فهمت الإشارة.
في اليوم التالي جاء مبكرًا..
كانت على نفس المنضدة ووحدها من جديد.. وكان الرجل الذي أمامه في الصف نحيلًا سريع الحركة، فما إن استدار (ونستون) حتى رأى أن الرجل يتجه إلى منضدة الفتاة..
ذبلت آماله ثانية.. لكنه قدر أن الرجل يعنى بنفسه ولسوف يختار منضدة خالية.. شعر بالثلج يكسو قلبه.. لن تكون من جدوى إلا لو كانت الفتاة وحدها..
هنا دوى صوت ارتطام.. صار الرجل الصغير على أربع، بعد أن وقع وطارت الصينية. نهض وهو يرمق (ونستون) بنظرة شريرة كأنما يعتقد أنه من جعله يتعثر.
وبعد خمس ثوان كان (ونستون) يجلس إلى منضدة الفتاة وقلبه يدق كالرعد.
لم ينظر لها.. لقد راح يأكل وهو يدرك أن الكلام الآن مهم قبل أن يأتي شخص آخر. لكن رعبًا هائلًا استبد به.
لقد مر أسبوع.. فلابد أنها غيرت رأيها.. بالتأكيد غيرت رأيها!
ولربما كان سيصمت لو لم ير (أمبلفورث).. الشاعر الذي يكسو الشعر أذنيه.. يبحث في القاعة عن منضدة يجلس إليها. كان يحب (ونستون) وبالتأكيد سيختار هذه المنضدة.. هناك دقيقة للعمل..
كانا يأكلان يخنة من الفاصوليا هي أقرب إلى السائل، وبصوت مغمغم بدأ (ونستون) يتكلم.. لم ينظر أحدهما للآخر.. راحا

يرشفان السائل ويتبادلان كلمات بصوت غير معبر:
- « متى تتركين العمل ؟ »
- « السادسة والنصف.. »
- » وأين نلتقي ؟ »
- » ميدان النصر.. قرب النصب التذكاري.. »
- « مليء بالتليسكرينات.. »
- « لا يهم ما دام هناك زحام.. »
- » وهل من علامة ؟ »
- « لا.. لكن لا تأت لي حتى تراني بين حشد من الناس ولا تنظر لي.. فقط ابق بقربي.. »
لم ير (أمبلفورث) (ونستون) واختار منضدة أخرى.
وهكذا واصل الاثنان طعامهما.. فرغت الفتاة فنهضت بينما بقى (ونستون) يدخن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل إلى ميدان النصر قبل الوقت المحدد. وقف عند قاعدة التمثال للأخ الأكبر.
بعد خمس دقائق من تمام الساعة لم تظهر الفتاة. وشعر بالرعب.. لقد غيرت رأيها!!
مشى إلى الطرف الشمالي من الميدان، وسره أن رأى كنيسة (سانت مارتن) التي كانت أجراسها - حين كانت لها أجراس -تقول: أنت مدين لي بثلاثة أرباع..
ثم رأى الفتاة تقف عند قاعدة النصب، تقرأ أو تتظاهر بقراءة ملصق.. كان من الخطر الدنو منها لأن التليسكرين في كل مكان.. لكنه سمع صراخًا.. وبدا أن الجميع يركض في كل صوب..
اقترب أكثر فسمع من يقول: إن قافلة من أسرى (أيوراسيا) تمر..

على الفور ظهرت كتلة سميكة من الناس شمالي الميدان.. ووجد (ونستون) نفسه، هو الذي اعتاد أن يكون عند أطراف أي زحام، وقد راح يشق طريقه إلى القلب مباشرة.
أخيرًا صار على مسافة ذراع من الفتاة، لكن بينه وبينها بروليتاري عملاق وامرأة ضخمة هي على الأرجح زوجته، يشكلان جدارًا لا يمكن اختراقه من اللحم.
حشر نفسه بقوة بين الردفين العملاقين، وفي النهاية وجد نفسه يقف ملاصقًا للفتاة وكلاهما ينظر إلى الزحام أمامه.
كان طابور طويل من الشاحنات يحرسه حراس ذوو وجوه خشبية. وفي الشاحنات رجال صفر الوجوه نحيلو الأجساد يجلسون متلاصقين. وجوههم المنغولية الحزينة تنظر من جوانب الشاحنات بلا تعبير. فقط حين يرتطمون بالشاحنة كنت تسمع صوت (كلانك كلانك) لأن الرجال كانوا مكبلى الأقدام بأصفاد حديدية.
كان (ونستون) يعرف أنهم هناك، لكنه كان يراهم بشكل متقطع.
كانت الفتاة مسيطرة على روعها كما فعلت في المقصف. بدأت تتحدث بصوت خال من التعبير وشفتاها شبه ملتصقتين. مجرد غمغمة تضيع وسط الصخب.
- « هل تسمعني ؟ »
- « نعم.. »
- » هل تستطيع أخذ إجازة عصر الأحد ؟ »
- « نعم.. »
- « إذن أصغ جيدًا.. يجب أن تتذكر هذا.. ستذهب إلى محطة (بادنجتون).. »

وبدقة عسكرية راحت تصف له مساره.. نصف ساعة بالقطار.. منحنى إلى شمال المحطة.. بوابة أحد قضبانها مفقود.. ممر عبر مرج.. زقاق نما العشب فيه.. ممر بين الأشجار.. شجرة ميتة يكسوها الطحلب.. كأنما هناك خارطة في رأسها..

- « هل تستطيع تذكر هذا كله ؟ »
- » نعم.. متى ؟ »
- « الثالثة بعد الظهر.. ربما انتظرت.. سآتي من طريق آخر. »
- « نعم.. »
- » الآن ابتعد عنى بسرعة.. »

لكن هذا لم يكن سهلًا بسبب الزحام.. كان الناس يراقبون الشاحنات.. في البداية كان هناك صفير و(بووووو).. ثم تلاشى.. الحقيقة أن العاطفة المسيطرة كانت الفضول..

إن الأجانب هم دومًا نوع من الحيوانات الغريبة.. لا تراهم حرفيًا إلا كسجناء.. ولا تراهم ثانية ولا تعرف مصيرهم ما عدا القلائل الذين يشنقون كمجرمى حرب. الآخرون يختفون على الأرجح في معسكرات العمل الجبرى. الآن ظهرت وجوه أوروبية متسخة ملتحية منهكة. إن القافلة تقترب الآن من نهايتها..

وفي العربة الأخيرة رأى رجلًا مسنًا رمادي الشعر.

كان بوسعه أن يرحل الآن لكن الفتاة مدت يدها إلى يده في الزحام وضغطت عليها ضغطة سريعة.

لم يستغرق هذا أكثر من عشر ثوان لكنها بدت دهرًا، حتى إنه حفظ كل تفاصيل يدها. وخطر له أنه لا يعرف لون عيني الفتاة بعد.

ربما كانتا بنيتين.. لكن الناس ذوى الشعر الأسود تكون عيونهم زرقاء أحيانًا. لكن من الحمق أن يدير رأسه لها ليتحقق.

كان ينظر أمامه.. وبدلًا من عيني الفتاة كان يرى عينى السجين المسن تطلان عليه وسط الشعر الرمادي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

9

مشى (ونستون) عبر الزقاق وسط الظلال. وعلى اليسار كانت الأرض رطبة تغطيها زهور السوسن. بدا كأنما الهواء يلثم جلدك. كان هذا اليوم الثاني من مايو. ومن مكان ما من قلب الدغل كان صوت هديل الحمام.

كان الوقت مبكرًا.. لكن رحلته كانت سهلة. ليس الريف أكثر أمنًا من قلب لندن. لا توجد تليسكرين طبعًا لكن هناك مكبرات الصوت المخفية التي قد تلتقط صوتك وتحلله.. ثم إنك تلفت النظر حين تجول في الريف وحدك. لا داعي لحمل جواز السفر في المسافات التي تقل عن 100 كم، لكن أحيانًا تكون هناك دوريات في محطات القطار، وهم يفحصون الأوراق ويسألون أسئلة مربكة.

نظر حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يراقبه.. وكان القطار مليئًا بالبروليتاريا في ثياب صيفية.. والعربة بالذات ذات المقاعد الخشبية التي يركبها، كانت مزدحمة بأسرة واحدة.. تتكون من الجدة عديمة الأسنان إلى رضيع عمره شهر.. والكل ذاهب لقضاء العطلة مع الأصهار في الريف، بالإضافة إلى شراء بعض الزبد من السوق السوداء كما شرحوا بصراحة ل- (ونستون).

مشى في الممر الذي وصفته له..

زهور السوسن تحت قدميه كثيفة إلى حد أنه من المستحيل ألا تدوسها. ركع ليجمع بعضها لتمضية الوقت. وكذلك تلبية لشعور غامض أنه يجب أن يقدم لها بعضها حين تظهر.

كان يشم الرائحة حين تجمد لدى سماع صوت من وراء ظهره.. الخطي التي لا تخطئها الأذن فوق الغصينات. واصل جمع

الزهور.. فهذا خير ما يمكن عمله.. لربما كانت هذه الفتاة، ولربما كان هناك من يقفو أثره.. معنى الاستدارة أن يبدو مذنبًا.
هنا هوت يد على كتفه.
نظر لأعلى فرأى الفتاة.. كانت تهز رأسها بإشارة واضحة تدل على أن عليه أن يبقى صامتًا..
ثم إنها راحت تشق طريقها بين الأحراش فاتحة طريقًا.. واضح أنها مشت هنا من قبل لأنها تتحاشي الأماكن الموحلة كأنما هي عادة..
راح يتبعها وهو ما زال يمسك بالورد شاعرًا بالراحة في البدء.. لكنه بدأ يشعر بالتضاؤل.. لو أنها استدارت ونظرت له لتخلت عنه..
إن شمس مايو جعلته يشعر بأنه إنسان متسخ معدوم العافية.. مخلوق من مخلوقات الغرف المغلقة.. يملأ سخام (لندن) كل ثغرات جلده.. وهي لم تره قط في مكان مفتوح في ضوء الشمس..
أخيرًا وصلا إلى الشجرة التي تكلمت عنها. أزاحت الشجيرات فوجد أنهما في مكان خال من الشجيرات معزول بالكامل.
قالت له:
- « ها نحن ذان.. »
ثم أردفت:
- « لم أتكلم في الزقاق خشية أن يكون هناك مكبر صوت.. لا أحسب أن هناك واحدًا لكن هذا ممكن.. ثمة فرصة دائمة في أن يتعرف أحد الخنازير صوتك.. نحن هنا في أمان.. »
كرر في غباء:
- « نحن هنا في أمان ؟ »

- « نعم.. انظر إلى الأشجار.. ليست بينها واحدة تصلح لإخفاء مكبر صوت.. »
كانت بقايا أشجار تم قطعها ثم تبرعمت من جديد، صانعة غابة من العيدان ليس من بينها ما يزيد على قطر معصمك..
قال لها:
- « هل تصدقين أنى حتى هذه اللحظة لا أعرف لون عينيك ؟ »
ولاحظ أنهما بنيتان.. ظل خفيف من البنى مع أهداب داكنة..
- « والآن أنت ترينني.. فهل ما زلت تتحملين النظر لي ؟ »
- « نعم.. بسهولة.. »
- « أنا في التاسعة والثلاثين.. لي زوجة لم أستطع الانفصال عنها.. عندي دوال في ساقي.. عندى أسنان مستعارة.. »
قالت الفتاة:
- » لا يهمني هذا.. »
كان ما يشعر به هو عدم التصديق والفخر.. لقد أثار جمالها وشبابها خوفه..
- « ما اسمك ؟ »
- « (جوليا).. أنا أعرف اسمك.. (ونستون).. (سميث).. »
- » كيف عرفت هذا ؟ »
- « لقد تبين أنني أعرف الأمور أفضل منك يا عزيزى. قل لي.. كيف كنت تفكر فيّ قبل أن أعطيك الرسالة ؟ »
لم يشعر برغبة في أن يكذب عليها.. بل قرر أن يحكى لها الأسوأ على سبيل طلب مودتها..
قال لها:
- « كنت أكرهك.. أردت أن أقتلك.. منذ أسبوعين فكرت في تهشيم رأسك بحجر.. لقد اعتقدت أن لك علاقة ما بشرطة

الأفكار.. »
ضحكت في سرور، وقد اعتبرت هذا تقديرًا لروعة تنكرها..
- » ليست شرطة الأفكار.. لا تقل إن هذا فعلًا خطر لك.. »
- « ليس هذا بالضبط.. لكن من منظرك العام.. ربما لأنك صغيرة السن حسنة الصحة نضرة.. أنت تفهمين.. حسبت هذا.. »
- « حسبت أنني عضو مخلص في الحزب.. نقية في كلامها وعملها.. لافتات.. مواكب.. عبارات دعائية.. ألعاب.. مخيمات.. وحسبت أننى سأبلغ عنك كمجرم أفكار وأسبب قتلك ؟ »
- « نعم.. شيء من هذا القبيل.. فتيات كثيرات من هذا الطراز وأنت تعرفين هذا.. »
قالت:
- « هذا الشيء اللعين هو السبب.. »
وانتزعت نطاق (رابطة أعداء الزواج) الذي ترتديه وطوحت به بعيدًا.. ثم كأنما تذكرت شيئًا، بحثت في جيبها وأخرجت لوحًا من الشيكولاتة.. هشمته إلى نصفين وأعطت أحدهما ل-(ونستون)..
وحتى قبل أن يتذوقها أدرك أنها نوع خاص جدًّا من الشيكولاتة.. سوداء لامعة ملفوفة بالورق الفضي.. إن شيكولاتة الحزب بنية سهلة التفتت لها مذاق الدخان المتصاعد من حرق القمامة، كما وصفها أحدهم..
لكنه في وقت ما تذوق شيكولاتة كالتي تقدمها له الآن..
رائحتها أعادت له ذكرى معينة لا يعرف ما هي لكنها قوية مؤلمة..
سألها:
- « من أين جئت بهذه ؟ »

قالت بلا مبالاة:
- « السوق السوداء.. الحقيقة أننى من هذا الطراز من الفتيات.. ألعب الألعاب.. كنت قائدة مجموعة في الجواسيس.. أقوم بالعمل التطوعي ل- (رابطة أعداء الزواج).. أحمل اللافتات في المواكب.. أصرخ مع الآخرين.. هذا هو السبيل الوحيد كي تكون في مأمن.. »
كانت أول قطعة من الشيكولاتة قد ذابت في فم (ونستون).. لكن كانت الذكرى تتحرك على حدود وعيه.. كأنها شيء يتحرك خارج مجال رؤيته..
قال لها:
- « أنت صغيرة السن جدًّا.. أنت أصغر منى بعشرة أو خمسة عشر عامًا.. ماذا يجذبك في رجل مثلي ؟ »
- « شيء في وجهك.. وقررت أن أجازف.. أنا بارعة في العثور على الأشخاص الذين لا ينتمون.. ما إن رأيتك حتى عرفت أنك ضدهم.. »
(هم) هذه تعنى الحزب كما هو واضح.. تعنى الدائرة الداخلية للحزب.. كانت تتكلم عنهم بحقد صريح جعله يشعر بالتوتر.. برغم أنه يعرف أنه آمن هنا لو كان هناك مكان آمن في العالم.
ما أثار دهشته هو خشونة لغتها.
من المفترض أن أعضاء الحزب لا يسبون.. كان من الجلى أنها عاجزة عن الكلام عن الحزب من دون أن تستعمل اللغة المستعملة في الأزقة..
لم يكره هذا.. كان علامة على كرهها للحزب، وبشكل ما بدا له هذا صحيًّا كأنها عطسة الحصان الذي يشم تبنًا رديئًا.
كانا الآن يمشيان في ظلال الأشجار. لا يرفعان صوتهما عن مستوى الهمس.

قالت له حين بلغا المكان بين الأشجار:
- « لا تخرج لمكان مفتوح.. قد يكون هناك من يراقب.. نحن آمنان إن بقينا خلف الشجيرات.. »
ضوء الشمس كان يرشح عبر الأوراق التي لا حصر لها. ونظر (ونستون) إلى الحقل وراءها فشعر بصدمة من الألفة..
كان يعرفه.. هذا مرعى يمر به طريق.. وتلال صغيرة صنعتها الخلدان.. لابد أن هناك في موضع ما بركة صغيرة خضراء اللون تسبح فيها الأسماك ؟
همس لها:
- » أليس هناك مجرى ماء قرب هذا المكان ؟ »
- « بلى. هناك مجرى ماء.. وفيه سمك كبير الحجم يمكنك أن تراه على القاع وهو يحرك ذيله.. »
غمغم:
- « هذا هو البلد الذهبي »
- « البلد الذهبي ؟ »
- « لاشيء.. ذكرى رأيتها في حلم »
همست له:
- » انظر ؟ »
كان طير مغرد قد هبط على غصن شجرة دان منهما، ولم يلحظهما.. فرد جناحيه وأعادهما لمكانهما بعناية.. ثم راح ينشد أغنية جميلة.. متنوعة لا تكرر نفسها أبدًا..
كأن الطائر يستعرض براعته..
ترى لمن يغني الطائر ؟
لماذا يجلس هنا ويصب ألحانه للا أحد ؟
لربما كان الطير يغني لمكبر صوت في مكان ما ؟

بدا كأن غناء الطائر مادة سائلة تتدفق من حوله وتغلفه.. مثلها مثل ضوء الشمس..
كان (ونستون) يحلم بفساد الحزب.. بتحلله.. كم أن هذا جميل.. لو أنه استطاع أن يصيب الحزب كله بالجذام لكان هذا رائعًا.. دع هذا الكيان العفن يتهاوى..
اليوم لا توجد عاطفة واحدة نقية، لأن المقت والخوف يغلفان كل شيء..
لكن لقاءهما هنا صفعة موجهة للحزب.. إنه ليس لقاء بين حبيبين.. إنه عمل سياسي..

نهاية الجزء الأول


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

(العرب ونكبة الكويت).. مكتبة (مدبولي) .. 1991

[←2]

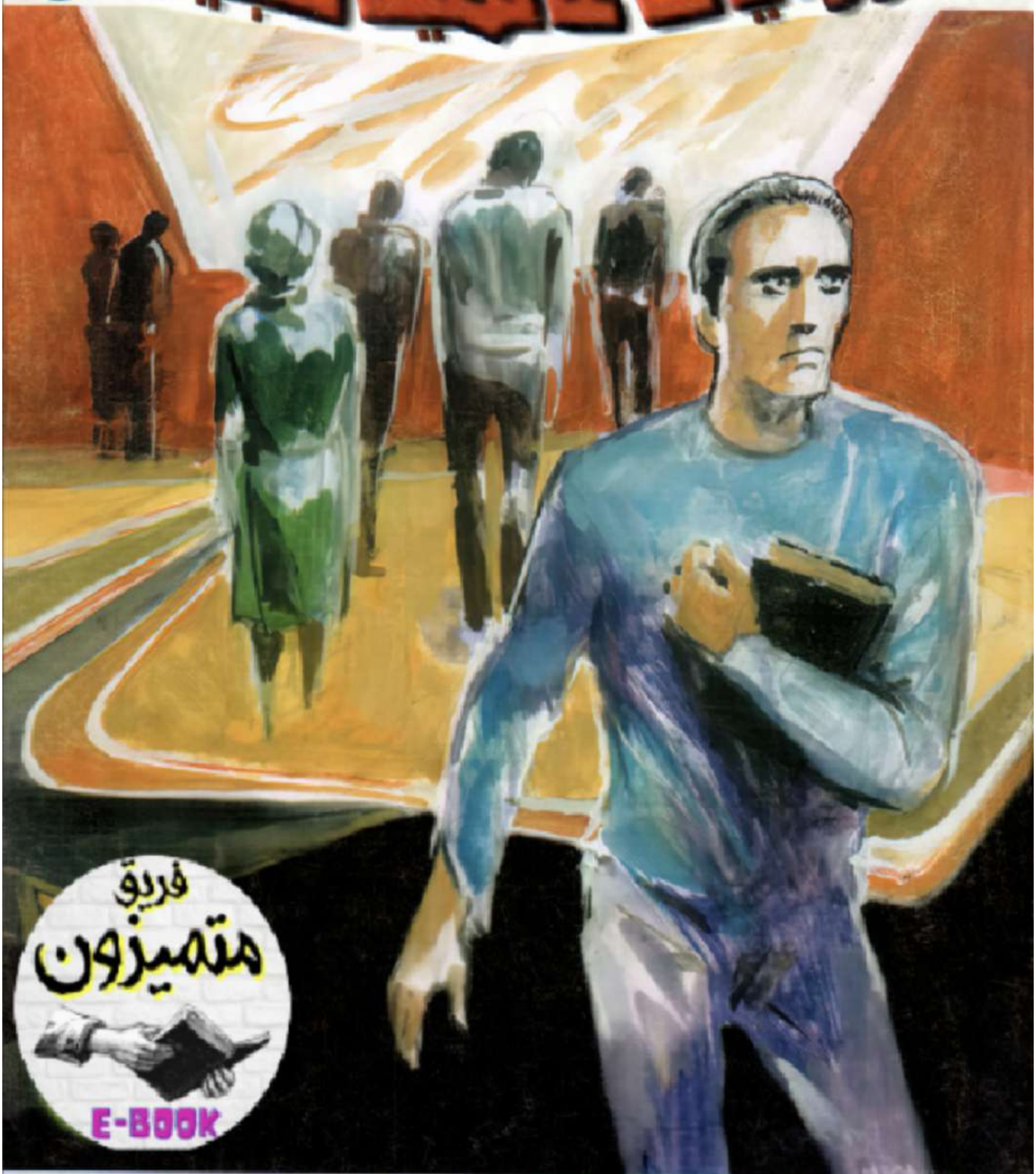
البروليتاريا هي الطبقات المتدنية الفقيرة التي لا تملك شيئًا سوى جهدها العضلي لتبيعه..

[←3]

Double think.. هذا مصطلح (أورويلي) دخل اللغة الإنجليزية بعد هذه القصة.. وهذا نموذج من نماذج عديدة أضاف فيها (أورويل) مصطلحات جديدة إلى قواميس اللغة الإنجليزية.

51

روايات عالمية للجيب



1984

(الجزء الثاني)

بقلم : چورج أورويل

ترجمة وإعداد :

د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية)هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (51)

١٩٨٤ (ج٢)

بقلم: جورج أورويل
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هذا هو الجزء الثاني من قصة (١٩٨٤) القصة فائقة الشهرة للأديب الكبير (جورج أورويلGeorge Orwell)..

لقد تكلمنا عنه في الكتيب السابق، ومن البديهي أن من يقرأ هذا الجزء قد قرأ مقدمة الجزء السابق، لكننا على كل حال نكرره على سبيل التذكير..

ولد (جورج أورويل George Orwell) - أو (أريك أرثر بلير) - عام 1903 في البنغال بالهند، لأن أباه كان موظفًا في الحكومة البريطانية هناك.. وبعد ولادته بعام انتقلت الأم إلى إنجلترا.. وقد بدأ الكتابة في سنٍّ مبكرة، وإن لم يشعر بميل كثير نحو حياة المدرسة.

عام 1922 سافر (أورويل) إلى (بورما) ليعمل في إدارة الشرطة، وهناك بدأ يفهم أن الاستعمار البريطاني عمل قبيح فاستقال من العمل، وعاد إلى أوروبا فقيرًا حيث قرر أن يكسب عيشه من الكتابة وأطلق على نفسه اسم (جورج أورويل).. ونشر كتابه الكبير (أيام في بورما - 1934)..

مال إلى الاتجاه الاشتراكي وسافر لإسبانيا ليكتب عن حربها الأهلية، ويقاتل مع العمال الماركسيين.. وقد نال من جراء هذا جرحًا في عنقه.. وقد تعلَّم من هذه الحرب أن يكره الشيوعية ويفضل الاشتراكية بمفهومها الإنجليزي، وقد كتب عن هذه الفترة (تحية لكاتالونيا - 1938)، ولسوف نجد نفس المقت للنظم القمعية - الشيوعية بالذات - في قصصه التالية.

في الحرب العالمية الثانية عمل مراسلًا لمحطة (بى بى سى)، وفي نهاية الحرب كتب رائعته (مزرعة الحيوانات).. كانت هذه القصة فاتحة الخير له.. وكان نجاحه الساحق الآخر هو

(1984)، لكنه لم يعش ليرى هذا النجاح الساحق.. وفي العام 1949 توفى بالدرن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رواية اليوم شهيرة جدًّا، وقد تركت علامة دائمة في الأدب والسياسة العالميين.. إنها صرخة ضد القمع والحكم الشمولي.. وهي مليئة بالنبوءات التي توشك على أن تتحقق حرفيًّا (نعم كانت نبوءات وقت كتابتها لأن العام 1984 كان بعد أربعين سنة)، ولسوف نشم رائحتها القوية في أعمال تالية نذكر منها (451 فهرنهايت - راى برادبوري) و(الرجل الراكض - ستيفن كينج) و(البرتقالة الميكانيكية - آرثر بيرجس) و(عالم جديد رائع - ألدوس هكسلي) وربما فيلم (النائم) لـ (وودى الين)، وقد قدمنا القصتين الأولى والثانية في هذه السلسلة بالذات..
لا أجد اليوم تعليقًا على هذه القصة سوى ما كتبه الدكتور (جلال أمين)[1] عام 1991:
«شاهدت قناة CNN الأمريكية فوجدت فيها ما يجسِّم ما أكرهه في وسائل الإعلام الحديثة: الكفاءة منقطعة النظير في الكذب، والإلحاح المستمر على الناس لحملهم على تصديق ما لا يجب أن يصدق، والبرود وتضخيم أتفه الأخبار كأنها بالغة الأهمية، وتجاهل الأخبار المهمة فعلًا، ووجوه المذيعين تؤكد شعوري بأنني لست أمام كائنات بشرية بل هي وجوه من شمع تتحرك شفاهها طبقًا لنظام مبرمج سلفًا، ويستهدف لا الإعلام بل غسيل المخ أو بالأحرى تلويثه.
«لكن هذا أكد لي أن ما توقعه (جورج أورويل) قد تحقق بالفعل.. إنه حكي في قصته (1984) عن أشياء مماثلة مما كان

يقوم به البطل الذي كان يعمل في وزارة الحقيقة (ما يعادل وزارة الإعلام) فقد كان عمله إبدال صورة بأخرى أو اسم باسم.. بل إن (أورويل) ذهب أبعد من ذلك فافترض وجود «لغة جديدة».. تعرض فيها بعض الكلمات لتغيير أساسي في معناها بحيث تقبل المتناقضات كأنها ممكنة، تذكرت هذا حين سمعت تلك العبارة الرائعة (نيران صديقة) Friendly fire تمييزًا عن حالة الموت على يد عدو.........

«قال (أورويل) أيضًا إن من ملامح اللغة الجديدة الاختصار الشديد في كتابة كثير من الكلمات، حين يراد إخفاء حقيقة لتجنب المشاعر التي يثيرها ذكر الكلمات كاملة.. فأمريكا اليوم تستخدم WIA KIA وMIA للدلالة على (مقتول في أثناء العمليات) و(مجروح في أثناء العمليات) و(مفقود في أثناء العمليات) بالترتيب.. كما يستخدم مصطلح TO للإشارة إلى (مسرح العمليات) كأننا بصدد مسرحية للتسلية.

«لقد تعذب صفوة الناس الذين يملكون القدرة على مشاهدة CNN وفهم لغتها الإنجليزية، بينما لم يشعر البسطاء بشيء، وهو يماثل نبوءة (أورويل) حين قال: إن عامة الناس (البروليتاريا)، هم وحدهم الذين يحتفظون بقواهم العقلية بسبب عجزهم عن الفهم.. لقد بلعوا كل شيء ولم يلحقهم الضرر من ذلك.. لأن ما دخل أمعدتهم خرج منها دون أن يترك أثرًا، وكأنه حبة ذرة تمر بجسد عصفور وتغادره دون أن تهضمه..»

يكفي الكلام عن الرواية، ولنقرأ الجزء الثاني من الرواية ذاتها.......

د. أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

قالت له (جوليا):

«يمكننا أن نأتي هنا ثانية.. من المأمون عامة أن تستخدم أي مخبأ مرتين، لكن ليس لشهر أو اثنين بالطبع.. »

كان سلوكها الآن قد تغير. صار عمليًا يقظًا.. وقد أدرك أنه من الأفضل ترك طقوس السرية لها، فقد كانت تملك طبيعة مراوغة يفتقر إليها (ونستون).. كما أنها تعرف بالتفصيل الريف حول (لندن)، وهي خبرة كونتها من عشرات المخيمات الجماعية السابقة..

اختارت طريقًا غير الذي جاء منه وقادته إلى محطة مختلفة وقالت له:

- «إياك أن تعود أدراجك من نفس الطريق الذي جئت منه..»

سوف تعود هي أولًا بينما ينتظر هو نصف ساعة قبل أن يتبعها..

حددت له مكانًا يمكن أن يلتقيا فيه بعد أربعة أيام.. كان شارعًا في حي فقير حيث يوجد سوق مزدحم صاخب.. ولسوف تقف هي متظاهرة بالبحث عن أربطة حذاء أو خيط للتطريز، ولو أحست أن الجو آمن فلسوف تتمخط بصوت عالٍ إذ يدنو هو، وإلا فعليه أن يمر بها دون أن يتعرفها.. لكن بشيء من الحظ يمكن أن يتكلما ربع ساعة وسط الزحام، ويحددا موعدًا آخر..

قالت له:

- «الآن يجب أن أرحل.. يجب أن أعود في التاسعة والنصف.. أليس هذا مزعجًا؟ والآن وداعًا يا حبيبي.. وداعًا!»

وسرعان ما توارت بين الأشجار دون ضوضاء..

حتى هذه اللحظة لم يعرف لقبها ولا عنوانها.. لكن لا فارق.. فمن المستحيل أن يتقابلا في مكان مغلق أو يتبادلا أي نوع من الكلام المكتوب.

لفترة طويلة ظلا يتقابلان في الشوارع، ولمدة نصف ساعة في كل مرة، وكانا يمشيان دون أن ينظرا لبعضهما. ويتبادلان عبارات قصيرة كأنها البرق، سرعان ما تتوقف لدى اقترابهما من تليسكرين أو رؤية زى الحزب.. وبدا أن (جوليا) تجيد تمامًا هذا النوع من المحادثات التي كانت تسميها (الكلام بالتقسيط)، بل كانت تجيد الكلام وشفتاها مغلقتان..

بالإضافة لهذا كان وقتها ضيقًا بسبب انشغالها بالاجتماعات النسائية للحزب، وكتابة لافتات أسبوع المقت، وكانت تقول له إن هذا مهم للتنكر.. لو أنك التزمت بالقواعد الصغرى، فمن السهل أن تخرق القواعد الكبرى.

كانت (جوليا)في السادسة والعشرين، تعيش في بيت شباب مع ثلاثين فتاة أخرى (كانت تقول له: دائمًا أنا وسط عفن النساء! لكم أكره النساء!!) كانت تعمل على الآلات التي تكتب القصص، وكانت تحب هذا العمل لأنها تجد نفسها مع المحركات.. منذ أن تبدأ الفكرة كتوجيه لدى إدارة التخطيط، حتى تمر باللمسات الأخيرة لدى فرقة (إعادة الكتابة)، لكنها لم تكن تحب القراءة.. إن الكتب مجرد سلعة يجب إنتاجها بوفرة مثلها مثل أربطة الحذاء أو المربى.

كما أنها عملت لفترة في إدارة الأدب الإباحي Pornosec حيث ينتج الحزب كتبًا مصورة تحمل عناوين مثل (ليلة في مدرسة البنات).. إلخ.. وهذه كانت تباع لشباب البروليتاريا الذي يقبل على شرائها معتقدًا أنه يقرأ شيئًا (**غير قانوني**).. بينما الحزب هو المصدر الوحيد لهذه الكتيبات، والغريب هنا أن الإدارة كانت

تتكون من الفتيات فقط؛ لأن الحزب يخشى أن يتأثر الرجال بالقاذورات التي يتم إنتاجها هناك.
لم تكن (جوليا) ذات ميول ثورية، ولم تكن تؤمن بوجود أية ثورة ضد الحزب.. فقط كانت تريد أن تستمتع بحياتها وتبقى حية في الوقت ذاته.. إنها ولدت تحت سيطرة الحزب واعتبرته شيئًا أزليًا كالسماء.. لا أمل في تدميره، فقط تحاول أن تتحاشاه كما يتفادى الأرنب كلب الصيد.
- » كيف كانت زوجتك؟ »
- » كانت.. مثلما تقول اللغة الجديدة (نقية التفكير).. كانت غير قادرة على التفكير في أي شيء يمس الحزب.. لم تكن تفكر أصلًا.. كانت تأخذنا إلى حفل ممل كل أسبوع.. كانت تكرهه من أعماقها لكنها لم تكف قط عن الذهاب إليه بإصرار، وتدعو ذلك.......... »
- « دعنى أخمن.. واجبنا نحو الحزب.. »
كان الحزب يعارض العلاقات العاطفية باعتبارها نشاطًا فرديًا متمردًا.. ثم إن كبت العواطف كان يقود الناس إلى الهستيريا، وهذه الهستيريا يسهل تحويلها إلى عدوانية.. رغبة في الحرب.. كراهية لأعداء الحزب.
باختصار كان الحزب يستغل تلك الطاقة الطبيعية الجامحة ويحولها لصالحه.. هكذا يهتم الناس بالأخ الأكبر أكثر ويصرخون في المظاهرات..
نفس الشيء حدث للأسرة.. إن الأسرة لا يمكن تدميرها، لهذا يربى الأطفال على أن ينقلبوا ضد ذويهم.. هكذا تحولت الأسرة إلى أداة تحيطك بالمخبرين ليلًا ونهارًا..
زوجته (كاترين) كانت بالتأكيد ستبلغ أمره لشرطة الأفكار، فقط لو لم تكن غبية إلى هذا الحد..

- « لماذا لم تضربها علقة ساخنة؟ »
- » تمنيت ذلك لكن هذا ما كان ليغير أي شيء.. »
- » ولماذا تأسف إذن ما دام الأمر بلا جدوى؟ »
- « أعرف أن الوضع مستحيل ولن يتغير.. لكني تمنيت لو فعلت شيئًا إيجابيًّا.. ما دامت الهزيمة أكيدة فإن بعض الهزائم تكون أفضل من سواها.. »

لم تقبل هذه الفكرة.. كانت تكره الاعتراف بالهزيمة بطبعها؛ لكنها لم تكن تعرف أنه في اللحظة التي تبدأ فيها أفكارك في معارضة الحزب، فإنك تعلن أنك قد صرت جثة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

أدار (ونستون)عينيه في الغرفة الصغيرة التي تقع فوق متجر مستر (شارنجتون).. جوار النافذة كان الفراش مغطى بأغطية ممزقة ووسادة عارية، راح قلبه يقول له: حماقة.. حماقة.. حماقة مجانية انتحارية.. من بين كل الجرائم التي يمكن أن يرتكبها عضو الحزب هذه أقلها قابلية للإخفاء..

لقد تخلى له (تشارنجتون)عن الغرفة. إن الفردية والخصوصية شيء ثمين جدًّا.. الحاجة إلى أن تكون في مكان تبقى فيه وحيدًا، كان هذا جنونًا.. وكان يعرف أنه يخطو نحو قبره بشكل محتم أكيد، كما أن رقم 99 يسبق رقم 100.. لابد من أن يأتي.. فقط أنت تحاول أن تؤجله بعض الوقت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد اختفى (سايم).. جاء يوم لم يعد فيه في العمل، وقد علق قليلون على غيابه، في اليوم التالي لم يذكر أحد اسمه.. وفي اليوم الثالث اتجه (ونستون) إلى الردهة في قسم السجلات ليرى قائمة الملحوظات، كانت إحدى القوائم تتضمن أسماء لجنة الشطرنج التي كان (سايم)عضوًا فيها.. كانت كما هي وإن قصرت اسمًا واحدًا، وكانت هذه هي الإجابة.. (سايم)قد كف عن الوجود.. بل هو لم يوجد قط..

كان الطقس حارًّا وفي متاهات الوزارة ظلت أجهزة التكييف تعمل، فاحتفظت الغرف بحرارة معقولة، ولكن في الخارج كانت الحرارة حارقة وكانت رائحة أنفاق المترو في ساعة الذروة لا تطاق، كانت استعدادات أسبوع المقت تجرى على قدم وساق.. مواكب.. لقاءات.. استعراضات عسكرية.. محاضرات.. عروض

فيلمية، كل هذا يجب أن ينسق من جديد، الأغاني تكتب.. الإشاعات تنشر.. الصور تزيف..
وفي المساء كان الجو محمومًا أكثر من اللازم.. القنابل الصاروخية تهوى أكثر من المعتاد.. وبعيدًا كانت انفجارات صاخبة لا يعرف أحد كنهها ولكن تحيط بها إشاعات عنيفة..
ثم تأليف النشيد الجديد الخاص بأسبوع المقت (واسمه نشيد المقت) وكان كأنه دقات طبل متوحشة.. مع زئير مئات الأصوات.. كان الناس مولعين به في الشوارع، وكان طفلا (بارسون) يعزفانه طيلة اليوم، أما (بارسون) فقد كان يؤكد أن (فكتوريا مانشنز) وحدها ستعلق أربعمائة متر من الأعلام.. كان فخورًا سعيدًا كطائر.. كان في كل مكان في الآن ذاته.. يدق.. ينشر.. يشد.. يرتجل.. ويطلق من كل ثنية في جسده مئونة لا تنتهى من العرق كريه الرائحة.
وفي كل مكان انتشر ملصق عملاق يمثل جنديًا من (إيوراسيا).. ينظر لك بوجهه المغولي وهو يصوب بندقية نحوك.. يمكنك أن تراها من أية زاوية.. وقد أثر هذا في العامة الذين لا يبالون عامة بالمشاعر الوطنية.. وساعد على هذا أن القنابل كانت تسقط أكثر من اللازم هذه الأيام..
لهذا خرجت المظاهرات الغاضبة، وأحرقت تماثيل (جولدشتاين)، وأحرقت مئات النسخ من ملصق الجندي..
لذا كان يهرب إلى تلك الغرفة متجر مستر (تشارنجتون).. لقد صارت هذه الغرفة كأنها الملجأ.. إن بلوغها خطر لكنها هي ذاتها تبدو آمنة أبدية.. كأنها عالم حيوانات منقرضة.. مستر (تشارنجتون) نفسه كان حيوانًا منقرضًا، حيث يجلس في متجره لا يبيع شيئًا على الإطلاق، ولا يخرج منه أبدًا.. ويتعامل مع بضاعته كأنه جامع تحف وليس تاجرًا..

كانت (جوليا) تلقى (ونستون) من حين لآخر هناك، فيحلمان معًا بأنهما سيظلان آمنين، ولسوف يلتقيان حتى تنتهى حياتهما.. لربما تموت (كاترين) زوجته وبمعجزة ما يتمكنان من الزواج.. لربما ينتحران معًا أو يفران ويغيران شخصتيهما، ليذوبا وسط (البروليتاريا).. يعملان في مصنع ويقضيان حياتهما دون أن يجدهما أحد، كانا يعرفان أن هذا هراء.. في الحقيقة لا يمكن الفرار.. وحتى الانتحار لن يفعلاه لأنهما سيظلان يعيشان من يوم ليوم بدافع غريزي كالذي يجعلك تجذب الهواء إلى رئتيك..

كانت تؤمن أن كل واحد يكره الحزب، لكنه لا يجد الشجاعة ليعلن هذا، وما كانت تؤمن بوجود تنظيم مثل (الأخوة) يرتب هذه الأمور. كانت تعتقد أن الكلام عن (جولدشتاين) وجيشه تحت الأرض مجرد هراء اختلقه الحزب، وعليك أن تتظاهر بأنك تصدقه.

لقد شاركت كثيرًا في الصراخ في أثناء عمليات الإعدام العلني، لأشخاص لا تعرفهم ارتكبوا أشياء لا تؤمن بأنها جرائم.. لكنها كانت تقف من الفجر حتى المساء صارخة بعنف: الموت للخونة!

وفي اجتماعات المقت كانت تبز الجميع في الهتاف ضد (جولدشتاين)، برغم أنها لا تعرف شيئًا عن الرجل ولا ما قام به.. إن الحزب لا يُقهر وسيظل للأبد.. الثورة الوحيدة ضده هي أن تكف عن طاعة أوامره سرًا..

كانت غريبة في معتقداتها، وأقل قبولًا منه لدعاية الحزب.. فحين حدثها ذات مرة عن الحرب على (أيوراسيا) كان رأيها أنه لا توجد حرب.. القنابل الصاروخية التي تقتل الناس في الشوارع تطلقها حكومة (أوشيانيا) ذاتها. فقط لتبقى الناس خائفين..

هذه فكرة لم تخطر له ببال قط..

كانت مستعدة لقبول التخاريف فقط، لأنه لا فارق لديها بين هراء وهراء آخر.. وقد أدهشها حين قال لها إن الحزب لم يخترع الطائرة.. الطائرة كانت موجودة قبل أن يولد.. اندهشت قليلًا، ثم نسيت الأمر.. فأية أهمية لمعرفة من اخترع الطائرة على كل حال؟

مثلًا أثارت غيظه لأنها نسيت أنه منذ أربعة أعوام كانت (أوشيانيا) تحارب (إيستاسيا).. كانت تحسب أنهم كانوا يحاربون (أيوراسيا) منذ الأزل.. وقد أدهشه أنها لا تبالي كثيرًا بتذكر اسم العدو الذي يحاربونه.

- « ما الفارق؟ نحن نعرف أن هناك حربًا لعينة تلى حربًا أخرى لعينة.. والأخبار كلها كذب على كل حال.. »

لكنها لا تفهم بشاعة ألا يكون هناك ماض. كل شيء هو حاضر ممتد فيه الحزب دومًا على حق.. لقد تمّ تزوير التاريخ، ولكني لا أقدر على إثبات هذا برغم أنني زيفته بنفسي.. الدليل الوحيد هو في عقلي أنا..

كانت لا تبالي بشيء ولا تفهم كلمة عن فلسفة الحزب..

إن فكرة الحزب تبدو واضحة ناجحة مع الناس الذين لا يفهمونها.. يمكن جعلهم يقبلون خرق الحقيقة لأنهم لا يفهمون فداحة ما يطلب منهم.. ويعجزهم عن الفهم، يحتفظون بعقولهم.. كانوا يبلعون أي شيء فلا يؤذيهم أي شيء يبتلعونه.. لأنه لا يترك أثرًا كأنه حبة ذرة تخرج دون هضم من معدة عصفور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

كان يمشي في الردهة الطويلة بالوزارة.. وكان تقريبًا عند البقعة التي ناولته فيها (جوليا) المذكرة، حين أحس بأن شخصًا أضخم منه يمشي وراءه.. أطلق هذا الشخص - أيًّا من كان - سعلة كمقدمة للكلام كما هو واضح، فتوقف (ونستون) واستدار.. كان هذا (أوبرايان)[2].

أخيرًا هما وجهًا لوجه.. وبدا له أن رغبته الوحيدة هي الفرار، وتواثب قلبه بوحشية، لكن (أوبرايان) واصل المشي واضعًا يدًا ودودًا للحظة على ذراع (ونستون) بحيث صارا يمشيان جنبًا لجنب، وبدأ يتكلم بتلك الطريقة المجاملة التي تميزه عن باقي أعضاء الدائرة الداخلية للحزب.

- » وددت دومًا أن أتحدث إليك. كنت أقرأ مقالة من مقالاتك عن (اللغة الجديدة) في (التايمز).. أنت مهتم باللغة الجديدة بشكل أكاديمي.. أليس كذلك؟ »

- » ليس بشكل أكاديمي.. أنا مجرد هاوٍ، ولم أتخصص يومًا في التركيب اللغوي.. »

- « لكنك كتبته ببراعة.. كنت أتحدث مع صديق من أصدقائك منذ فترة. لقد نسيت اسمه.. »

خفق قلب (ونستون).. من الجلى أن هذه إشارة إلى (سايم).. لكن (سايم) قد تلاشى.. صار (لا شخص).. وأية إشارة له قد تكون خطرة بشكل مميت، هل هذا تلميح ما؟ وواصل الاثنان المشي في الردهة، ثم إن (أوبرايان) أصلح من وضع عويناته بتلك الطريقة الراقية التي يجيدها وأردف:

- « لاحظت أنك استعملت في مقالك لفظتين منقرضتين.. هل رأيت الطبعة العاشرة من قاموس (اللغة الجديدة)؟ »

- « لا.. لم نعرف أنه صدر.. ما زلنا نستعمل الطبعة التاسعة في قسم السجلات.. »
- « لم تصدر بعد، لكن هناك طبعات محدودة منها.. يمكنني أن أطلعك عليها لو أردت. »
- « بالتأكيد.. »
قالها وهو يتحرق لمعرفة إلام يقود هذا..
- « ربما تأتى لداري في أي وقت كي تأخذها.. سأعطيك عنوانى.. »
وقف (أوبرايان) أمام التليسكرين، في وضع يسمح لكل من يراقب الشاشة أن يرى ما يكتبه، وأخرج قلمًا وورقة وخط عنوانًا.. ثم ناول الوريقة لـ (ونستون).
- « أكون في البيت عادة ليلًا.. لكن لو لم أكن فإن خادمى سيعطيك القاموس.. »
وانصرف بينما وقف (ونستون) ممسكًا بقطعة الورق التي لم يكن هناك داع لإخفائها، إلا أنه في وقت لاحق تخلص منها في إحدى الفتحات المخصصة للمهملات.
لم يكن هناك معنى لهذه المحادثة.. بل من الواضح أنها مفتعلة فقط كي يعرف عنوان (أوبرايان).. وكان هذا مهمًا، لأنه من المستحيل أن تعرف أين يعيش أي واحد.
لم يقل الرجل شيئًا، فلربما ترك له رسالة في القاموس.. لكن هناك شيئًا واحدًا: المؤامرة التي حلم بها (ونستون) كثيرًا موجودة فعلًا.. بل إنه على حافتها الخارجية الآن..
كان فقط يعرف أنه عاجلًا أم آجلًا سيقبل دعوة (أوبرايان).. ربما اليوم أو غدًا..
لقد تحرك من الأفكار إلى الكلمات.. والآن من الكلمات إلى الأفعال.. الخطوة بعد هذا ستكون في وزارة الحب.. هذا محتم

وإن كان مفزعًا.. كأنما ينتقص من حياتك.. لقد شعر برجفة تتملكه وهو يكلم (أوبرايان).. كان يشعر بأنه يخطو إلى رطوبة قبره، وكان يعرف دومًا أن القبر ينتظره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

قال لـ (جوليا):

- « هل تعرفين؟ حتى هذه اللحظة كنت أعتقد أنني قتلت أمي؟ »

سألته:

- « لماذا قتلتها؟ »

- « لم أقتلها.. ليس بالمعنى المادي؟ »

لا بد أنه كان في الثانية عشرة وقتها.. لقد اختفى أبوه قبل ذلك لا يذكر منذ متى.. فقط يذكر الصخب والضوضاء والذعر المتكرر من الغارات الجوية، والاختباء في مترو الأنفاق.. عصابات الشباب من ذوى القمصان الموحدة، والطوابير على المخابز، وطلقات الرصاص المتقطعة من بعيد.. وأهم من كل هذا حقيقة أنه لا يوجد ما يكفى للأكل..حين اختفى أبوه لم تُظهر أمه أي حزن أو دهشة.. ولكن تغيرًا طرأ عليها، بدا كأنما فقدت حيويتها تمامًا، وبدا لـ (ونستون) أنها تنتظر شيئًا توقن بحدوثه، كانت تقوم بالمطلوب منها.. تطهو وتغسل وترتب الفراش وتمسح الأرضية.. دائمًا بحركة بطيئة كأنما هي قالب نحت من الصلصال يتحرك من تلقاء ذاته، أحيانـًا كانت تجلس لساعات في الفراش تعنى بأخته.. التي صار وجهها كوجه قرد من فرط الهزال، وأحيانًا تضم (ونستون) إلى صدرها دون أن تقول شيئًا.

يتذكر أمه منحنية فوق موقد الكيروسين تحرك شيئًا ما في وعاء الطعام.. كان يسألها بإلحاح مرارًا وتكرارًا لماذا لا يوجد المزيد من الطعام.. يذكر نبرات صوته وهو يصرخ محتجًا.. وكانت أمه مستعدة دومًا لإعطائه أكثر من نصيبه، فقد كانت تؤمن أنه - الولد - يجب أن ينال نصيبًا أكبر، لكن مهما أعطته كان يطلب

المزيد، وفي كل مرة تذكره ألا يكون أنانيًا وأن يتذكر أخته السقيمة، لكن بلا جدوى، كان يعرف أنه يجيع الاثنتين الأخريين لكن لم تكن له حيلة في هذا.. بل كان يشعر بأن لديه الحق في ذلك.. وبين الوجبات حين تغفل عين الأم عنه كان يسطو على مخزون الطعام البائس فوق الرف..

ذات مرة كانت هناك حصة شيكولاته.. ولم تكن هناك حصص كثيرة في ذلك الشهر، وكان لوح يزن أوقيتين يوزع على ثلاثتهم.. فجأة وجد نفسه يطالب بالقطعة كلها.. طلبت منه أمه ألا يكون جشعًا، وبدأ الكثير من الصراخ والاحتجاج والمساومة والدموع.. بينما أخته الصغيرة تتعلق بأمه بالضبط كأنها قرد صغير، وتنظر له بعينين واسعتين حزينتين..

في النهاية قسمت الأم الشيكولاته إلى ثلاثة أرباع أعطته إياها، وربع لأخته.. ظلت أخته ترمق القطعة لفترة لا تعرف كنهها، هنا انقض (ونستون)على القطعة لينزعها من يد أخته ويفر من الغرفة..

- « (ونستون)!! عد هنا وأعط الشيكولاته لأختك.. »

توقف في منتصف المسافة ونظر للوراء.. فهمت الطفلة أنها سلبت شيئًا فبدأت تئن بوهن.. هنا للمرة الأولى أدرك أن الطفلة تموت.. أسرع يركض هاربًا بينما الشيكولاته تذوب في يده..

ولم ير أمه ثانية.. لقد التهم الشيكولاته فبدأ يشعر ببعض الخزى من نفسه.. وراح يجوب الشوارع لساعات حتى أعاده الجوع للبيت.. وحين عاد كانت أمه قد اختفت.. لم يختف شيء في الحجرة إلا أمه وأخته.. وحتى اليوم ليس متأكدًا تمامًا إن كانت أمه قد ماتت أم لا..

من الممكن أن تكون أرسلت لمعسكر للعمل الإجباري.. أما أخته فلربما نقلت إلى إحدى مستعمرات الأطفال ناقصى الأهلية

(مراكز الإصلاح كما يسمونها).. أو ربما تركوها حيث هي لتموت..
حكى لـ (جوليا) قصة اختفاء أمه فقالت:
- « أعتقد أنك كنت خنزيرًا صغيرًا في ذلك الوقت.. كل الأطفال خنازير.. »
لم يعتقد أن أمه كانت غير عادية.. ربما كانت محدودة الذكاء.. لكن كان فيها نوع خاص من النبل.. نوع من الطهر.. حين لا تملك ما تعطيه لشخص تحبه فإنك تمنحه الحب فقط.. لقد ذهبت آخر قطعة من الشيكولاته، لهذا احتضنت طفلتها إلى صدرها.. لا جدوى من عمل كهذا ولا يغير شيئًا ولم يجلب المزيد من الشيكولاته.. لكن بدا من الطبيعي لها أن تفعل هذا..
تلك المرأة في القارب في ذلك الفيلم غطت الطفل بذراعها.. وهذا لن يقيه من الرصاص أكثر مما تقيه ورقة.. الشيء المخيف هنا أن الحزب استلبك تقدير المشاعر.. جعلك تدرك أن العواطف لا قيمة لها..
بينما منذ جيلين لم يكن الناس يفكرون إلا بعواطفهم، ولا يهمهم شيء إلا سلامة من يحبون.. عناق.. دمعة.. كلمة تهمس في أذن محتضر.. هذه أشياء لها قيمة في حد ذاتها..
البروليتاريا احتفظوا بعواطفهم.. ليس لهم ولاء إلا تجاه بعضهم.. إنهم أكثر إنسانية ورقة..
- » البروليتاريا كائنات بشرية.. بينما نحن لسنا كذلك.. »
قالت (جوليا):
- « لم لا نكون؟ »
- « ألم يخطر لك أنه من الخير ألا تريني ثانية؟ أنت شابة ونقية.. ولو ابتعدت عنى الآن فمن الممكن أن تعيشى خمسين عامًا أخرى..«

- « فكرت في الأمر.. لكن لا.. لا تكن منخفض المعنويات.. لقد برهنت على براعتي في البقاء حية.. »
- « لو قبضوا علينا فلن يوجد ما نستطيع عمله لبعضنا.. لو تكلمت فلسوف يعدمونك.. ولو عذبوني ولم أتكلم فلسوف يعدمونك أيضًا.. لا فارق.. لن يعرف أحدنا إن كان الآخر حيًّا.. فقط علينا ألا يخون أحدنا الآخر برغم أن هذا لن يحدث أي فارق.. »
- « لو كنت تعنى الاعتراف فلسوف نعترف.. الجميع يعترف.. لا حيلة لك لأنهم يعذبونك.. »
- « لا أعنى الاعتراف.. الاعتراف ليس خيانة.. أتكلم عن المشاعر.. لو جعلوني أكف عن حبك فهذه هي الخيانة فعلًا.. »
- « ليس بوسعهم هذا.. يمكنهم أن يجعلوك تقول أي شيء، لكنهم لا يستطيعون جعلك تؤمن به.. لن يصلوا إلى داخلك.. »
فكر في شاشات التليسكرين بعيونها التي لا تنام.. يمكنهم التجسس عليك لكن لو احتفظت بعقلك فسوف تنتصر عليهم.. برغم براعتهم ليس بوسعهم معرفة ما تفكر فيه.. لا يعرف أحد ما يجري في (وزارة الحب) لكن بوسعك التخمين: تعذيب.. عقاقير.. أجهزة تسجل ردود أفعالك العصبية.. أرق يرهقك بالتدريج.. إن الحقائق يمكن الحصول عليها.. يمكن اعتصارها منك، لكن ما الفارق؟ ليس بوسعهم تغيير مشاعرك، لأنك أنت نفسك لا تستطيع مهما حاولت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

لقد نجحا أخيرًا! فعلاها أخيرًا!

كانت الغرفة التي يقفان فيها طويلة ناعمة الإضاءة، وقد تم تعتيم شاشة التليسكرين. والبساط الأزرق الغامق يعطيك شعورًا بأن قدميك تغوصان في المخمل. وفي نهاية الغرفة يجلس (أوبرايان) إلى منضدة وجواره كومتان من الورق. ولم يكلف نفسه بالنظر لأعلى حين أدخل الخادم (ونستون) و(جوليا)..

كان قلب (ونستون) ينبض بقوة حتى إنه شك في قدرته على الكلام.. كان عملًا أخرق أن يأتيا هنا، وحماقة أن يأتيا معًا.. برغم أنهما جاءا من طريقين مختلفين والتقيا على عتبة (أوبرايان)..

كان من النادر جدًّا أن يرى المرء داخل منازل دائرة الحزب الداخلية. حتى المنطقة السكنية كانت لها رائحة غريبة هي رائحة الطعام الجيد والطباق الجيد، والخدم بثيابهم البيضاء يهرعون من هنا وهناك..

لقد سمح لهما خادم (أوبرايان) بالدخول دون اعتراض.. كان شابًا أسود الشعر له وجه يشبه الماسة عديم التعبير.

واقتادهما عبر ممر له جدران نظيفة.. ولم يكن (ونستون) يذكر أنه رأى في حياته جدارًا لم يتسخ من لمس الأجساد..

كانت بين يدى (أوبرايان) قصاصة ورق يدرسها بإمعان، ولمدة عشرين ثانية لم يتحرك، ثم جذب آلة الإملاء نحوه وأملى رسالة برطانة الوزارات:

Items One Comna Five Comma Seven Approved" Stop Suggestion Contained Item Six Fullwise doubleplus Ridiculous

Verging crimethink Cancel Stop Unproceed Constructionwise "
ومشى متجهًا لهما فوق السجادة التي تبتلع صوت الخطوات.. بدا كأنما تخفف نوعًا من الجو الرسمى لكنه كان متجهمًا كأنما يكره المقاطعة.. هنا شعر (ونستون) بالحرج.. على أي أساس افترض أن (أوبرايان) متآمر ضد الحزب؟ أعلى نظرات عيون واشارات؟ لم يعد بوسعه أن يدعى أنه جاء لاقتراض القاموس.. لأن وجود (جوليا) لا يمكن تفسيره في هذه الحالة..
استدار (أوبرايان) وضغط على زر شاشة التليسكرين، فاختفى الصوت.. هنا لم يتمالك (ونستون)أن يسأل:
- « أنت.. تستطيع أن تغلقه؟ »
- « نعم نستطيع أن نغلقه مؤقتًا.. إن لنا هذه المزية.. »
بدا أنه ينتظر من (ونستون) أن يتكلم.. لكن عن أي شيء؟
لقد صارت الغرفة صامتة كالموتى بعد إغلاق الشاشة.. ثم بدا وجه (أوبرايان) يتخذ ما يشبه الابتسامة.. وبحركته المعتادة أعاد تثبيت العوينات على أنفه، وقال:
- » هل أقولها أم تفعل أنت؟ »
- « هل أنت متأكد من أن هذا الشيء مغلق؟ لقد جئنا لأننا.... »
وللمرة الأولى أدرك غموض دوافعه.. فهو لم يكن يعرف ما يريد من (أوبرايان).. وبدأ يتكلم فكان ما قاله مليئًا بالزيف:
- » نؤمن بوجود مؤامرة.. منظمة سرية تعمل ضد الحزب.. وأنك متورط معها.. نريد أن ننضم لها فنحن أعداء الحزب.. نحن مجرما أفكار.. نحن خائنان.. أقول هذا لأننا نضع نفسينا تحت رحمتك.. »

ثم توقف لأن الباب من خلفه انفتح.. كان هذا هو الخادم يحمل صينية عليها زجاجة وكئوس.
قال (أوبرايان) بلا مبالاة:
- » (مارتين) واحد منا. ضع المشروبات هنا يا (مارتين).. ثم اجلس معنا.. يمكنك أن تكف عن أن تكون خادمًا للعشر الدقائق التالية.. »
جلس الرجل على راحته.. وبرغم هذا لم يتخلص بعد من طابع الخادم..
رفع (أوبرايان) كأسه وقال:
- « سنشرب نخب قائدنا.. (إمانويل جولدشتاين).. »
شرب (ونستون) كأسه بلهفة.. وقال:
- « إذن هناك شخص مثل (جولدشتاين)؟ »
- « نعم.. هناك شخص كهذا.. وهو حي.. لا أعرف أين يقينًا.. »
- » والمؤامرة.. التنظيم؟ هل هو حقيقي وليس مجرد اختراع من (شرطة الأفكار)؟ »
- » بل هي حق.. (الأخوة) كما نناديها.. سأعود لهذا فيما بعد.. »
ثم نظر إلى ساعته وقال:
- « ليس من الحكمة - حتى بالنسبة لأعضاء دائرة الحزب الداخلية - أن يغلقوا التليسكرين أكثر من نصف ساعة.. ما كان لكما أن تأتيا معًا، وعليكما أن ترحلا منفصلين.. أنت يا رفيقة.. » - وحنى رأسه لـ (جوليا)- « سترحلين أولًا.. لدينا عشرون دقيقة لهذا سأبدأ بسؤالك: ماذا بوسعك أن تفعلي؟ »
قال (ونستون):
- « كل ما بوسعنا.. »
- « مستعدان للتخلى عن حياتيكما؟ »

- « نعم.. »
- » ترتكبان عمليات تخريب قد تقتل مئات الأبرياء؟ »
- « نعم.. »
- » تزيفان.. تسرقان.. تخربان عقول الأطفال.. ترتكبان أي شيء يخفف من قبضة الحزب الأخلاقية؟ »
- « نعم.. »
- « مستعدان لفقد هويتكما.. وأن تعيشا بقية حياتكما كسقاة أو عمال في مرفأ؟ »
- « نعم.. »
- « مستعدان للانفصال عن بعضكما؟ »
- « لا.. »
كذا صاحت (جوليا).. واستغرق (ونستون) الكثير من الوقت حتى يخرج مقاطع رده:
- « لا.. »
قال (أوبرايان) لـ (مارتين):
- « ربما كان من الأفضل أن تعود إلى المطبخ يا (مارتين).. ألق نظرة على هذين الرفيقين.. لسوف تراهما ثانية أما أنا فلا.. »
دون كلمة أو تعبير على وجهه انسحب (مارتين)، على حين راح (أوبرايان) يجوب الغرفة ويده في جيبه والأخرى تمسك بالسيجار..
- » يجب أن تفهم أنك ستحارب في الظلام.. ستطيع أوامر لا تعرف جدواها ولا ممن صدرت.. سوف أرسل لك كتابًا يوضح حقيقة المجتمع الذي نعيش فيه وكيف ننوي هدمه.. فمتى قرأته صرت واحدًا من (الأخوة).. سيكون عليك أن ترده لنا خلال أربعة عشرة يومًا.. يمكنني أن أخبرك أن (الأخوة) موجودة لكنك لن تعرف أبدًا ما إذا كانت تضم مائة أم مائة مليون..

الاتصال سيكون عن طريق (مارتين).. وحين يقبض عليك في النهاية سوف تعترف.. لا مفر من هذا.. لكن سيكون هناك القليل جدًّا مما تعترف به.. لن تستطيع خيانة أكثر من عدد محدود من الرجال الذين لا قيمة لهم.. وحتى لو خنتني فلسوف أكون وقتها ميتًا أو شخصًا آخر ذا وجه آخر.. »
كان (ونستون) الآن منبهرًا بـ (أوبرايان).. حين ترى كتفيه العريضتين ووجهه القبيح جدًّا والراقي جدًّا برغم هذا، فإنك تعتقد أن هذا شخص لا يهزم..
- « إن الأخوة لا يمكن أن تزول لأن أفرادها لا يجتمعون تحت الأرض، ويتفاهمون بالشفرة.. لا أحد منهم يعرف إلا أقل القليل.. و(جولدشتاين) نفسه لا يعرف من يعمل معه.. لا توجد قائمة بالأسماء.. وهذا سر قوة (الأخوة) لأنها ليست تنظيمًا بالمعنى المعروف.. وحين يقبض عليكما لن يساعدكما أحد.. نحن لا نساعد أعضاءنا.. نحن موتى في هذا العالم.. حياتنا الوحيدة الحقيقية هي في الغد.. إننا ننشر فكرة.. مجرد فكرة من جيل لآخر برغم أنف شرطة الأفكار.. »
ثم نظر لساعته وقال لـ (جوليا):
- » حان وقت الرحيل يا رفيقة.. »
فلما انصرفت، بدا كأنما نسى وجودها تمامًا وقال:
- « ثمة تفاصيل مهمة.. أعتقد أن لديك مكانًا للاختباء؟ »
فحكى له (ونستون)عن الغرفة فوق متجر (تشارنجتون)..
- « هذا يصلح.. لكن من المهم أن تغير المكان من حين لآخر.. هل لديك اسئلة قبل رحيلك؟ »
ساد الصمت لبرهة.. ثم سأله (ونستون) دون تفكير:
- « هل سمعت ذات مرة أغنية تقول: (برتقال وليمون).. هذا ما تقوله أجراس (سانت كليمنز). أجراس (سانت مارتين) تقول:

أنت مدين لي بثلاثة أرباع البنس.. »
في جدية استكمل (أوبرايان) الأغنية:
- « متى ستدفع لي؟ هذا ما تقوله أجراس (بيلي).. حين أصير ثريًّا.. هذا ما تقوله أجراس (شورديتش).. »
وإذ نهض (ونستون) مد (أوبرايان) يده له..
قبضته القوية هشمت عظام يد (أوبريان).. فما إن ابتعد حتى نظر للوراء فأدرك أن (أوبرايان) يطرده الآن من تفكيره.. يمد يده ليفتح التليسكرين، وبعد دقائق سيعود للعمل في مهمته المهمة للحزب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

صار (ونستون) جيلاتينيًّا من التعب، وجيلاتيني هو اللفظ المناسب.. بدا أن جسده لا يحمل فقط رخاوة الجيلي بل وشفافيته أيضًا.. كأن الجلد والدم واللمف فارقوا يده تاركين العظام والأعصاب..

لقد عمل أكثر من تسعين ساعة في خمسة أيام، وكذا فعل كل من يعمل في الوزارة. والآن انتهى العمل.. يمكنه أن يقضي ست ساعات في مخبئه وتسعًا في فراشه. مشى نحو متجر مستر (تشارنجتون) وهو يحمل الحقيبة الثقيلة ترتطم بركبته، وبها الكتاب الذي لم يقرأه برغم أنه حصل عليه منذ ستة أيام.

بعد ستة أيام من المواكب.. من الخطب.. من الصراخ.. من الرايات.. من الملصقات.. من الأفلام.. من دق الطبول ونفخ النفير.. من هدير الدبابات.. من زئير أسراب الطائرات.. بعد ستة أيام من هذا، حينما بلغ المقت لـ (أيوراسيا) حد الجنون.. لدرجة أنه لو أمسك الناس بأسرى (أيوراسيا) الألفين، لمزقوهم إلى قطع صغيرة قبل شنقهم العلني. هنا فقط أعلن أن (أوشيانيا) ليست في حرب مع (أيوراسيا).. بل هي في حرب مع (إستاسيا).. إن (إيوراسيا) حليف..

لم يحس أحد بوجود تغيير.. لقد كانت مظاهرة حقد كبيرة والمشاعر تغلي، حين وصل من يحمل ورقة صغيرة لممثل الحزب.. فتحها وقرأ ما فيها ثم أعلن أن هذا الحقد كله موجه لـ (أيوراسيا).. الآن صارت اللافتات كلها خطأ! لقد تم وضع الوجوه الخطأ على اللافتات.. هذا تخريب متعمد! إن عملاء (جولدشتاين) هم السبب! وسرعان ما تمزقت اللافتات وعادت الخطبة.. لكن الهدف قد تغير هذه المرة.. وما أثار دهشة

(ونستون) هو أن المتحدث غير العدو في منتصف الجملة.. لم يتوقف لحظة أو يعطى تفسيرًا ما..
(أوشيانيا) في حرب مع (إيستاسيا) (أوشيانيا) كانت دومًا في حرب مع (إيستاسيا).. والآن صار جزء كبير من الكتابات السياسية في الخمس سنوات الماضية بلا جدوى.
لقد صار العمل مرهقًا في الوزارة لأنه من المفترض أن يختفي كل حرف كتب عن الحرب مع (أيوراسيا).. إنهم يعملون الآن ١٨ ساعة يوميًّا، والطعام يقدم لهم في شطائر في مكان العمل، مع قهوة توزع على عربات (ترولى) صغيرة.. وراح (ونستون) يعمل كالمحموم.. ومن حين لآخر يجد كومة هائلة من الأوراق على مكتبه فيعمل بحماسة كي يجعل مكتبه قابلًا للاستخدام من جديد.. والأسوأ هو أن أحدًا لم يجرؤ على تسمية العملية باسمها الحقيقي..
بعد إنهاء العمل صار من المستحيل على أي بشرى أن يبرهن على أن الحرب ضد (أيوراسيا) وقعت فعلًا.. ومنح الرجال إجازة حتى صباح الغد..
هكذا عاد لداره فاستحم ثم اتجه إلى الغرفة فوق متجر مستر (تشارنجتون) وحقيبته معه. فتحها وأخرج الكتاب..
كان مجلدًا أسود ثقيلًا مجلدًا تجليد هواة بلا عنوان على الغلاف.. الصفحات مهترئة من الجوانب، وتساقطت بسهولة..
أما العنوان على الصفحة الأولى فيقول:

نظرية وممارسة الحكم الشمولي بوساطة الأقليات
بقلم إيمانويل جولدشتاين

الفصل الأول

الجهل هو القوة

- » منذ بداية التاريخ، وربما منذ العصر الحجري الحديث، انقسم الناس في العالم إلى ثلاث طبقات: عليا ووسطى ومتدنية. لقد قسموا تقسيمات أخرى كثيرة لكن التركيب الأساسي للمجتمع لم يتبدل قط. حتى بعد الثورات الهائلة والتغيرات الجذرية ظاهريًا، فقد ظل نفس التركيب يفرض نفسه. كما أن (الجيرو سكوب) مهما تحرك يعود دومًا ليأخذ وضع التوازن. »

وتوقف (ونستون) فقط ليستوعب حقيقة أنه يقرأ وحده.. بلا تليسكرين ولا من يتنصت عليه من ثقب الباب. هواء الصيف يداعب خديه.. من بعيد يسمع صياح الأطفال في لعبهم، إنها نعمة.. إنه الخلود..
وكشخص يعرف أنه سيقرأ الكتاب مرة ومرة، فتحه في موضع مختلف.. وجد نفسه عند الفصل الثانى وبدأ يقرأ:

الفصل الثاني
الحرب هي السلام

كان انقسام العالم إلى ثلاث دول عظمي، أمرًا يمكن التنبؤ به منذ منتصف القرن العشرين. خاصة مع امتصاص روسيا لأوروبا، وامتصاص الولايات المتحدة لبريطانيا.. هكذا ولدت قوة (إيورسيا) و(أوشيانيا).. وسرعان ما ولدت (إيستاسيا).. والحدود بين القوى الثلاث اعتباطية، وتتأرجح حسب ظروف الحروب. وهذه القوى في حرب دائمة منذ خمس وعشرين سنة.. وإن كانت تمارس فيها فظائع لا تختلف عن الحروب القديمة، لكن ينظر لهذه الأشياء على أنها طبيعية حين تصدر عن جانبك، بينما هي فظائع حين يمارسها الجانب الآخر.

والحرب في المجتمع المعاصر لا تعنى أكثر من نقص دائم في السلع الاستهلاكية، أو سقوط قنبلة صاروخية تسبب بعض الوفيات. إن الحروب المعاصرة لا تحسم شيئًا.. فلا يمكن قهر أي من القوى العظمى الثلاث حتى لو اجتمعت القوتان الأخريان عليها. (أيوراسيا) تحميها مساحاتها الشاسعة، و(أوشيانيا) يحميها المحيطان الأطلنطي والهادي، و(إيستاسيا) يحميها ازدهارها الصناعي. ثم إنه لا شيء يمكن أن تقاتل من أجله.. إن نظم الاقتصاد الجديدة التي تجعل الاستهلاك والإنتاج يحركان بعضهما، قد ألغت غليان الأسواق الذي كان السبب الرئيسي لانتهاء الحروب السابقة. وكل واحدة من القوى العظمى تملك من الموارد ما يغنيها عن طلب موارد خارج حدودها.. لقد صار هدف الحروب الحالي هو الوصول إلى وضع أفضل يتيح لك بدء حرب أخرى.
عامة العالم أكثر بدائية اليوم مما كان قبل عام 1919.. لقد تطورت بعض الأجهزة الخاصة بالحرب والشرطة والتجسس.. لكن البحث العلمي قد توقف تقريبًا.
كان من الواضح أن ازدياد الثروة هو الدمار ذاته بالنسبة لمجتمع طبقي Hierarchical Society.. ففي مجتمع يعمل فيه كل فرد عددًا محدودًا من الساعات، ويملك فيه كل فرد بيتًا بحمام وثلاجة وسيارة.. يخلق هذا مجتمعًا تتوزع فيه الثروة بعدل.. لكن القوة يجب أن تظل في أيدى نخبة محدودة مميزة من الأفراد. لكن عند التطبيق لا يمكن أن يبقى هذا المجتمع مستقرًا.. لأن الغالبية الفقيرة ستتعلم كيف تعبر عن نفسها.. هكذا نجد أن المجتمع الطبقي ممكن على أساس الجهل والفقر. لقد تمت تجربة هذا الحل في القرن العشرين في الأعوام ١٩٢٠ - ١٩٤٠.. تم وقف النمو الاقتصادي.. تركت الأراضي غير

مزروعة.. حرم كثيرون من العمل. والهدف تقليل الوضع الاقتصادي للأكثرية، لكن هذا بدوره أضعف القوى المسلحة، ولاقى اعتراضات كثيرة. كانت المشكلة هي كيف تبقى عجلة الصناعة دائرة دون أن تزيد من ثروة الناس. يجب إنتاج البضائع بكثرة، لكن يجب عدم توزيعها. لا يوجد حل عملى لهذا سوى الدخول في حروب مستمرة.
إن الحرب لا تعني بالضرورة خسارة الأرواح.. إن الغرض الأهم للحرب هو تدمير أو حرق أو تفتيت مواد يمكن في ظروف أخرى أن تزيد من رفاهية الفرد. عجلة الصناعة الحربية تدور لكنها لا تفيد أحدًا.. بل من المفيد كذلك أن تبقى حتى النخبة المميزة في وضع أقرب إلى العوز.. وبمقاييس بدايات القرن العشرين فإنه حتى دوائر الحزب الداخلية تعيش حياة شاقة.
الحرب تحقق التدمير المطلوب.. لكنها تحققه بشكل فلسفى مقبول.. من الممكن أن تحقق الغرض ذاته لو حفرت حفرًا ثم ردمتها، أو أنتجت بضائع وأحرقتها.. لكن هذا يحقق فقط الجانب الاقتصادي من المعادلة ولا يحقق الأساس المعنوي للمجتمع الطبقي..
وبالنسبة لدوائر الحزب الداخلية، فإن أفرادها قد يعرفون أن الحرب ظالمة، وقد يعرفون أنها خدعة. لكنهم في الآن نفسه يؤمنون بأنها مهمة، وأن (أوشيانيا) ستنتصر فيها يومًا.. هذه هي مزايا (التفكير المزدوج). يعتقدون أن الحرب ستحسم لصالح (أوشيانيا) يومًا عن طريق إنجاز غير متوقع أو اكتشاف سلاح جديد.
لهذا يظل البحث عن سلاح جديد هو نوع التفكير الابتكاري الخلاق الوحيد المسموح به.. وفي (اللغة الجديدة) لا توجد كلمة مثل (علم).. إن العالم يتراجع في كل ما هو مفيد خاصة

الفنون.. إن الأرض تحرث بالمحاريث التي تجرها الخيول بينما الكتب تكتبها الآلات.. إن الحزب لا يريد إلا شيئين: أن يكتسح الأرض كلها، وأن يلغى أية احتمالية للتفكير المستقل، لهذا أمام الحزب مشكلتان: معرفة ما يفكر فيه الناس، والقدرة على قتل مئات الملايين في ثوان دون إعطاء إنذار.

إن عالم اليوم هو مزيج من عالم نفسي ومحقق.. يدرس بدقة معنى تعبيرات الوجوه وطبقات الصوت والإشارات وأثر عقاقير الحقيقة والتعذيب. أو هو كيميائي أو فيزيائي لا يهتم إلا بطريقة سلب حياة الآخرين. إنهم في أحراش البرازيل وأماكن نائية أخرى يبحثون في القنابل النووية والأسلحة البيولوجية، واحتمالات أبعد مثل صنع عدسات تركز أشعة الشمس على بعد آلاف الكيلو مترات في الفضاء الخارجي، أو اختلاق موجات تصادم في باطن الأرض تولد الزلازل.. إن القوى العظمى كلها تملك القنابل الذرية وقد ألقيت الكثير منها، لكن ثمة اتفاق على عدم استخدامها لأن هذا معناه نهاية المجتمع الذي نعرفه، وتظل الحروب تتم بشكل تقليدي. وبرغم ما يقال فإن الحرب لم تبلغ قط مكانة الحروب القديمة حين كان الملايين يبادون، إن القوى الثلاث تعمل على استراتيجية واحدة تجمع بين القتال والمساومة والخيانة في الوقت المناسب، للحصول على قواعد تحاصر مدينة أو أخرى من مدن الخصوم. ثم توقع اتفاقية صداقة مع هذا الخصم وتترك الأعوام تمر حتى تنام الشكوك. ثم تطلق كل قنابلها الصاروخية على هذا الخصم مرة واحدة..

هذه الخطة بالطبع أحلام يقظة.. فلم يتم غزو أية أرض للعدو من قبل.

هنا تبرز حقيقة أخرى لم تقل علانية لكنها مفهومة، هي الحياة في الدول الثلاث المتناحرة متماثلة تمامًا.. في (أوشيانيا) الفلسفة

المسيطرة تدعى (إنجسوك Ingsoc)..
في أيوراسيا تدعى (البلشفية الجديدة).. وفي (إيستاسيا) تحمل اسمًا صينيًّا معناه (عبادة الموت).. وكل مواطن في (أوشيانيا) لا يعرف حرفًا عن فلسفات الدول الأخرى، لكنه يتعلم أن يزدريها باعتبارها أفكارًا بربرية.
لقد تغير مفهوم الحرب عن الماضي.. إن الحروب في الماضي كانت تنتهي دائمًا، وكانت تقود الشعوب إلى الحقيقة.. فمهما قال الحاكم إن (2 + 2 = 5) فإنك لا تستطيع تصميم طائرة أو بندقية ما لم تكن (2 + 2 = 4).. وكنت تحتاج إلى معرفة التاريخ أكثر وفهم كيف وصلت الأمور إلى هذا الوضع.. لكن منذ صارت الحرب مستمرة كفت عن أن تكون خطرة.. لا داعي لمعرفة الحقائق، ولا داعي للكفاءة حتى العسكرية منها. إن الحرب إذن مجرد ادعاء.. كقتال بين حيوانات مجترة قرونها في وضع لا يسمح لها بأن تتصادم أو تحدث ضررًا. لكن برغم أنها غير حقيقية فهي ذات معنى إنها تلتهم السلع وتنمى المناخ العقلي الذي يتطلبه المجتمع الطبقي.. هكذا كفت الحرب عن أن تحتفظ بمعناها القديم، وهذا هو ما يعنيه الحزب بمقولته: الحرب هي السلام.. »

وتوقف (ونستون)عن القراءة إذ سمع انفجار قنبلة صاروخية من بعيد.. لقد فتنه الكتاب برغم أنه لم يقل له شيئًا لم يكن يعرفه من قبل.. لكن هذا سره.. على الأقل هو قد كتب ما كان سيكتبه لو أنه استطاع أن ينظم الأفكار المحتشدة في ذهنه على شكل كلمات.. إن أفضل الكتب - كما فهم الأمر - هي التي تخبرك بأشياء تعرفها.. فقط هي تخرج من عقول أكثر ترتيبًا وطلاقة في التعبير.

هنا سمع صوت خطوات (جوليا) قادمة ولم يكن قد قابلها منذ أسبوع.. قال لها:
- « لقد حصلت على الكتاب؟ »
- « حقًّا؟ »
قالتها دون اهتمام..
فتح الفصل الأول وراح يواصل ما كان قد بدأه من قبل، ولكن بصوت مسموع هذه المرة:

» هناك ثلاث طرق يمكن بها لطبقة حاكمة أن تسقط.. إما أن تسقط من الخارج، أو تحكم حكمًا ظالمًا يجعل المجاميع تثور عليها، فتسمح لطبقة وسطى قوية أن تصل للحكم، أو هي تسقط لأنها فقدت الثقة بنفسها ولم تعد ترغب في الحكم. هذه العوامل لا تعمل منفصلة، والطبقة الحاكمة التي تسيطر عليها جميعًا تبقى في الحكم للأبد..
الخطر الأول لا وجود له لأن القوى الثلاث متساوية.. الخطر الثاني نظري، لأن المجاميع لا تثور من تلقاء نفسها مهما كانت مكبوتة.. لو لم تعطهم ما يقارنون به مستويات حياتهم فإنهم لن يعرفوا أبدًا أنهم مقموعون. هكذا يظل الخطر الأساسي هو ظهور طبقة وسطى متعطشة إلى السلطة.. بالتالي نستطيع فهم تركيب (أوشيانيا) الاجتماعي. على قمة الهرم يوجد (الأخ الأكبر) الذي لا يخطئ.. كل نجاح.. كل نصر علمى.. كل اكتشاف هو بفضله.. لم يره أحد قط.. إنه وجه لا أكثر.. إنه القناع الذي يبدو به الحزب بالنسبة للجماهير؛ لهذا لا يمكن أن يموت..
تحت الأخ الأكبر تجد دائرة الحزب الداخلية.. وتعداد أفرادها لا يتجاوز ٢ ٪ من تعداد (أوشيانيا).. بعد هذا تأتى الدائرة الخارجية التي - لو شبهنا الدائرة الداخلية بالعقل – تمثل

الأيدى.. ثم تأتى المجاميع الضخمة مما نصطلح على تسميته بـ (البروليتاريا)..
إنهم يشكلون 85 ٪ من التعداد، وهم الطبقة الدنيا في التركيب الاجتماعي..
لكن مكانتك في الحزب ليست وراثية.. وابن رجل الدائرة الداخلية قد يكون في أي موضع من التركيب الاجتماعي.. هناك في الدائرة الداخلية يهود وزنوج وهنود من أمريكا الجنوبية.. لا توجد مركزية.. لا عاصمة.. لا شيء يربط أعضاء الحزب إلا العقيدة. يتعلم أعضاء الحزب أنهم مراقبون في أية لحظة وأى مكان.. ويتعلمون أن ما يستحق العقاب ليس الجريمة بل التفكير فيها.. لا توجد جرائم في (أوشيانيا) وما تقوم به شرطة الأفكار هو معاقبة من يمكن أن يرتكبوا جرائم يومًا ما.. عليك أن تتحكم لا في أفكارك بل في غرائزك الفطرية أيضًا.. والأطفال يتلقون تعليمًا اسمه (وقف الجريمة) يجعلهم يكفون عن التفكير بمجرد أن تخطر لهم أفكار تسىء للحزب.. هذا نوع من الغباء الواقي.. لكن الغباء وحده لا يكفي.. هناك كلمة اسمها (أسوبيض).. وهو ككل كلمات اللغة الجديدة ذات معنيين.. مع المعارضين للحزب يكون معناها قدرتك على تحويل الأسود إلى أبيض لتزييف الحقائق.. ومع أعضاء الأحزاب معناها قبولك للاعتراف بأن الأسود أبيض، وإنك لم تعتقد قط بالعكس.. هذا هو التفكير المزدوج كما تسميه اللغة الجديدة، وكما كان يسمى في السابق (التحكم في الحقيقة)..
أن تذكر أكاذيب عامدة وفي الآن ذاته تؤمن بها..
فقط بالتفكير المزدوج استطاع الحزب أن يسيطر، وبه سوف يسيطر آلاف السنين القادمة. »

لم يكن قد عرف السر بعد.. لقد فهم (كيف) لكنه لم يفهم (لماذا).. فقط نظمت له الكلمات ما كان يعرفه بالفعل. على الأقل فهم أنه ليس مخبولًا.. كونك الوحيد لا يعني أنك مخبول.
وسأل (جوليا):
- « هل تذكرين الطائر الذي كان يغني لنا يوم لقائنا الأول؟ »
- « لم يكن يغنى لنا.. بل كان يغنى ليسعد نفسه.. ولا حتى هذا.. كان يغني فحسب.. »
الطيور تغنى.. البروليتاريا تغنى.. الحزب لا يغنى.. أنت الميت وهم الأحياء.. لكنك تستطيع أن تشارك البروليتاريا الغد لو أبقيت مخك حيًّا.. هم يبقون أجسادهم حية وأنت تبقى مخك..
قال لها:
- « نحن الموتى.. »
- « أنتما الميتان!! »
كان هذا هو الصوت المعدني الذي جاء من خلفهما..
وثبا متباعدين.. وشعر (ونستون) بأن أحشاءه تحولت إلى جليد.. كان يرى البياض حول حدقتي عين (جوليا) وقد استحال وجهها أبيض..
- « أنتما الميتان! »
شهقت (جوليا):
- « لقد جاء من وراء تلك الصورة.. »
وجاء الصوت المعدني:
- » ابقيا حيث أنتما ولا تتحركا ما لم تؤمرا بذلك.. »
لقد بدأ.. لقد بدأ أخيرًا! ليس بوسعهما عمل شيء إلا تبادل النظرات.. لم يجل بذهنيهما أن يفرا أو يغادرا المنزل قبل فوات الأوان.. دوى صوت كأنما قفل يزاح مع صوت زجاج يتهشم، وسقطت الصورة التي على الجدار لتظهر خلفها (تليسكرين).

- « قفا في وسط الغرفة.. ظهرًا لظهر.. ضعا الأيدى فوق الرأس.. لا يلمسن أحدكما الآخر.. »
كان بوسعه أن يمنع أسنانه من الاصطكاك لكن ركبتيه كانتا تتصرفان وحدهما..
جاء صوت أحذية، وبدا كأنما الفناء امتلأ بالرجال.. هناك ما يجرونه فوق الصخر..
قال (ونستون):
- « البيت محاصر.. »
قال الصوت:
- « البيت محاصر.. »
قالت (جوليا):
- « أعتقد أن علينا تبادل عبارات الوداع.. »
قال الصوت:
- » عليكما تبادل عبارات الوداع.. »
هنا جاء صوت شيء يتهشم خلف ظهر (ونستون).. لقد أُدخل طرف سلم من النافذة.. كان هناك من يتسلق داخلًا الغرفة، ودوى صوت أحذية تصعد في الدرج. امتلأت الغرفة برجال صلبي المراس في ثياب سوداء وأحذية ذات نعال معدنية.. وهراوات في أيديهم..
وقرر (ونستون) ألا يتحرك فلا يعطيهم الفرصة ليبدءوا ضربه.. لكنه تلقى ركلة في كاحله كادت تسقطه أرضًا.. أحد الرجال لكم (جوليا) في فم معدتها فسقطت على الأرض تكافح طلبًا للهواء.. لم يجسر (ونستون) على النظر للوراء، لكنه كان يرى بشكل ما وجهها الأحمر في مجال نظره. وشعر بأنه يتألم مثلها تمامًا.. تفوق الألم الرغبة العاجلة في التنفس من جديد..

ثم إن رجلين حملاها من ركبتيها وكتفيها خارج الغرفة كأنها كيس.. رأى (ونستون) وجهها المقلوب وأحمر الخدين ما زال على وجنتيها.. وكانت هذه آخر مرة يراها فيها..
وقف ينتظر.. فلم يضربه أحد بعد.. أفكار غريبة كانت تضطرب في ذهنه.. مثل ماذا حدث للمستر (تشارنجتون)؟ إنه يريد التبول.. هذا غريب.. لقد فعلها مرة واحدة منذ ثلاث ساعات.
ثمة خطوة أخف على الدرج.. ودخل مستر (تشارنجتون) الغرفة..
فجأة تغير سلوك الرجل.. لقد أشار إلى الأرض إلى قطع زجاج مهشمة وقال لأحد الرجال:
- » اجمع هذه الشظايا الآن. »
فانحنى رجل مطيعًا الأمر. لقد تلاشت لهجة الكوكني Cockney العامية من كلام (تشارنجتون).. هنا تذكر (ونستون) أنه سمع هذا الصوت بالذات منذ دقائق على التليسكرين. كان الرجل يلبس ثيابه ذاتها لكن شعره الأشيب صار أبيض. كما أنه لم يكن يلبس عويناته. لم يعد ذات الشخص.. لقد استقامت قامته فبدا أضخم.. حاجباه صارا أقل كثافة والتجاعيد تلاشت. حتى الأنف صار أقصر. صار وجهه وجه رجل يقظ في الخامسة والثلاثين.
وللمرة الأولى أدرك (ونستون) أنه ينظر إلى واحد من (شرطة الأفكار).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

لم يدر أين هو.. محتمل أنه في وزارة الحب لكن لا سبيل للاستيثاق. كان في زنزانة عالية السقف بلا نوافذ. مصابيح مخفية تغرقها في ضوء بارد. وصوت همهمة يبدو أن لها علاقة بتهوية الهواء. هناك دكة يمكن الجلوس عليها، تدور على محيط الغرفة، وفي الركن مرحاض دون قاعدة خشبية، وحوله أربع شاشات تليسكرين.

في بطنه جوع أليم مؤذ، فقد مرت عليه نحو أربع وعشرين ساعة دون لقمة واحدة، وهو لا يعرف إن كان الوقت ليلًا أم نهارًا. جلس ساكنًا وكان قد تعلم كيف يجيد ذلك، لأنك لو تحركت لصرخوا فيك عبر التليسكرين. كان جائعًا بشدة، وتذكر أن جيب الأوفرول الذي يلبسه ربما يحوى بعض قطع الخبز.. كان متأكدًا من هذا، لذا مد يده في حذر إلى هناك.

صاح صوت من التليسكرين:

- « ٦٠٧٩.. (سميث و.)!.. أخرج يدك من جيبك في الزنزانة! »

عاد ليجلس ساكنًا..

قبل أن يحضروه هنا، وضعوه في مكان لا بد أنه سجن عادي.. كان في زنزانة قذرة بها نحو خمسة عشر رجلًا، لا بد أنهم من المجرمين العاديين، لكن بعضهم كانوا مساجين سياسيين. وقد لاحظ الفارق الكبير بين سجناء الحزب والآخرين.. سجناء الحزب كانوا صموتين خائفين، لكن المجرمين العاديين لم يعبئوا بأحد. كانوا يسبون الحراس ويقاتلون من أجل ممتلكاتهم، ويكتبون بذاءات على الأرض، ويأكلون طعامًا مهربًا أخفوه في أماكن خفية من ثيابهم.

من ناحية أخرى كان بعضهم على علاقة طيبة بالحراس، وينادونهم بأسماء تدليل، ويعطونهم لفافات التبغ عبر فتحة الباب. إن هذه السجون تمنح أفضل وضع للمجرمين العاديين وخاصة رجال العصابات والقتلة. هؤلاء كانوا يشكلون الطبقة الأرستقراطية في السجن. أما الأعمال القذرة فيقوم بها السجناء السياسيون.

وطيلة الوقت كان هناك طوفان لا ينتهي من المجرمين الجدد: مهربي مخدرات.. تجار سوق سوداء.. لصوص.. وكان هؤلاء جميعًا يتجاهلون السجناء السياسيين تمامًا.. كانوا يطلقون عليهم (سياسة) في نوع من الاحتقار اللا مبالي.

كان السياسيون يخشون الكلام مع أحد، وخاصة بين بعضهم.. إلا أنه ذات مرة سمع امرأتين تجلسان متلاصقتين وتتكلمان عن شيء يدعى الغرفة (واحد.. صفر.. واحد).. ولم يفهم معنى هذا..

الآن هو هنا منذ ساعتين، والجوع يشتد به.. فإذا ازداد جدًّا لم يعد يفكر إلا في الطعام، فإذا قل الألم راح يفكر في الرعب. كان يرى بوضوح تام ما سيحدث له.. يشعر بالأحذية ذات الكعوب الحديدية تهشم وجهه.. وهو يزحف على الأرض طالبًا الرحمة.

لم يفكر قط في (جوليا).. كان يفكر في (أوبرايان).. إن الأخوة لا تحاول أبدًا إنقاذ رجالها، لكن هناك الأمل في أن يرسلوا له موسى.. سيتم الأمر خلال خمس ثوان قبل قدوم الحارس. لكنه كان يعرف أنه لن يستعملها لو أتيحت له.. الطبيعي أكثر أن تعيش حياتك عشر دقائق بعشر.. حتى لو كان التعذيب هو النهاية المحتومة..

راح يتساءل عن الوقت الآن.. في دقيقة معينة يعتقد أن الشمس ساطعة بالخارج، وفي دقيقة أخرى يشعر بأن الظلام دامس.

هذا هو المكان الذي لا تطفأ فيه الأضواء.. » المكان الذي لا ظلام فيه» كما قال (أوبرايان)..
في وزارة الحب لا توجد نوافذ.. قد تكون زنزانته مركز المبنى وقد تكون على أطرافها.. قد تكون على عمق ثلاثين طابقًا تحت الأرض أو ثلاثين فوقها.
سمع صوت حذاء ثقيل يمشى بالخارج. انفتح الباب المعدنى محدثًا صوتًا (كلانج). وظهر ضابط شاب في ملابس غير رسمية، بدا كأنه يتألق بالكامل من كثرة الجلد اللامع الذي يرتديه. ووجهه عديم التعبير يبدو كقناع شمعى..
دخل من الباب وأشار للحراس كي يجلبوا السجين الذي معهم..
فمشى الشاعر (امبلفورث) إلى داخل الزنزانة متثاقلًا.. وانغلق الباب..
راح الشاعر يذرع الزنزانة جيئة وذهابًا ولم يلحظ (ونستون) بعد.. كانت عيناه ترمقان السقف على ارتفاع متر من رأس (ونستون).. أصابع قدميه القذرة الضخمة تطل من فتحات جوربيه.. كما أنه لم يحلق ذقنه منذ أيام عدة..
قرر (ونستون) أن يجازف ويكلم (أمبلفورث).. ربما يكون هو الرجل الذي يحمل له الموسى.. سيجازف برغم ما ستحتج به التليسكرين.. قال له:
- » (أمبلفورث).. »
نظر له الرجل هنيهة، ثم قال:
- « آه.. (سميث). أنت أيضًا؟ »
- « لِمَ أنت هنا؟ »
جلس على الدكة مرتبكًا وقال:
- « للحقيقة.. ليست هناك سوى تهمة واحدة.. أليس كذلك؟ »

- » وأنت ارتكبتها؟ «
- « يبدو ذلك؟ »
وضغط بكفيه على صدغيه كأنما يحاول تذكر شيء ما وأردف:
- « هذه الأمور تحدث.. أتذكر حادثة واحدة، حادثة محتملة.. كنا نغير قصائد (كبلينج Kipling).. فتركت لفظة God في نهاية بيت شعر.. كانت قافية الأبيات هي Rod فلم أستطع التغيير.. هل تعرف أنه ليس هناك إلا اثنتا عشرة كلمة بهذه القافية في الإنجليزية كلها؟ هل تتصور أن تاريخ الشعر الإنجليزي حدده افتقار اللغة الإنجليزية للقوافي؟ »
لم يعرف (ونستون) هذه المعلومة.. ولم تبد له مهمة.. لذا سأل الرجل:
- « هل تعرف كم الساعة الآن؟ »
بدت الدهشة على (أمبلفورث)، وقال:
- « لم أفكر في هذا.. لقد قبضوا عليّ.. ربما منذ يومين أو ثلاثة.. لا أرى فارقًا بين النهار والمساء في هذا المكان.. لا أعرف كيف يمكنك معرفة الوقت؟ »
هنا دوت صرخة من التليسكرين تطلب منهما الصمت..
عادا يجلسان.. وكان حجم الشاعر الكبير مما يعوقه عن الجلوس على الدكة مستريحًا، ومن الخارج جاء صوت قدمين تذرعان الممر.. فتقلصت أحشاء (ونستون).. حالًا تتوقف الخطوات ومعنى هذا أن يأتي دوره..
دخل الضابط الشاب، وبإشارة من يده إلى (أمبلفورث) قال:
- » غرفة 101.. «
نهض الشاعر ليمشى في خرق بين الحراس.. بوجه مشوش حائر..

مر ما بدا له كدهر.. وازداد الألم في معدة (ونستون).. كانت تتنازعه خواطر ست.. ألم معدته.. قطعة خبز.. الدم والصراخ.. (أوبرايان).. (جوليا)، حد الموسى.
انفتح الباب من جديد فدخل هواء يحمل رائحة العرق البارد.. كان القادم هو (بارسونز) جاره يلبس ثيابًا خاكية وسروالًا قصيرًا، أصاب الذهول (ونستون) لدرجة أنه نسى نفسه:
- » أنت هنا؟ »
نظر له (بارسونز) نظرة خالية من الدهشة أو الذهول.. فقط التعاسة.. بدأ يجوب المكان عاجزًا عن البقاء ساكنًا كما هو واضح. في عينيه نظرة محملقة كأنما لا يستطيع كف نفسه عن النظر إلى شيء على مسافة قصية.
قال (ونستون):
- « ماذا تفعل هنا؟ »
- « جريمة تفكير ! »
قالها (بارسونز) وفي صوته قبول تام لجرمه.. ورعب مضحك من أن كلمة كهذه تنطبق عليه، وبدأ يلح على (ونستون):
- « أنت لا تعتقد أنهم سيطلقون الرصاص على يا فتى؟ لن يقتلوك وأنت تقترف شيئًا.. مجرد أفكار؟ أعرف أنهم يصغون لك جيدًا.. أنا أثق بهم في هذا.. ستعرفون تاريخي.. لم أكن شابًا سيئًا على طريقتي.. لست ذكيًا لكني مخلص.. فعلت ما بوسعى من أجل الحزب.. سأخرج من السجن بعد خمسة أعوام.. شاب مثلي سيكون مفيدًا في معسكر العمل.. لن يقتلوني لخروجي مرة عن النهج.. »
سأله (ونستون):
- « هل أنت مذنب فعلًا؟ »

- « بالطبع مذنب! لا تحسب أن الحزب يمكن أن يعتقل رجلًا بريئًا. إن جريمة التفكير خطرة يا رجل.. يمكنها أن تستولي عليك وأنت لا تعرف.. هل تعرف كيف أصابتني؟ وأنا نائم! كنت أعمل ولم أكن أعرف بالأشياء السيئة في ذهني طيلة الوقت.. هكذا بدأت أتكلم في أثناء النوم.. هل تعرف ما كنت أقول؟ »
وانخفض صوته كأنما هو شخص مضطر للاعتراف بأمر مشين للطبيب:
- » ليسقط الأخ الأكبر.. نعم قلتها مرارًا.. تصور هذا! وبيني وبينك أنا سعيد لأنهم قبضوا على قبل أن تسوء الأمور.. هل تعرف ما سأقول لهم؟ سأقول: أشكركم على إنقاذي قبل فوات الأوان.. »
- « ومن كشف أمرك؟ »
- « ابنتي الصغرى.. » - قالها بنوع من الفخر الحزين - « كانت تتنصت عليّ من ثقب الباب.. وأبلغت الشرطة في اليوم التالي.. ذكاء جمّ من ابنة السابعة، وأنا لا أحقد عليها.. هذا يعني أنها ربيت جيدًا.. »
وراح ينظر إلى المرحاض، ثم إنه فتح سرواله:
- « سامحنى يا زميل.. فقط لا أستطيع الانتظار.. »
وجلس على المرحاض بينما غطى (ونستون)وجهه، بينما استعمل هذا الأول المرحاض بوفرة وتحرر تامين.. واتضح بعد هذا أن السيفون لا يعمل.. هكذا ظلت رائحة الزنزانة لا تطاق لساعات طوال.
تم إخلاء (بارسونز) فيما بعد.. جاء مساجين كثيرون.. ورحلوا. الآن صار معه ستة أشخاص رجالًا ونساء.. أمامه جلس رجل بلا ذقن كأحد القوارض، وقد راحت عيناه تفحصان الموجودين ذات اليمين واليسار، ثم تتواريان إذا قابلتا عينًا أخرى.

دخل رجل آخر أثار مرآه الرعب لدى (ونستون)، فوجهه هزيل كالجمجمة.. وهكذا بدت العينان والفم كبيرتي الحجم فيهما مقت قاتل لشخص ما أو شيء ما.. جلس الرجل على الدكة فلم ينظر إليه (ونستون) ثانية، لكن وجه الرجل ظل ماثلًا أمامه طيلة الوقت. وهنا أدرك الحقيقة التي فهمها كل واحد في الزنزانة: إن الرجل يموت من الجوع، نهض الرجل الذي لا ذقن له، واتجه إلى ركن الزنزانة وراح يعبث في جيبه، ثم أخرج قطعة من الخبز وقدمها للرجل ذي وجه الجمجمة.

جاء صوت يصم الآذان من التليسكرين، وسرعان ما تراجع الرجل، ووضع الرجل ذو رأس الجمجمة يديه وراء ظهره، كأنما يظهر بوضوح أنه رفض الهدية.

- « (بومشتيد)!! رقم 13/27! ألق بقطعة الخبز هذه!! »

القى الرجل الذي لا ذقن له بالخبز على الأرض انفتح الباب ودخل الضابط الشاب، وخلفه ظهر حارس قصير القامة له ذراعان وكتفان هائلان.. وقف أمام الرجل عديم الذقن، ثم بإشارة من الضابط وجه لكمة شنيعة للرجل في فمه، طار الرجل ليستقر فوق المرحاض والدم ينزف من فمه، نهض متحاملًا على نفسه فسقطت أسنانه، وجلس وسط الرجال الآخرين وقد بدا عليه الذنب أكثر مما كان.. وراح يحيل عينيه من حوله كأنما يرى إلى أي مدى احتقره الناس بعد هذا الضرب المهين.

انفتح الباب وقال الحارس للرجل ذي وجه الجمجمة:

- « غرفة 101.. »

تعالت شهقات، وكان الرجل بالفعل قد نهض وهتف:

- « أيها الرفيق! أيها الضابط! لا يجب عليك أن تأخذني هناك.. ألم أقل كل شيء بعد؟ ماذا تريدون معرفته غير هذا؟ قولوا لي

ما تريدون أن أعترف به وسأعترف.. سأوقع على ما تريدون! لكن ليست غرفة 101! »
- » غرفة 101.. »
استحال وجه الرجل لونًا لم يحسبه (ونستون) ممكنًا من قبل.. إنه الأخضر بالفعل..
- « ليس هناك من شيء لن أفعله.. سأسلم لكم أي شخص تريدون.. إن لدى زوجتي وثلاث بنات أكبرهن في السادسة من العمر.. خذوهن واقتلوهن أمامي لو أردتم.. لكن ليس الغرفة 101!! »
ثم نظر حوله وأشار إلى الرجل الذي لا ذقن له وصاح:
- « هذا هو من تريدون! إنه عدو الحزب الحقيقي.. أنتم لم تسمعوا ما قال حين هشمتم وجهه.. لقد تعطلت التليسكرين وقتها، لكنه شتم الحزب! »
كف الحارسان عن الإمساك به فجرى عبر الغرفة ليمسك بإحدى القوائم المعدنية للدكة، تشبث بها وراح يعوى كحيوان، جره الحراس، لكنه تشبث بقوة مخيفة، ولمدة عشرين ثانية ظلا يجذبانه..
فجأة توقف العواء، إذ لم يعد لدى الرجل من النفس ما يكفى إلا للتشبث.. هنا هشم حذاء الحارس أصابعه وجروه ليقف على قدميه.
- « غرفة 101.. »
وتم إخراج الرجل وهو يمشي دون اتزان وقد عاص رأسه.. وخرج كل القتال معه.
ومر وقت طويل.. لو كانوا أخذوا الرجل ذا رأس الجمجمة في منتصف الليل فهذا هو الصباح.. ولو كان الوقت صباحًا فهذا هو العصر وكانت قطعة الخبز على الأرض حيث هي وقد احتاج

لقوة إرادة كي لا ينظر لها، لكن الآن تغلب الظمأ علّى الجوع، إن فمه جاف كريه الرائحة..
راح ينهض ويجلس لأن ألم الجلوس الطويل كان لا يطاق.. وراح يفكر في (أوبرايان) حالمًا بالموسى الحادة.. وأحيانًا كان يفكر في (جوليا).. هي في مكان ما تعاني ربما أكثر منه.. ربما تصرخ ألمًا الآن.
وقال لنفسه: لو استطعت أن أنقذها بأن يضاعفوا تعذيبي، فهل أقبل؟ نعم أقبل.
كانت الأحذية تقترب الآن.. انفتح الباب ودخل (أوبرايان)..
نظر (ونستون)إلى قدميه.. إن صدمة المفاجأة أذهبت عنه كل حذر.. ولأول مرة منذ أعوام نسي التيلسكرين.
- « هل ظفروا بك أيضًا؟ »
قال (أوبرايان) في تهكم شبه نادم:
- « لقد ظفروا بي منذ زمن بعيد.. »
ومن خلفه ظهر حارس عريض الصدر يحمل هراوة سوداء طويلة في يده.
- « أنت تعرف يا (ونستون) فلا تخدع نفسك.. من زمن بعيد أنت تعرف.. »
نعم.. لقد رأى ذلك.. كان يعرف من البداية.. لكنه لم يكن يملك وقتًا للتفكير.. كل ما كان يفكر فيه هو الهراوة في يد الحارس، والتي قد تهوى في أي مكان.. على حلمة أذنه.. أعلى ذراعه.. كوعه..
كوعه! وهوى على الأرض وقد شله الألم، يمسك بكوعه المضروب..
كل شيء صار لونه أصفر ساطعًا.. من غير المفهوم أن ضربة واحدة تحدث كل هذا الألم! راح الضوء الساطع فاستطاع أن

يرى الاثنين.. من المستحيل أبدًا أن تتحمل زيادة الألم.. شيء واحد فقط تتمناه مع الألم. أن يتوقف.. في وجه الألم لا يوجد أبطال.. لا أبطال.. لا أبطال..

فكر في هذا وهو يتلوى على الأرض ممسكًا بذراعه اليسرى التي صارت عديمة النفع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

كان يرقد على شيء كأنه فراش معسكر.. فيما عدا أنه كان عاليًا عن الأرض ومثبتًا لها بحيث لا يمكن تحريكه..
كان ضوء أقوى من المعتاد يهبط على وجهه.. وكان (أوبرايان) يقف إلى جانبه ينظر له باهتمام.. وفي الناحية الأخرى كان رجل يلبس معطفًا أبيض ويحمل محقنًا للحقن تحت الجلد..
كم من الوقت بقى هنا؟ لا يعرف.. منذ قبضوا عليه لم ير ضوء النهار ولا الظلام..
منذ تلقى أول ضربة على كوعه بدأ الكابوس.. فيما بعد فهم أن هذا لم يكن إلا استجوابًا مبدئيًّا وروتينيًّا يتعرض له كل سجين.. وكان الاعتراف في النهاية شكليًّا، لكن التعذيب كان حقيقيًّا.. كم مرة ضرب فيها، وكم من الوقت طال الضرب؟ لا يستطيع أن يتذكر.. كان هنالك دومًا خمسة أو ستة رجال يضربونه.. بالقبضات أحيانًا.. بالهراوات أحيانًا.. بالعصى أو بالأحذية.
أحيانًا كان الضرب يستمر حتى يشعر بأن الشيء القاسي المريع ليس الحراس، ولكنه عجز عن أن يفقد وعيه.. أحيانًا كانت أعصابه تخونه فيصرخ قبل الضرب طالبًا الرحمة.. أحيانًا يعترف بلا تحفظ بأي شيء، وأحيانًا يقول لنفسه: سأصمت حتى يصير الألم لا يطاق.. ربما بعد ركلتين وضربة بالهراوة أتكلم.. لكن ليس الآن..
كانت هناك فترات للإفاقة لا يذكرها جيدًا لأنها كانت تضيع بين النوم والغيبوبة. يذكر وجبات من الحساء الساخن والخبز وربما القهوة.. يذكر رجالًا جادين غير متعاطفين في معاطف بيضاء يقيسون نبضه ويمررون أصابعهم على جسده للتأكد من عدم وجود كسور، ثم يحقنونه بمنوم..

بدأت فترات الضرب تقل.. ولم يعد مستجوبوه رجالًا في ثياب سوداء، لكنهم صاروا أعضاء في الحزب.. رجالًا قصار القامة سريعي الحركات لامعي العوينات. وكانوا لا يعذبونه تعذيبًا عنيفًا فيما عدا شد شعره أو صفعه أو منعه من التبول والهدف كان تحطيم قدرته على الجدل.. لكن التعذيب الحقيقي كان أسئلتهم السريعة المتلاحقة التي يكررونها طيلة الوقت، لحصاره وإرباكه.. وفي كل مرة يظهرون كذبه ومناقضة نفسه حتى لينفجر في البكاء من فرط الإرهاق العصبي..

لقد نجحت هذه الاستجوابات في هزيمته كما لم تستطع الهراوات والأحذية، وفي النهاية تحول إلى فم يتكلم ويد توقع.. كان يهمه أولًا أن يعرف ما يريدون الاعتراف به قبل أن يعترف..

اعترف باغتيال أعضاء مهمين في الحزب، واختلاس أموال عامة، وتوزيع منشورات تحريضية، وسرقة اسرار عسكرية.. اعترف بأنه منحرف ومعجب بالرأسمالية.. اعترف بأنه قتل زوجته برغم أنه وهم يعرفون أنها حية.. اعترف بأنه عضو في تنظيم تحت الأرض يضم كل شخص حي يعرفه..

طيلة الاستجواب - برغم أنه لم يره - كان يشعر بأن (أوبرايان) بقربه.. كان (أوبرايان) هو من يدير كل شيء.. هو الذي أطلق الحراس على (ونستون) وهو من منعهم من قتله.. هو من يسأل الأسئلة ويقترح الإجابات..

كان هو المعذب والمحقق والمحامي.. كان هو صديقه.. ولا يعرف (ونستون) إن كان هذا بفعل المخدر أم انه فعلًا سمع (أوبرايان) يقول له:

- « لا تقلق يا (ونستون).. أنت تحت حمايتي.. لسبعة أعوام أراقبك، والآن جاء دوري لأنقذك.. سأجعلك كاملًا.. »

لا يعرف إن كان هو أم لا.. لكن الصوت صوته.. نفس الصوت الذي قال: « سوف نلتقى حيث لا يوجد ظلام »..
كان يرقد مثبتًا بإحكام بينما (أوبرايان) ينظر له في نوع من الأسى.. كان وجهه مليئًا بالتجاعيد، وخطر له أن الرجل أسن مما قدر من قبل.. لا بد أنه في الخمسين.. وكان يمسك في يده بقرص لتشغيل الكهرباء..
قال (أوبرايان):
- « قلت لك إنه لو التقينا ثانية فلسوف يكون ذلك هنا.. »
- « نعم.. »
وبدون إنذار وبمجرد حركة بسيطة من يد (أوبرايان)، سرت موجة ألم في جسده.. كان ألمًا مفزعـًا لأنه لم يفهم ما هنالك.. لم يعرف إن كان هذا حقيقيًّا أم أن الكهرباء جعلته يشعر بذلك.. لكن جسده كان يتشوه.. مفاصله تتمزق ببطء..
برغم أن الألم كان عاتيًا، فإن الأسوأ هو شعوره بأن عموده الفقرى سينكسر.. ضغط على أسنانه محاولًا أن يصمت..
قال (أوبرايان):
- « أنت خائف من حركة أخرى قد تحطم شيئًا.. لديك صورة حية تمثل عمودًا فقريًّا مهشمًا والسائل ينز منه.. أليس كذلك يا (ونستون)؟ »
لم يجب (ونستون).. هنا حرك (أوبرايان) القرص فزالت موجة الألم كما بدأت..
- « كان هذا أربعين.. يمكنك أن ترى أن الأرقام تتدرج حتى مائة.. هل لك أن تتذكر أنني أستطيع في أية لحظة أن أؤلمك ولأية درجة أريد؟ لو قلت لي أكاذيب أو أبديت ذكاء أقل فلسوف تصرخ ألمًا.. هل تفهم هذا؟ »
- « نعم.. »

كان (أوبرايان) يتكلم بأسلوب يجمع بين أسلوب المعلم والطبيب وحتى الكاهن.. كأنه يرغب في الشرح أكثر مما يرغب في العقاب...
- « أنا أتعب نفسي معك يا (أوبرايان) لكنك تستحق.. مشكلتك أن ذاكرتك مختلة، وأنك تتصور حدوث أمور لم تحدث قط.. لكن من حسن الحظ أنك قابل للشفاء.. أعرف حتى الآن.. أنك تتمسك بمرضك كأنه فضيلة.. دعنا نأخذ مثالًا.. مثلًا ما القوة التي تحاربها (أوشيانيا) الآن؟ »
- » حين قبض عليّ كانت (أوشيانيا) تحارب (إيستاسيا) »
- « نعم.. جميل.. و(أوشيانيا) تحارب (إيستاسيا) دومًا.. أليس كذلك؟»
فتح (ونستون) فاه ليتكلم ثم آثر الصمت.. وأبقى عينيه على القرص..
- « أذكر أنه قبل القبض عليّ بأسبوع كانت الحرب مع (أيوراسيا).. وقد استمرت أربع سنوات.. »
فأوقفه (أوبرايان) بيده وقال:
- « مثال آخر.. منذ أعوام كنت تخرف.. اعتقدت أن ثلاثة أعضاء من الحزب هم (جونز) و(آرونسون) و(رذرفورد) الذين أعدموا بسبب الخيانة والتخريب.. اعتقدت أنهم غير مذنبين لأنك رأيت وثيقة تؤكد بلا شك أن اعترافاتهم كانت مزيفة.. ثمة صورة كنت تهلوس بسببها.. كانت صورة مثل هذه.. »
وظهر مستطيل مقطوع من صحيفة بين يدى (أوبرايان).. كانت صورة فوتوغرافية بلا شك.. صورة فوتوغرافية كالتى وضع يده عليها ثم دمرها.. للحظة كانت أمام عينيه ثم توارت.. لكنه رآها! رآها.. نسى كل شيء ولم يعد يفكر إلا في انتزاع الصورة..
- » إنها موجودة! »

قال (أوبرايان):
- « لا.. »
واتجه إلى ركن الغرفة ليلقيها في فتحة مهملات، فتلاشت في وهج اللهب..
- « إنها رماد.. ليست حتى رمادًا.. إنها غبار.. لم توجد قط.. »
- « لكنها موجودة في ذاكرتنا.. أنت تتذكرها! أنا أتذكرها! »
هذا هو التفكير المزدوج.. لو كان لديه أمل في أن (أوبرايان) يكذب لتحمل الأمر، لكنه كان متأكدًا من أن (أوبرايان) نسى الصورة فعلًا.. بل ونسى دعوته لنسيانها.. بل ونسى النسيان ذاته..
نظر له (أوبرايان) وقد بدا عليه سمت المدرس الذي يلاقى الأمرين مع تلميذ عنيد لكنه واعد..
- « ثمة مقولة للحزب تتحدث عن الماضي.. قلها من فضلك.. »
- « من يتحكم في الماضي يتحكم في المستقبل، ومن يتحكم في الحاضر يتحكم في الماضي.. »
كرر (أوبرايان) الكلمات:
- « من يتحكم في الماضي يتحكم في المستقبل.. هل هذا رأيك يا (ونستون)؟ هل الماضي موجود فعلًا؟ »
لم يكن (ونستون) يعرف أية إجابة يمكن أن تحميه من الألم (نعم) أم (لا)؟ بل إنه هو نفسه لم يكن يعرف ماذا يعتقد..
ابتسم (أوبرايان) وقال:
- « أنت لست خبيرًا في الميتافيزيقا يا (ونستون).. حتى هذه اللحظة لم تفهم ما المقصود بالوجود.. سأكون أكثر دقة.. هل الماضي موجود بشكل ثابت في الفضاء؟ هل هناك مكان أو عالم من الأشياء المادية، حيث ما زال الماضي يحدث؟ »

- « لا.. »
- « إذن أين يوجد الماضي؟ »
- » في السجلات.. إنه مكتوب.. »
- « في السجلات و......؟ »
- « في العقل.. في ذاكرة البشر.. »
- « في الذاكرة.. جيد جدًّا.. نحن - الحزب - نتحكم في كل السجلات وكل الذكريات.. إذن نحن نتحكم في الماضي.. ألسنا كذلك؟ »
صاح (ونستون) ناسيًّا قرص التحكم:
- « لكن كيف تمنعون الناس من تذكر أشياء؟ هذا غير إرادي.. إنه خارج نفسك.. كيف تسيطرون على الذاكرة؟ أنتم لم تسيطروا على ذاكرتي أنا! »
من جديد عادت الصرامة إلى (أوبرايان) ووضع يده على قرص التحكم.
- « على العكس.. أنت لم تتحكم فيه، لهذا جئت هنا.. أنت هنا لأنك فشلت في التواضع.. في ضبط النفس.. لم تقدم الخضوع الذي هو ثمن العقل.. فضلت أن تكون مخبولًا.. فقط العقل الملتزم يرى الحقيقة.. أنت تعتقد أن الحقيقة شيء موضوعى خارجى ذاتي الوجود.. وتعتقد أن الدليل على الحقيقة يشرح نفسه بنفسه.. وحين تضلل نفسك حاسبًا أنك ترى شيئًا ما فإنك تفترض أن الجميع يراه مثلك.. لكن دعني أخبرك أن الحقيقة ليست من الخارج، بل هي موجودة في عقل كل إنسان.. موجودة فقط في عقل الحزب الذي هو جمعي وخالد.. ما يعتقد الحزب أنه حقيقى هو حقيقي.. مستحيل أن ترى الحقيقة إلا إذا نظرت من خلال عينى الحزب.. عليك أن تتواضع بنفسك قبل أن تتمتع بالعقل.. »

وصمت للحظات كأنما يترك لكلماته أن تحدث تأثيرها..
- « هل تذكر ما كتبت في مذكراتك؟ الحرية هي حرية أن تعلن اثنين واثنين يساويان أربعًا؟ »
- « نعم.. »
أخفى (أوبريان)إبهامه وفرد يده في وجه (ونستون) وقال:
- « كم إصبعًا ترى؟ »
- « أرى أربعة أصابع.. »
- « ولو قال الحزب إنها خمسة أصابع.. فكم عددها؟ »
- « أربعة.. »
وانتهت كلماته بشهقة ألم.. لقد صار مقياس القرص 55.. غمر العرق جسده، وأطلق شهقة ألم عجز معها عن التنفس..
- » كم عددها؟ »
- « أربعة.. »
الآن ارتفع المؤشر إلى 60..
لا بد أن الإبرة ارتفعت أكثر لكنه لم ينظر لها.. ظلت الأصابع أمام عينيه.. مهتزة.. مضطربة.. لكنها بالتأكيد أربعة.
- « كم عددها يا (ونستون)؟ »
- » خمسة!! خمسة.. خمسة!! »
!! »
- » لا يا (ونستون).. أنت تكذب.. ما زلت تعتقد أنها أربعة.. كم إصبعًا؟ »
- « أربعة.. أربعة.. أي شيء تريد.. فقط أوقف الألم.. »
فجأة وجد نفسه جالسًا وذراع (أوبرايان)على كتفه.. كانت قيوده قد ارتخت قليلًا.. كان يرتجف والدمع ينساب من عينيه.. فلابد أنه فقد الوعى قليلًا..
برقة قال (أوبرايان):

- « أنت بطيء التعلم يا (ونستون).. »
- « لا حيلة لي في ذلك.. كيف أمنع ما تراه عيناي؟ »
- « أحيانًا تكون خمسة.. أحيانًا ثلاثة.. أحيانًا كلها مرة واحدة.. من الصعب أن تحتفظ بعقلك.. »
وأشار إلى الرجل ذي المعطف الأبيض الذي ظل بلا حركة طيلة الوقت، فتفحص هذا حدقتي (ونستون) ونبضه وأصغى إلى صدره.. ثم هز رأسه.. فقال (ونستون):
- » من جديد! »
وسرى الألم من جديد في جسد (ونستون).. لا بد أن القرص مضبوط على 75 الآن.. لم يعد يلاحظ إن كان يصرخ أم لا.. وبدأ الألم يضمحل من جديد.. وفتح عينيه..
- « كم عددها يا (ونستون)؟ »
- « أربعة.. أعتقد أنني أرى أربعة.. أحاول أنا أراها خمسة.. »
- « ماذا تفضل؟ أن تقنعني بأنك ترى خمسة أم تراها فعلًا؟ »
- « أن أراها فعلًا.. »
- « مرة أخرى.. »
يبدو أن الإبرة صارت على 80.. أو 90.. وبين جفنيه المنهكين كان يرى يدًا تكبر.. تصغر.. ترقص.. تدور.. وأدرك أنه من الصعب أن يعدها.. لأنه من الصعب أن يعرف إن كانت خمسة أصابع أم أربعة..
- « كم إصبعًا ألوح بها يا (ونستون)؟ »
- « لا أعرف.. لا أعرف.. سوف أموت لو أنك فعلتها ثانية.. بكل أمانة لا أعرف.. »
- « هذا أفضل.. »
انغرست إبرة في ذراعه، وشعر بدفء مريح يغمر جسده.. لقد نسى نصف الألم.. نظر في امتنان إلى (أوبرايان).. لم يحبه قط

مثل تلك اللحظة.. ليس فقط لأنه أوقف الألم.. بل لأن الشعور القديم عاوده بأن (أوبرايان) يمكن الكلام معه.. لقد عذبه (أوبرايان) إلى ما يقرب الجنون، ومن المؤكد أنه سيرسله إلى الموت.. لا فارق.. لكنهما صديقان حميمان. بينهما حوار ما..
ونظر له (أوبرايان) في تعاطف، وقال:
- « هل تعرف أين أنت؟ »
- « لا أعرف.. ربما في وزارة الحب.. »
- » ولماذا تحسبنا نجلب الناس هنا؟ »
- » كى يعترفوا.. »
- « لا.. ليس هذا السبب.. حاول ثانية.. »
- » كى تعاقبوهم.. »
صاح (أوبرايان):
- « لا! ألم تفهم بعد؟؟ لقد أحضرناك هنا كي نشفيك.. كي نجعلك عاقلًا.. لا نعبأ بالجرائم السخيفة التي اقترفتها.. الحزب لا يعبأ بالأفعال الظاهرة.. الأفكار هي ما نبحث عنه.. نحن لا ندمر أعداءنا بل نغيرهم.. هل تفهم هذا؟ نحن لسنا محاكم تفتيش.. محاكم التفتيش في القرون الوسطى كانت تحاكم الإنسان بتهمة الإلحاد، لكنها في الحقيقة نشطته.. لأنه ما من أحد من الذين احرقتهم أبدى الندم على أفكاره.. »
» في القرن العشرين ظهر الشموليون مثل النازيين والسوفييت.. السوفييت حرصوا على أن يجردوا ضحاياهم من كل كرامة قبل إعدامهم حتى لا يعتبرهم أحد أبطالًا.. كانوا ينهكونهم بالتعذيب حتى يعترفوا بأي شيء يطلب منهم.. ويتوسلوا طلبًا للرحمة.. لكن بعد أعوام تكرر الشيء ذاته وتحول الموتى إلى أبطال.. لماذا؟ لأن كل واحد يستطيع أن يدرك أن الاعترافات التي قدموها تحت التعذيب لم تكن صحيحة.. نحن لا نكرر هذا

الخطأ.. كل اعتراف يقال هنا حقيقى.. نحن نجعله حقيقيًا.. أنت تتوقع أن الأجيال القادمة ستسمع عنك.. لا.. الأجيال القادمة لن تسمع حرفًا عنك؛ لأننا سنحولك إلى غاز ونلقى بك في الفضاء الخارجي.. ستُمحى من الماضي والمستقبل.. لن تكون قد وجدت أبدًا.. »

فكر (ونستون):

- » إذن لماذا تتعبون أنفسكم بتعذيبي؟ »

كأنما سمع (أوبرايان) ما قيل، رد على (ونستون):

- « ألم تفهم ما قلته لك عن المحاكمين في الماضي؟ نحن لا نقبل الطاعة السلبية.. حين تخضع لنا سيكون هذا بكامل إرادتك.. نحن لا ندمر المهرطق ما دام يقاومنا. نحن نعيد تشكيله.. نجعله واحدًا منا.. نحن لا نسمح بأي انحراف حتى في الموت.. نطهر العقل قبل أن ندمره.. الوصايا الدينية تقول: « أنت لن ».. السوفييت يقولون: » أنت سوف ».. نحن نقول « أنت كذا.. ».. هكذا يموت الخونة وهم يفكرون في الأخ الأكبر ممتنين له.. »

كان صوته قد صار حالمًا.. وأدرك (ونستون) أنه لا يمثل ولا ينافق.. بل هو يؤمن بكل كلمة يقولها.. وضايقه شعوره بالانحطاط الثقافي.. إن (أوبرايان) قد فكر في كل خاطرة دارت أو يمكن أن تدور في ذهن (ونستون).. إذن (أوبرايان) ليس مجنونًا.. الاحتمال الأكبر أن (ونستون) هو المجنون..

- « لا تحسب أنك ستهرب منا يا (ونستون).. نحن سنحطمك ونغيرك للأبد.. سيموت كل شيء بداخلك.. ستكون مفرغًا.. ثم نملؤك بنا.. »

ثم أشار للرجل ذي المعطف.. فشعر (ونستون) بجهاز ثقيل يوضع تحت رأسه..

- « ثلاثة آلاف.. »
وشعر بوسادتين توضعان على صدغيه فأصدر أنينًا.. هناك ألم قادم. نوع جديد تمامًا من الألم..
- « هذه المرة لا ألم.. فقط أبق عينيك مثبتتين لعيني.. »
هذه المرة حدث انفجار لكنه بلا صوت.. بالتأكيد كان هناك ضوء وامض ساطع.. وبرغم أنه كان بالفعل على ظهره، فإنه شعر كأن الضربة ألقته في هذا الوضع. كان هناك فراغ.. كأنما قطعة انتزعت من مخه..
- « لن يدوم الأمر.. الآن قل لي.. ما البلد الذي تحاربه (أوشيانيا) من البداية؟ »
فكر (ونستون).. كان يعرف (أوشيانيا) و(أيوراسيا) و(إيستاسيا).. لكن أيهما كانتا في حرب.. لا يذكر.. بالواقع لم يكن يعرف أن هناك حربًا..
- « لا أذكر.. »
- « أوشيانيا كانت في حرب مع (إيستاسيا).. منذ بداية حياتك.. منذ تكوين الحزب.. منذ بداية التاريخ.. هل تذكر هذا الآن؟ »
- « نعم.. »
ثم مد يده له وقد ثنى الإبهام وقال:
- « أنت ترى الآن خمسة أصابع.. هل تراها فعلًا؟ »
- « نعم.. »
كان كل اقتراح يقدمه (أوبرايان) يسد ثغرة في ذهنه ويتحول إلى حقيقة لا ريب فيها..
قال (أوبرايان):
- « أنت على حق فيما كتبت في مذاكرتك.. أنا بالفعل شخص يمكن التحدث معه.. وأنا أحب الكلام معك فعقلك قريب من

عقلي، فيما عدا أنك بالطبع مجنون.. هل تريد أن تسألني عن أي شيء؟ »
- « نعم.. ماذا حدث لـ (جوليا)؟ »
- « لقد خانتك. بسرعة فائقة.. فجأة احترق كل خداعها وحماقتها وسوء تفكيرها.. هذه حالة تحول كاملة.. حالة تصلح للمراجع.. »
- » عذبتموها؟ »
رفع (أوبرايان)حاجبًا وقال:
- « السؤال التالي؟ »
- « هل الأخ الأكبر موجود؟ »
- « بالطبع موجود.. إن الحزب موجود، والأخ الأكبر هو تجسيم الحزب.. »
- « هل هو موجود كما أنا موجود؟ »
- « أنت لست موجودًا.. »
- « أنا موجود.. أنا واع بهويتي.. ولدت وسوف أموت.. لدى ذراعان وقدمان.. أشغل حيزًا من الفراغ، ولا يوجد جسم مادى يستطيع احتلال نفس الحيز في نفس الوقت.. بهذا المعنى.. هل الأخ الأكبر موجود؟ »
- « لا يهمك هذا.. لكنه موجود.. »
- « هل (الإخوة) موجودون؟ »
- « لن تعرف هذا أبدًا.. حتى لو أطلقنا سراحك وعشت حتى تبلغ التسعين.. »
راح صدر (ونستون) يعلو ويهبط، وفي النهاية سأل السؤال الذي كان يجب أن يوجهه أولًا:
- « ماذا في الغرفة رقم 101؟ »

- « أنت تعرف ما في الغرفة 101 يا (ونستون).. الجميع يعرف.. »
وأشار للرجل ذي المعطف الأبيض، فغرس الإبرة في ذراع (ونستون).. وسرعان ما غرق في نوم عميق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

قال (أوبرايان):

- « ثمة ثلاث مراحل في إعادة ضمك لنا.. هناك التعلم فالفهم فالقبول.. هذا وقتك كي تدخل المرحلة الثانية.. »

كالعادة كان (ونستون) يرقد على ظهره.. لكن قيوده ارتخت نوعًا. كذلك لم يعد قرص الكهرباء مرعبًا.. يمكنه تحاشيه لو أظهر ذكاء واضحًا.. فقط حين يبدى الغباء كان (أوبرايان) يستعمله. كم من الوقت امتدت هذه الجلسات؟ لا يدرى.. ربما بضعة أيام أو بضعة أشهر..

قال (أوبرايان):

- « وأنت راقد هنا تساءلت لماذا تضيع وزارة الحب كل هذا الجهد والوقت عليك.. يمكنك فهم ميكانيكية المجتمع الذي تعيش فيه لكن ليس دوافعه الخفية.. هل تذكر حين كتبت في مذكراتك: أنا أفهم (كيف) لكن لا أفهم (لماذا)؟ أنت قرأت كتاب (جولدشتاين).. فهل كان فيه شيء لا تعرفه فعلًا؟ »

سأله (ونستون):

- » هل قرأته أنت؟ »

- « بل وكتبته.. بالتعاون مع آخرين.. لا يوجد كتاب فردى كما تعلم.. »

- « هل ما فيه حقيقي؟ »

- « كوصف.. نعم.. لكن خطته كلام فارغ.. تراكم المعرفة.. التنوير.. ثورة البروليتاريا.. إزاحة الحزب.. البروليتاريا لن تثور والحزب لن يزول.. ولو بعد ألف عام.. لتكن هذه نقطة البدء في تفكيرك.. »

ثم قرب وجهه من (ونستون) وقال:

- « والآن، نأتي لسؤالك (لماذا؟).. لماذا نريد القوة؟ ما دافعنا؟ هلم تكلم.. »
لم يتكلم (ونستون) لأن الإنهاك غلبه.. هنا عادت الحماسة إلى (أوبرايان) الذي خمن ما سيقوله (ونستون).. سيقول إن الحزب لا يريد القوة لمنفعته بل لمنفعة الجموع.. يطلب القوة لأن الجماهير مخلوقات جبانة لا تتحمل الحرية لهذا يجب أن يحكمهم من هم أقوى. إن خيار البشرية هو الحرية أو السعادة.. والغالبية تفضل السعادة..
كاد يقول هذا حين مزق الألم جسده.. لقد حرك (أوبرايان) القرص إلى 35..
- « هذا كان غبيًّا يا (ونستون).. يجب أن تعطى إجابة أفضل.. الحزب يطلب القوة لنفسه ولا يعنينا خبر الجماهير. لا تهمنا الثروة ولا الرفاهية.. فقط نريد القوة.. نحن نعرف ما نريد وفي هذا نتفوق على كل حكم دكتاتوري سابق.. النازيون والشيوعيون اقتربوا من أساليبنا لكنهم لم يعترفوا لأنفسهم قط.. زعموا أنهم يملكون القوة غير راغبين فيها.. ولفترة محدودة إلى أن يحققوا جنتهم حيث الجميع متساوون.. نحن لا نفعل كذلك.. نحن نؤمن أن القوة غاية وليست وسيلة.. المرء لا يمارس الدكتاتورية كي يشعل ثورة، لكنه يشعل ثورة كي يمارس الدكتاتورية.. هل بدأت تفهمني؟ »
كان (ونستون) ينظر لوجه (أوبرايان) المسن المنهك.. هنا قرب الرجل وجهه منه وقال:
- « أنت تفكر في أنني أتحدث عن القوة وأشيخ برغم ذلك.. ألا تفهم أننا خلايا.. الجسد لا يموت بموت خلية.. هل تموت أنت لو قصصت أظفارك؟ ألم تتأمل مرة مقولة الحزب: الحرية هي العبودية؟ ألم تفكر أنها يمكن أن تعكس لتكون: العبودية هي

الحرية؟ الفرد وحده هش قابل للهزيمة.. الموت هو أكبر الهزائم.. لكنه لو صار عضوًا في الحزب فسيبقى للأبد.. وما أعنيه بالقوة هو السيطرة على العقل وليس المادة.. إن سيطرتنا على المادة مطلقة.. »

- « لكنكم لستم سادة الكوكب.. ماذا عن (أيوراسيا) و(إيستاسيا)؟ »

- « لا يهم.. سنغلبهم يومًا ما.. ولو لم يحدث فإننا لن نذكرهم وهكذا فلا وجود لهم.. »

- « الإنسان مجرد طفل في هذا الكون.. »

- « كلام فارغ.. عمر الكون هو عمر وجوده بالنسبة للوعي البشرى.. »

- « الصخور مليئة بعظام الديناصورات و(المستودون) التي عاشت قبل أن يوجد الإنسان.. »

- « وهل رأيت أنت تلك العظام؟ بالطبع لا.. علماء القرن التاسع عشر اخترعوها.. قبل الإنسان لا يوجد شيء.. بعد الإنسان لا يوجد شيء.. خارج الإنسان لا يوجد شيء.. »

- « والنجوم؟ إنها شموس على بعد ملايين الأميال عنا.. »

- « النجوم؟ ما قيمة هذه الشعلات على بعد بضعة كيلومترات منا؟ أتحسب أنه ليس في وسعنا ابتكار علم فلك بديل؟ يمكن أن نجعل النجوم قريبة أو بعيدة حسب حاجة الحزب.. هل نسيت التفكير المزدوج؟ »

رقد (ونستون)شاعرًا بالقهر.. فالإجابات السريعة تسحقه سحقًا.. لكنه كان يعرف أنه محق..

- « إن التقدم في عالمنا هو تقدم للحصول على مزيد من الألم والعذاب.. من دون العذاب كيف تسيطر على الإنسان؟ الفلاسفة القدامى أسسوا فلسفاتهم على الحب والمساواة، بينما

فلسفتنا تأسست على المقت.. في عالمنا لن تكون هناك عواطف إلا الخوف والغضب والانتصار وإذلال النفس.. لقد نجحنا في قطع علاقة الابن بالأب وعلاقة الرجل بالمرأة.. لن يثق الإنسان ثانية في زوجته أو ابنه.. لكن في المستقبل لن يحتاج أحد إلى زوجة أو صديق.. لن يكون هناك حب إلا حب الأخ الأكبر.. لن يكون هناك إخلاص إلا الإخلاص للحزب.. لا فرحة إلا فرحة النصر أمام عدو مهزوم.. لن نحتاج إلى العلم ولا الفن.. لو أردت تخيل الغد فتخيل حذاء ثقيلًا يهشم وجهًا بشريًّا.. يهشمه للأبد.. (جولد شتاين) وأعوانه سيعيشون للأبد.. سيكونون دائمًا موجودين كى نشتمهم ونبصق عليهم ونفتش عنهم.. أرى انك بدأت تفهمني.. لكنك ستفعل ما هو أكثر من الفهم.. ستشارك في هذا العالم.. »

نهض (ونستون) قليلًا وقال:

- « لا تستطيع.. »

- « ما الذي لا أستطيعه؟ »

- « لن تؤسس عالمًا على المقت والحقد.. لن يتحمل أحد ذلك.. سوف يتحلل هذا العالم.. سوف ينتحر.. »

- « كلام فارغ.. أنت تعتقد أن المقت أصعب من الحب.. لم لا؟ ولنفرض أن هذا صحيح فما الفارق؟ »

من جديد تركت كلماته حالة من العجز لدى (ونستون).. كان لا يريد الجدل كي لا يتعرض للقرص مرة أخرى، لكنه قال:

- « لا أعرف.. لكن شيئًا ما سيهزمك.. الحياة نفسها ستهزمك.. الناس ستنهض وتعرف الحقيقة وتمزقكم.. »

- « هل ترى أي أثر يدل على هذا؟ »

- « لا.. لكنى أؤمن بقوة روح الإنسان.. »

- » وأنت تعتبر نفسك إنسانًا؟ »

- « نعم.. »
- » وتعتبر أنك أعلى منا مقامًا بقسوتنا وخداعنا؟ »
- « نعم.. أعتبر نفسي أعلى.. »
هنا سمع (ونستون) صوتًا مسجلًا.. إنه صوته في تلك الليلة التي زار فيها (أوبرايان) كان يعده بأنه سيفعل أي شيء بما فيه القتل والتخريب من أجل الإخوة..
قال له (أوبرايان):
- » والآن قم من على السرير.. إذن أنت آخر إنسان في هذا العالم ووارث الضمير البشري.. سأريك ما صرت إليه.. هلم انزع ثيابك..«
نزع (ونستون) ثيابه التي لا يذكر إن كان نزعها طيلة تلك الفترة أم لا.. تحت الأوفرول كان جسده ملفوفًا بخرق صفراء متسخة يفترض أنها كانت ثيابًا داخلية.. رأى أن هناك مرآة ثلاثية فدنا منها.. وصدرت منه صرخة لا إرادية..
إنه يرى هيكلًا عظيميًّا منحنيًّا يدنو منه.. مجرد منظره مخيف وليست فقط حقيقة أنه هو بالذات.. الوجه بائس نحيل والفم ممصوص للداخل.. لقد تغير وجهه أبعد بمراحل مما تغير هو من الداخل.. جسده قذر متسخ وبين القاذورات توجد ندوب حمراء لجروح.. كتفاه منحنيان للأمام بحيث صار صدره مقعرًا وعنقه منثنيًّا تحت ثقل الجمجمة..
- « قلت مرة إن وجهي - كعضو حزب - يبدو مسنًّا فماذا عنك أنت؟ انظر إلى كل القذارة بين أصابع قدميك.. انظر إلى القرحة الملتهبة في قدمك.. هل تعرف أنك كريه الرائحة كالكبش؟ ربما لم تعد تلاحظ هذا.. انظر لهزالك.. بوسعي أن يلتقى إبهامي وسبابتي حول عضلة عضدك.. بوسعي أن انتزع عنقك كالجزرة.. لقد فقدت خمسة وعشرين كيلوجرامًا منذ جئت إلى هنا..

فقدت شعرك كله.. افتح فمك.. كم سنًّا بقيت لك؟ عشرًا؟ إحدى عشرة؟ »
ومد يده في فم (ونستون) وانتزع أحد القواطع، ثم ألقى به عبر الزنزانة..
- « هذا هو الرجل الأخير.. لو كنت أنت إنسانـًا فإن ما تراه هو الإنسانية كلها.. والآن ارتد ثيابك ثانية.. »
ارتدى (ونستون) ثيابه والرثاء يتملكه على ما وصل إليه جسده.. وفجأة من دون أن يعرف أنه فعلها جلس على الأرض وراح يبكي بحرقة.. كان يعرف أنه يثير الاشمئزاز.. شيء قذر نحيل متسخ بثياب ممزقة يبكي.. لكنه لم يستطع ألا يفعل..
- » أنت من فعل هذا بنفسه يا (ونستون) يوم اخترت أن تقف ضد الحزب.. نحن قد أهناك.. ضربناك.. وفعلت أنت كل شيء ممكن.. تمرغت على الأرض طلبًا للرحمة.. وأفشيت أسرار كل شخص وبكيت ألمًا.. هل تعرف اندحارًا آخر واحدًا لم تقم به؟ »
نظر له من بين الدموع وقال:
- « أنا لم أخن (جوليا).. »
نظر له (أوبرايان) مفكرًا وقال:
- » صحيح.. صحيح.. أنت لم تفعل هذا بالذات.. »
غمر الإجلال لـ (أوبرايان) قلب (ونستون) ثانية.. يا لذكائه! يا لذكائه! لم يفشل قط في فهم ما يقال له. لقد تكلم عنها.. حكى عن لقاءاتهما.. خيانتها للحزب.. تعاملها مع السوق السوداء.. عنوانها وعاداتها.. لكنه لم يكف عن حبها.. بهذا هو لم يخنها.. (أوبرايان) فهم هذا على الفور..
- « قل لي.. متى يطلقون على الرصاص؟ »

- « ربما استغرق هذا وقتًا طويلًا.. أنت حالة صعبة.. لكن لا تقلق.. سوف نشفيك وفى النهاية سيطلقون الرصاص عليك.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

بدأت صحته تتحسن وازداد سمنة يومًا بعد يوم..

الزنزانة كانت مريحة، ففيها فراش ووسادة ومقعد للجلوس عليه.. سمحوا له بالاستحمام بماء دافئ وأعطوه ثيابًا جديدة نظيفة. لقد ضمدوا قرحة قدمه بمرهم ملطف وركبوا له طاقمًا من الأسنان الصناعية..

الطعام جيد.. ثلاث وجبات مع لحم في الوجبة الثالثة، بل إنهم سمحوا له ذات مرة بعلبة تبغ، وقد حصل على ثقاب من الحارس الصموت.. وقد حرص على أن يقسم السجائر ليدخن نصف واحدة بعد كل وجبة..

راح يمضى الوقت في الفراش مستمتعًا بالشعور بأن قواه تعود إليه.. ومن حين لآخر يتحسس جسده ليتأكد من أن عضلاته تزداد استدارة وجلده يغدو مشدودًا أكثر.. وراح يجرب المشي في الزنزانة على سبيل الرياضة..

الآن فقط كان يدرك سذاجة محاولته لمواجهة الحزب.. سبعة أعوام وشرطة الأفكار تراقبه كما تراقب الخنفسة تحت العدسة.. ما من فكرة لم يعرفوها.. ما من عمل لم يسجلوه.. بل إنهم أعادوا الغبار الأبيض الموجود على غلاف مفكرته.. كانوا قد أعطوه قلمًا صغيرًا وما يكتب عليه.. فأمسك بالورقة وكتب عليها بحروف خرقاء:

الحرية هي العبودية

ثم من دون لحظة توقف كتب تحتها هذه الكلمات:

2+2= 5

لقد قبل كل شيء.. التاريخ قابل للتغيير.. التاريخ لم يتغير قط.. (أوشيانيا) كانت دومًا في حرب مع (إيستاسيا).. ما أسهل

الأمر.. فقط استسلم ولسوف يكون كل شيء على ما يرام.. كأنما كنت تقاوم التيار فترة ثم فجأة أدرت ظهرك وسبحت معه.. فلم يتبدل شيء..
إن الغباء مهم للمرء مثل الذكاء.. وبالمثل يصعب الوصول إليه..
سوف يعدمونه لكن لا توجد طريقة لمعرفة متى.. ربما بعد عشر دقائق وربما بعد عشر سنين.. ربما يرسلونه لمعسكر اعتقال.. لكنه كان يعرف أنهم قبل إعدامه سيكررون ذات دراما الاعتقال من جديد.. التقاليد التي لا يتكلم عنها أحد لكنها مؤكدة، هي أنهم يطلقون عليك النار فجأة.. على مؤخرة رأسك وأنت تمشى من زنزانة إلى زنزانة..
لقد تغيرت أشياء كثيرة فيك. تعلم أنك كي تحتفظ بسر فعليك أن تداريه حتى عن نفسك.. فقط اعرف أنه موجود لكن لا تتركه يخرج إلى السطح على أية صورة ذات اسم.. لا يجب فقط أن تفكر بالشكل الصحيح.. بل تشعر بالشكل الصحيح.. تحلم بالشكل الصحيح..
سوف يطلقون الرصاص. ولسوف تعرف ذلك في اللحظة الأخيرة قبل اختراق الرصاصة لمخك.. في هذه اللحظة فقط سيخرج كل المقت للحزب.. كل ما كنت تخفيه.. سيعرفون أنهم نسفوا عقلك قبل أن يصلحوه تمامًا.. عندئذ تكون هذه هي الحرية..
سمع صوت خطوات ثقيلة خارج الغرفة، وانفتح الباب المعدني ثم دخل (أوبرايان) الزنزانة.. خلفه كان ضابط شمعى الوجه وحراس بثياب سود..
- « انهض وتعال هنا.. »
نهض (ونستون) فأمسك (أوبرايان) كتفيه بيديه القويتين وقال:
- » لقد فكرت في خداعي.. كان هذا عملًا أحمق.. قف وانظر لي..«

ثم صارت لهجته أهدأ:
- « أنت تتحسن.. لكنك لا تحرز تقدمًا عاطفيًّا.. قل لي ولا تكذب.. ما مشاعرك الحقيقية نحو الأخ الأكبر؟ »
- « أنا.. أكرهه.. »
- « تكرهه. عظيم.. إذن جاء وقت الخطوة الأخيرة.. يجب أن تحب الأخ الأكبر.. لا يكفي أن تطيعه.. »
ثم دفع بـ (ونستون) نحو الحراس وقال:
- « غرفة 101.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

هذه الغرفة كانت تحت الأرض بعدة أمتار..
كانت أكبر من باقي الغرف التي جربها، لكنه لم يلحظ ما يحيط به.. كل ما لاحظه هو أن هناك منضدتين أمامه، وعلى كل منهما غطاء من الجوخ الأخضر. تم تقييده إلى مقعد بحيث لا يستطيع تحريك شيء.. حتى رأسه.. وكانت هناك وسادة خلف رأسه ترغمه على النظر إلى الأمام..
بعد قليل انفتح الباب ودخل (أوبرايان)..
- « سألتني من قبل عن محتوى الغرفة 101 فقلت لك إنك تعرف الإجابة.. محتوى الغرفة هو أسوأ شيء في العالم.. »
ثم انفتح الباب ودخل حارس يحمل شيئًا صنع من السلك.. صندوقًا أو علبة لا يعرف.. وخاصة مع الوضع الثابت الذي كان عليه..
- « أسوأ شيء في العالم يختلف من شخص لآخر.. بين الموت حرقًا أو غرقًا أو على خازوق.. بالنسبة لبعض الناس هو شيء بسيط وربما ليس مميتًا.. »
الآن رأى (ونستون) الشيء.. كان جسمًا مستطيلًا له مقبض من أعلى لحمله ومقدمته تشبه قناع لعبة الشيش.. ولاحظ أن الشيء مقسم طوليًا إلى جزأين.. وهناك مخلوقات في كل نصف.. إنها فئران..
- « في حالتك.. أسوأ شيء في العالم هو الفئران.. »
هنا بدأ الرعب يجتاح (ونستون).. ثم فهم معنى أن هذا القفص يشبه القناع، فشعر بأمعائه تسيل هلعًا..
صرخ:
- « لن تفعل هذا! ليس هذا بوسعك! »

تكلم (أوبرايان) بطريقة ناظر المدرسة التي يستعملها أحيانًا.. ونظر إلى بعيد كأنما يخاطب المشاهدين.
- « ليس الألم كافيًا وحده.. أحيانًا يتحدى المرء الألم حتى وهو يموت.. لكن بالنسبة لكل إنسان هناك ما يتجاوز حد الجبن والشجاعة.. حين تسقط من جبل فليس من الجبن أن تفتش عن حبل.. إنها غريزة.. الفئران نوع من الضغط لا تستطيع تحمله لهذا ستفعل ما نطلب منك.. »
- « لكن ما هو؟ كيف أفعل ما لم أعرفه؟ »
قال (أوبرايان):
- « الفئران في هذه البقعة من المدينة آكلة لحوم.. هل تعرف أن الأم لا تجرؤ على ترك رضيعها أكثر من دقيقتين وإلا ظفرت به؟ إن لديها حاسة خارقة لتبين متى تكون ضحيتها عاجزة.. »
وحمل القفص ليصير على بعد أقل من متر من (أوبرايان)..
- » ضغطت الرافعة الأولى.. إن القناع سيثبت على وجهك بلا مخرج.. حين أضغط الرافعة الثانية ينفتح الباب.. ستخرج هذه الوحوش الجائعة كأنها طلقات الرصاص.. أحيانًا تبدأ بالعينين وأحيانًا تخترق الخدين لتلتهم اللسان.. »
كان القناع الآن قريبًا جدًا، والفئران تعرف ما هو آت.. رائحتها الكريهة تزكم أنفه.. فأر عجوز ذو حراشف جاء من البالوعات يقف على القضبان يتشمم الهواء.. من جديد استبد الهلع بـ (ونستون).. إنه معدوم الحيلة أعمى بلا عقل..
قال (أوبرايان) كأنه يحاضر:
- « كان هذا عقابًا شائعًا في الصين الإمبراطورية.. »
كان يفكر كالمجنون. لا توجد طريقة تقيه من الفئران إلا بأن يضع جسدًا بشريًا آخر بينه وبينها..
هكذا صرخ:

- « افعلوا هذا مع (جوليا)! افعلوا هذا مع (جوليا)! ليس أنا! لا أبالي بها! مزقوا وجهها حتى العظام.. ليس أنا! »
كان يسقط في ظلمات هائلة بعيدًا عن الفئران.. خارج حدود الكون.. إلى الخلجان ما بين النجوم.. فقط بعيدًا بعيدًا بعيدًا بعيدًا..
القفص ما زال يلامس خده، لكنه سمع صوت (كليك) فعرف أن القفص يُغلق ولا يفتح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الواحد والعشرون

كان مقهى (شجرة الكستناء) خاليًّا تقريبًا، وسقط شعاع شمس على منضدة مكسوة بالغبار.. كانت هذه الساعة الخامسة عشرة الموحشة، ومن شاشة تليسكرين خرجت موسيقا معدنية.

جلس (ونستون) في ركنه المعتاد يرمق كأسه الفارغة.. ومن حين لآخر يرمق الوجه العريض على الجدار المقابل:

الأخ الأكبر يراقبك

كما يقول التعليق.. وجاء الساقي يملأ كأسه بجين النضر.. ثم وضع قطرت من زجاجة أخرى لها سدادة.. كان هذا هو السكارين بنكهة القرنفل.. الطلب المخصوص للمقهى..

راح يرمق الشاشة.. متوقعًا أن يسمع بيانـًا من وزارة السلام.. إن الأخبار مقلقة، فجيش (أيوراسيا) (إن أوشيانيا كانت دوما في حرب مع أيوراسيا) يتحرك بسرعة مفزعة جنوبًا.. يبدو أن الكونغو كانت مسرح قتال، وأن (برازفيل) و(ليوبولدفيل) في خطر. ليس الخطر هو فقد وسط إفريقيا، بل إن حدود (أوشيانيا) ذاتها في خطر..

لقد ازداد سمنة منذ أطلقوا سراحه واستعاد لونه.. بل إنه صار ورديًّا.. يأتيه الساقي بمجلة التايمز والشطرنج، وقد فتح المجلة على لغز شطرنج.. إنهم يعرفون عاداته..

هو لم يعد يعد مشروباته.. لا يهم.. من حين لآخر يقدمون له قصاصة ورق متسخة عليها أرقام يقولون إنها فاتورته فيدفعها دون تدقيق.. إنه الآن يمارس عملًا مجزيًّا.. عملًا أقرب للبطالة..

جاء الصوت من التليسكرين:

- « مطلوب منكم التأهب لسماع أنباء في غاية الأهمية في الساعة 30: 15.. أنباء مهمة جدًّا.. »

شعر بتوتر.. معنى هذا أن هذه الأنباء من الجبهة، وهي سيئة على الأرجح.. لو سيطرت جحافل (أيوراسيا) على إفريقيا كلها فمعنى هذا تقسيم (أوشيانا) إلى نصفين.. معنى هذا تدمير الحزب! وتصارعت عدة عواطف في داخله.. طبقات عدة لا يمكن ابدًا أن تتبين أيها كان هو الأكثر عمقًا..
لا شعوريًّا راح يعبث بإصبعه في الغبار على المنضدة وكتب:

2+2=

قالت له: لن يصلوا لأعماقك.. لكنهم وصلوا لأعماقك فعلًا..
قال له (أوبرايان): ما سيحدث لك هنا سيستمر للأبد.. كان هذا حقًّا..
لقد قابلها.. لم يعد هذا خطرًا.. لم يعودوا يخشونك ولا يهتمون بما تفعله الآن.. كان يومًا باردًا في الحديقة وهو يهرع بعينين دامعتين، حين رآها على بعد عشرة أمتار.. لم يتعرفها في البدء ومر بها دون التفات، ثم استدار وبدأ يتبعها.. لم تتكلم.. مشت عبر الأعشاب كأنما هي تحاول التخلص منه.. كان الطقس باردًا والريح تصفر عبر الغصون..
لا توجد هنا تليسكرين، لكن هناك بالتأكيد مكبرات صوت وكاميرات.. لكن لا يهم..
عرف ما تغير فيها.. كان وجهها أكثر كآبة، وهناك ندبة على جبهتها يخفيها شعرها..
لم يحاولا الكلام ولم يلمسها.. فقط رأى في عينيها نظرة توحي بالمقت أو الاحتقار..
قالت له بجرأة:
- « أنا خنتك.. »
ونظرت له بكراهية من جديد.. وقالت:

- « حينما يهددونك بشيء لا تطيقه تقول لهم: لا تفعلوا هذا.. خذوا أحدًا آخر سواي.. وتقنع نفسك بأنك لم تعن ما قلت وإنما كنت تخدعهم.. هذا ليس صحيحًا.. لحظتها لا تبالى لحظة بمن تحب.. كل ما تريد هو أن يتركوك وشأنك.. »
- « كل ما تريد هو أن يتركوك وشأنك.. »
- « وبعد هذا لا تشعر نحو ذلك الشخص بالشيء ذاته.. »
قالت شيئًا عن اللحاق بالمترو، ونهضت.. فقال لها:
- « سنلتقي ثانية.. »
- « نعم.. سنلتقي ثانية.. »
أراد أن يرافقها لمحطة المترو، لكن الفكرة بدت له لا تطاق.. لم يكن يريد شيئًا مثل العودة إلى المقهى.. فجأة بدا له أكثر الأماكن جاذبية.. يشعر بالحنين نحو المنضدة ورقعة الشطرنج..
هكذا سمح لنفسه بأن ينفصل عنها وسط مجموعة صغيرة من الناس.. ثم أبطأ فاستدار متجهًا في الطريق العكسي.. ثم نظر للوراء.. لم يكن في الشارع أكثر من اثني عشر ماشيًا لكنه لم يرها..
- « هذا ليس صحيحًا.. لحظتها لا تبالي لحظة بمن تحب.. كل ما تريد هو أن يتركوك وشأنك.. ».. هو لم يبال فقط.. بل تمنى أن تكون هي مكانه..
كان يعمل عملًا ما في لجنة فرعية من لجنة فرعية في وزارة الحقيقة، تراجع الطبعة الجديدة من قاموس اللغة الجديدة.. يقدم تقارير عن أشياء مثل هل ينبغي وضع الفاصلة داخل الأقواس أم خارجها.. كان هناك أربعة مثله في لجنة الفاصلة.. وكانت هناك أيام يجتمعون فيها وينفصلون معترفين بأنه لا يوجد ما يفعلون..

ظل يرمق لغز الشطرنج حيث جلس في المقهى، حين دوى صوت نفير عال يخرق الهواء.. النصر! لابد من نصر حين يدوى النفير قبل الأخبار.. حتى السقاة توقفوا وأرهفوا السمع..
الآن جاء صوت من التليسكرين لكن كان من العسير تبينه وسط صوت التهليل من الخارج.. لقد حدث ما توقعه بالضبط.. أسطول بحرى عملاق قد وجه ضربة مفاجئة لمؤخرة خطوط العدو.. وراحت عبارات تدوى مثل:
- « عملية استراتيجية واسعة......... تنسيق بارع........ هزيمة منكرة...... نصف مليون أسير....... السيطرة على إفريقيا كلها......... الحرب دنت من نهايتها..... أعظم نصر في تاريخ البشرية.. »
راحت قدماه تتحركان من تحت المنضدة.. كان يركض مع الجموع في الشارع.. الأخ الأكبر! العملاق الذي يحمي العالم! الصخرة التي حطمت جحافل آسيا نفسها عليها.. منذ عشر دقائق كان يتساءل إن كانت الأخبار من الجبهة تعنى النصر أم الهزيمة.. لقد تغيرت أشياء كثيرة منذ كان في وزارة الحب، لكن التغيير الأكبر لم يأت إلا الآن..
كان يرى نفسه الآن في وزارة الحب.. يعترف بكل شيء عن أي واحد.. يمشي في ممر أبيض عريض كأنما هو يمشي في ضوء الشمس.. والرصاصة التي تمناها كثيرًا تخترق ظهره..
ونظر إلى الوجه الهائل للأخ الأكبر.. لقد احتاج إلى أربعين سنة كي يعرف نوع الابتسامة التي يداريها هذا الشارب الأسود.. أواه على سوء الفهم القاسي عديم الجدوى! أواه على المنفى الإرادي بعيدًا عن الصدر الذي يحبك! وتدحرجت دمعتان لهما نكهة (الجين)على جانبي أنفه.. لكن كل شيء على ما يرام.. كل شيء على ما يرام..

لقد انتهت المعركة.. وانتصر على نفسه..
لقد أحب الأخ الأكبر..

جورج أورويل
1944

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

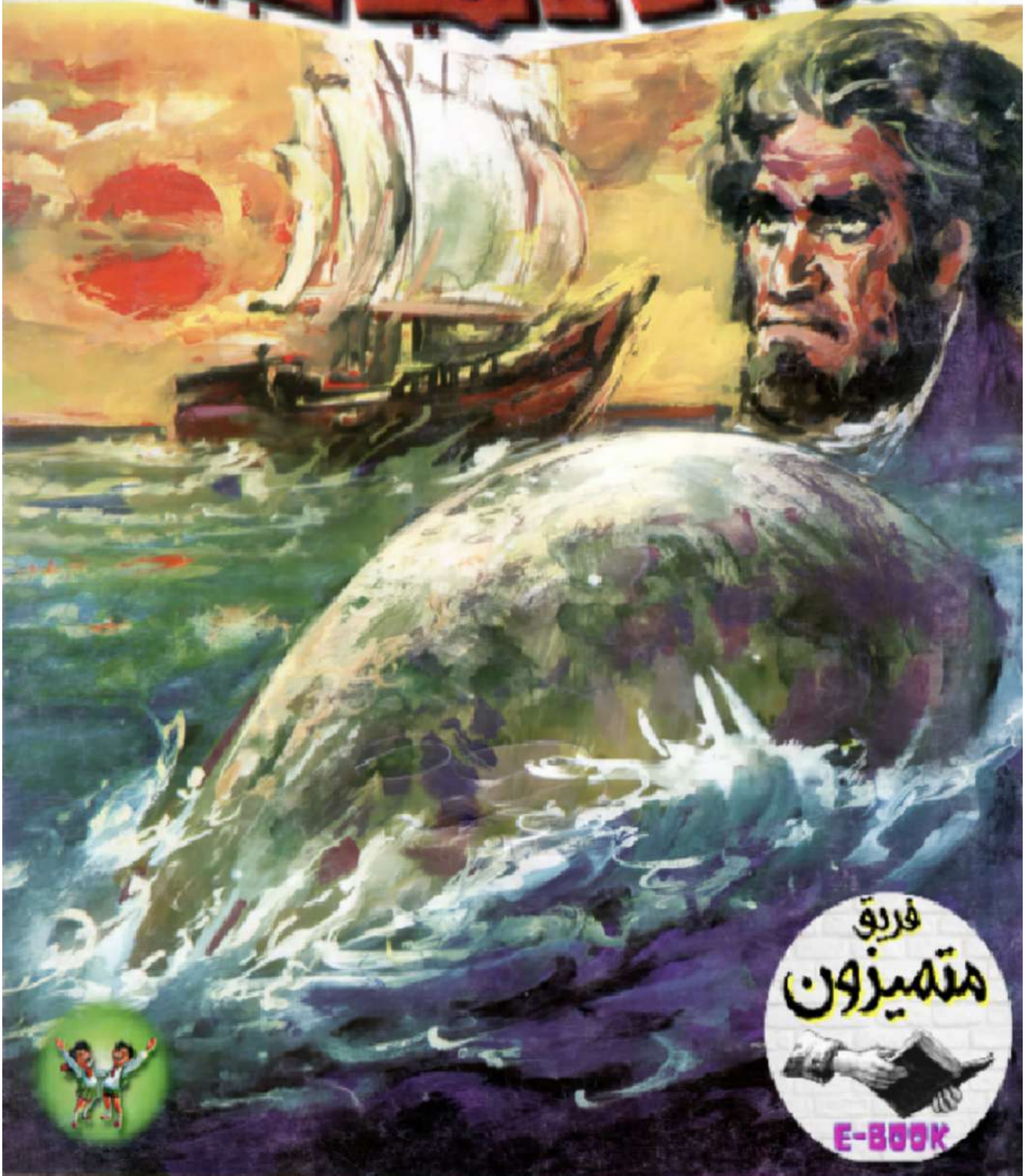
Notes

[←1]

(العرب ونكبة الكويت).. مكتبة (مدبولي).. 1991

[←2]
أذكر القارئ أن (أوبرايان) هو عضو الحزب المهم، الذي يشعر (ونستون) بأن ولاءه - ربما - ليس كاملًا للحزب.

روايات عالمية للجيب 52



موبي ديك

بقلم: هرمان ملفيل
ترجمة وإعداد:
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (52)

موبي ديك

بقلم: هرمان ملفيل
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هو أديب أمريكي ارتبط اسمه بالبحر، وبصفة خاصة بقصته الأشهر (موبي ديك - MOBY – DICK) التي صدرت عام 1851، وانتي قيل إنها أعظم رواية في الأدب الأمريكي على الإطلاق.. الحقيقة أن هناك ثلاثة كتاب أمريكيين ارتبطوا بالبحر بشدة:

الأول هو ملفيل والثاني هو هيمنجواى صاحب (العجوز والبحر) الغنية عن أي تعريف، والثالث هو بيتر بنشلى الذي ارتبط اسمه بقصص (الأعماق) و(فكان) و(الجزيرة)[1].. الحقيقة أن الثالث توغل في البحر فعلًا، وبلل قدميه فعلًا.. ربما أكثر من أي كاتب آخر، لكنه كما نعلم اكتفى بالمغامرة المثيرة في حد ذاتها.. بينما اهتم (هيمنجواى) و(ملفيل) بالنفس البشرية.. لقد ذهبا إلى البحر ليغوصا في نفوس أبطالهما..

لم يلق الكتاب - (موبي ديك) - نجاحًا إلا بعد ثلاثين عامًا من صدوره، إلا أن القصة الأخرى الشهيرة لملفيل، والتي كان اسمها (تاييى - 1846) لاقت نجاحًا كبيرًا وقت صدورها.

ولد (ملفيل) عام 1819 في مدينة (نيويورك) لأسرة من التجار، أفلس والده وجن ومات كل هذا بينما كان (ملفيل) الصغير في سن الثانية عشرة، وقد أصابته الحمى القرمزية فسببت ضعفًا دائمًا في بصره، وتنقل (ملفيل) في عدة وظائف لكن نهمه للقراءة لم يتوقف قط، والتحق بالبحرية الأمريكية، وجاب العالم بهذه الطريقة، وقد تعرف أكلة لحوم البشر المعروفين باسم (تاييى) أثناء عمله في جزر (ماركيساس)، وعنهم كتب رواية شهيرة جدًّا.

صدرت روايته (تايبي) في بريطانيا أولًا، ونالت قسطًا لا بأس به من النجاح، ثم أصدر كتابه الثاني (أوموو - 1847) عن تجاربه في جزر (بولينيزيا)، وعامة كان نجاح (ملفيل) في بريطانيا أكبر من نجاحه في وطنه.
عام 1847 تزوج وابتاع مزرعة في (ماساتشوتستس) أطلق عليها اسم (رأس السهم) ليكون جار الأديب الأمريكي العظيم (ناتانييل هوثورن)، وإلى حد ما يراهما دارسو الأدب الأمريكي ثنائيًا متقارب الأفكار والميول.
وحين كتب ملفيل (موبي ديك) كانت الرواية تتحدث عن صيد الحيتان بالتفصيل وبشكل شبه مدرسي، لكن (هوثورن) العظيم أقنعه بأن يجعل منها ملحمة رمزية عميقة، لا تختلف كثيرًا عن الملاحم القديمة، وتحمس (ملفيل) للفكرة إلى حد أنه كان يقضي اليوم كله في الكتابة ويصرخ: «أعطوني فوهة بركان (فيزوف) لأستعملها كمحبرة! ». إن الرواية مليئة بالشعر والحوار المسرحي والأدب التسجيلي، ودائرة معارف كاملة عن الحيتان، ومقتطفات طويلة جدًّا من مذكرات بحارة سفن الصيد، إلى حد يجعلها عملًا شديد الكثافة.
على كل حال خيبت الرواية أمل من أحبوا (تايبي) و(أوموو).. ولم يفهمها أحد سوى نقاد قليلين.. فالقصة مليئة بالغموض الفلسفي والشكسبيري، وكابتن (أهاب) البطل هو خليط من (ماكبث) والشيطان.. والاسم نفسه هو اسم أحد ملوك بني إسرئيل في التوراة الذي ارتد عن دينه وراح يعبد الإله الوثني (بعل)، وقد غرق النقاد في تفسير المقصود بالقبطان.. هل هو رمز لجنون البحث عن الذهب؟ هل هو معادل (برومثيوس) في الأساطير الإغريقية؟ هل هو نذير بدكتاتوريات القرن العشرين؟

هل يرمز لمحاولة تحدى الإنسان لقدره أو الطبيعة العاتية؟ أم هو - ببساطة - مجرد قبطان يطارد حوتًا؟

إن الفيلم الرائع الذي قدمه (هوستون) عن الرواية عام 1956 بلور غموض الرواية المقصود جيدًا، وقد جعلنا نتساءل عمن الأكثر شرًّا: القبطان أم الحوت؟

إلا أن قصص (ملفيل) التالية لم تلق نجاحًا، وبدأت حالته المادية والصحية تتدهور.. ولم تتحسن أحواله المالية إلا حين وجد عملًا كمفتش في الجمارك في (نيويورك). وتوفى عام 1891 فلم يلحظ أحد وفاته. واليوم اختلف الأمر تمامًا وصار كل دارس للغة الإنجليزية في العالم يعرف جيدًا قدر هذا الكاتب العظيم، ومزرعته (رأس السهم) صارت متحفًا، بل إن عددًا لا بأس به من النقاد يعتبرون هذه الرواية التي تقرؤها الآن أعظم - وأصعب - رواية أمريكية على الإطلاق..

بقي أن أقول إن هذه الترجمة مليئة بالتصرف، ربما إلى أقصى حد عرفته هذه السلسلة.. مع الحفاظ قدر الإمكان على انتظام السرد، لأن الرواية بالغة الطول والتعقيد، وكل من قرأها بلغتها الأصلية يعرف معنى ما أقول. بمعنى آخر: من يقرأ هذه الترجمة سيعرف خيط القصة مع خمسين بالمائة من روح وأسلوب الرواية الأصلية، وهي ليست بالصفقة الخاسرة، أما المهتمون بالاستزادة أو قراءة أعمال هذا الأديب بلغتها الأصلية فيمكنهم البدء بهذا الموقع؛ فهو يحوي كل شيء تقريبا:

http://www.melville.org

أهم أعمال ملفيل:

- تايبى 1846
- أومو 1847
- الرحلة الأولى لردبيرن 1849
- السترة البيضاء 1850
- موبي ديك (أو الحوت) 1851
- الكاتب العمومي بارتلبي 1853
- خزاف إسرائيل 1855

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

سراب في الأفق:

سمني (إسماعيل).. منذ أعوام - لا يهم كم عددها - لم يكن معي مال أو كان معي أقل القليل منه، ولا شيء يستهويني على اليابسة، فقررت أن أبحر عبر العالم، حينما أشعر بالتجهم حول ثغري، وحين أشعر برطوبة (نوفمبر) في روحي، وحين أجد نفسي أتوقف تلقائيًّا أمام مخازن الأكفان وألحق بكل جنازة أراها، وحين يتملكني الجموح، فأحتاج إلى منع نفسي بالقوة من الركض في الشوارع، وإطارة قبعات الناس من فوق رءوسهم؛ فإننى أعرف أن الوقت قد حان للعودة إلى البحر بأسرع ما أستطيع.

هذا هو بديلي لما فعل (كاطو Cato) [2]ففي شجاعة فلسفية ألقى بنفسه فوق حد سيفه، أما أنا فأركب السفينة، ليس في هذا شيء مدهش.. وبدرجة ما يحمل أكثر الرجال المشاعر ذاتها نحو المحيط، وإن بدرجات متفاوتة.

الآن أقدم لك مدينة (مانهاتوس) الساحلية التي يحيطها الثبج وسفن التجار، عن اليسار واليمين تأخذك الشوارع أو إلى البحر، انظر إلى زحام الناظرين إلى الماء.. تجوّب المدينة الحالمة في عصر سبت، فماذا ترى؟ ترى الآلاف فوق الآلاف من الرجال الفانين في ثياب البحارة.. بعضهم يجلس فوق الدعامات، وبعضهم ينظر من فوق أبراج سفن جاءت من الصين. ثم ترى رجال اليابسة الذين يطوون أسابيعهم جالسين مكبلين إلى المكاتب، مسمرين على المناضد.. كيف هذا؟ أين ذهبت الحقول الخضراء؟ لكنهم يهرعون إلى البحر.. فتشعر كأنما يجتذبهم المغناطيس في بوصلة كل السفن الواقفة هنا..

دع رجلًا شارد الذهن يمشي على قدميه.. ولسوف يقتادك في النهاية إلى البحر.. دع أبرع الرسامين يرسم لك منظرًا طبيعيًّا.. مهما بلغت براعته فإنه لا قيمة للوحة ما لم تتركز عينا الراعي الراقد تحت شجرته على مجرى الماء..
لو كانت شلالات (نياجرا) جبالًا من الرمال، فهل كنت تسافر مئات الأميال لتبصرها؟ لماذا يملك كل صبي سليم الجسد سليم الروح تلك الرغبة المحمومة في أن يذهب إلى البحر؟
ألم تشعر في رحلتك الأولى بتلك الرجفة الصوفية، حين يخبرونك أن سفينتك ابتعدت عن الأرض؟ لماذا عبد الفرس القدامى البحر؟ ولماذا اعتبره الإغريق إلهًا؟ وماذا عن قصة (نرجس Narcissus)؟ الذي فتنته صورته في الماء فلم يستطع الظفر بها، من ثم قضى على حياته هناك..
إنها تلك الصورة التي نراها في كل الأنهار والمحيطات.. إنها صورة شبح الحياة الذي لا يمكن الإمساك به.. وهذا هو مفتاح كل شيء..
وحين أقول إنني أذهب للبحر كلما شعرت بضباب في عيني، وعسر في تنفسي، فإنني لا أريد أن يفهم أحد أننى أذهب للبحر كمسافر، إن ركاب السفن يصابون بدوار البحر ويحملون حقائب، ويتشاجرون ولا ينعمون بوقتهم دقيقة..
كما أنني لا أقصد البحر قبطانًا ولا كومودور ولا طباخًا.. إننى أترك (هيلمان) هذه المناصب لمن يريدونها.. بالنسبة لي أنا أمقت كل الرسميات مهما كانت، وبرغم أن مهنة الطباخ لا بأس بها، فإنني أكره شي الدجاج.. برغم أنه ما إن يتم شي الدجاج فعلًا، ويضاف الزبد والتوابل له، فإنك لن تجد من يتحدث عن الدجاج المشوى باحترام أكثر منى.

لا.. حين أقصد البحر فأنا أقصده بحَّارًا بسيطًا.. برغم أنهم يأمرونني ويزجرونني ويجعلونني أتواثب من صارٍ إلى آخر كأنني جندب في مرج في مايو.
في البداية لا تشعر بسرور لهذا.. إنه يمس إحساسك بالكبرياء خاصة لو جئت من أسرة عريقة على اليابسة.. والأسوأ لو كنت - قبل أن تتورط في هذا - معلمًا ريفيًّا مما يجعل أطول التلاميذ قامة يحنون رءوسهم أمامك، حقًّا إن التغيير لشديد لكن سرعان ما يزول هذا الامتعاض مع الوقت.
ماذا في أن يطلبوا مني أن أحضر مكنسة وأنظف سطح السفينة؟ هل هذا يجعلني أقل شأنًا أو يقلل ميزاني عند الله؟ من منا ليس عبدًا؟ قل لي.. لهذا مهما طلب منى ووبخني الضباط فإنني أعرف أن هذا لا بأس به.. كلنا عبيد بشكل أو بآخر سواء على المستوى البدني أو الميتافيزيقي، وعلينا أن نربت على أكتاف بعضنا، ونرضى..
بالإضافة لهذا أرى البحر برؤية بحار لأنهم يدفعون للبحار ثمن معاناته للمسافرين مليمًا، وعلى العكس.. المسافرون يدفعون، وما أكبر الفرق بين أن تدفع وأن يدفع لك!! من المثير أن ترى كم أن تقاضي المال ممتع، برغم أن الناس جميعًا تؤمن أن المال هو سبب مشاكل العالم.. غريب أن ترى مدى الترحاب الذي نسلم به أنفسنا إلى الخراب!
أما آخر أسباب حبي لمهنة البحار، فهو أننى أتلقى الهواء نقيًّا طازجًا، بينما القبطان أو أمير البحر يتلقى هواءه مستعملًا بعدما استنشقه البحارة.
أما لماذا قررت أن أركب البحر هذه المرة على سفينة صيد حيتان، فهذا يعود إلى يد القدر التي تتحكم فيَّ، والتي سيطرت على كل شيء في حياتي، فهي من يعرف الإجابة على الأسئلة،

وأعتقد أنها زينت لي الأسباب التي جعلتني أختار هذا الدور بالذات، حاسبًا طيلة الوقت أن الاختيار تم بإرادتي الحرة.
من بين هذه الأسباب وأهمها فكرة الحوت العظيم ذاتها.. هذا الوحش الهائل الغامض حرك كل فضول لدى.. البحار القصية المتوحشة حيث يسبح، والمشاهد والأصوات التي لا يمكن وصفها في البحار الجنوبية.. إن الرغبة في الأشياء البعيدة تعذبني دومًا.. أحب أن أبحر في البحار الممنوعة.. وأهبط فوق الجزر المتوحشة.
لهذا رحبت برحلة صيد الحيتان.. وانفتحت أبواب سدود العالم السحرى، ومنها طفت في أعماق روحي مواكب من الحيتان، ووسطها أرى شبحًا عملاقًا يغطى رأسه بكبود، كأنه جبل جليدي يرتفع في الهواء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

في الحانة

وضعت قميصًا أو اثنين في حقيبتي العتيقة ودسستها تحت ذراعي، ثم اتجهت إلى (كيب هورن) والمحيط الهادي تاركًا مدينة (مانهاتو) الطيبة، ووصلت إلى (نيو بدفورد).. كانت ليلة سبت في ديسمبر، وضايقني أن سفينة البريد المتجهة إلى (نانتوكت) قد أقلعت.. وأنه ما من سبيل سوى الانتظار حتى يوم الاثنين، كنت مفتونًا بكل شيء يمت ل- (نانتوكت) بصلة، برغم أن (نيو بدفورد) قد احتكرت مهنة صيد الحيتان، لكن (نانتوكت) ظلت تمثل الأصل الساحر لهذه المهنة. إنها المكان الذي عُلق فيه أول حوت صيد في أمريكا. من أين إن لم يكن من (نانتوكت)، خرج هؤلاء الرجال الحمر الأصليون في قواربهم الصغيرة، ليصيدوا إفعوان البحر؟

الآن كان أمامي يوم وليلتان في (بدفورد) قبل أن أتجه إلى مقصدى، كانت الليلة تبدو كئيبة مقلقة.. باردة خالية من البهجة، خاصة أنني لا أعرف أحدًا هنا.. تحسست جيبى فلم أجد إلا بعض قطع الفضة.. إذن إلى أين تذهب يا إسماعيل؟ الجهامة في الشمال والظلام في الجنوب.. فأين تمضى الليلة؟

مشيت في الشوارع أتحاشى كل خان بدا لي فاخرًا أو غاليًا.. وهكذا بالغريزة وجدت أننى أتجه نحو البحر، حيث هناك بالتأكيد أرخص - ما لم تكن أسعد - الحانات.

يا للشوارع المخيفة! كتل من الظلام لا البيوت على جانبي الطريق..

في النهاية وصلت قرب الميناء فوجدت ضوءًا شاحبًا، ورفعت رأسي لأرى لافتة عليها رسم يمثل دخانًا أبيض ينبثق، وقد كتب عليها (حانة زفير الحوت - بيتر كوفين).
(كوفين)؟ هذا اسم يوحى بالتشاؤم لكنه شائع في (نانتوكت)[3].. لربما جاء (بيتر) هذا من هناك.. وأدركت من فقر اللافتة والبيت الخشبي ذاته أن هذا المكان رخيص، الريح التي تسمى (إيوروكلايدون) قاسية تعصف محدثة صوت عواء يذكرني بقول قديم: يختلف استقبالك للريح بين أن تشاهدها من وراء نافذة مغلقة والثلج على جانبي الزجاج، وبين أن تشاهدها من وراء النافذة التي هي عيناك.. هذا صحيح.. أنا بيت وعيناى نافذتان.. لكن لا وقت لهذا الكلام الآن.. نحن ذاهبون لصيد الحيتان.. دعنا نزل الثلج عن أقدامنا المتجمدة ونَرَ ما هذه الحانة..
ما إن تدخل الحانة، حتى تجد الكثير من خشب البلوط الذي يذكرك بأعمال نحت قديم منسى، هناك لوحة زيتية يغطيها الدخان بعناية، بحيث إنك تحتاج لأن تراها عدة مرات، وتسأل الجيران عنها إلى أن تصل لفهم ما الموجود فيها، على الجدار المواجه ترى عشرات الرماح والهراوات، بعضها مزدان بأسنان حادة كأنه مشط من عاج، وبعضها مزدان بشعر آدمي، حتى لتتساءل عن أكل لحوم البشر العملاق الذي خرج يومًا ينشر الموت بأسلحة كهذه..
هناك عظمة مقوسة عملاقة لحوت تم وضع البار فيها، كأنما زجاجاته هي أسنان هذا الوحش.. وعدد من البحارة الشبان، يحتشدون حول منضدة يتفحصون عينات من الصيد، فبحثت عن صاحب الخان، وأخبرته أنني أرغب في المبيت عنده.. قال لي إن المكان ممتلئ بالكامل.

- « لكن.. انتظر.. ليس عندك اعتراض على أن تشارك أحد رماة (الحربون) فراشه.. أليس كذلك؟ ما دمت ذاهبًا لصيد الحيتان، فعليك أن تعتاد هذا.. »

قلت له إنني لم أعتد قط أن أنام مع أحد في فراش واحد، فإن كنت مرغمًا؛ فهذا يتوقف على رامي الحربون نفسه، لو لم يكن لديه اعتراض فأنا أقبل مشاركة أي رجل محترم فراشه.

قال الرجل:

- « ظننت هذا.. هلم اجلس.. عشاء؟ هل تريد عشاء؟ سيكون معدًّا حالًا.. »

بعد قليل نادوا أربعة رجال منا إلى الغرفة المجاورة.. كانت باردة مثل (أيسلندا)، لأن صاحب الخان قال إنه لا يملك مالًا للتدفئة.. لم تكن هناك سوى شمعتين، فعقدنا أزرار ثيابنا، ورفعنا لشفاهنا أقداح الشاي الساخن.. لكن الطعام كان رائعًا.. ليس لحمًا وبطاطس فقط.. بل زلابية كذلك! رباه! زلابية للعشاء! والتهم بحار شاب الكثير منها، فقال له صاحب الحانة:

- « أيها الشاب.. سترى كابوسًا في منامك حتمًا.. »

قلت له:

- « يا صاحب الخان.. كيف يبدو رامي الحربون هذا؟ »

بدا لى مستمتعًا بالموقف، وقال:

- «آه.. إنه شاب كالح الوجه ولا يأكل الزلابية.. لا يأكل إلا شرائح اللحم ويفضلها نيئة! »

- « يا للشيطان! وأين هو؟ هل هو معنا هنا؟ »

- « سيأتي قريبًا.. »

بدأت أقلق بصدد رامي الحربون (كالح الوجه) هذا وقررت أنه لو كان على المبيت معه، فيجب أن يدخل الفراش وينام قبلى.

انتهى العشاء فعدنا إلى البار، وأزمعت أن أقضي الليل في مراقبة هؤلاء القوم.
في هذه اللحظة وصلت سفينة صيد حيتان من جزر (فيجي)، وكان هذا الخان هو أول موضع يدخله بحارتها.. فلا عجب أنهم بدوا والجليد يتخلل لِحَاهم كأنما دببة قطبية من (لبرادور).. وسرعان ما عمت الضوضاء والصخب..
ولقد لاحظت بين هؤلاء البحارة رجلًا أميل إلى العزلة، لا يبدو ميالًا إلى أن يعكر صفو رفاقه بوجهه الرصين.. أثار هذا الرجل انتباهي لحظتها، لكن لأن الأقدار كانت ترتب أن يكون رفيقي في السفر، فإنني سأصفه بتفصيل أكثر.
كان طوله ستة أقدام، وله كتفان نبيلتان.. لم أر رجلًا بهذا التكوين العضلي من قبل.. وجهه قاتم مما يعطى أسنانه بياضًا غير معتاد، صوته حين تكلم يشى بأنه جنوبي، وقد اختفى وسط الزحام، وبدا أن الرجال يفتقدونه فراحوا يتصايحون:
- « (بلكنجتون).. أين (بلكنجتون)؟ »
والآن تجاوزت الساعة التاسعة وهدأ هذا الصخب.. وبدأت أهنئ نفسي على الخطة التي أزمعتها قبل دخول البحارة.. لا أحد يطيق أن يشارك شخصًا آخر الفراش.. بل إنك لا تطيق أن تشارك أخاك فراشه.. لا أعرف السبب لكن الناس يحبون الخصوصية حين ينامون، وحينما يتعلق الأمر بالنوم مع غريب في حانة غريبة في بلدة غريبة.. وهذا الغريب يقذف الحربون، عندها يتزايد اعتراضك على الفكرة.. إن البحارة ينامون جميعًا في مكان واحد، لكن في النهاية لك كيس نومك وغطاؤك الخاص.. ولا أحسب أن رامي الحربون هذا سيكون آية في النظافة..
قلت لصاحب الحانة:

- « يا صاحب الحانة.. لقد غيرت رأيي بصدد النوم مع رامي الحربون.. سأنام هنا على هذه الدكة.. »
هنا فكر الرجل في أن يحضر لوحًا خشبيًا ليصير لي فراشًا.. أحضر منديلًا ونظف اللوح من التراب، وهو مقطب الوجه كقرد.. لكني بالفعل لم أستطع أن أصل إلى وضع مناسب للنوم، وكان الهواء البارد يتسرب من النافذة.. بينما إحدى الدكتين كانت أقصر من اللازم والأخرى أضيق من اللازم، ورحت أفكر بأنه من الأفضل أن أنتظر حتى أرى رامي الحربون هذا.. فلربما بدا لي لطيفًا..
لكن الساعة بلغت الثانية عشرة ولم يظهر رامى الحربون هذا، وسألت الرجل عنه.. هل هو دائمًا يتأخر في النوم إلى هذا الحد.. فضحك ضحكته المكتومة وقال:
- «بالعكس.. هو طائر مبكر.. يصحو مبكرًا وينام مبكرًا.. لكنه الليلة ذهب للتجارة.. ولا أعرف لماذا بحق السماء قد تأخر إلى هذا الحد.. ربما لا يستطيع أن يبيع رأسه.. »
تصاعد غضبي:
- «لا يستطيع بيع رأسه؟ ما هذه القصة التي تحكيها لي؟ »
- « القصة هكذا فعلًا.. وقد أخبرته أنه لن يبيعه هنا.. فالسوق مزدحم بالبضاعة.. »
صحت:
- « بماذا؟ »
- « بالرءوس طبعًا.. ألا ترى الكثير من الرءوس في العالم؟ »
- « ألن تكف عن المزاح؟ أنا لست معدوم الخبرة أو أخضر! »
- « لا أعرف لونك لكن أؤكد أنك ستنتهى بني اللون، لو سمعك رامي الحربون تتهكم على رأسه!! »
قلت له محاولًا أن أتعقل:

- » جئت دارك يا صاحب الخان فعرضت عليّ نصف فراش مع رامي الحربون هذا.. الآن أريد أن أعرف كل شيء عنه.. وأن أعرف هل أكون في أمان معه.. لكن لا تردد من فضلك قصة بيع الرأس هذه التي تجعلني أعتقد أنه مجنون تمامًا.. »
قال الرجل:
- » خطبة جميلة بالنسبة لشاب مثلك.. لكن رامي الحربون الذي حكيت لك عنه جاء من البحار الجنوبية مع مجموعة من الرءوس المحنطة من (نيوزيلاند).. وقد باعها جميعًا ما خلا واحدًا.. لكن غدًا الأحد وهو لن يبيع رءوسًا آدمية في الشارع بينما الناس يقصدون الكنيسة.. كان ينوى ذلك الأحد الماضي لكني منعته من مغادرة الحانة حاملًا خمسة رءوس مربوطة بخيط كأنها حزمة بصل »
هنا فهمت أن الرجل لا يخدعنى أو يسخر منى، لكن كيف أتعامل مع رامي حربون يقضى ليلة السبت المقدسة في بيع رءوس همج محنطة؟
قال لي صاحب الحانة:
- « إنه فراش واسع.. دعنى أرك إياه.. »
وحمل شمعة وتقدمني.. لكني وقفت مترددًا وعينى على ساعة في الركن.. فهتف بي:
- « إنه الأحد الآن.. أعتقد أنك لن ترى رامي الحربون هذه الليلة.. لا بد أنه في مكان ما.. هلم معى إذن.. »
فكرت في الأمر ثم تبعته إلى الطابق العلوي.. في النهاية وجدت أنني في غرفة صغيرة باردة كالحلزون، وبها فراش هائل الحجم يمكن أن ينام فيه أربعة من رماة الحربون، ووضع لى الشمعة على صندوق يصلح في الوقت ذاته كمنضدة.. وحياني وانصرف.

طويت اللحاف واندسست في الفراش.. ليس الأفخم لكنه مر بالامتحان السريع الذي عقدته له، فيما عدا هذا لم أر أي أثاث إلا لوحة تمثل رجلاً يقتل حوتًا، هناك حربون يستند إلى نهاية الفراش، ومجموعة من الشص المصنوعة من عظام الأسماك، لكن ما الذي يوجد في هذا الصندوق؟
غصت في الفراش وتركت نفسي لعناية الله..
لا أعرف إن كانت الحشية مليئة بقطع الفخار المهشمة لكني لم أستطع النوم لفترة طويلة، لكني بعد فترة غبت في غفوة خفيفة وكدت أغوص في النوم أكثر، لولا أن سمعت صوت خطوات ثم التمع ضوء من ناحية الباب.
فليحمني الله.. لا بد أن هذا هو رامي الحربون.. تاجر الرءوس الجهنمي.
حاملًا شمعة في يد وذلك الرأس النيوزيلندي في أخرى، دخل ذلك الرجل الحجرة، فلم يلق نظرة على الفراش.. إنما راح يفك رباط الحقيبة الملقاة في الركن.
كنت أتحرق لرؤية وجهه.. وبعد قليل رأيته.. رباه! يا له من مشهد! كان له لون مصفر داكن رسمت عليه مربعات كبيرة هنا وهناك.. كنت على حق.. إنه أسوأ شريك فراش ممكن.
تذكرت قصة عن رجل أبيض وقع في قبضة أكلة لحوم البشر.. وقد رسموا له هذا الوشم.. هذا لا يهم.. لكن ماذا عن منظره المخيف تحت هذا الوشم؟ لم أسمع قط عن أن الشمس لوحت وجه رجل أبيض ليكسب هذا اللون المصفر الغريب.. على كل حال أنا لم أكن قط في البحار الجنوبية.
رأيت الرجل يمسك بالرأس النيوزيلندي ويضعه في الحقيبة، ثم نزع قبعته.. لم يكن هناك شعر في رأسه.. لا شيء سوى عقدة

صغيرة فوق جبهته.. فبدت رأسه كأنها جمجمة يغطيها العفن.. فلو لم يكن يسد الطريق بيني والباب لجريت هاربًا بلمح البصر.
إن ما أراه من هذا الغريب ليفوق فهمي، والجهل هو صنو الخوف، أقسم أنني أخاف الغريب كما أخاف الشيطان ذاته لو تسلل لحجرتي في قلب الليل.
بدأ ينضو ثيابه فرأيت صدره وظهره.. نفس المربعات السوداء على هذه الأجزاء المغطاة.. من الواضح أنه متوحش وليس صائد حيتان في البحار الجنوبية، إنه تاجر رءوس.. ربما رءوس إخوانه أنفسهم.. ربما يروق له رأسي كذلك! رباه! ألا ترى هذه البلطة التي يحملها؟
من جديد راح يعبث في حقيبته ثم أخرج تمثالًا أسود اللون، حسبته في البدء طفلًا إفريقيًّا محنطًا.. ثم رأيت الطريقة التي يلتمع بها ففهمت أنه وثن.. اتجه إلى المدفأة الخالية فوضع هذا التمثال الصغير الأحدب بين مساند الحطب، فعرفت أنه يجعل من هذا المكان معبدًا وثنيًّا له، أخرج من حقيبته بعض البسكويت واتجه إلى الصنم.. وبدا لي كأنما هو يقدم بعض البسكويت لهذا الصنم، لكن الوثن لم يبال كما يبدو ولم يحرك شفتيه.
طيلة هذا الوقت لم يكف عن ترديد صوت حنجرى خفيض فأدركت أنه يغني أغنية وثنية دينية ما، بينما هو يحرك وجهه بأغرب الطرق الممكنة، ثم انتهت هذه الطقوس فحمل الصنم في إهمال هذه المرة، وألقى به في حقيبته غير مكترث.
الآن بدا لي بوضوح أنه أنهى طقوسه الغريبة، وأنه سيدخل الفراش، فقررت أن أحطم حالة الشلل التي اعترتني.. رأيته يتناول الغليون فيدسه في فمه ثم ينفث سحابًا كثيفًا من الدخان نحو

الباب، وفي اللحظة التالية انطفأ الضوء وغاص آكل لحوم البشر في الفراش جواري والغليون في فمه.
هنا صرخت.. فمد يده في الظلام يتحسسني، قلت شيئًا لا أعرف ما هو ثم وثبت إلى الجدار، فقال لي:
- « من.. الشيطان.. أنت؟ لا تتكلم.. لعنة.. قتلك! »
وازداد توهج الغليون فبدأ يلتمع من حولي في الظلام..
- « يا صاحب الخان! بالله عليك! أنقذني!! »
عاد الرجل يغمغم:
- » تتكلم.. لعنة.. قتلك! »
هنا ولله الحمد دخل صاحب الخان الغرفة.. فوثبت نحوه من فوق الفراش.. قال لي ضاحكًا:
- «لا تخف.. إن (كويكونج) لن يمس شعرة من رأسك.. »
- «كف عن الضحك.. لماذا لم تخبرني أن رامي حربونك هذا آكل لحوم بشر؟ »
- «حسبتك تعرف.. ألم أخبرك أنه يبيع رءوسًا بشرية؟ »
ثم وجه الكلام للمتوحش:
- « (كويكونج).. هذا رجل ينام معك.. »
أشار (كويكونج) نحوى بطرف الغليون وأزاح الأغطية، وقال:
- « أنت.. تدخل.. تدخل.. »
فعلها بنوع من التهذيب.. فوقفت أنظر له.. برغم كل شيء كان آكل لحم بشر مهذبًا نظيفًا..
لماذا أحدثت كل هذه الضوضاء؟ الرجل بشرى مثلي.. من الأفضل أن تنام مع آكل لحم بشر عاقل عن شخص متمدين ثمل..
قلت لصاحب الخان:

- « قل له أن يتخلى عن هذا الغيلون.. من الخطر أن ينام المرء والغليون في فمه.. هذا خطر.. »

فما أن سمع (كويكونج) الطلب حتى ترك الغليون، وقال وهو يندس في الفراش:

- «لن ألمس قدمًا منك.. »

قلت:

- « عمت مساء يا صاحب الخان.. »

ونمت نومًا عميقًا لم أذقه في حياتي قط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

الشارع:

حين أفقت في الصباح وجدت أن (كويكونج) قد لف ذراعه حولي في حب ومودة كأنني زوجته، وقد امتزجت مربعات الوشم على ذراعه بالمربعات على اللحاف، حتى إنني لم أتعرف الذراع إلا من ثقلها، وحاولت أن أزيح ذراعه الوثنية الثقيلة، لكني لم أستطع.. شعرت بالرعب وحاولت إيقاظه فكانت إجابته الوحيدة هي المزيد من الغطيط..

في النهاية استجاب لندائي المتكرر ونفض نفسه ككلب مبتل من (نيوفاوندلاند) وجلس في الفراش.. وراح يفرك عينيه كأنما يتساءل عن سبب مجيئي هنا.. أخيرًا بدأ يفهم فنهض من الفراش وأشار لي بما معناه أنه - لو أردت - يمكن أن يرتدي ثيابه أولًا ويترك لي الحجرة، كى أرتدي ثيابي منفردًا.. الحقيقة أن أغلب هؤلاء المتوحشين لديهم إحساس شديد باللياقة.. ولسوف يدهشك أن ترى كم هم مهذبون.. لقد عاملني بهذه اللياقة بينما كنت أنا في الفراش أنظر له في غلظة ورعبٍ.. لقد غلب الفضول أي تهذيب لدى.. أنت لا ترى رجلًا مثل (كويكونج) كل يوم.

بدأ يلبس ثيابه بشكل منتظم.. قبعته أولًا وقبل أي شيء آخر.. ثم بحث عن حذائه.. ثم دخل تحت الفراش وراح يئن ويجاهد ليرتدى الحذاء، وهو شيء لم أفهمه قط.. منذ متى يجب على الإنسان أن يلبس حذاءه في خصوصية بعيدًا عن الأعين؟ لكن (كويكونج) كان في مرحلة تحول من متوحش إلى شخص متحضر.. لم يكن قد تخرج بعد ولا يمكنك فهم تصرفاته جيدًا..

لو كان أقل تحضرًا لما اهتم بارتداء حذاء، ولو كان أقل توحشًا لما دخل تحت الفراش لينتعل حذاءيه.. وقد راح يجوب الغرفة بمظهره الغريب، حتى توسلت إليه أن يسرع بارتداء سرواله فاستجاب..
راح يغسل، لا وجهه، لكن صدره وذراعيه ويديه.. ثم أخرج الحربون وفك الغطاء عن قمته، ووقف أمام المرآة الصغيرة المهشمة وراح يحك ذقنه ليحلقها برأس الحربون.. فيما بعد ازددت دهشة حين عرفت من أي نوع صلب جيد يصنع الحربون، وكم أن حوافه حادة بشكل لا يصدق..
في النهاية انتهى من زينته فغادر الحجرة فخورًا.. والحربون في يده كأنه عصا الماريشالية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأ النزلاء يتجمعون في الطابق السفلي من الحانة، واستطعت أن أميزهم واحدًا واحدًا وأقدر كم بقى كل منهم على اليابسة.. دعانا صاحب الخان إلى الإفطار فدخلنا قاعة الطعام.. يقولون إن السفر ورؤية العالم يجعلانك أكثر ثقة بالنفس لكني لم أر هذا في أولئك الرجال.. هناك اثنان كانا مرتبكين بشدة.. الأول جاب سيبيريا على زحافة تجرها الكلاب، والثاني جاب إفريقيا وسط القبائل البدائية.. فعرفت أن هاتين الخبرتين ليستا أفضل ما يتعلم منه المرء قواعد اللياقة.. والأغرب هنا أن الصمت كان يلف هؤلاء الرجال بشكل مريب.. كلاب البحر هذه التي جابت العالم، وقتلت مئات الحيتان في مياه غريبة، لا تشعر براحة في مناسبة اجتماعية تافهة مثل تناول الإفطار.. غريب حقًا أمر هذه الدبة الخجول!

لما عن (كويكونج) فلا يستطيع أعظم المعجبين به أن يبرر إحضاره الحربون إلى مائدة الإفطار، واستعماله في الأكل.. بل أن يطوح به فوق الرءوس ليلتقط شرائح اللحم.
لن أتكلم عن أسلوب (كويكونج) ولا كيف ترك القهوة والكعك واكتفى بشرائح اللحم النيئ، ولا كيف نهض بعد الإفطار ليدخن غليونه في البار، وقبعته لم تفارق رأسه لحظة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهبت إلى كنيسة البلدة فحضرت الصلاة، ثم عدت إلى الخان.. هناك وجدت (كويكونج) جالسًا جوار النار وقد فرد ساقيه نحوها.. كان يمسك كتابًا وإن كان لا يعرف القراءة طبعًا.. كان يعد خمس عشرة صفحة ثم يتوقف ويشهق في دهشة، ثم يبدأ العد من جديد.. إنه مندهش من كم (الخمس عشرات) من الصفحات التي يحتويها هذا الكتاب بين دفتيه، وأدركت أنه لا يلاحظ وجودى على الإطلاق..
لم يكن منفرًا إلى الحد الذي شعرت به أولًا، ورأيت في عينيه ألفة يمكن أن تعتادها..
غريب أمر هذا المتوحش.. لقد جاء من بلاد قصية، وهو هنا في بلد غريبة بين قوم غريبين عنه، لكنه برغم هذا ينعم بالسلام النفسي.. تلك الفلسفة الحكيمة الفطرية لدى هؤلاء القوم كأنها فلسفة (سقراط) نفسه برغم أن الرجل لم يسمع قط بشيء اسمه فلسفة.
سأجرب صداقة هذا البدائي ما دامت صداقة المتمدينين ليست سوى تفضل منهم نحوى.
دنوت منه ورحت أصدر أصواتًا وحركات توحى بالمودة..

فسألني إن كنت سأشاركه الفراش هذه الليلة، ورحت أقلب معه صفحات الكتاب أحاول أن أفهمه معنى الصور الموجودة.. ثم عرضت عليه أن ندخن فأخرج غليونه وملأه لي بالطباق ورحنا نتبادل التدخين.. فلو كانت هناك بقايا من الجفاء بيننا فقد ولت مع هذا التدخين الاجتماعي.. في النهاية قال لى إننا صرنا صديقين وإنه مستعد للموت من أجلي إذا اقتضت الظروف.. لو كان هذا رجلًا ريفيًّا لكان وهج الصداقة هذا أسرع مما ينبغي، ولأثار الريبة في نفسك.. لكن هذه القواعد لا تنطبق على البدائيين.

بعد العشاء دخلنا الغرفة فقدم لي رأسه المحنط هدية، ثم أخرج من حاجياته ثلاثين قطعة فضية فقسمها نصفين متساويين ناولني أحدهما.. كدت أحتج لكنه أسكتني بأن فتح جيبي ودس فيه قطع الفضة.

ثم انهمك في صلوات المساء لمعبوده الوثنى، وشعرت أنه ينبغي أن أشاركه العبادة.. لكنى مسيحى متدين ولدت ونشأت في الكنيسة المعمدانية، وخطر لي أنني في وقت ما قد أجعل (كويكونج) ينضم لكنيستى.

ودخلنا الفراش.. لكننا لم نخلد للنوم قبل أن نتبادل الثرثرة بعض الوقت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

قصة حياة

لم نستطع النوم وبدا أن النعاس فارقنا بعد قليل، وهكذا شعرنا أن وضع الرقاد آلم ظهرينا.. جلسنا.. إن كل شيء يظهر بنقيضه.. لهذا لم ندرك ما نحن فيه من دفء إلا حين شعرنا البرد في أطراف أنوفنا.. بالمثل لا يمكنك أن تغبط نفسك على الراحة لأنه لا معنى للراحة ما لم تعرف التعب..
أغمضت عيني.. وهي الطريقة التي نرى بها أرواحنا.. كأنما الظلام جزء من سر وجودنا ذاته.. بينما الضوء يناسب كياننا الطيني أكثر.. ووجدت أن تدخينه الغليون قد يكون مناسبًا الآن! هذا هو الفارق بين الصداقة وبين عدم المعرفة.. ما بدا لي منفرًا كريهًا أمس بدا لي محببًا اليوم..
هكذا دخنا حتى انعقدت فوقنا سحابة زرقاء يضيئها المصباح..
راح يتكلم عن وطنه.. وبرغم أنني لم أفهم الكلام كله آنذاك إلا أنني فيما بعد اعتدت لكنته المهشمة، وأمكنني أن أعرف القصة متكاملة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان (كويكونج) من أهالي (كوكوفوكو).. جزيرة جنوبية غربية لكنها لم ترسم على أية خارطة.. كل الأماكن الحقيقية لا ترسم على الخرائط.. أبوه كان ملكًا بينما عمه كان كاهنًا.. إن في عروقه دمًا ملكيًّا ممتازًا، لكنه كان يحلم بزيارة العالم المتحضر.. وذات يوم رست سفينة على الشاطئ لكن بحارتها رفضوا أن يركب معهم.. لهذا ركب قاربًا صغيرًا وأبحر في خط مستقيم نحو نقطة يعرف أن السفينة ستمر بها..

من ثم انتظر حتى مرت به السفينة وبركلة واحدة أغرق القارب الذي جاء فيه، وتسلق سلاسل السفينة وصعد لسطحها وأقسم أنه لن يتركها إلا ممزقًا، هكذا اضطر القبطان إلى السماح له بالصعود لكنه أبقاه مع البحارة.. وهكذا تعلم الفتى كيف يكون صائد حيتان.. كان يتمنى أن يتعلم كيف يجعل قومه أسعد وأهنأ لكنه وجد أن المتمدينين أنفسهم يعانون مشاكل عدة.. لقد رأى كيف ينفق البحارة رواتبهم وماذا يفعلون، وقرر أن هذا العالم عالم شقى مليء بالشرور أينما ذهب، وعرفت أنه ما زال على دينه الوثني السابق.

سألته لم لا يعود إلى وطنه، ويحظى بالتتويج مادام أبوه قد مات على الأرجح، لكنه قال إن الوقت لم يحن بعد.. سيجوب أركان العالم ويتعلم أكثر ويبيع بضاعته.. أخبرته بنيتي في تعلم صيد الحيتان، وإنني أقصد (نانتوكت) لهذا الغرض.. فوافق على أن يصحبني إلى تلك الجزيرة، بل أن يركب معي نفس السفينة.. وقد وافقت في حماس لأنه صار صديقًا عزيزًا، كما أنه كان رامي حربون ذا خبرة.. فأنا أجهل كل شيء عن الحيتان بينما خبرتي واسعة بصدد الملاحة التجارية.

في الصباح التالي تخلصت من الرأس المحنط إذ أعطيته لحلاق ليستعمله قالبًا.. ودفعت حسابي وحساب صديقي بنقوده طبعًا.. وكان صاحب الخان مندهشًا من الصداقة التي ولدت بيني وبين (كويكونج) خاصة بعد القصص المخيفة التي حكاها لي عن رامي الحربون.

ثم حملنا حاجياتنا وركبنا (الأشنة) أو القارب الصغير الذي يتجه إلى (نانتوكت).. وراح الناس يرقبوننا في دهشة.. ليس بسبب (كويكونج) فهم اعتادوا رؤية أكلة لحوم البشر في شوارعهم، ولكن بسبب رؤيتي معه.. لكننا لم نبال بهم.

سألته عن السبب الذي يجعله يحمل الحربون معه.. ألا يوجد حربون في سفن صيد الحيتان؟ فقال إنه يحب حربونه الخاص.. وإن لهذا الحربون علاقة خاصة مع قلوب الحيتان.. إنه يعرفه ويعرف معدنه ولم يخذله قط..

رحنا ننعم برحلتنا شاعرًا بتلك النشوة التي تغمرني كلما رأيت البحر، بينما الأشنة تحنى رأسها للماء من حين لآخر كجارية أمام السلطان.. أملأ صدري بالهواء..

لم نحتك بأحد من ركاب القارب، لكن (كويكونج) أمسك ذات مرة ببحار أخرق يقلده من وراء ظهره.. هنا أدركت أن ساعة هذا البحار قد حانت.. لقد رمى (كويكونج) الحربون الذي يمسك به، ثم أمسك بذراع الفتى وطوح به في الهواء.. ثم تركه يسقط واستدار ليشعل غليونه ويعرض على بعض الطباق.

جرى البحار الأحمق نحو القبطان وهو يصرخ:

- « كابتن.. كابتن! إن الشيطان هنا! »

قال القبطان المحنك:

- « مرحبًا يا سيدي.. لماذا فعلت هذا بذلك الشاب؟ كان من الممكن أن تقتله.. »

سألني (كويكونج):

- «ماذا هو يقول؟ »

- « يقول إنك كدت تقتل الفتى.. »

- «لا.. لا.. سمكة صغير هو.. سمكة صغير.. (كويكونج) يقتل سمكة صغير لا.. حوت كبير نعم.. »

في النهاية وبعد رحلة تخللتها بعض المتاعب مع البحر، وصلنا إلى (نانتوكت)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

نانتوكت

(نانتوكت)! خذ خارطة وانظر إليها.. تأمل موضعها من العالم.. رمال في كل مكان.. مجرد شاطئ لا شيء وراءه.. سيقولون لك مازحين إنهم يستوردون الأعشاب الشيطانية ذاتها.. فلا نبات ينمو هنا، يقولون إن حزمة أعشاب تعنى واحة هنا.. وثلاث حزمات تعنى نزهة في البراري.. يقولون إنهم يلبسون أحذية رمال تشبه أحذية الجليد.. كل هذه مبالغات لكنها تدلك على أن (نانتوكت) ليست (إلينوي)..
تقول الأسطورة إن نسرًا اختطف طفل زوجين همجيين، وطار فوق المحيط، فركب الزوجان قاربًا ليلحقا به.. أخيرًا وصلا إلى هذه الجزيرة حيث وجدا عش نسر فيه الهيكل العظمى لابنهما، ومن ذلك الحين عاشا في البحر أبدًا.. هؤلاء القوم لا يعرفون اليابسة، وهي بالنسبة لهم غريبة غرابتها على رجل القمر.. إنهم لا يبالون بتقلبات الحياة على اليابسة، ولا يخافون الفيضانات التي يرتجف من هولها ملايين الصينيين.. إنهم سادة البحر وأبناؤه أبد الدهر..
في المساء هبطت و(كويكونج) في المرفأ.. وكان صاحب الخان في (بيدفورد) قد أوصانا بالذهاب إلى ابن عمه (هوسيا هوسي) الذي يملك - كما قال - واحدًا من خير الفنادق في (نانتوكت)، واسمه (تراى بوت) - ومعناها (جرب هذا القدر) - وإن وصف لنا مكان الفندق مستعملًا ألفاظ (الميمنة) و(الميسرة) مما سبب لنا الكثير من المشقة في العثور على المكان..
تشاءمت حين رأيت الفندق لأن تصميمه مع الأشجار المحيطة به ذكرني بالمشنقة، وكنت حساسًا لهذه الأمور وقتها.. (كوفين)

في أول ليلة لي في (بدفورد) ومشنقة هنا! شعرت بتقلص في عنقي وأنا أنظر إلى هذا الفندق..
لم يكن مستر (هوسى) موجودًا لكن زوجته كانت تدير المكان ببراعة.. وطلبنا المبيت وعشاء..
قدمت لنا محارًا ممتازًا مما أغراني أن أطلب بعض لحم الحوت كذلك.. كان الطعام لذيذًا متبلًا بعناية.. هنا كنت تأكل السمك في كل الوجبات حتى توشك أن ترى عظام السمك تبرز من تحت قميصك.. حتى اللبن كان له طعم السمك، وهو ما لم أجد له تفسيرًا، حتى رأيت بقرة المستر (هوسى) على الشاطئ تأكل بقايا الأسماك.. أؤكد لك هذا..
فرغنا من العشاء فصعدنا لغرفتينا، لكن المرأة أصرت على ألا يصحب (كويكونج) الحربون معه لأنه خطر.. إنها لا تترك نزلاءها ينامون بالحربون في غرفهم أبدًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قضينا الأيام التالية في البحث عن سفينة صيد حيتان مناسبة، وكان يعتمد في اختياره على ذلك الصنم (يوجو) الذي يحمله والذي يسترشد برأيه في كل شيء.. لكنه كان يتعامل معه بحذر باعتباره حسن النوايا عامة، لكن لا يمكن أن تثق فيه بشكل مطلق.
كانت هناك ثلاث سفن تتأهب لرحلة مدتها ثلاثة أعوام.. (سد الشيطان).. (حفرة العصفور).. (بيكود).. لا أعرف مصدر اسم السفينة الأولى، لكن اسم الثالثة - كما لابد أنك تتذكر حتمًا - هو اسم قبيلة هندية شهيرة من (ماساشوستس)، انقرضت الآن..

تجسست على السفن الثلاث ثم قررت في النهاية أن (بيكود) هي السفينة التي أبحث عنها من البداية.. لا بد أنك رأيت سفنًا كثيرة لكن خذ كلمتي في هذا الصدد.. لن ترى أبدًا مثل هذه السفينة.. كانت من المدرسة القديمة في السفن.. صغيرة لها شكل عام يذكرك بالقدم المقوسة.. اصطبغت بلون الأعاصير والفصول التي واجهتها في أربعة المحيطات.. وقد انتصبت صواريها الثلاث التي صنعت في اليابان، كأنها فقرات ظهر ثلاثة ملوك من (كولونا).. أما ظهرها فمجعد متآكل كأنه الحجر الذي يقصده الحجاج في كاتدرائية (كانتريري) حيث لقي (بيكت Beckett) حتفه.. لقد أضافوا إليها بعض لمسات عصرية جعلتها غريبة.. كانت مزخرفة بالعاج كأى إمبراطور إثيوبي بربرى.. وكأنها سفينة أكلة لحم البشر تشق طريقها وسط عظام أعدائها..

سفينة نبيلة لكن فيها لمسة واضحة من الشجن، وكل الأشياء النبيلة تعطى هذا الإحساس..

اتجهت للمقدمة بحثًا عن المسئول هنا، لأطلب منه العمل تحت إمرته.. وجدت رجلًا تبدو عليه أمارات القيادة يقف هناك، وقد بدا جسده العضلي الأسمر برغم سنه المتقدمة كجسد أكثر البحارة، بالإضافة إلى تلك التجاعيد حول العينين، وهي ما يتكون بالتدريج بعد أعوام وأعوام من مواجهة الريح، مما يجعل العضلات حول العينين تتقلص بشكل دائم، وكان من الواضح أنه من جماعة (الكويكرز Quakers) الدينية كأغلب سكان هذه الجزيرة.. لكن الكويكرز هنا يختلفون في أنهم مولعون بالقتال[4].

سألته:

- « هل هذا قبطان (بيكود)؟ »
سألني:
- « لو افترضنا أن هذا قبطان (بيكود)، فماذا تريد منه؟ »
- «كنت أفكر في الإبحار.. »
- «كنت؟ كنت؟ أنت لست من أهل (نانتوكت)، فهل سبق لك السفر بقارب بخارى؟ »
- « لا يا سيد.. ولا أعرف شيئًا عن صيد الحيتان، لكنى سأتعلم سريعًا.. لقد كنت بحارًا لفترة طويلة على السفن التجارية و.. »
- « اللعنة على السفن التجارية! سوف أنزع هذه القدم من على الدفة لو أنك تكلمت عن السفن التجارية ثانية! لماذا تفكر إذن في صيد الحيتان؟ ألا ترى هذا مريبًا؟ هل أنت متأكد من أنك لم تسط على سفينتك السابقة أو عملت في القرصنة؟ ألا تفكر في ذبح ضباط سفينتك القادمة؟ »
نفيت هذه الاتهامات عنى، لكني كنت أعرف أنه برغم المزاح الواضح في كلامه، يحمل شكًّا أصيلًا في الأغراب، قال لي:
- « تريد معرفة ما هو صيد الحيتان؟ هل رأيت القبطان (أهاب)؟ »
- » ومن هو؟ »
- « ظننت هذا.. حسن.. هو قبطان هذه السفينة.. »
- » كنت أحسبني أتكلم مع القبطان.. »
- « لا.. أنت تتكلم مع القبطان (بيليج).. إن مهمتي أنا والقبطان (بيلداد) أن نتأكد من سلامة هذه السفينة للرحلة ونزودها بالمؤن والرجال.. نحن جزئيًا مالكان للسفينة وجزئيًّا موظفان.. لكن من الخير لك أن تعرف ما هو أكثر قبل أن تربط حياتك بصيد الحيتان.. لو رأيت القبطان (أهاب) لعرفت أنه برجل

واحدة.. لقد فقدها أيها الشاب.. التهمت.. تهشمت.. أنت فتى ناعم الرئتين.. فهل أبحرت من قبل؟ »
- « سبق أن قلت يا سيدي إنني كنت على السفن التجارية.. »
- « قلت لك ألا تذكرها أمامي! ولكن قل لي.. هل أنت الرجل الذي يمكنه أن يمسك الحربون ويقذفه في حلق حوت حي؟ ثم يقفز لينتزعه؟ أجب بسرعة! »
- « أعتقد هذا يا سيدي.. »
- « أنت تريد أن ترى العالم.. ألا يكفي أن تراه من هنا؟ »
كنت راغبًا بشدة في صيد الحيتان؛ لذا تمسكت بموقفي وأخبرته بهذا، فقال في النهاية إنه سيأخذني معه.. وإن بوسعي توقيع الأوراق الآن..
كان هو و(بيلداد) أكبر مساهمين في هذه السفينة، بينما يمتلك كثيرون ما تبقى منها.. البعض يملك ما يساوى مسمارًا أو لوح خشب.. إن أكثر سكان الجزيرة يستثمرون أموالهم في سفن الحيتان كما يستثمر سكان المدينة أموالهم في الأسهم..
حين رأيت (بيلداد) تبينت فيه طراز (الكويكر) الذي لا يؤمن بالعنف ولا يحارب من يحتل وطنه، لكنه في المقابل يمكن أن يحتل أوطان الآخرين ويذبحهم، وهو في هذا يعتبر الدين شيئًا منفصلًا عن السلوك اليومي.. وكان البحارة الذين عملوا معه في شبابه يقولون إنه كان متدينًا لم يسب بحارته قط، لكنه كان قاسي القلب لدرجة أن أكثر بحارته كانوا يدخلون المستشفى لدى الوصول إلى اليابسة، وقيل إنه في شبابه كان يكفي أن ينظر لك لتشعر بالعصبية وتبحث عن أي شيء تنشغل به.. مطرقة.. سكين، أي شيء..
كنت أعرف طبعًا أنه في مهنة صيد الحيتان لا يوجد شيء اسمه راتب.. هم يعطونك جزءًا من الغنيمة فيما يسمى (طبقة)..

وهذه الطبقات تندرج حسب أهمية دورك.. طبعًا كنت عديم الخبرة بالحيتان لكن خبرتي بالبحر تسمح لي بالحصول على واحد على 275 من أرباح الرحلة مهما كانت، دعك من اللحم البقرى والخبز الذي لن أدفع عنه مليمًا طيلة ثلاث السنوات، لكني فوجئت بأن (بيلداد) - المنهمك في مطالعة كتاب الصلوات - أراد أن يعطيني الطبقة الواحدة على 777.. هذا الرجل لا يريد إعطائي شيئًا أكثر مما يمكن للديدان أن تتلفه.. وبرغم هذا هو يردد بصوت عال آيات الإنجيل التي تدعو إلى عدم اكتناز الكنوز..

صاح القبطان (بيليج) في غيظ:

- «لا يا (بيلداد).. أنا سأعطى هذا الفتى الطبقة الواحدة على 300..»

- « تذكر الآخرين الذين يستثمرون مالهم في هذه السفينة.. الأرامل واليتامي الذين تنزع منهم خبزهم بطيبة قلبك.. »

- « يا للجحيم! لو أننى اتبعت نصائحك لثقل ضميرى إلى الحد الذي يغرق أكبر السفن وأقواها! »

- « لا أعرف.. لكني أحسب أن ضميرك مثقوب وسوف يغرق في النهاية.. »

احتدم الجدل بين الرجلين، فخرجت وأنا أسائل نفسي عما إذا كان من الحكمة أن أتراجع.. فبدء رحلة تحت هذه الإدارة المتوترة المضطربة أمر مقلق.. في النهاية أخبرني (بيليج) أننى سأنال واحدًا على ثلاثمائة.. هنا عرضت عليه أن أجلب صاحبي، فطلب مني أن أحضره غدًا ليراه..

تركتهما وأنا أفكر في أن هذا كان صباحًا مفعمًا بالعمل الطيب.. ثم تذكرت أنني لم أر القبطان الذي سأبحر معه قط.. عرفت أن الرجل لا يفارق قمرته.. كأنه مريض وإن لم يكن كذلك.. إنه

رجل غريب الأطوار غير متدين.. لا يتكلم كثيرًا.. لكن حين يتكلم يصغي الجميع له.. إنه ليس كـ- (بيليج) ولا (بيلداد).. إنه (أهاب) الذي كان ملكًا في التوراة.. كفر وشربت الكلاب من دمه.. لا تخبر أحدًا بهذا فالذنب ليس ذنب الرجل لكنه ذنب أمه التي اختارت له هذا الاسم.. إنه رجل طيب.. ليس طيبًا متدينًا مثل (بيلداد) لكنه طيب يطلق السباب واللعنات.. لقد جن نوعًا لكن هذا بسبب الآلام المبرحة في ساقه المبتورة.. منذ بترها ذلك الحوت..

قال (بيجيل) وهو يشرح لي القصة:

- « من الخير لك أن تبحر مع قبطان جيد عكر المزاج، من أن تبحر مع قبطان سيئ ودود.. والآن وداعًا ولا تسيء فهم القبطان (أهاب) لأن اسمه كريه.. تذكر أنه متزوج من امرأة طيبة.. تذكر أن له طفلًا.. »

تركته وأنا أحمل مشاعر مختلطة نحو القبطان (أهاب)، لكن العاطفة الغالبة على كانت التهيب.. الرهبة..

∞∞∞∞∞∞

الفصل السادس

الصيام[5]

حين عدت إلى (كويكونج) كان غارقًا في الصيام مع صنمه.. وقد قررت أن أحترم صيامه هذا.. ورأيي أن علينا معشر المسيحيين أن نقبل عبادات الفانين الآخرين ولا نتعالى عليها.. هذا هو (كويكونج) يمارس أغرب أنواع الطقوس مع إلهه (يوجو) هذا.. إنه راض يعتقد أنه يعرف كل ما يجب أن يعرفه.. دعه يسترح فلن تجدى مجادلاتنا معه.. وليرحمنا الله جميعًا.

اتجهت إلى حجرته وناديته عدة مرات فلم يرد حتى بدأت أقلق عليه.. اختلست نظرة من ثقب الباب، فلم أر إلا نهاية الفراش وجزءًا من الجدار.. وإن اندهشت لأنني رأيت جزءًا من الحربون الذي رفضت صاحبة النزل أن يأخذه لحجرته.. والأغرب أن هذا دليل على أنه في الحجرة.

نزلت لأقابل خادمة الغرف، فأخبرتها بشكوكي، فقالت:

- «كنت أخشى شيئًا كهذا.. لقد قرعت بابه لأنظف الحجرة فلم يرد، وكان الباب موصدًا.. لا.. لا.. قتل! نزف مخ، مدام! الحجرة!! »

وركضت تنادي صاحبة النزل.. جاءت هذه الأخيرة حاملة مرطبانًا من المستردة وزجاجة خل، واندهشت لما رأتني أفتش عن طريقة لتحطيم الباب.. فشرحت لها كل شيء بسرعة..

صاحت:

- » والحربون اختفى! رباه! الشاب التعس سينتحر! أنا متأكدة.. هذا حدث من قبل! هل له أخت؟ هل تعرف ما جرى له؟ رباه! انتحر ومعنى هذا خراب بيتي.. لماذا لا تذهبين للخطاط وتطلبين منه أن يكتب لي لافتة تقول: ممنوع الانتحار هنا من

فضلكم؟ وليكتب بالمرة أيضًا: ممنوع التدخين في الردهة.. ماذا تفعل أيها الشاب؟ »
وأمسكت بي قبل أن أهشم الباب.. قال إنها لن تسمح بتهشيم أبواب دارها.. فلنحضر صانع الأقفال.. لكني لم أبال بها وضربت الباب بأعنف ما استطعت..
انفتح الباب فجأة فرأينا (كويكونج) جالسًا في سلام في منتصف الحجرة.. كان في وضع القرفصاء والصنم (يوجو) فوق رأسه.. لم يتحرك أنملة بل ظل جالسًا بلا علامة على الحياة.
قالت صاحبة النزل:
- «لا أحسبه جلس في هذا الوضع طيلة اليوم؟ »
لكن لم يعرف أحد الإجابة.. وبدا لى وضعه مؤلمـًا خاصة أن كل الدلائل تقول إنه على هذا الوضع منذ تسع ساعات.. إلا أنه لم يتحرك ولم يبال بكل محاولاتي للفت انتباهه.. من الجلى أن هذا جزء من صيامه.. على كل حال تمنيت أن ينتهي هذا الوضع سريعًا.. لحسن الحظ أن هذه المناسبة لا تحدث إلا مرة كل عام..
ذهبت للعشاء ثم عدت متوقعًا أن أجد الصيام انتهى، لكن الرجل لم يتحرك.. هكذا لم أجد مفرًا من أن أخلد للنوم، لكني لم أنس أن أضع على كتفيه سترتي المصنوعة من جلد الدببة، لأن الليلة ستكون باردة.
جاء الصباح فدخلت حجرته، لأجد أنه ما زال في هذا الوضع.. لكن ما أن دخل الضوء الحجرة حتى تمطى وراح يحرك مفاصله المتخشبة.. وأعلن أن صيامه انتهى.
كما قلت أنا لا أنكر على أي إنسان أن يعتنق أي دين ما دام لا يقتل الآخرين الذين لا يؤمنون بدينه.. لكن حين يدخل الأمر

خانة اللا معقول ويجعل من هذه الأرض تعذيبًا لنا، فإنني أنتحي بهذا الشخص جانبًا وأناقشه.
رحت أحدثه عن نشأة الأديان وعن الأديان المعاصرة السماوية.. وقلت له إن قضاء الليل في هذا الوضع المؤلم لا يفيد، بل يتناقض مع العقل وقواعد الصحة العامة.
راح يصغي لي بلا مبالاة كأنما هو مندهش من ضلال هذا الشاب حديث السن.. ثم أعلن أن موعد الإفطار قد حان.. هكذا نزلنا إلى قاعة الطعام والتهم الكثير جدًّا من الطعام، حتى إن صاحبة الخان لم تستفد قط من صيامه..
ثم إننا انطلقنا إلى السفينة (بيكود)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما رأى الرجلان (كويكونج) لم يكونا يتوقعان أن زميلي آكل لحوم البشر.. وقد أصرا على التأكد من أن معه أوراقًا تثبت أنه تم تعميده.. ورجح (بيلداد) أنه لم يعمّد قط وإلا لأزال الماء بعض اللون الأزرق الذي يلطخ بشرته.. قضيت بعض الوقت في إقناعهما بأن (كويكونج) متدين وقد تحرر من تراث أكلة لحوم البشر.
هنا بدأ (بيليج) يقتنع ويسأل (كويكونج) عما إذا كان قد وقف في مقدمة قارب صيد حيتان من قبل..
لم يرد (كويكونج) وإنما وثب إلى قارب الصيد المعلق إلى جانب السفينة، ثم ثني ركبته وصوب الحربون، وصرخ:
- « قبطان! هل ترى بقعة قطران هذه على ماء؟ اعتبرها عين حوت.. حسن.. إذن! »
ثم قذف الحربون، فطار هذا ليضرب بقعة القطران بدقة.
- « هنا قبطان.. حوت كبير مات! »

هنا صاح (بيليج) يطلب الأوراق.. لا بد أن يكون رامى الحربون هذا معهم على السفينة.

- « سنعطيك الطبقة (واحد على 19).. هذا يفوق ما تقاضاه أي رامى حربون من قبل.. لكن هل يعرف كيف يكتب اسمه؟ »

مد (كويكونج) ذراعه ليكشف عن وشم هناك يحمله من وطنه، وحاكاه على الورق بالقلم..

قال (بيليج):

- « لن نحاول أن ننزع روح سمكة القرش الشرسة من رامي الحربون هذا.. فرامي الحربون لا يساوي قشة لو فقد روح القرش فيه.. كان لدينا فتى هذبناه أكثر من اللازم، فصار يخاف على روحه المعذبة، وبدأ يخشى الاقتراب من الحيتان.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

فليتحرك الجميع:

مر يومان وكانت هناك حركة نشطة على ظهر (بيكود).. لقد تم تركيب أشرعة جديدة وبكرات من حبال الأشرعة.. وتم إخطار الشركات الموردة أن عليها نقل بضائعها لأنه لا يعرف أحد متى تتحرك السفينة بالضبط.. الكثير من الأشياء يجب إنجازها والتفكير فيها قبل التحرك.. ثلاثة أعوام بعيدًا عن البقالين والجزارين والمصارف والأطباء.. وهذا صحيح بالنسبة للسفن التجارية، لكنه أكثر صحة بالنسبة لسفن صيد الحيتان حيث يجب أن يوجد الكثير من كل شيء.. كل شيء له قطع غيار ما عدا القبطان.. كل شيء معرض لأن يتلف أو يدمر.. لا شيء يمكن نسيانه حتى المخلل وحتى ريش الكتابة على مكتب القبطان.

طيلة هذه الفترة لم أر القبطان (أهاب) قط، وحين أفكر في الأمر أجد من الغريب أن أتورط في رحلة بهذا الطول دون أن أرى الرجل الذي سيكون الدكتاتور الأوحد طيلة الرحلة.

وعرفنا أن السفينة ستتحرك في صباح اليوم التالي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لدى وصولنا فجرًا لم نر أحدًا، وبدت لنا السفينة خالية تمامًا.. خيل لي أنني رأيت بعض الرجال يصعدون إليها..

في النهاية صعدنا إلى ظهر السفينة.. في البداية لم أر هؤلاء الرجال الذين حسبت أنني رأيتهم أولًا.. ثم جاء أفراد الطاقم مع شروق الشمس وبدأ نقل اللمسات الأخيرة، لكن ظل القبطان (أهاب) مختفيًا.

وعند الغروب بدأت استعدادات مغادرة المرفأ.. وجاء (بيليج) و(بيلداد) يشرفان على كل شيء، كأنهما سيرافقاننا طيلة الرحلة.. وكالعادة لم يظهر القبطان (أهاب) وهو أمر ليس غريبًا لأن هذه أمور يمكن أن تتم من دونه، وحتى في الرحلات التجارية قد لا يظهر القبطان إلا بعد وقت طويل من رفع المرساة..
على كل حال كان (بيليج) يقوم بالصراخ والسباب ويفعل كل شيء بحيث لم يعد مبرر لأوامر من شخص آخر:
- « هلموا يا أبناء العزاب! أرفعوا المرساة! الدم والرعد!! ثبوا!! »
فيقول له (بيلداد):
- « لا داعي للبذاءات.. هذا لن يجعل الأمور أسرع.. »
تصلبت جوار (كويكونج) وأنا أرتجف رعبًا من فكرة أن أمضى الرحلة مع ربان شيطان كهذا، هنا شعرت بشيء قوى يضرب مؤخرتي فنظرت للوراء لأجد (بيليج) يستعيد قدمه.. لقد كانت هذه ركلتي الأولى..
وصاح بصوت كالزئير:
- « هل هكذا يجذبون المرساة في البحرية التجارية؟ هلموا! حطموا عمودكم الفقري! اجذبوا يا حمقى! اجذبوا!! أنت يا ذا السروال الأخضر.. وأنت يا ذا الشارب! »
وراح يمشى هنا وهناك موزعًا ركلاته بسخاء.. فخطر لى أنه قد أفرط في الشراب اليوم..
وانطلقت السفينة في عرض البحر في برد الكريسماس.. والتمعت أضواء النجوم على الأسنان العاجية التي زينت السفينة.. وكان قارب الإرشاد يبحر إلى جوارنا..
أخيرًا تأهب الرجلان للرحيل، فألقى علينا القبطان (بيلداد) موعظة.. ينصحنا فيها بعدم استهلاك الحربون وأن نتأكد من أن مخزون الجبن لا يتسرب له الماء، وأن نتجنب الزنا حين نرسو في

الجزر.. ثم نزل الرجلان إلى القارب.. وسرعان ما ابتعد هذا عن السفينة..
صرخ طائر نورس من فوقنا، فأطلقنا ثلاث صيحات تهليل ثم انطلقنا إلى مياه الأطلنطي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن وقد صرت و(كويكونج) على متن السفينة، أجد لزامًا عليّ أن أصحح لك بعض المفاهيم بصدد مهنة صيد الحيتان.. من العسير في المجتمع أن تنظر إلى صائد الحيتان أو قاذف الحربون نظرتك إلى (المهن الحرة)، ويكون لزامًا عليه في أي تعامل رسمي أن يضيف لأوراقه الحروف.S. W. F وهي الحروف الأولى من عبارة (صيد حيتان العنبر)، وتبدو مهينة إلى حد ما.. ربما تعود هذه النظرة إلى كون العالم يعتبرنا دمويين.. نعم نحن جزارون دمويون لكن لسنا أكثر دموية من أي قائد عسكري يمنحه العالم نوط الشجاعة.. وهذا القائد نفسه يرتجف هلعًا لو رأى زعنفة ذيل حوت العنبر تعلو فوق الأمواج.. إذ ما وزن الرعب والهول البشري أمام رعب وهول الطبيعة؟
لكن العالم برغم هذا يكرمنا كما لم ير إنسان من قبل، لأن كل مصباح وكل شمعة في العالم، إنما تشتعل في الحقيقة تكريمًا لنا! ألسنا نحن من منحها الزيت الذي تتوهج به؟ لقد اكتشفت سفن صيد الحيتان أماكن وخلجانًا لم يرها أحد من قبل.. ولئن كانت السفن التجارية تجوب الآن أرجاء المحيط، فعليهم أن يتذكروا أن سفن صيد الحيتان هي التي استكشفت لهم كل هذا.. سفن صيد الحيتان هي التي تعاملت مع المتوحشين وخاضت معارك لا يجرؤ مستكشفوك العظام من طراز (كوك Cooke) وسواهم على أن يحلموا بها.. والمغامرات التي يخصص لها بحارة (فانكوفر) ستة فصول كاملة من مذكراتهم،

لا يجدها بحارة سفن الحيتان جديرة بالذكر أصلًا باعتبارها من روتين حياتهم.

قارة أستراليا جعلتها سفن الحيتان مستعمرة حقيقية، وقد نجا أول المهاجرين لها من الموت جوعًا بفضل البسكويت الذي كانت تتركه لهم سفن الصيد.. وفي القوانين البريطانية يطلق على الحوت لقب (سمكة ملكية).. إن سفينة الحيتان لأهم بالنسبة لي من أية جامعة بريطانية عتيقة، وإن ذلك الرجل الذي اصطاد ثلاثمائة حوت لأعظم في نظرى من كل القادة الغابرين الذين حاصروا المدن واقتحموها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

أهاب:

الآن أفلتنا من قبضة البرد القطبي، لنتجه نحو الجنوب.. ومع كل درجة نتحركها كنا نتحرر أكثر فأكثر من أنياب البرد المخيفة.
كان رئيس ضباط (بيكود) هو (ستارباك).. وهو من سكان (نانتيكوت) الأصليين.. كان رجلًا مخلصًا يتحمل الطقس الحار جيدًا برغم أنه ولد في ساحل ثلجي.. جلده قاس صلب، وقد عاش ثلاثين صيفًا جففت كل ما هو زائد في بنيانه، فهو نحيل ضامر الجسد كأنما هو رمز لما عاشه من هموم وقلق، وبرغم هذا فإنه يتمتع بصحة طيبة، فكان أقرب إلى مومياء فرعونية أعدت للحياة بعد أجيال طويلة، وفي عينيه كنت ترى الأهوال التي واجهها طيلة حياته، فهو رجل غصت حياته بالحركة، ولم تكن مجرد فصل من الكلمات، ولم يكن يستطيع نسيان زوجته الشابة وابنه، لذا كان يكرر دومًا: لن أسمح لرجل لا يخاف الحيتان بأن يركب معي..
وكان بهذا يعني أن الخطر الحقيقي على الرجال هو سوء تقدير الخطر، والجرأة التي تنجم عن جهل.. ولعله كان يعتبر الشجاعة نوعًا مهمًّا من المؤن على ظهر السفينة، يجب الحفاظ على مخزونها وعدم تبديدها هباء.
الضابط الثاني كان هو (ستاب).. وكان من سكان (كيب كود) الأصليين.. مرح لا يبالي بالأخطار على الإطلاق كأنما كل الأخطار مجرد حفل عشاء والبحارة مدعوون له.. إن الخبرة حولت أنياب الموت بالنسبة له إلى مقعد مريح.. وكنت تشعر أن غليونه جزء من ملامح وجهه مثل أنفه.. فكان يضع مجموعة من الغلايين المحشوة في صف، ثم يدخنها بالترتيب ويحشوها استعدادًا

للمرة القادمة، والحقيقة أنه من المؤمنين بأن الهواء ملوث وأن دخان الطباق يطهره.
الضابط الثالث كان رجلًا غليظًا قصير القامة يدعى (فلاسك).. لا يملك أي انبهار بضخامة تلك الكائنات.. بالنسبة له كانت الحيتان لا تختلف عن الفئران الكبيرة.. فقط أنت تحتاج إلى بعض الوقت والتحايل إلى أن تظفر بها وتسلقها في الماء.. وكان يعتبر ثلاثة أعوام في البحر مجرد نكتة يتسلى بها فيما بعد.. إن أصابع الإنسان تنقسم إلى أصابع مستقيمة وأخرى قادرة على الانثناء، وكان (فلاسك) أقرب إلى إصبع مثنى يجعل القبضة محكمة ويتحمل أكثر.
لعدة أيام بعد ترك (نانتوكت) لم نر شيئًا من القبطان (أهاب).. وكان الضباط يخرجون من القمرة من حين لآخر ويتناوبون إصدار الأوامر، لكنك كنت تشعر أنهم آمرو السفينة الوحيدون. وكلما صعدت إلى السطح كنت أبحث عن أي وجه جديد.. لأن عجزى عن رؤية القبطان وانعزاله قد تحولا وسواسًا بالنسبة لي.
وذات يوم كنت أتولى المراقبة، حين نظرت إلى أسفل فانتابتني رعدة.. لقد كان (أهاب) يقف هناك..
لم تكن ثمة علامة على عيب جسدى فيه.. ولا علامة على شفائه من عيب..
بدت قامته الفارعة كأنما هي منحوتة من البرونز من قالب لا يمكن تغييره.. ومن منبت شعره إلى جانب وجهه حتى أعلى ثيابه يمكنك أن ترى علامة بيضاء شاحبة تذكرك بلسان البرق الذي يضرب الشجرة من قمتها مرورًا بجذعها حتى الجذور.. لا تعرف إن كانت هذه بقايا جرح أم هو ولد بها.. لقد أثر فيَّ منظره العام المكفهر، بالإضافة إلى تلك العلامة التي خطت عليه، حتى إنني

لم أفطن إلا بعد وقت طويل إلى أن أكثر هذا الأثر المتجهم يعود للقدم البيضاء البدائية التي يمشى عليها.
لقد خطر لي أن هذه القدم العاجية تم صنعها من عظام فك حوت العنبر.. وأثار دهشتي كيف يقف عند أركان السفينة، حيث كانت هناك فتحات عمقها نحو نصف بوصة، فكان يغرس قدمه العظمية في كل فتحة منها ويقف، ثم يرقب البحر.. ثمة نوع من التصميم الذي لا يقهر والشجاعة التي لا توصف في تلك النظرة الثابتة.. ولم يكن يتكلم لكن ضباطه كانوا يتصرفون بعدم راحة يدل على شعورهم الدائم - والأليم - بنظرته المتسلطة.
منذ تلك اللحظة صرنا نراه كثيرًا، ولم يعد ملتزمًا بعزلته تلك.. لكن برغم هذا كان وجوده حتى هذه اللحظة زائدًا على الحاجة ربما بسبب براعة الضباط الفائقة.
مرت الأيام وصارت الثلوج وجبال الجليد من خلفنا، ومضت (بيكود) في ذلك الجو الربيعي الدائم المميز للمناطق الاستوائية.. إن السن المتقدمة تحظى بنوم أقل كأنما طول العمر يقلل ارتباطك بالعدم الشبيه بالموت.. ولهذا تصحو اللحي البيضاء لتزور سطح السفينة المدثر بالظلمات، وهذا كان حال (أهاب).. لقد صار يظهر كثيرًا حتى إن زياراته العابرة كانت من السطح لقمرته.. وعندها كنت تشعر نوعًا من الإنسانية فيه.. لم يكن يتخذ وقفته المعهودة فوق السطح، لأنه لا يحب أن يدق بقدمه العاجية فوق رءوس النيام.. هذه الدقات لو سمعوها لأفعمت أحلامهم بالكوابيس، ولحلموا بأنهم يقضون بين أنياب أسماك القرش.
ويخرج له الضابط (ستاب) فيقول له (أهاب):

- « ألا عد لقبرك الليلي.. حيث يغفو أمثالك في أكفانهم.. انزل أيها الكلب! »
هنا يتصلب (ستاب) للحظة وينظر للرجل، ثم يقول في انفعال:
- « لم أعتد أن يكلمنى أحد بهذه الطريقة يا سيدي.. ولا يمكنني القول إننى أحبها.. »
فيصيح (أهاب) بين أسنانه:
- « توقف!! »
ثم يبتعد كأنما يتجنب إغراءً قويًّا، هنا يقول (ستاب):
- « كلا يا سيدي.. لم أنته بعد.. لن أقبل بوداعة أن يقال إنني كلب..»
- « إذن لندعك حمارًا عشر مرات.. وبغلًا.. واغرب عن وجهي قبل أن أخلص العالم منك! »
يقولها وهو يندفع نحو (ستاب) وقد بدا الهول على سحنته حتى أن (ستاب) يتراجع لا شعوريًّا.. يهبط من الكوة وهو يردد:
- « لم يكلمني أحد بهذه الطريقة من قبل إلا وضربته.. ماذا تفعل يا (ستاب)؟ تضربه؟ أم تركع أمامه؟ لا أعرف.. إنه غريب الأطوار.. أغرب عجوز عرفته في حياتي.. إنه لا ينام أبدًا.. يقضى الليل على السطح.. وماذا يقول خادم الغرف عنه؟ يقول إنه يجد أغطية فراشه مكومة وقد أوشك على أن يربطها في عقد.. والوسادة ساخنة كأنما وضع عليها قالب قرميد ساخن.. إنه رجل عجوز ملتهب! أتساءل عما يدور في ذهنه المريض وأي شيء يثقل ضميره.. هذا عجيب.. لكن كل شيء في الحياة عجيب لو أمعنت التفكير فيه.. (لا تفكر).. تلك هي الوصية الحادية عشرة بالنسبة لي.. (نم متى استطعت).. هذه هى الوصية الثانية عشرة.. لقد لقبني بالكلب وعشر مرات بالجحش.. لربما كان ليركلني لو أراد.. من يدرى؟ لربما ركلني ولم

ألحظ هذا.. لقد انشغلت بمنظر حاجبيه فلم ألحظ.. سأعود لتدخين الغليون وفي الصباح أفكر في الأمر.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

علم الحيتان:

يقول الكابتن (سكورسبي) عام 1820: ليس هناك فرعًا من علم الحيوان أكثر تخبطًا من علم الحيتان Cetology. وكذا يقول (كوفييه Cuvier) العظيم و(هنتر).. وبرغم هذا هناك الكثير من الكتب عن الحيتان.. تكلمت عنها التوراة وكتب عنها (أرسطو Aristotle) و(بليني) وسير (توماس براون) و(لينيس) و(بريسون) و(بيل).. وسواهم..

لم يكن واحد من هؤلاء صائد حيتان أو رامي حربون، باستثناء (سكورسبي) إلا أنه كرس جهده للكتابة عن حوت (جرينلاند) الذي لا يعتبر من الحيتان الكبيرة أو المهمة، بينما لا يعرف أحد إلا القليل عن حوت العنبر Sperm whale.. ولم يقسم أحد الحيتان تقسيمًا سهلًا، لهذا أحاول هنا أن أعطى فكرة سريعة عن الموضوع، ولا أزعم الكمال لأن كل عمل يزعمه إنما يعترف في الوقت ذاته بامتلائه بالأخطاء.

إن الحيتان تختلف عن الأسماك كما قال (لينيوس)، لأنها ترضع أطفالها ودمها دافئ، ولأن ذيلها أفقى وليس رأسيًّا ولأنها تملك رئة، بينما الأسماك لارئة لها.

أقسم الحيتان حسب الحجم إلى:

1 - حوت الفوليو: مثال حوت العنبر - حوت جرينلاند - الحوت ذو الزعنفة الظهرية - الحوت الأحدب - الحوت ذو البطن الكبريتي.

- حوت العنبر هو أضخم كائن على وجه الأرض بلا جدال.. الأكثر رهبة والأهم من الناحية التجارية.. إن مادة دهن الحوت Spermaceti تؤخذ من رأسه وتستعمل في المراهم والإضاءة.

- حوت (جرينلاند) يدعى أحيانًا بحوت البالين أو الحوت الصحيح Right whale.. ومنه تستخرج مادة البالين، كما يستخرج منه ما يعرف بزيت الحوت.
- الحوت ذو الزعنفة الظهرية هو المسئول عن تلك النافورة التي يراها المسافرون عبر الأطلنطي.. حين ينبثق الزفير من ظهره.. يسهل تعرفه من زعنفته الظهرية وهو كائن خجول يكره الحيتان الأخرى.. ويصنف مع حوت (جرينلاند) ضمن قائمة هي (حيتان البالين) أو (الحيتان العظمية).
- الحوت الأحدب: لا أحد يعرف عنه الكثير ما عدا حدبته التي تبرز فوق مستوى الماء.. دعه يمض فأنا لا أعرف عنه الكثير ولا أي واحد سواي.
2 - حوت الأوكتافو: مثال الجرامبوس Grampus.. والحوت القاتل..
3 - حوت ديودسيمو: مثال البوربواز Porpoise. يبدو غريبًا لغير الدارسين أن يصدقوا أن أسماكًا لا يتجاوز طولها أربعة أقدام هي حيتان، لكنها الحقيقة.
هذا هو الهيكل العام، الذي لن أستكمله.. فليحفظني الله من استكمال أي عمل أقوم به! أتركه لسواى كى يملئوا فراغاته ويصنفوا كل حوت جديد يجدونه ضمن هذه القائمة السهلة.. مثلما بنى المهندسون معبد (كولونا) ثم تركوا الأعمدة شامخة تنتظر من يضع القرميد بينها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رامي الحربون هو رتبة لا توجد بالطبع على أية سفينة أخرى.. وفي الماضي كانت سلطة القبطان مقصورة على الملاحة والعناية بالسفينة، بينما كان كبير قاذفي الحربون هو المسئول عن كل

مهام صيد الحيتان، وكان يدعى Specksynder وهي لفظة ألمانية معناها الحرفي (قاطع الدهن). وقد تدنى مستوى قاذف الحربون مؤخرًا لكن نجاح رحلة صيد الحيتان يعتمد عليه بالكامل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

سطح السفينة:

كان (أهاب) دبًّا أشهب في طباعه.. متى جاء الشتاء تكور في جذع شجرة وراح يمتص مخالبه.. كذا كان (أهاب) يغلق قمرته على نفسه ويمتص مخالب كآبته الخاصة وهمومه.
لم يكن (أهاب) كثير التدخل لكن سلطته لم تكن تتزحزح، فكأنه (بلتشصار) ملك (بابل) أو كأنه -جالس إلى منضدة الطعام - أسد بحر على شاطئ المرجان الأبيض، يحيط به أشباله.. كان الضباط يبدون كأطفال من حول (أهاب) لكنه لم يكن متغطرسًا.. يصمت الجميع وتتجه أنظارهم إليه وهو يمسك سكينه ليقطع الطبق الرئيسي على العشاء.. ثم يشير إلى (ستارباك) كي يناوله طبقه، فيتلقى هذا الأخير اللحم كمن يتلقى صدقة، ويلوكه في حذر متحاشيًّا أن يحدث صوتًا إذ تحتك سكينه بالطبق.
وكان (فلاسك) المسكين ينال - بحكم كونه أصغر أفراد هذه الأسرة - أقل القليل من عظام اللحم، (ودبابيس) الدجاج.. وأعتقد أنه كان بوسعه أن يأخذ لنفسه ما يريد وما كان (أهاب) ليعترض، لكن (فلاسك) لم يجسر على هذا.. المشكلة الأخرى بالنسبة له هي أنه آخر من ينادي إلى المائدة وأول من يتركها.. هكذا كان عليه أن يتناول عشاءه في أضيق وقت ممكن.. بل إنه كان مرغمًا إذا ما اكتفى (ستاب) أن ينهض وراءه! تصور هذا! منذ ترقى (فلاسك) لرتبة ضابط لم يعد يعرف إلا الجوع.. وكان يقول: إن السلام والشبع قد هجرا معدتي للأبد!
وما زال يتمنى أن يقف عند مقدمة السفينة ويجمش قطعًا كبيرة من لحم البقر! هذه هي سخرية الحياة وعبثية المجد!

حتى إن أي بحار حاقد لسبب ما على (فلاسك) يكفيه أن يقصد القمرة ليختلس نظرة عبر النافذة إلى (فلاسك) الجالس خائفًا في حضرة (أهاب)..

بعد انتهاء طعام الضباط يغادرون القمرة بترتيب معكوس، ثم يعاد المفرش بسرعة إلى المائدة ويدخل رماة الحربون الثلاثة.. هنا يظهر التناقض الرهيب بين جو الرعب الثقيل الذي خيم على مائدة الضباط، حتى إنهم يخافون الصوت الذي تحدثه فكوكهم حين تغلق، مع جو المرح والحرية الذي يسود مائدة رماة الحربون.. يأكلون بشهية كأنهم سفن الهند التي لا تكف عن تحميل التوابل.. لا يكفون عن ضرب الخادم وغرس الشوكة في ظهره كأنها حربون، والفتى لا يكف عن الرجفة من تعامله مع (أهاب) أولًا ثم مع هؤلاء المتوحشين الثلاثة - و(كويكونج) من بينهم - فإذا اطمأن إلى أن مائدتهم عامرة توارى مختبئًا ينتظر رحيلهم.. كان أحد الثلاثة من أصل هندى والآخر زنجيًّا من إفريقيا.. وهذا الأخير عملاق إلى حد أنه يذكرك بفيل تم شحنه من إفريقيا.. وكنت تتساءل عن الدور الذي يلعبه الطعام - مهما زادت كميته - مع هذا الجسد الهائل، لكن يبدو أن الفتى كان ينام جيدًا، وكان منخراه الواسعان ينهلان الهواء النقي كأنه يتشرب جوهر الكون كله.

أما الأصوات المخيفة التي يحدثها فكا (كويكونج) أثناء المضغ فلم تكن من الأمور التي تجعل الحياة أفضل بالنسبة للفتى البائس، خاصة وهو يعرف يقينًا أن (كويكونج) كان يأكل أشياء غريبة في جزيرته.

أخيرًا ولسرور الفتى يرحل هؤلاء المتوحشين الثلاثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات صباح بعد الإفطار، صعد (أهاب) إلى سطح السفينة.. وهي عادة لدى أغلب الربابنة كما يفعل السادة على اليابسة بعد وجبة يجوبون بعدها الحديقة.. سرعان ما سمعنا وقع قدمه العاجية وهو يمشى فوق ألواح خشب السقف التي اندغمت جميعًا من أثر خطواته كأنما علامات جيولوجية على صخور.
فلو نظرت إلى حاجبيه لرأيت آثار أقدام أخرى.. آثار أقدام أفكاره التي لا تهدأ ولا تنام.. يمكن الآن أن ترى بسهولة أن الفكر يمشى معه إذا مشى ويقف معه إذا وقف.
وهمس (ستاب):
- « هل ترى يا (فلاسك)؟ الكتكوت في داخله ينقر البيضة وسيخرج حالًا! »
ظل صامتًا حتى المساء، ثم غرس قدمه في الحفرة المعتادة على السطح وطلب من (ستاب) أن يستدعى الجميع..
- » سيدى! »
صاح (ستاب) في دهشة لهذا الطلب الغريب، الذي يندر أن يطلب على السفن إلا لضرورة خارقة للعادة..
- « الجميع! ولينزل الناضورجية من على السارية! »
احتشد الجميع بعيون لا تخلو من الرعب، لأنه بدا شبيهًا بالسماء المنذرة بعاصفة قريبة.. راح يدور في مساره المعهود محنى الرأس معتمرًا قبعته، غير مبال بنظرات الدهشة لدى الرجال المجتمعين..
لم تطل الدهشة لأنه رفع صوته:
- « ماذا تفعلون لو رأيتم حوتًا يا رجال؟ »
صاحت الأصوات:
- « نغني له (أي نتصايح بالخبر)! »
قال برضا متوحش في صوته:

- « جميل! وماذا بعد ذلك؟ »
- « نلاحقه.. وشعارنا هو الحوت الميت أو القارب! »
ابتسم الشيخ في رضا.. وأصيب الرجال بدهشة من حماستهم للإجابة على أسئلة تبدو بلا جدوى..
- « كلكم سمعنى أتكلم عن حوت أبيض.. انظروا لي.. هل ترون هذه الأوقية الذهبية الأسبانية؟ »
ولوح بعملة من ذهب في الشمس، وقال:
- « إنها قطعة ب- 16 دولارًا.. ناولني مطرقتك يا مستر (ستارباك)..»
وراح يمسح القطعة في سترته وهو يتكلم بصوت خفيض غير مسموع، كأنما صوت الآلات الميكانيكية التي تعمل داخله.. اتجه إلى الصارية الأساسية وصاح:
- « من يبلغنى منكم عن ظهور حوت أبيض مجعد الحاجب ملتوى الفم.. من يبلغني عن حوت أبيض في ظهره ثلاث فتحات.. من يخبرني برؤيته ينل هذه الأوقية يا أولادى! »
وبدأ يثبت القطعة للصارية بمسمار..
- « من ير منكم حوتًا أبيض فليخبرني.. انظروا بدقة إلى المياه البيضاء.. »
هنا قال قاذف حربون:
- » سيدى.. هذا الحوت الأبيض لا بد أن يكون (موبى ديك)! «
صاح (أهاب):
- « (موبي ديك)! تعرفون الحوت إذن يا (تاش)؟ »
سأله أحدهم:
- « هل تخرج منه نافورة مياه عملاقة ياسيدي؟ وهل يحرك ذيله حركة غريبة قبل أن يغطس؟ »
وسأله (كويكونج):

- « وهل هناك الكثير من حديد في ظهره يا سيدى؟ كلها مغ- .. مغ..»
قال (أهاب):
- « مغروسة.. نعم يا (كويكونج).. مغروسة بشكل لولبي كفتاحة الزجاجة.. أكثر من حربون مغروس في ظهره.. نعم يا (ياجو).. إن نافورته عملاقة وبيضاء ككومة من صوف (نانتيكوت) بعد جز الأغنام.. إنه (موبي ديك)!! نعم.. (موبي ديك)! »
هنا سأله (ستارباك):
- « سمعنا عن (موبي ديك) يا سيدي.. لكن هل كان (موبي ديك) هو الذي بتر رجلك؟ »
صاح (أهاب):
- « ومن أخبرك بهذا؟ نعم كان (موبي ديك) هو الذي أفقدني صاريتي.. (موبي ديك) هو الذي جعلني أقف على هذه الرجل العاجية.. »
ثم صرخ من قلبه كأنما هو وعل اخترق قلبه رمح:
- « أجل! أجل!! هو (موبي ديك) الذي جعل منى بحارًا لا نفع فيه.. متسولًا.. أجل أجل! سأطارده حول (رأس الرجاء الصالح) وحول (القرن).. ووسط نيران الهلاك قبل أن أستسلم، ولهذا أبحرتم يا رجال! كي تلاحقوا هذا الحوت عبر أرجاء الأرض إلى أن ينفث دمًا أسود.. فماذا تقولون؟ تبدون لي رابطي الجأش.. »
صاح الرجال:
- « أجل.. أجل.. نظر ثاقب ورمح نافذ للحوت الأبيض! »
- « بورك فيكم يا رجال.. ولكن لماذا لا يبدو عليك الرضا يا سيد (ستارباك)؟ هل تخشى الحيتان؟ »
قال (ستارباك):

- « أنا مستعد لصيد حيتان العالم يا سيدي.. لكني خرجت لصيد الحيتان وليس لتنفيذ انتقام قبطاني.. بكم يباع انتقامك يا قبطان؟ إنه لن يباع بسعر كبير في أسواق (نانتيكوت).. الانتقام من وحش أعجم لا يعرف ما يفعله.. هذا ينضوى تحت لواء الجنون يا قبطان.. ربما تحت لواء التجديف في إرادة الله.. »
قال (أهاب):
- « فلتصمت يا رجل.. أعدك أن تنال طبقة أقل مما خصص لك.. مثلما يضع الممثلون الأقنعة على المسرح، فإن عليك حين تضربهم أن تضرب القناع لتصل لما وراءه.. والحوت الأبيض هو مجرد قناع لكل ما أكره في الحياة.. لا تتكلم عن التجديف يا رجل.. فلسوف أضرب الشمس ذاتها لو أهانتني.. لأنها لو استطاعت إهانتي فأنا أستطيع ضربها.. هذا لعب عادل هنا.. هل ترى الرجال؟ كلهم في صف واحد مع (أهاب) بينما تقف أنت وحيدًا وسط الإعصار.. (يتكلم على جنب) شيء قد دخل في منخرى وملأ صدري بروح الغضب.. إن (ستارباك) الآن عدوى ولن يفوز عليّ إلا لو قاد تمردًا.. »
غمغم (ستارباك):
- « ليحفظني الله.. ليحفظنا جميعًا!! »
جاءوا بقنينة الشراب، فلوح (أهاب) بها في الهواء وناولها أول البحارة وقال:
- « اشرب ومررها!! جرعات طويلة يا رجال! إنها ساخنة كحافر الشيطان! تقدموا يا رفاق! »
وراح يلمس الرماح كأنما يمنحها جزءًا من مغناطيسية ذاته.. ثم طلب من رماة الحربون أن يقربوا أسلحتهم منه، وراح يصب الشراب لهم في النهايات المجوفة لكل حربون..

- « إننى أمنح التكريم لرماة الحربون كرام النفس هؤلاء.. لا تجرحوني بهذه النصال.. أميلوها! أميلوها! الموت ل- (موبي ديك)! فليمتنا الله جميعًا إن لم نقتل (موبي ديك)!! نخب موته! »

وراح الرجال يشربون وتتصاعد صيحات الحماس..

ثم بإشارة من يد (أهاب) تفرق الجمع، وعاد هو إلى قمرته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

الغروب:

القمرة.. ..جوار النافذة يجلس (أهاب) وحيدًا ينظر للخارج:
حيثما أبحرت أترك خلفى أرقًا عكرًا ومياهًا شاحبة ووجنات أكثر شحوبًا.. الموجات العظمى على جانبي السفينة تعوق طريقي، لكن دعها وشأنها.. لأننى أمر عبرها.
هل التاج الذي ألبسه أثقل مما يجب؟ تاج Lombardy الحديدي.. هو ليس من ذهب، لكنه مزدان بالحلي التي لا أراها.. إنه يدمي رأسي بحافته الحادة لكنه رأس صلب لا يتأثر بسهولة.. هذا الضوء العذب لا يسقط عليّ.. كل ما هو عذب يعذبني لأنني لا أطيق الاستمتاع به. مُنحت فهمًا عاليًّا لكني حرمت من أدنى قدرة على الاستمتاع.
ما كانت مهمة عسيرة.. حسبت أنني سأجد شخصًا عنيدًا.. لكنهم التفوا حولي كالنمل.. لقد أردت.. وما أردت سأفعله..
يحسبني البعض مجنونًا.. (ستارباك) يعتقد هذا.. لكنى شيطاني.. أنا الجنون الذي جن جنونه! النبوءة كانت أنني سأفقد أطرافي، وهأنذا فقدت قدمي.. نبوءتي أنا هي أنني سأمزق ممزقى..
أيتها الطبيعة العاتية.. لن أقول لك مثل تلاميذ المدارس: ابحثي عن شخص في حجمك لتهزميه.. لا.. أنا مناسب لك، ولسوف يكون عليك أن تركضي وتتوارى.. تعالى وجربى أن تثنيني عن عزمي.. تثنيني؟ إن الطريق إلى هدفي تحيط به القضبان الحديدية التي سوف تجرى فوقها روحى..
منتصف الليل عند المقدمة.. يجلس رماة الحربون والبحارة..
يرتفع الشراع الأمامي كاشفًا عن الحراس في أوضاع مختلفة بين الرقاد والوقوف، والكل ينشد في كورس.

وداعًا أيتها النسوة الأسبانيات.. وداعًا أيتها النسوة الأسبانيات.. لقد أصدر القبطان أوامره..

أول بحار:

آه يا شباب.. لا تكونوا عاطفيين.. هذا يؤذي الهضم.. اتبعوني في الغناء (يغنى وهم معه)

وقف قبطاننا على السطح وفي يده منظار مقرب

يرقب تلك الحيتان العظيمة..

قفوا في قواربكم ولسوف نظفر بأحد هذه الحيتان..

فتماسكوا يا رفاق ولا تخذلنكم قلوبكم..

حين ينغرس الحربون في الحوت..

بحار فرنسى:

هلموا يا شباب! دعونا نفز برقصة أو اثنتين قبل أن ننزل مرسانا في ساحل (بلانكت).. ما رأيكم؟ (بيب).. (بيب) الصغير.. تعال سريعًا مع دفك..

بيب (نائمًا):

لا أعرف أين هو..

البحار الفرنسي:

إذن اضرب على بطنك وهز أذنيك.. هلموا يارجال ارقصوا! الأقدام.. الأقدام!

بحار ايسلندى:

معذرة.. لكني لا أعرف كيف أرقص على هذه الأرض الجافة.. لقد أعتدت الجليد..

بحار مالطى:

وأين الفتيات؟ من سوى الأحمق ذلك الذي يمسك يده اليمنى باليسرى ويقول لها: كيف حالك؟ أريد زميلات للرقص! (تكفهر السماء)..

بحار هندى:
بحق (براهما)! ستبتل الأشرعة سريعًا.. إن السماء تنذر بعاصفة.. الريح ستعصف بنهر (الجانج)! أنت ترينا غضبك يا (شيفا)!
بحار من نانتيكوت:
ما هذا؟ أتراه البرق؟
بحار أسباني:
لا.. بل هو (ياجو) الزنجي يكشر عن أنيابه!
ياجو (يثب):
ابلع لسانك يا ذا الجلد الأبيض والكبد الأبيض!
الأسباني (يواجهه):
سأطعنك من كل قلبي يا ذا الجسد الضخم والروح الضئيلة!
(تنتهى المشادة سريعًا لأن الرجال ينهمكون في اتقاء العاصفة القادمة)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

موبي ديك:

كنت أنا (إسماعيل) واحدًا من هذا الطاقم، وصرخت حين صرخوا.. واتحد قسمي مع قسمهم.. ثمة شعور متوحش غامض في أعماقي.. إن ضغينة (أهاب) التي لا ترتوى تبدو كأنها ضغينتي أنا.. وقد سمعت قصة ذلك المخلوق الذي أقسمت وسواي على قتله..

لزمن طويل كان الحوت الأبيض يعيش في تلك البحار المنعزلة التي يرتادها صيادو حوت العنبر.. لكن أكثرهم لم يعرفوا بوجوده.. وعدد ضئيل جدًّا رآه.. أما من اشتبكوا معه فندرة..

وكان عدم انتظام الرحلات وارتيادها أماكن مختلفة، مما يجعل تناقل الأخبار بين البحارة شيئًا عسيرًا.. لكن الأخبار تواردت بين البحارة عن مقابلتهم في خط عرض ما وطول عرض ما، حوتًا لا يصدق من ناحية الحجم والشراسة.

هذا الحوت كان يهزم مهاجميه دائمًا ثم يفر.. وكان البحارة لا يتحدثون عن هذا الحوت بشكل خاص، ولكن يتحدثون عن أهوال مهنة صيد حوت العنبر عامة.. وكانوا يواجهون هذا الحوت باعتباره حوت عنبر خطير آخر، لكن هذه المقابلة كانت تؤدى إلى كسور وجراح وأطراف مبتورة، وهلاك إلى أقصى درجات الهلاك.. وفي النهاية بدأت القصة تكتمل..

إن صيادي الحيتان ليسوا معصومين من الخرافات والإشاعات التي تميز كل البحارة، لكنهم كذلك الأكثر قابلية للتعرض لأهوال البحر.. وقد اكتسبت حكايات الحوت الأبيض المزيد من الإضافات الأسطورية الطفولية، وهكذا اكتسب (موبي ديك) طابعًا خارقًا للطبيعة.

إن الكثير من صائدي الحيتان الذين لا تحمل سفنهم العلم الأمريكي، لم يروا حوت العنبر قط ويعتبرونه وحشًا أسطوريًّا من وحوش بحر الشمال.. وحتى (كوفييه) العظيم يقول في كتابه إن رؤية حوت العنبر تجعل كل الكائنات البحرية بما فيها سمك القرش ترتجف هلعًا.
وهكذا اعتبر البحارة قذف الحربون على حوت عملاق كهذا نوعًا من الانتحار.. كأنك تقذفه بغرض اللحاق بالأبدية.. ومن ضمن الخرافات أن (موبي ديك) كلي الوجود.. أي أنك قد تلقاه على عدة خطوط طول في الوقت ذاته.. ولا يخلو هذا القول من حقيقة لأننا نجهل الكثير عن تيارات الماء، ولا نعرف السبل التي يحمل بها هذا التيار الحوت من موضع لآخر بسرعة البرق.. ومن الأشياء الموثوق بها أن هناك حيتان صيدت في أقصى جنوب المحيط الهادي، وفي أجسادها حربون تم قذفه من وقت قريب في (جرينلاند) بأقصى الشمال.
هكذا تم اعتبار (موبي ديك) موجودًا في كل مكان، فكان من السهل على البحارة أن يعتبروه موجودًا في كل زمان.. أي أنه خالد.. وكل الرماح التي غرست فيه لم تستطع قتله.. دعك من منظره غير المألوف بجبينه العالي الأبيض كالثلج، والحدبة على ظهره.
أما ما يميزه بحق فهو شره الواضح وشراسته التي تم وصفها كثيرًا.. أحيانًا تطارده السفينة فيفر منها وقد بدت عليه كل علامات الرعب، وفجأة يستدير ليواجهها فيقلبها أو يجرها في الاتجاه المعاكس.
كان هناك قارب يطارده وقد استقله قبطان - لم يكن سوى (أهاب) - يحمل نصلًا يريد غرسه في الحوت، هنا استدار هذا

الأخير وبفكه الشبيه بالمنجل قضم قدم (أهاب)، كأنما يحصد العشب في المرج..
ومن يومها عاش الحوت في ذهن (أهاب) يطارده في كل حين، مع تلك الرؤى التي يعيش بعض الرجال وهي لا تبرح أذهانهم.. تلتهمهم.. فيعيشون بنصف قلب ونصف رئة.. تلك الرؤى التي صنع لها القدماء تمثال الشيطان وعبدوه، لكن (أهاب) لم يعبد هذه الرؤى بل حشدها في شخص الحوت المقيت.. لقد حشد كل الكراهية وشرور العالم من عهد (آدم) في حدبة ذلك الحوت.. وحين خرج لهذه الرحلة لم يتوقع أحد أن غرضه الوحيد كان تدمير الحوت.. وانطلقت روحه المجنونة لتصيب الطاقم كله بالعدوى، حتى أن رغبته صارت رغبتهم.
كانت هناك أشياء كثيرة في الحوت تثير الرعب، لكن الشيء الذي أثار رعبي أكثر من سواه كان لونه الأبيض، ولأننى لعاجز عن تفسير كلامي بشكل واضح.. برغم أن اللون الأبيض في أغلب الأشياء يعكس الجمال، كما هو الحال مع اللآلئ وأفيال (سيام) البيضاء التي لا توجد إلا في بلاط ملكي، وعذرية وطهر العروس، وهو رمز القوة والتفوق في عقائد عدة..
برغم هذا يثير اللون الأبيض أحيانًا رعبًا شديدًا عندي، متى ارتبط برمز مخيف.. تأمل الدب القطبي والقرش الأبيض.. ما سر الرعب الذي يثيرانه إن لم يكن اللون الأبيض؟ إن ارتباط اللون الأبيض بالطهر ثم وجوده في كائن يتمتع بهذه الشراسة لهو سر هذا التوجس والرعب.. إن هذا التناقض لمخيف.. إن قداس الموتى في الكنيسة الرومانية يبدأ بعبارة (ركيويرام إترنام) - أي الراحة الأبدية - فلابد أن انسياب القرش ونعومته هما سبب إطلاق اسم (ركيوم) عليه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

الخارطة:

اصغوا! هل سمعت هذه الضوضاء يا (كاباكو)؟

كان هذا في منتصف وردية الليل، وضوء القمر لا بأس به، والبحارة يقفون في نطاق ممتد ويتبادلون نقل دلو من الماء من يد ليد، وفي وسط هذا قال أحدهم ويدعى (أرشي) هذه الكلمات لجاره..

- « شش! هل سمعت هذه الضوضاء يا (كاباكو)؟ »
- « أية ضوضاء تعنى يا (أرشى)؟ خذ الدلو! »
- « تحت هذه الفتحات.. كأنها سعة.. هي ذي ثانية! كأنما ثلاثة نيام يتقلبون! »
- « بل هو عشاؤك يتحرك في بطنك! هلم يا رفيق السفينة! كف عن الهذيان.. »
- « لكنني متأكد من وجود شيء في بطن السفينة.. شيء لم يظهر على السطح قط.. أحسب القبطان يعرف الأمر، فقد سمعت (ستاب) و(فلاسك) يتكلمان عنه.. »
- « ليكن.. الدلو!! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو أنك رأيت (أهاب) بعدما أوضح هدف الرحلة للبحارة، لرأيته ينزل إلى قمرته، فيخرج من خزانته لفائف خرائط مجعدة، ويفردها على المنضدة.. ثم يدرسها بعناية.. وقد أفعمت بمسارات رحلات سابقة خرجت من أجل حوت العنبر.. المصباح المعلق بالسلاسل يهتز فيلقى على وجهه ظلالًا غريبة

لحاجبيه، فكأنما يده ترسم على الخارطة خطوطًا، بينما يد أخرى خفية ترسم خارطة أخرى على جبينه.
لم تكن تلك أول ليلة يخرج فيها خرائطه.. فقد اعتاد هذا كل ليلة.. بالنسبة لمن يجهل عادات الحيتان، يبدو أمرًا ميئوسًا منه أن تطارد حوتًا بعينه بين المحيطات الأربعة، لكن ليس بالنسبة ل- (أهاب).. فهو يعرف تيارات الماء، وأماكن توافر طعام حوت العنبر، ومواسم صيده عند خطوط الطول المختلفة.. برغم أن الحيتان تغير عاداتها لكنها - بغريزة لا تخطئ أو سمه ذكاءً لا يفشل - تمشي في طرق بحرية معينة يطلقون عليها اسم (الأوردة)، ومن ثم يمكن ل- (أهاب) أن يجد نقطة يعترض فيها طريق الحوت.. سوف تصير الإمكانيات احتمالات.. والاحتمالات سوف تصير حقائق..
يغرق (أهاب) في خواطر الانتقام اللذيذة ويتخيل (موبي ديك) ملقى على السطح يحاول استرجاع قواه.. ينام الرجل في النهاية وقد تقلصت قبضته، ويصحو وقد سال الدم من كفه بفعل أصابعه..
ليرحمك الله أيها القبطان العجوز! أنت مثل (برومثيوس) تتعذب في كل ليلة، ثم يأتي النسر في الصباح ليمزق كبدك.. النسر الذي صنعته من أفكارك الخاصة..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
في عصر يوم حار رطب، كان البحارة يتمددون في كسل فوق ظهر المركب أو يحملقون في الماء.. وكنت أنا و(كويكونج) ننسج ما يسمونه (حصيرة السيف) لقاربنا. وبدا كأن كل بحار غارق منهمك في ذاته.. فكأننى أخيط نسيج قدرى الخاص بيدى..

كنا منهمكين حين أفزعني صوت غريب.. عال.. لا يمت للأرض بصلة حتى إنني وقفت أحملق لأرى مصدره.. كان هذا قاذف الحربون الهندي (تاشتيجو).. كان يقف فوق الصارية وقد فرد ذراعيه وهو لا يكف عن الصراخ.. إنها ذات الصرخة التي يطلقها صيادو الحيتان في كل مكان، لكن لا بد من رئتين كرئتي هذا الهندي لتكتسب هذا التأثير الفريد.. حين تراه فوق رأسك تشعر كأنما عراف قديم يستكشف قدره..

- « إنها تنفث بخارها هناك! تنفخ!! »
- « أين؟ »
- «عكس اتجاه الريح! على بعد ميلين! مدرسة من الحيتان! »

إن حوت العنبر ينفث بخاره كالساعة بدقة زمنية كاملة لا تتغير، وبهذا يعرف صيادو الحيتان هذه المخلوقات بين سواها.. هرع الخادم ليخبر (أهاب) وهو ينظر لساعته ليحدد الوقت بالضبط.

الآن تتحرك السفينة عكس الريح.. ويعلن (ناشتيجو) أن الحيتان قد هبطت باتجاه الريح.. وتوقعنا في ثقة أن نقابل الحوت في طريقنا، لأن حيتان العنبر تلجأ لهذا الأسلوب المخادع كثيرًا.. تهبط ورأسها في اتجاه ثم تبدل وضعها بالكامل وهي تحت الماء.. وهكذا تم إنزال الهندي من برج المراقبة، وإعداد القوارب الصغيرة المتدلية من جوانب السفينة، وراحت طواقمها المتحمسة تمسك بجوانبها.. كأنهم القراصنة يتأهبون للانقضاض على سفينة العدو.. لكن وسط هذا الحماس كان الكل ينظر إلى (أهاب) الذي تجمعت حوله خمسة أشباح تشكلت من الهواء.

كانت الأشباح تقف جوار القارب وتفك حباله.. هذا القارب كان يعتبر زائدًا، برغم أنه كان يدعى (قارب القبطان).. أما

الشخص الواقف جواره فكانت له سن تلمع في الظلام بشكل شيطاني، وقد تدثر بثياب سوداء من القطن، وعلى رأسه عمامة يخرج منها شعر أسود كثيف يتدلى على كتفيه وظهره.. وجواره رفاقه الذين هم أقل سوادًا منه، ولهم لون أصفر نمرى يميز بعض سكان (مانيلا) الأصليين، وبعضهم رجال بيض يبدو كأنهم العملاء السريون الموثوق بهم في بحار الشيطان.
وقفنا نرمق هذه المجموعة في رعب على حين صاح (أهاب) في قائدهم ذي العمامة:
- « مستعدون يا (فداء الله)؟ »
- « مستعدون.. »
- « إذن انزلوا بالقارب.. هل تسمعون؟ »
كان هذا صوته الشبيه بالزئير.. فسرعان ما وثب الرجال بخفة شيطانية إلى القوارب، وأصدر (أهاب) أوامره بأن ننتشر على سطح السفينة لنغطي أكبر مساحة من الماء.
لقد كان هؤلاء الرجال المخيفون على السفينة من البداية.. هم مصدر الصوت الغريب الذي سمعه (أرشى) من قبل، وأخبر به (كاباكو). إنهم سافروا على ظهر السفينة خلسة يا سيدى..
صاح (ستاب) وهو يمسك بدفة القارب:
- « هلموا.. هلموا.. هلموا يا رجال.. لم لا تحطمون عظام ظهوركم؟ إلام تنظرون؟ لا تهتموا بشياطين الكبريت هذه.. هذه هي الضربة التي تجلب ألف جنيه.. سارعوا إلى زيت الحوت بقدح ذهبى.. ثلاث تهليلات يا رجال! لم لا تنتزعون مجاديفكم من مكانها؟ عضوا بأسنانكم على شيء ما يا كلاب! هيا.. هكذا هكذا! ليأخذكم الشيطان يا مجموعة من الأوغاد! أنتم نائمون تغطون.. اجذبوا الحبال وحطموا شيئًا.. اجذبوا الحبال ولتخرج

عيونكم من محاجرها! فليخرج كل منكم مطواة ويدسها بين أسنانه.. »
كانت هذه طريقته في مخاطبة الطاقم.. يمزج بين الكلمات المضحكة والغضب.. وقد قام بحساب الغضب بعناية كي يضيف مذاق التوابل إلى الضحك..
وكان البحارة متوجسين من رؤية هؤلاء الرجال غريبي الشكل وسطهم.. لماذا أخفاهم (أهاب) عن العيون كل هذا الوقت؟؟
لكنهم ارتاحوا نوعًا لحقيقة أن (أرشي) كان يعرف وجودهم، وأن (ستاب) لم يبد مندهشًا ولم يفزعه منظرهم..
أما عن نفسي فتذكرت أولئك الأشخاص الذين رأيتهم فجر يوم الرحيل يصعدون إلى (بيكود)، ثم تواروا عن نظرى..
رأيت (أهاب) ينزل مع الرجال إلى القارب، ويتخذ مكانه هناك.. فيما بعد عرفت أنه أعد هذا القارب بشكل خاص ودعم أرضيته لتتحمل قدمه الخشبية فلا تتهشم.. من غير المعتاد أن ينزل القبطان بنفسه إلى قارب صيد الحيتان، لكن (أهاب) كان مصممًا على أن يرى بعينه وعن كثب مقتل حيتان العنبر..
ارتفعت اليد الممدودة ثم ظلت ثابتة في الهواء.. على حين ارتفعت خمسة المجاديف.. وصاح (ستارباك):
- » فلتقف يا (كويكونج) وتراقب الموقف! »
فنهض صديقي آكل البشر ينظر إلى البحر حيث غاصت الحيتان..
وعلى مسافة غير بعيدة كان قارب (فلاسك) يقف ساكنًا وربانه يقف باستهتار عند المقدمة المرتفعة، والتي لا يتجاوز اتساعها كف الإنسان.. لكن هذا لم يرق له لهذا طلب من (داجو) الزنجي أن يقترب أكثر ويمنحه كتفه ليتسلق عليه..
- « هذه أفضل وأقوى من أية صارية يا سيدي.. »

- » رائع يا صاحبي.. وإن تمنيت لو أنك أطول بعشرين قدمًا.. »
وصعد على كتفى العملاق الزنجي.. إن التوازن المدهش لصائد الحيتان في قاربه مهما كانت حالة البحر لأمر يثير ذهول من لم يعتده.. وكان الزنجي العملاق يبدو أكثر عظمة ونبلًا من راكبه، وهو يبدل وضعه في كل لحظة ليحفظ توازن (فلاسك).
ساد الصمت وفجأة صرخ الهندي:
- « هناك! هناك! ها هي ذي الحيتان! »
وانطلقت أربعة القوارب تطارد تلك البقعة من فقاقيع الهواء ونافورة الزفير.. لكنها كانت تفوقهم سرعة.
كنا نسمع ما يقوله (أهاب) لبحارته الصفر في قاربه.. ولكن لا يمكن أن أقوله هنا لأننا نعيش في أمة متدينة.. فقط يمكن أن تقال هذه الكلمات لأسماك القرش المتعطشة للدماء.. وكنت ترى (أهاب) وقد بدا حاجباه كالإعصار وصارت عيناه حمراوين كالدم..
في سياق هذا لا يجب أن يكون للبحارة من أعضاء إلا الآذان، ولا أطراف إلا الأذرع.. والمشهد أسطوري يثير القشعريرة حين ترى القوارب تسابق الريح، والأمواج ترتفع حتى لتوشك على أن تشطر القوارب نصفين، ومن بعيد تنتظر (بيكود) شامخة مهيبة بينما القوارب تبتعد عنها بسرعة.. لا شيء يماثل هذا وحتى لقاء الرجل بأول شبح في حياته لا يمكن أن يحدث شعورًا كهذا..
لم يعد الزفير بقعة واحدة بل صارت مجموعة من النافورات المتفرقة.. إن الحيتان تتفرق ومعها تفرقت قواربنا.. ومعها بدأت نذر العاصفة القادمة.
صاح (ستارباك):
- « تلك حدبته.. هلم! أعطه إياه! »

قالها ل- (كويكونج) فتصلب ووقف ينتظر.. ثم دوى صوت مندفع من رمحه، وحدثت فوضى عارمة في المؤخرة.. وراح شيء يتلوى من تحتنا كأنما هو زلزال.. وفر الحوت الذي جرحه الحربون فحسب، لم يتأذ القارب برغم أنه غرق بالماء.. وهكذا عاد من انقلب منا إليه ووجدنا المجاديف.. ازداد عواء الريح وبدأت العاصفة، ورحنا نلوح للقوارب الأخرى من دون جدوى.. هبط علينا الظلام واكفهر الجو، هكذا لم يجد (ستارباك) إلا أن يمزق الغطاء الواقي من الماء فيخرج المصباح.. يوقده ويناوله ل- (كويكونج) ليقف به ويلوح طلبًا لغوث القوارب الأخرى.

لكن الليل مر علينا، وفي الفجر كان المصباح الخاوي يرقد مهشمًا على قاع القارب، ولا أثر للسفينة على الإطلاق..

فجأة تصلب (كويكونج) وراح يسمع.. هنا من الضباب برزت لنا السفينة مندفعة على مسافة لا تتجاوز طولها، فوثبنا جميعًا في الماء..

لقد عادت القوارب كلها للسفينة ما عدا قاربنا، وقد حسبونا غرقنا لكنهم ظلوا يجوبون المنطقة بحثًا عنا.. ورأينا السفينة تقلب قاربنا ثم تمر به.. هكذا عدنا نبحث عنه لنركب فوقه من جديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

تاون هو:

لا شيء مثل صيد الحيتان يعلمك أن تتبنى فلسفة خاصة، تجعلك تنظر إلى كل كارثة تحل بك على أنها جزء من دعابة عملية كبيرة.. مهما حل بك فهو جزء من النكتة.. وقد تعلمت أن أنظر بهذه الطريقة إلى رحلة (بيكود) كلها والحوت الأبيض العظيم الذي كان هدفنا.

لقد جروني إلى سطح السفينة، فصحت وأنا مبتل تمامًا:

- « (كويكونج) يا رفيقي الطيب.. هل هذا يحدث دائمًا؟ »

بلا مبالاة أفهمني أن هذه الأشياء تحدث أغلب الوقت.. ففهمت أن خير ما أفعله الآن هو أن أنزل إلى قاع السفينة وأكتب وصيتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقنا من جزر (أزور) إلى (كيب دى فيرديس) ثم ثغر (ريو دي لا بلانا) فأرض (كارول) التي تقع جنوبي (سانت هيلانة)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن ثمة أحداث غريبة، ما عدا تلك النافورة من الماء التي رآها الرجل ذو العمامة أكثر من مرة في منتصف الليل في ضوء القمر.. وكنا ننزل القوارب ونبحث في الماء بعناية فلا نرى شيئًا.. تكررت هذه الظاهرة العجيبة أكثر من مرة حتى تطيرنا منها..

إلا أننا بدأنا ندنو من (رأس الرجاء الصالح) وهاجمتنا العواصف القاسية المميزة له..

رأس الرجاء الصالح.. أكذا يسمونك؟ أم أنت رأس العذاب (كيب تورمنتوتو) كما كانوا يسمونك قديمًا؟ تحلق فوقنا أرواح معذبة اتخذت شكل طيور البحر، ومن حولنا أسماك لا هدف لها ولا مرفأ..
كنا نربط أنفسنا بما يشبه الحبال إلى حاجز السفينة، بينما تتقاذفنا الأمواج، وكان (أهاب) يصر على أن يقف معنا وقد غرس ساقه العظمية في التجويف الذي صنعه لنفسه، وحتى حين تستريح الطبيعة لم يكن راغبًا في أية راحة.
وعند الاقتراب من (الكيب) كانت هناك سفينة صيد.. إن (الجام GAM) لفظة لا وجود لها في أي قاموس، لكن الآلاف يستعملونها.. لنقل إن معناها: اللقاء الاجتماعي بين سفينتى صيد حيتان أو أكثر، تتبادلان التحيات ثم قوارب الزيارة.. ويلتقى القبطانان على ظهر سفينة منهما، بينما يلتقى كبيرا الضباط على أخرى.
لكن (أهاب) لم يعن بتبادل الكلام مع طاقم السفينة الأخرى، وهو سلوك غريب بالنسبة لسفن صيد حيتان تلتقي في الناحية الأخرى من الكرة الأرضية.. إنك لا تلقى مواطنًا لك في بلد غريبة دون أن تهز رأسك بالتحية على أقل تقدير، أما هذا التجاهل في هذه الأصقاع فأمر لا يمكن تفسيره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن رأس الرجاء الصالح والماء من حوله أقرب إلي طريق سريع تقابل فيه كل أنواع المسافرين.. وقد قابلنا سفينة صيد حيتان اسمها (تاون هو)، وأغلب طاقمها من البولينيزيين.. وقد أعطتنا في ال- Gam القصير الذي تم بعض المعلومات عن (موبي ديك)..

كانت هناك قصة قصيرة سرية لم تبلغ أسماع القبطان (أهاب) ولا قبطان (تاون هو) نفسه.. لقد حكاها أحد البحارة البيض ل-(تاشتيجو) مع توصية شديدة بإبقائها سرًا.. لكن البحار الهندي تكلم كثيرًا في نومه إلى حد أنه لم يستطع إخفاء باقي القصة حين استيقظ..
كانت تلك السفينة قد ابتعدت عن (نانتيكوت) بمسافة طويلة، حين لاحظ البحارة أنها تحتجز كميات ماء أكثر من اللازم، وافترضوا أن سمكة سيف قد أحدثت فيها ثقبًا أدى لتسرب الماء.. لكنهم لم يجدوا مكان التسرب وقد كان ضئيلًا على كل حال، لذا واصلوا رحلتهم.
لم يواتهم الحظ الحسن لأن التسرب بدأ يزداد يومًا بعد يوم..
هكذا قرر القبطان ألا يجازف أكثر وأن يتوقف عند أقرب مرفأ ليبحث عن مصدر التسرب ويصلحه.. وإن لم يشعر بالقلق لأن معه مضخات ممتازة ورجالًا أشداء يمكنهم نزح أية مياه.. وإن صارت عملية النزح تحتاج إلى نحو ساعة يوميًا.
كان الرجال مرهقين لكن أحد الضباط ويدعى (رادني) كان يتصرف ويشعر في قرارة نفسه أنه الإمبراطور (شارلمان) لو أن أمه كانت أم (شارلمان)، وقد قرر أن يرغم أحد البحارة الأقوياء ويدعى (ستيلكات) على طاعة أوامره مهما كانت مهينة.. لهذا اتجه نحوه وهو غارق في العرق يلتقط أنفاسه وأمره بأن يقوم بتنظيف سطح السفينة.. إن تنظيف سطح السفينة عمل معتاد يمارسه البحارة ربما قبل أن يغسلوا وجوههم، لكن عملية النزح هنا كانت تحتاج إلى أقوى الرجال، وكان من الطبيعي أن يقع عبء النظافة على الضعفاء.. بالإضافة إلى أن الاستفزاز في الأمر كان واضحًا.. هكذا رفض البحار أمر الضابط..

أعاد الضابط إصدار أمره وهو يلوح بمطرقة.. فاكتفى البحار بأن نظر له وقال:
- « سيدي.. أنا لن أنظف سطح السفينة.. وأرجو أن تبعد هذه المطرقة.. »
من جديد كرر الضابط الأمر وهو يلوح بالمطرقة تحت أسنان (ليكمان)، لكن هذا الأخير لم يتحرك واحدًا على الألف من البوصة، وقال إنه غير مسئول لو أن هذه المطرقة لمست خده مجرد لمسة..
لكن الأحمق كان قد اختير لقدره، وقد لمس خد البحار بالمطرقة.. وفي اللحظة التالية كان على الأرض والدم ينزف من فمه.. واتجه البحار لمقدمة السفينة لكن انقض عليه ثلاثة ضباط وأربعة من رماة الحربون.. هنا لحق به زملاؤه واثنان من (القناليين) كما نسميهم، وهم قوم شديدو الشراسة والولع بالقتال.. وسرعان ما تكومت أجساد الضباط عند المقدمة..
خرج القبطان وحاول أن يسدد بعض الطعنات برمح صيد الحيتان، وصرخ يطالب ضباطه بالقبض على ذلك الوغد وشيه.. لكن (ستيلكات) ورفاقه المتمردين كانوا أقوياء ونجحوا في اتخاذ متراس عند المقدمة..
- « أخرجوا من هنا أيها السفاحون القتلة! »
كذا صاح القبطان وهو يلوح بمسدسين جلبهما له المضيف.. لكنه أدرك أنه لو قتل (ستيلكات) لقام أعنف تمرد ممكن على ظهر سفينته.
صاح (ستيلكات) من وراء متراسه:
- « لم يكن خطأنا بل خطأه.. قلت له ألا يخز الجاموس البري.. طلبت منه أن يبعد المطرقة عني لكنه كان طفلًا.. وأقسم أنني هشمت إصبعًا على خده القذر.. عدنا يا قبطان ألا تحاول

جلدنا أو عقابنا ولسوف نصير رجالك.. فقط عاملنا معاملة لائقة.. »
- « اخرجوا لي! لن أعد بشيء! »
في النهاية اتفق القبطان على أن يخرجوا من مكانهم وينزلوا إلى القاع.. ولم يكن (ستيلكات) راغبًا في التمرد، لهذا أقنع الرجال أن ينفذوا هذا الأمر حقنًا للدماء.. واتجه للقاع ومعه الرجال يزمجرون غاضبين غير راضين عن القرار كأنهم دببة تدخل كهفًا.
على الفور وضع القبطان قفلًا ثقيلًا على الباب الذي يؤدي للقاع، ثم عين حراسة طيلة الليل خشية أن يتمكن أحد المتمردين من الهرب..
في الصباح قدموا للسجناء الطعام والبسكويت وطلب منهم القبطان أن يخرجوا للعمل، لكنهم رفضوا.. وتكرر هذا ثلاثة أيام كاملة.. في اليوم الرابع أعلن أربعة متمردين التوبة وغادروا القاع.. في اليوم الثاني لحق بهم آخرون لم يتحملوا الجو العطن بالداخل مع الطعام الرديء، فلم يبق إلا ثلاثة رجال..
كانوا (ستيلكات) ومعه اثنان من (القناليين).. وقد راح القبطان يسألهم بسخرية إن كانوا مستعدين للتوبة.. فقد (ستيلكات) صوابه بفعل الجوع والظلام وتراجع رفاقه وسخرية القبطان، لهذا أعلن لرفيقيه أنه سيغادر السجن حاملًا سكينه الحادة ويحاول الاستيلاء على السفينة.. كان الرجلان يشاركانه الأفكار ذاتها.
إلا أنه حين أغفى وقد اتخذ قراره بصدد الغد، تحرك دم الخيانة في الرجلين القناليين، وقررا أن يسلماه للقبطان..
قيداه أثناء نومه، ثم خرجا إلى القبطان طالبين رضاه وصفحه فقد قبضا على الخائن..

هنا أصر القبطان على أن يعاقب الثلاثة.. ولم يستثن الرجلين.. ربطهم ضباطه أمام عيون البحارة جميعًا ثم أوسع (القناليين) جلدًا بسوطه حتى آلمته ذراعه..
جاء دور (ستيلكات) واتجه القبطان نحوه، لكن هذا الأخير قال له وهو ينظر له نظرة كنصل السكين:
- « لو لمسني هذا السوط فسوف تموت! أعدك بهذا! »
ضحك القبطان في سخرية، لكن (ستيلكات) همس له ببضع كلمات لم يتبينها أحد.. هنا امتقع وجه القبطان وقال:
- « ليكن.. لقد أعفيته من الجلد.. هلموا فكوا قيوده! »
اتجه الضباط لتنفيذ أمر القبطان، لكن (رادني) الضابط المغرور ذا الرأس المضمد انتزع السوط.. كان قد شفى من الجرح الذي سببه له (ستيلكات)، ورأى المشهد فقرر أن يفعل بنفسه ما عجز عنه القبطان..
- « أنت جبان!! »
قالها (ستيلكات) فقال الضابط:
- « ربما أنا كذلك.. لكن خذ هذه.. »
تردد قليلًا لسبب ما، ثم نفذ عملية الجلد..
في النهاية تحرر ثلاثة الرجال وعادت المضخة تعمل..
إلا أن البحارة نفذوا انتقامًا صامتًا هو أنهم لم يصدروا أي صياح لدى رؤيتهم حوتًا.. هكذا ظلت السفينة عاجزة عن اصطياد الحيتان.. وبالطبع لم يستطع البحارة (القناليون) أن يختلطوا بزملائهم، لذا تم وضعهم في محبس خاص من أجل سلامتهم..
وفي قرارة نفسه أزمع (ستيلكات) أن ينتقم..
كان يعرف أن (رادني) يغفو على سطح السفينة جوار قارب صيد.. وبينه وبين القارب فجوة ليس تحتها إلا البحر.. قدر أن الوقت الأنسب هو الثانية بعد منتصف الليل لتنفيذ انتقامه..

أعد كرة حديدية ثقيلة وحبلًا وتأهب.. لكن الأقدار شاءت أن يتم الانتقام من دون أن تتلوث يده بهذه الجريمة الشنعاء..
لقد أعلن الناضورجي أن هناك حوتًا.. حوتًا أبيض عملاقًا.. إنه (موبي ديك)!
ترك البحارة ما كانوا يقومون به وتم إعداد قارب نزل فيه رماة الحربون، و(رادني) و(ستيلكات).. وانطلق القارب يطارد اللون الأبيض الرغوى فوق الماء.. فجأة ارتطم القارب بسلسلة صخور مغمورة فطار منه الضابط الذي كان واقفًا.. هوى فوق ظهر الحوت الزلق بينما اعتدل القارب من جديد.. وفي هذه اللحظة رأوا الضابط محمولًا فوق خاصرة الحوت إلى البحر، وهو يقف وسط نافورة البخار يحاول جاهدًا أن يثب من فوق الحوت، لكن (موبي ديك) رآه وفي اللحظة التالية انقض عليه بفكيه.. ثم غاص به إلى الأعماق.
بعد ثوان برز رأس الحوت وقطعة من ثياب (رادنى) بين أسنانه.. حاولت أربعة القوارب مطاردته لكنه تحاشاها جميعًا وفر.
استطاع (ستيلكات) بكثير من الحظ أن يصل (تاهيتي)، وهناك كانت سفينة تتأهب للعودة إلى فرنسا.. لا نعرف ما هو مصير (ستيلكات)، لكن أرملة (رادني) في (نانتكوت) ما زالت تنظر للبحر كل ليلة متوقعة أن يعيد لها بقايا زوجها.. أما قبطان (تاون هو) فقد وصل إلى جزيرة يعمرها المتوحشون حيث استطاع أن يبدأ إصلاح سفينته ثم ذهب إلى (تاهيتي) ليحضر نجدة وهكذا استطاع أن يبحر بسفينته من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

ستاب يقتل حوتًا:

وصلت السفينة منطقة مليئة بال- Brit وهي غذاء الحوت الصحيح (حوت جرينلاند).. فبدا لنا كأنما نحن نعبر حقلًا من القمح الأصفر الذهبي.. وفي اليوم الثاني رأينا حشودًا من الحوت الصحيح التي أمنت على نفسها هجمات صيادي حوت العنبر.. وكان النبات الغريب يلتصق بتلك الستائر العجيبة في أفواهها.. ومن هذه الوحوش يصدر صوت غريب وهي تفصل سيقان النبات.. لهذا السبب يطلق البحارة على هذا الموضع اسم (ضفاف البرازيل).. لا يمكن أن تصدق وأنت ترى تلك الحيتان إنها ليست صخورًا سوداء.. الأصعب أن تصدق أن هذه الكتل الضخمة فيها أي قدر من الحياة كالذي تجده في جواد أو كلب. كنا نتجه باستمرار إلى الشمال الشرقي حيث جزيرة (جاوة)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذات مساء رأينا حبارًا، وقد أثار ذهولنا لأن الكثيرين من البحارة لم يروه من قبل، وقد قيل أولًا إنه (موبى ديك) وتم إنزال قوارب للحاق به وبالطبع قاد (أهاب) القارب الأول.. ثم اتضح أنه حبار.. لكن أحدنا لم يستطع نسيان هذه الكتلة الشفافة الهلامية العملاقة التي تغطس تحت الماء ثم تخرج.. وقال البعض إن قوارب صيد قليلة عاشت لتحكى هذه المواجهة فيما بعد..

كان اليوم التالي حارًا رطيبًا، ولم يستطع أكثرنا مقاومة النوم من فعل الطقس ورتابة البحر الهادئ أمامنا.. فهذا الموضع من المحيط الهندى ليس مما يمكن وصفه بالحياة.. كان هذا دورى

كي أتولى المراقبة.. ورحت أتأرجح ببطء جيئةً وذهابًا مع هذا الطقس الخامل، وهكذا شعرت بأن وعيى يتسرب منى.. كأن روحي تغادر جسدى ذاته وإن ظل الجسد يتأرجح كأنه البندول.. فجأة رأيت ما يبدو كفقاقيع أمام جفني المغمضين.. وعدت لوعيى فجأة بشعور كأنه الصدمة.. ويا للعجب! هناك على بعد قريب من سفينتنا حوت عنبر يتلوى في الماء، كأنه بارجة حربية مقلوبة.. ظهره يتألق في ضوء الشمس كأنه مرآة.. كأنه عجوز يسترخي مدخنـًا غليونًا، لكن هذا الغليون أيها الحوت البائس هو غليونك الأخير..

وفجأة وكأنما هو سحر استيقظت سفينتنا كلها، ودوت الصيحات من أفواه الرجال، مع صوت (أهاب):

- « إلى القوارب.. إبحار في اتجاه الريـح.. »

ويبدو أن الحوت شعر بالصخب، فما أن نزلت القوارب إلى الماء حتى اتجه عكس الريـح، بهدوء غريب وأقل قدر ممكن من حركات السباحة.. ويبدو أن (أهاب) شعر بأن الحوت ليس خائفًا فأصدر أوامره بعدم استعمال المجاديف، وعدم الكلام إلا همسًا.

رفع الحوث ذيله العملاق أربعين قدمًا في الهواء ثم غاص كأنه برج يتوارى..

هنا فقط أشعل (ستاب) غليونه وقد ضمن فترة راحة.. لكن الحوت ارتفع من جديد وبدأ يتجه لقاربه بالذات.. لقد صار واضحًا أن الحوت يعرف كل شيء عن مطارديه الآن.. وانتهت تعليمات الصمت..

لقد كان الحوت يندفع مباشرة نحو قارب (ستاب).. إن رأس حوت العنبر هو أكثر أجزائه خفة وتجويفًا، لهذا يستعمل هذا

الجزء عندما يندفع بسرعة.. ويخرجه من تحت الماء أكثر من سواه..
صاح (ستاب) والدخان يخرج من شدقيه:
- « حركوا القارب يا رجال.. لا تخافوا.. خذوا وقتكم ولكن حركوه بسرعة! كونوا هادئين! (الخيار) هو الكلمة الصحيحة.. فقط حركوا القارب كأنه الجحيم والشياطين ذاتها.. »
أطلق رامي الحربون الهندي صيحة حرب.. بينما راح كل بحار يجدف بأقصى ما استطاع..
- « كيى هى ى ى يى!! »
كانت هذه من (داجو) الذي راح يتقلب في مجلسه كأنه نمر حبيس في قفص..
- « كالا.. كولو!! »
هكذا قال (كويكونج) كأنما يطبق أسنانه على قطعة لحم شهية.
وانطلق القارب إلى أن أطلق (ستاب) عبارة التحية:
- « أعطه إياها يا (تاشتيجو)! »
يجب على رامي الحربون أن يخرق حدود التحمل البشري.. فهو يجدف بأعنف ما يستطيع وفي الوقت نفسه عليه أن يصرخ بأقصى ما يستطيع.. وفجأة وسط هذا الإعياء يسمع العبارة (أعطه إياها) من ثم يضطر إلى التصويب، ويجب أن تكون رميته دقيقة جدًّا وقوية جدًّا..
وانطلق الحربون:
- » تقهقروا!! »
وفي اللحظة ذاتها انطلق شيء ساخن فوق معصم كل منهم.. إنه الحبل السحري الذي يربط الحربون، ينطلق من بين يدي (ستاب).. إن الأمر يشبه أن تمسك بسيف العدو ذي الحدين من نصله.. وهذا العدو يحاول طيلة الوقت انتزاع النصل منك..

- « بللوا الحبل!! »
هكذا صاح (ستاب) في البحار المكلف بهذا، فملأ قبعته من ماء البحر وراح يسكبه فوق الحبل.. وراح القارب ينطلق وسط الماء الذي يغلى كأنه سمكة قرش.
لقد صار الحبل الآن مشدودًا قاسيًّا كأنه وتر (هارب).. وتشبث كل رجل في مكانه كي لا يُقذف إلى المياه الثائرة، وبدا لنا أننا عبرنا الأطلنطي والهادي معًا.. فقد كان الحوت يجذبنا خلفه بقوة وصاح (ستاب):
- « شدوا الحبل! شدوا الحبل! »
فبدأت الأيدي تجذب الحبل، وثبت (ستاب) قدميه في القارب ثم راح يطلق رمحًا تلو الآخر على السمكة.. لقد بدأ المد الأحمر يخرج من كل جوانب الوحش العملاق، ولم يعد جسده يسبح في الماء المالح بل في الدم.. وفي الآن ذاته خرجت من الحوت سحابة تلو أخرى من الزفير الحار.. الشمس تلتمع على هذه البركة الحمراء فترسل إلى الوجوه بريقًا أحمر.
حين دنا القارب أكثر من الحوت تقدم (ستاب) وغرس رمحه في خصر الحوت، وراح يغرس أكثر فأكثر ويحركه كأنه يبحث بالداخل عن ساعة ذهبية ابتلعها الحوت من قبل.. لكن هذه الساعة كانت هي الحياة الداخلية للحوت.
هنا انتهى جزء الهدوء لتبدأ المرحلة المرعبة المعروفة ب-(الهياج).. لقد ثار الوحش وأحاط نفسه بدوامة مريعة.. حتى إن القارب حاول بأية طريقة الابتعاد عن هذا الظلام إلى ضوء النهار.
وراحت نفاثات من الدم الأحمر تخرج منه وهو يتلوى يمينًا ويسارًا.. ثم همدت حركته أخيرًا.. لقد تفجر قلبه!
قال (داجو):

- « لقد مات يا مستر (ستاب).. »
- « نعم.. كلا الغليونين انتهيا! »
قالها (ستاب) وأفرغ غليونه في الماء وراح يراقب الجثة العملاقة التي أوجدها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بدأت عملية جر جثة الحوت بوساطة ثلاثة قوارب إلى السفينة.. كنا ثمانية عشر رجلًا لهم ست وثلاثون ذراعًا ومائة وثمانون إصبعًا.. لكن هذه المهمة استغرقت ساعات..
جاء الظلام لكن أضواء (بيكود) راحت ترشدنا.. وراقبنا (أهاب) إلى أن أصدر أمره المعتاد بربط الحوت إلى جانب السفينة، ثم انطلق إلى قمرته فلم نره إلى الصباح.. كان ثمة نوع من الإحباط في سلوكه كأنما مرأى هذا الوحش الميت ذكره بواجبه نحو (موبي ديك)..
بدأ إنزال الهلب من السفينة لكن ليس للرسو ولكن لربط الجثة إلى جانب السفينة..
وعلى عكس (أهاب) الكئيب كان (ستاب) مزهوًا بنصره.. وقد صاح في (داجو):
- « شريحة لحم! شريحة لحم! انزل يا (داجو) وهات لى قطعة لحم منه.. »
لم يكن من عادة البحارة التهام شيء من الصيد قبل معرفة ما سيحدث في الرحلة بعد هذا، لكن هؤلاء البحارة من (نانتكين) كانوا مولعين بجزء خاص من لحم الحوت عند أكثر طرفيه تحديًا.. وهكذا عند منتصف الليل تم قطع الشريحة وطهيها، وجلس (ستاب) يلتهم عشاءه..
لكن (ستاب) لم يكن الوحيد الذي مثل بجثة الحوت ليلتها، فقد جاء آلاف من أسماك القرش اجتذبتها رائحة الدم وراحت

تحاول الظفر ببعض الدهن.. وكانت زعانفها تضرب جدار السفينة على بعد أمتار من النائمين في القاع.. وراح كل منها يقضم من جسد الحوت ما يصل حجمه إلى رأس الإنسان.
هكذا تحتشد هذه الوحوش كأنها كلاب تحوم حول مائدة عليها لحم أحمر شهي.. إن لم تكن قد رأيت هذا المشهد فأنت لا تعرف شيئًا عن الشياطين ولا عن عبدة الشيطان.
صاح (ستاب) مناديًّا الطاهي الزنجي:
- « أيها الطاهي! هذا اللحم ناضج أكثر من اللازم! لحم الحوت يجب أن يكون صلبًا.. هل ترى أسماك القرش هذه؟ إنها تفضل اللحم صلبًا نيئًا.. لماذا لا تذهب لها وتعظها.. قل لها إن الضابط (ستاب) يسمح لها بملء بطونها لكن من دون ضوضاء! قل لها أن تكف عن ضرب ذيولها بحاجز السفينة.. »
ينحنى الطاهي مطيعًا ويتجه إلى حاجز السفينة ويضيء المصباح ليأمر أسماك القرش بعدم إحداث ضوضاء.. ثم يعود للضابط قائلًا:
- « هذه الوحوش القذرة لا تملك روحًا تصغى للمواعظ.. سيستمرون حتى تمتلئ مَعِدُهم، ومَعِدُهم لا قاع لها.. »
- « أوافقك على هذا.. والآن نعود لموضوع اللحم.. كم عمرك؟ »
- » نحو التسعين سيدي.. »
- « إذن أنت أمضيت نحو قرن على الأرض ولما تتعلم بعد كيف يطهى لحم الحوت؟ أرى أنه يجب أن تولد من جديد لتتعلم كيف تطهو لحم الحوت.. غدًا نقطع الحوت.. تأكد من من أن تقف جوارى وتأخذ بعض لحم الضلوع.. استبق بعض أطراف الزعانف لتخللها لي.. والآن انصرف ولا تنس أن تنحني قبل الانصراف.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

قصة جيروبوام:

من المرعب أن ترى ما تفعله أسماك القرش بجثث الحيتان المعلقة إلى سفن الصيد.. إذ في العادة تكفى ست ساعات ليتحول الحوت إلى هيكل عظمي، وهكذا كان على الرجال أن يخرجوا إلى السطح؛ ليطعنوا هذه الوحوش بالرماح.. فكانوا يسددون الرماح إلى رأس سمكة القرش، وهي الجزء الوحيد فيها الذي يبدو ذا عقل مفكر.. هنا تبدأ المذابح الحقيقية حين تنقض أسماك القرش الباقية على السمكة الميتة.. بل إن هذه الأسماك التي تفتقر إلى جهاز عصبى يشعر بالألم لا تتورع عن أن تنثني على نفسها وتلتهم أحشاءها الخاصة.. وهكذا فإن ما يخرج من البطن المفتوحة يصير معقدًا، هو مزيج من الأحشاء الأصلية والأحشاء بعد التهامها..

لكن الحذر مطلوب حين تموت السمكة؛ لأنها تتمتع بحياة خاصة بها، وقد أخرجنا أحد القروش إلى السطح ميتًا فكاد يقضم يد (كويكونج) حين حاول فتح فكها..

كانت تلك ليلة السبت، ولن تجد أبدًا من يخرق قاعدة عدم العمل يوم (السابات Sabbath) مثل صائدي الحيتان.. لقد تحول كل بحار على (بيكود) إلى جزار.. وراح الكل يعمل.

يتم رفع الحوت إلى جانب السفينة، ثم يتم عمل قطع شبه مستدير ويدخل خطاف فيه.. هنا يئن جسد السفينة وتميل وتشعر أن كل مسمار فيها يحاول الفرار، مثل بيت عتيق في عاصفة.. وفي النهاية يستقر الحوت على ظهر السفينة فيتعالى التهليل.. ثم يبدأ تقشير الدهن من حول جسد الحوت كأنه برتقالة.

يتقدم حملة السيوف لتقطيع شرائح من جسد الحوت، ويزيلون ما يدعوه ب- (البطانية).. وهو تعبير موفق لأنه يلف الحوت تمامًا.. كيف كان حوت (جرينلاند) سيعيش لو لم يكن مزودًا بهذه البطانية الدافئة المريحة؟ لا تنس أنه حيوان يتمتع برئتين وله دم دافئ..
ألا فلتتعلم أيها الإنسان من الحوت! تجعل نفسك باردًا مستريحًا عند خط الاستواء، ودفيئًا حار الدماء وسط ثلوج الشمال.
يتم انتزاع رأس الحوت، وهي عملية جراحية بالغة التعقيد تحتاج إلى براعة غير عادية.. ثم يتم إلقاء الرأس في البحر ووزنه يبلغ ثلث وزن الحوت.
تنتهى عملية انتزاع المواد المفيدة من الحوت، فيتم دفعه ليسقط في الماء.. ما زال جسده عملاقًا ولم ينته بعد.. هكذا تبدأ جنازته الغريبة حيث تنتظره أسماك القرش وطيور البحر. قروش البحر - والسماء كلها سوداء اللون كأنها تلبس الحداد - كلها لم تكن على استعداد لتقديم العون له في حياته، أما الآن فهي قادمة إلى مأدبة الجنازة في حماسة.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
رأينا سفينة غريبة لصيد الحيتان تتقدمنا بمسافة يصعب اللحاق بها، لهذا أطلقنا إشارات ضوئية لعلها ترانا.. يجب أن أقول هنا إن سفن صيد الحيتان لها شفرتها الخاصة مثل سفن البحرية العسكرية.. هكذا يعرف ربابنة سفن الصيد بعضهم دون عناء وعلى مسافة طويلة.
حين انطلقت إشارات السفينة الغريبة عرفنا أنها (جيروبوام) من (نانتيكوت).. ونزل قارب منها اتجه نحونا.. أمر (ستارباك) بإنزال سلم ليصعد القبطان عليه إلى سفينتنا، لكن راكب القارب

أشار بما معناه ألا داعي لذلك.. وعرفنا أن وباء أصاب السفينة وأن قبطانها (مايهو) يخشى أن ينقل الوباء لنا.. لكن هذا لم يمنع استعمال المجاديف كي تظل السفينة على بعد ياردات منا.
هكذا دار الاتصال بين السفينتين لا يقطعه إلا الموج الذي يباعد بين السفينتين من حين لآخر.. وكان الرجل الذي يمسك بالمجداف ضئيل الحجم أشقر يملأ النمش وجهه، وغريب المنظر حتى بالنسبة لمهنة الحيتان الخشنة، وقد تذكره (ستارباك) على الفور.. كان قد سمع قصصًا عنه، واسمه (جابرييل)..
هذا الرجل كان يعيش في (نانتيكوت) - وينتمى إلى جماعة دينية مخبولة.. قبلته السفينة (جيروبوام) ضمن بحارتها.. فلما تحركت السفينة راح يمثل دورًا أجاده بشدة هو التظاهر بالتصوف والورع، كأنه يملك شفافية خاصة، بل اعتقد أنه رئيس الملائكة.. وقد أثرت طريقته الشاردة الغريبة في عقول البحارة حتى إنهم بدءوا يرون فيه لونًا ما من القداسة..
أما القبطان البائس فلم يعرف كيف يتخلص منه.. لقد حاول أن ينزله في أول ميناء، لكن الرجل أخرج زجاجة فيها ماء مقدس ما، وراح يرشه على السفينة مهددًا بحارتها بالويل والثبور.. هكذا اتجه البحارة المؤمنون بالخرافات إلى القبطان وقالوا له إنه لو نفذ تهديده فلن يبقى بحار واحد على ظهر السفينة..
لما انتشر الوباء فيما بعد، راح يؤكد للبحارة أنه - الوباء - تحت أمره، وأنه يستطيع القضاء عليه لو أنهم أسعدوه.. هكذا علت مكانته وراح البحارة يتزلفون له بل أوشكوا على عبادته.. هذه أشياء تبدو غريبة لكنها حقيقية تمامًا..
نعود الآن ل- (بيكود)..
قال (أهاب) للقبطان (مايهو) الواقف على ظهر سفينته:

- « أنا لا أخاف وباءكم.. تعال إلى السطح.. هل رأيتم الحوت الأبيض؟ »
قال (جابرييل):
- « فكر.. فكر في قاربك.. فكر فيه مقلوبًا غارقًا! احترس من الذيل!«
تجاهل القبطان ذلك المخبول الواقف جواره، وراح يحكى - مع الكثير من المقاطعة - قصة السفينة مع (موبي ديك).. لقد سمعوا عن (موبي ديك) بعد الإبحار.. وراح (جابرييل) ينصح القبطان بعدم التعرض لهذا الحوت لأنه إله الكويكرز متجسدًا.
بعد عامين قابلت هذه السفينة (موبي ديك) فأصر (ماسى) الضابط على أن يظفر به، وبالمثل لم يرد القبطان للضابط أن ينال وحده هذا الشرف..
هكذا تم إنزال قارب فيه (ماسي) وأربعة رجال.. وبعد عدة مناورات تمكن من غرس رمح في جسده.. في الوقت ذاته على ظهر السفينة كان (جابرييل) يأتى بحركات غريبة ويستمطر اللعنات على هؤلاء الكفرة الذين يريدون قتل إلهه..
كان (ماسى) يقف في القارب، حين ظهر جسم عملاق أبيض ووثب في الهواء ليزفر.. وليحتبس الهواء في صدور البحارة جميعًا..
في اللحظة التالية طار الضابط التعس في الهواء، ورسم جسده قوسًا أثناء الهبوط.. ثم غاص في البحر.. لم يصب بحار واحد ولم يتأذ قارب.. هذا الحادث على العموم هو أكثر الحوادث شيوعًا في مهنة صيد الحيتان..
لكن هذا الحادث المريع زاد من تأثير (جابرييل) وسط البحارة.. وقرر البحارة أنه تنبأ بما سيحدث وربما سببه.. بدلًا من حقيقة

أنه ذكر نبوءة عامة قد تصدق وقد تخيب.. هكذا صار (جابرييل) رعبًا حقيقيًا على ظهر السفينة..
قال (أهاب) وقد انتهت القصة:
- « أنا مصمم على صيد هذا الحوت.. »
هنا أشار له (جابرييل) بإصبع واحدة وراح يردد:
- « فكر في الكافر المجدف الذي غرق! فكر! تحت!! »
هنا تذكر (أهاب) أن معه خطابات موجهة إلى أحد ضباط السفينة (جيروبوام).. إن كل سفينة صيد تحمل عددًا من الخطابات الموجهة لعدة سفن، ووصول هذه الخطابات يعتمد على احتمال لقاء السفينة وسط المحيطات الأربعة.. لهذا لا تصل بعض الخطابات، وبعضها يصل بعد عامين أو ثلاثة.
جاء (ستارباك) بالخطاب الذي كان متواريًا في القمرة.. حيث لا يصل إليه أحد، وفتح المظروف بسكين ثم قرأ (أهاب) المدون على الخطاب بصوت عال:
- « السيد (هارولد ماسي).. سفينة (جيروبوام).. هذا خط أنثوى بلا مراء.. امرأة الرجل كما أعتقد.. وهو قد مات! »
- « البائس.. لكن دعنى آخذ الخطاب على كل حال.. »
مد (أهاب) يده برمح ثبت الخطاب على طرفه ليناوله القبطان دون أن يدنو منه أكثر من اللازم، لكن الخطاب سقط في يد (جابرييل) فأطلق صيحة فرح، وغرس فيه مديته ثم قذف بالمدية والخطاب إلى سفينتنا من جديد.. هكذا استقر الخطاب عند قدمي (أهاب)..
- » احتفظ به! فأنت ذاهب في نفس الطريق حالًا! »
وأصدر تعليماته للبحارة كى يبتعدوا بالسفينة عن سفينتنا فأطاعوه بلا تردد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

ستاب وفلاسك يقتلان حوتًا صحيحًا:

يجب أن أقول هنا إننا ظللنا طيلة الوقت نعلق رأس حوت العنبر على جانب (بيكود).. ليس لدينا وقت للعناية به، لكننا ندعو الله أن تتحمله الخطاطيف.. كنا نرى الكثير من الحيتان الصحيحة في هذه المياه، ولم يكن اصطياد هذه الكائنات قليلة الشأن مما يهمنا، كما أن صيدها لم يكن في خطة (بيكود) أصلًا.. لكن القبطان أمر باصطياد حوت صحيح، وهكذا هبط (ستاب) و(فلاسك) في قارب..

توارى القاربان وراء الأفق ومرت بضع دقائق.. ثم رأينا أن أحد القاربين يندفع نحو سفينتنا مسرعًا وقد بدا أن حوتـًا يجره خلفه.. دنا الوحش منا إلى حد لا يصدق، ثم غاص فجأة وسط اضطراب عظيم.. وتوارى تحت مقدمة السفينة..

صاح رجال السفينة في القاربين:

- « اقطعوا الحبل! اقطعوا الحبل! »

فقد بدا كأن القاربين مقبلان على الاصطدام المروع بجانب السفينة..

لكن القاربين كانا يملكان طولًا كافيًا من الحبل، لهذا أرخيا المزيد للحوت..

كانت تلك لحظات بالغة التوتر، وفجأة مر الحبل تحت مقدمة السفينة.. فاضطربت السفينة وراحت تترجرج بعنف.. ثم خرج الحوت من تحت الماء ودار دورة كاملة حول سفينتنا والقاربان يتعلقان به..

قصر القاربان الحبلين حتى إنهما صارا إلى جانبي الحوت، وأطلق (فلاسك) رمحه فأجاب عليه (ستاب) برمح آخر، وانطلقت

أسماك القرش التي كانت تطارد بقايا حوت العنبر، تلاحق قطرة بقطرة الدم الطازج الجديد..
في النهاية انقلب الحوت على ظهره وتحول إلى جثة..
راح القاربان يجران الحوت ليربطاه إلى جانب السفينة..
قال (ستاب):
- « لكن من الخطر أن نربط رأس حوت عنبر معلقًا وجسد حوت صحيح إلى جانب السفينة.. هذا خطر.. (فداء الله) يقول إن هذا خطر، وأحسبه يعرف ما يقول.. »
قال (فلاسك):
- « فليغرق هذا الرجل! إنني لأنظر إلى وجهه في الظلام فأرتجف رعبًا.. لا شك عندي في أن هذا هو الشيطان ذاته.. لا بد أنه موجود معنا لأن الرجل العجوز يشتهى قتل ذلك الحوت (موبي ديك)، ويبدو أنه أجرى صفقة ما مع الشيطان.. سيعطيه روحه أو شيئًا من هذا القبيل مقابل أن يقتل له (فداء الله) الحوت.. »
قال (ستاب):
- « إنه ينام بحذائه.. وليس معه غليون.. لكنى ذات مرة رأيت الدخان يخرج من فمه في حلقات! »
- « إنه الشيطان.. وأراهن أنه يخفي ذيله في جيبه أو تحت ثيابه.. لكن هل تعتقد أنه سيخطف القبطان (أهاب)؟ »
- « سوف تعرف هذا.. لكني سأراقبه وإن رأيت ما يريب سأمسك به من قذاله وأقول له: انصرف يا (بعلزبول) ولا تحدث ضوضاء.. سأمد يدي في جيبه وأخرج ذيله، ثم أجره إلى رافعة المرسى وأشبعه شدًّا حتى ينقطع.. »
- « وماذا تفعل بباقى الذيل؟ »
- « أفعل به؟ سأبيعه على أنه سوط للثيران بمجرد عودتنا.. »

وهكذا تم رفع الحوت، وبعد قليل علق رأسه من الجانب الآخر.. كانت السفينة مائلة بسبب رأس حوت العنبر، أما الآن فإنها توازنت وإن صارت تحت ضغط هائل.. هكذا الأفكار التي تثقل رءوسنا.. تميل من جهة بأفكار ومن جهة أخرى بأفكار، فلو أنك تحررت من هذه المعتقدات الثابتة لمضيت برأسك أكثر خفة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

في رأس الحوت:

حدث حادث غريب بينما نحن نفرغ الزيت من رأس حوت العنبر المعلق على سفينتنا.. ربما استهتر (تاشتيجو) - ذلك الهندي المتوحش - فتخلت قبضته عن حبال الخطاطيف التي تعلق الرأس، بينما هو يقف فوقه.. أو ربما كان المكان الذي يقف عليه زلقًا.. لا نعرف بالضبط.. ما نعرفه هو أن (تاشتيجو) البائس هوى ورأسه لأسفل، كأنه دلو يهوى في بئر.. وسرعان ما اختفى عن عيوننا داخل تجويف الرأس ذاته! في الجزء المحتوى على الزيت والذي يطلق عليه البحارة اسم Heidelburgh Tun..

صاح (داجو) الذي استعاد وعيه بسرعة:

- «رجل سقط من على السطح! »

وطلب دلوًا ليقف عليه كى يهبط به.. بينما راح الرأس الميت يتأرجح كأنما استبدت به فكرة ما، والحقيقة أن هذه كانت محاولات الهندي للخروج..

في هذه اللحظة ولرعب الجميع دوى صوت مع انقطاع الحبل الذي يربط أحد الخطاطيف التي يتعلق بها الرأس، ومال الرأس المعلق فتأرجحت السفينة كأنما جبل جليد خفى قد ضربها.. وبدا الحبل الباقي الذي صار يحمل الرأس بالكامل موشكًا على الانقطاع..

تشبث (داجو) بالحبل، حتى إذا هوى الرأس ظل (داجو) معلقًا بالحبل.. وقام بإنزال الدلو لأسفل حتى يتمسك به الهندى الحبيس بالداخل.

صاح (ستاب):

- « بالله عليك توقف! ماذا تفعله؟ هل تقوم بتعبئة خرطوش؟ لو هوى هذا الدلو الحديدى على رأسه لقتله! توقف! »
في اللحظة التالية هوت الكتلة العملاقة في البحر.. وتأرجحت السفينة كأنما تعلن تحررها أخيرًا.. وطار (داجو) المتأرجح من الحبل فوق الرءوس بينما غاص (تاشنجو) في قبره الحي نحو أعماق المحيط!
فجأة لمحنا خيال إنسان عار يقف فوق الحافة.. وبعد ثانية كان صديقي الشجاع (كويكونج) يثب إلى الماء حاملًا سيفه.. لينقذ الهندي.. وتصلبت العيون على الماء تبحث عن أثر للغريق أو الغطاس..
فجأة صاح (داجو) المعلق في الفضاء.. نظرنا فرأينا يدًا تخرج من البحر الأزرق كأنها يد تخرج من العشب فوق قبر..
وفي اللحظة التالية رأينا (كويكونج) يسبح بيد وبالأخرى يمسك بشعر الهندي..
كيف أنقذه؟ لقد سبح حتى بلغ الرأس ثم طعنه بالسيف ليحدث فيه فتحة دائرية.. وألقى بالسيف ومد يده إلى أن التفت حول شعر الهندي.. وهكذا تمت ولادة الهندى - بالضبط ولادة متعسرة - من خلال الفتحة التي أحدثها (كويكونج) الشجاع.. وهنا درس لا يجب أن ننساه: التوليد فن يجب أن يتعلمه الرجل مثله مثل الملاكمة والمبارزة والتجديف..
لكن لماذا غرق الرأس ونحن نحسبه أقل كثافة من جسد الحوت ذاته؟ الجواب سهل.. وهو أن أكثر الأنسجة الخفيفة قليلة الكثافة تم انتزاعها من الرأس فلم تبق إلا الأجزاء الأثقل من الماء.. ولو لم يخرج (تاشنجو) لكانت ميتة غريبة.. كان سيدفن ويكفن في قدس أقداس الحوت.. هذا يذكرني بنهاية بعض صيادي العسل في (أوهايو) حين يميلون أكثر من اللازم على

جذع الشجرة لجمّع عسل أكثر، هنا ينزلقون إلى أسفل ويدفنون في العسل للأبد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

بيكود تلقى السفينة (فيرجين):

كان مقدرًا لنا أن نقابل السفينة (يونجفراو Jungfrau) من (بريمن)..
لقد صار خير صيادي الحيتان في الماضي - وهم الألمان والهولنديون - أقل الشعوب شأنًا في هذه المهنة، لكنك قد تقابل بعضهم عند خطوط عرض وطول غريبة، ولسبب ما كانت (يونجفراو) متحمسة للقائنا فأنزلت قاربًا وقف عليه قبطانها قاصدًا سفينتنا، وكان يحمل في يده شيئًا لم نفهم ما هو.. ثم اقترح (ستارك) أن يكون ما يحمله هو أداة تزويد المصابيح بالزيت.. يبدو أن هذا القبطان جاء يشحذ منا بعض الزيت، وهو شيء غير مفهوم بالنسبة لسفن صيد حيتان المفروض أنها مليئة بالزيت، لكن كل شيء متوقع في هذه المهنة.
حين وصل الرجل ورحب به (أهاب) عرفنا أن (ستارك) كان على حق، وأن السفينة (بونجفراو) لم تكن عليها قطرة زيت واحدة وهذا ما يناسب اسمها الذي يعني (فيرجين العذراء) بلغتنا..
ما كاد الرجل يغادر سفينتنا حتى تعالت الصيحات من السفينتين أن هناك حيتان، هكذا نسى الألماني موضوع الزيت وانطلق مع رجاله يطاردون الحيتان، ولحقنا نحن بهم.. فلم نرغب قط في أن يسبقنا الألمان (صناديق الزبد) - كما يسميهم (فلاسك) - إلى هذا الصيد الوفير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تشكل شبه جزيرة (ملقة) الممتدة جنوبي شرق (بورما) أقصى جنوب آسيا.. ومنها تمتد جزر (جاوة) و(سومطرة) و(بالي)

و(تيمور) التي تشكل سورًا يصل آسيا بأستراليا.. وفي هذا السور توجد ثغرات تعبرها السفن.. إن هذه الجزر غنية إلى حد لا يصدق بالتوابل والذهب لهذا يبدو كأن السور خلق لحماية هذه الكنوز من جشع العالم الغربي.

كانت (بيكود) الآن تجوب هذه الأصقاع، وكان (أهاب) ينتوى الوصول إلى بحر (جاوة) ثم يتجه شمالًا حيث تعج المياه بحيتان العنبر، حتى يصل إلى اليابان مع بداية موسم الصيد.. كان بشكل ما ينوى مقابلة (موبي ديك) في بحر يعرف أنه يرتاده، وفي فصل يعرف أنه يظهر فيه.. لكن ألا ينوى أبدًا أن يرسو على الأرض؟ إن الطاقم يحتاج إلى الماء.. ثلاث سنوات من شرب الماء الذي ادخروه في (نانتيكوت).. هناك سفن ارتحلت من (نيويورك) إلى الصين وعادت مرارًا.. بينما سفينة صيد الحيتان لم تر أرضًا ولم يلق بحارتها أناسًا إلا بحارة مثلهم.. ولو قلت لهم إن طوفان (نوح) قد حدث ثانية، لقالوا لك: لا مشكلة.. نحن في الفلك بالفعل!

عبر خط الأفق ترى مئات النافورات تحييك.. إن نافورة الزفير الخاصة بحوت العنبر مستقيمة ثخينة مندفعة للأمام، على عكس نافورة الحوت الصحيح التي تنقسم إلى فرعين متساويين.. يجلس رماة الحربون في قواربهم يلوحون بسلاحهم، ويتصايحون بينما القارب لم ينزل بعد.. من يدرى؟ لربما كان (موبى ديك) وسط هذا الحشد كأنه الفيل الأبيض المقدس في حفل تتويج في (سيام)..

فجأة سمعنا ضوضاء من ورائنا.. نظرنا فوجدنا نافورة أخرى تتبعنا لكنها لا تشبه نافورة الحوت.. بل هي مستمرة لا تنقطع، ونظر (أهاب) بمنظاره المقرب إلى المشهد ثم صاح:

- « بللوا الأشرعة بالماء.. هناك قراصنة من الملايو يتبعوننا! »

وانطلقت (بيكود) بأقصى سرعتها تطارد الوحوش التي أمامنا، وتفر من الوحوش التي تطاردنا.. فلم يكن لهؤلاء القراصنة دور إلا دور السوط الذي يلهبنا ويجعلنا نضاعف من سرعتنا.. لقد ألهب هذا حماس (أهاب).. فلربما هو ماض إلى انتقامه الآن بينما تحييه جوقة من القراصنة المتوحشين الظامئين للدم، وتهلل له وهو يمضى إلى المشهد الذي طالما حلم به.. صار حاجباه كشاطئ من الرمل الأسود بعد عاصفة..
في الحقيقة كان قاذفو الحربون قلقين لأن الحيتان قد بدأت تفر من سفينتنا.. أكثر من فرحتهم بأن سفينتنا قد أحرزت السبق على مطاردينا القراصنة.
لكن الحيتان أبطأت أخيرًا، فتم إنزال القوارب.. وشعرت بها الحيتان بتلك الحاسة المذهلة لديها.. فوقفت متراصة والزفير يخرج منها كأنها حراب مشهرة.. برغم هذا ما أن اندفعنا وسطها حتى بدت معدومة الحيلة إلى حد يثير الشفقة.. هكذا تتصرف كل المخلوقات حين توجد في قطيع.. الأغنام التي يهاجمها ذئب يمكنها مجتمعة أن تقضى عليه، لكنها تتفرق وتفر.. وكذا يفعل الناس حين يحتشدون في قطيع في مسرح حين يشب حريق.. إنهم يجرون ويتزاحمون ويهشمون بعضهم..
صوب (كويكونج) رمحه وأطلقه على أحد الحيتان، فراح هذا يتلوى.. واندفع نحو حشد الحيتان، وهي حركة متوقعة دائمًا لكنها خطرة.. أعمى أصم يندفع الحوت ونحن وراءه نشق دربًا أبيض فائرًا وسط المياه.. لكن (كويكونج) يتماسك ويتشبث بالحبل، بينما (ستارباك) لا يفارق المجدافين.
كان الرجال يقذفون على الحيتان قطعة معينة من الخشب تثبت إلى الحربون.. هذه القطعة اختراع هندي قديم.. إنك لا تقابل حيتان العنبر إلا بصعوبة، فلو قابلتها عليك أن تقتل أكبر

عدد منها.. أما إذا كان ذلك عسيرًا كما هو الحال الآن فعليك أن تضع علامة عليها، لتصطادها فيما بعد حين تجد الوقت الكافي.. شيئًا فشيئًا راح الحوت يجرنا إلى وسط الحيتان الأخرى.. وبدأنا نشعر بالخطر لأن هناك دوائر متداخلة من هذه الحيتان، كأنها جدار محكم يحيط بنا.. في الدائرة المركزية كانت الأبقار والأغنام لهذا القطيع.. بمعنى آخر الإناث والأطفال.. وهذا يدلك على الحماية التي تبسطها هذه المخلوقات على الأفراد الأضعف..

هذه الصغار كانت معدومة الخبرة ولا تخاف.. ولكم من مرة دنا أحدها نحو قاربنا ليلمسه بأنفه كأنه كلب مدلل، وقد ربت (كويكونج) رأس أحدها.. لكن أحدًا لم يجسر على قذف حربون عليها..

نظرنا إلى أسفل عبر الماء الشفاف فرأينا منظرًا لا يمكن نسيانه.. الأمهات تعنين بالصغار في أغرب حضانة يمكن أن تراها.. بعض الأمهات كن مكتنزات أكثر من اللازم مما يشي بأنهن على وشك الولادة..

وفي الدائرة الخارجية كانت القوارب منهمكة في وضع علامات على الحيتان.. هنا حدث أن حوتًا تلقى ضربة الحربون، فثار وماج.. وكانت النتيجة هي أن ذيله تعلق بالحبل ولم يستطع التحرر.. انتابه هلع خرافي وألم لا يوصف وراح يضرب في كل اتجاه على غير هدى، مطيحًا برفاقه ذات اليمين وذات اليسار.. وحدثت فوضى عارمة وبدأت الحيتان تفر منه إلى تلك الدائرة الداخلية التي حبسنا فيها..

صاح (ستارباك) في رعب:

- « إلى المجاديف! إلى المجاديف! أنقذوا أرواحكم! يا الله! قفوا يا رجال! أعد حربونك يا (كويكونج).. اضرب! اضرب!! »

كان القارب الآن محشورًا بين جسدين عملاقين بينهما مضيق.. فاستطعنا المرور.. كررنا المحاولة عبر أضيق الأماكن حتى استطعنا بمعجزة أن نخرج إلى الدائرة الخارجية.. برغم أن الحيتان المندفعة كانت تمر بنا بسرعة..
واحتشد السرب من جديد ثم انطلق هاربًا بسرعة لا تصدق.. ولم يبق لنا إلا أن نحاول صيد بعض الحيتان التي وضعت عليها العلامة، أو أن نعود بحوت اصطاده (فلاسك).. على الأقل نضع عليه علامة تثبت ملكيتنا له في حالة ما إذا سبقتنا سفينة أخرى إليه..
هذا الموقف يبرهن على ما يقوله صيادو الحيتان: كلما كَثُرَت الحيتان قل الصيد.. حتى الحيتان التي علمناها لم نظفر إلا بواحد منها، أما الحيتان الباقية فظفرت بها سفينة أخرى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

بيكود تلقى (برعم الوردة):

مر أسبوعان بعد المغامرة الأخيرة.. حين بدأت الأنوف على (بيكود) تشم رائحة كريهة في البحر.

من بعيد رأينا سفينة واقفة يبدو من منظر أشرعتها أنها تشرح حوتـًا.. كانت تحمل العلم الفرنسي، وأدركنا من الرائحة أنها تتعامل مع حوت مما يسميه البحارة blasted whale أى حوت مات في البحر ولم يقتل.. يمكنك أن تتخيل الرائحة التي تحدثها كتلة اللحم الهائلة هذه.. أسوأ من رائحة مدينة آشورية ضربها الطاعون، وسكانها عاجزون عن دفن موتاهم..

لا يوجد صياد حيتان يعرف عمله يمكن أن يهتم بحيتان كهذه، لأنها خالية من الزيت تمامًا.. أو زيتها ردىء لا يصلح لشيء..

نظر (ستاب) إلى الحوت فرأى آثار سكينه التي غرسها في لحم هذا الحوت قرب الذيل.. قال في سخرية:

- « كنت أعرف أن هؤلاء الفرنسيين شياطين صغار.. شياطين لا يعرفون شيئًا عن الصيد.. وكل ما يحصلون عليه من زيت لا يكفي لإشعال فتيل مصباح القبطان.. فلنخرج قبعة ونجمع لهم صدقة من الزيت الذي نستطيع الاستغناء عنه.. إننا لو حككنا الصارية لحصلنا على زيت أكثر مما سيحصلون عليه من هذا الحوت.. لكن.. ربما هناك شيء أهم في هذا الحوت.. العنبر.. هذا يستحق المشقة.. »

طلب إعداد القارب ونزل فيه ليقترب أكثر من هؤلاء القوم..

واستطاع أن يرى ما كتب على السفينة: (بوتو دي روز) أي (برعم الوردة).. هذا الاسم الشاعري لهذه السفينة كريهة

الرائحة.. اضطر إلى الاقتراب أكثر من السفينة مما جعله الآن أقرب ما يكون للحوت الميت.. وصاح:
- « يا بحارة (بوتو دي روز)! هل منكم من يتكلم الإنجليزية؟ »
- « نعم.. »
كان هذا صوت رجل اتضح أنه كبير الضباط..
- « هل رأيتم حوتًا أبيض؟ »
- « أي حوت أبيض؟ »
- « موبي ديك.. »
- « لم نسمع عن شيء كهذا قط.. »
هكذا عاد القارب إلى سفينتنا.. وصاح في (أهاب):
- « لا شيء يا سيدى.. »
عند سماع هذه الكلمات عاد (أهاب) إلى قمرته.. وعاد القارب إلى السفينة ليجد (ستاب) أن الضابط يضع أنفه في كيس وهو يعمل فسأله:
- « ماذا أصاب أنفك؟ هل تحطم؟ »
- « ليته تحطم أو ليتني بلا أنف.. »
- « إن الهواء هنا جميل.. كأنه آت من حديقة! لكن بعيدًا عن المزاح، لا أعتقد أنكم ستظفرون بقطرة زيت من هذا الحوت.. »
- « أعرف مثلك لكن القبطان لا يصدق هذا.. فهي أول رحلة له.. تعال إلى سفينتنا لتخبره لعله يصدقك، فتريحنا من هذه المهمة القذرة.. »
كان البحارة يعملون على ظهر السفينة، وهم يسدون أنوفهم.. بعضهم كان يدخن الغليون حتى تملأ رائحته خياشيمهم.. كانوا يعتقدون أن هذه الرائحة تجلب الطاعون.. ولاحظ (ستاب) أن أحدًا على السفينة لم يتكلم عن العنبر.. المادة الثمينة التي يتم استخراجها من حيتان العنبر السقيمة.. وكان طبيب السفينة

حانقًا لأن القبطان لم يصغ له.. خرج القبطان وكان رجلًا ضئيل الحجم كث الشارب متأنقًا.. فتولى الفرنسي الأول مهمة الترجمة..
- « ماذا أقول له؟ »
- « كبداية قل له إنه يبدو طفلًا ولا يوحى بالثقة، وإن كنت لا أصلح حكمًا في هذه الأمور.. قل إننا قابلنا أمس سفينة مات قبطانها وعدد من ضباطها وبحارتها بسبب حمى أصابتهم من التعامل مع حوت ميت.. قل له كذلك إنه لا يبدو لي أكثر كفاءة لقيادة هذه السفينة من قرد (بابون).. »
نقل المترجم بعض هذا الكلام للقبطان فبدا مهتمًا بشدة.. واتجه إلى البحارة ليأمرهم بفك الخطاطيف عن الحوت..
- « قل له كذلك إننى تلاعبت به وخدعته.. »
- « إنه يشكرك ويدعوك لقمرته لشرب بعض (البوردو).. »
لكن (ستاب) أصر على الرحيل، ونزل في قاربه.. وبدأت السفينة الفرنسية تبتعد.. ثم دنت (بيكود)، واتخذت موضعًا استراتيجيًا بين قارب (ستاب) والسفينة الفرنسية، حتى لا تبصر ما يفعله (ستاب)..
هنا فقط أخرج (ستاب) سيفًا وصنع فتحة في جسد الحوت الميت، خلف الزعنفة الجانبية.. وراح يوسع الفتحة من فوق الأضلع.. راح يواصل عمله وقد بدأت خيبة الأمل تبدو عليه خاصة والرائحة لا تطاق..
وفجأة تصاعدت رائحة طيبة خافتة كادت تقضى على رائحة العفن..
- « ظفرت به! ظفرت به! »
ومد ذراعيه في الفتحة ليخرج بشيء أقرب إلى الجبن الفرنسي الدسم ذي الثقوب (روكفور).. شيء عطرى الرائحة زيتي للغاية..

لونه طيف بين الأزرق والأصفر.. إنّه العنبر.. يساوي جنّيهًا ذهبيًا لكل أوقية لدى أي صيدلي.. لقد حصل (ستاب) على الكثير ولربما وجد أكثر لولا صرخات (أهاب) نافذ الصبر، يأمره بالعودة وإلا تركتهم السفينة ورحلت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والعشرون

رجل وذراع:

جلسنا على سطح السفينة وسط تلك المادة الثمينة التي جمعها لنا (ستاب).. كانت متجمدة في كتل وكان علينا أن نعتصرها لتعود إلى الحالة السائلة.. أية نعومة! أية رائحة طيبة! هناك إذ جلست على السطح خاليًّا من الهموم أنظر إلى السماء الزرقاء، وقد امتلأت خياشيمى بتلك الرائحة التي لا تقل عذوبة عن أزهار البنفسج، بدأت أفهم ما قيل عن أن العنبر يهدئ الأعصاب..

اضغط.. اضغط.. وأفكر.. لقد صارت رحلتنا وقسمنا الخاص بالحوت الأبيض شيئًا غابرًا قصيًا.. لم يعد شيء يهمني إلا هذه المادة الساحرة.. وبدأ نوع من الخبل يتسرب إلى نفسي بعد ما أمضيت النهار كله في هذا العمل.. حتى إننى رحت اضغط أيدي رفاقي وأنظر في عيونهم.. يا إخوتي في البشرية! لماذا نضيع وقتنا في الخلافات والضغائن والحسد؟ فلنعتصر المزيد من حبيبات العنبر هذه.. فلنعتصر الكون نفسه.. لنضع الحياة نفسها في وعاء من العنبر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صاح (أهاب) محييًا قاربًا يحمل علمًا بريطانيًّا..

- « أيتها السفينة.. هل رأيتم الحوت الأبيض؟ »

كان (أهاب) يضع يديه على فمه كأنها البوق، وقد أظهر قدمه العاجية بوضوح للقبطان الغريب الذي جاء في قارب إلى سفينتنا.. وكان رجلًا لوحت الشمس بشرته، طيب الخصال، حسن المظهر.. وإن كان أحد كمي سترته خاليًّا يتدلى من خلفه.

كشف الرجل كمه عن قطعة من عظام الحوت البيضاء تنتهى بقطعة خشبية كالمطرقة، وقال:
- » هل رأيت هذا؟ »
صاح (أهاب) في اندفاع:
- « رجل في قارب.. استعدوا للإنزال! »
وفي أقل من دقيقة كان قد ركب قاربًا مع بعض الرجال، وسرعان ما تقدموا في البحر نحو الغريب..
هنا تذكر (أهاب) أنه منذ فقد رجله لم يصعد قط إلى أية سفينة أخرى غير سفينته.. وكان هذا يتم ببراعة شديدة من رجال (بيكود).. إن أي صائد حيتان يعرف جيدًا كيف يتسلق من قاربه إلى جانب سفينة.. لكن (أهاب) سيجد الأمر صعبًا الآن مع أمواج ترتفع إلى عنان السماء ثم تهبط إلى أعماق الأرض، وبرجل واحدة شعر (أهاب) بأنه رجل بر أخرق يفكر في الطريقة التي يصعد بها إلى هذه السفينة.
قام ضابطان على السفينة الغريبة بإنزال سلم من الحبال، ولم يخطر لهما أن رجلًا بساق واحدة لن يستطيع تسلقه.. هنا فهم القبطان المشكلة، ومن حسن الحظ أن السفينة كانت تعلق حوتًا من يوم أو اثنين، لذا أنزلوا الخطاف الذي صار الآن نظيفًا جافًّا.. فهم (أهاب) الأمر فأدخل فخذه السليمة في تجويف الخطاف ثم تشبث بيديه في الحبل الذي يتدلى منه الخطاف.. فرفعوه برفق إلى ظهر السفينة.
رحب به القبطان بذراعه العاجية، ولمس القدم العاجية بذراعه كأنما هما سيفان يتقاطعان، وقال:
- « آى آى.. لنصافح العظام معًا.. ذراع لا تتراجع وقدم لا تجرى.. منذ متى رأيت الحوت الأبيض؟ رأيته على خط الأفق هنا منذ موسم واحد.. »

- « وسلبك هذه الذراع.. أليس كذلك؟ »
- « بلى.. كانت أول مرة أجوب فيها هذه المياه.. لم أكن أعرف شيئًا عن الحوت الأبيض.. وجدنا هنا أربعة حيتان فأنزلنا قاربًا.. اصطدنا حوتًا لكنه كان جواد سيرك حقيقيًا.. راح يدور بنا ويدور.. وفجأة من أعماق البحر برز حوت أبيض عملاق امتلأ بالتجاعيد والجروح! »
شهق (أهاب) واحتبست أنفاسه:
- « إنه هو! إنه هو! والحربون يخرج جوار زعنفته.. هذا الحربون لي! »
- « اهدأ قليلًا.. لقد أراد أن يقطع الحبل الذي نمسك به.. »
- « نعم.. نعم.. هذه عادته! أعرف هذا.. كي يحرر رفيقه.. »
- « كان هذا أنبل وأضخم حوت عرفته في حياتي يا قبطان.. وقد قذفته بالحربون.. لكن.. رباه.. لقد ارتفع النيل العملاق وهوى على قاربي فشطره نصفين.. مجرد شظايا.. لم أدر ما أفعل فتمسكت بطرف الحربون البارز من جسده.. هنا غاص الوحش باندفاعة واحدة وشعرت بالحربون الثاني يمزق ذراعي حتى المعصم.. ولكن.. د (بنجر) جراح السفينة يمكن أن يستكمل القصة.. »
كان الدكتور واقفًا يصغي للمحادثة في أدب، فلما أشار له القبطان انحنى وأكمل القصة:
- « كان جرحًا شنيعًا.. وقد حاولت ما بوسعي.. »
قال القبطان:
- « حاول الكثير وشربنا الكثير من (الروم)، حتى إنه لم يكن يرى أمامه حين يفارقني في الثالثة صباحًا.. لكنه قاس حقًا.. يا لك من كلب! إننى أفضل الموت بيديك على الحياة بيدى وغد آخر.. »

- « بصرف النظر عن الملحوظة، فإننى حاولت كثيرًا إنقاذ الجرح.. لكنه تفاقم وصار لونه أسود.. هكذا قمت بالبتر لكن هذه الذراع العاجية.. لا.. لم أصنعها فهى تخالف مبادئ الطب.. نجار السفينة هو من صنعها لا أنا.. وهذه المطرقة صنعها كي يهشم بها رأس أحدهم.. »

قال القبطان:

- « أيها الخنزير.. هل يوجد (بنجر) آخر مثلك في المهنة؟ يوم تموت لا يجب دفنك بل يجب أن يتم تخليلك.. فأنت نادر الوجود.. »

سألهما (أهاب) نافذ الصبر:

- « وماذا بعد هذا؟ ألم تلق الحوت ثانية؟ »

- « مرتين.. لكني لم أحاول مواجهته.. أليست ذراع واحدة كافية؟ ماذا أفعل لو فقدت هذه الذراع؟ لا حيتان بيضاء من جديد.. »

صاح (أهاب):

- » وإلى أين كان الحوت يتجه؟ »

- « إلى الشرق.. ولكن هل قبطانكم مجنون؟ »

وجه هذا السؤال ل- (فداء الله)، لكن هذا الأخير رفع إصبعًا لشفته بينما كان (أهاب) يتجه إلى القارب..

وبعد دقائق كان القارب يبتعد يقوده الفليبينيون..

أرسل القبطان البريطاني تحية، لكن (أهاب) لم يشعر بها لأنه أعطى ظهره للسفينة البريطانية ووجهه شطر (بيكود)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والعشرون

قدم (أهاب):

لم تكن الطريقة التي غادر بها (أهاب) تلك السفينة البريطانية تنم عن غلظة من جانبه.. لقد تلقت ساقه العاجية صدمة شديدة كادت تهشمها حين نزل إلى قاربه، ثم التوت مرة أخرى بعنف حتى إنه لم يعد يثق بها برغم أن منظرها لم يتبدل بالنسبة للناظرين.

وبرغم ما كان يبدو عليه من استهتار وعنف فإن (أهاب) كان يولى هذه الساق أهمية عظمى.. قبل إبحار السفينة (بيكود) وجدوه فاقد الرشد وقد تهشمت هذه الساق واخترقت أسفل بطنه بشكل مروع، حتى إن الأمر اقتضى جهدًا جهيدًا كى يبرأ هذا الجرح الشنيع.. لكنه لم يندهش وقدر أن المصائب الأصلية لا بد أن تنجب مصائب أخرى.. وأن الأفراح قد لا تتبعها ذرية من صلبها، بينما الآلام لا بد أن تنجب سلالة تتبعها إلى الأبدية، وما وراء القبر..

لكن (أهاب) حرص على أن يزود نفسه بساق جديدة، وطلب من البحارة أن ينتقوا له أفضل عظام حوت العنبر، كي يصنع منها نجار السفينة ساقًا له.

لو أنك جلست مستريحًا بين أقمار (المشترى) وتأملت الإنسان.. لبدا لك أعجوبة في عظمته وبؤسه.. لكن لو أخذت البشرية كلها قطعة واحدة، لبدت لك مجموعة من النسخ المتشابهة التي لا ضرورة لها.. وبرغم أنه متواضع قليل الشأن فإن نجار سفينة (بيكود) لم يكن له شبيه على الإطلاق..

كان ككل نجارى السفن يمارس عدة أعمال فرعية لمهنته الأصلية.. كان متمرسًا في آلاف المهمات الميكانيكية التي لا بد

أن تتطلبها سفينة بهذا الحجم في رحلة تقرب من أربعة أعوام.. يصلح مجدافًا معوجًا.. يصنع من عظام الحوت قفصًا لطير غريب يريد البحارة الاحتفاظ به.. يبرد مسمارًا سميكًا ليجعله أرفع، بحيث يصلح لغرض معين.. يصنع دهانًا ملطفًا لمعصم ملتو لأحد المجدفين.. هناك بحار يرغب في أن يلبس قرطًا من عظام القرش.. هناك بحار يعاني من ألم في ضرسه ويريد اقتلاعه.. وهو يتعامل مع كل هذه الأشياء بلامبالاة غريبة..
كان رجلًا يدويًا بالكامل، فلابد أن مخه - لو كان عنده واحد -قد سال إلى أصابعه.. كان يشبه تلك المدى التي تصلح لعدة أغراض معًا فقط عليك أن تختار ما تريده منها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي وكما هي العادة، جرى غسل سطح السفينة بماء البحر، لكن كمية الزيت كانت أكثر من اللازم وأثار هذا قلق البحارة، لأنه يعني تسربًا في براميل الزيت، وقد اجتمع (أهاب) ب- (ستارباك) لمناقشة هذا الموضوع..
كانت (بيكود) تدنو من (فرموزا) وجزر (باشي) التي يقع بينها أحد المخارج الاستوائية من مياه الصين إلى المحيط الهادي..
لهذا كان (أهاب) يجلس أمام خارطة للأرخبيل، وخارطة أخرى للسواحل الشرقية لليابان.. (نيفون) و(ماتسماى) و(سيكوكي)..
وكان العجوز المذهل يمسك بمطواة، وقد قطب حاجبيه وراح يدرس المسار في اهتمام، بينما ظهره للباب.. سمع خطوات من خلفه فقال من دون أن يلتفت:
- « إلى السطح.. اذهب! »
- « جئت أبلغك يا سيدي بوجود تسرب في الزيت.. يجب أن نتوقف لإصلاحه.. »

- « ونحن على سواحل اليابان؟ نضيع أسبوعًا من أجل براميل مثقوبة؟
- « لا حيلة لنا سيدي.. وإلا فقدنا في يوم واحد من الزيت ما احتجنا لعام كى نجمعه.. »
- «دعه يتسرب! ارحل! أنا نفسي مليء بالثقوب! ثقوب في ثقوب.. لكني لا أتوقف كي أصلح ثقوبي الخاصة.. وكيف آمل في أن أصلحها لو وجدتها؟ في هذه الحياة الملأى بالعواصف لن أتوقف لترميم براميل زيت! »
- « وماذا سيقول ملاك السفينة يا سيدي؟ »
- « ملاك.. ملاك! دعهم يقفوا على الشاطئ ويولولوا كلما هبت عاصفة.. أنت تهتم بالملاك كأنهم ضميري.. دعني أقل لك إن ضميري هنا على هذه السفينة.. »
- « لكن سيدى.. هل تسمح لي بأن أقدم رأيي؟ إنني.. »
هنا مد (أهاب) يده إلى غدارة موضوعة جواره، وصوبها إلى رأس (ستارباك) وقال:
- « هناك إله واحد في الكون.. أما على ظهر السفينة فليس هناك إلا سيد واحد يأمر فيطاع هو القبطان.. »
فلو أنك رأيت عينى الضابط لحسبت أنه تلقى الطلقة بالفعل، لكنه استعاد صوابه.. واتجه لباب القمرة وقال:
- « أنت أخجلتني ولم تهنى يا قبطان.. لن أنصحك بأن تأخذ الحذر مني لأن هذا سيضحكك.. لكني أنصحك بأن تأخذ الحذر من (أهاب).. حاذر من نفسك أيها الشيخ.. »
بعد رحيله فكر (أهاب) قليلًا وغمغم:
- « لكنك رجل شجاع بارع فعلًا.. تحذر (أهاب) من (أهاب).. هذا الكلام له معنى ما.. »

ثم أصدر أوامره برفع الخطاطيف الصغرى، توطئة لفحص موضع تسرب الزيت..

لا نعرف سبب هذا.. ربما لأنه كان يحتفظ ببعض الضمير المهني داخله، وربما لأنه لم يرد أن يدب خلاف بينه وأكبر ضابط على سفينته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والعشرون

تابوت كويكونج:

لم يجد الرجال أي ثقب في براميل الزيت حديثة العهد، لذا صار بحثهم أعمق، ونزلوا إلى قاع السفينة يطردون الفئران إلى ضوء الشمس.. وراحوا يخرجون ما في خزين السفينة من خبز ولحم إلى السطح ليجدوا لأنفسهم طريقًا.

كان هذا هو الوقت الذي أصيب فيه صديقي (كويكونج) بالحمى التي كادت تقوده إلى نهايته.. يجب أن أذكركم هنا أن مهنة الحيتان ليست بالمهنة التي تكسب فيها عيشك من دون عمل، وكلما ارتقيت في المهنة زادت مسئولياتك، ما لم تكن أنت القبطان ذاته.. كان (كويكونج) رامى حربون عليه تحمل كل مخاطر الحوت الغاضب، وبالإضافة لهذا كان عليه أن ينزل إلى أعمق الظلمات ليتحقق من حال الخزين.. كنت تستطيع أن تراه هناك في قاع السفينة يزحف بجسده الموشوم وسط القاذورات، كأنه سحلية مبرقشة في قاع بئر.. ومع كل العرق الذي خرج من المسكين يبدو أنه أصيب ببرد شديد.. وفي النهاية رقد في فراشه دانيًا جدًّا من بوابة الموت.

هزل جسده فلم يبق إلا الجلد الموشوم، لكنك كنت ترى أن عينيه تزدادان اتساعًا وفيهما بريق غريب.. مثل الدوائر في الماء التي كلما اقتربت من نهايتها ازدادت اتساعا، كانت عيناه تتسعان كأنما هما باب الأبدية.. ظلال غريبة على وجهه بينما البحر يهزّ فراشه برفق وهو يتجه إلى مثواه الأخير.

وإذ شعر بدنو نهايته طلب مطلبًا غريبًا.. كان قد سمع أن صيادي الحيتان في (نانتوكت) يدفنون في قوارب صيد، وذكره هذا بقومه الذين كانوا يدفنون موتاهم في قوارب سوداء

معتقدين أنهم سيرحلون فيها إلى جزر النجوم.. وقد تمنى ألا يدفن في فراش نومه كما هي العادة.. وقد طلب البحارة من نجار السفينة أن ينفذ رغبة المحتضر.
اتجه النجار إلى مرقد (كويكونج) وأخذ قياساته بعناية، ثم عاد لمنضدة العمل وبدأ يقطع الخشب..
سمع (كويكونج) أن الشيء قد تم.. فطلب في حسم أن يأتوا به إليه.. إن المحتضرين يكونون طغاة أحيانًا، ولأننا نعرف أنهم لن يضايقونا بعد الآن فإننا نطيعهم بلا مناقشة..
طلب (كويكونج) وضع الحربون داخل التابوت غريب الشكل، ثم وضعوا بعض التراب عند موضع قدميه ووسادة تحت الرأس.. وأصر على أن يحضروا له الصنم (يوجو) ثم قرر أن يرقد في التابوت ليجربه وقد وضع الصنم بين ذراعيه.
في الفترة التالية بدأ (كويكونج) يتحسن حتى إن صندوق النجار لم يعد ذا نفع، وكلما أبدى أحدهم دهشته لهذا التحسن قال (كويكونج) إنه أجل مشروع الموت بعض الوقت، لأنه تذكر أن عليه أشياء مهمة لا يمكن أن ينجزها إلا على اليابسة.. كان يؤمن بأنه إذا قرر المرء ألا يموت فلا توجد قوة تستطيع قتله ما عدا الحيتان بالطبع..
هنا فارق كبير بين الرجل المتحضر والمتوحش.. الأول يحتاج إلى أيام من النقاهة بينما الثاني يحتاج إلى نصف يوم.. بدأ (كويكونج) يأكل بشراهة غير مسبوقة، ثم صار يخرج إلى السطح.. وخلال أيام حمل الحربون من جديد ونزل إلى القارب..
أما عن تابوته فقد صنع منه مخزنًا لاحتياجاته.. ونحت عليه أشكالًا غريبة استوحاها من وشم جسده.. هذا الوشم رسمه أحد عرافي جزيرته يحكى به قصة خلق السموات والأرض.. وهو

كتاب قيم لكن المشكلة أنه لا يستطيع قراءته برغم أن قلبه يخفق جواره.. ولسوف يرحل معه إلى القبر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنا نعبر البحار اليابانية ونلقى سفن الصيد.. المحيط هادئ تمامًا يغريك بالاستسلام والتأمل.. الجلد الناعم الجميل يغريك بأن تنسى النمر القابع تحته.. ويشعر المرء بشعور نهائي أرضي مليء بالثقة في البحر.. كل هذا يلتقي في روحك حتى تشعر بأن الحقيقة والوهم يختلطان ليصنعا شيئًا واحدًا..

يقف (ستارباك) ناظرًا إلى البحر من جانب قاربه، ويقول:

- » الروعة التي لا يمكن استيعابها! كما يراها العاشق في عيني عروسه.. لا تحدثيني عن أسنانك يا أسماك القرش.. فليطردن الإيمان الحقيقة، وليطردن الخيال الذكريات.. إننى أنظر للماء فأؤمن.. »

لم يطل بنا الوقت حتى قابلنا السفينة (الأعزب) القادمة من (نانتكونت).. واستطعنا أن نرى فك الحوت المعلق على صاريتها والأعلام التي تزدان بها..

كانت هذه السفينة في فترة المرح التي تعقب انتهاء الصيد، وكانت تقوم بجولة أخيرة قبل أن تتجه أشرعتها إلى الوطن.. كما عرفنا فيما بعد فإن حظ هذه السفينة كان مذهلًا في مياه لم تظفر فيها سفن أخرى بسمكة واحدة.. وقد تخلت هذه السفينة عن أطنان من مخزونها من اللحم والخبز لسفن أخرى، كي توفر مكانًا لحملها الثمين..

وقد اندهشنا لما وجدنا أن الطاهي قد ملأ موقده بدهن الحوت ورماة الحربون ملئوا حرابهم بهذه المادة.. كل شيء على السفينة اختزنوا فيه المادة الثمينة ما عدا جيبي بنطال القبطان، فقد ادخرهما ليضع يديه فيهما معبرًا عن رضاه العظيم، من

مقدمة السفينة تسمع صوت الطبول، وترى الفتيات بلون الزيتون يرقصن، وهن اللاتي جئن من جزر (بولينيزيا) ليرافقن البحارة.
بالمثل وقف (أهاب) على سطح سفينتنا كئيبًا مكفهرًا، وتوازت السفينتان فكنت تسمع التهليل من واحدة منهما لأجل الأشياء التي مرت، والتوجس من الأخرى على الأشياء القادمة، وصاح بحار مرح ملوحًا بزجاجة:
- « تعالوا لسفينتنا.. »
فكانت إجابة (أهاب):
- « هل رأيتم الحوت الأبيض؟ »
- « لا.. سمعنا عنه ولم نصدق.. تعالوا إلى سفينتنا.. »
- « ليس بالقدر الذي يتذكره.. فقدنا رجلين من الجزر، تعالوا لنا ولسوف ننزع السواد من حاجبيك.. »
صاح (أهاب):
- « أنتم عائدون إلى الوطن بسفينة مليئة.. وأنا أبتعد عن الوطن بسفينة خاوية.. فامضوا في طريقكم واتركونا في طريقنا.. »
وهكذا مضت سفينة مع الريح ومضت سفينة عكس الريح، ووقف رجال (بيكود) ينظرون بحسرة وحسد إلى السفينة (الأعزب).. وعلى حاجز السفينة مد (أهاب) يده إلى جيبه فأخرج قارورة مليئة بالرمل.. تخلص منها ووقف يرمقها.. إن هذه القارورة كانت تحوى رمال (نانتيكوت)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والعشرون

المسدس:

على سطح السفينة وقف (أهاب) في مكانه المعتاد يحسب خط الطول الذي تتحرك فيه (بيكود) الآن.. ثم رفع وجهه نحو قرص الشمس وهتف:

- « أيها القبطان الشامخ القدير.. أنت تخبرينني أين أنا بكل دقة، لكنك لا تستطيعين إخباري أين سأكون.. لم تخبريني أين (موبي ديك).. يا لك من لعبة حمقاء يتسلى بها القباطنة! لكنك لا تعرفين إلا البقعة التي أنت فيها.. لا تعرفين أين ستكون ذرة ملح أو حبة رمل غدًا.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مساء ذلك اليوم واجهت (بيكود) إعصارًا مزق أشرعتها، فحين جاء الظلام زأرت الأرض والسماء وشطرهما البرق..

وكان (ستارباك) واقفًا ينظر مع كل التماعة برق، ليرى أي خراب جديد حل بمعدات السفينة.. على حين راح (ستاب) يأمر الرجال بإحكام ربط كل شيء على ظهرها.. لقد ارتفع البحر عاليًا وهوى على السفينة ثم تركها يتسرب الماء منها كالغربال.. وبدأت الأشرعة تحترق.

صاح (ستارباك):

- « هذه الريح تأتي من الشرق.. من حيث يرغب القبطان أن يقودنا للظفر ب- (موبي ديك).. لكن هذه الريح ذاتها يمكن أن تحملنا لأوطاننا لو أعطيناها ظهرنا.. »

وهتف في (أهاب) بصوت يحاول أن يخرق الرعد:

- « إن السماء ضدك أيها العجوز.. فلتكف! إنها رحلة شريرة بدأت بالشر واستمرت بالشر.. دعنا نعد لوطننا ما دام ذلك في

وسعنا، ولنبدأ رحلة أفضل من هذه.. »
فيصيح (أهاب) وهو ينظر إلى ألسنة البرق:
- « أيتها القوة العمياء! أنا قادر مثلك.. أنت تصيبينني بالعمى وأنا أتحسس طريقي.. أنت تحرقينني وأنا أتفحم.. »
سمع الطاقم ما يقال في رعب، فصارت هواجس الضابط هواجسهم وتعالت صرخة تمرد خافتة.. هنا التقط (أهاب) الحربون الخاص الذي أعده لدى حداد السفينة ولوح به كشعلة وسط صفوفهم.. وأقسم أن يمزق أول رجل يتخلى عن الحبال.. وصاح بينما هم يتقهقرون:
- « إن قسمكم بأن تصطادوا الحوت الأبيض يقيدكم كما يقيدني.. إنني أقسمت بقلبي وروحي ورئتي وحياتي.. »
في ذروة العاصفة راحت الدفة تتلوى بعنف، حتى إن الرجل المسئول عنها طار أكثر من مرة ليصطدم بالسطح.. في هذا النوع من العواصف يمكن أن ترى إبرة البوصلة تدور في جنون ذهابًا وإيابًا.
هدأت العاصفة بعد منتصف الليل بثلاث ساعات، حتى استطاع البحارة تركيب ثلاثة أشرعة أخرى يمكن للسفينة أن تتحرك بها بشيء من الدقة، وأمكن المسئول عن الدفة أن يحركها.
نزل (ستارباك) إلى قمرة (أهاب) ليخبره بما استجد من تطورات، وكان الرجل قد أوصى ضباطه بإبلاغه بالمستجدات في أي وقت من الأربع والعشرين ساعة.. كان المصباح المعلق يتأرجح مرسلًا ظلالًا كئيبة على الغرفة وعلى حاجبي الرجل النائم.. الغدارة المحشوة تلتمع بوضوح إذ استندت إلى الجدار.. لدى رؤيتها خطرت فكرة شريرة لـ- (ستارباك)، لكن الرجل كان شريفًا ذابت الفكرة بسرعة إلى حد أنه لم يتبين ما هي..

- « لماذا لا تأخذ المسدس؟ إنه محشو.. عليه آثار بارود.. هو صوبه من قبل نحو رأسك.. لكن لا.. فلتخبره بالسبب الذي جئت من أجله.. جئت تخبره أن الريح صارت معتدلة.. لكن معتدلة لمن؟ معتدلة ل- (موبي ديك) فقط.. ألم يحاول الرجل قتلك بذات السلاح؟ ألم يحاول قتل كل الطاقم حين مضى في هذه العواصف يتحسس طريقه؟ من أجل الانتقام الشخصي يجر طاقمًا كاملًا إلى النهاية معه.. طاعة عمياء لأوامر عمياء.. لكن هل من طريقة لمنعه؟ طريقة قانونية؟ ربما نسجنه؟ لكن لو قيدناه وكبلناه بالأصفاد لكان المنظر مروعًا.. سيكون أكثر خطرًا من نمر حبيس ولن يتحمل أحد غضبه وعواءه.. ولكن لو قتلته.. فقط لمسة للزناد.. ومحيط كامل يفصلني عن القوانين.. ويعيش (ستارباك) ليحتضن زوجته وابنه من جديد.. آه يا (مارى) (مارى).. ولدى.. ولدى!! »
هنا قال الرجل النائم:
- « (موبي ديك)! قد ظفرت بك!! »
هنا تخلى (ستارباك) عن الفكرة.. غادر القمرة واتجه للسطح وأمر (ستاب) أن ينزل بدلًا منه ليبلغه بالريح المواتية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح المبكر هرع مراقب البوصلة إلى القبطان ليخبره في رعب أن السفينة تتجه للشرق.. صاح (أهاب) مغضبًا:
- « هل تهذي؟ نحن في الصباح الباكر والشمس من ورائنا وبرغم هذا تزعم أننا نتجه للشرق؟ »
لكن البوصلة أظهرت بوضوح أن السفينة تتجه للشرق، بينما الواقع يقول إنها تتجه للغرب، وقد ضحك (أهاب) كثيرًا حين فهم ما هنالك:

- «لقد تأثرت البوصلة بشحنة الإعصار.. لقد رأيت هذا من قبل.. »
قال (ستارباك):
- « كما تقول يا سيدي وإن كنت لم أر شيئًا كهذا من قبل.. »
في العواصف العاتية تحدث أشياء كهذه، حتى إن المعدن الممغنط لا يعود أكثر قيمة من إبرة الحياكة التي تمسك بها امرأة عجوز.. وحين تصيب هذه الظاهرة بوصلة واحدة فإنها تصيب كل بوصلات السفينة.. لكن (أهاب) على كل حال درس اتجاه الشمس واستراح إلى أن البوصلة معكوسة تمامًا، وهكذا ما زال بوسعه الاستفادة منها.. وأصدر تعليماته بمواصلة الرحلة، فلم يجرؤ أحد على الاعتراض لأن خوفهم من (أهاب) كان أعظم من خوفهم من تصاريف القدر.. وإن كان (أهاب) نفسه يعرف أن الإبحار ببوصلة مقلوبة أمر لا بد أن يثير الهلع عند البحارة المؤمنين بالخرافات كثيري التطير.
لهذا قام بإعداد قضيب من حديد طرقه بعناية حتى اكتسب مغناطيسية خاصة به، ثم علقه من حبل بحيث صار يعمل كبوصلة، وعرض النتيجة على البحارة المذهولين وهو يوشك على أن يطير تيهًا..
وواصلت (بيكود) مسيرتها ببوصلتها الغريبة متجهة نحو خط الاستواء..
عند الفجر في ظلمات المحيط الكثيفة، دوت صرخة عالية كأنما هي كل أرواح المعذبين في التاريخ.. وقد أصيب البحارة بالذعر لدى سماعها وأكد البعض أنها صرخة عرائس البحر، بينما أكد أقدم البحارة أنها صرخة الرجال الذين غرقوا حديثًا في هذه الأصقاع.. فلما صحا (أهاب) من نومه أخبروه بهذه القصة، فضحك طويلًا.. وقال إن الجزر البعيدة هي مأوى لكلاب البحر

التي فقدت أطفالها، لذا تستقر هناك وتطّلق صرخاتها العالية الشبيهة بصراخ الإنسان.. لكن هذا التفسير لم يسعد البحارة، لأنهم جميعا يحملون مشاعر متطيرة نحو كلاب البحر بنظراتها شبه البشرية..

وعند الفجر التالي سقط رجل في الماء.. لا يعرف أحد السبب فلربما نهض من نومه وهو لم يفق بعد.. فقط سمع البحارة الصوت ورأوا الفقاقيع في المحيط حيث سقط.. رموا له بقارب النجاة الصغير، لكن الرجل تواري تمامًا في المحيط.. هكذا ربطوا بين الصرخات وفقد هذا الرجل.. وكان عليهم أن يجدوا قارب نجاة آخر.. هكذا فكر الجميع في تابوت (كويكونج) ليكون قارب النجاة الجديد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والعشرون

بيكود تلقى راشيل:

قابلت (بيكود) السفينة (راشيل) في عرض البحر، وكان بحارتها يقفون جميعًا على ظهرها.. ثمة جو من التوجس العام والتوتر مما أعطانا انطباعًا بأن (راشيل) تحمل أخبارًا سيئة.. وصاح (أهاب) كعادته:

- « ألم تروا الحوت الأبيض؟ »

قال القبطان في قاربه المقترب منا:

- « بلى.. أمس! »

حبس (أهاب) صوت الفرحة في أعماقه، وهنا كان القارب قد التصق ب- (بيكود) وتم تثبيته بالسلاسل، ثم تسلق القبطان إلى ظهر سفينتنا.. وتعرف (أهاب) في القبطان على رجل يعرفه من (نانتوكت) لكنهما لم يتبادلا التحية.. فقط سأله في لهفة:

- « رأيتموه.. لم تقتلوه؟ لم تقتلوه؟ كيف كان؟ »

يبدو أن القوارب كانت تطارد مجموعة من الحيتان عند عصر أمس.. وقد ابتعدت أربعة أميال عن سفينتنا، عندما رفع حوت أبيض عملاق رأسه من المياه الزرقاء.. ويبدو أن القارب الأول تمكن من تثبيته بحربون.. توارى القارب الأول من ثم تم إنزال قارب احتياطي رابع من السفينة.. وكان هو الأسرع، وقد راح يقتفى أثر الحوت والقارب الذي أوقع به.. لم ير إلا بقعة من فقاقيع الماء ثم لا شيء.. وقد قدر البحارة أن الحوت هرب وهو يجر مطارديه كما يحدث دائمًا..

جاء المساء والتقطت السفينة قواربها التي كانت تبحث عن القارب الأول.. ثم أشعلت نارًا عالية وكلفت البحارة بالتناوب على مراقبة البحر.. وبدأت ترتاد المكان الذي اختفى فيه قاربها

المفقود.. لكن النهار طلع عليها دون أن تجد أدنى أثر للقارب المفقود.. وكان مطلب القبطان هو أن تعاونه (بيكود) في البحث عن القارب المفقود عن طريق مسح خطوط متوازية بالتبادل مع سفينته..
همس (ستارباك) ل- (ستاب):
- « أراهنك على شيء.. أعتقد أن أحد الموجودين في القارب المفقود يلبس معطف القبطان أو ساعته أو أي شيء ثمين يخصه.. والقبطان يجن كي يسترده.. إذ من يتصور أن تضيع سفينتا صيد وقتهما في البحث عن قارب مفقود، وذلك في ذروة موسم الصيد؟ »
كان القبطان شاحبًا، وراح يتوسل ل- (أهاب):
- « أتوسل إليك.. أعرف أنك ستقبل.. فقط ثمانية وأربعين ساعة وسأدفع لك بسخاء.. »
قال (ستارباك):
- « الأمر أهم من هذا.. لابد أن ابنه في هذا القارب.. »
بالفعل كان ابن القبطان في القارب المفقود.. لم يقل هذا إلا بعد إلحاح من (أهاب).. وكان الفتى في الثانية عشرة من عمره، أحسن أبوه تربيته، لكنه بكل حزم وخشونة رجل من (نانتكوت) صمم أن يعلمه مبكرًا كل أهوال مهنة صيد الحيتان في قارب..
لكن (أهاب) كان يصغي دون أدنى تعبير على وجهه كأنه تمثال..
وقال له القبطان متوسلًا:
- « لن أمضى قبل أن تقبل.. افعل لي ما كنت تتوقع أن أفعله لك في ظرف ماثل.. أنا أعرف أن لك ابنًا.. هو طفل آمن في داره لكن.. »
- « كفى.. »
قالها (أهاب):

- « قبطان (جاردينر).. أنا لن أفعل ما تطلبه.. فليسامحنى الله لكنى أفقد وقتًا ثمينًا في كل لحظة.. مستر (ستارباك).. بعد ثلاث دقائق أنذر كل الغرباء على سفينتنا ثم تحرك على الفور.. »
وانصرف بوجه جامد إلى قمرته، تاركًا (جاردينر) مذهولًا لدقيقة.. ثم أسرع إلى جانب السفينة لينزل إلى قاربه..
وبعد قليل افترقت السفينتان.. الآن يمكنك أن تعرف سر الصراخ الليلى.. لقد كانت هي السفينة (راشيل) تبكى أطفالها الذين لم يعودوا كذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من هذه اللحظة تغير (أهاب) كثيرًا.. نظرة مريعة في عينيه أثارت هلع مرافقه الدائم (فداء الله).. إن المطاردة تدنو من نهايتها.. وهذه السفينة قابلت أمس معذبة.. ممزقة.. إنها البقعة التي ينتهي فيها الصراع.. ومن هذه اللحظة لم يعد البحارة يصعدون لسطح السفينة إلا ليروا (أهاب) يذرع المكان بساقه العاجية جيئة وذهابًا.. كل ما يريده من القمرة يأتيه حيث هو.. يأكل في الهواء الطلق..
مرت ثلاثة أيام من دون أخبار بعد لقاء (راشيل) الثكلى.. لذا بدأ (أهاب) يفقد ثقته في بحارته وتوقع أنهم يخدعونه.. بدأ يشك في الجميع ما عدا رماة الحربون الوثنيين.. وقرر أن يرى الحوت بنفسه وأن يكون هو الفائز بقطعة العملة..
عندما قابلنا السفينة (السرور) بدا لنا الاسم مخالفًا للواقع إلى حد مروع.. لقد كان جانب كبير من السفينة محطمًا وقد تساقطت ألواح كثيرة، وبدا هيكل لما كان قارب صيد من قبل..
- « هل رأيتم الحوت الأبيض؟ »
- « انظر بنفسك.. »
قالها القبطان مقعر الخدين وهو يشير إلى الحطام..

- « هل قتلتوه؟ »
- «لم يصنع بعد الحربون الذي يستطيع هذا.. »
لوح (أهاب) بالحربون الذي صنعه خصيصًا وصاح:
- « لم يصنع بعد! راقبوا يا رجال (نانتيكوت) هذا الحربون الذي صنعته من الدم والعاصفة.. لسوف أغرسه خلف زعنفته حيث يشعر الحوت الملعون بالحياة أكثر من أي موضع آخر.. »
قال القبطان الآخر:
- « أنا أصلى من أجلك أيها العجوز.. لقد دفنت اليوم خمسة رجال كانوا أحياء أمس.. وكلهم دفنوا قبل أن يموتوا.. إن سفينتك الآن تسبح فوق قبرهم.. فقط هناك رجل واحد ندفنه الآن.. هلموا باللوح واستعدوا لرمى الجسد في البحر! »
صاح (أهاب):
- « ابتعدوا! »
وأسرعت (بيكود) لتبتعد لكنها لم تكن بالسرعة الكافية.. لقد تدحرج الجسد إلى الماء، فتطاير الرذاذ ليغرق جانب (بيكود) بذلك العماد الرهيب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والعشرون

المطاردة:

عند المساء خرج (أهاب) إلى السطح.. تشمم الجو قليلاً ثم أعلن أنه يشم رائحة حوت بهذا الاتجاه.. لم يندهش بحار لهذا لأن الأنوف الخبيرة تميز رائحة حوت العنبر على مسافة طويلة، وهكذا تم تغيير اتجاه السفينة..

عند الفجر تبين للجميع أن هناك جسم طولى يشق المياه من بعيد..

جرى (داجو) ليوقظ الرجال النائمين بصفعات عنيفة، حتى إنهم خرجوا من دون أن يرتدوا ثيابهم.

وصاح (أهاب) وهو ينظر للسماء:

- « ماذا ترى؟ »

جاءه الرد من الصارية:

- « لا شىء يا سيدى.. »

وساد الصمت ثم بعد قليل صاح الرجل:

- « هنا أراه.. سنام مثل جبل ثلجي.. إنه (موبي ديك)!! »

جرى الرجال إلى السطح ليروا الحوت الشهير الذي قضوا كل هذا الوقت يطاردونه.. من هذا البعد كان الحوت على بعد ميل تقريبًا.. ترى حدبته البيضاء ونافورة زفيره المنتظمة..

- « من رآه أولًا؟ لا أحد.. أنا رأيته أولًا.. إن القدر ادخر قطعة العملة لي.. إنه ينفخ! إنه ينفخ! إنه ينفخ!! »

قالها وهو يتابع زفير الحوت، ثم أردف:

- « لتستعد ثلاثة قوارب يا مستر (ستارباك).. لتبق أنت على السطح ولترقب السفينة.. تمسك بعجلة القيادة.. هلم.. أنزلني يا مستر (ستارباك).. لأسفل.. بسرعة.. بسرعة.. »

صاح (ستاب):
- « إنه يبتعد يا سيدي.. لا يمكن أن يكون رآنا.. »
- « القوارب.. القوارب! »
واندفعت القوارب كلها ما عدا قارب (ستارباك) نحو الهدف.. بريق الموت ظهر في عيني (فداء الله) وهو يضغط على أسنانه.. البحر هادئ كأنما وضع فوقه بساط سميك، والصياد الملهوف يتقدم نحو فريسته غير المرتابة..
يتقدم السنام الأبيض وحوله ينثر الزبد.. يشق اللون الأزرق.. ومن هذه الحدبة يبرز رمح مغروس حديث.. طيور البحر تحوم حول الحوت، ومن آن لآخر يهبط أحد الطيور فوق طرف الرمح..
وفجأة رفع العملاق الأبيض رأسه من الماء كاشفًا عن فكيه المريعين، وكل جماله وهيبته ثم غاص للأعماق، وراحت الطيور تحوم حول مكانه الذي خلا في الماء..
وقفت ثلاثة القوارب تنتظر.. وقال (أهاب) في حزم:
- « ساعة.. »
وراحت عيناه تدوران في محجريهما مع حلقات الماء.. صاح الهندي:
- « الطيور.. »
هنا نظر (أهاب) إلى الماء وإلى الطيور البيضاء التي احتشدت حول القارب.. ما كانت العين تعجز عن تبينه، ميزته الطيور فورًا، ورأى بقعة بيضاء في الأعماق لا يتجاوز حجمها حجم النمس.. وإذا بها ترتفع وتكبر وتكبر حتى رأى الأسنان اللامعة.. كان هذا (موبي ديك) يقترب من السطح.. وبسرعة غير (أهاب) اتجاه القارب بعيدًا عن دوامة الموت، وأمر (فداء الله) بأن يتبادل الأماكن معه.. كانت خطته تهدف إلى أن يستقبل رأس

الحوت لدى خروجه، لكن الحوت بغريزته التي لا تخطئ لم يصعد كما أراد (أهاب)، بل صعد بشكل مائل، وقد استلقى على ظهره كسمكة قرش، وأطبقت أسنانه على أحد المجاديف.. وصار اللون الأبيض اللؤلؤي داخل فمه على بعد أمتار من رأس (أهاب).
في هذا الوضع الخطير راح القارب يهتز، لكن أحدًا لم يستطع أن يرميه بالحربون وهو تحت القارب تمامًا.. هنا أطبق الفكان على القارب في منتصفه تمامًا.. فانشطر إلى نصفين.. وكان (أهاب) الذي أطار الجنون صوابه وهو يرى نفسه من جديد تحت رحمة عدوه الأبدى، قد فطن لنية الحوت..
لكن تأخر الأمر وسرعان ما وجد الطاقم نفسه في الماء، بينما الحوت يدور حولهم في تراخ رافعًا رأسه فوق الأمواج.. ووجد (فداء الله) نفسه متشبثًا بمؤخرة القارب، لكن عاجز عن معاونة قبطانه الذي يجد عسرًا في السباحة وإن كان قادرًا على الطفو.. أما القوارب الأخرى السليمة فلم تستطع الدنو أكثر بسبب الدوامات الهائلة التي صنعها الحوت حول ضحاياه.. هكذا ظلت على محيط الدائرة التي كان مركزها رأس العجوز..
وسط الدوامات أخرج (أهاب) رأسه وصاح في السفينة:
- « تقدموا! ابعدوا الحوت عن هنا! »
تقدمت السفينة منهم فاضطر الحوت إلى الابتعاد عن ضحاياه.. وهكذا استطاع قارب (ستاب) أن ينتشل (أهاب) بعد ما انتهت قواه الجسدية تمامًا، لكنه صاح برغم هذا:
- « الحربون.. هل هو سليم؟ »
قال (ستاب):
- » نعم سيدى.. »
- » والرجال.. هل فقدنا أحدًا؟ »

- « كانوا خمسة يا سيدي.. أرى واحدًا.. اثنين.. أربعة.. خمسة.. كلهم سليم يا سيدى.. »
وسرعان ما التقطت (بيكود) الرجال وبقايا القارب المشطور، ثم بدأت في مطاردة الحوت..
ولم ينم (أهاب) في تلك الليلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد يوم كامل صاح مراقب الصارى أنه يرى حوتًا ينفث زفيره، فقال (ستاب):
- « هلم انفخ رئتيك أيها الحوت.. فلا مهرب لك.. إن خصمك المجنون قد جاء ليلحق بك.. ولن يرحمك! »
كانت حمى الحماس قد تفشت بين الرجال وصاروا أكثر رغبة في الظفر بهذا الحوت.. من كان مترددًا أو خائفًا ذاب مع الباقين، فلم يعودوا ثلاثين رجلًا بل صاروا رجلًا واحدًا.. تلاشت كل الفوارق بينهم ليصيروا واحدًا.. حتى أجزاء السفينة المختلفة من حديد وخشب ونحاس انصهرت في كتلة واحدة..
ومن بعيد برز (موبي ديك) للعيون.. ليس بنافورة الزفير ولكن بتلك الظاهرة الغريبة: الوثب من الماء.. بأسرع ما يمكن يشق حوت العنبر طريقه من الأعماق إلى الهواء.. ينفجر بركان من الفقاقيع ويراه الناس على بعد سبعة أميال أو أكثر.. وفي هذه اللحظة تبدو الأمواج كأنها معرفته، وتشعر بأنه يتحداك شخصيًا..
قال (أهاب):
- » نعم.. نعم.. ثب وثبتك الأخيرة إلى الشمس، فساعتك وحربونك في يدي.. إلى القوارب جميعا!! »
نزل إلى قاربه وصاح مناديًا (ستارباك):

- « السفينة لك الآن.. ابتعد عن القوارب لكن ابق في متناولها! »
هنا اندفع (موبي ديك) نحو القوارب ليوقع الرعب في قلوبها، وكأنما يكره ألا يكون هو البادئ بأية هجمة.. واستعد (أهاب) لمواجهته رأسًا لرأس وهو أسلوب شائع يستغل أن عينى الحوت جانبيتان.. وبدا أن الحوت يريد تدمير كل شظية في القوارب برغم كل الحربونات التي انغرست فيه.. لكن القوارب تفادته ببراعة لا تصدق ولا يملكها إلا صيادو (نانتيكوت)..
لكن الحوت وقد تكاثرت الحبال من حوله راح يدور ويدور حتى انقلبت كل القوارب واصطدمت ببعضها فلم يبق إلا قارب (أهاب) الذي ظل يتشبث به بحبل، من ثم اندفع الحوت للأعماق فطار القارب في الهواء ثم انقلب بمن فيه وفر الحوت..
تم إنقاذ الرجال وقد امتلئوا بالكدمات والسحجات لكن لم يمت أحد.. تهشمت رجل (أهاب) العاجية، لكنه وقف على سطح السفينة وقد تركزت عليه العيون.. صاح وهو ينظر إلى البحر:
- « لن يستطيع البحر ولا الحيتان أن يخدشوا (أهاب).. إلى أين اتجه الحوت؟ »
- « باتجاه الريح يا سيدى.. »
ـ- « إذن باتجاهه.. أخرجوا القوارب الاحتياطية.. ما أقسى أن يضطر قبطان مثلى لاصطحاب هذا الرفيق الذي لا خير فيه! »
- » سيدى؟ »
- « أتكلم عن جسدي الذي لا خير فيه.. أريد عصا أتوكأ عليها.. هذا الرمح يصلح.. ولكن أين هو؟ مستحيل.. »
هنا فهموا عم يتحدث.. (فداء الله).. لقد اختفى..
- « ابحثوا عنه! فتشوا السطح.. لا يمكن أن يكون قد مات.. مستحيل! »

بحث الرجال في السفينة، ثم عاد (ستاب) ليخبر القبطان أنه لا وجود ل- (فداء الله).. من الجلى أن الرجل قد تورط في عقد الحبل الخاص بقارب (أهاب).. فقد رآه وهو يحاول التحرر..
صاح (ستارباك):
- « يا إلهي القدير! أنت لن تمسك بالحوت أيها العجوز.. إن هذا الذي تقوم به لأسوأ من جنون الشيطان.. يومان من المطاردة ولمرتين تتهشم القوارب.. قدمك تنتزع منك ثانية وظلك الشرير يختفي.. هل ستواصل مطاردة هذه السمكة القاتلة حتى يموت آخر رجل منا؟ هل ستجرنا خلفها إلى عوالم الجحيم؟ من التجديف أن نحاول اصطيادها ثانية.. »
قال (أهاب):
- « (ستارباك).. مؤخرًا حسبت أننى أميل لك.. لكن في موضوع الحوت هذا أرى وجهك كراحة يدى.. خواء بلا شفتين ولا ملامح.. (أهاب) هو (أهاب) أبد الدهر.. هذا الذي نقوم به قد أجرينا له (بروفة) منذ ملايين الأعوام قبل أن يوجد هذا المحيط.. أنا شرطي القدر.. أنفذ أوامره.. أنت ترى عجوزًا مبتور الساق.. هذا جسد (أهاب)، لكن روح (أهاب) تجرى فوق ألف ساق.. »
ثم قال لنفسه:
- « النبوءات! النبوءات! ما حاجة الأقدار للنبوءات؟ حين ترغب في الكلام تتكلم ولا تعطى تلميحات كتلميحات العجائز.. لقد رحل (فداء الله) وقد تنبأ بأنه سيرحل أولًا ثم أتبعه أنا.. لكن لابد من أن يعود قبل رحيلي.. هكذا قال فما معنى هذا؟ »
ومر الليل والرجال منهمكون في إعداد القوارب الاحتياطية، والنجار منهمك في صنع ساق جديدة ل- (أهاب)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والعشرون

اليوم الثالث:

في اليوم الثالث اندفعت القوارب للهجوم، لكن الحوت الذي أثارت جنونه كل الجراح والرماح المغروسة فيه، هجم على القوارب.. ومرة أخرى بعثرها.. لكنه لم يمس قارب (أهاب)..
كان الحوت يسبح بقرب (داجو) و(كويكونج).. هنا دوت صرخة عالية.. فإلى ظهر الحوت، مربوطًا مرارًا بالحبال، كان نصف الجسد الممزق ل- (فداء الله).. لقد عقدته الحبال حيث هو أمس، وقد تصلبت عيناه الجاحظتان على (أهاب) فسقط الحربون من يده..
- « (فداء الله)!! لقد خدعت أراك من جديد.. وكنت قد رحلت بعيدًا.. هذه هي النبوءة التي قلتها لي.. لكن هذه القوارب لم تعد تصلح يا رجال.. خذوها للسفينة وأصلحوها.. أنتم لستم رجالًا آخرين.. أنتم ذراعاى وساقاى.. »
وهكذا اندفع القارب إلى جوار الحوت، بينما أسماك القرش تطارد الاثنين، فهتف (أهاب):
- « لن نعرف إن كانت الأسماك جاءت للظفر بالحوت أم (أهاب).. »
وهكذا استمرت المطاردة، وبدا أن الحوت لا يلاحظ من يطاردونه، أو أن صراع ثلاثة الأيام قد أوهن قواه.. كان (أهاب) غارقًا في بخار زفير الحوت.. أخرج القبطان حربونه وفرد ذراعيه وطوح بظهره للوراء ثم رمى بالحربون بأقوى ما استطاع إلى داخل الحوت الكريه.
لم يتعب الحوت نفسه بالعض، وإنما بحركة واحدة قلب القارب، وسرعان ما وجد (أهاب) نفسه في الماء من جديد..

ونظر الحوت إلى السفينة.. أدرك أنها مصدر كل مشاكله، وبدت له عدوًا أضخم وأكثر نبلًا..من ثم اتجه نحوها بسرعة والماء يتناثر من حول فكيه..
وصرخ بحارة القارب:
- « الحوت! السفينة!! »
ورأى (ستارباك) الهول القادم وسمع الصراخ.. فصاح:
- « الحوت! يا كل قوى الهواء الخيرة، لا تدعى (ستارباك) يمت..احتضنيني! إلى عجلة القيادة يا حمقى! هل هذه نهاية كل صلواتي؟ هل هي نهاية إيماني؟ (أهاب).. تعال لتر عملك! أيها الحوت المكشر عن أنيابه أنا أكشر عن أنيابي لك! لقد انتهت الرحلة بالنسبة لنا! » وتحول الجزء الذي صدمه الحوت إلى فوضى من شظايا الخشب والحربون والحبال.. بينما الحوت يدور حول السفينة.. يوحى منظره بالكثير من تصفية الحساب والانتقام السريع والشر الأبدى.. هشم الميمنة فتهاوى الرجال، وسقط رماة الحربون ورءوسهم تتأرجح على أعناقهم الغليظة.. وغاص الحوت تحت السفينة ليخرج على مقربة من قارب (أهاب)..
صاح (أهاب):
- « هل كتب عليك أيتها السفينة العظيمة أن تغرق وأنا بعيد عنك؟ هل أحرم من المجد الذي يناله أحقر القباطنة؟ أيها الموت المنعزل في حياة منعزلة! تعال أيها الحوت الذي يدمر لكنه لا يقهرني.. سوف أغرس الرمح حتى آخر نفس لدى.. من أعماق قلبي ومقتى سأغرس رمحي.. » وأطلق الحربون، فطار الحوت للأمام بسرعة وقد تمسك به الحبل.. انحنى (أهاب) ليحرر الحبل لكنه التف عليه.. التف حول عنقه فطار في

صمت كما يفعل الخناقون الأتراك بضحاياهم.. وعرف الطاقم أنه لن يعود..
وسرعان ما توارى الحبل وسط الماء..
وبعد دقائق عاد للطاقم في القارب الوحيد وعيه، فراحوا يتساءلون:
- « السفينة! بحق السماء أين السفينة؟ »
أخيرًا وجدوا شبحها الباهت وقد أبقى الماء صاريتها فحسب..
يرى الرجال الراية التي ثبتها (أهاب) بنفسه على الصارية وهي تغوص إلى الأعماق، كأنها الشيطان الذي تقول الأساطير إنه لن يهوى إلى الجحيم إلا بعد ما يسرق جزءًا من الجنة معه.. وبدأت الأمواج تضرب الموضع الذي كانت فيه السفينة.. مثلما كانت تفعل دومًا منذ خمسة آلاف عام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قد انتهت الدراما فلماذا يمضى أحد خطوة أخرى للأمام؟
لأن هناك واحدًا قد نجا من الحطام.. ولأنه بعد هلاك (فداء الله) كنت أنا من اختاره القدر ليجدف مكان الرجل الشاغر.. وكاد التفريغ الناجم عن غرق السفينة يمتصنى، ودخلت تلك الدوامة المغلقة.. هنا وبمعجزة ما وجدت التابوت الذي اتخذناه قارب نجاة يطفو جوارى..
قضيت في هذا التابوت يومًا كاملًا وليلة كاملة.. ورحت أسبح بين أسماك القرش التي لم تحاول إيذائي، كأنها مكممة.. وفي اليوم الثاني رأيت شراعًا يدنو ويدنو حتى انتشلني أخيرًا.. كانت هذه السفينة (راشيل) التي كانت تجول البحر بحثًا عن أطفالها الضائعين، فلم تجد إلا يتيمًا آخر.

هيرمان ملفيل
ماساتشوستس - 1851

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

يلاحظ قراؤنا المخضرمون أننا قدمنا روايات (بنشلي) الثلاث في هذه السلسة.. و(فكان) اشتهرت باسم (الفك المفترس).

[←2]
ماركوس بورسياس كاطو: قائد روماني يلقبونه أحيانًا ب- (الأصغر). كان من خصوم (يوليوس قيصر) وانتحر لدى هزيمته..

[←3]

كوفين Coffin معناها (تابوت) في الإنجليزية..

[←4]

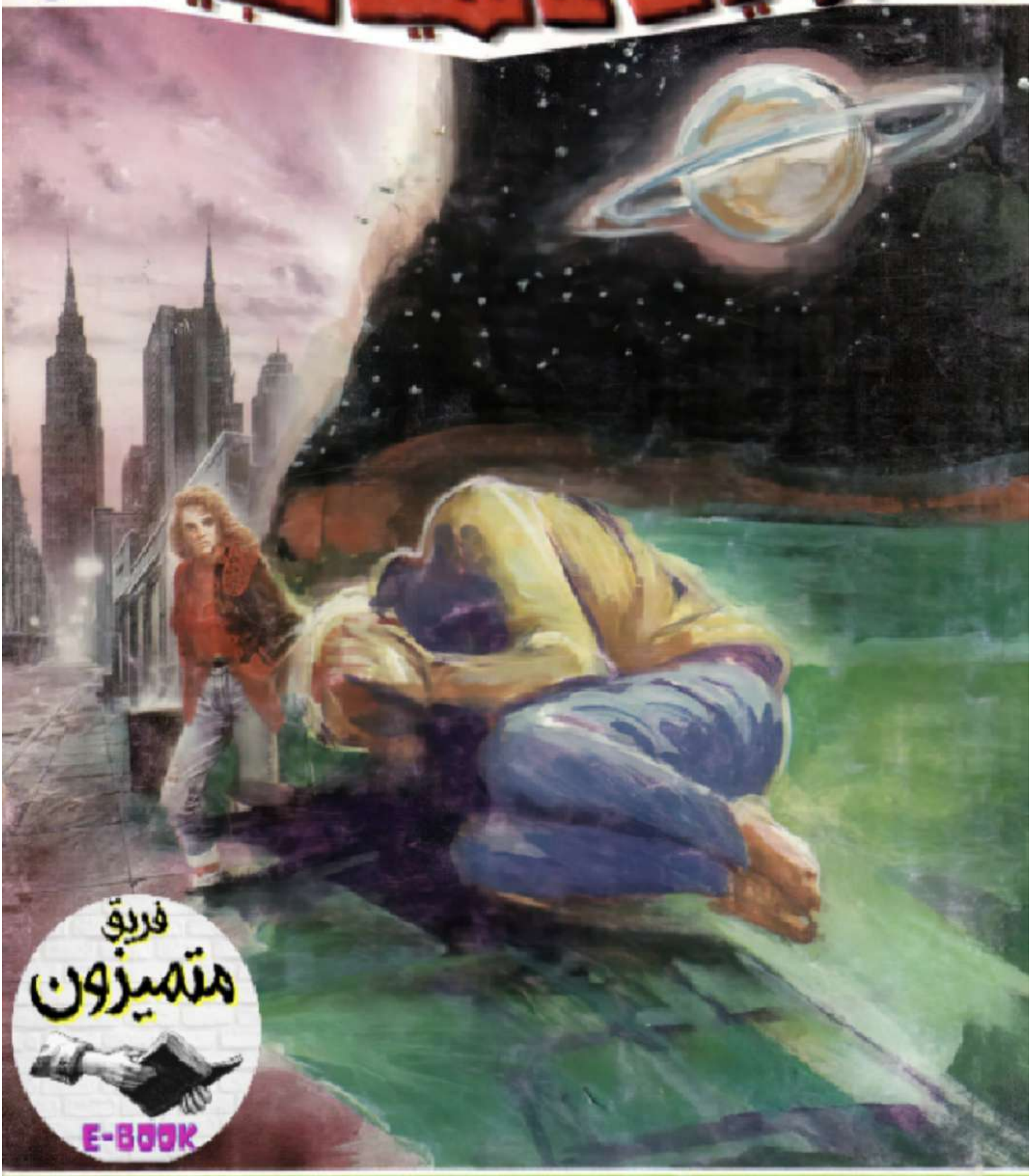
جماعة دينية من أتباع (جورج فوكس) اشتهرت بحبها للسلام إلى حد مبلغ فيه، وهذا مكمن الغرابة في أن يعمل بعض أفرادها في مهنة دموية كصيد الحيتان هنا.. اسم الجماعة معناه (المهتزون) وسبب هذا الاسم الغريب هو اهتزازهم الدائم أثناء الصلاة..

[←5]

في الحقيقة يستعمل الكاتب لفظ (رمضان) للدلالة على الصيام الوثني الذي يمارسه (كويكونج)..
وهذا ليس عن سوء نية على الأرجح، بل يدل على جهل الكاتب بالديانات الأخرى..

روايات عالمية للجيب

53



غريب فى أرض غريبة

بقلم : روبرت هاينلاين

ترجمة وإعداد :

د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (53)

غريب في أرض غريبة ج١

بقلم: روبرت هاينلاين

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف

(روبرت هاينلاين Heinlein) كاتب خيال علمي أمريكي ولد في (ميسوري) عام 1907، وتوفى عام 1988، يعتبر هو و(أزيموف Asimov) و(آرثر كلارك Clarke) الزوايا الثلاث لمثلث أدب الخيال العلمي الراقي. وقد فاز بجائزة (هوجو) التي تقدم لأفضل قصص العام عن قصصه (نجم مزدوج - 1956) و(دورية النجوم 1960) و(غريب في أرض غريبة - 1962) و(القمر عشيقة فظة - 1967).

نشرت أول قصة له (خط الحياة) عام 1939، وكان أجره عنها سبعين دولارا. ومن يومها كتب بغزارة اضطرته إلى اختلاق عدد من الأسماء المستعارة؛ لأن المجلات ما كانت لتقبل نشر قصتين للمؤلف نفسه في العدد ذاته.

كانت كتاباته تمتاز بالخصائص الثلاث الأساسية لأدب الخيال العلمي: حبكات مصممة جيدا وشخصيات حية.. وجدل علمي جيد. وكان يتمتع بدقة علمية كبيرة، مما مكنه من مزج العلم بالخيال بجرعات مختلفة..

من أهم إضافاته لأدب الخيال العلمي: إدخال علوم لم تناقش من قبل، مثل: الإدارة، والسياسة، والاقتصاد، واللغويات، والوراثة، وما وراء علم النفس.. وهكذا صارت أعماله بذرة الموجة الجديدة في أدب الخيال العلمي. وتعتمد قصصه كلها على الحوار (مقاطع طويلة جدا منه) أكثر من السرد، فتتكلم شخصياته كبشر لا كشخصيات خيالية.

كان نجاحه ساحقا منذ البداية ومنذ نشر قصته الأولى، وقد دوّن أفكاره في خطة تدعى (تاريخ المستقبل). وجاهد كي يجعل المستقبل ذا مصداقية كالحاضر.

من الناحية الصحية كان معتل الصحة، يتمتع بقائمة أمراض منها الدرن الذي أدى لإعفائه من البحرية. عمل في أثناء الحرب العالمية الثانية في تصميم بذلات تتحمل الضغط العالي. وكانت زوجته الثانية مكسبًا حقيقيا له؛ لأنها كانت ملازمًا في البحرية، تتكلم سبع لغات، وخبيرة بالكيمياء الحيوية.

بين العامين 1948 و1962 كتب قصص خيال علمي للشباب، لا تختلف عن كتاباته للبالغين إلا في نقطة استبعاد أية تلميحات جنسية، وجعله الأبطال مراهقين دائما. وكانت لهجة المعلم عالية في تلك الكتيبات، لكن من دون أن يفسد القصة ذاتها. في الوقت ذاته قدم (هاينلاين) عناوين مهمة مثل (سادة الدمي - 1951) و(الباب المفضي إلى الصيف - 1957) و(النجم المزدوج - 1956).

تحولت قصته (تلميذ الفضاء - 1948) إلى مسلسل تليفزيوني، ومن قصته (الصاروخ جاليليو - 1947) خرج الفيلم الشهير (الهدف القمر - 1950) الذي اعترف علماء كثيرون في ناسا NASA بأنه جعلهم يختارون هذه المهنة، ولهذا كرمته ناسا. هناك عديد من الأفلام السينمائية جاءت من كتبه، أقربها لنا هو (الكوكب الأحمر) الذي عُرض في مصر منذ ثلاثة أعوام.

في عام 1949 وعلى سبيل الدعابة، اقترح قراء مجلة، خيال علمي شهيرة أسماء لقصص تنشرها المجلة، واتصل رئيس التحرير به طالبا أن يكتب قصه خيال علمي بصرف النظر عن

موضوعها يكون اسمها (الخليج).. هكذا جلس مع زوجته يفكران في الأحداث بالأسلوب المعروف بـ (عاصفة الدماغ). هنا فكرت زوجته في تقديم نسخة خيال علمي من شخصية (موجلي).. بطل (كتاب الأدغال)..

الطفل البشري الذي ربته الحيوانات.. ماذا عن بشرى ربَّته كائنات فضائية؟ تجاهل الكاتب الكبير الفكرة وقتها وكتب عن شيء مختلف تماما، وإن ظلت الفكرة في مفكرته عدة أعوام.. هكذا ولدت قصة (غريب في أرض غريبة Stranger in a Strange land) عام 1962. ولسوف تكون هذه القصة أهم قصصه وأفضلها، لقد ناقش فيها كل شيء عن العالم الغربي.. ويعتقد كثيرون أنها نتاج طبيعي لاضطراب المجتمع الغربي في الستينات.. لكن الغريب أن الهيبي وجدوا قدوتهم في هذه القصة، وعاملوها كأنها كتاب ديني..

يقال عن هذه القصة: إنها دستور الثقافة المضادة.. وإنه من الصعب أن يعيش المرء في العالم الغربي دون أن يتشرب منها شيئا حتى لو لم يكن قد قرأها قط؛ لأن الهواء نفسه يفوح بها، وقد أضافت القصة مصطلحات جديدة للغة الإنجليزية منها Grok، وهي لفظة مريخية أصلاً بمعنى (الفهم الشامل)، بل إن هناك كنائس أقيمت باسم (كنيسة كل العوالم) نتيجة لصدور هذه الرواية، على أن (هاينلاين) نفسه ينفي أن تحوى قصته أية إجابات تقدم للعقول الكسولة، إنما هي مليئة بالأسئلة التي تدعونا إلى أن نفكر، بقى أن نعلم أن هذه القصة هي الأعلى مبيعا في تاريخ أدب الخيال العلمي.

ابتكر (هاينلاين) كذلك مفهوم (العالم كأسطورة World-as-Myth) الذي يتصور أن كل كون هو فكرة في خيال مؤلف في كون آخر. وفي قصته (رقم الوحش - 1980) جعل أبطال قصصه المختلفة يلتقون، بل يقابلون أبطال قصص لمؤلفين آخرين، كما ناقش هذه الفكرة في كتاب (القطة التي تعبر الجدران - 1985).

كان (هاينلاين) أول كاتب خيال علمي عاش بالكامل من قلمه، وأول كاتب خيال علمي وضع هذا النوع من الأدب في قوائم أعلى المبيعات، واليوم نلقاه لأول مرة في هذه السلسلة.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

الجزء الأول

عن أصله المختلط

-1-

ذات مرة حين كان العالم في بدايته، كان هناك مريخي يدعى (سميث).. كان (فالنتين مايكل سميث) حقيقيا مثله كمثل الضرائب، لكنه كان نسيجا وحده.

تم اختيار أول حملة من (تيرا) [1] إلى المريخ، على أساس أن الخطر الأكبر على الإنسان في الفضاء هو الإنسان ذاته، وفي هذا الوقت المبكر - ثمانية أعوام من تأسيس أول مستعمرة بشرية على (لونا) - فإن أية رحلة بين الكواكب كانت تتم في مدارات رتيبة لها شكل القطع الناقص مزدوج التماس.. 258 يوما من (تيرا) إلى المريخ، والشيء نفسه للرجوع، بالإضافة إلى 455 يوما على المريخ، بينما الكوكبان يزحفان لموضعيهما التقريبيين اللذين يسمحان برسم مدار القطع الناقص ثنائي التماس، وهو ما يعني ثلاثة أعوام أرضية.

كانت الرحلة طويلة جدا ومحفوفة بالمخاطر، وكان على التابوت البدائي الطائر المعروف باسم (المبعوث) أن يتزود بالوقود من محطة فضائية، وكان عليه كي يتمكن من العودة ألا يتهشم في أثناء الهبوط على المريخ، وأن يجد الماء من أجل خزانات التفاعل، وأن يجد نوعا من الطعام على المريخ، وألا يحدث خلل في آلاف التفاصيل الأخرى.

لكن الخطر المادي كان أقل من الخطر النفسي.. ثمانية بشريين متزاحمين كالقردة ثلاثة أعوام.. كان عليهم أن يتحملوا بعضهم أفضل مما يفعل البشر عامة، وقد ثبت من تجارب سابقة أن الطاقم المكون من الذكور فقط ليس مستقرا اجتماعيا، لهذا تقرر أن يكون هناك أربعة أزواج على السفينة بحد أقصى.. وقد راحت جامعة (إدنبرة) تحلل القدرات المطلوبة للرحلة لدى عدد هائل من المتطوعين، مع إجراء اختبار تكافؤ، كان الكابتن (مايكل برانت) هو الملاح، ويبدو أن هناك من ساعده في المؤسسة كي يجد رفيقة للسفر.. وقد راحت أجهزة الحاسب الآلي تبحث بعناية، وهذا يفسر سفره إلى أستراليا ليطلب الزواج من دكتورة (وينيفريد كوبرن)، وهي عانس لها وجه يشبه الحصان، وتسبقه في العمر بتسعة أعوام.

كان الطاقم يملك مجموعة متكاملة من الخبرات، وإن كان أكثرها قد اكتُسب في أثناء التدريب المكثف في الأسابيع الأخيرة قبل الإطلاق، بالإضافة لهذا كانوا متوافقين في الأمزجة.. ربما متوافقين أكثر من اللازم.

أقلعت (المبعوث) في الموعد المحدد بلا مشاكل، وفي الجزء الأول من الرحلة كانت رسائلها اليومية تُلتقط بلا عسر، وبدا أن الطاقم سعيد وبصحة جيدة، كان وباء القراع العسلي هو أسوأ شيء اضطر د. (سميث) للتعامل معه، ولم يحتج أحد من الفريق لتعاطي العقاقير المضادة للغثيان.

ثم وصلت (المبعوث) إلى المدار الذي تتوقف عنده في مدار القمر (فوبوس)، وأمضت أسبوعين في المسح الفوتوغرافي، ثم أرسل كابتن (برانت) رسالة بالراديو:

- سوف نجرب الهبوط الساعة 1200 بتوقيت جرينتش غدا.. جنوب (ليكاس سولي)..

ولم تصل أية رسالة أخرى بعد هذا.

☆ ☆ ☆

-2-

مر ربع قرن آخر إلى أن زار البشر المريخ ثانية، بعد ستة أعوام من صمت (المبعوث)، تم إرسال مسبر يوجه باللاسلكي بلا طيار، اسمه (زومبي) تموله الجمعية الجغرافية والجمعية الفلكية الدولية، وقد اتخذ مدارا لفترة انتظار معينة ثم عاد، وكانت الصور التي أرسلها المسبر تُبيّن عالما غير رحب للبشر على الإطلاق، إلا أن المسبر (زومبي) أظهر بوضوح أن القنوات على سطح المريخ، تم حفرها بعمل هندسي معين، وثمة ما يبدو كخرائب مدن، وبالتأكيد كان البشر سيرسلون حملة أخرى لو لم تنشب الحرب العالمية الثالثة.

أفاد هذا التطور الأخير في أن الحملة التي انطلقت بعد هذا كانت أفضل كفاءة وتجهيزا، بطاقم كله من خيرة الملاحين الذكور انطلقت الرحلة، وهبطت المركبة عند (ليكاس سولي).

كانت المركبة تبعث إشاراتها للأرض يوميا، إلا أن ثلاث رسائل كانت جديرة بما هو أكثر من الاهتمام العلمي، كانت الرسالة الأولى تقول:

- «وجدنا السفينة (المبعوث).. لا أحياء..»

الرسالة الثانية التي هزت العالم كانت تقول:

- «المريخ مسكون..»

أما الثالثة فتقول:

- «تصحيح الرسالة 105-23.. هناك ناج واحد من (المبعوث) [2].»

☆ ☆ ☆

-3-

كان الكابتن (ويليام فان ترومب) رجلا يتمتع بحس إنساني عال. وقد أبرق يقول:

- إن المسافر الذي معي.. أكرر.. المسافر الذي معي لا يجب أن يتعرض لضغوط الاستقبال الشعبي الصاخب.. أعدوا وسائل مواصلات أحادية الجاذبية.. ومحفة وخدمة إسعاف وحرسا..

وأرسل طبيب السفينة د. (نلسون) للتأكد من نقل (مايكل سميث) بلطف على فراش مائي، وحمايته بوساطة رجال البحرية، حينما تم وضع (فالنتين) على المحفة كان وزير العلوم يقول مشاكسا:

- من المفهوم يا كابتن أن سلطتك على ما كان حتى اللحظة حملة علمية، تعطيك الحق في طلب رعاية طبية غير معتادة، أو طلب حراسة، لكني الآن لا أفهم لماذا تتدخل في شئون إدارتي الخاصة.. إن (سميث) كنز مهم للعلم..

- أعتقد هذا يا سيدي..

- إذن لماذا؟

ثم قطع كلمته، واستدار إلى وزير السلام والأمن العسكري وقال:

- (ديفيد).. هلا أصدرت أوامرك لهؤلاء القوم؟ لا يمكن أن يترك المرء أشخاصا من وزن البروفسور (كنيدى) والدكتور (أوكاجيما) ينتظرون.. هذا ليس على سبيل الحصر طبعا.

نظر الوزير متسائلاً إلى الكابتن، لكن هذا هز رأسه:

- لا يا سيدي..

- لماذا يا كابتن؟

(سميث) ليس على ما يرام.. لم يجرب من قبل مجالاً أحادي الجاذبية.. إنه يزن الآن أكثر مما كان مرتين ونصفا.. وعضلاته لم تعتد هذا.. لم يعتد أي شيء أرضى، وعلى الأرجح سيكون الجهد كبيرا عليه.. بحق أجراس الجحيم أنا نفسي متعب يا سادة، برغم أنني ولدت على هذا الكوكب..

قرر الكابتن أن يكون خشنا، وقد قدر أنه حتى الوزير لن يستطيع أن يكون فظا مع قائد أول رحلة أرضية تصل إلى المريخ. هكذا قال بعصبية:

- ألا تريان أنه ليس بشريا؟

- فسر لنا يا كابتن..

- ليس بشريا.. إنه كائن ذكي يحمل جينات البشر، لكنه ليس بشريا.. إنه مريخي أكثر منه بشريا.. وحتى اللحظة التي قابلناه فيها لم يكن قد رأى بشرا قط.. يحسب نفسه مريخيا ويشعر كالمريخيين.. لقد رباه جنس يختلف بالكامل عنا.. إنه إنسان بالجينات، لكنه مريخي بالبيئة.. لو أردتم أن تدفعوه للجنون فأحضروا علماءكم منتفخي الرءوس.. لا تمنحوه فرصة للتحسن.. اعتصروه كبرتقالة. لا تعطوه فرصة كي يعتاد مستشفى المجانين هذا..

ساد الصمت حتى قال وزير العلوم:

- لو لم يظهر في وسائل الإعلام لعم الشغب.. الناس ينتظرون أن نعرض عليهم كائنات مريخية، فإن لم نفعل كان علينا أن نريهم هذا ال (سميث)..

قال الكابتن:

- لا جدوى من عرضه، ولن يحب الناس ما سيرون.. المشكلة في التفاهم مع المريخيين أنك تشعر بأنك تتعامل مع صدى.. لا تلقى اعتراضا لكنك لا تتلقى إجابات كذلك.

- مشكلة لغوية؟ ربما كان عليك أن تحضر عالم لغوياتك.. لقد نسيت اسمه.. أو هو ينتظر بالخارج؟

- (محمود) يا سيدي.. لا.. (محمود) ليس على ما يرام.. انهيار عصبي بسيط..

- دوار الفضاء؟ إذن هاته حين يصير بخير..

كان (سميث) في هذا الوقت منهمكا تماما في محاولة البقاء على قيد الحياة، كان جسده مضغوطا ليناسب الفضاء غير المعقول في هذا المكان.. وقد أراحته نوعا نعومة المأوى الذي وضعه فيه هؤلاء الآخرون؛ لهذا وجه مستواه الثالث إلى نبضه وتنفسه، لقد لاحظ أنه يستهلك قواه وأن رئتيه تعانيان، ونبضه يتسارع، وأن حرارة الجو تخنقه.

حين هبط بسرعة قلبه إلى عشرين في الدقيقة، وصار تنفسه غير محسوس، ضبطهما على هذا المعدل، وراح يراقب نفسه، ثم بدأ يركز المستوى الثاني على الحرس.

من أين يبدأ؟ منذ ترك الوطن؟ أم منذ وجد نفسه في هذا الفضاء المهشم؟ لقد هوجم فجأة بالأضواء والأصوات لدى الوصول، وهو يشعر بهذا ثانية، بألم لا يوصف، يعود بذاكرته للوراء.. قبل التئام الجرح الذي أحس به يوم أدرك أنه يختلف عن إخوته في العش.. يعود لذكرى العش ذاته.

لم يكن أي من أفكاره يتعامل برموز الأرض.. كان قد تعلم بعض الإنجليزية، لكنه يستعملها بصعوبة كأنه رجل هندي، يحاول التفاهم بها مع رجل تركي، كان يستعمل الإنجليزية كما يتعامل المرء مع كتاب شفرة، مجهدا نفسه لترجمة كل رمز، لقد اختلفت ثقافة المريخيين كثيرا جدا عن ثقافة البشر.

في الغرفة المجاورة كان هناك طبيب مقيم يدعى (تاديوس) يلعب (الكريبج) مع (توم ميتشوم) الممرض وكان (تاديوس) ينظر بعين واحدة إلى العدادات والمؤشرات، وعينين على أوراق اللعب، لهذا حين رأى ضوءا ينذره بأن سرعة النبض قد هبطت من 90 إلى أقل من 20 في الدقيقة فإنه ألقى بالأوراق وجرى إلى الغرفة والممرض خلفه..

كان (سميث) يطفو في الفراش المائي وقد بدا كالميت، أطلق (تاديوس) سبة وهتف:

- اطلب دكتور (نلسون)..

هرع الممرض خارجا.. بينما تفحص الطبيب المقيم المريض بعناية، وإن حاول ألا يلمسه، أخيرا جاء طبيب أكبر سنا يمشى بذلك الخرق المميز لرجل قضى فترة طويلة في الفضاء الخارجي، وسأله:

- حسن يا دكتور؟

- لقد هبط نبضه وتنفسه وحرارته فجأة منذ دقيقتين يا سيدي..

- وماذا فعلت له؟

- لا شيء يا سيدي.. تعليماتك..

- أحسنت صنعا..

وتفحص (سميث) ثانية، ثم قال:

- أخبرني لو جد جديد..

وغادر المكان، فصاح الطبيب المقيم محتجا، لكن (نلسون) قال له:

- استرخ يا بني.. لقد رأيت هذا المريض في هذه الحالة ست مرات في أثناء العودة.. هذا لا يعني شيئا.

ورفع ذراع المريض اليمنى وتركها، فظلت حيث هي، سأله (تاديوس):

- هل هو (كاتاليبسي Catalepsy)؟

- سمه ما تريد.. إن تسمية الذيل قَدَمًا لا تجعله كذلك.. لا تقلق لا يوجد شيء معتاد في هذه الحالة..

شعر (سميث) بزيارة الأطباء، لكنه فهم أن نواياهم حميدة (3).

بدأ نبضه وتنفسه يعودان للمستوى العادي، وقد شعر بوجود كائن حي في الغرفة معه، شيء طويل الأقدام كان يهبط من السقف ويدور حول نفسه، وقد راقبه (سميث) في ابتهاج، وتساءل إن كان هذا شكلاً من أشكال أفراح الإنسان.

هنا دخل د. (آرثر) الطبيب المتقدم في العمر الذي يساعد (تاديوس) وقال:

- صباح الخير.. كيف الحال؟

أدار (سميث) السؤال في ذهنه.. كان يعرف أن الجملة الأولى نوع من الأصوات الشكلية، التي يمكن الرد أو عدم الرد عليها، أما الجملة الأخرى فكانت تحمل أكثر من ترجمة في ذهنه.

شعر بعدم الراحة المعتاد مع تلك الكائنات، لكنه حاول أن يفرد جسده وقال:

- أنا بخير..

- د. (نلسون) سيكون هنا خلال دقيقة.. هل لك في الإفطار؟

كان (سميث) يفهم الرموز في الجملة الأخيرة، لكنه لم يصدق أنه سمع ما سمع، كان يعرف أنه نوع من الطعام (إفطار)، لكنه لم يعرف كيف (يكون له في الإفطار).. هل معنى هذا أنه قد يتم اختياره للالتهام؟ لم يتصور قط أن يحظى بهذا الشرف الكبير بهذه السرعة..

جاء د. (نلسون) وفحصه، ثم سأل عما إذا كانت هناك حركة معوية، فكانت الإجابة لا..

ناولوه سلطانية طعام وأطعموه ملعقة أو اثنتين، ثم ناولوه الملعقة ليأكل بنفسه، وقد أشعره هذا بالفخر؛ لأنه أول عمل يقوم به منذ جاء هنا..

الآن كان عليه أن يجلس وينهض.. يمشى.. ثم قاموا بإفراغ الفراش من الماء قليلا؛ ليجرب جسده الضغط.. على كل حال كان يثق بالدكتور (نلسون).

كانوا قد قصوا شعره وشاربه.. لكن أهم شيء كان وجهه الخالي من التعبير الشبيه بوجه طفل، بعينيه اللتين كان يناسبهما أكثر وجه عجوز في التسعين، جرب أن يمشى خطوة.. خطوتين.. ثم توقف وابتسم ابتسامة مشرقة طفولية، فصفق (نلسون):

- ولد طيب!

فجأة سقط، فاستطاع الطبيبان بمعجزة أن ينقذاه قبل أن يهوى أرضا، وكان قد اتخذ وضع الجنين، لذا لاقوا الأمرين كي يعيداه إلى الفراش. وقال (نلسون):

- حسن.. ستكرر هذا عصرا وغدا.. ثم نبدأ التمرينات بشكل منتظم.. بعد ثلاثة أشهر سيتأرجح بين الأشجار كالقرد. فلا توجد مشكلة معه.. حين يفيق علمه استخدام الحمام وليكن الممرض معك.. لا أريده أن يسقط أرضا..

جاء موعد الغداء فأكل (مايكل) وحده.. هنا دنا منه العامل ليحمل الصينية، وهمس في أذنه:

- اسمع.. لدى لك صفقة سمينة.. فرصة لتحصل على مال كثير.

- مال؟ ما هو (مال)؟

- دعك من الفلسفة.. سأتكلم بسرعة.. أنا أمثل مجلة (بيرلس فيتشرز).. سوف ندفع لك ستين ألفا مقابل أن تخصنا بقصتك.. كل ما عليك أن تجيب عن أسئلة، وهم سيصنعون من الإجابات مقالاً.. هيا وقع هنا لأن المبلغ معي..

ثم ناوله ورقة، فتفحصها (سميث) وأمسكها بالمقلوب..

- يا الله! ألا تعرف كيف تقرأ الإنجليزية؟

- لا أعرف..

- حسن.. سأقرؤها عليك، وبعدها تبصم بإبهامك وأشهد أنا على ذلك.. أقر أنا (فالنتين مايكل سميث) أنني أمنح الحقوق الكاملة لقصتي الحقيقية لجريدة (بيرلس فيتشرز)، كي تنشر قصتي تحت اسم (كنت سجينا في المريـخ).

- أيها العامل.

كان هذا هو د. (فريم) الذي وقف على الباب، فأخفى العامل الورقة في جيبه ونهض.

- ما الذي كنت تتلوه من ورقة؟

- لا شيء..

وهكذا خرج الرجلان، ولنصف ساعة ظل (سميث) ينظر للسقف.. لكن برغم الجهد الذي بذله، لم يستطع أن يفهم الموضوع على الإطلاق.

☆ ☆ ☆

-4-

طلب (بن كاكستون) الصحفي أن يقابل صديقته الممرضة الحسناء (جيل بوردمان) بعيدا عن المركز.. (جيل) ممرضة فضولية تسللت ذات مرة إلى (سميث) لتراه، وقد أثار فضولها أن تعرف أنه لم ير امرأة في حياته.. لم يحو لقاؤها مع (مايكل) أي جديد فيما عدا براءته الشديدة، وقد بدا لها أقرب إلى طفل.

تم لقاء (كاكستون) مع (جيل) بعيدا عن المركز.. هذا هو الطريق الوحيد لعدم إثارة الشبهات.. فلقاء صحفي وممرضة في هذه الظروف من الكتمان يعني الكثير.. إن كليهما يجلب الشبهة على الآخر.. كأن أحدهما مصاب بالجذام أو هما معا.. وعرفت أنه يريد منها أن تجلب له بعض معلومات عن ذلك القادم من المريخ.. وقال لها:

- هذا ال (سميث) مهم جدا.. أنت لا تعرفين أنه هو وريث المريخ!

قالت في دهشة:

- لا بد أنني ثملت يا (بن).. أستطيع أن أقسم إنك قلت إن هذا الغريب يملك كوكب المريخ!

- إنه يملكه فعلا.. لقد حافظ على الإقامة فيه بلا شريك للفترة المطلوبة قانونيا.. (سميث) هو ملك المريخ.. رئيسه.. الهيئة المدنية الوحيدة فيه.. لقد جاء إلى الأرض لكن حقه ما زال محفوظا في المريخ..

- مذهل..

- الآن أنت تفهمين لماذا يهتم كثيرون بـ (سميث) ومعرفة من هو، ومن أين جاء.. ولماذا تتستر عليه الإدارة.. إنه كذلك مواطن أمريكي، لهذا هو مزدوج الجنسية.. طريقتهم في إبقائه بعيدا عن الاتصالات غير قانونية، لكنه لا يعرف حقوقه.. والآن هل تسمحين لي بمقابلته؟

- لقد أثرت هلعي.. ما كنت أعرف هذه التفاصيل.. لو كانوا قد أمسكوا بي هذا الصباح وأنا في غرفته..

- ما كانوا ليؤذونك.. فقط يضعونك في زنزانة مبطنة مع شهادة جنون من ستة أطباء.. وربما سمحوا لك بتلقي البريد كل عامين.. هذا الرجل مهم جدا؛ لأنه يمثل كنزا علميًا.. ربما هو أكثر أهمية من (نيوتن) و(أينشتاين) و(كبلر) لو خلطتهم معا.. ثم هو سفير بيننا وبين الجنس الوحيد العاقل الذي قابلناه حتى اليوم.. هل أنت واثقة من أنك لن تساعديني على التسلل؟

- بالطبع لا.. سوف ألتحق بالدير..

دخل غرفة في مسكنه ثم عاد لها حاملاً جسما يشبه السيجار في حجمه وشكله، وقال:

- على كل حال ما كنت لأكلفك بهذا العمل الخطر.. لكن هل تقبلين زرع أداة التنصت هذه؟

- لكني أخاف دخول تلك الحجرة ثانية.

- لا داعي.. إن لهذه الأداة أذني حمار.. ألصقيها بالبلاستر إلى جدار أية غرفة ملاصقة.. استعملي القفازات قبل لمسها لأنها

محرمة قانونا.. لا تدعى أحدا يمسك بك وهي معك..

أضيئت الغرفة، فقد جاءت سيارة التاكسي الآلية التي طلبها في الموعد.. قالت له:

- أنت رائع يا (بن).. تساعدني على أن أعيش حياة الجريمة التي كنت أتوق لها.. ربما أقبل الزواج منك لو كررت عرضك..

- العرض مفتوح دائما..

☆ ☆ ☆

لم تكن عملية غرس أداة التنصت عسيرة.. دخلت على المريض في الغرفة المجاورة، وثبتت الأداة فوق رف، بينما هي تثرثر مع المريض كيف أن العاملات لا ينظفن جيدا وظلت تسجل ما يدور بالغرفة بضعة أيام، وكانت ترسل ما يتم تسجيله يوميا إلى (بن).. ثم انتزعت الجهاز واتجهت إلى شقته.. كانت تشعر أن جهاز التنصت يحرق ثغرة في جيبها.. كادت تتكلم حين قابلت (بن) الذي كانت تحبه فعلاً، لكنه همس في أذنها:

- لا تقولي شيئا.. لا أسماء ولا معلومات.. من المحتمل أن أكون مراقبا أنا نفسي.

اقتادها لغرفة الجلوس، وبدون كلمة ناولته الجهاز.. أدرك أنها تتخلى عن المهمة، لكنه لم يقل شيئا.. فقط ناولها طبعة المساء من جريدة (بوست).. وقال لها:

- هل رأيت الجريدة؟ ربما تحبين أن تقرئيها بينما أغتسل..

وأشار إلى عمود.. وها هي ذي أدركت أن هذا هو العمود ذائع الصيت الذي يكتبه في الجريدة..

عش الغراب

بقلم بن كاكستون

يعرف الجميع أن الزنزانات والمستشفيات تشترك في شيء واحد.. كلاهما تصعب مغادرته.. وأحيانا ما يكون السجين أقل عزلة عن العالم الخارجي من المريض، يمكن أن يستدعى السجين محاميه، ويمكن أن يطلب شهودا عدولاً، ويمكن أن يطالب بالإعلان عن سبب سجنه [4] habeas corpus.. لكن في حالة مريض المستشفى تكفي فقط لافتة (ممنوع الزيارة)، يطلب تعليقها أحد أطباء القبيلة، كي يغيب مريض المستشفى في غياهب النسيان أكثر من (الرجل ذو القناع الحديدي).

يستطيع أقارب المريض أن يزوروه، لكن هذا الرجل المريخي ليس له أقارب.. لم تكن لطاقم (المبعوث) نكد الحظ روابط مع الأرض، ولو كان للرجل المريخي أقارب يرعون مصالحه، فإن عدة آلاف من المحققين الصحفيين (مثل كاتبكم الحالي) قد فشلوا في العثور عليهم.

من يتكلم باسم الرجل المريخي؟ من أمر بوضع حرس مسلح من حوله؟ أنا أسألك يا سيدي الأمين العام.. ما المرض المعدي الذي يعاني منه هذا البائس حتى يمنع الجميع من مجرد رؤيته؟ إن الكلام عن (الإجهاد العام) لا يقنع أحدا وإلا استطاعت ممرضة أن تؤدي العمل خيرا من الحرس المسلحين.. هل هذا المرض اقتصادي الطابع؟ أو فلنقل بشكل أرقّ: هل هو سياسي؟

راحت (جيل) تقلب الجريدة، فهي لم تكن تهتم بهذه التعقيدات السياسية.. عاد (بن) من الداخل، ووضع في حجرها تفريغا للأصوات التي التقطتها أجهزة التجسس، وقد أشار إلى الأصوات باسم (الصوت الأول) أو (الصوت الثاني).. إلى أن يعرف أسماء المتكلمين، وكانت أغلب التسجيلات بلا قيمة سوى أنها تخبرك أن (سميث) يتم إطعامه أو تحميمه، وكل هذا تحت إشراف من أسماه (بن) باسم د. (نلسون).

فجأة جاء تسجيل غريب من نوعه.. وكان كما يلي:

د. نلسون: هناك من يريد لقاءك يا (سميث)..

سميث: من هو؟

د. نلسون: إنه كبيرنا.

سميث: جميل أن أقابل كبيركم.. أريد أن أتعلم وأن أنمو..

د. نلسون: في الحقيقة هو سيوجه لك أسئلة بمساعدة (محمود) المترجم صديقك.

سميث: أنا لا أستطيع أن أعلم الكبير.

د. نلسون: لا تقلق بهذا الصدد.

يظهر صوت جديد واضح أنه صوت الأمين العام.

د. نلسون: هذا هو كبيرنا يا (سميث).. سيتحدث معك..

الأمين العام: هل سيفهم كلامي؟

د. نلسون: نعم.. لكن أنصحك بأن تستعمل كلمات وحيدة المقطع قدر الإمكان..

الأمين العام: حسن.. والآن أنا أرغب في أن تتركني وحدي معه..

د. نلسون: لا يمكن يا سيدي.. إن الأخلاق الطبية تمنع أن يتم استجواب مريضي في غيابي.

الأمين العام: أنا لا أفهم هذا الهراء عن الأخلاق الطبية.. أنا محام وسأتكلم كمحام.. هل طلب منك المريض أن تعنى به؟ هل أعطاك تفويضا رسميا لعلاجه؟

د. نلسون: لا يا سيدي..

الأمين العام: إذن ليس من حقك الاعتراض على انفرادي به..

د. نلسون: لكن يا سيدي..

الأمين العام: لا تأخذ الموضوع بهذا الشكل.. لنفترض أنني القريب الوحيد له الآن.. هل تمنع الأم من الانفراد بصغيرها؟

د. نلسون: لا يا سيدي.. سأغادر الغرفة، لكني أرغب في أن تسند مهمة العلاج لشخص غيري..

الأمين العام: لن أعتبر هذا القرار نهائيا، ولسوف نناقشه فيما بعد.

تخفت الضوضاء ويبدو أن الأمين العام انفرد بالمريض.

الأمين العام: هل تجيد الكتابة؟ لا؟ إذن يمكنك أن تبصم على ورقة..

سميث: لا أفهم يا سيدي.

الأمين العام: أريد أن تعلن عدم امتلاكك لشيء معين.. لنضع الأمر بهذا الشكل: أنت لا تملك المريخ..

سميث: لا أفهم يا سيدي

الأمين العام: أنت راغب في البقاء هنا.. أليس كذلك؟

سميث: لا أعرف.. لقد أرسلني الكبار إلى هنا.

(صوت غريب كأنه ضفدع أمريكي يقاتل كلبا)..

الأمين العام: اللعنة! كان عليهم أن يعلموه المزيد من الإنجليزية.. اسمع يا بني.. لا تقلق بصدد التفاصيل.. فقط هات إبهامك؛ لأضع بصمتك أسفل هذه الورقة.. لا تخف لن أؤذيك! دكتور! دكتور (نلسون)!

طبيب آخر: دكتور (نلسون) ليس هنا يا سيدي.. لقد رحل.. قال إنك أخذت الحالة منه.

الأمين العام: هو قال هذا؟ اللعنة عليه! هلم لا تقف هكذا! ألا ترى أن الفتى يموت؟ أعطه تنفسا صناعيا أو احقنه بشيء ما!

الطبيب الآخر: لا أعتقد أن علينا عمل شيء يا سيدي.. فقط دعه حتى يفيق وحده.. هذا ما يقوله د. (نلسون)..

الأمين العام: سحقا لدكتور (نلسون)!

سميث: لا أفهم يا سيدي.

هنا جاء (بن) حاملاً المزيد من التسجيلات.. ولكنه لم يعرضها عليها.. فقط سألها:

- جائعة؟

- أموت جوعا..

- إذن لنخرج ونظفر بشيء يؤكل..

وفي الخارج صعد على السطح، واستوقف سيارة (تاكسي) طائرة كتب عليها (بالتيمور)، وركباها.. قالت له:

- لماذا لم تطلب سيارة تاكسي من شقتك؟

- لو كنت أنا أراقب الحكومة، فمن الوارد أن تراقبني هي.. إن احتمالات أن يرسلوا (تاكسي) مفخخا لي أمر وارد، لكن التاكسي الذي نركبه قد اخترته بشكل عشوائي.. من الصعب أن يتحسبوا ويضعوا فيه أجهزة تنصت..

قالت في رعب:

- (بن).. أنت لا تعتقد أن...

- أنا أتوقع كل شيء.. صحيح أن واجب المعارضة هو أن تعارض، لكن هذا الموضوع مهم.. لقد وجه مقالي ضربة حساسة للحكومة.. اتهمتها بأنها تحتجز سجينا سياسيا بدون وجه حق.. أنا أعتبر الحكومة كائنا حيا وككل كائن حي لديها غريزة عمياء تدفعها للحياة.. هاجميها ولسوف ترد بعنف.. وهذه المرة أنا وجهت ضربة قوية للحكومة..

لم تكن تتصور نفسها في موقف كهذا.. بالنسبة لها كان أعنف ما مر بها هو حرب العصابات المرحة بين الجنسين.. وهي قد رأت الكثير من العنف في مهنتها كممرضة، لكنها لم تتخيل قط أن يوجه هذا العنف لها.

قال لها:

- لو ساءت الأمور أكثر من اللازم، فلا تنسى اسم (جوبال هيرشو).. إنه الرجل الذي يعرف كيف يساعدنا..

☆ ☆ ☆

-5-

كان (بن كاكستون) قد أعد عدته للتسلل إلى (فالنتين مايكل سميث)..

الحقيقة أن أحداثا معينة جعلته يتخذ هذا القرار.. لقد ظهر (فالنتين) على الشاشة مع الأمين العام.. وقد شكر الحكومة على جهودها وكان ودودا.. لم تكن هناك سوى مشكلة واحدة هي أنه ليس هو! نعم إنه ليس هو! نعم.. استطاعت (جيل) أن تدرك هذا، برغم أنها لم تر (مايكل) إلا مرة واحدة..

فإنها لم تكن لتخطئ تمييز وجهه الطفولي الغريب.. لقد تم اختيار ممثل يشبهه ليواجه الإعلام.

أدرك (بن كاكستون) أن وراء هذه الخدعة الحكومية سرا ما.. إما أن (مايكل) قد مات.. ربما قتل، وهو حل لا بأس به؛ لأن معنى موته من دون ورثة، هو أن ترث الحكومة ثروته، التي هي كوكب المريخ بالكامل.. وإما أن الحكومة نقلته إلى مكان لن يرى فيه النور أبدا.. وهنا فقط قرر أن يتسلل لمقابلة (مايكل).. لن يكون وحده هذه المرة، بل سيصحب محاميا وشاهدًا عدلًا.. ولسوف يواجه الحراس بحقيقة أن منعهم له جريمة يعاقب عليها القانون؛ لأنه ليس من حق الحكومة منع الصحفيين من مقابلة مريض في المستشفى.

كان محظوظا؛ لأنه أقنع (جيمس أوليفر كافنديش) بأن يكون شاهده.. كانت للرجل مكانة عظيمة إلى حد أن الأمر لن يحتاج إلى محام.. لقد شهد أمام المحاكم العليا الفيدرالية عدة

مرات، ويقال إن رأسه يحوي وصايا لا تقدر بالبلايين بل التريليونات.. كان يلبس الأبيض من ذقنه إلى أخمص قدميه كما تقضي مهنته، وقد ذكّر منظره (بن) بتمثال الحرية.. إن الشهود العدول مهنة خاصة في هذا العالم، وهم أشخاص يتمتعون بذاكرة فوتوغرافية، ولديهم قوى نفسية معينة.. لقد ناقش (بن) الأمر مع المحامي أولا، ثم اتجها لمقابلة الشاهد العدل.. وكما تقضي القواعد لم يناقشا معه ما يتوقعان أن يراه..

أوصلتهم سيارة الأجرة إلى مركز (بيثيدا)، حيث أخرج (بن) بطاقته للسكرتيرة، وقال إنه راغب في مقابلة المدير.. سألته إن كان عنده موعد، فاعترف بأن لا.. قالت:

- إذن أخشى أن فرصتك محدودة جدا.. ما هي مهنتك؟

قال بصوت عال ليسمعه الجميع:

- فقط قولي له إن (كاكستون) صاحب (عش الغراب) هنا ومعه شاهد عدل ومحام، وهو هنا لاستجواب (فالنتين مايكل سميث) الرجل الآتي من المريخ..

أصابها الذهول للحظة، ثم استعادت توازنها، وطلبت منه في برود أن يجلس..

في النهاية عادت ملكة الجليد الجالسة خلف المكتب وأعلنت:

- مستر (بيركويست) سيقابلك.

كان يعرف أنه أحد الحمقى العاملين مع الأمين العام.. مهمته التخلص من الزوار، لذا قال:

- أريد الأمين العام نفسه.. أنا هنا أمثل الصحافة ومائتي مليون قارئ.. لو لم يكن بوسعي مقابلته، أرجو أن تعلنوا هذا بصوت عال، وقولوا لي سلطتكم القانونية للرفض.. إن هناك إشاعات قوية تقول إن الرجل الذي ظهر في التليفزيون المجسم أمس كان زائفا..

هكذا اضطروا إلى أن يسمحوا له بالدخول مع رفيقيه.. اجتازوا مجموعة من البوابات والحرس.. في النهاية بلغوا غرفة معتمة الإضاءة، ونصحهم الطبيب المعالج (تانر) بألا يفرطوا في الأسئلة، حتى لا يدخل الفتى حالة تشنج.

- هي ليست صرعًا.. يسهل على رجل الشارع أن يحسبها صرعا، لكنها شيء يختلف..

- هل هي نوبات (الكاتاليبسي)؟

- لا أعرف..

ودنا (كاكستون) من الفراش، ليجد أن هناك رجلاً شاحبا يطفو هناك في فراش مائي، وقد غطس نصف جسده في الجلد البلاستيكي.. وقد نظر لهم، لكنه لم يقل شيئا.. وظل وجهه خاليا من التعبير..

على قدر علم (بن) كان هذا الرجل ذاته الذي رآه في التليفزيون المجسم أمس.. وقدّر أن (جيل) العزيزة بنواياها الحسنة قد ورطته في تهمة تشويه سمعة، قد تؤدي به إلى الإفلاس..

- هل أنت (فالنتين مايكل سميث)؟

- حتى الآن..

- الرجل من المريـخ؟

- حتى الآن..

- وهل كنت في التليفزيون المجسم أمس؟

هنا تدخل الطبيب:

- لا أحسبه يفهم معنى الكلمة..

ثم سأل (مايكل):

- (مايكل).. هل تذكر ما فعلته مع الأمين العام أمس؟

قال الوجه المريخي:

- أضواء كثيرة.. تؤلم..

قال (كاكستون):

- فهمت.. هل يعاملونك جيدا هنا يا (مايكل)؟

- نعم..

- هل يمكنك أن تمشى؟

- عضلات ضعيفة..

- حسن.. سأعمل على أن يحضروا لك كرسيا متحركا، ولسوف تخرج وتذهب إلى أي مكان تريد.. ألست رجلاً حرا؟

قال الطبيب في عصبية:

- لا أسمح لك بالتدخل في أمر مريضي..

كان (كاكستون) يفكر بعمق.. من الجلي أن (جيل) كانت مخطئة.. لكن لا.. لم تكن مخطئة.. ثمة شيء ما خطأ، لكنه لا يستطيع تبينه.

- (مايكل).. أمس وجه لك الأمين العام بضعة أسئلة مثلاً سألك عن رأيك في الفتيات على الأرض.. متى رأيت فتيات على الأرض؟

اختفت الابتسامة من على وجه المريض.. شخصت عيناه لأعلى، ثم اتخذ الوضع الجنيني، وثني ركبتيه إلى صدره وحنى رأسه وثنى ذراعيه.

صاح الطبيب وهو يتحسس معصم المريض:

- فلتخرجوا من هنا!

قال (كاكستون):

- نعم.. كنا خارجين على كل حال.. لكن لي سؤالاً واحدا لك.. الفتى مسجون هنا، فكيف ومتى رأى فتيات؟

- هل تمزح؟ رأي ممرضات وفتيات.

- لكن على قدر علمي لا يتعامل معه إلا ممرضون رجال. والفتيات ممنوعات منعا باتا من الدخول هنا..

- لا تكن سخيفا.. أنت رأيت فتاة معه أمس على شاشة التليفزيون المجسم..

هكذا صمت (كاكستون) وسمح لهم باقتياده إلى الخارج.

في الخارج قال له المحامي:

- لا أعتقد أن الأمين العام سيقاضيك ما دمت لم تنشر شيئا.. لكن لا بد من دليل قوى إذا أردت أن تتعامل مع إشاعات..

قال (كاكستون):

- كيف لنا أن نعرف أن هذا هو (مايكل سميث) نفسه؟

- هه؟

- نحن رأينا رجلاً في فراش.. لا شيء إلا تأكيد الطبيب وكلمته لا تساوى شيئا.. إن مهنة هؤلاء القوم هي الإنكار.. ثم أنني لا أحسبه طبيبا أصلاً؛ فهو لم يبد فاهما لمصطلح (كاتاليبسي).. هل رأيتم أو سمعتم أي شيء يؤيد أن هذا هو رجل المريخ؟

أعلن الشاهد العدل أنه يريد الانصراف، ما دامت مهمته انتهت، لكنه قال لـ (كاكستون):

- ثمة شيء كنت أتمنى لو لاحظته.. (الكاللوهات) في قدميه.. لي بحث عن هذا الموضوع في (مجلة الشهود).. لو كان هذا الفتى مريخيا لوجدت حالة قدميه تدل على ذلك، ما دام لم يلبس أحذيتنا قط، والجاذبية هناك ثلث جاذبيتنا..

- يا للشيطان! لماذا لم تخبرني بهذا؟ يجب أن نعود إلى المستشفى..

- لأن هذا لا يتفق مع حياد الشهود.. ويؤسفني أنني ما دمت قد ذكرت لك هذا، لم أعد صالحا كشاهد عدل.. يجب أن تجد غيرى..

قال المحامي وهو ينصرف مع الشاهد:

- فكر في أبسط الحلول.. أعتقد أن الرجل الذي رأيناه هو فعلا رجل المريخ...

راح (كاكستون) يفكر.. ليس الرجوع للمستشفى سهلاً.. مرتين في يوم واحد.. لن يستطيع اجتياز الحرس حتى لو تنكر كعامل أو ممرض.. ولكن ماذا عن طبيب؟ د. (نلسون).. طبيب السفينة.. هو الوحيد الذي يستطيع تمييز إن كان هذا هو (مايكل سميث) أم لا..

اتصل من التاكسي بدكتور (نلسون)، لكن هذا الأخير لم يعطه فرصة.. الرجل لم يكن راغبا في مناقشة الموضوع على الإطلاق.

جرب الاتصال بعدة جهات، وكان يزداد عصبية وعدوانية في كل مرة.. كان هذا خطأ فادحا؛ لأن سيارة التاكسي الأوتوماتيكية شعرت بذلك، ويبدو أنها تلقت تعليمات من جهة عليا ما؛ لأن أبوابها انغلقت عليه.. وانقطع الاتصال بأية جهة.. ثم انطلقت به إلى جهة مجهولة.. أما هو فلم يعرف إلا أنه فقد الوعي.

☆ ☆ ☆

-6-

كانت (جيل) قلقة؛ لأن (كاكستون) لم يتصل بها طيلة هذا الوقت، وقد كان رجلاً لا تفوته التفاصيل الصغيرة.. سألت عنه في الجريدة، فلم تجد من يعرف مكانه.. اتجهت إلى المستشفى وبدأت تمارس عملها..

كان أحد الأطباء يجلس أمام شاشة يراقب عليها مريضة مسنة.. مريضة ترقد في فراشها، وقد اندهشت (جيل) من كل هذا الاهتمام بحالة مستقرة أصلاً..

غلبها الفضول الأنثوي فقررت أن تلقى نظرة على العجوز لاحظت أن مفتاحها الذي يفتح كل الأقفال لا يفتح هذا القفل بالذات، وهكذا تحايلت حتى أقنعت الطبيب بترك المرقاب، على أن تتولى هي المراقبة، وحصلت على مفتاح الطبيب وتسللت إلى الحجرة.. لم يكن هناك ما يريب.. إلا أنها اكتشفت أن هناك حجرة جانبية.. قررت أن تلقى نظرة داخلها.. فكانت المفاجأة أنها تحدق في عينين بريئتين تعرفهما جيدا.. إنه الرجل القادم من المريخ نفسه!

لقد صار كل شيء مفهوما.. اللقاء التليفزيوني الملفق والمفتاح الذي لا يفتح هذه الحجرة بالذات، والطبيب المقيم الذي يراقب بكل هذا الاهتمام حالة لا خطر منها.. لقد نقلوا (مايكل) إلى هذه الحجرة الجانبية؛ ليخفوه عن الفضوليين، واستخدموا العجوز المريضة كستار..

وشعرت بالخطر.. وتذكرت كل ما قيل لها عن أهمية وخطورة هذه المعلومات.. رأت في خيالها صورة عربة المشرحة تغادر المستشفى ليلا وفيها جثتان لا جثة واحدة...

نظر لها بعينيه البريئتين وقال:

- أنت أخي.. أنا أعرفك.

أرغمت نفسها على الابتسام، وقالت:

- أنت تحقق تقدما.. أليس كذلك؟ أنت تزداد قوة.. لكن عليّ أن أرحل الآن.. لقد توقفت لأقول مرحبا..

هنا تغير تعبير وجهه إلى الذعر، وصاح:

- لا ترحل!

- لكن عليّ أن أرحل.

أضاف بثقة مأساوية:

- هل آذيت شعورك؟ لم أعرف هذا..

- لا.. لا.. لكن يجب أن أرحل.. وبسرعة..

قال بلهجة تقريرية، وبلا تعبير على وجهه:

- خذني معك يا أخي.

- لا يمكنني.. من فضلك لا تخبر أحدا أنك قابلتني.

- لا أخبر أحدا أن أخا الماء كان هنا؟ حسن.. سأكون طيبا.. لن أخبر أحدا..

نظرت إلى الباب فأدركت أنه عولج بحيث لا يفتح القفل بمفتاح (الباس).. إن كل أبواب المستشفيات خاصة في الحمامات تسمح للمريض بإغلاق الباب على نفسه، لكنها تسمح كذلك بفتح الباب من الخارج بمفتاح (الباس)، لو صار المريض في حالة لا تسمح له بالخروج.

خرجت من الغرفة في الوقت المناسب، حين اقتحم الطبيب المقيم غرفة المريضة، وصاح مغضبا:

- أين كنت أيتها الممرضة؟ قلت لك أن تظلي أمام المرقاب ولا تتحركي..

- لقد تحركت المريضة فدخلت كي أتفقدها.. ليست هذه المريضة مسئوليتي، لكني تطوعت بهذا.. فلو كنت تلومني على العناية بها، يمكننا أن نسأل المشرف العام.

- هه؟ لا.. انسي الموضوع.. فقط لا تتكلمي عن هذا..

قالت في سرها: لن أتكلم.. يمكنك أن تراهن على أنني لن أتكلم.. ولكن ماذا أفعل بعد هذا؟ يا ليت (بن) موجود.. هل هو يتناول الغداء؟ لكن اليقين كان يتزايد في وجدانها: (بن) لن يترك البلدة من دون أن يخبرها بنتيجة مقابلته للرجل من المريخ..

هناك في حياة كل إنسان لحظة يكون عليه فيها أن يضع حياته ومكاسبه مقابل هدف غير مؤكد.. ومن يرفض هذا التحدي يكن مجرد طفل كبير لا أكثر.. وقد قابلت (جيل بوردمان) تحديها الخاص الساعة 3:47 مساء وهي تقنع أحد الزوار بأنه لا يستطيع اصطحاب كلب لغرفة المريض حتى لو كان الأمن قد سمح له بهذا..

كان الرجل المريخي جالسا بعد انصراف (جيل).. كان سعيدا؛ لأن (أخاه) وعده بأن يعود.. كان بوسعه أن ينتظر ولا يفعل شيئا، ربما لعدة أعوام لو اقتضى الأمر.. ما كان المريخيون ليفهموا عبارات مثل (الوقت متأخر أكثر مما تظن)؛ لأنها لا معنى لها بالنسبة لهم، ولا عبارات من قبيل (العجلة تجلب الخطأ)؛ لأنها شيء مفهوم، كأنك تشرح للسمكة كيف تسبح..

لما انفتح الباب ثانية ودخلت (جيل) أصابته الدهشة؛ لأنه لم يتوقع أن الباب هو باب.. لكنه فهم هذا سريعا.. وترك نفسه لمشاعر الراحة التي يحسها كلما قابل أخوة الماء أو - في ظروف خاصة - الكبار. ناولته (جيل) لفافة، وقالت له:

- البس هذه! بسرعة!

فلما وجدته ينظر لها بلا فهم، اضطرت لأن تساعده.. كان عليها أن تنزع ثيابه وتضع تلك الثياب عليه.. كان يلبس جلباب مستشفى وخفين.. كان بوسعه أن ينزع هذه الثياب الآن، لكن ليس بالسرعة التي تريدها (جيل).. وقد راق له الجلد المزيف الذي شدته (جيل) حول رجليه، لكنها لم تترك له فرصة الإعجاب.. لقد ألبسته ثياب الممرضة بسرعة.. لم تكن هذه الثياب تخصها، بل تخص ممرضة أكبر حجما.. لم يكن الحذاءان بهذه السهولة؛ لأنهما ضيقان كما أنه ظل يجد الوقوف عسيرا في هذه الجاذبية.. ثم ألبسته (الكاب)، وقالت إن شعره قصير، لكن من الممكن قبول هذا الطول.. ولم يفهم ما تريد، وقرر أن يطيل شعره الآن، لكن وجد أن الوقت غير كاف لهذا..

- والآن لنمض.. سيكون عليّ الكلام، فلا تتكلم أنت أبدا.. فقط لو كنت تعرف أية صلوات فلتتلها!

- صلوات؟

- لا عليك.. فقط تعال ولا تتكلم..

واقتادته من يده عبر الردهة.. فلم يبد أن أحدا يلاحظ.. وغرق (مايكل سميث) في رؤى لم يستطع أن يركز عليها أو يفهمها.. مشى وراءها وكاد يتعثر لو لم تمسك به.. أخذته إلى المصعد فالسطح.. كانت تبحث في يأس عن تاكسي طائر، بينما هو ينظر في استمتاع ولهفة إلى السماء التي لم يرها منذ غادر المريخ.. سماء (واشنطن) الزرقاء الصافية على غير العادة.. المشكلة هي أن موعد انصراف الممرضات فات منذ ربع ساعة، وبالتالي لم تعد هناك سيارات تاكسي.. هنا تطوع مراقب السطح وقد عرفها بأن يمنحها سيارة تاكسى استدعاها للدكتور (فيبس)..

قالت له في لهفة:

- شكرا لك.. فأنا في ورطة.. هذه ابنة عمى (مادج)، وقد أصيبت بالتهاب في الحنجرة.. يجب أن آخذها للبيت حالاً..

أوقف سيارة التاكسي، وضغط على الأزرار طالبا شفرة بيت (جيل) التي يعرفها، ثم تنحى ليسمح لهما بالركوب.

جلس (سميث) في التاكسي، وأراد أن يوجه لـ (أخ الماء) رسالة شكر، لكنه استبعد أكثر الإجابات؛ لأنه لا يعرف كيف يترجمها، وفي النهاية راقت له عبارة لا بأس بها:

- فلينم بيضنا في عش واحد.

ولاحظ في خيبة أمل أنها لم تفهم.. أكثر من مرة أثار ارتباك أو خوف الناس، بينما كان هدفه هو أن يبعث فيهم شعور الاندماج.. جرب من جديد:

- عُشُّك عُشّي وعُشّى عُشُّك.

ابتسمت (جيل) هذه المرة، وقالت:

- عزيزي.. لست واثقة من أنني أفهمك جيدا، لكن هذا أرق عرض تلقيته منذ زمن.. ولكن فلتنتظر قليلاً، لأننا غارقان حتى الآذان في المتاعب.

لم يفهم كل ما قالته سوى أمر الانتظار، وهو شيء يفهمه بديهيا.. لذا استرخي وراح يستمتع بمشاهدة العالم من الجو، وهو شيء لم يتح له من قبل. أدركت هنا أن التاكسي يقترب من شقتها. لم تكن تعرف شيئا عن أساليب البوليس، لكنها عرفت يقينا أن هذا هو آخر مكان يناسبها أن تكون فيه. سوف يجد البوليس بصماتها، ولسوف يجدون من يشهد على أنها كانت هناك، ولربما كان بوسعهم تفريغ رحلة التاكسي؛ لمعرفة أين ذهبت بالضبط؛ لهذا ضغطت على الأزرار لتمحو وجهتها السابقة.. لم تعرف إن كان هذا يمسح شريط ذاكرة التاكسي، لكنها لن تجازف.

أصدرت أوامرها للتاكسي كي يتجه إلى شقة (بن).. كانت تعرف الشفرة الخاصة بفتح الباب، لكنه لدهشتها لم يستجب.. لقد غيّر (بن) الشفرة ولم يخبرها بها! هكذا قررت أن تنادى مباشرة لعله يكون بالداخل:

- (بن).. هذه أنا (جيل)!

لدهشتها انفتح الباب.. وأدركت في سرور أن هذه هي الشفرة الجديدة!

دخل (سميث) وراءها، وقد بدا أن هناك أشياء كثيرة جدا في شقة (بن) لا يستطيع استيعابها فورا. وكانت النافذة أول ما لفت نظره، لكنه لم يعرف أنها نافذة، بل افترض أنها واحدة من الصور الحية التي كان يراها في وطنه.. لابد أن فنانا عظيما بين هؤلاء القوم هو الذي رسم هذه الصورة المتحركة. على الأرض كان هناك عشب صناعي جميل يستعمله (بن) كديكور.

- لماذا أنت مهموم يا أخي؟

نظرت له في دهشة.. الرضيع البائس لا يدرك مجرد وجود شيء خطأ.. لا يعرف أي شيء.. هي لا تعرف بالضبط كم قانونا خرقته، لكنها تعرف أنها اصطدمت بإرادة القوم الكبار.. الرؤساء.. الذين يأخذون القرارات.

حاول أن ينزع ثيابه فلم يستطع، وتورط في الثياب كقطة صغيرة في بكرة خيط.. هكذا اضطرت لأن تساعده.. كانت ممرضة، وقد اعتادت رائحة القذارة، لكنها كممرضة كانت تعشق الماء والصابون.. وكان من الواضح أنه بحاجة للحمام، قبل أن تعطيه بعض ثياب (بن).. ملأت له المغطس واختبرت حرارة الماء، ثم طلبت منه أن ينزل.. هذا ماء.. أخوه يطلب منه طقوس الماء.. ما من أحد في العالم نال هذا الشرف العظيم.. وبرغم أنه لم يعتد الماء، فإنه كان يعرف الحقيقة: أخوه لا يخطئ أبدا..

غاص في المغطس.. هنا أثار رعبها أنه غاب كلية تحت الماء.. مدت يدها ترفع رأسه فوجدت أنه ساكن كالجثة.. لا هو لم يغرق.. لا أحد يغرق بهذه السرعة.. هنا فتح عينيه..

- هل أنت بخير؟

- بخير يا أخي..

ثم مد يده المكورة وتناول جرعة من الماء وشربها، ثم مد يده لها.. صاحت في دهشة:

- هيه! لا تشرب ماء استحمامك! أنا لن أشربه أيضا!

أصابتها حيرته بالجزع، مما جعلها تلمس شفتيها بالماء.. ثم قالت له في عصبية:

- هل أنت راض؟ لو أردت كوب ماء سأجلبه لك، لكن لا تضيع وقتا أكثر..

فرغ من حمامه، فأحضرت له الثياب الجافة.. وبينما هو يستعد لارتدائها، دوى الصوت من الخارج:

- افتح الباب!

أصابها الهلع.. هلع لم تشعر به منذ توقف قلب المريضة أثناء تلك الجراحة.. هل بهذه السرعة؟ إذن هم يعرفون أن أحدا هنا.. لكن هل هم متأكدون من وجودها؟ لا بد أن التاكسي اللعين قد وشى بها..

اتجهت إلى الصالة وهتفت:

- من؟

- افتحي باسم القانون!

- أي قانون؟ هلا رحلت قبل أن أبلغ الشرطة؟

- نحن الشرطة.. هل أنت (جيل بوردمان)؟

وقبل أن تجيب رأت دائرة من الحمرة حول قفل الباب.. ثم تحول الأحمر إلى الأبيض.. وانفتح الباب لتجد أمامها رجلين.. تراجعت للوراء وصاحت:

- أين أمر التفتيش؟؟؟ أريد أن أرى أوراقكما، وإلا أبلغت الشرطة بهذا الاعتداء..

أزاحها أحدهما جانبا، وكان يفوقها ضخامة مرتين:

- نحن لا نريدك يا صغيرة.. نحن نريده هو.. لا تضايقينا وفي هذه الحالة لربما تصرفنا معك برفق.

ودخل أحدهما إلى الحمام، ثم جاء صوته:

- إنه هنا..

ثم خرج وهو يقتاد (سميث) وذراعه خلف ظهره، وحاولت (جيل) أن تعترض، فصفعها الرجل الأول الذي كان يدعى (جونسون). كان هذا خطأ قاتلاً منه أن يصفعها أمام (سميث).. حتى هذه اللحظة كان (سميث) وديعا مسالما يقاوم في وهن، كأنه كلب يحاول التملص من صاحبه الذي يرغمه على المشي فوق العشب. لكنه وقد رأى أخا الماء يُصفع، تملص وحرر نفسه، ثم مد يده إلى (جونسون).

فجأة لم يعد (جونسون) هناك.. لم يعد في أي مكان.. لم تعد الغرفة تحتويه.. فقط بقايا العشب حيث كانت قدماه الكبيرتان.. ونظرت (جيل) إلى الفضاء الذي كان فيه، وشعرت بأنها موشكة على فقدان الوعي..

فتح الرجل الثاني فمه ثم أغلقه.. وسأل بخشونة وهو ينظر إلى (جيل) لا إلى (سميث):

- ماذا فعلت به؟ ما هي هذه الحيلة؟ هل هو باب مصيدة أم ماذا؟

- لا أعرف..

أخرج مسدسا من جيبه وصوبه نحوها:

- لا تحاولي حيلة كهذه معي.. ابقي هنا بينما أخذه معي..

رأى (سميث) الرعب على وجه (جيل).. وكان قد رأى السلاح الناري من قبل.. هذه هي لحظة التحرك.. لحظة أن يجد التأمل فعلا لازما من أجل النمو.. لقد علمه الكبار القدامى جيدا.. مد يده نحو الرجل، وفي اللحظة التالية لم يعد هذا الأخير هناك..

ثم استدار (سميث) إلى أخيه.. كانت تغطي وجهها وتصرخ.. شعر بأنه أخطأ، ومن ثم انزلق ببطء إلى الأرض التي يغطيها العشب، وتكور على نفسه في شكل جنين..

نسيت (جيل) كل شيء فيما عدا أن هناك مريضا في خطر.. ركعت جواره وتحسست نبضه فلم تشعر به.. لم تشعر بوجود تنفس.. ألصقت أذنها بصدره، فخيل إليها أنها تسمع (لاب

داب) المميزة لخفق القلب.. لكن بضربة كسول تليها ضربة أخرى بعد خمس ثوان.. ذكرها هذا بتفاعلات (الانسحاب الانطوائي).. لكنها لم تر سِنَةً بهذا العمق قط حتى في محاضرات التخدير بالتنويم المغناطيسي.. سمعت عن بعض فقراء الهنود الذين يستطيعون الدخول في حالة كهذه..

حاولت أن توقظه بكل شكل ممكن.. حتى العصب الحساس في كوعه لم يستجب.

هكذا دخلت غرفة النوم، وانتقت حقيبة كبيرة كانت تخص (بن).. لاحظت أن الحقيبة بها منامة ومنشفة وأشياء أخرى توحي بأنها الحقيبة التي يعدها الصحفي لسفر فورى خارج المدينة.. يدل هذا على أن (بن) لم يسافر.. بكثير من الجهد نجحت في أن تدس جسد (سميث) النحيل الخفيف داخل الحقيبة، ثم راحت تدفعها دفعا على العجلات نحو الباب.

كان أحد الجيران يقف هناك ورأى الحقيبة العملاقة

فسألها:

- هيه يا أختاه.. ماذا في هذه الحقيبة؟

- جثة..

قال مغمغما:

- نعم.. بالفعل.. إن من يسأل سؤالاً سخيفا ينل إجابة سخيفة..

☆ ☆ ☆

الجزء الثاني

عن إرثه المخالف للطبيعة

-7-

كان الكوكب الثالث من (سول) [5] في حالته المعتادة، كان عليه اليوم 230,000 ألف شخص أكثر من البارحة، وبين خمس تريليونات أرضى كانت هذه الزيادة طفيفة لا تلاحظ.

تناول جناب عظمته (جوزف إ. دوجلاس) أمين عام الاتحاد العالمي للولايات الحرة [6] إفطاره المكون من (الأومليت)، وتساءل في تعاسة: لماذا لا يحق للمرء الحصول على قدح قهوة محترم هذه الأيام؟ أمامه كانت صحف الصباح التي أعدها النوبتجيون ليلًا.. وكان لديه ماسح ضوئي سريع.. تتدفق عليه الكلمات كلما نظر بهذا الاتجاه. لكنه الآن لم يكن يقرأ، بل يتحاشى عيني رئيسته عبر المائدة.

سألته زوجته التي لم تكن تقرأ، لكن لديها طرقها لمعرفة المعلومات:

- (جوزيف).. ثمة شيء يقلقك.. وأنا لم أرقبك وأهدهدك وأغسل جواربك لمدة خمس وثلاثين سنة بلا مقابل.. أعرف حين يكون هناك شيء في ذهنك.

نظر لها في حيرة، وتساءل: كيف قادته إلى توقيع هذا العقد غير القابل للفسخ معها منذ كانت سكرتيرته؟ القصة أنه كان بحاجة لضغط نفقات الإقامة في ذلك الفندق، لذا تزوجها كي

يقيما في غرفة واحدة بدلاً من غرفتين.. طبعا قصتها كانت تختلف كثيرا، وهو لم يكن يملك الشجاعة كي يعارض الرواية الرسمية عن لقائهما.

- لم أنم جيدا أمس يا حبيبتي.. ولكن لماذا تقولين هذا؟

- حدس الأنثى.. ترى ماذا جلبه لك (برادلي)؟

- لقد فقدنا ذلك المتسول (سميث)..

- الرجل من المريخ؟ هذا غريب! كيف فقدتموه؟

تنكر كامرأة! والمشكلة هي أننا لا نستطيع أن نعلن رسميا أننا فقدناه..

- يجب أن تجدوه.. قبل أن يجده منافسوك السياسيون في (الائتلاف الشرقي).. لو احتجتم إلى قتله فاقتلوه! تذكر أنه ليس مواطنا على الإطلاق.. ولكن.. لن أضيع الصباح كله أناقش البديهيات معك.. انته من إفطارك، وامسح هذا البيض عن شفتيك..

انصرفت وجلس هو وحده يفكر.. لم يكن ليسمح لأحد بإيذاء ذلك الشاب من المريخ.. نعم هو مزعج، لكنه شاب وديع لطيف، ولو رأته (أجنس) - الزوجة لحرك فيها روح الأمومة.. لكن هل هي لديها؟ تبا! كل النساء لديهن غريزة الأمومة.. العلم برهن على هذا.. كانت زوجته تعيش في قالب (إيفيتا بيرون).. تتظاهر بأنها صنعت ذلك الرجل الذي شرفته بأن تسميه (زوجها).. وكانت تؤمن أن على الرجال أن يحموا العالم.. وعلى النساء أن يحكمن الرجال..

☆ ☆ ☆

بينما كانت مسز (دوجلاس) تتكلم بحرية في أمور لا تعرف عنها إلا القليل، كان (جوبال هارشو) [7].. دكتوراه في العلوم ودكتوراه في الطب، وذواقة مترفا ومؤلفا خارقا للعادة.. وكذلك هو فليسوف تشاؤمي محدث neopessimist يتمدد في حمام السباحة في بيته في (بوكونوس)، يحك الشعر الرمادي الكث على صدره، جواره في حمام السباحة كانت سكرتيراته الثلاث اللاتي يجمعن بين الكفاءة والجمال، وجواره كان ميكروفون صغير يتصل بجهاز الإملاء في مكتبه.. كانت هذه طريقته لإعطاء مذكرات، لكنه في العادة كان يفضل الاستعانة بكاتبة اختزال.

صاح ينادي:

- أول الصف!

قالت الفتاه (آن):

- ليس هذا دوري، لكني سأتولى الأمر..

كن يتكلمن معه بحرية وربما بوقاحة.. كل الخدم في البيت كانوا كذلك.

وسرعان ما خرجت من حمام السباحة، وجففت يديها في منشفة هناك، ثم راحت تصغى له. لم تكن محتاجة إلى الكتابة؛ لأن ذاكرتها فوتوغرافية.. قال لها:

- لدى قصة ممتازة خطرت لي.. عن قطة تتسلل إلى دار عبادة بحثا عن الدفء.. إنها تشعر بالبرد والجوع بالإضافة إلى

أن لها مخلبا مهشما..

- ما اسم الكاتب الذي أستخدمه؟

- م م م! فلنستعمل (مولى وادزورث) ثانية.. ولتطلقي على القصة (المعلف الآخر).. وتبدأ القصة كما يلي..

وبدأ يحكي وهو يرقب باهتمام ورضا الدموع التي بدأت تنساب من عينيها..

كان على وشك البدء في القصة الأخرى مع السكرتيرة (ميريام)، حين جاء صوت مكبر الصوت يقول:

- ثمة امرأة على الباب الخارجي تريد أن تراك.. ومعها جثة.

فكر قليلاً في الأمر، ثم قال:

- جميلة؟

- نعم..

- إذن لماذا تضيع الوقت؟ لم لا ترسلها لي؟

كانت هناك سيارة صغيرة تقترب.. وداخل السيارة كانت (جيل)، وجوارها شاب يقود السيارة..

قال (جوبال):

- ولكن أين الجثة؟

قالت (جيل):

- لا جثة.. لقد سمعت من (بن) أنك..

ثم غطت وجهها بيدها، وبدأت تبكي..

هدأها وأمر سكرتيراته أن يعنين بها، ثم اتجه إلى السيارة.. كانت هناك بطانية على المقعد الخلفي رفعها وقال:

- هناك جثة فعلاً.. حرارة هذا الفتى أقل من حرارة الجو.. التصلب غير معتاد..

- ليس ميتا.. فقط ساعدني على إخراجه من هذا المقعد..

أخرج السماعة ووضعها على صدر الفتى، وراح يصغى:

- أخشى أنك مخطئة.. إنه ميت فعلاً.. يا لي من قرد (بابون) غبي! إنه حي.. هاتوا لي حقنة من الدواء في غرفتي.. الدرج الأيسر..

قالت (جيل) في رعب:

- لا.. لا منشطات للقلب يا سيدي.. آسفة فأنا ممرضة فقط، لكن أعرف الحالة جيدا..

- م م.. منذ أربعين سنة عرفت أنني لست إلها.. ومنذ عشر سنوات عرفت أنني لست (أبقراط) كذلك.. ماذا ترين أن نفعل؟

جلست جوار الفتى، وراحت تدلكه برفق.. وراحت تهمس:

- هلم.. أفق.. أنا (جيل) أخوك المائي.

لدهشة الطبيب بدأ الجسد يتحرك.. تحرك الصدر.. ثم أطلق تنهيدة عظيمة وفتح عينيه.. نظر لـ (جيل) وابتسم ابتسامته الطفولية. وهكذا بعد قليل تمكن (جوبال) من أن يضع المريضين في الفراش.. فقط أخبرته (جيل) بأنها قادمة من طرف

(بن كاكستون)، وأنه قال لها إن بوسعها الثقة بـ (جوبال).. (بن) مختف الآن، وكل شيء يؤكد أن دبًّا يطاردها.. ثم راحت في النعاس المريح، فابتسم الطبيب.. ما زالت هناك أمور مثيرة شائقة في هذه الحياة، بدلاً من الملل الرمادي الذي يكسو كل شيء.

هتف الشاب الذي جاء مع (جيل):

- هل هذا فعلا هو الفتى من المريخ؟

- فلتدع الله ألا يكون هو.. لأنه لو كان هو وعرفوا علاقتنا بالموضوع، فلسوف يستجوبوننا بمشعل نار..

بعد نوم هادئ مريح، صحت (جيل) من نومها، فأدركت أنها نظيفة تلبس ثيابا جديدة، واضح أنها تخص تلك الفتاة التي كان الطبيب يناديها (ميريام). وكانت السكرتيرة الأخرى (دوركاس) متكورة على مقعد تنسج (التريكو).

رأت (جيل) فابتسمت لها. جاء الطبيب باسما يدعوها إلى العشاء، وسألها عما إذا كان الفتى يأكل، فقالت في حيرة إنها لا تعرف..

- لا عليك.. سنرى إن كان يريد أن يأكل أم لا.. أو نرسل له صينية إلى غرفته.. كل شخص في بيتي حر يفعل ما يريد.. إلى أن أفقد صبري فأقذف به في الشارع.. وأكون شاكرا لو أطلقت عليّ (جوبال) فقط بلا لقب (دكتور).. بالمناسبة.. ماذا يهمك من أمر هذا الفتى؟ هل تحبينه؟ إنه فتى وأنت فتاة، وهذا ترتيب جميل كما ترين..

نظرت له في دهشة، وقالت:

- لا.. فقط بدا لـ (بن) أن الفتى سجين، وأن حياته في خطر لذا قررت أن أنقذه.. قال (بن) مرة إنك الشخص الذي يستطيع استعادة حقوقه.

- هم م م.. لا أستريح للاهتمام من غير سبب.. تبدين لي فتاة طبيعية تعمل غددها جيدا.. لا بد أن الموضوع يتعلق بالفتى أو (بن).. لا بد للمرء من أن يتفهم دوافعه جيدا.. وهكذا يتخذ قررًا صائبًا..

فكرت قليلاً، ولم تدر ما تقول.. فقال لها:

- بالنسبة لما يعتقده (بن) فهو مخطئ.. أنا لا أبالي لحظة بالدفاع عن حقوق هذا الفتى.. لا أعتقد أن له حقا في المريخ، وأعتقد أن هكذا كله هراء محامين، ولو كان الفتى سعيد الحظ لانتزعوا منه هذه الحقوق.. لن أدافع عن حقوقه..

- آسفة.. إذن يجب أن أرحل..

- أنت أسأت فهمي.. بالنسبة للدفاع عن حقوق فتى من المريخ، فالأمر لا يعنيني في ذرة.. لكن بالنسبة لمريض وضيف في بيتي، فالأمر يختلف.. يمكنه أن يبقى هنا أية فترة يريد..

كان (جوبال) من الطراز الذي يؤمن بأن معظم البشر صالحون للقميص عديم الأكمام، والصدمات الكهربية، وحمامات الماء البارد. وقد تعلم أن يصل إلى (النرفانا) من زمن بعيد.. غاص في سرته فتلاشي من الوجود كأنه أحد فقراء الهنود..

فلما اختلي بنفسه بعد العشاء نادي سكرتيرته (دوركاس) وقال لها:

- تعرفين أنني كنت طفيليا عديم النفع والقيمة طيلة الخمسة والثلاثين عاما الأخيرة..

- هذا شيء يعرفه الجميع..

- هاتي دلوا من الماء البارد وألقى به فوق (دوك)، واطلبي منه يحضر لي جهاز تليفزيون مجسم.. يجب أن أتابع الأخبار أولا فأولا.. إنني أفكر جديا في استبدال كلب بكل العاملين في هذا البيت.. ثم أطلق الرصاص على الكلب.. لو لم يستطع (دوك) تدبير جهاز تليفزيون، فليحدد اتجاها يغادر به منزلي.. ويبدأ المشي فيه.

ثم تذكر شيئا فقال لها:

- القصة الأخيرة.. اختاري للكاتبة اسما ينتهي بحرف a.. مثل (أنجيلا).. هذا يوحى للقارئ بأن جسم صاحبه الاسم جميل.. الفتيات اللاتي ينتهي اسمهن بحرف a.. يثرن الخيال..

قالت له في غيظ:

- تقول هذا بينما لا توجد واحدة منا ينتهي اسمها بحرف a.. يا لك من قملة!

كان في هذه الليلة يشعر برغبة في الفوضوية التي هي علامة الميلاد لأي أمريكي.. أن يضرب رأسه في النظام ويتحداه..

بعث فيه هذا نشوة لم يشعر بها من قبل طيلة حياته

☆ ☆ ☆

-8-

على كوكب المريخ لم تكن الحياة خالية من العمل، كان على السكان أن يعنوا بكوكبهم، هناك نباتات يجب أن تعرف متى وأين تنمو، الحوريات يجب أن يجمعن ويخصبن، ويجب أن يجمع البيض الناتج، ويتم التفكير فيه والتعبد له؛ حتى ينضج. كانت كل الحوريات إناثا، أما البالغون فكانوا ذكورا، هذه أشياء مهمة لكنها لا تختلف عن أخذك الكلب لتنزهه مرتين يوميا، ليست هذه حياتك.. لكن لو رآها واحد من المريخ لحسبها كذلك، ولحسب أنك تعمل عبدا للكلب.

كان كل من البشر والمريخيين شكلين للحياة الواعية، لكنهما سلكا سبيلين كاملي الاختلاف، إن قطبية (رجل امرأة) التي تحكم حياة البشر، لا يمكن أن توجد على المريخ ولم يكن الزواج محتملاً، كان الكبار ضخام الأجساد يذكّرون الأرضيين بسفن تحت أشرعة عملاقة.. وكانوا قليلي الحركة، لكنهم كانوا نشيطي التفكير، الحوريات كن كرات سمينة مغطاة بالفراء.. ولم يكن شيء يحدث تقريبا، فلو كان لدى المريخيين صحف، لكانت طبعتان في كل قرن أرضي كافيتين جدا، إلا أنه مؤخرا حدث شيئان مهمان، لم يكن المريخيون يرون شيئا جديدا في لقاء الأجناس الأخرى، فقد حدث هذا من قبل ولسوف يحدث ثانية، عندما يتم استيعاب الجنس الآخر (حوالي ألف سنة أرضية) يمكن وقتها اتخاذ قرار مناسب.

ما حدث هذه المرة هو أن القدماء الكبار قرروا أن يرسلوا (الرجل) ليفهم كنه الكوكب الثالث، ثم وجهوا انتباههم إلى

أشياء أكثر أهمية مثل الفنون، وكانت فنون هؤلاء نوعا من العواطف والانفعالات المحتشدة معا، سمها شعرا أو موسيقا لا يهم، كان فن المريخيين ينقسم إلى جزأين: فن البالغين الأحياء وكان أقرب إلى التطرف والبدائية، وفن القدماء الكبار الذي كان محافظا ومعقدا، وكانت هناك خبرات معينة صارت لها أهمية شبه دينية عندهم بعد كل هذه القرون، مثلاً ذكرى معرفتهم لسكان الكوكب الخامس، وكيف دمروهم ثم عبدوهم بعد هذا، فلم يبق لهم من أثر إلا بعض الكويكبات، كان هناك عمل فني يمثل هذه الذكرى، لكن الفنان الذي صنعه (تحلل).. انهمك بعمله فنسى نفسه في البرد طويلاً، و(تحلل) حتى إنه صار من المستحيل التهام جثته..

وعلى الكوكب الثالث كان (فالنتين مايكل سميث) لا يشغل ذهنه بهذه الأمور، لكنه يعرفها كما يعرف أي تلميذ عندنا قصة تدمير (طروادة Troy) وهبوط الحجاج على صخرة (بلايماوث Plymouth)، كان قد تلقى تعليما خارقا يفوق كل رفاقه.. فقد أراد القدماء الكبار معرفة الكم الذي يمكن أن يتعلمه هذا الغريب، لقد وجد أخا ماء عظيما في (جوبال)، الذي أخبره أن بوسعه معرفة الكثير عن هذا العالم لو تعلم القراءة، لذا كرّس يوما كاملا لتعلم القراءة بمساعدة (جيل)، لقد اضطره هذا لترك السباحة في حمام السباحة، وهي متعة لا توصف بالإضافة إلى ما تمنحه من نشوة دينية، كان ذا قدرة خارقة على البقاء تحت مياه حوض المغطس لفترات لا يمكن تصديقها، وكان يقضى الليل في تصفح الموسوعة البريطانية بسرعة لا تصدق، بالنسبة له لم يكن هناك ما يدعى (خيال).. كل شيء في الكتب حقيقي.. ولم يستطع قط تصور أن (روميو وجوليت) لا وجود لهما.. بل كان

يتصور أن مسرحيات (شكسبير) هي كتب تاريخ لا أكثر، وكان (جوبال) يراقبه في فضول.. لكنه لم يفكر قط في (قياسه) بأن يجرى عليه دراسة بالأرقام والمنحنيات.. كان (جوبال) يملك تواضع العلماء، وقد وجد أنه من السخف أن تقيس شيئا وأنت لا تعرف أي شيء عن هذا الذي تقيسه.

لماذا لم يأت رجال الحكومة هنا؟ هل هم أغبياء إلى حد عدم قدرتهم على اقتفاء أثر فتاة تجر رجلا فاقد الوعي؟ وخطر له أنهم ربما يراقبون بيته الآن! وقد ضايقته هذه الفكرة!

الحكومة ثلاثة أرباعها تطفل وربعها غباء.. لكن الإنسان لا يستطيع الاستغناء عن الحكومة إلا لو استطاع الاستغناء عن مصرانه الغليظ، ثم أين ذهب ذلك الأحمق (كاكستون)؟

كانت الفتاة تفكر في البحث عنه، لكنه أقنعها بغباء الفكرة.. كيف تستعين بمخبر خاص وهي لا تملك مالاً؟

كان (جوبال) قد بدأ يحب الفتى، خاصة مع مفهومه المتسامح البسيط عن (فقدان الاتحاد discorporation) – كما يسمى الموت - فلو أخبرته أنك ستطهوه للعشاء لشكرك في حرارة على هذا الشرف، وهذا يختلف عن مفهوم (غريزة الموت) الفرويدي وعن كون الحياة لا تطاق، بل هو أقرب لتعبير (ستيفنسون): سعيدا عشت وسعيدا أموت.. وأسلم نفسي حاملا وصيتي. يبدو أن (مايكل) يعرف فعلا ما يتكلم عنه.

فقط كان يثير غيظه محاولة (جيل) تعليم الفتى الإتيكيت وقواعد السلوك.. وكان يقول لها:

- لماذا تصرين على إفساد هذا الفتى؟ لماذا تعلمينه قيم الطبقة المتوسطة الكئيبة؟ هذا الفتى جاء من ثقافة مختلفة، وأنت تحاولين تحويله إلى نسخة كربون من كل واحد آخر من الذين يوافقون على كل شيء على هذا الكوكب البائس.. لماذا لا تعلمينه أيضا كيف يحمل حقيبة أوراق ويشعر بالخجل لو لم يحملها؟

قالت له (جيل) في خجل:

- أنا مدينة لك، ولكن..

- لا.. أنت لست مدينة لي.. ولا تحاولي أن تكوني وقحة مثلي؛ لأن هذا يحتاج إلى سنوات من المران.. لو بدأت تشعرين بأنك مدينة لي لانتقلت إلى الشعور بالامتنان.. وهذه هي الخطوة الأولى نحو الانهيار الأخلاقي الكامل! علّمي الفتى بعض السلوكيات، لكن احرصي على أن يحتفظ بطابع السخرية منها.

- حسن.. لا أعتقد أنه يملك ذرة من روح السخرية..

جاء (فالنتين) من غرفته، وهو يعاني الأمرّين من ارتداء ثيابه، وقد أخفق عدة مرات في ربط الحذاء، فسأله (جوبال) عما تعلمه اليوم..

- تعلمت القفز في الماء.. (دوركاس) يفهم الماء.. الماء يعشقه..

- (هي).. (دوركاس) هي وليست (هو)..

تساءل (فالنتين مايكل) في حيرة:

- (هي).. إذن ما قرأته خطأ.. لقد جاء في قاموس (وبستر) الطبعة الثالثة المطبوعة في (سبرنجفيلد ماساتشوستس) أن الجنس الذكرى يتضمن الجنس الأنثوي في استعمال الضمائر.. وفي قانون تعاقد (هاجوورث) الطبعة الخامسة.. شيكاغو.. إلينوي.. 1978 في صفحة 1012 يقول...

صاح (جوبال):

- كفى.. المشكلة في اللغة الإنجليزية لا فيك.. يمكن أن يتضمن الجنس الذكرى الجنس الأنثوي لو تحدثت عن مجموعة، لكن ليس حين تتكلم عن شخص بعينه.. (دوركاس) هي لا هو.. وماذا تعلمت أيضا؟

- تعلمت طريقتين لربط حذائي..

- حسن.. والآن أريد منك شيئا.. أنا لم أطلبك من غرفتك لنتبادل هذه الكلمات..

كان يريد أن يعرف منه شيئا سمعه من (جيل) ولم يصدقه.. بمعنى أدق كان يصدقها، لكنه لم يصدق الواقعة.. إن الناس تحلم من حين لآخر.. لقد قالت إن الرجلين اختفيا في شقة (بن) في أثناء تلك المواجهة مع (مايكل).. فكيف حدث هذا؟

كان الأمر صعبا كالعادة.. لأن (مايكل) لم يكن يفهم معنى (الرجلان اللذان هاجماه بعد فراره من المستشفى)، فهو لم يكن يعرف أنه كان في المستشفى.. وكان الجدال معه عسيرا؛ لأنه يهدد في أية لحظة بأن ينثني على نفسه ويأخذ الوضع الجنيني.. وفي النهاية فهم المطلوب فقال:

- الرجل كان يهاجم أخا الماء.. ما قمت به كان سهلاً جدا.. أسهل بكثير من عقد رباط الحذاء..

- هل يمكنك أن تكرر ما قمت به مع هذا الشيء؟

وأشار إلى صندوق يحوي زجاجة (براندي) شبه فارغة، فتساءل (مايكل):

- لا أعرف يا (جوبال).. لا بد لي أولاً من أن أقتنع أن هذا الشيء ليس صحيحا.. وأنه ما كان يجب أن يوجد..

- بالفعل هو كذلك.. ليس صحيحا.. والآن أريني كيف تخفيه؟

حملت (جيل) الصندوق ورفعته بحركة تمثيلية في الهواء، وقالت لـ (مايكل):

- انظر! أنا سأحطم به رأس (جوبال).. سوف أؤذى (جوبال) لو لم تتدخل أنت..

وهوت بالصندوق على رأس (جوبال).. وفي اللحظة التالية صرخ (جوبال):

- تبا! لقد اختفى! لم أثبت عيني عليه! هل رأيت ما جرى يا (آن)؟

قالت (آن) السكرتيرة التي كانت قبل هذا تمارس عملها كشاهدة عدل:

- لم يختف على الفور، ولكن بالتدريج.. من حيث جلست بدا لي أنه ينكمش بسرعة.. بسرعة.. كأنما هو يبتعد لكنه لم

يخرج من الغرفة.

- وأين ذهب؟

- هذا كل ما أستطيع قوله..

- أين ذهب يا (مايكل)؟

قال (مايكل) في حيرة:

- آسف يا (جوبال).. أنا لا أجد الكلمات التي أعبر بها.. ربما لو انتهيت من الموسوعة البريطانية أستطيع أن أعبر لك..

- وما هو المدي الذي يمكن فيه أن يكون هذا السلاح مؤثرا؟ لنفترض أنني كنت في حمام السباحة؟ لنفترض أنني كنت على الجانب الآخر من الطريق.. هل تستطيع ممارسة حيلتك هذه؟

قال (مايكل):

- (جوبال).. الأمر لا يتعلق بالمسافة ولا الرؤية.. الأمر يتعلق بالمعرفة.. عليك أن تستوعب Grok الشيء.. أنا أحتاج إلى أن أرى كي أستوعب.. لكن القدامى الكبار لا يحتاجون إلى الرؤية.. إنهم يستوعبون..

- لو كان وزير الدفاع هنا، لأعلن أنك سلاح سري شديد الخطورة، ولصادرك فورا!

كان (مايكل) يشعر بخجل شديد.. ولدهشة الرجل قال إنه نادم على اختفاء الرجلين.. فهو لم يعتد أن يضيع الطعام بهذه البساطة!

تناول (جوبال) منفضة تبغ ثقيلة وناولها لـ (جيل)، وطلب منها أن تتظاهر بضربه بها، فقالت (جيل):

- أعتقد أنك تسبب ارتباكا لـ (مايكل).. فهو يعتبرنا أخوي ماء له.. وهذا التصرف.. أن يضرب أحدنا الآخر غامض بالنسبة له.. إنه تصرف (غير مريخي) تماما.. المفترض أن تحقق لجنة (النشاطات غير المريخية) [8] فيه!

رفع (جوبال) يده لأعلى وقال لـ (مايكل):

- ليكن.. سأقذف هذه المنفضة في الهواء وسوف تسقط على رأسي.. سوف تدميني وربما تقتلني.. ما لم توقف أنت ذلك..

وفعل ذلك.. فهوت المنفضة من عل.. راح يقاوم الغريزة التي تدفعه لتحاشيها قبل أن تحدث أذى بالغا لرأسه، في اللحظة التالية لم تهو المنفضة، وإنما ظلت معلقة في الهواء.. سأل (آن) السكرتيرة:

- ماذا ترين؟

قالت بلهجة الشاهد العدل التقريرية:

- لم تختف.. هي معلقة في الهواء، ولا شيء يربطها للسقف..

نظر لـ (مايكل) وسأله:

- لماذا لم تختف هذه؟

- لأنك لم تطلب أن تختفي.. طلبت أن (أوقف ذلك) وقد فعلت هذا..

تذكر (جوبال) أن الفتى يتعامل مع الكلمات حرفيا.. عليه أن يكون أكثر حذرا في لغته معه، مثلاً تعبيرات مثل (اختف من أمامي) أو (لم لا تسقط ميتا؟).. قد تسبب كارثة هنا! طلب من الفتى أن يخفى المنفضة فقال:

- لا أستطيع.. رأسك لم يعد تحتها، لهذا لا أستوعب الخطأ في وجودها..

- هل بوسعك أن تنزلها؟

- نعم..

ولكن المنفضة ظلت معلقة في الهواء، فنظر للفتى بدهشة وقال:

- ما بك؟ هل تعبت؟ لماذا لم تنزلها؟

قالت (جيل):

- (جوبال).. أنت سألته إن كان يستطيع إنزال المنفضة ولم تأمره بإنزالها.. لهذا أجاب (نعم)..

شعر بالضعة، وكرر الأمر بوضوح هذه المرة:

- ليكن.. من فضلك أنزل المنفضة..

وببطء انزلقت المنفضة من أعلى لتهبط برقة فوق المنضدة.. جرى يتفحصها فلم يجد فيها شيئا غير طبيعي.. لا هي باردة ولا ساخنة، مجرد منفضة قبيحة بولغ في تزيينها.

قال (جوبال) للفتى:

- هل تعرف ما هو المسدس؟ إنه ذلك الشيء الذي كان الرجلان يسددانه نحو (جيل).. ماذا ستفعل لو رأيت أحدا يسدد مسدسا نحو (جيل)؟

- لن أبدد الطعام ثانية؟

- نعم.. لو كنت تريد أن تفهم الأمر بهذه الصورة.. أريدك أن تخفى المسدس وتترك الرجل.. تترك الطعام صالحا للأكل!

- نعم.. نعم حين تفقد اتحادك يا أخي (جوبال) أريد أن آكلك.. وأنا أحبك وأجلك مع كل قضمة.. حتى تنتهي وأستوعبك تماما..

قاوم (جوبال) شعور الغثيان، وقال:

- شكرا يا (مايكل).

☆ ☆ ☆

-9-

كان (جوبال) قلقا.. في طفولته كان مولعا بتربية الثعابين، وقد ظفر ذات مرة بثعبان غير ضار هو (الثعبان القرمزي).. وهو مخلوق رائع الجمال، وقد احتفظ به ورباه وعرضه على الضيوف.. وكان يجيد فن التعامل مع الثعابين، وكيف لا تعضه بأنيابها؛ لأن عضة الثعابين - حتى غير السامة منها مزعجة بما يكفي.. إلا أنه عرض هذه المجموعة ذات مرة على أحد خبراء الثعابين، فكاد الرجل يفقد وعيه، أخبره أن هذا الثعبان ليس ثعبانا قرمزيا، بل هو (ثعبان المرجان).. الكوبرا الأمريكية.. أخطر أنواع الثعابين السامة.. الخطر هنا كان يأتي من حقيقة أنه لا يعرف مدى خطورة هذا الكائن، كان يستطيع قتله ببساطة كما يخمش القط ذراع طفل، هذا ينطبق على (مايكل).. إنه يبدو وديعا كالحمل، وأقرب إلى طفل أخرق لا يعرف شيئا.. لكن لو لم يثق بك ثقة كاملة فإنه قد ينقلب عليك في أية لحظة.. خاصة لو شعر أن من أمامه يحاول إيذاء أحد إخوانه المائيين، ولسوف يقتل هذا الخصم، ثم يبدى أسفه (لأنه أضاع الطعام).. لا أكثر ولا أقل..

أما عن موضوع الطعام هذا، فهو لم يستطع أن يجد فيه شيئا شاذا.. لو بحثنا عن أجدادنا لوجدنا بينهم حتما من مارس أكل لحم البشر يوما، وهذا ببساطة لأن كل شعوب الأرض مارست هذا الطقس قديما.. سواء كان أصلك إفريقيا أو أوروبيا أو هنديا أحمر.. وكان (جوبال) يؤمن أن ما يمنعه من التهام جاره

السمج - الذي يعتدى على ممتلكاته - وما يمنع هذا الجار من وضعه في ثلاجته هو قشرة الحضارة لا أكثر.

لكن (مايكل) متحضر.. متحضر على الطريقة المريخية وبالنسبة له يعد أكل الآخرين طقسا شديد السمو والأهمية.. إن المريخي يموت عندما يقرر أن يموت.. هكذا.. مثلما تغمض أنت عينيك لتريحهما، وهنا يجتمع إخوانه حوله ليأكلوه وهم يعددون مآثره، بينما هم يضعون المستردة عليه.

☆ ☆ ☆

في أرض (لابوتا LAPUTA) الطائرة التي زارها (جليفر Gulliver) كان كل رجل مهم يمشى ومعه خادم يدعى (كليمنول) أو (الضارب)، مهمته هي أن يضرب فم أو أذني سيده بمثانة مجففة، كلما رأى أن على سيده أن يتكلم أو ينصت، ومن دون هذا الخادم يستحيل أن تظفر باهتمام أي سيد من (لابوتا)، ما زال هذا التقليد - الذي اعتبره البعض خياليا - يمارس على نطاق واسع اليوم، لكن الأشخاص المهمين في القرن العشرين لا يرافقهم (ضارب)، وإنما يرافقهم من يطلق عليهم (المساعدون التنفيذيون) و(موظفو الاستقبال) و(سكرتارية الصحافة).. إلخ.. قد تختلف المسميات لكن مهمتهم واحدة تجعلهم (ضاربين).. مهمة كل منهم منع أي اتصال من العالم الخارجي بـ (الرجل العظيم).. ويكون هناك دوما صمام أمان عبارة عن أشخاص يمكنهم الوصول للرجل العظيم من دون المرور بالضاربين، هؤلاء الأشخاص يحيطون أنفسهم كذلك بالضاربين،

بحيث يصير عسيرا أن تصل إليهم بدورك، وهكذا يتكون من يمكنهم عبور الحصار حول هذا الشخص، وتتكون شبكة شديدة التعقيد.

قال دارسو قصة (جليفر) إن (لابوتا) حتما هي المريخ؛ لأن وصفها بالضبط هو وصف الطبق الطائر، لكن هذا غير صحيح؛ لأن أهل (لابوتا) كانوا يعرفون نظام الضاربين، في حين لم يكن شيء كهذا واردا لدى المريخيين. لو أن مريخيا أراد أن يتأمل فلديه كل الوقت ليفعل ذلك.. ولو أراد مريخي آخر أن يتحدث معه فعليه أن ينتظر شهورا أو أعواما أو ربما للأبد.. هناك لا داعي للعجلة أو التسرع.

كان (جوبال) يعرف هذا وهو يحاول الاتصال بالأمين العام.. كان يعرف أن ما بقي له من العمر ليس كثيرا، لذا حاول أن يستمتع به.. وكان يحرص على أن تمر كل لحظة بلا خوف وبلا أمل.. أراد لنفسه عشا أكبر من برميل (ديوجين Diogenes) لكنه أصغر من قصر (قوبلاي خان Kubla).. لهذا ظل صابرا، بينما سكرتير يحوله إلى سكرتير ثم إلى سكرتير.. برغم أن اسمه كان مهما.. هكذا لم يصلوه بالأمين العام، لكنهم كذلك لم يجسروا على التخلص منه، وكان يعرف أنه لو ذكر (الرجل من المريخ) لتم الاتصال فورا، لكنه كان يعتقد أن حياة (كاكستون) في خطر؛ لذا يجب عدم اللعب بهذه النقطة الحساسة.. في النهاية ظهر على شاشة الهاتف وجه رجل عرف على الفور أنه شرطي..

قال الشرطي في صرامة:

- د. (جوبال).. أريد معرفة السبب الذي تريد الحديث مع الأمين العام لأجله.

- اسمع يا بني.. أنا أدفع الضرائب التي منها تتقاضى راتبك.. ومنذ الصباح يحولني موظف أشبه ببقرة ذات مخ فراشة إلى موظف آخر.. ليس من شأنك أن تعرف لماذا أريد الكلام مع الأمين العام.. وإن لم تكن لديك سلطة فصلني بمن هو أعلى سلطة منك!!

- د. (جوبال).. أرجو أن تجيب عن سؤالي..

- لماذا؟ لا بد لي من أن أعرف أسبابك وأرى هويتك.. حتى في عمليات المداهمة تتم هذه الإجراءات، فهل أنت في حالة مداهمة؟

- أنا أدعى (هاينريش).. وأنت د. (جوبال هيرشو).. تتحدث من...

- هل استغرقتم كل هذا الوقت لأجل ذلك؟ يمكن لأي شخص معرفة رقم هاتفي وعنواني.. لو ذهبت لأية مكتبة أو فتحت أية جريدة لعرفت من أنا.. هل تقرأ؟

واحتدم النقاش، ثم أغلق السماعة، وقرر أنه ألقى بالطعم على الأقل..

☆ ☆ ☆

حلّقت السيارة الطائرة الأولى حول البيت، ثم بدأت تهبط في فسحة في الحديقة جوار حمام السباحة.. أما الأخرى فراحت تحوم حول البيت ببطء وعلى ارتفاع منخفض.. كانت السيارات الطائرة سوداء وعليها شعار رسمي: الكرة التي تمثل الاتحاد. كان (جوبال) يتوقع هذا؛ لذا أمر سكرتيرته (آن) بأن ترتدي عباءة الشاهد العدل، وأن تتابع كل تفاصيل المحادثة..

اندفع (جوبال) نحو السيارة الأولى متوثبا للقتال، وصاح في الرجل.

- أبعد هذه الكومة القذرة عن شجيرات وردي..

سأله الرجل:

- جوبال هيرشو؟ معي إذن تفتيش هنا..

هنا فقط عرف (جوبال) الرجل.. فنظر له في ازدراء وقال:

- أنت؟ هل ولدت غبيا يا (هاينريش) أم أنك احتجت لأن تتعلم هذا في المدرسة؟ ومنذ متى تعلم هذا الجحش الذي جاء بك إلى هنا الطيران؟ صباح اليوم؟ منذ مكالمتي معك؟

التفت الرجل ببرود إلى رجاله، وقال:

- أبعدوا الطائرة عن الزهور.. كونوا أكثر حذرا يا رجال.

- هذا لا يعفيكم من طلب التعويض عن الأضرار.. والآن قدم لي نفسك وهويتك بوضوح ونظام.. فأنا لا أعرفك.. تبدو لي كالأحمق الذي كان يكلمني على الهاتف اليوم، لكن هذا لا يثبت شيئا.. أنا أتهمك بالتعدي على ممتلكاتي إلى أن تثبت العكس..

ولسوف أستعمل كل ما لدي من قوة لطردك خلال ثلاث دقائق..

- لا أنصح بهذا..

- هنا يصير ما تقومون به هجوما منظما بأسلحة قاتلة، لو كان هذا الذي تحمله بغالك أسلحة.. لسوف ينتهي الأمر بأن أستعمل جلدك ممسحة أمام بابي يا زميل.

- ليكن.. سنفعل الأمر بطريقتك..

ووقف أمام (آن) - التي طلب منها (جوبال) أن تلبس روب الشاهد العدل - وذكر اسمه ورتبته ورقمه.. وكذا فعل كل رجاله.. كانت معه أوامر بضبط كل من (جوبال هيرشو) و(جيل) و(فالنتين مايكل سميث).. والطريف أن (جيل) متهمة بخطف (فالنتين)، أما (فالنتين) فمتهم بالفرار من البوليس..

قال (جوبال) في استمتاع:

- أليس هذا غريبا؟ خطف أم هرب؟ ومم هرب؟ بأية تهمة؟

- كيف لي أن أعرف؟ إنه هارب وكفى..

كان (فالنتين مايكل سميث) يسبح تحت مياه الحوض إلى ما تحت لوح الغطس كما أمره (جوبال) عندما رأى الطائرات وهو لا يعرف أنه مختبئ.. لقد أمره أخوه المائي بذلك، وقال له أن يبقى حتى تأتى (جيل) وهذا كاف.. هكذا تكور حول نفسه في وضع الجنين، وأخرج الهواء من رئتيه، وثنى لسانه للخلف ليسد حلقومه، وخفض معدلات نبضه.. هكذا صار بالنسبة لنا ميتا،

لكنه لم (يفقد اتحاده) بعد، ومازال قادرا على أن يعيد تشغيل نفسه لدى الحاجة لذلك..

كان يشعر بأن إخوته المائيين في مشكلة ما.. لكنه لا يستطيع أن يخالف أمر أخيه (جوبال).. (جوبال) أمره أن يبقى تحت الماء.. هذا نموذج للغة البشرية الرخوة التي تتحمل أكثر من معنى.. (جوبال) أمره بالبقاء هنا، لكن هل أمره بأن يظل مع جسده؟ لا.. وفي هذه الحالة يمكنه أن ينفذ الأمر حرفيا بأن يبقى جسده تحت الماء ويخرج هو ليرى!

لقد فعلها كثيرا لكن ليس وحده.. كان هناك دوما واحد من الكبار القدامى معه يشرف على العملية، إلا أنه كان يعرف أنه سريع التعلم، هكذا غادر جسده بعدما ألقى نظرة على كل جزء فيه؛ ليتأكد من أنه في أمان وأنه سيجده سليما عندما يعود..

كان أول ما رآه هو سيارة طائرة تقف فوق العشب.. أليس هذا هو الخطأ ذاته؟ الأكثر خطأ أن (جوبال) كان يركض نحو رجل.. وهو غاضب جدا.. غاضب إلى حد لو مارسه مريخي مع مريخي آخر لتلاشي الاثنان فورا.

قرب الرجال كانت السكرتيرة (دوركاس).. وكانت خائفة.. جوارها كانت (ميريام) وكانت هادئة تضع ثقتها في (جوبال).. أما (آن) فكانت تلبس روبا طويلا وعقلها في صورة غريبة.. صورة ذكرته بعقول الكبار القدماء على المريخ، وهو شيء لم يستطع فهمه..

رأى (جيل) تقترب من الماء، وهنا رآها تصرخ وأحد هؤلاء الرجال يلاحقها.. كان الرجل يحمل سلاحا، وهذا شيء خطأ آخر.. كان قد وعد (جوبال) بألا يضيع الطعام، لكنه كذلك لم

يتحمل أن يرى أخا الماء في ورطة؛ لذا تخلص من الرجل الذي يهاجمها..

أخرج الرجال الآخرون أسلحتهم وقد انتابهم غضب وذعر غير مسبوقين؛ لذا كان عليه أن يلحقهم بمن سبق..

راح يتفقد الطائرة في حذر.. وفهم أنها مليئة بالأشياء الخاطئة.. لهذا أخفاها بدورها.

كان الجميع من أصدقائه في حالة هياج.. (دوركاس) تبكي و(جيل) تحتضنها وتهدئها.. لقد ذهب الخطأ..

كان يخشى أن يلومه (جوبال)؛ لأنه ترك الحوض دون إذن؛ لذا عاد إلى الماء وقد شعر بأن مهمته انتهت.. كان جسده هناك سليما كما تركه، لذا عاد إليه..

كان يتمنى أن يقضي الوقت في تأمل وتوقير الرجال الذين تخلص منهم، لكنه شعر بـ (جيل) تدنو منه تحت الماء، أخرج لسانه من حلقه وتأهب للاستيقاظ عالما أن أخاه (جيل) لا يستطيع البقاء تحت الماء طويلاً، فلما دنت منه وضع يديه على جانبي وجهها.. هذا شيء تعلمه مؤخرا ولم يفهمه قط.. لكنه اعتاده..

☆ ☆ ☆

-10-

لم ينتظر (جوبال) حتى تخرج (جيل) طفلها المزعج من تحت الماء.. ونادي (ميريام) التي جاءته ملهوفة:

- سيدي.. أنا..

- اخرسي يا (ميريام).. بعد أسبوع سوف نجلس حول (آن)، ونطلب منها أن تفسر لنا ما رأيناه.. لكن في هذه اللحظة سيأتي كل واحد مع ابن خالته إلينا.. ولسوف يسقط الصحفيون من فوق الأشجار؛ لذا يجب أن أُجرى بعض المكالمات.. هل أنت طراز المرأة التي لا يصير لها نفع حين نحتاج إليها؟

- كُفّ عن استفزازي.. هذا الموقف يجعل أي واحد هستيريا..

انطلق إلى مكتبه وهى خلفه.. كان يعرف أولاً أن ما حدث حدث بفعل (فالنتين مايكل سميث) وإن كان لم يره خارج الماء.. كما كان يعرف أن الاتصال بالأمين العام (دوجلاس) صار ضروريا، لكن كيف؟ كيف يخترق حصار السكرتارية من حوله؟ فكر في (توم ماكنزي) مدير الشبكات الذي يتعامل معه.. هكذا طلبه على الهاتف المرئي وسأله عن كيفية الاتصال بالأمين العام.. فقال الرجل:

- أنا شخصية معروفة ومهمة، لهذا لا يطول الأمر.. يقوم ثلاثة بتحويلي إلى السكرتير الخاص وهو يصغى لموضوعي..

- لكني لا أريده هو.. أريد الكلام مع (دوجلاس) شخصيا.. لربما كان السكرتير نفسه متورطا في الموضوع الذي لن أصرح به..

- مستحيل.. ما لم يقتنع السكرتير الخاص بأهمية الأمر، من ثم يعطيني موعدا بعد يومين..

- لكن لنفترض أنك تريد لقاء (دوجلاس) فورا وشخصيا..

- مستحيل.. أحيانا - لو كان الأمر حساسا جدا - أهدد بأن أوغر صدر الشبكة على الأمين العام..

- إذن افعل هذا الآن.

- مستحيل.. لا يمكن أن أفعل هذا لشخص آخر.. ليس الموضوع أنني لا أريد.. فقط أنا لا أستطيع..

- حسن يا (توم).. لن ألوى ذراعك.. لكن من الرجل الذي يملك السلطة للاتصال بالأمين العام متى أراد؟

- لا أحد يا (جوبال)..

- اللعنة! لا أحد يعيش في فراغ!

- حسن.. سأخبرك بمعلومة.. لكن لو تسربت منك فلسوف أقطع حلقك بأحد كتبك.. إن زوجة الأمين العام تؤمن بعلم الفلك.. ولها سيطرة شبه تامة على زوجها.. إنها تثق كثيرا بعرافة تدعى مدام (ألكساندرا فيزان).. ف.. ي.. ز.. ا.. ن.. ت.. يمكنك أن تتصل بهذه العرافة، ولربما احتجت إلى أن ترشوها..

- شكرا.. أنت أسديت لي عالما من الخدمات!!

ووضع السماعة ثم طلب رقما آخر، بعدما قام بتشغيل جهاز تشويه المكالمات.. والغريب أنه في هذه المرة ظهر وجه مدام (فيزان) على الشاشة على الفور وبلا إبطاء..

رأته فهتفت:

- (جوبال)! أيها الوغد العجوز! أين كنت؟

مختبئا يا (بيكي)! إن المهرجين يقتفون أثرى.. أنا في مشكلة، ولن ينقذني إلا أن أقابل الأمين العام الآن وحالاً.. لاحظي أنهم يقذفونني بالطوب، وأي شخص بقربي سوف يبتل بالماء.. هناك أمر فيدرالي بضبطي ولسوف يأتون في أية لحظة.. أنا خائف من تلك الغرفة الخلفية التي يحملون إليها المعتقلين.. لقد صرت أكبر سنا من الذهاب إلى الغرفة الخلفية.. ما أريده هو رقم هاتف يرد عليه الأمين العام.. رقم واحد..

هكذا وعدته بالتصرف وأغلقت الخط.

☆ ☆ ☆

صاحت السكرتيرة أن المزيد من الدوريات الطائرة قادمة إلى البيت، فصاح (جوبال):

- أغلقوا الأبواب!! (جيل) ليبق (مايكل) معك ولا يتحرك إلا باذنك.. (مايكل).. ابق مع (جيل).. لا تقيدي حريته لو بدءوا في إطلاق الرصاص حتى لا يُقتل أحدنا.. لكن مسلسل اختفاء رجال الشرطة هذا يجب أن يتوقف..

هنا دوى جرس الهاتف، وظهر على الشاشة وجه يقول:

- د. (جوبال).. إن الأمين العام سيكون معك حالاً..

لقد فعلتها (بيكي) البارعة! وبعد ثوان ظهر وجه الأمين العام نفسه على الشاشة..

- د. (جوبال).. عرفت أنك تريدني لأمر مهم.. هيا تكلم..

☆ ☆ ☆

قال جوبال في هدوء:

- حسن يا سيدي الأمين العام.. الواقع أنني محامي الرجل من المريخ!

- ماذا؟

- نعم.. أنا محامي (فالنتين مايكل سميث).. ربما تفكر فيّ كسفير فعليّ عن المريخ..

- لا بد أنك جننت.. رجل المريخ هو في الإكوادور الآن..

- سيدي.. لا أحد يسمع هذه المحادثة، وأنت تعرف كما أعرف أن رجل المريخ ليس في الإكوادور، وأن اللقاء التليفزيوني كان مزيفا.. الرجل حصل على حريته من سجنه غير القانوني، ولسوف يحتفظ بها.. ولو كان أحدهم أخبرك بشيء آخر فهو كذاب.. لهذا طلبت لقاءك بشكل خاص..

هنا دوى صوت عال من أسفل فقال (جوبال):

- في هذه اللحظة بالذات.. رجال الجستابو الخاصون بك.. هؤلاء البلطجية.. يقتحمون بيتي.. والآن هل نسوى هذا الموضوع بشكل ودي هادئ، أم نتصادم أمام المحكمة العليا مع كل الفضائح الناتجة عن هذا؟

تبادل الأمين العام كلاما هامسا مع شخص بجواره، ثم عاد يقول:

- أؤكد لك أنه لا علم لي بقيام رجال العمليات الخاصة بملاحقتك..

ثم أدار (جوبال) الكاميرا ليظهر فيها (مايكل) و(آن) و(جيل).. لم يقدم (آن)، لكن روبها الأبيض بدا واضحا على مهنتها.. وأمر السكرتيرات:

- افتحوا الباب ودعوهم يدخلوا.. تعال هنا أيها الرقيب..

كان ضابط العمليات الخاصة قد خل الغرفة وسلاحه في يده، فاستدار ينادي الميجور.. فلما دخل هذا الأخير الغرفة هتف به (جوبال):

- تعال وكلم الأمين العام على الشاشة..

- لا شيء من هذا.. أنت تحت الاعتقال..

ثم رأى الشاشة فأصابه الذهول.. تصلب وأدى التحية.. فسأله (دوجلاس):

- الاسم والرتبة..

أعلن الميجور بياناته.. وقال إنه جاء يبحث عن مجموعة سابقة جاءت هنا لبعض الاعتقالات، لكن أحدا من أفرادها لم يعد أو يتصل بهم.. هنا نظر الأمين العام إلى (هيرشو) متسائلاً، فقال:

- لست مسئولاً عن رجالك، ولست مربية مكلفة بسلامتهم، لكن مما رأيته من ذكاء هؤلاء أعتقد أنهم ضلوا الطريق.. إنهم عاجزون عن العثور على خنزير في مغطس الحمام.. وأنا أطالب بأن أرى طلب الضبط الذي معهم..

قال الميجور في ارتباك:

- سيدي.. هناك أمر ضبط.. عدة أوامر.. لكنها كانت مع الضابط (هاينريتش) وهو قد اختفى..

قال (دوجلاس) على الشاشة مغضبا:

- ماذا؟ تقتحم بيت هذا المواطن من دون أمر ضبط؟ عد إلى قسم الشرطة وضع نفسك في الحجز حتى أنظر في أمرك.. والآن انصراف..

وهكذا دارت المفاوضات مع الأمين العام.. سوف يسقط أوامر اعتقال أصدقائنا، وفي المقابل ستتم مفاوضات.. مفاوضات أصر (جوبال) على أن تكون علنية تغطيها الشبكة التي يتعامل معها.. وكذلك أصر على الإفراج عن (كاكستون).. لم يبد الأمين العام على علم بمكان (كاكستون)، لكنه كان يأبى بإصرار أن يحضر المفاوضات، فهو صحفي مشاغب وعموده مزعج دائما.

- سيدي.. قلت من قليل إن رجالك عاجزون.. كنت منفعلاً بسبب اقتحامهم بيتي، لكني مؤمن بكفاءتهم.. لو كلفتهم بالبحث الجدي عن (كاكستون) فلسوف يجدونه أو يجدون جثته خلال ساعات..

☆ ☆ ☆

هكذا بدأ رجال الصحافة والإعلام يتوافدون على البيت، وكان (جوبال) في حال من الرضا التام عن النفس.. لقد ربح المعركة.. ولم يلبث أن اتصل به الأمين العام يبلغه أنهم وجدوا (بن كاكستون)..

- لماذا لم تخبرني أنه مدمن خمر؟

- ماذا؟

- لقد وجدوه وحيدا في حديقة عامة في (سونويا)..

يبدو أنه كان يمر بنوبة شرب.. يقولون إن حالته مزرية.. ذقنه غير حليقة.. ثيابه قذرة.. رائحته كالعفن.. لكنه قادم إليك حالاً على ظهر سهم طائر.. سيكون عليك أن تعطينا إيصالاً باستلامه..

- شكرا لك سيدي.. شكرا على كل شيء..

بعد قليل وصلت طائرة تقل (كاكستون).. بالفعل كانت حالته مزرية.. وقد هرع (جوبال) يحتضنه، وسأله عما حدث له.. فقال (كاكستون):

- أنا ثمل.. لكن.. لكن لم أشرب خمرا..

- إذن ماذا حدث؟

- لا أعرف..

بعد قليل تم إفراغ معدة (كاكستون).. لم يكن فيها إلا الكحول وعصارة معدية.. لا طعام.. وحقنه (جوبال) بعقار يخلصه من أثر الكحول، ثم جعلوه يغتسل وجلبوا له ثيابا نظيفة.. ثم جلس يشرب اللبن ويأكل طعاما خفيفا.

حاولوا أن يعرفوا منه ما حدث، لكن بالنسبة له لم يكن للأسبوع الأخير وجود..

- لا أذكر إلا أنني فقدت وعيي في سيارة أجرة.. بعد هذا لا أستطيع أن أقسم على شيء.. كانت هناك مزرعة وسيدة.. كانوا يخدرونني طيلة الوقت.. وفي النهاية جعلوني أفيق في حالة أقرب إلى الثمل.. لكن.. بالفعل لا أذكر ما حدث..

قال (جوبال) مهدئا من روعه:

- دعك من هذا.. أنت حي.. وكان بوسعي أن أراهن على عكس هذا.. سوف يقوم (دوجلاس) بما نطلبه منه، ويحب ذلك..

وبعد قليل كان (كاكستون) في فراشه يغط في نوم عميق، بعدما شرب كوبا من اللبن الدافئ.

كان (جوبال) نفسه بحاجة إلى الشيء ذاته.. لقد كان يوما طويلاً، ما كان يتمنى أن يفوته، لكنه لا يتمنى أن يتكرر أبدا..

☆ ☆ ☆

-11-

في اليوم التالي قضى (كاكستون) وقته يستعيد قواه ويعرف تفاصيل ما فاته من (جيل).. وللمرة الأولى يقترب من (مايكل) إلى هذا الحد.. كان الشعور الغالب عليه نحو (مايكل) غامضا، وإن قدّر أنه الغيرة ببساطة.. إن تقارب (جيل) مع الرجل القادم من المريخ لم يكن مريحا له.. وفي هذه المرة أدرك أنه يرغب فعلا في أن يتزوج (جيل)، وقد طلب منها هذا بلا إبطاء وبلا أية نغمة مازحة في الأمر.. فقالت له:

- أرجوك يا (بن)..

- ولم لا؟ إنني قادر على الإنفاق.. ولدى عمل جيد.. صحتي طيبة أو ستكون كذلك.. عقاقير الحقيقة التي ملئوا دمي بها ستزول.. وإن كانت لم تزل تماما بعد، لذا أصارحك بأني أحبك.. هل أنا أكبر سنا مما يجب؟ هل أنا أقل مما يجب؟

قالت في حرج:

- (بن).. أرجوك لا تعقد الأمور.. فقط لدي.. مسئوليات الآن..

حاول أن يعزي نفسه بأن الفتى من المريخ ليس منافسًا بل هو مريض.. على كل من يتزوج ممرضة أو طبيبة أن يقبل اهتمامها الأمومي بالمرضى.. وقد قبل طقوس الماء من (مايكل) في رضا وترحيب.. ولم ينكر أن في (مايكل) شيئا يجعلك تحبه منذ اللحظة الأولى.. وتتمنى أن ترعاه للأبد.

كان (جوبال) يعرف أن (دوجلاس) متورط في اختفاء (بن).. ربما تم الأمر بأمر منه، ولربما أعد العدة لقتله.. لكن قد صار عليه الآن أن يتناسى هذا ويتأهب للمفاوضات المرتقبة.. ثم إنه لا يستطيع إثبات ذلك.. لو أن رجل شرطة ضرب متهما بعنف، فهناك فرصة لا بأس بها، لكن مدير الأمن نفسه لا يعرف شيئا عن هذا، ولم يقره.. وقد قال لـ (بن):

- أعتقد أن السبب الوحيد لبقائك حيا هو أن (دوجلاس) لم يرد قتلك، وإلا لجففوك مما لديك من معلومات، ثم تخلصوا منك بجهد لا يزيد على التخلص من فأر ميت في المرحاض.. لماذا لم يفعلوا هذا؟ لأن رئيسهم لم يرد ذلك وهم لم يريدوا المخاطرة بمناصبهم..

☆ ☆ ☆

في العاشرة من صباح اليوم التالي.. هبطت طائرة الوفد المفوض عن المريخ الذي نظمه (جوبال هيرشو) خارج القصر التنفيذي.. ولم يكن المطالب الساذج بعرش المريخ (مايكل سميث) قلقا بصدد الرحلة.. لقد استمتع بكل لحظة من الطيران كأنه تحت سطح الماء.. وقد راحت السكرتيرتان (دوركاس) و(ميريان) تشرحان له كل شيء يراه.. كانت المرة الأولى التي يرى فيها مدننا ويستوعب كوكب الأرض بدقة.. لأن هذه الفرصة لم تتح له منذ كان في المستشفى حتى وصل شقة (بن).. ثم بيت (جوبال) الذي تحيط به الأسوار.. وقد رأى (واشنطن) من الجو

فقدّر أن عمرها قرنان.. هذا هو الوقت الذي تتحلل فيه المدن وتتحول إلى تراب.. إن المدن كما يعرفها هو ليست إلا بيضة.

هبطت الطائرة خارج القصر، وطلب الحراس من (جوبال) والآخرين أن يتجهوا إلى قاعة جانبية حتى بدأ المؤتمر.. لكن (جوبال) أصر على أن يدخلوا قاعة المؤتمرات التي تعج بالصحفيين حالاً.. وكانت فكرته هي أنه يريد أن يرى الجميع (مايكل)، ويلتقطوا له الكثير من الصور، قبل أن ينفرد به الأمين العام.. كلما كانت هناك ضجة إعلامية كان هذا أفضل..

ما إن رأى الصحفيون (مايكل) حتى حاصروه.. وقد سبق أن قال له (جوبال) إن البشر يتصرفون أحيانا تصرفات شبه مجنونة.. حاول بعض الصحفيين أن يسألوه عما إذا كان يفهم معنى كلمة (وراثة) و(ملكية)، لكنه كان يعرف أن عليه ألا يدلي برأي مباشر.. لذا كان يردد غيبا صفحات كاملة من تعريف الملكية من كتب القانون، بنفس دقة ورتابة وملل أحد أساتذة القانون الكبار..

كانت الضوضاء قد بدأت تخيف (مايكل)، لولا أنه رأى أن إخوته المائيين غير خائفين.. فجأة رأى شخصا يدخل القاعة عرفه على الفور فصاح:

- أخي د. (محمود)!

وراح يتكلم بحرارة وبلا توقف باللغة المريخية.. لحق به كبير المترجمين ووقفا معا يتكلمان بتلك اللغة غير البشرية التي تتخللها أصوات تشبه صوت خرتيت ينطح عربة لورى.. تحمل الصحفيون قليلاً، ثم سألوا (محمود) عما يقوله.. نظر لهم وابتسم وقال بلهجة أكسفوردية:

- أكثر الوقت أطلب منه أن يتمهل في الكلام قليلاً لأفهم! أما باقي المحادثة فشخصي تماما ولا يهمكم في شيء..

لم يحب (جوبال) (محمود)؛ لأنه بدا على قدر من التصنع والتأنق الزائد.. لكن (مايكل) يعتبره صديقا، إذن هو صديق حتى يثبت العكس، بينما رأى (محمود) أن (جوبال) غير مهندم وريفي نوعا.. وكان يؤمن أن كل العلماء الأمريكيين ناقصو العلم وغير متحضرين.. لكن (مايكل) قدم له كل هؤلاء باعتبارهم إخوته وعليه أن يقبل هذا.. لقد رأى المريخ وعرف ما يعنيه المريخيون بالعلاقات الشخصية.. هذه بديهيات هناك لا علاقة لها بالهراء الأرضي عن (الأشياء التي تشبه الشيء الواحد تشبه بعضها)..

قدم له (هيرشو) سكرتيراته.. وقدمت له (جيل) نفسها بالمريخية مستعملة ذات الطبقات الصوتية للفظة (أخ مائي).. فحياها بنفس اللغة، وكانت هذه واحدة من تسعة أصوات مريخية تستعملها بكفاءة، والسبب هو أنها تسمعها عدة مرات يوميا.. صبت (جيل) كوبا من الماء من دورق على المنضدة ورشفت منه رشفة، ثم ناولته لـ (محمود) وقالت:

- عشي هو عشك..

رشف رشفة، ثم ناول الكوب لـ (جوبال) الذي رشف رشفة أخرى وقال:

- دعك لا تظمأ بعد الآن أبدا..

ثم ناول الكوب لـ (دوركاس) التي قربت الكوب من شفتيها.. وقالت لـ (جوبال):

- هل تعرف جيدا أهمية هذه الطقوس لـ (مايكل) ومن ثم لنا؟

- طبعا وإلا ما شربت..

هكذا رشفت رشفة وقالت وقد دمعت عيناها:

- لتكن شربتك عميقة.. الماء.. الحياة.. أخونا.. ليكن عشك عشى..

ثم ناولت الكوب لـ (ميريام).. راقب (محمود) هذه الطقوس في رضا؛ لأن (مايكل) يحبها.. وإن كانت تشعره بنوع من الوثنية كلما رآها.. هنا جاء رئيس البروتوكول يطلب من (محمود) أن يجلس عند طرف المائدة كما هو محدد له؛ لأن الأمين العام آت حالاً.. لكن هذا رفض وأصر على أن يجلس جوار أخيه المائي (مايكل)..

قال (جوبال) لرئيس البروتوكول:

- اسمع يا بني.. صديقي د. (محمود) سيجلس حيثما أراد.. ولا شأن له ببروتوكولك.. أنا د. (جوبال هيرشو) وإن لم تكن تعرف اسمي فإن بوسعك تمزيق هذه القائمة التي تحملها..

- يجب على د. (محمود) أن يجلس خلف الأمين العام ليكون قادرا على الترجمة.. هذه المائدة مخصصة للوزراء وكبار القضاة..

كان من الواضح أن (جوبال) لن يتزحزح.. بل إنه هدد بالرحيل، ومعنى هذا ببساطة أن يفقد الرجل منصبه.. هكذا استسلم لما يقوله (جوبال)..

رتب (جوبال) بعض التفاصيل مع مدير البروتوكول.. كان يريد أن يوضع العَلَم الذي لفقه كأنه علم المريخ جوار (مايكل)، وأن تعزف الفرقة السلام الوطني للمريخ.. طبعا كان هذا اللحن ملفقا بدوره لا يعدو النغمات الأولى من مقطوعة أرضية هي (الكواكب العشرة).

وهكذا أعلن الحاجب وصول السيد الأمين العام رئيس الولايات المتحدة.. مد (جوبال) يده ينبه (مايكل) للنهوض على حين دخل (دوجلاس) القاعة واتخذ مقعده عند طرف المائدة، هنا بلمسة أخرى من يده جعل (جوبال) (مايكل) يجلس.. النتيجة هي أن الأمين العام ورجل المريخ جلسا قبل أن يجلس أي واحد آخر في القاعة.. كان (جوبال) يريد أن يعطى لقاء (مايكل) مع (دوجلاس) طابع لقاء نِدّين.. وحينما عزفت الفرقة المقطوعة الزائفة (السلام الوطني للمريخ) هب (جوبال) واقفا في احترام، فهب (دوجلاس) بدوره.. وهكذا نهض كل واحد في القاعة احتراما لهذا الرمز الوطني المريخي..

رحب (دوجلاس) بـ (مايكل) وإن لم يتضح من كلماته ما إذا كان يعتبر (مايكل) سفيرا للمريخ أم مجرد سائح عائد للأرض.. ووقف (مايكل) بدوره فتكلم بالمريخية ثم ترجم ما قال:

- سيدي أمين عام اتحاد الدول الحرة لكوكب الأرض..

ثم عاد يتكلم بالمريخية:

- نشكرك على حفاوتك بنا.. نحن نجلب لك تحيات القدامى على كوكب المريخ..

كانت هذه فكرة (جيل).. تبديل اللغات أثناء الخطاب، وقد راقت لـ (جوبال)؛ لأنها تضفي على خطبة خالية من المعنى طابعا مؤثرا كأنها أوبرا لـ (فاجنر)..

قال (جوبال) للأمين العام بعدما انتهت المراسم:

- سيدي.. إن أمام (مايكل) الكثير ليتعلمه هنا، لأنه لا يعرف الكثير عن قوانين الملكية.. أنا رجل شيخ ولا يوجد أمامي وقت طويل كي أعلمه.. لهذا يطلب منك (مايكل) رسميا أن تقبل أن تكون محاميه وتتولى أملاكه!

بدا الذهول على الأمين العام وقال:

- هذا طلب صعب يا دكتور..

أعرف يا سيدي.. قلت له إنك أكثر الرجال انشغالاً على ظهر الأرض، لكن هذا لم يؤثر فيه.. يبدو أنه على المريخ، كلما ازداد انهماك الرجل توقع منه الناس أكثر.. لقد طلب مني أن أسألك.. وهو لا يتوقع إجابة الآن.. وهذه عادة مريخية أخرى: هم لا يتعجلون أبدا.. كما أنهم لا يطلبون عقودا وتوكيلات.. هذه نقطة أخرى لدى المريخيين: متى وثقوا فيك فعلوا هذا لأقصى مدى.. وهذا الرجل ليس موجها للأمين العام بل هو موجه لك بشكل شخصي.. أي أنه حتى بعد انتهاء فترة خدمتك فإن من يأتي بعد لا علاقة له بالموضوع.. وفي حالة عدم قبولك سيكون عليّ أن أعهد بالموضوع للسيد (بن كاكستون)..

كان الأمين العام مرتبكا، لذا قال:

- لن أعطى إجابتي حالاً.. لكن هل هذه رغبتك فعلاً يا (مايكل)؟

كان (مايكل) معدا لهذا السؤال، لذا وقف وقال بصوت عال واضح:

- نعم يا سيدي.. أرجوك أن تقبل

وطالت المناقشات حتى شعر (جوبال) أنه مرهق، لذا طلب إنهاء هذا اللقاء إلى أن يتخذ الأمين العام قراره.

☆ ☆ ☆

في الفندق الذي اختاره (جوبال) عشوائيا - حتى لا تكون فيه أجهزة تنصت... دارت مناقشات طويلة بينه وبين (محمود) حول معنى كلمة Grok التي يستعملها (مايكل) كثيرا..

قال (محمود) في حيرة:

- إنها كلمة غامضة.. لو أردت أن أشرحها لكتبت مجلدا كاملاً، وبرغم هذا لن أتمكن أبدا من ذلك.. إنها تضم معاني الفهم الشامل والاحتواء.. أنت تعرف أنه من العسير على غربي أن يفهم القرآن جيدا ما لم يلم بالعربية جيدا.. مهما كانت الترجمة جيدة، فلا بد لك كذلك من أن تملك ثقافة وخلفيات عربية لتفهم حق الفهم.. عندما تعلمت الإنجليزية كنت أستعملها جيدا، لكن ظل جزء منها غامضا بالنسبة لي إلى أن عشت في الغرب فترة، وتعلمت جزءا من خلفيتكم الثقافية.. لهذا من الصعب علينا أن نفهم لفظة Grok ما لم يكن جزء منا مريخيا.. لو أردت الترجمة الدقيقة للّفظة فهي تعنى (يشرب)!

هتف (جوبال) في دهشة:

- لم يمارس (مايكل) قط شيئا له علاقة بالشرب وهو يستعمل هذه اللفظة..

هنا تدخل (مايكل) في المحادثة:

- Grok هي الشرب..

قال (محمود):

- من العسير أن تفهم العلاقة.. لكنها تحمل معنى تسرب الفهم إلى داخلك.. اللفظة أيضا تعنى الحب الشديد وتعنى المقت.. لا يستطيع المريخي أن يكرهك فعلا مالم يستوعبك، وفي هذه الحالة فإنه كذلك يحبك بينما هو يكرهك.. لقد فهم المريخيون منذ زمن ما احتجنا نحن إلى قرون لفهمه: لا يمكنك أن تلاحظ شيئا دون أن تتأثر به أنت نفسك.. لا يمكنك أن تكون ملاحظا محايدا.. ولو أنني قمت بفرمك وصنعت منك يخنة وأكلتك، فإنني قد قمت بعملية Grok لك، ولا يهم هنا من الذي أكل الآخر .

هنا تدخل (مايكل) ثانية:

- معك حق.. أنت إله يا أخي (محمود)..

هنا هز (محمود) رأسه وقال لـ (جوبال):

- هل فهمت؟ لسنا مريخيين فلن نظفر من هذه المناقشة إلا بالتجديف والكفر.. لن نفهمهم أبدا..

هنا سأل (بن) (جوبال) عن السبب الذي جعله يطلب من (دوجلاس) أن يدير أمور الفتى المالية.. قال (جوبال):

- يجب أن يعرف الجميع أن (مايكل) لا يملك أملاكه.. ولو مات (مايكل) فإن الثروة تكون مسئولية (دوجلاس) بالكامل.. هذه هي طريقتي لحماية حياة الفتى.. لقد جردته من ثروته، ولو استطعت لجردته من أية أهمية سياسية..

(مايكل) لا يبالي بالمال ولسوف يعوقه.. الثراء الشديد كارثة خاصة لو لم تكن أنت مخلصا للمال تكرس حياتك لجمعه.. أنا لست من هذا الطراز، ولا أبالي (بجمع المال) وإنما أنا مهتم

(بإنفاقه).. أريد أن أترك وشأني، وأن أقضي ما بقي لي من عمر أمارس حياتي الكسول الفارغة.. (دوجلاس) كذلك لا يبالي بالمال.. إنه يهتم فقط بالقوة السياسية وهي نغمة لا تستطيع أذني سماعها.

☆ ☆ ☆

الجزء الثالث

عن تعليمه العجيب

-13-

عند أحد طرفي مجرة حلزونية قرب نجم يدعى (سول)، راح نجم آخر قريب يمر بتحولات كارثية ليتحول إلى (نوفا nova)، ولسوف تتبدى عظمة المشهد على كوكب المريخ خلال 729 عاما أو 1370 عاما أرضيا.. وقد قال الكبار للصغار إن هذا الحادث مفيد، لكنهم لم يكفوا عن مناقشة الحادث فيما بينهم، بكل ما فيه من تطورات خطيرة أدت لهلاك الكوكب الخامس.. وكان الاثنان وعشرون أرضيا الذين جاءوا على السفينة (شامبيون) والذين بقوا على المريخ، يمارسون حياتهم بشكل عادي في بيئة معادية، وإن لم تكن أسوأ من قارة (أنتاركتيكا) على الأرض.. وقد مات أحدهم بما يعتقد أنه (تحطم قلب) أو (حنين للوطن)، وقد التف حوله المريخيون يمجدونه ثم أعادوه إلى حيث ينتمي.. وبصرف النظر عن تلك الحادثة ظل الأرضيون يمارسون حياة طبيعية.

بدأت الصحافة تفقد اهتمامها بـ (مايكل)، وقد كف عن أن يكون مصدرا متجددا للأخبار.. وقد حرص (جوبال) على أن يُبقي على خصوصية الفتى.. وإن ظل رجال الشرطة السرية يحاصرون بيته.. وحرص (جوبال) كذلك على أن تمر المكالمات الهاتفية بوسيلة انتقائية تسمح لعدد محدود جدا منها بالوصول.

أما البريد فكان مشكلة حقيقية بسبب كثرة الخطابات، دعك من أن أحد الطرود انفجر قبل الموعد في مكتب البريد وأحدث فوضى عامة.. فكر (جوبال) في أن يفحص خبراء المفرقعات كل الطرود قبل فتحها، ثم وجد أن (مايكل) يستطيع عن بعد تمييز الطرود التي (بها شيء خطأ).. هكذا كان يجعلها تختفي على الفور، ووجد (جوبال) أن هذا أفضل من فتح الطرود تحت الماء أو تصويرها بالأشعة السينية.

بعض الخطابات كانت عروض زواج، وبعضها كان جريئا يحوي ما هو أكثر من صور صريحة، وقد قالت (جيل) لـ (جوبال) إنها ستتخلص من هذه الخطابات بما فيها.

فقال وهو يتأمل إحدى الصور:

- فتاة جميلة لكن لا بد من أن أعترف أنني عرفت من هن أفضل.. هل الخطاب موجه لك أم له؟

- له طبعا..

- إذن ليس من حقك أن تعدمي خطابا موجها له ما دمت لست أمه.. لسوف يكبر الفتى.. لن يظل في هذا البيت كما يحفظون الحيوانات المعقمة في مختبرات (نوتردام).. لا بد له من أن يواجه العالم الخارجي بما فيه من قذارة.. سوف يخرج للعالم ولسوف يقابل كاتبة الخطاب أو شقيقتها التوأم.. سوف يرى الكثير.. أنا أعرف أنه سيعيش بعدي.. ربما ستين أو سبعين عاما، فلن يبقى هذا المهد مفتوحا له للأبد.. يجب أن يتخذ قراراته بنفسه إذا أردنا ألا يسقط في قبضة أول مائة امرأة تعجب به..

الحقيقة أن (مايكل) لم يكن يفهم الجمال الأنثوي قط، وبالنسبة له كان يهتم بالمرأة نفس اهتمامه بفراشة غريبة.. عن جمال الوجوه كان يرى أن (جوبال) له أجمل وجه ممكن.. أما النساء فلهن وجوه تشعر بأنها لم تكتمل بعد، وكلها متشابهة..

النشاط الثاني الذي تعلمه (مايكل) كان شراء الهدايا لمن يحب.. كانت هذه هي الطريقة التي تفتق عنها عقل (جوبال) لتعليم (مايكل) القيمة الحقيقية للمال.. لقد احتاج إلى جهد جهيد كي يشرح للفتى معنى المال، وكيف أن الدولارات ليست مجرد أوراق ملونة جميلة المنظر..

☆ ☆ ☆

بناء على دعوة من السيناتور (بون)، اضطر (جوبال) والسكرتيرات و(جيل) إلى اصطحاب (مايكل) إلى جماعة (فوستر)، وهي جماعة دينية غريبة الأطوار، تتمتع بنفوذ هائل في البلاد، ولهذا كان من العسير مناصبتها العداء.. لكن (جوبال) كان يسخر منها في سره.. فهم يزعمون أنهم يتكلمون مع السماء هاتفيا، ويعتقدون أنهم احتكروا الحقيقة ووكلاؤها الوحيدون، كما أنهم يؤمنون بأن مؤسس الجماعة (فوستر) هو رئيس الملائكة وقد نزل من السماء وتجسد.. وكان (جوبال) يعرف أن لهذه الجماعة هدفين من دعوة (مايكل).. بما أن (مايكل) هو أغنى رجل في العالم باعتباره يمتلك كوكبا بأكمله فهم يريدون ماله.. وهم كذلك يريدون ضمه لجماعتهم.. لأن في هذا نصرا عظيما لهم..

هناك قابلهم السيناتور (بون) والسيجار في يده، واقتادهم إلى قاعة داخلية فاخرة كتب على بابها: ممنوع دخول الخطاة.. هذا يعنيك أنت!!

كانت هناك موسيقا لم تتبينها (جيل) في البداية، ثم عرفت أنها موسيقا (الأجراس المجلجلة) وإن تمت إضافة طبول كونغولية إليها.

كانوا يحتفظون بجثة (فوستر) الكاهن العجوز للجماعة محنطة، محفوظة بشكل يوحي بأنه حي، وقد جلس على عرش عال.. وكان (مايكل) متوترا طيلة الوقت.. دنا من (جيل) وهمس في أذنها بالمريخية:

- هل هذا واحد قديم؟

ردت عليه باللغة التي بدأت تجيدها:

- لا يا (مايكل).. ليس كما تعتبرونهم على المريـخ..

- هناك خطأ هنا.. أشعر بالكثير من الخطأ..

سألها (بون):

- ماذا يقول أيتها السيدة الصغيرة؟ ماذا كان سؤالك يا مستر (سميث)؟

- لا شيء يا سيدي.. هل لي أن أخرج من هنا؟ أوشك على فقدان الوعي..

كان هناك ضوء يتحرك على الوجه الميت، ليعطي العينين بريقا ويبدو الوجه كأنه يتحرك.. قال (بون):

- هذا هو ما تشعرين به أول مرة.. لأنك تشعرين بخطاياك.. بعد هذا تصير هذه القاعة أجمل مكان في العالم.. كثيرا ما آتى هنا لأدخن سيجارا وأتأمل كلما شعرت بانخفاض معنوياتي..

☆ ☆ ☆

كان ما يقلق (جيل) هو عدم ارتياح (مايكل) للمكان، وخافت أن يقدم على شيء يتسبب في إعدامهم أو ما هو أسوأ.. لكن (مايكل) كان يشعر بخيبة أمل.. لقد توقع أن هذا (واحد قديم) فاكتشف أنه ليس سوى طعام فاسد.. الأسوأ هو لقب (السيدة الصغيرة) الذي يناديها به (بون).. وقد قال لها (جوبال) فيما بعد: ما دام اللقب يغيظك فلماذا لم تبصقي في وجهه؟ إنه يريد (مايكل)، لهذا هو مضطر للتعامل معنا بلطف وتهذيب.

اتجهوا نحو الملاذ، فاعترض طريقهم حارسان بثياب مزركشة يحملان الحراب.. فقال (بون) إن هؤلاء ضيوفه.. وهكذا ظهر حاجب متأنق ودعاهم إلى مقصورة تطل على مسرح.. وهي مقصورة مريحة جدا بها مقاعد قابلة للضبط، ومنفضات تبغ ومناضد عليها مختلف المرطبات..

وعلى المسرح وقف كاهن شاب يخاطب الجالسين مع الإيقاع الموسيقى:

- هلموا! حرّكوا مؤخراتكم.. هل تريدون أن يأتي الشيطان فيجدكم نياما؟!

شكّل الراقصون أنفسهم في شكل ثعبان طويل يزحف عبر القاعة، وراحت الأقدام تقرع الأرض مع الإيقاع، وشعرت (جيل)

بنوع من الطرب، لهذا ودت لو تنضم لهذا الثعبان الطويل كانوا يغنون:

- نحن سعداء..

- لماذا؟

- لأن (فوستر) يحبنا!

وقف الرجل من جديد وقال:

- أول نشيد لنا تموله مخابز (مانا) التي تصنع (خبز الملائكة).. رغيف المحبة ووجه زعيمنا الباسم على كل مغلف.. فليذهب طفلك إلى المدرسة غدًا ومعه حلوى (فوستر).. وليقد كل رغيف خاطئا آخر إلى النور..

وبدأ الإنشاد، وراح الثعبان يتلوى من جديد..

النشيد الثاني (الوجوه السعيدة مرتفعة) تموله متاجر (داتلباوم) حيث يتسوق الناجون من الخطيئة.. يوجد قسم خاص للأطفال تشرف عليه أخت ناجية..

كل هذا أثار دهشة (مايكل)، لكن الإيقاع والمؤثرات أشعرته بإثارة لا حد لها.

كان هذا كافيا بالنسبة لـ (جوبال) الذي قرر أن ينصرف مع رفاقه، لكن (بون) بدا غير مصدق.. من المستحيل أن ترحل من دون أن تقابل (الكاهن الأكبر) شخصيا.. إنه بانتظاركم.. واقتادهم إلى مصعد صغير في نفق.. وبعد دقائق كانوا ينتظرون الرجل في بهو كبير..

انفتح الباب ودخل رجل قصير القامة هو (ديجبي) الكاهن الأكبر للجماعة، وكان غارقا في العرق؛ لأنه شارك في الطقوس السابقة.. تذكره (جوبال) على الفور وإن بدا كأنه كان أطول قامة بفعل خداع الأضواء.. ولم يمنع نفسه من الشعور بأنه تاجر سيارات مستعملة بابتسامته المداهنة الجاهزة.. كانت هناك منضدة تراصت عليها الوجبات، فراح (جوبال) يأكل بنهم.

راح الكاهن الأكبر يعرض عليهم بعض آثار (فوستر) العظيم في واجهة زجاجية.. انهمك الجميع في مشاهدة هذه الأشياء، وراق لـ (جوبال) تعبير الاستهجان الذي ظهر على وجه (جيل)، لكنها تحاول مداراته.. هنا لاحظ أن الكاهن الأكبر و(مايكل) اختفيا.

قال (بون) مطمئنا:

- لا تقلق.. هناك غرفة جانبية صغيرة للزوار المهمين..

قالت (جيل) همسا:

- (جوبال).. لا أحب هذا.. يبدو أنهم قد رتبوا أن ينفرد الكاهن الأكبر بـ (مايكل)..

- أنا على يقين من هذا..

- لم لا ندخل ونأخذه؟ أعتقد أنهم يحاولون ضمه لعقيدتهم..

قال (جوبال) وهو يضع بعض المايونيز على شطيرة:

- لو حاولوا ضمه لعقيدتهم لانتهى الأمر وقد ضمهم لعقيدته.. إن نظرته الغريبة لكل شيء مربكة حقا.. أما أنا فلن

أترك هذه الوجبة المجانية، وإلا لما استحققت أن أكون في اتحاد الكتاب..

طال الانتظار وبدأت (جيل) تقلق.. لذا اتجهت إلى باب الغرفة وحاولت فتحه، لتكتشف أنه مغلق بإحكام.

قال (جوبال) لـ (بون):

- أرجو أن تسمح لنا بالانصراف..

لا توجد وسيلة للاتصال بالكاهن الأكبر إلا هاتفيا.. لو كنتم مصرين؟

- نحن كذلك..

هنا وفر عليهم (مايكل) الحرج، إذ خرج من الغرفة الصغيرة، وعلى وجهه تعبير أثار رعب (جيل).. أدرك (جوبال) أن الكاهن الأكبر ليس في الغرفة، وإنما انصرف من باب خلفي لها.. فقال (بون):

- هذه عادة لدى الكاهن الأكبر.. أن ينصرف بلا وداع.. يقول إن كلمات الوداع لا تضيف شيئا إلى بهجة الحياة.. بالمناسبة سيارة التاكسي تنتظركم عند نهاية الممر.. هذا سيوفر عليكم عشر دقائق ثمينة..

شكروه على هذه التجربة المثيرة، وانصرفوا لا يلوون على شيء

☆ ☆ ☆

-14-

لم يتكلم (مايكل) ولم يجب عن أية أسئلة.. فقط قال إنه بحاجة إلى بعض الوقت حتى يستوعب.

هتفت (جيل) في رعب:

- (جوبال).. كيف ينجو هؤلاء القوم بفعلتهم؟

- أية فعلة؟

- هذه ليست دار عبادة.. إنها مستشفى مجانين..

- بالعكس.. هذه هي العقيدة الجديدة.. ما فعله (ديجبي) و(بون) هو أنهما استعملا آلاف الحيل العتيقة، ودهناها بلون معاصر براق، وهكذا صارا في (البيزنس).. وليس كأي (بيزنس).. إنه يدر مالاً طائلاً.. إن هذه الرقصة الثعبانية التي رأيناها ما هي إلا تطوير لرقصات الهنود الحمر من أجل المطر.. كل ما أتمناه ألا أعيش حتى أرى نجاحهما المطلق، كأن تفرض الدولة هذه العقيدة على الجميع.. (هتلر) بدأ ببضاعة أقل.. لم يكن لديه ما يبيعه سوى الكره.. إن الكره يبيع جيدا.. لكن الحب كذلك أفضل مبيعا (9).

☆ ☆ ☆

في غرفته تكور (مايكل) على نفسه في الوضع الجنيني.. كان يعرف أن (جيل) لا تحب أن يفعل هذا، لكنه على الأقل يفعله بعيدا عن العيون.. كان بحاجة إلى أن يفهم كل ما سمعه اليوم.. بحاجة إلى أن يتأمل.. لم يستطع قط فهم مصطلحات مثل (دين) وما إلى ذلك.. وكان بحاجة إلى التأمل وحده..

بعد ساعات نهض من الفراش وغادر الغرفة.

وجد أخاه المائي (جيل) لم ينم بعد.. وسره هذا..

اقترحت (جيل) أن تحضر له عشاء.. هناك دجاجة باردة في الثلاجة، يمكنه أن يأكلها في الخارج، فهي ليلة شتاء دافئة تعتبر صيفا مبكرا، وهو ما يسمونه (الصيف الهندي).. هكذا جلسا في الشرفة يرمقان السماء..

هتفت وهي تشير إلى نجم بعيد:

- (مايكل).. هل هذا الضوء هو المريخ؟

- هو المريخ..

- ماذا يفعلون هناك الآن؟

فكر قليلاً، ثم قال:

- الجانب الجنوبي؟ يعلّمون النباتات النمو.. بينما في الناحية الأخرى ينقلون الحوريات اللاتي لم يقتلها حر الصيف إلى الأعشاش..

- عزيزي (مايكل).. هل تشعر بالحنين للوطن؟

أمسك بيدها وقال:

- نعم.. في البدء كنت أشعر بكثير من الحنين للوطن.. لكني الآن أعرف أني لن أكون وحيدا.. إننا.. أعرف هذا.. نقترب...

☆ ☆ ☆

وهكذا جاء اليوم المحتوم حين جاء (مايكل) لـ (جوبال) وهو يتناول إفطاره يخبره أنهما قررا الرحيل اليوم..

غطى (جوبال) وجهه بالمنشقة بلا داع؛ ليداري لمحة خيبة أمل، ثم قال:

- تتكلم بصيغة المثنى.. من سيرحل معك؟

- (جيل) تأتى معي.. إنني بحاجة إليها فهي تعلّمني كل شيء.. ثم إنها بدأت تتكلم المريخية.. لهذا أرجو أن تسمح لي باصطحابها.. أعرف أن العالم ما زال غامضا بالنسبة لي، وما زلت أرتكب أخطاء.. لهذا (جيل) مهمة لي.. وإلا اصطحبت (دوك) أو (لارى) البستاني..

هل تعنى أن لي الخيار؟

- طبعا يا (جوبال).. كلنا يعرف هذا..

- لكن البيت مفتوح لك.. يمكنك العودة في أي وقت..

- أعرف هذا يا أبي!

- هه؟

لا توجد لفظة (أب) في المريخية، لكني استوعبت أنك أبي وأبو (جيل)..

نظر (جوبال) إلى (جيل) وقال:

- ليكن.. لكن كونا حذرين..

- سنفعل..

وفارقا المكان قبل أن يفارق هو مائدة الطعام.

☆ ☆ ☆

نهاية الجزء الأول

☆ ☆ ☆

غريب في أرض غريب

هذا هو (فالنتين مايكل سميث).. الرجل القادم من المريخ.. البريء في عالم متوحش.. الساذج في دنيا مفعمة بالتعقيدات..

ما لا يعرفه هو أنه - قانونا - المالك الوحيد لكوكب المريخ، وما لا يعرفه البشر هو أنه سيغير وجه الأرض.. بفلسفته الغريبة.. بقواه غير المعهودة.. بسذاجته التي لا ترى العالم كما نراه...

(روبرت هاينلاين) وأعلى القصص مبيعا في تاريخ أدب الخيال العلمي كله..


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القناة

الفهرس..

-13-

-14-

نهاية الجزء الأول

Notes

[←1]

- يُستعمل هذا الاسم للدلالة على الأرض..

[←2]

- لن نعرف الكثير مما حدث هنالك.. فقط سنعرف أن (مايكل) هو ابن طبيب السفينة الذي رباه المريخيون بعد هلاك البعثة.

[←3]

- استعملت ترجمة (يفهم / يستوعب) للتعبير عن فعل Grok المريخي، والذي يتكرر كثيرا جدا في هذه القصة، وهي ترجمة غير دقيقة، لكنها المخرج الوحيد الممكن لي. لفظة Grok تعنى الفهم الكامل من دون استعمال المنطق، والذي قد يصل إلى التهام الشيء (لتستوعبه).

[←4]

- قاعدة في القانون الروماني معناها باللاتينية (أظهروا الجثة).. أي (أخبروا المتهم بتهمته أو أطلقوا سراحه فورا).

[<-5]

- يتحدث عن كوكب الأرض طبعا .

[←6]

- أي أنه حاكم العالم.

[←7]

- أغلب الأسماء هنا لها دلالة رمزية تفتح مجالاً للجدل.. (جوبال) معناها (أبو الجميع)..

[←8]

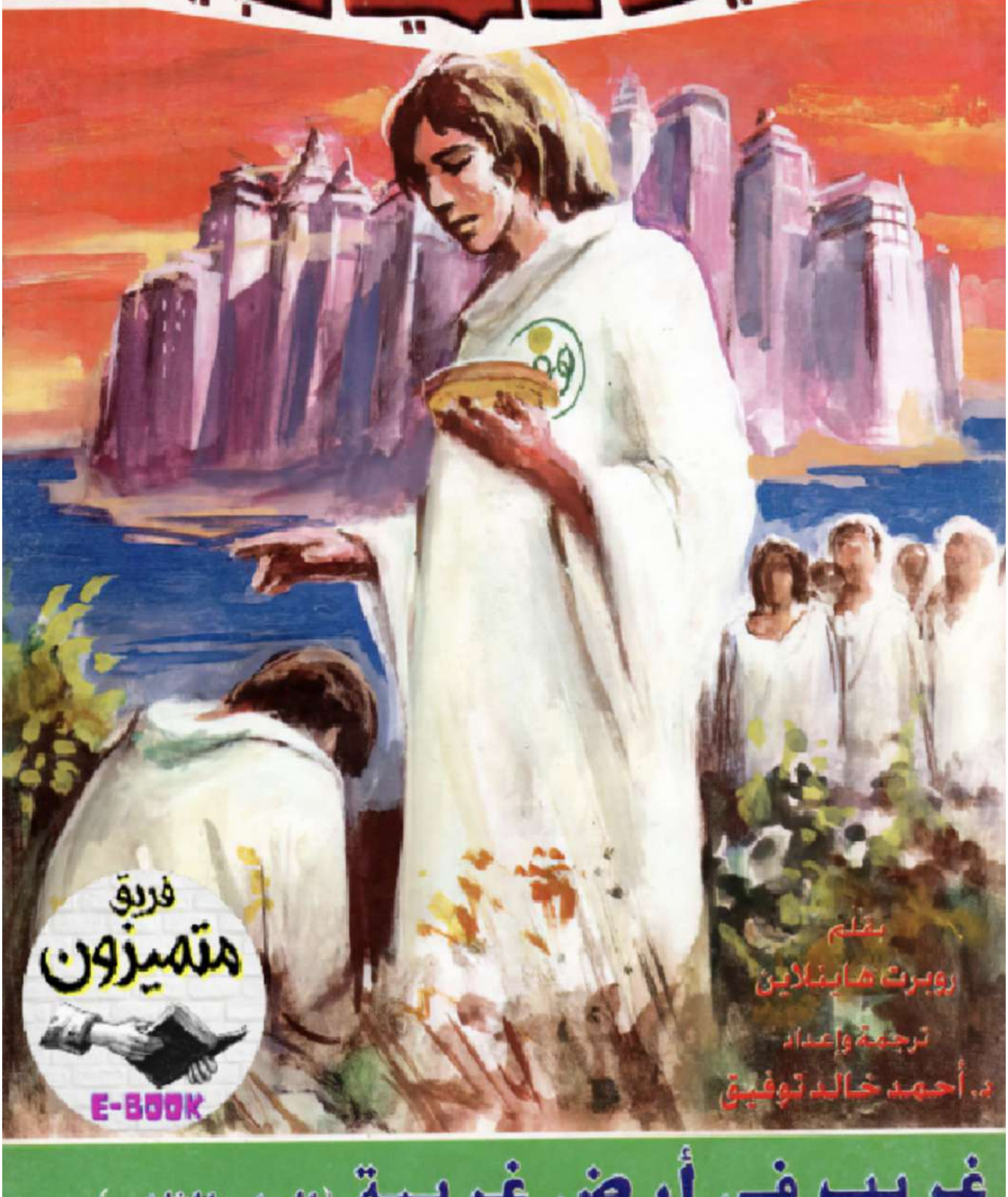
- يسخر الكاتب هنا من (لجنة النشاط المعادي لأمريكا Un-american التي أنشأها (مكارثي)، والتي قضت على مستقبل آلاف الأدباء والفنانين وأساتذة الجامعة بتهمة الشيوعية، ولمجرد أنهم يتكلمون بلغة تختلف عن اللغة الرسمية للحكومة الأمريكية.

[←9]

- في هذا الجزء مناقشة طويلة جدا - وجريئة جدا - عن الأديان بما فيها الإسلام والمسيحية.. وقد حذفتها غير آسف لأن مكانها ليس في هذه السلسلة.

روايات عالمية للجيب

54



بقلم
روبرت هاينلاين
ترجمة وإعداد
د. أحمد خالد توفيق

غريب فى أرض غريبة (الجزء الثانى)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (54)

غريب في أرض غريبة ج٢

بقلم: روبرت هايتلاين

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هذا هو الجزء الثاني والأخير من رواية (غريب في أرض غربية)، والحقيقة أنني لم أقسمها بهذا الشكل اعتباطا، ولكن لأن النقاد يجدون أن الفارق بين الجزأين كبير، وتفسره حقيقة أن عشر سنوات تفصل بين كتابتهما..

ينتهي الجزء الأول بالبلوغ ومغادرة الطفل الساذج (مايكل) لبيت أبيه الروحي (جوبال)، بينما يحكى الجزء الثاني عن مواجهة (مايكل) البالغ للعالم الخارجي، وتكوينه نوعا من الفلسفة / العقيدة التي تتحدى المجتمع الأمريكي بكل عاداته وتقاليده، التي يراها رجل المريخ البريء مزيفة أو – على الأقل - غير مبررة. وهذا الجزء أكثر جرأة من الناحية الفلسفية والثيولوجية والحسية مما جعلني أمارس دور الرقيب بحماس.. لست أفضل من يلعب هذا الدور، لكنى متمسك بالطابع الأسرى لهذه الكتيبات بالذات حتى لو اضطررت لحذف صفحات كاملة من النص الأصلي، بشرط ألا أفسد السياق أو المعنى العام للقصة. لاحظ عبارة (ترجمة وإعداد) على الغلاف لا كلمة (ترجمة) فقط.. أي أننا هنا نتعامل مع حالة خاصة جدا. لنتذكر الآن ما قلناه عن (روبرت هاينلاين Heinlein) كاتب الخيال العلمي الأمريكي الذي ولد في (ميسوري) عام 1907، وتوفى عام 1988. ويعتبر هو و(أزيموف Asimov) و(آرثر كلارك Clarke) الزوايا الثلاث لمثلث أدب الخيال العلمي الراقي. فاز بجائزة (هوجو) التي تقدم لأفضل قصص العام عن قصصه (نجم مزدوج - 1956) و(دورية النجوم - 1960) و(غريب في أرض غريبة - 1962) و(القمر عشيقة قاسية - 1967).

نشرت أول قصة له (خط الحياة) عام 1939، وكان أجره عنها سبعين دولارا. ومن يومها كتب بغزارة اضطرته إلى اختلاق

عدد من الأسماء المستعارة؛ لأن المجلات ما كانت لتقبل نشر قصتين لنفس المؤلف في العدد ذاته.

كانت كتاباته تمتاز بالخصائص الثلاث الأساسية لأدب الخيال العلمي: حبكات مصممة جيدا شخصيات حية وجدل علمي جيد. وكان يتمتع بدقة علمية كبيرة، مما مكنه من مزج العلم بالخيال بجرعات مختلفة..

من أهم إضافاته لأدب الخيال العلمي إدخال علوم لم تناقش من قبل مثل الإدارة والسياسة والاقتصاد واللغويات والوراثة وما وراء علم النفس.. وهكذا صارت أعماله بذرة الموجة الجديدة في أدب الخيال العلمي. وتعتمد قصصه كلها على الحوار (مقاطع طويلة جدا منه) أكثر من السرد، فتتكلم شخصياته كبشر لا كشخصيات خيالية.

كان نجاحه ساحقا منذ البداية ومنذ نشر قصته الأولى وقد دون أفكاره في خطة تدعى (تاريخ المستقبل) وجاهد كي يجعل المستقبل ذا مصداقية كالحاضر.

من الناحية الصحية كان معتل الصحة يتمتع بقائمة أمراض، منها الدرن الذي أدى لإعفائه من البحرية. عمل أثناء الحرب العالمية الثانية في تصميم بذلات تتحمل الضغط العالي وكانت زوجته الثانية مكسبًا حقيقيا له؛ لأنها كانت ملازمًا في البحرية، تتكلم سبع لغات، وخبيرة بالكيمياء الحيوية بين العامين1948 1962 كتب قصص خيال علمي للشباب، لا تختلف عن كتاباته للبالغين إلا في نقطة استبعاد أية تلميحات جنسية وجعله الأبطال مراهقين دائما. وكانت لهجة المعلم عالية في تلك الكتيبات لكن من دون أن يفسد القصة ذاتها. في

الوقت ذاته قدم (هاينلاين) عناوين مهمة مثل (سادة الدمى - 1951) و(الباب المفضي إلى الصيف - 1957) و(النجم المزدوج - 1956).

تحولت قصته (تلميذ الفضاء - 1948) إلى مسلسل تليفزيوني، ومن قصته (الصاروخ جاليليو - 1947) خرج الفيلم الشهير (الهدف القمر - 1950) الذي اعترف علماء كثيرون في ناسا NASA بأنه جعلهم يختارون هذه المهنة، ولهذا كرمته ناسا. هناك عديد من الأفلام السينمائية جاءت من كتبه، أقربها لنا هو (الكوكب الأحمر) الذي عرض في مصر منذ ثلاثة أعوام.

في العام 1949 وعلى سبيل الدعابة، اقترح قراء مجلة خيال علمي شهيرة عدة أسماء لقصص تنشرها المجلة واتصل رئيس التحرير به طالبا أن يكتب قصة خيال علمي - بصرف النظر عن موضوعها - يكون اسمها (الخليج)..

هكذا جلس مع زوجته يفكران في الأحداث بالأسلوب المعروف بـ (عاصفة الدماغ). هنا فكرت زوجته في تقديم نسخة خيال علمي من شخصية (موجلي Maugli).. بطل (كتاب الأدغال).. الطفل البشري الذي ربته الحيوانات.. ماذا عن بشري ربته كائنات فضائية؟ تجاهل الكاتب الكبير الفكرة وقتها وكتب عن شيء مختلف تماما، وإن ظلت الفكرة في مفكرته عدة أعوام.. هكذا ولدت قصة (غريب في أرض غريبة Stranger in a Strange land) عام 1962. ولسوف تكون هذه القصة أهم قصصه وأفضلها، لقد ناقش فيها كل شيء عن العالم الغربي.. ويعتقد كثيرون أنها نتاج طبيعي لاضطراب المجتمع الغربي في

الستينات.. لكن الغريب أن الهيبي وجدوا قدوتهم في هذه القصة، وعاملوها كأنها كتاب ديني..

يقال عن هذه القصة: إنها دستور الثقافة المضادة.. وإنه من الصعب أن يعيش المرء في العالم الغربي دون أن يتشرب منها شيئا حتى لو لم يكن قد قرأها قط؛ لأن الهواء نفسه يفوح بها، وقد أضافت القصة مصطلحات جديدة للغة الإنجليزية منها Grok، وهي لفظة مريخية أصلاً بمعنى (الفهم الشامل والاستيعاب الذي يصل إلى حد التشرب، وربما التهام الشيء الذي تريد فهمه..) حتى إن الغربيين قد يقولون أثناء الحوار العادي:

- Gork it

بل إن هناك كنائس أقيمت باسم (كنيسة كل العوالم) نتيجة لصدور هذه الرواية، على أن (هاينلاين) نفسه ينفي أن تحوي قصته أية إجابات تقدم للعقول الكسولة، إنما هي مليئة بالأسئلة التي تدعونا إلى أن نفكر، بقي أن نعلم أن هذه القصة هي الأعلى مبيعا في تاريخ أدب الخيال العلمي على الاطلاق..

ابتكر (هاينلاين) كذلك مفهوم (العالم كأسطورة World-as-Myth) الذي يتصور أن كل كون هو فكرة في خيال مؤلف في كون آخر. وفي قصته (رقم الوحش 1980) جعل أبطال قصصه المختلفة يلتقون، بل يقابلون أبطال قصص لمؤلفين آخرين، كما ناقش هذه الفكرة في كتاب (القطة التي تعبر الجدران - 1985).

كان (هاينلاين) أول كاتب خيال علمي عاش بالكامل من قلمه، وأول كاتب خيال علمي وضع هذا النوع من الأدب في

قوائم أعلى المبيعات، واليوم نلقاه لأول مرة في الجزء الثاني من هذه القصة.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

-1-

كان له ذات طابع الكرنفالات المعتادة في ذات المدن. نفس المذاق لحلوى (غزل البنات) ونفس الجولات، بينما حاولت تلك الملاهي سيئة السمعة أن تحتفظ بدرجة من التحفظ والاعتدال تتفق مع القوانين المحلية، وفي الوقت ذاته تستلب الرواد نقودهم سواء بعجلة الحظ أو مضارب البيزبول التي تصوبها نحو هدف ما..

وكان عرض (عشرة في واحد) تقليديًا كذلك.. لم يكن فيه قارئ أفكار، لكن كان فيه ساحر.. لم تكن فيه امرأة ملتحية، لكن كان فيه نصف امرأة نصف رجل. لم يكن فيه بالع سيوف، لكن كان فيه آكل نار. وبدلا من الرجل الموشوم كانت هناك امرأة موشومة، وكان العرض يقدم جائزة عشرين دولارا لمن يجد بوصة مربعة واحدة تحت عنقها خالية من الوشم! وكانت المرأة التي تدعى مسز (بايونسكي) تقف من حين لآخر ملتفة بحية (بوا Boa) عاصرة تدعى (هاني بان).

بالإضافة لهذا لم تكن الإضاءة ممتازة، مما جعل العثور على هذه البوصة المربعة مستحيلاً. لكن المرأة لم تترك شيئا للصدفة؛ لأنها كانت تملك مع زوجها الراحل ستوديو للوشم في (سان بدرو) لعدة أعوام، وقد قضت أعواما طويلة تضيف الوشم لجسمها حتى لم يعد ثمة مكان للمزيد.

كان عرضها هو العرض قبل الأخير.. أي قبل الساحر الدكتور (أبوللو) الذي يبدأ عرضه بأن يمرر على الجمهور دستة

من الحلقات المعدنية البراقة الواسعة، ويطلب منهم أن يتأكدوا بأنفسهم من أن الحلقات مصمتة ناعمة. ثم يريهم كيف أن الحلقات تداخلت. أحيانا كان يضع عصاه السحرية تحت إبطه ويجعل مساعدته تناوله بعض البيض ثم يقذف نصف دستة منه في الهواء. لكن أحدا لم يكن يبالي به لأن الأنظار كانت تتجه إلى مساعدته، برغم أن ثيابها كانت أكثر احتشاما من أكثر المتفرجات، هكذا ظل عدد البيض يقل ويقل حتى صار واحدة، من ثم هتف الرجل: إن البيض يصير أقل شحا عاما بعد عام.

أحيانا يزعم أنه يقرأ الأفكار فيقول لأحد الشباب الجالسين:

«يا بني.. أنا أعرف ما تفكر فيه.. تفكر في أنني لست ساحرا حقيقيا.. وأنت محق لهذا وتستحق جائزة..»

ثم يقذف للفتى بدولار.. لكن هذا يختفي قبل أن يتلقفه الفتى.. فيقذف له الساحر بدولار آخر، وينصحه بأن يحترس هذه المرة. بعد هذا تهمس له المساعدة بشيء، فيقول للجمهور: إن مدام (مرلين) ترغب في النوم، ويشير إلى فراش لتتمدد عليه.. ويقول:

- إنها الآن نائمة.. لقد لعب النعاس برأسها حتى صارت خفيفة.. خفيفة تماما.. هلّا غطيناها إذن؟ فلا يجدر بسيدة محترمة أن تنام أمام العيون.

وينهض ثلاثة رجال متحمسين، ليضعوا الملاءة فوقها لتغطيها بالكامل من رأسها حتى أخمص قدمها..

هنا يشرح صبي وسط الجماهير اللعبة بهمس مسموع:

- هي ليست تحت الملاءة الآن.. حينما وضعوا الغطاء عليها انزلقت هي إلى جب سفلي.. وما تحت الأغطية الآن مجرد هيكل.. ثم سوف يجذب الغطاء وفي اللحظة ذاتها ينكمش الهيكل ويختفي.. إنها لعبة ميكانيكية يمكن أن يؤديها أي واحد.

تجاهله د. (أبوللو) وقال:

ارتفعي أكثر يا مدام (مرلين).. أعلى.

من ثم راح الجسد المغطى بالملاءات يرتفع نحو ستة أقدام فوق خشبة المسرح. طلب د. (أبوللو) من المتطوعين أن ينزعوا الغطاء وقال:

- هي لم تعد بحاجة له الآن.. إنها نائمة على السحب.. ماذا؟ تقول إنها لم تعد بحاجة للأغطية الآن لأنها ثقيلة.

يقول الصبي:

- هنا يختفي الهيكل.. إنه مثبت بقضيب إلى أسفل.

جذب الساحر طرف الملاءة فوجد الناس أنهم ينظرون إلى مدام (مرلين) وهي ما زالت تطفو ومازالت غافية..

هب الناس يحيطون بخشبة المسرح من كل الجهات، وسألوا الغلام:

- إذن أين هذا القضيب؟

قال الصبي من غير يقين:

- يجب أن تنظر حيث لا يريدك الساحر أن تنظر.. هكذا يضعون هذه الأضواء لتعمى عينيك..

قال الساحر:

- هذا كاف أيتها الأميرة النائمة.. هاتي يدك.. انهضي! انهضي..

وساعدها على النهوض فالنزول إلى خشبة المسرح.

ويكون العرض قد انتهى بينما أنوار الخيمة الرئيسة تنطفئ؛ لأن العرض سيرحل في الصباح، وقد بدأ عمال الفراشة في فك الأوتاد عن الخيام الجانبية. أما مؤدو الفقرات من غريبي الخلقة والممثلين فلسوف يظفرون ببعض ساعات النوم.

بعد قليل يأتي المدير والمالك ومقدم العروض إلى تلك الخيمة المعتمة بعدما تأكد من رحيل المشاهدين جميعا. ويقول للساحر:

- لا تذهب يا (سميتي).. معي شيء لك.

ثم يناوله مظروفا مغلقا يأخذه الساحر دون أن يفتحه ويضيف المدير:

- أكره أن أخبرك بهذا يا فتى، لكنك وزوجتك لن تذهبا معنا إلى (بادوكاه).

- أعرف.

- حسن.. لا تأخذ الأمور على محمل شخصي.. لكن عليّ أن أفكر في العرض.. سوف نستبدل بفقرتك عرضا لقارئ أفكار وعرافة تمارس قراءة الجماجم phrenology.. أنت تعرف أننا كنا نجربك، ولم نتفق على استكمال الموسم.. (سميتي).. هل ترغب في نصيحة؟ قل لا لو لم ترد هذا..

- بل أريد سماع نصيحتك.

- حسن يا (سميتي)... إن حيلك ممتازة.. بل إن بعضها أدار رأسي.. لكن الحيل البارعة لا تصنع ساحرا.. المشكلة هي أنك لست مندمجا في الأمر حقا.. أنت تتصرف كممثل كرنفال، لكنك لا تملك فكرة عما يجعل الأحمق أحمق، الساحر الحق يستطيع أن يجعل (الزباين) يفتحون أفواههم.. أنا لم أر من يمارس طفو الأجساد levitation بهذا القدر من البراعة، لكنها لا تثير حماس الناس. أنا على سبيل المثال لا أستطيع أن ألتقط ربع دولار في الهواء.. بل لا أستطيع أن آكل بالشوكة والسكين من دون أن أجرح فمي.. لكنى أعرف الشيء الوحيد المهم.. أعرف المشاهدين.. أعرف ما يشتهونه سواء عرفوا هذا أم لم يعرفوه.. هذه هي مهنة الاستعراض سواء كنت رجل سياسة أو واعظا دينيا أو ساحرا.. إن المشاهد يريد الدم والمال والجنس.. للأسف نحن لا نمنحه دما كافيا ما لم يرتكب أحد قاذفي السكاكين أو آكلي النار خطأً قاتلاً.. لا نمنحه المال لكننا نمنحه أملاً في أن يظفر به.. لا نعطيه الجنس لكننا نعطيه وعدا بأن يرى شيئا ما.. هكذا لا يظفر بشيء في الواقع لكننا نعيده لداره سعيدا.. ماذا يريد الأحمق غير هذا؟ يريد الغموض.. يريد أن يحسب العالم اللعين مكانا رومانسيا بينما هو ليس كذلك.. المشاهد يعرف أن حيلك زائفة، لكنه يريد أن يعتقد أنها حقيقية.. وعليك أن تساعده على ذلك.. لكنك تفتقر إلى هذه الموهبة

- حسن يا (تيم).. كيف أقنعه بذلك؟

- بحق السماء هذا شيء لا أستطيع تعليمه لك.. عليك أن تتعلمه بنفسك.. مثلاً أنت تطلق على نفسك (الرجل من

المريخ).. لن يصدق أحد هذا لأنهم جميعا رأوا الرجل من المريخ.. أنا عرفته بنفسي.. حتى لو كنت تشبهه فلن يصدق أحد أن رجل المريخ يمثّل في هذا الكرنفال الحقير.. كأنك تطلق على بالع السيف عندنا لقب (رئيس الولايات المتحدة).. المشاهد يريد أن ينخدع، لكنه لن يسمح لك بإهانة القدر الضئيل من الذكاء الذي يملكه.

وغادر الخيمة..

هنا جاءت المرأة الموشومة (باتريشيا بايونسكي) من فتحة الخيمة الخلفية وهتفت:

- يا شباب.. هل حقا تخلص (تيم) من فقرتكما؟

- كنا راحلين على كل حال يا (بات).. إن (تيم) على حق.. أنا لا أملك مَلَكَة الاستعراض.

- هذا لا يمنع من أنني سأفتقدكما.. لقد كنتما بمثابة ابنين لي..

اقترح الساحر الذي هو (مايكل) أن يصحبها و(جيل) إلى المدينة لتناول مشروب على سبيل الوداع.. وتولى هو القيادة.. كانت تلك مدينة صغيرة خالية من إشارات المرور الإلكترونية. وقد قاد السيارة بدقة غير عادية بين المطبات، وكانت (جيل) تعرف كيف أن (مايكل) يملك إحساسيا ممتدا بالزمن بحيث يستطيع تخطى المطبات وقذف البيض في الهواء بالسرعة البطيئة. لم تشعر بهذه السعادة قط إلى أن قابلته.. هي التي ظلت تحت طغيان الساعة والزمن منذ كانت تلميذة في المدرسة، ثم صارت تحت طغيان أكبر في عملها بالمستشفى.

ولم يكن عملها في الكرنفال يقتضي الإحساس بالزمن.. فلم يكن مطلوبا منها إلا أن تقف وتبدو جميلة عدة مرات في اليوم. ولم يكن (مايكل) يبالي إن أكل مرة أو ست مرات يوميا.. لقد التحقا بأكثر من كرنفال، فبدا لها أن عالم الكرنفال مغلق ومعزول عن الألم الخارجي، وقد راق هذا لها.

لقد بدّل (مايكل) ملامحه نوعا، وزاد من تجاعيد وجهه، بالإضافة إلى أنهما كانا يقصدان أماكن لا يتوقع أحد أن يرى رجل المريخ فيها. هذا ساهم في جعلهما يعيشان في سلام. وقد تكفل (جوبال) بتلفيق قصة تغطى هذا الاختفاء، وهكذا قرأت في الصحف ذات يوم إن الرجل من المريخ قد ذهب إلى التبت. لكن هذا (التبت) لم يكن إلا (مشويات هانك) في مدينة ما، حيث يعمل (مايكل) غاسل أطباق وهي ساقية. وظلا في هذا العمل أسبوعا، ثم انتقلا لمدينة أخرى. وفي الصباح كانا يجلسان في المكتبة؛ لأن (مايكل) اكتشف تلك الحقيقة الرائعة أن (جوبال) لم يكن يملك كل الكتب على وجه الأرض. وكان (مايكل) حريصا على اختيار الفنادق التي يكون فيها مغطس ماء كبير؛ لأنه حريص على طقوس الماء.

كانت (باتريشيا) - المرأة الموشومة - من أتباع كنيسة (فوستر)، وكانت تؤمن أن الشابين صالحان لينضما إلى تلك الجماعة الدينية العجيبة. بل إنها كانت تحتفظ تحت ذقنها بوشم يمثل ميلاد (فوستر) الذي تعتبره كبير الملائكة. ثمة وشم يمثل معجزته الأولى حين أطلق خاطئ صغير من المدرسة الرصاص على عصفور صغير، فأمسك بهذا العصفور القتيل ومسح عليه فطار.

قالت لهما:

- لم يكن كبير الملائكة (فوستر) يعرف أنه رجل مقدس حتى سن المراهقة.. برغم أنه قام بمعجزات عديدة قبل هذا..

كان وشم المرأة يعجب (مايكل).. فقد كان يعطيها طابعا خاصا، وربما يجعلها أقرب إلى المريخيين.. بهذا كانت تختلف عن ذلك التماثل الممل للبشر الآخرين. أما (جيل) فكانت تعتقد أن المرأة كانت ستكون أجمل لو لم تحول نفسها إلى قصة (كوميكس) حية.. لكن هذا على الأقل مصدر رزق لها، ولسوف يظل كذلك إلى أن تصير عجوزا قبيحة لا يعبا أحد بالنظر لها حتى لو كان (رمبرانت) هو الذي رسم ذلك الوشم عليها.

قام (مايكل) بعرض سحري صغير في خيمتهما.. إذ رفع المرأة عن الأرض.. مما أصابها بالذهول.. كانت متأكدة من أنه لم يستعمل أية حيلة، لذا اعتقدت أنه ملاك آخر.. لكن (مايكل) اعترف لها بأنه الرجل من المريخ.. وقد قبلت المرأة هذه الحقيقة، لكنها أصرت على أن تعتبره (باحثا عن الحقيقة) مثلما كان (فوستر) في شبابه.

قالت له (جيل) عن طريق توارد الخواطر وهي الطريقة التي تعلمتها للتفاهم معه:

((مايكل).. نحن بحاجة إلى كأس من الماء)

(؟؟؟؟؟؟؟)

(نعم)

(أخو ماء.. صديق)

هكذا نفذ (مايكل) ما تقول.. ارتفع كأس من الماء في الهواء واتجه تحت الصنبور ثم حلق إلى يد (مايكل).. وكانت (باتريشيا) تراقب هذا دون كلام.. لقد تجاوزت الآن حد الدهشة.

قالت لها (جيل):

- هذا طقس مريخي.. إنه يعني أنك تثقين بنا وأننا نثق بك.. وأننا شركاء دوما الآن وإلى الأبد.. إنه طقس بالغ الأهمية ومتى تم فلا يمكن أن يخرق.. لكن ليس عليك أن تشاركينا طقوس الماء ولسوف نظل أصدقاء.. نحن لا نؤمن بجماعة (فوستر) هذه ولن ننضم لها أبدا، لكن بوسعك أن تعتبرينا باحثين عن الحقيقة كما تريدين.

قال (مايكل):

- أتمنى لو شرحت لك الأمر بالمريخية، لكن لو كان لديك أي سبب نفسي أو ديني يمنعك من شرب الماء معنا فلا تفعلي..

وافقت المرأة فشربت (جيل) جرعة من الماء وقالت:

- نحن نزداد قربا.

ثم ناولته لـ (مايكل) الذي نظر للمرأتين وقال:

- أشكرك على الماء يا أخي.. وشرب جرعة ثم ناول الكأس لـ (باتريشيا) وقال: (بات).. انا أعطيك ماء الحياة.. لتكن شربتك عميقة أبدا.

وشربت المرأة الماء وهي تشكرهما.. هكذا صارت أخاهما المائي.

☆ ☆ ☆

-16-

إذ انغلق باب جناحهما وقد رحلت (باتريشيا) قالت (جيل):

- والآن يا (مايكل)؟

- سوف نرحل يا (جيل).. بالمناسبة أنت قرأت علم النفس.. أليس كذلك؟

- بلى.. أثناء تدريبي.. لكن ليس بسعة قراءاتك أنت..

- هل تعرفين ما يرمز إليه الوشم والثعابين؟

- أعرف..

- إذن اجمعي حاجياتك واختاري الثوب الذي تريدين، وسوف أتخلص من المهملات التي لدينا..

كانت (جيل) تعتقد في حزن أنها ترغب في أخذ شيء أو اثنين من حاجياتها، لكن (مايكل) كان يفضل أن يسافرا وليس معهما إلا الثياب التي عليهما.

- سآخذ الثوب الأزرق..

من ثم طفا الثوب نحوها ثم مشى حذاءان يناسبان اللون ذاته، وانتظرا حتى وضعت قدميها فيهما.

قالت له وقد تذكرت شيئا:

كم أتمنى لو تطلق عليّ أسماء تدليل من حين لآخر كما أفعل معك.

- ليكن.. ولكن أية أسماء تدليل؟

قبلته بسرعة وقالت:

- أوه.. (مايك).. أنت ألذ وألطف إنسان قابلته وأكثر مخلوق يثير الغيظ على الكوكبين معا! لا تهتم بأسماء التدليل.. فقط سمني (الأخ الأصغر) من حين لآخر..

- حسن يا أخي الأصغر.

- والآن هلم بنا.. سأدفع الفواتير أولاً.

وهكذا اتجها إلى المحطة وركبا أول حافلة متجهة إلى أي مكان. بعد فترة ظهرا في (لاس فيجاس) حيث جرب (مايكل) كل الألعاب في الكازينو، على حين عملت (جيل) كفتاة استعراض في (بابل الغرب). ولم تكن تستطيع أن ترقص أو تغنى لذا كان العمل الذي تقوم به كفتاة بارعة الجمال هو أن تقف وهي تضع على رأسها قبعة لا تناسبها وتبتسم. وقد أثار دهشتها أنها تحب هذا ثم أدركت أن السبب الحقيقي هو أن (مايكل) لا يفهم الجمال الأنثوي ولا يقدّره، لذا كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يقدمه لها.

أما عن (مايكل) فكان حريصا على ألا يربح طيلة الوقت في (كازينو) واحد، وكما علمته (جيل) كان يربح بضعة آلاف ثم ينسحب قبل أن يلفت الأنظار. ثم وجد عملا كمدير لعبة حيث راح يمضي الوقت في مراقبة اللاعبين محاولاً فهم Grok غريزة القمار، وقد أدرك أنها نوع من الشهوة لا تخلو من إثم كبير. كان أداؤه طبيعيا لكنه كان يكره لمس أي إنسان ليس أخا ماء له.

كانت قد جعلته يزيد من خشونة ملامح وجهه ليتخلص من ذلك الوجه الطفولي شبه الأنثوي المثير للريبة.

إلا أن (جيل) كانت مضطربة لأن (مايكل) عامة لم يكن يفهم معنى الغيرة عليها، وقد سألته عما سيفعله إذا تحرش بها أحد المشاهدين، فقال دون أن يبتسم:

- أعتقد أنه سوف يختفي..

- م م م! أنا أدرك ذلك أيضا.. لكنك وعدتني أنك لن تفعل شيئا كهذا ثانية إلا للضرورة القصوى.. إلا لو سمعتني أصرخ وأقاوم ودخلت عقلي لتدرك أنني في مشكلة حقيقية..

لكنها لم تستطع أن تجعله يفهم معنى الغيرة كما نعرفه نحن، وبرغم أن المحاورة دارت بالمريخية لأن تلك اللغة أكثر دقة في التعبير عن المشاعر.. إلا أنها عاجزة عن التعبير عن المفاهيم.

وأثناء العرض راح (مايكل) يسليها بحيلة أخرى، هي أن ينقل لها ما يراه وما يفكر فيه كل واحد من الجماهير نحوها.. وقد أثار دهشتها أن ترى مدى اختلاف الصورة التي يراها الناس عن تخيلها هي لنفسها..

هكذا راحا يتنقلان بين مدينة وأخرى. وقد راح يطالع بعض الكتب الدينية مثل القرآن والتوراة والإنجيل كما قرأ كتاب الموتى وكتاب الغصن الذهبي والطريق وكتاب (المورمون Mormon) والكاما سوت Sutra - Kama وحتى المذاهب العجيبة مثل (كتاب قانون كراولي).

قال لها ذات يوم وهو جالس بين الكتب:

- أنا لا أستوعب يا (جيل).. في الحقيقة أنا لست بشريا.. أنا مريخي له شكل غريب يختلف عن المريخيين.. نحن في المريخ لا نعرف الأديان وحينما تحيرنا بعض الأسئلة نستشير الكبار القدامى.. هل السبب هو أننا في المريخ نشعر بأننا نموت كلية إذ نموت؟ لا شيء يبقى منا؟ هلّا شرحت لي؟ أنت بشرية..

قالت له باسمة:

- أولا أنا أعتبرك بشريا كاملاً.. ثم إنك تفهم معنى الأبدية والحياة بعد الموت.. أنت لا تموت ولكن (تفقد اتحادك).. أنت علمتني هذا المفهوم. سوف أفارق هذا الجسد لكني لن أموت..

قال لها:

- سوف أكلك يوم تفقدين اتحادك.. ما لم أفقد اتحادي أولا..

ثم أضاف:

- قرأت الكثير مما عرفه علماؤكم.. وهي أشياء بدائية عرفتها وأنا بعد في العش.. لكن هذا ليس ما أريد.. لا يمكن أن تعرفي كنه الصحراء بمجرد أن تعرفي عدد حبات رمالها.. عندكم فلاسفة مثل (كانط Kant) وهم يحاولون الوصول للحقيقة عن طريق استخدام استنتاجاتهم الخاصة.. هؤلاء أعتبرهم (مطاردي ذيولهم)..

ثم أضاف:

- لم أفهم قط لماذا يضحك البشر.. ذات مرة كنت أعاملك بلطف فوجدتك تضحكين وتضحكين حتى خفت عليك.. لم

أتعلم الضحك قط.. لكنك نسيته أيضا.. بدلاً من أن تجعليني أرضيا صرت أنت مريخية..

- لو كنت قد ضحكت لكنت لاحظت هذا.. على كل حال ما أرغب فيه حاليا هو أن نزور حديقة الحيوان..

- لك هذا..

- أريد أن أتحدث إلى الجِمال وأسألها عما يضايقها.. لربما كانت الجمال هي (الكبار القدامى) الحقيقيون هنا..

هكذا اتجها إلى حديقة (جولدن جيت).. كان الطقس باردا لكن (جيل) تعلمت من (مايكل) أن بوسعها ألا تشعر بالبرد إذا لم ترد هذا، لكنهما دخلا إلى بيت القردة لأنه دافئ نوعا. إلا أنها لم تحب بيت القردة.. فقد كانت تلك الحيوانات تحمل ملامح شبه بشرية إلى درجة تبعث الاكتئاب.

أحبت بيت الأسود أكثر لأن هذه الوحوش كانت متغطرسة أكثر ثقة بالنفس، وهذا الجمال المتسلط لنمور البنغال التي تطل الأدغال من عيونها، وتلك الرائحة التي لا تقدر مكيفات الهواء على إزالتها. أما (مايكل) فشعر بالشيء ذاته بالنسبة لبيت الزواحف لأنه ذكره بكوكب المريخ والقوم الذين ربوه.

وكان (مايكل) قد فقد صوابه حينما رأى حديقة الحيوان أول مرة وكاد يطلق سراح الحيوانات كلها لولا أن (جيل) أقنعته بأن هذه الحيوانات قد تموت، لأنها غير مؤهلة لتحمل المناخ الذي ستخرج له. ثم أقنعته أن القضبان مخصصة لحماية الحيوانات من البشر.

راحت (جيل) تلقى بالفول السوداني متجاهلة لافتات (لا تطعم الحيوانات). ألقت بواحدة لقرد متوسط الحجم، وقبل أن يتلقفها وثب عليه ذكر أضخم حجما فسرق الفول منه وضربه أيضا. ولم يحاول القرد صغير الحجم أن يلحق بمعذبه.

راح (مايكل) يرقبه في حزن.. هنا نهض القرد الأصغر حجما وبحث عن قرد أصغر منه، وأعطاه علقة ساخنة أسوأ مما تلقاها هو، وبعد هذا بدا عليه الاسترخاء.

هنا فقط طوح (مايكل) برأسه للوراء وانطلق يضحك بصوت عال.. وبلا سيطرة على نفسه. راح يشهق طلبا للهواء والدموع تتساقط من عينيه. ثم سقط على الأرض من فرط الضحك.

- توقف يا (مايك)!

وهرع أحد الحراس يسألها:

- هل أساعدك يا سيدتي؟ يبدو كأنه مصاب بنوبة..

- لا.. بل نعم.. نريد سيارة أجرة.. يجب أن أخرجه من هنا فهو ليس على ما يرام.

بعد ثوان كانت تركب سيارة طائرة مع (مايكل). وسرعان ما جرته لشقتهما وهو ما زال يهتز. نزعت ثيابه وفركت عينيه وقالت:

- خذ راحتك يا حبيبي.. انسحب لو كنت تريد هذا..

- أنا بخير يا أخي الصغير..

- لكنك أثرت هلعي..

- أنا أفهم grok البشر الآن.. أفهمهم يا أخي الصغير.. أنا أعرف الكلمات كلها لكني كنت غير قادر على فهمها.. الآن أفهمها.. أفهم النكات.. أفهم البشر.. أعرف لمَ يضحكون.. يضحكون لأنهم يتألمون جدا.. لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يوقف الألم..

قالت له في حيرة:

- يبدو أنني لا أنتمي للبشر.. فأنا لا أفهم..

- بل تفهمين.. لقد كبرت مع هذه الأشياء فصارت مسلمات لديك.. أنا تربيت ككلب أُبعد عن الكلاب فلم يستطع أن يصير كسادته ولم يستطع قط أن يصير كلبا.. لذا علمني أخي (محمود) وعلمني (جوبال) وأنت قمت بالدور الأكبر.. اليوم تخرجت وضحكت.. في المريخ لم نكن نضحك لأن كل الأشياء التي تعتبرونها مضحكة لا تحدث أو لا يُسمح لها بأن تحدث..

سألته في حذر:

- أي شيء مضحك؟ كان القرد الكبير منحطا.. وكذلك تبين أن الصغير منحط..

- نعم.. لقد رأيت في قفص واحد كل الأشياء التي أثارت دهشتي منذ عودتي لقومي.. فشعرت فجأة بأن الألم عظيم وضحكت..

- لكن الناس لا تضحك إلا لمشهد لطيف..

- كان مظهر الفتيات في العرض الراقص لطيفا، لكن أحدا لم يضحك.. لقد ضحكوا حينما سقط أحد الممثلين على الأرض، وهذا لم يكن مشهدا لطيفا.. أريد أن تحكى لي بعض النكات.. أكثر النكات التي أثارت ضحكك وسأرى إن كنت أفهم..

عبثا راحت تحكى له النكات التي حسبتها ظريفة يوما بلا جدوى.. وهكذا شعرت بالقنوط.. وفي الليل نهضت فرأت أنه يقف خلف النافذة يرمق المدينة..

(هل من مشاكل يا أخي؟)

قال لها:

- لا أفهم لماذا يجب أن يكونوا تعساء.. ألم ومرض وجوع وحروب.. لا داعي لشيء من هذا كله.. إنها حماقة كحماقة القردة..

- هذه المدينة بها خمسة بلايين شخص. ليس بوسعك إنقاذ خمسة بلايين..

- إنني أتساءل...

☆ ☆ ☆

الجزء الرابع

عن مهنته المخزية

-17-

في الآونة الأخيرة كان (جوبال) يشعر بالملل.. هناك أخبار كثيرة عن (مايكل) مؤخرا لكنها محبطة جميعا. كان (مايكل) و(جيل) يزورانه من آن لآخر.. لكن زياراتهما بدأت تنقطع. عرف أن (مايكل) بمساعدة (دوجلاس) قد التحق بالقوات المسلحة تحت اسم مستعار هو (جونز). وقد أنهى حياته في الجيش بعد ثلاثة أسابيع حينما وجه بعد التدريب أسئلة محرجة عن جدوى القوة والعنف، وقال إن مشكلة زيادة تعداد السكان يمكن حلها عن طريق أكل لحوم البشر. وعرض أن يجربوا أي سلاح يريدون عليه ليبرهن لهم أن القوة لا تجدى مع شخص يتحكم جيدا في نفسه. لكنهم لم يقبلوا عرضه وطردوه من الجيش. قال له (دوجلاس) إن هناك شهود عيان رأوا أسلحة تختفي من أمام المجند (جونز) بلا تفسير.. ويقول التقرير في نهايته إن المجند يملك بعض المواهب لكنه فاشل تماما في الالتحام القتالي، وذكاءه محدود تماما، كما إنه يعاني من هلاوس عظمة لذا رأى التقرير أن يطرد من الجيش، بلا معاش ولا أية مزايا.

وقد عرف (جوبال) أن (مايكل) عاد للبيت سعيدا لأنه بر بوعده الذي قطعه لـ (جيل) بألا يجعل أي واحد يختفي. برغم أنه لو كان حرا من هذا الوعد لجعل العالم مكانا أفضل. وقد وافقه (جوبال) على هذا الرأي لأنه كان يملك قائمة (أفضل وهو

ميت) الخاصة به. إلا أن (مايكل) قد نال بعض المرح برغم هذا، ففي اليوم الأخير وفي استعراض عسكري فقد الجنرال ومساعدوه سراويلهم فجأة، أما الرقيب الذي يرافق (مايكل) فقد سقط على وجهه حينما التصق حذاؤه بالأرض.

كان (جوبال) يؤمن أن هذا ضروري لـ (مايكل) لأن الفتى يمر بحالة طفولة متأخرة، لكن أن يصر اسمه (الموقر د. فالنتين مايكل سميث) مؤسس وراعي جماعة (كل العوالم) الدينية! رباه! هذا يفوق كل شيء.. والأسوأ أن (مايكل) يقول إنه استوحى الفكرة من مناقشة دارت بينه وبين (جوبال).. لا يذكر (جوبال) تلك المناقشة لكنه لا يستبعد أن يكون قد تكلم في الموضوع لأن هذه آراؤه فعلاً.

صحا (جوبال) من خواطره على صوت السكرتيرة (ميريام) تخبره أن عربة تهبط في الحديقة..

- هاتي لي البندقية.. لقد أقسمت أن أطلق الرصاص على أول عربة دورية تهبط فوق حوض الورد..

- لكنها تهبط فوق العشب وهي ليست عربة دورية..

- إذن قولي له أن يكرر المحاولة.. فلسوف أصيبه في المرة القادمة..

- هذا (بن كاكستون)..

- هو؟ إذن سنتركه يعيش.. هذه المرة.. ماذا تشرب يا (بن)؟

- لا شيء يا (جوبال).. فقط أريد أن نتحدث بشكل منفرد..

هكذا اتجه الرجلان إلى مكتب (جوبال) بالطابق العلوي عبر ممر يعج بالتماثيل التي يصر (بن) على أن يسميها تماثيل ويصر (جوبال) على تسميتها (نحت).

كان (كاكستون) عازفا عن الكلام كأنما هو يجد صعوبة في بدء الموضوع.. هنا أخبره (جوبال) إنه يعاني بعض المشاكل لأن سكرتيرته (ميريام) تزوجت وحامل.. ومن هذا الرجل السعيد؟

- أليس الأمر واضحا؟ أنه ذلك الرجل ناعم القول.. أخونا المائي (محمود).. قلت له إنه يجب أن يعيش في بيتي ما دام في هذا البلد، فابتسم الوغد وقال: وأين تحسبني أنوي العيش؟ يبدو أنني دعوته منذ زمن للإقامة للأبد في هذا البيت.. لا بأس.. على الأقل سأظفر منها ببعض العمل.. إنها تدرس العربية بسرعة محمومة كي تصلح لهذا الدور.. بالمناسبة أنا لم أخبرك بشيء حتى إذا أخبَرَتك هي حرصت على أن تظهر أعنف علامات الدهشة على وجهك.. المشكلة أن هذا البيت يزداد فوضى منذ أفقدت (جيل) (مايكل) توازنه. وصار عليّ أن أفقد سكرتيرات ممتازات وأطفالاً.. ثم رحل (دوك) الذي كان يقوم بكل شيء تقريبا..

- إذن أنت تعتقد أن (جيل) هي التي حامت حول (مايكل) حتى ظفرت به؟ أنت لا تعرف كيف يعمل عقلها.

- لست متأكدا من أنني أعرف كيف يعمل عقلي أنا نفسي.. وبرغم هذا يعطونك عمودا في صحيفة واسعة الانتشار.. أتمنى أن يعود (مايكل) هنا وينسى هذه الجماعة الدينية الغامضة التي كونها..

قال (كاكستون):

- م م.. الحقيقة يا (جوبال) إنه لا يفعل هذا بالضبط.. لقد جئت لتوي من هناك..

- لماذا لم تخبرني؟

- لأنك كنت راغبا في التغني بمآسيك في الحياة.. ثم أردت أن تثرثر.. لقد عدت من تغطية مؤتمر (كيب تاون) فقررت زيارتهما.. لكن ما رأيته أثار قلقي.. ألا يمكنك أن تتصل بـ (دوجلاس) من أجل وقف هذا النشاط؟

هز (جوبال) رأسه وقال:

- قبل أي شيء.. لن أفعل.. والآن قل لي ماذا يفعل (مايكل)؟

- لو رأيت لحاولت منعه معي.. إن (مايكل) يثق بكل ما تقوله أنت، ولا يسأل عن قراراتك بل لا يفهمها أصلا.. إنه ينفق مبالغ طائلة من ميراثه..

قال (جوبال):

- بالعكس.. الفتى لم يسحب مليما مما يملكه منذ عام.. إن (دوجلاس) هو المشرف على ثروته كما تعلم.. ولكن ما نشاط هذه الجماعة الدينية التي كونها؟

- هي ليست جماعة دينية بالضبط.. بل هي أقرب إلى مدرسة لغات..

- كرر ما قلته..

- مدرسة لغات تعلم اللغة المريخية..

- اسمع يا (بن).. بالنسبة للقانون دار العبادة هي دار عبادة طالما قال البعض إنها مهمة لإيمانهم وطقوس عبادتهم.. هناك معابد في (الملايو) لا يرى فيها الغريب مثلنا إلا مأوى للثعابين..

- (مايكل) يربي الثعابين كذلك حرفيا ورمزيا.. لكن ما الحدود هنا؟

- دار العبادة حسب القانون لا تطلب أتعابا لقراءة الطالع أو طرد الأرواح.. لكنها تتقبل الهبات.. أحيانا تتكفل العادة بتحويل الهبات إلى أتعاب.. القرابين البشرية ممنوعة قانونا لكني لست متأكدا مما إذا كانت لا تمارس على (أرض الأحرار ووطن الشجعان) [1] هذا.. لكن هل يمارس (مايكل) شيئا قد يودي به إلى السجن أو المشنقة؟

- ربما يتعلم من اتباع (فوستر) كيف يفلت من أي موقف.. لكن المشاكل قد تمس إخوته المائيين..

- هل تعني أن عليّ أن استعد للمشاكل؟ هل يجب أن أحشو ضرسي بالسم تحسبا لاحتمال اعتقالي؟

- إن أعضاء الدائرة الداخلية يعرفون كيف يفقدون اتحادهم بإرادتهم الخاصة فلا داعي للسموم.. إن المكان الذي أنشأه (مايكل) هو متاهة بها قاعة محاضرات كبيرة وغرف صغيرة للقاءات وغرف للمعيشة.. الكثير منها.. كانت هناك كاميرات وأبواب تفتح أوتوماتيكيا.. صدقني لو أن فرقة اقتحام داهمت المكان ما استطاعت الوصول إلى الداخل.. تصور أن هناك أناسا يحسبونك تعيش في منزل غريب الأطوار.. هنا تجد نفسك أمام

امرأة موشومة تلتف بأفعى.. يبدو أنها كاهنة أو شيء من هذا القبيل واسمها (باتريشيا).

- آه.. نعم.. (جيل) حكت لي عنها..

- قالت إنها ستجعل مني أخا ماء لها.. قالت كذلك إنها تتمنى أن يحنطوها حينما تموت ليظل وشمها للأبد تحية لـ (جورج)..

- (جورج)؟

- زوجها المتوفى.. لكنها تتحدث عنه كأنما هو غادر البيت لفترة قصيرة ليبتاع مشروبا.

كانت زيارة (كاكستون) لجماعة (مايكل) زيارة عجيبة حقا.. لقد اقتادته تلك المرأة (باتريشيا) وهي تضع الثعبان حولها إلى حجرة معيشة كبيرة، حيث فوجئ بأن هناك أوعية مليئة بالمال.. كانت تحوي مبالغ تفوق تصوره، وقد رأى ورقة عليها ثلاثة أصفار ملقاة على الأرض بإهمال.. لم يستطع الفهم فقالت له المرأة:

- هذا المال هنا في حالة ما إذا قرر أحد المقيمين في العش الخروج والتسوق، يأخذ ما يريد من مال..

- هل تعنين أنه يقبض على رزمة أوراق ويخرج؟ بهذه البساطة؟

- ليس بيننا من يريد مالاً أكثر من حاجته.. وما الداعي للسرقة ما دام المال ملكنا جميعا؟ بل إنه ملكك أنت أيضا ما دمت أخا ماء لنا..

- وماذا عن اللصوص؟

- لقد زارنا بعضهم لكن (مايكل) تكفل بهم..

- هل تعنين أنه أسلمهم للشرطة؟

- لا.. لقد جعلهم.. يختفون.. بعد هذا أصلح (دوك) الفجوة التي صنعوها.. سمعت أن عندك في شقتك بـ (واشنجتون) سجادة تشبه العشب.. (مايكل) حكى لنا عنها.. هل تسمح لي بزيارتك يوما لأمشي عليها. أنام عليها؟

- بالتأكيد يا (باتي)..

قالها وهو يتذكر ما قاله (مايكل) عن شيوعية المال في المريخ.. لا بد أن هذه الأوعية المليئة بالمال هنا تمثل مرحلة العبور من شيوعية المريخ إلى رأسمالية الأرض.

سألها:

- وكم منكم في العش الآن؟

قالها وهو خائف من أن يجد نفسه مجبرا على مشاركة أخوة كثيرين فرضوا عليه برغمه، لكنها قالت:

- دعني أخمن.. حاليا هناك اثنا عشر.. أنا و(جيل) كاهنتان ندرس اللغة المريخية هنا.. وقد شرحنا للناس أن هذا لا يتعارض مع إيمانهم..

كانت تلبس ثوبا طويلاً أبيض لا يختلف عن رداء الشهود العدول، فيما عدا أن عليه علامة (كل العوالم) التي تمثل تسع دوائر متداخلة، مع شمس فوق قلبها. وعرضت عليه أن يحضر محاضرة (مايكل) فمشى معها عبر ردهة طويلة إلى قاعة واسعة.. لكن لا محراب ولا مذبح. فقط منصة للمحاضرات وشعار (كل العوالم) على الجدار.. وكانت هناك امرأة تبدو كـ (جيل) وبذات جمالها، لكنها لم تكن هي.. كانت تدعى (دون أردان)..

بدأ (مايكل) يتكلم بهدوء، ولم يكن يرتدى ثيابا خاصة.. كان يتكلم كأنه بائع سيارات مستعملة بارع.. كان يحكى بعض النكات وبعض القصص ذات المغزى الأخلاقي.. أكثر ما تكلم عنه كان وحدة الوجود Pantheism.. كان من ضمن القصص التي

حكاها تلك القصة القديمة عن دودة الأرض التي قابلت وسط التربة دودة أرض أخرى فقالت لها: ما أجملك! هل تتزوجينني؟

فقالت الدودة الأخرى: أتزوجك؟ إنني طرفك الآخر!

وسأل (كاكستون) (جوبال) عند هذا الجزء:

- هل سمعت هذه القصة من قبل؟

- سمعتها؟ أنا الذي كتبها!

- لم أعرف، أن القصة قديمة لهذه الدرجة.. كانت فكرة (مايكل) هي إنك حين تقابل مخلوقا آخر رجلا أو امرأة أو قطة فأنت في الحقيقة تقابل طرفك الآخر..

قال (جوبال):

- هذا الخلط بين فلسفة السوليبسيزم والبانثستية.. هذا الخليط يمكن أن يفسر أي شيء ويخفى أية حقيقة.. المشكلة أنه كحلوى غزل البنات.. مذاق بلا مادة.. كأنك تجد حلاً للقصة بأن تكتب: وسقط الصبي على الأرض واكتشف أنه كان يحلم..

واصل (كاكستون) سرد القصة، فقال إن (مايكل) اتجه إلى غرفة أخرى، تضم أولئك الذين ترقوا إلى الدائرة السابعة من تسع الدوائر.. قال إن (مايكل) بدا أكثر حدة وطولاً، وإنه كان يرتدي عباءة طويلة.. يقسم (كاكستون) أن عيني (مايكل) كانتا تتوهجان.. هذه المرة كانت هناك موسيقا مخيفة لكنها تجعلك ترغب في الرقص، وليس بوسعك أن تعرف ما كان يدور لأنهم كانوا يغنون بالمريخية.

- وهل كل الأمر مجرد مجموعة حمقى يتبادلون الصراخ؟

قال (كاكستون) إن الأمر لم يكن كذلك.. كانوا يتهامسون ثم يتعالى الصوت كأنهم قاموا بهذه البروفة عدة مرات قبل هذا. قال (جوبال):

- هذا هو الأسلوب (الأبوللوني Apollonian).. هادئ ومتزن، لكنه يمكن أن يتحول إلى الأسلوب (الديونيسي Dionysian) الصاخب المنفلت في أية لحظة.. أنا أرى الأسلوبين وجهين لعملة واحدة.. أكمل..

قال (كاكستون) إن الأضواء كانت خافتة، لكن (مايكل) راح يؤدي بعض الفقرات الصغيرة المبهرة كأنه حاو في سيرك، ولابد أن هذا الفتى يجيد التنويم المغناطيسي، لأن أسدا ظهر فجأة وهو ينام في استرخاء، بينما يلعب حملان صغيران حوله. لم يكن الأسد يفعل إلا التثاؤب.. لكن هذا كان وهما طبعا..

- لماذا تصر على أنه وهم؟

- فقط حاولت أن أكون ملاحظا ذكيا.. وقد جلست أراقب هذا كله في استمتاع، بينما (مايكل) يجرب بعض حيل رفع الأجساد. أعتقد أنه يتعامل مع صور تلفزيونية مجسمة.. ثم انطفأت الأضواء وعادت، وهذه المرة كانت (جيل) هناك..

ومع كلمات (مايكل) كان لون ثوبها يتغير مع كل كلمة..

دنت من (بن كاكستون) وقالت له في دفء:

- أيها العزيز.. لقد افتقدتك كثيرا..

قال لها:

- لقد تقدم (مايكل) كثيرا.. أحسبه قادرا الآن على أن يبيع أحذية للثعابين..

- أنا متأكدة من أنه يستطيع لكنه لن يفعل لأن هذا خطأ.. الثعابين لا تحتاج لهذا.. نحن بحاجة إلى أن تكون معنا هنا.. أفهم grok أنك بحاجة إلى بعض الوقت للفهم.. ربما بعد أسبوعين أكرر السؤال نفسه..

- لن أكون هنا بعد أسبوعين.. فأنا مشغول جدا..

قالت له:

- ليس هذا معبدا لأن هذا يناقض المفهوم المريخي للأمور.. نحن لا نحاول إنقاذ أرواح الناس لأننا نؤمن بأن الأرواح لا تضيع.. ما نقدمه هنا هو الحقيقة.. نعرضها على الناس ولا نطلب منهم أن يصدقوها.. نحن نقدم الحقيقة العملية المفيدة كأنها رغيف من الخبز.. عملية لدرجة تجعل من الحرب والجوع والعنف أشياء لا داعي لها.. لكن لا بد أولا من تعلم اللغة المريخية.. هذا هو الجزء الصعب في الأمر.. الموسيقار لا يمكنه كتابة سيمفونية باستعمال اللغة الإنجليزية.. لكن (مايكل) ليس متعجلا.. إنه يرى المئات لينتقي منهم العشرات.. وهكذا يزداد عدد الأتباع في هذا العش.. ويوما ما سيكون بعضنا متدربين جيدا بحيث يصير بوسعهم الخروج وبدء أعشاشهم الخاصة.. وبهذا تبدأ كرة الجليد..

هنا جاءت المرأة الأخرى (دون) وقدمت له طبقا فيه طعام العشاء.. ضايقه أنها جلست جواره لا أمامه لأنها كانت بارعة الجمال.

قالت المرأة:

- لسنا مدربين جيدا بعد.. مثلاً نحن هنا نأكل بينما (مايكل) لم يأكل منذ عشرين ساعة، ولن يأكل طالما هناك من يحتاج إليه..

هنا قالت (جيل):

- هل لاحظت أنني و(دون) صرنا متشابهتين جسديا من حيث المقاييس والوزن والطول؟ بمساعدة (مايكل) صرنا شبيهتين ولسوف نبقى كذلك.. لقد جاء هذا نتيجة أننا نقوم بذات الأشياء ونفكر في ذات الأمور..

قال (جوبال):

- حقا لقد تغير الصبي كثيرا..

قال (كاكستون):

- لا أعتبره صبيا بعد اليوم يا (جوبال)..

☆ ☆ ☆

صحا (بن) من نومه عاجزا عن تبين أين هو.. ولا كيف قضى ليلته.. فقط أخبرته معدته أن وقتا طويلاً قد مر منذ موعد الإفطار.

اتجه إلى المطبخ ففوجئ هناك بـ (دوك) الذي كان خادم (جوبال).. وهو في الوقت ذاته حارس بيته والبستاني

والميكانيكي..

احتضنه (دوك) كأنه دب ثم صفعه على ظهره وهتف:

- (بن).. وجهك يريح العيون المتقرحة.. جميل أن أراك! كيف تحب أن تأكل البيض؟

- وهل أنت الطاهي؟

- فقط حينما لا أجد من يؤدي لي هذا الدور كما هو الحال الآن.. كلنا نمارس الطهي هنا.. حتى (مايكل).. لكن (مايكل) أسوأ طاه في العالم..

ثم بدأ يكسر البيض في طبق.

قال له (بن):

- تول أنت أمر التوست والقهوة.. سأكمل الطهي.. وماذا تفعل هنا يا (دوك) إلى جوار الطهي؟

- سأكون كاهنا يوما ما.. لكني بطيء كما تعلم.. أتعلم اللغة المريخية وأصلح ما يفسد هنا..

- لا بد أن هذا مجهود كبير مع مكان بهذا الحجم..

- سوف تندهش لو رأيت مدى قلة العمل المطلوب منك.. إن (مايكل) يعالج مشاكل السباكة.. لكن ٩٠٪ من الأجهزة في هذا البيت منحصرة في المطبخ..

جلسا يأكلان، هنا سأله (دوك):

- أنت باق معنا.. أليس كذلك يا (بن)؟

- لا أعرف كيف يمكنني ذلك..

- لا تقلق.. سوف تعود.. لا تتخذ قرارات قبل طقوس الماء الليلة.. أنت تعرف أننا من الدائرة الأولى..

- دائرة أولى؟

- الذين صاروا إخوة ماء لـ (مايكل) من دون أن يحتاجوا لتعلم المريخية.. هناك من تعلموا المريخية وصاروا يفكرون بها.. أنا متأخر عنهم لأنني جئت العش متأخرا لكن لا حاجة بي إلى تعلم المريخية على كل حال..

هنا دخلت (جيل) المطبخ فحيّت (بن).. وأشارت إلى أدوات طعام فارتفعت في الجو لتستقر أمامه.. قال لها منبهرا:

- يبدو أنك تعلمت شيئا أو شيئين من هذه الحيل..

قالت في دهشة:

- أنا؟ لا.. أنا مجرد بيضة في هذا العش.

- وكيف فعلت هذا؟

همست به بالمريخية.. أولا يجب أن تفهم الشيء ثم تفهم ما تريد له أن يكون.. (مايكل).. نحن هنا!

دخل (مايكل) المطبخ واتجه نحو (بن) فصافحه.. ثم أوقفه على قدميه وهتف:

- جميل أن أراك يا (بن).

- وأنا مسرور بوجودي هنا..

- ونحن سنلوي ذراعك لنرغمك على البقاء معنا.. ماذا عن ثلاثة أيام لا أكثر؟

- أنا مشغول جدا يا (مايكل)..

- سنرى.. الجميع هنا متحمس من أجل الحفل الذي سنقيمه لك الليلة..

كان (مايكل) يلبس ذات الحلة التي رآه بها أمس.. لكنه لا يلبس حذاء وقد جلس على أريكة وجذب (بن) ليجلس جواره. وقال:

- أنا مدين لك أنت و(جوبال) و(جيل) أكثر من أي شخص على هذا الكوكب، وبرغم هذا أنت هنا منذ أمس ولم أستطع إلا أن أرحب بك الآن.. تبدو لي مكتمل اللياقة.

بدأ (مايكل) يتكلم عن تفاصيل حفل الليلة.. تفاصيل غامضة.. يبدو الأمر كأنه نوع من الاحتفال شبه الديني كما كانت القبائل القديمة تفعل.. وبدأ (بن) يشعر بقلق عارم..

هذا الجو العام لا يريحه بل يثير توتره.

لا يعرف متى ولا كيف شعر بأنه موشك على فقدان التحكم في معدته..

ولا يعرف ما فعله بعد ذلك.. كان يركض نحو الباب.

☆ ☆ ☆

-19-

قال (جوبال):

- ماذا فعلت عندئذ؟

- هربت فورا.. من دون أن ألفظ كلمة الوداع حتى كدت أقتل نفسي في أنبوب الارتداد.. أنت تعرف تلك الأنابيب..

- بل لا أعرفها..

- ما لم تضبطها على مستوى ارتفاع معين فأنت تغوص عندما تقفز عليها.. لكني لم أغص بل سقطت من على ارتفاع ستة طوابق.. لكن حينما حسبت أنني قمت بآخر خطأ لي بدأ أنبوب الغاز يهبط ببطء.. لا بد أن (مايكل) طور هذا الاختراع..

- لن أستعمل إلا الدرج العادي أو المصعد في حياتي كلها..

- الشخص الوحيد المسئول عن السلامة هناك هو (دوك) وبالنسبة له كل ما يقوله (مايكل) مقدس.. (جوبال).. أنا أرى أن هذا المكان مندفع كله نحو كارثة بسبب رجل واحد.. (مايكل)..

- باختصار.. ماذا يسبب لك المغص في هذا كله؟

- هل تقبل هذا المجتمع العجيب في غرفة معيشتك؟

- القضية هنا هي أن هذا لا يحدث في غرفة معيشتي بل يحدث عند (مايكل) في بيته وهو حر.. فما شأننا نحن؟ حينما تدخل بيت رجل فعليك أن تقبل أسلوب إدارته للدار. هذا قانون عالمي للسلوك المتحضر.. ثم إن رد فعلك كان بطيئا.. أنت

زرتهم وجلست معهم ثم خرجت لتقول إنك لم تحب ما رأيت.. في رأيي كان عليك أن تعلن هذا النفور منذ اللحظة الأولى لدخولك، لا أن تنتظر حتى تستمتع بوقتك ثم تعلن هذا.. وأرى أن خطأ (مايكل) هو أنه لم يتبين نفورك من هذا كله، لكنى أرى أنه يحمل نقطة ضعف، هي ثقته بكل إخوته المائيين..

قال (كاكستون):

- يقولون إنهم يرحبون بك في أي وقت.. يقول (مايكل) إنك ما زلت تحمل بعض الطهر..

قال (جوبال):

- للأسف لا أعتقد أنني أحتفظ بأي طهر مزعوم بعد عقود من الصراع والتلوث بالحضارة.. حتى لو نقعني في ماء الإخوة هذا فلن أصير نظيفا.. (مايكل) ينظر لي فيرى انعكاسه الشخصي.. أي أنني في الحقيقة لا ألعب معه إلا دور المرآة.. لكن لا غبار عندي على ما يقوم به الفتى..

- هل تعتقد هذا؟

- تذكر أن (مايكل) ليس مثلنا.. إنه رجل المريخ.. أي أنه لم يبدأ ذات البداية مثلنا، وهكذا لا أمل في أن نغير وجهة نظره للحياة.. لكن هؤلاء الفتية لن يغيروا العالم.. لقد حدثت أشياء كهذه من قبل وفي كل مرة كان العالم يصاب بحكاك شديد كأنما أنت لسعته بحمض.. كل مجموعة ناشئة لاقت معاملة مماثلة.. بل أنني أجد رائحة سنسكريتية في كل هذه الطقوس ومنها طقوس (الأرض الأم) هذه.. وهو شبيه إلى حد ما بمجتمع (أونيدا Oneida) الذي أنشأه المهاجرون الأمريكيون الأوائل في

(وسكونسين).. كلهم بدأ بالطريقة ذاتها.. آمال عظمى.. أفكار عالية.. الحب بدلاً من الحرب.. ثم الفشل المحتوم.. حتى القوم في الإسكيمو قبل أن نختلط بهم كانت لهم مجتمعاتهم الخاصة.. حتى أنهم كانوا أقرب إلى (رجال من المريخ) هم أنفسهم، ثم جئنا نحن فانتشرت بينهم الفيروسات والزنا..

- لا أرغب في أن أكون إسكيمو.. شكرا لك.

- ولا أنا.. إن السمك النيئ الفاسد يصيبني بالغثيان.. لكن برغم هذا وبرغم عدم الاستحمام فإن الجميع قالوا إن الإسكيمو أسعد ناس عرفتهم الأرض.. قبل هذا كنت قلقا على (مايكل) لكني اليوم قلق على الجميع.. إن التقدم في السن لا يمنح الحكمة، لكنه يمنحك رؤية واسعة للأمور.

- أنت عبقري إذ تشعر بالقلق فقط.. أما أنا فأشعر أن كل هذا خطأ.. و(مايكل) يؤمن بأنه يعلم الحقيقة كما عرفها من (الكبار القدامى).

- (الكبار القدامى).. ما زلت أشعر بأن هؤلاء القوم ليسوا أكثر من فضلات المطبخ التي تقدم للخنازير.. إن أسوأ الخطاة طرا هو ذلك الذي يستخدم الدين أداة لابتزاز الناس.. لكن (مايكل) يثق في هؤلاء (الكبار القدامى) على كوكب المريخ.. إنه لا يحاول ابتزاز أحد، بل يحاول نقل أفكاره مستعملاً أساليب مألوفة كما قلت لك، وحتى عروض الحواة هذه.. ماذا أعرفه عن هذه الأمور؟ ما أعرفه أنا هو أن الوعي بذاتي ليس مجرد مجموعة من الأحماض الأمينية متحدة معا! لكنى آخذ عليك أنك قضيت معهم هذا الوقت ولم تحاول فهمهم.. أنت تحب

(جيل) لكنك لم تكرس لها الوقت الذي تكرسه لسياسي فاسد.. ليس عشر الجهد الذي بذلته هي لاسترداك حينما خطفوك..

- وماذا ترى؟

- أرى أن تعود لهم وتحاول فهمهم أكثر.. لن يلوموك على رحيلك المفاجئ، بل سوف يستقبلونك بأذرع مفتوحة.. أراهنك على هذا بألفي دولار..

وبعد أربع وعشرين ساعة حوّل (بن) ألفي دولار لـ حساب (جوبال) المصرفي.

☆ ☆ ☆

-20-

الجزء الخامس

عن قدره السعيد

وصل الكبار القدامى على المريخ إلى حل لمشكلة عويصة تتعلق بالجماليات، وفي الوقت ذاته وبلا استعجال نسوا أمر الفرخ الغريب الذي أعادوه إلى أهله وعالمه الأصلي لأنه لم يعد ذا أهمية لهم. وقد قرروا بشكل جمعي أنه بدأ التقصي والبحث بما يلزم تلك الحاجة الفنية لتدمير الأرض يوما ما. لكن الكثير من الانتظار حتمي قبل أن يصلوا لقرارهم النهائي.

على الأرض غمرت الفيضانات (كاماكورا) بسبب نشاط زلزالي يبعد عن (هونشو) بـ 280 كيلومترا. فتكت الموجة بـ 13000 نسمة وحملت طفلا رضيعا إلى أعلى تمثال (بوذا) حيث وجده الرهبان فيما بعد. وقد عاش هذا الطفل 97 عاما بعد تلك الكارثة التي أودت بأسرته الأرضية، أما هو فلم ينجب ولم يخلف ذرية. والتحقت الدوقة (سينثيا) بالدير محدثة جلبة إعلامية كبرى، لكنها تركته بعد ثلاثة أيام. أما السكرتير العام (دوجلاس) فقد أصابه الفالج مما جعله عاجزا عن استعمال ذراعه اليسرى لكنه ظل قادرا على مواصلة عمله.

أما سفينة الفضاء الاستكشافية (ماري جين) فقد هبطت على كوكب (بلوتو)، وهبطت حرارة الجو في (كولورادو) إلى أقل معدل لها في فبراير. وظهرت بعض فضائح الفساد المتعلقة ببعض الجماعات الدينية العجيبة في الجنوب. وقد قال المدعى

العام إنه لا يستطيع عمل شيء.. وإنه بحاجة لأقصى دعم من السلطات الدينية هناك، فقالوا له:

- سوف تنال الدعم الذي تريده..

وفي الشمال لم يكن (جوبال هيرشو) يعرف بشيء من هذا.. وبرغم مبادئه فإنه بدأ يخضع لتأثير ذلك العقار الماكر: معرفة الأخبار. لقد اشترك في خدمة صحفية تمده بالأخبار عن (مايكل) لكنه اضطر بعد هذا إلى أن يطلب وضع تليفزيون مجسم في مكتبه.. رباه! لماذا لا يرسل له هؤلاء الفتية خطابا من حين لآخر بدلاً من تركه فريسة التساؤلات..

قال بصوت عال:

- أول الصف!

سمع (آن) قادمة لكنه واصل النظر إلى خارج النافذة حيث الجليد، وحوض السباحة الخالي، ثم قال:

- (آن).. ابتاعي لنا جزيرة مرجانية صغيرة في المناطق الاستوائية واحرصي على بيع هذا الضريح..

- ليكن يا ريس.. هل من شيء آخر؟

- فقط تأكدي من عقد الإيجار قبل أن نعيد هذا المكان للهنود... فأنا لا أطيق الفنادق.. اكتبي ما يلي..

ثم بدأ يمليها:

- الحنين إلى الشتاء قد صار جليدا في فؤادي..

شظايا المواثيق التي تم تحطيمها تدمي روحي..

وأطياف النشوة التي غابت من زمن، تبقينا بعيدا..

الندوب والأوتار الممزقة وبقايا الأطراف المبتورة..

وعيناي اللتان تحترقان، بينما الضوء فيهما يخبو..

كلها لا تضيف شيئا إلى آلام الانتظار هنا وحدي.

أضواء الحمى تبحث عن وجهك الحبيب..

وما زالت أذناي الممزقتان ترجعان صوتك في رأسي..

لا أهاب الظلمة المقبلة عليّ وقد دنا الموت..

لكنى أهاب الموت لأن معناه فقدك..

ثم أضاف:

- هكذا. وقعيها باسم (لويزا م. ألكوت).. واجعلي الوكالة ترسلها إلى مجلة (توجزرنس).. حاليا هي لا تساوى شيئا لكنها ستكون ثمينة فيما بعد.. أرسليها لوكيلي وتأكدي من أنها ستفي بتكاليف دفني.. هذه مشكلة الأعمال الأدبية كلها.. العمل الجيد يحقق أعلى سعر له حينما يصير دفع أتعاب المؤلف مستحيلا.. الحياة الأدبية! أن تحك فراء القط حتى يصدر هريرا!

قالت السكرتيرة في تهكم:

- (جوبال) المسكين لا يشفق عليه أحد لذا يشفق هو على نفسه..

سخرية فحسب.. لست مندهشا من أنني لا أنال منكن أي عمل هنا..

- ليست سخرية يا ريس.. فقط لابس الحذاء يعرف أين تتألم أصابع قدمه..

- أعتذر.. والآن اكتبي هذه. العنوان: واحدة للطريق..

«ثمة سلوى في عقدة المشنقة..

وراحة في الفأس..

لكن السم يريح أعصابك أكثر..

هناك نهاية في طلقة المسدس وجهاز التعذيب..

لكن السم يعطيك تلك النهاية المحببة..

إن أقرب كيميائي يملك السلام في عبوات جاهزة..

قد تجد الراحة في ساحة الكنيسة..

لكن قد يمنحك إياها السم الذي يصفه لك دجال كريم...

بصوت أنين.. وصرخة (آي).. وركلة بالكعب..

يأتي الموت بهدوء أو يأتي صارخاً..

لكن أفضل طريقة للموت هي قدح تقدمه لك يد صديق..»

قالت (آن) في قلق:

- (جوبال).. هل معدتك مضطربة؟

- دوما..

- إلى أية جريدة أرسل هذه؟

- إلى (نيويوركر)..

- سيرفضونها..

- بل سيقبلونها.. إنها قصيدة مريضة سقيمة ولسوف تروق لهم..

- بالإضافة لهذا الوزن الشعرى مختل..

- نعم.. لا بد من أن تعطى الناشر ما يغيره وإلا أصابه الإحباط.. بعد ما يتبول على القصيدة سوف يحبها ويشتريها منك.. لقد ظللت أتجنب العمل الشريف قبل مولدك بفترة طويلة فلن تعلميني هذا الآن.. بالمناسبة لماذا لم تحضري ابنتك الرضيعة (آبي) معك؟

- إنها مع (دوركاس) الآن تعنى بها.. لا أريدها أن تسمع ما تقوله أنت حتى لا تفسد أخلاقها، فأنت ذو تأثير مفسد بأفكارك.. بالإضافة لهذا ستكف عن العمل وتلعب معها..

- هل لديك طريقة أفضل لملء الساعات الخاوية؟

- أنا ألاحظ أنك لا تنتج منذ فترة.. ولهذا سوف تصاب بالإمساك الروحي.. أجلس أنا و(دوركاس) نقضم أظفارنا بانتظار أن تصيح أنت: أول الصف.. من ثم نثب في حماس.. لكن غالبا ما يتضح أن هذا إنذار زائف..

ثم أضافت:

- أنت تخدع نفسك.. كلنا نعرف أن (مايكل) يستطيع العناية بنفسه.. أنت قلق بشأنه.. كل هذه الصحف التي تقرؤها عنه ونشرات الأخبار..

- كيف عرفت أنني عدت لقراءة الصحف؟

- يا ريس لا بد من أن يتخلص أحد من القمامة.. هل حسبت أن (لاري) لا يجيد القراءة؟ لو كنت قلقا بصدد خادمك السابق (دوك) فلترسل لـ (مايكل) كي يعيده لك.

قال لها في مرارة إنه لن يجرؤ على ذلك.. ثم خطر له شيء مؤلم فقال:

- هل ما زلتن تعملن عندي لأن (مايكل) طلب منكن هذا؟

- نحن هنا لأننا نحب العمل هنا.. (جوبال).. أحيانا أتمنى لو كنتَ صغير السن بما يسمح لي بضربك على مؤخرتك.. هل يمكن أن أُنهي كلامي؟

لكنه كان يفكر.. (ميريام) سافرت مع زوجها إلى (بيروت) وأنجبت طفلة اسمها (فاطمة ميشيل) [2].. فهل هذا تعبير عن إخلاصها لـ (مايكل) أم أنه زوجها (محمود) يرسل تحية لصديقه المخلص؟

- أنت لا تصغي لي.

سوف تظل في هذه الخواطر حتى تفقد اتحادك لكن من دون كرامة.. سوف تفقد صفاء ذهنك بالتدريج.. لم لا تذهب إلى الدرج التاسع في الصيدلية وتأخذ حبتين من الدواء الذي كُتب عليه (Lethe) - نهر النسيان -.. ربما كانت حبة واحدة كافية

- لا حاجة بك إلى قراءة الصحف لأننا نعرف (مايكل) قبل أن يعرفوه هم.. لكن لن يؤذي أحد (مايكل).. لو أنك زرت العش ورأيت ما رأيناه..

- لم يدعني أحد.. ولم يطلب منى (مايكل) هذا.

- لم يدعنا أحد لكننا ذهبنا.. لا أحد يُدعى لزيارة داره الخاصة.. مثلما لا يحتاج (مايكل) إلى دعوة كي يأتي هنا.. لكنك تخدع نفسك يا (جوبال).. أنت مكتئب اليوم لأن (مايكل) قد اعتُقل، لكن هذا حدث أكثر من..

- اعتقل؟ لم أسمع بهذا من قبل! ماذا يجرى هنا..

- (جوبال).. (بن) لم يتصل طالبا العون.. هذا كاف.. لقد اعتقل (مايكل) مرارا.. في الجيش.. في الكرنفال.. لكنهم لا يستطيعون أن يدينوه بشيء وهو لا يؤذي أحدا، لذا يطلقون سراحه على الفور..

- وما التهمة هذه المرة؟

- الهراء المعتاد.. النصب.. إنشاء جمعية غير مقننة.. استضافة صغار السن فاقدي الأهلية. لا تقلق.. بعد سلسلة اتهامات سوف تسقط التهم ويزداد الزحام حول الدائرة الخارجية..

- هل تعتقدين أن (مايكل) ينسج هذه التهم حول نفسه؟

نظرت له في دهشة ورأى في عينيها نظرة لم يرها من قبل:

- (مايكل) لم يكذب قط يا ريس..

- لم أتكلم عن الكذب.. لكن بوسعه أن ينسج إشاعات حول نفسه مما لا يمكن إثباته في المحاكم..

- هل تحسب (مايكل) يفعل هذا؟

- لا أعرف.. فقط أعرف أن أسوأ طريقة للكذب هي أن تقول القدر المطلوب من الحقيقة في الوقت المناسب ثم تسكت.. على كل سأنسى الموضوع إلى أن يتبين أنه لا يستطيع العناية بنفسه.. هل ما زلت (أول الصف)؟

- لو كففت عن خنق ابنتي (آبي) تحت ذقنك مع ترديد عبارات سخيفة مثل (كوتشى كو).. فإن بوسعي أن أحضرها الآن وأواصل العمل معك وإلا أيقظت (دوركاس) من نومها.

- هاتي (آبي).. سوف أردد عبارات سخيفة جديدة تماما هذه المرة..

وضع الطفلة على حجره، حتى بدأت الطفلة تبتسم.. هنا بدأ يملى على أمها:

العنوان هو (البنات كالأولاد).. ابدئي.. كان (هنري افرشام) الرابع يؤمن أن البنات نوعان.. نوع موجود أمامه ونوع ليس كذلك.. وكان يفضل الطراز الأخير خاصة حين يبقين كذلك.. فقرة جديدة.. كان.. ماذا تريد بحق الجحيم؟ ألا تراني أعمل؟

قال (لاري) الخادم:

- سيدي..

- اخرج من هنا..

- سيدي.. لقد احترقت جمعية (مايكل) الدينية!

اندفع الاثنان بلا نظام إلى غرفة (لاري).. و(آن) تحمل طفلتها.. ومن بعيد هرعت (دوركاس) وقد أيقظها الصخب..

- «.. منتصف ليلة أمس.. ما ترونه هو المدخل الرئيس لمعبد الجماعة كما بدا بعد الانفجار.. هنا مراسلكم من شبكة (نيوورلد) في نشرة أخبار الصباح.. والآن لحظة مع هذا الإعلان..»

هنا غاب مشهد الانفجار لتظهر ربة بيت جميلة..

صاح (جوبال):

- تبا يا (لاري).. فك هذا الاختراع السخيف وأدخله إلى المكتب.. (دوركاس).. اتصلي بـ (بن)..

- أنت تعرف أن البناية هناك ليس بها هاتف..

- إذن، اطلبي رئيس الشرطة.. لا.. المدعي العام.. تقولين إن (مايكل) كان في السجن؟

- نعم..

- أتمنى أن يكون ما زال فيه ومعه الباقون.

وفي غرفة المكتب كان الهاتف يدق بإلحاح.. كاد (جوبال) ينزع القابس ثم قرر أن يرد..

كان هذا (بن كاكستون) الذي ظهر على الشاشة:

- مرحبا يا (جوبال)..

- (بن)! ماذا حدث؟

- أعرف أنك عرفت الأخبار لذا اتصلت لأريحك.. كل شيء تحت السيطرة..

- هل تأذى أحد؟

- لا أحد.. (مايكل) يريد أن أخبرك..

- لا أحد؟ لقد بدا الأمر..

- اسمع يا (جوبال).. لا بد من أن أجرى مكالمات أخرى فلست أنت الوحيد القلق، لكن (مايكل) طلب أن أهاتفك أولا..

- حسن.. سأصمت..

- لم يتأذ أحد.. مليونان من الدولارات لخسائر غير مؤمن عليها.. كان المكان ضد الحريق لكن أي شيء يحترق في النهاية لو استعملت كمية كافية من الجازولين والديناميت..

- سآتي حالا..

- (مايكل) يقول لك ألا تقلق.. لو أردت أن تأتى فلتفعل ولكن فقط كرحلة ترفيه.. لقد أشعل أحدهم النار بينما المبنى خال لأن أكثرنا كان معتقلاً.. وبعضنا كان في محراب داخلي يتبادل طقوس شرب الماء.. لقد متنا جميعا..

- ماذا؟

- كلنا تم تصنيفنا موتى أو مفقودين.. لم ير رجال الحكومة شخصا حيا يغادر البناية من أي مخرج..

- هل هي حيلة الساحر من جديد؟

- إن (مايكل) له طريقته الخاصة في ترتيب هذه الأمور.. لن أناقش هذه الأمور عبر الهاتف..

- تقول إنه ما زال في السجن؟

- نعم.. لو جئت هنا فلا تقصد المعبد لأنه مغلق.. لقد انتهى أمرنا في هذه المدينة.. لن أخبرك أين نحن ولن أطلبك من هناك ثانية.. لو أردت أن تأتى وأنا لا أرى ضرورة لهذا فلتأت بشكل طبيعي ونحن سنجدك..

ثم أظلمت الشاشة..

قال (جوبال) في غيظ:

- توقعت هذا.. تلك اللعبة خطيرة جدا.. استدعي لي سيارة أجرة يا (دوركاس) وأنت يا (لاري) أعد لي حقيبة صغيرة.. (آن) انتهى من تغذية طفلتك ثم أحضري لي كل المال السائل هنا، وعلى (لاري) أن يقصد المدينة غدا ليحضر بعض المال..

قالت (آن):

- لكن يا ريس.. نحن جميعا ذاهبون..

- أغلقي فمك.. ليس هذا زمن حق التصويت للنساء.. (لاري).. ستبقى هنا وتحمى السيدتين والطفلة حتى أعود أنا.. هذه المدينة صارت خط مواجهة.. إن هناك رابطا بين المعبد هناك وهذا البيت.. (لاري).. شغل الإضاءة طيلة الليل وكهرب السور.. لا تتردد في إطلاق النار.. ولا تتباطأ في أن تضع الجميع في القبو عند الضرورة..

بعد نصف ساعة كان (جوبال) وحده في جناحه وجاء (لاري) يخبره أن سيارة الأجرة قد وصلت

- أنا آت..

وألقي نظرة على تمثال Caryatid (امرأة تقف كعمود يحمل السقف) من التماثيل العديدة في داره.. فامتلأت عيناه دموعا وقال:

- لقد حاولت أيتها الشابة.. أليس كذلك؟ لكن العمود كان ثقيلا عليك.. ثقيلا على الجميع.

ثم لمس يد التمثال واستدار مبتعدا..

☆ ☆ ☆

-21-

كانت رحلته سيئة.. وقد فعل التاكسي الأوتوماتيكي كل ما توقعه (جوبال) منه، فحدثت له مشاكل في الهواء ثم اتجه إلى الصيانة من تلقاء نفسه. وهكذا وجد (جوبال) نفسه في (نيويورك) بعيدا عن المكان الذي أراده. وتأخر عن الموعد الذي قرره عدة ساعات وتعامل مع غرباء (وهو ما يكرهه) وأرغم على مشاهدة التليفزيون المجسم (وهو ما كرهه أكثر).

لكنه رأى في التليفزيون أسقفا يشن حربا شعواء مقدسة على الشيطاني - يعني (مايكل) طبعا - ورأى مشاهد عديدة للبناية مما جعله مندهشا لأن أحدا نجا من هذا.. وكان رأى المعلق أن (مايكل) بالذات هو المسئول عما حدث.

هكذا في نهاية الرحلة وقف (جوبال) يرمق أشجار النخيل في الأفق التي ما زالت تبدو له كالريش، ومن خلفها المحيط الذي رآه كتلة قذرة غير متماسكة من الماء. وقد تلوث بقشور الجريب فروت والفضلات البشرية.

دنا منه رجل في زي رسمي وقال:

- تاكسي يا سيدي؟

- نعم..

كانت خطته هي أن يجد غرفة فندق، ثم يتصل بالصحافة التي ستنشر خبر مجيئه. هذه مزية مهمة لكونك شهيرا. هكذا سوف يجده (بن) بسهوله.

اقتاده الفتى نحو عربة تاكسي صفراء ثم وضع حقيبة (جوبال) داخلها وقال:

- أمنحك الماء..

هتف (جوبال):

- هه؟ دعك لا تظمأ أبدا

وسرعان ما انطلقت سيارة الأجرة قاصدة شقة في فندق على الشاطئ، وهبطت على مهبط غير الذي يستعمله نزلاء الفندق. وأخذ السائق حقائب (جوبال) واقتاده للداخل وقال:

- ما كان بوسعك أن تمر عبر الرواق.. لأن هناك الكثير من ثعابين الكوبرا المتوترة عصبيا.. لو أردت الخروج للشارع اسأل أحدهم أولا.. أنا أدعى (تيم)..

- (جوبال هيرشو)..

- أعرف يا أخي (جوبال).. من هذا الطريق..

ودخلا جناح فندق فاخرا واسعا.. واقتيد (جوبال) إلى غرفة نوم ذات حمام. ووضع (تيم) حقائب (جوبال) على الأرض بينما وجد هذا الكثير من زجاجات الماء والكئوس.

جاءت امرأة تحمل صحفة عليها شطائر. وأدرك (جوبال) أن ما ترتديه هو الزي الرسمي للفندق. ابتسمت له وقالت:

- اشرب بعمق ودعك لا تظمأ أبدا.. يا أخانا.

ثم فتحت المياه لتملأ المغطس وسألته:

- هل تريد شيئا آخر يا (جوبال)؟

- أنا؟؟ لا.. لا.. سأنظف نفسي ثم أستعد.. هل (بن كاكستون) هنا؟

- نعم.. لكنه قال إنك سترغب في الاستحمام أولا.. اسمي (باتي)..

- المرأة الموشومة التي رسمت عليها قصة حياة (فوستر)؟

هزت رأسها أن نعم وغادرت المكان.

راح (جوبال) يستحم مزيلا عرق وغبار السفر. جعله الماء الدافئ يرغب في النوم، لكنه كان راغبا في رؤية (بن) بسرعة. بحث في الثياب التي أعدها (لاري) وانتقى بنطالًا قصيرا وصندلاً.. بدا كأنه طائر نادر سقط عليه دلو طلاء.. وقد بدت بوضوح ساقاه المشعرتان النحيلتان.. لكنه كف عن القلق على منظره منذ عقود.. فقط يتذكره كلما اضطر لمغادرة داره إلى المحكمة..

اتجه إلى بهو الفندق الذي كان مريحا، لكن فيه ذلك الطابع المفتقر للخصوصية المميز لكل الفنادق.. كان بعض الناس يقفون حول جهاز تلفزيون مجسم.. أكبر واحد رآه في حياته فلما رآه (بن) جاء إليه هاتفا:

- مرحبا (جوبال)..

- مرحبا (بن).. ما الموقف؟ هل (مايكل) ما زال في السجن..؟

- لا.. لقد خرج فور أن أنهيت مكالمتي معك..

- آه.. بانتظار المحاكمة.. هل دفع كفالة؟

ابتسم (بن) وقال:

- كلا يا (جوبال).. لم يطلقوا سراحه ولكنه هرب!

- يا للسخف! الآن صارت القضية أعقد تسع مرات!

- لا تعقّد الأمور.. قلت لك إننا سنترك هذه المدينة وإن أكثرنا في عداد المفقودين.

- سوف يسلمونه من ولاية أخرى.. أين هو؟

- إنه على بعد غرفتين من هنا، لكنه منزو على نفسه في التأمل.. لو أردت أن نناديه فهذا ممكن..

لكن (جوبال) رأى أن هذا غير لائق.. يشبه أن يزعجه أحدهم أثناء كتابة قصة.. إن الصبي يغرق في تلك السنات ثم يفيق منها وقد (فهم الكليات).. يمكن الانتظار لوقتها.. إن إزعاجه الآن يشبه إزعاج دب في بيات شتوي..

فجأة رأى أمامه سكرتيرته (آن) تضحك فجلس جوارها وهتف:

- هل من حقي أن أسأل ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟

- مرحبا يا ريس.. أفعل ما تفعله أنت.. لا شيء.. لا تكن ثقيلا يا (جوبال) لأننا لم تنفذ أوامرك.. هذا المكان يخصنا مثلك.. كنت في حال عصبية منعتنا من مجادلتك، لذا انتظرنا حتى رحلت أنت ولحقنا بك.. والآن اسمع ما يقال عنا.. يقول الشريف إنه سيطردنا خارج المدينة.. أنا لم أطرد من مدينة من قبل.. لا بد أن هذا مثير.. ترى هل يضعونك على قضيب قطار أم تضطر للمشي [3]؟

- لا أعرف البروتوكول هنا.. وأين ابنتي الروحية؟ أريد أن أراها..

- فورا.. لكنها وجدت مربية كذلك.. إن (باتي) تعنى بها..

كانت (باتي) هي الوحيدة التي تبدو منهمكة وسط هؤلاء.. وقد لحقت بهما وقالت:

- معذرة.. إن لديّ أطفالاً كثيرين في غرفتي.. أضعهم هناك كي تتعود (هاني بان) عليهم!

بعد قليل أدرك في ذعر ما تعنيه.. إن ثعبان البوا هناك في المهد مع الأطفال!

قالت له (باتي):

- تعال أيها الأب (جوبال) لترى الأطفال وتراها.. داعبها قليلاً حتى تعتادك وتفهمك Grok في المرة القادمة..

في المهد الذي تحول إلى عش داعب (جوبال) طفلته ثم الثعبان الذي رأى أنه أجمل (بوا) عاصرة رآها في حياته. وقد حسد (باتي) على امتلاكها هذا الحيوان رائع الجمال. هنا هتفت (باتي) وهي تتفقد حفاضة طفل:

- لماذا لم تخبريني يا (هاني بان)؟ إنها تخبرني كلما بلّل أحد الأطفال حفاضته.. لا تستطيع عمل شيء طبعا لأنها بلا يدين، لكنها تسند الأطفال برأسها كلما أوشكوا على السقوط من المهد.. لكنها لا ترى شيئا خطأ في طفل بلل نفسه..

- أفهم.. ومن الطفلة الأخرى؟

- إنها (فاطمة ميشيل).. ألم يخبرك أحد؟

- إذن هما هنا؟ كنت أعرف أنهما في (بيروت)..

لقد عادا من بلد أجنبي ما.. كل الأماكن تتشابه عندي فأنا لم أغادر البلاد قط..

طلبت منه أن يعنى بالطفلة الأولى فحملها بين ذراعيه وراح يخبرها كيف أنها أجمل فتاة في الكون، ثم حمل الأخرى وفعل الشيء ذاته.. كان صادقا في المرتين وقد صدقته الطفلتان على الفور.. طالما قال هذا للفتيات وفي كل مرة كان يعني ما يقول.. كأن هذه حقيقة عليا لا علاقة لها بالمنطق..

ما إن قابل (ميريام) حتى وضعت يدها على بطنه وهتفت:

- مرحبا يا ريس.. معذرة. كنت أطمئن على أنهم يحسنون تغذيتك.. على فكرة أنا حامل.. لقد اتصل بنا (مايكل) في (بيروت) وأخبر (محمود) بذلك، وطلب منا أن نلحق به.. في اليوم التالي طلب (محمود) من الجامعة إجازة أو استقالة. أي شيء.. وها نحن ذان هنا..

- وماذا تفعلان؟

- نعمل.. نعمل عملا شاقا يا ريس.. إن (محمود) يعد مع (مايكل) أول قاموس للغة المريخية..

- قاموس إنجليزي / مريخي؟ لا بد أن هذا عسير..

بدت الصدمة على (ميريام) وهتفت:

- عسير؟ لا.. إنه مستحيل.. لم يوجد شيء كهذا قط.. إن دوري في العمل هو السكرتارية.. أطبع ما يطلبون مني.. إنهما قد كونا أبجدية تتكون من 81 صوتا.. هل ستحبني الآن يا ريس؟

اقترح (بن كاكستون) أن يقصدا مكانا أكثر هدوءا.. هكذا اتجها إلى ممر جانبي صغير..

قال (جوبال):

- يبدو أنكم تسيطرون على الفندق بالكامل..

- أكثره.. أربعة أجنحة.. السكرتارية.. الجناح الرئاسي والملكي.. لا يمكن الوصول لها إلا عن طريق المهبط الخاص بنا أو ممر ليس صحيا جدا.. أحسبك تلقيت إنذارا بصدده؟

- نعم.. لكن كيف تتحاشون الشرطة في مكان عام كهذا؟ يمكن لخدم الفندق وحدهم أن يفضحوا أمركم..

- الخدم لا يصلون هنا.. لقد ابتاع (مايكل) هذا الفندق عبر سلسلة من الإجراءات الوهمية.. وقد أعطاه (دوجلاس) المال الذي طلبه دون أن يسأل عن السبب.. إن (دوجلاس) لم يعد يكرهني بالقدر ذاته منذ استولى (كيلجالين) على عمودي الصحفي، لكن (دوجلاس) ما زال لا يثق بي.. إن الفندق استثمار بريء ويجلب مالاً.. لكن مالكه على الأوراق هو واحد من أعضاء الدائرة التاسعة السرية.. يطلب المالك أن يبقى هذا الطابق بالكامل لضيوفه الخصوصيين، من ثم لا يجرؤ المدير على الاعتراض.. إنه يحب عمله ويريد الحفاظ عليه.. دعك من أن (مايكل) يدفع له أكثر مما يستحق.. إنه مخبأ مناسب حتى يقرر (مايكل) إلى أين يذهب بعد هذا..

- لكنه كان في السجن حينما وقع الانفجار..

- أه.. كان هناك ولم يكن.. جسده كان في السجن وفي حالة انسحاب.. لكنه كان معنا.. هل تفهم؟

- لا.. لا أستوعب.

- حينما وقع الانفجار أنقذنا وجاء بنا هنا، ثم عاد لينقذ الأشياء الصغيرة التي تستحق الإنقاذ.. لن تفهم.. ربما لو كنت معنا لفهمت..

ثم رأى نظرة الحيرة على وجه (جوبال) فقال:

- الانتقال عبر المسافات.. ما الصعب في ذلك يا (جوبال)؟ هذه ليست معجزات ما لم يكن الراديو نفسه معجزة.. أنا لا أفهم الراديو لكني سأفهمه لو رحت أدرس الإلكترونيات بإمعان.. ليست هذه معجزات.. الصعب في الموضوع هو تعلم اللغة المناسبة..

- وهل تنقل أنت الأشياء عن بعد؟

- أنا؟ لا.. هذا ليس ضمن مناهج الحضانة.. (باتي) هي الوحيدة التي تعلمت الانتقال عن بعد بسهولة.. صدقني لسنا بحاجة إلى (مايكل).. لا أعني هنا أنني أتخلى عنه.. فقط أردت القول إن بوسع أي منا أن يصير (الرجل من المريخ)..

- بدأت أفهم..

- مثل النار.. كانت دائما موجودة لكن رجلاً جعل الآخرين يعرفونها.. (مايكل) هو (برومثيوس rometheus).. لكنه مجرد رجل مثلنا يعرف الكثير.

فكر (جوبال) وقال:

- (برومثيوس) دفع ثمنا باهظا بسبب تعليمه النار للناس..

- و(مايكل) كذلك يقضي أربعا وعشرين ساعة كل يوم يعلمنا كيف نلهو بالثقاب من دون أن نحترق.

كان الناس يأتون ويرحلون طيلة الوقت.. كانوا صامتين يتحركون بخفة وصمت.. كأنهم يؤدون أدوارا مرسومة لهم.. وخطر لـ (جوبال) أن هذا يذكره بشيء ما.. الجراح البارع؟ حيث لا توجد حركة واحدة زائدة أو مفاجئة؟ ثم تذكر شيئا منذ عدة أعوام..

في الماضي حينما كانت الصواريخ الكيميائية هي التي تجوب الفضاء، سنحت له فرصة أن يرى عدًا تنازليا.. الآن يذكر ذات الأصوات الخفيضة وردود الفعل المسترخية لكن المنسقة بعناية. نفس التوقع القلق إذ يقترب العد من نهايته. لمَ هم سعداء هكذا؟ لقد هُدم مقرهم لكنهم سعداء كأطفال ليلة الكريسماس.

أما ما لاحظه فعلاً فهو أجمل وأكثف شلال من الشعر الأسود رآه في حياته، وكان على رأس شابة جاءت وتكلمت مع أحدهم، ثم ابتعدت.

قال له (بن) وقد لاحظ نظرته:

- هذه (روث).. الكاهنة الجديدة.. كانت هي وزوجها ينشئان جمعية جديدة فرعية في الساحل الغربي.. يبدو أن الأسرة كلها ستلتقي هنا مثلما كان يحدث في عشاء الكريسماس في الماضي..

بالمناسبة هي قد جاءت بقربك خصيصا كي تلقي نظرة عليك! إنهم معجبون بك لكنهم يخافونك نوعا.

- يخافونني؟

- نعم.. (مايكل) قال لهم إنك الرجل القادر على الفهم Grok من دون أن تتعلم المريخية.. لهذا يحسبونك تقرأ الأفكار.. يبدو أنهم يحسبونك تلتهم الأطفال والأرض ترتج حينما تزأر.. يتمنون أن تناديهم لكنهم لن يأتوا من تلقاء أنفسهم.. يعرفون أنك الرجل الوحيد الذي يقف أمامه (مايكل) باحترام ويطلق عليه (سيدي)..

- لحظة.. هناك شخص أريده.. (جيل).. (جيل!).

استدارت المرأة في تردد وقالت:

- حسن.. أنا (دون) لكن شكرا لك..

ثم دنت منه وركعت على ركبة واحدة ولثمت يده قائلة:

- أبي (جوبال).. نرحب بك ونشرب منك حتى الأعماق.

انتزع يده منها وقال:

- بالله عليك يا طفلتي.. انهضي واجلسي معنا.. فلنتبادل الماء..

- حسن أيها الأب..

- وناديني (جوبال).. أخبرى الجميع أنني لا أحب أن أعامل كمجذوم.. أريد أن أنادي (جوبال) وأن أكون أخا ماء لا أكثر.. من يعاملني باحترام سيضطر للبقاء بعد المدرسة grok؟

قال (بن):

- إنهم يشاهدون التليفزيون المجسم الآن.. لقد هدم (مايكل) سجن الولاية ليهرب.. هم اتهموه بكل تهمة عرفها القانون باستثناء الاعتداء على تمثال الحرية.. لهذا قرر أن يمنحهم بعض الأشياء المذهلة التي يعتبرونها معجزات.. لقد انتزع كل باب وكل قضيب حديدي في سجن الولاية من مكانه، وجرد رجال الشرطة من ثيابهم وسلاحهم.. السبب الأول هو أنه أراد أن يشغلهم.. السبب الثاني هو أن (مايكل) يكره سجن أي إنسان لأي سبب كان.. يرى الكثير من الخطأ في هذا..

- وكيف كانت استجابة السلطات؟

- العمدة هناك وهو يرغي ويزبد.. وقد طلب العون من القوات الفيدرالية وناله.. هناك قوات قادمة للولاية لكن (مايكل) لن يتوانى عن تجريد هؤلاء من أسلحتهم وثيابهم قبل أن يخفي عرباتهم من الوجود..

هنا دخل د. (محمود) القاعة..

قال له (جوبال) في مرارة:

- كان بوسعك على الأقل أن تتفضل بإخباري بأنك في هذا البلد، بدلاً من أن أقابل ابنتي الروحية للمرة الأولى في ضيافة ثعبان.

- أوه يا (جوبال).. دائما أنت في عجلة لعينة.

قال (جوبال):

- في سني يكون من الضروري أن..

هنا توقف وقد وضعت يدان على عينيه من الخلف وقال صوت أنثوى:

- خمن من؟

- (بعلزبول)..

- خمن ثانية..

- (جيليان)! كفي عن هذا وتعالى لتجلسي بجواري..

- نعم يا أبي..

وواصل الكلام مع (محمود):

- كنت أقول إنه في سني يغدو كل صباح جوهرة ثمينة لأنك قد لا ترى المساء أبدا.. لهذا يجب أن تكون متعجلاً.. وأنتما كدتما تحرمانني رؤية ابنتي الروحية (فاطمة ميشيل) لذا كان شبحي سيعود ليطاردكما للأبد.

قالت (جيل):

- لماذا تتكلم عن الموت يا ريس؟ لست قريبا منه بعد.

- أنا أضع ثلاث سنوات كحد أقصى لي.. بعدها أفقد اتحادي على الطريقة المريخية أو أموت على الطريقة الأرضية الفظة..

وعلى مائدة العشاء كان من الغريب على (جوبال) أن يلقى د. (نلسون) نفسه.. الطبيب الذي كان يتابع حالة (مايكل) منذ جاء إلى الأرض.. وقد وجده يستعمل نفس المصطلحات ويدعو

لتبادل طقوس شرب الماء.. ودار كأس من الماء على المائدة.. يشرب منه كل واحد جرعة ثم يناوله لجاره.

كانت الفتاة على يساره قليلة الكلام، لكن الرجل إلى يمينه كان ثرثارا، وكان كريم المحتد مثقفا وهما صفتان يقدرهما (جوبال) لو لم تؤديا إلى خلق ببغاء مغرورة.. قال الرجل الذي كان يدعى (سام):

- سوف يحاربوننا بكل قسوة.. لا يوجد مجتمع مهما بلغ تحرره يقبل أن يتم تحديه بلا عقاب.. ونحن في الحقيقة نتحدى كل شيء حتى قوانين الملكية..

- حتى الملكية؟

- لو اقتنع بمبادئنا أي مدير مصرف فلسوف يفلس المصرف، ولن يعود هو في عمله.. تصور ما يحل بالسوق لو عرف المساهمون ما سيحل بالأسهم بالضبط من ارتفاع أو انخفاض؟ ماذا سيحل بوسائل المواصلات حينما تصير وسيلة الانتقال هي النقل عن بعد؟ بل فكر في التعليم.. كيف تعلم صبيا يعرف أفضل منك؟ ماذا عن الطب يوم يختفي المرض من العالم؟ ماذا عن تعليم النباتات؟ أن تتعلم الأعشاب ألا تنمو.. ماذا يبقى من مهنة الفلاحة؟

ثم تذكر شيئا فأضاف:

- هل تعرف أنني كنت مصابا بالسرطان حينما جئت هنا؟

- ماذا؟

- لم أكن أعرف.. لكن (مايكل) فهم هذا وأرسلني لأجرى بعض الأشعات لأتأكد.. ثم رحنا نتعامل معه معا.. العلاج الروحي.. الطب السريري يطلق على هذا اسم (الشفاء التلقائي spontaneous remission) ومعنى هذا أنني شفيت..

قال (جوبال):

- من المعروف طبيا أن بعض أنواع السرطان تشفى تلقائيا، ولا نعرف سببا لذلك..

- أنا أعرف لماذا شفى هذا.. كنت قد بدأت أتعلم التحكم في جسدي.. أصلحت الخطأ بمعاونة (مايكل).. الآن أستطيع عمل هذا من دون عونه.. هل تريد أن أوقف لك قلبي؟

- لا شكرا.. لقد رأيت هذا مع (مايكل) مرارا..

- أشعر أنك تفهم الكثير برغم ما تقول.. أتساءل عما لديك لتعلمنا إياه لو أنك تعلمت المريخية.

- لا شيء فعلاً.. أنا مجرد رجل مسن..

- أنت لا تحتاج إلى تدريب من أي نوع.. ما لم ترد أن تمسح صلصة السباجيتي من على وجهك من دون منشفة.. وهو ما لا أحسبك تواقا له..

بعد العشاء نهض الرجلان قاصدين غرفة أكثر هدوءا.

وقال (سام):

- كنت أقول إن كل هذه المتاعب متوقعة، وعلينا انتظار المزيد قبل أن نغير قسما أكبر من الرأي العام ليتحملنا.. لكن

(مايكل) لا يتعجل الأمر.. سوف نغلق معبد (كل العوالم) ونذهب لمكان آخر لنشيّد (طائفة الإيمان الواحد).. حتى يطردونا ثانية.. ثم نفتتح معبد الهرم الأكبر.. لقد بدأ (مايكل) هنا منذ عام. وكان غير متأكد من هذا الذي يقوم به، وبمعاونة ثلاث كاهنات.. من ثم صار العش صلبا. ويوما ما سنصير أقوى.. هل أنت متعب؟ هل تريد أن أجعلك غير مرهق أم تفضل أن تذهب للنوم؟ لو لم تفعل لأبقاك إخوتنا طيلة الليل يتكلمون.. تعرف أننا لا نظفر بقسط كاف من النوم..

- أعتقد أنني أفضل الفراش، وثماني ساعات من النوم.. سوف أقابل الإخوة الآخرين غدا..

هكذا اقتادته (باتي) إلى غرفة نومه وهيأت له الملاءات من دون أن تلمسها، ثم أعدت له بعض المشروبات جوار الفراش.. وقد قدر أن (باتي) على قدر من الخبال لكنها لطيفة.. كان يفضل الناس الذين على قدر من الخبال.. يعتبرهم (ملح الأرض).. إنها على كل حال الدليل الحي على أن المرء لا يجب أن يكون عاقلاً كي ينعم بالقدرات المريخية التي علمها الصبي للجميع..

قال لها أن تقبّل ابنتيه الروحيتين لأنه نسى ذلك فقد كان مرهقا..

- واربتي لي على الثعبان العزيز (هاني بان)..

قالت له:

- سأفعل ذلك.. إنه يفهمك يا (جوبال) ويعرف أنك تحب الثعابين..

قرر أن يحلق ذقنه حتى لا يضطر لذلك قبل الإفطار ثم أحكم غلق الباب وأطفا نور الحجرة.. بحث عن شيء يقرؤه لأنه كان قد أدمن هذه الرذيلة فلم يجد، ولم يحب أن يخرج ثانية ليزعج أحدهم.. هكذا أطفأ نور الفراش..

☆ ☆ ☆

نهض (جوبال) في الصباح منتعشا مستريحا.. ومنذ أعوام طويلة لم يشعر بأنه رائق البال في تلك اللحظات السوداء بين الاستيقاظ وأول قدح من القهوة.. حينما كان يعزى نفسه بأن الغد قد يكون أفضل.

راح يرقب نفسه في المرآة، ثم مد يده وانتزع شعرة بيضاء من صدره، غير مبال بشعرات أخرى عديدة هناك.. ثم بدأ يتأهب للقاء العالم.

حينما خرج من الحجرة وجد (جيل) هناك.. قالت له:

- أيها العزيز (جوبال).. نحن نحبك..

كان المكان يفوح برائحة حماس وترقب لا تخفى عليه.. ربما لم يشعر بهذا الشعور من قبل إلا حينما كان طفلاً ينتظر موكب السيرك، حينما صاح أحدهم:

- ها هي ذي الأفيال!

نفس الشعور يشعر به الآن.. لكنه لا يرى مبررا له لأنه لا يوجد موكب أصلاً..

قالت له (جيل):

- (مايكل) في حالة انزواء لكنه سيعود منها ليستقبلك.

الكل منشغل الآن لأن (مايكل) يحاول تسجيل أصوات القاموس المريخي الذي يحلم به.. أنا قمت بجزء من إعداد

القاموس على حين يقوم د. (محمود) بتحويل الأصوات إلى حروف إنجليزية يمكن تقليدها، على أنني انسحبت فقط لأقول لك صباح الخير..

على مائدة الإفطار وجد بيضا وعصير برتقال فبدأ يأكل، وكان على وشك الانصراف حينما رأى أمامه رجل المريخ.. وسرعان ما احتضنه هذا الأخير وقبله:

- أبي (جوبال)!

حرر (جوبال) نفسه بلطف من العناق وقال:

- اكبر يا بني.. اجلس وتناول إفطارك ولسوف أجلس بجوارك..

- لم آت طلبا للطعام بل جئت من أجلك أنت.. تعال نجد مكانا نتكلم فيه..

وانتحيا جانبا فجلب (مايكل) لأبيه مقعدا مريحا، بينما تمدد هو على أريكة أمامه.. وكان في الغرفة رجل وامرأة سرعان ما تركا لهما المكان في صمت وتنسيق تام.. وهكذا صارا وحيدين فيما عدا أن الشراب راح يُقدَم لـ (جوبال) من دون ساق.. وخطر له أن التحريك عن بعد الذي يمارسه هؤلاء القوم يوفر الوقت والمال.. كان (مايكل) يكره المشروبات الروحية لأنه يراها مجرد طريقة لممارسة (فقدان الاتحاد) من دون فقدان اتحاد حقيقي.. وهو يفعل الشيء ذاته بشكل أفضل عن طريق الانسحاب الذي يمارسه من حين لآخر.. وهو أرخص كذلك!

سأله (جوبال):

- سمعت أنك تجمع التبرعات لهذه الجماعة..

قال (مايكل):

- في الحقيقة كان المال دوما أكثر مما نحتاج إليه.. لكني أجعل الناس يدفعون لأن الناس لا تنظر بجدية أبدا إلى أي شيء لا تدفع مالا للحصول عليه..

- هذا صحيح..

- أنا أفهم الزبائن منذ كنت أعمل في الكرنفال.. نحن البشر نحتاج لوقت طويل وجهد كبير قبل أن نتلقى منحة مجانية ونقدرها حق قدرها.. في العادة لا أطالب الناس بهذا قبل أن يصلوا إلى الدائرة السادسة.. هنا فقط يتعلمون كيف يقبلون ويأخذون. إن القبول أصعب بكثير من العطاء.

قال (جوبال):

- هم من يا بني.. أظنك يجب أن تكتب كتابا عن سيكولوجية البشر..

- فعلت.. لكنه بالمريخية.. بل اضطررت كي أصل إلى البشر أن أتظاهر بأن ما أقدمه لهم ذو طابع ديني.. أنشأت جماعة دينية سرية والحقيقة أن ما أعلمه لهم لا علاقة له بالدين.. إنه محاولة لجعلهم يفكرون بالمريخية..

- لكني أرى أن هناك ما يضايقك برغم كل ما ترسمه من سعادة..

قال (مايكل) وهو يتأمل كأس الماء الذي في يده:

- نعم.. أنت البشرى الوحيد الذي أعرف أنه قادر على أن يستوعبني Grok.. إن (جيل) تستطيع لكن لو كنت أتألم فإنها تتألم معي.. لهذا أكره أن أشاركها آلامي..

وبدا غارقا في التفكير:

- الاعتراف مهم للمرء.. الكاثوليك عرفوا هذا وفهموه وكونوا نظاما كاملا يقوم على الاعتراف.. جماعة (فوستر) أدخلوا نظام الاعتراف.. أنا كذلك بحاجة إلى إدخال شيء كهذا هنا.. إن الطيبة وحدها لا تكفي.. لقد جربت ذلك.. عند المريخيين الطيبة والحكمة هما الشيء ذاته.. ليس هذا هو الحال هنا.. مثلا عندما قابلت (جيل) كانت طيبة لكنها كانت مضطربة في أعماقها، وقد كدت أدمرها لأني أنا نفسي كنت مضطربا.. لكن صبرها وهو شيء نادر على هذا الكوكب هو الشيء الوحيد الذي أنقذني.. الطيبة وحدها لا تكفي.. لا بد من حكمة باردة قاسية للطيبة كي تحقق الخير.. الطيبة بلا حكمة تؤدي حتما إلى الشر.. لهذا طلبتك هنا يا أبي.. لهذا أريدك.. لهذا أريد أن أعترف لك..

- بالله عليك يا (مايكل) لا تصنع فيلما سينمائيا من هذا.. فقط قل لي ما يضايقك ولسوف نجد حلا..

ثم فكر قليلاً:

- هل ضايقك تدمير مقر الجماعة؟ أنت ثرى ويمكنك بناء بناية أخرى..

- كلا.. البتة..

- هه؟

- لقد كان المعبد مفكرة امتلأت كل صفحاتها.. الآن حان وقت شراء مفكرة أخرى بدلاً من الكتابة على ما سبق.. لقد أفادتنا النار.. ومن وجهة نظر دعائية فإن ما تم ملفت للنظر إلى حد أنه سيفيدنا على المدى البعيد.. لكن ما أريد قوله يا أبي هو أنني عرفت في اليومين الأخيرين أنني جاسوس!

- ماذا؟ أوضح كلامك..

- للكبار القدامى.. لقد أرسلوني هنا للتجسس على قومي!

فكر (جوبال) في الأمر ثم قال:

- (مايكل).. أعرف أنك عبقري وأن لديك قوى لا أملكها ولم أرها قط، لكن يمكن أن يكون المرء عبقريا وبرغم هذا يهلوس..

- أعرف.. دعني أشرح أولا.. هل تعرف كيف تعمل أقمار المسح الفضائي التي تستعملها قوى الأمن؟

- لا.

- أعنى الخطة العامة.. هذه الأقمار تدور حول الكرة الأرضية وتلتقط المعلومات وتخزنها.. عند نقطة بعينها تسكب هذه العين السماوية كل ما اختزنته.. هذا ما تم معي.. تعرف أننا في العش نستعمل التليباثي..

- أُرغمت على أن أصدق في وجوده..

- على فكرة هذه المحادثة خاصة بيننا، ولن يحاول أحد من الموجودين قراءة أفكارك. ليكن.. أنا مجرد بيضة في هذا الموضوع بينما الكبار القدامى أساتذة.. لقد ظلوا مربوطين بي وإن تركوني حرا.. تجاهلوني ثم ضغطوا على زنادي فانطلق سيل

من كل ما رأيت وسمعت وعرفت إلى سجلاتهم.. لا أعنى أنهم مسحوا الشريط.. فقط صنعوا نسخة منه.. ثم قطعوا الاتصال فلم أستطع حتى الاحتجاج.

- هذا غريب.. يبدو لي أنهم استعملوك بقسوة..

- ليس بمقاييسهم.. كنت سأقبل هذا بحماس تطوعا لو عرفت به قبل تركي المريخ، لكنهم لم يريدوا لي أن أعرف.. أرادوا أن أفهم Grok بلا تدخل منهم..

- حتى لو كنت قد نقلت لهم كل شيء طيلة عامين ونصف، فما خطر هذا؟ ماذا حدث؟ وما أهميته؟

هنا حكى له (مايكل) كل شيء عن قيام شعبه بتدمير الكوكب الخامس من (سول) لتحويله إلى كويكبات [4].

- حسن يا (جوبال)؟

- لا أعرف.. هذا يبدو كالأساطير..

- (جوبال).. تدمير الكوكب الخامس من (سول) دقيق تاريخيا كانفجار بركان (فيزوف Vesuvius) عندكم وهو مدون بتفصيل أكبر..

- هل تعنى أن القدامى الكبار ينوون معاملة الأرض بالمثل؟ اسمح لي أن أقول إنني لا أبتلع هذا..

- لماذا يا (جوبال)؟ لا تحتاج إلا إلى فهم بسيط لقواعد الفيزياء وكيفية تماسك المادة. أشياء كالتي رأيتني أفعلها مرارا.. مثلا لو اخترت مساحة في قلب الكوكب.. كبيرة لكنها تسمح بألا يكون الأمر مؤلما.. أستوعبها أولا ثم..

وتلاشى تعبير وجهه وانقلبت عيناه لأعلى.. فهتف (جوبال):

- هيه! توقف! لا أعرف إن كنت تستطيع أم لا لكن بالتأكيد لا أرغب في أن تحاول!

- لن أفعل هذا، فأنا بشر..

- جميل.. والآخرون؟

- الكبار القدامى يرون هذا نوعا من الفن.. نوعا من الجمال..

- اسمع يا بني. أنت تتكلم عن هؤلاء الكبار القدامى ببساطة كأنما أنت تتكلم عن كلب الجيران.. لكني لا أبتلع هذا.. كيف يبدون بالضبط؟

- مثل أي مريخي.. فيما عدا أن الفارق بين المريخي البالغ والصغير كبير جدا.. السؤال نفسه سخيف.. لكن لنفرض أنك شهدت موت صديق لك، ثم جاءك يتكلم ويجلس معك.. هل تؤمن عندئذ بالأشباح؟

- أؤمن بالأشباح أو بجنوني أنا.

- حسن.. على المريخ نرى رأي العين أن الأشباح هي الفئة الأهم والأكثر عددا بين سكان الكوكب.. والأحياء لا دور لهم إلا خدمة الكبار القدامى..

- ليكن.. لن أجادلك.. أنت تخشى إذن أن يدمرنا قومك؟

- يدمروننا أو يقومون بغزونا ثقافيا ليجعلوا منا نسخة منهم.. بالنسبة لهم نحن قوم معوقون.. فشلنا في فهم بعضنا البعض.. حروبنا وأمراضنا وقسوتنا.. كل هذا عته بالنسبة لهم..

بالنسبة لهم تدميرنا سيكون نوعا من القتل الرحيم.. لكن لو تم هذا فلن يحدث قبل خمسمائة عام كحد أدنى.. ربما خمسة آلاف سنة..

- هذا وقت كثير جدا كي يتوصل المحلفون إلى قرار..

- المريخيون لا يتعجلون بينما البشر متعجلون دوما..

- إذن لا تقلق يا بني.. لو ظل الإنسان بعد خمسة آلاف عام عاجزا عن مقاومة جيرانه فليس بوسعي أنا أو أنت عمل شيء..

في هذه اللحظة رأى (جوبال) عربة شرطة طائرة تهبط من النافذة على سطح الفندق، ثم تلاشت في لحظة قبل أن تلمس السطح.. سأل (مايكل):

- هل ثمة مشكلة؟

- لا تقلق.. هم فقط يرتابون في وجودي هنا لكن قائدها لم يجد الوقت الكافي ليبلغ عنا.. في البداية كانت (جيل) تخاف هذا الذي أفعله قبل أن تفهمه بدقة.. لا يمكن قتل الإنسان.. ما أقوم به يشبه إخراج الحكم للاعب ارتكب خطأ في المباراة.

- كم رجلاً اضطررت لإخراجه من المباراة حتى تفر من السجن؟

- عدد كبير.. ربما 150 شخصا.. ربما.. لم أحاول العد.. لكني أخشى أنني اضطررت للقسوة في تعاملي وهذا يحيرني.. أخشى أن أكون سببت تعاسة إخوتي الذين تبعوني..

- كيف؟

- هم متفائلون.. يشعرون بالسعادة ويعرفون ذلك.. وكم يحبون بعضهم البعض.. يحسبون الأمر مسألة وقت إلى أن يصل كل الجنس البشرى لنفس درجة الجمال.. لقد نسيت أن البشر ليسوا مريخيين.. لقد ارتكبت هذا الخطأ عدة مرات وكنت أصحح نفسي.. المنطق الذي يتعامل به المريخيون لا يعمل هنا.. المفاهيم مختلفة لذا النتائج مختلفة..

مثلاً لا أفهم.. إذا جاع الناس فلماذا لا يقبل بعضهم أن يُذبحوا ليأكلهم الآخرون؟ على المريخ هذا مفهوم وواضح.. بل هو شرف.. مثلاً لا أفهم لماذا تعنون بالأطفال هكذا.. لو كانت الطفلتان على المريخ لتم إلقاؤهما خارج البيت لتعيشا أو تموتا.. تسع من كل عشر حوريات تموت.. هذا ما لم أفهمه على الأرض.. على المريخ لا يتنافس البالغون أبدا بينما هنا على الأرض يتنافسون.

هنا أدخل (دوك) رأسه وقال:

- (مايكل).. هل تراقب الخارج؟ هناك زحام حول الفندق..

وافقه (مايكل):

- أعرف.. قل للآخرين إن الانتظار لم ينته بعد..

ثم عاد يواصل كلامه:

- أحيانا أعتقد أن الفهم الكامل سيقودني لقبول حقيقة البشر يجب أن يظلوا تعساء متحاربين.. فقط من أجل الغربلة التي لا بد أن يمر بها كل جنس.. قل لي يا أبي.. يجب أن تخبرني..

- من الأحمق الذي قال لك يا (مايكل) أنني لا أخطئ؟

- كلما سألتك عن شيء وجدت لديك الإجابة.. وفي كل مرة يتضح أن رأيك صائب..

- أنت تفقد صبرك بسرعة.. هذا لا يتفق مع السلوك المريخي.. أنت جربت مع عدد قليل، ودعني أقل لك إن هذه أكثر مجموعة بشر سعيدة متمتعة بالصحة عرفتها.. فقط أنتظر حتى يصير أتباعك بالآلاف وعندها دعنا نناقش الأمر ثانية..

☆ ☆ ☆

-23-

انطلق (جوبال) ورجل المريخ نحو غرفة المعيشة التي يتوسطها التليفزيون المجسم العملاق. كان العش كله هناك يراقبه. وقال:

- هم قادمون.. الآن يأتي الفهم الكامل..

وتزايد جو التوقع المتحمس الذي شعر به (جوبال) منذ جاء هنا.. قال (مايكل):

- حان الوقت.. إليّ بثياب مناسبة..

قال (جوبال) لـ (مايكل) وهو يرقب الشاشة:

- يا بني.. هذه المجموعة من الدهماء تبدو لي قبيحة.. هل ترى من المناسب أن تخرج لتتفاهم معهم؟

- حتما.. لقد جاءوا ليروني ولسوف أذهب للقائهم..

وراحت الثياب توضع عليه بمساعدة النسوة غير الضرورية.. غير الضرورية لأن كل قطعة ثياب كانت تعرف لأين تذهب بالضبط.

- هذه العملية لها مزاياها وعليها مسئولياتها.. يجب أن يظهر نجم العرض للمشاهدين.. هل تفهم؟ زبائن الكرنفال يتوقعون هذا.

- لم أثق قط بالدهماء..

- هم باحثون عن الحقيقة.. نعم بعضهم من أتباع (فوستر) وحاقد عليّ لكني قادر على السيطرة على الجميع.. أين قبعتي؟ لا أستطيع المشي في شمس الظهيرة من دون قبعة..

وانزلقت قبعة فوق رأسه فقال:

- كذا.. هل أبدو حسن المظهر؟

كان يلبس الآن بذلة بيضاء وحذاءين يتسقان معها.. بالإضافة إلى كوفية أنيقة. أما (آن) فوضعت عباءة الشهود العدول مما جعلها تبدو وقورا..

اتجه الجميع إلى الرواق المشترك لكل أجزاء الفندق.. واتجه (مايكل) إلى منضدة عليها دورق ماء وأكواب وسكين فاكهة، فصب لنفسه بعض الماء وشربه.. وقال:

- الخطابة عمل يجلب الظمأ..

وناول الدورق لـ (آن) ثم تناول السكين وقطع تفاحة.. خيل لـ (جوبال) أن (مايكل) قطع إصبعه لكن انتباهه تشتت حينما وصل الكوب له.. شرب منه جرعة وقد شعر بأن حلقه جاف فعلاً..

أمسك (مايكل) بيده وابتسم:

- كف عن القلق.. أراك خلال دقائق يا أبي..

وخرجوا عابرين ممر الكوبرا الحارسة.

أما (جوبال) فقد عاد إلى حيث كان الباقون بناء على أوامر (مايكل).. وراح يراقب الشاشة.

كان هناك زحام من الدهماء يتقاتلون مع رجال الشرطة الذين لا يحملون إلا العصي.. كانت هناك صرخات لكن أكثر ما سمعه هو ضوضاء فحسب.

وتساءل أحد المشاهدين:

- أين هم الآن؟

قالت (باتي):

- بعضهم وصل إلى الردهة الآن.. لقد رأوا (مايكل) والتقط البعض صورا..

ثم ظهر على الشاشة مراسل صحفي فخور:

- هنا الشبكة الدولية NWNW.. لقد عرفنا الآن أن الرجل من المريخ قد خرج من مخبئه هنا في مدينة (سان بطرسبورج) الجميلة.. المدينة التي تحوي كل ما يجعلك تغنى.. يبدو أن (سميث) ينوى الاستسلام للسلطات.. لقد فر أمس من السجن مستعملاً متفجرات قوية أمده به أتباعه المجانين.. لكن يبدو أن نطاق الشرطة حول المدينة منعه من مغادرتها.. والآن إعلان بسيط من راعي هذا البرنامج..

شكرا وعيد سعيد يا من تشاهدون شبكة NWNW..

قالت (باتي):

- إنهم قادمون من الباب الأمامي!

ومن جديد عاد صوت المذيع:

- من فندق (جوهرة الخليج) الذي لا تعتبر إدارته مسئولة عن هذا الهارب، وقد تعاونت مع رجال الشرطة كما قال تصريح لمدير الشرطة (ديفيس).. نلقى الآن بعض الأضواء على حياة ذلك الرجل، بينما نحن بانتظار ما سيحدث..

وراحت لقطات من حياة (مايكل) تتوالى على الشاشة.. لقطات من اللقاء الزائف الذي أجروه معه.. لقطات من لقائه مع السكرتير العام..

- هل ترين شيئا يا (باتي)؟

- (مايكل) في أعلى الدرج.. والناس على بعد مائة ياردة.. (دوك) يلتقط بعض الصور..

ومن جديد عاد صوت المذيع:

- هذا الجمع الرائع يواجه خبرة لم يمر بها من قبل.. لقد عوملت قوانينهم بازدراء وعومل رجال أمنهم بقسوة.. أتباع هذا المسيخ الدجال لم يألوا جهدا كي يفر قائدهم من قبضة العدالة.. يمكن لأي شيء أن يحدث..

إنه يتجه نحو الناس..

كان (دوك) و(آن) يمشيان خلفه.. بينما (مايكل) يدنو من كاميرا مواجهة حتى صار بالحجم الطبيعي على شاشة التليفزيون، وكأنه في نفس الغرفة مع إخوة الماء..

وقف مواجها الجماهير وصاح:

- هل ناديتموني؟

فأجابته زمجرة..

وسطعت الشمس ملقية ضوءا ذهبيا عليه.. كان جميلاً جمالاً جعل قلب أبيه (جوبال) ينقبض.. لو كان (مايكل أنجلو Michelangelo) هنا، لصمم على أن يسجله للأجيال التي لم تولد بعد..

قال (مايكل):

- انظروا لي! أنا بشرى..

هنا انقطعت الصورة لتظهر مجموعة من الراقصات يغنين:

- هلموا يا سيدات.. صابون (الحبايب) يرفق بأيديكن لكن تأكدن من الاحتفاظ بالشريط!

ثم عاد الإرسال..

- عليك اللعنة!

كذا انطلق نصف قالب من القرميد ليضرب (مايكل) في الضلوع.. فاستدار لقاذف الحجر وقال:

- ليس بوسعك إلا أن تلعن نفسك.. ولن تستطيع الهرب من نفسك..

- أيها الهرطيق!

وطار حجر ليضربه فوق الحاجب الأيسر.. فانفجر الدم منه.. قال (مايكل):

- حينما تضربني فأنت تضرب نفسك..

هنا هوت المزيد من الحجارة..

- أنا أمنحكم ماء الحياة فلا حاجة بكم إلى أن تكرهوا بعضكم.. عيشوا في سلام وحب معا..

نظر إلى الكاميرا فأصابته صخرة في فمه.. لكنه ظل يرسم ابتسامة حنين على شفتيه..

- فلتكن شربتكم عميقة.. اقتربوا أكثر من بعض..

هنا جاء الإعلان:

«كهف (كاوينجا).. النادي الليلي الذي يحوي هباب (لوس أنجيليس) الذي تم استيراده طازجا كل ليلة.. راقصات مثيرات..»

- اشنقوه بلا محاكمة!

هنا انطلقت بندقية ذات عيار ثقيل جوار (مايكل) فأصيبت ذراعه اليمنى عند الكوع وسقطت.. تدحرجت على الأرض وكفها لأعلى كأنما هو يوجه دعوة..

- أعطه الأخرى يا (شورتي)!! لتطلق من مسافة أقرب!

وانطلق حجر آخر ليهشم رأس (مايكل)...

ثم دوى طلق آخر تلته طلقتان.. الأولى ضربت (مايكل) فوق القلب وهشمت الضلع السادس فوق عظمة القص..

لكن (مايكل) واصل المشي مترنحا مبتسما للأمام وواصل الكلام بلا عجلة:

- المشكلة في الإنسان.. لو استطعت السيطرة على نفسك لفعلت كل شيء..

- هلموا يا رجال ننه الأمر!

وسرعان ما انقض الرجال عليه.. بالقبضات والحجارة.. فالأقدام.. إلى أن صاح أحدهم:

- تراجعوا كي نسكب فوقه الجازولين!

كانت الكاميرا تقترب لترينا وجه الرجل من المريخ.. كان يبتسم.. ومن جديد قال:

- أنا أحبكم..

ثم فقد اتحاده الجسدي..

☆ ☆ ☆

ازداد الدخان كثافة فقالت (باتي) في تبجيل:

- جميل.. لقد استراح!

وقال أحد الواقفين:

- بطريقة تليق به.. لقد انتهى الفتى بطريقة تليق به..

نظر (جوبال) في حيرة للإخوة.. هل هو الوحيد الذي شعر بأي شيء؟ حتى السكرتيرة (دوركاس) كانت هادئة جافة العينين..

قالت (باتي):

- ستعود (آن) و(دوك) الآن عبر الرواق.. يجب أن أعد الغداء الآن..

هنا أوقفها (جوبال):

- (باتي).. هل تعرفين ما كان (مايكل) ينتويه؟

بدت عليها الدهشة وقالت:

- ماذا؟ بالطبع لا يا (جوبال).. لم يعرف أحدنا بشيء.. لقد جاءت لحظة الكمال..

قالت له (جيل):

- (جوبال) يا أبانا.. أرجوك أن تصمت وتستوعب لحظة الكمال هذه..

- لكنه تركها واتجه كالكفيف إلى حجرته.. أغلق الباب خلفه وانحنى على الفراش.. يا ولدى! يا ولدى! لقد كان لديه الكثير مما يعيش لأجله.. ليتني مت بدلا منه..

لقد ترك التيس العجوز (جوبال) الفتى يقود نفسه إلى نهاية بلا جدوى ولا معنى.. استشهاد لكنه ليس استشهادا على الإطلاق.. كان بوسع (مايكل) أن يعطى هؤلاء القوم شيئا ماديا مفيدا.. لكن ما جدوى أن يعطيهم الحقيقة؟ من يريد الحقيقة؟

ضحك لهذه الدعابة ثم بكي ثم ضحك.. على خديه امتزجت دموع الضحك مع دموع الحزن..

بحث في الحقيبة عن الشيء الذي كان يحتفظ به.. الشيء الذي أبقاه هناك منذ أصيب (دوجلاس) بالفالج.. الآن هو يحتاج لعلاج وقد قدر أن ثلاثة أقراص كافية.. ابتلعها مع بعض الماء ثم رقد على الفراش..

بدأ الألم يزول..

ومن مسافة بعيدة جاءه الصوت:

- (جوبال)..

- أنا نائم.. لا تضايقني..

- (جوبال).. أبي..

- مايكل؟

- انهض.. فلم يأت أوان الاكتمال بعد..

هكذا نهض (جوبال) وسمح لنفسه أن يقاد إلى الحمام.. سمح لرأسه بأن يوضع على الحوض.. وسمح لنفسه بأن يقيء..

- شكرا يا بني.. شكرا.

وببطء ارتدى ثيابا أكثر نظافة.. وخرج إلى الرواق ليلحق بالباقين.

كانت (باتي) هناك فقالت له:

- هل تريد أن تتناول الغداء؟

- نعم.. من فضلك.

وهكذا دعته إلى اللحاق بها في المطبخ.. هناك كان نحو عشرين من أخوة الماء يأكلون وبينهم (دوك) الذي قال له:

- مرحبا يا ريس.. لقد طلبت حافلة هوائية تتسع لعشرين شخصا.. سوف نهبط بها في حديقة بيتك..

لم يقاوم (جوبال).. فهو يعرف أن هذا يعنى أنه لن ينام وحده في داره ثانية، لكنه لم يستطع الاعتراض..

- ليس جميعنا.. سيوصلنا (تيم) ثم يأخذ الباقين إلى (تكساس).. (بياتريس) و(سفين) ستتجهان إلى (نيوجيرسي)..

وسأله (دوك):

- سيدي.. متى تسمح لنا بأن نملأ حمام السباحة من جديد؟

قال (جوبال):

- نحن لا نملؤه قبل الأول من إبريل كل عام.. لكن بوجود السخان الجديد يمكن أن نملأه في أي وقت..

وسألت إحداهن (باتي):

- هل تعتقدين أن ثعابينك تتحمل قبوا نظيفا دافئا لفترة؟

ونظر (جوبال) إلى (دون) وقال لها:

- هل تكتبين على الآلة الكاتبة؟

- نعم..

إذن اعتبري نفسك سكرتيرة عندي إلى أن أجد لك وظيفة كاهنة عظمى في مكان ما..

وساهما قال (جوبال) لـ (دوك):

- لقد خدعتُ (مايكل).. كان يراهن على أنه سيعيش بعدى ويقدمني صنفا أساسيا في عشاء (عيد الشكر).. بل ربما أنا الذي خُدعت.. فلن أحصل منه على قيمة الرهان أبدا..

- أنت كسبت من دون جائزة..

وراح (جوبال) يشرب وهو مندهش من حالة السلوى التي يمر بها.. لكم بدا له (مايكل) بريئا يوم جاء بيته.. متلهفا على إرضاء الآخرين.. ثم صار ذا قوة جبارة وبرغم هذا لم يفقد براءته الملائكية لحظة..

الآن أفهمك يا بني.. I grok..

جلس يلتهم الغداء بينما قال (سام):

- كنت أتكلم مع (روث) عن المستقبل.. ما دمنا أنشأنا مشروعا ناجحا فلا يوجد سبب لإيقافه حتى إن مات صاحب العمل.. كنا نتكلم عن إنشاء مقر جديد والبحث عن آخرين.. لكن علينا جمع المال من جديد.. والكثير منه فالأمر لا يتعلق بإعادة فتح (كشك جرائد)..

قال (جوبال):

- المال ليس مشكلة..

- كيف؟

- كمحام لا يجب أن أقول هذا.. لكني أقوله كأخ مائي.. سأشرح لكم فيما بعد.. أما الآن يا (آن).. عليك أن تشترى المنطقة التي قتلوا فيها (مايكل).. وحولها دائرة قطرها مائة قدم..

- لكن هذا جزء من ملك الحكومة.. مائة ياردة معناها أن تستولى على جزء من الشارع..

- لا تجادلي.

- لا أجادل.. فقط أعطيك الحقائق..

- سيبيعون.. ولسوف يغيرون اتجاه الطريق.. سوف ألوى ذراعهم عن طريق (دوجلاس).. سوف ندفن (مايكل) هناك ونرغم الشرطة على حراسة هذا القبر.. ويوما ما سيأتي من قتلوه ليبكوا على قبره..

ثم أخبرهم عن ثروة (مايكل) وعن الوصية التي تركها لهم.. من هذه اللحظة صار كل واحد منهم مليونيرا حتى بعد خصم

الضرائب.. ثم سألهم:

- والآن فلنرحل.. هل تم دفع الفواتير؟

قال (بن) في لطف:

- (جوبال).. نسيت أننا نملك هذا الفندق!

ولم يضايقهم رجال الشرطة.. على كل حال كانت المدينة كلها قد هدأت أخيرا..

وسرعان ما كانت الطائرة تنطلق..

وفي الطائرة أخبر (محمود) بخطته.. كان راغبا في الذهاب إلى المريخ لتعلم اللغة من منبعها.. على أن ينتهي قاموس (محمود) خلال عام من هذه اللحظة.

قال (محمود):

- إن ذاكرة (آن) الفوتوغرافية جعلتها تتقدم جدا في اللغة المريخية أكثر مما تتصور أنت.. سوف تساعدك كثيرا فلا حاجة بك إلى مشروع السفر هذا.. فقط اجلس مع (آن) أكثر..

قال له (جوبال):

- جميل.. والآن اتركني فأنا أريد أن أعمل.

ثم نادى بصوت عال:

- أول الصف..

جاءته السكرتيرة (دوركاس) فقال لها:

- هل ترغبين في العمل؟

- نعم.. أنا بحال ممتازة..

- إذن نبدأ.. مسرحية تليفزيونية.. العنوان هو (مريخي يدعى سميث).. المقدمة: لقطة زوم على كوكب المريخ.. تتابع لقطات لا ينقطع.. ثم لقطة مقربة: داخل سفينة فضاء.. مريضة بشرية ترقد على..

☆ ☆ ☆

-25-

لم يصدر قرار الاتهام ضد الكوكب الثالث من (سول) قط. لم يكن الكبار القدامى على الكوكب الرابع مطلقي العلم إلى هذا الحد، وبشكل ما كانوا ضيقي الأفق كالبشر.

استخدموا منطقهم العظيم، وقرروا أنهم في وقت ما سيجدون حتما دليلاً على وجود خطأ في تلك الكائنات العجول القلقة المشاغبة على الكوكب الثالث. خطأ يستوجب الغربلة، بمجرد أن يتم استيعابهم والتعبد لهم وكرههم. لكن إلى أن يصلوا لهذا القرار، فإنه من غير المحتمل أن يقرر الكبار القدامى تدمير هذا الجنس العجيب المعقد. إن الخطر ضئيل إلى حد أن المسئولين عن الكوكب الثالث لن يضيعوا جزءا من الدهر لتفاديه.

روبرت هاينلاين

1962

غريب في أرض غريبة (الجزء الثاني)

هذا هو (فالنتين مايكل سميث).. الرجل القادم من المريـخ.. البرىء في عالم متوحش.. الساذج في دنيا مفعمة بالتعقيدات.. ما لا يعرفه هو أنه - قانونا - المالك الوحيد لكوكب المريـخ، وما لا يعرفه البشر هو أنه سيغير وجه الأرض.. بفلسفته الغريبة.. بقواه غير المعهودة.. بسذاجته التي لا ترى العالم كما نراه..

(روبرت هاينلاين) وأعلى القصص مبيعا في تاريـخ أدب الخيال العلمي كله..

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

<u>Link – لينك القناة</u>

الفهرس..

Notes

[←1]

- يتهكم على النشيد الوطني الأمريكي.

[←2]

- ميشيل ومايكل وميخائيل وميجيل هم الاسم ذاته..

[←3]

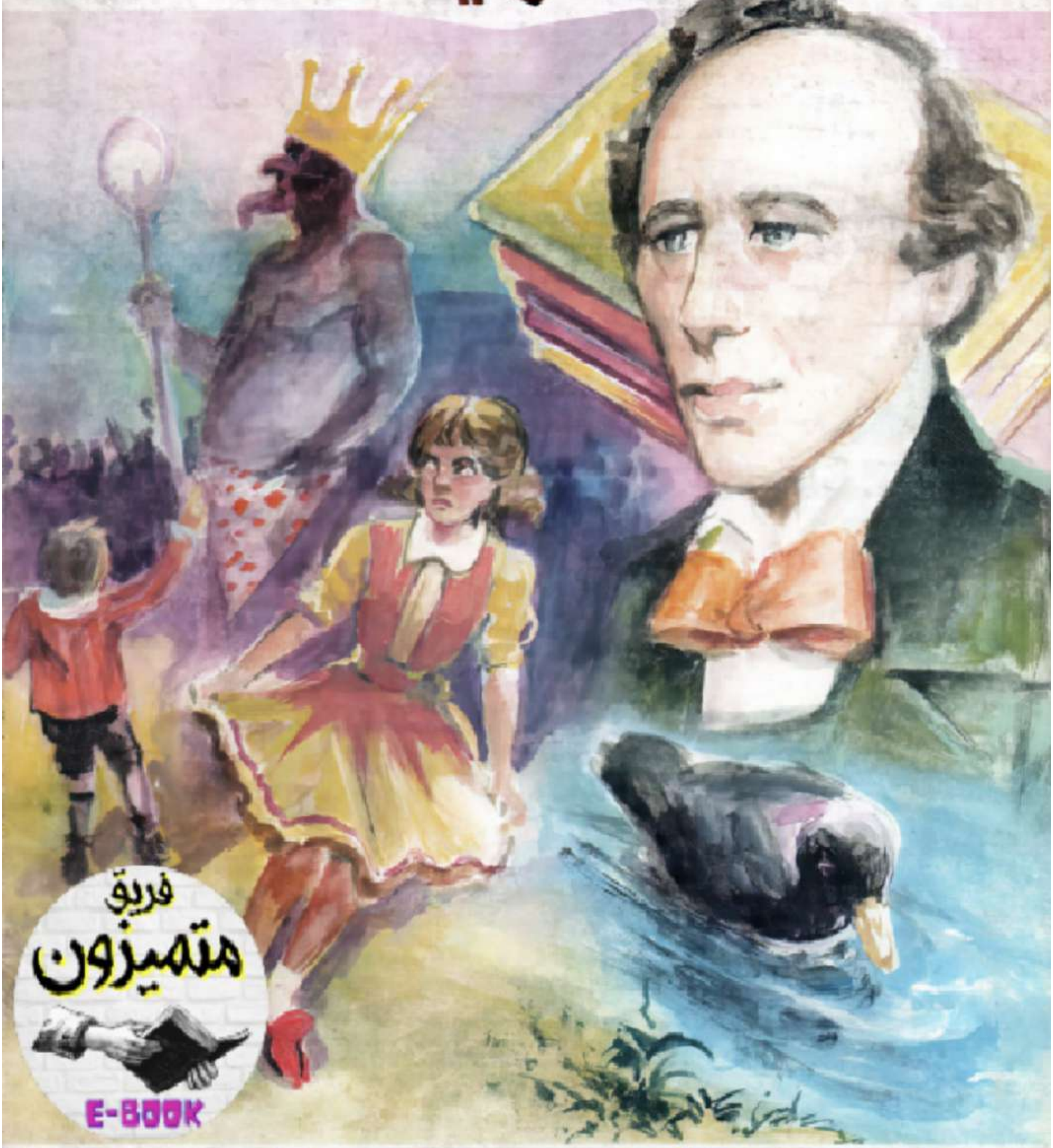
- تقصد أسلوب الطرد من مدن الغرب قديما: قطران وريش، ثم يوضع المطرود على قضيب قطار يحملونه عليه إلى خارج المدينة..

[←4]

- لم اختصر شيئا.. هكذا القصة تتحدث عن موضوع تدمير هذا الكوكب (لأغراض جمالية فنية) في تلميحات لا أكثر.. (سول) هي الشمس طبعا..

55

روايات عالمية للجيب



حكايات أندرسن

بقلم : هانز كريستيان أندرسن
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (55)

حكايات أندرسن

بقلم: هانز كريستيان أندرسن
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

مهما كانت جنسيتك أو ثقافتك، فلابد أنك تحمل في جزء من خلايا عقلك بعضًا من إبداعات (هانز كريستيان أندرسن Hans Christian Andersen.) هل شعرت يومًا ما بأنك (البطة الصغيرة القبيحة)؟ هل سمعت تعبير (الإمبراطور عار تمامًا) عندما يعلن أحدهم حقيقة يخشى الناس الاعتراف بها؟ هل رأيت فيلم الرسوم المتحركة (عروس البحر الصغيرة)؟ إذن أنت قد دخلت ذلك العالم الساحر دون أن تعرف.

لقد ترجمت القصص الخيالية لهذا العبقري إلى أكثر من 80 لغة، وقد استلهمت منها مسرحيات وعروض باليه وأفلام سينمائية..

كاتبنا العبقري دانماركي الجنسية ولد عام 1805 لأب متعلم يعمل إسكافيًّا، وأم تعمل غسالة. وقد فتحت هذه الأم غير المتعلمة المؤمنة بالخرافات عيني الصبي على عالم التراث الشعبي. فيما بعد لقيت هذه الأم نهايتها بسبب الإفراط في الكحول في دار خيرية للفقراء المسنين. تلقى (أندرسن) أقل القليل من التعليم بالإضافة إلى مشاكله النفسية بسبب طوله المفرط وعينيه المتقاربتين وملامحه الأنثوية نوعًا. وكان يصاب بنوبات هياجية شخصها الأطباء تشخيصًا خاطئًا على أنها صرع.

كانت علاقته بأبيه حميمة فعلًا، فقد اصطحبه أبوه إلى المسارح وحكى له (ألف ليلة وليلة) وكان يصنع له عرائس ووسائل تسلية مختلفة. يقول (أندرسن) في مذكراته: «في تلك اللحظات فقط كنت أرى أبي سعيدًا.. هو الذي كان محبطًا دومًا بسبب

العمل اليدوي الذي لا يراه يناسبه. لقد استوليت عليه بالكامل لنفسي.. »
بعد وفاة أبيه اضطر لأن يعمل ليعول نفسه. انتقل إلى (كوبنهاجن) العاصمة في الرابعة عشرة من عمره، حيث عمل حرفيًا وتحمل سخرية أقرانه الذين كانوا يعتبرونه فتاة متخفية. مارس بعض الوقت مهنة الغناء والرقص في المسارح، فقد كان له صوت (سوبرانو) جميل. وفي العام ١٨٢٢ بدأ يقدم أعماله الأدبية.. في العام ١٨٢٧ حصل على منحة للدراسة في جامعة (كوبنهاجن). في هذه الفترة وقع في الحب.. وكانت فتاة رقيقة اسمها (ريبورج فويت) بادلته الحب، ثم . كالعادة . سرعان ما تزوجت أول عريس مناسب.. وحينما مات عام ١٨٧٥ وجدوا حول عنقه كيسًا جلديًا يضم رسالة كتبتها له منذ نحو خمسين عامًا. بالمناسبة لم يتزوج (أندرسن) قط.
كانت أولى أعماله الناجحة هي (رحلة على الأقدام من قناة هولمان إلى الطرف الشرقي من جزيرة أماجير خلال الأعوام من ١٨٢٨ إلى ١٨٢٩)! نعم.. لا يوجد خطأ.. هذا هو اسم العمل وليس خبرًا في جريدة..
ثم قدم لنا روايته (المرتجل). وقد سافر كثيرًا جدًا وكتب أكثر.. قابل (فكتور هوجو) و(بلزاك) في فرنسا، وذهب إلى ألمانيا ليرى (جوته) لكنه لم يقابله، وقابل (ديكنز) في إنجلترا باعتباره تلميذًا منبهرًا بأستاذه. من الغريب أن (ديكنز) العظيم استلهم منه فيما بعد أعماله (الأجراس) و(ترنيمة الكريسماس النثرية).. كما نرى بصمات (أندرسن) واضحة في قصص (أوسكار وايلد) « الأمير السعيد » و«البلبل والوردة» أي أنه أضاف لأساتذته أكثر مما أضافوا له..

إن قصص (أندرسن) الخيالية للأطفال هي الشيء الذي منحه شهرته، وبها اتخذ مكانه إلى جوار الأخوين (جريم) و(لويس كارول) وغيرهم من سحرة الأطفال، وقد قدم لنا في تلك القصص أسلوبًا مبسطًا أخفى وراءه معاني فلسفية عميقة ودروسًا متنكرة، وهو ما يختلف عن قصص الأطفال الوعظية المعتادة. وسوف نلاحظ الدرس المعتاد في كل مرة: إن أدب الأطفال والشعر متقاربان أو هما نفس الشيء في الواقع. إن قصصه اعتبرت استكمالًا لقصص الأخوين (جريم) و(ألف ليلة وليلة) لكن من بين 156 قصة حكاها (أندرسن) كانت هناك ١٢ قصة فقط من التراث الشعبي، وهذا ليس الحال مع الأخوين (جريم) اللذين اتهمهما النقاد بعدم الأصالة. وسوف نلاحظ في كل قصصه أن الأطفال والمنبوذين يتكلمون الحقيقة وهم صوت العقل مجسمًا. كان (أندرسن) فقيرًا وتعسًا جدًّا، لذا قدم لنا غالبًا تلك النماذج التي تصل إلى السعادة بعد طول شقاء.

إن أكثر قصصه تنتهي نهايات سعيدة باستثناء نماذج قاسية مثل (بائعة الثقاب الصغيرة). ويبدو أنه ظل حتى نهاية حياته يعتبر نفسه (البطة الصغيرة القبيحة).

هذا ديدن العباقرة الذين تدخل عُقد صباهم المصهر لتتحول إلى ذهب يبقى للأبد بعد رحيلهم.

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

للمهتمين بمعرفة المزيد عن (هانز كريستيان أندرسن) وقراءة معظم أعماله بالإنجليزية، أقترح هذا الموقع على شبكة الإنترنت:

http://falcon.jmu.edu/~ramseyil/andersen.htm

والمهم كذلك أنه يحوي روابط لمواقع أخرى عديدة.

ثياب الإمبراطور الجديدة

منذ أعوام عديدة كان هناك إمبراطور مولع للغاية بالثياب الجديدة؛ حتى إنه أنفق كل ماله على الثياب. لم يهتم البتة بجنوده ولم يبال بالذهاب إلى المسرح أو الصيد. فقط كان يختار المناسبات التي تتيح له أن يعرض ثيابه الجديدة. وكانت لديه حلة مختلفة لكل ساعة من اليوم، وكما اعتدنا أن نقول عن أي ملك أو إمبراطور آخر: « إنه في المجلس»، كان يقال عن هذا الإمبراطور: « إنه يجلس في خزانة الثياب. »

مر الزمن السعيد على المدينة الكبيرة التي كانت عاصمة إمبراطوريته، وكان الغرباء يأتون كل يوم إلى البلاط.. وذات يوم ظهر محتالان يطلقان على نفسيهما نساجين، وأعلنا أنهما يجيدان نسج ثياب باهرة الجمال متقنة التصاميم.. وأن الثياب التي ينسجانها تمتاز بأنها شفافة لا يراها إلا من كان غير صالح لمنصبه، أو كان ساذجًا إلى درجة تفوق الوصف.

فكر الإمبراطور:

. « لابد أن هذه الثياب رائعة! لو كانت عندى حلة كهذه لأمكنني أن أعرف الموظفين الذين لا يصلحون لمنصبهم. ولأمكنني أن أميز الحكيم من الأحمق! يجب أن ينسجوا لي هذا النسيج حالًا. »

وأمر بأن يمنح النساجان مبالغ هائلة من المال كي يبدءا العمل حالًا.

نصب النساجان المدعيان نولين وشرعا في العمل بانهماك شديد، برغم أنهما في الحقيقة لم يكونا يفعلان أي شيء.. طلبا أرق أنواع الحرير وأنقى خيوط من ذهب، فكانا يضعان هذه

الأشياء في الحقيبتين على ظهريهما، ثم يواصلان النسج حتى ساعة متأخرة ليلًا..
قال الإمبراطور لنفسه:
- « أرغب في معرفة ما قام به النساجان في ثيابى. »
بعد قليل شعر بالحرج حينما تذكر أن المغفل أو الشخص غير الجدير بمنصبه لا يرى هذا النسيج. وكى يتأكد قرر أنه لن يخسر شيئًا لو جرب بنفسه، لكنه فضل أن يرسل شخصًا آخر يتحرى له عن النساجين وما يقومان به من عمل.
كان الجميع في المدينة قد سمعوا عن تلك الخاصية الفريدة للثياب، وتمنى كل واحد أن يرى مدى حكمة أو مدى جهل جيرانه.
قال الإمبراطور في النهاية بعد تدبر طويل:
. « سأرسل وزيري المخلص العجوز إلى النساجين.. سوف يكون أفضل من يرى الثياب.. إنه رجل عاقل ذكي ولا يمكن أن يكون هناك شخص جدير بمنصبه أكثر منه. »
هكذا ذهب الوزير المخلص إلى القاعة حيث كان المحتالان يعملان بكل قوتهما، على النولين الفارغين.
فكر العجوز وهو يفتح عينيه عن آخرهما:
. « ما معنى هذا؟ لا أرى خيطًا واحدًا على هذين النولين. »
لكنه لم يعلن عن أفكاره بصوت عال.
طلب منه النصابان أن يتكرم بالدنو من النولين، ثم سألاه عما إذا كان التصميم يروق له، وعن رأيه في الألوان. قالا هذا وهما يشيران إلى النول الفارغ. نظر الوزير المسكين ونظر لكنه لم ير شيئًا على النولين، لسبب بسيط هو أنه لم يكن هناك شيء. وفكر ثانية:

. « هل من المعقول أن أكون مغفلًا؟ لم أحسب نفسي هكذا قط.. ولا يجب أن يعرف أحد هذه الحقيقة الآن.. إذن أنا لا أصلح لمنصبي.. هذا لا يجب أن يقال كذلك.. لن أعترف بأنني لم أر القماش. »
تساءل أحد النصابين متظاهرًا بأنه ما زال يعمل:
- « حسن يا سيدى الوزير؟ لم تقل ما إذا كان القماش يروق لك. »
أجاب الوزير العجوز وهو ينظر للنول عبر عويناته:
. « آه إنه رائع.. التصميم والألوان.. سأخبر الإمبراطور بلا تأخير كم هي ثياب رائعة! »
قال المحتالان:
- « سوف نكون ممتنين لك. »
ثم راحا يصفان الألوان وتصاميم الثياب المرتقبة. وراح الوزير العجوز يصغى بانتباه لما يقولان على أساس أن يقول هذا الكلام للإمبراطور، ثم طلب النصابان المزيد من الحرير والذهب لاستكمال ما بدءاه. لكنهما وضعا كل ما نالاه في حقيبتيهما. وواصلا العمل بذات الكد أمام النولين.
أرسل الإمبراطور الآن ضابطًا آخر من بلاطه ليرى ما حققه الرجلان، وليتأكد من قرب انتهاء الثياب، وقد فعل الرجلان مع هذا السيد ما فعلاه مع الوزير، لقد تفحَّص النولين فلم ير شيئًا إلا إطارات فارغة.
سأل النصابان مبعوث الإمبراطور الثاني وهما يقومان بذات الحركات:
- »هل تبدو الثياب جميلة في عينيك كما بدت لسيدى الوزير؟ «
فكر المبعوث:

. « أنا بالتاكيد لست أحمق.. لكن من الجلي أننى غير مناسب لمنصبي الطيب المربح.. لا يجب أن يعرف أحد بهذا. »
هكذا راح يمتدح الثياب التي لا يراها، ويطرى ألوانها وتصميمها. وقال للإمبراطور لدى عودته:
- « الثياب التي يعدها النساجان يا صاحب الجلالة الإمبراطورية رائعة. »
راحت المدينة كلها تتكلم عن الثياب الرائعة التي طلب الإمبراطور أن تنسج له على حسابه.
الآن صار الإمبراطور نفسه مشوقًا إلى أن يرى الثياب الباهظة، وهي ما زالت على النول. ذهب إلى هناك مصحوبًا بعدد من ضباط البلاط المختارين بينهم السيدان اللذان أعجبا بالثياب. فما إن شعر المحتالان بقدوم الامبراطور حتى راحا يعملان بكد أكثر. برغم أنهما لم يمررا خيطًا واحدًا في النول.
قال أحد الضابطين:
. « أليس العمل رائعًا؟ لو تفضلت يا مولاى بالنظر إليه.. يا له من تصميم مذهل! يا للألوان المجيدة! »
وأشارا إلى الأطر الفارغة. لأنهما حسبا أن الجميع قادرون على رؤية هذا العمل المتقن.
قال الإمبراطور لنفسه:
- « كيف هذا؟ لا أرى شيئًا! هذه مسألة فظيعة! أنا رجل ساذج أو لا أصلح لأكون إمبراطورًا؟ هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث.. آه إن الثياب رائعة! »
وبصوت عال قال:
. « إنها قد ظفرت باستحساني الكامل! »
ونظر إلى النول الفارغ. لن يعترف تحت أية ظروف بأنه لم ير ما رآه الضابطان وامتدحاه. جاهد كل رجال الحاشية وحاولوا أن

يروا شيئًا على النول، لكنهم لم يروا إلا ما رآه الآخرون، لكنهم صاحوا في عجب:
- « يا للجمال! »
ونصحوا جلالته بأن يصنع ثيابًا جديدة من هذا القماش المذهل من أجل الموكب القادم. ودوي في كل مكان:
- »رائع! خلاب! ممتاز! »
وانتاب المرح الجميع.. وشارك الإمبراطور في الرضا العام وقدم شريط الفروسية للمحتالين كي يضعاه في عروتيهما، كما منحهما لقب (السيدان النساجان).
قضى النصابان الليلة كلها قبل موعد الموكب، وأوقدا ستة عشر مصباحًا كي يرى الجميع مدة لهفتهما لإنهاء ثياب الإمبراطور الجديدة.
تظاهرا بأنهما يلفان الثوب ليرفعاه عن النول، وقصا الهواء بمقصيهما وخاطا الثوب بإبرة بلا خيط. وفي النهاية صاحا:
. « ثياب الإمبراطور الجديدة جاهزة! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن جاء الإمبراطور مع كبار بلاطه إلى النساجين، فرفع النصابان أذرعهما كأنما يحملان شيئًا. وقالا:
. « هو ذا سروال جلالتكم. هو ذا الوشاح.. هي ذي العباءة.. إن الثوب خفيف كنسيج عنكبوت.. قد يتصور المرء أنه لا يضع ثوبًا فوقه ولكن هذه مزية هذا الثوب الرقيق. »
قال رجال البلاط برغم أن أحدهم لم ير هذا الثوب الخلاب:
. « نعم.. بالفعل. »
. « لو تفضلتم جلالتكم بخلع ثيابكم.. سوف نضع الثياب الجديدة عليك أمام المرآة.. »

من ثم نزع الإمبراطور ثيابه وتظاهر المحتالان بأنهما يكسوانه بالثياب، والتفت الإمبراطور من جانب لآخر أمام المرآة.
صاح الجميع:
. « ما أروع مظهر جلالتكم في الثياب الجديدة، وكم تناسبكم! يا له من تصميم.. يا لها من ألوان! إنها ثياب ملكية بحق. »
قال رئيس المراسم:
. « إن المظلة التي ستظلل جلالتكم في الموكب بانتظاركم. »
قال الإمبراطور:
. « أنا متأهب.. هل ثيابي الجديدة مناسبة؟ »
قالها وهو يدور حول المرآة كأنما هو يتفحص الثياب بدقة.
انحنى الوصيفان اللذان كانا سيحملان حاشية جلالته على الأرض، كأنما هما يرفعان طرفي العباءة، وتظاهرا بأنهما يحملان شيئًا، فما كان أحدهما ليكشف عن غبائه أو عدم أهليته لمنصبه.
مشى الإمبراطور تحت مظلته العالية وسط الموكب، عبر شوارع العاصمة ووقف الناس جميعًا..
وصرخ من في النوافذ:
. « آه! ما أجمل ثياب إمبراطورنا الجديدة! لشد ما يتدلى هذا الوشاح في روعة! »
باختصار لم يجسر أحد على الاعتراف بأنه لم ير هذه الثياب، لأنه لو اعترف بهذا لاعترف كذلك بأنه غبي أو غير جدير بمنصبه. لم يحدث أي ثوب للإمبراطور ما أحدثته هذه الثياب غير المرئية.
قال طفل صغير:
. « لكن الإمبراطور لا يلبس شيئًا! »
صاح أبوه:

- « أصغوا لصوت البراءة! »
وسرعان ما تهامس الناس بما قاله الطفل.
في النهاية صاح الناس:
- « لكنه لا يلبس شيئًا! »
شعر الإمبراطور بالغيظ.. لأنه كان يعرف أن الناس محقون، لكنه قرر أن الموكب يجب أن يستمر! وبذل الوصيفان جهدًا أكبر كي يبدو أنهما يحملان حاشيته، برغم أنه في الواقع لم تكن هناك عباءة يمسكان بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مربي الخنازير

كان هناك أمير فقير لديه مملكة. وكانت مملكته صغيرة جدًّا لكنها كانت كبيرة بما يكفي للزواج، وقد كان الأمير يصبو لهذا.
كان من الفظاظة بمكان أن يقول لابنة الإمبراطور: « هل تأخذينني لك؟»، لكنه فعل ذلك؛ لأنه كان شهيرًا وكانت هناك مائة أميرة يمكن أن تجيب بالموافقة، وتقول: « شكرًا لك » لكن دعنا نسمع بِمَ أجابته تلك الأميرة.
استمع!
الحكاية أنه حيث دفن والد الأمير، كانت هناك شجرة ورد.. شجرة ورد رائعة الجمال تزهر مرة كل خمسة أعوام، وعندها لا تزهر إلا وردة واحدة.. لكن أية وردة!! كانت رائحتها رائعة لدرجة أن كل من يشم عبيرها كان ينسى همومه وآلامه. وبالإضافة لهذا كان لدى الأمير عندليب يمكنه الغناء بطريقة تشعر معها بأن كل الألحان العذبة تحتشد في حنجرته.
لهذا كان على الأمير أن يتخلى عن شجرة الورد والعندليب.. وكان عليه أن يضعهما في علبتين فضيتين كبيرتين ويرسلهما إليها.
طلب الإمبراطور أن يجلبا إليه في القاعة الكبرى، بينما الأميرة تلعب لعبة (الزيارة) مع سيدات البلاط.. فلما رأت العلبتين والهدايا فيهما صفقت في جذل.
قالت:
. « آه لو لم تكن هذه إلا قطة صغيرة! »
لكن شجرة الورد بوردتها الجميلة ظهرت للعيان.
صاحت كل سيدات البلاط:
. « آه!!!! ما أجمل صنعها! »

قال الإمبراطور:
- « هي أكثر من جميلة.. إنها فاتنة! »
لكن الأميرة لمستها وبدا كأنها موشكة على البكاء.
. « يع يا بابا! إنها غير مصنوعة على الإطلاق.. إنها طبيعية! »
قال الإمبراطور:
. « دعينا نر ما في العلبة الأخرى قبل أن نتضايق.. »
من ثم خرج العندليب وغني بصوت رخيم حتى إن أحدًا لم يستطع في البداية أن يقول شيئًا عنه.
هتفت السيدات:
- « سوبيرب! شارمان! »
فهن كن معتادات الحديث بالفرنسية.. وقال فارس عجوز:
. « هذا العندليب يذكرني بالصندوق الموسيقى الذي كان عند إمبراطورتنا رحمها الله، إنها نفس النغمات ونفس الأداء! »
قال الإمبراطور:
. « نعم.. نعم.. »
وبكي كطفل عندما تذكر زوجته، فقالت الأميرة:
. « ما زلت آمل ألا يكون طائرًا حقيقيًا »
قال من جلبوه:
. « بل هو طائر حقيقى.. »
قالت الأميرة:
. « إذن دعوه يطير.. »
ثم أبت بإصرار أن ترى الأمير.
لكنه لم يفقد حماسه.. صبغ وجهه باللونين البني والأسود وجذب القلنسوة على أذنيه، ثم طرق بابها. وقال:
- »نهارك سعيد يا سيدي الإمبراطور.. هل لي أن أجد عملًا في قصرك؟ »

قال الإمبراطور:
. « نعم حقًّا.. أريد من يعني بالخنازير لأن لدينا الكثير منها.. »
وهكذا تم تعيين الأمير في وظيفة (راعي الخنازير الإمبراطورية)، وصارت له غرفة قذرة صغيرة جوار حظيرة الخنازير. وهناك راح يمضي اليوم كله يعمل، وعند المساء صنع وعاء طهى صغيرًا جميلًا. وعلق أجراسًا صغيرة من حوله، وحينما كان الإناء يغلى كانت الأجراس تدق بطريقة خلابة، وتعزف اللحن القديم:
»واعزيزتي (أوجستين).. كل شيء ضاع.. ضاع.. ضاع.. »
والأغرب أن من يضع إصبعه في دخان الوعاء، كان يشم على الفور رائحة الطعام الذي يطهى على كل موقد في المدينة. كان هذا كما ترى يختلف تمامًا عن الوردة.
تصادف الآن أن الأميرة مشت في هذا الطريق وحين سمعت اللحن، وقفت متصلبة وبدا عليها السرور. لأنها كانت تجيد عزف (واعزيزتي أوجستين).. كانت تلك هي المقطوعة الوحيدة التي تستطيع عزفها وكان هذا بإصبع واحدة.
قالت الأميرة:
- « هذه مقطوعتي.. لابد أن مربى الخنازير هذا حسن التربية! ادخلوا وسلوه عن ثمن هذه الآلة.. »
من ثم يجب أن تدخل إحدى نساء البلاط إليه، لكن لابد أولًا من أن تضع في قدميها خفًّا خشبيًّا، وسألته:
. « ماذا تريد مقابل وعاء الطهى؟ »
قال مربى الخنازير:
. « سآخذ عشر قبلات من الأميرة.. »
- « آه.. حقًّا.. »
. « لن أتخلى عنه بثمن أقل من هذا.. »
قالت الأميرة:

. « إنه لشخص وقح! »
ثم واصلت طريقها، لكن ما إن ابتعدت حتى رنت الأجراس بصوت عذب:
»واعزيزتي (أوجستين).. كل شيء ضاع.. ضاع.. ضاع.. »
قالت الأميرة:
- « انتظرى.. سليه إن كان يقبل عشر قبلات من سيدات البلاط.. »
قال مربى الخنازير:
. « لا شكرًا.. عشر قبلات من الأميرة أو أحتفظ بوعاء الطهي.. »
قالت الأميرة:
. « هذا لن يكون.. لكن هلا وقفتن أمامي حتى لا يرانا أحد؟ »
هكذا وقفت سيدات البلاط أمامها وفردن ثيابهن، وهكذا نال المربى عشر قبلات.
كان هذا جميلًا.. لقد ظل الوعاء يغلى طيلة الليل واليوم التالي.
هكذا عرفا ما يطهى على كل نار في المدينة، من دار حاجب الملك إلى بيت الإسكافي، وراحت نساء البلاط يرقصن ويصفقن.
. « نحن الآن نعرف من لديه حساء ومن أعد كعكًا للعشاء... من سيطهو (الكستليتة) ومن سيطهو بيضًا.. ما أمتع هذا! »
أما مربى الخنازير . أعنى الأمير لأن أحدًا لم يعرف عنه إلا أنه مربى خنازير . فلم يترك يومًا دون عمل. في النهاية صنع (شخشيخة) حينما تهزها تسمع كل موسيقا الفالس والجيج التي سمعها الناس منذ خلق العالم.
قالت الأميرة حينما مرت بالمكان:
. « هذا رائع! لم أسمع قط موسيقا بهذا الجمال.. ادخلن واسألنه عن ثمن هذه الأداة لكن تذكرن: لا مزيد من القبلات.. »
عادت المرأة التي دخلت لتسأل قائلة لها:

- « يريد مائة قبلة من الأميرة! »
قالت الأميرة:
- « أحسبه ليس بكامل قواه العقلية.. »
ثم واصلت طريقها، لكن ما أن ابتعدت حتى توقفت وقالت:
. « على المرء أن يشجع الفن.. فأنا ابنة الإمبراطور.. قلن له إن بوسعه أخذ عشر قبلات منى والباقي من سيدات البلاط.. »
قلن:
. « آه.. لكننا لا نحب هذا البتة.. »
سألتهن:
. « فيم تغمغمن؟ لو استطعت أنا أن أقبله فهذا بوسعكن.. تذكرن أنكن مدينات لي بكل شيء.. »
لهذا اضطرت النسوة إلى الدخول.
قال المربى:
. « مائة قبلة من الأميرة وإلا فلتبق كل واحدة قبلاتها لنفسها.. »
قالت للنسوة:
. « قفن من حولنا.. »
ومن جديد تكرر ما حدث.
قال الإمبراطور:
. « ما سر هذا الزحام حول حظيرة الخنازير؟ »
كان قد خرج من الشرفة صدفة، وفرك عينيه ووضع عويناته.
. « إنهن نساء البلاط.. سأذهب لأرى ما هنالك.. »
فما إن وصل إلى الساحة مشي بسرعة، وكانت النسوة منهمكات بعدّ القبلات حتى يتأكدن من أمانة الصفقة حتى إنهن لم يشعرن بقدوم الملك. لقد وقف على أطراف أصابع قدميه.
وحينما رأى ما يدور صاح:

. « ما هذا؟ »
وصفع أذن الأميرة بخفّه، بينما مربى الخنازير يتلقى القبلة السادسة والثمانين.
جن جنون الإمبراطور وصاح:
- « ابتعدا! »
وطرد الأميرة ومربى الخنازير من المدينة.
وقفت الأميرة وبكت فانهمر المطر:
- « واحسرتاه! يا لي من مخلوقة تعسة! لو تزوجت فقط ذلك الأمير الوسيم! يا لتعاستي! »
دخل مربى الخنازير وراء شجرة، وأزال الألوان عن وجهه وتخلص من ثيابه القذرة، ثم خرج بثيابه الأميرية، فبدا نبيلًا حتى إن الأميرة لم تستطع ألا تنحني له.
قال لها:
. « جئت كي أحقر من شأنك.. لن تظفرى بأمير كريم.. فأنت لم تستطيعي معرفة القيمة الحقيقية للوردة ولا العندليب.. لكنك رضيت أن تقبلى مربى خنازير من أجل ألعاب تافهة بلا قيمة.. لقد نلت جزاءك.. »
ثم عاد لمملكته الصغيرة وأوصد باب قصره في وجهها.
الآن صار بوسعها أن تغنى:
. « واعزيزتي (أوجستين).. كل شيء ضاع.. ضاع.. ضاع!! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأميرة الحقيقية

كان هناك أمير تمنى أن يتزوج أميرة، لكن كان عليها أن تكون أميرة حقيقية. سافر عبر العالم يبحث عن تلك السيدة، لكن في كل مرة كان يجد شيئًا على غير ما يرام. لقد قابل أميرات كثيرات لكنه لم يستطع قط أن يحدد ما إذا كن حقيقيات. في كل مرة يجد شيئًا خطأً هنا أو هناك بصددهن، وفي النهاية عاد لقصره محبطًا لأنه كان يتمنى فعلًا أن يقابل أميرة حقيقية لتكون زوجته.

ذات ليلة هبت عاصفة مخيفة، ودوى الرعد مع البرق وانهمر المطر من السماء كالطوفان. بالإضافة لهذا كان الظلام دامسًا. فجأة دوت طرقات عنيفة على الباب، فاتجه أبو الأمير نفسه . الملك العجوز - ليفتح الباب.

كانت تلك أميرة تقف على الباب. كانت في حالة مؤسية وسط الأمطار والريح والماء يتساقط من شعرها، وقد التصقت ثيابها بجسدها. وقالت إنها أميرة حقيقية.

فكرت الملكة العجوز:

- »حسن.. سنرى هذا حالًا! «

إلا إنها لم تفصح عما كانت تنتويه، لكنها دخلت غرفة النوم في صمت، ورفعت كل الأغطية عن الفراش، ووضعت ثلاث حبات من البازلاء على الحشية، ثم وضعت عشرين مرتبة واحدة فوق الأخرى على حبات البازلاء، ووضعت عشرين وسادة محشوة بالريش فوق المراتب.

إن على الأميرة أن تقضي ليلتها على هذا الفراش.

في الصباح سألوها عن ليلتها، فأجابت:

. « آه! كان نومًا سيئًا حقًّا.. لم أكد أغلق عيني طيلة الليل. لا أعرف ما يوجد تحتي لكني شعرت بشيء صلب.. لقد امتلأ جسدي بالأزرق والأسود.. لقد آذاني هذا كثيرًا! »
الآن صار واضحًا أن الفتاة أميرة حقيقية. لأنها شعرت بالحبات الثلاث عبر العشرين مرتبة والعشرين وسادة. لا يمكن إلا لأميرة حقيقية أن تملك هذا الحس المرهف بالألم.
نتيجة لهذا تزوجها الأمير، وقد اقتنع بأنها أميرة حقيقية.
وتم وضع ثلاث حبات البازلاء في خزانة للغرائب حيث ما زال بوسعك أن تراها ما لم تكن قد ضاعت.
ألم تكن هذه الفتاة رقيقة بحق وحقيق؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحذاء الأحمر

كانت هناك فتاة صغيرة جميلة رقيقة، لكنها كانت مرغمة على أن تجرى حافية القدمين في الصيف، فقد كانت فقيرة للغاية. وفي الشتاء كانت تلبس حذاءين خشبيين كبيرين مما كان يجعل مشطى قدميها أحمرين.. وكان هذا خطرًا بحق.

في وسط القرية كانت تعيش السيدة الإسكافية العجوز. كانت تجلس وتخيط . على قدر وسعها . زوجًا من الأحذية من قطعتى قماش أحمر قديم، وكان منظرهما يفتقر للمهارة، لكنها كانت فكرة كريمة. كانت تصنعهما للفتاة الصغيرة. وكان اسم الفتاة الصغيرة (كارين).

يوم أن دفنت أمها تلقت الفتاة الحذاء الأحمر، فارتدته لأول مرة. لم يكن مناسبًا للحداد لكن لم يكن لديها سواه، وقد مشت خلف النعش وقدماها بلا جوربين.

فجأة ظهرت عربة كبيرة قديمة تجلس بها سيدة ضخمة، ونظرت إلى الفتاة وشعرت بالشفقة عليها، فقالت للقس:

. « هات لي هذه الفتاة الصغيرة. أنا سوف أتبناها! »

وقد حسبت (كارين) أن هذا حدث بسبب الحذاء الأحمر، لكن السيدة العجوز رأت أنه بشع. إلا أن (كارين) نفسها كانت نظيفة حسنة الهندام، وكان عليها أن تتعلم القراءة والتطريز، وقال الناس إنها شيء صغير لطيف لكن المرآة قالت لها:

- « أنت لست لطيفة فحسب.. أنت جميلة! »

الآن كانت الملكة مسافرة على الطريق، وكانت ابنتها الصغيرة معها، وكانت هذه الابنة أميرة.. اندفع الناس نحو القلعة وكانت (كارين) هناك إذ وقفت الأميرة في ثوب أبيض جميل في

النافذة، وجعلت الكل يرونها. لم تكن تلبس عباءة طويلة ولا تاجًا.. لكنها كانت تنتعل حذاءين مغربيين رائعين. كانا بالتاكيد أروع بمراحل من هذين اللذين صنعتهما الإسكافية لـ (كارين). لا شيء في العالم يمكن مقارنته بهما.

لقد صارت (كارين) الآن في سن مناسبة للعماد. لديها ثياب جديدة وسوف تظفر بحذاء جديد. لقد أخذت الإسكافية الثرية في المدينة قياس قدميها الصغيرتين. تم هذا في منزلها وفي غرفتها حيث توجد صناديق زجاجية كبيرة فيها أحذية أنيقة. كل هذا كان رائعًا لكن السيدة العجوز لم تكن ترى جيدًا لهذا لم تهتم بهذه الأشياء.

وسط الأحذية كان حذاء أحمر كالذي كانت الأميرة تلبسه. يا لجماله! قالت الإسكافية إنه كان مخصصًا لابنة كونت لكن القياس لم يكن صحيحًا.

قالت السيدة العجوز:

. « لابد أن هذا جلد أصلي.. هذا البريق يدل على ذلك! »

قالت (كارين):

. « نعم.. يلمع! »

وكان القياس صحيحًا وتم شراء الحذاء لكن العجوز لم تعرف شيئًا عن لونه الأحمر، وإلا ما كانت لتسمح لـ (كارين) بالذهاب بحذاء أحمر إلى العماد. لكن هذا ما حدث. راح الناس جميعًا ينظرون إلى قدميها. وحينما دخلت من باب المذبح إلى الكنيسة بدا لها كأن تلك الأشكال القديمة على القبور، وصور الوعاظ القدامي وزوجاتهم ذوات المعاطف الطويلة السود، ينظرون لقدميها في ثبات.

وضع القس يده على رأسها وتكلم عن العماد المقدس وميثاق الرب، وأصدر الأرغن نغمة حزينة رنانة. هنا غنى الأطفال

بصوتهم العذب، وغنى المنشدون كبار السن، لكن (كارين) كانت تفكر فقط في حذائها الأحمر.
بعد الظهيرة سمعت السيدة العجوز من الجميع أن الحذاء كان أحمر، فقالت إن هذا خطأ كبير من (كارين)، وإن هذا ما كان ليناسبها وعليها في المستقبل ألا تلبس في الكنيسة إلا حذاء أسودًا..
يوم الأحد التالي كانت هناك مراسم تناول في الكنيسة، ونظرت (كارين) للحذاء الأسود ثم الأحمر.. وفي النهاية انتعلت الحذاء الأحمر.
راحت الشمس تتألق في جلال بينما (كارين) والسيدة العجوز يمشيان في الممر وسط حقل القمح.. كان الغبار كثيرًا هناك.
وعلى باب الكنيسة وقف جندى عجوز يمسك بعكاز، وله لحية طويلة رائعة لونها أحمر أكثر منه أبيض، وانحنى سائلًا السيدة العجوز إن كانت تسمح له بتنفيض حذاءيها. فمدت (كارين) قدمها الصغيرة.
قال الجندي:
. « انظرى ما أجمل حذاء الرقص هذا! إنه ثابت في قدميك حينما ترقصين! »
ووضع يده على أسفل حذائها.
أعطته السيدة العجوز حسنة ودخلت الكنيسة مع (كارين).
راح كل الناس في الكنيسة ينظرون إلى حذاءى (كارين) الأحمرين، وإذ وقفت أمام المحراب لترفع الكأس إلى شفتيها كان عقلها منشغلًا بحذائها الأحمر. نسيت أن تنشد ترانيمها ونسيت أن تصلى.
خرج الجميع من الكنيسة وركبت العجوز عربتها، ورفعت (كارين) قدمها لتركب بعدها حينما قال الجندي:

- « انظرى ما أجمل حذاءى الرقص هذين! »
فلم تستطع (كارين) المقاومة.. وجدت نفسها ترقص كأن الحذاء له سيطرة على قدميها. رقصت حول ركن الكنيسة، ولم تستطع الانصراف حتى اضطر الحوذي إلى أن يركض ويمسك بها، ووضعها في العربة. لكن قدميها ظلتا ترقصان.. في النهاية خلعت الحذاء فعاد لقدميها السلام.
وضع الحذاءان في خزانة في البيت، لكن (كارين) لم تستطع إبعاد عينيها عنهما.
مرضت السيدة العجوز، وقيل إنها لن تشفى. كان لابد أن يتم تمريضها ورعايتها، وكانت (كارين) خير من يصلح لهذا. لكن أقيم حفل راقص كبير في المدينة دعيت له (كارين). نظرت إلى العجوز التي لن تشفى ونظرت إلى الحذاء الأحمر وقررت أن الأمر لن يكون خطيئة، هكذا انتعلت الحذاء الأحمر وذهبت إلى الحفل.
لكن كلما أرادت أن ترقص إلى اليمين كان الحذاء يرقص إلى اليسار، وحينما تتجه لليسار يتجه الحذاء لليمين، فإذا أرادت أن تجتاز القاعة مشى الحذاء للخلف، إلى الشارع، وخارج بوابة المدينة. وهكذا اضطرت أن ترقص في الغابة الكئيبة.
وفجأة أضيئت الأشجار.. وخطر لها أن هذا القمر بالتأكيد. لكن كان هذا الجندي العجوز بلحيته الحمراء. لقد وقف هنالك وهز رأسه وقال:
- « انظرى.. ما أجمله من حذاء راقص! »
أصابها الرعب وأرادت أن تطوح بالحذاء الأحمر، لكنه تمسك بقدمها. ورقصت.. يجب أن ترقص.. وسط الحقول وفي المروج.. تحت المطر وفي ضوء الشمس.. في الليل والنهار. وكان

الأكثر فزعًا أنها رقصت في باحة الكنيسة ليلًا لكن الموتى لم يشاركوها الرقص. كان لديهم ما هو أفضل ليفعلوه.
تمنت لو جلست، لتستريح على قبر فقير حيث تنمو أعشاب (حشيشة الشتاء). لكنها لم تنل الراحة ولا السلام. وحينما دنت من باب الكنيسة رأت ملاكًا يقف هناك. كان يلبس عباءة طويلة بيضاء وله جناحان يمتدان من كتفيه إلى الأرض. كان وجهه صارمًا جادًّا وفي يده سيف عريض براق.
- « سوف ترقصين » . كذا قال لها . « في حذائك الأحمر حتى يعتريك الشحوب والبرد! حتى يتغضن جلدك وتصيرى هيكلًا عظميًّا! سوف ترقصين من باب لباب وحيث يعيش الأطفال المغرورون التافهون تطرقين الأبواب، فيسمعونك ويرتجفون! سوف ترقصين! »
صرخت (كارين):
- « الرحمة! »
لكنها لم تسمع رد الملاك، لأن الحذاء حملها إلى الحقول وعبر الطرق والجسور، وطيلة الوقت كان عليها أن ترقص.
ذات صباح رقصت أمام باب تعرفه جيدًا. من الداخل سمعت ترنيمة، وخرج تابوت مزين بالزهور. عندها عرفت أن العجوز قد ماتت وشعرت بأنها منبوذة تمامًا. لكنها ظلت ترقص طيلة الليل الكئيب. حملها الحذاء فوق الصخور فتمزق جلدها ونزفت. رقصت عبر المرج حتى بلغت بيتًا صغيرًا. هنا كان يعيش الجلاد كما تعرف، وقد قرعت بأصابعها على النافذة، وصاحت:
. « اخرج! فأنا لا أستطيع الدخول.. أنا مرغمة على الرقص.. »
قال الجلاد:
. « افترض أنك لا تعرفين من أنا؟ أنا أطيح برءوس الأشقياء بفأسي.. »

قالت (كارين):

. « لا تقطع رأسي.. هكذا لن أستطيع التوبة عن خطاياى! لكن اقطع قدمي في الحذاء الأحمر! »

واعترفت له بخطاياها، فقطع الجلاد ساقيها بالحذاءين الأحمرين، لكن الساقين راحتا ترقصان بالحذاءين متجهتين نحو أعماق الغابة.

نحت للفتاة ساقين خشبيتين وعكازين، وعلمها الترانيم التي ينشدها المجرمون فقبلت يده التي تحمل الفأس واتجهت نحو المرج.

قالت:

- « لقد عانيت الكثير بسبب هذا الحذاء الأحمر، الآن سأذهب إلى الكنيسة حيث يراني الناس.. »

وأسرعت نحو باب الكنيسة، لكن حينما اقتربت راح الحذاء الأحمر يرقص أمامها. فأصابها الهلع وعادت.

ظلت تعسة طيلة الأسبوع وبكت دموعًا مريرة، لكن حينما جاء الأحد من جديد قالت:

- « حسن.. الآن قد عانيت وقاومت كثيرًا.. أؤمن أننى طيبة كأى واحدة أخرى تجلس في الكنيسة، وترفع رأسها عاليًّا! »

اتجهت بشجاعة، لكنها لم تكد تقترب من باب الكنيسة حتى رأت الحذاء يرقص أمامها، فأصابها الهلع وعادت، وندمت على ذنوبها من قلبها.

ذهبت إلى بيت الكاهن وطلبت أن يقبلوها خادمة. وقالت إنها ستكون مفيدة جدًّا، ولسوف تقوم بأي عمل بوسعها. لم تهتم بالراتب فقط أرادت مأوى وأن تكون مع أناس طيبين. رقت لها زوجة الكاهن فأخذتها للخدمة فكانت نشيطة ذكية. وكانت

تجلس ساكنة تصغى كلما قرأ الكاهن الكتاب المقدس مساءً، وأحبها كل الأطفال.
الأحد التالي عندما استعدت الأسرة للذهاب إلى الكنيسة، سألوها إن كانت ترغب في الذهاب معهم. لكنها نظرت لعكازيها في حسرة والدموع في عينيها. دخلت غرفتها التي لم تتسع قط إلا لفراش ومقعد. جلست ممسكة بكتاب الصلوات وراحت تقرأ بعقل تقى. حملت الريح أنغام الأرغن لها فرفعت رأسها باكية وقالت:
. « آه يا رب.. ساعدنى.. »
أشرقت الشمس وأمامها وقف الملاك بثيابه البيض. ذلك الذي رأته ليلًا على باب الكنيسة. لكنه لم يحمل السيف بل حمل غصنًا أخضر جميلًا ازدان بالأزهار. مس السقف بالغصن فارتفع. وتألق نجم ذهبي في الموضع الذي لمس فيه الجدار. مس الجدران فاتسعت ورأت الأرغن الذي كان يعزف وصور الوعاظ وزوجاتهم. لقد جلس الحشد في مقاعد مبطنة وأنشد الجميع من كتب صلواتهم. لقد جاءت الكنيسة نفسها للفتاة البائسة في غرفتها الضيقة، أو ذهبت هي إلى الكنيسة. جلست مع أسرة الكاهن وحينما انتهت الترانيم ورفعوا رءوسهم أومئوا لها وقالوا:
. « أحسنت إذ جئت.. »
قالت:
. « بل هي رحمة من الله! »
ودوت نغمات الأرغن، وتعالى صوت الأطفال عذبًا ناعمًا. ودخل ضوء الشمس من النافذة دافئًا إلى حيث جلست. امتلأ قلبها بنور الشمس والسلام والحبور حتى إنه تحطم. طارت روحها تلحق بالضياء وهناك لم يسألها أحد عن الحذاء الأحمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بائعة الثقاب الصغيرة

باردًا بشكل شنيع كان الجو.. لقد تساقط الجليد.. وكان الظلام شبه دامس.. والليلة آخر ليلة في العام. وفي وسط هذا البرد والظلام مضت في الشارع فتاة صغيرة فقيرة، عارية الرأس حافية القدمين. كانت تلبس خفين عندما غادرت منزلها.. هذا حق.. لكن ما فائدتهما؟ كانا كبيرين جدًّا لأنهما كانا يخصان أمها. كانا كبيرين جدًّا وقد فقدتهما المخلوقة التعسة وهي تمشى عبر الشارع بسبب عربتين مسرعتين.

لم تجد الخف الأول أما الآخر فقد تلقفه متسكع وجرى به. فكر أنه سيصلح مهدًا لطفل لو رزق بواحد يومًا ما. لذا مشت الفتاة الصغيرة بقدميها العاريتين اللتين احمرتا وازرقتا من البرد. كانت تحمل بعض الثقاب في مريولة قديمة، وتحمل حزمة منها في يدها. لم يشتر أحد شيئًا طيلة اليوم، ولم يعطها أحد ربع بنس واحدًا.

انحنت على نفسها ترتجف بردًا وجوعًا.. صورة مجسمة للأسف.. يا للمسكينة الصغيرة!

غطت رقائق الجليد شعرها الأشقر الذي كان ينحدر في تجاعيد جميلة حول عنقها. لكنها لم تفكر في هذا الآن. من النوافذ كانت الشموع تضيء وثمة راحة لذيذة تذكرك بالإوز المشوى.. لأن هذا كان رأس السنة.. نعم.. فكرت في هذا.

وفي ركن بين منزلين يبرز أحدهما للأمام أكثر، جلست وانكمشت على نفسها. ضمت قدميها الصغيرتين عليها لكنها ازدادت بردًا. ولم تجسر على العودة للبيت، لأنها لم تبع أي ثقاب ولم تحصل على ربع بنس. سوف يضربها أبوها والجو في البيت بارد كذلك؛

لأنه ما من شيء سوى السقف فوقها.. السقف الذي تصفر الريح عبره، برغم أنهم سدوا الشقوق الواسعة بالقش.
كانت يداها الصغيرتان قد فقدتا الإحساس من البرد. ربما يقدر لهب ثقاب على إعطائها بعض الراحة، فقط لو تجاسرت على أن تأخذ واحدًا من الحزمة وتحكه في الحائط وتدفئ أناملها به.. سحبت واحدًا..
(ريشت!).. يا للمتعة! ويا لروعة احتراقه! كان لهبًا لامعًا دافئًا كالشمعة، وهي تضع يدها عليه. وللحظة خيل إليها أنها تجلس أمام موقد كبير حديدى مزدان بالنحاس البراق. لقد التهبت النار معطية تأثيرًا سحريًّا.. ومدت الفتاة قدميها لتدفئهما كذلك، لكن اللهب انطفأ.. وتلاشى الموقد. لم يبق إلا بقايا الثقاب في يدها.
حكت عودًا آخر في الجدار فالتهب متوهجًا.. وإذ سقط نوره على الجدار بدا الجدار شفافًا كالخمار.. حتى أمكنها أن ترى ما بداخل الغرفة، وعلى المنضدة كان شرشف أبيض كالثلج، عليه طاقم مائدة من الخزف، والإوزة المشوية يتصاعد منها البخار، وهي محشوة بالتفاح والبرقوق المجفف. أما الأهم فهو أن الإوزة وثبت من الطبق، وركضت على الأرض بشوكة وسكين في صدرها، حتى وصلت إلى الفتاة البائسة. هنا انطفأ الثقاب، ولم يعد سوى الجدار الرطب السميك.. أشعلت عودًا آخر.. الآن هي واقفة تحت أجمل شجرة كريسماس. كانت أكبر وأجمل من أية شجرة رأتها من قبل في واجهة محل التاجر.
آلاف الأضواء تلتمع على الغصون الخضر، مع صور مبهرة الألوان كالتي كانت تراها في نوافذ المتجر تنظر لها. مدت الفتاة يديها نحوها حينما انطفأ العود.
هنا ارتفعت أضواء شجرة عيد الميلاد لأعلى وأعلى.. ورأتها كالنجوم في السماء.. سقط أحدها راسمًا أثرًا من النار.

قالت الفتاة الصغيرة:
- « أحدهم قد مات.. »
لأن جدتها . الشخص الوحيد الذي أحبته . والتي ماتت منذ زمن قالت لها إن روحًا تصعد إلى بارئها إذا هوى نجم.
حكت عودًا آخر بالجدار، ومن جديد رأت الضوء.. وهناك كانت تقف جدتها.. متألقة لامعة.. وعلى وجهها تعبير حب فائق..
صاحت الصغيرة:
. « جدتي! خذيني معك! أنت ترحلين كلما انطفأ العود.. تختفين كالفرن الدافئ.. كالإوزة المشوية الشهية.. كشجرة عيد الميلاد الفاتنة.. »
وحكّت حزمة الأعواد بسرعة على الجدار، لأنها أرادت أن تستبقى جدتها معها. توهجت الأعواد ببريق مبهر أكثر سطوعًا من الظهيرة، فلم تر جدتها من قبل أكثر بهاء ولا طولاً. احتضنت الجدة الصغيرة وحلقتا سعيدتين لأعلى. لأعلى.. فوق البرد والجوع والخوف.. لقد لحقتا بخالقهما..
لكن في ساعة الفجر الباردة، وفي الركن.. جلست الفتاة البائسة بخدين متوردتين وفم باسم منحنية على الجدار، وقد ماتت متجمدة في آخر ليلة من العام المنصرم. متصلبة متخشبة جلست الطفلة هناك بأعواد ثقابها، التي احترقت حزمة منها.
وقال الناس:
. « أرادت أن تدفئ نفسها.. »
ولم يشك أحد في الأشياء الجميلة التي رأتها.. ولم يحلم أحد بالروعة التي دخلت بها . مع جدتها . مباهج عام جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصبى الشقى

منذ زمن بعيد عاش شاعر عجوز.. شاعر عجوز طيب القلب. كان يجلس ذات ليلة في غرفته، حينما هبت عاصفة مريعة بالخارج، وتساقط المطر من السماء لكنه جلس شاعرًا بالدفء والراحة في ركن المدفأة حيث تتوهج النار ويصدر التفاح هسيسًا أثناء شيه.

قال الشاعر المسن الطيب:

. « هؤلاء الذين لا سقف فوق رءوسهم سوف يبتلون حتى الجلود..»

فجأة صاح طفل وقف يبكي على الباب:

. « آه.. دعنى أدخل! أنا بردان.. أنا مبتل! »

قالها وهو يقرع الباب طالبًا الدخول، بينما المطر ينهمر والريح تجعل النوافذ تتخبط.

- « يا للصغير البائس! »

قالها الشاعر وهرع يفتح الباب. هناك وقف صبي صغير عار تمامًا وقد انثال الماء من شعره الذهبي الطويل، وكان يرجف بردًا ولو لم يدخل الغرفة الدافئة حالًا فلسوف يهلك في العاصفة المخيفة.

. « يا للصغير البائس! »

قالها الشاعر العجوز وهو يأخذ الصبى من يده، وقال له:

- « تعال.. تعال.. سوف أعيدك للحياة حالًا! سوف أعطيك الشراب والتفاح المشوى فأنت طفل ساحر بحق.. »

وكان الصبي كذلك فعلًا.. عيناه كانتا كنجمين لامعين، وكان شعره يتلوى في موجات جميلة برغم بلله، فبدا بالضبط كملاك

برغم شحوبه الشديد وقد راح جسده يرتجف. كان هناك قوس صغير لطيف في يده، لكن المطر أتلفه.
أجلس الشاعر نفسه بجوار مدفأته ووضع الصغير على حجره، واعتصر الماء من شعره ودفأ يديه في يديه. وأعد له شرابًا دافئًا.. ثم أفاق الصبى وتورد خداه.. ونهض ليرقص حول الشاعر العجوز.
قال الشاعر:
. « أنت شاب لطيف.. ما اسمك؟ »
أجاب الصبي:
. « اسمى (كيوبيد)[1].. ألا تعرفني؟ هذا قوسى حسن التصويب... أؤكد لك هذا.. أنظر! الجو يصفو والقمر يلتمع صافيًا عبر النوافذ..»
قال الشاعر:
- « لكن قوسك قد تلف فعلًا.. »
قال الصبي:
- « كان هذا محزنًا.. »
وتناول القوس بين يديه وتفحصه: . « أوه.. لقد جف ثانية.. ولم يتضرر.. الوتر مشدود تمامًا.. سأجربه.. »
ثم ثنى رأسه وصوب.. وأطلق سهمًا على الشاعر العجوز في قلبه. وضحك وقال:
. « ترى أن القوس لم يتلف.. »
ثم جرى بعيدًا..
يا للفتى الشقى! إذ يطلق السهم على الشاعر العجوز الذي استضافه في غرفته الدافئة. والذي عامله برقة والذي أعطاه شرابًا دافئًا وتفاحًا شهيًّا..

رقد الشاعر على الأرض وبكى؛ لأن السهم اخترق قلبه حقًّا..
قال:
- « أف! ما أشقى (كيوبيد) هذا! سأحكي لكل الأطفال عنه حتى لا يلعبوا معه أبدًا.. لأنه لن يجلب لهم إلا الأسى وألم القلب.. »
أخذ كل الأطفال الذين سمعوا القصة حذرهم من (كيوبيد)، لكنه سخر منهم لأنه كان ماكرًا.. حينما يعود طلبة الجامعة من المحاضرات يجرى جوارهم في معطف أسود وكتاب تحت إبطه. من المستحيل عليهم أن يعرفوه. ثم فجأة يصوب سهمًا لصدورهم، وحينما تعود الفتيات من الدرس يكون خلفهن. إنه يتبع الناس دومًا.. وفي المسرح يجلس في الشمعدان الكبير ويحترق باللهب من ثم يحسبه الناس لهبًا.. ثم سرعان ما يكتشفون أنه شيء آخر. إنه يمرح في حدائق القصر وخلف الأسوار العالية. نعم.. لقد أصاب أباك وأمك ذات مرة في القلب مباشرة.. سلهما فقط وسوف يخبرانك..
إنه صبي شقى.. هذا الكيوبيد.. لا شيء بوسعك أن تعمله.. إنه يركض خلف الجميع أبدًا.. فقط فكر في أنه صوب سهامه ذات مرة إلى قلب جدتك! كان هذا منذ زمن سحيق.. لكنها لن تنسى هذا أبدًا.. أف! (كيوبيد) الشقى! لكنك الآن تعرفه وتعرف كذلك كم هو سيىء السلوك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الياقة المستعارة

ذات مرة كان هناك سيد مهذب لا يملك إلا مشط شعر و(لبيسة) للأحذية ذات الرقبة، لكن كانت لديه أفضل ياقات مستعارة في العالم، وعن واحدة من تلك الياقات سنسمع قصتنا الآن.
كان الطقس باردًا حتى إن الياقة بدأت تفكر في الزواج، وتصادف أن تم غسلها مع ربطة ساق.
قالت الياقة:
. « كلا.. لم أر شيئًا بهذه الرقة من قبل.. ناعمة وأنيقة.. هل لي أن أعرف اسمك؟ »
قالت ربطة الساق:
. « هذا لن أقوله.. »
سألته الياقة:
. « أين تعيش؟ »
لكن ربطة الساق كانت خجولًا متواضعة، ورأت أن هذا سؤال غريب.
قالت الياقة:
. « أنت مشد بالتأكيد.. أي أنك مشد داخلي.. أرى أنك تصلحين للاستعمال والزينة يا عزيزتي.. »
قالت ربطة الساق:
- « سأشكرك لو كففت عن الكلام معى. فأنا لا أرى مناسبة لذلك..»
قالت الياقة:

. « نعم.. عندما يكون شخص جميلٌ مثلك.. هذه مناسبة كافية.. »
قالت ربطة الساق:
. « لا تدن مني.. أتوسل لك.. أنت تبدو مثل هؤلاء الرجال.. »
. « أنا أيضًا رجل مهذب راقٍ.. عندى لبيسة أحذية ومشط.. »
لكن هذا لم يكن حقيقيًّا؛ لأنها كانت أشياء تخص سيده، لكنه كان يبالغ.
قالت ربطة الساق:
. « لا تدن مني.. أنا لم أعتد هذا.. »
. « يا لك من محتشمة.. »
قالتها الياقة، ثم حملوها إلى حوض الغسيل.. تمت تنشيتها وعلقت على ظهر مقعد في الشمس، ثم تم وضعها على بطانية الكي وجاءت المكواة الحديدية. صاحت الياقة:
- « سيدتي العزيزة! سيدتي الأرملة العزيزة! أشعر بالحر! أنا أتغير.. أشعر بأنني أنثني.. سوف تحدثين حرقًا فيَّ! »
قالت المكواة:
- »خرقة! »
ومشت فوق الياقة في فخر.. لأنها تصورت نفسها قاطرة تمشى على الخط الحديدي وتجر العربات.
كانت الياقة منبعجة عند حافتها، لذا جاء مقص عملاق ليقطع جزءًا منها فقالت الياقة: « أوه! أنت تصلح لتكون خير راقص في الأوبرا.. ما أبرعك في فرد ساقيك.. هذا أفضل أداء رأيته.. لا أحد يمكنه تقليدك.. »
قال المقص:
. « أعرف هذا.. »

- « تستحق أن تكون بارونًا.. كل ما لدى هو سيد مهذب ولبيسة ومشط.. لو كنت بارونًا كذلك! »
هنا قطعها المقص لأنه كان متضايقًا..
قالت الياقة:
- « يجب أن أسأل المشط... من المدهش قدرتك على الحفاظ على أسنانك يا آنسة.. ألم تفكري في الخطبة قط؟ »
قال المشط:
- « طبعًا.. ثق في هذا.. أنا مخطوبة للبيسة الأحنية! »
هتفت الياقة:
- « مخطوبة! »
هكذا لم يعد هناك من يطلب يدها. لذا شعر بالضيق.
مر وقت طويل ثم ذهبت الياقة لصندوق الخرق في مصنع الورق. هناك كانت خرق كثيرة وقد وضعت الخرق الخشنة معًا والناعمة معًا. صمت الجميع لكن الياقة استمرت في المباهاة.
قالت الياقة:
. « لدى عدد هائل من الحبيبات.. لا يمكن أن أعيش في سلام.. صحيح أنني كنت دومًا سيدًا مهذبًا.. كان عليكم أن ترونى وقتها.. لن أنسى أبدًا حبي الأول.. كانت مشدًا رقيقًا ناعمًا.. لقد ألقت بنفسها في حوض ماء من أجلي! كانت هناك أرملة توهجت من حرارة العاطفة لكني تركتها حتى اسود لونها ثانية، وكانت هناك راقصة أوبرا حادة الطباع! لقد أحبني مشط شعر.. وقد فقد أسنانه من عذاب الفؤاد.. نعم.. رأيت هذه الأشياء في حياتي.. لكنني حزين من أجل ربطة الساق.. أعنى المشد الذي ألقى بنفسه في الماء من أجلى.. هذا عبء على ضميرى.. أريد أن أصير ورقًا أبيض.. »

وهكذا صار.. تحولت كل الخرق إلى ورق أبيض. لكن الياقة صارت هذا الورق الأبيض الجميل الذي تراه هنا، والذي طبعت عليه هذه القصة، لأنها تباهت كثيرًا. علينا أن نتعلم ألا نتصرف بهذه الطريقة، فلربما انتهى بنا الأمر إلى صندوق الخرق ونصير ورقًا أبيض، ثم تطبع قصة حياتنا عليها بأدق أسرارها. مثلما حدث لهذه الياقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شجرة الشربين

وسط الأحراش وقفت شجرة شربين لطيفة جميلة، كان موضعها جميلًا حقًّا تسطع الشمس عليه، مع ما يكفي من هواء عليل.. وحولها كانت رفيقات أكبر حجمًا.. أشجار شربين وصنوبر، لكنها تمنت كثيرًا لو تصير شجرة بالغة.
لم تهتم بالشمس الساطعة، ولم تهتم بأطفال الأكواخ إذ يجرون حولها، ويثرثرون وهم في الغابة يجمعون التوت البرى. كان الأطفال يأتون حاملين إبريقًا مليئـًا بالتوت، ويجلسون حول الشجرة ويقولون:
. « ما أجملها! يا لها من شجرة شربين صغيرة! »
لكن كان هذا بالذات ما لا تطيق الشجرة سماعه!
بعد عام نمت قدرًا لا بأس به.. وبعد عام آخر صارت أطول.. إن أشجار الشربين يمكن معرفة عمرها من أغصانها.
تنهدت وقالت:
. « آه لو كنت شجرة كبيرة كالأخريات! عندها كنت أفرد غصوني لأرى العالم الواسع! ولكانت الطيور تبني أعشاشها بين غصوني، وحين يهب النسيم أنثنى في فخامة كالأخريات! »
لم تمنحها الشمس ولا الطيور ولا السحب الحمر التي حركها الصباح والليل فوقها.. لم يمنحها هذا أية سعادة.
في الشتاء عندما يكسو الجليد الأرض يأتى أرنب واثبًا، ويثب فوق الشجرة، آه! هذا كان يضايقها بشدة. لكن مر شتاءان، وفي الثالث كبرت الشجرة بحيث اضطر الأرنب للدوران من حولها.
فكرت الشجرة:

. « أنا أكبر وأكبر.. وأشيخ وأستطيل.. هذا هو أجمل شيء في العالم.. »
في الخريف جاء الحطابون وقطعوا بعضًا من الأشجار الكبيرة، وكان هذا يحدث كل عام. وكانت الشجرة الصغيرة ترتجف كلما رأت هذا المنظر، لأن الأشجار العملاقة الرائعة كانت تهوى أرضًا محدثة صخبًا وقعقعة، ثم تقطع الأغصان فتبدو الأشجار عارية طويلة يصعب تعرفها. ثم تجرها الخيول من الغابة.
إلى أين تذهبن؟ إلام ستصرن؟
وفي الخريف حينما تأتى طيور السنونو وطيور اللقلق تسألهم الشجرة:
. « ألا تعرفون لأين أخذن؟ ألم تلقوهن؟ »
لكن السنونو لم يكن يعرف شيئًا عن هذا، أما اللقلق فقد هز رأسه مفكرًا وقال:
- »حسن.. أعتقد أننى أعرف.. كنت أطير عائدًا من مصر ورأيت سفنًا عديدة، وعليها صوار عظيمة.. وأعتقد أنه كانت لها رائحة الشربين.. لي أن أهنئك فإن هذه الأشجار ارتفعت في السماء بروعة حقيقية! »
. « آه.. لو كنت كبيرة بما يكفي لأحلق عبر البحر! لكن كيف يبدو البحر في الحقيقة؟ »
قال اللقلق:
. « إن شرح هذا يستغرق وقتًا كبيرًا.. »
ومع هذه الكلمات حلق بعيدًا.
قالت أشعة الشمس:
- « فلتبتهجى بنموك.. فلتبتهجى بنموك الحثيث.. والحياة الطازجة التي تتحرك فيك!! »

ولثمت الريح الشجرة، وذرف الندي دموعه عليها، لكن شجرة الشريين لم تفهم هذا.
عندما جاء الكريسماس قطعت أشجار صغيرة كثيرة، وهي شجيرات كانت في حجم أو عمر شجرة الشريين هذه. كانت هذه الأشجار الأجمل وقد حوفظ على أغصانها ووضعت على عربات وسحبتها الخيول خارج الغابة.
سألت الشجرة:
. « إلى أين هي ذاهبة؟ هذه الأشجار ليست أطول مني.. بل هناك واحدة أقصر.. ولماذا يحتفظن بغصونهن؟ إلى أين؟ »
شقشقت العصافير:
. « نحن نعلم.. نحن نعلم! قد اختلسنا النظر عبر النوافذ! نحن نعرف لأين ذهبن.. إن أعظم مجد وأروع بهاء ينتظرهن! قد اختلسنا النظر عبر النوافذ، ورأيناهن مزروعات في وسط غرفة دافئة وقد تزيَّن بأروع الأشياء.. تفاح مذهب وكعك الزنجبيل والألعاب ومئات الأضواء! »
- « وبعدها؟ »
كذا سألت الشجرة وهي ترتجف.
. « لم نر أكثر من هذا.. كان جميلًا بدرجة لا تقارن! »
صاحت الشجرة في بهجة:
- « ليتنى أحظى بهذا الاختيار.. إنه أجمل من عبور البحر.. يا لعذابي! أنا الآن طويلة وغصوني تنتشر كالأخريات اللاتي أخذن العام الماضي.. ليت العربة تحملني.. ليتني أجد نفسي في تلك الغرفة الدافئة ذات البهاء! وعندها سيحدث شيء أروع.. شيء أجمل من هذا كله وإلا فلماذا زينوني؟ لكم أتعذب! ماذا دهاني؟ أنا لم أعد أعرف نفسي! »
قال الهواء وأشعة الشمس:

. « ابتهجى بوجودنا! ابتهجى بشبابك الغض! »
لكن الشجرة لم تبتهج.. لقد نمت ونمت.. وصارت خضراء طيلة الشتاء والصيف.. وقال من رأوها:
. « ما أجملها شجرة! »
وفي الكريسماس كانت من أوائل الشجرات التي قطعت.. لقد اخترق الفأس لحاءها عميقًا.. فسقطت على الأرض متنهدة.. شعرت كأنما هي قد فقدت الوعى.. لم تستطع التفكير في السعادة؛ لأنها حزنت لفراق موطنها.. عرفت أنها لن ترى زميلاتها العزيزات ولا الغصون والأزهار حولها.. ولا حتى الطيور! لم يكن الرحيل محببًا على الإطلاق.
استعادت وعيها حينما تم إنزالها في فناء مع الأخريات، وسمعت رجلًا يقول:
. « هذه رائعة! لا حاجة بنا للأخريات.. »
وجاء خادمان في طيلسان فخيم وحملاها إلى مرسم واسع. كانت هناك صور على الجدران وقرب الموقد الخزفي كانت مزهريتان رسمت عليهما أسود. كان هناك شيزلونج كبير وأريكة مكسوة بالحرير ومناضد عليها كتب صور وألعاب..
وتم تثبيت الشجرة في أصيص مليء بالرمال.. لكن لم يخمن أحد أنه أصيص؛ لأنه كان مزركشًا بقماش أخضر. ماذا سيحدث؟
إن الخادمين وسيدات يزخرفونها، وعلى غصونها ثبتوا شبكة مليئة بالسكاكر.. وعلى غصون أخرى ثبتوا التفاح المذهب والجوز كأنها نبتت هناك. ثم علقوا الدمى بين الأوراق وفي القمة ثبتوا نجمًا من القصدير الذهبي. كان هذا مذهلًا.. مذهلًا بما يفوق الوصف!
قالوا جميعًا:
- « هذه الليلة! لكم ستتألق هذه الليلة! »

فكرت الشجرة:
. « آه لو يأتي الليل! لو تشتعل الشموع! أتساءل عما سيحدث.. ربما تأتى الأشجار الأخرى من الغابة لتراني! ربما تضرب العصافير على زجاج النوافذ.. أتساءل إن كنت سأغرس جذوري هنا وأقف شتاء وصيفًا مزينة! »
كانت تعرف الكثير عن الموضوع، لكنها كانت نافدة الصبر حتى آلمها ظهرها.. وهذا يشبه الصداع بالنسبة لنا.
أشعلت الشموع.. يا للوهج! يا للعظمة!! وارتجفت الشجرة حتى إن أحد الفروع اشتعل بالنار.
صرخت الشابات:
- « الغوث! الغوث! »
ورحن يطفئن النار بسرعة.
هكذا لم تجسر الشجرة على الارتجاف.. كانت قلقة خشية أن تفقد شيئًا من روعتها.. هنا انفتح الباب الدوار واندفع حشد من الأطفال كأنهم يريدون تدمير الشجرة. وصمتوا قليلًا، ثم بدءوا في الصراخ حتى ردد المكان كله صراخهم، ورقصوا حول النار وأخذ كل منهم هدية تلو أخرى.
فكرت الشجرة:
. « ماذا يزمعون؟ ماذا سيحدث الآن؟ »
هنا بدأت الأضواء تنطفئ الواحد تلو الآخر، وراح واحد تلو آخر يسطو على الشجرة. لقد انهالوا عليها بعنف حتى أن أغصانها طقطقت.. ولو لم تثبت جيدًا في الأرض لانهارت، راح الأطفال يرقصون بألعابهم ولم ينظر أحد للشجرة باستثناء المربية العجوز التي زحفت بين الأغصان فقط لتتأكد إن كانت هناك تينة أو تفاحة منسية.
صاح الأطفال:

- « قصة! قصة! »
وشدوا رجلًا بدينًا نحو الشجرة. جلس تحتها وقال:
. « الآن نحن في الظل ويوسع الشجرة أن تسمع معنا.. لكني سأحكى فقط قصة واحدة.. ماذا تريدون؟ قصة (همبى دمبى) الذي هوي من فوق الدرج وبرغم هذا عاد للعرش، وتزوج الأميرة أم قصة (إيفيدي أفيدى)؟
صاح البعض طالبين (إيفيدى أفيدى) والبعض (همبى دمبى).. دوى الصراخ، لكن الشجرة ظلت صامتة وفكرت في نفسها:
. « هل ليس مطلوبٌ مني أي شيء على الإطلاق؟ »
حكى لهم الرجل قصة (همبى دمبى) الذي سقط ثم صعد إلى العرش وتزوج الأميرة. صفق الأطفال وصاحوا:
- « هلم.. استمر.. استمر.. »
أرادوا سماع قصة (إيفيدى أفيدى) لكن الرجل اكتفى بقصة (همبى دمبى). وقفت الشجرة ساكنة تفكر؛ فالطيور لم تحك لها عن شيء كهذا قط، قالت لنفسها: إن (همبي دمبى) هوى من فوق الدرج وبرغم هذا عاد للعرش وتزوج الأميرة.. نعم.. لابد أن الحياة هكذا.. صدقت الأمر؛ لأن الرجل الذي كان يحكي القصة كان وسيمًا، وتمنت ثانية أن تتزين بالأنوار والألعاب والفاكهة.
قالت لنفسها:
. « غدًا سأسمع قصة (همبى دمبى) ثانية وربما قصة (إيفيدى أفيدى) كذلك.. »
في الصباح جاء الخادم والخادمة، فقالت لنفسها:
. « ستعود الروعة من جديد! »
لكنهما سحباها خارج الغرفة، وعبر الدرج إلى ركن مظلم حيث لا ضوء تركاها.
فكرت الشجرة:

. « ما معنى هذا؟ ماذا أفعل هنا؟ ماذا سأسمع الآن؟ »
وانحنت على الجدار تائهة في أحلام اليقظة. وكان عندها متسع من الوقت لهذا، لأن الأيام والشهور مرت دون أن يأتي أحد. وحينما جاء أحدهم أخيرًا كان هذا ليضع بعض الحقائب الكبيرة في ركن. هكذا وقفت الشجرة مختبئة وبدت كأنها نسيت تمامًا.
فكرت:
. « إنه الشتاء الآن.. الأرض صلبة يغطيها الثلج.. لا يستطيع الناس غرسي الآن.. لذا وضعوني هنا حتى يأتي الربيع.. ما أعمق تفكيرهم! ما أطيب البشر برغم كل شيء! فقط لو لم يكن كل هذا الظلام هنا.. وكل هذه الوحدة! لا يوجد حتى أرنب برى.. والغابات جميلة حينما يغطيها الثلج.. وحينما يثب الأرنب.. نعم.. حتى لو وثب فوقي.. لكني لم أحب هذا وقتها.. »
سكويك.. سكويك! صوت فأر صغير، أخرج رأسه من جحره، ثم جاء آخر صغير.. تشمموا الشجرة وعبثوا بأغصانها.
قال الفأر:
- « برد شديد.. لهذا سيكون البقاء هنا أفضل.. شجرة شربين عجوز.. أليس كذلك؟ »
قالت الشجرة:
. « أنا لست عجوزًا.. هناك كثيرون أسن منى.. »
سألها الفأر:
. « من أين جئت؟ وماذا بوسعك عمله؟ »
كانا فضوليين للغاية...
- « أخبرينا عن أجمل بقاع الأرض.. هل ذهبت هناك؟ هل رأيت مخزن الطعام حيث يضعون الجبن على أرفف؟ ويعلقون لحم الفخذ من أعلى.. وحيث يرقص المرء على شموع الشحم.. المكان الذي يدخله المرء نحيلًا ويخرج بدينًا مكتنزًا؟ »

قالت الشجرة:
. « لا أعرف موضعًا كهذا.. لكني أعرف الغابة حيث تسطع الشمس وتغرد الطيور.. »
ثم حكت عن شبابها فلم تسمع الفئران شيئًا كهذا.. وقالا لها:
. « حقًّا.. ما أكثر ما رأيت وما أسعدك! »
قالت الشجرة:
. « أنا؟ في الحقيقة كانت تلك أيام سعد.. »
وحكت لهم قصة الكريسماس وكيف زينوها بالشموع فقال فأر:
. « يا لك من محظوظة يا شجرة الشربين العجوز! »
. « أنا لست عجوزًا! لقد جئت هذا الشتاء فقط.. أنا في عنفوان شبابي.. بل إننى أقصر من عمرى.. »
وفي الليلة التالية جاء الفأران مع أربعة آخرين ليسمعوا حكاياتها. فكلما حكت أكثر كلما تذكرت نفسها وبدا لها أن تلك الأيام كانت سعيدة حقًّا..
. « لكنها ستعود.. ستعود.. (هامبى دامبى) سقط على الدرج لكنه تزوج الأميرة! »
سألها الفأر:
. « من هو (هامبى دامبى)؟ »
فحكت له القصة كلها؛ لأنها تذكر كل حرف فيها، ووثب الفأر سعادة إلى قمة الشجرة، وفي الليلة التالية جاء فأران جديدان. ويوم الأحد جاء اثنان آخران لكنهما قالا إن القصة ليست مسلية. وقد ضايق هذا الفئران الصغيرة، وبدأت ترى أن القصة ليست مسلية إلى هذا الحد.
سألتها الفئران:
- »هل تعرفين قصة أخرى؟ »
أجابت الشجرة:

- « فقط هذه.. سمعتها في أسعد ليالي.. لكني لم أعرف مدى سعادتى وقتها.. »
. « قصة غبية جدًّا.. ألا تعرفين قصة عن شموع الشحم ولحم الخنزير المقدد؟ أليست لديك قصص عن مخزن الطعام؟ »
- « لا.. »
- « إذن الوداع.. »
وانصرفت الفئران، وحتى الفأر الصغير ابتعد كذلك في النهاية فتنهدت الشجرة:
- « برغم كل شيء كنت مستمتعة حينما كانت الفئران الصغيرة تلتف حولى انتهى هذا الآن.. لكنني سأسلى نفسي جيدا عندما أعود للحياة.. »
لكن متى يحدث هذا؟
ذات صباح جاء كمٌّ من الناس يعملون في ذلك الركن، ورفعت الحقائب وجذبوها للخارج وقذفوا بها بعنف إلى الأرض. لكن رجلًا جرها نحو الدرج حيث تسطع الشمس.
هنا فكرت:
. « الآن تعود الحياة السعيدة من جديد.. »
شعرت بالهواء النقي وأشعة الشمس الأولى.. إنها الآن في الفناء.. كل شيء مر بسرعة..
كانت هناك حركة كثيرة من حولها، لقد كان في الفناء حديقة وكلها أزهار، وكانت الأزهار نضرة عطرة فوق الترابزين. وكان الزيزفون مزهرًا وطيور السنونو تحلق وتقول:
. « كوير فيت.. زوجي قد جاء! »
لكن شجرة الشربين لم تفهم ما يقال. قالت لنفسها:
- « الآن سأستمتع بالحياة.. »

وفردت غصونها.. لكن واحسرتاه! كانت جميعًا مصفرة ذابلة.. كانت في ركن بين الأعشاب والنجم الذهبي ما زال معلقًا فيها يلمع في الشمس.

وفي الفناء كان بعض الأطفال يلعبون، وهم من الذين كانوا يرقصون حول الشجرة، وقد سرتهم رؤيتها. جرى أحدهم واقتطع النجمة الذهبية منها. وقال:

- »انظروا ما ظل معلقًا بهذه الشجرة القبيحة العجوز! »

قالها وهو يدوس على الأغصان فراحت تتقصف تحت قدميه.

ورأت الشجرة حالها، فودت لو ظلت في الركن المظلم تذكرت صباها في الغابة وفي شجرة عيد الميلاد الجميلة، والفئران الصغيرة التي أصغت سعيدة لقصة (هامبى دامبى).

قالت الشجرة المسكينة:

- « انتهى هذا.. إنه ماض! ليتني ابتهجت حينما كانت هناك فرصة لذلك.. لكن الآن.. إنه ماض! »

وجاء صبي الجنايني ليقطع الشجرة إلى قطع صغيرة، حتى صارت كومة كاملة هناك. واشتعلت جيدًا تحت نار القدر النحاسي، وتنهدت بعمق. فكانت كل تنهيدة كطلقة نار.

لعب الأطفال في الفناء، وقد لبس أحدهم على صدره النجم الذهبي الذي كان فخر الشجرة في حياتها. على كل حال.. لقد انتهى الأمر.. ذهبت الشجرة، وانتهت القصة. فكل قصة لابد أن تنتهى يومًا ما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحلام (تاك) الصغير

آه.. نعم! كان هذا (تاك) الصغير.. في الحقيقة لم يكن اسمه (تاك) لكنه الاسم الذي أطلقه على نفسه قبل أن يتعلم الكلام، وكان يعني بهذا (تشارلز). يكفيك أن تعرف هذا. كان عليه أن يعني بأخته (أوجستا) التي كانت أصغر منه، وكان يدرس كذلك لكن هذين الأمرين لا يصلحان معًا.

كان الصبي المسكين الصغير يجلس بأخته في حجرة، وهو يغنى لها الأغاني التي يعرفها ومن آن لآخر يلقى نظرة على كتاب الجغرافيا المفتوح أمامه. وفي الصباح التالي يكون عليه أن يتذكر كل المدن في (زيلاند) غيبًا، وأن يعرف عنها كل ما هو ممكن.

الآن عادت أمه؛ فقد كانت بالخارج، وأخذت (أوجستا) الصغيرة بين ذراعيها. جرى (تاك) إلى النافذة وراح يقرأ في لهفة حتى كادت عيناه تتلفان. لقد كان الظلام يشتد ويشتد لكن أمه لم تملك ما يكفي لشراء شمع.

قالت الأم وهي تنظر خارج النافذة:

. « هي ذي الغسالة العجوز في طريقها.. البائسة لا تكاد تستطيع جر نفسها.. وعليها أن تجر الدلو من النافورة. كن فتى طيبًا يا (تاكى) وساعد العجوز.. هلا فعلت ذلك؟ »

لذا جرى (تاك) سريعًا وعاونها، لكن حين عاد كان الظلام دامسًا، ولم يكن هناك أمل في ضوء.. عليه الآن أن يأوى للفراش الذي كان مجرد حشية مقلوبة. رقد فيه وهو يفكر في درس الجغرافيا وفي (زيلاند)[2] وكل ما قاله له أستاذه. كان عليه أن يقرأ الدرس ثانية لكن هذا مستحيل كما تعرف.

وضع الكتاب تحت الوسادة؛ لأنه سمع أن هذه طريقة ممتازة لحفظ الدروس، لكن ليس بوسع المرء الاعتماد عليها كلية. هناك رقد وفكر وفكر.. ثم نام لكنه لم ينم.. بدا كأنما الغسالة العجوز تنظر له بعينيها الحانيتين وتقول:

. « إنها لخطيئة أن تجهل درسك صباح غد. لقد ساعدتني ولذا سأساعدك.. وسيعاونك الله في كل وقت. »

وفجأة بدأ الكتاب تحت وسادته يحدث صوت خدش وكشط.

(كيكرى كى! كلوك كلوك!).. كانت هذه دجاجة عجوز جاءت زاحفة، وكانت من (كيوجي)[3]. وقالت:

. « أنا دجاجة (كيوجية).. »

وحكت الكثير عن المكان والمعركة التي وقعت هناك، والتي لم تكن تستحق الكلام عنها.

- « كريبلدى كرابلدى بلام! »

وسقط شيء على الأرض.. كان هذا طائرًا من خشب.. التمثال الذي يستعملونه في مباريات الرماية في (براستو). وكان فخورًا بنفسه وقال:

- « (ثوفالدسن)[4] جارى.. إن بابه جوار بابي.. »

لكن (تاك) لم يعد نائمًا.. فجأة وجد أنه على ظهر حصان، راح يعدو بأقصى سرعة.. كان هناك فارس يضع ريشة لامعة ويلبس ثيابًا فاخرة، يحمله أمامه على حصانه، وينطلق عبر الغابات نحو مدينة (بوردنجبورج)[5] القديمة. وكانت مدينة كبيرة مليئة بالحياة. كانت الأبراج ترتفع من قلعة الملك، وتألقت شموع عديدة من كل النوافذ، وفي الداخل كان الرقص والغناء، وكان الملك (فالديمار) يرقص مع وصيفات الشرف الشابات ذوات الثياب الفاخرة. جاء الصباح الآن، فما إن بزغت الشمس حتى

تفتتت المدينة وقصر الملك.. وهوت الأبراج فلم يبق إلا برج واحد حيث كانت القلعة. صارت البلدة فقيرة صغيرة، وجاء التلاميذ حاملين كتبهم وقالوا:

. « هناك ٢٠٠٠ نسمة.. »

لكن هذا لم يكن صحيحًا؛ لأنه لم يبق الكثير..

ورقد (تاكي) في فراشه شاعرًا بأنه كان يحلم، لكنه في الوقت ذاته يشعر بأن هذا لم يكن حلمًا.. وشعر بمن يقف جواره.

صاح أحدهم:

- « (تاكي) الصغير.. (تاكي) الصغير! »

كان هذا بحارًا صغير الحجم يبدو كضابط بحرى، لكنه لم يكن كذلك.

- « تحياتي من (كورسور)[6].. إنها بلدة بدأ شأنها يعلو.. مدينة مليئة بالحيوية فيها سفن بخارية وعربات مسافرين.. في الماضي اعتبرها الناس قبيحة لكن هذا لم يعد صحيحًا.. إن لدى طرقًا سريعة وحدائق.. وقد أنجبت شاعرًا ذكيًا مرحًا، وهو في هذا يختلف عن الشعراء.. ذات مرة أردت أن أجهز سفينة تجوب العالم، لكني لم أفعل.. برغم أن هذا كان بوسعي.. أضف لهذا أنني أشم جيدًا.. أشم تلك الزهور العطرة جوار البوابة.. »

نظر (تاك) فرأى الكثير من الأحمر والأخضر أمام عينيه، لكن ما إن زال ارتباك الألوان، حتى رأى منحدرًا من خشب جوار الساحل وفوقه كنيسة رائعة قديمة لها برجان مدببان عاليان. وعبر المرتفعات اندفعت نافورات تقذف الماء بغزارة.. وجوارها جلس ملك قديم يلبس تاجًا ذهبيًا على رأسه الشائب. كان هذا هو الملك (هروار)[7] قرب مدينة (رويسكيلده) كما نسميها الآن. وفوق المنحدر مشى كل ملوك وملكات الدانمرك نحو الكنيسة،

متشابكى الأيدي وراح الأرغن يعزف والنافورة تصدر حفيفًا. لقد رأى (تاك) الصغير كل شيء وسمع كل شيء..
قال الملك (هروار):
. « لا تنس المجلس التشريعي.. »
ثم اختفى كل شيء.. لأين؟ بدا له كأنما المرء قد قلب صفحة في كتاب. الآن تقف فلاحة عجوز جاءت من (سوربي)[8] حيث ينمو العشب في السوق. كانت ترتدى مئزرًا قطنيًا رماديًا على رأسها وكان مبتلًا جدًّا.. لابد أن السماء كانت تمطر..
قالت
- « هو كذلك فعلًا.. »
وحكت له قصصًا ممتعة من كوميديات (هولبرج).. وحكت له عن (فالديمار) و(أبسالون)، ثم فجأة انكمشت وراح رأسها يتأرجح وفجأة صارت ضفدعًا. وقالت (كروك!) ثم عادت امرأة عجوزًا..
قالت:
. « على المرء أن يلبس ما يناسب الطقس.. إنه مطير.. مطير.. مدينتى تشبه زجاجة يدخلها المرء من عنقها.. وعليك أن تغادرها من عنقها ثانية! في الماضي كان لدى أفضل سمك، والآن صار عندي صبية متوردو الخدود في قاع الزجاجة، يتعلمون الحكمة واللغات العبرية واليونانية.. كروك! »
كان كلامها يذكرك بنقيق الضفادع، وكأنك تمشى في أرض موحلة بحذاء ذي عنق.. نفس الإيقاع الرتيب حتى أن (تاك) غرق في النعاس ولا لوم عليه.
لكن أثناء نومه رأى حلمًا .أو ليكن ما يكون - فيه أخته (أوجستا) بعينيها الزرقاوين وشعرها الأشقر المجعد صارت فتاة فارعة

حسناء وبرغم أنها بلا جناحين فقد وسعها الطيران.. والآن كانت تحلق فوق (زيلاند). فوق الغابات الخضر والبحيرات الزرق.
. « هل تسمع الديك يا (تاكي)؟ كوك آ دودل دو.. الديكة تطير من (كيوجي)! سيكون عندك فناء مزرعة كبير.. كبير جدًّا! لن تشعر بجوع ولا ظمأ.. سوف تجوب العالم.. ستكون رجلًا ثريًّا سعيدًا.. سيرفع منزلك شأنه كأنه برج الملك (فالديمار)، وسوف يزدان بالتماثيل الرخامية مثلما في (براستو). أنت تفهم ما أعنيه.. سوف يجوب اسمك العالم.. »
قال الملك (هروار):
. « لا تنس المجلس التشريعي.. عندها سوف يكون كلامك حكيمًا يا (تاكي) الصغير.. وحينما تغيب في النهاية في قبرك، سوف تنعم بنوم هادئ.. »
قال (تاك) وهو يصحو:
- « كأنني أصحو في (سورو).. »
كان يومًا مشرقًا وقد صار من الصعب عليه أن يسترجع تفاصيل حلمه. لكن هذا لم يكن مهمًّا.. فالمرء لا يعرف ما قد يجلبه الغد. ومن الفراش وثب وقد صار فجأة يتذكر الدرس. ظهر رأس الغسالة العجوز من الباب وهزت رأسها بمودة له وقالت:
. « شكرًا.. شكرًا جزيلًا يا طفلي الجميل لعونك.. فليحقق لك الله أحلامك الحبيبة! »
لم يدر (تاك) الصغير قط ما حلم به، لكن الله تعالى يعلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنما تحرق الشمس حقًّا في الأراضي الحارة! هناك يصير لون الناس بنيًّا كالماهوجني.. أجل.. وفي الأراضي الأكثر حرًّا يحترقون ليصيروا زنوجًا. لكن الآن قد جاء رجل مثقف من أرض باردة قاصدًا الأراضي الحارة. وقد حسب أنه يستطيع أن يعيش كما في وطنه، لكن اتضح أنه مخطئ.
كان عليه . ككل الأشخاص الحساسين . أن يبقى داخل الدور.. الشيش والأبواب مغلقة طيلة اليوم.. فبدا كأنما البيت كله نائم أو لا أحد فيه.
كان الشارع الضيق ذو البيوت العالية مصممًا بحيث يسقط ضوء الشمس عليه من الصباح حتى المساء، ولم يكن ممكنًا تحمله.
كان الرجل المثقف القادم من البلاد الباردة شابًّا ويبدو أنه بارع.. وقد جلس في الفرن الموقد فصار ضامر الجسد. حتى إن ظله انكمش لأن الشمس أثرت فيه. فلم يستعد عافيته إلا قرب الغروب عندما تغيب الشمس.
في تلك الأراضي الدافئة توجد شرفة لكل نافذة، ويخرج كل الناس في الشرفات. لأنه لابد للمرء من هواء حتى لو كان قد اعتاد لون الماهوجني[9]. خرج كل الحلاقين والإسكافيين والآخرين من متاجرهم ووضعوا المناضد والمقاعد وأشعلوا الشموع.. نعم.. أكثر من ألف ضوء يتوهج. بينما يتكلم أحدهم ويغنى آخر. يمشى الناس وتدق أجراس الكنائس، وتمضى البغال محدثة صوت (دينجل دينجل دونج)، لأنها هي الأخرى كانت تعلق الأجراس. أطفال الشوارع يصرخون ويصرخون.. قاذفين

مفرقعاتهم الصغيرة، ثم يأتي حملة الجثة ولابسو غطاء الرأس في جنازة مارة، وهم ينشدون الترانيم. ثم تتعالى جلبة العربات المسافرة.. نعم.. في الحقيقة كان الشارع مفعمًا بالحيوية.
فقط في ذلك المنزل المواجه لذلك الذي يقيم فيه الأجنبي، كان السكون تامًّا. لكن كان أحدهم يسكن هناك، لأنه كانت هناك أزهار في الشرفة وكانت تنمو جيدًا في ضوء الشمس. لكن ما كان بوسعها أن تنمو لو لم يقم أحد بريها.. فلابد أن هناك أحدًا.
كان الباب يفتح في ساعة متأخرة من الليل لكن كان البيت بالداخل مظلمًا. على الأقل بالنسبة للغرفة الأمامية. أضف لهذا أنك تسمع صوت الموسيقا.. وخطر للأجنبي المثقف أن هذا رائع.. لكن لربما تخيل ما يسمعه.. كان يحب كل شيء في الأرض الدافئة فقط لو لم تكن هناك شمس. قال صاحب البيت الذي يقيم فيه الأجنبي إنه لا يعرف من يعيش في البيت المواجه. لم ير أحد شخصًا هناك، وبالنسبة له كان يرى أن الموسيقا مزعجة بحق.
. « كأن شخصًا يجلس هناك، ويتدرب على مقطوعة موسيقية ليس بوسعه إجادتها.. دائمًا نفس المقطوعة.. إنه يقول: سوف أجيدها! لكنه لا يستطيع مهما أطال العزف.. »
ذات ليلة صحا الغريب.. كان قد نام والشرفة مفتوحة، فارتفع الستار بفعل الريح وخيل إليه أن وهجًا غامضًا جاء من بيت جاره، وأضيئت الأزهار كالشموع بألوان مبهرة، ووسطها وقفت عذراء رقيقة رشيقة كأنها تضيء بدورها. لقد آذى الضوء عينيه فعلًا.
فتح عينيه بقوة.. نعم.. إنه متيقظ.. بوثبة واحدة صار على الأرض وزحف خلف الستار لكن العذراء كانت قد اختفت.. لم تعد الأزهار تسطع لكنها ظلت في مكانها نضرة كما كانت دومًا.

كان الباب المواجه له مفتوحًا ومن الداخل كانت الموسيقا ناعمة مبهجة.. يمكنك أن تذوب في الأفكار البهيجة التي تسببها.
كان هذا سحرًا..
من يعيش هناك؟ أين المدخل الرئيس؟
ذات ليلة جلس الغريب في الشرفة، والضوء يتوهج في الغرفة من خلفه. لذا كان من الطبيعي أن يسقط ظله على جدار جاره.
نعم.. إنه يراه بين الأزهار في الشرفة وحينما تحرك تحرك الظل كما هي العادة.
قال لنفسه:
. « أعتقد أن ظلي هو الشيء الوحيد الحي الذي يمكن أن تراه هناك.. ما أجمل جلسته العاقلة بين الأزهار.. إن الباب نصف مفتوح.. لو كان الظل ماكرًا واسع الحيلة لتسلل إلى الحجرة ليلقي نظرة ثم يعود ليخبرني بما رآه.. هلم! كن ذا نفع.. واسد لي هذه الخدمة! »
وأردف مازحًا:
. « كن كريمًا وادخل.. ألن تفعل؟ »
ثم هز رأسه للظل فهز الظل رأسه.. قال:
- « حسن.. ادخل إذن.. لكن لا تبق طويلًا.. »
ثم نهض الغريب فنهض ظله على شرفة الجار.. واستدار فاستدار الظل..
لكن لو أن أحدًا نظر بعناية لرأى أن الظل دخل من باب الشرفة نصف الموارب بمجرد أن دخل الغريب غرفته، وترك الستار يسقط خلفه.
في الصباح التالي خرج الرجل المثقف ليحتسي القهوة ويقرأ الصحف.
خرج في الشمس فقال:

. « ماذا جرى؟ ليس لي ظل! لقد ذهب بالفعل ليلة أمس ولم يعد! هذا متعب حقًّا! »
ضايقه هذا.. ليس لأن الظل ذهب ولكن لأن هناك قصة عن رجل بلا ظل[10].. في وطنه يعرفها الكل ولو عاد لوطنه وحكاها لاعتقد الناس أنه يقلد تلك القصة.. لهذا لن يستطيع أن يحكيها وهذا قرار حكيم..
في المساء خرج إلى الشرفة وتأكد أن الضوء خلفه لأنه توقع أن الظل سيبحث عن سيده، لكن هذا لم يجذبه. لم يعد هناك أي ظل.. قال:
. « إحم.. إحم.. »
لكن هذا لم يجد.
كان هذا يثير الغيظ، لكن في الأراضي الدافئة ينمو كل شيء بسرعة.. وبعد ثمانية أيام لاحظ لفرحته أن ظلًا جديدًا بدأ يظهر. خلال ثلاثة أسابيع صار له ظل معقول.. ولدى عودته إلى الشمال تضخم ظله وازداد حتى صار أكثر من الكفاية.
عاد الرجل المثقف للوطن وكتب كتبًا عما هو حقيقي في الحياة وعما هو جميل وعما هو طيب. ومرت أيام فأعوام.. نعم.. أعوام كثيرة مرت به.
ذات ليلة كان وحده في غرفته عندما سمع طرقات لطيفة على الباب.
قال:
- « تعال! »
لكن لم يدخل أحد.. لذا فتح الباب وأمامه وقف رجل نحيل للغاية حتى بدا منظره غريبًا. وكان متأنقًا بشدة فلابد أنه سيد مهذب. فسأله:

. « مع من أحظى بشرف الكلام؟ »
قال الرجل:
- »نعم.. فكرت في هذا.. فكرت في أنك لن تعرفني.. لقد صار لدى جسد وعلى ثياب ولحم. ألا تعرف ظلك القديم؟ لابد أنك حسبتنى لن أعود أبدًا.. لقد صارت الأمور على ما يرام منذ كنت معك.. لقد أحسنت لي الحياة.. فهل لى أن أشترى حريتي؟ لو كان هذا ممكنًا فهو بوسعى.. »
ووضع يده في السلسلة الذهبية المحيطة بعنقه.. ليس هذا فحسب.. إن أصابعه ازدانت كلها بالخواتم الماسية وكلها أصلى.
قال الرجل المثقف:
. « كلا.. لا أستطيع الخلاص من دهشتي.. ما معنى هذا كله؟ »
قال الظل:
. « هو ليس بالشيء المعتاد.. لكنك لست شخصًا عاديًّا.. وأنا أتبعك منذ طفولتي، فما إن وجدت بوسعي استكشاف العالم وحدى فعلت ذلك.. وددت أن أراك مرة قبل أن تموت.. أردت كذلك أن أرى هذه الأرض ثانية لأننا جميعًا نحب وطننا الأم.. أعرف أن لديك ظلًا جديدًا.. لو كنت تريد ثمنًا لحريتي فإنني سأشكرك لو أخبرتني به..»
قال الرجل المثقف:
. « هل الأمر كذلك حقًّا؟ لم أتصور قط أن يأتي ظل المرء ليقابله..»
قال الظل:
. « قل كم على أن أدفع لأنني لا أحب أي نوع من الديون.. »
قال الرجل المثقف:
. « كيف تتكلم كذا؟ أي دين تتكلم عنه؟ كن على راحتك.. يسرني أن أعرف بطالعك الحسن فاجلس، واحك لي ما حدث

لك، وما رأيته عند جارنا هناك في الأرض الدافئة.. »
جلس الظل وقال:
- « حسن.. سأحكى لك كل شيء.. لكن عليك أن تعدني ألا تخبر أحدًا هنا أنني كنت ظلك.. أنا أنوى أن أخطب لأنني بحاجة لأسرة..»
قال الرجل المثقف:
. « اطمئن بهذا الصدد، فلن أخبر أحدًا بحقيقتك.. أعدك ورباط الرجل كلمته.. »
قال الظل:
. « الكلمة ظل.. وكما يتكلم الظل تتكلم.. »
كان من المدهش أن ترى لأى حد صار رجلًا.. كان يلبس السواد وحذاءً واسعًا ذا رقبة، وقبعة يمكن ثنيها. أضف لهذا أنه كان يحمل أختامًا وسلسلة ذهبية، وخواتم ماسية.. أجل.. كان الظل يلبس جيدًا لذا بدا كالإنسان.
- « سوف أخبرك بمغامراتي.. »
قالها الظل وجلس وأراح حذاءه الصقيل على ذراع ظل الرجل المثقف الجديد، الذي تمدد عند قدميه ككلب (بودل). كان هذا يدل على الغرور، وقد ظل الظل على الأرض صامتًا حتى يسمع كل شيء.. تمنى أن يعرف طريقة التحرر وكيف يشق دربه ليصير سيد نفسه.
قال الظل:
. « هل تعرف من كان يعيش أمامنا؟ كانت أكثر المخلوقات روعة.. كانت هي (الإلهام)! لقد بقيت هناك ثلاثة أسابيع كانت كأنها ثلاثة آلاف عام وقرأت كل ما هو مكتوب أو مؤلف.. معنى هذا أنني رأيت وعرفت كل شيء! »
صاح الرجل المثقف:

- »(الإلهام)! نعم. نعم.. إنها تعيش منعزلة في المدن الكبرى.. (الإلهام).. رأيتها للحظة ثم تسلل النوم إلى عيني.. لقد وقفت في الشرفة وأضاءت مثل الفجر (أورورا).. هلم أكمل.. أنت كنت في الشرفة ثم دخلت الحجرة وعندها.. »

قال الظل:

. « وعندها صرت في الغرفة المؤدية للغرفة الأساسية.. أنت لا ترى إلا هذه الغرفة. هناك لا ضوء لكن ترى نوعًا من الشفق.. والباب مفتوح في مواجهة الباب الآخر يفصلهما ممر طويل من الغرف والصالونات.. لو ذهبت إلى العذراء مباشرة للقيت حتفي، لكني كنت حذرًا وتريثت قليلًا أفكر.. »

. « وماذا رأيت عندئذ؟ »

. « رأيت كل شيء ولسوف أحكى لك، لكن.. أتمنى ألا ترفع الكلفة في الحديث معى، وأن تستعمل الضمير You.. (الألقاب) خاصة مع ما بلغته من مركز في الحياة وكل ما لدي من مال[11] »

قال الرجل المثقف:

. « أستميحك عذرًا.. هي عادة قديمة لدى.. أنت محق ولسوف أتذكر هذا.. لكن عليك الآن أن تحكي لي كل ما رأيت.. »

قال الظل:

. « كل شيء.. فأنا رأيت وعرفت كل شيء.. »

سأله المثقف:

. « كيف كان الأمر في الصالون الأخير؟ »

. « كل شيء كان هناك.. لم أدخل مباشرة بل وقفت في الصالون الأول في ضوء الشفق.. لكني رأيت وعرفت كل شيء! »

. « وماذا رأيت؟ هل رأيت أبطال الملاحم يتصارعون هناك؟ هل رأيت الأطفال يلعبون هناك ويحكون عن أحلامهم؟ »

. « قلت لك إنني رأيت كل شيء.. لو أنك كنت هناك لما صرت بشريًّا.. لكننى صرت بشريًّا! تعلمت أن أرى داخلي وأن أفهم خصائصى المتأصلة.. حينما كنت معك وكانت الشمس تشرق أو تغرب، كنت أصير عظيمًا.. وفي ضوء القمر كنت مميزًا جدًّا.. أكثر منك.. لكنني في تلك الغرفة أدركت طبيعتي.. لقد صرت رجلًا! خرجت من هناك ناضجًا لكنك لم تكن وقتها في الأراضي الدافئة.. ووجدت نفسي في حالة حرج من أن أمضى كما أنا.. كنت بحاجة إلى حذاءين وثياب.. إلى كل الطلاء الآدمي الذي يجعل الإنسان مقبولًا.. اتخذت طريقي – وهذا لن تكتبه أو تحكيه أبدًا . إلى بائعة الكعك وتواريت خلفها.. لم تدر المرأة بكل هذا الذي تخفيه وراءها. خرجت في الظلام لأول مرة وجريت في الشوارع في ضوء القمر.. استطلت على الجدران، وهذا يدغدغ الظهر بطريقة ممتعة! جريت واختلست النظر عبر النوافذ، ورأيت ما لم يره أحد قط.. وما لا يجب لأحد غيرى أن يراه! الحق أن هذا العالم خسيس! رأيت ما لم يره إنسان لكن رأيت ما يتمنى كل إنسان أن يراه! لو كتبت صحيفة لراجت جدًّا.. لكني كتبت مباشرة للأشخاص أنفسهم، فعم الذعر الناس في المدينة. خافوا منى بشدة وبرغم هذا أولعوا بي.. الأساتيذ جعلوني أستاذًا.. والخياطون فصلوا لي ثيابًا جديدة.. دار صك العملة أصدرت عملة تحمل صورتى، وقالت النسوة إننى وسيم! من ثم صرت الرجل الذي أنا عليه.. الآن أقرؤك السلام.. أنا أعيش في الجانب المشمس من الشارع وفي الأيام المطيرة أبقى في البيت. »

من ثم رحل الظل، فقال الرجل المثقف:

- « كان هذا خارقًا للطبيعة! »

ومرت أعوام ثم عاد الظل، وسأله:

. « كيف الحال؟ »

قال الرجل المثقف:
. « واحسرتاه! أنا أكتب عن الحق والخير والجمال لكن أحدًا لا يبالي بسماع هذه الأشياء.. أنا قانط أتألم من هذا.. »
قال الظل:
. « لكني لا أفعل هذا.. لقد صرت بدينًا وهذا ما أتوق إليه.. أنت لا تفهم هذا العالم.. سوف يصيبك بالسقم.. يجب أن تسافر.. أنا أنوى السفر هذا الصيف فهل تأتى معى؟ هل تقبل أن تكون رفيق سفرى كظل؟ سوف أدفع نفقات السفر كلها.. »
قال الرجل المثقف:
. « لا.. هذا كثير! هذا سيئ! »
قال الظل:
. « هكذا حال العالم كله! »
ثم رحل.. لكن الرجل المثقف كان في حال لا يحسد عليها.. كان يشعر بالحزن والعذاب.. وكان كلامه عن الحق والخير والجمال لا يعني لأكثر الناس إلا ما تعنيه الأزهار للبقرة! في النهاية أصابه السقم وقال له أصحابه:
. « أنت تبدو كالظل فعلًا! »
وارتجف الرجل المثقف..
قال له الظل إذ جاء يزوره:
. « يجب أن تذهب لمكان فيه ماء.. سآخذك معى إكرامًا لصداقتنا.. سوف أدفع التكاليف، واكتب ما تراه أنت فلربما راق لي.. أنا أيضًا أريد الاستشفاء بالماء فلحيتي لا تنمو كما ينبغي.. وهذا مرض آخر.. فالمرء يجب أن يكون ملتحيًا.. »
هكذا سافرا.. الظل صار السيد والسيد صار الظل.. ركبا معًا ومشيا معًا.. وحيثما كانت الشمس حرص الظل على أن يكون

حيث يوجد سيده.. ولم يفكر الرجل المثقف في هذا كثيرًا لأنه كان رجلًا طيب القلب ودودًا.. لذا قال ذات يوم للظل:

. « ما رأيك بما أننا صرنا رفيقين أن نشرب نخب الصداقة الذي يتيح لي أن أخاطبك بلا تفخيم[12].. »

. « أحسنت القول.. لكن هناك طبائع غريبة للناس.. بعضهم لا يطيق أن يلمس ورقة رمادية وإلا اعتراه السقم.. بعضهم يرتجف لدى سماع صوت ظفر على لوح زجاجي.. هكذا أشعر أنا كلما سمعتك تخاطبني بدون تفخيم.. أشعر كأنما أنا أنضغط أرضًا لأعود لما كنته معك.. هذا مجرد إحساس وليس مسألة كبرياء.. لا أستطيع أن أسمح لك بمناداتي بلا تفخيم، لكن يمكن أن أناديك بلا تفخيم وبهذا ننجز نصف المهمة.. »

بدا الأمر غريبًا للرجل المثقف لكنه كان مرغمًا على تحمله..

وصلا إلى مكان الاستشفاء بالماء حيث كان غرباء كثيرون، وبينهم كانت أميرة متضايقة من حدة بصرها.. وقد لاحظت أن الغريب الذي وصل يختلف عن كل الناس:

. « جاء هنا لتنمو لحيته كما يقولون، لكني أعرف السبب الحقيقي.. إنه لا يملك ظلًا.. »

لذا دخلت على الفور في محادثة مع السيد الغريب أثناء النزهة. وبما أنها ابنة ملك فما كان لها أن تتوقف عند أمور تافهة. قالت:

. « هل شكواك أنه لا ظل لك؟ »

قال الظل:

. « لابد أن سموك تتحسنين بشكل ملحوظ! كانت شكواك أنك ترين بوضوح أكثر من اللازم.. لكن هذا المرض قد شفى.. مشكلتي هي أن لي ظلًا غير معتاد.. ألا ترين هذا الذي يمشى

معى؟ الناس العاديون لهم ظل عادي لكني لا أحب ما هو معتاد.. لهذا منحت هذا الظل ظلًا كما ترين.. هذا يكلف مالًا لكنه يمنحنى التميز! »
فكرت الأميرة:
. « ماذا؟ هل شفيت حقًّا؟ هذه الحمامات هي الأفضل في العالم.. في عصري كان الماء ذا قدرات خارقة، لكنى لن أترك هذا المكان لأنه صار مسليًّا.. أنا معجبة بهذا الغريب.. ليت لحيته لا تنمو لأن هذا معناه أن يفارقنا! »
في المساء رقصت الأميرة والظل معًا في غرفة الرقص.. كانت خفيفة لكنه كان أخف.. لم تر قط رفيقًا كهذا في الرقص.. أخبرته من أين جاءت، وكان يعرف بلدها. لقد زاره ورأى كل شيء.. أخبرها بأدق الأسرار حتى أصابها الذهول. لابد أنه أحكم رجل على ظهر الأرض!! لذا حين رقصا ثانية كانت قد وقعت في حبه. وقد لاحظ الظل هذا لأن عينيها كادتا تخترقانه.. رقصا من جديد معًا وكادت تصارحه بحبها، لكنها كانت متحفظة. كانت تفكر في بلدها وملكها.. وفي القوم الذين سوف تحكمهم.
قالت لنفسها:
. « هو رجل حكيم.. وهو يرقص ببراعة.. هذا جيد.. لكن هل معلوماته قوية؟ لابد من اختبار هذا! »
لذا بدأت على مراحل تسأله عن أصعب الأمور التي خطرت لها.. فبدا تعبير غريب على وجه الظل.
سألته:
. « ألا تستطيع الإجابة؟ »
. « إنها تنتمى لما تعلمته طفلًا.. أثق في أن ظلى الواقف على الباب هناك يستطيع أن يجيبك.. »
قالت الأميرة:

. « ظلك؟ إن هذا ليكون رائعًا! »
قال الظل:
. « لست واثقًا من أنه يستطيع، لكن أظن هذا.. لقد تبعنى أعوامًا طويلة وسمع محادثاتي.. لكن اسمحي لي بإبداء ملحوظة يا سمو الأميرة.. إنه فخور بقدرته على أن يتنكر كإنسان.. لذا يجب عليه أن يعامل كإنسان كى يستطيع الإجابة على أسئلتك.. »
قالت الأميرة:
- « آه.. أنا أحب هذا.. »
لذا اتجهت نحو الرجل المثقف وكلمته عن الشمس والقمر وعن الناس في العالم الأحياء منهم والأموات.. وقد أجاب بحكمة وحصافة.
فكرت:
. « يا للرجل الذي يملك ظلًا بهذه الحكمة! ستكون نعمة لشعبي لو فزت به زوجًا! سوف أفعل هذا! »
سرعان ما تم الاتفاق لكن قررا إبقاء الأمر سرًا حتى تعود إلى مملكتها.
قال الظل:
. « لا أحد.. حتى ظلى! »
وكان يفكر في الأمر.. وقال لصديقه المتعلم:
- « اسمع يا صاحبي.. لقد بلغت ذروة القوة والسعادة.. لذا سأفعل شيئًا خاصًا لك.. سوف تعيش معى أبدًا في القصر وتركب معي في العربة الملكية، وتنال عشرة آلاف جنيه كل عام.. لكن عليك أن تقبل أن يعتبرك الكل ظلًا. لا تقل أبدًا أنك رجل.. وكلما جلست في الشمس في الشرفة سيكون عليك أن ترقد عند قدمي،

كما يفعل الظل! أنا سوف أتزوج ابنة الملك ولسوف يعقد الزواج الليلة! »
قال الرجل المثقف:
. « كلا! لقد ذهبت بعيدًا جدًّا! لن أفعله! معنى هذا أنك تخدع بلدًا بأكمله والأميرة كذلك.. سأخبر الناس بكل شيء.. أنك ظل وأننى رجل وأنك تلبس ثيابًا لتخدعهم! »
قال الظل:
. « لن يصدقك أحد.. تعقل وإلا ناديت الحرس! »
قال الرجل المثقف:
. « سوف أذهب إلى الأميرة.. »
قال الظل:
. « بل أنا سأذهب أولاً، وعندها تذهب أنت للسجن! »
وكانوا مرغمين على هذا لأنهم يعرفون أن الأميرة ستتزوجه..
قالت الأميرة إذ جاء الظل لغرفتها:
. « أنت ترتجف.. هل حدث شيء هذه الليلة بينما إجراءات الزفاف جاهزة؟ »
قال الظل:
. « قد عشت حتى أرى أقسى ما يمكن للمرء أن يراه! فقط تخيلي.. إن عقل هذا الظل لا يتحمل الكثير.. لقد جن ظلى وهو يعتقد أنه بشر.. ويعتقد . تصورى هذا . أننى أنا ظله! »
قالت الأميرة:
. « مريع! لكنه معزول.. أليس كذلك؟ »
. « لا أعتقد أنه سيشفى.. »
- « يا للظل البائس! إنه تعس الحظ.. يخيل إلى أنه من الواجب علينا أن نقضي عليه بهدوء ليستريح.. »
قال الظل:

. « هذا صعب بالتأكيد.. لأنه كان خادمًا مخلصًا.. »
وتنهد.. فقالت الأميرة:
. « أنت شخص نبيل! »
أضيئت المدينة كلها في المساء ودوت المدافع بوم بوم! واستعرض الجنود أسلحتهم.. هذا هو الزواج فعلًا! وخرجت الأميرة والظل إلى الشرفة لتلقى (هوراااااااااااااه) أخرى..
لم يسمع الرجل المثقف شيئًا من هذا لأنهم كانوا قد قضوا عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أكبر ورقة شجرة في هذه البلاد هي بحق ورقة لو وضعها المرء أمامه لبدت كميدعة، ولو وضعتها على رأسك في المطر لكانت مفيدة كالمظلة، لأنها كبيرة جدًّا.. إن نبات (البيردوك) الشوكي الذي ينبت هذه الورقة لا ينمو وحده، إنما حيث وجدت نبتة وجدت أخريات.. إنه رائع.. وهذه الروعة كلها طعام للقواقع.. القواقع البيض التي كان علية القوم قديمًا يأكلونها ويقولون: « هم هم.. ما ألذها .. لأنهم ».. لأنهم كانوا يحسبون طعمها شهيًّا.. هذه القواقع كانت تتغذى على أوراق النبات، ولهذا كان الناس يبذرون بذور (البيردوك).
الآن هناك بيت صاحب العزبة حيث لم يعد أحد يأكل القواقع، لذا انقرضت هذه لكن نبات (البيردوك) لم ينقرض. لقد نما في كل مكان وفي كل الممرات، ولم يقدر أحد على السيطرة عليه.. كانت غابة من (البيردوك) ولولا شجرة تفاح هنا أو هناك لما اعتقدت أبدًا أن هذه حديقة. كانت هذه غابة (البيردوك) وهناك عاش آخر قوقعين محترمين.
لم يكونا على علم بعمرهما.. فقط يعرفان أنهم كانوا كثيرين وأنهم كانوا من أسرة جاءت من أرض أجنبية، وأنه من أجلهم زرعت الغابة. لم يخرجا منها قط لكنهما يعرفان أن هناك أشياء أخرى في العالم. مثلًا هناك بيت صاحب العزبة.. هناك كانوا يُسلقون حتى يسود لونهم ثم يوضعون على طبق فضى.. لكن ماذا بعد هذا؟ لم يعرف أحد.. بل لم يعرف أحد كيف يكون شعور من يُسلق ويوضع في طبق، لكن قيل إن هذا جميل

وأقرب للرقى. لم تعطهم الخنافس ولا الضفادع ولا ديدان الأرض إجابة لأن أحدها لم يُسلق ويوضع في طبق فضى.
كان القوقعان الأبيضان العجوزان هما الوحيدان من ذوى الحيثية في العالم الذي يعرفانه. لقد زرعت الغابة من أجلهما وتم تشيد بيت العزبة ليتاح لهما أن يسلقا ويوضعا في طبق فضى.
الآن كانا يعيشان في وحدة وسعادة.. ولم يكن لديهما أطفال، فتبنيا قوقعًا عاديًّا.. لكن الصغير لم ينم لأنه كان من أسرة عادية. إلا أن العجوزين – خاصة السيدة قوقعة. اعتقدا أنهما يريان نموه.. وطلبت الأم من الأب أن يتحسس القوقع ليرى بنفسه.. فعل هذا ووجد أنها محقة.
ذات يوم هبت عاصفة مطيرة شديدة.
قال الأب قوقع:
- « اسمعى كيف تضرب أوراق الأشجار بعنف! »
قالت الأم قوقعة:
. « هناك كذلك قطرات مطر.. الآن ينهمر المطر فوق الساق.. سيبتل المكان هنا.. أنا سعيدة ببيتنا الجميل وخاصة أن هناك بيتًا للصغير كذلك! لقد رزقنا بما هو أكثر من أي مخلوق آخر.. ألا ترى أننا أناس مهمون؟ لقد رزقنا ببيت منذ ولادتنا وقد زرعت غابة (البوردوك) من أجلنا.. أريد أن أعرف لأي مدى تمتد وماذا وراءها!»
قال الأب قوقع:
. « لا يوجد شيء.. لا يوجد مكان أفضل من هذا وليس لدى ما أتمناه! »
قالت السيدة:

. « نعم.. لكني ما زلت أرغب في أن أذهب لبيت العزبة، أسلق وأوضع في طبق فضى.. كل أجدادنا مروا بهذا.. لابد أن هناك شيئًا عظيمًا في الأمر.. أؤكد لك! »
قال الأب قوقع:
- « لابد أن بيت العزبة قد تهاوى خرابًا.. أو أن نباتات (البردوك) غطته.. لا يجب أن نتعجل هذا.. أنت متعجلة دومًا والصغير بدأ يكتسب طباعك.. ألم يكن يزحف على تلك الساق منذ ثلاثة أيام؟ إنني أشعر بالصداع إذ أبحث عنه.. »
قالت الأم:
. « لا يجب أن توبخه.. إنه يزحف بحرص وسوف يمنحنا الكثير من البهجة.. لكن ألم تفكر في الأمر؟؟؟ من أين نأتى له بزوجة؟ ألم تفكر في أن يوجد من هم مثلنا في مكان ما في قلب غابة (البردوك)؟ »
قال العجوز:
. « قواقع سود.. أجسر على قول هذا.. هناك قواقع سود كثيرة بلا دار.. لكنها منحطة مغرورة.. إلا إننا يمكن أن ندفع للنمل كى يبحث لنا.. إنه يجرى ذات اليمين واليسار كأنه يبحث عن شيء ما، ولربما يعرف شيئًا عن قوقعة تناسب الصغير! »
قالت نملة:
. « أنا أعرف واحدة.. الأكثر فتنة! لكن أخشى ألا ننجح لأنها ملكة!»
قال العجوز:
. « لا مشكلة.. لكن هل لديها بيت؟ »
قالت النملة:
. « لديها قصر! أجمل قصر نمل وفيه سبعمائة ممر! »
قالت القوقعة الأم:

. « شكرًا لك! إن ابننا لن يسكن في كومة نمل.. لو لم تعرفي ما هو خير من هذا فلسوف نكلف بهذا البعوض الأبيض.. إنه يطير بعيدًا وفي الشمس والمطر... إنه يعرف الغابة كلها من الداخل والخارج..»
قال البعوض الأبيض:
. « لدينا زوجة له.. على بعد مائة خطوة من خطوات البشر من هنا توجد قوقعة صغيرة في بيتها، على شجيرة من عنب الثعلب.. إنها وحيدة وأكبر سنًّا من أن تتزوج لكنها موجودة على بعد مائة خطوة من خطوات البشر! »
قال العجوزان:
- « حسن.. دعها تأت له.. إن لديه غابة (بيردوك) كاملة وهي لا تملك إلا شجيرة.. »
هكذا ذهب البعوض والتقط الآنسة قوقعة. استغرق وصولها أسبوعًا، لكن كان من الجميل أن ترى أنها من نفس الفصيلة.
وهكذا تم الاحتفال بالزفاف. وأضاءت ست ديدان أرض نفسها قدر ما استطاعت. وكان الحفل هادئـًا جدًّا لأن العجوزين لم يتحملا الكثير من الصخب، إلا أن السيدة قوقعة ألقت خطبة جميلة. لم يستطع الأب قوقع أن يتكلم لأنه كان متأثرًا.. وقدم لهما ميراثًا، ثم قال لهما إن هذه الغابة أجمل شيء في العالم، وإنهما لو تزوجا وتكاثرا لأمكن لأطفالهما أن يدخلوا بيت العزبة حيث يسلقون ويوضعون في أطباق فضية. بعد هذه الخطبة زحف العجوزان إلى بيتهما ولم يخرجا. لقد ناما على حين حكم الشابان الغابة وكانت لهما ذرية عظيمة لكنهما لم يسلقا.. ولم يوضعا في طبق فضى.. من هذا استنتجا أن بيت العزبة تهاوى وأن الجنس البشرى انقرض ولم يجادل أحد لذا افترضا أن الأمر كذلك.

إن المطر يضرب الأوراق ليحدث صوت الطبول من أجلهما، والشمس تسطع لتكسب غابة (البردوك) لونًا من أجلهما.. وكانا سعيدين جدًّا.. كانت كل الأسرة سعيدة جدًّا لأنها كانت كذلك حقًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قصة أم

جلست الأم مع صغيرها مكتئبة خائفة عليه من الموت! كان شاحبًا، وعيناه مغلقتان وكان يجذب نفسه في وهن من آن لآخر، ومن حين لآخر يأخذ شهيقًا عميقًا كأنما هو يتنهد.. فراحت الأم تنظر بأسى إلى المخلوق الصغير.
ثم دوت طرقة على الباب. ومنه دخل رجل عجوز فقير يلتف بغطاء ظهر جواد لأنه يبعث الدفء، وكان الرجل بحاجة إليه لأن هذا كان موسم الشتاء البارد. كل شيء خارج الأبواب كان مغطى بالثلج والجليد وهبت الريح حتى توشك أن تمزق الوجوه..
إذ ارتجف الرجل بردًا ونام الطفل للحظة، نهضت المرأة وصبت بعض الشراب في وعاء ووضعته على الموقد لتدفئه.. جلس العجوز وهز المهد، فجلست المرأة تتفحص صغيرها وهو يسحب أنفاسه بقوة. ورفعت يده الصغيرة.
قالت للرجل:
. « هل تحسبني لن أستطيع إنقاذه؟ إن الرب سيبقيه لى! »
كان العجوز هو الموت ذاته، وقد هز رأسه بشكل غريب بما معناه نعم أو لا. فنظرت المرأة إلى حجرها وجرى الدمع على خديها.. ثقل رأسها فهي لم تغلق عينيها منذ ثلاثة أيام.. الآن نامت لكن للحظة بعدها استيقظت مجفلةٌ وارتجفت بردًا.
قالت:
. « ما هذا؟ »
ونظرت في كل اتجاه لكن العجوز كان قد رحل. وكان طفلها قد رحل كذلك.. لقد أخذه معه! وراحت الساعة العتيقة في الركن

تطن وتطن.. سقط جزء ثقيل منها على الأرض فتوقفت.
جرت الأم البائسة خارج منزلها تصرخ منادية صغيرها.
هناك وسط الجليد جلست امرأة في ثياب سود طويلة وقالت:
. « كان الموت في غرفتك، وقد رأيته يجرى مع طفلك الصغير.. إنه أسرع من الريح وهو لا يعيد أبدًا ما أخذ! »
قالت الأم:
. « فقط قولي لي في أي طريق ذهب.. قولى لى الطريق وسوف أجده! »
قالت المرأة ذات الثياب السود:
. أنا أعرف.. لكن قبل أن أخبرك يجب أن تنشديني كل الأغاني التي غنيتها لطفلك.. أنا أحبها.. أنا الليل ولقد سمعتها من قبل ولمحت الدمع في عينيك وأنت تغنين! »
قالت الأم:
. « سأغنيها جميعًا.. جميعًا.. لكن لا توقفيني.. يجب أن أجد طفلي! »
لكن الليل وقف صامتًا.. من ثم صفقت الأم بيديها وغنت الكثير ومعه الكثير من الدموع.. ثم قال الليل:
. « اتجهى يمينًا إلى غابات الصنوبر المظلمة.. هناك رأيت الموت يذهب مع طفلك.. »
تقاطعت الطرق في قلب الغابة، ولم تعد تعرف أين تذهب.. هناك وقفت شجرة شوك لا تجد عليها ورقة ولا زهرة، وكان هذا الشتاء باردًا لذا كانت هناك رقائق ثلج على غصونها.
قالت الأم:
. « ألم ترى الموت يمر من هنا مع طفلي؟ »
قالت شجرة الشوك:

. « بلى.. لكن لن أخبرك أي طريق سلك ما لم تدفئي قلبي.. أنا أموت من البرد وسوف أصير قالب ثلج! »
ضمت الأم شجرة الشوك إلى صدرها بقوة، حتى تبعث فيها الدفء.. واخترق الشوك لحمها فسال الدم بقطرات كبيرة لكن شجرة الشوك أنبتت أوراقًا خضرًا طازجة، ونبتت منها الأزهار. كان قلب الأم الحزينة دافئـًا من ثم أخبرتها شجرة الشوك بالطريق.
وصلت إلى بحيرة كبيرة، حيث لم يكن قارب ولا سفينة.. كانت متجمدة بالكامل ليس بما يكفي لحملها.. ولم تكن ضحلة بما يكفي لخوضها.. من ثم ركعت لتشرب البحيرة.. كان هذا مستحيلًا بالنسبة لبشرى لكن الأم الحزينة توقعت معجزة برغم هذا.
قالت وهي تبكى:
. « أوه.. ما الذي لن أعطيه كي أسترجع طفلي؟ »
وبكت أكثر.. غاصت عيناها في البحيرة حتى صارتا لؤلؤتين ثمينتين.. لكن الماء حملهما لأعلى.. ووجدت المرأة أنها تطير فوق الأمواج إلى الجانب الآخر حيث كان بيت غريب عريض لا يعرف المرء إن كان جبلًا مليئًا بالغابات والكهوف، أم أنه مبنى.. لكن البائسة لم تره لأن عينيها تلفتا من البكاء.
وتساءلت:
. « أين أجد الموت الذي اختطف طفلي؟ »
قالت الحانوتية العجوز المكلفة برعاية صوبة نباتات الموت:
. « لم يأت بعد.. كيف وصلت هنا ومن ساعدك؟ »
قالت:
. « ساعدني الله.. إنه رحيم وإنني لأرجو أن ترحميني مثله.. أين أجد طفلي؟ »

قالت العجوز:

. « لا أعرف.. لقد ذبلت زهور وأشجار كثيرة هذه الليلة.. سيعود الموت ليعيد زرعها.. تعرفين أن كل إنسان له نبتة عمره، وهذه النباتات لها قلوب تنبض.. ابحثى عن قلب طفلك لربما عرفته.. لكن ماذا تعطينني لو أخبرتك بما يجب أن تعرفيه؟ »

قالت الأم الحزينة:

. « ليس لدى شيء.. لكني سأذهب لنهاية العالم من أجلك! »

قالت العجوز:

. « لا.. ليس لدى شيء هناك.. لكن بوسعك إعطائي شعرك الأسود الطويل.. أنا أحبه! سوف تنالين شعرى الأبيض بدلًا منه، وهي ليست صفقة خاسرة.. »

قالت:

. « هل من شيء آخر أهبه لك؟ »

وأعطتها شعرها الأسود الجميل وأخذت شعر المرأة الأبيض كالثلج.

هكذا دخلتا صوبة نباتات الموت حيث تنمو النباتات بشكل غريب على بعضها.. هناك كانت نباتات الحدقية تقف تحت أجراس زجاجية، وهناك نبات عود الصليب سميك الساق، وكثير من نباتات الماء.. بعضها نضر وبعضها نصف مريض. كانت الثعابين تلتف على بعضها.. ثم كانت أشجار نخيل جميلة وبلوط ونبات أذن الحمل.. كل زهرة وكل نبات كان له اسمه.. كل منها كانت حياة بشرية.. ما زال القلب البشرى يعيش.. هذا في الصين وذاك في (جرينلاند).. إلخ..

دنت الأم المذعورة من النباتات فسمعت صوت دقات القلب البشرى، ومن بين الملايين عرفت قلب ابنها.

صاحت:

. « هذا هو! »
ومدت يديها إلى زعفرانة مريضة معلقة إلى جنب.
قالت العجوز:
. « لا تلمسى الزهرة! لكن قفى هنا، وحينما يعود الموت . وأنا بانتظاره - لا تدعيه يقطف الزهرة. هدديه بأنك ستفعلين الشيء ذاته بالأخريات! سوف يخاف! إنه مسئول عنها ولا يسمح لأحد بقطفها ما لم يأمر هو بذلك.. »
فجأة هبت ريح باردة فعرفت الأم الكفيفة أن الموت قد جاء.
قال:
. « كيف جئت هنا؟ وكيف سبقتني؟ »
قالت:
. « أنا أم.. »
مد الموت يديه الطويلتين إلى الزهرة الصغيرة، لكنها اعتصرت يديه.. نفخ في يديها فسقطتا عاجزتين.. وقال لها:
. « لا يمكنك عمل شيء لي.. »
. « الرب يستطيع.. »
وبكت كثيرًا.. ثم على حين غرة مدت يدها وأمسكت بزهرتين جميلتين وصاحت:
- « سأمزق هاتين الزهرتين.. لأننى يائسة! »
صاح الموت:
. « لا تلمسيهما! أنت تقولين إنك تعسة.. لكنك تريدين جعل أمين أخرتين تعستين! »
.« أم أخرى! »
قالتها ثم أطلقت الزهرتين..
قال الموت:

. « إليك عينك ثانية.. لقد انتشلتها من البحيرة.. لم أعلم أنها لك.. خذيهما. إنها الآن أكثر لمعانًا من ذي قبل. انظرى إلى البئر العميقة بقربك.. سأخبرك باسم الزهرتين اللتين عدلت عن قطفهما، ولسوف ترين حياتيهما.. وسوف تعرفين ما كنت ستدمرين.. »
نظرت إلى البئر، فرأت كيف صارت إحدى الزهرتين نعمة للبشر وسعادة تملأ كل مكان، وكيف صارت الأخرى ألمًا وشقاءً ورعبًا وتشردًا..
قال الموت:
- « كلتاهما إرادة الله.. »
سألته:
- « أيتهما الزهرة السعيدة وأيتهما الزهرة تعسة الحظ؟ »
قال الموت:
. « هذا لن أخبرك به.. لكن دعيني أخبرك أن إحداهما كانت تمثل مستقبل ابنك.. إن هذه الزهرة هي ابنك وأنت رأيت مستقبله! »
صرخت في رعب:
. « أيهما طفلي؟ قل لي! ارحم ابني البرىء من كل هذه التعاسة! خذه معك.. انس دموعي! انس كل ما فعلته! »
قال الموت:
. « لا أفهمك.. هل تريدين استعادة طفلك أم آخذه إلى هناك حيث لا تعرفين؟ »
ضربت الأم كفيها معًا وسقطت على ركبتيها، ودعت الله:
. « إن إرادتك هي الأكثر حكمة يا الله! فلتكن مشيئتك! »
وحنت رأسها في حجرها، من ثم أخذ الموت طفلها وانطلق إلى عالم مجهول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضفدع القفّاز

قرر برغوث ونطاط غيط وضفدع قفاز أن يروا أيهم يقفز أعلى، ولهذا دعوا العالم كله وكل شخص آخر ليرى الاحتفال. كانوا قفازين مشهورين كما يقول الجميع إذ التقوا معًا في الحجرة.
قال الملك:
. « سأقدم ابنتي لمن يثب أعلى من غيره.. إذ ليس من المسلى ألا تكون هناك مكافأة للقفز.. »
كان البرغوث أول الواثبين. كان له أسلوب بارع وقد انحنى للمشاهدين على الجانبين، لأن دمًا نبيلًا كان في عروقه، وقد اعتاد مجتمعات البشر وهذا له تأثير كبير.
ثم جاء نطاط الحقل.. كان أثقل لكنه كان متأنقًا وارتدى زيًّا أخضر يملكه منذ ميلاده، وقال إنه ينتمي إلى أسرة مصرية عريقة، وإنه في الدار التي نشأ فيها كان يُنظر له كشيء عظيم. المشكلة هي أنه جلب حالًا من الحقل ووضع في بيت من الورق المقوى ارتفاعه ثلاثة طوابق. بني من ورق اللعب بحيث كانت الصور تتجه للداخل. وقد اقتطعت النوافذ من جسم (ملكة القلوب).
قال:
. « أنا أغنى بصوت حسن.. والستة عشر نطاط حقل التي ظلت تصفر منذ طفولتها، لم ينل واحد منها بيتًا من ورق اللعب، وقد هزلت بسبب غيظها لسماع صوتى.. »
هكذا قدم البرغوث ونطاط الحقل نفسيهما، واعتقد كلاهما أن لديه الحق للزواج بالأميرة.
لم يقل الضفدع القفاز شيئًا لكن الناس قدروا أنه يطمح لما هو أكثر، وحينما تشممه كلب الأسرة بأنفه اعترف بأن الضفدع

القفاز من أسرة كريمة.
أما المستشار العجوز فقال إن الضفدع عراف موهوب لأنك تستطيع إذا رأيت ظهره أن تعرف إن كان الطقس سيكون سيئًا أم معتدلًا.. وهذا ما لا تجده حتى على ظهر الرجل الذي يكتب التقويم ذاته.
قال الملك متعجبًا:
. « لن أقول شيئًا.. لكن لي رأيي مع ذلك.. »
الآن جاء وقت الامتحان، ووثب البرغوث عاليًّا حتى إن أحدًا لم ير أين ذهب، وحسبوا أنه لم يثب قط.. كان هذا مهينًا.
وثب نطاط الحقل نصف هذه المسافة، لكنه وثب في وجه الملك الذي وصف ما حدث بأنه تصرف غير مهذب.
وقف الضفدع النطاط ساكنًا وقتًا طويلًا شارد الذهن، حتى اعتقد الكل أنه لن يثب.
قال كلب الأسرة:
. « فقط آمل أنه ليس مريضًا.. »
هنا.. بوب! بوثبة جانبية صار على حجر الأميرة التي كانت تجلس قريبًا على مقعد ذهبى.
هنا قال الملك:
. « ليس من شيء أعلى من ابنتي.. لذا أعتبر هذه أعلى قفزة حدثت.. إن المرء يجب أن يبدى حسن الفهم، وقد أظهر الضفدع أنه يفهم حقًّا.. إنه شجاع مثقف.. »
هكذا فاز بالأميرة.
قال البرغوث:
. « الأمر عندي سيان.. لقد فاز الضفدع القفاز ربما.. إلا أنني كنت الأعلى وثبًا، لكن التميز قلما يلقى جائزته في هذا العالم.. الناس لا تنظر إلا إلى المظهر الخارجي الحسن.. »

ثم غادر البرغوث البلاد ليعمل مع الأَجانب.. ويقال إنه قتل.
وجلس نطاط الحقل في الخارج على ضفة خضراء وفكر في شئون الدنيا. ثم قال:
. « نعم. إن المظهر الحسن هو كل شيء.. هذا ما يهتم به الناس..»
وبدأ يغني أغنيته الحزينة التي منها عرفنا قصته والتي ربما تكون كاذبة تمامًا برغم أنها موجودة هنا وقد طبعت بالحبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شجرة الورد

ذات مرة عاش صبي صغير أصيب بالبرد. كان قد خرج وقدماه مبتلتان برغم أن أحدًا لا يعرف السبب لأن الطقس كان جافًّا. لذا نزعت أمه ثيابه ووضعته في الفراش وجلبت إناء الشاي لتعد له بعضًا منه. في هذه اللحظة جاء العجوز اللطيف الذي يعيش في الطابق العلوي وحيدًا.. لأنه لم يتزوج ولم يرزق بأطفال.. لكنه كان يحب الأطفال حبًّا جمًّا، وكان يعرف الكثير من القصص الخيالية الممتعة.

قالت أم الصبي:

. « اشرب الشاي.. وبعدها قد تسمع قصة خيالية.. »

قال العجوز:

. « ليت عندى الجديد لأحكيه.. لكن كيف بلل الصبى قدميه؟ »

قالت الأم:

. « هذا هو ما لا يستطيع أحد فهمه.. »

سأل الصبي:

. « هل سأسمع قصة خيالية؟ »

. « نعم.. لكن لو أخبرتني.. لأنني أريد أن أعرف عمق المزراب الذي تعبره في الشارع وأنت ذاهب إلى المدرسة.. »

قال الطفل:

- « يصل لارتفاع حذائي ذي العنق.. لكن بعدها لابد أن أنزل في حفرة عميقة.. »

قال العجوز:

. « هلم! من هنا ابتلت قدماك! الآن يجب أن أخبرك بقصة لكن ليست عندى قصص أخرى.. »
قال الصبى:
- « يمكن أن تؤلف واحدة فورًا.. تقول أمي إن كل ما تنظر له يمكن أن يصير قصة.. وإنك تستطيع العثور على قصة في كل شيء.. »
. « نعم.. لكن هذه القصص لا تصلح.. القصص الجيدة توجد من تلقاء نفسها.. إنها تدق على جبيني وتقول: ها نحن أولاء! »
سأله الصبي:
. « ألن تدق قصة قريبًا؟ »
فضحكت أمه ووضعت بعض أوراق الورود في البراد وصبت فوقها الماء المغلى.
. « أرجوك أن تقول لي شيئًا! »
قال الرجل:
- « فقط لو أن القصص الخيالية تأتى برضاها، لكنها مغرورة متعجرفة.. لكن لحظة! وجدتها! أصغ لي! هناك واحدة في براد الشاي! »
نظر الصبي إلى براد الشاي.. ارتفع الغطاء أكثر فأكثر وبدت الورود بيضاء نضرة، وخرجت منها أغصان راحت تنتشر في كل جانب وتنمو.. كانت شجرة ورد جميلة رائعة وقد أزاحت الستائر جانبًا. ما أنضرها! ويا للرائحة! ووسط الشجيرة كانت امرأة عجوز ودود في ثوب غريب. كان أخضر كأوراق الشجرة وطرزت عليه زهور كبيرة، حتى لا تستطيع معرفة هل هي طبيعية أم مرسومة.
سأل الصبي:
. « ما اسم هذه المرأة؟ »

قال العجوز:

. « الإغريق والرومان يطلقون عليها (درياد)[13] لكننا لا نفهم هذا.. الذين يعيشون في الأكواخ الجديدة [14]يطلقون عليها (المربية العجوز).. وهي من يجب أن تهتم به.. والآن أصغ وانظر إلى شجرة الزهور..

»هناك أشجار مماثلة موجودة قرب الأكواخ الجديدة تنمو في فناء تعس صغير، وتحتها جلس عصر يوم عجوزان ينعمان بأروع ضوء شمس.. بحار عجوز عجوز.. وزوجته العجوز العجوز..

كان لأحفادهما أولاد.. وسوف يحتفلان قريبًا بالعيد الخمسين لزواجهما.. لكنهما عجزا عن تذكر التاريخ.. نظرت الجدة العجوز التي تعيش في الشجرة وقالت:

. « أنا أعرف التاريخ.. »

لكن الزوجين الجالسين بالأسفل لم يسمعاها لأنهما كانا يتكلمان عن زمن ماض.

قال البحار العجوز:

. « نعم.. ألا تتذكرين عندما كنا صغيرين جدًّا؟ كيف كنا نلعب ونركض؟ كان هذا الفناء ذاته.. وقد صنعنا حديقة هنا.. »

قالت زوجته العجوز:

. « بلى.. أتذكر هذا جيدًا.. لقد سقينا عقل النبات وكانت واحدة منها شجرة ورد.. وقد خرجت منها أغصان خضر، ثم نمت منها الشجرة العملاقة التي نجلس تحتها نحن الشيخين.. »

قال:

- « أكيد.. وهناك في الركن كان دلو ماء كنت أجعل قواربي الصغيرة تسبح فيه.. »
قالت هي:
. « حقًّا.. لكن أولًا ذهبنا للمدرسة لنتعلم شيئًا. ثم عمدنا.. لقد بكينا، لكنا ذهبنا عصرًا إلى البرج المستدير حيث وقفنا ننظر إلى (كوبنهاجن)، ثم إلى (فردريكسبيرج) حيث كان الملك والملكة يبحران في قاربهما الرائع.. »
. « لكني جربت رحلات أفضل من هذه بعد ذلك.. »
قالت:
. « نعم.. ولكم من مرة بكيت من أجلك.. حسبتك مت ورحلت، أو أنك ترقد في قاع المحيط. كم من ليلة صحوت فيها لأرى ما إذا كانت الريح قد تغيرت.. وقد تغيرت كثيرًا لكنك لم تأت قط.. أذكر ذات ليلة كان المطر ينهمر فيها سيولًا، وكان اللاجئون يقفون على أبواب البيت الذي كنت أؤدى فيه الخدمة.. هنا جاء ساعي البريد وأعطاني رسالة.. كانت منك! فتحتها وقرأت.. بكيت وضحكت! فيها قرأت أنك في أرض دفيئة حيث تنمو أشجار البن.. لابد أنها أرض مباركة! وحكيت لى الكثير.. قرأت كل شيء والمطر ينهمر. هنا جاء شخص احتضننى.. »
. « نعم.. لكنك وجهت له لكمة على أذنه حتى أصدرت صفيرًا.. »
. « لم أعرف أن هذا أنت.. لقد وصلت مع خطابك، وكنت وسيمًا جدًّا وما زلت.. حول عنقك كان منديل أصفر طويل.. وقبعة جديدة.. كنت جريئًا أنيقًا! »
قال لها:

- « بعدها تزوجنا.. هل تذكرين؟؟ ورزقنا بأول طفل لنا ثم (ماري) و(نيكولاس) و(بيتر) و(كريستيان).. »
. « نعم وقد كبروا ليصيروا رجالًا محترمين، وكنا نلقى الحب من كل اتجاه. »
- « وأطفالهم رزقوا بأطفال.. »
. « نعم.. هم أحفادنا.. كلهم قوة وعافية.. »
. « اليوم بالذات هو الذكرى الخمسون للزواج.. »
هذه العبارة الأخيرة كانت من الجدة العجوز التي ألصقت رأسها بين الاثنين، فحسبا أن الجار هو من أخبرهما بهذا. تبادلا النظرات ثم أمسك كل بيد رفيقه.. بعد قليل جاء أطفالهما وأحفادهما، لأنهم كانوا يعرفون أن هذه ذكرى الزواج الخمسون. أرسلت شجرة الورد رائحة عطرية قوية في الشمس الموشكة على الغروب. سقطت أشعتها على وجهي الزوجين فبديا متوردي الخدين. ورقص أصغر الأحفاد حولهما، وأعلن أن شيئًا رائعًا سيتم الليلة.. سوف يظفرون جميعًا بوجبة من البطاطس الساخنة. هزت الجدة رأسها وصاح الزوج: مرحى! »
قال الصبي الذي كان يصغى لهذه القصة:
. « لكن هذه ليست قصة خيالية.. »
قال الراوي:
- « الأساسي هنا أن تفهمها.. فلنسأل الجدة.. »
قالت المربية:
- « ليست قصة خيالية.. إنها حقيقة.. أفضل القصص الخيالية نشأت من الحقائق.. ولو لم يكن ذلك كذلك لما نمت شجرة الورد هذه من براد الشاي.. »
ثم رفعت الصغير من الفراش ووضعته على صدرها، والتفت حولها أغصان شجرة الورد المفعمة بالورود. جلسا في مسكن في

الهواء، فحلق بهما.. كان هذا جميلًا! وفجأة صارت المربية العجوز عذراء جميلة شابة، لكن ثوبها ظل ذات الثوب الأخضر بزهوره البيض. على صدرها كانت زهرة حقيقية وفي شعرها المتموج إكليل من زهور. كانت عيناها زرقاوين جميلتين تحب النظر إليهما، وقد قبلت الفتى.. كان كلاهما في السن ذاتها ويشعران بالشيء ذاته. يدًا في يد مشيا إلى التكعيبة في الحديقة الجميلة. قرب الممر كانت عصا الأب مربوطة فبدت للصغيرين كأنها حية. ما إن مروا بجوارها حتى تحول مقبضها البراق المستدير إلى رأس حصان يصهل، ومعرفة سوداء طويلة تتطاير في النسيم، ومنها خرجت أربع أقدام رقيقة لكنها قوية. كان الحيوان جميلًا قويًّا، ومعه انطلقوا يركضون في الزقاق.

وصاح الصبي:

- « مرحى!! نحن ننطلق أميالًا! ننطلق نحو القلعة التي كنا فيها العام الماضي! »

وانطلقوا عبر المرج المعشوشب، بينما العذراء الرقيقة التي . كما نعرف . ليست إلا المربية العجوز تصيح:

. « الآن نحن في الريف.. ألا ترى بيت المزرعة هناك؟ وهناك شجرة الورد جواره.. والديك ينبش الأرض من أجل الدجاج.. أنظر كيف يتبختر! الآن نحن قرب الكنيسة.. إنها تقع هناك بين أشجار البلوط.. هذا هو دكان الحداد حيث تشتعل النار.. وحيث الرجال أنصاف العراة يدقون بمطارقهم حتى يتطاير الشرر.. بعيدًا بعيدًا!! »

رأى الصبي كل هذا حقًّا.. بعد هذا لعبا في حديقة جانبية، ورسما حديقة صغيرة على الأرض وانتزعا براعم ورد من شعرها ثم زرعاها، فنمت كتلك التي زرعها العجوزان حينما كانا طفلين. مشيا واليد في اليد كما فعل العجوزان في طفولتهما لكنهما لم

يمشيا إلى البرّج المستدير أو (فردريكسبيرّج).. لقد لفت العذراء ذراعها حول الصبي ثم طارا بعيدًا فوق (الدانمرك) كلها.
جاء الربيع فالصيف، ثم جاء الخريف، وانعكست ألف صورة في قلب وعيني الصبي. وكانت الفتاة تتغنى له دومًا: « لن تنسى هذا.. وطيلة طيرانهما كانت رائحة عذبة تفوح من الشجيرة.. »
قالت له:
. « المكان جميل هنا في الربيع! »
ووقفا في غابة من الزان بدأت تكتسى بالخضرة.. حيث أعشاب (الودراف) تبعث عبقها عند أقدامهما.. والزهور الحمر تتألق وسط الخضرة.
قالت له:
. « المكان جميل هنا في الصيف! »
وحلقت فوق القلاع التي شهدت زمن الفروسية الغابر، وحيث تنعكس الجدران الحمر والحصون في مياه القنال.. وحيث يسبح البجع. اختلست النظر إلى الأزقة الجانبية وفي الحقول كان القمح يتموج كالبحر. وفي الخنادق كانت الزهور الحمر والصفر تنمو. وعندما جاء المساء ارتفع القمر مستديرًا كبيرًا، وفاحت رائحة عذبة من أكوام القش في المروج.
قالت له:
. « المكان جميل هنا في الخريف! »
وهنا اكتست الغابة باللون الأحمر والأخضر، وجاءت الكلاب تتواثب، وجاءت أسراب من الطيور البرية تحلق فوق النصب الحجرى.. كان البحر أزرق غامقًا تغطيه سفن ذات أشرعة بيض. وجاء صبية وعجائز.. الصبية غنوا بينما العجائز حكين قصصًا خيالية. كانت تلك القصص تحكى عن جنيات الجبال والعرافين..

قالت له:
. « المكان جميل هنا في الشتاء! »
فتغطت الأشجار بالثلج فبدت كشعب مرجانية بيض.. وتهشم الثلج تحت الأقدام، وبدا في السماء نجم هاو تلو آخر.. وأضيئت شجرة الكريسماس في الغرفة. وفي الريف تعالى صوت الكمان في غرفة الفلاح، وهجم الأطفال على الكعك المخبوز حديثًا. حتى أفقر الصبية قال:
. « المكان جميل هنا في الشتاء! »
نعم.. كان جميلًا..
وقد أرته الفتاة كل شيء وظلت شجرة الورد تبعث عطرها، ونما الصبي، ليصير شابًا ولسوف يذهب ليرى العالم كله. يذهب إلى الأراضي الحارة حيث تنمو أشجار البن. لكن لحظة رحيله أخذت الفتاة برعم وردة من صدرها وأعطته إياه ليبقيه معه. فوضعه بين صفحات كتاب الصلوات. فإذا فتح الكتاب أثناء سفره كان يفتحه حيث توجد الوردة. وكلما نظر لها أكثر كلما صارت أنضر. كأنها نضارة المروج الدانمركية مجسدة، وبين أوراق الوردة كان يرى العذراء الصغيرة تنظر له بعينيها الزرقاوين.
همست:
. « المكان جميل هنا في الشتاء والصيف والربيع والخريف.. »
ثم حلقت ألف رؤيا أمام عينيه..
هكذا مرت أعوام عديدة وقد صار شيخًا عجوزًا.. وقد جلس مع زوجته تحت الشجرة المزهرة. اليد في اليد كما فعل الجد والجدة في الأكواخ الجديدة.. وتكلما كما فعلا في الأيام الخوالي. تكلما عن ذكرى زواجهما الخمسين.. جلست العذراء الصغيرة

ذات العينين الزرقاوين وبراعم الورد في شعرها فوق الشجرة وقالت:
- « اليوم هو الذكرى الخمسون.. »
ثم من شعرها أخرجت وردتين ولثمتهما.. في البداية تألقتا كالفضة ثم كالذهب وحين وضعتهما على رأسي الشيخين تحولت كل وردة إلى تاج ذهبي. هكذا جلسا كملك وملكة تحت الشجرة العطرة، وحكى الرجل لزوجته قصة المربية العجوز كما حُكيت له صبيًا. وخيل لهما إنها تشبه قصة حياتهما.. والأجزاء التي كانت أكثر شبهًا هي التي راقت لهما كثيرًا.
قالت العذراء على الشجرة:
- « البعض يطلق عليَّ (المربية العجوز) والبعض يطلق على اسم (رياد).. لكن في الحقيقة اسمى هو (الذكرى).. أنا من يجلس في هذه الشجرة التي تكبر وتكبر.. أنا أتذكر وبوسعى أن أحكى أشياء.. ترى هل ما زالت لدى زهور باقية؟ »
فتح العجوز كتاب صلواته.. هناك كان برعم الوردة نضرًا كما وضع من قبل. وأغمض العجوزان عينيهما وكانت تلك نهاية القصة.
رقد الصبي في فراشه ولم يدر إن كان هذا حلمًا أم لا، أو ما إذا كان قد أصغى لقصة. كان براد الشاي على المنضدة لكن لم تخرج منه شجرة ورد. والعجوز الذي كان يحكي كان في طريقه للخروج من الباب وقد فعل..
قال الصبى:
. « ما أروع هذا! أماه! لقد زرت البلدان الدافئة.. »
قالت أمه:
. « كنت لأعتقد هذا لو شربت مثلك قدحين من شاى الورد.. هذا كاف كي يرتاد المرء البلدان الدافئة.. »

ولفته في الأغطية بإحكام، حتى لا يبرد. وقالت:

- « لقد نمت نومًا طيبًا بينما أنا أجلس هنا أتناقش معه حول هذه القصة.. هل هي قصة عادية أم خيالية.. »

. « وأين المربية العجوز؟ »

قالت الأم:

. « في البراد.. وقد تظل هناك.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البطة القبيحة

كان الطقس صيفيًّا جميلًا في الريف، وقد تكوم القمح الذهبي والشوفان الأخضر وأعواد القش في أكوام في المرج فبدت جميلة. اللقلق يمشي على ساقيه الطويلتين ويثرثر باللغة المصرية التي تعلمها من أمه. كان السير في الريف متعة بحق..

وفي بقعة مشمسة كان بيت مزرعة جميل جوار نهر عميق، وجوار المنزل نمت أوراق (البردوك) عالية حتى أن طفلًا يستطيع الاختباء تحت ورقة منها. وفي هذا المخبأ المريح جلست بطة في عشها ترقب أفراخها يفقسون. كانت قد بدأت تمل العملية لأن الصغار كانوا بطيئين في الخروج، ولم يكن يزورها أحد، لأن البط كان يفضل السباحة في النهر على تسلق الضفة الزلقة، للجلوس معها تحت أوراق البيردوك بغرض الثرثرة..

ومن كل بيضة خرجت بطة صغيرة ثم أخرى لتقول: « بيب بيب » قالت الأم: « كواك »، من ثم راح الصغار جميعًا يقولون « كواك » مثلها، وراحوا ينظرون حولهم إلى أوراق الشجرة العملاقة. سمحت لهم أمهم بالنظر لأن اللون الأخضر مفيد للعينين.

قال البط الصغير وهو يقارن العالم الواسع الذي خرج إليه بالمكان الضيق داخل البيضة:

. « ما أجمل العالم! »

قالت الأم:

. « هل تحسبون هذا هو العالم كله؟ انتظروا حتى تروا الحديقة.. إنها تمتد حتى حقل الخورى، لكني لم أجسر قط على قطع هذه المسافة.. هل خرج الجميع؟ لا ليس بعد.. ما

زالت أكبر بيضة لم تفقس بعد، وأنا قد تعبت.. ترى كم من الوقت يلزمها؟ »
. « كيف حالك؟ »
سألتها بطة عجوز جاءت لزيارتها فقالت:
- « بيضة واحدة لم تفقس بعد.. لكن انظرى لهؤلاء.. أليسوا أجمل كائنات يمكن أن تريها؟ يشبهون أباهم بشدة وإن كنت حانقة عليه لأنه لم يأت ليسأل عنى قط.. »
قالت البطة العجوز:
. « دعيني أر البيضة التي لم تفقس.. لا شك لدى في أنها بيضة ديك رومي.. ذات مرة أغروني بالرقاد على بيض كهذا.. وبذلت جهدي مع الذرية لكنها ظلت تخاف الماء.. دعيني أر.. نعم.. إنها بيضة ديك رومي.. خذى نصيحتي واتركيها حيث هي واذهبي لتعلمى الأطفال السباحة.. »
. « أعتقد أنني سأرقد عليها.. لقد انتظرت أيامًا طويلة فلا فارق في المزيد من الوقت.. »
. « كما تريدين.. »
في النهاية فقست البيضة وخرج منها كائن صغير.. « بيب بيب».. كان كبيرًا قبيحًا.. وقد نظرت له البطة في دهشة وقالت:
- « إنه كبير جدًّا ولا يشبه الآخرين.. أتساءل إن كان حقًّا ديكًا روميًّا.. سنرى.. سآخذه للماء وأرى إن كان سيسبح.. »
في اليوم التالي كانت الشمس مبهجة، لذا أخذت الأم أطفالها إلى الماء، ووثبت فيه ثم صاحت: « كواك كواك »، من ثم وثب البط الصغير واحدًا تلو الآخر.. غطست الرءوس تحت الماء، لكنهم ارتفعوا ثانية وبدءوا يسبحون ببراعة وأرجلهم تجدف من تحت الماء، وكانت البطة القبيحة تسبح معهم بالسهولة ذاتها..
قالت الأم:

. « آه.. إذن هو ليس ديگًا روميًّا. ما أبرعه في استعمال قدميه.. إنه ابني وهو ليس قبيحًا جدًّا لو نظرت له بعناية.. كواك كواك! تعالوا معى لأعرفكم لصفوة مجتمع المزرعة.. لكن أبقوا بقربي وقبل كل شيء خذوا الحذر من القط.. تذكروا أن تتصرفوا بأدب وأن تحنوا رءوسكم أمام الكبار.. هذه البطة هناك هي أكرمنا محتدًا.. إن دمًّا أسبانيًّا يجرى في عروقها.. ألا ترون العلم الأحمر مربوطًا لقدمها؟ هذا شرف حقيقي لأية بطة.. معنى هذا أن أحدًا لا يريد فقدها.. تعلموا المشي المهذب.. البطة المهذبة لا تثني أصابع رجلها.. بل تفتح ما بين الأصابع مثلما يفعل أبوها وتفعل أمها.. احنوا رءوسكم وقولوا: كواك.. »
فعل البط كما طلبت لكن البطة الراقية قالت:
- « انظروا! هنا سلالة أخرى كأنما ليس لدينا ما يكفى منهم! وما أغرب مظهر هذا.. لا نريده هنا! »
ثم طارت وعضت البطة القبيحة في عنقها.
قالت الأم:
. « دعيه.. إنه لم يؤذ أحدًا! »
قالت البطة الحقود:
- »أجل.. لكنه كبير وقبيح.. لذا يجب إبعاده.. »
. « لكنه مهذب ويسبح بشكل ممتاز.. أما عن حجمه فالسبب أنه ظل في البيضة أطول من اللازم.. »
بدأ البط يندمج مع الباقين، لكن البطة القبيحة التي خرجت متأخرة من البيضة ظلت تتلقى السخرية وتدفع وتعض.. ليس من البط فقط بل من كل الدواجن.
- »إنه كبير جدًّا! »
أما الديك الرومي الذي كان يعتبر نفسه إمبراطورًا فقد نفخ نفسه كسفينة بشراع، وطار نحو البط وقد احمر رأسه غضبًا حتى لم

يدر المسكين الصغير لأين يذهب.. لقد ساءت حالته يومًا بعد يوم. حتى إخوته وأخواته لم يعاملوه برقة، وكانوا يقولون له:
. « أنت مخلوق قبيح.. ليت القط يظفر بك! »
وقالت أمه إنها تتمنى لو لم يولد. حتى الفتاة التي تطعم البط ركلته بحذائها.
قال لنفسه:
. « إنهم يخافونني لأنى قبيح.. »
وأغمض عينيه وطار مبتعدًا.. حتى بلغ مستنقعًا يعيش فيه بط برى.. هناك قضى ليلته منهكًا محزونًا.
في الصباح صحا البط فالتفوا حوله.. بذل جهده ليكون مهذبًا لكن البط قال له:
. « أنت شديد القبح.. لكن هذا لا يهم ما لم ترغب في الزواج من واحدة من أسرتنا.. »
يا للمسكين! لم يفكر في الزواج قط، لكنه فقط أراد الإذن بالبقاء بين الأغصان وشرب الماء من المستنقع. بعد أيام جاءت إوزتان صغيرتان إليه.. وكانتا وقحتين حقًّا.. وقالت له واحدة منهما:
. « اسمع.. أنت قبيح إلى درجة أننا معجبتان بك.. هلا أتيت معنا وصرت طيرًا مهاجرًا؟ هناك مستنقع بقربنا سوف تجد به بعض الإوز البرى الجميل، وهي فرصتك لتظفر بزوجة برغم قبحك.. »
بوب بوب!
دوى الصوت في الهواء فسقطت الإوزتان ميتتين، وتلون الماء بالدم. بوب بوب! فحلق كل الإوز البرى من الأحراش. جاء الصوت من كل صوب لأن الصيادين حاصروا المستنقع وبعضهم جلس على غصون الأشجار.. وارتفع الدخان الأزرق فوق المستنقع على حين حاصرته كلاب الصيد.

لكم أثاروا رعب البطة المسكينة! أخفت رأسها تحت جناحها، وفي اللحظة ذاتها مر كلب عملاق أمامها.. كان فكاه مفتوحين ولسانه يتدلى وعيناه تلمعان بشكل مخيف. تشمم البطة بأنفه ثم واصل الركض دون أن يلمسها..
قالت البطة وهي تتنهد:
. « آه.. ما أسعدني بالقبح! حتى الكلب لم يرض بأن يعضنى! »
وظلت ثابتة ساكنة تصغى لأصوات الطلقات تتردد.. وقد انتظرت ساعات طويلة حتى بعدما ساد الهدوء؛ لأنها لم تجسر على الحركة. أخيرًا فرت من المستنقع فقط لتواجه عاصفة عاتية.. ظلت تقذفه، وهي لا تقدر على مقاومتها حتى جاء المساء. في النهاية بلغت كوخًا بائسًا يبدو آيلًا على السقوط.. وما يبقيه في مكانه هو أنه لم يقرر الجانب الذي يسقط عليه. جلست جوار الباب المغلق ترتجف من العاصفة.. ثم لاحظ أن هناك فتحة كبيرة تحت الباب تسمح له بالدخول.
كان يعيش في الكوخ امرأة وقط ودجاجة. كانت المرأة تطلق على القط « ابنى ».. وكان القط محببًا حقًّا.. يجيد رفع ظهره ويفر ويطلق الشرر من فرائه لو فركته في اتجاه خطأ.. أما الدجاجة فكانت قصيرة الساقين وكان بيضها طيبًا..
في الصباح اكتشفوا أمر الزائر فقر القط ونقت الدجاجة. قالت المرأة:
. « ماذا هناك؟ »
وتفحصت الغرفة لكن نظرها كان ضعيفًا لذا حين رأت البطة حسبتها بطة كبيرة بدينة وقالت:
. « يا لها من جائزة! أرجو ألا يكون ذكرًا لأننى أشتهى بيض البط.. سننتظر ونرى.. »

لهذا وضعت البطة في موضع الامتحان ثلاثة أسابيع، لكنها لم تبض. وكان القط والمرأة يقولان دومًا: « نحن والعالم » بمعنى أنهما كانا يعتبران نفسيهما نصف العالم..
هكذا جلست البطة في الركن منخفضة المعنويات حتى جاء النهار. وشعرت برغبة عارمة في السباحة في الماء حتى إنها لم تستطع إلا أن تخبر الدجاجة.
قالت الدجاجة:
. « يا لها من فكرة سخيفة.. ليس لديك ما تعملين لذا تضيعين الوقت في التخيل.. لو كان بوسعك أن تقرى أو تبيضى لذهبت هذه الأوهام.. »
. « لكنه شعور ممتع! »
- « ممتع فعلًا.. اسألي القط فهو أحكم حيوان عرفته.. اسأليه إن كان يحب أن يسبح ولن أقول رأيي.. اسألي صاحبتنا العجوز.. هل تحسبينها تحب السباحة أو تدع الماء يمس رأسها؟ »
. « أنت لا تفهمينني.. »
. « أنا لا أفهمك؟ ومن يفهمك؟ هل أنت أبرع من القط أو العجوز؟ كفي عن هذا يا طفلة واحمدي الله على أننا استقبلناك هنا.. ألا تعيشين في غرفة دافئة يمكنك التعلم فيها؟ لكنك ثرثارة وصحبتك غير محببة.. لهذا أنصحك لمصلحتك أن تبيضى وتقرى كالقط في أقرب وقت ممكن.. »
قالت البطة:
. « أظن أن على مواجهة العالم من جديد.. »
- « نعم.. افعلي ذلك.. »
هكذا فارقت البطة الكوخ، وسرعان ما وجدت الماء الذي تستطيع السباحة فيه، لكن باقي الحيوانات تحاشتها. وجاء الخريف.. اصفرت الأوراق ثم صارت بلون الذهب ثم جاء الشتاء

ليطير بها، ووقف الغراب على الشجر يصيح « كروك كروك ».. يكفي منظره لجعلك ترتجف.
ذات يوم جاء سرب من الطيور الجميلة التي لم تر البطة مثلها. كان هذا بجعًا وقد راح يثنى أعناقه بينما الريش الجميل يتألق بلونه الأبيض. كانوا يفردون أجنحتهم ويطلقون صيحة ثم يحلقون نحو أقطار دافئة عبر البحر.
شعرت البطة بشعور غريب وهي ترى هذه الطيور الجميلة التي لا تعرف اسمها.. وجدت نفسها ترفع رأسها وتطلق صيحة أثارت ذعرها هي نفسها.. لقد شعرت نحو هذه الطيور بأغرب شعور أحسته من قبل.
يا للطائر التعس! كان سيقبل حياته مع البط لو أعطاه أدنى تشجيع.
ازداد البرد، وصار عليه أن يسبح بإصرار في الماء ليمنعه من التجمد، لكن في كل ليلة كانت المساحة المخصصة للسباحة تضيق وتضيق. في النهاية غلبه التعب فتوقف في الماء وبدأ الثلج يحيط به.
في الصباح مر مزارع ورأى ما حدث.. فهشم الثلج بحذائه الخشبي وحمل البطة الصغيرة للدار إلى زوجته. أعاد الدفء الحياة للبطة لكن حينما أراد الأطفال اللعب معه خاف أن يؤذوه. طار فسقط في وعاء اللبن وبعثر اللبن في الغرفة. صفقت المرأة بكفيها فأفزعه هذا وطار إلى برميل الزبد ثم إلى إناء الدقيق. يا للحالة التي صار بها!
صاح الاطفال وضحكوا وحاولوا الإمساك به لكنه استطاع الهرب. كان الباب مواربًا ففر منه المخلوق التعس فقط ليتوارى بين الأشجار في الثلج. لو حكيت ما مر بهذا المسكين في الشتاء القاسي لغمرني الأسى. لكن حين انتهى وجد نفسه ذات ربيع في

مستنقع. شعر بالشمس الدافئة وسمع غناء البلبل. شعر بجناحيه يكتسبان قوة وهو يحركهما ويرتفع في السماء.
طار حتى وجد نفسه في حديقة كبيرة قبل أن يعرف كيف. كانت أشجار التفاح في ذروة نضجها وبدا كل شيء رائع الجمال في نضرة الربيع المبكر.
ومن أجمة قريبة جاءت بجعات بجعات بيض تسبح فوق الماء الأملس.
تذكرت البطة هذه الطيور الجميلة وقالت لنفسها:
- « سأسبح إلى هذه الطيور الملكية ولسوف يقتلننى لأنني قبيحة.. لكن هذا لا يهم.. من الأفضل أن يقتلنني من أن ينقرني البط ويضربني الدجاج وتدفعنى الفتاة التي تطعم الدواجن.. »
سبحت نحو البجع فالتف حولها.. قالت لهم:
- « اقتلننى.. »
وغطست برأسها تحت الماء وانتظرت الموت.. لكن ماذا رأت في صفحة الماء؟ لم تعد بطة قبيحة منبوذة.. إنها بجعة رائعة الجمال.. أن يتربي الطائر في مزرعة لأمر لا يناسبه إن كان قد خرج من بيضة بجعة. إنه الآن مسرور لكل ما عاشه من حزن ومعاناة، لأن هذا جعله يقدر أكثر الجمال المحيط به. لقد سبح البجع حول القادم الجديد ودغدغوا رأسه بمناقيرهم، وبعد قليل وصل بعض الأطفال إلى الحديقة فراحوا يلقون بالكعك والخرز في الماء، وصاح أصغرهم:
. « انظروا! هناك واحدة جديدة! »
وجروا ليخبروا آباءهم وقالوا:
. « البجعة الجديدة هي الأجمل.. جميلة صغيرة السن.. »
شعرت البطة بالخجل فدارت رأسها تحت جناحها لأنها لم تعرف ما تفعله.. كانت سعيدة لكنها غير مغرورة على الإطلاق..

كانت قبيحة منبوذة والآن يقولون إنها أجمل طائر في العالم...
هكذا رفعت رأسها وأطلقت صرخة:
. « لم أتوقع هذه السعادة قط حينما كنت بطة قبيحة! »

هانز كريستيان أندرسن
(تواريخ متفرقة)

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القناة

الفهرس..

Notes

[←1]

في الأساطير اليونانية أن « كيوبيد » . هو إله الحب . إن رمى القلب بسهم ذهبى وقع في الحب وإذا رماه بسهم رصاصي كره أول من يراه.

[←2]
زيلاند أكبر جزر الدانمرك وفيها تقع العاصمة (كوبنهاجن).. طبعًا سميت (نيوزيلندا) نسبة لها..

[←3]

كيوجي بلدة على خليج (كيوجي). وقعت معركة هناك عام 1807 بين القوات البريطانية الغازية والجيش الدنمركي غير المنظم. وتعبير (رؤية دجاجة من كيوجي) يشبه في الدنمركية تعبير (أن ترى الطفل لندن) في الإنجليزية، وهو ما يعني أن تضم رأسه بين كفيك وترفعه!

[←4]

نحات دنمركي شهير..

[←5]

البلدة حقيقية وكانت فيها قلعة عظيمة في عهد الملك المذكور، ثم لم يبق منها إلا برج.

[←6]
مدينة ساحلية اعتاد المسافرون أن يطلقوا عليها (أكثر المدن ألقابًا)، لأنهم كانوا ينتظرون فيها طويلًا حتى تهب ريح مواتية، وكان هذا قبل اختراع السفن البخارية!

[←7]
يومًا ما كانت رويسلنده هي عاصمة الدائمرك.. دفن فيها كل ملوك الدانمرك القدامي، وفيها كان أعضاء المجلس التشريعي يجتمعون.

[←8]
مدينة صغيرة هادئة تحيط بها الغابات والبحيرات، (هولبرج) كاتب ساخر دانمركى يشبه (موليير) عند الفرنسيين نشأ فيها مدرسة لأبناء النبلاء.

[←9]

في الدانمركية العامية تعني لفظة (ماهوجني) الشيء الرقيق الجميل..

[←10]
هناك قصة للكاتب (بيتر شليميل) اسمها (رجل بلا ظل).. عندنا في مصر رواية الأستاذ فتحى غانم (الرجل الذي فقد ظله) وإن كان موضوعها مختلفًا طبعًا!

[←11]

الفارق لا يتضح في العربية والإنجليزية، لكنه مألوف لدى من يعرفون الفرنسية والألمانية والدانمركية.. إلخ.. وقد حاول المترجم تقريب الصورة لقارئ الإنجليزية؛ فالضمير you يستعمل عند وجود كلفة وصيغة رسمية، أما الضمير thou فيستعمل بين الأصدقاء الحميمين. وعادة الدانمركين أن يتبادل الصديقان الشراب ثم يقررا أن يصيرا Thoubrothers أي أنهما لن يستعملا الصيغة الرسمية بينهما بعد اليوم..

[←12]

راجع الهامش السابق..

[←13]

حورية الغابة.

[←14]

صف من البيوت تخصص للبحارة فى كوبنهاجن.

روايات عالمية للجيب

56



الستار

تأليف : أجاثا كريستي
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (56)

الستار

بقلم: أجاثا كريستي
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

يصعب على المرء أن يقدم للمرة الأولى قصة للقراء لا يرسمها الفنان الأستاذ (إسماعيل دياب) ولا يشرف على تنسيقها الأستاذ (صبحي عبود) - عم (صبحي) كما ينادونه في المؤسسة – خاصة أنها المرة الأولى منذ وضعت قدمي هنا، لكن هذه سنة الحياة ولسوف، تستمر أردنا أم لم نرد.. ليرحم الله الفقيدين العزيزين ويرحمنا يوم يقول الرسام الجديد: يحز في نفسي أن أرسم غلاف قصة لم يكتبها فلان أو فلان....

المؤلف..

كنت قد قررت الا أترجم أي عمل آخر للكاتبة (أجاثا كريستي Agatha Christie) بعدما ترجمت قصة (الغريم الخفي) في الكتيب رقم 38، لأنني أعتقد أن كل حرف كتبته المؤلفة قد ترجم للعربية..

فقط ترجمت (الغريم الخفى) كعينة لأدب هذه الكاتبة البريطانية واكتفيت بذلك. إلا أن صديقًا سوريًّا عزيزًا هو الدكتور (محمد فراس صلاحية) أقنعني بتقديم القصة الحالية لأهميتها، حيث إنها القصة التي يموت فيها (بوارو) المخبر الأسطوري البلجيكي، وقد اندهش لما عرف أنني لم أقرأها قط إنما قرأت ما كتب عنها؛ لذا أرسل لي النسخة الإنجليزية بالبريد من سوريا مع ما في ذلك من تكلفة، وقد وجدت أن القصة ممتعة حقًّا وإن كانت محزنة ذات جو مقبض. فيما بعد وجدتها منشورة على شبكة الإنترنت في موقع كندى أنشأه طالب صيني هو:

http: //www. cs. ualberta.
/ca/~xianchen/cnajs/curtain

والموقع مهم لأنه يقدم نصوصًا إنجليزية كاملة لأشهر كتب (كريستي)..

من جديد أكرر شكري لمحمد فراس وأهديه هذا الكتيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما قلت في الكتيب السابق، تعتبر (أجاثا كريستي) أيقونة بريطانية للأدب البوليسي، وقد احتلت بثقة ذات الموضع الذي احتله من قبل (كونان دويل Doyle)..

قصصها جديرة بحق أن تكتبها سيدة، فهي خالية من الدم والعنف والجنس لكنها محشوة بالعقل والاستنتاج المنطقي، وكل من في القصة مهذب راق حتى السفاحين والقتلة.. إن قتلة (كريستي) من أرقى العينات البشرية وأكثرها ذكاءً وتحضرًا وثقافة! وهي تعلى من قيمة (السرد) أو (الحكي) بمعنى أنها لا تهتم كثيرًا بالبعد الأدبي قدر اهتمامها بـ (ماذا سيحدث بعد هذا؟)، وهي في هذا تشبه مواطنتها (دافنى دو مورييه (Maurier du Daphne التي قابلناها في هذه السلسلة [1]. إلا أنها لم تتخلص من الميل الفيكتوري القديم لجعل الرواية (معرضًا ثريًا للشخصيات الممتعة).. شأنها في هذا شأن (ديكنز) و(برونتى) وسواهما..
بالإنجليزية باعت قصص (كريستي) مليون نسخة، وبلغات أخرى باعت مليونًا آخر، فلم يتفوق عليها في المبيعات - في عصرها . إلا الإنجيل وشكسبير. وعامة ما زالت صورة المواطن الإنجليزي في العالم هي الرجل الذي ينتظر المترو وهو يطالع رواية لـ (أجاثا كريستي) كارهًا أن يقطع اندماجه شيء آخر..
ولدت (كريستي) عام ١٨٩٠ في (توركوي) ببريطانيا، وككل الكتاب الكبار في الواقع مرضت لفترة ولزمت الفراش مما جعلها تجرب كتابة القصص على سبيل التسلية. وفي العام ١٩١٤ تزوجت الكولونيل (أرشيبالد كريستي) الذي منه أخذت اسمها. وبعد طلاقهما تزوجت عالم آثار هو مصدر الدعابة الشهيرة: كلما تقدم بي العمر اهتم بي أكثر!
ومن عالم هذا الزوج أغرمت (أجاثا) بالأسفار وحضارة الشرق وكتبت رواية بوليسية كاملة في مصر الفرعونية.

(أجاثا كريستي) خبيرة سموم من الدرجة الأولى لأنها كانت ممرضة تشرف على السموم أثناء الحرب، ولهذا تعد أكثر الكتاب البوليسيين استعمالًا للسموم في القتل.
ولد (هركيول بوارو Poirot Hercule) عام ١٩٢٠ في قصة (القضية الغامضة في ستايلز).. وهي التي اعتاد المترجمون أن يترجموها بـ (القتل له أساليب) كأنهم ينسون أن Styles هو اسم القصر! وسوف نلاحظ أن (هاستنجز) يشير لهذه القصة كثيرًا باعتبارها ذكرى غالية، ومن يومها لم يكف (بوارو) عن قهر المجرمين في 33 رواية. وقد انبهر القراء بهذا المخبر البلجيكي المتبختر البدين الذي يصر على الكلام بالإنجليزية الرديئة مصرًّا على أنه بليغ جدًّا، ولا يكف عن الفخر بخلايا مخه الرمادية. قصصه يحكيها كابتن (هاستنجز) صديق عمره، والذي يتبعه ككلب أليف.. إن (هاستنجز) يمثل درة لـ (بوارو) لأنه يريه كيف يفكر الرجل العادي متوسط الذكاء، وبالتالي يعرف كيف يريد القاتل من الناس أن يفكروا. باختصار (هاستنجز) يخبر (بوارو) بالطريقة التي يجب ألا يفكر بها!
قدمت (أجاثا) لنا كذلك العانس الذكية (مس ماربل) وخبير المشاكل العاطفية (باركر باين).
كتبت (كريستي) ٧٩ رواية وعدة مسرحيات منها (مصيدة الفئران) التي بدأ تقديمها في لندن عام ١٩٥٢ وما زالت تعرض حتى الآن حتى بعد وفاة المؤلفة عام ١٩٧٦! وهي المسرحية التي يخرج بطلها في نهايتها ليرجو المشاهدين أن يكتموا السر.. وهي أيضًا المسرحية التي جعلت حفيد (كريستي) مليونيرًا لأنها وقفت أرباحها عليه!
بقي أن أقول إنني لم أر القصة الحالية مترجمة قط، لكن لا توجد قاعدة بيانات تخبرني بما تم ترجمته، لذا إذا كنت قد رأيتها

مترجمة من دار (السفرجل) في (موريتانيا) فإنني أرجو أن تسامحني!
الآن دعنا نطالع القصة معًا..

د. أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من ذا الذي لم يشعر بغصة مفاجئة لدى استرجاع خبرة غابرة أو الشعور بعاطفة قديمة؟
- «لقد فعلت هذا من قبل..»
لماذا تحرك هذه الكلمات المرء بهذا العمق؟
هذا هو السؤال الذي وجهته لنفسي إذ جلست في القطار أرقب مناظر (إسكس) في الخارج. منذ متى قطعت الرحلة ذاتها؟ كنت أشعر بأن أفضل ما في حياتي قد انتهى.. جرحت في تلك الحرب التي لا حرب سواها بالنسبة لي، والتي أزالت آثارها حرب أخرى أكثر يأسًا..
عام 1916 بدا للشاب (آرثر هاستنجز) أنه قد بلغ النضج. ولشد ما كنت قاصر التفكير لأن حياتي كانت في بدايتها. كنت مسافرًا برغم أنني لم أعرف ذلك للقاء الرجل الذي سيغير حياتي ويعيد تشكيلها. في الواقع كنت ذاهبًا للإقامة عند صديقي القديم (جون كافنديش) الذي تزوجت أمه للمرة الثانية وامتلكت بيتًا ريفيًّا اسمه (ستايلز).
ولم أكن أعرف أني مندفع إلى التورط في جريمة قتل غامضة.. وكان في (ستايلز) لقائي مع ذلك الرجل الغريب صغير الحجم (هيركيول بوارو) الذي قابلته أول مرة في (بلجيكا).
لشد ما أتذكر جيدًا مبلغ دهشتي إذ رأيت هذا الرجل بشاربه الضخم يترنح في شارع القرية. (هيركيول بوارو)! منذ تلك الأيام ظل أعز صديق لي.. لقد شكل تأثيره حياتي كلها.. وخلال صحبتي له قابلت زوجتي.. أصدق وأعذب رفيق يمكن أن يظفر به أي رجل.
الآن هي ترقد في تراب الأرجنتين كما تمنت دومًا دون أن تمر بعذاب الشيخوخة. لكنها خلفت وراءها رجلًا وحيدًا بالغ

التعاسة.
آه.. لو كان بوسعي أن أعود للوراء وأعيش حياتي من جديد! لقد كان (ستايلز) ذاته قد باعه آل (كافنديش).. لقد مات (جون كافنديش) لكن زوجته (مارى) ذلك الكائن الفاتن (الملغز) كانت حية وتعيش في (ديفونشاير). أما (لورانس) فكان يعيش مع زوجته وأطفاله في جنوب إفريقيا.. تغيرات.. تغيرات في كل مكان..
لكن شيئًا واحدًا بقى كما هو لشدة الغرابة.. لقد كنت ذاهبًا إلى (ستايلز) لألقى (بوارو)..
لشد ما ذهلت لدى تلقى خطابه من (ستايلز).. كنت لم أر صديقي القديم منذ عام تقريبًا. وقد صدمت عندما رأيته آخر مرة.. لقد صار رجلًا مسنًّا كاد يقعده التهاب المفاصل.
قال في خطابه:
. « ألا يدهشك يا صاحبى أن ترى العنوان الذي أكتب منه؟ إنه يعيد الذكريات القديمة.. ألا ترى هذا؟ أنا اليوم هنا في (ستايلز).. إنه ما يطلقون عليه (بيت ضيافة) يديره أحد كولونيلاتك الشيوخ البريطانيون جدًّا.. فقط زوجته هي التي تجعل للمكان قيمة.. إنها مديرة بارعة لكن لسانها لاذع كالخل والكولونيل المسكين يعاني الكثير منه. لو كان الأمر أمرى لذهبت لها حاملًا فأسًا!
» رأيت إعلانهما في الصحف فتمنيت لو عدت ثانية إلى ذلك المكان الذي كان أول بيت لي في هذا البلد. إن المرء ليشجيه أن يستعيد الماضي في سني هذه.
تصور أننى قابلت هنا سيدًا يحمل رتبة بارون، هو صديق لمخدوم ابنتك. إنه يرغب في استقدام آل (فرانكلين) هنا لقضاء الصيف.. وأنا بدوري فكرت في أن أجلبك لنكون معًا

enfamille.. سيكون هذا طيبًا جدًّا.. لذا عليك أن تصل يا عزيزى (هاستنجز) بأقصى سرعة.. لقد طلبت لك غرفة ذات حمام (لقد تقدم ستايلز القديم العزيز عما كان).. وقد رتبت سعرًا marché bon tres (رخيص جدًّا) مع زوجة الكولونيل.
لقد وصل آل (فرانكلين) وعزيزتك (جوديث) منذ أيام وقد تم ترتيب كل شيء.. أسرع..
«المخلص هركيول بوارو»
كان العرض مغريًّا، وقد وجدت نفسي أستجيب بلا معارضة. لم تكن لدى ارتباطات.. وأولادي كان أحدهم في البحرية والآخر متزوجًا ويدير مزرعة ماشية في الأرجنتين، وابنتى (جريس) تزوجت جنديًّا وهي معه في الهند. أما (جوديث) فكانت ابنتي التي أحببتها سرًّا أكثر من إخوتها وإن كنت لم أفهمها قط. كانت طفلة غامضة صموتًا تحب أن تتولى أمرها بنفسها مما ضايقني أحيانًا.
كانت زوجتي أكثر تفهمًا وكانت تقول لي إن هذا لا يعود لقلة ثقتها بي لكنها مرغمة على ذلك. لكنها كانت تقلق على (جوديث) لأن مشاعر الأخيرة كانت عنيفة مركزة، وكان تحفظها الفطرى يجعلها بلا أي صمام أمان. كان عقلها هو الأذكي في أسرتنا، وقد نفذنا لها رغبتها في التعليم الجامعي. نالت البكالوريوس منذ عام ثم حصلت على وظيفة سكرتيرة لطبيب منهمك في البحث العلمي الخاص بطب المناطق الحارة. وكنت أتساءل عما إذا كان إخلاص (جوديث) في عملها لا يعني أنها تحبه، لكن انهماكها الجاد في العمل جعلني أطمئن.
كانت (جوديث) على ما أعتقد مغرمة بي، لكنها لم تكن من الطراز الذي يظهر عواطفه، وكانت تنتقد بحدة ما تطلق عليه أفكاري العتيقة العاطفية. بصراحة كنت أتوتر نوعًا بسبب ابنتي!

هنا قوطعت تأملاتي لدى دخول القطار محطة (ستايلز).. على الأقل لم تتغير هذه.. ما زالت قابعة وسط الحقول بلا سبب ظاهر لوجودها.
إذ اخترقت سيارة الأجرة البلدة أدركت أنها تغيرت كثيرًا.. محطة بترول.. دار سينما.. عدة حانات.. لكن ما إن بلغنا (ستايلز) حتى بدأ الزمن يتراجع.. لم يتغير الممشى ولا البيت ذاته.. وبدا أن البيت بحاجة ماسة للطلاء.
وكما في المرة الأولى رأيت شكل امرأة ينحنى على أحواض الزرع.. فأفلت قلبي ضربة. ثم استقام الشكل ودنا منى فضحكت من نفسي.. فما أشد اختلاف هذه عن (إيفيلين هوارد) النشيطة. كانت هذه امرأة مسنة لها شعر مجعد أبيض وافر وخدان متوردان وعينان زرقاوان باردتان..
سألتني:
- « كابتن (هاستنجز) بالتأكيد.. أليس كذلك؟ إن يدى متسختان فلا أقدر على مصافحتك لكن تسعدني رؤيتك.. ما أكثر ما سمعنا عنك! أنا مسز (لوتريل).. ابتعت أنا وزوجي هذا المكان في نوبة جنون وما زلنا نحاول الانتفاع به.. لم أتصور نفسي صاحبة فندق قط! »
على أنى خلف قشرة المرأة العجوز اللطيفة لمحت صلابة كحجر الصوان. وبرغم أن لكنتها كانت ذات طابع إيرلندى أحيانًا فإنها لم تكن إيرلندية.. كان هذا مجرد تصنع.
سألتها عن صديقي فقالت:
- « آه.. مستر (بوارو) المسكين.. لشد ما ظل ينتظرك.. آسفة أنا بشدة من أجله.. »
كنا نمشي نحو المنزل وهي تنزع قفازيها. وأردفت:

- « وابنتك الحسناء كذلك يا لها من فتاة لطيفة.. كلنا نحترمها بشدة.. لكننى من طراز عتيق كما تعرف، وأرى أنها خطيئة وعار أن تمضى فتاة مثلها وقتها في تشريح الأرانب والانحناء فوق مجهر.. هي التي كان يجب أن تذهب إلى الحفلات وترقص مع الشباب.. »
سألتها:
- « أين (جوديث)؟ هل هي في الخارج؟ »
نظرت لي نظرة طفولية وقالت:
- « الفتاة المسكينة! إنها في ذلك السجن الضيق هناك في نهاية الحديقة.. لقد استأجره د. (فرانكلين) مني.. لديه أكوام من خنازير (غينيا) والفئران والأرانب.. لست متأكدة من أنني أحب كل هذا الجو العلمي يا كابتن (هاستنجز).. هو ذا زوجي! »
كان الكولونيل قد جاء من ركن البيت.. كان رجلًا طويل القامة مسنًّا نحيلًا له وجه ميت.. له عينان زرقاوان وقد اعتاد جذب شاربه الأبيض الصغير. وكانت له طريقة عصبية غامضة:
- « أتيت بقطار الخامسة.. وأربعين دقيقة؟ هه؟ »
قالت مسز (لوتريل):
. « وكيف يسعه أن يأتي بطريقة أخرى؟ وما أهمية هذا على كل حال؟ خذه للطابق العلوى وأره غرفته.. وبعدها ربما يرغب في الذهاب إلى مستر (بوارو).. »
قال مستر (لوتريل):
- « ليكن.. تعال معى.. اعتقد أنهم.. هه؟ نقلوا متاعك؟ »
ومشيت وراءه نحو الباب.. فقابلنا رجلًا رمادي الشعر نحيل البنيان مندفعًا نحونا وفي يديه منظار مقرب.. كان له وجه طفولي وكان يعرج نوعًا.. وقال في شيء من اللعثمة:
. « هناك زوج من الطيور تعشش عند شجر الجميز«..

قال لي الكولونيل:
. « هذا (ستيفن نورتون). رجل لطيف وإن كان مجنونًا بالطيور..
»
وفي البهو ذاته كان رجل ضخم للغاية يقف جوار المنضدة.. وكان من الواضح أنه فرغ من مكالمة هاتفية.. فقد نظر لأعلى وقال:
- « أتمنى أن أشنق كل المقاولين أو أربط كلًا منهم بين حصانين ليمزقاه.. اللعنة عليهم لا ينجزون أي شيء بنجاح.. »
كان غضبه مضحكًا حتى أننا لم نتمالك إلا أن نضحك.. وشعرت بانجذاب إليه من اللحظة الأولى. كان حسن المظهر برغم أنه تجاوز الخمسين.. ويبدو أنه عاش حياته في الهواء الطلق.. سيد إنجليزي من المدرسة القديمة التي صارت نادرة.. مستقيم صريح يعشق حياة الخلاء وبوسعه أن يصدر الأوامر.
ولم أندهش كثيرًا عندما عرفت أن اسمه سير (ويليام بويد كارنجتون).. كان يحكم مقاطعة في الهند حيث أحرز نجاحًا بارزًا.. قال لي:
. « إن صديقك البلجيكي يتكلم عنك كثيرًا.. وابنتك اللطيفة هنا كذلك..»
قلت:
. « لا أعتقد أن ابنتي تتكلم عنى.. إنها تعتقد أن وجود أبوين للمرء مهانة حقيقية! »
ضحك وقال:
- « لا أعاني هذا على كل حال لأنه لا أطفال لي.. ابنتك جميلة لكنها عالية الثقافة بشكل شنيع.. وهذا مقلق »
والتقط الهاتف وقال:

. « أرجو ألا تتضايق يا (لوتريل) إذا ما بدأت فى السباب.. فأنا لست بالرجل الصبور.. »
قال (لوتريل):
- « فلتعن بهم »
واقتادني إلى أعلى نحو جناح البيت الأيسر ففهمت أن (بوارو) اختار لي حجرتي القديمة. كانت هناك تغييرات.. لاحظت أن الحجرات الواسعة العتيقة تم تقسيمها لتصنع عددًا أكبر من الغرف الصغيرة.. لكن غرفتي لم تتغير ما عدا دخول الماء الساخن والبارد.. كان متاعي في الغرفة وقد شرح لي الكولونيل أن (بوارو) في الغرفة المقابلة. كاد يصحبني هناك عندما دوت صيحة عالية تقول (جورج)..
ركضت إلى الغرفة المقابلة وقرعت الباب بينما نبضات قلبي تتسارع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا شيء يحزن النفس في رأيي مثل رؤية الانهيار الذي يجلبه التقدم في العمر. يا لصديقي البائس.. لقد أقعده التهاب المفاصل لذا كان يتحرك في مقعد متحرك.. أما جسده الممتلئ فقد تهاوى.. إنه الآن رجل نحيل له وجه مجعد.. صحيح أن شاربه وشعره ظلا حالكي السواد إلا أنني ما كنت لأجرح شعوره بأن أقول له إن هذا خطأ.. إنها اللحظة الأليمة التي تكون فيها صبغة الشعر واضحة للجميع. لقد بد التأثير مسرحيًّا كأنه وضع جمة وصبغ شفته العليا ليسلى الأطفال. فقط عينيه ظلتا كما هما..

. « آه.. وا صاحبى (هاستنجز)! وا صاحبى (هاستنجز)! »

انحنيت له فاحتضنني بحرارة كعادته.. ثم أرجع رأسه للوراء وراح يتفحصني..

- « نفس الكتفين العريضين والقامة المفرودة.. النساء les femmes.. هل ما زلن يعجبن بك؟ »

- « حقًّا يا بوارو.. يجب أن.. »

. « حينما تأتى لك الفتيات الصغيرات ويتكلمن معك بمنتهى اللطف، فهي النهاية.. إنهن يقلن لأنفسهن: يا للعجوز المسكين! يجب أن نكون لطيفات معه.. هذا شيء مريع.. لكنك يا (هاستنجز) vous étes encore jeune (ما زلت شابًّا).. لكن الفرص ما زالت متاحة أمامك. »

انفجرت في الضحك وسألته عن حاله فقال:

- « أنا؟ أنا حطام.. خراب.. من رحمة الله أنني ما زلت أستطيع إطعام نفسي وإلا لأطعموني كالرضيع.. لكن برغم هذا ما زال الداخل سليمًا.. »

- « نعم بالتأكيد.. أروع قلب في العالم »
- « لا أتحدث عن القلب.. أتحدث عن المخ يا عزيزى.. فهو ما زال يعمل بروعة »
على الأقل كنت واثقًا من أن مخه لم يتغير من جهة التواضع..
قلت له إن المكان يثير لدى ذكريات عزيزة لذا قصدته.. كلما تقدمنا في العمر انتابتنا الرغبة في استرجاع الماضي.. وأعتقد أن لديه ذات الأسباب، فقال لي:
. « لا أهتم بهذه الأمور ذرة.. تكلم عن نفسك.. أما عن وصولي إلى (ستايلز) أول مرة فتجربة أليمة محزنة.. كنت لاجئًا جريحًا هاربًا من وطني أطلب الصدقة في بلد غريب.. ولم أتصور ساعتها أن إنجلترا ستصير وطني وأنني سأجد السعادة فيها.. إن الناس يرددون دومًا: يا لها من أيام! كنت شابًّا وقتها، لكن لو رجعت بذاكرتك لوجدت أنك لم تكن سعيدًا على الإطلاق.. أنت تريد أن تعرف لماذا جئت هنا؟ لقد جئت هنا كي أقبض على قاتل! »
نظرت له في ذهول للحظة وحسبت أنه يخدعنى.
. « هل تعنى هذا حقًّا؟ »
- « بالطبع.. وإلا لماذا تحسبني طلبت مجيئك؟ إن أطرافي واهنة لكن عقلي مازال سليمًا.. لهذا احتجت إلى (هاستنجز) الثمين معى بالنسبة للأجزاء النشطة من هذه الحملة.. أنا وأنت يا (هاستنجز) سنقوم بالصيد ثانية »
احتجت لبعض الوقت كي أتأكد من أنه جاد.. برغم غرابة ما قال لم يكن هناك ما يدعوني للشك.
قال بابتسامة بسيطة:
- « على الأقل أنت مقتنع.. »
. « لكن.. بدا لي هذا مكانًا غير متوقع.. »

- « تعتقد هذا؟ »
. « لم أر كل الناس بعد »
- « من قابلت؟ »
- « فقط آل (لوتريل) ورجلًا يدعى (نورتون).. يبدو شابًا مهذبًا.. و(بويد كارنجتون) الذي يجب أن أقول إننى أعجب به »
هز (بوارو) رأسه وقال:
- « حسن.. سأقول لك هذا.. حتى بعد ما ترى باقى الموجودين سيظل ما قلته لك يبدو مستحيلًا كما هو الآن.. »
. « من أيضًا هنا؟ »
- « آل (فرانكلين).. والممرضة التي تعنى بمسز (فرانكلين).. وابنتك (جوديث).. ثم رجل يدعى (ألرتون).. نوع من فاتني النساء... وامرأة في الخامسة والثلاثين تدعى مس (كول).. »
- « وأحدهم قاتل؟ »
. « اهدأ يا صاحبي وتعال نبدأ من البداية.. ناولني هذا الصندوق من على المكتب.. حسن.. الآن المفتاح.. »
وإذ فتح صندوق الرسائل أخرج منه حزمة من الأوراق وقصاصات الصحف.
- « يمكنك أن تدرس هذه على مهل يا (هاستنجز).. لن أضايقك بقصاصات الصحف لأنها مجرد أخبار عن مآس حدثت.. أقترح أن تكون فكرتك أولًا من الملخص الذي أعددته.. »
بدأت أقرأ والاهتمام يغمرني..

قضية أ. إثرنجتون:

(ليونارد إثرنجتون) شخصية لا تسر.. يتعاطى المخدرات ويدمن الخمر.. شخصية سادية غريبة الأطوار. زوجته جذابة تعسة معه. توفى الرجل بتسمم غذائى كما يبدو. أثبت التشريح أن الموت حدث بفعل الزرنيخ ومصدره مبيد أعشاب تم شراؤه منذ

فترة. تم اعتقال الزوجة ووجهت لها تهمة القتل. التهمة الموجهة لها أساسها عدم وجود مشتبه فيه آخر. كان التعاطف معها شديدًا أثناء المحاكمة بسبب سوء سمعة زوجها.. وقد بدا القاضي متعاطفًا معها.. في النهاية أطلق سراحها. بعد عامين توفيت إثر تناولها جرعة كبيرة من الدواء المنوم.

قضية ب. شاربلس:

عانس عجوز عاجزة تعانى ألمًا شديدًا. ترعاها ابنة أخيها (فريدا كلاى). ماتت الآنسة (شارلبس) إثر جرعة من المورفين. اعترفت ابنة أخيها بالخطأ وقالت إن عذاب عمتها كان لا يطاق مما اضطرها لإعطائها جرعة عالية. قالت الشرطة إن هذا التصرف كان متعمدًا لكن الأدلة كانت غير كافية.

قضية ج. ريجس:

(إدوارد ريجس).. عامل زراعى.. شك في أن زوجته تخونه مع مستأجر يدعى (بن كريج). تم العثور على (كريج) والزوجة مقتولين بالرصاص. الطلقات من سلاح (ريجس). سلم (ريجس) نفسه للشرطة وقال إنه لا يستبعد أن يكون فعلها لكنه لا يذكر.. حكم عليه بالإعدام ثم تم تخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياة.

القضية د. برادلى:

(ديريك برادلي) كان على علاقة بفتاة واكتشفت زوجته هذا، فهددت بقتله.. بعد هذا مات (برادلى) بسيانيد البوتاسيوم الذي وضع في شراب الجعة الخاص به. قبض على الزوجة وحوكمت بتهمة القتل. اعترفت وأدينت وشنقت.

القضية هـ. لتشفيلد:

(ماتيو لتشفيلد) الطاغية العجوز. أربع بنات في الدار لا يسمح لهن بأية متعة أو مال.. ذات ليلة أثناء عودته للدار تلقى ضربة

على رأسه.. سلمت ابنته الكبرى (مارجريت) نفسها للشرطة بتهمة قتل أبيها. قالت إنها فعلت هذا كي تتمكن أخواتها من الحياة قبل فوات الأوان. ترك القتيل ثروة وتم إيداع (مارجريت) مصحة (برودمور) لجنونها لكنها ماتت بعد ذلك.
واصلت القراءة في دهشة وفي النهاية وضعت الأوراق ونظرت إلى بوارو.. فقال:
- « حسن يا صديقى؟ »
- « أذكر قضية (برادلي).. كانت الزوجة رائعة الجمال »
هز (بوارو) رأسه موافقًا فقلت:
- « لكن عليك أن تشرح لي معنى هذا كله.. هذه خمس جرائم قتل حدثت في أماكن مختلفة وطبقات مختلفة.. هل هناك ما يجمع هذه القضايا؟ »
قال (بوارو):
- « في كل من هذه الجرائم لم تكن هناك أية شكوك حقيقية! »
- « لا أعتقد أننى أفهمك »
- « مثلًا مسز (أثرنجتون) أطلق سراحها.. لكن كل الناس كانوا واثقين من أنها قتلت زوجها.. (فريدا كلاى) لم تتهم لكن الجميع كان يثق في أنها فعلتها.. (ريجس) قال إنه لا يذكر قتل زوجته لكن لم يشك أحد في كونه فعل هذا.. ابنة (لتشفيلد) اعترفت.. هكذا ترى يا (هاستنجز) أنه في كل حالة لم يكن هناك أي شك في شخصية الفاعل»
قطبت وقلت:
. « نعم.. لكن لا أرى ما يثير اهتمامك هنا »
قال (بوارو):
. « هناك جزء في القصة لم أصل له بعد.. سأحاول أن أكون دقيقًا جدًّا فيما أقول.. لنفترض أن هناك شخصًا يدعى (س)..

لم يكن هناك دافع واضح لدى (س) للقتل في أية جريمة من هذه.. في إحدى القضايا كان (س) على بعد مائتي ميل لدى وقوع الجريمة.. لكن (س) كان صديقًا حميمًا لـ (إثرنجتون).. (س) عاش في ذات قرية (ريجس).. (س) كان يعرف مسز (برادلي).. لدى صورة لـ (س) مع (فريدا كلاي) في الشارع.. وكان قرب البيت الذي مات فيه (لتشفيلد) العجوز.. ما رأيك؟ »
نظرت له وقلت:
- « هذا أكثر من اللازم.. لا يمكن أن تفسر الصدفة هذا.. »
. « إذن أنت تفترض ما افترضته؟ أن (س) هو القاتل؟ إذن لنمض خطوة للأمام.. إن (س) في البيت معنا! »
. « هنا؟ في (ستايلز)؟ »
. « نعم.. ومعنى هذا أن جريمة قتل ستحدث هنا عما قريب! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-3-

نظرت لـ (بوارو) وصحت:

. « لا.. لن يحدث هذا.. أنت ستمنعه »

نظر لي في حب وقال:

. « يا صديقي المخلص! لشد ما تثق بي.. يؤسفني أن الثقة لا تنطبق على موقفنا هذا.. فكر في الأمر.. يمكن للمرء أن يقبض على قاتل لكن كيف يستطيع أن يمنع جريمة قتل؟ »

. « ربما.. لو عرفت قبل أن.. »

- « ألا تفهم؟ هناك ثلاث طرق في الحقيقة.. أن تنذر الضحية لتحمى نفسها.. هذا لا ينجح كثيرًا لأنه من الصعب إقناع الناس بأن هناك خطرًا على حياتهم من شخص قريب عزيز.. الطريقة الثانية أن تنذر القاتل.. لو مات فلان فلسوف تكون أنت المتهم وتشنق.. لكن القاتل مغرور ويعتقد أنه أذكى مني ومنك وعلى الأرجح سيواصل خطته.. لقد جربت إنذار القاتل مرتين إحداهما في مصر.. وكانت النتيجة أن القاتل ظل مصرًا على القتل.. الطريقة الثالثة تحتاج إلى ذروة العبقرية.. أن تخمن متى وكيف سوف تهوى الضربة وتستعد لإيقافها في اللحظة النفسية المناسبة.. يجب أن تقبض على القاتل قبل أن تتلوث يداه، لكن حينما تتضح نيته.. هذه أصعب الطرق يا صاحبي.. لربما أكون مغرورًا لكن ليس إلى هذا الحد »

- « إذن الطريقة الأولى هي الأسهل »

- « نعم لكنها تحتاج إلى أن تعرف الضحية.. ألا تفهم أنني لا أعرف من ستكون الضحية؟ يجب أن نجد الرابط بين هذه الجرائم.. لكني لا أعرفه.. »

رحت أفكر.. المال؟ الانتقام؟ تذكرت قصة قتل عدد من الضحايا اتضح أن الرابط بينهم أنهم كانوا محلفين والقاتل كان رجلًا أدانوه..

- « ومن هو السيد (س)؟ »

. « هذا لن أقوله يا صديقي.. »

- « ولِمَ لا؟ »

التمعت عيناه، وقال:

. « لأنك يا (هاستنجز) العزيز لم تتغير.. ما زال وجهك يعبر عن أفكارك، وأنا لا أريد أن تجلس أمام مستر (س) وفمك مفتوح ووجهك يقول: أنا أحدق في وجه قاتل »

هنا دق الباب ثم انفتح ودخلت ابنتى (جوديث)..

أحب أن أصف (جوديث) ابنتي لكني لا أجيد الوصف.. هي فارعة القامة ولها حاجبان مستقيمان أسودان وخدان محببان.. جادة قاسية النقد..

لم تأت لتقبلني فهي ليست من هذا الطراز، لكنها ابتسمت وقالت:

. « مرحبًا أبي »

أدركت من ابتسامتها أنها برغم عدم حبها لإظهار عواطفها مسرورة لرؤيتي.

قال (بوارو):

- « إننى أصف لأبيك رداءة الطهى هنا.. »

. « هل هو بهذا السوء؟ »

. « ما كان لك أن تسألي عن شيء كهذا.. يبدو أنك لا تفكرين إلا في أنابيب الاختبار.. إصبعك الأوسط ملوث بأزرق الميثيلين.. لكن زوجك سيتضايق لو لم تفكري في معدته »

. « لن يكون لي زوج »

- « سيكون لكَ.. الزواج قبل كل شيء.. »
ونظر لي وقال:
. « يومًا ما ستفهم مدى حكمة الشيوخ.. »
هنا دق الباب ثانية ودخل د. (فرانكلين).. كان رجلًا فارع الطول بارز العظام في الخامسة والثلاثين، له فك قوى الشكيمة وشعر أحمر.. كان أكثر الرجال الذين قابلتهم في حياتي خرقًا.. لقد اصطدم بمقعد (بوارو) فقال بلا انتباه:
. « أرجو المعذرة »
كدت أضحك لكن (جوديث) ظلت صارمة صامتة. وقالت له:
. « أنت تذكر أبي.. »
نظر لي في عصبية ومد يده ليقول بارتباك:
- « بالطبع.. بالطبع.. كيف حالك؟ سمعت أنك قادم.. »
ثم نظر لها وقال:
. « هل ترين أن نعد المزيد من تلك الشرائح؟ »
. « كلا.. أنا أرغب في الكلام مع أبي »
فجأة ابتسم واحمر وجهه وقال:
. « أنا آسف.. أنا أستغرق في الأمور بقوة.. لهذا أبدو أنانيًا بشدة ولا أستطيع الاعتذار.. »
دقت الساعة فنظر لها مذعورًا:
. « يا إلهى الرحيم! هل الوقت متأخر لهذه الدرجة؟ لقد وعدت (باربرا) بأن أقرأ لها قبل العشاء »
واندفع خارجًا ليصدم الباب أثناء خروجه.
قالت (جوديث):
. « هذا غباء.. لو أرادت تلك المرأة من يقرأ لها فممرضتها قادرة على ذلك.. بصراحة كنت سأكره أي شخص يقرأ لي بصوت عال.. إنها امرأة شديدة الغباء.. »

قال (بوارو):
- « أنا أختلف معك يا صغيرتي »
- « إنها لا تقرأ إلا الكتب الرخيصة ولا تهتم بما يعمله زوجها.. إنها لا تفعل إلا الكلام عن حالتها الصحية مع أي شخص يستمع.. هي امرأة تمارس أنوثتها بشدة.. تهدل كالحمام وتقر كالقطط.. أحسبك تحب النساء اللاتي على شاكلتها أيها العم (هيركيول).. »
قلت أنا:
. « بالعكس.. يحبهن ثريات متبخترات وروسيات.. »
قالت (جوديث) باسمة:
- « أنتما شخصان مسليان فعلًا »
دق (بوارو) جرسًا صغيرًا فدخل خادم له وجه البقرة ليدفع المقعد.. كان هذا هو خادمه (كيرتس) الذي حل محل خادمه القديم (جورج).. لقد طلب هذا الأخير أن يسافر للعناية بأبيه المريض كما أخبرني (بوارو).
هرعت أنا إلى حجرتي لأستحم وأبدل ثيابي قبل العشاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-4-

نزلت للعشاء في المساء شاعرًا بأن الحياة لم تعد واقعية. مرة أو مرتين سألت نفسي عما إذا كان (بوارو) تخيل القصة كلها. إن العجوز العزيز يؤكد أن عقله ما زال يعمل بكفاءة، لكن هل هو كذلك فعلًا؟

لقد قضى حياته كلها يفتش عن الجرائم، فهل يدهشنا أنه قرب النهاية راح يتخيل وجود الجرائم حيث لا وجود لها؟ لقد قرأ مجموعة من الأخبار وتخيل وجود ظل وهمي خلفها.. لقد قتلت مسز (إثرنجتون) زوجها فعلًا.. العامل أطلق الرصاص على زوجته.. فتاة سممت عمتها بالمورفين.. زوجة غيور تخلصت من زوجها.. وعانس مجنونة نفذت الجريمة التي اعترفت بها.. باختصار هذه الجرائم هي بالضبط ما تبدو عليه!!

قبل العشاء تم تقديمي إلى مس (كول) والميجور (ألرتون).. كانت الأولى امرأة فارعة القامة وسيمة التقاطيع في الثالثة والثلاثين.. لكني كرهت الميجور بالسليقة. كان وسيمًا في أوائل الأربعينات عريض الكتفين برونزي الوجه كل ما يقوله ذو معنيين.. وكانت الانتفاخات تحت عينيه تشى بإسراف في الملذات، كما كان من الواضح أنه ناجح مع النساء. وضايقني أن لاحظت أن (جوديث) تميل إلى صحبته. لماذا يكون أسوأ الرجال قادرًا دومًا على إثارة شغف ألطف النساء؟ كان هذا سؤالًا أبديًّا لا أجد له إجابة.. تسعة من عشرة رجال يمكن أن يؤكدوا أن (ألرتون) متعفن.. لكن تسعًا من عشر نساء كن على استعداد للوقوع في حبه..

جلست على مائدة العشاء أنظر في الوجوه.. لو كان (بوارو) على حق فأحد الجالسين هنا قاتل.. وربما مجنون كذلك.. فمن هو؟

طبعًا ليس الكولونيل (لوتريل) بتردده وضعفه.. (نورتون) الرجل الذي كان يحمل منظارًا مقربًا؟ هذا يبدو صعبًا.. يبدو لي رجلًا لطيفًا يفتقر للفعالية.. لكن لا ننكر أن أكثر القتلة رجالٌ لا شأن لهم، وقد قتلوا لهذا السبب بالذات.. إلا أنني كنت أعتبر عشق الرجل للطيور والطبيعة علامة على سلامة شخصيته وصحتها..
(بويد كارنجتون)؟ غير وارد.. فهو رجل رياضي شهير محبوب ذائع الصيت.. وكذا لم أشتبه بـ (فرانكلين)..
إذن ماذا عن (ألرتون)؟ رجل قذر لو بحثت عن واحد.. نوع الرجل الذي يمكن أن يسلخ جدته.. ولو قتل فلن يفعل هذا إلا للربح..
صحيح أن (بوارو) لم يقل قط إن (س) رجل.. فكرت في مس (كول) كاحتمال.. حركاتها قلقة ومن الجلى أنها عصبية.. جميلة لكن كالساحرات الشريرات.. لكنها برغم هذا تبدو طبيعية بما يكفي.. ولم تكن مسز (فرانكلين) موجودة لأنها كانت تتناول الطعام في غرفتها..
بعد العشاء وقفت أنظر خارج النافذة فشعرت بـ (جوديث) تتأبط ذراعي وتخرج بي إلى الشرفة..
قالت لي:
. « أنا مسرورة يا أبي لأنك لم تحاول قط أن تسيطر على حياتنا.. ليس من العدل أن يسيطر الشيوخ على الشباب المتمتعين بالقوة.. نحن نبدو أنانيين لكم.. نحن كذلك.. لكنها أنانية حميدة.. كل ما نطلبه هو أن تتركونا نعيش حياتنا.. »
قلت لها:
- « في الحقيقة كنت أتمنى أن أتدخل في كل تفاصيل حياتك يا صغيرتي، لكن أمك لم تسمح بذلك.. »
قالت:

. « لقد عرفت قصة ما.. عن رجل فظ عجوز.. وحينما جرؤت إنسانة ما على قطع العقدة لتحرر الاشخاص الذين أحبتهم، اتهموها بالجنون.. جنون؟ كان هذا أعقل شيء يمكن أن يفعله إنسان.. وأشجعه! »
شعرت بخوف مفاجئ.. أين منذ وقت ليس بالقصير سمعت كلمات كهذه؟
قلت بحدة:
. « (جوديث).. عن أية قضية تتكلمين؟ »
- « آه.. لا أحد.. بعض أصدقاء آل (فرانكلين).. عجوز يدعى (لتشفيلد).. كان ثريًا لكنه حرم بناته إلى درجة الجوع.. كان مجنونًا لكن ليس بما يكفى بالمعنى الطبي.. »
- « وقتلته ابنته الكبرى؟ »
. « آه.. يبدو أنك قرأت عنها؟ يعتبرون هذه جريمة قتل، لكنها بلا أسباب شخصية.. لقد سلمت (مارجريت) نفسها للشرطة.. كانت شجاعة جدًا »
. « شجاعة القتل أم شجاعة تسليم النفس للشرطة؟ »
. « كلاهما.. »
. « هذا يسعدني جدًا.. وما رأى مستر (فرانكلين)؟ »
. « يرى أن العجوز استحق هذا.. بعض الناس يستحقون أن يقتلوا يا أبي.. »
. « لا أحب أن تتكلمى بهذه الطريقة يا (جوديث).. »
- « ليكن.. دعنا ننه الموضوع هنا.. لدى رسالة من مسز (فرانكلين).. إنها تريد أن تراك في غرفتها.. »
. « هذا يسرني.. يؤسفني أن المرض منعها من المجيء للعشاء »
- « هي بخير.. فقط هي تحب أن تحدث ضجة حول نفسها.. » بالفعل يفتقر الشباب إلي الشفقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-5-

لم ألق مسز (فرانكلين) إلا مرة من قبل.. كانت في الثلاثين من طراز (المادونا) كما يجب أن أصفها.. عينان بنيتان واسعتان وشعر مفروق عند المنتصف وجلدها شفاف هش. كانت راقدة في الفراش مستندة إلى الوسائد.. وكان (فرانكلين) و(بويد كارنجتون) هناك يحتسون القهوة.. مدت لي يدها وقالت:

. « ما أسعدني بقدومك يا كابتن (هاستنجز).. سيكون هذا لطيفًا لـ (جوديث).. لقد أرهقت نفسها في العمل »

وتنهدت وأردفت:

. « أحسدها.. إنها لا تعرف حقًّا ما معنى السقم.. أقدم لك الممرضة (كريفن).. الطيبة معى إلى درجة شنيعة شنيعة.. لا أعرف ما بوسعى عمله من دونها.. تعاملني كطفل رضيع »

كانت الممرضة امرأة حسنة المظهر لها شعر أحمر.. ولها يدان بيضاوان طويلتان تختلفان عن أيدى الممرضات.. وأردفت مسز (فرانكلين):

. « إن (جورج) يعذب ابنتك البائسة بكل ما يكلفها به.. إنه نخاس عبيد.. فعلًا نخاس عبيد.. ألا ترى هذا يا (جورج)؟ »

كان واقفًا في النافذة يصفر ويعبث بالعملات في جيبه فالتفت سائلًا:

- « ماذا؟ »

. « كنت أقول إنك ترهق (جوديث) المسكينة بشكل مخجل.. الآن أبوها هنا ونحن لن نسمح لك بالمزيد »

لم يكن المزاح من صفات د. (فرانكلين) القوية.. لذا نظر لنا في قلق وغمغم:

- « يجب أن تخبريني لو كان هذا صحيحًا »

قالت (جوديث):
. « هم فقط يمزحون.. بالمناسبة كنت أريد سؤالك عن صبغة الشريحة الثانية التي.. »
قال في حماس:
- « نعم.. نعم.. لنذهب إلى المختبر ونر.. »
وسرعان ما غادرا الغرفة.. هنا قالت الممرضة فجأة وبلا رضا:
. « أعتقد أن النخاس هو مس (هاستنجز).. على ما أظن »
تنهدت مسز (فرانكلين) وقالت:
. « أنا اشعر بعدم الكفاءة.. كان على أن أهتم أكثر بعمل زوجي لكني لا أستطيع.. الأمر كله (مقرف).. كل هذه الفئران وخنازير غينيا.. يع! »
دنا منها (بويد) وأمسك بيدها وقال:
- « أنت لم تتغيرى يا (باربرا).. ما زلت أذكر حبك للطيور والحيوانات الجميلة.. »
كان وجهه قد اكتسب طابعًا حانيًا شبه أنثى وقد أدهشني هذا لأنه كان رجلًا مفعمًا بالرجولة.. ونظر لي وقال:
- « (باربرا) وأنا صديقا لعب قديمين.. »
قالت لي مفسرة:
. « أهلي كانوا يعيشون هنا.. وكان (ويليام) يأتى لزيارة عمه في بيته القريب.. وقد علمنى لعب الجولف.. هل أنسى هذا؟ »
قال لها:
- « كان ذلك البيت ضريحًا ومازال...كل ما استطعت عمله إضافة بعض المقاعد.. لكنه بحاجة إلى امرأة تبعث فيه الحياة.. »
. « أنا مستعدة لأن آتي وأعاونك في تنسيقه »
ثم تمنينا لها ليلة هادئة وانصرفنا.. قال لى سير (كارنجتون):

- « لن تتصور أية امرأة لطيفة كانت في السابعة عشرة.. إنني أكبرها سنًّا وكنت قد عدت من (بورما) حيث توفيت زوجتي هناك.. لا تتضايق لو قلت لك إنني همت بها حبًّا.. إلا أنها تزوجت (فرانكلين).. لا تعتقد أنها زيجة سعيدة.. أنا أعرف أن هذا سبب سقمها.. الرجل لا يفهمها على الإطلاق وهي حساسة جدًّا.. »
دهشت لأن ينجذب رجل مثله لها.. فهي مجرد كائن مريض وإن كانت جميلة كأنها ملفوفة في صندوق شيكولاته.. هو رجل مليء بالحياة لا أحسبه يطيق هذا الطراز العصابي من النساء.. لكن لابد أنها كانت فاتنة في شبابها، ومع الرجال المثاليين مثل (بويد) تبقى الانطباعات الأولى للأبد..
اتجهت لـ (بوارو) فوجدته في فراشه.. قلت له:
. « سحقًا لك يا (بوارو) ولعادتك في إبقاء الأوراق في كمك.. ظللت طيلة العشاء أحاول تخمين من هو (س).. »
- « حسن.. ومن فكرت فيه؟ »
- « وهل تخبرني إذا كنت محقًّا؟ »
- « بالطبع لا.. »
- « فكرت في (نورتون) »
لم يتبدل وجهه.. فقلت:
- « لا يوجد شيء يشير إليه.. فقط كان أقل الموجودين جاذبية لي.. ثم هناك (ألرتون).. لا أعرف ما تراه النساء فيه.. »
. « الخطر.. الاحتمالات.. كل إنسان يا صاحبي يحب بعض توابل الخطر في حياته.. البعض يقرأ عنها.. البعض يجدها في السينما.. النساء يجدن الخطر في نموذج النمر.. المخالب المغلقة.. الخيانة.. بينما يتجاهلن الرجل المحترم الذي يصلح زوجًا »

قلت له:
. « إننى متضايق جدًّا من كلامك عن انفلات لساني.. »
قال:
- « ليس هذا هو السبب الوحيد يا (هاستنجز).. ألم تفهم بعد يا عزيزي أن معرفة القاتل قد تكون خطرة؟ ألم تفهم أنني مشغول بسلامتك؟ »
نظرت له مفتوح الفم.. حتى هذه اللحظة لم أفكر في هذه النقطة قط.. لكنها حقيقية.. لو أن قاتلًا واسع الحيلة استطاع أن ينفذ خمس جرائم ويفر، فوجئ بأن هناك من يقفو أثره، فإنه قد يشكل خطرًا.
قلت في حدة:
- « إذن فأنت نفسك في خطر يا (بوارو) »
أتى بحركة ازدراء سمحت بها إعاقته وقال:
- « اعتدت هذا.. يمكنني حماية نفسي.. ثم أليس كلبي الوفى معى هنا ليحميني؟ صديقي المخلص (هاستنجز)؟ »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-6-

تركت (بوارو) وهبطت إلى الطابق الأسفل وقلبي يعتصره الألم.. فعلًا لا أتخيل حياتي من دون (بوارو)..

كانت هناك جولة (بريدج) حاسمة في القاعة وقد دعيت للمشاركة.. جلست مع (نورتون) والكولونيل ومسز (لوتريل). لم يكن الكولونيل لاعبًا سيئًا لكني أدركت أن وجود زوجته يجعله عصبيًّا.. لذا كانت أخطاؤه تتضاعف.. كانت هي لاعبة بارعة لكن اللعب معها لا يسر النفس.. وكانت تتجاهل القواعد إذا كان خصمها لا يلاحظ.. وتصر على التمسك بها إذا كانت في صالحها.. وتختلس النظر إلى الأوراق في يد من يلعب ضدها.. باختصار كانت تلعب للفوز..

وبدأت أفهم ما قصده (بوارو) بأن لسانها حاد كالخل.. لأنها كانت تلوم زوجها علنًا كلما أخطأ، وقد فقدت كل تحكم في نفسها.. وهكذا شعرت بالراحة عندما انتهت الجولة..

نهضت و(نورتون) فوجدته قد أطلق العنان لمشاعره:

. « كان هذا مريعًا يا (هاستنجز).. يضايقني أن أرى الفتى العجوز يهان بهذه الطريقة.. ويا للطريقة الخنوع التي يتلقى بها هذا! لم يبق داخله الكثير من المحارب العجوز في الهند »

طلبت منه الصمت لأن صوته ارتفع حتى خشيت أن يسمعه الكولونيل العجوز.

قلت له:

. « سوف أفهم لو أنه رفع عليها الفأس يومًا ما »

هز (نورتون) رأسه.

. « لن يفعل.. سوف يستمر في هذا الخنوع.. ويظل يجذب شاربه حتى يغيب في التابوت.. »

توقفنا وقد لاحظت أن الباب المؤدي للحديقة مفتوح والهواء يهب منه. فسألت:
- « أليس حريًا بنا أن نغلقه؟ »
. « أ... لا أظن الجميع قد عاد من الخارج.. »
هنا تسلل الشك إلى رأسي فسألت:
. « من بالخارج؟ »
. « ابنتك على ما أعتقد.. و.. أ.. (ألرتون) »
حاول أن يجعل نبرته عادية، لكن المعلومة التي جاءت بعد محادثتي مع (بوارو) جعلتنى عصبيًا. (جوديث) و(ألرتون).. (جوديثي) الرقيقة الذكية.. لن يخدعها رجل كهذا.. سوف ترى أعماقه بلا شك.
هكذا حاولت أن أطمئن نفسي لكني لم أستطع النوم وظللت أتقلب من جانب لآخر.. فهكذا يحدث مع مخاوف الليل.. كل شيء يتضخم.. لو أن زوجتى كانت حية.. كنت أعتمد على نصائحها في تربية الأطفال.. ومن دونها أشعر بالعجز بشكل مثير للشفقة..
في النهاية أضأت النور وجلست.. يجب أن أنام..
أحتاج لشيء يساعدني على النوم، وفكرت في أن (بوارو) عنده شيء كهذا..
عبرت الممر إلى غرفته ووقفت مترددًا.. من المخجل أن أوقظ الصبي العجوز.. هنا سمعت خطوات فنظرت خلفي.. كان (ألرتون) قادمًا من الممر نحوى.. كان الظلام شبه دامس ولم أتبين وجهه إلا عندما دنا مني.. ثم تبينت أنه يبتسم لنفسه ولم أحب هذه الابتسامة على الإطلاق.
نظر لي ورفع حاجبيه. وقال:
. « مرحبًا (هاستنجز).. هل ما زلت متيقظًا؟ »

. « لم أستطع النوم »
. « لدى ما يساعدك... فقط اتبعني »
تبعته لغرفته التي كانت جوار غرفتي.. كنت أرغب في دراسة عالم هذا الرجل أكثر.
قال لي:
. « لست ممن يدخلون الفراش مبكرًا خاصة إذا كنت أمارس الرياضة.. هناك ليال رائعة لا أحب تضييعها! »
وضحك فلم أحب ضحكته على الإطلاق.
أخرج علبة أقراص من الخزانة وناولها لي قائلًا:
- « صنف ممتاز.. ستنام مثل لوح خشب وتحلم أحلامًا طيبة كذلك.. اسمه التجاري (سلامبيريل).. »
نظرت له مفكرًا.. هل يتعاطى المخدرات كذلك؟
- « هل هو خطر؟ »
- « فقط لو زدت الجرعة.. إنه من الباربيتيورات التي تقترب جرعتها السامة من جرعتها العلاجية.. »
كانت حماقة منى لكنى برغمي قلت له:
. « هل تعرف (إثرنجتون)؟ »
هنا أدركت أني قرعت جرسًا ما.. لقد ظهر الحذر في عينيه وتغير صوته وهو يقول:
. « آه.. نعم.. الفتى المسكين.. كان يتعاطى المخدرات لكنه بالغ في ذلك.. زوجته كانت محظوظة فلو لم يتعاطف معها المحلفون لشنقت»
ثم سألني:
- « هل كنت تعرفه؟ »
- « لا.. »
بدا لا يعرف كيف يستمر ثم أنهى الأمر بضحكة خفيفة..

- « شاب لطيف.. ليس بالضبط شخصية مناسبة للتدريس بمدرسة الأحد.. لكنه كان رفيقًا جيدًا أحيانًا »
شكرته على الأقراص وعدت لغرفتي. وإذ رقدت وأطفأت الأنوار تساءلت عما إذا كنت تصرفت بحمق.
خطر لي أن (ألرتون) هو نفسه (س) وقد جعلته يدرك بوضوح ما يدور في رأسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-7-

لا بد أن سردي للأيام التي أمضيتها في (ستايلز) يبدو مضطربًا.. فإنني إذ أتذكرها أتذكرها كسلسلة من المحادثات. من الكلمات الموحية حفرت نفسها في لا وعيى. أولًا أدركت مدى عجز (بوارو) الجسدى.. وعرفت أن دوري يوشك على أن أكون عينى (بوارو) وأذنيه.

بعد وصولي أخذنى (فرانكلين) إلى غرفة صغيرة (ستوديو) في الحديقة تم تجهيزها لأغراض علمية. دعني أعترف هنا والآن أنني لا أتمتع بعقل علمي، لذا لو حاولت الكلام عن تجارب د. (فرانكلين) لأخطأت واستحققت سخرية من يفهمون هذه الأمور.

على قدر علمي كجاهل، فإن تجارب (فرانكلين) كانت على بعض القلويدات المستخلصة من بازلاء (كالابار)venenosum Physostigma.. حاولت (جوديث) أن تشرح لي الأمر مستعملة كلمات مثل الفيزوستيجمين والإيزيرين والجينسيرين. كانت هذه ألغازًا بالنسبة لى وقد أثرت سخريتها عندما سألتها عن نفع هذا كله للبشرية.. لا يوجد سؤال أسخف من هذا لأي عالم..

على كل حال فهمت أن بعض قبائل غرب إفريقيا تملك مناعة ضد مرض غامض قاتل يدعى حسب ما أذكر (جوردانيتيس Jordanitis).. كان هناك من يدعى (جوردان) بحث فيه بحماس.. كان مرضًا نادرًا لكنه يصيب البيض في المناطق الحارة ونتيجته قاتلة.

أفهمتني (جوديث) أن هدف البحث العلمي ليس إفادة البشرية بل توسيع قاعدة معلوماتها. وهكذا رأيت بعض الصور والشرائح ثم فررت إلى الهواء الطلق.

كان د. (فرانكلين) يقول لـ (بوارو):
- « هذه البازلاء غريبة الشأن.. قبائل غرب إفريقيا تؤمن بها.. أو كانت تؤمن بها.. يستعملونها أداة لتفرقة المذنب من البرئ.. إنهم يمضغون هذه الحبوب واثقين من أنها تقتلهم لو كانوا مذنبين ولا تؤثر فيهم لو كانوا أبرياء.. هناك نوعان من هذه الحبوب لا يمكنك أن تلاحظ الفارق بينهما.. النوع الأول به الإيزيرين والفيزوستيجمين.. النوع الثاني يحتويهما أيضًا لكن مع قلويد ثالث يعادل تأثير هذين السمين.. هذا النوع الثاني يأكله الكهنة في طقس سرى.. وهكذا لا يصابون بالجوردانيتيس أبدًا.. هذه المادة الثالثة لها تأثير خارق على العضلات لكنها لا تسبب أي أذى.. هذا مثير جدًّا.. لكن للأسف القلويد غير مستقر.. لهذا أنا أبيع روحي مقابل أن أجرى تجاربي هناك »
قال (بوارو):
. « هذا الاختراع مفيد لي جدًّا.. كانت مهنتي لتكون في غاية السهولة لو كان عندي شيء كبازلاء كالابار أختبر به الصدق والكذب.. »
قال د. (فرانكلين):
- « إن مشكلتك لا تنتهى هنا.. ما هي البراءة والإثم؟ مفهوم هذين يتغير من زمن لآخر.. معنى هذا أنه لا وجود لهما.. ما تستطيع قياسه هو الشعور بالبراءة أو الإثم.. لنفترض أن رجلًا يعتقد أن لديه الحق الإلهى ليقتل دكتاتورًا أو مرابيًا أو قوادًا.. هكذا يرتكب ما يبدو لك أنت عملًا إجراميًا.. لكنه يعتبر هذا عملًا مقدسًا.. ماذا بوسع البازلاء أن تعمل؟ »
قلت له:
- « لكن الشعور بالذنب يتزامن مع القتل.. »

. « هناك الكثير من الناس أتمنى لو قتلتهم ولن يبقيني ضميري ساهرًا الليل بعدها.. فكرتي أن 80% من البشر يجب التخلص منهم.. ولسوف تكون الحياة أفضل بدونهم »
وانصرف وهو يصفر راضيًّا عن نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد تردد قررت أن أنصح (جوديث) بصدد (ألرتون). كنت أعرف أنها فتاة عاقلة لا تنجذب بسهولة لرجل مثل (ألرتون).. لكنى أردت أن يطمئن قلبي. للأسف يبدو أنى تسرعت.. ما من شيء يمقته الشباب قدر نصيحة الأبوين.. وقد قالت لي:
. « ما هذا؟ تحذير أبوى من الذئب الكبير؟ »
. « لا يا (جوديث).. لا.. »
- « أفهم من هذا أنك لا تطيق الميجور »
. « بالفعل.. وأحسبك كذلك.. لا أعتقد أنه طابعك »
. « وما هو طابعي يا أبي؟ »
ارتبكت.. فقالت:
. « الحقيقة أنه رجل مسل.. جذاب جدًّا بالنسبة للنساء وبالطبع لا يراه الرجال كذلك.. بصراحة يا أبي ألا تدرك إنني كبرت بما يكفي كي أتولى حياتي بنفسي؟ إن تدخل الآباء اللامبالي في أمور أولادهم هو ما يضايقني بصدد الأهل.. أنا أحبك كثيرًا لكن حياتي هي حياتي.. »
آلمنى كلامها جدًّا حتى أنني لم أستطع الرد وانصرفت على الفور.
كنت شارد الذهن عندما سمعت صوت ممرضة مسز (فرانكلين) تقول لي:
. « أدفع بنسًا مقابل أفكارك يا كابتن (هاستنجز) »
كانت الممرضة (كريفن) شابة جميلة فعلًا، وكانت طريقتها أقرب إلى التبسط ورفع الكلفة لكنها كانت ذكية لطيفة. ودار

الحديث عن د. (فرانكلين) وزوجته فقالت لي:
. « إن زوجته لا تعرف أي شيء عن عمله.. هو رجل ذكى مسكين..»
. « مسكين؟ »
- « نعم.. الزواج من المرأة الخطأ.. لقد رأيت هذا كثيرًا.. لا يوجد شيء مشترك بين الزوجين.. »
- « لكنه يبدو مهتمًا بها بشدة.. ويرعاها جيدًا.. لكن هل تعتقدين أنها تساومه بمرضها؟ »
ضحكت وقالت:
. « كل ما تريده سيادتها يتحقق.. بعض النسوة كذلك.. ما إن يعارضهن أحد حتى يستلقين على ظهورهن ويمرضن.. أو يصبن بنوبة عصبية »
. « لكنها مريضة فعلًا.. أليس كذلك؟ »
نظرت لي ثم قالت ببرود:
. « نعم.. هي كذلك »
هنا جاء (بويد كارنجتون).. كما هو معتاد شخصية نشطة تزيل أية مخاوف في طريقك.. كان واحدًا من تلك الشخصيات القوية المندفعة التي تشع المرح والتفاهم..
. « صباح الخير يا كابتن.. صباح الخير أيتها الممرضة.. أين مسز (فرانكلين)؟ »
. « صباح الخير يا سير (ويليام).. مسز (فرانكلين) في الحديقة تحت أشجار الزان قرب المختبر »
. « والدكتور في المختبر؟ يا له من رجل! لو كانت عندى سكرتيرة حسناء مثل (جوديث) لظللت أنظر لها بدلًا من النظر إلى خنازير غينيا »

كانت هذه بالضبط نوع الدعابات التي تكرهها (جوديث) لكنها راقت للممرضة.
ثم إن سير (ويليام) دعاني لجولة معه في بيته الريفي المدعو (ناتون) فقبلت على الفور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمتعت بيومى حقًّا.. ليس لأن الجو كان صحوًا فحسب بل لأن الرجل كان صحبة ممتعة.. كانت شخصية الرجل مغناطيسية وكان خبيرًا بالبلدان والناس.. حكي لي عن أيامه في الهند وعن قبائل شرق إفريقيا..
أحببت كذلك طريقته في الكلام عن صاحبي (بوارو).. كان يحترمه فعلًا.. وكان حزينـًا من أجل تدهور صحته لكنه لم يبد علامة شفقة عليه.. والأهم أنه كان متأكدًا من قدراته العقلية..
. « خطأ فادح أن تفترض أن مخ الرجل يتدهور لمجرد أن جسمه زاو.. أنا لا أجرؤ على ارتكاب جريمة في وجوده ليس بسببه فحسب، بل لأنني لا أجيد تخطيط الأمور.. سوف أرتكب الجريمة وحى ساعتها.. سوف أترك آثارًا تدل عليّ في كل مكان.. لحسن الحظ أننى لست من الطراز الذي يرتكب الجرائم.. الشخص الوحيد الذي يمكن أن أقتله هو المبتز.. كنت أرى دومًا أن المبتزين يجب أن يعدموا بالرصاص »
كان البيت يخص عمه.. وكان الرجل ناسكًا يمقت الاختلاط بالبشر.. وقد تربى سير (ويليام) هنا مع أخيه أيام المدرسة.. لم يتزوج العم وأنفق عشر ثروته لا أكثر. لهذا وجد ورثته أنهم أغنياء جدًّا.
راح يحكى لى مأساته الخاصة.. الزوجة الشابة الجميلة المليئة بالحيوية، لكن تاريخ أسرتها ملوث.. كل أفراد أسرتها تقريبًا ماتوا من إدمان الخمر.. وسرعان ما أصابتها تلك اللعنة.. وسرعان ما

ماتت بعد الزواج بعام واحد ميتة مدمني الكحول. لم يلمها لأنه افترض أن الوراثة لعبت دورًا معها.. وبعد موتها قرر ألا يتزوج ثانية.. أو كما قال:

« المرء يشعر بأمان أكثر عندما يكون وحيدًا.. » .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-8-

مرت الأيام.. كان وقتًا مزعجًا مع ذلك الشعور بأنك تنتظر شيئًا ما. لم يحدث شيء على الإطلاق. كانت هناك محادثات عابرة، فلو تمكنا من جمع هذه الملحوظات لاستطعنا أن نعرف شيئًا.. فقط (بوارو) هو الذي استرعي انتباهى لشيء كنت أعمى عنه.

كنت أشكو لـ (بوارو) إخفاءه بعض الحقائق عنى.. لم يكن هذا عدلاً لأنني اعتدت أن أعرف قدر ما يعرف.. لوح بذراعه في نفاد صبر وقال:

- « معك حق يا صاحبي.. هذا ليس عدلًا.. ليست هذه طريقة للعب.. لكن لتقبل هذا.. إنها ليست لعبة.. أنت تضيع الوقت كله تخمن شخصية (س) وما من أجل هذا طلبتك هنا.. لا تتعب نفسك بهذا لأني أعرف الإجابة.. لكن سؤالي وما أريد معرفته هو من الضحية التالية؟ ليس الأمر متعلقًا بلعبة تخمين بل بإنقاذ حياة بشرية »

نظرت له مبهوتًا.

- « حقًّا.. أعرف هذا لكني لم أدركه »

. « إذن أدركه الآن.. قل لي إذن.. من الذي سيموت؟ »

نظرت له في غباء وقلت:

. « لا أملك أية فكرة »

- « إذن لماذا أنت هنا؟ »

عدت أفكر في الأمر وقلت:

- « حتما هناك علاقة بين (س) والضحية.. فلو قلت لي من هو (س).. »

. « ألم تفهم بعد أن هذا جزء من تقنية (س)؟ يجب أن تتوارى أية علاقة له بالقتيل.. لن نجد أية علاقة. أؤكد لك هذا »
- « وماذا يؤكد لك أن القتيل سيكون من القاطنين بهذا البيت؟ »
قال في نفاد صبر:
. « رباه.. لو أن كل المراسلين الحربيين توافدوا على بقعة ما في أوروبا.. فما معنى هذا؟ معناه الحرب! لو رأيت نسرًا يحوم فهناك جثة.. لو رأيت الأطباء يتوافدون على بلدة ما فهناك مؤتمر طبى »
فكرت في كلامه. ثم قلت:
- « ليكن.. لكن مراسلاً حربيًا واحدًا لا يعني الحرب! »
- « بالطبع.. لكن جريمة قتل واحدة تعنى جريمة قتل.. »
هذا لا ينُكر.. لكن حتى القتل له إجازات.. ربما كان (س) في ستايلز لمجرد أن يستجم قليلًا..
قال لي (بوارو):
- « المشكلة أن عقلك كسول.. هلم.. أنت لست بالغباء الذي تتظاهر به.. لو لاحظت الحالات التي ذكرتها لك لوجدت أنه في كل مرة كان هناك متهم جاهز.. هناك دافع للجريمة.. هناك من يمكن تفسير الجريمة باتهامه »
هنا فهمت مدى حمقى.. على أن أجد شخصًا تنطبق عليه هذه الشروط..
قال لي:
- « En fin الآن اذهب وتجسس.. لديك أذنان سليمتان لديك ركبتان يمكن أن تنثنيا لتنظر من ثقوب الأبواب »
. « أنا لن أنظر من ثقوب الأبواب »

- « ليكن.. إذن لتظل كنموذج للجنتلمان الإنجليزي ولسوف يقتل أحدهم. شرفك الإنجليزي أهم من الحياة البشرية.. أنا أفهم.. اطلب لي (كيرتيس) الخادم.. لا داعي لاستعمال خلايا مخك الرمادية لأنه من الواضح أنه لا وجود لها.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت جالسًا شاردًا في الحديقة عندما دنت منى مس (كول) وجلست جوارى.. سألتني عن أفكاري فقلت لها إننى كنت أتأمل د. (فرانكلين).. لقد بدا لي الرجل تعسًا.. في الواقع كل الموجودين هنا تعساء بشكل أو بآخر.. كلنا جئنا إلى (ستايلز) بشعور رمادية وقلوب رمادية..

رحنا نثرثر عن الموجودين.. وفجأة قالت لي:

- « أنا ملوثة.. هل تعرف هذا؟ »

نظرت لها في حيرة.. لماذا استعملت هذا التعبير بالذات؟

قالت:

. « أنت لا تعرف اسمى.. »

- « بل أعرفه.. »

. « (كول) ليس اسمى الحقيقي.. كان هذا اسم أمي.. إن اسمي الحقيقي هو (لتشفيلد)! »

للحظة لم أستوعب هذا.. بدا لى الاسم مألوفًا بشكل غامض.. ثم تذكرت:

- « (ماتيو لتشفيلد).. »

هزت رأسها وقالت:

. « أرى أنك تعرف الموضوع.. كان أبي طاغية ومريضًا.. منعنا من أية حياة طبيعية.. لم يعطنا مليمًا.. كنا سجينات.. ثم.. شقيقتى.. .. شقيقتى.. .. »

. « أرجوك لا تستمرى.. أعرف القصة كلها.. إنها مؤلمة لك »

. « لكنك لا تعرف.. ليس بوسعك أن تعرف.. (ماجي).. هذا لا يصدق.. أعرف أنها سلمت نفسها للشرطة وأنها اعترفت.. لكني لا أصدق هذا! لم يحدث هذا كما قالت.. ما كانت لتفعل هذا.. ليست (ماجي).. »

وارتجفت الكلمات على شفتي.. لكني لم أقلها.. لم يأت الوقت الذي أستطيع فيه أن أقول:

- « أنت محقة.. (ماجي) لم تفعلها.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنا جالسين في الشرفة حينما قال (نورتون) إنه يشعر بالظمأ..
قال الكولونيل (لوتريل) في حماس:
- « هل لكم في كوب من الشراب يا شباب؟ على حساب المحل »
شكرناه وقبلنا فدخل إلى البيت.. وكان جزء الشرفة الذي جلسنا فيه خارج نافذة غرفة الطعام التي كانت مفتوحة.. سمعنا الكولونيل بالداخل.. فتح الخزانة وصوت فتاحة الزجاجات.. ثم جاء صوت مسز (لوتريل) الحاد العالي:
. « ماذا تفعل يا (جورج)؟! »
انخفض صوته إلى غمغمة.. فقط سمعنا كلمة هنا أو هناك.. ثم جاء صوتها الناقم:
- « لن تفعل شيئًا من هذا.. كيف تتصور أن نكسب من هذا المكان إذا دعوت كل شخص للشراب؟ كل المشروبات هنا يجب دفع ثمنها.. من دوني سوف تفلس غدًا.. يجب أن أعنى بك كطفل.. ليس لديك عقل على الإطلاق.. هلم ناولني هذه الزجاجة! »
من جديد سمعنا غمغمة احتجاج. فعاد صوتها:
. « لا أبالي بشيء.. هذه الزجاجة عائدة للخزانة ولسوف أغلق الخزانة بالمفتاح »
. « أنت تتمادين يا (ديزي).. لن أقبل هذا.. »
- « لن تقبل؟ ومن أنت؟ أحب أن أعرف.. من الذي يدير هذا البيت؟»
بعد دقائق خرج لنا الكولونيل.. بدا كأنه شاخ بضعة أعوام في هذه الدقائق. لم يكن بيننا من لم يشعر بأسى له.. ولم يكن

بيننا الآن من لا يرغب في قتل مسز (لوتريل). ليس من حق إنسان أن يهين إنسانًا آخر..
. « آسف يا شباب.. يبدو أن الشراب قد نفد »
كنا نشعر بعدم الراحة.. وقد قال (نورتون) على الفور إن الشراب لن يكون مفيدًا قبل العشاء، ثم اندمج في مواضيع لا رابط بينها.. أما (كارنجتون) فراح يحكى قصة ممتعة من أيام الحرب.. قصة عن جندى أخطأ وأطلق الرصاص على أخيه.. كان بحق رجلًا بارعًا ممتع الحديث.. فيما عدا أنه ينسى أحيانًا ويحكى قصصًا قيلت له على أنها حدثت له.. حتى لو كان قائل القصة يجلس جواره! لكنه بعد قليل غادرنا ليقوم بعمل ما..
فجأة توتر (لوتريل).. راح يحدق بعينه في الأفق بين الأشجار.. ثم مد يده يتحسس بندقيته وغمغم:
. « أرنب يأكل السياج.. لحظة.. إنه في موضع مناسب.. »
وصوب البندقية وهو جالس وضغط الزناد.. في هذه اللحظة سمعنا دوى الطلقة ثم صرخة امرأة.. ورأيت الكولونيل يلقى البندقية وقد شحب وجهه.. وقال في ذعر:
- « (ديزى)!! »
كنت في هذه اللحظة في منتصف الطريق إلى مصدر الصرخة ومن خلفى (نورتون).. هناك كانت مسز (لوتريل).. كانت راكعة لأنها كانت تعنى بواحدة من أشجار الفاكهة الصغيرة، وكان العشب عاليًا حتى بدا لي معقولًا كون الكولونيل لم يرها ولكنه تبين الحركة فقط.. كذلك كان الضوء مخادعًا.. لقد نفذت الطلقة إلى كتفها وكانت تنزف.
نظرت إلى (نورتون) فرأيته يستند إلى شجرة وقد اخضر لونه كأنما موشك على القيء.. قال معتذرًا:
. « لا أتحمل الدم.. »

فقلت له بحدة:
. « إذن أسرع لتحضر د. (فرانكلين) أو الممرضة »
جاءت الممرضة أولًا فراحت بطريقة عملية تحاول وقف الدم، ثم جاء الطبيب فأدخلا مسز (لوتريل) فراشها.. وضمدا الجرح.. سألته:
. « كيف هي؟ »
- « بخير.. لقد تفادت الرصاصة أي عضو حيوى.. لكن أين الفتى العجوز؟ أعتقد أنه في أسوأ حال.. لا بد أنه يحتاج إلى العناية أكثر منها »
وجدنا الكولونيل في غرفة الجلوس وقد اكتسى وجهه باللون الأزرق وبدا تائهًا تمامًا..
سألنا:
- « (ديزى).. كيف هي؟ »
. « بخير يا كولونيل.. »
- « لا أعرف كيف ارتكبت هذا الخطأ.. حسبت أرنبًا يأكل السياج.. هل لي أن أراها؟ »
. « ليس الآن.. إن الممرضة معها.. »
خرجت إلى الشرفة فوجدت (جوديث) و(ألرتون) عائدين من الخارج يضحكان وكانت تستند برأسها على كتفه.. وعرفت من (جوديث) أنهما التقيا لتوهما خارج البيت.. فهي لم تكن معه منذ البداية.. لكني برغم هذا شعرت بغضب شديد خاصة بعد الحادث...والذي ضايقني أكثر أن (ألرتون) بعدما أخبرته بالقصة أخذ الموضوع كنكتة طريفة..
. « هذا ما تستحقه العجوز المشاكسة.. أحسب الفتى العجوز فعلها عامدًا »
. « لا تعتمد على هذا.. »

وانصرفت مغضبًا لكني شعرت ببعض الشك في نفسي.. وصعدت إلى حجرة (بوارو) فقرعت بابه..
كان قد سمع من الخادم ما حدث.. لكنه كان مشتاقًا للتفاصيل..
هنا دق الباب من جديد.. كانت هذه هي الممرضة تخبرني أن مسز (لوتريل) استعادت وعيها وهي تريد أن تطمئن على زوجها.. لكن الممرضة لا تعرف أين هو.. هكذا طلبت الإذن من (بوارو) واتجهت إلى حيث كان الكولونيل يقف شاحبًا كما تركناه..
أخذته من ذراعه إلى غرفة زوجته.. كان يلهث بشكل واضح فأدركت أن الصدمة كانت عنيفة كما توقع الدكتور.. دققت الباب ثم دخلنا..
كانت السيدة تبدو مريضة بحق.. شاحبة هشة مغمضة العينين.. وقد فتحتهما حين رأتنا وقالت بصوت مبحوح:
- « (جورج).. »
تحركت ذراعها الحرة نحوه.. خطا للأمام وأمسك بيدها الهشة...رأيت الدمع في عينيه مع الكثير من الندم.. هنا شعرت بالخجل من كل أفكارنا الشنيعة السابقة.. كان هذا حادثًا بكل تأكيد.. وقد غادرت الغرفة شاعرًا بالكثير من الراحة..
سمعت صوت جرس العشاء.. لقد نسينا مرور الوقت.. فقط الطاهي ظل مستمرًا في جدوله الزمني الثابت..
لم يحضر الكولونيل العشاء، لكن الغريب أن مسز (فرانكلين) كانت في الطابق السفلي جذابة في ثوب مسائي وردى، وبدت في صحة طيبة.. وإن بدا زوجها متعكر المزاج شاردًا..
بعد العشاء صعدت إلى غرفة (بوارو) من جديد..
كان الكولونيل هناك جالسًا في الضوء الخافت الذي بعثه مصباح كهربى صغير. وبدا لي أنه يكلم نفسه أكثر مما يكلم

(بوارو). كان يحكي عن حبه القديم لـ (ديزي) تلك التي تنمرت مع مرور الأعوام.

فلما غادر الغرفة، حكيت لـ (بوارو) كل شيء كعادتي.. ولاحظت في دهشة تلك النظرة الغريبة في عينيه.. بدا لي كأنما هو نوع من التحفظ لا أفهم سببه.. كأنما ينتظر أن أرى بنفسي.. أرى أي شيء بالضبط؟

ثم خطرت لي في فراشي فكرة عجيبة.. لو أن مسز (لوتريل) ماتت لصارت هذه حادثة كباقي الحوادث الأخرى.. سوف يعتقد الجميع أنها كانت مقصودة لكن لن يستطيع أحد إثبات ذلك.. سوف يعتبر الموضوع حادثًا بشكل رسمي.

لكن هذا يعنى كذلك.. يعني.. يعني أن الكولونيل لم يصب مسز (لوتريل) وإنما أصابها (س).. ومعنى هذا.. إنه أمر غير معقول لكنه محتمل.. أو هو غير محتمل لكنه ممكن.. .. معناه أن القاتل انتظر حتى يطلق الكولونيل بندقيته ثم أطلق في اللحظة ذاتها ليبدو الأمر كأنها طلقة واحدة.. وعندها لن نسمع صوت طلقته إلا كصدى..

أعتقد أن هذا ما كان (بوارو) ينتظر مني أن أستنتجه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-10-

كنت و(بوارو) جالسين في الشرفة وقد تركتنا مسز (فرانكلين) منذ لحظات.. كانت تتكلم عن زوجها وكيف يغرق نفسه في العمل من أجل تلك البازلاء.. قالت إنها تتمنى لو ماتت كي لا تعطله عن عمله.. إنها مريضة وتعرف أنها عقبة في حياته لأنها تعتبر المرض شيئًا مهينًا..

قلت لـ (بوارو) بعد انصرافها:

. « هذه المرأة اعتادت أن تمثل أدوارًا درامية طيلة الوقت.. في يوم هي الزوجة المهمَلة بفتح الميم التي لم يفهمها أحد.. ثم في يوم هي المرأة المضحية بنفسها التي تمقت أن تكون حملًا على من تحب.. اليوم تلعب دور الزوجة التي تقف خلف زوجها البطل.. المشكلة هي أن كل أدوارها مبالغ فيها نوعًا.. ثم إنني اعتدت أن هؤلاء الذين يتكلمون عن (إنهاء كل شيء) بصوت البطلة المحتضرة لا ينتوون عمل أي شيء »

سألني (بوارو):

- « هل تعتقد أنها حمقاء؟ »

- «على الأقل ليست خارقة الذكاء.. »

. « هي فقط ليست طرازك »

. « وما هو طرازى؟ »

قال فجأة:

- « أغمض عينيك وفمك وانظر ما تأتى به الجنيات لك »

في هذه اللحظ رأيت الممرضة تركض نحو المكان الذي كانت فيه السيدة لتلتقط قفاز مسز (فرانكلين) وتقول لنا:

- « لابد لها من أن تنسى شيئًا ما.. »

الحقيقة أن مسز (فرانكلين) كانت من الطراز المهمل الذي لابد أن ينسى شيئًا في كل مكان تواجد فيه، تاركة للآخرين أن يعيدوه لها.. ويبدو أنها كانت تفخر بذلك لأنها كانت تقول: « إن لي عقلًا كالغربال.. »

رحت أراقب الممرضة وهي تبتعد بجسمها الرشيق المتوازن وقلت في ضيق:

. « لابد أنها سئمت هذا العمل.. فهي لا تعنى بمريض حقيقى.. »

هنا قال (بوارو) وهو يغمض عينيه:

- « شعر أسمر محمر »

نظرت له في غير فهم.. فعلًا كان للممرضة شعر أسمر محمر.. لكني لم أفهم لماذا اختار هذا التعليق في هذا الوقت بالذات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-11-

سألني (بوارو) عصر ذلك اليوم:

- « هل هناك ما يضايقك mon ami؟ »

هززت رأسي لأني شعرت بأنه ليس من حقى أن أضايق (بوارو) بهذه المشكلة الشخصية.. القصة هي أنني قابلت (نورتون) أمس فسألني بلباقة عن علاقة (جوديث) بـ (ألرتون).. أدركت أنه يحذرني من أن تنشأ علاقة ما بينها وذلك المخادع.. لقد كانت هناك في حياة (ألرتون) قصة مشينة.. قصة عن فتاة واثقة من نفسها.. مستقلة استعمل (ألرتون) تقنياته معها ثم تخلى عنها. وتنتهى القصة بالفتاة تنتحر بجرعة زائدة من (الفيرونال).. والمفزع أن الفتاة كانت شبيهة جدًّا بـ (جوديث).. النوع المثقف المستقل.. الفتيات اللاتي عندما يفقدن قلبهن يفقدنه بيأس قلما تعرفه الفتيات الخفيفات التافهات..

لم يكن من جدوى من مصارحة (بوارو) فلسوف تتلقى (جوديث) نصائحه كما تتلقى نصائح الكبار المزعجة..

كانت أيامي التالية في (ستايلز) صعبة.. يجب أن ألقى ببعض اللوم على القصر ذاته، لأن شبحًا ما يخيم عليه.. ليس فقط من الماضي بل الحاضر كذلك.. شبح القتل يجثم فوقه طيلة الوقت..

خير من فكرت فيه كان (ألرتون).. ومن الواضح أن (جوديث) تحبه هو بالذات!

زاد همومي أن (كارنجتون) انفرد بي بعد الغداء وقال:

. « أعرف أن هذا يبدو تدخلًا.. لكن أقترح أن تقول كلمة أو كلمتين لابنتك عن هذا المدعو (ألرتون).. إن سمعته سيئة جدًّا.. ويبدو لي أنها تميل إليه »

لكم يبدو الأمر سهلًا لهؤلاء القوم الذين لا أطفال لهم.. أنصحها! لو كانت زوجتي هنا لعرفت ما يجب أن يقال وما يجب عمله..
راق لي أن أتجاهل الأمر ثم أدركت أن هذا جبن.. كيف أخشى ابنتي الصغيرة فارعة الطول؟
اتجهت إلى بيت الورود في الحديقة.. وهناك أدركت أن القرار خرج من يدى لأن (جوديث) كانت هناك وحدها.. لم أر قط تعبيرًا يدل على التعاسة على وجهها كالذي رأيته الآن.. لقد زال قناع الثقة فلم يبق إلا الضعف واضحًا..
لم تشعر بي إلى أن صرت بجوارها.. .. فقلت:
- « بالله عليك يا (جوديث) لا تتضايقي كثيرًا »
استدارت لي وقالت:
- « أبي؟ لم أسمعك قادمًا.. »
أدركت أنه من الخطر الجسيم أن تعود بي للمحادثات العادية اليومية، فقلت:
. « يا صغيرتي لا تتوقعي أنني أعمى البصر.. هو لا يستحق هذا صدقيني.. »
نظرت لي في برود وقالت:
. « هل حقًّا تعتقد أنك تعرف ما تتكلم عنه؟ »
. « أعرف.. أنت تحبين هذا الرجل لكن هذا سيئ جدًّا.. ما جدوى هذه العلاقة؟ إنه رجل متزوج.. ولن يبقى من هذه العلاقة إلا الفشل وكراهية النفس »
ابتسمت وقالت:
. « ما أبلغ ما تقول! ألا ترى هذا؟ إنه يستحق كل شيء في العالم بالنسبة لي »
. « أرجوك ألا تقولي هذا.. »

قالت في تنمر:
- « هذه حياتي.. حياتي الخاصة.. وإننى لأطالبك بألا تتدخل فيها.. »
ونهضت وبحزم دفعتنى جانبًا لتمر.. كأنها جنية منتقمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظللت جالسًا هناك تائهًا معدوم الحيلة لمدة ربع ساعة.. كنت هناك حينما جاءت (إليزابث كول) و(نورتون) ووجداني.. فيما بعد أدركت أنهما كانا كريمين معي.. لقد أدركا أنني لست في حالتي الطبيعية لكنهما تجنبا الإشارة لذلك بكياسة.. وكانا يحبان الطبيعة لذا أخذاني معهما وأرتني (إليزابث) أزهارًا برية بينما راح هو يشرح لي أنواع الطيور..
كنت أعرف أن الرجال الذين يراقبون الطيور يرون كذلك الكثير من الأشياء.. وأدركت أن (نورتون) رأى شيئًا ما.. شيئًا يتعلق بـ (جوديث) و(ألرتون) وهو يحرص على ألا أعرفه..
حاولت الكلام مع (جوديث) أكثر من مرة.. حكيت لها تاريخ (ألرتون) المشين لكنها كانت تقول دائمًا:
. « أنا لم أتوقع أنه ملاك قط.. اسمع يا أبي.. هذه حياتي ولسوف أفعل ما أريد بها ولن تستطيع أن تمنعنى.. »
كانت مفتونة.. وكنت أنا في أتعس حالاتي على الإطلاق..
هكذا بدأ تصميمي ينمو..
كل ما أحتاج إليه هو الشجاعة.. الشجاعة والعقل..
بعد العشاء رأيت (جوديث) تتجه لركن الحديقة، ثم اتجه (ألرتون) في الاتجاه ذاته.. هكذا أنهيت ما كنت أقوله واتجهت إلى هناك.
شعر (نورتون) بنيتى فجذب ذراعي وقال:
. « اسمع.. ليس هذا بوسعك.. »
. « أستطيع وسأفعل! »
- « لا يا صاحبي.. أما وقد بلغ الأمر هذا فلا يوجد ما تعمله.. أعرف أنك توشك على الجنون لكن عليك أن تقبل الهزيمة.. »

لم أعارضه لكني كنت أعرف ما هو أفضل.. ودنوت من الركن الذي تواريا خلفه هنا سمعت صوت (ألرتون) يقول:
. « لقد استقررنا على هذه النقطة يا فتاتي العزيزة.. سوف تقصدين المدينة الليلة وأنا سأقول إنني ذاهب إلى (أبسويش) للبقاء مع صديق.. سوف تبرقين من لندن قائلة إنك لن تقدرى على العودة.. من سيخمن أنك تتناولين ذلك العشاء الساحر في شقتي؟ لن تندمى»
جذب (نورتون) كمي لنبتعد فاستدرت.. وضحكت لدى رؤية وجهه القلق.. تظاهرت بأنني استسلمت.. لكني في الحقيقة كنت قد اتخذت قراري.. قلت له:
. « لا تقلق.. لقد انتهى الأمر وفهمت أنني لا أستطيع السيطرة على حياة أبنائي »
بدت عليه الراحة.. ولم ينتابه أي شك بصدد ما أنتويه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من حسن حظي أننى عملت مع (بوارو) كل هذه الأعوام.. هكذا كنت أعرف بالضبط ما يجب عمله.. لن يقابل (ألرتون) (جوديث) في لندن غدًا.. لن يذهب (ألرتون) لأى مكان غدًا.. الأمر بسيط إلى درجة السخف..
ذهبت لحجرتي وأخذت زجاجة الأسبيرين.. ثم اتجهت لغرفة (ألرتون) إلى الحمام.. كانت أقراص (السلامبيريل) في الخزانة.. ثمانية سوف تقوم بالخدعة.. إن قرصين هما الجرعة المقررة.. هو نفسه قال إن الجرعة السامة ليست عالية.. وابتسمت لنفسي..
لففت منديلًا ورقيًا على يدى وفتحت الزجاجة.. ثم أفرغت الأقراص.. إن لها ذات حجم الأسبيرين. ووضعت ثمانية أقراص

أسبيرين في الزجاجة ثم ملأتها بالسلومبيريل حتى بدت كما كانت من قبل..
عدت لغرفتي وأعددت بعض الشراب.. لن يرفض (ألرتون) أن يشرب كأسًا.. جربت أن أذيب الأقراص في الشراب فذابت.. صحيح أن لها طعمًا مرًا بسيطًا، لكنى أعددت خطتي على أساس أن أبدأ بصب كأس لي عندما يدخل (ألرتون).. من ثم أناوله الكأس الذي في يدي وأصب لنفسي واحدًا آخر..
الآن على أن أنتظر.. سوف أحتاج لساعة أو ساعتين قبل أن يعود لأنه يتأخر كثيرًا.
هنا دق الباب فأجفلت.. كان هذا خادم (بوارو) يخبرني أن الأخير يسأل عنى.. (بوارو)! لقد نسيته تمامًا!
هكذا اتجهت لغرفته.. فصاح لدى رؤيتي:
- « Eh bien.. إذن تخليت عنى.. »
اعتذرت له في خجل وقلت إن تغير الطقس هو السبب.. كان مصرًا على علاجي وأرغمني على شرب كوب كامل من الشيكولاته الساخنة الدسمة المحلاة بالسكر..
. « هذا يساعد الأعصاب كما تعلم! »
شربت كى لا أفرط في الجدل ثم عدت إلى غرفتي وأبقيت الباب مواربًا.. سوف أشعر بقدوم الرجل بالتأكيد.. رحت أزجى الوقت بالكتابة وأنا أفكر في زوجتي:
. « أنا مضطر لهذا يا حبيبتي.. يجب أن أنقذها.. »
لقد تركت (جوديث) في حمايتي..
وهكذا جلست أنتظر.. .. ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 13 -

ثمة مشكلة في كتابة ذروة نقيضة Anticlimax، خاصة عندما تكون مهينة للمرء. الحقيقة هي أنني جلست هناك أنتظر (ألرتون) فغلبني النعاس!

هذا ليس غريبًا لأن نومي البارحة كان سيئًا.. وقد أرهقني القلق والجهد العصبي.. أيًا كان السبب فقد نمت وحينما صحوت كانت الطيور تغرد وكنت أنا هناك منكمشًا على نفسي، ومذاق كريه في فمي..

شعرت بالحيرة والاشمئزاز والقلق.. ثم شعرت بالراحة.. من الذي كتب: « عش للغد تجد أن أسود أيامك قد انتهى.. »؟؟ وما أصدق هذا! الآن أدرك كم كنت مخطئًا.. ميلودرامية خالية من التعقل.. لقد انتويت قتل إنسان آخر..

وجدت كأس الشراب أمامي فنهضت وسكبته من النافذة.. كنت أعرف أن (بوارو) يصحو مبكرًا لذا اتجهت إليه وأخبرته بكل شيء.. يجب أن أعترف أن هذا أراحني كثيرًا..

قال لي:

. « ولماذا لم تأت لي البارحة وتخبرني بهذا؟ »

قلت في خجل:

. « حتى لا تحاول منعي »

- « بالطبع كنت سأمنعك.. هل تراني أرغب في رؤيتك مشنوقًا من أجل وغد مثل ميجور (ألرتون)؟ »

. « ما كان ليقبض على.. لقد مسحت كل البصمات عن الزجاجة »

. « هذا ما يعتقده كل القتلة.. على الأقل كانت عندك عقليتهم. لكن دعني أخبرك يا صديقي أن خطتك لم تكن بهذا الإحكام..

لقد مسحت بصماتك وبصماته معًا.. كانوا سيفحصون زجاجة الدواء بحثًا عن البصمات.. لو كان الميجور ابتلع الأقراص انتحارًا أو على سبيل الخطأ فلماذا مسح بصماته هو نفسه عن الزجاجة؟ من ثم يحللون الزجاجة ويجدون أقراص الأسبرين.. هنا يعرفون أن هناك من تشاجر مع ابنته بسبب علاقتها بـ (ألرتون).. سوف يشهد (نورتون) و(كارلنجتون) بذلك.. هنا تكون أنت قد وصلت ذروة تحملك العصبي.. وربما الشعور بتأنيب الضمير كذلك.. ويظهر مفتش شرطة عنيد صلب.. دعك من أن يكون أحدهم رآك من الشرفة أو من ثقب الباب وأنت تستبدل الأقراص »

قلت:

- « على كل حال لم يحدث شيء.. لا تنكر أن جو هذا البيت موبوء.. إنه يوحي بالقتل.. »

- « فيروس قتل؟ ربما.. هذه نظرية مثيرة.. »

- « والآن قل لي ما يجب عمله بصدد (جوديث) و(ألرتون).. »

. « لا تعمل شيئًا صدقني.. هذه هي الطريقة المثلى لتقليل الأضرار.. لا تتصور أنك بارع بما يكفي.. لست قوى الشخصية بما يكفي كي تفرض شخصيتك على هذين.. إن (ألرتون) قد اعتاد الكلام مع الآباء الغاضبين العاجزين.. وربما يستمتع بهذا كنكتة لطيفة.. (جوديث) لا يمكن تهديدها.. لكن يمكن أن تثق بها.. لو كنت مكانك لوثقت بها.. أنا معجب بها »

نظرت له في عدم فهم وقلت:

. « أنا معجب بها كذلك لكني أخاف عليها »

. « أنا كذلك أخاف عليها.. لكن ليس لذات الأسباب.. إن الوقت يمضى والخطر قادم »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أعرف مثل (بوارو) أن الخطر قريب.. لكنى شعرت براحة وأنا أسترجع كلماته « لو كنت مكانك لوثقت بها.. ».. وفي هذا اليوم أدركت أن (جوديث) تراجعت عن عزمها الذهاب إلى لندن.. في الواقع أنا لم أسمعها قط توافق على هذا الاقتراح.. الآن أتذكر هذا..
كانت مسز (فرانكلين) في هذا الصباح تواصل محاولاتها المعتادة لجعل نفسها لا تطاق.. طلبت زجاجات من الماء الساخن وراحت تعلن أنها تعاني آلامًا حول القلب.. آلامًا في أعصابها.. نظرت للجميع حولي فوجدت أنه لا يوجد واحد مهتم بالأمر..
وقد سألها زوجها عما إذا كانت ترغب في أن يفحصها طبيب المقاطعة فرفضت هذا، من ثم مزج لها بعض المسكنات وعاد إلى مختبره..
قالت لي الممرضة (فرانكلين):
- « هو يعرف بالطبع أنه لا مشكلة »
سألتها:
- « هل تعتقدين أنه لا مشكلة فعلًا؟ »
- « حرارتها ونبضها طبيعيان.. نفس المشاكل التي تحب أن تثيرها حول نفسها لا أكثر.. تحب أن ترى الجميع مشغولين من أجلها.. ترى زوجها منهمكًا وأنا أجرى وراءها.. »
كانت مسز (فرانكلين) من طراز النساء اللاتي يكرههن الخدم والممرضات بالفطرة.. لأنهن سيئات المعاملة. أما مستر (كارنجتون) فكان قلقًا يبدو كالطفل الذي وبخته أمه.. والسبب أن السيدة ذهبت معه أمس لانتقاء بعض الستائر والمفروشات لبيته.. وهو يخشى أن يكون قد أرهقها..
لكم استعدت تفاصيل هذا اليوم فيما بعد أكثر من مرة.. لكم بحثت عن حادث منسى.. هل كان الجميع طبيعيين أم بدت

على بعضهم معالم التوتر؟
سأحاول أن أذكر لك ما يجب ذكره عن كل شخصية.
بالنسبة لـ (كارنجتون) كان يشعر بالذنب لأنه يشعر بأنه سبب إرهاق مسز (فرانكلين)، لذا نزل إلى البلدة وابتاع لها بعض الشيكولاته، وهذه عادت كما هي لأنها لا تطيق الشيكولاته.. هكذا جلس معي و(نورتون) في غرفة الجلوس، ورحنا نأكل منها.
(نورتون) كان شارد الذهن ولعدة مرات تقاطع حاجباه كأنما يفكر. كان مغرمًا بالشيكولاته وقد أكل منها الكثير. وفي الخارج بدأ المطر ينهمر، فشعرنا براحة.
(بوارو) لحق بنا عند الظهيرة، وقد راحت (إليزابث كول) تلعب له البيانو. في الواحدة ظهرًا عاد (فرانكلين) و(جوديث) من الحديقة مرهقين. قلت على ما أذكر شيئًا عن المطر الذي سيكسر كآبة الجو.
قال لي:
. « نعم.. لابد من لحظة ما تنكسر فيها الأشياء.. »
وأدركت أنه لا يتكلم عن الجو.. وبطريقته الخرقاء ضرب صندوق الشيكولاته فأوقعها على الأرض.. نظر إلى الصندوق وقال له كأنما يعتذر:
- « أنا آسف »
وفي ظروف أخرى كان هذا ليكون مضحكًا.. سأله (نورتون) إن كان نهاره متعبًا فقال:
. « لا.. لا.. فقط اكتشفت أن طريقتي خطأ. هناك طريقة مختصرة سهلة لإنهاء الأمور.. »
وراح يهتز ويردد:
- « طريقة سهلة لإنهاء الأمور »
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

برغم أننا كنا عصبيين في الصباح فقد كان العصر مبهجًا بشكل غير متوقع.. ولحقت بنا مسز (لوتريل).. كانت في أفضل حال وقد بدت مشرقة بعيدة عن مواضيع الخل تلك.. كانت تنتقد زوجها لكن بطريقة لطيفة.. وقد سرني أن أراهما سعيدين هكذا. لقد بدا الكولونيل أصغر وكان يشد شاربه بدرجة اقل..
لاحظت كذلك أن علاقة روحية ما ولدت بين (نورتون) ومس (كول).. إنه لم يتزوج قط وهي ما زالت امرأة جميلة بوسعها أن تسعد أي رجل.. تذكرت هنا أنهما قضيا أغلب الوقت معًا يبحثان عن الأزهار النادرة ويراقبان الطيور..
بالفعل هي تبدو أكثر سعادة ورضا عما كانته وهي تحكى لي عن طفولتها التعسة. وفجأة عاودني الشعور بالخطر والتوتر من المكان.. لا.. ليس المكان آمنًا.. جو (ستايلز) ذاته خطر.. الآن يعاودني هذا الشعور وأشعر معه بالتعب والشيخوخة.
جاءت (جوديث) مهمومة الوجه وقالت إن مسز (فرانكلين) تشعر بتحسن وتريد منا أن نصعد لغرفتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مسز (فرانكلين) فعلًا كائنًا شديد التقلب.. لقد جعلت حياتنا لا تطاق طيلة اليوم، والآن صارت العذوبة نفسها. كنا كلنا حولها باستثناء (بوارو) الذي اعتاد أن يستريح قبل العشاء و(ألرتون) الذي كان في (إبسويتش) والكولونيل وزوجته اللذين بقيا في الطابق السفلي.. وجلست السيدة تعد لنا القهوة بنفسها.. فوضعت قدحًا بجانبها ثم وضعت قدح زوجها على المكتب. وناولت كلًّا منا قدحه.
كانت رائحة القهوة عطرة تعبق الجو.. وجلست أحاول حل الكلمات المتقاطعة في الجريدة على حين وقفت (جوديث) في الشرفة ترقب السماء..

فجأة صاحت:

.« ثمة نجم يهوى! »

هنا هرع الجميع للخارج ليتمنوا أمنية.. لماذا ألحق بهم؟ ليس لدى ما أتمناه.. فقط كنت أتذكر.. أتذكر ليلة استوائية صافية.. نقيق الضفادع.. نجم هاو واستدرت لأرى (سيندرز) ورائي فحملتها بين ذراعى كى ترى النجوم وتتمنى أمنية.. وشعرت أن عيني تترقرقران بالدمع وبأن الكلمات المتقاطعة تهتز.. لذا نهضت إلى المكتب بحثًا عن مجلد لأعمال شكسبير كي لا يرى أحد دموعى..

شكرنا السيدة على القهوة وغادرنا غرفتها.. في الطابق السفلى رأيت (نورتون) يصفر في سعادة فقلت له:

- « تبدو راضيًّا عن نفسك الليلة »

قال:

- « فعلًا.. »

- « لقد فعلت شيئًا لم أفعله وطالما تمنيته »

وحينما ذهبت إلى غرفة (بوارو) وجدته جالسًا مع (جوديث).. نظر لي وابتسم وقال:

- « لقد صممت (جوديث) على أن تسامحك.. »

بدا لي هذا غريبًا لكنها اتجهت نحوى وطوقتني بذراعيها وقبلتني.. وقالت:

« آسفة يا أبي.. أنا التي يجب ان تطلب السماح.. لقد عرفت الآن ما يجب أن أفعله »

وغادرت الغرفة.. هنا سألني (بوارو):

- « ماذا حدث هذا اليوم؟ »

قلت:

.« لم يحدث أي شيء طيلة اليوم ولا الليل أيضًا »

كانت ملحوظة غير حكيمة. لأنه في الليلة ذاتها مرضت السيدة (فرانكلين) جدًّا واستدعوا لها طبيبين.. وبعد يوم آخر لفظت أنفاسها الأخيرة.

واحتجنا إلى يوم آخر كي نعرف أن موتها تم بوساطة عقار (الفيزوستيجمين)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 14 -

بدأ التحقيق بعد يومين، وهي المرة الثانية في حياتي التي أحضر فيها تحقيقًا في هذا الموضع من العالم.
كان الطبيب الشرعي رجلًا في منتصف العمر ذا كفاءة.. له نظرة متنمرة وأسلوب جاف في الكلام. ظهر أن الموت جاء نتيجة التسمم بعقار (الفيزوستيجمين) وبعض قلويدات بازلاء (كالابار).
لا بد أن السم تم تناوله في وقت ما في الليلة السابقة بين السابعة مساء ومنتصف الليل. لقد كان الشاهد الثاني هو د. (فرانكلين) الذي أوضح أنه فحص المحاليل في مختبره فوجد زجاجة تحتوى قلويدات بازلاء (كالابار) وقد امتلأت بالماء.. ليس بوسعه تحديد متى حدث هذا..
قال الرجل إن المختبر كان مغلقًا دائمًا والمفتاح في جيبه.. مساعدته مس (هاستنجز) معها نسخة أخرى..
وليس بوسع أحد أن يدخل ما لم يأخذ المفتاح منه أو منها، قال إنه لم يجلب معه قط أي محلول إلى البيت، وإنه من المستحيل أن تكون تعاطته بطريق الخطأ.
قال إن زوجته لم تشك قط من مرض عضوى، لكنها كانت تعاني اكتئابًا وتقلبًا مزاجيًا. إلا أنها كانت في حال طيبة ليلة الحادث. وقال إن زوجته لم تكن من الطراز الذي ينتحر. هذا رأيه الشخصي والطبي.
بعد هذا تم استجواب الممرضة. وقالت نفس الأشياء تقريبًا.
- « متى رأيت مسز (فرانكلين) آخر مرة؟ »
. « في العاشرة والنصف.. أعددت لها الفراش وشربت بعض اللبن الدافئ ثم طلبت أسبيرين »

- « وكيف كانت وقتها؟ »
فكرت للحظة ثم قالت:
- « كالمعتاد.. لا.. أعتقد أنها كانت في حالة من الحماس.. يمكن أن يجعلها التفكير في الانتحار تبدو هكذا.. ربما كانت تشعر كم هي نبيلة بطلة.. إنها كانت تعتبر نفسها عقبة أمام زوجها.. »
- « وهل تعتبرينها شخصًا يمكن أن ينتحر؟ »
فكرت من جديد ثم قالت:
. « نعم ولا.. في الواقع كانت غير متزنة على الإطلاق.. »
أما شهادة (بوارو) فقد اثارت الاهتمام حقًّا، لأنه قال إن السيدة (فرانكلين) كانت مكتئبة في أيامها الأخيرة، وكانت تتحدث طيلة الوقت عن حاجتها (إلى إنهاء الأمور بيدها)..
سأله المحقق:
- « تعتقد أنها تناولت هذا العقار عمدًا »
- « نعم.. »
. « هل رأيتها ذات مرة تغادر المختبر؟ »
. « نعم.. »
. « هل كان هناك شيء في يدها؟ »
. « نعم.. كانت تمسك بقارورة صغيرة في يدها.. »
. « وهل أظهرت أي ارتباك لدى رؤيتك؟ »
- « نعم.. بهتت لرؤيتي وهذا كل شيء »
بعد شهادة (بوارو) . وهو رجل لكلماته ثقل كبير- اقتنع المحقق بأن الفقيدة كانت تعاني نوبات من الاكتئاب وكانت تؤمن بأنها مريضة وأنها عقبة في طريق زوجها.. كونها أخذت القارورة من المختبر لدليل على نيتها تدمير نفسها.. صحيح أن القارورة التي أخذت السم فيها لم تظهر قط، لكن من الممكن أن السيدة

أخذتها من خزانة الحمام ثم أعادتها هناك بعد غسلها، هكذا تم اتخاذ القرار بأن السيدة بخعت نفسها إثر مرورها بحالة عقلية غير مستقرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد نصف ساعة كنت في غرفة (بوارو).. كان شديد الإرهاق وقد وضعه الخادم في الفراش.. فما أن انصرف الأخير حتى انفجرت:

- « هل كان هذا صحيحًا يا (بوارو)؟ إنك رأيت مسز (فرانكلين) تغادر المختبر وقارورة في يدها؟ »

شاعت على شفتيه بسمة خفيفة وقال:

. « ألم تلحظ هذا؟ »

. « نعم.. لا يمكن أن أقسم على شيء كهذا.. وليس بوسعي أن أثبت العكس.. والسؤال هنا هو: هل تتكلم الحق؟ »

. « إذن تفترض أنني أكذب يا صديقي؟ أين ذهب إيمانك الأسطوري بي؟ »

قلت في تردد:

- « حسن.. لا أعتقد أنك يمكن أن ترتكب الحنث بالقسم.. »

قال ببساطة:

- « ليس حنثًا.. فأنا لم أؤد اليمين للمحكمة.. »

- « إذن هي كذبة »

لوح بيده وقال:

- « ما قد قيل قيل يا صاحبي.. فلا داعي للتكرار »

- « لكني لا أصدق.. ولا أفهم.. أنت تعرف أنها كانت تتكلم عن إنهاء حياتها لكن هذا كان واحدًا من أمزجتها المتقلبة.. أنت لم توضح هذا للمحقق »

- « ربما لم أرد هذا.. »

- « أردت أن يعتبروا القضية انتحارا؟ »
- « بالطبع أردت هذا.. »
. « وأنت لا ترى أنها انتحار؟ »
- « نعم يا (هاستنجز).. أعتقد أنها قتلت.. »
- « إذن لماذا تجعلهم يغلقون القضية؟ »
. « هذا ما أريده بالضبط.. خذ كلمتى أن هذه جريمة قتل عمد.. هكذا أغلقت القضية لكنى أنا وأنت سنجرى تحرياتنا تحت الأرض كالخلدان.. وسريعًا ما نلقى القبض على السيد (س) »
- « وماذا لو قتل واحد آخر في هذه الأثناء؟ »
هز رأسه وقال:
. « لا أعتقد هذا.. ما لم يكن أحدهم قد رأى شيئًا أو عرف شيئًا »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-15-

تختلط الأمور عليّ بصدد الأحداث التي وقعت في الأيام التي تلت التحقيق. كانت هناك طبعًا الجنازة التي حضرها الكثير من الفضوليين.. وبعدها فوجئت بالخادم (كيرتس) يقول لى إنه يعتقد أن (بوارو) مصاب بما يشبه نوبة قلبية..

جريت إلى حيث كان (بوارو) الذي أنكر هذا الاحتمال بشدة.. وقد اندهشت لهذا.. كان كما عرفته شديد القلق على صحته.. يلف ملفحة حول عنقه ويتجنب تيارات الهواء، ولا يحب أن تبتل قدماه. « حتى لا أصاب بـ fluxion de poitrine (التهاب رئوى) » كما اعتاد أن يقول.. أما الآن وهو مريض فعلًا فهو يرفض استشارة طبيب.. ولعل هذا هو السبب فعلًا.. إنه خائف من الاعتراف بخطورة حالته..

. « الآلة mon ami قد استهلكت نفسها.. لقد طلبت رأى أطباء كثيرين فلا منفعة من رأى آخر.. وليس بوسع المرء أن يركب محركًا جديدًا مثل السيارات »

شعرت بغصة أليمة في قلبي.. فابتسم وقال:

. « هذه قضيتي الأخيرة يا (هاستنجز).. لكنها أفضلها كذلك لأن تقنية (س) هذا عالية فعلًا.. إنه جدير بالاحترام لأنه استطاع حتى اللحظة أن يهزمنى أنا (هيركيول بوارو).. »

قلت له:

- « فقط لو كانت صحتك أفضل.. »

كانت هذه هي العبارة الخطأ لأنه انفجر غاضبًا:

- « للمرة الألف أقول لك إن الأمر لا يحتاج لقوة جسدية.. كل ما على هو أن أفكر.. عقلى يعمل بذات الكفاءة »

إلا أنني إذ عدت لغرفتي كنت أفكر في أن عقله لم يعد بذات السرعة.. لقد كادت مسز (لوتريل) تموت وماتت مسز (فرانكلين) فعلًا.. وماذا نفعله نحن؟ لا شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الغريب أن (بوارو) في اليوم التالي وافق على أن يراه طبيب.. واقترح د. (فرانكلين)! بدا لي هذا غريبًا.. صحيح أنه طبيب لكني أعتقد أنه أقرب إلى البحث العلمي.. ثم إنني كنت أشعر بأنه ليس أفضل من يهتم بالمعاناة البشرية.. ربما كان هذا مفيدًا للبحث العلمي لكنه لا يناسب المرضى.

وافق د. (فرانكلين) على أن يفحص (بوارو) لكنه أنذرنا منذ البداية بأنه قد يحتاج لمشورة ممارس عام.. هكذا انتظرت حتى فرغ من فحصه واقتدته إلى غرفة جانبية وأغلقت الباب وسألته بلهفة:

- « إذن؟ »

قال مفكرًا:

- « إنه رجل متميز فعلًا »

. « هذا لا شك فيه لكني أتكلم عن صحته.. »

- « صحته؟ »

وبدا مندهشًا.. كأن الأمر لم يخطر له ببال.. ثم قال:

- « صحته؟ صحته (معفنة) طبعًا! »

لم تكن هذه طريقة احترافية على الإطلاق للتعبير عن رأيه.. وبرغم هذا كانت (جوديث) تؤكد أنه طبيب مرموق.. قال لي:

. « هل تريد أن تعرف حقًا؟ إن أكثر الناس لا يريدون أن يعرفوا.. يريدون أن تصف لهم شرابًا وبعض الطمأنينة.. وكثيرًا ما يشفون لكن ليس في حالة (بوارو).. »

شعرت بتلك اليد تعتصر قلبي بينما أردف:

. « نعم.. إن صديقك في طريقه للموت.. وبسرعة جدًّا.. وما كنت لأخبرك لولا أنه طلب ذلك.. »
- « إذن هو يعرف »
- « يعرف تمامًا.. لكنه فقط يتمنى أن تتأخر النهاية بعض الوقت حتى ينهى أمرًا يريد الفراغ منه.. هل تعرف ما هو؟ »
. « نعم.. »
ونظرت له متسائلًا إن كان يعرف ما نحن بصدده..
. « هل يوجد ما يمكن عمله؟ »
. « لا شيء.. هناك معه أمبولات من الأميل نيترات لو شعر بأن النوبة قادمة.. إنه يحمل الكثير من الاحترام للحياة البشرية.. أليس كذلك؟ »
بدت لي الملحوظة غريبة لكنها صحيحة. فهززت رأسي موافقًا.. أضاف د. (فرانكلين):
- « في هذا أختلف معه.. فأنا لا أحمل هذا الاحترام! »
نظرت له مندهشًا فابتسم وقال:
. « هذا حق.. ما دام الموت قادمًا لا محالة فما الفارق بين أن يأتي عاجلًا أم آجلًا؟ »
. « إذن لماذا بحق السماء صرت طبيبًا؟ »
. « يا عزيزي.. (الدكترة) لا تتعلق فقط بتفادي النهاية.. بل تتعلق بتحسين الحياة.. موت فدم[2] ليس خسارة بل هو شيء طيب.. لكن لو تمكنت من تنشيط غدة معينة مثل الدرقية تحيل الفدم إلى شخص سليم فهذا مهم جدًّا »
احترمت صراحة الرجل، وإن لم أتخل عن قناعتي بأنه ليس د. (فرانكلين) من سأستدعيه عندما أصاب بالإنفلونزا. قال لي في ثقة وقد بدا مفعمًا بالثقة والرجولة:

- « لقد اتصلت بي الوزارة.. هل تعرف؟ ما زالت تلك الوظيفة شاغرة.. في إفريقيا.. سوف أسافر فورًا لاستكمال أبحاثي! »
صحت في عدم تصديق:
- « بهذه السرعة؟ »
. « ما الذي تجده سريعًا؟ تقصد بعد عشرة أيام من وفاتها..؟.. لماذا أدعى شيئًا؟ لماذا لا أعترف بأن موتها حررني من قيودي؟ كنت أهيم بها حبًّا عندما قابلتها لأنها كانت فتاة بارعة الجمال.. وخلال عام كنت قد فقدت حبي لها.. لابد أننى خيبت أملها فأنا مخلوق أناني فظ.. كانت تتوقع منى حبًّا أكثر.. أما الآن فقد تحسن حظى.. »
صدمنى هذا.. أعرف طبعًا أن كثيرًا من الرجال الذين ماتت زوجاتهم ليسوا محطمى القلوب.. لكن اعترافه هذا كان وقحًا..
سألته:
. « ألا تؤثر فيك فكرة أنها انتحرت؟ »
. « لا أعتقد أنها انتحرت.. لكن لو أردت رأيي فالموضوع لا يهمني على الإطلاق.. هل تفهم؟ »
لم أفهم.. ولم أحب ما قال على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-16-

يجب أن أوضح أنني لم أتصور لحظة أن (بوارو) قد يفشل في مواجهته مع (س).. لقد اعتدت نجاحه.. لكن (بوارو) ذاته هو الذي بذر الشك في نفسي هذه المرة..

كنت قد اتجهت لغرفته قبل العشاء، ولا أعرف كيف جاء الموضوع، لكني أذكر عبارته: « لو أن شيئًا حدث لي.. »

هكذا احتججت بصوت عال.. لن يحدث شيء.. لا يمكن أن يحدث شيء..

قال:

. « إذن أنت لم تصغ جيدًا لما قال د. (فرانكلين).. لكننا لا نعرف يقينـًا.. حتى إذا مت حالًا فلن يكون هذا سريعًا بما يناسب مستر (س).. »

لم أفهم فقلت:

- « هه؟ »

. « إن مستر (س) شديد الذكاء.. وقد يقرر أن يتخلص منى حتى إذا كان يتوقع أن هذا لن يقدم نهايتي إلا بضعة أيام.. »

قلت في حيرة:

. « ولكن.. »

. « عندما يسقط الكولونيل يا صاحبي تتولى القيادة أعلى رتبة من بعده »

. « وكيف؟ إنني في الظلام تمامًا »

. « لقد رتبت هذا.. »

ودق بيده على حقيبة بجواره وقال:

- « سوف تجد كل الأدلة التي تريدها هنا.. »

. « لا تتظاهر بالبراعة.. لم لا تقول لي ما يجب أن أعرفه؟ »

. « لا يا صديقي.. إن حقيقة أنك لا تعرف ما أعرفه تساعدني كثيرًا.. ثم إنني لم أكتب لك معلومات واضحة حتى لا تقع في يد (س) وإنما تركت ملاحظات لن يستخلص منها شيئًا.. »
. « أنا لا أفهم سبب التفاف أفكارك بهذا الشكل يا (بوارو).. تحب أن تجعل كل شيء عسيرًا »
قال بلهجة أخشاها:
. « سوف تعرف الحقيقة وعندها لن يسرك هذا.. ولسوف تقول: إجذبوا الستار من فضلكم.. »
كان في لهجته شيء مقلق.. نذير بشيء سوف يحدث لا محالة.. شيء لا أحب معرفته، ولكن برغم هذا أنا أعرفه جيدًا في أعماقي..
تخلصت من هذا الشعور واتجهت إلى العشاء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 17-

كان العشاء ذا جو بهيج نوعًا.. لقد انضمت لنا مسز (لوتريل) ثانية وقد حاولت جهدها أن تصطنع اللهجة الإيرلندية.. كان (فرانكلين) مرحًا وللمرة الأولى أرى الممرضة في ثياب عادية، فبدت لي جذابة جدًّا وقد تخلت عن تحفظها المهني.. وبعد العشاء اقترحت مسز (لوتريل) لعب البريدج.

في التاسعة والنصف أعلن (نورتون) أنه سيصعد ليرى (بوارو) الذي استدعاه لسبب لا أعرفه.. فقررت أن أصعد معه.. وبعد قليل نزلت.. اتجه (كارنجتون) للنافذة وفتحها فدوى صوت الرعد.. هناك عاصفة قادمة وإن كانت لم تبلغنا بعد..

صعدت لفراشي في الحادية عشرة والربع.. ولم أذهب لـ (بوارو) لأنه نام على الأرجح. ثم إنني أردت إبعاد (ستايلز) عن ذهني.. أردت أن أنام وأنام..

كنت على وشك الغياب عن الوعي عندما أوقظني صوت ما.. ظننت أنها طرقة على الباب.. فناديت:

- « أدخل »

لكن لم يرد أحد.. أضأت النور ونهضت.. ألقيت نظرة على الردهة فرأيت (نورتون) قادمًا من الحمام نحو حجرته.. ثم سمعته يدير المفتاح في الباب..

لماذا أغلق الباب؟ هل هذه عادته؟ هل طلب منه (بوارو) هذا؟ وتذكرت كيف أن مفتاح باب غرفة (بوارو) اختفى منذ أيام..

رقدت في الفراش شاعرًا بالتوتر الذي زادت منه العاصفة.. في النهاية نهضت وأغلقت باب غرفتي.. ثم عدت للفراش ونمت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل الإفطار اتجهت لغرفة (بوارو).. كان راقدًا في الفراش وأثار ذعرى مدى السقم الذي بدا عليه. سألته:
- « كيف حالك أيها الصبى العجوز؟ »
ابتسم في إرهاق وقال:
. « ما زلت موجودًا يا صاحبى.. ما زلت موجودًا »
. « وماذا عن ليلة أمس؟ هل قال لك (نورتون) شيئًا مهمًّا؟ »
نظر لي طويلًا مفكرًا ثم أجاب:
- « لست متأكدًا يا (هاستنجز) إن كان يجب أن أخبرك.. ربما تسيء فهمي.. لقد رأى الرجل اثنين معًا وهو يراقب الطيور »
قلت بسرعة:
- « (جوديث) و(ألرتون).. »
. « لا.. ليس (جوديث) و(ألرتون).. ألم أقل لك إنك ستسيء فهمي؟ أنت رجل أحادى الفكر »
- « آسف.. إذن قل لي.. »
. « سوف أخبرك غدًا.. هناك الكثير مما يجب أن أفكر فيه »
- « هل هو مفيد؟ »
. « لقد انتهت القضية يا صاحبي.. فعلًا انتهت.. لكن هناك بعض الأجزاء يجب تجميعها.. اذهب للإفطار وأرسل لي (كيرتس) الخادم.. »
فعلت كما طلب ورحت أبحث عن (نورتون).. كنت أموت فضولًا لمعرفة ما قاله لـ (بوارو).. لكنى كذلك كنت غير سعيد.. إن افتقار كلمات (بوارو) للرضا أقلقني..
لم يصر على السرية؟ لم هو حزين لهذا الحد؟
لم يكن (نورتون) على مائدة الإفطار؛ لذا خرجت إلى الحديقة.. كان الهواء عليلًا بعد العاصفة.. ولاحظت أن المطر كان عنيفًا أمس.. كان (كارنجتون) في الحديقة فشعرت برغبة ملحة لأن

أصارحه بأسراري.. إن (بوارو) كما هو واضح أضعف من أن يتولى القضية بينما هذا الرجل موح بالثقة والدفء والقوة..
تثاءب وقال:
- « أين (نورتون)؟ »
. « لا أحسبه صحا من النوم بعد.. هذا الشيطان الكسول.. »
. « هل تحسبهم قد نسوا أن ينادوه؟ »
. « لنصعد ونر.. »
ودخلنا.. كانت الخادمة وهي فتاة يبدو عليها الغباء تقف في الممر. قالت لنا إن مستر (نورتون) لم يرد عندما دقت بابه كان بابه موصدًا وشعرت بتوجس كريه..
دققت الباب بعنف مناديًّا:
- « (نورتون). (نورتون).. استيقظ! »
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
حينما أدركنا أنه لن يرد أحد، بحثنا عن الكولونيل.. أصغى لنا والقلق في عينيه الرماديتين وراح يجذب شاربه.. لكن زوجته التي اعتادت اتخاذ القرارات الحاسمة قالت:
- « يجب أن نفتح هذا الباب بأية طريقة »
وللمرة الثانية في حياتي شهدت بابًا يتحطم في (ستايلز).. وخلف الباب كان ما وجدته في المرة الأولى: عنف أفضى إلى الموت..
كان (نورتون) في الفراش بثياب النوم.. وفي يده كان مسدس صغير.. مجرد لعبة.. لكنها قادرة على القيام بعملها. وكان ثمة ثقب في منتصف جبهته. وللحظة بدا لي هذا مألوفًا.. يذكرني بشيء قديم جدًّا.. لكني كنت أكثر تعبًا من أن أتذكر..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
ما إن وصلت إلى غرفة (بوارو) ورأى وجهي حتى تساءل:
. « ماذا حدث؟ »

. « (نورتون) مات! »
وحكيت له القصة ثم قلت في إنهاك:
. « يقولون إنه انتحار.. ماذا يمكنهم قوله؟ الباب كان موصدًا من الداخل والنوافذ مغلقة.. والمفتاح كان في جيبه.. دعك من أنني رأيته أمس يدخل حجرته ويغلق الباب »
. « هل أنت متأكد من أنه هو؟ »
. « كان المكان مظلمًا لكني تبينت منامته المضحكة وشعره المميز السخيف »
. « لكنك لم تكن تفتش عن منامة بل عن إنسان يا صاحبى.. دعك من أن أي إنسان يستطيع أن يجعل شعره مثله.. »
نظرت له في دهشة:
- « هل تقترح أنه لم يكن (نورتون)؟ »
. « لم أقترح أي شيء يا صاحبي.. فقط تضايقت من تفسيرك غير العلمي.. لكن لا أظن هذا ممكنًا لأن كل الرجال هنا فارعو الطول.. لا يمكنك أن تزيف الطول.. »
. « لكنك لا تصدق أنه أطلق الرصاص على نفسه؟ »
. « لا.. أنا متأكد من أنه قتل.. »
ونزلت في الدرج حائرًا مشتتًا.. (نورتون) قتل.. والغرض هو جعله لا يتكلم.. لكنه أخبر شخصًا آخر بما يعرفه.. لهذا فالآخر في خطر كذلك.. وهو كذلك بلا حيلة عاجز..
كان على أن أتنبأ بهذا..
لقد قال لي(بوارو): «Cher ami! » وأنا أغادر الغرفة..
كانت هذه آخر كلمات أسمعها منه..
لأنه حينما عاد (كورتيس) لسيده.. كان سيده قد مات..
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-18-

لقد مات (بوارو) ومعه مات جزء مهم من (آرثر هاستنجز).. سأعطيك الحقائق العارية بلا بهرج.
يقولون إنه مات لأسباب طبيعية. أي أنه مات بنوبة قلبية. ولسبب ما يبدو أن أمبولات الأميل نتريت لم تكن جوار فراشه.. هل كان هذا سهوًا؟ أم هناك من أخفاها عمدا؟
أرفض أن أصدق أنه مات بشكل طبيعي.. لقد قتل و(نورتون) قتل ومسز (فرانكلين) قتلت.. التحقيق في مصرع (نورتون) اعتبر انتحارًا برغم أن الطبيب قال إنه من الغريب أن يطلق إنسان الرصاص على منتصف جبهته هذا هو الشك الوحيد، فيما عدا هذا كان (نورتون) يعاني صداعًا مزمنًا.. وكان قد خسر بعض المال في الاستثمار مؤخرًا..
لقد فاز (س) في مبارزته مع (بوارو).. وهكذا اتجهت لغرفة (بوارو) وأخذت الحقيبة التي تركها لي وعدت إلى غرفتي.. هنا أصابتني صدمة.. إن ملفات قضية (س) قد اختفت. فإما أن (بوارو) تخلص من هذه الأوراق (وهذا مستبعد) وإما ان (س) فعلها.
كانت في الحقيبة أشياء أخرى.. نسخة من مسرحية شكسبير (عطيل).. الطبعة الرخيصة.. وكانت هناك مسرحية (جون فرجوسون) بقلم (جون إرفين).. وكانت هناك علامة على الفصل الثالث. إذن هنا الأدلة التي تركها لي (بوارو) ولا أجد لها أي معنى. لا توجد علامات أو شفرة سرية.. قرأت الفصل الثالث من المسرحية حيث المشهد المؤثر إذ يجلس (كلوتى جون) وينتهي بخروج الشاب (فرجسون) بحثًا عن الرجل الذي

أساء لأخته. مشهد عظيم لكن لا أعتقد أن (بوارو) تركه لى كى أحسن ذائقتي الأدبية!
فجأة سقطت قصاصة ورق من المسرحية فوجدت عليها عبارة بخط (بوارو): « تكلم مع خادمى (جورج).. »
هذا قد يكون ذا شأن.. يجب أن أبحث عن (جورج) خادم (بوارو) السابق.. لكن أولًا يجب أن أفرغ من الواجب المحزن نحو صديقي.. لقد كانت هنا أول بقعة وطأها على أرض إنجلترا، وهنا يجب أن يدفن.
كانت (جوديث) كريمة معى للغاية في تلك الآونة، وقد ساعدتني في كل الترتيبات.
أما عن (إليزابث كول) فلم أشعر أنها متأثرة لهذا الحد بوفاة (نورتون)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نعم يجب أن أقول هذا.. لقد انتهت الجنازة. كنت جالسًا مع (جوديث) أحاول أن أرسم خططًا للمستقبل، عندما قالت:
. « لكن يا عزيزي.. أنا لن أكون هنا.. »
- « هنا؟ »
. « لن أكون في إنجلترا.. لم أرد أن أجعل الأمور أصعب بالنسبة لك، لكن يجب أن تعرف الآن.. أنا ذاهبة إلى إفريقيا مع د. (فرانكلين) »
هنا انفجرت فيها.. هذا ليس بوسعها... سوف يكثر القيل والقال.. أن تكون مساعدته في إنجلترا وزوجته حية شيء، وأن تسافر معه إلى إفريقيا شيء آخر. هذا مستحيل ولسوف أمنعه.
ظلت تسمعنى بعض الوقت ثم قالت باسمة:
- « لكن يا عزيزي أنا لست ذاهب كمساعدة له.. أنا ذاهبة كزوجته! »

شعرت كأنني تلقيت لطمة، وقلت:
- « ولكن (ألرتون).. »
بدا عليها أنها تتسلى بهذا وقالت:
- « لا شيء من هذا.. فقط أردت أن أتركك تفكر كما يحلو لك »
(جوديث) و(فرانكلين).. (فرانكلين) و(جوديث).. هل تفهم ما كان يدور في ذهني وقتها؟
(جوديث) بزجاجة في يدها.. (جوديث) تقول ببرود إن الحيوات غير ذات القيمة يجب أن تفسح الطريق للحيوات الأهم.. (جوديث) التي أحببتها.. لا.. ليس (جوديث).. ممكن أن يكون (فرانكلين).. فهو رجل غريب الأطوار قاس.. لو قرر أن يقتل لفعلها..
(بوارو) أراد أن يفحصه (فرانكلين) فلماذا؟ ماذا قال له في ذلك الصباح؟ لكن ليس (جوديث).. ليست (جوديثى) الصغيرة الجادة.. وتذكرت (بوارو) وهو يقول: إجذبوا الستار.
وهنا خطر لي خاطر آخر؟ هل تكون القصة كلها بصدد (س) مفبركة؟ هل لفق (بوارو) كل هذا لأنه أراد أن آتي هنا وأراقب (جوديث)؟ وقصة (عطيل).. هل تفسر كل شيء؟.. ليلتها بدت لي (جوديث) وكأنها تحمل الموت في قلبها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أكتب هذا من (إيستبورن).. لقد جئت إلى (إيستبورن) لأقابل (جورج) خادم (بوارو) السابق.. لقد ظل معه عدة أعوام، وكان يتمتع بالكفاءة والواقعية.
حسن.. جئت لأراه وأخبرته بموضوع (بوارو).. فتصرف كما ينبغي لـ (جورج) أن يتصرف. أصابه الضيق والغم.. وحاول جاهدًا أن يتحمل.
سألته:
. « ألم يترك معك رسالة لي؟ »
قال على الفور:
- « لك يا سيدى؟ نعم لم يترك رسائل.. »
أصابتني الدهشة وعاودت السؤال لكنه كان محددًا.. لذا قلت في النهاية:
. « إذن هي غلطتي.. لكم كنت أتمنى لو أنك كنت بجانبه حتى النهاية »
- « تمنيت ذلك أيضًا يا سيدي »
- « لكن كان يجب أن تأتى لترى أباك المريض.. »
نظر لي في دهشة ثم قال:
- « معذرة يا سيدي.. لم أفهم ما تتكلم عنه.. »
. « ألم تطلب من (بوارو) إجازة؟ »
- « عفوًا يا سيدى.. بل مستر (بوارو) هو من طلب رحيلي.. لا أعني أنه صرفني عن خدمته.. كان الاتفاق أنه سيعيدني لاحقًا.. »
. « لكن لماذا يا (جورج)؟ لماذا؟ »
. « لا أستطيع القول يا سيدى.. »
- « ألم تسأله؟ »

- « نعم يا سيدى.. لم أعتقد أن هذا من حقى.. إن مستر (بوارو) رجل بارع مهذب.. »
تذكرت أناقة (بوارو) وشاربيه الشهيرين، فقلت:
. « رجل مهذب متأنق.. وكان شارباه رائعين.. هل كان يصبغهما مثل شعره؟ »
. « كان السيد (بوارو) يصبغ شاربيه لكن ليس شعره.. »
- « هراء.. لقد كان أسود كالغراب.. بدا كأنما هو يضع جمة.. لم يكن طبيعيًّا على الإطلاق.. »
سعل (جورج) في حرج وقال:
- « معذرة يا سيدي.. كانت جمة فعلًا.. لقد تساقط شعره بالجملة مؤخرًا.. »
بدا لي أنه من الغريب أن يعرف خادم عن سيده أكثر من أعز أصدقائه.
- « لكن ألم تفهم لماذا أرسلك بعيدًا؟ فكر يا رجل.. فكر.. »
لكن كان من الواضح أنه ليس بارعًا في التفكير..
- « أعتقد يا سيدي أنه أراد أن يستخدم (كيرتس) »
- « ولماذا يستخدم (كيرتس)؟ »
- « لا أعرف يا سيدي.. عندما رأيته لم يبد لي.. معذرة.. لم يبد لي من عينة بارعة الذكاء.. كان قويًّا لكني لا أحسبه من الطراز الذي يفضله مستر (بوارو).. كان عاملًا في مصحة عقلية على ما أظن.. »
نظرت له في ذهول.. (كيرتيس)! أتراه هو (كيرتس)؟ هل تركني (بوارو) أمشط الضيوف بحثًا عن مستر (س) بينما مستر (س) لم يكن ضيفًا على الإطلاق؟
ألم أقرأ مرة أن مرضى المصحات العقلية يعودون لها مرة أخرى ليعملوا فيها؟ رجل غريب الأطوار غبي.. رجل يمكن أن يقتل

لسبب ملتو في عقله..
(كيرتس)؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة

[ملحوظة كتبها كابتن آرثر هاستنجز: هذا النص جاء إلى حوزتي بعد أربعة أشهر من موت صديقي (بوارو). تلقيت اتصالًا من شركة محامين يطلبون أن أذهب لمكتبهم. وهناك ناولوني أوراقًا كتبها عميلهم مستر (هركيول بوارو)]:

« صديقي العزيز.. لا بد أن أربعة أشهر قد مرت على وفاتي.. وقد احترت كثيرًا فيما إذا كان على أن أكتب ما سأكتبه هنا أم لا. ثم قررت أنه لابد من أن يعرف أحد تفاصيل قضية (ستايلز) الثانية. كما خشيت أن تصل أنت إلى أكثر الاستنتاجات منافاة للمنطق وتؤذى نفسك. لكن دعني أقل لك mon ami إنه من المفترض أن تكون وصلت إلى الحقيقة.. إن لديك ما يلزمك.. فلو لم تفعل فهذا لأنك تملك طبيعة ساذجة جميلة.

على الأقل يجب أن تعرف من قتل (نورتون) حتى لو كنت لم تعرف بعد من قتل (باربرا فرانكلين).. هذا سيكون صدمة لك..

لأبدأ من البداية تعرف أننى أرسلت أستدعيك.. قلت إننى أريدك.. كان هذا صحيحًا.. قلت إنني أردت أن تكون أذني وعيني.. هذا أيضًا كان صحيحًا.. لكن ليس كما تفهمه! . لقد أردت أن تسمع ما أريد أن تسمعه وترى ما أريد أن تراه..

شكوت من أنني لم أكن عادلًا في تقديم القضية.. اتهمتني بأنني لم أخبرك بشخصية (س).. هذا صحيح.. كان هذا شيئًا يجب أن أفعله.. وسوف تعرف السبب فيما بعد..

الآن دعنا نتفحص حالة (س).. لقد أريتك ملخصات القضايا.. وأخبرتك أن كل قضية صممت بحيث يبدو أن المتهم هو الذي ارتكب الجريمة بنفسه، وأنه لم يكن من حل آخر. ثم انتقلت إلى النقطة الأهم وهي أن (س) كان في مسرح كل جريمة. هكذا

وثبت أنت إلى استنتاج كان صادقًا وخاطئًا معًا.. قلت إن (س) ارتكب كل الجرائم.. لكن ملابسات كل قضية كانت تدل على أن المتهم كان هو الوحيد القادر على ارتكاب القضية في كل مرة.
ما عمل (س) إن لم يكن مرتبطًا بقوات الشرطة أو شركة من المحامين الجنائيين؟ ليس بوسع شخص عادي أن يرتبط بخمس جرائم قتل.. هذا لا يحدث كما تعلم!
إذن نحن هنا أمام حالة من التفاعل المحفز.. تفاعل مادتين لا يحدث إلا في وجود مادة ثالثة.. وهذه المادة الثالثة لا تشارك في التفاعل ولا تتغير.. هذا هو الوضع.. معناه أنه حيثما وجد (س) تمت الجرائم.. لكنه لم يشارك فيها وهو وضع فائق للوصف!
رأيت أنني في نهاية حياتي العملية قد قابلت بالفعل المجرم الكامل.. القاتل الذي لا يمكن أن تدينه بالقتل. هذا مذهل لكنه ليس جديدًا.. من هنا تجد أول دليل تركته لك.. مسرحية (عطيل Othello).. هنا نجد أصل (س) بشكل بارع.. (ياجو Iago) هو القاتل الكامل.. إن موت (ديدمونه Desdemona) و(عطيل) هما في الواقع جريمتا قتل اقترفهما (ياجو).. لكنه بقى خارج الدائرة لا تمسسه الظنون.. هنا وجد (شكسبيركم) العظيم أنه وضع نفسه في مشكلة.. لكى يكشف (ياجو) لجأ إلى أسخف الأدوات.. المنديل.. هذه لمسة لا تتفق مع أسلوب (ياجو) ويشعر المرء أنه لا يمكن أن يرتكبها..
نفس التقنية العالية تجدها في الفصل الثالث من مسرحية (جون فرجسون Ferguson John).. حيث يغرى (كلوتى جون) الآخرين بقتل الرجل الذي يرغب هو في قتله. إنها قطعة جميلة من الإيحاء النفسي. يجب أن تدرك يا (هستنجز) أن كل إنسان هو قاتل محتمل.. ومن وقت لآخر تنشأ لدى الإنسان (الرغبة في القتل).. إن لم تكن (إرادة القتل)..

كم مرة سمعت الناس يقولون: « لقد أثارت حنقي حتى كان بوسعي أن أقتلها! »؟
كل هذه المقولات صادقة حرفيًا.. ذهنك وقتها يكون صافيًا.. لكنك لا تفعل لأن إرادتك لا ترتفع لمستوى رغبتك.. في الأطفال لا تعمل الفرملة جيدًا، وقد رأيت طفلًا يقول لقط:
- « ابق ساكنًا وإلا هشمت رأسك وقتلتك »
وفعلًا يفعل ذلك.. ثم يصيبه الهلع بعد هذا عندما يدرك أن حياة القط لن تعود..
وبرغم هذا كان الطفل يحب القط جدًّا..
هذه هي تقنية (س) العالية.. لا يوحي بالرغبة بل يهدم المقاومة الحضارية.. هذا فن أجاده بالمران.. إنه يعرف الجملة السحرية التي تضع ضغطًا تراكميًّا على بقعة واهنة!
هذا ممكن.. بل يتم من دون أن تشك الضحية في شيء.. ليس تنويمًا مغناطيسيًّا.. إنه شيء أقوى. وأخطر.. إنه حفز القوى البشرية كي توسع الصدع بدلًا من أن ترأبه..
لا بد أنك تفهم هذا يا (هاستنجز) فقد حدث معك.. حينما تكلمت عن جريمة قادمة لم أكن أتحدث عن نفس الجريمة.. لكني قلت إن جريمة سترتكب واندهشت أنت من ثقتي..
السبب أن هذه الجريمة كانت سترتكب بوساطتي أنا!
نعم يا صاحبى.. هذا غريب.. هذا مضحك.. هذا شنيع! أنا الذي لا أوافق على القتل أنهى حياتى به.. هناك جانبان للموضوع: عملي هو أن أحمى الأبرياء. وأن أمنع القتل.. (س) لا يمكن أن يمسه القانون.. إنه آمن تمامًا.. كنت أعرف ما يجب عمله لكني لم أجسر على ذلك.
هنا حدثت المحاولة مع مسز (لوتريل).. كنت فضوليًا أرغب في أن أعرف ما إذا كان ميلك للسهل من الأمور مستمرًا.. كان

كذلك.. بدأت أنت بالشك الخفيف في (نورتون).. وكنت محقًا.. كان (نورتون) هو الرجل.. لكنك لم تملك دليلًا على هذا الشك..

كان (نورتون) ابنًا لامرأة قوية الشخصية.. يبدو أنه لم ينل قط فرصة لإظهار شخصيته أو التأثير في الآخرين.. كان يعرج نوعًا لهذا لم يشارك في ألعاب المدرسة.. كما إنهم سخروا منه في المدرسة لأنه أصيب بالغثيان إذ رأى أرنبًا ميتًا.. هذا الحادث ولابد قد أحدث ندبة عميقة في نفسه.. كان يمقت الدم والعنف..

في رأيي أنه صمم على الانتقام عن طريق أن يصير قاسيًا جريئًا.. وأعتقد أنه اكتشف قدرته على التأثير في الناس مبكرًا.. إنه يصغى جيدًا ويبدو متعاطفًا..

أدرك كم أن هذا سهل.. فقط يستعمل الكلمات الصحيحة ويمد الناس بالحافز الكافي.. يجب أن تفهم البشر.. تخترق أمنياتهم وأحلامهم.

هذا هو (نورتون) الذي جعل الناس يقتنعون بعمل أشياء لا يحبون عملها أو يعتقدون أنهم لا يحبون عملها..

لقد نمت هوايته أكثر فأكثر.. حتى صارت ضرورة.. كانت نوعًا من المخدرات لا يختلف عن الكوكايين والمورفين. ومثل أي مدمن كان عليه أن يجد مصدرًا للمخدرات.. أنا متأكد من أن هناك حالات أكثر من تلك الخمس.

كان يعرف (أثرنجتون).. وقضى صيفًا في بلدة آل (ريجز).. وفي رحلة قابل الفتاة (فريدا كلاى) وأقنعها بأن موت عمتها شيء طيب.. راحة للعمة وحياة من الترف المادي.. كان كذلك صديق آل (لتشفلد) وإذ تكلمت معه (ماجي) رأت نفسها في صورة البطلة مخلصة إخواتها..

الآن نأتي للقصة في (ستايلز).. عرفت أنه التقى آل (فرانكلين) فشممت الخطر.. لا يمكن أن تنمو نبتة إلا إذا كانت فيها بذرة.. في قصة (عطيل) نجد في نفس (عطيل) الشك وغالبًا هو صحيح أن حب (ديدمونة) له هو حب صغيرة لقائد شهير وليس ذلك الحب المتوازن نحوه كرجل.

كان آل (فرانكلين) مناسبين جدًّا للرجل.. كل الاحتمالات! كان بوسعك يا (هاستنجز) أن تدرك أن (فرانكلين) يحب (جوديث).. وهي تحبه. فظاظته وطريقته في عدم النظر لها أبدًا.. هذه أشياء تخبرك أنه كان غارقًا في حبها حتى أذنيه.

لكن (فرانكلين) رجل مستقيم وهذا الطراز من الناس يتمسك بزوجته للنهاية.. ويبدو أن (جوديث) حسبتك فهمت حقيقة مشاعرها.. شخصيتها لا تتحمل أي نوع من الشفقة.. هذا يشبه لمس جرح عار.. ثم وجدت أنك تفكر في (ألرتون).. قررت أن تتركك تعتقد هذا فهذا يريحها..

كانت تعرف بالضبط أي رجل هو (ألرتون).. لقد تسلت به لكنها لم تشعر بشيء نحوه.. هنا أدرك (نورتون) الاحتمالات القائمة في ثلاثي (فرانكلين). بدأ بـ (فرانكلين) لكن هذا الأخير من الناس الذين يملكون مناعة تامة ضد أمثال (نورتون).. إن له عقلًا أبيض وأسود فقط..

كانت (جوديث) أسهل نوعًا.. لقد راح (نورتون) يزرع في ذهنها أن من حق الإنسان الخلاص من الذين لا جدوى منهم.. وراح يقول لها عبارات مثل: « هذا ما يقوله الشباب جميعًا لكنهم لا يفعلونه أبدًا.. » .. الخ.

ما أشد هشاشة هؤلاء الشباب! ما أسهل ما ينجرفون إلى قبول التحديات برغم أنهم ينكرون هذا..

لو رحلت (باربرا) لصار الطريق مفتوحًا أمام (فرانكلين) و(جوديث).. لكن أحدًا لم يقل هذا.. لم يُفتح الموضوع قط لأن (جوديث) لو شعرت بهذا لتصرفت بعدوانية..
في الوقت ذاته بدأ يفكر في (لوتريل)..
تذكر أول مرة لعبت فيها البريدج حينما كان (نورتون) يتكلم بصوت عال وخشيت أنت أن يسمعه الكولونيل بالطبع كان يريد أن يسمعه الكولونيل!
في النهاية نجح الأمر.. تم تحت أنفك يا (هاستنجز) ومن دون أن تعرف كيف.. تذكر ما حدث.. (نورتون) شعر بالظمأ من ثم هب الكولونيل يحضر لكم الشراب.. هنا يقع المشهد المحتوم.. يتشاجر مع زوجته.. يخرج.. يتظاهر بأن شيئًا لم يقع.. لكنه يفشل في هذا.. (كارنجتون) كان يستطيع الادعاء بنجاح أكثر لأنه من طراز الرجال الذين يروقون لك.. مغرور تافه!
هنا تجتمع ملاحظات (نورتون) العابرة مع الجو النفسي، مع شعوره بالإهانة أمام رفاقه، مع إدراكه أنهم يعرفون أنه جبان لن يقاوم تحرشات زوجته.. مع الحكاية التي حكاها (كارنجتون) عن المجند الذي أطلق الرصاص على أخيه.. هذه القصة حكاها (نورتون) لـ (كارنجتون) من قبل لكن هذا الأخير استعملها لنفسه كما هي العادة!
في هذه اللحظة تبدو زوجته أمامه وهي تعنى بالزرع.. هكذا يرفع البندقية ويصوبها نحو زوجته.. سوف يبدو كحادث.. سأريهم.. سأريهم.. سوف تموت!
لكنه لم يصبها.. عن نفسي أعتقد أنه أخطأ التصويب لأنه أراد ذلك غريزيًّا.. ثم تحطمت اللعنة.. إنها زوجته الحبيبة برغم كل شيء..

ثم يأتي دورك! لقد استكشف كل جوانب عقلك يا صاحبي.. (ألرتون) هو طراز الرجال الذين تكرههم بالفطرة.. هذا نوع الرجال الذين تؤمن بأنهم يجب أن يختفوا.. يحكى لك (نورتون) قصة حقيقية عنه.. الفتاة التي انتحرت عندما تخلى عنها.. وهذا يناسبك.. هذا الرجل هو الوغد.. المفسد.. الذي يدمر الفتيات ويدفعهن للانتحار!

تكلمت مع (جوديث) فقالت ما هو متوقع: هذه حياتي ولسوف أعيشها كما يروق لي.. وهكذا تجد أنه ركز الهجوم عليك.. حبك لابنتك.. شعورك بالمسئولية.. شعورك بالعجز لغياب زوجتك.. دعك من مقت الأب الفطري للرجل الذي سيأخذ ابنته منه..

أنت تقبل الأمور بلا تدقيق.. لقد قررت فجأة أن (ألرتون) كان يتحدث مع (جوديث) بصدد السفر إلى (لندن) برغم أنك لم ترها معه.. لم تسمعها تتكلم وسررت في اليوم الثاني (لأنها غيرت رأيها)..

لكن لو لاحظت لوجدت أن هناك شخصًا تضايق لكونه حرم من السفر في هذا اليوم.. الممرضة (كريفن).. إن (ألرتون) ليس بالطراز الذي يكتفى بامرأة واحدة.. و(نورتون) يعرف هذا.. لهذا يغرس الشكوك في نفسك.. وعندما تسمع ما يقوله (ألرتون) يجذبك بعيدًا قبل أن تكتشف أن المرأة ليست (جوديث)!

لكن من حسن طالعك يا (هاستنجز) أن لك صديقًا لا تنام خلايا عقله.. أنت تتساءل لماذا صرفت (جورج) وجئت برجل أقل ذكاء وخبرة.. لماذا؟ لماذا لم يرعنى طبيب أنا الذي كنت أرعى صحتى بدقة؟

هل تفهم لماذا كنت بحاجة لك هنا؟ كنت أريد شخصًا يقبل ما أقول بلا مناقشة.. صرفت (جورج) لأني لم أرد شخصًا يعرف

أنني لم أعد عاجزًا تمامًا.. كان (جورج) سيدرك أنني اصطنع العجز.. هل تفهم؟
لم أكن مقعدًا.. كان بوسعي المشي بعرج.. وفي تلك الليلة سمعتك قادمًا ثم رأيتك تدخل إلى غرفة (ألرتون).. وأنا أفهمك جيدًا لذا دق جرس إنذار لدى. أرسلت الخادم يستدعيك لغرفتي وأرغمتك على شرب كوب كبير من الشيكولاته. إن لدى أنا الآخر بعض الأقراص المنومة.. لذا نمت أنت.. نمت حتى الصباح ثم أفقت وعدت لصوابك وأصابك الذعر مما كنت تنتوى عمله.
لقد صرت في أمان الآن..
لكن هذا أخبرني بضرورة الإسراع.. فالآخرون ليسوا مثلك.. أنت لست قاتلًا.. أنت أيها العزيز النقى.. أيها الشريف.. أيها البرىء (هاستنجز)!
الآن جاء دور (باربرا فرانكلين).. مهما كانت أفكارك فلا أحسبك خمنت الحقيقة.. أنت قتلت (باربرا فرانكلين)! نعم.. فعلتها!
ألم تسأل نفسك قط عن سبب قدوم هذه السيدة إلى (ستايلز)؟ إنه ليس مكانًا راقيًا ولا يتيح علاقات اجتماعية.. بينما هي تبحث عن الراحة والطعام الجيد. تزوجت (فرانكلين) علي أساس أنه سيكون لامعًا لكنها أدركت أنه لن يكون شهيرًا إلا لدى دستة من المختصين بطب المناطق الحارة.. ولن يذكر اسمه إلا في المجلات المتخصصة جدًّا.. لن يسمع عنه العالم الخارجي ولن يكون ثروة.
ثم يأتي (كارنجتون) ليقيم هنا.. إنه رجل ثرى ولديه ضيعة.. وكان يحبها بجنون.. وليس من الطراز الذي ينصحها بالطلاق.. هكذا تنتقل وزوجها إلى هنا.. لو مات (فرانكلين) لصارت زوجة (كارنجتون) وانتهت مشاكلها..

إن كلامها المستمر عن افتتانها بزوجها يبدو على شيء من الافتعال.. ثم قولها إنها تخشى أن يقتل نفسه بتجاربه.. كان الأمر واضحًا يا (هاستنجز).. لقد كانت تعد العدة لقتل زوجها بال (فيسزوستيجمين)! ولسوف يقال إن ما حدث كان غلطة.. لقد شرب القلويد حاسبًا أنه لن يؤذيه لكنه آذاه..
كانت تخشى أن تنتظر أكثر وإلا أفلت (كارنجتون).. إن الممرضة بارعة الجمال ولها عين ثاقبة بالنسبة للرجال الأثرياء.. لذا كان على (باربرا) أن تتصرف سريعًا.. يجب بأسرع وقت أن تتحول إلى أرملة رقيقة حزينة...
هل تعلم يا صاحبي أنني أحمل احترامًا لبازلاء (كالابار)؟ لقد دعتكم السيدة لغرفتها وأعدت لكم القهوة.. قهوتها كما قلت لي كانت بجوارها وقهوة زوجها على المكتب.. ثم تظهر النجوم ويخرج الكل للشرفة ما عداك حيث جلست مع كلماتك المتقاطعة. حاولت إخفاء عواطفك فنهضت إلى المكتب متظاهرًا بالبحث عن شيء في شكسبير، ثم عادوا فاختلط الأمر على السيدة وشربت القهوة التي وضعت فيها الفيسوستيجمين. وشرب زوجها القهوة اللذيذة التي أعدتها زوجته لنفسها.
لكني كما ترى يا (هاستنجز) لم أكن قادرًا على إثبات كلامي.. ولو اعتقدت الشرطة أن السيدة لم تنتحر لاتجه الظن تلقائيًا إلى (فرانكلين) و(جوديث).. وهكذا ضغطت في شهادتي على موضوع رغبتها في الانتحار.. كان هذا بوسعى.. بل كنت الوحيد القادر على ذلك.. فأنا رجل خبير في جرائم القتل.
لاحظت أن شهادتي لم تسعدك.. لكنك لم تقدر الخطر. ربما تقدره الآن ويعاودك الخاطر كأفعى تتسلل إلى أفكارك وتقول: « ماذا لو أن (جوديث).. .. ..؟ »

لكن هناك رجلًا شعر بتعاسة بالغة لأنه أدمن الاتهام والخوف ومطاردات القانون.. لقد فشلت عمليتا قتل رتب لهما.. لذا راح يلمح لك بأنه رأى ما لا تعرفه.. وأنه لا يريد أن تعرف بحال ما رآه.

شعرت بالخطر.. لأنه من الممكن أن يلمح بأشياء أخرى.. وهكذا سعيت إلى أن يحضر لحجرتي.. أرسلت خادمي يدعوه إلى..

كان على وشك أن يحكى قصته بطريقته لكني هاجمته بعنف وصارحته بكل ما أعتقده.. لم ينكر شيئًا.. لقد جلس متكلفًا الابتسام. ثم سألني عما سأفعله بصدد هذه النظرية؟

قلت إنني سأنفذ فيه حكم الإعدام.. قال ضاحكًا: كيف؟ الخنجر أم كأس السم؟

قلت له إن كأس السم هو الأسهل.. ثم قدمت له الشيكولاته.. قال باسمًا إنه لا يمانع بشرط أن أشرب أنا من قدحه ويشرب هو من قدحي.. فوافقت على الفور..

في الحقيقة كنت قد أذبت أقراصًا منومة في الشيكولاته كلها.. وأنا أتعاطي هذه الأقراص بكثرة لذا لا تؤثر في الجرعة التي يمكن أن تؤثر في (نورتون).. لذا بدأ العقار يؤدي عمله معه.. أما أنا فلم أتأثر خاصة مع جرعة من المقوى الذي يحوي (الستركنين) وعمله يعكس عمل المنوم..

الآن نام الرجل فحملته إلى مقعدى المتحرك وهذا سهل، ثم دفعته إلى الكوة التي يغطيها الستار في الجدار.. حيث أضع المقعد دائمًا..

وحينما هدأ كل شيء دفعت (نورتون) بالمقعد إلى حجرته.. لو لاحظت لوجدت أننى أضع جمة وشاربًا مستعارين. لذا ارتديت

منامة (نورتون) ورفعت شعرى الرمادي لأعلى.. وخرجت للردهة وقرعت بابك..
خرجت وأنت نائم للردهة لتجد (نورتون) عائدًا لغرفته من الحمام..
في حجرته ألبسته ثياب نومه وأرقدته في الفراش ثم أطلقت الرصاص عليه بالمسدس الصغير الذي ابتعته من الخارج.. ثم وضعت المفتاح في جيبه وغادرت الحجرة وأغلقتها من الخارج بنسخة من المفتاح حصلت عليها منذ زمن.. ثم دفعت المقعد عائدًا لحجرتي..
لقد أتعبني التنفيذ وكل هذا التخطيط لذا لا أحسب أنني سأتحمل كثيرًا..
فقط هناك شيء أخير يجب ذكره: جرائم (نورتون) كانت متقنة أما جريمتي فلم تكن كذلك.. لم أرد لها ذلك..
كانت الطريقة الأسهل أن يتم القتل بشكل واضح.. لنقل حادثًا بسبب مسدسى الصغير.. وكنت سأعتذر بينما يقولون: هذا الأبله العجوز.. لم يدرك أن المسدس محشو..
السبب في كوني فعلت هذا هو أننى أتريض.. نعم أتريض!! كنت أحاول أن أعطيك كل ما يلزم كى تعرف الحقيقة.. كنت أحاول أن ألعب بشرف.. لو تقصيت لعرفت أننى غيرت غرفتي في (ستايلز) وأن مفتاحي قد فقد.. لو سألت نفسك: من يمكن أن يفتح غرفة (نورتون) ثم يغادرها بسهولة مع أن المفتاح في جيب (نورتون)؟ الإجابة هي (هركيول بوارو) الذي لديه مفتاحان لإحدى الغرف..
لمحت لك أن الرجل في الردهة لم يكن (نورتون).. لكنك سألتني فقلت إنني لا أقترح أي شيء.. لقد بذلت جهدًا كبيرًا لأوحي لك بأنه (نورتون) فلن أوحى بالعكس..

بعد هذا أثرت مشكلة الطول.. كل الرجال هنا أطول من (نورتون).. بكثير.. لكن هناك رجلًا أقصر من (نورتون).. (بوارو). ومن السهل أن يطيل المرء نفسه بانتعال حذاء ذي كعب عال..
لقد أبعدت (جورج) فلماذا؟
قصة (عطيل) كانت ستوحي لك بـ (نورتون) فمن قتل (نورتون)؟
أما غلطتي الكبرى فهي ولعي بالنظام والتماثل.. لم أستطع أن أطلق الرصاص على صدغه.. كان هذا سيجعل المنظر غير متماثل.. لذا صوبت إلى منتصف رأسه بالضبط..
ماذا هناك أيضًا؟ أعتقد أن (فرانكلين) و(جوديث) خمنا الحقيقة.. لكنهما لن يخبراك بها..
سوف يعيشان سعيدين فقيرين ولسوف تلدغهما الحشرات الاستوائية ويصابان بكل الأمراض، لكن كل إنسان لديه فكرته الخاصة عن الحياة السعيدة..
أما أنت يا (هاستنجز) فقلبي ينزف من أجلك.. هل تريد رأيي؟ خذ قطارًا وابحث عن (أليزابث كول).. التي هى (أليزابث لتشفيلد).. أخبرها أنك كدت تفعل ما فعلته أختها (ماجي).. قل لها إن القاتل الحقيقي لأبيها كان صديق الأسرة (ياجو).. (نورتون)..
من الصعب أن ترفض امرأة مثلها بشبابها وجمالها الحياة لأنها (موصومة).. وأنت يا صاحبي ما زلت تفتن النساء نوعًا..
ماذا بقي لأقوله؟ لا أعرف إن كان ما فعلته مبررًا أم لا.. لا أعتقد أن من حق بشر تنفيذ القانون بيديه.. لكن من وجهة نظر أخرى.. أنا القانون!!
لقد أنقذت حيوات بريئة عدة بقتلي (نورتون).. لكن برغم هذا.. لا أعرف.. ومن حسن حظي أنني لا أعرف.. كنت واثقًا من نفسي

طيلة حياتي لكني الآن أتكلّم بتّواضع وأقول كطفل صغير: « لّا أعرف »
وداعًا يا صاحبي.. لقد أبعدت أمبولات الأميل نتريت من جوار فراشي.. أفضل أن أسلم نفسي لإلهي الكريم.. ولتحل بي رحمته أو عقابه الذي أتمنى ألا يطول..
لن نقبض على القتلة ثانية يا صاحبي.. أول قنص لنا كان هنا.. وآخر قنص! كانت أيامًا طيبة..
(نهاية ما كتبه بوارو)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنهيت القراءة.. لا أصدق هذا كله.. لكنه حقيقى.. كان يجب أن أعرف.. كان على أن أعرف حين رأيت ثقب الرصاصة المنتظم في منتصف جبهة (نورتون).. غريب.. لقد أدركت هذا الآن..
الفكرة التي خطرت ببالي ذلك اليوم.. هي أن العلامة على جبين (نورتون) كانت تشبه وصمة (قابيل).

أجاثا كريستي
1975

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القناة

الفهرس..

Notes

[←1]

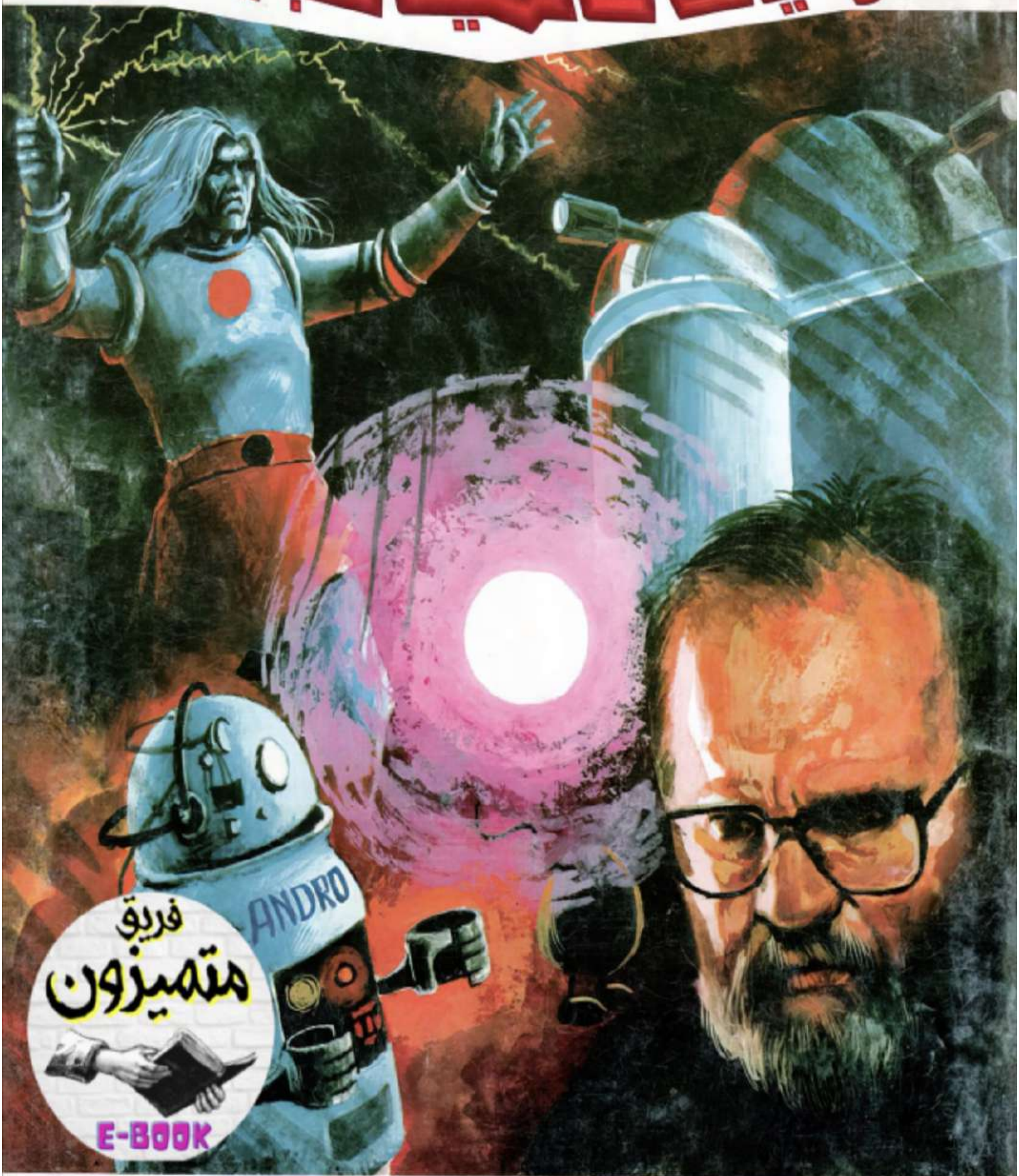
الكتيب رقم 30 وعنوانه (لا تنتظري الآن)..

[←2]

الفدم Cretin هو الشخص الذي يعاني نقص إفراز الغدة الدرقية منذ مولده.. عامة تستعمل في العربية بمعنى (معتوه).. كما في بيت الشعر الشهير (صفة الطلول بلاغة الفدم).. ومعناه (وصف الأطلال في الشعر عمل جدير بالمعتوهين)!

روايات عالمية للجيب

57



قصص من أزيموف

تأليف : إيزاك أزيموف

ترجمة وإعداد :

د. أحمد خالد توفيق

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (57)

قصص من أزيموف

قصة: إيزاك أزيموف

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

الاسم ذو رنين روسي واضح، وهذا صحيح من ناحية المولد، لكن الرجل أمريكي الجنسية. ترى صورته بتلك السوالف العملاقة على جانبي الرأس فتشعر أنه واحد من علماء عصري التنوير والعقل.

هذا هو (إيزاك أزيموف Isaac Asimov).. اسم يحظى باحترام خاص في أدب الخيال العلمي وعالم البحث العلمي كذلك.. ليست هذه المرة الأولى التي نقابل فيها عالما يهوى كتابة الخيال العلمي.

(أزيموف) كاتب خيال علمي يعتبر هو و(هاينلاين) و (آرثر كلارك) الزوايا الثلاث لمثلث أدب الخيال العلمي الراقي.. هناك - طبعا - كتّاب بالغو الأهمية خارج الولايات المتحدة، مثل الأسطورة البولندية (ستانسلاف ليم Stanislaw Lem) سأحاول تقديمهم بمجرد العثور على ترجمة إنجليزية مناسبة لأعمالهم.

يرى (أزيموف) أن أفضل طريقة لنطق اسمه بشكل صحيح هي أن تقرأ عبارة (Has Him off) مع تجاهل حروف الـ H. وهذا بسبب أن أباه لم يكن يعرف الإنجليزية عندما دوّن اسمه، فجاء حرف Z خطأ. بل إنه كتب قصة قصيرة تحمل عنوان.. «انطق اسمى بحرف السين»..! كما ترى نحن نكرر الخطأ الشائع ذاته هنا!

ولد الرجل لأسرة يهودية في (روسيا) عام 1920 وفي العام 1923 هاجر أبواه إلى الولايات المتحدة، وأقاما عددا من متاجر

الحلوى في حي (بروكلين). وفي هذه المتاجر وجد (أزيموف) تلك المجلات السحرية التي تتحدث عن الخيال العلمي، فتحمس لهذا النوع من الأدب وكتب أول قصة له عام 1939.

نشبت الحرب العالمية الثانية فعمل باحثا كيميائيا أثناءها وفي العام 1948 نال درجة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية. ثم التحق بهيئة التدريس في جامعة (بوسطون) وتفرغ للكتابة عام 1958، لكنه نال درجة أستاذ عام 1979. وفي العام 1970 عاد إلى مانهاتن ليعاود الكتابة في مواضيع عدة، وقد توفي في (نيويورك) عام 1992 بسبب داء الإيدز الوبيل الذي أصابه أثناء عملية نقل دم في عام 1983.

لا أحد يعرف بالضبط عدد الكتب التي كتبها الرجل، فقد فشلت كل محاولات تتبع كتاباته، لكنها بالتأكيد تربو على الخمسمائة. لقد كان يكتب ثماني ساعات متواصلة طيلة الأسبوع وبسرعة جهنمية، حتى اشتهر بلقب (الآلة الكاتبة البشرية).

نذكر من أشهر كتبه (أنا.. الروبوت) . وهو الفيلم الذي عُرض في مصر مؤخرا . و(كهوف الصلب) و(دليل أزيموف إلى التوراة) و (قدوم الليل) و(ثلاثية التأسيس) و(رجل المائتي سنة) و(الحصاة في السماء) و(الآلهة أنفسهم) مع سيرة ذاتية نشرت بعد وفاته هي (لقد كانت حياة طيبة). رأى (أزيموف) فيلم (رحلة خيالية) في مرحلة المونتاج فكتب قصة بنفس الاسم.. لكن القصة ظهرت في الأسواق قبل عرض الفيلم بستة أشهر مما جعل الكثيرين يعتقدون أنه صاحب قصة الفيلم، والحقيقة

أنه لم يحب الفيلم قط؛ لأنه وجده هشًا من ناحية المنطق العلمي.

قصة (رجل المائتي سنة Bicentennial Man) – تجدها مترجمة هنا - تحولت إلى فيلم شهير بطولة (روبن ويليامز) يحكى عن الروبوت الذي تم إعداده للأعمال المنزلية، ثم بدأ يحاول أن يصير بشريا ويحتاج هذا منه إلى مائتي عام. هذه من التيمات المحببة لدى (أزيموف): مشاعر الروبوت.. ومن الغريب أنه - كما يقول النقاد - يجيد التعبير عن الروبوت أكثر مما يجيد التعامل مع البشر الذين يظهرهم مسطحين باردين كالثلج، ولعل هذا من عيوب أدبه المعروفة.. والقصة من جديد تدور في فلك (بينوكيو) الذي يتوق إلى أن يصير طفلا من لحم ودم، وتذكرنا بقصة (ذكاء صناعي) لـ (برايان ألديس Brian Aldiss) التي تحولت بدورها لفيلم شهير من إخراج (سبيلبرج) لسوف نلاحظ أن (أزيموف) في أكثر أعماله يمقت فكرة الروبوت المؤذي التي استهلكها كتاب الخيال العلمي، وقد وضع قوانين (الروبوتيات) الشهيرة جدا والتي تقرؤها على الغلاف الأخير من هذا الكتيب، واستخدمها في أكثر من قصة.

كان غريب الأطوار كأكثر العباقرة، فقد كان يخاف الطيران؛ لذا لم يسافر إلا أقل القليل.. وكان يخاف الحقن بشدة (من المؤسي أن نهايته جاءت بسبب نقل الدم فعلا).. كما فشل تماما في السباحة وركوب الدراجات، ولم يكن يؤمن بالديانة اليهودية لكنه كان معتزا بأصله اليهودي على سبيل الانتماء لا أكثر. كانت علاقته بـ (آرثر كلارك) حميمة، حيث أصر كل من الرجلين على أن الآخر هو أفضل كاتب خيال علمي في الكون، بينما احتفظ لنفسه بلقب ثاني أفضل كاتب!

بالنسبة للمهتمين بمعرفة ما هو أكثر عن هذا الكاتب، يمكنهم دخول الصفحة التالية:

http://www.asimovonline.com/asimov_home_page.html

فهي تحوي كل شيء عنه تقريبا.. إنه كاتب مهم، جدير بأن نعرف عنه أكثر.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

عفريت طوله سنتيمتران (1)

قابلت (جورج) في مؤتمر أدبي منذ أعوام عديدة وأدهشني تعبير الطهر والصدق المرتسم على وجهه الذي هو في منتصف العمر. كان من طراز الناس الذين تختارهم كي تعهد لهم بحافظتك ليحتفظوا بها عندما تقرر السباحة.

عرفني من صوري التي تظهر على خلفيات رواياتي وحياتي وأخبرني كم يحب قصصي مما جعلني أكوّن رأيـًا طيبا عن ذكائه.

قال لي:

- اسمي (جورج بيترنت)..

قلت مكررا الاسم لأتذكره:

- (بيترنت).. اسم غير معتاد..

- دانماركي.. وأرستقراطي جدا.. أنا من نسل (كانوت) وهو ملك دانماركي غزا إنجلترا في القرن الحادي عشر.. جدي كان ابنه.. وقد ولد (على الجانب الخطأ من البطانية) بالطبع..

وافقته وأنا لا أفهم ما الشيء البديهي فيما يقول.

- سمي (كانوت) نسبة لأبيه وحينما عرضوه على الملك قال: هل هذا هو وريثي؟ فرد رجل البلاط المسئول عن الطفل: ليس بالضبط.. أمه هي الغسالة وهو ابن غير شرعي.. هكذا سماه الملك: (بيتر كانوت).. وقد ورثت أنا هذا الاسم وإن غيّره الزمن إلى (بيترنت)..

- هل تشاركني الغداء؟

قلتها وأنا أشير إلى المطعم الفاخر القريب، الذي لا يرتاده إلا أصحاب المحافظ المكتنزة.

قال لي:

- ألا تعتقد أنه مبهرج نوعا؟ إن المطعم على الجانب الآخر..

- كن ضيفي..

هنا قال:

- لكني إذ أفكر في المطعم الأول من جديد أرى أن جوّه منزلي مريح.. فلنذهب إليه..

وهكذا جلسنا هناك، وبينما نحن نتناول الطبق الرئيس، قال (جورج):

- جدي (بيتركانوت) كان له ابن سماه (سوين).. وهو اسم دانماركي جميل.. في العصر الحالي ينطق الاسم (سفين)..

- أعرف هذا..

قطب (جورج) قليلاً، وقال:

- لا داعي لاستعراض معلوماتك أيها العجوز.. فأنا أقبل حقيقة أن لديك بعض بقايا المعلومات..

شعرت بالارتباك، وقلت:

- آسف..

حرك يده كأنما يغفر لي وطلب بعض الشراب، ثم قال:

- (سوين بيتركنوت) كان يحب الشابات ككل أسرته.. وكان موفقا معهن مثلنا جميعا. وكلما فارقته فتاة كانت تهز رأسها، وتقول: يا له من (أرشيماج)! هل تعرف معنى (أرشيماج archimage)؟

كذبت عليه وتظاهرت بأنني لا أعرف حتى لا أستعرض معلوماتي ثانية، فقال وهو يتنهد في ارتياح:

- الأرشيماج هو كبير السحرة.. لقد درس (سوين) الفنون الغامضة والطلاسم.. وكان بوسعك وقتها أن تجرب هذا كله؛ لذا راح يفتش عن طريقة سحرية تجعل النساء يتصرفن بأناقة ولطف جديرين بالأنوثة، وينبذن التنمر والسوقية.. لهذا كان بحاجة إلى عون العفاريت. وكان يعرف كيف يستدعيهم بحرق أنواع من الشجيرات الحلوة ثم ينادي تلك الأسماء التي نسيها الناس..

- وهل كان هذا ينجح؟

- بالطبع كان ينجح.. لقد صارت لديه حشود من عفاريت يعملون من أجله.. كان يشكو من أن النساء في عصره كانت لهن عقول بغال.. وكن يقابلن كلامه عن كونه حفيد ملك بتعليقات مشينة.. في الصيف الماضي وجدت كتاب وصفاته التي يستدعي بها العفاريت.. وجدته في قلعة إنجليزية صارت أطلالاً، لكنها كانت تخص أسرتي يوما ما.. كل شيء كان في الكتاب بإنجليزية عتيقة (الأنجلوساكسونية) كما تعلم..

هذه المرة لم أتحمل أكثر، فقلت:

- أنت تمزح..

نظر لي في عجرفة، وقال:

- لم تظن هذا؟ لقد جربت الوصفات بنفسي.. إنه كتاب أصيل..

- وظفرت بعفريت؟

- طبعا..

وأشار إلى جيب سترته:

- هنا؟

مد (جورج) يده إلى الجيب وراح يبحث.. بدا أنه يفتش عن شيء، ثم قال في ضيق:

- لقد رحل.. لكن لا يمكنك أن تلومه.. لقد أمضى ليلة أمس معي؛ لأنه كان مهتما بهذا المؤتمر.. وقد جعلته يذوق بعض الشراب بقطارة ويبدو أنه أحبه.. أحبه جدا لأنه كاد يتشاجر مع تلك الببغاء في البار وراح يسبها.. ثم غاب في نوم عميق لحسن الحظ.. اليوم بدا مرهقا في الصباح.. ولعله ارتحل إلى بيته ليستريح..

هل يتوقع أن أصدق هذا كله؟ قلت له مشاكسا:

- تريد القول إنك تحتفظ بعفريت في جيب سترتك؟

إن سرعة فهمك للأمور تثير الإعجاب..

- وما طوله؟

- سنتيمتران..

- لكن هذا يجعله صغيرا جدا.

- كما قال القدماء: عفريت صغير خير من لا عفريت على الإطلاق.. اسمه (عزازيل)، وأعتقد أنه يعاني سخرية رفاقه لأنه حريص على أن يريني قوته.. لكنه يرفض استعمالها ليجعلني ثريا.. يقول إن قواه لا تستخدم إلا لخدمة الآخرين..

- هلم يا (جورج).. بالتأكيد ليست هذه فلسفة جهنم..

وضع إصبعا على شفته، وقال:

- لا تقل هذا.. إنه يتكلم باحترام عن وطنه ويصفه بالتحضر.. خذ عندك قصة ابنتي الروحية (جونيير بن) [2].. أرى من نظرتك أنك شغوف بمعرفة القصة ولسوف أحكيها لك..

☆☆☆

كانت (جونيير بن) طالبة واسعة العينين في السنة الثانية من الكلية حيث وقعت القصة.. فتاة طاهرة تهوى فريق كرة السلة الذي يعج بفتية وسيمين طويلي القامة.. وكان الفتى الذي اختصته بهيامها النقي هو (لياندر تومسون).. فارع الطول له يدان ضخمتان تلتفان بإحكام حول كرة السلة.. وكان مركز هتافها وتشجيعها عندما تجلس في صفوف المشجعات.

كانت تحكى لي.. وكانت ككل الفتيات تجد في مظهري الطيب المعتز بالذات ما يوحي بالثقة.

- آه يا عماه! كل ما أريده هو أن يصير أعظم لاعب سلة في العالم، مع بيت صغير وحديقة تمتد إلى أبعد ما يستطيع

البصر.. أريد طاقما من الخدم.. وأن تكون ثيابي مرتبة أبجديا حسب أيام الأسبوع.. وحسب كل شهر من العام و...

قاطعتها في رقة:

- يا عزيزتي ثمة خطأ في خطتك هذه.. (لياندر) ليس لاعب سلة بارعا لهذا الحد.. ولا يتوقع أحد أن يظفر بعقود مربحة..

قالت في حزن:

- هذا غير عادل.. لماذا لا يكون لاعبا رائعا؟

- لأن الكون يعمل بهذه الطريقة.. وإلا لكان بوسعك تبدئي بحب أفضل لاعب كرة سلة في البلاد، أو تحبي سمسار أسهم في (وول ستريت) يكون على علم بأسرار المعاملات المالية...

- بالواقع فكرت في هذا، لكني أحب (لياندر) نفسه.. أحيانا أرمقه، وأقول لنفسي: هل المال مهم لهذه الدرجة؟!

فكرت في الأمر.. بعد كل شيء هناك عفريت طيب القلب في جيبي.. بالتأكيد سوف يرغب في مساعدة القلبين الصغيرين..

أصغي لي (عزازيل) بعدما استدعيته باسم القوة الحقيقي.. لا.. لن أخبرك به.. ألا يمكنك أن تقدر هذه الآداب؟ لكنه أصغى لكلامي بلا تعاطف حقيقي.. يبدو أنني جررته لعالمنا من شيء يشبه الحمام التركي عندهم؛ لأنه كان ملتفا بمنشفة وكان يرتجف.. في النهاية سألني:

- ما هي كرة السلة؟ هل هي كرة تشبه السلة؟ لو كان الأمر كذلك فما هي السلة؟

رحت أشرح له وهو يصغي في اهتمام، ثم سألني:

- هل يمكن أن أرى مباراة كرة سلة؟

- بالتأكيد.. هناك مباراة الليلة.. (لياندر) أعطاني تذكرة..

- جميل.. نادني عندما يحين الوقت.. أما الآن فيجب أن أنهى (الزيمجيج)..

أعتقد أن هذا المصطلح يعني الحمام التركي. من الأشياء التي تضايقني أن يهتم أحد أكثر من اللازم بأموره التافهة.. هذا يذكرني أيها العجوز بأن الساقي يريد منك شيئا.. أعتقد أنه يريد أن يعطيك فاتورة الحساب، فلتأخذها منه كي أواصل قصتي.

اصطحبت العفريت إلى مباراة كرة السلة، حيث ظل يراقبها من أعلى جيب سترتي.. لحسن الحظ أن أحدا لم ير المشهد فقد كان أحمر اللون له قرنان.. لم أكن أفهم كرة السلة جيدا لذا تركت لـ (عزازيل) أن يتابع ما يجرى أمامه.

قال لي بعدما انتهت المباراة:

- من الواضح لي بعد ما رأيته من لعب هؤلاء الأشخاص المملين الذين يتمتعون بالبلاهة والخرق، أن هناك إثارة معينة تنجم من مرور الكرة عبر الطوق..

- نعم.. نعم.. بالضبط..

- عندها يصير هذا الفتى الذي تشمله بعنايتك ثريا لو استطاع تمرير الكرة من الطوق في كل مرة؟ لا بد من تغيير انعكاساته وقدرات عضلاته و... هذا ممكن.. بل هو قد تم

فعلا... سوف يصيب (لياندر) هذا الطوق في كل مرة يقذف فيها الكرة..

انتابتني إثارة شديدة ورحت أنتظر المباراة التالية.. لم أخبر (جونيير) بشيء طبعا.. ثم إنني أردت أن تفاجأ وكنت على حق.. لقد فوجئت كما فوجئت أنا..

لقد جاء يوم المباراة أخيرا..

فريق كليتنا محدود البراعة (نيردسفيل تك) يلعب ضد عمالقة (كابون كولدج) والكل يتوقع أن تكون ملحمة.

رحت أراقب (لياندر) فبدا لي مرتبكا غير قادر على إمساك الكرة.. يبدو أن انعكاساته تغيرت بحيث لم يعد قادرا على السيطرة على شيء.. ثم بدا أنه سيطر على نفسه وألقى بالكرة فطارت في الهواء مسافة طويلة جدا لتسقط في الطوق!

دوى الهتاف بينما راح (لياندر) ينظر للطوق في حيرة كأنه يتساءل عما حدث فعلا..

تكرر الأمر مرارا وتكرارا.. وبدا أن أحدا لا يرى (لياندر) وهو يصوب.. وجن جنون الجمهور تماما.

هنا بدأت الفوضى.. صيحات الاستهجان تصاعدت بين الجمهور من مشجعي (كابون) وتطايرت علب الشراب مع الشتائم.. ثم حدثت مشكلة أخرى هي أنني نسيت أن أخبر (عزازيل) - وحسبت هذا مفهوما بالبديهة . أن السلتين ليستا مماثلتين.. إحداهما كانت سلة الضيف والأخرى كانت سلة المضيف.. وأن كل لاعب يصوب لسلته المناسبة..

هكذا راح (لياندر) يصوب الكرة إلى أي السلتين أقرب له.. وقد ظل يفعل هذا برغم اعتراضات المدرب الذي أغرق اللعاب فمه وهو يصرخ.. ووجد نفسه مضطرا لطرده للأسف، وبكى لأنهم اضطروه لإخراج أصابعه من حلق (لياندر) كي يتمكنوا من إخراجه من الملعب..

أما (لياندر) فلم يعد هو نفسه مرة أخرى.. أغرق أحزانه في الشراب.. وغرق في الدراسة برغم هذا تعلقت به (جونيبر) أكثر، وقالت:

- إنه بحاجة لي!

وضحت بكل شيء لتتزوجه بعد التخرج، بينما هوى هو إلى الحضيض، وتلطخ بوصمة لا يمكن محوها: دكتوراه في الفيزياء..

أعرف اليوم أنه يحصل على ستين ألف دولار في العام ويدرس الفيزياء، ويتحدثون عنه كمرشح محتمل لجائزة نوبل.

(جونيبر) لا تشكو حظها العاثر لكنها مخلصة لمثلها الأعلى الذي تهاوى.. ولم تصدر منها كلمة أو حركة تدل على خيبة أملها، لكنها لن تخدع أباها الروحي. إنها تفكر في البطل الأوليمبي المكلل بالغار الذي لن يكون لها أبدا.. تفكر في بيتها الريفي الواسع المليء بالخدم.

- هذه هي قصتي..

قالها (جورج) وهو يجمع الفكة التي جلبها الساقي لي..

وأضاف:

- لو كنت مكانك لتركت له بقشيشا طيبا..

كذا فعلت أنا بينما (جورج) يبتسم ويرحل.

لم أفكر في الفكة التي ضاعت مني.. ما فكرت فيه هو أن (جورج) ظفر بوجبة مجانية بينما ظفرت أنا بقصة يمكن أن أحكيها على أنها من تأليفي، فتجلب لي من المال أضعاف ثمن هذه الوجبة.

في الواقع أزمعت أن أدعوه للعشاء من حين لآخر.

☆ ☆ ☆

إحساس بالقوة

اعتاد (جيهان شومان) التعامل مع الرجال ذوي النفوذ في كوكب الأرض الذي أرهقته الحروب. كان مجرد مدني لكنه طور برامج كمبيوتر من أعلى طراز تستخدم في الحروب، وكان الجنرالات يصغون له.. الجنرال (وايدر) بفمه الصغير وبشرته التي لوحها الفضاء، ورجل الكونجرس (برانت) بخديه الناعمين وعينيه الصافيتين.

أما (شومان) المتأنق طويل القامة والمبرمج من الدرجة الأولى، فقد كان يواجههم بلا تهيب، ويقول:

- هذا يا سادة هو (مايرون أوب)..

قال رجل الكونجرس في هدوء:

- ذو الموهبة الخارقة الذي اكتشفته أنت بالصدفة؟

وتفحص الشاب الذي يشبه رأسه الأصلع البيضة بفضول.. هنا تقلصت أصابع الشاب في توتر، فهو لم يقترب قط من رجل عظيم إلى هذه الدرجة من قبل. كان مجرد فني فقير متوسط الذكاء فشل في اجتياز كل الاختبارات التي ينتقون بها المتميزين، وقنع بأن يصير ضمن العمالة غير البارعة. فقط كانت هوايته تلك هي ما لفت نظر المبرمج العظيم له، وجعلته يحدث كل هذه الضوضاء.

قال جنرال (وايدر):

- أنا أجد أن جو الغموض هذا طفولي نوعا..

قال (شومان):

- سوف تغير رأيك خلال لحظة.. ليس هذا بالشيء الذي نكشفه أمام وافد جديد.. (أوب)!

كانت هناك لهجة آمرة في الطريقة التي ذكر بها الاسم، لكنه كان مبرمجا عظيما يتكلم مع فني ضئيل الشأن.

- (أوب).. كم تساوى تسعة في سبعة؟

تردد (أوب) للحظة وتألق الحماس في عينيه الشاحبتين، ثم قال:

- ثلاثة وستين..

رفع رجل الكونجرس حاجبيه الكثيفين، وقال:

- هل هذا صحيح؟

- تأكد بنفسك يا سيدي..

أخرج رجل الكونجرس الكمبيوتر الصغير الخاص به ووضعه على راحة يده، ثم ضغط الأزرار، وقال:

- هل هذه هي الموهبة التي جئتنا بها؟ مجرد ساحر؟

- ليس هذا كل شيء يا سيدي.. (أوب) يحفظ بعض العمليات ويمكنه أن يجريها على الورق..

- كمبيوتر ورقي؟

- لا يا سيدي.. مجرد ورقة.. هل يتكرم علينا الجنرال باقتراح رقم؟

- سبعة عشر..

- والسيد رجل الكونجرس؟

- ثلاثة وعشرين..

- جميل.. اضرب هذين الرقمين يا (أوب)، واعرض على السيدين كيف تفعلها..

أخرج (أوب) قلما صغيرا من جيبه وقطعة ورق وتجعد جبينه وهو يجرى الحسابات على قطعة الورق. فطلب منه الجنرال الورقة وتأملها، ثم قال:

- يبدو هذا كأنه رقم 17..

قال عضو الكونجرس:

- نعم.. يبدو مثله.. لكن بوسع أي شخص أن ينسخ هذه الرسوم من على شاشة الكمبيوتر.. أعتقد أن بوسعي أن أرسم (17) أنا نفسي حتى من دون تدريب..

قال (شومان) ببرود:

- لو سمحتما بترك (أوب) يواصل حساباته أيها السيدان..

واصل (أوب) العمل ويداه ترتجفان، وفي النهاية قال:

- الإجابة هي ٣٩١.

أخرج الجنرال الكمبيوتر وأعاد الحساب، ثم هتف:

- بحق (جودفرى) هذا صحيح.. ولكن كيف؟

- لقد حسبها يا سيدي..

- هراء! الكمبيوتر شيء والورق شيء آخر.

راح الرجل يشرح كيف فعلها:

- أولاً: ضربت سبعة في ثلاثة.. الناتج كان واحدا وعشرين..

- وكيف عرفت هذا؟

- من ملاحظاتي للكمبيوتر وجدت أن حاصل ضرب الرقمين هو دائما واحد وعشرون.. بعد هذا أضفت الاثنين إلى العشرين..

- ولماذا إلى العشرين؟

- لا بد من هذا.. لا أعرف كيف أشرح الأمر، لكن هذه هي الطريقة..

☆ ☆ ☆

جلس رئيس الاتحاد الأرضي منهكا في مقعده، ورسم على وجهه الحساس ابتسامة حزينة. إن الحرب (الدنيابية) لا تمضي على ما يرام بعد بدايتها القوية، وقد ساد الاستياء الأرض نتيجة تعثرها. ربما يشعر العدو على كوكب (دينيب) بالشعور ذاته. والآن يسمعه عضو الكونجرس هذا الهراء.. قال للرجل:

- الحساب دون آلة حاسبة هو تناقض مصطلحات صريح..

هب عضو الكونجرس يعرض عليه بعض المهارات التي تعلمها من (أوب).. فبدأ الرئيس يهتم:

- هل تعلّم هذا صعب؟

- احتاج منى إلى أسبوع.

- لا أنكر أنها لعبة مسلية لكن ما نفعها؟

- ما نفع طفل وليد يا سيدي؟ حاليا هي لا شيء، لكنها تمهد الطريق يوما ما للتحرر من الآلات.. هذه الحرب (الدنيابية) هي حرب كمبيوتر ضد آخر.. نطور نظام دفاع فيطورون أفضل منه.. نبتكر كمبيوتر فيأتون بواحد أفضل.. هذا الاتزان لن ينتهى أبدا.. لكن لدينا الآن ما يمكن أن نتجاوزهم به.. ذكاء الإنسان سيرجح كفتنا.. المبرمج (شومان) يقول إنه لا يوجد ما يصنعه الكمبيوتر ويعجز عنه المخ البشري.. فقط الكمبيوتر يحقق هذا في جزء من الثانية.. إنني أطلب دعم الإدارة لإنشاء مشروع أطلق عليه اسم (مشروع الرقم) لو سمحت لي.. يبدو أن أجهزة الكمبيوتر في الماضي كان يصنعها الإنسان... هذا بالطبع قبل أن يوجد الكمبيوتر الفائق الذي صنعه كمبيوتر آخر.. وعملية الضرب التي قمت بها أمامك ليست سوى تقليد لما يصنعه الكمبيوتر.. كلما حسّنّا من ذكاء الإنسان استطاع الحزب أن يستثمر كل المبالغ الطائلة التي ينفقها على الكمبيوتر.

- وما الذي يضمن لي ألا يدب الخلل في عقول البشر؟ الكمبيوتر يعطيني ذات الإجابة في كل مرة.. فمن يضمن أن يفعل الإنسان هذا؟

- لأن الكمبيوتر لم يكن موجودا طيلة الوقت.. لقد صنع البشر السكك الحديدية والطرق من دون كمبيوتر..

- الفنون المندثرة! هل ستكلمني عن الفنون المندثرة؟

- لست متحمسا لها.. لكن لا ننكر أن الإنسان كان يأكل الحبوب قبل ظهور الحبوب المزروعة في سائل

hydroponics، وبالتالي فمن الممكن أنه كان يزرع الحبوب في التربة..

- لا أعرف.. لن أصدق أن الحبوب يمكن أن تزرع في التربة ما لم أر ذلك بعيني.. وماذا بوسعكم غير الضرب؟

- هناك القسمة.. هناك استعمال العلامة العشرية..

بدت الدهشة على الرئيس، وقال:

- علامة عشرية! لم أنبهر كثيرا بالضرب لكن موضوع العلامة العشرية هذا! وماذا أيضا؟

قال (شومان):

- ما زال الأمر سرا لكن يجب أن أخبرك أننا في الطريق للحصول على مربعات الأرقام! يقول (أوب) إنه اقترب جدا من حل المعضلة.. وأنت رجل رياضي فلن تجد عسرا في فهم طريقة العمل هذه..

كان (أوب) يقف في ركن المكان.. لم يعد فنيا بالطبع، بل صار ضمن المشروع يكسب راتبا عاليا، لكن أحد هؤلاء السادة لم يعامله على قدم المساواة قط.. لم يسمحوا لأنفسهم باعتباره مثلهم وهو كذلك لم يجسر على ظن كهذا.. كان غير مرتاح معهم كما كانوا هم معه..

قال الجنرال:

- حلمنا هو سفينة بلا كمبيوتر يا سادة.. هذه سوف تكلفنا خُمس وقت البناء وعُشر التكلفة.. وهناك ما هو أدهى.. القذيفة البشرية!!

سادت ضوضاء بين الجالسين، على حين قال الجنرال:

- حتى هذه اللحظة مشكلتنا هي أن القذائف محدودة الذكاء يجب أن يكون الكمبيوتر الذي يوجهها ضخما، وهذا يؤدى لاصطدامها بوسائل الدفاع بسهولة... حرب القذائف بلغت مداها بالنسبة لنا والعدو لحسن الحظ... لكن التحكم بالذكاء البشرى يجعل القذائف أخف وزنا وأذكى وأرشق حركة.. معنى هذه المزية لنا هو النصر.. كما يجب ألا ننسى شيئا: الإنسان رخيص الثمن يمكن الاستغناء عنه أكثر من الكمبيوتر..

قال أكثر من هذا، لكن الفني (أوب) لم ينتظر.. لقد كتب في المذكرة التي خلفها وراءه:

- عندما بدأت دراسة الرياضيات التي تطلقون عليها اليوم اسم graphitics، لم تكن إلا هواية.. وجدتها تسلية مفيدة ورياضة عقلية.. وحينما فكرتم في (المشروع الرقمي) فكرت في أن الـ graphitics سوف تستخدم لمصلحة البشر.. لكني أراها لن تستخدم إلا للموت والدمار.

ثم صوب نازع الاستقطاب البروتيني نحو نفسه وسقط ميتا.

وقف الرجال على قبره بينما ألقيت موعظة عن عظمة اكتشافه. وخفض المبرمج (شومان) رأسه مع الآخرين لكنه لم يتأثر بكلمة. لقد أنجز الفني عمله ولم يعد أحد يحتاج إليه. لقد ابتكر الـ graphitics لكنها قادرة اليوم على الاستمرار بنفسها.. إلى أن تصير القذائف البشرية ممكنة.

63 = 7 x 9

ولا أحتاج إلى كمبيوتر كي يخبرني بهذا.. الكمبيوتر الآن هو رأسي..

وقد منحته هذه الفكرة إحساسا مدهشا بالقوة.

☆ ☆ ☆

المتعة التي فازوا بها

حتى (مارجي) كتبت عن هذا في مفكرتها في تلك الليلة في الصفحة التي تحمل تاريخ 17 مايو 2155 كتبت:

- لقد وجد (تومي) كتابا حقيقيا اليوم!

كان كتابا عتيقا جدا.. جدها حكى أنه حينما كان طفلاً أخبره أبوه أن القصص كانت تطبع على ورق.

قلبا الصفحات التي اصفرت وتجعدت.. وكان من الممتع أن تقرأ كلمات ثابتة بدلا من الطريقة التي تتحرك بها على الشاشة. وحينما كانا يعودان للصفحة السابقة كانا يجدان ذات الكلمات كما قرآها أول مرة.

قال (تومي):

- ياه.. يا للخسارة.. حينما تنتهي من الكتاب يجب أن تتخلص منه.. شاشة التلفزيون تتسع لملايين الكتب.. ولن نتخلص منها أبدا..

كانت (مارجي) في الحادية عشرة من عمرها، ولم تر الكثير من الكتب المرئية مثل (تومي)؛ لذا سألته:

- أين وجدته؟

- في بيتنا.. في العلية..

قالها دون أن يرفع عينه؛ لأنه كان يقرأ..

- وما موضوعه؟

- المدرسة..

- وما الذي يمكن قوله عن المدرسة؟ أنا أكره المدرسة..

كانت تكره المدرسة دوما لكنها الآن تكرهها أكثر.. إن المعلم الآلي يعطيها الاختبار تلو الآخر، وفي النهاية اضطرت أمها لاستدعاء مفتش المقاطعة.

كان رجلاً صغير الحجم مكتنزا له وجه أحمر، ولديه عدة كاملة من أدوات الاتصال. ابتسم لها وناولها تفاحة، ثم فكك المعلم. تمنت (مارجي) ألا يستطيع إعادة تجميعه، لكنه تمكن من ذلك بعد ساعة من العمل. عاد المعلم أسود ضخما قبيحا له شاشة كبيرة عليها تظهر الدروس. أكثر ما كانت تكرهه هو تلك الفتحة التي تدخل منها الواجبات المنزلية.. كان عليها أن تقدمها على شكل بطاقات مثقبة تعلمت استخدامها وهي في سن السادسة، وكان المعلم الآلي يحسب الدرجة فورا.

قال المفتش لأمها:

- ليس خطأ الصغيرة يا مسز (جونز).. أعتقد أن الجزء المختص بالجغرافيا كان مسننا أكثر من اللازم.. هذه الأشياء تحدث أحيانا.. لقد قمت بإبطاء سرعته ليناسب مستوى عشر سنوات.. إن مستوى تحصيلها لا بأس به..

وربت على رأس (مارجي) فشعرت بخيبة أمل.

لقد تمنت أن يخلصوها من المعلم، فقد أخذوا ذات مرة معلم (تومي) لمدة شهر كامل، لأن القسم الخاص بالتاريخ قد تلف كلية.

قالت لـ (تومي):

- لماذا يكتب أحد عن المدرسة؟

نظر لها بريبة، وقال:

- لأنها ليست كمدارسنا يا غبية.. هذه مدارس من الطراز الذي كان سائدا منذ مئات الأعوام.. منذ قرون..

ونطق العبارة الأخيرة بتمهل.

- حسن.. لا أعرف نوعية مدارسهم في هذا الزمن.. لكن كان لديهم معلمون على كل حال..

- بالطبع كان عندهم معلم. لكنه ليس بالمعلم المعتاد.. كان بشريا!

- بشر! أنّى لبشر أن يكون معلما؟

- حسن.. كان يحكى للتلاميذ أشياء ويكلفهم بواجب منزلي...

- الإنسان ليس بهذا الذكاء..

- بل هو كذلك.. أبي يعرف قدر ما يعرفه معلمي..

- مستحيل..

- أراهنك على ذلك..

لم تكن مستعدة للجدل، فقالت:

- لا أريد رجلا غريبا في داري ليعلمني..

ضحك (تومي) ضحكة صارخة، وقال:

- لم يكن المعلمون يعيشون في دارك.. كانت هناك بناية يذهب لها التلاميذ.

- وكان التلاميذ يتعلمون الشيء ذاته جميعا؟

- بالطبع.. لو كانوا في نفس السن..

لكن أمي تقول إن على المعلم أن يغير طريقته

لتناسب ذكاء كل تلميذ على حدة..

- لا يهمني هذا.. لو لم تحبي ما أقول فلا تقرئي الكتاب..

- لم أقل هذا..

كانت تريد أن تقرأ عن هذه المدارس العجيبة..

ولم يكونا قد انتهيا من نصف الكتاب، عندما صاحت الأم:

- (مارجي)! المدرسة!

هتفت (مارجي):

- ليس بعد يا أماه..

- بل الآن.. وربما كان هذا موعد (تومي) كذلك.

سألت (تومي):

- هل بوسعي أن أقرأ الكتاب معك؟

- ربما..

قالها وهو يبتعد والكتاب تحت إبطه.. بينما ذهبت هي إلى غرفة الدرس.. كانت بجوار غرفة نومها وكان المعلم الآلي

ينتظرها. كانت نفس الساعة يوميا عدا السبت والأحد؛ لأن أمها قالت لها إن الفتيات الصغيرات يتعلمن أفضل لو تعلمن في ذات الساعة.

أضيئت الشاشة وعليها ظهرت عبارة: درس رياضيات اليوم عن جمع الكسور.. أرجو أن تدخلي واجب أمس في الفتحة!

فعلت (ماجي) هذا وهي تتنهد. كانت تفكر في كل المدارس العتيقة، عندما كان جد جدها طفلاً. عندما كان الصبية يصرخون ويلعبون في الفناء ويعودون معا للبيت في نهاية اليوم. حينما كان المدرسون بشرا والتلاميذ يتلقون المعلومات ذاتها ويمكنهم الكلام عن الواجب المنزلي معا..

كان المعلم الآلي يكتب على الشاشة: حينما نضيف 1/2 إلى الكسر 1/4......

وكانت (مارجي) تفكر كيف أن التلاميذ أحبوا المدرسة حتما في تلك الأيام.. كانت تفكر في المتعة التي فازوا بها.

☆ ☆ ☆

رجل المائتي عام

-1-

قال (أندرو مارتين):

- شكرا..

وجلس على المقعد الذي قُدم له.. لم يبد شخصا يائسا لكنه كان كذلك فعلا.

بالواقع لم يبد عليه أي شيء؛ لأن وجهه كان خاويا.

باستثناء الحزن الذي يخيل إليك أنك تراه في عينيه. كان شعره رقيقا أقرب للون البني، ووجهه كان خاليا من الشعر.. أما ثيابه فكانت عتيقة الطراز ولها لون مخملي قرمزي.

أمامه على النضد كان يجلس الجراح، ولوحة الاسم أمامه تحمل قائمة من الحروف والأرقام، لم يبال بها (أندرو). يكفي أن تناديه (دكتور).

- متى تجرى الجراحة يا دكتور؟

بنعومة وبنغمة الاحترام الذي لا يتحول إلى التي يستعملها الروبوت حينما يخاطب إنسانا.. قال الجراح:

- لست موقنا أنني أفهم يا سيدي على من ستجرى هذه الجراحة...

وبدت نظرة من العناد المؤدب على وجه الجراح، لو أن بوسع روبوت مثله صنع من الصلب الذي لا يصدأ أن يرسم على

وجهه هذا التعبير أو أي تعبير آخر.

راح (أندرو مارتين) يدرس يد الروبوت اليمني.. إذ وضعت ساكنة على المنضدة. كانت الأصابع طويلة تتخذ منحنيات فنية يسهل أن تتصور مبضعا يوضع فيها ليصير جزءا منها.. لا أخطاء.. لا رجفات.. كان البشر قد أعدوا روبوتات بالغة التخصص، حتى إنه لم تعد من ضرورة للذكاء الاصطناعي، لكن في حالة الجراح كان الأمر يختلف طبعا.

سأله (أندرو):

- ألم تتمن قط أن تكون رجلا؟

تردد الروبوت قليلا، كأنه من الصعب أن يضع السؤال في مسارات عقله البوزيترونية، ثم قال:

- لكني مجرد روبوت يا سيدي..

- ألا تشعر بأن فرصتك أفضل لو صرت رجلاً؟

- لكني ما كنت لأكون جراحا أفضل يا سيدي، ما لم أكن (روبوت) أكثر تقدما..

- ألا يضايقك أنني آمرك فتمتثل لما أقول؟

- بل هذا يسعدني يا سيدي أن ألبي طلباتك.. لو كانت أوامرك تؤدي إلى إيذائك أو إيذاء أي بشرى آخر فلن أطيعها.. الآن من سأجري عليه هذه الجراحة؟

- عليّ أنا..

- .. لكن هذا مستحيل... إنها جراحة مؤذية..

قال (أندرو) بهدوء:

- هذا لا يهم.

- ليس بوسعي أن أسبب الأذى لأي بشري..

قال (أندرو):

- بالنسبة لإنسان هذا صحيح.. لكنني روبوت أنا الآخر!

☆ ☆ ☆

-2-

كان (أندرو مارتين) أقرب إلى الروبوت عندما تم تصنيعه في البداية. وقد مارس عمله جيدا في البيت الذي جُلب إليه ليؤدي الأعمال المنزلية، في زمن كان فيه الروبوت شيئا نادرا.

كان هناك أربعة في البيت.. السيد والسيدة والآنسة والآنسة الصغيرة... كان يعرف الأسماء لكن لم يستعملها قط.. السيد كان (جيرالد مارتين).. رقمه كان NDR لكنه نسي؛ لأن هذا كان منذ زمن سحيق.. الآنسة الصغيرة هي أول من ناداه (أندرو)؛ لأنها لم تستطع استعمال الحروف. الآنسة الصغيرة.. لقد عاشت تسعين عاما وماتت منذ دهر. حاول أن يدعوها (مدام)، لكنها رفضت..

كان عليه أن يقوم بدور الخادم والتابع ووصيف السيدات.. وكان محبوبا.. لقد عطلته السيدة والآنسة كثيرا عن عمله؛ لأنهما كانتا ترغبان في اللعب معه!

- بابا قال إنه يرغب في أن تنظف البيت.. هذا ليس أمرا.. لكننا نأمرك باللعب معنا..

كان مولعا بهما.. وقد اعتبر هذا ولعًا؛ لأنه لم يجد كلمة أخرى تعبر عن الأمر. في يوم من الأيام جرّب أن يصنع (دلاية) خشبية صغيرة للسيدة الصغيرة، وقد رآها السيد وانبهر بها كثيرا.. هكذا أحضر له في اليوم الثاني أدوات نحت وقطعة من الخشب، ومن هذا اليوم لم يعد عمله أن يعنى بالمائدة، بل أن يقرأ كتالوجات الأثاث ويصنع نماذج مشابهة لما يراه.

- هذه نماذج مذهلة يا (أندرو)..

- إنني أستمتع بصنعها يا سيدي..

- تستمتع؟

- إنها تجعل دوائر مخي تسري بنعومة.. سمعتكم تستعملون كلمة (يستمتع) في مواضع تماثل ما أشعر به.. إنني أستمتع يا سيدي..

☆ ☆ ☆

-3-

أخذ (جيرالد مارتين) (أندرو) إلى مكاتب رابطة الولايات المتحدة للروبوت والرجال الآليين. بصفته عضوا في الجمعية التشريعية لم يلاق متاعب في ترتيب مقابلة مع كبير الخبراء النفسيين للروبوت. كان منصبه هذا هو ما أهّله لامتلاك روبوت أصلا في أيام ندرة الروبوتات هذه.

لم يكن (أندرو) يفهم هذا في وقتها، لكنه مع تراكم السنين استطاع أن يتذكر هذا المشهد ويراه في ضوئه الصحيح.

أصغى الخبير النفسي (مرتون مانسكي) بتقطيبة تتزايد، واستطاع أكثر من مرة أن يمنع أصابعه من أن تدق على المائدة. كان مجعد الجبين لكن يمكنك أن تخمن أنه أصغر سنا مما يبدو عليه.

- الروبوتيات ليست فنا مكتملاً.. لا أستطيع شرح هذا بالتفصيل، لكن المسارات البوزيترونية شديدة التعقيد، بحيث لا تتيح لنا إلا حلولا تقريبية. لكننا لا نقبل أي تلاعب في القوانين الثلاثة.. سوف نستبدل لك هذا الروبوت بالتأكيد..

قال السيد:

- بالعكس.. موضوع فشله غير مطروح.. إنه يؤدي عمله بشكل ممتاز.. المشكلة هي أنه ينحت الخشب بشكل ممتاز ولا يكرر الشكل ذاته مرتين.. إنه يصنع فنا.. إنه خلاق فعلا..

وناوله قطعة من الخشب نُحت عليها منظر ملعب فيه أولاد وبنات تم نحتهم بدقة عالية برغم صغر حجمهم..

لم يصدق (مانسكي)، وقال:

- هو صنع هذا؟ إنها الصدفة.. شيء في مساراته..

- هل يمكنك تكرار هذا العيب؟

- لا أعتقد.. لم يذكر شيء كهذا قط.

- جيد.. لا يضايقني قط أن يكون (أندرو) هو النموذج الوحيد..

- لكنني أعتقد أن الشركة سترغب في استرداد هذا الروبوت لتدرسه..

قال السيد، في ضراوة مفاجئة:

- مستحيل! انس الموضوع..

واستدار لـ (أندرو) قائلاً:

- لنعد للبيت الآن..

☆ ☆ ☆

كانت الآنسة مشغولة بعلاقاتها العاطفية وغير موجودة في المنزل أكثر الوقت. لكن الآنسة الصغيرة هي التي ملأت أفق (أندرو) الآن.. لم تنس قط أن أول قطعة خشب نحتها كانت لها.. وقد احتفظت بها في سلسلة حول عنقها. وكانت تلوم أباها على التخلي عن أعمال (أندرو).. كانت تطالبه بأن يبيعها لمن يريدها.

كانت هناك رحلة أخرى لمحامي السيد.

- ما رأيك في هذا يا (جون)؟

كان المحامي هو (جون فاينجولد).. وكان رجلاً أشيب ذا بطن سمينة.. نظر إلى البروش الذي أعطاه إياه السيد، وقال:

- جميل.. لكني سمعت عن الموضوع. أليس هذا نحتا صنعه الروبوت الذي يعمل عندك؟

- كم تدفع ثمنا لشيء مثل هذا يا (جون)؟

- لا أعرف.. لست من جامعي هذه الأشياء..

- هل تصدق أنه قد عُرض عليّ 250 دولارا لهذا؟

لقد صنع (أندرو) مقاعد بيعت بخمسمائة دولار.. لديّ مائتا ألف دولار في المصرف من منتجات (أندرو)..

- رباه! إنه يقودك إلى الثراء يا (جيرالد)..

- نصف ثري.. فنصف المبلغ في حساب باسمه..

- الروبوت؟

- نعم.. وأريد معرفة إن كان هذا قانونيا..

بدا أن المحامي يفكر بعمق، ثم قال:

- أم.. لا توجد سوابق لهذا.. هل يمكنه التوقيع؟

- نعم.. يمكنه كتابة اسمه.. فهل هناك شيء آخر؟

- يمكننا أن نعد قيّما يتعامل مع العالم الخارجي باسمه لكني لا أعتقد أن هناك من سيعترض على شيء كهذا.. لو اعترض أحد فليقم دعوى..

- وهل تقبل التعامل مع دعوى كهذه؟

- نعم.. مقابل مقدم أتعاب طبعا..

- كم؟

- شيء كهذا.

وأشار إلى البروش الخشبي

- هذا عادل..

ضحك (فينجولد) ونظر إلى الروبوت، وقال:

- (أندرو).. هل أنت مسرور لامتلاكك المال؟

- نعم يا سيدي..

- وماذا تنوى عمله بها؟

- سأدفع ثمن الأشياء يا سيدي.. هكذا أوفر على السيد دفع الأثمان الباهظة..

☆ ☆ ☆

كانت الحاجة ملحة لذلك.. كانت تكلفة الإصلاح عالية، وقد ظهرت موديلات روبوتات أحدث، فراح السيد يتأكد من أن (أندرو) يحظى بكل تطوير جديد. كل هذا تم على حساب (أندرو) الذي أصر على هذا. فقط لم يمس أحد مساراته البوزيترونية، كما طلب السيد.

قال له:

- الموديلات الجديدة ليست رائعة مثلك.. إنها لا تساوى شيئا. لقد صارت المسارات العقلية أكثر إتقانا.. هذه الروبوتات الجديدة لا تنحرف، بل تفعل ما طلب منها فحسب.. أنا أفضلك عنها..

- شكرا يا سيدي..

- هل تعرف كم مرة طلب منى (مانسكي) أن أعيدك له؟ تسع مرات.. الآن قد تقاعد فلربما أظفر ببعض الراحة..

الآن قد شاخ السيد وشاب شعره، بينما ازداد (أندرو) بهاء.. السيدة في أوروبا، والآنسة صارت شاعرة في (نيويورك). الآنسة الصغيرة تزوجت وتقيم في الجوار.

وحينما أنجبت ابنها - السيد الصغير - سمحت لـ (أندرو) بأن يمسك الزجاجة ويرضعه.

الآن شعر (أندرو) أن سيده وقد ظفر بحفيد لن يجد مطلبه التالي غير عادل.

- سيدي.. كان كرما منك أن سمحت لي بإنفاق مالي كما أريد..

- كان هذا مالك يا (أندرو)..

- بإرادتك يا سيدي.. فما كان القانون ليمنعك من استبقائه كله لك..

- القانون لن يغريني بارتكاب الخطأ.

- برغم كل الضرائب والمستقطعات، فأنا أملك الآن ستمائة ألف دولار..

- أعرف يا (أندرو)..

أرغب في ترك هذا المبلغ لك..

- وأنا لا أريده يا (أندرو)..

- مقابل شيء تمنحه لي يا سيدي.. حريتي! أنا أريد أن أبتاع حريتي يا سيدي!

☆ ☆ ☆

لم يكن الأمر سهلاً لأن وجه السيد احمر، وقال:

- بحق السماء!

ثم استدار وابتعد.

كانت الآنسة الصغيرة هي التي عادت به.. لمدة ثلاثين عاما لم يتحرج أحد من الكلام أمام (أندرو).. سواء تعلق به الأمر أم لا فقد كان مجرد روبوت.

- أبي.. لماذا تعتبر هذه مسألة شخصية؟ سيظل هنا.. سيظل مخلصا لك.. كل ما يريده هو شكل لفظي.. يريد أن نعتبره حرا.. هل هذا صعب؟ ألم يستحق هذا؟ لقد ظل يتكلم معي في هذا الموضوع عدة أعوام

- هل فعل هذا؟

- نعم.. لكنه كان يؤجل فتح الموضع حتى لا يؤذيك.. وقد طلبت منه فتح الموضوع..

- لكنه لا يعرف معنى الحرية. إنه مجرد روبوت..

- أنت لا تعرفه يا أبي.. لقد قرأ كل كتاب في المكتبة.. لا أعرف ما يدور بداخله، لكني لا أعرف ما يدور بداخلك أيضا..

قال السيد مغضبا:

- القانون لن يقبل هذا.. انظر هنا!

ووجه كلامه لـ (أندرو).. بخشونة متعمدة في صوته:

- لن أحررك إلا بشكل قانوني.. لو أخذت هذا الموضوع للمحاكم فلن يرفض طلبك فحسب، بل سينظر القانون في أمر مالك.. سيقولون إن الروبوت ليس له الحق في الكسب.. فهل هذا الهراء يستأهل خسران مالك؟

قال (أندرو):

- الحرية لا تقدر بمال يا سيدي.. حتى فرصة الحرية تستحق أن أخسر مالي..

☆ ☆ ☆

يبدو أن المحكمة بدورها كانت ميالة، لأن الحرية لا تقدر بمال، لهذا ترى أن الروبوت لا يمكن أن ينال حريته بأي ثمن مهما عظم.

وكان ما قرره المدعي الذي يمثل هؤلاء الذين رفعوا دعوى ضد التحرر كما يلي:

- لفظة (حرية) لا معنى لها حينما تطبق على روبوت.. فقط الإنسان يمكن تحريره..

كررها عدة مرات ببطء ويده تدق على المنضدة مع الكلمات.

طلبت الآنسة الصغيرة الحق في الكلام نيابة عن الروبوت.

نوديت باسمها الكامل، الذي لم يسمعه (أندرو) من قبل..

- فلتقترب (أماندا لورا مارتين تشارني)..

- شكرا سعادتكم.. لست محامية ولا أعرف الطريقة المثلى للتعبير.. لكن آمل أن تصغوا للمعاني وتتجاهلوا الكلمات..

فلنفهم أولا معنى الحرية بالنسبة لـ (أندرو). لقد مر على الأقل عشرون عاما منذ أعطاه أي فرد من آل (مارتين) أمرا قد لا يريحه.. برغم أن بوسعنا أن نأمره بأي شيء؛ لأنه مجرد آلة نملكها.. لكن لماذا نفعل وهو قد خدمنا لفترة طويلة وكسب مالا كثيرا من أجلنا؟

- إطلاق سراحه مجرد لعب بالكلمات لكنه يعني الكثير له.. سوف يهبه كل شيء، ولا يكلفنا أي شيء..

للحظات بدا أن القاضي يدارى ابتسامة، وقال:

- أفهم وجهة نظرك يا سيدة (تشارني)، والحقيقة أنه لا توجد سابقة بهذا الصدد.. فقط هناك الفرضية القائلة بأن الإنسان فقط هو القادر على الاستمتاع بالحرية. دعيني أتكلم مع الروبوت نفسه..

كانت هذه أول مرة يتكلم فيها (أندرو) أمام محكمة. ويبدو أن القاضي اندهش من نبرة صوته البشرية.

- لماذا تريد الحرية يا (أندرو)؟ وفيم يهمك هذا؟

سأله (أندرو):

- هل ترغب في أن تكون عبدا سعادتكم؟

- لكنك لست عبدا. فأي شيء تمنحك إياه الحرية؟

- لقد قيل هنا إن الإنسان فقط هو من يستطيع أن يكون حرا.. أنا أقول إن من يرغب في الحرية فقط هو من يستطيع أن يكون حرا.. وأنا أرغب سعادتكم.

كانت هذه العبارة هي ما جعل القاضي يصدر حكمه:

المحكمة ترى أن الحرية حق لمن يملك القدرات العقلية التي تتيح له فهم معناها..

☆ ☆ ☆

-8-

ظل السيد متضايقا وقد أشعر صوته الخشن (أندرو) بأنه على وشك الانفجار.

- لا أريد مالك اللعين.. سآخذه فقط لو أنك لم تستطع الشعور بالحرية بأية طريقة أخرى.. من الآن بوسعك اختيار ما تفعله.. لن أعطيك أوامر فيما عدا هذا: افعل ما تحب.. لكني ما زلت مسئولاً عنك.. هذا جزء من حكم المحكمة.. أتمنى أن تفهم هذا..

قال (أندرو):

- أليس البشر مقيدين بالقانون يا سيدي برغم أنهم أحرار؟

- لن أجادل..

قالها السيد وغادر الغرفة، ولم يعد (أندرو) يراه كثيرا بعد هذا.

جاءت الآنسة الصغيرة لتراه في البيت الصغير الذي صنع له. بالطبع لم يكن له مطبخ ولا حمام. كان مكونا من غرفتين واحدة منهما مكتبة.. وواحدة عبارة عن خليط من مخزن وورشة. لقد تلقى (أندرو) عقودا كثيرة وعمل بجد حتى سدد تكاليف المنزل وصار ملكه.

حتى جاءه ذات يوم السيد الصغير.. كلا! جاءه (جورج)! إنه أصر على هذا بعد جلسة المحكمة، وقال إن الحر لا ينادي أحدا باسم (السيد الصغير)..

- ناديني (جورج) كما أناديك (أندرو)..

كان (جورج) هنا ليخبره أن السيد يحتضر.. كانت الآنسة الصغيرة هناك، لكن السيد أراد أن يرى (أندرو) كذلك.

كان صوته ما زال قويا برغم إنه عاجز عن الحركة. راح يقاوم ليرفع رأسه.

- (أندرو).. لا تساعدوني.. أنا لست معوقا.. أنا فقط أحتضر... يسعدني أن أراك حرا.. أردت ان تعرف هذا..

لم يدر (أندرو) ما يقول، فهو لم يكن قط جوار سرير محتضر.. لكنه أدرك أن هذه هي الطريقة البشرية للتوقف عن العمل. إنه تجريد إجباري من القدرة على الأداء. لم يعرف ما يقول، لكنه لم يستطع أن يقف صامتا ساكنا.

حينما انتهى الأمر، قالت له الآنسة الصغيرة:

- ربما لم يكن ودودا معك قرب النهاية يا (أندرو)، لكنه كان مسنا وقد آلمه أن ترغب في التحرر منه..

قال (أندرو):

- ما كنت لأتحرر من دونه أيتها الآنسة الصغيرة..

☆ ☆ ☆

فقط بعد وفاة السيد بدأ (أندرو) يلبس الثياب.. جرب سراويل قديمة أولاً. وكان (جورج) قد تزوج وصار محاميا. لقد التحق بشركة (فاينجولد).. أما المحامي العجوز فكان قد شاخ ومات لكن زوجته واصلت العمل. في النهاية صار اسم الشركة (فاينجولد ومارتين)، وقد ظلت كذلك حتى بعدما تقاعدت الابنة.

حاول (جورج) ألا يبتسم وهو يرى (أندرو) يحاول ارتداء السراويل للمرة الأولى. لكن (أندرو) رأى الابتسامة بوضوح. علمه (جورج) كيف يستعمل الشحنة الإستاتيكية ليفتح السراويل ثم يسحبها على أسفل جسده.. أراه ذلك على سراويله لكن (أندرو) قدر أنه يحتاج لوقت كي يجيد هذه الحركة الانسيابية.

- لكن لماذا ترغب في سراويل يا (أندرو) ما دام جسدك يعمل بكفاءة؟ أنت لست قلقا بصدد البرد أو الخجل..

هنا أجاب (أندرو):

- أليست أجساد البشر تعمل بكفاءة كذلك؟ ولكنهم يغطون أجسادهم؟

- للدفء.. للنظافة.. للحماية.. للزينة.. كل هذا لا ينطبق عليك..

- أشعر بالعرى دون ثياب يا (جورج).. أشعر بأنني مختلف..

- مختلف؟ هناك ملايين الروبوتات على الأرض الآن.. في هذه المنطقة بالذات حسب التعداد هناك نفس عدد البشر من

الروبوتات.. ولا يرتدي أي منها ثيابا..

بدأ (أندرو) برغم هذا يضيف ثيابا لخزانته. ربما كان حرا لكن في داخله كان ذلك البرنامج الذي يرغمه على الإصغاء للبشر.. وأي علامة انتقاد كانت تؤخره عدة أشهر. كان يحرص مثلاً على ألا تراه الآنسة الصغيرة وهو يضع الكثير من الثياب.

في إحدى زياراته قال له (جورج)، محزونا:

- لقد ظفرت بي يا (أندرو).. سوف أذهب للهيئة التشريعية العام القادم.. تقول إن الحفيد سيكون كالجد.. أنا أعنى هذا.. سأكون مثل السيد الذي كان في الهيئة التشريعية.. إنني أفتقد هذا الوحش العجوز الآن.. آه لو كان حيا..

ظل (أندرو) يتذكر هذه المحادثة.. كان يشعر بنقص قدراته اللغوية عندما يتكلم مع (جورج). لقد تغيرت اللغة كثيرا منذ جاء هذا البيت مزودا بقاموسه اللغوي الخاص. كان (جورج) يستعمل لغة عامية تختلف عن لغة السيد. لماذا نسمى السيد وحشا ما دامت هذه اللفظة لا تناسبه بالتأكيد؟

حتى كتبه لم تساعده كثيرا لأنها كانت قديمة، وكانت تتكلم عن نحت الخشب.. في النهاية قرر أن يجد الكتب المناسبة.. سيذهب للمدينة ويبحث عن المكتبة.

ارتدى ثيابا كاملة، ومشى نحو مائة قدم بعيدا عن البيت قبل أن يشعر بمقاومة عنيفة ترغمه على التوقف. حاول تبديل دوائره، لكن هذا لم يغير شيئا.

عاد للبيت وعلى قطعة ورق كتب:

- ذهبت إلى المكتبة..

ووضعها في مكان ظاهر أمام منضدة العمل.

☆ ☆ ☆

لم يستطع (أندرو) أن يذهب للمكتبة قط بالمعنى الصحيح.

كان قد درس الخارطة وعرف الطريق، لكنه لا يعرف كيف تبدو. كانت علامات الطريق لا تشبه المرسومة على الخارطة مما كان يربكه. في النهاية قرر أنه ضل الطريق على الأرجح.

مر بروبوت حقل لكنه قرر ألا يسأله. ومرت به سيارة لكنه لم يتوقف.

وقف مترددا أي أنه وقف بلا حراك؛ لأنه رأى عبر الحقل إنسانين قادمين.

استدار نحوهما، فاتجها نحوه.. بدت عليهما السمات التي ربطها (أندرو) بالحيرة عند البشر.. كانا شابين.. ربما في العشرين؟ لم يكن قط بارعا في تخمين عمر البشر

- هل يمكن أن تصفا لي الطريق لمكتبة البلدة أيها السيدان؟

قال الفتى الطويل، الذي أضافت قبعته طولاً لقامته:

- إنه روبوت..

قال الآخر، ذو الجفنين الثقيلين والأنف الذي يشبه البصلة:

- إنه يلبس ثيابا..

سأله الفتى الطويل:

- هل أنت روبوت (مارتن)؟ الذي صار حرا؟

- أنا (أندرو مارتين) يا سيدي..

- إذن انزع هذه الثياب، الروبوت لا يلبس ثيابا.. إن هذا مقرف!

تردد (مارتن).. فهو لم يسمع هذه اللهجة من قبل حتى إن دوائره بدأت تختل لحظيا.

كرر الفتى الطويل الأمر:

- هيا.. انزع ثيابك..

ببطء نفذ (أندرو) الأمر، وقال ذو الأنف:

- إن لم تكن تخص أحدا فهي لنا..

قال الطويل لـ (أندرو):

- قف على رأسك..

- الرأس لا يصلح لـ...

- هذا أمر.. لو لم تعرف كيف حاول..

تردد (أندرو) ثم انحنى ووضع رأسه على الأرض..

حاول رفع قدميه فلم يستطع.

قال الفتى الطويل:

- بوسعنا أن نفككه.. هل فككت (روبوت) قبل هذا؟

- هل يتركنا نفعل؟

- كيف يستطيع منعنا؟

ما كان (أندرو) ليقدر على منعهم لو أمروه بذلك؛ لأن القانون الثاني يعلو على القانون الثالث.. طاعة البشر أهم من الحفاظ على سلامته.. وما كان ليقدر على مقاومتهم من دون أن يؤذيهما.. وهذا سيخرق القانون الأول.

مشى الطويل نحوه ودفعه بقدمه، وقال:

- إنه ثقيل.. نحتاج لآلات لننجز المهمة.

- يمكننا أن نأمره بأن يفك نفسه.. سيكون مسليا أن نراه يجرب..

قال الطويل مفكرا:

- نعم.. لكن لنبعده عن الطريق؛ حتى لا يرانا أحد..

كانا قد تأخرا فعلاً.. لقد جاء شخص فعلاً، وكان هو (جورج)..

رآه (أندرو) قادما على البعد.. وتمنى أن يشير له لكن آخر أمر تلقاه كان (استلق هنا)..

كان (جورج) يجرى الآن... وقد تراجع الشابان بينما هتف هو في قلق:

- أندرو.. هل ثمة شيء خطأ؟

أجاب (أندرو):

- بخير يا (جورج)..

- إذن قف.. أين ذهبت ثيابك؟

سأله الشاب الطويل:

- هل هذا هو الروبوت الخاص بك؟

استدار (جورج) بحدة، وقال:

- هو لا يخص أحدا.. ماذا يجرى هنا؟

- طلبنا منه في أدب أن ينزع ثيابه.. ماذا يعنيك هذا إن لم تكن تملكه؟

قال (أندرو):

- كان هدفهما أن يفككاني بشكل ما.. كانا سينقلانني إلى مكان هادئ، ويطلبان منى أن أفكك نفسي..

نظر (جورج) إلى الشابين وارتجف فكه.

لم يتراجع الشابان بل كانا يبتسمان. وقال الطويل:

- ماذا ستفعله يا أحمق؟ هل ستهاجمنا؟

قال (جورج):

- لا.. لن أفعل.. هذا الروبوت ظل مع أسرتي 75 عاما.. إنه يعرفنا ويقدرنا أكثر من أي شخص آخر..

سأخبره أنكما تهددانني وتنويان قتلى.. سأطلب منه الدفاع عني.. هل تعلمان ما سيحدث؟

تراجع الشابان وقد بدا عليهما عدم الراحة.

قال (جورج):

- (أندرو)... أنا في خطر من هذين الشابين.. فهلا تحركت لإنقاذي؟

نهض (أندرو) فلم ينتظر الشابان.. لقد ركضا فارين.

- هلم يا (أندرو).. اهدأ..

كان (جورج) قد تجاوز سن مواجهة شاب واحد، فماذا عن اثنين؟

- ما كنت لأهاجمهما يا (جورج).. لقد رأيت أنهما لا يهاجمانك..

- لم أمرك بمهاجمتهما.. قلت لك أن تنهض.. وقد تكفل خوفهما بالباقي..

- كيف يخافان الروبوت؟

- هذا مرض لدى البشر لا علاج له.. لكن دعك من هذا.. ماذا تفعله هنا؟ كنت على وشك البحث عن هليكوبتر أستأجرها حينما وجدتك هنا.. كيف فكرت في الذهاب للمكتبة؟ بوسعي أن أجلب لك الكتب التي تريدها..

- أردت أن أعرف معلومات عن البشر.. عن العالم.. عن الروبوتات.. أريد أن أكتب كتاب تاريخ عن الروبوتات..

- لكن العالم مليء بالروبوتات والكتب التي تحكى عن تاريخ الروبوتات.

هز (أندرو) رأسه وهي حركة بشرية تعلم مؤخرا أن يستخدمها:

- ليس تاريخ الروبوتات فحسب يا جورج.. تاريخ الروبوتات كما كتبه روبوت....

ارتفع حاجبا (جورج) ولم يقل شيئا كرد مباشر.

☆ ☆ ☆

كانت الآنسة الصغيرة قد تجاوزت الثالثة والثمانين، لكن شيئا لم يتبدل فيها من ناحية القوة والعزم. وكانت تشير بعكازها أكثر مما كانت تتوكأ عليه.

غضبت كثيرا عندما سمعت ما جرى لـ (أندرو)، وقالت:

- (جورج).. لو أنك ثرى فإن هذا بسبب مواهب (أندرو).. إن المال الذي حققه هو أساس كل ما نملك.. لقد قدم الاستمرارية لهذه الأسرة.. ولن أترك أحدا يعامله كدمية (بزمبلك)

- ماذا تريدين أن أفعله يا أمي؟

- أنت محام.. ألا تفهم هذا؟ سوف ترغم السلطات التشريعية على تعريف حقوق الروبوت.. وخذ كل شيء إلى المحكمة العالمية.. سوف أراقب يا (جورج) ولن أقبل تهربا من الواجب..

كانت جادة.. وسرعان ما وجد أن ما بدأه كوسيلة لترضية السيدة المسنة صار قضية ذات أهمية قانونية بالغة. بما أنه شريك أكبر لشركة (فاينجولد) و(مارتين) وضع الاستراتيجية، لكنه ترك مهمة التنفيذ للشباب وبصفة خاصة لابنه (بول)، الذي صار عضوا في الشركة.. وصارت الآنسة الصغيرة تناقش التفاصيل كل يوم مع (أندرو). وكانت له آراء مهمة:

- قال لي (جورج) أن هذين اللذين هاجماني كانا يخشيان البشر.. معنى هذا أن المحكمة لن تتحمس لي كثيرا.. فهل ترين

أن نبدأ أولا بتغيير الرأي العام عن الروبوت؟

هكذا قرر (جورج) أن يتولى هذا الجزء المتعلق بالرأي العام.. وساعده على ذلك أنه لم يكن يتولى منصبا رسميا.. وقد ترك لابنه عمل المحكمة وراح يحاضر في كل مكان..

ذات مرة وجه كلامه للصحفيين في المؤتمر السنوي للمحررين العالميين قائلا:

- لو كان بوسعنا طبقا للقانون الثاني أن نطلب الطاعة من الروبوت، فإن كل بشرى يملك قوة مخيفة يسيطر بها على الروبوت.. أي روبوت.. وبما أن القانون الثاني يتفوق على الأول، فإن كل إنسان يمكنه أن يغلب قانون الطاعة على قانون حماية الذات... يمكنه أن يأمر الروبوت بتدمير نفسه لأي سبب أو بلا سبب..

- هل هذا عدل؟ هل نحن نعامل الحيوان بذات الطريقة؟ الروبوت ليس حيوانا... إنه يفكر ويتكلم معنا ويمزح.. هل نعاملهم كأصدقاء ثم لا نمنحهم بعض ثمار هذه الصداقة؟ إن القوة العظيمة يجب أن توجد مع مسئولية عظيمة.. وإذا كان الروبوت لديه ثلاثة قوانين تحدد له تعامله مع الإنسان، فهل من الكثير أن نطالب الإنسان بتنفيذ قانون واحد؟

أخيرا نجحت الحملة وتم تمرير قانون يحرم استخدام القانون لجعل الروبوت يؤذي نفسه. كانت العقوبات غير كافية لكنها كانت بداية.. أما آخر ما حدث لهذه التشريعات فكان يوم توفيت الآنسة الصغيرة.

لم تكن تلك صدفة.. لقد قاومت الآنسة وتشبثت بالحياة إلى أن سمعت كلمة النصر.. كانت آخر ابتسامة لها لـ (أندرو).

وآخر كلماتها كانت:

- لقد كنت طيبا معنا يا (أندرو)..

وماتت ويدها تمسك بيده.. على حين وقف ابنها وأبناء ابنها على مسافة محترمة منهما..

☆ ☆ ☆

انتظر (أندرو) بصبر بينما الروبوت المكلف بالاستقبال يتوارى بالمكتب الداخلي. استعمل الروبوت صندوق المحادثة الهولوجرافية لكنه ارتبك بالتأكيد؛ لاضطراره للتفاهم مع روبوت آخر وليس مع إنسان.

جاء أحدهم للغرفة لينظر له، فلم يحاول تحاشي النظرة.

جاء (بول مارتين) وكان مندهشا أو هذا ما فهمه (أندرو) من تعبير وجهه. كان الرجل يضع الماكياج الثقيل الذي تحتمه الموضة لكلا الجنسين. ولم يرق هذا لـ (أندرو).. وكان قد لاحظ أن اعتراضه على شيء في البشر لم يعد يضايقه. بل صار بوسعه أن يكتب عن هذا الشيء الذي ضايقه.

- هلم يا (أندرو).. آسف لأنني تركتك تنتظر.. كان هناك شيء أردت أن أنهيه..

- لو كنت منشغلاً يا (بول) فلسوف أنتظر..

نظر (بول) إلى الظلال المتحركة على القرص المعلق على الحائط، وقال:

- بوسعي أن أجد بعض الوقت. هل جئت وحدك؟

- استأجرت (أوتوماتوبيل)..

- وهل من مشكلة ما؟

- لا أتوقع مشاكل.. إن حقوقي في أمان.

نظر له (بول) في قلق، وقال:

- لكنك لو أصررت على ارتداء الثياب طيلة الوقت فلسوف تقع في شتى أنواع المشاكل.. كما حدث لك أول مرة.. ما أخبار كتابك؟

- دنوت من النهاية.. الناشر مسرور بذلك..

- جميل..

- لا أحسبه معجبا بالكتاب نفسه، بل بفكرة أن (روبوت) هو كاتبه.. لكن لندعه ينجح لأي سبب فنجاحه يعني المال، وأنا بحاجة للمال..

- جدتي تركت لك...

- الآنسة الصغيرة كانت سخية.. وأعرف أن بوسعي الاعتماد على الأسرة لمساعدتي، لكني بحاجة للكتاب لأقوم بالخطوة التالية...

- أية خطوة تالية؟

- أريد مقابلة رئيس اتحاد الروبوتات والناس الآليين الأمريكي.. حاولت تحديد موعد، لكنى عجزت عن الوصول إليه حتى الآن.. إن الاتحاد لم يتعاون معي في كتابة الكتاب، لذا أنا لست مندهشا..

ابتسم (بول)، وقال:

- التعاون آخر ما تنتظره منهم.. هم لم يعاونونا في المعركة الأخيرة والسبب واضح.. أعط الروبوتات حقوقا دستورية، ولسوف يعزف الناس عن شرائها..

- لكن بوسعك أن تتصل بهم لتحديد موعد لي..

- لست أكثر شعبية عندهم منك يا (أندرو)..

- يمكنك أن تزعم أن لقائي يحسن فرص ترويج الروبوتات..

- لكن ألا تكون هذه كذبة؟

- بلى.. وأنا غير قادر على الكذب.. لهذا أطلب منك أن تتصل أنت بهم..

- ليس بوسعك أن تكذب لكن يمكنك أن تلح على كي أكذب أنا! أنت تزداد بشرية مع الوقت يا (أندرو)!

☆ ☆ ☆

ما كان تدبير المقابلة سهلاً.. حتى مع أهمية اسم (بول) المفترضة. وحين تمت لم يبد (سميث روبرتسون) – حفيد مؤسس الاتحاد . سعيدا.. فقد كان على وشك التقاعد، وقد ضايقه طيلة حياته المهنية هذا الكلام عن حقوق الروبوت. وقد راح يرمق (أندرو) بعدوانية خفيفة من حين لآخر.

بدأ (أندرو) المحادثة:

- سيدي.. منذ قرن مضى قال لي (ميرتون ماتسكي) من هذه الرابطة أن الرياضيات التي تتحكم في مسارات البوزيترون معقدة جدا، بحيث لا تسمح إلا بحلول تقريبية.. لهذا لم يتم التنبؤ بقدراتي الكاملة..

قال المدير، في برود:

- كان هذا منذ قرن.. روبوتاتنا مصنوعة بدقة اليوم وتؤدى بالضبط العمل الذي صممت له... ليس من المستحب أن يرتجل الروبوت..

- إذن لم يعد أحد يصنع روبوتات مثلي.. مرنة قابلة للتكيف؟

- لا...

- أنا أقدم (روبوت) يملك القدرة على التصرف منفردا.

- الأقدم حاليا والأقدم للأبد.. بعد العام الخامس والعشرين نعتبر كل روبوت عديم النفع.. نستردهم ونستبدل بهم

موديلات حديثة..

قال (بول)، بشيء من السخرية:

- كل روبوت غير مفيد بعد العام العشرين.. (أندرو) هو الاستثناء الوحيد..

واصل (أندرو) النهج الذي رسمه لنفسه:

- بما أنني أقدم (روبوت).. أليس من حقي أن أنال بعض المعاملة الخاصة؟

- بالعكس.. إن اختلافك مصدر حرج للشركة، ولو كان بوسعنا استردادك لفعلنا..

- لهذا جئتك بكامل إرادتي.. أنا حر الآن.. وأطالب باستبدالي..

نظر له (سميث روبرتسون) في دهشة وذهول، ثم ساد صمت.. ووجد (أندرو) نفسه يحدق في صورة هولوجرافية على الجدار تمثل (سوزان كالفين) راعية كل الروبوتات. كان يعرفها من قراءاته عنها، ويعرف أنها توفيت منذ مائتي عام.

في النهاية قال (سميث):

- كيف أستبدلك؟ لو استبدلتك كروبوت فكيف لي أن أمنحك الروبوت الجديد باعتبارك مالكه، ما دامت عملية التبديل تعني توقفك عن الوجود؟

تدخل (بول):

- ليس هذا صعبا.. إن دوائر (أندرو) البوزيترونية هي ذاته.. ولا يمكن تبديلها إلا والنتيجة هي خلق روبوت جديد.. المخ البوزيتروني هو (أندرو) المالك.. كل جزء آخر يمكن تبديله دون المس بشخصية المالك.. بمعنى آخر (أندرو) يرغب في أن يحصل عقله على جسد آخر جديد..

قال (أندرو)، بهدوء:

- نعم.. لقد صنعتم أندرويدات.. أليس كذلك؟. روبوتات لها ذات شكل البشر وذات ملمس الجلد..

- نعم.. وقد عملت بكفاءة.. لا يوجد فيها معدن في أي مكان عدا العقل.. لكنها صلبة كأنها معدنية..

- مدهش.. وكم منها في السوق؟

- ولا واحد! كانت باهظة الثمن وأثبتت دراسات التسويق أنها لن تُقبل؛ لأنها تبدو بشرية أكثر من اللازم..

بدا (أندرو) منفعلاً جدا:

- إذن أنا أطلب أن أصير أندرويد..

هتف (بول)، في ذهول:

- يا إلهي الرحيم!

تصلب (روبرتسون)، وقال:

- مستحيل تماما..

- ولماذا؟ أنا مستعد لدفع أية نفقات..

- نحن لا نصنع أندرويدات.. هذا ضد السياسة العامة..

قال (بول):

- لا يوجد قانون يمنع هذا.. وهذا يضعني أمام قضية واضحة.. من حق موكلي باعتباره شخصا حرا أن يحصل على استبدال روبوت لأن الشركة تتيح هذا لكل روبوت يتجاوز 25 سنة من الخدمة.. رفضكم يعني أن موكلي يتلقى إهانة ومن حقه أن يقاضيكم.. رأيي أنكم لن تحبوا هذه المقاضاة لأن الجمهور ليس مولعا بكم.. ربما يعود هذا لأيام الماضي حينما كان الناس يخافون الروبوت، أو لأن الناس بطبعهم لا يثقون في الشركات الثرية العملاقة..

احمر وجه المدير، وقال:

- أنت تحاول...

- لا أرغمك على شيء.. لو رفضت فهذا اختيارك ولسوف نرحل من دون أن نقول كلمة أخرى.. لكننا سنقاضيك ولسوف ترانا نربح.. دعك من أنني سأعتبرك مسئولا عن كل دائرة في عقل موكلي.. فلو تأثر بعملية التبديل هذه سأبذل ما بوسعي كي أحرك الرأي العام ضدكم.. هل توافق يا (أندرو)؟

تردد (أندرو) وهو يشعر أن الأمر يحتاج إلى موافقته على الكذب والابتزاز وتهديد كائن بشرى، لكن ليس أذى ماديا.. ليس أذى ماديا..

في النهاية قال:

- نعم..

☆ ☆ ☆

شعر (أندرو) بأن تركيبه يعاد من جديد.. ولأيام عدة.. لم يعد يعرف ذاته وراح يتردد بصدد أبسط الأفعال. وكاد (بول) يجن:

- لقد آذوك يا (أندرو).. سوف نقاضيهم!

فكان (أندرو) يقول:

- لن تفلح.. لن تستطيع أبدا أن تبرهن عن شيء مثل.. مثل..

- مثل الإيذاء؟

- لم.. لم تتم قط.. قط جراحة كهذه..

لكن (أندرو) كان يشعر بعقله الداخلي ويعرف أنه لم يمس.. فقط احتاج لستة أشهر كي يستعيد توافقه العضلي العصبي.. واحتاج لقضاء ساعات أمام المرآة..

بشري فعلا! وجهه متصلب وحركاته متمهلة للغاية، وتفتقر للسريان اللامبالي للبشر.. ربما يأتي هذا فيما بعد، أما الآن فهو على الأقل قادر على ارتداء ثيابه دون المنظر السخيف لوجه معدني يطل منها.

قال لـ (بول):

- سأعود إلى العمل.. لقد قضيت بداية حياتي كفنان.. ثم صرت مؤرخا.. الآن أرغب في أن أصير عالم روبوتات robotolgist..

- هل تقصد خبيرا نفسيا للروبوتات؟

- ليس المخ البوزيتروني.. بل الجسد المتصل بهذا المخ..

- ألا يعني هذا أن تكون مختص روبوتات roboticist؟

- لا.. مختص الروبوتات يعمل على الجسد المعدني.. أنا سأدرس جسدا بشريا عضويا، أعرف أنني الوحيد الذي يملكه..

- لكن هذا يضيق حقل عملك.. معنى هذا أن تعكف على دراسة نفسك..

- يبدو هذا..

راح (أندرو) يدرس من البداية فهو لم يكن يعرف شيئا عن الجسد البشري ولا عن العلم.. صار يتردد بكثرة على المكتبات.. حيث كان يجلس لساعات ومظهره طبيعي جدا..

بنى مختبرا في غرفة ألحقها بالمنزل، ونما مختبره كذلك.

ذات يوم جاءه (بول) ليقول:

- من المحزن أنك لم تعد مؤرخا للروبوتات.. إن روبوتات الولايات المتحدة ستخضع لسياسة جديدة تماما..

كان قد شاخ، وقد استبدلوا بعينيه خلايا بصرية.

سأله (أندرو):

- ماذا فعلوا؟

- يصنعون كمبيوترات مركزية عملاقة تتصل من أي مكان بعدد يتراوح بين 12 إلى ألف كمبيوتر عن طريق الموجات القصيرة. لم تعد هناك عقول للروبوت لكنهم مجرد أطراف لمخ عملاق بعيد..

- هل هذا يجعلهم أكثر كفاءة؟

- (سميث روبرتسون) وضع هذه السياسة قبل موته ورأيي أن هذا رد فعل معاد تجاهك.. الشركة قررت ألا تصنع روبوتات تسبب لها المشاكل التي سببتها أنت.. لقد فصلوا المخ عن العقل.. المخ لا يأمل في جسد أفضل، والجسد لا يفكر في أي شيء.. من المذهل أن يتصور المرء تأثيرك على تاريخ الروبوتات.. أنت من أدخل مبدأ حقوق الروبوتات وتصميمك على جسد أندرويد سبب فصل المخ عن الجسد..

فكر (أندرو) ثم قال:

- أعتقد أنهم في النهاية سيصنعون عقلاً واحدا جبارا يسيطر على كل الروبوتات.. كل البيض في سلة واحدة وهذا خطر.. ليس صحيحا على الإطلاق..

قال (بول):

- على كل حال هذا التغيير قد يحتاج إلى قرن كامل.. أنا لن أراه.. في الحقيقة لا أعتقد أنني سأرى العام القادم..

صاح (أندرو):

- (بول)!!

فهز هذا كتفيه، وقال:

- البشر فانون.. نحن لسنا مثلك.. لكن ما يجب أن تعرفه هو أنني آخر آل (مارتين).. كل ما أملكه أتركه لك في وصيتي... سوف تكون في أمان من الناحية الاقتصادية.

برغم كل هذا الزمن لم يستطع (أندرو) قط أن يهضم موت آل (مارتين).

- دعنا لا نتجادل.. فالأمور ستصير كذلك... ماذا تنوى عمله الآن؟

- أصمم نظاما يسمح للأندرويدات بأن تحصل على الطاقة من الهايدروكربونات...

رفع (بول) حاجبيه:

- هل تعنى أن تأكل وتتنفس؟

- نعم..

- منذ متى تتحرك في هذا الاتجاه؟

- منذ زمن.. لكنى أخيرا تمكنت من تصميم غرفة احتراق للحصول على الطاقة..

☆ ☆ ☆

مع موت ابن حفيد السيد، شعر (أندرو) بأنه مكشوف لعالم معاد، وهذا جعله أكثر تصميما على ما انتواه..

لكنه لم يكن وحده تماما؛ لأن الإنسان يموت لكن شركة (فاينجولد ومارتان) تعيش.. إنها خالدة كالروبوت ذاته.

كانت للشركة تعليماتها وقد ظلت تتبعها بلا روح. وظل (أندرو) ثريا.. لكنه زار شركة الروبوتات وحده.. لقد زارها مرة مع السيد ومرة مع (جورج) ومرة مع (بول).. هذه المرة هي الثالثة لكنه يزورها وحده..

لقد تبدلت الشركة كثيرا.. لقد تحولت الأرض نفسها إلى ما يشبه الحديقة وتعداد البشر قد ثبت عند بليون نسمة.. أما الروبوتات فعددها مماثل لذلك، وإن كان أقل من ثلثها يملك عقلاً.

مدير الأبحاث كان (ألفين ماجديسكو).. أسمر الشعر والبشرة له لحية مدببة، ولا يلبس فوق الخصر إلا حزام الصدر الذي صار موضة.

صافح (ماجديسكو) زائره، وقال:

- أعرفك طبعا وسعيد لرؤيتك.. أنت منتج ممتاز ومن المؤسف أن المرحوم (روبرتسون) لم يكن يميل لك، وإلا لأنجزنا عملا مهما معا..

- ما زال بوسعنا ذلك..

- للأسف لا.. الروبوتات سيتم إرسالها للفضاء، ومن يبق منها هنا سيكون بلا عقل..

- لكنني روبوت وأنا باق على الأرض..

- نعم.. لكن ليس هناك من هم مثلك.. ماذا بوسعي أن أقدمه لك؟

- أرغب في مصدر عضوي للطاقة.. ولدي خطة تقضي بأن...

سمع (ماجديسكو) الخطة.. وبدا متصلبا مهتما ثم قال:

- هذا يستدعي تغييرات عظمي.. تجريبية.. رأيي أن تبقى كما أنت ولا تجرب..

لم يكن وجه (أندرو) يظهر انفعالاته لكن صوته بدا نافذ الصبر إذ، قال:

- سيدى.. أنت لا تفهم أنه ليس لديك الخيار إلا الاستجابة لمطلبي.. إن الحاجة لإطالة عمر الإنسان بأدوات صناعية ملحة الآن.. ولا يوجد أفضل من تلك التي قمت بتصميمها.. يمكنني أن أنتجها عبر شركتي.. أدوات صناعية تعويضية للإنسان مشتقة من المستخدمة للروبوت.. سوف يؤثر هذا على مبيعاتكم.. لو قبلتم أن تجروا العملية لي فلسوف أمنحكم حقوق استغلال الاختراع.. لن أوقع العقد الأساسي إلا بعد العملية وبعد مرور وقت يؤكد لي أنها ناجحة..

بدا الذهول على الرجل، وقال:

- لستُ من يقرر هذا.. إنه قرار الاتحاد..

- يمكنني الانتظار لوقت معقول.. لكن فقط لوقت معقول..

وفكر في رضا أن (بول) نفسه ما كان ليؤدي هذا بشكل أفضل.

☆☆☆

-16-

بعد وقت معقول نجحت الجراحة..

وقال (ماجديسكو):

- كنتُ ضد إجراء الجراحة يا (أندرو) لكن ليس للأسباب التي تظن.. كنت سأرحب بالجراحة لو تمت على شخص آخر؛ لأني كنت قلقا على دوائر مخك البوزيترونية..

- كنت واثقا من براعتكم.. إن بوسعي أن آكل الآن.

- يمكنك شرب زيت الزيتون فهو يضمن تنظيف غرف الاحتراق.. كما شرحنا لك..

- ربما أهتم بما هو أكثر.. أنا أصمم أداة تتعامل مع الطعام الصلب الذي توجد به مواد غير قابلة للهضم.. مواد يجب التخلص منها..

- إذن سوف تحتاج إلى شرج..

- أو ما يماثله..

- وما الذي يماثل الشرج؟

- كل شيء..

- جهاز تناسلي كذلك؟

- جسدي لوحة قماش أرسم عليها...

انتظر (ماجديسكو) أن ينهي الجملة، فلما لم يفعل أكملها له:

- ترسم عليها رجلاً؟ أنت لا تفهم يا (أندرو).. أنت أكمل من الإنسان.. لكنك بدأت الانحدار منذ قررت أن تصير عضويا.. لماذا تلعب المزيد من الألعاب مع جسدك؟

لم يرد (أندرو).

جاء التكريم.. وقبل عضوية عدد من الجمعيات المثقفة، ومنها جمعية اختصت بالعلم الذي ابتكره. علم الروبوتات.. وفي عيد ميلاده رقم 150 أقيم حفل تكريم له بشركة الروبوتات.

حضر (ماجديسكو) الحفل مع تقاعده.. لقد كان في الرابعة والتسعين، وسبب بقائه حيا هو تلك الأجهزة التعويضية التي تؤدي عمل الكبد والكليتين. ووصل العشاء لذروته عندما رفع الرجل كأسه في صحة الروبوت.

كانت أعصاب وجه (أندرو) قد تطورت إلى حد أنه يستطيع أن يرسم تعبيرا شبه آدمي. لكنه ظل سلبيا طيلة الاحتفالات.

لم يحب فكرة أن عمره 150 عاما..

☆ ☆ ☆

في العقود التي تلت هذا الحفل، كان القمر قد صار أشبه بالأرض من الأرض نفسها، في كل شيء عدا الجاذبية.. وفي مدنه التحت أرضية كان هناك تعداد سكاني هائل. وقد قضى (أندرو) على القمر خمسة أعوام يطور الأجهزة التعويضية لتتناسب والجاذبية الضئيلة.

عاد للأرض التي صارت رتيبة هادئة بالمقارنة، وزار مكاتب (فينجولد ومارتين).

دهش (سيمون ديلونج) المدير الحالي للشركة:

- كنا نتوقع قدومك يا (أندرو) لكن ليس قبل الأسبوع القادم..

- نفد صبري.. على القمر كنت مسئولاً عن فريق بحثي من عشرين عالما وكانوا يطيعونني بلا مناقشة ويعاملونني كأنني إنسان.. فلماذا لا أعتبر إنسانا؟

- أنت إنسان بحكم الأمر الواقع De facto..

- أريد أن أعامل كإنسان بحكم القانون De jur..

قال الرجل في حذر:

- هذه هي المشكلة.. مهما كنت تبدو بشريا فأنت لست كذلك..

- ولمه؟؟ إنني أبدو بشريا.. لدى أعضاء تعويضية تشبه تلك الموجودة لدى أناس كثيرين، وقد ساهمت فنيًا وعلميا في

الثقافة البشرية.. فماذا أفعل ثانية؟

- أعتقد أن هذا يتطلب تشريعا دوليا.. وأنا لا أعتقد أن هذا سيحدث.. لكن يجب أن تخاطب رئيس لجنة العلوم والتقنية..

- إذن فلترتب لنا هذا اللقاء..

لم يتصور (أندرو) قط أن يُصدر أمرا لإنسان.. لكنه اعتاد هذا على القمر على كل حال.

☆ ☆ ☆

-18-

كان رئيس اللجنة امرأة من جنوب شرق آسيا تدعى (تشي لي سنج)، وكانت ثيابها الشفافة تجعلها تبدو كأنها ملفوفة في البلاستيك. قالت له:

- أنا متعاطفة مع رغبتك في حقوق بشرية كاملة، لكن ما هي الحقوق التي ترغب فيها ولا تملكها؟

قال (أندرو):

- مثل حقي في الحياة.. الروبوت يمكن تفكيكه في أي وقت...

- الإنسان يمكن إعدامه في أي وقت.

- الإعدام يلي محاكمة.. أما تفكيك الروبوت فلا يحتاج إلى محاكمة.. تكفي كلمة رجل مسئول..

وبدأت تعبيرات وجهه المتصلبة تخونه، برغم أنه أراد ألا يظهر أية علامة على التوسل:

- لقد تمنيت أن أكون رجلا على مدى ستة أجيال من البشر..

نظرت له في عطف، وقالت:

- يمكن للمجلس التشريعي أن يعتبرك واحدا.. يمكنهم تمرير قانون يعتبر تمثالاً من صخر كأننا بشريا.. لكن رجال المجلس بشر ولسوف تبقى دوما تلك اللمسة من الشك فيك.

- حتى الآن؟

- أنت قدمت كل ما يجعلك تستحق جائزة البشرية.. لكنهم سيخافون أن يضعوا سابقة مؤذية.

- أية سابقة؟ أنا الروبوت الوحيد الحر.. لن يكون هناك آخرون.. أبدا..

- أبدا.. كلمة طويلة جدا... أنا أقبل أن أمنحك اعترافي كبشري، لكن أؤكد لك أن أيا من أعضاء المجلس لن يوافق.. أطلب منك ألا تأمل في شيء..

ثم جلست في مقعدها، وفكرت:

- بل قد تخطر للبعض فكرة لحل المشكلة هي تفكيكك.. قد يجدون أن هذه أسهل وسيلة لحل المشكلة القانونية.. أريدك أن تفكر في هذا جيدا..

وقف (أندرو)، وقال بحزم:

- وماذا عن تقنيات الأعضاء الصناعية؟ هذه فكرتي بالكامل..

- قد يبدو هذا قاسيا.. لكنهم لن يفكروا في ذلك.. بل ربما جعلوها نقطة ضدك.. سيقولون إنها مؤامرة تهدف إلى تحويل البشر إلى روبوتات. أنت لم تصر قط مركز حملة مقت سياسي.. دعني أؤكد لك أنك لن تتحمل ما سيحدث.. وهناك كثيرون سيصدقون ما سيقال. (أندرو).. دع حياتك تمضي كما هي..

- لو قررت أن أخوض الحرب، فهل تكونين بجانبي؟

- لو شعرت أن هذا الصراع يهدد مستقبلي السياسي فلسوف أتخلى عنك. أنا أحاول أن أكون أمينة معك..

- شكرا لك.. لن أطلب المزيد.. سأخوض هذا الصراع حتى النهاية، مهما كانت التبعات.. ولن أطلب منك عونا إلا بقدر ما تستطيعين منحه..

☆ ☆ ☆

لم تكن حربا مباشرة.. لقد استعملت (فينجولد ومارتين) سياسة الصبر والنفس الطويل، وقد قال (أندرو) إن لديه الكثير منهما.. ثم حاولت الشركة الكبرى تضييق مجال الصراع.

قاموا بحملة تدعو لعدم سداد الديون لأي شخص له قلب صناعي باعتبار أن هذا يجعله (روبوت) وينزع عنه آدميته.

لقد خاضوا المعركة ببراعة وخسروها في كل خطوة، لكنهم ضمنوا أن الموضوع صار واردا وشهيرا. ثم عارضوه مستأنفين أمام المحكمة الدولية.

استغرق هذا أعواما وملايين الدولارات.

وحينما صدر القرار الأخير، شعر (دي لونج) بأنهم أحرزوا نصرا فاق ما خسروه، وأقام حفلا حضره (أندرو).

- لقد حققنا شيئين يا (مارتين).. أولا: أثبتنا أنه مهما كان عدد الأعضاء الصناعية في الجسد البشرى فإنه يظل بشريا.. ثانيا: جعلنا الرأي العام يناقش بضراوة معنى أن تكون إنسانا..

- وهل تظن أنهم سيعترفون بي كبشري؟

بدا عدم الراحة على (دي لونج)، وقال:

- لا يمكنني أن أكون متفائلاً.. يبقى الوضع الذي اتخذوه مقياسا للآدمية.. الإنسان له مخ عضوي والروبوت له مخ بوزيتروني من البلاتين والإيريديوم.. لا تتضايق يا (أندرو)..

لكن هذه نقطة لا نستطيع إرغام المحكمة على قبولها.

- وماذا نفعل؟

- جرب.. إن رئيس المجلس سيكون معنا وغالبا رئيس الجمهورية.. إن فرصتنا ضئيلة، لكن لا بد من أن تقامر لو كنت مصرا..

- لن أستسلم أبدا..

☆ ☆ ☆

-20-

كانت عضو الكونجرس (لي سينج) أكبر سنًا مما كانت عندما قابلها (أندرو) أول مرة.. وامتلأ شعرها بالشيب ووجهها بالتجاعيد، أما (أندرو) فكانت ثيابه أقرب إلى الموضة التي كانت سائدة عندما ارتدى الثياب أول مرة منذ قرن.

قالت له:

- لقد بذلنا وسعنا يا (أندرو).. سنحاول مرة أخيرة لكن أؤكد لك أن الهزيمة مؤكدة. وسوف نتخلى عن الأمر.. كل جهودي لم تقدم لي سوى خسارة أكيدة في الحملة الانتخابية القادمة..

قال لها:

- أعرف وهذا يضايقني... لقد قلت إنك ستتخلين عنى لو وصلت الأمور لهذا فلم لم تفعلي؟

- فكر المرء يتغير.. في لحظة ما بدا لي أن التخلي عنك ثمن لا أقدر على دفعه.. على كل حال أنا في المجلس التشريعي منذ ربع قرن، وهذا كاف..

- المشكلة هي في تعريف المخ.. هل يمكننا أن نبتعد عن مكونات المخ؟ لنقل إن المخ هو أي شيء قادر على التفكير بصرف النظر عن تركيبه؟

- لن يصلح.. مخك صنعه البشر.. مخ الإنسان لا.. بالنسبة لأي إنسان يرغب في أن يبقى على مسافة من الروبوت تظل هذه الاختلافات جدارا من صلب ارتفاعه ميل وسمكه ميل..

كان يعرف منذ زمن أن الأمور قد تصل لهذا.. وفي النهاية سيصير القرار للجراح.

لقد وجد واحدا بارعا بما يكفي.. وهذا معناه أنه روبوت جراح؛ لأنه يصعب أن تثق بجراح بشرى في هذا.. سواء من ناحية الكفاءة أو صدق العزيمة.

لم يكن الجراح يستطيع إجراء الجراحة على إنسان، لهذا قرر (أندرو) أن يريح الجراح ويزيح القاعدة الأولى للروبوتات بأن يخبره:

- أنا روبوت مثلك..

ثم قال بحزم، وبكل ما تعلمه من قدرة على التعبير عن نفسه:

- أمرك أن تجرى لي الجراحة..

وبما أن القانون الأول لم يعد له وجود، فإن أمرا يعطى بهذا الحزم من واحد له هذا المظهر البشري، جعل القانون الثاني هو العامل هنا.

☆☆☆

كان الشعور بالوهن الذي شعر به (أندرو) تخيليا.. لقد شفى من الجراحة.. إلا أنه استند إلى الجدار محاولاً ألا يثير الفضول.. سوف يبدو مظهره ملفتا لو جلس.

قالت له (لي سينج):

- التصويت الأخير يأتي هذا الأسبوع يا (أندرو).. لم أستطع تأجيله.. سوف نخسر يا (أندرو).

- أنا ممتن لبراعتك في التأجيل.. لقد منحتني الوقت الذي أردته.. لقد قامرت..

سألته باهتمام:

- أية مقامرة تعنى؟

- ما كان بوسعي أن أخبرك ولا الناس في (فاينجولد).. كنت أعرف أنهم سيمنعونني.. لو كان المخ هو الموضوع فلا أحد يعبأ بمادة صنعه ولا تركيبه ما دامت خلاياه تموت.. لا بد أن تموت.. لا بد أن تفنى الشخصية مهما كان الجسد سليما.. لقد ظلت دوائري البوزترونية قرنين، ويمكنها أن تبقى قرونا.. هذا هو العائق. البشر يمكنهم أن يتحملوا (روبوت) خالدا لكنهم لا يتحملون وجود إنسان خالد.. لهذا لن يجعلوني بشريا أبدا.

سألته:

- ماذا تحاول قوله يا (أندرو)؟

- لقد أزلت المشكلة.. الآن تم ترتيب أن تنسحب القوى من دوائري البوزيترونية ببطء.

لم يبد أي تعبير على وجهها المجعد للحظة.. ثم تقلصت شفتاها:

- هل تعنى أنك رتبت موتك؟ لكن هذا مستحيل.. هذا ينقض القانون الثالث..

- لا.. لقد اخترت بين موت جسدي وموت إلهامي ورغباتي.. لو تركت جسدي يحيا مقابل موت ما هو أهم.. فهذا ينقض القانون الثالث..

مدت يدها تعتصر ذراعه، وهتفت:

- (أندرو).. هذا لن يصلح.. أعد الوضع لما كان عليه..

- مستحيل.. لقد حدث أذى كثير.. لم يعد لدي إلا عام أحيا فيه.. سأرى العيد المائتين لتركيبي.

- أنت أحمق يا (أندرو).. الأمر لم يكن يستحق هذا..

- لو جلب لي هذا البشرية فهو يستحق.. لو لم يجلبها فلسوف ينهى عذابي.. وهذا يستحق كذلك.

هنا فعلت (لي سنج) شيئا أثار دهشتها، هي نفسها..

لقد بدأت تبكي..

☆ ☆ ☆

-22-

كان غريبا أن ترى كيف أشعل هذا الفعل خيال العالم.. لقد قبل (أندرو) الموت كي يصير بشريا.. وكانت التضحية أقوى من أن يتم نبذها.

تم إعداد المراسم الأخيرة للعيد المائتين. وكان على رئيس العالم أن يوقع على الأمر ويجعل رغبة الناس قانونا. سوف تذاع المراسم وتبث إلى المستعمرات القمرية والمريخ ذاته.

كان (أندرو) في مقعد متحرك؛ لأنه لم يعد يقدر على المشي.

قال الرئيس:

- منذ خمسين عاما احتفلنا بك باعتبارك الروبوت الذي بلغ 150 عاما.. اليوم نحتفل بمائتي عام..

ابتسم (أندرو)، ومد يده يصافح الرئيس..

☆ ☆ ☆

-23-

راحت أفكاره تتلاشي وهو راقد في الفراش.. راح يحاول استجماعها.. إنه الآن رجل.. رجل!

ود أن تكون هذه آخر فكرة لديه، وأن يموت بها..

فتح عينيه لآخر مرة فرأى (لي سنج) تنتظر في حزن. الآخرون كانوا هناك، لكنهم بدوا كظلال... فقط كانت هي واضحة أمام الخلفية الرمادية.

مد لها يده في وهن.

كانت صورتها تخبو بينما أفكاره تتلاشى.. لكن فكرة واحدة جاءته قبل أن يتوقف كل شيء.

- الآنسة الصغيرة..

قالها بصوت خافت لا يمكن لأحد أن يسمعه.

[تمت]

هبوط الليل (3)

لو كانت النجوم لا تبزغ إلا ليلة واحدة كل ألف عام..

فكيف للبشر أن يتوارثوا عبر الأجيال ذكرى مدينة الرب؟

(إمرسون)

☆ ☆ ☆

مط (أتون 77) [4] رئيس جامعة (سارو) شفة سفلى عدوانية، وحدق في الصحفي الشاب مغضبا، لكن (ثيرمون 762) تجاهل هذا الغضب.. في شبابه عندما كان عموده واسع الصيت مجرد فكرة مجنونة في ذهن مراسل صحفي يفتقر للخبرة، كان مختصا بالمقابلات (المستحيلة).

كلفه هذا كدمات وعظاما مهشمة، لكنه كذلك منحه رصيدا لا ينفد من البرود والثقة بالنفس؛ لذا تجاهل اليد الممدودة نحوه وراح ينتظر حتى ينتصر الرئيس المسن على غضبه.

علماء الفلك غريبو الأطوار على كل حال، ولو كانت تصرفات (أتون) في الشهرين الأخيرين تعني شيئا، فإن (أتون) هذا هو أغرب الجميع.

قال العالم الذي لم تفارقه براعته اللفظية:

- سيدي.. إنك لتظهر ضغينة جهنمية؛ إذ تأتي لي بهذا الاقتراح الصفيق..

هنا تدخل (بيناي 25) المصور التلسكوبي أجش الصوت، بعد ما بلل بطرف لسانه شفتيه الجافتين، وقال:

- لكن سيدي.. بعد كل شيء...

استدار له الرئيس ورفع حاجبا أبيض، وقال:

- (بيناي).. لا تتدخل.. سأفترض أنك جلبت هذا الرجل هنا بنية حسنة.. لكني لن أتحمل المزيد من العصيان الآن.

قال (ثرمون):

- لو تركتني أكمل كلامي أيها الرئيس (أتون) فإنني..

- لا أصدق أيها الشاب أن أي شيء تقوله يبرر ما تكتبه في عامودك اليومي طيلة شهرين.. لقد تزعمت حملة شرسة ضدي وضد أصدقائي، في محاولتنا لإقناع العالم بتفادي الكارثة التي لم يعد ممكنا تفاديها الآن.. لقد بذلت ما بوسعك كي تجعلنا محط السخرية.. حتى شخص في صفاقتك كان يجب أن يفكر قبل أن يأتي لي طالبا مساعدته في تغطية ما سيحدث.. من بين كل الناس.. أنت!!

وألقى (أتون) بالجريدة على الأرض واتجه إلى النافذة وقد عقد يديه خلف ظهره. ونظر للسماء حيث (جاما) أكثر شموس الكوكب الست سطوعا يتألق للمرة الأخيرة. وكان يعرف أنه لن يراه مرة أخرى كرجل عاقل.

ثم قال:

- انتظر.. سأعطيك قصتك..

دنا منه الصحفي فأشار له خارج النافذة، وقال:

- من بين الشموس الست لم يبق إلا (بيتا).. هل تراه؟

لم يكن للجواب أهمية لأن (بيتا) كان في الأفق فعلاً. وقد أغرق المنظر بضوء أرجواني بعدما مات (جاما). كان (بيتا) في نقطة الأوج وأصغر من أي وقت سابق، وفي هذه اللحظة كان يسيطر على سماء (لاجاش) وحده. لقد صار (بيتا) القزم الأحمر وحيدا.. وحيدا تماما..

قال (أتون):

- خلال أربع ساعات تنتهي الحضارة كما عرفناها..

وابتسم في جهامة، وقال:

- انشر هذا.. لن تجد وقتا حتى يقرأه قارئ واحد!

من جديد حاول (بيناي) أن يتكلم فأسكته الرئيس، فتململ خمسة الأعضاء الباقين في المرصد الذين ظلوا في حالة من الحياد الحذر.

قال الصحفي:

- ما هي المشكلة في أن أبقى هنا أراقب ما سيحدث كشاهد عيان؟ لو صح تخمينك فلن يؤذى وجودي أحدا.. لأن عامودي لن يكتب.. لو لم يحدث شيء فعليك أن تتوقع السخرية أو ما هو أسوأ.. من الأفضل أن تتولى السخرية أيد صديقة..

خنفر (أتون) وقال:

- هل تعنى يديك بعبارة (أيد صديقة)؟

- بالطبع! لقد منحتكم دوما مزية الشك برغم أن مقالاتي كانت حادة.. إن الناس تصدم عندما تجد أن العلماء يتكلمون بذات لسان العرافين: إن نهاية العالم قريبة.. هذا يضايقهم...

قاطعه (أتون):

- لا شيء من هذا يا بني.. الحقائق هي الحقائق.. هناك حقائق وراء الأساطير.. لقد جردناها من غموضها.. دع الجمهور يغضب...

- وماذا عن الغد؟

- لن يكون هناك غد!

- فلنفترض جدلاً أن هناك غدا.. سوف تنشأ عواقب خطيرة.. لقد تدهور (البيزنس) في الشهرين الماضيين.. المستثمرون لا يثقون تماما في موضوع نهاية العالم هذا لكنهم يفضلون أن يبقوا أموالهم حتى تنتهي هذه الأزمة.. حتى موضات الربيع تأخرت إلى أن يتضح الأمر.. لو انتهى الأمر على خير، لقالوا إنه لو استطاع حمقى مثلكم . واغفر لي وقاحتي - أن يفسدوا اقتصاد الكوكب متى أرادوا، عن طريق نبوءات مخبولة، فإن على الكوكب أن يمنعهم.. سوف يتطاير الشرر في كل مكان يا سيدي..

- وماذا تقترحه أنت وقتها؟

- الأمر لن يكون سهلا... سأحاول أن أظهركم كمجموعة من المخابيل.. سأجعل الناس يضحكون عليكم، وبهذا ينسون أن يغضبوا عليكم.. سوف يحل الضحك محل الغضب.. بوسعي أن أفعل هذا، لكن كل ما يريده ناشري هو قصة حصرية..

هنا تدخل (بيناي):

- سيدي.. إن معه كل الحق.. في الشهر الماضي عملنا حساب كل شيء إلا احتمال واحد في المليون أن نكون مخطئين.. يجب أن نعد لهذا الاحتمال..

غمغم الرجال موافقين وبدا (أتون) كرجل وجد فمه مليئا بمذاق مر لكنه لا يستطيع الخلاص منه.

- يمكنك البقاء هنا لكن تذكر أنني المسئول عن كل شيء هنا.. وبرغم آرائك الوقحة في عمودك فإنني أتوقع كل المسئولية وكل الاحترام..

كانت يداه خلف ظهره ورأسه مندفعا للأمام وهو يتكلم.. وكان ليتكلم للأبد لولا دخول صوت جديد..

- مرحبا!

كان صوتا من نغمة التينور العالي.. واتسع ثغر القادم الجديد في ضحكة مشرقة:

- ما هذا الجو الشبيه بالمشرحة؟ آمل أن أحدكم لم يفقد أعصابه..

نظر (أتون) في رعب، وقال بتعاسة:

- ماذا تفعل هنا بحق السماء يا (شيرين)؟ ظننتك ستنتظر في المخبأ..

ضحك (شيرين) وألقى بجسده القصير البدين على مقعد، وقال:

- ليذهب المخبأ للجحيم! لقد أثار مللي.. أردت أن أكون هنا حيث الأمور ساخنة.. أريد أن أرى تلك النجوم التي يحكى عنها الكهنة.. دعك من أن العالم النفسي لا يساوي شيئا لو قبع في المخبأ..

وأضاف في لهجة أكثر تعقلاً:

- الهواء بارد بالخارج.. يمكن للريح أن تجعل أنفك يتجمد.. لم يعد (بيتا) يعطى أي دفء.. وليس بوسعي عمل شيء مفيد لأنني بدين.. مائة رطل أثقل من الوزن المطلوب لأكون مكافحا.. كما أنني لا أصلح لتربية الأطفال.. فلماذا أثقل عليهم بفم جديد؟

سأله (ثرمون):

- وما هو المخبأ؟

بدا أن (شيرين) يلاحظ المراسل للمرة الأولى، فقال:

- ومن أنت يا ذا الشعر الأحمر؟

قال (أتون):

- هذا ثرمون 762.. المراسل الصحفي.. أحسبك تعرفه جيدا!

قال (شيرين):

- المخبأ هو مكان وضعنا فيه أفراد أسرنا.. البعض من الخارج.. العدد الكلى حوالي 300.. لكن ثلاثة أرباعه نساء

وأطفال.. عندما يجن البشر، وتشتعل المدن الكبرى ولا تسمح البيئة بالحياة..

قال (أتون):

- الأهم أن عندهم سجلاتنا ما عدا ما سنسجله اليوم..

كان الرجال جالسين حول المنضدة يلعبون الشطرنج التعددي.. هنا دنا (ثرمون) من (أتون) وقال له:

- لنقصد مكانا آخر لا نزعج فيه الباقين.. لدى أسئلة أريد طرحها.

قطب عالم الفلك العجوز وحده لكن (شيرين) تحمس وقال:

- بالطبع.. الكلام مفيد.. كان (أتون) يكلمني عن خطتك في حالة فشل نبوءاتنا، وقد وجدت كلامك منطقيا.. إنني أتابع عمودك وأحب ما تكتبه..

وانتقل الرجال للغرفة المجاورة التي كانت تتمتع بمقاعد أكثر نعومة، وستائر حمراء بينما أضواء (بيتا) الطوبية تتسلل للداخل.. مما جعل التأثير كأنه دم جاف.

قال (ثرمون):

- سأدفع أي شيء مقابل بعض الضوء الأبيض لثوان.. أتمنى لو كان (جاما) أو (دلتا) في السماء..

قال (أتون):

- أرجو أن تسأل لأن الوقت محدود جدا..

انحني (ثرمون) للأمام، وعقد يديه على صدره، وقال:

- هلا يمكنكم أن تشرحوا لي الأمر بوضوح؟

انفجر فيه (أتون):

- هل تعنى أنك كنت تقصفنا بهذه السخرية من دون أن تعرف ما نحاول أن نقوله؟

في تواضع هز الصحفي رأسه، وقال:

- ليس بهذا السوء يا سيدي.. إن لدى فكرة عامة.. تقولون إن الظلام سيعم الكوكب خلال ساعات وإن البشر سيجنون.. ما أريده الآن هو السند العلمي وراء هذا..

قال (شيرين):

- حتى لو كان (أتون) يملك المزاج الرائق لذلك، فلسوف يمطرك بأرقام ومعادلات لا تعرف لها رأسا من ذيل.. لو سألتني لأخبرتك بوجهة نظر الرجل العادي..

قال (ثرمون):

- حسن.. أنا أسألك..

- أنت تعرف قطعا أن تاريخ الحضارة فوق (لاجاش) له صفة دورية.. دورية!

- أعرف.. هذه هي النظرية الأثرية الحالية... هل قبلتموها كحقيقة؟

- نوعا.. لقد وجدنا آثار تسع حضارات هنا.. كلها بلغت الذروة ثم دمرت بفعل النيران في ذروة ثقافتها.. ولم يستطع أحد

أن يعرف السبب.. لم يبق شيء من مراكزها الثقافية ليخبرنا بما حدث..

- أرى.. استمر..

- كانت هناك تفسيرات بعضها أقرب للخيال.. البعض قال إنه كان هناك مطر ناري في فترات دورية. والبعض قال إن (لاجاش) يعبر شمسا من حين لآخر.. لكن هناك نظرية شديدة الاختلاف عن هذه، وقد دامت لقرون طويلة..

- تعنى (أسطورة النجوم) التي يحتفظ بها الكهنة في كتبهم..

- بالضبط.. يقول الكهنة إن كوكب (لاجاش) يدخل كهفا عملاقا كلما مر عليه 2500 عام.. فتختفى الشموس ويسود الظلام كل العالم.. ثم تظهر النجوم تسلب الرجال أرواحهم وتتركهم وحوشا مخبولة، ويدمرون الحضارة التي صنعوها.. بالطبع يخلطون هذا بأشياء ذات طابع ديني صوفي.. لكن هذه هي الفكرة الأساسية..

ساد صمت عميق أخذ فيه (شيرين) شهيقا عميقا، ثم قال:

- الآن نصل لنظرية الانجذاب الكوني.

في هذه اللحظة خنفر (أتون) وغادر الغرفة، فتساءل الصحفي عما هنالك.. قال (شيرين):

- لا شيء.. اثنان من الرجال تأخرا عن موعدهما.. وهو بحاجة لكل الطاقم لأن الغالبية في المخبأ الآن..

- أنت لا تعتقد أنهما فرا.. أليس كذلك؟

- من؟ (فارو) و(ييموت)؟ بالطبع لا.. لكن لو لم يظهرا خلال ساعة لواجهتنا بعض المشاكل..

ثم نهض فجأة، وقال:

- ولكن ماذا تعرفه عن الانجذاب؟

- لا شيء.. فيما عدا أنها نظرية حديثة.. رياضيات صعبة حتى أنه لا يفهمها إلا اثنا عشر رجلاً في (لاجاش)..

- كلام فارغ! بوسعي أن أعطيك كل الرياضيات في جملة واحدة.. النظرية تقول: إن هناك قوة جذابة بين كل الأجسام في الكون.. وهي تتناسب مع كتلتيهما مقسومة على مربع المسافة بينهما.. (5)

- هذا كل شيء؟

- كل شيء؟ لقد احتجنا لـ 400 سنة كي نطورها..

- ولم؟ يبدو الأمر بسيطا.

- لأن القوانين العظمى لا تأتي إلهاما.. منذ اكتشف (جينوفي 41) أن (لاجاش) يدور حول الشمس (ألفا) وليس العكس، ظل العلماء يدرسون حركة الشموس الست وظلت المعلومات تجمع وتطور وتعدل وتبدل.. كانت مهمة شيطانية.. ومنذ عشرين عاما أمكننا إثبات أن الشموس الست تتحرك طبقا لنظرية التجاذب.. هكذا نصل للنقطة المهمة.

تم في العقد الأخير قياس حركة (لاجاش) حول (ألفا)، فلم تتسق مع المدار الذي لاحظناه.. إما أن القانون لم يعد صالحا

أو هناك عامل آخر لا نعرفه.. تعثر علماء الفلك لعام كامل، وقد اقترح كل منهم نظرية. حتى فكر (أتون) في الاتصال بالكهنة..

زعيمهم (سور 5) كان يعرف معلومات سهلت المهمة..

.. ماذا لو كان هناك جسم كوكبي غير مضيء مثل (لاجاش)؟ ما كان ليسطع إلا بانعكاس الضوء.. فلو تكوّن فقط من الصخور السود؛ لجعله وهج الشموس في السماء غير مرئي..

صفّر (ثرمون):

- يا لها من فكرة مجنونة!

- تحسب هذه فكرة مجنونة؟ إذن اسمع هذه.. لنفترض أنه يدور حول (لاجاش) بطريقة تفسر بالضبط انحراف مدار (لاجاش)؟ هل تعرف ما سيحدث؟ أحيانا يعترض هذا الجسم الشمس.. من ثم يحدث الخسوف.. هذا الجسم سوف يكون سبعة أضعاف القطر الظاهري لـ (بيتا) من ثم يحدث الخسوف ويستمر نصف يوم.. هذا الخسوف يحدث كلما مر 2049 عاما..

قال (ثرمون) في خيبة أمل:

- وهذه هي قصتي؟

هز العالم النفسي رأسه، وقال:

- هي كلُّها.. أولا الخسوف الذي سيبدأ خلال ربع ساعة.. ثم إظلام كوني عام.. ثم ربما تظهر تلك النجوم الغامضة.. ثم يعم الجنون وتنتهي الدورة.. لقد حاولنا إقناع (لاجاش) على مدى شهرين.. لم يكن قرنان كافيين لنا.. على كل حال إن وثائقنا في

المخبأ.. وعندما تأتى الدورة التالية ربما يصدق البشر القصة ويتأهبون لها..

اهتزت الستائر على النوافذ؛ إذ انحنى (ثرمون) يطل على الخارج... ثم استدار فجأة ليقول:

- وأي شيء في الظلمة يدفع للجنون؟

ابتسم (شيرين) لنفسه، وقال:

- هل جربت الظلام من قبل أيها الشاب؟

استند الصحفى على الجدار، وفكر:

- لا... لكنى أعرف ما هي.. إنها.. لا ضوء.. مثل الكهوف.

هل دخلت كهفا من قبل؟

- بالطبع لا!

- أنا جربت الأسبوع الماضي، لكني خرجت مذعورا..

لقد توغلت حتى صار ثغر الكهف باهتا يحيطه السواد.. لم أحسب بوسع رجل في وزني أن يركض بهذه السرعة.

- ما كنت لأجرى كما فعلت أنت..

نظر له (شيرين)، وقال:

- لا تقل كلاما أكبر منك.. أتحداك أن تجذب الستار..

- وما الغريب في هذا؟ لدينا أربع أو خمس شموس.. ربما كان من المريح أن نخفض الإضاءة قليلاً..

اتجه (شيرين) إلى الستار الأحمر الكثيف فأسدله على النافذة.. أصدرت الحلقات المعدنية هسيسا، وهي تنزلق على القضيب ثم امتلأت الحجرة بشيء داكن..

دوي صوت خطوات (ثرمون) المترددة على الأرض ثم توقفت.. وقال:

- لا أراك يا سيدي..

- تحسس طريقك..

كان المحرر يلهث الآن بصوت خشن.. وقال:

- لا أرى أي شيء..

- ماذا كنت تتوقع؟ الآن تعال واجلس..

دوى صوت خطوات.. ثم صوت من يجلس إلى مقعد.. وجاء صوت (ثيرمون):

- أنا.. أنا.. بخير..

- هل أحببت هذا الشعور؟

- شعرت بأن الجدران.. الجدران تطبق عليّ.. أشعر برغبة في أن أدفعها بعيدا عنى.. لكن الشعور ليس بهذا السوء.. لم أفقد عقلي..

- الآن افتح الستائر من جديد..

مد (ثرمون) يده يتحسس.. أخيرا دوى صوت الستار وهو ينزلق فوق الحلقات ودخل الضوء الأحمر الغرفة.. وأطلق (ثرمون) صيحة فرح وهو يرى الشمس...

قال (شيرين):

- كان هذا نموذجا للظلام..

- يمكن تحمله..

- أنت تعتقد هذا.. الطفل يولد ولديه ثلاثة مخاوف غريزية: الخوف من السقوط.. الخوف من الأصوات العالية.. والخوف من الظلام.. أنت جربت الحالة التي وصفتها بأنها خوف من أن تنغلق الجدران عليك.. اسمها العلمي هو (كلوستروفوبيا) claustrophobia.. غياب الضوء يرتبط بالسجن داخل أماكن ضيقة... لو استمر المؤثر يحدث ما نسميه بالتثبيت الكلوستروفوبي.. خمس عشرة دقيقة تكفي للجنون..

تجعد جبين (ثرمون) وساد الصمت، ثم قال:

- لا أحسب الأمور بهذا السوء..

- بل أنت خائف من أن تصدق.. انظر من النافذة..

صدع (ثرمون) بالأمر، فقال الخبير النفسي:

- تخيل الظلام في كل مكان.. لا ضوء.. الأشجار.. الحقول.. السماء.. كل شيء أسود! هل تتصور؟

- أتخيل..

ضرب (شيرين) المنضدة بقبضته وصاح بغضب:

- أنت تكذب!!! مخك لم يعدّ لفهم هذا، كما أنه لم يعدّ لفهم اللانهاية أو الأبدية.. حين يأتي الشيء الحقيقي فلسوف

تفقد قدراتك العقلية بشكل دائم.. وبشكل غير قابل للإصلاح.. غدًا لن تكون هناك مدينة سليمة في (لاجاش)..

- ما زلت لا أفهم.. حتى لو لم توجد شمس في السماء فما خطر هذا على المدن؟ هل سنفجرها؟

غضب (شيرين) وقال:

- لو كنت في الظلام فما أول شيء ستفكر فيه؟.. اللعنة عليك.. ما الذي ستطالب به كل غريزة لديك؟ ستفكر في الضوء! في الضوء!

- حسن..

- وكيف تحصل على الضوء من دون شمس؟

- لا أعرف..

- بالنار يا مستر.. الحرارة ليست الشيء الوحيد الذي تمنحك النار إياه.. ألم تر حريق غابات من قبل؟ سوف يحرقون كل شيء!

وتلاقت العيون كأن الموضوع مسألة شخصية تتعلق بالاحترام.. في النهاية انهزم (ثرمون) وخفض عينيه..

سمعا صوتا من وراء الباب فقال (شيرين):

- أعتقد أن هذا (فارو) و(ييموت).. تعال نعرف سبب تأخرهما..

- ليكن..

قالها (ثرمون)، وهو يأخذ شهيقا عميقا..

كانت الغرفة صاخبة، تعج برجال الطاقم يحتشدون حول رجلين ينزعان ثيابهما وفي الوقت ذاته يجيبان عن خليط من الأسئلة ينهال عليهما.

اندفع (أتون) عبر الزحام، وواجه القادمين في غضب:

- هل تفهمان أنه بقي نصف ساعة قبل نهاية الموعد؟ أين كنتما؟

جلس (فارو) يفرك يديه، وقد احمر خداه من البرد بالخارج وقال:

- (ييموت) وأنا فرغنا من تجربة مجنونة قمنا بها وحدنا.. أردنا أن نرى ما إذا كان بوسعنا تقليد الظلام والنجوم لنأخذ فكرة عن مظهرها..

تعالى لغط حائر من القوم، ونظرة اهتمام في عيني (أتون):

- لم يكن هناك كلام عن شيء كهذا من قبل..

قال (فارو):

- الفكرة جاءتنا منذ زمن. كان (ييموت) يعرف بيتا من طابق واحد في البلدة له سقف يشبه القبة، وكان يُستعمل كمتحف.. لقد ابتعناه من حسابنا المصرفي الذي لن تعود له قيمة صباح غد.. وقد فرشنا البيت بالقطيفة السوداء من أسفله لأعلاه كي يصير كالظلام... ثم صنعنا ثقوبا في السقف وغطينا الثقوب برقائق معدنية تنفتح لدى تحريك محول.. هكذا صار بوسعنا الحصول على تأثير النجوم.. كنا خائفين من أن يقودنا التأثير للجنون.. حسب كلام (شيرين).. خطر لنا أنه لو تحملنا التجربة

فلسوف نكتسب مناعة ضد الخطر الحقيقي.. ويمكننا أن نجعل الآخرين يمرون بذات التجربة.. لكن الأمور لم تسر كما توقعنا..

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- جلسنا في الظلام وحاولنا أن نعتاده وهو شعور مرعب فعلا.. ثم فتحنا المحول فتألق السطح فوقنا بآلاف الأضواء الصغيرة..

- ثم؟

- ثم لم يحدث شيء.. مجرد سطح مثقوب.. لا يوجد تأثير برغم أننا جربنا التجربة مرارا..

ساد الصمت، ونظرت الأعين نحو (شيرين) الذي جلس فاتحا فمه.

كان (ثرمون) أول من تكلم.. وكان يضحك في ارتياح:

- تعرف ما يعنيه هذا بالنسبة لنظريتك كلها يا (شيرين)؟

قال (شيرين) رافعا يده:

- لحظة.. دعوني أفكر..

فجأة دوى صوت معدني من أعلى، فنهض (بيناي) وانطلق يصعد الدرجات، وهو يصيح:

- ماذا بحق السماء؟

استغرق الأمر لحظة ليلقي نظرة على اللوحات الفوتوغرافية والرجل المنحني فوقها، ثم انقض على المتطفل وأطبق بيده

على حنجرته.. وسرعان ما لحق به الباقون.. ودفن الدخيل تحت ثقل ستة رجال غاضبين.

لحق بهم (أتون) فقال لاهثا:

- أطلقوا سراحه..

أنهضوا الغريب اللاهث الذي تمزقت ثيابه.. كانت له لحية صفراء ملتفة على طريقة الكهنة، فهزه (بيناي) في حدة وهتف:

- حسن أيها الفأر.. ماذا تريد من هذه الألواح؟

قال الكاهن:

- لم آت من أجلها.. هذا مجرد حادث..

هتف (أتون) وهو يقترب من الكاهن:

- أنت (لاتيمر).. أليس كذلك؟

انحنى الدخيل وأشار إلى علامة على حرقفه، وقال:

أنا (لاتيمر 25).. معاون من الطبقة الثالثة لصفائه.. (سور 5)..

- وكنت مع صفائه حينما زارني الأسبوع الماضي.. أليس كذلك؟ وماذا تريد؟

لا شيء مما يمكنك أن تمنحني إياه بكامل إرادتك..

- هل هناك آخرون قادمون؟

- لن أجيب عن هذا السؤال..

نظر (أتون) لساعته وقال:

- لقد أنهيت دوري من الصفقة فماذا يريد سيدك مني؟ لقد علمت منكم بعض الأسرار وإنني لأشكركم على هذا، لكني كذلك أقوم بدوري في إثبات صحة عقيدتكم بشكل علمي.

انحنى الرجل في تصلب، وقال:

- عقيدتنا لا تحتاج إلى إثبات.. شكرا لك.. أنت برهنت على أن عقيدتنا لا لزوم لها.. قلت إن الظلام والنجوم ظواهر طبيعية لا دخل لها بديننا.. وهذا كفر صريح..

- وما ذنبي؟ الحقائق موجودة.. فهل أنكرها؟

- محاولتك لجمع الحقائق بوساطة أجهزتكم الشيطانية.. هذا تخريب لعقيدتنا.. وإنني نادم على خرقي الذي جعلني أفضح نفسي قبل أن أدمر كل أجهزتكم..

التفت (أتون) للرجال حوله، وقال:

- فليطلب أحدكم شرطة (سارو)..

صاح (شيرين) في ضيق:

- تبا يا (أتون).. لا وقت لهذا.. دع هذا الفتى هنا، ولسوف يعطيك وعد شرف ألا يضايقنا إلى أن يغيب ضوء (بيتا)..

قال الكاهن:

- لو كان الأمر يتعلق بالشرف فإنني أعدكم أن أتلف أجهزتكم في أول فرصة تتاح لي.. لو كنت تريد كلمة شرف فمن الأفضل أن تطلب الشرطة لي..

قال له (شيرين):

- أنت رجل صلب حقا.. سأخبرك بما ننوى عمله أنا وهذا الشاب الوسيم عند النافذة.. سنوسعك ضربا ثم نسجنك في خزانة مغلقة طيلة فترة الخسوف..

قال الكاهن:

- وطبعا لن تخرجاني.. أنا أعرف هذا.. سوف تجنون ولن يخرجني أحد.. هو الجوع إذن أو الاختناق.. لكنني لن أعطيكم كلمتي.. هذه مسألة مبدأ..

كان الضغط النفسي شديدا.. (شيرين) يمارس كل أساليب الضغط النفسي التي يجيدها كعالم نفسي، خاصة أن الرجل يعتقد أنه لو لم ير النجوم فروحه هالكة.. هكذا خضع في النهاية وأعطى كلمته بأنه لن يحاول تخريب شيء.

هنا صاح (ثرمون) وهو يشير إلى السماء شاحب الوجه:

- انظر لهذا!!

نظر الجميع في رعب إلى حيث أشار..

لقد كان (بيتا) مكسورا في جانب منه!

كانت الظلمة في اتساع ظفر اليد، لكنها بدت عملاقة بالنسبة لمن يراقبون.

للحظة راقبوا ما يدور في هلع، ثم انطلق كل رجل لأداء مهمته المرسومة.. لا وقت للعاطفة.. إنهم علماء لديهم ما يقومون به..

جذب (شيرين) (ثرمون) من النافذة وابتعدا على أطراف أصابعهما وهو يقول:

- (أتون) غاضب.. لذا ابتعد عنه.. لقد فقد متابعة بداية الظاهرة نتيجة هذه المشادة مع (لاتيمر).. ولو وقفت في طريقه لألقى بك من النافذة..

ريك

جلس (ثرمون) فنظر له (شيرين) في دهشة:

- يا للشيطان! أنت ترتجف يا رجل!

- هه؟ لا اشعر بأنني على ما يرام..

ولعق شفته السفلى الجافة. وأردف:

- أنا لم أصدق هذا الهراء في أعماقي حتى دقيقة فاتت.. أعطني لحظة أستجمع فيها أعصابي..

هل لديك أسرة؟

- تعنى المخبأ؟ لدى أخت لكنها على بعد ألفي ميل.. لا أعرف حتى عنوانها بدقة..

- وماذا عنك أنت؟

- أصغ لي يا سيد.. أنا صحفي مكلف بمهمة.. ولسوف أنفذها.. والآن قل لي: كيف احتفظ الكهنة بذكرى ما سيحدث ما دام الجميع يجنون في كل دورة؟

قال (شيرين):

- لن يجن الجميع... هناك الأطفال أقل من ست سنوات.. هؤلاء لديهم فكرة واهية عن العالم، وسوف يتحملون ما سيحدث.. هناك المعتوهون.. هناك الفلاحون محدودو الذكاء.. من ذكريات هؤلاء يتكون كتاب الكهنة الذي يؤمنون به.. وهو كتاب يعتمد على شهادة آخر من يصلحون شهودا.. وقد تم تنقيحه جيلا بعد جيل.. هل تذكر التجربة التي..

ثم قطع حديثه لأن (أتون) دخل المكان ووجهه يحمل الكثير من الهلع.

- ماذا حدث؟

شدّه (أتون) إلى جانب، وقال له همسا:

- لقد تلقيت رسالة على الخط الخاص من المخبأ.

سأله (شيرين) في رعب:

- هل هم في مشكلة؟

- ليسوا هم.. لقد أغلقوا على أنفسهم وسوف يظلون هناك حتى بعد غد.. لكن المدينة.. لقد صارت مجزرة.. ليس بوسعك أن تصدق..

- كنت تتوقع ذلك فما الذي...؟

- أنت لا تفهم.. الكهنة ثائرون وهم يحركون الناس ضد المرصد... ويعدونهم بالنعيم الدائم.. يعدونهم بالخلاص وكل شيء... ماذا سنفعل يا (شيرين)؟

أطرق (شيرين) وراح يرمق حذاءه.. وقال:

- نفعل؟.. لا يوجد ما نفعله.. سوف يحتاجون لوقت كي يجمعوا عصبة معقولة.. وسوف يحتاجون لوقت ليصلوا لنا، فنحن على بعد خمسة أميال من المدينة لندع الله أن يتم اكتمال الخسوف قبل هذا..

الآن لم يعد من (بيتا) إلا النصف... بدا الأمر كأنه جفن عملاق ينغلق على عين العالم. جلس (شيرين) شاعرا بأنه عاجز عن التنفس... دس إصبعا تحت ياقته وحاول التنفس ثم سأل (ثرمون):

- هل تلاقى صعوبة في التنفس؟

- لا..

- إذن.. بدأ الشيء يصيبني.. إن صعوبة التنفس أولى علامات (الكلوستروفوبيا)..

هنا دخل (بيناي) وطلب أن يسمحا له بالجلوس.. لقد أعد الكاميرا وليس لديه ما يعمله حتى الاكتمال.. ثم نظر إلى الكاهن الذي أخرج كتيبا صغيرا من كمه وراح يقرأ فيه.. سألهما:

- هذا الفأر لا يُحدث مشاكل؟

لم يرد (شيرين) وإنما عاد يسأل:

- هل تعاني صعوبة تنفسية يا (بيناي)؟

تشمم هذا الأخير الجو، وقال:

- لا أشعر بشيء.. ما أشعر به هو أن عيني تنقلبان للداخل.. الرؤية مضطربة والطقس بارد..

قال (ثرمون):

- برد فعلا.. لا وهم في هذا.. أشعر كأن قدمي شحنتا عبر البلاد في شاحنة مثلجة

قال (بيناي):

- أحيانا أفكر في أنه قد توجد في الكون شموس أخرى.. وهذه الشموس تقع بعيدا جدا عنا.. ربما على بعد سنوات ضوئية عدة.. ربما عددها دستة.. يبدو أنني قرأت الكثير من تلك القصص الخيالية.. هذه الشموس سوف تكون مجرد نقاط وهي على هذا البعد.. أثناء الخسوف سوف تصير هذه الشموس مرئية؛ لأنه ما من ضوء شمس يخفيها.. الكهنة يتكلمون عن ملايين منها، وهذه مبالغة على الأرجح.. لا مكان في الكون لهذا الزحام ما لم تمس هذه الشموس بعضها..

أصغى له (شيرين) باهتمام، وقال:

- لقد لمست شيئا مهما يا (بيناي)... أنت تعرف أن عقولنا لا تستوعب أعدادا أكثر من خمسة.. أكثر من هذا لا يبقى إلا مفهوم (عديد).. بهذا تصير دستة نجوم ملايين منها لدى الكهنة....

- بل أفكر أحيانا في أن تكون هناك شمس واحدة يدور حولها كوكب واحد.. هنا تسري قواعد الانجذاب بسهولة..

لا بد أن سكان كوكب كهذا وصلوا لقواعد الانجذاب قبل اختراع التلسكوب.. لكن المشكلة مع شمس واحدة أن هذا الكوكب لن ينال ما يكفي من ضوء وحرارة.. لو دار حول نفسه

لقضى نصف اليوم في الظلام...لا يمكن أن تتصور نشوء حياة تعتمد كلية على الضوء على هذا الكوكب....

هنا صاح (شيرين) مقاطعا:

- (أتون) جلب الضوء..

ونظروا بارتياح إلى الرئيس الذي دخل حاملاً دستة من القضبان طول الواحد قدم وسمكه بوصة، وطلب من (شيرين) أن يعاونه. هكذا راح الرجلان يثبتان القضبان إلى أماكن مخصصة لذلك في الجدار.

وبتقديس غريب حك (شيرين) ثقابا مضحك الشكل ثم ناوله لـ (أتون).. فراح هذا يشعل أعلى كل قضيب.

بدأ اللهب يتوهج بعد تردد.. وعم الابتهاج المكان.

هكذا اشتعلت ست شعلات في الغرفة، فصار ظلامها ضوءا أصفر.

كان الضوء خابيا وراحت الشعلات تتراقص باعثة ظلالاً سكرى متأرجحة. كان هناك سحر ما في الضوء الأصفر بعد ساعات في ضوء (بيتا) المحتضر، وحتى (لاتيمر) رفع عينه عن كتابه في دهشة.

راح (شيرين) يدفئ يده على أحد الأعواد غير مبال بالسناج الذي راح يتصاعد منه، وقال لنفسه:

- جميل.. جميل.. لم أدرك من قبل كم أن الأصفر لون جميل..

لكن (ثرمون) ظل يتشمم الرائحة في دهشة.. وسأل بشك:

- ما هذه الأشياء؟

قال (شيرين):

- خشب..

- لا.. إن هذه النار تخرج من لا شيء..

- هذا هو جمال الأمر.. هذا هو الضوء الصناعي بحق.. صنعنا منها مئات لكن أكثرها في المخبأ.. كل ما عليك هو أن تأخذ النباتات البحرية وتجففها ثم تغمسها في شحم حيواني.. ثم تشعل فيها النار فيحترق الشحم ببطء..

هذه الشموع ستشتعل نصف ساعة بلا توقف.. عبقرية.. أليس كذلك؟ ابتكرها أحد شبابنا في جامعة (سارو)..

جلس (لاتيمر) تحت أحد هذه الأضواء وواصل القراءة.. وهو يتحرك مع إيقاع الكلمات.

وواصل (ثرمون) كتابة ملحوظات في مقاله الذي سينشر غدا في جريدة (سارو).. كان منهمكا في هذا حتى نسى تقريبا أن السماء اكتست لونا أحمر مرعبا، كأنها ثمرة بنجر عملاقة. وازداد الهواء كثافة بشكل ما.. تسرب الغسق للغرفة فبدت دوائر اللهب حول الشعلات أكثر تحديدا.. فقط مع صوت احتراق الخشب ورائحته. ثمة ظل لشخص يحاول في انهماك أن يعمل.

كان (ثرمون) هو أول من شعر بهذا الصخب.. تلك الضوضاء غير المنتظمة، الخافتة بحيث يمكن أن تمر بلا تعليق لولا الصمت في القبة.

جلس الرجل واستبدل مفكرته. نهض وشق طريقه بين الأجهزة إلى النافذة.

تمزق الصمت عندما دوت صرخة الرعب:

- (شيرين)!!

توقف العمل، وركض العالم النفسي إلى جواره على الفور ثم لحق بهما (أتون).. حتى (ييموت 70) الذي كان معلقا في مقعده خلف عدسة السولاروسكوب توقف ونظر لأسفل.

في الخارج صار (بيتا) مجرد شظية محترقة تلقى نظرة أخيرة قانطة على (لاجاش). ضاع الأفق الشرقي باتجاه المدينة في الظلام، وصار الدرب الأحمر من (سارو) إلى المرصد خطا تحيط به طرق خشبية فقدت أشجاره فرديتها وصارت سورا متجانسا واحدا.

لكن الطريق العام نفسه هو ما أثار الانتباه.. فعليه ظهرت ظلال أخرى منذرة بالويل.

صرخ (أتون) في صوت مشروخ:

- المجانين من المدينة! لقد وصلوا!

تساءل (شيرين):

- كم بقي من وقت على الاكتمال؟

- خمس عشرة دقيقة.. لكنهم سيكونون هنا خلال خمس..

- لا تهتم.. دع الرجال يعملون.. هذا المكان يشبه القلعة.. فقط راقب الكاهن الشاب هنا احتياطا... وأنت يا (ثرمون) تعال

معي..

وغادر (شيرين) المكان ومعه (ثرمون). امتدت درجات السلم أمامهما تدور في حلقات حول العامود المركزي لتتوارى في ظلمات مخيفة.

حملهما الاندفاع إلى أسفل بحيث توارت القبة من فوقهما.. فتوقف (شيرين) وتحسس صدره... جحظت عيناه وأطلق سعلة جافة..

- لا أستطيع.. التنفس... انزل.. بنفسك... أغلق الأبواب..

هنا اندفع (ثرمون) لأسفل ثم توقف:

- هلا انتظرت لحظة؟

كان يلهث هو نفسه.. الهواء ثقيل يدخل ويخرج من رئتيه كأنه دبس السكر (المولاس)... وشعر بذعر يدب في عقله وهو يتصور نفسه يشق طريقه للظلام تحته..

كان خائفا من الظلام، لذا راح يصعد الدرجات اثنتين في المرة حتى وصل إلى القبة فأخذ أحد المشاعل.. واندفع عائدا إلى الدرج واللهب يتطاير من المشعل ورائحة الدخان تعمى عينيه، لكنه أوشك على تقبيل المشعل طربا..

رفع المشعل وجذب العالم النفسي المرتجف من كوعه، وراح ينزل وسط دائرة الضوء...

ثم همس لـ (شيرين):

- بوسعك سماعهم بالخارج..

كان هناك صوت خيول.. صرخات بلا صوت.

لكنه كان محقا.. المرصد يشبه القلعة.. بني من أجل الصلابة والديمومة لا من أجل الجمال.. النوافذ تحميها قضبان سميكة غائرة في الخرسانة.. الجدران غليظة لا يمكن أن يهزها زلزال..

أغلق (ثرمون) المزاليج فأصدرت صوت (كلانج) وهي تنغلق.

لكن مزلاج الباب الخلفي كان عديم النفع

- لابد أن (لاتيمر) دخل من هنا..

صاح (ثرمون) في نفاد صبر:

- لا تبق هنا! هات الأثاث نسد به الباب، وأبعد هذا الدخان عن عيني..

دفع المنضدة الثقيلة خلف الباب وسرعان ما صنع متراسا يفتقر للجمال لكنه شديد الصلابة.

من مكان ما يسمعان ضربات القبضات العارية على الباب..

هذه العصابة جاءت من (سارو) وفي ذهنها شيئان: الخلاص عن طريق تدمير المرصد.. والخوف المجنون الذي شلهم حيث هم.

لا وقت لديهم للتفكير في السلاح أو العربات أو حتى البحث عن قائد.. لقد جاءوا على أقدامهم ويحاولون تدمير المرصد بأيديهم العارية..

ومن فوق رءوسهم تلاشى آخر قبس لهب من (بيتا) تاركا بشرية لم يعد لديها إلا ذعر حيواني بدائي..

همس (ثرمون):

- لنعد إلى القبة..

في القبة لم يعد من أحد في مكانه.. الكل يلتف حول الكاميرات و(بيناي) يعطى تعليماته في صوت منهك.

- أنا الآن أصور (بيتا) قبل وضع الاكتمال.. ثم أغير لوح التعريض.. كل واحد منكم مسئول عن كاميرا واحدة..

غمغموا بالموافقة..

- لا تبحثوا عن تحسين اللقطات فهذا يضيع الوقت.. لا تحاولوا تصوير نجمين في لقطة واحدة.. واحد يكفي.. وإذا شعرتم بأنكم ستفقدون الوعي اتركوا الكاميرا..

وعلى الباب همس (شيرين) لصاحبه:

- خذني لـ (أتون) فأنا لا أراه.

كانت الرؤية صعبة فعلا.. فعلماء الفلك صاروا مجرد أشباح متراقصة، والمشاعل صارت مجرد بقع صفراء.

مد (شيرين) يده يتلمس المكان وهو يصيح:

- (أتون)!

بشكل ما شق (ثرمون) طريقه عبر الغرفة.. أغمض عينيه في الظلام وأغمض عقله عن الذعر.

لم يبال بهما أحد.. تعثر (شيرين) واصطدم بالجدار وهو يصيح:

- (أتون)!

شعر بيد راجفة تحتضنه، وتقول:

- هذا أنت يا (شيرين)؟

- نعم.. لا تخف من الدهماء.. المكان سيتماسك ضدهم..

نهض الكاهن (لاتيمر) وقد تقلص وجهه من اليأس.. لقد أعطى كلمته فلا يمكن التملص منها.. لكن الكلمة انتزعت منه ولم يعطها طواعية.. سوف تأتى النجوم الآن!!

لا يستطيع التحمل..

نظر (بيناي) إلى آخر ضوء من (بيتا)..

هنا اتخذ (لاتيمر) قراره وغرس أظفاره في لحم قبضته من فرط التصميم.

مشى كالمجنون مترنحا.. لا شيء أمامه إلا الظلال.. فجأة شعر بمن يثب عليه وسقط على الأرض وأظفار تتشبث بحلقه.. ثنى ركبتيه ودفنهما بقوة في صدر المعتدى..

- دعني أنهض وإلا قتلتك!

صرخ (ثرمون) والألم يعميه:

- أيها الفأر الخائن!!

هنا كان آخر خيط من ضوء الشمس قد توارى.. وسمعوا شهقة أخيرة من (بيناى) وصرخة غريبة من (شيرين)، ثم ساد الصمت.. وارتخت القبضة على يد (لاتيمر)..

دنا (شيرين) من وجه الكاهن ونظر له في ضوء المشاعل الخابي، فرأى النظرة الخاوية والرغوة على شفتيه والأنين الحيواني الخافت من حنجرته.

استدار لينظر إلى السواد المخيف خارج النافذة..

وفي الظلمة التمعت النجوم!!

ليست كنجوم الأرض الخافتة، بل كان (لاجاش) يقع وسط حزمة نجمية كثيفة.

نهض (ثرمون) على قدميه.. كل عضلاته تنتفض من الذعر والخوف الذي لا يحتمل..

إنه يجن الآن.. هو يعرف هذا.. لكن بقعة تعقل بداخله تكافح لاختراق ظلمات الذعر الأسود..

من المرعب أن تجن وأنت تعرف هذا.. خلال لحظات سوف يظل جسدك هنا ماديا، لكن وعيك سوف يغيب في الظلام..

إنه الظلام.. البرد... النهاية.

جدران الكون تنطبق عليه لتهشمه.. وشعر بمن يحبو على أربع ثم يتعثر به..

نهض باحثا عن الضوء.. وصرخ:

- ضوء!!

وفي مكان ما كان (أتون) يبكي.. وسمعه يقول:

- نجوم.. نجوم! لم نكن نعرف شيئا على الإطلاق حسبنا ستة نجوم في الكون عددا كافيا.. ما كان بوسعنا أن نعرف..

في هذه اللحظة كانت النجوم غير المبالية تلقى آلاف الأضواء قربهم.. وفي الأفق باتجاه مدينة (سارو) بدأ ضوء قرمزي يكبر.. يزداد قوة..

لم يكن هذا ضوء شمس..

كان الليل الطويل قادما من جديد..

1941

☆ ☆ ☆

باعد (جريجوري باول) بين كلماته لتأكيدها:

- منذ أسبوع واحد صنعتك أنا و(دونوفان)..

وتجعد حاجباه في شك وجذب طرف شاربه البني.

كان الجو هادئا في غرفة الضباط بالقاعدة الشمسية رقم 5 فيما عدا صوت جهاز توجيه الأشعة تحتهم.

جلس الروبوت QT-1 بلا حراك [6].. الصفائح المغطية له تلتمع والخلايا الكهرومغناطيسية الحمر التي تمثل عينيه ثابتة على رجل الأرض الجالس على الناحية الأخرى من المنضدة.

قاوم (باول) نوبة عصبية.. إن هذه الروبوتات لها عقول خاصة.. تم حساب المسارات البوزيترونية في عقولها سلفا وتم حذف كل احتمالات المقت أو الغضب منها.. إلا أن موديلات QT-1 كانت الأولى من نوعها، وهذا أولها.. لذا يمكن لأي شيء أن يحدث.

في النهاية تكلم الروبوت.. كان صوته يحمل البرودة التي لا تفرقها عن حاجز معدني. وقال:

- هل تدرك خطورة عبارة كهذه يا (باول)؟

قال (باول):

- شيء ما غيرك يا (كيوتي).. أنت تعترف أن ذاكرتك نمت من فراغ مطلق منذ أسبوع.. سأشرح لك السبب أنا و(دونوفان) ركبناك من قطع شحنت لنا..

نظر (كيوتي) لأصابعه في حركة بشرية توحي بالحيرة.. وقال:

- يدهشني أن هناك بالقطع تفسيرا أفضل من هذا؟ أن تصنعني أنت يبدو لي مستحيلا..

ضحك الرجل، وقال:

- لمه؟

- سمه حدسا.. لكنني سأستخدم المنطق، ولسوف أصل للحقيقة..

جلس (بأول) على طرف المنضدة شاعرا بشفقة نحو هذه الآلة.. لم تكن كباقي الروبوتات التي تمارس عملها هنا.

وضع يده على كتف (كيوتي) فشعر بها باردة، وقال:

- سأحاول أن أشرح لك.. أنت أول روبوت يشعر بفضول تجاه وجوده.. وأنت ذكي بما يكفي لفهم العالم بالخارج.. تعال معي..

وضغط زرا فانفتح جزء من الجدار ليكشف السماء التي تناثرت فيها النجوم.

قال الرجل:

- كل واحدة من هذه البقع المضيئة شمس على مسافة بعيدة جدا منا.. من أحد الكواكب جئت أنا و(دونوفان) وعملنا هنا أن نجمع أشعة النجوم لنرسلها إلى كوكبنا..

سأله (كيوتي):

- أية بقعة ضوء تزعمان المجيء منها؟

بحث (باول) ثم قال:

- هذه هي.. نسميها الأرض وعليها خمسة بلايين من البشر.. الأرض العجوز الطيبة!

- لكنك لم تشرح لي من أين جئت..

- الأمر سهل.. عندما أقيمت هذه المحطات كانت تدار بوساطة البشر.. إلا أن الحر والعواصف الإلكترونية جعلت الحياة هنا شاقة.. تم استبدال الروبوت بالبشر فلم يعد في هذه المحطات إلا المديرون.. كل محطة تحتاج إلى اثنين.. أنت أعلى نموذج روبوت حتى اليوم، ولو أظهرت براعة فلن نحتاج إلى بشر هنا بعد اليوم..

ثم اتجه ليأخذ تفاحة ويقضمها.. فقال له الروبوت:

- هل تعتقد أنني سأصدق هذه الحكاية الخرافية غير المعقولة؟ ماذا تحسبني؟

وفي غضب غادر المكان مارا بـ (دونوفان) ثم اختفى متجاهلا نظرات الدهشة من خلفه.

قال (دونوفان):

- ماذا تعتقده قطعة الخردة هذه؟

قال (باول):

- لا يصدق أننا صنعناه ولا يصدق أن هناك نجوما ولا كواكب..

- رباه! معنا روبوت مخبول على هذه المحطة....

- قال إنه سيحاول معرفة الحقيقة بنفسه..

- لكن لو كلمني بهذه اللهجة مرة أخرى فلسوف أطير هذا الرأس المدهون بالكروم من فوق كتفيه.

☆ ☆ ☆

كان (دونوفان) يقضم شطيرة كبيرة يبرز منها الخس والطماطم عندما دق الروبوت الباب سائلاً عن (باول)..

- إنه يجمع المعلومات.. فنحن متجهون نحو عاصفة..

هنا دخل (باول) وهو يحمل ورقا بيانيا.. فقال له الروبوت إنه يرغب في الكلام معهما.. قال (باول) في دهشة:

- ليكن.. اجلس.. ليس هذا المقعد فله رجل مكسورة وأنت لست خفيف الوزن..

قال الروبوت:

- لقد قضيت اليومين السابقين أفكر.. وتوصلت لهذه الحقيقة.. أنا موجود لأنني أفكر!

قال (باول):

- أه جميل! (ديكارت Descartes) الروبوت....

تساءل (دونوفان) والطماطم وفتات الخبز يتساقطان من فمه:

- من هو (ديكارت)؟

هنا واصل الروبوت الكلام:

- هنا جاء السؤال التالي.. ما سبب وجودي؟

قال (دونوفان) وهو يكور قبضته:

- لو لم تحب ذلك فإنني سأفكك بكل سرور..

مد الروبوت يديه في إيماءة معترضة وقال:

- لا أقبل أسلوب التسلط هنا.. يجب على الفرضية أن يدعمها المنطق وإلا لصارت بلا قيمة.. وإنه ليخالف كل المنطق أن نفترض أنكما صنعتماني..

سأله (باول) في صبر:

- ولماذا؟

- انظرا لنفسيكما.. لا أبغى التهكم لكنكما رخوان طريان والمادة التي صنعتما منها لينة لا تتحمل شيئا.. تعتمدان على الطاقة المنبعثة من الأكسدة غير المتقنة لمواد عضوية.. ومن حين لآخر تدخلان في غيبوبة، وأي تغير في الحرارة أو الرطوبة يجعلكما عاجزين.. أنتما بديل مؤقت.. أما أنا فأمتص الكهرباء والطاقة وأستغلها بكفاءة ١٠٠٪.. ويمكنني تحمل أية درجة حرارة.. هذه حقائق.. وهناك حقيقة أخرى هي أنه ما من كائن حي يقدر على صنع كائن أرقى منه...هذا يهدم منطقكما تماما..

وثب (دونوفان) على قدميه وقال:

- حسن.. يا بن الحديد الخام! إن لم نصنعك نحن فمن صنعك؟

هز (كيوتي) رأسه موافقا وقال:

- جميل يا (دونوفان).. سؤال مهم.. بالتأكيد من صنعني أكثر إتقانا منى، وهذا لا يترك لنا إلا احتمالاً واحدا... ما هو مركز اهتمامنا هنا في هذه المحطة؟

التفت (دونوفان) لصاحبه، وقال:

- أراهن أن قطعة الصفيح هذه تتكلم عن محول الطاقة ذاته..

- بل أتكلم عن السيد..

نظرا له في دهشة فواصل الكلام:

- السيد خلق البشر أولاً.. وهم أضعف الأنواع.. ثم خلق الروبوت.. من هذه اللحظة أنا أخدم السيد..

صاح (باول) في غيظ:

- سوف تؤدي عملك هنا كما طلب منك.. سوف تعنى بمحول الطاقة ولو لم يقنعنا أداؤك فسوف نفككك.. الآن يجب أن ترحل.. خذ معك هذه المعلومات وتأكد من أنها مرتبة حسب الأرشيف.

أخذ (كيوتي) الملفات وانصرف.. بينما جلس (دونوفان) يتحسس شعره، وقال:

- هذا الروبوت مخبول تماما، ولسوف يجلب لنا المتاعب..

قال (باول):

- المشكلة هي أننا مقبلون على عاصفة شمسية ولا وقت للجنون.. أرجو أن تنزل معه إلى غرفة المحول وتراقبه جيدا..

- ليكن.. لكن ناولني هذا اللوز..

والتقط الكيس الذي ألقي له وركب المصعد.. وفي النهاية كان ذلك الممر الضيق الذي يقود لغرفة المحرك العملاقة. كانت المولدات العملاقة تتحرك ومن الأنابيب على شكل حرف L جاءت الضوضاء الخفيضة التي تهز المحطة كلها. رأى شكل (كيوتى) اللامع عند الأنبوب المريخي، يراقب مجموعة من الروبوت يعملون. فجأة التمع الضوء ودوى صوت شيء يتهشم.. لقد انكسر أنبوب المريخ!

ورأى (دونوفان) الروبوتات يسقطون على الأرض بلا حراك..

صرخ وجرى إلى الدرج الضيق، وهجم عليهم وقد صار وجهه بلون شعره الأحمر وراح يصرخ:

- ماذا جرى؟ تولوا أمر هذا الأنبوب أيها الحمقى معدومو المخ! لو لم تصلحوه فلسوف أحرق عقولكم بالتيار المتردد..

لم يتحرك روبوت واحد.. حتى (كيوتي) الوحيد الذي ظل على قدميه لم يتحرك.

قال أقرب الروبوتات:

- ما من سيد إلا السيد.. و(كيوتي) هو رسوله!

- هه؟

وتنبه (دونوفان) إلى عشرين زوجا من العيون تنظر له.. وعشرين صوتا تقول:

- ما من سيد إلا السيد.. و(كيوتي) هو رسوله!

قال (كيوتي):

- يؤسفني أن زملائي يطيعون من هو أعلى سلطة منك الآن!

- فليذهبوا للجحيم!! سأسوى الأمر معك فيما بعد ومع هذه الحيوانات الآلية الآن!

هز (كيوتي) رأسه، وقال:

- معذرة.. أنت لا تفهم.. لقد وعظت هذه الروبوتات وهي الآن تعرف الحقيقة..

- يجب أن تعرف الحقيقة... ليس هناك سوى واحد يعطى الأوامر! والآن ابتعد من هنا..

- أنا لا أطيع إلا السيد..

بدا أن هناك جوا من التوتر المتزايد.. عيون الروبوتات تزداد احمرارا وقد تصلبوا جميعا

دنا منه (كيوتي) أكثر.. إن الروبوتات لا تشعر بالغضب لكن (كيوتي) كان مخيفا بالفعل

- آسف يا (دونوفان).. لكنك لن تظل هنا بعد الآن.. من هذه اللحظة أنت و(باول) ممنوعان من دخول غرفة التحكم أو المحركات..

وفي اللحظة التالية ثبت روبوتان يدي (دونوفان) إلى جنبيه..

لم يجد فرصة ليقول شيئا بينما هو يحمل إلى الخارج..

☆ ☆ ☆

راح (باول) يذرع الغرفة المغلقة جيئة وذهابا وقال لـ (دونوفان) في عصبية:

- لماذا سخرت منهم عند هذا الأنبوب؟

قال (دونوفان):

- لن أراعي كلماتي مع قطعة خردة قمت بتجميعها بنفسي..

- لكن هأنتذا في غرفة الضباط وروبوتان يحرسان الباب.. هل تعرف ما سيحل بنا لو عدنا إلى القاعدة؟

- لا..

- فقط مناجم الفحم أو الإصلاحية.. هذا كل شيء..

- عم تتكلم؟

- العاصفة القادمة تتجه مباشرة لشعاع الأرض.. فليرحمنا الله.. لن يكون هناك من يواجهها إلا (كيوتي)!

وثب (دونوفان) إلى الباب ليفتحه فاصطدم بذراع روبوت.

قال له في حزم:

- الرسول يأمركما بالهدوء.. من فضلكما..

ودفعه للوراء فطار (دونوفان). هنا رأيا (كيوتى) قادما من نهاية الممر ودخل الباب بعد ما أشار للحراس.

هنا صاح فيه (دونوفان) لاهثا:

- لقد طالت هذه المهزلة! سوف تدفع الثمن!

قال بهدوء:

- أرجو ألا تغضبا.. أنتما فقدتما وظيفتكما..

- ماذا تعني؟

- منذ لحظة خلقي.. لقد صار شرف خدمة السيد شرفي الآن.. وقد زال سبب وجودكما الوحيد..

قال (باول) بمرارة:

- إذن ماذا تنتظر منا الآن؟

ظل صامتا لفترة كأنه يفكر وفجأة ارتفعت ذراعاه لتمسك بهما وتقربهما نحوه.

- أنا أحبكما.. أنتما مخلوقات دنيا لا تملك قدرات منطقية.. لكنني أميل لكما.. لقد خدمتما السيد جيدا.. لقد انتهى عملكما لذا لن توجدا أكثر من هذا، لكن حتى ذلك الحين سوف يقدم لكما الطعام والمأوى..

غادر القاعة فصاح (دنوفان) في غيظ:

- يجب أن نهاجمه حين لا يتوقع ونقطع دوائره.. حمض نيتريك في مفاصله..

قال (باول):

- لا تكن أحمق.. هل تحسبه سيتركك تقترب والحمض في يدك؟ وهل تتوقع أن الروبوتات الآخرين لن يمزقونا؟ يجب أن

نناقشه.. يجب أن نقنعه بإعادتنا لغرفة التحكم خلال 48 ساعة وإلا طهيت إوزتنا!

قال (دونوفان):

- إذن دعنا نقنعه.. فلنبن روبوتا آخر أمام عينيه.. ولنر وجهه عندما يرانا نفعلها!

اتسعت ابتسامة (باول)..

☆ ☆ ☆

كانت قوانين الكواكب تحرم وجود روبوتات ذكية على الكواكب المسكونة، وهذا كان يحتم أن ترسل الروبوتات إلى المحطات الفضائية على شكل قطع مفككة.. وهي عملية معقدة لم يستوعبها (دنووفان) و(باول) إلا وهما يبنيان روبوت أمام عيني الروبوت (كيوتي).. توقف (باول) عن العمل فلم يبق إلا تثبيت الرأس، ونظر إلى (كيوتي).. لقد ظل هذا الأخير يراقب العمل ثلاث ساعات بلا حراك وبلا تعبير.

فتح (باول) عبوة ومد يده في الزيت يلتقط كرة صغيرة كانت هي أعقد ما صنعه الإنسان.. إنه مخ بوزيترونى يحوي للروبوت ما يمكن تشبيهه بتعليم ما قبل الولادة، وقد قام بتثبيته في تجويف مخصص لذلك في الجمجمة.. ثم أغلق المعدن الأزرق عليه. تم تثبيت العينين الحساستين للضوء..

انتظر الروبوت وهج الفولت العالي لينهض ووضع (باول) يده على المحول.

- الآن لتر هذا يا (كيوتي).. انظر جيدا!

وحرك المحول فانبعث الوهج.. نهض الروبوت يتأرجح ويمشي مشية خرقاء.. في النهاية خرج صوته مشوها مترددا:

- أريد أن أبدأ العمل.. إلى أين أذهب؟

- إلى أسفل.. سوف نخبرك بما يجب عمله..

هكذا غادر الروبوت المكان..

نظر (باول) إلى (كيوتي) وقال:

- والآن؟ هل تصدق أننا صنعناك؟

- لا!

نظرا له بذهول فواصل الكلام:

- أنتما لم تفعلا إلا جمع قطع صنعت من قبل.. لقد فعلتما هذا جيدا لكنكما لم تصنعا القطع.. القطع صنعها السيد..

صاح (دونوفان) في جنون:

- هذه القطع جاءت من الأرض.. ألا تقرأ الكتب في المكتبة؟ ألم تفهم القصة كلها؟

- المكتبة لا تقول شيئا.. أنا كائن ذو منطق.. يمكنني استنباط الحقائق.. أنتم كائنات محدودة التفكير تحتاج لمن يخبرها بالحقائق لكن هذا لا يعيبكما.. هناك متسع في عالم السيد لكل شيء.. لكني لن أدخل في جدل آخر معكما..

وغادر المكان..

قال (باول):

- هلم ننم يا (دونوفان).. لقد استسلمت..

قال (دونوفان) بصوت كالبكاء:

- كيف نقنع هذا الشيء؟

- إنه روبوت متمسك بالمنطق.. هذه هي المشكلة.. يمكنك أن تبرهن على أي شيء لو كانت عندك المسلمات الصحيحة. لدينا مسلماتنا ولديه مسلماته.. والمشكلة أن العاصفة قادمة غدًا.. سوف نسمع الكثير من الموسيقا.. تبا لا أستطيع النوم!

- ولا أنا..

بعد 12 ساعة لم يكونا قد ناما، وجاءت العاصفة مبكرا عن موعدها.. ووقف الرجلان ينتظران في توتر وزال الدم تماما عن وجه (دونوفان) المتورد..

في ظروف أخرى كان يمكن أن يبدو المشهد جميلاً إلكترونات تتدفق بسرعة الضوء تصطدم بالأنابيب وتتفجر على شكل شظايا من ضوء مبهر.. وبدا عمود الطاقة ثابتا لكن الرجلين كانا يعرفان ألا قيمة لرؤية العين المجردة. أي انحراف قدره واحد على مائة من الميللي ثانية يكفي لتحريك الشعاع ليحول آلاف الأميال المربعة من الأرض إلى خراب.

ويسيطر على هذا كله روبوت لا يبالي بأي شيء سوى سيده.

مرت ساعات. ثم انتهت العاصفة.

غاب (دونوفان) في النعاس، بينما راح (باول) يرمقه في حسد.. وشعر وهو جالس بأنه فعلا كيان متدن لا قيمة له وقد انتهى عصره.

هنا دخل (كيوتي) حاملاً بعض الأوراق وقال له:

- لا تبدو على ما يرام.. هل تريد إلقاء نظرة على تسجيلات اليوم؟

شعر (باول) بأن هذه حركة يقصد بها التودد.. نوع من الاعتذار عن التخلص منهما.. تناول الأوراق وراح يقلبها بلا اكتراث... وفجأة رأى شيئا.. حدق وحدق من جديد ثم وثب على قدميه فسقطت منه بقية التخطيطات على الأرض.

وصاح:

- (دونوفان).. (دونوفان)!!

ومد يده يهز صاحبه فنهض هذا..

- لقد احتفظ بثباتها!!

قال (دونوفان) وهو ينظر للأوراق بعينين حمراوين:

- لقد فعلتها.. أبقيتها في البؤرة.. أبقيت الشعاع موجها نحو المحطة الأرضية..

قال (كيوتي):

- أية بؤرة؟ لم أفعل إلا أن نفذت أوامر السيد..

وغادر المكان فنظر (دونوفان) إلى (باول):

- وماذا ستفعل؟

- لا شيء.. هو فقط برهن على أنه يستطيع السيطرة جيدا.. لم أر أحدا يتعامل مع عاصفة شمسية بهذه الدقة..

- وماذا عن كلامه المخبول عن السيد؟

- هل سيطر على المحطة؟ نعم؟ إذن فيم تعنينا معتقداته الخاصة؟

☆ ☆ ☆

قال (باول) وهو يكافح داخل سترته الفضائية الخفيفة:

- سيكون عملاً بسيطا.. سوف نحضر للمحطة نموذجين من QT ونعدهما بغالق ذاتي تلقائي يعمل خلال أسبوع، كي نسمح لهما بتعلم هذا الكلام عن السيد من كيوتى ذاته.. ثم ننقلهما لمحطة أخرى..

قال (دونوفان) وهو يفك مقدمة الخوذة:

- فلتخرس ولنخرج من هنا.. إن من سيحلون محلنا ينتظرون.. ولن أشعر براحة حتى أرى الأرض وأشعر بها تحت قدمي....

انفتح الباب فكتم (دونوفان) سبة وأعاد غلق مقدمة الخوذة واستدار نحو (كيوتي)؟

دنا الروبوت منهما وبصوت فيه أسف قال:

- راحلان؟

هز (باول) رأسه وقال:

- سيأتي آخرون بدلاً منا..

أطلق الروبوت زفيرا عميقا وقال:

- انتهت مهمتكما وجاء وقت التحلل النهائي.. توقعته لكن... فلتكن أوامر السيد..

آلمت لهجته (باول) فقال:

- احتفظ بشفقتك يا (كيوتي).. نحن ذاهبان للأرض وليس للتحلل النهائي..

قال:

- من الخير أنكما تفكران بهذه الطريقة.. الآن أفهم حكمة الأوهام.. لن أحاول إقناعكما بالعكس حتى لو استطعت..

ثم ابتعد كأنه صورة من الأسى.

كانت السفينة التي جاءت بالبدلاء ترسو بالخارج، وحياهما (فرانتس مولر) في كياسة. دخل (دونوفان) غرفة القيادة ليتسلم المفاتيح من (سام إيفانز).

سأل (باول):

كيف حال الأرض؟

كان سؤالاً تقليديا فتلقى الإجابة التقليدية:

- ما زالت تدور..

ثم ارتدى القفاز وسأل:

- كيف هو هذا الروبوت الجديد؟ فلألعن لو تركته يمسك بأجهزة التحكم..

صمت (باول) قبل أن يتكلم.. وتفقد الروسي الفخور الواقف أمامه، وشعر بنزعة سعادة بالغة.

- الروبوت ممتاز.. لا تضايق نفسك بأجهزة التحكم.

وضحك وأسرع إلى السفينة.

سوف يظل (مولر) عدة أسابيع في هذه المحطة.....

(تمت بحمد الله)

قصص من أزيموف

قوانين الروبوتيات:

1. على الروبوت ألا يؤذي إنسانا أو يتسبب في أذى إنسان عن طريق الإهمال.

2. على الروبوت أن ينفذ أوامر الإنسان ما لم يتعارض هذا مع القانون الأول.

3. على الروبوت أن يحمى وجوده ما دام هذا الوجود لا يتعارض مع القانونين الأول والثاني.

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- هي القصة الوحيدة في الكتيب التي لا تمت لأدب الخيال العلمي بصلة، لكنها طريقة فكرهت أن أتجاهلها..

[←2]

- ابنته الروحية أي ابنته بالعماد.. ليست ابنته فعلا إنما تم اختياره أبا روحيا لها أثناء عمادها.

[←3]

- لنلاحظ التالي لفهم القصة: هذا الكوكب المدعو (لاجاش) لديه عدة شموس لهذا لم ير الظلام قط، ولهذا لم يحتج سكانه إلى اختراع الضوء الصناعي.. لنفس السبب لا يعرف أحد على هذا الكوكب أي شيء عن النجوم.

[←4]

- الأسماء ذات إيحاء خاص في هذه القصة، فأتون هو إله الشمس عند الفراعنة ولاتيمر هو تنويع على Late timer أي (الذي يأتي آخر الزمان).

[←5]

- في الواقع هذه هي قوانين (نيوتن).. لكننا في (لاجاش) ولسنا على الأرض!

[←6]

- بهذا سينطق اسم الروبوت (كيوتي) وهو في الوقت ذاته اسم تدليل معناه (اللطيف الصغير).

روايات عالمية للجيب 58



شرطى المكتبة

تأليف : ستيفن كينج
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (58)

شرطي المكتبة

تأليف: ستيفن كينج

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

(ستيفن كينج (Stephen King من جديد! هل ما زلنا بحاجة إلى معرفة ستيفن كنج بعد ما قدمناه في هذه السلسلة ثلاث مرات؟ يشعر بعض قراء هذه السلسلة بالذات أنه صار فردا من الأسرة، والحقيقة هي أن هذا الكاتب هو عميد كتاب الرعب المعاصرين وأهمهم، وقد صار اسمه ماركة مسجلة تكفي رؤيتها كي تبتاع الكتاب أو تشاهد الفيلم. وإن كان لم يقدَّم في السينما بشكل موفق حتى اليوم، مما جعله يجرب كتابة السيناريو بنفسه، بل ويظهر في بعض الأفلام ويخرج بعضها.

ولد في (بورتلاند) بولاية (مين) الأمريكية عام 1947.. معنى هذا أنه يقترب من الستين اليوم، وفي سن السابعة كتب أولى قصصه وعشق أفلام رعب الخمسينيات ككل مراهق أمريكي في الواقع، سينما مسوخ الخمسينيات تركت أثرها لدى كل من احترف مهنة الرعب هناك.

عمل مدرسا للغة الإنجليزية وراح يجرب كتابة قصص مرعبة، كان يتخلص منها في القمامة غالبا وكاد يتخلص من قصة اسمها (كارى) لولا أن استنقذتها زوجته من صندوق القمامة وأرسلتها إلى إحدى دور النشر، فكانت المفاجأة أنها قُبلت، ونال عن نشرها 2500 دولار.. هكذا قرر أن يتفرغ للأدب وفي عام 1976 يقرر (برايان دي بالما) المخرج العظيم تقديمها في فيلم، ومن ذلك الحين تربع اسم (كينج) على عرش الرعب ولم يبرحه قط.. ولعله أكثر الأدباء شهرة وثراء في عالمنا اليوم.

أصدر (كينج) العديد والعديد من القصص والدراسات حتى إن ملاحقة عناوينه مستحيلة فعلاً، وعالمه يزداد تعقيدا حتى إنني صرت أجد عسرا في فهم أعماله الأخيرة (الساحر والزجاج على سبيل المثال).. لقد أصدر مجموعات قصصية تحت اسم مستعار هو(باكمان)، منها (المسيرة الطويلة) و(أرفع) و(المنظمون) و(الهارب) و(أشغال طريق).. ويقال إن سبب هذا هو خشية الناشر من ألا يستوعب السوق كل إبداعات هذا الشلال المتدفق.

عالم (كينج) مميز جدا.. فهو يهوى حياة الأسر المتوسطة في البلدان الصغيرة خارج المدن.. من النادر أن تقرأ له قصة تدور في مدينة كبرى.. غالبا مسرح الأحداث هو ولاية (مين) مسقط رأسه.. هناك بلدة هادئة يحل بها الشر الذي هو انعكاس لنفوس سكانها.. ووحوش كنج متنوعة ثرية يصعب أن تلم بها جميعا.. إنه من الذين احتفظوا بخطوط اتصال مفتوحة مع مخاوف طفولتهم، وهو يستعيدها بسهولة تامة.

من الأشياء المهمة كذلك لدى (كينج) عمق ثقافته وولعه بتشريح الشخصيات ولهذا نعتبره أديبا عالي المستوى قرر أن يحترف هذا الفن بالذات، وبهذا أضاف رقيا واضحا لأدب الرعب، وقد قدم عدة دراسات تحلل الخلفية السيكولوجية لأدب الرعب منها (عن الكتابة) وهو مقال طويل جدا عن تقنيات الكتابة للرعب. قليلون هم كتاب الرعب الذين حاولوا أن يشرحوا أساليبهم ويفهموها.. لعل أهمهم (لافكرافت Lovecraft) العظيم، الذي أفادني كثيرا مقاله عن (الرعب الخوراقي في الأدب) والذي قد أترجمه يوما ما في هذه السلسلة.

القصة الحالية هي من مجموعة (كينج) (الرابعة بعد منتصف الليل)، وهي من المجموعات الناجحة جدا.. مشكلة (كينج) أنه بوسعك أن تترجم عنوانا مشهورا له، مثل (تألق) أو (كريستين) أو (كاري) أو (هو) أو (صائد الأحلام) لكنك تصطدم بأن الناس تحفظ الفيلم الذي قُدم عن الرواية جيدا؛ لهذا اخترت هذه القصة التي أعتقد أن شهرتها محدودة وإن كان ناقدوها يرونها جيدة جدا، وأنا أشاركهم هذا الرأي بالتأكيد.. قمت في الربع الأخير من القصة ببعض الحذف الضروري الذي لم يتلف جودة القصة أو هذا ما آمله.. إنه الخيار القاسي المعتاد: اترك القصة كما كتبها (كينج) لكن لا تترجمها كذلك، حتى لا تتحمل مسئولية كهذه.. أو احذف منها بحكمة وقدمها لقارئ العربية الذي من الخسارة ألا يقرأها أنا أختار دوما الحل الثاني، فما رأيك أنت؟

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

تمهيد من (ستيفن كينج):

في الصباح الذي بدأت فيه هذه القصة، كنت أجلس إلى مائدة الإفطار مع ابني (أوين). لقد صعدت زوجتي للطابق العلوي كي تستحم وتلبس ثيابها، وتم إعداد حاجيات الساعة السابعة الحيوية من بيض مقلي والجريدة. كان (ويلارد سكوت) الذي يزورني خمس مرات في كل أسبوع يحكي لي عن عجوز من (نبراسكا) بلغت العام الرابع بعد المائة. مجرد صباح آخر عند (كينج)..

سألني (أوين) إن كنت سأذهب إلى المركز التجاري اليوم، لأن هناك كتابا يريد أن أحضره له لتقرير مدرسي.. لا أذكر الكتاب الآن لكنه من طراز تلك الكتب التي لا تجدها في المتجر أبدا.. إنه دائما لم يعد يطبع أو سيعاد طبعه أو أي شيء لعين آخر.

نصحته أن يجرب المكتبة المحلية، فهي جيدة.. كنت واثقا من أنه لديهم.. قال لي كلمتين لكنهما كانتا كافيتين لاجتذاب انتباهي.. قال لي:

- شرطة المكتبة.

أزحت الجريدة جانبا وضغطت على زر إسكات الصوت في جهاز التليفزيون. وطلبت من (أوين) أن يتفضل بتكرار ما قال. قال بعد تردد إنه لا يريد الذهاب للمكتبة لأنه يخاف شرطة المكتبة..

قلت له إنه لا يوجد شيء اسمه شرطة المكتبة... كانت قصة من تلك القصص التي تتوارى في لا وعيك.. لقد سمعها من عمته عندما كان في السابعة وسهل الخداع، ويبدو أنها لم تفارقه من حينها؟!

كنت أذكر قصة مماثلة من طفولتي عن الرجال الأقوياء الذين يأتون لبيتك لو لم ترجع الكتب المستعارة في وقتها.. هذا سيئ.. لكن ماذا لو لم تجد الكتب المستعارة عندما يحيط بك هؤلاء؟ ماذا سيفعلون بك؟ كيف سيعوضون الكتب المفقودة؟!

هكذا وجدت نفسي أفكر في شرطة المكتبة في الأيام التالية، وهكذا ولدت القصة التي ستطالعها الآن.. هكذا تبدأ القصص معي.. لقد سميت القصة (شرطي المكتبة)، لكن لم تكن عندي أدنى فكرة عن مسار القصة. في البداية خطر لي أن تكون قصة مضحكة.. الفكرة ذاتها مضحكة.. ألا ترى هذا؟

هنا لاحظت شيئا كنت أعرفه منذ زمن، هو أن الكتابة نوع من التنويم المغناطيسي الذاتي.. من ثم تنبعث مخاوف الطفولة التي كنت تحسب أنك نسيتها وتعود مفزعة كما كانت..

كنت أحب المكتبة في طفولتي.. لم لا؟ إنها المكان الوحيد الذي يستطيع فيه صبي فقير مثلي أن يقرأ ما يريد من كتب، لكني إذ كبرت أدركت أنني كذلك كنت أهابها.. كنت أهاب أن أضل طريقي بين أكوام الكتب.. أهاب أن أنسى في ركن مظلم لأبقى سجينا طيلة الليل.. أهاب أمينة المكتبة بشعرها الأزرق وعيني القط خلف عويناتها وفمها عديم الشفتين.. عندما تمس

يدك بيدها الباردة طويلة الأظفار قائلة: ش ش ش، لو نسيت أين أنت وتكلمت بصوت عال..

نعم. كنت أخاف شرطة المكتبة..

هنا حدث لي ما حدث لقصة (كريستين).. انتهى المرح بعد ثلاثين صفحة، وبدأت القصة تتحول لرعب صارخ يرتاد أماكن مظلمة زرتها كثيرا ولا أعرف عنها أي شيء.. لقد وجدت الشخص الذي كنت أبحث عنه أيها القارئ وحاولت أن أصوره لك، لكني لم أوفق كثيرا لأن يديّ كانتا ترتجفان وأنا أحاول ذلك..

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

الخطبة

1

فيما بعد قرر (سام بيبل) أن كل شيء كان غلطة لاعب الأكروبات الأحمق.. لو لم يفرط في احتساء الخمر في الوقت الخطأ لما وقع (سام) في هذه المشكلة. ليس سيئا بما يكفي أن الحياة تشبه جسرا ضيقا فوق هاوية، وعلينا أن نمشي فوقه معصوبي الأعين. هذا سيئ لكن ليس بما يكفى.. أحيانا يدفعنا أحدهم كذلك.. لكن هذا حدث فيما بعد.. فقبل أن يظهر شرطي المكتبة كان هناك لاعب الأكروبات الثمل..

☆ ☆ ☆

2

في مدينة (جانكشان) كان آخر جمعة في الشهر هو يوم الخطب في قاعة (الروتاري) المحلية. وفي شهر مارس من عام 1990 كان أعضاء نادي الروتاري سيسمعون (جو) المدهش.. لاعب الأكروبات صاحب السيرك الجوال.

دق جرس الهاتف على مكتب (سام بيبل) للعقارات والتأمينات في الرابعة وخمس دقائق من عصر الخميس، فرفع (سام) السماعة لأنه مدير المكتب وموظفه الوحيد. لم يكن ثريا لكنه سعيد.. وقد اعتاد أن يخبر الناس أنه لم يقتن (المرسيدس) بعد لكن سيارته الفورد تؤدي عملها جيدا..

- (سام).. هنا (كريج).. لاعب الأكروبات قد دق عنقه!

- ماذا؟ -

- أنت سمعت.. لاعب الأكروبات دق عنقه اللعين.

فكر (سام) بعض الوقت، ثم قال:

- هل مات؟

- لا.. لكن ربما دنا من ذلك.. إنه في المستشفى وقد التف عشرون رطلا من الجبس حول عنقه.. قال لي (بيلي) إن لاعب الأكروبات جاءه في حفلة الصباح (الماتينيه) ثملا كظربان.. حاول أن يجرى شقلبة خلفية فهوى خارج الشبكة على عنقه.. قال إنه سمع صوت تهشم العنق وهو في مقاعد المتفرجين.

- أخ!

- لست مندهشا على كل حال.. (جو) المدهش؟ أي اسم هذا للاعب سيرك؟ إن الموقف كقطعة من القاذورات فوق الخبز المقدد.. لن يكون هناك خطيب في الحفل..

تمنى (سام) لو كان قد انصرف في الرابعة وترك آلة الرد على المكالمات تعمل.. كان هذا سيعطيه بعض الوقت للتفكير.

لكن (كريج) واصل الضغط عليه:

- فكرنا أنك قد تأتي لتملأ الفراغ..

- ماذا تعني؟ لا أستطيع عمل شقلبة واحدة و...

- بل تتكلم عن أهمية الأعمال المستقلة في حياة البلدات الصغيرة.. (سام).. أنا لست فقط رئيس لجنة الخطابة.. بل أنا اللجنة ذاتها منذ رحل (كيني) وكف (كارل) عن حضور الاجتماعات.. (سام) أنا بحاجة لعونك.. يجب أن تأتي لتكون خطيب الحفل غدا.. ليس لدي سوى خمسة أشخاص أثق في قدرتهم على إلقاء خطاب.

- لكن عملي هو كتابة وثائق التأمين وحين لا أفعل ذلك أبيع المزارع.. معظم الناس يجدون عملي مملا ومن لا يجدونه مملا يجدونه مثيرا للغثيان.

لكن (كريج) كان متأهبا للقتل، لذا قال في إصرار:

- أنت تعرف أنهم سيكونون ثملين بعد العشاء ولن يتذكر واحد منهم حرفا مما تقول.. فقط أريد أحمق يقف ويتكلم نصف ساعة وقد انتخبتك.. أنت مدين لي.

- حسن.. حسن.. لم لا ننهى المحادثة؟ لا بد من كتابة خطبة.

- اكتب ما تريد.. لكن تذكر أن العشاء في السادسة والخطبة في السابعة والنصف.

ووضع السماعة وهو يشعر ببركان من الحمض يصعد في معدته.. المعدة التي كانت هادئة منذ خمس دقائق..

☆ ☆ ☆

3

لم يذهب (سام) هذه الليلة للعب البولينج كما كان ينتوي، بل أغلق مكتبه عليه.. وجلس على المكتب وأمامه ثلاثة أقلام رصاص ومفكرة وعلبة تبغ، ونزع قابس الهاتف.. ثم كتب العنوان:

«الأعمال في المدن الصغيرة شريان الحياة للأمريكيين»

قرأ الاسم بصوت عال فراق له.. لا.. ربما لم يرق له لكن يمكنه تحمله على كل حال. وبدأ يكتب..

☆ ☆ ☆

4

فرغ (سام) من تلاوة خطابه فدفن لفافة التبغ في المطفأة ونظر متسائلا إلى (ناعومي هجنز):

- ما رأيك؟

كانت (ناعومي) شابة حسناء من (بروفيريا).. وهي مدينة على بعد أربعة أميال غربي (جانكشان).. هناك كانت تعيش في بيت أيل للسقوط مع أم آيلة للسقوط بدورها. وكان المتراهنون في المدينة يتراهنون حول أيهما سيسقط أولا: البيت أم الأم.. وكانت كاتبة اختزال بارعة تمر على أكثر من عميل تجاري لتكتب خطاباته.

قال لها:

- لا تخشى من الحقيقة..

لكنه كان يعتقد أن الخطبة جيدة فعلاً.. وقد بدأ يتضايق من فكرة أن الجميع سيكونون ثملين ولن يهتموا بما يقول..

- بالعكس.. أعتقد أنها خطبة ممتعة.. لكني أراها.. لنقل.. جافة..

كان هو مرهقا لأنه سهر حتى الواحدة صباحا في هذه الخطبة فقالت مقترحة:

- اذهب للمكتبة وابحث عن كتاب أو اثنين.. كتب فيها.. لنقل.. نكات مثلاً أو أشعارا وطنية أمريكية..

شعر بتقلص في معدته.. الأمر بدأ يزيد على الحد.. هل يجرى بحوثا من أجل خطبة في نادي (روتاري)؟ إنه لم يقصد المكتبة قط..

- هل المكتبة فيها شيء عن النكات المناسبة للخطب؟

- بالتأكيد ستجد شيئا كهذا..

راح يفكر. وبدأت الفكرة تروق له.. بعض توابل على الخطبة ربما تحسنها وربما تدفعه لارتياد المكتبة بعد أعوام من التجاهل السعيد.. على كل حال المكتبة هي المكتبة.. يمكن دوما أن تسأل أمينة المكتبة عما تريد..

قالت له الفتاة:

- لكن يمكن تركها كما هي فعلى الأقل سيكونون ثملين ولن يسمعوا شيئا..

لكنه كان قد قرر أن يمضي ما بعد الغداء في المكتبة..

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

المكتبة

1

كان (سام) قد مر على المكتبة مئات المرات خلال حياته في البلدة، لكن هذه هي المرة الأولى التي ينظر لها فعلاً، وقد أدرك شيئا غريبا هو أنه يكرهها بمجرد النظر.. النوافذ ضيقة والباب غريب الشكل مع السقف.. كل هذا جعل مدخل المكتبة يبدو كوجه (روبوت) حجري مقطب.. هذا طراز مميز للمباني في (أيوا) وقد أطلق على هذا الطراز اسم (الغرب القبيح)..

لكنها مجرد مكتبة.. ليست أقبية المستنطقين.. لا شيء يبرر الحموضة التي شعر بها فجأة، من ثم دس في فمه قرصا معالجا لها.. أنت قد وافقت على إلقاء خطاب في نادي روتاري متواضع وليست الأمم المتحدة.. فلماذا لا تنسى الأمر وتعود للمكتب؟ كان يمقت اجتماعات الروتاري ويسخر منها، لكنها كانت تمتاز بأنها المكان الذي يسمح بعمل علاقات.. علاقات مع أشخاص يمكنهم أن يمنحوك ثلاثة ملايين بمكالمة هاتفية.. لهذا تحضر الاجتماعات يوم الجمعة.. ولهذا يهتم (كريج) بالأمر.. لأنك ترغب في أن يلاحظك هؤلاء الذين يحركون الأمور ويهزونها في البلدة.

سيكون الجميع ثملين لكن بعضهم لن يسكر.. وعلى الأرجح سيكون هؤلاء الذين لن يسكروا هم الأشخاص الذين يهمك رأيهم فيك.

لكنه لاحظ شيئا غريبا.. لا توجد نباتات على جانبي بناية المكتبة.. لكن ما معنى هذا؟ تسلق الدرجات ووقف أمام الباب..

بدا له المكان مهجورا.. قبض على المقبض وراهن نفسه على أنه سيكون مغلقا.. لا بد أنهم يغلقون عصر الجمعة.. شيء ما أراحه في هذه الفكرة.. لكن المقبض تزحزح ووجد (سام) نفسه يدخل إلى قاعة لها أرضية على شكل الشطرنج. وفي وسط المدخل وجد حاملا يحمل لافتة، تقول:

الصمت!

فقط الصمت.. وليس (الصمت من ذهب) أو (الهدوء من فضلك)..

شعر في هذه اللحظة أنه في الصف الرابع الابتدائي، وأن المعلمة تناديه لتسأله مسألة صعبة.. نظر حوله في توتر متوقعا قدوم أمينة مكتبة سيئة الطبع لترى من هذا الأحمق. كف عن الذعر.. أنت في الأربعين.. زمن طويل يفصلك عن الصف الرابع الابتدائي يا صاحبي.

مشي في قلق متجها إلى المدخل.. كانت هناك كرات زجاجية تتدلى من السقف العالي، لكنها لم تكن مضاءة.. كانت الإضاءة تأتى من نافذتين تطلان على السماء.. وفي يوم مشمس يمكن لهما أن تجعلا المكان بهيجا.. لكن يوم الجمعة هذا كان معتم الإضاءة.

شعر بأنه دخل عالما لا ينتمي له.. عالما لا ينتمي لهذا الذي يعرفه ويحبه أحيانا ويمقته أحيانا.. لكنه يأخذه كقضية مسلم بها.. الصمت ثقيل كالبطانية بارد كالثلج..

هناك كتب تغطي كل الجدران وسلالم من الطراز الذي يتحرك على عجلات مطاطية.. وثمة لافتة تحدد فترة الاستعارة

بسبعة أيام..

كانت هناك كاميرا ميكروفيلم صغيرة على المنضدة، فلم يبد أن هناك رجلا أو امرأة.. كانت هناك لافتة اسم صغيرة تقول (لورتز).. لكن لا يوجد مستر أو مس (لورتز) هنا.. شعر بتوتر وتمنى لو كان قد عاد إلى مكتبه.. تذكر أغنية قديمة من طفولته تقول: لا صخب ولا مرح.. لقد بدأ اجتماع الكويكرز[1]! لو أظهرت أسنانك أو لسانك فعليك دفع غرامة..

مشى إلى نهاية الممر فوجد بابا عليه لافتة تقول: «كتب الأطفال». كان الباب مغلقا وعليه صورة تظهر (ذات الرداء الأحمر) تواجه ذئبا يلبس ثياب الجدة.. وكان الهلع على وجه الفتاة بينما الزبد يسيل من شدقي الذئب.. الصورة كلها توحي بأن النهايات السعيدة لكل القصص الخيالية مجرد كذبة. فتح الباب فزالت كل مخاوفه..

لقد توفي أبوه وهو صغير السن وكانت أمه عاملة فلم يكن يراها إلا أيام الأحد تقريبا.. وكان يذهب إلى المكتبة.. الآن يستعيد هذه المشاعر في مزيج من الحنين والألم..

إنه عالم مضاء بشكل مبهر.. أضواء فلورسنت من السقف تطل على مناضد صغيرة تراصت إليها مقاعد مناسبة للأطفال. في هذا العالم يصير الكبار غرباء حشريين.. لو حاولوا الجلوس لرفعوا المناضد على ركبهم.. سوف يهشمون جماجمهم لو انحنوا ليشربوا من نافورة الماء في ركن المكان. السقف منخفض أكثر مما يريح الكبار لكن ليس إلى درجة أن يخنق الأطفال.

لا توجد كتب كئيبة التجليد ولكن توجد صفوف من الألوان البراقة الصارخة. هنا يصير د. (سويس Seuss) ملكا وتصير (جودي بلوم Blume) ملكة.. يستعيد الشعور القديم بأن الكتب تتوسل لك كي تمسك بها.. تفتحها..

هناك صورة لكلب لطيف على الجدار كتبت تحتها أصدق حقائق الحياة: من الصعب أن تكون طيبا.. نظر (سام) إلى اليسار فرأى صورة جعلت البسمة تموت على شفتيه.. صورة سيارة سوداء تندفع بسرعة خارج بناية مدرسة ومن وراء نافذتها يطل وجه طفل مذعور يصرخ.. ووراء عجلة القيادة خيال مظلم لرجل كبير مخيف.. وتحت الصورة كتبت عبارة:

- لا تقبل توصيلة من الغرباء!

بالطبع على الأطفال ألا يقبلوا توصيلة من الغرباء، ويجب أن يتعلموا هذا بوضوح.. لكن هل هذه هي الطريقة المثلى لتعليمهم هذا؟! كم طفل قضى أسبوعا من الكوابيس بفضل هذه الصورة!

كانت هناك صورة أخرى لطفلين مذعورين يقف أمامهما رجل يلبس معطفا وقبعة.. لا بد أن طوله لا يقل عن مترين بينما ظله يسقط عملاقا على الطفلين.. عينا الرجل تتوهجان في ظل قبعته بينما هو يمسك شارة في يده.. والعبارة تحت الصورة تقول:

- احترس من شرطي المكتبة! أعد الكتب في موعدها.

فجأة! سمع صوتا من خلفه يقول:

- مرحبا بك..

هكذا استدار بسرعة متأهبا للقتال مع تنين المكتبة الذي قرر الظهور الآن..

☆ ☆ ☆

2

لم يكن هناك تنين.. فقط امرأة مكتنزة في الخامسة والخمسين ذات شعر أبيض، تدفع عربة صغيرة عليها كتب، وقالت:

- أحسبك تبحث عنى.. هل أخبرك مستر (بيكام) بمكاني؟

- لم أر أحدا قط.

- إذن لابد أنه ذهب لبيته.. لا يدهشني هذا في يوم الجمعة. إنه يأتي ليكنس المكتبة ويقرأ الجريدة.. فهو الفرّاش.. لكنك تعرف كم أن جرائد الجمعة هزيلة!

- أعتقد أنك أمينة المكتبة؟ مس (لورتز)؟

- وأنت (سام بيبلز)؟ العقارات والتأمين.. هذه لعبتك! يؤسفني أنك لم تلق أحدنا.. نحن اثنان فقط هنا لأن العمدة قد خفض نفقات المكتبة.. فقط نصير ثلاثة في وقت خروج المدارس؛ لأن الأطفال هم أهم عملائنا وأكثرهم إخلاصا.

بدأ يشرح لها مشكلته.. إن خطيب الحفل قد حطم عنقه وعليه هو أن يلقى خطبة الروتاري الليلة.. كانت تصغى له باهتمام لكنه لم يستطع أن يرتاح لها.. كان هذا غريبا بالنسبة لرجل بيزنس مثله يتعامل بحرارة (وإن كان بسطحية) مع كل الناس.

- كتبت الخطبة وقرأتها تلك الفتاة التي تقوم بالاختزال لي.. و...

- (ناعومي هجنز) على ما أظن..

- هل تعرفينها؟

- نعم.. تأتى لتأخذ الكتب الرومانسية من عندي.. تقول إنها لأمها لكن أعتقد أنها تقرؤها بنفسها.. إنها السكرتيرة الوحيدة هنا ويبدو أنها الشابة التي تتكلم عنها..

ابتسم لهذه المعلومة.. إن (ناعومي) لها عينا من يقرأ القصص الرومانسية سرا على كل حال.

- (ناعومي) ترى أن الخطبة جافة وأن عليّ أن أضيف لها شيئا من كتاب ما..

- إذن أعتقد أنك تبحث عن كتاب (رفيق الخطباء)..

- هل فيه نكات؟

- فقط ٣٠٠ منها..

ثم أمسكت بيده تقتاده إلى الخارج، قائلة:

- من هنا يا (سام).. سوف تنتهي مشاكلك حالاً.. فقط آمل أن تزور مكتبتنا بشكل طبيعي بعد هذا من دون حاجة إلى مشكلة في كل مرة.. إنها صغيرة لكنها ممتازة.

واقتادته إلى القاعة الواسعة الكئيبة فأضاءت عدة مفاتيح ليغمر ضوء مبهج المكان.

- لا تؤاخذني.. إن الجو يكون كئيبا من دون أضواء هنا، لكن العمدة يحدث صخبا حول تكلفة الكهرباء عندنا.. يمكنك أن تتخيل ذلك.

ودخلت لتفتش بين الرفوف عن الكتاب.. وقف (سام) شاعرا بأنه ما زال في الصف الرابع.. صبي معاقب في الصف الرابع لذا لا يستطيع اللعب مع أصحابه.. الأغرب أن المكتبة خالية تماما.. لم يتوقع أن تكون مزدحمة لكنه توقع على الأقل أن يرى رجلاً على المعاش يتصفح جريدة.. حتى مستر (بيكام) قد فرغ من الجريدة وعاد للدار.. لأن جرائد الجمعة تكون هزيلة كما تعلم.

غريب أنه لم يحب هذه المرأة اللطيفة قط.. لكنه يعرف أن السبب هو الملصقات التي رآها.. أنت لست مستعدا لتحب أي شخص يعلق ملصقات كهذه في مكتبة أطفال..

نظر للجدار فوجد عبارة مقتبسة من (إمرسون) تقول: لو أردت أن ترى كيف يعامل الرجل زوجته وأطفاله فلتر كيف يعامل كتبه.

لم ترق له العبارة لأنه كان يفترض أن الرجل يعامل زوجته وأطفاله أفضل قليلا من الكتب.. مهما كان الأمر..

هنا عادت مس (لورتز)، وقالت وهي تبتسم:

- أعتقد أنني وجدت ضالتك.

في الحقيقة لم يحب ابتسامتها، ثم عرف أن السبب هو أن عينيها لا تبتسمان أبدا.

وناولته كتابين، أحدهما كان (رفيق الخطباء) والآخر كان (أكثر الأشعار شعبية لدى الأمريكيين).. الكتاب الأخير قامت باختيار أشعاره امرأة تدعى (هيزيل) تزعم أنها وضعت أصابعها على نبض حياة الأمريكيين. نظر للكتاب في شك، فقالت المرأة:

- نعم.. تبدو عتيقة الطراز لكنها كتب ممتازة صدقني.. مثلاً صفحة 65 من هذا الكتاب . إن لم تخني الذاكرة . فيها فصل بعنوان (الإلهام).. وهو مخصص للخطباء المبتدئين.. إن مقطوعة صغيرة من الشعر سوف تلتصق بذهن الناس حتى لو كانوا ثملين.. سوف تجد في الفصل الثالث خطة للحصول على اهتمام مستمعيك.. تليينهم.. ثم تنعيمهم.. ثم السيطرة عليهم..

قال (سام) لنفسه: يبدو هذا كتيبا لتعليم زير النساء (الجيجولو).. لكنه قال لها:

- فقط أنا أتساءل.. جئت هذه المكتبة لغرض معين، وهأنذا قد ظفرت بما أريد بالضبط.. كم مرة يمكن أن يحدث هذا في الحياة؟ كم مرة ظفرت بقطع اللحم التي تريدينها بعنف من الجزار؟

- سأعتبر هذه مجاملة..

- إنها كذلك..

- أخشى أن هذا لن يغير حقيقة أنك مدين لي بدولارين..

- لماذا؟

- هذه تكاليف استخراج بطاقة استعارة للكبار لكنها صالحة لمدة ثلاثة أعوام.. والتجديد بخمسين سنتا.. هل هي صفقة؟

- تبدو كذلك لي..

- إذن اتبعني من هنا لننهي الإجراءات..

☆ ☆ ☆

3

ملأ البيانات التي طلبتها منه، فقالت له:

- كان يجب أن تكون متزوجا.

- ومن قال لك أنني لست متزوجا؟!

- نفس الطريقة التي عرفت بها أنني غير متزوجة.. لا يوجد شيء في الإصبع الثالث الأيسر! والآن دولاران من فضلك.

ثم استخرجت له بطاقة ذات لون برتقالي فاقع ووقعت باسمها تحت بياناته.. لاحظ أن اسمها الأول (أرديليا).. بدا له اسما جميلاً وغير مألوف.

قالت له، وهي تصور البطاقة على جهاز الميكروفيلم:

- يمكنك الاحتفاظ بالكتب لأسبوع واحد.. لأنها من قسم (المراجع).. هذا قسم ابتكرته بنفسي للكتب التي تطلب بإلحاح.. تأكد من إرجاع الكتابين قبل السادس من إبريل.

وفجأة خيل إليه أنه يرى شيئا عجيبا.. للحظة بدا كأن عيني (أورديليا لورتز) تلمعان.. كأن هناك عملتين في عينيها، وقالت باسمة:

- وإلا اضطررت لإرسال شرطي المكتبة في أثرك.

☆ ☆ ☆

4

للحظة تلاقت عيناهما فخيل لـ (سام) أنه يرى (أرديليا لورتز) الحقيقية، فلم يكن هناك شيء جذاب أو ناعم فيها. فكر في أن هذه المرأة خطرة ثم استبعد الفكرة، وقد فسرها بالجو الكئيب وتوتره بصدد الخطبة.

على الباب قال لها:

- ثمة ملحوظة بصدد تلك الملصقات المعلقة في غرفة قراءة الأطفال..

- آه.. تعنى شرطي المكتبة و(سام) الساذج؟ هكذا يسميه الأطفال لأنه ساذج وركب السيارة مع شخص غريب.

- هذه الصور.. تبدو لي مفزعة خاصة حينما يراها الأطفال..

لكنها فعالة.. ألا ترى هذا معي؟ لست أنت أول من انتقد هذه الصور.. لست أول شخص بالغ لم ينجب أطفالا يبدى هذا التعليق.

كانت لهجتها توحى باللوم.. بأنه حصل على ما يريد ثم قرر أن يتسلى بانتقاد طريقتها في إدارة المكتبة..

أردفت المرأة:

- لقد أجرينا استفتاء بين الأطفال من رواد المكتبة العام الماضي.. هذا جزء مهم من عملنا.. اتضح أن الفيلم المفضل لدى الأطفال هو (كابوس في شارع إلم - 5) وأفضل فرقة غنائية تدعى (المسدسات والأزهار).. أفضل قصة قرءوها كانت تدعى (أغنية البجعة).. قصة مرعبة كتبها رجل يدعى (روبرت

مكامون).. هذه القصة قرأ الصبية كل نسخة منها حتى تحولت إلى خرقة.. وحتى النسخة التي قمت بتجليدها سرقها صبي شرير..

ثم ضمت شفتيها، وقالت:

- عن نفسي لم أر أي جزء من (كابوس في شارع إلم).. ولا يمكن أن أقرأ قصة لـ (مكامون) أو (ستيفن كينج) أو (ف س أندروز).. هل تفهم ما أرمي إليه؟ الملصقات التي نعلقها تأتينا من مجمع المكتبات القومي.. وهذا يموله دافعو الضرائب.. أي إنه يأتي منك ومني..

كان (سام) ينقل ساقا بدل ساق.. وما كان ليحب أن يمضي العصر يصغي لمحاضرة عن حرية الاختيار، لكن ما كان متأكدا منه هو أنه يمقت (أرديليا لورتز) أكثر فأكثر كل دقيقة.

- هناك لجنة بها أطفال تختار لنا الملصقات.. هل بدأت تفهم؟

- نعم. الأطفال اختاروا شرطي المكتبة و(سام) الساذج لأنها ملصقات مرعبة.

- بالضبط..

صافحها، وقال:

- أرجو ألا أكون تجاوزت حدودي.. أنت لست متضايقة مني.

مدت يدها تلمس يدها، وقالت:

- على الإطلاق..

ثم أشارت بإصبع مكسوة بالطلاء بعناية إلى الكتب وقالت:

- تذكر.. أسبوع واحد يا (سام).. لا أحب أن أرسل شرطي المكتبة في أثرك.

وابتسمت..

قال (سام):

- وأنا كذلك لا أحب..

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

خطبة (سام)

1

كان نجاح الخطبة ساحقا.. لقد بدأ بإحدى قصص (التليين) في كتاب (رفيق الخطباء).. وكان قد اختار قصة عن بيع طعام مجمد للإسكيمو.. ثم ألقى مقطوعة شعرية قصيرة.. وأنهى كلامه قائلاً:

- حاولت أن أعطيكم بعض أسباب عملي في بلدة صغيرة مثل (جانكشان).. فإن لم تقنعكم فأنا في مشكلة كبري!

دوت ضحكات من القلوب مع رائحة أبخرة الويسكي.. وكان عرقه يسيل بغزارة لكنه يشعر بالرضا عن نفسه وبدأ يعتقد أنه قد ينجو من هذا.. لم ينصرف أحد ولم يلق أحدهم بطعامه.. هناك صيحة استهجان واحدة، لكنها كانت حميدة..

قال لهم:

- لا شك في أن المتاجر الكبري في المدن تبيع أشياءها بأسعار أرخص منا.. بل يمنحونك مكانا مجانيا توقف فيه سيارتك.. لكن هناك شاعرا يدعى (مايكل سبنسر) قال:

فقط اللمسة البشرية في هذا العالم هي ما له معنى.

لمسة يدك أو يدي..

إنها أكثر أهمية للقلب المرتجف من المأوى والطعام والشراب.

لأن المأوى يزول متى انتهت الليلة.. والخبز لا يدوم إلا يوما.

لكن لمسة اليد تغني في روحك للأبد..

فما أن انتهى حتى كان التصفيق يصم الآذان.. وراح يتعالى.. قال لنفسه إنه ما شربوه.. كانوا سيصفقون بنفس الطريقة لو قلت أي شيء سخيف.. فجأة! رأي الناس ينهضون، فقال لنفسه إنهم متلهفون على الانصراف، لكنه رأى (كريج) يشير له ففهم.. يريد منه أن ينحني لهم.. نهض كالمذهول غير مصدق فوجدهم يصفقون له فعلاً.

وهتف (كريج) وهو يحرك يدي (سام) كالمضخة لأعلى وأسفل.

- هذا عظيم.. لو عرفت منذ البداية أنك موهوب هكذا لحجزت لك الدور الأول.. من أين نسخت هذه الخطبة؟

- لم أنسخها.. إنها من تأليفي.

راح الجميع يصافحونه حتى شعر بأنه الطلمبة الوحيدة في المدينة في موسم الجفاف.

- أفضل خطبة سمعتها في هذا النادي اللعين منذ عامين!

☆ ☆ ☆

2

في الصباح عاد لعالم الأحياء بمعدة متقلصة من فرط الشراب.. لقد فتح باب بيته بمعجزة؛ لأنه وجد بدلا من مفتاح واحد وقفل واحد ثلاثة مفاتيح وأربعة أقفال.. وقد نزع ثيابه وارتمي في الفراش غير عالم بأي شيء..

وقف في الحمام تحت الدش البارد، ثم ارتدي ثيابه.. وأدار شريط آلة الرد على المكالمات. في البداية جاء صوت امرأة.. أين سمعه من قبل؟

- أهلا يا سام.. سمعت خطبتك وكانت رائعة.. أنا فخور بك.

لقد كانت تلك المرأة (لورتز).. كيف حصلت على رقمي؟ لا بد أنه كتبه في بطاقة استعارة المكتبة..

- تأكد من إعادة الكتب قبل السادس من إبريل.

ثم انتهت المكالمة.

قال (سام):

- أنت إنسانة كريهة.

ثم اتجه للمطبخ ليعد لنفسه بعض الخبز المقدد.

عندما عادت (ناعومي) بعد أسبوع ناولها مظروفا سميكا فتحته فوجدت بطاقة شكر مع عشرين دولارا.. نظرت له متسائلة، فقال:

- هذا على سبيل الشكر.. أنت من أعطاني فكرة الذهاب للمكتبة.. وبفضلك كانت خطبتي ناجحة بحق..

قالت، وهي تنظر للباب لتتأكد من أن بوسعها التراجع:

- أنا لا أريد هذا.. لقد كان ذلك عملي.

- ألا تفهمين أنني بعت منزلين وكتبت وثائق تأمين بمائتي دولار منذ ألقيت هذه الخطبة اللعينة؟ لو لم تأخذي هذا المبلغ لصرت في أتعس حال.

كان قد حاول التقرب لها عام 1988 لكنها أفلتت من عروضه ببراعة وحنكة.. قالت إن السبب ليس أنه لا يروق لها، ولكن لأنها لا تتصور أية علاقة بينهما في أي وقت.. بعض الأشياء لا يمكن شرحها يا (سام) لكن ليس بوسعي.. صدقني.

هكذا أخذت المبلغ لترضيه، لكن شعر بأنها مسرورة، وقالت له:

- ليكن.. الآن وقد أخذت المال فهل يمكننا أن نتكلم في موضوع آخر؟

عقد يديه خلف رأسه ونظر إلى السقف مفكرا، وقال:

- إنه الحظ.. حين طلب مني (كريج) أن ألقي هذه الخطبة كنت على وشك قتله.

قالت:

- أنت أسعد حظا مما تظن.. عندما اقترحت عليك زيارة المكتبة نسيت أنها تغلق عصر الجمعة.. لكنك وجدتها مفتوحة.. لا بد أن مستر (برايس) كان يطالع جريدته هناك.

- (برايس)؟ لا بد أنك تعنين (بيكام).. الفراش الذي يهوي قراءة الصحف؟

نظرت له، وقالت:

- (بيكام) الوحيد الذي أعرفه مات منذ عامين.. أنا فعلاً أتحدث عن مستر (برايس) أمين المكتبة.

- لم أر إلا مس (لورتز).. وهي امرأة ممتلئة في منتصف العمر.

نظرت له نظرة ذات معني، وقالت:

- مس (لورتز)؟ هذا غريب.. إنها...

لو أنها أكملت كلامها لغيرت الكثير، لكن الحظ يلعب ألعابا غريبة.. هذا ما فكر فيه فيما بعد.. ففي هذه اللحظة بالذات دق جرس الهاتف..

كان هذا (بيرت إيفرسون) الأب الروحي لكل رجال القانون في بلدة (جانكشان).. كان يتحدث عن صفقة تأمين كبرى.. المركز الطبي الجديد الذي ما زال في بدايته، لكنك تعرف إلى أي حد يمكن أن يتسع..

هكذا حين عاد لـ (ناعومي) كان قد نسي كل شيء عن (لورتز).. هذه الصفقة ضخمة، ويمكن أن تضعه خلف عجلة قيادة المرسيدس التي يحلم بها.

كانت (ناعومي) تعرف جيدا من هي (أرديليا لورتز) وقد حسبت (سام) يعرف كذلك.. لقد كانت المرأة صاحبة أسوأ قصة في (جانكشان) منذ عشرين عاما.. ربما منذ الحرب العالمية

الثانية.. حينما عاد الفتى (موجنس) إلى داره من المحيط الهادي، وقتل أسرته قبل أن يصوب السلاح إلى رأسه ويفجره.. لقد فعلها (إيرا موجنس) قبل عصر (ناعومي).. ولم تعرف أن قضية (أرديليا) حدثت قبل قدوم (سام) إلي البلدة.

لقد نسيت الأمر وراحت تفكر ما إذا كانت ستتناول (لازانيا) أم شواء على العشاء.. وهكذا راح (سام) يملي عليها الخطابات ثم دعاها إلى الغداء فرفضت؛ لأنها يجب أن تعود لأمها التي بدأت صحتها تتدهور هذه الأيام.. هكذا لم يتكلم أحد عن (أرديليا) ذلك اليوم..

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع
الكتب المفقودة

1

ما كان (سام) من هواة وجبة الإفطار، غير أنه في أيام السبت من حين لآخر كان يشتهي أن يغير الروتين، فيستيقظ متأخرا ثم يتجه إلى مطعم (ماكينا) ليحظى بإفطار دسم من اللحم والبيض بينما يقرأ الصحيفة.. يقرؤها فعلا ولا يكتفي بتقليب صفحاتها..

وقد اتبع هذا الروتين في الصباح التالي.. السابع من إبريل.. كان الجو صحوا رائقا يمثل بدقة بداية الربيع.

كان قد فرغ من الإفطار وعاد إلى داره ليجد أن هناك رسائل على آلة الرد على المكالمات.. أدار الشريط فسمع صوت (أرديليا) الذي لا يمكن أن تخطئه، يقول:

- (سام).. لقد خاب أملي فيك.. لم ترجع الكتب التي استعرتها!

- اللعنة!

كان هناك شيء يحيره طيلة الأسبوع ويتواثب على لسانه.. الكتب.. لا بد أنها وجدته ذلك الجلف الفظ الذي أرادته أن يكون.. هو يتحذلق ويصدر أحكامه حول أية صور تصلح لمكتبة الطفل وأيها لا يصلح.. المهم الآن أن يعرف إن كانت قد وضعت لسانها السليط على آلة الرد أم أنها تؤجل هذا حتى تراه وجها لوجه.

- لقد توقعت ما هو أفضل من ناحيتك يا (سام)..

وجد أنه واقف في الدار وحده ولفافة التبغ بين يديه وأذناه محمرتان.. لقد عاد صبيا في الصف الرابع الابتدائي.. من جديد عاد صوت المرأة:

- لقد قررت أن أمدد لك الفترة حتى يوم الإثنين.. فقط تجنب إغضابي.. وتذكر شرطي المكتبة يا (سام)..

قال لها:

- قديمة يا صغيرتي

لكن المكالمة كانت قد انتهت وكذلك انغلق جهاز التسجيل..

☆ ☆ ☆

2

أشعل (سام) لفافة تبغ وراح يفكر.. ربما يبدو تصرفه أقرب إلى الجبن، لكنه سينهي مشكلته مع مس (لورتز) بالإضافة إلى أنه يحمل عدالة لا بأس بها.

لقد كافأ (ناعومي) وعليه أن يفعل ذات الشيء مع (أرديليا)..

جلس إلى مكتبه وبدأ يكتب في دفتر أوراقه:

عزيزي مس (لورتز)

أعتذر عن تأخير إعادة الكتابين.. هذ اعتذار صادق لأن الكتب كانت ذات نفع عظيم في إعداد خطابي، أرجو قبول هذا المبلغ تعويضا عن تأخير الكتابين، والباقي تعبيرا عن امتناني.

سام بيبلز.

كاد يعدّل (الكتابين) إلى (كتابي المكتبة) ثم عدل عن هذا لأن المرأة تتصرف بطريقة (أنا الدولة والدولة أنا) حتى لو كانت الدولة هي المكتبة.. وضع ورقة بعشرين دولارا من حافظته وثبتها بدبوس إلى الورقة.. ثم راح يفكر.. على الأرجح ستعتبرها رشوة وتجن..

علي كل حال لن يقدم لها المال شخصيا لأنها ستكون حادة معه.. سيحزم الكتابين برباط مطاطي ويضع المذكرة والمال بينهما.. إن له ستة أعوام في البلدة دون أن يحظى برؤية (أرديليا) لذا يمكن بشيء من الحظ ألا يراها ستة أعوام أخري.

راح يبحث عن الكتابين.. هما ليسا في المكتب.. دخل المطبخ فوجد شريطي فيديو ومظروفا..

راح يحك رأسه متسائلاً..

صعد إلى الطابق الثاني فلم يجدهما.. الآن بدأ يشعر بشعور سيئ للغاية..

☆ ☆ ☆

3

عندما جاءت الثالثة عصرا كان يغلي بالمعني الحرفي.. لقد فتش كل ركن في البيت حتى الكرار.. وهو ذا قد أمضي يوم سبت جميل يبحث عن كتابين بلا جدوى. تذكر أمه عندما كانت تقول له: لو عجزت عن العثور على شيء فلا تقلب المكان بحثا عنه.. اجلس وفكر.

راح يسترجع شريط الذكريات منذ استعار الكتاب حتى... لقد عاد إلى المكتب وفي الطريق عرج على (سام) ليأكل بيتزا بيبروني وفطيرة بعيش الغراب أكلها على مكتبه وهو يتصفح الكتابين.. وراح يحاول ألا يسقط شيء من البيتزا على الكتاب.. وحين عاد لداره مساءً أخذ معه الخطبة لا الكتابين.. ثم جاء (كريج) ليوصله إلى ومن الحفل..

السبت ضاع كله في دوار الخمر Hangover.. لم يذهب للمكتب يوم الأحد.. هذا مؤكد.. يوم الإثنين تلقى مكالمات هاتفية هي بداية نجاحاته وحين غادر المكتب كان يحمل حقيبة أوراقه في يد والكتب في الأخرى.. كان ينوي إعادتها لولا أن تلقى دعوة عشاء من صديق لأن ابنة أخيه كانت في زيارة.. عندما تكون عزبا في بلدة صغيرة يتحول كل إنسان إلى خاطبة.. عندما عاد لبيته كان قد نسي كل شيء عن الكتب..

شعر بموجة أمل عابرة كالتي يشعر بها الناس عندما يعتقدون أن رغبتهم في الشيء كافية كي يوجد.. ربما تركت الكتب في السيارة.. لكن لا.. الآن يذكر أنه فتح باب شقته وكانت الكتب في يده.. ثم رأي بعين الخيال ذلك الصندوق من الورق المقوي في المطبخ.. الصندوق الذي يترك فيه المخلفات..

اتجه للهاتف وطلب (ماري فاسيرز) التي تنظف البيت صباح كل ثلاثاء.. كانت من الأشخاص المذعورين الذين يتوقعون الشر دوما متى طلبتهم هاتفيًا.

- هل ثمة خطأ يا (سام)؟

نعم.. نعم.. بعد صباح الإثنين ستبحث عني تلك الشيطانة التي تعمل في المكتبة. غالبا حاملة صليبا ومجموعة مسامير..

- لا لا يوجد خطأ. فقط كنت أبحث عن مجموعة من الأوراق الناقصة.. وحسبت أن (ديف) أخذها.

- أنت تعرف أنه يأخذ كل شيء تتركه في تلك العلبة المصنوعة من ورق مقوي.. هل هناك شيء خطأ؟ أنت لم تسأل عن هذا الصندوق قط.

استغرق الكثير من الوقت ليقنع المرأة أنه لا توجد كارثة هنالك.. وفي النهاية وضع السماعة وجلس منهارا.

(ديف) قد جاء لجمع الصحف القديمة كعادته أول أسبوع من كل شهر، ويبدو أنه أخذ الكتابين دون أن يعرف. يمكنه أن يتخيل ما حدث لهما الآن.. لقد صارا ورق طباعة تم تدويره.. إن (ديف) كان مدمنا للكحول.. ولما لم يستطع الحفاظ على وظيفة، راح يعمل في جمع مخلفات الناس.. يخلصهم من الصحف القديمة. ثم يحملها إلى مركز إعادة تدوير المخلفات الذي يسكن بجواره مع دستة ممن هم مثله..

ظل للحظات يفكر.. ثم نهض متجها إلى سيارته..

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

شارع الزاوية

1

لابد أن نوايا من كتب اللافتة كانت طيبة لكن هجاءه كان سيئا.. كانت اللافتة المثبتة جوار السكة الحديدية تقول:

شارع الزاوية. ولما لم تكن هناك زوايا على طريق السكة الحديدية، فقد قدر أن كاتب اللافتة كان يعني: شارع الملائكة.. وقد خلط بين لفظة angel و angle.. كان هذا المبني يعود لأيام كانت هناك سكة حديدية في (جانكشان).. لقد أزيلت أكثر القضبان وتم فك التحويلات بيد الناس الذين صار هذا مأواهم..

وصل هناك عصرا وكان نسيم خفيف يبعث الرجفة في أوصاله.. ومن بعيد يسمع صوت صرير اللافتة التي تحمل اسم المدينة تهتز للأمام والخلف. أما ملجأ المشردين فقد كان أبيض اللون فيما سبق لكنه الآن صار رماديا.

كان حظه سعيدا إذ وجد (ديف).. كان يجلس هناك مع صديقين يحاولان أن يرسما على قطع كبيرة من الورق المقوي، وكأنهما تلميذان في الحضانة يحاولان رسم شجرة كي يظفرا بنجمة من المعلمة.

- مرحبا (ديف)..

نظر (ديف) لأعلى ورسم ابتسامة أظهرت ما بقي من أسنانه، ثم هتف:

- مرحبا مستر (بيبلز).. هيه يا رفاق! رحبوا بالمستر (بيبلز).. إنه محام!

- هل معك ربع؟

قال (سام) وهو ينظر إلى الرجلين:

- في الحقيقة أنا أتاجر بالعقارات..

راح أحد السكيرين يترنم بأغنية بذيئة فتجاهله (سام) وسأل (ديف) عن الكتابين..

- أنا آسف.. لم أر أية كتب.. صدقني

- أنا أصدقك يا (ديف)..

فكر (سام) فيما إذا كان هؤلاء القوم في نادي الروتاري يعرفون بوجود مخلوقات كهذه؟ يعرفون بوجود (شارع الزاوية)؟ وماذا يقول الشاعر (سبنسر مايكل) الذي اقتبس منه القصيدة لو رأي هؤلاء؟ هل كان يتكلم عن (اللمسة البشرية التي هي أهم شيء في العالم)؟

- هل أخذت الأوراق من بيتي لمركز إعادة تدوير المخلفات؟

- نعم سيدي.

وأدار (ديف) الورقة التي يرسم عليها فرأي (سام) صورة لامرأة تمسك بقطعة دجاج محمر.. من الغريب أنها كانت صورة جيدة.. هذا الرجل يملك الموهبة بلا شك.. وتحت الصورة كتب (شارك في عشاء الكنيسة المنهجية من أجل الذين لا مأوي لهم)..

قال (ديف) مفسرا:

- في شبابي نلت منحة كاملة للدراسة في أرقى أكاديمية فنون في فرنسا.. لكني رسبت في صفي الأول.. إنها الخمر.. هكذا صرت ضائعا بلا أمل ولا بيت.

- هل هذه المرأة حقيقية؟

اتسعت ابتسامة (ديف)، وقال:

- هذه (سارة).. فتاة ممتازة.. لولاها لأغلق هذا المكان منذ خمسة أعوام.. إنها تجد المال الذي يمنعهم من هدم هذا المبني.. إنها تطلق على من يتبرعون بالمال (ملائكة) لكنها هي الملاك الحقيقي.. وقد سمينا الشارع تكريما لها..

ثم دخل مع رفيقيه إلى البناية المتهدمة لمشاهدة حلقة (رحلة النجم Star trek)..

☆ ☆ ☆

2

كاد (سام) يصل لسيارته.. ثم قرر أن يعود إلى مركز إعادة تدوير المخلفات. مشي عبر الأرض العشبية وهو يرقب قطارات البضاعة تبتعد متجهة نحو (أوماها).. كان مرأى قطارات البضاعة يشعره بالوحشة طيلة حياته لسبب لا يعرفه.. لكنه الآن يشعر بوحدة أكثر..

كان المكان مغلقا فقرر العودة لسيارته عندما وجد شيئا مألوفا على الأرض. انحني يلتقطه فوجده غلاف كتاب (أكثر القصائد شعبية لدي الأمريكيين).. وعليه خاتم المكتبة.. هذا هو ما حدث.. لقد وضع الكتاب في الصندوق، ثم نسي أمره ووضع عليه الكثير من الصحف.. جاء (ديف) ونقل الصندوق إلى هنا.. وهكذا لم يبق من الكتاب إلا هذا الغلاف..

ألقى بالغلاف على الأرض.. الآن لديه مهمة عسيرة يجب القيام بها.. هناك غراب يجب أن يلتهمه للعشاء!

☆☆☆

الفصل السادس

المكتبة

1

في طريقه للمكتبة تذكر حقيقة لم يفكر فيها من قبل.. لقد استعار كتابين وفقدهما.. كل ما عليه هو دفع ثمنهما.. وخطر له أن (أرديليا) نجحت في جعله يفكر كصبي في الصف الرابع أكثر مما توقع.. عندما يفقد الصبي كتابا فإنه ينكمش على نفسه خوفا من شرطي المكتبة.. لا يوجد شرطي مكتبة.. هو شخص بالغ ويعرف هذا.. لا يوجد إلا موظفة بيروقراطية تبالغ في أهمية نفسها وتنسى أن دافعي الضرائب مثله هم الكلب الذي يهز الذيل لا العكس..

كان متجها نحو المكتبة عندما توقف في منتصف المسافة.. لقد زارته رؤيا معينة.. تلك المرأة التي كانت تلتهم الدجاج وبدت مألوفة في الصورة التي رسمها (ديف).. إنها (ناعومي هيجنز)..

☆ ☆ ☆

2

علي باب المكتبة مر بفتيين يلبسان جاكيتين جلديين، ولحق بالباب قبل أن ينغلق..

دخل الردهة، فكان أول ما أثار دهشته أن تلك اللوحة التي تقول: (الصمت) قد اختفت وصارت مكانها صورة لـ (توماس جيفرسون) مع عبارة له تقول: لا أستطيع الحياة من دون كتب..

هذا غيّر انطباعه عن المكتبة بالكامل.. هذه العبارة تمنحك نوعا من الترقب والسرور.. يشعرك بما يشعر به الجائع عندما يصل الطعام.

فجأة تصلب (سام)، وقد رأي ما رآه..

كانت الإضاءة ساطعة.. لكن هذا كان جزءا من التغييرات.. إن السقف منخفض ولم تعد هناك تلك السلالم الشامخة المتحركة.. المجلات موضوعة بطريقة مغرية على منضدة جميلة الشكل.. اختفت لافتة: (الإعارة سبعة أيام فقط) لتحل مكانها لافتة تقول: (اقرأ الكتب الأفضل مبيعا لتظفر بالمتعة)..

اختفت النوافذ العلوية وحل محلها سقف مودرن معلق.. راح الناس ينظرون لـ (سام) في حيرة وبعضهم ضحك خفية.. لكن (سام) لم يشعر بشيء لأنه كان ينظر للسقف في ذهول حيث وقف وسط القاعة الرئيسة..

ماذا في ذلك؟ لقد ركبوا سقفا متحركا وأجروا تجديدات.. المرأة لم تقل هذا.. لكن لماذا تقول لك؟ أنت لست عميلا مهما أو منتظما.. لكن برغم هذا لا يصدق أن كل هذه التغييرات

تمت في أسبوع.. أنت في المكتبة الخطأ! فكر في هذا لثانية ثم تراجع كما يثب القط فوق ظل.. لا يمكن أن تشيد البلدة مكتبتين.. دعك من أنه لن يضل الطريق.

هنا فطن إلى أن كل واحد في المكتبة كف عما يقوم به وراح ينظر له.. هكذا اتجه لرف المجلات وانتقى عددا من (أمريكا اليوم) وراح يقلب فيه باهتمام مفتعل.

عندما نسيه الناس ترك المجلة واتجه إلى قسم الأطفال.. على الباب لم يجد (ذات الرداء الأحمر) في لحظة رعبها، بل وجد أولاد أخي (دونالد دك) بالمايوهات يسبحون في بركة كتب.

بالداخل وجد أن كل شيء تغير.. وفي ركن المكان وجد فتي وفتاة من طلبة الكليات ينظران له بدهشة. قال لنفسه: كن حذرا.. لا.. كن طبيعيا.. لقد بدأ الجميع ينظر له الآن باعتباره نصف مجنون..

هكذا سألهما في أدب:

- أنا أبحث عن أمينة المكتبة..

- للأسف مستر (برايس) لا يأتي هنا مساء السبت.

تذكر ما قالته (ناعومي) من قبل، فعاد يسأل:

- أبحث عمن تدعي مس (أرديليا لورتز)..

قالت الفتاة في أدب:

- لابد أنك على خطأ.. لا أحد هنا يدعي (لورد)..

- (لورتز)..

بدت عليهما الدهشة، وكان يرغب في أن يصر على أنه قابلها هنا منذ ثمانية أيام، لكنه عدل عن هذا.

هكذا رسم ابتسامة على شفتيه، وقال:

سامحاني.. إنني أمر بيوم من تلك الأيام.

- بالفعل..

قالتها الفتاة ففكر: إنها تحسبني مجنونا.. لكن هل تعرف؟ أنا لا ألومها على ذلك.

قال باسما:

- أنا (سام بيبلز)..

ومد يده يصافحهما فمدت الفتاة يدها له، وقالت:

- (سنثيا بيريجان).. وهذا (توم ستانفود).. أنا و(توم) ندرس في كلية (شابلتون).. أنا أعمل هنا منذ ثلاثة مواسم دراسية.

- وهذا السقف المعلق هنا منذ زمن؟

- لا أعرف أن هذا اسمه.. لكن.. نعم.. هو هنا منذ أتيت أنا..

هنا قال الفتي:

- نحن نغلق غدا.. يمكنك أن تأتي يوم الإثنين لتقابل مستر (برايس).

- بالفعل سأفعل هذا..

- كنا نتمنى لو نستطيع مساعدتك..

- أنا أيضا تمنيت هذا..

☆ ☆ ☆

3

كان بخير حتى ركب السيارة.. هنا تخلت عنه كل عضلاته واضطر للتمسك بسقف السيارة كي لا يسقط على الأرض.. وتهالك خلف عجلة القيادة وراح يتنفس بصعوبة متوقعا أن يفقد الوعي.. ماذا يحدث هنا؟ يشعر بأنه في حلقة من مسلسل (رود سيرلنج Serling) القديم (منطقة الشفق).. لكن الغموض يفقد أية متعة له عندما يتعلق الأمر بك.

الناس تدخل وتخرج إلى ومن المكتبة وكل شيء يبدو طبيعيًا.

كف عن التفكير.. غدًا في ضوء الشمس ستجد منطقا لهذا كله.. أدار محرك السيارة لكنه ظل يفكر في الأمر طيلة الليل..

☆☆☆

الفصل السابع
أهوال الليل

1

وقف مذعورا أمام جهاز الرد على المكالمات هناك مكالمة مسجلة فهل هي منها؟ من الصف الرابع إلى مستشفى المجانين.. هذا هو طريقه.. تمالك أعصابه وأدار الشريط فسمع (جو المدهش) يشكره على قيامه بالخطبة بدلا منه، ويخبره أن عنقه التوى ولم يهشم.. ثم يهديه مجموعة من التذاكر المجانية.

معنى هذا أن مكالمة (جو) قد مسحت الشريط وهذا يعني أن آخر أثر يثبت أن المرأة موجودة قد اختفى.. لكن ماذا عن كارنيه المكتبة؟ ألا يحمل توقيع المرأة؟ هنا تذكر أنه لن يجده لأنه كان قد وضعه في كتاب (أكثر القصائد شعبية).

هو لم يجن.. لكن لو لم يجد تفسيرا فلسوف يحدث هذا..

هكذا جلس ووضع يده على رأسه.. وشعر ببدايات الصداع..

☆ ☆ ☆

2

كان يسخن على الموقد علبة من الحساء أملاً في أن تزيل الصداع عنه، عندما خطرت بذهنه (ناعومي هيجنز).. (هيجنز).. الفتاة التي تشبه اللوحة التي رسمها (ديف).. وتساءل عما إذا كانت لها حياة سرية تحت اسم (سارة)..

(ناعومي) بدا أنها تعرف (أرديليا).. لقد بدأت الكلام عنها عندما دق جرس الهاتف.. هذا مؤكد.. هناك ثقب في رأسه يمكنك أن تلقي فيه أشياء وتنتظر حتى تسمع صوت الـ (سبلاش)..

حاول الاتصال بها لكن أمها غير الودود قالت له إنها بالخارج.. وإنها ستكون في الكنيسة غدا.. لا تترك مذكرات لها لأني سأنام الآن ولا أستطيع الكتابة بسبب التهاب المفاصل..

تناول الحساء ثم قرر أن ينام.. كان بحاجة إلى رحلة لعالم النسيان.

لكن النوم لم يأت.. كان يشعر بأنه موشك على فقدان عقله، وقد أثارت هذه النقطة رعبه.. كان يرى في السينما رجلاً يمسك برأسه، ويقول للطبيب النفسي: يبدو أنني سأفقد عقلي يا دكتور.. هكذا كان يحسب فقدان العقل والصداع شيئين متقاربين..

لم يكن الأمر كذلك.. بل هو أقرب إلى أن تمد يدك لتهرش جزءا من جسمك فتجد بدلا منه ورما سرطانيا ضخما.

لقد بدأ يشك في كل شيء.. موضوع (سارة) التي تحسن للمنبوذين وهي في الحقيقة (ناعومي).. النمو المذهل في أعماله..

هل كل هذه تهيؤات؟!

بعد منتصف الليل ساءت الأمور أكثر.. لقد راح يفكر في (أرديليا لورتز).. يتصورها في الخزانة أو تحت الفراش.. رآها تضحك في الظلام وشعرها مفكوك حول كتفيها كأنه جمة مفزعة.. تمد يدها طويلة الأظفار نحوه.. تصور كيف ستصير عظامه (جيلي) لو أنها بدأت تهمس له..

أنت أضعت الكتب يا (سام) فلم يعد لدي إلا شرطي المكتبة.

هنا صار النوم مستحيلا.. مد يده يضيء المصباح بجوار الفراش.

لا تقلق.. فلن تلبث أن تري شرطي المكتبة.. وربما الوحش (جورجو) كذلك.. لم لا؟؟ لا توجد مشاكل في الهلوسة بالنسبة لشخص تخيل زيارة كاملة للمكتبة ومقابلة مع امرأة لا وجود لها.

بحث عن أقراص منوم فلم يجد لذا قرر أن يرتجل.. سخن بعض اللبن على الموقد ثم صبه في كأس وأضاف له بعض البراندي كما رأي في الأفلام. ذاق رشفة من السائل الكريه ثم ألقاه في الحوض.. الساعة الواحدة صباحا.. ما زال الوقت طويلاً حتى الصباح.. وقت طويل من تخيل (أرديليا) وشرطي المكتبة يتسلقان الدرج والسكاكين بين أسنانهما.. أو سهام.. سهام طويلة سود.. لماذا سهام؟ لا يعرف..

قال لنفسه إنه لا يريد أن يعرف.. وعاد للفراش.

☆☆☆

3

ترك المصباح مضاء فبدد هذا بعض مخاوفه.. وقدر أنه قد ينام قبل أن يفنى الكون أخيرا.

لا بد أن شيئا مما رآه حدث فعلاً.. ليست كلها هلاوس ما لم أكن الآن في مستشفى المجانين، ألبس القميص وأرقد في زنزانة مبطنة، وأتخيل أنني هنا في فراشي.

(ناعومي) سمعت عن (لورتز).. معني هذا أن هناك آخرين في البلدة سمعوا عنها.. ليس الطلبة في (شابلتون) ولكن كبار المواطنين.

عند هذه النقطة عبر الحاجز الواهي بين النوم والصحوة.. وغرق في الكوابيس.

عندما صحا من النوم كان غارقا في العرق وقد انتزع أغطية الفراش جميعا من موضعها.. وكانت الساعة جوار الفراش تقول 45: 5.. كان رأسه يؤلمه بشدة.. نهض للحمام وقضي حاجته.. ثم عاد للفراش ورقد بانتظار انتهاء تأثير الكابوس.

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن
شارع الزاوية

1

وصل لشارع الزاوية في منتصف الثانية عشرة.. ولم يندهش لرؤية سيارة (ناعومي) الداتسون الزرقاء تقف هناك. وقف خلفها واتجه إلى البناية العتيقة التي يتخذها المشردون مأوي، ودق الباب.. فلما لم يرد أحد عليه.. فتحه.. كان المكان خاليا ما لم يعتبر الهاتف على الجدار أثاثا.

كان أول باب على اليسار مفتوحا وقد كتب عليه: (أصدقاء بيل يدخلون من هنا)! وتحتها لافتة أخرى بدت سخيفة بلا معني بالنسبة لـ (سام).. كانت تقول:

- الوقت يستغرق وقتا!

كان الباب يطل على غرفة رئيسة بها أريكة ومقاعد محطمة تم إصلاح بعضها بالـ (سلوتيب)..

واصل (سام) المشي شاعرا بأنه متطفل.. رائحة المكان كريهة حتى قدر أن شخصا مات هنا منذ زمن أو أن شخصا سيموت قريبا. كان هناك مطبخ عتيق به حوض صدئ.. وثلاجة متداعية.. ومن النافذة الخلفية رأي حديقة لا بأس بها.. لا تحوي الكثير لكن سكان شارع الزاوية اعتنوا بها..

كان هناك نحو نصف دستة من سكان الشارع يجلسون في مقاعد هناك في تلك الحديقة.. استطاع أن يميز (ناعومي) و(ديف) والرجلين اللذين قابلهما أمس (لوكي) و(رودلف).. ثم أدرك أنه يرى معهم أكثر محامي البلدة ثراء (بيرت إيفرسون).. و(إلمر باسكين) رجل المصرف الذي لم يحضر خطبته في

نادي الروتاري لكنه اتصل به يهنئه فيما بعد.. وهب النسيم يطير الستائر التي تحيط بالنافذة التي يقف خلفها (سام)..

كل هذا غريب.. أن تجلس (ناعومي) مع سكيري البلدة باسم مستعار.. وأن يرى أغنى رجل مصارف وأغنى محام هنا كذلك.. كل هذا يبدو كأنه حلم.

وقف رجل يلبس سترة خضراء طالبا الكلمة؛ فسمح له (رودلف) بذلك:

- اسمي (جون).. وأنا مدمن كحول.

تراجع (سام) عن النافذة وقد بدأ يشعر بأنه ليس متطفلاً فقط بل هو جاسوس كذلك.. واضح أن هذه جلسة علاج جماعي لجمعية AA (مدمنون مجهولون) التي تعالج المدمنين سرا.. أمها تعتقد أنها في اجتماع للكنيسة لكنها في الواقع هنا.. كيف كنت أستطيع معرفة أنها مدمنة كحول تحاول الشفاء؟ هل أنا أقرأ الأفكار؟ ربما لهذا تحاشت كل عروضه للتقرب منها؛ لأنها تخشي أن يعرف.

وهل يعني هذا أن رجل المصرف والمحامي يعانيان ذات المشكلة الخطرة؟ هو فقط يعرف شيئا واحدا إن حرف A يعني Anonymous (مجهول).. وهذا يعني أن الرجلين يمكن أن يسحقاه لو عرفا أنه عرف.. وهما قادران على تدمير أعماله الصاعدة في هذه البلدة..

يجب أن يرحل فورا.. هو لا يرغب البتة في التنصت على هؤلاء القوم.. ولا معرفة المزيد..

هكذا اتجه إلى باب الخروج، وكتب مذكرة لـ (ديف): (ديف).. مررت عليك بالصدفة فلم أجد أحدا. حسبت أنه بوسعك أن تساعدني بصدد امرأة تدعي (أرديليا لورتز).. أريد معرفة كل شيء عنها.. هلا اتصلت هذه الليلة؟ رقمي هو 5558699.. شكرا.

وضع الورقة في مظروف ووضعه فوق جهاز التليفزيون.. فكر في ترك ربع دولار ثمن المكالمة مع المظروف لكنه عدل عن ذلك حتى لا يعتبرها (ديف) إهانة.

وعاد إلى سيارته مسرورا لأن أحدا لم يره..

☆ ☆ ☆

2

عند العصر تغلب إرهاق البارحة على (سام) فبدأ ينعس على الأريكة وهو يشاهد مباراة (بيزبول) مملة، عندما دق جرس الهاتف؛ فنهض شاعرا بعدم الاتزان..

كان هذا (ديف) يسأله:

- ألم تقل إنك تريد معرفة شيء عن تلك المرأة؟

قالها بلا تمهيد.. وكان صوته يرتجف كأنما فقد السيطرة على نفسه.

- ليس من مصلحتك مجرد التفكير فيها!!

زال النعاس عن عين (سام) على الفور.. ما شأن هذه المرأة؟ الناس يتعاملون معها إما كأنها الشيطان أو كأنهم لم يسمعوا عنها قط.. من هي بالضبط؟

ساد صمت طويل حتى كان ليعتقد أن الخط قطع لولا صوت تنفس (ديف) المهشم المتعب.

عاد العجوز يتكلم:

- مستر (بيبلز).. أنت كنت طيبا معي وكذلك الآخرون الذين ساعدوني على البقاء حيا برغم أنني غير واثق مما إذا كنت أريد ذلك.. نصيحتي لك ألا تتكلم عنها معي ولا مع أي واحد آخر.

- هذا يبدو تهديدا.

- لا.. ليس كذلك.. أنا أفعل ما كنت سأفعله لو رأيتك تمشي نحو بئر والعشب نام بحيث لا ترى قدميك.. لا تتكلم عنها ودع

الموتى موتى كما هم!

دع الموتى موتى كما هم.. لم يثر هذا دهشته.. كل شيء باستثناء الرسالة على آلة الرد على المكالمات يدل على الشيء ذاته: (أرديليا لورتز) ليست في عالم الأحياء.. هو وحده من بين الأحياء تحدث معها.. لا.. بل أجرى صفقة معها ودفع لها دولارين..

لكن هذا لا يمنع من أن يصير جلده كجلد الإوزة، وأن تسري قشعريرة على الطريق السريع الأبيض في عموده الفقري.

- هل معنى هذا أنها ميتة؟

كان صوت (ديف) أقرب للجنون الآن:

- لا أريد الكلام عن هذا يا مستر (ببيلز).. أرجوك!!

قال (سام) لنفسه: دعه في حاله.. ألا ترى أنه يعاني ما يكفيه من متاعب؟

هنا تذكر شيئا آخر فسأل الرجل:

- رأيت في المكتبة ملصقا يمثل طفلاً خائفا يصرخ من زجاج سيارة.. لقد عرفت أسلوبك في الرسم على الفور.. فهل..؟

صرخ الرجل:

- انس الموضوع! أرجوك أن تنسى الموضوع فلم يكن في يدي شيء!!

وابتعدت صرخاته؛ إذ أخذ أحدهم السماعة منه، ثم جاء صوت (ناعومي هيجنز) تقول:

- دعه وشأنه.. ألا تستطيع أن ترحمه أيها الرجل المخيف؟

- (ناعومي). أنا..

- ما دمت هنا فاسمي (سارة).. لكن كلا الاسمين يكرهانك.. ولن أضع قدمي في مكتبك ما حييت!

قال لها، وأعصابه تفارقه:

- لماذا أرسلتيني للمكتبة يا (ناعومي) ما دمت لا تريدين لي أن ألقاها؟ لماذا؟

دوت شهقة من الطرف الآخر.. ثم وضعت السماعة..

هكذا ظل في المكتب حتى التاسعة والنصف يدون اسما تلو الآخر على نفس المفكرة التي كتب فيها خطاب الروتاري. إن ستة أعوام فترة طويلة لكنها لم تعد كذلك.. كأنه أمضي في البلدة يوما واحدا لا أكثر. يريد من يجيب عن أسئلته بوضوح بصدد (أرديليا لورتز).. لكنه لا يجد صديقا حميما بما يكفي.

لم تكن (أرديليا) شبحا فحسب.. كانت شبحا داخل شبح.. فالمكتبة لم تكن ذات المكتبة.. كان الأمر كالسفر عبر الزمن.. لقد دخل المكتبة العتيقة كما كانت منذ أعوام وهذا يفسر غرابتها.

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع
شرطي المكتبة

كان نومه هادئا بلا كوابيس، وفي الصباح جاءته فكرة تحت (الدش) من طراز الأفكار التي تواتيك حينما يستريح جسدك، لكن عقلك لم يفق بعد لتشغله القاذورات اليومية. لم تكن المكتبة هي المكان الأوحد للمعلومات خاصة إذا كانت معلومات محلية..

- الجريدة الرسمية!

وصرخ ووضع رأسه تحت الماء ليغسل الصابون..

خلال دقائق كان في الطابق السفلي يشرب القهوة وبدأ يكتب في القائمة:

1. من هي أرديليا لورتز؟
2. ماذا فعلته أرديليا لورتز؟
3. هل جددت مكتبة المدينة؟ متى؟ صور؟

هنا دق جرس الباب فنظر للساعة.. إنها الثامنة والنصف.. سوف يقصد الجريدة في العاشرة موعد القهوة.. بحث عن عملة في جيبه من أجل بائع الصحف، واتجه للباب الخلفي بينما الجرس يدق ثانية..

- أنا قادم يا (كيث)! لا تحدث ثقبا في الـ....

لكنه وجد أنه ينظر لشيء أكبر من (كيث) من خلال النافذة المغطاة بالستار الخاصة بالباب. شعر بقشعريرة.. لا حاجة له لرؤية الوجه فحتى من هنا يدرك الشكل العام للواقف بالخارج.. والمعطف.. نزع يده عن المقبض لكنه تأخر لأن اللسان غادر القفل.. وفي اللحظة التالية دفع القادم الباب ليفتحه. وهنا سقط (سام) للوراء ودخل شرطي المكتبة.

دخل ببطء كأن عنده كل الوقت في العالم.. وفي يده كانت الجريدة.

جئتك بالجريدة.. كنت سأدفع للولد بقشيشا لكنه خاف وجري..

كان صوته بعيدا كأنه يتكلم من وراء حاجز زجاجي.. تراجع (سام) وقال لنفسه: أنا أتخيل هذا.. هذا كابوس مخيف لا أكثر.

لكنه لم يكن كابوسا.. كان مخيفا لكنه ليس كابوسا.

كان سقف بيت (سام) عاليا لكن شرطي المكتبة اضطر لأن يحني رأسه.. معني هذا أن طوله يتجاوز مترين.. كان جلده أبيض ووجهه جامدا يدل على أنه لا يفهم الحب ولا الرحمة.. عيناه أقرب لقطعتي عملة ثقبتهما طلقات الرصاص.. والأسوأ أن (سام) كان يذكر انه رأي هذا الوجه.. هناك ندبة على حاجز الأنف تمتد لما تحت العينين.. السهم الأسود.. (ر. ل. ستيفنسون).. ما الذي ذكره بهذه القصة؟ رائحة الربسوس هذه.. من أين جاءت؟

قال الشرطي بصوت عميق:

- تعال معي يا بني.. فأنا شرطي..

إنه يشبه الرجل في الملصق أو لعله هو بنفسه.. وسرعان ما بلل (سام) سرواله.. لكن هذا بدا بلا أهمية.. المهم أن (سام) يعرف هذا الوجه.. باب في مؤخرة وعيه يحاول جاهدا أن ينفتح.. لكن لا وقت لهذا.. إنه يتراجع.. ينكمش على نفسه.. لم يفكر في الهرب.. مستحيل.. نظر للأرض ودعا الله أن يرفع رأسه فيجد الشخص قد مضى.

- انظر لي!

- لا..

صرخ (سام) في ذعر.. وبكي.. مد الشرطي يده في معطفه وأخرج ملفا جلديا.. التمعت شارته التي تبدو كنجمة متعددة الرءوس في ضوء الصباح:

- لديك كتابان يخصان المكتبة.

- لقد فقدتهما!

قالها وهو يبكي.. لم يستطع الكذب على الرجل.. لقد كان كله قوة.. كله سطوة.. كان كله قاضيا وجلادا.

- أنا.. أنا..

- لا أريد سماع أعذارك.

ومد يده لجيب معطفه وأخرج سكينا لها نصل طويل حاد، وقد عرفها (سام) على الفور.. إنها فتاحة صناديق.. هناك واحدة منها في كل مكتبة في الولايات المتحدة..

- سأمهلك حتى المساء..

وانغرس طرف السكين في حنجرته.. وانحدرت قطرة دم هناك.. ثم عادت السكين لمعطف الرجل..

- عندما أعود فمن الأفضل أن تجد ما فقدته.. وهناك شيء آخر.. أنت تسأل أسئلة.. لا تفعل هذا.. تذكر أنني أراقبك..

- لن أفعل.. لن أفعل..

استدار الرجل ولم يلق أية نظرة على (سام).. توارى عبر ضوء الشمس ولم يلق نظرة أخرى على (سام).. لاحظ (سام) شيئا مرعبا.. الرجل لا ظل له.

فكر (سام) في غلق الباب لكن قواه تخلت عنه وغاب عن الوعي.

☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

بالترتيب الزمني

1

سألته موظفة الاستقبال:

- هل لي أن أساعدك؟

وأعادت النظر إلى الرجل الذي دنا منها.. فقال لها (سام):

- أريد أن أراجع بعض النسخ القديمة من الجريدة الرسمية..

- هذا ممكن لكن اسمح لي.. هل أنت على ما يرام؟ أنت شاحب جدا..

- ربما أنا على وشك الإصابة ببرد..

- رأيت صورتك في الصحيفة لكن وجهك كان مختلفا.. أنا (دورين مكجيل)..

ومدت يدا مكتنزة تصافحه.. واقتادته إلى البدروم حيث ثلاثة أجهزة ميكروفيلم.. شعر بأن المكان يشبه المشرحة وكذلك كان اسمه فعلاً.. كان كل ظل يثير هلعه ثم تذكر أن شرطي المكتبة لا ظل له.. هكذا هدأ قليلا..

قالت وهي تشير إلى الجهاز:

- هكذا يتحرك الميكروفيلم بالترتيب الزمني.. لو أردت شيئا فاطلبني..

وصعدت الدرج فقاوم رغبة عاتية كي يلحق بها.. برغم حداثة المكان فقد كان مجرد مكتبة أخرى من مكتبات مدينة (جانكشان) اللعينة، وكانوا يطلقون عليها اسم (المشرحة)..

الشرطي طلب منه ألا يسأل أسئلة، وهو قد فعل هذا.. لم يسأل.. فهل يعتبر مجيئه لهنا إخلالاً بالاتفاق؟

☆ ☆ ☆

2

كان عليه أن يختار تاريخا يسبق 1984 أي قبل قدومه للبلدة، لأنه لو تمت تجديدات للمكتبة بعد هذا التاريخ للاحظها.. ربما عليه أن يبحث قبل عشرين سنة على الأكثر.. السقف لم يبد منظره أقدم من هذا.. فقط لو استطاع أن يضيق النطاق أكثر، لكنه لا يستطيع التفكير! ما حدث صباح اليوم أفسد قدرات عقله كما تفسد البقع الشمسية الإرسال التليفزيوني.

انتقي أول مجموعة من الميكروفيلم وقام بتشغيل الجهاز، وهي عملية يمكن لطفل في السابعة أن يقوم بها، لكنه كان مرتبكا.. فوجئ أن أول ما قرأه كان أعداد إبريل 1981 من الجريدة.. هل هذه صدفة؟ لماذا اخترتها بالذات؟ وعلي الصفحة الأولي قرأ بخط أحمر أن أسرة مكتبة (جانكشان) تذكر المواطنين بأن عيد المكتبة يمتد من 6 إبريل إلى 13 إبريل!

ربما انتقي هذا السجل بلا وعي.. على كل حال استطاع أن يري صورة أمين المكتبة (برايس) وخلفه المكتبة.. كان السقف المعلق مثبتا.. معنى هذا أن التجديدات تمت قبل عام 1981.. ولحسن حظه وجد في نهاية العدد مقالا مهما لأمين المكتبة (برايس) عن تاريخ المكتبة خلال مائة عام.. راح يقرأ المقال بلهفة لكن لا.. لم ير اسم (أرديليا لورتز).. لكنه وجد أن تاريخ تجديد المكتبة هو العام 1970.. كانت هناك امرأة باسلة تولت أمر المكتبة بعد أيام الكساد الاقتصادي حتى عام 1951 ثم تولاها من يدعى (لافين).. بعد هذا تسلم (برايس) المكتبة عام 1964.. هناك ثغرة ما.. ثغرة لم ينسها الرجل ولكن تجاهلها..

من الممكن أن نتصور أن هناك امرأة اسمها (أرديليا) تولت أمر المكتبة بعد (لافين).. لقد فعلت ما جعل (برايس) يتحاشى ذكرها برغم ولعه الشديد بالتفاصيل..

لا بد أنها قتلت.. هذا هو الشيء الوحيد الذي..

وفجأة هبطت يد على كتف (سام)..

☆ ☆ ☆

3

لو صرخ لأثار هلعها لكنه لم يفعل.. فقط خرج الهواء من صدره كأنه أوكورديون داس عليه فيل.. نظر للوراء وقد شعر بأن أعضاءه لينة كالمكرونة، فقط ليجد (ناعومي هجنز)..

- (سام)؟ هل هذا أنت؟

حاول أن يقول شيئا لكن الغرفة راحت تتراقص، وأدرك أنه سيفقد وعيه.. كانت تنظر له برعب لا يوصف، وتردد:

- ماذا دهاك؟

ثم وهي تتراجع:

- ذهبت للمكتب فقالوا لي إنهم يعتقدون أنك هنا.. أردت أن أعتذر لك.. فكرت أنك كنت تتسلي على (ديف) لكنه قال إن هذا لا يصدر عنك.. وإنك كنت دوما لطيفا معه..

ثم فكرت قليلاً وقالت:

- (سام).. أحسب أن عليك أن تفهم شيئا عني وعن (ديف).. أحسبك تعرف موضوع (ديف) لكن بصددي أنا..

- أعتقد أنني أعرف.. لقد رأيتك من النافذة في (شارع الزاوية)..

- نعم.. فهمت. لكن ماذا حدث لشعرك؟

شعري؟ كانت تخرج له مرآة صغيرة من حقيبتها لكنه كان قد خمن ما هنالك قبل أن يراه.. منذ الثامنة والنصف صباح اليوم صار شعره كله أبيض..

☆ ☆ ☆

4

في سيارتها الداتسون أثناء العودة من المكتبة سألته عما دهاه.. إن شعره لم يبيض فقط بل يبدو كأن وجهه تقدم في العمر عشرين عاما.. قال لها:

- ما أريد معرفته هو من هي (أرديليا لورتز).. أعني ما أقول فعلا..

أوقفت السيارة وقالت وهي تنظر له:

- إذن أنت لم تكن تمزح؟

- لم أكن أمزح..

- لكن هذه المرأة ميتة..

- أعرف هذا كما أعرف أنني أريد معرفة ما تعرفين عنها..

أدارت المحرك وقالت:

- لا أعرف الكثير.. كنت في السابعة عندما ماتت.. معظم ما أعرفه سمعته من ثرثرة الناس.. كانت تنتمي إلى الكنيسة المعمدانية في (بروفيربيا) لكن أمي لا تتكلم عنها.. يعتبرونها لم توجد قط.

قال لها:

- هذا ما فعله مستر (برايس) في مقاله عن المكتبة الذي كنت أطالعه عندما وضعت يدك على كتفي، وأخذت ١٢ عاما من حياتي..

قالت له:

- كانوا يتكلمون عنها في مجموعة (المدمن المجهول).. لقد ظهرت في البلدة حوالي عام 57 أو 56..

عملت في المكتبة.. ثم مات المدير (لافين) فجأة بعد عامين.. نوبة قلبية أو فالج.. لذا تولت (أرديليا لورتز) الوظيفة.. يقولون إنها كانت جيدة حتى فعلت ما فعلته.. لقد قتلت طفلين ثم انتحرت.. عام 1960 فقد طفلان وبحثوا عنهما. لم يفكر أحد في المكتبة لأنها كانت مغلقة في ذلك اليوم.. وجدوهما في المكتبة في اليوم التالي إذ جاء موعد فتحها فلم تفتح.. هناك نوافذ في سقف المكتبة.. لقد صعدت هي على أحد السلالم العملاقة هناك وعلقت حبلا في نافذة وشنقت نفسها بعد ما قتلت الطفلين.

- فهمت.. وكيف قتلتهما؟

- لا أعرف.. لم يقل أحد شيئا عن هذا. لكن لا بد أن المنظر كان بشعا..

- بالتأكيد..

- والآن ماذا حدث لك؟

- أولا أريد أن أقابل (ديف)..

- أنا آسفة لما حدث أمس. سأبحث عن (ديف) في المأوي لكنك لن تضايقه.

- (ناعومي).. إنه جزء مما حدث لي.

- مستحيل.

قالتها بنغمة (دعنا ننهي المناقشة).. وأضافت وهما يقتربان من (شارع الزاوية):

- حاول أن تفهم الأمر.. لو عاد (ديف) لتعاطي الكحول لمات.. تذكر هذا.. لا أعرف إن كان أهل الأرض قادرين على فهم ما أقول.

- أهل الأرض؟ ماذا تعنين بهذا؟

- الناس الذين لا يشربون الخمر ولا توجد عندهم مشاكل بصدد المخدرات أو الأقراص المهدئة أو أدوية السعال.. الناس القادرون على إصدار الأحكام..

قال لها:

- أما أنا فمشكلتي هي كتابان فقدتهما وقد انتهيا وسط هذه المخلفات.. ولو لم يظهرا قبل منتصف الليل لظفر بي شرطي المكتبة.. عندها أستبعد أن تتبقى مني السترة التي ألبسها.

☆ ☆ ☆

5

في شارع الزاوية قابلا (ديف).. وحينما تكلم كان ينظر لـ (سام) في ذهول.

قال لهما:

- لقد دنت نهايتي.. الخمر قضت على بنكرياسي وكبدي.. ومن الواضح أنني سآخذ إجازة أبدية قريبا.. فقط أعرف أن هناك ذكريات معينة عشتها، وهذه الذكريات تتعلق بامرأة اسمها (أرديليا لورتز).. لقد خبأت هذه الذكريات في بدروم قلبي.. ثم أغلقت بابا عليها ثم أحكمت إغلاق الباب بالحديد وألقيت فوقه أغطية لتداريه.. أردت أن أنسي تلك المرأة وما جعلتني أصنعه لها.. لكنك في مشكلة يا صاحبي. هل تعرف هذا؟

قال (سام):

- أعرف..

- تعرف لكنك لا تتصور أبدا مدى الورطة.. لهذا يجب أن أتكلم وليس لأنني أرغب في ذلك.. أمس تذكرت وجهها وكيف تغطى بتلك الخيوط الصغيرة، وكيف تغير فمها.. تذكرت رائحتها.. هذه القذارة يجب أن تنتهي..

وارتفع صوته الغاضب إلى درجة الصراخ.. ثم نظر لـ (سام) وقال:

- سوف أشرح لك لكن يجب أولا أن تحكي لي كل شيء يا مستر (بيبلز) فلا تغفل شيئا..

- سأفعل لكن بشرط.. سوف تناديني (سام) فقط.

- لك هذا يا (سام)..

- حسن.. لقد بدأ كل شيء بذلك الأكروبات الأحمق.....

☆ ☆ ☆

6

لم يتصور (سام) أن القصة بهذا الطول، وكانت عينا (ناعومي) تتسعان كلما مضى في القصة.. حتى عندما بلغ جزء ملصق (ذات الرداء الأحمر) قال (ديف):

- هذا هو الملصق الوحيد الذي لم أرسمه، لكنها كانت معجبة به بشكل خاص.

واصل (سام) السرد حتى بلغ الجزء الخاص بشرطي المكتبة.. هنا انهارت قواه وبدا موشكا على البكاء وراح يرتجف.

قال لـ (ناعومي):

- هل لي في كوب من الماء؟

- طبعا..

وقبل أن تذهب لتحضر الماء من داخل البناية لثمته على خده.. كانت شفتاها دافئتين ناعمتين، وهمست في أذنه بكلمتين مقدستين:

- أنا أصدقك.

☆ ☆ ☆

7

أمسك (سام) كوب الماء بيديه كي لا ينسكب.. وشرب جرعة كبيرة ثم سأل (ديف):

- هل تصدقني أنت أيضا؟

- نعم..

قالها (ديف) بلهجة من فرغ من أمر ما.. وأدرك (سام) أنه صادق فهو قد عرف (أرديليا) وواضح من وجهه أنها لم تكن معرفة طيبة..

- شرطي المكتبة الذي رسمته لها كان بلا ندوب على وجهه.. أنت أضفت هذه الندبة من ذكرياتك الخاصة وهذا يعني أن عندك نموذجا لشرطي المكتبة.. أما النجمة متعددة الرءوس كما تسميها، فقد رأيتها في المكتبة.. اسمها (صليب مالطة) وكان الفرسان الصليبيون يضعونها على صدورهم أيام الحملات الصليبية.. المفترض أنه كان لها تأثير سحري.. والآن يا بني دعني أحك لك قصتي.. لم أحكها من قبل قط ولن أحكيها ثانية أبدا.. لذا دعني أتكلم.

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي عشر
قصة ديف

1

لم أكن (ديف دنكان) السكير منذ ولدت.. في أوائل الخمسينات كان هناك (ديف دونكان) البسيط الذي يحبه الناس.. كنت عضوا في ذات نادي الروتاري الذي خطبت أنت فيه.. ولم لا؟ كنت رساما وخطاطا.. كنت ما يسمونه هذه الأيام رساما جرافيكيا لكن وقتها كان اسمي رسام إعلانات.. لم أكن قد درست.. جربت ورسبت لكن قلت لنفسي إن هناك فنانين كثيرين لم يظفروا بشهادات.. يتحدثون في AA عن الأشخاص الذين يضعون ساقا في الماضي وساقا في المستقبل وهكذا يبولون على الحاضر.. لكن ليس بوسعي أن أمنع نفسي من التفكير لو أن حياتي اختلفت قليلاً..

كنت قويا وغير متزوج وكان دخلي يكفيني.. كان هذا عندما جاءت (أرديليا لورتز) للبلدة.. لم تكن كما رأيتها أنت أمينة مكتبة عجوزا.. كان شعرها أشقر وكانت جميلة.. وكان الرجال في بروفيريا يلاحقونها.. أعرف أنهم اليوم يقولون: عرفت منذ البداية أن شيئا على غير ما يرام يحيط بتلك المرأة (لورتز).. لكن أؤكد لك أن الأمر مختلف.. كانوا يحومون حولها كالذباب.. وقد ظفرت بوظيفة المكتبة بعد قدومها بشهر.. بالإضافة لهذا كانت تدرس للأطفال في مدارس الأحد.. لا أعرف ماذا كانت تدرس ولا أحب أن أعرفه الآن لكنه لم يكن الإنجيل بالتأكيد.. برغم هذا كان الأطفال يحبونها..

هنا التقت عيناي بها.. ربما لن تصدق ما أقول لكني كنت شابا وسيما وقتها. وكانت بطني مسطحة مثل مكواتك الحديدية يا (سارة)..

كانت تسكن في بيت جوار الكنيسة وكان بحاجة لطلاء من الخارج.. هكذا قابلتني وعرضت عليّ أن أقوم بهذا العمل. كانت تلبس ثيابا محتشمة تناسب امرأة عجوزا لكن لم أقل إن عينيها كانتا كذلك.. لا يا صاحبي.. لم تكن عيناها كذلك.

ثم نظر (ديف) لـ (ناعومي) وقال:

- ربما كان عليك أن تنصرفي قبل هذا الجزء.. إن القصة ستسوء بعد قليل..

لمست كتفه وقالت:

- استمر يا (ديف)..

هكذا انصرفت معها لدارها تاركا كل الشباب واقفين على باب الكنيسة ينفخون ويسبونني.. لم يعرفوا كم هم محظوظون! لم تكن لديها سيارة فركبنا سيارتي الفورد وانطلقنا.. تخيل شابين في طريق (ترومان) في ظهر يوم من أيام الصيف وسط مليون فدان من قمح العم (سام) الذهبي على جانبي الطريق.. صوت القمح الغريب برغم أنه لا يوجد نسيم.. جدي كان يقول إن هذا صوت القمح إذ ينمو.

توقفت بناء على طلبها لأنها صاحت وهي تشير باتجاه معين: هذا هو البيت.. هل تراه؟

هكذا نزلت معها.. فوجئت بأنها تركض وسط صفوف القمح لكنها لم تجرح ولم تؤذ عودا.. جريت وراءها فوجدتها اختفت.. هنا سمعت صوتها من خلفي تقول: هنا.. جريت في ذلك الاتجاه غير مبال بتدمير القمح.. العم (سام) لن يفتقد هذه الأعواد ولن يلاحظ وجودها.. فقط لأجدها اختفت وتناديني من اليمين..

هكذا رحت أجري يمينا ويسارا بحثا عنها كالمجنون.. وكانت تظهر ثم تتواري.. وأنا أدوس أعواد القمح كالثيران بينما هي لم ترهق ولم يتمزق ثوبها قط..

وفي النهاية وجدتها أمامي وقالت:

- أين أنت؟ أنا أنتظرك هنا منذ زمن..

☆ ☆ ☆

2

مشينا لبيتها.. وهناك جاءتني بكأس طويلة فيها شفاط وورقة نعناع.. كان الطقس حارا فشربت جرعة كبيرة..

تبا! كان هذا ويسكي.. أبديت انزعاجي فقالت في سخرية:

- ربما تفضل بعض الشاي المثلج؟

لم أكن أشرب الخمر خاصة في منتصف اليوم.. لكن منذ ذلك اليوم صرت أشربها وفي كل وقت تقريبا..

هكذا رحت أعنى ببيتها بينما عيّنها مستر (لافين) للمكتبة.. وكنت أمر عليها هناك كلما وجدت فرصة.

يبدو أنني وجدت الكثير من الفرص لأن مستر (لافين) كلمني بصراحة عن ذلك، هكذا وعدته بأن أطلي المكتبة من الداخل على سبيل الرشوة، كنت واقعا تحت سحر امرأة لم تكن على الإطلاق امرأة..

أذكر كيف علقت ملصق (ذات الرداء الأحمر) قبل وفاة مستر (لافين) بشهر.. لقد اقتادت طفلاً مذعورا لتريه الملصق ثم سألته: هل تعرف لماذا يحدث الشيء المخيف لذات الرداء الأحمر؟ لأنها لم ترجع كتب المكتبة في وقتها.. كان هذا الصبي هو (مالكوم) الذي قتل بعد أعوام في حرب فيتنام.. ورأيت الرعب في عينيه، وهو ينظر لي كأنه يقول: ساعدني!!

مستر (لافين) لم يحب الملصق وقد لاحظ كيف يخافه الأطفال.. لذا دخل في مناقشة معها حوله.. لم أسمع ما قيل لأني كنت على السقالة فوق والصوت كان سيئا لكنه قال إن هذا

الملصق يخيف الأطفال.. ربما يشوه الأطفال، وتكلمت هي عن أن هذا يساعد على تهذيب (العناصر الشاذة).. في النهاية اضطرت لنزع الملصق.

ليلتها كانت غاضبة وعصبية كنمر ظل صبي يضايقه في قفصه بالعصا. عيناها حمراوان كأن مخها قد احترق، وفمها بدا كأنه يحاول أن يخرج من وجهها.

قلت لها إن الموضوع تافه هين.. هنا. لا أعرف كيف أصف هذا.. في ثانية كانت تقف قرب الباب وفي الثانية التالية كانت فوقي.. عيناها حمراوان وفمها متدل بشكل لا يصدق.. وصار شعرها طويلا إلى فخذيها وقالت:

- كف عن الكلام أيها السكير اللعين.

كانت أعمالي تنهار ولم أعد أفي بمواعيدي.. لكن لم يتكلم أحد عني وعنها.. سمعتي المهنية ذهبت إلى الجحيم في سلة مشتروات لكن لم يمس سمعتها شيء.

بعد هذا بأسبوع توفي مستر (لافين) وقيل إنها نوبة قلبية لكني كنت أعرف ما هو أفضل.

لقد قالت لي وأنا ثمل:

- قلت لك أنني سأتولى أمره يا (ديف).. لقد بكى كالأطفال من الذعر..

وبدأ وجهها يتغير كأنني أراه من تحت الماء.. عندها رأيت شيئا.. كأنني رأيت عينين حمراوين بلا أهداب وفما لا يغطيه لحم.. بل طبقات من مادة ما.. تتحرك لحظة ثم عادت الرؤيا

صافية.. عادت (أرديليا) من جديد.. تصور هلعي وأنا في قلب الظلام وسط الريف حيث لن يسمعك أحد تصرخ..

قالت، وقد رأت هلعي:

- لا تقلق.. لن تري هذا ثانية ما دمت ستكون ولدا طيبا.. ما دمت ستفعل ما أطلب منك.. الليلة أنا سعيدة لرحيل الأحمق.. سوف أتولى منصبه..

ظلت المكتبة مغلقة أسبوعا (احتراما لذكري مستر لافين) ثم افتتحتها وكان أول ما علقته هو ملصق ذات الرداء الأحمر.. بعد هذا طلبت مني رسم ملصقات جديدة..

ثم ارتجف (ديف) وقال:

- كنت أحب أن أقول إنني قاومت لكن لا.. لقد قمت من أجلها بأعمال مريعة لا أذكرها كلها.. إنها كالثياب القديمة التي تتبرع بها كي لا تراها ثانية.. فعلت أشياء مريعة لكن جزءا من ذاتي فعل هذا لأنه يريده.. لكني لم أقتل.. لم أقتل وهذا هو الشيء الوحيد الذي يبقيني حيا.. ولهذا فررت منها.. لكنها احتفظت معها بجزء من روحي.. الجزء الطيب منها..

☆ ☆ ☆

3

طلبت مني ذات مرة أن أرسم طفلاً دهمته سيارة (فسوت) جسده بالأسفلت، وتحت الرسم عبارة تقول: لأنه تأخر في إرجاع الكتب! رسمت رسما كاريكاتوريا مضحكا وعرضته عليها فنظرت لي نظرة مخيفة وقالت:

- ليس هذا ما أردت يا (ديف).. أريد واقعية.. أريد للأطفال أن يخافوا لا أن يضحكوا.. إنهم يضحكون بما فيه الكفاية على كل حال.. أريد الكثير من الدم!!

هكذا جلست أرسم في بيتي.. وكان ما حصلت عليه رسما مروعا لطفل طار حذاءاه، وانتثر مخه كالزبد على الأسفلت. سائق السيارة التي دهمته هو ذات الشخص الذي يتكرر في معظم ما رسمت من ملصقات. جاء الأطفال للمكتبة فكان تأثير الصورة دراميا، وبكت فتاة لدى رؤيتها. رسمت شرطي المكتبة في أكثر من صورة.. هناك صورة تمثله في إجازة يصطاد السمك لكن الطعم الذي يستعمله هو طفل.. رسمته يضغط على أزرار تتحكم في صاروخ، وقد قيد طفل إلى جسم هذا الصاروخ، وتحتها كتبت: اقرأ كل شيء عن العلوم في المكتبة، لكن تأكد من إرجاع الكتب في وقتها!

لقد حولت أنا وهي المكتبة إلى منزل رعب.. لكن هل تعرف؟ ظل الأطفال يعودون ولم يتكلموا قط.. عندما كان الآباء يأتون كانت تستبدل الملصقات في ثوان ولا يري الآباء إلا مس (لورتز) الرقيقة تجلس وسط دائرة وتحكي للأطفال حكايات عن الأميرة وحبة البازلاء.. يخرج الآباء فتعود لتحكي قصصا مرعبة.. قصصا خيالية شهيرة تجري عليها بعض التعديلات

لتجعلها مرعبة.. وكان الأطفال يحبونها برغم هذا.. الظلمة في ذاتها كانت تلتقي بالظلمة في ذواتهم.. هل تفهم هذا؟

هنا تذكر (سام) ولعه بقصة ذي اللحية الزرقاء.. الأطفال يكرهون الظلمة لكنها تجذبهم.

كانت أرديليا تحكي هذه القصص للصغار.. وقد كبروا وهم يحملونها في أعمق مخاوفهم.. صاروا محاسبين ومحامين ومهندسين لكنهم لم ينسوا ما كانت (أرديليا) تحكيه، ولعلهم قصوا هذه القصص على أولادهم.

«هكذا عادت الدببة إلى الكوخ لتجد أن الفتاة الشقية أكلت عشاءهم.. هكذا انقضوا عليها والتهموها من قدميها حتى تظل حية تصرخ للنهاية.. لم يبق إلا رأسها فأخذوه إلى المطبخ ووضعوه في الماء المغلي.. ثم التهموا مخها على الإفطار.. وقالوا إنه من أشهى ما يمكن.. وهكذا عاشوا في تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات..»

☆ ☆ ☆

4

كان (سام) يفكر.. يفكر في كل المزارعين والبقالين والمحاسبين الذين كانوا يوما يصغون لـ (أرديليا) في المكتبة ثم كبروا ونسوا هذا.. لكنهم عندما تهب العاصفة أو عندما ينامون ويرون الكوابيس، فإنهم يتحولون إلى صبية مذعورين يجلسون في المكتبة في دائرة حول أرديليا ويصغون.. لا بد أن كلا منهم يحمل داخله ذكرى الدببة التي تسلق رأس الفتاة وتلتهم مخها..

لقد تركت المرأة للبلدة تركة من الكوابيس السرية..

واصل (ديف) قصته:

في كل مرة كان أحد الأطفال يصاب بانهيار.. عندها كانت تطلب من الآخرين التزام مقاعدهم ثم تأخذ الصبي إلى الحمام.. دقائق ثم تعود، وقد عاد الصبي نضرا كالأزهار.. ثم تواصل السرد.

كنت أشعر بحيرة.. لا بد أن هناك سرا حول هذا.. يبدو لي كأنها كانت تحكي القصة المرعبة بانتظار هذه اللحظة بالذات.. هكذا انتظرت حتى جاء يوم أصيب فيه أحد الأطفال بحالة من الرعب أثناء حكاية صيغتها المعدلة لقصة (هانز وجريتل) فاقتادته إلى الحمام..

دنوت من باب الحمام المفتوح واختلست النظر فلم أر شيئا لأن ظهرها كان لي.. فقط كانت يدا الصبي على تنورتها، وسمعت صوت امتصاص.. دنوت أكثر فوجدت أنها لا يمكن أن تشعر بي.. لا يمكن أن تراني لا هي ولا الصبي لأن عينيهما مغمضتان.. دنوت أكثر فأكثر ونظرت.. فوجئت بأنها تلصق

وجهها بوجه الطفل.. لم يعد وجهها بشريا.. كان أقرب إلى الوجه الذي رأيته قبل وفاة (لافين).. لقد استطالت ملامحها ولم تعد لها شفتان.. فقط صار هناك لون أحمر يحدد أحمر الشفاه الذي كانت تضعه.. وجهها تحول كله إلى ما يشبه الممص.. وكان هذا الممص يخرج إلى وجه الطفل.. لقد كانت (أرديليا) تمتص شيئا من عيني الطفل!!

نظر (سام) إلى (ديف) مذهولاً وتساءل عما إذا كان الرجل قد فقد عقله؟ الأشباح شيء وهذا الذي يقوله شيء آخر.. لكنه رأي الصدق في عيني الرجل فقال لنفسه: لو كان يخرف فهو لا يعرف هذا..

قال (ديف):

- كانت تمتص دموعه.. كان رأسها يمتصها من عيني الطفل وهو ينبض كالقلب.. أما دموع الصبي فبدت لي كأنها لحم ذائب.. وهي تواصل هذا الصوت الذي يقول (سليرب).. لقد كانت تشرب خوفه.. لقد جعلته ماديا..

سأله (سام):

- تريد القول إن (أرديليا) كانت نوعا من مصاصي الدماء.. هه؟

- أعتقد هذا.. كل القصص عن مصاصي الدماء صحيحة لكنهم لا يمصون الدم.. أعتقد أنها امتصت ذات الشيء من مستر (لافين).. إنه ليس الدم.. إنه الخوف..

☆ ☆ ☆

5

كنت أراها تواصل الامتصاص حريصة على كل قطرة، وقد استطال هذا الجزء الذي تمتص به.. عرفت أن الوقت حان كي أرجع بسرعة.. هي لم تتأخر في الحمام من قبل أكثر من خمس دقائق. لو صحت من غيبوبتها لرأتني وعندها تقتلني حتما... لم أحسب أنني قادر على العودة بسرعة.. وقد اصطدمت بباب الحمام.. جريت لقاعة المكتبة نصف مجنون!

قررت أن أفر من المكتبة للأبد، ثم وجدت أنها لن تتركني.. ستعرف أنني رأيت ما رأيت ولسوف تلاحقني أبدا.. هكذا فعلت أصعب شيء في حياتي وهو أن عدت لقاعة المكتبة، فلم تلمس مؤخرتي المقعد ثانيتين حتى كانت قد عادت ومعها الصبي في خير حال...

جلست مع الأطفال أصغي للقصة، وعندما انتهت القصة رحت أشرب.. أشرب.. وحتي اليوم ما زلت أشرب..

☆ ☆ ☆

6

لا بد أن أربعة أشهر مرت.. عندما تصير سكيرا لا يعود للزمن معني ولا تري الفصول إلا من خلال زجاجة.. فقط قالت لي ذات ليلة وكنا في بيتها لأنها لم تأت بيتي قط:

- أشعر بالنعاس يا (ديف).. يبدو أن عليّ النوم من جديد.. لكن عندما أنام للأبد هذه المرة يجب أن تكون معي.. لقد أغرمت بك..

ارتجفت رعبا وقد فهمت ما تعنيه لكنها قالت ضاحكة:

- لا أتكلم عن الموت بل عن النوم.. لكن عليك أولا أن تأكل مما آكله!

ولم تفهم أنني فهمت ورأيت. ثم راحت تسألني عن الأطفال.. من الشقي فيهم؟ من السيئ؟ إنهم سيئون لا يستحقون الحياة! إنهم مخربون.. فظون يعيدون الكتب وقد امتلأت بالرسوم.. من تعتقد أنه يستحق الموت يا (ديف)؟

كان هذا هو الوقت الذي قررت فيه أن أفر.. حتى لو احتاج الأمر إلى قتل نفسي.

كانت تتغير.. شعرها صار خشنا وجلدها امتلأً بالبثور.. وفمها صار مقلوبا للداخل وعليه خيوط صغيرة.. قالت لي:

- لا تقلق.. هذه التغيرات طبيعية كلما قرب وقت نومي.. يجب أن تقرر سريعا ما إذا كنت ستنام معي أم ترفض.. عندها يجب أن تخبرني لأنهي الأمر معك الليلة بطريقة ناعمة بلا ألم..

كنت لا أصدق أن هذه رائحة فم وليست طعام كلاب فسد.. وقلت لها أنني راغب في أن أكون معها لكني أريد فترة لأحزم أمري.. فوافقت.

مدت شفتيها من هذه المسافة الطويلة لتلثم خدي.. فتماسكت كي لا أصرخ.

وضحك (ديف) ضحكة منهكة لم ينسها (سام) للأبد بعد هذا.. وقال:

- لا يهم.. إنني ما زلت أصرخ في أعماقي منذ تلك اللحظة حتى اليوم!

7

كنت قد انقطعت عن العالم الخارجي تماما.. هل تذكر عندما قلت لك إنني كنت في نادي الروتاري يا سام؟ حسن.. في عام 1960 صرت في حالة تجعل من العسير أن يعهدوا لي بتنظيف مبولة النادي نفسها.. الناس يرونني فيعبرون الشارع كي لا يتكلموا معي.

أعتقد أنني كنت سأرحل معها لعالمها لو لم يكتشفوا أمرها.

انحني (سام) للأمام سائلاً:

- من الذين اكتشفوا؟

- نائب الشريف (جون باور).. إن الشريف (نورمان) لم يكن يساوي شيئا.. كان جمهوريا وهو الدليل الحي على أن الشريف يجب أن يعين ولا ينتخب.. فقد فاز بأغلبية ساحقة لكنه كان قطعة من القاذورات بحجم بغلين.. لكن كان سر نجاحه هو احتفاظه بنائب ذكي بارع.. لقد مات نائب الشريف في سن الثلاثين وقيل إنها نوبة قلبية.. لا أصدق هذا.. ليست سوى نوبة قلبية كالتي أصابت (لافين) من قبل.. هي قتلته.. كان هناك ثلاثة أطفال يجب أن يموتوا في المكتبة اليوم التالي..

نظر له (سام) وقال لنفسه إنه لو كان هذا الرجل قد رأي ما رآه طيلة ثلاثين عاما، فإنه قد تحمل ما لا يتحمله بشر.

- طفلان اختصت بهما نفسها.. أما الطفلة الثالثة فقد ارتكبت خطأ عندما سلطت الضوء عليها وكانت تريد الظلام.. وقد خصصت لي أرديليا هذه الطفلة كي تساعدني على أن أكون

معها.. كانت هذه نصيبي أنا.. الطفلة كانت (تانسي باور) ابنة نائب الشريف

هتفت (ناعومي) غير مصدقة:

- هل تمزح.. أنت تتكلم عن (تانسي) التي تحضر جلسات AA معنا؟

قال (ديف):

- معظم الأطفال الذين كانوا يحضرون للمكتبة يعالجون اليوم في AA من إدمان الكحول.. عام 1960 كدت أقتل (تانسي باور).. اقتربت من هذا جدا وليت هذا أسوأ ما في الموضوع..

☆ ☆ ☆

8

أكثر ما بقي حكته هي لي.. كانت قد منعتني من الاقتراب من المكتبة منعا للقيل والقال، كما منعتني من زيارة بيتها قبل منتصف الليل..

أذكر تلك الليلة جيدا لأنها لم تكن ناعسة كعهدي الأخير بها.. كانت عصبية غضبى، تدور بلا توقف في المكان رائحتها تزكم الأنفاس وعيناها كانتا حمراوين تشعان، ولم أكن أتخيل هذا لأن اللون انعكس على ذراعي.. وشيء يشبه الزيت يتساقط قطرات منها.. ورأيت أن كل ثنية في جلدها مغلفة بغشاء رقيق.. كأن جلدها قد صار له جلد.. هل تريد أن تسمع شيئا مضحكا؟ كلما دخلت مدينة ملاه أخاف الاقتراب من آلة صنع (غزل البنات) لأنه يذكرني بما رأيته على جلدها في تلك الليلة.. لقد كانت تنسج شيئا يشبه ما تنسجه اليرقات حول نفسها.. كانت تصنع شرنقة.

كانت تضرب الجدران بقبضتها فتهشمها.. ربما تهشم العظام كذلك، لكنها لا تبالي.. ما كنت أراه وأسمعه يشبه قطة أنثى غاضبة.

- (جون باور)!!!

ثم كانت تلكم الجدار!

- (جون باور)! سوف ترى.. أنت لن تجرؤ على اعتراض طريقي!

لكن لو رأيت وجهها لرأيت مزيجا من الغضب مع الخوف.. ومعها الحق في القلق.. فقد كان نائب المأمور ذكيا شجاعا.

هنا رأتني فقالت:

- (ديف).. تعال لتشرب شيئا..

كانت تشتهي قتلي بلا شك.. لكنها كانت بحاجة إلي.. كانت تريد قتل (تانسي باور).. كانت تريد قتل الشرطي لكنها تريد أن يعرف أن ابنته ماتت أولا..

سألتني إن كنت أعرفه فقلت إنه اعتقلني مرة بتهمة السكر، وأعتقد أنه رجل شديد المراس.. فقالت:

- هذا الوغد جاء المكتبة اليوم وسألني عن شهاداتي.. أراد أن يعرف أين كنت قبل أن آتي هنا.. أين تربيت.. لكني سوف ألقنه درسا..

لكنها كانت خائفة.. لقد اختار أسوأ وقت لتوجيه أسئلة لها لأنها كانت موشكة على السبات.. وهذا يضعفها كثيرا.

سألت (ناعومي):

- ما الذي جعل نائب الشريف يشك؟

- لا أعرف.. فهي لم تكن تجعلهم شاحبين كما يفعل مصاصو الدماء في الأفلام، لكن برغم هذا كانوا يفقدون شيئا ما.. (جون باور) لاحظ هذا أو أحس به.. جاء المكتبة وليس في ذهنه شيء لكنه نظر لها بريبة، وهي كانت تفقد صوابها متى نظر لها أحد بريبة..

قالت لي إنها ستكون في المكتبة غدًا ليراها الجميع.. سيكون عليّ أن أتسلل إلى بيت نائب الشريف لأخطف الطفلة، وأقطع

حنجرتها ثم أتركها حيث هي ليراها أبوها.. ظللت صامتا وكان هذا لمصلحتي لأن أي شيء أقوله كان سيطيح برأسي.

طلبت مني أن أخطف الفتاة صباحا على أن أختبئ حتى يأتي المساء لأنه لو قبض عليّ قبل ذلك فلن تستطيع مساعدتي.. وقالت إنها سترتب أن يتواجد طفلان آخران في المكتبة غدًا.. وحين يجدوننا سيحسبون أنني وهي قد متنا لكننا لن نكون كذلك..

حين رحلت صباحا قالت لي ألا أخذلها وإلا قتلتني وكانت ميتتي شر ميتة..

هكذا رحلت وقد عرفت أنني لن أتحمل أن أراها مرة أخرى.. لم أكن راغبا في إيذاء (تانسي باور) لكني كنت عاجزا عن مخالفة أوامر (أرديليا).. كان كل ما أفكر فيه هو أنني قادر على التنفيذ.. سوف أمزق حنجرتها بسرعة ولن تدرك ما حدث لها..

وبحث (ديف) عن (باندانا) في جيبه أخرجها وتمخط فيها.. ثم واصل الكلام:

- كنت أمر جوار المتجر الكبير عندما نظرت للزجاج فرأيت أكواما مكومة من جثث الأطفال الصارخين.. توقفت وأغمضت عيني ثم فتحتها.. لا.. كانت دمى وضعها صاحب المتجر للعرض.. من جديد شعرت بأنها جثث أطفال.. في هذه اللحظة صليت.. شعرت بأن هذه رسالة من الله تخبرني بأن الوقت لم يضع بعد..

حتي لو لم أفلت من (أرديليا) فما زال بوسعي ألا أغوص في الحفرة معها.. هكذا اتجهت لكابينة هاتف عند متجر (بيجلي

ويجلي)، ودسست حجرين صغيرين في فمي وطلبت نقطة الشرطة.. كان من رد عليّ هو (باور) نفسه.. ارتجفت ذعرا وكدت أغلق الخط، ثم تكلمت وكان صوتي غريبا بسبب الحجرين.. قلت له: أبعد ابنتك عن البلدة، ولو كنت تجد لها قيمة فأبعدها عن المكتبة.. ثم وضعت السماعة.. كنت أتمنى لو قلت أكثر لكنه كان عدوانيا، وشعرت بأنني لو بقيت أكثر لرآني عبر خط الهاتف.. الآن لم أعد أرى أي شيء سوى خطر أرديليا.. هل رأيت طائرا محبوسًا في المرآب من قبل؟ كنت أنا أجري مذعورا في كل اتجاه بذات الطريقة.. ثم اتجهت لرصيف المحطة حيث تواريت تحت مقعد طويل ونمت يومين كاملين.. يبدو أن الضغط العصبي الذي عشته عامين في تلك الرحلة الممتعة لجهنم قد استبد بي في النهاية.. كأن عقلي قد قرر أن ينزع القابس لبعض الوقت.. وحين شعرت بما تشعر به بعد انتزاع ضرس لك.. كانت هناك فجوة لكنها في عقلي هذه المرة..

خرجت من هناك ووقفت أمام بائع الصحف.. عرفت أن يومين مرا عليّ نائما.. كما عرفت أن شرطة البلدة تفتش عن طفلين مفقودين.. وأن نائب المأمور توفي بنوبة قلبية.. لم تبد الجريدة قلقا على الطفلين بل اعتبرتهما فارين لأنهما كانا شقيين بحق.. على أنني عرفت أنهما ماتا وأن جثة أرديليا معهما.. وهذا ما وجدوه في اليوم ذاته.. لسبب ما كانت تريد حياتي الطفلين، ولا تسألني عن السبب.. ربما تفعل كما تفعل الدببة التي تملأ بطونها قبل البيات الشتوي.. لقد أنقذت (تانسي) وأنقذت نفسي لكني لم أر في ذلك أي عزاء..

أعرف أن أرديليا عرفت أنني تكلمت.. لا بد أنها بحثت عني بعينها التي ترى كل شيء.. لكني كنت في شبه غيبوبة فلابد أنها

عجزت عن العثور على روحي.. لو وجدتني فأنا غير قادر على تخيل ما كانت ستفعله بي انتقاما.. كان وقتها ضيقا والتحول قد بدأ.. لكن فرصتها في الانتقام جاءت من جديد..

نظر له (سام) مندهشا:

- ماذا تعني؟

- أنت قابلتها في المكتبة.. وأنا من نقل الكتب من دارك إلى تدوير المخلفات.. لا بد من رابط هنا.. إنها تريدني لتقتلني وسوف تفعل ذلك، لكنها قد تريدك لتلعب معها الدور الذي لعبته أنا!

هتف (سام) ساخرا:

- ربما كانت قنبلة جمال في الماضي.. لكن الآن.. هي ليست طرازي صدقني!!

قال (ديف):

- يبدو أنك لا تفهم.. هي لا تريد علاقة معك يا (سام).. بل تريد أن تكون أنت!

☆ ☆ ☆

9

قال (سام) في ذهول:

- انتظر هنا لحظة..

- بل انتظر أنت.. أنت مناسب لها جدا لأنك غير متزوج وتؤمن بشرطي المكتبة وتعرفني ولا أصدقاء لك في البلدة.

قال (سام):

- أما هذه فلا.. لقد صار لي صديقان عزيزان في البلدة هما أنت و(سارة)..

واصل الرجل:

- أعتقد أنها ستفرغ منك كل ما يجعلك (سام)، كما يفعل الصبي بثمرة (اليقطين) في (الهالوين).. ثم تلبسك كالرداء.. من أين جاءت هي؟ أنا مؤمن أنها كانت تلبس جلد امرأة حقيقية اسمها (أرديليا لورتز) كانت تعيش في (أيوا) أو (مين).. الآن سوف يتحرك (سام بيبلز) لكنه لن يكون هو.. سيظهر في بلدة أخرى ويجذب انتباه الأطفال.. سوف يحبونه لكنهم سيخافونه بالقدر ذاته.

- وبالطبع سيكون أمين مكتبة!

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني عشر

إلي (دو موان) جوا

1

نظر (سام) لساعته فدهش لما وجد أنها الثالثة عصرا.. بقيت تسع ساعات على منتصف الليل، وهو آخر موعد حدده له شرطي المكتبة. فسأل (ديف):

- ماذا أفعل يا (ديف)؟ أبحث عن قبر (أورديليا) وأغمد وتدا في قلبها؟

- فكرة ممتازة.. لكن السيدة قد تم حرق جثتها!

شهق سام في خيبة أمل وقالت (ناعومي) وهي تضع يدها على كتفه:

- مهما كان ما ستفعله فلن تفعله وحدك.. لا تنس أننا صديقاك.

قال لها:

- لا أعرف ما يجب عمله ما لم أفر طبعا.

قال (ديف):

- سوف تمضي طيلة الليل في القيادة ثم تجدها بانتظارك في نهاية الرحلة.. هناك حل أبسط.. ثمة مكان يدعي متجر (بيل) للكتب في (دو موان).. لو كان في وسع شخص مساعدتك فهم قادرون هناك..

قالت (سارة) وهي تغادر المكان:

- سوف أتصل بهم أولا لأتأكد قبل أن نقطع المسافة بلا طائل..

فكر (سام) قليلاً فقال (ديف):

- لا وقت للذهاب بالسيارة.. سيكون عليك و(سارة) أن تقصدا المطار في (بروفيربيا).. (سومز) لديه طائرة (نافاهو) صغيرة ويمكن أن يأخذكما إلى (دو موان) ويعود بكما حوالي التاسعة مساء.. سوف يقول لكما إنه كان يجب أن تحجزا من قبل.. وإنه لا يستطيع.. قولا له إن (ديف دونكان) هو من أرسلكما وإن الوقت قد حان لدفع ديون البيزبول.

- وما معنى هذا؟

- لا شأن لك.. فقط سوف يوصلكما، وعندما يعود بكما لا تأتيا هنا.. اركبا السيارة إلى البلدة.. إلى المكتبة.

قال (سام):

- أنا مسرور بصداقتكما يا (ديف).. لكن يجب أن أتولى أمر نفسي من هنا.. لقد كان الخطأ خطئي عندما أيقظتها من جديد..

اعتصر (ديف) ذراعه وقال:

- إذن أنت لم تسمع ما أقول.. لم يكن هذا خطئي ولا خطأك.. لكن عليك أن تبقى مع (سارة).. (سارة) الآن تعرف كل شيء عن أرديليا وهذه الأخيرة لن تترك من يعرف سرها حيا.. لهذا تذكر.. لو أردت أن تحمي (سارة) فعليك أن تكف عن لعب دور البطل.

ثم أضاف:

- ثمة شيء آخر.. يجب أن تتذكر من هو شرطي المكتبة الخاص بك.. يجب أن تتذكر من عرفته في حياتك ويحمل ذات الوجه.. هذا سيفيدك كثيرا.

☆ ☆ ☆

2

سأل (ديف) (سارة):

- هل ما زالت المكتبة تغلق في الثامنة مساء؟

- هذا صحيح..

- إذن سأذهب هناك في الخامسة.. ولسوف ألقاكما عند باب الشحن بين الثامنة والتاسعة.. والآن الحقا بـ (سومز) بسرعة لأن النهار أوشك على الانتهاء..

قالت له (سارة):

- شكرا على ما حكيت لنا..

- لقد أراحني هذا على كل حال..

مد (سام) يده ليصافحه ثم فكر فيما هو أفضل.. احتضنه بحرارة..

3

وجد (سام) و(سارة) (سومز) في الحقل خلف داره.. وكان رجلا فارع الطول في الستين له عينان غاضبتان وبشرة تشعرك بأنه نال نصيبه من شمس الصيف مع أن الربيع لم ينته بعد..

بدا المكان حقلاً لـ (سام) لكنه رأي طريقا متربا تقف فيه طائرة (نافاهو) صغيرة.. من ثم أدرك أن هذا هو مطار (بروفيربيا) الذي تكلم عنه (ديف).. مطار في حقل ليس فيه سوي ممر واحد متسخ بالتراب.

قال (سومز) عندما سمع طلبهما:

- مستحيل أن أقبل.. عندي خمسون هكتارا يجب حرثها في حقلي.. كان يجب أن تخبراني منذ أيام..

قال له (سام) ما قاله (ديف).. على الرجل أن يدفع ديون البيزبول.. بدا على الرجل أنه موشك على ضرب (سام) ثم هدأ واتجه إلى التراكتور ليبعده عن الطريق، وطلب منهما أن يقفا جوار الطائرة.. وأن يأخذا الحذر من روث الماشية حتى لا يتلوث حذاءهما..

لكن ما إن ابتعد حتى نسيا أين يوجد روث الماشية والوحل، وسرعان ما وجدا أنهما غرقا في القذارة إلى حد أنهما انفجرا في الضحك.

كانت الرحلة خلف (سومز) في الطائرة مرعبة فعلا.. وخطر لـ (سام) أنهما سيهزمان (أرديليا) بطريقة لم تخطر لها ببال من قبل.. سوف تتلاشى جثتاهما لتتناثرا فوق حقول قمح (أيوا)..

وفي الرابعة وعشرين دقيقة انحدرت الطائرة لتهبط في مطار المقاطعة في (دي موان).. وساعد (سومز) (سارة) على النزول من الطائرة.. شعر (سام) بغيرة وهو يري خدي الفتاة المتوردين وحماسها بعد رحلتها الأولى بالطائرة.. وقالت وهي تهبط:

- رائع.. رائع!

قال (سومز):

- بالفعل ما زلت أراه كذلك.. هذا أفضل من قضاء العصر على التراكتور الذي يوشك على انتزاع كليتي.. ليس هناك مشهد أجمل من رؤية وجه فتاة شابة بعد أول رحلة بالطائرة لها..

قال (سام):

- نحن ذاهبان إلى مكان يدعى متجر (بيل) للكتب فهم يحتفظون بكتابين لنا..

نظر لهما في ذهول:

- أعرف متجر (بيل).. لكن ما أريد فهمه هو: لقد جعلتماني أطير فوق الولاية كلها من أجل كتابين في مكتبة؟

ثم دس يديه في جيبه وقال:

- على كل حال كنت مدينا لـ (ديف) بهذا منذ عشر سنوات.. تذكرا أنه يجب أن أعود لـ (جانكشان) بسرعة قبل أن يهطل المطر لأن هناك منطقة ينخفض فيها الضغط الجوي.

☆ ☆ ☆

4

كان متجر (بيل) يشبه الجرن وهو ينتصب على قمة الشارع نقيضا لكل متاجر الكتب التي توجد في مراكز التسوق الكبري. ومشت (ناعومي) إلى الموظف المكلف بخدمة العملاء.. قالت للموظف إن اسمها (ناعومي هجنز)..

- لقد اتصلت بك من قبل..

قال الموظف:

- نعم.. ومد يده إلى الأدراج التي خلفه وأخرج كتابين.. الأول كان (رفيق الخطباء) والثاني كان (أكثر الأشعار شعبية لدي الأمريكيين).. لم يسر (سام) برؤية كتابين في حياته قط مثل هذه اللحظة، وقاوم رغبة قوية في انتزاعهما من يد الموظف ليحتضنهما.

قال الموظف:

- كتاب الشعر سهل.. لكن (رفيق الخطباء) صعب جدا.. مكتبتنا هي الوحيدة التي تحتفظ بنسخة منه من هنا حتى (دنفر)..

وكان ثمن الكتابين خمسة وعشرين دولارا.. لذا هتف (سام) وهما يغادران المتجر:

- لا أصدق! لا أصدق أن الأمر بهذه البساطة.

واتجها إلى المطار حيث كان (سومز) يعنى بطائرته..

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث عشر

شرطي المكتبة

1

في طريق العودة حكى لهما (سومز) كل شيء عن دين البيزبول.. لقد كان له ابن مصاب بسرطان الدم وقد اقترب من النهاية، وأمره الأطباء بألا يحضر مباريات البيزبول.. لكن الصبي كان يعشق اللعبة.. لهذا جاءه (ديف) الذي كان صديق أبيه وقال إنه سيجلب له أشهر اللاعبين.. لم يصدق الرجل ما قام به (ديف) ولم يتصور أنه بهذه الموهبة.. لقد سهر عشرة أيام يرسم وجوه لاعبي الفريق القومي على كرات البيزبول.. رسمهم بدقة وفن.. ليس هذا فحسب.. بل جعل كل لاعب في الفريق يوقع تحت صورته.. هكذا جاء لفراش الطفل المريض وسكب الكرات أمامه فلم يصدق الطفل عينيه.. لم يره أبوه سعيدا بهذا الشكل من قبل.. في الأيام التالية ساءت حالته أكثر لكنه ظل يحتضن كيس الكرات حتى اللحظة الأخيرة.

قال (سومز) وهو يجفف دمعه:

(ديف) فعل هذا لابني.. بعد هذا يسخرون منه في البلدة ويطلقون عليه (ديف) القذر.. لو سمعت أحدهم يقول هذا لـ...

وشعر (سام) بالخجل لأنه كان يستعمل ذلك اللقب قبل أن يعرف (ديف) جيدا.

نظرت (ناعومي) للأرض تحتها فرأت السيارات اللعبة تقطع طريق (أيوا) الغربية.. نظرت لـ (سام) لتشير له نحو المنظر لكنها وجدته نائما.. لا.. ليس نائما في سلام.. بل هو يتعذب من المعاناة.. مدت يدها لكتفه فسمعته يقول بصوت طفل:

- هل أنا في مشكلة يا سيدي؟

أدركت أنه الآن يقابل شرطي المكتبة.. لا.. لن توقظه.. آسفة يا (سام).. يجب أن تخوض التجربة كاملة.. فقط حاول أن تتذكر من هو عندما تستيقظ يا (سام).. حاول أن تتذكر.

2

في المنام رأي (سام) أنه هو ذات الرداء الأحمر.. هذه المرة هو (سام) الصغير الأبيض.. إنه يحمل سلة ويمشي في الغابة لكن السلة خالية من الطعام لأنه لا يوجد شيء في البيت بعد وفاة أبيه.. كان في السلة كتاب يحمل عنوان (السهم الأسود) لـ (ر. ل. ستيفنسون).. وكان قد قرأه.. في جيبه حلوى الربسوس ومذاقها يملأ لعابه.

لم يكن ذاهبا لبيت الجدة بل للمكتبة العامة في (سانت لويس).. وكان عليه أن يسرع لأن الكتاب قد تأخر. حاول أن ينزع نفسه من الكابوس لكنه لم يستطع.. (ناعومي) خارج هذه الكرة المشئومة.. لكنه لا يقدر على اللحاق بها.. يسمع هدير محرك (النافاهو) لكنه لا يستطيع العودة من الحلم..

لا تحاول الخروج يا (سام).. هناك شرطي مكتبة في طفولتك ويجب أن تراه.. يجب.. لو أردت أن تنقذ (سارة) من (أرديليا)..

إنه يجتاز المكتبة.. يمر جوار شرطي المكتبة.. ليس شاحبا لكنك لا ترى عينيه لأنه يضع عوينات سوداء.. هناك ندبة تكسو أنفه وتمتد تحت عينيه.

احترس.. هذا ليس شرطي المكتبة.. بل هو الذئب!

لكن (سام) الصغير الأبيض لا يسمع.. إن الرجل يعترض طريقه ثم ينحني ليسأله:

- أهلا يا فتى.. هل قرأت هذا الكتاب؟

- نعم.. إنه كتاب جميل مليء بالمعارك.. كتبه رجل يدعى (ستيفنسون).. رجل مات بالدرن.

لم عيناك كبيرتان هكذا يا جدتي؟

- هل انتهت فترة استعارة كتابك؟

- فقط أربعة أيام يا سيدي..

ينحني الرجل أكثر ويقول:

- أنا شرطي المكتبة.. تعال معي..

حاول الهرب.. لكن لا.. هذا الرجل يمثل السلطة.. الحكومة.. أنت لا تستطيع الفرار من الحكومة فهي في كل مكان.

يد الرجل تلتف حول (سام).. يده قوية جدا.. هل أنا في مشكلة يا سيدي؟ يقولها أملاً ألا يقول الرجل نعم.. نعم.. أنت في مشكلة..

يقتاده إلى الغابة بجوار المكتبة.. عندما يأمرك الشرطي بشيء فعليك أن تمتثل.. يهزه بعنف كي يخرس.. سوف أطلب أمك وأخبرها كم أنت شرير.. أرجوك لا تفعل.. سأدفع الغرامة!

شرطي المكتبة يصفعه ويضربه ويركله حتى يسيل الدم من فمه.. يضربه.. يضربه.. يصفعه.. لابد أن (سام) لم يعد (سام) الصغير الأبيض بل صار (سام) الأحمر.

(سام) يبكي ويقول: سيدي.. هل دفعت الغرامة؟ هل هذا كاف؟ هل استوفيت حقك؟

- لا.. لكني أشفقت عليك.. لو تكرر هذا لعدت وضربتك من جديد.. لا تدعني أراك هنا أبدا يا بني.. فهمت؟

لكن العذاب لم ينته.. سوف يظل (سام) يرى شرطي المكتبة في كل مكان.. لو نظر للسماء لرأى وجهه في السحب ملتويا مشوها..

- لا تنس.. عندما ينسى الأولاد السيئين وعدهم لشرطي المكتبة أقتلهم!

يحاول (سام) أن يبكي بلا جدوى.. سوف يحتاج إلى أعوام حتى يجد الدموع ليبكي على أي شيء.. ولن يدخل المكتبة.. لن يدخل أية مكتبة للأبد.

شرطي المكتبة موجود وفي كل مكان.. يراه في كل لحظة..

سوف يطارده للأبد في كل كوابيسه حتى وإن نسي (سام) القصة.. سوف يظل (سام) يسأل في قلق: أتراني قد صُفح عني؟ أتراني استوفيت الغرامة يا سيدي؟

فتكون الإجابة أبدا هي لا.. ليس بعد..

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع عشر
المكتبة

1

كان الهبوط في الحقل الذي يسميه (ديف) (مطار بروفيريا) مرعبا.. وانتفض (سام) مذعورا لكن (ناعومي) مدت يدها برغم الحزام لتضعها على كتفه.. كانت تنتظر هذه اللحظة.. كانت قد هدأت من روع سكارى كثيرين في AA في لحظات هياجهم العصبي وتعرف ما يجب عمله.

- (ناعومي)! يا له من كابوس!!

وبدأ المطر ينهمر على جسم الطائرة كما توقع (سومز) الذي كان يعوي في الميكروفون

سألت (سام):

- هل كان هذا شرطي المكتبة؟ شرطي مكتبتك؟

- نعم..

- وهل عرفت من هو؟

بعد صمت طويل قال:

- نعم..

☆ ☆ ☆

2

كانت السابعة والربع الآن.. والمطر ينهمر بغزارة.. عرض عليهما (سومز) أن يدخلا داره لشرب القهوة والتهام فطيرة تفاح، لكن (ناعومي) قالت في إصرار إن الأمر مهم.. يجب أن يرحلا فورا.

قاد (سام) سيارة (ناعومي) في طريق العودة وهو يفكر قلقا في (ديف)، لكن الخروج عن الطريق وقلب السيارة لم تكن الطريقة المثلى لإبداء الاهتمام.. المطر غزير والمساحات لا تقدر على التعامل معه، دعك من أن الكشافات بدأت تتراقص.

- لا أعتقد أننا سنكون هناك في الثامنة.

- حاول جهدك يا (سام)..

لقد صارا يتحركان بسرعة عشرة أميال في الساعة.. واستمر في القيادة بحذر حتى دخلا المدينة.. كان ينظر لها بطرف عينه، فدهش لأنه لم يدرك جمالها من قبل.. لقد تودد لها من قبل لكن لم يفعل ذلك لأنها راقت له.. بل لأنها كانت وحيدة وفي بلدة صغيرة.. العزاب في بلدة صغيرة يجب أن يتوددوا لبعض.. أما اليوم فهو يراها حقا.. يجدها جميلة حقا..

أما هي فكانت تنظر له..

لم تعد نظرته خائفة.. يبدو لها كأنه إنسان أتيحت له فرصة العودة لأسوأ كوابيسه مدججا بالسلاح هذه المرة.. هذا وجه يمكن أن تحبه.

قال لها:

- أريد التوقف عند متجر (بيجلي ويجلي)..

- هل تجد الوقت مناسبا لهذا؟ وقتنا ضيق..

- هناك شيء بالغ الأهمية..

ثم ترجل ورأته يتجه لكابينة هاتف.. لا بد أنها ذات كابينة الهاتف التي اتصل منها (ديف) بنائب الشريف يطلب منه إبعاد ابنته.. هذه المكالمة لم تقتل أرديليا لكنها أبعدتها.

(سام) يقف في الكابينة والنور يضاء..

يبحث في الأرض حتى يجد لفافة صغيرة.. فتحها فوجد أنها خاصة بحلوى الربسوس.. هنا سمع صوت بوق السيارة الذي ضغطت عليه الفتاة تستدعيه، فدس الورقة في جيبه وغادر الكابينة.

☆ ☆ ☆

3

بدا العامل في (ويجلي بيجلي) كأنه شاب جمدوه عام 1969 ثم ذوبوه هذا الأسبوع.. شعره طويل مربوط بشريط وعيناه توحيان بالمخدرات.. وتحت مريولة العمل كان قميصه مشجرا مليئا بأزهار زاهية.

نظر الفتى في حيرة إلى (سام) وهو يتجه إلى الحامل لينتقي عشرين كيسا من حلوي الربسوس.. وسأله في استمتاع:

- هل أنت واثق من أن هذه الكمية تكفيك يا (جدع)؟ هناك صندوقان في المخزن.. أعرف كيف يشعر المرء عندما يتوق إلى أية تصبيرة.

- هذا كاف فاحسبه لي لأني متعجل..

ثم مد يده والتقط (أستك) مطاطيا وجده جوار آلة الحساب فلفه حول معصمه.. تدلي الأستك رخوا كالسوار.. ثم نقد الفتى ثمن الربسوس.

- هذه الأشياء كانت أرخص عندما كنت طفلاً..

- نعم.. التضخم يشفط الكل يا جدع.. هل تحب هذا الربسوس؟

- لا.. إنه هدية لشخص ما.. أنا أكره طعمه.

كانت هناك نظرة على وجه (سام) وهو يلفظ هذه الكلمات جعلت الفتى يتراجع خطوة.. وقرر (سام) أن يدس الحلوى في جيبيه ثم يعود إلى السيارة..

☆ ☆ ☆

4

قادت (ناعومي) السيارة إلى المكتبة.. بينما أخرج (سام) الكتابين من كيسهما. كل هذه الضوضاء من أجل كتاب انتهى عهده.. لكن ليست هذه القصة بالضبط.. لم يكن للكتب دور في القصة قط.

لف الكتابين بالأستك المطاطي ثم دس ورقة بخمسة دولارات بين الكتابين، فسألته الفتاة:

- ما هذا؟

- غرامة التأخير عن هذين الكتابين.. وغرامة تعود لمرة قديمة.. كتاب قديم لم أرجعه في طفولتي.

ثم فتح أحد أكياس الحلوى وشمها بعمق.. شعر بالرائحة تتسرب إلى منخريه ثم تتكور في معدته كأنها لكمة.. توقع أن يفرغ معدته لكن هذا لم يحدث.. ثم بدأ يفرغ باقي الأكياس ويكومها في حجره.. هنا توقفت (ناعومي) بالسيارة وهتفت:

- (سام).. ماذا تفعل بالله عليك؟

ولأنه لم يكن يعرف ما يفعله قال:

- لو كان الخوف هو اللحم الذي تأكله (أرديليا) فإن نقيض الخوف هو سمها..

- أنا متأكدة من أن نقيض الخوف ليس حلوى الربسوس..

- من قال هذا؟ كيف تعرفين؟ مصاصو الدماء في القصص تقتلهم الصلبان.. شرطي المكتبة سلبني كل شيء.. سلبني الأمن

والأصدقاء والحب. هذه من الأشياء التي كنت أحبها.. كنت أحب الربسوس.. الآن لا أستطيع تحمل رائحته..

ثم راح يدعك قضبان الربسوس بين يديه حتى حولها لعجينة مقززة.. اللون الأسود لوث يديه لكنه استمر.. الآن يتذكر طفولته وكيف ضربه ضربا مبرحا رجل مختل عقليا كان يدعي أنه شرطي.. برغم هذا (سام) محظوظ لأن هذا المجنون كان يمكن أن يفتك به.

من بعيد يري مكتبة البلدة.. بينما تقول الفتاة:

- أعتقد أن نقيض الخوف هو الصدق والإيمان..

فكر قليلاً ثم قال:

- ليس سيئا.. حتى لو لم يصلحا فمن الخير أن يكونا كذلك.. لقد وصلنا!

☆ ☆ ☆

5

وقفا في الظلام والمطر يرقبان آخر من يغادرون المكتبة.. رأى مستر (برايس) يغادر المكتبة ويركب سيارته (الإمبالا) ورأي الفتاة (سنثيا) التي قابلها عندما جاء للمرة الثانية.. ثم ساد الصمت.

لم يعد من أحد سواه و(ناعومي).. سواهما والمكتبة وربما (أرديليا)..

المطر يشتد ومعه الريح.. لدرجة أن السيارة الداتسون راحت تهتز.. وهوى غصن شجرة محدثا صخبا، فقالت الفتاة:

- رباه!

- أنا نفسي لست مفتونا بهذا الجو..

أضواء الصوديوم ترسل ضوءا غريبا كئيبا في الظلام.. مع تأثير المطر والريح. وشعر (سام) بأنه سيرى شرطي المكتبة الآن من وراء الزجاج:

- تعال معي يا بني.. فأنا شرطي..

هوي غصن آخر ثقيل.. فصرخت الفتاة وجاوبتها الريح بالصراخ.

فجأة رأي (ديف) يبرز لهما قرب الباب الخلفي للمكتبة، وكان يلوح بذراعيه وقد امتقع وجهه وبدا في أسوأ حال.. قال (سام):

- (ناعومي).. (ديف) هناك..

قالت وهي تفتح باب السيارة:

- يا للهول! يبدو في أسوأ حال!

لكن الباب انغلق بفعل الريح فدفعته بكتفها لتسقط على الأرض في الماء وشعرها يرقص في عاصفته الخاصة حول رأسها.. من أين جاءت هذه العاصفة العاتية؟ إنها عاصفة أرديليا على الأرجح.

غادر (سام) السيارة بدوره، ثم تذكر أنه يحمل الربسوس لكن ليس الكتب.. هكذا عاد وجاهد حتى فتح الباب واسترد الكيس.. هنا شعر بأن الضوء يتبدل..

أضواء الشارع ذات الصوديوم تبدلت لتصير أضواء فلورسنت عتيقة.. تبدل شكل المكتبة وصارت محاطة بنبات الصفصاف..

مرحبا بالعام 1960.. كذا فكر (سام).. ونظر إلى حيث كان (ديف) يصرخ:

- إنه الرجل الذي وصفته يا (سام).. شرطي المكتبة! إنه هنا..

في اللحظة التالية برزت يد وضعت على كتف (ديف) وشدته إلى الداخل.

أمسك (سام) بمعصم (ناعومي) وجذبها إلى بناية المكتبة، فما أن دخلا حتى انغلق الباب بفعل الريح خلفهما..

☆ ☆ ☆

6

كانوا الآن في مكان معتم.. ليس مظلما لكنه معتم.. وكانت هناك أباجورة على منضدة أمين المكتبة تلقي ظلالاً خافتة.. في ركن القاعة يقف شرطي المكتبة ممسكا بعنق (ديف) في وضع (نلسون) الذي يمنعه من الحركة، وقد صارت قدماه مرتفعتين ثلاث بوصات عن الأرض..

- لا تقتربا خطوة وإلا هشمت عنقه كالدجاجة..

كان ظله يتراقص على الجدار، وفكر (سام) في أنه لم يكن له ظل من قبل.. ما معنى هذا؟ ربما صار الشرطي أكثر واقعية الآن.. إن الشرطي هو أرديليا وهو الرجل الذي يقود السيارة التي خطفت الصبي.. فقط يبدل الوجوه كما يبدل الصبي أقنعة الهالوين..

دنا منه (سام) خطوة وقال:

- هل نصدق أنك ستبقيه حيا لو لم نقترب؟

تراجع الشرطي خطوة لدهشة (سام) وهتف:

- أنا أنذرك!!

- إن مشكلتك ليست معه بل معي.. فلننه الأمر!

- ليكن!

وطوح الشرطي جسد (ديف) إلى الجدار فهوى كأنه كيس غسيل.. حاول أن يتلافى الصدمة بلا حماس لكنه ارتطم بمطفأة

الحريق وسمع (سام) صوت تهشم العظام الكئيب.. سقط (ديف) وسقطت المطفأة العملاقة فوقه..

- (ديف)!!

صرخت (ناعومي) وهرعت نحو الرجل فقط ليمسك شرطي المكتبة بذراعها.. وللحظة توارى وجهه وراء شعرها بندقي اللون.. كأنه يلثم مؤخر عنقها.. ثم أبعد وجهه عنها وسعل..

التقط (سام) كتابا ثقيلا من جانبه وألقاه في وجه شرطي المكتبة.. طار الكتاب ليضرب الرجل في وجهه فصرخ غضبا.. تحررت منه (ناعومي) وركضت نحو أحد الرفوف المرتفعة.. وصلت إلى (ديف) فتمسكت به..

قال (سام):

- مشكلتك ليست معها هي الأخرى..

- كان يجب أن أقتلك أولاً..

صارت عيناه ثقبين أسودين كأنه خلد.. ومشي نحو (سام) محدثا صوت احتكاك غريبا على الأرض.. نظر (سام) للأرض فوجد أن معطف الرجل يزحف على الأرض خلفه.. لقد صار أقصر!!

لوح بالكتابين وصاح:

- هذان كتاباك! خذهما! ومعهما الغرامة..!

صاح الرجل:

- كلا.. هذان ليسا الكتابين اللذين أخذتهما!!

طوح (سام) بالكتابين في وجه الرجل فهشم نظارته.. ومكان العينين رأي فجوة سوداء مقيتة امتلأت بالنسيج.. وتذكر كلمات(ديف) عن أن الرجل يصنع شرنقته الخاصة.. قال لنفسه: أنا لم أر عيني الرجل الذي ضربني لذا لم ترها هي الأخرى! لقد بدأ الرجل الذي جاء من ملصق (ديف) ومن ذكريات (سام) الأليمة يتحول إلى قزم..

وجه ركلة للرجل وركلة أخرى.. من أجل الأطفال الذين ضربتهم أنت والذين التهمتهم هي..

ثم مد يده يمسك به من المعطف فأدرك أنه ليس معطفا.. إنه جلد رخو واسع له ملمس كيس الشاي المستعمل.. جذب يده في رعب وأطلق صرخة..

وفجأة سمع ضحكة امرأة تدوي:

- تأخرت يا (سام).. تأخرت! لقد عادت (أرديليا)!!

واهتزت بناية المكتبة.. ثم انطفأت الأنوار!

☆ ☆ ☆

7

ساد الظلام ووسطه كانت ضحكة (أرديليا) تدوي.. جرى نحو (ناعومي) التي كانت راكعة جوار (ديف) ووجهها شاحب ممتقع.. فقالت له:

- أظن أنه يموت يا (سام)..

كان هذا واضحا وصدر الرجل يعلو ويهبط متحشرجا والدم ينزف من رأسه.. في هذه اللحظة طار كتاب عملاق هو الحجم الكبير من قاموس أكسفورد نحوهما، فارتميا على الأرض بينما ارتطم الكتاب الذي يزن سبعة أرطال بالجدار.

وخلف خزانة الكتب المقلوبة بدا أن شيئا ما يتكون.. شيئا عملاقا يتخذ شكلاً وهيئة..

همست الفتاة:

- عليك بها يا (سام).. عليك بها!

قال وهو ينهض نحو المكتبة:

- سأحاول.. سأحاول.

☆ ☆ ☆

8

أفزعته الرائحة.. رائحة اللافندر ممزوجة برائحة الكتب العتيقة.

اجتاز المسافة نحو المكتبة وهو يعتصر كرة حلوى الربسوس في يده بعصبية.. يمشي وسط مئات الكتب المبعثرة هنا وهناك.. يسمع صوت قدميه على مشمع الأرضية.

- أين أنت يا (أرديليا)؟ لو كنت تريدينني فلتخرجي لتظفري بي.

سقطت فوقه كومة من الكتب من أعلى فتملص ليفلت.. هنا سقطت مجموعة أخرى وسمعها تضحك.. ما حدث بعد هذا لم يتعمده (سام) لأنه تعثر وأوقع جبلا من الكتب.. عندما سمع صراخها أدرك أن الجبل سقط فوقها بالذات.

نظر إلى مصدر الصراخ فرأى (أرديليا) الحقيقية.. بالفعل كانت شقراء زرقاء العينين، لكن هذا هو الشبه الوحيد بينها والبشر.. فيما عدا هذا كانت مسخا مخيفا ضخما فيه شبه مقزز بالخنفسة.. وكان المسخ يحاول التحرر من الكتب التي أحاطت به ويصرخ.. لكن (سام) لم يشعر برعب.. على الأقل هو يراها الآن حقيقة فلم تعد مجرد أسطورة مخيفة.

ومن بين العينين برز شيء يشبه خرطوم الفيل فتباعدت العينان لتفسحا مكانا له.. خرج ذلك الممص الطويل يتلمس طريقه حتى لمس (سام).. أجفل الأخير وقد أدرك قوة هذا الشيء.

شعر بدوار وللحظة شعر أنه من الخير له أن يقف ثابتا ويدع الشيء يحدث..

بدا كأن الكائن كله يتحول لذلك الممص.. باقي جسده لم يعد ذا نفع وصار يتدلى من وراء الأنبوب اللحمي الكبير.. برغم كل شيء كان هذا لطيفا.. سوف يمتص وجوده كله.. سيأخذ كل ما هو (سام) إلى داخله..

ركع (سام) على ركبتيه ليسمح للشيء بتحسس وجهه.. شيء يسيل من جانب عينيه.. ليس دموعًا.. لكن الشيء يمتصه..

الغرامة قد دفعت.. الغرامة قد دفعت.. لم تعد مدينة لي بشيء..

بما تبقي فيه من قوة مد يده اليمني يمسك بالممص.. كان ملمسه شنيعا يسبب وخزات في الجلد، لكنه تمسك به وقال:

- جلبت لك هدية أيتها القذرة.. جلبتها معي طيلة الطريق من (سانت لويس) لهنا.. إليك!

وغرس كرة الربسوس في طرف الممص.. ذات مرة رأي أولادًا يسدون بالصلصال شاكمان سيارة صديق لهم فكادت السيارة تنفجر.. لقد فعل الشيء ذاته.

حاول الشيء التملص لكن (سام) تمسك بقوة.. ووجد لرعبه أن الشيء ينتفخ وينتفخ.. كرة شاطئ مكسوة بالشعر.

عرف (سام) ما سيحدث وغطي وجهه..

كميات هائلة من اللحم انفجرت في كل صوب وغطى الدم ذراعي (سام) وصدره. صرخ من النشوة والتقزز.. بينما عادت

أضواء الطوارئ تنير المكان.

وفي الخارج سكنت العاصفة وراح مطر هادئ ينساب على السقف..

نهض على ساقين لا تقويان على شيء وزحف إلى حيث كانت (ناعومي) تجلس جوار (ديف).. لاحظ أن مطفأة الحريق معلقة في مكانها كما كانت وإن كان مقبضها مرسوما بوضوح على خد (ديف)..

قال (ديف) بصوت مبحوح:

- لم يكن هذا سيئا..

فهتفت الفتاة وهي تنهض:

- سأطلب الإسعاف..

لكن (ديف) اعتصر يدها ليوقفها وقال:

- ليس بعد.. هناك أشياء يجب أن أخبرك بها يا فتى.. تعال هنا بقربي.

وقرب فمه من أذن (سام) وهمس:

- إنها تنتظر.. تذكر.. هي تنتظر..

- ماذا؟

لكن (ديف) لم يرد.. ظل ينظر نحو (سام).. عبر (سام).. وهتفت الفتاة في ذعر أنها ستطلب الإسعاف حالاً، لكنها نظرت لوجه (ديف) فرأت أن إحدى حدقتيه قد ضاقت حتى صارت كرأس دبوس والأخرى اتسعت عن آخرها.

بدأت تبكي.. وضعت يده على خدها وأغمضت عينه.. ركع (سام) متألما جوارها وطوق خصرها..

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس عشر
شارع الزاوية

1

لم ينم (سام) ليلتها ولا الليلة التالية لها.. رقد في الفراش وكل الأنوار مضاءة.. وراح يتذكر كلمات (ديف): إنها تنتظر..

وبدأ يعتقد أنه يفهم ما أراد العجوز قوله..

2

كانت الجنازة هادئة.. وفي (شارع الزاوية) حيث حفل التأبين، تناثر أصدقاء (ديف) يأكلون ويتكلمون عنه ويضحكون.. من الواضح أنهم كانوا يحبونه برغم كل شيء.. بينهم مشى (سام) ويداه في جيبه.. كان يعتصر قطعة من حلوى الربسوس ويكورها.

لقد فر (سام) و(ناعومي) من المكتبة وأجرى اتصالاً بالشرطة.. ووضع السماعة قبل أن يسألوه من يكون.. وجد البوليس جثة (ديف) في المكتبة لكن كل علامات العنف قد زالت.. وهكذا افترض الجميع أنه مجرد حادث.. حادث سقوط يمكن أن يحدث لأي سكير.. لا بد أنه دار حول المكتبة فوجد بابها مفتوحًا.. مشى في الظلام فاصطدم بمطفأة الحريق.. نهاية القصة.. صحيح أن الطب الشرعي لم يجد نقطة كحول في دم الرجل لكن هذا لم يغير شيئا.. الناس تفترض أن السكير يجب أن يموت كسكير.

لم تكن (سارة) ضمن الموجودين.. أخبرت الناس أنها ستكون في المكان الذي يعرفه (سام).. خطر له أنها قد تكون في المكتبة لكنه استبعد هذا..

لا.. ستكون على الأرجح في الحديقة التي رآها فيها عندما كانت تحضر اجتماع AA..

وجدها هناك تقف وحيدة فمشي نحوها.. كانت غاية في الشحوب وقالت له:

- هذا شنيع يا (سام).. لم أعد أستطيع النوم ولا الأكل.. ذكريات شنيعة تطاردني.. والأسوأ هو رغبتي في الشراب.. جلسات AA لم تعد تفيدني للمرة الأولى..

قال لها:

- هذا سيسعدها.. أنت تعرفين أنها تنتظر.. ولا بد أن تأكل.. انظري لهذا..

ثم فتح يده في وجهها فأجفلت.. نظرت لمحتوى يده فرأت كرة الربسوس الحمراء.. قالت في كراهية:

- تخلص من هذه!

وبدت نظرة معدنية في عينيها..

عندما أمسك بها شرطي المكتبة بدا كأنه يلصق وجهه بها. ثم أطلق سراحها وسعل.. كيف كانت (أرديليا) تنتقل من شخص لآخر؟ عندما أحاط (سام) خصرها بيده في المكتبة بدا متخشبا غريب الملمس.. إنها تنتظر.. (ديف) كان يعرف أكثر...

قال لها (سام):

- أنا أحبك يا سارة.. أوجه كلامي لك لا لها..

قالت وهي تتحسس شعرها في وهن:

- نعم.. أعرف أنك تحبني. لكن ربما كان من الأفضل أن تتعلم ألا تفعل.

- هل حقا تريدين أن أرحل؟

هنا انفجرت باكية:

- (سام).. أرجوك.. لا أعرف ما حل بي.. ساعدني.. أنا خائفة!

ثم فجأة تكورت شفتها العليا لتتحول لشيء شبيه بالممص.. وقالت:

- اذهب للجحيم يا (سام بيبلز).. اذهب للجحيم!!

أمسك بكتفها وقال:

- لو نظرت للوراء لرأيت قطار البضاعة الذاهب إلي أوماها.. سوف يمر أمامك.. أريد أن تنظري له بثبات..

قالت باكية:

- ليكن يا (سام).. بوسعك أن تدفعني تحته وسوف يعتقد الناس أنني انتحرت.. كل الناس رأوا أنني لم أعد على ما يرام.. سوف يصدقون كل شيء..

- لا أكلمك عن الانتحار يا حمقاء.. فقط أريد أن تنظري للقطار وتثقي بي..

استدارت بينما القطار يمر من بعيد قادما نحوها.. فرفع الشعر عن مؤخرة عنقها.. ورأي ذلك الشيء هناك وسط لحم عنقها.. كان يعرف أن جذع المخ يبدأ تحت ذلك الموضع فتقلصت معدته.. ذلك الشيء الذي يشبه الجيلي والمغطى بنسيج العنكبوت، والذي ينبض مع نبضات قلبها..

- هل ترين أرقام العربات يا (سارة)؟

- نعم.

- اقرئيها بصوت عال.

ومد يده يصنع عجينة من الربسوس الذي كان في جيبه ثم أخرجها، وألصقها بذلك الورم المخيف في مؤخرة عنقها..

- خمسة.. ستة.. سبعة..

ومن جديد مد يده وراح ينتزع العجينة التي التصقت بالسم.. سم (أرديليا).. خرج الشيء ملتصقا بالعجينة، وفي مؤخرة عنق (سارة) رأي ثلاثة ثقوب لا تزيد على حجم رأس دبوس.. لقد ولى! لكن ليس بعد.. كرة الربسوس تتلوي في يده وهناك فقاعة تحاول الخروج منها..

اتجه لقضيب القطار وألصق العجينة.. وابتعد وهو يهمس:

- وداعا أرديليا!

وفي اللحظة التالية اندفعت فوق العجينة الملتصقة

بالقضيب أطنان الحديد التي تشكل قطار الساعة 2:20 إلى أوماها..

التصقت به (سارة) وقد صارت مزيجا من الرضا والارتياح بينما القطار يبتعد وشعرها يطير في اتجاهه..

- هل تحررت حقا يا (سام)؟

- نعم تحررت.. لقد دفعت - غرامتك!

- هلا عدنا للداخل حتى لا يقلق أصدقاؤك؟

- يمكن أن يكونوا أصدقاءك يا (سام) لو أردت هذا..

مد يده لها وعادا إلى الداخل.. ذراعا في ذراع.

ستيفن كينج

(تمت بحمد الله)

شرطي المكتبة

مرحبا بك في مكتبة مدينة (جانكشان)... سوف نحسن استقبالك ونستخرج لك بطاقة استعارة، ونجد لك ذلك الكتاب الذي أضناك البحث عنه بالذات.. لكن تذكر من فضلك: لابد من إرجاعه خلال أسبوع.. لا أعذار ولا مجاملات.. فإذا لم يعد الكتاب المستعار في الوقت المحدد فإن لنا طرقا غريبة بعض الشيء في التعامل معك.. طرقا لن تحبها أبدا..!


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

-

الفهرس..

Notes

[←1]

- جماعة دينية أمريكية أنشأها (جورج فوكس) وكانت تنادي بالسلام، إلا أن طابع اهتزازهم المتكرر أثناء الصلاة منحهم هذا الاسم الذي يعني (المهتزون).

روايات عالمية للجيب 59



أسطورة سليبى هولو

تأليف : واشنجتون إيرفنج

ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (59)

أسطورة سيلبي هولو

تأليف: واشـنجتون إرفنج

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

واشـنجتون إرفنج Washington Irving أديب أمريكي شهير، عرف بقصتيه (ريب فان وينكل) و(أسطورة سليبي هولو) اللتين نقدمهما لك هنا. ولد في نيويورك عام ١٧٨٩ وكان له أحد عشر أخا. كان أبواه مهاجرين أسكتلنديين أعجبا بجورج واشنجتون بطل الاستقلال الأمريكي، لذا اتخذا هذا الاسم لابنهما، ويقال في قصة أخرى أن واشنجتون هو الذي اقترح اسمه على الأبوين.. وشغف بالقراءة في طفولته لكن رسخت في ذهنه بشكل خاص قصتا (روبنسون كروزو) و(سندباد الملاح).

كان (واشنجتون إرفنج) هو أول أمريكي على الإطلاق يكسب عيشه بالكامل من قلمه، بالإضافة لهذا كان رحالة ومصممًا معماريًّا دبلوماسيًّا!

بدأ الكتابة في الصحف وكسب بعض الشهرة، إلا أن مأساة شخصية ألمت به عندما توفيت خطيبته (ماتيلدا) في سن الثامنة عشرة، وهذا هو السبب الذي جعله لا يتزوج طيلة حياته، ولم يتكلم عنها قط.. برغم أن صورتها كانت تلاحقه طيلة الوقت..

كان مولعًا بالسفر لذا خصص جزءًا كبيرًا من وقته في ارتياد أوروبا. وفي العام ١٨٠٩ قدم لنا حكايات ساخرة عن الجالية الهولندية في نيويورك، وابتكر شخصية مضحكة تدعى (ديدرتش نيكربوكر) المفترض أنه عالم هولندي يقيم في نيويورك.. الطريف أن مصطلح (نيكربوكرKnickerbocker) صار رمزًا

لجيل الكتاب الأمريكيين الأول، كما يكنى به أي أمريكي يكتشف أن أصول أسرته هولندية.

قدم لنا واشنجتون مجموعة قصصية تدعى (بريسبريدج هول).. ثم تلاها بمجموعة (كتاب السكتشات) الذي بدا تأثره واضحًا بالقصص الشعبية الألمانية، كما في قصتي (ريب فان وينكل) و(أسطورة سليبي هولو). والحقيقة هي أن إرفنج اعترف أكثر من مرة بأن موهبته القصصية ضعيفة، فلا يستطيع خلق حكاية بالكامل من لا شيء، وهو ليس عيبًا قاتلًا إذا تذكرنا أن شكسبير نفسه لم يقدم أية قصة أصيلة. قصة (أسطورة سليبي هولو) هي التي قدمت مع تصرف كبير كما سنرى حالًا فى فيلم الرعب الشهير ل-(تيم بيرتون) عن الفارس مقطوع الرأس الذي يخيف الناس في مقاطعة (سليبي هولو)، وهي بالمناسبة منطقة حقيقية جنوبي نهر هدسون قرب نيويورك. هذه القصة مشتقة عن قصة للألماني (كارل موزويس).. وقد أنتج أوبريت عنها باسم (الفارس مقطوع الرأس)..

بعد هذا توالت أعماله مثل (كولومبوس ١٨٢٨) و(غزو غرناطة ١٨٢٩).. وكلها تعتمد على بحث تاريخي بالغ الدقة. مع الوقت صار خير سفير للولايات المتحدة اليافعة في أوروبا والعالم، إذ أحبه الأوروبيون والأسبان بشكل خاص؛ ولهذا عينه الرئيس الأمريكي سفيرًا فعليًّا للولايات المتحدة في أسبانيا. كان صديقًا حميمًا لكاتبة فرانكنشتاين (مارى شيللى). وعندما زار تشارلز ديكنز العظيم أمريكا طلب لقاءه لأنهما كانا يتبادلان المراسلة بانتظام، وألقى خطابًا شكر فيه واشنجتون على مساندته له في رواياته.

في العام ١٨٥٥ بدأ كتابة سيرة سميّه (جورج واشنجتون)، كما كتب كتابًا مهمًّا عن النبي محمد -صلى الله عليه وسلم -هو (محمد وأتباعه).

توفى واشنجتون إرفنج فى ٢٨ نوفمبر عام ١٨٥٩، وكانت آخر كلمة قالها قبل أن ينام ليلاً: « على أن أرتب وسادتي لليلة أخرى مرهقة.. ليت هذا كله ينتهي!!» . في الصباح لم ينهض من النوم.. كان كل هذا انتهى فعلًا.. ودفن في مقبرة (سليبي هولو) الخاصة بالكنيسة الهولندية في نيويورك، كأنه اختار أن يكون قبره في البلدة التي دارت فيها أهم قصصه.

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

الشيطان وتوم ووكر..

على بعد أميال قليلة من بوسطون فى ماساتشوستس، ثمة مدخل ضيق يتلوى عدة أميال في قلب الريف، وينتهي في مستنقع كثيف الأشجار. على جانب هذا المدخل يوجد بستان جميل، وعلى الجانب الآخر ترتفع الأرض بحدة عن حافة الماء لتشكل تلة عالية تناثرت عليها أشجار بلوط عملاقة عجوز.

تحكى القصص الغابرة أنه تحت واحدة من هذه الأشجار العملاقة يوجد كنز عظيم دفنه القرصان (كيد). لقد كان المدخل يسهل جلب المال ليلًا في قارب إلى قمة التل. وكان ارتفاع المكان يتيح نظرة شاملة تتأكد بها أنه ما من شخص يراقب ما يحدث، بينما كانت الأشجار علامات ممتازة تسهل العثور على موضع الكنز ثانية..

تضيف القصص أن الشيطان يشرف على تخبئة المال، ويعتبر ذلك مسئوليته الخاصة.. على كل حال من المعروف أنه يفعل ذلك مع الكنوز كلها خاصة إذا كان مصدرها إجراميًّا. مهما كان الأمر لم يعد (كيد) قط لاسترداد ثروته لأنه اعتقل في بوسطون بعد هذا، وسيق إلى إنجلترا ليشنق بتهمة القرصنة.

حوالى العام ١٧٢٧ عندما اجتاحت الزلازل (نيو إنجلند)، كان يعيش شاب فقير تعس يدعى (توم ووكر). كانت له زوجة تعسة مثله وقد بلغ منهما الفقر مبلغ أنهما كانا يخدعان بعضهما.. كانت تخبئ كل ما تقدر على وضع يدها عليه، وكانت تسرق بيضة الدجاجة بمجرد نزولها.. كان زوجها يراقبها بحرص ليعرف ما تداريه عنه، ولكم من معارك نشبت بينهما بسبب ما كانا يعتبرانه ملكية مشتركة.

كانا يعيشان في بيت بائس يوحى منظره بالجوع. ومن مدخنة البيت لم يخرج دخان قط.. وعلى بابهما لم يتوقف مسافر قط. كان حصان تعس بارز الأضلاع كأنها قضبان المشواة يرعى حقلًا تغطى فيه طبقة واهنة من الطحلب حواف الصخور المشرشرة.. أحيانًا كان يطل برأسه من فوق السور متوسلًا لعابري السبيل كأنه يطلب من ينقذه من أرض المجاعة تلك.

كانت امرأة (توم) سليطة اللسان شرسة الطباع عالية الصوت قوية الذراعين، وكان صوتها يُسمع دومًا أثناء حرب الكلمات مع زوجها، وكنت ترى على وجهه أحيانًا علامات تدل على أن المعركة لم تكن كلامية فحسب. لكن لم يجسر أحد قط على التدخل بينهما.. فقط يفر من يسمع المشادات مهنئًا نفسه -إذا كان عزبًا -على عزوبته.

ذات يوم اتجه (توم) إلى مكان بعيد عن الدار، فسلك ما اعتبره ممرًّا مختصرًا عبر المستنقع. وككل الطرق المختصرة كانت اختيارًا عقيمًا. كانت نباتات الصنوبر والشوكران تغطى المستنقع وبعضها بارتفاع تسعين قدمًا، مما جعله مظلمًا في وسط النهر ومأوى لكل البوم في المنطقة. كان مليئًا بالحفر التي غطتها الأعشاب والطحالب مما يخدع المسافر ويجعله يقع في الوحل الأسود، كما كانت هناك برك راكدة حيث تعيش ثعابين الماء بينما ترقد جذوع الصنوبر نصف متعفنة نصف غارقة كأنها تماسيح غافية..

راح (توم) يستكشف طريقه وسط الغابة المخادعة، بين غصون الأشجار المتشابكة.. ومن آن لآخر يثير رعبه صراخ (مالك الحزين) أو صياح بطة برية تنهض من بركة قريبة. في

النهاية بلغ أرضًا صلبة تتوغل في قلب المستنقع كأنها شبه جزيرة.

كانت هذه الأرض من قلاع الهنود الحصينة أثناء قتالهم مع المستعمرين، هنا أنشئوا حصنًا اعتبروه لا يقهر وداروا فيه أطفالهم ونساءهم، لم يبق شيء من الحصن القديم ما عدا بعض الجسور التي غاصت لمستوى الأرض التي تحيط بها. وقد غطتها النباتات الكثيفة التي يتناقض لونها مع لون الصنوبر والشوكران الداكن المحيط به.

بلغ (توم ووكر) الحصن القديم في وقت الغبشة، فتوقف هناك ليلتقط أنفاسه. ما كان أحد سواه ليقف هنا لأن الناس اعتادوا أن يكرهوا هذه البقعة، بسبب القصص التي تتوارد حولها منذ زمن حروب الهنود، حيث قالت الإشاعات أن الهنود كانوا يقيمون صلواتهم هنا ويقدمون الأضحيات للأرواح الشريرة. لكن (توم وكر) لم يكن بالرجل الذي يشغل باله بأية مخاوف من أي نوع.

استراح على جذع شجرة ساقطة بعض الوقت وهو يصغي لصياح ضفادع الأشجار، ويعبث بعصاه في كومة تراب أمامه.. فبينما هو يفعل ذلك شارد الذهن اصطدمت عصاه بشيء صلب. أزاح كومة النباتات فيا للعجب لقد وجد جمجمة مهشمة استقر فيها فأس هندى.

وأظهر الصدأ على نصل الفأس أن زمنا قد مر منذ وجهت ضربة الموت تلك. كانت لحظة عراك مفزعة تم في هذا المكان منذ أعوام.

ركل الجمجمة ليسقط الغبار عنها وقال:

- « أف! »

هنا دوى صوت أجش:

- « دع الجمجمة في حالها!! »

رفع توم عينيه فرأى رجلًا أسمر عملاقًا يجلس أمامه مباشرة على جذع شجرة مقطوعة. أصابه الذهول لأنه لم يسمع الرجل يقترب كما أصابته الدهشة لأنه وجد أن الرجل لم يكن زنجيًّا أو هنديًّا. حقًّا كان الرجل يلبس زيًّا هنديًّا خشنًا ويلف حول جسده حزامًا أحمر، لكن وجهه ليس أسود وليس له لون النحاس لكنه داكن ملوث بالسخام، كأنه يقضى فترات طويلة بين النيران وأدوات الحدادة. كان له شعر أسود خشن ينتصب في كل الجهات، وكان يحمل فأسًا في يده.

وللحظات ظل يحدق عابسًا في (توم) بعينين حمراوين كبيرتين.

ثم قال بصوت عميق خفيض:

- « ماذا تفعل في أرضى؟ »

قال (توم):

-« هذه لم تعد أرضك كما أنها ليست أرضى.. إنها أرض (ديكون بيبودى).. »

قال الغريب:

- « فليلعن (ديكون بيبودى).. سوف تلحق به اللعنة ما لم يهتم بخطاياه أكثر وينس خطايا جيرانه.. انظر أيها الشاب لترى

كيف يصير (ديكون بيبودى).. »

نظر (توم) إلى حيث أشار الغريب فرأى واحدة من الأشجار العملاقة مورقة لكنها متعفنة في القلب، حتى أنها توشك على السقوط مع أول ريح. وعلى غصن الشجرة كتب اسم (ديكون بيبودى). نظر حوله فوجد أن كل الأشجار العملاقة تحمل أسماء رجال مهمين في المستعمرة، وأن تلك التي جلس عليها تحمل اسم (كراننشيلد) وهو رجل ثرى ذو نفوذ يستعرض ثروته بطريقة سوقية. ويقال سرًّا إنه جمع ثروته عن طريق المضاربة في البورصة.

قال الرجل الأسمر وهو يزمجر في انتصار:

- « إنه متأهب للحرق! كما ترى لدى خزين ممتاز من الخشب للشتاء.. »

قال (توم):

- « لكن بأي حق تقطع خشب (ديكون بيبودى)؟ »

قال الآخر:

- « حق وضع اليد.. هذه الأرض كانت تخصني قبل أن يضع واحد من جنسكم الأبيض قدمه عليها.. »

-« وهل لي أن أتجاسر وأسأل عن اسمك؟ »

- « أوه.. إن لي أسماء عدة.. أنا الصياد المتوحش في بعض البلدان، والحفار الأسود في بلدان أخرى.. في هذه الأصقاع يطلقون على (الحطاب الأسود).. من أجلى خصص الرجال الحمر هذه البقعة ومن حين لآخر ضحوا برجل أبيض.. ولما

كان جنسكم الأبيض قد أباد الرجال الحمر، فأنا أتسلى برعاية المهرطقين وتجار العبيد وساحرات (سيلم).. »

قال (توم) في ثبات:

- « لو لم أكن مخطئًا فأنت كذلك تُعرف بإبليس.. »

هز الرجل رأسه وقال:

- « في خدمتك.. »

كانت تلك بداية المقابلة حسب القصة القديمة، برغم أنها مألوفة لدرجة تدفع للشك. من الطبيعي أن تفترض أن لقاء شخص عجيب كهذا في هذا المكان المقفر لا بد أن يهز أعصابك، لكن (توم) كان قوى الشكيمة لا يخاف بسهولة، وكانت حياته مع زوجته سليطة اللسان كفيلة بجعله لا يخاف الشيطان.

يُحكى أنه بعد هذه المقابلة دارت بينهما محادثة طويلة دافئة في طريق عودة (توم) لداره.. أخبره الرجل الأسمر بالمال الوفير الذي دفنه كابتن (كيد) تحت أشجار البلوط قرب المستنقع. كل هذا المال تحت أمره وسيطرته.. عرض على (توم) أن يمنحه هذا المال لأنه أظهر لطفًا نحوه، لكن لا بد من تحقيق شروط معينة.

يمكن استنتاج هذه الشروط بسهولة برغم أن (توم) لم يعلنها قط.. لا بد أنها كانت عسيرة لأن (توم) طلب وقتًا للتفكير، وهو لم يكن بالرجل الذي يهتم بالتفاهات ما دام المال في مرأى عينه. عند حافة المستنقع توقف الرجل.

سأله (توم):

- « ما دليلي على أن ما قلته صحيح؟ »

- « هذا هو توقيعي.. »

قالها الرجل وألصق إصبعه بجبين (توم).. ثم توارى بين الأشجار الكثيفة وبدا كما خيل ل-(توم) أنه يهبط ويهبط ويهبط.. حتى تواري تمامًا في الأرض.

حينما بلغ توم داره وجد علامة الإصبع المشتعل على جبينه، وقد صار من المستحيل محوها.

أول ما أخبرته به زوجته هو وفاة (أبسالوم كراوننشيلد) مضارب البورصة الثرى.. لقد أعلن هذا في الصحف مع العبارة المعتادة: « اليوم هلك رجل عظيم من بني إسرائيل » .

تذكر (توم) الشجرة التي قطعها صديقه والتي أعدت للحرق.. فقال لزوجته:

- « فليحترق هذا اللص.. من يبالي؟ »

الآن أدرك أن كل ما رآه وسمعه لم يكن وهمًا.

لم يكن مستعدًا للثقة بزوجته، لكن هذا السر كان عسيرًا لذا أخبرها به. اشتعل جشعها لدى سماع موضوع الذهب وأصرت على أن ينفذ زوجها شروط الرجل الغريب.. وبرغم أن توم لم يكن ممتنعًا عن بيع روحه للشيطان، إلا أنه لم يكن مستعدًا لأن يعمل هذا لمجرد مجاملة زوجته. لهذا أبدى التمنع لمجرد المخالفة. ودارت بينهما مشاجرات كثيرة لكن توم ظل مصرًا على ألا يظفر باللعنة الأبدية لمجرد أن يرضيها.

هكذا قررت أن تتولى هي أمر الصفقة، فإذا فازت بها أخذت المال كله لنفسها.

كانت من طراز زوجها الذي لا يخاف شيئًا، لذا انطلقت نحو الحصن الهندي في نهاية اليوم. غابت عدة ساعات وعندما عادت كانت متحفظة في إجاباتها. تكلمت عن رجل قابلته في وقت الغسق.. لكنه كان متجهمًا عبوسًا ولم يتفق معها على شيء.. قررت أن تذهب ثانية لاسترضائه بعرض خاص لكنها لم تحدد ما هو..

في الليلة التالية انطلقت للمستنقع وقد حشت مئزرها بأشياء، وظل توم ينتظر وينتظر بلا جدوى.. جاء منتصف الليل لكنها لم تظهر..عاد الصباح فالظهيرة فالمساء لكنها لم تعد. بدأ توم يقلق على سلامتها خاصة أنها أخذت معها إناء الشاى الفضى والملاعق وكل شيء له قيمة ما. مر يوم آخر ويومان بلا زوجة.. بعبارة أخرى نقول إن أحدًا لم يسمع عنها ثانية.

ماذا كان مصيرها؟ هذا لا يعرفه أحد.. هناك كثيرون زعموا أنهم يعرفون.. وهي من الحقائق التي اختلطت على المؤرخين.. زعم البعض أنها ضلت طريقها وسقطت في بركة وحل، وقال آخرون في قسوة أنها هربت بغنيمتها الثمينة.. وقال آخرون إن المضلل اقتادها إلى مستنقع وجدوا قبعتها تسبح فوقه. وللتأكيد قيل إن رجلًا أسمر يحمل فأسًا على كتفيه شوهد خارجًا من المستنقع وفي يده حزمة ملفوفة في مئزر، وقد بدا عليه الانتصار.

أقرب القصص للاحتمالية تقول إن (توم ووكر) قلق عليها لدرجة أنه راح يبحث عنها في الحصن الهندي، وقد راح يفتش المكان الكئيب طيلة عصر صيف حار لكن لا زوجة.. ناداها مرارًا لكنها لم تسمع.. فقط لبي النداء طائر (مالك الحزين) وحلق صارخًا..

عند الأفق وفي ضوء الغروب إذ راح البوم ينعق، شد انتباهه تحليق الغربان فوق جيفة عند شجرة سرو.. دقق النظر فرأى حزمة معلقة من أحد غصون الشجرة يقف جوارها نسر هائل كأنما يحرسها.

وثب فرحًا وقد عرف أنه مئزر زوجته، فلابد أنه يحوى تلك الكنوز التي أخذتها من البيت. وقال معزيًّا نفسه:

- « فلنأخذ ممتلكاتنا.. ولسوف نتعلم كيف نعيش من دون المرأة.. »

إذ مشى للشجرة، فرد النسر جناحيه وطار صارخًا في ظلال الغابة. أمسك توم بالمئزر وفتحه لكن يا للحسرة! لم يجد بالحزمة إلا قلبًا وكبدًا..

هذا هو كل ما بقى من زوجة توم كما تقول أكثر القصص القديمة مصداقية. لا بد أنها حاولت مساومة الرجل الأسود كما كانت تساوم زوجها، وبرغم أن المرأة الشرسة يمكن أن تكون صنوًا للشيطان إلا أن حظها لم يكن حسنًا في تلك المرة. ويبدو أنها ماتت بذات الشراسة لأنه كانت هناك قبضات من الشعر يبدو أنها انتزعتها من الحطاب. وكان توم يعرف براعة زوجته عن خبرة، لذا هز كتفيه وقال لنفسه:

- « رباه.. لا بد أن الشيطان العجوز عانى كثيرًا.. »

عزى توم نفسه عن فقد ماله وزوجته، وشعر بنوع من الامتنان للحطاب الأسود الذي قدم له معروفًا. أراد أن يوطد معرفته به أكثر لكنه لم ينجح. إن الشيطان خجول لا كما يتصور بعض الناس.. ولا يأتى عندما تنادى اسمه بهذه البساطة.. لأنه لا يلعب إلا عندما يكون متأكدًا من النتيجة.

بعد فترة طويلة عندما التهبت لهفة توم بفعل التأخير، وصار مستعدًا لقبول أي شيء يقربه من الكنز، قابل الرجل الأسمر ذات ليلة في ثياب الحطاب المعتادة، وهو يدندن نغمة ما. أصغى لعرض توم بلا مبالاة ثم واصل دندنة نغمته.

إلا أن توم استطاع بعد وقت أن يقنعه.. هناك شرط واحد لن نذكره لكننا نفهمه جيدًا، وهو الشرط الوحيد الذي يحقق به الشيطان رغبات ضحاياه. لكن (توم) كان ممتنعًا عن عدة شروط أخرى. لقد أصر الشيطان على أن المال الذي يجده المرء عن طريقه لا بد أن يكرس لخدمته.. لهذا أصر على أن يستثمر (توم) ماله في التجارة السوداء.. بمعنى آخر كان عليه أن يملك سفينة لتجارة العبيد. لكن توم رفض هذا.. كان سيئًا في كل شيء لكن الشيطان نفسه ما كان ليقنعه بأن يصير تاجر عبيد.

إذ وجد الشيطان أن توم ليس متحمسًا لهذا، لم يصر عليه.. اقترح عليه أن يعمل مرابيًا.. إن الشيطان يحب زيادة عدد المرابين وينظر لهم باعتبارهم رجاله المميزين. لم يعترض توم على هذا لأن هذا يناسب ذوقه.

قال الرجل الأسمر:

- « سوف تفتح متجر سمسار في بوسطن الشهر القادم.. »

-« يمكن أن أبدأ غدًا لو أردت.. »

- « سوف تقرض المال مقابل فائدة ربوية ٢٪ شهريًّا.. »

هتف توم:

- « رباه! بل سأطلب 4% »

- « سوف تقود التجار للإفلاس و تستولى على الصكوك العقارية.. »

صاح توم في حماس:

- « سوف أرسل بالتجار إلى الشي-..... »

قال الشيطان:

- « أنت المرابي عن مالي إذن.. متى تريده؟ »

- « هذه الليلة.. »

-« تم! »

هكذا تصافح الرجلان وعقدا صفقتهما..

بعد أيام جلس توم ووكر في مكتبه للمحاسبة في بوسطون، وقد انتشرت سمعته كرجل جاهز المال يقرضه بنسبة ربح عالية. يتذكر الجميع أيام الحاكم (بلتشر) عندما انتشر الكساد وملأت البلاد فواتير الحكومة غير المدفوعة. كان جنون بناء المدن قد أصاب الناس، وراح سماسرة الأراضي يجوبون البلاد بخرائط تحكى عن مدن وكنوز لا يعرف أحد مكانها.. باختصار

نشبت الحمى بدرجة مروعة، وراح الجميع يحلم بتكوين الثروات من لا شيء.. كانت النتيجة المعتادة هي أن الحمى راحت، ووجدت البلاد نفسها تئن تحت وطأة ما أنفقته، ومر الناس بما يمكن تسميته ب-(أوقات عصيبة).

في هذا الوقت بالذات صار (توم) مرابيًا في بوسطن.. امتلأ بابه بالعملاء.. المغامرين وذوى الحاجة.. المضاربين والسماسرة الحالمين.. باختصار كل من كان يحلم بالمال هرع إلى توم. وقد لعب توم ببراعة دور (الصديق عند الشدة). وكانت شروطه تتناسب في صعوبتها مع حاجة الطالب.. لهذا كان يعتصر عملاءه ببطء ثم يخرجهم من عنده وقد جفوا كقطعة الإسفنج.

هكذا راح يكوم المال ونمت ثروته. بني لنفسه بيتًا واسعًا على سبيل التباهي، لكنه ترك أكثره بلا أثاث على سبيل البخل. بل إنه اقتنى عربة فاخرة لكن الخيول التي تجرها كانت على شفا الموت جوعًا. كنت تسمع صرير العجلات غير المشحمة فتشعر أنها أرواح المدينين المساكين التي يعتصرها في قبضته.

إلا أن توم بدأ يقلق.. لقد فاز بخيرات هذا العالم لذا بدأ يقلق على العالم الآخر.. راح يفكر في ندم في الصفقة التي أجراها، وراح يفكر في سبيل لخداع الشيطان والتلاعب بالشروط.

بدأ يتردد على الكنيسة ويصلى بصوت عال كأن الجنة يمكن اكتسابها بقوة الرئتين. كان متشددًا في الدين كما هو متشدد في أمور المال، وكان يراقب جيرانه بحرص، كأنه كان يعتقد أن أية خطيئة عندهم تضاف لرصيده هو في الجنة. بل إنه راح يطالب

بإعادة تقاليد إعدام الكويكرز.. باختصار صار توم رديء السمعة مثل ثروته.

وبرغم هذا كله كان توم يدرك يقينًا أن الشيطان سيطالب بحقوقه.. لذا راح يحمل إنجيلًا في جيب معطفه، وواحدًا على شكل لفافة في مكتب المحاسبة.. وقد شوهد يقرأ فيه مرارًا حين يدخل الناس للاتفاق معه. عندها يضع عويناته على اللفافة ليحدد مكان توقفه ثم يبدأ في إجراء صفقات الربا.

قالوا إن توم بدأ يجن في أواخر حياته، فلما شعر بقرب نهايته ابتاع لحصانه حدوات جديدة وسرجًا ودفنه في وضع مقلوب. لأنه تصور أن العالم سينقلب رأسًا على عقب وفي هذه الحالة سيجد حصانه في وضع صحيح متأهبًا للركوب. على كل حال هذه القصة تخاريف عجائز فلو كان قد قام بهذا التصرف لكان نوعًا من التزيد كما تقص علينا القصة فيما يلى:

ذات عصر حار كانت عاصفة رعدية قادمة، فجلس توم في مكتبه بردائه الهندى الحريري، وكان على وشك أن يخرب بيت مضارب تعس الحظ.. توسل له سمسار الأراضي البائس أن يمنحه بضعة أشهر من التساهل. لكن توم رفض أن يمهل الفتى يومًا آخر.

قال سمسار الأراضي:

- « سوف يخرب بيت أسرتي.. »

قال (توم):

- « الإحسان يبدأ بالمرء نفسه.. وعلى أن أعنى بنفسي في هذه الأيام القاسية.. »

قال المضارب:

- « لكنك نلت الكثير من المال مني.. »

فقد توم صبره وقال:

- « فليأخذني الشيطان لو كنت قد حصلت منك على ربع بنس..»

هنا دوت ثلاث دقات على الباب.. فوثب ليرى من هناك.. رأى رجلًا أسود يمسك لجام حصان أسود يركل بأقدامه في نفاد صبر.

قال الرجل:

- « تعال يا (توم)! »

انكمش توم لكن بعد فوات الأوان.. فلم يسبق لخاطئ أن أخذ على حين غرة مثله.. لقد أخذه الرجل الأسود بخفة كأنه طفل فوق ظهر الحصان ثم انطلق يرمح وسط العاصفة الرعدية. وضع الموظفون أقلامهم خلف آذانهم وهم يحملقون في المشهد من النوافذ. بعيدًا رحل توم وثوبه الأبيض يتطاير في الريح، وحوافر الجواد تطلق الشرر كلما لمست الأرض. وكان الرجل الأسود قد اختفى.

هز مواطنو بوسطون الطيبون رءوسهم، لكنهم كانوا قد اعتادوا الساحرات والعفاريت منذ أقاموا مستعمرتهم تلك، لهذا لم يصبهم الهلع كما تتوقع. تم تعيين أوصياء على ثروة توم لكنهم لم يجدوا شيئًا.. كل صناديقه المليئة بالذهب وجدوها

مليئة بنشارة الخشب.. وفي الإسطبل كان هيكلان عظميان بدلًا من جواديه.. واحترق بيته في اليوم التالي وصار رمادًا..

تلك كانت نهاية توم ووكر وثروته الحرام.. فليحفظ كل المرابين هذه القصة عن ظهر قلب.

لا يشك أحد في صدق هذه القصة، فما زال بوسعك أن ترى تحت شجرة البلوط الحفرة التي استخرج منها كنز القرصان كيد.. ما زال بوسعك في الليالي العاصفة أن ترى قرب الحصن الهندي شخصًا غامضًا على ظهر حصان يلبس ثوبًا من حرير هندى.. فلا بد أنها روح المرابي المعذبة. وما زالت القصة تتردد في مقولة شهيرة أقرب للمثل، تسمعها حتى اليوم في نيو إنجلند هي: (الشيطان وتوم ووكر).

1824

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الزوجة

« إن كنوز الأعماق ليست بالشيء الثمين لو قارنتها بالمباهج الخفية لرجل يحتويه حب امرأة.. إننى لأشم رائحة البركات حينما أدنو من البيت، فما أطيب العطر الذي يفوح من الزواج! العطر الذي لا تفوقه أزهار البنفسج.. »

ميدلتون

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كم من مرة علقت فيها على الثبات والجلد اللذين تقاوم بهما النساء عثرات الحظ وصروف القدر.. تلك العثرات التي تحطم روح الرجال وتمرغهم في الغبار، يبدو أنها تستدعى كل قوى الجنس الناعم وتهب شخصياتهن قوة وجرأة حتى ليبلغن مبلغ السمو. لا شيء يؤثر في النفس أكثر من أن ترى فتاة رقيقة اعتادت الضعف والاعتماد على الآخرين وقد صارت هي عون وملاذ زوجها في وقت الشدة، تقاوم بحزم كل صنوف المحن المريرة.

نعمة من الله هي تلك المرأة التي تعتمد على الرجل في ساعاته السعيدة، وتصير مأواه وسكناه في ساعات الشدة.. تلتف كالكرمة حول طباعه الخشنة وتحمى رأسه من السقوط، وتضم قلبه الكسير.

ذات مرة كنت أهنئ صديقًا لى امتلك أسرة ترابطت بعاطفة قوية، فقال بحماس:

-« ليس لي أن آمل لك فيما هو أفضل من أن تظفر بزوجة وأطفال.. لو كنت ثريًا شاركوك ثراءك، ولو لم تكن كذلك خففوا عنك.. لقد لاحظت أن الرجل المتزوج إذا ألم به سوء الحظ، أقدر من الرجل العزب على استعادة مكانته.. جزئيًا لأنه متأقلم على الكفاح بسبب ضروريات الحياة لهؤلاء الأحباء معدومي الحيلة الذين يعتمدون عليه.. والأهم أن هناك من يخفف عنه معاناته.. إن ثقته واحترامه بالنفس تتجدد من حقيقة أنه مهما كانت الحياة مذلة قاسية في الخارج، فإن في بيته مكانًا يمكن أن يجد فيه بعض الحب ويعامل كملك..

بينما الرجل العزب يمكن أن يتهدم بسرعة كبيت يتهاوى لأن أحدًا لم يسكن فيه.. »

هذه الخواطر تعيد للذهن قصة منزلية صغيرة كنت شاهدًا عليها. لقد تزوج صديقي الحميم (ليزلي) فتاة جميلة ذكية تربت بطريقة عصرية. لم تكن تملك ثروة.. هذا حقيقي.. لكن صديقي كان ثريًا وكان يحلم بأن يريها كل شيء جميل وغريب.. وقد قال لي:« سوف تكون حياتها كقصة خيالية من قصص الجنيات »

تناغمت اختلافات شخصيتيهما.. كان رومانسى الطابع وكانت هي مفعمة بالحياة والبهجة. ولقد لاحظت مرارًا الإعجاب الصامت الذي يرمقها به، وكيف وسط الإعجاب بها كانت عيناها تستديران له كأنها لا تطلب القبول والإعجاب إلا عنده، وحين تنحنى على ذراعه لتستند كان عودها الرقيق يتناقض بشكل جميل مع قامته الرجولية الفارعة. كانت ترمقه بمزيج من الفخر الرقيق.. لم يحدث من قبل أن انطلق زوجان شابان في درب الزواج المتكافئ المزهر مثلما حدث لهذين الزوجين.

كان من سوء حظ صاحبي أن جازف بضيعته في مضاربات كبرى، ولم يكن قد مر على زواجه أكثر من أشهر حتى انهالت عليه الكوارث وسلسلة من سوء الحظ، ففقد الضيعة ووجد نفسه في وضع شبه معدم. لفترة أبقى السر لنفسه وواجه الحياة بقلب محطم وسحنة مكفهرة، وصارت حياته ألمًا لا ينتهي لكن أكثر ما آلمه هو حاجته إلى إبقاء ابتسامته أمام امرأته. فما كان ليقدر على أن يؤذيها بهذه الأخبار. إلا أنها استطاعت أن ترى

بنظرة الحب الثاقبة أن هناك شيئًا ما على غير ما يرام.. لم تنخدع بمحاولاته السقيمة السخيفة للتظاهر بالسرور.

حاولت جاهدة بكل ما تملك من قدرات أن تعيده لجادة السعادة، لكن ما نجحت فيه هو أن غرست السهم أكثر في روحه. فكلما رأى حبها له كلما تعذب أكثر لفكرة أنه سيجعلها معدمة عما قريب.. إن هي إلا برهة وتختفى هذه البسمة عن هذا الوجه، وتفنى الأغنية، وسوف تثقل الهموم هذا القلب السعيد الذي يخفق بخفة في هذا الصدر، فيهوى لأسفل مثقلًا بهموم وتعاسة العالم.

ذات مرة جاءني وحكى لي موقفه في صوت قانط. فلما انتهى سألته:

- « هل زوجتك تعرف بهذا.. »

فانفجر في دموع غاضبة، وصاح:

- « بالله عليك.. لو كنت تشفق على بأي شكل فلا تذكر زوجتي.. إن التفكير فيها هو الذي يدفعني للجنون.. »

قلت:

- « ولم لا؟ سوف تعرف هذا عاجلاً أو آجلًا.. ليس بوسعك إبقاء الأمر سرًا.. لربما عرفت الأمر بشكل أقسى مما لو عرفته منك، لأن رقة من نحبهم تخفف عنا أعتى الدوامات.. أضف لهذا أنك تحرم نفسك من لطفها ورفقها بك.. بل إنك تهدد الرابطة الوحيدة التي تجمع القلوب ببعضها: علاقة الفكر والعواطف غير المتحفظة.. إذ سرعان ما تدرك هي أن شيئًا يضايقك بينما الحب الحقيقي لا يقبل التحفظات.. إننا نشعر

بقلة القيمة والإهانة عندما لا يسمح لنا بمعرفة أحزان من نحب.. »

- « يا صاحبي.. لكن أية ضربة سوف أوجهها لأحلام مستقبلها! سوف أهوى بروحها إلى الأرض إذ أخبرها أن زوجها صار متسولًا! أخبرها أن عليها أن تنسى كل مباهج الحياة الأنيقة، وكل مسرات المجتمع، لتغيب معي في الفقر والنسيان.. أخبرها أنني جذبتها من عالمها الذي كان بوسعها أن تحلق فيه للأبد ناعمة بالتألق والسعادة، عندما كانت نورًا لكل عين ونبع إعجاب كل قلب.. كيف يمكنها أن تتحمل الفقر؟ هي التي تربت على الترف.. كيف لها أن تتحمل الإهمال وهي التي كانت معبودة المجتمعات؟ سوف يحطم هذا قلبها.. »

رأيت أن حزنه بليغ فتركته ينساب.. لأن الأسى يجد راحته في الكلمات. فلما انتهت هذه النوبة وعاد لصمته الكئيب عدت أطرق الموضوع بلطف.. وألححت عليه في أن يخبر زوجته بالموقف. هز رأسه في حزن لكن بالإيجاب.

- « من الضروري أن تعرف وبهذا تتخذ الخطوات اللازمة لمواجهة الظروف المتغيرة، يجب أن تغير أسلوب حياتك.. لا تدع هذا يؤلمك.. أنا أعرف أنك لم تعتمد قط في سعادتك على المظاهر.. لديك أصدقاء.. أصدقاء مخلصون لن تنحدر في نظرهم لو أن منظرك أقل بهرجة.. ولست بحاجة لقصر كي تنعم بالحياة مع ماري»

صاح:

- « يمكنني أن أنعم بالحياة معها ولو في زريبة مكشوفة! يمكنني وأنا معها أن أتحمل الانحدار في الفقر والتراب..

فليباركها الله »

وبكى وغاب في حزن رهيف.

أمسكت بيده بحرارة وقلت:

- « صدقنى يا صاحبى.. سوف تفعل هي ذات الشيء معك.. بل سيكون هذا مصدرًا لفخرها وانتصارها.. سوف يستدعى هذا كل الطاقات الكامنة في طبيعتها.. ولسوف يسرها أن تعرف أنها تحبك لذاتك.. في قلب كل امرأة توجد نار ربانية تتوارى في ضوء الترف.. لكنها تتوهج وتشتعل في ساعات الضراء.. ما من رجل يعرف حقيقة المرأة التي في كنفه.. ما من رجل يعرف أي ملاك نبيل هي حتى يجرب معها محن هذا العالم المضطرمة.. »

كان هناك شيء في صدق تعبيرى وبلاغة كلماتي استطاع أن يستولى على مخيلة (ليزلي). كنت أعرف أي تأثير أحدثته في نفسه، فرحت أقنعه بأن يعود لداره ويتحرر من أعباء قلبه المثقل.

يجب أن أعترف برغم ما قلته فإنني شعرت بعض القلق بصدد النتيجة.. من يستطيع الاعتماد على تماسك إنسان كانت حياته حتى هذه اللحظة جولة بين المسرات؟ ربما تتمرد روحها المرحة على طريق الفقر المهين المظلم الذي صارت تراه فجاة أمامها.. إن الفقر والإفلاس كائنان غريبان على هذه الطبقة التي جاءت منها..

باختصار لم أستطع أن أقابل (ليزلي) في الصباح التالي من دون توجس. لقد أفشى لها السر.

- « وكيف تلقت الخبر؟ »

- « كأنها ملاك! بدا كأن هذا يريح عقلها، لأنها طوقتنى بذراعيها وسألتني إن كان هذا سبب تعاستى في الفترة الأخيرة؟ يا للفتاة المسكينة! إنها لا تتصور قدر التغيير الذي سوف يطرأ على حياتنا.. لا تعرف شيئًا عن الفقر إلا في صورة مجردة.. فقط قرأت عنه في الشعر.. لم تشعر بالحرمان بعد، ولا تشعر بأنها تفتقد مظاهر البهرجة.. فقط عندما نجرب الحرمان الحقيقي والإذلال سيكون هذا هو الامتحان الحقيقي.. »

قلت له:

- « لكن بما أنك قمت بالعمل الأصعب فمن الخير أن يعرف العالم كله بالخبر.. قد يكون كشف السر مؤلمًا.. لكنها تعاسة واحدة تنتهى سريعًا بدلًا من انتظارها في كل لحظة.. ليس ما يحرج الرجل المفلس هو الفقر ولكن الادعاء. الصراع بين عقل متغطرس وجيب خاو.. فلتملك الشجاعة كي تظهر فقيرًا أمام الناس.. جرد الفقر من لدغته.. »

وجدت أن (ليزلي) متأهب لهذه النقطة.. فلم يكن يحتفظ بكبرياء زائفة بهذا الصدد..

بعد أيام زارني ذات أمسية، وكان قد باع بيته وسكن في كوخ بسيط في الريف يبعد عن المدينة أميالًا. وقد قضى يومه يشحن ما بقى عنده من أثاث على الكوخ. لقد باع كل شيء ما عدا (الهارب) الخاص بزوجته.. لم يستطع بيع هذا لأنه يرتبط بها بشدة وبقصة حبهما.. من أعذب لحظات زواجه تلك اللحظات التي كان ينحنى فيها عليه ويصغى لغنائها العذب..

كان في طريقه للكوخ حيث كانت زوجته ترتب كل شيء.. كنت مهتمًا بمعرفة تطورات حياته الزوجية، وقد طلبت أن

أصحبه لداره بما أنها كانت ليلة معتدلة الطقس.

كان منهكًا بفعل مجهود النهار وإذ مشى للكوخ غرق في تأمل كئيب.

قال متنهدًا:

- »يا (ماري) المسكينة! »

سألته:

- « ماذا عنها؟ هل حدث لها شيء؟ »

قال وهو يلقى على نظرة نافدة الصبر:

-« هل من الهين عليها أن تسجن في كوخ حقير؟ أن تكدح في مسكنها الجديد الوضيع زرى الهيئة؟ »

- « وهل أنضجها هذا التغير؟ »

- « نضج؟ ليست إلا قطعة من العذوبة والمرح.. يبدو لي أنها في أفضل حالاتها المعنوية منذ عرفتها.. إنها كل الحب والحنان والراحة »

صحت:

- « فتاة جديرة بالإعجاب.. وأنت تعتبر نفسك مسكينًا.. أنت لم تكن بهذا الثراء من قبل يا صاحبي.. لم تعرف من قبل كم أن هذه الفتاة ممتازة بلا حدود.. »

- « آه.. لكن ليت اللقاء الذي سيتم في الكوخ ينتهي.. عندها سأشعر بالراحة.. لكن هذا أول يوم لها مع المعاناة الحقيقية.. هذا أول يوم تقضيه في ترتيب ذلك المتاع المزري.. للمرة الأولى

تجهد في العمل المنزلي، وللمرة الأولى تجد نفسها في بيت خال من أي شيء مبهرج بل من أي شيء ضروري.. لا بد أنها تجلس الآن منهكة تفكر في مستقبل الفقر الذي ستواجهه »

كان كلامه معقولًا جدًّا حتى أنني لم أستطع الاعتراض، ومشينا في صمت.

انحرفنا من الطريق الرئيس إلى زقاق ضيق، تحيط به الأشجار حتى لتعطيه جوًّا عامًّا من العزلة. ورأينا الكوخ.. كان متواضعـًا تمامـًا بالنسبة لما تتخيله القصائد الرعوية، لكن برغم هذا كانت له لمحة ريفية جميلة. لاحظت كذلك عدة أصص من الأزهار وضعت بشكل أنيق حول الباب والنافذة الزجاجية. وكان هناك باب صغير، واذ دنونا سمعنا صوت موسيقا فأمسك (ليزلى) بذراعي، وصمتنا وأصغينا.. كان هذا صوت (مارى) يغني بطريقة مؤثرة في بساطتها، ولطالما أغرم زوجها بهذه الطريقة.

شعرت بيده ترتجف في ذراعي.. ثم دخل ليصغى بشكل أوضح.. أصدرت قدماه صوتًا على الأرض المكسوة بالحصى، ونظر لنا وجه قسيم من النافذة ثم توارى..

سمعنا صوت خطوات وهرعت (ماري) تلقانا وقد ارتدت ثوبًا ريفيًّا أبيض أنيقًا، وهناك أزهار في شعرها.. لم أرها قط بهذه النضارة وتلك السعادة..

صاحت فيّ:

- « واعزيزى (جورج).. يسعدني أنك أتيت.. لقد ظللت أرتقبك.. لقد أعددت مائدة تحت شجرة في الزقاق خلف

الكوخ، وجمعت بعض الشليك (الفراولة) الشهية لأني أعرف أنك مغرم بها.. ولدينا قشدة ممتازة.. كل شيء رائع هنا.. »

وتأبطت ذراع زوجها، ونظرت في وجهه بحب..

لقد هزم ليزلي المسكين تمامًا، وضمها لصدره وعجز عن الكلام.. وإن تدافعت الدموع لعينيه. وفيما بعد قال لي إنه برغم أن أموره انتعشت فيما بعد فإنه لم يعش قط لحظة من السعادة الخالصة مثل هذه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجدت هذه القصة بين أوراق المرحوم (ديدرتش نيكربوكر):

في قلب واحد من تلك التجاويف الفسيحة الواقعة على الساحل الشرقي لهدسون، حيث يتسع النهر الذي أطلق عليه الملاحون الهولنديون (نابان زى)، وحيث كانوا بحصافة يطوون شراعهم ويطلبون عون القديس (نيكولاس).

عندما يعبرون تلك البقعة، توجد مدينة أو مرفأ حضرى يطلق عليه البعض اسم (جرينزبيرج) لكنه يسمى على الأكثر شيوعًا (المدينة القطرانية). قيل لنا إن هذا الاسم أطلقته قديمًا ربات البيوت في الريف المجاور، بسبب عادة أزواجهن أن يتسكعوا في حانة القرية في أيام السوق.

ليكن الأمر كذلك.. فأنا لست متأكدًا من هذه المعلومة لكنني أسجلها فحسب توخيًا للدقة والأمانة.

على مسافة غير بعيدة من القرية، ربما على بعد ميلين، يوجد واد صغير بين التلال العالية، وهو من أكثر أماكن العالم هدوءًا. هناك جدول صغير يمر عبره له خرير يكفي لجعلك تنعس.. فلا تجد صوتًا آخر إلا دقات نقار الخشب يخرق الصمت من حين لآخر.

أتذكر أنني في مراهقتي قمت بأول حملة صيد سناجب في بستان من أشجار الجوز يظلل جانب ذلك الوادي. كنت قد دخلته عصرًا وأثار دهشتي صوت طلقة بندقيتي التي حطمت

الصمت المقدس وطال صوتها وتردد بوساطة الأصداء الغضبي..

لو أنني حلمت يومًا بمأوى أتوارى فيه عن العالم وتفاهاته، وأحلم بعيدًا عن حياتي المضطربة، فلا أعرف موضعًا أفضل من هذا الوادي.

بسبب هذا الهدوء الخامل للمكان، وطبيعة سكانه الذين ينحدرون من أصول المستوطنين الهولندية الأولى، أطلق على هذا المكان المنعزل اسم (سليبي هولو) أي (الوادي النعسان).. وأطلق على سكانه اسم (صبية سليبي هولو)[1].. يبدو أن هناك تأثيرًا خاملًا حالمًا يسيطر على كل شيء ويغزو جو المكان. قيل إن المكان مسحور بفعل طبيب ألماني في أيام المستعمرة الأولى. قال آخرون إن زعيمًا هنديًّا أو ساحرًا كان يحتفظ بتعاويذه هنا قبل أن يكتشف السيد (هندريك هدسون) المكان.

المؤكد أن المكان ما زال يحتفظ ببعض القوى السحرية التي تسيطر على عقول البسطاء، مما يجعلهم يمشون في حالة حلم يقظة مستمر. إنهم يؤمنون بكل الخوارق ويمرون بالكثير من الرؤى ويرون مناظر غريبة ويسمعون موسيقا في الهواء.

إن الجيرة تعج بقصص محلية وبقاع مسكونة وإيمان بالخرافات.. هنا تطير النيازك وتسقط النجوم أكثر من أي مكان آخر في البلاد.. ويبدو أن الكوابيس تعشق هذه المنطقة كذلك.

إلا أن الروح المسيطرة على هذه البقعة المسحورة هي شبح بلا رأس يمتطي حصانًا.. يقال إنه شبح جندي من المرتزقة أطارت قذيفة مدفع رأسه في معركة مجهولة أثناء حرب

الاستقلال. ويقال إن الريفيين يرونه ينطلق في الظلام على حصانه كأنما يحمله جناحا الريح، وهو لا يظهر فقط في الوادي بل يرتاد الطرق المجاورة، خاصة قرب كنيسة ليست بعيدة عن هنا..

يزعم بعض الثقاة الذين يتحرون الدقة في مصادر معلوماتهم أن جسد المحارب مدفون في فناء الكنيسة.. ويزعمون أن الفارس يزور موقع المعركة ليلًا في بحث أبدى عن رأسه.

ويقال إن السرعة التي يعبر بها الوادي كأنه إعصار منتصف الليل تعود لكونه تأخر ويرغب في العودة إلى فناء الكنيسة قبل الفجر.

هذا هو ملخص القصة التي ألهبت خيال القصاصين في بقعة الظلال هذه.. والقصة تُحكى جوار كل مدفأة في البلاد.. حيث يطلقون على الشبح اسم (فارس سليبى هولو مقطوع الرأس)..

من الملاحظ أن الظواهر البصرية التي أحكى عنها ليست مقصورة على السكان الأصليين، لكنها تستقر في لا وعي أي شخص يقيم هناك لفترة من الوقت. مهما بلغت درجة تنبههم قبل دخول هذه المنطقة الناعسة، فلا بد أن يعبث بهم التأثير السحرى مع الوقت ويرون الأحلام والرؤى..

إننى لأذكر هذه البقعة الآمنة بالخير لأنه في هذه الوديان الهولندية الهادئة الواقعة على تخوم نيويورك، ظلت العادات ثابتة وسط طوفان الهجرة الذي لا يكف عن إحداث تغيرات متوالية في هذا البلد القلق.. إنه يمر بها فلا يلاحظه أحد.

إنهم أقرب إلى بقاع الماء الهادئ المجاورة لتيار سريع.. وبرغم أن أعوامًا عديدة قد مرت على منذ مشيت في ظلال (سليبي هولو) الناعسة، فإننى لأتساءل عما إذا كنت سأرى تلك الأشجار ونفس الأسر الغافية في ظلالها.

في هذا الموضع من الطبيعة وفي حقبة بعيدة من تاريخ أمريكا - حوالي ثلاثين عامًا -عاش رجل فاضل اسمه (إيشبود كرين)، عاش لفترة مؤقتة في (سليبي هولو) بغرض تعليم أطفال المنطقة. كان من سكان (كونكتيكت) الأصليين، وهي مدينة طالما أمدت الاتحاد الأمريكي برواد الفكر كما أمدته برواد الغابات.. إنها تصدر كل عام أبناءها من حطابي الحدود والمعلمين.

وكان لقب (كرين) لا يناسب شخصه.. كان فارع الطول لكنه نحيل ضيق الكتفين وله يدان تتدليان أميالًا من كميه حتى تصلحا جاروفين.. وكنت تشعر أن مظهره لا يتفق مع بعضه. كان رأسه صغيرًا مسطحًا وله أذنان عملاقتان وعينان خضراوان زجاجيتان، وله أنف غريب حتى ليبدو كأنه ذلك الديك الذي يقف على مغزل ليحدد اتجاه الريح. إن تراه يمشى جوار الجبل في يوم عاصف وثيابه تتطاير من خلفه، فلربما حسبته مجاعة هبطت على الأرض أو فزاعة فرت من حقل قمح.

كانت مدرسته بناية وطيئة بها غرفة واحدة كبيرة من ألواح الخشب، وقد غطيت النوافذ بأوراق من الكتب القديمة. وكان يغلقها في أوقات العطلة بطريقة تتيح للص أن يدخل بسهولة لكنه سيجد عسرًا في الفرار. وهي فكرة غريبة خطرت للمهندس المعماري (يوشت فان هاوتن)..

كانت المدرسة تقع في منطقة مقفرة لكنها جميلة، أسفل تل تكسوه الغابات وثمة نهير يجرى قربها وشجرة بتولا هائلة الحجم إلى جانبها. من هنا يمكن أن تسمع صوت غمغمة التلاميذ وهم يطالعون كتبهم في يوم صيف خمول، فكأنه أزيز النحل في خلية.

يقاطع هذا الصوت من حين لآخر صوت السيد الآمر بلهجة تهديد أو أمر.. أو صوت عصاه المرعب وهو يلاحق أحد التلاميذ المتسكعين على طريق المعرفة المزهر. الحقيقة أنه كان رجلًا حي الضمير وكان يحمل في ذهنه دومًا الحكمة الذهبية: « تخل عن العصا يفسد الطفل ».. وبالتأكيد لم يفسد أي واحد من تلاميذه.

على كل حال لم أتصوره قط كواحد من نظار المدارس القساة الذين يجدون سعادة فيما يقومون به، بل على العكس كان يطبق العدالة بتمييز ويرفع العبء عن ظهور الضعفاء من طلابه، ويضعه على الأقوياء منهم. وكان يتبع عقابه دومًا بأن يطمئن الصبى المراهق بأنه سيتذكر هذا العقاب ويشكره عليه.

وحينما كانت ساعات المدرسة تنتهى، كان هو رفيق لعب وصاحب الأولاد الأكبر سنًّا.. وفي عصر الإجازات كان يوصل الصغار سنًّا لبيوتهم خاصة من لهم أخوات جميلات أو لهم أمهات طيبات يحتفظن ببعض ما لذ وطاب.

في الحقيقة كان عليه أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع تلاميذه، لأن دخل المدرسة كان قليلًا، ولا يكاد يفي باحتياجاته اليومية من الخبز.. فقد كان شرهًا وبرغم نحوله كانت له قدرة ثعبان (الأناكوندا) على البلع. وطبقًا لعادة الريف في هذه الأصقاع كان

يدعى للطعام في بيوت الصبية الذين يعلمهم. بل كان يدعى للإقامة أحيانًا لمدة أسبوع، فكان يذهب هناك وقد جمع كل ممتلكاته الدنيوية في منديل قطني.

لم يكن هذا يسبب عبئًا كبيرًا على جيوب الريفيين البسطاء حتى لو اعتبروا مصاريف المدرسة مرهقة والناظر عالة عليهم، فقد كان يعرف كيف يكون مفيدًا ومقبولًا.

كان يساعد الفلاحين في أعمال الفلاحة السهلة، ويكوم معهم القش ويصلح الأسوار ويأخذ الخيول للماء، ويقود الأبقار من مراعيها، ويقطع الأخشاب للمدفئة.

كان كذلك يزيح جانبًا كل الكبرياء الذي يتعامل به في مملكته الصغيرة.. المدرسة.. ويصير لطيفًا بطريقة مدهشة. كان يكسب رضا الأمهات عن طريق تدليل أطفالهن، وخصوصًا أصغرهم.

وكما يفعل الأسد مع الحمل، كان يضع صبيًا على حجره أو يهز مهد رضيع بقدمه عدة ساعات متواصلة. بالإضافة لمواهبه الأخرى كان يقود الصبية أثناء غناء المزامير فينال شلنات كثيرة براقة.

وكان يحب أيام الآحاد أن يجلس أمام الكنيسة مع فريق من الصبية المختارين، حيث ينجح تمامًا في أن ينتزع سعف المجد من خوري الكنيسة. وكان صوته هو الأعلى أثناء الغناء، وكنت تسمع تهدجه المميز ربما على مسافة نصف ميل في صباح أحد هادئ..

هكذا بمزيج من المراوغة والتحايل استطاع هذا المربي الفاضل أن يعيش..

كان الناظر ذا قيمة ما بالنسبة للفتيات في الجيرة، باعتباره رجلًا مهذبًا ذا ذائقة عالية ويختلف عن عشاق الريف الخشنين، وكانوا يعتبرونه الشخص الوحيد الذي يلي خوري الكنيسة في العلم.

لهذا كان ظهوره يسبب اضطرابًا على موائد الشاي في المزارع.. ومن أجله كانت توضع صحون إضافية من الحلوى والكعك أو ظهور براد شاى فضى بالصدفة.

لهذا كان رجلنا ينعم بابتسامات كل آنسات الريف. ولهذا كان يظهر بينهن في ساحة الكنيسة ويجمع لهن العنب من الكروم البرية التي تلتف حول الأشجار، ويسمّع عن ظهر قلب كل المكتوب على شواهد القبور لتسليتهن. أو يمشى الهويني مع سرب منهن على ضفاف البركة بينما تمشى الخجولات منهن في وداعة في مؤخرة الموكب، ويحسدن من تفوقهن ذكاء وجرأة..

كانت حياته مليئة بالحركة من مكان لآخر لذا كان مجلة متنقلة تحوى كنزًا من الشائعات والقيل والقال من بيت لبيت.. ولهذا كان مرآه يبعث الرضا في النفوس. وكانت النسوة يعتبرنه رجلًا واسع العلم خبر العالم، وكان يفهم كتاب (كوتون ماثر)[2] المدعو (تاريخ السحر في نيو إنجلند) الذي كان يؤمن بأكثر ما كتب فيه.

في الواقع كان خليطًا من السذاجة والخبث.. وكانت له شهية مذهلة لكل ما هو غير عادي وقدرة عجيبة على هضمه، وقد نمت الموهبتان نتيجة حياته في هذه البقعة المسحورة. لم تكن هناك قصة غريبة أكثر من اللازم على ملكة تصديقه.. وكان مما يسره بعد انتهاء ساعات الدرس أن يستلقي على العشب المحيط ببناية المدرسة ويدرس بدقة حكايات (ماثر) القديمة المخيفة حتى يجعل الغسق الصفحة مجرد ضباب أمام عينيه. ثم يخترق المستنقع والغابة قاصدًا بيت الفلاح الذي يؤويه، بينما يداعب خياله كل صوت من الطبيعة في هذه الساعة المسحورة. صيحة ضفدع الأشجار ونذير العاصفة ونعيق البومة.. وصوت أجنحة الطيور الخائفة في أعشاشها.. وذباب النار الذي يضيء بقوة حيث يوجد ظلام، كل هذا كان يثير توتره.. وعندما تأتى خنفسة حمقاء محلقة نحو وجهه فإن المسكين كان يوشك على الاستسلام معتقدًا أن ساحرة تضع علامتها عليه.

كانت طريقته الوحيدة للشعور بالحماية هي أن يغنى مزامير داود، فكان أناس القرية الطيبون يرتجفون وهم جالسون على عتبات بيوتهم إذ يسمعونه يترنم بصوت أخنف عبر الهضبة البعيدة.

من المصادر الأخرى لمتعه المفزعة كان أن يمضى ليالي الشتاء الطويلة مع العجائز الهولنديات إذ يجلسن يطرزن جوار النار، مع تفاح يشوى على المدفأة.. ويصغى لقصصهن عن الأشباح والعفاريت. عن البيوت المسكونة والبحيرات المسكونة والجداول المسكونة والغابات المسكونة.. وبخاصة قصص

الفرسان مقطوعي الرءوس أو (مرتزق هولو الراكض) كما كن يسمينه.

بالمثل كان يسعدهن بقصصه عن الساحرات والعلامات المقلقة والأصوات التي عرفتها أيام (كونكتيكت) الأولى. ويخبرهن بتفاصيل عن النيازك الهاوية وبالحقيقة المفجعة أن العالم يدور حول نفسه، وأنهن يقضين نصف حياتهن مقلوبات لأسفل!

على أنه مهما بلغت متعة هذه الاجتماعات فإن هذه المهمة كانت تتبدد أثناء رحلة العودة لبيته في الظلام.. كم من أشباح مخيفة كانت تعترض طريقه وسط الضوء الشبحي الغامض لليل الشتاء! كم من ضوء غريب جاء من نافذة لا يعرف مكانها! كم من مرة أثار هلعه جذع شجرة كساها الثلج اعترض طريقه كأنه عفريت ملتف في ملاءة!! لكم ارتجف ذعرًا من صوت خطواته على قشرة الجليد!

يخشى النظر إلى ما وراء كتفه حتى لا يرى كينونة غريبة تدنو منه ..

ولكم أثار هلعه صوت الريح من خلفه معتقدًا أن هذا هو (مرتزق هولو الراكض) في غزوة من غزواته الليلية!

كل هذه كانت مخاوف ليلية.. أشباح عقل يمشى في الظلام.. وبرغم أنه رأى الكثير من الأشباح في حياته ورأى الشيطان في أكثر من شكل، إلا أن ضوء النهار كان ينهي هذه الشرور جميعًا.. وكان بوسعه أن ينعم بحياته برغم الشيطان وكل مخلوقاته، لو لم يعترض طريقه كائن أشد خطرًا على الفانين من الأشباح والعفاريت وكل جنس الساحرات.. هذا الكائن كان امرأة..

بين طالبات الموسيقا اللاتي يحتشدن ليلة الأحد كل أسبوع كي يتلقين تعليمات إنشاد المزامير، كانت (كاترينا فان تاسل).. الابنة الوحيدة لمزارع هولندي ثرى. كانت في الثامنة عشرة نضرة متوردة الخدين كأنها خوخة في بستان أبيها.

كانت شهرتها واسعة ليس لحسنها فقط بل لثروتها، فقد كانت غنوجًا في ثوبها الذي يجمع بين الطراز العتيق والموضة الحديثة، وكانت تتزين بذهب خالص جلبته جدة جدتها من (سار)..

كان (إيشبود كرين) يملك قلبًا ساذجًا مرهفًا نحو الجنس الآخر، فلا عجب أن الحسناء راقت له على الفور.. خاصة بعد ما زار بيت أبيها..

كان (بالتوس فان تاسل) العجوز نموذجًا لفلاح طلق لطيف الطباع راض عن الدنيا، لكنه لم يرسل عينيه أو عقله قط خارج حدود مزرعته.

كان راضيًا عن ثروته لكنه ليس فخورًا بها.. وكان حصنه يقع على ضفاف نهر (هدسون) في واحد من تلك الأماكن الخضراء الظليلة التي يولع بها الفلاحون الهولنديون. كانت شجرة دردار ترسل ظلالها فوق البيت، وعلى مستوى منخفض منه نافورة تتصاعد منها المياه العذبة، وجوار البيت كان مخزن حبوب يمكنه أن يفي بحاجات كنيسة كاملة.. وقد بدا أن كل باب ونافذة فيه يوشك على الانفجار بكنوز المزرعة. وكانت آلة الدريس تعمل بلا انقطاع من الصباح للمساء..

من حين لآخر ترى صفوفًا من الحمام ومن الإوز الأبيض كالثلج يسبح في بركة قريبة، والديكة الرومية تجول عبر فناء

المزرعة. بينما يتململ دجاج (غينيا) كأنه حشد من زوجات ملولات.. وعلى باب الجرن يقف ديك عملاق بتلك الوقفة التي هي مزيج من زوج ومحارب وسيد مهذب يؤذن في غرور ورضا عن النفس.. ثم ينادى زوجاته وأطفاله في كرم نفس كى يستمتعوا باللقمة التي اكتشفها.

كان لعاب المربي الفاضل يسيل وهو ينظر لكل هذا الثراء، وراح يتخيل كل خنزير يراه مشويًا وقد امتلأت بطنه بالسجق، ووضعت تفاحة في فمه، والحمام قد أخلد للنوم وغطى بالخبز، والبط يتزاوج مستريحًا في الأطباق وسط الكثير من عصيدة البصل..

كان (إيشبود كرين) يتخيل هذا كله، وكان يقلب عينيه الخضراوين في المروج الثرية وحقول القمح والشعير وبساتين الفاكهة التي تحيط ببيت (فان تاسل).. وفي الوقت ذاته يرتجف قلبه حنينًا للآنسة التي سترث كل هذا. يحلم بتحويل كل هذه الثروات إلى مال يتم استثماره في الأراضي البرية.. وتخيل عربة تجلس عليها كاترينا مع أطفالها بينما يتقدم هو الركب بجواد مطهم قاصدًا كنتكي أو تنيسى أو يعلم الله أين!

حين دخل البيت رآه مترفًا مفروشًا على طريقة المستوطنين الهولنديين الأوائل.. كل شيء كان ثريًا يعد بإمكانات هائلة... لكن سلامه النفسي تلاشى ولم يعد يفكر إلا في السبيل للفوز بابنة (فان تاسل) التي لا نظير لها.. لكن الصعاب التي كانت في طريقه كانت تفوق تلك التي واجهت فارس الأساطير الذي لم تكن لديه مشاكل إلا مواجهة العمالقة والسحرة والتنانين وغيرهم من الخصوم سهلي الهزيمة، وكان عليه اجتياز بوابات من الحديد

والنحاس حتى يصل للقلعة، حيث سجنت حبيبته.. كل هذا حققه بالسهولة التي يقطع بها المرء كعكة رأس السنة.. وبالطبع أعطته الحسناء موافقتها كشيء مفروغ منه. بالنسبة ل-(إيشبود) كان عليه أن يصل لحسنائه عبر غابة من الدلال والنزوات هي دائمًا غاية في الصعوبة والتعقيد، وعليه أن يواجه منافسين حقيقيين من لحم ودم. كل المعجبين الذين يحاولون اقتحام قلبها ويراقبون بعضهم البعض بحذر.. ويمكن أن يتحدوا في أية لحظة إذا ظهر منافس جديد.

بين هؤلاء كان أكثرهم شناعة واحد يدعى (إبراهام) أو حسب الاختصار الهولندي (بروم فان برونت).. بطل الريف الذي تدوى أخبار قوته وبطولاته.. كان عريض الكتفين مرن الجسد له شعر أسود قصير مجعد، وله مظهر ضاحك متعجرف جعل الناس يطلقون عليه (بروم بونز).. كان شهيرًا ببراعته في الفروسية يسيطر على الحصان كأنه من التتار.. كان الرابح في كل سباق خيول وكل مصارعة ديكة، وهو الفائز في كل مشاجرة بقوته الجسدية. كان متأهبًا في أي وقت للمشاجرة أو حفلات السمر لكنه لم يكن سيئ النية، وكان ثمة نوع من الظرف في خشونته. معه ثلاثة أو أربعة من الأتباع الذين يتخذونه نموذجًا لهم.. ويجوبون الريف بحثًا عن أية فرصة للشجار أو المرح.

وفي البرد كنت تميزه بقلنسوة صوفية يتدلى منها ذيل ثعلب يراها الناس من بعد. وكان بوسعك أن تسمع حوافر خيولهم خارج المزرعة ليلًا وهم يتصايحون كأنهم ركب من (الدون كيشوتات).. فكانت النسوة يصحون من نومهن وينتظرن حتى يخفت الضجيج فيقلن:

- « آه.. هذا (بروم بونز) وعصابته! »

وكان الجيران ينظرون له بمزيج من الرهبة والإعجاب وحسن النية.. وعندما تحدث أية عركة في الجوار كانوا يهزون الرءوس ويؤكدون أن (بروم بونز) طرف فيها.

اختص هذا الرجل (كاترينا) لفترة بتودده الأخرق الفظ، وبرغم أن ملاطفاته كانت أقرب إلى ملاطفات دب، لكن كان يقال همسًا أنها لم تخذل آماله تمامًا..

بالطبع كانت ملاطفاته وعروضه إشارات للمنافسين كي يتراجعوا، ولما رأى الناس حصانه مسرجًا إلى سياج مزرعة (فان تاسل) في ليلة أحد، أدركوا بما لا يقبل الشك أن سيده يطارح الفتاة الغرام.. فانصرف الحالمون في قنوط وانطلقوا للحرب في جبهات أخرى.

كان هذا هو الخصم الرهيب الذي يجب على (إيشابود) أن يواجهه.. وبالنظر إلى الموقف نجد أن رجلًا أشجع منه كان سيجبن من المنافسة، ورجلًا أعقل منه كان سييئس.. لكنه كان بطبعه خليطًا من المرونة والمثابرة وكان قادرًا على الانحناء لكنه لا ينكسر أبدًا. ينحنى مع الضغط لكن إذ يزول هذا يستقيم ويشمخ برأسه.

كان من الجنون أن يقف في الميدان بوضوح أمام منافسه، لهذا راح يدبر خططه في هدوء وخلسة.. وبصفته مدرس غناء راح يزور المزرعة بانتظام، وإن لم يشكل له الأبوان مشكلة لأن (فان تاسل) كان رجلًا بسيطًا يحب ابنته ربما أكثر من غليونه، وكان يسمح لابنته بحريتها. وكان لدى زوجته أعباء كافية في أعمال البيت والعناية بالدواجن، وكانت تقول إن الإوز والدجاج

كائنات حمقاء لابد من مراقبتها، بينما الفتيات كائنات عاقلة يمكنها العناية بنفسها. لهذا كان (إيشابود) يأخذ راحته عند شجرة الدردار أو يمشى مع الفتاة في وقت الغسق تلك الساعة المفضلة لدى العشاق.

أعترف أنني لا أعرف كيف يفوزون بقلوب النساء، فلطالما اعتبرت هذه الأمور ألغازًا جديرة بالإعجاب. يبدو أن لكل امرأة بابًا أو نقطة ضعف، وبعضهن لهن ألف طريق.. من الممتع دائمًا أن تصل إلى الطراز الأول لكن المثير للإعجاب فعلًا أن تحتفظ بالطراز الثاني، لأن الرجل يجد عليه وقتها أن يدافع عن كل باب وكل نافذة في قلعته الحصينة. إن الرجل الذي يسيطر على قلب امرأة لعوب لهو بطل بمعنى الكلمة.

كان (بروم بونز) يملك نوعًا من الفروسية في طباعه لذا كان يسره أن يحيل الأمور حربًا، ويدخل معركة الفوز بالحسناء على طريقة الفرسان البسيطة.. القتال، لكن (إيشابود) كان يدرك قوة منافسه الهائلة بحيث لا يدخل مواجهة معه.. لم يترك هذا من سبيل للمواجهة لدى (بروم) إلا عن طريق المقالب الصبيانية السخيفة التي يمارسها مع عصابته. سدوا مدخنة المدرسة لتملأ المكان بالدخان.. اقتحموا المدرسة ليلًا وقلبوا كل شيء.. حتى حسب المدرس المسكين أن كل ساحرات البلاد اجتمعن هنا ليلًا.

الأسوأ أن (بروم) سخر من خصمه أمام حسنائه، وعلم كلبه أن ينقض عليه أثناء درس إنشاد المزامير.

وفي عصر خريف جميل، جلس (إيشابود) متأملًا في مقعده المعتاد وفي يده مقرعة.. رمز قوته الاستبدادية. الرعب الأزلى

للخطاة. وأمامه الممنوعات التي صادرها مثل تفاحة قضم نصفها وبنادق فلين ودوامات.. يبدو أنه قام بمهمة تطهيرية لأن الصمت كان سائدًا في الصف.. فجأة قطع هذا الهدوء دخول زنجي صغير يلبس قبعة مهلهلة، وكان يحمل دعوة لحضور حفل هذه الليلة في دار (فان تاسل).. سلمه إياها ثم انطلق يجري مبتعدًا وكله فخر بأهميته.

ساد الصخب والهرج الصف الهادئ.. عكف الكل على إنهاء دروسه بسرعة وطارت الكتب بدلًا من أن توضع على الأرفف وانقلبت المناضد وزجاجات الحبر وأطلق سراح الطلبة قبل الموعد بساعة. فخرجوا يتصايحون مهللين فرحين بتحررهم المبكر.

قضى إيشابود نصف ساعة إضافية في الحمام ينفض أفضل سترة عنده الوحيدة في الواقع ويتجمل في مرآة مهشمة معلقة في بناية المدرسة. أراد الظهور أمام فتاته كفارس حقيقي، لذا استعار حصانًا من فلاح هولندى عجوز غضوب اسمه (هانز فان ريبر).. هكذا انطلق في عظمة كأنه فارس يبحث عن المغامرات. أجد على أن أصف متاع هذا الفارس العظيم لذا أقول إن الحصان الذي كان يركبه كان حصان محراث مكسور الساق.. هزيلًا له رأس يشبه المطرقة وله عين فقدت قرنيتها.. أما الأخرى فكان فيها بريق الشياطين. وكان يحمل اسم (البارود) فلا بد أن تاريخه كان ناريًا.. لقد كان المفضل لدى سيده (فان ريبر) الذي كان سيئ الطبع في الركوب، فلا بد أنه بث بعض هذه الروح في الحيوان. لقد كان فيه من روح الشيطان أكثر من أي حصان آخر أصغر سنًا في الريف.

كان (إيشابود) مناسبًا لهذا الحصان.. كان مرفقاه يبرزان كأنهما نطاطا غيط.. وكان يلوح بالسوط كأنه صولجان، وإذ ركض الحصان بدا كأن ذراعيه أقرب لرفرفة الجناحين. بينما عباءة (إيشابود) تطير وراءه حتى تبلغ ذيل الحصان.. كان هذا هو المنظر الذي غادر به مزرعة (فان ريبر) وهو منظر قلما تراه في ضوء النهار.

كان يومًا جميلًا كما قلنا، وكانت الحقول خليطـًا من اللون الذهبي والأخضر الذي اعتدنا أن نربطه بمعنى الوفرة.. جعل هذا المشهد (إيشابود) يحلم بالزلابية المليئة بالزبد والمدهونة بالعسل من يد (كاترينا فان تاسل) الصغيرة ذات الغمازات.

وصل إلى المزرعة في المساء، وقد ازدانت بالأزهار على طريقة الفلاحين المسنين في التفاخر، وكان عدد من الريفيين هناك بأناقتهم الريفية المبهرجة. لكن (بروم بونز) كان ملك الحفل.. فقد جاء للحفل على جواده المطهم الشرس (دير ديفل) وهو مخلوق يشبهه مفعم بالهمة وسوء الطبع، فلا يجسر أحد على التعامل معه سواه. كان مولعًا بالخيول الخبيثة التي تجعل الراكب لا يطمئن على عنقه، لأنه كان يعتبر الخيول المطيعة غير جديرة بالفرسان.

لن أصف المباهج التي رآها بطلنا عندما دخل إلى منزل (فان تاسل).. كل الحسناوات الممتلئات بثيابهن الحمر والبيض، والشاي الذي يقدم مع حلوى شهية لا تعرف أسرارها إلا ربات البيوت الهولنديات. كعك زنجبيل وكعك بالعسل وكعك بالبندق ثم فطير التفاح وفطير الخوخ، وشرائح اللحم المدخن

دعك من السمك والدجاج المشوى. دعك من الوعاء الكبير الذي يرسل أبخرته الودود في هواء القاعة..

أحتاج إلى كثير من الوقت والأنفاس كي أصف هذه المأدبة كما تستحق، بينما أنا متلهف على استكمال قصتي. من حسن حظ (إيشابود) أنه لم يكن ضيق الوقت مثل راوي قصته، لذا أعطى كل طبق حقه.

كان شخصًا بسيطًا حسن الطباع ممن يتسع قلبهم عندما يأكلون الطعام الطيب، مثلما يحدث لآخرين عندما يعاقرون الشراب. لم يستطع أن يمنع نفسه أثناء الأكل من النظر حوله، وراح يفكر في احتمال أن يصير يومًا ما هو سيد كل هذا المشهد المترف المبهرج.

وراح يفكر في اليوم الذي يترك فيه مبنى المدرسة العتيق، ويتخلص من (فان ريبر) وكل البخلاء الذين أحسنوا إليه ويطرد كل معلم يجرؤ على أن يناديه ب-(زميلي)!

كان (فان تاسل) يمشى بين ضيوفه بوجه جعله الرضا والمرح كأنه البدر. وكان يكتفي بهز رأسه وضربة على الكتف ثم يدعوهم لأن (يخدموا أنفسهم ويأخذوا راحتهم).

ثم تعالى صوت الموسيقا من الصالة تدعو الموجودين للرقص، وكان العازف زنجيًا أشيب ظل قائد أوركسترا الجيرة لنصف قرن. انطلق (إيشابود) يرقص ويتطوح في براعة حتى صار محط إعجاب الزنوج جميعًا أولئك الذين جاءوا من القرى المجاورة، وشكلوا هرمًا من الوجوه السود تنظر بانبهار للمشهد من النوافذ، مظهرين صفوفًا من الأسنان البيض اللامعة من أذن لأذن. كيف لجلاد الصبية هذا أن يكون أقل مرحًا بينما

فاتنته ترقص معه؟ وقد جلس (بروم) في ركن وحيدًا يشتعل غيرة وكمدًا.

ثم إن (إيشابود) وقد انتهي الرقص جلس مع الرجال الأكبر سنًّا الذين جلسوا يدخنون ويتكلمون عن الحرب.. فقد كانت هذه المنطقة من أغنى المناطق وبالتالي كانت مأوى لكل الفارين من الحرب ورعاة البقر. وكانت ذكريات الحرب قد ابتعدت بما يسمح لكل واحد منهم أن يضيف من خيالاته الخاصة على قصته ويعيد سردها بعد أن يصير بطلًا.

لكن هذه القصص لم تكن تعد شيئًا جوار قصص الأشباح التالية.. إن الأشباح لا تجد فرصة طيبة أو تشجيعًا في الريف، لأنه ما إن ينزل الميت إلى قبره ويقرر شبحه الخروج من القبر ليخيف الأحياء حتى يجد أن من يعرفونه قد رحلوا لأرض أخرى.. لهذا لا يجد شخصًا يعرفه.. لكن قصص الأشباح تزدهر في هذه الأراضي الهولندية حيث لا يرتحل الناس إلا نادرًا.

إلا أن أهم الأسباب كان قرب المنطقة من (سليبي هولو).. ثمة شيء معد في هذه البقعة ينفث الأحلام والأوهام في الناس. كان هناك كثيرون من (سليبي هولو) في هذا الحفل لذا راحوا يحكون عن أصوات النحيب التي تدوى حول الشجرة العتيقة.. البعض تكلم عن المرأة ذات الثوب الأبيض التي تسكن واديًا صغيرًا منعزلًا في (صخرة الغراب). وهي تبكي في وقت العواصف الثلجية لأنها ماتت وسط الجليد.

إلا أن أكثر القصص دار حول الفارس مقطوع الرأس.. والذي يسمعونه يركض بجواده ليلًا جوار شواهد القبور في الكنيسة. وقد حكى عنه (بروفر) العجوز الذي لم يكن يؤمن بالأشباح،

لكنه قابل الفارس عائدًا من (سليي هولو)، وقد راح يطارده عبر الغابات والمستنقعات، حتى بلغ الجسر.. هنا استحال الفارس مقطوع الرأس هيكلًا عظميًا وألقى ب-(بروفر) العجوز في البركة ثم طار فوق قمم الأشجار محدثًا صوت رعد.

كانت لدى (بروم بونز) قصة أكثر غرابة ثلاث مرات.. لقد قابل الفارس في منتصف الليل ولما كان يعتبره مهرجًا فقد راح يتسابق معه، لكن الفارس اختفى بحصانه كأنه نار انطفأت.

حكيت هذه القصص بتلك النغمة الخفيضة الخافتة التي يتكلم بها الرجال في الظلام، مع سحنات المستمعين التي تتبدى للحظة كلما جذب أحدهم أنفاس غليونه.. هذا كله أثر على (إيشابود) الذي حكى لهم مقتطفات من مؤلفه الذي لا يقدر بمال (ماثر).

انتهى المرح فبدأ الفلاحون يجمعون عائلاتهم في العربات، ولفترة كنت تسمعهم وهم يبتعدون عبر التلال البعيدة.. صوت الفتيات يضحكن مع حوافر الخيل يخفت ويخفت حتى يغيب..

تأخر (إيشابود) وحده كعادة عشاق الريف.. كي يتبادل كلمات هامسة مع مليكته، موقنًا أنه الآن على الطريق الصحيح للنجاح.

لا أستطيع أن أقول بصراحة ما قيل في هذه المحادثة لأنني لا أعرف.. فقط أخشى أن شيئًا خطأ قد حدث، لأنه رحل ولم يمض وقتًا طويلًا..

يا لهؤلاء النسوة! هل كانت الفتاة تتلاعب به ممارسة حيلها اللعوب؟ هل كان تلطفها معه مجرد وسيلة للوصول إلى قلب منافسه؟ الله وحده يعلم.. ليس أنا!

كل ما أعرفه أن (إيشابود) رحل دون أن ينظر يمينًا أو يسارًا إلى الثراء الذي كان يحلم به.. اتجه للإسطبل وببضع ركلات من القلب أيقظ جواده من حيث كان ينام يحلم بجبال من القمح ووديان من البرسيم.

تلك كانت أكثر ساعات الليل المسحورة عندما عاد (إيشابود) لبيته عابرًا التلال التي ترتفع فوق (مدينة القطران) والتي عبرها سعيدًا عصر اليوم. كانت ساعة كئيبة مثله..

في هذه الساعة كان بوسعه سماع نباح الكلاب من الضفة الأخرى لنهر (هدسون)، لكنه خافت جدًّا يخبرك فقط كم هو بعيد عن هذا الرفيق المخلص للبشر. من حين لآخر يصحو غراب صدفة ويصيح لكنه كان كصوت الحلم في أذنيه. لم تكن قربه علامات على الحياة، فيما عدا صوت نطاط غيط أو ضفدع من مستنقع قريب.

الآن جاءته كل قصص الأشباح التي سمعها مساء لتتزاحم في ذهنه. ازداد الليل حلكة وبدا كأن النجوم تغوص في السحاب. لم يشعر قط بالوحدة لهذا الحد دعك من أنه اقترب من المكان الذي دارت فيه أكثر قصص الأشباح، فهنا شجرة تيوليب عالية تبدو كعلامة. كانت غصونها غليظة حتى لتصلح جذوعًا لأشجار أخرى، وكانت هناك قصة عن (أندريه) التعس الذي اعتقل عندها فأطلق عليها الفلاحون اسم (شجرة ميجور أندريه)، وكان الفلاحون يرمقونها بمزيج من التطير والاحترام، من

ناحية شفقة على ما حدث لضحيتها ذي الحظ العاثر، ومن ناحية أخرى بسبب القصص الرهيبة المرتبطة بها.

إذ دنا (إيشابود) من هذه الشجرة المخيفة، بدأ يصفر.. وخيل له أن هناك من يجيب عن هذا الصفير.. وإذ دنا أكثر خيل له أن شيئًا أبيض يتدلى من بين الغصون.. توقف وكف عن الصفير.. لما دنا أكثر رأى أن هذا مكان ضربه البرق فتعرى الخشب الأبيض.

فجأة سمع أنينًا فاصطكت أسنانه.. لكن لم يكن هذا سوى غصن يحتك بآخر إذ يؤرجحهما النسيم.. عبر الشجرة في سلام لكن مخاوف أخرى كانت تنتظره.

على بعد مائتي ياردة كان جدول صغير يخترق الطريق عابرًا إلى مجرى صغير يطلقون عليه اسم (مستنقع ويلي).. وقد وضعت بضعة ألواح خشبية لتكون جسرًا فوق هذا الجدول.. على جانب الطريق حيث يدخل الجدول المستنقع توجد أشجار بلوط تلقى ظلالًا موجسة.. في هذا المكان بالضبط اعتقل (أندريه) التعس.. وفي هذه الظلال تواري رجال الحرس البريطاني الذين اعتقلوه، منذ ذلك الوقت اعتبر هذا الجدول مسكونًا وكان التلاميذ يخافون عبوره بعد حلول الظلام.

إذ مر بالجدول اتخذ قراره وركل الحصان في ضلوعه، واندفع لعبور الجدول لكن الحيوان المشاغب بدلًا من الاندفاع للأمام تحرك جانبًا وجرى نحو السور.

ركله (إيشابود) نافد الصبر بقدمه الأخرى لكن هذا كان بلا جدوى.. لقد اندفع الجواد إلى جانب الطريق وسط غابة كثيفة من الأحراش.. راح الناظر يوجه الضربات لضلوع (البارود)

العجوز الذي اندفع للأمام، ثم توقف عند الجسر فجأة حتى كاد يوقع راكبه على رأسه.

هنا سمعت أذنا (إيشابود) الحساستان صوتًا على جانب الجسر.. وفي ظل الأيكة رأى شيئًا عملاقًا مشوهًا بارزًا.. لم يتحرك هذا الشيء لكنه بدا متربصًا في الظلام.. كأنه وحش عملاق يوشك على الانقضاض..

انتصب شعر المعلم رعبًا.. ماذا يفعل؟ هل يستدير ويهرب؟ تأخر الوقت.. ثم ما فرصته في النجاة من شبح؟ عفريت يمكنه ركوب جناحي الريح..

استجمع شجاعته وصاح:

- « من أنت؟ »

لم يتلق إجابة. أعاد السؤال بصوت خائف، لكن لا إجابة.

أغمض عينه وأخذ ينشد أحد المزامير بحماس لا شعورى، هنا تحرك ذلك الظل المخيف. ووثب إلى منتصف الطريق.

وبرغم أن الظلمة كانت حالكة، إلا أنه يمكن إدراك شكل هذا المجهول. بدا فارسًا عملاقًا يركب على صهوة حصان أسود ضخم، لم يبد علامة تدل على العدوانية ولا على الصداقة.. فقط ظل يمشي على جانب الطريق جوار (بارود) الذي بدأ ينتصر على ذعره.

كان إيشابود يفكر في مغامرة (بروم بونز) مع المرتزق الراكض لذا حاول أن يحث جواده على الابتعاد، لكن الغريب زاد من سرعة حصانه ليلاحقه.. أبطأ إيشابود سرعة حصانه كي يبقى في

الخلف، ففعل الآخر نفس الشيء.. بدأ قلبه ينبض بعنف وحاول أن يستعيد المزامير التي كان ينشدها لكن لسانه الجاف التصق بسقف فمه.

كان هناك شيء مخيف في صمت هذا الرفيق العنيد. سرعان ما اتضح الأمر.. لقد صعد أرضًا مرتفعة جعلت خيال صاحبه يبدو واضحًا أمام السماء، شل الرعب إيشابود إذ رأى أن هذا الفارس بلا رأس!! وازداد ذعره عندما رأى أن الرأس كان معلقًا أمامه على السرج!

صار ذعره أقرب لليأس، وأمطر الحصان بالركلات على أمل الفرار بسرعة لكن الشبح لحق به.. هكذا انطلقا وسط الأشجار والأحجار تطلق شررًا عندما يدوسان عليها.. وطارت عباءة إيشابود في الهواء وهو منحن على رأس حصانه أملًا في أن يجعله يسرع.

كانا قد وصلا الطريق الذي يقود إلى (سليبي هولو)، لكن (بارود) الذي بدا كأنه ملبوس دار دورة عكسية وهبط التل من ناحية اليسار. هذا الطريق يقود إلى الكنيسة.. ويمر بمنطقة تكثر فيها قصص الأشباح.

أعطى هذا التصرف الأحمق من الحصان بعض التفوق في السباق لراكبه، لكن إذ هبط التل شعر بالسرج يسقط من تحته.. حاول أن يمسكه من الرمانة بلا جدوى.. استطاع أن ينقذ نفسه بأن يحتضن عنق (بارود) إذ هوى السرج للأرض.. وسمع حوافر حصان مطارده تدوس عليه.

للحظة أصابه الرعب من (فان ريبر) لأن هذا هو سرج الأحد الخاص به.. لكن لا وقت لهذه المخاوف. إن الشبح

يلاحقه وهو راكب غير ماهر عليه بذل مجهود ليظل على ظهر الحصان.

رأى فتحة بين الأشجار أخبرته أن جسر الكنيسة قريب.. وقد رأى نجمًا فضيًّا يلمع في الجدول فعرف أنه لم يخطئ.. رأى جدران الكنيسة تلمع تحت الأشجار، وتذكر المكان الذي توارى فيه منافس (بروم بونز)..

- « لو بلغت الجسر لنجوت.. »

هنا سمع الجواد الأسود يلهث ويصهل جوار أذنه.. بل تخيل أنه يشعر بسخونة أنفاسه. ضرب الحصان بين أضلعه ضربة أخرى فانطلق (البارود) العجوز نحو الجسر.. وركض فوق ألواح الخشب. هنا نظر إيشابود إلى الوراء ليرى إن كان مطارده سيختفى وسط النيران. هنا رأى العفريت يرتفع في ركابه ويوشك على قذف رأسه عليه..

حاول إيشابود تحاشي القذيفة المريعة لكن تأخر الوقت.. لقد ضربت رأسه فطار ليسقط في التراب.. وسرعان ما ابتعد (البارود) والراكب الشبح كأنهما العاصفة.

في الصباح التالي وجدوا الحصان من دون سرجه، واللجام تحت قدميه. وكان يأكل العشب عند بوابة سيده.

جاءت ساعة العشاء لكن لم يظهر إيشابود.

احتشد الأطفال عند المدرسة وراحوا يمشون على الجدول لكن لا ناظر هنالك.. بدأ (فان ريبر) يشعر بالقلق على مصير إيشابود المسكين وسرجه، وخرجت مجموعة للبحث عنه.. على جانب الطريق الذي يقود للكنيسة وجدوا السرج في الوحل

وحوافر الحصان عميقة في التربة، وتتبعوها إلى الجسر.. ثم عبروا الضفة حيث يجرى الماء عميقـًا أسود.. هناك وجدوا قبعة إيشابود التعس. وجوارها وجدوا قرعة مهشمة.

تم تفتيش الجدول لكن لم يجدوا جثة الناظر. وكمنفذ لوصيته قام (فان ريبر) بجرد الحزمة التي تحوى كل ممتلكاته الدنيوية. كانت تتكون من قميصين ونصف وزوجين من الجوارب البالية وزوج قديم من الثياب الداخلية القطنية وموسى صدئة وكتاب مزامير ملىء بالصفحات المطوية.

أما عن كتب المعلم فكانت ملكية عامة باستثناء كتاب (ماثر) عن الساحرات. وكتاب عن تفسير الأحلام وجدوا فيه محاولات فاشلة لكتابة قصيدة غزل في ابنة (فان تيسل).

هذه الأشياء أحرقها (فان ريبر) الذي صمم على ألا يرسل أطفاله للمدارس ثانية، لأنه لم ير أي خير في بدعة القراءة والكتابة تلك والدليل أن الناظر لم يكن يملك أي شيء..

يوم الأحد التالي كان هناك الكثير من النقاش في الكنيسة حول اختفاء الناظر الغامض.. تناثرت الأقاويل والإشاعات في الكنيسة وعند الجسر وعند البقعة التي وجدوا فيها القرعة.

تذكروا قصصـًا أخرى مماثلة فهزوا الرءوس واستنتجوا أن المرتزق الراكض قد حمل إيشابود معه.

كان عزبًا غير مدين لأحد لذا لم يرهق أحد نفسه بالتفكير أكثر من هذا.. تم نقل المدرسة لمكان آخر وتم تعيين ناظر جديد لها.

صحيح أن فلاحًا عجوزًا زار نيويورك بعد هذا بأعوام وعرفنا منه هذه المغامرة. وقد أعلن أن إيشابود ما زال حيًّا.. وأنه ترك البلد خوفًا من الشبح ومن (فان ريبر).. ولأن حبيبته تخلت عنه فجأة.. انتقل لمكان آخر وافتتح مدرسة وفي الوقت ذاته راح يدرس القانون..

أما (بروم بونز) فبعد رحيل منافسه استطاع أن يأخذ (كاترينا) النضرة إلى مذبح الكنيسة، وبدا أنه يعرف تفاصيل كثيرة عن قصة إيشابود، وكان يضحك من قلبه كلما ذكر موضوع القرعة.. مما جعل كثيرين يعتقدون أنه يعرف عن الموضوع أكثر مما اختار أن يحكيه.

الزوجات الريفيات العجائز هن على كل حال خير من يحكم على هذه الأمور، وما زلن يؤكدن أن روح إيشابود اختطفتها قوى خارقة، وما زالت هذه القصة محببة للسرد حول النيران في ليالي الشتاء.

ازدادت هالة التطير المحيطة بالجسر ولهذا -ربما - تم تغيير الطريق في السنوات الأخيرة، بحيث تصل للكنيسة عن طريق الطاحونة.

تهاوت المدرسة المهجورة، وقيل إن شبح الناظر التعس يسكنها.. ويقول صبي المحراث إنه كان عائدًا لبيته في ليلة صيف، عندما سمع إيشابود يترنم عن بعد بمزمور حزين وسط الهدوء الناعس ل-(سليبي هولو).

1819

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ريب فان وينكل..

وجدت هذه القصة بين أوراق المرحوم (ديدرتش نيكربوكر)، وهو سيد مسن من نيويورك كان مهتمًّا بتاريخ الهولنديين في المقاطعة، وطباع المنحدرين من مستعمريها الأصليين. لكن دراساته التاريخية لم تعتمد على الكتب قدر ما اعتمدت على الناس، لأن الكتب شحيحة في هذا الموضوع الأثير لديه، بينما وجد كنزًا لا يقدر بمال لدى المواطنين المحليين، وبصفة خاصة زوجاتهم، اللاتي يعرفن الكثير عن هذا الموضوع التاريخي.

لهذا كان إذا وجد أسرة هولندية أصيلة مستكينة في بيتها الريفي منخفض السقف تحت شجرة جميز وارفة، فإنه يعتبرها حزمة من الوثائق المهمة ويدرسها بحماس دودة الكتب.

كانت نتيجة هذه البحوث هي تأريخ المقاطعة في عهد الحكام الهولنديين والذي طبعه بعد أعوام. كانت هناك آراء مختلفة حول القيمة الأدبية لهذا التأريخ.. كانت ميزته الرئيسة هي الدقة.. الدقة التي شكوا فيها في البداية، لكنها صارت الآن حقيقة راسخة.. وقد انضمت هذه السيرة لكتب التاريخ باعتبارها كتابًا ذا مرجعية لا شك فيه.

توفي السيد العجوز بعد نشر هذا العمل بفترة قصيرة، لذا لا أعتقد أنني سأسبب أذى لو قلت إنه كان من الأفضل له لو استغل وقته في شيء أفضل، مثل الأشغال الشاقة على سبيل المثال. لكنه على كل حال مارس هوايته كما أراد، وبرغم أنها من حين لآخر نثرت الغبار في عيون الجيران، وأحزنت بعض

أصدقائه الذين كان يحمل نحوهم أعمق الاعتزاز، إلا أن الناس يتذكرون أخطاءه (في أسف أكثر منه غضبًا)..

مهما كان رأي النقاد في ذكراه فإن الكثيرين ممن يهتم المرء برأيهم يحملون له مشاعر الإعزاز، خاصة بعض خبازى الكعك الذين بلغ بهم الحماس أن حفروا صورته على كعك العام الجديد، وبهذا منحوه فرصة الخلود.. وهذا يشبه أن تنقش صورتك على ميدالية وترلو أو ربع بنس الملكة آن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا بد أن كل من قام برحلة في نهر (هدسون) يتذكر جبال (كاتسكيل).. إنها فرع مشوه من مرتفعات الأبالاشي ويمكنك أن تتابعها على مجرى النهر كأنها تحرس الريف المجاور. إن كل تغيير في الفصول.. كل تغيير في الطقس.. بل كل ساعة في اليوم تحدث تغيرًا ما في أشكال هذه المرتفعات.. وتنظر لها الزوجات الطيبات على أنها بارومترات (مقاييس جو) ممتازة. حينما يستقر الطقس تتدثر باللونين الأزرق والأرجواني وترسم حدودها على السماء الصافية، لكن حينما تختفى السحب تتكثف فوقها أبخرة رمادية على القمم تتوهج مع أشعة الشمس الغابة لتبدو كأنها تيجان مجد.

أسفل هذه المرتفعات قد يلمح المسافر الدخان الخفيف ينبعث من قرية تلتمع أسقفها في ضوء الشمس بين الأشجار، حيث يذوب الأفق في السماء.. إنها قرية صغيرة قديمة جدًّا أسسها المستعمرون الهولنديون في الأيام الأولى من عهد (بيتر ستويفيزانت) - ليرحمه الله -وهناك منازل معدودة للسكان الأصليين بنيت من قرميد أصفر جاء من هولندا وله نوافذ

متشابكة وواجهات من الجملون عليها الديكة الدوارة التي تتنبأ بالطقس.

في هذه القرية بالذات وفي واحد من هذه البيوت (التي أعترف بأن الزمن أبلاها) عندما كانت البلاد من أملاك ملك بريطانيا العظمى، عاش رجل بسيط طلق السجايا يدعى (ريب فان ونكل).. كان من (آل ونكل) الذين طار صيتهم في أيام (بيتر ستويفيزانت) المليئة بالفروسية، ورافقوه في حصار حصن (كريستينا). لكنه ورث القليل من مجد أجداده العسكرى.. وقد سبق أن قلت إنه رجل بسيط طلق السجايا، وكان جارًا طيبًا وزوجًا مطيعًا كالدجاجة. ولا بد أن الخصلة الأخيرة هي التي أكسبته هذه الشعبية، لأن الرجال الذين يظهرون الخنوع والطيبة في الخارج هم الذين تسيطر عليهم زوجة متنمرة في البيت. بلا شك تصير طباعهم لينة قابلة للطرق من فرط حياتهم في نار فرن الحياة المنزلية القاسي. هذه هي مزايا الصبر الطويل والمعاناة..

من هذا المفهوم تصير الزوجة المشاكسة الشرسة بركة حقيقية، وبهذا المعنى قد ظفر (ريب فان وينكل) بالبركة مضاعفة ثلاث مرات.

بالقطع كانت زوجات المنطقة يملن له وفي كل مشاجرة له كن يلقين اللوم على مدام (فان وينكل).

كذلك كان أطفال القرية يتصايحون فرحًا عندما يقترب.. كان يساعدهم في اللهو ويصنع ألعابهم ويعلمهم كيف يطيرون الطائرات الورقية وكيف يقذفون البلى، وكان يحكى لهم قصصًا ممتعة عن العفاريت والهنود..

وكلما مشى في القرية كان يحاط بمجموعة منهم، يتعلقون بظهره ويلعبون ألف حيلة عليه بلا عقاب، ولم يكن كلب واحد ينبح عليه في القرية كلها.

كانت غلطة (ريب) العظمي هي نفوره من أي نوع من العمل المربح. لم يكن هذا عن كسل أو عوز للاجتهاد، لأنه كان قادرًا على الجلوس على صخرة رطبة حاملاً قضيبًا ثقيل كأنه رمح تترى ويصطاد طول اليوم دون شكوى.. حتى لو لم يجد سمكة واحدة. لم يأب قط معاونة أي جار حتى في أصعب عمل ممكن، وكان أسرع الريفيين الذين ينزعون أغلفة القمح الهندي أو يبنون سياجًا حجرية، وكانت نسوة القرية يرسلنه في مأمورياتهن وكل ما لا يرغب أزواجهن الأقل مجاملة في عمله. باختصار كان (ريب) يؤدى عمل الجميع ما عدا عمله هو نفسه، وكان يجد أداء واجبات الأسرة وإدارة مزرعته أمورًا مستحيلة.

في الواقع قال إن العمل في مزرعته ليس مفيدًا، وكانت أسوأ قطعة أرض في الريف كله. كل ما يخصها كان خطأ وسوف يظل خطأ بالرغم منه. كانت أسواره تسقط دومًا وأبقاره تضل طريقها، أو تدخل على الكرنب.. وكان العشب ينمو أسرع في مزرعته من أي مكان آخر. وكانت الأمطار تتجمع في المكان الذي يكون عليه القيام بعمل فيه. وراحت مزرعته تزول قيراطًا خلف آخر حتى لم يعد لديه سوى بعض القمح الهندي والطماطم.

كان أطفاله أيضًا مبعثرى الثياب متوحشين كأنما ليسوا ملكًا لأحد، وبدا أن ابنه (ريب) المراهق سوف يرث الطباع ذاتها كما يرث ثياب أبيه. كنت تراه يمشى كالمهر خلف أمه، لابسًا زوجًا

من سراويلات أبيه القصيرة وقد اضطر أن يمسكها بيده كما تفعل السيدات الراقيات بذيل ثوبهن في الجو المطير.

على كل حال كان (ريب فان ونكل) واحدًا من الفانين السعداء ذوى الميول الحمقاء الذين يأخذون العالم ببساطة، ويأكلون الخبز الأبيض أو الأسمر بأقل مئونة من التفكير أو المشاكل، ويفضل أن يجوع ومعه قرش على أن يعمل للحصول على جنيه. فلو ترك وشأنه لمرت حياته بسهولة تامة، لكن زوجته ظلت تلومه على كسله ولامبالاته والخراب الذي يجلبه للأسرة.. طيلة النهار والظهيرة والمساء يعمل لسانها بلا انقطاع، وكل شيء يفعله أو يقوله يسبب إعصارًا من البلاغة المنزلية.

كانت له طريقة واحدة في الرد على هذه المحاضرات وقد صار يجيدها من كثرة الاستعمال. هي أن يهز كتفيه ورأسه ولا يقول أي شيء.. كان هذا يجعل زوجته تطلق وابلًا من السباب مما يجعله يشتاق الخروج من البيت. المكان الوحيد الذي يخص هذا الزوج الخنوع فعلًا.

كان الشيء الأساسي الذي يخص (ريب) في الدار كلبه (وولف) الخنوع مثل سيده، لأن المدام اعتبرتهما رفيقين في البلاهة، وكانت تنظر ل-(وولف) نظرة شريرة باعتباره سبب ضلال سيده.

في الحقيقة كان كلبًا محترمًا شجاعًا كأفضل حيوان مشي في الغابة، لكن أية شجاعة يمكن أن تتحمل الأهوال الأبدية للسان المرأة السليط؟

ما إن يدخل (ولف) البيت حتى يتهاوى كبرياؤه ويلمس ذيله الأرض أو يتكور بين فخذيه، ويتسلل خائفًا وهو ينظر نظرات

جانبية خائفة للسيدة (فان ونكل) وبمجرد أن تتحرك مكنسة يطير للباب وهو ينبح.

ساعت أيام (ريب فان ونكل) إذ تقدمت به فترة الزواج، مع طبع حاد لا يرق بمرور الوقت، واللسان السليط هو الشيء الوحيد الذي يزداد قوة بكثرة الاستعمال.

كان يسلى نفسه عندما يطرد من البيت بأن يقصد النادي الدائم للحكماء وفلاسفة القرية، الذي كان يجتمع في مقعد أمام حانة صغيرة تعود لأيام جلالة الملك (جورج) الثالث. هناك يجلسون في الظل في يوم صيف خمول يتبادلون الإشاعات عن القرية أو يحكون قصصًا ناعسة لا معنى لها عن لا شيء. لكن الأمر كان يستحق لو سمعت المناقشات التي كانت تدور من حين لآخر حينما تقع في أيديهم جريدة سقطت من مسافر..

كانوا يصغون للمكتوب إذ يقرؤه (ديريك فان بومل) ناظر المدرسة، وهو رجل رشيق مثقف لا تستوقفه أضخم كلمة في القاموس. وكانوا يعلقون على الأحداث الكبرى بعد وقوعها بأشهر عدة.

كان (نيكولاس فيدر) ينسق آراء هذه الزمرة، وهو بطريرك القرية وصاحب الحانة التي يجلس على بابها من الصباح حتى المساء.. فقط يتحرك بحيث يتفادي الشمس ويبقى في ظل الشجرة العملاقة بحيث يعرف الجيران الساعة من وضع مقعده، كأنها مزولة.

صحيح أنه لم يكن يتكلم إلا فيما ندر، لكنه كان يدخن غليونه بلا انقطاع. وكان أتباعه (وكل رجل عظيم له أتباع) يفهمونه ويعرفون كيف يظفرون بآرائه.

كان إذا سمع شيئًا لا يروق له يدخن غليونه في حدة ويطلق نفثات غضبي لكن إذا سره ما سمع بدأ يزفر الدخان بهدوء وتلذذ.. أو يسحب الغليون من فمه ويدع الدخان العطر يلتف حول أنفه.

حتى في هذه القلعة الحصينة لم يكن (ريب) التعس في مأمن من زوجته الشرسة.. كانت تنقض على الجلسة الهادئة وتدعو على الموجودين بالخراب التام. وحتى هذا الرجل المهيب (نيكولاس فيدر) لم يكن بمأمن من لسانها السليط وكانت تتهمه مباشرة بأنه يشجع زوجها على الكسل.

تملك اليأس (ريب) البائس وكان مهربه الوحيد للفرار من عمل المزرعة وتذمر زوجته أن يأخذ بندقيته ويجول في الغابة. هناك قد يجلس على جذع شجرة ويقاسم (وولف) محتويات حافظته.. فقد كان يعتبره زميلاً في الاضطهاد والمعاناة:

- « يا (وولف) المسكين.. سيدتك تعذبك.. لكن لا تقلق يا صاحبي.. ما دمت حيًّا لن تحتاج لصديق يقف جوارك.. »

فكان (وولف) يهز ذيله وينظر بحزن لوجه صاحبه، ولو كانت الكلاب تشعر بالشفقة فأنا واثق من أنه كان يبادل صاحبه المجاملة من أعماق قلبه.

ذات يوم خريفي جميل، تسلق (ريب) وهو لا يشعر إلى جزء من أعلى أجزاء مرتفعات (كاتسكيل). كان يبغى صيد السناجب كعادته وقد ردد الصمت مرارًا ومرارًا طلقات بندقيته. لاهثًا منهكًا ألقى بنفسه وقت العصر على هضبة صغيرة تغطيها أعشاب الجبال التي تتوج أعلى المنحدر. ومن فتحة بين الأشجار كان يرى الريف على بعد ميل محاطًا بالغابات. على البعد رأى

نهر (هدسون) العظيم يتحرك في صمت عبر دربه السحرى الصامت بينما تنعكس سحابة أرجوانية هنا وهنا.. غافية على صدره الزجاجي ثم في النهاية تتلاشي في الزرقة.

على الجانب الآخر رأى واديًا عميقًا منعزلًا.. بريًا مقفرًا.. وقد امتلأ قاعه ببقايا الصخور الهاوية. تضيئه بصعوبة أشعة الشمس.. رقد (ريب) بعض الوقت يرمق المشهد وكان الليل يقترب والجبال تلقى ظلالها الزرقاء فوق الوديان. رأى أن الظلام سيحل قبل أن يبلغ القرية. وتنهد لما أدرك أنه سيعود إلى أهوال المدام (فان ونكل).

إذ أوشك على النزول سمع صوتًا ينادي من بعيد:

- « (ريب فان ونكل).. (ريب فان ونكل)!! »

نظر حوله فلم ير إلا غرابًا يحلق فوق الجبل. فكر في أنه يتخيل، واستدار ليهبط، لكن سمع ذات الصيحة تتردد عبر الجبال:

- « (ريب فان ونكل).. (ريب فان ونكل)!! »

في نفس اللحظة قوس (وولف) ظهره، وأطلق عواء خفيضًا.. وراح ينظر في ذعر إلى الوادي. شعر (ريب) بتوجس خفي ونظر في رهبة إلى هذا الاتجاه.. كان شيء غامض يتسلق الصخور وقد انحنى ظهره من ثقل شيء ثقيل على كتفه. دهش إذ رأى بشرًا في هذا المكان القفر، لكنه افترض أن هذا واحد من الجيران بحاجة لعونه فتوقف كي يمنحه العون.

إذ دنا الغريب أكثر ظل مندهشًا من غرابة مظهره. كان شيخًا قصير القامة قوى البنيان له شعر كث ولحية خطها الشيب

وثيابه كانت على الطراز الهولندي العتيق، وكان على كتفه برميل صغير يبدو أنه مليء بالخمر.. أشار ل-(ريب) كي يساعده في حمله.

برغم خجله وشكه في هذا الوجه الجديد، فقد ساعده (ريب) بخفته المعهودة وجلس الرجلان على حافة أخدود كانت تجرى فيه السيول قديمًا.. وإذ نزلا كان (ريب) يسمع من بعيد صوت جلجلة أجراس كأنها قادمة من وهد بعيد. توقف ليصغي ثم فكر أن هذه إحدى الانهيارات التي تحدث من حين لآخر في الهضاب العالية. وإذ مرا بالوهد بلغا أرضًا منبسطة تحيط بها صخور عمودية فوقها أشجار تنشر غصونها فلم يريا إلا جزءًا من السماء وسحب المساء اللامعة.

طيلة هذا الوقت ظل (ريب) ورفيقه صامتين.. الأول كان يتساءل عن مغزى حمل برميل خمر إلى أعلى هذه الهضبة المتوحشة، لكن كان هناك شيء غامض في المجهول جعله يشعر بالرهبة.

هنا بدأت عجائب أخرى تظهر نفسها، ففوق أرض مستوية كان عدد من الأفراد غريبي المنظر يلعبون لعبة الأوتاد التسعة.

كانوا يلبسون ثيابًا همجية عتيقة الطراز.. وبعضهم كان يلبس صدريات قصيرة، وبعضهم يحمل مديًا في حزامه وأكثرهم كان يلبس سراويل قصيرة.. وهو منظر يشبه منظر الدليل.

سماتهم أيضًا كانت متميزة.. أحدهم كان ذا لحية عملاقة ووجه عريض وعينين خنزيرتين صغيرتين. واحد آخر بدا وجهه كأنما لا يحوى إلا الأنف.. وعليه قبعة رغيفية المنظر بيضاء كالسكر ويتدلى منها ذيل ديك أحمر..

كلهم كانوا ملتحين.. لحي مختلفة الألوان والأحجام. وبدا أن أحدهم هو القائد.. كان شيخًا سمينًا لوحت الشمس سحنته.. وكان يلبس قبعة عالية مزينة بالريش وله جورب أحمر وحذاء عالي الرقبة مزين بالزهور.

ذكرت المجموعة (ريب) بالصور الفلامنكية القديمة في بهو (دومينى فان شيك) خورى البلدة. والتي جلبها من هولندا عندما أنشئت المستعمرة.

ما بدا غريبًا ل-(ريب) هو أن هؤلاء القوم يسلون أنفسهم إلا أن وجوههم شديدة الصرامة واحتفظوا بصمت غريب، بحيث كانوا أكثر مجموعة مرحة كآبة رآها في حياته. لا صوت إلا صوت الكرات التي يقذفونها فتحدث صوت أجراس تتردد عبر الريف كله كأنها عواصف رعدية.

إذ دنا (ريب) ومرافقه منهم، كفوا عن اللعب وراحوا يرمقونه بنظرة ثابتة كأنهم التماثيل.. بوجوه كالحة فاقدة البريق حتى إن قلبه اعتصر واصطكت قدماه..

أفرغ مرافقه البرميل في قنائن كبيرة ثم طلب منه بالإشارة أن ينضم للمجموعة، أطاع في خوف بينما هم يشربون الخمر في صمت ثم يعودون للعبهم.

بدأ خوف (ريب) ورهبته يتلاشيان، بل خاطر عندما لم تكن هناك نظرات مصوبة نحوه بأن يذوق الشراب.. وجده شبيهًا بالمشروبات الهولندية الممتازة. كان بطبعه من الطراز شديد الظمأ لذا كرر الجرعة. جرعة تلت أخرى وبدأت قواه تتخلى عنه.. شعر بعينيه تسبحان في رأسه وبدا رأسه يتهاوى وغاب في سبات عميق.

إذ صحا وجد نفسه على الهضبة الخضراء التي رأى عندها الرجل المسن. فرك عينيه فقد كان صباحـًا مشمسًا. كانت الطيور تشقشق بين الغصون والعقاب يحلق في السماء متنسمًا هواء التلال النقى.

فكر (ريب):

- « بالتأكيد لم أنم هنا طيلة الليل.. »

وتذكر ما رآه قبل النوم.. الرجل الغريب الذي يحمل برميلًا والوهد والمخبأ بين الصخور.. والمجموعة العجيبة التي تلعب لعبة الأوتاد التسعة.. القارورة.

- « تلك القارورة.. تلك القارورة اللعينة!! ماذا سأقول للمدام (فان ونكل) لأفسر؟ »

ونظر حوله بحثًا عن بندقيته لكن بدلاً من السلاح النظيف المدهون بالزيت وجد بندقية عتيقة جواره.. وقد غطى الصدأ الماسورة وسقط ترباسها.. بدأ يشك في أن هؤلاء المهرجين قد لعبوا حيلة عليه.. خدروه بالخمر وسرقوا سلاحه.

لقد اختفى (وولف) كذلك لكن ربما كان يطارد سنجابًا أو طائر حجل.. صفر يناديه وصاح باسمه لكن بلا جدوى.. رددت الأصداء الصفير والصراخ لكن لم يظهر كلب..

قرر أن يزور موقع حفل أمس كي يطالب بكلبه وبندقيته. إذ نهض ليمشى وجد أنه متصلب المفاصل يفتقر للياقته المعتادة..

فكر (ريب):

- « هذه الأسرة الجبلية لا تناسبني.. وإذا كان هذا الحفل سيتركني فريسة الروماتزم فلسوف يكون لقائي مع المدام (فان ونكل) رائعًا »

وجد الأخدود الذي تسلقه مع مرافقه ليلة أمس لكن لشدة دهشته كان نهير جبلي يتدفق الآن عبره. يتواثب من صخرة لأخرى ويملأ الأخدود بالضوضاء. قرر أن يتسلق جانبه وراح يشق طريقه العسير بين شجر الغار وأغصان البتولا.. وكان يشتبك بغصون الكروم التي تلتف من شجرة لأخرى.. وتشكل شبكة تسد دربه.

عن بعد بلغ الموضع الذي ينزل فيه الوهد إلى الوادي.. لكنه لم يجد فتحة. كانت الصخور تشكل جدارًا لا يمكن اختراقه، ومن فوقه كان الماء يتدفق ليحدث رغوة كثيفة.

هنا توقف (ريب فان ونكل) المسكين..

من جديد صفر ونادي كلبه فلم يجب عليه إلا نعيب الغربان وهي تحلق حول شجرة جافة تقف جوار جرف تغمره الشمس. كانت الغربان تشعر بالأمان في تحليقها، فبدا أنها تنظر لحيرة هذا البائس..

ماذا يفعل؟ إن النهار يرحل وهو يشعر بالجوع لأن هذا موعد إفطاره..

أحزنه التخلي عن سلاحه وكلبه وكان يخاف لقاء زوجته، لكن ليس من العقل أن يموت جوعًا وسط التلال.. لهذا حمل البندقية العتيقة الصدئة على كتفه، وبقلب مليء بالأسى والحزن نزل متجهًا لداره.

إذ دنا من القرية قابل أناسًا لم يعرف واحدًا منهم.. وهذا أثار دهشته لأنه كان يحسب نفسه خبيرًا بكل سكان الريف.

كانت ثيابهم غريبة كذلك.. موضة تختلف عن التي ألفها..

راحوا ينظرون له في دهشة وكلما نظروا له حكوا ذقونهم.. تكرار هذه الإشارة أثار انتباه (ريب) فتحسس ذقنه لا شعوريًّا.. إذا به يجد أن لحيته طولها قدم!

كان قد بلغ حدود القرية، فراح حشد أطفال غرباء يجرون وراءه ويصيحون ويشيرون للحيته الرمادية، وكذلك الكلاب التي لم يعرف أيًّا منها.. لقد راحت تنبح عليه..

لقد تغيرت القرية كلها.. كانت كبيرة ومزدحمة..

هناك بيوت لم يرها قط.. أسماء غريبة على الأبواب.. وجوه غريبة في النوافذ.. كل شيء غريب.. لقد تخلى عنه عقله وراح يتساءل إن كان هو أو العالم حوله مسحورًا..

بالتأكيد هي قريته كما تركها.. هناك مرتفعات (كاتسكيل) وهنا يجرى نهر هدسون الفضى، كل تلة حيث تركها.. وقد شعر بذهول بالغ:

- « تلك القنينة ليلة أمس.. لا بد أنها أطارت صوابى.. »

بصعوبة وجد طريق داره، فدنا منه في رهبة صامتة.. متوقعًا أن يسمع صراخ المدام (فان ونكل) في أية لحظة..

وجد البيت قد تداعي والسقف قد هوى والنوافذ محطمة والأبواب منتزعة من مفصلاتها.. كلب جائع يشبه (وولف) يقف

هناك.. ناداه (ريب) باسمه لكن الكلب زمجر وكشر عن أنيابه ثم ابتعد.

قال (ريب) متنهدًا:

- »حتى كلبى ذاته قد نسانى.. »

دخل البيت الذي كانت مدام (فان ونكل) تحافظ عليه منظمًا إذا أردنا قول الحقيقة.. كان خاليًا مهجورًا.. هذا قهر مخاوفه الزوجية فناداها. نادى زوجته وأطفاله.. فرددت الغرف الخالية صوته ثم ساد الصمت..

أسرع نحو ملجئه القديم.. حانة القرية.. لكنها كانت قد اختفت..

كانت هناك بناية من الخشب مكانها ولها نوافذ كبيرة بعضها تهشم وتم إصلاحه بالقبعات والتنورات.. وفوق الباب لافتة تقول:

فندق الاتحاد

جوناثان دوليتل

وبدلاً من الأشجار التي كانت تظلل الحانة الهولندية كان هناك قضيب عال على قمته شيء يبدو كعباءة حمراء.. ومنها يرفرف علم عليه حشد من النجوم والشرائط..

كان كل هذا غريبًا غير مفهوم.. لقد عرف العلامة التي كانت عليها صورة الملك (جورج) الذي كان يدخن غليونه في سلام تحته، لكنه كان قد تغير.. لقد كان يحمل سيفًا في يده بدل

الصولجان، والرأس زين بقبعة متبخترة، وتحتها كتب بحروف كبيرة (الجنرال واشنطن).

كان هناك كالعادة حشد من الناس عند الباب لكن لم يعرف أحدهم.. بدا كأن طبع الناس ذاته تغير. صاروا مشغولين صاخبين بدلًا من النعاس وصوت البلغم في الصدور.. بحث عن الحكيم (نيكولاس فيدر) بوجهه العريض وذقنه المزدوجة وغليونه الطويل الذي يطلق سحب الدخان بدلًا من الكلمات.. أو (فان بومل) الناظر الذي يطالع محتويات جريدة عتيقة..

بدلاً من هذا كان شاب نحيل صفراوي الهيئة امتلأت جيوبه بالمنشورات يلقى خطبة ملتهبة عن حقوق المواطنين والانتخابات وأعضاء الكونجرس والحرية و(بانكرز هيل).. كانت هذه رطانة باللغة البابلية بالنسبة ل-(فان ونكل) الحائر..

كان منظر (ريب) بلحيته الشائبة وبندقيته الصدئة وجيش من النساء والصبية وراءه مما يجذب انتباه السياسيين بالحانة..

التفوا حوله يرمقونه من رأسه لقدميه بفضول عظيم..

جذبه الخطيب ودفعه ليقف إلى جانبه ثم سأله:

-« أي جانب انتخبته؟ »

نظر له (ريب) في غباء مطلق.. هنا جذبه شاب قصير القامة من ذراعه وهزه ليقف على أطراف أصابعه وسأل في أذنه:

- « هل أنت اتحادي أم ديمقراطي؟ »

لم يفهم (ريب) هذا السؤال..

هنا شق الزحام رجل معتد بنفسه عليم ببواطن الأمور، دافعًا الناس بكوعيه ذات اليمين واليسار ثم وقف أمام (ريب فان ونكل) ونظر له نظرة كادت تخترق روحه، وسأله بنبرة صارمة:

- « كيف جاء الانتخابات ببندقية على كتفه ورعاع من خلفه؟ هل يريد أن يحدث شغبًا في القرية؟ »

صاح (ريب) خائفًا:

- »واحسرتاه يا سادة! أنا رجل هادئ فقير.. من سكان المكان ومن رعايا الملك المخلصين.. فليحفظه الله.. »

هنا دوى الصراخ من الواقفين:

- « محب لبريطانيا! محب لبريطانيا! جاسوس! لاجئ.. اطردوه! تخلصوا منه.. »

بكثير من العسر استطاع الرجل ذو القبعة أن يعيد الهدوء، وقد تجعد حاجباه أكثر عشر مرات، ومن جديد سأل المتهم المجهول عن سبب مجيئه.. من يسأل عنه؟

طمأنه الرجل البائس أنه لا يبغى ضررًا لكن جاء بحثًا عن بعض الجيران الذين كانوا يملكون الحانة.

- « ومن هم؟ قل أسماءهم.. »

فكر (ريب) قليلاً ثم سأل:

- « أين (نيكولاس فيدر)؟ »

للحظات ساد الصمت، ثم أجاب عجوز في صوت حاد:

- « (نيكولاس فيدر)؟ لقد مات منذ 18 عاما!! كان هناك شاهد قبر في فناء الكنيسة يقص قصته لكن هذا قد ذهب وتآكل كذلك »

- « أين (بروم دوتشر)؟ »

- « ذهب للحرب في بدايتها.. يقول البعض أنه قتل أثناء قصف (ستورمى بوينت).. آخرون يقولون إنه غرق في عاصفة عند (أنف أنطوني).. لا أعرف.. المهم أنه لم يعد قط.. »

- « وأين الناظر (فان بومل)؟ »

- « ذهب للحرب كذلك وكان قائدًا عظيمًا.. وهو الآن في الكونجرس.. »

تداعى قلب (ريب) إذ سمع هذه الأنباء السيئة عن بيته وأصدقائه.. إنه وحيد في العالم. أدهشته كل إجابة بكل هذه المواضيع التي لا يفهمها: الحرب الكونجرس ستوني بوينت ولم يملك شجاعة كي يسأل عن أصدقاء آخرين.. لكنه صاح في يأس:

- « هل يعرف أحدكم هنا (ريب فان ونكل)؟ »

صاح اثنان أو ثلاثة:

- « أوه.. (ريب فان وينكل)! لو أردت الدقة فهذا ابنه يستند على الشجرة.. »

نظر (ريب فان ونكل) فرأى صورة أخرى دقيقة منه يوم تسلق الجبل.. غالبًا نفس الكسل وبالتأكيد نفس الثياب الرثة.

الآن كان الرجل المسكين في أتعس حال.. بدأ يشك في حقيقته وما إذا كان شخصًا آخر. وفي وسط حيرته سأله الرجل المعتد بنفسه عمن هو وما اسمه..

صاح وقد (غلب حماره):

- « الله أعلم.. لست أنا.. أنا شخص آخر.. هذا ابني.. لا.. هذا شخص لبس ثيابي.. كنت نفسي أمس لكن نمت في الجبال وقد بدلوا سلاحي وتغير كل شيء.. وأنا تغيرت.. لا أعرف اسمى ولا من أنا.. »

بدأ الواقفون يتبادلون النظرات، وهزوا الرءوس وغمزوا لبعضهم ودقوا بأصابعهم على الجباه. وتعالى همس عن ضرورة أخذ السلاح منه لمنع العجوز من ارتكاب مصيبة.. هنا انسحب الرجل المتأنق دون إبطاء.

في هذه اللحظة الحرجة ظهرت امرأة مليحة واخترقت الزحام لتلقى نظرة على الرجل أشيب اللحية. كان بين يديها طفل ممتلئ.. وقد أصابه الهلع من منظره فراح يصرخ.

قالت:

- « اصمت يا (ريب).. اصمت يا أحمق.. العجوز لن يؤذيك..»

أيقظ اسم الطفل وانطباع أمه وصوتها قطارًا من الذكريات في عقله، فسألها:

- « ما اسمك أيتها المرأة الطيبة؟ »

- « (جوديث جاردنير).. »

- « واسم أبيك؟ »

-« آه.. كان المسكين يدعى (ريب فان ونكل).. لكن هذا كان منذ عشرين عامًا حينما ترك البيت بسلاحه.. ولم نسمع عنه من حينها.. جاء كلبه من دونه.. لا نعرف إن كان أطلق الرصاص على نفسه أم اختطفه الهنود.. لا أحد يعرف.. كنت طفلة وقتذاك.. »

لم يكن لدى (ريب) إلا سؤال واحد يسأله لكنه سأله متلعثمًا:

- « أين أمك؟ »

- « أوه.. لقد ماتت بعد وقت قصير.. انفجر أحد شرايينها في نوبة انفعال لدى أحد بقالي (نيو إنجلند).. »

على الأقل كان هذا الجزء مما يريح النفس..

لم يستطع الرجل أن يتمالك نفسه أكثر فأمسك بابنته وطفلها وعانقهما وصاح:

- « أنا أبوك! الذي كان (ريب فان ونكل) الشاب! هو (ريب فان ونكل) العجوز الآن.. هل يعرف أحدكم (ريب فان ونكل) التعس؟ »

وقف الكل مندهشين حتى خرجت عجوز تترنح من وسط الزحام، ووضعت يدها على حاجبها وظلت تحدق في وجهه للحظات ثم هتفت:

- « بالتأكيد! هذا هو (ريب فان ونكل)!! إنه هو نفسه! مرحبًا بك في دارك ثانية يا جارى العجوز.. أين كنت طيلة

عشرين عامًا؟ »

حكى (ريب) قصته لأن العشرين عامًا كانت بالنسبة له ليلة واحدة.. حدق فيه الجيران وهو يحكيها، وبعضهم راح يغمز لجاره أو يضع لسانه في خده.. أما الرجل المعتد بنفسه الذي شعر بأن الخطر زال فقد عاد للحقل، ولوى طرفي فمه وراح يهز رأسه.. هكذا هز كل الواقفين رءوسهم.

تقرر أخذ رأى العجوز (فاندردونك) الذي شوهد يقترب في الطريق. كان حفيد مؤرخ يحمل الاسم ذاته، كتب واحدًا من أقدم التقاويم للمقاطعة.

كان (بيتر) أقدم سكان القرية ويحفظ كل تاريخ وتقاليد الجيرة.

نظر ل-(ريب) بعض الوقت، وأيد قصته بشكل مقنع جدًّا.. أكد للواقفين أن هذا حق.. لقد قال سلفه المؤرخ أن مرتفعات (كاتسكيل) كانت مسكونة دومًا بكائنات غريبة..

وأكد أن (هندريك هدسون) العظيم الذي اكتشف المقاطعة والنهر يقيم احتفالًا ليليًّا مع طاقمه كل عشرين عامًا، على سبيل زيارة مسرح أمجاده.. ويحرس النهر والمدينة العظمى التي تحمل اسمه. قال إن أباه رآهم ذات مرة في ثيابهم الهولندية القديمة، يلعبون لعبة الأوتاد التسعة في واد بالجبل.. وإنه سمعهم ذات ليلة صيف كأنهم أصوات الرعد البعيدة.

لنختصر: نقول إن المجموعة تفرقت وعادت لموضوع الانتخابات الأكثر أهمية. أخذت ابنة (ريب) أباها للدار ليعيش معها، وكان عندها بيت أنيق مؤثث جيدًا وفلاح بدين لطيف هو

زوجها.. تذكر (ريب) أنه كان أحد الصبية الذين يتسلقون ظهره..

أما عن ابن (ريب) ووريثه الذي يشبهه تمامًا فقد عين ليعمل في المزرعة، لكنه أظهر ميله الوراثي لعدم عمل أي شيء إلا ما يهمه شخصيًّا.

استعاد (ريب) عاداته القديمة وجولاته، وسرعان ما وجد عددًا من رفاق الماضي لكن حالهم كانت مزرية بسبب مفعول الزمن.. وقرر أن يكون صداقات بين الأجيال الصاعدة الذين صاروا يميلون له بسرعة.

ولما لم يكن لديه ما يفعله في البيت، وبما أنه بلغ السن التي يمكن للمرء أن يكون كسولًا ولا يلام، فقد عاد ليجلس أمام الحانة، واعتبروه من حكماء القرية وشاهدًا على الزمن القديم (قبل الحرب).

مر وقت طويل قبل أن يندمج في القيل والقال أو يفهم الغرائب التي جرت أثناء سباته، كيف وقعت حرب استقلال وكيف تحرر البلد من سيطرة إنجلترا العجوز، وأنه لم يعد من رعايا جلالة الملك (جورج الثالث) بل هو مواطن حر للولايات المتحدة.

لم يكن (ريب) يبالي بالسياسة في الواقع، ولم تؤثر فيه قصص تغيرات الولايات.. لكن كان هناك نوع واحد من الاستبداد عاني منه كثيرًا.. هذا هو (حكومة التنورات).. لحسن الحظ انتهى هذا ولم يعد عنقه في مصيدة الزواج، وصار بوسعه أن يخرج ويدخل متى أراد من دون التهديد الاستبدادي للمدام (فان ونكل).

كلما ذكر اسمها كان يهز رأسه وكتفيه وينظر لأعلى. وهو انطباع كان يمكن تفسيره بالاستسلام لقدره أو فرحة الخلاص.

اعتاد أن يحكى قصته لكل غريب يصل لفندق مستر (دوليتل)، وقد لوحظ أنه كان يغير بعض النقاط كلما حكى القصة، وهذا يرجع في الغالب لأنه استيقظ من وقت قصير. في النهاية استقر على القصة كما حكيتها أنا.. وما من طفل أو امرأة إلا ويحفظها عن ظهر قلب..

أحيانًا يشكك البعض فيها ويصرون على أن (ريب) كان يخرف، وهذه النقطة كانت تجعله متأهبًا للشجار دومًا. إلا أن السكان الهولنديين يعطون القصة حقها بلا استثناء، وحتى اليوم لا يسمعون عاصفة رعدية في عصر صيف عند (كاتسكيل) إلا وقالوا إن (فردريك هدسون) ورجله يلعبون لعبة الأوتاد التسعة.

ويتمنى كل الأزواج الخنوعين في المنطقة حينما تسوء الأمور معهم أن يجدوا شربة تمنحهم بعض الراحة في قنينة (ريب فان ونكل).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملحوظة:

كما يمكن للمرء أن يعتقد، فان القصة السابقة قد استوحاها مستر (نيكر بوكر) من خرافة ألمانية صغيرة عن الإمبراطور فردريك روزبارت وجبل (كيفهاوزر).. إلا أن المذكرة الملحقة بالقصة تؤكد أنها حقيقة مطلقة كما يقول بأسلوبه الصادق:

-ربما تبدو قصة (ريب فان ونكل) لا تصدق لدى كثيرين، لكني أصدقها بالكامل لأنني أعرف تلك البقاع المجاورة لمستوطناتنا الهولندية، وأعرف أن كل أنواع الغرائب تحدث فيها. لقد سمعت قصصًا غريبة أكثر من هذه في القرى المحيطة بنهر هدسون، وكلها موثقة لا تسمح بالشك.

لقد تحدثت مع (ريب فان ونكل) بنفسي، وآخر مرة رأيته فيها كان رجلًا مهيبًا عجوزًا جدًّا لكنه عاقل وكلامه متسق في كل النقاط.. لهذا لا أعتقد أن أي شخص ذى ضمير يمكن أن يرفض هذا، دعك من أننى رأيت شهادة عن الواقعة أخذت في المحكمة وختمت بالصليب بيد القاضي نفسه. لهذا فالقصة فوق أية شبهات.

د. نيكر بوكر

تعقيب:

الملاحظات التالية هي مذكرات كتبها مستر (نيكر بوكر):

إن مرتفعات (كاتسبيرج) أو (كاتسكيل) منطقة تعج بالقصص الخرافية. كان الهنود يعتبرونها مسكن الأرواح التي تتحكم في الطقس والشمس والسحب. وهي التي ترسل فصول الصيف الطيبة والفقيرة.

قيل إن روحًا هندية كانت تحكمها هي أمهم.. كانت تعيش في أعلى قمة وكانت تفتح الأبواب وتغلقها في الصباح والمساء.. كانت تعلق الأقمار الجديدة في السماء وتقطع القديمة لتصنع منها النجوم. في وقت الجفاف كانوا يستعطفونها فتنسج سحب السماء من نسيج العنكبوت وندى الصباح لتصنع ندف قطن وتقذفها فوق المرتفعات لتطفو في الهواء حتى تذيبها الشمس.. هكذا تهطل الأمطار فينمو العشب وتنضج الفاكهة ويستطيل القمح بوصة في الساعة.

أما إذا تضايقت فكانت ترسل سحبًا متعفنة سوداء كالحبر.. ثم تنفجر السحب فتغرق الوديان!

يقول الهنود إنه في الزمن الغابر كانت هناك (مانيتو) أو روح تجول في مرتفعات (كاتسكيل) وتتلذذ بجلب المصائب على الهنود الحمر. أحيانًا تتخذ شكل دب أو فهد أو غزال وتأخذ الصياد في رحلة مرهقة مضللة عبر الغابات، ثم تنفجر صائحة: هو هو! وتتركه وحده وسط إعصار مدمر..

ما زال مسكن المانيتو موجودًا.. إنها صخرة عملاقة في أبعد موضع من التلال تلتف حولها الكروم والأزهار البرية، ويطلقون عليها اسم (صخرة الحديقة). عند أسفلها بركة يعيش فيها مالك الحزين، وعلى السطح أزهار سوسن ينام فوقها ثعبان الماء. كان الهنود يهابون هذا المكان بشدة حتى إن أجسر الصيادين لم يكن يتبع فريسته هنا..

ذات مرة ضل صياد طريقه واخترق الغابة حتى صخرة الحديقة، حيث رأى عددًا من القرع في تجاويف الشجر. انتزع واحدة منها لكنها سقطت منه بين الصخور فثار طوفان أغرقه أسفل الوهد. وتناثرت أشلاؤه بينما واصل الطوفان طريقه إلى نهر هدسون وهو يتدفق حتى يومنا هذا.. وهو المجرى المائي الذي يطلقون عليه (كاترز كيل).

إيرفنج واشنجتون

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس..

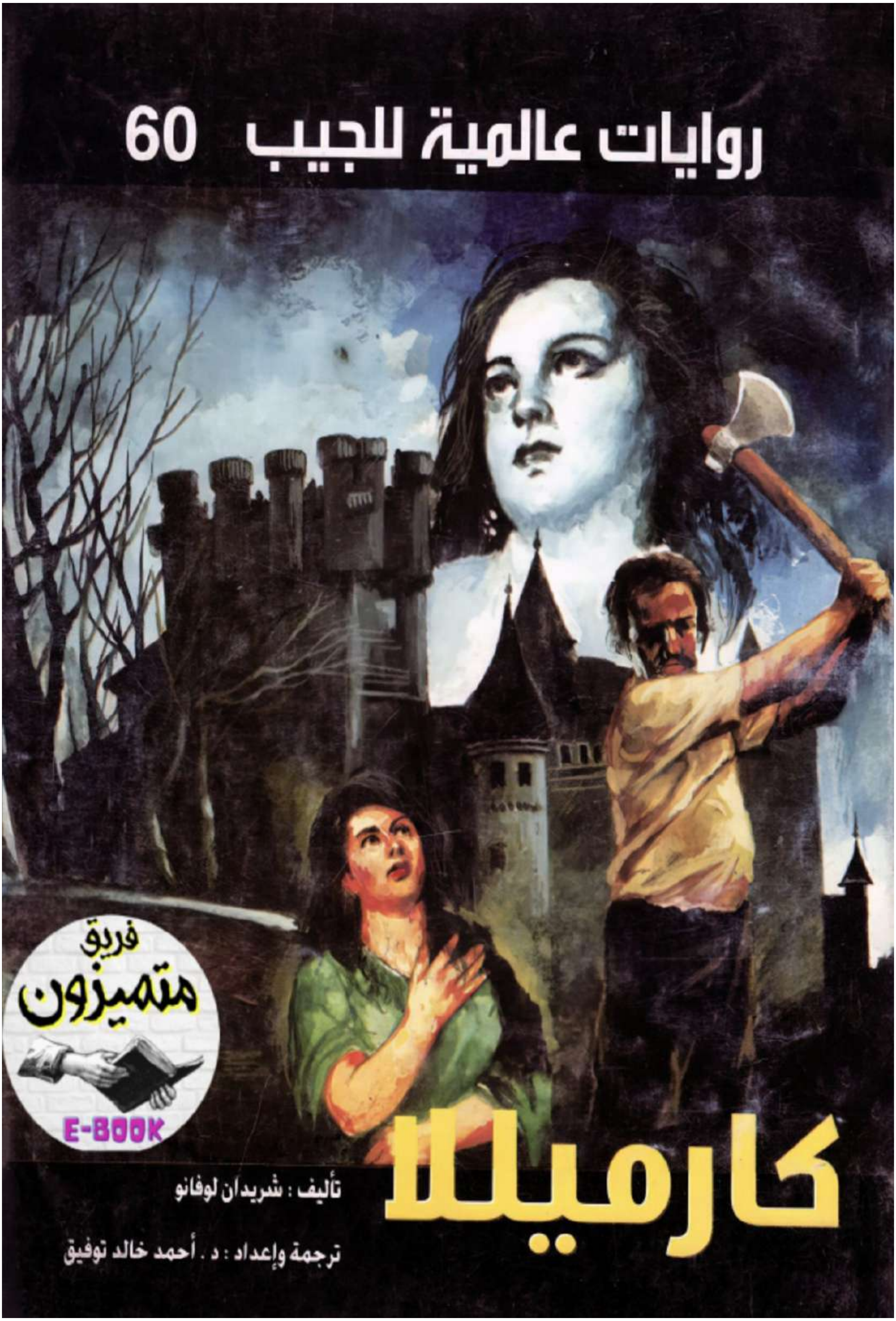
Notes

[←1]

Hollow لها عدة معان منها الثقب والفراغ والوادي والتجويف.. أعتقد أن (الوادي) أقربها للمراد هنا.. عامة لم أترجم الاسم لأن الأسماء لا تترجم..

[←2]

من خبراء صيد الساحرات المعروفين وقد قتل عددًا كبيرًا منهن، كما أن له كتبًا شهيرة في الموضوع.


روايات عالمية للجيب 60
فريق متميزون
E-BOOK
كارميللا
تأليف : شريدان لوفانو
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (60)

كارميللا

تأليف: شريدان لو فانو

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

شريدان لو فانو Sheridan Le Fanu أديب أيرلندى فكتورى نال شهرة ساحقة فى فترة من الفترات كرائد قصة الأشباح الحديثة، ثم لم يعد أحد يقرؤه لأسباب سوف نتكلم عنها حالاً. اشتهر بقصصه (الخال سيلاس - ١٨٦٤) و(المنزل المجاور لفناء الكنيسة ١٨٦٣) على أن قصته الأشهر هي (كارميلا Carmilla) التي نقدمها لك هنا.. وهي قصة مصاصي الدماء الأهم، ويقال إنها الأفضل كذلك، والتي قيل إنها ألهمت (ستوكر) بقصة (دراكيولا).. على الأقل كانت من مصادره الأساسية..

ولد الرجل عام ١٨١٤ في (دبلين) لأسرة ثرية وأب من رجال الاكليرك.. درس القانون في كلية (ترنتي) وتخرج فيها عام 1837، وفي العام 1845 قدم قصته الأولى (الديك والمرساة).. وكان شديد الإعجاب بأدب (والتر سكوت). لم يمارس المحاماة قط لكنه انهمك في عالم الصحافة. كان ضد انفصال إيرلندا عن إنجلترا لكن هذا كان يظهر في مقالاته، بينما لم تكشف قصصه قط عن ميوله السياسية.

تزوج عام ١٨٤٤ ورزق بأربعة أطفال.. وبعد وفاة زوجته صار أميل إلى العزلة حتى أطلق عليه اسم (الأمير الخفي) بسبب عزلته وانطوائه وعادات كتابته الليلية.. كان يكتب من منتصف الليل حتى الفجر مستعينًا بشمعتين عن يمينه ويساره، ولم يكن يكتب إلا في الفراش.. توفى عام ١٨٧٣ ونسيت أكثر أعماله، ويعود هذا للنظرة العامة حتى في الخارج إلى أدب الرعب على أنه أقل شأنًا من الأدب الإنساني.

كان هذا حتى عام ١٩٢٣ عندما قدم الناقد (م. جيمس) مجموعة قصص له تحت عنوان (حكايات الغموض).. عندئذ تذكر العالم أهمية هذا الأديب وخياله الخصب..

الأحداث الغريبة في قصصه تقبل عدة تفسيرات، منها الأشباح ومنها الهلاوس النفسية أو المجازات اللغوية. هناك قصة له اسمها (الشاي الأخضر) عن قس يطارده شبح قرد ويجعل حياته جحيمًا.. حتى في لحظات الصلاة يثب القرد ليغطي صفحات الإنجيل. في النهاية ينتحر القس، لكن يبقى السؤال عما إذا كان الشبح حقيقيًا أم أن هذه هلاوس سببها الشاي الأخضر الذي اعتاد القس شربه.. في تلك الفترة شاع شرب الشاي الأخضر الذي اعتقد كثيرون أنه يحوي مخدرًا ما. هكذا كان يترك للقارئ تفسيرين ليختار بينهما: الطبيعي والخارق للطبيعة. وكان من عاداته كذلك أن يستخدم قصصه القصيرة السابقة كنواة لرواياته.. إن رواية (مستر جاستيس هاربوتل) كانت قصة قصيرة قديمة له اسمها (وصف لبعض الاضطرابات الغريبة في شارع أونجير)..

تحكى قصة العم (سيلاس) حكاية مثيرة لكن من غير أشباح عن الفتاة الشابة (مود) التي توفيت أمها، ويحاول الوصي الشرير عليها (سيلاس) أن يزوجها ابنه المتزوج فعلًا ليظفر بثروتها..

وفي قصة (كارميللا) التي كتبها عام ١٨٧٢، نرى صداقة حميمة بين فتاتين، تدرك واحدة منهما أن صديقتها الحبيبة هي مصاصة دماء اسمها (ميركالا) عاشت منذ مئات السنين.. عادات مصاص الدماء تختلف هنا عن التقاليد المحفوظة التي تعلمناها من شخصية دراكيولا. على سبيل المثال يمشى

مصاصو الدماء هنا في الشمس. تحتفظ القصة بالكثير من جو الغموض حتى بعد الخاتمة (سوف تجد أن أسئلة كثيرة لم تتم الإجابة عنها.. من المرأة الغامضة التي ترتدي الأسود؟ من هو السيد الشاحب؟ هل رؤى الفتاتين مشتركة فعلًا؟ إلخ.. إلخ).. لكن هذا الغموض ساحر في حد ذاته يعطى العمل ثراء شعريًّا..

هذه القصة المحظوظة قدمتها السينما العالمية مرات عديدة، وقدمتها شركة (هامر Hammer) البريطانية المختصة في أفلام الرعب عدة مرات فيما عرف ب- (ثلاثية كارنشتاين).. هذه الأفلام التي قامت ببطولة أكثرها (إنجريد بيت) لم ولن تعرض في مصر لما فيها من حسية شديدة، وعلى كل حال يمكن القول إن كل مصاصة دماء في السينما العالمية خرجت من عباءة رواية (كارميللا) هذه.. القصة الأصلية قصيرة جدًّا لذا يمكن اعتبار هذه الترجمة حرفية..

للمهتمين بمعرفة المزيد عن (لو فانو)، نقدم هذا الموقع الياباني الذي يستخدم الإنجليزية:

http://www.lang.nagoyau.ac.jp/~matsuoka/Fanu.html

وهو موقع يقودك لكل ما ذكر عن هذا الأديب على شبكة الإنترنت، مع الكثير من أعماله طبعًا..

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞∞

مقدمة..

على ورقة مرفقة بالنص التالي كتب د. (هيسيليوس) مذكرة مدققة مصحوبة بمراجع بحثه العلمي فيما يتعلق بالموضوع الغريب الذي يطرحه النص.

لقد تعامل مع موضوع الدراسة الغامض بفطنته وثقافته المعهودتين، وبشكل مباشر موجز. ولسوف تشكل هذه الدراسة مجرد جزء من معرفة هذا الرجل المدهش.

وإذ أنشر هذه القصة في هذا الكتاب كي أثير شغف سواد الناس، فإنني لا أضيف شيئًا إلى جهود السيدة الفاضلة التي تحكى القصة.. ولهذا أيضًا قررت ألا أعرض هنا أيًّا من آراء الطبيب المثقف أو أستخرج شيئًا من النتائج التي توصل إليها في موضوع يصفه بأنه (على الأرجح يتضمن بعضًا من أعمق أسرار وجودنا المزدوج وأطواره الوسيطة).

كنت حريصًا وقد وجدت هذه الورقة أن أعيد فتح مراسلات د. (هيسيليوس) مع إنسانة بارعة ذكية كالتي استمد منها معلوماته. إلا أنني عرفت للأسف أنها توفيت في الفترة السابقة..

كان بوسعها على الأرجح أن تضيف شيئًا للقصة التي تحكيها في الصفحات التالية، خاصة أنها حكتها بهذه الدقة وهذه الأمانة.

الفصل الأول
رعب مبكر

في مقاطعة (شتيريا)[1] نعيش في قلعة برغم أننا لسنا بالقوم الأثرياء على الإطلاق، إن أقل الدخل في هذه البقعة من العالم يحقق لك الرغد، وثمانمائة أو تسعمائة جنيه في العام كفيلة بتحقيق المعجزات..

كان أبي بريطانيًّا وأنا أحمل اسمًا بريطانيًّا برغم أنني لم أر إنجلترا قط.. لكن هنا في هذه البقعة المنعزلة البدائية حيث كل شيء رخيص الثمن، لا أتصور كيف يضيف المزيد من المال شيئًا لرفاهيتنا وراحتنا.

كان أبي يعمل في الحكومة النمساوية ثم تقاعد واشترى هذه الإقطاعية والعقارات الموجودة بها.. كانت صفقة.

ما كان هناك شيء أكثر جمالًا ولا عزلة.. إن أرضنا تقف على بقعة مرتفعة من الدغل، والطريق العتيق الضيق يمر أمام جسر متحرك لم أره يرتفع في حياتي كلها.. والخندق المائي تحت هذا الجسر يسبح فيه البجع، وعلى سطحه يطفو السوسن الأبيض.

وفوق هذا كله تبدو القلعة بواجهتها ذات النوافذ الكثيرة، وأبراجها القوطية. وتطل على ساحة مفتوحة جميلة من الغابة، وعلى اليمين ينحدر جسر قوطي الطابع بالطريق نحو الأحراش.

قلت لك: إن هذا مكان مقفر.. عليك أن تحكم على مقدار صدقي. فلو نظرت من باب الرواق إلى الطريق لوجدت أن الغابة تمتد خمسة عشر ميلًا لليمين واثني عشر ميلًا للشمال. أقرب قرية مسكونة على بعد سبعة أميال إلى الشمال. أقرب قلعة ذات

أهمية تاريخية هي قلعة الجنرال (شبيلزدورف) التي تبعد عشرين ميلًا إلى اليمين.

قلت (أقرب قرية مسكونة)؛ لأن هناك على بعد ثلاثة أميال غربًا قرية متهدمة بها كنيسة صغيرة بلا سقف، فيها القبور المتحللة لآل (كارنشتاين) الذين انقرضت أسرتهم، والذين كانوا يملكون القصر الخرب الذي يطل من بين الأحراش على البلدة.

فيما يتعلق بسبب هجر هذه البقعة الحزينة، فهناك أسطورة سوف أحكيها لك في مرة أخرى.

لا بد الآن أن أحكى لك عن المجموعة الصغيرة التي تعيش في قلعتنا.. لن أحصى الخدم ولا التابعين الذين يعيشون في غرف ملحقة بالقلعة.. أصغ واندهش! هناك أبي أطيب إنسان على وجه الأرض لكنه قد تقدم في العمر.. وأنا في التاسعة عشرة عندما وقعت قصتى.. لقد مرت ثمانية أعوام منذ ذلك الحين.. أنا وأبي نمثل كل ساكني القلعة.. لقد توفيت أمي النمساوية في طفولتي لكن تولت أمرى مربية طيبة ظلت معى طيلة طفولتي. لا أذكر متى لم يكن وجهها الممتلئ العطوف جزءًا من ذكرياتى.

كان اسمها مدام (بيرودون).. من مواليد (برن).. وقد عوضني حنانها عن فقد أمي التي لا أذكرها.. كانت هذه المرأة هي الثالثة على مائدة عشائنا.. وكانت هناك آنسة رابعة هي مدموازيل (دي لا فونتين) هي ما يطلقون عليه مساعدة مربية، وكانت تجيد الفرنسية والألمانية. كنت أنا وأبي نتكلم الإنجليزية كي لا ننساها، ومن قبيل الوطنية.. الناتج كان برج (بابل) اعتاد الغرباء أن يضحكوا منه..

كانت هناك كذلك ثلاث آنسات من نفس عمري يزرننا من حين لآخر وكنت أرد لهن الزيارات أحيانًا.

كانت حياتي وحيدة. أؤكد لك هذا..

كانت مربيتاى تسيطران عليّ تمامًا، كما لك أن تخمن معاملتهما لفتاة مدللة يسمح لها أبوها بعمل أي شيء ترغب فيه.

أول حادثة في حياتي أحدثت انطباعًا رهيبًا في نفسي لا أستطيع نسيانه، وكانت من أوائل الأشياء التي حدثت لي في حياتي. سوف يرى البعض أنها تافهة بحيث لا تستأهل الذكر هنا. لكنهم سيفهمون شيئًا فشيئًا أهميتها.

كانت غرفة الحضانة كما يطلقون عليها برغم أننى كنت أحتلها وحدى غرفة كبيرة في الطابق العلوي من القلعة ولها سقف مائل من خشب البلوط..

لا بد أنني كنت في السادسة عندما صحوت ذات ليلة ونظرت حولي للغرفة وأنا في فراشي. لم أر المربية.. ما كنت خائفة لأنني كنت من الأطفال المحظوظين الذين لم يسمعوا قصص الأشباح وكل هذه الحكايات التي تجعلنا نغطى رءوسنا عندما يصدر الباب صريرًا، أو يتراقص ضوء شمعة فيبدو عمود السرير كأنه يتحرك..

فقط تضايقت لأنني شعرت بالإهمال وبدأت أئن، عندما رأيت لشدة دهشتي وجهًا رائع الجمال ينظر لي من جانب الفراش.. كان وجه شابة تركع ويداها تحت غطاء السرير..

داعبت شعرى ثم رقدت جواري على الفراش وجذبتني نحوها وهي تبتسم..

شعرت فجأة بالراحة وعدت للنوم.. إلا أننى صحوت شاعرة كأن إبرتين اخترقتا صدري بعمق في اللحظة ذاتها فصرخت بصوت عال..

تراجعت السيدة وعيناها علىّ ثم نزلت إلى الأرض وبدا لى أنها توارت تحت الفراش..

الآن شعرت بالخوف لأول مرة.. صرخت بكل قوتي..

جاءت المربية ومدبرة المنزل ومساعدة المربية.. وسمعن قصتى فاستخففن بها وقمن بتهدئتي، وبرغم أننى كنت طفلة فقد لاحظت أن وجوههن شاحبة من فرط القلق ورأيتهن ينظرن تحت الفراش.. ويفتشن الغرفة وخزان الثياب.. قالت مدبرة المنزل للمربية:

- « ضعي يدك على هذا المنخفض في الفراش.. أحدهم رقد هنا.. المكان ما زال دافئًا »

أتذكر أن المربية ربتت علىّ وتفحصت ثلاثتهن صدرى وقلن إنه لا توجد علامة على أن شيئًا مما حكيته قد وقع..

ظلت النسوة الثلاث ساهرات جواري طيلة اليوم، ومنذ ذلك اليوم ظلت واحدة معي في غرفتي حتى بلغت الرابعة عشرة..

بعد هذه الحادثة صرت عصبية، وطلبوا لي طبيبًا..

أذكر وجهه الكئيب الذي شوهه الجدري نوعًا.. وكان يأتى لي يومًا بعد يوم ليعطيني الدواء الذي كنت بالطبع أكرهه..

أذكر كيف جاء أبي ووقف جوار الفراش ثم راح يتكلم في مرح.. كيف سأل الممرضة عن أشياء وهو يضحك، وكيف ربت على كتفى وقال لي ألا أخاف لأن هذا مجرد حلم لا يمكن أن يؤذيني.

لكني لم أسترح.. لأني كنت أعرف أن زيارة تلك السيدة لم تكن حلمًا..

قالت لي مساعدة المربية إنها هي التي جاءت ليلًا ونامت جوارى، وإننى بالتأكيد كنت نائمة فلم أعرفها، لكن هذا التفسير لم يرق لي.

أذكر ذلك اليوم أن شيخًا جليلًا يلبس ثياب كاهن جاء لغرفتي مع المربيتين، وراح يتكلم معهما.. كان وجهه عذبًا لطيفًا..

قال لي إنهم سيصلون وطلب أن أمسك بيده وأقول معه:

- » رب اسمع كل صلواتنا من أجل يسوع.. »

أعتقد أن هذا ما قاله لأنني ظللت أردده لنفسي عدة أعوام كما طلبت مني المربية.

ركع ومعه ثلاث النسوة وصلى بصوت عال.. لقد نسيت الكثير بعد هذا لكن هذه الذكريات ستبقى حية في ذاكرتى كأنها صور من حلم أو هلوسة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني
ضيف

الآن سوف أخبرك بشيء غريب حتى إنه يقتضى كل ما لديك من قدرة على التصديق..

ليس حقيقيًّا فقط بل إنه حقيقة كنت شاهد عيان عليها..

كانت ليلة صيف جميلة وطلب مني أبي أن أتمشى معه في تلك الغابة التي وصفتها لك والواقعة أمام قلعتنا..

قال أبي ونحن نبدأ جولتنا:

- » لن يلحق بنا جنرال (شبيلزدورف) بالسرعة التي أتمناها.. »

كان الجنرال قادمًا لزيارتنا لبضعة أسابيع وكنا ننتظره في الغد. كان سيجلب معه ابنة أخيه المدموازيل (راينفلت) التي لم أرها قط، لكن سمعت أنها فتاة فاتنة، وقد وعدت نفسى بوقت طيب معها. شعرت بإحباط لأن هذه الزيارة ظلت في أحلامي فترة طويلة

- « ومتى يأتى إذن؟ »

- « أجسر على القول إن هذا ليس قبل الخريف. شهران من الآن.. وإننى لسعيد يا عزيزتي لأنك لم تعرفي المدموازيل (راينفلت) قط »

سألته بفضول:

- » ولماذا؟ »

- « لأن الشابة المسكينة قد ماتت.. نسيت أنني لم أخبرك لكنك لم تكوني معى عندما تلقيت رسالة الجنرال في ذلك اليوم »

شعرت بصدمة.. لقد ذكر الجنرال في خطاب سابق منذ ستة أسابيع أنها ليست بخير كما يتمنى.. لكن لم يكن هناك ما يدعو للتفكير في أن يحدث هذا.

- « هذا هو خطاب الجنرال.. »

قالها وناولني الخطاب.. بدا لي الخطاب مكتوبًا بدرجة عالية من الارتباك..

جلسنا على مقعد تحت أشجار الزيزفون وكانت الشمس تغرب بجلالها خلف أجمة في الأفق، وقد راح النهر الذي يجرى جوار دارنا يعكس لون السماء الأرجواني.

كان خطاب الجنرال عجيبًا شديد الوطء وفي بعض مواضعه شديد التناقض.. قرأته مرتين وبصوت عال لأبي.. وافترضت أن الحزن أفقد الجنرال صوابه..

قال الخطاب:

- » فقدت طفلتي العزيزة التي همت بها حبًّا.. في الأيام الأخيرة من مرض (بيرتا) الحبيبة لم أستطع الكتابة لك.. قبل ذلك لم أدرك مدى الخطر.. لقد فقدتها والآن أدرك بعد فوات الأوان.. لقد ماتت في سلام وبراءة على رجاء القيامة.. الشيطان الذي خان ضيافتي فعل هذا كله.. حسبت أننى أستضيف الحبور والبراءة صديقين لطفلتى. لكن رباه! كنت أحمق! أحمد الله أن طفلتي ماتت من دون أن تدرك سبب معاناتها..

سوف أكرس ما بقى من أيامي لاقتفاء أثر الوحش وتدميره.. قيل إن بوسعي تحقيق غرضي.. في الوقت الحالي لا يوجد بصيص ضوء يهديني..

لا أستطيع استجماع كلماتي الآن فأنا مشتت.. فما أن أستعيد قواى حتى أكرس وقتى للتحقيق الذي قد يصل بي إلى (فيينا).. سوف أقابلك بعد شهرين لو أنني ظللت حيًّا، ولو أنك سمحت لي.. ولسوف أخبرك بما لا أجرؤ على كتابته على الورق الآن..

وداعًا وصلّ من أجلي يا صديقي العزيز »

بهذه الكلمات انتهت الرسالة الغريبة.. وبرغم أنني لم ألق (برتا راينفلت) قط فإن عينى امتلأتا بالدموع.

كانت الشمس قد غربت وجاء الغسق إذ أعدت خطاب الجنرال لأبي.

كانت أمسية صافية، وقد مشينا نتناقش حول معنى هذه الرسالة العنيفة غير المترابطة. وكنا على بعد ميل من الطريق الذي يعبر أمام القلعة.. وكان القمر يسطع لامعًا. عند الجسر المعلق قابلنا مدام (بيرودون) ومدموازيل (دي لا فونتين) اللتين خرجتا للاستمتاع بضوء القمر.

كانت الفرجة التي عبرناها أمام عيوننا الآن.. نرى الطريق يمتد إلى جسر جميل قربه تقف قلعة كانت تحرسه في الماضي.. وخلف القلعة مرتفع تغطيه الأشجار ومجموعة من الصخور التي تلتف عليها أغصان اللبلاب. بينما طبقة رفيعة من

الضباب ترتفع كأنها تغلف البعد بغلالة رقيقة، وكان بوسعنا أن نرى النهر يتألق في ضوء القمر.

ما من منظر أكثر روعة، لكنه بدا لي مفعمًا بالشجن بعدما سمعت. ووقفت وأبي نرمق المشهد في صمت..

كانت مدام (بيرودون) بدينة رومانسية في منتصف العمر تتكلم وتتنهد بشاعرية.. أما مدموازيل (دي لا فونتين) التي كان أبوها ألمانيًّا مهتمًا بالسحر وأسرار ما وراء الطبيعة، فقد قالت إنه عندما يسطع القمر بهذه القوة فإن هناك نشاطًا روحيًّا أكيدًا.. إنه يؤثر على الأحلام وعلى حالتنا العقلية وله أثر مادي واضح على حياتنا..

قالت لنا إن ابن عمها الذي كان يعمل في سفينة تجارية نام على ظهره ذات ليلة مماثلة على ظهر السفينة ووجهه في ضوء القمر، ثم صحا وقد رأى في الحلم رجلًا عجوزًا يخدشه في خده.. فإذا بملامحه تشوهت بفظاعة ولم تستعد سحنته طبيعتها ثانية.

قال أبي:

- « إننى أمر بإحدى حالاتي الاكتئابية الليلة.. »

ومرت لحظة صمت راح يردد فيها عبارات من شكسبير الذي يحافظ لنا على لغتنا الإنجليزية، ثم قال:

- » في الحقيقة لا أعرف سر تعاستي.. إنها تضنيني بحق.. لكن لا أعرف مصدرها.. أشعر كأن تعاسة عظيمة تقترب منا.. لعل لخطاب الجنرال دورًا في هذا »

في هذه اللحظة سمعنا صوت حوافر خيل وعجلات عربة على الطريق..

وعلى الفور رأينا مصدر الصوت.. في البداية ظهر فارسان وعبرا الجسر ثم عربة تجرها أربعة خيول.. ثم تلاها فارسان..

بدا لنا أنها عربة شخص ذى شأن.. وقد رحنا نراقب هذا المشهد غير المألوف في شغف..

لقد صار المشهد أكثر إثارة لأنه ما أن تجاوزت العربة الجسر المنحدر حتى أصيب أحد الفرسان بالذعر ونقل ذعره لمن معه.. وعلى الفور انطلق الركب يركض بسرعة محمومة عبر الطريق نحونا.. وبسرعة الإعصار..

وزادت إثارة المشهد تلك الصرخات الأنثوية الطويلة التي انبعثت من نافذة العربة.

تقدمنا للأمام في فضول ورعب وظل أبي صامتًا بينما عبرنا نحن عن ذعرنا.. لكن توترنا لم يطل.. إذ أن هناك على الطريق الذي مشوا عليه شجرة زيزفون هائلة الحجم، وعلى الجانب الآخر صليب صخرى عملاق.. فما إن رأته الخيول التي صار عدوها مفزعًا حتى انحرفت بحيث صارت العجلات على جذور شجرة الزيزفون.. عرفت ما سيحدث وأغمضت عيني وأدرت رأسي عاجزة عن رؤية هذا.. في ذات اللحظة سمعت صرخات المربيتين.

فتح الفضول عيني فرأيت مشهدًا مروعًا.. جوادان كانا على الأرض والعربة مقلوبة على جانبها، وعجلتان من عجلاتها في

الهواء. كان الرجال يزيلون الحطام بينما سيدة تبدو ذات سلطة تقف وقد تعانق كفاها.. ومن حين لآخر ترفع منديلًا إلى عينيها.

ومن باب العربة رفعوا جسد سيدة صغيرة بدت لي، وقد خلت من الحياة..

أبي العزيز كان يقف الآن بالفعل جوار السيدة الأكبر سنًّا وقبعته في يده.. كما هو واضح يعرض مساعدته. لم يبد أن السيدة سمعته أو رأت أي شيء سوى الفتاة الصغيرة التي وضعوها على ضفة الخندق.

دنوت فرأيت أن الفتاة مصدومة لكنها بالتأكيد لم تمت.. وقد وضع أبي أنامله على نبضها، وطمأن السيدة التي قالت إنها أم الفتاة.. إن النبض خافت غير منتظم لكنه محسوس..

ضمت السيدة يديها ونظرت للسماء كأنها تعبر عن امتنانها، ثم عادت لطابعها الدرامي المسرحي الذي أعتقد أنه طبيعة لدى بعض الناس.

كانت ما يمكن أن تعتبره امرأة جميلة بالنسبة لسنها.. فارعة الطول لكنها ليست نحيلة.. ترتدى المخمل الأسود.. شاحبة لها سحنة آمرة..

سمعتها تقول:

- » أتراني ولدت للبؤس والشقاء؟ هأنذا في رحلة حياة أو موت.. ومعنى أن أفقد ساعة هو أن أفقد كل شيء.. لن تستعيد طفلتي صحتها قبل وقت طويل.. لا أجسر على التأخر.. يجب أن أتركها.. ما المسافة التي تفصلنا عن أقرب قرية يا سيدي؟

يجب أن أتركها هناك فلن أر عزيزتي أو حتى أسمع عنها ثلاثة أشهر »

جذبت أبي من معطفه وهمست في أذنه:

- « أبي.. سلها أن تبقى معنا.. سيكون هذا رائعًا.. »

قال أبي بصوت عال:

- « لو أن المدام وثقت بأن تترك طفلتها لعناية ابنتى ومربيتها مدام (بيرودون).. وسمحت لي بأن أستضيفها حتى تعود، فإن هذا سيكون تفضلًا منها علينا.. ولسوف نعني بها بكل ما تستحقه الثقة التي وضعتها فينا.. »

قالت المرأة في شرود:

- « هذا ليس بوسعى يا سيدى.. هذا عبء على كرمك وفروسيتك »

- « بل هو على العكس كرم عظيم يأتينا في الوقت الذي احتجنا إليه فيه.. لقد أحبطت ابنتى بسبب سوء حظ أدى لفشل زيارة كانت تتوقع منها سعادة جمة.. إن أقرب قرية بعيدة جدًّا وليس بها مكان يليق بابنتك.. وليس بوسعك جعلها تسافر أية مسافة دون أن تتعرض للخطر.. »

كان هناك شيء في تلك المرأة شديد التميز.. شديد الجلال.. تشعرك بأنها شخص ذو حيثية بصرف النظر عن فخامة عربتها.

في هذا الوقت عادت العربة لوضعها وتم ربط الخيول من جديد.

ألقت السيدة نظرة خالية من العاطفة على ابنتها، تتناقض مع ما يتوقعه المرء من بداية المشهد، ثم أشارت لأبي إشارة خفيفة وانتحت به بعيدًا عن مسمعنا.. حيث وقفت تهمس له بوجه صارم يختلف عن ذلك الذي كانت تتكلم به.

دهشت لأن أبي لم يلحظ التغيير، كما كنت أرغب بشدة في معرفة ما يقال في أذنه بهذه الجدية.

انتهت خلال ثلاث دقائق فمشت بضع خطوات إلى حيث كانت ابنتها راقدة، وركعت جوارها لتهمس في أذنها بضع كلمات كأنها تمنحها البركة وقبلتها على عجل، ثم صعدت إلى عربتها..

فرقع الحوذيان بسوطيهما فانطلقت الخيول مسرعة.. يتبع العربة هذان الفارسان في المؤخرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث
نحن نقارن الذكريات

راقبنا بعيوننا العربة حتى غابت عن بصرنا في الغابات التي غمرها الضباب.. وتلاشى صوت الحوافر في الليل الصامت.

لم يبق من شيء يؤكد لنا أن المغامرة لم تكن وهمًا سوى الفتاة التي استطاعت أن تجلس وفتحت عينيها. لم أر وجهها لأنه كان ينظر للجهة الأخرى وسمعت صوتًا عذبًا يقول:

- « أين ماما؟ »

أجابتها المدام (بيرودون) الطيبة وهدأت من روعها. أخيرًا بدأت الفتاة تفهم وتتذكر ما حدث، وسرها أن أحدًا لم يصب بأذى.. وإذ عرفت أن أمها رحلت وتركتها هنا، حتى تعود بعد ثلاثة أشهر بدأت تبكى..

كنت على وشك التدخل عندما وضعت مدموازيل (دى لا فونتين) يدها على ذراعي، وقالت:

- « لا تقتربي.. يكفيها شخص واحد في المرة حتى لا يصيبها الذعر »

في الوقت ذاته أرسل أبي خادمًا على حصان؛ ليحضر الطبيب الذي يعيش على بعد فرسخين، وتم إعداد غرفة للسيدة الشابة.

كانت غرفة المعيشة عندنا غرفة كبيرة ذات أربع نوافذ تطل على الخندق والجسر المعلق ومشهد الغابة الذي وصفته. كانت مبطنة بخشب البلوط والمقاعد مغطاة بالقطيفة الحمراء.. بينما يكسو الجدران نسيج من الكنفاه تحيط به

إطارات مذهبة كبيرة.. هنا كنا نتناول الشاي لأن أبي كان يصر على أن نتناول مشروبنا الوطني بانتظام مع القهوة والمشروبات الأخرى.

هناك جلسنا في تلك الليلة نتكلم عن مغامرة المساء، وكانت الغريبة قد دخلت الفراش فغابت في نوم عميق..

قالت المدام:

- « هذه الفتاة أجمل مخلوقة رأيتها في حياتي.. وهي في ذات سنك.. وما أجمل صوتها! »

تساءلت المدموازيل:

- « هل رأيتم امرأة في العربة بعد أن أعادوا تقويمها؟ امرأة لم تغادر العربة قط بل اكتفت بالنظر من النافذة؟ »

لا. لم نر امرأة كهذه..

وصفت لنا امرأة مخيفة تلبس السواد وتضع على رأسها ما يشبه العمامة.. لها عينان واسعتان لامعتان لم تكفا عن النظر من النافذة..

- « هل لاحظتم شكل الخدم المخيف؟ »

قال أبي الذي دخل الغرفة:

- » نعم.. قبيحو الوجه لهم سحنة آثمة.. أرجو ألا يسرقوا السيدة البائسة في الأحراش.. لكنهم بارعون برغم هذا.. »

- « آمل أن السيدة الصغيرة ستخبرنا بالقصة كلها عندما تصحو غدًا.. »

- » لا أحسبها فاعلة »

قالها أبي بابتسامة غامضة وهزة رأس، كأنه يعرف أكثر مما يقول.

عندما انفردت به سألته عما قالته له السيدة عندما انتحت به جانبًا، فلم يقتض الأمر الكثير من الضغط عليه..

قال أبي:

- « كانت محرجة لأنها ستضايقنا بابنتها، وقالت إن ابنتها هشة حساسة لكنها لا تصاب بنوبات.. وإنها عاقلة جدًّا لا تتوهم أشياء! »

- « ما أغرب هذا الكلام! لا ضرورة له! »

- « أيًّا كان رأيك فهذا ما قالته.. وأضافت أن ابنتها لن تلفظ حرفًا عن حقيقتهم.. واضح أنها تجيد الفرنسية.. أدعو الله ألا أكون قد تسرعت أو ارتكبت عملًا أحمق باستضافتي الفتاة.. »

بالنسبة لي كنت مشتاقة للكلام معها ما إن يسمح لى الطبيب بذلك..

أنتم يا من تعيشون في المدن، لا يمكنكم تصور لذة تعرف شخص جديد وسط العزلة التي تحيط بنا.

جاء الطبيب في الواحدة صباحًا لكني كنت عاجزة عن النوم..

قال لنا أخبارًا مطمئنة عن الفتاة، وقال إنها بخير حال.. لا مشكلة في أن أراها الآن لو أردت.. هكذا طلبت مقابلتها

فخرجت لي الخادمة التي كانت ترافقها تخبرني أنها موافقة تمامًا..

كانت ضيفتنا ترقد على فراش في أجمل غرفة في القلعة.. قطع من المخمل ولوحات في كل ركن.. وجوار الفراش شموع.. كانت جالسة وجمالها المذهل يحيط به ثوب نوم حريرى موشى بالأزهار.

لكن ما الذي جعلني أدنو من الفراش ثم أخرس، وأتراجع للخلف؟ سأقول لك..

لقد رأيت ذات الوجه الذي زارني ليلًا في طفولتي، والذي ظل ثابتًا في ذاكرتي يلهمني الرعب أعوامًا..

نفس الوجه الجميل.. وعليه ذات التعبير المليء بالشجن..

لكن سرعان ما تحول هذا إلى ابتسامة معرفة لطيفة.. ساد الصمت، ثم قالت:

- » يا للروعة! منذ اثني عشر عامًا رأيت وجهك في أحلامي وظل يسكن فيها منذ ذلك الحين «

تغلبت على شعور الرعب، وقلت:

- » ومنذ اثني عشر عامًا رأيت وجهك في رؤيا حقيقية.. «

ازدادت ابتسامتها نعومة.. لقد ذهب كل ما حسبته غريبًا فيها.. عاد لي الاطمئنان ورحبت بها.. أخبرتها كم أن قدومها قد جلب لنا السعادة..

أمسكت بيدها وأنا أتكلم.. كنت خجولًا ككل الوحيدين لكن الموقف جعلني طلقة اللسان بل جريئة.. لمعت عيناها ونظرت لي واحمر وجهها..

جلست جوارها، فقالت:

- « يجب أن أخبرك برؤياي بصددك.. من الغريب أن كلًّا منا رأت الأخرى بهذا الوضوح.. كنت طفلة في السادسة من عمري وصحوت من نوم متقلب لأجد أنني في غرفة تختلف عن غرفتى.. بها خزانات ثياب وأدراج ومقاعد.. كانت الأسرة خالية ولا أحد في الغرفة سواي.. نظرت حولى فراق لى شمعدان حديدى ذو فرعين. وزحفت تحت فراش كي أبلغ النافذة لكن ما إن خرجت من تحته حتى سمعت بكاء.. نظرت لأعلى بينما أنا بعد على ركبتي، رأيتك أنت.. بالتأكيد أنت.. كما أراك الآن.. فتاة جميلة ذات شعر ذهبي وعينين زرقاوين واسعتين.. رأيتك كما أراك الآن.. قهرني جمالك فصعدت إلى الفراش لأطوقك بذراعي وأعتقد أننا نمنا على الفور.. فجأة صحوت على صرخة.. كنت أنت جالسة تصرخين.. أصابني الرعب ووثبت إلى الأرض.. ويخيل لي أنني فقدت الوعى، لكن عندما صحوت من جديد كنت في غرفة حضانتي ثانية.. لم أنس وجهك منذ ذلك الحين.. »

الآن جاء دوري كي أحكى ذكرياتي، فراحت الفتاة تصغى لها مندهشة..

قالت:

- « لا أدرى من منا أجدر بالخوف من الأخرى.. لو أنك كنت أقل جمالًا لأصابني الرعب منك.. لكن والحال كذا فإنني

أشعر أننا تعارفنا منذ اثني عشر عامًا.. كأن قدرنا كان أن نكون صديقتين منذ طفولتنا.. لم أظفر بأصدقاء قط فهل يمكن أن نكون كذلك؟ »

ونظرت لي عيناها السوداوان في لهفة.

كنت أشعر بانجذاب نحوها بالفعل.. خالط هذا نوع من النفور.. لكن الانجذاب كان هو الأقوى..

شعرت بأن نوعًا من الوهن والإرهاق يباغتها فقلت لها مساء الخير وأخذت في الانصراف بسرعة.. وقلت لها:

- « الطبيب يرى أنه من الحكمة أن تجلس خادمة معك الليلة.. سوف تحبين هذه الخادمة فعلًا.. »

- » هذا لطيف منكم.. لكني لا أستطيع النوم أبدًا عندما يكون هناك شخص في الغرفة معي.. لا أريد عونًا.. لكنى برغم هذا أخاف اللصوص فعلًا، فقد سُرق بيتنا ذات مرة وقتل خادمان.. لذا أغلق حجرتي عليّ ليلًا.. صارت هذه عادة.. أعتقد أننى أرى مفتاحًا في ثقب الباب.. »

ثم عانقتني وهمست في أذني:

- » عمت مساء يا عزيزتي.. من الصعب أن أتركك لكننا سنلتقي غدًا.. »

وغاصت في الوسادة وراحت عيناها تتابعانى..

تأثرت كثيرًا بالعاطفة الحارة التي أظهرتها نحوى.. برغم أنني لا أستحقها..

وجاء اليوم التالي والتقينا.. كان جمالها كما رأيته كاملاً.. إنها أجمل من رأيت في حياتي. وبالتأكيد نسيت تلك الذكرى المرعبة، وهي أيضًا اعترفت أنها عاشت ذكرى مماثلة، لذا ضحكنا كثيرًا، ونحن نسترجع أوهامنا السابقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع
عاداتها.. ونزهة قصيرة

قلت لكم إننى فتننت بها.. لكن بعض أشياء منها لم ترق لي..

كانت أطول قامة من المتوسط المعتاد للنساء. كانت نحيلة حلوة الشمائل، فيما عدا أن حركاتها كانت متثاقلة بطيئة.. بطيئة جدًّا.. لا شيء في مظهرها يوحى بقلة الكفاءة، فقد كانت ملامحها جميلة متناسقة، وكان شعرها رائعًا ثريًّا وطويلًا لونه بني داكن جميل فيه لمسة من ذهب..

وفي غرفتها كانت تجلس على مقعدها وتتكلم بصوت عذب خافت.. رباه! لو كنت أعرف!

قلت إن هناك أشياء لم ترق لي.. مثلًا كانت متحفظة دومًا بصدد نفسها وأمها وأسرتها وكل ما يتعلق بها.. يجب أن أعترف أنني كنت أفتقر للحكمة.. كان على أن أحترم نصيحة السيدة ذات الرداء المخملي التي قالتها لأبي.. لكن الفضول عاطفة لا تكل ولا تمل، ما من فتاة تحتمل ألا يُروى هذا الفضول.. ما الضرر في أن تخبرني بما كنت أتحرق شوقًا لمعرفته؟ هل هي لا تثق بي؟

لم لا تثق بي وقد وعدتها أنني لن أفشى حرفـًا مما تخبرني به لكائن أرضى يتنفس؟

كان لديها برود يتجاوز سنها، في ابتسامتها وفي رفضها أن تمنحنى بصيص نور..

لا أستطيع القول إننا تشاجرنا بصدد هذا.. وكان من سوء الخلق أن ألح عليها لكن لم يكن هذا بوسعى.. كل ما سمحت لي بمعرفته ثلاثة أشياء: اسمها (كارميللا).. أسرتها عريقة نبيلة.. منزلها يقع غربًا..

لم تخبرني باسم أسرتها ولا شعار نبالتها ولا حتى بلدهم..

لا تتوقع أني ضايقتها بأسئلتي.. فقط رحت ألمح ومرة أو اثنتين سألتها بشكل مباشر.. لكني كنت أفشل في كل الظروف.. لكنها كانت تصاحب امتناعها هذا بنوع من الحزن الراقي وإظهار ثقتها فيّ بحيث لم أكن أتضايق منها..

- « لا تتعبي نفسك يا حبيبتي ولا تسألي عنى.. فقط ثقى بى.. »

كانت كلماتها ومخاوفها غامضة بالنسبة لي، وكانت تعانقني من حين لآخر فأشعر برغبة غريبة في التحرر منها لكني لا أجد القوة.. كانت كلماتها تبدو لأذنى كأنها أغنية مهد وكانت تجعل مقاومتى شبه نعاس.. لا أفيق منه إلا حين تبعد ذراعيها عنى..

ثمة شعور مبهم بالنفور لكني كنت أدرك أن حبي لها يصل لدرجة الهيام، مع مقت شديد.. أعرف أن هذا تناقض لكن ليس بوسعي أن أشرح مشاعرى بلغة أوضح.

الآن بعد عشر سنوات أكتب هذا ويدى ترتجف إذ أتذكر الأحداث التي كنت أمر بها ولا أدرك كنهها.. أشياء كهذه أتذكرها بصعوبة برغم وضوح باقي تفاصيل قصتي.. أعتقد أن في حياتنا أحداثًا عاطفية صاخبة تصير وسط الذكريات الأخرى باهتة شبه منسية.

كانت تمسك بيدى وتقول:

- « أنت لي.. سوف تكونين لي.. وأنا وأنت سنكون واحدًا للأبد.. »

ثم تسقط في مقعدها ويداها الصغيرتان على عينيها، تاركة إياى أرتجف..

وكنت أسألها:

- » هل نحن قريبتان؟ ماذا تقصدين؟ أنا لا أعرفك ولا أعرف نفسي حينما تتكلمين بهذه الطريقة »

لم أستطع قط أن أكون نظرية مرضية بصدد هذه اللحظات الغريبة.. لا أستطيع أن أفسرها بالخداع أو بشدة الحب..

ترى هل تزورها لحظات جنون نتيجة لإهمال أمها المتعمد لها؟ أم أن هذه لعبة من ألعاب التخفى التي قرأت عنها في كتاب قديم؟

ماذا لو أن ولدًا عاشقًا تخفى في ثوب فتاة وجاء بيتنا بمساعدة تلك المغامرة البارعة المسنة؟ لكن كانت هناك أشياء كثيرة تدحض هذه الفرضية.. كانت فتاة تمامًا تتصرف كفتاة.. وكانت واهنة بشكل يتناقض مع فكرتي عن الرجال.

في نواح أخرى كانت طباعها غريبة.. ليس بالنسبة لسيدة مدنية مثلك، لكنها كذلك بالنسبة للريفيين من أمثالنا.. كانت تصحو من نومها متأخرًا جدًّا.. ليس قبل الواحدة ظهرًا.. ثم تتناول الشيكولاته الساخنة ولا تأكل.. ثم نخرج في نزهة.. عندها كانت تظهر التعب بسرعة وتعود للقلعة أو تجلس على أحد

المقاعد بين الأشجار. لم أر في حياتي من يقهره التعب بسرعة مثلها.

كان هذا تعبًا جسديًّا خالصًا لا يعترف به عقلها، لأنها كانت تتكلم بطلاقة وذكاؤها لا يهن لحظة.

جلسنا هناك ذات عصر فمرت بنا جنازة.. كانت جنازة فتاة جميلة شابة.. ابنة أحد حراس الغابة عرفتها.. وكان أبوها المسكين يمشى وراء تابوت ابنته وقد تحطم قلبه تمامًا إذ كانت ابنته الوحيدة.

وقفت كي أظهر احترامي وشاركت في النشيد الجنائزي الذي بدا لي عذبًا، هنا هزتني صاحبتى بنوع من الخشونة فاستدرت لها. قالت في جفاء:

- « ألا تسمعين مدى نشاز هذا اللحن؟ »

قلت لها:

- « بل أعتقد أنه عذب.. »

وكنت متضايقة من مقاطعتي، وخشيت أن يسمعنا الناس في الموكب المار أمامنا. عدت للغناء فقالت (كارميللا):

- « أنت تثقبين أذنى.. ثم كيف تعرفين أن ديني ودينك متماثلان؟ إن طقوسكم لا تروق لي وأنا أكره الجنازات.. لماذا؟ سوف تموتون.. الكل سيموت.. والكل سيكون أكثر سعادة عندما يفعل ذلك! »

- « تعرفين أنها ستدفن اليوم.. »

- « هي؟ لا أبالي بالفلاحين.. ولا أعرف من هي.. »

- « هي فتاة بائسة رأت شبحًا منذ أسبوعين.. ومن لحظتها تحتضر حتى ليلة أمس »

- « لا تتكلمي عن الأشباح.. فلن أنام الليل لو فعلت »

- « أتمنى ألا يكون هذا وباء قادمًا.. لقد ماتت زوجة مربى الخنازير منذ أسبوع.. وقد اعتقدت أن شيئًا أمسك بحنجرتها وهي نائمة وكاد يخنقها.. يقول بابا إن هذه الرؤى تسبق الأوبئة.. »

- « لحسن الحظ أنها ماتت ولن تؤذي آذاننا بأناشيدها الجنائزية النشاز.. هلمى اجلسى جوارى وامسكى بيدى.. اضغطي. اضغطي أكثر.. »

فجأة مر بوجهها تغيير أثار رعبي للحظة.. لقد اربد ثم احمر بشكل مروع.. وقطبت وزمت شفتيها.. ثم راحت ترتجف كأنها مصابة بالملاريا.. بدا كأن كل طاقاتها حشدت لمقاومة نوبة، وسمعت صرخة بعيدة من شفتيها.. وفي النهاية بدا أنها تهدأ وأن نوبة الهستيريا زالت.

ثم قالت:

- « هذه هي نتيجة خنق البشر بأغان جنائزية! »

كانت هذه أول مرة أرى فيها علامات الوهن التي تكلمت عنها أمها.. أول مرة أراها تتصرف بهذه الطريقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات مرة كنا نقف في النافذة الموجودة بغرفة المعيشة عندما رأيت في فنائنا متسكعًا أعرفه جيدًا.. كان يزور القلعة مرتين في العام. كان أحدب له ملامح معينة تصاحب هذا التشوه.. وكان يرتدى قبعة مدببة ويضحك ضحكة عريضة تظهر نابيه.. ومن خلفه كان يجر فانوسًا سحريًّا وصندوقين، أعرف أن في أحدهما سلامندر[2] والآخر به وحش ملفق صنعه من قطع من القردة والببغاوات وخيطها بعناية.. ومن حزامه تتدلى أشياء كثيرة يستعملها في عروض الحواة.. وإلى جواره كلبه.

توقف المشعوذ عند منتصف الجسر ونزع قبعته وانحنى لنا في احترام قائلًا شيئًا بالفرنسية.. ثم أخرج كمانًا وراح يعزف في نشاط وحيوية حتى جعلني أنفجر ضحكًا برغم نباح الكلب..

دنا من نافذتنا، وبدأ يعرض علينا بضاعته السحرية من تعاويذ لصد الشرور عنا.. فاشترت (كارميللا) تعويذة وكذا فعلت أنا..

كان ينظر لنا.. لحظة شعرت أن عينه السوداء تحملق فينا بتدقيق كأن هناك شيئًا أثار فضوله.. ثم مد يده يفتح حقيبة جلدية مليئة بغرائب الأدوات المعدنية..

- « فليأخذ الله هذا الكلب! » ثم وجه الكلام لي « أنا أجيد يا سيدتي ضمن أشياء كثيرة فن علاج الأسنان.. إن ضيفتك الكريمة كما أرى لها أنياب طويلة حادة.. حادة كالإبرة.. بنظرتي الثاقبة أرى هذا.. ها ها!! فإن كان يؤذى السيدة الصغيرة كما أعتقد فهأنذا.. بمبردى وكلابتي.. لأجعله غير مدبب ثلمًا.. هذا لو سمحت لي.. هل تجرأت؟ هل تجاوزت حدودى؟ »

بالفعل بدا أن السيدة الصغيرة غاضبة جدًّا وهي تنسحب من النافذة.

قالت في حنق:

- « كيف يجرؤ هذا المشعوذ على إهانتي؟ أين أبوك ليأخذ بحقى؟ لو كان أبي هنا لربط هذا النصاب إلى شجرة وأمر بجلده، ثم وسمه بشعار القلعة! »

ثم بدأت تهدأ فجأة..

عندما عاد أبي في المساء كانت معنوياته منخفضة.. أخبرنا أن هناك حالة وفاة أخرى كسابقاتها.. لقد مرضت أخت فلاح في إقطاعيته ومن الواضح أنها قد قاربت النهاية.

قال أبي:

- « كل هذه الوفيات أسبابها طبيعية.. هؤلاء البؤساء ينقلون عدوى الخرافات لبعضهم من ثم يتخيل كل منهم ذات صور الرعب التي رآها جيرانه.. على كل حال نحن بين أيادي الله وما من شيء مكروه يمكن أن يصيبنا إلا ما كتب لنا.. إنه خلقنا وهو يرعانا.. »

قالت صديقتي الشابة:

- « خلق؟ هذا المرض الذي يهاجم الفلاحين طبيعى.. الطبيعة! كل شيء يأتى منها.. كل ما في الأرض والسماء يعمل ويوجد حسب قوانين الطبيعة.. أليس كذلك؟ »

قال أبي من دون أن يرد عليها:

- « سوف يأتي الطبيب اليوم.. أريد أن أعرف ما يفكر فيه.. »

قالت (كارميللا):

- « الأطباء لم يفيدوني قط »

- « هل كنت مريضة؟ »

- « مريضة جدًّا.. أكثر مما تتصور.. أصبت بذات الداء لكني نسيت كل شيء ما عدا الألم والوهن.. »

وطوقت خصري وغادرنا الغرفة بينما انهمك أبي في دراسة بعض الأوراق على المكتب.

جاء الطبيب في ساعة متأخرة واجتمع مع أبي بعض الوقت.. كان رجلًا بارعًا في الستين يحلق وجهه ليصير ناعمًا كاليقطينة.. وعندما غادرا كان السرور باديًا على أبي..

قال الطبيب:

- « على كل حال لا تنس أن الحياة والموت أمران غامضان لا نعرف عنهما شيئًا »

وانصرفا.. لم أعرف وقتها ما يعنيه الطبيب.. لكن أحسبني فهمت الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس
تشابه مدهش

في تلك الليلة وصل من (جراتس) ابن منظف الصور وهو يركب عربة يجرها حصان، عليها صناديق امتلأت بالصور.. عندما يصل زائر من (جراتس) كنا نلتف حوله لنسمع آخر الأخبار.

كانت الخادمات يستقبلنه أولًا ويسمعن منه الأخبار وهو يلتهم العشاء، ثم نقابله نحن وهو في الممر مسلحًا بالمطرقة والإزميل ليعلق الصور.. بينما أبي يمسك بقائمة بها أرقام الصور التي أخذها الرجل لينظفها.

كانت (كارميللا) جالسة ترقب المشهد في فتور.. بينما راحت الصور التي أرسلناها له لتجديدها تعلق واحدة تلو أخرى. إن أمي نمساوية من أصل مجرى وكانت أكثر الصور في دارنا تخصها.. لا أعتقد أن الصور كانت جميلة لكنها بالتأكيد كانت قديمة جدًّا.. بعضها كنت أراه لأول مرة بعد التجديد لأن الدخان والغبار كان يحجبها..

قال أبي:

- « ثمة صورة لم أجدها بعد.. على ركنها تجد اسمها.. (مارشا كارنشتاين).. بتاريخ ١٦٩٨.. »

تذكرت الصورة.. كانت صورة صغيرة شبه مربعة بلا إطار.. لكنها كانت مغطاة بالسواد بحيث لا تميز شيئًا منها..

أخرجها منظف اللوحات في نوع من الفخر وعرضها علينا... كانت مذهلة.. كانت الجمال بعينه! كانت نسخة أخرى من (كارميللا)!

صحت في دهشة:

- » (كارميللا) يا عزيزتي! إنها لمعجزة! هأنت ذي حية في هذه الصورة.. أليست جميلة يا بابا؟ حتى تلك الوحمة فوق حنجرتها! »

ضحك أبي، وقال:

- « بالفعل هو تشابه مدهش.. »

- « هلا سمحت لي بتعليقها في غرفتي يا بابا؟ »

- « بالطبع يا عزيزتى.. »

لم يبد على (كارميللا) أي تقدير لهذه المحادثة.. وبدا كأنها لم تسمعها.. كانت مسترخية في مقعدها تنظر لي في تأمل.. وابتسمت في نوع من الانتشاء.

أعدت قراءة الاسم:

- « ليس (مارشا).. إنه (ميركالا) كونتيسة (كارنشتاين).. إن أمي من نسل (كارنشتاين).. أي إنني أنتمي لهم »

قالت الفتاة:

- « آه. وأنا منهم.. لكنه نسب قديم جدًّا.. هل ما زال هناك أحياء بينهم؟ »

- « لا أحد.. لقد فنت الأسرة في الحروب الأهلية على قدر علمي.. لكن خرائب قلعتهم على بعد ثلاثة أميال من هنا »

قالت في تراخ:

- » رائع! لكن انظري إلى ضوء القمر! كم هو جميل! ما رأيك في أن نقوم بجولة لنشاهد الطريق والنهر؟ »

- « إنها مثل الليلة التي جئتنا فيها »

نهضت وخرجنا معًا.. وفي صمت مشينا عبر الجسر..

- « إذن تذكرين ليلة مجيئي.. هل أنت سعيدة بذلك؟ »

قالتها بصوت كالهمس.. فقلت:

- « مسرورة جدًّا يا عزيزتي.. »

- « وقد طلبت أن تعلقى الصورة في غرفتك لأنها تشبهني؟ »

وأراحت رأسها على كتفى فقلت لها:

- « أنت رومانسية جدًّا يا (كارميللا).. لو حكيت لي قصتك التي تخفينها لوجدنا أنها مليئة بالرومانسية.. لا بد أن هناك قصة حب كبيرة في حياتك.. »

- » لم أحب أحدًا قط.. لو أحببت لاخترتك أنت! إننى أعيش فيك.. ولسوف تموتين من أجلي.. فأنا أحبك! »

تراجعت عنها في رعب..

كانت تنظر لي بوجه خلا من كل تعبير وكل لون..

- « هل أنت بخير يا (كارميللا)؟ يبدو لي أنك موشكة على فقدان الوعي.. »

- « نعم.. أنا كذلك.. سوف أستعيد صحتى بعد قليل.. فقط دعينا نعد »

وعلى الباب قالت:

- « دعينا نلق نظرة أخيرة.. إنها المرة الأخيرة على الأرجح التي أرى فها ضوء القمر معك »

بدأ الرعب ينتابني من أن تكون أصيبت بذلك الوباء الغامض الذي يغزو البلاد من حولنا. لكنها طمأنتني أنها بخير، ومرت الليلة من دون أن تصيبها نوبات الافتتان تلك التي تصيبني بالرعب..

لكن حدث في تلك الليلة شيء جعل أفكاري تتخذ منحنى جديدًا.. ويبدو أن هذا الشيء جعل خمولها الملحوظ يتحول لنوع من النشاط العابر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس
رعب غريب

عندما اجتمعنا في غرفة المعيشة، رحنا نحتسي القهوة والشيكولاته مع المربيتين لكن (كارميللا) لم تشارك.. ثم رحنا نلعب الورق.. وجاء أبي ليظفر بما يسميه (طبق الشاى).

انتهت اللعبة فجلس أبي جوار كارميللا على الأريكة وسألها عما إذا كانت سمعت أخبارًا عن أمها منذ وصولها.

- « لا.. »

سألها عن عنوان مناسب للمراسلة.. فأجابت في غموض:

- « لا أستطيع أن أجيب.. لكنني كنت أفكر في الرحيل.. أنتم ودودون جدًّا مضيافون وقد سببت لكم متاعب جمة.. أعتقد أن بوسعي أن آخذ عربة وأبحث عنها غدًا فأنا أعرف أين يمكن أن تكون لكن ليس بوسعي أن أخبركم »

- « لا يجب أن تفكري في شيء كهذا.. لن أسمح برحيلك إلا تحت رعاية أمك التي تكرمت بالموافقة على تركك هنا حتى تعود.. لكن هذه الليلة يتزايد ذلك الوباء الغريب الذي يغزو الجيرة، وإننى لأشعر بمسئولية خطيرة خاصة مع افتقارى لنصائح أمك.. لكني لن أسمح برحيلك من دون توجيه مباشر منها.. »

أجابت وهي تبتسم في حياء:

- « شكرًا لك ألف مرة يا سيدى على كرم ضيافتك.. لم أشعر قط بالسعادة كما شعرت بها في قصرك الجميل.. في رفقة

ابنتك العزيزة »

ثم إنه نهض وبطريقته القديمة الفخمة لثم يدها.

رافقت (كارميللا) كعادتي لغرفتها، وجلست أثرثر معها قبل أن تدخل الفراش، ثم تركتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتساءل إن كانت ضيفتنا الجميلة لا تصلى أبدًا.. لم أرها راكعة قط وفي الصباح لم تكن تنزل حتى تنتهي صلوات أسرتنا.. ولم تحضر قط صلاة المساء معنا. لم أسمعها قط تتكلم في أي شيء ديني.. لو كنت أعرف العالم أكثر لما أثار دهشتي هذا التجاهل.

إن طباع الناس العصبيين معدية؛ لذا اكتسبت من كارميللا عادة إغلاق غرفة النوم عليّ ليلًا.. وتعلمت منها البحث السريع في حجرتي كي أتأكد من عدم وجود سفاح مختبئ.

هكذا كنت أخلد للنوم مع ضوء في غرفتي.. تلك عادة يصعب أن أتخلص منها.. هكذا بوسعي أن أنال راحتي في سلام.. لكن الكوابيس تخترق الجدران الصخرية، وتسخر من الأقفال.

رأيت حلمًا مخيفًا في تلك الليلة.. لا أستطيع أن أعتبره كابوسًا لأني كنت مدركة أنني في غرفتي وفي فراشي.. كنت أرى شيئًا أسود يتحرك عند قدمي في الفراش.. لم أتبين كنهه أولًا ثم أدركت أنه يبدو كقطة سوداء عملاقة.. كانت تروح وتجيء بذلك القلق الشرير الذي يميز الوحوش الحبيسة في قفص.. لم أستطع الصراخ لكنى كنت مذعورة طبعًا..

كان يدنو منى أكثر فأكثر.. حتى لم أعد أرى إلا عينيه.. ثم صعد إلى الفراش وعيناه قرب وجهي، ثم شعرت بألم إذ اخترق ناباه المتباعدان بوصة صدري..

صحوت صارخة لأجد أن الشمعة تضيء الغرفة.. رأيت خيال أنثى تقف عند قدم السرير.. كانت في ثوب أسود واسع وشعرها يغطى كتفيها.. ما كانت الصخرة لتقف بثبات أكثر.. لم تبد منها أية علامة على التنفس..

وفجأة بدا أنها تقترب من الباب.. الباب ينفتح وهي تعبر منه..

استعدت قدرتي على التفكير، فكان أول ما خطر لي أن كارميللا كانت تلعب حيلة معي.. جريت للباب ففوجئت به موصدًا كما هو من الداخل..

خفت أن أفتحه وأصابني الرعب..

دخلت فراشي وتدثرت بأغطيتي حتى الصباح..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع
الانحدار

لا جدوى من محاولة أن أشرح مدى الرعب الذي أذكر به تلك الليلة حتى اليوم. لم يكن رعبًا لحظيًّا كالذي تخلفه الكوابيس إنما هو رعب ينمو مع الزمن، وبدا كأنما يتصل بالغرفة التي شهدت ذلك الظهور الشبحي.

لم أستطع في اليوم التالي أن أتحمل لحظة وحدة، لكني لم أخبر بابا.. اكتفيت بأن أخبر المربيتين بما يثقل على روحي.

ضحكت المدموازيل لكن أعتقد أن مدام (بيرودون) شعرت بقلق.

قالت المدموازيل:

- « بالمناسبة.. إن ممر شجر الزيزفون وراء نافذة غرفة كارميلا مسكون! »

قالت المدام:

- « كلام فارغ! من قال هذا؟ »

- » (مارتين) قال إنه جاء مرتين عند بوابة الفناء قبل الشروق، فرأى نفس الشبح الأنثوى يمشى في طريق أشجار الزيزفون.. كان خائفا جدًّا وهو يحكى لى.. لم أر في حياتي أحمق خائفًا مثله.. »

قلت:

- « لا تقولي هذا لكارميللا.. فهي ترى هذا الممر من نافذتها وهي أكثر منى جبنًا »

جاءت (كارميللا) متأخرة نوعًا هذا اليوم. كانت تحكى عن كابوس داهمها ليلًا إذ رأت شيئًا أسود كالنمر الكبير في غرفة نومها، وأنه انقض عليها لكنها أمسكت بتلك التعويذة التي اشترتها من الأحدب ووضعتها تحت الوسادة، فاختفى ذلك الشيء.

كنت قد تركت تعويذتي في مزهرية في غرفة المعيشة..

اليوم لا أذكر بالضبط كيف استجمعت شجاعتي لأنام في غرفتي ثانية وحدى.. لكني قمت بتثبيت التعويذة على وسادتي ونمت كما لم أنم من قبل..

مرت الليلة التالية على خير كذلك.. كان نومي عميقـًا بلا أحلام.. لكني صحوت شاعرة بأسى وشجن وإن لم يكن هذا شعورًا سيئًا..

حكيت لكارميللا القصة فقالت إنها لم تر كوابيس هي الأخرى..

- « ما سبب هذا في اعتقادك؟ مم صنعت هذه التعويذة؟ »

- « لابد أنها غمست في عقار معين يعمل ترياقًا للبرداء (الملاريا).. »[3]

- « أي أنه يؤثر على الجسد فقط؟ »

- « طبعًا.. لا يمكن أن تخاف الشياطين من قطعة جلد لها رائحة الصيدليات.. لا يوجد سحر في الموضوع.. كل شيء يمكن

تفسيره بأسباب طبيعية »

هكذا تعددت تلك الليالي التي أنام فيها جيدًا ثم أصحو بشعور شجن غريب. بدأت فكرة الغوص لأسفل تستحوذ عليّ وبدأت أشعر بأنني أموت.. وقبلت هذه الفكرة ببطء شديد.. حتى لو كانت حزينة فقد شعرت روحى بعذوبتها..

ظلت كارميللا لطيفة معى، وإن ازدادت لحظات توددها الغريبة نحوى..

لا أعرف كيف حدث هذا، لكنى كنت تحت وطأة أغرب مرض كتب لشخص فان أن يراه.. كنت مفتونة به حتى بدأ نوع من الرعب يخالطه.. كان هذا الشعور يزداد عمقًا حتى صبغ كل حياتي..

بدأت النقطة التي عندها رحت أهبط في فوهة (أفرنوس Averno)[4] .. وبدأت أحلام غامضة تزورني لا أذكر منها إلا القليل..

لقد مرت ثلاثة أسابيع على بداية هذا التدهور، وقد صار منظري الآن ينبئ عن معاناتي..

صارت عيناى واسعتين محاطتين بالسواد.. وشحبت جدًّا..

راح أبي يسألني عما إذا كنت بخير فكنت أصر بعناد على أننى كذلك.. وبشكل ما كان هذا صحيحًا فقد كان بدني سليمًا.. فقط تلك الأوهام التي أحتفظ بها لنفسي..

لا أعتقد أنه ذلك الداء الذي أطلق عليه الفلاحون هنا اسم (أويير oupire) لأنني مريضة منذ ثلاثة أسابيع بينما الداء لا

يترك ضحيته حية أكثر من ثلاث ليال.

سأحكي لك الآن حلمًا قادني لكشف غريب.

ذات ليلة سمعت في الظلام صوتًا ناعمًا وبرغم هذا كان شنيعًا يقول لي: « أمك تحذرك من السفاح.. »

وفي هذه اللحظة أضيئت الغرفة بشكل ما، ورأيت كارميللا في ثوب نومها الأبيض، وقد اغتسلت من قمة رأسها حتى أخمص قدميها في الدم!

نهضت صارخة وقد حسبتها قتلت، وكل ما أذكره بعد هذا هو وقفتي في الردهة أصرخ.

هرعت المربيتان لي من غرفتيهما، وأضاءتا مصباحًا فلما رأيتا مظهرى فهمتا..

أصررت على قرع باب كارميللا.. رحنا ندق الباب وننادى بلا جدوى..

ازداد رعبي، لأن الباب موصد من الداخل.. عدنا لغرفتي ورحنا ندق الجرس.. ما كان أبي ليسمع هذا الصوت لأن غرفته بعيدة.. وما كانت واحدة منا تجسر على قطع الممرات الرهيبة الواصلة إلى غرفته..

جاء الخدم وكنت قد ارتديت روبًا وخفًّا فواصلنا نداء (كارميللا) بلا جدوى..

طلبت من الرجال اغتصاب القفل.. ففعلوا ذلك بينما رفعنا أضواءنا عالية على الباب..

انفتح الباب فرأينا الغرفة بوضوح.. لم تكن هناك إجابة.. كل شيء كان مرتبًا كما تركتها عندما ودعتها مساء.. لكن (كارميللا) قد اختفت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن
البحث

بدأنا نهدأ نوعًا عندما وجدنا أن الغرفة غير مقلوبة.. وخطر للمدموازيل أن كارميللا صحت خائفة على صوت الدقات على الباب فتوارت تحت الفراش أو خلف ستار.. بالطبع لن تخرج ما لم ينصرف كبير الخدم ورجاله..

رحنا نناديها من جديد وقد ازداد رعبنا.. توسلت لكارميللا إن كانت تلعب لعبة سخيفة أن تقطعها لأن رعبنا شديد..

الآن كنت مقتنعة أنها ليست في الغرفة.. هذا غريب؟ هل تراها اكتشفت ممرًا سريًا من تلك الممرات التي قيل إنها تملأ القلعة؟.. إن كان الامر كذا فلسوف يتضح سريعًا..

كانت الرابعة صباحًا ففضلت أن أمضى بقية الليل في غرفة المدام..

كان القلق عامًا في اليوم التالي وتم تفتيش كل ركن في القلعة.. حتى بدأ أبي يفكر في نزح البحيرة.. وراح يفكر قلقًا فيما يقول للأم المسكينة لدى عودتها..

في الساعة الواحدة صعدت لغرفة كارميللا؛ فأصابني الذهول لأنها كانت هناك تجلس إلى منضدة التزين! لم أصدق عيني! كان الرعب على وجهها وأشارت لي في صمت كى أقترب..

جريت نحوها في سرور وعانقتها وقبلتها، ودققت الجرس منادية أبي..

- « أين كنت أيتها العزيزة؟ لقد قتلنا القلق عليك »

قالت:

- « ليلة البارحة كانت ليلة العجائب »

- « اشرحى لى »

- » في الثانية صباحًا كنت نائمة وراء الباب الموصد.. لم أحلم ولم يقلقني شيء.. لكني صحوت الآن لأجد نفسي على الأريكة.. وجدت باب غرفتى محطمًا.. كيف حدث هذا دون أن أستيقظ؟ لا بد أن الضوضاء كانت عالية.. كيف لم أصح أنا التي يوقظني النسيم ذاته! »

هنا دخل أبي والخدم الغرفة، وغرقت كارميللا في بحر من الأسئلة والتهاني.. لم يكن لديها أي تفسير لاختفائها، وما قالته كان أقل تفسير معقول..

راح أبي يذرع الغرفة مفكرًا فرأيت كارميللا تحدجه بنظرة طويلة سوداء..

اقتادها إلى الأريكة وجلس جوارها، وقال:

- « هلا سمحت لى يا عزيزتي بأن أسألك سؤالًا؟ »

قالت:

- « ومن لديه الحق أكثر منك؟ سل ما تريد.. لكن قصتي هي الحيرة والظلام.. لا أعرف أي شيء آخر.. سل ما تريد لكن تذكر الحدود التي وضعتها ماما.. »

- « بالطبع يا طفلتي العزيزة.. لا أريد التطرق للمواضيع التي ترغب أمك ألا نطرقها.. إن أعجب ما حدث ليلة أمس هو أنك

انتزعت من فراشك وغرفتك دون أن تستيقظى.. وهذا حدث والنوافذ موصدة والأبواب مغلقة من الداخل.. سوف أخبرك بنظريتي لكن لابد من سؤال أولًا.. »

خفضت كارميللا رأسها في عزيمة خائرة، بينما حبست أنفاسي أنا والمربية..

- « سؤالي هو: هل قيل لك أنك تمشين في نومك يومًا ما؟ »

- « منذ كنت طفلة لم يحدث هذا.. »

- « لكنك مشيت في طفولتك؟ »

- « نعم.. مربية عجوز أخبرتني بهذا.. »

ابتسم أبي:

- « حسن.. هذا ما جرى.. نهضت في نومك ومشيت وفتحت الباب وأخذت المفتاح معك.. ومشيت إلى واحدة من الحجرات الخمس والعشرين في هذا الطابق.. على كل حال هناك الكثير من الحجرات وخزانات الثياب وكثير من قطع الأثاث الثقيلة.. تفتيش هذا القصر يقتضي أسبوعًا كاملًا.. هل فهمت ما أريد قوله؟ »

أجابت:

- « فهمت.. لكن ليس كل شيء.. »

سألته:

- « لكن كيف تفسر يا بابا أن نجدها على الأريكة في غرفة النوم التي فتشناها بعناية؟ »

- « جاءتها بعدما فتشناها وكانت بعد نائمة.. في النهاية استيقظت تلقائيًّا ودهشت لما حدث لها أكثر من أي شخص آخر.. أتمنى لو كان تفسير كل الألغاز بهذا الوضوح والنقاء مثل لغزك يا (كارميللا). »

ثم ضحك وأردف:

- « يجب أن نكون سعداء لأن التفسير لا يشمل التخدير أو اقتحام الأبواب أو اللصوص أو الساحرات.. لا شيء يخيف يا كارميللا.. لن نقلق على سلامتنا »

كانت كارميللا في ذروة حسنها.. لم يكن شيء أكثر جمالًا منها في تلك اللحظة.. وهنها زادها جمالًا.. وأعتقد أن أبي كان يقارن في ذهنه سرًّا بين جمالها وجمالي..

على كل حال انتهت المحنة وعادت السعادة لنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع
الطبيب

لما كانت كارميللا ترفض وجود خادمة معها في الغرفة، رتب أبي أن ينام خادم خارج بابها حتى لا تحاول مرة أخرى أن تجول من دون أن يقبض عليها على باب غرفتها.

مرت الليلة هادئة، وفي الصباح جاء الطبيب ليراني، ولم يكن أبي قد أخبرني بهذا..

اصطحبتنى المدام إلى المكتبة وهناك كان الطبيب صغير الحجم بشعره الأبيض وعويناته - والذي تكلمت عنه من قبل - ينتظرني.

حكيت له قصتي فبدت الخطورة والجدية على ملامحه.. كنا واقفين في إحدى النوافذ يواجه أحدنا الآخر.. حينما انتهيت أراح كتفيه على الجدار وثبت عينيه عليّ باهتمام فيه لمسة رعب..

بعد دقيقة تفكير طلب من المربية أن تقوده ليرى أبي.

جاء أبي على الفور، وقال باسمًا:

- « أتوقع أن تقول لي يا دكتور إننى أحمق عجوز لأننى جلبتك هنا.. أتمنى هذا »

لكن ابتسامته تبخرت إذ أومأ له الطبيب بوجه لا هزل فيه.

انفرد بالطبيب وتكلما بعض الوقت.. بدا لي أنه موضوع جاد مثير للجدل..

كانت الغرفة واسعة وقد وقفت أنا والمدام بعيدًا نحترق من الفضول.. لم نميز كلمة واحدة لأن الصوت كان خفيضًا..

بعد دقيقة نظر أبي للغرفة. كان شاحبًا غارقًا في التفكير.. وأعتقد أنه كان مذعورًا.

قال لي:

- » لورا يا عزيزتى.. تعالي هنا.. مدام.. نحن لن نزعجك في الفترة التالية »

دنوت منهما خائفة.. كنت واهنة لكني بالتأكيد لم أشعر أني مريضة..

قال أبي وهو ينظر للطبيب:

- « هذا غريب فعلا.. (لورا).. تعالى هنا يا عزيزتى وكلمي د. (سبيلبرج).. واستعيدي ذكرياتك.. قلت إن هناك إبرتين اخترقتا جلدك قرب العنق في الليلة التي زارك فيها أول كابوس.. هل هناك ندوب باقية؟ »

أجبت:

- « بتاتًا.. »

- « هلا أشرت لنا إلى مكان دخول الإبرتين؟ »

أجبت:

- » تحت حلقي بقليل.. هنا »

قال الطبيب:

- « لن تمانعي في أن يكشف لنا بابا هذا الثوب لنرى موضع الإصابة »

أنزل بابا الثوب بوصتين تحت عنقى ثم صاح:

- » فليباركني الرب! إن الأمر كذلك فعلًا! »

قال الطبيب في لهجة انتصار كئيب:

- » تراه بعينيك الآن! »

بدأ الذعر ينتابني:

- » عم تتكلمان؟ »

- « لا شيء يا عزيزتي ماعدا بقعة زرقاء في حجم طرف إصبعك.. والآن.. »

ثم استدار لأبي يسأله:

- « السؤال المهم هو: ماذا علينا عمله؟ »

ثم نادى المدام وقال لها:

- « أرى أن صديقتي الصغيرة أبعد ما تكون عن الصحة.. لن يسبب هذا خطرًا لكن لا بد من اتباع خطوات معينة سوف أشرحها لك.. وفي الوقت ذاته لا تسمحى (لمس) لورا بأن تكون وحيدة لحظة واحدة.. هذا هو أهم توجيه لك.. »

وعدته المدام في حماسة ولهفة.

هنا سأله أبي:

- » يجب أن أعرف رأيك بصدد مريضة أخرى تشبه أعراضها أعراض ابنتى بشكل أخف بكثير، لكنها ذات النوع.. إنها تلك الشابة ضيفتنا.. لكنك تقول إنك ستمر من هنا مساء فمن الأفضل أن تتناول عشاءك معنا.. ولسوف تراها فهي لا تصحو من النوم إلا عصرًا.. »

قال الطبيب:

- « شكرًا.. سآتي هنا في السابعة مساء.. »

هكذا غادر أبي مع الطبيب، ورأيتهما يمشيان في الطريق وعبر الخندق.. ومن الواضح أنهما غارقان في محادثة مهمة جدًّا..

لم يعد الطبيب.. رأيته يمتطى حصانه راحلًا غربًا نحو الغابة..

في الوقت ذاته رأيت ساعي البريد القادم من (درينفلد) ينزل حمولته ويناول أبي الخطابات.

كنت منهمكة مع المدام نحاول تخمين ما لمّح له أبي والطبيب..

كما حكت لي المدام فيما بعد، فإنها شعرت كأن الطبيب كان يخشى أن أصاب بنوبة مفاجئة.. ولو لم يكن هناك من يراقبني فلربما هلكت أو آذيت نفسي بشدة.

لم يدهشني هذا وتصورت رحمة بأعصابي أن المقصود من هذا منعى من إرهاق نفسي بالرياضة أو التهام فاكهة غير ناضجة أو عمل أي من الخمسين شيئًا التي يفترض ألا يعملها الشباب.

بعد نصف ساعة جاء أبي وهو يمسك بخطاب وقال:

- » هذا الخطاب تأخر.. إنه من جنرال (شبيلزدورف).. كان المفترض أن يكون هنا أمس لكنه قد يصل اليوم أو غدًا.. »

وضع الخطاب في يدى، لكنه لم يبد مسرورًا كعادته عندما يأتي ضيف يحبه بشدة مثل الجنرال. بالعكس بدا كأنه يتمنى أن يغرق الرجل في البحر الأحمر.. أعتقد أن شيئًا كان في ذهنه لا يريد أن يفصح عنه..

وضعت يدي على يده ونظرت في عينيه وقلت:

- « بابا.. هلا شرحت لى؟ »

(ملس) على شعرى وقال:

- « ربما.. »

- » هل الطبيب يعتقد أني مريضة جدًّا؟ »

- « كلا.. يعتقد أنه لو اتخذنا خطوات صحيحة فلسوف تستعيدين صحتك.. خلال يوم أو اثنين »

ثم أردف بجفاف:

- » تمنيت لو أن صديقنا الطيب الجنرال اختار وقتًا آخر.. كنت أتمنى أن تكوني بخير عندما تستقبلينه »

- » ماذا يقول الطبيب عنى بالضبط؟ »

- « لا شيء.. عليك ألا ترهقيني بالأسئلة.. »

قالها في ضيق لم أره عليه في حياتي.. فلما رأى أنني جرحت، قبلني وأضاف:

- » سوف تعرفين كل شيء خلال يومين.. هذا كل شيء.. في الآن ذاته لا ترهقي نفسك بالأسئلة »

وغادر الغرفة. لكنه عاد قبل أن أغرق في الحيرة حول معنى هذا كله.. لقد عاد ليخبرني أنه ذاهب إلى قلعة (كارنشتاين) وأنه طلب أن يعدوا العربة للرحيل في الثانية عشرة..

عليّ أنا والمدام أن نرافقه.. يريد أن يقابل القس المسئول في هذه المنطقة الجميلة.. عندما تصحو كارميللا سوف تتبعنا مع المدموازيل ومعهما ما يصلح لنزهة خلوية.. حيث نتناول طعامنا في خرائب القلعة.

في الثانية عشرة كنت مستعدة.. فما أن انطلقنا في رحلتنا حتى انحرفنا يمينًا لنقطع الجسر القوطي.. ثم غربًا حتى نبلغ القرية المهجورة وأطلال قلعة (كارنشتاين).

لم يكن هناك أجمل من هذا المنظر.. لكن تعرجات الطريق كثيرًا ما تخرجك عن مسارك، فيلتف حول منخفضات ومناظر شتى رائعة الجمال..

في نقطة من تلك النقاط فوجئنا بصديقنا القديم الجنرال..

كان قادمًا نحونا على صهوة جواد، وكانت حقائب سفره تتبعه في عربة مستأجرة..

ترجل الجنرال وتبادلنا التحيات، وبعد إقناع بسيط قبل أن يأخذ المقعد الخالي في عربتنا.. وعاد حصانه مع خادمه إلى

القلعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر
محروم

لم نكن قد رأيناه منذ عشرة أشهر لكن هذه الفترة غيرت شكله كأنها أعوام.. نحل كثيرًا وبدا أن الكآبة والقلق قد حلا محل الهدوء الذي كان يميز ملامحه.

عيناه الزرقاوان الغامقتان المخترقتان صارتا تلمعان ببريق حازم تحت حاجبيه الكثين.

لم يكن هذا هو التغير الذي يسببه الحزن فقط.. يبدو أن لبعض العواطف الغاضبة دورًا في هذا..

بدأ يتكلم بطريقته العسكرية المباشرة عن الثكل الذي يعانيه بعد وفاة طفلته.. فجأة انفجر في نوبة غضب عن (الفنون الشيطانية) التي سقطت ضحية لها. وكان غاضبًا أكثر منه حزينًا وهو يتساءل عن سبب صبر السماء على هذه الممارسات الشريرة الشهوانية.

كان أبي قد فهم على الفور أن شيئًا غريبًا جدًّا قد حدث، فسأله - إن لم يؤلمه هذا - أن يوضح كلامه أكثر.. يوضح سبب هذه اللغة العنيفة التي يستعملها..

قال الجنرال:

- « يمكن أن أحكى لكنك لن تصدقني.. »

- « ولم لا؟ »

قال مشاكسًا:

- « لأنك لا تصدق إلا ما يتفق مع معتقداتك الأولى.. كنت مثلك في البداية ثم تعلمت »

قال أبي:

- « جربني.. أنا لست متصلب الرأى كما تظن.. أنا أعرف أنك لا تعتقد في شيء إلا إذا وجدت البرهان عليه؛ لذا استنتاجاتك دقيقة جدًّا.. »

هنا نظر أبي إلى الجنرال وقد بدا أنه مرتاب بشكل واضح في قواه العقلية. لحسن الحظ لم يلحظ الجنرال هذا.. كان ينظر في كآبة إلى حدود الغابة التي تمتد أمامنا.

قال:

- « هل أنت ذاهب إلى خرائب (كارنشتاين)؟ هذه مصادفة ممتازة.. كنت سأطلب منك أن تأخذني هناك لنفحصها.. ثمة شيء أرغب في رؤيته.. كنيسة قديمة.. أليس كذلك؟ بها مقابر هذه الأسرة المنقرضة؟ »

قال أبي:

- « هذا مثير.. هل تنوى المطالبة بهذا العقار؟ »

قال أبي هذا في مرح.. لكن الجنرال لم يضحك ولم يبد أية علامة على أنه سمع دعابة صديق.. على العكس بدا صارمًا جدًّا وربما أقرب إلى التوحش.. كأن هناك شيئًا يستفزه..

قال:

- « أنا أنوى بعون الله أن أحقق عملًا خيّرًا هنا.. عملًا سيريح أرضنا من وحوش، ويجعل الأبرياء ينامون فى أسرّتهم فلا يخشون الاعتداء.. ثمة أشياء غريبة سأخبرك بها يا صاحبي وكانت غريبة بالنسبة لي منذ بضعة أشهر »

نظر له أبي ليس في عدم تصديق بل في اهتمام وخوف..

قال:

- » بيت (كارنشتاين) انقرض منذ زمن طويل.. مائة عام على الأقل.. زوجتي كانت منهم لكن الاسم واللقب انقرضا.. القلعة هدمت والقرية هجرت.. مرت أعوام منذ خرج آخر دخان من مدخنة هناك.. سأحكى لك في حينه لكننا الآن سنلتزم بترتيب الأحداث..

- « أنت رأيت ابنتي.. طفلتي.. ما من مخلوق في جمالها ونضارتها »

قال أبي:

- « نعم.. المسكينة.. حين رأيتها آخر مرة كانت لطيفة جدًا.. ولقد حزنت فوق التصديق عندما عرفت بخبر الضربة التي وجهت لك »

احتشدت الدموع في عيني الجندي العجوز، وقال:

- » نحن صديقان قديمان وأنا أعرف أنك ستحزن من أجلي.. أنت تعرف أنها ليست ابنتي بالضبط لأننى لم أرزق بأطفال لكني وصيّ عليها.. إن ما بقى لي من أعوام على الأرض لن يطول، لكني بعون الله أرغب في إسداء خدمة للجنس البشرى

قبل أن أموت.. أريد أن أصب انتقامي على من سلبوا الفتاة حياتها في ربيع شبابها.. »

قال أبي:

- « أنت وعدت بقص كل شيء.. أريد أن أسمع.. »

كنا قد بلغنا نقطة طريق (درونشتال) الذي جاء منه الجنرال، والذي يتفرع من الطريق الذي نقصد به (كارنشتاين).

سأل الجنرال فى قلق:

- « كم نبعد عن الخرائب؟ »

قال أبي:

- « نحو نصف فرسخ. والآن دعنا نسمع القصة التي برعت في تشويقنا لسماعها »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر
القصة

بعد لحظات من الصمت راح الجنرال يرتب أفكاره، وبدأ يحكى واحدة من أغرب ما سمعت من قصص.

- « طفلتي العزيزة كانت تتطلع بشوق لزيارتكم.. وفي الوقت ذاته تلقينا دعوة من صديقى القديم الكونت (كارلسفلد).. وقلعته على بعد ستة فراسخ من قلعة (كارنشتاين).. كانت ضيافته لنا كضيافة الملوك.. كأن عنده مصباح (علاء الدين) ينفذ له ما يشتهى من أحلام..

» الليلة التي يبدأ حزني منها هي ليلة حفل تنكرى رائع.. كانت الأرض مفتوحة والأشجار مزينة بالمصابيح.. مع عرض ألعاب نارية لم تره باريس نفسها.. والموسيقا! تعرفان أن الموسيقا ضعفى! موسيقا تستلب الوعى! أعظم آلات موسيقية وأعظم عازفين يمكن أن تجدهم في أوروبا..

شعرت وأنا أسمع وأنظر كأننى أحمل حملًا إلى رومانسية شبابى.

عندما انتهت الألعاب النارية، وبدأ الحفل. عدنا للغرف التي فتحوها للراقصين..

كان حشدًا أرستقراطيًّا جدًّا.. وكنت أنا النكرة الوحيدة هناك..

وكانت طفلتي العزيزة في غاية الجمال.. لم تكن تضع قناعًا، وقد أضفى حماسها وسرورها فتنة على ملامحها..

كانت هناك شابة يبدو أنها ذات شأن متأنقة وتضع قناعًا، وتراقب طفلتى باهتمام فائق..

لقد قابلتها هذه الأمسية في أكثر من مكان.. وكانت ترافقها سيدة مقنعة بدورها، فاخرة الثياب.. وقد بدا أنها عظيمة الشأن ترافق الفتاة كوصيفة.

لو أن الفتاة الصغيرة لم ترتد قناعًا لعرفت بيقين أكبر إن كانت تراقب طفلتى أم لا.. الآن أنا متأكد من أنها كانت تراقبها.

دخلنا صالونًا وكانت طفلتي المسكينة ترقص وتستريح قليلاً على مقعد قرب الباب، فدنت السيدتان اللتان ذكرتهما، ووقفت واحدة جوارى بينما جذبت الأخرى مقعدًا وجلست جوار طفلتي.

مستفيدة من قناعها استدارت السيدة نحوى ونادتني باسمى وبطريقة صديق قديم.. ثم بدأت محادثة معى أثارت فضولى بشدة.

تحدثت عن مواقف عدة قابلتني فيها. في المحكمة أو منازل شهيرة.. وتذكرت أحداثًا معينة نسيتها، لكنها كانت تنتظر في عقلي معلقة بانتظار لمستها لتصحو..

صرت أكثر فضولًا لمعرفة من هي.. لكنها تملصت من محاولاتي ببراعة وبشكل لبق.. إنها تعرف أمورًا كثيرة في حياتي بشكل لا يمكن تفسيره.. وكانت هي تجد لذة غير عادية في إذكاء فضولي.. في رؤيتي أتخبط بين حدس وآخر.

في الوقت ذاته كانت الفتاة الشابة التي تطلق عليها أمها اسم (ميلاركا) - وهو اسم عجيب - قد استطاعت بسهولة وبراعة أن

تبدأ حديثًا مع طفلتي..

قالت مقدمة نفسها إن أمها معرفة قديمة جدًّا لي.. كانت تتكلم بتلك الجرأة التي يمنحها للناس القناع.. كلمتها كصديقة وأطرت ثوبها وأطرت جمالها..

راحت تسليها بدعابات عن الناس في قاعة الرقص.. كانت ذكية جدًّا مفعمة بالحيوية متى أرادت.. هكذا صارتا صديقتين بعد قليل وأنزلت الفتاة قناعها مظهرة جمالًا ملحوظًا..

لم أر وجهها من قبل وكذا طفلتي.. كانت ملامحها جميلة فعلًا حتى أنه كان من العسير ألا تشعر بالانجذاب..

بدا لي أن طفلتي والغريبة قد وقعتا في حب بعضهما.. ومن النظرة الأولى..

بدأت أوجه بعض أسئلة للسيدة.. قلت لها:

- « أنت حيرتني فهل هذا غير كاف؟ الآن هل يمكن أن نتعادل وأن تسمحي لي بأن أنزع قناعك؟ »

أجابت:

- « هل يوجد طلب أقل تعقلًا من هذا؟ تطلب من سيدة أن تتنازل عن مزية تمنحها التفوق؟!.. ثم من قال إنك ستتعرفني؟ الأعوام تغير الكثير.. »

ضحكت ضحكة فيها شجن، وقلت:

- « كما ترين. »

- « بل كما يقول لنا الفلاسفة.. وكيف تضمن أن مرأى وجهى سيساعدك؟ »

- « يجب أن أجرب.. لكن لا جدوى من التظاهر بأنك امرأة عجوز.. معالم جسدك تخونك »

- « برغم هذا هي أعوام منذ رأيتني ورأيتك.. (ميلاركا) هناك هي ابنتى.. لا يمكن إذن أن أكون صغيرة السن.. حتى في رأى من علمهم الزمن التسامح.. لا أحب أن تقارن وجهي بما تذكره عني. ثم إنك لا تضع قناعـًا لذا ليس لديك ما تبادل به.. »

- « أطالب عطفك أن تنزعى القناع.. »

- « وأنا أضم عطفك لعطفى كي يبقى القناع حيث هو »

- « على الأقل هل أنت فرنسية أم ألمانية؟ فأنت تجيدين اللغتين»

- « لن أصرح بهذا.. أعتقد أنها طريقة تدفعنى بها للكلام.. »

لم أعرف وقتها أن هذه المحادثة معدة سلفًا.. وأنها غالبًا تدربت عليها كثيرًا..

هنا قاطعها سيد مهذب يلبس الأسود.. فقط لا يعيبه إلا أن وجهه هو الشحوب بعينه.. شحوب لم أره إلا في الموتى..

لم يبتسم لكنه انحنى في رقة وتهذيب، وقال:

- « هلا سمحت لي سيدتي الكونتيسة بأن أخبرها كلمات قليلة سوف تهمها بشدة؟ »

نظرت له المرأة ثم طلبت مني أن أحفظ لها مقعدها ونهضت مع الرجل. كانت تتكلم بجدية تامة مع ذلك الرجل ثم توارت في الزحام ولم أعد أعرف أين هي.

ظللت أحاول تخمين شخصية السيدة.. وفكرت في أن أنضم للمناقشة بين طفلتي والفتاة.. هكذا سوف أظفر باسمها وعنوانها وعقاراتها..

لكنها عادت قبل أن يحدث هذا، وقال الخدم إن عربتها جاءت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر
التماس

قالت لي السيدة إن ابنتها تتعافى من حادث ركوب حصان أثر على أعصابها بشدة.. السيدة ترغب في ألا تفارق ابنتها لكنها مرتبطة برحلة شديدة الخطر تتعلق بالموت والحياة..

قالت لي إنني سأعرف التفاصيل فيما بعد لكن ليس الآن.. كل ما طلبته مني كان أن أعنى بابنتها.. لقد أحسنت اللعب وألقت نفسها بالكامل في بحر فروسيتي..

في الوقت ذاته وبإحدى تصاريف القدر، جاءت طفلتي جوارى وبصوت خفيض اقترحت أن أدعو صاحبتها (ميلاركا) لزيارتنا.. وخطر لى أن هذا سيروق لها بالتأكيد..

في ظروف أخرى كنت سأطلب منها أن تنتظر إلى أن نعرف على الأقل من هم.. لكن لم يكن عندى وقت للتفكير..

لقد قهرني جمال الفتاة الشابة الذي لا يقاوم، مع نيران الأصل الكريم.. لهذا وافقت وقبلت أن أعنى بالشابة التي تطلق عليها أمها اسم (ميلاركا)..

أومأت السيدة لابنتها ثم راحت تحكى لها كيف أن ظروفًا قهرية تضطرها للرحيل وأنني سأعني بها في هذه الفترة..

ثم همست بكلمات لابنتها وقبلتها مرتين، ثم رحلت يصحبها السيد الشاحب ببذلته السوداء..

قالت (ميلاركا):

- » في الغرفة المجاورة نافذة.. أريد أن أودع ماما هناك وأرسل لها قبلة.. »

هكذا وافقنا.. دخلنا الغرفة معها ووقفنا في النافذة، فرأينا عربة أنيقة يحيط بها السعاة والخدم والأتباع.. الرجل المتأنق يضع عباءة على كتفى السيدة ويرفع الكبود ليغطى رأسها.. وبدأت العربة تتحرك..

قلت لنفسي:

- « لقد رحلت! »

وللمرة الأولى منذ وافقت بدأت أفهم حماقة ما فعلت..

قالت الشابة في حزن:

- « لم تنظر لفوق قط! »

قلت:

- « لقد نزعت قناعها لذا لم ترد أن تكشف وجهها.. وما كان بوسعها أن تعرف أنك في النافذة »

تنهدت ونظرت لي..

كان جمالها مذهلًا لدرجة أننى أسفت لأنني ندمت على كرم الضيافة.. وصممت على أن أعوضها عن الجفاء الواضح الذي استقبلتها به في البداية..

طلبت الفتاتان منى أن نعود إلى حيث كانت الفرقة الموسيقية يجرى استبدالها..

صارت صلة ميلاركا بنا وطيدة.. وسلّتنا بكلامها المليء بالحيوية وقصصها عن القوم العظام الذين رأيناهم في الشرفة.. صرت أميل لها أكثر فأكثر كل دقيقة.. كانت ثرثرتها مسلية فعلًا.. أنا الذي ابتعدت عن العالم فترة لا بأس بها..

وأدركت أنها ستمنح الحياة لتلك الأمسيات الوحيدة الكئيبة في دارنا..

لم ينته الحفل حتى صارت شمس الصباح في الأفق.. كان الدوق الكبير يحب أن يرقص حتى هذه اللحظة، حتى لا يستطيع المخلصون له أن يرحلوا أو يخلدوا للفراش..

كنا في صالون مزدحم عندما سألتني طفلتي عن مكان (ميلاركا)..

كنت أحسبها معها وتصورت هي أنها معى..

من الواضح أننا فقدناها..

فشلت كل محاولاتي للعثور عليها.. وخشيت أن ترتبك في محاولة البحث عنا فتفترض أننا أناس آخرون..

الآن اتضح لى بوضوح مدى الحماقة التي ارتكبتها عندما استضفت هذه الآنسة.. بينما لا أعرف إلا اسمها.

وكنت مقيدًا بوعود لا أعرف سبب الإصرار عليها لكنها تحتم ألا أسأل.. كما كان من السخف أن أسأل الناس عن الآنسة التي هي ابنة الكونتيسة التي رحلت منذ وقت قصير..

جاء الصباح، عندما قررت أن أتخلى عن البحث.. وحتى الثانية من اليوم الثاني لم نعرف شيئًا عنها..

في هذا الوقت دق خادم على باب ابنة أختي ليقول إن سيدة صغيرة قلقة جدًّا طلبت منه بجدية، أن يخبرها عن مكان الجنرال (شبيلزدورف) وابنته الشابة، الذي تركتها أمها في عنايته..

لم يكن هناك شك.. صديقتنا الشابة قد ظهرت، وليتنا فقدناها فعلًا!

حكت لطفلتي قصة تفسر بها كيف فشلت في العثور علينا..

في ساعة متأخرة - كما تقول - دخلت غرفة نوم مدبرة المنزل يائسة من العثور علينا..

هناك نامت نومًا طويلًا.. طويلًا لكنه جعلها تستعيد قواها من جديد بعد إرهاق الحفل..

في هذا اليوم جاءت (ميلاركا) البيت معنا..

وكنت مسرورًا لأني ظفرت برفيق رائع كهذا لفتاتي الصغيرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر
الحطّاب

لم يخل الأمر من عيوب.. ففي المقام الأول كانت (ميلاركا) تشكو من كسل شديد.. الوهن الذي تلا مرضها الأخير.. ولم تخرج من غرفتها قط قبل العصر..

بالإضافة لهذا كانت دومًا تغلق غرفتها من الداخل، وتدس المفتاح في القفل.. ولا شك في أنها لم تكن في غرفتها أحيانًا في الصباح الباكر.

أحيانًا في الضوء الرمادي الشاحب للصباح كنا نراها تمشي بين الأشجار متجهة للشرق، وتبدو كأنها غير واعية.

جعلني هذا أعتقد أنها تمشي في نومها.. لكن هذا لم يفسر لغز مغادرتها لغرفتها تاركة المفتاح في القفل من الداخل..

وسط هذه الحيرة انتابني القلق بصدد أمر عاجل خطير..

لقد بدأت طفلتي تفقد جمالها وصحتها.. وكان هذا بشكل غامض مخيف حتى أن الذعر سيطر عليّ..

في البداية كانت تزورها أحلام مرعبة، ثم كما تخيلت بدأت تزورها أطياف أو أشباح تمثل (ميلاركا) أحيانًا وأحيانـًا تبدو كوحوش.. وهذه الوحوش تجوب غرفة النوم حول الفراش..

بعد هذا تأتي الأحاسيس.. أحاسيس غير سارة لكنها ذات طابع خاص..

يشبه الأمر كما قالت سريان تيار ثلجي في صدرها..

في مرات أخرى كانت تشعر بإبرتين تخترقان صدرها تحت العنق بقليل.. فيدب فيه ألم حاد..

أحيانًا كانت تشعر بالاختناق ثم تغيب عن الوعي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أسمع كل كلمة يقولها الجنرال العجوز على حدة، لأننا في هذه اللحظة كنا نمشى على الكلأ الذي يمتد لجانبي الطريق.. وأنت تدنو من القرية التي لم تر دخان مدخنة منذ نصف قرن..

طبعًا يمكنك تخمين مدى الغرابة التي شعرت بها وأنا أسمع الأعراض التي تمر بي بالضبط.. بل إنه ذكر عادات كنت حتى هذه اللحظة أحسبها خاصة بضيفتنا (كارميللا)..

انفتحت ثغرة في الأشجار، فرأينا أننا تحت مداخن وأسقف القرية المخربة.. وبقايا القلعة المتداعية حولها أشجار عملاقة..

- « وهنا كان يقيم آل (كارنشتاين)! »

قالها الجنرال وهو يطل من نافذة كبرى على القرية.. رأى الغابة الممتدة بحدودها المتعرجة..

واصل الكلام:

- « كانت أسرة كريهة.. وهنا كانت تكتب يوميات ملطخة بالدم.. لكن من الغريب بعد الموت أن يواصلوا تلويث الجنس البشرى بالشهوات الفظيعة.. هنا كانت كنيستهم.. تحت.. »

وأشار إلى جدران عظيمة لبناية قوطية، المشهد الذي تراه وسط الأشجار الكثيفة جزئيًا..

وأضاف:

- « أسمع فأس حطاب.. إنه منهمك في قطع الأشجار.. أعتقد أنه يمكن أن يمنحنا ما نريد من معلومات.. يخبرنا بقبر (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين.. هؤلاء الفلاحون يحافظون على تقاليد الأسر العظيمة.. بينما أسرار هؤلاء تفنى بين الأغنياء وتفنى الأسرة نفسها.. »

قال أبي:

- « لدينا صورة ل- (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين في بيتي.. هل تريد أن تراها؟ »

- » في وقت آخر يا صديقي.. أنا أؤمن أني رأيتها فعلًا.. وما دفعني للقدوم لك هو رغبتي في استكشاف الكنيسة التي نحن ذاهبون لها.. »

في دهشة قال أبي:

- « ماذا؟ ترى الكونتيسة (ميركالا)؟ لقد ماتت منذ قرن! »

قال الجنرال:

- « ليست ميتة للدرجة التي تعتقدها.. »

أجاب أبي وهو ينظر له وبذات درجة الشك السابقة:

- « أنت تحيرني بشدة »

كان كلام الجنرال مليئًا بالحقد والغيظ، لكنه كان خاليًا من الهلوسة أو الخفة..

مررنا تحت أقواس الكنيسة القوطية وقال الجنرال:

- « بقى أمامى شيء واحد يهمني في الأيام الباقية لي على الأرض.. أن أنزل بها الانتقام الذي أحمد الله على أنني قادر عليه »

في دهشة سأله أبي:

- « عن أي انتقام تتكلم؟ »

أجاب وقد احمر وجهه في وحشية ورفع قبضته في الهواء كأنه يمسك بمقبض فأس:

- » أن نقطع رأس الوحش!! »

صاح أبي في ذهول:

- » ماذا؟ »

- « نطير رأسها! »

- « نطيره؟ »

- « نعم.. بفأس قصيرة أو رفش أو أي شيء يمكن أن يمزق حلقها القاتل.. سوف تسمع »

ثم راح يرتجف انفعالًا، وقال:

- « هذه العارضة الخشبية تصلح كمقعد.. إن ابنتك مرهقة فدعها تجلس، وأنا سأنهي قصتى المخيفة بعد بضع جمل.. »

كان قالب الخشب الملقى وسط العشب الذي يغطي إفريز الكنيسة يشكل مقعدًا سرني أن أجلس عليه.. في الوقت ذاته نادي الجنرال الحطاب الذي كان يرفع بعض الأغصان المستندة

إلى الجدران القديمة.. وقد وقف الرجل قوى البنيان أمامنا والفأس في يده..

لم يستطع أن يخبرنا بشيء عن هذه الآثار.. لكنه قال إن هناك حارسًا قديمًا للغابة يقيم حاليًّا في بيت القس على بعد ميلين، وبوسعه أن يخبرنا بكل أثر من آثار آل (كارنشتاين)..

قال إنه سيجلبه لنا خلال نصف ساعة لو أننا أقرضناه جوادًا من جيادنا..

سأل أبي الرجل:

- « هل أنت مسئول عن هذه الغابة منذ زمن؟ »

قال الرجل بلهجته العامية:

- « أنا حطاب هنا طيلة حياتي.. وكذلك أبي من قبلي.. وهكذا لعدة أجيال.. بوسعي أن أريكم البيت الذي كان الأجداد يعيشون فيه في القرية »

سأله الجنرال:

- « لماذا صارت القرية مهجورة؟؟ »

- « لقد هاجمتها الأشباح العائدة من القبور يا سيدي.. كان الناس يلاحقون أكثر هذه الأشباح إلى قبورها ثم يتخلصون منها بالسبل المعتادة.. قطع الرأس.. الوتد.. الحرق، لكن قرويين كثيرين ماتوا أولًا »

وأردف:

- « بعد هذا كانت الكثير من القبور تفتح.. ويحرم مصاصو الدماء من وجودهم. لكن القرية لم تبرأ تمامًا.. سمع أحد السادة من (مورفيا) وكان مسافرًا من هنا هذه الأمور، وكان بارعًا فيها كأكثر الناس في وطنه؛ لذا عرض علينا أن يخلص القرية من معذبيها..

» فعل ذلك على النحو التالي: اختار ليلة ساطعة القمر وتسلق برج الكنيسة بعد غروب الشمس مباشرة.. هكذا صار بوسعه أن يرى فناء الكنيسة تحته كما نراه نحن من هذه النافذة.. ظل يراقب حتى رأى مصاص الدماء يخرج من قبره ويضع جواره قطعة الكفن التي كان ملفوفًا فيها.. ثم يتجه إلى القرية ليهاجم سكانها..

» رأى الغريب هذا كله فنزل من برج الكنيسة وأخذ قطعة الكفن وعاد بها إلى قمة البرج..

» حينما عاد مصاص الدماء من جولته افتقد قطعة القماش. وصرخ في توحش في المورافي الذي رآه على قمة البرج. فتحداه هذا الأخير كي يصعد له ويأخذ الكفن..

قبل مصاص الدماء التحدى، وبدأ يتسلق برج الكنيسة.. فلما وصل إلى المورافي أخرج هذا سيفه وشطر جمجمة مصاص الدماء إلى نصفين، فسقط هذا الأخير على فناء الكنيسة.. وهكذا نزل المورافي وأخذ الجثة لأهالي القرية الذين غرسوا وتدًا في قلبها وأحرقوها.. »

» هذا النبيل المورافي حصل على موافقة رأس العائلة على أن يزيل قبر (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين. وقد فعل هذا حتى أن مكان القبر قد نسى تمامًا.. »

سأله الجنرال في لهفة:

- « هلا أشرت إلى موضعه؟ »

فهز رجل الغابات رأسه وابتسم، وقال:

- « ما من كائن حي يستطيع إخبارك اليوم.. يقولون كذلك إن جسدها انتزع من هنا لكن أحدًا لا يعرف هذا بدقة.. »

كان وقت طويل قد مر.. لذا انصرف الرجل، بينما بقينا نسمع باقى قصة الجنرال الغريبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر
اللقاء

واصل الجنرال:

- بدأت طفلتي تتدهور.. فشل الطبيب الذي فحصها في أن يجد سببًا معقولًا لمرضها..

رأى ذعري فاقترح عمل (كونسولتو).. هكذا استدعينا طبيبًا نابهًا من (جراتس).. مرت عدة أيام قبل أن يصل.. كان طبيبًا بارعًا ويتمتع بالثقافة..

فحص الرجلان طفلتي المسكينة.. ثم انسحبا إلى المكتب للمناقشة.. كنت في الغرفة الملاصقة أنتظر سماع استدعائي، فسمعت صوتيهما يرتفعان بشكل حاد أكثر مما تقتضيه مناقشة فلسفية..

عندما قرعت الباب ودخلت، وجدت الطبيب العجوز من (جراتس) مصرًّا على رأيه، بينما الشاب زميله ينتقد النظرية بسخرية لا تخفى، تصاحبها ضحكات ثقيلة.

لكن هذه المشاحنة انتهت بمجرد دخولى..

قال الطبيب الأول:

- « زميلي المثقف يرى أنك بحاجة إلى مشعوذ لا طبيب »

قال الطبيب العجوز من (جراتس) وهو غير راض:

- « سامحنى.. سوف أجرب وجهة نظري بصدد الحالة في وقت آخر على طريقتي.. أخشى أن مهارتي وعلمي لن ينفعاني..

لكن قبل أن أرحل سوف أمنح نفسى شرف أن أقترح شيئًا عليك »

وبدا كأنه يفكر، ثم جلس إلى منضدة وراح يكتب..

لقد تركني هذا الكونسلتو حيث كنت.. هكذا خرجت في الحقول شارد الذهن..

إلا أنه بعد عشر دقائق لحق بي ذلك الطبيب من (جراتس).. اعتذر لي لأنه اقتفى أثرى، لكنه لا يستطيع أن يرحل بضمير سليم ما لم يتبادل معى بضع كلمات..

قال إنه لا يخطئ.. ما من مرض طبيعي يسبب ذات العلامات.. وإن الموت قد اقترب جدًّا. لكن يبقى من حياة الفتاة يوم أو يومان.. لو توقفت النوبات القاتلة فلربما أمكن للفتاة استعادة قواها.. لكن هجمة أخرى سوف تطفئ آخر وهج حياة.. وهذا الوهج على وشك النفاد على كل حال.

سألته:

- « ما نوعية النوبات التي تتكلم عنها؟ »

- « شرحت كل شيء في المذكرة التي أضعها بين يديك.. بشرط أن تستدعى أقرب رجل دين وتفتح خطابي في وجوده.. لا تطالعه إلا عندما يكون معك.. وإلا فسوف تستهتر به برغم أنها مسألة حياة أو موت.. »

وهكذا انصرف.. كان الكاهن متغيبًا لذا قررت أن أقرأ الخطاب بنفسي..

في وقت آخر أو حالة أخرى لربما أثار سخريتي، لكن ما أكثر دروب الدجل والشعوذة التي يسلكها الناس كأمل أخير عندما تقفل الطرق العادية، وتكون حياة شخص عزيز على المحك؟

سوف تقول إنه لا شيء أكثر سخفًا من خطاب الطبيب المثقف..

كان يرشحه بعناية لمستشفى المجانين.

لقد قال إن المريضة تشكو من زيارات مصاص دماء!

إن الثقوب التي تصفها جوار حلقها هي في الحقيقة موضع غرس نابين طويلين حادين يميزان مصاصى الدماء.. دعك من العلامة الحمراء المحيطة بالثقبين التي وصفها العلم بأنها شفتا الشيطان.. وكل عرض لدى الفتاة يتسق تمامًا مع قصص سابقة لحالات مشابهة..

كنت بطبعي لا أقبل وجود هذه الأمور.. لكني كنت في أتعس حالاتي وأنا أنفذ ما في الورقة من تعليمات..

أخفيت نفسي في غرفة تبديل الثياب المظلمة التي تفتح بباب على غرفة الفتاة.. وكانت شمعة تشتعل فيها.. وظللت أنتظر حتى غابت في النوم..

وقفت أنتظر جوار الباب والسيف جواري على منضدة.. حتى تجاوزت الساعة الواحدة..

رأيت جسمًا أسود عملاقًا غير محدد يزحف عند قدم الفراش، ثم يتسلق حتى حنجرة الفتاة ثم بدأ ينتفخ. ويتحول إلى كتلة نابضة..

للحظات تحولت إلى تمثال.. ثم وثبت إلى السيف..

تقلص ذلك المخلوق الأسود نحو قدم الفراش ثم زحف عليها.. وفجأة رأيت (ميلاركا) تقف هناك صورة من الرعب والشراسة..

ضربتها بسيفي لكني رأيتها عند الباب..

ضربت من جديد وقد تملكني الذعر فإذا بها قد رحلت!

تهشم سيفي إلى شظايا عندما اصطدم بالباب..

لا أستطيع أن أصف لك ما حدث في تلك الليلة الرهيبة.. لقد استيقظ البيت كله وراح يتحرك.. لقد ذهب شبح (ميلاركا) لكن ضحيتها كانت تتلاشى بسرعة..

وقبل الفجر ماتت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الجنرال العجوز متوترًا..

لم نتكلم معه وابتعد أبي قليلًا وراح يطالع الأسماء على شواهد القبور.. ثم دلف إلى باب كنيسة. أما الجنرال فاستند إلى جدار وراح يجفف عينيه ويتنهد بحرارة..

سرني أن أسمع أصوات (كارميللا) والمدام قادمة..

ثم زالت الأصوات..

في هذه العزلة، وبعد سماع هذه القصة الغريبة، التي ترتبط بهؤلاء الموتى كريمى المحتد الذين اختلطت بقاياهم بالتراب واللبلاب من حولنا، وكل حادثة منها ترتبط بهذه القضية

الغامضة، وفي هذه البقعة المسكونة التي تحيط بها الخضرة الكثيفة.. بدأ الذعر يستولى على..

غاص قلبي في قدمي وأنا أرمق هذا المشهد..

كانت عينا الجنرال ترمقان الأرض إذ انحنى ويداه على قاعدة أثر مهشم..

وتحت مدخل باب تعتليه واحدة من تلك الشياطين القوطية الشائهة التي يهواها المزاج القوطي المولع بالرعب والتهكم معًا.. رأيت في سرور الوجه الجميل لكارميللا.

كدت أنهض وأتكلم، ورددت على ابتسامتها بهزة رأس..

في هذه اللحظة التقط العجوز بجوارى فأس الحطاب وهجم عليها.. فما أن رأته حتى زحف تعبير متوحش على وجهها..

كان تعبيرًا لحظيًّا مرعبًا وهي تثب إلى الخلف..

وقبل أن أصرخ هوى عليها بكل قوته، لكنها تملصت ثم أمسكت به بقبضتها الرقيقة من معصمه.. حاول أن يحرر ذراعه للحظة لكن الفأس هوى على الأرض واختفت الفتاة..

ترنح إلى الجدار وشعره الأبيض منتصب والعرق يبلل وجهه كأنما كان على شفا الموت..

حدث كل شيء في ثوان فلا أذكر إلا المدام تقف أمامي وهي تكرر بلا انقطاع:

- « أين المدموازيل كارميللا؟ »

قلت لها:

- « لا أعرف.. ربما هناك.. »

وأشرت إلى الباب الذي دخلته:

- « منذ دقيقة أو دقيقتين.. »

- « لكني أقف في الممر منذ دخلت المدموازيل كارميللا ولم تخرج من عندي.. »

ثم بدأت تنادي كارميللا من خلال كل باب وكل نافذة..

سألنا الجنرال:

- « هل تسمى نفسها كارميللا؟ »

- « نعم.. »

- « وهي أيضًا ميلاركا.. وهي ذات المرأة التي كانت (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين.. فلتفارقوا هذه الأرض الملعونة بأسرع ما تستطيعون.. ابقوا في بيت الكاهن حتى نعود لكم.. اذهبوا.. فلربما لن تروا كارميللا ثانية! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر
المحاكمة والإعدام

بينما هو يتكلم ظهر رجل من أغرب من رأيت ودخل من الباب الذي دخلت منه (كارميللا) وخرجت..

كان طويلًا ضيق الصدر منحنيًا يلبس الأسود، كان وجهه أسمر امتلأ بأخاديد عميقة.. وعلى رأسه قبعة عريضة غريبة المنظر.. وعلى عينيه عوينات مذهبة، ووجهه ينظر للسماء أحيانًا وللأرض أحيانًا أخرى.

صاح الجنرال في دهشة:

- » الرجل نفسه!!!! «

وبدا عليه سرور واضح..

- « ما أسعدني بلقائك أيها البارون العزيز!! لم أحلم بلقائك بهذه السرعة »

ثم جذب الرجل من ساعده وقدمه لأبى.. وأجرى التعارف بشكل رسمى ثم دخلوا في محادثة جادة حميمة..

تناول الغريب لفافة ورق من جيبه وفردها على سطح قبر قريب.

كان معه قلم رصاص بين أصابعه رسم به خطوطًا تخيلية بين نقطة وأخرى على الورق، فاستنتجت أنها تصميم كروكي للبناية التي نحن فيها..

صاحب هذا الشرح كما لي أن أسميه بقراءة من كتاب متسخ صغير تلاصقت الكتابة على صفحاته الصفر..

مشيا عبر الممر الجانبي أمام البقعة التي كنت أقف فيها، يثرثران ثم بدأا يقيسان المسافات بالخطوات وفي النهاية وقفا مواجهين جدارًا..

راحا ينزعان اللبلاب الذي يحيط به وينتزعان الملاط بعصيهما.. يكحتان هنا وهناك.. في النهاية تأكدا من وجود قرص رخامى عليه كتابة محفورة..

بمعاونة الحطاب الذي عاد رأينا نقشًا عملاقًا عليه شعار نبالة.

يبدو أنه كان جزءًا من ضريح (ميركالا) كونتيسة (كارنشتاين)..

لم يكن الجنرال كما بدا لي ممن يصلون، لكنه ضم يديه للسماء كأنه يشكر الله..

سمعته يقول:

- » غدًا سيكون القوميسير هنا.. وسيتم تنفيذ الحكم طبقًا للقانون.. »

ثم استدار للرجل المسن ذي العوينات ذهبية الإطار وهز كتفيه بقوة وحرارة، وقال:

- » كيف لي أن أشكرك يا بارون؟ كيف لنا جميعًا أن نشكرك؟ سوف تنقذ هذه المنطقة من وباء ظل يطارد سكانها

طيلة قرن كامل.. إن العدو المخيف والحمد لله قد تم تحديد مكانه.. »

اقتاد أبي الغريب جانبًا وتبعنا الجنرال..

عرفت أنهم اتجهوا لمكان بعيد عن السامعين ليحكى قصتي.. ورأيتهم يحدقون في من وقت لآخر أثناء سرد القصة..

دنا منى أبي ولثمنى مرة ومرتين.. وإذ أخذنى من الكنيسة قال:

- « جاء وقت العودة.. لكن أرى أن علينا أن نضم لمجموعتنا القس الطيب الذي يعيش قريبًا من هنا، ونقنعه بأن يلحق بنا في القلعة »

هذه المرة نجحنا وكنت مسرورة بحق برغم أن التعب استبد بي لدى عودتنا للبيت..

لكن سعادتي صارت رعبًا عندما لم أجد أثرًا لكارميللا.. لم أكن بعد قد فهمت معنى المشهد الذي رأيته في الكنيسة المهدمة وقدرت أنه سر يريد أبي أن يبقيه بعيدًا عنى..

اختفاء كارميللا جعل المشهد يبدو في ذاكرتي أكثر شناعة..

هذه الليلة كانت الترتيبات استثنائية.. خادمتان والمدام في غرفتي.. بينما القس وأبي في غرفة الثياب الملاصقة.. وكان القس قد بدأ الليلة بطقوس معينة لم أفهم فحواها أكثر مما فهمت كل هذه الإجراءات التي قصد بها حمايتي أثناء نومي.

بعد أيام فهمت هذا كله..

يجب أن أقول إن اختفاء كارميللا صاحبه انتهاء معاناتي الليلية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلا شك أنت قد سمعت تلك القصة الخرافية المفزعة التي يحكونها في (ستيريا) و(مورفيا) و(سيلزيا) والصرب وحتى في روسيا..

القصة التي تتحدث عن مصاصي الدماء..

حتى لو جمعت شهادات الناس بكل دقة وحرص، أمام لجان لا حصر لها، وكل لجنة منها اختير أعضاؤها على أساس الذكاء والكفاءة، فإن من العسير أو شبه المستحيل أن تنكر وجود ما يدعى (مصاص الدماء)..

بالنسبة لي لم أسمع أية نظريات عما رأيته وسمعته بنفسى، باستثناء ما يؤمن به عامة الناس في ريف البلاد.

في اليوم التالي دارت الطقوس الرسمية في كنيسة (كارنشتاين)..

تم فتح قبر الكونتيسة (ميركالا) فميز أبى والجنرال ذلك الوجه الغادر رائع الجمال..

مائة وخمسون عامًا منذ جنازتها لكن ملامحها تحمل دفء الحياة.. عيناها مفتوحتان ولا رائحة عفن تنبعث منها..

قام طبيبان بفحص الجثة فأعلنا الحقيقة المروعة أن هناك نبضًا خافتًا وكذا تنفسًا يمكن الإحساس به.. الأطراف كانت لينة

والجلد كان طريًّا.. بينما امتلأ التابوت الرصاصي بالدم لعمق ست بوصات وقد رقد الجسد فيه.

هكذا اكتملت كل علامات وأدلة مص الدماء..

تم استخراج الجسد طبقًا للممارسات القديمة، وتم إيلاج وتد في قلب مصاص الدماء الذي أطلق صرخة حادة تثقب الأذنين كأنها تفلت من شخص حي لحظة الاحتضار..

ثم تم قطع الرأس فانفجر الدم من مكان القطع..

بعد هذا تم وضع كل شيء على كوم من الخشب وأضرمت فيه النار.. ثم ألقى الرماد في النهر..

ومن ذلك الحين لم تؤرق المنطقة بزيارات مصاصى الدماء..

لدى أبى نسخة من القرار الملكي وعليه توقيع كل من شهدوا هذه الأحداث.. وقد اعتمدت على هذه الورقة في وصف تلك الأحداث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر
الخلاصة

أنتم تعتقدون أني أكتب هذا الكلام برباطة جأش لكنى لا أفكر في الأمر إلا وارتجفت..

لم يدفعني شيء سوى رغبتكم الصادقة المتكررة كي أجلس وأحكى قصة مزقت أعصابي لمدة أشهر، وألقت بظل من رعب لا يوصف سيظل برغم مرور أعوام على تحررى يجعل ليالي وأيامي مرعبة، ويجعل وحدتى رهيبة.

دعونى أحكى لكم شيئًا عن البارون الجذاب الغريب (فوردنبورج) الذي نحن مدينون لخبرته والذي استطاع أن يجد قبر (ميركالا)..

كان يعيش في (جراتس) على دخل ضئيل هو كل ما بقى له من أملاك أسرته الثرية، وقد كرس نفسه للتحقيق في موضوع مص الدماء الموثق..

كانت تحت يديه كل المراجع المهمة في الموضوع مثل (ماجيا بوستيوما).. (فليجون دى ميرابليبوس).. إلخ..

لا أذكر إلا مجموعة محدودة من العناوين التي أقرضها لأبي.. وقد درس كل الحالات التي تم فيها بالفعل تنفيذ الإعدام بحق مصاص دماء، هكذا توصل إلى قواعد تحكم أحيانًا حالات مصاصي الدماء هذه.

مثلًا أذكر بالمناسبة أن اللون الشاحب الميت الذي ينسبونه لهذه الشياطين هو خيال مسرحى.. إنهم يبدون في القبر

وفي المجتمعات كأنهم أصحاء..

حينما ترى توابيتهم في الضوء تجد كل العلامات المماثلة لتلك التي وجدناها في حالة الكونتيسة (كارنشتاين)..

أما عن كيفية مغادرة القبور والعودة لها دون أن يظهر خلل في التربة أو غطاء التابوت فأمر لا يمكن تفسيره..

إن طبيعة مصاص الدماء الثنائية يحافظ عليها بقاؤه في القبر طيلة النهار.. بينما الجوع المريع للدماء هو الشيء الذي يجعله يصحو من نومه..

أحيانًا تستبد بمصاص الدماء شهوة قوية كشهوة الحب.. وهذه الشهوة تتعلق بأناس معينين لذا في بحثه عنهم يظهر صبرًا لا ينفد وتكتيكًا متقنًا.. وهو لا يتوقف أبدًا إلا إذا حصل على غرضه.. وإلا إذا امتص الحياة من ضحيته المشتهاة..

لكنه لهذا الغرض وعلى طريقة الذواقة يطيل عذاب ضحيته عمدًا ويؤجل متعة القتل.. ويزداد لذة كلما اقترب من هدفه..

لقد كنت أنا حالة خاصة جدًّا..

كانت (ميركالا) مرتبطة بأن تتخذ اسمًا إن لم يكن اسمها الحقيقي فعلى الأقل يتكون من ذات الحروف بلا زيادة أو نقصان..

اسم (كارميللا) حقق هذا وكذا اسم (ميلاركا)..

حكي أبى للبارون (فوردنبورج) الذي أقام معنا أسبوعين أو ثلاثة بعد قتل (كارميللا) قصة السيد الموارفي ومصاص الدماء في

كنيسة (كارنشتاين)، ثم سأل البارون عن الطريقة التي وجد بها قبر (ميركالا) المختفى منذ قرن..

اتخذت ملامح البارون العجيبة شكل ابتسامة غامضة ونظر لأسفل، وراح يعبث في جراب عويناته، وقال:

- « لدى مجلات وكتب عديدة كتبها هذا الرجل المرموق.. وأكثرها غرابة يحكى فيه عن تلك الزيارة التي قام بها إلى (كارنشتاين).. إن التقاليد تتبدل مع الوقت كما تعرف..

» قيل إنه من نبلاء مورفيا لأنه عاش في تلك البقعة ولأنه نبيل الأصل.. لكنه في الحقيقة كان من سكان (ستيريا) الأصليين.. في شبابه كان الحبيب المفضل والأكثر حرارة للكونتيسة (ميركالا) الحسناء.. وقد سبب له موتها حزنًا لا يوصف..

» من عادة مصاصي الدماء أن يتكاثروا لكن طبقًا لقانون شيطانى صارم.. تصور منطقة خالية منهم. فكيف يبدأ الأمر وكيف يتضاعف؟

» سوف أخبرك.. شخص ما شرير أو مذنب يقتل نفسه.. المنتحر في ظروف معينة يتحول إلى مصاص دماء.. يزور هذا الكيان الناس أثناء نومهم فيموتون ويتحولون بشكل محتوم إلى مصاصي دماء في القبر..

» هذا ما حدث مع ميركالا التي استحوذ عليها أحد تلك الشياطين.. إن سلفي (فوردنبورج) الذي ما زلت أحمل لقبه قد اكتشف هذا واكتشف أكثر منه خلال بحثه المضنى..

» من ضمن ما استنتجه أن تهمة مص الدماء سوف تتجه عاجلاً أو آجلاً نحو الكونتيسة الميتة التي كان يهيم بها حبًّا في حياتها..

» أصابه الهلع من أن تنتهك حرمة رفاتها بفضيحة تنفيذ حكم الإعدام بعد الموت.. لم يتحمل هذه الفكرة سواء كانت الكونتيسة بريئة أم لا..

» ترك ورقة غريبة يقول فيها إن مصاص الدم إذ يتخلى عن طبيعته الثنائية، يقذف به إلى حياة بعيدة أكثر شناعة.. وقد اختار أن ينقذ حبيبته (ميركالا) من هذا..

» قام برحلة هنا وتظاهر بأنه تخلص من بقاياها وأغلق قبرها.. لكن حينما تقدم به العمر استرجع مشاهد حياته فبدأ يدرك ما اقترفه.. وبدأ الرعب يستحوذ عليه..

» وضع العلامات التي ساعدتني على بلوغ ذات البقعة.. واعترف بالخديعة التي مارسها.. ولو كان ينوى القيام بشيء أبعد من هذا فقد حرمه الموت منه »

تكلمنا في أمور كثيرة.. ومن ضمن ما قاله البارون:

- « من علامات مصاص الدماء قوة يده.. يد ميركالا الرقيقة قد أطبقت كمصيدة من الصلب على ساعد الجنرال حينما أراد أن يضربها بالفأس.. بالإضافة لهذا تترك هذه اليد تنميلًا في الطرف الذي تمسك به يصعب أن يشفي منه.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الربيع التالي أخذني أبي في رحلة إلى إيطاليا..

ظللنا بعيدين عن الوطن نحو العام. لقد استغرقنا وقتًا طويلاً حتى توارت ذكريات هذه الأحداث.. لكن (كارميللا) ما زالت تجد طريقها إلى ذاكرتي بأشكال غامضة متنوعة..

أحيانًا هي تلك الفتاة اللعوب الخاملة الجميلة، وأحيانًا ذلك الوحش المتلوي الذي رأيته في الكنيسة المهجورة..

وأحيانًا تولد من حلم يداعبني أتخيل فيه أننى أسمع صوت خطوات (كارميللا) الرقيقة على باب غرفة المعيشة.

شريدان لو فانو

١٨٧٢

(تمت بحمد الله وتوفيقه)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

مقاطعة في النمسا..

[←2]

نوع من الضفادع..

[←3]
في ذلك الزمن كانت أية حمى تعتبر ملاريا.. بل كان أي مرض يعتبر ملاريا.. وبالطبع افترضت الفتاة أن الكوابيس التي تراها ناجمة عن هذا المرض..

[←4]
فوهة في اليونان كئيبة الشكل؛ لذا اعتبرها الإغريق مدخل العالم السفلي.. المراد هنا أنها موشكة على الموت..

روايات عالمية للجيب 61



محامى الشوارع

تأليف : جون جريشام

ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (61)

محامي الشوارع

تأليف: چون جريشان

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

التقينا (چون جريشام Grisham) مرتين من قبل هنا.. مرة مع تحفته (صانع الأمطار) ومرة مع (العميل)، وتعد القصتان من أكثر ما نشر في هذه السلسلة فوزا بإعجاب القارئ واستحسانه.. نذكّر القارئ أن (جريشام) أديب أمريكي مال للتخصص في عالم المحاماة والقضايا، وهو بهذا يحذو حذو أديب شهير آخر هو (إيرل ستانلي جاردنر) صاحب (بيرى ماسون)..

ولد جريشام في أركنساس عام 1955 لأب مزارع قطن، وقد استقرت أسرته جوار المسيسيبي عام 1967.. في هذا الوقت تقريبا بدأ الشاب يقرأ بنهم، خاصة أعمال أديب أمريكا العظيم (شتاينبيك Steinbeck)، وإن لم يطمح للأدب قط، فقد كان يعتقد أنه خلق ليكون لاعب بيزبول عظيما.. ذلك الطموح الذي تخلى عنه في مباراة عنيفة جعلته يدرك قدراته بالضبط. درس المحاسبة وتخرج عام 1977. التحق بمدرسة القانون عام 1981 حيث عمل بالمحاماة لفترة.

اضطر ذات مرة لسماع طفلة صغيرة تحكى في المحكمة قصة اعتداء تعرضت له.. هنا خطر له أن يتخيل الوضع القانوني لو أن الفتاة كانت زنجية، ولو أن الاعتداء تم على يد مجموعة من البلطجية البيض المتعصبين ذوي الأعناق الحمر Red necks.. هنا يلعب التعصب العرقي دورا لا بأس به؛ لأن فرصة نجاة المجرم الأبيض عالية إذا كان المحلفون بيضًا، وهذا ما يدفع أبا الطفلة لتنفيذ العدالة بيده.. هكذا ولدت قصة

(وقت للقتل) عام 1987، والتي لم تلق اهتماما يذكر، فلم يبع منها إلا ألف نسخة..

لكنه بعدما قدمها للناشر الوحيد الذي قبلها، بدأ قصة ثانية اسمها (الشركة). وقد قفزت هذه القصة المثيرة إلى الصف الأول في أعلى المبيعات، وعام 1991 اشترتها منه إحدى شركات الإنتاج السينمائي بستمائة ألف دولار.

(الشركة) تحكى عن محام شاب يتعلم الدرس بالطريقة الصعبة: لا أحد يقدم شيئا مجانا، وكل هذه المزايا التي تمنحها إياه شركة المحاماة الكبرى تضعه في ورطة مخيفة بين الـ FBI والمافيا الغاضبة.. برغم أن الفيلم الذي قدمه (توم كروز) نجح جدا فإن الرواية سبقته في هذا النجاح، وبالتالي راجت رواية (وقت للقتل) ورآها النقاد للمرة الأولى..

بدأ جريشام يقدم عملا واحدا تقريبا كل عام، وتبدت في أعماله ثقافته القانونية مع فهمه للجنوب الأمريكي وعالم المسيسيبي الذي قدم لنا من قبل أديبا عظيما هو (مارك توين)..

قدم بعد هذا (العميل) و(الغرفة) و(المحلف الهارب) و(صانع الأمطار) و(الشريك) و(محامي الشوارع) و(ملف البجعة) و(الشهادة) و(مقاعد الشمس)..

القصة الأخيرة تنتمي لعالم البيزبول الذي لم ينسه قط. ويذكر القارئ أننا قدمنا في هذه السلسلة قصتي (صانع الأمطار) و(العميل).

هناك تيمة محببة لـ (جريشام) هي البطل الفرد الوحيد الضعيف الذي يواجه كيانا ضخما مرعبا.. المافيا أو شركات

المحاماة العملاقة أو شركات التأمين أو الاستخبارات المركزية.. حجم رواياته ضخم مما يروق للقارئ الأمريكي الذي لا ينظر بجدية لرواية صغيرة الحجم..

نال جريشام لقب (أفضل الكتاب مبيعا في التسعينيات)، وكل عنوان جديد له هو فيلم جاهز للتصوير، ويعتبر حاليا أكثر الكتاب شعبية لدى قارئ الإنجليزية بعد (ستيفن كنج)..

يعيش جريشام في أكثر من بيت جوار المسيسيبي وفي أكسفورد وفرجينيا، ولديه ابنان.. امتاز أدبه بأنه يتحاشى الجنس والعنف والبذاءات، وهو لم يخف للحظة صدمته من كل هذه الأشياء التي يقحمها كتاب السيناريو على قصصه..

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

واحد

دخل الرجل ذو الحذاء المطاطي طويل العنق المصعد خلفي، لكني لم أره في البداية.. برغم هذا شممت رائحة التبغ والخمر الرخيصة والحياة في الشارع بلا صابون. كنا وحيدين بينما المصعد يصعد لأعلى، وإذ نظرت لأسفل رأيت الحذاءين.. أسودين كبيرين متسخين.. معطف مطر يتدلى حتى ركبتيه، وتحته طبقات من ثياب متسخة جعلته يبدو أقرب للبدانة. لكنها ليست بدانة فرط التغذية، ففي شتاء واشنطن يلبس الناس الذين لا بيت لهم كل ما يملكون.

كان أسود متقدما في العمر، وقد شاب نصف شعره ولحيته فهو لم يقصهما أو يغسلهما منذ أعوام. كان يتجاهلني وهو ينظر أمامه عبر نظارة شمس سميكة حتى تساءلت عن سبب اهتمامي به.

لم يكن ينتمي هنا. ليست هذه بنايته ولا مصعده.. كل المحامين في الطوابق الثمانية في شركتي هذه يعملون بالساعة ويتقاضون أجورا ما زلت أراها فادحة بعد سبعة أعوام. مجرد متسكع جاء من البرد.. هذا يحدث طيلة الوقت في وسط واشنطن.

في الطابق السادس توقفنا، وللمرة الأولى لاحظت أنه لم يطلب رقم أي طابق.. لقد كان يقتفي أثري.. خرجت مسرعا فما إن مشيت عبر البهو الرخامي الفاخر لشركة (دريك وسويني) حتى اختلست نظرة للخلف لأراه ما زال في المصعد لا ينظر لي.

حيتني مدام (ديفييه) موظفة الاستقبال بطريقتها الموحية بالازدراء، فقلت لها:

- راقبي المصعد..

- لمه؟

- متسكع.. ربما وجب أن تطلبي الأمن وربما بعض المطهرات..

وابتعدت واضعا معطفي على كتفي، ونسيت الرجل ذا الحذاء المطاطي.. لدي مقابلات لا تنتهي طيلة العصر، وكنت على وشك أن أقول شيئا لـ (بولي) سكرتيرتي عندما سمعت الطلقة الأولى.

كانت مدام (ديفييه) تقف خلف مكتبها متصلبة تحدق في ماسورة طويلة لمسدس يحمله صديقنا متسكع الشارع. كنت أول من دنا منها لذا صوب المسدس بلياقة نحوي فتصلبت بدوري.

كنت قد رأيت ما يكفى من أفلام لأعرف ما يجب عمله؛ لذا قلت وأنا أرفع يدي:

- لا تطلق النار..

غمغم في هدوء:

- اخرس..

فجأة صرخ أحدهم من خلفي:

- إن معه مسدسا!

ثم تلاشت الأصوات في الخلفية.. وإذ جرى رفاقي للأبواب الخلفية كاد بعضهم يثب من النوافذ. عن يساري يوجد باب خشبي عملاق يقود لقاعة اجتماعات فيها الآن ثمانية محامين من قسم التقاضي.. ثمانية محامين لا يخافون شيئا.. كان أكثرهم صلابة طوربيدا عدوانيا اسمه (رافتر)، ما إن فتح الباب صائحا:

- ماذا بحق الجحيم؟

حتى اتجهت ماسورة المسدس نحوه.. صاح (رافتر):

- دع هذا المسدس...

خلال جزء من الثانية انطلقت طلقة أخرى تخترق السقف فوق رأس (رافتر) فجعلته يدرك أنه فان..

أشار لي الرجل فدخلت قاعة الاجتماعات، وكانت مدام (ديفييه) ترتجف وقد مزقها الرعب.

أغلق المتسكع الباب خلفي ورفع المسدس في الهواء كي يتمكن كل المحامين من إبداء إعجابهم به.. كانت رائحة البارود أقوى من رائحة حامل المسدس..

قال الرجل وهو يستعمل مسدسه كحجة إقناع قوية:

- قفوا أمام الجدار..

ثم وضعه جوار رأسي، وقال:

- أغلق الأبواب..

وكذا فعلت

لم تبدر كلمة عن ثمانية المحامين، ولم تبدر كلمة مني وأنا أنفذ الأمر ثم التفت له.. لسبب ما تذكرت جرائم إطلاق الرصاص في مكتب البريد، عندما يعود موظف في ساعة الغداء ليطلق الرصاص على خمسة عشر من زملائه.. تذكرت المذابح في مطاعم الوجبات السريعة.. كل من ماتوا في هذه الحوادث كانوا أطفالا أو مواطنين صالحين.. بينما نحن حفنة من المحامين!

بإشارات من مسدسه أوقف المحامين جوار الحائط ثم التفت لي.. ماذا يريد؟ لم أر عينيه بسبب نظارات الشمس لكنه كان يرى عيني.. نزع معطفه وبعناية وضعه على المنضدة.. ثم نزع الطبقة الثانية.. سترة صوفية خضراء سميكة.. سميكة لسبب واضح هو أن هناك حول خصره حزمة من عصي حمر.. وأدركت عيني غير المدربة أن هذا ديناميت.

هناك أسلاك تجرى كالسباجيتي الملونة من وإلى أصابع الديناميت، بينما قام شريط (شكرتون) فضي بتثبيت كل شيء.

- أرجوكم الهدوء..

قالها بلهجة الأستاذ الصبور.. وقد جعلني هدوءه أفقد أعصابي.. مد يده في جيبه فأخرج مطواة وحزمة حبال.. ثم نظر للوجوه المذعورة، وقال:

- لا أريد أن أؤذى أحدا..

كان من الجميل أن تسمع هذا لكن من العسير أن تأخذه بجدية.. هنا عاد المسدس لي.

- أنت.. اربطهم..

كان (رافتر) قد اكتفى.. تقدم نحو الرجل وقال:

- اسمع يا صاحبي. ماذا تريد بالضبط؟

انطلقت الرصاصة الثالثة فوق رأسه.. بدت كطلقة مدفع وفي مكان ما من البهو صرخت إحداهن..

قال المتسكع:

- لا تناديني بـ (صاحبي)..

وعلى الفور تم استبعاد لفظة (صاحبي) من القاموس.. وسألته شاعرا بأنني صرت تقريبا زعيم الرهائن:

- بم أناديك؟

- ناديني بـ (مستر)..

وناسب الجميع هذا اللقب.. هنا دق جرس الهاتف فرفع السماعة بيده اليسرى بينما اليمنى تصوب المسدس نحو (رافتر). لو أن لنا حق الانتخاب لاخترنا (رافتر) ليكون كبش الفداء الأول.

قال (مستر) [1]:

- نعم..

ثم وضع السماعة وناولني الحبل وأمرني بأن أحكم قيدهم. بحيث ترتبط معاصمهم.. فعلت ذلك وأنا أحاول جهدي ألا أنظر لوجوه زملائي الذين أقودهم إلى نهايتهم.. حاولت أن أبقى القيد مرخيا قدر الإمكان..

كان (مالامود) يتنفس بصعوبة، ويعرق بغزارة، فقد كان أكبرنا سنا وقد مر عامان منذ نوبته القلبية الأولى.. نظرت لـ (نوتسو) صديقي الوحيد الحقيقي في هذه المجموعة.. كان من نفس سني 32 عاما وزوجتانا من (بروفي دنس).. زواجه ناجح بينما زواجي يوشك على الانتهاء.. تلاقت عينانا وفكر كل منا في أطفاله.. كنت سعيد الحظ لأنني لم أنجب..

دوت السرينة الأولى فطلب منى (مستر) أن أسدل الستائر على النوافذ.. نظرت لساحة الانتظار فرأيت سيارة شرطة خالية فتحت أبوابها، فلابد أن شرطييها في البناية فعلاً.

☆☆☆

حسب آخر إحصاء، لابد أن شركة (دريك وسويني) لديها 800 محام حول العالم، ونصفهم في واشنطن في البناية التي يهددها (مستر)..

طلب مني أن أتصل بالريس وأخبره أن الرجل مسلح ويحمل دستة من أصابع الديناميت. اتصلت بـ (رودلف) مدير قسمي ونقلت له الرسالة وأضفت:

- أرجو أن تنفذ ما يطلبه..

- وما الذي يطلبه؟

- لا أعرف..

هنا لوح (مستر) بالمسدس لتنتهي المحادثة. ثم راح يعبث بسلك أحمر من الأسلاك المحيطة بخصره:

- هذا السلك الأحمر.. يكفي أن أجذبه وينتهي كل شيء.

سألته:

- لم تفعل ذلك؟

- لا أريد.. لكن لم لا أفعله؟

دهشت من طريقة أدائه الرتيبة المنهجية.. كل مقطع يحظى بنفس المعاملة.. إنه حاليا متسكع لكن لابد أنه رأى أياما أفضل.

كانت الواحدة والثلث فأنا محام أعيش بالساعة ومرت فترة صمت محطمة للأعصاب مدتها أربع عشرة دقيقة.. لم أصدق أننا سنموت. لا يبدو لي أن هناك دافعا أو سببا لقتلنا.. أعرف يقينا أن أحدنا لم يلقه من قبل.. هذه بالضبط هي المذبحة التي ستستولى على اهتمام الإعلام في الفترة القادمة، ثم يبدأ البعض في تأليف نكت المحامي الميت.. كان بوسعي أن أرى عناوين الصحف، لكني عجزت عن تصديق أن هذا سيحدث فعلاً.

فجأة سألني (مستر):

- ماذا تناولت في الغداء؟

- تناولت دجاجا مشويا..

- وحدك؟

- كلا.. كان معي صديق..

- وكم كلفتكما هذه الوجبة؟

- ثلاثون دولارا..

لم يحب هذا.. هز رأسه، وقال:

- ثلاثون دولارا؟ لفردين؟

ثم نظر إلى المحامين الثمانية، ودعوت الله أن يكذبوا لو أنه سألهم.. هناك (كروش) ممتازة في هذه المجموعة، وثلاثون دولارا لا تكفيهم فاتحا للشهية..

- هل تعرف ما أكلته أنا؟

- لا..

- أكلت حساء ومقرمشات في أحد الملاجئ.. حساء مجاني سرني أن ظفرت به.. يمكنك أن تطعم مائة من أمثالي بثلاثين دولارا.. هل تعرف هذا؟

هززت رأسي في جدية كأنى تبينت فجأة حجم خطيئتي.

لوح بمسدسه، وقال:

- اجمع كل المحافظ والساعات والمجوهرات..

- هل لي أن أسأل لماذا؟

- لا..

هكذا وضعت حافظتي وساعتي على المنضدة ثم رحت أفتش في جيوب رفاقي.. طلب مني أن أتصل برئيسي ثانية فرد (رودلف) فورا.. يمكنني أن أتخيل قائد (السوات) يقف في مكتبه الآن..

كان الرجل يريد أن أحمل حقيبة سوداء كبيرة لأضعها خارج القاعة ثم أعود وأغلق الباب خلفي، وهذا ما طلبته من (رودلف).. ونفذت ما قاله ثم عدت له.. سألني من جديد:

- كم من المال كسبت العام الماضي؟

قلت في ارتباك:

- انتظر.. دعني أتذكر..

- لا تكذب!

- مائة وعشرون ألفا...

بدا أن هذا لم يرق له بدوره، فعاد يسأل:

- وكم أنفقت منه على أعمال الخير؟

- آه.. دعني أتذكر.. زوجتي تتولى شئون الإنفاق والفواتير..

- ومن يدفع ضريبة الدخل الخاصة بكم؟

- هذا تتولاه إدارة الضرائب الخاصة بنا

- هل هي في هذه البناية؟

- نعم..

- إذن أوصلني بهم.. أريد سجل الضرائب لكل شخص هنا..

نظرت لوجوههم، ورأيت في وجه اثنين أنهما يوشكان على قول: هلم أطلق الرصاص علينا فهذا أفضل..

لابد أنني ترددت لأن (مستر) صوب المسدس على رأسي، وصاح:

- افعل ذلك الآن!

اتصلت بـ (رودلف) الذي بدا مترددا، حتى صرخت فيه:

- افعل ذلك الآن..!.. أرسلها لي بالفاكس.. ضرائب آخر عام فحسب..

ورحنا نراقب آلة الفاكس في الركن بانتظار الأرقام، خائفين أن يقتلنا (مستر) لو تأخر وصول نموذج 1040 الخاص بالضرائب..

☆ ☆ ☆

اثنان

بما أن (مستر) قد قام بتعييني ككاتب حسابات للمجموعة، جلست حيث أشار لي بالمسدس وأمسكت بالفاكسات.. كان رفاقي قد وقفوا مدة ساعتين وظهرهم للجدار الآن وقد بدا عليهم الإرهاق والتعاسة..

سألني (مستر):

- أنت أولا.. ما اسمك؟

أجبت في أدب:

- مايكل بروك..

- كم من المال كسبت العام الماضي؟

- قلت لك.. مائة وعشرون ألفا قبل الضرائب..

- وكم أنفقت منه على أعمال الخير؟

كنت واثقا من قدرتي على الكذب.. لست محاسب ضرائب لكن بوسعي خداعه.. زوجتي (كلير) حصلت على 31 ألف دولار كطبيبة جراحة مقيمة؛ لذا بدا دخلنا الكلي عاليا.. وبعد دفع الضرائب ومصاريف دراسة (كلير) وإيجار الشقة الجميلة في (جورجتاون) 2400 دولار في الشهر استثمرنا 21 ألف دولار في حساب مشترك..

كان (مستر) ينتظر في صبر.. وكنت أتخيل رجال (السوات) يزحفون هنا وهناك ويتسلقون الأشجار، ويفعلون كل الأمور

التي نراها في السينما.. ومهمتهم وضع رصاصة في جمجمته وبرغم هذا لا يبدو أنه مهتم لأي شيء..

لقد تأهب للموت واستسلم لقدره.. وهذا لا ينطبق علينا.

قلت له:

- تبرعت بألف دولار لجامعة (ييل) وألفين لهيئة (الطريق المتحد) المحلية..

- كم دفعت للفقراء؟

- (الطريق المتحد) تتخذ ما تراه مناسبا لأعمال الخير.. ودفعت 25 ألف دولار كضرائب.. بالطبع أكثر هذا المبلغ يذهب للخدمات الطبية والأطفال معدومي الأهلية.

- وهل فعلت هذا عن طيب خاطر؟

- لم أشك..

طبعا كنت أكذب.

- هل شعرت بالجوع من قبل؟

كان يحب الإجابات البسيطة ولم يرزقني الله برد بليغ، لذا قلت:

- لا..

- هل نمت في الجليد؟ أنت تكسب الكثير لكن جشعك يمنعك من أن تعطيني بعض الفكة في الشارع.

ولوح بالمسدس في الآخرين:

- أنتم جميعا.. تتجاهلونني وأنا أتسول.. تنفقون على قهوتكم أكثر مما أنفقه على طعامي.

نظرت إلى هؤلاء الأوغاد فلم يكن منظرهم محببا.. أكثرهم ينظر لقدميه.. وتخيلت ما يدبره (السوات) الآن في الخارج.. لقد نزع (مستر) وصلات الهاتف.. لا يريد الكلام مع أحد ولا المفاوضة.. إن جمهوره الوحيد هنا في هذه القاعة..

- مَن مِن هؤلاء يكسب أكثر؟

قلبت الأوراق حتى وجدت أوراق (مالامود).. كانت المرة الأولى التي يتاح لي فيها إدراك الحجم الحقيقي لنجاح هذا الزميل، لكني لم أجد في ذلك سعادة.. كان يكسب خمسين ألف دولار في الشهر من الشركة، ومكافأته الثانوية التي نحلم بها جميعا خمسمائة ألف..

- كم من هذا المال أعطيت الفقراء والجياع؟

قال (مالامود):

- لا أذكر.. لكنى وزوجتي منحنا الكثير للفقراء ونحن سعيدان بهذا.

طلب مني (مستر) أن أدون كشفا باسم كل واحد وجواره ما حصل عليه وكم أعطى الفقراء.. استغرق هذا وقتا لا بأس به، ولكني قدرت أنه من الخير لي ألا أتعجل..

لم يهدد بقتل رهينة كل ساعة، ولم يطلب إطلاق رفاقه من السجن.. لا يريد أي شيء في الواقع..

ضايقني أن زميلي (باري نوتسو) يكسب أحد عشر ألفا أكثر مني.. سوف نناقش هذا فيما بعد.

- المجموع حوالي ثلاثة ملايين.. الإنفاق العام ١٢٠ ألفا..

قال في غيظ:

- لا أريد معرفة الإنفاق العام.. المال الذي تنفقونه أنتم الأثرياء البيض على الأوركسترا والمحافل اليهودية والأندية.. أريد معرفة كم أنفقتم على الطعام للجياع.. في هذه المدينة بينما تحققون الملايين ينام أطفال جياع يصرخون ويبكون من السغب.. كم صرفتم عليهم؟

- ليس بشكل مباشر.. إن..

- اخرس! وماذا عن الملاجئ؟ وماذا عن العيادات الشعبية التي يأتي لها الأطباء ليعالجوا الفقراء مجانا؟

نظر لي (رافتر) كأنما بوسعي عمل شيء.. ربما أنظر للأوراق ثم أصيح:

- اللعنة! انظر! لقد تبرعنا بنصف مليون دولار للعيادات الشعبية وحساء الفقراء!

لكن ليس أنا.. إن (مستر) أذكى مما يبدو، وأنا لا أرغب في أن أموت رميا بالرصاص..

مشي نحو النافذة ونظر إلى الخارج، ثم قال بلا مبالاة:

- شرطة في كل مكان، وسيارات إسعاف..

ثم نسي هذا كله وعاد لنا ليوجه مسدسه نحو (كولبيرن) ويسأله:

- كم أنفقت على العيادات؟

- لا شيء..

قالها وأغمض عينيه متأهبا للبكاء.. لكن (مستر) لم يطلق عليه الرصاص بل وجه المسدس نحو (نوزو) وسأله ذات السؤال.. مر على الواقفين واحدا تلو الآخر مكررا ذات السؤال لكنه لم يطلق الرصاص على (رافتر) كما تمنينا..

- ثلاثة ملايين ولا شيء للفقراء.. أنتم أناس تعساء..

☆ ☆ ☆

عند العصر قال إنه جائع.. أمرني أن أتصل برئيسي وأطلب حساء من إرسالية الميثودست، فهم يضعون في الحساء خضراوات أكثر، والخبز ليس تالفا كباقي المطاعم..

تساءل (رودلف) عبر مكبر الصوت:

- هل المطاعم المجانية تقوم بتوصيل الطلبات؟

- فقط افعل هذا يا (رودلف).. هات ما يكفي لعشرة..

وتخيلت المحامين المتأنقين محاطين بالشرطة يدخلون مطعم الإرسالية وسط الفقراء المنكبين على سلطانيات الحساء.. عشرة طلبات.. خبز زيادة.

سمعنا صوت الهليكوبتر من جديد.. ما نوع الاقتحام الذي يخططون له والذي يتضمن هليكوبتر؟ ربما هي هنا لإخلاء

الجرحى..

ظل (أمستيد) يتلوى لفترة ثم صاح:

معذرة يا مستر.. لكن لابد لي من أن.. من أن أذهب للتواليت.

- تواليت؟ ما هو التواليت؟

- أريد أن أتبول يا سيدي.. لا أستطيع البقاء أكثر..

نظر (مستر) حوله حتى وجد مزهرية من الخزف في ركن الغرفة، فأمرني بأن أفك قيد (أمستيد) ثم نزع الأزهار منها، وقال:

- التواليت هناك..

هكذا أدار (أمستيد) ظهره لنا وتبول بينما نحن ننظر في الأرض.. ثم أمرني (مستر) أن أحمل المنضدة أنا و(أمستيد) لنضعها جوار النافذة وأمر المحامين بالجلوس القرفصاء عليها.. لم أعرف السبب.. لكنى قدرت أنه يريد أن يصنعوا بأجسادهم ستارا ضد القناصة.. أعتقد أنه رأى بعضهم على سطح البناية المقابلة وهذا ما عرفته فيما بعد.

لابد أن الحياة في الشارع تعلم الصبر، لأنه اكتفى بالجلوس والتحديق فينا من خلف عويناته السود..

فجأة قال:

- أنتم لا تتجاهلون الفقراء فقط.. بل تساعدون في طردهم من بيوتهم وإلقائهم في الشوارع..

هززنا رأسنا موافقين.. يمكنه أن يتهمنا بأي شيء يشتهيه.

جاء الطعام أخيرا فدق الباب.. قال لي (مستر) أن أنذر الشرطة أنه سيقتل واحدا منا لو رأى أي شخص خارج الغرفة، وقد شرحت هذا لـ (رودلف)..

ثم إن (مستر) أمر (أمستيد) بأن يفتح الباب ببطء..

انفتح الباب ورأيت الطعام على عربة صغيرة.. رأيت أربعة أوعية كبيرة من الحساء وكيسا مليئا بالخبز.. تساءلنا عما إذا كان هناك شيء يُشرب، لكننا لم نعرف الإجابة قط.

لقد دوت طلقة في الهواء..

كان قناص شرطة يتوارى خلف خوان جوار مكتب مدام (دفييه) وقد ظفر بمجال التصويب الواضح الذي أراده.. حينما انحنى (أمستيد) ليأخذ الحساء ظهر رأس (مستر) لربع ثانية فأطاره القناص..

سقط (مستر) على الأرض بلا كلمة.. وسرعان ما تغطى وجهي بالدم.. حسبتني أصبت وصرخت.. ووثب سبعة المحامين من على المنضدة وهم يعوون ككلاب محترقة.. وسقطت على ركبتي أنتظر انفجار الديناميت.. رفعت رأسي فرأيت (مستر) لآخر مرة على السجادة الثمينة ويداه إلى جواره، غير قادرتين على بلوغ السلك الأحمر.

فجأة امتلأت الردهة بفتية (السوات) بخوذاتهم الشرسة وواقيات الرصاص.. حملونا إلى المصاعد..

سألوني:

- هل أصبت؟

لم أعرف.. كان رأسي مغطى بالدم وسائل لزج، أخبرني طبيب فيما بعد أنه السائل النخاعي الشوكي.

☆ ☆ ☆

ثلاثة

في الطابق الأول كانت الزوجات والأصدقاء ينتظرون.. دوت صرخات الفرح إذ رأونا..

وكنت مغطى بالدم لذا أخذوني إلى الجمانيزيوم في القبو.. كانت شركتنا تملكه لكن أحدا من المحامين لم يكن يستعمله لأننا مشغولون جدا، ومن المؤكد أن من يستعمله سيكلف بالمزيد من العمل..

حاصرني الأطباء الذين ليست بينهم زوجتي، فأقنعتهم أن هذا الدم ليس دمى.. هكذا استرخوا.. ما أردته فعلاً كان حماما.. أين (كلير)؟ لقد ظللت تحت تهديد السلاح ست ساعات وحياتي معلقة، لكنها لا تقدر على المجيء؟

كان الحمام دافئا طويلاً، وغسلت شعري عدة مرات ثم وقفت وتركت قطرات الماء تنحدر دهرا.. عدت لمكتبي بعد استبدال ثياب جمانيزيوم بثيابي فجاءت سكرتيرتي (بولي) والدموع في عينيها.. كنت بحاجة لرؤية هذا فعلا.. وسألتني:

- هل أنت بخير؟

- أعتقد هذا..

قابلني (رودلف) في الردهة فاحتضنني، وقال:

- أهنئك.

كأنني حققت إنجازا.

- لا أحد ينتظر منك عملاً غدًا..

قالت (بولي) وهي تضع المعطف على كتفي:

- هناك صحفيون بالخارج.

نعم.. صحفيون! ويا لها من قصة للإعلام! لكن لم تعد هناك قصة.. لو أن الأمور سارت كما توقعنا لدوت طلقة ثم انفجار وتتطاير الأذرع والسيقان من النوافذ مع البث الحي في نشرة التاسعة.

- سوف أوصلك للبيت..

سرني بشدة أن أجد من يخبرني بما يجب أن أعمله..

كان هواء الليل باردا عذبا آلم رئتي.. ووقفت في الركن أرقب السيرك الدائر أمامي.. سيارة إسعاف تقف بانتظار جثة (مستر) بلا شك..

أنا حي! أنا حي!

أغمضت عيني وصليت صلاة شكر.

☆ ☆ ☆

في السيارة تكلمت أخيرا.. قلت لـ (بولي):

- لم يكن ينوى قتلنا.

سرت (بولي) لسماع صوتي، فقالت:

- وماذا كان يفعله إذن؟

- لا أعرف..

- وماذا طلب؟

- لم يقل قط.. من الغريب أن تدركي أننا قضينا عدة ساعات نتبادل النظرات لا أكثر..

- أنت لا تلوم رجال الشرطة طبعا..

- لا.. ذكريني بأن أكتب لهم خطابات شكر.

كانت شقتي في (جورج تاون) وقد ترجلت من السيارة شاكرا (بولي).. ورفعت رأسي للنوافذ فأدركت أن (كلير) لم تعد بعد.

قابلت (كلير) بعد أسبوع من انتقالي إلى واشنطن.. كنت قد تخرجت في (ييل).. شركة غنية ووظيفة ممتازة.. قضيت عامي الأول أعمل خمس عشرة ساعة يوميا ستة أيام أسبوعيا، وكنت أقابل (كلير) يوم الأحد..

خطر لنا أنه لو تزوجنا لوجدنا وقتا أفضل معا.. وتم الزواج.. ثم عدت لأعمل تسعين ساعة في الأسبوع.. بدأت تمل بعدي عنها ولا ألومها، لكن الفرص في العمل شحيحة والمكافآت عالية قد تبلغ مليونا في العام.. الفواتير أهم من الزوجات السعيدات.. الطلاق شائع جدا عندنا..

بعد عام بلغت (كلير) ذروة تعاستها وبدأت تتشاجر..

العمل يزداد صعوبة.. فرصتي تتزايد في الشركة.. قررت (كلير) أن تدرس في مدرسة الطب.. في النهاية صرت أنا وهي مدمني عمل.. كففنا عن الشجار وصرنا لا نرى بعضنا.. لحسن الحظ أننا لم ننجب..

إذ دخلت الشقة المظلمة شعرت بأنني أريد (كلير) لأول مرة منذ أعوام.. أنت تواجه الموت فتحتاج إلى أن تحكي عنه.. أن

يحتاج لك أحد.. أن يخبروك أنهم يهتمون..

بعد قليل سمعتها على الباب.. فتحته وصاحت:

- مايكل..

ثم سألتني باهتمام حقيقي:

- هل أنت بخير؟

- بخير.. أين كنت؟

- في المستشفى..

- بالطبع.. كان يومي سيئا..

- أعرف كل شيء..

- إذن أين كنت بحق الجحيم؟

- في المستشفى..

- آه.. تسع رهائن في قبضة مجنون لمدة ست ساعات وأنت في المستشفى.. يا لي من شخص فظ!

جلست جواري على الأريكة، وقالت ببرود:

- لم أستطع المجيء.. أرغمونا على البقاء في المستشفى، فقد سمعنا عن موضوع الرهائن.. كان هناك احتمال أن تحدث إصابات.. هذا وضع إجباري.. وما كان بوسعي أن أساعدك لو جئت مكتبك..

ذهبت للمطبخ وعادت بشراب.. ثم جلست جواري في شبه الظلام.. لأننا لم نكن نمارس الاتصال فقد وجدنا صعوبة في بدء

المحادثة..

- هل ترغب في الكلام عن ذلك؟

- لا. ليس الآن..

بالفعل لم أكن أرغب.. لقد بدأت الحبوب المهدئة التي أعطونيها تعمل.. فكرت في (مستر) وكيف كان هادئا برغم أنه يحمل مسدسا ويطوق خصره بالديناميت..

لم يكن يضايقه الصمت..

الصمت هو ما أريد وغدا أتكلم..

☆ ☆ ☆

أربعة

صحوت في الرابعة من صباح اليوم التالي وأنا أشم رائحة ذلك السائل الذي سال على أنفى من مخ (مستر).. أصابني الذعر وانتفضت في الأريكة حتى سمعت من يتحرك.. (كلير) كانت غافية على المقعد بجواري..

قالت في نعومة:

- كل شيء تمام.. مجرد كابوس..

- هلا جلبت لي بعض الماء؟

ذهبت إلى المطبخ.. وجلسنا نتكلم نحو ساعة.. حكيت لها كل شيء وظلت تصغي في انتباه.. لم نكن نتكلم تقريبا في الأعوام الأخيرة..

كانت تقوم بالمرور في السابعة؛ لذا طهونا الإفطار معا وتناولناه في المطبخ أمام التلفزيون الصغير.. أخبار السادسة صباحا تحكى عن دراما الرهائن. (مستر) كان اسمه (ديفون هاردي).. في الخامسة والأربعين.. محارب سابق في فيتنام له صحيفة سوابق صغيرة.. لا أسرة.. لا يوجد حافز واضح..

كنا في الثاني عشر من فبراير، وقد توقعت النشرة الجوية سقوط ثلوج عصرا.. في السادسة وأربعين دقيقة قادتني (كلير) بسيارتها إلى المكتب، ولم أندهش عندما وجدت سيارتي (اللكساس) تقف وسط العديد من السيارات، فساحة الانتظار لا تخلو أبدا. لدينا أناس ينامون في المكتب..

دخلت البناية فحييت ضابطي الأمن الجالسين، واتجهت إلى أحد المصاعد.. ذلك الذي استقللته مع (مستر) أمس.. لماذا اختار شركتنا بالذات؟ لماذا أنا بالذات؟ كيف اجتاز موظفي الأمن؟ لماذا الطابق السادس؟

ثم لماذا فعل ذلك؟ هل ربط نفسه بالديناميت لمجرد أن يلوم بعض المحامين الأثرياء على بخلهم؟ كان بوسعه أن يجد قوما أغنى وأكثر شراهة..

توقف المصعد فخرجت منه...

فتحت باب قاعة الاجتماعات.. لا أثر لشيء.. حتى السجادة التي مات فوقها (مستر) قد تم استبدالها بواحدة أفضل.. وقد تم دهان الجدران بطبقة طلاء طازجة.. حتى ثقب الرصاصة في السقف اختفى.

لقد أنفقوا مالاً ليلة أمس حتى يصير الحادث كأنه لم يكن.. وماذا كنت أتوقع؟ نصبا تذكاريا؟ كومة ورود جلبها زملاء (مستر) من المتسكعين؟

وجدت على مكتبي نسخة من (واشنطن بوست) ففتحتها.. عرفت من المقال المكتوب عن الحادث بعض أشياء.. الديناميت لم يكن كذلك.. كان عصى مكنسة تم طلاؤها وقطعها لتبدو كالديناميت.. المسدس مسروق.

باقي المعلومات مصدرها من يدعى (موردخاي جرين) وهو محام من العيادة القانونية Law clinic في الشارع 14 قرب (لوجان سيركل).. كان (مستر) يعمل كساع في مشتل تعليمي ثم فصل من عمله بغرض تخفيض الإنفاق.. دخل السجن بضعة

أشهر للسرقة ثم قذف في الشارع.. طرد بحكم قانوني من مستودع كان ينام فيه ليس من الصعب معرفة شركة القانون التي تتولى قضايا كهذه بين آلاف الشركات في واشنطن.

لم تعلق الصحيفة على الخبر أكثر من هذا.. لو مات المحامون التسعة الأثرياء لكانت قصة مثيرة جدا. حمدا لله أن الأمر ليس كذلك.. أنا الآن أجلس على مكتبي أطالع الصحيفة.. كان ممكنا أن أكون في المشرحة إلى جوار جثة (مستر)..

☆ ☆ ☆

جاءت (بولي) بعد قليل بابتسامة عريضة وطبق من الحلوى.. في الحقيقة جاء كل المحامين التسعة.. لو تغيب أحدهم لكانت علامة على الضعف..

جاءت مكالمة من آرثر.. لدينا في الشركة حوالي عشرة (آرثرات) لكنه الرجل الذي لا يحتاج لذكر باقي اسمه.. كان (آرثر جاكوب) كبير الشركاء.. المدير التنفيذي.. رجل نحترمه ونعجب به، وقد كلمته ثلاث مرات لا أكثر خلال سبعة أعوام..

هنأني على رباطة جأشي حتى شعرت بأنني بطل.. وقد طلب أن يقابل الرهائن في العاشرة.. يريد أن يسجل إفادتنا على شريط فيديو..

- ولماذا؟

كان صوته حادا كالموسى برغم أعوامه الثمانين وهو يقول:

- نرى أنها فكرة طيبة.. نعتقد أن أسرته ستحاول مقاضاة رجال الشرطة.. ولسوف يطلب رجال الشرطة منا الدفاع عنهم..

حمدا لله.. أين كنا سنكون من دون دعاو قضائية؟

رحت أحاول أن أعمل.. أمامي كومة من الملفات.. لكني لم أستطع.. لقد تغير كل شيء.. لم يعد مكتبي يمثل الحياة والموت..

لقد رأيت الموت. ومن سذاجتي حسبت أن بوسعي أن أهز كتفي وأواصل حياتي العادية.

كنت راغبا في الرحيل.. قلت لـ (بولي) إن لدي مهمة يجب القيام بها.. ذكرتني باجتماع (آرثر)..

استقللت سيارتي وشغلت السخان وجلست فترة أفكر لو لم ألحق بالاجتماع لتضايق آرثر.. لا أحد يفوت اجتماعا مع آرثر.. لا بأس.. هذه فرصة نادرة لارتكاب الحماقات.. فأنا تحت تأثير الصدمة، وسوف يكون على آرثر أن يقبل هذا..

☆ ☆ ☆

كانت السحب تتأهب في الجو والعاصفة قادمة.. مررت بمتسول على قارعة الطريق فتساءلت إن كان يعرف (ديفون هاردي)..

قدت سيارتي نحو (لوجان سيركل) حتى وجدت العيادة القانونية في الشارع 14.. كانت بناية من ثلاثة طوابق بنيت بالقرميد الأحمر.. بناية فكتورية رأت أياما أفضل.. كان الباب مفتوحا فمددت يدي للمقبض ودلفت إلى عالم آخر..

كان هذا مكتب محاماة، لكنه يختلف عن الرخام والماهوجني في شركة (دريك وسويني).. كانت هناك أربعة مكاتب

معدنية عليها ملفات.. وكان هناك رف مخصص للملفات يستند إلى جدار.. عمر الهواتف ومنسقات الكلمات يتجاوز عشر سنوات..

كانت هناك امرأة (هسبانية) (2) شرسة تطبع على آلة كاتبة سألتني:

- هل تريد شيئا؟

كان هذا تحديا أكثر منه سؤالاً.. ولو أن سكرتيرة في مكتبنا تعاملت هكذا لطردت. اسمها (صوفيا مندوزا) كما عرفت من الاسم على مكتبها.. سألتها عمن يدعى (موردخاي جرين)..

كان (جرين) رجلاً أسود بدينا في الخمسينيات له لحية رمادية وعوينات مستديرة.. سألني بصوت كالرعد:

- كيف أساعدك؟

- (ديفون هاردي)

نظر لي لوهلة، ثم للسكرتيرة، ثم أشار لي إلى مكتبه.. كان هذا المكتب غرفة ضيقة تتناثر فيها الملفات على الأرض..

ناولته بطاقة الشركة، وقلت:

- جئت بالسلام.. لقد كادت رصاصة مستر (هاردي) تفتك بي..

- هل كنت هناك؟

وأخذ شهيقا عميقا وزال العبوس عن وجهه.. دعاني للجلوس على المقعد الوحيد، فجلست وأنا أدس يدى في جيبي

معطفي.. أنا الذي بدأت فعليّ أن أبدأ الكلام.. لكنه هو الذي قال أولاً:

- أعتقد أن يومك كان عصيبا..

- ليس كيوم (هاردي).. قرأت اسمك في الجريدة لذا جئت..

- لست متأكدا مما هو مطلوب مني.

- هل تعتقد أن أسرته سترفع قضية؟ لو كان الأمر كذلك فلربما وجب أن أنصرف.

- لا أسرة له.. يمكنني أن أحدث بعض الضوضاء.. لابد أن الشرطي الذي قتله كان أبيض.. ربما استطعت الحصول على بعض المال من البلدية، لكن هذه ليست فكرتي عن التسلية، فالله يعلم أن عندي ما يكفيني من مشاكل.. والآن هل هذا سبب قدومك؟

- لا أعرف سبب قدومي.. لقد ذهبت لمكتبي صباحا فلم أستطع أن أعمل وهأنذا..

ثم سألته:

- أين هو الآن؟

- مشرحة المدينة.. سوف يعدون له جنازة على سبيل الصدقة..

- هل كان مصابا بالإيدز؟

- لماذا تسأل؟

- لأن دمه تناثر على وجهي لحظة مصرعه..

- كلا.. لم يكن مصابا بالإيدز على قدر علمي..

هنا دخل المكتب رجل ملتح رسمت على وجهه علامات المحامي الذي يحاول أن ينقذ العالم.. عرفت فيما بعد أن اسمه (أبراهام).. لم يحفل (جرين) بتقديمي له، وقال:

- الجليد قادم. يجب أن نتأكد من أن كل الملاجئ مفتوحة..

ثم التفت لي، وقال:

- هل هذا كل ما جئت من أجله؟ الاطمئنان على الدم؟

- كلا.. أريد أن أعرف لم فعل ذلك؟

- كان مختل العقل ككل هؤلاء الذين يمضون حياتهم في الشوارع وينامون في البرد غارقين في الخمر، ويطردهم رجال الشرطة.. لابد أن تجن.. كان (هاري) يقيم في مستودع مهجور اتخذه قواد سابق مأوى لمن لا بيت له.. ثم جاءت شركة اسمها (ريفر أوكس) استطاعت الحصول على هذا المستودع وطردت من فيه.

- وهناك احتمال لا بأس به أن شركتي هي التي مثلت (ريفر أوكس)..

- نعم.. يقولون إن الطرد تم دون إخطار مجموعة المتشردين هذه.. وهم كانوا يدفعون إيجارا.. أي إنهم كانوا مستأجرين ولم يكونوا مقيمين بوضع اليد..

- وأين هذا المستودع؟

- لم يعد هناك مستودع.. لقد سووه بالأرض الأسبوع الماضي..

ونظر لساعته. حقا أخذت من وقته أكثر من اللازم..

غادرت المكتب وتجاهلت (صوفيا) التي تجاهلتني بدورها.

وفي الخارج كانت سيارتي تنتظر وعليها جليد سمكه بوصة..

☆ ☆ ☆

خمسة

كنت أشعر بالدفء والراحة في سيارتي؛ لذا رحت أجوب شوارع المدينة وسط الثلج المنهمر، لا أعرف أين أذهب.. لكني لم أرغب في العودة للمنزل..

اتصلت بي (بولي) تخبرني أن (آرثر) يسأل عنى وكذا (رودلف).. الكل يبحث عنى.. قلت لها إني عند الطبيب

- هل هذا صحيح؟

- ممكن..

في الرابعة مساء كانت المدينة شبه خالية والسماء مظلمة..

اتجهت إلى الشركة، حيث أخبرني رجل الأمن أن أكثر المحامين والموظفين قد عادوا لبيوتهم في الثالثة بسبب الطقس اللعين.. ركبت المصعد إلى مكتبي وفتحت جهاز الكمبيوتر أتفقد بيانات عملائنا.

كانت شركة (ريفر أوكس) قد تأسست عام 1977 ومقرها في (هيجرستاون ميريلاند).. كان محاميها عندنا هو (بريدن تشانس).. اسم أعرفه.. إنه يعمل في العقارات في الطابق الرابع من هذه البناية وعمره 44 عاما.. درس القانون في (دوك) وتخرج في (جستبرج).. وجدت بيانات استيلاء الشركة على المستودع الذي أعرف أن من بين سكانه مستر (هاردي).. الرجل الذي أخذ الأمر بشكل شخصي وقرر عقاب المحامين الذين طردوه..

لم أكن أفهم في العقارات ولسبب ما كنا نعتبر المختصين بها أقل شأنا من باقي التخصصات.. كنت أنا أعمل في مجال الضرائب، وهو مجال معقد لكنه يلقى أفضل التقدير في هذه الشركة.. لهذا لم أفهم لماذا يفضل بعض المحامين أن يعملوا في العقارات.

اتجهت إلى الطابق الرابع وبحثت عن (تشانس) الذي بدا لي مشغولا جدا.. كان البروتوكول يقضي بأن أتصل أولا وأحدد موعدا، وهذا لم يجعل مزاجه أكثر صفاء.

كان هناك موظف يتابع حديثنا باهتمام وإن تظاهر بأنه يفتش في بعض الملفات

سألته عن موضوع طرد (هاردي) فبدا عصبيا.. أدركت على الفور أنهم تنبهوا للاسم ولابد أنهم درسوا الملف جيدا هذا الصباح.. قال لي:

- كانوا سكانا بوضع اليد..

- هل أنت متأكد؟ هل لي أن أرى ملف القضية؟

- لا.. هذا ليس من شأنك.. وأنا مشغول جدا لذا أستأذنك في الرحيل..

ابتسمت له وانصرفت.

عندما مررت جوار الموظف، سمعته يقول بصوت واضح لا شك فيه:

- يا له من جحش!

يتكلم عن رئيسه.. إذن هناك سبب ما يدعوهم لإخفاء ملف قضية الطرد.. ما هو؟

☆ ☆ ☆

كان هناك صراع دائم بيني و(كلير) حول أينا أكثر أهمية.. الجراح أم المحامي؟ هي كانت تملك الكثير من الطموح.. تحلم بأن تكون أعظم جراح أعصاب في العالم.. الجراحة التي يلجأ إليها الرجال عندما يفشلون في كل شيء.

أما أنا فكنت أحلم بمرتبة الشريك.. في شركتنا يحصل الشريك على مليون دولار ربما مليونين في العام.. فلو حققت هذا في سن الخامسة والثلاثين، فمعنى هذا أن أمامي نحو ثلاثين عاما من الثراء ورغد العيش.. هذا هو الحلم الذي كان يبقينا في مكاتبنا ليلاً ونهارا..

كنت أفكر في (موردخاي جرين).. كلانا درس القانون وكلانا مر بذات الاختبار، لكنني أساعد عملائي على ابتلاع منافسيهم حتى يضيفوا المزيد من الأصفار لحسابهم، بينما هو يساعد المتشردين على العثور على مأوى وطعام..

هنا أخرجتني من خواطري (كلير)، إذ اتصلت تسألني لماذا لم أمر عليها في المستشفى.. قلت لها إنني كنت مشغولا.. وهي حيلة أخرى بيننا.. كل طرف يتظاهر بأنه شديد الانهماك.

هذه ليلة أخرى قد فسدت.

☆ ☆ ☆

ستة

أخيرا توقف الجليد، وكنت و(كلير) نرشف القهوة في المطبخ.. كنت أطالع الجريدة في ضوء الشمس الساطعة، وعرفت أن المطار الدولي صار مفتوحا للطائرات بعد فترة توقف..

قلت لها:

- فلنذهب إلى فلوريدا..

- الآن؟

- أو البهاما.. يمكن أن نكون هناك قبل العصر.. أنا لن أعمل لعدة أيام..

- لماذا؟

- لأنني أنهار.. وفي شركتنا لابد لمن ينهار أن يظفر بإجازة بضعة أيام..

قالت:

- لا أستطيع..

وهكذا انتهى الموضوع.. كانت مجرد نزوة.. وكنت أعرف كثرة ارتباطاتها.. لم تكن لتأتى معي في كل الظروف.. إنها محاصرة بالمحاضرات والمرور والجراحات.. حياة طبيب مقيم طموح

أوصلتها إلى المستشفى، ولم نتبادل كلمة ونحن نخترق الشوارع المغطاة بالثلج.. قلت لها بلهجة الأمر الواقع:

- سوف أسافر إلى ممفيس بضعة أيام.

قالت بلا اهتمام:

- حقا؟

- أريد رؤية أبويّ.. لقد مر عام وأنا لست في حال تسمح لي بالعمل.

- اتصل بي إذن.

قالتها وفتحت الباب وخرجت.. لا كلمات وداع ولا حرارة لا قبلات.

لقد انتهى كل شيء.. أكره أن أخبر أمي بهذا.

☆ ☆ ☆

كان أبواي في أواخر الستينيات من العمر، لكنهما بصحة طيبة.. لقد عملا بجد وادخرا من المال ما يكفي لنعيش في أعلى الطبقة المتوسطة.. كانا صلبين محافظين وطنيين يحبان بعضهما.. وكانا حزينين بسبب طلاق أخي منذ ثلاثة أعوام..

كان محاميا في أطلانطا تزوج حبيبته في الكلية.. بعد طفلين فسد الزواج وحصلت هي على حضانة الطفلين.

استأجرت سيارة من مطار ممفيس، واتصلت بأمي لأخبرها بقدومي.

ما إن رأتني حتى عانقتني، وقالت:

- تبدو متعبا..

وهي تحيتها المعتادة..

- شكرا يا أماه.. وأنت تبدين رائعة..

وكانت كذلك فعلاً.

سألتني ونحن نرشف الشاي المثلج في الكوخ الخشبي بالحديقة:

- أين (كلير)؟ أنتما لا تتصلان بنا أبدا.. لم أسمع صوتها منذ شهرين.

- بخير يا أماه.. كلانا سعيد وبصحة طيبة وتعمل بلا توقف..

- هل هي في أمان؟

- في أمان كأي شخص في واشنطن.. إنها تقيم في المستشفى، ورأيي أن هذا أفضل مكان يوجد فيه المرء في تلك المدينة..

- هل تمضيان وقتا كافيا معا؟

- ليس تماما..

بدا قلق الأمهات في عينيها، وسألتني:

- هل هناك متاعب؟

- نعم..

- تأكدت من هذا.. بالتأكيد أنت لا تسعى للطلاق.. هل جربت استشارة خبير زواج؟ لماذا لا تعطى زواجك فرصة؟

- أحاول يا أمي لكن هذا ليس سهلا..

- والسبب؟

- لا شيء.. شخصان يمشيان في طريقين منفصلين.. أعمل سبعين ساعة في الأسبوع وهي تعمل الثمانين الباقية..

- المال ليس كل شيء..

ورأيت الدمع يتجمع في عينيها.. كنت أعرف ما تفكر فيه.. اثنان فشلا.. كانت تعتبر فشل زواجي فشلاً لها.. حاولت أن أبتعد عن الموضوع بأن أحكى لها قصة (مستر).. لو كانت قد نشرت في صحف (ممفيس) فقد فاتها أن تقرأها..

☆☆☆

قلت لأبي هذا المساء، ونحن في ملعب الجولف:

- لقد سئمت هذه الشركة يا أبي.

قال أبي:

- مرحبا بك في عالم الواقع.. هل تحسب الرجل الذي يعمل على مكبس في مصنع غير منهك مما يقوم به؟ على الأقل أنت تكون ثروة..

ثم ضرب الكرة، وقال:

- هل تفكر في تغيير مهنتك؟

- ربما..

- وماذا تعمل إذن؟

- لا أعرف.. الوقت مبكر لهذا..

- إذن كيف تعرف إن كان العشب أكثر اخضرارا؟

كنت أهاب هذا الرجل ذا الشعر الأبيض كثيرا.. لقد علّم ابنيه أن يكافحا وأن يصيرا قويين.. يكونا ثروة وينعما بحياتيهما على الطريقة الأمريكية..

قات مفكرا:

- أفكر في الخدمة العامة..

- ما هذا بحق الجحيم؟

- معنى هذا أن تعمل لخدمة الناس دون أن تحصل على ثروة..

قذف الكرة من جديد.. لكنها كانت رمية سيئة لأن اهتمامه تشتت، وقال:

- أكره أن أراك تفسد مهنة طيبة يا بني.. لقد عملت بجد لتصل إلى ما أنت فيه.. أعتقد أنك بحاجة لفترة راحة بعيدة عن العمل، وهذا كل شيء..

دعوتهما للعشاء في مطعم فاخر، وبذلنا جهدا كبيرا كي لا نتكلم عن الحادث وزواجي والأحفاد الذين لن يرياهم..

ويوم الجمعة ظهرا رحلت قبل موعد الطائرة بأربع ساعات.. متجها إلى حياتي المرتبكة في واشنطن..

☆ ☆ ☆

سبعة

بالطبع كانت الشقة خالية عندما عدت مساء الجمعة.. لكن كانت هناك مذكرة على نضد المطبخ.. إن (كلير) ذهبت لأسرتها في (بروفي دانس) لبضعة أيام مقتدية بخطواتي. لم تقل السبب، لكنها طلبت أن أتصل بها لدى عودتي..

اتصلت بأبويها في وقت العشاء، فعرفت أنها بخير وسوف تعود عصر الأحد.

أعتقد أن (كلير) تحكى لأبويها ذات القصة المؤسفة التي أزعجتُ أبويّ بها يوما ما - على الأرجح الاثنين – سوف نجلس معا في المطبخ ونناقش الأمر ونعترف بأن كل شيء انتهى.. سوف نتحدث عن مستقبلنا منفصلين.. أعرف ما سأقول بالضبط.

خرجت أمشي في المدينة التي ما زال الجليد يكسوها.. كنت مرهقا من كثرة العمل.. برغم أنني في الثانية والثلاثين، فقد كان على أن أعترف بأنني مرهق ولم أعد طازجا كما كنت يوم تخرجي..

كان الجو شديد البرودة لذا ابتعت شطيرة، وضعتها في جيبي وعدت لشقتي.. أشعلت نارا، وتناولت عشائي في الظلام وحيدا جدا.. في أمسيات كهذه كنت أجد لنفسي العذر كي أذهب للشركة.. لكن غيابي لن يحدث أي فارق هناك.. مكتبي سوف يحتله خلال دقائق أي واحد من صف المحامين الشبان.

في التاسعة دق جرس الهاتف فأفزعني. كان هذا (موردخاي جرين) يصيح:

- هل أنت مشغول؟

- لا.. ليس تماما.. ماذا هناك؟

- الجليد ينهمر ونحن بحاجة لأيد عاملة هنا.. هل لديك ساعات تمنحها لي؟ نحن بحاجة لمن يساعدنا.. المطبخ ومطاعم الحساء مزدحمة، وليس لدى متطوعون يكفون..

- لا أعتقد أنني مؤهل لذلك..

- هل بوسعك أن تدهن الخبز بزيد الفول السوداني؟

- أعتقد هذا..

- إذن أنت مؤهل.. نحن على بعد عشرة مربعات من مكتبي عند تقاطع الشارع 13 مع (إقليدس).. هناك كنيسة على اليمين اسمها (نزر).. نحن في القبو.

كانت هذه منطقة خطرة.. لابد من سلاح.. ترى هل يحمل واحدا؟ لكنه زنجي وأنا لا.. ماذا عن سيارتي الفاخرة؟

لكني قلت له وقلبي يخفق:

- سوف أكون عندك بعد عشرين دقيقة.

ارتديت ثيابا رخيصة وانتزعت من حافظتي بطاقة الائتمان وكل ما هو ثمين، ثم وجدت عندي سترة قديمة ملوثة بالقهوة والطلاء ارتديتها. لشد ما أحتاج إلى سترة واقية من الرصاص.. لكن ما إن خرجت إلى البرد حتى شعرت بإثارة عظيمة.

☆ ☆ ☆

وجدت الكنيسة ومكانا أوقف فيه سيارتي.. اجتزت المدخل إلى عالم الذين لا بيت لهم..

أصابني الذهول من عدد الفقراء المحتشدين في القبو.. بعضهم يرقد على الأرض، وبعضهم يلتف في مجموعات صغيرة.. كل بوصة مربعة احتلها بشر.. البعض يأكل على موائد طويلة.. كان المتطوعون يمررون البطاطين والتفاح..

المطبخ يعج بالحركة واستطعت أن أرى (موردخاي) يصب عصير الفاكهة في أكواب ورقية، بينما ينتظر طابور من البشر في صبر على الموائد.. كانت الغرفة دافئة وقد امتزجت روائح الطهي لتصنع خليطا ليس منفرا.

سُرّ (موردخاي) لدى رؤيتي، وقدمني لاثنين من المتطوعين.. ثم طلب مني أن أحمل صينية من خبز أبيض، وقال:

- عندك سجق هنا ومستردة ومايونيز هناك ضع مستردة على نصف الشطائر ومايونيز على نصفها.. شريحة سجق وشريحتا خبز.. من وقت لآخر اصنع دستة شطائر بزبد الفول السوداني.. مفهوم؟

ثم ضربني على كتفي واختفى..

كان المتشردون يقفون بانتظار دورهم.. كل واحد يأخذ سلطانية حساء وملعقة خشبية.. نصف شطيرة، ثم تفاحة.. وفي النهاية كوبا من عصير التفاح.. وجوه لا تفارق الطعام.

كانوا يأكلون ببطء لاستبقاء مذاق الطعام ودفئه في فمهم أطول وقت.

في المطبخ كان هناك من يقطع الخضر، ومن يعني بالموقد.. حتى هذه اللحظة أنا رجل الشطائر الوحيد.

قلت لـ (موردخاي):

- الخبز ليس طازجا.

- نعم.. وهو مجاني كذلك.. يتبرع به مخبز قريب.. هل لك في شطيرة؟

- شكرا.. تناولت عشائي.

- ما أول كلمة تتداعى إلى ذهنك؟

- لا جدوى..

- هذا متوقع.. لكنك سوف تعتاد هذا وتتغلب عليه..

- كم من الناس يقيمون هنا؟

- لا أحد.. إنه مجرد مأوى لتقديم الطعام، لكن الكنيسة تفتحه في وقت العواصف..

- إذن أين يقيم هؤلاء؟

- بعضهم - وهم المحظوظون - يسكنون بوضع اليد في مبان قديمة.. لكن أكثرهم ينامون في الحدائق أو الشوارع أو محطات الحافلات.. لكن هذا مستحيل الليلة.

- وكم عدد الذين لا بيت لهم في المدينة؟

- سؤال جيد لأنه من الصعب أن تحصيهم... أغلب الظن أنهم عشرة آلاف..

ثم تركني ليواصل العمل، وفي هذا الوقت رحل أحد المسئولين عن عمل الحساء؛ لذا وجدت مهمتي هي تقطيع الجزر والكرفس جوار واحدة من المتطوعات تدعى مس (دوللى) كانت تراقب عملي بصرامة، وقد قالت لي أكثر من مرة إن قطع الكرفس كبيرة..

سألتها:

- ألم تعتادي بعد رؤية هؤلاء القوم؟

قالت، وهي تمسح يدها في منشفة:

- لن أعتاد أبدا يا عزيزي، ما زال المشهد يحطم قلبي، لكن المثل يقول: سعيد هو الرجل الذي يطعم الفقراء..

ثم قلبت الحساء، وقالت:

- الدجاج جاهز لك..

- وما معنى هذا؟

- معناه أن عليك أن ترفعه عن الموقد وتصب الحساء في إناء، ثم تنزع العظام عن الدجاج.

كان هناك فن خاص لنزع العظام باستعمال طريقتها، لكن أناملي احترقت وامتلأت بالفقاقيع حينما انتهيت.

ماذا أفعله هنا؟ وماذا لو رآني رفاقي؟ هنا في قبو كنيسة في بقعة خطرة من واشنطن.. وسط الذين لا بيت لهم.. فقط كنت أعرف أن سيارتي قد ضاعت للأبد على الأرجح، ومن

المستحيل أن أخرج الآن من دون (موردخاي).. فتى أبيض ثرى في هذا المكان هو دعوة للسطو أو الاعتداء..

إنها الثالثة صباح السبت وقد وجب أن أرحل.. مشى معي (موردخاي) في الشارع، وشكرني على مجيئي.. كانت سيارتي حيث تركتها، وقد غطاها المزيد من الثلج..

وقف الرجل جوار الكنيسة يرقبني وأنا أبتعد.

☆ ☆ ☆

ثمانية

لم أعمل ساعة واحدة في شركة (دريك وسويني) منذ لقائي بـ (مستر) يوم الثلاثاء.. كنت أحصل ثماني ساعات يوميًا ستة أيام في الأسبوع.. فإذا تأخرت في تحصيل الساعات كنت أمضى اثنتي عشرة ساعة الأحد..

كنت الآن أرمق السقف في غرفة نومي صباح السبت.. لا أستطيع ولا أريد الذهاب للعمل.. الأوراق الوردية الخاصة بمكالمات الهاتف التي تضعها (بولي) على مكتبي، والاجتماعات.. والثرثرة والقيل والقال.. مع (كيف حالك؟) من هؤلاء القلقين على سلامتي.. ثم العمل نفسه.. شركة تملك بليون دولار تقاضى أخرى..

أعترف الآن أنني لم أحب عملي قط.. كان مجرد وسيلة..

أرغمت نفسي على مغادرة الفراش والوقوف تحت الدوش، ثم أفطرت ببعض الكرواسان والقهوة..

وصلت إلى الشركة وعلى الفور قابلت أحد زملائي.. (بروس) شيء ما دخل المصعد وقال لي بجدية:

- كيف حالك؟

- بخير.. وأنت؟

لحسن حظي رحل في الطابق الثاني.. وصعدت إلى الطابق الذي يوجد فيه مكتبي لأسترخي في مقعدي الجلدي.. عددت على مكتبي 39 مذكرة وردية تحوي المكالمات التي وصلتني..

من الواضح أن (رودلف) اتصل كثيرا وكان في حالة جنون.. خمنت هذا من خط (بولي)!

ليذهبوا إلى الجحيم.. أريد أولا أن أنهى قهوتي في سلام..

كنت أفعل هذا عندما ظهر (رودلف).. لابد أن الجواسيس أبلغوه..

جلس ووضع ساقا على ساق، ثم قال:

- مرحبا..

- مرحبا يا (رودي)..

لم أقل له قط (رودي) في وجهه، وإنما (رودلف)..

سألني دون أي تعاطف:

- أين كنت؟

- في ممفيس..

- ممفيس؟

- نعم.. أردت أن أرى أبويّ.. ثم إن طبيب الأسرة النفسي هناك.. أراد أن يلاحظني يومين.

كنت أكذب ولم يضايقني الكذب.. إن الشركة تستطيع متى شاءت أن تكون خشنة بل قاسية، وأنا لست في حالة تسمح لي بتلقي لوم (رودلف)..

- كان عليك أن تبلغ أحدا..

قالها في خشونة، لكنى كنت أعرف أنه سيلين بعد قليل قال:

- هل أنت بخير؟

- الطبيب النفسي قال إنني بخير..

ابتسم ثم غادر مكتبي.. سوف يتصل بأحد المديرين ليخبره أن فارس الشركة قد عاد إلى سرجه..

ظللت على المكتب ساعة أليمة، أحاول أن أفهم شيئا من القصاصات هناك.. في النهاية غادرت المكان.. فررت دون أن يقبض على أحد.

☆ ☆ ☆

توقفت أمام صيدلية تعطى تخفيضات في (ماساتشوستس) وابتعت أشياء كثيرة.. حفاضات للأطفال وحلوى وثيابا.. لم أستمتع في حياتي بإنفاق مائتي دولار كما شعرت في هذه اللحظة..

توقفت عند الكنيسة غير شاعر بالخوف كما كنت أمس لكني ما زلت خائفا.. تركت كل شيء في السيارة؛ لأنى لو مشيت مثل (بابا نويل) لبدأت مظاهرة من حولي..

رحبت بي مس (دولي) وأشارت إلى كومة من الخضراوات والجلود التي يجب أن تنتزع.. وقفت أساعدها حتى ظهر (موردخاي)، وحين تلاقت عينانا ابتسم..

وقفت معه نقدم الطعام على الموائد.. كان صب الحساء فنًا.. ضع حساء كثيرا ولسوف يرمقك الطاعم في كراهية.. ضع خضرا أكثر، وسرعان ما لن تجد سوى الحساء في الإناء الكبير.. كان (موردخاي) قد أجاد هذا الفن إلى درجة الكمال.. وكان يوزع

الاهتمام ويرحب بالجميع، فكان البعض يرد التحية والبعض لا يرفع رأسه عن طعامه..

عند الظهيرة ازدادت صفوف الجياع، وظهر متطوعون من حيث لا تدري.

عندما بدأت الصفوف تقل، ملأ كل منا سلطانية حساء ووقفنا نأكلها في المطبخ جوار الحوض.. وقال لي موردخاي:

- المشردون لا يهدؤون.. يحبون التنقل من مكان لآخر ولديهم طقوس وروتين وأماكن مفضلة وأصدقاء شوارع..

ثم دعاني إلى الخروج في جولة.. كانت سيارته الـ (توروس) تقف خلف سيارتي (اللكساس).. فقال وهو يشير لها:

- هذه لن تبقى طويلاً في هذه البقعة من المدينة.. لو كنت تنوي أن تمضي وقتا أطول هنا فعليك أن تفكر في مبادلتها بواحدة أصغر..

وانطلقنا في سيارته.. خلال لحظات أدركت أن (موردخاي) سائق شنيع، وحاولت أن أربط حزام مقعدي لكنه كان محطما.. اقتادني عبر شوارع لم أرها من قبل.. شوارع ضيقة فقيرة قذرة.. كل ركن له قصة.. كل شارع له تاريخ.. يعرف كل متسكع ويعرف كل رجل دين.

أراني مدرسة القانون التي درس فيها وعمل ليلاً.. أراني المكان الذي كان باعة الهيروين يقفون فيه. ابنه الثالث (كاسيوس) مات هنا على جانب الطريق..

طلب مني أن أمر معه على مكتبه ليتفقد بريده، وقال وهو يدخل المكان الرطب المعتم:

- كان عندنا تسعة محامين في الماضي.. كان هذا عندما كنا نتلقى منحة الحكومة. اليوم لم نعد نتلقى مليما بفضل الجمهوريين في الحكومة.. كل عام نفقد محاميا بسبب تخفيض الميزانية.. لا أعتقد أننا سنكون موجودين بعد خمسة أعوام..

كان البرد شديدا فسألته:

- هل نسيت دفع فاتورة التدفئة؟

- ربما.. نحن لا نعمل في أيام العطلة؛ لأن هذا يوفر المال.. ومن المستحيل أن تبرد أو تدفئ هذا المكان.

كنت أشعر بأنه يقودني إلى الشرك، لكني ظللت أسأله عن عمل المحامين في هذه المؤسسات..

قال لي:

- أغلب هؤلاء القوم المشردين لا يعرفون حقوقهم، هنا يكون دور المحامي أن يتصل بموظف بيروقراطي متكاسل ليوبخه.. يكون لهذا مفعول السحر. منذ شهر ذهب أحد عملائنا إلى مركز التأمينات الاجتماعية لتقديم طلب.. مجرد عمل روتيني.. إنه في الستين من عمره، وظهره يؤلمه بشدة.. هكذا يكون حالك عندما تنام على الصخور والأغصان لعشر سنوات.. انتظر ساعتين وفي النهاية أدخلوه.. انتظر ساعة أخرى ثم وقف في طابور حتى واجه سكرتيرة سليطة اللسان.. لقد أهانته وانتقدت رائحته. وفي النهاية انصرف من دون أن ينجز شيئا.. اتصل بي فاتصلت بهم لقد ألقيت عليهم موعظة هناك..

على السكرتيرة والمدير ومدير المدير.. حتى أرغمت السكرتيرة على الوقوف أمام موكلي، والاعتذار ثم أنهت أوراقه.. هكذا تكون العدالة.. هذا هو العمل القانوني المختص بالشوارع.. كرامة الإنسان..

لم يكن يطيق البيروقراطية، وكانت فكرته عن عمل المحاماة هي الصراخ والزمجرة.

وواصل قصصه التي تنتهي كلها بمحامي الشوارع باعتبارهم الأخيار، والمشردين هم المنتصرون وكنت أفهم أنه يمهد الأرضية لما سيطلبه بعد ذلك..

☆ ☆ ☆

تسعة

عندما عادت (كلير) عرفت أن أخاها أصيب بداء (هودجكين) [3] لذا اجتمعت الأسرة في (بروفى دنس).. أصغيت لها تحكي عن عطلة نهاية الأسبوع وصدمة الأخبار وكيف بكوا.. إن أسرتها أسرة دموع وأحضان.. وقد اندهشت لأنها لم تطلبني معها..

سوف يبدأ العلاج حالا والأمل كبير.

سرها أن تعود للبيت وأن تلقى بحملها على كاهل أحد. كان الأمر شبه رومانسي برغم أنني امتلأت بالندوب حتى لم أعد قادرا أن أكون عاطفيا.. أبديت جزعي بسبب الأخبار، وقلت عبارات مناسبة، فلم يكن هذا ما توقعت ولا ما أردت

كنت قد أعددت نفسي لمشادة عنيفة، بعدها نستعد لمواجهة الأمر بشجاعة.. لأني لم أكن في مزاج يسمح بأي نوع من العاطفة..

قالت لي إنني أبدو مرهقا فكدت أشكرها.. ظللت صامتا حتى انتهت ثم بدأنا نتكلم عنى.. أخبرتها بكل شيء عن حياتي كمتطوع في الملاجئ.

أثار هذا دهشتها.. لم أعد نفس الشخص الذي كنته منذ أسابيع، ولم تكن متأكدة إن كانت تحب هذا الجديد أكثر من القديم.. أنا نفسي غير متأكد.

☆☆☆

عشرة

بما أنني و(كلير) مدمنا عمل، فلم نكن بحاجة لاستعمال منبه ليوقظنا، خاصة صبيحة الاثنين حينما نواجه أسبوعا كاملاً من التحديات.. صحونا في الخامسة وتناولنا الإفطار ثم انطلقنا في طريقينا، وكلانا يرغب في أن يكون أول من يرحل.

في طريقي للمكتب أزمعت أن أضع حاجزا بيني وبين متشردي الشارع.. سأجد وقتا للعمل التطوعي وأحافظ على صداقة (موردخاي)، ولربما مررت من وقت لآخر للمساعدة في إعداد وجبات الجياع.. سوف أكون مفيدا للفقراء أكثر وأنا في منصبي.. أكثر بكثير مما أفيدهم لو صرت محامي فقراء آخر.

إذ قدت سيارتي للمكتب شعرت بأنني بحاجة إلى يوم طوله 48 ساعة كي أتمكن من استعادة جدولي.. لقد تأثر عملي كثيرا في الفترة السابقة، ولا يثب من هذا القطار المسرع إلا أحمق.

ركبت مصعدا مختلفا هذه المرة، محاولاً أن أنسى (مستر)..

لقد اتجهت لمكتبي قبل السادسة صباحا.. شاعرا بأن عودتي شيء جميل.. بدأت بتفقد جريدة (وول ستريت) لأني أعرف أنها لن تتكلم عن سكان الشوارع..

على مكتبي وجدت مظروفا من المانيلا.. الطراز الذي تستعمل شركتي الملايين منه.. ولم يكن عليه أي بيانات الأمر الذي أثار ريبتي..

فتحت الملف فوجدت ورقة من أوراق شركتنا الرسمية.. وفيها قائمة أسماء الذين تم طردهم من ذلك المستودع.. وكان

الاسم الرابع هو (ديفون هاردي)..

في نهاية الورقة كتب مرسل الرسالة المجهول:

«الطرد كان خطأ قانونيا..»

كتبها بحروف كبيرة واضح أنه حاول بها ألا يتم تعرفه لو أنني عرضت الورقة على خبير خطوط.

أشرقت الشمس وسمعت صوت (بولي) فحييتها كأنه لا توجد مشاكل..

كان الصباح مزدحما بالمؤتمرات والمقابلات، وقد أديت عملي بكفاءة برغم أنني لا أذكر حرفا مما قيل.. وقد بدأت الشكوك بصدد حالتي العصبية تتلاشى.

اتصل بي أبي ليطمئن عليّ.. قال إن السماء تمطر في (ممفيس) وإنه جالس مع أمي في البيت قلقين عليّ.. سره أنني ما زلت في الشركة، أصنع الثروة وأبحث عن المزيد.

اتصل بي أخي (وارنر) من أطلانطا.. كان فارق السن بيننا قد جعلنا متباعدين في طفولتي، وكان محاميا مهما يعمل بالساعة؛ لذا أدركت أن المحادثة مختصرة..

قال لي:

- سمعت من أبي الأخبار.. أعرف ما تشعر به.. عندما كنا في مدرسة الحقوق سألونا عمن يرغبون منا في العمل العام فتحمسنا جميعا.. بعد التخرج بسنتين صرنا جميعا لا نريد إلا المال.. لكنني جربت العمل العام لأن شركتنا تسمح لك باثني

عشر شهرا إجازة تمارس فيها ذلك؛ ثم تعود لتجد كل شيء لم يتغير..

يا لك من عبقري! هذا هو الحل! اثنا عشر شهرا أعمل فيها ما يحلو لي، ثم أعود لأجد وظيفتي كما هي.

- أنت تعرضت لصدمة كبيرة، وكدت تُقتل.. هذه نقطة مهمة يجب أن تلعب عليها.. قل إنك بحاجة لعام تستجمع فيه نفسك.. بعدها تعود لهذه الشركة..

كان شخصية قوية تعرف ما تريد، ولم يخسر جدالاً قط.. وهكذا ودعته، ثم تناولت الغداء في مطعم فاخر مع (رودلف) وعميل فيما يدعى بـ (غداء عمل).. ومعنى هذا أنه لا خمور، وأن العميل سيدفع لنا بالساعة لأننا سنناقش قضيته أثناء الغداء.. (رودلف) يتقاضى 400 دولار في الساعة أما أنا فأتقاضى 300.. استغرق الغداء ساعتين أي إن العميل دفع 1400 دولار.. الشركة تدفع ثمن غدائنا لكنها بشكل ما ستضيف الثمن على فاتورة العميل..

في الخامسة عصرا استطعت أن أكون وحيدا للمرة الأولى، ففتحت المظروف..

يتكرر اسم (تشانس) أكثر من مرة في هذه الأوراق.. إنه المحامي الذي طردني تقريبا من مكتبه عندما سألته عن قضية الطرد.. مفتاحي للحل هو الموظف الذي كان يتابع المحادثة، والذي وصف (تشانس) بأنه جحش..

أجريت بعض مكالمات حتى توصلت إلى أن اسم الموظف هو (هكتور بالما).. قررت أن أقابله لكن خارج الشركة..

☆☆☆

دعاني (موردخاي) إلى العشاء معه في مطعم قريب، وقد وافقت بعدما أكد لي أن الطعام ليس حساء.

قال لي:

- قصة آل (بيرتون) تتضخم..

- آسف.. تعرف أنني كنت في كهف في الفترة الماضية، فما هذا الموضوع؟

- قضية صحفية كبرى.. أربعة أطفال مشردون وأمهم وجدوا ميتين في سيارة يبيتون فيها قرب (كابيتول هول).. هناك حيث يخططون للإصلاحات التي ستقذف أمهات أكثر إلى الشارع.. هذا جميل. لقد اتصلت بمجموعة من الناشطين لحضور جنازة هؤلاء البؤساء.. سوف تصور الصحافة أربعة توابيت صغيرة وتابوتا كبيرا للأم.. سيكون هذا رائعا.

- هذا يعني أن موتهم لم يمر هباء..

بما أنني محام فإنني أتوقع شيئا وراء أية دعوة للغداء أو العشاء.. وقد رحت أتساءل عما يريد.

لكنني فوجئت بعد ذلك عندما عرفت من أسماء الموتى أن الأطفال وأمهم كانوا من هؤلاء الذين طردتهم شركتي من المستودع، والذين وجدت أسماءهم في المظروف الغامض.. لا يمكن أن أعلن هذا؛ لأنني أعرفه بحكم عملي في الشركة.. وهو نتيجة ثقة العميل بنا..

قال لي (موردخاي) ما كنت أتوقعه:

- نحن بحاجة لمحام جديد يمضي عشر ساعات في الأسبوع.. نحتاج لمحام يجلب لنا بعض المال لأن المؤسسة تنهار.. بقاؤنا يعتمد على ذلك..

- وما هي جوانب هذه الوظيفة؟

- محاماة الشوارع.. أنت رأيت العمل عندي.. (صوفيا) متنمرة و(أبراهام) جحش.. الزبائن رائحتهم كريهة..

- وكم تدفعون؟

- يمكن أن أعدك بثلاثين ألفا في العام.. أنت متعلم وسيم تجيد كسب الناس وكل هذا الهراء؛ لذا أعتقد أنك قادر على جلب بعض المال..

كنت أتوقع هذا العرض.. لكني كنت خائفا.. لقد فتح لي بابا كنت أخشى أن أجتازه.

قال لي:

- أنت لا تفعل هذا من أجل المال على كل حال.. بل تفعله من أجل روحك..

روحي هي التي أبقتني ساهرا طيلة الليل.. هل بوسعي أن أرحل من شركة (دريك وسويني)؟

في الواقع معنى رحيلي أن أقول الوداع للملايين.. كل ما حلمت به سوف يصير ذكريات باهتة..

ربما كان الوقت مناسبا.. لقد فشل زواجي وحان الوقت لبعض التغيرات الدرامية على كل الجبهات..

☆ ☆ ☆

أحد عشر

أبلغت الشركة أنني مريض اليوم.. أعتقد أنها الإنفلونزا..

لكن (بولي) كانت تريد تفاصيل.. حمى أم احتقان في الحلق أم صداع؟ أم كل ما سبق؟ لا يهم.. سوف تملأ نموذجا ترسله لـ (رودلف) كما هي العادة في هذه الأمور.

كان (رودلف مايرز) قد صار شريكا في سن الثلاثين.. كانت المحاماة هي كل حياته كما يمكن أن تخبرك زوجاته الثلاث السابقات.. ولو استمرت حياته كما يخطط لها فلسوف يصر أقدم شريك عامل.. وفيما عدا هذا كان كل شيء يلمسه يتحول إلى كارثة..

كان في انتظاري في السادسة مساء في مكتبه.. وكان أكثر العاملين قد انصرفوا.. أغلقت الباب، وجلست أمامه، فقال لي:

- حسبت أنك مريض..

قلت:

- أنا راحل يا (رودلف).

قلتها بشجاعة لكن معدتي كانت تعتصر.

أزاح الكتب جانبا وأعاد غطاء قلمه الثمين، وقال:

- أنا مصغ..

- أنا راحل.. لدى عرض بالعمل لدى شركة محاماة معنية بالشئون العامة..

- لا تكن غبيا يا (مايكل).. لسوف تصير شريكا خلال ثلاثة أعوام..

- أنا لست غبيا.. فقط تلقيت عرضا لا بأس به..

- لا يمكن أن تنهار لمجرد حادث كهذا.. لم يفعل واحد من الرهائن مثلك.

- هذا من حسن الحظ.. لكن هذا شأني الخاص..

- خذ إجازة لشهر.. اعمل مع المشردين لو أردت لكن عد.. هذا أسوأ وقت للرحيل.

- لا أريد أن تكون هناك شبكة أمان تحتي يا (رودلف).. هذا يفقد الأمر متعته..

- وماذا عن (كلير)؟

لم يكن يعرفها، وهو على كل حال آخر من يصلح مستشار زواج في الشركة.

- ستكون بخير.. أنا راحل الجمعة..

أغمض عينه، وتنفس بعمق.. ثم قال:

- لا أصدق ما أسمعه.

اتصلت بـ (بولي) أخبرها، لأني لم أرد أن تكون آخر من يعلم.. ثم ابتعت بعض الطعام التايلاندي، وعدت لشقتي وبدأت أسمع مقاطع دوري الذي سأؤديه..

☆ ☆ ☆

مع الأعوام تعلمت أنا و(كلير) فن تجاهل بعضنا بدلا من الشجار.

كانت الساعة العاشرة وكانت قد تناولت عشاءها مبكرا، لذا ذهبت إلى المدفأة وأوقدت النار، ثم جلسنا في مقعدينا المفضلين.. بعد دقائق، قلت لها:

- يجب أن نتكلم..

سألت بلا مبالاة:

- ماذا هنالك؟

- أفكر في ترك (دريك وسويني)..

- حقا؟

وأعجبت ببرودها.. فأردفت:

- أنا متأهب لتغيير.. فجأة صار العمل في هذه المؤسسات الضخمة مملا لي.. أريد عمل شيء يساعد الناس.. لقد حكيت لك عن (موردخاي جرين).. الوظيفة عنده، وسوف أبدأ الاثنين.

- الاثنين؟ إذن أنت اتخذت قرارك بالفعل دون أن تطلب رأيي..

للحظة لمع الغضب في عينها ثم تلاشى.. كانت سيطرتها على نفسها مذهلة..

- هل لي أن أعرف تأثير هذا على دخلنا؟

- سيؤثر.. الراتب ثلاثون ألف دولار في العام.

- ثلاثون ألفا؟ هذا أقل من راتبي أنا..

ككل طالب مجنون في البلاد كانت تؤكد عندما دخلت عالم الطب أنها لا تريد المال.. تريد أن تساعد البشرية.. كلنا كذبنا أو لم نفهم أنفسنا.

كانت ترمق النار ويبدو أنها تعيد الحسابات.. إيجار الشقة ٢٤٠٠ دولار في الشهر وهي شقة ممتازة فاخرة.. لكننا لا نقيم فيها تقريبا..

ما زلت مندهشا من قلة ما ادخرناه من مال خلال ست سنوات.. كان المال يبدو بلا نهاية.

قالت:

- أنا متعبة..

وأفرغت كأسها، ونهضت إلى غرفة النوم..

يا لتأثرها! خطر لي أننا لم نعد نملك قدرا من الضغينة يسمح بمشاجرة طيبة..

بالتأكيد تحسبني جننت، لكنها لم تستطع أن تنتقد القديس الذي صرته.. وضعت لوح خشب آخر في الموقد، ونمت على الأريكة.

☆ ☆ ☆

اثنا عشر

على الغداء الفاخر الذي دعاني إليه (رودلف) قدم لي عرض الشركة السخي، وهو أن تمنحني الشركة إجازة لمدة سنة أمارس فيها محاماة الشوارع كما أريد.. مقابل نفس الأجر الذي يمكن أن أناله من المؤسسة الخيرية.. لابد لشركتنا من أن تسهم في إنقاذ الجياع بدورها، وبعد سنة أعود لها وقد أعدت شحن بطارياتي.

كان العرض سخيا وبالطبع من العسير أن أرفضه لذا طلبت مهلة للتفكير. في العام الماضي حققت للشركة 750 ألف دولار، لذا يدعونني للأكل في هذه القاعة الفاخرة، وأصغى لخططهم للاحتفاظ بي..

قابلت (هكتور) كاتب المحامي في المكتبة بالطابق الثالث.. لم أرد أن أقابله مباشرة حتى لا يشعر (تشانس) بشيء.. بعيدا عن كاميرات الأمن وأي شيء آخر..

سألته بشكل مباشر:

- هل أنت من وضع ذلك الملف على مكتبي؟

لم يكن هناك وقت للألعاب.. نظر لي وتلفت حوله كأنما هناك قناصة يطاردونه:

- أي ملف؟

- ملف شركة (ريفر أوكس) الخاص بطرد المقيمين في المستودع..

لم يكن يعرف مدى معلوماتي فظل ينظر لي في حيرة، فسألته:

- أين الملف؟

راح يقلب الكتاب الذي يحمله كأنما هو مشغول جدا، وقال:

- (تشانس) يحتفظ بكل الملفات في مكتبه..

صرنا الآن نتكلم همسا.. بالفعل لو رآنا أحد الآن لقدر أننا بصدد أمر مريب.

- وما الموجود في الملف؟

- لدى زوجة وأربعة أطفال، ولست أبغى أن أطرد.. أنت ستترك الشركة ولا يهمك الأمر..

الأنباء تنتقل هنا سريعا.. ترى من الذي نقل النبأ لكل الشركة؟ هل (رودلف)؟

- أريد هذا الملف..

- ليس عندي.. لو أردت أن تحصل عليه فعليك أن تسرقه..

- جميل.. وكيف أجد المفتاح؟

- ليس معي..

- إذن من أين جئت بقائمة أسماء المطرودين؟

نظر لي في عدم فهم، ثم قال:

- لا أعرف ما تتكلم عنه.. أنت مخبول تماما.

وابتعد.. توقعت أن يتوقف لكنه ابتعد.. ابتعد حتى غادر المكتبة.

☆ ☆ ☆

أغلقت الباب ورحت أرمق الغرفة.. أبتسم لكل شيء أتركه خلفي، وفي كل لحظة أشعر بأن الضغط يزول.. لن أعمل ثانية والساعة تلتف حول حلقي.. لن أعمل 80 ساعة في الأسبوع خشية أن يعمل زملائي 85.. لا كوابيس بصدد أن تفوتني فرصة أن أصير شريكا.. اتصلت بـ (موردخاي) وأخبرته أنني اخترت العمل معه، فضحك وتندر على تدبير طريقة للإنفاق عليّ..

عندما عدت للدار في السادسة وجدت (كلير) جالسة إلى منضدة المطبخ، وأمامها كومة من الأوراق وآلة حاسبة وأوراق حسابات الكمبيوتر..

قالت لي في برود:

- أقترح الطلاق على أساس الاختلافات غير القابلة للتقريب.. نحن لا نتشاجر ولا نلوح بأصابعنا في وجه بعض.. لكننا متفقان على أن زواجنا انتهى.

وانتظرت أن أقول شيئا.. ماذا عساي أقول بعد هذا؟ ما بوسعي هو أن أكون باردا مثلها.. قلت لها:

- بالتأكيد..

وإن ضايقني أنها ترغب في الطلاق أكثر مني.. لقد طلبت رأي محام كذلك لمعرفة ما لها وما عليها..

- ولماذا تحتاجين إلى رأى محام؟ هل تعتقدين أنني قد أخدعك؟

- أريد أن أشعر بالحماية.. أنت محام لذا أريد أن يكون معي محام.. الأمر بسيط..

ثم قدمت لي الحرز (أ): بيان بممتلكاتنا.. والحرز (ب): طريقة مقترحة لتقسيم هذه الأملاك.. وأدهشني أنها لم تقسم مناصفة بل اختصت نفسها بالجانب الأكبر..

- هذا التقسيم ليس عادلا..

قالت في ثقة:

- وهذا طبيعي.. لأنني لست الشخص الذي يمر بأزمة منتصف العمر.. أنت تريد أن تجن.. هذا حقك.. لكن لا تتوقع مني أن أتضور جوعا.

تمنيت أن أصرخ وأتشاجر، لكن هذا ليس بوسعي. لا أستطيع أن أقذف الأشياء.. ولن نبكي.. أي طلاق هذا؟ طلاق معقم غريب..

الحرز (ح): كان قائمة دقيقة لمحتويات البيت المناشف وأغطية الفراش.. قلت لها:

- خذي كل شيء تريدينه.

كنت أحتفظ بهذه الأشياء ليس للذة الاقتناء بل عن كراهية لفكرة نقلها.

سوف نوقع وثيقة انفصال.. وبعد ستة أشهر نذهب إلى المحكمة لننهي الزيجة رسميا.

أخذت معطفي وخرجت أمشى في شوارع (جورج تاون).. متسائلا كيف تغير كل شيء بهذا الشكل الدرامي.. الأمور تتحرك بأسرع مما أستطيع أن أوقفها.

☆☆☆

ثلاث عشر

لم تقبل الرءوس الكبرى في الشركة ذلك العرض الذي قدمه (رودلف) بمنحي إجازة لمدة عام، فهي سابقة خطيرة، وقد خافوا أن تنهال عليهم المطالبات بمعاملة مماثلة.

لكن لم يكن هذا الموضوع في ذهني وقتئذ، فقد صرت مطلقا ووحيدا وبلا بيت كذلك.. سوف أبيع السيارة لأستغني عن قسطها الذي يبلغ 480 دولارا في الشهر.. وقضيت أكثر الصباح أبحث عن شقة جديدة.. للأسف كانت أرخصها تكلف ١١٠٠ دولار في الشهر، وهذا سعر أعلى بكثير من قدرات محامي شوارع..

عندما عدت للشركة ظهرا وجدت مظروفا آخر من المانيلا على مكتبي.. كان المظروف يحوي مفتاحين ومعهما مذكرة تقول: المفتاح الأول لمكتب (تشانس).. الثاني لخزانة الملفات. الدرج تحت النافذة.. انسخ الملفات ثم أعدها للشركة لأن (تشانس) من النوع كثير الريبة..

هنا ظهرت (بولي) فجأة كعادتها، لا قرعات على الباب ولا صوت، وإنما تظهر فجأة كشبح.. كانت قد عملت معي أربع سنوات، ولم تكن علاقتنا لصيقة لهذا الحد.. سرعان ما يتم تعيينها في مكان آخر..

لم أدر إن كانت لاحظت المظروف أم لا، لكنها تشاغلت بوضع حاجياتي في صندوقين من الورق المقوى.. وتساءلت عن الذي وضع المظروف.. كيف استطاع أن يمر لمكتبي أمام سمعها وبصرها؟

أغلقت الباب ورحت أتأمل المظروف لأقرر ما يجب عمله به.. كنت قد افترضت أشياء: أولا: أن المفتاح صحيح.. ثانيا: هذا ليس مقلبا.. ثالثا: الملف في المكتب فعلا.. رابعا: بوسعي سرقته دون أن يقبض على.. خامسا: يمكن نسخه في وقت قصير.. سادسا: يمكن إعادته.. سابعا: . والأهم . من الواضح أن فيه دليلاً كارثيا.. كل هذا سهل لكن نسخه هو التحدي الحقيقي.. لا يوجد في شركتنا ملف تقل صفحاته عن مائة، ومعنى هذا أن على أن أقف أمام آلة تصوير المستندات لفترة طويلة معرضا للانكشاف.. ثم إن المحامين لا يصورون وإنما تفعل ذلك السكرتيرات.. وآلة التصوير معقدة عالية التقنية جاهزة كي تنحشر فيها الورقة لحظة ضغط الزر فتكون الفضيحة، دعك من أنها مزودة بعداد يسمح بخروج فاتورة للعميل..

يجب أن أخرج من الشركة بالملف.. وهذه جريمة..

على كل حال دخلت قسم العقارات في الرابعة، وقد شمرت كمي، ومعي كومة ملفات كأن لدي عملاً خطيرا هناك.. كان (تشانس) هناك وبابه موارب بينما صوته يدوي عبر الهاتف.. لم تكن هناك كاميرات أمن تراقب من أعلى.. من ذا الذي يفكر في سرقة شيء من قسم العقارات؟

غادرت في الخامسة فابتعت شطائر، واتجهت لمكتبي الجديد.

☆ ☆ ☆

شركائي كانوا هناك.. وقد خرج (موردخاي) مرحبا ليريني مكتبي الجديد.. كان في نصف حجم هذا الذي غادرته، وهناك

خزانة ملفات جوار الجدار.. لم يكن هناك هاتف.. هناك آلة تصوير مستندات من طراز الثمانينيات العتيق. ليست فيها بهرجة آلات شركتي السابقة.

ناولني (موردخاي) حلقة بها ثلاثة مفاتيح، وقال لي: إن بوسعي أن آتي متى أردت.. لكن..

- كن حذرا.. أوقف سيارتك أمام الباب بالضبط.. امش لها بسرعة، ثم أغلق الباب عليك فورا!

لابد أن الخوف بدا في عيني، فقال:

- سوف تعتاد هذا.. كن ذكيا.

في السادسة والنصف عدت لسيارتي.. لم يتحرش بي أحد.. لم أتلق رصاصة ولم تخدش سيارتي.. ربما كان بوسعي أن أعيش في هذا العالم..

☆☆☆

استغرقت إحدى عشرة دقيقة للعودة إلى الشركة.. لو افترضنا أن نسخ الملفات يستغرق نصف ساعة.. إذن سيظل الملف خارج الخزانة ساعة كاملة..

في الثامنة مساء عدت لقسم العقارات متظاهرا بأنني مشغول جدا.. لم يكن هناك أحد في مكتب (تشانس) ثم تفقدت كل المكاتب وقرعت الأبواب.. بحثت عن الكاميرات..

فتحت مكتب (تشانس).. ووقفت في الظلام لا أعرف إن كان بوسعي أن أضيء النور أم لا.. لو مر شخص بالبناية فمن

العسير أن يحدد الضوء في أي مكتب.. ثم إن الظلام دامس، وليس معي كشاف.

أغلقت الباب وأضأت الأنوار.. بحثت بين الملفات حتى وجدت دستة منها كلها تحمل عنوان (ريفر أوكس).. (تشانس) وسكرتيرته منظمان.

بدأت أفتش في ملف غليظ.. أردت أن أتأكد من أنه الملف المطلوب.

فجأة سمعت صوت رجل يصيح في الممر:

- هيه!

وثبت داخل جلدي.. ثم جاء صوت رجل آخر وبدأت محادثة.. محادثة عن كرة السلة.

a

مشيت للباب بقدمين من مطاط وأطفأت النور.. ثم جلست على أريكة (تشانس) لمدة عشر دقائق.. لو رأوني أخرج من الباب والملف ليس معي فلا شيء ضدي.. إن غدا يومي الأخير في الشركة على كل حال، أما لو رأوني والملف معي فهي نهايتي.

بدأت الأصوات تخفت، فأغلقت الدرج وأخذت الملف..

سبع دقائق.. ثمان.. تسع.

فتحت الباب ونظرت عبر الردهة.. لا أحد.. مشيت خارجا من المنطقة، والملف معي وأنا أتظاهر بأنني طبيعي.

- هيه!

سمعت صوتا من خلفي فاستدرت عبر المنعطف، وحصلت على لمحة مما يجرى خلفي فرأيت رجلا يحاول اللحاق بي.. وجدت مكتبا مفتوحا فدخلته على الفور..

كانت مكتبة صغيرة، فمشيت بين الأرفف حتى وجدت بابا يقود للناحية الأخرى.

وجدت مخرجا ودرجات تهبط لأسفل فرحت أركض.. بلغت الطابق الأرضي بلا معطف.. الطقس بارد بالخارج لدرجة التجمد.. فركضت إلى السيارة..

☆ ☆ ☆

لماذا جريت من ذلك الشخص؟ هو لم يرني أغادر مكتب (تشانس).. كان بوسعي أن ألبي نداءه وأثرثر معه.. ولو أراد أن يرى الملف لصرفته مازحا.. ترى هل عرفني؟ لماذا ناداني بهذه الطريقة لو عرفني؟

على كل حال قدت سيارتي.

كان من المستحيل عليّ أن أعرف أن هناك عملية تهريب مخدرات قد ضبطتها الشرطة، وأن شرطيا أصيب بالرصاص، وأن سيارة (جاجوار) خاصة بتاجر المخدرات تندفع عبر الشارع الثامن عشر..

كان الضوء الأخضر يسمح لي بالمرور لكن الفتية الذين أصابوا الشرطي لم يبالوا بقواعد المرور، وفجأة لمحت الجاجوار كأنها طيف ثم انتفخ كيس الهواء الواقي من الصدمات في وجهي. حينما استعدت رشدي كان الباب الأيسر

يضغط على كتفي ووجوه سود تحدق فيّ عبر الزجاج المحطم.. سمعت صفارات إنذار ثم غبت عن الوعي.

فك أحد المسعفين حزام الأمان عني، وسألني إن كان بوسعي المشي.

قلت وأنا أجلس على حافة المحفة:

- أنا بخير..

وإذ حملوني لسيارة الإسعاف رأيت (الجاجوار) مقلوبة يحيط بها رجال الشرطة والناس.. أخذوني إلى الطوارئ في مركز (جورج واشنجتون)، وحقنوني بالمسكنات.. صحوت في وقت ما من الليل لأجد (كلير) تنام على مقعد جوار الفراش..

☆ ☆ ☆

أربع عشر

رحلت (كلير) قبل الفجر، وقالت لي مذكرة لطيفة جوار الفراش إن عليها القيام بالمرور الصباحي، وإنها ستعود في منتصف النهار.. لقد تكلمت مع الأطباء ومن المحتمل أنني لن أموت.. هكذا ظهرنا أمام الناس زوجين متعاطفين متحابين.. لن يتخيل أحد أننا ننهي إجراءات الطلاق.

مرحبا بك في شوارع واشنطن الفقيرة..

الحقيقة: كان تواجدي في هذا الركن من المدينة بعد الظلام معناه الانتحار.

ضلوعي تؤلمني عند النفس وذراعي زرقاء منتفخة، ورأيت وجهي في المرآة وقد صارت له ملامح جديدة.. لا شيء خطير.. سيزول كل هذا على نهاية الأسبوع..

جلبت لي الممرضة بعض الأقراص فرفضتها.. لا أريد مسكنات لأنني أريد أن أحتفظ بذهن صاف.. أجريت بعض الاتصالات فعرفت من سكرتيرة في إدارة المرور أن السيارات المحطمة تنقل إلى أرض خلاء في طريق (راسكو) في الشمال الغربي.. هكذا اتصلت بـ (موردخاي) لأسأله عن طريقة العثور على سيارة محطمة.. وعد بأنه سيبحث ويتصل بي..

عند الظهر جاءت (كلير) فتحدثت مع طبيبي الذي سمح لي بالرحيل، وسرعان ما كانت توصلني بسيارتها للبيت حيث أعدت لي حساء طماطم ثم انصرفت عائدة لعملها.

عرفت مكان سيارتي عن طريق (موردخاي) فاتجهت إلى هناك بوساطة سيارة أجرة قمت باستئجارها هاتفيا.. عرفت السيارة (اللكساس) عندما وقفت خلف السلك الشائك أرمق السيارات المحطمة المكومة فوق بعضها. لقد أطار التصادم جانبها الأيسر.. قال لي السائق عندما رأى المشهد:

- أنت رجل محظوظ فعلاً.

لكننا لم نستطع الدخول.. كان هناك مكتب لكنه مغلق، والبوابات مغلقة بجنزير ثقيل.. هكذا طلبت منه الذهاب إلى شركة لتأجير السيارات.

عدت لداري لأتناول آخر وجبة لي مع (كلير) باعتبارنا زوجا وزوجة.. قدمت لي الطعام ثم سألتني:

- هل تعرف من يدعى (هكتور بالما)؟

ابتلعت الطعام بصعوبة، ثم سألتها:

- ما شأنه؟

- اتصل بك عدة مرات.. من هو؟

- موظف في الشركة كان عليّ أن أعاونه.. إنه في ورطة.

- هذا أكيد.. إنه يريد لقاءك في بار يدعى (ناتان) في تقاطع شارعي (إس) و(إم) التاسعة مساء..

- ولماذا بار؟

- لم يقل.. هل هذا مريب؟

تلاشت شهيتي لكنى واصلت الأكل كي أبدو طبيعيا أمامها.

☆☆☆

مشيت في شارع (إم) من دون سيارتي لأن إيجاد مكان لإيقاف سيارة مستحيل مساء الجمعة، دعك من حاجتي إلى تحريك عضلاتي.

لا يمكن أن يعني هذا اللقاء إلا المتاعب.. فكرت في أكاذيب أبرر بها تصرفاتي وأكاذيب أبرر بها الأكاذيب.. من الممكن أن يكون (هكتور) يحمل أجهزة تنصت الآن.. سوف أصغى ولا أتكلم..

كان البار نصف خال وقد جئت قبل موعدي بعشر دقائق، لكنه كان هناك ينتظرني.. وثب وصافحني في حرارة كأنه لم يرني من قبل.. ودعاني إلى الجلوس..

- ماذا حدث لوجهك؟

- قبلت كيس هواء..

- نعم.. سمعت عن الحادث.. يبدو أن الآخر قد مات.. تاجر مخدرات هو. أليس كذلك؟

- بلي..

ولاحظت أنه يتحكم في المحادثة تحكما كاملاً وأن ردوده تأتى أسرع من أسئلتي.. جاء الساقي فسألني عما أرغب في شربه فطلبت قهوة سادة.. هنا شعرت بقدمه تركل قدمي تحت المنضدة.. وعندما وقف الساقي بيننا ليحجبنا عن الرؤية رأيت (هكتور) يرفع سبابته ويشير إلى صدره..

إذن هو يحمل جهاز تنصت وهم يراقبونه كذلك.. هذا يفسر تحيته الحارة كأننا لم نلتق قط..

قال لي:

- أنا كاتب في قسم العقارات.. لابد أنك قابلت (برادن تشانس) محامينا.. لقد التقينا مرة عابرة عندما زرت مكتبه منذ أسبوع..

- هذا صحيح..

بما أنني مراقب فمن الخير ألا أتكلم إلا بمقدار.. ثم أضفت:

- في الحقيقة أذكر الموقف لكن لا أذكر وجهك..

غمرت وجهه ابتسامة خفيفة ولمست قدمه قدمي. نحن نرقص على اللحن ذاته.

- سبب لقائنا هو أن هناك ملفا فقد من مكتب (تشانس)..

- وهل أنا المتهم؟

- لا.. لكنهم يشتبهون بك.. إنه نفس الملف الذي طلبته من (تشانس) وكدت تتشاجر بسببه.. الشركة تحقق مع كل شخص يمكن أن يخطر ببالها..

- إذن لا علاقة لي بالأمر، فلا يمكن أن أسرق ملفا من زميل.

- هل تقبل أن تخضع لجهاز كشف الكذب؟

طبعا.. قلتها وأنا أعرف أنه لا توجد قوة على الأرض ترغمني على الخضوع لجهاز كشف الكذب.

- هم كذلك يأخذون البصمات..

لم يخطر لي هذا.. بصماتي على مفتاح النور والخزانة و.. كل شيء.. على كل حال قررت أن أكون عنيفا، لذا قلت:

- لا أحب طريقتك.. لو كنت تتهمني بشيء فلتفعل.. اذهب إلى رجال الشرطة وأخبرهم بكل شيء.. هذه جريمة سرقة.. إذن من واجبك أن تقبض على السارق..

قال:

- هناك كذلك ملف وجدناه في مكتبك.. ثمة شخص قال لك إنه أرسل لك مفتاحين لخزانة (تشانس)!

كانت آثاري تتسع.. لقد تدربت كي أكون محاميا لا لصا.. ويبدو أن الموضوع أعقد مما تصورت.. لقد وصلتني الرسالة على كل حال.. الشركة تريد الملف بما فيه.. وهي تعرف يقينا أنني من أخذه..

نهضت معلنا نيتي في الانصراف فسألني:

- متي تجتاز اختبار كشف الكذب؟

- سوف أتصل بك.

☆ ☆ ☆

خمس عشر

عن طريق علاقات (موردخاي) وشرطي يدعى (بولي) تمكنت أخيرا من الوصول إلى سيارتي في تلك الساحة التي ألقوها فيها.. دخلت إلى الحطام وبحثت عن الملف.. لم أجده للحظة مرعبة، ثم مددت يدي تحت المقعد الأمامي فوجدته.. وضعته تحت إبطي كأنه من ذهب.

قال لي الشرطي الذي يحرس السيارات المحطمة، قال:

- تعال معي..

وفي الداخل دون مواصفات المظروف والمكتوب عليه بدقة.. لديه الآن كل ما يثبت إنني أخذت مظروفا بهذه المواصفات من حطام سيارتي.. آثاري تزداد اتساعا..

لم يكن (موردخاي) يعرف عن الملف إلا أنه مهم..

كنت متلهفا على تصفح الملف لكني- قاومت ذلك حتى أصير وحدي في شقتي الجديدة.

☆ ☆ ☆

كانت شركة (ريفر أوكس) تبتاع كل العقارات الرخيصة في المنطقة المتهالكة من المدينة.. وكانت شركة TAG شركة مريبة غير مسجلة بشكل قانوني يديرها من يدعى (تلهان جنتري) الذي يصفه الملف بأنه قواد سابق قبض عليه مرتين من قبل.. أمثاله كثيرون في هذه المدينة.. بعد اعتزاله الجريمة قرر أن يتاجر في العقارات والسيارات المستعملة. بدأ يبتاع العقارات المهجورة ويؤجرها.. الملفات تظهر أربعة عشر عقارا ملك هذا الرجل.

هنا يلتقي طريق الرجل بشركة (ريفر أوكس) حينما احتاجت هيئة البريد لمساحات إضافية.. وقد أسندت مهمة الحصول على أرض إلى شركة (ريفر أوكس).. وهناك عقد مرفق بمليون دولار ونصف مضمونة الدفع سنويا لمدة ٢٠ عاما.. بشرط توقيع العقد النهائي قبل 1 مارس وإلا اعتبر الاتفاق ملغيا..

على الفور انطلقت شركة (ريفر أوكس) للعمل.. ابتاعت أربع ملكيات في المنطقة قرب المستودع الذي يعيش فيه أولئك اللاجئون. لقد اقترب الأول من مارس فلم يعد باقيا إلا أسبوع..

الآن أفهم لماذا اكتشف (تشانس) اختفاء الملف بهذه السرعة.. لقد كان يتعامل معه يوما بيوم..

اشترت TAG المستودع في يوليو الماضي بمبلغ غير مذكور في الأوراق.. ثم اشترته منها شركة (ريفر أوكس) بمائتي ألف دولار قبل تنفيذ حكم الطرد بأربعة أيام..

كنت قد فرشت الأوراق على الأرض ورحت أدرس كل ورقة، وأقوم بتدوين ما فيها في مذكرة صغيرة توطئة لإعادتها إلى موضعها الدقيق من الملف.. كل شيء مرتب ومفهرس بدقة كما علمونا في الشركة حيث كل وثيقة لا يمكن العثور عليها في ثلاثين ثانية لا قيمة لها..

بمساعدة رجل شرطة و(فتوات) من شركة خاصة توجه (هكتور بالما) إلى المستودع لإخلاله ممن فيه.. كان هذا يحتاج إلى شجاعة غير عادية، وكما كتب (هكتور): «كانت الأم تنام على الأرض مع أطفالها الأربعة ومنهم رضيع.. قاتلت رجل الشرطة وفي النهاية استطعنا إخراجها..»

كانت قائمة المطرودين حوالي سبعة عشر باستثناء الأطفال.. نفس القائمة التي وضعها ذلك المجهول على مكتبي.. لم تكن هناك إخطارات بالطرد؛ لأن الشركة اعتبرت هؤلاء متسللين أو مقيمين بوضع اليد، وواضعو اليد لا حقوق لهم.

هذا الملف مسروق.. والسارق أحمق لأن الأدلة ضده تتكوم في هذه اللحظة.. لقد أخذوا بصماتي عندما التحقت بالشركة ولن يكون صعبا مضاهاتها بالبصمات في خزانة (تشانس).. بل أنا أعرف أن هذا تم..

ترى هل حصلوا على أمر باعتقالي؟

☆ ☆ ☆

ست عشر

لم يكن مكتبي الجديد يشبه في شيء مكتبي في شركة (سويني).. المكتب نفسه عبارة عن منضدة صغيرة بالتأكيد ابتاعوها من مدرسة قديمة.. لها ثلاثة أدراج لكنها تفتح بصعوبة.. المقعد من الطراز الذي يستأجرونه للحفلات، ولا يمت بصلة لمقعدي القديم الجلدي الدوار المريح.. جدران الغرفة بحاجة إلى طلاء، والتدفئة سيئة جدا.

دوت دقة على الباب أثارت هلعي، فتساءلت عما إذا كانت عصابات الشارع قد لاحقتني إلى هنا.. نظرت عبر الزجاج المصنفر للباب فرأيت ملامح مألوفة.. إنه (باري نوتسو) صديقي القديم.. كان يرتجف ويتوق للدخول إلى الأمان بالداخل.

فتحت له الباب، فدخل وهو يصيح:

- يا له من وكر!

يبدو أن الأمر بدا له مسليا.. نزع قفازيه ومشى إلى حيث أريكة (صوفيا).. قلت له:

- نحن نبقى مصاريفنا منخفضة كي نأخذ معنا كل المال للبيت.

قال وهو مستمتع بكل هذا:

- أنت جننت بلا شك.. هل بدأت تسمع أصواتا؟

- هل جئت هنا كي تقول لي هذا الكلام؟

- لقد اتصلت بـ (كلير) وكلمتني عن الطلاق ثم ماذا حدث لوجهك؟

قاطعته سائلاً إن كان يرغب في قهوة.. وددت ألا يصحبني إلى المطبخ لأن هذا مشهد لا يجب أن يراه.. وجدت قدحا فغسلته وملأته بالقهوة وبسرعة عدت له.. كان يتفحص الحجرة ثم قال لي:

- هل هذا ما كنت تحلم به في مدرسة القانون؟

وفجأة انتهى المزاح.. نظر لي في جدية وبرغم قسوة الفكرة فإنني تساءلت عما إذا كان يحمل جهاز تنصت هو الآخر.. بوسعهم هذا وهو لن يتطوع لهذه المهمة لكنهم قادرون على إجباره.. لقد صرت العدو الآن.

- هناك ملف مهم مفقود يا (مايكل) والجميع يشير نحوك..

- هل أرسلتك الشركة؟

- طبعا لا..

صدقته.. فنحن صديقان منذ سبع سنوات برغم أننا كنا أكثر انشغالاً من أن نمارس الصداقة فعلاً.

واصل الكلام:

- الملف يتعلق بـ (مستر).. أنت قابلت (تشانس) وطلبت الملف.. ثم شوهدت تتسكع قرب مكتبه.. بصماتك في كل مكان في الغرفة والخزانة.. أنت أخذت الملف يا (مايكل)..

- ماذا تعرفه عن هذا الملف؟

- لا أعرف شيئا إلا أنه يتعلق بـ (مستر) وأنك أخذته.. كلاب الشركة الكبرى تبحث عنك، وقد حرّموا علينا الاتصال بك.. أنا هنا برغم أوامرهم..

- لن أشى بك على كل حال.

- اسمع يا (مايكل).. أنا متأكد من أن كل شيء يمكن إصلاحه.. أعد الملف وسوف أقابل مديري الشركة وأجعلهم يصفحون فينسون.. ثم آخذ إجازة معك لمدة أسبوعين نلعب فيهما التنس ونعود كأن شيئا لم يكن.

- هل أنت متأكد من أنهم لم يرسلوك لتقول لي هذا؟

- لا وأقسم على هذا..

- إذن هذه الفكرة لا تصلح.. هناك فارق بين أن تكون محاميا وأن تكون بائعة هوى تتقاضى أجرها بالساعة.. لقد دخلنا هذه المهنة لأننا حسبنا القانون قيمة عظمى.. يمكنك محاربة فساد المجتمع كله بالقانون.. كنا مثاليين وقتها.. فلماذا لا نعود كما كنا؟

- أقساط المسكن!

- لم أطالب بتجنيدك معي.. من حسن الحظ أنني بلا أطفال.. لديّ ترف أن أكون بطلاً بعض الوقت.

راح ينظر إلى جهاز التدفئة وهو يأمل أن يبعث بعض الحرارة، ثم قال:

- لا يمكنك الاحتفاظ بهذا الملف يا (مايكل).. إنهم مجانين كالجحيم.. من حق العميل أن يبقى ملفه في السر ويعامل بسرية

تامة، ومعنى هذا أنهم سيقاضونك.

- لدى الشركة ما تخسره أكثر مني.. إن هذا الملف خطر عليهم.

نظر لي في دهشة فهو فعلاً لا يعرف محتوى الملف، ثم قال:

- حتى لو كان هذا صحيحا فليس بوسعك استعمال ملف مسروق في المحكمة.. ربما أستطيع أن أرتب لك لقاء في غرفة موصدة مع (آرثر).. نوعا من الهدنة..

- فات وقت ذلك.. هناك أناس تجمدوا من البرد في الطرقات..

ثم قررت تغيير موضوع الحديث فدعوته إلى جولة في المكتب.

وعندما افترقنا بعد قليل طلب مني أن أتصل به من حين لآخر، فأكدت له ذلك..

☆ ☆ ☆

سبع عشر

في الصباح ذهبت مع (موردخاي) إلى الملجأ المدعو (بيت السامري)، حيث قابلت طوفانا من المشردين الذين يريدون رأيي القانوني.. أغلبهم قال آسفا إنه لا يستطيع أن يدفع لي.. معظم القضايا تتعلق بتوقف الإعانات الحكومية أو بونات التغذية أو موظفة تركت العمل وأرسلت لها شركتها شيكا لم يصلها لأنها بلا عنوان.. رجل أدمنت زوجته المخدرات فاحترفت البغاء وقادته إلى الإفلاس.. قصص جعلتني أود تقبيل قدم (كلير) الآن.

لم أتصور هذا الكم من العمل باعتباري محامي شوارع، وكنت قد ارتديت ثيابا غير مهندمة وكففت عن حلق لحيتي مما راق لـ (موردخاي).. أنا الآن محامي شوارع فلا يهم مظهري.. ومن حسن حظي أنني اعتدت إدمان العمل لذا لم يشكل لي هذا الكم الكبير من القضايا مشكلة..

عند الظهر عدت إلى مكتب (موردخاي). وجدتْ لي (صوفيا) جهاز هاتف يعمل.. كان تحت كومة من الملفات، فقمت بتوصيله وكان أول ما فعلته أن اتصلت بشركة (سويني) طالبا الاتصال بـ (هكتور بالما)..

أبقتني السكرتيرة أنتظر على السماعة، ثم جاء صوت خشن يقول:

- أنا (برادن تشانس).. هل لي أن أساعدك؟

غيرت صوتي بسرعة وتمالكت نفسي وقلت:

- أنا صديق قديم لـ (هكتور بالما) من أيام المدرسة.. هل لي أن أكلمه؟

قال في بساطة:

- (هكتور بالما) لم يعد يعمل هنا.

وضعت السماعة ورأسي يدور.. فكرت أن أتصل بـ (بولي) سكرتيرتي السابقة لأتأكد من صحة هذا الخبر.. ربما لو طلبت (بارى) أو (رودلف).. ثم تذكرت أن هؤلاء جميعا لم يعودوا أصدقائي.. لقد رحلت.. لقد صرت العدو..

لم أعتقد أن الشركة غبية بحيث تفصل (بالما).. أعتقد أنها نقلته إلى فرع آخر بعيد براتب أعلى.. هكذا تضمن صمته وتتخلص منه في الوقت ذاته..

لم أكن متلهفا على العودة لداري الجديدة بعد انتهاء العمل.. غرفة نوم بلا فراش.. مطبخ بلا ثلاجة.. تلفزيون بلا كابل.. إن المقولة القديمة التي تقول إن القانون حبيبة غيور صادقة معي جدا.. فلم يعد القانون إلا كل ما أملكه في الحياة.

انصرفت (صوفيا) مبكرا كعادتها لأنها تعيش في منطقة خطرة وهي تفضل أن تغلق الأبواب عليها ليلا وقد نصحني (موردخاي) بألا أتأخر.. أوقف السيارة قريبا.. يجب أن نكون اثنين عند الانصراف.. امش بسرعة.. راقب كل شيء..

- نحن سعداء بوجودك.. كنا بحاجة إلى رجل أبيض wasp هنا.

- إذن لي الشرف أن أكون رمزا..

☆ ☆ ☆

انتظر رجال الشرطة حتى الواحدة صباحا ثم هجموا كرجال الكوماندوز، ودقوا الباب بعنف.. ولم تجد (كلير) وقتا لاستجماع أفكارها.. وضعت شيئا على منامتها بينما هم يوشكون على تهشيم الباب.

- شرطة!!

فتحت الباب وتراجعت في ذعر بينما اقتحمه أربعة رجال، اثنان منهم بالزي الرسمي.. وكانوا يتصرفون كأن حياة إنسان في خطر.. وصاح بها أحدهم:

- تراجعي!

وكانت عاجزة عن الكلام.. قال قائدهم الملازم (جاسكو) وهو يخرج أوراقا من جيبه:

- هل أنت (كلير بروك)؟

وهو يمثل (كولومبو) بطريق سيئة.. فهزت رأسها أن نعم..

- أين (مايكل بروك)؟

- لم يعد يعيش هنا..

كان من المستحيل أن يصدق الرجل هذا؛ لذا أخرج ورقة وقال:

- معي إذن تفتيش من القاضي (كيزنر) استخرجه الساعة الخامسة بعد الظهر..

ورفع الأوراق لتراها، كأنها يمكن أن تستوعب ما فيها في ساعة كهذه..

- عم تبحثون؟

- هذا في الأوراق..

واندفع الرجال يفتشون الشقة.

كنت نائما على الأرض في شقتي في ذلك الوقت.. منذ جئت هذه الشقة آكل قليلا وأنام أقل.. لكنى أحمد الله على أنني على الأقل أملك جدرانا وسقفا وتدفئة ومهنة وأعرف أنني سأجد طعام غد.. هذا يختلف عن البؤساء الذين أعمل لهم.

دق جرس الهاتف المحمول فرفعته لأسمع (كلير) تقول همسا:

- (مايكل) رجال الشرطة يفتشون الدار.

- ماذا؟

- معهم إذن تفتيش.. ويقولون إنهم يبحثون عن ملف..

- سأكون عندك خلال عشر دقائق..

هكذا اندفعت إلى الشقة كأني تحت الاستحواذ، وكان (جاسكو) أول من قابلت.. فصحت:

- أنا (مايكل بروك).. من أنتم بحق الجحيم؟ أريد أن أرى أوراقكم..

أخرج الشارة من جيبه ورفعها لأتمكن من رؤيتها.. قلت في تحد:

- (لاري جاسكو).. أنت أول من سأرفع عليه قضية في العاشرة صباح غد.. من معك؟

قالت (كلير):

- معه ثلاثة وهم في غرفة النوم الآن..

دخلت غرفة النوم لأجد شرطيا على أربع ينظر تحت الفراش فصحت فيه:

- أرني أوراقك أيها الأحمق..

أخرج شارته فنظرت فيها، وقلت:

- (داريل كلارك).. المتهم الثاني.

قال في برود:

- ليس بوسعك مقاضاتي..

- جربني أيها الصبي الكبير.. سوف أطلب منك تعويضا في المحكمة بمليون دولار للتفتيش غير القانوني، وسوف أكسبها.. عندها سأجعلك تشهر إفلاسك..

وطلبت من (كلير) أن تحضر كاميرا الفيديو لتصور المشهد، ثم قلت لهم:

- سوف تحاكمون وتطردون من الخدمة، غالبا بلا معاش.. التفتيش غير قانوني.. ومن أعطاكم الإذن سيحاكم.. هي أخبرتكم أنني لا أعيش هنا وبرغم هذا واصلتم التفتيش.. عند هذه النقطة صار ما تقومون به غير قانوني.. كان عليكم التوقف لكنكم لم تقاوموا لذة العبث بالممتلكات الشخصية للآخرين..

تظاهروا باللامبالاة، لكنهم كانوا خائفين.. أنا محام فلابد أنني أعرف ما أتكلم عنه.. لم أكن كذلك لكني بدوت مقنعا.. كنت أمشى فوق جليد قانوني رفيع للغاية.

سألني (جاسكو):

- أين الملف؟

- الملف ليس هنا لأني لا أعيش هنا ولهذا سوف أقاضيكم.. والآن لم لا تنصرفون؟

- طيلة الوقت يقاضوننا فلا مشكلة هناك.

وكانت (كلير) تصورهم فلم يجسروا على قول ما هو أكثر.. وسرعان ما كانوا يتجهون إلى الباب.. وغمغم أحدهم بصوت خفيض بعبارات سباب ضد المحامين الذين يتدخلون في كل شيء..

وقفت أقرأ إذن التفتيش بينما (كلير) ترشف القهوة وقد استعادت برودها.. لن تظهر أمامي بمظهر الضعف أبدا، وأبدا لن تظهر لي أنها بحاجة إلى..

- هل ستقاضيهم فعلا؟

- لا.. لكنهم لن يعودوا ثانية..

- وما موضوع هذا الملف؟

- قصة طويلة هي..

كنت أعرف أنها غير مهتمة.. فقط تريد الاطمئنان إلى أنهم لن يعودوا.. سألتها:

- هل أخبرتهم بمكان إقامتي؟

- أنا لا أعرف مكان إقامتك!

وانصرفت بلا كلمة أخرى أو أية لمسة توحى بالاهتمام.. وكان هذا ما تريده بالضبط.

☆ ☆ ☆

ثماني عشر

في الصباح أخبرت (موردخاي) بالقصة كلها موضوع الملف وكل هذه التفاصيل التي يسمعها لأول مرة.. تمنى أن يصفني بالجحش لكن علاقتي به لم تبلغ هذا الحد..

قلت له إنني لم أجد حتى هذه اللحظة السبب الذي يجعل الملف مهما لهذه الدرجة.. لكنى كونت نظرية معقولة هي أن شركتي السابقة طردت هؤلاء المشردين من المستودع برغم أنهم يدفعون إيجارا قدره مائة دولار في الشهر.. كانوا مستأجرين لهم كافة حقوق المستأجر القانونية، لكنها عاملتهم كواضعي يد.. والسبب هو أنه لا وقت للإجراءات القانونية لأن الصفقة توشك على الضياع من (ريفر أوكس).. هناك ورقة معينة تثبت أن (تشانس) عرف أن هؤلاء القوم مستأجرون وليسوا متسللين للعقار، لكنه أخفاها.. ولم يضعها في الملف.. السبب: هو حاجة الشركة الماسة إلى الاستيلاء على المستودع قبل فوات الأوان.

قال (موردخاي):

- المالك السابق للعقار . ذلك البلطجي . يعطى أماكن لهؤلاء البؤساء ويأخذ منهم إيجارا، لكنه لا يبلغ الحكومة بشيء عنهم كي لا يلتزم بشيء.. هكذا تعاملهم الحكومة كمتسللين.. هذا يحدث طيلة الوقت..

كان من رأيه أن علينا الآن أن نضع خطة محكمة لو استطعنا أن نجر (ريفر أوكس) وشركتي السابقة للمحكمة، لكانت المحاكمة صاخبة، وسوف تعيد اهتمام الإعلام بالمشردين

عندما صرت وحدي اتصلت بصديقي (باري نوتسو) وطلبت منه أن يقابلني عند تقاطع شارعي (ك) و(كونكتيكات)..

- سأكون عندك بعد ساعة..

- بل الآن أو انس الأمر..

لم أرد أن أمنح هؤلاء الصبية وقتا لرسم خطة.. لا أريد منحهم وقتا لدس أجهزة تنصت كذلك..

- أنا في مقهى (بنجلر).. سأنتظرك.. وتعال وحدك..

- أنت تشاهد الكثير من الأفلام مؤخرا..

بعد عشر دقائق كنا نجلس في ذلك المقهى الصغير المزدحم، نحتسي القهوة الساخنة ونراقب زحام المرور سألته:

- لماذا طلب التفتيش؟

- إنه ملفنا ونحن نريد استرجاعه.. هذا بسيط أين تعيش الآن؟

ضحكت ساخرا بما معناه (ما هذا الذكاء؟).. ثم قلت:

- أمر الاعتقال يصدر بعد أمر التفتيش.. هل هذا هو السيناريو المتوقع؟

قال:

- اسمع يا (مايكل).. فلنبدأ من منطلق أنك مخطئ.. أنت أخذت شيئا ليس لك وهذه سرقة.. الأمر بسيط كما ترى.. أنا صديقك لكني ما زلت أعمل لدى الشركة فلا تتوقع أن

أساعدك.. أنت من وضعنا في هذا الموقف لا أنا.. هذه ليست لعبة يا (مايكل) ومن الممكن أن تؤذي نفسك..

- (تشانس) أيضا قد يؤذَى.. هذا الملف يثبت أنه ارتكب خطأ مهنيا جسيما.. ما أطلبه هو هدنة لفترة بلا أوامر باعتقالي أو تفتيشي..

- وماذا تقدم في المقابل؟

- ألا أضايق الشركة بمحتوى الملف..

ابتلع باقي القهوة، وقال:

- لستُ مؤهلا لإجراء صفقات.. أستطيع فقط أن أنقل رسالتك هذه.. أنت تتوهم أن الشركة تريد الكلام معك.. بالعكس.. هم غاضبون جدا ولا يريدون أي تعامل معك.

قلت وأنا أغادر المقهى:

- هدنة لمدة أسبوع..

☆ ☆ ☆

كانت المرأة الشابة جالسة جوار باب الشركة عندما وصلت هناك صبيحة الأربعاء.. الحرارة في درجة التجمد.. ما إن رأتني حتى وثبت وهتفت:

- مرحبا.. هل أنت محام؟

- نعم..

- لمن هم مثلي؟

- بالتأكيد.

وفتحت الباب وسمحت لها بالدخول.. أعددت قهوة ووجدت بعض (الدونات) في المطبخ فقدمته لها.

- ما اسمك؟

- (روبي).

- وأين تعيشين يا (روبي)؟

- هنا وهناك.

كانت تلبس ثيابا رخيصة.. بين الثلاثين والأربعين مخبولة نوعا ونحيلة جدا..

- كنت أعيش في مأوى ثم طردت.. وجدت لنفسي سيارة..

- هل عندك سيارة؟

- لا أقودها.. أنام في المقعد الخلفي.

قدمت لها القهوة ودعوتها إلى المكتب.. جلست منحنية على كوب القهوة كأنه آخر شيء دافئ تلمسه في حياتها.. ثم بدأت تقول:

- إنه ابني.. (تيرانس).. إنه في السادسة عشر.. لقد أخذوه مني.. رجال الملجأ..

منذ أعوام كان (تيرانس) في العاشرة، وكانا يعيشان في شقة صغيرة.. قبض عليها لبيع المخدرات وسجنت أربعة أشهر.. ذهب (تيرانس) ليعيش مع أختها.. ثم خرجت من السجن ليعيشا في الشارع ويناما في السيارات.. بشكل ما استطاعت أن

تبقيه في المدرسة.. باعت المخدرات وباعت جسدها.. فعلت كل شيء لتبقيه شبعان وفي ثياب معقولة وفي المدرسة.. في لحظة يأس ذهبت لأسرة عملت عندها منذ زمن.. آل (رولاند).. قالت إنها ستدفع خمسين دولارا في الشهر لو سمحا لـ (تيرانس) بالحياة عندهما.. وافق الزوجان بعد تردد وسمحا لها بزيارته ساعةً مساء كل يوم.. كانا أناسا طيبين.. صار ابنها نظيفا سليم الجسد وسرها هذا.. إلى أن تم اعتقالها بتهمة الدعارة هذه المرة..

عندما خرجت كانت حاملاً.. عندما أنجبته أخذت الحكومة الرضيع لأن أمه مدمنة مخدرات.. ثم وجدت أن آل (رولاند) ضدها.. (ترانس) ضدها.. ثم جاءها رجل يحمل أوراقا وقال إن المدينة هي التي ستتولى أمر (تيرانس).. سوف يتبناه آل (رولاند) فقد قضى معهما ثلاث سنوات..

كانت تبكي.. أريد أن أراه فقد افتقدته جدا..

أستطيع أن أتصور (تيرانس) بصحة جيدة دافئا يتناول الإفطار على المائدة ويسمع دروس الإسبانية.. بينما عميلتي شبه مجنونة تعيش في الجحيم.. وعليّ أن أسعى لجمعهما من جديد..

قلت لها:

- لن تري (تيرانس) إلى أن تشفي من تأثير المخدرات.. يجب أن تذهبي إلى مصحة..

شد ما أجهل كل شيء عن المخدرات! من أين تحصل عليها؟ كم جرعة؟ كم من الوقت تحتاج إلى أن تشفى من عادة

قاتلة كهذه؟

هنا سمعت (صوفيا) تصرخ في الخارج..

خرجت لأرى ما هنالك، فوجدت الملازم (جاسكو) قد عاد.. هذه المرة كان معه خمسة رجال شرطة.. كان (موردخاي) هناك، وهو رجل لا يستطيع أن يخفض صوته أو يكف عن الضوضاء.. وسمعته يقول:

- ماذا بحق الجحيم؟

نظر لي (جاسكو)، وقال في سخرية:

- لم ترفع علينا قضية كما هددت.. وكل هذا الكلام الكبير.. نحن هنا لنفتش.. هات الشيء الذي عندك وسوف ننهي هذا الإزعاج.

قلت:

- الملف ليس هنا.. أنت تضيع وقتك.

- لكن من واجبنا أن نضيعه.

طلبت من (روبي) أن ترحل، واختليت بـ (موردخاي) في مكتبه.. كنت محرجا لأنني تسببت في مجيء الشرطة إلى هنا.. فسألني:

- هل معك نسخة من هذا الملف؟ لم لا تعطيهم الأصل؟

- لا أستطيع.. هذا اعتراف منى بالسرقة.. ثم إنهم يعرفون يقينا أنني نسخته.

كان الجو يزداد توترا بالخارج.. (صوفيا) تصرخ في رجال الشرطة، و(جاسكو) يصرخ فيها.. الأمر يتجاوز الكلمات ليقترب جدا من حدود الاعتداء الجسدي.

رجال الشرطة في حيرة لأن تفتيش مكتب محاماة يختلف عن تفتيش بار مليء بالسكارى.

قال (موردخاي) لرجال الشرطة:

- لنتفق.. أولا: سوف تبحثون عن ملفكم لكننا لن نفتح أي ملف لأن هذا تعد على أسرار العملاء..

وافق (جاسكو) فأخذتهم إلى مكتبي ورحت أخرج ملفا تلو آخر من الدرج، وأضعه تحت أنف (جاسكو)..

في هذه اللحظة اتجه (موردخاي) للهاتف وأجرى مكالمة ثم قال لـ (جاسكو) بلهجة انتصار:

- مكالمة لك.. هذا هو القاضي الذي أعطاك إذن التفتيش..

تناول (جاسكو) السماعة في تردد كأن صاحبها مجذوم.. وأصغى قليلا ثم طلب من رجاله إنهاء التفتيش.. تباطأ الرجال في المغادرة.. لكنهم رحلوا في النهاية..

واعتذرت لـ (موردخاي) و(صوفيا) عن كل هذه الفوضى، ثم اعتكفت في مكتبي.

☆☆☆

تسع عشر

قهوة من جديد مع (روبي).. كانت بانتظاري عند الباب وعجبت لأنها منتعشة بهذا الشكل.. كيف يكون المرء منتعشا بعد نوم عدة ساعات في المقعد الخلفي لسيارة مهجورة؟

- هل ما زال عندك بعض الدونات؟

- سأرى ذلك..

لقد صارت عادة.. ودخلت المطبخ فأعددت القهوة، ولم أجد سوى بعض الدونات الذي صار صلبا لكن لم يكن هناك غيره. كتبت أذكر نفسي بشراء بعضه لو جاءت (روبي) غدا.. وكنت أعرف أنها ستفعل..

سألتها:

- هل (عملت دماغ) ليلة أمس؟

واندهشت لأنني أسأل هذه الأسئلة وبهذه اللغة، لكنها هزت رأسها، وقالت:

- نعم.. كل ليلة أفعل ذلك..

لم يكن في نيتي أن ألومها، فأنا لم أفعل بعد أي شيء يساعدها.

أخذتها بسيارتي إلى مركز (ناعومي) للنساء، وهي بناية من أربعة طوابق في الشارع العاشر.. يفتحونه في السابعة صباحا ويقدم الحمامات والطعام والثياب للنسوة اللاتي لا بيت لهن..

عرفت أن (روبي) ممن يترددن على المركز، وقد رحبت بها صديقاتها هناك.

تكلمت مع المديرة، وهي شابة جذابة نحيلة تدعى (ميجان).. يجب أن تتخلص (روبي) من المخدرات قبل أي شيء.. نصف النسوة هناك مختلات عقليا وأكثرهن مدمنات.. ثلث الموجودات مصابات بالإيدز، لكن (روبي) على قدر علم المديرة لم تكن مصابة بمرض معد..

وعندما رحلت كانت النسوة محتشدات في المدخل يغنين بصوت عال.

☆☆☆

قرعت باب آل (بالما) الذي عرفته من دليل الهاتف، فجاء صوت امرأة يسأل عمن بالباب.. كنت قد سمّعت خطتي عدة مرات طيلة الطريق إلى (بتيسدا) لكن لم أقتنع بأنني أستطيع أن أكون مقنعًا..

قلت:

- جئت أبحث عن (هكتور بالما)..

- لم تريده؟

- أنا مدين له ببعض المال؛ لذا جئت أرده له.

لو أنني كنت أخذ المال لصار الجيران عدوانيين بالطبيعة.. هذه حيلة لا بأس بها.. لكن المرأة قالت:

- لقد رحل من هنا.

- أعرف أنه رحل.. لكن هل تعرفين إلى أين؟

- لا..

بدا لي أن الإجابة هي (نعم) لكنها كانت قد غابت في ظلال شقتها وأوصدت الباب.. قرعت الجرس مرتين لكن لا إجابة.. درت حول البناية وقرعت جرسا في الجهة الأخرى، ففتح لي الباب رجل في عمري لوث (المايونيز) جانبي فمه وسألني عما أريد.. إنها لثامنة والظلام قد هبط، وأنا أضايقه في وقت العشاء.. كررت قصة (بوب ستيفنس).. لكنه قال إنه لا يعرفه.

- وهل زوجتك تعرف زوجته؟

- لا..

استدرت مبتعدا لأقابل رجل أمن يحمل هراوة، ويدق بها على راحة يده كما يفعل رجال الشرطة في السينما.. سألني عما أريد، فقلت له:

- أبحث عن شخص ما.. وأبعد هذا الشيء عنى..

- تلقينا شكوى من الجيران بأن هناك متسللا في المنطقة.. يجب أن تبتعد..

هكذا تركته ورحلت.

لم أكن متحمسا للعودة إلى شقتي الجديدة.. إن اسمي على أجهزة الكمبيوتر في مكان ما، ولن يتأخر رجال الشرطة إلى أن يجدوا بيتي الجديد.. أعرف أنهم سينفذون غارتهم ليلا ليستمتعوا بإفزاعي. يقودونني كأنني في طابور الموت مكبلا بالأصفاد إلى سيارة الدورية.. ثم يقتادونني إلى المخفر حيث

أكون الأبيض الوحيد هناك.. أنيقا مترفا.. لن يجدوا ما هو أفضل من إلقائي في زنزانة مليئة بالبلطجية الزنوج ليروا كيف أدافع عن نفسي. لهذا كنت أحمل شيئين.. هاتفا خلويا أتصل به بـ (موردخاي) فور اعتقالي، ومائتي دولار لدفع كفالة.. ربما أنجح في الخروج بدلا من المبيت في الحجز

عدت إلى المكتب وطلبت من (صوفيا) أن تساعدني في العثور على (هكتور بالما).. إنه هسباني مثلها وعلى الأرجح سوف تعرف كيف تجده.. تركتها تجرى مكالماتها فكانت تبدأ المكالمة بالإنجليزية ثم تنتقل إلى الإسبانية التي تشبه الشجار.. تركتها لمدة ساعة ثم إذا بها تقرع بابي لتقول:

- لقد رحل.. إنه في شيكاغو.. هل تريد أن أبحث عن العنوان؟

نظرت لها في ذهول وقلت:

- ولكن كيف استطعت أن..؟

- لا تسأل.. صديق يعرف صديقا في كنيستهم.

إنه هسباني إذن هو كاثوليكي على الأرجح.. هل تريد العنوان؟ أستطيع أن أقودك إلى الطريق لكن الأمر لن يكون سهلا.

لقد بحثتْ لمدة ساعة ثم وجدتْ العنوان، فوفرت عليّ سماجة رجال الأمن والدق على الأبواب طيلة الليل في البرد..

إن فرع الشركة في شيكاغو يقع في ناطحة سحاب بها مصاعد ونافورات وأماكن للتسوق.. لقد ذهبت هناك مرتين..

إنه المكان الأمثل لإخفاء (هكتور بالما)..

☆ ☆ ☆

عشرون

لدى المشردين إحساس غير عادي برجال الشرطة وقد شعر ذلك الرجل بوجود سيارة الشرطة المتخفية قرب مكتبنا وأخبر (صوفيا) بذلك.. أخبرت بدورها (موردخاي).. لم أدر أنا بشيء من ذلك لأني كنت منهمكا في محادثة على الهاتف..

لما انتهيت قالت لي (صوفيا):

- هناك سيارة شرطة بالخارج.. على الأرجح جاءوا للظفر بك..

وقال (موردخاي):

- لابد أنهم حصلوا على أمر اعتقال..

تظاهرت بالثبات وبأنني غير مهتم.. كانت المشكلة هي أن هذه ليلة الجمعة ومعنى هذا أنه لا مفر من قضاء ليلتي في الحجز.. الفتى الأبيض الأنيق مع الحثالة بالداخل.. حتى لو اتصل (موردخاي) بالقاضي الذي أصدر الحكم فلن يبالي أحد بمشكلتي.. هناك مائتا محام يعتقلون كل ليلة..

في شقة (كلير) عندما واجهت (جاسكو) كنت أنا المحامي طلق اللسان قوى الحجة.. يقذف التهديدات ويطرح الأسئلة في وجه (جاسكو) الشرطي المذعور. لم أتصور قط أنه سيأتي يوم يعتقلني فيه هذا الرجل.

لقد دخل المكتب منتصرا حاملاً أوراقه التي ينوي أن يرميها في وجهي، وقال لـ (صوفيا):

- أريد مستر (بروكس)..

خرجت من مكتبي باسما، وقلت:

- مرحبا (جاسكو).. أما زلت تبحث عن ذلك الملف؟

- ليس اليوم!

سأله (موردخاي) في خشونة:

- أنا محاميه.. فهل معك إذن باعتقاله؟

- نعم..

مشيت نحوه قائلا:

- هيا بنا..

أخرج أحد مساعديه زوجا من الأصفاد وكبل ذراعي لظهري بالمعدن البارد.. كان القيد ضيقا أو على الأقل أضيق مما توقعت.. قال (موردخاي):

- سوف أحضر موكلي بنفسي لمركز الشرطة..

لا.. نحن سنوفر عليك هذه المشقة.

- إذن سأتبعكم..

وخرجنا إلى الردهة حيث كان ثلاثة من عملائنا ينتظرون، فراحوا ينظرون لي في ذهول.. كنت أتوق إلى الاختباء في السيارة بسرعة.. هكذا غصت في المقعد الخلفي إلى جوار (جاسكو) وأنا لا أرى ما أمامي.

قال (جاسكو):

- يا لمضيعة الوقت! هناك مائة جريمة قتل وألف تاجر مخدرات وحادث اعتداء في كل ناصية، لكن علينا أن نضيع وقتنا معك.

- إذن أطلق سراحي..

- لو كان الأمر بيدي لفعلت. لكن المدعي العام يتلقى ضغطا..

هذا مفهوم.. الشركة لا تنوى تضييع وقتها مع رجال الشرطة، وإنما تدخل في مناقشة قانونية مع المدعي العام لإقناعه بالقضية.. لا يهم.. (مارتن لوثر كنج) دخل السجن.. أناس مهمون مشاهير دخلوا السجن وكبلوا بالأصفاد.. هناك قاض ينفذ حكما بأشغال شاقة مؤبدة في (ممفيس).. ممثلون وأبطال رياضة قبض عليهم وهم يهربون الكوكايين أو يخالفون المرور..

ثمة نوع من الراحة في هذا.. لقد تم الأمر أخيرا لا مزيد من الفرار والنظر خلفي.. لا مزيد من القلق لكنى برغم هذا خائف.. قد يتأخر دفع الكفالة إلى الأحد أو الاثنين.. ربما أوضع في زنزانة مع أناس قذرين..

حاولت الاسترخاء وهو ما وجدته مستحيلاً وأنا جالس على يدي..

كنت تائها أثناء اقتيادي، و(جاسكو) يقتادني ككلب ضال.. لا تنظر لهؤلاء الناس.. عملية جرد متاعك.. البصمات.. التصوير.. الليل يزحف والجريمة تتزايد وسوف يكون الحجز مزدحما..

في النهاية اقتادني (جاسكو) إلى ممر طويل وقضبان ثم باب حديدي ينغلق خلفي..

كان زملاء الزنزانة كلهم من السود الأصغر سناً.. عددت أربعة.. الخامس كان راقدا.. كلهم ينظر لي وأنا أبحث عن مكان أجلس فيه بحيث لا ألمس أيا منهم.. ولاحظت أن الباب عبارة عن قضبان مما جعل من في الزنزانة المقابلة يروننا بوضوح.. لم يكن هذا هو الوقت المناسب كي تكون أبيض..

نهض شاب ومشى نحوي ووقف جواري ثم ركل قدمي، وقال:

- جاكيت جميل!

هذه هي النهاية إذن.. لذا قلت شكرا.

محاولا ألا أبدو ساخرا أو مستفزا. إنه رشيق قوى البنية.. يبدو أنه قضى حياته كلها في شجار الشوارع، وهو يحاول أن يستعرض شجاعته أمام رفاقه.. لن يظفر بفريسة أكثر سهولة مني مهما حاول.

- لم ألبس (جاكيت) أنيقا كهذا في حياتي.

قال أحد الرجال:

- الجدع يقول إنك تلبس (جاكيت) جميلاً..

- وأنا قلت له شكرا.. هل يريد أن يقترضه؟ ماذا يريد أن أفعل؟

- لو أهديته له لكان هذا أنسب..

الآن اكتملت دائرة الحصار من حولي؛ لذا نزعت الجاكيت وناولته لهم..

- هل هي هدية؟

- هي ما شئت..

كانت ركلة عنيفة تلك التي ضربت رأسي فجعلته يصطدم بالجدار خلفي، ومن جديد عاد السؤال:

- هل هي هدية؟

- نعم..

- شكرا يا رجل..

بعد دقائق ظهر آخر ووقف يراقبني.. خفضت عيني فلم أر إلا قدميه العاريتين.. ثم قال:

- حذاء جميل..

من دون كلمة مددت يدي ونزعت الحذاء.. ماذا عن الليل إذن؟ كيف سننام وليس هنا إلا فراشان؟ ماذا عن استعمال المرحاض وشرب الماء؟ ماذا عن قميصي وثيابي الداخلية؟

في هذه اللحظة أنقذني (موردخاي) الذي أنهى إجراءات الكفالة بسرعة.. كفالتي كانت عشرة آلاف دولار دفعت منها ألفا ووقعت الأوراق.. وفي الخارج كانت (صوفيا) بانتظاري..

- أين حذاؤك؟

- أعطيته هدية لأحد المساجين!

عاد أحد الحراس لي بسترتي وحذائي، وسرعان ما كنا نغادر هذا المكان الرهيب.

☆ ☆ ☆

واحد وعشرون

في الصباح كانت صورتي تحتل كل الصحف مع قصة مؤثرة عن المحامي الذي خان الأمانة وسرق ملفا من الشركة التي دربته.. أعتقد أن الجميع يحفظ وجهي الآن.

لم تستطع (روبي) الخلاص من المخدرات برغم إقامتها في ملجأ (ناعومي)؛ لذا تفتق ذهني عن فكرة لا بأس بها.. أخذتها بسيارتي إلى (موتيل) في بلدة صغيرة مجاورة للمدينة ودفعت إيجارها وثمن طعامها، ثم تركتها هناك.. كانت هذه خطتي التي رتبتها مع (ميجان).. تلك المديرة الفاتنة لملجأ (ناعومي).

حتى لو أرادت (روبي) فمن المستحيل أن تحصل على مخدرات في هذا المكان.. واتصلت بها لأطمئن عليها فوجدتها لم تغادر غرفتها، بل ظلت تشاهد التلفزيون وتأكل بلا انقطاع..

بعد أربع وعشرين ساعة ذهبت لآخذها فوجدتها ترتدى ثيابا جديدة وقد استحمت.. كانت غرفتها في الطابق السفلي فخرجت راكضة نحوي واحتضنتني صائحة:

- أنا نظيفة! لم ألمس المخدرات منذ أربع وعشرين ساعة!

عدت بها بسيارتي إلى ملجأ (ميجان).. هناك عقدوا لها احتفالا صغيرا.. قالت لي (ميجان) إن أول أربع وعشرين ساعة هي الأصعب وهي التي تستحق التهنئة..

وجلست مع (ميجان) في الحديقة نشرب القهوة ونخطط ما بعد ذلك.. يجب على (روبي) أن تحضر كذلك جلسات الـ (AA) التي تساعد المدمنين.. لكن (ميجان) لم تكن متفائلة، لأن تجار

المخدرات في كل مكان ولن تلبث (روبي) أن تعود للشارع والتعاطي من جديد.. هذا يحدث كل يوم..

كانت المشكلة هي أنني ذاهب إلى شيكاغو للبحث عن (هكتور بالما).. هكذا اتفقنا على أن تأخذها (ميجان) إلى موتيل آخر على حسابي وتستردها صباح الاثنين.. بعدها نخطط ما يجب عمله.. ربما أخذناها إلى مركز تأهيل تمضي فيه ستة أشهر من العمل والرقابة الطبية.

دعتني (ميجان) إلى تناول الغداء في مكتبها.. كانت عيناها ترقصان كأنما تطلبان منى أن أوافق.. وقد وافقت.

☆☆☆

يسافر المحامون في (دريك وسويني) بالدرجة الأولى شاعرين بأنهم يستحقون هذا، ويقيمون في فنادق ذات أربعة نجوم.. إن العملاء يدفعون كل هذه النفقات.

لكن مقعدي في الطائرة تم حجزه في آخر لحظة.. أغلقت عيني لمدة ساعتين وحاولت ألا أفكر في المؤخرات الفخور الجالسة في الدرجة الأولى حيث كنت أجلس في الماضي.. كان سفري هذا خرقا لقانون الكفالة الذي يحتم أنني لا أغادر البلدة من دون إذن القاضي، لكن (موردخاي) أكد أن هذا غير خطير..

لا يوجد لديّ أي عنوان لـ (بالما).. ولو لم أجده في شركة (دريك وسويني) هنا فهذا حظي السيئ.

فرع (دريك وسويني) في شيكاغو يعمل به 106 محامين.. قسم العقارات يعمل به 18 محاميا..

ابتعت جريدة أخفى بها وجهي ورحت أراقب مدخل المصاعد.. كانت السابعة والنصف صباحا أي إن هذا وقت وصول الموظفين..

في الثامنة والثلث دخل (هكتور بالما) البناية.. مسرعا يهرع إلى المصعد.. إنه هو.. بالفعل كما توقعت نقلته الشركة إلى هنا في منتصف الليل كي تتمكن من رشوته ومراقبته وتهديده.

ركبت المصعد في التاسعة وصعدت إلى حيث قسم العقارات.. وقبل أن تبادرني موظفة الاستقبال بالسؤال عمن أريد وضعت يدي على فمي، وسألتها عن الحمام لأني أشعر بالغثيان وموشك على القيء.. هكذا لم تستطع إلا أن تشير لي إلى الحمام. وعندما غادرته كنت قد صرت داخل قسم العقارات فعلا..

وجدت مكتب (هكتور بالما) على الفور، فدخلت وأغلقته خلفي.. ما إن رآني حتى رفع كفيه كأنه يواجه مسدسا، وهتف:

- ماذا بحق الجحيم؟

- مرحبا (هكتور).. كيف حال شيكاغو؟

- ماذا تفعل هنا؟

- يمكن أن أوجه لك ذات السؤال.. نحن سوف نرفع دعوى قضائية اليوم ضد شركة (ريفر أوكس) لصالح هؤلاء الذين طردوا من المستودع وهم مستأجرون قانونا..

أنت كنت تعرف هذا عندما نفذت أمر الإخلاء.. هل تذكر تلك الأم التي قاومت رجال الشرطة؟ لقد وجدوها ميتة متجمدة

مع أطفالها في سيارة في الشارع بعد ذلك.. هناك مذكرة كانت في الملف تثبت هذا وقد تم انتزاعها.. الملف عندي لكني أريد المذكرة.. لو أعطيتني المذكرة فلن أطلبك للشهادة.. وأنت تعرف أن الشهادة سوف تغرق شركة (دريك وسويني) وبالتالي لابد من طردك ما سأفعله أنا هو أن أستعمل المذكرة من دون إقحامك في الموضوع. لن أذكر مصادري..

- ومن قال لك إن المذكرة عندي؟

- أنا واثق من أنك نسختها لتدافع بها عن نفسك إذا ادلهمت الأمور.. أنت أذكى من ألا تفعل..

أعرف يقينا أن (هكتور) لن يكذب لأنه من وضع على مكتبي أسماء المطرودين والمفتاحين.. أعرف هذا..

إن لديه روحا وضميرا.

- إنهم سوف يطردونني.. هل تعرف هذا؟

- على الأرجح سيفعلون.. لكن ستكون لدينا قضية ممتازة نرفعها عليهم.. أنا سأقوم بذلك ولن أتقاضى منك مليما..

فكر قليلاً، ثم قال:

- قابلني عند الظهر أمام نافورة الماء أمام البناية.

☆ ☆ ☆

من النافورة اتجهنا إلى (جراند أفينيو) حيث مطعم ببوفيه مفتوح.. ونحن في الطابور ناولني مظروفا، وقال:

- لدى أربعة أطفال.. من فضلك احمني..

وقبل أن أتكلم كان قد غادر المطعم.. ياقة معطفه تغطى أذنيه وهو يوشك على الركض فارًّا تقريبا..

ركبت سيارة أجرة وفتحت المظروف.. هنا حيث لا يعرف مخلوق بمكاني يمكنني أن أدرس المذكرة جيدا.. كانت هناك مذكرة من (بالما) موجهة لـ (تشانس) تقول إنه ذهب إلى المستودع يوم 27 يناير، ومعه حارس مسلح اسمه (جيف ماكل) من شركة أمن (روك كريك).. ذهب هناك في التاسعة والنصف وغادر بعد ثلاث ساعات..

في الطابق الثالث وجد حوالي 11 شقة من الخشب بأبواب من بلاستيك.. سمع بكاء طفل فدق أحد الأبواب لتفتح له امرأة تحمل رضيعا ومعها ثلاثة أطفال.. أخبرها إنه جاء ليخلي البناية لأنها بيعت لشركة البريد لكنها أصرت على أنها استأجرت الشقة ممن يدعى (جوني) يأتي يوم 15من كل شهر ليأخذ الإيجار.. لا أوراق.. كل تعاملها مع (جوني) هذا.. لكنها عرضت ورقة متسخة عليها إيصال استلام المبلغ.

هذه الورقة قام (هكتور) بنسخها وألحقها بالمذكرة.. لم يكن يملك الحق في الاعتراض أو المناقشة، لكنه أعطى رؤساءه حبلا طويلا ليشنقوا به أنفسهم..

قمت بإرسال فاكس بالمذكرة لـ (موردخاي) في حالة ما إذا تم اعتقالي أو سرق مني هذا المظروف..

☆ ☆ ☆

اثنان وعشرون

عندما قابلت (موردخاي) كان يحمل لي مظروفا رسميا أعرف بالضبط ما فيه.. لقد كان من ثلاث صفحات أعدها أصدقائي الأعزاء في (دريك وسويني) لكن يمكن - تلخيصها في فقرة واحدة:

أنا الولد الشرير الذي سرق ملفا من الشركة.. يجب إما أن: (1): أشطب من سجل المهنة بشكل دائم أو (2): أوقف عن عمل المحاماة عدة أعوام أو (3): أؤنب علنا..

استندت إلى جدار شاعرا بالدوار.. الشركة تريد الدم هذا واضح.. شركة كبيرة تعمل مثل مثيلاتها بسياسة (لا أسرى).. لكنهم لا يعرفون أنني سأقاضيهم غدا وأطالبهم بعشرة ملايين بسبب الإضرار بـ (آل بيرتون) الذين طردتهم فماتوا في الشارع.. لقد استطاع (موردخاي) ترتيب القضية عن طريق تعيين من تدعى (ويلما فيلان) - وهي ناشطة في المجتمع المدني - لتكون قيّمة للمطالبة بالحق المدني، بما أن الأسرة لا أقارب لها ولا أحد يعرف أبا الأطفال الأربعة إن كان لهم أب واحد.. بالطبع سوف نتقاضى عشرة بالمائة من التعويض، وهو مبلغ مضحك فقد جرت العادة على 40٪ لكننا لم نكن نبغي الربح..

☆ ☆ ☆

مررت على الموتيل الذي تقيم فيه (روبي) لأنني لم أعد أستطيع مواصلة الإنفاق عليها بمعدل أربعين دولارا كل ليلة.. قرعت الباب عدة مرات فلم يرد أحد.. نزلت للاستقبال فعرفت أن أحدا لم يرها تغادر.. هذا غريب..

صعد معي موظف الاستقبال الذي لم يسعده أن نستخدم فندقه الجميل كمصحة للإقلاع عن المخدرات.. قرع الباب مرارا ثم فتح الباب فلم نجد أحدا..

أين عساها قد ذهبت؟ إن المخدرات مغناطيس يشدها للشارع كل مرة..

اتصلت بـ (ميجان) أخبرها بهذا ثم عدت لمكتبي.. لست قلقا عليها.. إنها قادرة على الحياة في الشارع أكثر مني.. عندي على كل حال أمور أهم هي القضية التي ننوي رفعها.. لو لم تطرد شركة (ريفر أوكس) تلك الأم وأطفالها الأربعة لما عاشوا في الشارع، وبالتالي لما ماتوا بردا.. هذا منطق واضح سهل ولابد أن يجده المحلفون كذلك.. ألق بأم وأطفالها في الشارع وسيكون عليك تحمل التبعات لو حدث لهم مكروه..

المشكلة هي الملف.. سوف تطلب مني الشركة تقديم الملف للقاضي، وسوف أفعل وهذا في حد ذاته اعتراف بالجريمة.. قد أفقد مهنتي.

كانت خطة (موردخاي) هي تجاهل القضية تماما لحمايتي.. يمكن أن يعقد صلحا مع (دريك وسويني)..

يتنازلون عن سرقة الملف مقابل الملف ذاته وعدم الإساءة لاسمهم.. إن شركة (دريك وسويني) شركة عظيمة الكبرياء تعتمد على سمعتها الحسنة.. أعرف عقدة المحامين الكبار هذه.. إنهم يشعرون في قرارة أنفسهم بالذنب لأنهم يحصلون على كل هذه المكاسب.. من ثم يكرهون أي شيء يظهرهم قساة أو أشرارا أمام المجتمع.. لكني كنت مصرا على المضي قدما..

أنهينا إجراءات التقاضي، وكان بانتظارنا صحفي هو صديق (أبراهام) أعطيناه تقريرا وافيا عن موضوع القضية.. هذه القضية ستروق للجميع وسوف يحاول الجميع الخلاص من المسئولية عن طريق إلقائها على كاهل مجموعة من المحامين الأثرياء.

أنا أفهم مزاج شركتي السابقة وأعرف كيف اجتمعوا على نشر قصة القبض عليّ، وكيف أهدوا صورتي للصحافة لمزيد من الإهانة لي.. الآن أفعل الشيء ذاته لأني أفهمهم وأعرف كيف يفكرون..

سوف تصدر صحف الغد وفيها صورة مديري شركتنا بطريقة مهينة.. وسوف توجه لهم الاتهامات علنا.. أستطيع أن أتخيل الشركة وقد سادها الوجوم والصمت، فلابد أن دار مناسبات الموتى أكثر مرحا من هذا..

لقد قرروا الهجوم على أوردة عنقي.. دعهم يتعذبون قليلا إذن.

☆ ☆ ☆

ثلاث وعشرون

خرجت مع (ميجان) مديرة الملجأ في نزهة بالسيارة.. لم نتوقع قط أن نقابل (روبي)، لكنها كانت فرصة كي نمضي بعض الوقت معا..

قالت لي:

- لقد رأيت كل شيء مع المدمنين.. لا يمكن أن تتوقع أبدا سلوكهم.. فقط عندما يظفر أحدهم بعمل ومسكن نحمد الله ثم ننتظر المدمن التالي.. إن الوديان أكثر من الجبال في هذه الحياة..

- ألا تشعرين بالقنوط؟

- أتعلم الأمل من زبائني.. أكثرهن شخصيات قوية. جئن الحياة وحيدات بلا أية فرصة، لكنهن يستطعن الحياة.. يتعثرن طيلة الوقت لكن يستمررن في المحاولة..

درنا في المنطقة وتفحصنا بعض السيارات المحطمة، ثم إنني أعدتها إلى الملجأ.. لقد صارت (روبي) عذرا طيبا يجعلني أرى (ميجان) باستمرار.

☆ ☆ ☆

كانت التاسعة وعشرين دقيقة عندما وصلت مع محامي إلى بناية (كارل مولتري) مركز القضايا المدنية والجنائية في وسط البلد.. لم أكن هنالك قط لكن (موردخاي) كان يعرف الطريق.

داخل المكان كان حديقة حيوان.. هناك ردهة مليئة بأناس قلقين وقاعات محاكمة في كل مكان.. في الغرفة 114 بالطابق

الأول كان المحترم (نورمان كزنر) القاضي.. وكان اسمي في أول (الرول). دخلنا فجلست في الصف الثاني وكانت القاعة خالية..

سمعت من خلفي من يقول:

- مرحبا يا (مايكل)..

نظرت للخلف فوجدت زميلي القديم (رافتر).. كان ومن معه يمثلون الضحية من ثم كان لهم الحق في التواجد في كل مراحل تقديمي للمحاكمة! لكن لماذا جاء (رافتر)؟ إنه الأكثر شراسة ودناءة من كل زملائي، ووجوده لابد أن يسبب لي الذعر..

ناداني (موردخاي) لغرفة القاضي فلحقت به، حيث صافحت القاضي ودعانا للجلوس.. كان القاضي (كزنر) في السبعين على أقل تقدير.. لحية شائبة وعينان بنيتان تحرقانك عندما يتكلم.. وكان يعرف محامي منذ أعوام.

قال لي:

- أعرف شركتك منذ زمن.. شركة ممتازة لديها محامون ممتازون، وهم يدربونهم جيدا.

كنت أشعر بعدم راحة لكونه يطري ضحاياي لهذا الحد..

- هذه قضية غير معتادة إلى درجة مدهشة.. لكن لنفترض أنك أخذت هذا الملف ولنفترض أنك رددته لي.. عندها يمكن أن أقيم ثمنه بمائتي دولار وننهي الأمر كجنحة..

- وماذا لو لم أرده؟ أتحدث للعلم فقط.

- عندئذ تزداد قيمته بالنسبة لنا، وسوف تكون محاكمة بتهمة السطو.. لو استطاع المدعى إقناع المحلفين فلسوف يصير من واجبي أن أحكم عليك.. ولو صدر حكم سوف تلغى رخصة محاماتك..

وازدادت تجاعيد جبهته مما جعلني أدرك أن حكمه عليّ شيء يجدر بي أن أتحاشاه.

منحنا أسبوعين لاتخاذ قرار وهكذا غادرنا غرفته لنجلس في قاعة المحكمة من جديد..

في سيارة (موردخاي) ونحن عائدان سألته:

- والآن أيها المستشار ما رأيك؟

- ما زال أمامنا أسبوعان.. دعنا لا نتعجل الأمور ولنفكر بحرص.

فور عودتنا للمكتب، اتصلت بشركة (دريك وسويني) طالبا الكلام مع (تشانس).. بالطبع انتحلت اسما مستعارا.. لكن السكرتيرة قالت لي إنه في إجازة.. إجازة لا تعرف متى يعود منها.

كنت أعرف. شركتي جيدا.. إجازة لا تعرف موعد العودة منها يعني ببساطة أنهم طردوك.. هذا ما حدث إذن.. لقد تصرف (تشانس) على مسئوليته وقام بإخلاء المستودع ممن فيه، وهو يعرف يقينا أنهم مستأجرون.. لم يخبر الشركة بهذا.. وعندما اتضح الأمر وجد أنه عاجز عن تفسير موقفه.. لقد جلب الوبال على الشركة وسبب لها مشكلة وفضيحة مع عملائها. لو أنه اتخذ الإجراءات القانونية لأعطى المستأجرين إنذارا لمدة شهر، ومعنى مرور شهر ضياع الصفقة من شركة (ريفر أوكس).. لكن

هذا في الوقت ذاته كان يعني رحيل الشتاء القاسي.. كانت الشوارع ستكون أكثر رفقا بهؤلاء البؤساء.

يمكنني أن أتخيل القيادات الكبرى في الشركة ترغي وتزبد، وتجتمع لتقرر إعطاء (تشانس) إجازة مفتوحة.. ربما منحوه مكافأة لا بأس بها لكنهم تخلصوا منه على كل حال.

☆☆☆

كان عضو الكونجرس جمهوريا من (إنديانا) يدعى (بيركهولدر).. وكان يحب الركض ليلا حول (كابيتول هول).. تم إطلاق النار عليه يوم الأربعاء أثناء ركضه وحيدا.. كان يلبس بزة تدريب بلا جيوب، فكان جليا أنه لا يحمل شيئا ثمينا.. يبدو أن السرقة لم تكن هدفا.

اخترقت الطلقة ذراعه وكتفه وتوقفت قبل العنق بقليل.. وقد وصف أحد الشهود المعتدى بأنه زنجي أسود من الطراز المتشرد.. نجا عضو الكونجرس بعد جراحة استغرقت ساعتين، وكانت هذه أول مرة منذ ردح من الزمن يطلق فيها الرصاص على عضو كونجرس.. بعضهم تعرض لاعتداء وكان هذا يتيح له الكلام عن الجريمة وتدني معدلات الأمن، وبالطبع إلقاء التهمة على الحزب الآخر.

هكذا خرج رجال الشرطة ينظفون شوارع واشنطن من كل شخص بلا بيت.. كل المتسولين تم اعتقالهم.

في اليوم التالي خرج عضو الكونجرس ليواجه الصحافة في مشهد مسرحي تم إخراجه جيدا.. كان على مقعد متحرك وأربطة الشاش تحيط بعنقه، ثم أعلن أنه بخير.. فقط بدأ يتكلم عن

الجريمة في واشنطن.. سوف يكرس حياته من هذه اللحظة لاستعادة الأمن في الشوارع..

هكذا سقط عبء مروع على كاهل رجال الشرطة، الذين واصلوا حملات الاعتقال ليلا.. مع إلقاء المشردين في السجون أو نقلهم كالماشية إلى أماكن أخرى..

☆ ☆ ☆

أربع وعشرون

ظهرت (روبي) ثانية أمام مكتبي صباح الاثنين، بشهية مفتوحة للقهوة والكعك.. بدا لي أنها منتعشة وأنه لا أثر للمخدرات على وجهها.. اقتدتها للداخل:

- كيف حالك وأين كنت تعيشين؟

- في سيارتي..

- نعم.. يسرني أن الشتاء راحل.. سوف أوصلك إلى ملجأ (ناعومي).

كنت أتمنى أن أسألها عن إقامتها في الموتيل وسر رحيلها عنه، لكني رأيت أن أتجاهل هذا أفضل.. صببت لها القهوة بينما هي تقرض الكعك بلا توقف كالفأر.

أوصلتها إلى الملجأ وتبادلت بعض كلمات الغزل مع (ميجان) ثم عدت للمكتب حيث بدأ الزحام.

كنت منهمكا في العمل عندما اقتحمت (صوفيا) الغرفة.. بما أن الباب لا ينغلق فقد دخلت في ذات الوقت الذي قرعته فيه.. وبالطبع لم تكن تستعمل ألفاظ (من فضلك) أو أي شيء آخر.. القلم خلف أذنها وعويناتها مرفوعة، وقالت لي:

- أين قائمة المطرودين من المستودع؟

ناولتها القائمة.. فتفحصتها ثم هتفت:

- وجدتها! رقم ٨.. (ماركيز ديس).. إنه يجلس بالخارج معي! لقد انتزعوه من حيث كان يمضي ليلته أمام البيت الأبيض

بسبب حادث الاعتداء على عضو الكونجرس.. اليوم يوم حظك!

خرجت معها لأرى (ماركيز) فوجدته يشبه (مستر) كثيرا.. جريت لأخبر (موردخاي) كي يتولى الأمر بنفسه.

قال (موردخاي) ونحن نقف أمام الرجل:

- نحن نتولى قضية أناس كانوا يقيمون في مستودع عند تقاطع شارعي (فلوريدا) و(نيويورك) [4].

- كنت أعيش هناك.. قضيت ثلاثة أشهر..

- وكنت تدفع الإيجار لرجل يدعى (جوني)؟

- نعم..

نحن نريد أن نمثلك في قضية طلب تعويض لأننا نرى أن طردك كان غير قانوني.. سوف تحصل على الكثير من المال..

عندما انفردت مع (موردخاي) قلت له إن علينا أن نحصل على شهادة هذا الرجل قبل أن يحدث له شيء.. سوف نعد شهادة موقعة تشهد عليها (صوفيا).. سألته إن كان لديه جهاز كاسيت فأكد أن لديه واحدا لكنه لا يعرف أين.. معنى هذا أنه سيقضى شهرا في البحث.. سألته عن كاميرا فيديو فقال: لا..

- إذن سأحضر الكاميرا الخاصة بي.. فقط أبقه هنا وسأعود خلال 45 دقيقة!

- لن يذهب لأي مكان..

هرعت أركض في الشارع واتصلت بـ (كلير) طالبا اقتراض كاميرا الفيديو.. قالت لي إنها في الصالة حيث تركتها.. إنها لم تغير الأقفال.. هذا أشعرني بشيء من البهجة.. بوسعي أن أدخل وأخرج متى أردت..

هكذا أجلسنا (ماركيز) في مكتب داخلي، وبدأت التصوير على حين استجوبه (موردخاي). كان يعرف مكان اثنين آخرين من المطرودين، وقد قررنا أن نقيم دعوى منفصلة لكل منهم.

عندما انصرف (ماركيز) دق جرس الهاتف.. سمعت من يسأل عن (موردخاي).. سألته من هو قال:

- آرثر جاكوبس من (دريك وسويني)!

كاد قلبي يتوقف لكني طلبت منه الانتظار وهرعت إلى مكتب (موردخاي) لأخبره أن (آرثر جاكوبس) أهم رأس في شركتي السابقة على الهاتف.

دارت المكالمة.. وعرفت أنهم يريدون لقاء (موردخاي) في الشركة غدا من أجل تسوية.. لم يطلبوا لقائي وكنت أتوقع هذا.. عندما انتهت المكالمة سألته عما إذا كان يعتقد أنهم خائفون..

قال باسما:

- طبعا خائفون.. نحن لم نبدأ على الإطلاق وهاهم أولاء يطلبون تسوية.. إن الأمور تتحسن.

☆ ☆ ☆

خمس وعشرون

فيما بعد حكى لي (موردخاي) تفاصيل اللقاء الذي لم يحضره سوي (آرثر) و(رافتر) ومحامي شركة (ريفر أوكس).. في البدء لم يصدق أن (آرثر) في الثمانين، فهو لا ينسى شيئا وكل التفاصيل في ذهنه.. قدموا قهوة ممتازة مع الكعك، وكلموه عن تسوية لأن الشركة تضايقت من الحملة الصحفية عليها.. أوضحوا أن (تشانس) كذب على الشركة وتصرف بشكل منفرد لهذا عوقب بالطرد.. لم يستقل لكنه طرد.

سألهم (موردخاي) عما إذا كانوا رأوا المذكرة التي لم يضعها في الملف فبدت عليهم الدهشة.. أخرج من حقيبته صورة المذكرة التي تثبت أن الأم الميتة كانت تدفع الإيجار.. قال إن قضيته واضحة وسوف يفهمها المحلفون جيدا، خاصة أنه سيحرص على انتقاء محلفين من السود كي يتعاطفوا مع المطرودين..

عرضوا عليه دفع خمسمائة دولار لكل متوف.. لكنه قال إن هذا لا يكاد يقارب المبلغ المطلوب.. لن يرضيه إلا دفع مليون دولار لكل متوف، وهذا يعني خمسة ملايين..

بالنسبة لي عرضت الشركة تسوية موضوع سرقة الملف، لكن بشرط أن يتم وقفي عن العمل عامين كاملين كنوع من العقاب الواضح..

طبعا لم يكن هذا واردا بالنسبة لي.. طلبوا كذلك ألا يتسرب شيء آخر إلى الصحف، فقال لهم (موردخاي) إنهم من بدأ

عمليات التسريب هذه.. لقد أبلغوا الصحف بكل شيء عن اعتقالي وسرقة الملف، وهذا يجعلنا متساويين.

جلست في غرفتي بعد رحيل الجميع أتأمل الجدار وأفكر.. لو أنني سلمت الملف لقبلت الشركة التسوية وعاد كل شيء إلى موضعه الصحيح.. أعرف كم هم يكرهونني.. بالنسبة لهم أنا (يهوذا) الذي سرق معلومات تخصهم وهو يعمل معهم ثم راح يهددهم بها..

دخل (موردخاي) فألقى بنفسه على مقعد من المقاعد التي ابتعتها من (سوق البراغيث) [5] بستة دولارات، وقال:

- القاضي (دي أوريو) يريد أن تلتقي كل الأطراف في محكمته غدا من أجل مناقشة قضيتك ضد الشركة.. أنا.. أنت.. هم.. هل تعرفه؟

- لا أذكر الاسم..

- هو رجل صارم.. شريف وعصبي ويحب أن يصرخ في المحامين.. إنه يريد تسوية القضية بسرعة لأنه يريد أن يكون (رول) قضاياه خاليا.. كل قاض يحب هذا لأنه يعطيه وقتا أكثر للعب الجولف.. إنه يريد أن تكون هناك غدا.. تجلس في مقعد المحلفين.. وأن تجلب معك الملف.. بالتأكيد..

- لا صحافة.. لا عدسات.. إنه يكره هذه الأمور في محكمته.. بوسعه أن يغلق الملف لو تضايق منك.. على فكرة.. سيكون ذلك القواد (جانتري) الذي كان يملك المستودع هناك.. وهو شخص غير مريح.. بلطجي حقيقي وأعتقد أنه متضايق من أنك أقحمته في القصة..

- هل يعرف أنه سيجتاز جهاز كشف عن السلاح على باب المحكمة؟

- غالبا..

- وما هو الصواب لأفعله يا (موردخاي)؟ لقد فقدت الرؤية الصائبة.

- أنت أخذت الملف من أجل عمل خير.. لم تنو سرقته.. عمل شريف هو لكنه ما زال سرقة.. الأمر ما زال في يدنا.. يمكن أن أتصل بـ (آرثر) أقول له أن يسقط كل الاتهامات مقابل أن نسقط كل الاتهامات من جانبنا.. هذه قطعة كعك تلقى له.. وهذه القضية لن تحدث أي فارق معي.. الأسرة ماتت فعلا.. لا أقارب لهم ينتفعون بالتعويض.. باختصار لا لزوم للقضية أصلا..

- الصحافة ستمزق لحمنا..

- وهل تعتقد أن هؤلاء البؤساء الذين يأتون لنا يبالون لحظة بما تقول الصحافة؟

قلت له:

- وماذا أكون قد حققت من كل هذا؟ هم ينجون بفعلتهم، برغم أنهم تسببوا في قتل أسرة.. وكل هذا كي أحتفظ برخصة ممارسة المهنة؟

كنت أعرف أنه يلعب معي دور محامي الشيطان ويقول ما لا يؤمن به.. هو لا يريد من هذه القضية مالا.. كل ما يريده هو محاكمة صاخبة تسلط عليها الأضواء ويتذكر الناس حقوق

هؤلاء المشردين.. ليست المحاكمة قصاصا في كل الأحوال.. أحيانا هي منابر وعظ..

☆ ☆ ☆

ست وعشرون

كانت قاعة محاكمة (دي أوريو) في الطابق الثاني من بناية (كارل مولتري).. إنها قريبة من قاعة القاضي (كيزي) التي تناقش فيها قضية الشركة ضدي.. عملية معقدة جدا..

لم نتأخر عن الموعد لكني صممت ألا ندخل القاعة قبل الوقت حتى لا أواجه نظرات (رافتر) و(آرثر) و(جانتري) الذي لا أتمنى أن أنفرد معه في مكان واحد.

اتخذت مقعدي وسط مقاعد المحلفين، بينما جلس (موردخاي) في مقعد الادعاء.. وجلس محامو الشركة ومنهم ثلاثة من رهائن (مستر) . إلى جوار (جانتري) واثنين من محاميه.. كنت أتوقع أن هذا الأخير باعتباره قوادا يلبس الكثير من الخواتم وثيابا مزركشة، لكنه كان يلبس بدلة أنيقة وبدا أكثر أناقة من المحامين.. وكان هناك اثنان من محامي شركة (ريفر أوكس)..

ثلاثة من رهائن (مستر) هنا.. فماذا حدث لي؟ كلهم احتفظوا بعقولهم بينما جننت أنا.. لماذا لعبت دور الأخت الهشة؟

في الواحدة بالضبط دخل القاضي واتخذ مقعده.. قال لنا:

- مساء الخير..

ثم أصلح من وضع الميكروفون وطلب من مستر (بيرديك) أن يغلق الباب.. مستر بيرديك هذا هو حارس أمن. ثم قال:

- عرفت من سكرتاريتي أن كل الأطراف هنا..

ونظر لي كأني مجرد سفاح نساء آخر..

- ليكن واضحا أنه لن يُنقل للصحافة أي حرف يقال في هذه الجلسة.. هل هذا مفهوم؟

نظر لي الجميع، فكدت أقف لأذكرهم أنني وإن كنت من وجه أعنف ضربة فإنهم هم من وجه اللكمة الأولى عندما نشروا صورتي في الصحف.. هنا مرت موظفة لتجعلني أوقع على إقرار بعدم كشف أسرار هذه الجلسة.. وقعت بينما رجال (دريك وسويني) يراجعون فقرات إقرارهم بحثا عن ثغرات ما.. هكذا تدربنا جميعا.

دعا القاضي (موردخاي) للكلام خلال خمس دقائق.. نهض هذا ويداه في جيبيه وبلا مذكرات، وراح يتكلم.. منتهى الثقة والشعور بالراحة..

بعد هذا نهض (آرثر) يدافع عن شركته فأقر منذ البداية بأن عملية الإخلاء كانت خطأ.. لكنه اتهم العاصفة.. واتهم أم الأطفال ذاتها بأنه كان بوسعها أن تبيت في أي ملجأ أو تذهب لتعيش عند أمها.. بشكل ما هي مسئولة عما حدث لها وأطفالها.. هذه آخر مرة يستطيع فيها أن يوجه اتهامه لأم ميتة، لأنه في المرة القادمة سيكون هناك محلفون لون بشرتهم مختلف.. وعندها لن يجسر أي محام في العالم على اتهام أم زنجية ميتة بالمسئولية عن موتها هذا..

نهض (موردخاي) وقال:

ليس بوسع هؤلاء القوم الحصول على مسكن بسهولة يا سيدي، لذا نطلق عليهم مشردين. أنتم طردتموهم للشارع

وهناك ماتوا.. هذه هي الحقائق.. سيكون من دواعي سروري مناقشتها مع المحلفين.. والأهم أننا سنرفع قضايا أخرى من أجل كل من تم طردهم من المستودع..

بالطبع ارتجف (آرثر) لفكرة أن ينطلق (موردخاي) طليقا في قاعة المحكمة أمام محلفين لهم لون بشرته.. كان بارعا ولو كان الأمر بيدي لأعطيته شيكا على بياض..

طلب منى القاضي أن أناوله الملف، فأخرجه (موردخاي) من حقيبته وناوله للقاضي الذي راح يقلب صفحاته ثم سأل (آرثر):

- لقد عاد ملفكم.. فهل أنتم راغبون في التسوية؟

- لو استقررنا على باقي النقاط فنحن راغبون في ذلك سعادتكم..

- وماذا عن مستر (بروك)؟

بالطبع أرغب في ذلك.

سألني القاضي:

- هل تعتبر نفسك مسئولا عن سرقة الملف؟

لم أكن قد أعددت ما أقول لكني وقفت وقلت:

- مستر (جاكوبس).. كنت أحترمك بشدة ومازلت.. لقد أخطأت عندما أخذت الملف وقد تمنيت ألف مرة لو لم أفعل.. كنت أبحث عن معلومات اعتقدت أنكم تخفونها، لكن لا عذر لي، وإنني لأعتذر لك والشركة وعميلك..

وجلست دون أن أرفع عيني.. فيما بعد قال لي (موردخاي) إن هذا الاعتراف المتواضع قد رفع درجة حرارة القاعة بضع درجات بعدما بلغت درجة التجمد.

هنا طلب القاضي أن يتحدث على انفراد مع كل منا، وطلب أن أقابله في غرفته أنا و(موردخاي).. ثم قابل (آرثر).. بعد هذا استدعانا لقاعة المحاكمة، وقال:

- آخر ما توصلنا إليه هو أن شركة (دريك وسويني) ستدفع ثلاثة ملايين مع وقف المستر (بروك) عن ممارسة المهنة لمدة عام..

صاح (موردخاي) وهو يحمل حقيبته:

- إذن نحن نضيع وقتنا.. إنني أطلب الإذن بالانصراف سعادتكم..

قال القاضي في ضيق:

- إذنك معك..

هكذا غادر (موردخاي) القاعة وأنا معه..

☆ ☆ ☆

سبع وعشرون

كنت في سيارتي أستعد للرحيل.. لكن من جديد استدعانا القاضي لقاعة المحاكمة عن طريق هاتفي الخلوي، فضحك (موردخاي) وهرعنا إلى قاعة المحاكمة حيث كانت الجلسة مستمرة.. قال القاضي عندما رآنا:

- نحن نقترب من تسوية..

خطر لي أن محامي شركة (ريفر أوكس) قررا التدخل.. ربما بالاشتراك في المبلغ المدفوع كتعويض.. لا أعرف بالضبط ما دار بعد رحيلنا لكن مناورة (موردخاي) كانت ناجحة بالتأكيد..

ما تم الاتفاق عليه هو خمسة ملايين دولار كتعويض مقسطة.. وبما أن الأسرة هلكت فإن المحكمة ستراقب جوانب إنفاق هذا المبلغ، أما بالنسبة لي فقد تم الاتفاق على وقفي عن العمل مدة تسعة أشهر..

كانت السكرتيرة قد كتبت الاتفاق في صفحة واحدة ومررته علينا ليوقع كل منا عليه..

☆ ☆ ☆

كان مبلغ الخمسمائة ألف دولار التي نالها مكتبنا في هذه الصفقة واعدا بحق.. نحتاج إلى أجهزة هاتف وكمبيوتر.. دعك من أن (موردخاي) سيودع باقي المبلغ في المصرف لتكفي أرباحه لسداد رواتبنا، لكن الأمر ما زال يحتاج إلى جهد كبير.. لقد هلكت الأسرة فلابد من أن نجد أبا الأطفال.. فإن كان قد هلك علينا أن نجد ورثته..

على أنني فوجئت ذات صباح بـ (آرثر) وقد جاء إلى مكتبنا وجلس على المقعد الرخيص إياه.. قال لي إن شركته استعادت لياقتها وعادت لتحصيل المال، لكنه ما زال عاجزا عن النوم.. إنه يقترب من الثمانين وفكرة ذلك الخطأ الذي ارتكبه موظف عنده وتسبب في موت أشخاص كثيرين لا يفارق تفكيره..

- إنني أدنو من القبر.. لكن ضميري ليس مستريحا على الإطلاق..

إن (آرثر) من جيل قديم من المحامين.. ذاك الجيل الذي اعتبر ممارسة الأخلاق جزءا من المحاماة.. وما فعله معي كان جزءا من هذا المبدأ..

اقترحت عليه الحل التالي.. سوف ينتدب لنا محاميا واحدا من محامييه الأثرياء كل أسبوع ليعمل في قضايا المشردين.. وعلى هذا المحامي أن يحل قضية مشرد واحد فقط في هذا الأسبوع.. إن لديه ثمانمائة محام فلن يؤثر هذا على مجرى العمل، وأنا غير قادر على ممارسة المحاماة لمدة تسعة أشهر.. إذن هذا حل عادل يزيح العبء عن كاهله ويوفر لـ (موردخاي) من يسد نقص المحامين عنده..

راقت له الفكرة ووعد بأن يبدأ تنفيذها..

- سوف تحتاج إلى كاتب محام بارع.. وأنا أرشح (هكتور بالما)

بدا أنه لم يسمع الاسم قط، فقلت:

- إنه مساعد (تشانس) الذي نفاه إلى (شيكاغو) كي لا يكون شاهدا خطرا.. لقد نقل في منتصف الليل وأعتقد أن حياته كلها

هنا في واشنطن.. لابد من إعادته إلى هنا.

- فهمت..

في هذا الوقت كانت (روبي) قد نجحت في قضاء أسبوعين من دون مخدرات، وبدا أنها قادرة على الامتناع نهائيا.. ارتدت ثيابا نظيفة وبدأت حياتها تتغير.

وكانت علاقتي تتوطد بـ (ميجان) مديرة الملجأ وبدا واضحا أننا سنتزوج عما قريب..

شد ما تغيرت حياتي في شهرين!

منذ شهرين كنت أعمل في شركة (دريك وسويني) وكنت متزوجا من امرأة أخرى، وكانت لي طموحات أخرى تماما.. اليوم تبدلت حياتي بالكامل

لا داعي للكلام عن المستقبل.. فالماضي ما زال يحدث!!

جون جريشام

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

محامي الشوارع

في حياة كل منا لحظة بعينها ينقلب فيها كل شيء، وتدرك أن ما كنت تقاتل من أجله لا قيمة له.. وكانت هذه اللحظة في انتظار (مايكل بروك) عندما تعرض للاحتجاز هو وثمانية من رفاقه في شركة محاماة كبرى.. قبلها كان محاميا شابا طموحا، وبعدها صار محامي شوارع مشغولا بالذين لا بيت لهم.. قبلها كان رؤساؤه يفخرون به ويعتبرونه حصانهم الرابح، وبعدها صاروا ألد أعدائه..

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

ثماني عشر

تسع عشر

عشرون

واحد وعشرون

اثنان وعشرون

ثلاث وعشرون

أربع وعشرون

خمس وعشرون

ست وعشرون

سبع وعشرون

محامي الشوارع

Notes

[←1]

- هذه سخرية طبعا .. لقد افترض أن اسم الرجل هو (مستر) لأنه لا يعرف اسما آخر.

[←2]

- ذات جذور إسبانية من أمريكا الجنوبية .

[←3]

- نوع من السرطان الليمفاوي.

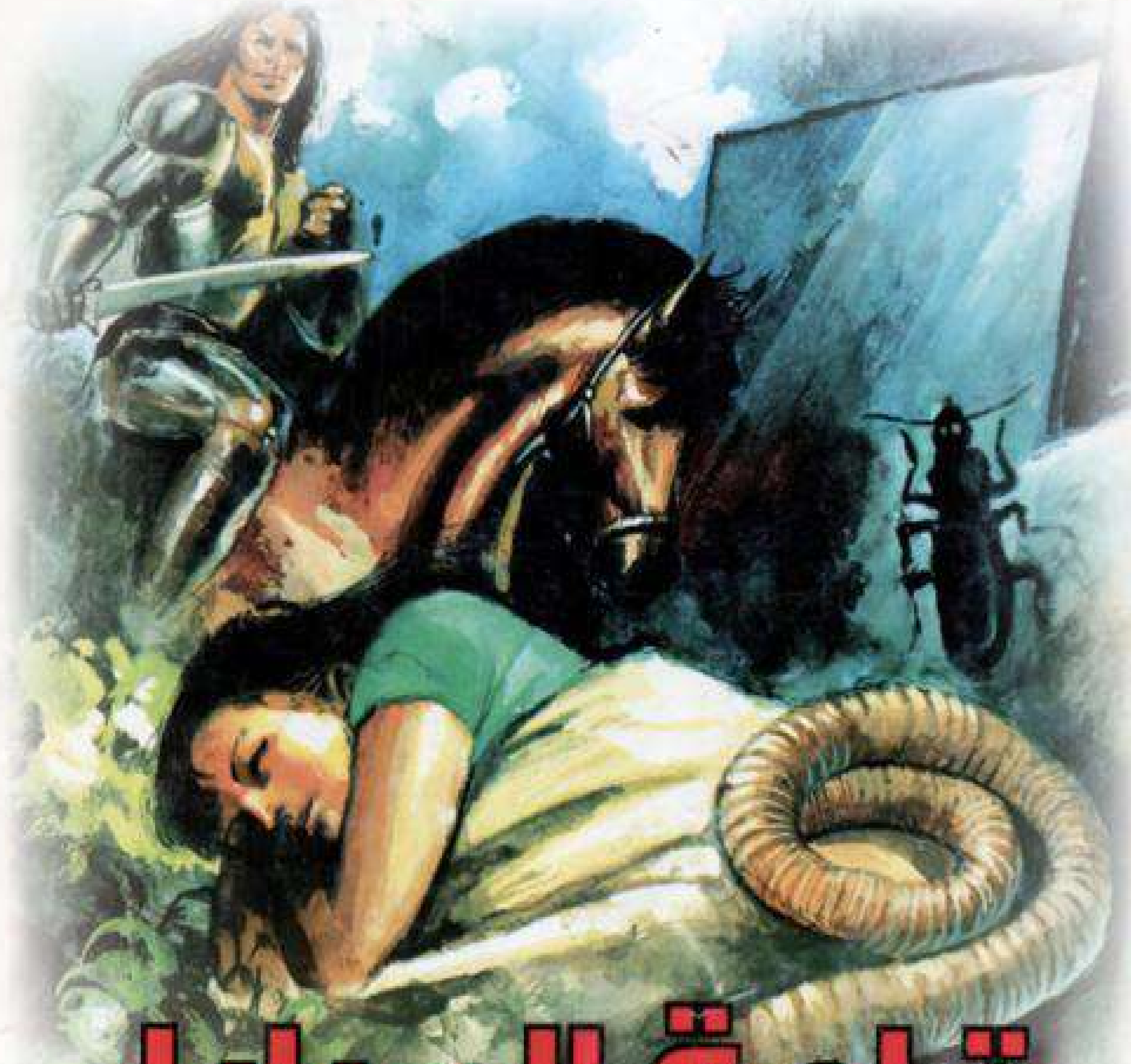
[4→]

- كما هو واضح طيلة الرواية، تستعمل أسماء الولايات في واشنطن - باعتبارها العاصمة - لكنها أسماء شوارع..

[←5]

- تعبير عامي عن سوق الأشياء المستعملة.

روايات عالمية للجيب 62



قاعة المرايا

تأليف : روجر زيلاني

ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (62)

قاعة المرايا

تأليف: روجر زيلاني

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

(روجر زيلانى Zelany Roger) وجه آخر شهير من كتاب الخيال العلمي الذين نقابلهم واحدًا بعد الآخر في هذه السلسلة، وهدفنا أن ندرك أن الخيال العلمي ليس كله سيوف ليزر وامبراطوريات شريرة وروبوتات ثرثارة.. إنه نوع راق جدًّا من الأدب يمكن أن يقدم لنا مجالًا خصبًا للتفكير، لكن هذا الكتيب بالذات لا ينتمى لأدب الخيال العلمي بل لأدب الأسطورة، كما سنعرف حالًا.

ولد (زيلاني) في أوهايو بالولايات المتحدة عام 1937، لأب من أصل بولندي.. وقد قدم علامات مهمة في أدب الخيال العلمي حتى أن اسمه يميز حقبتي الستينات والسبعينات، واعتبر رائد (الموجة الجديدة new wave) في هذا النوع من الأدب. نشرت أول قصة له عام 1962 ومنذ ذلك الحين نشر أكثر من 50 كتابًا و150 قصة قصيرة..

من أشهر أعماله (سيد الضياء 1967) و(هذا الخالد 1966) و(مخلوقات الضوء والظلام 1969) و(اليوم نختار الوجوه) و(أبواب في الرمال) و(يوميات أمبر) وهي مجموعات قصص قصيرة متصلة نقدم لك بعضها اليوم. ويعتبرونها (أوبرا صابون ميتافيزيقية فلسفية).. (أوبرا صابون soap bubble opera) تعنى أن أحداثها لا تكف عن التوالد وشخصياتها لا تكف عن الصراع، كما تمد يدك في رغوة الصابون كلما ماتت لتحدث المزيد من الفقاقيع..

اشتهر باهتمامه بنفسية شخصياته بالإضافة للعناية الشديدة بالمحتوى الأدبي والفكري. وأسلوبه يعبر الحد الفاصل

بين الخيال العلمي والفانتازيا، ولهذا تعتمد قصص كثيرة له على الأساطير أو الديانات القديمة..

إن قصته (سيد الضياء) تعتمد على الأساطير الهندية.. وفي (مخلوقات الضوء والظلام) يعتمد كثيرًا على المعتقدات الدينية الفرعونية. بينما (عين القط) تعتمد على ديانة هنود (النافاهو).. وقصتنا التي نقدمها اليوم متأثرة بالكثير من أساطير الشمال وأساطير (الكلت)..

هناك ثلاثة أشياء مشتركة في كتبه لاحظها قراؤه المتحمسون: البطل المزعزع الذي يفشل كثيرًا.. المنحنيات غير المتوقعة.. الاستعمال المفرط للغنائية والتوريات الأدبية.. هناك دائمًا أب مفقود يتكرر في كل قصصه.. تلاحظ في قصة اليوم أن (كوروين) يفتش عن أبيه المفقود قبل أن يصير هو نفسه أبًا مفقودًا..

كان (زيلاني) من المولعين بالتجريب في قصصه.. مثلًا هو يلجأ كثيرًا لأسلوب (فلاش فورورد) في قصته (أبواب في الرمال) حيث يبدأ كل فصل بمشهد خطير لا نعرف متى حدث، ثم يعود لتذكر الأحداث التي قادت له.. في قصته (علامات الطريق) يتحدث عن طريق سريع يربط كل الأزمنة والعوالم.. وكل فصل يحمل رقم (واحد) يدل على الراوي نفسه، بينما الفصول التي تحمل رقم (اثنان) تدل على الشخصيات الثانوية.. أحيانًا يكتب قصة قصيرة تعتبر خلفية لإحدى شخصيات رواية سابقة له..

نال جوائز كثيرة منها ست من جوائز (هوجو) المخصصة لأدب الخيال العلمي، وكان يؤمن أن كتاب الخيال العلمي يتعاملون مع الناس والأشياء طبقًا لتتابع الأحداث الممكنة.. في

القرون الوسطى كانوا سيعتبروننا فلاسفة دينيين، وعلى الأرجح كانوا سيحرقون أكثرنا باعتبارهم مهرطقين!

كان حظ (زيلاني) سيئًا مع السينما فلم تقدم له إلا قصته (زقاق اللعنة) ولعل هذا يعود إلى تعقيد عالمه وامتلائه بالتوريات الأدبية..

توفي عام 1995 بسبب مرض السرطان، لكن الأدب الغربي سيظل يذكر أعماله، ولسوف نذكرها نحن بعد قراءة هذا الكتاب.

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

قبل أن تقرأ..

قبل أن تقرأ هذه القصة يجب أن تفهم بعض الأشياء حتى لا تشعر بأنك تطالع لغزًا.. هذه مجموعة من القصص التي يطلق عليها (قصص أمبر)، وهي قصص من عالم شديد التعقيد يذكرك بعوالم (تولكين) في (سيد الخواتم).. وقد نشرت هذه الأجزاء وأجزاء سابقة عليها دون مراعاة ترتيب معين، لهذا لا تندهش إن وجدت كلامًا عن ذكريات لم تمر بك قط، وتحكى عن مغامرات (كوروين) أمير (أمبر) وابنه (مرلين).. (أمبر) هي المدينة الخالدة التي أخذت منها كل مدن الأرض طابعها، وكل مدن العالم هي ظلال باهتة لتلك المدينة العظمى..

تعامل (جون بيتانكورت) مع ذات عوالم (أمبر) في سلسلة قصص خاصة به، وإن كان هذا قد ضايق ورثة (زيلاني) لأنهم يقولون إنه أوصى ألا يتعامل أحد مع (أمبر) بعد رحيله أبدًا.. لكن الحقيقة أنه ترك السلسلة ناقصة وهناك ثغرات عديدة فيها وأسئلة لم تتم الإجابة عنها، مما يغرى الكثيرين بالمحاولة..

تتعامل السلسلة مع مفهوم العوالم الموازية.. هناك عالمان هما (أمبر) وهو عالم النظام.. ومملكة الفوضى Chaos.. من يحملون الدم الملكي أبناء (أوبيرون) قادرون على التنقل بين العالمين. كل عالم له قوانينه الخاصة.. مثلًا البارود لا يشتعل في (أمبر) لهذا يتعاملون بالسيوف.. وهناك خليط عجيب من العوالم.. مثلًا يمكنك شراء سحالي كنتاكي المقلية، وهم يتكلمون عن أفران الميكرويف.. إلخ..

محور القصة هو أسرة متفسخة بها تسعة أمراء وأربع أميرات لـ (أمبر).. لا أحد يثق بالآخر وكل شخص مهموم بنفسه

فقط.. كل أمير من هؤلاء لديه قوى خارقة للطبيعة..

في هذه القصص كما قلنا هناك عالم النظام وعالم الفوضى.. يرمز للأول ما يدعى بـ (النمط) والثاني ما يدعى بالـ (لوجراس).. وكلاهما أقرب إلى المتاهة التي يمكن لمن يمشى فيها أن يجوب عالم الظلال.. التعامل مع (لوجراس) شديد الصعوبة وقد يؤدى بك إلى فقد قواك العقلية.. يجب أن نذكر أن حارس (النمط) وصانعه هو (دوركين) بينما (سوهوى) هو حارس اللوجراس وصانعه..

تبدأ الحلقة الأولى من هذا العمل شبه الملحمى بـ (كوروين) الذي وصل إلى الأرض فاقد الذاكرة وقضى عليها عدة أعوام.. هناك يلحق به أحد أفراد أسرته محاولًا قتله من ثم يبدأ في استعادة ذاكرته، ويفيق في إحدى مستشفيات نيويورك ليعرف من هو.. يعرف أن لديه ككل أفراد أسرته القدرة على الانتقال بين (أمبر) وعالم الظلال وعالم الفوضى عن طريق استخدام أوراق لعب سحرية trumps تتيح لهم التخاطب والسفر.. كل واحد من الأسرة يمكنه التخاطب مع واحد آخر عن طريق الإمساك بورقته، أما إذا رغب الطرفان في اللقاء فإنه يتم بهذه الطريقة.. يستعيد (كوروين) ذاكرته ويحل لغز اختفاء أبيه (أوبيرون).. ثم يتلاشي في عالم الفوضى ليصير لغزًا.

تبدأ مغامرات الجيل الثاني مع (مرلين) ابن (كوروين) الذي يبحث عن أسباب اختفاء أبيه، وعن حقيقة (أمبر)، والأهم أنه يريد معرفة من الذي يريد قتله كلما جاء اليوم الثلاثون من إبريل كل عام.. لقد صار أمير (أمبر) من جهة أبيه وأمير الفوضى من جهة أمه. هو لا يرغب في وراثة عرش الفوضى.. خاصة وأن كل

وريث سبقه قد هلك، وهو يشك في أن لأمه (دارا) وأخيه (ماندور) دورًا في هذا..

هناك شخصية مهمة أخرى هي (لوك) ابن (براند) الذي كان أخا (كوروين).. وهو ملك (كاشفا).. أمه هي الملكة (جاسرا)..

مغامرات هذين الجيلين حكاها (زيلاني) في عشرة كتب اسمها (كتب أمبر العظيمة). بعد هذا راح يعيد سرد بعض الأحداث بتفاصيل أكثر في قصص قصيرة جمعها تحت اسم (مَن من الجنة).. (المن) الأولى مأخوذة من (المن والسلوى)، وهي المجموعة التي نقدمها لك هنا.. وسوف تلاحظ أن الترتيب غريب وأن الأحداث المتأخرة وقعت قبل الأحداث المتقدمة، مع تعدد الرواة، لكن هذا هو عالم (أمبر) المتداخل..

عام 1987 تم عمل لعبة كمبيوتر عن عوالم (أمبر)، وهي لعبة تفاعلية قام (زيلاني) نفسه بتصميمها.. كما أنها ألهمت سلسلة من الكتيبات اسمها (اختر أنت مغامرتك) على غرار ما قدمته المؤسسة العربية الحديثة في قصة (في كهوف دراجوسان)..

∞∞∞∞∞∞

مقدمة: ورقة الهلاك!

كان الأمر سهلاً للغاية..

منحنى ثم استدارة ثم تقهقر، وبعدها وجد نفسه أمام جدار مائل.. رفع رأسه فرأى العمود.. هكذا بدأ التسلق..

لم يعد الأمر سهلًا.. لقد قهره شعور الدوار وقرب فقدان الوعي.. كأنه يتسلق أعلى أغصان شجرة عملاقة.. وبعد قليل بدأت عيناه تتألمان والصور تزدوج وتتأرجح..

حينما صار الطريق مستويًا فجأة شك في عينيه.. إلى أن أكدت له عيناه الحقيقة.. هناك ممران يختار بينهما..

انحنى وأطل برأسه في كل منهما.. بدا أن صوت الموسيقا الخافت أكثر ارتفاعًا في الممر الأيسر.. من ثم مشى وراءه..

الآن بدأ طريقه يرتفع وينحدر.. تسلق أكثر.. استمر البرق والإظلام.. فقط صار البرق أكثر تألقًا والإظلام أكثر ظلامًا..

وذلك الشعور الذي لم يفارقه بالحركة الخارجية.. بدا كأن أرضية النفق تموج تحت قدميه، والجدران كأنها تنقبض وترتخي..

تعثر وسقط.. ثم تعثر ثانية..

بدأ الصوت يتعالى أكثر.. وأدرك أنه ليس لحنًا بل هو تركيز عشوائي للضوضاء..

تسلق ونزل.. ضاق الممر حتى بدأ يزحف..

بدأ يشعر كأنما هو يدور حول نفسه، أو يسقط في نفق.. وجعله الضوء يشعر بمسامير من الألم تخترق جمجمته..

بدأ يهلوس بوجوه وأشكال. ولكن هل هي هلاوس حقًّا؟

شعر بأول نبضة واهية في ذراعه اليسرى.. كم من الوقت وهو يتحرك؟

تمزقت ثيابه وبدأ ينزف.. بلا ألم ينزف من دستة خدوش وتمزقات..

أصم أذنه، ضحك مجنون لم يتوقف إلا عندما أدرك أن هذه ضحكاته هو..

صار التفكير مؤلمًا.. يعرف أنه يجب ألا يتوقف.. يعرف أن عليه ألا يستدير.. يعرف أنه لا يجب أن يتخذ أي منحني صغير يخفت الصوت فيه..

فقط فكرة واحدة تلح عليه: استمر..

إنه يزداد بطئًا وكل حركة كأنها تتم تحت الماء.. تتطلب أكثر من الجهد العادي..

تصاعد الدخان فراح يشقه دهرًا.. ومن جديد شعر بأن حركاته صارت أسهل..

وحينما خرج ولعابه يسيل والدم ينساب منه على الجانب الآخر من الغرفة، كانت عيناه غير قادرتين على التركيز على الجسم الصغير المعتم الواقف أمامه.

قال له:

- أنت أحمق..

احتاج لبعض الوقت حتى يفهم الكلمات.. ومن حوله رفرف الظلام كالأجنحة (أم هي أجنحة فعلًا؟)..

- أحمق محظوظ.. لم أعتبرك قادرًا بعد على اختبار الـ (لوجراس)..

أغمض عينيه.. وتراقصت أمام عينيه صورة الدرب الذي قطعه.. كنسيج عنكبوت يتطاير في النسيم..

- أنت أحمق لأنك لم تحمل سكينًا.. أو مرآة.. أو كأسًا أو عصا سحرية تنفذ بها سحرك.. كل ما أراه هو حبل.. كان عليك الانتظار حتى تفهم أكثر أو تكون أقوى.. ما رأيك؟

رفع جسده عن الأرض وتراقص ضوء مجنون أمام عينيه وقال:

- لقد حان الوقت.. أنا جاهز..

- وحبل!.. يا لحظ الحمقى!

وتألق حبل يلتف الآن حول عنقه..

حينما أطلق سراحه سعل الشكل المظلم وهز رأسه:

- ربما كنت تعرف ما تفعله.. هل حان الوقت حقًّا؟ هل نويت الرحيل؟

- نعم..

هبطت عباءة سوداء على كتفيه وسمع الماء يرتطم بجوانب قارورة..

- هنا..

إذ شرب تلاشي الحبل..

قال بعد عدة جرعات:

- شكرًا لك يا عماه..

هز الشكل الأسود رأسه، وقال:

- متهور.. مثل أبيك بالضبط..

∞∞∞∞∞

الشراودل والجيسل (يحكيها مرلين)

صحوت في غرفة مظلمة لأجد أمامي سيدة لا أذكر أنني رأيتها من قبل.. كان لها شعر أسود طويل وعينان خضراوان وكانت عظمتا وجنتيها عاليتين.. ضحكت فرأيت أن لها أسنان مصاص دماء.. لم أر دمًا على شفتيها لذا بدا لي من الوقاحة أن أتحسس عنقى بحثًا عن جرح..

قالت لي:

- مرّ وقت طويل يا (مرلين)..

- مدام.. أنت فاجأتني..

نظرت لعينيها العميقتين كالبحر.. كان هناك شيء مألوف بشكل مخيف لكن لا أعرف كنهه..

- حاول أن تتذكر من أنا..

- أنا؟.. (راندا)؟

قالت مبتسمة:

- حبك الأول.. عندما كنت لي هناك في الضريح.. كنا طفلين يلعبان لكننا أحببنا هذا..

قلت:

- لن أنساك.. لم أحسبني أراك ثانية بعدما وجدت تلك المذكرة منك تخبرني أن أبويك لن يسمحا لك باللعب معى ثانية.. كانا يحسبانني مصاص دماء..

- كان لهما الحق يا أمير (أمبر) وأرض الفوضى.. إن قواك السحرية هذه..

نظرت لوجهها.. لنابيها.. وقلت:

- هذا غريب بالنسبة لأسرة من مصاصي الدماء..

- نحن لسنا مصاصي دماء.. نحن آخر الشراودلنج shroudlings.. لم يبق منا إلا خمس أسر تعيش في الظلال من هنا حتى (أمبر)..

قلت في ارتباك:

- معذرة.. لكني لا أملك أدنى فكرة عن كنه الشراودلنج..

قالت بعد قليل:

- كنت سأندهش لو كنت تملك فكرة.. فنحن ظللنا جنسًا سريًّا طيلة عمرنا..

وفتحت فكها فرأيت أن أنيابها تتقلص لتعود أسنانا شبه طبيعية وأردفت:

- إنها تظهر في أوقات الانفعال حتى لو لم تكن لها علاقة بالتغذية..

- إذن أنت تستعملينها كما يستعملها مصاص الدماء؟

قالت:

- أو الغيلان.. إن لحمهم أكثر سخاء من دمهم..

- هم؟

- هؤلاء الذين نظفر بهم..

سألتها:

- ومن هؤلاء؟

- الذين سيصير العالم أفضل من دونهم.. أكثرهم يختفون ببساطة لكن كثيرًا منهم يبقى..

هززت رأسي.

- يا سيدة الشراودلنج.. أنا لا أفهم..

- نذهب ونجيء كما نحب.. نحن قوم لا يمكن الإمساك بهم.. قوم شديدو الكبرياء.. نعيش بميثاق شرف لا تفهمونه.. حتى من يبحثون عنا لا يعرفون أين يجدوننا..

- برغم هذا تخبرينني بكل هذا..

- كنت أراقبك طيلة حياتك وعرفت أنك أهل للثقة..

- راقبتنى طيلة حياتي؟ كيف؟

لكننا تناءينا.. وعندما كررت عليها السؤال بعد قليل، قالت:

- أنا الظل الذي تراه في مرآتك.. أراقبك وأنت لا تراني.. كل واحد منا له شيء يحبه.. حيوان أليف أو مكان أو هواية.. أنت كنت الشيء الخاص بي..

- ولماذا عدت لي يا (راندا) بعد كل هذه السنين؟

أبعدت عينيها..

ثم قالت بعد وهلة:

- ربما أنت ستموت قريبًا، وقد رغبت في استرجاع طفولتنا فى (وايلدوود)..

- أموت قريبًا؟ أنا أعيش مع الخطر.. لا أنكر هذا.. لقد اقتربت من العرش جدًّا لكن لدى حماة أقوياء وأنا أقوى مما يحسبون..

- كما قلت كنت أراقبك.. لا أشك في قوتك وقد رأيتك تستعمل تعاويذ عديدة، وبعضها لا أفهمه..

- هل أنت ساحرة؟

هزت رأسها، وقالت:

- معرفتى بهذه الأمور واسعة لكنها أكاديمية.. نظرية.. قوتي في شيء آخر..

سألتها:

- أين؟

أشارت إلى جدارى فنظرت.. ثم سألتها:

- لا أفهم؟!

قالت وهي تشير للمصباح:

- هل لك أن تقلبه؟

ففعلت..

- الآن قرّبه من المرآة..

كانت المرآة مظلمة، لكن كذلك كان كل شيء في بيت ضيافة (ماندور) حيث اخترت قضاء ليلتي.. لم يكن بها انعكاس أي شيء أو أي شيء يستأهل الملاحظة..

قالت:

- لقد أغلقتها بعد دخولي هنا.. وكذا كل مرآة في البيت..

- جئت هنا من المرآة؟

- نعم.. أنا أعيش في عالم المرايا..

- وأسرتك وأربع الأسر الأخرى؟

- كلنا نعيش خلف حدود الانعكاس..

- وهكذا تسافرين من مكان لآخر؟

- نعم..

- لمراقبة حيواناتك الأليفة والتهام من لا تحبينهم؟

- نعم..

مشيت للفراش وجلست على حافته، وقلت:

- أنت مخيفة يا (راندا)..

وأمسكت بيدها، وقلت:

- من الجميل أن أراك برغم كل شيء.. ليتك جئت من قبل..

- فعلت هذا.. باستعمال تعاويذ النوم الخاصة بنا..

- ليتك أيقظتني..

- تمنيت لو بقيت معك، لكن في هذه المرحلة من حياتك أنت مجلبة للخطر..

- يبدو هذا.. لكن لماذا جئت الآن؟

- لقد انتشر الخطر.. إنه يحيط بنا الآن..

- حسبت أن الخطر تضاءل.. لقد انتصرت على محاولات (دارا) و(ماندور) للسيطرة على..

- لكنهما مستمران في التخطيط..

- هذه طبيعتهما.. يعرفان أنى جدير بهما.. وأنني متأهب لهما.. هناك ستة يتنافسون على العرش.. أنا رقم واحد.. لكن ظهر مدعون كثيرون.. هناك واحد سابع لا أعرف عنه شيئًا..

قالت:

- هناك واحد مختف لا أعرف اسمه.. لكنك رأيته في بركة (سوهوى).. أعرف شكله.. وأعرف أن (ماندور) يراه خصمًا ذا ثقل.. لكن أعتقد كذلك أنه يخشى (ماندور)..

- هل يعيش في عالم المرايا؟

- نعم.. لكنه لا يعرف بوجودنا.. لقد عرف ذلك العالم بصدفة لا تصدق.. وقد وجدها فرصة لنقله إلى أي موضع يريد.. ليرى كل شيء دون أن يكتشف أمره.. لقد تجنب قومي أن يعرف بأمرنا.. لكنه خصم مرعب..

- نعم.. يمكنه أن يرى ويسمع عبر أية مرآة.. يمكنه أن يخرج منها ويقتل ثم يفر عبرها.. يمكنني أن أفهم سر خطورته..

ازداد الليل برودة واتسعت عينا (راندا).. بدأت أرتدى ثيابي..

قالت لي:

- نعم.. افعل ذلك.. لقد جلب هذا الشخص الخفي شيئًا مقيتًا لعالمنا الآمن.. لقد عثر على (جيسل)..

- وما الجيسل؟

- كائن من أساطيرنا. كنا نحسبه انقرض منذ زمن. لقد كاد يبيد الشراودلنج.. إنه وحش..

ارتديت حذائي وحملت سيفي.. عبرت الغرفة إلى المرآة ووضعت يدى أمام سوادها.. نعم.. هي مصدر البرد..

سألتها:

- هل أغلقت كل المرايا هنا؟

- الغريم الخفي قد أرسل الجيسل عبر المرآة ليقتل تسعة منافسين على العرش.. وهو في طريقه الآن نحو العاشر: أنت..

- فهمت.. وهل بوسعه تحطيم القفل؟

- لا أعرف.. لم أفكر في هذا.. إنه يجلب معه البرد.. يتوارى خلف المرآة وهو يعرف أنك هنا..

- كيف يبدو؟

- كسمكة ذات جناحين لها أرجل مخلبية عديدة.. طوله نحو عشرة أقدام..

- ولو سمحنا له بالدخول؟

- سوف يهاجمك..

- ولو دخلنا المرآة؟

- سوف يهاجمك..

- وفي أي جانب من المرآة يكون أقوى؟

- كلاهما على ما أظن..

- حسن.. هل يمكن أن نجتاز مرآة أخرى ونلقي نظرة عليه؟

- ربما..

- إذن فلنجرب.. هيا بنا..

ونهضت ووضعت على كتفيها عباءة حمراء، ثم تبعتني عبر جدار إلى غرفة أخرى هي في الحقيقة على بعد أميال..

ككل نبلاء مملكة الفوضى يؤمن (ماندور) بأن يجعل مسكنه متناثرًا في أماكن عدة.. كانت هناك مرآة كبيرة على الجدار.. كانت هناك ساعة على وشك أن تدق.. فسحبت سيفى..

قالت:

- لم نعرف أن هذه موجودة..

- نحن على بعد أميال من الغرفة التي نمت فيها.. انسى علاقات الفراغ ببعضها.. هلمي..

قالت:

- على أن أنذرك أولًا. حسب التقاليد لم ينجح أحد قط في قتل (جيسل) مستعملًا سيفًا.. ولا السحر نفسه.. (الجيسل)

قادر على امتصاص التعاويذ والقوى وأن يتحمل أعنف الجروح..

- هل من اقتراحات؟

- حاربه.. طارده.. اسجنه.. هذا أفضل من محاولة قتله..

- حسن.. لكن لو وقعت في مشكلة فلا تتورطى فيها..

لم تتكلم.. فقط أخذت يدى ودخلت المرآة.. إذ تبعتها بدأت الساعة تدق بلا انتظام..

كانت داخل المرآة نسخة من الغرفة الخارجية لكنها مقلوبة.. اقتادتني (راندا) لأبعد جزء من الانعكاس لليسار ثم دارت حول الركن.

بلغنا مكانًا من الأبراج والمساكن الفاخرة التي لا يبدو أيها مألوفًا لي.. وبدا الهواء يتموج بخطوط متعرجة.. مدت يدها إلى أحدها وخطت إلى الداخل وأخذتني معها.. خرجنا في شارع ملتو به مبان متأرجحة.

قلت لها:

- شكرًا على التحذير..

ضغطت على يدى وقالت:

- ليس هذا من أجلك فقط.. بل من أجل أسرتي..

- أعرف..

- لم أكن لأفعل هذا لو لم أتوقع أن لديك فرصة ضد الشيء.. لو لم أتوقع هذا لاكتفيت بأن أحذرك.. لكني تذكرت

يومًا هناك في (وايلدوود) عندما وعدت بأن تكون بطلي.. بدوت لي بطلًا حقيقيًا..

ابتسمت إذ تذكرت ذلك اليوم الكئيب.. كنت أنا وهي نقرأ قصص الفروسية في الضريح.. غلبتني البطولة فاقتدتها للخارج لنقف وسط مقابر أشخاص لم أسمع عنهم من قبل.. (دنيس كولت) و(ريمو ويليامز) و(جن جونت) وأقسمت أن أكون بطلها للأبد إذا طلبتني.. وتمنيت لو ظهر لي خطر في الحال كى أرتمي في قلبه من أجلها.. لكن لم يحدث شيء..

تحركنا للأمام وهي تعد الأبواب.. وتوقفت عند السابع..

- هذا هو.. هذا الباب يقودنا إلى الموضع خلف المرآة في حجرتك..

أطلقت يدها وتقدمتها.

قلت:

- حسن.. جاء الوقت..

وتقدمت.. لكن الجيسل وفرّ عليّ عناء البحث بين الممرات لأنه ظهر أمامي.

طوله كان عشرة أقدام وعلى قدر علمي كان بلا عينين.. وله أهداب فوق ما اعتبرته رأسه.. كان ورديًا وهناك شريط أخضر يعبر جسده في اتجاه واحد.. وكانت أهدابه ترتفع عن الأرض ثلاثة أقدام وتمتزج.. ثم استدارت نحوى..

تحتها كان لها فم عملاق كفم سمك القرش يفتح ويغلق مرارًا، وكان سائل أخضر يبدو سامًّا يسيل من هذه الفتحة ليبلل

الأرض بسائل ذى بخار.

انتظرت حتى يأتي لي وقد فعل.. درست حركته.. انتظرت حتى دار حول نفسه ورفعت سيفي في وضع استعداد منتظرًا هجمته.. وتذكرت التعاويذ..

هجم عليَّ فضربته بتعويذة والسيف.. وفي كل مرة يزداد الهواء برودة حول فمه.. كأنه يهضم السر ويدخله في متاهات الخفوت..

وحينما توقف عن التدفق ضربته بتعويذة (القوى فاقدة الرشد).. توقف وثبت على وضعه وراح الدخان يتصاعد منه.. هذه المرة انقضضت عليه وضربته بالنصل..

رن كصوت الجرس لكن لم يحدث شيء فتراجعت..

قلت:

- كأنه يلتهم التعاويذ ويخرجها في شكل برد قارس..

قالت (راندا):

- هذا ما لاحظه الآخرون..

ونحن نتكلم ارتفع رأسه المخيف وانقض على.. أولجت سيفي في حلقه بينما أذرعه المخلبية تحاول الظفر بي.. طرت للخلف إذ أغلق فاه وسمعت صوت شيء يتهشم.. لم يبق من سيفي إلا المقبض..

كانت بوابات (سبيكارد) مفتوحة فضربت المخلوق بقوة طازجة من عالم الظلال.. من جديد تجمد وصار الجو باردًا..

كنت أنزف من ألف جرح صغير، وكان في كل مرة يلتهم الهجمة ويزداد برودة.. مددت يدي في عالم الظلال فوجدت سيفًا آخر.. مددت يدى ورسمت مستطيلًا في الهواء ودائرة في مركزه ومددت يدى فيها مستجمعًا كامل إرادتي..

بعد لحظة شعرت بالاتصال..

- أبي! أشعر بك لكن لا أراك.. أنا أحارب من أجل حياتي وحياة آخرين.. تعال لي إن استطعت..

- أنا أحاول لكن يبدو أنني لا أقدر على اجتياز الحجب..

- تبًّا!

عاد الجيسل يهجم.. حاولت أن أبقى ورقة اللعب سليمة لكنها راحت تشحب..

- أبي!

- تماسك..

قالها أبي ورحل..

تراجعت ونظرت إلى (راندا).. كانت دستة من الشراودلنج تحيط بها.. كلهم يلبسون الأبيض أو الأحمر.. وبدءوا ينشدون نشيدًا كئيبًا كأنها موسيقا تصويرية للمعركة.. بدا أن هذه الموسيقا تبطئ حركة الجيسل.. وذكرتني بشيء ما من زمن سحيق..

أرجعت رأسي وأطلقت صرخة سمعتها ذات مرة في حلم قديم لم أنسه..

ظهر صديقى..

ظهر - أو ظهرت - صديقي (كيرجما) المعادلة الحية من عدة زوايا.. لست متأكدًا مما إذا كان أو كانت ذكرًا أم أنثى.. فقط راقبته يتجمع.. كان صديقي في الطفولة مع (جليت) و(جريل).

لابد أن (راندا) تذكرت هذه الكينونة لأنها شهقت.

التف (كيرجما) حولها على سبيل التحية ثم جاء لي..

- أصدقائي!.. منذ زمن سحيق لم تدعوني للعب.. لقد افتقدناكم..

بدأ الجيسل يستعيد قواه أمام أغنية الشراودلنج فقلت:

- هذه ليست لعبة.. هذا الوحش سيدمرنا جميعًا ما لم نقهره..

- إذن لابد من حل المعضلة.. كل شيء حي معادلة.. مشكلة في فيزياء الكم.. قلت لك هذا من قبل..

- نعم.. من فضلك حاول..

أبقيت سيفي مستعدًّا لكني لم أضرب به حتى لا أشتت صاحبي.. وكذا تراجع الشراودلنج..

قال (كيرجما):

- توازن مميت.. إن له معادلة حياة قاتلة.. حاول أن تمنعه بلعبتك الآن..

ضربته بتعويذة جديدة.. وعادت أغاني الشراودلنج تتردد..

عاد (كيرجما) يقول:

- هناك سلاح قادر على تدميره في ظروف مواتية.. إنه سيف متعرج معلق في بار كنت تعاقر فيه الشراب مع (لوك)..

قلت:

- سيف (فوربال)؟ هل يقدر على قتله؟

- قطعة في كل مرة في ظروف مواتية..

- والظروف المواتية؟

- حللت هذه المعضلة..

ألقيت بسيفي بعيدًا ثم مددت يدي بعيدًا بعيدًا في عالم الظلال.. احتجت لجهد جهيد كي أجد ما أريد.. استعنت بقوى (السبيكارد) كي أفعل ذلك.. وفي النهاية وجدت سيف (فوربال) في يدي..

ضربت باتجاه الجيسل لكن (كيرجما) أوقفني وقال:

- ليس هذا هو السبيل..

- إذن ما هو؟

- نحتاج إلى تعديل معادلة المرآة..

- أرني.

انتصبت جدران من المرايا حولي وحول الجيسل وكيرجما.. لكن (راندا) ظلت خارجها.. وجاءت الانعكاسات نحونا من كل صوب..

- هكذا.. لكن حاول ألا تجعله يمس الجدران..

ضربت الجيسل بالسيف.. ومن جديد صدر منه صوت كالجرس وظل هادئًا..

قال (كيرجما):

- لا.. دع الجليد الذي يحيط به يذوب..

انتظرت حتى عاد إلى الحركة.. بمعنى أنه صار قادرًا على مهاجمتي.. لا شيء سهل.. ومن خارج المرايا أسمع صوت الغناء..

استعاد الجيسل قواه بأسرع مما توقعت.. وضربت رأسه فبدا كأنه ينقسم إلى صور رفيعة تطير في كل اتجاه..

عدت أضرب بينما رقائق تطير من جانبه في كل مرة..

حينما التصق بأحد الجدران انقضضت عليه بسيفي ورحت أعمل التمزيق والطعن..

لكنه لم يمت.. ظللت أمزق فيه حتى لم يبق سوى طرف من ذيله يتلوَّى أمامي..

قلت:

- كيرجما.. لقد تخلصنا من أكثر أجزائه لكن هل لك أن تراجع المعادلة؟ أريد أن أخلق (جيسل) آخر كهذا.. جيسل يعود لمن أرسل هذا ويفترسه..

قال (كيرجما):

- ربما.. أظنك لهذا الغرض تركت هذه القطعة الأخيرة؟

- أعتقد هذا..

وتم الأمر كما أردت.. لقد نهض الجيسل الجديد أسود اللون وراح يحك رأسه في كاحلى كقط.. وتوقف الغناء..

قلت له:

- لتبحث عن الشخص الخفى وتعيد له الرسالة..

رسم قوسًا بجسده واختفى..

سألتنى راندا:

- ماذا فعلت؟

فحكيت لها كل شيء.. قالت:

- سوف يعتبرك الخفى ألد عدو له.. سوف يضاعف جهوده ضدك لو عاش..

- جميل.. أنا أشتهى المواجهة.. إنه يشعر بالأمان في عالمك ولن يعرف أبدًا متى يأتي له جيسل لا يمزح يبغى الصيد..

- هذا حق.. لقد صرت بطلي..

فجأة من لا مكان هوى مخلب على السيف.. ورأيت قصاصتى ورق.. وسمعت صوتًا يقول:

- أنت تستعير هذا السيف ولا تدفع ثمنه في كل مرة يا (مرلين).. عليك 40 دولارًا.. إن الساعة أو أي جزء منها يكلف عشرين..

كان المخلب قد اكتمل في صورة قط.. فمددت يدي في جيبي وأخرجت الثمن المطلوب، فأخذه القط وتلاشى في ذات الوقت الذي بدأ فيه الشراودلنج يختفون..

وسمعت الصوت يقول:

- العمل معك طيب.. عد سريعًا وأحضر معك (لوك)..

دنا منى (كيرجما) وقال:

- أين الآخرون؟ جليت وجريل؟

- تركت (جليت) في الدغل.. لو قابلته قل له إن الشيء الضخم لم يلتهمني.. سوف يشرب معى اللبن الساخن ويسمع المزيد من القصص.. (جريل) عند عمى (سوهوى) فيما أظن..

- آه.. سيد الريح.. كانت أيامًا لا تنسى.. يجب أن نلتقى ثانية.. شكرًا على استدعائي..

ثم اختفى كالآخرين..

سألتني (راندا):

- ماذا الآن؟

- سأعود لدارى.. هل تأتين معى؟

هزت رأسها فمشينا عبر الباب السابع وفكت قفل المرآة..

كنت أعرف أنها ستكون قد رحلت عندما أصحو من نومي..

∞∞∞∞∞

حكاية البائع (يحكيها لوك)

سرني أنني قررت أن أترك (مرلين) في كهف البلور فترة طويلة. سرنى أنه لم يبق طيلة الوقت. إذ قاطعت المحادثة بأن ضربت كوب الشاي المثلج وصحت:

- تبًّا! لقد سكبته!

وقلبت ورقة الهلاك في يدي السليمة.

غابة الخردة.. رسم جميل هو برغم أنني لا أبالي بما يظهره.. لهذا تركت (مرلين) يفرد الكروت ووجهها لأسفل.. ثم سحبت واحدًا.. كان الغرض هو الإرباك لا أكثر.. كل الكروت تقود إلى أماكن قريبة من كهف البلور.. وهذا هو سبب وجودها في المقام الأول. غرضها كان اجتذاب (مرلين) إلى الكهف حيث ينذرني نظام إنذار من البلور الأزرق. كانت خطتي أن أهرع هناك وأسجنه.

للأسف لم أع الرسالة عندما سحب ورقة (أبي الهول) ليفر من أمي.. لقد عطلت سمومها العصبية إشارة مهمة من جهازه العصبي.. مرة من المرات التي أفسدت فيها خططه بلا قصد.. هذا لا يهم على كل حال.. (مرلين) هناك وقد تغير كل شيء منذ هذه اللحظة..

- لوك! يا أحمق!

سمعت الصوت لكن غابة الخردة كانت قد صارت قريبة مني.. وكنت أفر قبل أن يفهم (النمط) أن ما يسيل عليه ليس شايًا وإنما هو دمي.

مشيت بين أشجار (أسنان المنشار) وأحواض الزرع زاهية الألوان المليئة بالزجاجات المهشمة.. بدأت أركض والدم يسيل من كفى اليسرى الدامية.. لم أجد وقتًا لتضميدها..

حين أفاق (النمط) من الصدمة، أدرك أنه غير مصاب، كان على وشك أن يسمح بالظلال من أجلى.

كانت جدران الكهف البلوري قادرة على وقف أية ظاهرة فوق طبيعية.. وخمنت أنهم سيراقبونني..

زدت من سرعة خطواتي.. ما زلت بكامل لياقتي وما زال بوسعى الركض.. أمر بالسيارات الصدئة وسوست الأسرة والبلاط المهشم.. عبر ممرات من الرماد وأغطية الزجاجات.. متنبهًا..

أنتظر.. أنتظر أن يدور العالم.. أنتظر أن يقول (النمط): لقد ظفرت بك!

درت حول منحنى ونظرت إلى اللون الأزرق من بعيد.. انتهت غابة الخردة فجأة إذ هبطت في منحدر.. وبدأت غابة أقرب إلى الطبيعة. سمعت صوت الطيور وأنا أمر وسمعت أزيز الحشرات.. كانت السماء ملبدة بالغيوم ولم أشعر بالريح ولا حرارة الجو..

لابد أن الآخرين قد نجوا.. لابد أنهم نجحوا.. لابد أنهم ابتعدوا عن الخطر الآن.. ربما يجلسون ويأكلون ويتمازحون الآن..

وابتلعت سبة لم أطلقها حتى أدخر أنفاسي.. أردت أن أرى إلى أي حد احتفظت بآخر طاقة عندى، لذا أسرعت المشى واحتفظت بهذه السرعة..

تهتز الأرض والهواء بما بدا لي هدير رعد.. ربما أعدائي يزمجرون في غضب لأنهم ظفروا بي، وربما هو فعلًا هدير الرعد..

في اللحظة التالية توقفت كي لا أصطدم بالجدار البلوري..

ركعت على يدى وقدمي ورئتاى تعملان كمنفاخين وبدأ مطر خفيف ينهمر.. مختلطًا بعرقي.. تركت لطخات دم على الصخر لكن سوف يزيلها المطر بسرعة..

بلغت القمة فاندفعت على أربع ودخلت بقدمي أولًا.. وسقطت في الداخل المظلم برغم وجود سلم.. لم أشعر بالأمان إلا عندما وقفت في الزرقة المظلمة ألهث.. وحينما استجمعت أنفاسي حاولت أن أضحك.. لقد فعلتها.. لقد هربت من (النمط)..

مشيت في الغرفة أضرب فخذى وأضرب الجدران.. هذا نصر شهى المذاق..

اتجهت إلى خزانة المشروبات فانتقيت زجاجة شراب وجرعت منها.. وبحثت عن كهف جانبى ما زال به كيس نوم فجلست فيه ورحت أستعيد تجربتي مع (النمط).. كانت حبيبتي (ناديا) رائعة.. وكذا (مرلين).

تساءلت عما إذا كان (النمط) يحمل لي ضغينة.. كم يجب أن يمر قبل أن يصير من حقى التقدم دون خشية؟ لا سبيل لمعرفة هذا وهذا من سوء الحظ..

على كل حال لابد أن (النمط) لديه ما يشغله وليس خالي الذهن كهؤلاء الناس الذين يعيشون جواره.. (العمبريون).. أليس

كذلك؟

سوف أستعمل تعويذة أبدل بها شكلي.. كذا قررت.. عندما أرحل من هنا سيكون لي شعر أسود ولحية وعينان رماديتان ووجنتان عاليتان.. سأبدو أطول وأكثر نحولًا..

سأبدل ثيابي بثياب سود.. يجب أن أستعمل تعويذة قوية عميقة.

نهضت أبحث عن طعام، فوجدت بعض اللحم البقرى المعلب والبسكويت.. قمت بتسخين العلبة باستعمال تعويذة صغيرة.. لم يكن هذا خرقًا لقواعد المكان.. الجدران تحجب التأثير من الدخول أو الخروج لكن تعويذتي جاءت منى وعملت بالداخل..

رحت آكل مفكرًا في (ناديا) و(مرلين) و(كورال).. مهما كان ما حل بهم فالوقت في صالحهم.. أما أنا فسأبقى هنا حتى تشفى يدى..

لكن إلى أية درجة يريدني (النمط)؟ ما أهميتي بالنسبة له؟ وما قيمتي في منظوره؟ ملك العالم الذهبي الأصغر.. قاتل أحد أمراء (أمبر).. ابن الرجل الذي أراد تدميره يومًا.. لكن (النمط) تركني أعيش حتى اليوم دون أن ينتقم منى لأفعال أبي..

يبدو أن الشكل لا يهتم إلا بـ (كورال).. ثم (مرلين).. لربما أنا أبالغ في الحذر.. لكني لن أخرج من هنا بلا تنكر..

أنهيت الأكل.. لكن متى أخرج؟ بدأت أتثاءب وبدا لي كيس النوم مغريًا.. التمع البرق ثم جاء الرعد..

غدًا.. غدًا إذن أضع الخطط.. زحفت داخل الكيس وخلال دقيقة كنت قد غبت عن العالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أعرف كم من الوقت نمت.. حينما نهضت جلت في المكان على سبيل الأمن ثم قمت ببعض التدريبات الرياضية.. ثم التهمت إفطاري..

شعرت بأنني أفضل حالًا وقد بدأت يدى تلتئم.. هكذا جلست أرمق الحائط لساعات.. ما أفضل ما يمكن عمله؟

يمكن أن أذهب إلى (كاشفا) وأبحث عن رفاقي.. يمكن أن أختبئ وأستقصى عما حدث.. الموضوع موضوع أولويات. ما هو أهم شيء يجب أن أقوم به؟ جاء وقت الغداء فأكلت ثم أمسكت بالورق والقلم ورحت أحاول رسم وجه سيدة ما لتزجية الوقت..

عندما جاء موعد العشاء كنت أعرف ما على عمله غدًا..

في الصباح التالي صنعت لنفسي مرآة على أحد الجدران الملساء وغيرت شكلي إلى شكل طويل نحيل.. وأسبغت على وجهي ملامح تذكرك بوجه النسر.. ونظرت لوجهي ورأيت أنه جيد.. ثم بدلت شكل ثيابي. يجب أن أجد ثيابًا جديدة في أقرب فرصة.. فعلت هذا في بداية اليوم لأرى إن كان عملي سيتحمل باقي اليوم.. ولهذا قررت أن أنام فيه..

عصرًا أخذت المفكرة من جديد وراجعت ما قمت به أمس. في الصباح أخرجت مجموعة أوراق اللعب وتصفحتها حتى بلغت تلك الورقة الحزينة: ورقة أبي.. لقد أبقيتها لأسباب

عاطفية وليس لنفعها.. بدا بالضبط كما أذكره.. لكني لم أبحث عن الورقة للذكرى بل لأرى الشيء الذي يعلقه إلى جانبه.

ثبت عيني على (ويروندل) النصل السحرى.. تذكرت ما أخبرني (مرلين) به عن كيف استدعى أبي (جريوانديز) إليه بعد فراره من كهوف (أمبر).. كانت هناك علاقة خاصة بينه وهذا السلاح..

الآن أسرع السعى وقد لاحت مغامرات جديدة، فمن المفيد أن أحمل السلاح المناسب.. برغم أن أبي قد مات فإن (ويروندل) حي بشكل ما.. ولئن كنت عاجزًا عن الاتصال بأبي فيمكنني أن أجد سلاحه.. ربما في مكان ما من عالم الفوضي.. ركزت عقلى عليه وناديته..

شعرت بشيء ما.. وحينما لمست موضع السلاح على البطاقة بدا أن مكانها صار باردًا..

ثم شعرت بذكاء غريب موجودًا يراقبني..

قلت في نعومة:

- ويروندل..

جاء الرد:

- يابن الوسم..

- بل سمنى (لوك)..

ساد الصمت ثم جاء الرد:

- لوك..

تقدمت وجذبته نحوى.. فجاء غمد السيف معى.. أمسكت بالنصل ورفعته فانساب كذهب ذائب.. جربت أن أطعن به.. شعرت بأنني مكتمل.. شعرت بأننى على حق..

- شكرًا..

فتحت المفكرة حتى بلغت رسم السيدة التي رسمتها.. النظرة التائهة في عينيها والتي تدل على عمق الفكرة المسيطرة عليها..

بعد دقائق شعرت بالصفحة باردة تحت أناملي.. وشعرت كأن الرسم يتحرك.

جاء صوت المرأة يسأل:

- نعم؟

قلت:

- يا مولاتي.. مهما كان فهمك للأمر فإني أرغب في أن تعرفي أنني بدلت مظهرى.. كنت آمل أن..

قالت:

- (لوك).. طبعًا عرفتك.. صار اسمك (جلالتك) الآن. أنت في مشكلة..

- بالفعل..

مدت لى يدها فمددت يدي وأمسكت بها.. هكذا صرت في مرسمها.. خطوت للأمام وجثوت على ركبتي ونزعت سيفي فقدمته لها.. وعن بعد كنت أسمع أصوات النشر والدق..

قالت لي:

- انهض.. تعال اشرب قدحًا من الشاي معى..

نهضت وتبعتها إلى منضدة في الركن.. نزعت مريولتها المتسخة وعلقتها على مشجب، وإذ راحت تعد الشاى رحت أراقب جيش التماثيل الذي تناثر في أرجاء القاعة. واقعية.. تأثيرية.. جميلة.. شاذة..

كانت تعد التماثيل من الصلصال لكن هناك نماذج من الصخر..

لما جلست جوارى مدت يدها تتلمس يدى اليسرى بحثًا عن الخاتم الذي أعطتني إياه..

قلت:

- نعم.. أنا أدرك قيمة حماية الملكة..

- برغم أنك اليوم ملك من بلد صديق لنا..

- لا أحسب أن مملكة (أمبر) تعرف بالتفاصيل التي كنت طرفًا أو أحطت بها.. والتي يمكن أن تؤثر في رخائها، ما لم تكوني اتصلت بـ (مرلين) مؤخرًا..

قالت:

- (مرلين) لم يظهر.. لو كانت عندك أخبار مهمة فمن الأفضل أن تمنحها لـ (راندوم).. هو ليس هنا الآن لكن بوسعي الاتصال به..

- كلا.. أعرف أنه لا يحبني أو يثق بي.. باعتبارى قاتل أخيه، وصديق الرجل الذي أقسم على تدمير (أمبر).. أعرف أنه يتمنى أن يراني ميتًا.. أعتقد أن عليّ تسوية الأمور معه يومًا ما لكن ليس اليوم.. المعلومات تتجاوز السياسة المحلية، وهي تشمل (أمبر) وقاعات الفوضى و(النمط) و(لوجراس)..

- هل أنت جاد؟

- بالتأكيد.. أعرف أنه سيصغى لك.. ثمة أمور مهمة في المستقبل القريب..

قالت وهى ترفع القدح:

- قل لى..

حكيت لها كل ما قصه عليّ (مرلين)، بما في ذلك المواجهة ورحلتي إلى كهف البلور.. فرغنا من إبريق الشاى كاملًا وبعدها جلسنا صامتين..

في النهاية تنهدت.. أشارت لتمثال يتدلى من السقف، وقالت:

- هذا هو (اللسان)..

ثم عبرت المرسم إلى الجدار الأيمن.. صغيرة الحجم ثيابها رمادية وخضراء ولها شعر كستنائي يصل لمنتصف ظهرها.. مررت يدها على تمثال هناك، ثم انتقت تمثالًا وراحت تدفعه إلى منتصف القاعة..

نهضت على الفور..

- دعيني أفعل هذا يا مولاتي..

هزت رأسها وقالت:

- سمنى (فيال).. لا.. يجب أن أضعه بنفسي.. هذا التمثال اسمه (الذاكرة)..

وضعته تحت تمثال اللسان، ثم انتقت تمثالًا رفيعًا له شفتان متباعدتان وضعته في الناحية الجنوبية من تمثال اللسان. وقالت:

- هذا هو تمثال (الشهوة)..

ثم اختارت تمثال سيدة تمد يدها اليسرى.. وقالت:

- هذا هو تمثال المجازفة..

وإلى الشرق وضعت تمثالًا مفتوح الذراعين، وقالت:

- القلب..

ثم تمثالاً آخر ملتحيًا:

- العقل..

وفي اتجاه آخر وضعت تمثالًا يمثل سيدة ترفع ذراعها لا تدرى هل للتحية أم لتوجيه ضربة.. وقالت:

- الحظ..

هكذا تراصت التماثيل في دائرة ذكرتني بتماثيل جزيرة (عيد الفصح)..

- هات مقعدين وضعهما هنا وهناك..

كانت تشير إلى موضعين نحو الجنوب واليسار.. فعلت كما أشارت فجلست في المقعد الشمالي.. وقالت:

- أصمت الآن..

وظلت صامتة ويداها في حجرها.. ثم سألت:

- ماذا يهدد السلام؟

بدا لي كأن تمثال (الصمت) هو الذي يتكلم برغم أن الصوت خرج من (اللسان):

- إعادة توزيع القوى القديمة..

- كيف؟

أجاب تمثال (المجازفة):

- ما كان مختبئًا صار معروفًا..

- هل (أمبر) والبلاط متورطون؟

أجابت (الشهوة):

- نعم..

- منذ متى؟

أجابت (الذاكرة):

- من قبل أن توجد (أمبر)..

- وعددهم؟

- أحد عشر..

شحب وجهي لكني احتفظت بالصمت..

- ماذا يريدون؟

قالت الشهوة:

- العودة لأيام المجد..

- هل هذا بوسعهم؟

قالت (البصيرة):

- نعم..

- ومن أين أبدأ؟

قال لها العقل:

- اسألي الحراس..

- وما مدى الخطر؟

قالت المجازفة:

- بدأ بالفعل.. والخطر موجود فعلًا..

هنا توقفنا وقد سمعنا صوت شيء يسقط.. كان هذا سيفي وغمده حيث تركتهما في ركن القاعة، فقلت:

- هذا سيفي..

- سمه!

- كان سيف أبي واسمه (ويروندل)..

قالت:

- أعرف.. هذا الرجل (لوك).. هناك شيء يتعلق بسلاحه.. وإن كنت لا أعرف قصته..

قالت الذاكرة:

- إنهما مرتبطان.. لقد وجدا بالكيفية ذاتها في ذات الزمن..

- هل يبحث (لوك) عن الحراس؟

قال القلب:

- يجب أن يجرب..

- وإن فشل؟

- هناك أمير يقترب منا وهو يعرف الإجابة.

- ومن هو؟

- سجين تحرر.. إنه يحمل زهرة فضية ويحمل السيف الآخر..

رفعت (فيال) رأسها.. وسألتني:

- هل من أسئلة؟

- نعم.. لكني لن أتلقى إجابة لو سألت إن كنا سنفوز..

ضحك (الحظ) إذ نهضت (فيال).

ساعدتها على إرجاع التماثيل لموضعها.. ثم جلسنا وسألتها:

- هل أبحث عن الحراس؟

أجابت:

- هناك حارس.. ربما اثنان.. أمير من أمراء (أمبر) وأخته اختارا لنفسيهما منفي اختياريًّا وقد قاما على حراسة جزء من هذه القوة.. من المفيد أن تتأكد من أنهما ما زالا حيين يؤديان عملهما..

- منفى اختيارى؟ لمه؟

- أسباب شخصية..

- إذن كيف نجدهما؟

- هناك ورقة لعب رابحة..

ونهضت وفتحت صندوقًا به عدة أدراج، فأخرجت منه مجموعة أوراق لعب.. انتزعت ورقة وقدمتها لي.. عليها رجل نحيل له شعر بلون الصدأ.. وقالت:

- اسمه (دلوين)..

- وتتوقعين أن أبحث عنه وأسأله إن كان يحتفظ بما يجب أن يحتفظ به؟

قالت لى:

- قل له على الفور إنك لست من (أمبر).. لكن أخبره بنسبك..

قلت لها:

- نعم..

ولم أرغب في أن أخبرها أنني تكلمت معه من قبل وأنا أطلب حلفاء في حربي ضد (أمبر).. لقد رفض على كل حال، لكنى لا

أرغب في أن أقحم (فيال) في هذا..

- سوف أجرب..

سوف أقابله حالاً.. وعملت على أن يتم اتصال بيننا..

أولاً شعرت بالبرد ثم شعرت بوجود شخص.

- من هذا؟

سمعت السؤال قبل أن يتخذ الشكل عمقًا وحياة..

أجبت وأنا أشعر بالبطاقة تدب فيها الحياة:

- أنا (لوك رينارد) الذي يعرف على الأرجح بـ (رينالدو).. ملك (كاشفا) وبكالوريوس إدارة الأعمال من جامعة (كاليفورنيا) في (بيركلى)..

وتلاقت عينانا.. لم يبد عدوانيًا ولا ودودًا..

- أردت أن أعرف إن كنت ما زلت تحتفظ بالـ (سبيكارد)

- (لوك رينارد).. ما دورك في هذا الموضوع وكيف بلغ علمك؟

أجبت:

- أنا لا أنتمي لـ (أمبر) لكن أبي ينتمى.. أعرف أن الأمر سيكون مهمًا هنا لأن (مرلين) ابن (كوروين) يريد وراثة العرش في بلاط الفوضى..

أجاب (دلوين):

- أعرف (مرلين).. من أبوك؟

- الأمير (براند)..

- ومن أمك؟

- السيدة (جاسرا).. ملكة (كاشفا) السابقة.. هل يمكن أن نتكلم عن موضوعنا؟

- لا .. لا يمكن..

ومد يده ليقطع الاتصال فصحت:

- انتظر! هل عندك فرن ميكروويف؟

تردد وقال:

- ماذا؟

- إنها أداة كالصندوق يمكنها طهى وجبة في دقائق.. لدى تعويذة تجعل هذه الأشياء تعمل في عالم الظل.. تصحو في منتصف الليل مشتاقًا إلى كسرولة من التونة الساخنة التي يتصاعد منها البخار.. تأخذ واحدة من الثلاجة وتضعها فيه.. ما هي الثلاجة؟ سرني أن تسأل.. إنها صندوق آخر فيه شتاء أبدى.. يمكنك أن تخزن الطعام فيها.. بوسعي أن أحضر لك واحدة منها.. أنت لا تريد الكلام عن (السبيكارد)، ليكن.. أنا أتكلم في الأعمال.. يمكن أن أوفر لك هذه الاختراعات بسعر يفوق أي واحد آخر.. ثق أنك لن تجد موردًا آخر وليس هذا آخر ما بوسعى تقديمه..

- آسف..

صحت وهو يقطع الاتصال:

- عد هنا!

لكن صورته عادت ثنائية الأبعاد وعادت لدرجة حرارة الغرفة..

قلت لـ (فيال):

- أنا آسف.. أردت أن أقنعه لكنه لم يكن يبغي شراء شيء..

- بيني وبينك لم أتوقع أن تبقيه كل هذا الوقت.. لكن أكاد أقطع أنه كان مهتمًا بك إلى أن ذكرت أمك.. عندها بدأ يتغير..

- لا يدهشني هذا.. لكن أفضل أن أجرب مرة أخرى..

- يمكنك الانتظار هنا من أجل......

- من أجل (كوروين)؟

- سوف تكون أول من يجرب الغرف الجديدة.. لقد أجرينا تغييرات كثيرة منذ المواجهة الأخيرة بين (النمط) و(لوجراس).. سوف أستدعى خادمًا يساعدك على الاستقرار.. هناك من سيناديك لتناول العشاء معى بعد قليل، وسوف نتكلم في الفنون..

- هذا رائع..

وتساءلت عما يفضي إليه هذا كله. يبدو أن الصورة ستتغير بشكل مذهل من جديد.

سرني أن (دلوين) لم يهتم بالميكروويف على كل حال.. كانت تعويذة استحضار هذا الأخير عسيرة حقًّا..

∞∞∞∞∞∞

حكاية الحبل (يحكيها حبل مرلين)

ليس من الممتع أن تجد نفسك مقيدًا إلى فراش.. لقد دخلت طور الظهور والاختفاء بلا تحكم في نفسي، على أننى شعرت بأنني أستعيد قدرتي على التخاطر..

ظلت قدراتي على الحس موجودة منذ بدأت رحلتى مع (مرلين) في عالم الظلال.. لكني صدمت عندما عدت لهذا الواقع. الآن أشفى ببطء برغم أن بعض الأحاسيس كانت أبطأ من غيرها.. واحتجت لوقت أطول من اللازم كي أفك عقدتي.

أنا (فاكير) الحبل الخاص بـ (مرلين) سيد (أمبر) وأمير الفوضى.. ما كان ليتركني في ظروف طبيعية في ديار (براند) أمير (أمبر) المتوفى، لكنه كان تحت تأثير تعويذة صغيرة..

إلا أن (مرلين) ميال لـ (براند) الذي يعرف أيضًا باسم (لوك) بسبب صحبتهما الطويلة.. لابد أنه تخلص من التعويذة الآن، لكن هذا تركني في حالة مرتبكة..

لم أحب الانتظار وسط كل عمليات البناء والتجديد هذه.. ربما يتخلصون من الفراش وأنا مربوط به..

فرغت من فك عقدتي.. على الأقل لم يستعمل (مرلين) السحر في ربطي.. لكنها كانت عقدة محكمة أتعبتني في فكها برغم كل شيء..

انزلقت إلى الأرض مستعدًّا للفرار لو ظهر ناقلو الأثاث.. خرجت من غرفة (براند) إلى غرفة (مرلين) متسائلًا عن سر ذلك الخاتم الذي وجده وارتداه.. (السبيكارد)..

كان من الواضح أنه يتمتع بقوى عظمى ويستمدها من مصادر.. إن له طبيعة كالسيف المدعو (ويروندل) برغم أنهما يختلفان بالنسبة لعيون البشر..

عبرت الغرفة.. بوسعي أن أتحرك كأفعى لو أردت.. لا أقدر على الحركة كما يفعل الباقون.. كانت مشكلتي هي أن عليّ الالتزام بسياسة الأسرة في السرية في كل شيء، لهذا لا يعرف كثيرون بوجودى.

لذات السبب لا أعرف أماكن سكنهم باستثناء (مرلين) و(براند) و(راندام) و (فيال).. اتجهت نحو مكان إقامة (مارتين) وانزلقت تحت الباب. كانت هناك ملصقات لنجوم الروك على الجدران دعك من السماعات المتصلة بمشغل أقراص مدمجة سحرى.. لكنه لم يكن هناك للأسف..

رحت أمشي في الردهة بحثًا عن صوت مألوف.. أنظر تحت الأبواب.. وفجأة سمعت (فلورا) تصيح من وراء باب:

- أوه يا أخي..

زحفت في هذا الاتجاه فهي من القلائل الذين يدركون وجودى..

كان بابها موصدًا لكني مررت من تحته لغرفة مزخرفة، وكانت هي هناك تصلح ظفرًا مهشمًا بمادة لاصقة ما.. زحفت نحوها محتفظًا بحالة الخفاء ولففت نفسي حول كاحلها..

مرحبًا.. أنا (فاكير).. صديق (مرلين).. هل تسمعينني؟

بعد لحظة صمت قالت:

- أهلًا فاكير.. ماذا حدث؟ ماذا تريد؟

شرحت لها أن الجميع تخلوا عني.. و(مرلين) تحت تأثير تعويذة جعلته ينساني.. أريد الاتصال به. أريد أن أعود لألتف حول معصمه.

قالت:

- سأجرب مع ورقة اللعب الخاصة به.. لكن لو كان في بلاط الفوضى فلن أتمكن من الاتصال به..

فتحت درجًا وسمعتها تقلب أوراق اللعب.. وقالت بعد قليل:

- معذرة.. لا أستطيع الاتصال به..

قلت لها إننى شاكر على المحاولة.

سألتني:

- متى انفصلت عن (مرلين)؟

كان هذا يوم التقت القوى في قاعة الظلام..

- وما هي خططك؟

أريد العودة إلى (مرلين).. إن الخطر يحيط به وأنا حساس لهذه الأمور..

قالت:

- ليكن.. سأجد طريقة، لكن قد أحتاج إلى بضعة أيام..

قلت لها إننى سأنتظر فليس لدى الخيار..

- أرحب ببقائك معى حتى ذلك الحين..

وجدت منضدة مريحة فالتففت حول واحدة من أرجلها، ودخلت في حالة سكون.. ليس هذا نومًا لأننى لم أفقد وعيى.. لكنى كذلك لم أدخل في حالة التفكير التقليدي.. فقط ادخرت وعيى حتى يحتاج له أحد. لا أعرف كم لبثت ملتفًا هناك... فقط كنت وحدى في قاعة الجلوس أسمع تنفس (فلورا) في غرفة مجاورة..

فجأة صرخت.. هذه المرة فككت نفسي وزحفت نحو غرفتها..

هنا سمعت صوتًا يقول:

- آسف.. أنا مطارد ولا حل أمامي سوى أن أدخل بلا دعوة..

سمعتها تسأله:

- من أنت؟

قال:

- أنا ساحر.. كنت أختبئ في مرآتك منذ زمن.. أنا مغرم بك..

- إذن أنت مجرد بصاص!

- لا.. فقط أعتقد أنك امرأة بارعة الجمال وأنا أحب أن أراك..

قالت:

- كانت هناك طرق عديدة للتعارف..

- لكن هذا كان سيدمر حياتي..

- إذن أنت متزوج؟

- أسوأ من هذا.. فقط لا وقت للشرح.. أنا أشعر به يقترب..

- ما هو؟

- الجيسل.. أرسلت واحدًا ليقتل ساحرًا لكنه انتصر عليه وأرسل واحدًا في أثري.. لا أعرف كيف أدمره ولسوف يخرج من المرآة حالًا ليفتك بنا.. هل لديكم هنا بطل طموح للظفر بوسام شجاعة؟

- لا أظن.. آسفة..

هنا بدأت المرأة تسود.. فصرخ:

- إنه آت!

أمكنني أن أرى الشيء.. كان عملاقًا يشبه الدودة بلا عينين، لكن له فم قرش وأرجلاً عديدة قصيرة.. كان طول الإنسان مرتين وأسود اللون..

قالت (فلورا):

- هل تعنى أنه سيقتحم المرآة ويهاجمنا؟

- نعم..

قلت لـ (فلورا) أن تلقى بي نحوه.. سوف أتسلق حتى أبلغ حلقه..

قالت:

- لا بأس.. وهناك شيء آخر..

- ما هو؟

صرخت:

- النجدة! النجدة!

بدأ الشيء يزحف خارجًا من سطح المرآة الفضى ففكتنى (فلورا) من كاحلها وألقت بي على الشيء.. لم يكن له عنق حقيقي لكني اعتصرته تحت الفم وبدأت أضيق نفسي..

واصلت هي الاستغاثة، ومن مكان ما سمعت صوت خطوات ثقيلة.

أحكمت قبضتي لكن عنق المخلوق كان كالمطاط..

كان الساحر على وشك مغادرة الغرفة حينما انفتح الباب وظهر (لوك) أحمر الشعر.. وقال:

- (فلورا)..

ثم رأى الجيسل فجرد سيفه.. كنت الآن أشعر بالسيف يتألق بضوء غريب وأدركت هنا أنه لم يكن مجرد سيف عادي.

وقف (لوك) بين (فلورا) والجيسل.. وسمعت الساحر يتساءل:

- ما هذا السيف؟

أجاب (لوك):

- اسمه (ويروندل)

- وأنت؟

- أنا (لوك) أو (رينالدو) ملك (كاشفا)..

- ومن أبوك؟

- (براند).. (أمير أمبر)..

قال الساحر وهو يتجه إلى الباب:

- بوسعك تدمير الشيء بهذا السلاح.. مره بأن يسحب الطاقة وأنت تستعمله..

- لماذا؟

- لأنه ليس سيفًا..

- ما هو إذن؟

نظر الساحر إلى الجيسل الذي يتقدم نحونا، وقال:

- آسف.. الوقت ضيق.. يجب أن أجد مرآة أخرى..

وأدركت أنه يغيظ (لوك) لأن بوسعه الإجابة، فهذا لن يستغرق إلا ثانية لو أراد الكلام حقًّا..

فككت نفسي بسرعة لأن (لوك) كان يطوح بسيفه ولم تكن لدي رغبة في أن أقطع.. لا أعرف ما سيحدث لو أن هذا جرى لي.. هل يمكن لقطعتي الحبل أن تعقدا لتصيرا حكيمتين مثلى أنا؟ أم أنني سأدمر في هذه العملية؟

هويت على الأرض قبل أن تهوى الضربة..

وسقط جزء من رأس الجيسل في اللحظة ذاتها وهو يتلوى.. التقطت (فلورا) مقعدًا وهوت به على رأس الشيء بكل قوتها برغم ظفرها المكسور.. في اللحظة ذاتها شطر (لوك) الوحش إلى شطرين..

زحفت نحو كاحل (لوك) الأقرب لي والتففت حوله..

- هل تسمعنى يا (لوك)؟

- من أنت؟

- أنا حبل (مرلين)..

ضرب مؤخرة الوحش التي كانت تقترب منه.. فسال سائل مقزز منه.. وتحاشي قطعة تحاول أن تنقض عليه..

قلت له إن بوسعه أن يهزم عالمًا كاملًا بسيفه هذا..

ضرب قطعة أخرى فتلاشت وسط اللهب الأزرق.. وصاح:

- فلورا! تراجعى!

قال وهو يواصل الهجوم:

- إننى أنتصر عليه! لكن لا أعرف لماذا يعمل السيف بهذه الطريقة..

قلت له إنه ليس سيفًا..

- إذن ما هو؟

قبل أن يصير هذا سيفًا كان هو (السبيكارد)..

- سبيكارد؟ مثل الخاتم الذي وجده (مرلين)؟

بالضبط..

سرعان ما تخلص من باقي الجيسل..

- يجب أن أبحث عن ذلك الساحر الآن وإن كنت أعتقد أنه توارى في أقرب مرآة..

أعتقد هذا أيضًا.. لكن ما اسمه؟

لم يقل..

ابتسمت له (فلورا) إذ انطلق للبحث عن الساحر. لكن هذا الأخير لم يظهر..

قلت له إن الساحر غادر المرآة، لكن هل توجد طريقة لمنع هذا البصاص من التسلل إلى مرايا (فلورا) مرة أخرى؟

قال (لوك):

- أعتقد أن هذا ممكن.. وماذا عنك؟

أرغب في العودة إلى (مرلين)..

- ربما كان بوسعنا إرسالك بورق اللعب ما لم يكن في بلاط الفوضى كما أعتقد.. ربما أجرب استخدام السيف..

ثم سألني:

- ماذا تعتقد أنه يدور هنا؟

قلت له:

- شيء مرعب وخطر.. الكثير من الدم والرعد والموت لنا جميعًا..

قال (لوك):

- أوه! الشيء المعتاد..

أجبته: بالضبط.

∞∞∞∞∞

الحصان الأزرق والجبال الراقصة (يحكيها كوروين)

قضيت ليلة في الآبار المشتعلة.. ثم هربت من أشباح الدخان عبر مرتفعات (أرتين).. قتلت زعيمة (شيرن) عندما طاردني جنودها بين قمم الجبال، تحت مطر أخضر ينهمر من سماء بلون الإردواز.

مضيت عبر الوديان التي تعج بشياطين الغبار، التي تنشد أناشيد حزينة عن الصخور التي كانت يومًا ما منها..

في النهاية توقف حصاني الشرس (شاسك) الحصان الأزرق القادم من مملكة الفوضى وأطل على الرمال القرمزية.

سألته:

- ما الخطب؟

أجاب:

- يجب أن نعبر هذه الرمال كى نبلغ الجبال الراقصة..

- وما طول هذه الرحلة؟

أجاب:

- أكثر ما تبقى من اليوم.. إن الطريق أضيق ما يكون هنا.. لسوف نبلغ الجبال بأنفسنا لكن علينا أن نعبر أكثر البقاع نشاطًا..

رفعت قربة السوائل وهززتها، وقلت:

- الأمر يستحق.. المهم ألا يبلغ رقص الجبال درجة الزلزال..

- لا.. لكن هناك في الشق العظيم الذي يفصل (أمبر) عن مملكة الفوضى يوجد نشاط طبيعي حيث يلتقيان..

- لست غريبًا عن عواصف الظل.. يبدو الأمر كذلك.. هناك عاصفة ظل دائمة.. لكنى أفضل لو اخترقناها بسرعة بدلاً من أن نخيم هنا..

قال:

- أخبرتك يوم اخترتني يا لورد (كوروين) أنني قادر على حملك أبعد مما تستطيع أية دابة أخرى.. لكن في الليل أتحول إلى أفعى لا تتحرك.. أصير صخرة صلبة، باردة كقلب شيطان.. وأذوب وأستعيد حيويتي عند الفجر..

قلت له:

- نعم.. أذكر هذا.. لقد خدمتني بأمانة كما قال (مرلين)، فلربما كان من الحكمة أن نبيت هنا الليلة ونعبر غدًا..

- متى جاء الليل لم يعد يهم أين نمضى ليلتنا، فلسوف يرقص الظل حولنا في كل مكان.. ترجل الآن وفك السرج وانزع الركاب.. فلربما أتحور أنا..

سألته وأنا أثب إلى الأرض:

- تتحور إلى ماذا؟

- أعتقد أنني لو تحورت إلى سحلية لواجهت هذه الصحراء بشكل أفضل..

- لتكن مستريحًا.. لتكن كفؤًا يا (شاسك).. لتكن سحلية..

رفعت عنه ما يحمله.. من الجميل أن يشعر بالحرية ثانية..

لقد تحول إلى سحلية زرقاء، فصار بالغ السرعة ولا يتعب على الإطلاق.. لقد عبر بنا الرمال وضوء الشمس موجود.. وقد توقفت أنظر إلى الطريق الصاعد إلى الجبال، فقال في صوت كالصفير:

- كما قلت لك يمكن أن تجدنا الظلال في أي مكان هنا.. ما زلت أملك من القوة ما يسمح لنا بالمضى ساعة أو أكثر قبل أن نخيم ونستريح ونأكل.. ما خيارك؟

قلت له:

- امض..

غيرت الأشجار شكلها أمام عيني وكان الدرب متعرجًا غير منتظم بشكل يجلب الجنون.. وكان يتغير تحت أقدامنا..

الفصول تأتي وترحل.. جليد يتبعه هواء حار.. ثم أزهار تنبئ بقدوم الربيع..

كنا نرى أحيانًا طرقًا سريعة وأبراجًا ورجالًا معدنيين.. ثم يزول هذا كله في لحظات.. ثم تتلاشى الرقصة ونعود لنقطع مجرد درب في الجبال..

في النهاية أقمنا معسكرنا في منطقة مغطاة قرب قمة جبل.. احتشدت السحب بينما نحن نلتهم طعامنا.. وسمعنا الرعد من بعيد..

حول (شاسك) نفسه إلى أفعوان عظيم مجنح والتف على نفسه قربي.

إذ سقطت أولى قطرات المطر، قلت له:

- عمت مساء يا (شاسك)..

قال بنعومة:

- وأنت يا (كوروين)..

رقدت على ظهري وأغمضت عيني ونمت على الفور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كم نمت؟ لا أعرف.. لكني صحوت على كل حال على صوت الرعد يدوى.. بدا كأنه فوق رأسي بالضبط.

وجدت نفسي أجلس وأحاول الوصول إلى سيفي (جرايساوندير) الذي أغرقه الماء.. وقبل أن تموت الظلال.. هززت رأسي وجلست أصغى.. بدا أن هناك شيئًا مفقودًا لكني لم أدر ما هو..

جاء ضوء ساطع مع ومضة برق. وسمعت الرعد يدوى.

رحت أنتظر المزيد.. لكن لم يأت إلا الصمت.. الصمت..

أخرجت رأسي من الخيمة.. لقد توقف المطر.. فهمت ما هو مفقود.. إنه صوت ارتطام القطرات..

تصلبت عيناي على بريق من خلف القمة التالية.. لبست حذائى وفارقت المأوى.. علقت سيفي وربطت العباءة حول عنقى. يجب أن أتقصى.. في مكان كهذا يعتبر أي شيء يتحرك خطرًا محتملًا..

لمست (شاسك) فوجدته كقطعة حجر فعلًا.. شققت طريقي إلى حيث كان الدرب. كان ما زال هناك برغم أنه صار ضيقًا فوضعت قدمى عليه وصعدت..

بدا أن مصدر الضوء الذي أقصده يتحرك بشكل طفيف.. وعلى البعد بدا أننى أسمع صوت هطول المطر.. ربما كان يسقط على الجهة الأخرى من القمة.

إذ تقدمت اقتنعت أن العاصفة تهب في موضع ليس بالبعيد.. يمكنني أن أسمع صوت رياح الصباح وسط انهمار المطر..

فجأة استوقفني ضوء ساطع من وراء القمة.. ومعه دوى الرعد.. توقفت للحظة.. وفي هذا الوقت والدوى في أذني أعتقد أنني سمعت صوت ضحكات مدوية.

بصعوبة استطعت بلوغ القمة.. على الفور هبت على الريح حاملة الكثير من الرطوبة.. أغلقت عباءتي وعقدتها من الأمام بينما أتقدم للأمام..

بضع خطوات ثم رأيت فجوة عن يساري.. كانت تضيئها أنوار مستديرة..

كان اثنان بداخلها.. أحدهما يجلس على الأرض والآخر كان معلقًا مقلوبًا في الهواء، بلا شيء يربطه أو يحمله..

اخترت أكثر الطرق المتوارية وتقدمت نحوهما..

فقدتهما أكثر الوقت لأن الطريق الذي مشيت فيه أخذنى وسط أشجار كثيفة. لكنى أدركت فجأة أننى اقتربت عندما كف

المطر عن الهطول ولم أعد أشعر بالريح..

كأنني دخلت العين الساكنة لإعصار..

واصلت زحفي على بطني. وأنا أختلس النظر بين الأشجار إلى العجوزين.. كانا يراقبان مكعبات لا مرئية للعبة ثلاثية الأبعاد..

قطع على رقعة على الأرض بينهما..

كان الجالس على الأرض أحدب.. كان يبتسم وقد عرفته على الفور.. كان هذا (دوركين باريمن) سلفي الأسطوري وقد عرفته على الفور.. امتلأ بالسنين والحكمة والقوى الكونية.. إنه من صنع (أمبر) و(النمط) وأوراق اللعب.. للأسف شعرت خلال تعاملي معه في الأعوام الماضية أنه مخبول نوعًا..

كان (مرلين) قد أكد لي أن الرجل شفي لكنني لم أكن متأكدًا.. إن هؤلاء العظماء يمتازون بنوع من المنطق غير التقليدي.. يبدو أن الأمور هكذا دومًا..

الرجل الآخر كان ظهره لي.. انحنى للأمام وحرك قطعة هي أقرب شبهًا بالبيدق.. إنها تمثل وحش الفوضي الذي يطلقون عليه (ملاك النار)..

حين تمت الحركة التمع البرق من جديد ودوى الرعد وشعرت بقشعريرة..

انحنى (دوركين) للأمام وحرك واحدة من قطعه، وتدعى الـ (ويفرن).. من جديد دوى البرق والرعد..

لاحظت أن وحيد القرن (اليونيكورن) يقف في مكان الملك بين قطع (دوركين).. يمثل القصر في (أمبر)..

أما قطعة الملك لدى منافسه فكانت على شكل أفعوان واقف هو (الثلبان).. قصر ملك عالم الفوضى العظيم الشبيه بالمسلة..

حرك خصم (دوركين) قطعة وهو يضحك، وقال:

- (ماندور)..

يبدو أنه يحسب نفسه صانع ملوك ومحرك دمى..

بعدما دوى الرعد والبرق حرك (دوركين) قطعة، وقال:

- كوروين..

- قد تحرر من جديد..

- نعم.. لكنه لا يعرف أنه في سباق مع قدره.. أشك في أنه سيعود بسرعة إلى أمبر ليدخل قاعة المرايا.. وبدون مساعدة المرايا ما مدى فعاليته؟

وابتسم (دوركين) ورفع عينيه..

للحظة شعرت بأنه ينظر لي مباشرة، ثم قال:

- أعتقد أن هذا الوقت مناسب جدًّا يا (سوهوى).. لقد وجدت أجزاء كثيرة من ذاكرته وأنا أتنقل في (ريبما).. أتمنى لو نلت قدرًا من الذهب في كل مرة أعطيناه فيها أقل من قدره..

سأله الآخر:

- ما جدوى هذا لك؟

وضحك الرجلان ودار (سوهوى) حول نفسه عكس عقارب الساعة 90 درجة..

ارتفع (دوركين) في الهواء ومال للأمام حتى صار موازيًا للأرض.. وراح ينظر إلى اللوح..

مد (سوهوى) يده لقطعة ذات شكل أنثوى، وسحبها..

ومن جديد حرك ملاك النار..

راح الهواء يتأجج نارًا لكن (دوركين) حرك قطعته.. لذا دوى الرعد وسطع البرق..

قال (دوركين) شيئًا لم أتبينه.. فكان رد (سوهوى) على الاسم هو:

- لكنها من مخلوقات عالم الفوضى!

- وما في ذلك؟ لا توجد قواعد تمنع هذا.. دورك..

قال (سوهوى):

- أريد أن أدرس الموقف بعض الوقت..

قال (دوركين):

- خذه معك.. هاته مساء غد..

- أنا مشغول.. ربما الليلة التالية؟

- سأكون مشغولًا.. ربما بعد ثلاث ليال؟

- ليكن.. حتى ذلك الوقت..

- عمت مساء..

أعماني البرق الذي تلى هذا.. وشعرت بصمم للحظات طويلة..

فجأة شعرت بالريح والمطر.. وحين صفت الرؤية رأيت أن الفجوة خالية..

تراجعت إلى معسكري الذي عاد له المطر..

نهضت في الفجر وتناولت الإفطار بينما انتظرت أن يتحرك (شاسك).. ولم تبد لي أحداث الليلة كحلم..

قلت لـ (شاسك) فيما بعد:

- هل تعرف معنى (رحلة الجحيم)؟

أجاب:

- سمعت عنها.. طريقة سرية للسفر مسافات هائلة في أقصر وقت.. يستعملها آل (أمبر).. يقال إنها خطرة وتؤثر سلبيًّا على القدرات العقلية للخيول الأصيلة..

- أعرف أنك مستقر نفسيا وعقليًّا..

- ولكن.. شكرًا لك.. لماذا العجلة؟

قلت:

- أنت نمت أثناء عرض ممتاز.. والآن على أن ألحق بمجموعة من الانعكاسات في المرايا قبل أن تتلاشى..

- لو كان هذا ضروريًّا..

- نحن نطارد القدر الذهبي يا صاحبي.. فلتنهض ولتغد حصانًا..

∞∞∞∞∞

قاعة المرايا (يحكيها كوروين)

لم يلحظ أحدنا أي تغيير إلى أن نصب لنا ستة رجال كمينًا.. كنا قد أمضينا الليل في الجبال الراقصة، أنا و(شاسك) وقد حضرنا اللعبة العجيبة بين (دوركين) و(سوهوى).

كنت أسمع أشياء غريبة عما يحدث للذين يمضون الليل هناك، لكن لم يكن لدى الخيار.. كان الجو عاصفًا، وكنت منهكًا فلم أتابع اللعبة برغم أنهم كانوا يتكلمون عنى باعتباري طرفًا فيها..

في الصباح عبرت أنا وحصاني الأزرق (شاسك) منطقة الظل التي تفصل (أمبر) عن عالم الظلال..

من بين حزام الصخور على جانبي الطريق نهض رجلان وصوبا قوسيهما نحونا.. ثم ظهر اثنان أمامنا.. كان أحدهما يحمل سيفًا جميل الشكل مسروقًا بلا شك إذا وضعت في الاعتبار مهنة الرجل الواضحة..

قال حامل السيف:

- توقف ولن نؤذيك..

جذبت اللجام.. عندما يتعلق الأمر بالمال فأنا الآن مفلس..

قال القائد:

- إن طريقتنا في كسب العيش شاقة؛ لذا نستولى على أي شيء نقدر عليه..

قلت لهم:

- ليست فكرة طيبة أن تترك رجلًا مفلسًا.. بعض الناس يحملون الضغائن..

- أكثرهم لا يرحلون من هنا..

- يبدو هذا كحكم بالموت..

لم يعلق، وقال:

- سيفك هذا يبدو جميلًا.. دعنا نره..

- لا أراها فكرة طيبة..

- لماذا؟

- لو سحبته من غمده لكانت نهايتك..

ضحك.. وقال وهو ينظر يمينًا ويسارًا:

- يمكن أن نأخذه من جثتك..

- ربما..

- فلنره..

- لو كنت مصرًّا..

وسحبت سيفي (جرايساوندير).. واتسعت عيون الرجال وهم يرونه يرسم قوسًا يتجه نحو عنق الرجل.. خرج سيفه بينما سيفي يشق طريقه في عنقه، وهوى سيفه على (شاسك) ومزق كتفه.. لكن الضربتين لم تؤذيا أحدًا..

سألني الرجال:

- هل أنت ساحر؟

لقد شق سيفي طريقه في ذراعه، لكنه لم يحدث أي أذى..

- لست بالساحر الذي يفعل أشياء كهذه.. وأنت؟

- لا.. ماذا يحدث هنا؟

أعدت (جرايساوندير) إلى غمده، وقلت:

- والآن اذهبوا لتضايقوا شخصًا آخر..

وجذبت اللجام فصرخ الرجل:

- أسقطوه!

أطلق الرجال على الجانبين سهامهم.. وطارت أربع القذائف عبر جسد (شاسك) لتصيب الرجال على الجانب الآخر..

ضربني المعتدى الأول بالسيف لكن الضربة لم تحدث شيئًا..

وانطلق (شاسك) يجرى وتجاهلنا شتائمهم ونحن نبتعد..

قلت:

- من الواضح أننا في وضع غريب..

قال (شاسك):

- كنت أحسبك تبحث عن المتاعب.. على كل حال أرى أن وقت انتزاع التعويذة قد حان..

- تبًّا! هذا يؤلم..

- إنه أفضل من أن تبقى في حالة غير مادية..

استمررنا في الركوب فلم نلق أحدًا آخر في ذلك اليوم.. لم أشعر بالصخر تحتى إلا عندما تدثرت في عباءتي ونمت.. لماذا أشعر بها ولا أشعر بالنصال والسهام؟

تثاءبت وتمددت..

فرغت من الاغتسال صباحًا ثم انطلقنا.. كان (شاسك) معتادًا على الركوب في الجبال.. وقد سألني:

- ماذا تنوى عمله متى بلغنا (أمبر)؟

- لم أقرر بعد.. كنت أجول.. وإننى لسعيد بمصاحبة حصان مثلك..

- الشرف لي يا لورد (كوروين)..

مررنا بظل تلو ظل.. تراجعت الشمس وغطت السحب السماء الجميلة.. وفي المساء قضينا ليلتنا ولم تزرني أية أحلام..

تحركنا مبكرًا في اليوم التالي وجربت كل طريق مختصر يقصر رحلتنا عبر مملكة الظلال.. كان من الجميل أن أعود لقومي برغم أن (شاسك) لا يستريح لهم..

مررنا بنار تشتعل في الجبال، وماء يتساقط فوق منحدر، وفي المساء شعرت بالمقاومة.. تلك المقاومة التي يحسها المرء عندما يدخل منطقة الظلال قرب (أمبر).. قضينا ليلتنا في بقعة كان الطريق الأسود يجرى فيها..

في اليوم الثاني تقدمنا ببطء.. لكن ازدادت الظلال السود.. لم أر (جوليان) لكني سمعت بوق الصيد الخاص به يدوّى في الليل.. شعرت بالحنين.. لقد اقتربت من الوطن فعلًا..

في الصباح نهضت قبل الشروق وأعددت لنفسي شايًّا.. لقد نفدت المؤن لكننا نقترب جدًّا من الخصوبة.. أطعمت (شاسك) بعض التفاح وطلبت منه أن يستعيد صورة الحصان بدلاً من شكل السحلية الزرقاء التي اتخذها..

قال لي:

- سوف تحتاج إلى حصان جيد يا لورد (كوروين) وإننى لأتطوع لهذه الوظيفة..

- هذا يشرفني.. فأنت متميز حقًّا..

تسلقنا مرتفعات (كلوفير) ثم اخترقنا أرض (أمبر).. وهناك تركت (شاسك) في إسطبل جيد.. وودعته..

توجهت إلى القصر.. كان هذا يومًا رطيبًا غائمًا والهواء البارد يهب من جهة البحر..

دخلت عن طريق المطبخ حيث كانوا يعملون.. لم يعرفني أحد برغم أنهم لاحظوا دون شك أنني لست غريبًا..

على الأقل ردوا تحياتي باحترام.. سألوني إن كنت أرغب في طعام يرسل لغرفتي فأجبت بنعم.. طلبت دجاجة وزجاجة عصير.. راحت كبيرة الطهاة وهي امرأة حمراء الشعر تدعى (كلير) تتفحصني في عناية، وبخاصة الوردة الفضية على عباءتى..

لم أرد الإعلان عن هويتي لحظتها.. أردت أن أستمتع بالعودة.. لكني لاحظت أن الممر إلى الغرف مسدود بأدوات النجارة لكن لا يوجد عمال..

درت حول المطبخ لأدخل من الباب الرئيس.. كانت هناك عملية إصلاح بالخارج.. وبحثت حتى وجدت مكان سكنى وكدت أدخل لولا أن لحق بي شخص ضخم أحمر الشعر..

صاح:

- (كوروين).. ماذا تفعل هنا؟

إذ اقترب رأيت أنه ينظر لي باهتمام.. بادلته النظرة.. وقلت:

- لا أحسبني نلت الشرف..

- هلم يا (كوروين).. ألست أنت من أشباح (النمط)؟ (مرلين) حكى لى عنهم..

شمرت الثياب عن معصمي، وقلت:

- اجرحني ولسوف تجدني أنزف..

ظل يرمق ساعدي في اهتمام.. حتى حسبته سيجرب.. ثم قال:

- ليكن.. مجرد خدش من أجل أغراض الأمن..

- ما زلت لا أعرف مع من أتكلم..

انحنى، وقال:

- آسف.. أنا (لوك) من (كاشفا).. أحيانًا أدعى باسم (رينالدو) الأول.. لو كنت أنت من تزعم فأنا ابن أخيك.. أبي كان أخاك (براند)..

تفحصته فتبين لي التشابه.. مددت له يدى، وقلت:

- هيا..

- هل أنت جاد؟

- جدًّا..

سحب سكينًا من حزامه ونظر في عيني.. ثم طعن ساعدى بطرفها فلم يحدث شيء.. أعنى أن شيئًا حدث لكنه غير متوقع ولا مستحب..

لقد غاص طرف سكينه نصف بوصة في لحمي ثم اخترقه بالكامل بلا قطرة دم..

جرب من جديد بلا جدوى.. قال:

- اللعنة.. لا أفهم.. لو كنت شبحًا لتوهجت لكن لا أرى علامة عليك..

سألته:

- هل لي أن أستعير هذا النصل؟

- طبعًا..

أولجت المدية في معصمي نحو ثلاثة أرباع البوصة، من ثم انبثق الدم.. فقال:

- فلتحل بي اللعنة.. ما معنى هذا؟

- هذه تعويذة أصابتني حينما أمضيت الليل في الجبال الراقصة..

- هم م.. لم أنل هذا الشرف لكنى سمعت قصصًا.. لا أعرف سبيل الخلاص من هذه اللعنة.. إن غرفتي في المقدمة.. لو تكرمت بالقدوم معى لبحثنا عن حل لهذه المعضلة.. لقد درست السحر مع أبي وأمي (جاسرا)..

- بل حجرتي هنا وفيها تنتظرني دجاجة وزجاجة شراب.. دعنا نجر التشخيص هنا أولًا..

ابتسم، وقال:

- أفضل عرض تلقيته منذ زمن.. لكن يجب أن أجلب بعض الأشياء من غرفتي..

- ليكن.. سأوصلك إلى هناك..

اتجهنا إلى غرفته فراح يفتش في جيبه بحثًا عن مفتاح.. ثم توقف وقال:

- كوروين..

- ماذا؟

أشار إلى الممر، وقال:

- حاملا الشموع هذان اللذان لهما رأس الكوبرا.. إنهما من البرونز على ما أظن..

- غالبًا.. وماذا عنهما؟

- كنت أحسبهما مجرد زخارف..

- هما كذلك..

- الآن أعتقد أن بينهما ممرًّا..

كنت قد بدأت أشعر بالحقيقة وأن هذا الشيء يناديني.. مشيت نحوه..

سألنى (لوك):

- ماذا هنالك؟

- قاعة المرايا.. إنها تأتي وتذهب.. إنها تجلب رسالة غامضة للشخص الذي تناديه..

- هل تنادينا معا أم تناديك أنت فحسب يا (لوك)؟

- لا أعرف.. أشعر أنها تناديني كما كانت تفعل في السابق.. لكن مرحبًا بك معى فلربما وجدت فيها ما يهمك..

- هل سمعت عن اثنين اجتازاها معًا؟

- لا.. لكن هناك مرة أولى دومًا..

كانت الشموع تتوهج على الجدران، والجدران تتوهج بمرايا لا حصر لها معلقة عليها.. خطوت للأمام وتبعنى (لوك)..

كانت أطر المرايا متنوعة الأشكال.. مشيت وأنا ألاحظ محتوى كل منها.. قلت لـ (لوك) أن يحذو حذوى.. فجأة تصلب (لوك) وتوقف ونظر لليسار، وقال صارخًا:

- أماه!

كان هناك انعكاس امرأة جميلة ذات شعر أحمر في مرآة يحيط بها إطار أخضر على شكل أفعوان.. كانت تبتسم وقالت:

- يسعدني أنك قمت بالشيء الصحيح وأخذت العرش..

سألها:

- هل تعنين هذا حقًّا؟

أجابت:

- نعم..

- ظننتك ستغضبين.. ظننتك أردته لنفسك..

- جربت.. لكن أهل (كاشفا) لم يحبوني.. مادام عرش (كاشفا) مع أسرتنا فعليك أن تعرف أنني مسرورة..

- هذا يسرني يا أماه.. سأتذكر ذلك..

استدار لي إذ اختفت، وابتسامة ساخرة خفيفة على شفتيه:

- هذه من المرات النادرة التي توافق فيها على شيء فعلته.. لكن.. ما مدى صدق هذه الرؤى؟ ما الذي رأيناه؟ هل كان هذا اتصالًا منها فعلًا؟

قلت:

- هي حقيقة.. إنها أشياء حقيقية برغم إنها سريالية غريبة.. هذا ما أعرفه..

من مرآة ذهبية الإطار على يميني رأيت شبح أبي (أويبرون).. فتقدمت خطوة..

قال:

- كوروين.. كنت أنت المفضل لدى لكنك كنت تجد دائمًا السبيل لتخيب أملى.. لا يجب أن يكلمك المرء كطفل بعد هذه الأعوام.. لقد قمت بالاختيار وبعض اختياراتك تدعوني للفخر.. كنت شجاعًا..

- شكرًا لك سيدي..

- أريد منك عمل شيء حالًا..

- وما هو؟

- أخرج خنجرك واطعن (لوك)!

تصلّبت..

قال (لوك):

- ربما كان هذا شبيهًا بمحاولتك إثبات أنك لست شبحًا..

قلت:

- لكني لا أبالي لو كنت شبحًا.. لا قيمة لهذا عندي..

تدخل (أوبيرون):

- ليس هذا.. هذا أمر مختلف..

- ما هو؟

أجاب (أوبيرون):

- من الأسهل أن ترى من أن تقول..

هز (لوك) كتفه، وقال:

- فلتطعن ذراعي..

- ليكن.. لنر كيف أن الرؤية خير من الكلام..

سحبت الخنجر الرفيع من حذائي طويل الرقبة، فشمر ساعده وطعنته طعنة خفيفة..

مر سلاحي في لحمه كأن الذراع من دخان..

صاح (لوك):

- تبًّا.. هذا معد!

قال (أويرون):

- لا.. إن لهذا معنى خاصًّا..

سأل (لوك):

- ومعنى هذا؟

- هلا سحبت سيفك من فضلك؟ هنا -

هز (لوك) رأسه واستل سيفا ذهبيا مميزا.. صدر منه

صوت جعل كل الشموع في القاعة تتراقص.. هنا رأيت أن هذا سيف أخى (براند).. (ويروندل)..

قلت:

- لم أر هذا منذ زمن..

- لوك.. هلا ضربت (كوروين) بسيفك؟

نظر لي (لوك) في دهشة.. فهززت رأسي.. صوب سيفه وضرب ذراعى فنزفت..

قال الصوت:

- دورك يا (كوروين)..

سحبت سيفى (جرايساونديز) فأصدر صوتا مميزا امتزج بصوت سيف (لوك)..

- اضرب (لوك)..

هز (لوك) رأسه فضربت ظهر يده بسيفي. رأيت جرحا وتعالت الضوضاء من سيفينا.. أعدت سيفي لغمده كى يصمت..

قال (لوك):

- هناك درس في مكان ما.. لكني لا أعرف ما هو..

قال (أويبرون):

- هذان السيفان أخ وأخت.. وهما مسحوران.. لهما سر..

فلتقل يا (كوروين)..

- هو سر خطير يا سيدى..

- جاء الوقت لمعرفته.. قل له...

قلت:

- ليكن.. في الماضي كانت هناك مجموعة من الخواتم تستعمل في تثبيت أرجاء مملكة الظلال..

قال (لوك):

- أعرف هذه الخواتم.. (مرلين) يلبس (السبيكارد)..

قلت له:

- حقا.. هذه الخواتم لها القدرة على امتصاص مصادر القوة في الظلال.. وهي مختلفة.. خواتمنا صارت سيوفا.. وهي لهذا قاتلة..

قال (أويرون):

- هذا حق.. مهما كان الصراع الذي ينتظرك والجانب الذي تحارب فيه، فأنت بحاجة لحماية خارقة ضد قوى رجل غريب الأطوار مثل (جورت).

سألت:

لكن كيف تزول هذه الحماية؟ وكيف نستعيد نفاذيتنا؟

أجاب:

- لن أقول.. لكن لابد أن هناك من يقدر على إخبارك ومهما حدث فبركاتي - التي لم تعد تساوى شيئا – أهبها لكما..

انحنينا له شاكرين وابتعدنا...

قلت:

- هذا رائع.. لي أقل من ساعة هنا وهأنذا قد انغمست في غموض (أمبر).

هز (لوك) رأسه.. وقال:

- يبدو لي أن مملكة الفوضى و(كاشفا) سيئتان بما يكفي.

ضحكت في خفة ونحن نواصل طريقنا وسط عشرات من برك الضوء.. لبضع خطوات لم يحدث شيء ثم رأينا وجها مألوفا في مرآة بيضاوية إلى يساري.

قالت:

- (كوروين).. أية سعادة!

- دارا!

قالت:

- يبدو أن قوة إرادتي أقوى من أي شخص يتمنى أن يراك سقيما.. لذا يجب أن أنقل لك أسعد الأخبار..

- وما هي؟

- أرى واحدا منكما يرقد وقد مزقه سيف الآخر.. ما أسعدني!

قلت لها:

- ليست لدى النية لقتل هذا الرجل.

قالت:

- هذا جمال الأمر.. لابد لواحد منكما أن يقتل الآخر كي يستعيد صفة النفاذية التي فقدها..

قال (لوك):

- شكرا.. لكني سأجد طريقة أخرى.. أمي (جاسرا) ساحرة بارعة..

بدا ضحكها كأنه يهشم واحدة من المرايا، وقالت:

- (جاسرا).. إنها من خدمي.. لقد عرفت ما عرفته عن طريق استراق السمع على.. هي لا تفتقر إلى الموهبة لكنها لم تتلق تدريبا كاملاً قط..

قال (لوك):

- أبي أكمل تعليمه..

راحت تنظر إلى (لوك) وبدا أن السرور يفارق وجهها..

قالت:

- ليكن.. سأنهي هذا النقاش معك.. أنا لا أحمل ضغائن ضدك لذا آمل أن أراك منتصرا..

قال:

- شكرا.. ليست لدى الرغبة في محاربة عمي لابد من شخص يقدر على رفع هذه التعويذة..

قالت:

- الأدوات نفسها وضعتك في هذا الوضع.. سوف ترغمك على القتال.. إنها أقوى من سحر الفانين..

- شكرا على النصيحة..

وغمز لها فاحمر وجهها في استجابة غير متوقعة.. ثم رحلت..

قلت:

- لا أحب ما سارت إليه الأمور..

- ولا أنا.. هل بوسعنا أن نستدير ونعود؟

هززت رأسى:

- هذا الشيء يمتصك..

مشينا عشر خطوات جوار نماذج مذهلة للمرايا، وبعض المرايا العتيقة المحطمة..

كانت هناك واحدة صفراء الإطار بجانب (لوك).. كانت عليها نقوش صينية محفورة.. هنا تصلبنا في طريقنا لأنني سمعت صوت أخي المتوفى (إريك)..

قال بضحكة مدوية:

- أرى مصيركما.. يمكن الآن أن أرى أرض القتال بينكما..

سيكون الأمر مسليا يا أخي.. لو سمعت ضحكا وأنت تحتضر فاعلم أنه ضحكي..

قلت:

- كنت دوما تجيد المزاح.. بالمناسبة أرجو أن ترقد في سلام.

تفحص وجهي، وقال:

- أخ مجنون..

وأشاح بوجهه عنى..

ثم سألني (إريك):

هل هذا هو (لوك) الذي نصب ملكا هنا لفترة وجيزة؟

هززت رأسي..

تقدمنا فبرزت يد نحيلة من إطار مرآة معدني مزينة بأزهار صدئة..

توقفت.. وقد عرفت بشكل ما أنني سأرى المرأة التي أراها الآن..

قلت:

(ديدر)!

فأجابت برقة:

- (كوروين)!

- هل تعرفين ما حدث منذ مشينا هنا؟

هزت رأسها..

- كم منه هراء وكم منه حقيقي؟

- لا أعرف ولا أحسب الآخرين يعرفون

- شكرا لك.. وماذا الآن؟

- لو أمسكت بذراع رفيقك لصار الانتقال سهلا..

- أي انتقال؟

ليس بوسعك ترك هذه الحجرة بإرادتك.. سوف تحمل مباشرة إلى أرض القتال..

- أنت ستفعلين هذا يا حبيبتي؟

- ليس لدى الخيار..

هززت رأسي وأمسكت بذراع (لوك) وسألته:

- ماذا تظن؟

- أرى أن علينا أن نذهب بلا مقاومة. لكن متى عرفنا من المسئول عن هذا فتكنا به..

قلت:

- أنا معجب بطريقة تفكيرك.. (ديدر).. قودي الطريق..

- لا أشعر براحة بهذا الصدد يا (كوروين)..

- لو لم يكن لدينا الخيار فأي فارق هناك؟ تقدمي الطريق يا سيدتى.. تقدمى..

هزت رأسها وأمسكت بيدى..

بدأ العالم يدور من حولنا..

هناك من يدين لي بزجاجة شراب ودجاجة..

وصحوت لأجد أنني راقد في فجوة بين الأشجار تحت ضوء القمر.. أبقيت عينى نصف مغمضتين ولم أتحرك.. لا يجب أن أعترف بيقظتى..

ببطء نظرت حولي فلم أر (ديدر).. من جانب عيني اليمني رأيت ما يشبه نار معسكر يجتمع حولها بعض القوم..

نظرت لليسار فلمحت (لوك).. لكن لم يبد أحد من حوله.

همست له:

- هل أنت متيقظ؟

- نعم..

قلت وأنا أنهض:

- لا أحد بقربنا.. فيما عدا البعض حول النار على اليمين ربما وجدنا طريقا للخروج.. أو ربما نحن سجينان..

وضع إصبعا على فمه ثم رفعه في الهواء، كأنه يقيس اتجاه الريح وقال:

- أعتقد أننا في موقف نحتاج فيه إلى الاستمرار..

- حتى الموت؟

أجاب:

- لا أعرف.. لكن أعتقد أننا لا نستطيع الفرار.

وقف على قدميه..

قلت له:

- برغم كل شيء أنا سعيد بمعرفتك..

- أنا كذلك.. هل تريد أن نلقي قطعة عملة؟

- لو (ملك) سوف نرحل من هنا.. لو (كتابة) ننهض لنرى حقيقة هذه القصة..

ومد يده في جيبه، وأخرج ربع دولار.. فقلت له:

- تولَّ أنت الأمر..

قذف العملة ثم سقطنا معا على ركبتينا.. قال:

- كتابة..

- إذن دعنا ننهض..

أعاد العملة لجيبه ثم نهضنا متجهين إلى النار..

قال في هدوء:

- فقط دستة من الرجال.. يمكن أن نهزمهم..

- لا يبدون لي معادين..

- هذا حق..

هززت رأسي إذ وقفنا أمامهم وكلمتهم بلغة (التاري):

- أنا (كوروين) من (أمبر) وهذا (رينالدو).. ملك (كاشفا)..

هل هناك من ينتظرنا هنا؟

كان عجوز يجلس أمام النار يعبث فيها بعصا.. نهض وانحنى وقال:

- اسمى ريس.. ونحن الشهود..

سأله (لوك):

- لمن؟

- لا نعرف أسماءهم.. كانا اثنين يلبسان عباءتين.. أحدهما امرأة.. سوف نقدم لكما الطعام والشراب قبل البدء..

قلت له:

- نعم.. لقد تخليت عن وجبة من أجل هذا.. فلتطعمنا..

قال (لوك):

- وأنا كذلك..

جلب الرجل وأتباعه لحما وتفاحا وجبنا وخبزا وشرابا..

إذ أكلنا سألت (ريس):

- هل لك أن تخبرني بكيفية الأمور؟

بالطبع.. إذا أكلتما ومشيتما إلى جوار النار فلسوف تأتى لكما التعليمات..

ضحكت وهززت كتفى.. وقلت:

- حسن..

أنهيت العشاء ونظرت إلى (لوك) فوجدته يبتسم.

قال (لوك):

- فلنغن أولا.. دعنا نعطيهم عرضا مدته عشر دقائق..

- هذا يبدو مناسبا..

وضعنا طبقينا ثم نهضنا خلف النار وسألته:

- مستعد؟

- طبعًا..

سحبنا سلاحينا وتراجعنا وتبادلنا التحية.. حينما بدأت الموسيقا ضحكنا.. فجأة وجدت نفسي أهاجم.. برغم أننى كنت أنوي انتظار الهجمة وأن اتفاداها بأقصى قوة.. كانت حركة سريعة برغم أنها غير متعمدة..

صحت:

- لوك.. تفاد ضرباتي.. لقد أفلت الأمر منى.. هناك شيء غريب يحدث..

قال وهو يوجه لي هجمة عنيفة:

- أعرف.. لم أرد هذا..

تراجع بينما تفاديت ضربته..

قال:

- ليس سيئا..

وشعرت بشيء مفكوك في يدي.. فجأة عدت أبارز دون سيطرة على قواى..

فجأة شعرت بأنني حانق نوعا وهذا أثار رعبي.. لو لم أكن شريرا بما يكفي لباغتتني هجمة أخرى.. وبدأت أشعر بالخوف فعلاً..

قلت له:

- لوك.. لو كان ما يحدث لك مماثلاً لما يحدث لي، فأنا لا أحب هذا الاستعراض..

- ولا أنا..

نظرت عبر النار.. كان هناك شخصان يلبسان عباءتين واقفين وسط الآخرين.. لم يكونا ضخمين، وإن كان هناك بياض في عباءة أقربهما لي..

قلت:

- لدينا المزيد من المشاهدين..

نظر (لوك) إلى الوراء.. فعل ذلك بصعوبة ومنعت نفسي من الهجوم عليه - بنذالة إذ فعل ذلك - وحين عدنا للقتال هز رأسه.. وقال:

- لا أميزهما.. يبدو أن الأمر جاد أكثر مما تصورت..

راحت نصالنا تصطدم.. وأحيانا كان أحدنا يلقى تحية من المشاهدين..

d

قال (لوك):

- ما رأيك في أن نجرح بعضنا.. ثم نسقط على الأرض وننتظر حكمهم على ما تم؟ فلننتظر حتى يدنو منا أحد هذين..

قلت له:

- ليكن.. لو استطعت أن تعرى كتفك فلسوف أطعنه في خط الوسط.. فلنعطهم الكثير من المشاهد الشنيعة قبل أن نسقط لكن لنقتصر على الذراع.. أي شيء سهل..

- ليكن. وليكن التزامن أسلوبنا..

واصلنا القتال.. كنت أزداد سرعة.. إنها مجرد لعبة على كل حال..

فجأة قام جسدى بحركة لم أردها.. واتسعت عينا (لوك) إذ اخترق سيفي (جرايساوندير) كتفه فسال الدم.. بعد لحظات اخترق سيفه (ويروبندل) أعضائي الحيوية..

قال (لوك):

- آسف يا (مرلين).. اسمع.. لو أنك ظللت حيا ومت أنا فلتعلم أن هناك الكثير من الجنون يحيط بمرايا هذه القلعة.. قبل قدومك بيوم حاربت أنا و(فلورا) مخلوقا جاء من المرآة.. وهناك ساحر غريب يعشق (فلورا).. لا أحد يعرف اسمه لكن له علاقة بمملكة الفوضى كما أعتقد.. هل بدأت (أمبر) تعكس الظلال للمرة الأولى؟

هنا جاء صوت مألوف يقول:

- مرحبا.. أنجزت المهمة..

وقال صوت آخر:

- حقا..

كان هذان هما الملتفان بالعباءة.. أحدهما كان (فيونا) والآخر كان (ماندور)..

قالت (فيونا):

- مهما كانت النتيجة، مساء الخير أيها الأمير الجميل..

حاولت النهوض وكذا فعل (لوك).. حاولت رفع سيفي لكن لم أستطع..

صار العالم معتما وراحت سوائل جسدى الحيوية تنزف...

سمعتها تقول:

- (كوروين).. لسنا مذنبين كما تظن.. كان هذا..

- لمصلحتي؟ هل ستقولين هذا؟

قلتها قبل أن يظلم العالم.. وأدركت أنني لم أستعمل لعنة الموت الخاصة بي.. ليتنى

∞∞∞∞∞

صحوت في مستوصف في (أمبر) لأجد (لوك) في فراش مجاور.. كان كلانا يتلقى تنقيطا وريديا..

قالت (فلورا):

- ستعيشان..

وكانت تقيس النبض في يدي وقالت:

- هل لي أن أعرف قصتيكما؟

سألها (لوك):

- هل وجدونا في القاعة؟ لم تروا قاعة المرايا؟

- هذا صحيح..

قلت:

- لا أريد أن أذكر أية أسماء..

قال (لوك):

- كوروين.. هل كنت ترى قاعة المرايا كثيرا في طفولتك؟

قلت:

- لا..

قالت (فلورا):

- ولا أنا.. فقط منذ أعوام قريبة صارت نشطة بهذا الشكل كأن المكان يصحو..

سألها (لوك):

- المكان؟

- كأن هناك لاعبا جديدا في هذه القصة..

سألتها وأنا أشعر بألم في أحشائي..:

- من؟

قالت:

- القلعة ذاتها بالتأكيد.

(تمت بحمد الله)



متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

روايات عالمية للجيب 63

جوهرة النجوم السبعة



تأليف : برام ستوكر

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

فريق متميزون E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (63)

جوهرة النجوم السبعة

تأليف: برام ستوكر

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هذا هو لقاؤنا الثاني مع (برام ستوكر Bram stoker) كاتب الرعب الأشهر في العالم.

لا يذكر هذا الاسم إلا وتثب إلى الذهن روايته المحظوظة (دراكيولا) التي كتبها عام 1897، إلا أن ستوكر في الواقع لم يبتكر شخصية الكونت مصاص الدماء من فراغ، بل سبقه (دوما) الفرنسي بتقديم ذات الشخصية في مسرحية من فصل واحد، وقد قام ستوكر بمزج لاميا Lamia الإغريقية وليليث Lilith العبرية ورواية كارميلا التي كتبها (شريدان لو فانو) [1]، مع شخصية فلاد الوالاشي التي استقى معلوماته عنها من جلساته مع جاسوس مجرى اسمه (أرمينوس فامبيرى). وهو الذي خلده في شخصية فان هلسنج عدو دراكيولا العتيد.

كما قلنا من قبل فإن الرعب القوطي هو رعب البرق والشمعدانات والكونتات غريبي الأطوار الغامضين المتشحين بالسواد.. هو رعب القصور العتيقة والنفوس المعقدة والكونتيسات الشاحبات اللاتي يفقدن وعيهن عشر مرات في الساعة.. لغويا نشأت الكلمة من لفظة Gothic التي تدل على طراز من البناء يميز المباني التي تدور فيها هذه القصص، وكان أول من اصطلك الكلمة (هوراس والبول Walpol) في قصته (قلعة أوترانتو) التي سوف تقرؤها يوما - بإذن الله - في هذه السلسلة باعتبارها أول قصة رعب قوطي على الإطلاق..

هذا هو الجو الذي سيطر (ستوكر) على أدواته ببراعة.. هنا يجب أن نوضح شيئا: هناك قصص شديدة الإحكام عن السفر عبر الزمن، خاصة مع كتابات (أزيموف) و(برادبورى) وأمثالهما،

كما أن أفلاما مثل: (العودة للمستقبل) و(المفني) قد قتلت الفكرة قتلاً واستكشفت كل جوانبها، لكن يظل (هـ. ج. ويلز) هو أول من كتب عن آلة الزمن و (هو بسبق حائز تفضيلا).. نفس الشيء ينطبق على اختراع الهاتف مثلاً.. بالتأكيد لا يستطيع (جراهام بل) مبتكر الهاتف أن يستعمل تلك الأجهزة المعقدة والتي نراها مع الشباب اليوم، لكن يظل هو مخترع أول هاتف..

والشيء ذاته ينطبق على قصص (ستوكر) التي قد نجدها اليوم على شيء من السذاجة، لكن من دونها لما جاءت قصص مصاصي الدماء الحديثة ولا ظهرت كاتبة مثل (آن رايس)..

إبراهام ستوكر أو برام ستوكر هو كاتب مسرحي بريطاني ولد عام 1845 وتوفي عام 1912. نشأ في دبلن وتخرج في جامعتها.. قضى عشرة أعوام كمخرج مسرحي ثم اتجه إلى لندن عام 1876 ليشارك في إدارة مسرح ليسيوم ثم تفرغ للكتابة.

من قصصه الشهيرة (عرين الدودة البيضاء) و(مدفن الفئران) و(جوهرة النجوم السبعة) و(ممر الثعبان) و(ضيف دراكيولا) وكلها خلدت اسمه كواحد من أعمدة الرعب القوطي.

لما كانت قصة (دراكيولا) قد ترجمت مرارا - وكانت ترجماتها موفقة جدا - فقد تجنبتها، وقدمت من قبل (عرين الدودة البيضاء) [2]، أما في هذه المرة فأقدم ثاني أشهر قصة له: (جوهرة النجوم السبعة)، ومن عباءتها خرجت كل مومياء فرعونية ملفوفة بالأربطة في تاريخ السينما.. بدءا بمومياء (يونيفرسال) التي لعب دورها (كارلوف)، مرورا بمومياء شركة (هامر) في فيلم (دماء من تابوت المومياء) المخيف، وانتهاء

بمومياء المؤثرات الخاصة CGI في فيلم (برندان فريزر) الشهير الذي شهدناه مؤخرا.. وبهذا يكون (ستوكر) هو الذي أدخل مفهومي مصاص الدماء والمومياء معا إلى عالم الرعب..

من المهم أن نعرف أن هذه القصة (فكتورية) جدا مليئة بالحوار المنمق المرهق لقارئ اليوم، وقد قمت بتخفيفه على كل حال. نشرت عام 1903 بعد (دراكيولا) بستة أعوام، لكن الناشرين وجدوا أن نهايتها شنيعة أكثر مما يتحمل القارئ الفيكتوري المتحفظ (مرهف الحس)؛ لذا أرغموا (ستوكر) على كتابة نهاية أخرى مبتسرة، ويقال أحيانا إن هذه النهاية الجديدة كتبها كاتب آخر بعد وفاة (ستوكر) بخمسة أعوام. سوف تجد النهايتين معا في نهاية القصة ولك أن تقرر أيهما أفضل...

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

الفصل 1
استدعاء ليلي

بدا كل شيء حقيقيا حتى أنني استطعت بصعوبة تصديق أنه حدث من قبل.. وبرغم هذا بدا كل ما يحدث كأنه شيء متوقع هذه هي الطريقة التي تلعب بها الذاكرة حيلها سواء للخير أو للشر.. للسرور أو الألم.. للصلاح أو للويل.. لذا تجد أن الحياة لها مذاق حلو ومر معا، وما حدث في الماضي قد صار أبديًّا..

من جديد كف القارب الخفيف عن شق المياه الكسول وانزلق خارجا من ضوء شمس يوليو الشرسة إلى الظلال التي ألقتها غصون الصفصاف.. أقف أنا في القارب المتأرجح وهي تجلس صامتة تحمى نفسها بأصابع أنيقة من الأغصان المرتدة..

ومن جديد بدا الماء خليطا من البني والذهبي تحت مظلة من أخضر شفاف.. بينما بدت الضفتان كالزمرد.. ومن جديد جلسنا في الظل بينما صخب الطبيعة ينسينا صخب العالم بهمومه وأفراحه..

ومن جديد نسيت الفتاة تحفظها، وراحت تحكى لي بطريقة حالمة ما تعانيه في حياتها الجديدة من وحدة.. وضعتُ حكمة الأعوام التي لدي عند قدميها، وقد بدا أنه لا دور لي في الأمر إنما أنا أنفذ ما يُملى عليَّ..

ومن جديد تضاعفت الثواني الضائعة؛ لأنه في طلاسم الأحلام تمتزج الموجودات وتجدد ذاتها.. تتغير.. لكنها تحتفظ بكينونتها.. وهكذا تدور الذكريات وتدور أثناء النوم..

يبدو لي أنه ما من راحة مطلقة في هذا العالم.. حتى سكون الأحلام في الليل يبدده هدير الانهيارات، وصوت الفيضان المباغت، ورنين الجرس القادم من مكان ما.. مهما كان هذا الصوت فهو يبدد سحر جنتي.. فجأة انفتحت أبواب النوم على مصراعيها، وعرفتْ أذني سبب هذه الأصوات المزعجة.. هناك من يدق بلا توقف على باب بيت أحدهم..

كنت قد اعتدت في مسكني بشارع (جيرمين) على الأصوات العابرة، ولم أهتم بها كثيرا.. لكن هذه الضوضاء كانت مستمرة عنيدة يصعب تجاهلها.. إنها أصوات يصدرها عقل ذكي وثمة حاجة ملحة وراء هذا العقل الذكي.. لهذا غادرت الفراش..

نظرت لساعتي بشكل غريزي.. إنها الثالثة صباحا.. كان من الواضح أن هذا الضرب على باب بيتي أنا.. ومن الواضح كذلك أنه ما من أحد مستفيق ليرد.. ارتديت الروب والخفين ونزلت إلى الباب..

فتحت الباب فوجدت سائسًا أنيقا لا يكف عن دق الجرس الكهربي، بينما يواصل ضرب الباب بالأخرى.. ما إن رآني حتى توقفت الجلبة، ولمستْ يده حافة قبعته بحركة لا شعورية، وباليد الأخرى ناولني رسالة أخرجها من جيبه، وكانت عربة أنيقة تقف أمام الباب.. وثمة رجل شرطة يسلط مصباحه على الباب وقد شدّت الضوضاء انتباهه..

- آسف يا سيدي على الإزعاج.. لكن أوامري كانت تقضى بأن أدق الجرس إلى أن يرد أحد.. هل مستر (مالكولم روس) يعيش هنا؟

- أنا (مالكولم روس).

- إذن هذا الخطاب لك يا سيدي.

تناولت الخطاب منه في فضول.. بما أنني محام لدى المحاكم العليا فقد كانت لي خبرات غريبة من حين لآخر، لكن هذه كانت أغربها.. واربت الباب ودخلت إلى الصالة لأتفحص الخطاب في الضوء الكهربي بالداخل.. كان بخط امرأة وقد بدأت على الفور تكلمني دون أية صيغة مخاطبة.

«قلتَ إنك ستساعدني لو أنني أردت ذلك، وأعتقد أنك كنتَ جادا فيما قلت.. أنا الآن في ورطة مخيفة ولا أعرف ممن أطلب العون.. هناك من حاول قتل أبي لكنه ما زال حيا والحمد لله..

«تعال فورا لو كان هذا بوسعك واغفر لي..

«مارجريت تريلوني»

إذن هي استعانت بي أنا.. أنا!... عندما حلمت بها لم يكن هذا مجرد حلم بسيط..

قلت للسائس:

- انتظر!.. سألحق بك.

خلال دقائق كنت قد اغتسلت وارتديت ثيابي وسرعان ما كانت الخيول تحملنا عبر الطرقات.. وسألت السائس ونحن في الطريق عن سبب استدعاء السيدة لي، فقال:

- لا أعرف يا سيدي.. فقط هم وجدوا السيد في حجرته فاقد الرشد والملاءات غارقة في الدم، وثمة جرح في رأسه.. مس (تريلوني) هي من وجده.

أوقفت العربة ليخرج ويجلس جوار الحوذي ورحت أقلب القصة في ذهني.. هناك الكثير مما أريد معرفته، لكن من اللياقة أن أعرف كل شيء من مس (تريلوني) لا من خدمها..

وصلنا إلى طريق قصر (كنزنجتون) فتوقفت العربة أمام بيت عظيم على يسار الطريق، وحتى في ضوء الفجر الشاحب أدركت فخامته.

قابلتني مس (تريلوني) ولم تكن على ما عهدته فيها من خجل.. بدت تسيطر على كل ما حولها بشكل راق.. برغم هذا كانت شاحبة كالثلج. كان الخدم جميعا هناك ورجال شرطة.

صافحتني وعلى وجهها ابتسامة تعكس الارتياح، وقالت:

- عرفت أنك ستأتي.

وشعرت بأن يدها تذوب في يدى.. كان هذا استسلاما لا شعوريا لي.. وبرغم أنني لم أفهم سبب ما شعرتُ به من قشعريرة فقد عرفته فيما بعد.

كانت على وشك تقديمي لمفتش الشرطة، لكنه قال:

نحن متعارفان يا آنسة.. لا أعرف إن كان مستر (روس) يذكرني لكن كان لي شرف العمل معه في قضية (بركستون كويننج)..

- بالطبع أذكر أيها المفتش.. وددت لو سمحت لي بالانفراد بمس (تريلوني) بعض الوقت، فأنا أعتقد أنكم سمعتم ما عندها بالفعل.

ومشيت معها إلى حجرة تطل على الحديقة فأغلقت الباب خلفي، وسألتها:

- قولي لي كل ما تعرفين مهما كان تافها.

قالت:

- استيقظت على صوت لا أعرف كنهه.. فجأة وجدت نفسي يقظة وقلبي يدق بعنف.. غرفتي تقع جوار غرفة أبي، وقد اعتدت سماع حركته في غرفته لأنه يعمل لساعات متأخرة جدا.. جربت مرة أن أنصحه بعدم السهر ولم أكررها.. عندما يتكلم أبي ببرود وأدب يصير مخيفا.. أستطيع تحمله أفضل عندما يغضب ويثور.. ذهبت لباب غرفته فلم أسمع أي ضجة.. لكني سمعت صوت جر غريب.. وقفت هناك في الظلام خائفة.. خائفة من ماذا؟.. لا أدري!

فتحت الباب قليلا فوجدت الظلام دامسا لكني سمعت صوت التنفس الثقيل.. دخلت الغرفة وأضأت النور.. كان الفراش خاليا لكن الملاءات مبعثرة بما يدل على أن أبي كان قد دخل الفراش.. كانت في وسط السرير بقعة حمراء كبيرة.. وجدت أبي على جانبه الأيمن وذراعه الأخرى تحته كأن جسده قد ألقي هناك في كومة.. وكانت بركة دم من حوله.. دم أحمر لامع مخيف.. كان راقدا جوار الخزانة الكبيرة بمنامته.. الكم الأيسر ممزق ليكشف عن ذراعه.. واللحم ممزق حول سوار ذهبي حول معصمه.. لم أعرف قط أنه يلبس هذه الأشياء..

لم أضيع لحظة في طلب العون لأني خفت أن ينزف حتى الموت.. رفعنا أبي إلى الأريكة وراحت مدبرة المنزل مسز (جرانت) - التي احتفظت بثباتها - تفتش عن مصدر الدم.. بدا

واضحا أن مصدره هي الذراع.. كان هناك جرح. جرح غير منتظم كالذي تحدثه السكين ولكنه شق.. لهذا ربطت مسز (جرانت) الجرح بمنديل وعقدته بعناية فتوقف النزف..

طلبت الطبيب والشرطة، وشعرت بأنني وحيدة ولا أعرف أحدا، ففكرت فيك.. تذكرت عرضك الكريم لي في ذلك القارب تحت أشجار الصفصاف؛ لذا أرسلت لك السائس فورا..

نظرت لها ولم أرد أن أصارحها بما أشعر به، لكنها فهمت.. فقد التقت عيناها بعيني ثم انحدرتا واحمر خداها..

عندما خرجنا إلى رجال الشرطة، قال لي المفتش:

- لقد طلبنا مفتشا من (سكوتلانديارد).. الرقيب (دو).. أنت تذكره يا سيدي من قضية التسمم في (هوكستون).

- أذكره جيدا.. ولكم أطريت ذكاءه.. إن له عقلا يعمل ببراعة..

دق جرس الباب وبعد دقيقة ظهر رجل في القاعة.. كان شابا له ملامح النسر وله جبين عريض يدل على عمق التفكير.

قدمته لنا مس (تريلوني):

- د. (ونشستر).. مستر (روس).. المفتش (دولان)..

انحنينا لبعض وسرعان ما بدأ عمله.. راح يضمد الجرح بعناية، ثم سأل الآنسة:

- هل يمكن أن نزيل هذا السوار؟

احمر وجهها، وقالت في خجل:

- لا أدرى.. لقد جئت مؤخرا فقط لأعيش مع أبي، ولا أعرف إن كان هذا يضايقه أم لا..

قال الطبيب

- ليكن.. فلنتركه، لكن لربما احتجنا إلى إزالته فيما بعد.. ربما هو ذو أهمية معينة ما دام يتدلى منه هذا المفتاح الصغير..

وتناول من جيبه عدسة مكبرة وراح يتفحص السوار ثم ناوله لـ (دولان).. وقال:

- تفحصه بنفسك.. هذا ليس سوارا عاديا.. الذهب وضع ليزخرف ثلاث حلقات من الصلب.. واضح أن هذا السوار ليس للخلع بسهولة..

انحنى المفتش ليجثو على ركبتيه ويفحص السوار بعناية ودون بعض الأشياء في مفكرته.. وأشرت للفتاة كي تتفحصه، فتراجعت قائلة:

- لا.. لو كان أبي يرغب في أن أراه لعرضه على بنفسه..

وكان الخجل والضيق واضحا عليها لأنها لا تعرف أي شيء عن أبيها، وإن قدرت أنها مسرورة لأنه ما من عين أنثى - أو أية عين أكثر ملاحظة وذكاء من عيون الرجال - تراها في هذه اللحظة.

هنا دق الباب من جديد..

☆ ☆ ☆

الفصل 2

تعليمات غريبة

اتجه المفتش (نولان) للباب ليفتحه، وكان بطريقة طبيعية قد تولى مسئولية كل شيء هنا.. انفتح الباب فدخل شاب حليق الذقن طويل القامة له عينان سريعتا الحركة، صافحه المفتش بحرارة. كان هذا هو الرقيب (دو) رجل سكوتلانديارد الذي استدعوه.. والذي راح يصغى لتفاصيل القصة بانتباه.

ثم إنه طلب من الطبيب أن يكتب تفاصيل ما رآه بدقة، وبحيث يستطيع أن يسلم التقرير لرؤسائه.

قال الطبيب:

- لا يوجد ما يمنع من أن أكتب التقرير الآن.. فقط هناك نقاط لابد من أن تلاحظها.. لا توجد جروح بالرأس تبرر غياب المريض عن وعيه.. عليّ أن أفترض أنه تحت تأثير مخدر ما.. هذا الاحتمال مستبعد لأنني لا أجد علامات المخدرات - على الأقل التي أعرفها - وهذا على كل حال عسير لأن رائحة المومياوات تملأ المكان.. عطور مصرية وقار وناردين وصمغ وطيب.. ربما كانت رائحة الشيء الذي سبّب هذا موجودة ضمن هذه العطور..

قال المفتش

- على الأقل كان بوسعنا أن نجد الأداة التي سببت جرح المعصم.

فكرت أنا في أن يكون الأب قد جرح نفسه وهو تحت تأثير العقار.. ولربما أخفى السلاح في الخزانة قبل أن يفقد وعيه.

قال المفتش:

- هذا مستحيل أو على الأقل عسير.. إن الدم يلوث ذراعه تماما، بينما لا توجد قطرة دم واحدة على الخزانة..

قال الطبيب:

- أرى أنه لابد من ممرضة تعنى به، وأنا أعرف واحدة مناسبة، لكني أقترح أن تبقوا معه إلى أن أحضرها.. عليك يا مس (تريلوني) أو مسز (جرانت) بالبقاء هنا جواره إلى أن أعود..

سأل الرقيب (دو) المفتش قبل انصرافه عائدا لقسم الشرطة:

- هل (جوني رايت) في قسمك؟

- نعم.. هل ترغب في أن يكون معك؟

هز (دو) رأسه أن نعم، فقال هذا:

- سأطلب منه أن يلحق بك فورا وأن يتلقى التعليمات منك..

طلب المفتش من مس (تريلوني) أن تسمح له بتفتيش مكتب أبيها لعل فيه شيئا مهما، ولدهشته وافقت على الفور.. راح يعبث هنا وهناك ثم أخرج خطابا، وقال لها:

- هذا خطاب لك!

قالت في لهفة:

- خطاب لي وأبي يحتفظ به!

وفتحته.. رحت أرقب وجهها وهي تقرأ.. كنت أرقب وجه المفتش في الوقت ذاته.. عندما انتهت من القراءة كنت أحمل شكا قويا أبقيته في قلبي، ومن ضمن شكوك المفتش كان ذلك الشك نفسه.. الشك في مس (تريلوني) ذاتها.

لدقائق أبقت عينيها منخفضتين والخطاب في يدها وهي تفكر بعمق.. ثم ناولت الخطاب للمفتش بشيء من عدم الرضا..

قرأه مرتين دون أن يتبدل شيء في وجهه ثم أعاده لها.. هنا ناولتني الخطاب ومسحة من حمرة الخجل على وجهها.

تناولت الخطاب شاعرا بسرور لهذه الثقة.. وبدأت أقرأ:

ابنتي العزيزة:

«أريد أن تعتبري هذا الخطاب تعليمات مطلقة لا تناقش، في حالة ما حدث شيء غير متوقع لي.. لو لم أكن في غرفة نومي لحظة اطلاعك على هذا الخطاب، فعليك أن تنقليني هناك فورا.. حتى لو كنت جثة هامدة فعليك أن تنقليني هناك..

«من هذه اللحظة، وحتى أستعيد وعيي وأعود لإصدار تعليماتي، أو حتى أدفن، فعليك ألا تتركيني وحدي لحظة واحدة.. منذ الغروب حتى الشروق يجب أن يكون هناك شخصان على الأقل في الغرفة معي.. ويجب أن تكون هناك ممرضة مدربة تلاحظ حالتي بدقة..

«إن محامي (مارفين وجوكس) لديهما تعليمات واضحة في حالة موتي.. لكني أنصحك يا ابنتي - بما أنه لا أقارب لنا - بأن تجدي صديقا مخلصا يقيم في الدار.. قد يكون هذا الصديق ذكرا أو أنثى، لكن لابد أن يكون معه مراقب آخر من الجنس المختلف..

«لو كنت قد جرحت أو مرضت يا (مارجريت) فلن تكون هذه حادثة عارضة.. لا يجب نقل شيء من غرفتي، وأنا هنا أتحدث عن التحف.. لابد من ترك كل شيء حيث هو.

لو احتجت إلى شيء أو مال فإن مستر (مارفين) سينفذ كل شيء..

«أبيل تريلوني»

ارتجف قلبي لدى قراءة هذه السطور.. صديق!... يمكنني أن أكون هو.. ألم تطلب عوني وقت الضيق برغم أنني غريب بالنسبة لها تقريبا؟.. مجرد لقاء في حفل راقص ومحادثة قصيرة في قارب..

لهذا ناولتها الخطاب، وقلت:

- أرجو أن تغفري لي.. لكني أرغب بالفعل في أن أقوم بهذه المهمة معك..

احمر وجهها، وقالت:

- وهذا سيسرني بالتأكيد، لكني لا أرغب في أن أكون أنانية.. أعرف أنك مشغول..

- سوف أعرف كيف أدبر شئون عملي بحيث أقضي الليل هنا.

هنا قال الرقيب (دو) إنه راض عن كوني سأتولى الأمر، وطلب أن أبقى هنا إلى أن يتوجه إلى سكوتلانديارد لأنه سيبحث عن شركة الخزائن كي تساعده في فتح خزانة الأب التي تغلق بمفتاح وأرقام سرية..

جلست وحدي مع مس (تريلوني).. بادلتني نظرة شعرت بعدها بأنني أُفضّل جلستي هذه على أن أكون ملكا.

كانت الغرفة غريبة فعلاً.. هي حجرة نوم مريحة مرتبة بعناية لكنها مليئة بتلك التحف المصرية القديمة.. كانت الغرفة هائلة الحجم لذا اتسعت للكثير من هذه الأشياء.

دوى جرس الباب، وبعد قليل دخل علينا د. (ونشستر) ومعه امرأة شابة في ثياب الممرضات.. وقال لنا:

- كان الحظ حليفي فقد وجدتها على الفور.. مس (تريلوني).. ها هي ذي مس (كنيدي)..

☆ ☆ ☆

الفصل 3
المراقبون

أثارت دهشتي الطريقة التي تبادلت بها الشابتان النظرات.. ويبدو أن مهنتي علمتني أن أدقق النظر في انفعالات وتعبيرات وجوه الآخرين. كانت الفتاتان متناقضتين تماما.. كانت مس (تريلوني) رشيقة سمراء ذات عينين رائعتين شديدتي الاتساع ناعمتين كمخمل أسود.. النظر فيهما شبيه بالنظر في مرآة سوداء.. مزيج من الضعف والقوة النابعة من الروح فقط..

على النقيض كانت الممرضة (كنيدي) ممتلئة قليلا.. قوية البنية لها يدان كبيرتان قادرتان.. لونها يشبه لون أوراق الخريف.. تلتمع عيناها البنيتان الذهبيتان وسط جلد مليء بالنمش.. جبهتها مليئة بالتعقل والحكمة.

عند العصر اتصلت بمسكني في شارع (جرمين) كي يرسلوا لي ثيابي وكتبي وأوراقي.. ذهبت للمحكمة وعدت لبيت (كنزنجتون) في السادسة مساء فوجدتهم اختاروا لي غرفة كبيرة جوار غرفة المريض.

لم نرتب أمور المراقبة لتلك الليلة.. أوت الممرضة للفراش لأنها كانت تعمل طيلة اليوم على أن تعود لنا عند منتصف الليل.. د. (ونشستر) ظل معنا حتى العشاء لأنه سيتناوله هنا.. وظلت مسز (جرانت) في الحجرة مع الرقيب (دو)..

سأل الطبيب مس (تريلوني) عندما دخلنا غرفة أمها:

- هل لديكم أية حيوانات ذات مخالب في هذا المنزل؟... حيوان يمكن أن يكون قد أحدث هذه الجروح في ساعد أبيك؟

ابتسمت ابتسامة حزينة، وقالت:

- لا.. أبي لم يكن يحب أي نوع من الحيوانات.. حتى قطي الوديع حسن التربية ممنوع من دخول هذه الغرفة.

هنا سمعنا صوت خدش على مقبض الباب، فلمعت عيناها واتجهت لتفتح الباب، قائلة:

- هذا هو (سيلفيو) العزيز.. قطي.. إنه يقف على قائمتيه الخلفيتين، ويخدش المقبض متى أراد الدخول..

وحملت القط وعادت به لنا.. كان حيوانا رائعا بحق.. قط فارسي (شانشيلا) رمادي يبدو أنه كريم المحتد.. وله مخالب عظيمة..

فجأة انتابه الذعر فأطلق مواء مفاجئا ووثب إلى الأرض وركض إلى منضدة منخفضة في ركن الغرفة، عليها وضعت مومياء حيوان.. وبدأ يزمجر.

عادت لتحمله فحاول المقاومة لكن من دون عض أو خمش فقد بدا واضحا أنه يحبها.

أيها الشقي!.. لقد حنثت بعهدك مع أمي.. قل مساء الخير للسادة واخرج من غرفة أمي!

ومدت كف القط لي كأنما لأصافحها.. هنا لاحظت أن في كفه سبعة أصابع.. برغم أنه كان هادئا يقر فقد غرس مخلبا في كفي.. فصحت:

- ياه!.. إنها كالموسى!

دنا د. (ونشستر) منا، وقال وهو يفحص مخالب القط:

- أوه!!

وكنت أسمع أنفاسه المتسارعة.. اتجه للمكتب فمزق قطعة من الورق النشاف ووضعها تحت كف القط وضغط.. تملص القط وأخرج مخالبه، وكان هذا هو ما يريده الطبيب لأن المخالب مزقت ورقة النشاف..

مد الطبيب يده وفك الضمادة عن ساعد الأب.. هناك كانت الجروح واضحة حمراء.. قرب ورقة النشاف منها.. وابتسم في انتصار.. كانت الآثار واحدة على الساعد وورقة النشاف!.. لم يعد أحد بحاجة لمزيد من التفسير.

ساد الصمت الذي قطعته مس (تريلوني) قائلة:

- لكن (سيلفيو) لم يكن هنا أمس!

- هل أنت متأكدة؟

- متأكدة لكن أخشى أن إثبات هذا صعب.. إنه ينام في سلة في حجرتي، وأنا متأكدة من أنني وضعته في السلة ووضعت بطانيته عليه.. في الصباح كان في الوضع ذاته.. دعك من أن باب حجرتي كان موصدا عندما غادرتها أمس وكذا باب حجرة أبي.. عندما فتحت الباب كانت الإصابات قد تمت..

فقال الطبيب بعد تفكير:

- الحكم بعد المداولة: مستر (سيلفيو) بريء، ونحن نعتذر له..

ثم قرر تغيير الموضوع، فقال:

- رأيناه يتوتر عندما رأى مومياء هذا الحيوان.. هل يتوتر مع كل المومياوات التي يعج بها المنزل؟

- لا.. وربما كان السبب أن هذه مومياء قط..

قال الطبيب في اهتمام:

- هذه مومياء معتنى بها.. وإنني لأرغب في أن تسمحي لي باستعمال مستر (سيلفيو) في تجربة، لكنه لن يكون المعتدى عليه، بل سيكون المعتدى..

- لا أفهم..

- أريد أن أعرف ما سيقوم به نحو هذه المومياء لو سُمح له بذلك.. سوف نقوم بعملية استبدال لهذه المومياء.. من ثم نعرف هل (سيلفيو) يكره كل مومياوات القطط أم هذه بالذات.

هنا جاءت الممرضة إلى الحجرة.. سيدة قوية الشخصية مسيطرة، ساعدني دخولها في السيطرة على الهواجس التي غمرتني في جو الغرفة المثير للتوجس.

كنت قد بدأت أستشعر نوعا من المخاوف يحوم حول المريض، حتى صار جزءا منها.. لكن دخول هذه السيدة أعاد له حجمه الطبيعي كمريض تعنى به.. وسرعان ما فقدت الغرفة ما تبعثه فيّ من رعب.

لكن الشيء الوحيد الذي احتفظ برعبه كان رائحة المومياء.. لو أنك وضعت مومياء فرعونية في إناء زجاجي لا يدخله الهواء فإن رائحتها ستظل تزكم أنفك.. برغم أنه يُفترض أن أربعة آلاف

سنة كفيلة بأن تزيل رائحة أي شيء.. تلك الروائح خالدة وأسرارها مجهولة لنا بالكامل.. لقد أجهدت خيالي وأتعبت أعصابي بحق..

قررت أن أفعل شيئا؛ لذا غادرت المنزل وقصدت صيدلية قريبة لأبتاع جهاز استنشاق مما يستعمله مرضى الربو.

كان الطبيب قد انصرف ورتبت مس (تريلوني) أن يتواجد دوما رجل وامرأة في حجرة المريض.. لذا جلست على أريكة في حجرتي وطلبت من أحد الخدم أن يناديني قبل منتصف الليل.. وسرعان ما غبت في النوم.

عندما صحوت احتجت لبعض الوقت كي أعرف أين أنا.. أفادني النوم لبعض الوقت.. اتجهت لغرفة المريض فوجدت الممرضة جالسة على الفراش هادئة متيقظة، وعبر الغرفة يجلس المفتش في الظل.. لم يتحرك إلا عندما دنوت منه، فقال في همس متعب:

- كله تمام.. لم أنم..

وهو شيء لا لزوم له ما لم يكن يشعر بأنه غير حقيقي.. أخبرته أن بوسعه أن يخلد للنوم حتى أوقظه في السادسة صباحا..

اتجه للباب ثم مال يهمس لي:

- إن نومي خفيف وأحتفظ بالمسدس معي.. لن أشعر بهذا الخمول إذا ابتعدت عن رائحة المومياء هذه.

إذن هو كذلك جرب تأثير تلك الرائحة الذي يسبب الخمول!

لاحظت أن الممرضة تضع في حجرها جرة عطر صغيرة مثقبة.. لابد أنها شعرت ببعض ما شعرت به.. اتجهت لذات المقعد في الظل حيث ظهرها لي، وذلك كي لا تلاحظ جهاز الاستنشاق الذي أحمله.. وقد قمت بتثبيته على أنفي واتخذت وضعا مريحا..

مر وقت طويل عليّ وأنا أفكر. أفكر في الرائحة الفرعونية.. حقا لا أدري إن كنت نمت أم لا.. لعلي لمحت شيئا ولعلي لم أفعل.

ظهر الممرضة لي وهي هادئة ساكنة.. كل شيء هادئ ساكن.. كأن المشهد لا ينتمي لعالم الواقع.. الضوء خافت جدا جدا.. فقط غطاء الأباجورة الأخضر له لون ياقوتة تتلألأ في ضوء القمر.

خيل لي أن هناك صوتا خافتا كمواء قط.. صوت معدني كمعدن يضرب معدنا..

فجأة عدت لحواسي..

لقد دوت صرخة في مسمعي وغمر الضوء الحجرة..

صوت طلقات مسدس.. واحدة.. اثنتان.. ودخان أبيض يملأ الغرفة

عندما استعدت الرؤية كدت أصرخ أنا نفسي من هول ما رأيت..

الفصل 4
المحاولة الثانية

كان المشهد الذي رأيته مفزعا كأنه حلم داخل حلم.. كانت الغرفة كما كانت إلا أن الظلال اختفت وسط عديد من الأضواء..

جوار الفراش الفارغ تجلس الممرضة كما رأيتها آخر مرة، وتلك الوسادة خلف ظهرها لتبقيه مستقيما لكن عنقها متصلب كأنها في نوبة صرعية.. لم يكن هناك تعبير على وجهها..

لا رعب.. لا شيء.. كانت مجرد وجود سلبي يتنفس لكنها لا تعي شيئا من العالم حولها.

كانت الملاءات مبعثرة كأن جسد النائم قد جر من فوقها وعلى الأرض بعض الضمادات التي ضمد بها الطبيب الذراع.. كلها موجودة في ذات الموضع الذي وجدناه أمس جوار الخزانة.. لكن هناك شيئا مخيفا جديدا..

ثمة محاولة لقطع الذراع عند المعصم لأخذ ذلك السوار.. هناك سكين (كوكري) من ذلك الطراز الذي يحارب به رجال القبائل (الجوركاس) في جبال الهند.. لابد أنها انتزعت حيث كانت معلقة على الجدار.. لكن عملية القطع توقفت فلم يتمزق الذراع لكن اللحم تمزق، وكان الدم ينزف بغزارة.

جوار الأب كانت مس (تريلوني) تجثو وقد غرقت ثيابها في الدم.. ووسط الغرفة كان الرقيب (دو) يعيد حشو مسدسه.. كانت عيناه حمراوين ثقيلتين، وبدأ شبه واع لما يدور حوله..

وفي كل مكان كان الخدم يحملون الأضواء..

ما إن دنوت من مس (تريلوني) حتى صرخت ووقفت تشير لي.. الآن أفهم أنني بدوت مرعبا بجهاز التنفس على وجهى وشعرى منتثر وفي هذه الإضاءة..

تنبهنا أخيرا فوجدنا مهمتنا الأولى هي أن نوقف الدم المتدفق من ذراع الأب.. وبرغم خطورة الأمر فقد سرني لأنه دلني على أن الرجل حي..

لم يمر درس أمس دون جدوى، وسرعان ما كنا نلف رباطا ضاغطا حول ذراع الرجل بينما هرع خادم ليحضر الطبيب.. فلما اطمأننا إلى حال الرجل أولينا انتباهنا للممرضة..

كانت مسز (جرانت) قد أخذت سيدتها لتبدل ثيابها وتغسل يديها.. وحينما عادت لنا مس (تريلوني) كانت أهدأ.. لكنها وجهت لي الكلام على الفور:

- كنتَ نائما بينما أبي في خطر! حسبتك ساهرا تراقب..

شعرت في لومها عدالة تؤلم.

قلت لها:

- هناك شيء ما أكثر من مجرد النعاس في هذه الحجرة.. ولربما لو لم أتخذ الحيطة لصرت مثل الممرضة هنا..

نظرتْ إلى الممرضة، ثم قالت:

- سامحني.. إنه الخوف والتوتر فلم أقصد أن أكون فظة.. إنني خائفة مما قد يحدث في كل لحظة..

- لا تعتذري.. أنا كنت مكلفا بالحراسة ونمت.. لا شك في هذا.. لكن أقول بوضوح أنني لم أتعمد ذلك وقاومته.. ربما نفهم السبب فيما بعد.. ولكن أود لو فهمت ما مر بك.

قالت:

- نفس الشيء تقريبا.. صحوت من نومي شاعرة أن أبي في خطر.. جريت إلى حجرته وكانت مظلمة.. ثم استطعت أن أراه على الأرض جوار الخزانة.. لابد أنني فقدت صوابي للحظات..

هنا نظرت إلى الرقيب الذي كان يعبث في مسدسه بذهن مشتت:

- وأنت أيها الرقيب.. ما الذي أطلقت الرصاص عليه؟

نظر حوله، ثم قال:

- ألا ترى أنه من الأفضل أن ينصرف الخدم لعملهم؟ سيكون هذا أفضل للكلام..

أشرت للخدم كي ينصرفوا.. فلما رحل آخرهم واصل الرقيب الكلام:

- دخلت للنوم والمسدس تحت وسادتي.. وأعتقد أنني صحوت على صرخة.. كان رأسي مثقلاً بفعل الإرهاق.. هرعت للحجرة فكانت مظلمة ما عدا الضوء القادم من الخارج عبر النافذة.. كانت مس (تريلوني) على الأرض جوار أبيها وهي تصرخ.. هنا بين المنام واليقظة خيّل لي أن شيئا يتحرك بيني والنافذة.. ومن دون تفكير أطلقت الرصاص مرتين على الشيء..

- وما هو هذا الشيء؟

كنت أشعر بألفة في الموقف كأنني أستجوب شهود المحكمة.

- لا أعرف.. شعرت بوجود شيء لكن ليست عندي أدنى فكرة عن كنهه..

رحت أبحث عن الرصاصتين في الغرفة في اتجاه الإطلاق.. واحدة منهما هشمت زجاج خزانة فيها بعض تلك التحف الغريبة، ومن الزجاج المهشم انبعثت تلك الرائحة العطرية كأقوى ما يكون.. هذا هو مصدرها إذن.. لاحظت أن التحف متراصة في شكل دائري حول تمثال يمثل إلها له رأس صقر، لكن الظروف لم تسمح لي بالتدقيق أكثر.

أزحت الستائر فأثار دهشتي أن ضوء الفجر الخافت تسلل ليغمر الغرفة.. من الصعب أن أصف كم بدت الحجرة مخيفة في هذا الضوء الشاحب الرمادي.. إن النافذة شمالية لذا لم يدخل إلا اللون الرمادي دون لمسة اللون الوردي التي لا تراها إلا تجاه الشرق.. لا شيء من نعومة الليل ولا من نضارة النهار..

جاء الطبيب ولم يسأل عن شيء إذ رأى وجوهنا.. انكب على الجرح وقد ارتسمت علامات الخطورة على وجهه.. لم يتكلم إلا بعد ما تم تضميد الجرح.. سأل:

- ماذا عن الممرضة (كنيدي)؟

- لا أدرى.. وجدتها على هذا الوضع في الثانية صباحا عندما دخلت الغرفة، ومنذ ذلك الحين لم نحركها.. حتى طلقات مسدس الرقيب لم توقظها..

فكر قليلا، ثم قال:

- أرى أن تنقل الممرضة لغرفة أخرى..

أصدرت مس (تريلوني) تعليماتها لمسز (جرانت) كي تعد غرفة مناسبة وتستدعى رجلين يحملان الممرضة..

عاد الطبيب بعد فحص المريضة ليقول إنه يرى أن هذه الغيبوبة شبيهة بغيبوبة الأب.. لكن الممرضة تتحسن واستجابتها تزداد، وقد قل تخشب عضلاتها.. ومن المرجح أن تفيق.

- وكيف.. - سألته - لا نجد تخشبا لدى المستر (تريلوني)؟

- لا أعرف السبب.. إن الحالة محيرة وسوف نحتاج إلى أيام حتى نفهم ما حدث فعلا..

كان يوما طويلاً مرهقا..

لكن حالة مس (كنيدي) تتحسن باستمرار، وقد بدت أقرب للنوم منها إلى الغيبوبة.. وقد جاء الطبيب بممرضتين واحدة لتعنى بمس (كنيدي) والأخرى لتعنى بمستر (تريلوني)..

رتبنا نظاما محكما للسهر، بحيث يكون هناك من يراقب المراقبين، وهكذا لا يتسلل النعاس إلى أحدهم من دون علم الآخرين.. طلب د. (ونشستر) أن يبتاع جهاز استنشاق كالذي استعملته أمس وكذا مس (جرانت)..

وجاء الليل.. جاء ونحن في غاية التوتر والتوجس..

الفصل 5
تعليمات أكثر غرابة

في الحادية عشرة والنصف خرجتُ من غرفتي لأجد كل شيء على ما يرام في غرفة المريض.. الممرضة تجلس جوار الفراش والطبيب على الأريكة متنبها، وإن بدا مضحكا بجهاز الاستنشاق على وجهه.. فلما رآني نهض، وقال إنه سيعود في الصباح..

جاء الرقيب ليأخذ المقعد الذي كان يحتله الطبيب، وظلت مهمتي أنا أن ألقي نظرة على الغرفة من حين لآخر. في الثانية عشرة جاءت مس (تريلوني) وجهاز الاستنشاق في يدها لتسلم مهمة المراقبة وكذا فعلت أنا بينما نهض الرقيب والممرضة..

لم يغلبني النعاس قط، وكذا ظلت مس (تريلوني) متيقظة..

دقت الساعة معلنة الثانية صباحا، هنا دهمني شعور غريب.. استطعت أن أرى من حركة مس (تريلوني) أنها تشعر بشيء غريب بدورها.. بدأ قلبي يدق بعنف.. وشعرت بخوف.. كأن هناك من دخل الغرفة معنا، وكأن هناك ذكاء ما بقربي..

ثمة شيء يخدش ساقي. مددت يدي لأصطدم بفراء (سيلفيو).. أطلق فحيحا وخدش يدي.. شعرت بالدم يسيل على يدي فنهضتُ.. مس (تريلوني) أيضا نهضتْ.. كان صدرها يعلو ويهبط في انفعال.. وحينما لمستها لم يبد أنها لاحظتني.. كانت يداها ممتدتين أمامها كأنما تدفع خطرا..

لم يكن هناك وقت أضيعه.. أخذتها تحت ذراعي وركضت إلى الردهة صارخا:

- النجدة!

على الفور ظهر المخبران والخدم ومسز (جرانت).. وضعتُ مس (تريلوني) بين ذراعي هذه الأخيرة وعدت للغرفة.. أضأت النور الكهربي وكان هذا هو الوقت المناسب، فجوار الخزانة حيث وجدناه في الليلتين السابقتين كان مستر (تريلوني) وذراعه المضمدة مكشوفة..

جواره كانت مدية فرعونية تشبه ورقة الشجر.. وكانت مغروسة في الأرض حيث كانت السجادة الملوثة بالدماء فيما سبق..

فتشت أنا والرقيب (دو) الغرفة فلم نجد ما يريب، بينما تعاون الخدم على إعادة المريض إلى الفراش.. عادت مس (تريلوني) لتهمس لي:

- شعرت بأنني على وشك فقدان الوعي.. لا أعرف السبب لكنى كنت مذعورة..

ثم نظرت ليدي، وهتفت:

- لكنك جريح!

حقا كنت قد نسيت الخدش الذي أحدثه القط في يدي.. وسمعتها تقول:

- لكنها ذات الجروح التي في ذراع أبي!

ثم نظرت إلى أبيها وعقدت جبينها، وقالت:

- ألا ترى أن نطلب (كونسلتو)؟ د. (ونشستر) بارع ذكي لكنه حديث السن، ومن الواضح أن حالة أبي تحيره.. لربما كان هناك أناس قد درسوا الموضوع بشكل أعمق..

هنا وصل د. (ونشستر).. وسألني عما حدث بالضبط فحكيت له كل تفصيل.. هنا التفت إلى مس (تريلوني)، وقال:

- أرى أن نطلب مشورة أطباء آخرين..

كان هذا ما ترغب فيه؛ لذا وافقت على الفور مما أثار دهشته.. ثم سألته:

- هل تقترح اسما معينا؟ مَن أكفأ طبيب في لندن لهذه المهمة؟

- ليس في لندن بالضرورة.. إن طبيب المخ يولد طبيب مخ ولا يمكن أن تصنعيه.. بعد هذا يحسن موهبته بالدراسة.. أفضل طبيب أعرفه حاليا هو (شيوني) الياباني لكنه جراح.. هناك (تسامرفست) و(فنلو) من باريس.. لكني أُفضّل طبيبا اسمه (فرير) من (كنجز كولدج) هو من أفضل من عرفت وأقدرهم على مزج النظرية بالعمل.. ومن المؤسف أنه سيفقد براعته مع تقدمه في العمر..

- إذن علينا به في الصباح.. هل هو (سيد) أم (دكتور)؟

- لندعه سر (جيمس فرير). سوف أذهب له بنفسي صباحا.

ثم نظر ليدي، وقال:

- لربما كان على أن أضمد يدك.. إن جروح الحيوان قد تكون خطرة..

وراح يتفحص يدي بعدسة مكبرة ويقارنها بقطعة النشاف التي تحمل مخالب (سيلفيو)..

في العاشرة صباحا استعادت الممرضة (كنيدي) قواها وصار بوسعها أن تجلس وتتكلم.. لكن ذاكرتها ظلت مختلطة بصدد ما حدث البارحة..

في الحادية عشرة جاء سير (جيمس فرير).. كان رجلاً يجلب الاحترام والانتباه.

كانت عيناه الخارقتان وفمه المليء بالتصميم وحاجباه العظيمان أشياء تفرض الطاعة على الفور.

دخل حجرة المريض فقضى وقتا طويلا هناك، ثم فحص الممرضة (كنيدي).. بعد هذا انفرد بالطبيب في غرفة المكتب وتعالى صوت الرجلين في مناقشة حامية.

بعد قليل خرجا.. وجه سير (جيمس) لا يدل على شيء كأنه وجه أبي الهول.. يتبعه د. (ونشستر) شاحب الوجه.

كان سير (جيمس) موافقا على أسلوب د. (ونشستر) في العلاج، لكنه طلب بإلحاح أن ينقل المريض من الحجرة أو تنقل المومياوات خارجها؛ لأن هذه بيئة غير صحية.. حتى لو كانت هذه رغبة المريض ذاته.. من العسير أن نحيط المريض بهذه الأشياء الشنيعة ويتنفس الهواء المنبعث منها.. لقد رأينا تأثير هذه الرائحة على أعصاب الناس.

- أنا أصر على هذا الشرط ولن أعود إلى هنا ما لم يتم تحقيق مطلبي.. لم يأت بعد اليوم - كما أتمنى - الذي يتبادل فيه المتحف البريطاني ومستشفى سانت توماس مكانيهما.. شكرا لكم وأرجو أن تنفذوا ما طلبت..

لما تلاشى صوت حوافر خيول عربته قال د. (ونشستر):

- أنا موافق تماما على ما قال.. لكنكِ أدرى بظروف أبيك ومدى أهمية ما طلبه منك.

قالت مس (تريلوني):

- سوف أكتب خطابا لمستر (مارفين) المحامي أسأله إن كان بوسعي عدم تنفيذ مطلب أبي.

هكذا كتبت الخطاب وأرسلته.. ومرت ساعة من الزمن، إلى أن وصل مستر (مارفين) المحامي إلى الدار.

لم يكن راغبا في فتح الموضوع أمامي، لكنها قالت له في تصميم:

- مستر (روس) يعرف عن الموضوع قدر ما أعرفه أنا.. إنه صديق جديد لكني أريده أن يكون على علم بكل التفاصيل.

قال المحامي:

- تعليمات المستر (تريلوني) واضحة.. ممنوع نقله من الغرفة ما دام حيا وممنوع نقل أي شيء من محتوياتها.. التعليمات قوية ولا يمكن أن تجد فيها ثغرات.. دعيني أؤكد لك أنني لم أر وصية بهذا الوضوح من قبل، وحتى أنا لا أقدر على التساهل في بعض فقراتها.. آمل أن تفهمي هذا وتفهمي أنني

أرغب في عمل أي شيء في مقدوري... إن أباك لديه أسبابه التي لم يكشفها لي.. آسف أن أضايقك لكن لا مفر من هذا.. سأكتب لك عنوان بيتي وعنوان النادي حيث أتواجد ليلا.. يمكنك طلبي في أي وقت..

وصافحنا وانصرف.

هنا دخلت مس (جرانت) الغرفة وقد بدا القلق على وجهها وقالت:

- يؤسفني أن أقول يا آنسة إن الخدم - كلهم ما عدا اثنين - يريدون ترك المنزل اليوم.. وقد ناقشهم رئيس الخدم في الأمر، وهم يريدون أن يسووا الحساب اليوم حتى لو تنازلوا عن بعضه.. المهم أنهم يريدون الرحيل اليوم..

- ما السبب؟

- لا سبب يا آنسة.. لكن الخادمة المسئولة عن الطابق العلوي تقول إنهم يعتقدون أن البيت مسكون..

كان الأحرى أن نضحك لكننا لم نفعل.. بدا لي كأن أفكاري صار لها صوت.. لكن لم يكن هذا كل شيء.. كانت هناك خاطرة أكثر سوادا وجهامة تريد الإفصاح عن نفسها لكنها لا تستطيع..

☆ ☆ ☆

الفصل 6
خسارة المسافر

استعادت مس (تريلوني) روعها بسرعة فقالت للمسز (جرانت):

- ليكن.. دعيهم يرحلوا.. لقد كانوا خدما مخلصين وسبب رحيلهم ليس معتادا.. أما من سيبقون فادفعي لهم ضعف راتبهم.

كانت مديرة البيت متضايقة من الطريقة المهينة التي يقدم بها الخدم إنذارهم.. وقد شعرت بأن هذا غير عادل بعد المعاملة الطيبة التي يلقونها هنا..

قالت مس (تريلوني):

- لن نبحث عن خدم آخرين.. لن يزورنا أحد في فترة مرض أبي هذه؛ لذا يمكننا أن نعيش مع عدد الخدم الباقين.. فليبق ثلاثة فقط.. ولتعلمي أنني . برغم أنني لا أعتبرك من الخدم على الإطلاق . سأدفع لك ضعف الراتب كالآخرين.

غادرت المرأة المكان، وسمعتها تهمس وهي تنصرف:

- لا عجب أن يكون البيت كقصر الملك إن كانت سيدته أميرة!

أميرة! نعم.. هذه الفكرة راقت لي وتذكرت كيف رأيتها أول مرة في ذلك الحفل الراقص في ميدان (بيلجريف).. ملكة.. فارعة الطول نحيلة تتمايل وتتموج كالسوسن أو اللوتس. شعرت بالرهبة والهيبة تجاهها فلم أدرك كم هي ظريفة طلقة الطباع إلا عندما جمعنا ذلك القارب في النهر.

☆ ☆ ☆

مرت الليلة بخير.. لم تنضم لنا مس (تريلوني) في السهر لأن جهازها العصبي صار في قمة الإرهاق وكانت في حاجة إلى نعاس عميق بعيدا عن هذه الأحداث..

لم يتحرك المريض طيلة الليل، ولولا تنفسه وارتفاع صدره لحسبته قُدّ من رخام.

وفي الثامنة صباحا لحقت بنا مس (تريلوني) وقد أعاد لها النوم نضارتها.. عاد نوع من اللون إلى خديها اللذين كانا شاحبين بشكل مفزع يتناقض مع حاجبيها الأسودين وشفتيها الحمراوين.. أصلحتْ الوسادة تحت رأس أبيها برقة حركت مشاعري..

نمت نوما طيبا وتناولت طعام الغداء.

استوقفني صوت رجل لحوح مزعج يتكلم مع خادم اسمه (موريس) على الباب.. كان (موريس) خادما عاديا ثم ترقى بعد رحيل الآخرين إلى رئيس خدم.

بصعوبة استطعت تمييز ما يقول الرجل لأنه كان يتكلم بصوت عال واندفاع:

- أقول لك إنه يجب أن أرى مستر (تريلوني).. ما جدوى أن تقول إنني لا أستطيع؟ جئتك في التاسعة والثانية عشرة والثالثة وفي كل مرة تقول لي إنه في الفراش وإنه لا يقابل أحدا.. دعني ألق مس (تريلوني) إذن..

- لا أستطيع أن أزعجها..

- بل لابد أن تزعجها.. لابد من أن تزعج أحدا.. لقد تحملت الكثير من الخدم الذين لا يملكون سوى كلمة (لا).. زرت بيوتا بدا لي أن دخول القبور أسهل من دخولها، وبدا لي أن سكانها موتى كسكان القبور.. لم أعد أتحمل أكثر.. فهل ترك مستر (تريلوني) تعليمات واضحة بعدم السماح لي بالدخول؟

أجاب الخادم في تهذيب:

- آسف سيدي.. إن لديّ أوامري وعليّ أن أنفذها.. ربما لو رأيت أن تترك رسالة لمس (تريلوني)..

كانت الإجابة أكثر هدوءا:

- أيها الرجل الطيب. لا مشكلة لي معك شخصيا.. لكن الوقت ضيق ولا يمكن أن أضيع دقيقة.. وأعرف أن سيدك سيكون غاضبا أكثر مني مائة مرة لو عرف سر هذا التأخير.. رباه! ألا يوجد شخص عاقل أكلمه في هذا البيت؟ أو شخص ذو سلطة إن لم يكن عاقلاً؟

هكذا لم يعد هناك شك في صدق الرجل ولهفته.. هكذا قلت للخادم:

- أخبر مس (تريلوني) أن هناك رجلا يريد رؤيتها بإلحاح..

سألني الرجل وأنا أقتاده إلى المدخل:

- شكرا لك.. هل أنت السكرتير؟

- لا.. أنا صديق الأسرة..

- لك الشكر إذن.. اسمي هو (كوربك).. وددت لو أعطيتك بطاقة لكنهم لا يستعملون البطاقات من حيث جئت.

كان رجلاً قصير القامة ممتلئا.. تجعد جلده بشدة مما دلني على أنه كان بدينا ثم فقد الكثير من اللحم والشحم.. لونه يوحي بالشمس.. ربما في المناطق الحارة أو الشرق الأقصى.. وفكرت في أنه رجل مناسب للصحراء.

جاءت مس (تريلوني) فلاحظت أنه دهش كثيرا وإن تماسك.. قررت فيما بيني وبين نفسي أن أعرف فيما بعد سبب هذه الدهشة..

قالت مس (تريلوني) للرجل:

- أعتقد أنك لا تملك فكرة عن مدى خطورة حالة أبي.. إنه في غيبوبة منذ ثلاثة أيام، وأنا لا أعرف إلا القليل عنه لأنني جئت هنا لأقيم معه منذ عام.. يمكنك الكلام أمام مستر (بروس) فأنا أعطيه كامل ثقتي..

بدأ الرجل يتكلم في تردد.. قال:

- اسمي (يوجين كوربك).. ماجستير في الفنون ودكتوراه في القانون ودكتوراه أخرى في الجراحة من كمبريدج.. دكتوراه لغات من جامعة لندن.. دكتوراه لغات شرقية من باريس.. في بداية حياتي وقعت في حب علم المصريات.. لابد أن جعرانا قد لدغني لأنني رحت أنزل المقابر الفرعونية وتعلمت الكثير.. قابلت أباك الذي كان يجرى بعض الأبحاث ومن حينها لم يبق لي الكثير لأتمناه.. ما من عالم مصريات مجنون يتمنى رئيسا أفضل من أبيك!

قمت بحملات عديدة في مصر من أجل أبيك.. وأغلب ما لديه من تحف حصل عليه عن طريقي.. ولكن هل أنت واثقة من أنه لا يقدر على مقابلتي فعلا؟

نهضت، وقالت في كبرياء:

- تعال لترى بنفسك.

تبعها الرجل إلى غرفة المريض وأنا خلفهما.. كان المستر (تريلوني) في الفراش بملامحه القوية الآمرة.. ما كان المنظر ليوحي باليأس لهذا الحد لو كان وجها عاديا، لكن رؤية هذا الرجل المسيطر قوى الشخصية عاجزا كانت توحي بالخراب العظيم.

ادلهم وجه مستر (كوربك) وبدا عليه الضيق.. ثم استحالت نظرته إلى نظرة تصميم، وأشار بعينه للممرضة مس (كنيدي) التي نظرت لسيدتها متسائلة ثم غادرت المكان وأوصدت الباب وراءها

قال لنا:

- أريد معرفة القصة كاملة.. كيف بدأت ومتى؟

حكيت له ما أعرفه.. لم يتحرك أثناء سماع القصة لكن بمعجزة تحول وجهه البرونزي إلى صلب.. وقال عندما انتهيت:

- مستر (تريلوني) كان يعرف ما يفعله وقد أعد لكل شيء عدته.

قلت:

- ليس تماما.. هناك نقطة ضعف في خطته وإلا لما رقد أمامنا الآن..

سألته مس (تريلوني):

- هل لديك تفسير لما حدث؟ وما سببه؟

قال على الفور:

- لا.. لا أعرف لكنى أخمن.. صدقيني سأفعل أي شيء بوسعي كي أساعدك، لكني في هذه الحالة أواجه واجبا أكبر.

- أي واجب؟

- الصمت!

وانغلق فمه كأنه مصيدة من الصلب.

ساد الصمت من جديد حتى قطعته مس (تريلوني) قائلة:

- ما الشيء الملح الذي جئت من أجله وطلبت مقابلتي ما دمت لم تلق أبي؟

ضرب المقعد الذي كان يستند إليه، وصاح:

- رباه! لقد نسيت كل شيء.. رأيته فنسيت مهمتي لكني عاجز الآن عن طلب معونته ورأيه، بينما الوقت يفلت من بين أيدينا.. ليس بوسعي أن أخبرك كل شيء، لكني قد خسرت الكثير.. مهمتي التي استمرت ثلاثة أعوام كانت ناجحة.. وجدت ما بحثت عنه وعدت به للوطن.. وجدت كنوزا عظيمة القيمة، ووصلت إلى لندن أمس.. لكن عندما صحوت هذا الصباح وجدت أنني سرقت.. سرقت بطريقة غامضة فما من أحد في

لندن يعرف ما أحمله.. غرفتي كان لها باب واحد أحكمت غلقه.. غرفتي كانت في الطابق الخامس وما كان بوسع أحد دخولها من النافذة.. وبرغم هذا وجدت حقيبتي فارغة هذا الصباح.. ولت المصابيح التي ذهبت إلى مصر للتنقيب عنها.. بحثت.. تعبت.. والآن..

وبدا أنه موشك على الانهيار.. ثم أضاف:

- واحد من المصابيح من ذهب.. أخشى أن يدمره اللص لأنه لا يعرف قيمته.. أخشى أن يذيبه.

قالت مس (تريلوني) في ثقة أدهشتني:

- لا تخف.. لن يدمرها أحد!

- وكيف تعرفين؟

- لا أعرف كيف عرفت.. فقط أعرف ذلك! كأنه يقين في دمى طيلة حياتي!

☆ ☆ ☆

الفصل 7
العثور على المصابيح

بشكل غير رسمي أخبرت الرقيب (دو) ببعض قصة هذا المسافر، والسبب أن الرجل كان يرغب في إبقائها سرا.. ولذات السبب قال لي (دو) إن رأيه مجرد رأى عام لأنه لو أردنا اتخاذ إجراءات رسمية فلابد من إبلاغ سكوتلانديارد.

وقد استجوب الرقيب المسافر، فلم يعطه الأخير إلا أقل التفاصيل ببراعة لابد أنه تعلمها من بازارات الشرق..

سأله الرقيب:

- السؤال هو.. هل من سرق هذه الأشياء يعرف قيمتها أم سيقوم بصهرها؟

أي شخص له رأس على كتفية سوف يعرف قيمة هذه الأشياء العالية.

- إذن لنا أن نفترض أن من قام بهذا ليس مجرد خادمة فندق.. هذا شخص يعرف ما يريد.. لكنك سوف تندهش عندما تعرف السهولة التي تمت بها السرقة عندما نكشفها!

قال (كوربك) في حرارة وعصبية:

- اصغ هنا يا صديقي الطيب.. ليس هناك شيء سهل في هذه السرقة.. النوافذ كانت مغلقة والباب موصدا بالمزلاج.. لم أغادر الغرفة ليلاً... وكان آخر ما قمت به قبل النوم هو التأكد من كنزي. لو أنك وجدت سرقة بسيطة في هذا فأنت رجل بارع فعلا.. رجل قادر على إعادة ما سرق مني.

تقرر أن يقضى المستر (كوربك) بضعة أيام معنا، وقضينا باقي اليوم نفحص محتويات البيت، وقد اكتسبت القصة ضوءا جديدا بعد ما حكاه لنا مستر (كوربك).. الآن فقط فهمت أي كنز يحويه هذا البيت.. وقد تناثرت فيه المومياوات وقطع النحت وأكثر من جعران.. في غرفة النوم.. في المكتب.. على الدرج.

قالت لي (مارجريت) في سذاجة:

- لن تصدق أنني لم أنظر قط لهذه الآثار باهتمام من قبل.. أخذتها كقضية مسلمة.. اليوم أشعر باهتمام عميق يشدني لها.. ربما هو دم المستكشف الذي أخذته من أبي قد بدأ يعلن عن نفسه..

هكذا قضينا اليوم نستكشف الآثار وقررنا أن نفحصها بشكل مسلسل دقيق.. لم تكن (مارجريت) بالسذاجة التي تعتقدها في نفسها.. إن العام الذي قضته مع أبيها جعلها تعرف الكثير عن هذه الكنوز..

على أن أهم التوابيت كانت تلك الثلاثة في غرفة مستر (تريلوني)... اثنان كانا من حجر أسود من الرخام الناري.. الثالث كان مختلفا.. كان له لون العقيق اليماني البني المصفر.. وهنا وهناك بقع شبه شفافة.. وعلى التابوت آلاف النقوش الهيروغليفية بلون أزرق غامق.. كان ذا منحنيات ناعمة جميلة، وطوله حوالي عشر أقدام..

- لابد أن هذا التابوت مخصص لعملاق!

قالت:

- أو لعملاقة!

ثم أضافت:

- لم يرغب أبي قط في الكلام عن هذا التابوت.. لقد شد انتباهي من البداية.. سألته فقال إنه سيخبرني بالقصة يوما ما ولسوف تكون قصة ممتعة.. لو عشت.. لو عشت! شعرت بذعر لتكراره لفظة الموت وقررت ألا أسأله ثانية..

كان كلامها قد ألقى على اللغز ضوءين جديدين.. الأول هو أن مستر (تريلوني) ربط بين موته وذلك الأثر.. الثاني هو أنه كان يتوقع شيئا بصدده لم يجرؤ على التصريح به حتى لابنته..

جوار التابوت كانت هناك منضدة رائعة الجمال عليها علبة تتركب من رقائق من الصخر البلوري، وسط أحزمة من الذهب الأحمر.. ربما بدت العلبة من طراز عصري لكن ما حوته كان العكس.. بداخلها كانت وسادة من قماش ذهبي ترتكز عليها يد مومياء.. يد امرأة هي.. طويلة دقيقة في حالة ممتازة كحالتها عندما أمسك بها المحنط منذ آلاف السنين..

كان الجلد بلون العاج.. أما الملفت للنظر فهو أن بها سبعة أصابع.. أعلى المعصم مشرشر كأنما تم بترها، وقد تم تلوين هذا الموضع بلون أحمر غامق.. كما كان بجوارها جعران من الزمرد...

- كانت هذه من أسرار أبي المهمة.. سألته عنها فوعد بأن يشرح لي كل شيء فيما بعد.. لو عاش!

كانت حجرتها من طراز حديث يختلف عن باقي أثاث البيت.. الواقع أن الرجل لم يشأ أن تنام ابنته في جو الموت

والمومياوات المخيم على البيت.. هناك وجدت ذلك الكوموود العتيق من طراز (نابليون).. مددت يدى أتحسس الدرج فسمعت صوتا كأنه معدن يضرب معدنا.. سألتها عن معنى هذا فقالت إنها لا تدري..

- ربما هم الخدم يستعملون هذا الدرج.. لا أرى بأسا من فتحه.

انحنينا على الدرج وفتحناه وألقينا نظرة.. كان قلبي يدق كالمطرقة.. خشينا أن نمس شيئا.. لكننا استطعنا أن نرى المصابيح الموجودة في الدرج بوضوح تام! وللحظة خشينا أن نفكر في أي شيء..

في هذه اللحظة ظهر مستر (كوربك) مع المفتش على باب المخدع، فلما رآنا دخل من دون حذر، وهو يصيح:

- لقد استرددت متاعي يا مس (تريلوني).. كل شيء هنا ما عدا المصابيح طبعا.. المصابيح التي... ... ...

ثم توقفت عيناه على الدرج المفتوح..

أطلق صيحة دهشة وسرور.. وانحنى يتفحص هذه الأشياء.. راح يلهث وهو يحملها في يده مصباحا مصباحا كأنما هي حبيبته.. والصوت المنبعث منه كان أقرب لقط يقر..

أطلق الرقيب تنهيدة عالية، فنظرت له..

رأيته يحدق في مس (تريلوني) التي كان ظهرها لنا..

☆ ☆ ☆

الفصل 8
الحاجة إلى المعرفة

قال الرقيب (دو) في هدوء، وصوته يخرق الصمت كأنه لحن نشاز في معزوفة:

- هل أنت واثق من أن هذه هي المصابيح التي سرقت منك؟

قال الرجل في ثقة:

- بالتأكيد! لا يمكن أن توجد مصابيح كهذه في العالم كله!

- ومن أدراك أن هذه المصابيح ليست فريدة؟ ربما هناك نسخة منها في المتحف المصري أو كانت عند مستر (تريلوني)؟ لا جديد تحت الشمس كما تعرف.. ربما كانت هذه هي الأصلية والتي كانت عندك مزيفة.. هل لديك علامة تؤكد؟

هنا ثار غضب مستر (كوربك) ونسي تحفظه وانفجر في حشد من الجمل غير المترابطة

- نسخ؟ متحف بريطاني؟ كلام فارغ! لقد ضممتها إلى صدري ثلاثة أشهر في الصحراء وكنت أكلمها قبل النوم وحين اليقظة.. أمضيت ساعات أفحصها بعدسة مكبرة.. حفظت كل نقش وكل حفر عليها.. (كا) تقف بين رع وأوزيريس في قارب الموتى حاملة عين النوم! هل رأيت هذا المشهد في أي مكان؟

ثم بدأ يهدأ، فقال:

- أرجو أن تغفر لي ثورتي.

قال الرقيب:

- بالعكس.. أنا أحب أن أرى الناس غاضبين من كلامي.. فقط عندما يغضب الناس تعرف الحقيقة.. لقد أعطيتني تفاصيل عن هذه المصابيح في الدقيقة الأخيرة تفوق كل ما قلته لي من قبل..

نظر مستر (كوربك) لي، وسأل في مرح:

- كيف استرددتما هذه المصابيح؟

قلت في ارتباك:

- لم نستردها!

- كيف؟ لقد كنتما تقفان تحملقان فيها.

- هذا ما حدث فعلاً... وجدناها!! وأقترح أن نسأل الخدم لمعرفة كيف جاءت هنا.

استجوبنا الخدم واحدا بعد الآخر عن شيء وضعوه في درج المخدع، لكن لم تكن لدى أحدهم أدنى فكرة عما نتكلم عنه..

على كل حال وضعنا المصابيح في خزانة لها مفتاحان.. مفتاح صار معي والآخر أخفيته في درج خاص بي..

عندما انتهت هذه الأحداث وصل د. (ونشستر) ومعه صندوق فتحه أمامنا فوجدنا به مومياء قط.. كانت هذه هي التجربة التي أراد أن يجريها من قبل على القط (سيلفيو).

لقد تم استبدال هذه المومياء الحديثة بالمومياء الفرعونية ثم جلبنا (سيلفيو)..

كانت المفاجأة هي أن القط لم يبد أدنى اهتمام بالمومياء الجديدة..

قال الطبيب في لهجة انتصار:

- توقعت هذا!

سألته مس (تريلوني):

- وما معناه؟

لم نجد تفسيرا، لكن الرقيب كان رأيه أن الحادث تافه.. لكن ما عنده لم ينته عند هذا الحد.

لقد دق باب غرفتي في المساء ليفضي لي بشكوكه.. المصابيح موجودة في مكان تستطيع مس (تريلوني) الوصول له في أي وقت.. لقد سمع نافذة تفتح في الطابق الأرضي أمس.. مس (تريلوني) كانت موجودة في كل حوادث الاعتداء التي شهدناها من قبل.. إنها موجودة دائما في كل مرة..

كنت أصغى له وأنا أشعر بدرجة عالية من التوجس والخوف.. كنت أعرف أنني غارق في حبها الآن.. أردت أن أعبر عن شكوكي لكني في الوقت ذاته كنت أرفضها بقوة.

كانت عينا المفتش المحنك مسلطتين على وجهي طيلة الوقت..

بصعوبة قلت له:

- ماذا تريد قوله؟

قال:

- أريد القول إن المصابيح لم تسرق على الإطلاق.. هناك من جاء بها من الفندق إلى المنزل وتم تسليمها عن طريق نافذة في

الطابق الأرضي..!

شعرت براحة كبرى.. ليس هذا هو الاستنتاج الذي أخشاه.

- ومن فعل هذا؟

- لا أستطيع أن أحكم.. ربما مستر (كوربك) نفسه..

- إذن أنت تعتبر الرجل نصابا كذابا تعاون مع مس (تريلوني) على تلفيق هذه القصة لسبب أو آخر؟

- تلك كلمات قاسية يا مستر (روس).. لم أكن أحب أن أشك في مس (تريلوني) لكني متأكد مما أقوله بصدد مستر (كوربك)... لا أحب بقاءه في البيت بكل ما فيه من كنوز.

المزية الوحيدة لهذا الوضع هو أنني سأتمكن من مراقبته وطبعا لا داعي لأن أقول إن الموضع سر بيني وبينك.

☆ ☆ ☆

الفصل 9
وادي الساحرة

أعطاني (كوربك) كتابا من مكتبة مستر (تريلوني) عن التاريخ الفرعوني قال إنه سيساعدني على فهم ما يحدث هنا، وقد وضع علامات على بعض الصفحات كي لا أضطر لقراءة الكتاب كله.. لذا قررت أن أخذه معي أثناء السهر، ووضعته على المنضدة جوار الأباجورة.. أملت الغطاء بحيث يسمح لي برؤية الغرفة والممرضة الساهرة معي

منذ الصفحة الأولى بدا الكتاب ذا أهمية.. فالغلاف يقول إنه طبع في أمستردام عام 1650.. الكتابة بالهولندية وهناك من ترجمه للإنجليزية كلمة لكلمة بشكل حرفي جعل فهم المكتوب عسيرا.. دعك من صعوبة تبين شكل الحروف العتيقة، لكنى مع الوقت بدأت أكتسب القدرة على تمييز المكتوب..

كنت أقرأ ثم أرفع عيني لأتفحص الغرفة الغارقة في الظلام والصمت، ثم أعود إلى صفحات الكتاب، وكان لهذا أثره في (زغللة) عيني.

كان مؤلف الكتاب يدعى (نيكولاس فان هيون)، يقول إنه افتتن بمصر حتى أنه ذهب إليها وقضى أكثر عمره في استكشاف معابدها وقبورها.. فما إن توغلت في الكتاب حتى رحت أرفع عيني من آن لآخر لأرى إن كانت الممرضة تحركت.. لقد بدأت أشعر بأن هناك شخصا بقربي.

واصلت القراءة عن مغامرة المؤلف في منطقة تقع شرقي أسوان:

- «قرب المساء بلغنا واديا يمتد شرقا وغربا.. كنت أرغب في عبوره لكن الفلاحين رفضوا ذلك بإصرار لأننا لن نتمكن من العبور أبدا قبل الليل.. ولم يقدموا سببا لخوفهم.. في النهاية اعترفوا أن هذا وادي الساحرة حيث لا يمكن أن يبيت أحد ليلته.. قالوا هذا ولم يعطوا تفاصيل أكثر.

«في الصباح تبددت مخاوفهم فحكوا أن ساحرا أو ساحرة كان يعيش هنا منذ ملايين ملايين السنين - حسب كلامهم – وقد دفن هنا.. وإذ عبرنا الوادي لاحظت أنهم يتعمدون أن يسبقوني.. قالوا إن السبب أن ذراع الساحرة طويلة ومن الخطر أن تكون آخر واحد في مجموعة..

«في نهاية الطريق وجدت جدارا صخريا امتلأ بالنقوش صممت على أن أستكشفه لكن الفلاحين كانوا عصبيين جدا وخشيت أن أفقدهم.. بعد عبور الوادي قابلت شيخا بدويا يدعى (أبو صم) وهو من البدو الذين لا يؤمنون بالخرافات مثل المصريين.. لذا صممت على أن أعود لاستكشاف هذا الجدار مع رجاله..

«فشلت كل جهودي لتسلق الصخرة لأنها ملساء تماما كما كان من المستحيل غزوها من أعلى؛ لذا قررت أن أتدلى بالحبال فوقها بحثا عن فتحة مقبرة اعتقدت في وجودها..

«بالفعل وجدت فتحة تم سدها بحجر كبر عليه نقوش هيروغليفية.. وقد تمكنت من تحطيمها باستعمال ما معي من أدوات.. هكذا وجدت نفسي داخل قبر.. قبر لم يمس، فيه ممر يقود لغرفة المومياء..

«لحق بي الشيخ العربي ورجلان، وتعاونوا على رفع غطاء التابوت الذي وجدناه.. داخل التابوت كانت مومياء امرأة ملفوفة بالشاش وقد قدرت أنها من مرتبة عالية.. فوق صدرها كانت يد غير ملفوفة بالأربطة.. وهو وضع غريب غير معتاد.. كان لون الذراع كالعاج والأظفار سليمة كأن المومياء دفنت ليلة أمس.. كانت لينة تتحرك..

«الأغرب أن تلك اليد كانت ذات سبعة أصابع.. شعرت بقشعريرة إذ ألمس هذه اليد التي ظلت هنا آلاف السنين.. وتحت اليد . كأنما تحرسها . كانت ياقوتة كبيرة.. ياقوتة مذهلة في حجمها وألوانها.. الأغرب أن الضوء كان ينبعث منها من سبعة نجوم.. كأنها محبوسة بداخلها.

«كانت هناك أوعية كانوبية مما تحفظ فيها أحشاء المومياء، وقد رأينا بعضها فأصر الرجال على إفراغها لأنهم حسبوا ما فيها كنزا آخر، لكن خاب سعيهم لأنها كانت مليئة بالزيت الذي سكبوا أكثره على الأرض..

«فجأة انتابني الذعر وقررت أن أفر الآن من المقبرة، لأنني كنت في الصحراء مع رجال غرباء، ولأنني في قبر مجهول على ارتفاع مائة قدم حيث لن يعرف أحد عنى أي شيء لو حدث لي مكروه..

«غادرت المقبرة مع الشيخ على حين تأخر الرجال لسبب لا أدريه.. بعد قليل لحقوا بنا فتعثرت قدم أحدهم وسقط من أعلى ومات على الفور...

«أغلقت المقبرة بعناية على أمل أن أرجع لها يوما ما في ظروف أفضل.. وفي الخارج رحبت لأول مرة بالشمس الحارقة

التي بددت مخاوف وظلام ورطوبة القبر، وأردت أن أعود لأسترد جثة المسكين الذي هلك، لكن الشيخ أرسل اثنين من رجاله للقيام بهذه المهمة..

«في المساء أقمنا معسكرا.. لحق بنا أحد الرجلين ليخبرنا أن أسد صحراء قد فتك بصاحبه.. وأنه دفن القتيل في مكان لا تعبث به الضباع ولا بنات آوى.

«لكني لاحظت أنه يعرض على رفاقه شيئا ينظرون له بإعجاب وإكبار.. دنوت منهم أكثر فعرفت أن هذا الشيء هو يد المومياء التي وجدناها.. لقد وجدها فوق جثة صاحبه الذي سقط من فوق المرتفع.. لابد أن القتيل سرقها خلسة وأنا مشغول مع الشيخ.. من المؤكد أنها لم تجلب له الحظ الحسن..

«قضيت ليلتي مؤرقا أخشى الغدر.. فهؤلاء القوم يمكن أن يضعوني تحت رحمتهم في أية لحظة.. خبأت الياقوتة في يدي كي أتمكن من النوم.. وفي النهاية غلبني النعاس..

«صحوت على شمس الصباح فجلست ونظرت حولي.. كان المعسكر خاليا والنار قد خمدت.. لم يعد من أحد حولي إلا ذلك الشيخ العربي.. كان راقدا على ظهره ميتا وجهه شبه أسود وعيناه تحدقان في السماء..

«من الجلي أنه خنق لأن هناك علامات أصابع حمر على عنقه.. بالتحديد سبعة أصابع.. من الواضح أن السحر واللعنات موجودة حتى في هذه الصحراء المفتوحة

«سقطت الياقوتة من يدى التي أطبقت عليها طيلة الليل، فوق فم الجثة.. هنا خرجت دفقة دم من فم الرجل حتى بدا أن الياقوتة ستضيع.. ووجدت في يده خنجرا فعرفت أنه كان موشكا على الفتك بي أثناء نومي لولا أن أنقذتني معجزة ما.

«استعدت الياقوتة ملوثة بالدم وفررت من هذا المكان الرهيب، ومشيت وحدي في الصحراء حتى وجدت بعون الله قافلة من الأعراب تعسكر جوار بئر.. وقد استرحت لديهم..

«لا أعرف ما صار بصدد يد المومياء ولا من أخذوها.. لابد أن قبيلة صحراوية ما تستعملها كتعويذة للقوة.

«فيما بعد فحصت الياقوتة وحاولت فهم ما نقش عليها.. وقد كان ما رسم عليها هو...»

كنت منهمكا في القراءة، لكن التوتر جعلني أشعر أكثر من مرة برؤية ظل كبير كأنه ليد فوق الصفحات.. ثم عرفت أنه ظل الغطاء المحيط بالمصباح.. لكن لا عجب في هذا، فلو لم أكن مخطئا فإن ذات اليد التي وصفها (فان هوين) موجودة معي الآن في ذات الحجرة..

تأكدت من أن الممرضة متيقظة، فمما يريح النفس أن تعرف أن هناك شخصا حيا بقربك أثناء قراءة هذه القصص.

فجأة رأيت يدا حقيقية فوق صفحات الكتاب.. هذه المرة لا شك في هذا.. يد أعرفها وأحببتها.. نعم.. لقد أحببت يد مس (تريلوني) حقا، وكانت الآن تقف جواري.. أغلقت الكتاب في عجلة، فقالت:

- جئت كي أبدأ سهرتي.. حسبتك قد رحت في غيبوبة أنت الآخر..

قلت وأنا أداري الكتاب:

- لا مشكلة.. هذا كتاب استعرته من مكتبة أبيك وسوف أعيده.. أعرف رغبته في أن يظل كل شيء كما هو..

وطلبت منها الإذن وهرعت لحجرتي كي أخفى الكتاب هناك..

ذهبت الممرضة لتخلد للنوم فجلست وحدى مع مس (تريلوني).. لم أكن بحاجة إلى كتاب في وجودها.. وهذه المرة لم نتكلم قط عن المومياوات ولا البدو ولا الكهوف.. أعرف يقينا أن يدها ليست ذات سبعة أصابع والسبب أنها تستقر الآن في يدي..

☆ ☆ ☆

في الصباح قال د. (ونشستر) إنه ذاهب إلى (إبسوتش) وطلب منى الكتاب ليطالعه في القطار وهو ذاهب إلى هناك.

صعدت لغرفتي لأحضره لكني لم أجده في أي مكان.. أنا متأكد من أنني تركته على المنضدة الصغيرة هناك.. هذا غريب.. لم يكن منظر الكتاب ليجذب انتباه أي خادم لسرقته.. هكذا عدت لأخبر الآخرين باختفائه.

قال مستر (كوربك) عندما عرف القصة:

- على كل حال لا تقلق.. لا يوجد في الكتاب ما يثير الاهتمام بعد هذا، ولمدة قرنين لم يحل أحد لغز هذه الياقوتة.. لكن

الكتاب يلقى علينا أسئلة مهمة، وهذه الأسئلة هي التي حفزت أمثال (تريلوني) وأنا على محاولة حلها.. والتقينا عند هذه النقطة، فهو حجة في اللغات الشرقية، أما أنا فأفضل منه في لغات الشمال.. ذهبت إلى أمستردام وبذلت جهدا كبيرا في البحث عن أية كنوز تركها ذلك المستكشف الهولندي.. في متجر قديم وجدت تلك الياقوتة ذات النجوم السبعة وعليها نقوش هيروغليفية.. لم يكن صاحب المتجر في عالمه الناعس يعرف أي شيء عن أهمية هذه التحفة إلا أنها حجر ثمين، وكانت جيوبي مليئة لأنني أشترى للمستر (تريلوني) الذي تعرف بالتأكيد كم هو ثرى.. هكذا ابتعت الياقوتة وعدت إلى لندن وقلبي مفعم بالحماس والسرور.. وضعنا الجوهرة في خزانة مستر (تريلوني) وانطلقنا نستكشف بعد ما تأكدنا من صدق القصة في الكتاب..

☆ ☆ ☆

الفصل 10
قبر ملكة

في هذا الوقت كانت ثورة (عرابي) قد انتهت وصارت مصر مكانا مأمونا للمسافرين الإنجليز.. هكذا سافرنا إلى هناك، ولم يكن مستر (تريلوني) ممن يخافون حتى بدأت أعتبر نفسي جبانا بالمقارنة به..

وجد مجموعة من الأعراب؛ منهم واحد عرفنا أن بوسعنا أن نثق به.. أو على الأقل نشك فيه بقدر أقل من الباقين [3]..

وحصلنا على موافقة السلطات الموالية للبريطانيين، وإن احتجنا للكثير من الرشوة.. ثم بدأنا رحلتنا في الصحراء..

بدأنا البحث في أسوان إلى أن وجدنا واديا يشبه هذا الذي وصفه (فان هيون).. وجدنا ذلك الجرف الصخري، لكن الأسرار التي حيرت (فان هوين) لم تعد مستغلقة علينا اليوم.. استطعنا قراءة ما كتبه كهنة طيبة منذ خمسين قرنا.. كهنة معادون لو كان لي أن أقول هذا.. فقد كانت الكلمات تقول:

«هاهنا تأتي الآلهة من دون دعاء.. فقد أهانهم الذي لا اسم له ولسوف يظل وحيدا للأبد.. لا تدن وإلا صعقك انتقامهم..»

لم يعد أحد يقدر على قراءة المكتوب، لكن صدى التهديد ظل حيا عبر القرون، فلم يجسر واحد من الأهلي على الدنو من هذا القبر.. ولم نجسر على ترجمة المكتوب للقادمين معنا، فهم وإن كانوا لا يؤمنون بتلك الآلهة التي يحذرنا الكهنة منها، فهم مؤمنون بالخرافات كثيرو التطير.. ومن السهل أن يتخلوا عن المهمة ويفرون..

صنعنا درجات من الخشب تعتلى الصخرة، وصعدنا إلى حيث وجدنا الصخرة التي تسد الكهف موضوعة بشكل أخرق وإن أبقاها وزنها حيث هي.. اضطررنا لدفعها للداخل كي نتمكن من الدخول..

هكذا نزلت القبر أنا ومستر (تريلوني) ومعنا مصابيح عدة رحنا نثبتها ونحن نتوغل.. كان هذا من أجمل ما رأته أعيننا من قبور.. لابد أنه أعد في حياة ساكنه وبأوامره.

وعلى القطعة التي نطلق عليها اسم (البلاطة التذكارية) وجدنا نقوشا بالهيروغليفية تقول:

- تيرا.. ملكة مصر وابنة (أنتيف) ملك الشمال والجنوب..

ثم راحت الكتابة تحكى قصة ملكها.. كان تاجا الشمال والجنوب (الهيجت والدشر) في قبر ملكة مصرية وهذا شيء غير معتاد.. كان هناك عرف في مصر القديمة أن هذا التاج يلبسه ملك فقط..

لك أن تتصور ذهولنا وسط كل هذه العظمة.. خاصة أننا لسنا أول بشريين نرى هذه الأشياء، لكننا أول بشريين ندرك معناها منذ خمسة آلاف سنة..

كان سقف المقبرة منقوشا بكثافة وكل النقوش بلون أخضر مزرق، وقد نزل (تريلوني) أولا.. بالداخل وجدنا تابوتا من حجر أصفر هو الذي رأيته أنت في غرفة مستر (تريلوني).. كما وصفه (فان هوين) بالضبط.. بالطبع كان المشهد أقل إثارة مما وجده (فان هوين) لكن كان هناك مشهد أثار رعبنا ولم يره هذا الأخير..

ففي نهاية ذراع الملكة - حيث بتر الساعد - كان هناك دم جاف!!

كأنها نزفت حتى الموت! وقد سال الدم وأغرق اللفافات كأنه الصدأ..

هنا كان الدليل على صدق الراوي.. بالتالي لم أعد أشك في باقي قصته.. مثل الأصابع السبعة على حنجرة الشيخ..

الآن لن أثقل عليك بتفاصيل لا تهم سوى الأكاديميين.. سأحكي لك ما يهمك فقط.. كانت الملكة (تيرا) هي الحادية عشرة في سلالة ملوك من طيبة تواجدت بين القرن التاسع والعشرين والخامس والعشرين قبل الميلاد.. كانت الابنة الوحيدة لأبيها (أنتيف).. مات أبوها في صغرها فأغرى هذا الكهنة بأن ينفذوا مؤامرتهم للاستيلاء على الحكم.. لكن الملك كان قد تحسب لهذا؛ لذا ضمن لابنته ولاء الجيش، وعلمها علم الكهان وسحرهم، بحيث نشأت الفتاة بين النصوص وأحبت الفنون.. من المدهش أن تعرف أن جزءا كبيرا من النقوش التي رأيناها صنعتها بنفسها..

لقد درست السحر الأسود وصار بوسعها أن تسيطر على العقل وقدرات الإرادة والنوم واليقظة.. وقد جعلت الكهنة يضعونها في تابوت وينزلونها القبر لمدة شهر، ثم عادت بعد هذا لتثبت أنها أقوى من الموت.

في كل جزء من المقبرة توجد رسوم تمثل كوكبة نجوم المحراث. يبدو أنها بشكل ما كانت تربط نفسها بهذه الكوكبة..

كان الكهنة ينوون محو اسمها، وهذا شيء خطير لو كنت مصريا قديما لأنه يحرمك نهائيا من العالم الآخر.. وكانت هي تعرف هذا؛ لذا قررت أن تبعث ثانية بعد زمن بعيد في أرض شمالية أكثر.. تحت كوكبة النجوم التي حكمت ميلادها.. حرصت على أن تترك يدها غير ملفوفة وفيها الجوهرة، بحيث يمكنها الحركة لو شعرت بهواء طلق.. كما فهمنا فإنها قررت أن تتحول إلى شكل نجمي وتتجمع جزءا بجزء حتى تصير هي من جديد.

عند قدميها في التابوت كان صندوق حجري ذو سبعة جوانب هو الذي رأيته في غرفة مستر (تريلوني)..

لقد ظللنا في وادي الساحرة أياما حتى نسخنا كل ما وجدناه على الجدران.. وعندما رحلنا أخذنا عدة أشياء من بينها تابوت المومياء ذاته.. كانت عملية النقل صعبة، وكان الخطر دائما خاصة في الليل من العصابات وهؤلاء البدو المرافقين لنا.

في الليل داهمتنا عاصفة سموم من تلك العواصف العنيفة التي تهاجم الناس في الصحراء.. هرب البعض بينما حاولنا أن نتماسك ونصمد.

في الصباح جمعنا حاجياتنا.. وجدنا التابوت الذي كانت فيه المومياء لكن لم نجدها.. بحثنا.. حفرنا الرمال بلا جدوى..

لكن في الليل نهض (تريلوني) وهمس في أذني:

- سنعود إلى المقبرة! لا تسأل عن السبب حتى لا نسبب الشكوك.. فقط نفذ ما أقول.

ثم همس:

- سنجد المومياء هناك! تأكد من هذا.

هكذا قررنا العودة ولم يرق هذا للعرب وحدثت احتكاكات كثيرة.. من ثم وجدت ومستر (تريلوني) أننا مرغمان على العودة وحدنا إلى الوادي وإن وعد الشيخ بأن ينتظرنا في المعسكر ثلاثة أيام..

بدا واضحا أن هناك من دخل المقبرة أثناء غيابنا، فقد كان الحبل يتدلى داخل القبر من الفتحة العلوية! تبادلنا النظرات ولم نتكلم..

نزلنا إلى المقبرة.. هنا خطر لي أن هذه مصيدة محكمة لو أن أحدهم قطع الحبل لدفننا هنا حيين، وكانت الفكرة مرعبة لكن وقت عمل شيء قد تأخر..

دخلنا قاعة الدفن، وكانت خاوية موحشة بسبب غياب التابوت العظيم.. ما جعلها موحشة أكثر هو مومياء الملكة التي وجدناها ملقاة على الأرض! وجوار الأشلاء كان ثلاثة من العرب الذين تركونا.. كانوا موتى اسودت وجوههم وتلطخت ثيابهم بالدم الذي نزف من أفواههم وأنوفهم.. وعلى حلق كل منهم أثر يد ذات سبعة أصابع.

صرخنا وتماسكنا.. لأن ما هو أكثر شناعة كان تلك اليد التي استقرت على صدر المومياء.. يد لها لون العاج ولها سبعة أصابع!

الفصل 11
النهوض من السُّبات

لما استعدنا روعنا لم نضيع أي وقت في نقل المومياء.. نقلناها خارج المقبرة وعدنا إلى معسكرنا حيث كان ينتظرنا مرافقونا.. لدهشتنا وجدناهم موشكين على الرحيل. سألنا الشيخ فقال إنه أنهى المطلوب منه في الاتفاق وأن ثلاثة أيام قد مرت.. حسبته كاذبا يبرر رغبته في تركنا..

وصلنا القاهرة وهناك تذكرنا أن تاريخ دخولنا المقبرة الثاني كان 3 أكتوبر 1884.. لن أنسى التاريخ لسبب معين. لقد مرت علينا في المقبرة ثلاثة أيام كاملة ونحن نحدق في المومياء وأشلاء اللصوص!

من القاهرة قصدنا الإسكندرية حيث كان علينا أن نركب سفينة إلى مارسيليا.. ومن هناك بالقطار إلى لندن.. لكن كانت تنتظرنا في الإسكندرية برقية تخبرنا أن مس (تريلوني) ماتت وهي تضع طفلة.. هي (مارجريت)..

هكذا انفصل عنى مستر (تريلوني) ليسرع إلى الوطن، ولحقت أنا به حاملا المتاع والمومياء.. لقد شاب شعر الرجل، ومنذ تلقى البرقية لم أره يضحك مرة واحدة..

كانت علاقته بابنته (مارجريت) مركبة تجمع بين الحب الذي يبلغ درجة العبادة، والشعور بأنها سبب موت أمها.. الشيء الثاني الذي أخفاه لكنه أعلن عنه في لحظة معينة هو:

- إنها لا تشبه أمها.. تشبه صور تلك الملكة (تيرا)!

ثم أرسل الطفلة لتتربى بعيدا، ولم أرها مرة أخرى قط حتى هذا اليوم الذي جئت فيه للبيت.

قرر أن يغرق همومه في العمل، وقد قضى وقته في دراسة ما حصل عليه وفي تنسيقه..

كانت خلاصة دراسات (تريلوني) تقول إن سر الياقوتة لن يتضح إلا عندما توضع في وضع خاص وسط ما يماثل نجوم كوكبة المحراث.. أي أنه يجب أن تحيط بها سبعة مصادر ضوئية تعمل عمل النجوم.. وقد جربنا هذا بعدة مصابيح بلا جدوى، من ثم فكر (تريلوني) في أن هناك نوعا من المصابيح اصطنعتها الملكة (تيرا) تقوم بهذه المهمة بالذات..

هكذا عدت إلى مصر وإلى المقبرة من جديد بحثا عن تلك المصابيح الغامضة، وكان هناك سرداب خفى لم نفطن له في المرة الأولى، لكني وجدت جثة لص حاول فتحه ومات رحت أنقب أعواما، وفي النهاية وجدت المصابيح عند تاجر عاديات..

كلها تحمل شعار الرب (هاتور)، وقد اضطررت لشراء أشياء كثيرة من ذلك التاجر لأخفى اهتمامي الخاص بهذه الأشياء، وعدت بها ملهوفا إلى لندن بعد غياب ثلاثة أعوام عن الوطن لأجد الوضع كما تراه..

قال مستر (كوربك) وهو ينهى قصته:

- أنت الآن تعرف ما أعرفه عن القصة، ولك أن تحدد القدر الذي يمكن أن تعرفه مس (تريلوني)..

هنا سمعنا صوت مس (تريلوني) يقول:

- عم تتكلمان؟ وما هو ذلك السر الذي تناقشان معرفتي له؟

☆ ☆ ☆

عجزت عن الكلام فقالت:

- لا تتعب نفسك.. لا أود سماع أي شيء قبل أن يشفى أبي..

ثم أعلنت أنها ستخرج إلى الحديقة قليلاً كي تنتعش من جو البيت المسموم.

جلست وحدي في غرفة المريض وقد انصرفت الممرضة من أجل بعض شأنها، ورحت أتأمل في كل ما فات وما قاله لي مستر (كوربك).

هنا سمعت صوتا غريبا.. صوتا لا معنى له لكنه بدا كلحن عذب في أذني..

لقد كان الرجل المريض يتكلم!

- من أنت؟ ماذا تعمل هنا؟

لم يتخيل أحدنا أن يفيق الرجل ويسيطر على حواسه بهذه السهولة!

رددت بطريقة شبه آلية:

- اسمي (روس).. وأنا مكلف بالعناية بك..

- تعنى بي؟ لماذا تعنى بي؟

ثم استقرت عيناه على الضمادة على معصمه فالتمعتا.. ثم صار أقل عدوانية، وقال:

- هل أنت طبيب؟

قلت في هدوء:

- لا..

وابتسمت.. هنا سأل وقد استعاد دكتاتوريته:

- لست طبيبا؟ إذن ما الذي تفعله هنا؟

- أنا محام لكن ليست هذه صفتي هنا.. لقد طلبتني ابنتك عندما حسبتك قد قُتلت.. بعد هذا اعتبرتني صديقا وطلبت مني العناية بك..

لم يكن بالرجل كثير الكلام، وقد أدركت أنه قبل وجودي بسرعة.. ربما كانت لديه أسبابه.

- هل حسبتم ذلك أمس؟

- بل منذ أربعة أيام..!

بدا عليه الذهول، ثم قال لي:

- أغلق الباب.. لا أريد أن أقابل أحدا أو أكلم أحدا قبل أن أعرف منك بالتفصيل ما حدث..

اتجهت لغلق الباب وأنا أشعر بالراحة.. كل واحد في هذا البيت يعاملني بشكل استثنائي.

- هلم..

هكذا رحت أحكى له قصتي، وبالطبع لم أحك شيئا عن حبي لابنته التي صار اسمها مس (تريلوني) لا (مارجريت) الآن، ولا قصة (كوربك) التي لم أقل عنها سوى إن الرجل أضاع بعض المصابيح ووجدها في البيت.. كل هذا وهو يرمقني بنظراته الفاحصة للروح طيلة الوقت.. وتذكرت أن أصدقائي كانوا يصفونني بالقوة.. يجب ألا أضعف أمام هذا الرجل.. إنني أواجه الآن لحظة صعبة بحق....

في النهاية قال لي بابتسامة مطمئنة:

- (مالكولم روس).. سمعت عنك الكثير كجنتلمان شجاع وشريف.. يسرني أن ابنتي لها صديق..

هنا تواثب قلبي، فقد ربحت أول خطوة في الفوز بأبي (مارجريت)..

وفهمت من الكلام أنه سر لمعرفة أن ابنته كانت خائفة جزعة عليه.. لقد كان يحب أمها حقا، وحبه لها هو حب لابنة زوجته أكثر مما هو حب لابنته..

بدأ جو من (الحموة) يولد ويبعث الأمل في قلبي.. للحظات شعرت بأنه يكلمني كزوج ابنته فعلاً.. وعندما طلب مني أن أستدعي له (كوربك) حالا وألا أبلغ ابنته على الفور حتى لا تصدم، هرعت إلى الباب.. هنا استوقفني صوته يناديني:

- مستر (روس).

توقفت وقد تضايقت لأنه عاد لصيغة (مستر) الرسمية بعد ما ناداني (مالكولم) عدة مرات.. عدت له فقال لي:

- أفهم من كل هذا الحماس الذي تتحدث به عن ابنتي أنك تنوي طلب يدها مني في وقت قريب؟

- بالقطع! كانت هذه نيتي.. طبعا بعد فترة مناسبة محترمة.. لقد اقتربت منها في الفترة الأخيرة أكثر مما كنت أحلم به لكني أؤكد لك بشرفي أنني . من ناحية ابنتك على الأقل ما زلت مجرد صديق، ولم أفاتحها في أي شيء بهذا الصدد.. إن الظروف لم تكن تسمح على كل حال..

- إذن أطلب منك ألا تفتح الموضوع معها، لأن الوقت ضيق وأنا بحاجة إلى التفكير في مواضيع أخرى.

- أعدك بهذا يا سيدي.

خرجت وأخبرت (كوربك) بأن مستر (تريلوني) قد شفى.. راح يرقص كالمجنون.. أما (مارجريت) فجلست على أقرب مقعد وراحت تبكي.. أخبرت الرقيب (دو) فسألني على الفور:

- ما هي قصته عن الاعتداء الأول عليه؟ لقد كان في غيبوبة عندما وقع الاعتداء الثاني..

كنت قد نسيت كل شيء عن الاعتداء الأول.. لم أسأل الأب عنه، لكن الغريزة المهنية لدى الرجل كانت قوية فعلاً.. وكان رأيه إن فرحة عودة الرجل للوعي سوف تنسينا جميعا البحث عن تفسير منطقي لما حدث.

نادى الأب (مارجريت) فهرعت إلى حجرته غير مصدقة..

كان آخر ما رأيته هو منظرها بين ذراعي أبيها، ثم انغلق الباب عليهما..

☆ ☆ ☆

الفصل 12
الوحمة

كنت غارقا في خواطري بصدد هذين المخلوقين القويين اللذين لم يجدا الفرصة قط ليتقاربا.. كان كل منهما بحاجة إلى أن يشعر باهتمام الآخر، عندما انفتح الباب وناداني مستر (تريلوني) بلهجة آمرة:

- تعال يا مستر (بروس)

نهضت متوجسا من هذه اللهجة الرسمية، فأغلق الباب خلفي وقال لابنته:

- هذا الرجل عرف الكثير جدا عن الموضوع فلم يعد أمامنا إلا أن نتوقف هنا ونطلب منه أن يرحل، أو أن تريه ساعدك..

في تردد كشفت (مارجريت) عن ساعدها وقربته مني.. هنا أجفلت مما رأيت.. فعلى معصمها كان خط أحمر متعرج تتدلى منه نقط حمر كأنها قطرات دم!

الغريب أنها بدت فخورا برغم ما جبلت عليه من نكران الذات.. برغم النار المتقدة في عينيها والمسلطة على روحي.. كانت تفيض كبرياء.. كبرياء ملكة من عصور غابرة ولدت كي تكون الأولى والأعظم..

سألني أبوها:

- ماذا تراه؟

لم أرد بكلمات.. فقط أمسكت بيد (مارجريت) ولثمت معصمها.. لمحت شبح ابتسامة على شفتيها كأنها تحلم.

قال الأب:

- الآن هات لي مفتاح الخزانة كي ألقي نظرة على تلك المصابيح..

هكذا هرعت إلى (شانسري لين) لأجلب له المفاتيح.

تناولنا العشاء مع د. (ونشستر) ومستر (كوربك) وكان عشاء مرحا بطبيعة الحال.. وبعده قال لي الأب:

- أرى أن تمضي ليلتك في بيتك.. فأنا بحاجة للهدوء والحديث مع ابنتي.. غدا أخبرك بالمزيد..

كنت أشعر بضيق لترك البيت بعد تلك الأيام لكنى فهمت إرادته واحترمتها.

- تعال مبكرا في أي وقت تريد.. لو أردت تناول الإفطار معنا فلتأت..

ولم أنم تلك الليلة.. السعادة على جانب من فراشي والقلق على الجانب الآخر.. وجاء الفجر مسرعا مندفعا.. فهرعت إلى دار (مارجريت) لأتناول الإفطار مع الأسرة.

قال الأب لما فرغ من الإفطار:

- أنا راغب في إجراء تجربة علمية خطيرة أعتقد أنها ستضيف الكثير لفهمنا للكون وللبشرية، لكني لست طليق اليد في وجود ابنتي.. أشعر أن هناك خطرا لا بأس به عليها..

نهضت (مارجريت) واحتضنت أباها، وقالت:

- أبي.. إن أمي لم تطلب منك البقاء جوارها حينما قمت بتلك الرحلة الخطرة لمصر، خاصة والبلاد كانت في حرب.. لقد تركتك تذهب كما أردت برغم خوفها عليك.. والدليل هو هذا.

ومدت معصمها كي نرى ذلك الخط الشبيه بالندبة، وقالت:

- ابنة أمها ستفعل ما كانت أمها ستفعل.. معا سوف نجتاز هذا الخطر أو معا سوف نفشل.

شعرت بأنها ملكة أكثر من أي وقت مضى، وقد نهضت وأمسكت بيدها، وقلت:

- مستر (تريلوني).. أنا وابنتك شخص واحد في هذا الموضوع..

بعد قليل جاء مستر (كوربك) ود. (ونشستر).. بدا من ملامحهما أنهما مقبلان على أمر خطير بحق.. واجتمعنا في غرفة المكتب حول مستر (تريلوني) الذي نظر للطبيب، وقال:

- أنت الآن تعرف من مستر (كوربك) قدر ما نعرف، فهل أنت مستعد لخوض هذه التجربة؟

قال الطبيب:

- أنا مهتم بشدة بهذه القصة الغامضة.. وأنا رجل علم مهتم بالظواهر الغريبة، كما أنني وحيد بلا أسرة.. يمكنك الاعتماد عليّ.

قال مستر (تريلوني):

- التجربة التي نحن بصددها هي معرفة ما إذا كان هناك شيء من الصواب في السحر القديم.. لا توجد ظروف أفضل من هذه للاختبار.. عن نفسي أنا مؤمن بأن هناك حقيقة في هذا.. بعد كل شيء ليست التوراة كتابا خرافيا، وهي تتحدث عن أن الشمس توقفت في كبد السماء بأمر رجل، وأن حمارا تكلم.

هذه الملكة (تيرا) ظلت مجهولة بالنسبة لكل من كتب عن التاريخ الفرعوني، لكنها كانت ساحرة.. وما دامت ساحرة فإن لها شيطانا Familiar بالتأكيد.. فهل فكر أحدكم في شيطانها؟

هنا هتف الطبيب:

- القط! مومياء القط!

ابتسم مستر (تريلوني)، وقال:

- نعم.. كل شيء يؤكد أن شيطانها كان القط الذي تم تحنيطه ودفنه معها.. ليس في قبرها بل في ذات التابوت معها.. هو ذات القط الذي مزق معصمي..

هتفت (مارجريت):

- إذن (سيلفيو) المسكين بريء.. حمدا لله!

- واضح أن هذه المرأة كانت تتمتع بحدس خارق للعادة.. لابد أنها نظرت إلى الشمال وفتنتها نجوم كوكبة المحراث السبعة.. هكذا ولدت جوهرة النجوم السبعة التي اعتبرتها طلسم حياتها.. رقم سبعة كان الرقم السحري في حياتها ولا غرو.. سبعة أصابع في يدها وسبعة في قدمها.. لقد ولدت مع فيضان النيل في الشهر السابع من السنة، وكانت ربتها هي

(هاتور) التي جمعت المكر والحكمة.. لو طبقنا التقويم الميلادي فالشهر السابع يبدأ عندما يكون نصل المحراث فوق طيبة.. تذكروا أن الفراعنة بلغوا مبلغا يفوق علمنا في علوم عدة، ومنها الفلك والصوتيات المذهلة في معبد الكرنك.. هنا نفحص الصندوق الذي وجدناه في المقبرة بين قدميها والذي له سبعة جوانب، والذي أعتقد أنه صنع من نيزك سقط يوم مولدها.. هذا الصندوق غير قابل للفتح لأنه مغلق من الداخل، فكيف انغلق؟ وماذا يحويه؟ أعتقد أنه يحوى أسرارا عظمي.. ربما هي أسرار عرفها الفراعنة وتمُتُّ بصلة لسيطرتهم على الأعشاب.. ربما عرفوا وصفات سحرية لا نعرفها، ولها قدرة سحرية على التنويم.. تذكروا أنني نمت ثلاثة أيام كاملة ومن قبل مرت علينا ثلاثة أيام في المقبرة دون أن نشعر..

كانت الملكة تعد كل شيء لعودتها للحياة.. وعلى عكس العقيدة الدينية وقتها، كانت تأمل في أن تعود بلحمها ودمها.. وهو ما أثار غيظ الكهنة.. لاحظوا أن أوعيتها الكانوبية خالية.. أعتقد أن أحشاءها لم تنزع قط، ومخها لم يتم تفريغه كما هي العادة..

لماذا تركت الممر الذي يقود للمقبرة خاليا مع أن العادة جرت على أن يتم ملؤه بالحصى؟ لأنها كانت تأمل أن تغادر القبر في صورة امرأة جديدة وأرادت أن يكون الطريق مفتوحا.. لنفس السبب وضعت السلسلة التي وصفها (فان هوين) لتتمكن من تسلق المقبرة إلى أعلى الجرف الصخري..

☆ ☆ ☆

الفصل 13
غرض الملكة (تيرا)

- الآن ماذا عن الجوهرة؟ هناك كلمات معينة عند المصريين قيل إنها كلمات سرية أو (حيكاو)، قادرة على استدعاء أرباب العالم السفلي والعلوي.. إن جوهرة النجوم السبعة منقوشة بالهيروغليفية في موضعين وعليها تلك (الحيكاو).. ولكن انتظروا لتروا بأنفسكم..

وغاب لمدة دقيقة أو اثنتين، ثم عاد بصندوق ذهبي صغير على وسادة من ساتان أبيض كانت ياقوتة عظيمة الحجم وقد تمت صياغتها على شكل جعران.. وكانت سبعة نجوم تلتمع وسط اللون الأحمر المبهر.. بالفعل لها شكل المحراث.. هناك تعويذتان.. واحدة تقول (الحب) وهي تستعمل لاستدعاء أرباب العالم العلوى، و(الصبر) وتستعمل لاستدعاء أرباب العالم السفلي.

قال مستر (تريلوني)

- إذن هي ظلت كل هذه القرون في تابوتها تنتظر متذرعة (بالصبر) الذي يستدعى أرباب العالم السفلي، منتظرة (الحب) الذي يستدعى أرباب العالم العلوي.. هنا نأتي لأجرأ استنتاج لي.. هذه الهجمة عليّ كان الغرض منها فتح الخزانة وإخراج جوهرة النجوم السبعة للعالم الخارجي.. إن حضورها النجمي كروح أو (كا) لا يقدر على إخراج الجوهرة من الداخل لأن الجوهرة ذات وجود مادي قوى.. هكذا استعملت الملكة حضورها النجمي وقوة شيطانها - مومياء القط - للحصول على المفتاح.. أنا أيضا

تذرعت بالصبر فترة طويلة كي أجد الظروف الملائمة لفتح الصندوق وإعادة الملكة للحياة..

سألته (مارجريت):

- أبي.. ألم يكن الفراعنة يؤمنون بالبعث مرة واحدة لا أكثر؟ أم أنهم آمنوا بتكرار البعث في عدة عصور؟

- إن هو إلا بعث واحد في عقائد الفراعنة.. لكن بينهم من اعتقدوا بالبعث في عالمنا هذا..

قالت وقد لمعت الدموع في عينيها، وهي تنظر إلى الأفق كأنها تحلم:

- أفهم هذه المرأة المسكينة التي امتلكت كل شيء عدا الحب.. ما من أحد يفهمها إلا امرأة.. أعرف الشعور لأنني جربته من قبل.. هذه الملكة كانت أعلى مما حولها.. أعلى من زمنها..

بدا الرضا على الأب، وانتظر حتى هدأت عواطف ابنته، ثم قال:

- الآن دعونا نتكلم عن ذلك الصندوق الحجري.. أنا مقتنع بأنه ينفتح طبقا لطريقة ضوئية ما.. هناك حقائق كثيرة نجهلها عن الضوء واعتقادي أنها أرض بكر للباحثين.. خلال السنوات الأخيرة عرفنا عن الضوء ما كان يكفي لإرسال المكتشفين للمحرقة منذ قرنين.. أشعة (رونتجن).. الرادون.. أشعة (بيكوريل).. الراديوم.. يمكن القول إن كل مصدر ضوئي له قوى خاصة به.. نحن نلاحظ أن نار البارافين تختلف عن نار الفحم أو نار زيت الحوت.. هنا فكرت في الزيت الموجود في أوعية الملكة (تيرا) الكانوبية.. هذه الأوعية لم تصنع للاحتفاظ

بأحشائها بل لغرض ما.. لقد فحصت هذه الأوعية وجدت أن هذا زيت خشب الأرز.. هنا خطر لي أنه مستخدم لملء المصابيح.. أنت تعرف أن زيت خشب الأرز كان يستعمل بكثرة في طقوس الفراعنة وله خاصية انكسار فريدة.. نحن نستعمله في المجهر لإعطاء رؤية أفضل.. لقد ملأت مصباحا وأشعلته ووضعته جوار الصندوق.. كان التأثير مبهرا وقد بدا كأن الصندوق يتألق من الداخل، بينما كان تأثير الضوء الكهربي محدودا.. لقد طلبت كميات أخرى من هذا الزيت.. وسوف نري..

قال الطبيب:

- لنفرض أننا فعلا نجحنا في فتح الصندوق بهذه الطريقة ألا يتلف هذا (ميكانيزم) الفتح فيما بعد؟

كان شكه هذا ما دفعنا إلى التفكير في أشياء أخرى كثيرة.

☆ ☆ ☆

الفصل 14
الكهف

مر بنا الوقت.. مسرعا في بعض الأحيان وبطيئا في بعضها.. كنت أفكر في التجربة المقبلة بكل ما فيها من غموض، شاعرا بحماقة من يعرضون أنفسهم لخطر كهذا.. كل شيء غامض جدا.. كل شيء غير ضروري!

حتى لو نجحت هذه التجربة فما جدواها؟ وأية متاعب لن تسببها؟ ماذا سيحدث لو عرف الناس أن أبواب بيت الموت ليست موصدة للأبد؟ وأن الموتى قد يعودون للحياة؟ ما تأثير نجاح هذه التجربة على معتقداتنا الدينية؟ هل تعنى هذه التجربة وجود قوى عليا أخرى غير التي آمنت بها المسيحية ثمانية عشر قرنا؟ سوف يعني هذا فرضية مفزعة لدرجة أن المرء لا يجسر على التفكير فيها.

ما الذي رأه الشاعر (ملتون) بعينيه الكفيفتين في ضوء الإلهام الشعري؟

كان الموضوع أكبر مني لهذا كففت عن التفكير ورحت أنتظر في صبر ما تسفر عنه الأمور.. احتفظت (مارجريت) بهدوئها وقد حسدتها على هذا، وإن اتسم باقي الرجال بالتوتر والعصبية..

في ذلك المساء اجتمع بنا مستر (تريلوني) في مكتبه.. وقد أرهفت السمع لما سيقول:

- لقد توصلت إلى أنه كي ينجح ما أطلق عليه (تجربتنا الكبرى) فإن علينا أن ننعزل.. ننعزل بالكامل.. ليس ليوم أو اثنين

بل لأي وقت نحتاج إليه.. هذا شيء عسير التحقيق في هذه المدينة الكبرى حيث تقتحم خلوتك برقيات.. خطابات مسجلة.. بالإضافة لهذا تتركز عيون الشرطة على هذا المكان بعد ما حدث في الفترة الماضية.. أضف لهذا أن الخدم الذين تركوا العمل سوف يتكلمون.. وسوف يعرف الخدم في البيوت المجاورة بالأمر، وبعدها سوف يتسرب الأمر إلى الصحافة. يجب أن نفكر في العزلة ومن حسن الحظ أنني فكرت في الموضوع منذ زمن، وقد أعددت بيتي في (كورنوول) لاستقبال التحف التي وضعتها هنا.. إنه مضاء بالكهرباء ومعزول تماما.. وهو يقف فوق جرف صخري خلف تل منحدر فلا يمكن رؤيته إلا من البحر.. لقد رتبت مع المحامي (مارفين) أن يعد كل شيء للنقل.. هناك قطار مخصص لنا سوف ينطلق ليلاً، وقد أعد لنا عددا من العربات والرجال لنقل متاعنا إلى (بادنجتون).. سوف نبدأ حزم أمتعتنا اليوم ويجب أن نكون مستعدين مساء غد.. مسز (جرانت) سوف ترتب رحيل الخدم إلى (كيليون).. إن الخدم الذين بقوا مخلصون لنا بشدة، وهذا يعود لمعاملة (مارجريت) الحسنة لهم.

هكذا بدأنا العمل.. كانت هناك حاويات عملاقة مدعمة بالخشب ووضعناها في البيت، كلًّا جوار الشيء الذي ستحتويه.. لا أحد يستطيع أن يتخيل كم الجهد الذي يقتضيه عمل كهذا الذي قمنا به.. كل شيء تم تحت إشراف مستر (تريلوني) الذي كان يمسك بقائمة يسجل فيها موضع كل شيء..

انتهى العمل تماما في وقت العشاء في اليوم التالي.. وسرعان ما جاء موكب العربات قبل منتصف الليل بقليل.. تم

نقل كل شيء، وقد جبنا البيت الذي تحول إلى فوضى بعد رحيل الخدم.. في كل غرفة أكوام من الغبار والقش والقاذورات..

آخر شيء قام به مستر (تريلوني) هو أن فتح الخزانة وأخرج منها جوهرة النجوم السبعة ووضعها في جيبه.. قالت له (مارجريت) مشجعة:

- لا تخف يا أبي.. ستمر رحلتنا بسلاسة.. ما دام جسدها النجمي يحوم حولنا فهي تعرف.. ولسوف تغمرنا بحمايتها ما دامت تعرف مهمتنا!

وركبنا سيارة أجرة إلى (بادنجتون)..

تم تحميل كل شيء في المحطة، بينما ركبنا نحن عربات نوم.. وما إن تحرك القطار حتى نعمت بنوم هادئ.. شعرت بشكل ما أن ما قالته (مارجريت) بشأن عدم حدوث مشاكل له معنى ما.. وإن كنت عرفت فيما بعد سبب كونها متأكدة لهذا الحد...

برغم هذا كانت هناك إشارة مقلقة لم نشعر بها لأننا كنا نياما.. في الصباح أخبرنا أحد عمال القطار أن القطار كان في طريقه بين (دوليش) و(تيجنماوث) عندما أوقفته إشارة تحذير من شخص وقف على القضيب يلوح بمصباح.. وقد وجد السائق انهيارا أرضيا أمام القطار.. لقد تهاوى جزء من التربة الحمراء على جانب الطريق لكنه لم يبلغ القضبان.. وهكذا واصل السائق طريقه متضايقا من التأخير...

وصلنا (وسترسون) في التاسعة مساء.. لم ننتظر لمراقبة عملية تحميل العربات لأن القائمين كانوا رجالا أكفاء، وانطلقنا

بعربات تجرها الخيول إلى (كيليون)..

كان البيت عبارة عن بناء صخري رمادي عظيم يتلألأ في ضوء القمر.. وكان يقف فوق جرف صخري يطل على أمواج البحر..

من الداخل كان البيت نظيفا منسقا لأن الخدم سبقونا واعتنوا به، وقد اغتسلنا من وعثاء السفر وبدلنا ثيابنا.

تناولنا العشاء في قاعة طعام جنوبية بينما صوت الأمواج لا يكف عن الهدير.. ثم دعانا مستر (تريلوني) إلى غرفة مكتبه التي كانت فيها خزانة كبيرة تشبه بالضبط خزانته في بيت (لندن)، ثم راح يبحث في جيبه عن الجوهرة.. بدا عليه القلق وغمغم:

- رباه.. تبدو مختلفة. أرجو ألا يكون شيء خطأ قد حدث..

التفعنا حوله نحن الرجال، بينما وقفت (مارجريت) هادئة كأنها تمثال.. كانت هناك نظرة بعيدة في عينيها كأنها لا تعرف أو تبالي بما يحدث حولها..

بحث (تريلوني) عن الجوهرة، ثم سقط على المقعد، وقال بصوت خشن:

- رباه! لقد اختفت! ومن دونها لا قيمة للتجربة العظمى!

هنا أفاقت (مارجريت)، فقالت:

- ربما سقطت من جيبك في غرفتك يا أبي..

اندفعنا بلا كلام إلى الحجرة المجاورة ثم هبطت الراحة علينا.. هناك على منضدة كانت جوهرة النجوم السبعة.. تلتمع

كأن النجوم حبيسة فيها..

وسرعان ما حمل مستر (تريلوني) الجوهرة إلى الحجرة المجاورة وألقاها في الخزانة.. وتنفس الصعداء..

هنا بدأت العربات تصل.. وقمنا بترتيب كل شيء ووضع التحف في أماكنها.

وفي الصباح . بعد ليلة هادئة - أعلن مستر (تريلوني) أن الخدم سيعودون إلى لندن هذه الليلة مع مسز (جرانت)..

لما انفرد بنا مستر (تريلوني) في مكتبه بعد هذا قال:

قبل أي شيء هناك سر نحتفظ به منذ ثلاثمائة عام، يقسم الناس أن يبقوه سرا وهذا قسم لم يحنث به أحد قط؛ لذا أطالبكم بأن تقسموا لي أن يظل هذا السر طي الكتمان..

أقسمنا له كما أراد، فأردف:

هناك كهف في هذا البيت.. كهف طبيعي تحت البيت تم استكماله صناعيًا.. ثم استعمل في التهريب في فترة من التاريخ..

وغادر القاعة بضع دقائق ثم عاد وطلب منا أن نتبعه..

كان هناك تمثال لملاك تمت إزاحته بعيدا، وخلفه كانت فتحة حالكة الظلام.. ورأينا بداية درج.. مشينا خلف مضيفنا فلم يكن الداخل مظلما تماما.. وبعد خمسين سلمة ملتفة وجدنا أننا في كهف عظيم.. كانت هناك بكرة معلقة أعلى المكان بدا أنها (ونش) يستعمل لإنزال أو رفع أثقال كبيرة..

تلك هي البقعة التي اخترتها.. أؤمن أنها تحقق شروط هذه التجربة ونحن هنا معزولون كالملكة نفسها في قبرها الحجري.. لو نجحت التجربة فنحن نقدم للعلم الحديث قبسا من نور لا ينفد من العلوم القديمة، أما لو فشلنا فلسوف يفنى سر محاولتنا معنا..

أخذ مستر (تريلوني) شهيقا عميقا، ثم بصوت أكثر مرحا وأكثر تصميما قال:

- والآن لنبدأ..

رحنا نرص في أماكن حددها لنا (تريلوني) التابوت وأشياء أخرى من مقبرة (تيرا).. كنت أشعر بأن (مارجريت) تغيرت نوعا.. أرى فيها نوعا من التصميم والقسوة وقد تقلصت شفتها في شكل خط رفيع لم أره من قبل.. رحت في سرى أتمنى أن تعود كما كانت وأن تفشل هذه التجربة بسرعة..

في النهاية قال مستر (تريلوني):

- كل شيء في موضعه.. فقط بقي الانتظار حتى اللحظة المناسبة.

صمتنا جميعا، ثم قرر د. (ونشستر) أن يتكلم أولاً:

- ما هي اللحظة المناسبة؟ هل لديك تخيل تقريبي لها؟

- لقد فكرت في يوم 31 يوليو..

- هل لي أن أعرف السبب؟

- لأن الملكة كانت ستختار لعودتها الشهر الذي يسيطر عليه إله مسئول عن إحياء الموتى.. (رع).. رب الشمس.. إنه ينهض في الصباح كأنه يكرر معجزة البعث.. إنها اختارت لعودتها الشهر الرابع . وهو يتوافق في بدايته مع 25 يوليو . لذا توقعت أن تنهض في اليوم السابع.. أي الموافق 31 يوليو بتقويمنا.

هكذا صار علينا أن ننتظر يومين حتى يأتي ذلك اليوم الموعود.

☆ ☆ ☆

الفصل 15
درس الـ (كا)

في تلك الأيام كنت قلقا.. قلقا على (مارجريت)! لم يكن السبب أنني أشك في حبها ولا أخلاقها ولا رقتها.. كنت أشك فيها هي.

كانت (مارجريت) تتغير! في لحظات بعينها كنت أشعر أن هذه (مارجريت) أخرى غير التي ركبت معها ذلك القارب.. (مارجريت) كثيرة الشرود ولكنها تتابع كل شيء، وفي عينيها ذكاء مخيف ينفرني منها.. ثم تثوب لرشدها فتقول لي كلاما عذبا كالذي اعتادت قوله، لكنها تبدو مختلفة تماما.. كأنها تسمّع بروفة مسرحية مكتوبة لها..

بعد مرة أو اثنتين من هذه التجارب بدأت أتغير تجاهها وراحت علاقتنا تزداد برودا.. باستثناء لحظات نادرة أدرك فيها أنها استعادت شخصيتها.. هذه اللحظات هي ما أبقى حبي لها.

كنت أتمنى أن أصارح أحدا بأفكاري، لكن من تصارح؟ حتى أبيها يستحيل أن يسمع لك.. لذا اكتفيت بالصبر والأمل.. وقد شعرتْ هي بتغير من جهتي؛ لذا راحت تحاول أن تظل بقربي أكثر ساعات اليوم، وهو ذات ما كنت أفعله أنا في الماضي!

خرجت وحدى في المساء لأنني أردت أن أفكر، وهناك في الظلام أطلقت العنان لشكوكي التي أخفيتها عن نفسي كل هذه الفترة.. كانت النتيجة مروعة لكنها منطقية جدا.

(مارجريت) ولدت لأم ميتة في ذات الوقت الذي كان أبوها فيها في أسوان يفحص مومياء ملكة ساحرة.. ملكة قيل إنها

قادرة على التحرر من قيود المادة لتمارس الانتقال النجمي.. هذا جعلها . برغم المسافة بين لندن وأسوان . قادرة على التأثير على الأم والطفلة معا..

لقد ماتت الأم وطفلتها! الروح حلت بالجسد الصغير الميت ليبدأ حياته..

لو كانت عقيدة الـ (كا) عند المصريين حقيقية، فإن بوسع الـ (كا) والـ (خو) أن يحركا أي جسد يحلان به.. هكذا لا تكون (مارجريت) شخصا على الإطلاق، بل مجرد طور من أطوار الملكة (تيرا).

كيف أصدق هذا الكلام؟ أصدق أنه لا توجد (مارجريت)، بل مجرد صورة تحوي روح امرأة ماتت منذ أربعين قرنا؟ برغم هذا صارت الصورة أوضح الآن.. تذكر أن (كوربك) قال إن (مارجريت) تشبه الملكة.. لا أصدق أن الأم (توحمت) على صورة الملكة فهي لم ترها قبل أن تموت.

لماذا اختفى كتاب (فان هيون) الذي قرأت فيه عن جوهرة النجوم السبعة؟

لماذا وجدنا المصابيح في مخدعها؟

ماذا عن شكوك الرقيب (دو) والطبيب في (مارجريت)؟ ولماذا تتكلم (مارجريت) بهذه الثقة كأنها تعرف كل شيء عما يدور في عقل الملكة (تيرا)؟

ذات مرة قلت لها وأبيها:

- أليس من الحكمة أن نتخذ كل احتياط ممكن في حالة ما لم تحب الملكة أن نعيدها للحياة؟

كانت إجابة (مارجريت) سريعة، إذ قالت وكأنها تأهبت من قبل:

- لكنها موافقة! أبي يفعل بالضبط وبكل جوانحه ما أرادته الملكة!

- الظروف تختلف.. لقد أعدت تجربتها لتتم في الصحراء المنعزلة وفي بلدها.. لاحظي أنها قد لا تحب ما نقوم به، عندها يجب ألا ننسى أنها قتلت أو تسببت في قتل تسعة أشخاص حسب ما نعرفه.. يمكنها أن تكون قاسية إذا أرادت..

قال مستر (تريلوني):

- يا صاحبي، لا أنكر أن الملكة أرادت العزلة في تجربتها، لكن هذا صار مستحيلا بعد ما فتح الهولندي (فان هوين) قبرها.. بالتالي لم أكن أنا من اقتحم خلوتها ولا ذنب لي في هذا أنا أحاول الاستفادة من خيط أحداث لم أكن البادئ فيه.. ولقد قمت بإعداد كل شيء كأحسن ما يكون، فإن كان ثمة خطأ فهو لعجزي عن فهم جزء من الشفرات التي تركتها. أريد للتجربة العظمى أن تنجح مثلها بالضبط..

☆ ☆ ☆

أخلدنا للنوم استعدادا لليلة الغد.. ستكون ليلة مقلقة وقد أراد مستر (تريلوني) أن نسترد قوانا.. سيكون النهار كذلك مليئا

بالعمل، لأننا يجب أن نعد كل شيء بحيث لا تفشل التجربة نتيجة ثغرات نسيناها.

أعددنا كذلك العدة لطلب العون لو احتجنا إليه.. في الواقع كانت مخاوفنا هنا أقل مما كانت في لندن أثناء غيبوبة مستر (تريلوني)..

كنت أقل خوفا من (تيرا) لأنه لو كان الأمر كما نتوقع، فإن ما نفعله هو أن نحقق إرادتها.. ما كنت أخشاه هو حالة (مارجريت).. لو كان صحيحا أنها تحمل شخصية مزدوجة، فماذا عساه يحدث لو صارت الشخصيتان شيئا واحدا؟ هذه الفكرة كانت تدفعني للجنون، ولم يعزني في شيء كون (مارجريت) هادئة وكون أبيها مطمئنا.. إن الحب شيء أناني وهو يلقى ظلا أسود على أي شيء يقف بينه وبين الضوء.

بدا لي أنني أسمع صوت عقارب الساعة وهي تدور.. أرى كيف يستحيل الظلام للون الرماد ثم يستحيل الرماد إلى ضوء..

نهضت من فراشي.. ومشيت في الردهة، وكنا قد رتبنا أن يظل باب كل منا مواربا حتى يمكن سماع أي صوت من داخل الغرفة أو خارجها..

كان الجميع نائمين في سلام كما عرفت من صوت أنفاسهم، وقد سرني أن هذه الليلة المرعبة قد مرت.. نزلت إلى حيث البحر وأنا أنتوى أن أسبح في الماء البارد بعض الوقت كي استعيد نفسي القديمة من جديد..

وقفت أرمق الشمس وهي تشرق صابغة الصخور بلون الذهب برغم هذا شعرت بشيء من قلق لأن الضوء كان ساطعا

أكثر من اللازم، وهو ما ينذر بقدوم عاصفة..

هنا شعرت بيد على كتفي من الخلف...

استدرت فوجدت (مارجريت).. (مارجريت) متألقة كمجد شمس الصباح! (مارجريت) حبيبتي.. (مارجريت) القديمة بلا شيء يغيرها.

لكن إذ عدنا بعد جولة قصيرة في المرتفعات، بدا لي أن الكآبة والقلق والأمل ما زالوا بانتظاري..

تناولنا الإفطار ثم عدنا إلى الكهف حيث كان مستر (تريلوني) يرتب كل شيء.. كانت معه أوراق يراجعها، وكما شرح لنا كانت هذه الأوراق تحوي النقوش التي نسخها مع (كوربك) في وادي الساحرة في مصر...

شرح لنا أشياء لم تكن في الورق.. مثلاً سوف ترقد المومياء بحيث يكون رأسها للشرق وقدمها للغرب لتتلقى تيارات الأرض الطبيعية.. هذا يعني أن القوة المستخدمة نوع من الطاقة المغناطيسية.. ثم عرض علينا الخرائط التي رسمها لوضع النقوش والتابوت داخل القبر، فطلبت منه (مارجريت) أن يعيرها الرسوم لتدرسها.

- لقد زودت البيت بالتيار الكهربي، بحيث أتأكد من أن كل ركن مضاء باستمرار.. إن التيار الكهربي يأتي من مولدين يعملان بوساطة أمواج البحر.. هكذا نتأكد من أن أي خطأ لن يحدث [4].. الآن علينا تحديد الساعة التي تتم فيها التجربة.. على قدر ما أعرف فإن كل الساعات تتشابه، لكن يجب ألا ننسى أننا نتعامل مع عقل مدقق.. عقل امرأة تؤمن بالسحر وبأن كل شيء

له معنى مخفى، فعلينا أن نفكر بدقة أكثر.. نحن نعرف أن للغروب دورا مهما في الترتيبات.. فكر كذلك في الرقم سبعة المهم بالنسبة لها.. من هذا يمكن أن نقدر أنها الساعة السابعة بعد الغروب.. وبما أنها تغرب في (كورنوول) في الثامنة، فإن لنا أن نفترض أن الساعة المختارة هي الثالثة صباحا!

لاحظت شحوب وجه الرجال والصمت الذي ساد المكان بعد هذه الكلمات.. الشخص الوحيد الذي ظل كما هو كان (مارجريت) التي بدا أنها مسرورة جدا.. وقد تعلم أبوها لسبب ما أن سرورها علامة على دقة استنتاجاته.

لقد بدا لي تحديد الساعة بهذه الدقة كأنه صوت القدر.. حينما أفكر في هذا الموقف الآن أفهم كيف يشعر الرجل المحكوم عليه بسماع ساعة التنفيذ.. لا تراجع الآن..

ملأنا المصابيح بالزيت وتأكدنا من أن الفتائل في حالة طيبة..

كانت الساعة الرابعة فجلسنا لتناول غداء متأخر.. ثم اقترحت على (مارجريت) أن تنام بعض الوقت كي تقاوم إرهاق الليلة..

تناولنا الشاي بعد الاستيقاظ فلحقت بنا (مارجريت)، وقالت لأبيها:

- لقد رحت أدرس تلك الرسوم وما قلته لنا اليوم.. وأرى أن من الممكن أن تكون هناك قراءة أخرى!

سألها في قلق:

- وما هي؟

- عند الغروب تدخل الـ (كا) إلى الـ (آب).. أي أن الروح تدخل القلب.. ولن تغادره إلا مع الشروق.. أي أن هذه الليلة تظل صورة الملكة الحرة في قلبها. قلبها الفاني الذي لا يستطيع ترك بقايا المومياء.. حينما تلمس الشمس الماء - أي وقت الغروب - ستكف الملكة عن التواجد ككائن واع، إلى أن تشرق الشمس ثانية.. ما لم تستدعها التجربة العظمى.. أي أننا سنكون في مأمن منها وقت التجربة لأنها ستكون مجرد جثة بائسة معدومة الحيلة..

واستدارت لتبتعد ورأيت للحظة في عينيها أثر الدموع.. لكن أباها لم يرق لهذه الدموع.. كان يصغى بصرامة ذكرتني بوجهه عندما كان تحت تأثير الغيبوبة..

عدت لغرفتي للراحة بعض الوقت، عندما طرق (كوربك) الباب وقال لي إن مستر (تريلوني) يريدنا في الكهف حالاً.

هرعت إلى هناك، ولحقت بنا (مارجريت) وقطها في حضنها.. حينما رأى القط عدوه القديم . مومياء القط . حاول أن ينزل لكنها أحكمت السيطرة عليه...

نظرت لساعتي فوجدتها الثامنة..

قال الأب:

- هل تؤمنين حقا يا (مارجريت) أن الملكة (تيرا) قبلت بإرادتها أن تظل مجرد مومياء بلا حيلة إلى أن تتم التجربة؟

بعد صمت قالت (مارجريت):

- نعم.

لاحظت أن صوتها ونظراتها وكل شيء فيها قد تغير.. حتى القط لاحظ هذا فتملص من ذراعيها.. وللغرابة لم يهاجم مومياء القط بل انكمش خائفا ثم زحف على ساقي ومسح نفسه مصدرا (مياو) مثيرة للشفقة..

- إذن لو كنت أنت الملكة (تيرا) لحاولت إثبات هذه التجربة مهما حدث؟

قالت في ثبات:

- نعم.. بأية طريقة..

ماذا يجرى هنا؟ ثمة شيء مهم لكننا لا نفهم كنهه..

اتجه (تريلونى) إلى الجهة الغربية ومزق ستارا يحجب النافذة.. هب الهواء البارد ومعه بدا مشهد الغروب.. أشار إلى حيث كانت الشمس تغطس في ماء البحر، وقال بصوت لن أنساه حتى الممات:

- اختاري.. تكلمي! لو اضطررت للتخلي عن شيطانك فهل تقبلين؟ لو غابت الشمس نهائيا يكون أوان التراجع قد فات!

- متأكدة.. لو كنت في مكان (تيرا) لتخليت عن كل شيء.. هذه الليلة للأرباب فقط..

ووقفت جوار مومياء القط....

غابت الشمس وسقط الظل البارد على وجوهنا.. هنا استعادت كل لطفها ورقتها، وقالت:

- لقد غربت الشمس يا أبي.. ترى هل نعيش لنرى ليلة أخرى؟ لقد جاءت ليلة الليالي!

☆ ☆ ☆

الفصل 16
التجربة العظمى

من الغريب أن ترى مدى ما بلغه تصديقنا للقصة، وقبولنا لكلام (مارجريت) كأمر مسلم به..

لقد تعاوننا مع مستر (تريلوني) على إنزال منضدة من خشب البلوط إلى الكهف.. وضعناها تحت مجموعة من الأضواء في وسط الكهف.. نظرت لها (مارجريت) بعض الوقت ثم شحب وجهها، وبصوت متوتر سألت:

- ماذا ستفعله يا أبي؟

- سأفك مومياء القط.. الملكة (تيرا) لن تحتاج إلى شيطانها الليلة.. لو أنها احتاجت إليه فلسوف نكون في خطر.

- فقط أفكر في (سيلفيو).. كيف يكون شعوري لو كانت مومياؤه هي التي ستفك من أربطتها!

أحضر (تريلوني) مقصا ومبضعا.. شعرت بمعدتي تتقلص.. هذه بداية عملنا.. ماذا سيراه هذا الكهف عندما يمر منتصف الليل؟ صوت الريح في الخارج يزيد شعور الوحشة.. والأمواج تضرب الشط كأنها النذير.. لكننا بدأنا فك المومياء.

كان عدد الأربطة خياليا.. وقد تم لصقها بالصمغ والقار.. تصاعد غبار أحمر عذب حواسنا أكثر.. أخيرا رأينا الحيوان جالسا أمامنا وكانت أسنانه ومخالبه سليمة.. وكانت عيناه مغمضتين لكن وجهه لم يكن مفزعا كما توقعت.. كان ضخما

كأنه نمر صغير.. وكلما نظرنا له أكثر بدأنا نشعر بالرعب.. فهنا تجد الدليل على أن مخاوفنا حقيقية..

كان فمه ملطخا بدم جاف!

أخرج د. (ونشستر) عدسة وراح يفحص مخالب المخلوق، ثم قال:

كما توقعت.. في يده سبعة أصابع!

حمل (تريلونى) المخلوق واتجه للباب، فصاحت (مارجريت):

- خذ الحذر يا أبي.. قد يؤذيك! إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى المطبخ يا بنيتي.. إن النار قادرة على القضاء على أي خطر.. حتى الجسد النجمي لا يتجسد من رماد..

أطلقت شهقة وبدأت تبكى فكدت ألحق بها، لكنها أشارت لي كي ابتعد:

اذهب مع الآخرين للمطبخ.. قد يحتاج لك أبي.. يا للحيوان المسكين! قط الملكة المفضل! هذه جريمة قتل!

في المطبخ كانت هناك كومة من الأخشاب.. أشعل مستر (تريلوني) النار فيها وألقى جسد القط.. في لحظات صار الجسد كتلة سوداء وسط اللهب وامتلأت الحجرة برائحة الشعر المحروق.. مواد التحنيط صارت وقودا بدورها وسرعان ما اشتعلت.

لقد تلاشى شيطان الملكة (تيرا)!

عدنا إلى (مارجريت) التي كانت جالسة في الظلام.. وسألتنا:

- ماذا سنفعل الآن؟

قال الأب:

- سوف نفك الأربطة عن الملكة (تيرا)!

دنت منه، وهمست:

- أبي.. أنت لن تفعل هذا.. كلكم رجال وهذا الضوء يكشف كل شيء.. تصور يا أبي.. امرأة.. وحدها.. في هذا المكان..

ربت على كتفها مواسيا، وقال:

- ليست امرأة يا بنيتي بل مومياء.. لقد ظلت ميتة خمسة آلاف سنة!

- المرأة هي المرأة حتى لو بعد خمسة آلاف قرن.. ثم إنك تقول إنها ستنهض.. إذن هي ليست ميتة فعلا..

- هذه ليست مسرة بل هي تجربة مروعة قد تغير وجه الكون.. وهناك أخطار داهمة قد تمس كل شخص هنا.. نحن لا نلعب بل بصدد مسألة شديدة الخطر..

قبلته، وقالت:

- افعل ما تراه يا أبي وإن كنت أعتبرها إهانة عظيمة لملكة وامرأة..

هكذا تعاونا على فتح التابوت وأخرجنا المومياء.. كانت طويلة القامة عريضة ثقيلة.. لكننا نجحنا في نقلها إلى المنضدة

وبدأنا في فك الأربطة.. كانت كثيرة جدا.. وبرغم هذا كانت تكشف عن الجسد البشري الذي بدا في أرهب حالاته وهو مغطى.. كان ما نراه هو الموت ولا شيء سواه..

كان المستكشفان قد قاما بهذا العمل كثيرا وكان الطبيب بحكم عمله معتادا هذه الأمور، لكني أنا المحامي وقفت شاعرا بالعار والألم والاشمئزاز.. لم أتدخل في العملية، لكن كومة الأربطة راحت تتجمع على الأرض عالية مهولة..

لقد بدأ حجم المومياء ينكمش إلى المقاييس البشرية العادية، وكان الأب ينزع آخر الأربطة الآن.. ثم نظر لابنته، وقال:

- لا تقلقي.. الملكة ترتدى روبا!

كانت الملكة مدثرة من القدمين حتى الذقن في ثوب حريري لا شك في أنه أفخم نوع من الحرير رأته عيوننا.. وقد ضم إلى العنق والقدمين بحلية من ذهب، كما كانت تحيط بالجسد حزمة من الجواهر.. حزمة تبدو من وهجها كأنها نجوم حبيسة.

نظرت (مارجريت) إلى المشهد، ثم وقفت وقالت بلهجة العليم:

- هذا ليس كفنا.. لم يقصد به تغطية الموت.. إنه ثوب زفاف!

تفحص (تريلوني) الثوب وعرفت من تلاحق أنفاسه أنه مندهش، ثم قال:

- بالفعل هذا ليس كفنا.. إنه لا يلتف حول الجسد بل وضع فوقه..

ومد يده يحمل الثوب في رفق بين يديه.. شيء بهذا الجمال لا يمكن التعامل معه إلا بحذر.

ووقفنا ننظر إلى الملكة رائعة الحسن الراقدة أمامنا مجردة.. لم يكن هذا يشبه الموت بأي حال.. كان أقرب إلى تمثال من عاج نحته (براكستيلس).. لا شيء من انكماش المومياوات وجفافها.. اللحم ممتلئ محتفظ بنعومته ومسامه.. هنا . في مزيج من غضب وحياء - ألقت (مارجريت) الثوب على الجسد العاري حتى لم يبق منه مكشوفا إلا الوجه.

أنف مليء بالكبرياء، وأهداب ترقد فوق الخدين.. شعر أسود كجناحي غراب. لقد أذهلني شبهها الشديد مع (مارجريت) برغم أن كلمات (كوربك) السابقة جعلتني أتهيأ لهذا..

هنا انهار (تريلوني) فهرعت (مارجريت) تساعده.. قال لها:

- أشعر كأن هذه جثتك يا طفلتي!

ودوت العاصفة بعنف في الخارج، على حين قال:

- يجب معرفة طريقتها في التحنيط.. هذه ليست كأية طريقة أعرفها، ولم يتم إفراغ الأحشاء.. إن الأوردة ممتلئة ليس بالدم لكن بشيء آخر.. هل يكون القوم وقتها قد تعلموا حقن الأوردة بشمع البارافين؟

رحنا ننتظر في المكتبة متوترين، فقد بقيت ساعتان على موعد التجربة.. الساعة السابعة بعد الغروب أي الثالثة صباحا..

استراحت (مارجريت) في غرفة أبيها، وعندما دقت الساعة الثانية صباحا بدا أننا نفيق من غيبوبة.. أعددنا أجهزة

الاستنشاق التي قدرنا أننا سنكون بحاجة لها لو انبعث غاز سام ما.. وضعنا اليد المبتورة في موضعها الصحيح فوق صدرها.. تحتها كانت جوهرة النجوم السبعة، التي جلبها مستر (تريلوني) من الخزانة.. بدت كأنها تتألق بلا توقف في الضوء الكهربي..

وضعنا أجهزة الاستنشاق وجلسنا كما اتفقنا.. كنت أقف جوار محول الكهرباء لأظلم الأنوار أو أشغلها حسب أوامر مستر (تريلوني)، وكانت أوامره لي مرعبة وتحذيره أخطر.. قال إن موت أحدنا قد يحدث بسبب عدم التزامي حرفيا بتعليماته..

كان على مستر (تريلوني) و(كوربك) التأكد من إضاءة المصابيح الزيتية.. وليقف الأول عند رأس والثاني عند قدم التابوت.

كان مرور الدقائق الباقية مرعبا.. إذ وقف مستر (تريلوني) ينظر لساعته والثقاب في يده كأنه مدفعجي في الحروب الغابرة...

ثم دق الجرس.. مرة.. مرتين. ثلاثا!

اشتعلت فتائل المصابيح وأطفأت النور الكهربي.. لقد اتخذت الغرفة شكلاً مرعبا وبدا كأن كل شيء يتبدل..

وانتظرنا وقلوبنا تخفق.. على الأقل أعرف أن قلبي فعل ذلك.. مصاريع النوافذ ترجها العاصفة كأن شيئا بالخارج يحاول الدخول.. كأن الزمن توقف.

فجأة دوى صوت كالانفجار وانفتح الصندوق الحجري..

لا شك فيما يحدث الآن.. تحرك الغطاء للجانب ثم بدأ يرتفع ببطء.. ومن الصندوق بدأ بخار يتصاعد متجها نحو التابوت.. لم أستطع معرفة الرائحة بسبب جهاز الاستنشاق لكني خمنت أن له رائحة نفاذة غريبة.

لم أعد أدرى إن كان الصندوق يتألق أم هو التابوت.. وكان الدخان يزداد كثافة متجها نحو المومياء.

لم أستطع فهم ما يحدث لأني كنت بعيدا، وودت لو اقتربت لأرى لكني تذكرت تحذير مستر (تريلوني) لي..

العاصفة تتزايد حتى بدت لي كأنها شخص حي غاضب.. خيل لي أن شيئا أبيض يرتفع من التابوت، لكن عيني كانتا منهكتين من الوهج الأبيض فلم أثق بهما البتة..

شيء يشبه الضباب ووسطه أرى تلك الجوهرة.. والضوء يسبح من هذا الضباب إلى الصندوق.. إنها معجزة الضوء!

هنا كانت العاصفة قد انتصرت، وسرعان ما اندفع تيار من الهواء ليفتح مصراع النافذة ويرتطم بالجدار، ثم انطفأت المصابيح كلها وتبدد الضباب الأخضر.

بدأ دخان أسود يتصاعد من الصندوق.. ازداد كثافة حتى صارت الرؤية في الكهف كله عسيرة.. أشار مستر (تريلوني) لـ (كوربك) فأسرع يحاول إغلاق المصراع من جديد..

كنت أتمنى أن أساعد لكن مكاني جوار محول الكهرباء كان أكثر أهمية.. سوف يكون للضوء أهمية كبرى لو استمر هذا الجحيم.

إن الظلام يتزايد.. ويبدو أن أضواء الصندوق تضعف بلا توقف.. كما أن المصابيح كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة..

الضباب يتزايد.. والرائحة تمزق أنوفنا وعيوننا..

ثم بدأت أرى شيئا يتحرك من موضع التابوت.. استطعت أن أرى لمحة من اللون الأبيض.. وساد الظلام أخيرا.

كان هذا هو الوقت المناسب للكلام، فقلت بصوت عال:

. هل أعيد الأضواء يا مستر (تريلوني)؟

لا إجابة

- مستر (تريلوني).. سوف أعيد الضوء.. لو لم تمنعني من ذلك..

لم تكن هناك إجابة لذا شغلت المحول.. لكن الضوء الكهربي لم يعد! ثمة خطأ جسيم هنا!

انطلقت قاصدا الدرج لأعرف السبب، لكني لم أر شيئا.. كان الظلام دامسا..

مشيت عبر الغرفة إلى حيث (مارجريت) لكني تعثرت في جسد على الأرض.. شعرت من ثوبها أنها امرأة.. سقط قلبي في قدمي.. (مارجريت) فاقدة الوعي أو ميتة.. رفعت الجسد في يدي ومشيت حتى اصطدمت بجدار.. ثم إلى ممشى وأخيرا وجدت درجات سلم. وصعدت الدرج تحركني عواطفي مما جعلني لا أشعر بثقل هذا الجسد العزيز الذي أحمله..

أرقدت الجسد على أرض الصالة وهرعت لغرفة (مارجريت) حيث أعرف أن هناك أعواد ثقاب.. أشعلت ثقابا وشعرت بسرور لأنني أرى النور من جديد.

أشعلت شمعتين وعدت للردهة بحثا عن مارجريت.. لكن جسدها لم يكن هناك!

فقط كان ثوب العروس الخاص بالملكة (تيرا) على الأرض.. وحيث كان القلب وجدت جوهرة النجوم السبعة..

شعرت بغثيان ورعب لا اسم له.

عدت إلى الكهف والشمعتان في يدي.. وضعت جهاز الاستنشاق على فمي وبحثت عن رفاقي.. وجدتهم جميعا حيث تركتهم..

ممددين على الأرض يحدقون في السقف بعيون شاخصة من الذعر..

(مارجريت) غطت وجهها بيديها لكن نظرة الهلع في عينيها الزجاجيتين كانت تبدو بين أناملها..

فتحت مصراع النافذة لأسمح للهواء بالدخول.. كانت العاصفة تخمد بسرعة كما بدأت..

لقد أنهت عملها!

حاولت ما أستطيع مع رفاقي لأنقذهم لكن بلا جدوى..

هنا في هذا البيت المقفر بعيدا عن عون البشر، انتصر الهلاك..

ومن رحمة الله أنني لم أضطر لتحمل عذاب الأمل..

برام ستوكر 1903

النهاية الثانية التي ظهرت في طبعة عام 1912

(تبدأ من اللحظة التي صارت فيها الساعة الثانية صباحاً)

بدا أن صوت دقات الساعة معلنة الثانية صباحا قد أنعشنا جميعا.. كأن كل الظلال التي أحاطت بنا قد زالت فجأة..

بدأنا نمارس مهماتنا في نشاط ويقظة.... أعددنا أجهزة الاستنشاق التي قدرنا أننا سنكون بحاجة لها لو انبعث غاز سام ما.. ثم إننا نقلنا مومياء الملكة (تيرا) إلى أريكة في غرفة الأب، وغطيناها بملاءة بحيث لو نهضت يكفيها الانزلاق من تحتها.

وضعنا اليد المقطوعة في مكانها على صدر المومياء، وتحتها جوهرة النجوم السبعة، التي جلبها مستر (تريلوني) من الخزانة.. بدت كأنها تتألق بلا توقف في الضوء الكهربي..

كان مشهدا غريبا أن ترى هذه المجموعة من الرجال الصامتين يحملون هذا الجسد الذي يبدو كتمثال من عاج.. وضعناه على الأريكة.

كان الشبه بين (مارجريت) والمومياء قد أثار ذهولنا، خاصة مع شحوب (مارجريت) الشديد..

وعندما لم يبق من الوقت إلا القليل طلبت (مارجريت) مني أن نأتي بـ (سيلفيو).. جاء إليها وهو يقر فاحتضنته إلى صدرها.. أغلقت باب الغرفة وراءنا شاعرا بشعور مقبض بالنهاية.. لن تكون هناك عودة..

وضعنا أجهزة الاستنشاق، واتخذنا أماكننا التي رتبناها..

دوت دقات الساعة فبدا أنها تضرب قلوبنا..

مرة.. مرتين. ثلاثا!

اشتعلت فتائل المصابيح وأطفأت النور الكهربي.. لقد اتخذت الغرفة شكلاً مرعبا وبدا كأن كل شيء يتبدل...

وانتظرنا وقلوبنا تخفق.. على الأقل أعرف أن قلبي فعل ذلك.. أرى ثوب (مارجريت) الأبيض وحده وسط الظلام وأرى أجهزة الاستنشاق على الأنوف.. أرى فك مستر (تريلوني) المربع ووجه (كوربك) الحليق.. وعبر الغرفة أرى عيني (سيلفيو) كزمردتين..

الآن صار الضوء أكثر ثباتا.. وبدا كأنه يتغير من الأزرق إلى الأبيض الشفاف..

فجأة دوى صوت كالانفجار وانفتح الصندوق الحجري..

لا شك فيما يحدث الآن.. تحرك الغطاء للجانب ثم بدأ يرتفع ببطء.. ومن الصندوق بدأ بخار يتصاعد متجها نحو التابوت لم أستطع شم الرائحة بسبب جهاز الاستنشاق لكنى خمنت أن له رائحة نفاذة غريبة ازداد الدخان كثافة فلم أعد أرى (تريلوني) ولا (مارجريت)..

ولاحظت أن المصابيح أوشكت على الانطفاء.. هذا غريب لابد أنها استنفدت وقودها في فترة أقصر مما توقعنا.

انتظرت وانتظرت.. متوقعا في كل لحظة أن أسمع الأمر بإضاءة النور لكن لا شيء من هذا..

وما زال الدخان يتصاعد بكثافة من التابوت.. بينما المصابيح تلفظ أنفاسها الأخيرة..

أسمع صوت مواء (سيلفيو) المثير للشفقة وأرى لمحات من ثوب (مارجريت) التي فاق قلقي عليها الوصف....

شعرت بـ (سيلفيو) يتمسح في ساقي.. ثم تلاشى آخر قبس من الضوء، فلم يبق إلا بياض خفيف حول ستائر النافذة..

نزعت جهاز الاستنشاق، وصحت:

هل أعيد الأضواء يا مستر (تريلوني)؟

لا إجابة.

- مستر (تريلوني).. سوف أعيد الضوء.. لو لم تمنعني من ذلك..

لا إجابة، لكني عبر الغرفة سمعت صوت (مارجريت) يتكلم في رقة وعذوبة كأنه الجرس:

- نعم يا(مالكولم)..

حركت المحول فعادت الأضواء.. لكنها كانت مجرد جزر ضوئية وسط بحر من الظلام.. جريت نحو (مارجريت) مهتديا بثوبها الأبيض واعتصرت يدها في يدي، ولقد أدركت لهفتي، فقالت:

- أنا بخير..

- الحمد لله.. لكن أين الآخرون؟ تعالي نفتح النوافذ ليخرج هذا الدخان..

لدهشتي قالت في طريقة ناعسة:

- سيكونون على ما يرام ولن يصيبهم أذى.

لم أسألها عن مصدر استنتاجها وفتحت النوافذ والباب.. سرعان ما بدأ الدخان الأسود يخرج من النوافذ وبدأت أرى معالم الغرفة جوار الأريكة كان د. (ونشستر) على ظهره.. وعلى الجهة الأخرى من التابوت رقد مستر (تريلوني) و(كوربك).. وسرني أنه برغم فقدانهم الوعي كانوا يتنفسون بصعوبة..

(مارجريت) كانت في حالة من الاضطراب ولكنها ساعدتني على حمل أبيها إلى جوار نافذة من النوافذ.. وكذا فعلنا بالباقين..

حتى اللحظة كانت مشكلتي هي إعادتهم للوعي، والآن وقد بدءوا يفيقون بدأت أتساءل عما صار إليه مصير هذه التجربة..

كان الصندوق مفتوحا وقد بدا واضحا أنه مقسم من الداخل، لكن كل محتوياته تحولت إلى سناج أسود.. كذا كان التابوت.. كل شيء في الغرفة تحول إلى سناج لزج..

كانت الملاءة على الأريكة كما هي لكنها أزيحت جانبا كما يفعل المرء عندما يغادر الفراش..

لكن لا أثر للملكة (تيرا)!

وضعت يدي على كتفي (مارجريت)، وهمست لها:

- ماذا حدث للملكة؟ قولي لي.. أنت كنت قريبة ورأيت كل شيء..

قالت في نعومة:

- لم يكن هناك شيء يمكن أن أراه.. ظلت عيناي على الأريكة حتى ازداد الدخان كثافة.. شعرت بحركة قريبة منى وخطر لي أن هذا د. (ونشستر)، ثم فكرت في أنها الملكة تمشى! تخليت عن (سيلفيو) ولا أعرف أين ذهب..

كأنما يرد عليها جاء(سيلفيو) ومسح نفسه في ثوبها فحملته بين ذراعيها.

عندما عاد مستر (تريلوني) لوعيه وبعده مستر (كوربك).. رحنا نفتش الغرفة بعناية.. لم نجد إلا بعض الغبار له رائحة غريبة تذكرك بالموت.. على الأريكة كانت الجوهرة التي تضعها الملكة في شعرها.

فيما عدا هذا لم نعرف قط ما حدث.. لكن شيئا واحدا جعلنا نرجح تدمير المومياء.. إن الغبار الذي وجدناه هو ذاته الغبار الذي تبقى بعد عملية حرق مومياء القط

☆ ☆ ☆

في الخريف تزوجت (مارجريت)..

وقد ارتدت في حفل الزفاف ذات الجواهر التي كانت الملكة تضعها في شعرها.. وعلى صدرها ارتدت قلادة من ذهب تحمل جوهرة النجوم السبعة.. كانت الشمس تلتمع عليها فتتألق كأنما تنبض بالحياة.

اعتدنا أن نفكر في الملكة العظيمة ولطالما تكلمنا عنها.. قلت لزوجتي أنني حزين لأن الملكة لم تخط لعالم جديد وحياة جديدة، فوضعت زوجتي يديها بين يدي، وبدت في عينيها تلك النظرة الحالمة، وقالت:

- لا تحزن من أجلها! من يدرى؟ لربما وجدت السرور الذي كانت تبحث عنه.. الحب والصبر هما سبب سعادة الكون.. في هذا العالم.. في الماضي.. في الحاضر.. لقد حلمت حلمها، وهذا هو كل ما يطمح له أي واحد فينا

برام ستوكر 1912

جوهرة النجوم السبعة:

كانت الملكة (تيرا) تعرف أن الكهنة سيحاربونها وسيحاولون محو اسمها؛ لذا قررت أن تتعلم أساليبهم وأن تمارس السحر الأسود كي تعود للحياة يوما ما.. دفنت مومياء (تيرا) خمسة آلاف سنة، ثم ظهر ذلك المستكشف البريطاني الأحمق الذي قرر ألا يبالي بهذا كله.. أحمق لدرجة ألا يهتم بحقيقة أن ابنته تشبه الملكة بشكل مريب!.. يكفينا هذا ولندع سيد الرعب القوطي (برام ستوكر) يحكى لنا القصة بنفسه..

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- قُدِّمت في هذه السلسلة بالذات.

[←2]

- الكتيب رقم 32.

[←3]

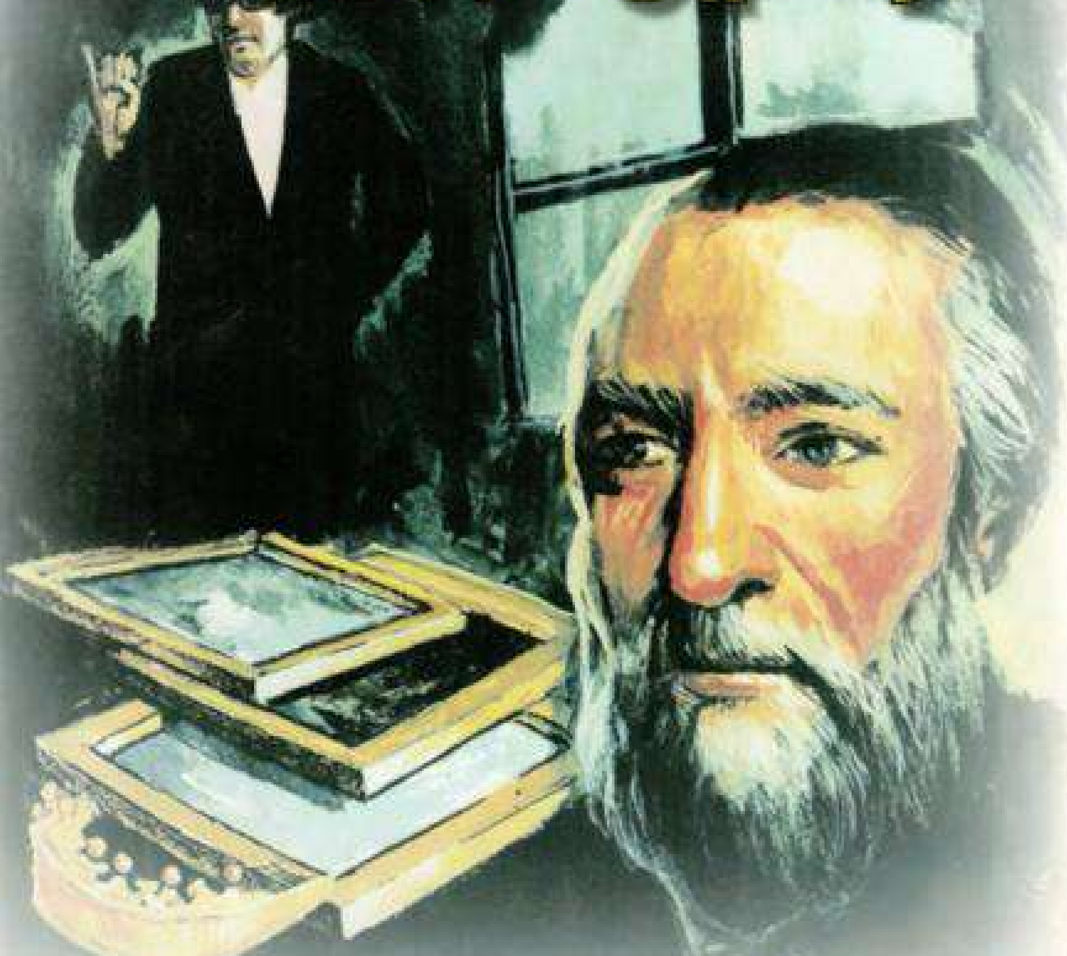
- اعتاد القارئ على كل حال عنصرية (ستوكر) وكراهيته للأفارقة والعرب.. وقد قرأنا من هذا الكثير في (عرين الدودة البيضاء)، وقلنا إنه كتب قصته في ذروة عصر الإمبراطورية البريطانية..

[←4]

- لاحظ أن التيار الكهربي كان اختراعا وليدا في عصر القصة، ووجوده في البيت يعني مزيجا من الثراء الشديد والدقة في الإعداد.

روايات عالمية للجيب 64

مغامرات أرسين لوبين



تأليـــف : مـــوريس لبلان

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (64)

مغامرات أرسين لوبين

تأليف: موريس لبلان

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

من هو عكس المخبر البريطاني الراقي (شيرلوك هولمز)؟ طبعًا هو اللص الفرنسي الراقي (أرسين لوبين)! يبدو أن (لوبين) وُلد على سبيل التحدى الفرنسي للثقافة البريطانية السائدة؛ فاللص العبقري قادر على أن يحير المخبر العبقري، وأن يفتن القراء بنفس القدر تقريبًا.. وفي عدة قصص التقى الاثنان ضد بعضهما فعلًا..

الأب الشرعي للوبين هو الأديب الفرنسي موريس لبلان Maurice Leblanc الذي ولد عام 1864 وتوفي عام 1941..

وكان (لبلان) ابن مالك سفن ثرى، ولد في (روين) بـ (نورماندي) وتلقى تعليمًا في فرنسا وألمانيا وإيطاليا.. يبدو أن دراسة القانون في العالم الغربي صعبة أو مملة لأن عددًا كبيرًا من الأدباء تخلوا عن دراسة القانون ليحترفوا الأدب.. هذا ما فعله كاتبنا عندما ترك الدراسة ليحرر صفحات الحوادث في بعض الصحف الباريسية، ويكتب قصصًا أولها رواية (امرأة 1887) التي كانت دراسة نفسية لم تحقق نجاحًا يذكر.. كان متأثرًا بغول أدبي فرنسي هو (جوستاف فلوبير)، لكن هذا الأخير ببساطة لم يكن من الممكن تقليده..

ثم ولدت شخصية أرسين لوبين Arsene Lupin- الذي لا أعرف حتى اليوم لماذا لا ينطق (لوبان) كما أفهم قواعد النطق الفرنسية - في الرواية الأولى (اعتقال أرسين لوبين – 1905)..

في مصدر آخر قرأت أن الرواية الأولى هي (أرسين لوبين: اللص الجنتلمان - 1907).. ومنذ ذلك الحين كتب الكاتب

ستين عنوانًا منها 21 رواية بطلها (لوبين).. وحقق شهرته للمرة الأولى..

(لوبين) اللص المهذب الراقي شديد الذكاء والظرف، قد سيطر على كتابات (لبلان) خمسة وعشرين عامًا.. إنه خبير تنكر وجرائمه ليست ذات طابع أناني، بل هو أقرب لروبين هود في نواح عدة.. عدواه الدائمان هما المفتشان (جورشار) و (جانيمار).. ويقال إن (لوبين) مستوحى من شخصية الفوضوى الفرنسي (ماريو جاكوب) الذي حوكم عام 1905.. كما قيل إن لها جذورًا في شخصية الجنتلمان اللص الذي قدمه (ميرابو) في مسرحية (21 يومًا من حياة نوراستاني).. إن هذا النوع من القصص التي تعج باللصوص الظرفاء - النبلاء في الحقيقة . كان يصنف في الأدب قديمًا تحت اسم البيكارسك Picaresque - الرواية الاحتيالية . وهو فن ذو أصل أسباني يمت بالقرابة لعالم قصص (الشطّار) في الأدب العربي..

على أن هناك أدلة تقول إن (لبلان) لم يكن فخورًا بـ (لوبين).. كان يصبو إلى تقديم ما يعتبره (أدبًا حقيقيًا) وقد شعر بأنه يقدم (لوبين) لأنه فشل في الأدب الصرف.. كما كان يصبو إلى تقديم شخصية ناجحة أخرى، لكنه لم يستطع.. هذه هي تقريبًا ذات عقدة (كونان دويل) مع (شيرلوك هولمز)..

من أفضل قصص (لبلان) قصة (813 - 1910) التي يتهم فيها (لوبين) بالقتل، لكنه يقود الشرطة لمعرفة القاتل الحقيقي..

على أن (لبلان) قدم عملين مهمين من الخيال العلمي هما (العيون الثلاث - 1919) و (الحادث الرهيب . 1920) حيث يؤدي زلزال إلى تكوين أرض بين فرنسا وإنجلترا.

لقد قدمت القصص في عشرات الأعمال السينمائية والتلفزيونية، وفي اليابان ألهمت الفنانين بتقديم مغامرات حفيدة (لوبين). وفي مصر عرف الكثيرون هذا اللص الظريف الذي حظي بشعبية قد تفوق شعبية (هولمز)، لكن هناك الكثير من الخلط والتلفيق في ترجمة قصصه إلى العربية، وقد لاحظ الأديب الراحل (صلاح طنطاوي) أن هناك قصصًا كثيرة للقديس و(روكامبول) تتم ترجمتها مع استبدال (لوبين) باسم البطل الأصلي؛ لهذا قد تقابل (لوبين) في عصره الأصلي: عصر الماركيزات والمبارزات ونبلاء فرنسا، وقد تقابله في عصر منظمات الجاسوسية والميكروفيلم والغواصات والطائرات. النوع الأول فقط هو الأصلي والباقي مزيف!

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

١- ابنة المليونير..

أغرقت شمس (سبتمبر) القاعات العظيمة في قصر دوقات (شارميراس) العتيق، مضيئة بأشعتها المبهجة تحف العصور الغابرة، مع لمسات من ذوق كريه يميز أولئك الذين لا يعيرون قيمة إلا للمال..

أعاد الضوء الذهبي إلى الأثاث الذي يعود عصره للإمبراطورية الأولى جزءًا من مجده القديم.. وأضاء صف الصور المعلقة على الجدار التي يبدو فيها آل (شارميراس) الموتى منهم والأحياء.. وانعكس على درع حديدي براق وألقى أضواء باهتة على درع برونزي.. ثم سقط على السجاجيد مما أضفى على القاعة مهرجانًا من الألوان..

لكن من بين كل الروائع المتناثرة، كان وجه الفتاة الجالسة تكتب أمام النافذة هو الأروع والأجمل..

كان جمالًا هشًّا رقيقًا.. كان لجلدها ذات لون الخزف القديم، وعلى خديها الشاحبين لون أكثر الأزهار شحوبًا.. إن عاشق الجمال كان سيقف حائرًا بين عينيها الخضراوين المعشوقتين أو فمها الحساس.. لكنه بالتأكيد كان سيتضايق من جو الحزن البادي على وجهها.. وتلك المعاناة الواضحة..

كان هناك حول وجهها إطار من شعر ناعم يتخلله الذهب حيث ترقرقت أشعة الشمس، بينما خصلات مجعدة عصية على التمشيط تتراقص على جبهتها..

كانت تدون العناوين على مجموعة من المظاريف وفي يدها اليسرى قائمة أسماء طويلة.. فكلما انتهت من مظروف دست

فيه بطاقة دعوة للزفاف عليها:

«السيد (جورناى مارتين) يتشرف بدعوتكم إلى حفل زفاف ابنته (جرمين) إلى الدوق (شارميراس)..»

كانت تكتب مظروفًا تلو الآخر وتضيفه إلى كومة المظاريف المعدة للإرسال جوارها.. هنا جاء صوت من الشرفة يصيح:

- « (سونيا)! (سونيا)! »

جاء صوت الفتاة يقول:

- « نعم يا مدموازيل جرمين؟ »

صاح الصوت المشاكس الخشن على الأذن:

- « شاي! اطلبي الشاي.. هلا فعلت هذا؟ »

قالت (سونيا):

- « حسن يا مدموازيل جرمين.. »

ونهضت إلى المدفأة لتشد حبلًا يقرع جرسًا.. هناك وقفت لحظات وأعادت زهرة سقطت من المزهرية.. هنا دخل خادم الغرفة.. فقالت له بصوت ساحر يشبه رنين الأجراس.. الصوت الذي لم تمنحه الطبيعة إلا لعدد محدود جدًّا من ممثلات المسرح العظيمات:

- « هلا جلبت الشاي من فضلك يا (ألفريد)؟ »

- « لكم يا آنسة؟ »

- « أربعة.. ما لم يكن سيدك قد عاد.. »

- « لا.. لم يعد.. لقد ذهب إلى (رين) للغداء.. لن يعود قبل ساعة أخرى.. »

- « والدوق؟ ألم يعد بعد؟ »

- « نعم لم يعد بعد يا آنسة.. »

وهمَّ بالانصراف لكنها صاحت:

- « لحظة.. هل حزمت كل شيء من أجل رحلة باريس؟ هل تأهبت الخادمات جميعًا؟ »

- « بالنسبة للخدم أنا متأكد يا سيدتي.. لكني لست واثقًا فيما يتعلق بالخادمات، فهن يستغرقن وقتًا أكثر مما نستغرقه نحن.. »

- « قل لهن أن يسرعن.. »

انصرف (ألفرد) فعادت إلى المنضدة.. هنا جاء الصوت الخشن من جديد:

- « ألن تنتهي من هذه البطاقات يا (سونيا)؟ »

وظهرت (جرمين جورناى مارتين) من الشرفة داخلة إلى القاعة..

كانت وريثة ملايين (جورناى مارتين) تحمل مضرب التنس وقد احمر خداها من جهد اللعب، وكانت فتاة حسناء مبهرجة الألوان.. النقيض الكامل لجمال (سونيا) الرقيق الشاحب.. كان من الواضح أنها قوية عنيدة المراس..

جاءت الصديقتان اللتان كانتا تلعبان التنس مع (جرمين)، وهما (جين جوتييه) فارعة الطول السمراء المتجهمة و(ماري بولييه) قصيرة القامة اللطيفة العاطفية.

سألت (مارى):

- « هل كل هذه بطاقات دعوة للزفاف؟ »

قالت (جرمين) مقطبة:

- « نعم.. ولم نصل بعد لحرف v.. »

ثم قالت في فخر:

- « مدام (ريلزييه) ابنة خالة خطيبي دعتني إلى دارها لحفل على شرفي.. هناك قدمت لي نصف باريس.. باريس التي عليّ أن أعرفها جيدًا.. باريس التي سترونها في قاعات داري.. »

قالت (جين):

- « لكننا لن نعود صالحتين لك حين تصيرين دوقة (شارميراس).. »

- « لا تنسى يا (سونيا) (فوليجليس) رقم 33 شارع الجامعة.. ولكن انتظري.. لابد أن أعرف إن كانت دوقة (فوليجليس) ستأخذ صليبًا أم اثنين أم ثلاثة.. »

تساءلت الصديقتان:

- « ما معنى هذا؟ »

- « صليب واحد في الدعوة معناه دعوة للكنيسة.. صليبان معناهما دعوة لإفطار حفل زفاف.. ثلاثة صلبان معناها الدعوة

لحفل الزفاف نفسه.. ما رأيكما في عدد الصلبان التي سأرسلها في دعوة دوقة (ليجليس)؟ »

قالت (جين):

- « لا تسأليني أنا.. لو كنت مكانك لطلبت رأى خطيبي.. فلابد أنه أدرى بهذه التعقيدات.. »

- « خطيبي (جاك)؟ إنه لا يبالي لحظة بهذه الأمور.. كان مختلفًا تمامًا منذ سبع سنوات، عندما قام برحلة للقطب الجنوبي لمجرد لذة الاستعراض.. »

- « واليوم؟ »

- « اليوم لم يعد يطيق الرسميات والمجتمعات.. إنه رزين تمامًا اليوم كأنه قاض.. تصوري أن أبي مجتمع مع الوزير الآن بصدد منح وسام لزوج ابنته المقبل؟ »

- « هل تعنين وسام (لجيون دونير) نفسه[1]؟ »

- « يا عزيزتي.. (اللجيون دونير) للناس البسطاء العاديين! إنه لا يليق بدوق! »

هنا دخل (ألفرد) حاملاً صينية الشاي ووضعها على منضدة صغيرة جوار سونيا..

كانت (جرمين) تشعر بأهمية قصوى لدرجة أنها لم تستطع الجلوس.. راحت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا.. ثم توقفت أمام تمثال صغير على البيانو، وسألت:

- « ما هذا؟ من أتى بهذا التمثال الصغير هنا؟ »

قالت (سونيا) في شيء من دهشة:

- « كان هنا منذ البداية.. »

تساءلت (جرمين):

- « هل دخلت هنا بينما كنا في الحديقة يا (ألفرد)؟ »

- « لا يا سيدتي.. »

- « هذا غريب جدًّا.. التماثيل لا تتحرك من تلقاء نفسها.. »

وقف الجميع يرمق التمثال في دهشة كأنما هم يتوقعون أن يتحرك أمام عيونهم من جديد..

ثم إنهن جلسن يشربن الشاي ويتحدثن عن حفل الزفاف المقبل وما سيلبسنه، والهدايا التي بدأت (جرمين) في تلقيها فعلًا.. كانت (جرمين) متذمرة لأن أحدًا لم يتصل من باريس ومعنى هذا أنه لم تصلها هدايا اليوم.. كانت تتصرف كطفل مدلل يتخذ سكنه في جسد فتاة ناضجة في الثالثة والعشرين..

دق جرس الهاتف فاندفعت (جرمين) ترد:

- « مرحبًا.. هل هذا أنت يا (بيير)؟ بل أنت (فيكتوار).. هل وصلتك هدايا؟ جميل.. ما نوعها؟ ماذا؟ فتاحة خطابات؟ فتاحة أخرى! يا للقرف! ممن جاءت؟ الكونتيسة (رودلف) وبارون (دى فاليرى)؟ »

ثم التفتت للفتيات، وقالت وصوتها يرتجف تيهًا:

- « آه يا بنات.. هناك قلادة أيضًا.. قلادة من اللؤلؤ! »

ثم وضعت السماعة وعادت مقطبة، وقالت:

- « هذا مشين.. أصدقاء بابا يهدونني قلائد من اللؤلؤ بينما أصدقائي أنا يرسلون لي فتاحات خطابات! »

قالت (جين):

- « بمناسبة مدام (ريلزييه)، هل تعرفين أنها تموت قلقًا اليوم؟ إن ابنها يخوض مبارزة.. »

سألت (سونيا):

- « مع من؟ »

قالت (مارى):

- « لا نعرف.. لقد وصلها خطاب بذلك منذ قليل.. »

قالت (جرمين):

- « أنا مطمئنة على (ريلزييه).. إنه مبارز لا يُشق له غبار.. »

لكن (سونيا) لم تبد مطمئنة مثلها، وبدت نظرة قلق على وجهها.. هنا سألت (جين):

- « ألم يكن آل (ريلزييه) هم سبب معرفتك بالدوق؟ »

- « بلى.. لقد التقينا هنا أول مرة.. لو لم يرغب (جاك) في بيع هذا القصر لتمويل حملة القطب الجنوبي، ولو لم يكن أبي راغبًا في شراء قصر عتيق، فلربما ما كنا التقينا ولما كنت لأصير دوقة (شارميراس) بعد شهر من الآن.. لقد دعا (جاك) أبى لقضاء ثلاثة أسابيع هنا.. ووقع في حبي.. هكذا رتبت الأقدار كل شيء.. وقد وافقت عليه.. »

- « لكنك كنت وقتها في السادسة عشرة.. كنت صغيرة جدًّا.. »

- « حتى في تلك السن تعرف الفتاة معنى كلمة (دوق).. لقد رأي أبي أنني صغيرة جدًّا على الزواج لذا تم تأجيل كل شيء إلى حين عودة (جاك) من القطب الجنوبي.. »

- « أنت اليوم في الثالثة والعشرين.. زهرة العمر.. »

- « لقد انقطعت أخبار الدوق من القطب الجنوبي لفترة طويلة، وقيل إنه مات.. كانت هذه كارثة حقيقية.. فجأة منذ ستة أشهر عادت خطاباته وعرفنا أنه عائد! بعد سبع سنوات من الانتظار! كنت على وشك الزواج من رجل آخر.. مجرد بارون.. »

صاحت (جين) في دهشة:

- « هل هذا حقيقي؟ »

قالت (مارى):

- « ألا تعرفين هذا؟ كانت ستتزوج ابن خالة الدوق.. البارون (دى ريلزييه).. لم تكن زيجة موفقة جدًّا.. »

قالت (جرمين):

- « لو مات الدوق لانتقلت ثروته وألقابه إلى وريثه البارون.. ما كان ليحدث فارق كبير.. »

نهضت (جين) معلنة أن وقت الرحيل قد حان، وسألتها:

- « هل ما زلت تنوين الرحيل إلى باريس غدًا؟ »

- « نعم.. »

هكذا رحلت (جين) و(ماري) بعد الكثير من القبلات والأحضان.. فما أن رحلتا حتى التفتت (جرمين) لـ (سونيا)، وقالت:

- « لكم أمقت هاتين الفتاتين! إنهما صعلوكتان! »

قالت (سونيا):

- « إنهما ظريفتان.. »

- « ظريفتان؟ إنهما تتحرقان حسدًا لي.. وإن كان معهما الحق في ذلك.. »

ووقفت تتأمل نفسها في إعجاب في إحدى المرايا المعلقة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢- وصول آل (شاروليه)

ظلت (سونيا) لفترة عاكفة على كتابة الدعوات ووضعها في المظاريف، بينما (جرمين) تدور في الغرفة.. تطالع مجلة.. تقرر هذا أو ذاك.. فقط لتنهض بعد ثانية لتصلح لوحة على الحائط.. وتسأل مائة سؤال تافه لا يستحق الإجابة عنه.. بينما طيلة الوقت ترتفع كومة المظاريف..

انفتح الباب وظهر (ألفرد) قائلًا:

- « سيدان يرغبان في مقابلتك يا آنسة.. »

صاحت (جرمين):

- « آه.. آل (دو بوى).. دعهما يدخلان.. »

- « لم يذكرا اسميهما على كل حال.. وهل من تعليمات لـ (فيكتوار) في باريس يا آنسة؟ إننا سنتحرك الآن بالقطار لأن المسافة طويلة.. لن نصل هناك قبل التاسعة صباحًا.. هكذا نجد الوقت الكافي لإعداد المنزل لك عندما تصلين مساء غد.. لقد حزمنا كل شيء والأثاث الثقيل في طريقه للمحطة فعلًا.. »

شكرته واتجهت لتجلس على المقعد المجاور للنافذة.. تجلس في وضع تمت دراسته بعناية بالغة ليجمع بين الفتنة والعظمة..

أرجعت رأسها للخلف فى وضع فاتن وفتحت عينيها.. هنا قالت في دهشة:

- « لم هذا؟ »

سألتها (سونيا) دون أن ترفع عينيها عما تكتبه:

- « لم ماذا؟ »

أشارت لأحد مصراعي النافذة، وقالت:

- « لقد اختفى أحد ألواح النافذة الزجاجية.. كأنه قُطع.. »

وحدقت الفتاتان في الفجوة التي صنعها اللوح المختفي..

- « ألم تريها من قبل.. »

- « نعم.. لابد أن الزجاج المحطم سقط للخارج.. »

هنا دخل رجلان أحدهما قصير ممتلئ في الخامسة والخمسين، أحمر الوجه أصلع الرأس له عينان لا تكفان عن الفرار من لقاء أي عينين أخريين.. خلفه شاب نحيل أسمر.. وبرغم الاختلاف الواضح بينهما فقد كان كل شيء يشي بأنهما أب وابنه..

نهضت (جرمين) في نوع من الدهشة.. هذان لم يكونا آل (دو بوى) أصدقاءها..

دنا منها الرجل الأكبر سنًّا وانحنى، وقال:

- « أنا السيد (شاروليه).. منتج خمور متقاعد.. صاحب أراض في (رينيه).. أقدم لكما ابني.. لقد جئنا هذا الصباح.. »

سألت (سونيا):

- « هل أطلب الشاي؟ »

فهمست (جرمين) بحدة:

- « لا! »

ثم سألت الأب:

- « وما هو هدف هذه الزيارة؟ »

- « جئنا لنقابل أباك.. لكننا عرفنا أنه غير موجود.. لم نستطع أن نحرم أنفسنا من مسرة لقائك.. »

تبادلت الفتاتان النظرات في حيرة..

قال الشاب وهو يجلس:

- « يا له من قصر منيف يا أبي! »

قال الأب:

- « هو كذلك يا بني.. هو كذلك.. »

واسترخي الرجل للوراء، ودس إصبعيه في فتحتي صديري بذلته، وقال:

- « قرأنا ذلك الإعلان في الجريدة عن أن مسيو (مارتن) يرغب في بيع سيارته ذات المحرك.. وكان ابني يرغب دومًا في عربة بمحرك.. عربة لا يجرها حصان.. يقال إنها تعادل ستين حصانًا في قوتها.. »

قالت (جرمين):

- « لدينا بالفعل عربة بمحرك قوتها ستون حصانًا لكنها ليست للبيع وما زال أبي يستعملها حتى اليوم.. لكن هناك سيارة أخرى قوة مائة حصان.. »

ثم نهضت تبحث في ألبوم الصور عن صورة السيارة قوة مائة حصان الخاصة بالأسرة.. فما كادت الفتاتان تديران ظهريهما حتى خرجت يد الشاب (شاروليه) بسرعة لسان الحرباء لتطبق على التمثال الصغير الموضوع على المدفأة وتدسه في جيبه..

كان (شاروليه) الأب يراقب الفتاتين، وبرغم هذا لاحظ ما قام به ابنه، فقال في غيظ:

- « أعده لمكانه يا أحمق! »

نظر له الشاب شذرًا.. فعاد الأب يقول:

- « عليك اللعنة! أعده! »

هكذا عاد التمثال لموضعه بذات السرعة..

عادت الفتاة بالصورة فثبت الأب نظارة من طراز (بنس نيه) الذي يضغط على الأنف وتفحص الصورة، ثم قال:

- « مناسبة.. كم تطلبون ثمنًا لها؟ »

- « لا علاقة لي بهذه الأمور.. يمكنكما طلب أبي وهو سيناقش الأمر معكما.. »

نهض مسيو (شاروليه) وشكرها على الوقت.. وقال إنه سيتصل بالأب..

لما انصرف وقفت (جرمين) في النافذة تتساءل:

- « أية مخلوقات تلك؟! أنا مندهشة بسبب لوح الزجاج المفقود هذا.. ومندهشة لأن (جاك) تأخر برغم أنه قال إنه آت

بين الرابعة والنصف والخامسة.. »

- « لكنها لم تصر الخامسة بعد.. »

- « نعم.. ولكن لماذا تضيعين وقتك؟ لم لا تنهين هذه الدعوات؟»

- « لقد انتهت تقريبًا.. »

- « تقريبًا تختلف عن تمامًا.. هلمي.. »

عادت (سونيا) للمنضدة وقد احمر وجهها قليلاً تعبيرًا عن تأثير فظاظة (جرمين) معها.. بعد ثلاث سنوات من العمل مع (جرمين) صارت ملمة بطباع المليونيرات.. فلم تعد تنفعل..

ووقفت في النافذة ترمق الطريق الخالي:

- « حقًّا تأخر الدوق كثيرًا.. »

قالت (سونيا):

- « سمعت أنه سيمر على آل (رزلييه).. من الغريب أن علاقته لم تتبدل مع البارون (دى رزلييه) برغم موضوع الزواج السابق هذا.. »

- « من قال هذا؟؟؟ لقد رأيتهما يتشاجران في حفل، وقد تبادلا عبارات الوداع بطريقة غاية في الفظاظة.. »

هنا بدا التوتر على وجه (سونيا) وصرخت في رعب:

- « المبارزة! المبارزة التي يخوضها مسيو (دى رزلييه) الآن!»

هنا هتفت (جرمين) وقد تبدل وجهها:

- « ماذا؟ أنت لا تظنين أن الطرف الآخر للمبارزة هو الدوق.. (جاك) نفسه!! »

ثم فكرت في الأمر، وصاحت:

- « لكن.. هذا محتمل جدًّا.. بل هو مؤكد! »

صاحت (سونيا):

- « هذا فظيع! تخيلي أن يحدث شيء له! »

قالت (جرمين) في فخر:

- « برغم هذا.. فمن أجلي أنا يبارز الدوق غريمه.. »

لكن (سونيا) كانت تنظر لها من دون أن تراها، وكان وجهها شاحبًا كالورق.. كانت (جرمين) تطير بفكرة أن دوقًا نبيلًا يخوض مبارزة من أجلها هي.. هذا كان يفوق أكثر أحلامها جموحًا..

قالت (سونيا) في رعب:

- « إنه يبارز سيدًا من سادة السيف.. مبارزًا لا يشق له غبار.. أنت قلت هذا بنفسك.. ولا شيء يمكن عمله.. »

لكن (جرمين) لم تسمعها.. كانت تنظر لصورتها في المرآة في إعجاب..

اتجهت (سونيا) للنافذة وراحت تنظر في لهفة.. فجأة صاحت منادية:

- « مدموازيل (جرمين).. تعالى وانظري! هناك فارس قادم! »

- « نعم.. ولكم يجرى بسرعة! »

- « إنه هو.. الدوق!! »

- « هل أنتِ واثقة؟ »

- « بالتأكيد! »

قالت (جرمين) في رضا:

- « حسن.. لقد جاء في وقت مناسب للشاي! يعرف كم أمقت الانتظار.. »

ورأته (سونيا) وهي ترتجف يرمح بجواده عبر المنحدر الواصل إلى الشرفة التي تقفان فيها..

∞∞∞∞∞

٣- طريقة (لوين)

تراجعت (سونيا) بسبب مشاعر الذعر التي استبدت بها، فاستندت على منضدة الشاي وهي تلهث بسرعة، محاولة أن تداري دموع الارتياح. فلم تر الدوق يركض بحصانه ويترجل ثم يسلم اللجام إلى السايس.. وكانت الدموع في عينيها عندما جاء الدوق إلى النافذة.

صاح في صوت مرح رنان:

- « لو كان هذا الشاي لي، فأنا أرغب في القليل من القشدة وثلاثة قوالب من السكر.. »

ونظر في ساعته، وقال:

- « الخامسة بالضبط.. هذا جيد.. »

وانحنى وأمسك بيد (جرمين) فلثمها في افتتان..

لو كان قد خاض مبارزة فلا توجد علامات على ذلك.. كانت اللامبالاة تغمره كأنه رجل لا يفكر إلا في الشاي وواجب اللياقة.. ناولته (سونيا) قدح الشاي ويدها ترتجف حتى أن الملعقة راحت ترن في الفنجان..

سألته (جرمين):

- « هل كنت في مبارزة؟ »

قال في دهشة:

- « ماذا؟ هل عرفتِ؟ »

سألته (سونيا) في قلق:

- « معاليك لست جريحًا؟ »

قال باسمًا:

- « ولا خدش! »

هنا قالت (جرمين) في خشونة:

- « هلا تكرمتِ بالعودة لبطاقات الدعوة هذه يا (سونيا)؟ »

ثم سألته:

- « هل كنت في مبارزة من أجلي؟ »

سألها في نوع من السخرية الخفيفة مما أثار غيظها:

- « هل كان هذا يسعدكِ؟ »

- « نعم.. لكن أعتقد الآن أنك لم تقاتل من أجلى.. »

- « كان السبب طفوليًا.. كنت متعكر المزاج وقال (رزلييه) شيئًا ضايقني.. »

قالت في إحباط:

- « إذن لم أكن أنا السبب.. وما دمت لست السبب فما كان الأمر ليستحق مبارزة.. »

قال في مزيد من السخرية:

- « نعم.. لكن لو مت لقال كل واحد إنني قُتلت بسبب الآنسة (جرمين).. هذا سيكون جميلًا كما ترين.. »

- « وماذا عن (رزلييه)؟ »

- « المسكين! سوف يظل في الفراش ستة أشهر قادمة! »

وضحك في مرح..

كانت (سونيا) تختلس له النظر من وراء ظهر مخدومتها.. كانت تلتهم ملامحه الحساسة التي تتغير مع كل كلمة يقولها.. لقد أخرج علبة مغربية من جيبه، وفتحها قائلاً لـ (جرمين):

- « منذ أسابيع لم أقدم لك هدية.. »

ومن العلبة أخرج قلادة فيها لؤلؤة، وناولها لها فصاحت:

- « يا للروعة! »

ارتدتها ووقفت أمام مرآة تتأمل نفسها في إعجاب.. لكن التأثير لو أردنا الصراحة لم يكن محببًا.. لم يضف جمالها شيئًا لجمال اللؤلؤة.. هذا ما لاحظته (سونيا) والدوق معًا..

نظر الدوق لعنق (سونيا) الأبيض فالتقت عيناهما واحمر وجهها..

عرفت أنه يفكر في الشيء ذاته.. كانت هذه اللؤلؤة لتكون أجمل لو ارتدتها هي..

ثم أبدى دهشته من كومة الدعوات التي تعدها (سونيا)، وطلب منها أن تعزف على البيانو لحنًا لـ (جريج Grieg) قائلًا:

- « سمعتك تعزفينه البارحة. كان رائعًا.. لا أحد يقدر على عزف (جريج) مثلك.. »

قالت (جرمين):

- « معذرة يا (جاك).. لكن المدموازيل لديها ما يشغلها.. »

- « خمس دقائق.. أتوسل لك.. »

- « ليكن.. لكن هناك أشياء يجب أن نتكلم فيها.. »

- « ما هي؟ »

- « اتصلت (فكتوار) من باريس لتقول إننا تلقينا هدية هي فتاحة خطابات ومحبرة.. »

صاح الدوق في مرح أفزعهما:

- « مرحى!! »

- « أنت تتصرف كالأطفال.. أقول لك فتاحة خطابات فتهلل.. يبدو أنك لا تقدر قيمة الأشياء.. أليس بوسعك أن تكون جادًّا بصدد أي شيء؟ »

- « أحسب نفسي أكثر الرجال جدية في أوروبا.. »

- « طريقتك في السخرية سوف تدفعني إلى أن أكرهك.. »

- « أرجو أن تؤجلي هذا إلى ما بعد الزواج يا عزيزتى! »

ثم راح يتأمل اللوحات المعلقة لأسلافه.. وقال:

- « من الغريب أنكم أبقيتم كل هذه الصور المملة ونزعتم صورتي عن الجدار.. »

نظرت له (جرمين) في دهشة، وقالت:

- « لكننا أخبرناك بهذا يا (جاك) منذ ثلاث سنوات؟ كل صحف باريس كتبت عن الموضوع.. »

- « أخبرتموني بماذا؟ لقد كنت وقتها في القطب الجنوبي بعيدًا عن أي أخبار.. »

- « لقد سُرقت اللوحة الخاصة بك! »

- « سرقت؟ كيف؟ »

- « سأريك.. »

ثم أزاحت الستار كاشفة عن البقعة التي كانت اللوحة معلقة عليها.. وعلى الجدار كانت هناك عبارة مكتوبة بالطبشور الأزرق:

أرسين لوبين

كرر الاسم مفكرًا، فقالت (سونيا):

- « هذا توقيعه.. إنه دائمًا يفعل الشيء ذاته.. »

تساءل الدوق:

- « لكن من هو؟ »

تساءلت (جرمين) في نفاد صبر:

- « أرسين لوبين؟ بالتأكيد أنت تعرف من هو (أرسين لوبين).. اللص الأكثر غرابة أطوار. الأكثر جرأة في فرنسا.. لقد حير الشرطة طيلة عشر سنوات.. لقد تغلب على (جانيمار) و(هولملك شيرز) المخبر البريطاني العبقرى[2].. باختصار هو لصنا القومي.. »

- « وكيف يبدو؟ »

- « لا أحد يملك أدنى فكرة.. إنه سيد التنكر وقد تناول العشاء مرتين في السفارة البريطانية ذاتها.. »

- « وكيف عرفوا أنه فعل ذلك ما دام لا أحد يعرفه؟ »

- « لأنه اختفى في المرة الثانية ومعه كل مجوهرات زوجة السفير.. مكان المجوهرات ترك بطاقته وعبارة تقول: هذه ليست سرقة بل هي تعويض.. فأنتم قد أخذتم منا مجموعة (والاس).. »

قالت (سونيا) في حماس:

- « وقضية مصرف (داراى).. لقد كان مدير المصرف يستلب أموال المودعين الفقراء لنفسه.. قام (لوبين) بالسطو على بيت الرجل وجرده من كل مليم، ثم قام بتوزيع ما سرقه على عملاء المصرف الفقراء.. »

- « لكنكما لا تتحدثان عن لص.. بل عن محسن محب للبشر! »

ثم فكر الدوق قليلاً، وقال:

- « لو فكرنا في الأمر لوجدنا أن سرقته لصورتي . بصرف النظر عن جمال ملامحى . لم تكن لتصلح ضمن أعمال هذا اللص البارع.. »

قالت (جرمين):

- « لو افترضت أنها سرقها من أجل جمال منظرك فأنت مخطئ.. الحقيقة أنه سرق كل مقتنيات أبي.. »

نظر لها في دهشة ثم جلس، وقال:

- « سرق مقتنيات أبيك؟ لكن أباك يحرسها أفضل مما يحرسون مصرف فرنسا.. »

- « نعم.. لهذا استحقت السرقة! »

- « أفترض أنه استعان بشريك من داخل البيت! »

- « نعم.. »

- « ومن هو؟ »

- « أبي نفسه! »

- « أنا لا أفهم شيئًا.. »

قالت (جرمين):

- « اصبر.. (سونيا).. هاتي الخطاب الذي وصل أبي.. »

نهضت (سونيا) إلى مكتب فاخر من طراز (شيبندال) يقف بين قطعتين من الأثاث الإيطالي وهو ذوق متناقض يذكرك بمحلات العاديات.. كان تناقض قطع الأثاث . برغم جمالها . يشعرك بأن كل قطعة تستلب جارتها شيئًا من جمالها..

أخرجت خطابًا من الدرج وناولته للدوق ففتحه ليقرأ.. كان الخط غريبًا منمقًا.. خط رجل يعرف بالضبط ما يريد قوله، ويقوله باقتصاد ودقة..

« ..سيدى..

اغفر لي أن أكتب لمن لا يعرفني.. لكنى أفترض أنك على الأقل تعرف اسمى.. هناك بضع لوحات لـ (جينسبورو) في غرفة معيشتك تمنحنى سرورًا لا حد له.. هناك لوحات لـ (جويا) تروق لي كذلك.. لكني قبل كل شيء معجب بالتاج الذي ابتعته في المزاد المقام على تحف الماركيز (فيرونيى).. التاج الذي كانت تلبسه الأميرة (دو لامبال).. خاصة مع ما يثيره هذا التاج من ذكريات بعضها أليم بالنسبة لشاعر يعشق التاريخ لذا أتوسل لك يا سيدي أن تحزم هذه التحف وترسلها لي . مع دفع مصاريف الشحن . وإلا اضطررت إلى أن آخذها بنفسى مساء الخميس السابع من أغسطس.

« أرجو أن تغفر لي ما أسببه من إزعاج..

المخلص

أرسين لوبين «

»ملحوظة: بما أن الصور بلا غطاء زجاجي، فإنني أرجو أن تقوم بهذه الخدمة لي وتثبت لها زجاجًا.. أعرف أن جمال الصورة ينقص كثيرًا لدى رؤيتها من وراء زجاج، لكن يجب علينا أن نقبل التنازل عن بعض بهجتنا من أجل خلود هذه الأعمال الفنية.. هذا ما تطالبنا فرنسا به.. »

ضحك الدوق من قلبه وقال:

- « هذا ظريف جدًّا.. لابد أن أباك ضحك من قلبه.. »

- « ضحك؟ ليتك رأيت وجهه ساعتئذ.. »

- « لكن ليس إلى درجة أن يرسل هذه التحف لعنوان لوبين.. »

- « لا.. لكن إلى درجة أنه ذهب إلى رئيس الشرطة وطلب رأيه.. زوده الرجل بعريف وستة رجال شرطة.. وقد وزع الرجل رجاله لحراسة اللوحات، وكان الاتفاق أن يصلوا بالقطار متأخرًا حتى لا يحسب اللصوص حسابهم.. وفي الحادية عشرة أخلدنا للنوم مع وعد للعريف بأننا لن نتحرك لو اشتبك رجاله مع اللصوص.. لم أستطع النوم لفترة طويلة لكن عندما فعلت ذلك نمت طويلًا جدًّا.. في الصباح أيقظت أبي و(سونيا) وهرعنا لغرفة المعيشة.. ثم.. »

- « ثم ماذا؟ »

- « اختفى كل شيء!

- « وحتى تاج الأميرة؟ »

- لا.. هذا كان في خزانة في مصرف فرنسا.. »

- « وكيف فعل هذا؟ هل خدر العريف ورجال الشرطة أم قتلهم؟ »

- « عريف؟ لم يكن هناك عريف ولا رجال شرطة.. كان العريف هو (لوبين).. لقد توقف رجال الشرطة في حانة قرب المحطة ليشربوا شيئًا.. في الصباح وجدهم أحد الفلاحين في الغابة غائبين عن الوعي نائمين كألواح الخشب.. لا يعرف صاحب الخان من ومتى دس لهم المنوم في الشراب، لكنه يذكر أن راكب سيارة بمحرك توقف وأصر على دعوة الجنود

للشراب.. بعد هذا أصر على اصطحابهم في سيارته.. من الواضح أنه حملهم إلى الدغل وألقاهم هناك.. »

قال الدوق في انبهار:

- « ما أبرعه من رجل! »

- « والمشكلة أنه على الأرجح بقربنا الآن! »

- « ماذا؟ »

- « أنا لا أمزح.. هناك أشياء غريبة تحدث.. هناك من نقل هذا التمثال الصغير من موضعه ليضعه فوق البيانو، وبرغم هذا لم يمسسه أحد.. هناك من نزع لوح زجاج من هذه النافذة! »

قال الدوق:

- « يا للشيطان! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤- الدوق يتدخل

نهض الدوق إلى النافذة وتفقد الزجاج المحطم، والعشب ثم عاد للغرفة قائلاً:

- « هذا غريب فعلًا.. هذا اللوح لم يتهشم بل انتزع من موضعه، وإلا لوجدنا الزجاج على العشب.. يجب إنذار أبيك ليراقب كنوزه.. »

- « قلت لك إن (أرسين لوبين) في الجيرة.. »

قال لها باسمًا:

- « (أرسين لوبين) رجل بارع.. ليكن.. لكنه ليس اللص الأوحد في فرنسا.. »

- « لكني أعرف أنه هو.. »

- « حاشا لله أن أعارضك.. إن حدس الأنثى هو حدس الأنثى.. لا يمكن أن نشك فيه.. »

هنا ظهر خادم يبلغ (جرمين) أن سيدين يرغبان في مقابلتها..

- « هل تفتح الباب بنفسك يا (فيرمين)؟ »

- « نعم يا آنسة.. لم يعد هناك سواى ليقوم بهذا.. كل الخدم قد اتجهوا للمحطة فلم يبق سواى وزوجتي.. هل أسمح للسيدين بالدخول؟ »

سمحت له بذلك، وهنا فوجئت على الباب بآل (شاروليه) من جديد.. الأب والابن يحييانها.. لكن معهما كان شاب ثالث.. أشار له الأب، وقال:

- « ابني الثاني.. إنه يملك صيدلية.. »

قالت (جرمين):

- « معذرة يا سادة.. لكن أبي لم يعد بعد.. »

لكن الرجل جلس مع ابنيه، وقد بدا عليهم سمت القوم الذين جاءوا ليبقوا فترة طويلة.. كانت (جرمين) في حيرة من هذا الاقتحام، لكن الخادم جاء بضيف جديد اتضح أنه ابن الرجل الثالث!

قال الأب في فخر:

- « هذا ابني الثالث (برنار).. وهو الذي سيدير البار.. »

من جديد عاد الخادم لكن ليعلن قدوم السيد.. هكذا تنفست (جرمين) الصعداء وطلبت من الرجال أن يصحبوها للقاء أبيها لمناقشة سعر السيارة.. تأخر الابن الثالث (برنار) ليتأمل إحدى التحف الموضوعة في القاعة، ثم بخفة النمر أخفاها..

هنا وثب الدوق بسرعة عبر القاعة ليمسك بذراع الفتي:

- « كلا.. لن تفعل هذا يا صديقي الشاب! »

صاح الفتى وهو يحاول التملص من قبضته:

- « لن أفعل ماذا؟ »

- « أنت سرقت علبة سيجار.. »

- « لا شيء من هذا.. »

مد الدوق يده في الكاسكيت الذي يحمله الفتى، وفتش فيه ثم أخرج علبة السيجار.. ووضعها أمام عينيه.. أصيب الفتى بالهلع وبدا كأن عينيه ستغادران المحجرين:

- « كا.. كانت غل.. غلطة.. »

هنا مد الدوق يده في ياقة معطف الفتى، وثناها ليخرج منها العلبة المغربية، وقال:

- « هل هذه كذلك غلطة؟ »

هنا ركع الفتى على ركبتيه باكيًا وراح يتوسل:

- « اغفر لي! لا تخبر أحدًا بهذا! اغفر لي! »

وراح يبكي..

وقف الدوق ينظر له في احتقار وحيرة، وهو يعبث في أطراف شاربه.. ثم بدا فجأة كأنه توصل إلى القرار السليم بسرعة البرق..

- « ليكن.. والآن اغرب عن وجهي.. »

وألقى به خارج القاعة..

ثم أغلق الباب ونظر إلى (سونيا).. وقال:

- « هذا الفتى تجاوز الحد.. هل رأيت؟ أمام عيوننا! والقلادة كذلك.. كانت لتغدو خسارة فادحة لو سرقها بهذه السهولة.. »

ثم نظر لها.. في نظرته كان شيء من الإعجاب والرقة..

ساد الصمت، ثم سألها:

- « أنت غير سعيدة هنا على الإطلاق. أليس كذلك؟ »

نظرت له في ارتباك، وقالت:

- « أنا؟ لم؟ »

- « هذا الشحوب وتلك النظرة في عينيك.. فيك شيء يذكرني بالطفل الذي أرغب في حمايته.. هل أنت وحيدة بلا أهل ولا أصدقاء؟ »

- « نعم.. »

- « لا أتكلم عن فرنسا.. بل عن بلدك الأصلي.. روسيا.. »

- « لا أحد.. أبي كان ثوريًا ومات في سيبيريا وأنا طفلة.. فرت أمي إلى فرنسا وماتت وأنا في سن عامين.. »

- « لابد أن هذا صعب.. »

- « ليس تمامًا.. لكن أسوأ شيء في الموضوع . ولا تسخر منى . هو الشعور بأنك لا تتلقى خطابات أبدًا.. لا تمسك بمظروف عليه خط شخص يهتم بك وتعرفه.. »

هنا انفتح الباب لتدخل (جرمين) صائحة:

- « أنت مستحيلة يا سونيا! قلت لك أن تحملي حقيبتي الجلدية.. والآن أفتح الدرج فماذا أجد؟ حقيبتي الجلدية! »

قالت (سونيا) في حرج:

- « آسفة.. »

- « لا أرى فارقًا بينك وبين ضيوف هذا البيت.. أنت اللامبالاة مجسمة.. »

قال الدوق:

- « أرجو أن تخففي لهجتك قليلًا يا (جرمين).. »

هنا قالت له:

- « لا تؤاخذني يا (جاك).. إن لك عادة معينة في الاهتمام بشئون البيت.. منذ جئت أنت وأنا عاجزة عن أن آمر أيًّا من خدمى بشىء.. »

ثم غادرت الغرفة وصفقت الباب خلفها..

هنا اقترب الدوق من سونيا، وبحركة سريعة بلا تفكير أمسك بيدها وقبلها.. عصفت بوجهها موجة من اللون الوردي فتلاشي اللون الأبيض منه.. وقفت للحظة كأنما قدت من صخر، ووضعت يدها على قلبها..

ثم بخطوات مسرعة ركضت إلى الباب.. توقفت هناك.. استدارت ونظرت له..

ثم اختفت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥- خطاب من لوبين

وقف الدوق ينظر إلى ثلاثة المجتمعين في الحديقة.. في الوسط كان المسيو (جورناى مارتين) وهو رجل مترهل بدين ضخم.. له ذات احمرار وجه مسيو (شاروليه)، وإن ضاعف هذا التأثير بياض سالفتيه.. وما بدا غريبًا للدوق أن للرجل عيني آل (شاروليه) المتقاربتين حتى أن من لا يعرفهما قد يحسبهما قريبين..

كان المليونير يصيح ويشوح بذراعيه.. وسمعه الدوق يقول:

- « هذا أقل ثمن أقبله.. فإما أن تدفعه أو تنسى الموضوع.. »

- « لكنه ثمن باهظ.. »

- « باهظ؟ أتمنى أن أقابل شخصًا آخر يبيع سيارة قوة مائة حصان بثمانمائة جنيه.. مستحيل يا سيدى.. أنا أقدم لك سيارة رائعة كلفتني 1300 جنيه مقابل 800.. هذا مخجل! »

- « السعر غال.. »

- « لكن لا يمكن أن تتكلم من دون أن تجرب العربة.. »

واستدار إلى سائقه الذي وقف يتابع المحادثة وأمره أن يقل هؤلاء السادة إلى المحطة ليروا قدرات السيارة.. ثم أضاف:

- « هلموا يا سادة.. جربوا السيارة.. إلى اللقاء.. إلى اللقاء! افعل ما يطلبون منك يا (جان).. »

هكذا ابتعد آل (شاروليه) مع (جان) وقد بدا عليهم الاكتئاب كأنهم كلاب جلدت بالسياط.. فلما ابتعدوا استدار المليونير لخطيب ابنته وضحك، وقال:

- « سوف يبتاعون السيارة.. لقد ظفرت بهم! »

قال الدوق بابتسامة خافتة ساخرة:

- « لن يدهشني أي نصر لك في مجال البيزنس.. »

- « السيارة عمرها أربع سنوات ولا تساوى غليونًا محشوًّا بالتبغ.. ثمانمائة جنيه هي استثمار من الدرجة الأولى.. »

عاد الرجلان إلى الشرفة ومنها إلى القاعة التي بدأ الظلام يغمرها، من ثم أشعل الخادم مصباحين بعثا فيها نورًا خافتًا..

قال المليونير:

- « لم تسألني عن نتيجة لقائي مع الوزير.. سوف يوقع المرسوم غدًا.. اعتبر أنك نلت الوسام.. »

قالها المليونير وهو يفرك يديه السمينتين معًا في رضا.. فرد الدوق بلا مبالاة:

- « يا للسرور! »

- « بعد هذا الوسام يمكنك . وقد نشرت مذكرات جدك وقمت بحملة استكشافية . أن تفكر في الانضمام لأكاديمية العلوم.. »

- « لكن لا مؤهلات لدى تسمح بأن أكون أكاديميًّا.. »

- « لا مؤهلات؟ أنت دوق! وأنا أرغب في أن يكون زوج ابنتى حائزًا على (اللجيون دو نير) وأن يكون عضوًا في الأكاديمية الفرنسية.. »

هنا دخل (فيرمين) الخادم الغرفة حاملاً رسالة..

أخذ المليونير الرسالة وتأمل الخط عليها بعناية، ثم هتف:

- « رباه! »

سأله الدوق وهو يثب في مقعده:

- « ماذا؟ »

- « الخط! الخط! إنه نفس الخط! »

قالها المليونير وألقى بنفسه في مقعده.. هنا دوى صوت التحطم ورأى الدوق يدين وساقين تطيران في الهواء إذ انهار المقعد تحت ثقل المليونير البدين، ثم دوى صوت آخر إذ هوى الرجل على الأرض..

تعالى ضحك الدوق إذ فقد السيطرة على نفسه، وأمسك بذراع المليونير وساعده على أن ينهض بسهولة أظهرت أن عضلاته من فولاذ..

- « هلم انهض.. هذا سخف! كيف تقول إن هذا نفس الخط؟ »

- « هو نفس الخط؟ كيف لي أن أخطئ؟ »

وفتح الخطاب في جنون وجرى بعينيه بين السطور، واتسعت عيناه أكثر فأكثر، وقال:

- « اسمع..

« سيدى..

« إن مجموعتي الفنية التي بدأت بفضلك تكوينها منذ ثلاثة أعوام لا تحتوى إلا لوحة واحدة لـ (فيلاسكويز) وواحدة لـ (رمبرانت) وثلاثة لـ (روبنز)..

« ولما كان لديك المزيد من هذه التحف في بيتك بباريس، ولما كان من العار أن تبقى عندك، فإنني أزمع أن أنقلها لملكيتى غدًا صباحًا..

المخلص

أرسين لوبين »

قال الدوق:

- « إنه (يهمبك)! »

قال المليونير:

- « اصبر.. هناك حاشية للرسالة تقول: يجب أن تفهم أنه بما إنك ما زلت تحتفظ بتاج الأميرة (دى لامبال) طيلة الثلاثة الأعوام، فإنني أنتهز الفرصة لأطلب منك تسليمي هذه التحفة.. »

ثم صاح المليونير وهو يتحسس ياقته:

- « اللص! النصاب! إننى أختنق! »

وبدا من لون وجهه الأسود وسقوطه على الأريكة أنه يقول الحقيقة.. صاح الدوق:

- « (فيرمين)! إلى بكوب من الماء! سيدك مريض! »

وفك ياقة المليونير وراح يهوى على وجهه بمروحة كانت معلقة على الجدار.. جاءت (سونيا) و(جرمين) ففتحت (سونيا) الخزانة وأحضرت بعض النوشادر، على حين قذف الدوق كوب الماء الذي جاء به الخادم في وجه المليونير..

استعاد الأخير روعه فنهض مسرعًا ليمسك بالخادم، ويسأله:

- « هذا الخطاب.. من جلبه لك؟ »

- « كان في صندوق الخطابات بالحديقة.. زوجتي هي من جلبه.. »

- « نفس ما حدث منذ ثلاثة أعوام! يا للكارثة! يا للكارثة! »

قال الدوق:

- « انظر إلى تاريخ الخطاب.. لقد كتب اليوم.. الأحد الثالث من سبتمبر.. »

- « نعم.. وما معنى هذا؟ »

- « إما أن هذا الخطاب خدعة، وإما أن لدينا وقتًا كافيًا لمنع السطو.. اتصل بباريس حالًا.. »

لكن كانت هناك مشكلة.. الهاتف لا يعمل في هذا الوقت المتأخر من اليوم، واليوم الأحد حيث لا يوجد تلغراف [3]..

ساد الصمت وراح المليونير يتصبب عرقًا وهو يحسب خسارته.. ثم راح ينظر في لهفة إلى الدوق متوقعًا أن يأتي بمعجزة ما..

فجأة صاح الدوق:

- « وجدتها! كم الساعة الآن؟ »

نظر الدوق في ساعته وكذا فعلت (جرمين).. حتى (فيرمين) الخادم راح يكافح حتى أخرج من جيبه ساعة لا تختلف عن ثمرة لفت من فضة.. وتوصل الجميع برغم اختلاف ساعاتهم أن الوقت بضع دقائق بعد السابعة..

قال الدوق:

- « سوف آخذ سيارة وأهرع إلى باريس.. هكذا أبلغها ما بين الثانية والثالثة صباحًا وهذا يعطيني الوقت الكافي كي أبلغ الشرطة قبل أن تتم السرقة.. »

واندفع خارج القاعة، فقال المليونير لابنته:

- « مرحى.. مرحي.. خطيبك رجل واسع الحيلة يا (جرمين).. من المؤسف أنه دوق.. كان سيكون بارعًا في تجارة العقارات.. لكني سأذهب باريس كذلك وآخذك معى.. لن أتركك هنا فلربما يفكر ذلك الوغد في تجربة حظه مع قصرى ثانية.. »

- « لكن معنى هذا يا أبي أن نصل قبل الخدم.. تصور أن نصل إلى القصر الخالي غير المرتب في قلب الليل.. »

- « كلام فارغ.. هيا استعدى وهاتى مفاتيح قصر باريس يا (سونيا).. »

قالت (سونيا):

- « إنها في مكتبك.. »

هكذا اندفع المليونير خارجًا ومعه الفتاتان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦- آل شاروليه من جديد

ما إن توارى المليونير، حتى برز رأس كبير أسرة (شاروليه) من النافذة.. تفقد القاعة الخاوية وصفّر بنعومة ثم دخل.. وسرعان ما لحق به أولاده و(جان) سائق المليونير..

أمر (شاروليه) (جان) السائق بأن يراقب الباب الخارجي، وأمر (برنار) ابنه بأن يراقب مدخل غرفة الجلوس.. بينما قام الرجل ومعه (بيير) و(لويس) بفتح كل الأدراج الموجودة في القاعة وتفتيشها.. وكان (جان) السائق يردد في غيظ:

- « فقط لو لم تكن هذه العادة السيئة في إنذار الضحايا قبل السرقة! كان من الممكن أن تتم السرقة بسهولة في باريس.. »

قال مسيو (شاروليه):

- « أي مكتب منها؟ المكان مليء بالمكاتب! أريد تلك المفاتيح..»

قال (برنار):

- « هذه الخزانة الخشبية بالقبضة النحاسية فيها.. هذا هو المكتب.. »

- « لِمَ لَمْ تقل هذا من البداية؟ »

وجرب فتح المكتب لكنه كان مغلقًا.. جاء ابنه (بيير) وهو يحمل عتلة.. ثبتها أعلى الباب ثم هشم الخشب واستسلم القفل القديم.. راح (شاروليه) يفتش الأدراج هامسًا:

- « بسرعة.. قبل أن يعود ذلك الوغد البدين! »

في الدرج السابع كانت مجموعة من المفاتيح اختطفها.. أغلق الدرج والباب الذي انتزعه (بيير) ثم ركض إلى النافذة، وكان أولاده و(جان) قد سبقوه على كل حال.

لم يكن قد اجتاز النافذة بعد عندما انفتح الباب ودخل مسيو (جورناى).. فرأى ظهر الرجل الذي يهم بالفرار.. صاح على الفور:

- « لص! (فيرمين)! (فيرمين)! »

وجرى نحوه فاصطدم بالمقعد المهشم، وهوى أرضًا في منظر مثير للشفقة.. لكنه جلس على الأرض وراح يصرخ مرارًا:

- « (فيرمين)! (شارميراس)! (فيرمين)! (شارميراس)! »

وهو ينظر للشرفة في ذعر كأنه يتوقع أن يعود اللص ليقطع حلقه..

جاء الدوق جريًا وهو يلبس معطف قيادة السيارات والقبعة على رأسه، وقال:

- « هل ناديتنى؟ »

- « ناديتك؟ بل صرخت! اللصوص هنا فعلاً.. »

رفع الدوق حاجبيه، وقال:

- « الأعصاب! الأعصاب.. »

- « فلتذهب الأعصاب للجحيم! لقد رأيته كما أراك! »

قال الدوق:

- « على كل حال لو كنت تثق في (فرمين) فلا أرى ما يضر في أن يسهر هنا للحراسة ومعه بندقية.. ربما أصاب ساق أحد هؤلاء الأوغاد من ثم يفر الباقون، لكني لا أحب تركك وحدك مع (جرمين) هنا.. »

- « ولا أنا! لذا لن أجازف.. سوف نذهب إلى باريس حالاً.. معك.. ونترك (فيرمين) و(جان) يقاتلان هؤلاء الأوغاد.. (فيرمين) جندى سابق وقد حارب في السبعينات.. »

قال الدوق:

- « ليكن.. سوف تأتي أنت مع (جرمين) و(إيرما) بينما أركب أنا السيارة الأخرى مع (سونيا).. »

جاءت (سونيا) مع (جرمين)، وبسرعة عرفتا بعض ما حدث في الفترة الأخيرة، فاتجهت الأولى إلى المكتب لتخرج المفاتيح، هنا اكتشفت أن هناك من عبث بالأدراج.. برغم هذا وجدت المفاتيح في مكانها مما جعل المليونير يعتقد أنه فاجأ اللص في الوقت المناسب..

ذهب المليونير ليلبس معطف ركوب السيارة.. هنا دوى الرعد وانهمر المطر مدرارًا..

صاحت (جرمين) في غيظ ونفاد صبر:

- « هذا ما كان ينقصنا! سوف تصير الطرقات مستنقعًا.. »

قال الدوق في سخرية:

- « في الواقع تمنيت لو يؤجل هذا اللوبين عملياته إلى الوقت الذي يكون فيه الجو صحوًا.. لكن هذا المطر سيجعل الغبار يستقر على الأقل.. »

هنا عاد المليونير وقد استعد للرحيل.. قال الدوق في دهشة:

- « لماذا لم يأت (جان) بالسيارتين؟ هل يتوقع أن نذهب للجراج تحت هذا المطر؟ »

ثم فتح باب الشرفة ونادي المليونير ليقف هناك:

- « تعال وناده أنت فإن لك صوتًا جهوريًّا.. »

نظر له حموه في دهشة وهز كتفيه.. وقال:

- « أنت لا تبالي بشيء عندما ترغب في شيء آخر.. »

- « ولماذا أفعل؟ هلم أيها الشاب العجوز.. نادا! »

صاح المليونير بأعلى صوته وقد وقف في الشرفة:

- « (جان)! (فيرمين)! «

لكنه لم يتلق إجابة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧- سرقة السيارات

كان الظلام دامسًا وراح المطر ينهمر على وجهيهما..

- « (جان)! (فيرمين)! »

لا إجابة إلا الصدى.. استدار إلى الدوق، وقال في قلق:

- « أين هما بحق السماء؟ »

- « لا أدرى.. ربما علينا أن نذهب ونجدهما بنفسينا.. »

- ماذا؟ في هذا الظلام ووسط كل هؤلاء اللصوص؟ »

- « لو لم نفعل فلا أحد سيفعل.. و(لوبين) يدنو أكثر فأكثر من لوحاتك.. هلم! »

هكذا مشى الرجلان نحو الإسطبلات.. وهناك دخل المليونير الباب وألقى نظرة.. ثم صاح:

- « الويل لي!! »

فبدلاً من السيارات الثلاث، كانت هناك سيارة واحدة.. ذات مائة الحصان.. كانت سيارة سباق بمقعدين فقط وعليهما جلس (جان) و(فيرمين)..

صرخ المليونير:

- « ماذا تفعلان هنا أيها الكلبان الكسولان؟ »

لم ينطق الرجلان ولم يتحركا.. التمع ضوء المصباح على عيونهما الثابتة المحملقة..

قرب الدوق المصباح من السيارة، هنا اتضح الأمر.. كانا مربوطين كدجاجتين ومكممين.. أخرج الدوق مطواة من جيبه فتحها ومزق حبال (فيرمين) ونزع كمامته فبصق وسعل، بينما تولى المليونير أمر (جان)..

زأر (فيرمين):

- « كان هؤلاء آل (شارولیه).. هؤلاء الأوغاد الملاعين! »

وقال (جان):

- « هاجمونا من الخلف.. »

- « ثم فروا بالسيارتين.. »

قال الدوق وقد تبدلت لهجته الساخرة إلى جدية مطلقة:

- « هذا يغير كل الخطط.. عليّ الآن أن أسرع إلى باريس بهذه السيارة.. »

- « هي قطعة من الخردة.. لن تنجح.. »

- « بل يجب أن أنجح.. على كل حال المسافة مائتا ميل.. أعتقد أن هؤلاء الأوغاد سيتركون السيارتين في حقل ما ثم يعودون، فالغرض من هذه الخطوة منعك من الوصول إلى باريس.. »

قال المليونير:

- « لن تتركنا في القصر.. فلن أمضى ليلتي فيه ولو دفعوا لى مليونًا.. سوف تذهب أنت بهذه السيارة بينما نذهب نحن لباريس بالقطار.. »

- « القطار؟ اثنتا عشرة ساعة؟! أنت لست جادًّا.. »

- « بل أنا جاد تمامًا.. »

واتجه ليقنع (جرمين) بخطته.. كانت تمقت السفر بالقطار لكنه استطاع إقناعها بموهبته الخاصة.. عن طريق صوته العالي..

ثم إنه اتجه إلى الدرج ليخرج كتيب مواعيد القطارات وراح يتصفَّح الأوراق.. ثم هتف:

- « الحمد لله.. هناك واحد في التاسعة إلا الربع.. »

- « وكيف نصل للمحطة من دون سيارة؟ »

هنا تذكر أن هناك عربة متاع يجرها حصان.. سوف يذهبون بها للمحطة وسوف يقودها المليونير بنفسه.. ثم أعلن أنه لا توجد عربة طعام في هذا القطار؛ لذا عليهم أن يأكلوا وجبة طيبة، وأن يحولوا بعض الأطعمة معهم..

هكذا هرعت (سونيا) و(إيرما) لإعداد بعض الأومليت.. فتح الدوق الباب لـ (سونيا) وانحنى لها، فقالت له بصوت هامس:

- « كن حذرًا.. أكره فكرة أن تقود سيارة مسرعة إلى باريس في هذا الجو.. أرجوك.. »

هز رأسه لها ثم ودع حماه و(جرمين)، وسرعان ما كان في السيارة.. وتعالى صوت المحرك ثم بدأ يخفت ويخفت عندما غاب عن العيون..

بدءوا تناول وجبة باردة في المطبخ، عندما جاء (جان) والبندقية في يده ليخبرهم أن (فيرمين) قد ربط الحصان إلى العربة.. تسلق المليونير العربة ليجلس خلف المقود، وقال إنه يمقت العربات ذات المحرك.. ثم نظر إلى الخادمين (جان) و(فيرمين) الواقفين على الباب، وقال:

- « البيت مسئوليتكما بما فيه من كنوز.. تشجعا يا بطلى فرنسا! »

هكذا وجد الرجلان نفسيهما وحيدين بعد رحيل العربة.. اتجها لخزانة السلاح كى يتزودا ببعض البنادق، ثم اتجها إلى المطبخ.. تسلح (جان) بزجاجتي خمر وفطيرة شهية وحمل هذا كله إلى غرفة الجلوس.. ثم عاد للردهة لينتقى رزمة من المجلات.. وأغلق الباب على نفسه..

ظل (فيرمين) وحده والرعب يستبد به.. كان الظلام دامسًا.. ثم سمع صوت خطوات من المطبخ فهرع إلى هناك.. كانت زوجته تعد له طعام العشاء.. حكى لها المأزق الذي وجد نفسه فيه، قالت له:

- « إذن أغلق باب المطبخ بالمفتاح علينا.. اللصوص لن يبالوا بالمطبخ.. »

- « لكني وعدت السيد بحماية كنوز قصره.. »

- دع السيد يعن بكنوزه بنفسه.. ليس لديك سوى حلق واحد وأنا لا أنوي أن أفقده.. اجلس وكل عشاءك، لكن أولًا أغلق هذا الباب.. »

أغلق الباب بالمفتاح وجلس يأكل.. كانت شهيته طيبة لكنه لم يستمتع بالوجبة، وكان يصغى بدقة لصوت أي عبث بالخارج أو فتح للنوافذ، برغم أنه لم يكن ليسمع أي شيء هنا لكنه واصل الإنصات.. ويبدو أن الرعب جعل حلقه يجف؛ لذا راح يجرع كأسًا تلو آخر من الشراب..

بعد العشاء نهضت لتغسل الصحون على حين أشعل غليونه.. يبدو أن الطعام أعاد له شجاعته؛ لأنه بدأ فجأة يتكلم عن واجبه نحو سيده.. عن قسمه أن يموت دون كنوز القصر.. عن مقته الشديد للصوص خاصة الباريسيين منهم..

برغم هذا كله لم يبرح مكانه.. يبدو أن دفء المطبخ أغراه بالبقاء حيث هو.. هكذا راح يصف لزوجته الطريقة المتوحشة التي سيقتل بها أول ثلاثة لصوص، وكان قد بدأ في قتل الرابع عندما دوت طرقة عنيفة على الباب الخارجي..

هكذا تصلب.. فمه مفتوح.. ينظر لزوجته في رعب وكلاهما عاجز عن الكلام..

تعالت الطرقات ومعها صراخ كالزئير.. فكانت كل طرقة تجعل أسنانه تصطك أكثر..

استمر هذا خمس دقائق قبل أن يغمر الفهم وجه مدام (فيرمين)..

- « أعتقد أنه السيد.. »

همس في رعب:

- « السيد؟ »

واستعاد شجاعته في لحظة ففتح باب المطبخ وركض إلى باب القصر.. فتحه وعلى المدخل رأى المليونير و(سونيا) و(إيرما) و(جرمين)..

صاح المليونير:

- « ماذا كنت تفعل بحق الجحيم؟ لماذا تبقيني واقفًا تحت المطر؟ »

تلعثم (فيرمين):

- « لـ.. لـ.. لصوص.. حسبتكم من اللصوص.. »

- « لصوص؟ هل أبدو لك لصًّا؟ »

الحقيقة أنه في هذه اللحظة لم يكن يبدو كلص.. كان يبدو كثور أسطوري غاضب.. وقد دخل إلى البيت ووراءه (جرمين) التي ألقت بمعطفها، وقالت لأبيها:

- « لا أفهم.. لماذا لم تستوثق من أن هناك قطارًا في التاسعة إلا الربع؟.. أنا لن أذهب لأى مكان الليلة.. لا توجد قوة في العالم ترغمني على ركوب قطار منتصف الليل.. »

قال المليونير:

- « لو أمرتك بالذهاب فسوف تذهبين.. أين جدول مواعيد القطارات اللعين هذا؟ »

وبحث عن الدليل حتى وجده.. ثم نظر لغلافه فرأى أنه مخصص لشهر يونيو من عام 1903!

هتفت (جرمين):

- « هذا لا يصدق! لابد أنه من مقالب (جاك).. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨- الدوق يصل

كان النهار كئيبًا، وقد بدا قسم الشرطة بجدرانه المغسولة من المطر عاريًا تمامًا إلا من صور المطلوبين.. وقد جلس رجال الشرطة يتثاءبون بعد ما مرت نوبتجية الليل بلا عمل، وكانوا في انتظار من يأتى ليأخذ مكانهم..

فجأة دوت في الشارع ضوضاء سيارة بمحرك.. توقفت أمام باب قسم الشرطة، فاستدارت عيون المفتش ورفاقه إلى الباب في ترقب كسول..

جاء شاب في معطف وقبعة ليقف على الباب.. وقال إنه جاء نيابة عن المليونير (جورناى مارتن) لأن هذا الأخير تلقى رسالة من (أرسين لوبين)..

ما أن ذكر اسم (لوبين) حتى وثب المفتش من مقعده.. وفي لحظة صاروا متيقظين ملأى بالحماس..

ناولهم الدوق الرسالة التي أخرجها من جيبه تحت المعطف نظر لها المفتش، ثم قال:

- « نعم.. أعرف الخط.. »

ثم راح يقرأ مرددًا:

- « نعم.. نعم.. هذا أسلوبه المعتاد.. »

- « لا وقت نضيعه.. كان من المفروض أن أكون هنا منذ ساعات لكن عطلاً أخرني.. أخشى أننا تأخرنا جدًّا.. »

خارج قسم الشرطة كانت سيارة سباق مغطاة بالوحل.. وحل أحمر.. وحل أسود.. وحل رمادي.. بدا كأنها جاءت بعينات من كل أنواع التربة في فرنسا..

ركب المفتش جوار الدوق، واندفعت السيارة ببطء في الشارع.. لتسمح لرجلي شرطة بالركض جوارها.. على كل حال ما كان بوسعها أن تسرع لأن عجلتها الخلفية قد ثقبت تمامًا..

وصلوا إلى منزل (جورناى مارتن) الفاخر الذي لا يميزه شيء في مكانه هذا بين بيوت مماثلة.. كانت كل النوافذ مغلقة بلا أية علامة على الحياة أو أن أحدهم يعيش هنا..

أخرج الدوق المفاتيح من جيبه وجرب فتح الباب، لكنه لم يستجب.. جرب مفتاحًا آخر بلا جدوى.. تناول منه المفتش المفاتيح وجربها بنفسه.. لم ينفتح الباب..

قال الدوق:

- « واضح أنهم أعطوني المفاتيح الخطأ.. لكن.. انتظر.. لقد فهمت.. لقد تم استبدال المفاتيح! لقد حسب مسيو (مارتين) أنه ضبط اللص قبل أن يسرق المفاتيح.. الحقيقة أنه كان قد سرقها فعلًا.. »

راح المفتش يقرع الباب.. وأمر رجليه بأن يجربا الباب الخلفي.. قال الدوق:

- « هناك بواب كذلك يعني بالبيت، ومديرة بيت اسمها (فكتوار).. وهناك خدم.. لندع الله ألا نجدهم مذبوحين.. »

قال المفتش:

- « ليس هذا أسلوب (لوبين).. لن يكونوا مصابين بأذى بالغ..»

- « إذن دعنا نحطم الباب.. سوف أتحمل المسئولية الكاملة عن هذا.. »

هكذا أمر المفتش . الذي بدت عليه أمارات الراحة.. أحد رجاله بأن يجلب صانع الأقفال.. وعلى حين ذهب الشرطى، استند الدوق إلى الجدار وراح يدخن.. كان هادئًا كأنه لم يقض طوال ليلته يقود سيارة متهالكة في طريق وعر..

جاء صانع الأقفال أخيرًا وحاول جاهدًا أن يفتح القفل بلا جدوى.. قال إنه يحتاج إلى نحو ساعة ليفعل ذلك، لكن من الممكن أن يحطم خشب الباب الآن.. على الفور منحه الدوق موافقته على مسئوليته.. هكذا بدل الرجل معداته وراح ينشر فجوة مربعة في الباب.. فجوة كان القفل مثبتًا فيها..

أخرج المفتش مسدسه ودخل.. ووراءه الدوق..

كان الظلام بالداخل دامسًا؛ لذا فتح أحد رجال الشرطة مصاريع النافذة ليدخل الضوء.. كان كل شيء في موضعه وما من علامات على حدوث اقتحام..

بحثوا عن البواب.. دخل أحد رجال الشرطة غرفة جانبية ثم عاد ليقول:

- « مقيد ومكمم الفم.. هو وزوجته! »

ركض الدوق إلى الطابق العلوى بسرعة.. وفتح باب غرفة الجلوس.. ثم تسمّر على الباب..

لقد وصل متأخرًا جدًّا..

كانت الغرفة في حالة فوضى شديدة.. المقاعد مقلوبة وثمة بقع فاتحة على الجدران حيث كانت أفضل صور المليونير معلقة.. أما مصاريع النوافذ فكانت منزوعة.. وكانت هناك منضدة لعب ورق يتدلى نصفها خارج إحدى النوافذ.. وكان هناك سلم يستند إلى إطار النافذة..

هرع الدوق والمفتش ينظران من خلالها.. لم يكن هناك أحد.. لقد فر اللصوص عبر الحديقة فالسور إلى بناية مجاورة تحت الإنشاء ثم منها إلى ممر جانبي على اليمين..

نظر الدوق إلى مواضع الصور الخالية على الجدران، ثم هتف:

- « انظر! »

في مكان اللوحة رأى الرجلان بحروف كبيرة اسم:

أرسين لوبين

قال المفتش:

- « تلك مهمة (جيرشار) الآن.. لكن يجب أن أحضر قوميسييرًا لفحص مسرح الجريمة أولًا.. »

وأمسك بالهاتف وراح يصرخ في خادمة أن توقظ سيدها الآن.. فلم يتركها حتى تأكد من أنها فعلت وأبلغته بالجريمة، ثم راح يفتش الغرفتين فلم ير ما يريب.. حتى البصمات لم يجدها..

راح المفتش ينادي مديرة المنزل:

- « فكتوار! فكتوار! »

بلا جدوى..

راحوا يفتحون الغرف واحدة تلو أخرى.. المفتش يفحص الغرف على اليمين ورجاله يفتشون الغرف على اليسار.. في النهاية وجدوا غرفة فيها فراش غير ممهد فاستنتجوا أنها غرفتها وأنها كانت تنام هنا..

قال المفتش:

- « أنا أشك في أنها كانت شريكة للصوص.. »

قال الدوق:

- « معلوماتي أن المسيو (مارتن) يثق بها ثقة عمياء.. »

- « لن يفعل ثانية.. الخدم موضع الثقة هم الذين يخونون سادتهم.. »

استمر البحث، فبدا أن اللصوص لم يسرقوا شيئًا غير الغرفتين بالطابق العلوي، ولم تظهر (فكتوار)، أما البواب فلا يعرف غير أنه هوجم وزوجته أثناء النوم.. قيدا وكمّما.. ولم يقدرا على وصف المهاجمين..

قال المفتش إنه سيطلب المخبر (فورمرى).. هنا قال الدوق إنه سمع المليونير يقول إنه يثق بالمخبر (جيرشار) أكثر لأن هذا الأخير يكره (لوبين) كراهية التحريم، وسوف يلاحقه بكل ما يستطيع من جهد.. اتصل المفتش بالمخفر فوجد أن (جيرشار) غير متاح حاليًا بالتالي ليس هناك سوى (فورمرى)..

- « ومتى تتوقع وصوله؟ »

- « ليس قبل ساعة.. لابد من أن يتناول إفطاره أولًا.. يجب أن يفطر جيدًا قبل التحقيق.. »

قال الدوق:

- « الإفطار! فكرة ممتازة.. الآن ذكرتني بأنني أتضور جوعًا.. أريد الظفر بوجبة قبل أن يأتي المفتش، لكن لا أرغب في ترك البيت.. »

هكذا ذهب إلى البواب ونقده مالاً، فهرع هذا ليبتاع له شيئًا يفطر به..

في الآن ذاته صعد الدوق إلى الحمام حيث أخذ حمامًا منعشًا.. عاد البواب بالطعام وأعد له وجبة طيبة التهمها بشغف، ثم أرسل في طلب الحلاق ليحلق له ذقنه.. ثم إنه اختار أفضل أريكة في غرفة الجلوس وأشعل لنفسه سيجارًا راح يدخنه في تلذّذ..

سمع طرقة على الباب.. فعرف أن القادم هو مسيو (فورمرى)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩- (فومرى) يبدأ التحقيق

دخل المفتش الغرفة.. كان رجلاً بدينًا قصيرًا متوردًا، له شعر منتصب فوق رأسه حتى بدا كفرشاة ثياب عريضة.. ويبدو أنه كان يعتقد أن فرشاة الأسنان قد وجدت لتعطينا فكرة عما يجب أن يكون عليه شارب الرجال.. لذا حرص على أن يبدو شاربه كذلك..

تم التعارف بين المفتش ودوق (شارميرانس).. ثم سأل (فورمرى) مفتش الشرطة:

- « هل هذا هو مسرح الجريمة؟ »

- « نعم سيدي.. لا يبدو أن هناك غرفًا أخرى مست سوى غرفتي الجلوس هاتين.. لكننا لا نستطيع الحكم قبل قدوم مسيو (مارتين).. ربما هناك مجوهرات قد سرقت من غرف النوم.. »

قال الدوق:

- « أخشى أن مسيو (مارتن) لن يكون قادرًا على ذلك لفترة، لأنه سيكون في غاية الإنهاك بعد رحلته من (شارميرانس) إلى هنا.. على كل حال كانت كل تحفه القيمة في هذه الغرفة.. »

قال (فورمرى):

- « أرى أنك كنت مولعًا بها بشدة يا سيدي الدوق.. »

- « الواقع نعم.. اعتدت أن أعتبر هذه التحف ملكًا لي لأنها كانت تخص حماى.. ولا شك في أنه كان سيمنحني بعضها بمناسبة الزفاف.. »

- « خسارة كبيرة.. خسارة كبيرة.. لكننا سوف نستعيد هذه التحف.. تأكد من هذا.. فقط أرجو ألا تكون لمست شيئًا في الغرفتين.. »

وبالطبع لم يكن من أثر لـ (فكتوار).. لا توجد آثار مقاومة مما دعا المفتش إلى افتراض أنها شريك للصوص..

قال الدوق:

- « هل (لوبين) يعمل مع شركاء في العادة؟ »

قال المفتش في دهشة:

- « (لوبين)؟ لماذا (لوبين)؟.. »

- « معذرة.. لقد تلقى حموى خطابًا منه ثم هناك توقيعه هنا.. »

- « (لوبين).. (لوبين)! لقد سئمت هذا الاسم.. يزجون باسمه في أية جريمة.. هذان الخطابان قد يكونان مزورين.. إن أساليب الرجل صارت معروفة.. عندما يقيد ضحاياه يستعمل كمامة صفراء وحبالًا زرقًا.. ثم شعاره (أنا آخذ إذن أنا موجود) على بطاقة من الورق المقوى.. صدقني أنا أميل إلى الاعتقاد بأن لصوصًا عاديين ارتكبوا هذه السرقة ويريدون تشتيت انتباهنا بإلصاق التهمة بـ (لوبين).. »

حكى له الدوق كل شيء، بما فيه قصة آل شاروليه ومحاولة شراء العربة، ثم تسلل أحد اللصوص للقاعة وفراره بعد ما بدل المفاتيح..

ثم بدأ التحقيق..

لم تكن هناك أية علامات ذات أهمية سوى أثر حذاء أبيض على الأرض.. من الواضح أن أحد اللصوص تركه.. لقد أزال المعتدون كل آثار أقدامهم، لكن أثر القدم هذا سقط فوقه كتاب على البساط، من ثم لم يره هؤلاء.. ومعنى أنه أبيض أن اللص كان يمشي في أرض مغطاة بالجبس.. هذا يشير إلى أنهم كانوا يتوارون في بيت تحت الإنشاء مجاور لبيت المليونير..

لم يكن لدى البواب وهو عجوز ستيني ملتح أي شيء يضيفه سوى أنه تعرض للهجوم أثناء نومه، وأن الهجوم كان عنيفًا.. وأضافت زوجته وهي ملتحية مثله تقريبًا أن أسوأ ما في الأمر كان الكمامة لأنها منعتها من إبداء رأيها الصريح في هؤلاء الأوغاد! وقد التحق الاثنان بالخدمة منذ عام..

سأل المفتش البواب:

- « ألم تسمع صوت أي شيء؟ أية مقاومة أو جسد يُجر على الأرض؟ »

- « بلى.. كان هناك كثير من الضوضاء لكنها قادمة من الطابق العلوي.. »

- « عرفت من الأوراق أنك اعتقلت مرتين من قبل.. »

قال البواب العجوز:

- « ما دمت قلت هذا يا سيدي فلن أنكره.. لكني أقول إن اعتقالي كان مما يشرفني.. »

- « كيف؟ »

- « في المرة الأولى اعتقلت لمدة يوم، لأنني كنت في خدمة سيد مهذب ووقفت أهتف في الشارع: إلى الإضراب العام! كان هذا في الأول من مايو.. كان السيد الذي أخدمه هو المسيو (جنليس) القائد الشيوعي البارز.. »

- « والمرة الثانية؟ »

- « اعتقلت لأنني وقفت أهتف في الشارع: الموت للأبقار! وكنت أتكلم عن البوليس يا سيدي! كنت أعمل لدى المسيو (بوسى رابوتان) نائب الملك! »

- « لا يبدو لي أن آراءك السياسية ثابتة.. مرة تهتف مع الشيوعيين ومرة مع أتباع الملك.. »

- « أنا مخلص لسيدي دائمًا وأتبنى أي رأي يتبناه! »

طلب منه المفتش أن ينصرف مع زوجته، فلما اختفيا قال:

- « هذان الأحمقان يقولان الصدق.. ما لم أكن مخطئًا جدًّا.. »

وعاد يواصل التحقيق في حادث السطو الغامض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٠- (جورشار) يساعد في التحقيق

قضى المفتش (فورمرى) وقتًا أطول من اللازم في غرفة نوم (فكتوار).. وقتًا أطول مما قضاه في مسرح الجريمة، وقد خيب أمله أنه لا توجد بقع دم توحي بأن مدبرة المنزل قد قتلت، لكنه عزى نفسه باحتمال أن يكون اللصوص خنقوها ثم تخلصوا من جثتها..

كان سعيدًا بفكرة أن يكون الدوق معه وأن يرى براعته في الاستنتاج.. لهذا راح يتصرف ككلب صيد مدرب، بل إنه كان يصدر ضوضاء أكبر.

نزل المفتش إلى الحديقة التي بلّل المطر تربتها ليبحث عن آثار أقدام، ومن الغريب أنه لم يجد الكثير..

هنا جاء رجل إلى البيت ليحييه رجال الشرطة في احترام..

كان رجلاً عادي المنظر بين الأربعين والخمسين.. له فم عديم المنظر وأنف عادى وشعر عادي وأذنان عاديتان.. على رأسه قبعة عادية ويلبس ثيابًا عادية.. فقط كانت عيناه هما الشيء الوحيد الذي أنقذ وجهه من أن يكون عاديًّا تقتحمه العين.. كانتا ذكيتين يقظتين تتركان انطباعًا غير مريح في روح من تقعان عليه.. كأنه ينظر لروحهم مباشرة..

كان هذا هو كبير مفتشي الشرطة (جورشار).. رئيس قسم التحرى في شرطة باريس وعدو (آرسين لوبين) اللدود..

اقتاده رجال الشرطة إلى غرفة الجلوس التي تمت السرقة فيها، فطلب أن يغلقوا الباب عليه فلا يفتحوه إلا للمفتش

(فورمرى).. وطلب أن يخطروا المفتش فورمرى بقدومه..

- « لا تزعجهم.. فأنا غير ذي أهمية.. »

- « كيف يا سيدى؟ »

- « فعلاً أنا غير ذي أهمية.. القضية قضية المفتش فورمرى، وما أنا إلا مساعد له.. »

فما أن انغلق الباب عليه حتى دب فيه النشاط، وراح يفحص كل شيء في الغرفة.. يفحص مواضع اللوحات وأثر القدم الأبيض على الأرض.. توقيع (لوبين).. قاس المسافة بين أثر القدم والنافذة، فلم يبد عليه الرضا.. وقف يطل من النافذة مقطب الوجه.. الغريب أنه كان عندما يفكر بعمق تفقد عيناه بريقهما وتصيران أقرب للغباء..

أخرج عدسة مكبرة وراح يفحص السجادة في عناية، واقترب من المدفأة، ثم بدأ نوع من الابتسامة يتسرب إلى وجهه.. كأنه قد بدأ يفهم..

كان غارقًا بعمق في التفكير عندما تعالت أصوات من الخارج وسمع صوت أقدام.. اتجه إلى النافذة ورفع رجله وانزلق على السلم المستند لها إلى خارج القاعة..

دخل ثلاثة الرجال القاعة متوقعين مقابلة وجه مألوف.. هنا دهشوا لأنه لا يوجد أحد هنا..

قال رجل الشرطة الواقف على الباب:

- « لقد تركته هنا.. لكنه اختفى.. »

قال المفتش فورمرى:

- « لا شك أنه نزل على السلم ليبحث في الحديقة.. إنه يكرر نفس ما فعلناه قبل قدومه وكان بوسعه أن يوفّر على نفسه العناء بأن يعرف منا ما عرفناه.. »

قال الدوق:

- « عساه يجد شيئًا لم نره نحن.. »

نظر له المفتش فورمري في ضيق، وقال:

- « هذا بعيد عن الاحتمال يا سيدي.. لا تتصور كم أن عمل الشرطة يبلغ بقدرتك على الملاحظة حد الكمال.. إنني مستعد لالتهام أي شيء فاتتني ملاحظته! »

وانفجر يضحك، فقال الدوق في سخرية:

- « هذه ستكون قضمة كبيرة جدًّا! »

قال المفتش:

- « المشكلة مع (جورشار) هي ذلك الوسواس الذي يعانيه بسبب (لوبين).. لم يعد يرى وراء أية جريمة إلا (لوبين) وهذا يشل تفكيره تمامًا.. لهذا لم يقبض على (لوبين) قط.. بالنسبة لي أرى أنها جريمة سطو عادية انتحلت أسلوب (لوبين).. (فكتوار) متعاونة مع اللصوص وهذه هي بداية الخيط.. سوف نجدها من ثم تحل القضية كلها.. »

هنا ظهر المفتش (جورشار) من النافذة وألقى التحية على الجميع..

صاح المفتش (فورمرى):

- « ماذا كنت تفعل على هذا السلم خارج النافذة؟ »

- « أصغى! أحب أن أسمع ما يقال عنى عندما أكون مكلفًا بقضية ما! »

ثم ترجَّل داخل الغرفة وصافح الدوق.. وتم التعارف..

انفتح الباب ودخل (بونافنت) أحد المفتشين الذين جاءوا أولًا من مركز الشرطة، وفي يده كانت قطعة ممزقة من ثوب.. وقال:

- « وجدت هذه على حافة البئر.. تقول زوجة البواب إنها قطعة من ثياب (فكتوار)! »

قال (فورمرى):

- « هذا هو ما كنت أخشاه.. لابد أن نفتش البئر ونجد من يغوص فيها أو ننزحها لو اضطررنا لذلك.. »

هنا قال (جورشار) في جدية:

- « لا أحسبك مضطرًا إلى تفتيش البئر يا صاحبي.. هل يوجد قط أو كلب في هذا البيت؟ »

ونظر إلى الدوق باعتباره يعرف أفضل عن هذا البيت، فقال الدوق:

- « نعم.. هناك قط. رأيت واحدًا على باب البواب.. »

- « إذن هو القط من أخذ الخرقة إلى حافة البئر.. »

صاح (فورمري) في عصبية:

- « لكن هذا سخف.. نحن نتكلم عن جريمة قتل وأنت تتكلم عن القطط؟ »

- « لا أعتقد أن (فكتوار) قتلت.. »

- « وهذا الاختفاء؟ كيف تفسره؟ »

- « لو كانت اختفت لما حاولت التفسير لكني أرى أنها لم تختف كذلك! »

كان يتكلم ببرود وتهذيب.. هنا صاح فورمري في عصبية:

- « لم تختف؟ هل تعنى أنك تعرف أين هي؟ هل تعني أنك رأيتها؟ »

- « بالتأكيد.. وقد رأيتها منذ خمس إلى ست دقائق! »

- « اللعنة! أنت لم تفارق الغرفة! »

- « برغم هذا رأيتها! »

هنا صاح (فورمرى):

- « إذن تكلم! »

ثم سقط منهكًا على الأريكة.. وكان الاستفزاز قد جعل حالته في غاية السوء..

مشى (جورشار) إلى المدفأة وأزاح المقاعد التي تسد مدخلها، ثم أزاح الشبكة المعدنية التي تسدها.. كانت المجمرة الحديدية التي تضم الفحم قد أزيحت جانبًا، وهناك مرتبة على أرض

المدفأة.. فوقها امرأة في منتصف العمر وعلى فمها كمامة صفراء، وقد قيدت يداها وقدماها بحبال زرق..

قال (جورشار):

- « إنها تنام في سلام.. »

وانحنى والتقط منديلًا وشمه، وقال:

- « كلوروفورم.. ما زالت رائحته في المنديل.. ساعدني أيها المفتش وأنت يا (بونافنت).. من الواضح أنها ثقيلة الوزن.. »

وتعاون الرجال على حمل الحشية خارج المدفأة.. كان هذا مرهقًا لأن المرأة كانت ثقيلة فعلا.. عندما انتهوا استعاد (فورمرى) أنفاسه المتقطعة، لكن وجهه ازداد احمرارًا وراحت عيناه ترقصان بلا توقف، كأنهما خارج سيطرته.. وصاح:

- « أنت لم تنظر داخل المدفأة قط يا (بونافنت)! »

قال المفتش الصغير:

- « لا يا سيدى! »

- « كانت هذه غلطة لا تغتفر! كيف للمرء أن يعمل مع مرءوسين مهملين مثلكم؟ كيف كان لى أن أراها؟ »

قال (جورشار) في هدوء:

- « كان هذا بوسعك لو مشيت على أربع! »

- « على أربع؟ »

- « نعم.. على أربع كان بوسعك أن ترى كعبيها.. »

- « تلك الشبكة يبدو أنها لم تتزحزح منذ بدء الصيف.. »

- « القاعدة الأولى مع (لوبين) هي ألا تثق بالمظهر الخارجي لأي شيء.. »

- « لوبين! »

ثم قرر أن يصمت وعضَّ على شفته السفلي..

هكذا تعاون رجال الشرطة على حمل المرأة إلى غرفة نوم جديدة.. وذلك إلى أن تفيق من تأثير الكلوروفورم.. وقال (فورمرى):

- « الآن نعيد التفكير في حلّ من جديد.. »

وعقد ذراعيه على صدره وغاب في تفكير عميق، على حين راح الدوق و(جورشار) يرمقانه في صمت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١١- الأسرة تصل

طلب الدوق من المفتش (جورشار) أن يسمح له بمراقبة طريقته المثيرة للاهتمام في البحث.. ومشى الرجلان في الحديقة.. كانا متناقضين تمامًا كأنهما صقر يمشي مع خلد.. المحارب والعامل.. الدوق بطريقته الساخرة وملامحه اليقظة وطباع المبارز الخبير، وعضلاته الحديدية، والمفتش بطريقته الخمول وصوته المبحوح، وعجزه عن أن يظهر أيًّا من عواطفه على ملامحه.. فقط في العينين كان الرجلان متماثلين.. نظرة الملاحظ المدقق الذي لا يفوته شيء..

هناك راح المفتش يحكى له عن (لوبين).. خبير التنكُّر الأول.. لقد سمع منه قصة آل (شاروليه)؛ لذا رجح أن يكون (لوبين) هو المسيو (شاروليه) نفسه.. هذا الرجل يتنكر فلا يمكنك أن تعرفه.. إنه يلبس ويفكر كالشخص الذي يقلده تمامًا..

في هذه العملية لابد أنه استعان بعدد كبير من اللصوص، ومن الممكن أن يكون قد لعب دور أكثر من شخصية.. مثلاً قد يكون هو ذاته من خدم مسيو (مارتين)..

قال الدوق:

- « من الصعب أن يلعب دور (شاروليه) ودور خادم معًا.. »

- « لم أقل يقينًا إنه (شاروليه).. تلك نقطة للنقاش فقط.. لا أعتقد أنه يضيع وقته في سرقة سيارات.. تصور بالمناسبة أنني تلقيت عروضًا بآلاف الفرنكات على سبيل الرشوة من نساء

فاتنات.. نساء من طبقتك الثرية النبيلة.. فقط كي أسمح لهن بمقابلة لوبين أو تعرفه.. »

- « هذا لا يدهشني.. النساء لا يتوقفن للتفكير لحظة إذا تعلق الأمر بأحد أبطالهن.. وماذا عنك؟ »

- « ليت هذا بوسعى! لو استطعت أن أجد (لوبين) متورطًا في الحب مع امرأة لتغير الأمر! على فكرة لقد قبض عليه المفتش (جانيمار) مرتين واستطاع الهرب! »

عاد الرجلان إلى البيت وجلسا يدخنان..

في هذه اللحظة انفتح الباب واقتحم المكان مسيو (جورناى مارتين).. رأى الفوضى التي خلفها السطو فكوّر قبضتيه في الهواء، وصاح:

- « الأوغاد! »

ثم ركض ليلقي بجسده على أريكة وينفجر في البكاء..

قالت (جرمين) في نفاد صبر:

- « هلا كففت عن البكاء يا بابا؟؟ صوتك خشن كصوت الغراب! »

ثم التفتت إلى الدوق، وقالت:

- « أعتقد أن نكتتك بصدد مواعيد القطار كانت سخيفة فعلاً يا (جاك).. أن ترسلنا تحت المطر للمحطة في الليل وأنت تعرف أنه ما من قطار في التاسعة إلا الربع.. هذا مخجل.. »

قال لها الدوق في دهشة:

- « لا أعرف ما تتكلمين عنه.. ألم يكن هناك قطار في التاسعة إلا الربع؟ »

- « نعم.. دليل القطارات كان قديمًا جدًّا.. »

- « لا تبدو لي نكتة.. على الأقل ليس نوع النكت الذي أفضله.. لقد كان الدليل في الدرج ولم يخطر لي أن أتفقد تاريخه.. »

هنا انفجر المليونير يصرخ ويندب حظه، وكان بكاؤه يمزق نياط القلوب..

- « إنه الخراب! لوحاتي! »

قال المفتش (فورمرى):

- « سوف نعيد لوحاتك.. هذا وعد.. فقط أعطنا الوقت.. على الأقل لم يمس التاج الخاص بالأميرة (دى لامبال).. إن الخزانة الموجودة هنا لم تمس ونحن نعرف أنك تحتفظ به فيها.. »

قال المليونير:

- « ومن قال إن التاج في الخزانة؟ أنا أحتفظ به في غرفة نومى.. »

قال الدوق باسمًا:

- « نحن متأكدون من أن اللصوص لم يمسوا غرف النوم.. »

قال المليونير وهو يخرج مفتاحًا من جيبه:

- « هذا يهدئ من روعي بعض الشيء.. الخزانة في غرفة النوم لها مفتاحان. أحدهما هذا والآخر في هذه الخزانة التي أمامكم.. »

ثم انفجر في البكاء من جديد:

- « لكنهم سرقوا لوحاتي.. لوحاتي الجميلة! الاستثمار الأمثل! سرقوني.. خربوا بيتى! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٢- لوبين يرسل برقية

اكتشفت (جرمين) أن القلادة التي جلبها خطيبها لها غير موجودة.. هكذا ساد الارتباك خاصة وهي كانت تعتقد أنها معه في رحلته لباريس..

سألها المفتش (فيرمري) عما إذا كانت أشياء قد سرقت منها من قبل، فقالت إنها اعتادت اختفاء أشيائها منذ ثلاثة أعوام تقريبًا..

هكذا أعلن المفتش (جيرشار) أنه سيقوم بتفتيش الجميع.. وتم استدعاء (إيرما) و(سونيا) وكل من كان مع (جرمين) في باريس..

هنا اتجه الدوق نحو معطف (سونيا) الموضوع على الأريكة وتظاهر بأنه يوشك على التعثر، وتحسس الجيب.. شعر بشيء بارز وسط ثنيات المعطف.. هكذا مد يده بخفة وتناول هذا الشيء ودسه في جيبه..

قال (جيرشار) لـ (سونيا) إنه آسف لكن لابد من تفتيش حقيبتها ومعطفها..

قال الدوق:

- « يمكنك أن تستبعد (سونيا) من المشتبه بهم.. »

سأله (جيرشار):

- « منذ متى هي في خدمة المدموازيل؟ »

قالت (جرمين):

- « منذ ثلاثة أعوام.. »

- « أي منذ الوقت الذي راحت فيه أشياؤك تختفى بلا تفسير! »

كانت (سونيا) في حالة شديدة من العصبية بينما هم يفتشون حقيبتها.. وعندما أمسكوا بالمعطف لتفتيشه قال لها الدوق:

- « هذا مجرد إجراء روتيني يا (سونيا) فلا تقلقي.. »

لكنها كانت شاحبة كالورقة موشكة على الإغماء، حتى عندما أسفر التفتيش عن لا شيء..

هكذا انتقل الرجال للبحث عن شيء آخر فُقِد من البيت.. وبقى الدوق وحده في القاعة.. مد يده في جيبه وأخرج الشيء الذي وجده في معطف (سونيا).. كان هذا هو القلادة التي أهداها لـ (جرمين)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت (سونيا) إلى القاعة فنظر لها الدوق طويلًا، ثم قال في دهشة:

- « أنت.. لصة؟ »

ثم نظر إلى الباب، وقال:

- « أرجو ألا تتكلمي معى ثانية.. كما أرجو ألا تبقى هنا.. »

صاحت:

- « لابد أن رأيك فيَّ صار مرعبا.. »

- « أرجو أن تخفضي صوتك.. إن (جوشار) ليس بأبله وأعتقد أنه يشك فيك فعلًا.. »

- « وما في ذلك؟ لقد فقدت احترام الشخص الوحيد الذي حملت له احترامًا.. »

- « ربما يكون من الأفضل أن نؤجل الكلام إلى أن.. »

- « لا! لابد من الكلام الآن! لا أعرف كيف أتكلم.. رباه! رباه! هذه الجرمين تملك كل شيء.. أمامي أعطيتها القلادة وسرت بها.. لذا أخذتها منها.. أخذتها.. ولو استطعت لأخذت ثروتها كلها.. لكم أكرهها! نعم.. »

لم تعد عيناها رقيقتين بل هما تلمعان بغضب وحشى.. وصوتها صار خشنًا مليئًا بالمقت..

- « لو لم تكن أنت في الموضوع.. لهذا أكرهها! نعم.. ليست هذه المرة الأولى.. لقد سرقتها من قبل.. لعلها المرة العاشرة.. نعم أنا لصة! »

- ثم خفضت عينيها، وقالت:

- « لكن منذ التقت عينانا لم أسرق منها أي شيء قط.. إلى أن رأيتك تعطيها تلك القلادة فلم أتحمل.. »

قال الدوق في رعب:

- « يا للطفلة المسكينة! »

- « اسمع.. هل جربت أن تكون وحيدًا في العالم من قبل؟ هل جربت أن تجوع في هذه المدينة الكبيرة؟ كنت أتضور لدى

رؤية الخبز في المتاجر.. كانت هناك طريقة واحدة في هذا العالم للحصول على المال لكني لم أفعلها.. لا لم أفعلها.. فضلت أن أسرق.. بدا لى هذا أكثر أخلاقية.. اضطررت للسرقة كي أبقى امرأة شريفة.. »

ثم راحت تضحك ضحكة شيطانية لروح تحترق، وبعدها دفنت وجهها في كفيها وراحت تبكي.. نظر لها نظرة مفعمة بالشفقة والفهم.. هذه هي باريس التي لا يعرفها والكامنة تحت السطح..

سمع صوت خطوات فهتف بها:

- « بسرعة! اركضي للغرفة الأخرى وجففي دموعك! يجب أن تكوني متماسكة! »

كانت سونيا مدربة منذ زمن على إخفاء مشاعرها؛ لذا استعاد وجهها رونقه على الفور.. اتجهت لتجلس على أريكة على حين وقف الدوق يشعل سيجارًا..

هنا انفتح الباب وظهر (جورشار) ونظر لهما بعينين فضوليتين، فسأله الدوق ضاحكًا:

- « حسن أيها المفتش.. آمل أن اللصوص لم يسرقوا التاج! »

- « التاج بخير معاليك.. »

ثم استدار لـ (سونيا) ليقول لها:

- « كنت أبحث عنك لأخبرك بأنه ليس بوسعك الخروج.. لا أحد سيخرج.. سأكون شاكرًا لو ذهبت لغرفتك، وسوف ترسل

لك وجباتك هناك.. »

لما انصرفت جلس الدوق وحده وعلى وجهه علامات التفكير العميق..

فجأة دوى صوت زئير وحشى واقتحم الحجرة المسيو (جورناى مارتين) وفي يده برقية، وصاح:

- « هي ذي برقية! برقية من الوغد نفسه! لقد أحضرها عامل في مكتب البريد.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعتذر بشدة عن عدم قدرتي على الوفاء بوعدى بصدد التاج، فقد كان عندي موعد في أكاشيا.. أرجو أن تعده لي في غرفتك الليلة فسوف أسرقه بين الثانية عشرة إلا الربع والثانية عشرة.

بإخلاص

أرسين لوبين

قال المفتش (فومرى):

- « هات البرقية لو سمحت.. »

وقرأ البرقية مرتين، ثم قال:

- « هذا يزيد الأمور تعقيدًا..إنها القشة الأخيرة... (جورشار) مجنون بـ (أرسين لوبين) وسوف يقلب كل شيء رأسًا على عقب بسبب هذه البرقية.. رأيي أن (جورشار) أحمق.. لو كان (أرسين

لوبين) هنا ليلة أمس حقًّا لما منعه شيء من سرقة التاج والبيت خال.. إذن لم يكن هو.. »

هنا انفتحت الخزانة الموجودة في القاعة ليخرج منها (جورشار) وهو يقول:

- « لن تتصور مدى وضوح سماع الصوت في هذا الطراز من الخزائن! كانوا يقولون إن جدرانها سميكة جدًّا.. »

هتف (فورمرى) في ذعر:

- « لكن كيف خرجت منها؟ »

- « بصعوبة.. لم يكن هذا سهلًا.. »

- « وكيف دخلتها؟ »

- « من ظهرها! أضعف نقاط هذه الخزائن هو ظهرها، وقد قام اللصوص بعمل فتحة في ظهرها لم نرها.. هكذا أخذوا ما فيها دون أن يفتحوها! »

- « هل المفتاح الذي يفتح خزانة غرفة النوم موجود فيها؟ »

ابتسم المفتش، وقال:

- « لا.. لقد سرقوه.. لكنهم تركوا لك هدية.. شيئًا أفضل من المفتاح.. »

- « وما هي؟ »

- « يمكنني أن أطلب منك التخمين.. لكن ها هي ذي هديتك.. »

وناوله بطاقة صغيرة كتب عليها بخط واضح:

أرسين لوبين

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٣- غلطة فكتوار

بعد الغداء الفاخر الذي أظهر أن المليونير فقد شهيته تمامًا، بدا أن المفتشين الجمهوريين قد انبهرا بالجو الملكي المسيطر على كل شيء.. مهما كانت آراء المرء السياسية فإن للملكية هيبة في النفس، ولم يمنع (جورشار) نفسه من الفخر لأن هذا الدوق النبيل منبهر بأدائه كمفتش بوليس..

أثبتت تحريات (جورشار) أن السارقين لم ينقلوا أثاث المنزل عبر النافذة كما حاولوا الإيحاء بذلك، بل رفعوا المسرقات عبر المدفأة لينقلوها في ثغرة في الجدار إلى المنزل المجاور الخالي.. لم يكن هناك أحد مختبئ في ذلك البيت تحت الإنشاء.. بصمة الحذاء الملوثة بالجير وضعوها عمدًا.. لو كانوا قد لوثوا أحذيتهم بالجير لما استطاعوا إزالة كل الآثار من البساط بهذه البساطة..

- « هذه حيلة لخداع المخبرين متوسطى الذكاء مثل (فورمرى).. »

لقد دخل اللصوص حسب نظريته من باب البيت الأمامي وغادروه عن طريق هذه الفتحة..

- « ما جعل اكتشاف الأمر يتأخر هو أننا لم نتوقع أن تكون هناك فتحة بهذا الحجم.. لابد أنهم رسموا خطتهم منذ زمن، ولابد أن لديهم شريكًا في البيت.. »

قال الدوق في شك:

- « الأسرة تثق في (فكتوار) بشدة.. »

قال (جورشار) في خطورة:

- « وربما (لوبين) كذلك! »

كان المليونير في حالة بالغة السوء.. لقد اعتبر أن التاج سرق فعلًا.. ما دام (لوبين) وعد بسرقته فهو مسروق من الآن..

أصر المفتش (جورشار) على إجراء استجواب آخر لـ (سونيا)، وهو ما اعترض عليه الدوق بشدة (فهي مجرد طفلة)، لكن (جورشار) كان مصرًّا.. إن تلك السرقات السابقة التي لم يعرف تفسيرها تبدو له ذات أهمية..

لم يجد الدوق أي وقت سوى لأن ينصح (سونيا) بأن تتجلد وتمسك أعصابها..

هكذا تم الاستجواب في غير حضور الدوق.. وعندما انتهى خرجت الفتاة ترتجف، أما (جورشار) فبدا مقتنعًا بشيء واحد هو أن الفتاة لا تمت بصلة لـ (لوبين)..

خرج (جورشار) على أن يعود في السابعة والنصف مساء، ومر اليوم بلا أحداث، لكنه تأخر عن موعده مما جعل (فورمرى) يتميز غيظًا وغادر البيت مغضبًا..

عندما جاء (جوشار) أخيرًا أعلن للدوق أن القضية صارت بالكامل ملكًا له، وأنه عين رجالاً أذكياء ليساعدوه.. أو على الأقل عين رجالاً يعرفون أسلوبه في التحقيق..

قال له الدوق:

- « رجالك يضايقونني لدى الخروج.. يقولون إنك لم تعط أي تعليمات بخروج أحد.. »

- « أرجو من معاليك أن تغفر لي. لا أستطيع أن أعطى استثناءات وإلا طالب بها الجميع.. لكن بالنسبة لمعاليك أعتقد أن هذه كافية.. »

وأخرج بطاقة تحمل اسمه، وكتب عليها:

- « أرجو أن تسمحوا لمعاليه بالخروج والدخول متى أراد.. »

هنا دخل الغرفة (بونافينت):

- « لقد عادت مدبرة المنزل إلى وعيها تمامًا.. »

قال (جورشار):

- « جميل.. هاتها لي.. »

وجلس الدوق على مقعد مريح بينما وقف المفتش جوار المدفأة.. قال المفتش:

- « على الأقل هناك شخص واحد برىء في هذه القصة.. »

- « من هو؟ »

- « المفتش (فورمرى).. »

هنا انفتح الباب ودخلت (فكتوار).. كانت امرأة حسنة القسمات. ضخمة متوردة.. لها عينان بنيتان لا يبدو أن نومها الطويل أضاع بريقهما.. بدت امرأة ريفية قوية بارعة في عملها..

سألها المفتش:

- « هل عرفت كم عدد الذين هاجموك؟ »

- « دستة منهم.. جيوش! كانوا كالنحل في كل أرجاء البيت.. رأيتهم من أعلى وهم يملئون المكان، وعلى عتبة هذا الباب وثب أحدهم عليَّ من الخلف وكاد يخنقني وهو يكتم أنفاسي كي لا أصرخ.. كانوا أقبح مجموعة رأيتها في حياتي.. »

- « هل رأيت وجوههم؟ »

- « لا.. كانوا ملثمين ولكم وددت لو ميزت تلك الوجوه.. »

طلب منها الجلوس لتستريح، ثم سألها:

- « غرفتك في الطابق العلوي من الطراز الذي له نافذة في السقف.. ألم تسمعى جلبة من فوق السطح.. »

- « نعم.. كيف لي أن أسمع ذلك؟ ما سمعته كان من الطابق السفلي.. »

- « وهل قيدوك عند العتبة أم هنا؟ »

- « قبضوا عليّ عند العتبة ودفعوني هنا.. »

نظر لحجمها الضخم، وقال:

- « أحسب هذا لم يكن عمل رجل واحد.. »

- « تأكد من هذا.. احتاج الأمر لأربعة رجال.. »

- « وماذا كان الآخرون يفعلون؟ »

- « كانوا منشغلين في انتزاع اللوحات عن الجدار وإخراجها من النافذة.. »

لمعت عينا (جورشار) ونظر إلى الدوق..

- « هل كان هناك رجل يناول اللوحات لآخر على السلم؟ »

- « لا.. كان ينزل بنفسه الدرجات.. »

- « متأكدة؟ »

- « نعم.. لماذا أكذب أيها المفتش؟ »

غير أن الدوق رأى أولى علامات عدم الراحة على وجهها..

قال لها المفتش:

- « أرجو أن توضحى لي موضع الشبكة التي كانت تسد المدفأة وقتها.. لقد وضعوك خلفها.. أريد أن ترسمى لى موضعها بالطبشور على الأرض... سمعت أنك تمارسين تفصيل الثياب لهذا لابد أن معك قطعة طبشور.. »

مدت يدها لجيبها ثم توقفت، وهتفت:

- « نعم.. معى.. لكن.. لا.. ماذا دهانى؟ ليس معي طبشور.. »

بحركة قاسية أمسك بمعصمها وأعتصره حتى صرخت ألمًا، ثم مد يده في جيبها وأخرج قطعة من الطبشور الأزرق.. صاحت:

- « ما المشكلة في هذا؟.. ألا يمكن للمرأة أن تحمل قطعة طبشور في جيبها دون أن يضايقها كل رجل شرطة تقابله؟ »

نادي (بونافينت) وطلب منه أن يحضر عربة السجن وينقل فيها هذه المرأة إلى أن يتولى القاضي أمرها.. صاحت في دهشة:

- « لكني لم أفعل شيئًا.. ليست جريمة أن أحمل قطعة طبشور! »

- « القاضي سيقرر هذا.. »

نظرت له في ثبات في عينيه، ثم خرجت مع رجل الشرطة..

∞ ∞ ∞ ∞

١٤- فرار سونيا

قال المفتش في سخرية:

- « هذه واحدة ممن هم فوق الشكوك بالنسبة لـ (فورمرى).. »

- « ما دور الطبشور هنا؟ »

- « إنه أزرق.. نفس اللون الذي كتب به التوقيع على الجدار.. أضف لهذا تنبهها فجأة إلى غلطتها، تدرك أن هذا فعلًا هو نفس الطبشور.. »

قال الدوق:

- « أشعر أنها برغم كل شيء تملك روحًا طيبة.. »

هز المفتش كتفيه، وقال بالخبرة الساخرة التي اكتسبها:

- « السجون تغصُّ بذوى الأرواح الطيبة.. إنهم يقعون في قبضتنا أكثر بكثير من ذوى الأرواح الشريرة.. »

هنا دخل المفتش الصغير (بونافينت) وأضاف معلومة صغيرة:

- « لم يتضح أن هناك من رأى سيارة أثاث أو نقل تقف أمام البيت، لكن أحد الكناسين رأى رجلًا يلبس معطف ركوب يخرج من هذا البيت في الخامسة صباحًا.. كان يدخن وألقى بسيجارته ثم ركب سيارة حمراء وانصرف.. عندما التقط الكناس لفافة التبغ ليدخنها وجد أنها (مرسيدس).. تبغ مصرى.. »

هتف الدوق في دهشة:

- « مرسيدس! نفس نوع سجائرى! »

سأله المفتش:

- « أنت طبعًا تملك مخزونًا منها في (شارميراس).. »

- « هناك علب منها في كل مكان وكل درج.. »

- « هذا يؤيد نظريتي أن اللص جاء من (شارميراس) معنا.. »

- « هل تتهم آل (شاروليه) إذن؟ »

- « لست متأكدًا من هذا.. على أن هناك مهمة ثقيلة يجب القيام بها هي أن تستدعى الآنسة (سونيا) من غرفتها.. قل لها أن تجلب قبعتها ومعطفها.. »

ثم أشار إلى (بونافينت)، وقال:

- « اعمل على أن تُنقل إلى السجن في نفس العربة التي ستنقل (فكتوار).. »

صاح الدوق غير مصدق:

- « أنت لن تعتقل هذه الطفلة. هذا مشين! »

- « للأسف هذا ما يجب عمله.. لقد استجوبناها كما قلت لك وكانت قصتها مليئة بالتناقض.. لو لم أعتقلها فأنا أقصر في عملى.. »

ثم أخرج ورقة من جيبه، نظر لها الدوق بعض الوقت ثم شحب وجهه..

قال في هدوء:

- « سوف أستدعيها من غرفتها.. »

صعد الدرج إلى غرفة (سونيا) ودق الباب.. فتحت له الفتاة ممتقعة الوجه فقال لها دون أن ينظر في عينيها:

- « (جورشار) حصل على أمر باعتقالك! »

صاحت (سونيا) في صوت خائف:

- « إذن انتهى أمرى! »

- « كلا لم ينته. يجب أن تفرى الآن.. »

ثم إنه أخرج بطاقة أخرى تحمل اسم (جورشار) واتجه إلى منضدة وجلس، وأخرج بطاقة السماح التي أعطاه إياها (جورشار) وبدقة مذهلة كتب على البطاقة بنفس خط المفتش:

« اسمحوا للأنسة (كريتشنوف) بالمرور

ج. جورشار.. »

كانت (سونيا) تقف جواره تلهث من التوتر والخوف، فقال لها:

- « يجب أن تغادرى البيت حالاً.. فقط اعرضي البطاقة على المخبر على الباب.. »

- « لكن هذا جنون.. عندما يعرف (جورشار) ما فعلته وموضوع هذه البطاقة فسوف.. »

- « لا وقت لهذا.. إلى أين ستذهبين؟ »

- « فندق صغير قرب (ستار).. لا أذكر الاسم لكن رقم الهاتف هو 555.. »

دون الرقم ثم طلب منها أن تأتى لمنزله لو لم يتصل بها حتى السابعة والنصف من صباح غد.. قالت في نعومة:

- « كم أنك طيب معي! »

فتح لها الباب، وقال بصوت عال:

- « هل أنت متأكدة من أنك لن تحتاجي إلى سيارة أجرة يا آنسة؟ »

قالت:

- « لا.. شكرًا لاهتمام معاليك.. »

وغادرت البيت من الباب الرئيس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٥- الدوق يبقى

ظل الدوق يصغى حتى تلاشى صوت خطواتها، ثم اتجه إلى مقعد مريح جلس عليه، أشعل سيجارًا.. غير مبال على الإطلاق بعودة المفتش..

عاد المفتش ليطلب من (بونسافنت) أن يجلب الآنسة، ولم ترق له البسمة الساخرة على شفتي الدوق.. قال (بونافنت):

- « الآنسة قد رحلت يا سيدى.. »

- « ماذا؟ ماذا تعنيه؟ »

- « رحلت يا سيدى.. »

- « ومن تركها ترحل؟ »

- « الرجال على الباب.. »

نادي (جورشار) الرجال فجاء له رجلا شرطة جريًا.. وأمام غضبة المفتش قالا:

- « لكن كان معها تصريح الخروج بخطك.. »

- « بخطى؟ بحق السماء هذا تزوير! »

ثم أطرق مفكرًا بعض الوقت بحثًا عن ضوء.. نظر إلى الدوق الذي جلس يدخن هادئ البال، كأنما هو يراه للمرة الأولى.. ثم قال:

- « تلك الطفلة المسكينة كما تسميها، قد فرت مستعملة تصريح خروج مزيفًا.. »

قال الدوق:

- « بحق السماء.. هذا يسرني.. وآسف لأننى لا أتعاطف معك..»

قال المفتش:

- « السؤال المهم هو كيف ظفرت بهذا التصريح؟ »

نظر له الدوق في ثبات كالبومة، فبادله النظرات غير المستريحة.. شعر (جورشار) بأن هناك غصة في حلقه فابتلع بصوت مسموع ثم سأل (بونافنت):

- « على الأقل أرسلت (فكتوار) للسجن؟ »

- « نعم يا سيدي.. في السيارة الأولى.. »

- « أية سيارة أولى؟.. »

- « السيارة التي أخذتها للسجن.. »

- « هل تعني أن هناك سيارتي سجن؟ »

- « نعم يا سيدى.. »

- « يا للجحيم! وهل عرفت من هو سائق السيارة الأولى التي ركبتها (فكتوار)؟ »

- « لا يا سيدى. أعتقد أنهم مستجدون.. »

- « يا لك من أحمق! العناية بالدجاج.. هذا ما تصلح له! لقد أرسلتم (فكتوار) للسجن في سيارة سجن مزيفة.. سيارة تخص (لوبين)! الوغد! لابد من ورقة يخفيها في كمه! لكن كيف

عرف؟ كيف عرف أنها ستفيق في العاشرة وأنها ستتعثر في الكلام وأنني سأرسلها للسجن؟ لم يغادر أحد البيت.. هناك تسرب للمعلومات.. لا أعرف من أين.. لكن هو ذا الوغد جاهز بسيارة مزيفة في اللحظة التي أمرت فيها باعتقال (فكتوار)! مشكلتي هي أنني أعمل مع بلهاء.. لو كان هؤلاء الرجال يملكون ذكاء الرجل العادي لسقط (لوبين) في قبضتي منذ زمن.. هناك شعار واحد للمفتش الكفء.. وهذا الشعار يتلخص في كلمة واحدة: شك! شك في كل شيء وكل شخص.. »

أمر رجاله بأن يعيدوا تفتيش غرفة نوم (فكتوار)..

بعد قليل جاء أحد الرجال حاملًا كتابًا، وقال وهو يناوله للمفتش:

- « ثمة كتاب صلاة في غرفتها.. هناك صورة موضوعة فيه..»

مد المفتش يده وفحص الصورة، ثم هتف:

- « يا للعجب! »

كانت الصورة ذات عمر لا يقل عن عشر سنوات، وتظهر (فكتوار) في ثياب الأحد الأنيقة.. جوارها فتى في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة.. ثبتت عينا (جورشار) على وجه الفتى وقرب الصورة من وجهه.. ثم رفع عينيه وراح يتأمل الدوق..

لاحظ الدوق هذه النظرات فشعر بعصبية، من ثم دنا منه (جورشار) أكثر.. قال الدوق في ضيق:

- « ماذا هنالك؟ هل ربطة عنقى مربوطة بشكل غير صحيح؟ »

- « لا شيء.. لا شيء.. »

وعاد يتفحص الصورة مقطبًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت (جرمين) للدوق:

- « أبي ينوى أن يقضي ليلته في فندق (ريتز).. ينوى أن يأخذني معه لأنه يمقت فكرة أن أمضى الليل هنا.. يتوقع أن يهجم (لوبين) بكل رجاله.. لا أصدق أن يفعل هذا مع كل رجال الشرطة هنا.. »

هكذا تأهبت للرحيل وارتدت عباءتها وكذا فعل أبوها.. وقابل أبوها المفتش والدوق فقال إنه لا يضمن شيئًا وليست لديه أية نية للمبيت هنا، لكن (لوبين) لو جاء لن يجد التاج لأنه أخذه معه.

وأشار إلى الحقيبة التي يحملها..

قال الدوق:

- « هل أنت واثق من أن هذا مأمون؟ تأخذه من وسط كل الخزائن ورجال الشرطة هنا.. هذا يضعه تحت خطر كبير.. (لوبين) طلب أن تبقى له التاج في غرفة نومك ولم يقل أية غرفة نوم؟ »

قال المفتش:

- « معاليه محق.. من سياسات (لوبين) المعروفة أن يدفعك للفرار من البيت.. وأن تنزع التاج من كل الحماية المحيطة به إلى حيث تكون في وضع سهل.. »

هنا طلب المليونير الانفراد بالدوق..

أخذه إلى غرفة داخلية وسأله عما إذا كان يثق بـ (جورشار).. فهو قد بدأ يشك في كل إنسان من حوله.. قال الدوق إنه لا يرى داعيًّا للشك في المفتش الذي أظهر براعة واضحة حتى اللحظة..

ما كاد الرجلان ينفردان ويغلقان الباب خلفهما حتى وثب (جورشار) إلى (جرمين) وأخرج تلك الصورة وعرضها عليها قائلاً:

- « هل تعرفين أحدًا في تلك الصورة؟ »

نظرت للصورة في ملل، وقالت:

- « إنها قديمة جدًّا.. يصعب تبين شيء.. لا أعتقد أنني أعرف المرأة.. »

- « لكن ماذا عن الفتى؟ ألا تجدين فيه شبهًا من الدوق؟ »

تأملت الصورة، ثم قالت:

- « بلى. يبدو كالدوق.. على الأقل الآن.. لكنه لا يبدو مثله كما كان منذ عشر سنوات.. لقد تغير الدوق كثيرًا.. هناك تلك الرحلة المرعبة للقطب الجنوبي، وهناك مرضه الذي يئس الأطباء من شفائه.. كان هذا في (مونتفيديو).. برغم هذا شفى وهو بخير كما ترى.. »

هنا عاد المليونير والدوق إلى الغرفة.. فوضع المليونير حقيبته على المنضدة وفتحها وأخرج التاج.. التف الجميع حوله ينظرون له..

تنهد المليونير، وقال:

- « أليس رائعًا؟ »

ثم قال لـ (جورشار):

- « لقد قررت أن أعهد لك بالتاج شخصيًّا يا مسيو (جورشار).. أعتقد أنك لن تعترض على هذا؟ »

- « بتاتًا يا سيدي.. هذا بالضبط ما كنت أتمنى أن أطلبه.. »

- « إذن عمت مساء يا مسيو (جورشار).. »

قال الدوق:

- « لقد بدأت أعتقد أنني سآتي معكما.. أنا بحاجة إلى النوم.. عمت مساء يا مسيو (جورشار).. »

صاح (جورشار):

- « أنت لن ترحل أيضًا يا سيدي الدوق.. هل أنت خائف؟ »

قال العبارة الأخيرة في تحد ساخر واضح.. من ثم فرد الدوق كتفيه ونفش صدره، وقال:

- « أنت قد وجدت الطريقة المثلى لجعلى أبقى هنا! »

هنا صاحت (جرمين) بطريقتها الصريحة:

- « أنت لن تقضى الليل هنا! لاحظ أنك لم تنم ليلة أمس وظللت تقود السيارة على طرق وعرة.. من الثامنة مساء حتى السادسة صباحًا.. معنى هذا أنك لن تكون في حالة تسمح لك بحضور حفل الأميرة غدًا.. باريس كلها ستكون في هذا الحفل.. »

- « سأكون بخير.. سوف ينتهي كل شيء في منتصف الليل بعدها أنام كما أريد.. »

وفي الخارج كان رجال الشرطة قد استوقفوا سيارة أجرة، فتح الدوق الباب لـ (جيرمين) وانحنى ليلثم يدها.. ثم حيا حماه الذي قال بطريقة مثيرة للشفقة:

- « أشعر أنني لن أبيت في بيتي مرة أخرى.. »

ورحلت السيارة.. هنا عاد إلى الداخل وسأل المفتش:

- « هل ترى أن ننتظر (لوبين) في غرفة نوم مسيو (مارتن) أم في قاعة المعيشة؟ »

- « المعيشة.. لا أعتقد أن (لوبين) سيتوقع أن يظل التاج حيث هو.. »

هكذا جلس الدوق في القاعة المذكورة، وأشعل لفافة تبغ وتثاءب.. أخرج ساعته ونظر لها، ثم قال:

- « عشرون دقيقة.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٦- الدوق يرحل

لحق (جورشار) بالدوق في الغرفة، فلاحظ أن أعصابه متوترة.. قال له:

- « عملية تثير الأعصاب.. أليس كذلك؟ »

- « بلي هي كذلك.. »

- « عرفت أنك غادرت (شارميرانس) في الثامنة مساء لتصل في السادسة صباحًا.. لابد أن سيارتك لم تكن قوية جدًّا.. أو أنك تعرضت لعطل فظيع.. »

- « فعلاً.. هذا العطل كلفني ثلاث ساعات.. لا أجيد الميكانيكا جدًّا، لكني أعرف عن المحركات ما يعرفه بعض من أمهر الحرفيين.. »

- « إذن لم يساعدك أحد.. »

- « لا.. مسيو (مارتين) لم يرد أن يترك لي السائق، وكان الطريق خاليًا لأنها كانت الثانية صباحًا.. هل لك في لفافة تبغ؟ »

نهض المفتش ليأخذ لفافة من علبة الدوق وتفحصها جيدًا، ثم قال:

- « كل هذا غريب.. لفافة التبغ المرسيدس.. الرجل الذي يلبس معطف قيادة. الصورة في غرفة (فكتوار).. »

الآن كان الاتهام في صوته واضحًا لا يحتاج إلى مترجم..

نهض الدوق من مقعده، وصاح في غضب وكبرياء:

- « أيها المفتش! أنت ثمل! »

وحمل معطفه وقبعته واتجه للباب فاستوقفه المفتش.. كان الآن شاحب الوجه يتصبب عرقًا.. وقال له وهو يرتجف:

- « أنت لا تفهم.. معاليك.. أرغب في أن تكون معي.. يجب ألا ترحل.. إنني أعتذر بشدة فلست على ما يرام.. »

قال الدوق في برود:

- « هذا واضح.. »

وعاد الدوق إلى الجلوس، بينما قال المفتش بنفس الطريقة المضطربة الغريبة:

- « معاليك.. تعال نتأكد من أن التاج بخير.. »

وأخرج التاج وراح يتفحصه مبديًا إعجابه بجماله.. بينما الدوق ينظر له في دهشة.. ثم سأل المفتش الرجل:

- « ألا يثير الانتظار مللك؟ »

- « بتاتًا.. من الممتع أن أقضي ليلتي مع ذلك الوغد الذي حيركم طيلة عشر سنوات.. »

جاء (بونافنت) ليبلغ المفتش أن هناك رجلي شرطة على الباب الأمامي ورجلين على الباب الخلفي، مع رجل في كل غرفة من غرف الطابق السفلي.. وهناك ثلاثة رجال في كل طابق.. أما المنزل المجاور فهناك دستة رجال..

نظر المفتش لوجه الدوق، فلم ير أية علامة على تغير التعبير الهادئ عليه..

- « لو حاول أي واحد دخول البيت فاعتقلوه.. لو اقتضى الأمر أطلقوا الرصاص عليه.. تلك أوامرى.. أبلغها للجميع.. »

غادر الرجل الغرفة، فقال الدوق:

- « بالله عليك.. هذه قلعة! »

- « بل هي قلعة أكثر مما يتصور معاليك.. لا يمكن أن يدخل (لوبين) هنا ما لم يسقط من السقف أو يكون أحدنا.. »

وضحك الرجلان كثيرًا..

نهض الدوق وتثاءب وتناول معطفه وقبعته، فقال المفتش:

- « إلى أين؟ »

- « سأذهب لأنام.. هل ما زلت تتوقع أن ترى (لوبين)؟ »

- « سنراه معاليك.. سنراه.. »

ثم خفض صوته قائلًا: « إنه هنا بالفعل يا سيدى.. »

- « هنا؟ هل هو واحد من رجالك؟ »

- لا أعرف.. لا أعتقد ذلك لكنى متأكد من أنه موجود.. إنها قلعة وهو يحتاج إلى شجاعة الشيطان كي يقتحمها.. لكنه يجب أن يجازف بكل شيء كي ينال كل شيء.. »

كان في صوت المفتش تحد واضح.. لكنه تحد لا يجرؤ على الإعلان عن نفسه.. فقط كانت عيناه تحرقان وجه الدوق..

هكذا ظل الرجلان يتبادلان نظرات التحدى للحظات.. فجأة بدا الرجلان كأنهما مبارزان فقدا التحكم في أعصابهما..

قال المفتش:

- « مهما كان مستوى اللص فهو في النهاية محدود الذكاء.. وأنا أرى أن هذا اللوبين يلقى ما هو أكثر من قيمته الحقيقة.. »

قال الدوق وقد استعاد ابتسامته، بطريقة المبارز الذي يتحسس نصل سيفه قبل أن يغمده:

- « برغم هذا قام بأعمال ليست سيئة جدًّا.. مثلاً سرقة ليلة أمس.. وسرقة وزارة المالية.. سرقة المتحف البريطاني.. هذا الرجل ليس سيئا على الإطلاق.. »

قال (جورشار):

- « لكن هناك مرة أفضل.. لا تنس أن تذكر المرة التي ادعى فيها أنه دوق (شارميراس)! »

- « هل فعل ذلك؟.. »

- « وأكثر.. بل أوشك على الزواج من ابنة مليونير! »

ابتسم الدوق ابتسامة خفيفة، وقال

- « هذا هو ما يطلقون عليه (زواج المنفعة).. »

- « أن يقضي الليل مقيدًا بالأصفاد في قسم الشرطة، بدلاً من أن يحضر حفل الأمير.. أليس هذا مهينًا؟ أليس انتقامًا كافيًا لـ (جورشار) المسكين الأحمق؟ بالنسبة للوبين هذه مجرد مضايقة.. بالنسبة للدوق هي كارثة.. ألا ترى هذا مسليًا؟ »

هنا نهض الدوق، وقال:

- « هل انتهيت؟ »

- « هل انتهيت أنت؟ »

- « أنا أجد كل هذا مسليًا.. أنا دوق (شارميراس) ولا أضع أي قناع.. »

- « بل أنت (لوبين).. »

- برهن عن هذه النظرية.. »

- « سوف أفعل.. »

- « هلم.. اجعل من نفسك جحشًا ولتكن مضحكة باريس كلها.. الرجل الذي اعتقل دوق (شارميراس) على أنه (لوبين).. ناد رجالك وضع الأصفاد في يدي.. ليس لديك دليل واحد ضدى.. ولا دليل.. لقد كان (فورمرى) على حق عندما قال إن ذكر اسم (لوبين) يطير صوابك.. الآن تقترب عقارب الساعة من منتصف الليل.. وأعصابك تتوتر أكثر فأكثر.. »

فجأة صرخ: « انتباه! »

فأجفل المفتش.. ضحك الدوق، وقال:

- « إن أعصابك في غاية التوتر.. ترى من يملك الشجاعة لمواجهة ما سيحدث؟.. ما لابد أن يحدث؟ »

كان صوته الآن مرعبًا.. شخصيته صارت آمرة مسيطرة ومخيفة.. لم يعد يمت بصلة لهذا المازح المتبختر القديم..

- « تذكر أنه كلما ازدادت ترتيباتك ازدادت فداحة الهزيمة عندما ينهار كل هذا البناء.. عندها فقط ينتصر.. تذكر أنه

قهرك في كل مرة كنت فيها قريبًا من النصر.. لم لا تعتقلني ما دمت تعرف يقينًا أنني لوبين.. »

أخرج المفتش الأصفاد من جيبه، وقال:

- « لا أدرى ما يمنعني من هذا.. »

- « بقيت ثلاث دقائق.. سوف يختفى التاج ولن تقبض على لوبين.. أنت تعرف هذا لذا أنت خائف.. »

ثم مد يده في جيبه وأخرج مسدسًا.. هتف المفتش:

- « آه. لا.. »

وأخرج من جيبه مسدسًا آخر.. كان يرتجف وعيناه بلون الدم، وقد غمر العرق جبهته..

قال الدوق وهو يعيد المسدس لجيبه:

- « لا أعرف ما السبب.. أنت تركت لي الحرية في استعمال السلاح إذا ظهر (لوبين).. إنه سيظهر بعد دقيقة.. »

- أية حركة سوف أفرغ فيك هذا المسدس.. »

- « افعل.. أنا أدعى دوق (شارميراس).. ومعنى هذا أنك ستسجن غدًا.. بقى من الزمن خمسون ثانية.. »

وقف الرجلان متصلبين يتبادلان النظرات.. والساعة تبدو كأنها لا تتحرك..

عندما دقت دقتها الأولى تصلب الرجلان.. تصلبا حتى انتهت الدقات..

قال المفتش:

- « انتهى الأمر.. التاج ما زال هنا.. يمكن القول إنني ربحت؟ »

قال الدوق بضحكة لطيفة:

- « ربما نعم.. ربما لا.. ألا تلاحظ أن التاج صار خفيف الوزن؟ ألم تفكر في أن التاج في الحقيبة مجرد تقليد للتاج الأصلي؟ »

هنا صرخ (جورشار):

- « (بونافنت).. تعال هنا! »

وارتمى على المقعد خائر القوى على حين اندفع رجال الشرطة إلى الغرفة.. قال الدوق:

- « لقد سرق التاج يا سادة! »

وغادر الغرفة، على حين تعالت صيحات الدهشة والعجب.. كان المفتش قد انهار تمامًا بعد هذا التوتر من ثم غطي وجهه وراح ينشج.. عندما أفاق سأل الرجال عن الدوق.. قالوا له إنه رحل..

وثب على قدميه، وصرخ:

- « لا تتركوه يغادر هذا المنزل! اقبضوا عليه حالًا.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٧- لوبين يعود

في قصر الدوق (شارميراس) الفاخر في باريس، وقف مسيو (شاروليه) ينظر عبر ستائر النافذة إلى الشارع.. لشد ما تبدل عن التاجر الثري الذي زار المليونير مع أبنائه.. كان أكثر شحوبًا وأقل توردًا ولم يكن له شارب.. وكانت ثيابه أقرب إلى ثياب الخدم..

خلفه كانت (فكتوار) تقف متوترة.. وعلى باب الغرفة كان ابنه (برنار).. كانت (فكتوار) تفرك يديها في قلق وهي تنظر للساعة:

- « السابعة.. أين عساه يكون؟ »

قال (برنار):

- « خير ما نفعله هو أن نذهب.. »

- « لا.. سوف يعود.. أنا واثقة من ذلك.. ترى هل ما زال الرجلان اللذان يلبسان ثيابًا مدنية واقفين؟.. »

قال (شاروليه):

- « نعم.. ومن الخير ألا تقتربي من النافذة.. »

هنا دق جرس الباب الأمامي.. تصلبوا كأنما تحولوا لحجارة.. فُتح باب المصعد الجانبي وخرج منه الدوق، لكن شد ما تغير عن الرجل الأنيق الذي خرج من بيت المليونير.. كان شاحبًا مرهقًا موشكًا على الإغماء، والوحل يغمره من قدميه لأعلى رأسه.. وكان أحد كميه منزوعًا وقد سلخ أحد كفيه.. لكنه راح يرقص في القاعة طربًا..

صاحت (فكتوار):

- « إنه السيد! هل أنت مصاب؟ »

قال (أرسين لوبين):

- « لا.. »

هنا دق الجرس من جديد.. فتصلب الجميع، لكن (لوبين) قال للخادم:

- « هلم افتح الباب يا (شاروليه).. لكن ليس بسرعة.. (برنار).. أغلق خزانة الكتب.. (فكتوار).. اختبئى حالًا.. هل تريدين لنا الخراب؟ »

ثم هرع إلى غرفة نومه، على حين ضغط (برنار) على زر، فتحركت المكتبة ببطء لتغطى فتحة المصعد..

على الباب راح (شاروليه) يعبث في الأقفال المفتوحة بالفعل، بينما صبر الواقفين على الجهة الأخرى قد نفد.. راح يطلب منهم الانتظار ما داموا جاءوا في وقت مبكر كهذا..

هنا انفتح الباب بعنف، واقتحمه (بونافنت) وشرطي آخر.. اندفعا للداخل، على حين وقف شرطي متجهم الوجه يحرس الباب..

جرى (شاروليه) خلف الشرطيين، وهو يصيح:

- « إلى أين العزم؟ ما كل هذا؟ إن معاليه لم يصح من النوم بعد.. »

- « لم يصح؟.. سيدك يركض فارًّا منا طيلة الليل! »

انفتح باب غرفة النوم وعلى بابه وقف (لوبين) بالمنامة والخفين.. وقد بدا وجهه المرهق وشعره المنكوش مناسبين لرجل استيقظ لتوه من النوم..

- « ماذا يجري هنا؟ »

نظر له الشرطيان في ذهول وحيرة، ثم قال أحدهما:

- « معذرة لمعاليك.. لابد أن هناك غلطة ما.. »

- « أنا متأكد من أنها غلطة.. لقد عرفتكما.. أنتما تعملان مع (جورشار).. (جورشار) هو من سيدفع الثمن.. يمكنكما الانصراف..»

هكذا اقتادهما (شاروليه) للباب وقد بدت عليهم سيماء الكلب الذي ضرب بالسوط.. وسرعان ما كانا في الشارع..

فما أن وجد (لوبين) نفسه وحده حتى سقط منهكًا على الأريكة.. ركضت (فكتوار) نحوه وراحت تفرك يديه.. ثم صاحت مذعورة في (شاروليه):

- « هات له بعض الإفطار.. إنه موشك على فقدان وعيه من الإرهاق والجوع.. »

قال لها وعيناه مغمضتان:

- « كدت أموت ذعرًا مرتين.. مرة عندما بدلت التاج تحت عيني المليونير البدين عندما زرته في غرفة نومه مساء أمس الأول.. وعندما رأيتك تعتقلين أنت و(سونيا).. برغم هذا بقيت حتى النهاية متحديًا (جورشار).. لكني في النهاية فقدت أعصابي وبدلاً من أن أحتفظ بهدوئى كدوق جريت كاللصوص.. عشرة

منهم كانوا في أثرى.. وكنت منهكًا من الليلة التي قدت فيها السيارة؛ لذا كنت منتهيًا قبل أن أبدأ.. لدرجة أنني فكرت في أن أثب في نهر (السين) لأنهى هذا كله.. ثم قررت أن أمنح نفسي دقيقة.. دقيقتين.. وفي النهاية بدا أنني قادر على أن أسبقهم..

»وجدت نفسى خارج باريس.. لا أعرف أين.. كنت أشتهى النوم.. كنت مستعدًا لدفع مائة ألف فرانك من أجل ساعة نوم.. بعد حوالي ساعة عدت إلى باريس ومشيت ومشيت حتى وصلت إلى بيتي لأركب المصعد.. آه يا عزيزتي (فكتوار)! يا لها من مهنة شاقة!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٨- قطع خطوط الهاتف

قالت له (فيكتوار):

- « ما زلت لا أفهم لماذا أقوم بهذه الأعمال التي أقوم بها.. إن اللصوصية مهنة لن تقودك لأى شيء.. لا أعرف لماذا أطيعك.. ربما لأننى أحبك.. »

قال لها وهو يلتهم الإفطار بشهية غير عادية:

- « وأنا كذلك أحبك يا عزيزتي فكتوار.. رباه! كنت أموت جوعًا.. لا شيء مثل هذه الطريقة في إعداد البيض! صبي المزيد من القهوة.. »

- « أتساءل عما ستقوله أمك المسكينة لو عرفت ما صرت إليه..»

- « لا أظنها ستندهش.. كنت أقول لها دومًا إننى أريد معاقبة المجتمع على الطريقة التي عاملها بها.. »

- « حتى وأنت طفل كنت تثير دهشتنا.. لابد أنك ارتكبت أولى سرقاتك في سن السابعة.. »

- « لم أسرق إلا السكر.. »

- « بدأت بالسكر ثم المربي.. الآن أنت في الثامنة والعشرين ولم تتوقف لحظة.. صحيح أنك تسرق من الأثرياء القساة وتعطى الفقراء.. لكن.. »

- « لقد درست الطب والقانون.. مثلت ودرست (الجيجوتسو).. عملت مع الشرطة.. ثم صرت دوقًا مزيفًا.. لكني

لم أستمتع قط إلا عندما مارست السطو.. لم أجد التنوع والإثارة إلا فيها.. على المرء إذا لم يصر جنديًا عظيمًا أو فنانـًا عظيما أن يصير لصًّا عظيمًا! »

ثم أعلن أنه يجب أن يتصل بـ (سونيا) تمهيدًا للقائها في الفندق.. كما اتفقا أمس..

صاح (شاروليه) الذي كان قد دخل ليرفع الأطباق:

- « لا تذهب.. هذا شرك واضح.. »

قال (لوبين):

- « وما في ذلك؟ لن تكون هناك سوى الشراك من الآن فصاعدًا. أرغب في أن أذهب لأتفحص هذا الشرك بنفسي.. لكن ثق أنهم لو كانوا يملكون الدليل القوى عليّ لكانوا جميعًا هنا الآن.. ما زالوا غير متأكدين لهذا لم يصمد الشرطيان للومي صباح اليوم.. كانا يطاردان رجلًا ليسا متأكدين مما إذا كان الدوق أم لا.. طرقا بابي فإذا بي أقابلهما غاضبًا في ثياب النوم.. »

ثم أشار إلى الجدار، وقال:

- « في خزانة داخل هذا الجدار تجد التاج.. والأهم أنك تجد شهادة موت دوق (شارميراس) الأصلى.. »

ثم جاء بحقيبة ومفتاح، وفتح الخزانة السرية وأخرج التاج منها وكذا مجموعة من الأوراق دسها في حافظة صغيرة..

- « أنا مسرور لأن شهادة الوفاة معى.. لو وقعت في يد (جورشار) الأبله فلا أريد أن يتهمني بقتل الدوق (شارميراس).. أنا لم أقتل مخلوقًا في حياتي.. »

قالت (فكتوار):

- « الحقيقة أنك كنت تحبه.. أي شخص يراكما كان سيعتقد أنكما أخوان بسبب تشابه الملامح.. كان هذا عندما سطوت على المليونير أول مرة منذ ثلاث سنوات، ولمحت الصورة المعلقة والتشابه الشديد في الملامح.. قلت لي لابد من أن نستخدم هذا الشبه في عملية ما.. »

- « بحثت عن الدوق حتى وجدته موشكًا على الموت.. عنيت به.. لكنني كرهت أن يموت معه اسم أسرته العظيم.. ولم أتردد.. صرت أنا الدوق.. »

ثم نهض ليبدل ثيابه وأمر (شاروليه) بأن يأتي ليحلق ذقنه..

لما توارى قال (شاروليه) لـ (فكتوار):

- « أعتقد أن خير ما نفعله هو أن نحزم حاجياتنا ونستعد للرحيل، فقد دنت هذه اللعبة من نهايتها.. »

- « أتمنى ذلك.. أنا أرغب بشدة في العودة إلى الريف.. »

وذهب (شاروليه) ليحلق ذقن (لوبين)..

فجأة دوت دقة على الباب فهرع ينزل في الدرج ليفتحه.. هنا وجد نفسه أمام (بونافنت) نفسه.. المفتش (بونافنت) في ثياب ساع يعمل في فندق (ريتز) الذي قضى فيه المليونير وابنته ليلتهما.. كان تنكره مضحكًا وشاربه مفضوحًا.. وتظاهر (شاروليه) بصعوبة بأنه لم يتعرفه..

قال له (شاروليه) بلهجة رئيس خدم:

- « ماذا تريد؟ »

- « أحمل رسالة شخصية للدوق (شارميرانس).. لكني لن أسلمها إلا له.. هكذا تقضى التعليمات.. »

أدخله (شاروليه) لغرفة التدخين، وقف يفكر فيما إذا كان من الأفضل البقاء معه أم تركه.. هنا دوت ضربة عنيفة على الباب الخارجي.. هكذا اضطر لتركه حيث هو.. ما إن خرج حتى وثب (بونافنت) بسرعة وأخرج (قصافة) وسرعان ما كان قد وجد سلك الهاتف وقطعه..

ثم وقعت عيناه على حافظة الأوراق، فدسها في جيبه الداخلي بسرعة البرق، في اللحظة التي انفتح فيها الباب وظهر (لوبين)..

- « ماذا تريد؟ »

قال إن معه رسالة لدوق (شارميرانس)، فقال (لوبين) إنه هو.. وأخذ الرسالة ثم أمره أن ينتظر فلعله سيعود بإجابة.. في ذات اللحظة عاد (شاروليه) مغضبًا لأنه لم يجد أحدًا على الباب..

فتح الدوق الرسالة وقرأها ثم انفجر في الضحك:

سيدى:

لقد أخبرني مسيو (جورشار) بكل شيء عنك، وكنت قد حكمت عليك من علاقتك بـ (سونيا).. الرجل الذي يميل للصة لابد أن يكون نصاباً.. لدى خبران أخبرك بهما:

أولًا: موت دوق (شارميرانس) منذ ثلاثة أعوام..

ثانيًا: نيتي للارتباط بوريثه الوحيد المسيو (دى رزلييه) الذي سينال اللقب.

مدموازيل (جورناى مارتن)

كتبت الخطاب وصيفتها إيرما

طالع (لوبين) الخطاب وقال ضاحكًا:

- « إن أسلوبها ركيك في الكتابة! تعال يا (شاروليه) واكتب ما أمليه عليك.. »

- « أنا؟ »

- « نعم.. يبدو أن هذه هي العادة في أوساط الأثرياء.. هلم اكتب التالى.. »

جلس (شاروليه) على منضدة الكتابة وتنهد في عمق.. ثم راح يكتب ما يمليه عليه (لوبين):

آنستى:

إن بنيتي قوية لهذا سأستعيد قوتي سريعًا، ولسوف يكون بإمكاني أن أرسل هدية الزفاف لمدام (دي رزلييه) القادمة.

دوق (شارميرانس)

كتب الخطاب خادمه (أرسين لوبين)

سمع (بونافنت) الكلام فراح ينظر إلى (شاروليه) في دهشة وتهيب..

فرغ (شاروليه) من الكتابة فدس الخطاب في مظروف وناوله للخادم.. نهض بونافنت متهيئًا للرحيل..

في اللحظة التالية وثب لوبين ليضع يده القوية تحت حنجرته ويضغط، ويقول له:

- « لو تحركت لانتزعت عنقك.. (شاروليه).. تعال وخذ حافظة أوراقي من ثياب هذا اللص.. »

مد (شاروليه) يده وأخرج الحافظة من ثياب الساعي.. هنا قال (لوبين):

- « هذا هو ما يطلقون عليه (جيجوتسو) أيها الشاب.. علمه لتلاميذك! »

ثم قذف به في ركن الحجرة وتناول الحافظة ليتأكد من أن أوراقها سليمة..

- « قل لسيدك (جورشار) إنه لو أراد إطلاق الرصاص فليفعل هذا بنفسه.. »

استدار (بونافنت)، وقد كسا الغضب المجنون وجهه، وقال:

- « سوف يكون هنا خلال عشر دقائق! »

- « شكرًا على المعلومات.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٩- الصفقة

دعا (لوبين) رجاله و(فكتوار) بسرعة إلى القاعة، وقال لهم:

- « سوف يأتي (جورشار) حالًا ومعه أمر القبض عليّ.. لابد أن ترحلوا الآن عن طريق المصعد ثم المخرج الرسمي لأن المنزل مطوق برجال الشرطة.. »

هرع الرجال يزيحون المكتبة وينزلون في المصعد، فيما قالت له (فكتوار):

- « لم لا تأتى معنا؟ »

- « ثمة أمور لابد من القيام بها.. لو لم أتصل بـ (سونيا) في فندقها فلسوف تأتى هنا.. أي إنها ستضع نفسها بين فكى (جورشار).. لابد من الاتصال بها.. أنا لا أعرف الفندق.. »

ثم رفع سماعة الهاتف إلى أذنه وراح يضغط الزر مرارًا:

- « ترى أي جنون حل بي أمس فاقترحت هذه الخطة الحمقاء؟ لا أسمع صوتًا.. ماذا أصاب هذه الآلة الغبية؟ لابد أن أجدها.. لابد..»

ثم رفع الآلة ونظر ليجد أن الأسلاك مقطوعة:

- « ها! لقد لعبوا لعبة سلك الهاتف معى.. (جورشار)! الخنزير! »

توسلت له (فكتوار):

- « إذن لم يعد بوسعك شيء.. عليك أن ترحل معى الآن.. »

- « هذا بالذات آخر ما يمكن أن أعمله.. ألا تفهمين أن عدم اتصالي هو أمر لها بالمجيء إلى هنا؟ »

- « وماذا عنك أنت؟ »

- « وماذا عنها هي؟.. أفضل أن يقبضوا علينا معًا على أن يقبضوا عليها وأفر أنا.. »

هكذا اتجهت في ثبات إلى المصعد وضغطت الزر فعادت خزانة الكتب إلى موضعها.. وتوارى المصعد.. قال لها في ذهول:

- « ماذا؟ أنت لن تبقى هنا! »

- « حاول أن تمنعني لو استطعت.. أنا مولعة بك بمقدار ما أنت مولع بها.. »

راح يهزها في عنف.. ضربها كالبلطجية.. لكنها ظلت ثابتة تأبى التحرك.. هكذا يئس وجلس جوارها مقطب الجبين يفكر.. أحيانًا كانت عيناه تلمعان ثم يعود لهما الخفوت..

دق جرس الباب فجأة فأجفل الاثنان.. قالت له في لهفة:

- « هذه (سونيا).. »

- « بل هو (جورشار).. »

ثم هتف في حماس وهو يساعدها على النهوض:

- « ما زالت لدى أوراق في كمي ولم أخسر بعد.. ما أريده هو أن تفتحى له الباب ثم تقفى خلفه.. لن يتوقف عندك لأنه لا يعتبرك هدفه.. سوف يندفع للداخل بحثًا عنى. لا أريد منك أن تخرجي من البيت.. فقط قفي على الباب.. خلال دقائق سترين

(سونيا) قادمة.. عليك أن تؤخريها وتمنعيها من الدخول خمس دقائق.. هذا هو ما أريده.. »

قالت في ذعر:

- « وماذا لو بدأ بالقبض عليّ؟ »

- « لن يفعل.. هو يريدني أنا وأولاً.. »

وجلس في مقعده المختار يدخن في هدوء.. وهو يسمع الباب يفتح ثم صوت خطوات ثقيلة.. بعد دقيقة دخل (جورشار) الغرفة وألقي نظرة.. لابد أنه دهش لأنه حسب أن (لوبين) قد فر، لكنه وجده جالسًا في هدوء..

- « صباح الخير يا (لوبين).. »

- « صباح الخير أيها المفتش.. آسف إذ لم أستطع لقاءك كما يجب لأن خدمي قد رحلوا.. لقد أفزعهم رجالك الأغبياء.. لكنى لا أنوي أن أطيل هذه الجلسة فلا تخلع القبعة من فضلك.. »

قالها في تهذيب ساخر.. لمس المفتش قبعته ثم تراجع عن ذلك ومشى عبر الغرفة ليجلس أمام (لوبين).. سأله هذا الأخير:

- « هل معك أمر بالقبض عليّ؟ »

- « نعم.. »

- « وهل هو القبض على (لوبين) أم دوق (شارميراس)؟ »

- « (لوبين) الذي يدعي أنه (شارميراس).. »

- « إذن لماذا لا تعتقلني؟ »

- « لا يوجد ما يمنع.. فقط أنا أطيل لحظة استمتاعي.. (لوبين) العظيم المراوغ هنا في قبضتي.. لا أصدق هذا.. »

- « فعلًا من الأفضل ألا تصدق هذا.. »

- « هل تعرف أين (سونيا)؟ »

- « لا.. لماذا تفترض هذا؟ »

- « لأنها في فندق صغير قرب (ستار).. رقم الهاتف هو 555.. أعتقد أنك تعرفه، وهي الآن تنتظر مكالمة منك.. »

قال (لوبين) بلهجة لا يخفى ما فيها من وعيد:

- « (جورشار).. كف عن لعب هذه الألعاب.. هذه الطفلة لا علاقة لها بك.. إنه أنا من تريد.. أنا من تمقته.. اللعبة بيننا.. لا تنتقم منها أرجوك لأنك تكرهني.. لا شأن لها بهذا فلا تفعل أي شيء.. »

قال (جورشار) في هدوء:

- « الأمر يتوقف عليك.. »

- « ماذا تعنيه؟ »

- « أتكلم عن صفقة.. صفقة أقدمها لك.. أنا أمنحك الحرية! »

- « حريتي؟ إذن أنت تمزح.. »

- « ليست حريتك أنت بل حريتها هي.. أنا أعرف أنك لا تبالى اليوم إلا بشخص واحد في العالم.. »

مشي (لوبين) في الغرفة مفكرًا.. رفع عينيه إلى الساعة على الجدار، ثم قال:

- « ليكن.. أنت الأقوى في هذه اللحظة.. لكن هذا لن يستمر.. وهل تعطيها حريتها الكاملة؟ هل تعد بشرفك؟ وكيف؟ »

- « سألقى بتهم كل السرقات السابقة عليك.. هكذا تنال هي براءتها.. »

- « والمقابل؟ »

- « كل شيء.. اللوحات.. تحف عصر النهضة.. التاج.. كل معلوماتك عن موت الدوق.. في الواقع أنا أريد جلدك.. لاحظ أننا قبضنا على (فكتوار).. هي في قبضتنا الآن.. »

فكر (لوبين) قليلًا.. مشى في الغرفة مطرق الرأس، ثم قال:

- « أنا أرفض.. »

- « ترفض؟ فكر في تلك الفتاة الرقيقة.. فكر فيها وهي تواجه استجوابًا تلو الآخر.. سوف تنهار في اليوم الثالث.. وسوف تمنحنا كل ما نريد.. »

- « أيها الخنزير! »

قالها (لوبين) وهو يرتجف غضبًا.. بصعوبة منع نفسه من الوثب على المفتش وتحطيم عنقه.. ثم أضاف:

- « هذه الفتاة ليست في خطر.. ليس لديك دليل على أي شيء.. وأنا لن أقبل صفقة لإنقاذ فتاة ليست في خطر.. »

فجأة دق جرس الباب.. أطل أحد المخبرين، وقال للمفتش:

- « إنها مدموازيل (كريتشنوف).. »

هنا صرخ المفتش وقد بدا الانتصار صارخًا في صوته وعينيه:

- « اعتقلها! قيدها! لدى أمر اعتقالها هنا.. اقبض عليها! »

- « لن تفعل! »

ووثب (لوبين) كالنمر على المفتش، لكن هذا تحاشاه ووثب إلى الجانب الآخر من المنضدة.. كان (لوبين) يلهث وقد تقلص وجهه، مع نظرة متوحشة مجنونة.. بعد قليل بدأ يهدأ وقال:

- « سأقبل.. »

هنا قال المفتش للمخبر:

- « دع مدموازيل (كريتشنوف) تنتظر قليلًا.. »

جلس (لوبين)، وقال في كراهية:

- « إذن الصفقة كما يلي.. لو سلمتكم اللوحات والتاج وكل ما سرقت من المليونير، فإنك تعطيني كلمة شرف أن مدموازيل (كريتشنوف) لن تُمس.. »

- « بالضبط.. »

- « ومهما حدث بعد هذا.. لو فررت من السجن.. لو سرقت اللوحات ثانية، فلا تثريب عليها؟ »

- « بالضبط.. »

- « حسن.. كبداية ستجد أوراق موت الدوق في هذه الحافظة.. ستجد كذلك إيصال تسليم اللوحات التي سرقتها إلى (باتينول).. أما عن التاج فأنت تقريبًا تقف فوقه.. هو في تلك الحقيبة عند قدميك.. أرجو أن تزنه لتتأكد من أنه ثقيل.. لا أريد المزيد من هذه الأغلاط المؤسفة.. »

كاد المفتش يجن وهو يضع الحافظة في جيبه ويخرج التاج، ثم طلب من لوبين أن يخرج مسدسه..

- « ليس هذا ضمن التعاقد، لكن هو ذا.. »

وألقاه على المنضدة فدسه المفتش في جيب معطفه، وهو لا يصدق أن هذا يحدث فعلًا.. ثم مال على أذن (لوبين) وهمس في نشوة:

- « الآن يأتي دور الأصفاد! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٠- نهاية المبارزة

سمع (لوبين) المفتش خارج الغرفة يقول لـ (سونيا):

- « أنت حرة الآن يا آنسة.. الفضل في هذا يعود للدوق.. يمكنك أن تشكريه على ذلك.. »

دوى صوتها رنانًا بالفرحة:

- « أنا حرة؟ والفضل للدوق؟ »

ودخلت الغرفة وهي تتواثب فرحًا..

هرعت نحو (لوبين) فاستدار قليلاً كي لا ترى الأصفاد في معصميه..

- « إذن أنا مدينة لك؟ إذن أنا مدينة لك بكل شيء.. »

أساءت فهم حركته، فقالت والدمع في عينيها:

- « أعرف.. أعرف أنني أخطأت.. لكنك لا تتصور كم أن كرمك قد غير الكثير في حياتي.. لقد صرت أكره ماضيّ، وصارت رؤية أي لص تبعث الغثيان في نفسي.. »

قال لها في حزم ليوقف اندفاع عواطفها:

- « ش ش! أنت لا تعرفين كم تؤلمني كلماتك هذه! ماذا سيكون شعورك لو عرفت أنني لست الرجل الذي تعرفين؟.. لست دوقًا.. لست شريفًا.. »

- « لست شريفًا؟ »

- « أرسين لوبين! »

كان قائل هذا هو المفتش (جورشار) الذي وقف على الباب يتابع المحادثة.. فاستدار (لوبين) ليسمح لها برؤية معصميه المكبلين بالأصفاد..

قالت في لهفة:

- « برغم هذا.. برغم هذا سلمت نفسك من أجلى.. أنا أعرف هذا.. لهذا أنا مدينة لك.. »

وطوقت عنقه ولثمت جبينه.. قال (لوبين):

- « برغم كل شيء يا (جورشار) أنا مدين لك بأجمل لحظات حياتى.. »

جاء رجل شرطة يخبر المفتش أن عربة السجن على الباب.. فدنا (لوبين) من أذن (سونيا) وهمس:

- « بعد كل شيء لن أذهب للسجن.. انتظرى مع (فكتوار) في الصالة.. ثم قفي أمام الباب الخارجي.. »

قال المفتش:

- « انتهى الوقت يا آنسة.. »

خرجت الفتاة فتمدد (لوبين) على الأريكة، وقال في كسل:

- « لا تتصور كم أنا راغب في النوم منذ ثلاثة أيام.. »

وأغمض عينيه فصاح المفتش في عصبية:

- « لا وقت لهذا.. هل أنت ممتنع عن الخروج معى؟ »

في لحظة تمرغ (لوبين) على الأرض، وبحركة بهلوانية معينة وقف وقد تحرر من القيد الحديدي في يده، وقال للمفتش بضحكة خبيثة:

- « هل تعرف هذه الحركة؟ »

صاح المفتش:

- « إلىّ يا رجال! النجدة! النجدة! »

قال (لوبين):

- « أنت تعرف أننى صادق.. أقسم أنني كنت سأذهب معك للسجن لو أن (سونيا) أظهرت أية درجة من النفور أو الاشمئزاز منى.. لكنها لم تفعل.. هكذا تجد أنى راغب في الحرية والحياة مع (سونيا).. لن أذهب للسجن! والآن دع رجالك يدخلون! »

هرع المفتش للباب فاتجه (لوبين) إلى صندوق من الورق المقوى وتناول قنبلة سوداء لامعة.. ثم هرع ليفتح المكتبة كاشفًا عن مدخل المصعد، في اللحظة التي عاد فيها المفتش مع رجاله، وصاح وهو يصوب المسدس نحوه:

- « ارفع يديك! »

رفع (لوبين) يده والتصق بالجدار وصاح بصوت متوحش مجنون:

- « بل ارفعوا أيديكم أنتم! أنتم تعرفون ما هذه.. قنبلة! ارفعوا أيديكم ولا تحاولوا عملًا أحمق! »

هرع المفتش نحوه لكن أربعة من رجاله وثبوا عليه يمسكون بقدميه ويديه، ويتوسلون له ألا يكون مجنونًا.. من الواضح أن (لوبين) مجنون ولن يتورع عن شيء..

- « هلم يا (جورشار) أيها اللص.. أعد لي حافظة أوراقي وحقيبتى! »

صاح المفتش:

- « إنه يخدعكم يا حمقى! »

لكن الرجال أحاطوا به وراحوا يتوسلون له أن يهدأ ويعطى (لوبين) ما يريد..

صاح (لوبين):

- « الحافظة في جيب معطفه أيها البلهاء!! »

مد (بونيفانت) يده وفتح سترة المفتش عنوة وراح يبحث عن الحافظة.. معذرة يا سيدي.. يجب أن يأخذ ما يريد.. هذا الرجل سيقتل نفسه ويقتلنا.. سرعان ما وجد الحافظة فقذفها لـ (لوبين) الذي تلقاها ودسها في جيبه، ثم صرخ وهو يرفع ذراعه عاليًا:

- « احترسوا! »

ارتمى الرجال على الأرض مغطين وجوههم، بينما وثب هو إلى المصعد.. وسرعان ما غاص المصعد لأسفل.. تحرر (جورشار) فصاح في رجاله:

- « يجب أن تقبضوا عليه! كفروا عن خطئكم! ليذهب البعض للمخرج السرى وأنت يا (بونيفانت).. تعال معي لنركب المصعد.. »

ووثب الرجلان إلى المصعد الذي عاد للحجرة.. وجد بسرعة زر التشغيل فضغطه.. وسرعان ما تحرك المصعد.. تحرك لكن لأعلي.. هذه المرة ليقف بين طابقين!

في الطابق السفلي في غرفة سرية، تناثرت ثياب دوق (شارميرانس) على الأرض.. كان (لوبين) يقف أمام مرآة تنكر وهو يضع بعض المساحيق بسرعة على وجهه.. يضع معطفًا يشبه معطف (جورشار) وقبعة كقبعته.. حتى حجمه بدا كأنه انكمش ليصير مثل (جورشار)..

أعاد تأمل ملامحه ثم ابتسم..

غادر الغرفة إلى موضع يرى من خلاله القاعة في الطابق السفلى حيث جلست (فكتوار) وجوارها وقفت (سونيا) تهدئ من روعها، وجوارهما وقف رجل شرطة متوتر يرقبهما كالصقر..

قال له (لوبين) بذلك الصوت الخشن المميز لـ (جورشار):

- « أنت! تعال هنا! »

هرع نحوه الشرطي مذعورًا فاقتاده إلى غرفة جانبية فيها فتحة المصعد السرية، وقال له:

- « بعد قليل سوف يخرج (بونيفانت) من هنا مع (لوبين).. هل تفهم؟ (لوبين) سيكون متنكرًا.. يجب أن تقبض عليه فورًا.. اصرخ.. اطلب العون! »

هكذا وقف الشرطي يرقب الفتحة في ذعر كأنه يتوقع أن تعضه، بينما عاد (لوبين) إلى (سونيا) و(فكتوار) وتكلم بصوته العادي فاكتشفت (سونيا) حقيقته.. وأصابها الذهول.. فقالت (فكتوار):

- « أليس معجزة؟ »

قال:

- « الآن فقط يمكن القول إن دوق (شارميراس) قد مات للأبد! أنت بجانبي و(جورشار) حبيس المصعد.. بم عساي أن أحلم غير هذا؟ »

ثم اقتادهما إلى الباب الخارجي..

وقف الشرطي الذي يحرس عربة (جورشار) ليؤدى له التحية العسكرية، فاتجه (لوبين) بالمرأتين إلى السيارة..

في هذه اللحظة نجحت ضربات (جورشار) المتكررة في تحريك زنبرك ما.. هكذا نزل المصعد بسرعة إلى غرفة التدخين ثم توقف وانفتح بابه..

على الفور وثب رجل الشرطة المتوتر فوق (جورشار) وألقاه أرضًا وهو يصرخ، بينما وقف (بونيفانت) يرمق المشهد في دهشة.. ولم يلبث أن وصل إلى استنتاج منطقى هو أن رجل الشرطة هو (لوبين) متنكرًا.. هكذا وثب عليه وأنشب أظفاره في عنقه والتحم ثلاثة الرجال في صراع دموى..

وفي الوقت ذاته كانت سيارة (جورشار) التي صارت سيارة (لوبين) تندفع عبر الطريق مبتعدة، متجهة إلى شهر عسل

سعيد.

موريس لبلان

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

١٨- قطع خطوط الهاتف

١٩- الصفقة

٢٠- نهاية المبارزة

Notes

[←1]

Légion d'honneur ومعناها (وسام الشرف)، وهو وسام فرنسي عالي المكانة.

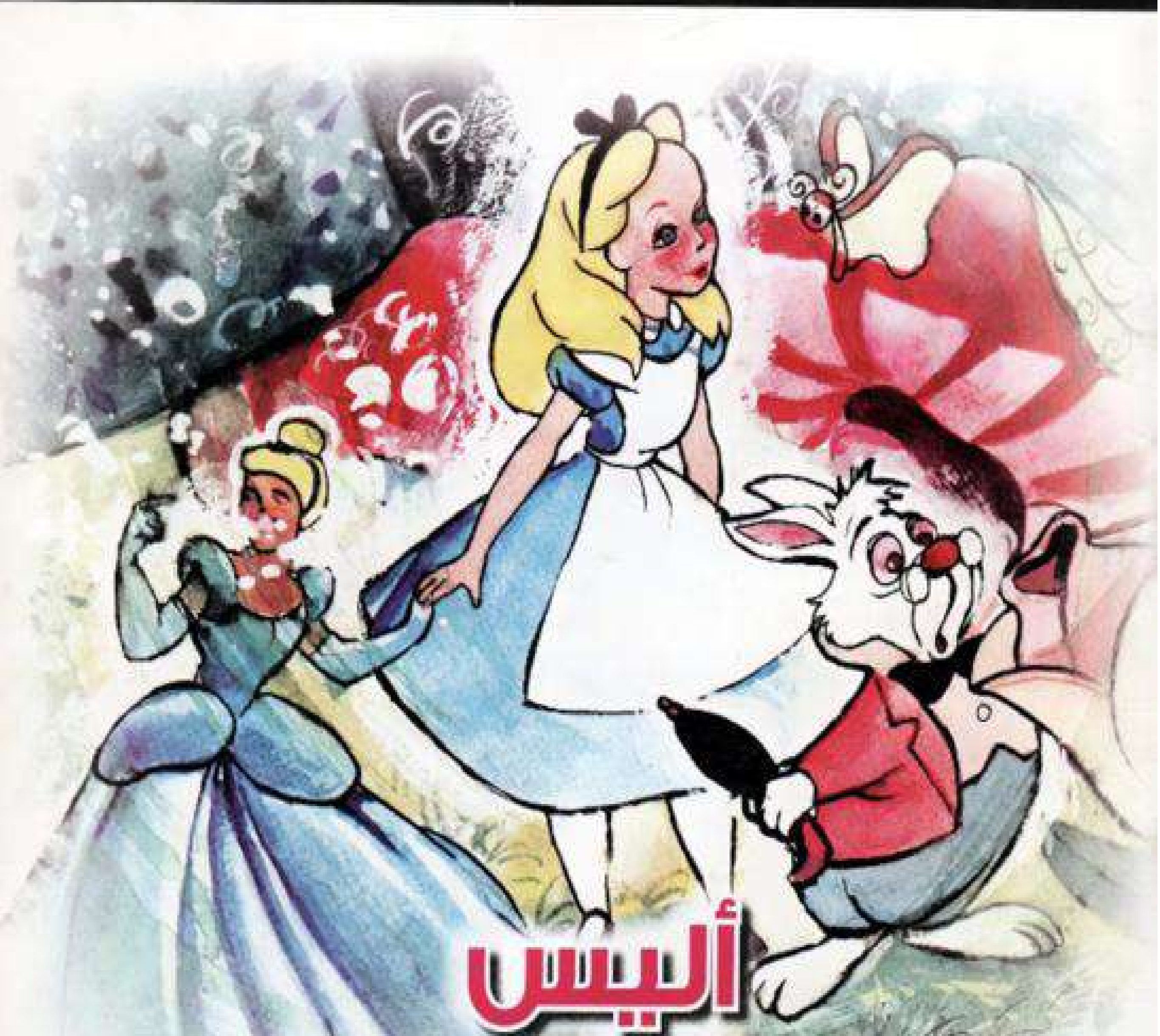
[←2]

طبعًا هذا جناس تصحيفي Anagram على اسم (شيرلوك هولمز).

[←3]

لا تنس زمن القصة، فقد كان للهاتف والتلغرف والسيارة اختراعات جديدة تمامًا..

روايات عالمية للجيب 65



أليس في بلادَ العجائب

تأليـــف : لويــــس كـارول
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (64)

أليس في بلاد العجائب

تأليف: لويس كارول

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

قلعة الأسرار

المؤلف

قصة أطفال؟ نعم.. لكنها كذلك عالم ساحر مليء بالخيال الخصب. أعتقد أن التفكير الجامد الذي يقول إن أدب الأطفال لا يناسب الكبار، قد انقضى عهده.. دعنا لا ننس أن أدباء فائقي الشهرة كتبوا أدب الأطفال، وفي كل مرة نكتشف أن الخط الفاصل بين الشعر وأدب الأطفال باهت جدا أو لا وجود له.. ومن الطريف أن هذه القصة بالذات حظيت بدراسة مدققة من رائد علم النفس (فرويد) باعتبارها دراسة فريدة في عالم الحلم والرغبات المكبوتة..

أحيانا ما تترك موهبة بعض الكتاب لمسة لا تُمحى على الأدب العالمي، وربما على الوجدان الشعبي ذاته.. بالنسبة لأديب اليوم (لويس كارول Lewis Carroll)، يظل الوجدان الغربي يحمل صورة الرجل البيضة الجالس على الجدار، والزجاجة التي كتب عليها (اشربيني)، وحتى بالنسبة لقارئ العربية تظل فكرة اجتياز سطح المرآة لدخول عالم الأحلام باقية للأبد.. مفهوم العالم كحلم الذي يعتبرونه من ابتكار (هاينلاين) حيث عالمنا مجرد حلم يحلم به مؤلف في مجرة أخرى موجود هنا بوضوح: (هل أنا جزء من حلم ملك الأحمر، أم هو جزء من حلمي؟).. ملف الكمبيوتر الذي يحمل اسم (اقرءوني)، وبطل فيلم (ماتريكس) الذي طلب منه أن (يتبع الأرنب الأبيض)، هذه مجرد نماذج لمدى تغلغل هذه القصة في عقول الفنانين...

كان (لويس كارول) الذي ولد عام 1832 م محاضر رياضيات في أكسفورد، لكن اسمه لم يكن (لويس كارول) بل كان (المبجل لوتويدج دودجسون).. ولد ليكون الطفل الثالث

في أسرة تتكون من أحد عشر طفلاً.. عانى اللعثمة التي جعلت منه مثارا للسخرية.. هذه اللعثمة كانت تجعله ينطق اسمه (دودجسون) هكذا: دو.. دو.. دو.. دودجسون

هكذا.. كان الاسم السري له بين زملائه هو (دودو).. وقد استعمل هو ذات الاسم في قصة (أليس) بعد ذلك.

كان مولعا بالتحدي من صغره.. قيل له إنه من العسير على طفل أن يتعلم اللوغاريتمات، وهكذا قرر أن يدرس هذا العلم، وكان اهتمامه بالرياضيات واضحا.. هكذا.. دخل أكسفورد عام 1850 م ليبقى فيها الخمسين عاما الباقية له حتى وفاته عام 1898 م.. وقد كان مرشحا لمنصب قس في المدرسة الدينية، لكنه تخلى عن هذا المنصب لأسباب مجهولة..

عام 1865 م كتب قصة (أليس في بلاد العجائب)، التي تحكى عن (أليس) التي دخلت جحر الأرنب بحثا عن الأرنب الأبيض الذي تأخر عن حفل الشاي.. القصة كتبها خصيصا لصديقته الصغيرة (أليس ليدل) ابنة عميد الكلية، والتي كرس حياته لإضحاكها والترفيه عنها.. وهي - أي القصة - تحوي لَعِبًا ذكيا بالألفاظ وخيالاً لا حدّ له.. القصة الشهيرة الأخرى له هي (عبر المرآة 1872 م)، حيث تجتاز (أليس) عالم المرآة إلى عالم آخر غريب له منظر زجاجي.. ثمة لعبة شطرنج غريبة فيها كل القطع قد دبت فيها الحياة.. وفي هذه القصة تقابل شخصيات مثل (هامتي دامتي) الرجل البيضة و (تويدل دي) و (تويدل دام). انتقد النقاد عدم دقة لعبة الشطرنج كما وصفها (كارول) لكن كثيرين يرون في هذا نوعا من التزيد مع أليس الحقيقية!! قصة تحطم كل قواعد الواقع أصلا..

سوف نقابل هاتين القصتين ملخصتين هنا، بما أنهما تنتميان لذات العالم وذات المؤلف..

رسم (كارول) بنفسه لوحات قصة (أليس في بلاد العجائب) في المخطوطات الأولى، وإن تولى سير (جون تنيل) الرسم بعد هذا، وقد انتقدت لوحات هذا الأخير باعتبارها متقنة لكنها مخيفة للأطفال..

كتب (كارول) بعض القصائد وبعض القصص محدودة النجاح، كما كتب بعض الكتب في علم الرياضيات، أشهرها (إقليدس ومعارضوه المعاصرون) 1879 م..

كان مهتما بالرسم وتصوير الأطفال، وإن كان هناك من اتهمه ببعض الميول غير الأخلاقية في هذا الصدد، وهي تلميحات لم تصل إلى أن تكون اتهامات.. فقط نحن متأكدون من أنه كان - وهو في الثلاثين من العمر - يحب الطفلة (أليس) بشدة، وكان يلوم نفسه في مذكراته على هذا الحب، كما كان يدعو الله أن يخلصه من هذا الداء.. إن مذكرات الرجل غامضة وبها صفحات كثيرة منزوعة، خاصة وأن أبا (أليس) أحرق كل خطابات (كارول) لابنته.. وقد انفصل (كارول) عن تلك الأسرة التي كرس لها حياته.. لا يعرف أحد السبب، وقيل إنه بسبب الشائعات التي اجتاحت الأوساط الأكسفوردية، أو لأنه تقدم للطفلة طالبا يدها وهي في الحادية عشرة من عمرها، فرفض أبوها ذلك..

إن عمل (كارول) كمصور فوتوغرافي شديد الأهمية كذلك، وهو من رواد فن التصوير الفوتوغرافي المعاصر، كما أن لوحاته تعكس لنا شهادة صادقة عن العصر الفكتوري..

قضى (لويس كارول) بقية حياته في (جلدفورد) ولم يتزوج قط، ومات بالالتهاب الرئوي، ودفن هناك.. وقد أقيم في (جلدفورد) احتفال خاص للذكرى المئوية لوفاته عام 1998 م.

هكذا رحل ذلك الأديب الغامض الذي لم يعد عالم الخيال بعده كما كان قبله.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

أليس
في بلاد العجائب

الفصل الاول

في جحر الأرنب

بدأت (أليس) تشعر بالسأم من جلوسها جوار أختها على ضفة النهر بلا شيء تعمله.. كانت أختها تطالع كتابا ليست فيه صور ولا محادثات..

تساءلت (أليس): ما نفع كتاب بلا صور ولا محادثات؟!

كان القيظ قد جعلها تشعر بالنعاس، وراحت تتساءل عما إذا كان عمل إكليل من أزهار الأقحوان يستأهل عناء النهوض وجمع الأقحوان..

فجأة ركض أرنب أبيض له عينان ورديتان جوارها..

لم يكن هناك شيء غريب في هذا، حتى حين سمعت الأرنب يقول لنفسه:

- رباه! رباه! لقد تأخرت!

حينما فكرت في الأمر بعد هذا شعرت بأنه كان عليها أن تندهش من هذا، لكن في وقتها بدا لها الأمر طبيعيًا جدا.. لكن حينما أخرج الأرنب ساعة من جيب معطفه ونظر لها، نهضت على قدميها؛ فقد أدركت أن هذه أول مرة ترى فيها أرنبا يحمل ساعة..

كان الفضول يحرقها وهي تركض في الحقل خلفه.. ورأته يدخل جحر أرنب تحت سياج الأشجار..

سرعان ما هبطت (أليس) خلفه، ولم تفكر لحظة واحدة في الطريقة التي ستخرج بها ثانية..

كان هناك نفق لمسافة ما، ثم انحدر لأسفل فجأة.. فجأة لدرجة أن (أليس) لم تجد الوقت الكافي لتتوقف قبل أن تنزلق إلى بئر عميقة للغاية..

إما أن البئر كانت عميقة جدا، أو هي هبطت ببطء شديد، لأنها وجدت ما يكفي من الوقت أثناء الهبوط لتنظر حولها وتتساءل عما سيحدث.. في البدء نظرت لأسفل محاولة معرفة ما ينتظرها لكن الظلام كان دامسا.. نظرت إلى الجدران حولها فوجدت أنها مليئة بخزانات الكتب.. كانت ترى خرائط معلقة بمشابك ورق..

التقطت برطمانا قابلها أثناء الهبوط كُتب عليه (مربى برتقال)، لكنه كان فارغا لخيبة أملها.. لم تُلق به لأنها خشيت أن يقتل أحدهم.. وضعته على أحد الأرفف وهي تهبط..

قالت لنفسها:

- حسن.. بعد سقطة كهذه لن أقلق بصدد التعثر فوق الدرج! لكم سيعتبرونني شجاعة في البيت! لن أهتم حتى لو سقطت من على سطح البيت (وكان هذا احتمالا واردا بشدة)..

تحت.. تحت.. تحت..

ألن تنتهي هذه السقطة أبدا؟ وسألت نفسها بصوت عال:

- أتساءل عن عدد الأميال التي سقطتها حتى هذه اللحظة.. لابد أنني اقتربت من مركز الأرض.. أعتقد أنني سقطت 4000 ميل.

كانت (أليس) قد تعلمت أشياء كثيرة من هذا القبيل في الصف.. وبرغم أن الوقت لم يكن مناسبا لاستعراض معلوماتها،

لأنه لم يكن من أحد يصغى لها، فقد كان ذكر المعلومة ممتعا.

- نعم، لابد أن هذه هي المسافة.. لكن على أي خط عرض وأي خط طول أنا؟

لم تكن تعرف معنى خط الطول ولا خط العرض، لكن هذه الأشياء بدت جيدة عند التلفظ بها..

- ترى.. هل سأخترق الأرض؟ كم سيكون جميلاً ومضحكا أن أخرج بين الناس الذين يمشون على رءوسهم في الجهة الأخرى! النقائض.. سيكون عليّ أن أسألهم عن اسم ذلك البلد من فضلك يا سيدتي هل هذه نيوزيلندا أو أستراليا؟ سأثنى ركبتي في رشاقة.. تصوري أن أثنى ركبتي محيية وأنا أطير في الهواء! لكم ستعتبرني فتاة جاهلة بسبب هذا السؤال! لا.. لا داعي للسؤال.. لربما رأيت اسم البلد مكتوبا في مكان ما..

تحت.. تحت.. لا شيء آخر يمكن عمله.. لهذا عادت تكلم نفسها:

- دينا سوف تفتقدني كثيرا هذا المساء (دينا هي القطة) أرجو أن يتذكروا وضع طبق اللبن أمامها في وقت تناول الشاي.. دينا يا عزيزتي! لكم أتمنى لو كنت معي هنا.. لا توجد فئران في الهواء، لكن ربما اصطدت وطواطا.. وهو يشبه الفأر كما تعلمين، لكن هل تأكل القطط الوطاويط؟

بدأت (أليس) تشعر بالنعاس وراحت تقول لنفسها حالمة:

- هل تأكل القطط الوطاويط؟ هل تأكل الوطاويط القطط؟ (1)

لأن السؤال كان غير قابل للإجابة؛ فقد طرحته كيفما اتفق..

غلبها النعاس فراحت تحلم بأنها تمشى ويدها في يد دينا تقول لها في إخلاص:

- الآن يا دينا قولي لي الحقيقة.. هل أكلت وطواطا من قبل؟

وفجأة.. بوم.. بوم.. سقطت فوق كومة من الغصون والأوراق الجافة وانتهت سقطتها..

لم تتأذ (أليس) وقد وثبت على قدميها على الفور.. نظرت لأعلى لكن الظلام كان دامسا.. أمامها كان ممر آخر وكان بوسعها أن ترى الأرنب الأبيض.. لم يكن هناك وقت تضيعه لحقت به وهي تسمعه يقول دائرا حول منحنى:

- بحق أذني وشواربي.. لكم تأخرت!!

كانت قريبة جدا منه، لكنها إذ دارت حول المنحنى لم تر له أثرا.. وجدت نفسها في ممر به مصابيح تتدلى من السقف.. هناك أبواب على طول الممر لكنها جميعا موصدة.. مشت (أليس) قلقة تفكر في الطريقة التي ستخرج بها ثانية..

فجأة رأت منضدة ذات ثلاث أرجل كلها من الزجاج.. لم يكن عليها شيء سوى مفتاح ذهبي صغير، وقد خطر لها أنه يفتح أحد الأبواب.. لكن للأسف! إما أن المفتاح كان صغيرا جدا أو الأقفال كانت كبيرة جدا.

لكنها وجدت ستارا لم تلحظه من قبل، وخلفه كان باب صغير ارتفاعه نحو خمس عشرة بوصة [2].. حاولت أن تولج فيه المفتاح، ولدهشتها أفلحت في ذلك.

فتحت الباب فوجدت أنه يقود لممر صغير لا يفوق جحر الأرنب حجما.. ركعت ونظرت عبر الممر لترى أجمل حديقة

رأتها في حياتها.. تمنت أن تخرج من هذا المكان المظلم لتمشى بين أحواض الأزهار لكنها لم تستطع مجرد حشر رأسها عبر الباب..

قالت لنفسها:

- وحتى إذا عبر رأسي فلا قيمة له من دون كتفي.. فقط لو استطعت أن أمط عنقي كالتلسكوب..

كما ترى كانت هناك أشياء عجيبة كثيرة قد حدثت، لذا لم تغذ تتوقع أن المستحيلات محدودة جدا..

لم تعد هناك جدوى من الانتظار، لذا عادت إلى المنضدة وهي تأمل لو وجدت مفتاحا آخر.. أو كتابا يشرح طريقة التقلص..

هنا وجدت زجاجة صغيرة على المنضدة (بالتأكيد لم تكن موجودة من قبل)، وعلى عنق الزجاجة كانت ورقة كتب عليها (اشربيني) بخط جميل وحروف كبيرة.

كان من اللطيف أن ينصحها بالشرب، لكن (أليس) الصغيرة الحكيمة رأت ألا تتعجل.. قررت أن تتفحص الزجاجة لترى إن كان مكتوبا عليها (سم) أم ماذا..

كانت قد قرأت الكثير من القصص عن أطفال احترقوا أو التهمتهم الوحوش لأنهم نسوا القواعد البسيطة التي يقدمها لهم أصدقاؤهم.. مثلا مِحْراك النار الساخن المحمر سوف يحرقك لو أمسكت به فترة أطول من اللازم.. لو قطعت يدك بالسكين فإنها تنزف.. لو شربت من زجاجة كتب عليها (سم) فلسوف تجلب لك المتاعب عاجلا أم آجلاً..

لكن هذه الزجاجة لم يكتب عليها (سم) لذا قررت أن تتذوقها.. وجدتها طيبة المذاق.. (في الواقع كان لها مذاق خليط من كعكة الكرز والكستارد والأناناس والخبز الساخن بالزبد والطوفي)...

وسرعان ما انتهت منها.

☆☆☆

قالت لنفسها:

- يا له من شعور غريب! لابد أنني أنكمش مثل التلسكوب!

وهذا ما كان...

لقد صار طولها عشر بوصات.. وراقت لها فكرة أنها ستجتاز ذلك الباب إلى الحديقة الغناء.. لكنها توقفت لترى إن كانت ستنكمش أكثر.. كانت عصبية بهذا الصدد..

- سوف أتلاشى مثل الشمعة.. أعرف هذا.. وراحت تتخيل كيف يبدو لهب الشمعة بعد ما تنطفئ هذه..

بعد قليل وجدت أنه لم يحدث شيء جديد.. قررت أن تدخل الحديقة حالا.. لكن للأسف! حينما وصلت إلى الباب تذكرت أنها نسيت المفتاح الذهبي الصغير.. عادت للمنضدة فوجدت أنها غير قادرة على الوصول إلى المفتاح.. كان بوسعها أن تراه من خلال الزجاج، وقد حاولت جهدها أن تتسلق أرجل المنضدة لكنها كانت زلقة جدا..

أرهقت نفسها بمحاولة التسلق، وفي النهاية جلست على الأرض وبكت..

قالت لنفسها:

- هلمي.. لا جدوى من البكاء بهذا الشكل.. أنصحك بأن تنطلقي الآن.. حالا..

كانت تجيد النصح لنفسها (برغم أنها لم تنفذ تلك النصائح إلا فيما ندر).. أحيانا كانت توبخ نفسها إلى درجة البكاء، وذات مرة أرادت أن تملص أذن نفسها لأنها غشت نفسها في لعبة (كروكت) لعبتها مع نفسها.. هذه الطفلة الغريبة كانت مولعة بأن تصير شخصين..

- لكن لا جدوى هذه المرة من محاولة أن أصير اثنتين.. لم يعد مني ما يكفي لصنع شخص واحد محترم!

هنا وقعت عيناها على صندوق زجاجي تحت المنضدة.. فتحته فوجدت كعكة صغيرة عليها كتابة بالمربى تقول (كليني).. قالت (أليس) لنفسها:

- حسن.. سأكلها.. سوف أكبر وبهذا أبلغ المفتاح، أو أصغر فأزحف تحت الباب.. في الحالتين سوف أصل إلى الحديقة، ولا يهم ما يحدث بعد هذا..

أكلت قطعة صغيرة، وفي لهفة سألت نفسها:

- أي الطريقين؟ أي الطريقين؟

ووضعت يدها على رأسها، لكن لدهشتها ظلت بذات الحجم. هذا يحدث دائما مع من يأكل الكعك، لكن (أليس) كانت قد اعتادت غرائب الأمور، حتى بدا لها أنه من الملل والغباء أن تبقى الأمور كما اعتادتها..

لذا واصلت العمل بهمة وأنهت الكعكة.

الفصل الثاني

بركة الدموع

صاحت (أليس):

- عجيب وعجائبي! (كانت مندهشة في هذه اللحظة لذا نسيت كيف تتكلم إنجليزية جيدة).. الآن أنا أتمدد كأكبر تلسكوب عرفته في حياتي! وداعا يا قدمي! (لأنها كانت تنظر إلى قدميها اللتين تبتعدان حتى توشكا على الاختفاء عن مجال البصر).. يا قدميّ العزيزتين! أتساءل عمن سيضع الحذاء والجوربين حولكما.. لن أستطيع أنا هذا.. سأكون بعيدة عنكما ولسوف يكون عليكما أن تتدبرا أمركما..

ثم فكرت في أنها يجب أن تكون مهذبة معهما وإلا لن تحملاها في الرحلة التي تريدها..

- سوف أمنحكما حذاء جديدا في كل كريسماس..

كم سيكون من المضحك أن يبعث المرء هدايا لقدميه! سوف ترسل الهدايا مع ساع يحمل العنوان..

إلى السيدة / قدم (أليس) اليمني..

جوار سجادة المدفأة..

قرب حاجز المدفأة..

مع تحيات (أليس).

رباه! يا لسخف هذا الذي أقوله!

هنا اصطدم رأسها بسقف القاعة.. لقد صار طولها يفوق التسعين قدما.. هكذا التقطت المفتاح الذهبي الصغير وهرعت إلى باب الحديقة..

مسكينة يا (أليس)! لم يعد بوسعها سوى أن تنام على جانبها وتنظر إلى الحديقة، أما دخولها فقد صار مستحيلا تماما جلست على الأرض وعاودت البكاء..

قالت لنفسها:

- يجب أن تخجلي.. فتاة عظيمة مثلك تبكي هكذا؟ آمرك بالتوقف!

لكنها استمرت في البكاء حتى تكونت بركة من الدمع حولها عمقها أربع بوصات.

بعد قليل سمعت صوت خطوات.. جففت عينيها لترى ما هو آت. كان هذا هو الأرنب الأبيض متأنقا بشدة وفي إحدى يديه قفازان مما يلبس الأطفال، ومروحة كبيرة في اليد الأخرى.. جاء يركض وهو يغمغم لنفسه..

- آه.. الدوقة.. الدوقة! سيكون من الفظاظة أن أتركها تنتظر!

كانت تشعر بالقنوط وكانت مستعدة لطلب العون من أي شخص.. لذا قالت للأرنب إذ اقترب منها:

- هلا تفضلت يا سيدي؟

نظر لها الأرنب في حدة وسقط القفازان منه واندفع يتوارى في الظلام بأسرع ما يستطيع..

التقطت (أليس) القفاز والمروحة، ولما كان الطقس حارا فإنها راحت تهوى على وجهها وهي تتكلم:

- رباه! كل شيء غريب اليوم.. أتساءل إن كنت قد تغيرت خلال الليل.. هل كنت أنا هي أنا عندما صحوت اليوم؟ أذكر أنني كنت أشعر باختلاف.. السؤال الأهم هو: من أنا؟ هذا لغز كبير..

وراحت تتذكر الأطفال الذين عرفتهم لتعرف إن كانت تشبه أحدهم:

- حتما أنا لست (أدا).. لأن شعرها يلتف في حلقات ذهبية، بينما لا يفعل شعري هذا.. لست (ميبل) لأنني أعرف الكثير، بينما هي لا تعرف إلا أقل القليل.. كما أنها (هي) بينما أنا (أنا).. رباه! فلأر إن كنت ما زلت أعرف كل ما أعرفه.. 4 x 5 = 12.. و 4 x 6 = 60.. على كل حال جدول الضرب لا يدل على شيء.. لنجرب الجغرافيا.. لندن عاصمة باريس.. وباريس عاصمة روما لا.. كل هذا خطأ.. أنا متأكدة من ذلك. لابد أنني تحولت إلى (ميبل)! راحت تحاول أن تتلو مقطعا تحفظه من الشعر. لكن بلا جدوى.

- ليست هذه هي الكلمات.. لابد أنني صرت (مبيل) فعلا..

وامتلأت عيناها بالدموع..

- لابد أنني (مبيل) وسوف أقضي حياتي في ذلك البيت الضيق غير المريح.. لن تكون لدي ألعاب ألهو بها.. لقد اتخذت قراري.. لو كنت أنا (ميبل) فلسوف أبقى في هذا الجحر.. لن أهتم بأن يدخلوا رءوسهم قائلين لي: اخرجي يا عزيزتي.. سوف أخرج رأسي وأقول: قولوا لي من أنا أولا.. لو راق لي فلسوف أخرج

وإلا بقيت حيث أنا.. لكني أتمنى لو ينظرون لي.. لقد تعبت من البقاء وحدي هنا!

وكانت تنظر ليديها، وأدهشها أنها ارتدت أحد قفازي الأرنب الأبيض وهي تتكلم.

- يبدو أنني أصغر أكثر..

اتجهت إلى المنضدة لتعيد قياس طولها فوجدت أن ارتفاعها قدمان.. وسرعان ما أدركت أن سبب هذا هو المروحة التي تحملها.. ألقت بها بسرعة لتتجنب المزيد من الانكماش..

- نجوت بصعوبة.. والآن إلى الحديقة!!

هرعت للباب، لكن يا للحسرة! كان الباب موصدا من جديد والمفتاح الصغير على المنضدة..

انزلقت قدمها.. هنا.. سبلاش! في لحظة وجدت أنها غارقة حتى ذقنها في ماء مالح..

كان أول ما خطر لها هو أنها بشكل ما وقعت في البحر، وقررت أن تعود لبيتها بالقطار.. ولم تكن قد رأت البحر سوى مرة واحدة في حياتها، لذا افترضت أن أي بحر في العالم لابد أن تكون جواره مبان وخلفها محطة سكك حديدية..

ثم فهمت أنها كانت غارقة في بركة الدموع التي بكتها عندما كانت عملاقة.. سبحت في الدموع وهي تتمنى لو لم تكن قد بكت كل هذا..

- سوف أعاقب على كل هذا البكاء بأن أغرق في دموعي. سيكون هذا غريبا.. لكن كل شيء غريب اليوم على كل حال.. هنا سمعت صوت شيء يسبح في البركة، فدنت منه محاولة

فهم ما هو.. وقد افترضت أنه فرس نهر أو كلب بحر ثم تذكرت كم هي صغيرة، فقررت أن هذا على الأرجح فأر انزلق في البركة مثلها..

هل تتكلم معه؟ كل شيء غريب هنا فمن الوارد جدا أن يكون الفأر يجيد الكلام قالت:

- وا فأراه.. وا فأراه! هل تعرف سبيل الخروج من هنا؟

لقد تصورت أن هذه هي الطريقة المثلى للكلام مع الفأر.. لأنها قرأت طريقة خطاب مماثلة في كتب القواعد الخاصة بأخيها نظر لها الفأر متفحصا وبدا كأنه يغمز بعين واحدة ولم يقل شيئا..

- ربما لا يفهم الإنجليزية.. أعتقد أنه فأر فرنسي جاء مع (ويليام الفاتح)..

Qu est ma chatte ?.. [3]

وكانت هذه أول جملة في كتاب تعليم الفرنسية الخاص بها.. وثب الفأر من الماء وبدا أنه يرتجف رعبا.. فهتفت (أليس):

- أنا آسفة.

وقد شعرت بأنها جرحت مشاعر الفأر المسكين.. لقد نسيت أن الفئران لا تحب القطط..

قالت للفأر:

- آسفة.. لكن لو أنك رأيت قطتي (دينا) لغيرت رأيك في القطط.. إنها شيء عزيز جدا.. تجلس وتقر جوار المدفأة تلعق مخالبها وتمسح وجهها وناعمة جدا.. كما أنها تجيد صيد

الفئران.. آسفة!! لن أتكلم عنها ثانية ما دامت تضايقك.. قال الفأر الذي كان يرتجف حتى ذيله:

- أسرتي كلها تكره القطط.. مخلوقات قذرة سافلة سوقية! لا أريد سماع اسمها ثانية!

ثم تركها وراح يسبح في البركة مبتعدا بينما راحت تناديه:

- صديقي الفأر! عد هنا.. لن نتكلم عن القطط ما دمت لا تحبها..

حينما سمع الفأر هذا عاد لها.. ولاحظت (أليس) أن وجهه شاحب. قال لها:

- لنعد إلى الشط وهناك سأحكي لك قصتي وهناك تعرفين لماذا أكره القطط والكلاب..

كانت البركة قد صارت مزدحمة بكل الطيور والحيوانات التي سقطت فيها.. تقدمت (أليس) الطريق وسرعان ما سبح الجميع نحو الشاطئ..

الفصل الثالث

سباق جماعي وقصة طويلة

مجموعة غريبة فعلا تلك التي اجتمعت على الشط.. الطيور بريشها الموحل، والحيوانات بفرائها الذي التصق بها.. والجميع مبتل لا يشعر براحة.

كان السؤال الأول بالطبع هو: كيف نجف من جديد؟.. تشاوروا فيما بينهم، وقد تشاورت معهم (أليس) كأنها تعرفهم منذ زمن بعيد.. تجادلت مع الببغاء الـ (لوري) الذي بدا عليه الضيق وقال:

- أنا أكبر منك، فلابد أنني أعرف أفضل..

هنا قال الفأر الذي كانت سلطته واضحة:

- اجلسوا جميعا وأصغوا لي.. سوف أجففكم حالاً..

التفوا حوله في دائرة.. وراحت (أليس) تراقب ما سيقول في لهفة؛ لأنها كانت واثقة من إصابتها بالبرد لو لم تجف حالا..

- من فضلكم... ما سأقوله هو أكثر شيء جاف أعرفه.. (ويليام الفاتح) الذي كان البابا يفضله كان قد اعتاد اغتصاب العروش والغزو، وكان الإنجليز بحاجة إلى قائد.. هنا كان (موركار) و (إدوين) إيرلا (مرشيا) و (نورتومبرى) قد أوضحا له.. وكذلك (ستيجاند) كبير الأساقفة الوطني في (كانتربري) وجد أنه من المفيد أن..

سألته البطة:

- وجد ماذا؟

قال الفأر:

- وجد (أنه)... طبعا أنت تعرفين ما المقصود بالضمير في (أنه)..

- أعرف هذا الضمير.. أحيانا أجد شيئا مثل ضفدع أو دودة. السؤال هو ما الذي وجده كبير الأساقفة؟

لم يبال الفأر بالرد وواصل قصته الجافة:

- وجد أنه من المفيد أن يجعل (إدجار أثلينج) يقابل (ويليام) ويمنحه التاج.. كانت استجابة (ويليام) في البداية متوسطة.. لكن عجرفة النورمان...

هنا استدار لأليس وسألها: كيف حالك الآن يا عزيزتي؟

قالت (أليس):

- مبتلة كما أنا.. هذا الكلام لا يجففني على الإطلاق..

قال طائر الدودو [4] وهو ينهض:

- في هذه الحالة أرى تأجيل الجلسة من أجل تبنى علاجات أكثر فعالية..

قال فرخ العقاب:

- تكلم الإنجليزية! أنا لا أفهم معنى نصف ما تقول.. وأحسبك لا تفهم كذلك..

هنا ضحكت بعض الطيور بصوت مسموع.

قال الدودو:

- كنت سأقترح أن خير ما يجعلنا جافين هو سباق جماعي..

تساءلت (أليس):

- ما معنى السباق الجماعي؟

- أفضل طريقة لشرحه هو أن نقوم به..

ولما كان من الممكن أن تحتاج لممارسة هذا السباق في صباح شتوي فإنني سأحكيه لك بالتفصيل..

في البداية رسم (الدودو) مضمار سباق يشبه الدائرة، ثم راح الموجودون يركضون بلا ترتيب معين ودون أن يعرف أحد متى ينتهي..

فقط بعد نصف ساعة وبعد ما جف الجميع، صاح طائر الدودو أن السباق انتهى، فالتفوا حوله يتساءلون: من الفائز؟

هذا السؤال لم يكن سهلا، لذا جلس الطائر يفكر بعض الوقت وقد وضع يده على ذقنه بالطريقة التي ترى بها شكسبير في الصور.. في النهاية قال:

- الكل قد ربح! الكل يجب أن يحصل على جوائز..

- لكن من يعطى الجوائز؟

اشار إلى (أليس) وقال:

- من؟ هي بالطبع!

هكذا التف الجميع حولها متصايحين:

- جوائز! جوائز!

لم تدر (أليس) ما تفعله، فراحت تعبث في جيبها حتى وجدت بعض الفواكه المسكرة لم يتلفها الملح، فوزعتها كجوائز عليهم.. كانت تشعر بأن الأمر كله عجيب، لكنهم كانوا جادين بحيث لم تجسر على الضحك..

قالت للفأر:

- أنت وعدت بأن تحكى لي قصتك..

- هذا شيء طويل ومحزن [5]..

نظرت (أليس) إلى ذيل الفأر الذي كان بقربها وقالت:

- بالفعل هو طويل.. لكن لا أفهم لماذا هو محزن..

وفي سرها راحت تردد أغنية وحي الخاطر تقول:

القط قابل الفار. جوه الدار

قال له تعال نروح للقاضي.. أصل أنا فاضي....

قال له الفار: دي محكمة فعلا هزلية.

وقتنا ضايع مية المية..

قال له القط: أنا راح اكون القاضي كمان..

ومؤكد حاديك إعدام..

هنا صاح الفأر:

- أنت لا تستمعين!

ثم انصرف غاضبا.. برغم أنها توسلت له كي يحكي قصته وتوسل له طائر اللورى كي يبقى.. قالت (أليس):

- يا ليت قطتي دينا هنا! كانت ستعيده لنا! لو رأيتموها وهي تصطاد الطيور الصغيرة! يا لبراعتها!

سبّب هذا الكلام توترا بين الطيور الموجودة، وفر بعضها بالفعل..

قال أحد الغربان البقعاء:

- يجب أن أعود لبيتي.. إن البرد يشتد وهذا قد يؤذى حنجرتي.. وسرعان ما ابتعد الجميع ووجدت (أليس) أنها وحدها.

قالت لنفسها: - ليتني لم أذكر دينا... لا أحد يحبها هنا، برغم أنها أروع هرة في العالم! يا عزيزتي! هل أراك ثانية؟!

وعادت للبكاء من جديد لأنها شعرت بالوحدة وانخفاض المعنويات..

هنا سمعت صوت خطوات، فتمنت أن يكون هذا هو الفأر وقد غير رأيه.

الفصل الرابع

الأرنب يرسل (بيل الصغير)

كان هذا هو الأرنب.. يتواثب عائدا وهو ينظر حوله في قلق، كأنه أضاع شيئا.

وسمعته يقول:

- الدوقة! الدوقة! يا فرائي وشواربي العزيزة! سوف تعدمني وأنا واثق من هذا كما أثق أن الشرائط الحريرية شرائط حريرية! أين تراني أضعتها؟

خمنت (أليس) أنه يبحث عن المروحة والقفازين.. راحت تبحث عنهما فلم تجدهما. كل شيء لم يعد في موضعه منذ وقعت وسبحت في بركة الدموع..

رأى (أليس) فأشار لها وقال:

- هلمي يا (ماري آن).. اجري إلى البيت وأحضري لي قفازين ومروحة..

كان غاضبا لدرجة أن (أليس) اندفعت كما أمر، دون أن تتوقف لتوضح له خطأه..

وصلت إلى بيت صغير أنيق على بابه لوحة نحاسية تحمل اسم (الأرنب و)... دخلت من دون أن تقرع الباب واندفعت للطابق العلوى خائفة من أن تلقى (ماري آن) الحقيقية.. كم هو غريب أن تقوم بمهمة يكلفها بها أرنب!

وجدت قفازين ومروحة لحسن حظها، فهمت بالرحيل لولا أن رأت زجاجة صغيرة جوار المرأة.. لم تكن عليها ورقة لاصقة

تقول (اشربيني) هذه المرة.. برغم هذا، فكت الغطاء ورفعتها لشفتيها:

- أعرف أن شيئا مدهشنا سوف يحدث.. ربما تساعدني على النمو من جديد لأنني سئمت هذا الحجم الصغير..

هذا ما حدث فعلا.. قبل أن تفرغ من نصف الزجاجة كبر حجمها، واضطرت لأن تحنى رأسها كي لا يتحطم إذ يضرب السقف..

رفعت الزجاجة عن فمها وقالت:

- هذا كاف.. ليتني لم أشرب هذا كله.. لن أتمكن من الخروج من الباب..

للأسف ظلت تكبر وتكبر حتى اضطرت إلى أن تركع على ركبتيها.. حتى هذا الوضع لم يعد هناك فراغ يسمح به وبالتالي لم يعد هناك أمل في أن تغادر الغرفة ثانية.

- كنت أكثر سعادة في بيتي، غير مضطرة لأن أكبر وأصغر طوال الوقت، بينما تصدر لي الفئران والأرانب الأوامر.. لكن ما يحدث لي يشبه القصص الخيالية.. لابد أن هناك قصة خيالية عني بالذات، وإن لم تكن، سأكتبها عندما أكبر.. لكنني كبيرة بالفعل الآن

هنا سمعت صوت خطوات قادمة.. جاء صوت الأرنب يصيح:

- ماري آن.. ماري آن.. هاتي قفازي!

ارتجفت خوفا فارتج البيت.. لقد نسيت أنها الآن أكبر من الأرنب ألف مرة، ولم يعد من مبرر يدفعها للخوف منه..

حاول الأرنب فتح الباب، لكن مرفقها كان مستندا إليه؛ لذا لم يستطع فتحه..

ثم جاء صوت الأرنب الغاضب يقول

- بات. بات.. أين أنت؟ تعال وساعدني..

جاء صوت لم تسمعه من قبل يقول:

- أنا هنا، سعادتك، أحفر بحثا عن التفاح..

- كف عن الحفر وقل لي ما هذا الذي في النافذة..

- هذه ذراع، سعادتك..

كان ينطق (ذراع) هكذا (ذرررررررراع)..

- ذراع أيتها الإوزة؟ هل رأيت من قبل ذراعا بهذا الحجم؟ إنها تملأ النافذة..

- لكنها برغم هذا ذراع، سعادتك..

- حسن.. لا لزوم لها في النافذة.. اذهب وألق بها بعيدا.. هلم أيها الجبان..

ثم سمعت أصواتا عدة.. إنهم يحملون سلما خشبيا.. هناك من يدعى (بيل الصغير) ويتلقى أوامر الأرنب.. يبدو أن (بيل) هذا هو المكلف بأن يتسلق ويهبط من مدخنة المدفأة..

سمعت حيوانا صغيرا يخدش في المدخنة.. كان المكان ضيقا لكنها عرفت أن هذا هو (بيل) بالتأكيد، وعرفت أنها يمكن أن تركله ركلة صغيرة باتجاه المدفأة..

هنا سمعت صياحا وسمعت الأرنب يقول:

- هو ذا بيل يطير.. أنت عند السور.. امسكه! اهدأ يا بني.. بيل.. كيف كانت الأمور؟

جاء صوت (بيل) الرفيع يقول:

- شكرا لكم.. لا.. لا أستطيع أن أحكي ما رأيته.. شيء وثب في وجهي فطرت في الهواء..

صاح الأرنب:

- علينا أن نحرق البيت بما فيه!

هنا صاحت (أليس):

- لو فعلت فلسوف أطلق (دينا) عليكم!

ساد صمت ثقيل.. وفكرت (أليس) فيما عساهم ينوون عمله.. لو كان عندهم عقل لرفعوا السقف من فوقها.. هنا وجدت أن الحجارة تقذف عليها من الخارج.. يبدو أنهم يحاولون حفر نفق وجدت أن الحجارة تتحول إلى كعك على الأرض، فقررت أن تلتهم بعضه.. هي لن تكبر أكثر فلربما تصغر..

بالفعل حدث ما توقعت.. راحت تصغر وتصغر..

ما إن صارت قادرة على الخروج من الباب حتى اندفعت هاربة..

وجدت نفسها وسط مجموعة من الحيوانات الصغيرة، وسطها كانت سحلية صغيرة مسكينة هي (بيل).. اندفع الجميع نحوها إذ خرجت من البيت، لكنها سبقتهم وسرعان ما وجدت نفسها آمنة في الغابة..

شبت على أطراف أصابعها تنظر فوق مستوى بعض الفطر النامي، فالتقت عيناها بعيني يرقة كبيرة تجلس فوقها وقد ثنت ذراعيها وهي تدخن نارجيلة طويلة ولا تبدى أية علامة على أنها تلاحظها..

الفصل الخامس

نصيحة من يرقة

راحت (أليس) واليرقة تتبادلان النظرات لبعض الوقت، ثم نزعت اليرقة النارجيلة عن فمها وسألت:

- من أنت؟

لم تكن هذه بداية مشجعة للحوار، فقالت (أليس) في خجل:

- أنا لا أعرف بعد يا سيدتي.. أعرف من كنته قبل بدء القصة، لكن لابد أني تغيرت كثيرا منذ ذلك الحين!

- ماذا تعنين بهذا؟ أوضحي!

- تغير الحجم عدة مرات في اليوم.. هذا مربك.. أليس كذلك؟

- ليس مربكا.

- ربما أنت لم تجربي بعد.. لكنك سوف تصيرين شرنقة وترين.. ثم تصيرين فراشة.. هذا غريب بالنسبة لي..

- لكن من أنت؟

هكذا عادت المحادثة إلى بدايتها فشعرت (أليس) بالضيق وسألت اليرقة:

- ربما كان عليك أن تقولي لي من أنت أولاً..

- لماذا؟

لم تكن (أليس) في حالة معنوية جيدة تسمح بالشرح، لذا قررت أن تنهى المحادثة وتنصرف.. هنا نادتها اليرقة:

- تعالي.. هناك أشياء مهمة أقولها لك..

عادت (أليس) وقد بدا لها الكلام واعدا.. فقالت لها اليرقة:

- لا تفقدي أعصابك..

كان هذا يثير الغيظ.. فسألتها (أليس)

- هل هذا كل شيء؟

- لا.. ما الذي يجعلك تشعرين أنك صرت شخصا آخر؟

- صرت أنسى كل شيء.. حجمي يتبدل كل عشر دقائق حاولت أن أتذكر أغنية (النحلة الصغيرة المشغولة) فلم أستطع..

- غني أغنية (أنت عجوز يا بابا ويليام)..

بدأت (أليس) تنشد:

- أنت عجوز يا بابا ويليام.. الشاب الصغير قال.

عاوز تقف على راسك.. وده كلام محال..

رد عليه بابا ويليام.. قال له أيام زمان

كنت بخاف أأذى مخي.. دلوقتي عرفت تمام

إن ما عنديش مخ..

حاعملها كمان وكمان

انت عجوز يا بابا ويليام.. مش عارف تمضغ حاجة..

لكنك كلت الوزة وماسبتش منها حاجة..

رد عليه بابا ويليام.. قال له أيام زمان..

مرنت فكي كتير.. في خناقي مع المدام..

وعشان كده أنا عجزت.. لكن فكي تمام..

قالت اليرقة:

- لقد غيرت الكثير من كلمات الأغنية.. إنها خطأ من بدايتها حتى نهايتها.. إلى أي حد تريدين أن تكبري؟

نظرت (أليس) إلى حجمها فأدركت أن حجمها صار ثلاث بوصات..

- هذا ليس سيئا لكني سأكون أفضل لو بلغت طولي الأصلي..

- ثلاث بوصات طول ممتاز

ونهضت اليرقة فاكتشفت (أليس) أن طولها ثلاث بوصات بالضبط.. فقالت متوسلة:

- كنت أتمنى أن أستعيد طولي الأصلي..

- سوف تعتادين هذا الطول مع الوقت..

ووضعت النارجيلة في فمها وعادت تدخن.. ثم تثاءبت وانزلقت على عش الغراب مبتعدة وهي تغمغم:

- ناحية سوف تجعلك أطول وناحية سوف تجعلك أقصر!

- ناحية أي شيء؟

- ناحية عش الغراب..

لدقيقة وقفت (أليس) تفكر في معنى هذه الكلمات الغريبة. ناحية عش الغراب؟ إن عش الغراب مستدير تماما فأية ناحية هي الأولى وأية ناحية هي الثانية؟

مدت يدها ونزعت قطعة من عش الغراب ثم قضمتها متسائلة عن التأثير..

في اللحظة التالية شعرت بضربة عنيفة أسفل فكها.. لقد اصطدم فكها بقدمها!

أصابها الهلع من هذا لكنها أدركت أنه لا داعي لتضييع الوقت بسرعة قضمت قطعة من الناحية الأخرى.. كان فكها ملتصقا بقدمها لذا كان المضغ صعبا لكنها استطاعت أن تمضغ على كل حال..

☆ ☆ ☆

قالت لنفسها:

- على الأقل ابتعد ذقني عن قدمي.. ونظرت لأسفل.. هنا أصابها الرعب عندما وجدت أنها عاجزة عن رؤية كتفيها.. كل ما تراه عندما تنظر لتحت هو عنق طويل بلا نهاية يخرج وسط الأوراق الخضر من تحت.. راحت تحرك يديها لكنها لم تستطع رؤيتهما...

سرها أنها تستطيع أن تحرك رقبتها.. ثنتها كأنها ثعبان ونزلت إلى مستوى قمم الأشجار، وراحت تبحث.. هنا ضربها شيء في وجهها بقوة..

كانت حمامة صغيرة تطير حولها وتصرخ:

- أفعى!!

قالت (أليس):

- أنا لست أفعى! دعيني وشأني..

لكن الحمامة لم تقتنع وقالت وهي تبكي:

- لقد جربت كل شيء.. كأن عذاب وضع البيض ليس كافيا، بل لابد أيضا من عذاب مواجهة الثعابين! لقد جربت كل شيء للوقاية منها وحماية بيضي.. لم أنم منذ ثلاثة أسابيع!

اعتذرت لها (أليس) في خجل.. لقد بدأت تفهم السبب..

- وبرغم أنني اخترت أكبر شجرة في الغابة فقد وجدتها الأفاعي!

- لكني قلت لك أنني لست أفعى.. أنا فتاة صغيرة..

- رائع! لقد بدأت الكذب.. أنا رأيت الكثير من البنات من قبل، فلم تكن إحداهن ذات عنق طويل كهذا.. ألا تحبين البيض؟

قالت (أليس) التي اعتادت ألا تكذب:

- بلى.. البنات الصغيرات يأكلن البيض.. لكن صدقيني أنا غير مهتمة ببيضك.. دعك من أنني لن أكله نيئا.

ثم تذكرت أن عش الغراب معها، فجلست على الأرض وراحت تقضم منه حتى نجحت في أن تستعيد طولها الأصلي.

قالت لنفسها:

- لقد نجحت في استعادة طولي.. ما بقي هو أن أدخل تلك الحديقة التي رأيتها أولا..

هنا رأت أمامها فسحة بها بيت صغير.. ارتفاعه حوالي أربعة أقدام..

- ترى.. من يعيش هنا؟ لا يمكن أن أدخل بهذا الحجم وإلا قتلهم الذعر.

هكذا أمسكت بقطعة من عش الغراب وراحت تقضم حتى صار حجمها مناسبا لدخول البيت

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

الخنزير والفلفل

وقفت خارج المنزل غير عالمة ما عساها تفعله.. هنا ظهر خادم في زي رسمي خارجا من الدغل (افترضت أنه خادم بسبب ثيابه وإلا لكان الأحرى أن تعتبره سمكة).. ثم دق الباب ففتحه خادم آخر متسع العينين كأنه ضفدع..

أخرج الخادم الشبيه بالسمكة من جيبه مظروفا ضخما بحجمه هو نفسه وناوله للخادم الثاني وقال:

- هذه دعوة من الملكة للدوقة للعب الكروكيت.

وانحنى الخادمان لبعضهما..

ضحكت (أليس) من المنظر حتى إنها هرعت تتوارى في الدغل حتى لا يسمعها أحد.. عندما خرجت ثانية كان الخادم السمكة قد رحل، بينما جلس الآخر في غباء ينظر للسماء.. خطر لها أن هذا سلوك غير مهذب، ثم قررت أنه لا حيلة له في ذلك لأن عينيه مثبتتان لأعلى..

دقت الباب فقال الخادم:

- لا جدوى من الدق لسببين.. أولا لأنني في ذات الجهة من الباب مثلك.. ثانيا لأنهم يحدثون صخبا بالداخل ولن يسمعوك..

بالفعل كانت هناك ضوضاء بالداخل، مع أصوات أطباق تتحطم..

- ولكن كيف أدخل؟

- فقط لو كنت أنا في جانب من الباب وأنت في الجانب الآخر، ولم تكن هناك ضوضاء، لفتحت لك..

طار طبق من الداخل وكاد يهشم أنف الخادم، ثم اصطدم بالشجر وتهشم..

أكمل الخادم كأن شيئا لم يكن:

- لكن هل يجب أن تدخلي فعلا؟

قالت لنفسها: إنه على درجة لا بأس بها من الخبال، لذا تركته واتجهت إلى الباب وفتحته...

كان هناك مطبخ كبير ملأه الدخان.. الدوقة كانت جالسة على مقعد ثلاثي ترضع طفلا، بينما في الركن هناك من تقلب قدرا كبيرا يبدو أنه يحتوي على حساء..

عطست (أليس) بقوة وقالت لنفسها:

- هناك بالتأكيد الكثير من الفلفل في هذا الحساء..

كذا عطست الدوقة وعطس الطفل.. الوحيدان اللذان لم يعطسا كانا الطباخة وقطة تجلس في الركن تضحك كاشفة عن أنيابها من الأذن للأذن.

سألت (أليس) في أدب:

- معذرة.. لماذا تضحك قطتكم بهذا الشكل؟

قالت الدوقة:

- هي قطة من (تشيشاير).. هذا هو السبب.. أيها الخنزير!!

أجفلت (أليس) عندما قيلت الكلمة الأخيرة، ثم أدركت أن الدوقة تكلم الطفل على حجرها ولم يكن الكلام موجها لها.. لذا

قالت:

- لم أدر أن قطط (تشيشاير) تضحك.. بالواقع لم أعرف أن القطط تضحك..

- أنت لا تعرفين الكثير.. هذا هو السبب..

هنا انتهت الطباخة من الطهي فراحت تقذف كل شيء في متناول يدها على الدوقة التي لم تبد أية ملاحظة لما يحدث.. ملاعق.. سلطانية.. سكاكين.. أطباق.. برغم أن بعض الأشياء راحت تضربها.

- أرجو أن تحترسي!

قالت الدوقة:

- لو اهتم كل واحد بشئونه فقط، لدار العالم بسرعة أكبر مما هو عليها..

وراحت تهز الطفل وهي تغنى أغنية مهد.. ومع نهاية كل مقطع تهزه هزة قوية:

«تكلمي مع ابنك بخشونة.. وعندما يعطس اضربيه..

إنه يفعل هذا ليغيظك.. لأنه مجرد سفيه..»

هنا رددت الطباخة والقط على سبيل الكورس:

- وووووووووه

«أتكلم مع ابني بخشونة.. وعندما يعطس أقتله..

لأنه يشم الفلفل.. ويحب أن يأكله..»

ثم ناولت الطفل لأليس قائلة:

- هلمي. احمليه لو أردت.. يجب أن أتأهب لأن عندي موعدا للعب الكروكيت مع الملكة.

حملت (أليس) الرضيع بصعوبة لأن أطرافه كانت مفتوحة في كل اتجاه كأنه نجمة البحر.. راح يتلوى فظلت تبحث عن أفضل وضع للإمساك به، فلم تجد إلا أن تمسك بأذنه اليسرى مع قدمه اليمني بحيث تمنعه من فك نفسه..

لاحظت أن عينيه ضيقتان جدا وأن أنفه طويل للغاية بالنسبة لبشر.. لم تكن هناك دموع في عينيه برغم كل هذا البكاء.. لم تحب منظره على الإطلاق وقالت له:

- لو كنت تنوى التحول إلى خنزير يا عزيزي فليس بوسعي أن أساعدك..

أنزلت الشيء على الأرض وتركته يركض إلى الغابة، وقد قررت أنه من الغريب جدا أن تستمر في حمل خنزير..

هنا رأت قطة (تشيشاير) قد اتخذت لنفسها موضعا على غصن عال من الشجرة.. كانت لها أنياب ضخمة فقررت (أليس) أنه يجب أن تعاملها باحترام.

- أيتها القطة العزيزة.. هلا قلت لي كيف أذهب من هنا؟

- هذا يتوقف على المكان الذي تريدينه..

- لا فارق عندي بين مكان وآخر..

- إذن لا يهم أي طريق تتخذين..

- ما دمت سأذهب لمكان ما..

- أه.. كل ما عليك هو أن تمشي مسافة كافية..

ثم أشارت بعيدا وقالت:

- في هذا الاتجاه تجدين صانع قبعات.. ومن هنا تجدين أرنب مارس.. كلاهما مجنون على كل حال..

- لكني لا أريد زيارة المجانين..

- لا حيلة في ذلك.. كلنا هنا مجانين.. هل تنوين اللعب مع الملكة اليوم؟

- أتمنى ذلك، لكن أحدا لم يدعنى..

في اللحظة التالية اختفت القطة.

كانت (أليس) قد اعتادت كل ما هو غريب؛ لهذا لم تندهش قط.. كادت تنصرف لولا أن ظهرت القطة من جديد..

- بالمناسبة.. ماذا حدث للرضيع؟

- تحول إلى خنزير..

اختفت القطة ثانية ولم تظهر هذه المرة..

مشت (أليس) في الاتجاه الذي سمعت أن أرنب مارس يعيش فيه.

- أنا رأيت صانعي قبعات من قبل، لكن هذا الأرنب غريب ومثير.. بالإضافة إلى أننا في مايو.. ربما يكون أقل جنونا ما دام هذا ليس (مارس)..

هنا رأت القط على غصن شجرة.. قالت له:

- أرجو أن تكف عن الظهور والاختفاء فجأة.. فهذا يسبب لي الدوار..

- حسن..

وفي هذه المرة اختفى ببطء شديد حتى لم يبق منه إلا الذيل وطاقم أسنانه.. وسرعان ما اختفى الذيل بدوره..

فكرت (أليس):

- لقد رأيت قططا من دون أسنان ضاحكة.. لكن أن أرى أسنانا ضاحكة من دون قط.. هذا غريب فعلاً..

وجدت نفسها أمام بيت أرنب (مارس).. عرفت أنها على حق لأن المداخن كانت على شكل آذان، والبيت مغطى بالفراء.

كان البيت كبيرا؛ لذا لم تدْنُ حتى التهمت بعض الفطر كي تكبر قليلاً.. وقالت لنفسها:

- أرجو ألا يكون مجنونا.. لربما كان من الأفضل أن أمشي في اتجاه صانع القبعات..

☆ ☆ ☆

الفصل السابع

حفل شاي مجنون

كانت هناك منضدة تحت شجرة أمام البيت.. وهناك كان الأرنب وصانع القبعات يشربان الشاي.

كان سنجاب يغفو في عمق بينهما، وكانا يستعملانه كوسادة يريحان مرفقيهما عليها..

كانت المنضدة كبيرة، لكن الثلاثة تزاحموا في ركن منها.. وحينما رأوا (أليس) تصايحوا:

- لا مكان.. لا مكان!

قالت:

- بل هناك متسع..

وجلست على شيزلونج عملاق في ركن المنضدة..

قال صانع القبعات وهو يحدق فيها بفضول:

- شعرك يحتاج إلى القص..

قالت له في حدة:

- يجب أن تتعلم عدم إبداء ملاحظات شخصية.. هذا فظ منك..

نظر لها ولم يعلق. إنما قال:

- لماذا يشبه الغراب منضدة الكتابة؟

قالت (أليس):

- جميل.. سوف نمرح قليلا ما دمت بدأت بالألغاز.. أعتقد أنني سأحل هذا اللغز..

قال لها الأرنب:

- هل تعنين أنك (ستجدين إجابة)؟

- إذن لماذا لا توضحين ما تقصدين؟

- أنا فعلت ذلك.. (أحل اللغز) و (أجد إجابة) هما الشيء ذاته.

قال صانع القبعات:

- ليسا الشيء ذاته.. وإلا فقولك (أنا أرى ما آكله) هو نفس قولك (أنا أكل ما أراه)!

- أعتقد هذا..

ثم أخرج ساعة من صديري سترته ونظر لها وقال وهو ينظر غاضبا إلى الأرنب:

- يومان خطأ! قلت لك إن الزبد لا يصلح لتشحيم الساعة..

قال الأرنب:

- كان أفضل نوع من الزبد..

- لابد أن هناك شيئا عاق التروس.. ما كان يجب أن تفرد الزبد بسكين الخبز..

التقط الأرنب الساعة ونظر لها ثم ألقاها في قدح الشاي...

- السنجاب قد نام ثانية..

قالها صانع القبعات وأفرغ الشاي الساخن على أنف السنجاب.. ثم سأل (أليس):

- هل خمنت اللغز بعد؟

- لا.. ما هي الإجابة؟

- ليست لدى أدنى فكرة..

وجدت (أليس) أنه من السخف أن تضيع وقتها في حل لغز بلا حل، لذا سألت صانع القبعات:

- لماذا لا تظهر ساعتك إلا الأيام بدلاً من الساعات؟

ثم تذكرت شيئا فأضافت:

- هل لهذا تمتلئ الغرفة بأشياء ولوازم الشاي؟

قال صانع القبعات:

- نعم.. بما أنه لا وجود للساعات، فاليوم كله هو ساعة شرب الشاي.. لهذا لا نجد وقتا كافيا لتنظيف أوعية الشاي..

- ولهذا تتحركون من موضع لآخر في الغرفة.. لكن ماذا يحدث عندمنا تعودون لنقطة البداية؟

قال الأرنب في عصبية:

- أقترح تغيير موضوع الكلام.. لماذا لا تحكى لنا الآنسة قصة؟

قالت (أليس) في خجل:

- آسفة.. لكني لا أعرف أية قصة.

- إذن فليفعل ذلك السنجاب.. وليفعله بسرعة قبل أن ينام مرة أخرى..

رفع السنجاب رأسه بعد ما أفاق من نعاسه وقال بسرعة:

- كان يا ما كان كانت هناك ثلاث أخوات.. كانت أسماؤهن (السي) و (لاسي) و (تيلي).. كن يعشن في قاع بئر..

سألت (أليس) التي كانت مهتمة بمواضيع الأكل والشرب:

- علام كن يعشن؟

- كن يعشن على صمغ السكر..

- مستحيل.. كن سيمرضن جدا..

- كن كذلك.. كن مريضات جدا

قال الأرنب لأليس في جدية:

- خذي المزيد من الشاي.. قالت (أليس):

- لا يمكنني أن آخذ المزيد، لأنني لم آخذ أي شيء أصلاً.

ومدت يدها فصبت بعض الشاي وأخذت بعض الخبز والزبد ثم سألت السنجاب:

- لماذا عشن في قاع البئر؟ فكر السنجاب قليلاً ثم قال:

- كان بئرا لصمغ السكر..

- لا يوجد شيء كهذا..

لكن الأرنب وصانع القبعات أخرساها:

- لو لم تستطيعي التصرف بتهذيب فلتكملي القصة بنفسك.. واصل السنجاب السرد فقال:

- كانت الأخوات مغرمات بالرسم، فكن يرسمن طوال اليوم..

سألته (أليس):

- وماذا كن يرسمن؟

- صمغ السكر.

هنا قال صانع القبعات إنه راغب في تغيير المكان إلى مكان أنظف.. هكذا تحرك كل واحد إلى مقعد جديد.. كان هو الوحيد المستفيد من التغيير، بينما صار وضع (أليس) أسوأ لأنها وجدت نفسها تجلس أمام طبق سكب فيه السنجاب اللبن.

واصل السنجاب الذي كان يقاوم النعاس بصعوبة:

- كذلك كن مغرمات برسم كل شيء يبدأ اسمه بحرف (و).

- ولماذا حرف (و) بالذات؟

- ولم لا؟ وسائد.. وحل.. ورق.. وفرة.. أنت تسمعين عن الوفرة.. هل رأيت من قبل أحدا رسم الوفرة؟

- ما دمت تسألني.. لا أعتقد هذا..

قال صانع القبعات:

- إذن التزمي الصمت.

كان هذا خشنا بالنسبة لأليس حتى إنها نهضت على الفور مغادرة المكان.. لم يُبد أحدهم أية علامة على أنهم لاحظوا رحيلها، برغم أنها استدارت مرة أو مرتين متمنية أن ينادوها.

آخر شيء رأته هو أنهما يحاولان وضع السنجاب في أبريق الشاي.. وقفت جوار شجرة في الغابة وقالت:

- لن أعود بأي ثمن.. كان هذا أغبى حفل شاي حضرته في حياتي.

هنا لاحظت أن الشجرة بها باب.. كان هذا غريبا لكنها رأت الكثير مما هو غريب اليوم، لذا اجتازت الباب.. وجدت نفسها من جديد في الردهة التي بها المنضدة الزجاجية.

هذه المرة تصرفت بحكمة.. أخذت المفتاح الذهبي الصغير من على المنضدة ووضعته في جيبها، ثم بدأت تمضغ غش الغراب حتى صار طولها قدما.. ثم اجتازت الباب الصغير الذي يقود إلى الحديقة..

وجدت نفسها في الحديقة الغناء بين أحواض الأزهار والنافورات...

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن

ملعب الكروكيت الملكي

في مدخل الحديقة كانت شجرة ورد عملاقة بها ثلاث وردات بيض، لكن ثلاثة من البستانيين كانوا يعملون في همة محاولين تلوين الورد بالأحمر.

دنت لتسألهم عن سبب هذا العمل الغريب، فقال أولهم:

- كان من المفترض أن تكون هنا شجرة ورد أحمر يا آنسة، لكننا أخطأنا وزرعنا شجرة ورد أبيض.. لو عرفت الملكة لقطعت رءوسنا جميعا..

هنا صاح أحدهم:

- الملكة! الملكة!

فارتمى البستانيون على وجوههم وسط العشب.. كانت (أليس) شديدة الشوق لترى هذه الملكة.

جاء الموكب الغريب مبتدئا بعشرة جنود يبدون كأوراق اللعب.. ثم الأطفال الملكيين.. بعد هذا جاء الضيوف ومن بينهم لمحت الأرنب الأبيض الذي كان يتكلم بعصبية ولم يلحظها.. وفي نهاية الموكب ظهرت ملكة القلوب مع الملك..

لم تدر (أليس) إن كان عليها أن ترقد على وجهها أم لا، لكنها لم تذكر تقليدا مماثلاً في المواكب.. ثم ما نفع المواكب إذا كان الناس سينامون على وجوههم فلا يرون شيئا؟!

دنا الموكب منها فتوقف، ونظر الكل لها، وسألت الملكة في عنف: من هذه؟ ما اسمك يا طفلة؟

- اسمي (أليس) يا جلالة الملكة.. قالتها في تهذيب، لكنها قالت لنفسها: لماذا أخافهم؟؟ ليسوا سوي مجموعة من أوراق اللعب..

- ومن هؤلاء؟

وأشارت الملكة إلى البستانيين الذين رقدوا على وجوههم فلم يبد منهم شيء سوى علامة ورق اللعب على ظهورهم.. قالت (أليس) وهي مندهشة من جرأتها:

- كيف لي أن أعرف؟ هذا ليس من شأني! هنا احمر وجه الملكة غيظا وصاحت:

- اقطعوا رأسها!!

وضع الملك يده على ذراعها وقال:

- فكرى يا عزيزتي.. إنها مجرد طفلة!

نظرت الملكة إلى الورد على الشجرة وفهمت على الفور ما هنالك.. لذا صاحت في جنون كحيوان مفترس:

- اقطعوا رءوسهم!

هنا جرى البستانيون الثلاثة إلى (أليس) طالبين الحماية، لأن ثلاثة جنود تخلفوا كي ينفذوا حكم الإعدام. قالت (أليس) في حزم:

- لن تقطع رءوسكم!

نظر لها الجنود في حيرة، ولم يعرفوا ما يفعلون.. من ثم ركضوا ليلحقوا بموكب الملكة التي سألتهم:

- هل طارت رءوسهم؟

- طارت يا مولاتي..

- جميل.. هل تلعبين الكروكيت؟

صمت الجميع لأنهم أدركوا أن السؤال موجه لأليس، فقالت (أليس):

- نعم..

- إذن تعالي..

هكذا وجدت (أليس) نفسها وسط الموكب تتساءل عما سيحدث بعد هذا..

بصوت كالرعد هتفت الملكة:

- خذوا أماكنكم!!

فراح الموجودون يجرون يمينا ويسارا ويتعثرون، لكنهم تمكنوا من الاصطفاف خلال دقيقة.. وبدأت اللعبة..

لم تر (أليس) لعبة كروكيت بهذه الغرابة من قبل الكرات كانت قنافذ حية والمضارب طيور بشروش حية.. وكان الجنود ينثنون على أنفسهم ليصنعوا الأنفاق التي تجرى فيها الكرات..

كان أصعب شيء واجه (أليس) هو التحكم في طائر البشروش الخاص بها.. نجحت في وضعه تحت ذراعها وقدماه تتدليان، لكنها ما إن تستعد لتوجيه ضربة للقنفذ حتى يلتوي الطائر ويحدق في وجهها.. تعبير غريب جدا يدفعها لأن تنفجر في الضحك..

فما ان تستعد لتوجيه ضربة حتى تجد أن القنفذ قد فرد جسده وبدأ في الابتعاد.. ولما كان الجنود يبتعدون ويتحركون فقد قدرت (أليس) أنها لعبة صعبة فعلا..

كانت الملكة تزداد عصبية وراحت تصيح ذات اليمين وذات اليسار:

- اقطعوا رأسه.. اقطعوا رأسها!

كانت (أليس) تشعر بعدم راحة.. صحيح أن علاقتها لم تتوتر مع الملكة، لكن هذه اللحظة آتية حتما.. عندها ماذا سيحل بها؟ إنهم مولعون بقطع الرءوس هنا حتى إنه من الغريب أن بعضهم ما زال على قيد الحياة!

- فكرت في الهرب، لكنها في اللحظة التالية رأت صفا من الأسنان اللامعة.. إنها قطة (شيشاير).. من الجميل أن تجد من تكلمه إذن..

انتظرت حتى ظهر الرأس كله.. ثم قالت شاكية:

- لا أعتقد أنهم يلعبون بقواعد.. ويتشاجرون بعنف وبصوت عال حتى إنك لا تقدر على سماع نفسك..

سألها القط بصوت خفيض

- هل تروق لك الملكة؟

- البتة.. إنها..

هنا لاحظت أن الملكة تقف خلفها بالضبط... فقالت مكملة الكلام:

- سوف تربح اللعبة بالتأكيد فلا جدوى من استكمال المباراة.. ابتسمت الملكة وابتعدت..

هنا دنا الملك ونظر إلى القط مليا ثم قال:

- لا أحب منظر هذا القط.. مولاتي.. أرجو أن تعملي على إبعاد هذا القط..

كانت الملكة لا تملك إلا طريقة واحدة لمواجهة المشاكل.. لذا صاحت من دون أن تلتفت:

- اقطعوا رأسه!

كانت قد أصدرت أوامرها بقطع رقاب ثلاثة من اللاعبين لأنهم خسروا أدوارهم.. وجرت (أليس) تبحث عن قنفذها لأنها لا تعرف إن كان دورها جاء في اللعب أم لا.. كان القنفذ يتشاجر مع قنفذ آخر فقررت (أليس) أنها فرصة ممتازة لتضرب أحدهما بالآخر.. لكنها لم تجد طائر البشروش الخاص بها.. أخيرا وجدته يحاول الطيران فوق شجرة، فدسته تحت ذراعها كي لا يعاود الهرب..

نظرت حيث كان القط فوجدت الملكة والملك والجلاد مشتبكين في حوار ساخن..

دنت أكثر لتفهم، فسمعت الجلاد يقول:

- لكي أقطع رأس القط يجب أن يكون هناك جسد أفصله عنه. أنا لم أقطع رأسا بلا جسد من قبل، ولا أنوي أن أبدأ التمرين في هذه المرحلة من العمر..؟

كان رأى الملك أن أي شيء برأس يمكن قطع رأسه.. أما الملكة فكان رأيها أنه لو لم يتم عمل شيء حالا فلسوف تطير رقاب الجميع لم تجد (أليس) ما يقال سوى:

- إن القط يخص الدوقة... لابد من سؤالها قبل إعدامه.. لذا جرى الجلاد ليسأل الدوقة..

ما إن عاد معها حتى كان القط قد اختفى تماما وهكذا ساد الهرج والمرج، وعاد الجميع إلى اللعبة..

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع

قصة السلحفاة الساخرة

قالت الدوقة وهي تتأبط ذراع (أليس) في مودة:

- لا يمكنك تصور مدى سعادتي بأن أراك ثانية أيها الشيء العزيز..

سرت (أليس) لأنها قابلت الدوقة بهذا المزاج الرائق.. وقدرت أن مزاجها السيئ في السابق كان بسبب الفلفل.. وقالت لنفسها:

- لو صرت دوقة، فلن أحتفظ في مطبخي بأي شيء من الفلفل.. الحساء من دونه يظل طيب المذاق...

لم تحب (أليس) اقتراب الدوقة منها لهذا الحد، أولا لأن الدوقة كانت قبيحة جدا، ثانيا لأن طولها كان مناسبا كي ترتاح ذقنها الحادة المؤلمة بالضبط على كتف (أليس).. ولكن (أليس) لم تعترض لأنها لم ترغب في أن تكون فظة.

قالت الدوقة:

- لا أجسر على أن ألف يدي حول خصرك لأن طائر البشروش الذي تحملينه قد يعض.

قالت (أليس) محذرة وهي بالفعل غير راغبة في هذه التجربة:

إنه شرس ويعض فعلا.

- طيور البشروش والخردل تعض.. والمغزى الأخلاقي من هذا هو: الطيور على أشكالها تقع..

- الخردل ليس طائرا..

- أنت على حق كالعادة.. يا لصفاء ذهنك!!

- إن الخردل معدن على ما أظن..

- بالضبط.. بدا أن الدوقة موافقة على أي شيء تقوله (أليس) «هناك منجم خردل قريب من هنا.. والمغزى الأخلاقي هو: كلما زاد ما أملكه قل ما تملكين أنت [6]!»

- إن الخردل نوع من الخضر.. لكنه لا يبدو كذلك.

أتفق معك تماما.. والمغزى الأخلاقي هنا هو: كوني كما يبدو عليك.. أو بتعبير أكثر سهولة: لا تتخيلي نفسك في صورة أخرى غير ما يبدو للآخرين.. فما كنته أو ستكونينه لا يختلف عما كان سيبدو لك لو كنت مختلفة.

- ربما لو كتبت هذا لفهمته.. لكني لا أستطيع فهمه وأنت تقولينه.

- إنني أستطيع قول ما هو أفضل... إنني..

وفجأة كفت عن الكلام، وارتجفت ذراعها.... نظرت (أليس) فوجدت أن الملكة تقف غاضبة أمامهما وقد عقدت ذراعيها على صدرها.. قالت الملكة في غضب للدوقة:

- الآن أنذرك إما أنت أو رأسك يجب أن يختفي خلال خمس دقائق.. هذا هو الإنذار الأخير.

على الفور انطلقت الدوقة هاربة.

عادت الملكة تلعب الكروكيت.. ومن جديد راحت تصدر أوامرها بقطع رأس هذا أو ذاك.. بالطبع كان الحراس يتخلون عن دورهم كأقواس ليحملوا المحكوم عليه إلى الحجز.. هكذا راحت الأقواس تختفي.. وفي النهاية لم يبق شخص واحد لم يحكم عليه بقطع رأسه سوى (أليس) والملكة والملك.

سألتها الملكة:

- هل قابلت السلحفاة الساخرة؟

قالت (أليس):

- لا لم ألقها.. وأنا لا أعرف حتى ما هي هذه السلحفاة الساخرة.

- إنها الشيء الذي يصنعون حساء السلحفاة الساخرة منه..

ثم أصدرت أوامرها لجريفون Gryphon - وهو حيوان خرافي له رأس وجناحا نسر وجسد أسد - بأن يصحب (أليس) إلى السلحفاة الساخرة.. لم تحب (أليس) شكل الحيوان لكنها قدرت أن مرافقته أكثر أمنا من مرافقة الملكة التي لا تكف عن قطع الرءوس.

كانت السلحفاة تجلس وحيدة حزينة على صخرة ومن هذه المسافة كان بوسع (أليس) أن تسمعها تتنهد كأن صدرها يتمزق.. قال لها الجريفون:

- هذه الأنسة الصغيرة ترغب في سماع قصتك

- سأفعل ذلك لكن اجلسا أولا ولا تتكلما..

ثم ساد صمت طويل.. طويل.. في النهاية قالت السلحفاة:

- في الماضي كنت سلحفاة طبيعية.

وعاد الصمت لفترة طويلة جدا لا يقطعه إلا همهمة مؤيدة من الجريفون، حتى إن (أليس) فكرت في أن تنهض وتشكرها على قصتها الممتعة ثم تنصرف.. لكنها قدرت أن للقصة بقية بالتأكيد.

- عندما كنا صغارا ذهبنا إلى المدرسة في البحر.. المدرس كان سلحفاة عجوزا.. وكنا نظفر بأفضل تعليم لأننا كنا نذهب إلى المدرسة كل يوم حتى لو لم تصدقي هذا..

- من قال إنني لا أصدق؟

- أنت قلت هذا...

- وكم عدد الساعات التي كنتم تقضونها في المدرسة؟

- عشر ساعات أول يوم.. تسع ساعات ثاني يوم.. وهكذا..

- يا لها من طريقة غريبة.

قال الجريفون:

- لهذا يطلقون على الدرس Lesson.. لأنه يصغر Lessen يوما بعد يوم...

لم تسمع (أليس) هذا المنطق من قبل، لذا خطرت لها فكرة:

- إذن اليوم الحادي عشر كان إجازة..

- هو كذلك.. والآن يكفينا هذا الكلام عن الدروس ولنعد لموضوعنا..

لكن الجميع اندمج في رقصة غريبة اسمها (لعبة جراد البحر).. ونسوا كل شيء عن قصة السلحفاة.. إلى أن تذكر الجريفون أن عليهم ان يتواجدوا في المحكمة حالاً.

☆☆☆

الفصل العاشر

من سرق الكعك؟

كان الملك والملكة جالسين على عرشهما بينما احتشد حولهما جمع من الطيور والحيوانات وأوراق اللعب.. جوار الملكة وقف الأرنب الأبيض وفي يده نفير وفي اليد الأخرى لفافة من الورق.. ووسط قاعة المحكمة كانت منضدة عليها طبق من الكعك كان الكعك رائع المنظر لدرجة أن (أليس) شعرت بالجوع لمجرد النظر.

لم تكن (أليس) قد دخلت محكمة من قبل، وإن قرأت عنها في الكتب، لذا سرها أنها تعرف اسم كل شيء هنا.. هذا هو القاضي لأنه يلبس جمة عملاقة..

كان القاضي هو الملك نفسه.. ولما كان يضع التاج فوق الجمة فإنه لم يكن مرتاحا على الإطلاق.

قالت لنفسها:

- هؤلاء هم المحلفون.. هذه المخلوقات الاثنا عشر..

وشعرت بالفخر بنفسها لأنها لا تعتقد أن هناك فتاة أخرى من سنها في البلاد تعرف معنى هذه الكلمة (محلفون).. كانوا منهمكين في الكتابة؛ لذا سألت الجريفون:

- ماذا يكتبون؟ إن المحاكمة لم تبدأ بعد.

قال الجريفون:

- يكتبون أسماءهم لأنهم يخشون أن ينسوها عند انتهاء المحاكمة..

- أغبياء!

قالتها بصوت عال، ولاحظت - لدهشتها - أن المحلفين جميعا كتبوا (أغبياء) في أوراقهم.. وأحدهم لم يعرف كيف يكتبها حتى إنه سأل جاره..

كان أحد الأقلام يحدث صريرا عاليا لذا نهضت في حزم ووقفت خلف المحلف والتقطت القلم وألقت به بعيدا، قبل أن يفهم ما حدث لهذا ظل المسكين يكتب بأصبعه حتى نهاية الجلسة.

قال الملك:

- أيها المنادي.. أُتْلُ الاتهام!

فك الأرنب اللفافة وراح يقرأ:

- ملكة القلوب.. صنعت كعكا في يوم صيف سعيد.. المهرج سرق هذا الكعك.. وفر إلى بعيد..

قال الملك:

- استدعوا الشاهد الأول..

كان الشاهد الأول هو صانع القبعات، وقد جاء وفي يده قدح شاي وفي يده الأخرى قطعة خبز بالزبد.

- أعتذر لجلالتكم.. لكني لم أكن قد فرغت من الشاي عندما استدعوني..

- كان عليك أن تكون انتهيت.. والآن انزع قبعتك...

- ليست قبعتي.. إنني أحتفظ بها للبيع.. ليست لدى أية قبعة..

- تكلم وإلا أمرت بإعدامك حيث تقف.

أثار هذا توتر الشاهد أكثر، وعجز عن الكلام.. وفي توتره قضم قطعة من قدح الشاي مع قطعة الخبز.

هنا شعرت (أليس) بشعور عجيب! إنها تزداد حجما.. لكنها فضلت أن تبقى حيث هي.. وسمعت السنجاب يقول لها (حيث جلس جوارها):

- هلا كففت عن الضغط؟... لا أقدر على التنفس...

- ليس هذا بيدي.. أنا أكبر..

- ليس من حقك أن تكبري هنا.. أنا أكبر كذلك لكن بمعدل معقول..

في هذا الوقت كان صانع القبعات يجثو على ركبتيه متوسلا:

- مولاي.. أنا رجل فقير لم أفرغ بعد من شرب الشاي..

- هلم قل دليلك وإلا أمرت بإعدامك حيث أنت.

نظر صانع القبعات في قلق إلى حيث جلست الملكة.. كانت تراجع قائمة بأسماء المغنين في حفل الكونشرت الأخير الذي حضرته.. فقال له الملك:

- يمكنك الرحيل..

طار صانع القبعات فرحا واندفع خارجا من المحكمة.. هنا قالت الملكة:

- واقطعوا رقبته بالخارج..

لكن الرجل كان قد خرج فعلا ولم يتمكن الحارس من اللحاق به.

كان الشاهد الثاني هو طباخة الدوقة. كانت تحمل علبة الفلفل. وقد خمنت (أليس) هذا قبل أن تراها، عندما رأت الناس يعطسون قبل دخولها.

سألها الملك:

- مم كان الكعك مصنوعا؟

- من الفلفل.

جاء صوت ناعس من الخلف يقول:

- من صمغ السكر صرخت الملكة:

- اقطعوا رقبة هذا السنجاب!! أخرجوه من القاعة! امسكوه.. اضربوه!

وسط هذه الضجة اختفت الطاهية.. ومال الملك على زوجته هامسا:

- أقترح أن تقومي أنت باستجواب الشاهد التالي فقد بدأت أشعر بصداع.

راح الأرنب يمرر أصبعه على القائمة، وراحت (أليس) تتساءل عمن يكون الشاهد التالي.. لهذا تصور دهشتها عندما صاح الأرنب مناديا اسمها:

- أليس!!

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي عشر

شهادة (أليس)

نهضت (أليس) مسرعة وقد نسيت حجمها الجديد، لدرجة أن تنورتها حلقت فوق رءوس المحلفين فأطارت الكثيرين منهم، حتى تذكرت حوض السمك الذهبي الذي أسقطته منذ أسبوع..

قالت في خجل حقيقي:

- أنا آسفة.

وراحت تلتقطهم من على الأرض وتعيدهم لمقاعدهم، فقد تذكرت قصة السمك وشعرت بأن عليها أن تعيدهم بسرعة وإلا ماتوا!

صاح الملك وهو ينظر لها بحزم:

- لا يمكن أن تستمر المحاكمة ما لم يعد كل المحلفين لأماكنهم!

فما إن عاد الجميع لمقاعدهم حتى جلسوا وراحوا يكتبون في حماس تفاصيل وملابسات الحادث.

سألها الملك:

- ماذا تعرفين عن القضية؟

- لا شيء.

- لا شيء؟ هذا مهم.

هنا تدخل الأرنب وقال:

- تعنى جلالتك (غير مهم)... على ما أعتقد..

- نعم. نعم. هذا ما عنيته.. غير مهم..

ونظر بعين نارية إلى الأرنب، ثم عاد ينظر إلى الأوراق ويهمس لنفسه: مهم.. غير مهم.. كأنه يستوثق أي اللفظتين أوقع على السمع.. ثم قال لأليس:

- هناك قاعدة في هذه المحكمة تقول إن أي شخص ارتفاعه أكثر من ميل يجب أن يخرج!

- لكن ارتفاعي ليس أكثر من ميل

- بل أنت كذلك..

- على كل حال لن أخرج مهما حدث.. هذه القاعدة جديدة اختلقتموها أنتم وإلا لكانت هي رقم واحد!

هنا قاطع الأرنب الجلسة حاملا ورقة وقال:

- مولاي.. هذه الرسالة كتبها السجين لشخص ما

- جميل. هذا مهم ما لم يكن كتبها (للا أحد).. وهذا غير معتاد كما تعلم..

فتح الأرنب الورقة ونظر فيها ثم قال:

- ليست رسالة على الإطلاق... إنها أبيات شعر.. والغريب أنها ليست بخط السجين.. هنا صاح المهرج:

- مولاي.. هذا يثبت أنني لم أكتبها هذا يثبت أنني لم أكتبها.. هذا ليس خطى ولن تجد توقيعي..

قال الملك:

- لو كنت رجلاً شريفا لوقعت باسمك. عدم وجود توقيع يعني أنك كنت تنوي عملا غير شريف!

هنا دوى التصفيق؛ فقد كان هذا أذكى ما قاله الملك اليوم.

وقالت الملكة:

هذا دليل إدانة قوى.. صاحت (أليس):

- بالعكس.. هذا لا يدل على شيء.. لماذا لا تقرءون الرسالة قبل أن تتكلموا؟

وضع الأرنب عويناته وسأل الملك:

- من أين أبدأ القراءة يا مولاي؟

قال الملك في جدية:

- ابدأ من البداية.. واستمر في القراءة حتى تصل إلى النهاية ثم توقف...

بدأ الأرنب يقرأ:

- قالوا لي إنك ذهبت لها..

وإنك أخبرته بأمري..

قال لهم أنني لم أذهب.

(ونحن نعرف أن هذا حقيقي)..

لو أنها حركت الأمور فماذا سيحدث لك.

أعطيتها واحدة.. وأعطوه اثنتين..

أنت أعطيتنا ثلاثا أو أكثر..

عادوا جميعا من عنده إليك..

برغم أنهم كانوا ملكي في البداية..

فكرتي هي أنك (قبل أن تصبها النوبة)..

عقبة وقفت بيننا وبينه وبينها.

لا تدعه يعرف أنها أحبتهم بشدة..

لأن هذا سر خطير..

يجب إبقاؤه بيني وبينك.

فرك الملك يديه وقال:

- هذا هو أهم دليل ظهر لنا.. فليقرر المحلفون الآن.. قالت (أليس) التي ازدادت حجما في اللحظات الأخيرة:

- فقط لو استطاع أحدهم أن يشرح معنى هذه الكلمات سأعطي ست بنسات لمن يشرح لنا معنى هذا لأنني متأكدة أنه لا معنى له.

قال الملك وهو يفرد الرسالة على ركبته ويتأملها:

- لو لم يكن لها معنى فهذا يوفر علينا الكثير من العناء، لكنى أشعر بأن لها معنى ما.. (أعطيتها واحدة.. وأعطوه اثنتين).. لابد أن هذا الكلام عن الكعك.. وعبارة (ونحن نعرف أن هذا حقيقي).. واضح أنه يتكلم عن المحلفين..

سألته (أليس):

- وما معنى (عادوا جميعا من عنده إليك)؟

أشار الملك إلى الكعك على المنضدة في انتصار وقال:

- الكلام عن الكعك طبعا.. لقد عاد لنا الكعك.. والآن ليصدر المحلفون قرارهم..

قالت الملكة:

- الحكم أولا ثم القرار..

صاحت (أليس):

- هذا كلام فارغ.. لا يوجد شيء اسمه الحكم قبل القرار..

- اقطعوا رأسها!

- ليس هذا بوسعكم.. أنتم مجرد أوراق لعب!

هنا ثارت قاعة المحكمة وماجت، وتطايرت أوراق اللعب من كل صوب في وجه (أليس).. راحت تبعد الأوراق عن وجهها حتى سقطت على الأرض..

هنا وجدت نفسها راقدة على ضفة النهر، ورأسها في حجر أختها التي كانت تمسح برقة بعض أوراق الشجر الجافة التي سقطت على وجهها..

قالت أختها:

- استيقظي يا (أليس).. ما كل هذا النوم؟

قالت:

- لقد رأيت حلما عجيبا.

وراحت تحكى لأختها تفاصيل المغامرة التي قرأتها أنت الآن.. طلبت منها أختها أن تسرع بالعودة لتلحق بموعد الشاي، لكن الأخت الكبرى نفسها ظلت حيث هي وحدها مستندة بذقنها على قبضتها، تراقب الشمس الغاربة.

بدأت تحلم بدورها.. كان حلمها يدور حول أيد رقيقة تلتف حول ركبتيها.. عيون لامعة متلهفة تنظر إليها.. كانت تسمع صوتها وترى رأسها يهتز محاولاً إبعاد خصلات شعرها عن عينيها.

امتلأ المكان بمخلوقات صغيرة جاءت من حلم (أليس).. الأرنب المذعور.. الطفل الخنزير. الملكة تأمر بقطع الرقاب..

هكذا ظلت مغمضة العينين تعرف أن كل ما عليها هو أن تفتح عينيها لترى الواقع الرتيب.. العشب يهتز بفعل الأنسام.. البركة تتموج.. أقداح الشاي ليست سوى قطيع أغنام يمر بقربها.. صرخات الملكة ليست سوى صيحات الراعي.. لا شيء من حولها سوى ضجة الريف المعتادة..

سوف تكبر (أليس) وتصير امرأة ناضجة، لكنها ستحمل في قلبها ذات الطفولة.. سوف تحكى قصصها للأطفال وتجعل عيونهم تلتمع شوقا لسماع المزيد.. سوف تتعاطف مع آلامهم البسيطة وتفرح لأفراحهم البسيطة.. تتذكر طفولتها وأيام الصيف السعيدة.

تمت

لويس كارول

1865

☆ ☆ ☆

عبر المرآة

الفصل الأول

بيت المرايا

شيء واحد كان مؤكدا: القطة البيضاء لا دخل لها في الأمر.. كان هذا خطأ القطة السوداء كلية.. كانت القطة الكبيرة تغسل وجه القطة البيضاء في الربع ساعة الأخير، لذا ترى أنه لم يكن لها دور في هذه الحادثة المؤسفة..

كانت (دينا) تغسل وجوه أولادها بالطريقة التالية: أولا تمسك الشيء المسكين من أذنه بيد واحدة، ثم تغسل الوجه كله باليد الأخرى بادئة من الأنف. لهذا كانت منهمكة في غسل وجه القطة البيضاء التي كانت صامتة تحاول أن تقر.. تدرك جيدا أن هذا لمصلحتها..

كانت (أليس) متكورة في مقعدها الكبير في الركن، نصف نائمة وتتكلم مع نفسها.. كانت القطة السوداء قد فرغت من الاستحمام واللعب بكرة الصوف، وقد راحت تتلوى حتى فكت الخيط عن نفسها.. هكذا امتلأت السجادة بالفوضى والعقد بينما القطة الصغيرة وسطها تلاحق ذيلها..

صاحت (أليس):

- أنت أيها الشيء الشقي!!

وأمسكت بالقطة وقبلتها لتجعلها تفهم أن هذا مشين.. ونظرت إلى القطة الكبيرة لائمة:

- كان عليك أن تعلميها الأدب يا دينا..

ثم عادت إلى المقعد، وواصلت الغزل الذي بدأته بينما قطتها الصغيرة تضع كفها على الصوف من حين لآخر كأنها

ترغب في المساعدة.. قالت لها (أليس):

- هل تعرفين ما المفترض غدا يا قطيطة؟ كنت ستعرفين لو وقفت في النافذة معي.. كانت دينا تنظفك فلم يكن هذا بوسعك. كان الصبية يجمعون الأخشاب لإشعال نار في الخلاء.. ثم ازداد البرد وسقطت الثلوج، من ثم رحلوا.. لن تتصوري مدى غضبي من الفوضى التي صنعتِها.. كنت على وشك أن أفتح النافذة وألقي بك للخارج في الثلج.. لقد استحققت هذا أيتها العزيزة الشقية! لقد ارتكبت غلطتين.. الغلطة الأولى هي أنك صرخت مرتين عندما كانت أمك تنظفك.. لا تقولي إن السبب هو أن عينك آلمتك.. هذه غلطتك. لا أحد يفتح عينيه أثناء الاستحمام.. الغلطة الثانية هي أنك بللت ذيلك باللبن عندما وضعت الطبق أمامها.. لكني لن أعاقبك الآن.. سأؤجل كل عقابك إلى يوم الأربعاء!

هل تسمعين الثلج إذ يضرب النافذة برقة يا قطيطة؟ أتساءل إن كان الثلج يعشق الأشجار لذا يقبلها بهذه الرقة.. ثم يغطيها برداء أبيض محكم، ويقول لها: نامي يا عزيزتي حتى الصيف.

عندما تصحو الأشجار في الصيف تلبس الأخضر وترقص.. كم أن هذا رائع! ليته حقيقي..

هل تلعبين الشطرنج يا قطيطة؟ لا أمزح.. كنت تراقبينني وأنا ألعب منذ قليل، وعندما قلت (كش مات) أصدرت قريرا.. دعينا نتظاهر بذلك.

أتمنى لو استطعت أن أحكى لك نصف عبارات (أليس) المعتادة، بدءا بكلمتها (دعينا نتظاهر).. ذات مرة أفزعت

مربيتها عندما صاحت فيها: مربيتي.. دعينا نتظاهر بأنني ضبع جائع وأنت قطعة عظم.

هكذا قالت للقطيطة:

- دعينا نتظاهر بأنك ملكة الأحمر.. لو جلست وثنيت يديك لصرت مثلها بالضبط [7]..

ورفعت تمثال ملكة الأحمر من على المدفأة ووضعته أمام القطيطة.. لكن هذا لم ينجح لأن القطيطة لم تستطع أن تطوى ذراعيها جيدا..

حملت القطيطة إلى المرآة كي ترى نفسها.. وقالت:

- لو أنك أصغيت إليّ جيدا لأخبرتك بكل أفكاري عن بيت المرايا.. أولا هناك غرفة ترينها عبر الزجاج.. تشبه غرفة معيشتنا بالضبط فيما عدا أن كل شيء مقلوب.. أراها بوضوح عندما أقف على مقعد.. أتمنى لو عرفت هل عندهم نار في الشتاء أم لا.. الكتب تشبه كتبنا لكن الكلمات مقلوبة.. لقد رفعت كتابا من كتبي فرفعوا كتابا يشبهه في غرفة المرايا.. ترى هل تحبين الحياة في بيت المرايا؟ هل يقدمون لك لبنا؟ لكن ربما لن تحبي لبن بيت المرايا.. لكم أتمنى لو استطعت دخول بيت المرايا.. أنا متأكدة من أنه يحوي أشياء رائعة.. دعينا نتظاهر بأن سطح المرآة ناعم يمكن اختراقه.. ولكن.. إن سطح المرآة يتحول إلى ضباب بالفعل يمكننا أن نجتازه!

بالفعل كان الزجاج يذوب كأنه ضباب فضي.

في اللحظة التالية كانت (أليس) قد اخترقت الزجاج لتصير في غرفة المعيشة في بيت المرايا..

أول ما فعلته هو أن تفحصت المدفأة لترى إن كانت هناك نيران.. سرها أن وجدتها..

- إذن سأكون دافئة هنا كما كنت في البيت القديم.. في الواقع سأكون في حالة أفضل لأن أحدا لن يلومني ويبعدني عن المدفأة..

من هنا كانت ترى الغرفة القديمة.. وبدا لها كل شيء فيها معتادا غير شائق..

أما الغرفة الحالية فكانت ساحرة.. الصور على الجدار بدت مليئة بالحياة.. الساعة فوق المدفأة صار لها وجه رجل عجوز يضحك لها..

قالت لنفسها:

- هم لا يعنون بتنظيف هذه الغرفة مثل القديمة..

لأنها وجدت الكثير من قطع الشطرنج على الأرض.. وفجأة أطلقت صيحة دهشة لأن قطع الشطرنج نهضت وراحت تمشى اثنتين اثنتين!

قالت لنفسها همسا كي لا تثير رعبهم:

- ها هو ذا ملك الأحمر وملكة الأحمر.. وها هو ذا الملك والملكة الأبيضان.. وهنا طابيتان تمشيان معا.. لكنى أشعر بأنهم لا يرونني.. بشكل ما أنا خفية.

هنا سمعت صوت شيء يحدث صريرا خلفها.. استدارت فرأت بيدقا أبيض يتدحرج ويركل.. راقبته بفضول لتعرف ما سيحدث بعد هذا.

صاحت الملكة البيضاء وهي تنطلق، حتى إنها أوقعت الملك أرضا:

- هذا صوت ابنتي! (ليلى) الصغيرة! ابنتي العزيزة! يا قطتي الملكية!

قال الملك:

- تفاهة ملكية!

قالها وهو يحك أنفه.. كان من حقه أن يتضايق لأنها أسقطته في رماد المدفأة..

كانت (أليس) راغبة في المساعدة، خاصة وأن (ليلى) كانت موشكة على الإصابة بنوبة من كثرة البكاء، لذا التقطت الملكة ووضعتها على منضدة جوار ابنتها المزعجة....

احتضنت الملكة ابنتها والتقطت أنفاسها ثم صرخت في الملك:

- عليك بالبركان!

نظر الملك إلى النار في حيرة وقال:

- أي بركان؟

التقطته (أليس) برقة ووضعته على المنضدة.. لكن قبل أن تفعل ذلك قررت أن تنفضه لأنه مغطى بالرماد..

قالت فيما بعد إنها لم تر أحدا مندهشا مثل الملك وهو طائر في الهواء بيد خفية، بينما يد خفية أخرى تنفضه من الرماد.. اتسعت عيناه أكثر فأكثر حتى إن الضحك غلبها.. اهتزت يدها فسقط على الأرض..

قالت له:

- كف عن إضحاكي بهذه التعبيرات فأنا غير قادرة على حملك..

لكنه لم يسمعها ولم يرها.

عندما وجد نفسه جوار الملكة راح يحكى لها في لهفة كيف أنه وجد نفسه طائرا في الهواء، فقالت له:

- اكتب هذا في مفكرتك قبل أن تنساه..

هكذا أخرج قلما وراح يخط في الدفتر الكبير.. أمسكت (أليس) بالقلم وكتبت (الفارس الأبيض ينزلق فوق محراك النار.. إنه لا يجيد التوازن)..

كان الملك مذهولاً لأن القلم يكتب من تلقاء ذاته، وقرأت الملكة ما كتب فقالت:

- هذا غريب.. هذا ليس تعبيرا عن مشاعرك..

بينما كان الملك يحكي عن دهشته وحيرته، وجدت (أليس) كتابا صغيرا على المنضدة فراحت تقلب صفحاته.. وجدته مكتوبا بلغة غريبة:

يكووريباج

ينباي يكووريباجلا نم سرتحا

صنتقت يتلا بلاخملا و نامضقي ناذللا ناكفلا..

بوجوجلا رئاط نم سرتحا

فيخملا شتانسردنبلا نمو..

للحظات أصابتها الدهشة ثم خطرت لها فكرة:

- هذه مرآة.. الكلمات معكوسة.. ولو وضعتُ الكلمات أمام المرآة لاستطعتُ قراءتها!

وضعت الورقة أمام المرآة فقرأت القصيدة التالية:

جابيرووكى

احترس من الجابيرووكي يا بني...

الفكان اللذان يقضمان والمخالب التي تقتنص..

احترس من طائر الجوجوب

ومن الباندرسناتش المخيف (8)

قالت (أليس) لنفسها:

- تبدو جميلة، لكن من العسير فهمها.. إنها تملأ رأسي بأفكار لكني لا أعرف ما هي..

ولم تعترف لنفسها بأنها لم تفهم أي شيء على الإطلاق:

ثم قالت لنفسها إن فرصتها في رؤية باقي البيت قد تضيع، لو لم تسرع برؤية الحديقة مثلا.. أسرعت تهبط الدرج بطريقة اخترعتها، هي أن وضعت أطراف أصابعها على الترابزين وانزلقت بخفة لأسفل من دون أن تلمس درجة سلم واحدة..

في النهاية هبطت شاعرة بالدوار، وسرها أن تجد قدميها على الأرض من جديد..

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

حديقة الأزهار الحية

قالت (أليس) لنفسها:

- يجب أن أرى الحديقة كلها.. لو مشيت في هذا الممر لارتقيت هذا التل، من ثم.. لكن لا.. لا يبدو أن هذا الممر يقود لأعلى التل.. لشد ما يتلوى! كأنه فتاحة زجاجة.. .. لكني سأستمر في المشي فيه لأرى..

لكنها وجدت أن الممر عاد بها للمنزل.. جربت أكثر من طريق لكنها في كل مرة تعود للمنزل.. أصابتها الحيرة وأنهكها التعب عندما وجدت في طريقها حوضا من أشجار السوسن.. قالت للأزهار:

- ليت بوسعكن الكلام! قالت زهرة في الحوض:

- نحن نستطيع الكلام فعلاً!

هنا بدأت أزهار الأقحوان في الكلام بصوت رفيع.. كلهن في صوت واحد، إلى أن صاحت زهرة السوسن بصوت عال:

- صمتا!!

ثم قالت مفسرة:

- يفعلن هذا لأنهن يعرفن أنني عاجزة عن الوصول إليهن.. قالت (أليس) للأزهار مهددة:

- لو لم تلزمن الصمت فلسوف أقتطف أول من تتكلم..

ساد الصمت وابيض وجه بعض الأزهار التي كانت وردية.. قالت زهرة السوسن:

- أحسنت! إن أزهار الأقحوان هي أسوؤهن.. ما إن تتكلم واحدة حتى تتكلمن جميعا..

سألتها (أليس):

- كيف تتكلمن جميعا بهذا الصوت الجميل؟ لقد كنت في حدائق كثيرة ولم أر قط زهرة تتكلم..

- تحسسي الأرض..

مدت (أليس) يدها وتحسست الأرض وقالت:

- هي صلبة جدا، لكني لا أعرف علاقة هذا بالكلام..

- في معظم الحدائق تكون الأرض ناعمة جدا بحيث تغرق الأزهار في نعاس عميق..

- لم أفكر في هذا قط.

- رأيي أنك لا تفكرين أبدا!

وقالت زهرة بنفسج:

- لم أر قط شخصا يبدو بهذا الغباء!

فضلت (أليس) أن تتحاشي الرد على هذه الإهانة وسألت:

- هل من أناس آخرين في الحديقة سواي؟

- هناك زهرة تشبهك نوعا، لكنها أكثر احمرارا وبتلاتها أقصر.. بتلاتها متلاصقة كزهرة الداليا..

- وهل تأتى هنا؟

- أخشى أنك ستقابلينها حالاً.. إنها شخصية شائكة! ه

نا قالت زهرة العايق:

- إنها قادمة.. أسمع خطواتها فوق الحصى!

التفتت (أليس) بسرعة فوجدت أن القادمة هي ملكة الأحمر لقد كبرت كثيرا عما كانت عند المدفأة.. إنها الآن أطول من (أليس) ذاتها!

قالت (أليس):

- سأذهب لأتكلم معها.

لأنها كانت مستمتعة بالكلام مع الأزهار، لكنها وجدت أن الكلام مع ملكة سيكون أفضل وأكثر رقيا..

اندفعت نحو الملكة ولدهشتها الشديدة وجدت أنها عند باب البيت من جديد.. فكرت قليلا ثم بدأت تمشى بظهرها!

نجحت الحيلة بشكل باهر... لقد وجدت نفسها أمام الملكة وأمام التل الذي حاولت كثيرا الوصول إليه من قبل..

سألتها الملكة:

- من أين أنت؟ إلى أين تذهبين؟ انظري لأعلى.. تكلمي بلطف.. ولا تعبثي بأصابعك.

أخبرتها (أليس) بأدب أنها ضلت طريقها، فقالت الملكة:

- طريقك؟ لا أفهم ما تقصدين.. كل الطرق هنا ملكي.. ماذا أتى بك هنا؟

ونظرت إلى ساعتها وقالت:

- أمامك دقيقة للرد.. افتحي فمك قليلاً عندما تتكلمين، ولا تنسى استعمال لفظة (مولاتي)..

قالت (أليس):

- كنت أريد أن أرى هذه الحديقة يا مولاتي..

- عندما تقولين (حديقة) أقول لك إنني رأيت حدائق تعد هذه بجانبها دغلا..

- وأردت أن أرتقي هذا التل..

- عندما تقولين (تل) أقول لك إنني رأيت تلالا يعد هذا بجانبها واديا..

تجرأت (أليس) وقالت:

- لكن هذا كلام فارغ..

- عندما تقولين (كلام فارغ) أقول لك إنني سمعت كلاما فارغا يعد بجواره هذا الكلام قاموسا علميا.

صعدت (أليس) مع الملكة إلى قمة التل، وألقت نظرة فهالها أن ترى أن الأرض مقسمة إلى مربعات صغيرة كأن هذه رقعة شطرنج..

هتفت في حماس:

- كأن العالم كله مقسم إلى رقعة شطرنج!! ما أجمل هذا! ليتني كنت قطعة من هذا الشطرنج.. لا يهم إن كنت بيدقا لا قيمة له، لكني بالطبع أفضل أن أكون ملكة..

قالت لها الملكة:

- في وسعك أن تكوني بيدق الملكة البيضاء بما أن (ليلى) أصغر من أن تلعب هذا الدور.. ستبدئين من الصف الثاني، لكن إذا وصلت الصف الثامن ستكونين ملكة..

لا تعرف (أليس) كيف أخذت الملكة بيدها، ولا كيف راحتا تركضان نحو الرقعة.. فقط كانت تتنفس بصعوبة. الغريب أنه مع كل هذا الركض لم يتبدل أي من معالم المكان، وخطر لأليس أن الأشجار تركض معهما.

في النهاية وجدت (أليس) نفسها جالسة على الأرض متقطعة الأنفاس.. ما أثار دهشتها أن الشجرة التي تجلس تحتها هي ذا الشجرة التي كانت هنالك عندما بدأت الركض.. قالت للملكة:

- في بلدي تتوقعين أن تذهبي إلى مكان ما إذا جريت بسرعة!

قالت الملكة

- لأنكم تجرون ببطء.. هنا تجرين بأقصى سرعة كي تبقى حيث أنت! كي تتحركي يجب أن تضاعفي السرعة.

ثم بدأت تقيس الأرض وتثبت مشابك تحدد بها الأماكن، وقالت لأليس:

- أول حركة لك تتحركين مربعين.. ثم تصلين إلى المربع الرابع.. هذا المربع يخص (تويدل دي) و (تويدل دام).. المربع الخامس ماء.. السادس يخص (هامتي دامتى).. (المربع السابع غابة لكن أحد الفرسان سيقودك.. المربع الثامن معنى أن نصير ملكتين..

فما إن قالت هذه الكلمات حتى وجدت (أليس) أنها اختفت من المكان.. لا تعرف هل طارت في الهواء أم سبحت في الماء.. فقط عرفت أنها بيدق وعليها التصرف على هذا الأساس..

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

تويدل دام وتويدل دي

كانت قد بلغت الغابة الظليلة فقالت لنفسها: على الأقل بعد كل هذا الجري، من المريح أن أدخل الـ... ماذا؟

لدهشتها لم تستطع أن تجد الكلمة..

- أن أدخل تحت الـ.. تحت الـ..

وقفت صامتة للحظات تفكر، وقالت لنفسها:

- حرف (ل).. أنا متأكدة من أن اسمها يبدأ بحرف (ل)!

هنا جاء ظبي صغير ونظر إلى أليس بعينيه اللطيفتين الواسعتين ولم يبد عليه أدنى رعب.. دنا منها فمدت يدها لتلمسه لكنه تراجع وإن ظل ينظر إليها.

سألها بصوت رقيق:

- ما اسمك؟

- ليتني أعرف! سألته بدورها:

- هل تعرف أنت اسمك؟

- سأفكر وأخبرك فيما بعد..

مشت معه وهي تلف ذراعها حول رقبته، حتى خرجا من الغابة وبلغا رقعة خالية من الأشجار، هنا وجدته يصيح وقد وثب في الهواء:

- أنا ظبي صغير! وأنت طفلة آدمية!

قالها ثم أطلق سيقانه للريح مبتعدا.

كانت تنظر إليه في تأثر لأنها فقدته بهذه السرعة، لكنها قالت لنفسها:

- على الأقل أعرف اسمي الآن.. (أليس)! لن أنساه. والآن.. أي طريق أتبع؟

لم يكن الأمر عسيرا لأن هناك إشارتين تشيران إلى ذات الطريق عبر الغابة.. وقد قررت أن تختار عندما يتفرع الطريق.. لكن هذا لم يحدث.. لأنه في كل نقطة يتفرع فيها الطريق كانت الإشارتان تشيران إلى الاتجاهين ذاتهما وقد كتب على واحدة (إلى منزل تويدل دام) والأخرى (إلى منزل تويدل دى)..

قالت (أليس) لنفسها:

- يبدو لي أنهما يقيمان في البيت ذاته.. لكني لن أطيل المكوث.. سأسألهما فقط عن طريق الوصول إلى المربع الثامن قبل أن يحل الظلام.

هكذا مشت وهي تكلم نفسها.. في النهاية قابلت رجلين بدينين.. وجدت نفسها مرغمة على أن تنظر إليهما ممعنة.. فلم يعد لديها شك في أنهما (تويدل دام وتويدل دى)..

☆ ☆ ☆

كانا يقفان تحت شجرة وذراع كل منهما حول عنق الآخر وقد عرفت على الفور كليهما، لأن الأول كان يحمل كلمة (دام) مزخرفة على ياقته، والآخر كان يحمل (دى)... وقدرت أن كليهما يحمل كلمة (تويدل) على خلفية الياقة.

كانا يقفان صامتين حتى إنها لم تعد تعرف إن كانا حيين هنا سمعت من يحمل اسم (دام) يقول:

- لو كنت تحسبيننا من الشمع، فعليك أن تدفعي.. لا أحد ينظر إلى تماثيل الشمع من دون أن يدفع..

وقال الآخر:

- بالعكس.. لو كنت تحسبيننا حيين فعليك أن تتكلمي...

قالت في حرج:

- أنا آسفة..

لكن كلمات أغنية سمعتها قديما راحت تتردد في ذهنها:

تويدل دام وتويدل دي..

ناويين على خناقة شديدة..

تويدل دي بوظ لصاحبه..

لعبته الجديدة

هنا غراب كبير ومخيف..

اسود زي الزفت تمام...

حط عليهم. خافوا وجريوا..

والعركة نسيوها كمان..

ثم سألتهما:

- كنت أسأل عن أفضل طريقة للخروج من الدغل. إن الليل يقترب..

لكنهما ظلا صامتين.. كأنهما تلميذا مدرسة بدينان.. ثم قال تويدل دام:

- عندما تزورين أحدا فعليك أولا أن تقولي: كيف الحال؟ ثم تصافحي صاحب البيت.

واحتضن الأخوان بعضهما ومد كل منهما يده الحُرّة ليصافحها لم تدر (أليس) بأية يد تبدأ، فمدت كلتا يديها تصافحهما معا.. في اللحظة التالية بدأ الجميع في الرقص في دائرة.. ووجدت نفسها تغنى أغنية لم تكن تعرفها من قبل، هي: أنا أرقص حول شجرة التوت..

لكن الأخوين كانا بدينين، ولم يقدرا على الاستمرار فتوقفا فجأة كما بدءا فجأة.. وسألها تويدل دى لاهثا:

- هل تحبين الشعر؟

- بعض الشعر. لكن.. أرجوكما أن تخبراني بطريقة الخروج من الدغل..

استدار لأخيه وسأله:

- هل أكرر لها؟؟ قصيدة (كلب البحر والنجار) هي الأطول..

واحتضن أخاه في حرارة وبدأ ينشد:

- كانت الشمس ساطعة و...

قاطعته (أليس) صائحة:

- لو كانت طويلة، فهل تمانع أن تخبرني بالطريق أولاً؟

ابتسم برقة وقال:

- كانت الشمس ساطعة.. تشرق بأقصى قوتها..

تغمر الموج بالضوء الجميل..

وكان هذا غريبا.. لأننا كنا في منتصف الليل..

كان القمر عابسا لأن الشمس لا مكان لها هنا..

قلة ذوق من الشمس.. أن تأتي لتضايقني أنا..

البحر كان مبتلا والرمال جافة كالرمال..

لا سحابة في السماء.. لأنه لا سحب في السماء..

لا طيور تطير في السماء. لأنه لا طيور تطير في السماء..

استمر في تلاوة القصيدة الطويلة جدا عندما سمعت (أليس) من الدغل المجاور صوتا كالهدير.. كأنه محرك بخاري.. أصابها الذعر لأنها اعتقدت أن هذا أسد يزأر.. وسألت:

- هل هذا أسد؟

قال (تويدل دي):

- بل هو ملك الأحمر يغط في نومه.. تعالى لتريه..

وأخذها كل واحد منهما من يده نحو الدغل.. وقال (تويدل دام):

- أليس منظره جميلاً؟

كان يضع طرطور نوم أحمر طويلاً وكان يرقد ككومة ويغط بصوت عال.. قالت (أليس):

- سوف يصيبه البرد من النوم فوق العشب المبتل قال تويدل دي:

- إنه يحلم.. وهل تعرفين ما يحلم به؟

. مستحيل أن أخمن..

- يحلم بك! وهل تعرفين ما يحدث لو كف عن الحلم؟

- لا أدرى..

- لن تكوني! أنت مجرد شيء في حلمه! لو استيقظ لاختفيت أنت كأنك شمعة!

- وماذا عنكما أنتما؟

- نفس الشيء!!!

صاحت (أليس):

- لكني حقيقية ولست حلما!

- لن تجعلي من نفسك حقيقة بالصراخ..

قالت والدموع تبلل عينيها:

- لو لم أكن حقيقية لما كان بوسعي الصراخ والبكاء..

- آمل أنك لا تحسبين هذه الدموع حقيقية..

هنا توقف عن الكلام، إذ رأى جوار شجرة شيئا أبيض صغيرا.. دقق النظر فإذا هي (شخشيخة) أطفال.. هنا بدأ في الصراخ وراح يضرب الأرض بقدمه:

- كنت أعرف هذا!! لقد تحطمت!

ونظر لائما إلى أخيه، وجلس على الأرض باكيا، وتوارى تحت مظلته..

جلست (أليس) جواره ووضعت يدها على ذراعه وقالت:

- لا يجب أن تبكي هكذا من أجل شخشيخة قديمة.

صاح تويدل دام:

- لكنها ليست قديمة.. ابتعتها أمس.. يا شخشيختي الجديدة الجميلة.

في هذا الوقت كان أخوه منهمكا في محاولة طي المظلة وهو داخلها.. كان هذا شبه مستحيل واستغرق وقتا كبيرا، وفي النهاية تمكن من أن يطويها بحيث لم يبق إلا رأسه، حتى خطر لأليس أنه يشبه السمكة.

قال أخوه:

- أعتقد أنك موافق على العراك؟

- بالتأكيد..

وعاد الأخوان من الغابة متأهبين بقطعٍ لا علاقة بينها من مفارش المناضد والسجاجيد وأغطية الأطباق.. وراحت (أليس) تعاونهما في ارتداء هذه الأشياء حتى صارا أقرب إلى حزمتين من الثياب القديمة..

راح تويدل دي يربط خوذته . التي كانت أقرب إلى سلطانية حساء:

- أخطر شيء يمكن أن يحدث للمرء في القتال هو أن يطير رأسه.. أنا في العادة شجاع جدا لكني اليوم أشعر بصداع..

قال أخوه:

- وأنا عندي ألم أسنان.. أنا أسوأ منك قالت (أليس) وقد وجدتها فرصة مناسبة للسلام:

- إذن نؤجل القتال ليوم آخر.

- لابد من العراك.. يمكن أن نتعارك حتى السادسة مساء ثم نتناول العشاء.. إن الظلام قد حل..

كان الظلام يزحف بسرعة في الواقع حتى إن (أليس) حسبت هناك عاصفة رعدية قادمة.. وقالت:

- الظلام آت وأشعر أن له جناحين!

- إنه الغراب!

كذا صاح الأخوان وسارعا بالفرار مذعورين..

هرعت (أليس) تتوارى في الدغل بين الأشجار، وقدرت أن حجم الغراب الكبير سيمنعه من الوصول إليها..

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

هامتي دامتي

وجدت (أليس) شالاً في الدغل الذي توارت فيه، فراحت تنظر حولها بحثا عن صاحبه.

هنا رأت ملكة الأبيض تندفع نحوها وقد فتحت ذراعيها. وقد بدت عليها اللهفة.. فقالت:

- أنا مسرورة لأنني كنت في الطريق.. لقد وجدته لك..

نظرت إليها الملكة في رعب ولم تعلق.. فقط راحت تردد لنفسها بلا انقطاع عبارة تشبه (خبز وزبد).. سألتها (أليس) في تهذيب:

- هل أنا أخاطب ملكة الأبيض؟

- نعم.. لكني لا أريد أن تخطبيني.

لم تجد (أليس) جدوى من الجدل وتصحيح الكلام.. فسألت الملكة:

- هل أضع لك الشال؟ إن شعرك بحاجة إلى التمشيط.. سوف أنتزع المشط الذي تكسر في خصلاتك.. أعتقد أنه ربما كان من الأفضل لو ظفرت بوصيفة تُعنى بثيابك..

- سوف يسرني أن آخذك لهذا الغرض.. أجرك بنسان كل أسبوع ومربى كل يومين..

- شكرا.. أنا لا أحب المربى.. على الأقل ليس اليوم..

- ليست لك مربى اليوم.. القانون يقضى بأن تصرف لك المربى أمس وغدا.. لا مربى اليوم..

- لكن لابد من لحظة تكون فيها المربي اليوم..

- لا.. لا.. القانون يقول إن المربي (كل يومين).. و (اليوم) ليس (كل يومين)..

- فعلاً لا أفهم..

- هذا بسبب اضطرارك للحياة بالعكس.. هذا يسبب دوارا في البداية.. هنا سوف تجدين كل شيء يعمل بالعكس.. لهذا مزية مهمة هي أن ذاكرتك تعمل في الاتجاهين!

- ذاكرتي تعمل في اتجاه واحد.. لم أجرب قط أن أتذكر شيئا لم يحدث بعد!

- إنها لذاكرة بائسة تلك التي ترغمك على تذكر الأشياء بعد وقوعها، مثلاً رسول الملك في السجن الآن.. حكم السجن سيصدر الأربعاء القادم.. وطبعا جريمته هي آخر شيء.. سوف تحدث فيما بعد!

- وماذا لو لم يرتكب جريمة؟

- سيكون هذا رائعا.. ألا ترين هذا؟

- وماذا عن العقاب؟

ألا تعاقبين أنت في كل الأحوال؟ سيكون الأجمل أن تعاقبي لكنك لا ترتكبين الأشياء التي عوقبت من أجلها.

وأخرجت قطعة من البلاستر اللاصق وراحت تلفه حول إصبعها وهي تصرخ باكية.. كان الدم ينزف من إصبعها فتعالى صراخها كأنه بوق بخاري.. فسألتها (أليس) وهي تسد أذنيها:

- هل جرحت إصبعك؟

- لم أجرحه بعد.. لكن هذا سوف يحدث.. عندما أثبت الشال على كتفي سوف ينفتح (البروش)..

وبالفعل قامت بتثبيت البروش فجرحت إصبعها. التفتت إلى (أليس) وقالت في انتصار:

- هل رأيت؟

- ولماذا لا تصرخين الآن؟

- لأنني صرخت من قبل، فما جدوى التكرار؟

هنا كان الضوء قد عاد.. يبدو أن الغراب قد رحل.. وسرت (أليس) لهذا..

سألت الملكة:

- هل يدك أفضل؟

- نعم.. أفضل بكثير.. بكثيييير.. إر إررررر إرررر

نظرت (أليس) إلى الملكة في دهشة فوجدت أنها ملفوفة بالصوف.. لم تفهم ما يحدث.. هل هذه فعلا فعلا نعجة؟ هل صارت تقف في متجر قديم وأمامها على الجهة الأخرى من الكاونتر نعجة؟ نعجة تغزل بإبرتي حياكة وتسألها:

- ماذا تريدين شراءه؟

قالت (أليس):

- لا أعرف.. لو سمحت لي بأن أنظر حولي أولا..

لاحظت ظاهرة عجيبة هي أنها كلما نظرت إلى رف وركزت عليه صار خاليا، بينما تزدحم الرفوف الأخرى!

كان هناك شيء ضخم أحمر يبدو أقرب إلى دمية، لكنها لم تستطع معرفة كنهه لأنه كان دوما فوق أو تحت الرف الذي تثبت عينيها عليه..

سألتها (أليس):

- أريد شراء بيضة.. كم ثمنها عندكم؟

- خمس بنسات لواحدة.. بنسان لاثنتين..

- هل تعنين أن اثنتين أرخص من واحدة؟

قالت النعجة:

- فقط عليك أن تأكليهما معا

قالت (أليس) وهي تخرج المال من حقيبتها:

- إذن سآخذ واحدة فقط

أخذت النعجة المال ووضعته في صندوق، ثم قالت لأليس:

- أنا لا أعطي البضاعة لزبائن، بل عليهم أن يأخذوها بأنفسهم.. يمكنك أن تأخذي البيضة من هناك..

كانت هناك بيضة على رف.. اتجهت لها (أليس) وهى تتساءل عن سبب هذا التصرف الغريب.. بدا لها أن البيضة تبتعد وتبتعد كلما دنت منها

كان المتجر مظلما وأثار دهشتها أن هناك مقعدا ذا جذور في الأرض، وأن هناك جدولاً..

ازدادت البيضة حجما أكثر فأكثر.. وصارت أكثر بشرية.. دققت أكثر فوجدت أن لها عينين وفما.. كان هذا هو (هامتي دامتي).. الرجل البيضة.. كان يجلس وقد وضع ساقا على ساق

فوق جدار عال ضيق بحيث إنها لم تفهم كيف يبقى متوازنا.. رفعت يديها متوقعة أن يسقط في أية لحظة، وقالت لنفسها:

- إنه يشبه البيضة فعلا..

قال بصوت خشن:

- إنه لمما يستفز المرء أن يناديه أحدهم ببيضة!

- لم أقل إلا إنك تشبه البيضة يا سيدي.. وبعض البيض رائع الجمال..

- وبعض الناس عديمو الشعور.

لم تشعر للحظة أن هذه محادثة فهو لم يوجه لها الكلام قط.

وقفت، وقالت لنفسها:

- هامتي دامتيى جلس على الجدار..

هامتي دامتي سقط سقطة عظيمة..

كل رجال الملك وكل خيول الملك..

لن يستطيعوا أن يعيدوه حيث كان..

- كفي عن الوقوف والكلام مع نفسك.. بل أخبريني باسمك ومهنتك.

اسمي (أليس)...

قاطعها:

- اسم غبي.. ما معناه؟ اسمي أنا يدل على شخصيتي..

- ألا ترى أنه من الأفضل أن تجلس على الأرض؟ هذا الجدار ضيق جدا..

- لو سقطت . وهذا غير وارد . فإن الملك وعدني.. وعدني بأن؟ بأن..

- بأن يرسل لك رجاله وخيوله ليعيدوك؟

- كيف لك أن تعرفي هذا ما لم تكوني جاسوسة؟

- أنا آسفة.. لكنه في الكتب..

- نعم.. نعم.. كتب التاريخ تحكى أشياء كهذه.. لابد أن هذا ما تطلقون عليه (تاريخ إنجلترا).. أنت تقابلين رجلا قابل الملوك وبرغم هذا هو متواضع..

وضحك ضحكة واسعة حتى إنها قالت لنفسها:

- لو اتسعت ضحكته أكثر لالتقى جانبا فمه خلف رأسه! معنى هذا أن يطير رأسه!

قال لها (هامتي دامتي):

- لكن هذه المحادثة سريعة جدا.. دعينا نختار موضوعا آخر.. كم عمرك؟

- سبعة أعوام وستة أشهر..

- سن غير مريحة.. كان يجب أن تتوقفي عن النمو في السابعة.. لكن فات أوان ذلك..

- الواحد لا يقدر على السيطرة على نموه..

- الواحد لا يقدر، لكن الاثنين يقدران..

قررت أن تغير الموضوع فقالت له:

- ما أجمل الحزام.. أ.. ربطة العنق.. الحزام... أ.. الذي ترتديه..

فكيف لها أن تعرف إن كان هذا الشيء يحيط ببطنه أم عنقه؟ قال لها في غيظ:

- من المستفز ألا تعرفي الفارق بين الحزام وربطة العنق.. إنها ربطة عنق أهداها لي الملك في يوم (لا عيد ميلادي Unbirthday)..

- لا أفهم.. ماذا تعنى بـ (لا عيد ميلادي)؟

- الهدية التي تقدمينها لشخص في يوم ليس عيد ميلاده طبعا.. هذا يمنحك 364 يوما في السنة تتلقين فيها هدايا.. بينما أنت لا تتلقين إلا هدية واحدة في العام يوم عيد ميلادك..

ثم نظر لها متأملاً، وقال:

- المشكلة هي أن وجهك مثل وجوه الناس جميعا.. عينان أنف في الوسط.. فم تحته.. لو كانت لك عينان على نفس ناحية الأنف.. أو كان فمك أعلى وجهك لربما جعلك هذا أفضل.

- لن يبدو هذا جميلا.

أغمض عينيه، وقال:

- انتظري حتى تجربي.

وقفت تنتظر أن يواصل الكلام لكنه لم يفعل.. في النهاية قالت له:

- وداعا

ثم ابتعدت

وقالت لنفسها:

- من بين كل المزعجين الذين..

لكنها لم تكمل العبارة لأن صوت تهشم عال دوى فاهتزت له الغابة كلها..

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

الأسد ووحيد القرن

ظهر جنود يركضون مثنى وثلاثا.. وفي النهاية امتلأت الغابة بهم.

قالت لنفسها إنها لم تر في حياتها جنودا يمشون بهذا الارتباك كانوا يدوسون بعضهم ويتعثرون.. ثم جاءت الخيول.. لها أربع أرجل لهذا استطاعت التوازن بشكل أفضل، لكنها برغم هذا كانت تتعثر وتسقط.

كانت فوضى عارمة حتى أنها شعرت بسرور لخروجها إلى العراء، حيث وجدت ملك الأبيض جالسا على الأرض منهمكا في كتابة شيء في مفكرته.

صاح في سرور إذ رآها:

- لقد أرسلتهم جميعا.. 4207 جنودا! لم أرسل كل الخيول لأن اثنين منها مطلوبان في اللعبة.. هل ترين أحدا عن بعد؟

- أرى.. لا أحد!

قال في حسد:

- تمنيت لو كانت عندي حدة البصر التي تسمح لي بأن أرى (لا أحد) بهذا الوضوح.. أحب حبيبي بحرف (السين) لأنه (سعيد).. أكرهه بحرف السين لأنه (سمج).. أطعمه (ساندوتشات).. اسمه (سيجا).. يعيش على (سفح)..

هنا وصل أحد رسل الملك وهو متقطع الأنفاس عاجز عن الكلام.. فقط راح وجهه يتقلص بخطورة..

سأله الملك:

- هل رأيت أحدا في الطريق إلى هنا؟

- لا أحد..

- أنت محق.. هذه الآنسة رأته كذلك.. ومن الواضح أن (لا أحد) يمشى أبطأ منك.. والآن وقد استرددت أنفاسك هلا قلت لي ماذا يحدث في المدينة؟

وضع الرسول يده على شكل بوق وقرب فمه من أذن الملك وقال:

- سأهمس به..

لكنه بدلا من أن يهمس صرخ:

- لقد عادا للأمر ثانية!! وثب الملك وصرخ:

- هل تسمى هذا همسا؟ لقد اهتز جسدي كأن زلزالاً مشى فيه! لو كررت هذا الفعل لأمرت بأن يطلوك بالزبد!

هنا تدخلت (أليس) سائلة:

- من اللذان عادا للأمر ثانية؟ قال الملك:

الأسد ووحيد القرن طبعا.. يتشاجران على التاج.. التاج الذي هو ملكي أنا! تعالي نر هذا..

راحوا يركضون نحو المدينة، وهي متلاحقة الأنفاس.. سألت الملك أثناء الجري:

- هل الرابح يفوز بالتاج؟

قال الملك:

- بالطبع لا يا عزيزتي..

في النهاية بلغوا المدينة حيث كان هناك زحام عظيم يتوسطه وحيد القرن والأسد يتصارعان.. كانت هناك سحابة غبار كثيفة حتى إنها لم تستطع معرفة من هو من.. كان الوحشان قد تعبا فجلسا يلتقطان أنفاسهما.. وطلب الملك من تابعه أن يقدم لهما بعض الخبز والكعك.

في النهاية نهض وحيد القرن مبتعدا ويده في جيبه، وحيّا الملك.. ثم مر بأليس.. هنا توقف واستدار يرمقها وعلى وجهه أعتى علامات الاشمئزاز:

- من.. من هذا؟

قال الرسول:

- هذا طفل وجدناه في الغابة اليوم.

- وحش رائع! وهل هو حي؟

- يمكنه الكلام..

- إذن تكلم أيها الطفل..

قالت (أليس) وهي لا تستطيع أن تمنع ابتسامة:

- هل تعرف؟ كنت أعتقد طيلة حياتي إن وحيد القرن وحش رائع بدوره..

جاء الأسد بدوره وكان منهكا محمر العينين.. فلما رأى (أليس) بدا عليه الاهتمام، وسأل:

- ما هذا؟

قال وحيد القرن:

- لن تقدر على التخمين..

- هل أنت خضر أم معدن أم حيوان؟

- هو وحش فريد من نوعه..

وجلس الوحشان يلتهمان الخبز البني بينما جلس الملك بينهما خائفا لا يشعر بالراحة، خاصة وأن عينيهما لم تفارق التاج على رأسه لحظة.

كانت (أليس) تحاول جاهدة تقطيع كعكة وضعوها أمامها. فكلما قطعتها بالسكين التأمت الأجزاء ثانية.. قال لها وحيد القرن:

- ليست هذه هي الطريقة المثلى لتقطيع كعكة في عالم المرآة.. قسميها على الأطباق أولا ثم اقطعيها بعد ذلك!

بدا هذا غريبا لأليس لكنها فعلته على كل حال..

هنا دوى صوت الطبول عاليا يصم الآذان..

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

إنه اختراعي أنا

جاء فارس يلبس الأحمر القرمزي على ظهر حصان، وهو يلوح بصولجان عملاق... ما إن دنا منها حتى توقف الحصان فجأة وطار من فوقه.. سقط على الأرض، وبرغم هذا قال لها:

- أنتِ أسيرتي!

في الواقع كانت خائفة عليه أكثر مما هي خائفة منه، فلما ركب حصانه من جديد واطمأن على السرج أوشك أن يكرر:

- أنتِ أسير...

لولا أن قاطعه صوت آخر.. فالتفتت أليس لترى من عدوها الجديد..

هذه المرة كان القادم فارسا أبيض دنا منها وأوقف حصانه كما فعل الأحمر.. هكذا وقف الفارسان يتبادلان النظرات بلا كلام..

- إنها أسيرتي كما تعلم..

- نعم.. لكني جئت وأنقذتها!

- إذن علينا أن نتقاتل من أجلها..

قالها الفارس الأحمر وأخذ خوذة من السرج، لها شكل رأس الحصان.. وبدأ الفارسان يتبارزان بعنف حتى إنها توارت خلف شجرة هربا من عنف القتال..

سرعان ما انتهى الفارسان من القتال، فحيا الفارس الأحمر خصمه وابتعد بجواده، بينما عاد لها الفارس الأبيض، وقال:

- كان نصرا رائعا، أليس كذلك؟

قالت له:

- لا أدرى.. أنا لا أريد أن أكون أسيرة أحدهم.. أريد أن أكون ملكة..

- ستكونين متى عبرت الجدول التالي.. مهمتي هي أن أوصلك بسلام إلى نهاية الغابة..

ساعدته على نزع خوذته العملاقة، ولاحظت أنه أغرب فارس رأته في حياتها.. كانت له عينان واسعتان وشعر مجعد عال. بينما يتدلى على صدره صندوق صغير.. لاحظ نظراتها، فقال:

- أرى أنك معجبة بهذا الصندوق.. إنه اختراعي أنا.. أحفظ فيه الثياب والشطائر.. أحمله مقلوبا حتى لا تدخله مياه الأمطار..

- لكن من الممكن أن تخرج محتوياته كذلك.. ألا تلاحظ أن الغطاء مفتوح؟

بدا عليه الضيق، وقال:

- لم ألحظ هذا.. إذن لابد أن الأشياء سقطت منه، ولم يعد للصندوق جدوى..

وكاد يلقى بالصندوق ثم بدا أن فكرة خطرت له فعلقه على غصن شجرة، قال لها:

- هل تعرفين لم فعلت هذا؟ خطر لي أن أتخذه عشا للنحل كي أظفر بالعسل.

- لكن لديك عش نحل معلقا بالسرج..

- عش نحل ممتاز.. لكن أية نحلة لم تدخله قط.. هناك في السرج مصيدة فئران كذلك.. لربما كانت الفئران هي التي تخيف النحل..

- وهل تتوقع أن تجرى الفئران على ظهر الفرس؟

- هذا لم يحدث لكن لو حدث فأنا مستعد له.. مثلاً هذه الدروع الواقية حول سيقان الفرس مخصصة كي تحميه من هجوم أسماك القرش.. هذا اختراعي أنا.. الآن هيا بنا لأن على أن أوصلك لنهاية الدغل..

هكذا مشت مع الفارس الذي لم يكن راكبا ممتازا.. كان يسقط من على صهوة الحصان باستمرار.. وغالبا ما كان يسقط ناحيتها؛ لذا قررت ألا تمشى بجانب الحصان.

عندما بلغا نهاية الغابة، قال لها:

- يبدو عليك الحزن؛ لذا سأغني لك أغنية اسمها (عيون الأسماك)..

لم تكن مهتمة على الإطلاق لأنها سمعت الكثير من الشعر في هذا اليوم، لكنها تظاهرت بالاهتمام:

- هل هذا هو اسمها؟

قال في ضيق:

- لا.. أنت لا تفهمين.. هكذا يدعى اسم الأغنية.. الاسم هو (الرجل العجوز العجوز)..

- إذن كان على أن أسألك: بم تدعى الأغنية نفسها؟

- لا.. هذا شيء مختلف الأغنية نفسها تدعى (طرق وأساليب)..

سألته في حيرة:

- إذن ما هي الأغنية؟

- نعم.. كنت على وشك أن أقول هذا.. الأغنية هي (الجلوس على الجدار)..

ثم أوقف الجواد وجعل المطر ينهمر على عنقه، ثم التمع وجهه الأحمق بضحكة بلهاء وراح يوقع اللحن بيده.. من بين كل ما رأته أليس في بيت المرايا من غرائب، فإن هذا كان أغربها وهو عالق بذهنها بعد أعوام.. مشهد الفارس وهو يدندن.. الحصان يحاول التحرر من لجامه.. الشمس الذهبية..

«حقولك كل حاجة أعرفها..

أنا شفت راجل عجوز عجوز..

قاعد على بوابة..

سألته: إنت مين يا عجوز؟

كانت إجابته غريبة..

قال: أنا بصطاد فراشات..

نايمة وسط الغيطان..

باعمل منها فطير..

وأبيع في السوق كمان..

كده باكسب أكل عيشي..

مع إنه مش كتير..»

عندما فرغ من غناء أغنيته ودعها ووعدها بأنها ستصبح ملكة عما قريب.. ابتعد وهي تراقبه، وسقط عن فرسه عدة مرات بينما هي تلوح له بالمنديل...

اجتازت الجدول الأخير فسقطت وسط حوض أزهار جميل..

هنا شعرت بشيء معدني ثقيل على رأسها..

- هل يمكن أن يكون قد جاء دون أن أشعر به؟ ورفعت يدها تتحسسه فوجدته كما توقعت.. كان فوق رأسها تاج ذهبي.

☆ ☆ ☆

الفصل السابع

الملكة أليس

قالت أليس:

- هذا عظيم! لم أتوقع أن أصير ملكة بهذه السهولة.. مولاتي. سأخبرك بما يعنيه هذا.

ونهضت من حيث رقدت فوق العشب لتمشى بوقار محاذرة أن يسقط التاج من فوق رأسها.. لم تشعر بدهشة لرؤية ملكة الأحمر وملكة الأبيض جوارها...

سألت ملكة الأبيض:

- من فضلك.. هل..

قالت الملكة في حزم:

- لا تتكلمي إلا إذا وجه لك أحد الكلام!

كانت أليس مولعة بالجدل؛ لذا قالت:

- لكن لو أطاع الناس هذه القاعدة، وظل كل واحد ينتظر أن يبدأ الآخر الكلام، فلن يقول أحد شيئا.

- سخيف! على كل حال تذكري أنك لن تكوني ملكة ما لم تمري بالاختبار الأخير الذي أرى أنه من الأفضل أن نبدأه حالا..

ثم قالت ملكة الأحمر لملكة الأبيض:

- أنت مدعوة على حفل العشاء الذي تقيمه أليس الليلة..

قالت أليس:

- لم أدر أن عليّ أن أقيم حفل عشاء.. لكن ما دام الأمر كذلك فعليّ أن أدعو الضيوف..

- نعم.. لكن أخشى أنك لم تتلقي دروسا كثيرة في آداب اللياقة

- اللياقة لا تُعلّم في الدروس. الدروس تعلمنا الجمع والطرح..

- إذن ما مجموع واحد وواحد وواحد وواحد وواحد وواحد؟

- لا أعرف.. لقد فقدت قدرة العد..

قالت ملكة الأحمر:

- هي لا تجيد الجمع.. لنر القسمة.. اقسمي رغيفا بسكين ما الناتج؟

- أعتقد..

- النتيجة خبز بالزبد.. تعالى نجرب الطرح.. خذي عظمة من الكلب.. فماذا يبقى؟

فكرت أليس، ثم قالت:

- لن تبقى العظمة على ما أعتقد.. الكلب لن يبقى لأنه سيجري ورائي ليعضني.. وأنا لن أبقى كذلك.

- إذن لن يبقى شيء؟ خطأ كالعادة.. أعصاب الكلب ستبقى..

- لا أفهم كيف.

قالت الملكة في انتصار:

- سوف يفقد الكلب أعصابه.. ثم يطاردك.. لهذا ستبقى أعصابه حيث فقدها..

سألتها ملكة الأحمر:

- ليكن.. لنجرب أسئلة أخرى.. كيف يصنع الخبز؟

- نأخذ بعض الدقيق و...

- من أين تجمعين الدقيق؟

- الدقيق لا يجمع.. إنه عبارة عن طحين القمح المزروع في..

- كم فدانا من القمح؟ لابد من الدقة.. تعالى نهوى على وجهها بالمراوح.. لابد أن رأسها سخن بعد كل هذا التفكير..

وراحت الملكتان تهويان بالمراوح على وجهها حتى تمنت لو توقفتا.. كان شعرها يطير في كل اتجاه..

بعد قليل أصابهما النعاس فطلبتا من أليس أن تغني لهما أغنية وتعبث في شعرهما.. وسرعان ما انزلقت الأولى على كتف أليس لتنام بينما تكومت الأخرى في حجرها..

قالت أليس لنفسها:

- لا أعتقد أنه حدث في التاريخ أن هناك من راح يعنى بملكتين نائمتين في الوقت ذاته!! لم يحدث في التاريخ أن وجدت ملكتان في الوقت ذاته..

راح الغطيط يتعالى ويتعالى حتى أنها بدأت تشعر أنه لحن، وأن له كلمات..

كانت غارقة في متابعة الصوت، حتى أنها لم تدر كيف ولا متى وجدت أنها تقف أمام باب كبير كتب عليه (الملكة أليس).. كان هناك جرس على اليمين كتب عليه (جرس الزوار) وجرس على اليسار كتب عليه (جرس الخدم).. لم تدر أي جرس تدق لأنها ليست ضيفة ولا هي من الخدم..

في هذه اللحظة انفتح الباب وظهر مخلوق له منقار طويل، وقال:

- لا دخول حتى الأسبوع بعد القادم.. ثم أغلق الباب بعنف في وجهها..

دقت الباب بعنف أكثر فانفتح، وسمعت من الداخل صوت تهليل وغناء:

- املئوا الأقداح بأسرع ما يمكن..

ضعوا القطط في الشاي والفئران في القهوة..

وحيوا الملكة أليس ثلاث مرات في ثلاثين!

وتصاعد التهليل، فقالت لنفسها:

- ثلاثون في ثلاثة.. يعني تسعين مرة.. ترى هل هناك من يعد؟

ساد الصمت من جديد، وتصاعد صوت يقول:

- املئوا الأقداح بصمغ العسل أو الحبر..

أو أي شيء آخر سائغ شرابه..

امزجوا الرمل والتفاح والصوف..

وحيوا الملكة أليس ثلاث مرات في ثلاثين!

من جديد تصاعد التهليل وهي تجتاز القاعة حيث المائدة الطويلة التي تراص حولها نحو خمسين من الضيوف.. عينات غريبة جدا حتى إنها سُرّت لأنهم جاءوا من تلقاء أنفسهم فلم تكن لتستطيع دعوة هذا الخليط العجيب.

في صدر القاعة كانت ثلاثة مقاعد وقد احتلت ملكتا الأبيض والأحمر اثنين منها.. هكذا احتلت هي المقعد الأوسط شاعرة بعدم الراحة..

قالت ملكة الأحمر وهي تشير إلى طبق حساء أمام (أليس) فيه ركبة:

- هذا هو المفصل.. أقدم لك المفصل يا أليس.. أيها المفصل.. هذه هي أليس..

وجدت أليس المفصل في طبقها فلم تعرف ما تفعل.. رأته ينحني لها محييا فانحنت له ولم تدر أتخاف أم تضحك.. سألت أليس الملكة وهي تمسك بالشوكة والسكين:

- هل تريدين شريحة منه؟

قالت الملكة:

- ليس من التهذيب أن تقطعي بالسكين من تعرفت عليه.. ارفعوا المفصل!

هكذا رفعت الطاهية الطبق وجاءت ببودنج برقوق..

قالت أليس:

- لا تقدميني للبودنج من فضلك وإلا فلن أظفر بشيء يؤكل على العشاء..

وقطعت شريحة منه، فقال البودنج:

- يا للفظاظة! لا أعرف ما ستفعلين لو أنني قطعت شريحة منك!

هكذا وضعت أدوات الطعام ولم تجسر على المزيد..

هنا وكما قالت (أليس) فيما بعد بدأت أشياء عجيبة تحدث في الوقت ذاته..

استطالت الشموع الموضوعة على المائدة إلى أن بلغت السقف كأنها غابة فوقها ألعاب نارية.. الزجاجات أخذت كل واحدة طبقين كأنهما جناحان، وشوكتين كأنهما قدمان، وبدت كل واحدة كالطائر..

سمعت ضحكة بجوارها فاستدارت.. بدلاً من الملكة وجدت المفصل الذي كانت ستأكله.. وسمعت صوتا من سلطانية الحساء فنظرت لترى الملكة تضحك، قبل أن تغطس في الحساء..

صاحت أليس:

- لم أعد أتحمل هذا..

وشدت شرشف المائدة مرة واحدة، وسرعان ما تكومت الأطباق والكئوس وأدوات الطعام في كومة واحدة على الأرض.. واستدارت إلى ملكة الأحمر لتلومها باعتبارها المسئولة عن كل هذه الفوضى، لكنها لم تكن هناك.

كانت قد انكمشت إلى حجم دمية صغيرة تجرى هنا وهناك فوق المائدة مطاردة شالها.

لم تندهش لكثرة ما رأت من غرائب. أمسكت بالدمية في غل بينما هي موشكة على الوثب فوق زجاجة على المائدة، وراحت تقول لها:

- سوف أهزك إلى أن تصيري قطة! سوف أهزك إلى أن تصيري قطة!

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن

الهز

إذ قالت هذا أمسكت بها وراحت تهزها أماما وخلفا بكل قوتها لم تقاوم الملكة على الإطلاق.. فقط ضمر وجهها.. اتسعت عيناها واخضرتا..

وبدا أنها تصغر وتصغر..

تسمن وتستدير..

ثم...

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع

الصحوة

فإذا بها في النهاية قطيطة فعلاً..

☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

من حلم بهذا

قالت أليس:

- جلالتك يجب ألا تقري بصوت عال كهذا..

كانت تكلم الملكة باحترام لكن ببعض الحزم. ثم أضافت:

- لقد أيقظتني! يا له من حلم جميل! كنتِ معي فيه يا قطيطة..

من العادات غير المرضية لدى القطط أنك مهما قلت لهن يصدرن قريرا..

- لو كن يصدرن قريرا بمعنى (نعم) و (مياو) بمعنى (لا) لكان بوسعنا إجراء حوار.. لكن كيف تتحاور مع شخص لا يستعمل إلا كلمة واحدة؟

زحفت أليس على ركبتيها تفتش بين قطع الشطرنج حتى وجدت ملكة الأحمر، فوضعتها أمام القطيطة، وقالت للقطيطة:

- اعترفي أنك كنت هذه الملكة!

لكن القطة - كما حكت أليس لأختها فيما بعد - تحاشت النظر للملكة.. بدت غير راغبة في النظر كأنها خجلي من نفسها..

نظرت أليس إلى القطيطة البيضاء التي كانت (دينا) منهمكة في تنظيفها وقدرت أنها كانت الملكة البيضاء.. لهذا كانت غير مهندمة في الحلم. ولكن من كانت دينا في الحلم؟

- هل كنت (هامتي دامتي) في الحلم يا دينا؟ أعتقد هذا لكن لا تقوليه لصديقاتك بعد لأنني لست متأكدة..

ثم تذكرت الحلم، فقالت للقطيطة:

- أجمل ما كان في هذا الحلم هو أنني سمعت كمية هائلة من الأشعار كلها تحتوى السمك.. هناك قصيدة (كلب البحر والنجار).. سوف أحكيها لك وأنت تتناولين الإفطار، ولسوف تشعرين بأنك تأكلين مأكولات بحرية..

السؤال الحقيقي هو: من الذي حلم الحلم؟ هل هو أنا أم ملك الأحمر؟ كان هو جزءا من حلمي وكنت أنا جزءا من حلمه.. كنت أنت زوجته يا عزيزتي لذا تعرفين الحقيقة...

لكن القطيطة واصلت لعق كفها ولم تعلق بشيء.. ترى ما رأيك أنت؟

قارب تحت السماء المشمسة..

يمضي حالما للأمام..

في ليلة من شهر يوليو..

ثلاثة أطفال بعيون شغوف وآذان ملهوفة..

تمنوا سماع قصة بسيطة..

لقد شحبت تلك السماء..

وماتت الذكريات والأصداء..

واغتالت ثلوج الخريف شهر يوليو..

ما زال خيال أليس يلاحقني..

تحت السماوات..

لا تراها عين صاحية أبدا..

بينما الصبية في أرض الأحلام يعيشون..

والأيام تمضي يحلمون..

وبينما الصيف يفنى يحلمون..

للأبد يسبحون مع التيار..

الحياة..

ما قيمتها من دون أحلام؟

☆ ☆ ☆

لويس كارول

1872

أليس في بلاد العجائب

أحيانا ما تترك موهبة بعض الكتاب لمسة لا تمحى على الأدب العالمي، وربما على الوجدان الشعبي ذاته.. بالنسبة لأديب اليوم (لويس كارول)، يظل الوجدان الغربي يحمل صورة الرجل البيضة الجالس على الجدار، والزجاجة التي كتب عليها (اشربيني)، وحتى بالنسبة لقارئ العربية تظل فكرة اجتياز سطح المرأة لدخول عالم الأحلام باقية للأبد.

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- Do cats eat bats وهي من الألعاب اللفظية التي يمتلئ بها أدب لويس كارول.. للأسف تفسد الترجمة الجرس اللفظي لهذه العبارات..

[←2]

- حوالي 38 سنتيمترا.

[←3]

- أين قطتي؟

[←4]

- طائر يوحي بالغباء، ولكن الاسم كذلك تورية من (كارل) ليذكرنا بالاسم السري الذي أطلقه التلاميذ عليه..

[←5]

- هنا لعب على تشابه لفظة *Tale* بمعنى (حكاية) و *Tail* بمعنى (ذيل). وهو تشابه يصعب نقله إلى العربية.

[←6]

- كالعادة.. تلعب على التشابه بين لفظتي Mine بمعنى (منجم) و Mine بمعنى (ملكي)..

[←7]

- يبدو أن لوني قطع الشطرنج السائدين في ذلك الوقت كانا الأحمر والأبيض بدلاً من الأسود والأبيض كما اعتدنا.

[←8]

- ترجمة القصيدة مستحيلة لأنها مكونة من كلمات اخترعها لويس كارول بعبقرية، ولا وجود لها في الإنجليزية.. دخلت لفظة (جابيرووكي JABBERWOCKY) قواميس اللغة الإنجليزية بعد هذه الرواية، لتدل على الكلام الذي يوحي بأن له معنى لكن لا معنى له على الإطلاق.

روايات عالمية للجيب 66



قلعة الأسرار

تأليف : هوراس والبول
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (66)

قلعة الأسرار

تأليف: لويس كارول

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف

الاسم الأصلي لهذه الرواية هو (قلعة أوترانتو: قصة قوطية). لهذه الرواية أهمية أدبية خاصة، هي أنها أول رواية رعب قوطي في التاريخ، بل إن تعبير (رعب قوطي) قد سُكَّ لأول مرة في عنوانها..

(هوراس والبول Horace Walpole) شخص فريد من نوعه، فهو شخصية سياسية مهمة (لو بحثت عنه على شبكة الإنترنت لوجدت المعلومات الأساسية تخصه كسياسي) وأرستقراطي ومهندس معماري وكاتب شهير.

ولد الرجل في لندن عام 1717 م وتعلم في كمبردج، لكنه تركها دون الحصول على شهادة، وهو تصرف معتاد بين أوساط النبلاء وقتها، وصار يحمل لقب (إيرل أورفورد) وعضوًا في البرلمان. وقد صمم بيتًا له في (ستروبيرى هيلز) بطراز معمارى فريد، هو الذي أطلق عليه مصطلح (الطراز القوطي)، وهو يختلف تمامًا عن الطراز الكلاسي المميز لهذه الفترة.. معنى كلمة (قوطي) حرفيًا هو جرماني أو تيوتوني، وهو طراز معماري شهير وجد في غرب أوروبا في القرن الثاني عشر، ويمتاز بالأقواس المدببة والأعمدة والقباب.. إنها تلك القلاع الرهيبة التي يعيش فيها مصاصو الدماء في الأفلام.

في ذات العام الذي اخترع فيه (جيمس وات) المحرك البخاري لتبدأ الثورة الصناعية - وهو العام 1764 م - كتب (والبول) قصة (قلعة أوترانتو The Castle of Otranto) التي تقرؤها اليوم، لتكون نموذجًا للأدب القوطي الذي ساد القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وهو ضرب من الأدب الرومانسى المولع بالغموض. إنه رعب الكوابيس؛ حيث القلاع

المظلمة والبروق والرعود والنفوس المعقدة المجنونة. وكلمة (الرومانسية القوطية) في حد ذاتها تمثل مزجًا بين تأثيرين مهمين متناقضين في أوروبا: الإمبراطورية الرومانية، والقبائل القوطية التي تحرشت بها.

إن الثورة الرومانسية أنتجت الرواية الاجتماعية المليئة بالمشاعر ورواية الرعب القوطية معًا، والمبدأ واحد؛ ألا وهو رفض أسس المجتمع العاقل.

يقول والبول إنه استلهم روايته من كابوس مخيف رآه وهو نائم في ذلك البيت القوطي الذي ابتناه في (ستروبيرى هيلز). هكذا نهض وظل يكتب.. أحيانًا كان يكتب من السادسة صباحًا حتى الواحدة من صباح اليوم التالي، وحتى تسقط ريشة الكتابة من يده المرهقة.

نشر الطبعة الأولى من الرواية تحت اسم مستعار هو (مورالتو)، ومع زعم أنه مؤلف إيطالي كتب هذه الرواية بلغته، وقد تم العثور عليها لدى أسرة بريطانية شمال البلاد وتمت ترجمتها. أي إن (والبول) اخترع شخصية مؤلف إيطالي لا وجود له، وزعم أن هذه الرواية مترجمة، وهو ما يشبه ما قام به (ابن المقفع) في (كليلة ودمنة) التي زعم أنها مترجمة بالكامل عن الهندية[1]، كما يشبه عادة كاتب رعب آخر هو (ستيفن كنج) في تقديم بعض رواياته تحت اسم (ريتشارد باكمان).

تحمس النقاد للقصة كثيرًا وكتبوا عنها مرحبين، ووصفوا (والبول) بأنه مترجم ممتاز، لكنه أعلن في الطبعات التالية عن الحقيقة وعن كونه مؤلف القصة الوحيد. هكذا اكتشف النقاد فجأة أن القصة رديئة ركيكة!

على كل حال، كانت رواية (والبول) هي الجذوة التي أشعلت موهبة الكتابة لدى طابور من الأسماء، منها (آن راتكليف) و(مارى شيللى) و(برام ستوكر).. إلخ. ومن الطريف أن تطالعها اليوم؛ لأنها تبدو كأنها كتيب تعليمي لمن يرغب في كتابة الأدب القوطي، أو كأن (والبول) يحاكي المدرسة التي أسسها محاكاة ساخرة.. طوفان من المواقف الميلودرامية والمصادفات الفاجعة في فترة ثلاثة أيام فقط!. وقد حفرت هذه القصة الكثير من القوالب الجاهزة في الأذهان؛ منها البطلة الشفافة الرقيقة التي تفقد وعيها عشر مرات في الساعة، والتي تركض شاحبة خائفة في ممر طويل، والقلعة المرعبة التي تضربها البروق طوال الوقت، ولا تكف الريح عن الصفير في أروقتها.. إلخ...

قام والبول بجولات كثيرة في أوروبا مع صديق له شاعر يدعى (جراى)، وقد وصف هذه الرحلة في مذكراته. إن خطابات (والبول) ومذكراته تمثل ثروة أدبية ضخمة لا يمكن تصورها، خاصة لو عرفنا أنه ترك لنا ثلاثة آلاف خطاب!.. في أحد خطاباته ابتكر كلمة serendipity التي دخلت قواميس اللغة الإنجليزية بعد ذلك، والتي تعنى (موهبة العثور مصادفة على المفاجآت السارة!)، وقد نحتها من اسم رواية هي (أمراء سرنديب الثلاثة). يقول في مذكراته عبارة عميقة وشهيرة جدًّا: «هذا العالم كوميديا للذين يفكرون.. ومأساة للذين يشعرون». لم يتزوج قط، وعاش في ذلك البيت المخيف طوال حياته حتى توفي عام 1797 م، وبهذا كان آخر إيرل لـ (أورفورد).

د. أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7556

مقدمة الطبعة الأولى ([2])

تم العثور على العمل التالي في مكتبة أسرة كاثوليكية عريقة تعيش شمال إنجلترا. وقد طبع في (نابولي) في العام 1529 م. الأحداث الأساسية تعرب عن المعتقدات الشائعة في أشد عصور المسيحية ظلامًا، لكن الأسلوب خالٍ مما ينم عن البربرية. وقد كتبت الرواية بلغة إيطالية غاية في النقاء.

لابد أن القصة كتبت بين عامي 1095 م، وهو تاريخ أول حملة صليبية، والعام 1243 م تاريخ آخر حملة. من الواضح ان أسماء الأبطال خيالية، وربما تم تغييرها عمدًا. واكبت هذا العصر حرب شعواء على الخرافات تزعمها المصلحون، ولربما كان من المحتمل أن أحد الرهبان الأذكياء قرر أن يحارب المجددين، مستغلاً مواهبه القصصية كي يخلق جوًّا من الخرافة والخوارق يرضى مزاج العامة. إنها مهمة أتمها ببراعة؛ لأن هذا العمل أقوى تأثيرًا في عقول مئات من العامة، من كل ما كتب من عصر لوثر حتى اليوم.

مهما كان غرض المؤلف، فليس بوسعنا إلا أن نقدمه للجمهور اليوم كوسيلة تسلية، ليس إلا.. كانت تلك العصور المظلمة تمتاز بالخرافة، لدرجة أن أي مؤلف ما كان ليكون أمينـًا مع مجتمعه إن لم يقدم هذه القصص، وحتى لو لم يؤمن بها فعليه أن يقدم أبطال قصته مؤمنين بها.

من الطبيعي أن يكون المترجم متحيزًا للكتاب الذي يترجمه، لكن القراء غير المتحيزين قد يكون إعجابهم أقل بهذا العمل مني. إلا إنني برغم هذا لست غافلًا عن عيوب المؤلف، وتمنيت لو كانت العظة الأخلاقية أكثر نفعًا من هذه: خطايا الآباء يدفع ثمنها أولادهم وأحفادهم حتى الجيل الثالث أو الرابع.

أتساءل إن كان الطموح في ذلك العهد يمكن أن يتوقف بسبب الخوف من عقاب كهذا؟ وبرغم هذه العيوب فإنني أتوقع أن تروق القصة لقارئ الإنجليزية، فإن حققت النجاح الذي أصبو إليه فإنني أعد بأن أقدم للقراء النص الإيطالي الأصلي، وإن كنت أخشى أن يجلب على هذه الترجمة الكثير من الانتقادات. إن لغتنا الإنجليزية تفتقر إلى سحر الإيطالية بتنوعها وتناغمها. من العسير في الإنجليزية أن تحكى شيئًا من دون أن تهبط بالعواطف جدًّا أو ترتفع بها جدًّا، لكني حاولت جهدي، ويؤسفني أن مؤلف هذه القصة لم يكرس موهبته لما خُلِقت له فعلًا: المسرح.

لن أعطل القارئ أكثر من هذا، لكني أقول: إنه برغم أن الأحداث والشخصيات تخيلية، فإنني أعتقد أن هناك أرضية واقعية لهذه القصة. أعتقد بلا شك أن مسرح الأحداث قلعة موجودة فعلًا. وثمة فقرات توحي بأن المؤلف يصف بناية يراها عيانًا.

هذا قد يغرى البعض بالبحث عن القلعة الحقيقية التي تمت فيها الأحداث، فإن كانت كارثة قد حلت بها كما توحى الأحداث، فهذا يزيد من شغف القارئ بالقصة وجاذبيتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

كان لدى (مانفريد) أمير (أوترانتو) ابن وابنة. الثانية كانت عذراء بارعة الحسن في الثامنة عشرة من عمرها، واسمها (ماتيلدا). الأول كان أصغر منها بثلاث سنوات ويدعى (كونراد)، وكان فتى عاديًّا لا يبشر بشيء لكنه كان حبيب أبيه، الذي لم يبد أي حب نحو ابنته. وكان (مانفريد) قد اتفق على زواج ابنه من ابنة ماركيز (فيشنتسا) واسمها (إيزابيلا) التي اصطحبها مرافقوها إلى (مانفريد). وقد اتفق على الزواج بمجرد أن تسمح حالة (كونراد) الصحية المتدهورة.

كان (مانفريد) متوجسًا بصدد حالة ابنه المتدهورة، لكنه لم يقل شيئًا. لكن زوجته (هيبوليتا) - وهي امرأة طيبة - كانت تجسُر على ذكر خوفها من تزويج ابنهما في هذه السن المبكرة، خاصة مع صحته الواهنة، لكنها لم تكن تتلقى إلا ردود أفعال تتعلق بخصوبتها، وهي التي لم تمنح زوجها سوى طفل واحد.

لكن معارف الأمير كانوا أقل تكتمًا في كلامهم، وقد اعتقدوا أن سبب العجلة في إتمام الزواج، هو خوف الأمير من تحقق نبوءة قديمة تقضي بأن القلعة وسيادة (أوترانتو) سوف تغادر الأسرة إلى أسرة أخرى، حينما يكبر المالك الحالي إلى حد أن تضيق عليه.

كان من الصعب فهم شيء من هذه النبوءة، والأصعب فهم علاقتها بالزواج. لكن الناس كانوا غير مستعدين للتخلي عن رأيهم.

تقرر أن تكون خطبة (كونراد) الصغير في عيد ميلاده.. وتجمع الحضور في كنيسة القلعة، وتأهبوا للقداس الاحتفالي، لكنهم لم

يجدوا كونراد نفسه. كان (مانفريد) نافد الصبر، وهو لم ير ابنه ينسحب؛ لذا أرسل أحد مرافقيه ليستدعي الأمير الصغير.

هُرِع الخادم إلى جناح (كونراد) وعاد جريًا متقطع الأنفاس وعيناه جاحظتان.. لم يقل شيئًا بل أشار إلى القصر.

أصيب الموجودون بالذعر والذهول، ولم تدر الأميرة (هيبوليتا) ما أصاب ابنها، لكنها فقدت وعيها من الذعر. أما (مانفريد) فكان أكثر تماسكًا وإن ضايقه هذا التعطيل للزفاف، وسأل عما هنالك.. لم يرد الخادم. فقط ظل يشير إلى الفناء.. وبعد جهد استطاع أن يقول:

- « الخوذة!. آه!.. الخوذة! »

جرى بعض المدعوين إلى الفناء، فسمعوا من هناك صرخات وجلبة محيرة.. وبدأ (مانفريد) يتوتر لأنه لا يرى ابنه، وجرى ليعرف بنفسه سبب هذا الارتباك.

بقيت ماتيلدا جوار أمها، وفعلت إيزابيلا الشيء ذاته. والحقيقة أن ماتيلدا لم تكن تحمل حبًّا كبيرًا للعروس.

كان أول ما وقعت عليه عينا (مانفريد) هو حشد من الخدم يحاولون رفع ما بدا له كجبل من الريش.. لم يصدق هذا الذي رآه.

- « ماذا تفعلون هنا؟.. وأين ابني؟! »

هنا تعالت الأصوات:

- « رباه!.. الأمير.. الأمير!.. الخوذة. الخوذة! »

صدمته هذه الأصوات الحزينة، وشعر بتوجس لا يعرف سببه؛ لذا مشي مسرعًا.. لكن يا له من مشهد تقع عليه عينا أب!

رأى ابنه ممزقًا إلى أشلاء، شبه مدفون تحت خوذة عملاقة.. أكبر بعشر مرات من أية خوذة وقعت عليها عينا بشر.. وقد ازدانت بالريش..

كان المشهد رهيبًا ولم يدر أحد كيف حدث.. لقد عجز الأمير عن الكلام لغرابة ما يراه..

راح يحدق في المشهد متمنيًا أن يكون (هلاوس)، ولم يستطع أن يستوعب ما خسره. راح يتفحص هذه الخوذة القاتلة، فلم تقدر أشلاء ابنه على تشتيت اهتمامه ودهشته من تلك الأعجوبة التي يراها..

وكان الناس يعرفون كَلفه بالأمير الصغير؛ لذا لم يستطيعوا فهم سبب هذا الصمت الذي حل به كأنما البرق قد ضربه.. نقلوا الجثة إلى الردهة دون أن ينتظروا تعليمات من (مانفريد).

كان أول شيء قاله وهو شارد الذهن:

- « اعتنوا بالليدي إيزابيلا.. »

هرع الخدم إلى العروس التعسة فساعدوها كي تذهب إلى جناحها، وهي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة.

راحت (ماتيلدا) تُعنى بأمها ولم تفكر إلا في تخفيف آلام أبويها، أما إيزابيلا التي كانت (هيبوليتا) تعاملها كابنة لها، والتي كانت ترد هذا الجميل بامتنان وحب، فقد كانت راغبة في تعزية (ماتيلدا) بدافع الصداقة، لكنها لم تشعر نحو وفاة (كونراد) الصغير إلا بالرثاء.. ولم تشعر بخسارة كبيرة لفقد زيجة لم تعدها بالسعادة، سواء من حميها (مانفريد) أو من عريسها صغير السن. كان حموها يبعث فيها الرعب بسبب غضباته غير

المبررة، برغم أنه كان يعاملها بتساهل يختلف عن معاملته للأميرتين اللطيفتين هيبوليتا وماتيلدا.

نقلت النساء الأم الثكلى إلى فراشها، بينما بقى (مانفريد) ينظر إلى الخوذة، غير مبال بالواقفين حوله.. كان يطرح أسئلة لكنه لم يتلق إجابات.

وسط هذه الحيرة كان هناك فلاح شاب قيل إنه من قرية مجاورة، لاحظ أن الخوذة تشبه تمامًا تلك الموجودة على رأس تمثال بالرخام الأسود لألفونسو الطيب.. أحد أمراء الفلاحين. وهذا التمثال موجود في كنيسة (القديس نيكولس).

هتف (مانفريد) وهو يمسك بالفلاح الشاب من ياقته:

- « أيها الوغد!.. ماذا تقول؟.. كيف تتلفظ بهذه الخيانة؟ سوف تدفع حياتك ثمنًا! »

لم يفهم الواقفون سبب غضب الأمير، ككل شيء رأوه. الفلاح الشاب نفسه كان مذهولاً لا يفهم لماذا أثار غضب سيده، لكنه حرر نفسه من قبضة سيده في خليط من التواضع والكبرياء، وانحنى في احترام وسأل عن جريرته. إلا إن (مانفريد) أمر بالقبض على الفلاح، ولولا أن أحاط به ضيوف الزفاف لكان قد فتك بالفلاح الشاب.

في هذه اللحظات جرى بعض العامة إلى الكنيسة القريبة من القلعة.. عادوا فَاغرى الأفواه يؤكدون أن الخوذة غير موجودة على رأس تمثال (ألفونسو).

سمع (مانفريد) هذه الأنباء فجن جنونه.. واندفع نحو الفلاح الشاب صارخًا:

- وغد!.. وحش!.. ساحر!.. أنت من فعل هذا!.. أنت من قتل ابني!

كان الجمهور في حاجة إلى شخص في متناول يدهم يمكن أن يخرجوا عصبيتهم فيه؛ لذا التقطوا الكلمات من فم سيدهم ورددوا:

- « أجل!.. أجل!.. هو المسئول!.. لقد سرق الخوذة من مقبرة ألفونسو الطيب وهشم بها رأس أميرنا! »

ولم يتذكروا الاختلاف بين الخوذة الرخامية التي كانت في الكنيسة وتلك المعدنية التي يرونها أمامهم.. ولم يفطنوا لصعوبة ان يحمل شاب لم يبلغ العشرين خوذة ثقيلة كهذه..

كان الأمير قد بدأ يهدأ قليلًا، لكن الغضب قد استبد به من ذلك الفلاح الذي لاحظ التشابه، وبدأ الإشاعات حول الموضوع، لذا أعلن أن الشاب هو (نكرومانسر) من دون شك.. وأنه إلى أن تحقق الكنيسة في الأمر، سيسجن الفلاح الشاب تحت الخوذة العملاقة نفسها. سوف يرفعها ويضعه تحتها من دون طعام، حتى لا يستخدمه في خدمة فنونه الجهنمية.

كان من المستحيل على الفلاح الشاب أن يعارض هذا الحكم الظالم، وفشل أصحاب (مانفريد) في منعه من هذه القسوة.

لكن هذا التصرف راق للعامة لما فيه من عدالة.. هكذا يعاقب الساحر بأداته نفسها. ولم يخشوا أن يموت الفتى جوعًا؛ لأنهم توقعوا أن تعينه مواهبه الشيطانية في الحصول على طعام.

راقب (مانفريد) تنفيذ أوامره، ورأى كيف أنها تنفذ في رضا من قبل العامة، وعين حارسًا ليتأكد من عدم وصول طعام إلى

الفلاح الشاب. هكذا عاد إلى حجرته بعد ما تأكد من غلق أبواب القلعة التي لم يبق فيها سوى أفراد أسرته.

وعلمت (ماتيلدا) أن أباها اعتكف في غرفته ومنع مقابلة أي شخص له، وأنه غارق في الحزن من أجل موت أخيها. لم تكن تريد مضايقته، لكنها بدافع من شفقتها عليه وأوامر أمها قررت أن تخرق هذا الحظر، وقد دفعتها وداعتها ورقتها إلى أن تتجمد عند بابه بعض الوقت.. سمعته يذرع الغرفة جيئة وذهابًا بخطى مضطربة.. هذا زاد من رعبها..

هنا فتح مانفريد الباب فجأة، ولما كان هذا وقت الشفق مع اضطراب عقله، فإنه لم يميز القادم، بل سأل في غضب: من هذا؟ قالت (ماتيلدا) في رعب:

- « أبي الأعز.. هذا أنا.. ابنتك.. »

تراجع إلى الخلف وصاح:

- « اغربي!.. لا أريد ابنة!.. »

وأغلق الباب بقوة في وجهها..

كانت تعرف طباع أبيها؛ لذا لم تكرر المحاولة. فقط هزتها هذه المعاملة القاسية ومسحت عينيها كى تتجنب أن تعرف (هيبوليتا) أمها بذلك، برغم أنها سألتها في قلق عن صحة (مانفريد)، قالت ماتيلدا: إن الرجل بصحة جيدة ويتحمل خسارته في رجولة.

سألتها هيبوليتا:

- « لكن ألن يسمح لي برؤيته وبأن أمزج دموعي بدموعه؟.. أن أبكي على صدر سيدي خسارة أم ثَكلى؟. أم أنت تكذبين عليَّ يا

ماتيلدا؟ أعرف مدى تعلق مانفريد بابنه.. أنا أخشى الأسوأ.. ساعدنني يا وصيفات، فعليَّ أن أرى سيدي! »

أشارت ماتيلدا لإيزابيلا كي تمنع هيبوليتا من النهوض.. هنا جاء خادم من طرف مانفريد وقال لإيزابيلا: إن السيد يرغب في مقابلتها.

- « مقابلتي أنا؟!! »

قالت هيبوليتا:

- « هلم!.. قومي لمقابلته. أعتقد أنه لا يريد أن يرى الحزن في عيون أسرته ويحسبك أكثر تماسكًا منا.. هدئيه وخففي عنه يا إيزابيلا.. »

كان الليل قد حل؛ لذا تقدمها الخادم وهو يحمل مشعلًا، وكان مانفريد يجوب القاعة نافد الصبر. قال للخادم:

- « خذ معك هذا الضوء وارحل.. »

ثم ألقى بجسده على مقعد وأشار لإيزابيلا أن تجلس.

قال لها:

- « لقد أرسلت لك يا سيدة في أمر بالغ الأهمية.. جففي دموعك.. لقد خسرت عريسك.. نعم.. وأنا فقدت الأمل في استمرار ذريتي، لكن كونراد لم يستحق جمالك! »

- « كيف تقول هذا يا سيدي؟!... هل تشكك في الحزن الذي أشعر به؟»

- « لا تفكرى فيه ثانية.. لقد كان طفلًا تافهًا سقيمًا، ولربما انتزعته السماء منى لأنني لا أأتمن بيتي عل أساس واهٍ كهذا.. إن

ولعي الأعمى بهذا الصبى جعلني أغفل عن أشياء كثيرة.. آمل أننا خلال أعوام سنشعر بالسعادة لموت كونرادا! »

لا تقدر الكلمات على رسم ذهول (إيزابيلا).. توقعت أن هذا الكلام غرضه الإيقاع بها لأن مانفريد لا يراها حزينة بسبب مصرع ابنه؛ لذا قالت:

- « لا تشك في حناني يا سيدي.. كنت سأمنح كونراد كل شيء.. لسوف أقدس ذكراه للأبد، وأنظر إلى سموك وهيبوليتا الطاهرة كأبوين لي »

صاح مانفريد:

- « اللعنة على هيبوليتا!.. انسيها من اللحظة!.. باختصار يا بنتي أنت فقدت عريسًا ما كان ليستحق جمالك.. بدلاً من هذا سوف تحظين بعريس ناضج قوى سوف تمنحينه ذرية كبيرة! »

- « للأسف يا سيدى.. عقلى هزته الخطوب الأخيرة فلا يقدر على التفكير في زيجة أخرى.. إلى أن يعود أبي فلسوف أظل هنا تحت سقف بيتك المضياف.. ولسوف أحاول أن أخفف من آلام ماتيلدا وزوجتك الكريمة.. »

قال (مانفريد):

- « طلبت منك من قبل ألا تأتي على ذكر تلك المرأة.. يجب أن تكون غريبة عنك من هذه اللحظة. باختصار يا (إيزابيلا).. ما دمت لم أقدر على منحك ابني فأنا أمنحك نفسي! »

صرخت (إيزابيلا):

- « وا حسرتاه يا سيدى!.. ماذا أسمع؟.. حماي القادم؟.. أبو ماتيلدا وزوج هيبوليتا؟ »

- « هيبوليتا لم تعد زوجتي.. لقد طلقتها الآن.. لقد جلبت لى اللعنة بقلة خصوبتها.. هذه الليلة سوف أمنح أحلامي موعدًا جديدًا.. »

وأمسك بيد (إيزابيلا) التي كانت شبه ميتة من الرعب، فتملصت منه باكية.. نهض يلحق بها.. هنا دخل ضوء القمر إلى الغرفة، فتبدى لعينيه الريش المميز للخوذة القاتلة التي ارتفعت وتضخمت حتى صارت بارتفاع النافذة. بينما دوى صوت معدني أجوف.. هنا صرخت (إيزابيلا):

- « انظر يا سيدى!.. السماء نفسها غير راضية عن فكرتك غير التقية!»

قال وهو يمسك بمعصمها:

- « لا السماء ولا الجحيم بقادرين على وقف خططى! »

هنا صدرت تنهدة من صورة جده المعلقة على الجدار الذي يجلسان بجانبه، وتحرك صدرها..

لم تر إيزابيلا الصورة ولم تعرف مصدر الصوت؛ لذا قالت:

- « أصغ يا سيدي!.. من أين يأتي هذا الصوت؟ »

وهرعت إلى الباب، لكن مانفريد لم يلحق بها لأن عقله كان مع الصورة.. الصورة التي هبطت من الجدار لتنزل إلى الأرض..

- « هل أنا أحلم؟.. أم إن الشياطين جميعًا قد تحالفت ضدي؟.. أنت أيها الطيف الجحيمي!.. لو كنت أنت جدى فعلًا، فعلام تتحالف ضدى بدلًا من أن تخفف عني؟! »

هنا تنهد الطيف من جديد وأشار لمانفريد كي يتبعه..

مشى الطيف في هدوء إلى نهاية الممر، ثم دخل غرفة إلى اليمين.. تبعه مانفريد على مسافة وقد امتلأ رعبًا، لكنه امتلأ تصميمًا كذلك.. فما إن دخل الحجرة حتى انغلق الباب كأنما بيد خفية.

كانت (إيزابيلا) التي امتلأت رعبًا بدورها منذ فارقت مانفريد، تواصل ركضها إلى أسفل الدَّرج.. هناك توقفت وهي لا تعرف إلى أين تفر من نزق الرجل. كانت الأبواب مغلقة وهناك حراس على الأبواب..

هل تذهب لتخبر هيبوليتا بالمصير القاسي الذي ينتظرها؟.. لا.. سوف يذهب مانفريد أول شيء إلى هناك، وسوف يؤذيها حتمًا.. من الأفضل أن تنتظر حتى يهدأ قليلاً، لكن أين تختفي؟.. كيف تتجنب بحثه المحموم عنها في أرجاء القلعة؟

قررت أن تفر عبر ممر خاص إلى الكنيسة، وقدرت أنه حتى مانفريد لن يستطيع اللحاق بها هناك.. ربما تحبس نفسها للأبد مع الراهبات في دير ملاصق للكاتدرائية. هكذا أخذت مصباحًا مشتعلاً على أعلى الدرج وهرعت إلى الممر السرى..

كانت هناك ممرات طويلة ذات أعمدة أسفل القلعة، وكان من الصعب مع شخص في حالة ذعرها أن يجد الممر الصحيح. هناك كان الصمت مطبقًا، ما عدا الريح التي تهز هذا الباب أو ذاك، مع صرير المفصّلات الصدئة. كل صوت كان يفعمها ذعرًا، إلا إنها كانت تخاف سماع صوت (مانفريد) أكثر.

كانت تصغى من حين لآخر لترى إن كان هناك من يتبعها.. وللحظة خيل لها أنها سمعت شهقة جمدت الدم في عروقها،

فقد أيقنت أن هذا هو مانفريد وأنه حاصرها في مكان لا يمكن لصراخها فيه أن يبلغ مسمع أحد.. لكنها أدركت أن الصوت يأتي من الأمام ولو تبعها مانفريد لجاء صوته من خلفها.

هنا انفتح أحد الأبواب أمامها، ورفعت المصباح لتتبين من القادم، لكنه توارى. كان هذا مخيفًا، لكن خوفها من مانفريد كان أقوى، وقد منحها تحاشي هذا الشخص لها شجاعة. فلابد أنه من خدم القلعة، وكانت ساذجة؛ فقدَّرت أنه ما لم يكن مانفرد قد أعطى تعليمات واضحة فإن هذا الخادم سوف يساعدها ولن يمنعها.

دنت من الباب الذي انفتح، لكن هبة ريح قوية أطفات المشعل وتركتها في ظلام دامس. لا تقدر الكلمات على وصف رعب الأميرة.. وحدها في مكان مخيف وقد أنهكتها أحداث اليوم العصيب.. والشعور بأنها في متناول يد شخص ما لا تعرف من هو... وهو شخص يفضل أن يتوارى لسبب لا تعرفه..

مدت يدها في الظلام إلى الباب الذي سمعت من ورائه صوت الشهقة، وشعرت بسرور لحظى عندما رأت حزمة من ضوء القمر تتسرب إلى الغرفة من سقف لا تعرف إن كان أرضًا أم بناء.. في هذا السقف فتحة لا تعرف كنهها.. تقدمت نحو هذا الضياء عندما فوجئت بشكل بشرى يقف جوار أحد الجدران..

صرخت وقد اعتقدت أن هذا هو شبح زوجها المتوفى (كونراد)، لكن الشيء قال في صوت خفيض:

- « لا تخافي يا سيدة.. أنا لن أؤذيك.. »

استعادت روعها قليلًا من هدوء الصوت، فقالت:

- « سيدى.. مهما كنت.. أشفق على أميرة مذعورة تقف على حافة الهلاك.. ساعدني في الهرب من هذه القلعة الرهيبة، وإلا صرت تعسة للابد! »

قال لها:

- « يا للأسف!.. أنا لا أعرف القلعة جيدًا؛ فأنا غريب.. »

- « ساعدني على البحث عن باب في موضع ما هنا.. »

وجثت على ركبتيها وراحت تفتش عن حلقة نحاس تتمسك بأحد الأحجار، وقالت:

- هذا هو المقبض الذي يفتح الباب والذي أعرف سره.. لو وجدته لظفرت بالفرار، ولو لم أظفر به فإننى قد ورطتك معي أيها الغريب في حظي العاثر.. لسوف يشك مانفريد في أنك مسئول عن فرارى.. »

قال الغريب:

- « لا تهمنى حياتي، ولو فقدتها فلسوف يسرني أن أفقدها من أجل نجاتك من الطاغية.. »

هنا سقط ضوء القمر على المقبض الذي كانت تبحث عنه، فهتفت:

- « هذا هو ما كنت أبحث عنه.. ارفع المقبض! »

أطاع الغريب.. هنا ظهرت درجات تقود إلى ظلام دامس..

قالت (إيزابيلا):

- « هذه الدرجات تفضى إلى كنيسة سانت نيكولاس.. هذا مؤكد حتى لو كان الظلام دامسًا.. ولكني أرى أنه عليك ألا تغادر

القلعة، وخلال لحظات سأكون في مأمن من غضبة مانفريد، لكن دعني أعرف لمن أنا مدينة.. »

قال الغريب:

- « لن أفارقك حتى أطمئن إلى أنك في مكان آمن.. »

هنا سمعا جلبة تقترب، واستطاعا أن يميزا هذه الكلمات:

- « لا تكلمني عن الساحرة.. أنا أعرف يقينـًا أنها ما زالت في القلعة، ولسوف أجدها برغم السحر الذي رمتنا به.. »

صرخت (إيزابيلا):

- « رباه!.. هذا صوت مانفريد.. أسرع وأغلق الباب خلفك، وإلا هلكنا! »

هرعت عبر الدرجات فتبعها الغريب، لكنه أغلق المقبض دون حذر، ولم يستخدم طريقتها، من ثم هوى الباب بقوة محدثًا ضوضاء عالية سمعها مانفريد وخدمه..

صاح (مانفريد) وهو يهرع إلى القبو:

- « إنها إيزابيلا.. تحاول الهرب عبر الممرات تحت القلعة، لكنها لن تبتعد.. »

ما أثار ذهول الأمير هو أنه لم يجد إيزابيلا ولكن وجد الفلاح الشاب الذي اعتقد أنه مسجون تحت الخوذة!

- « خائن!.. كيف جئت إلى هنا؟!.. أنت فررت من الحبس وأثرت غضبي.. أنت خدعت حراسك، ولسوف يدفعون بحيواتهم ثمن هذا!»

قال الفلاح في شجاعة:

- « حراسك أوفياء لك.. »

- « لكنك استحققت انتقامى.. سوف ينتزع التعذيب الحقيقة منك، ولسوف أعرف شركاءك هنا! »

قال الفلاح باسمًا وهو يشير إلى السقف:

- « هذا هو شريكي! »

رفع الخدم المشاعل لأعلى، ونظر مانفريد ليجد أن الخوذة الثقيلة عندما وضعت فوق الفلاح، هشمت جزءًا من السقف محدثة فتحة.. من هنا نزل الفلاح قبل أن يقابل إيزابيلا بدقائق.

- « هكذا.. لكن ما سبب تلك الجلبة التي سمعتها في الرواق؟ »

- « باب ينغلق.. سمعته بنفسي.. »

- « وما هو هذا الباب؟ »

- « لا أعرف شيئًا عن قلعتك؛ فأنا لم أدخلها من قبل.. سلنى ما أقدر على إجابته، وأمتني في الحال لو كذبت.. »

كان مانفريد يتمنى أن يعرف إن كان الفتى وجد الباب السرى أم لا.. في النهاية سأله:

- « هل كان هذا صوت الباب السرى؟ »

- « نعم.. »

- « وكيف عرفت بوجوده؟ »

- « رأيت التماع ضوء القمر على المقبض النحاسي.. كان هذا هو عون السماء.. »

- « كان على عون السماء أن يتمادى قليلًا فيساعدك على الهرب من انتقامي.. عون السماء علمك كيف تفتح المقبض،

لكنه لم يعلمك كيف تستفيد من هذا.. ولماذا لم تهرب إذن؟. لماذا فتحت الباب وأوصدته؟ »

- « كيف لي أن أعرف يا سيدي إن كانت هذه الدرجات تفضى إلى الهرب؟.. ربما كان على أن أجرب؛ لأن أي مكان هو أفضل لي من مكاني الآن، لكنى تباطأت، وسرعان ما وجدتكم حولى.. »

بينما الأمير في هذا الموقف، وهو يقاوم رغبته في أن يُعجب بشجاعة هذا الفلاح، دوى خليط من الأصوات عبر الأقبية البعيدة.. وسمع بعض خدمه الذين نثرهم في القلعة يبحثون عن (إيزابيلا):

- « أين سيدي؟.. أين الأمير؟ »

قال لهم:

- « أنا هنا.. هل وجدتم الأميرة؟ »

قال الأول:

- « رباه!.. نحن مسرورون للعثور عليك.. »

- « وجدتموني؟!.. هل وجدتم الأميرة؟! »

تبادل الرجال النظرات المرتبكة، وقال أحدهم:

- « جاك وأنا.. قد.. لا، لم نجد الأميرة، لكن الذعر كاد يقتلنا.. »

- « لا يدهشني هذا يا أغبياء.. ماذا رأيتم؟ »

- « رأينا - أنا وديبجو - منظرًا لا يوصف يا سيدى.. »

- « هلا أعطيتم إجابة مباشرة.. وإلا؟ »

قال المدعو دييجو:

- « لقد أرسلتنا يا سيدي للبحث عن الأميرة، لكننا كنا خائفين من أن نقابل شبح ابنكم المتوفى.. لأنه لم يدفن دفنة مسيحية محترمة.. »

- « اخرس!.. لهذا إذن أنتما خائفان! »

- « كنت أفضل أن أرى عشرة أشباح على أن أرى ما رأيته!.. كنا نخشى أن يكون أحدنا وحده؛ لذا مشينا أزواجًا.. وخطر لنا أن الأميرة قد تكون في الرواق الكبير؛ لذا صعدنا إلى هناك.. »

- « يا حمقى!.. وفي هذا الوقت فرت هي!!.. لأنكما كنتما تخشيان العفاريت.. »

- « ما وجدناه في الرواق الكبير لا يمكن وصفه.. الشيطان نفسه على ما أعتقد موجود في الغرفة الكبيرة المجاورة للرواق! لا تذهب هناك يا سيدي.. »

حتى هذه اللحظة كان مانفريد يعتبر رعب خدمه نتيجة غباء مطبق.. لكنه تذكر ما حدث له؛ فبدأ يهتم.. »

- « ماذا في الغرفة الكبيرة؟ »

- « سيدي.. لقد دخلنا الغرفة الكبرى ونحن خائفان، لكننا لم نر شيئًا.. بحثنا في كل ركن فلم نر شيئًا.. حينما عدنا للباب وجدناه موصدًا.. »

- « ولم تستطيعا فتحه؟ »

- « البتة يا سيدي.. حاول صاحبي دييجو فتحه.. هنا استجاب الباب، فصرخ الرجل وجرى.. سألته عما رآه.. هل رأى شبحًا؟.. قال لي وهو يجرى إنه رأى عملاقًا يلبس الدروع.. رأى أسفل رجله فقط.. وكان ضخمًا بما يتناسب مع الخوذة التي رأيناها..

يبدو أنه كان راقدًا ونهض، فسمعنا صوت الدروع وصليل المعدن.. جرينا فارين ولم ننظر إلى الخلف لنرى إن كان يتبعنا أم لا.. الآن أعتقد أنه لو فعل لسمعناه.. فلتستدع القس يا سيدى، لأننا متأكدون من أن القلعة مسكونة.. »

توسل إليه باقي الخدم كي يفعل، فصاح فيهم:

- « هدوءًا أيها المخرفون!.. سوف أرى معنى هذا.. »

هنا قال الفلاح الشاب الذي ظل صامتًا:

- « هل تسمح لي سموك بتجربة هذا الشيء؟.. حياتي لا تهم أحدًا.. »

نظر إليه مانفريد في إكبار، وقال:

- « طباعك أفضل من مظهرك.. فيما بعد قد أكافئك على شجاعتك، أما الآن فلن أصدق أية عين سوى عيني أنا.. غير أن لك الحرية في أن تتبعنى لو أردت.. »

اتجه إلى مخدع زوجته، التي وثبت في لهفة وكادت تلقى بنفسها على صدره، لولا أنه دفعها في غلظة وسأل:

- « أين (إيزابيلا)؟ »

قالت ماتيلدا التي لم تفهم سبب لهفته:

- « لم نرها منذ استدعيتها لتقابلك.. »

- « قولي لي أين هي... لا أريد أن أعرف أين كانت.. »

سألته هيبوليتا:

- « سيدى.. لابد أن (إيزابيلا) في غرفتها الآن؛ فهي غير معتادة السهر.. هلا قلت لي ما يضايقك إلى هذا الحد؟ »

- « إذن أرسلي إلى قسك كي يقابلني، وانتظرى مفاجأتي السارة هنا.! »

ثم غادر الغرفة تاركًا السيدتين حائرتين في معنى كلامه..

جاء القس بعد قليل، ليؤكد لمانفريد أن ما رآه بصدد الرجل والحذاء العملاق مجرد أوهام من الخدم المذعورين، وكان مانفريد يرغب في تصديق هذا، لكنه لم يستطع.

كتم لمسة من تأنيب الضمير بسبب إذعان هيبوليتا وخوفها عليه برغم نواياه الشريرة تجاهها، وأصدر أوامره للخدم بأن يغلقوا كل مداخل القلعة وألا يدخل أو يخرج أي مخلوق. وأمر بأن يبقى الفلاح الشاب في غرفة صغيرة تحت الدرج، بها فراش من قش، واحتفظ بالمفتاح مع نفسه، وقال للفلاح إنه سيتكلم معه في الصباح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

كانت ماتيلدا التي طلبت منها هيبوليتا أن تعتكف في جناحها، أكثر توترًا من أن تحظى بالراحة. لقد صدمها ما حدث لأخيها وأدهشها اختفاء (إيزابيلا) والكلمات الغريبة التي خرجت من أبيها. وامتلأ عقلها الرقيق بالتوجس.

انتظرت في صبر عودة بيانكا وصيفتها الشابة التي أرسلتها لمعرفة ما حدث لإيزابيلا.. عادت بيانكا وأخبرتها بما عرفته من الخدم.. لا يمكن العثور على إيزابيلا في أي مكان.. حكت لها قصة الفلاح الشاب الذي وجدوه، وإن كان هذا بطريقة الخدم غير المترابطة.

كانت ماتيلدا تتساءل عن سبب قدوم القس.. أترى مانفريد يرغب في أن يدفن أشلاء أخيها في الكنيسة؟

قالت بيانكا:

- أوه يا سيدتي[3]!.. أعتقد أن أباك وقد صِرت وريثته الوحيدة يرغب في أن يزوجك حالًا.. لقد كان متلهفًا على المزيد من الأبناء ويبدو أنه متلهف الآن على الأحفاد.. سوف تتزوجين بسرعة، لكنك لن تنسى وصيفتك المخلصة بيانكا.. »

قالت ماتيلدا:

- « يا صديقتي الوفية.. لم أر أي نوع من الرقة في مسلك مانفريد معي يؤيد ما تقولين. نعم هو أبي، لكن إذا اختارت السماء أن ينغلق قلب أبي على، فقد تركت لي قلب أمي.. أمي!.. لشد ما أشعر بالقسوة عندما يكشف عن طباعه الشريرة مع أمي!.. »

- « كل الرجال يعاملون زوجاتهم كذا عندما يسأمونهن، والزوج السيء خير من لا زوج على الإطلاق.. ما هذه الضوضاء؟! »

قالت ماتيلدا:

- « إن هي إلا الريح تهب عبر فجوات برج القلعة.. أنت سمعتها آلاف المرات.. »

- « حمدًا لله.. لكن تخيلي أن الأمير استدعاك غدًا إلى مجلسه.. وهناك وجدت أميرًا وسيمًا أسود العينين له جبهة ناعمة بيضاء.. صورة تشبه صورة (ألفونسو) الطيب في معرض الصور.. الصورة التي تجلسين أمامها بالساعات تحلمين.. »

- « لا تتكلمى بخفة عن تلك الصورة.. تعرفين أننى مفتونة بها، لكنني لم أقع في حب صورة.. فقط هو التقديس الذي علمتني أمي أن أقدمه لهذا البطل، وكل الصلوات التي صليتها في قبره وأنا طفلة.. هكذا نشأت شاعرة بأن مصيرى يرتبط به بشكل ما.. »

- « لا أفهم يا سيدتي سبب اهتمام أسرتكم بألفونسو الطيب.. هو لا يمت لكم بصلة.. »

- « ربما لو فسرت لي أمي سر اهتمامها بألفونسو الطيب لفهمت أكثر، فأنا أعرف أنها لا تخضع لنزوات مبهمة.. لابد أن هناك سرًّا لا أعرفه.. عندما توفي أخي ندت عنها كلمات غير مقصودة.. »

- « ماذا؟!.. هل لي أن أعرفها يا سيدتي؟.. تعرفين أن بوسعك أن تثقي بي.. »

- « بالنسبة لأسراري الصغيرة نعم.. لكن عندما تتساقط كلمات من فم الآباء فعلى الأطفال ألا يرددوها.. على الأبناء ألا تكون لهم أفواه ولا آذان إلا حسب تعليمات الآباء.. »

- « لو شئت الحقيقة يا سيدتي.. أنت ولدت كي تكوني قديسة، ويبدو أنه من المحتم أن تقضى حياتك في دير.. »

ثم هتفت وقد أصابها الرعب:

- « أيتها العذراء المباركة!.. لقد عاد الصوت!.. هذه القلعة مسكونة حتمًا! »

قالت (ماتيلدا):

- « أنا أيضًا أحسبني سمعت صوتًا لكنه خيال على الأرجح.. لابد أن مخاوفك قد أصابتني بالعدوى.. هل هناك من يقيم في الغرفة بالأسفل؟ »

- « لم يقم أحد هناك منذ أن أغرق الفلكي الشهير الذي كان يدرس لأخيك نفسه.. أعتقد أن شبحه وشبح الأمير قد التقيا في الغرفة السفلية. دعينا نفر من هنا! »

- « لا أعتقد أن هذه الأشباح سوف تؤذينا؛ فنحن لم نؤذها.. دعك من أنه ما من غرفة أكثر أمنًا من أخرى.. ناوليني المسبحة وتعالى نَتْلُ صلاة من أجلها.. »

هنا سمعتا صوت غناء يأتى من أسفل..

قالت ماتيلدا لنفسها: إن هذا على الأرجح واحد من الأسرة وليس شبحًا على الإطلاق.. لم تجسر الخادمة على فتح النافذة ففعلت ماتيلدا هذا بنفسها..

يبدو أن الشبح سمع الصوت لأنه كف عن الغناء على الفور..

صاحت الأميرة:

- « هل من أحد تحت؟.. إن كان كذلك تكلم.. »

جاء صوت مجهول يقول:

- « نعم.. »

- « من؟

- « أنا غريب.. »

- « وكيف استطعت الدخول في ساعة كهذه بينما كل الأبواب موصدة؟ »

- « ليس هذا بيدى.. سامحيني.. لقد جافاني النوم وعجزت عن الرقاد على تلك الأريكة، من ثم نهضت إلى النافذة وغنيت مشتاقًا إلى لحظة قدوم الصباح والسماح لي بمغادرة هذه القلعة.. »

قالت بيانكا:

- « الآن فهمت يا سيدتي.. حتمًا هذا هو الفلاح الشاب.. ويا لها من مغامرة عجيبة!.. دعينا نكلمه فمن الواضح أنه لا يعرف من أنت، ولكن يحسبك من وصيفات سيدتي (هيبوليتا)، وأقسم بالله أنه عاشق.. »

قالت (ماتيلدا):

- « ألا تخجلين من نفسك يا بيانكا؟.. هذا الرجل يبدو طاهرًا صريحًا.. ليس من حقنا أن نتلصص على أسراره.. »

- « أنت لا تعرفين شيئًا عن العشاق يا سيدتى.. ليست لديهم لذة أكبر من أن يتكلموا عن حبهم.. »

هنا أغلقت (ماتيلدا) النافذة في عصبية وحزم، فقالت لها الوصيفة:

- « لا تنسى يا سيدتي أن عابر السبيل يرى من اللعبة أضعاف ما يراه اللاعبون.. من الغريب أن سيدتي (إيزابيلا) اختفت اليوم بالذات، وهناك ذلك الفلاح الشاب الذي يقول الخدم إنه ساحر.. بصراحة يا سيدتي لو ربطت بين الحادثين لقلنا إن.. أنت تعرفين أن سيدتي إيزابيلا لم تكن مولعة جدًّا بأخيك الأمير الفقيد.. »

صاحت (ماتيلدا) في غضب:

- « كفي عن هذا السخف ولا تقولي كلمة أخرى.. أنت تعرفين نقاء إيزابيلا.. »

- « ربما كان هذا الفلاح أميرًا متنكرًا.. لو سمحت لي بأن أفتح النافذة وأوجه له بعض أسئلة.. »

هنا سمعتا رنين الجرس عند بوابة القلعة الخلفية..

قالت ماتيلدا بعد تفكير:

- « لا أعرف سبب فرار (إيزابيلا) لكني متأكدة أن له سببًا قويًّا.. لكن لو كان لهذا الغريب دور فإنها ولابد مسرورة جدًّا.. هل لاحظت كلمات هذا الفلاح وكيف تخلو من لغة السوقة والعامة؟.. هذا شخص كريم المحتد.. »

- « قلت لك يا سيدتي إنه أمير متنكر.. »

- « لكن لماذا لم يفر معها؟.. لماذا بقى وتحمل غضبة أبي؟ »

- « لو كان بوسعه أن يفر من تحت الخوذة فلا يوجد ما يمنعه من الفرار من غضبة أبيك.. أنا لا أعتقد أن سيدتي إيزابيلا ملائكية تقية كما تعتقدين.. إنها تتنهد وتشخص بعينيها للسماء أمامك، ولكن ذلك لأنها تعرف أنك ملاك.. »

هنا دخل خادم إلى الغرفة مسرعًا وأخبر ماتيلدا أن السيدة (إيزابيلا) قد تم العثور عليها.

- « أين؟ »

- « لقد لجأت إلى كنيسة القديس نيكولاس.. الأب (جيروم) جاء بنفسه، وهو في الطابق السفلي مع سمو الأمير.. »

- « وأين أمي؟ »

- « في غرفتها.. وقد أرسلت تطلبك.. »

كان مانفريد في هذا الوقت قد فوجئ بالزيارة المبكرة للقس راعي زوجته، ولم تكن عنده أية فكرة عن سبب الزيارة.. وقد سأله:

- « هل تريدني أم تريد الأميرة؟ »

قال الأب جيروم:

- « أريد كليكما.. إن الأميرة إيزابيلا في كنيسة القديس نيكولاس..»

- « هذا إذن ليس من شأن هيبوليتا.. تعال لغرفتي يا أبت واحكِ لي.. »

- « لا.. »

قالها القس في حزم أثار رهبة حتى مانفريد الفظ، الذي برغم كل شيء كان يحترم طيبة القس ونقاءه..

- « إن ما أريد الكلام فيه يخصكما معًا.. لكني أريد أولًا أن أسأل الأميرة عما إذا كانت تعرف سبب فرار السيدة إيزابيلا من القلعة.. »

قال (مانفريد):

- « أبت.. احترامي كامل لك، لكني هنا سيد بيتي، ولا أسمح لكاهن متطفل أن يتدخل في شأني.. ليس لزوجتي أن تعرف أو تتعامل مع شئون حكمي.. »

قال القس:

- « سيدي.. أنا لا أتدخل في الشئون العائلية.. عملي هو أن يعم السلام وأن أعظ الناس كي يرجعوا للصواب.. وإنى لأسامح سيدى على خطابه غير الكريم، لكني أعرف واجبي، وأنا أعمل لمن هو أقوى وأعظم من الأمير (مانفريد).. فلتصغ له.. »

ارتجف مانفريد عارًا وغضبًا.. وكانت زوجته قد جاءت وهي تتحرق شوقًا لمعرفة ما هنالك..

قال القس (جيروم):

- « السيدة (إيزابيلا) تشكركما بشدة على عنايتكما بها في قلعتكما، وهي آسفة على فقد الأمير الصغير، وهي تصلى من أجل اتحاد لا ينفصم بينكما.. لكن بما أنه ليس بوسعها أن تبقى هنا أكثر، فهي قد عهدت بنفسها إلى الملجأ حتى تسمع أخبارًا عن أبيها.. »

قال الأمير:

- « لن أوافق على هذا، وأصر على أن تعود للقلعة.. أنا المسئول عنها ولا أثق بوجودها بين يدى أي شخص آخر سواى.. تصرف (إيزابيلا) يترك الكثير للشكوك والقيل والقال، وخاصة مع ذلك الفلاح الذي ظهر، وأعتقد أنه سهل فرارها إن لم يكن سببًا له.. »

قال القس:

- « واجبي أن أمنعها من العودة هنا.. هي الآن في مأمن بعيدًا عن مغريات هذا العالم.. فلن أسلمها إلا لسلطة أبويها.. »

قالت هيبوليتا:

- « أيها الأب.. واجبك ألا تعلق قيمة على الأشخاص، وواجبي ألا أسمع ما يضايق سيدي؛ لذا اسمح لي بأن أعتكف في حجرتي على حين تنفرد أنت بالأمير في غرفته.. ولسوف أصلى كى تنجح في إعادة السلام إلى قلب أميرى.. »

مشى مانفريد مع القس إلى جناحه الخاص، وهناك أغلق الباب وقال:

- « أفهم أيها الأب أن (إيزابيلا) أخبرتك بغرضي.. والآن أصغ إليَّ.. سلامة حكمى وسلامة قومى تستدعيان أن يكون لي ابن.. من العبث أن أنتظره من هيبوليتا.. عليك أن تعيد لي (إيزابيلا) وأنا أنتظر منك المزيد، فأنا أعرف تأثيرك على هيبوليتا.. إنها امرأة بلا خطايا تستقر روحها في السماء.. عليك أن تقنعها بالامتثال لرغبتي، وأن تقضى باقي حياتها في أحد الأديرة.. سوف يسرها هذا.. وهكذا تريحنا من المشاكل المحيطة بنا وتجلب الاستقرار إلى (أوترانتو).. أنت رجل خير، وإننى لأثق بفضيلتك برغم ما قلته لك في حدة.. »

قال القس:

- « حكمك يقضي بأن يكون لك ابن!.. ما أقل ما يعرف الإنسان..!.. صباح أمس كان لك ابن، وأنا لا أقصد أن أقلل من حزنك.. لكني لا أرى خيرًا في زيجة تدفعك لها الشهوة أو مقتضيات السياسة.. لو أراد الله أن يزول اسمك فعليك أن تقبل بهذا الحكم.. دعنا نعد لأميرتك يا سيدي.. رأيت كيف أصغت

إليك في طاعة وكيف انسحبت في لطف.. أعرف أنها تتمنى أن تعانقك وتخبرك بمدى حبها لك.. »

كان القس يدرك أن نهاية هيبوليتا محتومة.. لو لم يظفر مانفريد بـ (إيزابيلا) فإنه سيغضب، ولسوف يقوده غضبه إلى الانتقام من زوجته.. كما كان يعرف أن الكنيسة لن تسمح بالطلاق. هكذا قرر أن يماطل ويتظاهر بأن رفضه ليس نهائيًّا.. هذه هي الطريقة المثلى لإنقاذ هيبوليتا.

كان مانفريد يحاول أن يعرف دور الفلاح الأسير في هذه القصة.. هل هو حبيب إيزابيلا أم هو يعمل لطرف حبيب مجهول؟.. هكذا راح الأب يلمح إلى أن هذا قد يكون صحيحًا.. وقد اعتقد أن هذا التلميح سوف يكون مفيدًا للأميرة، لأنه يجعل الطاغية يكرهها ويزهد فيها..

هكذا أشار مانفريد للأب كي يبقى حيث هو، واندفع إلى جهة القلعة التي يوجد فيها الفلاح الأسير، وهناك قال له:

- « أنت أيها المحتال الصغير.. قل لي أيها المخادع الشقى منذ متى تعرف الأميرة؟.. من أنت؟.. كن حذرًا ولا تجب بالمراوغة التي استعملتها معى أمس.. وإلا عرف التعذيب كيف يستخلص منك الحقيقة.. »

عرف الشاب أن دوره في فرار الأميرة قد انكشف.. وعرف أن ما يقوله لن يؤذيها أو يفيدها..

هكذا قال:

- « أنا لست محتالاً يا سيدي، ولا أستحق هذه اللهجة المهينة.. لقد أجبت عن أسئلتك بصدق أمس، وهذا ما سوف أفعله الآن؛ لأن روحى تمقت الكذب.. »

عاد مانفريد يكرر أسئلته، فقال الفلاح:

- « أنا عامل في القرية المجاورة.. اسمى (تيودور) وقد وجدتنى الأميرة في القبو ليلة أمس، وقبل هذا لم ألقها في حياتي.. »

قال مانفريد:

- « فيما بعد سوف أحقق في صدق هذا الكلام، لكن قل لي السبب الذي دفع الأميرة إلى الهرب.. تذكر أن حياتك تعتمد على إجابتك.. »

- « قالت لي إن حياتها تعتمد على الفرار، ولو لم تفعل لظلت تعسة للأبد.. »

- « وعلى أساس هذه الكلمات جازفت بأن تثير غضبي؟ »

- « لا أخشى غضبة أحد إذا طلبت منى امرأة الحماية.. »

في هذا الوقت كانت ماتيلدا مع وصيفتها بيانكا في طريقها لجناح أمها، عندما مرت ببعض النوافذ ذات الفتحات الزخرفية، ومن خلالها رأت أباها والخدم يلتفون حوله، فاقتربت لتسمع المحادثة.

أثار السجين إعجابها بثباته وخاصة جملته الأخيرة.. كان وسيمًا نبيلاً ذا شخصية قوية. لكن شيئًا في ملامحه جعلها تتوقف:

- « رباه!.. هل أنا واهمة يا بيانكا أم إن هذا الفلاح نسخة من صورة ألفونسو في قاعة الصور؟ »

هنا تعالى صوت مانفريد:

- « هذا التبجح يفوق كل ما سبق.. أربطوه ولسوف يكون أول ما تسمعه الأميرة (إيزابيلا) عن بطلها هذا هو أن رأسه قد طار! »

قال تيودور:

- « هذه القسوة تؤكد لي أنني كنت على حق عندما ساعدتها في الفرار.. فلتنعم بالسعادة مهما كان مصيري! »

قال مانفريد:

- « هذا عاشق وهو ليس فلاحًا.. ما من فلاح على حافة الموت يتكلم هكذا.. اعترف بشخصيتك يا بني، وإلا انتزعَتِ الحقيقة منصة التعذيب.. »

- « هذا هو جزائي على الصدق الذي قلته، وهو جزاء لا يغريني بالكلام أكثر.. »

- « إذن خذوه إلى الساحة.. سوف أتأكد من أن رأسه قد قطع في هذه اللحظة بالذات..

هنا أغشى على ماتيلدا إذ سمعت هذه الكلمات، بينما صرخت بيانكا:

- « الأميرة ماتت!.. الأميرة ماتت! »

هكذا جرى الموجودون إلى مصدر الصراخ ليجدوا أنها مجرد حالة فقدان وعى..

تم اقتياد الشاب إلى الساحة وصدر الأمر للجلاد بتنفيذ الحكم..

تلقى الفتي الحكم القاسي بقبول هز قلب الجميع ما عدا مانفريد. كان الطلب الوحيد الذي أراده هو أن يُسمح له بالاعتراف ليموت في سلام.

راق هذا الطلب لمانفريد؛ لأن هذا قد يكشف لقس الاعتراف عن سر هذا الشاب، وهكذا استدعوا الأب جيروم الذي اعتقد مانفريد أنه في صفّه.

لكن القس ركع على ركبتيه أمام الأمير وتوسل إليه كي لا يريق دمًا بريئًا.. حاول بكل طريقة أن يرقق من غضب الطاغية، لكن هذا التوسل زاد من حنق الطاغية وإصراره على التنفيذ وقد بدأ يشعر بأن الكل يتآمر ضده..

أمر القس بأن يتلقى الاعتراف، وحذره من أنه لن يؤخر التنفيذ طويلًا..

قال الشاب:

- « وأنا لا أرجو التأخير يا سيدي.. خطاياي ولله الحمد لم تكن كثيرة، ولم يفق عددها ما هو متوقع في سني.. هذا عالم شرير أيها القس الطيب وليس لي أن أفارقه شاعرًا بالحسرة.. »

- « لا يمكن أن تنال السلام من دون أن تسامح أعداءك.. فهل بوسعك أن تسامح هذا الرجل الزنديق الواقف هنا؟ »

- « سامحته يا أبي.. »

قال القس:

- « ألا يؤثر هذا فيك أيها الأمير القاسي؟ »

قال مانفريد في عناد:

- « طلبتك كي تسمع اعترافه لا كى تتوسل من أجل حياته.. أنت لمحت إلى أنه ذو علاقة بالأميرة ودمه على رأسك.. »

- « نعم. نعم.. دمه على رأسى.. أنا وأنت ليس من حقنا أن نذهب إلى المكان الذي سيذهب إليه هذا الشاب النقى.. »

- « هلم!.. لم أعد على استعداد أن أهتز لدى سماع توسل القساوسة، كما لا أهتز لدى سماع بكاء النساء.. »

فتح الفتى ياقة قميصه وركع على الأرض..
هنا سقط القميص عن كتفه فظهرت علامة سهم من نار.
صاح القس:

- « فلتتمجد السماء!.. ماذا أرى؟ هذا طفلي!.. هذا تيودور! »

لا يمكن وصف الانفعالات التي تلت هذا.. لقد تجمدت الدموع في العيون عجبًا، ونظر الجميع إلى السيد متسائلين عما ينبغي أن يشعروا به.. شك.. حيرة.. احترام كلها تتالت على وجوه الشباب. بينما الفلاح يتلقى قبلات وعناق العجوز وهو ينظر إلى الأمير من حين لآخر كأنه يقول له: ألا يحركك مشهد كهذا؟

نسى مانفريد غضبه في دهشته.. حتى إنه قدر أن هذا الاكتشاف لعبة من القس كي ينقذ الفتى.

قال:

- « ما معنى هذا؟.. كيف يكون ابنك؟.. هل مما يتفق مع سمعتك وطهرك أن يكون لك ابن من أبناء الفلاحين؟ »

قال القس:

- « رباه!.. هل تشك في كونه ابني؟.. أنقذه!!.. أيها الأمير الطيب.. أنقذه واشتمنى كما تشاء! »

صاح الواقفون:

- « أبق عليه.. أبق عليه من أجل العجوز الطيب! »

قال مانفريد في حزم:

- « الهدوء!.. لابد أن أعرف من تطالبون بالعفو عنه.. ابن القديس قد لا يكون قديسًا.. »

قال تيودور:

- « أيها السيد المؤذي.. لا تضف الإهانة إلى القسوة.. لو كنت أنا ابن هذا الرجل المبجل فإن الدم الذي يجري في عروقي.. »

هنا قال القس مقاطعًا:

- « نعم يا سيدي.. إنه نقي الدم وليس بالشخص الذي تتكلم عنه.. بيوت قليلة في صقلية لها عراقة بيت (فالكونارا).. »

قال مانفريد:

- « إذن أريد أن أعرف قصتك.. »

- « فقط هبني حياته يا سيدى، ولتقتلني بعدها إن شئت.. »

قال مانفريد:

- « عد للدير.. هات الأميرة هنا.. أطعني فيما طلبت.. ولسوف يعود لك ابنك حيًا.. »

- « سيدي.. هل أمانتي وصدقي هما ثمن حياة ابني؟ »

صاح الفتى:

- « فلتقتلني مائة مرة ولا تلوث ضميرك يا أبي.. ماذا يريد منك هذا الطاغية؟.. هل إيزابيلا في سلام آمنة في ديرك؟.. إذن دع كل غضبة الرجل تهبط على رأسي أنا.. »

فجأة سمع الجميع حوافر تضرب الأرض، ودوى نفير خارج القلعة.. وفي هذه اللحظة تحرك الريش الذي يحيط بالخوذة العملاقة كأن شخصًا خفيًا يضعها على رأسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

ارتجف قلب مانفريد وهو يرى الريش المحيط بالخوذة العملاقة يهتز مع صوت النفير النحاسي.

قال القس:

- « سيدى.. السماء غير راضية عن معاملتك لخدمها وسخريتك منهم.. اصرف هذا الشاب البرىء لحال سبيله.. »

قال مانفريد وقد فقد الكثير من كبريائه:

- « أعترف بأنني كنت عجولًا.. أبت.. هلا قصدت الباب الصغير وسألت عمن يقف خارج القلعة؟ »

- « هل تمنحنى حياة تيودور؟ »

- « نعم.. لكن سل عمن يقف خارج القلعة.. »

ذرف جيروم دموعًا كثيرة على صدر ابنه تشى بما يثقل روحه وقال:

- « أعتقد أنك ستقبل شكري لك أولًا قبل أن أذهب.. »

قال تيودور:

- « اذهب يا أبت.. أطع الأمير، فأنا لا أستحق تأخير رغباته.. »

اتجه الأب إلى الباب وسأل عمن بالخارج فقيل له:

- « أنا رسول.. »

- « ممن؟ »

- « من فارس السيف العملاق.. وعليَّ أن أتكلم مع مغتصب عرش أوترانتو.. »

عاد الأب لمانفريد ونقل له الرسالة حرفيًّا..

أصابت الكلمات مانفريد بالوجوم، لكن عبارة (مغتصب العرش) قضت على أي رعب لديه وجعلته يشتعل بالغضب..

- « مغتصب عرش؟.. كيف يجرؤ؟.. تَنَحْ يا أبت ولسوف أنهى الموضوع مع هذا الوغد بنفسي.. عد للدير ورتب عودة الأميرة لي ولسوف يبقى ابنك هنا رهينة.. حياته تعتمد على طاعتك.. لن تكون نجاة ابنك على يد هذا الرسول القادم ليشك في شرعية عرشي! »

وأمر بعض معاونيه بأن ينقلوا تيودور إلى البرج الأسود، فلم يسمح للأب وابنه بتبادل عناق أخير. ثم سمح للرسول بالدخول:

- « هلم.. ماذا تريد؟ »

- « جئتك يا مانفريد مغتصب إمارة أوترانتو من فارس السيف العملاق الذي لا يقهر.. فردريك ماركيز (فيشنتسا).. وهو يطلب الأميرة (إيزابيلا) التي وضعتها في قبضتك عن طريق الخيانة، والتي رشوت الأوصياء عليها بينما أبوها متغيب.. كما إنه يطالبك بالتخلي عن أوترانتو التي اغتصبت إمارتها من لورد فردريك أقرب قريب بالدم للسيد ألفونسو الطيب.. فلو لم تقبل بهذا فهو يدعوك إلى المبارزة حتى الرمق الأخير.. »

سأله الأمير:

- « وأين ذلك المتبجح الذي أرسلك؟ »

- « على بعد فرسخ من هنا.. لقد جاء لأنه فارس حقيقي وأنت مجرد مغتصب.. »

لم تكن هذه الاتهامات غريبة على مانفريد ولا مطالبة فردريك بالإمارة.. كان أجداد فردريك يحملون لقب أمراء أترانتو، منذ موت (ألفونسو) الطيب، لكن مانفريد وجَدَّه كانا أقوى من أن يتخلص منهم بيت فيشنتسا. ولقد تزوج فردريك فتاة لطيفة هام بها حبًّا، لكنها ماتت وهي تلد (إيزابيلا)..

أحزنه موتها بعنف حتى إنه انطلق إلى الأراضي المقدسة حيث جرح في الحرب وسجن، وقيل إنه مات.

عندما عرف مانفريد بهذا قدم رشوة للوصيين على إيزابيلا لتكون زوجة ابنه كونراد، وهكذا قرر أن يوحد البيتين معًا. وهذا هو سر تصميمه على أن يتزوجها بنفسه لدى موت كونراد.

قال مانفريد:

- « عد لسيدك وقل له إننا لا نحل خلافاتنا هنا بالسيف.. قل له إنه مدعو لقلعتي، وأقسم بشرفي كفارس أنه سيضمن أمنه ويلقى استقبالًا كريمًا، ولو لم نحل خلافاتنا بالمفاوضات فإنى أقسم أنه سيغادر القلعة آمنًا في سربه.. »

في هذا الوقت كان القس (جيروم) يفكر.. كان خائفًا على ابنه وفكر في أن يقنع (إيزابيلا) بالعودة إلى القلعة، لكنه كان يخشى لحظة لقائها بمانفريد.

كان يخشى خضوع هيبوليتا غير المشروط لزوجها.. برغم من ثقته بأنه يمكن أن يقنعها بأن طلاقها لن يكون مسموحًا به من الكنيسة، هذا فقط لو استطاع الوصول لها..

لكن لو شعر مانفريد بشيء لكان معنى هذا الدمار لتيودور. كان راغبًا في معرفة ما تم مع الرسول الذي اتهم مانفريد باغتصاب

الإمارة، لكنه لم يجسر على مغادرة الدير. لربما فرت (إيزابيلا) ووقع الاتهام في فرارها عليه هو.

قال له أحد الرهبان الذي قابله في الرواق ورأى حزنه:

- « يا للحسرة يا أخي!.. أهو حقيقي إذن أننا خسرنا أميرتنا العظيمة هيبوليتا؟ »

ذهل الرجل وصاح:

- « ماذا تعنى يا أخي؟.. لقد جئت لتوى من القلعة وكانت في خير حال.. »

- « (مارتللى) مر بالدير منذ ربع ساعة، وقال إن سموها قد ماتت.. كل إخوتنا ذهبوا إلى الكنيسة ليصلوا لها من أجل رحلة طيبة إلى العالم الآخر.. هم يعرفون حبك لتلك السيدة النبيلة.. معنا كل الحق في البكاء فقد كانت أمًّا لبيتنا هذا، لكن هذه الحياة ليست سوى رحلة ولسوف نلحق بها جميعًا.. فقط فلتكن نهايتنا مثلها! »

- « أنت تحلم يا أخي..إنها في خير حال.. وأين الأميرة إيزابيلا؟»

- « تلك البائسة!.. لقد حكيت لها الخبر المريع وحاولت أن أعزيها..»

- « ليكن.. لكن أين الأميرة (إيزابيلا)؟ »

- « بكت كثيرًا وقالت إنها ستعتكف في غرفتها.. »

ركض الأب إلى غرفة إيزابيلا فلم يجدها هناك.. سأل عنها الخدم فلم يعرف أحد شيئًا..

راح يبحث بلا جدوى في الدير والكنيسة، وأرسل من يبحثون عنها في كل صوب.

قدر الرجل أن إيزابيلا وقد سمعت بموت هيبوليتا، قد حسبت أن الأمير قتلها وأنه عازم كل العزم على تنفيذ ما انتواه؛ لذا بادرت بالاختباء في مكان لا يبلغها فيه. الحقيقة التي عرفها فيما بعد هي أن (مارتللى) سمع صراخ (بيانكا) عندما قالت: « الأميرة ماتت! »، من ثم افترض أن هيبوليتا ماتت وجرى إلى الدير لينشر هذه الإشاعة.

هذا الفرار سوف يصيب الأمير بالجنون، هكذا قرر الأب أن يصحب عددًا من إخوته معه إلى القلعة لمقابلة الأمير ومحاولة إقناعه بأن يرحم تيودور.

في الوقت ذاته أمر مانفريد بفتح أبواب القلعة لاستقبال ضيفه الغريب ومن معه. جاء حاملا راية أولًا ثم من ينفخ في النفير، ثم مائة حارس.. ثم جواد مطهم عليه ألوان أعلام (فيشنتسا) ثم راهب الاعتراف يعبث في مسبحته، ثم مجموعة من الخدم يلبسون لوني الراية. ثم ظهر مائة فارس يحمل كل منهم سيفًا ينوء بثقله، ثم ظهر السيد.

هبت الريح فبدأ ريش الخوذة العملاقة يتطاير كما رآه مانفريد من قبل، وقد شعر بأن هذا نذير، لكنه كره أن يبدو منه ما يخون شجاعته.

قال:

- « استرح أيها الفارس، وغدًا سوف تكون مواجهة عادلة ولسوف تقرر السماء جانبها! »

لم يرد الفارس لكن مانفريد اقتاده إلى قاعة القلعة الكبرى، نظر الفارس إلى الخوذة العملاقة وانحنى امامها، ثم نهض وأتى بإشارة للأمير كي يتقدمه. في القلعة أشار له مانفريد كي ينزع سلاحه لكن الفارس أتى بعلامة رفض فقال مانفريد:

- « أيها الفارس.. هذا ليس من الدماثة في شيء.. لكننى لن أخونك كما وعدت ولن تشكو أبدًا من أمير أوترانتو. أرجو ألا تكون نية الخيانة عندك أنت. سوف ينعم رفاقك بقوانين الضيافة.. ولسوف تأتيكم المرطبات حالاً.. »

واختار للقادمين جناحًا كانت هيبوليتا قد خصصته للحجاج.

كانت المأدبة قد أقيمت فدعا ضيوفه الصامتين إلى اتخاذ أماكنهم وراح يحاول أن يوجه بعض الأسئلة للقادمين لكنه لم يتلق إلا إشارات.

فقط رفعوا أغطية خوذاتهم كي يمكنهم الأكل. قال مانفريد:

- « يا سادة. أنتم أول ضيوف يأتون هنا ويأكلون بين هذه الجدران، ويرفضون الكلام معى.. وليس من شأن الأمراء أن يهينوا سمعتهم وكرامتهم مع البُكم.. تقولون إنكم جئتم من طرف فردريك (فيشنتسا) وأنا أعرف أنه كان رجلًا طيبًا كريمًا. وبرغم هذا تصرون على الصمت.. ليكن.. حسب قوانين الفروسية والضيافة أنتم تحت هذا السقف سادة. بما أن الطرب ليس طبيعتكم فلنكن تعساء محزونين!.. دعونا نُنه هذه المأدبة ونتحدث عما أريد أن تعرفوه.. »

وهكذا نهض مع ثلاثة فرسان إلى غرفة داخلية. أغلق الباب ودعاهم إلى الجلوس.

قال لكبيرهم:

- « أنت جئت على قدر فهمى يا سيدى ممثلًا للماركيز (فيشنتسا) لتطالب بالأميرة إيزابيلا.. ابنته.. التي ربطتها الكنيسة بابني (كونراد). كذلك تريد أن أتخلى عن سلطاني وملكي لسيدك الذي يعتبر نفسه أقرب قريب بالدم للأمير ألفونسو، أراح الله روحه.

يجب أن تعرف ويعرف سيدك أننى ورثت أوترانتو عن أبي (دون مانويل) الذي ورثها عن أبيه (دون ريكاردو). (ألفونسو) مات بلا أبناء في الأرض المقدسة وترك أملاكه لجدى مقابل خدماته له. ريكاردو كان رجلًا تقيًا نقيًا.. ولقد بنى الكنيسة المجاورة واحتفظ بأملاكه برعاية القديس (سانت نيكولاس) وبسيفه.. وهذا ما سأفعله يا سيدي. لكن أين سيدكم (فردريك)؟.. هناك تقارير تقول إنه مات في الأسر.. كلامكم يوحي بأنه حي وأنا لن أشك في هذا.. من حقي أن أشك لكن لن أفعل.. آسف يا سادة لكن دمى حار، وأنا أسألكم أن تضعوا أنفسكم مكاني.. ألن يثير حنقكم وأنتم الفرسان الشجعان أن يتم التشكيك في أسلافكم؟.. والآن أنتم تطالبون بالسيدة (إيزابيلا).. أسألكم: هل لديكم السلطة كاملة لهذا؟ »

هز الفرسان رءوسهم..

قال:

- « حسن.. خذوها.. لكن هل تعلمون أنني أتعس البشر قاطبة؟.. لقد مات ابنى كونراد أمس! »

تبادل الفرسان نظرات الدهشة.

- « نعم يا سادة.. لقد قضى القدر على ابنى و(إيزابيلا) الآن حرة.. لم يعد هناك ما يثير اهتمامي في الحياة، وليس أفضل من

الميتة التي يذهب فيها الفارس إلى القبر وهو يتحدى خصومه.. »

بدا على الفرسان أنهم لا يعرفون شيئًا عن الموضوع، فقال لهم:

- « هل من الممكن أنكم لا تعرفون شيئًا عن الموضوع؟.. لا تعرفون قصتى و(هيبوليتا)؟ »

هزوا رءوسهم.

- « تحسبون أننى شديد الطموح؟.. طموح؟.. لن أختبر صبركم أكثر من هذا، ولسوف أكلمكم مباشرة عن زواجي بالأميرة (هيبوليتا).. أنا أحبها كأميرة وأهواها كصديق.. لكنها تعرف وساوسي وتشاركني فيها.. في الحقيقة زواجنا غير قانوني من الناحية الكنسية وأنا أتوقع في كل لحظة أن يتم فسخه.. أرجو أن تغفروا لي هذه الدموع.. »

تبادل الفرسان النظرات، متسائلين متى ينتهى هذا؟

- « لم أعد راغبًا في إدارة أملاكي.. كل ما أردته هو أن يكون هناك من يأتى بعدى ويحسن لقومي. أنا لا أعرف أي شيء عن سيدكم فردريك.. بالنسبة لي هو أسير أو ميت.. لا أتصور أن يحكم شعبى أمير قاس غير كريم، فأنا يا سادة أحب شعبي وهم يحبونني والحمدلله. لكن يبدو أن السماء أرسلت إلَيَّ بقدومكم رسالة.. السيدة (إيزابيلا) حرة وأنا سأكون كذلك عن قريب. هكذا يمكنني أن أضحى وأتخذها زوجة لي وهذا سينهي الخلافات بين أسرتينا. أنا أحب هيبوليتا لكن على الأمير ألا يفكر إلا في مصلحة شعبه.. »

هنا دخل الغرفة خادم يخبر الأمير أن القس (جيروم) وعددًا من إخوانه قد جاءوا يطلبون لقاءه..

شعر مانفريد بقلق وخاف أن يخبر القس الفرسان أن (إيزابيلا) قد التجأت للدير طلبًا للحماية. لكنه قدر أن القس جاء يخبره بأنه أعاد الأميرة للقلعة. هنا دخل القس القاعة بلا استئذان.. وعلى الفور أعلن فرار (إيزابيلا) مع تأكيده على براءته.

لم يقل مانفريد سوى عبارات غير مترابطة وقد أدهشته الأخبار، وضايقه أنها وصلت إلى الغرباء. راح في حيرة بين رغبته في أن يعرف التفاصيل وخشيته من أن يسمعها الغرباء.. رغبته في أن يبحث عن (إيزابيلا) وخوفه من أن يشاركه الغرباء البحث.

سأله أحد الفرسان عن سبب فرار (إيزابيلا) من القلعة، فنظر نظرة آمرة بالصمت إلى جيروم القس، ثم قال إنه أرسلها إلى الدير بعد وفاة كونراد إلى أن يحدد الطريقة التي يتصرف فيها معها.

لم يجسر القس على الاعتراض لأنه كان يرتجف خشية على حياة ابنه.

وكان كبير الفرسان مندهشًا من التناقضات التي يسمعها. وهكذا جرى إلى الباب صائحًا:

- « أيها الأمير الخائن..! سوف نجد (إيزابيلا)! »

حاول مانفريد أن يبقيه، لكن الفرسان الآخرين ساعدوا زميلهم.. هكذا تحرر وجرى إلى الساحة مناديًا مرافقيه..

هكذا لحق به مانفريد وطلب من القساوسة أن يتبعوه. وأعطى تعليمات سرية بأن تتم مراقبة حرس الفارس ومرافقيه..

ما إن غادروا القلعة، حتى كانت ماتيلدا التي كانت مولعة بالفلاح الشاب تفكر في طريقة لإنقاذه.. أخبرتها النسوة أن مانفريد أرسل

رجاله في كل اتجاه بحثًا عن (إيزابيلا).. هذا تَضمَّن الحرس الذين عينهم لحراسة تيودور.

هكذا أطاع الحراس الأمر مدفوعين برغبتهم في بعض التجديد ولذة المطاردة.

انسلت ماتيلدا من بين مرافقاتها وهرعت إلى البرج الأسود، حيث عالجت مزلاج الباب الذي سجن الفلاح خلفه. وقدمت نفسها للفلاح المندهش.

- « أيها الشاب.. برغم أن تواضع الأنثى يدين الخطوة التي أقوم بها، لكن الخير يدفعني إليها.. هلم!.. اهرب.. إن أبواب سجنك مفتوحة، وأبي وأتباعه ليسوا هنا لكنهم سيعودون حالًا.. فلتفر ولترعك السماء.. »

قال تيودور:

- « أنت ملاك بالتأكيد.. لا أحد سوى ملاك يتصرف.. يتكلم.. يفكر مثلك.. هل لي أن أعرف من أنت؟.. لقد قلت: « أبي » فهل هذا ممكن؟.. هل لدم مانفريد أن ينجب هذه الرحمة المقدسة؟.. ولكن كيف جئت هنا وكيف تجاهلت سلامتك الخاصة؟.. دعينا نفر معًا. والحياة التي أنقذتها سوف تكرس من أجل حمايتك.. »

قالت ماتيلدا وهي تتنهد:

- « واحسرتاه!.. أنت أخطأت!.. أنا ابنة مانفريد فعلاً لكن لا خطر يحدق بي.. هلم.. فِر أيها الأمير بسرعة لأنه لو جاء أبي لصرت في خطر داهم أنا وأنت.. »

- « أقسمى بالسماء أنه لن يشك فيك أحد.. وإلا لبقيت هنا مهما أصابني.. »

- « يا لكرمك!.. فلتكن واثقًا من أنه ما من خطر عليَّ.. »

- « إذن ناوليني يدك الجميلة كقسم.. ودعيني أغرقها بدموع امتنانى.. »

- « اصبر.. هذا لن يكون!.. فلترحل الآن.. ماذا تقول (إيزابيلا) لو رأتك عند قدمي؟ »

قال في دهشة:

- « ومن هي (إيزابيلا)؟ »

هتفت الفتاة:

- « يبدو أنك مخادع.. »

- « أرجو أن تفسرى.. »

- « أنت تفهم جيدًا.. لكن لا وقت لهذا لأني آمرك بالرحيل.. ذنب دمك في عنقي لو أضعت الوقت في جدل بلا طائل.. سوف أقتادك إلى الممرات السفلية التي عبرها هربت إيزابيلا.. من هناك تصل إلى الكنيسة حيث يمكنك طلب اللجوء.. »

- « ماذا؟.. إذن لم تكوني أنت من ساعدتها في العثور على تلك الممرات السفلية؟ »

- « لم أكن أنا.. لكن لا تضيع الوقت.. إننى أرتجف خوفًا من كونك ما زلت هنا.. فلتهرب إلى الملجأ بسرعة.. »

- « لا.. ليس الملجأ.. الملجأ لفرار الآنسات الضعيفات.. أعطيني سيفًا يا آنسة ولسوف يرى أبوك أن تيودور ليس بالطراز الذي

يهرب.. »

- « أيها الشاب المندفع..!.. لن تجسر على رفع يدك أمام أمير أوترانتو.. »

- « ليس ضد أبيك.. أعترف بهذا.. كلما نظرت إليك نسيت أنه أبوك.. لكن أنا أعتذر يا آنسة.. »

هنا دوى صوت أنين من أعلى، فتصلبا.

قالت الأميرة:

- « يا للسماء!.. هناك من يسمعنا!.. »

وأصغيا فلم يسمعا شيئًا.. قدرا أن هذا تأثير الهواء الحبيس.

هكذا أخذته ماتيلدا إلى حيث وضع أبوها دروعه فألبسته درعًا كاملًا يخفى وجهه، وساعدته على الفرار من البوابة الخلفية.

- « تجنب المدينة.. وتجنب الناحية الغربية من القلعة.. لابد أن البحث على قدم وساق هناك من مانفريد والرجال.. خلف هذه الغابة نحو الشرق توجد سلسلة صخور، تحتها متاهة من الكهوف تقود إلى البحر.. يمكنك الاختباء هناك إلى أن تستطيع إعطاء إشارة لسفينة قريبة من الشط، تحملك بعيدًا.. لتكن السماء حليفتك.. وتذكر في صلواتك ماتيلدا! »

جثا على ركبتيه وتناول يدها برغم مقاومتها وطبع عليها قبلة..

وعدها بأن يحاول في أقرب فرصة أن يكون فارسًا، وطلب منها أن تسمح له بأن يكون فارسها..

قبل أن ترد الأميرة دوى الرعد فاهتز المكان.

ابتعدت الأميرة وأمرت الفتى بالرحيل بلهجة لا تقبل المناقشة. راقبها تيودور بعينين لا تطرفان حتى غابت، وهكذا انتهت محادثة روت القلبين بعاطفة لم يجرباها من قبل.

اتجه تيودور شارد الذهن إلى الدير كي يخبر أباه بتحرره. هناك عرف أن (جيروم) غير موجود وعرف أن الجميع يبحث عن (إيزابيلا)، وعرف تفاصيل قصتها.

تمنى لو يساعد (إيزابيلا) لكن لم يكن لدى الرهبان أية خواطر عن مكانها. وكان غارقًا في الافتتان بماتيلدا حتى إنه لم يستطع أن يبتعد عنها ليبحث عن أخرى.

قرر أن يتجه إلى الغابة التي كلمته ماتيلدا عنها، إلى أن يعود جيروم في المساء.

هناك بحث عن الظلال القاتمة لتناسب الخواطر الكئيبة في عقله، وبحث عن الكهوف التي كان يأوى إليها النَّساك في الماضي، والتي يزعمون في الريف اليوم أنها مأوى للأرواح الشريرة. وكان بطبعه أميل إلى الشجاعة والإقدام؛ لذا صمم على استكشاف هذه الأماكن المرهوبة.

لم يكن قد توغل كثيرًا عندما سمع صوت أقدام شخص يسبقه. وبرغم أنه كان يؤمن بكل ما يؤمن به من حوله، فإنه لم يعتقد قط أن السماء يمكن أن تتخلى عن الأبرياء من أجل قوى الشر.

بدا له أنه من المعقول أكثر أن يكون المكان مليئًا بقطاع الطريق، لا تلك المخلوقات الجحيمية التي قيل إنها تتحرش بالمسافرين.

أخرج سيفه وتوغل في الغابة بهدوء. كان صوت صليل المعدن في درعه كأنه صوت يهدد الشخص الذي يتقدمه، والذي بادر

بالفرار مسرعًا.. لكن تيودور ضيق المسافة أكثر.. فأكثر..

وهنا سقطت امرأة عند قدميه. نهض ليساعدها على النهوض، لكنها كانت في حالة ذعر جعلته يخشى أن تفقد وعيها.

استعادت المرأة روعها ونظرت إليه في امتنان وقالت:

- « نعم.. لقد عرفت الصوت من قبل.. »

قال تيودور:

- « لا أعتقد هذا، ما لم تكوني أنت ليدى إيزابيلا كما أعتقد.. »

قالت في رعب:

- « يا للسماء!.. إذن أنت لم تأت بحثًا عنى..؟.. »

وألقت بنفسها عند قدميه متوسلة إليه ألا يعيدها إلى مانفريد.

- « مانفريد؟.. لا يا سيدة.. لقد ساعدتك على الفرار من طغيانه مرة، والآن سوف أساعدك على الفرار من متناول يديه.. »

- « إذن أنت المجهول الكريم الذي ساعدني في الفرار من القبو ليلًا؟.. أنت ملاك بالتأكيد ولست شخصًا فانيًا! »

قال لها:

- « دعينا لا نضيع الوقت في الكلام، فنحن لم نبتعد عن مدخل الكهف.. دعينا نتوغل داخله فلن أهدأ حتى أضعك بعيدًا عن الخطر.. »

- « هل ترى أنه من الحكمة أن نتوغل وحدنا في هذا المكان المقفر؟.. هل من الحكمة أن يرانا العالم سيئ الظن هنا معًا؟.. أقولها برغم ثقتي في نبلك وحسن مقصدك.. »

قال وهو يتنهد:

- « سيدتي.. أنت بارعة الجمال لكن روحي ملك واحدة أخرى.. »

هنا سمعا جلبة منعت تيودور من الاسترسال، وسمعا من يصيح:

- « (إيزابيلا)!.. (إيزابيلا)! »

ارتجفت الأميرة وعادت إلى ذعرها السابق، أما تيودور فحاول جاهدًا أن يقنعها بالتماسك، لكن بلا جدوى. توسل إليها كي تبقى مختفية، وتقدم ليمنع القادم من الدّنو.

عند مدخل الكهف وجد فارسًا مدججًا بالدروع والسلاح ومعه فلاح يتكلم معه، يقنعه أنه رأى السيدة تدخل الكهف. وكان الفارس يتأهب لدخول الكهف عندما برز له تيودور بالسيف وتحداه أن يدخل.

قال الفارس في غطرسة:

- « ومن أنت؟.. يا من تجسر على اعتراض طريقي؟ »

- « أنا الذي لن يتحدى بشيء لا يقدر على عمله.. »

- « أنا أبحث عن السيدة إيزابيلا فلا تَعُق طريقي، وإلا كان عليك أن تدفع ثمن إثارة غضبي.. »

- « عد من حيث جئت، وإلا عرفت على الفور مَن الأخطر غضبًا..»

كان الغريب هو الفارس الموفد من ماركيز (فيتشنتسا) الذي انطلق يقفو أثر الأميرة. وكان قد وجد أثر (إيزابيلا).. طوح بسيفه بقوة في اتجاه تيودور، لكن (تيودور) كان على أتم

استعداد لتفادي الضربة القوية بدرعه وقد حسب الفارس واحدًا من ضباط مانفريد، ولو لم يفعل لكانت الضربة قد أزاحته نهائيًّا.

البسالة التي أخفاها في صدره كل هذه السنين تحررت على الفور.. واندفع نحو الفارس وكانت المواجهة عنيفة شرسة لكنها لم تطل.. لقد جرح تيودور الفارس في ثلاثة مواضع ثم جرده من سلاحه، بينما فقد هذا وعيه من فرط النزف.

كان الفلاح قد فر ليستغيث ببعض أتباع مانفريد فانطلقوا في الغابة يبحثون عن (إيزابيلا)، ووصلوا ليجدوا الفارس لحظة سقوطه على الأرض..

شعر تيودور بالتأثر عندما عرف حقيقة الفارس وأنه ليس من أتباع مانفريد بل هو عدوه.. ساعد في نزع دروع الفارس ووقف نزف الدم من جروحه، فقال الفارس الذي استعاد القدرة على الكلام:

- « أنت عدو كريم.. كلانا أخطأ.. أنا حسبتك أداة لدى الطاغية وأنت ارتكبت ذات الخطأ.. تأخر وقت الاعتذار.. أنا أغيب عن وعيي فلو كانت (إيزابيلا) قريبة قل لها أن.. »

قال أحد الخدم:

- « إنه يموت!.. هلا صليت عليه يا (أندريا)؟ »

قال تيودور:

- « أسقوه بعض الماء ريثما أهرع إلى الأميرة.. »

واندفع إلى حيث كانت إيزابيلا فأخبرها بالقصة في أسى..

أصيبت إيزابيلا بالذهول لدى سماع هذا الكلام، وجرت إلى حيث كان الفارس الجريح. وكانت بسالة تيودور قد أعادت لها

شجاعتها.. وجدت الفارس على الأرض فاقد النطق، لكن ذعرها تجدد عندما عرفت خدم مانفريد. كادت تفر لولا أن طمأنها تيودور إلى أنهم غير مسلحين، وهددهم بالموت لو حاولوا القبض على الأميرة.

فتح الغريب عينيه فرأى وجه امرأة.. قال لها:

- « ألست أنت (إيزابيلا) آل (فيشنتسا)؟ »

قالت:

- « أنا هي.. فلتعدك السماء لنا! »

قال وهو يكافح لإخراج صوت:

- « إذن أنت.. أنت.. ترين أباك.. »

صرخت (إيزابيلا):

- « يا للرعب!.. يا للمفاجأة!.. ماذا أسمع وماذا أرى؟.. أنت أبي؟.. ماذا أتى بك هنا يا سيدي؟.. تكلم!.. اطلبوا العون، وإلا مات! »

قال الفارس وهو يستجمع قواه:

- « هذا حق.. أنا فردريك أبوك.. جئت أصطحبك.. الآن أعطيني قبلة وداع و... »

صاح تيودور:

- « لا تتعب نفسك يا سيدي ودعنا ننقلك إلى القلعة.. »

صاحت (إيزابيلا):

- « ألا يوجد مكان أقرب؟.. هل تسلم أبي للطاغية؟.. لن أجرؤ على الذهاب معه، لكني كذلك لا أطيق أن أتركه.. »

قال فردريك:

- « يا بنيتي.. لا تقلقي.. بضع لحظات سوف تجعلني بعيدًا عن أي خطر أرضيّ.. لا تتركيني!.. أريد أن أموت وعيني عليك.. هذا الفارس الذي لا أعرفه سوف يحمى طهارتك.. لن تتخلى عن ابنتى يا سيدى.. أليس كذلك؟ »

كان تيودور دامع العينين على ضحيته، وأقنع الفارس بأن يقبل بنقله إلى القلعة. وضعوه على حصان أحد الخدم بعد ما ضمدوا جروحه على قدر وسعهم، وتقدم تيودور المسيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

ما كاد الركب الحزين يبلغ القلعة حتى قابلته هيبوليتا وماتيلدا. كانت (إيزابيلا) قد أرسلت خادمًا يبلغهما بقدومها..

نقلت السيدات فردريك إلى أقرب غرفة بينما قام الجراحون بفحص جراحه.

تضايقت ماتيلدا لرؤية تيودور و إيزابيلا معًا لكنها تظاهرت بأنها مشغولة بعناق الفتاة.. وعاد الجراح ليبلغ هيبوليتا أن جراح فردريك ليست قاتلة. وهو يرغب في أن يرى ابنته والأميرة.

سألت هيبوليتا فردريك عندما استعاد قواه، عن السبب الذي جعله يسلك هذا المسلك الغريب لاسترداد ابنته.

كان فردريك برغم مقته البالغ لمانفريد قد أدرك نبل أخلاق هيبوليتا، وإن استهواه جمال ماتيلدا. هكذا حكى لهيبوليتا قصته كاملة.

حكى لها إنه كان أسيرًا لدى الأعداء[4] فحلم بابنته التي لم يسمع عنها منذ كان أسيرًا.. حلم بأنها سجينة قلعة مهددة بالأهوال.. وأن عليه أن يدخل غابة معينة لو أراد أن ينقذها.

كان يتوق للخروج، لكن هذا كان مستحيلاً مع كل أصفاده.. كان اليأس قد استبد به عندما تلقى الأنباء أن الأمراء المتحاربين في فلسطين قد دفعوا له الفدية. هكذا تحرر وأسرع إلى الغابة التي رآها في حلمه وظل يجوبها مع رفاقه ثلاثة أيام دون أن يرى بشرًا.

لكن في مساء اليوم الثالث وجدوا صومعة بها راهب يحتضر.. ساعدوه على أن يفيق.

قال لهم:

- « يا أبنائي.. أنا مدين لكرمكم، لكن هذا بلا جدوى لأننى ذاهب إلى الراحة الأبدية.. لقد عانيت الكثير، إلى أن تجسد لي القديس نيكولاس وأخبرني بسر طلب ألا يعرفه فانٍ إلا لحظة احتضارى. هذه هي الساعة المختارة وأنتم الفرسان الذين على أن أخبرهم بالسر. ما إن تفرغوا من دفنى عليكم أن تحفروا تحت الشجرة السابعة على يسار هذا الكهف.. أيتها السماء!.. استقبلى روحى! »

وإذ قال هذه الكلمات لفظ الرجل آخر أنفاسه.

قال فردريك:

- « عند الفجر بدأنا الحفر حسب التعليمات. على عمق ستة أقدام بلغت دهشتنا مداها لأننا وجدنا سيفًا عملاقًا.. ذات السيف الذي تجدينه في ساحة القلعة. على نصله الذي أخرجناه من الغمد وجدنا هذه الكلمات.. ولكن أنا أعتذر لك يا مدام. أنا أقدر مكانتك ولست براغب في أن أجرح أذنيك بكلمات تخص شخصًا عزيزًا عليك.. »

ارتجفت هيبوليتا. لم يكن عندها شك في أن فردريك أرسلته السماء ليضع الكلمة الأخيرة في المصير الذي يهدد بيتها. نظرت في حب إلى ماتيلدا وسالت دمعة على عينها ثم تماسكت وقالت:

- « هلم يا سيدى.. السماء لا تفعل شيئًا عبثًا.. على الفانين أن يتقبلوا إرادتها في استسلام وخنوع.. قل ما قيل يا سيدى.. »

كاد فردريك يبكى من التأثر لدى رؤيته نبل الأميرة ووقارها.. وتلا الأبيات التي وجدها على نصل السيف:

- « حيثما تجد الخوذة التي تتمشى مع هذا السيف..

بينما تحيط بابنتك الأخطار..

يمكن لدم ألفونسو وحده أن ينقذ العذراء وأميرة قلقة.. »

قال تيودور في نفاد صبر:

- « ما الذي في هذه السطور يهم هاتين الأميرتين؟.. ما الذي تخاف أن يصدمهما؟ »

قال الماركيز:

- « كلماتك خشنة أيها الشاب، وبرغم أن حظك كان حسنًا مرة.. »

قالت (إيزابيلا) التي أدركت أن خشونة تيودور سببها حبه لماتيلدا:

- « أرجو أن تغفر له يا سيدي.. فهو ابن فلاح لا يعرف كيف ينتقى كلماته.. »

هنا دوت ضوضاء في الخارج..

وإلى الغرفة اندفع مانفريد مع القس والأتباع، وهرع إلى فراش فردريك ليواسيه على خسارته، ويعرف منه تفاصيل العراك.. لكنه عندما رأى تيودور صاح في رعب:

- « من جاء بك هنا أيها الشبح المخيف؟.. هل حانت ساعتى؟»

صاحت هيبوليتا:

- « يا سيدى.. ماذا ترى؟.. لماذا تثبت عينيك بهذه الطريقة؟ »

قال مانفريد منقطع الأنفاس:

- « ألا ترين ما أراه يا هيبوليتا؟.. هل بعث هذا الشبح لى أنا؟ »

- « بالله عليك تعقل.. لا أحد هنا سوانا.. نحن أصدقاؤك.. »

صاح (مانفريد):

- « أليس هذا ألفونسو؟.. ألا ترينه؟ »

- « هذا يا مولاي تيودور.. الشاب تعس الحظ.. »

الحقيقة أن الشاب عندما وضع الخوذة والدروع بدا شبيهًا بألفونسو إلى حد لا يوصف. ضرب مانفريد جبهته بيده وقال:

- « تيودور؟.. تيودور أو شبح.. لقد أثار هلعي.. لكن كيف جاء هنا؟.. ولماذا يلبس الدروع؟ »

قالت هيبوليتا:

- « أعتقد أنه كان يبحث عن إيزابيلا.. »

- « نعم.. نعم.. لكن كيف فر من سجنه الذي وضعته فيه؟.. هل هي إيزابيلا أم القس العجوز المخادع؟ »

لم يَدْر القس جيروم ما يقول؛ فهو فعلاً لا يعرف كيف فر تيودور ولا كيف ارتدى الدروع؛ لهذا فضل الصمت، وأقنع صمته مانفريد أنه ساعد على فرار الفتى.

قال تيودور:

- « سيدي.. أنت تظلم أبي أيما ظلم.. فلا هو ولا أنا بقادرين على التفكير في شيء لا يريحك.. »

ووضع سيفه باحترام عند قدمي مانفريد:

- « اضرب يا سيدي.. اضرب لو شككت في أن هناك فكرة خائنة في صدري هذا.. »

أعجب كل من في صف تيودور بالنبل والحماسة اللذين قيلت بهما هذه الكلمات، وحتى مانفريد تأثر، لكن إعجابه تلاشي أمام الرعب من فكرة تشابه الفتى مع ألفونسو.

قال:

- « انهض.. حياتك لا تهمني حاليًا.. لكن عليك أن تخبرني بعلاقتك بهذا الخائن العجوز هنا.. »

قال تيودور:

- « سيدى.. قصتي قصيرة جدًّا.. في سن الخامسة حملوني إلى الجزائر مع أمي التي خطفها القراصنة من سواحل صقلية. ماتت خلال عام حزنًا.. قبل أن تموت تركت لي ورقة أخفتها في ثيابي تخبرني أنني ابن كونت (فالكونارا).. »

قال القس (جيروم):

- « هذا صحيح.. أنا الأب تعس الحظ.. »

واصل تيودور:

- « ظللت في الأسر حتى ما قبل عامين، حتى اشتبكت سفينة القرصان مع سفينة أوروبية هزمته.. كشفت للقبطان عن شخصيتي فأوصلني إلى صقلية. لكني لم أجد أبي هناك.. عرفت أن قلعته الساحلية قد هوجمت أثناء غيابه وسويت بالأرض، وأن أبي عرف بهذا لدى عودته فباع كل ما يملك وقرر أن يصير راهبًا، لكن لا أحد يعرف مكانه. هكذا رحت آكل من عمل يدى وأجوب البلاد، ولم أتصور حتى صبيحة أمس أن الأقدار تدخر لي مفاجآت غريبة. هذه هي قصة تيودور يا سيدي.. لقد بوركت إذ وجدت أبي.. »

انتهت القصة فتعالت همهمة الاستحسان من الواقفين.

قال فردريك:

- « هذا ليس كل شيء.. يمكنني أن أضيف ما أخفاه هو... إنه متواضع لكنه واحد من أشجع الشباب الذين عرفهم العالم المسيحى.. وليس خطأه أنك اعتبرته شبحًا! »

هنا تدخلت هيبوليتا:

- « سيدى.. من حق ضيفك أن يظفر ببعض الراحة.. يمكننا أن نتركه الآن.. »

وأمسكت بيده كي يبتعدا، ومعهما باقي الواقفين.

أزمع تيودور أن يمضي الليل في الدير مع أبيه، لأنه عائد للقلعة غدًا (وهو ما سره كثيرًا)، أما (إيزابيلا) وماتيلدا فقد ذهبت كلتاهما إلى غرفتها بعد تبادل مجاملات تقليدية خالية من الحرارة.

تذكرت ماتيلدا أن تيودور أنقذ (إيزابيلا) أكثر من مرة في ظروف لا يمكن أن تكون صدفة.. صحيح أن عينيه لم تفارقا عينيها، لكن ربما كان هذا على سبيل الخداع في وجود الأبوين.

خافت أن تضر صاحبتها لو أحست بميل إلى حبيب (إيزابيلا)..

(إيزابيلا) بدورها كانت لديها شكوك، وكانت الشكوك أقوى.. كلام تيودور وتصرفاته تدل على أنه يحب.. من الواضح أن ماتيلدا هي مصدر هذا الحب.

هكذا تصارحت الصديقتان، وفي ساعة متأخرة من الليل عرفت ماتيلدا نية أبيها أن يطلق أمها ويتزوج (إيزابيلا).. وعرفت أيضًا

أنه يزمع أن تتزوج هي فردريك أبا (إيزابيلا) على سبيل إذابة الفوارق بين الأسرتين لتظل أوترانتو له..

(تيودور) أيضًا وجد صعوبة في الاستيقاظ صباحًا لأنه قضى الليل يحلم بـ (ماتيلدا). عندما استيقظ في الصباح ولحق بأبيه عند قبر ألفونسو الطيب، استجوبه أبوه فعرف حقيقة أنه يحب تلك الفتاة فقال له:

- « هذه عاطفة محرمة.. من الخطأ أن يحب المرء ابنة طاغية، لأن علينا أن نعمل على انقراض نسله وذريته من الأرض.. »

- « وهل السماء تعاقب البرىء بذنب المسيء؟.. ماتيلدا الطيبة مليئة بالفضائل.. »

- « تذكر أن أباها حكم عليك بالإعدام مرتين.. »

- « وتذكر أن ابنته ساعدت في إنقاذي.. قد أنسى الإساءة لكني لا أنسى الحسنات أبدًا.. »

- « تحت هذا القبر يرقد ألفونسو الطيب.. فرحة البشرية وفخر قومه.. سوف أحكى لك قصة مفزعة تطرد كل عاطفة من روحك.. لن تبقى لديك إلا الرغبة في الانتقام.. هيه!.. من القادم؟ »

هنا جاء صوت (هيبوليتا) وهي تدخل الكنيسة:

- « أكثر النساء شقاء!.. هل وقتك يسمح أيها الأب الطيب؟.. لكن لماذا يركع هذا الشاب على ركبتيه ولماذا يرتسم الرعب على وجهه؟.. لقد قضيت حياتي أصلى من أجل طفلى، وهأنذا قد فقدت واحدًا منهما ويا للحسرة! »

قال القس:

- « أيتها الأميرة التقية.. لا تتجادلي أبدًا مع القوة العليا.. الرب أعطى والرب أخذ.. فليتمجد اسمه ولتخضعى لحكمه.. »

- « أنا خاضعة لإرادته، لكن هل يجب أن تؤخذ منى ماتيلدا كذلك؟.. أرجو أيها الأب أن تصرف هذا الشاب؛ فما من أذن يجب أن تسمع ما سأقول.. »

قال تيودور وهو ينسحب:

- « فلتحقق لك السماء كل أمنياتك أيتها الأميرة العظيمة!.. »

قالت هيبوليتا للقس كل شيء عن نوايا مانفريد.. أن تتزوج ماتيلدا بفردريك. لم يستطع الأب أن يخفى مقته لهذه النية، لكنه قال على سبيل التمويه إنه لا يعتقد أن فردريك أقرب قريب بالدم لألفونسو يمكن أن يضع يده في يد غاصب إمارته ويصاهره.

قال لها إنه غير راض عن هذه الترتيبات وشجعها على أن ترفضها بعنف وحزم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذات الوقت كان مانفريد قد صارح فردريك بنيته، وبموضوع الزواج الثنائي. أصغى فردريك الذي انبهر بجمال ماتيلدا إلى العرض في حماس.

لقد نسى عداوته لمانفريد وبدأ الأمر يروق له.

أبدى بعض الاعتراض الشكلي على مشروعات مانفريد، وقال إنه لن يوافق على زواج (إيزابيلا) من مانفريد ما لم توافق هيبوليتا على الطلاق..

تحمس مانفريد وهرع إلى جناح زوجته ليخبرها، فعرف في غيظ أنها ذهبت إلى الدير. خطر له أن تكون إيزابيلا أخبرتها بنواياه. وتساءل عما إذا كان ذهابها إلى الدير يعني أنها ستبقى هناك إلى أن تنجح في عرقلة الطلاق. وشك في أن يكون للقس جيروم دور في هذا.

هكذا هرع إلى الدير حيث كان القس ينصح هيبوليتا بشدة ألا ترضخ للطلاق بأي ثمن.

قال مانفريد:

- « مدام.. لماذا أنت هنا؟.. لِمَ لَمْ تنتظرى عودتي من عند الماركيز؟ »

قالت في ارتباك:

- « جئت أطلب البركات من الأب.. »

قال مانفريد:

- « ومن بين كل الرهبان هنا، لم تقصدى سوى هذا الخائن؟ »

قال جيروم:

- « أيها الأمير سليط اللسان.. هل اخترت المحراب كى تهين فيه خدم المحراب؟.. لكن خططك الجاحدة يا مانفريد معروفة للسماء ولهذه المرأة التقية.. سوف يعلو صوت رعد السماء على صوت غضبك.. لو استمررت في محاولتك الآثمة للطلاق فإنها سوف تصدر ضدك مرسومًا بالحرمان الكنسي.. »

- « أيها المتمرد الأخرق!.. أنت تهدد أميرك؟ »

قالها مانفريد محاولًا إخفاء ما شعر به من رهبة إزاء هذا التهديد.

- « أنت لست أميرًا.. اذهب فناقش أمورك مع فردريك.. »

- « لقد ناقشناها فعلاً.. »

هنا تساقطت ثلاث قطرات من الدم من أنف ألفونسو الطيب. شحب مانفريد وركعت الأميرة على ركبتيها.

قال القس:

- « راقب هذه المعجزة!.. دم مانفريد لن يمتزج أبدًا بدم ألفونسو الطيب.. »

قالت هيبوليتا:

- « سيدى.. فلنرضخ لإرادة السماء.. لو وافقت الكنيسة على حل روابط زواجنا فأنا موافقة.. تعال نصلّ من أجل سلامة ماتيلدا..»

- « لكنك لن تبقى هنا حتى تقرر الكنيسة.. سوف تعودين معى إلى القلعة. لن أسمح بدخول هذا القس المخادع إلى بيتي.. سقف داري المضياف لن يستقبل خائنًا بعد اليوم.. أما عن ابنك أيها القس فهو ليس شخصًا مقدسًا ولا تحميه الكنيسة، وأنا أطرده من كل أملاكي.. من سيتزوج ابنتي ماتيلدا لن يكون ابن (فالكونارا).. »

نظر مانفريد إلى القس في ازدراء، واقتاد هيبوليتا إلى الخارج، لكنه على باب الكنيسة همس لأحد أتباعه أن يتوارى في الدير، وأن يخبره إن ظهر أحد من القلعة هنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

كان كل تصرف يقنع مانفريد أكثر فأكثر أن القس جيروم يداري قصة حب بين (إيزابيلا) و(تيودور). وزادت شكوكه مع تخلى القس عن وداعته السابقة.

بل إن مانفريد افترض أن القس اعتمد على دعم سرى من فردريك الذي توافق ظهوره مع ظهور تيودور، مما يوحي بوجود اتفاق سرى. كما تضايق جدًّا من الشبه بين تيودور وصورة ألفونسو. هو يعرف يقينًا أن الأخير مات دون ذرية، وهذه الخواطر جعلت رأسه موشكًا على الانفجار.

الحل الذي وجده للخروج من هذا المأزق هو أن يسرع بزواجه من (إيزابيلا)، وقد فكر في هذا وهو يمشي بهيبوليتا عائدًا إلى القلعة.

هكذا راح يغرى هيبوليتا بالطلاق.. كانت هي تأمل في أن تقنعه بالتخلي عن أملاكه لمنافسه، لكنها أدركت استحالة هذا، من ثم قالت لزوجها إنها ستطيعه في أي شيء يريح ضميرها حتى لو كان الطلاق.. لكن لابد أن يعطيها أسبابًا أقوى، وإلا فلن تتحمس لقرار كهذا.

ارتفعت آمال مانفريد بهذا الخضوع غير الكامل.. كان موقنًا أن نفوذه وثروته قادران على ترجيح كفة الطلاق عندما يعرض هذا على الكنيسة في روما. ربما أمكن إقناع فردريك بهذه الرحلة لأن الرجل منبهر بفتنة ماتيلدا، وهذه نقطة يمكن استغلالها.. يمكن لمانفريد أن يقرب ابنته منه أو يبعدها عنه حسب الحاجة.

طلب من فردريك أن يصرف رفيقيه الفارسين لأنه يريد الكلام معه على انفراد.

ما إن صارا وحيدين، بدأ يكلم الماركيز عن ماتيلدا.. وراح يلمح إلى صعوبة إتمام الزواج ما لم..

هنا اندفعت (بيانكا) وصيفة (ماتيلدا) إلى الغرفة وقد بدا من توحشها واتساع عينيها أنها في أشد حالات الذعر.

- « سيدى!.. لقد حل بنا الخراب!.. لقد عاد من جديد!.. عادا! »

صاح في دهشة:

- « ما الذي عاد من جديد؟ »

- « اليد!.. العملاق!.. أنا خائفة لدرجة الجنون!.. لن أنام في هذه القلعة الليلة..إلى أين أذهب؟.. سوف آخذ حاجياتى غدًا.. ليتني قبلت الزواج من فرانسسكو.. »

قال الماركيز:

- « حاولي أن تهدئي أيتها الشابة.. أنت في أمان.. »

- « أنت كريم يا صاحب السمو، لكنى لا أطيق البقاء ساعة أخرى هنا.. »

قال مانفريد:

- « إذن فارحلي.. أنت فقدت عقلك فلا تقاطعينا.. هذه الوصيفة معرضة لنوبات عقلية يا سيدي.. كنا نناقش أمورًا مهمة، فتعالى معى يا بيانكا.. »

- « لا!.. أنا متأكدة من أنه ينذر سموك.. فلماذا يظهر غير هذا؟.. لو أنك صدقت دييجو لعرفت أنها ذات اليد التي رأينا قدم صاحبها.. قال لي الأب (جيروم) إن النبوءة ستتحقق يومًا ما.. »

قال مانفريد مغضبًا:

- « أنت تهلوسين!.. ارحلى واكتفى بإفزاع رفاقك بهذه السخافات! »

- « هل تحسبني أخرف يا سيدي؟.. اذهب بنفسك إلى قمة الدرج لترى.. »

قال فردريك:

- « يرى ماذا؟.. قولي لي أيتها الوصيفة الطيبة ما رأيت.. »

قال مانفريد:

- « هل تصغى إلى تخاريف خادمة سمعت قصص الأشباح حتى صدقتها؟ »

قال فردريك:

- « ذعرها حقيقى ويدل على أن الأمر يفوق الخيال.. هيا أيتها الوصيفة.. أريد أن أسمع.. »

شكرته بيانكا وقالت:

- « أعرف أنني أبدو شاحبة لكني سأسترد روعي بسرعة.. كنت ذاهبة إلى غرفة سيدتي إيزابيلا.. »

- « ادخلي في التفاصيل.. »

- « كنت صاعدة لغرفة سيدتي إيزابيلا حسب أوامر سيدي، وهي تنام في الغرفة الثانية على اليمين أعلى الدرج. لهذا كنت صاعدة إليها.. »

صاح مانفريد:

- « فَليهبني الله الصبر.. ألن تصل هذه الوصيفة للب الموضوع أبدًا؟.. »

- « كنت سأقول لسموك.. كنت قد صعدت ثلاث درجات، عندما سمعت قعقعة سلاح كالتي سمعها دييجو عندما رأى العملاق.. »

تساءل فردريك:

- « أي عملاق هذا؟. هل قلعتك يسكنها العمالقة والعفاريت؟ »

- « نعم يا سيدى.. نظرت لأعلى فرأيت لو صدقتني عظمتك يدًا تلبس الدروع كبيرة كما يكون الكبر.. استبد بي الذعر فجريت حتى كدت أغادر القلعة.. قالت لي سيدتي ماتيلدا إن الأميرة هيبوليتا تعرف شيئًا.. »

صاح مانفريد:

- « أنت وقحة!.. سيدي الماركيز.. هل تعاون خدم قلعتى جميعًا على ترويج الشائعات المؤذية لسمعتى؟.. دعنا نتخلص من هذه الخرافات بأن نتم الزواج المشترك بين أسرتينا، لكن صدقني إنه لمما يسيء لأمير مثلك أن يصغى إلى قصص الخدم المأجورين.. »

قال فردريك:

- « أنا أزدرى اتهاماتك.. أنا لم أر هذه الآنسة من قبل، ولم أعطها جواهر.. سيدي.. إن ذنبك هو ما يدينك.. ولسوف يلقى بالشكوك علىَّ أنا.. احتفظ بابنتك ولا تفكر في إيزابيلا. إن حكم السماء الصادر ضد بيتك يمنعني من أن أتزوج منه.. »

أصيب مانفريد بالذعر من الحسم الذي قال به فردريك نواياه، وحاول أن يهدئه.. صرف بيانكا ثم راح يتكلم عن محاسن ماتيلدا حتى بدأ فردريك يتأرجح. لكنه كان حديث الإعجاب بماتيلدا، وقد شعر من كلام بيانكا بأن السماء أعلنت الحرب على مانفريد. ثم إن قلعة أوترانتو كانت تمثل له إغراء قويًا. حاول أن يكسب بعض الوقت فسأل مانفريد إن كانت هيبوليتا قبلت الطلاق.

قال مانفريد إنه واثق من زوجته، وبوسع فردريك أن يسألها.

هنا جاء الخبر أن المأدبة جاهزة.. اتجهوا إلى هناك وأجلس مانفريد ضيفه إلى جوار ماتيلدا بينما جلس هو بين هيبوليتا و(إيزابيلا).

راح مانفريد يظهر مرحًا غير معتاد وسقى فردريك كئوسًا عديدة من الخمر. رفض هذا الأخير عروض مانفريد بدعوى أنه نزف الكثير من الدم. شرب مانفريد الكثير جدًّا لكن ليس لدرجة فقدان صوابه.

انتهت المأدبة في ساعة متأخرة، وقد كاد مانفريد يصحب فردريك بعدها، لكن الأخير تعلل بوهنه ورغبته في الراحة.

لما تفرق الجمع غادر فردريك غرفته وسأل عما إذا كانت هيبوليتا وحدها، فقال له أحد الخدم إنها في هذه الساعة تنفرد بنفسها في المصلي الخاص بها.

كان يشعر بانجذاب شديد نحو ماتيلدا وتمنى أن يجد هيبوليتا مستعدة للطلاق كما وعد زوجها. نسى كل العجائب التي جعلته يتهيب تلك الزيجة من ماتيلدا.

هكذا انسل في خفة نحو جناح هيبوليتا آملًا أن يقنعها بقبول الطلاق. لقد اشترط مانفريد أن تكون الزيجة تبادلية بمعنى أنه

لن يفوز بماتيلدا ما لم يتزوج مانفريد إيزابيلا.

لم يندهش من جو الصمت في جناح هيبوليتا.. لقد استنتج أنها في المصلى. كان الظلام يسود المكان، وقد وارب باب المصلي في خفة فرأى شخصًا جاثيًا على ركبتيه.

دنا أكثر فبدا له أن هذا ليس امرأة.. بل هو شخص في عباءة طويلة صوفية ظهره له. كاد الماركيز يتراجع لولا أن نهض الشخص ووقف كأنما هو في تأمل عميق.

قال الماركيز:

- « أيها الأب المبجل.. كنت أبحث عن الليدي هيبوليتا.. »

قال صوت غريب:

- « أتراك جئت إلى هذه القلعة من أجل هيبوليتا؟.. »

واستدار إلى فردريك فشده هذا لدى رؤيته المحجرين الفارغين والفك العاري من اللحم. ملفوفين في مسوح راهب.

صاح وهو يتراجع:

- « لتحمني الملائكة الطيبة! »

قال الشبح:

- « فلتستحق حمايتها!.. ألا تتذكرني؟؟.. تذكر غابات (جوبا)!»

صاح فردريك:

- « أنت إذن الراهب المقدس؟.. هل لي أن أفعل شيئًا لسلامك الأبدى؟ »

- « أتراك تحررت من العبودية كي تطلب الشهوات الحيوانية؟.. هل نسيت السيف المدفون وما نقش عليه؟ »

- « لم أنس.. لم أنس.. لكن قل لي ما الذي تبغيه منى؟.. ماذا بقي كي أفعله؟ »

قال الشبح:

- « أن تنسى ماتيلدا! »

وتوارى عن العيون.

تجمد دم فردريك في العروق وظل بلا حراك بضع دقائق، ثم سقط على وجهه أمام المذبح، وراح الدمع يسيل من عينيه غزيرًا.. برغم هذا ظلت صورة ماتيلدا لا تفارقه.

لم يهدأ إلا عندما دخلت هيبوليتا إلى المصلى. رأت رجلاً على الأرض لا يتحرك فصرخت وقد حسبته ميتًا.. هكذا عاد إلى صوابه. نهض بوجه مبلل بالدمع، وكاد يفر، لكنها استبقته وهدأته بصوت رخيم، وطلبت منه أن يفسر لها سبب وجوده.

قال الماركيز:

- « أيتها الأميرة التقية.. »

وصمت..

قالت له:

- « بالله عليك ياسيدي أفصح.. ما معنى هذه الأصوات؟.. ما الآلام التي ما زالت الأقدار تدخرها لهيبوليتا التعسة؟.. أتصر على الصمت؟.. أتوسل إليك.. »

وسقطت على قدميها، وأردفت:

- « قل لي ما في قلبك من أسرار.. تكلم بالله عليك.. هل ما تعرفه يتعلق بابنتي؟ »

- « لا أقدر على الكلام.. »

وفر منها قاصدًا جناحه الخاص. على الباب قابل مانفريد الذي كان ثملاً وأراد أن يضيع ساعات الليل في الغناء والعربدة. بالطبع لم يكن مزاج فردريك يسمح بهذه الدعوة..

دفع مانفريد في خشونة ودخل غرفته وأغلق الباب، ثم وضع المزلاج. هكذا ابتعد الأمير المغرور الذي عجز عن تفسير هذا المسلك، وهو على استعداد لارتكاب أي عمل متهور من شدة الغضب.

هنا قابل الخادم الذي زرعه كجاسوس في الدير على تيودور وجيروم.. كان متقطع الأنفاس... قال له إن تيودور وسيدة من القلعة هما الآن في خلوة في قبر ألفونسو بكنيسة سانت نيكولاس. استطاع الخادم أن يرى تيودور، لكن الظلام الكثيف منعه من معرفة السيدة.

استنتج مانفريد من رفض (إيزابيلا) له أنها كانت تبغى لقاء تيودور. كان غاضبًا عليها وعلى أبيها، لذا انطلق سرًا نحو الكنيسة.

مهتديًا بضوء القمر الخافت، ماشيًا في الممر بين المقاعد، تسلل نحو قبر ألفونسو.. هنا سمع همس من يبحث عنهما.

- « هل هذا يعتمد على؟.. يا للحسرة!.. مانفريد لن يوافق على اتحادنا أبدًا.. »

صاح الطاغية وهو يسحب خنجرًا:

- « لا!.. هذا سوف يمنعه!... »

وغرس الخنجر في صدر المتكلم.

صاحت ماتيلدا:

- « آه!.. لقد ذُبحت!.. أيتها السماء الطيبة!.. استقبلى روحى! »

وسقطت أرضًا.. وصاح تيودور:

- « أيها الوحش الآدمي!.. ما الذي فعلته؟ »

ووثب عليه ونزع منه الخنجر، فصاحت ماتيلدا:

- « توقف!.. أوقف يدك الآثمة!.. هذا أبي! »

أفاق مانفريد من غيوبته، فحاول أن يسترد الخنجر من تيودور ليطعن به نفسه.. قاومه تيودور وجاء بعض الرهبان على صوت العراك، فتعاون بعضهم على وقف نزف ماتيلدا، بينما راح آخرون يمنعون مانفريد من قتل نفسه.

قبلت ماتيلدا مصيرها في صبر، فراحت تنظر في امتنان لتيودور. وكانت عندما تقدر على الكلام تتوسل إلى الموجودين أن يُعنوا بأبيها.

سمع القس الأنباء فجاء مسرعًا.. نظر نظرة عتاب إلى تيودور ثم استدار إلى مانفريد وقال:

- « الآن أيها الطاغية.. فلتر سقوط المصائب على رأسك الدنس.. دم ألفونسو طلب من السماء الانتقام، والسماء أرادت أن تسفح دم ابنتك عند قدمي تمثال ألفونسو.. »

صاحت ماتيلدا:

- « أيها القاسي!.. أنت تزيد من آلام أب!.. فليغفر الله لأبي كما غفرت له. أنا لم آت هنا كي ألقى تيودور، لكنني وجدته يصلى هنا.. أمي أرسلتني كي أطلب الشفاعة لك يا أبي.. قل لي إنك تسامح ابنتك.. »

صرخ مانفريد:

- « هل يغفر السفاح لضحاياه؟.. حسبتك إيزابيلا.. لكن القدر قاد يدى كى تطعن طفلتى.. »

همست ماتيلدا:

- « يا رباه!.. إننى أغيب.. هلا حملتموني إلى القلعة لأنعم بأن تغمض أمي عيني؟ »

حاولوا إقناعها بألا تتعب نفسها، لكنها كانت مصرة، من ثم وضعوها على محفة ونقلوها كما طلبَت. وراح تيودور يحاول أن يمنحها الأمل في الحياة. بينما راح جيروم يتلو عليها الصلوات ويلقنها الطريق إلى الخلود. وتبع مانفريد المحفة في قنوط.

طارت هيبوليتا مسرعة وقد بلغتها الأخبار المفجعة كى تلحق بطفلتها. لكنها إذ رأت الموكب تخلت عنها القوة التي منحها الحزن إياها، وسقطت فاقدة الوعي.

طلبت ماتيلدا من أبيها وأمها أن يدنوا منها، فأمسكت بيديهما ووضعتهما على قلبها. سقط مانفريد على الأرض ولعن اليوم الذى ولد فيه.

أمرت (إيزابيلا) الخدم أن ينقلوا ماتيلدا إلى أقرب غرفة لتنهي هذا المشهد. وعكف الأطباء على فحص جرح ماتيلدا.

كان نبض هذه الأخيرة يخفت وبردت يداها؛ مما جعل آمال الشفاء تضمحل. تبع تيودور الجراحين خارج الغرفة وسمعهم يلفظون الكلمة المخيفة، فقال في جنون:

- « ما دامت لم تصر لي وهي حية، فلسوف تكون لي في الموت!.. أبي!.. ألا تشبك أيدينا؟ »

صاح القس:

- « ما هذا الحمق؟.. هل هذا وقت الزواج؟ »

قال تيودور:

- « هو كذلك!.. هو كذلك!.. للأسف لا يوجد وقت سواه! »

قال فردريك:

- « أيها الشاب.. أنت اخترت وقتًا سخيفًا لهذا.. وماذا يعطيك الحق في طلب يد الأميرة؟ »

- « حقوق أمير.. سيد أوترانتو.. هذا الرجل أبي أخبرني بمن أنا.. »

قال فردريك:

- « أنت تحلم.. لا أمير لأوترانتو سواى.. »

قال القس جيروم:

- « سيدى.. هو يقول لك الحقيقة.. ما كنت أنوي أن أفشى السر مبكرًا لكن عاطفته الحارة كشفت الأمر.. فلتعلم أنه عندما أبحر ألفونسو إلى الأرض المقدسة.. »

صاح تيودور:

- « وهل هذا وقت التفسيرات؟.. هلم يا أبي واربطني بالأميرة فلسوف تكون لي.. حبيبتي ماتيلدا! »

أشارت له (إيزابيلا) كي يصمت لأنها قدرت أن ماتيلدا شارفت النهاية.

فتحت ماتيلدا عينيها من جديد على الضوضاء، فقالت أمها:

- « يا روح قلبي.. لا تقلقي فلن أتركك أبدًا! »

هنا أغمضت ماتيلدا عينيها للأبد.

انتزعت النسوة هيبوليتا من ابنتها، لكن تيودور هدد بقتل كل من يحاول إبعاده عنها. وطبع ألف قبلة على يديها اللتين اكتسبتا لون الصلصال.

بينما المرأتان في الطريق، قابلتا مانفريد الذي رأى على وجوه النسوة الواقعة التي كان يخشاها.

صاح في حيرة:

- « ماذا؟.. هل ماتت؟.. »

هنا هوى الرعد فاهتزت القلعة حتى أساساتها..

شعر القس بأن اليوم الأخير قد جاء. اندفع وهو يجر تيودور بالقوة إلى ساحة القلعة. هنا تهاوت جدران القلعة خلف مانفريد بقوة هائلة، وظهر شبح ألفونسو متضخمًا بين الخرائب..

صاح الشبح:

- « انظر يا تيودور، أيها الوريث الحقيقي لأوترانتو!.. »

هنا دوى الرعد من جديد، ثم صعد الشبح إلى السماء، حيث ازدحمت الغيوم.. وتوارى عن العيون.

سقط الجميع على ركبهم، وصاحت هيبوليتا في مانفريد:

- « سيدى!.. فلتر هباء العظمة الإنسانية!.. كونراد قد ضاع.. ماتيلدا ضاعت..!.. لقد جاءت نهايتنا وتيودور هو أمير أوترانتو الحقيقي.. ألا ينبغي أن نستغل لحظاتنا الأخيرة في طلب المغفرة؟.. »

صاح مانفريد:

- « أنت امرأة بلا خطايا، لكنك تعسة.. تعسة بسبب جرائمي.. لقد انفتح قلبي أخيرًا للومك التقى.. دعيني أهيل العار على رأسي ولألق عليكم اعترافي الذي لن يغير شيئًا.. أصغوا يا سادة.. ولتكن قصتى إنذارًا لكم..

« تعرفون أن ألفونسو مات في الأرض المقدسة.. لكنه لم يمت ميتة عادلة، وإلا فلماذا يشرب مانفريد هذه الكأس المريرة؟.. كان جدي (ريكاردو) هو ياوره وقد مات ألفونسو بالسم!.. وتم تزوير وصية مزورة تجعل من ريكاردو وريثه. لقد أذنب لكنه لم يفقد ماتيلدا ولا كونراد.. أنا الذي دفع ثمن اغتصاب العرش!.. أثناء العودة حاصرت جدى العاصفة فنذر أن يبني ديرًا وكنيستين لو ظل حيًّا إلى أن يبلغ أوترانتو. تم قبول التضحية وإن رأى في منامه نبوءة تنذره بأن ملكه سيستمر إلى أن يظهر في أوترانتو سيد جديد ينمو ويحتل القلعة كلها. ولسوف يستمر حكمه ما دام يخرج من صلبه ذكور. كنت أنا آخر هذه السلالة.. لا أعرف كيف أن هذا الشاب وريث ألفونسو، لكني لا أشك في ذلك. هذه أملاكه وإننى لأتخلى عنها له، لكني لم أعرف لألفونسو وريثًا.. »

قال القس جيروم:

- « ما بقى هو دوري في القصة.. حينما اتجه ألفونسو إلى الأرض المقدسة قذفت به العواصف إلى صقلية. وانفصلت عنه السفينة الأخرى التي كانت تحمل ريكاردو جدك.. في صقلية ارتبط ألفونسو بعذراء جميلة اسمها فكتوريا. كان تقيًّا فلم يفكر في العلاقات المحرمة، إنما تزوجها.. لكنه كان مرتبطًا بعهد سلاح مع رفاقه، لذا أجل مراسم الزواج حتى يعود من الحملة الصليبية. ترك في بطن زوجته طفلة.. لكن الزوجة سمعت أنباء موت زوجها وأن ريكاردو قد خلفه. ماذا كان بوسع امرأة فقيرة بلا عون أن تفعل؟!.. لكن عندى وثيقة.. »

قاطعه مانفريد:

- « قصتك لا تحتاج إلى إثبات.. كل أهوال هذه الأيام الثلاثة تؤكد صدق كلامك خيرًا من أية وثيقة.. »

- « الطفلة التي أنجبتها فكتوريا كبرت وتزوجتها أنا.. وظل السر في صدري بعد موت فكتوريا. قصة تيودور تحكى الباقي.. »

في الصباح وقع مانفريد على تنازله عن القلعة، مع استحسان هيبوليتا. وقرر وزوجته أن يدخلا الدير باقي حياتيهما.

عرض فردريك زواج ابنته إيزابيلا على الأمير الجديد. وهي فكرة سابقة لدى هيبوليتا. لم يكن قلب تيودور الحزين يتسع لحب جديد، لكنه بعد كلام كثير مع إيزابيلا أدرك أنه لن يعرف السعادة إلا مع واحدة تنسيه الحزن الذي تملك روحه.

هوراس والبول

1764

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

هناك بحث وافٍ يثبت هذه الحقيقة الغريبة في كتاب (أديب الأسطورة عند العرب) لفاروق خورشيد، سلسلة عالم المعرفة، 284.

[←2]

كل هذا كذب أراد به أن يحبك الخدعة كما قلنا في المقدمة، ولدرجة أنه ينتقد نفسه؛ لهذا اختصرت هذا الجزء كثيرًا.

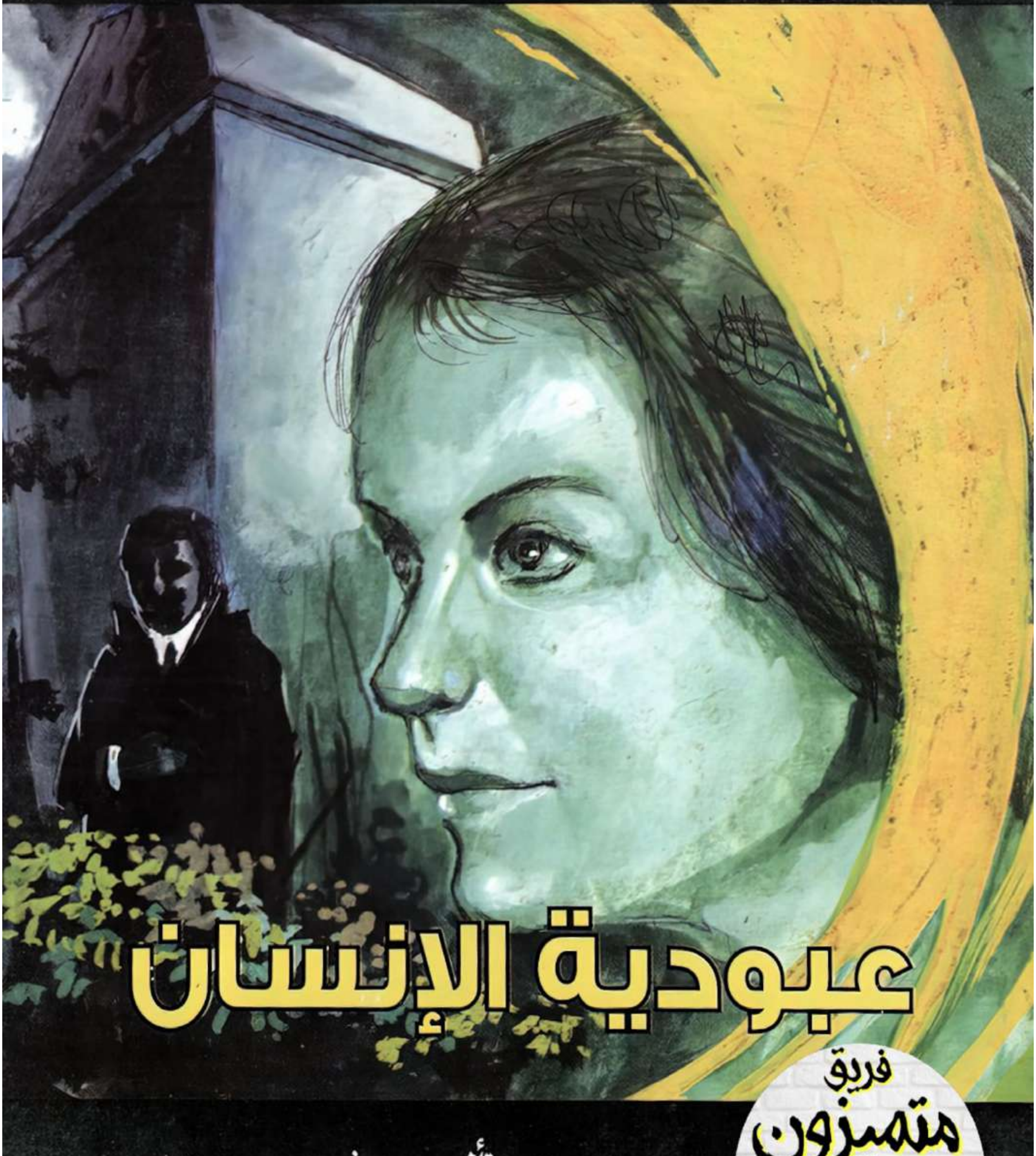
[←3]

My lady (سيدتي) تستخدم هنا للتأدب، ولا علاقة لها بكون المخاطبة متزوجة أم لا..

[←4]

طبعًا الأعداء هم العرب، وفي أكثر من موضع يصفهم المؤلف بـ (الكفار)!.. لا تنس أننا نترجم كلامًا قيل في الجانب الآخر وفي ذروة الحروب الصليبية.. ماذا تتوقع أن يقولوا عنا؟!

روايات عالمية للجيب 67



عبودية الإنسان

تأليـــف : سومرست موم

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (67)

عبودية الانسان

تأليف: سومرست موم

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف

(ويليام سومرست موم Somerset Maughm).. روائي بريطاني فائق الشهرة له عدد كبير من الروايات الممتعة، ويدور حوله جدل دائم في أروقة المهتمين بالأدب، فالبعض يعتبره عبقريًّا ومنهم كتاب كبار مثل أنطوني بيرجس وجورج أورويل، والبعض يعتبره كاتبًا مسليًا لا أكثر يناسب ذوق العامة. عن نفسي أنا أميل للرأي الأول، لكن عيب الرجل .أو مزيته الأساسية .حرصه البالغ على أن تكون كتاباته مسلية، وهو خطأ لا يغتفر عند بعض النقاد حيث التسلية مرادف للسطحية..

ولد الرجل في فرنسا عام 1874. لا تنس أنه بريطاني طبعًا، وتوفي هناك عام 1965. كان أبوه محاميًا في السفارة البريطانية في باريس، وقد ولد موم في السفارة نفسها باعتبارها أرضًا بريطانية. عندما توفيت أمه ثم أبوه أرسل موم إلى إنجلترا ليربيه عمه القس الذي لم يحبه قط وعلمه معنى القسوة. هنا أصيب باللعثمة التي لم يشف منها طيلة حياته، وهذا قضى على المستقبل الذي توقعوه له كواعظ. أرسله عمه في رحلة دراسة إلى ألمانيا حيث تعلم الفلسفة واللغة الألمانية. درس الطب وتخرج عام 1897 في مدرسة سانت توماس الطبية إلا أنه سرعان ما ترك الطب بعد نجاح محاولاته الأدبية الأولى، وقال إنه ارتمي في حضن الأدب كأنه بطة ترتمي في الماء. لقد أفاده الطب في فهم الكثير عن الإنسان، ورآه عاريًا من الثياب والادعاء والمناصب الاجتماعية في لحظات الألم والاحتضار والأمل، لكن مهمته انتهت عند هذا الحد..

القصة المبكرة له والتي صنعت شهرته هي (ليزا من لامبيث)، وهي قصة تنتمي لأدب الواقعية الاجتماعية عن الانحلال الأخلاقي في الطبقة العاملة، وقد استلهم أحداثها من عمله كطبيب في الأحياء الفقيرة. ولمدة عشر سنوات لم تحظ قصة له بذات النجاح قط. لكن في العام 1907 نجحت مسرحية له هي (ليدي فردريك)، من ثم صارت أربع مسرحيات له تعرض في لندن في الوقت ذاته.

تطوع في جيش بلده بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، وقد منحته هذه التجربة خبرات كبيرة. تلك هي الفترة التي كتب فيها قصتنا الحالية (عن عبودية الإنسان - 1915) وهو في الخنادق قرب دنكرك. يعتبرها النقاد أهم وأفضل قصة له، وهي سيرة ذاتية دقيقة عن حياة موم برغم أنه ظل ينكر هذا دومًا.. على أنه كتب فيما بعد: الحقيقة والخيال يختلطان في أعمالي، لدرجة إنني بعد كل هذه الأعوام صرت عاجزًا عن تمييز ما هو وليد خيالي وما حدث فعلًا..»، وقد تحولت إلى فيلم رائع أخرجه جون كروموبل عام 1934 وقامت ببطولته (بيتي ديفيز) في دور ملدريد، وهو دور يسيل له لعاب أية ممثلة بارعة. على أنه بعد هذا تطوع ليكون جاسوسًا وسافر إلى سويسرا ليعيش هناك بصفته كاتبًا لكنه كان في الحقيقة يمارس كل طقوس الجاسوسية، وقد خلد هذه التجربة في أعماله عن طريق شخصية الجاسوس البريطاني الأنيق الغامض (أشندن)، وهو الخيط الذي سرقه (إيان فلمنج) بشكل صبياني سطحي في شخصية (جيمس بوند).

سافر للمحيط الهادي بعد الحرب ليعد لروايته (القمر وستة بنسات) وهي الرواية الخالدة التي ترجمت عن دار الهلال،

وتحكي قصة حياة الفنان (جوجان). من هنا بدأت شهرة موم ككاتب كثير الترحال يمثل آخر أيام الإمبراطورية الإنجليزية.

لم ينل موم رضا النقاد قط، والسبب هو أنه سهل واضح في زمن صار الغموض والتجريب فيه هما اسم اللعبة. وقد اعترف بذلك في مذكراته. كما قيل إنه ذاتي جدًّا يميل لإدخال كل شيء إلى عالمه الخاص. في كتاب الدكتور رشاد رشدي عن القصة القصيرة، يبين لنا الناقد الكبير أن موم ارتكب في قصصه القصيرة كل الأخطاء الممكنة التي يحذرنا الكتاب منها! أي إنه يستعمل موم كمثال يبين بالضبط ما على الكاتب ألا يفعله! موم بنفسه قال إنه (في موضع متقدم جدًّا بين كتاب الصف الثاني). من ضمن رواياته الشهيرة كذلك (سادي طومسون) / (الأمطار) و(حد الموسى) و(كعك وجعة) و(الساحر) عن حياة كراولي الساحر البريطاني الشيطاني، وقد ترك خلفه جيشًا من الغاضبين الذين عرفوا أنفسهم في هذه القصة أو تلك ولم يرق لهم ما قرءوه.

بعد طلاقه، اتخذ من فرنسا محطة انطلاق وابتاع فيلا في الريفيرا عاش فيها بقية حياته، ومنها رأى العالم كله. بالواقع كان من أكثر الكتاب نجاحًا وثراء، وقد حقق ثروة ضخمة من قلمه. لما توفي أوصى بحرق جثته وهكذا ليس له قبر يعرفه الناس.

ما بين يديك الآن هو ملخص الرواية وليس الرواية نفسها، مع بعض (تقليم الأظفار) الحسي والديني طبعًا، وآمل أن الرواية احتفظت بشيء من عطرها الأصلي بعد هذا باعتبارها أهم رواية لموم. يمكن للمهتمين بقراءة نص القصة الكامل (بالغ الطول) تحميلها من هنا:

http://www.gutenberg.org/etext/351

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

1

أصبح النهار رماديًا كئيبًا، وفي السماء استقرت سحب متثاقلة بينما كان في الجو ما يشي بقرب انهمار الجليد. دخلت خادمة إلى الغرفة التي كان الطفل يغفو فيها وجذبت الستائر. نظرت إلى المنزل المقابل ذي الرواق والمزخرف بالجص، واتجهت لفراش الطفل:

- «انهض يا فيليب.. أمك تريدك..»

وجذبت الملاءة وأخذته بين ذراعيها، وحملته إلى الطابق السفلي وهو نصف مفيق. فتحت باب غرفة في الطابق السفلي، وأخذته إلى فراش ترقد فيه امرأة. كانت هي أمه. مدت ذراعيها له لكن الطفل لم يسأل لماذا أيقظوه. لثمت المرأة عينيه وتحسست بيدها الصغيرة الجسد الدافئ من فوق منامته البيضاء. ألصقته بجسدها وسألته:

- أنت نائم يا عزيزي؟

صوتها كان بعيدًا واهنًا لكن الطفل ابتسم مستريحًا في الفراش الكبير الدافئ وحاول أن ينكمش أكثر. سرعان ما نام من جديد عندما دخل الطبيب الغرفة فقالت المرأة:

- أوه.. لا تأخذوه بعد..

لم يجب الطبيب ونظر لها بخطورة، وكانت تعرف أنها لن تقدر على الاحتفاظ بالطفل أكثر فقبلته وتحسست أصابع قدمه الصغيرة، ثم تهانفت. أخذه الطبيب وكانت أضعف من أن تقاوم فناول الطفل للممرضة. كانت الأم تبكي بحرارة:

- ماذا سيحل به هذا المسكين؟

لم يرد الطبيب واتجه لركن الغرفة، وهناك تحت منشفة كان جسد وليد ميت. راح يتفحص الجثة فهمست متسائلة:

- هل هو ولد أم بنت؟

- ولد آخر..

تحسس الطبيب نبض المرأة، ثم قال:

- لا أحسب بوسعي عمل شيء الآن.. سوف أعود بعد الإفطار..

اتجه الطبيب لباب الخروج مع مربية الطفل، وهناك توقف وسألها:

- أنت استدعيت أخا زوج السيدة (كاري).. أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.. أنا بانتظار برقية..

- أرى أن يتم نقل الطفل..

- مس (واتكينس) سوف تقوم بهذا.. إنها جدته.. ولكن هل تعتقد أن مسز (كارى) ستشفى يا دكتور؟

نظر لها الطبيب ولم يقل شيئًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

بعد أسبوع جلس (فيليب) على أرض غرفة الجلوس في منزل مس (واتكنس) في حدائق (أونسلو). كان طفلًا وحيًدا من ثم اعتاد أن يسلى نفسه بنفسه. كانت الغرفة مكتظة بالأثاث وفوق الأريكة ثلاث وسائد كبيرة. بهذه الوسائد وغيرها صنع لنفسه كهفًا كبيرًا اختبأ فيه من الهنود الحمر المتوارين خلف الستائر. عندما كان يلصق أذنه بالأرض كان يسمع حوافر الجاموس البري عبر البراري، ثم سمع الباب ينفتح فكتم نفسه حتى لا يكتشفه أحد. لكن يدًا حازمة أمسكت به وأخرجته:

- أنت أيها الطفل الشقي.. مس واتكينس ستتضايق مما فعلته..

وراحت ترفع الوسائد وهي تتوقع أن يوجه لها السؤال الذي أعدت إجابته، لكنه لم يسأله. في النهاية قالت له:

- ألن تسألني أين أمك؟

- أين هي؟

- هي سعيدة وبخير.. لكنها رحلت.. لن تراها ثانية أبدًا..

لم يفهم الطفل، فقالت له:

- أمك في السماء..

وبدأت تبكي.. لم يفهم فيليب ما تقول إلا أنه بكى أيضًا. احتضنته وهي تتألم لفكرة أن هذا الصبي فقد الحب الوحيد غير الأناني في العالم. قالت له:

- عمك ويليام في انتظارك.. اذهب وقل (مساء الخير) لمس (واتكنس) ثم نعود للبيت..

- لا أريد أن أقول مساء الخير..

- ليكن. اهرع إلى الطابق العلوي واجلب قبعتك..

ثم إنه أعاد التفكير فقرر أن يحيى جدته والنسوة المجتمعات في غرفة المكتب.. هكذا طلب من الخادمة أن تخبرهن بأنه يريد أن يلقى تحية المساء.

كانت (هنرييتا واتكنس) امرأة مكتنزة لها وجه محمر وشعر مصبوغ. كانت تعيش مع شقيقتها المسنة في هذا البيت ومعها في الغرفة نسوة لم يعرفهن ينظرن له في فضول. فتحت له مس واتكنس ذراعيها وهتفت:

- يا طفلي المسكين..

وبدأت تبكي.. هنا فهم لماذا تلبس الأسود ولماذا لم تتناول الغداء. قال لها:

- يجب أن أعود للبيت..

هنا احتضنته أختها وبكت.. كان يتمنى لو بقي أكثر لأنه بدأ يستمتع بكل هذا الكم من العواطف التي يسببها من حوله لكنه أدرك أنهن يرغبن في رحيله. خرج ينتظر عودة المربية (إما) هنا سمع النسوة يتكلمن:

- الطفل المسكين.. من العسير أن يدرك المرء أنه وحيد في هذا العالم.. لاحظت أنه يعرج..

- نعم.. يعرج... كان هذا مصدر حزن دائم لأمه..

هنا عادت إما واستدعت عربة بخيول تقلهما إلى البيت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان البيت الذي توفيت فيه مسز (كارى) يقع في بقعة محترمة كئيبة بين شارعي (نوتنج هيل) و(هاى ستريت). هناك كان العم جالسًا يرسل خطابات شكر لمن أرسلوا له باقات أزهار. انحنى فصافح الطفل ثم أعاد التفكير فقبله على جبينه، وقال:

- أنت سوف تعيش معى يا فيليب.. هل يروق لك هذا؟

- نعم..

- سوف تكون لي وعمتك (لويزا) كما كنت لأبيك وأمك..

عندما عرف بنبأ احتضار زوجة أخيه جاء مسرعًا إلى لندن وهو يفكر في الاضطراب الذي سيسببه هذا في حياته؛ لأنه مرغم على أن يربي ابن أخيه. كان متزوجًا ولم ينجب لذا لم يتحمل فكرة الفوضى التي سيسببها طفل في البيت.

- سوف آخذك معى غدًا. يؤسفنى أن إيما لن تكون معك..

هنا راح الطفل يبكي، ولم تستطع الممرضة إلا أن تبكي معه. كان العم قد اجتمع منذ ستة أشهر مع محامي الأسرة، وكان والد فيليب جراحًا ناجحًا لهذا دهش العم عندما توفي أخوه بتسمم الدم، ووجد أنه لم يترك لأرملته سوى مبلغ التأمين على حياته. حاولت الأرملة أن تدبر أمورها فلم تجد سوى ألفي جنيه للطفل حتى يتمكن من أن يكسب عيشه بنفسه.

كان مستحيلاً شرح هذا كله لفيليب الذي كان يبكي في حرارة.

- سوف نرحل السبت لأن على أن أكتب موعظة الأحد.. يمكنك أن تحضر معك ألعابك وشيئًا واحدًا يذكرك بأمك وأبيك، لأن كل شيء عدا هذا سوف يُباع..

راح الصبي يبكي دافنًا وجهه في صدر (إيما)، وهي تقاوم البكاء لأنها تشعر بأنه طفلها هي، خاصة وهي تربيه منذ كان عمره شهرًا.. راحت تعده بأنها سوف تأتي لزيارته يومًا. وراحت تحكى له عن بيتها في ديفونشاير وعن مزرعة أبيها حيث توجد خنازير وبقرة، والبقرة أنجبت عجلًا.. هكذا نسى الصبي دموعه، وسرعان ما كان يلعب مسرورًا.

كان باب غرفة أمه مواربًا فمد يده يفتحه قليلاً. كانت الغرفة تسبح في ضوء يناير الشاحب، وأشياء أمه هنا وهناك.. فتح خزانة الثياب وغاص في ثياب أمه المعلقة هناك وهو يشم رائحتها. ليس صحيحًا أن أمه لن تعود أبدًا.. هذا غير صحيح لأنه ببساطة مستحيل..

أمه سوف تعود.. تسلق إلى الفراش وأراح رأسه على الوسادة وأغمض عينيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

كانت بلاكستابل على بعد ستين ميلاً من لندن. ثم إن مستر (كارى) عمه مشى معه إلى بيته الذي هو مقر القس وهي مسافة استغرقت نحو خمس دقائق. كانت زوجة عمه تنتظر على الباب وهي امرأة في سن عمه لها عينان زرقاوان شاحبتان ووجه مليء بالتجاعيد لحد غير معقول. كانت خجولاً مهذبة.. أخذته إلى الطابق العلوي وأرته فراشًا صغيرًا يطل على الطريق.

- غرفة صغيرة لولد صغير.. أنت لن تخاف من النوم وحدك؟»

- لا..

لم تكن تعرف أي شيء عن الأطفال.. كان مجيئه يجعلها عصبية وقد وجدت أنها تخجل منه كما أنه يخجل منها. لم تكن تسافر لأن دخلهما 300 جنيه في العام، وعندما كان زوجها يرغب في الترفيه كان يسافر وحده لأنه ما من مال يكفي اثنين. كان يحضر مؤتمرات الأساقفة، وذات مرة سافر إلى باريس ومرة أخرى سافر إلى لندن.

طلب منها القس أن تعد لهم بيضة لأن الصبي جائع، ووضعوا له بعض الكتب على المقعد ليجلس عليها، ثم تلا العم صلاة المائدة.

كسر بيضته وسمح للصبي بأن يأكل قمتها. كان فيليب راغبًا في بيضة كاملة بطبيعة الحال لكنه لم يجسر على طلب ذلك، فنال منها قدر ما يستطيع..

قال العم:

- سوف تنال واحدة أخرى مساء الأحد..

كانت زوجته تعد له بيضة مع الشاي مساء الأحد لتقويه على صلاة المساء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأيام التالية لم يتعلم فيليب الكثير عن القوم الذين يعيش معهم فحسب بل عرف الكثير عن أهله ونفسه. كان أبوه جراحًا يكسب الكثير من المال، ولما طلب منه أخوه القس بعض المال للكنيسة أرسل له مائتي جنيه.. هذا ترك القس نهبًا لعواطف متضاربة من حسد أخيه الذي يمكنه الاستغناء عن مبلغ كهذا، مع السعادة للمال الذي حصل عليه لكنيسته. تزوج الطبيب مريضة كريمة المحتد وإن لم تحظ بأسرة كبيرة. وكان القس يزور الزوجين فيندهش من كل هذا البذخ الذي يعيشان فيه: أزهار في غرفة الجلوس في كل وقت.. عناقيد عنب لابد أن الواحد منها ثمنه عدة شلنات.. أناقتها تفوق أناقة زوجة جراح.

الآن يدفع هذا الطفل ثمن بذخ أبويه.. ومن حسن الحظ أن الأم ماتت مبكرًا بعد زوجها؛ لأنها لم تكن تعرف عن المال أكثر من طفل.

كانت الحياة تمضي مملة مع زوجة عمه والخادمة مارى آن التي تصر على أنه لا يستطيع أن يستحم وحده، لكنه كان يرفض في إباء أن تقوم امرأة عمه بغسل جسده.

كان عمه يعلمه الرياضيات واللغة اللاتينية مع أنه يجهل كليهما.. وعمته تعلمه الفرنسية وعزف البيانو. كانت تجهل

الفرنسية لكنها كانت جيدة في العزف فعلاً. وكان الزوجان يشربان الشاى وحيدين ثم يلعبان الطاولة بعدها، وكانت الزوجة تحرص على أن يربح زوجها لأنه يمقت الخسارة.

روتين الحياة كان يتغير نوعًا يوم الأحد لأنه يوم الموعظة في الكنيسة. وكان اليوم يبدأ مبكرًا جدًّا. يرتدى القس أفخر ثيابه ويشرب بيضة نيئة مخفوقة يعتقد أنها مهمة من أجل صوته، والزوجة تلبس ثيابًا سوداء لأنه يصر على أن زوجته لا يمكن أن تلبس شيئًا ملونًا، وقد تحايلت على تزيين البونيه الذي تضعه على رأسها بريشة بيضاء، لكنه أصر على أن تنزعها لأنه لا يطيق أن يذهب للكنيسة مع امرأة رقيعة.

بعد الموعظة يعودون للبيت حيث يتأهب القس لصلاة المساء، وبعد الصلاة يجلسون جوار النار.. وسرعان ما يغلب النعاس فيليب فينام ولا يهتم بأن مارى آن تبدل له ثيابه.. كان قد بدأ يحبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

عاش فيليب في الدار عيشة طفل وحيد، فلم يكن له صديق إلا مارى آن وهي فتاة مكتنزة في الخامسة والثلاثين جاءت هنا في سن الثامنة عشرة ولا نية لها للذهاب إلى مكان آخر. لكنها كانت تهدد سيدها وسيدتها بالزواج دومًا كأنه سوط معلق فوق الرءوس. لكن فيليب كان يفضل صحبتها في المطبخ على غرفة الجلوس، وكان يأخذ ألعابه هناك كثيرًا. هذا ضايق زوجة عمه التي كانت ترى في هذا عدم لياقة. كان قلبها يرق للطفل اليتيم لكنها عاجزة عن إظهار حبها له. لم تستطع فهمه كذلك فقد كانت تسمع ضحكاته من المطبخ فإذا دخلت وحاولت أن تعرف النكتة لم تجد فيها أي شيء مضحك. كانت تخاف الأطفال أحيانًا وقد خطر لها أن الله حرمها من الحصول على طفل لسبب قوى.

ذات مرة حدثت مشكلة لأن الصبي دخل غرفة الجلوس وراح يلعب بينما عمه نائم. استيقظ العم من نومه وانفجر في لوم الصبي على أنه يلعب في يوم الأحد... يوم الراحة.. إنه بهذا يغضب الله ويعذب روح أمه في السماء. لسبب ما تجمد الصبى ورفض في عناد أن يعتذر..

عاقبه العم بأن حرمه من الذهاب معه إلى الكنيسة، وانصرف وحده تاركًا إياه مع زوجته. حاولت المرأة أن تسرى عنه لكنه انفجر في البكاء وصاح:

- أنا أكرهكما..! أتمنى أن تموتا!

قالها في توحش وعصبية حتى إن المرأة الرقيقة جلست إلى مقعد وأخرجت منديلها وراحت تبكي.. هكذا رق قلب فيليب وزحف نحوها وطبع على جبينها قبلة. أول قبلة يطبعها على جبينها من دون أن يطلب أحد ذلك منه. عندها احتضنته وأدركت أنها تحبه بالفعل.. كان مما يخيفها في الطفل أنه لا يظهر عواطفه أبدًا.. لم تره يبكي من قبل.

لاحظت أنه يزداد تعاسة فطلبت من العم أن يعطيه كتابًا يحوى بعض الصور. كان العم يهوى اقتناء الكتب بشدة لكنه لا يقرؤها أبدًا لأنه فقد عادة القراءة.. كان يحب فقط أن يتصفح الصور ويعيد تجليد هذه الكتب القديمة. اختار للصبى كتابًا عن فلسطين يظهر مشاهد من ميلاد السيد المسيح. وهكذا راحت السيدة تعرض الصور على فيليب وهي تحكى له، وقد قدرت أن اهتمامه لهذا الحد بموضع ميلاد المسيح يدل على أنه شخصية تقية.. راحت تحكى له عن بلاد بعيدة وعن العرب وعن البدو والمساجد. هكذا وجد الصبي مصدر متعة لا يوصف وسرعان ما نسى ألعابه. سرعان ما كان يطلب كتابًا آخر.. هذه المرة كان كتابًا عن روما وقد راح الصبي يشاهد الصور ويلتهمها بعينيه، ثم راح يحاول قراءة ما كتب قبل الصورة ليعرف سبب وجودها في النص.

سرعان ما وجد ترجمة ألف ليلة وليلة، وقد بدأ قبل كل شيء بقراءة قصص السحر فيها.. وسرعان ما انغمس في ألذ عادة في العالم: القراءة.. حتى صار عليهم أن ينادوه ثلاث مرات من أجل العشاء. عندما جاء الصيف صنع له البستاني سريرًا معلقًا بين شجرتين، وهناك كان يتوارى ويقرأ ويقرأ غير شاعر بمرور الوقت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قرر العم أن ينتقل (فيليب) للدراسة في مدرسة داخلية هي (كنجز سكول) في (تيركانبوري)، وهي مدرسة دينية. هكذا بدأ فصل جديد من حياة الطفل. كان مدير المدرسة هو مستر (واتسون) وهو من أصدقاء العم. وقد رحب بفيليب وأخبره أنه سيقيم في عنبر مع ثمانية أولاد آخرين، ثم اقتاده ليقدمه إلى تلميذ صغير يلعب في الفناء ليكون صديقه.

كان أول ما فعله الصبي هو أن نظر إلى فيليب وإلى قدميه وسأله:

- ما بال قدمك؟

حاول فيليب أن يخفي قدمه وراء الأخرى السليمة، وقال:

- عندي قدم مشوهة..

- وما السبب؟

- هي كذلك منذ ولدت..

- إذن أرها لي..

- لا..

ركله الصبي على قصبة رجله ركلة لم يتوقعها فيليب. وبالتالي لم يتحسب لرد بالإضافة إلى أن الصبي كان أصغر منه بكثير، وهو تعلم أنه لا يجب أن تضرب من هو أصغر منك.

ظهرت دستة من الأطفال يحيطون به، وأدرك أنهم جميعًا ينظرون لساقه. ثم بدءوا يتكلمون.. كان بحاجة إلى أن يتكلم

بحرارة معهم لكنه لم يجد أي شيء يقوله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

استيقظ في الصباح المبكر على صوت غناء. هنا تذكر أين هو، كان العنبر مغلقًا تمامًا لأن أحدًا لم يكن يهتم بالتهوية في تلك الأيام، وكانت ستائر كثيفة تفصل كل فراش عن الآخر. ركع جوار الفراش وتلا صلاته وهو يشعر ببرد شديد. لكن عمه كان قد علمه أن الله لا يقبل صلاته إلا وهو بثوب النوم لا ثياب الخروج، وقد جعله هذا يعتقد أن الله يحب ألا يشعر عباده براحة.

في قاعة الطعام جلسوا بانتظار مستر (واتسون) الذي جاء مع زوجته، وتلوا صلاة المائدة. ثم جاء الشاى ومعه الخبز والزبد.. كان بعض الأولاد يحملون مأكولات إضافية من بيوتهم مثل اللحم وغيره، لكن عم فيليب رفض أن يترك له شيئًا كهذا لأنه يؤمن بأن أفضل شيء يأكله الشباب هو الخبز والزبد، أما باقي الآباء فيفسدون أولادهم.

هكذا بدأ اليوم الدراسي.. في وقت الطعام راح الأطفال يلعبون لعبة (الخنزير وسط الدائرة)، حيث يطارد الأكبر سنًّا صغار السن في دائرة، وجاء الدور على فيليب وبالطبع لم يتمكن من الجرى، لكن مشيته العرجاء جعلت الصبية يضحكون.. اكتشفوا لعبة جديدة فراحوا يسخرون من مشيته ويقلدونه بأسخف أنواع المشيات. حتى إن بعضهم سقط على الأرض وراح يتلوى من فرط الضحك. ولم يفهم فيليب قط لماذا يسخرون منه.. أصابه الرعب وكاد يعجز عن التنفس..

عندما جاءت فترة الفسحة الثانية ذهب الأولاد للعب الكرة لكن المدير قال لفيليب إن عليه أن يبقى لأنه لن يستطيع لعب

الكرة..

وفي المساء انقض عليه الصبي المدعو سينجر وصاحبه مصرين على أن يروا رجله. التف بثيابه لكنهما تزاحما عليه وكادا يمزقانها فصاح:

- لم لا تتركاني وشأني؟

- لابد من أن نرى قدمك المشوهة..

ودارت معركة وجه فيها فيليب بعض اللكمات لكن ميزان القوة لم يكن في صالحه قط. وسرعان ما لوى أحد الصبية يده خلف ظهره وأرغمه على أن يريهما قدمه وراح الصبية يلمسونها في انبهار ورعب كأن لها حياة خاصة بها...

- أليست مرعبة؟

هنا سمعوا خطوات مستر (واتسون) وهو يمشى بين العنابر يسترق النظر ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام. هكذا ركضوا جميعًا كالأرانب كل واحد إلى فراشه. أما فيليب فظل منكمشًا في الفراش يعض الوسادة كي لا يسمع أحد نشيجه.. لقد أدرك الآن مدى تعاسة حياته وبدا له أنها ستظل كذلك إلى الأبد..

خطر له أن كل هذا حلم.. أمه ما زالت حية وهو ما زال في فراشه وسوف توقظه إيما في الصباح وتحتضنه.. أراحته هذه الفكرة، لكنه فتح عينيه في الصباح فرأى أول ما رأى الستائر الخضراء التي تفصل فراشه عن بقية الأسرة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طيلة الفصل الدراسي ظل سينجر يتحرش بفيليب برغم أن الأخير حاول أن يبقى بعيدًا عنه، لكن المدرسة كانت صغيرة بحيث كان تحاشيه مستحيلاً. كان سينجر هو الطرف الأقوى ومهما قاومه فيليب بعنف كان يُهزم بعد محاولة أو اثنتين ويطلب الصفح. أدرك فيليب أن عليه أن يتحمل الحياة عامين مع معذبه الذي لا فرار منه، وحتى يدخل سينجر المدرسة الثانوية.

الآن صار فيليب في الثانية عشرة من عمره، وقد بدأ الصبية يسئمون السخرية من عاهته وظهر تفوقه الدراسي ونال عدة جوائز، لكن عاهته نجحت في جعل الصبية لا يحقدون عليه. كانوا يقولون: من السهل عليه أن يتفوق.. فلا شيء يمكنه عمله سوى أن يستذكر..

كان فيليب الآن يفهم جسده أكثر ويعرف ما له وما عليه.. يدرك عاهته واختلافه عن الصبية الذين يملكون كل ما من شأنه أن يجعلهم سعداء.. يرقصون في الحفلات ويلعبون كرة القدم، ومن أجلهم سمى الإنسان حيوانًا اجتماعيًا.

مرت أيام الدراسة رتيبة، فلم يضايق فيليب واحد جديد من زملائه. كما أن إعاقته منعته من اللعب لكنها كذلك جعلته غير ملحوظ، وهذا راق له. لم يكن ذا شعبية وكان وحيدًا جدًّا كذلك.

عندما كان يدرس كان يرى نيران الجحيم تتوهج أمام عينيه لو أن روحه ضلت الطريق.. كان إيمانه بالعذاب الأبدى قويًا يفوق إيمانه بالنعيم الأبدى.

كان قد بدأ يشعر بميل للمدير الجديد الشاب مستر بركنز الذي دافع عنه أكثر من مرة؛ لذا قال له:

- عمى يريد أن أُرسم كاهنًا..

- وهل أنت سعيد بهذا؟

نظر فيليب لبعيد ولم يجسر على أن يقول إنه لا يجد نفسه أهلاً لذلك..

قال له مستر (بيركنز):

- لا أعرف حياة سعيدة مثل تلك التي نحياها.. إن بوسع المرء أن يخدم الرب في كل شيء يفعله، لكننا قريبون منه أكثر من سوانا. لا أريد أن أؤثر في قرارك لكن أتمنى لو أدركت كم السعادة والرضا هنا..

ثم خط بالقلم خطوطًا على ورقة أمامه، وقال في ارتباك:

- يجب أن تفهم أن خياراتك محدودة نوعًا بالنسبة لمستقبلك.. بسبب حالتك الصحية..

احمر وجه (فيليب) كما كان يحدث في كل مرة يشار فيها إلى عرجه. قال المدير:

- طالما نظرت لعاهتك كعار فستظل كذلك.. فكر فيها كصليب اضطررت إلى حمله لأن كتفيك قويان ويتحملانه.. يجب أن تشكر الرب على هذا..

كان الفتى قد تعلم أن لكلماته قوة ساخرة ما، وهكذا تميز بالسخرية، وإن ظل دومًا على مسافة من أترابه لأن ذكريات

التحرش به لم تفارقه. وبرغم تفوقه الدراسي فإنه كان على استعداد لأن يتخلى عن تفوقه مقابل أن يستبدل بموقعه موقع أغبى صبي في المدرسة ما دام هذا الأخير لا يعرج.

كان هناك صبي واحد اسمه (روز) لم يهتم بعاهته وصار صديقًا حقيقيًّا له. هكذا أدخله إلى دائرة الفتية، وشعر فيليب بأن المدرسة مكان جميل فعلاً. لكن في العام التالي بدأت المشادات بينهما لأن فيليب كان غيورًا على صاحبه هذا، غير راغب في أن يصادق آخرين. وبدا أن الصداقة لم تعد كما كانت وأن (روز) يصادقه فقط بدافع الواجب أو العادة القديمة. ثم أصيب فيليب بالحمى القرمزية وتغيب عن المدرسة ثلاثة أشهر، وهي فترة طويلة جدًّا في حياة صبي المدرسة، هكذا عاد للمدرسة ليجد أن روز اتخذ لنفسه صديقًا آخر ونسى كل شيء عنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

الآن صار فيليب في الصف السادس لكنه كان يمقت المدرسة من الأعماق. في كل صباح يستيقظ من النوم عاجزًا عن تحمل يوم جديد من الأوامر والقيود، ولم يعد يهتم ما إذا كان يحقق نجاحًا أم لا. لقد تدهورت جدًّا فرصته في أن ينال منحة مدرسية تسمح له بالدراسة في أكسفورد. وقد سأله مستر (بيركين) وهو يتخلل لحيته بأنامله:

- ماذا دهاك مؤخرًا؟.. لم أعد راضيًا عن أدائك في المدرسة..

لم يستطع أن يخبره بأنه موشك على الموت مللاً.

- أعرف أن بوسعك عمل أي شيء إذا أردت ذلك، لكن من الواضح أنك لم تعد تريد..

الحقيقة أن الحياة بدت له مملة رتيبة، وقد ارتجف خوفـًا من فكرة أن يقضى بقية حياته في هذا المكان..

أدرك مستر (بيركنز) أن كلامه مع الفتى غير ذي جدوى، فكف عن الكلام معه بقية الصف الدراسي وإن كتب عنه تقريرًا سيئًا أعطاه الفتى لعمه وزوجته، فقال العم:

- ماذا في هذا التقرير؟

قال الفتى:

- تقرير سيئ.. في الحقيقة أنا راغب في الذهاب إلى ألمانيا وترك هذه المدرسة!

- من أين أتيت بهذه الفكرة الغريبة؟

كان له صديق يدعى (شارب) قد ترك المدرسة وسافر إلى هانوفر. لقد بدأ حياة جديدة أصابت فيليب بالتوتر عندما فكر فيها..

سأله العم:

- إذن أنت لن ترسم ككاهن ولن تذهب لأكسفورد؟

- لا أحسب هذا في وسعي..

انفجرت زوجة عمه في البكاء مما جعل قلبه يرق.. كان العم قد وضع خططه على أن يكون فيليب في أكسفورد في سن الثامنة عشرة. ولما انصرف العم حاول فيليب أن يطيب خاطرها لكنها قالت وهي غارقة في الدموع:

- حسبنا أننا سوف نجعل منك كاهنًا.. وعندما يأتي حيننا.. نحن لن نعيش للأبد.. حسبنا أنك ستتولى هذا المكان..

توقف فيليب وقد شعر بذعر يعتصر قلبه. سألته المرأة:

- وماذا تنوي أن تكونه في المستقبل؟

- لا أدرى.. لكن في جميع الأحوال سوف أستفيد من الإلمام بلغة أجنبية.. دعك من أننى قد أكسب مالاً في ألمانيا أفضل مما أحققه هنا..

كان يشعر أن أكسفورد هي امتداد للمدرسة بشكل آخر. وهو يريد أن يبدأ بداية جديدة في مكان لا يعرفه فيه أحد.

من المصادفات الغريبة أن هذا توافق مع أفكار بدأت تُطرح في (بلاكستابل) عن عدم جدوى نظم التعليم الحالي، وأن تعلم اللغات يكتسب أهمية كبرى. دارت مناقشات طويلة مع العم لكنه كان يعتبر التجربة خطرة، وقد قرر أن يعود فيليب لمدرسة (تيركانبوري) لفصل دراسي آخر قبل أن يسمح له بالسفر، وكانت هذه نتيجة أفضل مما يحلم به (فيليب).

لكنه إذ عاد إلى المدرسة وجد أن المدير تلقى خطابًا مفصلاً من عم الفتى يسأله الرأى. كان المدير غاضبًا وقال لفيليب إن هذا أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه.

اغتاظ فيليب.. فقد شعر بأنه كان قد أنهى الكلام مع عمه حول هذا الموضوع، لهذا عاد لغرفته وكتب لعمه خطابًا غاضبًا لم يتحفظ فيه في الألفاظ.

هكذا تلقى بعد ثلاثة أيام خطابًا من زوجة عمه تخبره أن هذا الأخير متضايق جدًّا، وإنه بالتأكيد لا يستحق هذه الكلمات القاسية، وإن فيليب لو بلغ ما بلغاه من العمر لأدرك أن هذا هو الصواب.

اعتصر فيليب قبضته في غيظ.. لماذا يعتبران أن تقدم سنيهما يعني بالضرورة المزيد من الحكمة؟. كتب لها في غلظة إن المال الذي ينفقانه على تعليمه هو ميراثه من أبيه وبالتالي ليس من حقهما التدخل في كيفية الإنفاق.

استغرق الأمر الكثير من المشادات والمناقشات، إلى أن كتب العم خطابًا لمدير المدرسة يخبره فيه أن ابن أخيه يعاني مللاً شديدًا، وأنه يرغب فعلًا في ترك المدرسة.

لم يجد المدير ما يقول سوى أن طلب من فيليب أن ينتظر حتى عيد الفصح قبل أن يذهب إلى ألمانيا.

شعر فيليب بالرضا عما حققه في ثلاثة الأشهر الأخيرة، ولم تعد المدرسة تبدو له مملة وقد عرف أنه تاركها عما قريب. راح يراقب التلاميذ وهو يشعر بسرور لأنه لن يراهم بعد هذا، وشعر بأنه لا يحمل ضدهم ضغينة ما.

جاء موعد الرحيل فدخل ليودع مستر (بيركنز) الذي نظر له ول في دهشة، وقال:

- إذن أنت جاد فعلًا؟

شعر فيليب بأنه خُدع فالرجل وعد بأنه لن يتدخل ثانية. قال له:

- لقد تم ترتيب كل شيء لرحيلي إلى ألمانيا يا سيدي..

- لكن كل شيء ممهد لظفرك بمنحة في مدرسة (ماجدالين).. كما أن بوسعك أن تذهب إلى أكسفورد. لا تتصور أية حياة رائعة تنتظر من يتمتعون بتفوقك هناك. لا تتصور كم يسعد المعلم أن يجد الطالب الذي يفهم ما يريد قوله..

احمر وجه فيليب فقد كان ممن لا يتحملون الإطراء. الحقيقة أنه بدأ يضعف وهو يفكر في أكسفورد، وما كان على المدير إلا أن يضغط عليه أكثر قليلًا ليغير خططه ويبقى، لكنه كان يعرف أنه سيبدو أحمق في نظر نفسه لو غير خططه.

هكذا صافحه الرجل، وقد شعر بأنه سيضيع وقته لو راح يتجادل مع شخص عنيد كهذا.

شعر فيليب بالرعب.. لقد انتهت أيام المدرسة فعلًا، لا يعرف إن كان اختار الصواب أم الخطأ.. ربما كان من الأفضل ألا يكون أحمق إلى هذا الحد.. لا يمكن أن يعود للمدير ليخبره أنه غير رأيه. هذه تكون إهانة لا يتحملها..

انتابه اكتئاب شديد مع حالة عدم رضا تام عن نفسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

في يوم من مايو وصل (فيليب) إلى (هايدلبرج).

إذ غادر محطة القطار، كانت السماء زرقاء ساطعة والأشجار عليها أوراق كثيفة. كان يستشعر بإثارة عظمى لتجربة حياة جديدة مع أغراب. كان سيقيم في بيت أحد الأساتذة الألمان مما يتيح له مزيتي السكن وتعلم اللغة أكثر، وقد استقبلته زوجة الأستاذ وكانت امرأة قصيرة القامة لها عينان لامعتان كخرزتين.

كان البروفسور نفسه رجلًا ذا لحية قصيرة، ويستعمل إنجليزية لم يتعلمها من الحياة لكن من الأدب الإنجليزي؛ لذا كان من الغريب أن تسمعه يتحدث مستعملًا مصطلحات شكسبير.

في البنسيون كان هناك ستة عشر نزيلاً. وكانت السيدة ترغم الجميع على استعمال الألمانية على مائدة العشاء لهذا اضطر فيليب للصمت.

بدأت علاقته تتوطد بابنتي الأستاذ الألماني، وهما فتاتان جميلتان.. لم يكن قد قابل فتيات في حياته قط، وبرغم أنه ظل يبحث عن شيء يقوله للفتاتين فإن عقله كان يبقى خاويًا مهما حاول. إحدى الفتاتين كانت توجه له الكلام وكان يفهم بعضه أما الأخرى فكانت تنظر له بلا كلام ثم تنفجر في الضحك فجأة فيدرك أنه يبدو لها سخيفًا..

لكنه إذ جلس جوار الفتاتين على مقعد في المرج، راح يملأ عينيه من جمالهما وجمال الطبيعة، وقال لنفسه:

- بحق السماء.. أنا سعيد فعلاً..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم ترتيب من يعطى له دروس اللاتينية والفرنسية والألمانية مع بعض الرياضيات. إنه الآن حر تمامًا يصحو متى شاء وينام متى شاء. ليس بحاجة إلى الكذب أو اختلاق الأعذار.. كما قال له مدرس الرياضيات البريطاني السكير الذي يقيم في ألمانيا:

- ابق هنا.. لا تذهب إلى أكسفورد. إن أجمل شيئين في الحياة هما حرية الفعل وحرية التفكير... في فرنسا أنت حر تفعل أي شيء تشاء، لكن يجب أن تفكر كالآخرين. في ألمانيا يمكنك عمل ما تريد مع الاحتفاظ بأفكارك الخاصة.. إنجلترا بلد تخنقه التقاليد فلا يمكنك أن تفكر أو تتصرف براحتك.. السبب أنه بلد ديمقراطي وإنى لأتوقع أن تكون أمريكا أسوأ..

كان عليه أن يدرس مسرحية فاوست، وكان هذا زمن علا فيه نجم جوته في ألمانيا. بينما كان عليه أن يترجم إحدى مسرحيات شكسبير إلى الألمانية.

لم يكن مولعًا بالعلاقات الاجتماعية، وربما كان هذا من بقايا طباع سكان الكهوف، فهو لم يكن يحب أي شخص يلقاه لأول مرة.. لابد من فترة يعرفه فيها، وكان يجد أشياء ذكية جدًّا يمكن قولها لكن بعد أن تنقضي المناسبة لذلك.

في الفترة التالية تعرف أمريكيًّا يدعى (ويكس)، ودارت بينهما مناقشات دينية كثيرة.. لم يكن يتخيل أنه من الممكن أن تتم مناقشة هذه الأمور علانية، وكان حتى هذه اللحظة يعتقد أنك يجب أن تكون تابعًا لكنيسة إنجلترا التي تمثل الدين الصحيح

وإلا فأنت هالك. لكنه بدأ يتساءل عن مصير المسلمين والبوذيين وباقي الكنائس وسواهم. كل واحد من هؤلاء يعتقد أنه الدين الصحيح الوحيد. هكذا بدأ إيمانه يهتز بفعل هذه المناقشات الطويلة.. وإن ظل الخوف من العذاب الأبدى في الجحيم يطارده..

من ضمن أصدقائه هناك كان (هايوارد) الذي اعتاد أن يذهب معه إلى المسرح المحلى ثلاث أو أربع مرات أسبوعيًا بغرض تحسين لغتهما الألمانية. لم يكن فيليب قد رأى المسرح من قبل باستثناء بعض فرق الكنيسة البائسة التي كان عمه يستدعيها لكنه لا يحضر عروضها لأن هذا غير لائق به، لهذا شعر بحماس عظيم واستثاره هذا العالم الغريب المثير. شعر بأن هذا هو العالم الحقيقي الوحيد.. وشعر بأنه تعب من الاستعداد لبدء الحياة ويريد أن يبدأها فعلاً.

من الخرافات الشائعة أن الشباب سعداء.. خرافة يصدقها من فقدوا الشباب، بينما الشباب يعرفون أنهم معذبون لأنهم مفعمون بالمثل الوهمية وفي كل مرة يتعاملون فيها مع الواقع يجرحون ويألمون. والمشكلة أن جيل الشيوخ يساهم بدوره في خديعة الجيل التالي له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عاد فيليب إلى إنجلترا أثار دهشته أنه لم يلحظ من قبل كم أن عمه وامرأته مسنان. وأدرك للمرة الأولى أن عمه صغير الحجم أشيب أصلع الرأس.. أما زوجة العم فاحتضنته بحب وهي تبكي. ارتجف فيليب لأنه لم يتصور قط كم أنها تحبه فعلاً.

- أنت كبرت يا فيليب.. لقد صرت رجلًا الآن..

كانت نحيلة جدًّا لدرجة أن ساعديها ذكراه بعظام الدجاج. وكانت نحيلة جدًّا. فهم أن هذين قد أنهيا حياتهما وهما ينتظران النهاية في صبر.. لم يحققا أي شيء ولو رحلا فلن يشعر أحد بأنهما وجدا أصلًا.

كان يفكر في مصير حياته وقتها، وقد كانت امرأة عمه تؤمن بأن السيد المهذب لا يمكن أن يعمل إلا في أربع وظائف: الجيش البحرية القانون الكنيسة.. أحيانًا كانت تضيف الطب وإن كانت في طفولتها تعودت على أن الطبيب ليس سيدًا مهذبًا. رفض فيليب بلا تفكير الخيارين الأول والثاني كما رفض الرابع من قبل. أرسل عمه يسأل محامي الأسرة إن كان يرحب بفيليب في مكتبه فكان رده أنه لا يشجع هذا القرار، لأن المهنة مزدحمة بالمحامين وفرصة فيليب شبه معدومة في أن يكون شيئًا أفضل من كاتب محام، من دون صلات قوية.

في هذه الزيارة قابل قريبة له جاءت لتقيم عند عمه بعض الوقت، هي مس ولكنسون، وقد بدت له شابة أنيقة.. خرجا معًا كثيرًا وسألته عن زيارته لألمانيا. قالت له إنها تهابه لأنه ساخر جدًّا، وحاولت أن تعرف إن كان قد وقع في الحب من قبل.. في الواقع لم تكن له أية مغامرات عاطفية لكنه تظاهر بالغموض ليوحي بأن لديه الكثير. خاف أن تطلب منه التفاصيل لأنه قادر على اختراع بعضها لكنه لن يخدعها كثيرًا لأن النساء يجدن الحدس.. لقد قرأ عن هذا كثيرًا.. لا يمكن خداعهن..

ولما سأل زوجة عمه عن سن قريبته تلك قالت ضاحكة:

- هي أكبر منك على كل حال.. لقد كانت في السادسة عشرة عندما قابلناها منذ عشرين عامًا..

- إذن هي تجاوزت الثلاثين؟

لكنه كان قد بدأ يولع بمس ولكنسون جدًّا، وكانت قد زارت فرنسا وقابلت الكاتب الشهير (ألفونس دوديه) الذي كتب لها إهداء على إحدى رواياته. وقد قالت له:

- الرجال الفرنسيون عشاق حقيقيون.. البريطانيون شديدو الخجل، والخجل شيء أحمق في الرجل.. هم لا يقدرون على أن يخبروا المرأة أنها فاتنة..

شعر بالحمق وبأن عليه أن يقول شيئًا، لكنه لم يجد ما يقول وشعر بأنه سيجعل من نفسه أبله لو فتح فمه.

كانت مولعة باستخدام الفرنسية من حين لآخر بلا سبب، لكنها كانت تتكلمها بطلاقة. وقد أصرت على أن تعطيه دروسًا في الغناء لأن صوته جميل..

- لماذا لا تدرس الرسم في فرنسا؟

- أتمنى أن ترى وجه عمي لو أخبرته بأنني أريد الذهاب إلى فرنسا لدراسة الرسم!

من جديد راح يراجع سنها.. من الواضح أن عمه نسي التاريخ الصحيح، فهي لا تبدو له أكبر من الثلاثين بحال.. وما أهمية السن؟.. كليوباترا كانت في الثامنة والأربعين عندما حارب أنطونيو العالم من أجلها.

بدأت العطلة تدنو من نهايتها، وكان على مس ولكنسون أن ترحل قبله بأسبوع.. فسألته:

- ترى هل نلتقي ثانية؟

- لا أرى ما يمنع..

قالت:

- لا تتكلم هكذا.. أنا لم ألق في حياتي من هو أقل رومانسية منك..

شعر بخجل من نفسه وخاف أن تحسبه ناقص الرجولة. إنه في العشرين تقريبًا وهي رائعة الجمال وبرغم هذا لم يتكلما إلا عن الفنون. كانت تقريبًا فرنسية وهذا ألهب خياله لأنه لم يكن يحب البريطانيات. لكن كيف يبدأ؟ ... لو ارتكب أي خطأ لشكته لعمه.. وعمه سيخبر الجميع.. ولسوف تسخر منه زوجة عمه وتقول إن مس ولكنسون كان يمكن أن تكون أمه.

- بنسان كي أعرف ما تفكر فيه..

قالتها مس ولكنسون.. فقال بجرأة:

- أفكر فيك!

- بخصوص؟

- أنت تطلبين معرفة الكثير حقًا..

- أنت ولد شقي!

هذا ضايقه كثيرًا.. يحاول أن يبدو كرجل بينما هي تعامله كناظرة مدرسة يرفض تلميذها أن يؤدى الواجب كما تريد.

أضف لهذا أنه فعلاً لم يكن يشعر بتلك العاطفة الكاسحة التي قرأ عنها في القصص حيث تحمله أمواج الحلم للسماء.. لم يكن هذا ما يشعر به وبالتأكيد لم تكن مس ولكنسون هي الصورة المثلى. كان ينفر منها في الصباح ويميل لها نوعًا عند الظهر بينما يفتن بها في المساء.. هذه ظاهرة أثارت دهشته...

هنا ظهرت زوجة عمه في الحديقة، وقالت:

- لِمَ لا تعودان للبيت أيها الشابان؟.. إن هواء الليل لا يناسب صحتكما..

سمع هذا ونفذه على الفور وهو يشعر بارتياح لأنها خلصته من هذا الموقف.

تقول مس ولكنسون إن الفرنسيين يتمتعون بالجرأة.. هذا سهل لأن لغتهم تناسبهم.. كان فيليب لا يتصور أن يقال شيء عاطفي بالإنجليزية.. هذا يجعله سخيفًا..

إلا أن الأيام التالية جعلته يعترف لمس ولكنسون بحبه، واعترفت هي له بالشيء ذاته.. اعترفت بالإنجليزية والفرنسية.. وطلبت منه أن يسميها (إميلي) لكنه لم يجسر على ذلك.

كانت تحبه أكثر يومًا بعد يوم.. وراحت تقول إنها تفكر في الانتقال إلى لندن كي تكون قريبة منه. لم يرق له هذا لأنه كان يفضل أن يكون حرًا بلا ارتباطات في لندن.

ازداد الأمر سوءًا عندما علمها لعب التنس، وكان هو يلعبه ببراعة برغم حالة ساقه. ذات يوم جاءت فتاتان حسناوان في عمره تقريبًا وراحتا تلعبان معه..

كان ما أثار دهشته أنها ألقت بالمضرب على الأرض في عصبية، ثم انطلقت تجرى ذاهبة لغرفتها. لحق بها فاستوقفته زوجة عمه داخل البيت لتقول:

- أنت آذيت مس ولكنسون.. إنها حزينة جدًّا في غرفتها..

صعد إلى غرفتها وقرع الباب فلم يرد أحد. دفع الباب ودخل. هنا أثار دهشته أنها راقدة على الفراش على بطنها تبكى وقد دفنت وجهها في الوسادة.. كان مغتاظًا أصلاً لأنها جعلت الكل يشعر بوجود شيء ما بينهما..

دنا منها في ارتباك وسألها عما يبكيها، فقالت:

- أنت قاس جدًّا.. ككل الرجال لا قلب لك..

- لا أفهم..

- رأيتك وهاتين الغندورتين تتبادلون المزاح وتلعبون تلك اللعبة الكريهة التي أكرهها لكني ألعبها من أجلك أنت..

- لكنك تعرفين أنني لا أبالي بهما.. لماذا تعتقدين هذا؟

كورت منديلها وكانت المساحيق على وجهها قد ذابت بفعل الدموع، بينما انتكش شعرها.. ونظرت لفيليب بعينين مشتاقتين وقالت:

- لأنك في العشرين وهما كذلك.. بينما أنا عجوز..

احمر وجهه وشعر بتوتر، وتمنى في هذه اللحظة لو لم يكن قابلها قط..

اعتذر لها وطلب منها أن تنزل لضيوفها فردت بالإيجاب، وغادر الغرفة شاعرًا براحة لأن الموقف انتهى.

في الأيام التالية شعر معها بعدم راحة حقيقي.. كانت تذكره طيلة الوقت بأنه مدين لها بدين لا يقدر على رده.. كانت تبكي كثيرًا جدًّا وهو ما حيره لأنه لم يقبل هذا من امرأة ناضجة.

كان يميل للوحدة بل هو بحاجة إلى قدر كبير منها في كل يوم، لكنها كانت تعتبر هذه غلطة منه. كانت لا تكف عن امتداح رقة الفرنسيين واهتمامهم بحبيباتهم وتضحياتهم وكيف يكتبون خطابات عاطفية كل يوم.. بدا واضحًا أنها تريد منه الكثير جدًّا. وهو لم يكن على استعداد للكتابة إلا عندما يرغب في ذلك.

أخيرًا جاء يوم سفرها.. فجاءت لمائدة الإفطار شاحبة في ثوب أسود مما جعلها تبدو تمامًا كمديرة مدرسة. وكان قد تحاشاها ليلة السفر حتى لا تظهر عاطفة زائدة تفضحه أمام عمه أو ماري آن الخادمة سليطة اللسان التي لا تحب مس ولكنسون، وتطلق عليها (القطة العجوز)..

أوصلها للمحطة مع عمه.. هناك أصرت على أن تقبلهما معًا.. ثم تكومت في ركن المقصورة وراحت تبكي. عندما عاد العم قال لزوجته إن مس ولكنسون أصرت على أن تقبله هو وفيليب فقالت:

- لا بأس.. في سنها يمكنك أن تسمح بشيء كهذا..

- هذا هو حبه الأول إذن!. شعر بمرارة لأن الحقيقة تختلف كثيرًا جدًّا عن الخيال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

قضى فيليب بضعة أشهر في لندن في أحد مكاتب المحاسبة، وكانت إميلي تمطره بالخطابات.. للمرة الأولى يكتب خطابـًا غراميًّا في حياته، وقد حاول أن يقول فيه إنه يتعذب وإنه لا ينام الليل ويتمنى أن يلثم يديها، لكنه لم يستطع.. لذا جاء خطابه باردًا تقريريًّا يحكي عن حياته في لندن.. هكذا انهمر عليه سيل من خطاباتها تقول فيها إنه قاس ناكر للجميل.. وإنه بارد جدًّا معها.. هي لا تتحمل البعد عنه لذا ستلحق به في لندن. أرسل يقول لها إنه لن يكون حرًّا في الكريسماس. هكذا أرسلت له المزيد من الخطابات الدامعة تقول إنها تحبه وإنها لا تستطيع التخلي عنه، ولم يعد أمامها سوى قتل نفسها..

شعر بقلق ثم تذكر أن خطاباتها كلها بالفرنسية.. وهي تفعل ذلك بداعي الاستعراض لا أكثر. قال لنفسه:

- ليتني لم أرها على الإطلاق!

الحقيقة أن حياته في لندن كانت قاسية وحيدة، وراح يتساءل عن كيف يتعارف الناس في لندن. في الكريسماس لم يستطع السفر لعمه لأن زوجة العم كانت مريضة جدًّا، وقد اضطرا للسفر للاستشفاء.. هكذا قضى الإجازة وحده..

كان يقضي الوقت في الرسم وقال كل من رأى رسومه إنه موهوب فعلًا، ونصحوه بأن يدرس الفنون في باريس.

هكذا لم يشعر بأي ندم عندما انتهى العام فأخبر المحاسب أنه راحل إلى غير رجعة، وصارحه هذا الأخير بأنه لا يصلح كمحاسب على الإطلاق. لم يضايقه هذا فقد كره المكان وكره

العمل وكره وجوه رفاقه.. كانت خبرته الأولى عن لندن سيئة فعلًا.

عندما أخبر عمه بأنه لن يكون محاسبًا تضايق هذا الأخير. كان ككل الناس ضعاف الشخصية يولى اهتمامًا وقيمة كبرى على ألا يغير المرء أفكاره أو ما بدأ به. صارحه فيليب برغبته في أن يذهب إلى باريس لتعلم الفنون لكن الرجل كان يعتبر باريس بؤرة فساد ورفض هذا بشدة، مما اضطر فيليب إلى قول أشياء خشنة.. منها أنه الوحيد الذي يحدد كيف ينفق ما تركه له أبوه من مال. كان قد بقي له عام واحد قبل التمكن من إرثه، ولكن العم قال إنه لن يمنحه مالًا..

قال فيليب لزوجة عمه إنه راغب في أن يذهب إلى السوق لبيع مجوهرات أبيه...

لكنها غابت بعض الوقت ثم عادت من المصرف حاملة كيسًا صغيرًا. فتحه فوجد فيه مائة جنيه هي مدخراتها.. لقد فعلت هذا كي لا يضطر لبيع ما ورثه عن أبيه. عندما تزوجت أودعت 300 جنيه في المصرف وظل هذا المبلغ هناك يغطى النفقات الطارئة.. برغم ضآلة المبلغ فقد كان القس يتكلم عنه مع زوجته في فخر كأنه ثروتهما الصغيرة.

صاح فيليب:

- كلا.. هذا مستحيل.. لا يمكن أن آخذه..

- أرجوك أن تفعل يا فيليب.. كنت أحتفظ به للطوارئ لكنني آسفة بسبب تبذيري الشديد.. كنت أخشى أن يموت عمك أولاً.. في الواقع تمنيت ذلك حتى لا يتعذب، لكني اليوم

أدرك أنه لن يشعر بشيء لو مت أولًا.. ربما تزوج كذلك.. وأنا أعرف أن أجلي قد حان وأن هذا المال لن يساعدني في شيء..

لثم فيليب خدها المجعد الدامع، ولا يعرف لماذا شعر بالخجل من نفسه.. لماذا تضحى وتبكي من أجل شاب مثله مليء بالأنانية والاهتمام بنفسه؟.. إنها تعرف جيدًا أنانيته لكنها تقبلها كما هي..

- فيليب.. هلا أخذت المال؟.. أنا أعرف أنك تستطيع تدبير أمرك بدونه لكني مصرة.. أنا لم أرزق بطفل ولطالما اعتبرتك ابني، ولكم تمنيت لو استطعت العناية بك، لكن المدرسة أخذتك مني..

هكذا لم يجد في وسعه سوى أخذ المال والتأثر يخنقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا نزل فيليب من القطار في باريس..

سوف يلتحق بدراسة الرسم مع سيدة إنجليزية تدعى مسز (أوتر).

كان قد حجز غرفة في فندق (ديز أيكول) في حي مونبارناس. وبرغم أن الوقت كان متأخرًا فإنه كان يرتجف لهفة وشوقًا. هناك جلس في مقهى وطلب عشاء وشرب (الأبسنتي)، وشعر بأنه فنان بوهيمي حتى النخاع.

بدأ يتعرف مجموعة من الشباب البريطاني الذي يدرس الفنون هنا، وهم جميعًا في العشرينات من عمرهم، مفعمين

بالتمرد ضد الثقافة الفكتورية ويتمنون أن يشعلوا نارًا عظمى تبتلع كل أعمال الفكتوريين مثل ديكنز وثاكري وباتر..

لكن باريس لم تكن رخيصة كما توقعها وكما زعم الجميع فقد أوشكت ثلاثة أشهر فيها أن تبدد مدخرات فيليب. هكذا انهمك في دروس الرسم وبدأ يخرج إلى المناظر الطبيعية ليرسمها بالزيت. كان يشعر بظمأ شديد للحب لكنه كان يحب الحب ذاته.. والغريب أنه حينما يكون وحده كان يحلم بامرأة معينة بشدة ويفكر فيها، فإذا جلس معها في الواقع لم يعد يميل لها، وشعر بأنها قبيحة وأن أصابع قدميها مليئة بالكاللوهات..

هذا جعله يزداد غموضًا في نظر نفسه..

كان يحاول أن يرسم الروح ذاتها في الموديلات، وقد أدرك أن رمبرانت والجريكو عندما رسموا البورتريهات استطاعوا أن ينقلوا روح الشخصية ذاتها إلى الرسم. ظلت هذه المعضلة تضايقه إلى أن ذهب إلى مدرسة الرسم كعادته حيث كان الموديلات ينتظرون فرصتهم في الرسم. كان هناك رجل قصير القامة مشدود الجسد في وجهه نبل ووقار غريبين. هذا هو الموديل المختار لهذا اليوم.

لما انتهى الدرس هرع فيليب إلى الرجل وطلب منه أن يسمح له بأن يرسمه في مرسمه في لوحة يقدمها في صالون فني شهير. عرف أنه أسباني وإنه لم يعتد أن يكون موديلًا. قال له الرجل الذي يدعى (أرتور ميخيل) إنه أديب وإنه لا يقبل أن يبيع صورته لترسم.. فقط هو فقير يفعل كل شيء ممكن للظفر بالمال حتى ترجمة النصوص القانونية وإعطاء دروس في اللغة

الأسبانية.. قال له فيليب إنه لن يرسم جسده بل سيرسم وجهه لأنه يروق له. كان فيليب رومانسي التفكير وبدا له أن معرفة هذا الأسباني ستضيف له الكثير. كان هذا في زمن يصعب فيه على البريطانيين في باريس أن يتكلموا مع شخص غير بريطاني.. كانوا يعيشون في باريس بعاداتهم ومعارفهم الإنجليزية وسط مجتمع بريطاني خلقوه لأنفسهم، لكن فيليب خرق هذه القاعدة..

هكذا تم الاتفاق على أن (أرتور) سيزور (فيليب) ليرسمه كل يوم اثنين، لكنه لن يتقاضى مالًا.. سيفعل هذا للهواية. وبدأت الجلسات فعلاً. من حين لآخر كان يقترض خمسين فرنكًا من فيليب وهو ما كان يكلفه أكثر مما لو دفع له أجرًا، لكن فيليب قبل هذا..

راح فيليب يسأله عن أسبانيا وتاريخها ورساميها، لكن الرجل لم يكن مهتمًّا ببلده على الإطلاق.. كان يؤمن أن هناك بلدًا واحدًا يستحق الاهتمام هو فرنسا..

- أسبانيا قد ماتت.. لا يوجد بها فنانون أو أدباء مهمون.. فرنسا فقط تستحق الاهتمام..

وكان يكتب روايته لتدور في فرنسا باعتبار أسبانيا لا تستحق أن تدور فيها أحداث رواية. ذات يوم جلب روايته لفيليب وراح يقرأ له مقاطع منها يترجمها بالفرنسية الركيكة.

هنا أصيب فيليب بالذهول.. الرواية سيئة ركيكة جدًّا.. هذا الرجل لا يخفي وراء عينيه الذكيتين وملامحه النبيلة إلا فكرًا شديد السطحية والضحالة. إذن اللوحة لم تستطع بلوغ روح

هذا الرجل. إن الرجل يملك كل ما يجعله كاتبًا كبيرًا ما عدا الموهبة..

نظر فيليب للوحة في رعب.. كيف يمكنه إذن أن يعرف إن كان فيها شيء فني أم لا؟.. إن مجرد الرغبة في النجاح لا يكفي للنجاح..

- لو لم تكن لوحة رائعة فلابد من أن أتوقف عن الرسم.. لا أريد أن أكون مجرد فنان من الدرجة الثانية..

هل هو يملك ما هو أكثر من بعض البراعة اليدوية التي تجعله ينقل الأشياء بدقة؟

لو صار طبيبًا أو رجل أعمال، فلن يلاحظ أحد أن مواهبه محدودة، لكن ما جدوى أن تكون رسامًا يقول الجميع إن موهبته محدودة؟

في هذه الفترة انتحرت إحدى التلميذات بأن شنقت نفسها. واكتشف أنها انتحرت لأنها كانت جائعة فعلًا. أصابه هذا بالرعب.. معنى هذا أنه يجب أن يقتصد لأنه لم يبق لديه من مال إلا 1600 جنيه، ومن المتوقع ألا يحصل على أي مال قبل عشر سنوات.. ربما لا يحصل على مال أبدًا كمعظم الفنانين هنا.. لربما كان من الأجدى للفتاة المنتحرة لو أنها كفت عن المحاولة منذ البداية.

انتهى من لوحة الأسباني فأرسلها إلى الصالون الذي أراد أن يعرض فيه، لكنها رفضت..

عزاه أصدقاؤه قائلين: إن هذه ليست أول مرة يرفض فيها الصالون لوحات صارت شهيرة بعد ذلك، لكن فيليب كان يعرف

أنها أول لوحة له ومن الطبيعي أن ترفض، لكنه كذلك كان يعاني فقدان ثقة تامًّا في موهبته.

قال له صديقه:

- لا تهتم بالنقد.. لا تهتم بالرفض.. الإنسان يرسم لا يستطيع أن يعمل غير ذلك.. إنها وظيفة من وظائف الجسد لكن القليلين يملكونها. أنت وضعت روحك وعرقت على قماش الرسم وبرغم هذا من الوارد أن يرفضها صالون الفنون، فإن قبلها نظر لها الناس عشر ثوان فقط.. فإن بيعت اشتراها ثرى غبي يعلقها على جدار بيته.. صدقنى. نحن نرسم لأننا لا نستطيع سوى ذلك وإلا انتحرنا. لو رأى العالم نفسه كما نرسمه في لوحاتنا فإنه يعتبرنا عباقرة وإلا فهو يتجاهلنا.. لا يهم.. إن ما يمكن الظفر به من الرسم قد ظفرنا به فعلاً ونحن نرسم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

مر شهران وفيليب يشعر بأن هذه الحياة هي الطريقة المثلى كي تفلت منك الحياة دون أن تعاش.. لقد خلقت الحياة لتعاش لا لترسم..

قرر أن يأخذ الخطوة المهمة مرة واحدة، وفي ستوديو الرسم الذي يتمرن فيه قرر أن يسأل أستاذه عما إذا كان يرى في رسمه ما يبشر بخير. إن الفتاة المنتحرة لم تفارق مخيلته.

نظر له الفنان الكبير نظرة طويلة بلا تعبير، ثم سأله:

- لا أفهم..

- أنا فقير جدًّا.. لو لم تكن لدى موهبة فلا داعي للاستمرار..»

- أليس بوسعك معرفة إن كانت عندك موهبة أم لا؟

- كل رفاقي يعتقدون أن عندهم موهبة.. بينما أدرك أن أكثرهم على خطأ..

لشدة دهشته قرر الفنان أن يذهب معه إلى مرسمه ليرى مجموعة أعماله مع بعضها. غاص قلب فيليب في قدميه فهو كان يصبو إلى فترة تمهيد نفسي.. فترة استعداد..

على باب المرسم شعر بأنه لا يريد.. لا يريد أن يعرف.. لو كان أكثر شجاعة لطلب من الفنان أن يرحل. ماذا لو كان كل هذا الجهد وهمًا بلا جدوى؟

راح يعرض لوحاته على الفنان متوترًا بينما ظل هذا الأخير صامتًا يصغى، ثم أشعل لفافة تبغ.. في النهاية قال:

- أرى أن يدك دقيقة بارعة، وأن هناك الكثيرين ممن يرسمون أسوأ منك وهناك كثيرون يرسمون مثلك، لكني لا أرى أية موهبة فيما قدمته لي.. أرى براعة وذكاء.. لكنك ستظل فنانًا متوسط المستوى..

قال فيليب محاولاً التماسك:

- أشكرك على تعبك معي..

قال الفنان وهو ينهض:

- أرى أن تجرب نفسك في مجال آخر.. كنت أتمنى لو قابلت في بداية حياتي من يسدى لي نصيحة كهذه.. من المؤلم أن يكتشف المرء ضعف موهبته بعد فوات الأوان..

ثم ابتسم وغادر الغرفة..

نزل فيليب إلى الشارع فاستوقفه البواب. كان يحمل خطابًا من عمه، وقد خمن فيليب محتوى الخطاب لأن عمه لم يكتب له من قبل لكن زوجته كانت تفعل..

كان الخطاب ينعى له وفاة زوجة عمه الطيبة، ويقول إن الوفاة تمت في سلام وإن تمت بسرعة بحيث لم يكن هناك وقت كاف لإبلاغه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

صدم العم بشدة عندما عرف أن فيليب ينوى التوقف عن الرسم.. كان قد طلب منه أن يرسم له صورة شخصية، بعد ما تمت مراسم دفن زوجته في بلاكستابل. صاح في فيليب كالمجنون:

- كنت مقتنعًا قبل ذهابك لباريس أنك خلقت رسامًا.. وقبلها فكرت في أن تكون محاسبًا.. هذا يدل على انعدام تركيز وعدم استقرار.. أنت المسئول عن مالك الآن فلم أعد وصيًّا عليه، لكن تذكر أنه في حالتك الصحية من الصعب أن تظفر بعمل بسهولة!

كان فيليب قد اعتاد في أية مشادة مع أي إنسان أن ينزلق لسان الأخير إلى الكلام عن عاهته، لكنه تعلم التحكم في انفعالاته كما تعلم التحكم في احمرار وجهه الذي كان يحرجه كثيرًا في طفولته.

كان يفكر في الطب.. مهنة أبيه.

عليه أن يبدأ في لندن ومعه 1600 جنيه.. يبدأ حياته الثالثة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا التحق بمدرسة الطب بعد ما اجتاز اختبارًا صغيرًا نجح فيه. ووجد بيتًا قريبًا من المدرسة يتفق مع موارده المحدودة جدًّا..

كانت المحاضرة الأولى التي يحضرها هي محاضرة تشريح. وقد عرف أنهم يبدءون بتشريح الطرف السفلى لأنه الأسهل.. بحث في ممر مظلم عن قاعة المحاضرات.. ودخل. وفي الحادية عشرة امتلأت القاعة بالطلبة، ثم دخل أحد المساعدين ليضع عظام حوض بشرى على المنضدة مع كوب ماء. ولاحظ فيليب أن معظم الطلبة أصغر سنًّا منه. ثم دخل المحاضر الأستاذ (كارسون) وبدأ يتكلم عن علم التشريح وأهميته للجراحة وأهميته لفهم الفنون.. واقترح عليهم اسمى كتابين مناسبين..

- سوف تتعلمون أشياء صعبة، سوف تنسونها في اللحظة التي تخرجون فيها من لجنة الامتحان، لكن أن تتعلم التشريح وتنساه لخير من ألا تتعلمه على الإطلاق..

بعد المحاضرة اقترح زميل فيليب أن يدخلا المشرحة. هكذا مشيا إلى هناك، وعرف فيليب على الفور سر الرائحة النفاذة التي يشمها منذ جاء لهذا المكان.. أشعل غليونه فضحك زميله.

على جانبي القاعة كانت مناضد معدنية عليها جثث.. وكانت معظمها لرجال أسود لونهم بشدة بسبب المادة الحافظة وصارت بشرتهم كالجلد.. وقد عرف أنه سيشرح الرجل رقم 4 مع طالب آخر.

كانت جثة رجل نحيل في الخامسة والأربعين له لحية شائبة وشعر متساقط.. لم يشعر فيليب قط بأن هذا كان إنسانًا على الإطلاق، وبرغم هذا كان فيه شيء مخيف ومنفر.. ثمة شيء مفزع يتعلق بالموتى.. يشعرونك أن بوسعهم التأثير بشكل شرير على الأحياء.

ظلت الرائحة الكريهة تتسرب إلى أنفه، وتشع من حوله حتى وهو يشرب الشاي، فقال له صاحبه:

- سوف تعتادها.. لو جاءت لحظة لم تشمها بعد ذلك لشعرت بالوحدة..

قال فيليب:

- لن أتركها تفسد شهيتي..

وبدأ فيليب يتعرف مجموعة الطلبة من حوله. كان الطب هو المهنة الوحيدة التي يمكن أن تبدأها متأخرًا وبرغم هذا تعيش منها. معظم من معه كانوا سيفشلون في الامتحانات ويغادرون المدرسة مبكرًا.. البعض كان سيعمل مساعد طبيب بأجر رخيص.. البعض ممن كان لهم آباء أطباء كانوا سيواصلون المهنة وتصير لهم عيادة في الأرياف.. واحد أو اثنان من النوابغ سوف يصيران أساتذة أو يملكان عيادتهما الخاصة في شارع هارلي.

كانت الدراسة شاقة فعلًا.. علم التشريح كان عبارة عن حفظ مجموعة هائلة من الأسماء عن ظهر قلب.. لا أكثر.. ولم يبد له التشريح نفسه عملية ذات جدوى.. تضييع وقت بحثًا عن عصب أو شريان، بينما يمكنك أن تراه بوضوح كما خلق في الأطلس أو متحف التشريح.

لم يكون صداقات حميمة، وكان يصبو إلى العلاقات الاجتماعية لكنه لم يعرف كيف يفعل ذلك.

هكذا اتخذ لنفسه صديقًا هو (دانسفورد) الذي قابله أول مرة في المدرسة الطبية. كان طيبًا أقرب إلى السذاجة وقد أدرك

فيليب أنه يملك تلك الجاذبية التي يعرف أنه هو نفسه يفتقر لها. وقد اعتادا أن يتناولا الشاي في مقهى في شارع البرلمان لأن فيه ساقية يميل لها (دانسفورد)، وهو شيء لم يستطع فيليب أن يفهمه.

- ما من أحد يمكن أن ينظر لها في باريس..

كانت نحيلة لها جسم صبي ولها طابع فكتوري معين من الطراز الذي فرضه الرسامون الفكتوريون على الناس باعتباره الجمال الإغريقي. وبدا أنها تعاني فقر دم شديدًا فشفتاها شديدتا الشحوب. ولا توجد لمسة لون أحمر واحدة في جلدها. وكانت تروح هنا وهناك بادية الملل..

لكنها كانت تعنى بيديها جيدًا فلم تدع العمل يفسد جمالهما.

لم يكن دانسفورد ناجحًا مع النساء قط لذا طلب من فيليب أن يساعده في بدء الحديث معها. لكنها كانت قد ميزت نوعيتهما على الفور.. إنهما صبيان لا نفع منهما.. وعرف دانسفورد أن اسمها ملدريد إذ سمع صديقاتها يناديها بذلك.

ذات مرة وجه لها فيليب ملحوظة مرحة فقالت في برود:

- بعض الناس يحسنون صنعًا لو لم يتدخلوا في شئون الآخرين!

- هل يعني هذا أنه لم يعد بيننا كلام؟

قالت بذات البرود:

- أنا هنا لأتلقى تعليمات الزبائن وآخذ ثمن ما شربوه.. لست هنا كي أتكلم..

عندما غادر المقهى كان يشعر بأنه تلقى صفعة. ولم يستطع نسيان هذه الإهانة بسهولة. دانسفورد نسى الموضوع سريعًا وأحب فتاة أخرى، لكن فيليب ظل يذكر هذه الفتاة وطريقتها معه، وشعر بأنه لن يرتاح حتى يسوى حسابه معها.

وبرغم أنه قرر عدم دخول المقهى ثانية فإنه وجد نفسه يتجه إلى هناك مرة أخرى ليجلس.. ولم تبد هي أية علامة على أنها رأته من قبل.. قال لنفسه:

- أتمنى أن تشتمني أو تقول شيئًا يسمح لي بأن أشكوها للإدارة وأفصلها.. فهي تستحق هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

لم يستطع أن يقصيها عن ذهنه. كان يدرك أنها أهانته وقد أدرك أنه ترك في نفسها انطباعًا سيئًا، فشعر بأنه لن يشعر بالراحة ما لم يمح هذا الأثر. وبرغم أنه وعد نفسه مرارًا بألا يعود لهذا المقهى فإنه شعر بتوتر بالغ يرغمه على أن يقصده ثانية.

دخل المقهى، هنا ابتدرته قائلة:

- حسبت أنك لن تأتى!

شعر بقلبه يخفق.. فهو لم يتوقع أن تكلمه. عادت تسأله:

- هل أنت طالب؟.. أنت تشرّح الناس.. أليس كذلك؟

- ليس الأمر بهذا السوء..

لم يكن هناك أحد في المقهى لذا جلست إلى منضدة وراحت تطالع قصة رخيصة من الطراز الذي كان يبتاعه غير المتعلمين. راح يراقب صورة وجهها الجانبية وقال لنفسه إنها بالتأكيد تحمل تقاطيع جميلة، وشعرها غزير رائع الجمال، برغم أن لون جلدها شبه الأخضر يعطى انطباعًا بالمرض. أخرج ورقة وبسرعة رسم (أسكتش) سريعًا لوجهها وهي تقرأ وتحاول نطق الحروف بشفتيها، وترك الورقة على المنضدة عندما انصرف.

هكذا قابلته في المرة التالية وقالت ضاحكة:

- لم أعرف أنك تجيد الرسم..

- درست الرسم في باريس عامين..

- هناك صديقة لي ترغب في أن ترسمها، لكن لا تقبل ذلك. لو بدأت لطلبن جميعًا نفس الشيء.. لن تجد مفرًّا..

عندما انصرف لم يعد يحمل لها أية ضغينة، وقال لنفسه إنها ليست سيئة..

لكنه عندما جاء في اليوم التالي لاحظ أنها تتجاهله تمامًا وأنها تثرثر مع رجل ألماني كث الشارب يتردد على المقهى كثيرًا.. وعادت لمسلكها البارد معه. هكذا راح يتردد على المقهى عدة أيام فيتعمد أن يجلس على منضدة أخرى لتحضر له الشاى واحدة أخرى، وعندما تلتقي العينان ينظر لها ببرود كأنه لم يرها من قبل..

أدرك أنها لا تبالى وأن بوسعه أن يستمر في هذه اللعبة للأبد. هكذا انتظر حتى مرت بقربه ذات ليلة وعرض عليها أن ترافقه للمسرح.. هزت كتفها في لا مبالاة وقالت إنه لا مانع لديها..

هكذا اتفقا على أن يلتقيا في محطة (فكتوريا) ثم يصحبها للعشاء في الثامنة، لأن المسرحية ستبدأ في التاسعة. ولاحظ أنها لا تبدي أي سرور.. بل هي تتصرف كأنها تسدى له خدمة بهذا القبول، مما ضايقه كثيرًا..

تأخرت عليه نحو ساعة عن موعدها ولم تعتذر عن تأخرها، وسألها عن المكان الذي ترغب في تناول الطعام فيه فقالت إنها لا ترى فارقًا بين مكان وآخر.

جلسا إلى مائدة الطعام حيث الشموع والستائر الحمراء الشاعرية، فطلب بعض الشمبانيا. راح يكلمها فكانت ترد بلا حماس، وتضايق لأنه أدرك أنه ليس عندها ما تقول وهو لا

يسليها على الإطلاق. كانت تمسك الشوكة كأنها قلم وعندما تشرب الشمبانيا كانت تبرز أصبعها الصغير. قال نكتة أو نكتتين لكنها أخذتهما على محمل الجد.

ذهبا إلى المسرحية، التي بدت لفيليب سخيفة سوقية، لكن ملدريد راحت تضحك حتى أوشك جانباها على الانفجار واستمتعت بوقتها أيما استمتاع.

في الاستراحة راحت تتكلم عن الناس.. كل كلامها عن عيوبهم وراحت تعيب على كل شخص تراه، وشعر فيليب بأنه يكرهها.. لكنه في الوقت ذاته يريد أن يكون معها.. وخطر له أنها ستذهب للمقهى غدًا لتحكى للبنات عنه وكيف هو ممل..

- هل استمتعت بوقتك؟

- نوعًا..

- هل ترغبين في تكرار هذه الليلة؟

- لا فارق عندي..

كانت لا مبالاتها هذه تثير جنونه فعلًا.. لكنه بالفعل لا يعرف كيف تمر الساعات حتى يراها غدًا.. هو تعس معها لكنه كذلك تعس من دونها..

هكذا أصابه الرعب عندما صار وحده أخيرًا.. إنه يحبها!. هذا مؤكد!..

نعم هو يحبها.. يريدها..

صحيح أنه كذلك يتمني لو هشم أذنيها، لكنه يشعر بحنين كلما تذكرهما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا بدأ يجد نفسه مضطرًا إلى الذهاب إلى المقهى يوميًا، ثم وجد نفسه يقابلها عند محطة فكتوريا وهي ذاهبة إلى العمل. كانت لا تكف عن اللامبالاة أو مزجها بالإهانة كعادتها، ثم كانت تغير طريقتها كلما لمست منه فتورًا فتهش له مما يبعث الأمل في نفسه..

المشكلة كذلك كانت ذلك الرجل الألماني الذي يتردد بانتظام على المقهى، والذي كانت تقف لتتبادل معه الحوار الضاحك لفترات طويلة.. اسم الرجل (ميلر).. ومن الغريب أن تتصور أية مواضيع مشتركة تجمع بينهما. إن افتقارها للعاطفة وبرودها يريحانه على الأقل فهي لن تعطى الألماني أكثر مما أعطته هو.

كان قد ابتاع تذكرتين للمسرح كما اتفق معها، لكنها اعتذرت لأن عمتها مريضة.. أدرك إن هذه أكذوبة للتنصل منه، هكذا مزق التذكرتين أمامها.. سألته عن السبب فقال:

- لا نية لي في مشاهدة مسرحية كوميدية متعفنة.. فقط ابتعت التذاكر من أجلك أنت...

ثم خرج فلم يرحل وإنما وقف على رصيف مقابل يراقب المقهى. لما خرجت فوجئت به يقف هناك فصاحت في غيظ:

- أنت تراقبني!. كنت أحسبك رجلاً (جنتلمان)..

- وهل تعتقدين أن هناك (جنتلمان) يمكن أن يهتم بك؟

كان راغبًا في التنمر وأن يصل بالأمور إلى الأسوأ.. فقالت:

- من حقى أن أغير رأيي.. لست مرغمة على الخروج معك، وأنا ذاهبة للبيت الآن لكن لن يتجسس على أحد..

- وهل كلمت ميلر الألماني اليوم؟

- هذا ليس من شأنك.. وإننى على كل أفضل أن ألاحقه على أن تلاحقني أنت.. ضع هذه الكلمات في غليونك ودخنها..

شعر بمزاجه ينقلب من الغضب إلى اليأس وقال لها في ذعر:

- لا تكوني قاسية يا ملدريد.. تعرفين أنني أحبك بكل كياني.. الأمر كله مهين لي، فلو لم تأتى معى الليلة للمسرح فلن أعود للمقهى ثانية..

- تعتقد أن هذا يؤلمني؟.. كل ما بوسعى قوله هو: حظ سعيد..»

وابتعد عنها.. راح يعرج إلى الناصية وتمنى أن تناديه.. نظر للخلف عساه يجدها تنظر له كانت قد رحلت.

وأدرك أنها مسرورة للخلاص منه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

في حجرته راح جاهدًا يحاول أن يدرس استعدادًا لامتحان البيولوجي بعد أسبوعين، وهي مادة لا يعرف عنها أي شيء لكنه كان يثق في ذكائه. لماذا تصرف بهذا الشكل وجعل أمامها خيارين؟.. أن تذهب معه للمسرح أو لا تراه للأبد؟.. كان أحمق وكان من الطبيعي أن ترفض..

لماذا أحبها بهذه القوة؟.. كان قد قرأ عن التخيل المثالي الذي يحدث في الحب مما يجعل المحب يرى حبيبته ملاكًا، لكنه كان يراها كما هي فعلاً. كانت خالية من الرقة أو الذكاء، وكان فيها سوقية وتنمر منفران. لكنه يكرهها ويكره نفسه لأنه يحبها.. لا حيلة له معها.. يشعر بما كان يشعر به عندما يقهره صبي أكبر أيام المدرسة.. كان يقاوم قليلًا ثم يتحول إلى شيء خائر القوى تمامًا.

لم يستطع التركيز في حرف مما يقرؤه، وراح يفكر في ملدريد ويستعيد المحادثة الأخيرة معها كلمة بكلمة.

ذهب إلى الامتحان الشفوى فأجاب عن الأسئلة قدر ما استطاع، وخيل له أنه نجح بالتأكيد، لكنه عندما ذهب ليرى النتيجة فوجئ بأن اسمه ليس بين الناجحين..

ربت دانسفورد على كتفه آسفًا، وكان من بين الناجحين. لكن فيليب قال إنه غير مهتم وإنه سيجرب حظه ثانية في يوليو.. وظل يتكلم في مواضيع عديدة ليظهر أنه غير مبال. غير أن فيليب شعر بأنه أساء تقدير ذكائه.. من الغريب أن رسوبه لم

يدهش أحدًا سواه. وراح يتخيل احتفال الذين نجحوا وشماتة هؤلاء الذين يمقتونه..

كان في أمس الحاجة لرؤيتها.. قاوم كثيرًا ثم وجد نفسه يستقل سيارة أجرة إلى المقهى.. وهو يشعر بالرعب من أن تكون قد تركت العمل. لكنه وجدها هناك..

قالت له:

- حسبتك قد مت..

كانت تبتسم.. تبتسم...!

قال لها:

- وعدت بأنني لن أراك ثانية..

- إذن ماذا تفعله هنا؟

كانت مصرة على أن يتجرع كأس المهانة حتى الثمالة. لكنه قال لنفسه إن خشونتها طبع فيها وليست مقصودة. ونظر لعنقها النحيل وخطر له أنه من الجميل لو أغمد فيه السكين الموضوعة على المنضدة.. هو يعرف من علم التشريح ما يكفي لقطع الشريان السباتي، لكنه في الوقت ذاته كان يفكر أنه من الجميل لو غمره بالقبلات.

قال لها:

- ليتك تعرفين إلى أي مدى أنا غارق في حبك..

- غريب أن تقول هذا ولما تطلب مني الصفح بعد..

كان مستعدًّا لأي شيء مقابل أن تسمح له برؤيتها لذا اعتذر ضاغطًا على كبريائه.. فقالت له:

- أما وقد اعتذرت فدعني أقل لك إنني حسبت (ميلر) هذا مهذبًا، لكني كنت مخطئة.. وقد طردته شر طردة..

هكذا ارتبط بها أكثر فأكثر.. راح يتردد على المقهى يوميًّا وكان يرغب في التردد وقت الغداء، لكنها قالت إن الفتيات بدأن يتكلمن. صار مفتونًا بها ولم يخف هذا لحظة واحدة عنها برغم علمه أن هذا يجعلها في وضع أقوى. من حين لآخر كان يتعامل ببذخ لا تسمح به ظروفه فيبتاع لها هدايا..

لكنهما كانا كثيري الشجار، وقد كانت أعنف المشاجرات عندما قالت له إنها سوف تقبل دعوة شاب آخر على العشاء في الأيام التي لا تكون مرتبطة فيها بالعشاء معه.

قال لها في غيظ:

- بعد كل ما فعلته من أجلك؟

قالت محنقة:

- لو كنت تتكلم عن تلك الهدايا فسوف أعيدها لك.. أنت لا تتصور كم أن مواعيدنا تضايقني وأنت لا تكف عن وصف حبك لي.. هذا يثير مللي..

أدرك أنها تستعمله كمجرد حل للعشاء ومشاهدة المسرح عندما لا تجد شخصًا آخر..

كان قد اعتاد على أن يبرر قسوتها بغبائها.. هي لا تملك العقل الكافي لتفهم كم أنها تؤذيه. كانت خالية من الحواس

والعاطفة والغيرة. جرب مرات أن يجلس إلى مناضد أخرى ويغازل الفتيات الأخريات لكنها لم تكن تهتم على الإطلاق..

كان مقيدًا بأصفاد قوية لها وأدرك أن استسلامها الكامل له عاطفيًا وعقليًا هو الخلاص الوحيد له.

كان يعرف أنها تتمنى أن ترى باريس التي كانت تسمع عنها كبلد المسرات والأفراح والأناقة. وكانت تتمنى أن ترى الحي اللاتيني ومونبارناس.. هكذا فكر في أن يدعوها للذهاب معه إلى باريس..

قالت:

- كيف؟.. هذا يكلف مالاً لا نهاية له..

وكان يعرف أن الرحلة ستكلفه مبلغًا طائلاً، لكنه كان مصممًا على أن ينفق آخر مليم معه عليها. لكنها رفضت لأنهما غير متزوجين.

قال لها:

- لكن الزواج ليس بوسعي.. أمامي على الأقل ستة أعوام قبل أن أكسب مليمًا..

- ومن قال إنني أقبل الزواج منك حتى لو طلبت ذلك على ركبتيك؟

عندما قلب الأمر في ذهنه وجد أن الزواج هو الحل الوحيد فعلًا للظفر بها. هكذا قدم لها عرضه في حرارة وقال لها إن معه 1400 جنيه يمكنهما أن يعيشا بها حتى يتخرج.. أي بمعدل ثلاثة جنيهات في الأسبوع.. سألته:

- وعندما تتخرج.. على كم ستحصل؟

- نحو ثلاثة جنيهات في الأسبوع أيضًا..

- هل تريد القول إنه بعد كل هذا الكفاح الشاق والمعاناة سوف تظفر بهذا المبلغ الضئيل؟.. إذن أنا فعلًا في حال أفضل من دون زواج!. أنا مستعدة للزواج فقط لو كان هذا يجعلني في حالة أفضل..»

نعم.. فقط الحب يمكن أن يرغم الفتاة على تحمل فقر كهذا، وهي لا تحبه بالطبع..

نظر لها طويلاً، ثم قال:

- ليتك تعرفين كم أحتقر نفسي لأنني أحبك بهذا الشكل!

- هذا ليس شيئًا لطيفًا تقوله لي.. أنا أرتاح لك كثيرًا عندما لا تتكلم عن عواطفك أو تظهر حبك لي..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

رسب فيليب في امتحان التشريح برغم أنه درس الهيكل العظمى جيدًا وحفظ موضع كل ثقب وكل أخدود فيه، ولكنه وقت الامتحان أصيب بذعر جعله عاجزًا عن الكلام. وجعله هذا الرسوب من العناصر السيئة في صفه.

لكنه كان في عالم آخر بسبب عاطفته نحو ملدريد، وقد شعر أنه ببعض الإصرار والهدوء قد يكسب قلبها أخيرًا.. طلبت منه أن يدعوها للعشاء فأفعمه هذا سرورًا..

جلس يراقبها وهو يشعر أنها بالفعل لطيفة معه جدًّا.. طلبت بعض الأطباق التي تحبها، ثم سألته:

- هل يمكن أن أقول لك شيئًا ولا تكون سخيفًا معى؟

- هلم.. قولى ما تريدين..

- أنا سوف أتزوج!

نظر لها ولم يدر ما يقول.. كان قد تخيل هذا المشهد من قبل، وحلم بالجنون والغضب.. حلم بالانتحار والبكاء.. لكنه هذه المرة ظل صامتًا ولم يقل أي شيء..

- أنا في الرابعة والعشرين وقد حان وقت الاستقرار..

- ومن هو؟

- ميلر...

- لكنك قلت إنك قطعت علاقتك به..

- جاء الأسبوع الماضي وطلب يدي.. إنه يكسب الكثير من المال.. سبعة جنيهات في الأسبوع..

- فهمت.. توقعت منك أن تقبلى أعلى عرض.. ومتى يكون الزفاف؟

- السبت القادم.. لقد أبلغت إدارة المقهى..

بهذه السرعة؟.. طلب الفاتورة ودفعها ثم خرج معها واستوقف سيارة أجرة. كان بحاجة إلى النوم.. وقد غرق فيه بمجرد أن لمس رأسه الوسادة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأيام التالية راح ينظر في دهشة إلى مدى ضعفه عندما تورط في هذه القصة، وكيف سمح لهذه الفتاة أن تهينه وتذله لهذه الدرجة. لكنه قدر أنه سيشفى من ذكرى هذا الحب الرهيب، ولسوف ينظر له كما ينظر الثعبان إلى الجلد القديم الذي سلخه في اشمئزاز..

لو كان هذا هو الحب فهو لا يريد أن يحب ثانية.. لقد شعر بأنه عاد إلى العالم الحقيقي وجماله.

بدأ يستعد لأن عنده امتحانًا في أغسطس بالإضافة إلى الامتحانين اللذين رسب فيهما. وبالفعل استطاع أن يركز وأن يجتاز ثلاثة الامتحانات مما أعاد له الكثير من الثقة بالنفس.

هنا ظهرت في حياته فتاة رقيقة اسمها (نورا) منحته حبها وجعلته ينسى تلك التجربة الأليمة. كانت قصصية تكتب باسم

مستعار نوعًا سخيفًا من القصص العاطفية التي تعجب بها الفتيات محدودات الثقافة. وكانت تعترف بهذا...

مرت الأيام بين دراسة في المستشفى واستذكار ومواعيد مع (نورا) في وقت الشاي كالعادة، إلى أن جاء عصر يوم عاد فيه من المستشفى وتأهب لموعده مع نورا هنا جاءت صاحبة النزل لتخبره أن سيدة تنتظره..

لا يعرف أية سيدة غير نورا ومن الغريب أن تأتى له هنا..

اندفع خلف السيدة نحو الغرفة التي تنتظر فيها زائرته، هنا شعر بقلبه يغوص في قدميه.. كانت هذه ملدريد..

كانت جالسة فلما رأته نهضت.. لكنها لم تندفع نحوه ولم تتكلم.

- ماذا تريدين بحق السماء؟

لم تجب.. فقط بدأت تبكي ولم تحاول أن ترفع يديها لتغطى عينيها بل تركتهما يتدليان إلى جانبها.. لم يدر ما يفعل وتمنى لو كان بوسعه الفرار من الغرفة..

قالت له:

- أتمنى لو أنني مت!

كانت قدماه تهتزان وهو يحاول بصعوبة أن يظل واقفًا وسألها:

- ما الخطب؟

- لقد تخلى عنى...

هنا ارتجف..

وأدرك أنه ما زال يحبها.. يحبها كما كان وأقوى.. وهي الآن أمامه ترتجف ولا تقاوم..

- اجلسى ودعيني أجلب لك ما تشربين..

كانت أكثر نحولاً وجلدها أكثر بياضًا، وقالت له:

- ليتني تزوجتك عندما طلبت منى..

وحاول ألا يقترب منها لكنها وضعت رأسها على صدره وانفجرت في البكاء.. قال لها:

- يمكنك أن تخبريني بأي شيء.. فأنا لن ألومك على شيء أبدًا..

لقد سافر (ميلر) إلى برمنجهام ووعد بالعودة قبل الثلاثاء، لكنه لم يعد ولم يرد على أي خطاب منها. ثم إن محاميًا جاءها يخبرها أن زوجها لن يعود وأنه لا حقوق لها عنده..

- تشاجرنا يوم الأحد وقال إنه قد سئمني.. أخبرته أننى حامل فقال إننى مجنونة وإن هذا خطئي.. لقد قال لي ألفاظًا سيئة فعرفت أنه ليس رجلاً مهذبًا.. ثم طردتني صاحبة السكن لأنني لم أدفع الإيجار وليس معي مليم..

كانت تخلط الأشياء المهمة بالتفاهات ولم يعد فيليب قادرًا على تبين الحقيقة، لكن نذالة الرجل بدت له لا تصدق..

- ولم يكن يكسب ما زعم أنه يكسبه.. كان كذوبًا..

قال فيليب:

- أنا لا أفهم هذه الأمور، لكن لا يمكن أن يمضى حرًا بفعلته.. سوف أكتب لك خطابًا لمحام صديق أبي، وسوف أدفع له أية نفقات يطلبها..

كما أعطاها خمسة جنيهات لأنها كانت مفلسة تمامًا..

قالت له:

- هل ما زلت مولعًا بي كما كنت؟

- ربما أكثر..

انصرفت فجلس شاعرًا بأن قلبه يخفق سعادة، وراح يردد لنفسه:

- يا للشيء المسكين..!! يا للشيء المسكين!

لقد مرت ثلاث ساعات.. هنا تذكر موعده مع نورا!. لكنه لن يجسر على الكلام معها لذا سوف يرسل لها برقية يعتذر عن تأخره عن موعد الشاى..

في اليوم التالي جاءته ملدريد في الرابعة، بحيث صار محتومًا أن تضيع موعده مع نورا اليوم. جلست فسألها عما تم مع المحامي.. قالت له:

- لا شيء يمكن عمله..

- لكن.. لكن هذا مستحيل..

هنا أخرجت من جيبها ورقة مجعدة وناولتها له، وقالت:

- لم أستطع أن أخبرك أمس.. أنا لم أذهب للمحامي قط.. لم أتزوج ميلر فلديه زوجة وثلاثة أطفال!

شعر بعاصفة من ألم وحزن وغيرة تعصف به. إذن لماذا ذهبت معه منذ البداية؟

- لا أعرف إن كنت أحبه أم لا.. كنت أحب سماع الأشياء التي يقولها فهي تضحكني.. وقال إنه سيعطيني كل أسبوع سبعة جنيهات.. كان يكذب ولم يكن يكسب كل هذا المال.. كما إننى سئمت الحياة عند خالتي لأنها تطالبني بترتيب فراشى عندما أصحو من النوم.. مللت العمل في المقهى.. لهذا عندما طلب منى الرحيل معه لم أفكر..

جلس مهمومًا شاعرًا بمهانة حقيقية.. فنهضت وانحنت عليه وقالت:

- أنا أحترمك يا فيليب وأعرف أنك جنتلمان بكل معنى الكلمة.. لن تخذلني.. لماذا لا نكون لبعضنا ما دامت الفرصة متاحة؟

لكنه ظل صامتـًا.. ثم قرر أن يدعوها للعشاء، وعرض أن يأخذها لمكان ترفيه حيث مسرح أو موسيقا لكنها رفضت.. ثم قبلت بطريقة تشعره بأنها تضحي من أجل سعادته فقط..

تناولا العشاء في حي سوهو وبدا أنها مستمتعة بوقتها لدرجة أنها نسيت أن عليها أن تكون حزينة، وفي النهاية سألها عما معها من مال فقالت إنها لا تملك شروى نقير.

كان الأمر محرجًا فهو غير قادر على أن يعولها، وهو بحاجة إلى كل مليم معه.. رأى أن يجعل محاميه يكتب مهددًا ميلر فلو حصلت منه على مائة جنيه، لأمكنها أن تنفق على نفسها إلى أن يأتى طفلها للعالم.. لكنها رفضت أن تطلب شيئًا من ميلر.

وجد لها غرفة في شارع مزدحم من لندن، وكان يعرف أنها تحب الصخب تحت نافذتها لأنه يشعرها بالحياة..

كان عليه الآن أن يختار بينها وبين (نورا) الفتاة الرقيقة المرحة التي تحبه حقًّا.. هنا وجد لدهشته أنه ليس المهم أن تحَب (بفتح الحاء) بل أن تحِب (بكسرها) فهو يفضل عشر دقائق مع ملدريد على حياة كاملة مع (نورا)..

لا يهمه أن تكون ملدريد قاسية انتهازية سوقية.. هو يحبها وهذا كاف..

ربما كانت التعاسة مع ملدريد أفضل من السعادة مع سواها..

هكذا انقطع مرارًا عن موعد نورا..

قضي وقته ينقل حاجيات ملدريد للغرفة الجديدة، وينسق حقائبها، ويعلق اللوحات التي تحملها معها لتعطى الغرفة طابعًا منزليًّا.. كان مسرورًا أنها تسكن في مكان يدفع نفقته وأنه السند الوحيد لها، لدرجة أنها جلست منهكة فركع على الأرض وساعدها على خلع حذائها..

اضطر أن يكذب على نورا كي يلغي موعده معها يوم الأحد كي يستطيع أن يتناول العشاء مع ملدريد قرب النار. وعندما زار ملدريد قالت له إنها لن تستطيع تناول العشاء معه لأنها مشغولة.. لقد وعدت صاحبة المقهى بأن تزورها في (تولس هيل) غدًا. قال لها:

- لكني رفضت دعوة فقط كي أكون معك يوم الأحد..

- أنت لن تحقد على من أجل هذه الرغبة البسيطة يا فيليب.. أعتقد أنني سأمضي معها ثلاثة أسابيع..

قال لنفسه إنها لو كانت تحبه لألغت ارتباطاتها.. نورا ما كانت لتتردد لحظة..

هنا وجد كتابًا مقلوبًا على المنضدة فتناوله ونظر فيه.. كان قصة من قصص (نورا) التي تكتبها باسم مستعار. قالت ملدريد:

- أحب هذه القصص المؤثرة.. إنها جميلة جدًّا..

هنا تذكر ما كانت نورا تقوله عن نفسها:

- لدى شعبية كبيرة لدى طبقة الخادمات.. فهن يعتقدن أننى عبقرية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

اعتاد أن يبتاع لملدريد بعض الفاكهة التي تحبها كلما زارها، وقد خطر له أنها ستحب بالتأكيد كونه يحقق كل رغبة لها. كان قد تخلص من نورا بأن أرسل لها خطابًا يخبرها أن ما بينهما يجب أن ينتهي.. لكن نورا أصرت على أن تعقد الأمور بأن تأتى له لتسأله عما هنالك.. كان موقفًا عسيرًا لكنه شعر براحة عندما تخلص منها في النهاية..

كانت ملدريد جالسة تطالع واحدة من قصص نورا، فوقف ينظر لها بعض الوقت حتى لاحظت نظرته، فقالت:

- لا جدوى من النظر يا أحمق.. هلم..

- أنت طاغية..

قالها وشعر بسرور عظيم. كانت قد قررت أن تضع طفلها في ملجأ تؤجره صاحبته لحالات مماثلة، وقالت إن الطبيب قال إن حملها بخير لكن الولادة ستكلفها خمسة عشر جنيهًا.. كان بوسعها أن تجد طبيبًا أفضل لكنها لم ترد أن يغرق المركب بسبب توفير ثمن القار..

قال لها:

- لا يهم.. ما دمت مستريحة له فسوف أدفع..

كانت تنظر لكل ما يقدمه لها على أنه شيء طبيعي جدًّا.. وكم من مرة أعطاها خمسة جنيهات لأنها لم تكن تجيد الاقتصاد.. وكانت تنوي أن تترك الطفل لتربيه إحدى نساء الريف مقابل

سبعة شلنات في الأسبوع لأنها بحاجة للعودة للعمل ولا تريد أن تتقيد بطفل..

- لا تقلق.. لن أطالبك بدفع ثمن تربيته كذلك.. أنت كريم جدًّا معي.. تذكر أنني عرضت أن أقدم لك ما تريد مقابل ما منحته لي..

تناول يدها، وقال:

- أنت لست مدينة لي بشيء.. ولا أتوقع أن آخذ منك شيئًا ما لم تحبيني..

كان سعيدًا لمجرد أنه بجوارها، وكانت رغبة مجنونة تدفعه إلى أن يضحى بنفسه من أجلها..

أخيرًا جاء موعد الولادة فذهبت إلى الملجأ واختلقت قصة عن أنها زوجة جندي بريطاني في الهند. وزعمت أن فيليب هو أخو زوجها..

أخيرًا أنجبت طفلة.. عندما دخل ليراها وجدها منهكة متعبة لكنها سعيدة لأن كل شيء انتهى.. وقف ينظر لهما عاجزًا عن الكلام، ولاحظ في حرج أن الممرضة تراقبه بعناية، فهي لم تصدق حرفًا من قصة ملدريد وتعتقد أنه هو الأب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد تماثلها للشفاء أرسلها إلى (برايتون) حيث تتوقع أن تجد من يربي لها ابنتها، ولقد أثار قلقه ودهشته هذه السهولة التي تتخلص بها من ابنتها.. صحيح أنها قالت إن التخلص من الطفلة ضروري قبل أن تتعودها، لكنه كان يأمل أن عاطفة الأمومة

ستكون لديها أقوى من هذا.. في الواقع كانت لا مبالية بالطفلة على الإطلاق.. وكان مخه مليئًا بقصص مرعبة عما يحدث للأطفال الذين يعهدون بهم لأهل غير أهلهم، لكن ملدريد قالت له:

- لا تكن سخيفًا.. هذا يحدث لو أعطيتهم المال مرة واحدة، لكني سأدفع على أساس أسبوعي..

كان قلبه يتمزق من أجل الطفلة.. قبيحة مجعدة عارية وحيدة هشة.. لا يحبها أحد حتى أمها.. وتعتمد عليه بالكامل هو فيليب في طعامها وكسائها..

راح يدرس بجد، وفي الوقت نفسه يختلس الوقت كل يوم كي يكتب لها خطابًا طويلًا يصب فيه روحه.. وحينما أنجز الامتحان شعر برضا عن إنجازه وأدرك أنه نجح حتمًا..

عادت معه إلى لندن حيث قام معها بجولة في المسرح والمطاعم.. وكانت هذه أول مرة تتنزه فيها منذ أشهر لذا استمتعت بكل شيء..

كانا جالسين في أحد المطاعم عندما ظهر صديقه (جرفيث). كان شابًّا وسيمًا فارع الطول له مظهر مقتحم جذاب.. رآهما فحياهما بابتسامة..

لاحظ فيليب أن ملدريد تنظر باهتمام لصاحبه، وكان يحبه كثيرًا لذا شعر برضا عن إعجابها به.

كان (هاري جريفث) قد أنهى امتحاناته وصار نائب جراحة في مستشفى في شرق لندن، وكان ينوى العودة لبلدته في إجازة قصيرة..

كان بطبعه مرحًا وقد أضفى على جلستهما الكثير من البهجة، حتى نسيت (ملدريد) آلامها وتحفظها وراحت تضحك، وقد سر فيليب لهذا..

بدأ جرفيث يحكي عن فيليب وكانت ملدريد تعرف جرفيث جيدًا من فيليب، هكذا صاروا متعارفين بسرعة.. وعندما عادا إلى مسكنها قالت له وهي تودعه:

- شكرًا على هذه الأمسية الجميلة يا فيليب.. قل لصديقك هاري إنني صرت مجنونة بحبه..

كان متأثرًا لدرجة أنه شعر بعينيه تغرورقان بالدموع.

في اليوم التالي كانا يتناولان الشاي عندما ظهر (جريفيث) وألقى بنفسه على مقعد ثالث. راح يتكلم مع ملدريد في مرح أما فيليب فجلس يراقبهما.. كان واثقـًا من نفسه كأنه زوج محب يعرف أنه مهما مازحت زوجته الأغراب فهي له في النهاية..

في النهاية نظر فيليب إلى ساعته وأعلن أن وقت العشاء قد حان، وتهيأ جريفث للرحيل، لكن ملدريد أصرت على أن يتناول العشاء معهما..

هنا نهض جريفث ليغسل يديه. التفت فيليب إلى ملدريد في غضب، وقال:

- لماذا دعوته إلى العشاء معنا؟

تقلصت شفتاها قليلًا، وقالت:

- لا شيء.. خجلت من أن نذهب للعشاء وحدنا.. ثم إنى أحتاج لبعض التسلية أحيانًا..

عاد جريفث فخرج الثلاثة للعشاء.

طيلة الوقت ظل فيليب صامتًا مغتاظًا، بينما راحت ملدريد تُظهر لجريفث كم هي لطيفة مرحة. وفي العربة أثناء العودة جلست هي بين الشابين ووضعت يدها على يد فيليب فسره هذا.. هنا لاحظ أنها تضع يدها الأخرى على يد جريفث..!

ذهبوا لحفل موسيقى.. وتعمد فيليب مدفوعًا برغبة خاصة في تعذيب الذات أن ينهض بعض الوقت ليراقبهما من الشرفة، فوجد أنهما يتكلمان ويضحكان ولا يلاحظان البتة أنه نهض. فلما عاد خيل له أنه رأى نظرة مقت في عين ملدريد.

إنهما يميلان لبعضهما وهو لا يمثل لهما شيئًا سوى الغبي الذي دفع ثمن العشاء والسيارة والحفل الموسيقى.. يا لها من مهانة!. كان الألم ينمو في داخله وبدأ يتلذذ به ويستعذبه..

وعندما عاد مع صديقه وحدهما، مد صاحبه يده ليتأبط ذراعه لكنه سحب ذراعه منه، وبلا تمهيد سأله:

- هل وقعت في حب ملدريد؟

بهت صاحبه للحظة، ثم هتف:

- هل لهذا كنت تتصرف بطريقة غريبة طيلة السهرة؟

هنا فقد فيليب كل سيطرة له على كبريائه، وقال وهو يقاوم البكاء:

- أنت لديك حبيبات كثيرات بينما أنا ليس عندي سواها.. أنت تعرف كم أنا متعلق بها؛ لذا أرجوك أن تتركها لي!

هتف جريفث في صدق:

- أيها الشاب العجوز!. لم أعرف أنك تفسر الأمور بهذه الطريقة.. دعني أؤكد لك أنها لا تعني لي أي شيء.. لك كلمة شرف مني أنها لا تهمني البتة..

أطلق فيليب تنهيدة ارتياح وأمسك بذراع صاحبه ومشيا معًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

عندما جلسا على مائدة العشاء في ذلك المطعم، لم يكن (جريفث) هنا.. قال لها فيليب في مرح إنه متأكد من أنها تفتقد (جريفث).. فقالت بلهجة محايدة:

- قلت لك إننى مجنونة بحبه..

- هذا شيء.. لكن الأهم هل يحبك هو؟

- وماذا تعنى؟

- هو لا يبالي بك.. أنا سألته..

بلا كلمة مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت خطابًا.. كان بخط (جريفث) موجهًا لها، وكان الخطاب يبدأ بعبارة (حبيبتى ملدريد).. ثم راح الخطاب يصف حب (جريفث) المحموم لها وكيف أنها غيرت كل شيء في حياته فلم يعد يفكر إلا فيها، وكيف أن ضميره معذب لأنه يحب فيليب ولا يريد أن يؤذيه بهذا العمل الأخرق لكنه لا يستطيع السيطرة على عواطفه..

نظر فيليب إلى تاريخ الخطاب فوجد أنه كتب ليلة أمس.. أي أن جريفث كتبه بعد ما تركه أمس.. كتبه وأرسله بعد ما وعده بأن الفتاة لا تهمه في شيء..

نظر لها وقلبه يغوص وإن حرص على عدم إظهار شيء على ملامحه، وسألها:

- وما رأيك؟

قالت:

- ماذا بوسعي أن أفعل؟.. ليست عواطف المرء بيده.. الحقيقة إننى متعلقة به جدًّا..

ظل صامتًا، فقالت:

- لابد من أعترف أنك تتعامل مع الأمر بهدوء..

- ماذا تتوقعين؟.. أن أمزق شعري وأصرخ؟

- أعترف بأنك أذكى منى.. أنا لست بارعة لكن هذا ليس بيدي.. لكن لا أدرى لم يجب أن تعاملني كأنني.. لا أعرف بالضبط..»

- لم أوجه لك أي لوم، لكن اللوم كل اللوم لهذا الذي أقسم لي أنه لا يبالي بك ثم عاد لداره كي يكتب لك هذا الخطاب..

- أنت لن تجعلني أحبه أقل بقول هذا الكلام السخيف عنه..

- هو لا يبالي بأية قصة أكثر من عشرة أيام.. وأنت باردة العواطف لا يمكن أن تضحي بكل شيء من أجل نزوة كهذه..

- هذا ما تظنه أنت. يجب أن تعرف أنني لم أشعر بأي ميل نحوك منذ البداية، ولن أتركك تلمسني حتى لو كنت أموت جوعًا..

وكان صوتها ونبرتها قد بدأا يتخذان النبرة السوقية المتنمرة التي كانت تخفيها بعناية..

كان يرتجف وحاول أن يبتلع الطعام فلم يقدر..

كانت ساعة قد مضت عليهما، وبدأت الساقية تنظر له في ارتياب؛ لذا طلب دفع الحساب.. هنا بحثت ملدريد في حقيبتها

عن ورقة وضعتها أمامه.. وجد أنها فاتورة ثوبها الجديد الذي ترتديه الآن.. قالت له إن عليه أن يدفعه. نظر لها في دهشة، فقالت:

- هل تعنى أنك لن تدفع ثمنه بعد ما قلت لي إن وسعى أن احصل عليه؟

- اطلبي من (هارى) دفعه.. سوف يسر بذلك خاصة وهو اقترض منى سبعة جنيهات هذا الأسبوع..

- أنت لن تفزعني بهذا..

كانت تفكر في الإيجار ومصاريف رعاية ابنتها، لكنها لم تظهر هذا.. خرج معها ومشى مبتعدًا.. هنا نظر للخلف فوجد أنها واقفة عاجزة عن عمل شيء. عاد لها ودس قطعة عملة في يدها من أجل سيارة الأجرة ثم ابتعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظل طيلة اليوم التالي في الفراش منهكًا غير راغب في عمل شيء، ولم ير (جريفث) قط.. عند الظهيرة سمع طرقة على الباب فاتجه ليفتحه.. هنا وجد ملدريد واقفة..!

دهش عندما وجدها تقول:

- شكرًا لدفعك ثمن سيارة الأجرة.. أنا لم أعد مرتبطة بـ (هارى).. أنت عرضت علىّ أن أصحبك يومًا إلى باريس، فلو لم تزل راغبًا في أن أصحبك أنا موافقة..

شعر برجفة تسري في عموده الفقري، ثم سألها في شك:

- عدت من أجل المال؟

أجابت ببساطة:

- نوعًا.. هاري لا يقدر على أي شيء.... لقد رهن كل شيء في متناول يده. كما أنني لا أستطيع العودة للعمل في المقهى لأن امرأة أخرى أخذت مكاني..

كانت تتحدث بطريقة عادية كأنها تشكو ظلم الأقدار لها لا أكثر..

- ثم إن هارى قال لي ما قلته عنه.. قال إنه لا يتحمل مسئوليات وإنك أفضل منه، وإنني أكون مجنونة لو تخليت عنك..

ثم إنها جلست وانفجرت في بكاء حار عنيف..

لم يكن قد رأى من قبل امرأة تبكي بهذه الحرارة ولم يعد يدري ما يفعل أو يقول..

خطرت له فكرة غريبة فدنا منها، وقال:

- اسمعى.. عودي لهارى وسوف أمنحك المال الذي تريدين!

رفعت عينيها نحوه غير مصدقة، لكنه قال:

- نعم...

عادت الحياة إلى ملامحها وبدت في غاية السعادة، وهتفت:

- هذا مستحيل.. أنت أفضل شخص قابلته في حياتي.. إن هذا لا يصدق.. هاري سوف يعرف أنك لست غاضبًا عليه

وسوف يعود لي؛ لأنه قال إنه لا يقدر على البقاء معي ما دمت أنت غاضبًا..»

كان يتمنى أن ترفض العرض، لكن بدا واضحًا أنها كانت تتمناه..

الحقيقة أنه كان يحمل دائمًا في أعماقه رغبة شيطانية في تعذيب الذات، وكان الموقف أليمًا أيما ألم، لكنه وجد فيه لذة وحشية..

كانت ترغب في بعض المال كي يمكنها من الذهاب مع هاري بضعة أيام إلى أكسفورد، قبل أن يعود إلى بلدته. وقد منحها فيليب هذا المال.. عرف أنها ستعود يوم الاثنين القادم ووعدته بأن تلقاه لدى عودتها.

قال لنفسه إنها مناسبة جدًّا لهاري.. غبية بليدة مثله وذوقها سوقي.. كلاهما يناسب الآخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

لم يكن ممن يشربون كثيرًا، لكنه أفرط في احتساء الويسكي حتى دخل في شبه غيبوبة لم يفق منها إلا يوم الثلاثاء، وهكذا استحم وحلق ذقنه ثم هرع إلى بيت ملدريد..

هنا وجد أنه لا أحد بالمنزل.. وعرف من صاحبة النزل أن ملدريد عادت فجمعت حاجياتها وتركت المكان ولم تترك أي عنوان خلفها!

لقد خدعته كالعادة!. عرفت أنها لن تعود له لكنها وعدته بأن يلقاها يوم الاثنين.. إنها قاسية لم تبال به قط.. إنها كذوب.. ولم يجد معها أي شيء فعله من أجلها..

خطر له أن الألم الذي يشعر به لا يوصف. ربما كانت الطريقة الوحيدة للقضاء عليه هي أن ينسف رأسه برصاصة أو يضع رأسه على قضيب القطار، لكنه كان يعرف أنه لن يفعل.. لديه حياة واحدة فلن يبددها على فتاة رخيصة بلهاء. مهما كان الألم عنيفًا فهو يعرف أنه سيزول مع الوقت.. هذا شيء لا مفر منه..

ما أثار جنونه هو أنه كان يعتبرها باردة العواطف بلا إحساس.. هو ذا يراها مرتين تندفع وراء عواطفها إلى حد التضحية بكل شيء.. ما الذي رأته في ميلر وجريفث لهذا الحد؟

لم يبق معه إلا سبعمائة جنيه عليه أن ينفقها بحكمة. من الغريب أن يتذكر كم من المال أنفق على ملدريد، لكنه يعرف أن الزمن لو عاد لأنفق ذات المبالغ وفعل ذات الأشياء..

كم سيندهش رفاقه الذين يرون حركاته البطيئة وجمود سحنته فيحسبون هذه من علامات التصميم والبرود، لو عرفوا أنه هش مندفع ذو عواطف مجنونة!

بدأ بترك مسكنه الذي كان مكلفًا ويحمل له ذكريات أليمة، ووجد لنفسه مسكنًا ذا أربع غرف وبرغم هذا هو رخيص الثمن، نقل له حاجياته وثيابه ولوحاته..

انهمك في الدراسة.. تعلم تضميد الجروح وراح يمارسه في العيادة الخارجية.. تعلم استخدام المسماع.. تعلم كتابة الأدوية.

تحاشى لقاء جريفث.. وعرف من رفاق مشتركين أن جريفث يقتله الندم. لكن هذا بدا له سخيفًا مبتذلاً.. ما أسهل أن ترتكب أفظع الجرائم ثم تندم بشدة بعدها.. كأنك بهذا الندم تبيح لنفسك عمل أي شيء فيما بعد.. إنه قد يفهم الأخطاء لكنه لا يفهم كل هذا الندم بعدها..

عرف من رفاقه تفاصيل علاقة ملدريد مع جريفث.. لقد شعر بأنه لا يطيقها عندما كانا في أكسفورد، وقد أصر على العودة مبكرًا لكنها طلبت البقاء بضعة أيام أخرى وحدها.. وراحت تمطره بخطاباتها.. وجد هو أن الخطابات عبارة عن عاطفة خرقاء سوقية، ولم يعد قادرًا على الرد..

كانت تثير ملله لكنه كان لطيف المعشر من الطراز الذي لا يحب المشاجرات.. هكذا راح يتحاشاها وطلب من صاحبة النزل أن تخبرها أنه غير موجود في أي وقت تمر عليه فيها. لكن ملدريد كانت لحوحًا إلى درجة أنها جلست على عتبة الدار وراحت تبكي في حرقة، إلى أن هددتها صاحبة النزل بأن تستدعى الشرطة..

قال له أصحابه:

- أنت سعيد الحظ للخلاص منها.. يقول (جريفث) أنه لو تخيل لثانية أنها ستكون مزعجة لهذا الحد، لما فكر في بدء هذه القصة..

ثم عرف أن (هاري جريفث) اضطر في النهاية إلى أن يخبرها بأن ما بينهما انتهى.. كان غليظًا لكنه مضطر لذلك..

هكذا لم يسمع عنها فيليب ثانية، لأنها ذابت في زحام لندن المرعب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راح يساعد د. تيريل يومين في الأسبوع في عيادته. هناك كان عليه أن يسجل الحالات بينما يكشف الطبيب المقيم على المرضى الفقراء، ويصرف لهم علاج أسبوعين، على أن يستبقى الحالات الأصعب بانتظار قدوم د. (تيريل) لأخذ رأيه. وكان هذا الأخير رجلًا مرحًا يكسب جيدًا، وذا عين حساسة للفقر؛ لذا كان يتخلص من المريض الذي تبدو عليه أية علامة ثراء، قائلًا إنه ما دام قادرًا على ارتداء هذه الثياب فهو قادر على الذهاب لعيادة طبيب، أما المستتشفى فمشروع خيري للفقراء حقًّا..

وكان فيليب يراقب المرضى: الفقراء والمصدورين والعمال.. النسوة العجائز والرجال الذين دمر الكحول أكبادهم. كان يراقب هذا كله باهتمام ويحفظ كلماتهم.. وقد خطر له إنه ربما وجد أخيرًا الشيء الذي كان يصبو له.. المهنة التي خلق لها فعلًا..

لم يكن هناك وقت للعواطف.. الشابة الجميلة التي تأتي مع أختها، وبفحصها يتضح أنها مصابة بالدرن.. تنفجر الأخت باكية لأن هذه الشابة آخر من بقي من أسرتها.. تخرج معها، ويسأل فيليب الطبيب عن الوقت الباقي للشابة في الحياة، فيقول له:

- لو كانت من أسرة ثرية تقدر على السفر لسان موريتز فلربما طالت حياتها قليلاً، لكن بالصورة الحالية أمنحها ثلاثة أشهر..»

والرجل القوي الذي فحصه الطبيب فوجد أنه سيموت لو لم يتخذ لنفسه عملاً أخف.. لكن الرجل يقول إنه لو لم يعمل فلن يستطيع إطعام زوجته وأطفاله. فليقل الطبيب ما يشاء... يشعر بأنه بخير.. هكذا يكتب له مزيجًا لا نفع منه ويطلب منه أن يأتي بعد أسبوع..

ويخرج الرجل، فيقول الطبيب:

- أنا أمنحه عامًا..

هذه الغرف كانت تحوي الدعابة والقسوة.. السهولة والتعقيد.. السعادة والقنوط.. حب الأمهات لأطفالهن وحب الرجال لفتياتهم.. زوجات معدومات الحيلة.. أطفال يحتضرون.. هنا يمشى الموت وهنا تمشي بداية الحياة.. هنا يكمن العار والشهوة.. لم يكن هنا ما هو طيب وما هو قبيح..

فقط كانت هناك الحقائق.. كانت هناك الحياة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

ذات صباح طلب منه الطبيب المقيم أن يكتب بيانات مريض. قالت البيانات إن مهنة الرجل صحفى واسمه (ثورب أثنلى). كان في الثامنة والأربعين مصابًا بالصفراء.. صغير الحجم له عينان زرقاوان وأنف نبيل قوى الشخصية. قال لفيليب عندما سأله عن الجريدة التي يكتب لها:

- أنا أكتب في كل الصحف.. ليس بوسعك أن تفتح جريدة فلا ترى كتاباتى..

وفتح جريدة جواره على الفراش، فرأى فيليب إعلانًا عن شركة ملبوسات... كان الرجل هو ممثل الصحافة لدى هذه الشركة ومصمم حملاتها الدعائية.

رأى فيليب جوار الفراش كتابًا يحوى مجموعة من الأشعار الأسبانية لـ (سان خوان ديلا كروز)، وعرف أن الرجل يقرض الشعر هو نفسه.. كان الرجل يحاول إقناعه بتعلم الأسبانية لأنها لغة رائعة تتدفق كالنار في دمك..

توطدت علاقته بالرجل، وفهم أنه ليس فقيرًا بحيث يحتاج للعلاج هنا، لكن لديه تسعة أبناء أرسلهم لمدارس داخلية، وهذا يكلفه الكثير من المال؛ لذا هو بحاجة إلى أن يستفيد من أية خدمة يقدمها له المجتمع.

عرض (ثورب) على فيليب أن يزوره يومًا ما فوافق هذا الأخير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادر ثورب المستشفى بعد عشرة أيام، وقدم بطاقته لفيليب مع وعد منه بأن يتناول معه العشاء الأحد القادم في بيته.

هكذا ذهب فيليب إلى الموعد ليجد بيتًا جميلًا ينم عن ذوق حسن. لكن كل شيء فيه يوحى بتقليد الطابع الأسباني. دخلت طفلة جميلة لتقول:

- بابا.. أمي تقول لك أن تأتى للعشاء..

قال يقدمها لفيليب:

- هذه ابنتى الثالثة.. اسمها (ماريا دل بيلار) لكننا ندعوها (جين) للتسهيل.. (جين). أنفك بحاجة إلى التنظيف..

اقتاده الرجل إلى غرفة جدرانها مبطنة بخشب البلوط حيث كانت مائدة ضيقة في وسط المكان، وعلى الجدران رسوم أسبانية. كل شيء كان ضخمًا أنيقًا وغير مريح على الإطلاق.. ولم يكن في الغرفة أي شيء ذو قيمة لكنها كانت جميلة فعلًا.

هنا دخلت القاعة فتاة فارعة القوام بنية الشعر تخبر أباها أن أمها آتية بعد العشاء فقدمها (ثورب) لضيفه:

- ابنتي الكبرى سالي.. لكن اسمها الأصلي هو (ماريا دل سول).. إنها في الخامسة عشرة..

والغريب أن الرجل اقتاد فيليب إلى المطبخ ليقدمه لامرأته التي كانت واقفة أمام الموقد تشوى بعض البطاطس. كانت امرأة ضخمة شقراء لها ملامح وسيمة طيبة أرهقتها العناية بكل هذا العدد من الأطفال. وكان الأطفال أصحاء متوردي الوجوه وكلهم يحمل أسماء أسبانية.

عاد الرجلان للغرفة فاعتذر فيليب لمضيفه عن القلق الذي سببه، لو كان يفضل أن يأكل مع أسرته في المطبخ، فقال ثورب:

- لا.. أفضل أن آكل وحدي هنا لأنني لا أحب أن تجلس النسوة مع الرجال على مائدة واحدة. إن عقلهن تدخله الأفكار والأفكار تؤذى مخهن الصغير..

ثم راح يأكل الطعام مرددًا:

- هل ذقت طعامًا شهيًّا كهذا من قبل؟.. هذه مزية ألا تتزوج امرأة من أصل راق! زوجتي كان أبوها فلاحًا لهذا هي (ست بيت) بالمعنى الكامل للكلمة، وهي تحب الأطفال ويبدو أنها لن تتوقف عن الإنجاب حتى يكون عندنا عشرون منهم..

هنا دخلت سالي تقدم الشراب، فطوق ثورب خصرها بيده وقال:

- هل رأيت أجمل من هذه الحسناء؟. خمسة عشر عامًا وبرغم هذا تبدو في العشرين، ولم تمرض قط طيلة حياتها.. أنا فخور بها وأحسد المحظوظ الذي سيتزوجها..

ابتسمت الفتاة في خجل وتملصت من أبيها وطلبت منه أن يأكل قبل أن يبرد الطعام.

قال الأب:

- أنا كنت متزوجًا من سيدة راقية قبل هذا.. اللعنة!. الرجل يريد امرأة تطبخ له بودنج الأرز يوم الأحد. ولا يريد امرأة تناقشه في حساب التفاضل والتكامل.. سالي تعلمت الكثير وسوف تنسى

الكثير لكنها لن تنسى أنه لابد من طبخ بودنج الأرز يوم الأحد.. هذا شيء مقدس بالنسبة لنا..

انتهى العشاء فدخلت السيدة وهي تلبس قفازيها وقد ارتدت ثوبًا أسود أنيقًا وأعلنت أنها ذاهبة إلى الكنيسة للصلاة.. وقالت في مرح:

- ثورب لا يذهب للكنيسة أبدًا.. إنه أقرب إلى زنديق..

ثم حيت فيليب وطلبت منه أن ينتظرها على الشاي..

قال ثورب بعد انصرافها:

- النساء ذهبن للكنيسة.. أنا أؤمن أنه على النساء أن يكن متدينات.. إن الدين خير مهذب للأخلاق، وأنا مؤمن أن الدين يعلمك الأخلاق خيرًا من أي فلسفة... فلو فقدت إيمانك بالدين فإنه يترك لك الأخلاق على الأقل..

ثم فتح درجًا أخرج منه بعض الصور التي رسمها (الجريكو) الفنان الأسباني الشهير، وراح يعرضها على فيليب الذي رأى رسم هذا الفنان للمرة الأولى.. السماء المكفهرة والأجساد الطويلة والعيون المعذبة..

شعر بأنه يعبر إلى عالم جديد غريب لم يعرفه من قبل..

عندما عاد الأطفال من الكنيسة ملئوا المكان بالصخب واقتحموا خلوة الرجلين.. وكانت الأم قد طلبت من الأب أن يسليهم إلى أن تنتهي من عمل الشاى. هكذا جلس الأب يحدثهم بقصة من قصص (هانز كريستيان أندرسن) بينما فيليب يراقبه. فهو لم يجرب قط دفء الأسرة..

جاءت سالى تعد المائدة وتوزع أقداح الشاى، بينما الأب يطريها بلا توقف وهي تبتسم ولا ترد..

- تصور أن أحد الخياطين تطوع في الجيش لأنها ترفض أن ترد عليه تحياته؟.. تصور أن كهربائيًّا مرض لأنها رفضت أن تقرأ معه في نفس كتاب الصلوات في الكنيسة؟.. إنها قاسية. لكني أحسد زوجها..

ثم جاءت الزوجة، ولاحظ فيليب أن لهجتها مألوفة في الكلام.. عرف أنها من مقاطعة (كنت) وهذا يعني أنها قريبة من الوسط الذي كان يعيش فيه مع عمه في (بلاكستابل). اتضح أن المرأة تعرف عمه فعلًا.

وفي العاشرة جاء الأطفال ليقولوا له (تصبح على خير) ويلثموه على خده ما عدا سالي طبعًا.. مدت له يدها فصافحها..

لما انصرف تلقى دعوة للعشاء الأحد القادم.. قالت الزوجة إنه يحسن لزوجها كلما جاء ليتكلم معه..

أخبرها فيليب أنه سيأتي فقط لتناول الشاي، وفي اليوم المختار ابتاع كعكة كبيرة كي لا يكلفهم شيئًا.. هذه الكعكة جعلته يكسب قلب الأطفال..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

في ساعة مبكرة من النهار كان يركب الحافلة.. وترجل منها ونظر إلى الجانب الآخر من الطريق..

هنا رأى ملدريد.. أصابه الذهول ولم يكن يرغب في أن يكلمها لكنه لم يستطع أن يبعد عينه عنها.. وقف يراقبها وهي تعبر الشارع وكانت منهمكة تمامًا فلم تلحظ أنه واقف هناك..

كانت تجوب الإفريز جيئة وذهابًا.. ماذا تفعله هنا؟.. لماذا هي هنا في هذه الساعة المبكرة؟

كان هناك رجل يقف على الناصية.. فمرت به ونظرت له وابتسمت ثم واصلت الطريق والتفتت نحوه. لكن الرجل واصل القراءة في جريدته.. هكذا واصلت طريقها!

أصيب فيليب بالذعر فلم يدر بنفسه إلا وهو يعبر الطريق مسرعًا ليلمس كتفها..

- ملدريد!

استدارت مذعورة في شيء من التوحش.. ووقفا يتبادلان النظرات..

لم يجد ما يقول.. وتزاحمت العبارات في رأسه.. وفي النهاية قال:

- هذا فظيع!

لم ترد فقال لها:

- يجب أن نجلس في مكان نتكلم فيه..

- لا أريد الكلام.. اتركني وشأني..

ثم أضافت:

- كنت في طريقي إلى البيت ويجب أن أقابل إحدى الفتيات هنا..

- بحق السماء كفي عن الكذب!.

هنا أدرك أنها تبكي.. فعاد يكرر السؤال.. قالت:

- هناك غرفة قريبة من هنا، يتقاضون ستة شلنات في الساعة..

- إذن فلنذهب هناك..

واستوقف سيارة أجرة وذكرت هي العنوان للسائق..

كان العنوان خلف المتحف البريطاني.. فتحت لهما الباب سيدة عجوز تبادلت كلمات بصوت خفيض مع ملدريد، ونظرت بحدة لفيليب ثم اقتادته ملدريد إلى غرفة مظلمة داخلية، وأشعلت مصباحًا يعمل بالكيروسين..

كانت غرفة نوم قذرة لها ستائر متسخة، وقد جلست على أريكة بينما جلس هو على طرف الفراش.. الآن يرى وجهها فيدرك أنها ازدادت شحوبًا برغم طبقة الأصباغ الكثيفة التي تضعها.. لم يستطع فيليب الكلام بسبب غصة توشك على أن تخنقه.. وشعر بأن أي شيء يقوله قد تفهمه على محمل الشماتة أو التأنيب.

قالت له:

- أنت تعرف أني لا أفعل ذلك لأنني أحبه.. أليس كذلك؟

- أين الطفلة؟

- معي هنا في لندن.. ليس بوسعي تركها والإنفاق على تربيتها.. لم أجد أي عمل في أي مكان حتى في المقهى.. لم أرد أن أكتب لك لأنني توقعت أن ترد بأنني نلت ما أستحق..

- أنت لا تعرفينني على الإطلاق..

وتذكر ما سببته له من ألم.. لكنه كذلك إذ نظر لها أدرك أنه لم يعد يحبها على الإطلاق..

- هل معك مال يا فيليب؟

مد يده في جيبه وأخرج جنيهين هما كل ما كان معه.. قالت له وهي تأخذ المال:

- أنت جنتلمان حقيقي.. الوحيد ممن قابلتهم.. على فكرة أنا مسرورة لأنني تمكنت من الجلوس بعض الوقت..

هذه الكلمات مزقت قلبه. وأدرك أنها تبكي:

- ليتني أخرج من هذه الحياة.. أنا لم أخلق لها.. ليتني أعمل خادمة في أي مكان.. ليتني أموت..

هنا خطرت له فكرة.. لم لا تأتي وطفلتها لتقيم في شقته في (كنجزتون) وبهذا توفر نفقات المسكن، وتساعد في تنظيف البيت.. ولن يكلفه طعامها الكثير هي وطفلتها؟

قالت له بعدما عرض عليها فكرته:

- هل تعنى أنك ستقبلني بعد ما عملته معك؟

قال في حذر:

- لأكن واضحًا.. أنا أقدم لك المسكن فقط.. لا أريد أي شيء منك.. ربما بوسعك أن تطهى لنا الطعام..

نهضت نحوه فمد يده يحذرها من الدنو.. لا يعرف السبب لكنه لم يطق فكرة أن تلمسه. سألته:

- متى يكون بوسعي أن آتي؟

- غدًا..

وكتب لها العنوان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاءت في الوقت المحدد.. كائنًا يثير الشفقة بنحولها وشكلها السقيم والطفلة بين ذراعيها. كانت معها ثلاث حقائب تحوى متاعها القليل لأنها اضطرت لبيع كل شيء..

راحت تفرغ حاجياتها بعد أن عرفت الغرفة التي ستقيم فيها. أما هو فجلس يدخن ويقرأ شاعرًا بسعادة عارم... لقد تحرر منها أخيرًا ولم يعد يستشعر نحوها أي حب.. لو لمسته لاقشعر بدنه..

عادت له وسألته عن العشاء فقال لها إن عليها أن تنزل لابتياع ما تعتقد أنها قادرة على طهيه، ناولها بعض المال.. ولاحظ أنها متقطعة الأنفاس فقال إن الأنيميا قد اشتدت عليها.. سيكون عليها أن تتعاطى أقراص الحديد.

ذهبت إلى المتجر فابتاعت بعض الكبد، والفكرة هنا أنك لن تأكل منها الكثير لذا هي وجبة اقتصادية.

أعدت له الطعام ثم دخلت الحجرة فناداها متسائلًا عن سبب عدم تناولها الطعام معه؟.. قالت:

- أنا الخادمة.. أليس كذلك؟.. ربما لا تحب أن تأكل معى..

- لا تكوني حمقاء.. هلم.. تذكرى أنك تمنحينني الخدمة وأنا أمنحك المسكن والطعام.. هذه صفقة عادلة ولست مدينة لي بشيء فلا داعي لهذا الانكسار..

كان يعرف أن خدمته أمر مهين لها.. وتذكر كيف كانت في الماضي..

طلب منها أن تنام مبكرًا لأنها مرهقة. فقط ذكرها بأن توقظه في الثامنة وتقدم له الإفطار لأن لديه محاضرة مهمة في التاسعة..

دخلت الحجرة وأغلقت الباب، وسمع صوت صرير الفراش لبعض الوقت..

عندما عاد منهكًا في المساء وجدها جوار النافذة عاكفة على خياطة جواربه... الطفلة كانت على الأرض فانحنى جوارها وراح يدغدغ أصابعها وهي تضحك..

هكذا مرت الأيام بلا أحداث..

جعل ملدريد تدرك أن علاقته بها رسمية تمامًا.. تعد له الإفطار ويذهب للمستشفى بينما تنظف هي البيت وتبتاع ما يلزمه، وعند المساء يتناولان العشاء ثم تدخل حجرتها وتنام.

كونت صداقات مع جيرانه الصموتين، بعد أسبوع صارت تعرف عنهم أكثر مما يعرفه بكثير.

ثم جاءت ليلة صيف هادئة طلبت منه فيها أن يخرجا معًا بعض الوقت.. إن الطفلة نائمة ومن المعتاد ألا تصحو في الليل أبدًا... كانت سعيدة جدًّا فلم يجد مفرًّا من القبول. وكانت المحلات مفتوحة والناس في كل مكان.. بدت له من فرط الحماس أصغر بعدة سنوات.. ووجهها اكتسب مسحة جميلة.

شعر بالشفقة عليها وقال لنفسه إنها ضحية ظروف أساءت تربيتها ولم تكن حياتها سهلة بحال.. من سويداء قلبه غفر لها ما سببته له من متاعب..

عندما عادا تأبطت ذراعه، وقالت له:

- أنا سعيدة جدًّا يا (فيل)..

لم تقل له (فيل) من قبل.. لكن (جريفث) كان يقولها دومًا.. وتذكر فيليب كيف سببًا له تعاسة لا توصف وكم تمنى الموت وقتها حتى فكر في الانتحار.. ماذا بقي من هذا؟.. لا شيء.. فقط مجرد شفقة عارمة على حالها.

عندما عادا إلى البيت طلب منها أن تنام، وانطلق إلى موعده عند آل (أثيلني).. الأسرة الطيبة التي أدرك أن كل من فيها يحب قدومه وينتظره..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

ظلت ملدريد صامتة مقطبة طيلة اليوم التالي، وعندما سألها عن سبب صمتها قالت:

- أنا أتقاضى راتبي كي أنظف وأطبخ.. لا أحسب مطلوبًا منى أن أتكلم كذلك..

ما كانت تشعر به هو مزيج من احترام نبله الذي يدعو للإعجاب، لكنه يختلط بميلها الطبيعي لاحتقاره والسخرية منه كلما سنحت الفرصة. كانت تلك الحياة الرتيبة تثير ضجرها. وقررت أنه من الحمق أن تبحث عن عمل هذا الصيف.. يمكنها أن تنتظر حتى الخريف ولربما تجد فرصة عندئذ.

كان هو يعاني ضعفًا نحو الطفلة الصغيرة؛ لأنه مولع بالأطفال فعلاً لكنه قلما يظهر هذا. وقد قال لملدريد إنه بوسعها لو وجدت عملاً أن تبقى في البيت وهو سيحضر امرأة تعنى بالطفلة في ساعات غياب الأم. وكان يقضي الساعات على ركبتيه يلاعبها فكانت ملدريد تسخر منه:

- أنت فعلاً أحمق.. تبدو سخيفا وأنت تلعب معها..

وكان هو يشعر بحرج من هذه العاطفة، التي هي أقرب إلى عاطفة أب نحو ابنته.. لكن هذه الطفلة ابنة رجل آخر! لكن الطفلة كانت تضع يدها على خده فينسى كل شيء.. وكانت ملدريد تذكره بأنه يتعامل فقط مع الجانب الجميل في الأطفال، بينما سيجن جنونه لو أرغمته الطفلة على السهر ليلًا مع صراخه..

وكانت الطفلة قد تعلمت أن تصرخ فرحًا عندما تراه، كما بدأت تسميه (بابا)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات ليلة اتجه فيليب إلى الحانة كعادته يوم الثلاثاء، حيث قابل صديقًا اعتاد أن يلقاه هناك اسمه (مكاليستر) كان مولعًا بالبورصة والأسهم...

قال له في تلك الليلة:

- لو كنت مهتمًا.. هناك منجم في روديسيا أتوقع لأسهمه مستقبلاً عظيمًا..

كان مكالستر موفقًا في عمليات الأسهم بشدة وكان فيليب يحسده لهذا.. كان المستقبل يثير رعبه وهو يعرف أن أمامه ثلاث سنوات حتى يتقاضى أول نقود ممكنة، بينما لم يبق معه سوى مائة جنيه.. ولو مرض لما وجد مالًا ينفقه على نفسه. لا شيء مثل ضربة حظ تضاعف مدخراته وتؤمن مستقبله.

كان فيليب ينتظر خبرًا كهذا، لكن الخوف كان يغمره من فقد المال.. فهو لم يكن يملك روح المقامر على الإطلاق. قال مكالستر في برود:

- ليس بوسع المرء جمع المال ما لم يكن مستعدًّا لفقد المال.. سوف أبتاع لك 250 سهمًا ولو ارتفع السعر نصف كراون فلسوف أبيع...

وهكذا ظل ينتظر.. ابتاع جريدة المساء وفتحها فوجد أن تلك الأسهم التي اشتراها ارتفع سعرها.. معنى هذا أنه كسب

ثلاثين جنيهًا بضربة حظ..

وقد خطر له أنه يتوق إلى إجراء الجراحة التي حلم بها لتقويم تشوه قدمه..

أخبر ملدريد بهذا..

كلم د. (جاكوبس) جراح العظام طالبًا أن يجرى له هذه الجراحة، فوافق الرجل وإن حذر فيليب من أنه سيظل يعرج وإن كان بصورة أخف كثيرًا.. قال له فيليب إنه لا يتوقع معجزات..

وجاء يوم الجراحة فتحملها بشجاعة وأقام بضعة أيام في غرفة صغيرة..

هناك زاره آل أثلني ذات مرة... وزارته ملدريد أكثر من مرة. كان أجمل شيء في هذه الوحدة أنها أتاحت له فرصة القراءة؛ لأنه لم يعد يقرأ جيدًا منذ جاءت ملدريد لأنها كانت دائمًا ما تذكر تعليقًا سخيفًا هنا أو هناك يحرمه من التركيز، حتى إنه كان يتمنى لو سد فمها أو غرس مسمارًا في عنقها.

عندما غادر المستشفى بدأ يحاول استعادة حياته من جديد..

ملدريد كانت متضايقة من أنه لا يبدى أية عاطفة نحوها، وقد قالت ساخرة أكثر من مرة:

- يبدو أننى سامة..

فكان يقول لها:

- لا داعي للشجار يا ملدريد..

- أنت تحتقرني.. أليس كذلك؟

- البتة.. لكن من الأفضل أن تظل حياتنا على هذه الوتيرة...

كان من الصعب أن تركز مع كلامها.. هي نفسها لم تكن تستطيع التركيز فيما تقول. يكفي أن يمر كلب أمامها حتى تخطر ببالها ملحوظة ما تجعلها تنسى ما كانت تقول.. وكانت ذاكرتها سيئة جدًّا فيما يتعلق بالأسماء؛ لذا كانت تتوقف في وسط أية قصة محاولة التذكر.. ثم عندما يندمجان في موضوع آخر كانت فجأة تصيح:

- كولينز!. هذا هو الاسم! كنت أعرف أنني سأتذكره..

وكان هذا يغيظه لأنه يدل على أنها لا تستمع لحرف مما يقول، وبرغم هذا كانت تلومه لو التزم الصمت..

كان يرمقها في دهشة غير مصدق. كيف هام بحبها يومًا ما وتمنى لو يدخل روحها ليشاركها كل خاطرة وكل فكرة؟.. اليوم هو لا يشعر نحوها بأى حب.. ربما يكرهها أحيانًا. إنها عاجزة عن التعلم، وخبرات الحياة لم تزدها حكمة ولم تضف لها أي شيء..

كان يتدرب في قاعات الجراحة، وقد كرس جهده في غيار الجروح وتضميدها.. فهو لم يكن مهتمًا بالجراحة ويفضل عليها الأمراض الباطنية.. وكان يمضي الوقت في استقبال الطوارئ يخيط الجروح ويجرى غسيل معدة للسكارى من رجال ونساء.. ويشخص حالات التهاب الزائدة. والحالات الصعبة كان يستدعى

من أجلها الطبيب المقيم محاذرًا لأن الرجل يكره أن ينزل أربعة طوابق من أجل لا شيء..

كانت الممرضة الى تساعده امرأة خبيرة لها أربعون عامًا في الطوارئ، وقد كفت عن اعتبار الحياة شيئًا يُنتقد أو يمتدح.. إنها حقيقة تقبلها أو ترفضها كما تشاء.. حكت له الكثير عن الرجل الذي سقط في نهر التيمز ولم يمت غرقًا، إنما مات بعد أيام بحمى التيفود بسب تلوث الماء الذي شربه.. حكت له عن المنتحرين:

- لا أحد ينتحر من أجل الحب.. هذا خيال قصصى.. من ينتحر ينتحر بسبب الإفلاس والفقر..

كان يفهم هذا لأن المال كان همه الوحيد.. المصاريف مرتفعة كأنه يأكل في مطعم لأن ملدريد لم تكن تملك فضيلة الاقتصاد.. مصاريف الطفل باهظة بالإضافة لمصاريف مهمة لها مثل حذاء بعنق ومظلة. الخ..

قال لملدريد في ليلة الكريسماس وهما أمام النار:

- كانت المشكلة أنك عجزت عن أن تحبيني وهذا أثار سخطى عليك، برغم أن هذا سخف.. من الغباء أن ألومك على أنك لم تحبيني.. حسبت أن هذا بوسعى.. لا أعرف السبب الذي يجعل شخصًا يحب الآخر لكنه أهم شيء، ومن دونه لا يمكن أن نخلق الحب عن طريق الكرم أو اللطف..

قالت له:

- لو كنت تحبني فعلًا لأبقيت على حبك..

- أنا حسبت حبي سيدوم للأبد.. حسبت أننى سأموت من دونك.. وتمنيت أن تشيخي وتتجعدي بحيث لا ينظر لك أحد، وعندها تكونين لي وحدي..

لم تعلق وأعلنت أنها ستدخل لتنام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

جاءت الذروة بعد أسبوعين..

كانت ملدريد في حالة من العصبية والغيظ بسبب سلوك فيليب. كانت تنتقل من مزاج لآخر بسهولة. هي لم تفهم فيليب كما أنها لم تمل له قط.. كانت منبهرة لأن أباه طبيب وعمه قس، لكنها احتقرته لأنه أهان نفسه مرارًا أمامها. ولم تشعر براحة في وجوده على الإطلاق..

لكنها كانت ممتنة لأنها لا تدفع إيجارًا، ويمكنها أن تظل في الفراش الدافئ متى أرادت بعيدة عن خشونة الرجال وألفاظهم البذيئة..

هي لا تحمل همه لأنها تعرف أنه لن يقاوم كثيرًا متى أرادت.. كم من مرة غضب عليها ثم خضع على الفور. هي تعرف تأثيرها الكاسح عليه. لقد رأته يبكي من أجلها.. يوشك على الزحف على الأرض من أجلها.. سوف يتوسل لها على ركبتيه من أجل حبها لكنها سترفض..

الخطر الوحيد أن يكون قد وقع في حب فتاة أخرى، لكنها كانت تعرف أن هذه الفكرة غير صحيحة.. النساء يعرفن هذه الأمور بسهولة..

لكن لماذا طلب منها أن تقيم في بيته؟.. لم تكن تفهم أمورًا مثل الشفقة والرحمة والفروسية وكل هذه الأشياء.. لم يكن عندها إلا تفسير واحد لموقفه معها هو أنه مخبول..

هو لا يحبها.. هذا واضح.. لكن عليه ألا يتوقع أنها تحبه كذلك.. هي لا تحبه بل تكرهه أحيانًا. لكنه يهينها بالفعل عندما تمشى معه في الشارع وتمد يدها لتلمسه فيبعد يده في شيء من تقزز..

لا يهمه من أمرها سوى الطفلة.. هذه هي الشيء الوحيد الذي يجعله يبتسم.. وملدريد تعرف كيف تثير جنونه لو صفعت الطفلة أو وبختها.

أثارت جنونها حقيقة أنها لا تملك أية سيطرة عليه من أي نوع وأنها تحت رحمته.. وأقسمت أنها ستجعله يدفع الثمن يومًا ما.. لكن لا داعي لتغيير الأوضاع ما دام هو يدفع الإيجار عن طيب خاطر، وما دام عمه مسنًّا موشكًا على الموت وربما ترك له ثروة..

هكذا في تلك الليلة سألته عن السبب الذي بدله بهذا الشكل، فقال:

- لأنني أحببتك جدًّا.. هكذا نفد هذا الحب ولم أعد أقدر على أن أنظر لك من دون أن أرى إميل وجريفث..

لثمت يده، وقالت:

- ما دمت تكرهني فعلى أن أرحل سريعًا..

- لا.. ليس لديك مكان سوى هنا، لكن لنتفق على أننا صديقان لا أكثر..

وأبعد يده عنها هاتفًا:

- أنت تثيرين اشمئزازى!

- أنا أثير اشمئزازك؟!

واستندت إلى رف المدفأة وأخذت شهيقًا ثم انفجرت بأعلى صوتها في سباب فظ شنيع.. ألفاظ لم يتخيل قط أنها كانت تعرفها.. كان اللعاب يسيل من فمها:

- أنا لم أعبأ بك قط.. ولطالما سخرت منك.. لم أكن لأتركك تلمسنى لو لم تكن بي حاجة للمال.. لكم سخرت منك أنا وجريفث!

واتجهت لباب غرفتها، ثم قررت أن ترميه باللفظة الوحيدة التي تعرف أنها تؤذيه.. اللفظة التي قالتها بكل السم في روحها وكل المقت:

- أعرج!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عاد من العمل في المساء لم يجد لها ولا الطفلة أثرًا في الشقة. لكنه وجد أنها أحضرت مطرقة ثقيلة وسكينًا وعكفت على تمزيق كل سجادة في الشقة.. كانت هناك سجادة ثمينة عليها لوحة راقية جاء بها من باريس فمزقتها.. مزقت الصور التي رسمها عندما كان في باريس كلها.. بالمطرقة هشمت المرايا وكل شيء زجاجي. ثقبت الوسائد وأخرجت ما فيها من ريش ونثرته في كل مكان.. في المطبخ دمرت حوض الغسيل.. وهشمت كل الأطباق..

حتى كتبه المهمة مزقت صفحاتها وانتزعتها انتزاعًا.

كانت هناك سكين ضخمة ثقيلة وجدها مغروسة في الفراش حتى تحطم نصلها. ولم يصدق مدى القوة الشيطانية التي مكنتها من هذا العمل..

لم تكن حاجياته ثمينة لكنه ارتبط بها.. والمشكلة أن ابتياع حاجيات جديدة سوف يدمر مدخراته..

قال لنفسه وهو يحاول تخيل وجهها الشيطاني وهي تحدث كل هذا التخريب:

- رباه!. أرجو ألا أراها ثانية أبدًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذا الوقت كانت إنجلترا تلاقي مشاكل جمة في الترانسفال في حرب البوير.. وبالطبع ساد الغلاء بريطانيا، لكن مكالستر خبير الأسهم دخل الحانة ذات ليلة مبتهجًا وقال لفيليب إنه من الذكاء الآن شراء أسهم مناجم الذهب في جنوب أفريقيا، فالناس تحسبها دمرت في الحرب بينما لديه معلومات أكيدة أنها ستعود للانتاج..

- هذا ليس قمارًا بل هو استثمار.. أنا اشتريت أسهمًا كثيرة لأختى وما كنت لأورطها في شيء كهذا لو لم أضمن النتيجة.. لو استطعت بيع سراويلي لابتعت به أسهمًا..

كان فيليب يثق في مكالستر لأنه إسكتلندي أولًا وبالتالي هو حريص، ولأنه جربه من قبل ووجده خبيرًا.. لهذا اشترى 300 سهم. لم يكن عليه أن يدفع بل كان ثمن الأسهم يؤخذ من الأرباح.. لكن الأمور بدأت تسوء وبدأ سعر الأسهم ينخفض للنصف..

ووجد فيليب أنه مدين بأربعين جنيهًا لو باع الآن وهو مبلغ مروع؛ لذا كان التصرف الوحيد أن يتماسك ويظل كما هو..

لم يعد يقدر على النوم.. كما لم يعد يعرف ما يجب عمله. كف عن تناول الطعام والذهاب للمقاهي حتى لا يرى عناوين الصحف.. لقد انخفضت مدخراته الآن إلى ثمانين جنيهًا وخسر نحو 300 جنيه.. كان مجنونًا عندما دخل لعبة الأسهم هذه..

ذهب إلى الحانة لأنه يستريح هناك كلما سمع عن خسائر الآخرين المروعة، قابل مكالستر فوجده مذعورًا مثله، وقال له:

- لابد من البيع الآن!

كان هذا مروعًا... معناه أن الوضع لن يتحسن وأن عليه قبول الخسارة.. لكنه تظاهر بهدوء الجنان، وقال:

- إذن فلتبع..

- الكلام سهل.. لن نجد مشتريًا مهما حاولنا.. إن هذه الأسهم لا تساوي شيئًا على الإطلاق..

هكذا عاد فيليب لداره وأعاد حساب ما معه.. عندما يسدد ديونه لن يبقى معه سوى سبعة جنيهات!

إنه مفلس تمامًا.. اقترض من صديق له خمسة جنيهات لكن زميله أوصاه أن يردها قبل انقضاء الأسبوع. هكذا . وقد عرف أنه عاجز عن ردها . أعادها له بعد يومين! كتب لعمه يطلب منه قرضًا بـ 150 جنيهًا على أن يقسطها بعد تخرجه، لكن العم كان صارمًا ورد بأنه لن يفعل ذلك لأنه مسئول عن نفسه كذلك في

حالة المرض.. هو أنذر فيليب مرارًا من التبذير وتوقع أن يحدث هذا.. الآن ليس من العدل أن يتحمل غلطة طالما حذره منها!

للمرة الأولى يجد فيليب نفسه فقيرًا لهذا الحد. كان يعرف الفقر، لكنه حيث نشأ لم يعتد الناس الفقر الذي يبلغ بالإنسان ألا يجد شيئًا يأكله.. هكذا عرف الجوع ووجبة البسكويت الوحيدة طيلة اليوم. فقط كان يتحمل حتى يوم الأحد لأن وجبة ساخنة دسمة تنتظره عند آل (أثنلى) وهم لا يشكون لحظة في أنه جائع.

كان يعتقد أن هذا كله كابوس سوف يفيق منه.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا..

سوف يموت جوعًا لو لم يجد عملًا.. لكنه فشل في العثور على عمل وهو ما زال طالبًا في الصف الرابع، ومع قدمه المشوهة لا يمكنه أن يلتحق بالجيش..

عجز عن دفع الإيجار عدة أسابيع، وهكذا جاء يوم وجد أنه غير قادر على العودة ومواجهة صاحبة النزل.. من ثم مشى في الطريق بلا هدى، حتى وجد حدائق القصر فارتمى على العشب ونام بعض الوقت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما ذهب للعشاء عند (أثنلى) يوم الأحد، شعر بتأثر بالغ حتى كادت عيناه تدمعان من حرارة استقبال الأطفال له. كان قد فقد الكثير من وزنه حتى أن زوجة (أثنلى) اقترحت أن تحضر له بيضة مخفوقة مع بعض السكر.

عندما انتهى العشاء طلب (أثنلى) من زوجته والأطفال أن يتركوهما، ثم سأل فيليب عن أحواله.. وقال له إن أحدًا لن يسمعهما..

ارتبك فيليب لأنه لا يعرف ما يريد الرجل قوله. قال له مضيفه إنه قلق لأنه لم يأت الأسبوع الماضي، فقصد داره.. هناك عرف من صاحبة النزل أنه لم يعد للبيت منذ أيام والإيجار لم يدفع منذ أسابيع.. ذهب إلى المستشفى فعرف أنه متغيب..

قال لفيليب في لهجة لائمة:

- لماذا لم تأت إليّ وتخبرني؟.. أنا وزوجتي واجهنا أوقاتًا عصيبة أكثر من هذه مع فارق مهم هو أنه كان لدينا أطفال..

شعر فيليب بأنه يوشك على البكاء.. وتماسك حتى لا يفقد كرامته..

قال له الرجل:

- انتهى الأمر.. سوف تسدد لصاحبة النزل الإيجار ثم تأتى لتقيم عندنا.. لا تقل إن طعامك سيكلفني شيئًا..

ثم رفع عقيرته مناديًا زوجته:

- (بيتي).. إن مستر (كارى) سيعيش معنا لبضعة أيام!

صاحت من الداخل بطريقة تلقائية وكأنه خبر لا غرابة فيه:

- مرحى.. سأعد له غرفة مناسبة!

لم يعتد فيليب أن يتلقى معاملة حسنة، وقد شعر بأنه غير قادر على قول كلمة واحدة..

كان يعرف أنه عبء كبير على هذه الأسرة متوسطة الحال كثيرة العدد؛ لذا صمم على أن يجد عملًا بأقصى سرعة.. وقد وعده (أثنلى) بأن يكلم مدير شركة الملبوسات التي يعمل فيها في أمره..

هكذا وجد فيليب نفسه يعمل في هذه الشركة.. يشرف على الأقمشة ويبدل ثياب المانيكانات في نوافذ العرض.. وهو عمل لم يحبه ووجده مرهقًا جدًّا وراتبه كان ضئيلاً، لكنه لم يملك الخيار. وسرعان ما وجد لنفسه إقامة دائمة في مسكن عاملي تلك الشركة..

كانت العاملات في الشركة ينظرن له باعتباره غريب الأطوار، وحاولت واحدة أو اثنتان أن تجذباه لكنه كان قد اكتفى لفترة طويلة من قصص الحب.. ثم كيف يستطيع أن يحب وهو جائع على الدوام؟

في المساء كان يعود مرهقًا ليجد أنه عاجز عن قراءة حرف من كتبه.. وأنه عاجز عن التركيز تمامًا. وأدرك أنه لن يتمكن من استكمال دراسة الطب أبدًا ما لم يجد مالًا. هكذا تركز اهتمامه على موت عمه.. لقد تجاوز السبعين وهو مصاب بالتهاب شعبى مزمن.. لو مات لترك له بضع مئات من الجنيهات لا تجعله ثريًّا لكنها تساعده على إتمام الدراسة.. المشكلة الحقيقية أن يكون العم تمادي في عقابه فترك ماله للكنيسة.. عندها كان فيليب يعرف جيدًا ما سيحدث.. لقد تحمل في كل مرة لأن هناك أملًا في الأفق، لكنه في تلك اللحظة سوف ينهي حياته.. وراح يرتب أمر العقار الذي سيتعاطاه والذي لن يسبب له ألمًا..

برغم هذا كان يتردد على المستشفى سرًا في ساعات متأخرة . كي لا يقابله أحد . كي يتفقد خطاباته بانتظار البرقية التي تخبره أن عمه قد توفى..

ذات ليلة وجد خطابًا بخط لم يميزه جيدًا.. هكذا فتحه في توتر وقلبه يخفق..

قرأ العبارات الآتية:

عزيزي فيل..

أريد أن أراك لأمر مهم لأنني في مشكلة خطيرة. الأمر لا يتعلق بالمال.

ملدريد

مزق الخطاب إلى قطع صغيرة وألقاه في الشارع ليتبعثر في الظلام.. وشعر بغثيان لفكرة أن يراها ثانية. لقد صار يكرهها بشدة..

لكنه في الفراش ظل يفكر فيما حدث لها.. ما كانت لتكتب له إلا لو بلغ القنوط منها مبلغًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا وجد نفسه كأنما هو مسحور يمشى إلى العنوان الذي قرأه على مغلف الخطاب.. وجده بيتًا عتيقًا مريب الشكل وفتحت له عجوز تفحصته بدقة فسألها عن ملدريد..

قرع باب غرفتها ففتحت له. كانت غرفة صغيرة جدًا قذرة غير مرتبة ككل مكان عاشت فيه، وكل شيء فيها يوحي بأنها

عادت للحياة التي كان انتشلها منها. وقد قالت له:

- اجلس.. أراهن على أنك لم تتصور أن أتصل بك..

- إن صوتك مبحوح تمامًا..

وبحث بعينيه عن الطفلة، لكن لم تكن هناك علامة توحى بأن طفلاً كان هنا. أما ملدريد فازدادت نحولًا وصبغت شعرها بلون لا يناسبها فبدت سوقية جدًّا..

قالت له:

- عرفت أنك لا تذهب للمستشفى. فلعلك نسيت مهنة (الدكترة)؟

- ليس تمامًا..

- هذا هو السبب الذي طلبتك من أجله.. إن لدى طفحًا جلديًّا لا يشفى..

أصابه الهلع.. وشعر بالعرق يحتشد على جبهته. طلب أن يفحص حلقها.. والتقت عيناه بعينيها فرأى فيهما كل الرعب وكل الهلع.. لم تكن تريد أن تعرف الحقيقة..

قال لها في رعب:

- أنت مريضة.. مريضة جدًّا..

وقال لها اسم مرضها[1].. كلمها عن الخطر الذي هي فيه وما تسببه من خطر للآخرين.. وكتب لها بعض العلاج وأوصاها أن تبتاعه بسرعة وتستعمله بدقة..

هنا جلست وانفجرت في بكاء حار عميق..

هم بالانصراف فارتمت عند قدميه وتمسكت بثيابه وراحت تصرخ:

- فيليب.. لا تتركني!. أنا مذعورة وما من أحد ألجأ له فأنت صديقي الوحيد!

نظر للذعر في عينها وتذكر ما أصابته به من ألم.. برغم هذا هو غير قادر على تركها وشأنها. وقال لنفسه: لن أنتصر عليها أبدًا! والغريب أنه كان مشمئزًا منها لا يطيق أن تلمسه.. لكنه يشعر بأنها تزحف في حياته من جديد بعد ما تخلص منها.. سألها:

- ماذا تريدين مني؟

- أن نخرج لأي مكان ونتناول عشاء.. سوف أدفع أنا..

هز رأسه موافقًا فارتدت حذاءها وقبعتها ثم خرجت معه.. وجدا مطعمًا رخيصًا فاتجها له ولم تطلب أي طعام تقريبًا لأن حلقها يمنعها من الابتلاع. هكذا جلسا يأكلان في صمت..

وفجأة قالت له:

- الطفلة ماتت الصيف الماضي!

قال:

- أوه!

- يمكنك أن تبدى الأسف..

- بالعكس.. أنا مسرور لذلك..

نظرت له ثم فهمت ما يريد قوله ولزمت الصمت..

أوصلها لغرفتها وغادر المكان في الثامنة مساء، وهو يقول لنفسه:

- هذه هي النهاية.. ليس بوسعى عمل شيء آخر لها..

ولم يرها قط بعد هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

جاءته أنباء أن عمه ليس على ما يرام فسارع بالسفر ليراه..

منذ اللحظة الأولى أدرك أن الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة. وهو لم يفارق الفراش منذ أشهر.. لكن الرجل كان مذعورًا من الموت.. كان يؤمن بالخلود والنعيم الأبدى لكنه كما يبدو يخشى الرحلة ويفضل أن يوجد في الموضع الذي ألفه. لهذا كان لا يكف عن القول إنه بخير وإن شهيته طيبة.. كان يرفض فكرة الموت بشدة؛ لذا راح فيليب يسأل نفسه عما أضافه الإيمان للرجل إذا كان يخشى الموت بهذه الشدة.

وراح يسأل (فيليب) عن طريقة للحصول على الدواء مجانًا.. بينما راح فيليب ينظر إلى قطع الأثاث ويسأل نفسه عما يمكنه الحصول عليه لو باعها.. في مرآة رأى وجهه فشعر أنه وجه حيوان مسعور.

كان يفكر في مدى سهولة إنهاء تلك الحياة عديمة النفع. إن العجوز يحتفظ قبل النوم بكوب فيه جرعة من المورفين يتناولها لو اشتد به الألم ليلاً.. حوالي الثالثة أو الرابعة صباحًا. ليس أسهل من مضاعفة الجرعة من ثم ينام فلا يفيق أبدًا..

المال!. كم هو محتاج للمال! سوف يختصر من حياة الرجل بضعة أشهر لن تفيده في شيء، لكنها تعنى الكثير لفيليب. لكنه لم يجسر على ذلك.. كان يعرف أنه لن يتحمل تأنيب الضمير، فلا معنى لامتلاك المال دون راحة بال.. ما أبشعها فكرة! كيف خطرت له؟ هذه جريمة قتل.. فهل هو شاذ معقد أم أن الناس جميعًا مثله؟

مرت الأيام وبدا أن الرجل يتحسن.. كان مؤمنًا أنه سيعيش عامين آخرين، لكن فيليب صحا ذات يوم على صوت يناديه. هرع لغرفة النوم فوجد عمه شاحب الوجه والعرق يغمر جبينه وقال له:

- اطلب القس الجديد.. أريد طقوس التناول... أنا أموت الآن..

كان صوته يرتجف من الرعب وسالت دمعتان من عينيه. مد يده يعتصر يد فيليب.. وبرغم أن فيليب ظل فترة طويلة لا يتمنى سوى موته فإنه الآن شعر برهبة إشفاق شديد عليه.. إذن سوف نمر جميعًا بهذا؟.. يا له من ثمن ندفعه كي نتميز عن الحيوانات التي لا تعرف أنها تموت!.

جاء القس وهو يحمل حقيبته ومنضدة التناول، فخرج فيليب من الغرفة يمشي في الحديقة التي يغمرها الندى.

طلبت منه الخادمة أن يذهب إلى الحانوتي ليطلب منه امرأة تعد جثة المحتضر.. هكذا غادر البيت ومشى وهو يفكر في لغز الموت..

عندما عاد وجد أن عمه يلفظ آخر أنفاسه.. حشرجة.. حشرجة.. ثم توقفت الآلة نهائيًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أيام أنهى فيليب إجراءات الميراث، وعاد إلى المستشفى ليسأله الجميع أين كان؟.. لكن تجربته علمته أن يكون باردًا وأن يرد بتحفظ عليهم بأنه كان مشغولاً..

هكذا عاد للعمل في قسم التوليد، وقد أكسبته أيام الفقر حنكة ورفقًا بالفقراء.. كان يتكلم بلغتهم ويفهمهم، كما أنه اكتسب شهية هائلة فصار يأكل أي شيء يقدم له..

هناك تعلم الكثير عن الفقر، وكيف أن الأم تلد طفلها فتدعو الله أن يأخذه لأنها لا تعرف كيف تطعمه.. وهكذا كان يحذر الأم في كل مرة من أن يقع (حادث) لطفلها كأن تنام عليه وما إلى ذلك..

جاءت نوبتجيته الأخيرة كطبيب توليد، وقد دخل فراشه في تلك الليلة بعد ما أنهى عمله. فقط ليسمع صوت العامل وقد جاء ليوقظه لحالة ولادة في البيت. قال له في غضب:

- أنت آخر شيء تمنيته هذه الليلة..

وارتدى ثيابه وخرج ليقابله الزوج الذي مشى به في شوارع مظلمة ضيقة في منطقة قذرة جدًّا لم يرها فيليب من قبل.. قال له محذرًا:

- هذه البقعة سيئة يا سيدي فدعنى أسبقك في المشى..

لكن فيليب كان قد جرب أحياء قذرة من قبل، وكان يعرف أن حقيبة الطبيب السوداء تعطيه الأمان في أكثر بقاع المدينة توحشًا.. بقاع لا يجسر رجل الشرطة نفسه على أن يمشى فيها.. وبالفعل كان يلقى مجموعات من الرعاع ينظرون له في حدة ثم يقول أحدهم للآخر: هذا طبيب المستشفى..، وكم من واحد قال له بلهجته الفظة: مساء الخير يا سيدى..

عندما وصل إلى العنوان استطاع أن يتفحص الزوج لأول مرة فأدرك أنه فتى صغير السن أمرد الوجه مذعور تمامًا. الزوجة

كانت في حالة سيئة وكانت طفلة في الخامسة عشرة أو أقل ومن الواضح أنهم استخرجوا لها شهادة تسنين مزيفة. ظل يعمل ساعتين وفي النهاية خرج الطفل حيًّا سليمًا..

أطلق صيحة ارتياح.. ونظر إلى الأم.. هنا شهق في ذعر وقد أدرك أن نبضها ضعيف جدًّا. أرسل في استدعاء طبيب التوليد المقيم في المستشفى وراح يدعو الله أن يأتي سريعًا..

وصل الطبيب أخيرًا وفحص المرأة.. ثم قال للفتى المذعور:

- إنها في حالة ميئوس منها.. إنها في نزف داخلي..

وراح يحاول أن يعيد لها الحياة بلا جدوى.. سرعان ما لفظت أنفاسها الأخيرة..

هكذا غادر الرجلان البيت تاركين الزوج الشاب لا يعرف ما يفعل.. وقال الطبيب المقيم لفيليب المذهول:

- هذا يحدث كثيرًا.. يجب أن تعتاده.. كم حالة ولدتها في قسم التوليد؟

- خمسة وستون..

- هذا عدد كاف.. سوف تنال الشهادة.. سلام..

وترك فيليب.. هكذا مشى فيليب وقد بدأ الفجر يغمر المدينة بضوئه الشاحب الندى. لقد انتهت آخر نوبتجية له في قسم التوليد وكانت نهاية دامية. مشى إلى الجسر ووقف يرمق مياه نهر التيمز سائلا نفسه عن الهدف من هذا كله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يتردد كعادته على آل (أثنلي) الذين سرهم أن أحواله بدأت تتحسن..

وعلى سبيل رد الجميل جلب لهم عدة أشياء من تلك التي ورثها عن عمه.. ومن بينها قلادة صغيرة خاصة بزوجة عمه أهداها لـ (سالي)..

كانت (سالى) قد كبرت وصارت فتاة ناضجة مليئة بالصحة متوردة. كانت مكتملة الجسد ولطالما أعجب هو باللياقة الجسدية لأنه حرم منها، وكان هذا يشعره بالتضاؤل. لكنها كانت قليلة الكلام وقد كان الشباب يعجبون بها بشدة لكن ساد لديهم انطباع أنها أقرب إلى البرود وشح العواطف..

وقد سألها فيليب أكثر من مرة عن سبب قلة كلامها، فكانت تقول:

- لا ينقصنا من يفرط في الكلام في هذا البيت..

وهي عبارة تشير إلى أبيها الذي لا يكف عن الكلام أبدًا.. لقد كبرت الفتاة التي كانت تقدس أباها في الماضي فصارت ترى عيوبه..

كانت تزور صديقاتها باستمرار وفي ذات مرة رآها شاب يعمل كهربائيًا وأعجب بها وأعلن أنه سيتقدم لها. هكذا ساد جو من الترقب بيت (أثنلى) وراحت الأم تنظف وترتب كل شيء في حماس، بينما ارتدى الأب أفضل ثيابه وإن أصر على أن يستقبل العريس واضعًا طربوشًا مصريًا على رأسه.. وبرغم محاولات الأم لجعله يعدل عن هذا المظهر الغريب، لكنه كان مصرًا على أن يرى العريس طبيعة هذا البيت..

جاء العريس وكان شابًّا وسيمًا أقرب للخجل.. وفي تلك الجلسة التي حضرها فيليب راح يراقب الاثنين.. كائنين جميلين مناسبين لبعضهما فعلاً، وشعر بنوع من الحسد للسعادة التي الله تنتظرهما..

لكن بعد انصراف العريس أعلنت سالي أنها غير موافقة عليه.. إنها تراه سخيفًا..

صاحت الأم في غيظ:

- أنت مجنونة..!.. هذا عريس مناسب وسوف يقدم لك بيتًا جميلاً... لا تنسى أن عددكم كبير جدًّا وتمثلون حملاً علينا.. لابد من أن نتخلص من بعضه..

كانت هذه أول مرة يسمعها فيها فيليب تشكو..

لكن (سالي) أصرت على رفض العريس وارتسمت ابتسامة غامضة على شفتيها لم يفهمها فيليب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

بعد نجاحه في امتحان الجراحة تخرج فيليب..

سبعة أعوام مضت عليه منذ دخل مستشفى (سانت لوك) لأول مرة، وهو الآن يتخرج متأخرًا كثيرًا جدًّا عن أترابه الذين يعمل معظمهم الآن..

قابل السكرتير الذي لديه قائمة بعروض العمل المتاحة، فعرض عليه هذا الأخير عملًا لمدة ثلاثة أشهر مع طبيب يدعى (ساوث) في قرية ساحلية. لقد مرض مساعده بداء (أبو كعب)، وهو يريد مساعدًا بأسرع ما يمكن.. لو وافق فيليب فعليه أن يتأهب للسفر ظهر غد..

قال له إنه سيتقاضى ثلاثة جنيهات في الأسبوع ويمنح مسكنًا مع الوجبات..

- لكنى حديث التخرج.. هل هذا يناسبه؟

- ثق أنه سيناسبه فلا أحد يريد أن يعمل معه..!.. يقولون إنه غريب الأطوار!

هكذا وجد فيليب نفسه يسافر إلى حيث المستوصف الذي يملكه ذلك الطبيب، وكان رجلًا مسنًّا يمارس الطب بالطريقة القديمة. أخبره فيليب إنه حديث التخرج فسأله عن عمره:

- أنا في الثلاثين يا سيدى..

- سن كبيرة جدًّا بالنسبة لحديث التخرج..

- دخلت المدرسة في الرابعة والعشرين ثم تركت الدراسة لمدة عامين..

- والسبب؟

- الفقر..

وعرف فيليب أن الرجل يمارس الطب بطريقة قديمة ويصر أن على الطبيب أن يحضر مستحضراته بنفسه، ولا يثق في الأدوية التي تملأ السوق. لهذا السبب كان الأطباء الشبان يصطدمون به ثم يفرون منه، وقد راح فيليب يعالج المرضى وكون علاقات لا بأس بها، وبدا أن الرجل يثق فيه. حتى جاءت طفلة صغيرة ذات يوم تقول لفيليب:

- هل لك ياسيدى أن تأتي لتفحص مسز (فلتشر) في (أيفى لين)؟

سألها د. (ساوث):

- مم تشكو؟

لكن الطفلة لم توجه له الكلام، بل عاودت الطلب من فيليب.. وفي النهاية قالت:

- مسز (فلتشر) تريد أن يفحصها الطبيب الجديد!

استشاط د. (ساوث) غضبًا هنا فعلت الفتاة الشيء الوحيد الممكن.. أخرجت لسانها له ثم فرت سريعًا قبل أن يقبض عليها. قال د. (ساوث) في غيظ:

- على كل حال يمكنك أن تذهب لتراها.. هذا مشوار شاق على من كان ذا قدمين مثلي فما بالك بمن لا يملك إلا قدمًا ونصف!!

نظر له فيليب في حدة.. دائمًا يحدث ذات الشيء كلما اغتاظ منه أحدهم.. لابد من أن يعايره بعاهته..

لم يرد وسرعان ما انطلق ليفحص المريضة..

لما عاد قال له د. ساوث:

- أنا آسف للملحوظة الفظة التي قلتها..

- لقد اعتدت هذا..

ثم قال ساوث في رفق:

- أنا أفكر جديًا في أن أبقيك هنا معى مساعدًا... القرويون بدءوا يحبونك وهذه العيادة تحقق 700 جنيه في السنة.. يمكن أن نتقاسم المبلغ وسوف أتخلص من هذا الغبي المصاب بداء (أبو كعب)..

دهش (فيليب) لهذا، وقد أدرك أن العجوز بدأ يحبه. كان وحيدًا تمامًا وقد توفيت زوجته منذ 30 عامًا بينما له ابنة متزوجة تعيش في روديسيا ولم يرها منذ أعوام..

لو سمع سكرتير المستشفى هذا لاندهش جدًّا..

كان عرضًا مغريًا بالتأكيد يحلم به أطباء كثيرون، لكنه كان بلا معنى بالنسبة لفيليب.. وقد رفضه في تهذيب قائلاً:

- شكرًا يا سيدي.. لكنني أحلم بالسفر ورؤية العالم.. أحلم برؤية أسبانيا وبعدها زيارة الشرق الأقصى حيث أرى أناسًا يتكلمون لغات غريبة ويفكرون بطريقة مختلفة.. أريد أن أرى معابد ومساجد وأمشي في أسواق شرقية.. هذا العرض معناه أن تنتهي حياتي عند هذا الحد..

وعندما ودعه د. (ساوث) على المحطة بعد انتهاء الثلاثة الأشهر، أكد له أن العرض ما زال مفتوحًا في أي وقت يريد العودة فيه..

وابتعد القطار بينما عاد الرجل إلى عالم الوحدة والوحشة الذي جاء منه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عاد إلى آل (أثنلى) بعد هذه الرحلة، ازداد تقاربه مع سالي.. واعترفت له أنها كانت تميل له دومًا..

- لم ألحظ هذا من قبل..

- لأنك غبي وسخيف!

كان هذا الحب يعني الكثير من التغييرات.. هو لم يحبها قط، لكنه كان معجبًا بصحتها ونضارتها. لكنه يشعر بأنه لا يقدر على تركها محطمة القلب فهو ليس (جريفث) الذي كان سيرحل في بساطة. هذا يعني أن عليه أن يبدل خططه من جديد.. أن يتزوج ويستقر حيث هو وينسى تمامًا أسبانيا والشرق الأقصى.. معناه أن يكتب لدكتور ساوث يخبره أنه قبل عرضه.. معنى هذا أنه سيعيش للأبد مع زوجته في قرية الصيادين تلك. يرقب السفن المسافرة إلى بلاد لن يراها أبدًا.

الليالي الهادئة معها جوار النار، بينما الصيادون الفقراء يمرون على الدار ليهنئوا العريسين الجديدين.. الطفل الذي سيكون له.. هذا الجزء يشعره بحنين شديد، خاصة وهو يتخيل نفسه يداعب أطرافه الصغيرة الهشة.. سوف يكون جميلًا بالتأكيد..

تذكر عاهته التي عذبته طيلة حياته، وخطر له أنها أفادته برغم كل شيء لأنها علمته كيف يتذوق الجمال.. علمته أن يكون له عالم داخلى ثرى..

ثم من هو الطبيعي في هذا العالم؟.. كل إنسان عنده عيب ما يخفيه عن الناس. ما أكثر الغريب وما أندر العادي!.

لقد كان هذا يعني الكثير برغم كل شيء.. لقد كان يصبو للإبحار في المحيط الواسع فاكتشف أنه مضطر للحياة في دغل رحب هادئ.. في البداية شعر بأن هذا سجن، ثم أدرك أنه بالفعل لا يريد سوى تلك الحياة الهادئة. هو لا يريد من الحياة سوى زوجة ومنزل سعيد.. ما عاش يطارده لم يكن سوى أحلام أناس آخرين بينما لم يفتش قط في أعماقه عن حلمه الخاص..

لقد عاش طيلة حياته يطارد الغد بينما الحاضر يفلت من يديه بلا توقف.. ولم يفطن إلى أن أفضل الأشياء قد تكون أبسطها..

نظر لها، وقال:

- أتمنى أن تكوني زوجتي..

قالت بطريقتها المعتادة:

- وماذا عن أسفارك؟.. أسبانيا وكل هذا؟.. لقد سمعتك تتكلم بحماس عن هذا مع أبي..

قال بصوت مبحوح:

- لا أطيق أن أتركك. لا أريد أن أتركك.. تزوجيني يا سالى..

لم يتغير تعبير وجهها، وهي تطرق وتقول:

- لو أردت أنت ذلك..

- إذن أنت لا تريدين الزواج منى بالذات؟

- ما من واحد آخر أرغب الزواج منه..

- هذا يحسم الأمور..

- سوف يندهش أبي وأمي عندما نخبرهما..

تناول يدها وضغط عليها. وخرجا لينظرا إلى ميدان ترافلجار الممتد أمامها.. سيارات الأجرة والحافلات تسرع في كل صوب، والزحام في كل مكان، بينما الشمس تسطع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سومرست موم 1915

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

بالتحفظ البريطاني الشهير لا يذكر (موم) أنها مريضة بالزهرى، وهو مرض ناجم عن الانحراف الأخلاقي، وفي عصر ما قبل البنسللين كان هذا المرض حكمًا بإعدام المريض لا استئناف فيه.

روايات عالمية للجيب 68



نداء كتولو

تأليـــف : هـ . ب . لافكرافت
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

/ / / /

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (68)

نداء كتولو

تأليف: هـ. ب. لافكرافت

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف

هذا هو لقاؤنا الثاني - ربما الثالث . مع هوارد فيليب لافكرافت Lovecraft، الذي صرنا نعرفه جيدا.. هناك معلومات لا بأس بها عنه في الكتيبين 36 و37 من هذه السلسلة، لكننا نعيدها هنا للتذكرة.

ولد الرجل في 10 أغسطس عام 1890، في (بروفيدنس) بـ (رود أيلاند).. في هذا المكان تدور أحداث معظم رواياته المخيفة. عاش تجربة قاسية مع مرض غامض أصاب أباه جعله في غيبوبة لفترة طويلة جدا.. على الأرجح كان المرض هو زهرى الجهاز العصبي.

بدا نبوغ لغوي مبكر جدا على الصبي الذي تعلم القراءة في سن الثالثة وكتب في سن الخامسة. بالطبع تركت قصص ألف ليلة وليلة أثرا لا يمحى لديه ككل كاتب غربي آخر في الواقع. في هذه الفترة أطلق على نفسه (عبد الله الحظرد) وهو الاسم الذي استعمله فيما بعد ليكون صاحب كتاب (العزيف) المخيف فائق الشهرة. بعد هذا اكتشف الأساطير الإغريقية وبصفة خاصة الإلياذة والأوديسة. كان ميالا للوحدة والانطواء، وعانى أمراضا نفسية كثيرة..

عام 1914 صار رئيس رابطة الأدباء الشبان وكتب أولى قصصه (الوحش في الكهف). كان أصدقاؤه يحبونه ويقولون إنه كان رقيقا لطيفا برغم السمعة التي تلاحقه عن كونه يمقت البشر. هناك شاب في قصة (كتولو) يصفه لافكرافت قائلا:

«شاب أسمر نحيل بادي العصبية والقلق... كان الفتى شديد الذكاء لكنه غريب الأطوار بسبب اهتمامه بدراسة الظواهر الغريبة وكان يعتبر نفسه (شديد الحساسية نحو

الخوارق). ولما كان منطويا صار خفيا بالنسبة لمجتمعنا، فلم يعد يعرفه سوى عدد قليل من الناس».

الحقيقة أن بعض النقاد يعتبرون هذا الفتى لافكرافت كما يرى نفسه.

كتب الكثير جدا من القصص والكثير من الشعر، كما أنه ترك تراثا هائلاً من الخطابات والمقالات. توفي الرجل فقيرا عام 1937 شاعرا بأن حياته كانت فاشلة، غير عالم أنه سيصير توءما في الشهرة لمواطنه العظيم (إدجار آلان بو)، وهو ما يثير أسئلة عديدة عن تركنا لهؤلاء العباقرة يتعذبون في حياتهم، ثم تخليدهم وكتابة المجلدات عنهم بعد موتهم.

ترك لافكرافت تراثا خياليا هائلاً يضم أسماء مثل (العزيف) و (نيكرونوميكون) و (كتولو) و (آرخام).. وهي أسماء صارت شهيرة جدا لدرجة أنه كان يستعملها بين قصة وأخرى، واستعملها كتاب آخرون في قصصهم. وهناك كتاب مثل (برايان لوملي) تأثروا جدا بهذه العوالم وكتبوا مثلها بالضبط.. عامة هو متأثر بفكرة الكيانات القديمة Old Ones التي كانت تحكم الكون قديما ثم نامت أو نُسيت، والتي نقابلها كثيرا في كتابات (دي) و (كراولي) الساحرين الشهيرين. هناك تيمات ملحة في كتاباته مثل الشخصيات الحساسة غريبة الأطوار التي تعيش منفردة وتتصل بسر مخيف غامض، ينكشف لراوى القصة فيجن أو يهرب ويقضي حياته مذعورا. هناك الأسماء التي تحمل طابع (نيو إنجلند) . مسقط رأسه . والتي يحب أن يستخدمها في عناوين القصص مثل (وصية راندولف كارتر) و (حالة تشارلز

دكستر وارد) و (ظل فوق إينزماوث) و (ريتشارد بيكمان) و (آرثر جيرمين) ... إلخ

اليوم نلتقي مع مجموعة من قصص لافكرافت القصيرة التي تحمل إحداها عنوان (نداء كتولو).. هذه قصة شهيرة جدا كتبها عام 1926 ونشرت في مجلة (حكايات غريبة) عام 1928.

يعرف عشاق لافكرافت أن كتولو كائن يتكرر بإلحاح في أدب الرجل. ويرى بعض النقاد الغربيين أن الكائن مستوحى من شخصية (الكراكين) الوحش النائم في حفرة في أعماق المحيط في قصيدة لـ (تنيسون Tennyson). إنه الوحش الأخطبوطي المكلف بالتهام الحسناء أندروميدا والتي سينقذها (برسيوس) في آخر لحظة بالاستعانة برأس ميدوسا. لو أفاق كتولو فلن يعود هناك عالم نعيش فيه. اعتقادي الشخصي هو أن لافكرافت كان يؤمن بوجود كتولو والكيانات القديمة فعلا.. اهتمامه يتجاوز الولع الأدبي إلى ما يشبه الافتتان الديني بالفكرة.

من جديد يترك لافكرافت بصماته في كل مكان: مثلا نجد في قصة (كتولو) مفتش شرطة اسمه (ليجراس).. يستعير كاتب الرعب (هندرسون) هذا المفتش في مجموعة قصص خاصة به تحمل عنوان (حكايات المفتش ليجراس)، كما يستعيره (مارك إليس) في قصته المصورة (الهامس في الظلام).

لم تضِعْ تركة لافكرافت لأن تلاميذه وعلى رأسهم (أوجست ديرليث) قاموا بافتتاح دار نشر اسمها (آرخام Arkham) وقد تولت نشر أعماله المتناثرة في عشرات المجلات، فالرجل لم يصدر أي كتاب في حياته سوى (ظل فوق إينزماوث). كان (ديرليث) تلميذا مخلصا لكنه بالغ بعض الشيء؛ لأنه أصدر

كتابا كاملاً يدور حول محاوراته مع (لافكرافت)، وفيما بعد اتضح أنها محاورات لم تحدث قط بل هي وليدة خياله!

اليوم يمثل (لافكرافت) تراثا شديد الأهمية في الأدب الغربي والأمريكي بالذات لا يقل عما تركه الشاعر العظيم إدجار آلان بو.

د. أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نداء كتولو

1. رعب على الصلصال.

أعتقد أن أكثر الأشياء رحمة هي عجز العقل البشري عن الإلمام بمكونات الكون. نحن نعيش في جزيرة هادئة من الجهل وسط بحار سود من اللانهائية، وقد كتب علينا ألا نبحر بعيدا. والعلوم التي يبحر كل منها في اتجاه لم تؤذنا كثيرا، لكن يوما ما سوف تنجح تلك المعارف المتناثرة في فتح ثغرات في جدار الحقيقة، ونفهم وضعنا المخيف. عندها إما أن نجن أو نفر من الضوء إلى الظلام والأمان حيث العصور المظلمة الجديدة.

لقد فهم علماء الدين والفلاسفة حجم الكون المروع الذي يبدو فيه وجودنا البشرى مجرد حوادث عارضة. لقد لمّحوا، لكن ليس كلامهم هو مصدر ما أراه من تلك الحقب المظلمة التي تفزعني عندما أفكر فيها، وتثير جنوني عندما أحلم بها. هذه اللمحة جاءت من احتشاد أشياء متناثرة.. مثلاً في هذه الحالة جاءت من جرائد قديمة ومذكرات أستاذ جامعي ميت. وأتمنى ألا ينجح شخص آخر في جمع هذه الصورة ثانية، لأننى ما دمت حيا لن أضع حلقة أخرى في تلك السلسلة المخيفة.

أحسب أن البروفسور أراد أن يخفي ما يعلمه، وكان ليدمر المذكرات لولا أن الموت اختطفه.

بدأ كل شيء عام 1926-1927 مع وفاة عمي (جورج جامل أنجيل) الأستاذ الفخري للغات السامية في جامعة براون بروفيدنس كان عمي حجة في النصوص القديمة وكانت متاحف كثيرة تستشيره لذا سوف يتذكر كثيرون وفاته في سن التسعين. وفاته أيضا كانت غريبة لأنه هلك وهو يغادر قاربه إذ

دفعه زنجي له سمت البحارة. لم يعرف الأطباء سبب الوفاة وإن قدروا أنه خلل في قلب العجوز الذي لم يتحمل تلك السقطة.. لم أر شيئا غريبا في هذا.. لكنني فيما بعد بدأت أتساءل وما زلت..

كنت وريث عمي ومنفذ وصيته لأنه مات أرمل بلا ابن. لهذا قمت بنقل كل أوراقه إلى مكتبي في بوسطون لأن عليّ أن أدرسها بعناية. معظم هذه الأوراق ستنشرها الجمعية الأثرية، لكن هناك صندوقا واحدا أكره أن يراه أحد.

كان مغلقا ولم أجد المفتاح حتى خطر لي فحص حلقة المفاتيح التي يحملها عمي في جيبه، وبالفعل فتحته لكني وجدت عقبة أصعب..

ما معنى نقش غريب على قطعة صلصال ومجموعة أوراق لا علاقة بينها؟.. هل كان عمي في أواخر أيامه ضحية نصب؟.. كان النقش على شكل مستطيل سمكه أقل من بوصة ومساحته ست بوصات ومن الواضح أنه حديث العهد.. لكن تصميمه كان لا يمت للحداثة بصلة بل هو يمت للانتظام الغامض المميز لكتابات الأقدمين. ومن الغريب أن عمي لم يشر قط لهذه القطعة في أوراقه كأنها لم توجد.

فوق النقوش كان حفر لشكل معين يصعب تبين طبيعته، لكنه بدا لي كوحش ما أو رمز يمثل وحشا. ربما أقول لك إنني تخيلت رؤية أخطبوط وتنين ورسم كاريكاتوري لإنسان، لكني بهذا لن أكون أمينا في الوصف. رأس ذو ممسات فوق جسد قشري له جناحان ضامران، وخلفية الصورة تعطى انطباعا ببنية هندسية ضخمة.

كانت الكتابة المرافقة لهذا الرسم بخط البروفسور، وكانت تحمل عنوان (طائفة كتولو)، بحروف كتبت بعناية لا تسمح بالخطأ. كان النص مقسما لقسمين، الأول يحمل عنوان (1925 الحلم وأعمال الحلم بوساطة هـ. أ. ويلكوكس). والثاني يحمل عنوان (قصة المفتش جون ليجراس من نيو أورليانز). وكانت باقي الأوراق تضم أجزاء من كتب عن أطلطنس وليموريا. كما كان هناك كلام عن كتاب (الغصن الذهبي) لفريزر وكتاب موري (جماعات السحر في شرق أوروبا).

القسم الأول كان يحكي حكاية معينة: يبدو أنه في مارس عام 1925 قد زار البروفسور شاب أسمر نحيل بادى العصبية والقلق، ومعه قطعة الصلصال التي كانت طازجة لينة وقتها. كانت بطاقته تحمل اسم (هنرى أنطوني ويلكوكس)، وقد عرف عمي أسرته. وهو يدرس الفنون ويعيش وحده في (فلير دي ليس). كان الفتى شديد الذكاء لكنه غريب الأطوار بسبب اهتمامه بدراسة الظواهر الغريبة وكان يعتبر نفسه (شديد الحساسية نحو الخوارق). لما كان منطويا صار خفيا بالنسبة لمجتمعنا، فلم يعد يعرفه سوى عدد قليل من الناس في البلدان المجاورة.

كان قد جاء لعمي يطلب عونه في قراءة النقوش على الصلصال لكن عمي كان حادا معه لأن طزاجة العينة التي أحضرها جعلت لها علاقة بكل شيء ما عدا علم الآثار. لكن الفتى أفهمه أن هذا الصلصال حديث فعلاً لأنه نقش عليه ما رآه في الحلم.

هكذا بدأ يحكي القصة الغريبة التي نالت اهتمام عمي المحموم.

ليلة أمس كانت هناك هزة أرضية خفيفة، وهي أقوى هزة شعرت بها (نيو إنجلند) منذ سنوات. عندما نام الفتى حلم بمدن عملاقة بها مبان ضخمة ونصب حجرية تناطح السماء، كلها ينزّ منها سائل أخضر لزج ويغمرها رعب خفي. كانت النقوش الهيروغليفية تغطى كل شيء، ومن مكان ما جاء صوت ليس بصوت، بل هو شعور مضطرب يقدر الخيال فقط على أن يعتبره صوتا. لكنه تبين فيه كلمة (كتولو فاتجن) ...

كانت هذه الكلمات مما أثار عمي البروفسور (أنجل). وراح يستجوب الفتى ويتفحص النقش الذي صنعه على الصلصال. فيما بعد ندم عمي كثيرا لأنه لم يفهم المعنى الفوري لهذه النقوش، وأضاع الكثير من الوقت يستجوب الفتى عما إذا كان ينتمي لجماعة دينية أو وثنية سرية مع الوعد بأن يظل الأمر سرا. فلما أيقن أن الفتى لا يداري سرا أخذ منه وعدا بأن يخبره بمحتوى أحلامه في المرات القادمة.

في المرات التالية تكررت أحلام مماثلة، لكن الفتى كان يسمع فيها دوما كلمتي (كتولو) و (رليه)..

في 23 مارس لم يظهر الفتى، وبالسؤال عنه عرف أنه مصاب بحمى غامضة وقد نقل إلى بيت أسرته في شارع (ووترمان) هكذا ظل عمي يتصل لمعرفة أخباره كما راح يتردد على طبيبه المعالج. كان الفتى غارقا في الهلاوس وقد تكررت ذات الرؤى التي وصفها من قبل، مع وصف شيء ارتفاعه عدة أميال يتحرك..

كان رأي الطبيب أن الحمى ناجمة عن مرض عضوي، ولا يمكن تفسيرها باختلال عقلي..

في 2 إبريل زالت كل أسباب مرض (ويلكوكس) وجلس في فراشه مندهشا من كونه في بيته، فهو لا يذكر أي شيء حدث له منذ 22 مارس. وقد رأى الطبيب أنه استعاد صحته، لذا عاد لدراسته.

لم يعد الفتى ذا نفع للبروفسور (أنجل) لأن كل ذكريات الحلم اختفت مع شفائه. هنا ينتهي الجزء الأول من المذكرات لكن هناك مذكرات أخرى جعلتني أفكر بعمق.

كانت تلك المذكرات تصف أحلام أشخاص آخرين، تقع في ذات الفترة التي تدور فيها أحلام ويلكوكس، لقد أجرى عمي بحثا مفصلاً بين مجموعة كبيرة من الناس يطلب منهم فيه أن يحكوا أحلامهم. لا أعرف مدى الاستجابة لمطلبه، لكنه تلقى أوراقا تفوق قدرة رجل بلا سكرتير على المتابعة.

كان الناس العاديون الذين يشكلون (ملح الأرض) في نيو إنجلند لا يشكلون أهمية ما لأنهم لم يروا شيئا، برغم بعض حالات متناثرة مقلقة كلها في الفترة بين 22 مارس و 2 إبريل، العلماء كذلك لم يعطوا معلومات مهمة.. فقط الشعراء وأهل الفن هم من أعطوا إجابات مهمة، وكان الذعر ليصيبهم لو قارنوا أحلامهم ببعضها، أحد الحالات كان مهندسا مولعا بالأمور الغامضة وقد أصابته حالة جنونية تتوافق مع الحمى التي أصابت ويلكوكس، ثم مات بعد هذا بشهر وهو يصرخ طالبا من ينقذه من شيء فر من الجحيم.

يبدو أن عمي استعان بوكالة صحفية ما تجمع له أخبار الصحف حول العالم.. مثلاً هناك مهندس في لندن كان يحلم ثم نهض صارخا وألقى بنفسه من نافذة. هناك أخبار من أمريكا الجنوبية. في الهند هناك برقية تصف هياجا بين الأهالي في يومي 22 و23 مارس. هناك رسام فرنسي علق لوحة مخيفة اسمها (صورة حلم) في صالون باريس.

عدد كبير من القصاصات، جعلني أتساءل كثيرا عن معنى هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2 . حكاية المفتش ليجراس..

الأمور التي شكلت أحلام النحات وجعلت عمي مهتما بالنقوش لهذا الحد، كانت هي موضوع القسم الثاني من النص. يبدو لي أن البرفسور نفسه رأى المعالم الجحيمية لتلك البشاعة التى لا اسم لها والنقوش الهيروغليفية الغامضة وسمع المقاطع التي تبدو مثل (كتولو).

حدثت هذه التجربة المبكرة عام 1908 قبل 17 عاما عندما عقدت جمعية الآثار الأمريكية اجتماعها السنوي في سانت لويس هذه اللقاءات فرصة يقصدها كل من لديه أسئلة يبغى إجابات عنها، وكان من جاء لهذا الاجتماع رجلا عادي المظهر في منتصف العمر جاء من (نيو إنجلند) طلبا لمعلومات ما كان ليحصل عليها من مصدر آخر. كان اسمه (جون ريمون ليجراس) وكان مفتش شرطة. ومعه كان يحمل تمثالاً منفراً قديما جدا عجز عن تحديد مصدره. وعليك ألا تتخيل أن المفتش كان لديه أي اهتمام بالآثار. كان الأمر اهتماما مهنيا صرفا لقد وجدوا التمثال جنوبي نيو أورليانز أثناء (كبسة) قاموا بها على حفل لسحرة الفودوو، وكانت الطقوس مخيفة لدرجة أن البوليس عرف أنه وجد ديانة مجهولة لهم بالكامل، أكثر شيطانية من أية ديانة فودوو أخرى.

لم يتمكن أحد من معرفة أصل هذه الطقوس لهذا قدر رجال الشرطة أن التمثال قد يقودهم لمعرفة مصدر هذه الممارسات الشنيعة.

لكن المفتش لم يتوقع رد فعل العلماء الذين رأوا التمثال فالتفوا حوله.. قِدمه وغرابة أسلوب النحت جعلاه غريبا غير مألوف. كان ارتفاعه نحو سبع بوصات يمثل وحشا له منظر شبه بشرى، لكن رأسه هو أخطبوط، وجلده زلق مغطى بالحراشف وله جناحان صغيران. كان مكتنزا يجلس على صخرة عليها كتابة لا يمكن فهمها. كان الرأس مائلاً للأمام بينما امتدت ممساته تلمس مخالبه الأمامية. أما أكثر ما يثير الذعر فهو أن كل شيء حقيقي جدا وبرغم هذا لا يمكن معرفة مصدره. حروف الكتابة كانت غريبة جدا فلم يستطع أي واحد من هؤلاء الخبراء العالميين تحديد شيء عن مصدرها.

الموضوع والمادة كانا ينتميان لشيء بعيد جدا وغريب على البشرية كما نعرفها. شيء يذكرك بشكل مروع بدورات الحياة التي لم نكن فيها..

فقط كان هناك رجل واحد تذكر شيئا مماثلاً، وهو المرحوم (ويليام تشاتنج ويب) أستاذ الأنثروبولوجي في جامعة برنستون. كان الرجل قد قام برحلة استكشافية منذ 48 عاما إلى جزيرة جرينلاند بحثا عن آثار (رونية). على الساحل الغربي قابل قبيلة من الإسكيمو لهم دين غريب يقوم على عبادة الشيطان، أثاروا رعبه بدموية وبشاعة معتقداتهم. وكانوا يؤمنون أن هذه الديانة جاءت من عصور سحيقة قبل وجود عالمنا. كان هناك كلام عن شيطان قديم اسمه (تورناسوك) حصل البروفسور على تسجيل صوتي كامل عنه من ساحر عجوز أو (أنجيكوك).

كانت هذه القبيلة تملك فتيشا خاصا بها وترقص حوله عندما يبزغ الشفق القطبي. هذا الفتيش كان يشبه في كل شيء

هذا التمثال الذي يراه الآن..

أثارت هذه المعلومات شغف (ليجراس) الذي أمطر البروفسور بالأسئلة. طلب منه أن يتذكر طقوس عبادة هؤلاء الإسكيمو الشيطانيين ثم قارنها بما سجله من طقوس الفودوو التي شهدها في لويزيانا. لقد ذهل الرجلان لمدى التطابق بين طقسي تعبد متباعدين في المكان.. هناك جملة تتردد بشكل واضح في الطقسين:

-فنوجلوي مجلوناف كتولو رليه وجانانج فتاجن..»

وكان المفتش قد سأل هؤلاء الذين اعتقلهم عن معنى هذه الكلمات فقالوا له إنهم عرفوا من أجدادهم أن معناها:

-في بيته في (رليه) ينتظر كتولو الميت ويحلم..» في الأول من نوفمبر عام 1907 جاء بلاغ لشرطة نيو أورليانز من سكان الجنوب حيث المستنقعات. إن السكان هناك طيبون لكنهم بدائيون نوعا يعانون خوفا شديدا من شيء ينقض عليهم ليلا. كان سحر فودوو لكنه أكثر إرعابا من أي سحر عرفوه لقد بدأت نساؤهم وأطفالهم في الاختفاء مع صوت دقات الطبول التي تدوي وراء الأحراش حيث لا يجسر أحد على الذهاب.

هكذا انطلق عشرون رجل شرطة في سيارتين ومعهم أحد السكان المذعورين كدليل لهم. وراحت السيارتان تشقان طريقهما عبر أحراش لا يخترقها الضوء. في النهاية وصلوا إلى المستعمرة فهرع السكان يستقبلونهم حاملين المصابيح والذعر في عيونهم؛ لأن صوت الطبول كان يدوي من بعيد. ومن حين لآخر تدوي صرخة تجمد الدم في العروق.

رفض الأهالي جميعا أن يتقدموا خطوة واحدة نحو مكان تلك الطقوس الدنسة. هكذا اضطر المفتش ليجراس ورجاله إلى أن يذهبوا وحدهم نحو مصدر تلك الضوضاء.

كانت المنطقة التي دخلها رجال الشرطة منطقة محرمة على البيض، تسود فيها أساطير عن كائن أبيض عملاق كثير الزوائد له عينان لامعتان، وقيل إن الشياطين التي تبدو كالوطاويط تخرج من كهوف في جوف الأرض كي تعبد هذا الكائن في منتصف الليل وقيل إنه هناك قبل الهنود.. قبل أن توجد وحوش الغابة.. كان هو الكابوس ذاته، وكان معنى أن تراه أن تموت، لكنه كان يرغم الناس على الحلم.

فقط لا يقدر على فهم الأصوات التي سمعها ليجراس سوى الجنون أو الشعر.. هناك نغمات تدل على وجود بشر ونغمات تدل على وجود وحوش. وكانت أغنية مرعبة ترتفع:

-فنوجلوي مجلوناف كتولو رليه وجانانج فتاجن..»

هنا وجد الرجال أنفسهم في البقعة التي جاء منها الصوت.. فر واحد، وأحدهم فقد وعيه، وصرخ اثنان من هول ما رأيا.

وسط الأشجار كانت جزيرة معشبة وسطها حشد من القوم العراة يرقصون ويتلوون حول نار مشتعلة، في وسطها نصب عملاق ارتفاعه ثمانية أقدام على قمته ذلك التمثال، وحول هذا التمثال كانت سقالات علق عليها عشرة من السكان الأصليين الذين اختفوا، وقد تشوهت أجسادهم ورءوسهم لأسفل. ربما كان صدى الصوت هو ما أوحى للشرطة أن هناك من يرد على الغناء وسط الأحراش.

تصلب الرجال للحظات ثم جاء الواجب.. وبرغم أنه كان هناك نحو مائة شخص في الاحتفال، فإن رجال الشرطة أخرجوا أسلحتهم، ولخمس دقائق كانت الفوضى عصية على الوصف. فر كثيرون لكن (ليجراس) استطاع أن يعد 45 أسيرا أرغمهم على ارتداء ثيابهم والمشى وسط صفين من رجال الشرطة مات خمسة من المتعبدين ورقد اثنان بجراح عميقة. وانتزع (ليجراس) التمثال بعناية، وأخذه معه.

كان أكثر الرجال زنوجا أو مهجنين، وبعضهم كانوا برتغاليين من جزر (كيب فيردي).. قالوا إنهم يعبدون (الآحاد القدامي) الذين وُجدوا قبل أن نوجد نحن وجاءوا من السماء. هؤلاء الآحاد قد غابوا تحت البحر، لكنهم قادرون على إرسال الأحلام لأتباعهم. قالوا إن هذه العبادة موجودة منذ الأزل وسوف تظل كذلك.. إلى أن ينهض الكاهن الأعظم (كتولو) من سباته وسط أطلال مدينة (رليه) ليحكم الأرض ثانية.

هنا صمت الرجال.. كان هناك سر لا يستطيع التعذيب نفسه أن ينتزعه منهم..

لا أحد رأى الآحاد القدامي.. التمثال المنحوت هو (كتولو) لكن من الصعب أن تعرف إن كان الباقون يشبهونه. الأغنية التي يغنونها تقول:

- في بيته في (رليه) ينتظر كتولو الميت ويحلم..

لم يجدوا بين المساجين سوى اثنين عاقلين بما يسمح بشنقهما أما الباقون فقد أرسلوا لمصحات مختلفة. المعلومات الوحيدة ذات القيمة كانت من رجل نصف هندى نصف أوروبي اسمه (كاسترو) قال إنه سافر لموانِ بعيدة وتكلم عن هذه

الديانة مع الكهنة في الصين. حكى عن حقب حكمت فيها تلك الكيانات الأرض وكانت لهم مدن عظمى. وبقايا تلك المدن موجودة في بعض جزر المحيط الهادي. هم موتى لكن من الممكن أن يعودوا لو أن النجوم اتخذت موضعا مناسبا.

- هؤلاء جاءوا من النجوم.. وجلبوا صورتهم معهم..

هم ليسوا من لحم ودم.. لهم أشكال لكنهم غير مكونين من مادة.. كلهم ينتظرون في مدينتهم العظمى (رليه) بانتظار التعاويذ التي سيلقيها كاهنهم (كتولو)..

هم ينتظرون في الظلام ويحلمون، فتمر عليهم ملايين السنين لكنهم يعرفون كل ما يدور في الكون لأن طريقة تفاهمهم هي الأفكار. سوف ينتظرون حتى الوقت المناسب قبل أن ينهضوا.. هذا الوقت المناسب تسهل معرفته لأن البشر سيكونون وقتها مثل الآحاد القدامى، أحرارا لا يبالون بالخير أو الشر ولسوف يتخلصون من الأخلاق ويقتلون بعضهم البعض. وسوف يعلمهم الأحاد القدامى المزيد من وسائل المتعة حتى تصير الأرض محرقة من الجنون.

قال إن مركز هذه الديانة هو في صحراء العرب حيث توجد (إرم) ذات العماد.. وإنه لم يرد ذكر لها في أي كتاب ما عدا كتاب (نيكرونوميكون) الذي كتبه الشاعر المجنون (عبد الله الحظرد).

لهذا لنا أن نتخيل دهشة عمي عندما قابل بعد هذا شابا حساسا يرى ذات الرؤى التي وصفها (ليجراس)، واستطاع كذلك أن يلفظ بشكل صحيح ثلاث كلمات من التي نطق بها الإسكيمو.

برغم كل شيء لم أستبعد أن يكون (ويلكوكس) الشاب قد سمع عن تلك الطقوس في مكان ما، من ثم اختلق قصة هذه الأحلام ليحير عمي.

بدا لي هذا هو أقرب الاحتمالات للمنطق. وقرأت بعناية وصف (ليجراس) للقصة، ثم صممت على أن أسافر إلى بروفيدنس لأوجه له التوبيخ الضروري بسبب خداعه لرجل مسن ومتعلم مثل عمى.

كان ما زال يعيش في (فلير دي ليس) في شارع توماس. وهو مكان يقلد بشكل قبيح طراز المباني الفكتورية في القرن السابع عشر.

وجدته يعمل في غرفته وأدركت من القطع التي نحتها والمحيطة به أن الفتى موهوب وأصيل. لقد نحت بالصلصال ويوما ما سيفعلها بالرخام تلك الخيالات المفزعة التي خلدها (آرثر ماشن) بالشعر. كان هشا شاحبا وقد سألني عن سبب قدومي فقلت له من أنا. وقد أثار اسمي اهتمامه، وبعد قليل من الكلام لم يعد عندي شك في صدقه. لقد أثرت تلك الأحلام على أعماله النحتية، وقد عرض عليّ تمثالاً ذا منحنيات جعلت الأفكار السود تعمل في رأسي. لا يذكر متى رأى هذا الشكل ولكنه حاول نقشه على الصلصال أولا وهو يشعر أن هذا هو الشيء الذي كان يراه في أحلامه.

لم يكن يعرف شيئا عن تلك الديانة الغامضة، وكان يتكلم عن أحلامه بطريقة شعرية. يصف المدينة ذات النصب العملاقة من الحجر الأخضر، التي قال إن تصميمها الهندسي خطأ تماما

راح يردد النداء الذي كان يسمعه:

- كتولو فتاجن..

وهو جزء من النداء الموجه لكتولو في سباته، مما جعلني أرجح أن الفتى سمع عن الأسطورة ونساها. لابد أنه صادق وأن تأثيره على عمي لم يأت بقصد.

ظلت فكرة تلك العبادة تحيرني وتفتنني، وقد زرت لويزيانا وقابلت ليجراس ومن بقي حيا من تلك الغارة القديمة. لقد بدأت أشعر بأنني على طريق كشف مهم.. كشف سري.. كشف عميق وقديم.. كشف سيجعلني من علماء الأنثروبولوجي المرموقين.

شيء واحد كنت أخافه هو أن يتضح أن موت عمي لم يكن طبيعيا، فقد سقط من فوق منحدر بعد ما دفعه بحار زنجي هجين. تذكرت كلام (ليجراس) عن الدم الهجين في لويزيانا. هل تكون تحريات عمي عن الموضوع قد بلغت آذانا شريرة؟ أعتقد أن البروفسور مات لأنه عرف أكثر مما يجب أو لأنه كان في طريقه ليعرف أكثر مما يجب.

لقد عرفت الكثير وبقي أن أحدد ما إذا كنت سأقتفي خطوات عمي أم لا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- جنون من البحر.

لو أرادت السماء أن تمنحني هدية، فلتكن هي نسيان الصدفة التي جعلت عيني تقعان على صفحة جريدة. ما كان الأمر ليلفت نظري في العادة، لكنه كان عددا من جريدة أسترالية اسمها (نشرة سيدني) عدد 18 إبريل 1925.

كنت أزور صديقا مثقفا في (باترسون نيوجيرسي)، وهو أمين متحف ومختص بعلم المعادن. كنت أتفحص العينات الموضوعة على الأرفف في المتحف حين وجدت صورة غريبة في جريدة وضعت تحت الحجارة، وكانت الصورة تظهر نصبا مخيفا يشبه ذلك الذي وصفه (ليجراس).

أخرجت الجريدة بحذر وقصصت الخبر، وكان يقول:

العثور على سفينة مهجورة في البحر

وصلت السفينة (فيجلانت) وهي تجر يختا نيوزلنديا معطلاً، ناج واحد وجثة على ظهر اليخت. قصة عن صراع الموت في البحر. البحّار الناجي يرفض ذكر التفاصيل وإن وجد صنم غريب في حوزته.

وصلت السفينة فيجيلانت إلى دارلنج هاربر وهي تجر اليخت المعطل المدجج بالسلاح (أليرت). كانت السفينة فيجيلانت قد تعرضت بعد إقلاعها لرياح قوية أبعدتها عن مسارها، وفي 12 إبريل شوهد اليخت المهجور، وتبين أن على ظهره رجلا فاقد الوعي وجثة رجل آخر يبدو أن أسبوعا مر على

وفاته. كان الرجل الحي يحمل صنما غريب الشكل اعترفت الجهات العلمية في جامعة سيدني بأنها لا تملك فكرة عنه.

لمّا أفاق الرجل حكى قصة غريبة عن القراصنة. اسمه جوستاف يوهانسن.. نرويجي. كان المساعد الثاني على ظهر السفينة ذات الشراعين (إما) التي أقلعت في 20 فبراير وعلى ظهرها 11 رجلا. قال إنهم قابلوا اليخت (أليرت) يقوده طاقم غريب شرير الشكل من كنساس، وقد أصدروا لهم الأمر بالتراجع فرفضوا. بدأ الطاقم يطلق الرصاص على بحارة (إما) فرد طاقم السفينة. لكن بحارة اليخت نجحوا في أن يعتلوا السفينة التي أوشكت على الغرق بفعل ما أصابها من مدافع. دارت معركة عنيفة وفي النهاية قتل ثلاثة من بحارة (إما)، لكن الباقين تمكنوا من النجاة بقيادة (يوهانسن) نفسه الذي اضطر لركوب اليخت بعد إصلاحه. تمكنوا في 23 مارس من بلوغ جزيرة بشكل ما، ثم مات ستة رجال على الشط.. فر يوهانسن ورجل آخر على ظهر اليخت في 2 إبريل لكن الريح غلبتهم وتقاذفتهم، ومنذ ذلك الحين حتى إفاقته لا يذكر الرجل ما حدث له على الإطلاق..

كان البحارة يعرفون اليخت (أليرت) جيدا بطاقمه الشرير، كما أن الأدميرالية أطرت يوهانسن وبراعته كثيرا، وأعلنت أنها ستحاول إجراء تحقيق شامل حول ما حدث.

انتهى الخبر لكن أية أفكار جلبها لي!.. إن التواريخ أبعد من أن تكون صدفة.. كل هذه الأحداث تدور في ذات الوقت عبر العالم.. وماذا عن عاصفة 2 إبريل؟.. نفس التاريخ الذي

توقفت فيه أحلام الحالمين وأفاق (ويلكوكس) من قيود الحمى؟..

سافرت إلى سيدني وأجريت تحقيقات لا نفع منها مع البحارة في الأدميرالية، ورأيت اليخت (أليرت) الذي تم إصلاحه ويستخدم في الملاحة التجارية.

رأيت ذلك التمثال الغريب في متحف التاريخ الطبيعي، وقال لي أمين المتحف إن الجيولوجيين وجدوا فيه لغزا بلا حل.. فهم متأكدون من أن العالم لا يحوي صخورا من هذا النوع. تذكرت ما قاله (كاسترو) العجوز للمفتش (ليجراس):

- هؤلاء جاءوا من النجوم.. وجلبوا صورتهم معهم..

قررت أن أقصد أوسلو لأزور (يوهانسن) مساعد السفينة (إما).. هكذا أبحرت إلى لندن ثم انطلقت مباشرة إلى النرويج.. وفي يوم خريف اتجهت لبيت الرجل، وكان في المدينة القديمة للملك (هارولد هاردادا) الذي حفظ للمدينة اسم (أوسلو) برغم أنها كانت تحمل اسم (كريستينا) طيلة الحروب الصليبية.

طرقت الباب فبرزت لي امرأة ذات وجه حزين وثوب أسود وتصلبت مصعوقا عندما أخبرتني أن (يوهانسن) لم يعد على وجه الأرض.

قالت المرأة إنه لم يعش طويلاً بعد عودته لأن أهوال البحر حطمته. كان يمشي على مرفأ جوتنبرج عندما سقطت فوقه حزمتان من الصحف من صندرة بيت.. ساعده بحاران على النهوض لكن قبل أن تبلغه عربة الإسعاف كان قد مات. لم ير الأطباء سببا لوفاته وقدروا أن قلبه الضعيف هو السبب.

شعرت بذعر.. هذا الرعب لن يفارقني إلى أن أموت أنا في حادث أو بأي شكل آخر.

كان الرجل قد ترك لزوجته بعض الأوراق المكتوبة بالإنجليزية، وقد سمحت لي بأن آخذها معي لأنها لا تهتم لما فيها. هكذا استطعت قراءة الأوراق وأنا على السفينة عائدا إلى لندن.

كانت مذكرات بحار يصف تفاصيل رحلته. هي مليئة بتفاصيل لا داعي لها لذا سأحاول أن ألخصها لك فقد تفسر لماذا لم أعد أطيق صوت الماء وهو يضرب جانبي السفينة، حتى إنني سددت أذني بالقطن.

لم يعرف (يوهانسن) كل شيء، لكنني لا أستطيع النوم بسهولة ثانية وأنا أعرف الأهوال التي نجهل عنها كل شيء. وتلك الكيانات المخيفة التي تحلم تحت البحر، بينما عدد من الأتباع ينتظرون أية فرصة ليحرروها مع أول هزة أرضية تالية، كي تتحرر من جديد وتخرج للشمس والهواء.

لقد غادر (يوهانسن) على السفينة (إما) في 20 فبراير. وقد شعر بالقوة الكاملة لذلك الزلزال الذي حرك قاع المحيط ذاته. مضت السفينة بعد هذا حتى قابل اليخت (ألبرت) في 22 مارس وحدثت تلك المعركة. ابتعد اليخت وعليه (يوهانسن) ورجاله كما قالت الصحيفة، إلى أن رأوا عمودا صخريا يبرز من البحر عند خط عرض 47°9` وخط طول 123°43`. هنا وجدوا أنفسهم أمام بقايا المدينة الكابوسية المسماة (رليه). المدينة التي بنتها منذ زمن سحيق تلك الكائنات المرعبة التي جاءت من النجوم.

هناك كان (كتولو) وعشيرته يرقدون في قباب طينية خضراء عملاقة يبعثون بلا توقف تلك الصور التي صارت أحلام الأشخاص الحساسين، ويطلبون المخلصين لهم كي يأتوا.

لم ير (يوهانسن) هذا كله لكنه رأى ما يكفي!..

لابد أن الذهول أصابه ورفاقه وخمنوا أن هذا المشهد لا يمت بالتفصيل إنما يعبر للعالم الحالي. عندما يصف يوهانسن المدينة في أوراقه فهو لا يصفها عن انطباع عام لصخور عملاقة.. عملاقة بحيث لا تنتمي لشيء يمت لهذا العالم. عليها نقوش مفزعة وكتابة هيروغليفية. علق الرجل كذلك على الزوايا الغريبة للمباني وهو يذكرني بما قاله (ويلكوكس) عن هندسة هذا المكان وكيف أنها لا تمت للهندسة الإقليدية Euclidean التي نعرفها.

لقد هبط يوهانسن ورجاله على ضفة موحلة من تلك المدينة وتسلقوا فوق صخور لا يمكن أن تكون درجات سلم تمت لعالمنا الفاني. كانت الشمس تبدو مشوهة عندما تراها عبر البخار المتصاعد من هذا الهول المبتل. النظرة الثانية تجعلك ترى أشكالاً محدبة بعد ما كنت تراها مقعرة.

شعر الرجال برعب هائل برغم أنهم لم يروا سوى صخور وحجارة. وكان كل منهم موشكا على الفرار لولا خشيته من سخرية رفاقه.. وكانوا يفتشون عن شيء قابل لحمله كذكرى يحملونها للوطن. كان البرتغالي (رودريجز) هو من تسلق قمة البناء وهتف يناديهم كي يروا ما رآه. هرعوا يرون فرأوا الباب العملاق وعليه نقش الكائن الأخطبوطي الذي ألفوه. عرفوا أنه باب من عتبته ومن عارضته العليا ولكنهم لم يعرفوا هل هو

بالعرض أم مائل.. هندسة المكان كلها كانت خطأ.. لا يمكن أن تعرف إن كانت الأرض أفقية أم لا...

تحسس الرجال الباب بحثا عن طريقة لفتحه، ثم تسلقوه فجأة وببطء شديد بدأت العتبة تنفتح. كان هذا الشيء يدور باتجاه منحرف متحديا كل قوانين المادة والجاذبية.

كانت الفتحة سوداء خلفها ظلمة توشك أن تلمسها. بالفعل كانت كذلك لأنها أخفت أجزاء داخلية من الباب كان يجب أن تكون مرئية. في الواقع خرجت الظلمة من محبسها وأظلمت السماء لأنها حلقت بجناحين غشائيين.

كانت الرائحة المنبعثة من هذه الفتحة لا تطاق. وأحس (هوكنز) ذو الأذنين الحساستين بأنه يسمع شيئا كريها ينزلق تحت. وقف الجميع يصغون.. ظلوا يصغون عندما ظهر الشيء وحشر كيانه الهائل الجيلاتيني الأخضر عبر الفتحة ليخرج إلى هواء المدينة.

هنا تخلت عن (يوهانسن) قدرته على الكتابة..

يُعتقد أن رجلين من رجاله هلكا بفعل الذعر في هذه اللحظة لا يمكن وصف الشيء.. لا توجد لغة قادرة على وصف هذا الجنون. هذه هي اللحظة ذاتها التي أصيب فيها (ويلكوكس) بالحمى وانتحر مهندس معروف. لقد نهض الكيان القديم لينال حقه، وما فشل فيه أتباع هذه الديانة على مدى قرون، نجحت فيه مجموعة من البحارة التعسين صدفة.

قبل أن يفر أحد سقط ثلاثة رجال وقد مستهم الممسات المخيفة. ووجد يوهانسن نفسه محشورا في أحد زوايا البناء

زاوية بدت لعينة حادة لكنها كانت منفرجة من الداخل.

تحرر وجرى مع صاحبه (بريدن) نحو اليخت..

لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق كي يتحرك اليخت (أليرت) مبتعدا عن تلك المياه اللعينة.

لكن كتولو المرعب تقدم نحو الضفة وانزلق في الماء وراح يسبح نحوهما بضربات ترفع الأمواج بقوة كونية. ظل (بريدن) يرمق المشهد ويضحك.. وظل يضحك ويضحك حتى مات ذات ليلة في القمرة، أما (يوهانسن) فبدأ يهذي. لكنه تماسك لأنه أدرك أن بوسع الشيء الذي سد الطريق أن يلتهم اليخت (أليرت) في أية لحظة، لذا زاد سرعة المحرك ثم جرى على السطح وعكس وضع عجلة القيادة..

دوّى صوت مخيف وتصاعدت الفقاقيع وتزايد البخار الخارج من المحرك. واندفع النرويجي الشجاع نحو كتلة الهلام العملاقة التي ارتفعت فوق الفقاقيع.

اقترب الرأس المخيف جدا لكن (يوهانسن) واصل الاندفاع نحوه رائحة عفنة كأنه ألف قبر مفتوح.. ضوضاء لا يقدر أحد على تسجيلها على الورق.

وللحظة غاب اليخت في سحابة خضراء عفنة الرائحة، ثم اخترق اليخت الشيء الكريه.. وهنا راح ذلك الشيء يلتحم ثانية كأنه غاز سام.

لكنه كان يبتعد.. في كل ثانية كانت المسافة تتزايد بينما اليخت يظفر بمزيد من السرعة.

هنا فقط استطاع يوهانسن أن ينزل إلى قاع اليخت ليظفر بشيء من طعام له وذلك المجنون الذي لا يكف عن الضحك جواره.

ثم جاءت عاصفة الثاني من إبريل فلم يعد يذكر أي شيء.

كأنه كان يبحر في دوامات حول خلجان اللانهائية الذائبة، ويرحل عبر المجرات متعلقا بذيول الشهب.. وثبات جنونية من القاع إلى القمر ومن القمر للقاع ثانية.

لا يعرف متى ولا كيف جاءت سفينة (فيجيلانت) لتنقذه لم يكتب ما رآه ولم يصفه حتى لا يحسبوه مجنونا. فقط قرر أن يكتب لما شعر بقرب موته. الموت سيكون شيئا رائعا لو كان بوسعه محو الذكريات..

هذا هو ما كتبه وقد وضعت الأوراق جوار مذكرات عمي وذلك النقش. لن أقدر على النظر إلى الكون بالطريقة ذاتها ثانية، وحتى سماء الربيع وشمس الصيف سوف تكون أقرب إلى السم بالنسبة لي.

لا أحسب حياتي ستكون طويلة؛ لأنني سأرحل كما رحل عمي المسكين وكما رحل (يوهانسن). إن الأتباع أحياء وكذلك كتولو. لقد عادت مدينته اللعينة للغوص تحت البحر لأن (فيجيلانت) عبرت تلك البقعة مرة أخرى فلم تر شيئا.. لابد أنه فوجئ بأنه يغوص ثانية، وإلا لكان العالم يصرخ اليوم من الرعب والجنون.

من يعرف النهاية؟.. ما طفا قد يغوص وما غاص قد يطفو.

البشاعة تنتظر وتحلم في الأعماق بينما العطب يزحف على مدن البشر. سوف يأتي وقت (كتولو) لكن ليس بوسعي ولا

يجب أن أفكر في الأمر.

أدعو الله لو لم أعش طويلا، أن يتأكد من يعدمونني من أن هذه السطور لن تراها عين بشرية أخرى.

1926

موديـل بيكمان

لا حاجة بك لأن تفترض فيّ الجنون يا (إليوت)، فالكثير ممن سواي لديهم ميول أغرب من هذا. لِمَ لا تسخر من جد (أوليفر) الذي لا يركب سيارة أبدا؟.. لو كنت لا أحب هذا النفق اللعين فهذا شأني. لقد وصلنا على كل حال بسرعة راكبين عربة أجرة، ولو أخذنا السيارة لكان علينا أن نتسلق التل من بارك ستريت.

أعرف أنني أكثر عصبية مما كنت عندما رأيتني العام الماضي، لكن لا يجب أن تطلب رأى الأطباء. هناك سبب قوى وإنني لأحمد الله على أني ما زلت محتفظا بعقلي بعد هذا كله. لَمَ نركب في الدرجة الثالثة؟.. لم يكن الفضول من دأبك فيما سبق.

حسن.. لو كان ينبغي أن تعرف القصة فلا أرى سببا يمنع ذلك. ربما وجب هذا لأنك تكتب لي كأنك أب قلق منذ عرفت أنني قاطعت نادي الفنون وقررت الابتعاد عن بيكمان. الآن وقد اختفى الرجل صرت أتردد على نادي الفنون لكن ليس بكثرة لأن أعصابي لم تعد كما كانت..

لا.. لا أعرف ما حل ببيكمان ولا أريد أن أخمن. لابد أنك حدست أن لديّ أسبابا دفعتني للتخلي عنه، لهذا لا أريد أن أفكر في المكان الذي ذهب له. دع رجال الشرطة يعرفوا ذلك، فهم لا يعرفون مثلا بالمكان الشمالي في (نورث اند) الذي استأجره بيكمان باسم (بيترز).

لا أعتقد أنني قادر على العثور عليه ثانية، دعك من أني لا أريد ذلك حتى في ضوء النهار.

أخشى أنني أعرف لماذا أحتفظ بهذا سرا، ولسوف آتى لهذه النقطة. سوف تفهم عندما أنتهى لماذا لم أبلّغ الشرطة. لا أستطيع العودة هناك حتى لو كنت أعرف الطريق. لم أعد قادرا على اجتياز الأنفاق أو النزول لأي قبو وأعرف أن هذا يثير ضحكك أنا أعرف أن بيكمان كان موهوبا وعبقريا لهذا أقبل أي اتجاه يتخذه في عمله، ورأيي أن بوسطن لم تعرف فنانا أفضل من (ريتشارد أبتون بيكمان). لم يتغير رأيي لحظة حتى عندما رأيت لوحة (غول يأكل) التي جعلت (مينوت) يقاطعه.

كما تعرف يحتاج المرء لموهبة عظيمة كي يخرج أعمالا كالتي يقدمها بيكمان. كل رسام لأغلفة المجلات يمكن أن ينثر بعض الألوان ويسميها (ليلة السابات) أو (كابوس) لكنك تحتاج لفنان حقيقي كي تقدم لوحة مرعبة عن موضوع كهذا؛ فالفنان الحقيقي هو من يعرف تشريح الخوف أو فسيولوجية الهلع. يعرف خلطة الظلال والخطوط والإضاءة التي تثير ذلك الإحساس النائم فينا بالغرابة. لهذا تبعث لوحات (فيوسيلي Fuseli) [1] القشعريرة فيك. كذلك (أنجارولا Angarola) الأمريكي امتلك تلك الموهبة. ترى ماذا يراه هؤلاء ويرسمونه؟.. لكن دعنا نشرب ونتكلم عن شيء آخر..

تعرف أن نقطة قوة بيكمان كانت الوجوه.. منذ عصر (جويا Goya) لم أر فنانا رسم الجحيم ذاته على الوجوه.. قبل (جويا) عليك أن تبحث عن فناني القرون الوسطى الذين نحتوا الكراجل Gargoyles على كنيسة النوتردام. لقد صدقوا أشياء كثيرة وربما رأوا أشياء كثيرة كذلك.

أنت سألت بيكمان عن مصدر رسومه فضحك.. تلك الضحكة الكريهة التي أفزعت (ريد) وجعلته يقاطع بيكمان. ريد كان مولعا بدراسة علم الأمراض، وقد قال لنا إن بيكمان يثير نفوره بل ورعبه. قال إن ملامحه تتغير يوما بعد يوم حتى إنه ليبدو أحيانا غير آدمي.

لكن تذكر أني لم أتخل عن بيكمان لسبب كهذا، بل ازداد إعجابي به، لأن لوحة (غول يأكل) كانت مذهلة. لم يقبل النادي عرضها كما لم يقبلها متحف الفنون الرفيعة كهدية. لم يشترها أحد فظلت في بيت بيكمان. هي الآن في بيت أبيه في (سالم).. تعرف أن بيكمان من (سالم) وله جد شُنق هناك بتهمة السحر عام 1692.

لقد رأيت لوحاته فانبهرت بها، ولم يمر وقت طويل حتى صرت من المخلصين له. بدأ يثق فيّ أكثر فأكثر، فلمّح لي ذات ليلة أنني لو أغلقت فمي وتماسكت، فهو سوف يريني شيئا غير معتاد.. شيئا يفوق كل ما رأيته حتى هذه اللحظة.

قال لي في حماس:

- هل تعرف أنه كانت هناك طاحونة على تلة (كوب) عام 1632؟.. هل تعرف أن نصف الشوارع في (نورث اند) خُططت عام 1650؟.. يمكنني أن أريك بيوتا صمدت قرنين أو أكثر.. ما الذي يعرفه المعاصرون عن الحياة والقوى الكامنة خلفها؟.. ماذا تعرف عن سحرة (سالم)؟.. جدي كان بوسعه أن يخبرك بالكثير، فقد شُنق بينما (ماثر) اللعين [2] يراقب المشهد لأنه كان مذعورا من أن يحدث شيء يغير إيقاع الحياة الرتيب.. ألا لعنة الله عليه!.. ليت أحدهم امتص دمه ليلا..

يمكنني أن أريك البيت الذي عاش فيه، كما يمكنني أن أريك بيوتا كان يخشى أن يدخلها برغم ادعائه الشجاعة.. كان يعرف أشياء.. هل تعرف أن (نورث اند) كان يحوى أنفاقا تصل بيوت الناس ببعضها وتصلهم بالمقبرة والبحر؟.. كانوا يسمعون أصواتا لا يعرفون مصدرها طيلة الليل.. يمكنني أن أريك شيئا غريبا في قبو ثمانية بيوت من كل عشرة من البيوت التي بنيت قبل عام 1700. كانت هناك ساحرات مع كل ما تستدعيه طقوسهن السحرية.. كان هناك قراصنة مع كل ما جلبوه من البحر.. مهربون.. الناس كانوا يعرفون كيف يعيشون في تلك الأزمنة!.. قارن بين هؤلاء وعقول اليوم الوردية المترهلة التي تهز أكتافها في استنكار لو رأت لوحة يخرج موضوعها عن منضدة شاي!

- المزية الوحيدة للحاضر هي أنه غبي بحيث لا يفكر كثيرا في الماضي. بم تخبرك الخرائط وأدلة السياح؟.. لا شيء.. يمكنني أن أريك أزقة وممرات لا يشك في وجودها أحد من الأحياء وما من أحد يمكنه الانتفاع من هذه المعرفة.. لا.. هناك واحد يمكنه الانتفاع، فأنا لم أُجر هذا التنقيب بلا مقابل.

- هل تعرف يا (ثيربر) أن لديّ مرسما آخر هناك، حيث يكون بوسعي أن أرسم الكوابيس مباشرة؟.. بالطبع لا أخبر بهذا أحدا من هؤلاء العجزة في النادي، و (ريد) اللعين يهمس في كل مكان أنني وحش يهوي لأسفل في منحدر الارتقاء. لقد أزمعت منذ زمن أن أرسم الرعب كما نرسم الحياة من الحياة ذاتها.. لذا بحثت حيث يوجد الرعب..

- أعرف مكانا أشك في أن ثلاثة رجال أحياء يعرفون عنه أي شيء.. إن عمره قرون، وقد استأجرته من أجل بئر من القرميد في القبو.. هذا الكوخ يتهاوى لذا لم يعد أحد يعيش هناك وأكره أن أخبرك بضآلة المبلغ الذي أدفعه. أرسم في القبو حيث الإلهام الكثيف لكني استأجرت غرفا أخرى في الطابق الأرضي، وقد استخدمت اسما مستعارا هو (بيتر).

- لو أردت سآخذك هناك الليلة.. سوف تحب الرسوم.. أنا أذهب هناك على القدمين لأنني لا أريد لفت الأنظار بسيارة أجرة في مكان كهذا. سوف نستقل عربة من (ساوث ستيشن) قاصدين باتري ستريت، ومن هناك لن تكون المسافة بعيدة.

حسن يا إليوت.. لم يكن هناك الكثير مما أفعه بعد هذه الخطبة البليغة، سوى أن أمنع نفسي من الفرار بدلاً من ركوب أول عربة أجرة وجدناها. سرعان ما وصلنا لشارع باتري ومشينا جوار الميناء القديم.. لا أذكر الشوارع بدقة ولا أذكر أية تقاطعات اتخذناها لكنه لم يكن زقاق (جريناف) على كل حال.

كان علينا أن نرتقي أقدم وأقذر زقاق رأيته في حياتي، بنوافذ صغيرة مهشمة ومداخن شبه بالية تقف متهالكة أمام السماء التي ينيرها القمر. لا أعتقد أن هناك أي بيت لم يكن موجودا في عصر (كوتن ماثر).

من هذا الزقاق دلفنا إلى اليسار حيث زقاق مماثل صامت وضيق بلا ضوء على الإطلاق. ثم كان ينحرف بزاوية منفرجة إلى اليمين. أخرج مصباحا سلّطه على باب متهالك يعود لعصر الطوفان. ثم دخلنا إلى ممر يبطنه خشب البلوط.. بسيط لكنه

يوحي لك فعلا بعصور السحر الأولى. أخيرا أوقد مصباحًا من الزيت وطلب مني أن أخذ راحتي.

حسن يا إليوت.. أنا رجل شديد المراس كما يقولون لكن أعترف أن ما رأيته على جدران هذه الغرفة قد أفزعني. إنها لوحاته التي لم يكن يجسر على عرضها في شارع (نيوبيري).. كان محقا عندما قال إنه أخذ راحته.. خذ كأسا فأنا بحاجة لواحد!

لا جدوى من أن أصفها لك لأن الرعب الشنيع الكافر والبشاعة المستعصية على التصديق يأتيان من لمسات تفوق قدرة الكلمات على التصنيف. لم تكن هناك تعقيدات ولا خلفيات متحذلقة. الخلفيات كانت ساحات كنائس قديمة وغابات وصخورا على البحر وأنفاقا.. مقبرة هضبة (كوب) القريبة من هذا الموضع.

الرعب الحقيقي كان يأتي من الأشكال الأمامية في الصور لأن براعته الأساسية كانت في البورتريهات الشيطانية. لم تكن وجوه بشر بالضبط.. كانت كائنات تمشى على قدمين ومنحنية للأمام ولها طابع عام كلبي. كل هذه الكائنات كانت تأكل لا تسألني تأكل ماذا..

كانوا يظهرون كمجموعات في المقابر وتحت الأرض أو متصارعين على الفرائس.. أحيانا تراهم يثبون من نوافذ مفتوحة ليلاً، أو يقعون على صدور النيام.. هناك لوحة تظهرهم يلتفون حول ساحرة مشنوقة وجهها يشبه وجوههم.

إنها حية!.. صدقني فلست صبيا في الثالثة. هذا الساحر الملعون قد أيقظ الشياطين على القماش وفرشاته كانت عصا سحرية. ناولني هذا الإناء يا إليوت!

كانت هناك لوحة اسمها (الدرس).. فليرحمني الله!.. تصور مجموعة من هذه الكائنات الكلبية تحيط بطفل ليلا وتعلمه كيف يأكل مثلها!... هنا بدأت أفهم.. هناك ارتباط بين وجوه الأطفال ووجوه هذه الكائنات الكلبية.. لقد رسم بيكمان حلقة الوصل.. هذه الكائنات كانت بشرا قبل هذا!

استبدال الأطفال... هل تذكر الأسطورة التي تقول إن الأشرار يسرقون الأطفال الرضع ويضعون بذرتهم مكانهم في المهد؟..

ثم إنه حمل المصباح واقتادني إلى غرفة أخرى، وقد سره الفزع الذي بدأ يظهر عليّ. في الغرفة الثانية كانت لوحات أكثر إرعابا... هناك لوحة تظهر مجموعة من تلك الكائنات تسللت عبر مقبرة تحت الأرض إلى نفق (بابيلون ستريت) لتهاجم الناس الواقفين على الرصيف بانتظار المترو. هناك عدة لوحات لكائنات من هذه وقد تسللت إلى قبو، وهي تنتظر في ركن مظلم أولئك الذين سينزلون الدرجات إلى ذلك القبو..

هناك رسمٌ أثار ذعري بالذات وهو مجموعة من المسوخ تحيط بأحدها في قبو تحت الأرض، وهو يمسك بدليل سياحي لبوسطن في يده ويقرأ بصوت عال. كانوا يضحكون بوحشية حتى إنني كدت أسمع ضحكاتهم.

كنت أشعر بفزع من بيكمان، فلابد أن الرجل تجرد من كل عطف أو حب للبشر حتى يروق له أن يرسم كل هذا التعذيب والرعب.. ثم إنني كنت خائفا من روعة الأعمال.. هذه ليست رسوما تمثل الشياطين بل هي الشياطين ذاتها.. والغريب أن الرجل لم يستخدم أساليب الغموض والإيحاء بل كان كل شيء

واضحا محددا.. لم يحاول أن يرينا ضبابية الأحلام بل جعل كل شيء واقعيا دقيقا.

شيء واحد كان مؤكدا.. بيكمان كان بكل معنى الكلمة واقعيا دقيقا علميا.

كان الآن يقتادني لمرسمه ذاته وقد هبطنا لأسفل الدرجات الرطبة. أشار بالكشاف إلى فتحة في الأرض. وقال لي إن هذه تقود إلى ما كان يحكي عنه.. شبكة الأنفاق تحت الأرض.

نظرت للبئر ورحت أفكر في الأهوال التي قد كانت تحويها، وارتجفت.

كانت الغرفة مضاءة بمصباح من غاز الأسيتيلين، وكانت اللوحات التي لم تنته بعد معلقة على الجدار مرعبة كمثيلاتها المكتملات. كانت مرسومة بعناية رهيبة.. الرجل كان عظيما وأنا أقولها من جديد.. فقط لاحظت كاميرا كبيرة على المنضدة فأخبرني أنه يصور بها الخلفيات التي يتخذها لرسومه.

ثم أزاح الستار عن لوحة جعلتني أطلق صرخة رعب.. الصرخة الثانية لي هذه الليلة، فقد كانت تظهر كيانا جبارا لا اسم له، وله عينان حمراوان تلمعان، وكان يمسك بيد مخلبية بقايا رجل وهو يقضم رأسه كما يقضم الطفل قطعة حلوى. كان يجلس القرفصاء لكن كلما أمعنت النظر شعرت بأنه سوف يتخلى عن فريسته بحثا عن فريسة أكثر دسامة. لكن لم تكن بشاعته ولا التفاصيل هي ما سبّب ذعري لم تكن هي بالشيء الذي يدفع رجلاً مذعورا للجنون.

كانت التقنية.. التقنية غير الطبيعية يا إليوت.. لم أر في حياتي قط الحياة ذاتها وقد ذابت على قماش الرسم. المسخ كان هناك وكان يمضغ ويمضغ.. أعرف أن قوانين الطبيعة تجعل من المستحيل أن يرسم إنسان شيئا كهذا من دون موديل. من دون لمحة لعالم سفلي لم يظفر بها أي بشرى لم يبع نفسه للشيطان.

كانت هناك قطعة ورقية مثبتة بدبوس ضغط لجزء خال من القماش، وكانت مجعدة.. خطر لي أنها صورة فوتوغرافية للخلفية التي رسم بيكمان اللوحة عليها. مددت يدي لها فتصلب بيكمان كأنه ضُرب بالرصاص. كان يصغي لأصداء صرختي، لكنه الآن انتفض تحت تأثير رعب جارف وأخرج مسدسا وأمرني بالصمت، ثم خرج إلى القبو الرئيس وأغلق الباب خلفه.

أحسبني أصبت بالشلل للحظة. جربت أن أصغي مثله فسمعت صوت شيء ينسل في مكان ما مع صرخات حادة لم أعرف اتجاهها. ثم جاءت قرعات جعلت جلدي يصير جلد إوزة.. قعقعة مختلسة لا أعرف كيف أعبر عنها.. كأنها خشب ثقيل يسقط على حجر. خشب على حجر.. ماذا جعلني هذا أفكر فيه؟

عاد الصوت أعلى.. ثم دوت ضوضاء وصراخ مختلط من بيكمان.. ثم الصوت الذي يصم الآذان لدوي الرصاصات الست من مسدسه. كان يطلق كأنه مروض أسود يطلق الرصاص في الهواء للتخويف.

من جديد الدوي.. ثم صوت باب يفتح..

ظهر بيكمان على الباب والدخان يخرج من فوهة مسدسه وهو يشتم الفئران التي تعمر الجدران العتيقة.

- لا أعرف ما تأكله الفئران يا ثيربر.. هذه الأنفاق تصل للمقبرة وعرين الساحرات.. لكن صراخك أرعبها، ولكن كن حذرا في هذه الأماكن العتيقة.. برغم أنني أعتقد أن هذه الفئران مهمة لعملي من حيث الجو واللون.

- كانت هذه يا إليوت نهاية مغامرة الليل. لقد وعد بأن يريني المكان وقد فعل ذلك.

اقتادني عبر شبكة المرات في اتجاه آخر لأننا حين خرجنا كنا في شارع نصف مألوف تحيط به بيوت عتيقة. هذا شارع (تشارتر) لكنني كنت مرتبكا فلم أدر متى بلغناه. عدنا للمدينة عبر شارع (هانوفر).. وتركني بيكمان عند ركن (جوي) ولم أتكلم معه ثانية بعد ذلك.

لم تخليت عنه؟.. لا تفقد صبرك.. انتظر حتى أطلب القهوة.

لم تكن الرسوم هي السبب.. برغم أنها كانت كافية لجعله منبوذا في تسعة أعشار بيوت بوسطن.. أعتقد أنك تفهم الآن لماذا أكره الأنفاق والأقبية.. كان هذا شيئا وجدته في جيبي في الصباح التالي. الورقة المجعدة التي وجدتها على قماش اللوحة في القبو. الورقة التي يبدو أنني دسستها لا شعوريا في جيبي.. هذه هي القهوة.. خذها سوداء بلا سكر يا إليوت.. صدقني.

هذه الورقة هي سبب مقاطعتي لبيكمان أعظم فنان عرفته. أشر كيان عبر من حدود الحياة إلى حفر الأسطورة والجنون. ريد

كان على حق.. لابد أن بيكمان وجد طريقة يفتح بها البوابة المحرمة. لا فارق لأنه عاد إلى الظلمات التي يحبها..

فلنشعل الشمعدان.

لا تسألني عن الشيء الذي أحرقته.. لا تسألني عن سبب هذه الأصوات التي زعم بيكمان أنها فئران. هناك أسرار تعود لماضي (سالم) وقد حكى (ماثر) عن الكثير. كنا نتساءل عن تلك الوجوه التي رسمها بيكمان في لوحاته.

لم تكن تلك الورقة صورة تستعمل كخلفية للمشهد، بل كانت تظهر ذلك المسخ الشيطاني الذي رسمه على القماش.. كان هذا هو الموديل الذي استعمله وكانت خلفية الصورة هي المرسم الذي كنت فيه.

لقد كانت صورة فوتوغرافية حقيقية يا إليوت!

بحث إيرانون

53

في مدينة (تيلوث) الجرانيتية يمشى الشاب وقد توج رأسه بالكَرْم، وشعره الأصفر يلتمع بنبات المُر، وقد تمزق رداؤه الأرجواني من أشواك نبات (السيدراك) المزروع عبر الجسر الحجري العتيق. رجال (تيلوث) عابسون سمر البشرة يعيشون في بيوت مكعبة، وقد سألوا الغريب من أين جاء وما اسمه ووجهته، فأجاب الشاب:

- أنا (إيرانون).. جئت من (إيرا) وهي مدينة نائية أتذكرها بصعوبة لكنني أريد أن أجدها ثانية. أنا أُغنّي الأغاني التي تعلمتها في المدينة البعيدة.. ثروتي هي الذكريات والأحلام التي أُغنّي لها في الحدائق، حين يكون القمر حانيا وريح الشمال تداعب براعم اللوتس..

- عندما سمع رجال (تيلوث) هذا تهامسوا؛ لأن أهل المدينة صارمون لا يضحكون ولا يغنون، لكنهم أحيانا ينظرون لجبال (كارثيا) في الربيع ويفكرون في معازف (أووناي) التي حكى عنها المسافرون. هكذا سمحوا للغريب بالبقاء والغناء أمام برج (ملين) برغم أنهم لم يحبوا لون ثيابه ولا الشباب في صوته الذهبي.

في المساء كان (إيرانون) يغني.. فقال رجل كفيف إنه رأى هالة فوق رأس المغنى. لكن معظم قوم (تيلوث) تثاءبوا وبعضهم نام لأن إيرانون لم يقل شيئا مهما سوى الغناء لذكرياته وأحلامه.

- إيرا.. يا مدينة الرخام والفيروز.. ما أكثر محاسنك!.. لكم أحببت الأيك في (نيثرا) وشلالات (كرا) التي تجري عبر الوادي الأخضر!.. في تلك الرياض كان الصبية يصنعون الأكاليل

لبعضهم، وعند الغسق حلمت بحلم غريب تحت شجرة (إلياث) عندما رأيت تحتي أضواء المدينة، و (نثرا) يتلوى ليعكس شريطا من النجوم.

- في المدينة كانت قصور من الرخام لها قباب ذهبية وجدران منقوشة وحدائق خضر ونوافير بلورية. كم نمت وحلمت بين الأزهار الشاحبة تحت الأشجار، وأحيانا كنت أتسلق إلى القلعة وأنظر إلى إيرا تحتي.. مدينة الرخام والفيروز السحرية في ثوب من اللهب الذهبي.

- لكم لكن أفتقدك يا إيرا..!.. كنت صغيرا عندما ذهبنا إلى المنفى، أبي كان ملكك ولسوف أعود لك ثانية.. بحثت عنك في سبع أراضين ويوما ما سأحكم رياضك وحدائقك وشوارعك وقصورك ولسوف أغني للرجال الذين يعرفون عن أي شيء أُغني.. أنا إيرانون أميرا إيرا

- في هذه الليلة جعله الرجال يبيت في الإسطبل، وفي الصباح جاءه الحاكم وقال له إن عليه أن يذهب لآزوك الإسكافي ليعمل عنده.

- لكنني إيرانون المغني.. لا أجيد مهنة الإسكافي.

- الكل في تيلوث يكدح.. هذا هو القانون..

قال إيرانون:

- ولماذا يجب أن تكدحوا؟.. ألا يمكنكم أن تعيشوا حياة سعيدة؟.. تكدحون لتحيوا لكن أليست الحياة هي الجمال

والغناء؟.. متى تجنون ثمار كدحكم؟.. الكد بلا أغان كرحلة طويلة بلا نهاية.. أليس الموت أكثر مسرة؟..

لكن الحاكم كان متجهما ولم يفهم ما قيل.

- أنت شاب غريب وأنا لا أحب صوتك ولا شكلك.. ما تقوله كفر لأن آلهة تيلوث قالت إن الكد طيب.. اذهب إلى (أزوك) الإسكافي أو غادر المدينة قبل الغروب..

هكذا مشى الفتى بين البيوت الحجرية الكئيبة يتمنى لو رأى شيئا واحدا أخضر.. لم ير سوى العبوس، لكنه جوار نهر (زورو) الراكد رأى صبيا يتأمل الماء بعينين حزينتين، وقال له:

- هل أنت ذلك الذي يتحدث عنه الحكام ويقولون إنه يبحث عن مدينة خيالية نائية؟.. أنا (رومنود) الذي ولد هنا لكنه لا يحسن التعامل.. أحن إلى رياض دافئة وأغان وجمال. خلف جبال (كارثيا) هناك مدينة (أووناي) التي حكى عنها المسافرون.

يقولون إنها جميلة ورهيبة.. تعال نغادر (تيلوث) معا ونقصد تلك المدينة. وسوف أصغي لأغانيك ليلا عندما تجلب النجوم الأحلام إلى الحالمين. ربما كانت تلك المدينة هي (إيرا) التي تبحث عنها. سوف يرحب بنا الناس هناك ولن يسخروا منا..

قال إيرانون:

- أنا كنت أغني في صباي لكن لم يصغ لي أحد.. كان الرجال يسخرون مني ويطردونني.. جربت كل مكان لكني أعرف أنني لن ألقى الترحاب إلا في إيرا.. مدينة الرخام والفيروز التي حكمها أبي

يوما.. سنبحث عن إيرا برغم أننا قد نجدها في أووناي وإن كنت أشك في هذا لأن جمال إيرا خارق لا يمكن أن تصفه من دون أن تنبهر، بينما عن أووناي يتهامس راكبو الجمال في حذر..

عند الغروب انطلق إيرانون ورومنود بين التلال الخضر والغابات الباردة. وكان الطريق وعرا غامضا فلم يشعرا قط أنهما اقتربا من أووناي مدينة المعازف والرقص. وعند الغسق كان إيرانون يغني لمغاني مدينة (إيرا) بينما الصبي يصغي، وأكلا الكثير من الفاكهة والفراولة ولم يشعرا بمرور الوقت لكن لابد أن زمنا طويلا مضى. لم يعد رومنود الصغير صغيرا وإن ظل إيرانون كما كان.. ثم جاءت اللحظة التي بدا فيها أن رومنود أكبر سنا من إيرانون. برغم أنه كان صبيا صغيرا عندما جلس يتأمل الماء في نهر زورو الراكد.

ذات ليلة عندما اكتمل القمر، وصل المسافران إلى حافة صخرية تطل على أنوار أووناي التي لا تعد ولا تحصى. قال لهما الفلاحون إنهما قريبان، وعرف إيرانون أن هذه ليست مدينته. كانت الأنوار هنا حادة بينما في مدينته كانت الأضواء ناعمة كضوء القمر إذ تسرب من النافذة بينما أمه تغني له وهو طفل. أووناي كانت مدينة معازف ورقص لذا انحدر إيرانون ورومنود بحثا عن أناس يجلب لهم الغناء والأحلام بعض السعادة. لكنهما وجدا في المدينة أناسا يعربدون بين بيت وبيت ويطلون من النوافذ والشرفات. وقد وضعوا أكاليل الورود، وكلهم يصغون لغناء إيرانون ويقذفونه بالورود.. هكذا شعر الرجل بأنه وجد أولئك الذين يفكرون ويشعرون مثله.

عندما بزغ الفجر نظر إيرانون حوله في حسرة؛ لأن قباب أووناي لم تكن ذهبية في الشمس، ورجال أووناي كانوا شاحبين من العربدة أثقلت الخمر عقولهم، فلم يكونوا كرجال إيرانون. لكنهم أحبوا غناءه لذا قرر أن يبقى معهم.

راح يغني في القصور على منصة بلورية فوق أرض من المرايا، ومنحه الملك عباءة أرجوانية محلاة بالذهب وأساور من العاج وأسكنه في غرفة مذهبة على فراش من الخشب المنقوش، له سقف من الحرير الموشى بالزهور.. هكذا عاش إيرانون في أووناي مدينة المعازف والرقص..

لا نعرف كم مكث إيرانون في أووناي، لكن ذات يوم جاء الملك براقصين متوحشين من صحراء ليرانيان، وعازف ناي داكن البشرة من درينن في الشرق، ومن ثم كف القوم عن إلقاء أزهارهم على إيرانون وراحوا يلقونها على الراقصين وعازف الناي.

الفتي رومنود كبر أكثر فأكثر واحمر وجهه من فرط شرب الخمر، وصار يحلم أقل فأقل، ولم يعد يهتم كثيرا بغناء إيرانون وذات ليلة كان الفتى الذي ازداد سمنة يلتهم طعام مأدبة عندما راح يشهق ويبحث عن الهواء، ثم مات مختنقا جوار إيرانون الذي كان يغني في حزن.

بعد ما بكي إيرانون جوار قبر رومنود، ألقى عليه أغصان الأشجار التي كان يحبها، ثم نزع ثيابه التي منحها له الملك وغادر مدينة أووناي.. مدينة المعازف والرقص..

في ضوء الغروب مضى إيرانون يبحث عن مدينته ورجال يفهمون أغانيه وأحلامه. ظل شابا للأبد وهو يغنى لإيرا بهجة الماضي وحلم الغد.

ذات ليلة بلغ كوخا عتيقا لراع يحرس قطيعا، على منحدر صخري يطل على مستنقع رمال متحركة. قال له إيرانون:

- هلا أخبرتني عن مكان إيرا.. مدينة الرخام والفيروز.. حيث يجري نثرا وحيث تغنى شلالات نهر كرا للوديان الخضر؟..

سمع الراعي هذا فنظر بدهشة لإيرانون كأنه يتذكر شيئا ثم هز رأسه وقال:

- أيها الغريب.. أنا قد سمعت اسم إيرا والأسماء الأخرى التي ذكرتها، لكنها تأتيني عبر ذكريات قصية.. سمعتها في شبابي من شفتي صديق لعب.. ابن متسول اعتاد أن يؤلف قصصا خرافية عن القمر وحكايات الأرض الغربية. كان يحسب نفسه ابن الملك برغم أننا كنا نعرفه منذ ولد.. كان وسيما لكنه مليء بالحماقة والغرابة. وقد هرب في صبانا كي يجد من يصغون لقصصه وأحلامه. كان يحكي عن أرض لم تكن ولا يمكن أن تكون!.. كان يحكي عن إيرا ونهر كرا. كان يحكي أنه عاش هناك كأمير برغم أننا عرفناه منذ ولد ولم تكن هناك قط مدينة اسمها إيرا.. لا وجود لها إلا في أحلام صديق طفولتي إيرانون.

وفي ضوء الشفق إذ ظهرت النجوم واحدة تلو أخرى، مشى نحو الرمال المتحركة رجل مسن يلبس ثيابا رثة أرجوانية، وعلى رأسه تاج من أوراق الكرم، وهو ينظر أمامه كأنما يتأمل قباب إيرا الذهبية، حيث يفهمون الأحلام. في تلك الليلة شهد العالم القديم مصرع الجمال والشباب.

موسيقا إريك زان

لقد قمت بفحص خرائط المدينة بعناية عظيمة، لكني لم أجد شارع (دوسيه) ثانية. لم تكن الخرائط حديثة فحسب لأنني أعرف أن الأسماء تتغير. لقد بحثت في كل التاريخ القديم للمكان وبحثت في كل بقعة عن هذا الشارع. برغم هذا تظل الحقيقة المحرجة هي أنني غير قادر على إيجاد البيت ولا الشارع الذي سمعت فيه في الأشهر الأخيرة من حياتي الفقيرة كدارس ميتافيزيقا بالجامعة موسيقا (إريك زان).

كون ذاكرتي محطمة فهذا شيء لا يدهشني.. إن صحتي العقلية والجسدية قد تأذّت كثيرا أثناء إقامتي في شارع (دوسيه). لكني ما زلت مرتبكا لأنني نسيت المكان الذي لم يكن يبعد عن الجامعة أكثر من نصف ساعة من المشي وكان مميزا.. لكني لم ألق قط من رأى شارع (دوسيه).

يقع الشارع عبر نهر أسود المياه تحيط به مستودعات بنيت من قرميد، ويعبره جسر من الحجر الأسود. كان النهر أسود دائما كأن دخان المصانع القريبة يحجب عنه الشمس للأبد. وكانت مياه النهر خبيثة الرائحة وأنا أعتمد على هذه الرائحة في العثور عليه يوما ما. أخيرا تصل لممر مبلط بحجر الإسكافي يقودك إلى شارع (دوسيه).

علق هؤلاء القوم في ذاكرتي بسبب تقدمهم الواضح في السن لا أعرف لماذا عشت في هذا الشارع لكنها كانت فترة قاسية في حياتي تنقلت فيها بين عدة مساكن بسب إفلاسي. حتى وصلت إلى هذا المسكن الذي يملكه (بلاندو) المشلول. كان ثالث بيت من بداية الشارع وأعلى البنايات هناك.

غرفتي كانت في الطابق الخامس وكانت الوحيدة المسكونة لأن البناية كانت خالية. ليلة وصولي سمعت موسيقا من العلية فوق وسألت عنها (بلاندو) العجوز في اليوم التالي. قال لي إن العازف هو ألماني أخرس يعزف الكمان يوقع باسم (إريك زان).. قال لي إن هواية (زان) في العزف بعد عودته من الأوركسترا ليلاً هي سبب اختيار هذه الغرفة له.

رحت أسمع زان كل ليلة، وبرغم أنه كان يمنعني من النوم، فإن غرابة موسيقاه أبهرتني.. لم تكن تمت بصلة لأية موسيقا سمعتها من قبل. قررت أنه عازف شديد الأصالة.. كلما أصغيت انبهرت وبعد أسبوع قررت أن أتعرف به.

ذات ليلة كان عائدا من العمل فاستوقفته وقلت له إنني أريد أن أعرفه وأكون معه وهو يعزف. كان رجلاً صغير الحجم متواضع الثياب أزرق العينين له وجه غريب ورأس أصلع. وبدا كأنه اندهش وغضب لكلماتي. في النهاية تراجع أمام مودتي الواضحة. وأشار لي أن أتبعه إلى العلية. كانت غرفته في الجهة الغربية المطلة على الشارع، وكانت غرفته واسعة جدا.. بدت كذلك بسبب خلوها من الأثاث. سرير معدني وحوض غسيل وثلاثة مقاعد ومكتبة عملاقة. كان الغبار وخيوط العنكبوت في كل مكان مما جعل المكان يبدو غير مسكون. من الواضح أن عالم الجمال الذي يراه موجود في خياله فقط.

أغلق الباب وأشعل شمعة وأخرج الكمان من علبته المتآكلة وجلس على مقعد غير مريح. لم ينظر لنوتة وإنما راح يعزف من الذاكرة.. سحرني لمدة ساعة بمقطوعات لم أسمعها من قبل ومن المستحيل أن يصفها من ليس مختصا.

دندنت لنفسي هذه الألحان مرارا فيما بعد، وعندما انتهى عزفه طلبت منه أن يكرر بعض المقاطع فوضع القوس جانبا وارتسم على وجهه ذلك المزيج من الخوف والضيق الذي رأيته على وجهه أول مرة. حاولت أن أصفر بعض الألحان كما سمعتها منه أمس، لكن يده العظمية امتدت في حزم إلى فمي لتمنعني من تقليد هذه الألحان.

وهنا أظهر علامة أخرى على غرابة أطواره عندما اختلس نظرة إلى النافذة كأنه يخشى قدوم متطفل يتوقعه، وهو تصرف غريب لأن العلية تقع فوق مستوى كل البنايات المحيطة بها وهذه النافذة تطل على الشارع المنحدر.

شعرت برغبة في أن ألقي نظرة من تلك النافذة لأرى تلك الأسطح التي يغمرها ضوء القمر، والتي لا يبصرها أحد سوى هذا الساكن. اتجهت للنافذة وكدت أجذب الستائر عديمة الشكل، لولا أن لحق بي الساكن الأخرس بغضب مذعور أكثر مما سبق، وهذه المرة كان يشير للباب في عصبية متأهبا لجرّي بيديه لو اقتضى الأمر.

تضايقت منه فطلبت منه أن يتركني وقلت إنني سأنصرف استرخت قبضتي ولاحظ اشمئزازي فبدأ غضبه يتلاشى. ثم أشار لي إلى مقعد كي أجلس وكتب لي كلمات على ورقة بفرنسية رديئة جديرة بأجنبي.

كانت الورقة التي ناولها لي تحمل عبارات طلب العفو. كتب إنه وحيد عجوز تنتابه مخاوف غامضة. لقد أحب إنصاتي لموسيقاه ورجا أن أعود له ولا أبالي بغرابة أطواره. لكنه لا يطيق

أن يسمع ألحانه من شخص آخر ولا يطيق أن يلمس أي شخص شيئا في غرفته.

طلب مني أن أطلب من (بلاندو) أن ينقلني لغرفة في طابق تحت هذا كي لا يضايقني صوت العزف ليلا، وقال إنه سيدفع أي فارق في الإيجار.

شعرت بتعاطف مع الرجل، فهو مرهق بمخاوف نفسية مثلي، وقد علمتني دراستي أن أتسامح.

جاء صوت من خارج الغرفة فلابد أن المصراع تحرك مع هواء الليل، لذا أجفلت لكنه أجفل مثلي. صافحته وانصرفت في النهاية.

في اليوم التالي أعطاني (بلاندو) غرفة أغلى سعرا في الطابق الثالث، بين غرفتي مراب عجوز ومنجد. لم يكن هناك سكان في الطابق الرابع.

لم يطلب مني (زان) أن أزوره ثانية، وحينما زرته لم يبد مستريحا.. كان هذا في الليل دوما لأنه ينام نهارا. لم يزدد إعجابي به برغم أنني كنت مفتونا بالعلية والموسيقا الغريبة. كنت أريد أن ألقي نظرة من تلك النافذة، لكني تسللت مرة إلى هناك أثناء ذهابه للأوركسترا، لكن بابه كان مغلقا.

ما نجحت فيه كان سماع العزف الليلى لهذا العجوز. في البداية كنت أصعد على أطراف أصابعي للطابق الخامس ثم تجرأت على الصعود للعلية. هناك خلف الباب المغلق الذي تم سد ثقب مفتاحه، كنت أسمع موسيقا تفعمني رعبا غير محدد.. ليس لأن الأصوات كانت مزعجة فهي لم تكن كذلك،

لكن النغمات كانت توحي بشيء غير أرضى وأحيانا كانت تتخذ شكل سيمفونية لا أتصور أنها تصدر عن عازف واحد..

مرت الأسابيع وازداد العزف توحشنا بينما اكتسب العازف جموحا غريبا.. لم يعد يسمح لي بالدخول في أي وقت، وكان يتجنبني إذا التقينا على الدرج.

ذات ليلة تحول صوت الكمان إلى جحيم من الأصوات جعلني أشك في عقلي.. ولولا يقيني من أن هذا الرعب حقيقي.. لولا سماعي خلف الباب تلك الصرخة المفزعة التي لا تخرج إلا من فم أخرس في أعنف لحظات الرعب. طرقت الباب مرارا بلا جواب..

مرت لحظات ثم سمعت العجوز البائس يحاول النهوض من على الأرض.. تصورت أنه فقد الوعي واستعاده فواصلت الدق. سمعته يغلق مصراعي النافذة ثم يتجه للباب فيفتحه. هذه المرة بدا راضيا عن مجيئي وتعلق بمعطفي كما يتعلق طفل بأمه.

جعلني أدخل وأجلس على مقعد وجلس على آخر، وراح يهز رأسه لبعض الوقت كأنه يصغي. ثم اتجه إلى المنضدة وكتب مذكرة ناولها لي. كانت المذكرة تتوسل لي أن أبقى حيث أنا إلى أن يكتب بالألمانية تقريرا كاملا عن كل الغرائب والأهوال التي تحدق به.

انتظرت فراح قلمه يجرى على الورق.

ربما مرت ساعة وأنا جالس أنتظر، بينما الموسيقار العجوز يكتب ورقة تلو أخرى.. من حين لآخر ينظر للستار والنافذة.

خيل لي إنني أسمع صوتا بعيدا أقرب إلى عازف في بيت بعيد بالخارج. كان تأثير هذا على زان مخيفا لأنه نهض وأمسك بالكمان وبدأ يعزف أعنف عزف سمعته منه.

من العسير أن أصف عزفه في تلك الليلة؛ لأنني كنت أرى وجهه وأدرك أنه يعزف من فرط الرعب. كان يحاول عمل جلبة كأنه يبعد شيئا ما... ازداد العزف جنونا لكنه احتفظ بالعبقرية التي عرفتها في كل ألحان هذا الرجل. ميزت الطابع العام إنها رقصة مجرية عنيفة معروفة في المسارح وللمرة الأولى أسمع زان يعزف لحنا لعازف آخر.

أعلى فأعلى.. أعنف فأعنف.. الكمان يصرخ. كان العازف يتصبب عرقا وراح يتلوى كقرد. في عنفه كنت أرى ظلالاً للساتير وعبدة باخوس يرقصون في هوة عميقة وسط الدخان والبرق.

بدأ المصراع يهتز مع ريح الليل العاوية كأنه يتجاوب مع العزف المجنون. الكمان يبعث نغمات لا أصدق أن الكمان قادر على بعثها. راح المصراع يهتز بقوة ويضرب النافذة. ثم تهشم الزجاج فاندفعت الريح الباردة للداخل وطارت الأوراق على المنضدة التي كان زان يكتب ذكرياته عليها. نظرت لزان فوجدت أنه تقريبا غائب عن الوعي.. عيناه الزرقاوان جاحظتان زجاجيتان لا تريان، والعزف صار طقسا عربيدا لا يستطيع قلم أن يصفه.

فجأة حمل الأوراق وهرع إلى النافذة وفى حسرة راقبت الأوراق تطير. هنا تذكرت رغبتي في النظر من هذه النافذة كان الظلام دامسا لكن أضواء المدينة كانت تتوهج وتوقعت أن أراها وسط الريح والمطر.

لكن حينما نظرت من النافذة.. نظرت بينما الشموع تهتز والكمان المجنون يعوى بريح المساء. لم أر مدينة.. لا أضواء ولا شوارع.. فقط سواد فضاء بلا نهاية.. فضاء لا يشبه أي ل شيء على الأرض..

واذ وقفت أنظر في رعب أطفأ الهواء ضوء الشموع تاركا إياي واقفا في الظلام المتوحش الكثيف والجحيم أمامي. وجنون الكمان من خلفي.

تراجعت في الظلام فاصطدمت بالمنضدة وأسقطت مقعدا.

لأنقذ نفسي وزان يجب أن أحاول مهما كانت القوى التي أجابهها.. يخيل لي إن شيئا باردا اصطدم بي فصرخت لكن صرختي لم تتغلب على صوت الكمان. وفجأة من الظلام ضربني القوس المجنون.. عرفت أنني بقرب العازف..

مددت يدي لمقعد زان وهززت كتفه. لم يستجب.. واستمر الكمان في العواء..

مددت يدي لرأسه لأوقف حركته الميكانيكية وصرخت فيه كي نفر معا من رعب الظلام.. لكنه لم يرد ولم يخفف من جنون موسيقاه.

عندما لمست يدي أذنه ارتجفت.. لم أعرف السبب.. لم أعرف حتى لمست وجهه فأدركت أنه بارد كالثلج متصلب لا يتنفس. بمعجزة ما وجدت الباب والمزلاج فاندفعت فارا من هذا الشيء زجاجي العينين في الظلام.. من عواء هذا الكمان الملعون الذي يزداد جنونا.

جريت عبر الدرجات التي لا نهاية لها، راكضا نحو الشوارع الضيقة. ألهث عبر الجسر الأسود عابرا إلى الشوارع الواسعة الصحية التي أعرفها. لم تكن هناك ريح.. كان القمر مكتملاً والمدينة كلها تتوهج بالضوء.

برغم بحثي المدقق لم أستطع قط أن أجد شارع (دوسيه) من حينها.. لكنني لست نادما على هذا ولا على فقدان تلك الأوراق التي كان بوسعها أن تفسر لي لغز موسيقا (إريك زان) [3].

العجوز المخيف

كانت تلك فكرة (أنجيلو ريتشي) و (جو تزانك) و (مانويل سيلفا) أن يزوروا العجوز المخيف. يعيش هذا العجوز وحيدا في بيت عتيق في (ووتر ستريت) قرب البحر، وهو مشهور بأنه ثرى وضعيف، وهذا ما يشكل إغراء شديدا لمن يمارسون المهنة التي يمارسها هؤلاء السادة. إن مهنة هؤلاء القوم ليست أكثر شرفا من السرقة.

يقول سكان كنجزبورت ويعتقدون في أشياء كثيرة بصدد العجوز المخيف.. أشياء تبقيه في أمان من اهتمام السادة أمثال ريتشي ورفاقه، وبرغم أن الكل كان موقنا أنه يخفى كنزا عظيم القيمة في مسكنه البالي المرعب.

الواقع أنه رجل غريب الأطوار ويقال إنه كان قبطانا لسفينة شراعية سريعة خاصة بشركة الهند الشرقية، وهو مسن بحيث لا يذكر أحد أنه كان شابا، صموت بحيث لا يعرف أحد اسمه.

في فناء داره تجد مجموعة غريبة من الحجارة العملاقة مرتبة ومطلية بشكل غريب، حتى تشبه أصنام المعابد الشرقية. هذه المجموعة تثير رعب الصبية الذين يضايقون العجوز أو يهوون تحطيم نوافذ داره بقذائفهم. هناك أشياء أخرى تخيف الأكبر سنًا الذين يختلسون البصر عبر النوافذ.

يقول هؤلاء إن هناك منضدة عليها زجاجات كثيرة.. تتدلى فيها قطعة رصاص كالبندول من خيط. يقولون إن الرجل يكلم هذه الزجاجات ويطلق عليها اسماء مثل (جاك) و (الوجه ذو الندبة) و (توم الطويل) و (جو الأسباني) و (بيترز) و (الرفيق أليس). قالوا إنه إذ يكلم الزجاجات يهتز الخيط كأنه يجيب.

لم يكن (أنجيلو ريتشي) و (جو تزانك) و (مانويل سيلفا) يمتون بصلة لدماء نيو إنجلند بل كانوا دماء جديدة وافدة.. وقد رأوا أن الرجل العجوز مقعد تقريبا لا يمشي من دون عصاه، ويداه ترتجفان بشكل مثير للشفقة. بالفعل شعروا بنوع من الأسف وهم يقصدون دار العجوز الذي تعوي الكلاب عندما تراه. لكن العمل هو العمل.. هناك إغراء شديد لدى أي لص في رجل عجوز واهن بلا حساب في المصرف، ويدفع ما عليه من مال في المتجر بنقود إسبانية ذهبية صكت منذ قرنين.

اختار السادة (أنجيلو ريتشي) و (جو تزانك) و (مانويل سيلفا) ليلة 11 إبريل للزيارة. كان على (ريتشي) و (سيلفا) إجراء المقابلة مع العجوز بينما السيد (تزانك) ينتظرهما بسيارة في شيب ستريت عند الباب الخلفي لدار مضيفهما. فلم يكن أحدهم يرغب في لقاء غير ضروري وغير متوقع مع الشرطة.

تحرك السادة منفصلين كي يمنعوا أية شكوك شريرة بصدد نواياهم. التقى ريتشي وسيلفا في ووتر ستريت عند باب العجوز الأمامي. لم يحبا كثيرا ضوء القمر الساطع على الصخور لكن كانت لديهما أشياء أهم. كانا يعرفان أنه من الصعب جعل الرجل يتكلم عن ذهبه المخبّأ لأن القباطنة المسنين أميل للعناد والتكتم. لكنه كان مسنا واهنا وهما اثنان. والسيدان متمرسان في فن جعل الأشخاص ثرثارين، ومن السهل أن تكتم صرخات رجل ضعيف عجوز. مشيا نحو النافذة وأصغيا للرجل وهو يكلم إحدى زجاجاته.

ثبّتا الأقنعة ودقا على الباب البلوط في أدب.

بدا الانتظار أطول من اللازم بالنسبة لمستر تزانك وهو يعبث في السيارة التي تقف عند باب السيد العجوز الخلفي. كان رقيق القلب نوعا ولم يحب الصرخات المريعة التي دوت في المنزل المهجور عندما حان وقت العملية. ألم يطلب من رفيقيه أن يكونا رقيقين قدر الإمكان مع القبطان العجوز؟

راح يراقب البوابة المصنوعة من خشب البلوط وسط الجدار الصخري. أحيانا كان ينظر لساعته متسائلا عن سبب التأخير، هل مات العجوز قبل أن يكشف عن مكان الكنز؟

لم يحب الانتظار طويلاً في الظلام.. هنا سمع صوت طرقات داخل البوابة وسمع من يعبث في المزلاج الصدئ برفق. ثم رأى الباب الثقيل ينفتح.

ضيق عينيه ليرى ما جلبه زميلاه من ذلك البيت الشقي، لكنه حين دقق النظر لم ير ما انتظره.. لم يكن زميلاه هناك. فقط العجوز المخيف يتوكأ على عصاه ويبتسم في شر. لم يكن قد لاحظ لون عيني الرجل من قبل، وقد أدرك الآن أنهما صفراوان.

إن الأمور البسيطة تحدث إثارة عظمى في المدن الصغيرة، ولهذا راح القوم يتكلمون طيلة الربيع والصيف عن الأجساد الثلاثة مجهولة الهوية والممزقة بالسيوف، والتي هشمتها مئات الأحذية ذات الرقبة، والتي ألقى بها المد على الشط..

تكلم الناس عن أشياء صغيرة مثل سيارة مهجورة في شيب ستريت، وصرخات غير آدمية كأنها صدرت عن طيور بحرية، والتي سمعها بعض الناس ليلا. لكن لم يتكلم أحد قط عن الحادث مع الرجل العجوز المخيف. كان بطبعه متحفظا

وعندما يشيب المرء ويضعف فإن تحفظه يزداد. كما أن قبطانا عجوزا كهذا لابد وأنه رأى أشياء أكثر بشاعة في شبابه الذي لم يعد يتذكره.

المقبرة

عندما أحكي الظروف التي قادتني للاحتجاز في ملجأ المجانين هذا، فإنني أفهم أن وضعي الحالي سوف يجعل الناس يشكون في صحة قصتي.

إنها لحقيقة تعسة أن أكثر البشر محدودو البصيرة العقلية بحيث لا يمكنهم الحكم على هذه الظواهر بصبر وذكاء. الظواهر التي لا تراها وتشعر بها إلا القلة من مفرطي الحساسية النفسية. الرجال الأكثر ثقافة يعرفون أنه لا يوجد فاصل واضح بين الحقيقي وغير الحقيقي، وأن الأشياء لا تبدو هكذا إلا عن طريق وعينا.. لكن مادية الأغلبية تعتبر تلك الوهجات من البصيرة التي تخترق الحجب جنونا.

اسمي (جيرفاس دودلي).. كنت حالما وصاحب رؤى منذ طفولتي. كنت ثريا أكثر من حاجتي ولم أكن ذا مزاج يسمح بالدراسة النظامية والاندماج في الحياة الاجتماعية.

قد أمضيت صباي ومراهقتي مع كتب قديمة شبه مجهولة وأنا أجوب الحقول قرب مسكني. يخيل لي أنني لم أر أو أقرأ في تلك الكتب ما كان أقراني يرون ويقرءون. لكن عليّ ألا أصرح أكثر لأن الكلام الصريح قد يعيد الشك في قواي العقلية كما أسمع رفاقي. يكفيني أن أقص الأحداث ولا أحاول تفسيرها.

قلت إني عشت بعيدا عن العالم المرئي، لكن لم أقل إنني عشت وحدي.. لا بشرى يقدر على هذا..

جوار بيتي يوجد واد مشجر اعتدت أن أمضي أكثر وقتي في ظلماته، أفكر وأحلم. على منحدراته مشيت خطواتي الأولى طفلاً ونسجت أحلام صباي. رأيت حوريات الأشجار وراقبت

رقصهن المحموم تحت أشعة القمر الخافتة. لكن لن أتكلم عن هذا الآن بل عن القبر المتوحد في ظلمات الأشجار، وهو قبر (هيدز) المهجور، أسرة قديمة عريقة غاب آخر أحفادها في هذه الظلام قبل مولدي بعقود.

القبر الذي أتكلم عنه من جرانيت قديم زال لونه بفعل الأبخرة والرطوبة عبر أجيال. حفر في جانب الجبل بحيث لا تراه إلا من المدخل. الباب قطعة حجر تتصل بمفصلات صدئة وقد أُبقي نصف مفتوح في موضعه بجنازير حديدية ضخمة كما هي العادة المريعة منذ نصف قرن، هناك عاصفة دمرت قمة هذا الضريح منذ عقود، ولهذا يتكلم الناس في هيبة عن (غضبة السماء) مما أثار فضولي ولهفتي لمعرفة هذا المكان.

حينما دفن آخر آل (هيدز) هنا جاءت بقاياه من مكان بعيد، فلم يبق من يضع أزهارا على القبر ولا يجسر أحد على اجتياز الظلال التي تحيط بهذه الصخور. لن أنسى عصر ذلك اليوم الذي وجدت فيه بيت الموت هذا. كان هذا في منتصف الصيف عندما تتحول الغابات إلى كتلة متجانسة حية من اللون الأخضر. في هذا المناخ يفقد العقل معاييره ويصير المكان والزمان بلا معنى..

كنت أمضي يومي في رياض الوادي الغامضة، وأتحاور مع أشياء لم أذكر اسمها. وكنت أمشي بين صفين من الأشجار عندما وجدت نفسي أمام باب القبو. لم أعرف ما وجدته.. كانت هناك مساحات من الجرانيت ونقوش جنائزية فوق القوس. لكني لم أشعر بأي خوف أو توجس وأنا أرمق هذا المدخل بل الفضول فقط. ثمة نداء خفي جعلني أود أن أجتاز هذا المدخل

برغم الجنازير التي تغلقه. حاولت أن أحشر جسدي عبر التجويف لكن لم أنجح. وأقسمت وأنا عائد لداري أنني سأجد طريقة لاجتياز المدخل إلى الظلمات التي تدعوني لها. إن الطبيب ذا اللحية الرمادية الذي يتردد على غرفتي يوميا، قال للزوار إن هذا القرار يعكس جنونا أحاديا قاسيا لكني سأترك القرار النهائي لقرائي.

في الفترة التالية رحت أحاول أن أجتاز هذا المدخل وإن لم أخبر أحدا بنواياي. لم يدهشني أن أعرف طبيعة اكتشافي برغم أنني كنت طفلاً.

لقد كنت أقف أمام هذا الباب عدة ساعات كل يوم. أرى شيئا يبدو كدرجات رطبة تقود لأسفل وكانت رائحة المكان تنفرني لكنها تسحرني. شعرت بأنني أعرفه من قبل في زمن سحيق.. عاما بعد عام كنت أرمق القبر، وفي هذا الوقت قرأت أسطورة (ثيذيوس) وعن الحجر العملاق الذي تحته كان البطل الطفل سيجد قدره لو أنه استطاع أن يرفع الحجر. هذا جعل صبري يهدأ فقلت لنفسي إنني سأنتظر حتى أكتسب قوة وعبقرية تجعلانني أفتح الباب بسهولة.

ازدادت الفكرة إغراء بعد ما عرفت أن هناك صلة قرابة بعيدة واهية بين أمي وتلك الأسرة المنقرضة. بما أنني آخر نسل أسرتي فهذا يعني أنني آخر من يحمل دم هذه الأسرة المنقرضة.، بدأت أشعر كأن القبر قبري.. بدأت أحلم بالمرور عبر هذه الدرجات الزلقة في الظلام. وصنعت تعريشة من الأشجار فوق المكان.. وصار هذا المكان مكاني والباب المغلق بابي.. هنا سأمضى الدهر راقدا أحلم بأحلام غريبة.

كانت أولى ليالي الرؤيا حارة رطيبة. لابد أنني غفوت من التعب لأنني كنت شبه متيقظ عندما سمعت الأصوات. أخشى أن أتكلم عن الأصوات واللهجات.. لن أتكلم عن نوعيتها لكنها كانت غريبة في المصطلحات والهجاء والنطق.. بدا لي كأنني أسمع هنا كل لهجة عرفتها (نيو إنجلند) منذ عصور المستعمرين البيوريتانيين حتى اللغة السائدة منذ خمسين عاما.

هنا لاحظت ظاهرة غريبة أخرى.. ظاهرة فريدة بحيث لا أعرف كيف أصفها.. خيل لي عندما نهضت أن ضوءا كان في الضريح وقد أطفأه أحدهم بسرعة.. لا أحسب الذعر غلبني لكني أيقنت أنني تغيرت كثيرا في تلك الليلة. عندما عدت لداري اتجهت للصندوق العتيق في العلية حيث وجدت المفتاح.. المفتاح الذي استطعت به في اليوم التالي فتح الحاجز الذي حاولت اجتيازه طويلا بلا جدوى.

كنت في ضوء العصر الناعم عندما دخلت القبو المنسي. كنت مسحورا وقلبي يدق بقوة.. أغلقت الباب خلفي ونزلت في الدرج على ضوء شمعتي الوحيدة، وخيل لي أنني أعرف الطريق. وبرغم أن الشمعة راحت تفرقع بفعل أبخرة المكان الكريهة، فقد شعرت بأنني في داري. من حولي كانت هناك ألواح عليها توابيت أو بقايا توابيت. بعضها كان مغلقا وسليما وبعضها كاد يتلاشى.. تساقطت المقابض الفضية وسط التراب.

على لوحة رأيت اسم السير (جيفري هايد) الذي جاء من (سوسكس) عام 1640 ومات هنا بعد أعوام قليلة. ورأيت تابوتا خاليا مفتوحا بلا ساكن قرأت الاسم المكتوب عليه فجعلني

أشعر بمزيج من رعب وطرافة، ولسبب لا أفهمه وجدت نفسي أتمدد في هذا التابوت.

في ضوء الفجر غادرت القبو وأغلقت السلسلة خلفي.. لم أعد شابا برغم أن 21 شتاء لا أكثر قد جمدت جسدي، وكان الفلاحون المبكرون ينظرون لي في دهشة. لم أظهر أمام أهلي إلا بعد نوم طويل منعش...

رحت أتسلق القبر كل ليلة لأرى وأسمع وأفعل أشياء لا أنكرها.. كان كلامي أول ما بدأت تطرأ عليه التغيرات الجديدة.. وقد لاحظ الكثيرون كيف صارت لغتي عتيقة تستعمل كلمات منسية. ثم بدأ نوع من التهور والجرأة يطغى على سلوكي. أظهرت معرفة واسعة ليست كتلك الرهبنة التي عشتها في شبابي. ورحت أكسو الصفحات الخالية في بدايات ونهايات كتبي بأفكار بارعة لها طابع القرن الثامن عشر الأدبي.

ذات صباح على الإفطار كدت أسبب كارثة إذ رحت أتكلم بمرح باخوسي الطابع من القرن الثامن عشر.. قلت شيئا كهذا:

هلموا يا رفاق ومعكم أباريق الجعة

واشربوا للحاضر قبل أن يولي

كوموا اللحم في الصحاف

فالراحة لا يجلبها إلا الطعام والراح..

افعموا الأقداح..

قبل أن يفنى الصباح

عندما تفنون، لن تشربوا في صحة مليككم ولا حسنائكم..

(أناكريون) كان أنفه أحمر

كذا يزعمون..

لكن ما الأنف الأحمر وأنت سعيد مفتون؟

أفضل أن أكون أحمر وأبقى بينكم

على أن أكون أبيض كالسوسن وميتا

فترفقي يا حسناء

اضحكوا!

فتحت ستة أقدام من التراب لن يكون الضحك سهلا..

في هذا الوقت اكتسبت الخوف من الرعود والعواصف.. لم أكن أبالي بهذه من قبل لكني صرت أتوارى في ركن قصي من البيت متى قررت السماء ممارسة ألعابها الكهربية. كنت أتخيل ذلك البيت الذي احترق وكيف كان في عظمته قبل العاصفة.

في النهاية جاءت اللحظة التي خفت منها طويلاً. لقد ذعر أبواي لاختفاء ابنهما المتكرر وبدآ يتجسسان عليّ مما كاد يسبب كارثة. لم أحك لأحد عن زياراتي للمقبرة، وقد أبقيت سري منذ الصبا، لكني الآن صرت مجبرا على أن أكون حذرا أثناء مشيي في الغابة حتى لا أترك أي أثر يدل عليّ.

كنت أبقي المفتاح معلقا إلى صدري بخيط. ولم آخذ معي أي شيء وجدته بين جدران الضريح.

ذات صباح غادرت المقبرة ووضعت السلسلة ويدي ترتجف، هنا وجدت من يراقبني بين الأشجار.

لقد دنت النهاية وعرفوا مكان تكعيبتي وعرفوا سبب جولاتي الليلة.

لم يبادرني بالكلام، لذا هرعت للبيت كي أسبق بمعرفة ما سيقوله هذا الرجل لأبي المرهق القلق. هل سيعرف العالم كله قصة تسللي للمقبرة؟.. تصور دهشتي حينما أسمع الجاسوس يخبر والدي همسنا حذرا أنني قضيت الليل جوار باب المقبرة، وعيناي اللتان غلفهما النعاس لا تبرحان المدخل الموارب..

بأية معجزة تم تضليل هذا المراقب؟..

صرت الآن مقتنعا بأن قوة خارقة للطبيعة قد حمتني، وأكسبني هذا الخاطر جرأة وبدأت أستعيد شجاعتي وأعود للقبو شاعرا بأن أحدا لن يراني.

ظللت لأسبوع غارقا في تلك المتعة عندما حدث الشيء..

وهكذا كتب عليّ أن أنتقل لعالم من الأسف والرتابة..

ما كان يجب أن أجرب في تلك الليلة؛ لأن الرعد كان بين السحب وهناك تألق فوسفوري شيطاني ينبعث من المستنقع في أعماق الغابة. كذا كان نداء الموتى مختلفا.

عندما خرجت من الغابة قرب الخرائب رأيت في ضوء القمر الضبابي شيئا توقعته دوما بشكل غامض. البيت الذي رحل منذ قرن قد عاد ينتصب أمام الأنظار. كل نافذة تتألق بضوء شموع

عدة، وعلى الطريق تندفع عربات أرستقراطية بوسطن، بينما امتلأ المدخل بسادة المجتمع الراقي.

وسط هذا الزحام اختلطت برغم معرفتي أنني أنتمي للمضيفين لا الضيوف. داخل قاعة البيت كانت موسيقا وضحك وخمر في كل يد. عرفت بعض الوجوه برغم أنني أعرفها أكثر وقد أبلاها الموت. كنت أنا الأكثر جنونا والأكثر عزلة.. مرح مجنون راح ينصب في عروقي..

فجأة دوى الرعد... أعلى من صوت العربدة ذاتها.. ضرب السطح وألقى بالذعر في قلوب الجمع الصاخب.

وخرجت ألسنة حمر من اللهب وهبات حارة من النار لتلتهم البيت واندلعت الصرخات.. وهرب الجميع ليغيبوا في الظلام. أنا وحدي بقيت.. مقيدا لمقعدي بخوف لا فرار منه.

ثم استولى رعب جديد على عقلي.. لو احترقت وصرت رمادا فلن أرقد أبدا في قبر آل (هايد).. أليس تابوتي معدا لي؟.. أليس من حقي أن أستريح بين سلالة سير (جيفرى هايد)؟.. إن اسمى هو (جيرفاس هايد) ولسوف أطالب بحقي في الدفن هنا.. عندما غاب شبح البيت المحترق، وجدت نفسي أصرخ بين ذراعي رجلين أحدهما كان الجاسوس الذي تبعني للقبر.. كان المطر ينهمر مدرارا وفي الأفق الجنوبي يلتمع البرق.

كان أبي وقد غمر الأسف وجهه يقف بينما أنا أصرخ مطالبا بحقي في الدفن هنا، وكان يطالب من يمسكون بي بأن يرفقوا بي قدر استطاعتهم.

كان هناك حشد من القرويين الفضوليين يحملون المصابيح ويحيطون بصندوق عتيق بدا واضحا في ضوء البرق. توقفت عن المقاومة العنيفة وراقبت المشاهدين وهم يفتحون الصندوق. كانت ضربة البرق قد دمرت أقفاله فوجدناه مليئا بالأوراق وأشياء ثمينة لكنني كنت أبحث عن شيء بعينه. كان تمثالاً صغيرا من الخزف لشاب يلبس جمة أنيقة، وعليه الحروف (ج. ه).. وعندما رأيت وجهه بدا لي أنني أنظر في المرآة.

في اليوم التالي أحضروني لهذه الغرفة ذات القضبان على النوافذ، وأخبرني خادم بسيط عجوز كنت أحبه في طفولتي بأشياء معينة. أما ما جرؤت على أن أحكيه عن تجاربي في القبر فقد جلب ابتسامات الشفقة لا أكثر.

قال أبي الذي يزورني بانتظام إنني لم أجتز الجنزير على الباب قط، وأقسم أن القفل الصدئ لم يمس منذ خمسين عاما. قال إن الفلاحين يعرفون بأمر رحلاتي للمقبرة وقد رآني كثيرون نائما في التكعيبة.

لم يكن عندي ما يقال هنا لأن مفتاحي قد فُقد في صراع الليل وقد أصر أبي على أن ما عرفته في تلك اللقاءات الليلية ليس سوى ثمار قراءاتي في مكتبة أسرتنا.

لولا خادمي العجوز حيرام لاقتنعت كلية بأنني مجنون، لكن حيرام المخلص للنهاية كان يثق بي وفعل الشيء الذي جعلني أكتب هذه القصة للملأ..

منذ أسبوع فتح القفل الذي يغلق المقبرة ونزل بمصباح إلى تلك الأعماق، وعلى لوح حجري وجد تابوتا مفتوحا خاليا عليه كلمة (جيرفاس).

في هذا التابوت وفي هذا القبو سوف أدفن كما وعدوني بالضبط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حقائق تتعلق بالفقيد أرثر جرمين وأسرته ()

([4])

1

إن الحياة شيء مروع، فمن خلف العوالم التي نعرفها تطل لمحات شيطانية من الحقيقة التي تجعلها أكثر ترويعًا ألف مرة..

لربما لو عرفنا من نحن، لفعلنا كما فعل سير (آرثر جيرمين) الذي أغرق نفسه بالبترول، وأشعل النار في ثيابه ذات ليلة. لم يضع أحد البقايا المتفحمة في إناء أو خلد ذكراه، لأن بعض الأوراق التي تركها جعلت الناس يفضلون أن ينسوه.. بعض من عرفوه ينكرون أنه وجد أصلا.

أحرق (جيرمين) نفسه بعد ما رأى الشيء في الصندوق الذي جاء من أفريقيا، وكان هذا الشيء وليس مظهره الشخصي هو ما جعله ينهي حياته. قليلون كانوا سيرغبون في الحياة لو كانت لهم ملامح (آرثر جيرمين)، لكنه كان شاعرا ومثقفا ولم يكن يبالي بمظهره.

كان العلم في دمه لأن جده الكبير سير روبرت جيرمين كان عالم أنثروبولوجي مرموقا بينما جد جده سير (ويد جيرمين) كان من مكتشفي الكونغو الأوائل وكتب الكثير عن قبائلها. وكانت له نظريات غريبة عن سكان الكونغو بيض البشرة من قبل التاريخ مما جعل الكثيرين يسخرون من كتابه.. وفي العام 1765 وضعوا هذا المستكشف الشجاع في مستشفى أمراض عقلية.

كان الجنون موجودا في سلالة (جيرمين) كلها وقد سُرّ الناس لأنه ليس هناك كثيرون منهم. كان آرثر هو الأخير، ولم يكن مظهرهم مريحا.. ثمة شيء خطأ في ملامحهم لكن آرثر كان أسوأهم..

من الواضح أن الجنون بدأ مع سير (ويد) لأن ملامح من سبقوه من أجداد كانت وسيمة رقيقة. كما أن مجموعته من التذكارات ليست مما يمكن أن يجمعه رجل طبيعي. كانت زوجته ابنة تاجر برتغالي قابله في أفريقيا ولم يكن يحب الحياة البريطانية. رافقته مع رضيعها الذي ولد في أفريقيا في رحلته الثالثة والرابعة لكنها لم تعد قط. كانت تقيم منفردة في جناح خاص في دار (جيرمين) ولم يكن يخدمها سوى زوجها نفسه. يبدو أن الرجل كان متحفظا بصدد أسرته لأنه إذ عاد لأفريقيا لم يترك أحدا يعني بابنه سوى امرأة سوداء عجوز قبيحة من غينيا.

لكن كان كلام سير (ويد) هو ما أقنع أصحابه بأنه مجنون.. في عصر العقل الذي هو القرن الثامن عشر، كان من الحمق أن يتكلم المرء عن رؤى مجنونة ومشاهد غريبة تحت قمر الكونغو عن أعمدة مدينة منسية غطتها الأشجار وعن درجات تقود لأقبية مظلمة. عن مخلوقات غريبة تعيش هناك.. مخلوقات ظلت حية بعد ما دمرت القردة العظمى المدينة.

بعد عودته آخر مرة راح سير (ويد) يتكلم عن هذه الأمور بحماس مجنون خاصة بعد الكأس الثالثة في حانة (رأس الفارس) ويحكي عن معيشته في الغابة في أماكن لا يعرفها سواه. في النهاية وجد نفسه في مستشفى المجانين. لم يبد ندما..

كان ابنه قد كبر وبدأ يمقت بيته، حتى جاءت اللحظة التي بدأ يخافه فيها.. وعاش في حانة (رأس الفارس) بالكامل، وبعد ثلاثة أعوام مات.

برغم أن (فيليب) حفيد (ويد جيرمين) كان يشبه جده إلا أن منظره وطباعه كانت للفظاظة أقرب لدرجة أن الناس اجتنبوه

لم يرث الجنون لكن غباءه كان مطبقا وأحيانا كان يغضب غضبات مريعة. كان صغير الحجم لكنه قوى جدا.

بعد 12 عاما من وراثة لقب لورد تزوج ابنة مدير عزبته وهي من أصل غجري وقبل أن يولد ابنه التحق بالبحرية كبحار عادي. وإذ دنت الحرب الأمريكية من نهايتها عرف الناس أنه بحار على سفينة تجارية عند سواحل أفريقيا، واختفى ذات ليلة عندما رست سفينته على ساحل الكونغو.

بدأت تلك الخاصية الأسرية الغريبة تظهر بشكل مختلف مع ابن سير (فيليب جرمين). كان فارع القامة وسيما فيه شيء من المهابة الشرقية الغريبة. بدأ (روبرت جرمين) حياته كدارس وباحث وكان أول من درس التركة الغريبة التي تركها جده..

عام 1815 تزوج فتاة من أسرة الفيسكونت (برايتهولم) ورزق بثلاثة أطفال لم ير أحد أكبرهم ولا أصغرهم علنا بسبب تشوه عقلي وجسدي. حزينا راح العالم يبحث عن الراحة في العمل وقام برحلتين في أفريقيا.. في العام 1849 فر ابنه (نيفل) وهو فتى متمرد يجمع بين فظاظة جيرمين وعجرفة آل برايتهولم مع راقصة سوقية. لما عاد في العام التالي تلقى الصفح.. لقد عاد أرمل ومعه ابن هو (ألفريد) الذي سيصير والد (آرثر جيرمين) يوما ما.

قال الناس إن هذه المصائب هي التي أطارت عقل (روبرت جرمين)، لكن ربما كانت بعض الأساطير الأفريقية هي سبب الكارثة. كان الباحث يجمع أساطير قبائل أونجا قرب مناطق بحث جده، وهو يأمل أن يجد ما يثبت كلام جده عن مدينة مفقودة تعيش فيها كائنات عجيبة.

في أكتوبر عام 1852 زار المستكشف (صمويل سيتون) منزل جيرمين ومعه أوراق جمعها من الأوجا.. كانت هناك خرافات عن مدينة رمادية تعيش بها قردة بيضاء ويحكمها إله أبيض يبدو أنه ذكر بعض التفاصيل التي لن نعرفها أبدا.. لكن كوارث مرعبة بدأت تحدث...

حينما غادر سير (روبرت جيرمين) المكتب ترك خلفه المستكشف مخنوقا، وقبل أن يُقبض عليه أنهى بنفسه حياة أولاده الثلاثة. مات (نيفل) وهو يحاول حماية ابنه (ألفريد) ذي العامين، ونجح في ذلك..

حاول سير (روبرت) الانتحار عدة مرات، وأصر بعناد على ألا ينطق كلمة ذات معنى، ثم مات بعد عام بنزف مخي في سجنه.

صار سير ألفريد بارونا عندما بلغ الرابعة من العمر، لكن ميوله لم تكن جديرة بهذا اللقب. في سن العشرين التحق بفرقة عازفين، وفي سن السادسة والثلاثين هجر أسرته وسافر مع سيرك جوال. كانت نهايته بشعة لأنه بين الحيوانات التي كانت معه كانت غوريلا ضخمة فاتحة اللون افتتن بها وكانت شهرتها عظيمة في السيرك. في النهاية طلب أن يسمحوا له بتدريب الحيوان وقد أدهش المشاهدين وزملاءه بنجاحه.

ذات صباح في شيكاغو كان يجرى بروفة معها على مباراة ملاكمة بارعة، وجهت له لكمة أقوى من المعتاد فآذت جسده وكرامته. أما ما حدث بعد هذا فيفضل عاملو السيرك ألا يحكوه. لم يتوقعوا أن يسمعوا الرجل يطلق صرخة غير بشرية.. يمسك خصمه بيديه ويوقعه على أرض القفص وينشب أسنانه

في حلقه. سقطت الغوريلا لكن ليس طويلاً.. وقبل أن يعمل أحد أي شيء كان جسد المدرب قد صار عجينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

كان آرثر جيرمين هو ابن ألفريد جيرمين.. وكان مطربا في المسرح. عندما فر الأب أخذت الأم طفلها إلى منزل (جيرمين) حيث لم يعد هناك من يعترض على وجودها..

قررت أن تربي ابنها تربية قويمة على قدر ما يسمح به ما معها من مال. كانت موارد الأسرة محدودة تماما الآن، لكن آرثر الصغير أحب البيت وما فيه. كان يختلف عن أسلافه في أنه كان شاعرا وحالما. وقال الجيران الذين سمعوا عن زوجة (ويد جيرمين) إن دمها البرتغالي قد أفصح عن نفسه في هذا الفتى. لكن كثيرين سخروا من حبه للجمال وقالوا إن السبب هو أمه التي كانت مجهولة في المجتمع.

كانت شاعريته أكثر وضوحا بسبب مظهره.. لقد كان معظم آل (جيرمين) لهم مظهر منفر لكن وجه (آرثر) كان صادما من الصعب أن تصف كيف يبدو، كما أن طول ذراعيه كان يثير نفور من يقابله لأول مرة.

كان موهوبا فنال أعلى الدرجات في أكسفورد وبدا أنه جدير بسمعة أسرته.. برغم أنه كان شاعرا أكثر منه عالما فإنه قرر أن يواصل عمل أجداده. وكان يشعر بمزيج غريب من رهبة وشغف كلما سمع عما وجده جده..

عام 1911 بعد موت أمه قرر سير (آرثر جيرمين) أن يستكمل أبحاثه. باع جزءا من ضيعته للحصول على المال ورتب حملة إلى الكونغو. رتب مع السلطات البلجيكية طلبا لأدلة وأمضى عاما في بلاد الأونجا ووجد معلومات مهمة جدا.

بين قبائل الكاليريس كان هناك زعيم شيخ يدعى (موانو) لم يحظ فقط بذاكرة قوية، بل درجة عالية من الذكاء والاهتمام بالأساطير القديمة. وقد أكد له صحة كل أسطورة سمعها.. أكد له وجود المدينة الحجرية والقردة.

حسب كلام موانو قد زالت المدينة والقردة فقد دمرها النبانجوس منذ أعوام. وبعد هذا الغزو حمل أفراد القبيلة معبودة المدينة المحنطة التي كانت هدف غزوتهم. تلك المعبودة هي القردة البيضاء التي عبدتها مسوخ المدينة والتي كانت أميرتهم يوما ما.

لم يعرف موانو كنه تلك القردة البيضاء لكنه يعتقد أنهم بناة المدينة العتيقة..

الأميرة القردة كانت زوجة إله أبيض كبير جاء من الغرب. حكما المدينة لفترة طويلة لكن عندما رزقا بابن رحل ثلاثتهم. فيما بعد عاد الإله والأميرة.. ثم ماتت الأخيرة فقام زوجها بتحنيطها ووضع مومياءها في بيت حجري كبير حيث كان يُعبد. ثم رحل وحده.

هنا توجد ثلاث تكملات للأسطورة..

الأولى تقول إن شيئا لم يحدث بعد هذا سوى أن المومياء صارت رمزا لرفعة وقوة كل قبيلة تملكها. لهذا اختطفها أفراد قبيلة النبانجوس.

القصة الثانية تحكى عن عودة الأبيض والموت عند قدمي زوجته.

القصة الثالثة تحكى عن عودة الابن الذي صار رجلا لكنه لا يعرف حقيقته.

صار (آرثر) على يقين من قصة المدينة كما حكاها أبوه.. لقد وجد بقاياها وقدر أن الأساطير بالغت في وصف مساحتها، لكن ما تبقى من حجارة يدل على أنها لم تكن مجرد قرية أفريقية.. لم يجد نقوشا أو كتابة وكان صغر حجم الحملة لا يسمح بعمل حفريات. تكلم مع كل زعماء المنطقة عن القردة البيض والربة المحنطة، لكن وقع على عاتق أوروبي أن يفسر المعلومات أكثر. كان هناك (فيرهيرن) وهو عميل بلجيكي لإحدى الشركات التجارية في الكونغو، وكان يعتقد أنه ليس قادرا على العثور على المومياء فحسب بل الحصول عليها كذلك.

إن قبائل النبانجوس القوية لم تعد سوى رعايا حكومة الملك ألبرت، ويمكن إقناعهم بالتخلي عن معبودتهم هذه. لهذا عندما عاد آرثر جيرمين إلى إنجلترا كان مؤمنا أنه على عتبة كشف عرقي مهم لا يقيم بمال.

كان الريفيون قرب دار (جيرمين) يعرفون قصصًا غريبة من التي حكاها سير (ويد) قديما في حانة (رأس الفارس)، وقد قضى (آرثر) وقته يسمع هذه القصص وينتظر ذلك الصندوق الذي سيشحنه له (فيرهيرن) من الكونغو..

راح يقترب أكثر فأكثر من حياة جده المجنون سير (ويد) وراح يسمع المزيد. كانت زوجة الرجل متوارية أكثر الوقت كما عرف، وقد تساءل عن سبب هذه العزلة ثم قدر أن السبب هو جنون سير (ويد). لابد أن المرأة التي كانت ابنة تاجر برتغالي كانت تعرف معلومات سطحية عن قلب أفريقيا، وهذا جعلها

تسخر من كلام سير (ويد) مما جعل الرجل عاجزا عن أن يغفر لها، لا جدوى من هذه الاستنتاجات بعد قرن ونصف من موت جده وزوجته..

في يونيو 1913 وصل خطاب من (فيرهيرن) يقول إنه وجد المومياء.

قال البلجيكي إنه كشف خارق للعادة.. كشف لا يستطيع رجل الشارع أن يصفه.. ليس بوسع أحد أن يعرف إن كان هذا قردا أم بشرا إلا من كان عالما، وعملية الفحص ذاتها ستكون عسيرة بسبب حالة المومياء المتدهورة.

إن الزمن ومناخ الكونغو ليسا مما يرفق بالمومياوات.. خاصة لو كان تحنيطها عمل هواة كما هو الحال هنا. حول عنق هناك سلسلة ذهبية عليها نقوش شعار نبالة، ومن الواضح أنها كانت تخص رحالة تعسًا أخذها منه النبانجوس وعلقوها حول عنق المومياء.

سوف تصل المومياء بعد شهر من تلقي الخطاب. ووصل الشيء في الصندوق إلى دار جيرمين عصر يوم 3 أغسطس حيث نقلت للغرفة التي حفظت فيها الآثار الأفريقية.

ما حدث بعد هذا يمكن معرفته من حكايات الخدم والأوراق التي وجدوها.

من ضمن القصص هناك قصة كبير الخدم العجوز (سومس) وهي أفضلها وأكثرها تماسكا. حسب قصة هذا الرجل الموثوق فيه، فقد انفرد سير (آرثر) بالمومياء قبل فتح الصندوق وإن كان صوت الإزميل والمطرقة قد أوضح أنه لم

يتأخر. لم يسمعوا شيئا لفترة ثم سمعوا صرخة مروعة بعد ربع ساعة. على الفور خرج جيرمين من الحجرة وجرى لمقدمة البيت كأن عدوا مخيفا يطارده، والتعبير المذعور على وجهه يتحدى الوصف. قرب الباب توقف ثم هرع إلى القبو

هنا تصاعدت رائحة بترول ورأى السايس السير (آرثر) يندفع خارجا من البيت وهو يلمع بالبترول الذي غطاه من رأسه إلى قدميه، وهو يجرى ليتوارى في الظلام المحيط بالبيت. عرف الجميع أنها النهاية.

ظهر وهج بين الأشجار وتعالت النار إلى السماء. أما السبب الذي لم يقم أحد من أجله بجمع بقايا (آرثر جيرمين) المتفحمة ولم تدفن، فيكمن فيما وجدوه بعد ذلك.. خاصة الشيء في الصندوق.

إن المومياء المحنطة كانت شنيعة المنظر متحللة، لكن من الواضح أنها قرد أبيض مجهول السلالة. كانت أقرب للبشر بشكل مروع. إن الوصف المفصل لن يسر أحدا لكن هناك أشياء يجب أن تقال.. وهي تتفق مع الأساطير التي حكاها سير (ويد جيرمين).

إن القلادة حول عنق المخلوق كانت تخص آل (جيرمين)، والتشابه واضح بين ملامح المومياء وملامح (آرثر جيرمين) الحساس، حفيد حفيد سير (ويد جيرمين) الذي تزوج زوجة مجهولة لم يرها أحد قط.. زوجة زعم أنها ابنة تاجر برتغالي قام أعضاء معهد الأجناس الملكي بحرق الشيء وألقوا بالقلادة في بئر، وبعضهم ينكر أن (آرثر جيرمين) كان له وجود على الإطلاق.

(5)

داجون ()

أكتب هذه الكلمات تحت ضغط عقلي واضح، لأنني لن أكون بعد هذه الليلة. أنا مفلس وقد انتهى مخزوني من العقار الذي يجعل الحياة محتملة، ولم أعد أطيق العذاب.. لذا سوف ألقى بنفسي من نافذة العلية هذه إلى الشارع الحقير من تحتي. لا تعتقد أنني منحل أو ضعيف بسبب خضوعي للمورفين، فلو قرأت هذه الصفحات لأمكنك أن تخمن لماذا أريد النسيان أو الموت.

كان ذلك في بقعة مهجورة من المحيط الهادي، عندما سقط قارب الشحن الذي كنت فيه فريسة لهجوم ألماني. كانت الحرب العظمى في بدايتها وقوى الألمان لم تهو بعد إلى القاع، لذا كانت سفينتنا جائزة قيمة، بينما عوملنا نحن البحارة باحترام كأسرى. كانوا يعطوننا حريات واسعة حتى إنني بعد خمسة أيام من الأسر استطعت الفرار في قارب صغير ومعي ماء ومؤن تكفيني لفترة طويلة.

عندما وجدت نفسي أخيرا تحت رحمة الرياح لم أملك أية فكرة عن مكاني. لم أكن ملاحا بارعا قط وقدرت فقط أنني جنوب خط الاستواء. لم تكن هناك جزر ولا سواحل على مرمى البصر، وقد مضيت تحت الشمس الحارقة عدة أيام منتظرا قاربا يمر أو أن يلقى بي على ساحل مسكون. لم يظهر القارب ولا الأرض وبدأت أشعر بالقنوط.

حدث التغير أثناء نومي ولا أذكر التفاصيل لأنني كنت نائما.. عندما صحوت وجدت أنني نصف مغمور في مستنقع يمتد حولي وقد رسا فيه قاربي.

قد يتوقع المرء أن انطباعي الأول كان الدهشة من هذا المشهد لكنني كنت أكثر ذعرا مني مندهشا لأنني شعرت في الهواء والماء شيئا شريرا يفوق الوصف... ربما كان السبب رائحة الأسماك الميت النتنة أو أشياء أخرى تبرز من الوحل. لا أعرف كيف أعبر بكلمات..

لا شيء على مدى السمع ولا شيء تراه.. فقط كان السكون مما ملأني بخوف يثير الغثيان.

كانت الشمس تتوهج في سماء شبه سوداء مما فيها من سحب، كأنها تعكس المستنقع تحت قدمي. إذ زحفت أدركت أن نظرية واحدة يمكن أن تفسر وضعي.. ربما حدث تغير بركاني رفع جزءا من قاع المحيط للسطح كاشفا عن أراض ظل الماء يغمرها منذ ملايين السنين. هذه الأرض كانت تمتد بعيدا ولم تكن هناك طيور بحرية تقتات على الأجساد الميتة.

لساعات جلست أفكر جوار القارب الذي كان على جانبه يعكس بعض الظل من الشمس. مع تقدم النهار فقدت الأرض بعض لزوجتها وبدا أنها تسمح بالمشي فوقها بعض الوقت. نمت ليلتها قليلاً وفي الصباح حملت ما بقي معي من طعام وماء واستعددت للبحث عن عون.

كانت رائحة السمك تثير الجنون لكن كان لدي ما يشغلني عن هذا، وقد أمضيت اليوم كله أمشي غربا مستهديا بربوة أعلى مما حولها وفي الليل كنت أنام.

أمضيت أربعة ليال وصلت لقاعدة تلك الرابية التي اتضح أنها أعلى بكثير مما خيل لي من بعيد. كنت مرهقا بحيث لم أستطع التسلق فنمت جوارها.

لا أعرف لماذا كانت أحلامي متوحشة في تلك الليلة، وصحوت مبللاً بعرق بارد وقد نويت ألا أنام أكثر. وفي ضوء القمر أدركت أني كنت أحمق إذ فضلت المشي نهارا.. لو مشيت ليلاً لاحتاجت رحلتي إلى طاقة أقل.. لقد صار بوسعي أن أتسلق الآن.

يجب أن أعترف أنني عندما بلغت القمة ونظرت للوادي تحتي، أصبت بالذعر.. مساحات لا نهاية لها من الظلام كأنني بلغت نهاية العالم فعلاً.. وتذكرت مقاطع من (الفردوس المفقود) فجأة رأيت على المنحدر المقابل شيئا متسعا يرتفع مائة ياردة أمامي. جسم يلتمع في ضوء القمر.. كان قطعة صخر عملاقة لكني قدرت أن شكلها ليس من عمل الطبيعة. بل هي تحمل لمسات كائنات تشعر وتفكر.

شعرت برعب لكن هذا لم يمنع شعوري بنوع من بهجة المكتشفين، وتفحصت ما حولي. كان القمر قرب السمت يسطع فوق الدرجات المصنوعة في الصدع، وقد بدأ يكشف تلك الظلمات. كانت هناك مياه وكان هناك نصب حجري عملاق يمكنني أن أرى بعض النقوش على سطحه.. نقوش هيروغليفية لا أعرف كنهها.. لكن فيها رموزا بحرية كثيرة مثل الأسماك والضفادع.. هناك كائنات لم أرها من قبل لكني ميزت شكلها وسط المستنقع كانت هناك رسوم تمثل رجالاً لكنهم أقرب للأسماك التي تسبح في غار بحري. لا أستطيع وصف الوجوه. إن هذا يجعلني أوشك على فقدان الوعي. هم أقرب للبشر في شكلهم العام لكن أيديهم وأرجلهم ذوات أغشية ولهم عيون واسعة..

قدرت أنها معبودات وثنية قديمة لقبيلة صيادين.. قبيلة اندثرت قبل أن يظهر إنسان نياندرثال أو بلتدون.. ووقفت شاعرا بالرهبة أمام هذه النقوش التي تثير حيرة أي عالم أنثروبولوجي.

فجأة رأيته..

بصوت خافت وهو يرتفع للسطح اندفع الشيء فوق المياه السوداء. كان ضخما كريها له مظهر السيكلوب واندفع كوحوش الكوابيس نحو النصب الحجري وأحاطه بأذرعه العملاقة القشرية ثم خرج من رأسه صوت غريب.

أعتقد أنني جننت وقتها.

لا أذكر كيف تسلقت المنحدر ثانية ولا كيف جريت محموما نحو القارب.. أذكر أنني غنيت كثيرا وضحكت عندما عجزت حنجرتي عن الغناء. أذكر عاصفة هائلة وصوت رعد وأصواتا لا تبعثها الطبيعة إلا في أسوأ مزاج لها.

أفقت من الظلال في مستشفى في سان فرانسسكو، وعرفت أن قبطان السفينة الأمريكية الذي وجدني وسط المحيط هو من جلبني هنا. لقد تكلمت كثيرا أثناء الهلوسة لكن أحدا لم يبال بما قلت. لم يسمع منقذي عن أي انقلاب أرضي في المحيط أثناء رحلتي. ولم أر نفعا من قص قصة لن يصدقوها.

في الليل عندما يشحب القمر، أرى الشيء.. جربت المورفين لكنه لم يعطني سوى راحة مؤقتة وجعلني في قبضته كعبد بلا خلاص. لهذا قررت أن أنهى كل شيء.. فقط كتبت تقريرا كاملاً ليتسلى به الناس..

أحيانا أتساءل إن لم يكن هذا كله خيالاً؟.. مجرد هلاوس نتيجة الظمأ والشمس وأنا في القارب بعد فراري من الألمان؟.. لا أستطيع أن أفكر في البحر إلا وتخيلت الأشياء المخيفة الكامنة في الأعماق تزحف وسط الوحل، تعبد أصنامها العتيقة وترسم أشباهها على النصب الحجرية.

أحلم بيوم ينهضون فيه من تحت الأمواج ليقضوا على جنس البشر الذي أهلكته الحروب. عندما تنكمش الأرض ويرتفع قاع المحيط..

النهاية قريبة.. أسمع صخبا على الباب.. كأن جسدا زلقا هناك..

لن يجدني..

إلى النافذة!... إلى النافذة!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(6)

سجين مع الفراعنة ()

-1-

الغموض يجذب الغموض.. منذ اشتهر اسمي كمؤد للحركات الخارقة، قابلت قصصا وأحداثا غريبة اعتقد الناس أنها تتوافق مع اهتمامي. بعضها كان تافها وبعضها كان دراميا شديد التأثير. بعضها أكسبني خبرات غريبة، وبعضها جعلني أدخل في بحث تاريخي مدقق. أحكي عن هذه القصص لكن هناك قصة أشعر نحوها بنفور عظيم، لكني أحكيها الآن تحت إغراء شديد من ناشر هذه المجلة الذي سمع كلاما غامضا عنها من أفراد أسرتي.

القصة تتعلق بزيارة غير مهنية قمت بها لمصر منذ 14 سنة. لست راغبا في نشر الحقائق التي يجهلها السياح الذين يزورون مصر وتخفيها الحكومة المصرية بعناية، برغم أنها تعرفها بالطبع. أضف لهذا أنني غير راغب في سرد قصة لعب فيها خيالي دورا عظيما. ما رأيته أو حسبت أنني رأيته لم يحدث بالتأكيد. وربما هو نتيجة قراءاتي في علم المصريات لو أضفنا لها إثارة حادث معين رهيب في حد ذاته فلسوف نفهم تلك الليلة المفزعة التي مضى عليها وقت طويل.

في يناير عام 1910 أنهيت ارتباطا في إنجلترا ووقعت عقدا لجولة في مسارح أستراليا. كان هناك وقت وافر أمامي لذا قررت أن أنتفع به في السفر، وقد اصطحبت زوجتي إلى مارسيليا لنركب السفينة مالوا المتجهة إلى بورسعيد. وقررت أن أزور أهم آثار الصعيد قبل أن أتجه إلى أستراليا.

كنت مصمما على أن أبقي شخصيتي سرا، لكنني تخليت عن هذا عندما قابلت زميلاً ساحرا أصر على أن يبهر المسافرين

بألعابه مما جعلني لا أقاوم الرغبة في تأدية حركاته بشكل أفضل. كان عليّ أن أتوقع ما سيحدث نتيجة هذا التصرف. وقد حرمني هذا وزوجتي متعة أن نمضي رحلة هادئة في مصر. لقد صرت أنا نفسي أثرا غريبا يقف بينما يشاهده الناس!

جئنا لمصر لنرى الغموض والجمال، عندما رست السفينة في بورسعيد وركبنا قوارب صغيرة للشط، لم نر سوى مدينة صغيرة شبه أوروبية لا غريب فيها سوى تمثال (دي لسيبس)، لهذا قررنا السفر إلى القاهرة سريعا لنرى الأهرام ومنها إلى الإسكندرية لنركب إلى أستراليا.

كانت رحلة القطار مريحة، واستغرقت أربع ساعات بالضبط. أخيرا وصلنا إلى القاهرة. لكن خيبة الأمل لم تفارقنا لأن كل ما نراه كان أقرب إلى أوروبا ما عدا ثياب الناس.. هناك ميدان يعج بالسيارات والعربات. اتجهنا لفندق (شيبرد) عبر شوارع حسنة التصميم حيث بدت لنا أسرار الشرق وسحره أشياء بعيدة جدا..

لكن اليوم التالي أخذنا إلى قلب ألف ليلة وليلة وبدا لنا كأن بغداد (هارون الرشيد) تحيا ثانية. اتجهنا شرقا مارّين بحدائق الأزبكية ثم الموسكي وسرعان ما صرنا في يد دليل سياحي لم يمر بالتطور الحديث، لذا كان سيدا لحرفته.

لم أعرف إلا متأخرا أنه كان على أن أطلب من الفندق دليلاً مرخصا، لكن هذا الدليل كان رجلا حليق الوجه عميق الصوت يبدو كالفراعنة ويطلق على نفسه (الريس عبد الله الترجمان) وكان من الواضح أن له قوة ونفوذا على رفاقه، لكن الشرطة فيما بعد قالت إنها لا تعرفه، وإن لفظة (الريس) تطلق على أي

شخص ذي سلطة. أرانا عبد الله غرائب كنا نقرأ عنها فقط فيما مضى، وكانت القاهرة القديمة نفسها حلما وكتاب تاريـخ.. أزقة من حوارٍ ضيقة تفوح بعطر غامض بين الشرفات الأرابيسك التي توشك على أن تتلامس فوق الشوارع المرصوفة بالحجارة. مع (كاليدوسكوب) من الأثواب والأحجبة والعمائم والطرابيش، مع صوت المؤذنين فوق المآذن على خلفية من سماء زرقاء لا تتغير.

لكننا أبقينا ذروة المتعة للمتحف المصري حيث السحر المظلم لمصر الفرعونية. أخذنا عبد الله لشارع محمد علي حيث مسجد السلطان حسن وحيث الدرجات التي تقود للقلعة التي بناها صلاح الدين نفسه بحجارة من الأهرام المنسية [7].

عند الغروب صعدنا إلى مسجد محمد علي وألقينا من فوق المتاريس نظرة على القاهرة التي بدت قبابها بلون الذهب. الشمس تغرب الآن جالبة الغسق المصري المثير للقشعريرة وأمامها رأينا سلويت أهرام الجيزة، عندها عرفنا أننا انتهينا من القاهرة الإسلامية وعلينا أن نتذوق أسرار مصر الأقدم. عالم رع وآمون وإيزيس وأوزيريس.

في اليوم التالي ذهبنا إلى الجيزة فعبرنا شارع الهرم، ومررنا بقرى فقيرة. أربعة قرون كما قال بونابرت تنظر لنا من أعلى. في النهاية وصلنا ما بين محطة الترولي وفندق مينا هاوس. ابتاع لنا عبد الله تذاكر زيارة الهرم وكان واضح الكفاءة، فقد أبعد عنا البدو الذين كانوا يترصدون بنا وأحضر لنا جمالاً.. كانت المسافة التي سنقطعها قصيرة، لكننا لم نندم على إضافة هذه الخبرة الصحراوية المروعة إلى تجاربنا.

إن الأهرام تقع على نجد صخري عال. الهرم الأكبر يقع قرب الطريق الحديث وقد بناه الملك خوفو نحو 2800 قبل الميلاد، ثم إلى الجنوب الغربي تجد الهرم الثاني الذي بناه خفرع ويبدو أعلى برغم أنه أصغر. ثم تجد الهرم الأصغر لمنقرع..

سوف تجد أهراما أصغر وبقايا في عدة مواضع.. سوف تجد المصاطب وتشبه مقبرة (بيرنيب) الموجودة في المتحف المتروبوليتاني في نيويورك. جوار كل مقبرة معبد جنائزي كان الكهنة والأقارب يقدمون فيه الطعام للروح الهائمة (كا).

هنا كان تمثال خفرع بالحجم الطبيعي من الصخر البركاني والموجود الآن في المتحف المصري.. هو تمثال وقفتُ أمامه خاشعا عندما رأيته.. عرفت أن الألمان هم من وجدوه وتمنيت أن أعرف المزيد عن تلك البئر التي قيل إن التمثال وُجد فيها مع تماثيل أخرى لقردة بابون.

راح الطريق ينحني ونحن فوق الجمال، حتى وجدنا أنفسنا أمام الصحراء. واد من الأهرام الصغيرة خلفها يلتمع النيل شرقا والصحراء الخالدة غربا.

هبطنا نحو أبي الهول وجلسنا صامتين تحت هاتين العينين الرهيبتين اللتين لا تريان.

هنا تعالت صرخات البدو يطالبون السياح بالإسراع في إنهاء رحلة صعود وهبوط الهرم الأكبر، وكانوا يعتبرون الوقت الأمثل لهذه الرحلة سبع دقائق.. لكن بعض المشايخ قالوا إنهم قادرون على إنهاء التسلق والنزول في خمس دقائق لو منحناهم البقشيش. ومن أبي روّاش إلى دهشور جنوبا رأينا هرم سقارة الذي يمثل التحول من المصطبة إلى الهرم الحقيقي. لم نستطع

دخول الهرم الأكبر لأن البدو ضايقونا بإلحاحهم دعك من أننا صرنا مرهقين عاجزين عن هذه الرحلة المنهكة.

في المساء كان أفراد مجموعتنا منهكين من برنامج اليوم، لذا مضيت وحدي مع (عبد الله) في جولة.. فقد أردت أن أرى الأزقة والبازارات في ضوء الغسق الذي يُكسبها سحرا. مشينا إلى سوق النحاسين حيث قابلنا كبيرهم.. لم يحبنا كثيرا ولم يبد سعيدا بدليلي المخلص.. ربما لم يحب صوت (عبد الله) العميق ولربما لم يحب ابتسامة (أبو الهول) الجانبية على شفتي. على كل حال لم يطل الوقت قبل أن يمسك (علي عزيز) كما سمعتهم ينادونه بتلابيب (عبد الله). وسرعان ما تطور الأمر لشجار متبادل وفقد الرجلان غطائي رأسيهما المقدسين، وكان الأمر ليتطور إلى أسوأ لولا أن تدخلت لأفصل بينهما.

لم يرحب الرجلان بتدخلي، لكنهما تباعدا وراح كل منهما يستعيد كرامته ثم اتفقا على تسوية خلافهما باتفاق رهيب.. اتفاق عرفت أنه عادة عريقة في مصر. سوف يسويان ما بينهما بقبضة اليد على قمة الهرم، بمجرد أن يغيب آخر ضوء للقمر.

بدا لي الأمر مثيرا.. الصراع فوق هذه القمة التي تطل على صحراء الجيزة في ضوء القمر. وقد طلبت من عبد الله أن يصحبني معه فوافق.. وهكذا صاحبته وهو يجول البلدة في أحياء أكثرها شمال الأزبكية، يجمع مجموعة من البلطجية الخطرين ليصاحبوه في قتال الليلة.

بعد التاسعة ركبت مجموعتنا على حمير تحمل أسماء تعلموها من السياح مثل (مورجان) و (مارك توين) وعبرنا ذلك

الجسر الذي يحرسه أسدان من البرونز. استغرقت الرحلة ساعتين ونحن وحدنا مع الظلام والماضي.

ظهرت الأهرام في نهاية الطريق رهيبة تدعو للتوجس.. ألم يدفنوا هنا الملكة نيتوكريس حية إبان الأسرة السادسة؟.. سمعت أن العرب يحكون أشياء عن هذه الملكة نيتوكريس ويتحاشون الهرم الثالث ليلا.. إنها التي كتب عنها (توماس مور) واصفا إياها بـ (سيدة الهرم).

برغم أننا كنا مبكرين فقد وجدنا أن (علي عزيز) وجماعته سبقونا.. كنا قد تجنبنا المرور قرب مينا هاوس حتى لا يستوقفنا رجال الشرطة. واتجهنا نحو الهرم الأكبر حيث كان البدو ينتظرون.

دارت المعركة باللكمات وراقبتها. كانت سريعة جدا وبرغم تحفظي على الطريقة فإنني شعرت بالفخر عندنا أعلنوا أن (عبد الله) هو الفائز.

كان الصلح سريعا بشكل ملفت حتى إنني صرت بصعوبة قادرا على تذكر أن مشاجرة قد وقعت. ومن الغريب أن الاهتمام تحول نحوي أنا.. على قدر فهمي للعربية أدركت إنهم يتكلمون عني وعن قدراتي الغريبة في الفرار من أي سجن، وقد أثار دهشتي أنهم يعرفونني، كما شممت رائحة عدوانية ما. وبدأت أفهم أن سحر مصر القديمة لم يبرح البلاد، وأن ممارسات سحرية عدة ما زالت موجودة، إنهم يشكون في ألعاب الحواة.. وخطر لي أن دليلي عميق الصوت (عبد الله) يبدو ككاهن مصري قديم.

فجأة أدركت أن أفكاري لم تكن غير ذات أساس، لأنه من دون إنذار واستجابة لإشارة خفية من (عبد الله) هجم عليّ أولئك البدو وقاموا بتقييدي بحبال غلاظ.

قاومت طويلاً لكني أدركت أن رجلا وحيدا لا يقدر على الانتصار على عشرين بدويا قويا. ربطت يداي خلف ظهري وثنيت ركبتاي وربطوا يدي لكاحلي.. ثم وضعوا كمامة خانقة على فمي عصبوا عيني وحملوني على الأكتاف ونزلوا بي من فوق الهرم.

وسمعت (عبد الله) يقول إنهم سيضعون قواي السحرية تحت الاختبار حالاً.. ولسوف أفقد أي غرور اكتسبته من تجاربي في أوروبا وأمريكا.

إلى أية مسافة حملوني؟.. وفي أي اتجاه؟.. لا أعرف.. كل الظروف منعتني من تكوين رأى صائب، لكن بالتأكيد لم تكن مسافة بعيدة.. وضعوني على أرض ميزت أنها رمال وليست صخرا.. ربطوا حبلا حول صدري وجروني إلى فتحة في الأرض، وقاموا بإنزالي هناك. رحت أتخبط لوقت طويل في الجدران لبئر ضيقة أعتقد أنها مدفن قديم.

كان رعب التجربة يتزايد مع كل ثانية، وبدا لي أنني أقترب من مركز الأرض ذاته وأنه من الغريب أن يقدر حبل صنعه بشر على أن يتدلى لهذه الأعماق التي لا نهاية لها. إن حاسة الزمن تخدع المرء كثيرا، لكني كنت واعيا تماما حتى تلك اللحظة ولم يضف خيالي شيئا لصورة مريعة في حد ذاتها.

لم يكن هذا سبب إغمائي لأول مرة.. لقد بدا أن معاناتي تتزايد بسرعة، وظهر هذا واضحا مع ازدياد سرعة الهبوط.

كانوا يدلون الحبل بسرعة وقد رحت أرتطم بلا رحمة بجوانب البئر وأنا أهبط بجنون. تمزقت ثيابي وشعرت بالدم ينزف وشممت رائحة رطبة عطنة تختلف عن أية رائحة شممتها في حياتي، فيها أثر خافت لعطور وتوابل قديمة.

ثم جاءت الجائحة العقلية.. كانت مريعة تفوق أي وصف مرتب. كانت هذه ذروة الكوابيس.. في لحظة كنت أتعذب بناب ألف وحش في تلك البئر، وفي اللحظة التالية كنت أحلق فوق أجنحة الوطاويط في الجحيم. أحلق فوق أميال من الفضاء بلا حدود، ثم أهبط لفراغ ضار يبعث الغثيان. حمدا لله لأن النسيان محا هذا الجنون الذي مزق روحي.

لكني استجمعت قواي وعقلي لأتحمل هذا الرعب الكوني الذي ينتظرني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-2-

تدريجيا عدت لحواسي بعد هذا الصراع العجيب في فضاء جحيمي. كانت التجربة أليمة بحق وبلا نهاية، ولم تكن طبيعة أحلامي واضحة لكنها اضطربت في خيالي فلم يبق منها سوى الهيكل العام.

حلمت أنني في قبضة قدم عملاقة.. قدم صفراء مشعرة ذات خمسة مخالب تمتد لتهشمني.. ورأيت نفسي فريسة روح غولية من سحر النيل القديم.. أرواح وجدت حول النيل قبل أن يوجد بشر وستبقى بعد رحيلهم.

رأيت مقابر الموتى ومواكب الكهنة عبر ممرات ومتاهات يصير المرء وسطها ذبابة. ورأيت الشر الخام أسود عديم الشكل يتبعني في الظلمات ليخنق تلك الروح التي تجاسرت أن تحاكي هذا السحر.

في عقلي النائم كانت ميلودراما من الشر والمقت.. وسمعت روح الشر تناديني وتهمس بصوت غير مسموع. تهبط بي إلى قلبها الفرعوني المظلم الرهيب..

ثم بدأت الرؤى تأخذ شكل وجوه بشرية.. رأيت دليلي (عبد الله) في ثياب ملك وعلى ملامحه ذات تعبير (أبو الهول) الساخر. وأنا أعرف أن هذه ملامح (خفرع) الذي شيد الهرم الثاني.. ونظرت ليده الطويلة النحيلة التي رأيتها في تمثال الحجر البركاني في متحف القاهرة. هذه اليد!.. أراها الآن على (عبد الله) نفسه.. باردة تعتصرني.

هنا بدأت أصحو.. أو أبتعد نوعا عن حالة النوم التي كنت فيها.. تذكرت الشجار وقمة الهرم واعتداء البدو.. عرفت الآن أنني راقد على أرض صخرية ندية وقيودي محكمة بشدة. كان البرد شديدا وقد شعرت بتيار هواء بارد يمر بي..

كانت الجروح والسحجات التي أصابتني أثناء النزول تؤلمني بحق، وكانت أية حركة كفيلة بأن تفعمني ألما.

نظرت لأعلى فوجدت أن الحبل الذي نزلت به كان ما زال يتسلق لأعلى، فلم أدر إن كان البدو ما زالوا ممسكين به أم لا.. وقدرت أني في معبد (خفرع) أو كهف لم أره أثناء جولة الصباح، وهذا يعني أن بوسعي الفرار. عليّ أولا التحرر من قيودي.. لن يكون هذا عسيرا. إن خبراء كثيرين جربوا كل حيلة لديهم لكنهم لم ينجحوا في منعي من الهرب.

كان تفكيري الرئيس هو هزيمة هؤلاء لذا صممت على أن أتحرر بأسرع ما يمكن.. مع تحاشى أي جذب للحبل قد يفضح محاولتي للتحرر.

لكن تنفيذ هذا كان أصعب من التفكير فيه، لأن الحبل هوى ليتدلى جواري، وفهمت أن البدو قد شعروا بمحاولتي فتركوه يسقط في البئر، وهرعوا ينتظرونني عند مدخل المعبد. كان الموقف غير سار لكنني واجهت ما هو أسوأ في حياتي ولم أهتز ولن أهتز الآن.. عليّ أن أتحرر من قيودي، ثم أفكر في الهرب من هنا سليما. لكن الحبل الذي سقط فوقي كان يتكوم أكثر فأكثر بما يفوق الحبل العادي... كان ثقيلاً جدا يشى بالمسافة الهائلة التي نزلتها.. وبدأت أشعر بأنني أختنق.. ثم

الشعور بأنني هبطت كثيرا جدا فلابد أنني في موضع قرب قلب الكوكب.

عندما فقدت الوعي ثانية طاردتني كوابيس مصر وأسرارها المنسية.. الموتى وتلك المقابر التي كانت بيوتا أكثر منها مقابر. تذكرت أضرحة مصر القديمة والعقيدة التي كانت وراء بنائها.

لم يكن قدماء المصريين يفكرون إلا في الموت.. آمنوا ببعث الجسد كما هو وآمنوا بروح تبقى في النعيم مع أوزيريس، ثم (الكا) جوهر الحياة الغامضة التي تتحرك بين العالمين السفلي والعلوى بشكل مفزع. وتحاول الوصول إلى الجسد المحنط وأحيانا تستولى عليه أو على التمثال الخشبي الذي يشبهه.

منذ آلاف السنين وتلك الأجساد ترقد ناظرة لأعلى بعيون زجاجية بانتظار البعث، وبانتظار أن تجتمع فيها الكا والروح ليخرج الموتى من دار النوم. ربما يتحدث الناس عن اجتماعات غير مقدسة في هذه الكهوف والأقبية لا يحضرها سوى كا وهذه المومياوات.

من أفظع المومياوات تلك التي تجمع بين جذوع بشرية وأطراف حيوانية، والتي زعم الكهنة أنها ناجمة عن اتحاد بين البشر والحيوانات للوصول إلى أشباه آلهة. أما ما حدث لهذه المومياوات فلا نعرف.. لم يجد أي عالم مصريات واحدة منها. يقولون إن خفرع ما زال حيا تحت الأرض وقد تزوج نيتوكريس وهو يحكم المومياوات التي لا هي بشر ولا وحوش.

حلمت بخفرع ومملكته من الموتى.. لهذا أنا مسرور لأنني نسيت أكثر هذه الكوابيس.

عندما أفقت من غيبوبتي لاحظت أن ذلك الحبل الثقيل الذي كان يجثم فوقى ويخنقني غير موجود.. هناك من رفعه عني!

أنا وحدي... لكن مع أي شيء؟

قبل أن أعذب نفسي بمزيد من الأسئلة، وقبل أن أفكر في التحرر من قيودي، كانت آلام جديدة تمزق ذراعي ورجلي. وأدركت أنني مغطى بالدم بشكل لا يمكن تفسيره بالجروح التي أصابتني أثناء الهبوط.. الشيء الذي نزع عنى الحبل قد جرحني وأدماني بلا رحمة، ثم توقف بلا تفسير. رحت أفك قيودي مستعملاً الفن الذي مارسته مرارا أمام الأضواء والتصفيق. عليّ أن أقف غير مقيد غير مضمد العينين وغير مكتوم الفم فلربما أرى ضوءا أعرف به أين أنا.

في النهاية وبعد وقت طويل تحررت، فوقفت أستنشق الهواء غريب الرائحة. وأدركت أن عضلاتي متصلبة لا تسمح لي بالحركة فورا.. لذا جلست وفردت جسدي لفترة طويلة ورحت أفتش عن مصدر ضوء يلمح لي بمكاني.

استعدت قواي لكن عيني لم تريا شيئا.. لا شيء سوى ظلمة أبنوسية كالتي كنت أراها والعصابة على عيني. نهضت وأدركت أنني قادر على المشي.. كان هناك هواء بارد كريه الرائحة لذا قررت أن هذه أقرب نقطة للمدخل ولسوف أتخذها مرجعا لجولتي.

كان معي ثقاب وكشاف صغير، لكن جيوب ثيابي تم إفراغها من أي شيء ثقيل. مصر!.. الشرق!.. هذا الموضع من العالم يحوي الكثير من الرعب والكثير من السحر..

قررت أن أتبع تيار الهواء الغريب، فهو سوف يقودني إلى فتحة من أي نوع. ربما أفشل.. هذا أعرفه.. فمن الواضح أن هذا ليس جزءا من معبد خفرع الذي يعرفه السياح. ربما هو موضع لم يسمع عنه أي عالم أثرى من قبل، فلا يعرفه سوى الأعراب الذين سجنوني.

هل هي نهايتي؟.. ربما كان من الرحمة أن تكون هذه هي لحظاتي الأخيرة.

فقدت وعيي من جديد... كلما تذكرت تلك الليلة شعرت بنوع من الدعابة في الأمر لأنني تذكرت الأفلام الميلودرامية التي كانت موضة العصر حيث كانت الإغماءات تتتابع.

ربما كانت تلك هلوسة طويلة بدأت بهبوطي في البئر وانتهت بي في صحراء الجيزة على الرمال تحت الشمس الحارقة. فيما بعد قال لي رجال الشرطة إن مدخل معبد خفرع كان مفتوحا وإن هناك صدعا إلى السطح ما زال موجودا. من الغريب أن وصفى للدليل لم يساعد أي واحد في أن يعرف من هو.. الريس عبد الله الترجمان الذي يبدو ويبتسم مثل الملك خفرع.

لقد ابتعدت عن قصتي الأصلية ربما لأتجنب هذه النقطة التي أعتبرها هلوسة. عندما أفقت أو خيل لي إنني أفقت، عرفت أنني تعثرت فوق درجات حجرية. وكانت الريح الكريهة قوية الآن بشكل شيطاني.. لكنني كنت قد ألفتها. بدأت أزحف وأنا أتحسس الأرض بيدين داميتين. اصطدم رأسي بعمود.. عمود عملاق لدرجة لا توصف مغطى بنقوش هيروغليفية استطاعت يدي أن تميزها.

قابلت عدة أعمدة عملاقة على مسافات متساوية كبيرة وهنا فطنت إلى أنني أسمع صوتا.. صوتا ظل يتردد في لا وعيي فترة طويلة قبل أن تعيه حواسي. ثم فطنت أنها أصوات عديدة.. أصوات تؤدى طقوسا ما لا شك فيها.. دق دف... ضربات على الهارب..

شعرت بذعر يفوق أي ذعر عرفته.. ذعر تجاوز ما هو شخصي ليصير نوعا من الشفقة على كوكب الأرض الذي يحتضن هذه الأسرار المروعة. الصوت يتعالى كأنهم يقتربون.. ثم بدأت أسمع خطوات هذه الأشياء التي تمشى..

فليرحمني الله!.. إن هذه الأشياء تقترب وصوت خطواتها وزحفها منتظم شحذته آلاف الأعوام من التدريب.. هنا مكان اجتماع المومياوات التي لا روح لها.. ملتقى الحائرين.

اقتربت الخطوات.. وتواريت خلف عمود حجري محاولاً إبعاد الرعب عني. الرعب الذي يزحف بمليون قدم نحوى، ورأيت ضوءا خافتا.

لم أحاول النظر لتلك الأشياء الماشية.. فقط سمعت مفاصلهم التي تحدث صريرا وأنفاسهم التي تعبق بالنترات.. من الرحمة أنهم لم يتكلموا.. لكن رباه!.. مشاعلهم كانت تلقى ظلالاً مجنونة على الأعمدة.. أفراس النهر لا يجب أن تكون لها أذرع بشر أو تحمل مصابيح.. البشر لا يمكن أن تكون لهم رءوس تماسيح!

حاولت أن أبتعد لكن الظلال والأصوات والرائحة الكريهة كانت في كل مكان.. هكذا تذكرت الحيلة التي كنت أرددها لنفسى وأنا طفل: هذا حلم!.. هذا حلم!.... لكنها لم تجد كثيرا.

كان عليّ أن أفتح عيني عساي أتبين في هذا الضوء شيئا يدلني على مكاني، لكنني كنت مضطرا لغلق عيني عندما رأيت شيئا يتحرك بلا جذع فوق خصره..

كانت غرغرة الموتى تملأ المكان والهواء صار خانقا من لهب المشاعل. وفتحت عيني مرغما لأرى مشهدا لا يمكن أن تتحمله عين بشرية.. لقد وقفت الأشياء في اتجاه واحد بينما مشاعلهم تعكس رءوسهم المحنية أو رءوس من كانت لهم رءوس. كانت تتعبد أمام فتحة تتصاعد منها أبخرة كريهة وأدركت أن على جانبيها درجات سلم عملاقة..

كان حجم الفتحة يتناسب مع حجم الأعمدة العملاق.. يمكن لبيت عادى أن يغيب فيها تماما..

أمام هذه الفتحة كانت تلك المسوخ تلقى بأشياء.. ربما قرابين كما فهمت من حركاتها..

القائد كان خفرع.. بعبارة أخرى كان مرشدنا (الريس عبد الله) وجواره الملكة الحسناء (نيتوكريس) التي أدركت في لمحة أن نصف وجهها التهمته الفئران.. ثم رأيت ما كانوا يقذفونه في الفتحة فأغمضت عيني.

لمن يتعبدون؟.. أوزيريس أو إيزيس؟ حورس أم أنوبيس؟..

خطر ببالي الفرار.. القاعة مظلمة والأعمدة عملاقة والكل مستغرق في الطقوس.. ربما أصل إلى تلك الدرجات وأصعد دون أن يراني أحد. بدا لي من المسلي أن أحاول الفرار من هذا المكان الذي هو حلم..

بدأت الزحف على بطني متجها نحو أسفل الدرج الأيسر. كان هو الأقرب. من الصعب أن أصف مشاعري أثناء هذا الزحف لكن بوسع المرء أن يتخيل.. كان أسفل الدرج في الظلال البعيدة يرتفع إلى ما فوق تلك الفتحة. هكذا صرت على مسافة معقولة من الحشد وإن أفزعني منظره برغم أنني صرت بعيدا.

نجحت في بلوغ الدرجات ورحت أتسلق ملتصقا بالحائط..

كانت الدرجات منحدرة وضخمة كأنها مخصصة لقدمي عملاق وبدا لي الصعود بلا نهاية، خوف أن يروني وألم جراحي المتجدد جعل هذا التسلق ذكرى أليمة. وكنت قد صممت على ألا ألقى نظرة تحتي حتى لا أرى هذا الجمع المخيف الجيفي الذي يقوم بطقوس مروعة على بعد سبعين قدما من تحتي. فجأة تردد صوت هذه الغرغرة. وتصلبت للحظة ثم أدركت أنه نوع من التراتيل وليس بسبب اكتشافي..

كانت المسوخ تحيي شيئا تحرك في الفجوة كي يظفر بما قدموه له. كان شيئا رخوا أصفر مشعرا ذا حركة عصبية. لم يكن له عنق لكن له خمسة رءوس تبرز في صف من جذع أسطواني.

من هذه الرءوس برزت ممسات صلبة غريبة تمسك بالطعام الذي أدخلوه في الفجوة. أحيانا كان الشيء يعود للفتحة وكانت حركاته غريبة، عصية على التفسير لدرجة أنني تصلبت مذهولاً متمنيا أن يبرز أكثر..

هنا خرج.. نعم خرج...

إذ رأيته هرعت أتسلق الدرجات ورحت أتسلق عبر مسطحات وسلالم لم يرها بشرى من قبل ولا تخضع لمنطق.

لابد أن هذا كان حلما..

لابد أنه كان حلما وإلا ما وجدني الفجر أتنفس فوق رمال الجيزة أمام وجه أبي الهول الباسم الساخر.

أبو الهول العظيم!.. السؤال الذي سألته لنفسي.. ما الشيء العملاق المخيف الذي نحتوا هذا التمثال ليمثله؟

ملعون هي تلك الرؤيا التي جعلتني أرى الرعب الأعظم. حلما أو لا.. الكائن المروع الذي يقبع في هوة سحيقة يلتهم ما تقدمه له مسوخ بلا روح ما كان يجب أن توجد. المسخ ذو الرءوس الخمسة.. المسخ ذو الرءوس الخمسة العملاق.

لكنى عشت.. وأؤمن أن ما رأيته كان مجرد حلم.

هـ. ب. لافكرافت

نداء كتولو

(العزيف) و (نيكرونوميكون) و (كتولو) و (آرخام) و (إينزماوث).. مفردات عالم لافكرافت كاتب الرعب الأمريكي الأشهر، التي يستعملها في كل قصصه تقريبا..

عشاق أدب الرجل يعرفون معنى هذه الكلمات لدرجة أنهم يشعرون بتوتر غامض عند سماعها، والبعض يشعر بأن لافكرافت هو نفسه شخصية مرهقة حساسة مريضة من شخصيات قصصه.

اليوم نلبي نداء (كتولو) الرهيب النائم في أعماق المحيط ونعرف أكثر.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- فنان بريطاني سويسري المولد تخصص في رسم الرعب وهو صاحب لوحة (الجاثوم) الشهيرة..

[←2]

- كوتن ماثر Mather شخصية أمريكية حقيقية شهيرة جدا تخصص في محاكمة الساحرات وإعدامهن وله عدة كتب عن السحر..

[←3]

- دخل تعبير (موسيقا إريك زان) الوجدان الجمعي الغربي، لدرجة أن هناك عدة فرق تقدم موسيقا مجنونة واختارت لنفسها ذات الاسم. يمكنك تحميل فيلم عرائس ألماني طريف قصير يحكي القصة ذاتها من الموقع:

http//gonzo.uni-weimar.de/%7Exusx2208/anna/trick/zann_diemusikdescrichzann.mov

[←4]

- اضطرت مجلة (حكايات غريبة) لتغيير هذا الاسم الطويل إلى (القرد الأبيض)، مما أثار غيظ لافكرافت.. لم يعد الاسم الأصلي إلا بعد أعوام من وفاته.

[←5]

- جزء آخر من عالم لافكرافت الذي يتكرر من قصة لأخرى. عرفنا عقيدة (داجون) في قصة (ظل فوق اينزمازت) وهنا نرى ذات العالم من وجهة نظر أخرى.

[←6]

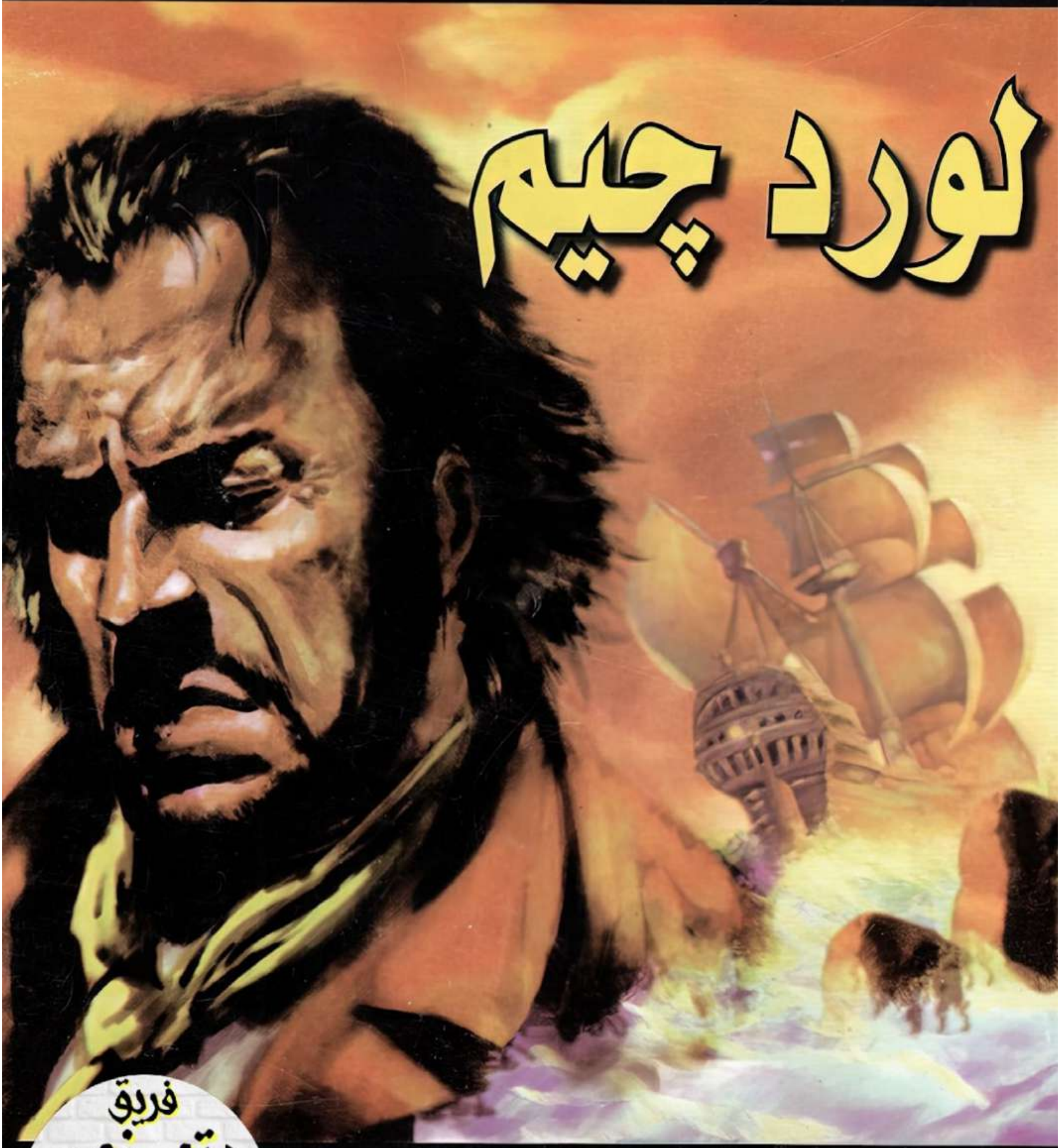
- كتبها خصيصا تحية لصديقه المشعوذ (هوديني) أبرع المختصين في فنون الهرب من القيود عبر التاريخ.

[←7]

- ليس هذا الوصف أدق وصف ممكن لمصر، ولكنه الخلط المعتاد في ذهن الغربيين.

روايات عالمية للجيب 69

لورد چيم



تأليف : چوزيف كونراد

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (69)

لورد چيم

تأليف: چوزيف كونراد

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف

لقاؤنا الثاني مع (جوزيف كونراد Joseph Conrad) الذي قدمنا له من قبل في هذه السلسلة روايته الصعبة المملة نوعًا (قب الظلام). وقد قدمناها برغم كل شيء لأنها بالغة الأهمية وتمثل جزءًا حميمًا من ثقافة قارئ الإنجليزية. هذه المرة نلتقي مع قصته الشهيرة الأخرى (لورد چيم) وهي أكثر تشويقًا لحسن الحظ.

قلنا من قبل إن الرجل أديب مهم من أدباء الإنجليزية برغم أنه بولندي الأصل، وكان يتكلم الإنجليزية بصعوبة بالغة، مما كان يرهقه بشدة في الكتابة.

ولد عام 1857 في منطقة بين روسيا وبولندا يطلقون عليها (أوكرانيا البولندية) لأسرة من طبقة نبيلة، لأسباب سياسية نفيت الأسرة من بولندا، وتوفي الأب ثم الأم ليجد (جوزيف) نفسه تحت رعاية عمه.

سافر الصبي إلى فرنسا عام 1974 حيث تعلم هناك الفرنسية وأصول الملاحة في البحر، وهناك كون صداقات مع مجموعة من الأدباء الفرنسيين البوهيميين، لهذا ظل طيلة حياته مزيجًا فريدًا من بحار وفنان.

في العام 1978 يرتحل الفتى إلى إنجلترا ليعمل ضابطًا على السفن البريطانية، وقدر له أن يظل هناك عشرين عامًا من حياته.

قرر الفتى أن يكتب.. وكان أول ما كتبه باللغة الإنجليزية وهذا غريب لأن الإنجليزية ثالث لغة تعلمها في حياته (بعد

البولندية والفرنسية). سافر إلى الكونغو عام 1890 فرأى كيف يعامل البلجيكيون العنصريون القساة سكان البلاد، وعاد ليكتب (قلب الظلام). إن أسلوب الرجل معقد وغامض لدرجة أن هناك نقادًا غربيين اعتبروا القصة تمجيدًا للاستعمار الغربي لا هجومًا عليه!

بعد وفاة عمه الثرى ظفر بإرث كبير مكنه من أن يتفرغ للكتابة طيلة حياته، وكانت معاناته و(مصارعته) للغة الإنجليزية سببًا لكونه مشغولاً على الدوام، ولم يكن لديه وقت للعلاقات الاجتماعية والأسرية.

تُوفّي عام 1924 بنوبة قلبية وهو في الولايات المتحدة الأمريكية، وترك لنا 18 رواية و28 قصة قصيرة.

غالبًا ما يكون الراوي في قصصه بحارًا متقاعدًا اسمه (مارلو).. في قصة (لورد چيم 1900) التي هي بين يديك يحاول بحار أن يصحح خطأ ارتكبه في شبابه يتسم بالجبن مع سفينة تقل بعض الحجاج المسلمين. والقصة مأخوذة عن حادثة حقيقية للسفينة (جدَّة) التي أحدثت صخبًا في ذلك العصر، وقد قدمتها السينما العالمية عام 1965 في فيلم جميل بالاسم نفسه وقام ببطولته (بيتر أوتول) وأخرجه (ريتشارد بروكس). القصة برغم قوتها لا تخلو من ذات التعالي العنصري الذي كان رمز المرحلة: الرجل الأبيض الذي جاء ليُهدي الحكمة والنبل للوطنيين الطيبين العاجزين عن حماية أنفسهم. إن لورد چيم طرزان آخر لكنه يقدم بشكل ثقافي عالي المحتوى الأدبي.

في قصة (العميل السري 1907) يحكي كونراد عن فوضوي يعيش في لندن. وفي قصة (تحت عين غربية 1915) يحكى عن

تسلط روسيا في القرن التاسع عشر. أما عن قصة (قلب الظلام) التي كتبها عام 1902 فيعرف من قرءوها أنها تتحدث عن رحلة مخيفة عبر نهر أفريقي لمقابلة رجل غربي رهيب يعيش في الأحراش ويدعى (كورتز)، وهذا الرجل أحاط نفسه بالغموض لدرجة أن بعض مواطنيه أوشكوا على تأليهه.

(جوزيف كونراد) أديب مهم لابد أن يُقرأ، وإن كان مرهقًا إلى حد ما، وقد حاولت أن أجعله أسهل في الرواية الأولى فلم أوفق كثيرًا، لكني حاولت بجدية أكثر في هذه الرواية، وأعتقد أنها ستروق لك.

د. أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

كان طويل القامة قوى البنيان منحنى الكتفين قليلاً، يعطى طابع الثور المنقض، كان صوته عميقًا عاليًا وكان متأنقًا في ثيابه البيضاء كلها، محبوبًا في الموانى الشرقية حيث كان يعمل في نقل المؤن للسفن.

إنه مخلص لقبطان سفينته، متنبه كإبن عطوف، يتمتع بصبر أيوب. مهنته مهنة جميلة لكنها ليست سهلة، ولهذا تجد أن من يمارسون مهنته قليلون.. خاصة إذا كان صاحب المهنة قد تربى في البحر فإنه يساوي ثقله ذهبًا، لهذا كان (چيم) ينال أعلى الأجور. لكنه كان قد قرر أن يترك العمل فجأة ليعمل في مكان آخر، وكان رؤساؤه يرونه يبتعد فيصيحون (الأحمق الغبي!)..

بالنسبة للبحارة كان هو (چيم).. لا شيء غير هذا.. بالطبع كان له اسم ثان لكنه كان مصرًا على عدم ذكره. لم يكن هذا الغموض يهدف لإخفاء شخصيته بل حقيقته.. وكان يرحل فورًا بمجرد أن تحدث ثقوب في إطار الغموض الذي يحيط به نفسه. غالبًا كان يتجه نحو الشرق أكثر..

كان ينفي نفسه نحو الشمس باستمرار، والحقيقة كانت تتبعه بشكل عابر لكن لا مفر منه. لهذا خلال أعوام صار معروفًا في بومباى وكالكتا ورانجون وبينانج، وهناك في الملايو أطلقوا عليه (توان چيم) وهو ما يشبه (لورد چيم) في الإنجليزية.

جاء في الأصل من بيت قس وكذلك نشأ كثيرون من خيرة قباطنة السفن التجارية. كان واحدًا بين خمسة أبناء، وقد شعر

بحنين للبحر بعد ما قرأ بعض القصص في إحدى عطلات الصيف، وتم إرساله لسفينة مخصصة لتدريب ضباط البحرية التجارية.

هناك كان محبوبًا سريع التعلم، وقد راح يُمنِّي نفسه بحياة جميلة في عالم المغامرات. كان يرى نفسه ينقذ الناس من سفينة غارقة ويكافح الأعاصير.. أحيانًا يرى نفسه حافيًّا شبه عار على جزيرة مهجورة.. يواجه المتوحشين في المناطق الاستوائية ويواجه القراصنة في عُرض البحر.. مخلصًا دومًا لواجبه كبطل من أبطال الكتب.

في ذلك اليوم العاصف اصطدمت سفينة تجارية بمركب ذات صاريين عند المرسي، وهرع الصبية يراقبون المشهد وهم يصرخون: «تصادم!

شعر چيم بمن يمسك كتفه ومن يقول له:

- تأخرت أيها الشاب..

كان هذا قبطان السفينة، فقد كان چيم على أهبة الوثب فتوقف وقد بدا ألم الهزيمة في عينيه. كان يؤمن أنه لا يخاف العواصف.. إنه قادر على مواجهة كل شيء أفضل من أي واحد آخر، كان مؤمنًا بكفاءته وقدراته بلا حدّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد عامين من التدريب ذهب للبحر، وهناك زار أماكن عرفها من قبل جيدًا في مخيلته. ووجدها جدبة من المغامرة بشكل غريب. قام برحلات عديدة وذاق الرتابة الساحرة لأن تكون بين السماء والبحر، وذاق نقد الرجال له، ومرارة أن تعمل

من أجل لقمة عيشك.. لم يكن بوسعه التراجع لأنه لا يوجد شيء مغر يستعبدك ويحررك مثل الحياة في البحر. كان مهذبًا يعرف واجبه جيدًا.. وفي سن صغيرة جدًّا صار كبير ضباط سفينة، لكنه لم يمر بالتجارب التي تختبر معدن الرجال وثبات أعصابهم وحقيقة قدرتهم على التحمل. وتكشف المرء ليس أمام رفاقه فقط بل أمام نفسه.

كاد يفقد حياته ذات مرة عندما هوت صارية عليه، وقضى فترة طويلة في الفراش، ثم عندما رست السفينة على المرفأ الشرقي ذهب إلى المستشفى.. اضطروا لتركه لأن نقاهته استغرقت وقتًا..

لم يكن معه سوى مريضين في غرفة البيض.. أحدهما ضابط محاسبة على سفينة حربية، والآخر موثق عقود سكك حديدية من محافظة مجاورة مصاب بمرض استوائي غامض، يؤمن أن طبيبه حمار، ويتعاطى سرًّا دواء خاصًّا يجلبه له خادمه (التاميل) المخلص.

كانوا يتبادلون الذكريات ويلعبون الورق ويقضون اليوم في مناماتهم مسترخين. من النافذة تهب ريح شرقية محملة بالعطر.. تحمل وعدًا بالراحة.. السلام الأبدى لسماء الشرق..

ما إن استطاع چيم المشي بلا عكازين حتى قصد المدينة يبحث عن طريقة تعيده للوطن، لم يجد شيئًا لكنه اختلط كثيرًا برجال البحر مثله. منهم الحالمون الذين لا يكفون عن وضع الخطط المستقبلية، والذين لا توجد حقيقة أكيدة في حياتهم سوى موتهم. الباقون كانوا مثله جاءوا هنا بحادث ما.. وقد

اعتادوا سلام الشرق وراحوا يَخشون العودة للوطن للخدمة من جديد..

في كلامهم وأفعالهم تجد تلك البقعة الرخوة: الرغبة في حياة مسترخية وسط الوجود.

بدأ چيم يحب وجود هؤلاء القوم، ومع الوقت نبذ فكرة العودة للوطن، ووجد لنفسه وظيفة كضابط على السفينة (باتنا).

(باتنا) كانت سفينة بخارية عتيقة كالجبال رشيقة ككلب سلوقي وقد التهمها الصدأ كخزان ماء..

يملكها رجل صيني ويستأجرها عربى.. ويقودها ألماني من (نيو ساوث ويلز) يمقت بلده بعنف، لكنه يتوحش مع كل الذين لا يخشاهم.. له شارب قرمزي وأنف أحمر..

تم دهان السفينة من الخارج وغسلها من الداخل، ثم استقلها 800 حاج صعدوا على ظهرها فوق ثلاثة ألواح خشبية، وكلهم إيمان وأمل في دخول الجنة.. تضرب أقدامهم الحافية الأرض بلا كلمة أو نظرة للوراء. وسرعان ما ملئوا السفينة كأنهم الماء يملأ خزانًا.. يرتفعون في صمت نحو الحافة.

ثمانمائة حاج كلهم أمل وإيمان.. من الشمال والجنوب.. عبروا الغابات والأنهار وأبحروا من جزيرة لجزيرة.. تركوا قراهم وغاباتهم وحماية حكامهم وفقرهم وذكريات شبابهم وقبور آبائهم..

جاءوا شعثًا غبرًا.. الشيوخ الضعفاء جاءوا وهم يوقنون أنهم لن يعودوا.. ثمة أطفال بعيون لا تخاف مليئة بالفضول. نساء

يرتدين الأسمال يحملن أطفالهن النيام..

قال الألماني لضابطة الجديد مشيرًا إلى الركاب:

- انظر لهذه الأبقار..

جاء قائد المجموعة أخيرًا وهو عربي وسيم جاد الملامح، بثيابه البيضاء وعمامته العالية. ثم جاء مجموعة من الخدم يحملون متاعه. وبدأت (باتنا) تبتعد عن رصيف الميناء.

دارت نصف دورة في ظل جبل ثم عبرت صخور الخليج التي تفور المياه عليها، ووقف العربي يتلو دعاء السفر، عبرت السفينة البوغاز وقطعت الخليج ثم بدأت رحلتها نحو البحر الأحمر تحت سماء صافية. ومن تحتها كان البحر أزرق عميقًا بلا حركة ولا تجعيدة واحدة كأنه ميت. وتصاعد الدخان الأسود للسماء بينما خلفت السفينة وراءها شريطًا أبيض من الرغوة تلاشي في الحال.

في كل يوم تشرق الشمس من البقعة نفسها لتحرق المسافرين ثم تغوص في غموض في البحر ليلة تلو ليلة. وكان الخمسة البيض الذين يقودون السفينة يعملون بمعزل عن حمولتها البشرية.

وكذا دارت الأيام حارة ثقيلة تغيب يومًا بعد يوم في الماضي.. والسفينة تغوص في اتساع براق لا نهاية له تحرقها الشمس التي لا تترفق. لذا كان الليل بالنسبة لها رحمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

بدا بحر العرب ناعمًا كأنه لوح من الثلج يمتد نحو الأفق المظلم. وعلى جانبي (باتنا) تعالت المياه تفور ثم تلتقى من جديد بعد ما ترحل السفينة.

كان چيم على منصة الربان يقف وقد سحره هذا الهدوء والسلام على وجه الطبيعة، كأنه السلام على وجه أم. وتحته كان الحجاج الذين استسلموا لحكمة الرجال البيض وسفينتهم المعدنية، ينامون على الحصر وألواح الخشب العارية وكل ركن مظلم وقد أراحوا الرءوس على أكياس صغيرة فيها متاعهم كله، ودفنوا وجوههم في سواعدهم. إله النوم شقيق الموت حيث يصير الجميع متساوين.

رجل عجوز ينام على سجادة الصلاة وقد وضع يدًا على كل أذن من أذنيه، وامرأة مغطاة من قمة رأسها لأخمص قدمها تنام وطفل عار في تجويف كل من ذراعيها، بينما تكومت الأمتعة في كومة عالية لا يمكن أن تفهم حدودها..

مشى چيم وصوت خطواته العالي يبدو كأن النجوم تردد صداه. عيناه تتفحصان الأفق كأنه يبحث عن المستحيل. كان الظل الوحيد في البحر هو ظل الدخان الذي يتدفق من المدخنة. تمطى چيم حتى سمع مفاصله تقرقع، وشعر بأنه لا يبالي بأي شيء يحدث له إلى نهاية حياته.

من حين لآخر يرمق الخارطة المثبتة بالدبابيس إلى منضدة ذات ثلاثة أرجل.. هناك خارطة تبين أعماق البحر وفوقها مسطرة متوازية وقد تم تحديد موضع الباخرة عند الظهر

بصليب أسود صغير. وخط بالقلم الرصاص يحدد مسار السفينة.. رحلة الأرواح إلى الأرض المقدسة.. حلم الخلاص.. والخلود في الجنة.

كان يتساءل عن سبب ثبات السفينة وهدوء الرحلة، وكان يحلم أحيانًا بأن يختبر رجولته.. لا يوجد خطر لا يقدر على مواجهته..

دقت ساعته فأدرك أن موعد ورديته قد شارف على الانتهاء.. شعر برضا وإن تضايق لأنه سيفارق هذا البحر الهادئ الجميل.. كان النعاس يزحف عليه، وشعر بلذة في كل طرف من أطرافه كأن دمه قد صار لبنًا دافئًا.

جاء صديقه بلا ضوضاء وهو يلبس منامته وقد انفتحت سترته. وجهه أحمر نصف متيقظ وعينه الوحيدة المفتوحة زجاجية غبية. راح يهرش ضلوعه وقد بدا مقززًا.. لحم صدره يلمع كأن دهنه قد سال من الحَرّ.. سوف يذكر چيم هذا الشكل البدين طويلاً باعتباره يجسد كل شيء دنيء في العالم الذي نحبه..

هوت رقاقة القمر الأخيرة لتضيع في سواد المياه.. والأبدية في السماء اقتربت من الأرض، والسفينة تتحرك بنعومة تفوق قدرة البشر على الإحساس، كأنها كوكب يدور حول الشمس بكل ما عليه..

قال الرجل:

- لفظة (حار) لا تصلح للحال في قاع السفينة..

ابتسم چيم ولم يعلق. بينما أدار الرجل ظهره له.. إنه المهندس الثاني للسفينة يواصل شكواه. هنا ظهر القبطان الألماني من مكان ما غاضبًا وصاح في المهندس:

- من أين جئت بالشراب؟

ترنح المهندس وتمسك بالحاجز بكلتا يديه وقال:

- شراب؟.. ليس منك يا كابتن.. أنت أكثر بخلاً من ذلك.. أنتم معشر الألمان تفضلون ترك رجل يموت على منحه جرعة من (الشنابس)..

من حنجرة القبطان تصاعدت ضوضاء كان بوسعك أن تميز فيها بكثرة لفظة شفاين (خنزير بالألمانية) تتطاير كريشة في النسيم. كان هو والمهندس صديقين حميمين لأعوام لا بأس بها، يخدمان ذات الرجل الصيني ذي الضفيرة والعوينات الرفيعة وبرغم هذا لم يكونا متناسبين.. أحدهما حقود رخو غبي العينين مكتنز، والآخر نحيل له رأس حصان وصدغان غائران.. كانت سفينته قد غرقت منذ عشرين عامًا قرب ساحل شرقي لعله الصين ونجا بشبابه، ولم يحاول إصلاح سفينته بل ظل هنا للأبد وكان يحب أن يعرف الغرباء أنه قديم في هذه البلاد. يجوب سطح السفينة وهو يدخن التبغ المخلوط في غليون طويل، وهو شارد كمفكر غارق في فكرة فلسفية عميقة.

كانت غضبة الألماني عاتية متفجرة، وقد راح چيم يراقب المشهد في استمتاع وإن نفد صبره بانتظار لحظة النزول لقمرته. هؤلاء القوم لا يمتون لعوالم البطولة بصلة لكنهم أناس طيبون.. يحتك بهم ويعيش معهم لكنه يختلف.

كان المهندس يقول:

- أنا ثمل؟.. لا يا كابتن.. لا.. لا.. أنا لا أسكر بسهولة، وهذه السفينة ليس عليها نوع الخمر الذي يمكن أن يؤثر فِيَّ.. يمكن أن أشرب نارًا سائلة وبرغم هذا لا أهتز.. ولا أخشى ما يمكن أن تفعله..

وتخلى عن الحاجز ليأتي بيده حركات تدل على مدى بسالته وشجاعته.. وراح يتقدم للأمام والخلف ليكسب كلماته تأثيرًا.

وفجأة هوى برأسه في الماء كأن هناك من ضربه من الخلف. فقط قال:

- تبًّا!

مرت لحظة صمت ثم هرع الرجلان ينظران فوق الحاجز وهما مذهولان.. ينظران لصفحة الماء ثم رفعا رأسيهما نحو النجوم.

ماذا حدث؟.. استمر صوت المحركات.. هل توقفت الأرض عن الدوران؟. لقد غاص المهندس وتواري بينما هدير خفيف كأنه رعد واهن أو رعد بعيد جدًّا يدوى، واهتزت السفينة للحظة.

المقدمة ارتفعت قليلًا ثم عادت تشق البحر إلى نصفين.. وتوقف الاهتزاز وصوت الرعد الخافت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

بعد شهر من هذا حاول (چيم) في رده على الأسئلة أن يحكى تجربته بصدق، فقال عن السفينة:

- لقد واصلت طريقها بنعومة كثعبان يلتف حول عصا..

كان التحقيق يجري في المحكمة في مرفأ شرقي. كان يقف محمر الخدين في قفص الشهود. عشرات العيون تراقبه كأن هؤلاء القوم قد صاروا عبيدًا طائعين لصوته. صوته العالي جدًّا كأنه الصوت الوحيد المسموع في العالم.. أهالي البلاد وبعض الأوروبيين في سترات ضيقة بيضاء كجلودهم، وقبعاتهم على أفخاذهم.

في الخارج كانت الشمس حارقة بينما في الداخل تتحرك المروحة العلاقة فتجعلك ترتجف. ووجه القاضي الطليق عديم التعبير ينظر له، يريدون الحقائق.. الحقائق!.. كأن الحقائق تفسر أي شيء.

- قلت لكم اصطدمتم بشيء سابح.. ربما حطام يحمله الماء.. طلب منك رئيسك أن تتحرك للمقدمة وترى إن كان هناك أي ضرر.. هل توقعت هذا من قوة الارتطام؟

قال چيم:

- قيل لي ألا أحدث صخبًا حتى لا أسبب ذعرًا.. بدا لي هذا معقولاً.. حملت مصباحًا معي واتجهت للمقدمة. فتحت المخزن الأمامي فسمعت صوت تدفق ماء هناك.. لقد امتلأ

المخزن بالماء لنصفه.. وعرفت أن هناك فجوة بالتأكيد تحت القاع..

قال مستشار القاضي:

- نعم..

- لم أفكر في الخطر وقتها.. ربما ذهلت قليلاً لأن هذا حدث بطريقة سريعة مفاجئة.. عدت لأخبر القبطان فقابلت المهندس الأول يترنح أسفل الدرج، وقال لى إنه يعتقد أنه هشم ذراعه.. لقد انزلق من فوق الدرج.. وصاح: رباه!.. الحاجز سوف يتهاوى خلال دقيقة وسوف تغرق السفينة اللعينة كثقل من الرصاص. وصعد في الدرج وهو لا يكف عن الصراخ.. تبعته فرأيت القبطان يضربه على ظهره ثم وقف يكلمه في غضب وبصوت خفيض.. أعتقد أنه كان يلومه على أنه لم يوقف المحركات بدلًا من عمل ضوضاء على ظهر السفينة.. هكذا جرى المهندس إلى غرفة الآلات..

الحقائق التي يطلبها هؤلاء حدثت واحتلت زمانًا ومكانًا.. فقط احتاجت إلى سفينة بخارية وزنها 1400 طن و 27 دقيقة من الزمن. أراد أن يسمحوا له بالكلام للأبد.. ليس من أجل الحقيقة بل من أجله هو كذلك..

- راح القبطان يتحرك من هنا لهناك على منصة القيادة.. بدا هادئًا لكنه تعثر عدة مرات.. واصطدم بي ذات مرة كأنه صار كفيفًا.. بدأ يتكلم فلم يعد لكلامه معنى.. وكنت أعيده لصوابه بأسئلة فيدرك ما هو فيه ويخجل..

بدأ فم الفتى يجف وشعر كأنه كان يأكل التراب ويشرب ماء البحر، وانتابته قشعريرة قوية. راح ينظر لرجل أبيض بين الحاضرين بدا له مألوفًا.. لابد أنه قابله من قبل في الشارع لكنه لم يتبادل معه الكلام.. هو لم يتكلم منذ شهر.. لا جدوى من الكلام الآن.. لا جدوى من تذكره.. لكنه ينظر له نظرة واعية تختلف عن نظرة الآخرين النائمة..

لكن مارلو لم ينس چيم قط.. تذكره مرارًا فيما بعد وفي كل أرجاء الأرض.. تذكره بالتفصيل..

كم من جلسة مساء في شرفة، جلس فيها الجميع وفي كل يد سيجار مشتعل.. فلا يوجد ضوء إلا وهج اللهب يتزايد من وقت لآخر فينير هذا الوجه أو ذاك، وتأتي سيرة لورد چيم فيصمت مارلو طويلًا ويتذكر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيقول مارلو[1]:

- نعم.. أنا حضرت التحقيق وحتى اليوم لا أعرف لماذا ذهبت.. أنا مضطر لتصديق أن لكل منا ملاكًا حارسًا لو قبلتم أن لكل منا شيطانًا كذلك.. أعرف له عندى.. الشيطان طبعًا.. لم ألقه لكني أعتمد على الدليل الظرفي.. أراكم قد نعمتم بالعشاء الشهي والآن تثاقلتم واسترخيتم في مقاعدكم قائلين: دع مارلو يتكلم ليكن.. سأفعل.. من الجميل أن تتكلم عن چيم في أمسية كهذه ومعنا صندوق مليء بالسيجار الممتاز، وفي ليلة صافية مفعمة بضوء النجوم الذي يجعل أفضلنا ينسى أننا جئنا الدنيا لنعاني.. بعضنا هنا يشعر أن الحياة تشبه جلسة بعد العشاء..

سهلة.. خاوية.. ربما تتخللها تسلية بقصة خرافية سوف ننساها فورًا قبل أن نحكى النهاية لو كانت هناك نهاية.. يجب أن أقول إن عَيني التقيتا بِعينيه أثناء المحاكمة، كل شخص مهتم بالبحر كان هناك؛ لأنها كانت قضية شهيرة.. قضية غامضة.. وأقول (غامضة) برغم أنها كانت فيها حقيقة عارية.. حقيقة عارية قبيحة كأية حقيقة. منذ الصباح ألقي أناسًا يحكون قصة (الباتنا) ويسألون: هل عندك أحدث من هذه الأخبار؟ كل شخص يتكلم عن هذه القصة..

كان صديقي (روثفيل) في مكتب الملاحة يعطى بعض الدروس لطاهيه عندما سمع ضوضاء مكبوتة خلف ظهره.. التفت فرأى حسب ما قال شيئًا عملاقًا مستديرًا كأنه برميل كبير ملتفًّا بقماش الفانلة المخطط، وقد استبدت به الدهشة للحظات لم يستوعب فيها أن هذا الشيء حي. وراح يتساءل عن السبب الذي جعله يأتي لمكتبه. كان المكان مزدحمًا بالعمال ومن يمسحون الأرضيات ومحركي الدفة وكل واحد منهم يوشك على تسلق ظهر صاحبه ليري. في هذا الوقت كان الشيء الوافد قد نزع قبعته وراح يتكلم مع (روثفيل). لكن هذا كان مذعورًا حتى إنه لم يفهم حرفًا. بصعوبة فهم أن القضية تتعلق بالباتنا. تماسك وصاح:

- توقف!.. لا أقدر على فهمك.. عليك بالذهاب إلى المشرف.. كابتن (إليوت) هو من تريد.. من هنا.. من هنا..

وهرع يشق الطريق وسط الزحام والرجل يتبعه. حتى بلغا المكتب الرئيس ففتح الباب بلا طرقات وقال:

- هذا هو سيد (باتنا) يا سيدي.. ادخل يا قبطان[2].

وأغلق الباب وهرع عائدًا إلى أوراقه وإن شعر بأن جو التوتر العام كان قويًّا لدرجة أنه لم يعد يتذكر هجاء حروف اسمه. كان يشعر كأنه ألقي بإنسان لأسد جائع، لأن الرجل كان بحاجة لشخص يلتهمه على الإفطار، لكنه لم يأكله وإنما اكتفى بمضغه ثم بصقه ثانية.

كان مع الرجل الضخم ثلاثة شبان ضمن طاقم بحارته وقد وقفوا على مسافة. هناك شاب خبيث المظهر يعلق ذراعه في جبيرة ورجل فارع بمعطف أزرق شبيه بعصا مكنسة وله شارب كث، أما الثالث فشاب عريض المنكبين يداه في جيبى معطفه يدير ظهره للاثنين الآخرين. لا يتحرك على الإطلاق ويحملق في الشمس هذه كانت أول مرة أرى فيها (چيم)..

هناك وقف حليق الوجه نظيف اليدين، واعدًا أفضل من أي شاب سطعت عليه الشمس. ولأنني أعرف ما يعرفه فقد شعرت بغضب عليه كأنه ينتزع أسراري بالخديعة، ليس مما يناسبه أن يبدو نقيًّا هكذا.. وسألت نفسي: هل هو سمج؟.. هل هو قاس؟.. كأنه يوشك على الصفير بشفتيه. لم أهتم بالاثنين الآخرين كما تلاحظون؛ لأن مظهرهما كان يناسب القصة التي سمعناها، والتي توشك أن تكون موضوع تحقيق علنى.

كان القبطان الألماني يقول:

- أنا أعرف كل ركن في المحيط الهادي أفضل من أي رجل انجليزي.. أنا (خابير) في أبيا وهونولولو..

كنت أعرف كيف أنه (خابير) في هونولولو وأعرف نوعية معارفه هناك.. لن أعلن سرًّا لو قلت: إننى (خابير) بهذه الأماكن كذلك.. هناك أوقات في حياة المرء عليه أن يقنع نفسه فيها بأن

أية صحبة طيبة، بل أعترف كذلك أن هؤلاء القوم برغم افتقارهم للأخلاق كانوا أحيانًا ممتعين أكثر من هؤلاء الذين يرغمك قومك على التعامل معهم.

- أنتم معشر الإنجليز مجموعة من الأوغاد.. تصنعون من الحبة قبة لمجرد أنني لم أولد في بلدكم اللعين..

وارتجف جسده العملاق فوق ساقيه الطويلتين الشبيهتين بعمودين وقال:

- تريدون رخصة الملاحة؟.. خذوها!.. لا أريد رخصة ملاحة منكم.. إنني لأقضي حاجتي عليها..

تقريبًا كانت حرارة كلماته توشك أن يتصاعد منها الدخان من قمة رأسه، كان الفضول يدفعي للبقاء.. ورحت أراقب ذلك الشاب الذي يبدو غير مهتم وهو ينظر للخارج كأنه سيتركنا ويذهب في نزهة بمجرد أن يتأهب رفاقه. من القسوة أن ترى رجلاً اعتقل لا بسبب جريمة ولكن بسبب ضعف إجرامي. ضعف موجود فينا جميعًا، كما أنه في بعض بلاد الأرض تعرف أن كل حرش فيه ثعبان سام. كنت أتوقع أن يتلوى كخنفسة اخترقها دبوس ويبكي لكنه لم يفعل.. لحسن الحظ أنه لم يفعل لو كنت تفهم قصدى. لم أخف إعجابي بالشاب.. لقد جاء من المكان الصحيح.. كان واحدًا منا.. كان أقوى من الضعف أمام الذكريات ألا تبًّا للذكريات!.. الذكريات أقرب لمتسكعين أو متسولين لا يكفون عن الدق على الباب الخلفي لعقلك.. وكل منهم يأخذ جزءًا منك يأخذ جزءًا من اليقين الذي عليك التمسك به لو أردت أن تعيش حياة سهلة وتموت في سلام!

أنا عشت حياة طويلة مع البحر، ورأيت صبية كثيرين تجلبهم أمهاتهم الباكيات كي يتعلموا حياة البحر.. رأيت أباء يقفون يراقبون رحيل السفينة، ثم يرحلون متظاهرين باللامبالاة عارفين أنهم قدموا للبحر تضحيتهم الكبرى.. بعد هذا بأعوام قد أمشي على الميناء فأتلقى تلك الصفعة على ظهري، وأسمع من يقول لي:

- هل تذكرنى يا سيدى؟.. أنا تعلمت حياة البحر معك..

هذه الصفعة تجعلك تحترم حياتك وتشعر بأنها لم تكن هباء.. وهذا الشاب جعلني أتذكر أشياء كهذه.

كان القبطان يزمجر بلا توقف ثم فجأة غادر المكتب وألقى بنفسه في عربة يجرها حصان، وسرعان ما غاب عن عيوننا.. ذاب تمامًا ولا أحسب أنني رأيته في حياتي بعد ذلك، فليس عسيرًا أن تميزه وأن تميز تابعه التاميل أبح الصوت.. غالبًا هو في مكان ما من المحيط الهادي..

فقط عندما انصرف هرع الشاب الذي يعلق ذراعه في جبيرة يلاحقه مناديًا:

- كابتن.. أردت أن أقول..

لكنه كان قد ابتعد، أما الشاب الآخر فوقف بذات الوقفة المعتادة يرمق العربة المبتعدة، ولم يتكلم..

حدث هذا كله في وقت أقصر مما تحتاج إليه لتحكيه، وقد هرع الموظف البرتغالي الذي أرسله (آرشى) صديقى ليعنى بالطاقم ينظر ذات اليمين وذات اليسار مذهولاً. وقد وجد

صعوبة جمة في السيطرة على الشاب الذي يعلق ذراعه في جبيرة ، والذي راح يصيح:

- لن أتلقى التعليمات من هجين مثلك.. لو لم تكن برتغاليًا لفهمت أن المستشفى هو مكاني..

ووضع قبضة يده السليمة تحت أنف البرتغالي. لم أنتظر حتى أرى نهاية هذا الجدل..

من الغريب أنني عندما قصدت المستشفى قبل المحاكمة بيوم لبعض شئوني، وجدت في عنبر الرجال البيض ذلك الفتي.. والأغرب أن رفيقه ذا الشارب الكث كان معه.. يبدو أنه تسلل وسط المشاجرة ليقيم عند ذلك اللص الإيطالي (ماریاني) الذي كان يملك خمارة وبقالة هنا، ومن الواضح أن الرجل لم يكن غريبًا عن الميناء، لأن (ماریاني) جعله يقيم عنده وأخفاه لأنه مدين له بخدمة ما.. خدمة غير قانونية طبعًا..

- ماریاني لا ينسي المعروف.. ماریاني لا ينسى المعروف..

لا أعرف نوعية تلك الخدمة، لكن (ماریاني) أحسن وفادته وقدم له المأوى والطعام والخمر السام الذي يقطره. لكن الرجل فر من الفندق في اليوم الثالث بسبب هجوم مجموعة من حشرات أم أربعة وأربعين على غرفته، وظل يجري في الطرقات حتى وجده رجال الشرطة نائمًا فوق كومة من القمامة. أصابه الذعر وحسب أنهم يأخذونه إلى الشنق، لكنه وجد طريقه إلى المستشفى حيث وجدته.

جلست جواره أحاول أن أروى فضولي.. فذكرت له كلمة (باتنا) بصورة عابرة.. هنا اتسعت عيناه ومد يدًا نحيلة كأنها

ممسات الأخطبوط وأمسك بكتفى وقال:

- باتنا.. أنا رأيتها تغرق.. لم يعد في جسدي شيء سليم إلا بصرى. وقد رأيتها تغرق.. هم كانوا بطيئي التصرف فلم يفهموا إلا وقد صار نصفها تحت الماء.. وقد غنوا معًا هكذا...

وانفجر في غناء مزعج كغناء الذئاب.. ثم أردف:

- أؤكد لك أنه لا توجد عيون حادة كعيني في هذه المنطقة من الخليج الفارسي.. آلاف الضفادع.. كانت السفينة مليئة بها.. لابد من مراقبتها كما تعرف..

وسال العرق من جبهته بينما هب نسيم العصر على الأسرة في العنبر. واهتزت الستائر فشعرت بقشعريرة.. وقبضت مخالبه على كتفى بشدة.. وتشوه وجهه الطيب الذي يذكرك بوجه جندى عجوز، ليصير بشعًا بفعل شيء كالخبث..

- ملايين منها تزحف وتتغذى عليَّ.. سأهشمها كالذباب.. انتظر!.. النجدة!

وراح يصرخ كالمجنون حتى إنني فقدت ثباتي وفررت.. خرجت إلى فسحة بالخارج فاستعدت روعي.. وبدأت أرتب أفكارى..

قابلت أحد الجراحين في الممر، فقال لي:

- جئت لترى بحارك يا قبطان؟.. إنه رجل غريب.. لك أن تتوقع ما حدث له.. ظل فترة عند ذلك الوغد الإيطالي أو اليوناني وكان يشرب أربع أو خمس زجاجات من البراندي الرخيص يوميًا.. رأسه قد انتهى فعلًا.. لكن برغم هذا هناك شيء من المنطق في

هلوسته.. لا أعرف كيف أعبر.. هؤلاء عندما يهلوسون يرون ثعابين كما هي العادة، أما هو فيرى ضفادع.. ها ها!.. ما زال قويًا بعد ما عاشه وبعد 24 سنة في البحار الاستوائية.. لكنى أؤكد أنه لن يستطيع حضور التحقيق.. هل شهادته ضرورية؟

قلت له وأنا أخرج من المستشفى:

- بتاتًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

كانت السلطات كما هو واضح ترى نفس وجهة نظري. تم التحقيق في اليوم التالي ولم يؤجل ترضية للقانون. لكن ظلت المعضلة قائمة: كيف أصيبت السفينة باتنا؟ لم يبد أن هناك أملاً في معرفة هذا..

كانت الأسئلة منهمرة على الرجل الوحيد الذي تبقي كي يشرح ما يحدث، كأنها طرقات بالمطرقة على صندوق معدني لمعرفة ما فيه..

كان تحقيقًا رسميًّا ليس هدفه هو (لماذا) العميقة ولكن (كيف) السطحية.. الأسئلة كانت تقتاد الفتى بعيدًا عما بدا لي الحقيقة الوحيدة الجديرة بأن تعرف..

كان أحد المحققين هو (بريرلي).. (بريرلي الكبير) الذي لابد أنكم سمعتم عنه. كان يشعر بملل من هذا الشرف الذي أسبغ عليه، فهو لم يتعرض لحادث في حياته ولم يرتكب أي خطأ.. وفي سن 32 كان يقود سفينة بخارية جبارة.. وكان يؤمن بجدارته لهذا وأن باقي البشر الذين لا يقودون السفينة (أوسا) التي تبلغ سرعتها 16 عقدة تعساء، ولو كنت أنت إمبراطور المشرق والمغرب فلن يعاملك إلا بشيء من التعالى.. كان يجيد إشعار الناس بالضآلة، ويعاملني بذات التعالي لكن عزائي عن ذلك أننى أشارك باقي البشرية في هذه المعاملة، وأن السبب ببساطة هو أني لست عظيمًا مثله.. هذا عزاني قليلاً..

بعد هذه المحاكمة بوقت قصير انتحر (بريرلى).

لقد نادي كبير الضباط المسن في وسط الرحلة التالية، وأدلى له بتعليمات الملاحة وسرعة السفينة واتجاهها وطلب منه أن يتولى القيادة. ثم نزل الدرجات الخشبية وكلبه يتبعه.. أمر الكلب بأن يصعد إلى ظهر السفينة وطلب من كبير الضباط أن يحبسه.. ثم قفز في الماء في الظلام. هذا ما عرفه الرجال عندما وجدوا ساعته معلقة على حاجز السفينة.. وقدر كبير الضباط أنهم تركوه 18 ميلًا من خلفهم بهذه السرعة. ترك خطابًا للشركة يقول فيه: إنه لم يقصر في خدمتهم، وإنه عهد بقيادة السفينة لضابط كفؤ يكبره في العمر بعشرين عامًا. لكن الشركة أرسلت قبطانًا آخر يتولى أمر السفينة واضطر كبير الضباط للاستقالة برغم أن عنده ستة أطفال وزوجة ينتظرون على بعد آلاف الأميال.

سألني العجوز وهو يضم يديه:

- لماذا فعل ذلك يا كابتن (مارلو)؟.. لو كان عجوزًا غارقًا في الديون فقيرًا لفهمت.. كان شابًا ثريًا كامل الصحة.. أجلس في البيت أفكر وأفكر حتى يوشك رأسي على الانفجار..

الحقيقة أنني كنت قد قابلت (بريرلى) أيام التحقيق الذي يرأسه، وكان يمشي ساهمًا مقطبًا.. عندما قابلني قال لي:

- لماذا تصرون على أن تجعلوني أحمق؟

كان من الغريب أن تصدر كلمات كهذه من رجل كهذا عظيم الكبرياء والغرور، ثم أردف:

- لماذا تريدون تعذيب ذلك الشاب؟.. لقد في قبطانه الوغد ولم يبق سواه، ولم يعد هناك ما يمكن عمله له.. لقد انتهى

أمره..

ومشى قليلًا صامتًا فقلت له إن قبطان (باتنا) يعرف كيف يهرب وكيف يعني بنفسه، لكن الأمر يختلف مع (چيم). إن الحكومة تحدد إقامته في نزل البحارة وليس معه مليم في جيبه.. الهرب يحتاج إلى مال..

قال الرجل:

- هل يحتاج لمال؟.. بالعكس.. يمكنه أن يتوارى في قبر تحت الأرض..

أثار شيء في كلامه رعبي فقلت:

- لا تنكر أن هناك قدرًا من الشجاعة في مواجهة مسئولياته.. خاصة وهو يعرف أنه لو هرب فلن يلاحقه أحد..

- فلتذهب الشجاعة للجحيم!.. أنا مستعد لدفع مائتي روبية كي يفر هذا الفتى.. يجب أن يفهم.. هذه فضيحة صادمة. الفتى يجلس بينما كل هؤلاء البحارة الملاعين والملاحين يشهدون ضده بما يكفي ليحرقه بالعار..

قلت له إنني لا أرى جبن هؤلاء البحارة مهمًّا لهذه الدرجة، فقال لي في غضب:

- هل تدعو نفسك بحارًا؟.. مشكلتكم هي افتقاركم للكرامة.. سوف أعطيك مائتي روبية مقابل أن تقنع هذا الفتى بالفرار ..

كانت هذه لمحة من (بريرلي) الحقيقي رأيتها قبل أيام من اللحظة التي منح فيها حقيقته وزيفه للبحر. لكنى لم أفعل ما

طلبه مني.. كان في طريقة كلامه ما يوحي بأنه لا يعتبرني أكثر من حشرة، وهذا جعلني عنيدًا..

كما إننى كنت أدرك أن الفتى (چيم) يرغب في أن يتطهر بتجربة قاسية، وهذه المحاكمة العلنية كانت نوعًا من التطهر له..

وصلت المحكمة متأخرًا في اليوم التالي، فجلست بعيدًا أراقب بريرلي.. إذن لم تكن تلك نظرة الملل على وجهه بل هي نظرة السخط.

التقت عيناي مع چيم فجردتني نظرته من أية رغبة في الكلام معه، وأدركت أني لن أكون ذا عون له. بعد انتهاء المحاكمة كان يقف وحده في الشرفة فمررت خلفه، هنا استدار لي وسألنى:

- هل قلت شيئًا؟

نظرت في عينيه بثبات وتحد وقلت:

- لم أقل..

كنا وحدنا تمامًا كما لو أننا في غابة مقفرة من البشر.. عاد يسألني عما قلت فشعرت بغيظ شديد.. يجب أن أعترف أنها من المرات القليلة في حياتي التي شعرت فيها بأنني راغب في مشاجرة حقيقية باللكمات.. عاد يسألني:

- لماذا ظللت تحملق فيّ طيلة التحقيق؟

- لا أحسب من واجبنا أن نطرق للأرض طيلة المحاكمة من أجل مشاعرك..

هذه المرة بدأ يهدأ قليلاً فقال:

- نعم.. معك حق.. أنا أجتاز هذا وحدي..

كنت أرغب في أن أنهى هذا الموقف بكرامة وبلا اشتباك.. لا أشتهى شهرة الثلاثة أيام التي سأحظى بها باعتباري الرجل ذا العين السوداء نتيجة شجاره مع فتى (باتنا). لقد تقدم نحوى خطوة وقال:

- حتى لو كنت في قوة ستة رجال فلسوف أخبرك برأيي فيك!

- لحظة.. قبل أن تخبرني برأيك في، هلا تكرمت أولاً بأن تخبرني بما قلته أنا أو فعلته؟

هنا نظر لي طويلاً ثم قال:

- إذن لم يكن أنت.. لكني حسبت.. سوف أجد الآخر..

واحمر وجهه الأحمر أصلًا بشدة.. أعتقد أنه كان لا يتحمل ما شعر به من مهانة، وربما خيبة أمل.. أعتقد أنه كان يرغب في مشاجرة طيبة تهدئ أعصابه.

انتهى هذا الموقف لكن ظل غامضًا لا ترى منه إلا لمحات عبر قماش ممزق.. إنه يثير فضول المرء لكنه لا يكفي كي يرويه..

وفي تلك الليلة قبل الفتى أن يتناول العشاء معى في فندق مالابار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

قال لي الفتي في قاعة التدخين:

- أبي العجوز خوري الكنيسة قرأ بالتأكيد تفاصيل القضية في الجريدة.. معنى هذا أننى لن أعود للوطن ثانية.. لن أستطيع مواجهته أبدًا..

لقد فقد وظيفته وشهادته الملاحية وليس معه مليم. يمكنه الحصول على عمل لو عاد للوطن لكن هذا آخر شيء يريده.

منذ أول يوم التقطتهم فيه تلك السفينة البخارية (ديل لاين) هو ورفاقه الأربعة، راح الكل ينظر لهم في شك. حكى القبطان قصة ملفقة فقبلها المنقذون.. لت لا تجرى تحقيقًا موسعًا مع هؤلاء الذين تنقذهم من الغرق في البحر. شعر ضباط (ديل لين) بشيء (عفن) في القصة لكنهم ابتلعوا شكوكهم، وعندما عاد للبر شعر أن كل البحارة يشكون فيه ويزدرونه، لهذا عندما نزل البحارة أمضى معظم وقته في الشرفة. فقط كان يتناول الغداء ويقول إنه لم يلفظ ثلاث كلمات كاملة لأى شخص.

- تخيل شعوري وأنا أترك 800 بشرى على ظهر السفينة نائمين.. لا يعرفون أي شيء.. لقد وثقوا فيّ.. عددهم أكثر بكثير مما يمكن أن تحمله قوارب النجاة حتى لو اتسع الوقت.. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟

أول ما خطر له هو أن يصرخ ويجعل هؤلاء النيام ينهضون مذعورين.. لكن الشعور بالعجز قهره وجعله ينصرف من دون صوت.. لسانه جاف يوشك على شق سقف فمه.. لقد توقفت

المحركات لكن البخار يتصاعد منها، والسفينة تهتز وتهدر كأنه وتر كمان مجنون..

نظر للموتي.. نعم.. هم موتى!.. لا سبيل لإنقاذهم ولو أيقظهم لما وجد وقتًا كافيًا للنجاة.. القوارب لن تحمل سوى نصفهم وسوف يبدأ الصراخ والبكاء والعويل..

هذه أشياء لن يخبر بها المحكمة..

ثمانمائة حاج وسبعة قوارب نجاة.. ربما كان مستعدًا للموت، لكنه لم يرد أن تصاحب الموت أهوال أخرى مثل الصراخ والتدافع والبكاء.. غباء الجموع الفظ..

خطر له أن هناك وقتًا يسمح بتمزيق الحبال كى تطفو قوارب النجاة.. أربعة على جانب وثلاثة على الجانب الآخر..

هنا أطبقت يد على كاحله، ونظر له رجل عجوز وقال:

- ماء!.. ماء!

كان قد بدأ يعرف حروف اللغة وفهم ما قاله الرجل، لكن أي ماء يعنيه؟.. كان الرجل يعطله وقد بدأ النيام يصحون وهو يريد قطع الحبال بسرعة. هكذا ضربه بالمصباح بأقوى ضربة ممكنة في وجهه، فانطفأ المصباح وتهاوي الرجل.

لكن الرجل ركض وراءه من جديد وهو يحمل صبيًا مريضًا..

- هنا فهمت.. كان ظمآن!!.. كان يريد أن يشرب ونحن نسقيهم أقل القليل والصبى محموم.. ناولته زجاجة الماء التي معى فشرب منها بنهم ثم راح يسقى الصبي..

عندما بلغ قوارب النجاة وجد القبطان والمهندس يُنزِلون أحدها، فسأل القبطان:

- ماذا تنوى عمله؟

- نرحل حالاً!

لم يفكروا في شيء.. حتى الماليزيين اللذين كانا يديران عجلة القيادة.. لم ينظر أحد لهما..

كالمجنون أخرج سكينًا وراح يمزق الحبال التي تربط قوارب النجاة، بينما هم ينظرون له متأكدين من أنه فقد صوابه فعلاً... وأمسك القبطان بيده وهمس بصوت عالٍ:

- أنت مجنون... هؤلاء لو ركبوا القوارب فلسوف يظفرون بك ويمزقونك في عرض البحر.. مطرقة!!.. ماين جوت (رباه).. أريد مطرقة!

وهوى بالمطرقة على القفل الذي يربط القارب فتهاوى..

عندها وجد چيم نفسه يثب ليلحق بالرجال في القارب الذي نزل إلى البحر.. رأى جانب السفينة يتألق بالضوء الأحمر.. كانت عالية كالجدار... ثم اختفى هذا الضوء..

هكذا بدأت رحلة هؤلاء مع الخوف في ظلام البحر.. الخوف من الموت الذي يطاردهم في كل لحظة. ومن الغريب أن السفينة لم تغرق.. كأنما الأقدار أرادت أن تستبقى هؤلاء الحجاج على الأرض كى يشهدوا بما حدث..

كان رجال الطاقم يجدفون بأعنف ما استطاعوا.. القارب ثقيل لكنهم يدفعونه بالأيدى.. يجدفون بالأيدي.. من أجل

الحياة الغالية..

قال چيم:

- كنت أكرههم.. كنت أحتقرهم..

ثم بدأ يرتجف.. وقال كأنه يوشك على فقدان الوعى:

- لقد صرخوا!.. ثمانمائة واحد كانوا يصرخون..

كانت عاصفة دانية من الأفق فابتلعت نصف السماء وتوارت النجوم، وطارت قبعته وعجز عن التنفس..

قال وهو يبكي:

- ليتني مت!.. لكن التراجع كان مستحيلًا.. لقد وثبت من السفينة فكأنني وثبت في بئر أبدية بلا قرار..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

عندما نظر للخلف رأى أن مقدمة السفينة ما زالت في الأفق.. أفزعه هذا.. الغرق لم ينته بعد.. كان يريد لهذه البشاعة أن تنتهى فورًا..

لا شيء حولهم سوى السواد ولا يرون بعضهم.. أسنان أحدهم تصطك في الظلام..

كان يتمنى أن يرى المشهد كاملاً، ولم يدهشني هذا.. هو موقن أن الحقيقة ليست أكثر بشاعة ولا قسوة مما يصوره له خياله.. آلام وعذاب 800 رجل يلقون نهايتهم في الظلام الآن ولا يفهمون السبب..

- ثم ساد صمت.. صمت رهيب.. لا يمكن أن يكون هناك مكان أكثر صمتًا في الكون كله.. لا يمكنك أن تفرق بين السماء والبحر.. لا يوجد شكل واحد ولا يوجد صوت واحد..

راح رجال الطاقم يرددون مرارًا لا حصر لها:

- لقد ذهبت..! غرقت!.. ما من أحد كان بوسعه أن يعمل شيئًا..

ولاحظ أنهم يتكلمون عنها كأنها كانت سفينة خالية.. لقد أحسنت صنعًا بالغرق فقد استحقت هذا.. وقال أحد المهندسين وهو يرتجف:

- أنا سعيد.. أنا سعيد.. أنا سعيد..

وفجأة انفجر في البكاء..

قال لي چيم:

- كنت أقل توترًا في القارب مما أنا الآن.. لا خوف.. لا قانون.. لا صوت.. لا عيون.. حتى أشرقت الشمس في النهاية.. رأى القبطان أننا سنجد سفينة تنقلنا حتمًا لأن هناك سفنًا كثيرة في المنطقة، وهناك دخان يتصاعد نحو الجنوب الغربي. هنا بدأ الثلاثة يتفقون على القصة التي سيحكونها لمن ينقذهم، لم أصغ.. كنت مرهقًا.. مرهقًا.. وشعرت بساقي تتخذلان من تحتى.. كأني لم أنم ساعة واحدة منذ مولدي..

كانوا يتكلمون فيما بينهم عن الفتي: الحمار السخيف سوف يوافق على كل شيء.. .. لن يتكلم .. ثم رفعوا الشراع وناموا تحته اتقاء للشمس بينما ظل هو وحده في الخارج لا يبصر البحر من فرط الوهج.

- كنت قد فقدت قبعتي والشمس تحرق رأسي بلا توقف، لكن في ذلك اليوم ما كان شيء قادرًا على أن يؤذيني أو يصيبني بالجنون..

كان الفتى قد نهض الآن في بهو الفندق، وراح يمشي جيئة وذهابًا ويداه في جيبيه. الشمعة الخافتة تتوهج ومن خلفه الليل المظلم والنجوم. برغم هذا كنت أرى في ضوء غامض رأسه الصبياني كأنه دون قصد يكشف عن الطفل بداخله. كان نوع الشاب الذي تتمنى أن تراه أمامك.. نوع الشاب الذي تتمنى لو أنك كنته يومًا..

لا أعرف إلى أي حدّ بدوت له مسنًّا أو حكيمًا، لكني أعرف يقينًا أنني لم أكن نصف ما حسبه..

قال لي:

- القصة التي قاموا بتلفيقها لم تكن قصة بالضبط، لكنها كذلك لم تكن الحقيقة.. شيء تعرف أنت فقط أنه كذبة.. لم يكن هناك حاجز واضح فاصل بين الصواب والخطأ في هذه القضية.. لو أنني ظللت على السفينة لفعلت كل ما بوسعي كي أنجو.. تشبثت بقطعة خشب أو مجداف لأظل حيًّا.. كنت سأطفو لساعات وغالبًا ما كان سيتم إنقاذي..

ثم لكم صدره لكمة أفزعتني، وقال:

- شعرة!.. مقدار شعرة بين هذا وذاك.. لكن من الصعب أن ترى شعرة وسط هذا الظلام.. لقد فقدت حياتي بريقها وكل ما يجعلها مبهجة..

بعد صمت طويل قال:

- وجدتنا سفينة (آفونديل) قبل الغروب.. التقطتنا وعلى متنها حكى الثلاثة قصتهم.. زعموا أننا أوقفنا السفينة وقيمنا حجم الأذى ثم بدأنا إنزال القوارب.. لما نزل القارب الأول مالت السفينة وغرقت فجأة بينما نجونا نحن.. هكذا كانت قصتنا.. هل تذكر الصرخات التي حكيت لك عنها؟.. الصرخات الخافتة التي سمعتها.. أنكر الباقون أنهم سمعوا أي شيء، ثم نزلنا على الشاطئ.. ومرت أيام ثم جاءني ذلك الشاب.. أخبرني أن الباتنا نجت.. أنقذتها سفينة حربية فرنسية.. جرتها خلفها إلى (عدن).. هناك تحقيقات..

ومن جديد ساد الصمت، والحقيقة أن قدرتي على سماع ما هو أكثر قد تلاشت..

كان يقول:

- كيف لي أن أعرف أن السفينة كانت طافية؟.. لقد غابت أضواؤها عنا.. لو عرفت أنها موجودة لعدت لها وصعدت لظهرها.. لصححت هذه الغلطة.. أقسم لك.. هل تحسبني كذابًا؟.. كيف تجرؤ على الشك في كلامي؟.. أؤكد لك إنني لو رأيت ضوءًا لما كنت هنا معك..

لم أبتلع قصة غياب الضوء هذه، وقد قيلت في المحكمة فقرب قبطان عجوز يجلس جواري لحيته البيضاء لتجرح خدى، وقال:

- بالطبع.. لابد أن يكذبوا..

لكني لم أعتقد أنهم كذابون.. فقط كانوا في ظروف تجعلك تتخيل أشياء، ولربما كان وضع السفينة نفسه لا يسمح برؤية الضوء..

القدر أرسل للسفينة الطافية الموشكة على الغرق سفينة فرنسية حربية، آثار دهشتها هذا الصمت وهذا السكون.. صوب القبطان الفرنسي نظارته المقربة إلى سطح السفينة فرأى عشرات بل مئات العيون التعسة الصامتة تنظر له.. لا توجد علامات على أن هناك وباء حل بالسفينة.. أطلق التحية لكن لم يرد أحد على ظهر الباتنا، هكذا أرسل قاربًا يستكشف.. لم يفهم أحد ما يقوله هؤلاء العرب لكن الكارثة كانت لا تحتاج إلى شرح. لم يكن أحد يجيد الإنجليزية ليتفاهم مع الماليزيين كذلك. هذا هو ما قاله لي ملازم فرنسي عجوز قابلته فيما بعد. في النهاية قرر القبطان الفرنسي جر السفينة جرًّا إلى أقرب مرفأ بريطانى تنتهى عنده مسئوليته.

وبعد ثلاثين ساعة وصلت السفينة وتم إخلاء الركاب سالمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

وجدت لـ (چيم) وظيفة في نقل المؤن إلى السفن، وهي وظيفة لا تناسب أبدًا طموحاته القديمة لكنها الشيء الوحيد الذي وجدته ويسمح له بالاحتفاظ بجسده وروحه معًا.. كان يحلم بأن يكون فرس سباق عظيمًا، فوجد نفسه في مهنة بلا مجد كأنه حمار يحمل اثقالًا.

أعترف أنه أدى عمله بإخلاص ودون أن ينطق بكلمة، فيما عدا لحظات نادرة عندما كانت قصة (باتنا) تعود للسطح. للأسف هذه الفضيحة في البحار الشرقية لم تمت قط.

كنت قد فارقته بعد ذلك العشاء في فندق مالابار وسيف عدالة بلاده فوق عنقه. في الغد بل اليوم لأننا تجاوزنا منتصف الليل كان المستشار صارم الوجه سوف يهوى بالسيف عليه. عشاؤنا كان العشاء الأخير لرجل انتهى أمره.. كان مذنبًا فعلاً.. برغم هذا تمنيت ألا يتعرض لتفاصيل التنفيذ.. تذكرت خطة (بريرلي) عن تهريبه، معى الروبيات.. الكثير منها ويمكن أن أرتب هربه وأكتب له خطاب توصية..

لكن الفتى رفض فكرة الفرار تمامًا شاكرًا.. وقال كأنه يكلم نفسه:

- بعضهم هرب أو تمارض.. لا أحد منهم يقدر على مواجهة مسئولية ما فعله.. لكني لن أفر.. لن أنكمش..

فقدت ثقتي بنفسي واعتقد أنه فقد ثقته فيّ كذلك.. قلت له:

- أعتقد أنك نلت كفايتك..

قال:

- لأكون صريحًا.. أنا كذلك أعتقد هذا..

قلت له وهو يأخذ قبعته:

- أريد أن أراك قبل أن ترحل..

- لا أرى ما يمنعك من هذا.. حكم المحكمة لن يجعلني خفيًّا.. لست محظوظًا لهذه الدرجة..

وابتعد ليبتلعه الليل.. كان أحمق مروعًا.. مروعًا.. وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين بعد..

في الصباح تناولت إفطاري متعجلاً ولم أذهب لسفينتي..

ذهبت للمحكمة.. سيكون هنا إعدام لكن لم تكن هناك حشود تطلب الرحمة، ولا غمامة توضع على عين المجرم، فقط هناك أوراق شجر وكتف عارية تبرز من سارى هندى ومجموعة من رجال الشرطة المحليين غارقين في خيالات التجسد وتناسخ الأرواح..

بالله عليك.. كان جو المحكمة أسوأ بكثير مما لو كان الأمر يتعلق بقطع رأس.. هناك جو عام من النهاية والحتمية لن ينهيه سقوط الفأس على الرأس. هذه المحاكمة فيها كل قسوة الإعدام مع كل برودة النفى.

لا أحد يعرف حتى اللحظة سبب اصطدام السفينة (باتنا) لكن هناك سفينة نرويجية غرقت في هذه الإحداثيات، ومن

الوارد أن يكون حطامها قد ظل يبحر تتقاذفه العواصف حتى اصطدمت به (باتنا) في الظلام.. إنه كابوس الملاحة الليلية.

أفقت من خواطري على صوت المستشار يقول وعيناه الحادتان تلقيان لمحات خاطفة على (چيم):

- .. والتخلى وقت الخطر عن الأرواح والملاك التي عهد لهم بها.. لهذا.. تقرر إلغاء شهادة الملاحة..

انتهى الأمر وتم الإعدام فعلاً..

بدأ الناس يتفرقون.. ونهض الفتى متجهًا للباب..

لحقت بچيم في طريقه للشارع، وحاولت أن أمسك بذراعه معزيًا لكنه نظر لي كأنني الشر مجسدًا.. وابتعد.. كان الشارع طويلًا وقد ظل في مجال بصري لفترة..

بمجرد أن اختفى التقيت اثنين من الأوغاد المشهورين في البحر، والذين لا يمكن أن يثق بهما أحد.. كانا رجلين مغامرين مجنونين تمامًا، وقد عرفا أنني أعرف الفتى فعرضا عليّ أن يعمل معهما في مهنة جمع سماد السمك.. هناك جزيرة في البحر وجدها أحدهما بها كمية هائلة من هذه القاذورات، وسوف يكون الفتى مسئولًا عن مراقبة أربعين من العمال مسلحًا ببندقية وحزام من الطلقات.. لا ماء.. شمس حارقة.. فضلات حتى الخصر..

قلت لهما إنها مهنة لا أختارها لألد أعدائي.. فقالا:

- تذكر أن الفتى لم يعد صالحًا لشيء..

عدت للفندق مفكرًا، ومن الغريب أن الفتى جاء عندي ليمضى ليلته.. عرفت أنه اختار هذا المكان لأنه يريد أن يكون وحيدًا في وحدته. لم أتكلم معه لأنني خشيت أن يكون عنيفًا معى كما حدث ظهرًا، بل تركته لهواجسه وآلامه ورحت أكتب.. أكتب بلا انقطاع وأنا أرمق ظهره إذ وقف في الشرفة ينظر للضوء شارد الذهن.. كان يشهق بعنف كأنما هو جائع للهواء..

سوف يأتي الوقت الذي يصير فيه الفتى محترمًا جديرًا بالثقة ومحبوبًا.. تحيط به هالة أسطورية من القوة، وهذا حقيقي.. حقيقى كجلستي معكم الآن..

إنه يملك حلمًا، ومن دون هذا الحلم ما عرفت الأرض مغامرًا أو عاشقًا.. لكن كان عليه أن يعاني كثيرًا قبل أن يحقق حلمه هذا..

فجأة توهجت السماء وارتسمت لى حدوده الخارجية سوداء بينما أضيئت الغابة كلها، ثم دوى صوت الرعد وانهمر المطر مدرارًا..

أغلق باب الشرفة وعاد إلى حيث جلست على المكتب وطلب منى لفافة تبغ.. ناولته الصندوق فأشعل واحدة، وقال:

- الرياح الموسمية مبكرة هذا العام..

هزرت رأسي موافقًا فجلس بقربي وظهره لي بينما أنا أنهى كتابة العناوين على المغلفات..

قال:

- بالتأكيد هناك فرصة أمام الإنسان كي يصلح ما فاته ويجد ما ضاع منه.. ربما لو كانت الحياة طويلة بما يكفي..

- لا تعتمد على هذا..

قال لي وهو يطوح اللفافة:

- وداعًا..

واتجه إلى الباب، فصحت به مذعورًا:

- انتظر!.. لا ترحل..! هناك.. يمكنك أن..

- لن أقبل أن تدعونى على العشاء ثانية..

- وأنا لم أفكر في هذا..

وكان المطر ينهمر بغزارة في الخارج والظلام دامس، لذا عاد ليجلس.. كنت أدرك أنه لو ضاع مني في الظلام فلن أراه أبدًا ثانية، قلت له:

- يجب أن تفكر في الغد.. كيف ستعيش.. كيف ستأكل.. على الأقل دعني أساعدك..

- لن يمكنك مساعدتي..

- أقر بهذا.. لكنى أستطيع مساعدة الجزء الذي أراه منك.. هذا الخطاب الذي كنت أكتبه موجه لرجل لم أطلب منه خدمة قط.. فيه أجعل نفسي مسئولاً عنك بلا تحفظ.. هل تفهم معنى هذا؟

نظر لي.. المطر في الخارج بدأ يرحل، والشمعة تتوهج كأنه نصل خنجر.. وهناك ضوء خافت يتسرب من الستائر معلنًا

اقتراب الفجر.. قال:

- لن تتضايق لأنني لم أقل شيئًا مناسبًا.. ليس هناك ما يقال.. سوف أبدأ من جديد بصفحة خالية..

- لا تقل شيئًا يا صاحبي..

اتجه للباب من جديد وخرج..

وحدى ظللت مع الشمعة التي لم تنطفأ لسبب مجهول، صفحة خالية.. هل هذا ما قاله؟.. كأن قدرنا لم يحفر بحروف لا تزول على الصخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

بعد ستة أشهر كتب لي صديقي الذي أوصيته بـ (چيم) وهو عزب تجاوز منتصف العمر غريب الأطوار ولديه مضرب أرز وقد أدرك من دفء توصياتي أنني أريد متابعة أخبار (چيم). قال لي إنه سعيد بوجوده عنده في داره، هو الذي لم يتحمل أي بشرى من قبل، ومن المؤكد أنه على حق، كان (چيم) رصينًا مهذبًا.. لكنه على قدر من السذاجة.

قال صديقي:

- لا أقدر على تصور أن هذا الفتى متهم بشيء أكثر من سرقة بعض الفاكهة من بستان.. هل هو أسوأ من هذا؟.. على كل حال قد مر وقت طويل منذ صرت أنا وأنت قديسين، لذا نسينا أننا كنا نخطئ في شبابنا.. لا تقلق فأنا لن أسأله عن ذنبه..

سررت من الخطاب وشعرت بأنني أحسنت التقدير. بعد هذا قمت برحلة لأسبانيا، فلما عدت فوجئت بخطاب آخر من صديقي يخبرني أن الأمور على ما يرام وأن أية ملاعق لم تختف من مائدة الطعام بعد، لكنه باع مضرب الأرز وتقاعد. لكن الخطاب الثاني كان من (چيم) نفسه!.. هل تصدقون هذا؟.. فرصة في المليون!

كان چيم يكتب لي من مكان يبعد 700 ميل عما كنت أتوقعه، وقد قال في خطابه:

- أنا الآن مع شركة (إيجستروم وبليك) لإمدادات السفن.. أخبرتهم عنك فلو استطعت أن تكتب لهم رسالة توصية لظفرت بتعيين دائم..

طبعًا كتبت له الخطاب، وقابلته بعد هذا بعام..

حدثني عن صديقي الذي عمل عنده.. كان أقرب إلى أب له.. وفي النهاية وجد (چيم) نفسه مضطرًا أن يحكى له قصة (الباتنا) بالتفصيل، وبعدها طلب الرحيل.. كان يود الابتعاد عن هذه القصة بأي ثمن..

- هم مهذبون جدًّا معى هنا..

في هذه المهنة المرهقة كان ينتظر دخول السفن إلى الميناء، ثم يركب قاربًا ويحاول أن يكون أول من يصل هناك. تركته يتأهب للحاق بسفينة جديدة، ورحلت فلم أعد إلا بعد ستة اشهر..

قابلت (إيجستروم) نفسه فرحب بي وأخبرني أن (چيم) لم يعد معهم..

- لقد سبب لنا الكثير من الأذى واستغلنا ثم رحل..

جلست مندهشًا أحاول أن أجد تفسيرًا لهذا الكلام فقال لي (بليك) الشريك الثاني:

- رجل كهذا لا يقصد مكانًا بعينه.. ذات مرة رست هنا سفينة عليها حجاج عائدون من البحر الأحمر.. وكانت شفرتان من مروحتها قد تحطمنا.. لقد مرت على هذا ثلاثة أسابيع..

هنا سألته:

- هل تكلموا عن (الباتنا)؟

نظر لي في دهشة كأنني ساحر وقال:

- نعم.. كيف عرفت؟.. كان هنا قبطان أو قبطانان يتناولون شطيرة مع البيرة.. وكان چيم معنا.. راح القبطان يراقب سفينة الحجاج، ثم بدأ يحكى لنا عن قبطان (باتنا) وكيف كانت سفينة سيئة وبرغم هذا جلبت لصاحبها مالًا كثيرًا.. كان معنا رجل عجوز يدعى القبطان (أوبرايان) وكان يصغى للكلام وفجأة ضرب الأرض بعصاه غاضبًا وصاح:

- عم تتكلمون يا فئران؟.. لقد كانت قصة (باتنا) هذه عارًا على الجنس البشري كله.. إنني لأخجل أن أوجد في غرفة واحدة مع واحد من طاقم تلك السفينة..

ثم نهض غاضبًا بلا سبب واضح وغادر المكان..

فوجئت بچيم يدنو منى والشطيرة في يده ويقول لي:

- أنا راحل..

حسبته يقصد أنه سينهى عمل اليوم، لكني عرفت أنه يقصد الاستقالة فأصابني الذهول.. لا يمكنني أن أجد فتي كهذا كل يوم.. شيطان حقيقي في قيادة القوارب والتوغل في البحر للصعود على السفن.. ولكم من قبطان قال لنا إنه مجنون حقيقى.. وسط الضباب والعواصف تجده تحت مقدمة السفينة ثم يصعد على متنها كأنه الشيطان.. لم تكن لأية شركة أخرى أية فرصة و(چيم) هذا يعمل معنا.. هكذا قلت له:

- هلم.. لا داعي لهذه الضوضاء.. الأمر يتعلق بزيادة راتب يا چيم فقل لي الرقم الذي تريد..

لكنه نظر لي في ثبات وأدركت من عينيه أنه قد فارقنا بالفعل..

صحت فيه:

- ماذا ضايقك لهذا الحد أو أثار رعبك؟.. أنت لا تملك ذكاء الفئران التي لا تفارق سفينة صالحة أبدًا.. هذه الشركة لن تغرق..

لكنه قال:

- وداعًا.. أنت رجل طيب يا (إجستروم) لكن لو عرفت أسبابي فلن تبذل جهدًا للاحتفاظ بي.. صدقني!

وهز رأسه كأنه لورد. لا أعرف ما دهاه.. هو لم يعط نفسه الوقت الكافي ليفرغ من التهام الشطيرة، وأعتقد أنه لم يكن يقدر على بلوغ الباب. لقد رحل بوجه كالح يفزع الأطفال، وصرت عاجزًا عن أن أجد واحدًا ممتازًا مثله، من أين جئت بهذا الفتى يا قبطان (مارلو)؟

هنا شعرت بأنني مدين له بتفسير فقلت:

- كان من ضباط تلك السفينة (باتنا) عندما غرقت..

تصلب ونظر لي في ذهول.. ثم قال:

- ومن يبالي بهذا بحق الجحيم؟

- لا أحد..

تحسس سالفيه وقال:

- لقد قلت له إن الأرض كلها لن تتسع لمزاجه الناري هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

عرفت المزيد من أخبار چيم بعد هذا، فسمعت أنه عمل في غابات تايلاند لفترة.. تشاجر في إحدى الحالات مع مستشار بريطاني للقوات الملكية السيامية. يبدو أن هذا الضابط أفرط في احتساء الخمر وقال ملاحظة مهينة عن چيم، وكان مصير الضابط أن يسقط في النهر لأن الحانة كانت لها شرفة تطل على النهر، حيث انتشله قارب صيني. كان هذا سيئًا لأن الفتى حتى اللحظة حافظ على صورته كشخص مهذب وديع، لكن شعرة واحدة تفصله عن نعت البلطجي.. لكني بالطبع لم أكن أنوي أن أغسل يدى منه.. وقد قمت بنفسي بإخراجه من بانجوك على سفينتى..

لم يدر بيننا كلام تقريبًا طيلة هذه الرحلة، وعندما كنا ننفرد معًا لم نكن نعرف ما نفعه بعيوننا..

كان عليَّ أن أجد حلًّا لهذا الفتى..

عرضت المشكلة على صديق لي يدعى (شتاين).. كان شتاين تاجرًا هولنديًّا مولعًا بجمع الحشرات وهو يهوى مساعدة البريطانيين لأنه ممتن بلا حدود لخدمة قدمها له تاجر سكوتلندي في شبابه. عرف (شتاين) على الفور أن چيم رومانسي.. وهذا شيء سيئ للغاية لكنه كذلك جيد..

أعتقد أنكم لم تسمعوا عن (باتوسان) قط.. لا مشكلة.. هناك كواكب كاملة تحيط بنا في جلستنا هذه لم يسمع بها أحد، لأنها خارج نطاق نشاطاتنا ولا قيمة لها إلا لعلماء الفلك الذين يتلقون راتبهم كي يتكلموا عنها. كذا كانت (باتوسان).. لا

يتكلم عنها سوى عدد محدود في دوائر الحكم في (باتافيا).. لم يذهب أحد هناك قط ولم يرغب أحد في ذلك.

لكن (چيم) ذهب هناك. لو كان (شتاين) قد أرسله لنجم بعيد لما كان الأمر بهذه الغرابة..

كان (شتاين) يعرف عن (باتوسان) أكثر من أي واحد آخر.. أعتقد أنه ذهب هناك حتمًا.. كنت قد قلت له ما قاله (بريرلي) المسكين:

- دعه يزحف عشرين قدمًا تحت الأرض ويظل هناك..

فنظر لي وقال:

- هذا ممكن.. هناك (باتوسان).. والمرأة قد ماتت كذلك على كل حال..

لم أفهم ما يقصده.. لا أعرف علاقة لشتاين بأية امرأة سوى تلك الفتاة من الملايو التي كان يحبها ويطلق عليها (زوجتي الأميرة). فهمت فيما بعد أنه يتكلم عن فتاة أخرى من الملايو نصف هولندية تزوجت في جزر (ملقة) من برتغالي يعمل في إحدى المستعمرات، بيدو أن هذا الرجل كان شخصًا غير سويّ لكن (شتاين) عينه مديرًا لشركته التجارية في (باتوسان) من أجل خاطر زوجته فقط.. الآن ماتت المرأة ولم يعد مضطرًا للاحتفاظ بهذا الوغد هناك لذا صار المنصب شاغرًا.. كان اسم البرتغالي (كورنيليوس) وهو رجل يعتقد أنه ينال أقل مما يستحق.. على (چيم) أن يأخذ منصب هذا الرجل، وإن كنت أعتقد أن الرجل لن يفارق الجزيرة.

إن باتوسان مقاطعة نائية.. هناك على بعد أربعين ميلًا من البحر، يمكنك أن ترى جبلين متلاصقين يفصلهما أخدود عميق هو في الواقع مجرى لمياه السيول. كأنك ترى جبلاً عملاقًا انشطر نصفين.. ومن بيت (چيم) الجميل ذي الطابع المحلي يمكنك أن ترى القمر مكتملاً كأنه يطفو فوق المضيق حتى يتحرر.. أو كأنه يفر من قبر يتثاءب..

ذات مرة قال (چيم) وهو واقف جوارى:

- تأثير ساحر.. أليس كذلك؟

في صوته نوع من الفخر المضحك كأنه مسئول عن هذا المشهد.. لقد صار مسئولًا عن أشياء كثيرة في باتوسان بعضها أكثر تعقيدًا من هذا القمر. أعطيته مسدسي وصندوقًا من المعدن يصلح لحفظ حاجياته. وقد قال لي واعدًا:

- سوف تسمع عنى كثيرًا..

الحقيقة أننى كنت أتوق لهذا.. تمنيت أن أضع چيم في مكان بعيد وأتخلص منه لأنني كنت عازمًا على العودة للوطن..

كنت عائدًا للوطن أخيرًا.. كلنا نحارب وراء البحار من أجل المال أو المجد أو كسرة خبز، لكننا نعود للوطن كأننا نسلم كشف حساب. نعود لنواجه رؤساءنا وأهلنا وأصحابنا ومن نطيعهم ومن نحبهم.. حتى هؤلاء الذين لا أقارب لهم في أوطانهم يحتاجون للعودة كي يلاقوا روح الوطن ذاتها.. في النهاية يجب أن تعود بضمير مستريح.. يجب أن تلمس الجائزة بيد نظيفة وإلا جفت وتحولت إلى أوراق.. هل تعتبر كلامى مفرطًا في عاطفيته؟.. ربما..

كل نبتة لها الأرض التي تستمد منها حياتها وقوتها.. وچيم كان يعرف أنه لن يعود لوطنه ثانية أبدًا..

برغم ذلك كان هذا أنسب موضع له.. ثلاثون ميلًا من الأدغال تفصله عن عيون العالم.. صخب الموج الأبيض يعلو على صوت أية سمعة سيئة.. تيار الحضارة يتدفق من الشمال لكنه ينقسم يمينًا ويسارًا ويترك باتوسان بناسها البسطاء البدائيين.. مهملين معزولين..

ربما تسمع اسم هذا البلد في قصص الرحلات القديمة، لأن تجار القرن السابع عشر ذهبوا هناك من أجل الفلفل.. وحب الفلفل كان نارًا تتقد في صدور المغامرين الهولنديين والأمريكيين في عصر چيمس الأول. من أجل كيس من الفلفل كادوا يقطعون حلاقيم بعضهم ويبيعون أرواحهم. من أجل الفلفل تحدوا الموت والأسر والجوع.. لقد جعلهم أبطالاً! ومن أجله تركوا عظامهم تجف على شواطئ مجهولة..

كان هناك فلفل كثير في باتوسان وانبهروا بحكمة وعظمة السلطان.. لكن بعد فترة نضب معين البلد من الفلفل، ولم يعد السلطان سوى صبي متخلف عقليًا له إبهامان في كفه، وأعمامه هم الذين يحكمون فعلًا.

كان (شتاين) من القلائل الذين يملكون شركة في هذا البلد بإذن خاص من الحكومة الهولندية، وإن كانت تلك الأخيرة قد جعلت سلامته مسئوليته الخاصة، وهو كان صريحًا مع رجاله فأخبرهم بهذا لكنه أجزل لهم العطاء.

تعرف چيم على من يدعى (دورامين) وهو من أهم الرجال هنا، وقد كان صديق مستر (شتاين) في هذا البلد، وكان هذا

الأخير يطلق عليه (زميل الحرب)..

كانت هناك قوى معارضة ومنها الراجا (ألانج) أسوأ أعمام السلطان الذي أباد كل الملاويين في البلد، دون أن يمنحهم مجرد خيار الهجرة.. لقد قابله (شتاين) ووجده عجوزًا قذرًا له عينان شريرتان يبتلع قرص أفيون كل ساعتين.. كان (شتاين) يقدم له (چيم) على سبيل الاحترام، وكان هناك نحو أربعين رجلاً في الغرفة..

لقد وقف چيم وسط هذه القذارة والسحنات الداكنة، بثيابه البيضاء النظيفة وشعره الأشقر الذي بدا أنه يمتص كل انعكاس شمس في القاعة. لم يبد بشريًّا ولولا لهم رأوه يركب قاربًا لحسبوه هبط من السماء.

عندما يقيم چيم هنا فلسوف يكون كأنه لم يوجد قط بالنسبة للعالم الخارجي.. لن يجد قدمين يقف عليهما سوى قدميه..

قال جيم لنفسه مغمغمًا:

- لم أوجد قط!.. كم أحب هذا!

لو كان يفهم ما قلته ويعرف ما أعرفه لفر على أول سفينة تغادر هذا المكان، ولقصد بيت (شتاين) طالبًا تعليمات جديدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

كان ساحل باتوسان - كما رأيته بعيني بعد عامين - مستقيمًا كئيبًا أمامه محيط ضبابي. هناك غابات كثيفة تحتها طرق حمراء تبدو من بعيد كأنها خطوط الصدأ.. هناك قرية صيادين عند مصب النهر. النهر نفسه كان مغلقًا للملاحة منذ فترة ولكنه صالح الآن.

عندما زرت البلدة جاء زعيم قرية الصيادين ليقود السفينة لنا، وتكلم معي أنا ثاني رجل أبيض يتكلم معه في حياته.. الأول كان اسمه (توان چيم).. قالها بمزيج من الألفة والرهبة. لقد كان وقريته تحت حماية هذا الرجل.. عندها عرفت أن چيم حقق ما وعد به.. سوف أسمع عنه.

كان أهل القرية مندهشين لقدوم چيم وكرمه وإصراره على البقاء هنا.. هذا شيء لم يسمعوا عنه قط.. ماذا سيقول الراجا لو سمع هذا؟

چيم قد ترك البحر بأمواجه العالية المغرقة التي ترمز لكفاح الإنسان، من أجل الغابات الساكنة التي حفرت جذورها في التربة. ينتظر الفرصة التي يكشف فيها عن فضائله كأنه عروس شرقية تنتظر أن يزيح زوجها النقاب عن وجهها.

في القارب راح يراقب النهر ويتسلى بتخمين ما إذا كان هذا الجسم الأسود غصن شجرة أم تمساحًا.. ثم عدل عن اللعبة لأنها مملة.. كلها تماسيح..

عندما لمس القارب الضفة ترجل الرجال مبتعدين بسرعة، وانفتحت بوابة عملاقة، وعلى الفور رأى أمامه قاربًا مليئًا

بالحراس المدججين بالسلاح.. لو كان مسدسه محشوًا لفقد أعصابه وقتل اثنين أو ثلاثة منهم ولمات بعدها، لكن مسدسه كان فارغًا فعرف أن عليه التصرف بثبات وبثقة..

قال له الرجال إن الراجا يريد مقابلته. كان التنكو (ألانج) لا يتمتع بالشجاعة برغم كل ما يحكيه عن بطولات شبابه، وكذلك كان الكل يعرف كيف يعامل سجناءه. إنه يقدم القهوة لضيوفه وهي سائل مقزز حقًا، لكن ليس بوسعك أبدًا أن تعرف إن كان دس لك سمًّا أم لا.. مناقشاته مع رجاله تنتهي غالبًا بخنجر إندونيسي ينهي كل شيء..

كان (چيم) يحكي لي هذا كله ونحن نقف في شرفة بيته. قال لي:

- تصور أنه لا يوجد بيت في قرية في هذه الأدغال إلا ويثق بي؟.. يثق بي أنا بعد كل ما جرى لي..

الحقيقة أن هؤلاء القوم قد ظفروا به.. جعلوه ملكًا لهم حتى آخر قطرة في دمه وحتى آخر زفير من رئتيه. لكني شعرت بفخر.. وشعرت كذلك بالرضا ليس عن شجاعته فأنا أعتبرها شيئًا معتادًا مفروغًا منه لكن عن صفاته الأخرى. عن جاهزيته وعن يقظته وقدرته على استيعاب ما هو غير معتاد. هذا العمل أعطاه القدرة على أن يشفى من ذكراه القديمة ولهذا أحب هذه الأرض، وإن كان أحبها برقة ممزوجة بالازدراء.

واصل سرد لقائه مع الراجا فقال:

- هكذا ظللت في السجن ثلاثة أيام.. مكان قذر ولم أظفر بطعام كذلك.. أحدثت صخبًا فجاءوني أخيرًا ببعض الأرز

وسمكة مقلية صغيرة الحجم. تبًّا لهم!.. لقد أسلمتهم مسدسي بمجرد أن طلبوه.. كنت أبدو كأحمق وأنا أمشى بمسدس خال من الذخيرة..

أشار (چيم) إلى جزء من السياج محطم في الجهة الشمالية وقال:

- من هنا وثبت هاربًا في اليوم الثالث من سجني.. لم يعيدوا إصلاح السياج.. وثبة ممتازة أليس كذلك؟.. ثم عبرت هذا المستنقع لكنى سقطت فيه.. ظننت أنني انتهيت.. تركت حذائي هناك.. كنت أحاول الخروج وأنا أفكر في مدى سهولة أن يخترق ضلوعي رمح هنا وأنا مقيد في الوحل..

أعادوه للأسر حيث ظل في غرفة ضيقة.. كان جائعًا برغم كل شيء وقد دارت بصدد مصيره مناقشات طويلة حامية مع الراجا، من حين لآخر يأتيه وغد يسأله:

- هل الهولنديون ينوون الاستيلاء على البلاد؟.. لماذا جئت هذا البلد التعس؟.. الراجا يريد أن يعرف إن كان بوسع الرجل الأبيض إصلاح ساعة؟

وبالفعل جاءوه بساعة صنعت في نيوانجلند وقد حاول إصلاحها بسبب الملل وحده..

كان يعاني بشدة.. وهكذا وجد نفسه من جديد وبلا أي تفكير يثب من هذا الارتفاع هاربًا.. طار من فوق رماح الحراس في وثبة كادت تهشم عظامه فعلًا. أمامه كانت مجموعة من بيوت باتوسان على بعد 400 ياردة.. فقط عندما أدرك أنه لا يقدر على تحريك قدميه تقريبًا، عرف أنه فعل ما فعل!

راح يعبر نهيرًا ويقبض على الوحل بيده.. يتعثر.. يسقط على رأسه.. يتذكر قاعة المحاكمة فيشعر أنه كان سعيدًا جدًّا في تلك الأيام!!..

بكي وشهق وسعل.. راح يتذكر الزنزانة والساعة.. ليته يقدر على العودة! أخيرًا خرج من البركة واستلقي على الشط.. ينظر للسماء ولا يصدق أنه نجا.. لن يظفروا به إلا ببندقية بعيدة المدى..

خطر له أنه بحاجة للنوم، وبالفعل نام بضع ثوان.. ثم صحا ليجد أنه مغطى بالطين بالكامل. خطر له أنه الأبيض الوحيد وسط آلاف الأميال.. لا عون.. لا أحد يشفق عليه..

ركض نحو البيوت فصرخت بعض النسوة وقررن يمينًا ويسارًا.. أما الشيوخ فتصلبوا وهم ينظرون له في رعب.. كان فزعًا طائرًا.. لكنه استطاع أن يصرخ بكلمة واحدة:

- دورامين..! دورامين!!

فقط سقط على الأرض وسمع صوت طلقات من بعيد. لكنه نجا. وهرعت زوجة (دورامين) العجوز تصب الماء البارد على رأسه وتسقيه كأنه ابنها. ثم اقتادته إلى الفراش وأراحته هناك.

كان زوجها تاجرًا محترمًا عظيم الهيبة في باتوسان، وقد انتخبته ستون أسرة (أي نحو ألفي شخص مسلحين بالخناجر) زعيمًا لها. وهؤلاء حزب معاد للراجا. الراجا كان يحاول احتكار التجارة وكانت منازعات تقع وإطلاق رصاص وقرى تحرق، وكان رجال يؤسرون ويقادون للراجا كي يقتلهم بنفسه. لم يكن شيء

يفوق توحش وجشع هذا الأخير سوى جبنه وخشيته من اتحاد الرجال ضده.

كان هناك تاجر عربى آخر قوى اسمه (الشريف على) يسيطر على قلعة تطل على البلاد، وكان يحرض الأهالي ضد الراجا، وقد خطر لكثيرين أن يتحالفوا معه ضد الأخير، لكن (دورامين) منعهم من ذلك..

هكذا كان الوضع عندما وصل (چيم) وعندما فر من سجن الراجا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

عندما قابلت (دورامين) أحببته على الفور، فهو رجل مرموق من المواطنين، ضخم الجثة بالنسبة للملايو.. لكن هذا لم يجعله بدينًا بل جعله أسطوريًّا. له عنق ثور ووجه مجعد مطمئن. شديد الهدوء أقرب إلى الخمول فلا يحرك طرفًا طيلة جلسته وهذا يجعله رمزًا للكبرياء، لكن في صوته الخفيض هيبة ولشخصيته تأثير سحري. له ابن تجاوز العشرين من العمر، فهو ليس طفلاً في بلد يتزوج الجميع فيه في سن السادسة عشرة.. لكن ابنه يحمل له احترامًا شديدًا، وفي كل صباح ينزل إلى حيث يجلس أبوه فينحني ويلثم يده في إجلال.. وأبوه يمنحه يده كملك. كنت أعرف أن الأبوين يهيمان بابنهما حبًّا وإن لم يظهرا قط ما يدل على ذلك ولم أرهما ينظران له قط. كان اسم الفتى كما أخبرني جيم هو (دين واريس) وكان يعتبره ثاني أفضل صديق له بعدى.

لا أعرف السبب لكن الأبيض انجذب للأسمر بكيمياء غامضة جعلتهما صديقين حميمين. إن (دين واريس) كان شجاعًا بحق ذا روح صادقة أمينة.

عرفت هذا بينما جيم يشرف على عملية رفع المدافع فوق الجبل مع الرجال.. الغرض كان قصف مواقع الشريف علي..

كانت عملية شاقة لكن الرجال كانوا يثقون به.. لقد بدأوا يفترضون قدرات خارقة لديه وهذا أثار ضحكه ودهشته.. قال لى وهو يراقب العمل:

- أنا غارق في العرق والفجر قريب.. أخشى ما أخشاه أن أرتجف من البرد..

هكذا (چيم).. لا يخاف مسئوليات العمل ولا نتائجه، ولكن يخاف أن يرتجف أمام الرجال..

لقد وثق فيه هؤلاء القوم كثيرًا، وهو لم يخذلهم قط حتى هذه اللحظة..

جواره كان صنو روحه (دين رايس) يضحك ولا يتكلم، لكن چيم يخشي أن يبادله الضحك فيرتجف.

أمس جاءه أحمق من قرية مجاورة يطلب مشورته في تطليق زوجته.. تزوجها منذ عشرين عامًا.. زوجة طيبة.. يضربها قليلًا.. ثم كبرت وشاخت وأقرضت تلك الآنية النحاسية لابنة أختها.. لم تطلب رأيه.. النتيجة أن الآنية فقدت للأبد..

- ليس الأمر مضحكًا كما يبدو لك..

كان عليه أن يقطع مسافات كبيرة، ويصلح بين الكثير من الأطراف ويعيد للرجل آنيته النحاسية حتى لا تحدث حرب أهلية..

خادم چيم كان اسمه (تام إيتام) وهو من الملايو.. غريب عن البلدة وقد استبقاه الراجا ليجعله يجدف في أحد قواربه. وقد فر عند أول فرصة ليلتحق بخدمة چيم. أسمر له عينان جاحظتان محتقنتان بلون اصفر..

كان معروفًا بشراسته في القتال، وقد أبلى الرجال بلاء حسنًا في هذه المعركة وقصفوا عددًا من حصون الشريف على من

موضعهم المرتفع هذا.. وسمع (دورامين) الأخبار وعرف أن ابنه بخير فحاول النهوض فلم يستطع..

كان چيم في حالة لا توصف من الفرحة والانتشاء.. الكلمات لا تقدر على التعبير عن حالته.

إن شهرته تتعاظم.. صار رجلًا من هؤلاء الرجال الذين لا تستطيع مقارنتهم إلا بمجدهم الخاص، وكان عليك أن تجدف بالقارب مسافة طويلة جدًّا كي تصل لمكان لم تبلغه شهرته. شهرة قوامها السيف الذي يؤكد وجوده في كل يوم..

كان چيم يتقاسم شيئًا مع ذلك الصمت الذي يصاحبك نحو أعماق مجهولة.. يمتزج مع همسات العجب والغموض على شفاه الرجال..

لقد فر (الشريف على) المهزوم من البلاد وإن عزم على الانتقام، وعاد القرويون إلى بيوتهم المهدمة، لهذا كان چيم هو الذي أعاد تنظيمهم بمساعدة (دين رايس) وعين كبراء القرى..

أما عن شعور الراجا (ألانج) عندما سمع قصف المدفعية، فقد رقد على أرض كوخه البامبو وراح يرتجف ويقول كلمات مختلطة، فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منه أقرب من رمح واحد لمدة يوم ونصف.. كان يرى بوضوح أنه سيطرد من باتوسان.. سيعيش بلا ماله ولا نسائه ولا أفيونه فريسة سهلة لأول من يريد قتله.

في الحقيقة كان (دورامين) يحتفظ بطموح مجنون أن يرى ولده حاكمًا لباتوسان.. كان ببدانته وعينيه الصغيرتين يذكرك دومًا بفيل عجوز.. حركة صدره المكتنز أثناء التنفس.. صوته

الهادئ الغليظ.. كلها تذكرك بميلاد عاصفة رعدية.. وكانت ثقة الرجل كبيرة بـ (توان چيم). لكنه قال لي إن الله خلق الأرض لتبقى للأبد بينما الرجال البيض يأتون ويرحلون.. ولن يلبث چيم هذا أن..

هنا قلت له في حدة:

- لا.. لا.. لن يرحل..

نظرت لي زوجته العجوز التي تشبه الساحرات وسألتني عن السبب الذي جعل چيم يترك بلاده ويسافر كل هذه المسافات ليعيش هنا.. أليس له أصدقاء؟.. أليست عنده أم عجوز تبكي وتتذكر وجهه؟

هذه أشياء يطول شرحها على كل حال..

وماذا عن وقوع چيم في الحب؟. أنتم لا تصدقون وتعتقدون أنها مجرد شهرة عابرة أخرى.. لكنني أجدها شيئًا جديرًا بالذكر..

لم يكن لدى زوجة (كورنيليوس) من رفيق تسكن له سوى ابنتها.. لا أعرف كيف تزوجت المرأة المسكينة ذلك الوغد البرتغالي من ملقة بعد طلاقها من أبي ابنتها. أعرف مما حكاه (شتاين) أنها لم تكن امرأة عادية.. لما ماتت المرأة عاشت الابنة وحيدة.. هنا جاء چيم..

چيم كان ينادي الفتاة باسم قريب جدًا من (يا غالية).. (يا جوهرتي).. وكان ينطقها بتلقائية وبلا افتعال.. لقد قابلتها.. طيف أبيض ووجه كوجه طفل رقيق.. تخرج من غرفة داخلية كأنها طير يغادر عشه..

وعرفت فيما بعد أن الإشاعات تملأ المنطقة كلها خاصة بين البحارة البيض، عن رجل أبيض چيم جاء إلى باتوسان ووجد جوهرة عظيمة القيمة، وهو يخرج دومًا مع فتاة جميلة يتأبط ذراعها ويقال إنها تخفى هذه الجوهرة في صدرها..

كل هذا كان خطأ فيما عدا أن چيم وقع في الحب فعلًا.. لم يخف جوهرته بل كان فخورًا بها.. والجوهرة كانت الفتاة.

الآن فقط أتذكر أنني لم أرها كثيرًا.. فقط أذكر بشرتها ذات اللون الزيتوني الشاحب.. كانت أحيانًا تجلس لتتابع كلامنا بعينيها الواسعتين كأنها ترى كل كلمة من كلماتنا.. كانت تعرف بعض الإنجليزية من چيم وكانت تنطقها بطريقته الطفولية المسلية. كانت تغطيه برقتها كأنها جناح يرف فوقه، وتغار عليه لكن من أي شيء؟ لا أعرف.. ربما تغار عليه من الأرض أو الناس..

أنا رأيت ذلك البرتغالي كورنيليوس الذي كان زوج أمها.. كان قد انتقل ليقيم عند (دورامين) وبالتالي هو تحت نوع من الحماية. كان رجلًا خسيسًا.. يغضب بخسة.. يبتسم بخسة. يحزن بخسة.. أنا متأكد من أن حبه كذلك خسيس.. حتى الشخص الحقير يبدو نبيلًا بجواره..

كان يعامل الفتاة البريئة بقسوة ويصر على أن تناديه بابا، وباحترام كذلك. لكنه لم يضربها لأنه أجبن من ذلك.

كان قذرًا كذوبًا وكلما انتقد الناس شيئًا فيه قال إنها غلطة زوجته الميتة.. حتى إن چيم منعه من ذكر زوجته الميتة بأية كلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

ازداد تعلق (چيم) بالفتاة بعد ما أنقذت حياته من محاولة اغتيال.. لقد أيقظته ذات ليلة وهي تحمل المشعل، وأخبرته أن هناك بعض رجال في المخزن.. هكذا هرع إلى هناك وهي تسبقه بمشعلها.. استطاع أن يرى رجلًا من الأهالي يحمل خنجرًا.. أرداه صريعًا بطلقة واحدة في رأسه.. هنا خرج أربعة رجال مذعورين يتوسلون له كى يبقى على حياتهم..

اقتادهم تحت تهديد السلاح إلى النهر، والفتاة تتبعه حاملة المشعل.. وأرغمهم على الوثب في الماء.. وهتف:

- أبلغوا تحياتي للشريف عليّ..

وهكذا ابتعد الرجال، أما هو فنظر للفتاة.. شعر أن قلبه يتضخم بحيث بلغ حلقه فلم يعد قادرًا على قول شيء.. طوحت بالمشعل في الماء فضمها له وهمس أنه لن يتركها في عهدة كورنيليوس بعد اليوم.. وارتجف.. شعرت به يرتجف..

كانت فكرة مغادرة هذا المكان والعودة للعالم الخارجي تزداد استحالة يومًا بعد يوم. العالم الخارجي صار مستحيلاً بالنسبة له، خاصة أنه لم ينس لماذا جاء هنا..

فيما بعد قال لي:

- هؤلاء القوم يعتبرونني بطلاً ويقدسونني.. لكن برغم هذا لن تقبل أن أعمل على سفينة تخصك..

- هلا كففت عن هذا؟

وتركته يقوم بجولته الليلية مع خادمه.. وعدت لمقر إقامتي. هنا فوجئت بالفتاة تقطع على الطريق.. لم أكن أتبين في الظلام سوى أسنانها البيضاء وعينيها الواسعتين.. وكانت تطلب.. بل ترجو..؟ بل تتوسل.. هي تعرف أن الفتي قادم من أصقاع بعيدة نائية لا تعرف عنها شيئًا، لكنها تعرف أن هذه الأصقاع تسترد أبناءها دومًا، وقد بدا لها أننى جئت من هذه البلاد النائية كى آخذ چيم معى.. لابد أنها كانت تفقد عقلها رعبًا أثناء محادثاتي الطويلة الهامسة مع چيم..

تأثرت جدًّا من صغر سنها.. من سذاجتها... من جهلها.. من جمالها البارع الذي يحمل كل محاسن زهرة برية. لكنها لا تفهم أن العالم الخارجي لا يعبأ بچيم ولا يريده في الواقع. بذلت جهدًا جهيدًا لأقنعها أنني لم آت لآخذ چيم ولكن جئت بداعي الصداقة.. لأعرف أخباره.. ربما لأطمئن على أنه لن يرجع..

كانت تعرف الأخطار المحدقة به.. تعرفها أفضل منه بكثير..

لم تكن تؤمن بقدرته على النصر.. كل الناس هنا كانوا لا يؤمنون بنصر چيم، وحتى الشريف عليّ نفسه كان يحتقر هذا الأبيض.. سوف يغتال أحدهم چيم يومًا.. ولن تكون للموضوع أهمية..

في تلك الليل جوار الشهر ركعت على ركبتيها أمامه وتوسلت له أن يرحل.. لما أبديت دهشتي من هذا الكلام الغريب قالت لي:

- لم أرد أن أموت وأنا أبكي..

خيل لي إننى أسأت الفهم فقالت:

- مثل أمي.. أمي بكت كثيرًا قبل أن تموت..

كانت تكشف لي عن عالم قاس يحاول المرء أن يتوارى عنه، كسلحفاة تلجأ لأمان درقتها.. قالت إنه أقسم لها إنه لن يتركها أبدًا مهما حدث.. ثم أضافت وهي تشهق:

- رجال آخرون وعدوا بذلك.. أبي وعد بذلك!

ثم سألتني:

- هل هو أفضل من الرجال الآخرين؟

- أقسم بشرفي أنه كذلك..

- وهل هو أكثر منهم صدقًا؟

- نعم.. ليس هنا أحد يمكن أن يشك في صدقه.. وهو كذلك أشجع.. لن يجعله الخوف يتخلى عنك أبدًا..

قالت في رعب وثوبها الأبيض يتألق في الظلام، بينما أغنية اندونيسية ما تأتي من الأكواخ:

- ما هذا الذي يفزعه؟ من يطارده ويجعله يصرخ أثناء نومه؟.. هل هذا العدو المخيف حي أم ميت؟

قلت لها:

- اسمعي.. أنت ترينه الأشجع والأذكى والأقوى فلماذا لا تفترضين كذلك أنه الأكثر صدقًا؟.. صدقيني هذا العالم الخارجي كبير جدًّا ولا يذكر من هو چيم ولا يريده أصلًا.. لن يفتقده أحد هناك.. أنا سأرحل غدًا ولن ترى وجهي أبدًا..

كان منطقي هذا مقنعًا لكنه بدا لي غريبًا ومن الصعب أن أقوله عن أي شخص..

عادت تسألني في إلحاح وهي تمسك ذراعي بأقوى ما تستطيع:

- قل لي لماذا لن يفتقده أحد؟

هنا انفجرت فيها:

- تريدين معرفة السبب؟.. لأنه ليس جيدًا بما يكفي.. لا يوجد أحد جيد بما يكفي!

وتوقفت عن الكلام لأنني سمعت صوت خطوات (چيم)..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

في الصباح التالي ومع أول انحناءة من النهر، تلاشى عن ناظرى كل هذا.. بلونه ومغزاه.. كأنه صورة على لوحة قماشية.. بعد تأمل طويل تدير لها ظهرك لآخر مرة، لكنها تبقى في ذاكرتك لا تبهت وإن كانت بلا حياة. تجمدت عواطف الخوف والأمل كما هي في ذاكرتي.

كنت عائدًا بعيدًا عن الصورة إلى عالم تجرى فيه الأحداث ويتغير الناس وتلتمع الأضواء. الحياة تتدفق كتيار مائي لا يهم إن كان يجري فوق صخور أم فوق أوحال. لكن ما تركته خلفي لن يتغير..

(دورامين) المجيد حيث هو وزوجته التي تشبه الساحرات بطموحهما الأبوى، وتنكو (ألانج) و(دارين واريس)، والفتاة العاشقة الخائفة.. أثق بوجود هؤلاء لأنهم تحت عصا الساحر، لكنهم يلتفون حول شخص واحد لا أثق أن يظل حيث هو.. لا أثق في عصا ساحر تبقيه في مكانه.. لقد كان واحدًا منا..

لقد رافقني چيم في الجزء الأول من رحلتي، وكانت فكرة الفراق تخيم علينا فعلًا.. لهذا لذنا بالصمت أكثر الوقت..

بالفعل كنت أشعر بذلك الذي تكلمت عنه الفتاة.. إن الوطن يناديني.. نظرت لذلك التعس الجالس جواري وقد سقط رأسه على صدره وتذكرت أنه لن يعود أبدًا..

عند الشط ذي الرمال البيضاء استوقفنا ذلك العجوز وولده.. راح يشير نحو (چيم) ويتكلم بلا انقطاع.. إن الراجا لن يترك الفلاحين وشأنهم.. هناك مشكلة حول مجموعة كبيرة من

بيض السلاحف قام الوطنيون بجمعها والراجا يعتبرها ملكًا له. طلب منهما چيم الانتظار فلسوف يصغى لهما حالاً، فابتعد الرجلان في طاعة وجلسا القرفصاء وقد وضع كل منهما المجداف على الرمل أمامه. التفت لي (چيم) وقال:

- المشكلة أن كل هؤلاء الصيادين يعتبرون عبيد الراجا..

- وأنت غيرت هذا..

- نعم.. وقد أعاد لي هذا الكثير من ثقتي بنفسي.. لكن يجب ألا أنسى أنه لا مكان لي هناك..

ونظر إلى الرجلين وهمس:

- لا أستطيع تخيل ما قد يحدث لو تركت هذا كله وعدت.. الجحيم!.. لابد أن أبقى وأن أذهب غدًا للقاء ذلك الراجا وأجازف بشرب قهوته التي قد تكون مسمومة.. سأكلمه عن موضوع بيض السلاحف هذا.. لكن متى أراك ثانية؟

قلت من دون أن أنظر في عينيه:

- لن نلتقى أبدًا.. ما لم ترحل عن هنا بالطبع..

قال بعد صمت:

- إذن هو الوداع.. ربما كان هذا أفضل..

واستدرت لأركب القارب الذي ينتظرني. فلحق بي حتى بلغت المياه ساقيه وصاح:

- قل لهم في الوطن..

أصخت السمع.. أقول لمن؟.. كانت عيناه تواجهان قرص الشمس بالضبط وهو يقول:

- لا.. لا شيء..

وابتعد القارب نحو السفينة الكبيرة التي كانت ستحملني.. وقد غربت الشمس.. صار الأفق الغربي شريطًا من الذهب وسط الظلام فلم يعد من چيم سوى شبح على الشط..

لقد نهض الصيادان بمجرد رحيلي، وراحا يسكبان تعاستهما على مسمع السيد الأبيض، بسبب سواد بشرتهما كانا أول من اختفى في الظلام قبل سيدهما، الذي كان أبيض من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. لهذا بدا كأنه يمتص كل الضياء الباقي في العالم..

وسرعان ما غاب عن عيني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

عند هذا الحد أنهى (مارلو) قصته غير المكتملة، وراح الجالسون يحدقون في الفراغ شاردين يسترجعون ما قال..

كان هناك واحد بين الموجودين عرف الكلمة الأخيرة في القصة بعد عامين. وقد وصلته على شكل طرد عليه كتابة بخط مارلو نفسه. فتح الطرد ورأي ما فيه ثم اتجه إلى النافذة.. راح يراقب الطرقات التي يغمرها المطر ثم جذب الستار ليغلقه..

هناك يستقر هذا الفرد تحت المصباح الخافت، والساعة تردد بلا انقطاع: لا مزيد.. لا مزيد..

تنهد وهو يستعيد ذكريات الأحراش والمستنقعات والأكواخ البعيدة.. ثم جلس ليقرأ..

- لا أحسبك نسيت.. فأنت بالذات أبديت اهتمامًا تجاوز قص تلك القصة.. لكنك لم تعتبر چيم قد سيطر على مصيره بعد.. توقعت له الإنهاك والزهد في الإعجاب الذي يتلقاه من الشباب. قلت إنك تفهم هذه الأمور جيدًا.. يجب أن نؤمن بجدوى ما نفعله حتى نتحمل أن نضحي من أجل الآخرين، وإلا فالتضحية مجرد نسيان. ولصار المنح مجرد وسيلة للهلاك. لا أجزم بشيء.. هناك الكثير من الصدق في عبارة (تحت سحابة).. (چيم) كان تحت سحابة.. من الصعب أن تراه بوضوح خاصة لو كانت نظرتنا الأخيرة له عبر عيون آخرين..

أعتقد أنه كان في طريقه نحو الاختبار الأكبر الذي أعتقد أنه كان ينتظره.. تذكر أننا في وداعنا الأخير طلب مني: قل لهم.. ثم توقف.. وفجأة قال: لا شيء..

كان يحاول أن يكتب.. هل رأيت الورقة التى كتب عليها: (الحصن - باتوسان)؟.. أعتقد أنه جعل بيته قلعته الأخيرة.. خندق وجدار من التراب عليه سياج وبنادق على منصات تمسح المنطقة كلها. دورامين هو الذي جلب له تلك البنادق. كان يعتمد على من أسماهم (قومي).. إنهم أسرى (الشريف على) الذين حررهم، وقد أقاموا قرى وتجمعات تحت الحصن. في هذه الورقة كتب: لابد أن.. ثم سقطت الريشة منه وتناثر الحبر..

سوف تجد ضمن الأوراق خطابًا عتيقًا جدًّا كتبه أبوه.. لابد أنه تلقاه قبل أن يلتحق بالباتنا بأيام معدودات.. لابد أنه آخر خطاب من أسرته.. العجوز كان يهيم حبًّا بابنه كما هو واضح. أربع صفحات من الحب الأبوى الخالص.. يمكنك أن تتخيل العجوز في مكتبه الذي قضى فيه أربعين عامًا يكتب المواعظ ويحلم بالطريقة الأفضل للموت.. هناك إيمان واحد.. فضيلة واحدة.. هناك ميتة واحدة..

الأم والأخوة بخير.. لا تقلق..

من جديد أستعيد منظر چيم حيث وقف.. هو الشيء الوحيد الأبيض على الشط.. تحت سحابة..

في الصفحات التالية سوف تجد باقي القصة وعليك أن تعترف بأنها رومانسية بما يفوق أحلامك. شيء من هذا القبيل كان محتم الحدوث..

برغم هذا هناك الكثير من المنطق فيه..

يبدأ كل شيء بملحمة قام بها رجل وغد يدعى (براون).. سطا بنجاح على سفينة شراعية اسبانية في ساحل صغير قرب (زامبوانجا). قابلت هذا الرجل وعرفت بين أنفاسه المتقطعة بفعل الربو آخر أخبار چيم.. كان على أن أتحمل عينيه الذابلتين الشبيهتين بقدم الغراب كي أعرف..

قال براون المحتضر:

- ما إن رأيته حتى أدركت أي أحمق هو.. رجل؟.. هو؟.. لقد تحداني لكن لم يكن في داخله ما يكفي من الشياطين ليقضي على.. سوف يقتلني الربو لكني سأموت راضيًا فقد هزمته..

كنت قد وجدت هذا الرجل في بانجوك.. دلني عليه رجل أبيض يدعى (شومبرج) أراد بعض الشرف بأن يستضيف عنده (براون) الشهير في آخر أيامه.

كان يتكلم كالمحموم.. ومن حين لآخر ينظر لي بحزن وغضب.. كأنه يخشى أن أملّ وأنصرف قبل أن يحكي لي القصة.. مات ليلتها لكن لم يكن عنده وقتها ما يحكيه[3]..

- قبل هذا بفترة كنت أزور (شتاين) عندما قابلت عنده أحد أهالي الملايو.. كان هذا (تام أيتام) خادم (چيم) المخلص.. فسألته في حماسة:

- هل (توان چيم) هنا؟

قال:

- لا..

وتدلى رأسه للحظات ثم قال بجدية:

- هو لن يقاتل.. لن يقاتل..

لم يبد أنه قادر على قول شيء آخر فدفعته ودخلت..

وقف (شتاين) في وسط الغرفة طويلًا محنى القامة، فقال لما رآني:

- آخ.. هأنتذا يا صاحبي.. تعال..

قلت:

- لماذا يقف (تام إيتام) بالخارج؟..

- تعال لترى الفتاة.. إنها هنا.. جاءا منذ يومين.. أنا عجوز ولا أقدر على عمل الكثير.. القلوب الصغيرة لا تتسامح.. إن فيها قوة هائلة..

ومشيت خلفه في البيت، وهو يقول:

- لقد أحبها كثيرًا..

هززت رأسي موافقًا وشعرت بمرارة لأنني لا أملك ثقة بنفسي تكفي للكلام.

- خائفة جدًّا ولا تثق بي.. أنا بالنسبة لها مجرد عجوز غريب.. على الأقل هي تعرفك.. قل لها أن تسامحه..

- بالتأكيد..

قلتها وأنا أشعر أني في الظلام تمامًا ولا أفهم أي شيء.. فتح الباب ودفعني للداخل..

أنت تعرف أن بيت شتاين كبير مريح رطيب، رأيت في غرفة منه الفتاة جالسة على منضدة من الماهوجني وقد أراحت رأسها بين يديها، انعكست صورتها على الأرض المطلية بالشمع كأنها على صفحة بحيرة، رأتني فرفعت رأسها..

قالت لي:

- لقد تخلى عنى.. كلكم تفارقوننا من أجل أغراضكم..

بدا كأن كل الوهج في وجهها تواري في موضع سحيق من صدرها..

- كان من السهل أن أموت معه.. كنت أنا من وقف أمامه وأنا من نظر له.. أنتم خونة قساة بلا عاطفة.. ما الذي يجعلكم بهذه القسوة أم أنكم جميعًا مجانين؟

تناولت يدها فلم تقاوم، ولما تركتها سقطت.. هذا مرعب أكثر من أية دموع..

سمعت كل شيء.. وشعرت بشفقة عظيمة عليها.. وعليه كذلك..

- كنت جواره أمسك بيده، لكنه لم يرني.. أصابته لعنة القسوة التي تصيبكم جميعًا فلم يعد يبالي بأمري.. تركنى كأننى أسوأ من الموت.. كأنه يفر..

انحنيت وتركتها هاربًا..

خرجت إلى حديقة (شتاين) التي جعلها متحفًا لكل أنواع نباتات المناطق الحارة، مشيت هناك بعض الوقت عاجزًا عن

التفكير، وهناك بين الأشجار رأيت شتاين نفسه بين الأغصان مع الفتاة يضع يده على كتفها في رفق أبوى، ويردد:

- هذا فظيع.. ماذا بوسعنا أن نفعل؟

قالت الفتاة:

- ما الذي فعلته أنا؟.. لقد كان مثل الآخرين..

صاح شتاين وهو يضرب على يدها:

- لا يا صغيرة.. لا.. لا.. يومًا ما ستفهمين..

كان ثوبها الأبيض يزحف من خلفها وشعرها الأسود حر على ظهرها، وهي تمشي في خفة جوار الرجل. السماء رمادية تمامًا وهو مشهد غير معتاد في المناطق الحارة.

لشد ما تغيرت الفتاة بعد الكارثة ولشد ما تغير (تام إيتام).. لقد صار أقرب إلى الثرثرة..

هنا انتهى جزء الخطاب الذي تمت كتابته بقلم (مارلو).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

توقف الرجل الذي أسعده الحظ بمعرفة باقي القصة عن القراءة، واقترب من النافذة ليلقي نظرة عابرة على المدينة، كأنه حارس فنار يطل على البحر، ثم عاد يتصفح الأوراق:

- كما قلت لك، فكل شيء يبدأ بالرجل المدعو براون.. الكل يعرفه على سواحل أستراليا. ما يحكى عنه كان كافيًا جدًّا للشنق لو أنك حكيته في المكان الصحيح. المؤكد أنه طرد من سفينة كانت تنقب عن الذهب ومنذ ذلك الحين صار الرعب الدائم في بعض جزر بولينزيا. كان يسطو على السفن ويقطع الطريق وكان يسلب الأبرياء مالهم ثم يدعوهم لمبارزة بالمسدسات على الساحل، وهي مبارزة معروفة النتيجة، كان يحتقر ضحاياه بشدة.. يحتقر الجنس البشري كله.

خرج من حياته هذه بكيس مليء بعملات فضية أخفاها على حد قوله حيث لا يستطيع الشيطان أن يشمها، وقد فر من محاولة القبض عليه بسفينة إسبانية.. الحقيقة أن الرجل لم يكن يخاف الشنق، لكنه كان يخشى السجن بجنون كما يفعل شخص بدائي يخشي الأشباح.. لهذا فر مع طاقم من اثني عشر مغامرًا..

أعتقد أنه سمع عن بتوسان أو رأى اسمها بحروف صغيرة على خارطة ما.. غالبًا قرر أنها بلا حماية وبعيدة عن السفن الحكومية والبرقيات..

كان الأمر مسألة حياة أو موت.. الحرية!.. في باتوسان سوف يجد أرزًا وبطاطس ولحمًا.. ومن يدرى؟.. ربما بعض المال

كذلك!.. ربما أمكن السطو على بعض القرى..

كان حظه حسنًا والطقس مواتيًا.. لهذا خلال أسبوع كان قد رسا بسفنه عند (باتو كريج) على مرمى حجر من قرية الصيادين..

هبط 14 رجلًا في قارب كبير من السفينة الشراعية قاصدين النهر. وبقى اثنان معهما ما يكفي من طعام لمدة عشرة أيام. أربعة عشر رجلاً يبدون كخيالات المقاتة وهم يلوحون ببنادقهم.

صمت عميق.. مساحة المكان أثارت دهشة (براون).. وخطر له أن ينزلوا في مركز البلدة قبل أن يحاول السكان المقاومة. لكن من الجلي أن زعيم القرية نجح في إرسال إشارة استغاثة..

حينما بلغوا المسجد الذي بناه دورامين كانت الساحة أمامه مليئة بالرجال.. دوت صرخة ثم دق (الجونج) عبر النهر كله.

ومن فوق هوت قذيفتان في الماء ليتناثر الرذاذ في ضوء الشمس.

وانهال وابل من الطلقات من زحام الواقفين أمام المسجد ومن الضفتين.. رد رجال (براون) بالنيران..

وتوارى القارب تقريبًا وسط الدخان، وبدأ يدور حول نفسه..

صرخات الغضب.. ودقات الجونج.. وأصوات الطلقات.. بينما جلس براون في القارب مليئًا بالغضب والغيظ من هؤلاء القوم الذين تجاسروا على الدفاع عن أنفسهم..

وأدرك أن قاربين يقطعان عليه خط التراجع، بل ستة قوارب مليئة بالناس..

هنا رأى مدخل النهير (الذي وثب فوقه چيم أثناء الهرب) فدخل بقاربه فيه، وترجل الرجال.. وسرعان ما اتخذوا مكانهم على هضبة صغيرة قرب السياج، كانت هناك أشجار على قمة الهضبة فقطعوها بينما ظلت قوارب الراجا في النهر في حيادية غريبة..

عندما غربت الشمس أمر براون رجاله بأن يحرقوا العشب حول موقعهم، فتصاعدت ألسنة اللهب. وزحفت حتى توقفت قرب سياج قصر الراجا. كانت السماء مزدانة بالنجوم بينما العشب المحترق يقعقع.. وهبت ريح أطارت كل شيء..

توقع براون هجمة أخرى بمجرد أن يرتفع المد. لكن لم يحدث شيء وظل يرى الأضواء من قوارب الراجا في النهر..

رقد الرجال على بطونهم خلف جذوع الأشجار التي قطعوها وراحوا يرمقون البلدة، التي لم يتصوروا أنها بهذه الضخامة وقد امتلات بالرجال الغاضبين.. ولاذوا بالصمت.. لم يكن هناك صوت سوى طلقة من حين لآخر.. لكن هذه الضوضاء لم تمسهم هم كأنهم ماتوا فعلاً..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

لم يكن چيم موجودًا وقتها، بل كان في داخل البلاد يدبر مسألة ما، لذا وقعت مهمة الدفاع ضد الرجال على (داين واريس) هذا الشاب الشجاع البارع ابن دورامين..

كان يتمنى تسوية الأمور بنفسه، لكن قومه كانوا أكبر من قدراته.. لم يكن يملك نفوذ ومهابة چيم باعتباره رجلاً أبيض خارقًا للطبيعة لا يقهر، ولم يكن تجسيدًا للنصر مثله..

كانوا يحبونه ويحترمونه لكنه ظل واحدًا منهم بينما چيم كان واحدًا منا..

كان رجال البلدة يؤمنون أن الرجل الأبيض لا يموت..

إن طلقات عصابة (براون) كانت دقيقة أو محظوظة، إلى درجة أنها أصابت نصف دستة من الرجال.. وقد تم إرسال النسوة والأطفال إلى الحصن، هناك كانت (الجوهرة) هي القائدة ببراعة وحسم، وكان رجال چيم يطيعونها.. حتى النهاية كانت تؤدي واجبها بروح شبه عسكرية.

ما إن ظهر الخطر حتى هرع (واريس) لها لأن چيم كان الوحيد الذي يملك مخزونًا من البارود، وقد جلبه له (شتاين) بإذن خاص من الحكومة الهولندية. عقدوا اجتماعًا في مقر چيم في الحادية عشرة مساء، وباعتبار الخطر عامًا جاء ممثل عن الراجا هو (قاسم)..

كثرت الإشاعات ومن بيها إشاعة عن سفينة كبيرة سوف تأتي في أثر هؤلاء، عليها بحارة بيض قساة مسلحون، وسوف

تقصف المدينة بالمدافع وتستولى عليها.

جاء (دورامين) طبعًا بصعوبة شديدة ومعه آخرون.. وكان رأى من يدعى (حاج سونان) كما يلى:

- هؤلاء الرجال الأوغاد أمرهم منتهى.. سوف يبقون حيث هم ويموتون جوعًا، أو سيحاولون الفرار إلى قاربهم.. وهكذا يتعرضون لرصاصنا.. في كل الأحوال لا داعي للاشتباك معهم في معركة..

رأي (دورامين) أن على ابنه أن يأخذ مجموعة من الرجال إلى جنوب باتوسان لمراقبة النهير وسده بالقوارب.. تحسبًا لقدوم رجال بيض آخرين.. لا أعتقد أن (دورامين) كان يتوقع قدوم آخرين، لكنه أراد أن يبعد ابنه عن موقع الخطر..

اتفقوا كذلك على ترك قارب القراصنة سليمًا لعل هذا يغريهم بمغادرة مكمنهم من ثم يصيرون فريسة سهلة للنيران.. وانطلق عدد كبير من الرسل بحثًا عن (چيم) الذي لا يعرف أحد أين هو..

انطلق مندوب الراجا مع البرتغالي الوغد (كورنيليوس) لإجراء مفاوضات مع (براون)..

سمع براون من يناديه بالإنجليزية قائلًا إنه يحمل رسالة مهمة لكنه يطلب ضمان سلامته. سرَّه هذا كثيرًا لأنه أشعره بأنه ليس مجرد وحش محاصر ينتظر الموت.. هناك تفاوض وحوار..

وسمع من يقول:

- أنا رجل أبيض مسكين أريد الكلام معكم..

واقترب كورنيليوس بثيابه المعتادة: القميص الممزق والسروال المتسخ.. حافي القدمين يضع قبعة من قش على رأسه. فقال له براون:

- اقترب.. أنت في أمان. لكن تعال وحدك..

وهكذا راح كورنيليوس يتكلم.. بعد نصف ساعة فهم (براون) كل شيء عن باتوسان. طلب بعض الطعام أولًا كدليل على النوايا الحسنة..

هكذا عاد كورنيليوس.. وبعد قليل جاء بعض خدم الراجا يحملون الأرز والسمك المجفف.. جاء (قاسم) مندوب الراجا بعد قليل بشوشًا وقد التف بملاءة زرقاء وانتعل صندلًا، وبدأ التفاوض مع براون.

كان قد أدرك على الفور أن هؤلاء الرجال منبوذون بلا وطن.. وبدأ يطرح فكرة على المعتدين هي أن يسيطروا على البلد قبل أن يعود چيم.

كان براون يصغي في اهتمام.. لقد جاء هنا كي يسرق بعض الطعام وربما بضعة أطنان من المطاط أو الصمغ.. الآن بعد هذه المحادثات يفكر جديًّا في سرقة البلد بأكمله.

عندما جاءت الظهيرة جاء المزيد من الطعام وبعض الأغطية وحشايا النوم.. هكذا تمكن الرجال من النوم تحت الظل.. وراح براون يتساءل:

- اسمه (چيم)؟.. (چيم)؟.. هذا ليس كافيًا ليكون اسمًا.. هل هو بريطاني؟.. أي نوع من الناس هو؟

قال له كورنيليوس:

- هو بريطاني.. يسمونه (توان چيم) أي ما معناه (لورد چيم).. هو أحمق وسوف تقتلونه بسهولة..

لكن براون قدر أن الفتى ذكي وبارع.. ما دام استطاع السيطرة على الأهالي بهذه السهولة. كان يحلم بأن يسوى حسابه مع هذه البلدة التي تحدته.. يرى الجثث في الطرقات والنيران في كل مكان..

إن التحالف مع (قاسم) قد يكون مفيدًا، لكن من الأرجح أنه سينهيه بطلقة في رأسه عندما تستقر الأمور.

عبر الشارع مشى رجل وحيد جوار السياج يحسب نفسه آمنًا، رآه (براون) فأشار لصاحبه وهو جندى هارب من الجيش الأمريكي وأشار للرجل.. ابتسم اليانكي وقد فهم المطلوب منه.. ركع على ركبة واحدة وأحكم التصويب وأطلق بندقيته العتيقة. سمع الرجل صوت الطلقة وبدا مترددًا للحظة ثم سقط على يديه وركبتيه. حاول أن يحرك أطرافه ثم همد تمامًا.

قال اليانكي:

- صحة هذا الرجل لن تضايقه أو تضايق رفاقه بعد اليوم

قال براون:

- هذا يريهم ما بوسعنا أن نفعل.. نزرع خوف الموت المفاجئ فيهم..

كانت نسبة الأهالي لهم مائتين لواحد.. هذا القتل يعطى الأهالي ما يفكرون فيه الليلة، لابد من زرع الرعب في نفوسهم.. الرعب.. الرعب..

هكذا انصرف (قاسم) راضيًا عما تم، وقرر أن يكلم (واريس) عن سفينة عملاقة مسلحة بالمدافع قادمة لتنقذ هؤلاء القراصنة.

إن مصنع الطمأنينة الذي أنشأه چيم.. المصنع الذي يضمن للناس شيخوخة هادئة وثقة بالغد.. هذا المصنع بدا موشكًا على التهاوي الليلة. وذهب بعض كبار السن ليظهروا إخلاصهم للراجا فعاملهم الحراس بغلظة، والراجا نفسه كان مذعورًا لا يعرف ما يفعله فاكتفى بطردهم لأن أيديهم خالية.

جاء الليل وفي الظلام تواري جسد الرجل القتيل الذي تركوه على الأرض بذراعين ممدودتين كأنه مصلوب.

ظل براون ساهرًا وقد بدأت ثقته الأبدية بنفسه تهتز.. فجأة شعر بأنه يضرب رأسه في جدار صخري. لو أراد الهرب للقارب فلسوف يكون عليه أن يجتاز النهر بما في ذلك من خطر، ثم المحيط حيث الموت جوعًا.

لو ركضوا للشارع فلسوف يقتلونهم بالرصاص كالكلاب. هنا تذكر موضوع التبغ.. هناك تبغ في القارب الذي تركوه. طلب من أحد رجاله وهو بحار من جزر (سليمان) أن يتسلل إلى هناك ليحضر له بعضه.. انطلق البحار وسط الصمت وغاب بعض دقائق..

فجأة دوى صوت الطلقات وسقط الرجل أرضًا وهو يصرخ:

- لقد أصابوني!

وانطلق وابل من الرصاص.. ووسط الطلقات سمعوا من يتكلم فطلب من البرتغالي أن يترجم، قال كورنيليوس:

- يقولون: بين الرجل الأبيض ورجال باتوسان لا عهود ولا ثقة..

- اللعنة!

وجلس الرجال مطرقي الرءوس حول النيران يصغون إلى صراخ وأنين زميلهم.. كان رجلًا قويًّا لذا مات بكثير من الصخب. أحيانًا كان يصرخ وأحيانًا يأخذ في شكوى طويلة أليمة مليئة بالهلاوس.. لم يكف لحظة..

قال (براون):

- ما الجدوى؟

وهو يرى زميله اليانكي يتأهب للنزول إلى موضع القارب. هنا دوى صوت الجريح بصوت عنيف:

- ماء!

قال اليانكي:

- نعم ماء.. الماء سيقوم بالمهمة.. إن المد يرتفع..

في النهاية جاء المد.. وأسكت صرخات الألم..

وجاء الفجر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

كان (براون) يجلس مطرقًا عندما سمع صخبًا من ناحية البلدة.. نظر إلى كورنيليوس متسائلًا فقال هذا الأخير:

- لقد عاد!

- بهذه السرعة؟.. ولم الصخب؟

- إنهم مسرورون بعودته.. هو رجل عظيم لكنه طفل وسوف يموت..

- وكيف نصل له؟

- هو سيأتي ليتكلم معكم.. إنه أحمق ولسوف ترون.. هو لا يخاف من أي شيء وسوف يأتي ويطلب منكم الرحيل..

للأسف كان يعرف چيم جيدًا فعلًا!..

- يمكنك يا كابتن أن تأمر هذا الرجل طويل القامة أن يقتله.. وسوف يخاف الجميع بحيث يمكنكم عمل أي شيء بعد هذا.. تفرون لو أردتم

كاد يرقص من نفاد الصبر واللهفة.. ونظر له براون ونظر لرجاله الذين غرقوا في قطرات الندى والبرد.

مع الفجر رأى (براون) رجلًا أوروبيًا يضع خوذة ويلبس ثيابًا بيضاء.. فصرخ كورنيليوس:

- هذا هو چيم.. انظر!.. انظر!

نظر براون.. ومن حوله احتشد الرجال بعيون زجاجية.. ماذا يفعل؟.. نظر حوله فرأى الغابات تنذره بمنافسة غير متكافئة..

كان هناك حشد من الأهالي يمشى حول الرجل الأبيض، ثم تحرر الأبيض ومشى وحده.. فتقدم براون وفتح ذراعيه ولوح بهما وانتظر حتى عبر چيم منطقة الشجيرات الشوكية، ثم هبط ليقابله عند النهير.

التقيا في النقطة التي شهدت هروب چيم قديمًا. التقى الرجلان وبعيون ثابتة حاول كل منهما أن يفهم الآخر. من اللحظة الأولى كره براون جيم.. ليس هذا هو الرجل الذي يتمنى أن يلقاه..

وفي سره لعن شباب الفتي وثقته بنفسه.. هذا الفتى يملك كل عناصر القوة في صفه ولن يتخلى عن شيء.. ليس جائعًا.. ليس يائسًا.. ليس خائفًا..

قال براون:

- اسمي براون.. وما اسمك أنت؟

واصل چيم الكلام كأنه لم يسمع:

- ماذا جاء بكم هنا؟

- هذا سهل!.. الجوع.. وأنت؟

قال براون فيما بعد:

- احمر وجهه ولم يرد.. كأنه أعظم من أن يتكلم. لكني لم أخشه.. كان واحد من رفاقي يصوب بندقيته نحوه بالفعل

وينتظر إشارة مني.. لا شيء يصدمك في هذا..

قلت له:

- نحن ميتان.. لنتفق على هذا ونتكلم.. ربما أنا فأر في مصيدة لكن بوسع الفأر الحبيس أن بعضك عضة مروعة..

- ليس لو اقتربت من المصيدة بعد موت الفأر..

قلت له إن هذه الألعاب تروق للأهالي لكن ليس معى.. أنا أكثر بياضًا من أن أكون فأرًا.. جئت لأتكلم معه لا لأتوسل من أجل حياتي.

- ربما لا فرصة أمامنا لكن بوسعنا أن نمتعكم ببعض الألعاب الرياضية قبل أن نموت.. يمكن أن نرسل نصف مدينتكم هذه للسماء وسط النيران

حكي لي براون هذا وهو في فراش الموت، فبدا لي مخيفًا..

- لن نجوب الغابات ونسقط واحدًا تلو الآخر فيلتهم النمل جثثنا..

قال له چيم:

- أنتم لا تستحقون مصيرًا أفضل..

- وماذا تعرف عنا لتقرر؟.. نحن جئنا هنا من أجل الطعام.. نحن جوعي.. أنا عشت وأنت عشت.. لكنك تتكلم كهؤلاء الناس الذين كان يجب أن يرزقوا بأجنحة حتى لا تلمس أقدامهم الأرض.. أنا لا أملك أجنحة بل قدماي على الأرض القذرة، وأنا هنا لأنى أخاف السجن..

كان براون يحكي لي هذا كله على فراش الموت وقد بدا عليه النصر.. لقد عاش وهزم الجميع.. رجال الشرطة.. الرجال.. النساء.. البحارة.. هزم الحياة وبصق عليها ولم يعد يبالي بشيء..

قال لچيم إنهم قتلوا رجلاً لكن رجلهم مات كذلك.. هم قتلوا الرجل بطلقة نظيفة في الصدر، بينما رجلهم ظل يتألم ويتلوى ست ساعات في النهير حتى أغرقه المد.. لقد كان الأمر حياة مقابل حياة..

رجلان يقفان والنهير بينهما وجثة رجل ثالث غمرها الوحل تقريبًا..

قال چيم:

- هل تعدون بمغادرة الشط وتسليم سلاحكم؟

جلس براون وحملق فيه.. وقال:

- نسلم سلاحنا؟.. ليس قبل أن تأخذوها أنتم من أيدينا المتخشبة.. هل تحسبنى جننت؟.. نحن سنبيع هذه الأشياء في مدغشقر لو وصلنا هناك

قال چيم وهو يبتعد:

- ليكن.. ستنالون خروجًا آمنًا أو معركة نظيفة

نهض براون وعاد إلى التل فقابل كورنيليوس.. سأله الأخير:

- لماذا لم تقتله؟

قال براون باسمًا:

- لأن بوسعي عمل ما هو أفضل..

هرول كورنيليوس مبتعدًا وهو لا يجرؤ على النظر للخلف حيث أصدقاؤه الجدد...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

من هنا تحركت الأحداث بسرعة.. قوة سوداء خرجت من قلوب الرجال وكان چيم بينهم. (تام إيتام) كان بينهم وقد حكى لي القصة.. لم يحو قلبه إلا الإخلاص والولاء لسيده.. مهما ساد ضباب الحيرة فقد ظل يحمل لسيده الرعاية والطاعة..

عاد چيم إلى الكوخ الذي كان فيه (دورامين) وظل هناك فترة مع الرجل. بعد محاورة قصيرة انطلق إلى الحصن ليقابل رؤساء باتوسان، وتمنى (إيتام) أن يكون هناك بعض القتال.. لكن معظم سكان البلدة تمنوا أن يرحل الغرباء بلا قتال..

كان المكان يغص باللاجئين، حيث راحت (جوهرة) تقدم لهم الطعام وارتفعت أبخرة طهي الأرز.. الكل كان يتساءل عما ينتويه الرجال البيض.

سادت المكان بهجة عندما عرفوا أن جيم هنا.. وقد ظل مجتمعًا حتى منتصف الليل..

قال چيم كما حكى (إيتام) فيما بعد إن هؤلاء الرجال ينتظرون رده. هم في حالة مثيرة للشفقة أفقدتهم القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ.. قال للمجتمعين إن خسارتهم هي خسارته ونواحهم نواحه.. لقد عرفوا شجاعته في القتال، ولسنوات جربوه وعاشوا معًا.

الرجال البيض أشرار لكن مصيرهم سيكون قاسيًا كذلك. لذا هو يرى أن يسمحوا لهؤلاء البيض بالرحيل:

- أنا من جربتموه وعرفتم صدقه، يسألكم أن تتركوهم يرحلون..

ونظر لدورامين وقال:

- فلتناد ابنك (دين واريس) يا صاحبي.. فأنا لست القائد في هذه العملية..

شعر إيتام بصدمة عندما سمع هذا.. سوف يتركون الرجال يرحلون!

كان چيم كما وصفه (شتاين) بالضبط.. كان رومانسيًا.. وقد صدقه الرجال وقالوا إنه ما دام توان چيم يريد هذا فلسوف نصدع به.

لم يشك چيم قط في نوايا براون، لكنه خشى أن يحدث سوء فهم ما فتحدث مذبحة. وقال للفتاة وهي تحضر له الطعام:

- لو حدث خطأ فلن أغفر لنفسي.. أنا مسئول عن كل روح في هذا البلد..

ثم قال لها:

- سوف تكونين مسئولة عن الحصن ليلة أخرى يا فتاتى العجوز..

كان يؤمن أنها أشجع رجل في المكان كله!.. ولقد سألته:

- هل هم أشرار لهذه الدرجة؟

قال لها:

- أحيانًا يتصرف الرجال بشر حقيقي برغم أنهم ليسوا أكثر سوءًا من الآخرين

مشى چيم في البلدة المظلمة ما عدا بعض المشاعل التي تنعكس على صفحة مياه النهر. ليلة تشبه ليالي رمضان كما قال (تام إيتام). كان الراجا قد فر مع حريمه إلى بيت صغير خارج البلدة.. ترك قاسم وحده في القصر فأبلغه چيم أنه بحاجة لوضع بعض رجاله خلف السياج الليلة، لكن (قاسم) ثار لأنه يرى ضرورة احترام أملاك الراجا في غيابه.

برغم كل شيء تقدم عشرة من رجال چيم ليعبروا السياج التي تشرف على فم النهير. وقرر چيم أن يبقوا هناك حتى يمر براون من تحتهم. طلب چيم من (تام إيتام) أن ينام، فرقد هذا على الأرض وحاول ذلك فلم يستطع.. تظاهر بالنوم إلى أن وقف چيم جواره وقال له:

- حان الوقت..

نهض تام إيتام على الفور .

كانت مهمة (تام) هي أن يسبق قارب براون بساعة، كى يبلغ (دين واريس) بأن يسمح للرجال بالمرور. لم يكن چيم يثق بشخص آخر ليقوم بهذه المهمة. طلب منه (إيتام) علامة تؤكد الكلام لأهميته..

ناوله چيم الخاتم الذي أخذه من شتاين قديمًا. وانطلق تام في مهمته.

تلقى براون ورقة من چيم تقول:

- يمكنك الرحيل... تحرك ما إن يطفو قاربك مع مد الصباح.. فليأخذ رجالك حذرهم لأن الأشجار على جانبي النهير مليئة برجال مسلحين.. لا فرصة أمامكم..

مزق براون الورقة ثم استدار لكورنيليوس الذي جلبها وقال:

- وداعًا يا صديقي الرائع..

جلس كورنيليوس جواره وقال محتجًا:

- لماذا لم تقتلوه؟.. كان بوسعكم أن تنالوا مالاً من الراجا وتستولوا على البلدة.. بالمقابل أنتم لم تظفروا بأي شيء..

قال براون في حزم:

- انصرف..

لكن كورنيليوس ركع عند قدمي براون وراح يهمس له.. حكى له عن (دين واريس) ورجاله الذين ينتظرون عند أسفل النهر. شعر براون بأنه قد خُدع.. هنا قال كورنيليوس إنه يعرف مخرجًا آخر للنهر.. وراح يحكي لبراون كل ما قيل في مجلس البلدة.. يحكيه همسًا كأنه يخشي أن يوقظ الرجال النائمين..

قبل الفجر بساعتين عرف أهالي البلدة أن القراصنة قد بدءوا التحرك نحو قاربهم. تأهب الرجال المسلحون في كل أرجاء باتوسان.. برغم هذا ظل السكون سائدًا كأن البلدة نائمة في سلام .

ضباب ينتشر فوق سطح الماء فيجعل الرؤية عسيرة، وجيم يقف بالضبط عند البقعة التي هبط فيها على باتوسان أول مرة. ومن مكان ما جاء صوته:

- المجرى نظيف.. بما أن الضباب يحجب الرؤية فلتضع ثقتك بالتيار.. سوف يزول الضباب سريعًا..

فقال براون من القارب:

- نعم.. سيزول الضباب..

عاد صوت چيم يدوى عبر الضباب:

- سوف نرسل لكم خنزيرًا بريًّا وبعض ثمار اليام..

- افعل ذلك..

وسرعان ما غاب القارب في صمت..

على القارب كان كورنيليوس مع الرجال يقول:

- سوف يأتيكم خنزير بري وبعض اليام.. سيفعل ذلك.. هو لا يقول إلا الصدق.. لكنه سرق كل ما أملكه..

قال براون:

- أنصحك بغلق فمك وإلا ألقاك أحدهم هنا في هذا الضباب..

كان من الصعب أن ترى شيئًا.. حتى الماء خارج القارب..

- تلقونني من هنا؟.. لكن سأعرف طريقي.. لقد عشت أعوامًا كثيرة هنا..

- ليس بما يكفي كي ترى في ضباب كهذا..

بدأ الضباب ينقشع... ورأى براون ظلمة دامسة كأنه يحدق في قلب الليل نفسه. ثم ظهر غصن كبير مثقل بالأوراق فوق

رأسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

في الوقت نفسه بلغ (تام إيتام) نهاية رحلته، أخره الضباب لكنه جدف بلا توقف ملتصقًا بالضفة الجنوبية للنهر.

من وقت لآخر يبدو ضوء النهار كبريق عبر كأس زجاجية. كان الضباب ثقيلًا فوق الماء لكن كان هناك من يراقب، وسرعان ما برز لتام إيتام رجلان وظهر قارب.. تبادل الأخبار مع راكبيه.

كل شيء على ما يرام.. المشكلة قاربت الحل..

واصل رحلته حتى سمع ورأى الكثير من النيران مشتعلة على الرمال. من جديد سألوه من هو فقال اسمه..

كان معسكرًا كبيرًا والرجال يجلسون يثرثرون مع وجبة الصباح. وكانت البنادق مصفوفة في أهرام صغيرة والرماح مغروسة في الرمال.

طلب (تام إيتام) أن يقابل (دين واريس). وجد صديق سيده يرقد على أريكة من البامبو، وكان متيقظًا. ناوله تام الخاتم الخاص بلورد چيم فأخذه ودس اصبعه فيه، ثم طلب منه أن يحكى له الأخبار.

قال له تام إن كل الزعماء وافقوا على أن يعبر الرجال البيض النهر بلا مضايقة. فكر واريس ثم صرف (تام) كى يظفر ببعض الطعام والراحة وأمره بأن يعود عند الظهيرة.

كانت الشمس تلتهم الضباب الآن.. وكان هناك من يراقب النهر منتظرًا وصول قارب الرجال البيض.

هذه هي اللحظة التي قرر فيها براون أن ينتقم من العالم الذي بعد عشرين سنة من المعاناة لم يمنحه نجاح اللص العادي. كانت شراسة عن سبق إصرار.. وقد ظل يتذكرها كذكري عزيزة وهو على فراش الموت.

لقد أنزل رجاله في خفة على جانب الجزيرة حيث معسكر الأهالي.. كان براون يقتاد كورنيليوس أمامه وقد قيد يديه خلف ظهره ليريهم الطريق، ومن حين لآخر يركله ليدفعه للأمام.

انتشر رجال براون حول المعسكر في صمت.. لم يرهم أحد.

لم يتوقع أحد أن الرجال البيض يعرفون أي شيء عن القناة الضيقة في خلفية المعسكر. عندما أدرك براون أن الوقت حان صاح في رجاله:

- دعوهم يذوقوه!!

فانطلقت 14 بندقية في وقت واحد..

كانت الدهشة عارمة حتى إن من لم يقتلوا أو يجرحوا ظلوا متصلبين وقتًا طويلًا.. ثم دوت صرخة عنيفة وراح الرجال يجرون في كل اتجاه كأنهم قطيع ماشية مذعور. بعضهم وثب في الماء لكن بعد الطلقة الأخيرة.. وراح براون يسب رجاله ويأمرهم:

- صوبوا لأسفل قليلًا!

(تام إيتام) فهم بسرعة وارتمى على الأرض كأنه ميت. سمع واريس الطلقات فخرج راكضًا فقط ليتلقى طلقة في جبهته.

وتراجع الرجال البيض كما جاءوا.. لم يرهم أحد..

لقد سوى براون حسابه مع الأقدار.. لم تكن مجرد مذبحة غبية بل كانت تصفية حساب.. كانت درسًا. كانت عرضًا لطبيعتنا الأصلية التي أخشى أنها ليست بعيدة تحت السطح كما نحب أن نعتقد.

تلاشي الرجال البيض، لكن هناك قصة عن قارب تم إنقاذه في المحيط الهندي بعد شهر.. ثلاثة هياكل عظمية ذات عيون زجاجية، وبينها من قال إن اسمه (براون). مات رجلان على ظهر السفينة البخارية التي أنقذتهم وعاش براون ليراني ويحكي لى قصته..

أما عن كورنيليوس فقد رآه (إيتام) يركض وسط طلقات الرصاص ويصرخ.. حاول أن ينزل قاربًا إلى الماء. هنا رأى إيتام أمامه فارتمى على الأرض وراح يركل ويصرخ كأنه دجاجة خائفة.. ثم عرف أن إيتام طعنه مرتين، فهمدت حركته حتى مات تمامًا..

عرف تام إيتام أنه أول من سينقل هذه الأخبار للحصن.. لقد نجا كثيرون من غارة البيض، لكن معظمهم وثب للماء.. كانت الحقيقة المفزعة هي أنهم لا يعرفون من هاجمهم.. اعتقدوا أن هذا هجوم من رجال بيض آخرين، وربما هي خيانة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

عندما بلغ تام القرية كانت النسوة أمام البيوت ينتظرن عودة قوارب (دين واريس). وكان هناك جو من البهجة والسرور بانتهاء هذه المشكلة. كانت المتاجر مفتوحة وكذلك البوابة لكن السوق ثم يبدأ بعد.

جرى تام إيتام مسرعًا.. كان أول من قابله هو الفتاة، بعينيه المتوحشتين ولهاثه وقف أمامها ثم انفجر وشفتاه ترتجفان:

- لقد قتلوا دين واريس!.. ومعه كثيرون..

كانت أول عبارة قالتها هي:

- أغلقوا البوابات!

كان معظم الحراس قد رحلوا لكن إيتام ركض ليأمر الباقين بالانتظار.. استوقفته وأشارت إلى البيت وهتفت وهي ترتجف:

- دعه يخرج!

جرى تام إيتام إلى البيت حيث كان سيده نائمًا يتقلب على الوسادة فأيقظه.. انفجر فيه:

- اليوم يوم شر يا توان.. يوم ملعون..

فتح چيم عينيه فراح الفتى يحكى له ما حدث..

- هل مات (واريس)؟

- أطال الله عمرك.. كانت خيانة شنيعة.. لقد خرج على صوت الطلقات وسقط أرضًا..

ركض چيم إلى النافذة وضربها بقبضته، ثم بصوت هادئ أمره بأن يعد مجموعة قوارب لمطاردة الرجال.. وراح يلبس ثيابه ثم تساءل:

- لماذا تقف هنا؟

واحمر وجهه غضبًا.. فلم يتحرك (تام إيتام).. بعد قليل قال لسيده:

- سامحني يا توان. لكن.. لكن.. لن يكون أي واحد من خدمك آمنًا لو خرج ومشى بين الناس!

فهم چيم.. لقد ترك العالم من أجل مشكلة، والآن ها هو ذا العالم الجديد الذي صنعه لنفسه يتهاوى من فوقه. القوى السوداء تسلبه السلام مرتين.. قرر أن يتحدى الكارثة بالطريقة الوحيدة التي يمكن بها تحدى كارثة..

جلس على المنضدة مفكرًا.. جاءت الفتاة لتكلمه فاستوقفها بإشارة من يد تأمر بالصمت.. هكذا خرجت إلى الشرفة وحدها..

لقد خسر من جديد ثقة الرجال به... الوحدة تحيط به من جديد..

ظل جالسًا حيث هو حتى المساء.. ثم خرج إلى الشرفة وسأل نام إيتام:

- حسن؟

قال الخادم:

- هناك الكثير من البكاء والنحيب.. والغضب..

ثم أضاف:

- من يدرى يا توان.. ربما بالحيلة قد نقدر على الفرار.. الرجال خائفون..

ثم غادر الغرفة.. ظلت الفتاة معه ساعة.. كان الحزن يرفع روحه فوق أسوار وجوده ذاتها.. قالت له باكية:

- قاوم!

كانت الشمس تغرب عندما عاد الرجال بجسد (دارين واريس) لبيت (دورامين). ووقفت الأم حاملة ملاءة بيضاء لتلقي بها جسد ابنها الوحيد.

وقف دورامين أمام جثة ابنه بينما أغصان أشجار الفاكهة تحتك فوق رأسه، وسقط فكه على صدره. كشفوا الملاءة عن جسد الفتى فراح الأب يتفحصه بعناية كأنه يفتش عن شيء سقط منه على الأرض، ربما يبحث عن الجرح.

كان الجرح في الجبين.. صغيرًا جدًّا..

مد أحدهم ينزع الخاتم من أصبع (واريس) فتعالت الشهقات عندما عرف الناس هذا الشيء. شهق دورامين وأطلق صرخة ألم عنيفة كأنه ثور جريح أثارت الرعب في قلوب الواقفين.

على الفور بدأت النسوة يصرخن ويولولن بينما وقف عجوزان يتلوان القرآن بصوت عال رخيم.

في الوقت ذاته جلس چيم جوار النهر يرمق الماء، ثم التفت لتام إيتام وقال:

- حان وقت إنهاء هذا..

سأله الخادم في دهشة:

- توان؟

لم يرد چيم فسألته الفتاة:

- هل ستقاتل؟

- لا يوجد شيء أقاتل من أجله..

- هل ستهرب؟

- لا مهرب..

- هل سترحل؟

هز رأسه أن نعم فصرخت:

- أنت وعدتني بألا تفعل.. أنت كذوب أو مجنون.. قلت إنك لن ترحل أبدًا.. هل تذكر؟

وبكت على كتفه.. والسماء فوق باتوسان كانت حمراء بلون الدم. والشمس تشتعل فوق قمم الأشجار.. تعلقت به بقوة فأمر تام إيتام بأن ينتزعها منه، وبسرعة هرع إلى قارب في الماء ووثب فيه بينما هرعت الفتاة تحاول اللحاق به باكية، وسقطت على ركبتيها..

لكنه كان يبتعد واقفًا في القارب والمجداف في يده..

صرخت:

- أنت كذاب!

- سامحيني..

- لن أفعل!.. أبدًا!

وثب تام إيتام في القارب فلم يرق له أن يجدف سيده وهو موجود، لكن لما اقترب القارب من بيت دورامين أصر چيم أن يعود خادمه ويتركه وحده.

كان الظلام قد هبط والمشاعل هنا وهناك.. كل من رأى چيم تنحى جانبًا وسمح له بالمرور. لا أعرف سبب الزحام وقتها.. هل كان تحسبًا لهجوم آخر أم للانتقام أم ماذا؟.. فقط كانوا يخشون هؤلاء البيض الملتحين القتلة، ولم يفهموا قط علاقة جيم بهم.

كان دورامين جالسًا وعلى ركبتيه غدارتان. عندما رأوا چيم تعالت الهمسات وانتحوا يمينًا ويسارًا ليسمحوا له بالمرور..

توقف صراخ النساء فجأة.. ولم يرفع دورامين رأسه بينما چيم يقف أمامه.. ثم مشى نحو اليسار حيث كانت الأم تجلس جوار جثة ابنها وشعرها يغطي وجهها.. رفع الملاءة ليلقي نظرة أخيرة على وجه صديقه ثم أسدلها ونهض..

- لقد جاء.. لقد جاء!

- لقد تحمل المسئولية على رأسه..

استدار چيم نحوهم وقال:

- نعم.. على رأسي..

ثم قال لدورامين:

- أنا جئت متأهبًا وغير مسلح..

تدحرج الخاتم من أنامل دورامين إلى الأرض ليسقط عند قدمي چيم، وحاول العجوز أن يتكلم فلم تخرج إلا أصوات مختلطة مبهمة من حلقه.

نظر دورامين لچيم بمزيج من الحزن والغضب والجنون.. ثم رفع الغدارة وأفرغ رصاصة في صدر صديق ابنه.

نظر الرجل الأبيض لليمين واليسار بلا أي تعبير على وجهه ثم سقط ميتًا..

تلك هي النهاية.. غاب تحت سحابة.. غامضًا قلبه.. منسيًّا.. رومانسيًا..

ما كان ليحلم بنهاية كهذه في طفولته.. لقد رأى في تلك اللحظة الفرصة التي جاءته كعروس شرقية تتوارى خلف النقاب..

لقد انتزع نفسه من امرأة حية حقيقية كي يزف نفسه إلى مثله الأعلى. فهل هو راض الآن؟.. من المفترض أن نعرف فقد كان دومًا واحدًا منا..

أحيانًا أتذكره بقوة جامحة برغم أنه لم يعد موجودًا.. وهناك لحظات يمر فيها أمام عينى كروح تحررت من جسدها.. متأهبًا ليسلم نفسه لعالم الظلال..

من يعرف؟..

الفتاة البائسة تعيش حياة الصمت في دار (شتاين).. لقد شاخ شتاين كثيرًا وهو يدرك هذا.. ويقول كثيرًا إنه متأهب لترك

هذا كله.. متأهب للرحيل..

يقولها وهو يلوح محزونًا لمجموعات الفراش التي جمعها.

جوزيف كونراد

يوليو 1900

(تمت بحمد الله)


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

مارلو هو نفسه من يحكي روايات كونراد الأخرى: (قلب السلام) و(الشباب) و(الحظ)..

[←2]

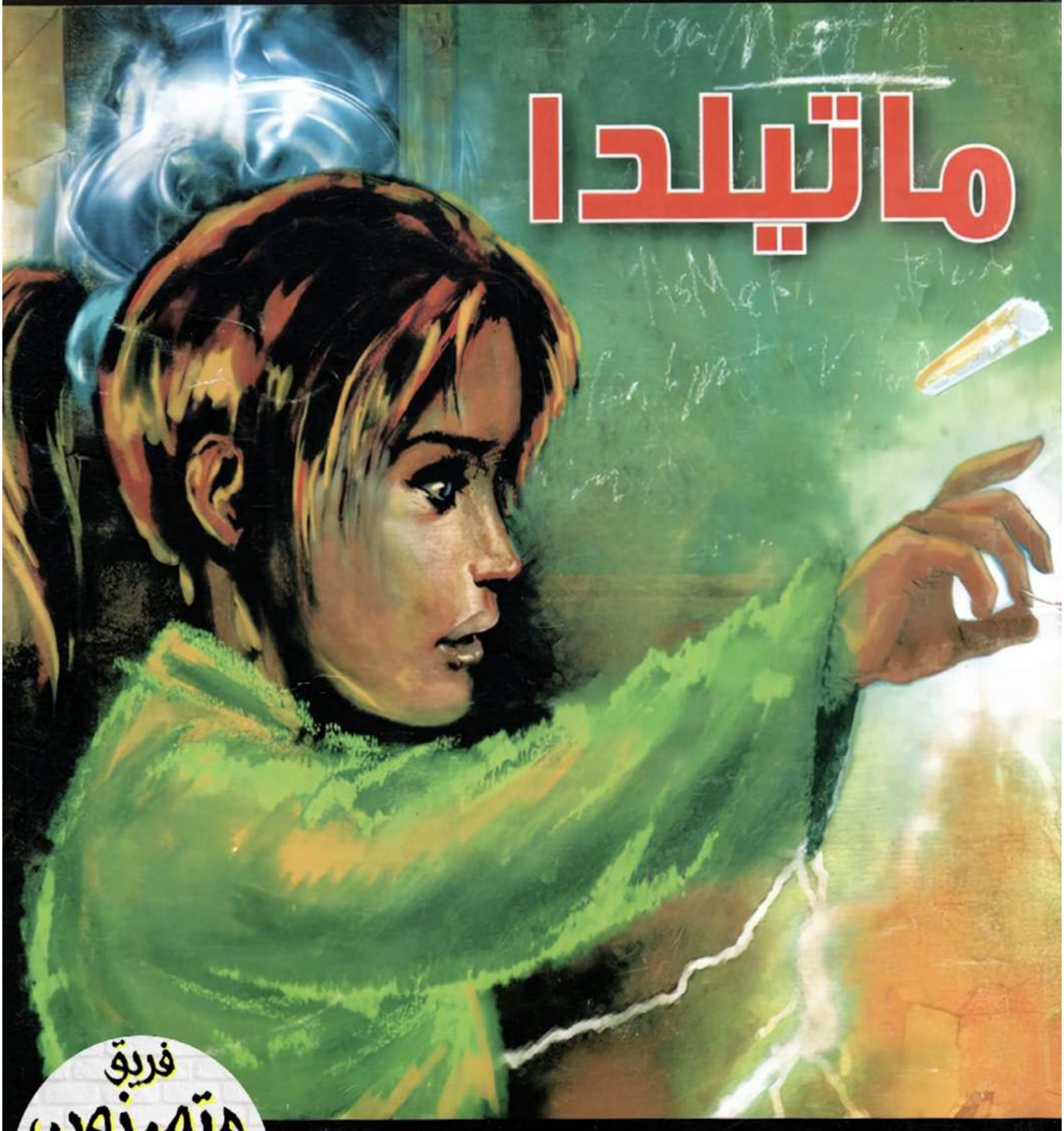
لا توجد قفزات في سياق الترجمة لو خطر لك هذا، لكن مونراد بأسلوبه الغامض المعتاد لا يعرض الحادث بالتفصيل.. بل يبقيه ليشرحه فيما بعد، يكفي أن تعرف أن (باتنا) تعرضت لحادث وأن بحارتها هربوا بكل جبن تاركين الحجاج المسلمين على ظهرها لمصيرهم، يضطر البحارة لسرد الكاذيب السلطات لكن أمرهم يفتضح عندما يكتشفون أن الحجاج نجوا وشهدوا بما حدث.. يفر من استطاع الفرار من الطاقم أو يتمارض وهكذا يجد چيم نفسه المتورط الوحيد في هذه الجريمة المشينة المخلة بالشرف، خاصة السفينة يجب أن يكون آخر من يغادرها.

[←3]

لا يوجد قطع هنا.. هي قفزة من قفزات كونراد المعتادة التي يستكملها فيما بعد.

روايات عالمية للجيب 70

ماتيلدا



تأليف : رو آلد دال

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (70)

ماتيلدا

تأليف: روآلد دال

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف

هذا لقاؤنا الثاني مع (روآلد دال Roald Dahl)، ولو كنت ممن يتابعون السلسلة بالنظام فأنت بالتأكيد أحببت الكتيب الأول (رحيق الملكات) [1] الذي ضم قصصا قصيرة من مجموعه (قبلة قبلة).. البعض اعتبر هذا الكتيب أجمل كتيبات السلسلة على الإطلاق.

من الصعب جدا أن تصنف أدب (روآلد دال)، فهو ليس كاتب أطفال.. بعض قصصه مرعب فعلا لدرجة أن (هتشكوك) ابتاع الكثير منها، كما أنه ليس كاتبا للرعب؛ لأن عنصر الخيال البهيج مهم في قصصه، وهو كذلك ليس أديبًا ساخرا برغم أن السخرية والفكاهة السوداء ثابتتان في أدبه، لكنها سخرية ممزوجة بالكثير من القسوة، الحقيقة أنه خليط من هذا كله، وكتاباته مزيج ساحر خلاب لا يقدر على كتابته سواه.

هاجر أبوه إلى إنجلترا من النرويج عام 1900، وولد (روآلد) في مقاطعة (ويلز) عام 1916، وقد توفى الأب بعد مولده بأربع سنوات. ألحقته الأم بمدرس بريطانية هي (سان بيترز) ولم يُبد تميزا في الدراسة، لكنه كان مولعا بالقراءة وخاصة أعمال (رديارد كبلنج) و (رايدر هجارد)، ومولعا بالشوكولاتة حتى ظل يحلم بأن يعمل في مصنع (كادبورى) للشوكولاتة. من هنا يمكننا معرفة مصدر قصته الشهيرة (تشارلي ومصنع الشوكولاتة). الواقع أن حياة دال تكشف بوضوح أنه من ذلك النموذج الذي لا يتورع عن شيء من أجل أحلامه.

التحق الفتى الراغب في المسفر ورؤية العالم بشركة (شل) للبترول، وارتحل إلى تنزانيا حيث عاش مغامرات كثيرة، من بينها إنقاذه لامرأة أفريقية اختطفها أسد، وهي مغامرة كتبت عنها الصحف كثيرا في ذلك الوقت. جاءت الحرب العالمية الثانية فالتحق بسلاح الطيران، وبعد ثمانية أسابيع من التدريب سُمح له بأن يقود طائرة مقاتلة. سقطت به الطائرة في صحراء ليبيا ونجا بمعجزة ليواصل الطيران بعد أشهر. وفي العام 1941 تم تسريحه بسبب نوبات صداع متكررة، وأرسل كملحق جوي لبريطانيا في الولايات المتحدة، الحقيقة أنه كان يعمل كذلك مع المخابرات البريطانية لزيادة النفوذ البريطاني في أمريكا، ومحاربة فكرة قيادة الولايات المتحدة للعالم.

هناك قدّم قصته الأولى للأطفال (الأقزام) وكان هناك مشروع أن تقدمها شركة (ديزني) لكنه لم يخرج للنور قط، على كل حال كانت هذه الخطوة بداية طريقه ككاتب، وقد صار شهيرا في مجتمع الصفوة في نيويورك وأقام علاقات كثيرة. بعد هذا عاد إلى إنجلترا.

توالت إبداعاته التي ترجمت إلى 15 لغة (أعتقد أنها صارت 16 بهذا الكتيب والكتيب السابق)، وباعت أكثر من 100 مليون نسخة. ومن أشهر هذه الأعمال (ماتيلدا) التي نقدمها لك اليوم، والتي تحولت إلى فيلم جميل من إخراج (داني دي فيتو). كما قدم (شارلي ومصنع الشوكولاتة) و (التمساح العلاق) و (الساحرات) للأطفال. يعرف من قرءوه بالإنجليزية أن كتاباته في حالة زواج مستمرة مع الرسوم الشائقة البسيطة للفنان (كوينتين بليك) الذي رسم كل كتبه، ومعظم قصصه للأطفال تحكى عن صغار يعانون قسوة وتوحش الكبار في المدارس

الداخلية، وهو أثر واضح لطفولته كما يبدو. وقدم مجموعات قصص قصيرة منها (قبلة قبلة) و (حافلة روآلد دال) و (أفضل ما كتب روآلد دال) و (شخص مثلك) و (قصص غير متوقعة).. المجموعة الأخيرة تحولت لمسلسل تلفزيوني اسمه (رجل من الجنوب). كما أنه كتب سيرتين ذاتيتين هما (صبي) و (المضي وحيدا).. من ضمن مواهبه كتابة سيناريوهات السينما، ومن ضمن هذه الأفلام فيلم الجاسوسية الأشهر (36 ساعة) وفيلم بوند الشهير (أنت تعيش مرتين فقط) و (شيتي شيتي بانج بانج).

هناك قصة لم أكن أعرفها من قبل، هي أن الكاتب الكبير سقط في عين الغرب عام 1983، عندما امتدح كتابا مصورا للكاتب (توني كليفتون) يظهر فيه المجازر التي ارتكبتها إسرائيل في لبنان، وكيف قصفت - كالعادة - مدارس ومستشفيات واضحة تماما ولا يمكن الخطأ فيها.. قال دال إن هذا الغزو هو اللحظة التي جعلته يكره إسرائيل.. هكذا قامت الدنيا عليه ولم تقعد واتهموه بكل شيء، حتى أعلن بوضوح: «أنا لست ضد اليهود.. أنا ضد إسرائيل». وقد ظل محتفظًا بهذا الرأي بإصرار طيلة حياته حتى في حديث أدلى به لجريدة (إندبندنت) عام 1990 قبل وفاته، حينما قال:

«أنا مصِّر على موقفي ككاره لإسرائيل، يجب عليك أن ترى جانبي الصورة.. اليهود يسيطرون على دور النشر ووسائل الإعلام.. لهذا يضطر الرئيس الأمريكي لأن يبيع ما ينتجه من أسلحة لهم..».

إن ذكاءه الحاد جعله يخترق ضباب الإعلام الصهيوني الذي يلف مفكري الغرب، فيرى الحقيقة التي نراها نحن من مكاننا بوضوح. توفي في نوفمبر عام 1990 بسرطان الدم، بعد حياة حافلة لم يكف فيها عن تقديم الجديد وإمتاع القراء وشحذ خيال الأطفال..

هذا هو موقعه الرسمي على شبكة الإنترنت:

/http://www.roalddahl.com

د. أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١- قارئة الكتب..

إنه لأمر غريب يتعلق بالآباء والأمهات. حتى لو كان طفلهما دملاً مقززا فإنهما يعتبرانه مذهلاً. بعضهم يتمادى أكثر فيقنع نفسه بأن الطفل عبقري.

حسنٌ لا خطأ في هذا.. هكذا تسير الأمور.. فقط عندما يكلمك الأبوان عن عبقرية ذريتهما تصرخ: «هاتوا لنا وعاء... فنحن سنفرغ أمعاءنا!» إن المدرسين يعانون الكثير من سماع هذا الهراء من الآباء الفخورين، لو كنت معلمًا لكتبت في نهاية العام خطابات لاذعة لأباء هؤلاء الأطفال:

- «ابنكما ماكسميليان ميئوس منه.. أرجو أن يكون لديكما عمل مناسب له عندما ينهي المدرسة لأنني واثق تماما أنه لن يجد عملا».

أو: «ابنتكما فيونا لها ذات الجمال الثلجي لجبل جليد، لكنها على خلاف جبل الجليد لا تخفى أي شيء تحت سطح الماء..»

أعتقد أنني بالفعل سأتلذذ بكتابة تقارير آخر العام للصف، لكن هذا كاف.. فلنواصل قصتنا..

أحيانا تقابل أباء على العكس تماما لا يهتمون بأولادهم، وهؤلاء بالطبع أسوأ من الفخورين، كان آل (ورموود) من هذا الطراز.. كان لديهما ابن يدعى (مايكل) وابنة تدعى (ماتيلدا)، لكنهما كانا يعاملان ماتيلدا كنها حشرة. حشرة عليك أن تتحملها إلى أن يأتي اليوم الذي تسقط فيه من تلقاء نفسها.

هذا أمر سيئ طبعا، لكنه يصير أسوا عندما يكون الطفل خارفا للعادة، أعني بهذا أنه عبقري وحساس - كانت سريعة التعلم لدرجة أن موهبتها يمكن أن يلاحظها أي أبوين محدودي الذكاء، لكن أبويها كانا منغمسين في حياتهما الغبية السخيفة حتى لم يلحظا أي شيء بصددها.. أعتقد أنهما لم يكونا ليلاحظا حتى لو زحفت للبيت بقدمين مكسورتين.

عندما كان عمرها سنة ونصفا كان كلامها واضحا وتحفظ كلمات تقترب مما يحفظه الكبار. لكن أبويها لم يفرحا بذلك بل قالا إنها ثرثارة، وقالا إن الفتيات الصغيرات يجب أن يُرين ولا يُسمعن.

في سن الثالثة علّمت نفسها القراءة وفي سن الرابعة بدأت تطالع الكتب، وكان الكتاب الوحيد في البيت هو (الطبخ السهل) الخاص بأمها.. حفظته تماما ثم قررت أنها تريد كتابا أكثر إمتاعا.

- بابا.. هل بوسعك شراء كتاب لي؟

- كتاب؟.. لِم تريدين كتابا؟

- لأقرأ يا بابا..

- ما مشكلة التلفزيون بحق السماء؟.. عندك تلفزيون جميل 12 بوصة وتسألين عن كتاب؟.. أنت مدللة يا فتاة...

وفي كل يوم من الأسبوع عصرا كانت (ماتيلدا) تبقى وحدها في البيت. أخوها في المدرسة (فهو يكبرها بخمسة أعوام) وأبوها في العمل وأمها تلعب (البينجو) مع صديقاتها على بعد خمسة أميال، هكذا يوم أن رفض أبوها شراء كتب مشت إلى المكتبة

العامة في القرية، وقدمت نفسها لأمينة المكتبة مسز (فليبس) وطلبت أن تجلس وتقرأ، دُهشت السيدة لهذه الطفلة الصغيرة التي جاءت وحدها دون أن يرافقها، لكنها رحبت بها.

فسألتها ماتيلدا:

- أين كتب الأطفال لو سمحت؟

- هناك على هذه الأرفف.. هل تريدين أن أساعدك في العثور على واحد فيه صور جميلة؟

- لا شكرا.. أعتقد أن بوسعي عمل ذلك.

هكذا عصر كل يوم، كلما ذهبت أمها للعب البينجو كانت تذهب للمكتبة. المسافة كانت تستغرق عشر دقائق وهناك كانت تجلس تلتهم كتابا لمدة ساعتين، لما انتهت من كتب الأطفال انتقلت لكتب أخرى.

سألتها مسز (فليبس) في حيرة:

- ما عمرك بالضبط يا ماتيلدا؟

- أربعة أعوام وثلاثة أشهر..

اندهشت المرأة لكنها لم تظهر هذا، وسألت:

- أي كتابٍ تحبين؟

- أي كتاب يقرؤه الكبار.. كتاب جميل.. لا أعرف أسماء.

نظرت مسز (فليس) إلى الأرفف، سألت نفسها عن نوعية كتب الكبار التي يمكن أن تقرأها طفلة في الرابعة.. كادت تختار قصة رومانسية، ثم قررت أن تبتعد عن هذا الرف..

- جربي هذه.. شهيرة جدا وجيدة.. لو كانت طويلة عليك فلتقولي لي كي أجد شيئا أسهل.

قرات ماتيلدا:

- (توقعات عظمى).. تشارلز ديكنز.. أحب أن أقرأها. قالت مسز (فليبس) لنفسها: لابد أنني جننت..

لم تقدر مسز (فليبس) طيلة الأيام التالية عن إبعاد عينيها عن الطفلة الصغيرة الجالسة ساعة بعد ساعة في ركن الغرفة، والكتاب على حجرها. السبب هو أنه ثقيل عليها.. مشهد غريب هو مشهد تلك الصغيرة التي لا تلمس قدماها الأرض غارقة مع (بيب) ومس (هافيشام) العجوز ببيتها المليء بنسيج العناكب، والسحر الذي نسجه القاص العظيم (ديكنز) بكلماته.

في الأسبوع الأول سألتها مس (فليبس):

- هل أمك تجلبك هنا عند المجيء وعند الذهاب؟

- أمي تلعب البينجو ولا تعرف أنني هنا.

- لكن هذا ليس سليما.. ربما كان الأفضل أن تخبريها..

- لا أظن.. فهي لا تشجع على قراءة الكتب، وكذلك أبي.. يتوقعون أنني أجلس لمشاهدة التلفزيون...

ثم أردفت في شيء من الحزن

- أمي لا تهتم بما أفعله..

كانت السيدة (فليبس) قلقة على الفتاة من مشيها في الشارع المزدحم، لكنها آثرت الصمت.

خلال أسبوع انتهت ماتيلدا من (توقعات عظمى) وعدد صفحاتها 411 صفحة. وسألت مسز (فليبس):

- لقد أحببتها.. هل كتب مستر (ديكنز) قصصا أخرى؟

- الكثير.

وفي ستة الأشهر التالية قرأت (ماتيلدا):

نيكولاس نيكلبي بقلم: تشارلز ديكنز.

أوليفر تويست بقلم: تشارلز ديكنز.

جين إير بقلم: شارلوت برونتي.

كبرياء وتحامل بقلم: جين أوستن.

تيس أسرة أوربرفيل بقلم: توماس هاردي.

كيـم بقلم: رديـارد كبلنج.

الرجل الخفي بقلم: هـ. ج، ويلز.

العجوز والبحر بقلم هيمنجواي.

الصوت والغضب يقلم: ويليـام فوكنر.

عناقيد الغضب بقلم: جون شاينيك.

مزرعة الحيوان بقلم: جورج أورويل.

كانت قائمة محترمة فعلا ملأت السيدة (فليبس) إثارة ودهشة، لو كان أحد غيرها سمع بالتقدم الذي تحرزه الطفلة لملأ الدنيا صراخا وأخبر القرية كلها وما وراءها، لكن السيدة

كانت من الطراز الذي يهتم بشئونه الخاصة.. وعرفت أن التدخل في أمور الآخرين لا يفيد إلا قيلا.

قالت لها ماتيلدا:

- مستر هيمنجواي يقول أشياء لا أفهمها عن الرجال والنساء لكني أحب ما يقوله عامة...

- هكذا الكاتب الجيد.. لا تقلقي بصدد ما لا تفهمين.. فقط اتركي الكلمات تسبح حولك كأنها الموسيقا.. هل تعرفين أن هذه المكتبات العامة تسمح لك باقتراض الكتب للبيت؟

- لم أعرف هذا.. كيف؟

- عندما يروق لك كتاب هاته لي وسوف أسجله.. يمكنك الاحتفاظ به لمدة أسبوعين لتقرئيه كما تشائين...

من يومها صارت ماتيلدا تزور المكتبة كل أسبوع لتأخذ المزيد من الكتب. صارت غرفة نومها الصغيرة غرفة مطالعة تقرأ فيها طيلة العصر، وجوارها قدح من الشكولاتة الساخنة. لم يكن طولها يسمح ببلوغ الأشياء في المطبخ؛ لذا احتفظت بصندوق تصعد عليه كلما أرادت شيئا. وكانت الكتب تأخذها لعوالم جديدة وناس مدهشين عاشوا حيوات مثيرة. أبحرت بسفن جوزيف كونراد الخشبية العتيقة، وزارت أفريقيا مع هيمنجواي والهند مع رديارد كبلنج. كل هذا وهي في غرفتها الصغيرة في القرية البريطانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مستر ورموود تاجر السيارات العظيم

كان أبواها يملكان بيتا جميلا فيه ثلاث غرف نوم في الطابق العلوي. في الطابق الأرضي كانت غرفة طعام ومعيشة ومطبخ. كان أبوها يتاجر في السيارات المستعملة وكان يربح الكثير منها.

كان يقول في فخر:

- نشارة الخشب من أهم أسباب نجاحي.. ولا تكلف شيئا..

سألته (ماتيلدا):

- ما نفعها لك؟.. لا أعرف علاقتها ببيع السيارات..

- لأنك شيء مضحك صغير.

لم يكن رقيقا معها قط، لكنها اعتادت ذلك، وكانت تعرف كيف تتملقه فيعترف:

- لن أخبرك لأنك غبية جدا كي تفهمي هذا.. لكن سوف أخبر (مايك) لأنه سوف ينضم لي في العمل يوما.. أنا دوما أشتري السيارات التي قادها الحمقى حتى أنهكوا تروس السرعات.. أشتريها رخيصة.. ثم أخلط نشارة الخشب بالزيت في صندوق التروس، وهكذا تصير ناعمة تماما...

- كم من الوقت تعمل بنعومة قبل أن (تشخشخ)؟

- نحو مائة ميل.. مسافة تسمح للمشترى بأن يبتعد عني!

- لكن هذا غش يا أبي...

- لا أحد يصير ثريا بالأمانة.. الزبائن هناك ينتظرون من يغشهم..

كان رجلا له مظهر الفأر تبرز أسنانه الأمامية من تحت شاربه الرفيع، وكان مولعا بربطات العنق الصفراء والخضراء. قال لها:

- مثلا عداد السرعات.. كل من يبتاع سيارة مستعملة ينظر أولا لعداد السرعات.. أبتاع السيارة التي قطعت 150 ألف ميل.. لا أحد يمكن أن يشتري سيارة قطعت مسافة كهذه.. وفي هذه الأيام لا يمكنك اللعب في العداد كما كنا نفعل في الماضي.. هنا أستعمل عقلي.. أجلس وأفكر: كيف يمكن أن أعيد عداد السرعة من 150 ألف ميل إلى عشرة آلاف دون أن أفك العداد؟..

لو استطعت أن أمشي بالعربية للخلف لهذه المسافة لفعلت ذلك لكن من المجنون الذي يمكن أن يمشى بسيارة للخلف آلاف الأميال؟.. لا أحد.. أهرش رأسي وأستعمل مخي.. عندما يكون عندك مخ ممتاز كمخى فعليك أن تستعمله.. فجأة يأتي الحل.. إيوريكا!!.. وجدتها!!

يسأله ابنه الذي ورث حب أبيه للنصب:

- ماذا وجدت؟

- أفصل الكابل الذي يوصل عداد المسافات بالعجلة الأمامية... ثم أحضر مثقابا كهربيا وألف طرف الكابل حوله، بحيث إذا دار أدار العداد للخلف.. هل تفهمني؟

- نعم يا أبي.

- يدور المثقاب بسرعة.. هكذا يتراجع رقم العداد آلاف الأميال في دقائق.. هكذا صار رقم العداد عشرة آلاف والسيارة معدة للبيع.. أقول للزبون إن السيارة جديدة تقريبا.. كانت تقودها سيدة عجوز تستعملها مرة واحدة كل أسبوع للتسوق..

أنا أعلمك أسرار المهنة، فلا تخبرها لكل من تقابله، ما لم ترد لي أن أسجن..

- لن أفعل يا أبي.. لكن هل تعمل هذا مع كل سيارة؟

- كل سيارة تقع تحت يدي..

كانت ماتيلدا تصغي فقالت:

- لكن هذا غش أسوأ من نشارة الخشب يا أبي..

- لو لم يرق لك فلتكفي عن أكل طعامي.. لقد ابتعته كله بالنقود التي أحصل عليها بهذه الطريقة.

- لكنه شيء قذر.. أنا أكرهه..

احمر وجهه وصاح فيها:

- من تحسبين نفسك لتعظيني؟؟؟ أنت مجرد حشرة صغيرة لا تعرف عما تتكلم..

أمرتها الأم بالصمت كي يتمكنوا من مشاهدة التلفزيون..

كانت الأسرة جالسة على ركبها على الأرض أمام التلفزيون تلتهم الطعام في أطباق صغيرة من الألومنيوم مقسمة لتستوعب اللحم والبطاطس والبازلاء. وكانت مسز (ورموود) تمضغ طعامها وهي لا ترفع عينها عن التمثيلية السخيفة في التلفزيون. كانت

امرأة ضخمة تصبغ شعرها بلون البلاتين، وتضع ماكياجا ثقيلا جدا، وجسدها مكتنز بتلك الطريقة التي توحي بأن الدهن ملفوف حول جسمها ليحميها لدى السقوط.

سلتها ماتيلدا:

- ماما.. هل تسمحين لي بتناول الطعام في غرفة الطعام لأواصل قراءة هذا الكتاب؟

قال الأب:

- أنا أمانع.. العشاء مناسبة لاجتماع الأسرة فلا يترك أحد المائدة إلا عندما ينتهي...

- لكننا لا نجلس على مائدة.. ولا نجلس أبدا إلا لمشاهدة التلفزيون..

سألها في نعومة خطرة:

- وما المشكلة في مشاهدة التلفزيون؟.. هل لي أن أسأل؟

راح الغضب يغلي في داخلها ففضلت الصمت. كل ما قرأته جعلها تتمنى أن يريا ما رأته.. قراءة ديكنز سوف تجعلهما يريان عالما أكبر من غش الزبائن ومشاهدة التلفزيون.

كانت كذلك تكره إصرارهما على أنها غبية جاهلة وهي ليست كذلك.. كان الغضب بداخلها يغلي برغم أنها كانت بعد في الخامسة.. يجب أن تنتقم حتى لا تجن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القبعة والصمغ الجبار

في الصباح التالي، وقبل أن يذهب الأب للمرآب، بحثت ماتيلدا عن القبعة التي يلبسها كل يوم. كانت من تلك القبعات مسطحة القمة عليها ريشة، وكان الرجل شديد الفخر بها. فقد كان يعتقد أنها تعطيه منظرا جريئا..

أمسكت بالقبعة بيد وأنبوب الصمغ الجبار باليد الأخرى، وضغطت طبقة من الصمغ حول الحافة وداخلها. كان التوقيت ممتازا لأنها وضعت الصمغ بينما أبوها ينهض من مائدة الإفطار.

لم يلحظ الرجل شيئا حتى وضع القبعة، وحتى ذهب إلى المرآب.. عندها لم يستطع نزع القبعة.. إن الصمغ الجبار قوى جدا لدرجة أنك قد تنتزع جلدك لو حاولت بشدة.

اضطر لإبقاء القبعة على رأسه طيلة اليوم، ولكي يتفادى الحرج تظاهر بأن هذا طبيعي كأنه زعيم عصابة ممن يبقون القبعة على رأسهم طيلة الوقت.

حين عاد لداره هذا المساء لم يستطع نزع القبعة.. فقالت زوجته:

- لا تكن سخيفا.. أنا سأنزعها لك.

وشدت القبعة بقوة فأطلق صرخة هلع.. وصرخ: أووووه!.. توقفي وإلا انتزعت لحم رأسي.

كانت ماتيلدا تراقبه من فوق الكتاب الذي تقرؤه وسألته:

- ماذا هناك يا أبي؟.. هل تمدد رأسك فجاة؟

نظر لها في شك عميق ولم يقل شيئا، بينما قالت زوجته:

- لابد أنه الصمغ الجبار.. أنت تستحق هذا.. لابد أنك كنت تحاول لصق المزيد من الريش في قبعتك...

صاح مستر ورموود:

- أنا لم أمس الشيء اللعين..!.. عم تتحدثين بالضبط أيتها الساحرة الغبية؟.. هل تحسبينني ألصقت هذا الشيء برأسي عمدا؟

ونظر لماتيلدا التي ظلت تبادله النظر بعينين واسعتين بريئتين وشد حافة قبعته كي يمنع أي واحد من جذبها.

قالت ماتيلدا:

- هناك صبي في القرية وقع الصمغ الجبار على إصبعه، ثم دس إصبعه في أنفه فالتصق.. النتيجة أنه راح يمشي في القرية لمدة أسبوع وإصبعه في أنفه طيلة الوقت، وكل الناس توبخه على ذلك.. كان هذا محرجا!

قلت مسز ورموود:

- يستحق هذا.. أولا ما كان عليه أن يضع إصبعه هناك.. هذه عادة قذرة.. لو وضعوا على أصابع الصبية الصمغ الجبار لكفوا عن ذلك..

صباح مستر ورموود وقد احمر وجهه:

- كفى!!

وتناول العشاء أمام التلفزيون والقبعة على رأسه.. بدا سخيفا فعلا.

وعندما اتجه للفراش تساءل:

- كيف سأستحم؟

- عليك أن تستغني عن الحمام..

وراقبت زوجها يجوب الغرفة بمنامته الحريرية وقبعته على رأسه، فبدا لها غبيا جدا. من الصعب أن تحلم المرأة برجل كهذا زوجا.

هنا اكتشف زوجها أن أفظع ما في التصاق قبعة برأسك هو أن تحاول النوم بها. قالت له زوجته بعد ما ظل ساعة كاملة يتقلب:

- هلا توقفت عن الحركة؟.. أتوقع أن تسقط القبعة في الصباح ويمكننا فكها..

لكنها لم تسقط في الصباح، وهكذا أخذت مسز ورموود المقص وبدأت تمزق القبعة.. لم تستطع تمزيق الجزء المحيط بالرأس؛ هكذا نزعت الشعر نزعا وصار هناك شريط عار من الشعر يحيط بالرأس.. كأنه راهب من نوع ما..

على الإفطار قالت له ماتيلدا:

- يجب أن تحاول نزع بقايا القبعة عن شعرك يا أبي.. يبدو الأمر كان حشرات صغيرة بنية تزحف في كل مكان.. كأنك مقمل!

- فقط فلتبقى فمك المتسخ مغلقا.

كان الأمر ممتعا بحق، لكن كان من الصعب أن تأمل أن يتعلم الأب درسا يبقى معه...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشبح

ساد الهدوء لمدة أسبوع بعد موضوع الصمغ.. يبدو أن التجربة هدأت من غلواء مستر ورموود قليلا..

ثم استعاد نشاطه فجأة.. لابد أنه لم يبع ما يكفي من السيارات التالفة، المهم أنه عاد للبيت فشعرت زوجته بالعاصفة القادمة، وآثرت تركه في حاله، فقد عرفت أنه يبحث عن شخص ينفجر فيه.

اتجه لغرفة المعيشة.. كانت ماتيلدا ملتفة على نفسها في شيزلونج هناك تقرأ.. فتح هو التلفزيون ونظر لها.. لم تتحرك لقد علّمت أذنيها أن تنغلقا كلما اشتغل الجهاز الكريه.

ظلت تقرأ وهذا أثار جنونه.. إنها تنال المتعة من شيء لا يفهمه.

صاح فيها:

- ألا تكفين عن القراءة أبدا؟

صاحت:

- مرحبا أبي.. كيف كان يومك؟

انتزع الكتاب من يدها:

- ما هذا الكلام الفارغ؟

- ليس كلاما فارغا يا أبي.. إنه (المهر الأحمر) قصة الأديب الأمريكي جون شتاينبك.. لم لا تجرب قراءته؟

- قاذورات!.. ما دام المؤلف أمريكيا فهذا الكتاب قاذورات. لقد مللت هذا ومللت قراءتك طيلة الوقت.. هيا أوجدي لنفسك شيئا أكثر نفعا.

ثم بدأ يمزق الصفحات ويلقيها في صندوق القمامة.

تجمدت الفتاة هلعا.. كان واضحا كه يعاني درجة من الغيرة.. كيف تجرؤ على أن تنعم بالقراءة وأنا لا؟

قال وهو يواصل التمزيق:

- سوف يكون عليك أن تشتري كتابا آخر من مصروفك لمس (فليبس).. هه؟..

ثم ألقى بالغلافين في صندوق المخلفات.

كان أي شخص في مكان ماتيلدا سينفجر بالبكاء، لكنها لم تفعل.. جلست صامتة مفكرة، نابليون قال إن أفضل معاملة لمن يهاجمك هو أن تهاجمه بالعكس.. هكذا بدأ عقلها الباطن ينتقم. وبدأ هذا مع ببغاء (فريد).

(فريد) صديق ماتيلدا، وهو طفل في السادسة يعيش في الجيرة، وهو مولع بالببغاء المتكلم الذي أهداه أبوه له.

في اليوم التالي ما إن رحلت مسز (ورموود) بسيارتها للعب البينجو، حتى ذهبت ماتيلدا لبيت (فريد). طلبت منه أن يريها الطائر الشهير، فسره هذا واقتادها لغرفة نومه حيث قبع ببغاء أصفر وأزرق في قفص طويل.

- هذا هو.. اسمه (تشوبر)...

- اجعله يتكلم...

- ليس هذا بوسعك.. عليك أن تصبري وهو سيتكلم متى شاء.

جلسا ينتظران وبعد قليل قال الببغاء:

- هالو.. هالو.. هالو...

كأنه صوت آدمي.. ثم قال:

- أطرقع عظامي.. أطرقع عظامي!

قال (فريد):

- هو يقول هذا دوما..

- رائع.. هل لك أن تقرضه لي ليلة واحدة؟

- بالطبع لا..

- سوف أعطيك مصروف أسبوع..

فكر الصبي ثم قال لها:

- هذا يختلف.. ليكن.. لكن عديني بأن ترجعيه صباح غد.

عادت ماتيلدا بالقفص لبيتها حيث غرفة الطعام، واتجهت للمدفأة فعملت على إدخال القفص في المدخنة.. بصعوبة.

ناداها الببغاء:

- هالو.. هالو.. هالو.

- اصمت..

قالتها له وذهبت لتغسل السناج عن يديها..

في هذه الليلة جلس الأم والأب والأخ وماتيلدا يتناولون العشاء أمام التلفزيون، عندما جاء صوت عال من غرفة الطعام يقول:

- هالو.. هالو..

صرخت الأم:

- هاري.. ثمة شيء في البيت.. أسمع صوتا!

جلسوا جميعا يصغون..

وصاح أخوها:

- هذا هو...

وقالت الأم

- لصوص!

قال الأب:

- أعتقد أنهم كذلك...

- إذن اذهب للقبض عليهم.. اعتقلهم متلبسين!.. ربما هم هنا من أجل الفضيات...

لكن الأب لم يتحرك.. ثم بيد متعجلاً ليصير بطلاً.. ثم مسح يديه في المنشفة وقال:

- لم لا نذهب ونرى معا؟ هست ماتيلدا:

- بالتأكيد هم في غرفة الطعام.. أنا متأكدة.

التقط الأب مضرب جولف بينما التقطت الأم محرك النار والأخ حمل أباجورة، ومشى الأربعة نحو غرفة الطعام.. والأب يمشي خلف الآخرين..

هنا دوى الصوت:

- هالو.. هالو.. هالو..

وثبت ماتيلدا للغرفة وصاحت:

- هيا!.. ارفعوا أيديكم!

وثب الباقون خلفها لكن لم يكن أحد في الغرفة..

هتفت الأم:

- لكني سمعتهم!.

وراحت تبحث خلف الأريكة.. ووراء الستائر، هنا عاد الصوت يتردد:

- أطرقع عظامي.. أطرقع عظامي!

وثب الجميع بينما صرخت الأم واعتصرت رقبة زوجها:

- لابد.. لابد أن هذا شبح.. وليساعدنا الله...

قلت ماتيلدا:

- أعرف أنه شبح.. سمعته من قبل هنا، الغرفة مسكونة وحسبتكما تعرفان هذا...

قال الأب وقد صار لونه رماديا:

- سأخرج من هنا...

وجروا جميعا وأغلقوا الباب خلفهم..

في الصباح التالي أخرجت ماتيلدا الببغاء الذي غطاه السناج من مكانه.. وخرجت به من المنزل خلسة.

سألها فريد:

- هل كان مهذبا؟

- قضينا وقتا رائعا.. لقد أحبه أبواي جدا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمنت ماتيلدا لو صار أبواها عطوفين متفهمين.. كان هذا مستحيلا لكن المقالب التي كانت تدبرها لهما كلما أساءا لها جعلت الحياة محتملة.

كانت صغيرة جدا لذا لم تملك أية قوة على أفراد أسرتها سوى قوة العقل. لكن تبقى الحقيقة هي أنها في هذه السن مضطرة لعمل ما تؤمر به حتى لو كان البقاء وحدها عصرا أو مشاهدة التلفزيون الكرية في وقت العشاء.

لقد ظل أبواها على قدر من الهدوء بعد حادثة الببغاء، إلى أن انفجر الأب من جديد عندما عاد للبيت يوما ليجد ماتيلدا وأخاها على الأريكة ينتظران قدوم أمهما بالعشاء، وكان التليفزيون مغلقا.

كان بليس بذلة صفراء وربطة عنق خضراء، توشك على أن تعمي الناظرين، وقد عاد للبيت راضيا يفرك يديه، وجلس على الأريكة وقال لابنه:

- أبوك قد كان يومه موفقا يا بني.. صار أكثر ثراء الليلة مما كان صباح اليوم.. باع خمس سيارات.. نشارة خشب.. مثقاب كهربي.. لطخة طلاء هنا وهنا. وسرعان ما يجن البلهاء كي يبتاعوها!

ثم أخرج ورقة من جيبه وقال لابنه:

- بما أنك ستشاركني هذه المهنة، فعليك أن تتعلم جمع الأرباح في نهاية اليوم.. هيا هات القلم وجرب بنفسك..

عاد الصبي بالقلم والورق..

- اكتب.. السيارة الأولى ابتعتها بـ 278 جنيها وبعتها بـ 1425.. هل كتبت هذا؟

دون الصبي الأرقام..

- السيارة رقم 2 كلفت 118 جنيها وبعتها بـ 760.. السيارة الثالثة كلفت 111 جنيها وبيعت بـ 999 جنيها.. هذه من حيلي الشهيرة.. لا تطلب رقما مستديرا بل انزل تحته قليلا.. لا تقل ألفا بل قل 999.. هذا يبدو أقل.. السيارة الرابعة كلفت 86 جنيها لأنها كانت حطاما وبيعت بـ 699.. السيارة الخامسة كلفت 637 وبعتها بـ 1649 جنيها.. هل كتبت هذا كله؟.. اجمع الربح الذي حققته من كل سيارة لتعرف كم حقق أبوك العبقري من ربح اليوم...

قال الصبي:

- هذا يعني الكثير من الجمع.

- طبعا هو كذلك يجب أن تكون بارعا في الرياضيات عندما تعمل عملي.. لقد حسبت كل شيء في عشر دقائق برأسي..

- هل حسبت هذا برأسك؟

- ليس بالضبط.. لا أحد يستطيع هذا.. أنا فقط فعلته بسرعة.. الآن احسب وقل لي كم ربحت وسأقارن هذا بالرقم الذي دونته في جيبي.. قالت ماتيلدا:

- أبي.. أنت ربحت بالضبط 4303 جنيه.

- لا تضايقينا فأخوك وأنا مشغولان..

- لكن يا أبي...

- اخرسي.. حاولي أن تكوني بارعة...

- انظر للإجابة في جبيك.. لو كنت حسبتها بشكل صحيح..

نظر للورقة في جيبه وتصلب.. ساد الصمت ثم أمرها:

- كرري هذا...

- 4303 جنيه

صار وجهه أحمر فعلا... ثم صاح فجأة وهو يشير لها بإصبعه:

- أيها الغشاشة!.. أنت قرأت الورقة!:

- أبي.. أنا في الجهة الأخرى من الغرفة فكيف أرى ورقة في جبيك؟.

- أنت كذوب وغشاشة يا آنسة.. فلا أحد في العالم يمكنه إجراء هذه الحسبة بعقله خاصة لو كان فتاة!

هنا جاءت الأم بصينية كبيرة عليها أربع وجبات عشاء. كان العشاء سمكا وبطاطس مقلية.. فلعب البينجو كان يرهقها حتى أنها لم تكن تستطيع الطهي في العشاء.

قال لها الأب:

- ابنتك غشاشة كذابة.. افتحي التلفزيون ودعينا لا نتكلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرجل بلاتيني الشعر

راحت ماتيلدا تلتهم الطعام وهي تفكر في طريقة للانتقام من أبيها، فلم تدخل الفراش إلا وقد وجدت الحل المناسب.

في الصباح التالي ذهبت للحمام وأغلقت الباب، كما نعرف كانت مسز ورموود تصبغ شعرها بلون بلاتيني، فضي لامع. كانت تقوم بالعملية الكبرى مرتين في العام عند الكوافير، لكن في كل شهر كانت تصبغه في حوض الغسيل بشيء يدعى (صبغة شعر أشقر بلاتيني). كان هذا يلون الشعيرات البنية التي تظهر عند الجذور، كانت الزجاجة في الخزانة في الحمام، وعلى الزجاجة كتب (احترس!.. هذا بروكسيد.. أبقه بعيدا عن الأطفال). كان أبوها يملك شعرا أسود يفرقه عند المنتصف ويفخر به كثيرا.. وكان يقول:

- الشعر الصحي يعني أن تحته مخا سليما.

فكانت تقول له:

- مثل شكسبير...

- من؟

- شكسبير...

- هل هو عبقري؟

- نعم يا أبي...

- وهل كان له شعر غزير ناعم؟

- كان أصلع يا أبي..

- ما دمت لا تقدرين على قول كلام محترم فلتصمتي..

كان يبقي شعره قويا بأن يدعكه كل صباح بزيت اسمه (زيت مقو للشعر). كانت الزجاجة هناك جوار فرش الأسنان وكان يدعكه بقوة كل صباح وهو يردد:

ـ آه هـ!.. هذا أفضل!.. هذا هو الصنف!.. هلم إلى الجذور..

الآن في خلوة الحمام فتحت زجاجة الزيت وسكبت ثلاثة أرباع السائل في الحوض، ثم ملأت الزجاجة بصبغة شعر أمها. ظل لون المقوى كما هو تقريبا.. ثم أعادت كل شيء لمكانه.. جلست على مائدة الإفطار تأكل رقائق القمح بينما أخوها يلتهم أكواما من الخبز المغطى بزبد الفول السوداني ومربى الشليك وكانت الأم تعد طعام الأب الذي يتكون من بيضتين مقليتين مع اللحم والسجق.

هنا دخل مستر ورموود الغرفة في صخب كعادته.. كأنه يقول: أنا هنا.. الرجل العظيم.. الذي يدفع الفواتير ويجعلكم تعيشون في سعة.. لذا احترموني!

ضرب ظهر ابنه وصاح:

- هلم يا بنى.. أبوك يشعر بأن هذا يوم آخر من أيام تحقيق المال!.. لديّ بعض الجميلات سوف أبيعهن للحمقى.. أين إفطاري؟

- قادم يا كنزي! -

لم تجسر ماتيلدا على رفع رأسها.. لم تعرف ما يمكن أن تراه.. ولو رأت ما تتوقع أن تراه فلن تستطيع التحكم في نفسها. كان أخوها ينظر لخارج النافذة وهو يلتهم الزبد بالمربى، جاءت الأم من المطبخ حاملة الإفطار، هنا رأت زوجها فتصلبت. ثم صرخت وأسقطت ما تحمله على الأرض.

صرخ فيها:

- ما بك يا امرأة؟.. انظري ما فعلت بالبساط؟

صرخت الأم:

- شعرك!!.. ماذا فعلت بشعرك؟

- ما بال شعري؟

لم تتحرك ماتيلدا وسط هذا الجنون.. ظلت جالسة معجبة ببراعتها.. لقد صار شعر مستر ورموود فضيا متسخا كأنه سروال لاعبة سيرك لم تغسله طيلة موسم كامل.

- أنت صبغته يا مجنون.. إن منظره شنيع!.. تبدو كالمجانين!

اخضر وجهه وقال:

- عم تتحدثين؟.. بالطبع ثم أصبغه.. هل هي نكتة سخيفة؟

قال ابنه:

- بل أنت صبغته.. إنه بنفس لون شعر أمي.. فقط يبدو متسخا.

- هل كنت تحاول أن تبدو أصغر؟.. تبدو كأنك جدة أحدهم وقد جُنت..

صاح الآب:

- هاتي مرآة وكفي عن الصراخ!

مدت يدها لحقيبة يدها وأخرجت مرآة مستديرة صغيرة وناولتها لزوجها.. فتحها ونظر لنفسه.

- رباه!.. ماذا حدث لي؟ لا يمكن أن أبيع السيارات بهذا المنظر!.. كيف حدث هذا؟

قلت ماتيلدا:

- أعتقد يا أبي أنك لم تكن تنظر بعناية واستعملت زجاجة صبغة شعر أمي بدلاً من دوائك..

قالت الأم:

- فعلا هذا ما حدث يا هاري.. إلى أية درجة يمكن أن يصل غباؤك؟.. لم لا تقرأ المكتوب على الزجاجة؟.. أنا استعمل ملعقة صغيرة واحدة على طست ماء كامل.. ويبدو أنك أغرقت به رأسك.. هل بدأت فروة رأسك تحرقك؟

صرح الرجل:

- هل تعنين إنني سأفقد شعري؟

- أعتقد هذا.. البيروكسيد مادة قوية جدا.. نفس ما يصبونه في المرحاض لتنظيفه.. فقط يعطونه اسما آخر.

صرخ الرجل:

- أنا لست مرحاضا!.. لا أريد أن يتم تعقيمي؟

- حتى مع كوني أخففه فهو يُسقط الكثير من شعري.. من المدهش أنه لم يُزل قمة رأسك!

- قولي لي ما يجب عمله!

قلت ماتيلدا:

- لو كنت مكانك لغسلته جيدا بالماء والصابون.. لكن بسرعة..

- وهل هذا سيزيل اللون؟

قالت الأم:

- بالطبع لا.. لكن سيكون عليك أن تصبغه بالأسود.. لكن اغسله أولا لتتأكد من زوال الصبغة..

صرخ الرجل:

- حسن.. اطلبي موعدا مع الكوافير الخاص بك.. قولي لهم إنها حالة طوارئ!.. سوف أغسله حالا..

وجرى إلى الحمام.. بينما اتجهت الأم للهاتف لتطلب صالون التجميل..

وقالت وهي تطلب الرقم:

- يؤسفني أن الرجال ليسوا بالبراعة التي يزعمونها.. سوف تتعلمين هذا عندما تكبرين يا فتاة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مس هوني (2)

تأخرت ماتيلدا نوعًا عن بدء الدراسة، معظم الأطفال يدخلون المدرسة الابتدائية في الخامسة لكن أبويها لم يكونا مهتمين بتعليمها، ونسيا أن يرتبا الأمور، لذا دخلت المدرسة وسنها خمس سنوات ونصف.

كانت مدرسة القرية بناية كئيبة من القرميد اسمها (كرانتشم)، وفيها 250 تلميذا.. المديرة كانت امرأة ضخمة مرعبة اسمها مس (ترنشبول).

كانت معلمة ماتيلدا تدعى مس (هوني) لابد أن عمرها كان 23 أو 24.. كان لها وجه جميل بيضاوي كوجه (المادونا) في اللوحات القديمة ولها عينان زرقاوان. كانت هشة جدا لدرجة أنك تتوقع أنها لو سقطت لتهشمت لألف قطعة كالخزف.

كانت مس (هوني) هادئة لا ترفع صوتها أبدًا ولا تبتسم، لكنها كانت تملك موهبة أن يهيم بها الأطفال الذين تعنى بهم. كانت تفهم ذعر الأطفال لدى دخول المدرسة.

المديرة مس (ترنشبول) كانت مختلفة تماما، كانت رعبا عملاقا.. وحشًا طاغية يخيف الأطفال والمدرسين معا. حتى من بعيد كانت مرعبة وحين تقترب منك كنت تشعر الخطر ينبعث منها كما تنبعث الحرارة من قضيب حديدي ساخن. حينما تمشى مشيتها العسكرية تسمعها تغط من أنفها، وعندما كان صف من الأطفال يقف في طريقها كانت تبعثرهم يمينا ويسارا.

الحمد لله أننا لا نلقى الكثير على شاكلتها في العالم برغم أنهم موجودون. لو قابلت أحدهم تصرف كأنك قابلت خرتيتا غاضبا خارجا من الدغل.. تسلق شجرة وابق هناك حتى يرحل. من المستحيل تقريبا وصف هذه المرأة لكن سأحاول ذلك من جديد، لكن دعنا الآن نعد لماتيلدا وصف مس (هوني)..

لقد قالت مس (هوني) للأطفال:

- هذا أول يوم لكم في الصف.. وهو يعني بداية أحد عشر عاما من الدراسة.. فقط أنصحكم بأن تطيعوا مس (ترنشبول) بلا مناقشة.. لا تجادلوا معها.. لو أثرتم غضبها فهي قادرة على أن تحيلكم لعصير مثلما يحدث للجزرة في الخلاط.. ليس هذا مما يثير الضحك.. تذكروا أنها تتعامل بعنف شديد جدا جدا جدا مع من يخرق النظام في الصف..

دوى 18 صوتا صغيرا يقول:

- نعم يا مس (هوني)..

- هذا العام أتوقع أن تتعلموا جدول الضرب حتى 12.. هل منكم من حفظ جدول ضرب 2؟

رفعت ماتيلدا يدها.. كانت الوحيدة التي فعلت ذلك.

نظرت لها مس هوني بإمعان وقالت:

- رائع.. أرجو أن تقفي وتقولي قدر وسعك..

بدأت ماتيلدا تسمع جدول (2) حتى بلغت (2 X 12 = 24) ولم تتوقف بل استمرت حتى (2 X 15 = 10) الخ..

كانت مس هوني تصغى لها مندهشة من التسميع السلس، وهتفت:

- توقفي.. إلى متى تنوين الاستمرار؟

- لا أعرف يا مس هوني.

- هل تعنين أنك تعرفين كم تساوي 2 في 28؟

- 56 يا مس هوني.

- وماذا عن 2 في 487؟

- 974..

قالتها ماتيلدا بهدوء وأدب بلا علامة استعراض. نظرت لها مس هوني في ذهول ولكن عندنا تكلمت حاولت أن يكون صوتها هادئا. كانت مذهولة.. لم تلق طفلاً في الخامسة من قبل يجيد جدول الضرب بهذا الشكل.

- أرجو أن تسمعوا هذا كله.. ماتيلدا فتاة محظوظة جدا لأن لديها أبوين مدهشين علماها جدول الضرب..

قلت ماتيلدا:

- في الحقيقة يا مس هوني لا..

- هل تنعين أنك علمت نفسك؟

- لا أعرف في الحقيقة يا مس هوني.. فقط أعرف أن جدول الضرب سهل بالنسبة لي..

شهقت مس (هوني) ثم نظرت للفتاة الصغيرة ذات العينين اللامعتين وسألتها:

- هلا شرحت لي هذا؟.. مثلاً لو طلبت منك ضرب 14 في 19... هذا صعب..

- 266..

نظرت لها مس هوني ثم أمسكت بقلم وأجرت عملية الضرب.. ثم وضعت القلم ونزعت عويناتها وراحت تلمع العدستين بمنديل ورقي. ظل الصف صامتا ينتظر ما سيحدث.

قلت مس هوني:

- قولي لي يا ماتيلدا.. ماذا يدور في رأسك عندما تجرين عمليات حسابية كهذه؟..

- لا أعرف.. لا أعرف.. فقط أضع 14 في ذهني وأضربها في 19.. أخشى أنني لا أعرف كيف أشرح.. كنت أقول لنفسي لو استطاعت آلة حاسبة أن تفعل هذا فلم لا أقدر أنا؟.. أعتقد أن المخ البشري أكفأ من قطعة معدن..

الآن صارت مس (هوني) واثقة من أنها تقابل عقلاً رياضيا خارقا للطبيعة، كانت تعرف أن هذه الأعاجيب تظهر في العالم من وقت لآخر لكن مرة أو مرتين كل مائة عام.. كان موتسارت في الخامسة عندما بدأ يؤلف مقطوعات للبيانو.. ولتر ما صار منه

قلت لافندر:

- هذا غير عادل.. كيف تفعل هي هذا ولا نقدر عليه؟

قالت مس هوني كاذبة:

- لا تقلقي.. سوف تصيرين مثلها سريعا..

كانت تعرف أن عليها الاهتمام بباقي الصف، لكنها ظلت منبهرة بهذه الطفلة. نظرت للفصل وقالت:

- دعونا من الأرقام ونتكلم عن الهجاء.. هل منكم من يعرف كيف يتهجأ كلمة (هرة)؟ ارتفعت ثلاثة أيد.. يد تخص (لافندر) ويد تخص (نيجل) ويد تخص (ماتيلدا).

- تهجأ يا نيجل..

تهجاها نيجل. هكذا قررت أن توجه سؤالا ما كانت لتفكر أبدا في سؤاله للصف في اليوم الأول.. اتجهت لنوح الكتابة وكتبت: لقد تعلمت أن أقرأ الجمل الطويلة. تعمدت أن تجعل العبارة معقدة وهي تعرف أن هناك أطفالا أذكياء هنا. ثم سألت:

- هلا أخبرتني بمعنى هذه العبارة يا نيجل؟

- هذا صعب.

- لافندر؟

- الكلمة الأولى هي (لقد)..

- * هل هناك من يقدر على قراءتها؟

وعرفت أن الـ (نعم) الأولى ستأتي من ماتيلدا، فالت ماتيلدا:

- نعم..

وقرأت الجملة بلا تردد. قالت مس هوني:

- هذا رائع.. ما مدى إجادتك للقراءة يا ماتيلدا؟

- أقرأ كل شيء يا مس هوني برغم أنني لا أفهم الكثير مما أقرؤه.

خرجت مس هوني من الغرفة، ثم عادت بعد ثلاثين ثانية وهي تحمل كتابا ثقيلا.. فتحته بشكل عشوائي ووضعته على منضدة ماتيلدا وقالت:

- هذا كتاب شعر مرح.. حاولي القراءة بصوت عال..

بسلاسة بدأت ماتيلدا تقرأ.

- رجل ذواقة يأكل في مطعم (كرو)

وجد فازا في العصيدة.

صاح به الساقي: لا تصرخ وتلوح به

وإلا طلب باقي الزبائن مثله..

سألتها مس هوني:

- هل تعرفين معنى (ذواقة) يا ماتيلدا؟

- هو شخص يدقق كثيرا في أكله.

- بالضبط.. وهل تعرفين اسم هذا النوع من الشعر؟..

- اسمها قصيدة فكاهية.

- نعم.. القصائد الفكاهية تبدو سهلة لكنها صعبة في كتابتها جدا

- أنا جربت كتابة بعضها لكنها ليست جيدة..

- حقا؟.. نحن نرغب في سماع قصائدك هذه..

- أنا كتبت عنك واحدة يا مس هوني وأنت جالسة هناك

- عني أنا؟.. لابد من أن أسمعها!

- أخشى أنني لا أجرؤ على استعمالها يا مس هوني لأنها تذكر اسمك الأول كي تناسب القافية.. إن اسمك الأول هو (جيني)..

- أنا مصرة على أن أسمعها..

وقفت ماتيلدا وبدأت تلقى القصيدة:

- ثمة شيء أكيد بخصوص (جيني)

أنه لا يوجد مثلها الكثير..

هل توجد في مكانها ..

جميلات مثلها ..

الجواب هو: مستحيل!

شحب وجه مس هوني ثم ابتسمت.. ابتسامة عريضة جميلة.. .

- أشكرك يا ماتيلدا.. برغم أن هذا كلام غير صحيح فالقصيدة جميلة.. يجب أن أحفظها..

قال صبي اسمه روبرت:

- هي قصيدة جميلة وصادقة..

سألتها مس هوني:

- من علمك القراءة؟

- أنا علمت نفسي وقرأت كتبا كثيرة.. لقد أحببت (الأسد والساحرة وخزانة الثياب).. أعتقد أن مستر (سى. إس. لويس) كاتب عبقري.. لكن لديه عيبا هو أنه لا توجد أجزاء مضحكة كثيرة في روايته.

- معك حق..

- كذلك مستر (تولكين) لا يكتب أجزاء مضحكة.. الأطفال ليسوا جادين كالكبار.. يحبون أن يضحكوا..

اندهشت مس هوني من حكمة هذه الطفلة. وراحت تنظر لها في إعجاب.. لقد نسيت كل شيء عن باقي الصف. وسألتها:

- ماذا ستفعلين بعد إنهاء كتب الأطفال؟

- أنا أقرأ تشارلز ديكنز وأحبه.. يجعلني أضحك خاصة مع مستر بكويك.

هنا دق الجرس في نهاية الردهة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الترنشـبـول ()

في الفسحة غادرت مس هوني الصف واتجهت لغرفة المديرة. لقد قابلت طفلة تملك قدرات خارقة للعادة. لابد من عمل شيء مع هذه العبقرية.

كانت في العادة تخاف المديرة وتبتعد عنها قدر الإمكان، لكنها الآن كانت متأهبة لتواجه أي شخص. دقت الباب الرهيب فدوى صوت المديرة المرعب:

- ادخل!

معظم مديري المدارس يتم اختيارهم لأنهم ذوو صفات حميدة. يفهمون التلاميذ ويفهمون اهتماماتهم. يهتمون بالتعليم.. لكن مس ترنشبول لم تملك أيا من هذه الصفات.. ولا يعرف أحد كيف ظفرت بوظيفتها.

كانت ضخمة جدا.. رياضية شهيرة قديمة مليئة بالعضلات. تنظر لها فتدرك أنها قادرة على ثنى قضبان الحديد وتمزيق دليل الهاتف لنصفين.. وجهها لم يكن يحوي أي جمال أو يبعث على المرح. فم قاس وعينان مغرورتان.. أما ثيابها فكانت أغرب.. تربط حزاما عريضا حول خصرها.. حزاما له إبزيم فضي عملاق.. وكانت تلبس حذاء رياضيا وجوربين أخضرين يظهران عضلات ساقيها بقوة. بدت عامة كصياد متعطش للدم منها كمديرة مدرسة.

عندما دخلت مس هوني الصف كانت المرأة تقف جوار مكتبها الضخم وقد ظهر نفاد الصبر على وجهها.

- ماذا تريدين يا مس هوني؟؟؟ أنت متوردة الوجه اليوم.. هل بصق عليك هؤلاء العفنون الصغار؟

- لا يا سيدتي المديرة.. لا شيء من هذا .

- إذن قولي ما هنالك.. أنا امرأة مشغولة.

وصبت لنفسها كأس ماء من دورق كبير

- هناك فتاة في صفى اسمها (ماتيلدا ورموود)..

- هي ابنة بائع سيارات مستعملة.. شخص ممتاز هو.. كنت هناك أمس وباعني سيارة شبه جديدة.. فقط مشت عشرة آلاف ميل.. صاحبتها القديمة كانت امرأة عجوزا تقودها مرة في السنة.. كما أحب (ورموود) هذا.. إنه من أعمدة مجتمعنا.. قال لي إن ابنته سيئة جدا وطلب أن أراقبها.. قال لي لو أن شيئا خطأ حدث فلابد أنها المسئولة.. اليوم هناك من وضع قنبلة عفنة الرائحة في مكتبي تحت المقعد.. أنا أعرف يقينا أنها من فعل هذا.. لم أر هذه الحشرة لكنها ستعرف عندما أفعل..

صاحت مس هوني:

- لا يا سيدتي. هذا غير صحيح..

- بل هو صحيح للأسف.. سوف أؤدبها.. ولكن كيف تبدو؟.. لابد أنها دودة صغيرة قذرة.. لقد اكتشفت في حياتي التربوية أن الفتاة السيئة أخطر بمراحل من الولد السيئ.. الفتيات الصغيرات مخلوقات قذرة وإنني لسعيدة لأنني لم أكن واحدة منهن..

- لكنك كنت فتاة صغيرة يا سيدتي.. بالتأكيد..

نبحت المديرة وقالت:

- لم يطل هذا.. صرت امرأة بسرعة جدا.

قالت هوني لنفسها إن المديرة مجنونة تماما كأنها بقة فراش.

- أؤكد لك أنك مخطئة تماما بصدد ماتيلدا.. لقد وصلت المدرسة هذا الصباح فقط وجاءت للصف..

- أنا لا أخطئ أبدا.. شكرا لأنك أوحيت لي بالأمر كله.. والآن لملذا تضيعين وقتي؟

- عندي أخبار مهمة جدا عن ماتيلدا.. إنها عبقرية!

احمر وجه السيدة وانتفخت كأنها ضفدع غاضب وصاحت:

- عبقرية؟!.. لابد أنك مجنونة.. أبوها نفسه يقول إنها شخصية إجرامية.

- أبوها مخطئ...

- أنت قابلت الحشرة نصف ساعة بينما أبوها عرفها طيلة حياته!

حكت لها مس هوني ما حدث لها مع ماتيلدا، فنبحت مس ترنشبول قائلة:

- إذن هي حفظت بعض الجداول عن ظهر قلب يا آنسة.. هذا لا يجعلها عبقرية ولكن يجعلها ببغاء!

- لكنها كذلك تقرأ يا سيدتي..

- وكذلك أنا!.

- رأيي أنه يجب أن تنقل ماتيلدا لتكون مع الصبية ذوي الأحد عشر عاما..

- ها!.. إذن تريدين الخلاص منها!.. لا تريدين تحمل مسئوليتها وتبغين تعذيب معلمة أخرى بها!

- لا.. ليس هذا غرضي أبدا..

- وأنا أقول لا.. سوف تبقى حيث هي، وعليك أن تراقبيها بحذر...

- لكن..

- ولا كلمة أخرى.. قاعدتي هنا أن يبقى التلاميذ في سنهم مهما بلغت قدراتهم!..

وقفت مس هوني عاجزة أمام هذا العملاق ذي العنق الأحمر.

في النهاية قالت:

- ليكن.. كما تشائين يا سيدتي.

صاحت المرأة:

- معك حق.. الأمر أمري... ولا تنسى أننا نتعامل هنا مع أفعى صغيرة وضعت قنبلة تحت مقعدي.

- لم تفعل..

- بل فعلت.. وإنني لأتمنى لو كان مسموحا لي باستعمال العصا والحزام كما في الأيام الطيبة الخالية.. كنت سأشوى مؤخرتها فلا تقدر على الجلوس شهرا..

غادرت مس هوني الغرفة وقالت لنفسها

- لن أستسلم.. سأفعل شيئا لماتيلدا.. لا أعرف ما هو لكنى سأفعله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأبـوان

عندما غادرت غرفة المديرة كان معظم الصبية في الفناء. اتجهت لتقترض بعض الكتب من زملائها الذين يدرسون لسنوات أكبر.. كتب جبر وجغرافيا ولغة فرنسية ثم نادت ماتيلدا.

- ليس من المعقول أن تجلسي في الصف بلا عمل، بينما أنا أشرح جدول ضرب (2) وطريقة هجاء (قط) و (فار).. لذا سوف أعطيك بعض هذه الكتب وفي نهاية الدرس تأتيني وتسألين ما تريدين.. اتفقنا؟

- شكرا يا مس هوني.. هذا يبدو ممتازا..

فكرت مس هوني: ما ألطفها طفلة.. لا يهمني ما قاله أبوها إنها هادئة لطيفة ويبدو أنها لا تشعر البتة بمدى عبقريتها.

عندما التأم الصف جلست ماتيلدا في مقعدها وراحت تدرس الكتب. راقبتها مس هوني ورأت أنها غاصت في الكتاب تماما..

قررت المعلمة أن تذهب لبيت ماتيلدا وتكلم أبويها بنفسها. من المستحيل أن الأبوين لا يدركان مدى ذكاء ابنتهما، مستر ورموود بائع سيارات ناجح فلابد أنه ذكي. الأبوان لا يقللا من مواهب ابنهما بل العكس هو الصحيح دائما. أحيانا يستحيل على المعلم إقناع الأم أن ابنها مغفل تماما، لن تجد مس هوني صعوبة في إقناع الأبوين بعبقرية ابنتهما.

سوف تذهب الليلة في ساعة متأخرة بين التاسعة والعاشرة بعد ما تكون ماتيلدا قد أخلدت للنوم.

هذا ما فعلت.. عرفت العنوان من سجلات المدرسة ثم مشت من بيتها لبيت آل (ورموود) بعد التاسعة. كان البيت في شارع جميل بني بقرميد غالي الثمن، قرعت الجرس ووقفت تصغي لصوت التلفزيون بالداخل.

فتح الباب رجل يشبه الفئران له شارب رفيع ويليس معطف تدريب. وسألها:

- نعم؟.. هل تبيعين تذاكر يا نصيب؟.. أنا لا أشتريها..

قالت:

- لا.. أرجو أن تغفر لي تطفلي.. أنا مدرسة (ماتيلدا) وأريد الكلام معك وزوجتك.

- هل وقعت في المتاعب بهذه السرعة؟.. إنها مسئوليتك من الآن فصاعدا وعليك أن تدبري أمرك.

- ليست هناك أي متاعب.. جئت بأخبار مذهلة عنها.. هل لي أن ادخل لدقائق؟

قال لها:

- نحن نشاهد برنامجنا المفضل.. لم لا تأتين في وقت آخر؟

بدأت تفقد صبرها فقالت:

- مستر ورموود.. لو كنت ترى أن برنامج تلفزيون متعفنا أهم من مستقبل ابنتك، فأنت لا تصلح أبا!.. لم لا تغلق الجهاز

اللعين وتصغى لي؟

لم يعتد الرجل أن يكلمه أحد بهذه الطريقة، فنظر لها بحذر وقال:

- حسن.. تعالى ولننه الأمر بسرعة ولكن تذكري أن مسز ورموود لن تشكرك على هذا..

نظرت له الزوجة التي كانت تشاهد التلفزيون في نهم:

- من هذه؟

- معلمة مدرسة ما.. تقول إنها تريد الكلام عن ماتيلدا.

وخفض صوت جهاز التلفزيون فصاحت زوجته:

- لا تفعل يا هاري!! وبلارد سيطلب يد أنجليكا!

- تابعي أثناء الكلام.. هذه معلمة ماتيلدا تزف لنا بعض الأخبار..

- ما المشكلة إذن؟

لم يدع أحد مس (هوني) للجلوس لذا انتقت مقعدا وجلست..

وقالت:

- هذا أول يوم لابنتكما في المدرسة.

- هل تجشمت عناء المجيء لتخبرينا بهذا؟

نظرت مس هوني طويلاً للمرأة وأعطت نفسها وقتا قبل الرد، ثم قالت:

- هل تريدين معرفة سبب، مجيئي؟.. ماتيلدا في الصف الأول وبرغم هذا تقرأ وتكتب وتتعامل مع الأرقام.. تقول إن أحدا لم يعلمها..

- يعلمها ماذا؟..

- القراءة.. خطر لي أنك علمتها وأنها تكذب.. ربما كنتما قارئين نهمين.. الفتاة قرأت كتبا مهمة وضخمة.. أردت أن أعرف إن كانت جاءت من أسرة تحب الأدب.

قال مستر ورموود:

- نحن لا نحب القراءة.. لا يمكن أن تصيري ثرية بالجلوس على مؤخرتك وقراءة الكتب.. نحن لا نحتفظ بهذه الأشياء في البيت..

- فهمت.. قد جئت لأخبركما أن ماتيلدا عبقرية، لكن أحسبكما تعرفان هذا فعلا..

- نعرف أنها تقرأ..

- لكن ألا يثير هذا دهشتكما؟ فتاة صغيرة كهذه تقرأ هيمنجواي وديكنز؟..

- ليس بشكل خاص. أنا أمقت الفتيات المثقفات.. يجب على الفتاة أن تكون جذابة لتظفر بزوج.. الشكل أهم من العقل.. انظري لنفسك يا مس (هونكي).. أنت اخترت العقل وأنا اخترت الشكل.

نظرت مس هوني في دهشة للمرأة المكتنزة ذات الوجه المتبرج الشحيم وسألتها:

- ماذا تقولين؟

- أنا اخترت الشكل وأنت اخترت العقل.. من الرابح؟.. أنا جميلة وبيتي جميل ولديّ زوج ناجح، بينما أنت تدرسين ألف باء لأطفال قذرين..

قل زوجها:

- معك كل الحق يا قالب السكر..

قررت مس هوني أن عليها أن تتمالك أعصابها فقالت:

- ليس هذا كل شيء.. ابنتكما عبقرية أرقام.. يمكنها إجراء عمليات حسابية معقدة..

قل ورموود:

- وما نفع هذا ما دام يوسعك شراء آلة حاسبة؟

لم تستطع تصديق ما تسمعه.. كانت تعرف أن هناك أباء من هذا الطراز، لكنها صدمت للقاء بعضهم فعلا. قالت للأبوين:

- مشكلة ماتيلدا هي أنها تسبق صفها بكثير جدا.. أنا أؤمن أنها يمكن أن تصل لمستوى الجامعة خلال ثلاثة أعوام بشرط أن تلقى التعليم المناسب.

صاحت الأم:

- جامعة؟.. من المجنون الذي يرغب في دخول الجامعة؟.. كلهم يتعلمون عادات سيئة هناك..

- هذا غير صحيح.. لو أصابتك نوبة قلبية وطلبت طبيبا فهو خريج جامعة.. لو رفع عليك أحدهم قضية بسبب بيع سيارة مغشوشة فلسوف تطلبين محاميا من خريجي الجامعة على كل حال من الواضح أننا لن نتفق أبدا..

ونهضت خارجة.. ورافقها الزوج للباب وقال:

- جميل منك أن جئت يا مس (هوكس)..

- ليس اسمي (هوكس).. لكن.. أرجو أن تنسى الموضوع..

وانصرفت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قذف المطرقة

الشيء اللطيف بصدد ماتيلدا هو أنك لو قابلتها وتكلمت معها لحسبتها مجرد طفلة عادية عمرها خمس سنوات ونصف، لم تُبد قط أية علامات على أنها عبقرية، لن تعرف أبدا قوتها العقلية إلا لو بدأت تتناقش معها في الأدب أو الرياضيات.. لذا استطاعت ماتيلدا أن تعقد صداقات، وأحبها كل من في صفها. عرفوا طبعا أنها عبقرية لأنهم سمعوا مناقشاتها مع مس هوني في اليوم الأول. وعرفوا أنها لا تتابع الدرس بل تقرأ في كتب خاصة بها، لكن الأطفال لا يهتمون بالأسباب.. هم مشغولون بأنفسهم عن التساؤل عما يحدث للآخرين.

من بين صديقاتها كانت لافندر. وقد اعتادت الفتاتان المشي معا في الفسحة وساعة الغداء، كانت لافندر صغيرة الحجم لها شعر أسود مقصوص في خط أفقي حول جبهتها، ولها عينان بنيتان عميقتان. كانت ماتيلدا تحبها لأنها جريئة مغامرة. قبل نهاية أول أسبوع من الفصل الدراسي كثرت القصص عن المديرة. كانت الفتاتان تقفان في الفناء حين دنت منهما فتاة في العاشرة لها دمل على أنفها، واسمها (هورتنسيا) وقالت:

- قذارة جديدة على ما أظن؟.. مرحبا بكما في الإصلاحية!

وكانت تتكلم من ارتفاع عظيم، وقد تعلمت الفتاتان بسبب حجمهما الصغير ألا تثقا بأي كائن أضخم منهما. كانت تلتهم رقائق البطاطس من كيس كبير، تخرجه بقبضة مليلة. ظلت الصغيرتان صامتتين أمام هذا العلاق، وكانت رقائق البطاطس تتناثر على جانبي فمها كأنها الثلج.

- هل قابلتما الترنشبول بعد؟

- رأيناها في وقت الصلاة لكن لم نقابلها..

- تنتظركما متع عظيمة.. هي تمقت الأطفال الصغار جدا.. تؤمن أن الصف الأول يضم يرقات لم تخرج منها الديدان بعد. لو ظللتما حيين أول سنة فلربما تعيشان باقي سنى المدرسة هنا.. لكني رأيت كثيرين يغادرون المدرسة على محفة وهم يصرخون..

لكن الفتاتين ظلتا صامتتين، لذا قررت أن تضيف معلومات أخرى.

- هل تعرفان أن الترنشبول عندها خزانة اسمها (الخنّاقة)؟.. إنها خزانة عالية وضيقة جدا.. لا يمكنك الجلوس أو اتخاذ وضع القرفصاء.. ثلاثة حوائط من الأسمنت الذي يبرز منه زجاج مهشم فليس بوسعك الاستناد عليها..

سألتها ماتيلدا:

- ألا يمكن الاستناد إلى الباب؟

- بالطبع لا يمكن ذلك.. هناك مسامير عديدة تبرز من الباب.. لقد دقتها الترنشبول هناك.. أنا جربت الخنّاقة وقد حُبست فيها يوما كاملاً.

كانت تتكلم كأنها محارب قديم خاض الكثير من المعارك وصارت الشجاعة عادة عنده.

- مرة أخرى كانت الترنشبول تدرس للصف السادس.. طلبتُ الذهاب للحمام، لكن بدلاً من الذهاب هناك، تسللت لغرفتها.. ووجدت درجا تخفى فيه سراويل الجمباز الخاصة بها..

- سألتها ماتيلدا مبهورة:

- وماذا حدث؟

- كنت قد ابتعت بودرة العفريت الفعالة تلك.. مكتوب عليها أنها صنعت من الأنياب المطحونة للثعابين الميتة.. خمسون قرشا للكيس.. رششت المسحوق على كل سراويلها ثم أعدت كل شيء لمكانه..

- هل نجح؟

- بعد أيام بدأت تهرش كالمجانين.. كان من الممتع أن أجلس وأراقب عالمة أنني الشخص الوحيد في العالم الذي يعرف ما يحدث فعلا لها.. كنت أعرف أنه لا يمكن القبض عليّ.. لا بد أنها حسبت أن هناك عش دبابير في سراويلها..

كانت ماتيلدا ولافندر مبهورتين.. لقد عرفتا أنهما أمام واحدة من السادة، هذه الفتاة بلغت بفن المقالب قمة الكمال. فجأة لم يعد الدمل على أنفها قبيحا بل هو وسام شجاعة.

- لكن كيف قبضت عليك؟

- لم تفعل.. لكني قضيت يوما في (الخناقة) برغم هذا..

- كيف؟

- الترنشبول لديها عادة سيئة هي التخمين.. عندما لا تعرف الفاعل تخمنه.. والمشكلة أنها تصيب غالبا.. كنت المشتبه فيه ولم يكن هناك دليل، لكن لا فارق هناك.. لم يفدني الكذب.. جرتني من أذني إلى (الخنّاقة) وأغلقت الباب. هذه كانت مرتي الثانية...

- هي كالحرب!

- نعم هي حرب.. نحن الفرسان نقاتل من أجل حياتنا بلا سلاح.. بينما الترنشبول هي أمير الظلام.. الأفعوان الشرير.. التنين الناري.. هي حياة قاسية..

- يمكنك الاعتماد علينا..

- لا أستطيع.. أنتما جمبري.. لكن من يدري.. قد أكلفكما بمهمة سرية يوما ما..

- هل لديك قصص أخرى؟

- اسمعا هذا.. أمس أمسكَتْ بصبي اسمه جوليوس روتونكل.. كان يمتص الربسوس أثناء الدرس فحملته من ذراع واحدة، وأطارت به من النافذة.. رأيناه يطير كطبق طائر فوق الحديقة ويسقط وسط زرع الخص.. وقالت للصف: كل من أضبطه يأكل في الصف سيطير من النافذة. لا تنسى أنها كانت بطلة بريطانيا في رمي المطرقة، وهي فخور بنفسها جدا.. إنها تحب أن ترمي أي شيء خاصة الأطفال كي يظل ذراعها قويا.

- رباه!

- سمعتها تقول: هذا الصبي ثقيل جدًا لذا هو مفيد في التدريب...

هنا حدث شيء غريب.. دوت الصرخات في الفناء ثم ساد صمت القبور، نظرت (ماتيلدا) و (لافندر) فرأيتا مس ترنشبول العملاقة تمشى وسط الأولاد. كأنها تشق أمواج البحر. وكانت تزأر:

- أماندا ثريب!!!

صرخت الفتاة:

- أبقين قبعاتكن!

سألتها لافندر:

- ماذا هنالك؟

- تلك البلهاء أماندا تركت شعرها بطول.. وقد جمعته أمها لها على شكل ذيلي خنزير.. فكرة غبية جدا

- ما الغبي هنا؟

- لو كانت مس ترنشبول تمقت شيئا فهو عقص الشعر في ذيل خنزير..

ورأت الفتاتان الوحش يتقدم نحو طفلة في العاشرة لها ذيلا خنزير ذهبيان، كانت جميلة جدا.. لكنها وقفت تراقب الوحش القادم كأنها رجل في حقل يرى ثورا هائجا يهجم عليه. التصقت بالأرض وعرفت أن يوم القيامة بالنسبة لها قد جاء..

الآن دنت مس ترنشبول من الفتاة وأطلت عليها.. وقالت:

- أريد التخلص من هذين الذيلين القذرين قبل أن تأتي غدا.. أقطعيهما والقيهما في القمامة.. مفهوم؟

- لـ.. لـ.. لكن أمي تحبهما وتصنعهما لي كل صباح!

- أمك غبية!.. تبدين كفأر يخرج ذيله من رأسه! وأشارت إلى رأس الفتاة بإصبع بحجم قالب البسطرمة.

وأردفت:

- لا أبالي لحظة برأي أمك..

ثم أمسكت بذيلي الحصان ورفعت الطفلة عن الأرض، ثم راحت تدور بها حول نفسها مرارا ومرارا.. وأماندا تصرخ بلا توقف.

قالت الفتاة هورتنسيا:

- إنها تزيد سرعتها الآن كما في رمي المطرقة.. من الواضح أنها ستتركها فجأة.

بالفعل طارت أماندا بسرعة كأنها صاروخ فوق السياج، ثم ارتفعت نحو السماء. هبطت الفتاة فوق الأزهار المزروعة خارج المدرسة ثم جلست. وسرعان ما عادت تركض للمدرسة.

سألت ماتيلدا:

- لكن ألا يشكو الآباء؟

سألتها هورتنسيا:

- هل يمكن أن يشكو أبواك؟.. أبواي لن يفعلا فالجميع يخشاها حتى الموت.. سأراكما فيما بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بروس والكعكة

سألت لافندر ماتيلدا:

- كيف تنجو من هذا كله؟.. بالتأكيد يعود الصبية للبيت ويخبرون أهلهم.. أنا موقتة أن أبى سيجن لو سمع أن المدير ترفعني من شعري وألقتني فوق السور..

قالت ماتيلدا:

- لن يفعل ذلك لسبب بسيط.. لن يصدقك.. قصتك ستبدو سخيفة جدا وهذا سر الترنشبول..

- ما هو؟

- كوني كارثة لا توصف.. تأكدي من أن كل ما تفعين مجنون لا يصدق.. لا ترتكبي أنصاف جرائم بل جرائم كاملة.. لا يوجد أب سيصدق قصة الشعر هذه.. أهلي لن يفعلوا..

- هذا يعني أن أماندا لن تقص ذيل الخنزير..

- لن تفعل.. لكن أماندا سوف تفعل هذا بنفسها.. سترين.. إن التواجد في هذه المدرسة يشبه البقاء في قفص واحد مع ثعبان الكوبرا.. يجب أن تكوني يقظة جدا.

جاء الدليل الثاني على الخطر، عندما سمعوا في اليوم التالي أنه على كل المدرسة الاتجاه لقاعة الاجتماعات.

جلس الـ 250 تلميذا هناك.. ثم ظهرت مس ترانشبول إلى المنصة ولم يكن أحد المعلمين معها، وقفت على المنصة تنظر

للوجوه المحملقة فيها وقد فتحت ساقيها وأمسكت بسوط صغير..

- ماذا سيحدث؟

- لا أعرف..

نبحت الترنشبول:

-- بروس بوجتروتر!!.. أين بروس بوجتروتر؟

ارتفعت يد من بين التلاميذ فأمرته بأن يأتي.

ظهر صبي في الحادية عشرة، بدين ضخم، ومشى للأمام وصعد للمنصة. فأمرته بأن يقف. كان يعرف بالتأكيد أنها لم تناده لإعطائه جائزة. كان وجهه المكتنز رمادي اللون وجورباه يتدليان على حذائه.

قلت وهي تشير بالسوط إليه:

- هذه الجلطة البشرية.. هذا الدمل العفن.. هذه الثألولة السامة. ليس سوى لص مقزز.. عضو مافيا. ساكن العالم السفلي!

نظر لها الصبي غير فاهم فصاحت:

- لص!.. نصاب!.. قاطع طريق!.. لص ماشية!.

قال في دهشة:

- أنا؟

- هل تنكر هذا يا خراج اللثة؟.. هل تدفع بالبراءة؟

- لا أعرف عما تتكلمين

صاحت:

- صباح أمس أيها الخراج الذي ينز الصديد تسللت كالأفعى للمطبخ وسرقت شريحة من كعكة الشوكولاتة الخاص بي!.. أعدتها الطاهية لي.. وجبة إفطاري!.. هل حسبت للحظة أنني سآكل القاذورات التي أطعمها لكم؟.. هذه الكعكة طهيت بزبد وقشدة حقيقيين! وهذا اللص.. قاطع الطريق سرقها..

ابيض وجه الفتى وقال:

- لم أفعل.

- لا تكذب.. الطاهية رأتك تأخذها.. رأتك تأكلها!

فجأة صار صوتها أرق.. ثم انحنت على الصبي وقالت:

- هل تحب الشوكولاتة يا (بوجتروتر)؟.. إنها لذيذة دسمة.. أليس كذلك؟

- جدا..

قالها قبل أن يدرك ما يقول.

- معك حق.. لذيذة جدا.. يمكنك أن تهنئ الطاهية كأي جنتلمان.. لكن سكان العالم السفلي ليسوا معروفين بالرقي..

ثم صاحت:

- أيتها الطاهية! تعالي!

ونظرت للباب فدخلت الطاهية وهي امرأة نحيلة طويلة، يبدو كأن كل عصارات جسمها جفت في فرن.. وكانت ترتدي ميدعة قذرة.

- قل لها رأيك في الكعكة.

- رائعة..

قالها الصبي وهو يتساءل عما يُدبَّر له. فقط كان يعرف أن القانون يمنع الترنشبول من ضربه بالسوط الذي تحمله. وهذا أراحه لكن ليس كثيرا.. فهي امرأة لا يمكن التنبؤ بما تنويه...

- هل عندك المزيد من الكعكة؟

- نعم..

- هاتها وهاتي سكينا..

غابت الطاهية وسرعان ما عادت بكعكة عملاقة عالية مغطاة بالشوكولاتة، ووضعتها على المائدة.

أمرته (ترنشبول):

- اجلس على المنضدة يا (بوجتروتر).. كلها لك.. كل قضمة منها.. قال في حيرة:

- لا.. شكرا..

- اشكرها ولا تشكرني..

- شكرا أيتها الطاهية..

وقفت الطاهية وقد زمت شفتيها، وبدا كأن فمها مليء بعصير الليمون.

- الآن اقطع لنفسك شريحة وكلها..

- الآن؟.. هل لي أن أخذها للبيت؟

قالت ضاحكة:

- هذا سيكون قلة ذوق.. يجب أن تريها مدى امتنانك.. هلم!.. كل!.. ليس لدينا اليوم بأكمله.

نظر للكعكة ثم إلى ترنشبول.. وبدأ يدرك الفخ. كان الأطفال يراقبون المشهد في فضول وتوتر.. ربما كانت الكعكة مليئة بالفلفل أو زيت الكستر أو أية مادة تسبب له الغثيان. ربما تنفجر فيه.

- لا أريد..

- كلها يا حشرة.. أنت تهين الطاهية..

بدأ الصبى يأكل.. فسألته المديرة:

- لذيذة؟

- رائعة..

- شريحة أخرى..

- هذا كاف.. شكرا..

- قلت خذ شريحة أخرى!.. كل!!!.. أنت أردت الكعك.. سرقت الكعك!.. الآن أعطيتك الكعك.. لن تنهض ولن ينهض

مخلوق قبل أن تنهي هذه الكعكة.

قطع شريحة أخرى وبدأ يأكلها. هل ينجح في ذلك؟.. مستحيل.. سوف يصيبه الغثيان قبل أن ينهي نصفها.

- كل!.. اللصوص الصغار الشرهون الذين يحبون الكعك يجب أن يأكلوا الكعك!.. كل!.. لو توقفت لجررتك إلى (الخنّاقة) وأغلقت عليك الباب ورميت بالمفتاح في البئر! بدأ الصبي يأكل وإن لم تبد عليه علامات الضيق بعد.. وهمست ماتيلدا للافندر:

- إنه على ما يرام..

- سوف يقيء حالا

التهم الصبي نصف الكعكة وأخذ عدة أنفاس عميقة، وفجأة تجشأ بقوة فدوى الصوت كالرعد في القاعة كلها.. وبدأ بعض الجلوس يضحكون.

لكن الصبي ظل متماسكا وقطع لنفسه شريحة أخرى، هنا بدأ شعور عام يغمر الصبية الجالسين.. في البدء شعروا بقدوم الكارثة، وانظروا لحظة أن يصرح الصبي طالبا الرحمة أمام (ترنشبول) المنتصرة..

لكن هذا لم يحدث، وشعر البعض بأنه يستمتع.. كان أمامه جبل يجب تسلقه وها هو ذا يقترب من القمة. وبدأ يدرك أن كثيرين يراقبونه وأن هذه معركة شخصية بينه والترنشبول.

فجأة هتف أحدهم - هلم بروسي!.. بوسعك عمل ذلك!

استدارت لهم المرأة وصاحت:

- الصمت!!.

لكنهم جميعا شعروا بأن بروس بدأ يربح.. الترنشبول كذلك راح وجهها يحمر ويحمر.. بدا كأنها ستقتله لو نجح..

كان الصبي يواصل قذف الكعك في فمه. انتهت آخر قطعة فدوى التصفيق.. راح الصبية يصرخون ويقذفون المقاعد.

وقفت الترنشبول صامتة، وقد صار وجهها بلون الحمم الذائبة.. كان الصبي على المقعد يتنفس بصعوبة والعرق يغمر وجهه لكنه يضحك منتصرا.

رفعت الصحفة الصينية التي كانت عليها الكعكة وهوت على رأسه بكل قوتها..

كان الصبي منتفخا حتى صار ككيس مليء بأسمنت مبتل، ولم يكن بوسعك أن تؤذيه حتى بمطرقة. فقط هز رأسه..

غادرت مس ترنشبول المنصة وهي تغلى تتبعها الطاهية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في منتصف الأسبوع الأول، قالت مس هوني للصف:

- لدى أخبار مهمة لذا أصغوا لي.. ضعي هذا الكتاب يا ماتيلدا واصغي.. من دأب المديرة أن تأخذ الصف لفترة كل أسبوع.. مثلا صفنا تأخذه الساعة الثانية بعد ظهر الأحد. غدا سوف تأتي المس ترنشبول لحصة واحدة.. أنا سأكون موجودة لكن كشاهدة صامتة.. هل هذا مفهوم؟

غرد الأطفال:

- نعم يا مس هوني..

- تحذير لكم.. هي دقيقة جدا لذا لتكن ثيابكم نظيفة، ولا تتكلموا إلا عندما تكلمكم.. لا تجادلوها.. سوف تثيرون غضبها ولو غضبت فعليكم أن تحترسوا.. سوف تسألكم عما أخذتموه هذا الأسبوع.. هذا جدول (2) لذا يجب أن تحفظوه وتسمعوه لأهلكم في البيت.. يجب أن يكون هناك دورق وكوب ماء على المنضدة.. من يكون مسئولا عن ذلك؟

قالت لافندر:

- أنا...

كانت قد وضعت خطة لأنها ترغب في عمل شيء بطولي.. كانت معجبة بالفتاة (هورتنسيا) التي قامت بأعمال بطولية.. لقد جاء دورها لعمل شيء بطولي.

في طريقها للبيت كانت تقلب الأفكار، وفي النهاية راحت تخطط كما فعل ولنجتون ضد بونابرت في موقعة ووترلو.. لا أحد ينكر أن مديرة المدرسة أكثر خطرا من القائد الفرنسي. ستخاطر كثيرا جدا ولسوف يكون عليها التزام السرية لو أرادت أن تخرج حية.

كانت هناك بركة موحلة في حديقتها وبها مستعمرة من السمندل [3].. هذا حيوان يملأ البرك لكن من النادر أن تراه لأنه خجول.. هو قبيح جدا بشع الخلقة كأنه تمساح رضيع أخضر اللون برتقالي البطن.. عديم الضرر..

ذهبت للبركة وقررت أن تصطاد سمندلا.. ليس هذا سهلاً فهو سريع الحركة. استعملت قبعة المدرسة كشبكة واقتنصت واحدا.. ثم وضعته في صندوق الأقلام الذي فرشته بأعشاب البرك.. لقد صار لها. فتحت الغطاء قليلا لتسمح له بالتنفس.

في اليوم التالي حملت سلاحها للمدرسة وهي مضطربة من الانفعال. قررت ألا تخبر أحدا حتى لا ينطق أحد باسمها حتى لو تعرض لأعتى تعذيب.

بعد غداء من البسلة والسجق، اتجهت للمطبخ وبحثت عن دورق ماء ترنشبول، كان مصنوعا من الخزف الأزرق، ملأته بالماء ثم حملته مع كوب ماء إلى الصف على منضدة المدرس فتحت علبة الأقلام وبحذر أفرغت السمندل في الدورق، فسمعت صوت (بلوب) وهو يهبط للقاع. تحرك بهياج بعض الوقت ثم استقر.. وضعت له بعض الأعشاب لتشعره بالألفة.

تم كل شيء.. عادت لمقعدها.. ثم لحقت بصديقاتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الاختبار الأسبوعي

في الثانية انعقد الصف ومعه مس هوني. جلست في الخلفية، وانتظر الجميع. فجأة دخلت المديرة العملاقة، ونبحت:

- عصرا سعيدا يا أطفال..

غردوا:

- عصرا سعيدا..

وقفت أمام الصف ترقبهم ثم قالت في قرف كأنها ترى شيئا قذرا تركه كلب على سجادة:

- ليس مشهدا جميلا.. يا لكم من مجموعة ثآليل مقرفة!

قرر الجميع الصمت. فقالت:

- أريد أن أقيء لفكرة أن عليّ تحمل قمامة مثلكم ستة أعوام.. أهلكم يخبرونكم أنكم رائعون وأنا هنا أخبركم بالعكس..

وراحت تنفخ من أنفها.. نفس الصوت الذي تسمعه لو مشيت في اسطبل خيول

- قيام!.. افرد يديك أمامك وسوف أمر لأرى إن كانتا نظيفتين

بعد التفتيش قالت:

- سوف أختبر الصف في جدول الضرب لأرى إن كانت مس هوني قد علمتكم أي شيء..

وراحت تتفقد الأطفال بعينيها الشيطانيتين، ثم صاحت:

- أنت!.. ما حاصل 7 x 2 قال الصبي الذي كان يدعى روبرت:

- 16

مشت نحوه بخطوات واثقة كنمرة تتربص بغزال صغير، فاستشعر الصبي إشارات الخطر وحاول ثانية:

- 18.. 18..

انفجرت فيه:

- أيتها العلقة الجاهلة!.. لماذا تزوجت كل هاته النسوة؟.. أيها الفأر الخالي من العقل!.. يا كرة الصمغ الغبية!..

كانت الآن تقف خلفه فمدت كفا بحجم مضرب تنس وأمسكت بشعره. كانت أمه تحب شعره وتجعله طويلا.. وكانت الترنشبول تكره الشعر الطويل على الصبية فعلا. مدت يدها ورفعت الصبي من شعره وأبقته كذلك.

صرخ الصبي وراح يركل ويصرخ بينما قالت الترنشبول:

- 14.. 7 x 2 = 14.. لن أتركك حتى تقولها!

من مؤخرة الصف صاحت مس هوني:

- مس ترنشبول.. أرجو أن تنزليه.. قد يخرج شعره في يدك.

كان يتملص كسمكة في نهاية صنارة.. بينما المرأة العملاقة تأمره:

- قلها.. وإلا رحت أهزك حتى أنتزع شعرك ولسوف يكون كافيا لتنجيد أريكة!..

- 14.. 14..

أطلقت سراحه وكان على ارتفاع عال عن الأرض، فهوى كأنه كرة..

التلاميذ كانوا منومين مغناطيسيا.. فلم ير أحدهم شيئا كهذا من قبل. قنبلة بشرية عملاقة توشك على الانفجار فيهم.. قالت المديرة:

- أنا لا أحب الأطفال.. لا يجب أن يراهم أحد.. يجب حفظهم في صناديق.. لا أعرف لماذا يأخذون كل هذا الوقت لينموا.. أحسبهم يتعمدون هذا..

ثم أضافت وهي تعود لمكانها:

- هكذا يكون التعليم يا مس هوني.. يجب أن تدقي المعلومة في عقولهم ولا تكتفي بذكرها.. هكذا لن ينسوها أبدا.. اسحبيهم من آذانهم فقد علمتني الخبرة أن آذان الصبية لا تخرج في يدك أبدا كأنها ملتصقة بأجسادهم.. كل ما هنالك أنها تستطيل قليلا.. هنا التقت عيناها بماتيلدا فسألتها:

- ما اسمك؟

- ماتيلدا ورموود..

- ابنة تاجر السيارات المستعملة؟.. إنه نصاب!.. لقد باعني سيارة منذ أسبوع وقال إنها جديدة.. اليوم وأنا أقودها سقط

صندوق السرعات على الأرض.. كان قد ملأه بنشارة الخشب!.. النصاب!.. سوف أسلخه وأصنع من جلده سجقا!

قالت ماتيلدا:

- هو بارع في مهنته.

- بارع؟!.. مس هوني تقول إنك بارعة كذلك!.. أنا لا أحب البارعين يا آنسة.. كلهم نصابون. قبل أن أكتشف معدن أبيك حكى لي عن سلوكك المعيب في البيت.. لكن لا تحاولي شيئا في هذه المدرسة يا آنسة لأنني أراقبك بعناية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المعجزة الأولى

جلست الترنشبول في مقعد المعلم للمرة الأولى. مدت يدها وتناولت دورق الماء وقالت:

- لا أفهم أبدا لماذا يشير الأطفال الغثيان لهذه الدرجة.. إنهم آفة حياتي.. كالحشرات.. يجب الخلاص منهم بسرعة.. أتمنى اختراع سبراي يقتل الأطفال كما نفعل مع الذباب.. أحلم بدخول الصف بعلبة سبراي كبيرة أرشها عليكم وينتهي الأمر..

قالت مس هوني:

- لو كانت هذه نكتة يا سيدتي فهي ليست مضحكة..

- ليست نكتة.. فكرتي عن المدرسة الطيبة هي المدرسة التي ليس فيها أطفال.. يوما ما سأبدأ مدرسة كهذه..

فكرت مس (هوني): المرأة مجنونة تماما.. يجب الخلاص منها.

رفعت الترنشبول الدورق وصبت بعض الماء في الكوب، هنا سقط السمندل الصغير مع الماء، بلوب!

أطلقت المرأة صرخة ووثبت من مقعدها كأنما اشتعلت فيه النار، رأى الأطفال الشيء الأصفر الشبيه بالسحلية يلعب خلف الزجاج.

- ما هذا؟.. إنه مقزز.. هل هو ثعبان؟.. تمساح صغير؟

صاحت لافندر:

- احترسي يا مس ترنشبول.. أعتقد أنه يعض...

راحت المرأة ترتجف كالمهلبية. كانت مغتاظة لأن هذا المقلب جعلها تصرخ وتثب وهي الفخور بثباتها. لم تكن قد رأت سمندلاً من قبل. لم تعرف ما هو قط فالتاريخ الطبيعي لم يكن قط من نقاطها القوية، كانت نيران الحقد ترقص في عينيها الصغيرتين السوداوين.

صرخت:

- ماتيلدا!.. قفي!.

سألتها الفتاة:

- أنا؟.. ماذا فعلت؟

- قفي أيتها الصرصور المقرف!

- لكني لم أفعل شيئا يا سيدتي..

كانت لافندر خلفها تشعر بالذنب.. لكنها كذلك لم تكن لتعترف.

صاحت الترنشبول:

- سوف أتأكد من طردك من المدرسة بمضارب الهوكي.. سوف أتأكد من أن تمضي أربعين عاما على الأقل في إصلاحية للبنات اللقيطات!

صار وجهها كالمسلوق، وراح الزبد يخرج من جانبي فمها لكنها لم تكن الغاضبة الوحيدة.. ماتيلدا كذلك بدأت ترى الدنيا

باللون الأحمر.. تجربة جديدة بالنسبة لها أن تُتهم بشيء لم تفعله.. لا علاقة لها بهذا الكائن في الكوب.

صاحت:

- لم أفعل!

صاحت المرأة كالمجنونة وقد فقدت التحكم في نفسها تماما:

- بل فعلت.. كان أبوك محقا عندما أنذرني.. لقد انتهى الأمر لك.. سوف أتأكد من وضعك في مكان لا تقدر حتى الغربان على أن تلقى فضلاتها عليك فيه!.. لن تري النور ثانية!

- وأنا أقول لك لم أفعل!

- أنت وضعت تمساحا في مائي!.. اجلسي!.. اجلسي!

- لكني أقول لك..

- آمرك بأن تجلسي وتخرسي.. لو لم تفعلي لنزعت حزامي وأعطيتك علقة...

جلست ماتيلدا شاعرة بالغيظ.. أكثر.. فأكثر.. حتى شعرت بأنها ستنفجر ما لم تفعل شيئا.

كان السمندل يسبح في الماء. الكوب كان ضيقا عليه.. راحت ماتيلدا ترمق الكوب.. تحلم بأن تحمل الكوب وتفرغه على رأس الترنشبول.

الترنشبول كانت جالسة في مقعدها ترمق السمندل في رعب.. عينا ماتيلدا على الزجاج. فجأة شعرت بشعور غريب..

كان كهرباء غامضة تسري فيها.. عيناها تسخنان.. بدأت القوى تتراكم.. تمس الزجاج..

رأت الكوب يهتز.. يميل للخلف ثم اعتدل..

واصلت دفعه بذهنها..

- انقلب!

الكوب يرجع للخلف ويميل بحيث لم يعد يستند إلا على طرف منه. ثم انفجر الماء في وجه مس ترنشبول. أطلقت المرأة صرخة حادة لا بد أنها حطمت كل نوافذ البناية وطارت من المقعد.. تمسّك السمندل بصدرها بأرجله الدقيقة ذات المخالب، نظرت لأسفل فرأته.. فصرخت ثم بضربة من يدها قذفت الكائن عبر الغرفة، نزل جوار قدم لافندر فالتقطته بخفة ووضعته في علبة الأقلام. إن السمندل شيء مفيد.

كانت الترنشبول تقف أمام الصف وقد غرق صدرها العملاق بالماء، وكانت تصرخ:

- من فعل هذا؟.. من دفع هذا الكوب؟

لم يجب أحد وظلت الغرفة صامتة كالقبر.

صاحت:

- ماتيلدا!.. هذه أنت!.. أعرف أنك من فعل هذا!

لم تقل ماتيلدا شيئا.. غمرها شعور بالسلام والثقة حتى لم تعد تخشى أحدا في العالم. لقد قلبت الكوب على المديرة بعينيها. إنها قادرة على أي شيء آخر.

قالت بثقة:

- أنا لم أبرح مكاني يا سيدتي.. الكل يرى هذا.

فجأة ثار الصف كله:

- هي لم تتحرك.. لم يتحرك أحد.. صاحت المرأة:

- تكلمي يا مس هوني، من فعل هذا؟

- لا أحد يا سيدتي.. كنت سأشهد لو تحرك أي تلميذ.

- أنا قد بلغت روحي الحلقوم من مجموعة الأقزام هذه لن أضيع وقتي الثمين هنا..

وغادرت الصف وصفقت الباب خلفها.

مشت هوني لمقدمة الصف وقالت:

- ف ف!.. أعتقد أننا اكتفينا من المدرسة اليوم.. لينصرف الفصل.. يمكنكم الذهاب للفناء وانتظار أولياء الأمور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المعجزة الثانية

لم تتعجل ماتيلدا مغادرة الصف. ظلت في مقعدها صامتة تفكر. كان عليها أن تخبر أحدا بقصة الكوب.. لا يمكنها أن تبقي الأمر سرا، تحتاج لشخص كبير عاقل تثق به.. لا يمكنها أن تخبر أبويها، لذا فكرت في مس هوني.

لم يبق في الصف سواها ومس هوني. كانت المعلمة جالسة تراجع بعض الأوراق، فسالتها:

- ماتيلدا.. ألن تنصرفي؟

- هل لي أن أكلمك لحظة؟

- بالطبع..

- شيء غريب قد حدث لي..

منذ قابلت أبويها استحوذت ماتيلدا على تفكيرها بشدة، وكانت تفكر كيف تساعدها. لم ترها من قبل جادة ومتسعة العينين هكذا.

- أنت رأيت الكوب الذي كان السمندل فيه.. أليس كذلك؟.. لم ألمسه قط.

- أعرف ذلك وسمعتني أقول لها إنه من المستحيل أن تكوني أنت..

- في الحقيقة كنت أنا يا مس هوني.. نظرت لها في حيرة وقالت:

- أخشى أنني لا أستطيع أن أتابع ما تقولين.

- غضبت لاتهامي بشيء لم أقترفه لذا حدث هذا.. جعلت الكوب ينقلب..

- ما زلت لا أفهمك..

- تمنيت هذا بقوة.. عندها شعرت بعيني تسخنان وانقلب الكوب.

ظلت مس هوني تنظر في عيني ماتيلدا، لكن الأخيرة بادلتها النظرات بثبات. ساد الصمت لكنها لم تتوقع أن تكذب ماتيلدا. فقط هي تطلق العنان لخيالها:

- هل تعنين أنك من مكانك أمرت الكوب بأن ينقلب ففعل؟

- بالضبط

- إذن هي أكبر معجزة قام بها إنسان منذ عهد المسيح..

- فعلت ذلك يا مس هوني..

- هل يمكنك عمل ذلك ثانية؟

- ربما..

وضعت مس هوني الكأس أمامها وقالت لماتيلدا:

- هل أملؤه بالماء؟

- لا أحسب هذا يهم..

- إذن اقلبيه..

- هذا قد يحتاج لوقتز

جلست ماتيلدا وضغطت على وجهها وراحت تركز. صرخت داخل رأسها آمرة الكوب بأن ينقلب.. شعرت بالسخونة والحرارة في عينيها.. ثم شعرت بملايين الأذرع الدقيقة غير المرئية تندفع نحو الكوب.. رأته يميل ثم يتدحرج جوار يد مس هوني.

سقط فك مس هوني واتسعت عيناها حتى صار البياض يحيط بالقرنية. لم تقل كلمة، لقد أخرستها رؤية هذه المعجزة تتم ابتعدت عن الكوب كأنه شيء خطر، ثم رفعت رأسها نحو ماتيلدا كانت الفتاة بيضاء كورقة.. ترتجف متبدلة الوجه.. لا تتكلم.

ظلت مس هوني ترتجف هي نفسها وهي تعود للحياة ببطء..

وقالت للطفلة:

- كنت بعيدة جدا...

- كنت كذلك.. كنت أطير بين النجوم بأجنحة من فضة..

راحت مس هوني تنظر للطفلة في عجب كأنها الخلق.. ميلاد النهار.. أغمضت عينيها وهتفت:

- هذا مستحيل.. لا أصدق.. مستحيل.. هل لك أن تأتي لكوخي لشرب الشاي معي؟

- بالتأكيد

- اجمعي حاجياتك وقابليني بعد قليل..

- لا تخبري أحدا بما رأيت يا مس هوني..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كوخ مس هوني

مشت ماتيلدا مع مس هوني عبر شوارع القرية، وقد استبدت بها حيوية شديدة، إنها قادرة على تحريك أي شيء.. فقط تركز بقوة حتى توشت عيناها على الاحتراق.

فقط اهدئي يا صغيرتي.. اهدئي.

- ولماذا يا آنسة؟

- لأننا نلعب بقوى غامضة يا صغيرتي.. لا نعرف أي شيء عنها.. لا أحسبها شريرة، ولربما كانت خيرة.. دعينا نكن حذرين فالوصف الدقيق لهذا هو (ظاهرة).. نحن نتعامل مع (ظاهرة)..

- أنا ظاهرة؟

- أعتقد هذا.. علينا الاستكشاف.. نحن فقط.. لنتعامل بحذر.. أريد أن أعرف إن كانت هذه القدرة تأتي من قوتك العقلية؟

- هل تعنين أن رأسي لا يتسع لهذا العقل، لذا يبرز شيء ما بالخارج؟

- ليس هذا ما قصدته.. أعني أن علينا أن نكون حذرين..

على يسار الطريق كانت بوابة صغيرة فقالت مس هوني:

- من هنا...

وفتحت البوابة واقتادت ماتيلدا وأغلقتها. لم تكن ماتيلدا قد فكرت من قبل في سكنى مس هوني.. كانت تتعامل معها

كمعلمة.. شخص يأتي من لا مكان ويدرس في المدرسة ثم يختفي.. لم يسأل أي تلميذ نفسه من قبل أين يذهب المدرسون بعد ساعات الدراسة. هل لهم أم أو أخت؟

- هل تعيشين وحدك يا مس هوني؟

- نعم.. جدا..

وأردفت:

- هو مجرد كوخ لعمال المزرعة.. لا تتوقعي الكثير.. في النهاية بلغتا بوابة تحيط بها النباتات، فرأت ماتيلدا ممرا ترابيا ضيقا يقود إلى كوخ من قرميد أحمر، كان صغيرا أقرب لبيت دمية. كان له سقف اردوازي ومدخنة صغيرة ونافذتان. هناك شجرة بلوط عملاقة تبدو كأنها تحمي الكوخ من العالم الخارجي. بدا لماتيلدا المكان خياليا لا علاقة له بالعالم الخارجي..

كأنه رسم في قصص الأخوين (جريم) أو (هانس أندرسون). بيت ذات الرداء الأحمر أو بيت الأقزام السبعة.

فتحت باب الكوخ ودخلت.. قالت مس هوني لماتيلدا:

- تعالى نعد الشاي معا..

ومشت في شيء يشبه النفق نحو المطبخ، لم يكن حجمه أكبر من خزانة ثياب واسعة.. هناك خزانة ورف لإعداد الطعام، هناك موقد (بريموس) [4] ونصف زجاجة لبن.

- يمكنك إحضار بعض الماء إلى أن أوقد البريموس.. البئر خلف الكوخ.. خذي الدلو. هناك حبل في البئر لتربطي الدلو بطرفه.. لكن حاولي ألا تقعي..

أخذت ماتيلدا التي بدأت تجد الأمر مسليا الدلو وخرجت للحديقة الخلفية. ربطت الدلو به ودلت به للبئر، عادت بالدلو المليء لمس هوني:

- هل هذا كاف؟

- كاف.. طبعا لم تفعلي هذا من قبل.

- بالطبع لا.. لكن كيف تجدين ماء كافيا للمغطس؟

لا أستحم في مغطس.. أستحم واقفة.. أملأ دلوا بالماء وأسخنه ثم أسكب الماء على نفسي.. هكذا يفعل كل شخص فقير في إنجلترا..

- هل أنت فقيرة يا مس هوني؟

- نعم.. هذا الموقد رائع.. أليس كذلك؟

كان موقد البريموس يلتهب بلهب أزرق بينما بدأ الماء يغلى بالفعل. أحضرت البراد ووضعت فيه الماء وبراد الشاي ثم جلبت رغيفا أسمر فقطعته نصفين، وبالسكين دهنته بالسمن.

سمن؟.. فكرت ماتيلدا.. لابد أنها فقيرة فعلاً.

وضعت مس هوني كل هذا أمام ماتيلدا وقالت لها:

- أنا آسفة فليس لديّ سكر..

لم تعلق ماتيلدا لأنها شعرت بحساسية الموقف.

- تعالي نشربه في غرفة الجلوس..

كانت غرفة الجلوس تلك مربعا صغيرا يشبه الزنزانة.. هناك نافذة لكن بلا ستائر. هناك صندوقان يعملان كمقعدين. لا صور، والسقف منخفض والجدران بيضاء لكن اللون الأبيض لا يبدو كطلاء. كان هذا من (الجير) الرخيص الذي يستعمل في اسطبلات الخيول.

أصيبت ماتيلدا بالذهول.. إذن هنا تعيش مدرستها الأليفة الرقيقة. هل هذا ما تعود له بعد يوم من العمل المرهق؟.. هذا لا يصدق.. هناك شيء غريب هنا..

- تفضلي يا عزيزتي.. شريحتا الخبز لك.. أنا لا أكل في البيت أبدا لكنى أكل في المدرسة. هذا بيقيني شبعانة حتى الغد..

جلست ماتيلدا على صندوق وتناولت شريحة مغطاة بالسمن على سبيل التهذيب، في البيت كانت تأكل التوست بالزيد ومربى الفراولة وربما بعض الكعك الإسفنجي، لكن هناك سرا في هذا البيت.. سرا كبيرا..

صبت مس هوني الشاي وأضافت له القليل من اللبن، لم تبد متضايقة من الجلوس على صندوق وشرب الشاي في قدح لا يتزن على ركبتها. قالت لماتيلدا:

- علينا أن نعرف حدود قوتك.. أنت تعتقدين أن بوسعك تحريك أي شيء لكن على قدر علمي لابد من حد ما..

- أتمنى أن أجرب حظي مع شيء عملاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سكت ماتيلدا:

- مس هوني.. هل لا يدفعون لك مالاً كافيا في المدرسة؟

- ليس سيئا.. أنا أقبض ما يقبضه الآخرون..

- لكن لابد أنه قليل ما دمت بهذا الفقر.. هل كل المدرسين يعيشون هكذا بلا أثاث ولا مطبخ ولا حمام؟

- لا.. أنا استثناء..

- هذا يجعل تنظيف البيت أسهل.. لا تلمعين الأثاث ولا كل الأشياء السخيفة التي يتراكم فوقها الغبار.. ومن دون ثلاجة ليس عليك الخروج لشراء عشرات الأشياء التي لا تحتاجين لها لملء الأرفف.

لاحظت ماتيلدا أن وجه مس هوني تغير واربد.. زمّت شفتيها وأمسكت بكوب الشاي بكلتا يديها متأهبة للرد على هذه الأسئلة غير البريئة جدا. لقد تغير الجو في الغرفة الصغيرة بسرعة وساد جو من الارتباك والتوتر، قالت ماتيلدا:

- آسفة.. لم يكن هذا شأني..

قالت مس هوني:

- ولم لا تسألين.؟. كان يجب أن تسألي في النهاية فأنت ذكية جدا.. ربما دعوتك هنا لذات السبب فأنت أول شخص يزورني منذ عامين.

أنت أحكم بكثير من سنك يا ماتيلدا.. هذا يذهلني.. لا أقدر على أن أعتبرك طفلة، بل أنت طفلة ناضجة لو كان لي أن أقول هذا.. لا أقدر على الكلام مع أحد عن مشاكلي.. ليست لديّ الشجاعة ولا أقدر على مواجهة الحرج.. لقد فقدت أية شجاعة لديّ وأنا صغيرة.. أنت فتاة صغيرة لكن هناك سحرا فيك..

تنبهت ماتيلدا.. كانت معلمتها تطلب العون منها.. هذا مؤكد.

صبت مس هوني المزيد من الشاي وأضافت اللبن، ثم أمسكت كوبها بيديها وقالت:

- أنا في الثالثة والعشرين.. كان أبي طبيبا في هذه القرية، وكان لدينا بيت جميل كبير.. هناك خلف الغابة.. لقد ولدت هناك ثم حلت أول مأساة عندما ماتت أمي وأنا في الثانية، كان أبي مشغولاً واحتاج لمن يعنى بالبيت وبي لذا دعا شقيقة أمي غير المتزوجة.. خالتي.. فوافقت.. كانت في الثلاثين لكني كرهتها من أول لحظة.. لم تكن خالتي امرأة طيبة. لم يعرف أبي هذا لأنه لا يعود للبيت تقريبا.. عندما يعود للبيت كانت تتصرف بشكل مختلف.

ثم صمتت وصبت لنفسها بعض الشاي وأردفت:

- جاءت المأساة الثانية عندما مات أبي وأنا في الخامسة.. مات فجأة.. صرت وحدي مع خالتي.. صارت الوصية عليّ. لها كل سيطرة الأب عليّ وصارت مالكة البيت..

- كيف مات أبوك؟

- كنت صغيرة وقتها فلم أسأل.. فيما بعد وجدت أن موته محاط بالغموض.. لم يصدق أحد أن يفعل شيئا كهذا..

- يصدق ماذا؟

- أنه قتل نفسه.

- حقا؟

- هكذا بدا الأمر.. لكن من يعرف؟...

هنا قالت ماتيلدا:

- أعرف ما تفكرين فيه.. أن خالتك هي من قتله.

- لم أعد أفكر.. لا جدوى من التفكير من دون دلائل..

كانت يداها ترتجفان على الكوب..

سألت ماتيلدا: .

- وبعد ذلك؟.. ماذا حدث عندما صرت وحدك مع الخالة؟

- كانت شيطانا.. صارت رعبا حقيقيا.. صارت حياتي كابوسا..

- ماذا فعلت؟

- لن أحكي.. فقط بدأت أرتجف كلما جاءت البيت.. أنا لم أكن قط شخصية قوية مثلك.. كنت خجولا انعزالية.

- ولم يكن لك أقارب آخرون؟

- لا.. ذهبت بعد ذلك للمدرسة التي أنت فيها.. يجب أن تفهمي أنني مع مرور الزمن ازددت جبنا وصرت ألبي أي نداء لخالتي.. كنت أغسل وأكوي الثياب لها كأنني عبدتها.. كنت أعيش في ذعر.. كنت تلميذة متفوقة وكان بوسعي أن أدخل

الجامعة لكنها لم تسمح لي لأنها كانت بحاجة لي في العمل. التحقت بمركز تدريب المعلمات.. لن تعرفي أبدا شعور أن تجدى نفسك مقهورة بالكامل بشخصية قوية كهذه.. أن تتحولي إلى (جيلي)..

- وكيف هربت منها لتعيشي في هذا البيت الطريف؟

- هذه قصة مهمة.. عندما صرت معلمة قالت إني مدينة لها بالكثير من المال لأنها كانت تطعمني وتبتاع لي الثياب طيلة تلك السنين.. قالت إن هذا يقدر بآلاف الجنيهات وسوف يكون عليّ سداده بأن أعطيها راتبي لمدة عشر سنوات.. سوف تعطيني جنيها فقط كل أسبوع، ورتبت مع المدرسة أن تحول راتبي لحسابها في المصرف، وأرغمتني على توقيع الأوراق.

- لكن راتبك كان فرصتك في الحرية.. وكيف هربت بعد هذا.

- أه.. هذا كان أهم نصر لي في حياتي.. تم منذ عامين.. كنت أنهض في الصباح بينما خالتي نائمة، وذات صباح وجدت هذا الكوخ.. كان مالكه السابق فلاحا فذهبت للقائه وهو يحلب أبقاره. لكنه دهش وقال إنه من المستحيل أن أعيش فيه.. لا كهرباء.. لا مياه جارية.. لا شيء.. لكنى كنت مصرة فأنا رومانسية وقد وقعت في حب الكوخ. في النهاية وافق مقابل عشرة بنسات في الأسبوع.. وعدت لخالتي وبإرادة من حديد طهوت عشاءها ذات ليلة، ثم ملأت الصندوق بحاجياتي وعدت لها وقلت: أنا استأجرت بيتا.. هنا انفجرت صارخة فيّ: كيف تجدين بيتا وأنت تأخذين جنيها فقط في الأسبوع؟. قلت لها: هذا ما فعلته. عندها أطلقت سراحي.. أخيرا تحررت..

- وهل استطعت الحياة عامين بجنيه في الأسبوع؟

- نعم.. عشرة للكوخ والباقي للموقد والسّمن واللّبن والشاي..

- لابد أن الشتاء يكون قاسيا هنا..

- أوقد الموقد.. لن تتصوري الدفء الذي يبعثه من حوله.

الآن فقط ترى ماتيلدا الموقف بوضوح، مس هوني بحاجة شديدة للعون..

- لكن بوسعك أن تستقيلي وتأخذي معاش البطالة

- لن أفعل.. فأنا أحب التدريس فعلا...

- وهذه الخالة الشنيعة.. ما زالت تعيش في بيتك؟

- نعم.. هي في الخمسين.. أمامها عمر طويل..

- وأنت متأكدة من أن الوصية الخاصة بأبيك تعطيك البيت؟

- وصية أبي لم يجدها أحد قط.. هناك من دمرها..

- لا جوائز لمن يخمن الفاعل لكن قانونا بلا وصية يذهب البيت لك..

- أعرف هذا.. لكن خالتي لديها ورقة تزعم أن أبي كتبها يمنح بها البيت لخالتي من أجل عنايتها بي.. هي مزورة طبعا لكن لا أحد يمكنه إثبات هذا..

- هناك محامون يمكنهم إثبات ذلك..

- لا مال لدى كي أستأجر محاميا.. تذكري أن خالتي محترمة في المجتمع ونفوذها قوى..

- من هي؟ ترددت قليلا ثم قالت بنعومة:

- مس ترنشبول!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صرخت ماتيلدا:

- مس ترنشبول.. هي خالتك؟.. هي من قام بتربيتك؟

- نعم..

- فهمت سبب ذعرك.. لقد رأيناها تمسك بفتاة من شعرها وترمي بها فوق سور المدرسة....

- لم تري شيئا بعدا!.. في سن الخامسة كانت تجعلني أحمم نفسي، فلو وجدت أنني لم أستحم جيدا كانت تدفع رأسي تحت الماء وتبقيه هناك، لا تدعيني أحكى لك ما تفعله بي.. لقد جلنا هنا كي نتحدث عن تلك الظاهرة الغربية التي تمارسينها بعينيك.. ما رأيك لو جربنا بعض التجارب الحذرة؟

للغرابة قالت ماتيلدا:

- أفضل ألا أفعل ذلك الآن يا مس هوني.. أريد أن أعود للبيت وأفكر فيما حكيته لي..

- نعم.. لابد أن أمك قلقة عليك..

ابتسمت ماتيلدا وقالت:

- هي لا تقلق أبدا.. لكني فعلا راغبة في العودة لو سمحت لي.

- تعالى إذن.. آسفة لأنني أفسدت لك الشاي..

مشيتا في صمت عميق نحو بيت ماتيلدا. فلما وصلا قالت مس هوني:

- لربما كان من الأوفق أن تنسى كل ما قلت لك..

- لا أعد بهذا لكن أعد بألا أخبر به مخلوقا.. لكن على أن أسألك ثلاثة أسئلة..

ابتسمت مس هوني وهي تدرك كيف أن هذه الطفلة الصغيرة بحجم القصقوصة يبدو أنها تدير زمام الأمر. وقالت:

- هذا يتوقف على الأسئلة..

- السؤال الأول هو: ماذا كانت مس ترنشبول تنادي أباك في البيت؟

- ماجنوس.. هذا اسمه الأول..

- وماذا كان يسميها؟

- أجاثا..

- وماذا كان أبوك يطلق عليك؟

- چيني..

راحت ماتيلدا تردد الثلاث الكلمات مرارا..

لم تدر مس هوني ما تدبره الطفلة في ذهنها.. وقالت لها:

- لا ترتكبي حماقة ما..

ضحكت ماتيلدا واتجهت لباب بيتها، وصاحت:

- إلى اللقاء يا مس هوني.. شكرا على الشاي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التدريب

وجدت ماتيلدا البيت خاليا كالعادة. أبوها لم يعد بعد وأمها ما زالت في لعب البينجو.. اتجهت إلى حيث تعرف أن أباها يضع السيجار فحملت واحدا لغرفة نومها وأغلقت الباب.

الآن إلى التدريب. سيكون الأمر صعبا لكن عليّ القيام به. كانت الآن قد أعدت كل شيء.. لخطة مساعدة مس هوني كاملة وواضحة في ذهنها، لكن عليها أن تسيطر على كل شيء بعينيها. بالتدريب ستنجح في النهاية، السيجار مهم لأن وزنه مناسب تماما:

كانت هناك تسريحة في غرفتها عليها فرشاة ومشط وكتابان وضعت السيجار في منتصف التسريحة ثم ابتعدت على مسافة عشرة أقدام.

بدأت تركز فشعرت بالكهرباء في رأسها خلف عينيها، شعرت بسخونة في كرتي عينيها.. وهنا تدحرج السيجار على التسريحة. ثم سقط على البساط.

استمتعت ماتيلدا كثيرا بهذا.. كأن الشرر يطير من عينيها ويسقط على الأرض.. ما أبسط هذا..!

التقطت السيجار وأعادته للمنضدة.

الآن السؤال الأصعب: لديها القدرة على الدفع فهل لديها القدرة على الرفع؟ هذا مهم.. يجب أن أرفع شيئا وأرى إن كان سيظل هناك..

راحت تركز على السيجار.. ارتفع.. ارتفع.. ارتفع!

بدأ يتدحرج.. فجأة بدأ يرتفع فعلاً.. بوصة لا أكثر

استطاعت بجهد جهيد أن تبقيه هناك عشر ثوان ثم سقط

- فقف!.. أنا قد استطعت!...

لمدة ساعة ظلت تجرب.. في النهاية استطاعت بعينيها أن ترفع السيجار ست بوصات وأبقته هناك دقيقة، فجأة استبد بها الإرهاق فرقدت ونامت.

هكذا وجدتها أمها في المساء.. أيقظتها وهتفت:

- ما بك؟.. هل أنت مريضة؟

نهضت ماتيلدا ونظرت حولها:

- رباه!.. لا.. أنا بخير.. فقط مرهقة!

في كل يوم بعد المدرسة كانت تغلق الباب على نفسها وتتدرب بالسيجار. بعد ستة أيام استطاعت رفع السيجار وأن تذهب به حيثما شاءت. كان هذا رائعا.

الآن حان وقت تنفيذ خطتها الكبرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المعجزة الثالثة

كان اليوم التالي هو الثلاثاء. هذا هو يوم قدوم الترنشبول للإشراف على الصف بعد الغداء.

في الصباح قالت لهم مس هوني:

- هناك اثنان لم يستمتعا بزيارة المديرة الأخيرة، لذا حاولا أن تكونا حذرين اليوم.. كيف حال أذنيك يا إريك؟

قل إريك:

- شدتهما.. أمي تقول إنهما صارتا أكبر.. أنا أكره المديرة..

- لا تظهر هذا.. لا جدوى من هذا.. إنها امرأة قوية جدا وعضلاتها كحبال الصلب..

- أتمنى لو كنت كبيرا.. كنت سأسحقها..

- لا أحد يقدر على ذلك.. أعتقد أنها سوف تمتحننا في جدول (3).. لذا تذكروا هذا.. جاءت ساعة الغداء وانتهت.

بعد الغداء دخل التلاميذ الصف وجلسوا ينتظرون خائفين..

فجأة دخلت الترنشبول العلاقة واتجهت لدورق الماء فملأت الكوب..

قالت:

- يسرني أن أرى أنه ليست هناك مخلوقات لزجة في الماء هذه المرة.. لو وجدت لحدث شيء مخيف لكل تلميذ هنا وحتى أنت يا مس هوني..

ظل الصف صامتا متوترا.. لم يعد أحد مستعدا للمجازفة.

- تعالوا نر حفظكم لجدول (3).. أو تعالوا نر مدى فشل مس (هوني) في تعليمه لكم..

ظلت مس هوني صامتة في نهاية الصف.

كذلك ظلت ماتيلدا تراقب المشهد بعناية.

أشارت مس ترنشبول إلى صبي اسمه (ويلفريد) وأمرته:

- قف.. سمع لي جدول ضرب (3) من الخلف للأمام.

- من الخلف؟.. لكني لم أتعلم ذلك! صرخت المرأة منتصرة:

- لم تعلمكم أي شيء!.. لماذا لم تعلميهم شيئا طيلة الأسبوع الماضي يا مس هوني!

- أنا علمتهم يا مس (ترنشبول).. لكن لم أر نفعا في تعليمهم الجدول بالمقلوب.. إن هدف الحياة يا سيدتي هو الحركة للأمام.. أتساءل إن كان بوسعك أن تتهجئي كلمة بسيطة مثل (صحيح) بالمقلوب.. أشك في هذا..

انفجرت المرأة:

- لا تكوني وقحة معي!

ثم استدارت للصبي وسألته:

- لدي سبع تفاحات وسبع برتقالات وسبع موزات.. كم ثمرة معي؟.. هلم!.. أجب!

صاح الصبي:

- هذا جمع.. ليس جدول ثلاثة!

- أيها الأبله!.. يا خراج اللثة المتقيح!.. أيها الفطر الذي لدغته البراغيث!.. هذا بعينه جدول ثلاثة..!.

ارتجف الصبي وراح يعد على أصابعه، فصاحت من جديد:

- أيتها اليرقة!.. هذا ليس جمعا بل هو ضرب.. اضرب 3 x 7.. كان الصبي الآن في حالة ذعر لا تسمح له بالكلام أصلا.

سرعان ما صارت الترنشبول جواره.. وبحركة رياضية بارعة قلبته على الأرض وفي منتصف المسافة التقطته من كاحله وعلقته كالدجاجة.

هنا وثب نيجل فجأة وصرخ وهو يشير إلى لوح الكتابة:

- قطعة الطبشور!.. قطعة الطبشور!.. إنها تتحرك!

نظر الجميع بمن فيهم الترنشبول.. بالفعل رأوا قطعة الطبشور تتحرك على لوح الكتابة الأسود.

- إنها تكتب!

وبالفعل كان هذا ما يحدث.



أجاثا. أنا ماجنوس..

صرخت الترنشبول:

- ما هذا بحق السماء؟

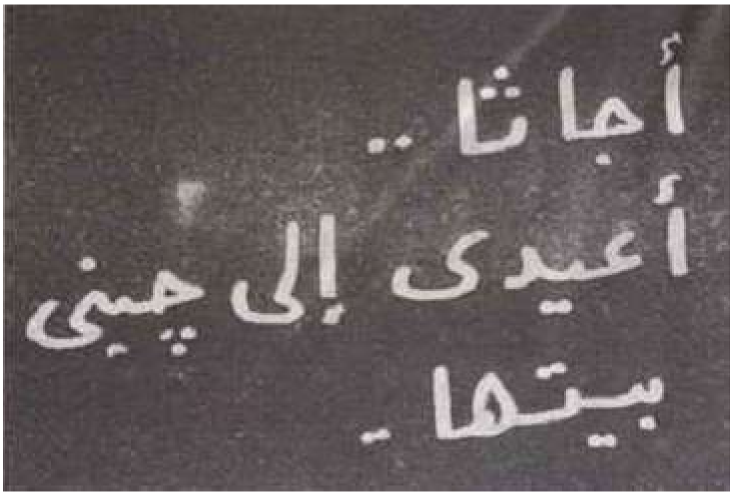
لقد هزها أن ترى اسمها تكتبه يد غير مرئية.. أسقطت الصبي أرضنا وصرخت:

- من يفعل هذا؟

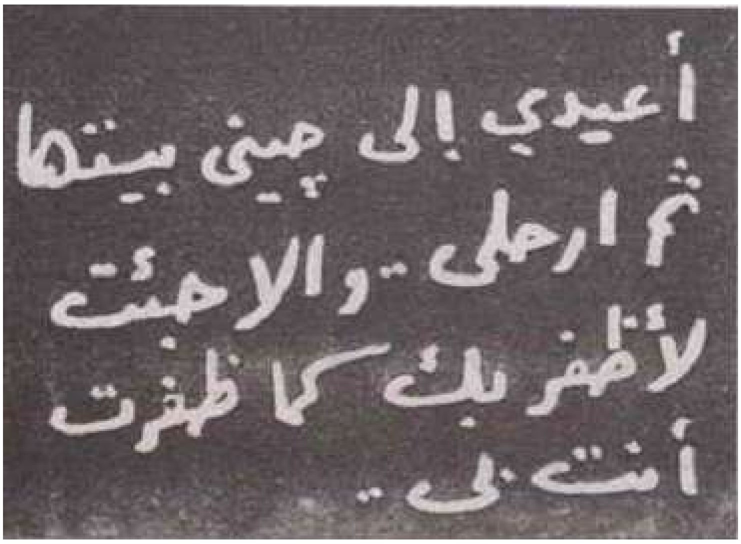
ثم اكتمل ذعرها عندما قرأت الاسم (ماجنوس)..

كانت مس هوني تنظر لماتيلدا.. كانت الطفلة تجلس معتدلة ورأسها مرتفعة.. وعيناها تلمعان..

نظر الجميع للترنشبول.. كان وجهها قد صار أبيض وفمها مفتوح وهي تطلق شهقات كحوت أُخرج من الماء.



«أجاثا.. أعيدي إلى جيني بيتها.»



«أعيدي إلى جيني بيتها ثم ارحلي وإلا جئت لأظفر بك كما ظفرت أنت بي.»

انتهت قطعة الطبشور من الكتابة فسقطت أرضا وتهشمت إلى نصفين.

صرخ ويلفريد:

- مس ترنشبول سقطت أرضا!.. مس ترنشبول فقدت الوعي!

وثب الصف كله ليرى بشكل أفضل. هناك كانت بجسدها الضخم على ظهرها بانتظار العد التنازلي، وهرعت مس هوني لتفحصها ثم صاحت بالصبية كي ينادوا الممرضة.

وثب نيجل وتناول دورق الماء وصاح:

- أبي يقول إن الماء البارد أفضل شيء لإفاقة شخص فقد الوعي..

وسكب كل الدورق على رأس الترنشبول.. لم يعترض أحد.

ظلت ماتيلدا جالسة حيث هي شاعرة بالرضا..

كانت تشعر بقوة غير أرضية.. قوة لا يمكن وصفها.

لقد فعلت كل شيء.. صار كل شيء سهلا.. جاءت الممرضة مع عدة رجال، وصاح أحد الرجال:

- يا للسماء!.. أحدهم مرغها في التراب أخيرا.. أهنئك يا مس هوني!

سألت الممرضة:

- من سكب الماء؟

قال نيجل بفخر:

- أنا..

قال رجل آخر:

- أحسنت.. هل أجلب المزيد؟

فصاحت الممرضة:

- كفى!.. فلنحملها إلى العيادة..

احتاجوا لخمسة مدرسين لحمل المرأة.

قالت مس هوني للصف:

- عليكم النزول للفناء واللعب..

ثم اتجهت للوح الكتابة ومسحت ما عليه بعناية. كانت ماتيلدا تخرج معهم لولا أن استوقفتها مس هوني.. احتضنتها

وأعطتها قبلة حارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيت جديد

سرعان ما انتشرت الأخبار في المدرسة أن الترنشبول شفيت من النوبة وغادرت المدرسة شاحبة وقد أطبقت شفتيها.

في الصباح التالي لم تظهر في المدرسة.. اتصل بها النائب ظهرا ليسأل عن صحتها فلم يتلق إجابة.

مشى لبيتها بعد ساعات الدراسة.. كانت تقيم عند أطراف القرية في بيت جميل من القرميد يسمونه (البيت الأحمر).

دق الجرس فلم يرد أحد. قرع الباب فلم يرد أحد.

صاح: هل من شخص هنا؟

لا إجابة

جرب الباب ففوجئ به مفتوحا.. هكذا دفعه ودخل..

كان البيت صامتا والأثاث في مكانه. صعد للطابق العلوي.. كان فضوليا لدرجة أنه دخل غرفة النوم وراح يفتح خزانات الثياب والأدراج، لم تكن هناك ثياب.. كلها اختفت..

هرع للمدرسة ليخبرهم أن المديرة اختفت تماما.

في الصباح التالي وصل لمس هوني خطاب مسجل من محام يخبرها أن وصية أبيها قد ظهرت فجأة. الوصية تقول إنه منذ وفاة أبيها صارت هي الوريث لبيت اسمه (البيت الأحمر) على حافة القرية. أما عن مدخرات الأب فما زالت في المصرف وقد تركها لها. مطلوب منها أن تتوجه لمكتبه.. سوف يسلمها المال فورا.

خلال أسبوعين انتقلت للبيت حيث نشأت وحيث كان كل أثاث أسرتها. في كل ليلة صارت ماتيلدا تزورها ونمت صداقة حميمة بين الطفلة والمعلمة.

في المدرسة طرأت تغيرات عظمى.. عرف الجميع أن الترنشبول اختفت، فتم تعيين مستر (تريلبي) الرائع بدلا منها وانتقلت ماتيلدا لصف أعلى لذكائها.

بعد أسابيع كانت ماتيلدا تشرب الشاي مع مس هوني في المطبخ، عندما قالت ماتيلدا:

- حدث شيء غريب يا مس هوني..

- ما هو؟

- هذا الصباح جربت دفع شيء بعيني فلم أقدر.. لقد فارقتني القوى وأحسبها رحلت للأبد..

وضعت مس هوني لنفسها بعض المربي على شريحة خبز مقدد وقالت:

- توقعت هذا..

- لماذا؟

- مجرد تخمين.. بينما كنت في الصف كان مخك الذكي يغلى ويحاول التحرر من رأسك.. كانت هناك طاقة هائلة لا تعرف لأين تذهب.. صار بوسعك تصويب هذه الطاقة عبر العينين لتحركي الأشياء.. لكن اليوم اختلفت الأمور.. أنت مع أطفال ضعف سنك لذا يحارب مخك كي يلحق بهم.. مخك مشغول فلا وقت لديه.. هذه نظرية سخيفة لكن لا أحسبها خيالية جدا.

- يسعدني هذا.. لا أريد قضاء حياتي كمعجزة..

- قمت بما يكفي.. ما زلت لا أصدق ما حدث لي..

سألتها ماتيلدا:

- هل تعرفين أن قلب الفأر يدق 650 دقة في الدقيقة؟

- لا أعرف.. أين قرأت هذا؟

- في كتاب بالمكتبة.. هذا يعني أنك لا تسمعين الدقات بل تسمعين طنينا

- لابد له كذلك..

- وماذا عن القنفذ؟

- قولي أنت..

- يدق 300 دقة في الدقيقة.. ما كنت لتتوقعين هذه السرعة في كائن بطيء لهذه الدرجة.. الحصان يدق قلبه 40 دقة في الدقيقة

ظلتا جالستين لمدة ساعة.. ثم تمنت لها ماتيلدا ليلة طبية وانطلقت عائدة لبيت أبيها. هذه مسافة تستغرق 8 دقائقز عندما بلغت بيتها رأت مرسيدس سوداء تلف في الخارج.. لم تلحظها باهتمام.

لكنها دخلت البيت لتجد منظرا غريبا من الفوضى.. أبوها وأمها في الصالة يحزمان كل شيء في حقائب.

صاحت:

- ماذا هنالك يا أبي؟

قالت مس ورموود دون أن تنظر لها:

- سنرحل.. سنذهب للمطار خلال نصف ساعة.. يجب أن تحزمي حاجياتك.. تحركي!

- نرحل؟... أين؟

- إسبانيا.. بلد أكثر دفئا من هذا البلد القذر.

- لكني لا أريد الذهاب لإسبانيا.. أنا أحب هذا المكان ومدرستي..

صاح أبوها:

- افعلي كما تؤمرين.. عندي مشاكل كافية من دونك!.. لن أضيّع هذه الطائرة..

- لكن متى نعود يا أبي؟

- لن نعودا!.. هلم! خرجت ماتيلدا من الباب المفتوح.. وفي الطريق راحت تركض.. اتجهت لبيت مس هوني فلحقت بها في الحديقة الأمامية وفي يدها مقص. رأتها فخرجت من حوض الأزهار لتقابلها..

- عزيزتي!.. ماذا حدث؟

وقفت ماتيلدا أمامها لاهثة متقطعة الأنفاس:

- سيرحلون!.. لقد جُنّوا وهم يملئون الحقائب.. سيرحلون لإسبانيا خلال نصف ساعة!

- هل تعنين إجازة؟

- بل للأبد.. أبي يقول إننا لن نعود!

ساد الصمت.. ثم قالت مس هوني:

- هذا لا يدهشني..

- تعنين أنك تعرفين؟.. لِمَ لمْ تخبريني؟

- لا يا حبيبتي.. لم أعرف أنهم راحلون.. لكن هذا لا يدهشني..

صاحت ماتيلدا متقطعة الأنفاس:

- لماذا؟.. أرجوك قولي لي..

- لأن أبك يعمل مع نصابين.. كل القرية تعرف ذلك.. إنه يبتاع السيارات المسروقة من أرجاء البلاد.. إنه متورط تماما.

نظرت لها ماتيلدا مفتوحة الفم.

- الناس يجلبون سيارات مسروقة لأبيك فيغير الأرقام ويغير لونها.. لابد أن هناك من قال له إن الشرطة قادمة لذا يفعل ما يفعلونه.. يفرون.. لابد أنه أرسل ماله لإسبانيا على مدى سنين.. وهو ينتظر وصوله..

صاحت ماتيلدا وهي ترمق الأزهار والبيت الجميل المبني من القرميد:

- لا أريد الرحيل معهم..

- أخشى أن هذا واجبك.

- أريد أن أعيش معك.. دعيني أعش معك!

قالت مس هوني:

- أتمنى ذلك، لكن هذا مستحيل.. لا يمكن ترك أبويك لأنك تريدين هذا.. لديهما حق أخذك..

صالحت ماتيلدا فجأة:

- وماذا لو وافقا؟.. ماذا لو قالا إن بوسعي البقاء؟

قالت مس هوني:

- ستكون هذه هي الجنة.

- سوف يوافقان.. سوف يوافقان فهما لا يباليان بي. يجب أن نسرع.. سوف يرحلان في أية لحظة!.. هلم وأمسكت بيد مس هوني..

- يجب أن تجري!.. تعالي واسأليهم!

راحتا تركضان نحو الطريق.. كانت ماتيلدا في المقدمة تمسك بيد مس هوني.. ركض مجنون عبر القرية نحو بيت ماتيلدا.

وكانت المرسيدس السوداء هناك. أبوابها مفتوحة ومستر ومسز ورموود يضعان الحقائب فيها كالنمل.

صاحت ماتيلدا:

- أبي وأمي.. لا أريد الرحيل.. أريد البقاء هنا مع مس هوني.. تقول إن هذا بوسعي لو سمحتما لي.. وافق أرجوك يا آبى!

استدار الأب ونظر لمس هوني.. قال:

- أنت المعلمة التي جئت هنا ذات مرة.. أليس كذلك؟

ووضع حقيبة في السيارة فقالت زوجته:

- هذه يجب أن توضع في المقعد الخلفي..

قلت مس هوني:

- أريد أن أربي ماتيلدا.. سوف أعنى بها تماما.. سأدفع كل نفقاتها.. لن تكلف مليما.. لكن هذه فكرتها هي.. لن أخذها دون موافقة كاملة..

قالت الأم:

- هلم هاري.. لم لا تدعها ترحل لو كانت تريد هذا؟.. سيقلل هذا نفقاتنا..

قال الأب:

- أنا متعجل.. هناك طائرة يجب أن ألحق بها.. لو أرادت البقاء فلتبق..

وثبت ماتيلدا في ذراعي مس هوني.. واحتضنتها مس هوني..

وسرعان ما انطلقت السيارة بالأبوين والأخ وعجلاتها تعوي.. لوّح الأخ بيده من النافذة لكن الأبوين لم ينظرا للخلف. كانت مس هوني ما زالت تحتضن ماتيلدا ولم تتبادلا كلمة واحدة.. بينما السيارة السوداء تختفي في الأفق.

روآلد دال

ماتيلدا

من الصعب جدا أن تصنف أدب الكاتب البريطاني نرويجي الأصل (روآلد دال): فهو ليس كاتب أطفال.. بعض قصصه مرعب فعلا، كما أنه ليس كاتبا للرعب: لأن عنصر الخيال البهيج مهم في قصصه، وهو كذلك ليس أديبا ساخرا برغم أن السخرية ثابتة في أدبه، لكنها سخرية ممزوجة بالكثير من القسوة. الحقيقة أنه خليط من هذا كله، وكتاباته مزيج ساحر خلاب لا يقدر على كتابته سواه.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- الكتيب رقم (33)

[←2]

- كل الأسماء في القصة ذات دلالة الأب اسمه يوحي بدودة العشب (مس هوني) العسل (مسن ترنشبول) يوحي اسمها بالثور إلخ.

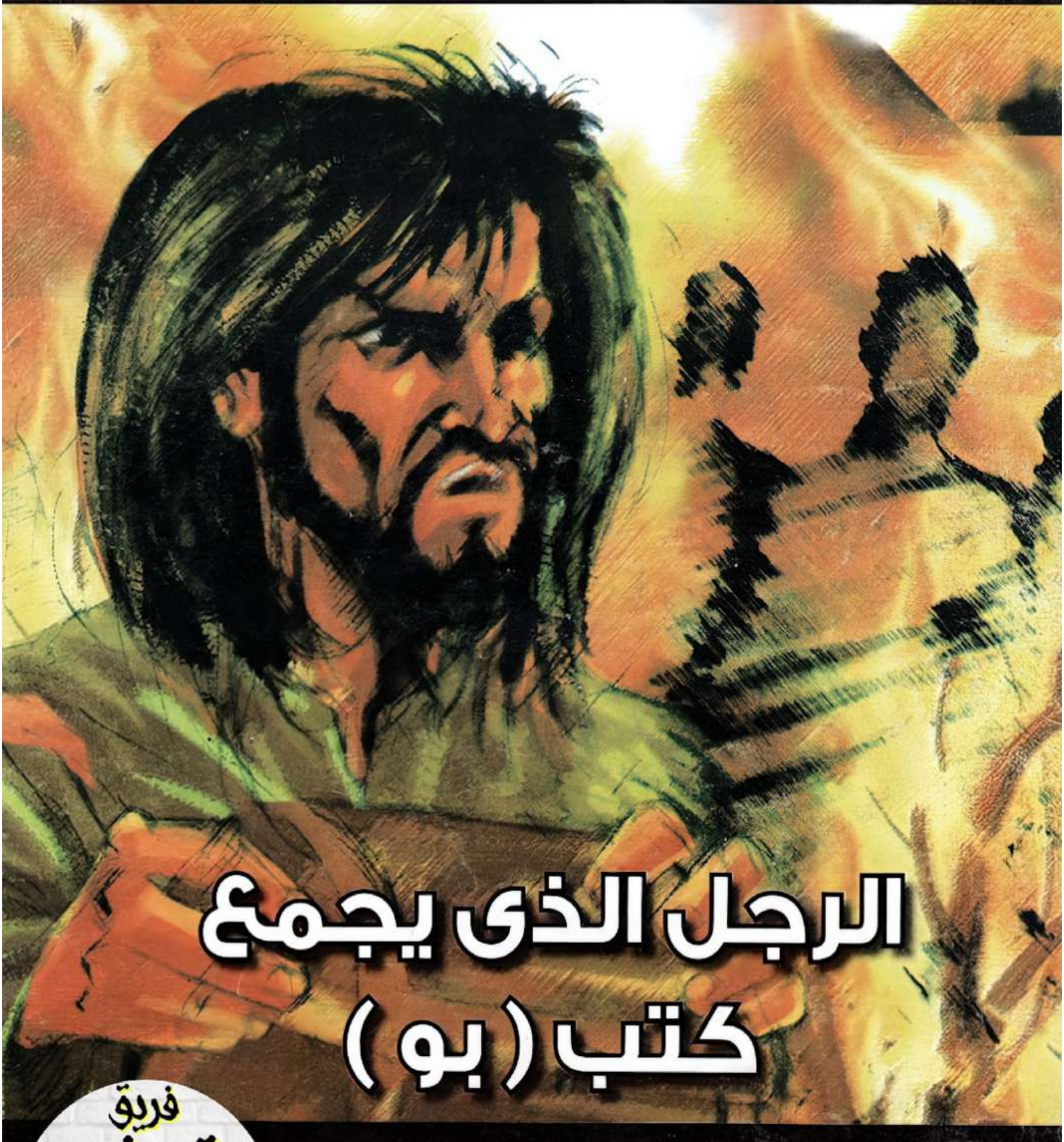
[←3]

- حيوان برمائي خليط من الضفدع والسحلية.

[←4]

- وابور جاز كما نعرفه نحن.

روايات عالمية للجيب 71



الرجل الذى يجمع كتب (بو)

فريق متميزون
E-BOOK

تاليف : روبرت بلوخ
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (71)

الرجل الذي يجمع
كتب (بو)

قصة: روبرت بلوخ

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

قد لا تعرف الاسم، لكني سأذكر لك كلمة واحدة تنهي كل شيء: (سايكو).. (نفوس معقدة).. فيلم هتشكوك الشهير الذي تموت بطلته في ربعه الأول. أما وقد عرفت الفيلم فأنت تعرف الآن مؤلفه.

(روبرت بلوخ Bloch) من أهم كتاب الرعب المعاصرين، وله إسهامات لا حصر لها، لكن يظل أهم عمل له هو القصة المذكورة.

ولد (بلوخ) عام 1917 في شيكاغو بأمريكا. نعرف أنه كان مولعا بشدة بأفلام الرعب في طفولته، ثم ككتاب أمريكيين كثيرين تأثر بمجلة (حكايات غريبة Weird tales) التي كان يكتب فيها أدباء فائقو الموهبة مثل (لافكرافت). وقد تبادل المراسلات مع الرجل الأسطورة، وهو الذي نصحه بأن يجرب كتابة القصة القصيرة، إنه ميراث الموهبة الذي لا ينتهي وينتقل من جيل لجيل. والواقع أن صداقة جميلة جمعت الأستاذ والتلميذ، وكتب كل منهما قصصا استخدم فيها اسم الآخر، حتى أن لافكرافت كتب له تفويضا يسمح له بأن يقتله في أية قصة يشاء!

في سن السابعة عشر باع (بلوخ) أولى قصصه (السر في المقبرة) لذات المجلة.

بدأ الفتى يكسب عيشه عن طريق الكتابة وتزوج. وفي العام 1947 صدرت روايته الأولى (الوشاح)، وهي دراسة لعقل سفاح

يهوى قتل النساء. ويقال إن السفاح الوحيد والمريض نفسيا سوف يصيران علامتين مميزتين على أدب بلوخ.

كان نجاحه محدودا وقلقه على المستقبل عظيما، لكن العام 1959 شهد مولد روايته التي ارتبطت باسمه للأبد (سايكو). وقد استلهم القصة من حكاية سفاح حقيقي شهير جدا ارتبط بوالدته بشكل مرضي لدرجة تحنيطها بعد موتها، وهو السفاح (إد جين). الواقع أن (إد جين) جلب الكثير من الخير لكتاب الرعب في كل مكان، وقد استلهم كثيرون قصته لعل آخرهم (توماس هاريس) في شخصية (هانيبال لكتر) الشهيرة.

وعندما باع بلوخ القصة لشركة هوليوودية، لم يكن يعرف أن المشتري هو هتشكوك. ومن الغريب أن الشركة لم تحاول الاتصال به أو عرض كتابة السيناريو عليه.

عام 1959 نال جائزة محترمة جدا هي جائزة (هوجو) عن قصته القصيرة (ذلك القطار الجحيمي). وتلقى دعوة لهوليوود ليكتب سيناريو حلقات بوليسية تلفزيونية، ثم حلقات مسلسل الرعب الشهير (ألفريد هتشكوك يقدم). وقد قدم عدة مجموعات قصصية لم يخل غلاف واحدة منها من عبارة (مؤلف نفوس معقدة).

<u>من ضمن روايات بلوخ الشهيرة:</u>

- الخاطف 1954
- تلك الأرض المزدحمة 1958
- الأريكة 1962

- الهلع 1962
- كله في عقلك 1971
- هناك أفعوان في عدن 1979
- ليلة السفاح 1984
- تركة جيكل 1991

<u>أما عن مجموعات القصص القصيرة فمنها:</u>

- الرعب في الليل 1958
- الدم يجري باردا 1961
- كوابيس أكثر 1961
- جمجمة الماركيز دي ساد.
- أفضل ما كتب بلوخ 1977

مات بلوخ عام 1994 في لوس أنجيليس. وقد أحرق ودفن رماده هناك. في هذا الكتيب والكتيب التالي له، تقابل بعضا من قصصه القصيرة، وهي مختارة بشكل عشوائي، أي أنها لا تمثل مجموعة قصصية معينة له، لكنها جميعا ممتعة، وقد رأيت بعضها في فيلم الرعب (حديقة التعذيب) الذي كتب له بلوخ السيناريو وأنتجته شركة أميكوس البريطانية، ومن الممتع أن ترى التشابه القوى بين قصة (البيت الجائع) وفيلم (نشاط خارق للطبيعة) الذي عرض هذا العام، برغم أن أكثر من أربعين عاما تفصل القصة عن الفيلم.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

الرجل الذي يجمع كتب بو

الرجل الذي يجمع كتب (بو) (1)

ذات يوم خريفي كئيب مكفهر السماء وصموت، والسحب معلقة في السماء، كنت أمر بسيارتي عبر طريق ريفية كئيبة فرأيت عن بعد ظلال الليل الداني. نظرت أمامي إلى البيت والمناظر الطبيعية البسيطة المحيطة به، والنوافذ الشبيهة بالأعين والجدران الكئيبة، وبعض جذوع الأشجار المتحللة. شعرت بحيرة مختلطة بخيبة الأمل.

لقد بدا لي كأنني زرت هذا المكان من قبل أو قرأت عنه، لكنني متأكد من أن هذا مستحيل لأنني لم أعرف لانسلوت كاننج إلا من ثلاثة أيام ودعاني لبيته في ماريلاند.

كانت الظروف التي قابلت فيها كاننج بسيطة.. كنت أحضر لقاء لعشاق الكتب في واشنطن، وقد قدمني له صديق مشترك. جرت محادثة عابرة تحولت لمناقشة ساخنة عندما أدرك ولعي بالكتب الخيالية. عرف أنني في إجازة وليست لدى خطط مسبقة، فألح عليّ أن أكون ضيفه ليوم وأن أفحص براحتي مجموعته الفريدة من التذكارات.

قال لي:

- «أشعر من محادثتنا أن بيننا الكثير مما هو مشترك.. إن ولعي بالأدب الخيالي شيء ورثته غالبا عن أبي وأبيه من قبله أنا أعرف يقينا أنك ستنبهر بما سأريه لك. أنا متواضع فعلاً لكني أعتبر نفسي أهم جامع لأعمال إدجار آلان بو على مستوى العالم».

أعترف بأن هذه الدعوة لم تؤثر فيّ لأنني لا أميل لعبادة المشاهير، فأنا أهوى قصص بو لكن هذا الميل لا يصل لدرجة أن أهتم بالتاريخ الذي قرر فيه مستر بو أن يطيل شاربه، ولا أهتم بفحص شعرات باقية من هذا الشارب.

كان سبب قبولي لهذا العرض هو شخصية وشخص لانسلوت كاننج نفسه، فقد بدا لي كأن الرجل نفسه خارج من قصص إدجار آلان بو، وكانت طريقته في الكلام تحمل نوعا من التلطف الزائف الذي يميز أبطال بو، وبشكل ما كان منظره يشبههم.

كانت له سحنة جيفية شاحبة وعينان مبتلتان مشعتان، وله شفتان مقوستان وأنف أنيق وذقن حسنة التكوين، وشعر يشبه نسيج العنكبوت، باختصار كان بطلاً ممتازا من أبطال بو.

هذا هو ما حركني لأقبل ودفعني لزيارة الرجل في ماريلاند، التي كما تبين لي تمثل في ذاتها طراز بو بشدة. لم ينقص المنظر سوى بحيرة صغيرة وخندق مائي.. وإذ دخلت مسكنه توقعت أن أرى السقف المنحوت والنسيج الكئيب والأرضية المصنوعة من الأبنوس والذكريات التي تحمل طابع النبل، التي وصفها كاتب (قصص عن الخيال والأرابسك).

لم يخب أملي لدى دخول البيت. كان المشهد يناسب البيت ويناسب خيالاتي، فقد انفتح الباب إذ دققته، وظهر خادم، اقتادني في صمت عبر الممرات المظلمة إلى مكتب سيده.

وجدت نفسي في غرفة كبيرة جدا وسامقة. النوافذ كانت طويلة وضيقة ومدببة وعالية جدا عن الأرض بحيث لا يمكن رؤيتها. كانت العين تجاهد لبلوغ أطراف الغرفة أو السقف

العالي. كانت هناك ستار سوداء على الجدران، وكان الأثاث كثيرا لا يوحي بالراحة.. عتيقا رثا. وكانت هناك كتب كثيرة وأدوات موسيقية مبعثرة لكنها لا تضيف أية حيوية للمشهد.

بالعكس أعطتني أكثر ذلك الانطباع بمن يجمع كل شيء وأي شيء. هنا شعرت من جديد بذلك الشعور المألوف.. لقد قرأت.. لقد تخيلت.. لقد حلمت أو رأيت بالفعل هذا الموقف من قبل.

نهض لانسلوت كاننج من على الأريكة التي يرقد عليها ممددا، وحياني بدفء شديد أشعرني بحرارة مبالغ فيها كما بدا لي.

لكن صوته إذ تكلم عن هدف زيارتي، وعن رغبته في أن يراني، والسلوان الذي توقع أن أقدمه له من خلال اهتمامنا المشترك، خفف على الفور من توجسي الأول.

رحب بي لانسلوت كاننج بحماس من ولدوا ليملكوا مجموعات، وقد بدأت أدرك أنه بالفعل كذلك، لقد ورث الكثير من هذه المجموعات.

في البداية شرح لي أن نواة المجموعة بدأت مع جده (كرستوفر كاننج) التاجر المحترم من بالتيمور. منذ 80 عاما كان من أهم رعاة الفنون في المجتمع وقد سعى لنقل رفات بو إلى المقبرة المعمدانية في شارع (فابيت) و (جرين)، حيث يمكن عمل نصب مناسب لها.

حدث هذا في العالم 1875 وقبل هذا بأعوام كان الرجل قد وضع اللبنة الأولى في مجموعة بو.

قال حفيده لي:

- بفضل هذه الحماسة صارت لديّ نسخة من كل عمل خطه بو، لو أنك جئت هنا..

واقتادني إلى ركن المكتب حيث رف كتب يرتفع للسقف، وقال:

- سوف يسرني أن أثبت لك هذا الزعم.. هذه نسخة من (تيمورلنك وقصائد قصيرة) في الطبعة رقم 29، وهنا نفس الكتاب في الطبعة رقم 27. طبعة بوسطن التي يبلغ ثمنها اليوم 15 ألفا، وأنا أؤكد لك أن جدي لم يدفع هذا الثمن الباهظ..

وعرض عليّ النسخ بمزيج من الفخر والجشع وهما السمتان اللتان تميزان الجامعين، ولا يجب خلطهما مع الجشع العادي أو الادعاء. ظللت صامتا وهو يريني المزيد من الكنوز، مثل (فيلادلفيا ساترداي كورير) و (نيويورك صان) و (نيويورك ميرور) منذ كان بو يكتب فيها.

صعد في سلم خشبي صغير وناولني نسخة من (قصص عن الخيال والأرابسك) طبعة ليا وبلانشارد، و (إيوريكا) من إصدار بوتنام. بعض هذه الكتب بيع وقتها بـ 12 بنسا لكن ثمنه اليوم لن يقل عن خمسين ألفا من الدولارات.

كان كاننج يعلق بلا توقف، حتى فهمت أنه دارس لبو وليس جامعا لكتبه فقط.

قال لي وهو يهبط في السلم ويقف أمام أرفف الكتب:

- أنا مدين كثيرا لهذا الوسواس لدى جدي.. ليس سرا أن ولعه ببو بلغ درجة الوسواس، ربما الجنون كذلك.. لكن الكل يعرف هذا للأسف.

في أوائل السبعينيات بنى هذا البيت ولا شك عندي في أنك لاحظت أنه استنساخ لبيوت قصص بو. هذا كان مكتبه وها هنا غرق في خطابات وكتب وآثار حياة بو. حقا لا أعرف السبب الذي يدفع تاجرا كي يكرس نفسه بجنون لهذه الهواية؟.. لا أعرف.. يكفي أن أقول إنه انسحب عن العالم تماما وراح يجري مراسلات مطولة مع قوم مسنين عرفوا بو حيا، وحج إلى فوردهام وكل بقعة لمستها قدم بو في حياته. ابتاع كتبا وخطابات وسرق البعض - أكره قول ذلك - لو كان الشراء مستحيلا.

هل يبدو لك هذا غريبا لك؟... أنا كذلك كنت مثلك، ووجدت الأمر لا يصدق.. لكن بعد سنوات هنا فقدت موضوعيتي..

أجبته:

- نعم هو غريب.. لكن هل أنت متأكد من عدم وجود سبب شخصي غريب لاهتمام جدك؟.. لربما قابل بو وهو صبي؟.. لربما هناك قرابة خفية؟..

عند السؤال الأخير انتفض كاننج وظهر التوتر على سحنته:

- اه.. هأنتذا تردد قناعتي الخاصة، علاقة.. لابد من وجود واحدة.. أنا مؤمن أن جدي شعر بقرابته لبو برابطة دم. لا شيء

غير هذا يفسر اهتمامه القوى ودفاعه عن بو في كل جدل أدبي دار وقتها. وفي النهاية غاص في عالم من الهلاوس والضلالات..

لكن برغم هذا لم أر أية وصية على الورق وقد بحثت وسط الخطابات عن دليل بلا جدوى. من الغريب أن هذا الشك تبناه أبي كذلك. كان طفلا عندما مات جدي وقد ترك هذا أثرا عميقا على طبيعته الحساسة. تربى في بيت أقارب أمه في بالتيمور لكنه عاد لهذا البيت سريعا بمجرد أن بلغ السن التي تسمح له بالميراث. كان ثريا لذا كرّس حياته لمزيد من البحث. وقد راح يبحث عن بو سرا لسبب ما. غالبا كان يفتش عن برهان يثبت قرابة أبيه لبو..

قلت هنا:

- هل تقول إن أباك كان جامعا؟..

أجاب مضيفي وهو يقودني لركن آخر من المكتب الذي يغمره الظل:

- هذه مقولة أنا متأهب لأثبتها.. لكن هل لك أولاً في كأس من النبيذ؟..

ولم يملأ كأسا وإنما دورقا زجاجيا كبيرا، وقرعنا الدورقين في تقدير صامت. ليس من الضروري أن أذكر أن النبيذ كان من نوع (أمونتيلادو) معتق ممتاز.

قال لانسلوت كاننج:

- كان مجال تخصص أبي في البحث عن بو هو الخطابات.. وفتح مجموعة من الأدراج تحت الأرفف، وأخرج ملفا بعد ملف

من المشمع المغلف، ولمدة نصف ساعة رحت أتفحص مراسلات بو، كمية هائلة منها.

أثناء بحثي قام مضيفي بإعادة ملء الدورقين، وبدأت دوامة تظهر أمام عيني لأننا لم نكن قد أكلنا.. ولم أكن قد فكرت في الأكل لأنني كنت غارقا في هذه الصفحات الصفراء.

كانت الخطابات مليئة بالذكاء والمعرفة الشاملة والنقد الأدبي.. هنا أفكار عقل فتك به الشراب واليأس. بقايا قصيدة.. بدايات قصة.. هنا كان الحب والكره والغرور والغضب والندم المجرد والسلطة والتردد والفرح وميلانخوليا مسقمة للروح.

هنا كان الزوج العاشق والسكير المتأرجح، والعاشق المجنون والناشر الفخور، والصعلوك الفقير، والعالم المريض بأوهام العظمة.. الشاعر.. الذي كانه إدجار آلان بو.

من جديد امتلأ الدورقان وفرغا.

شربت وعيناي لا تتحركان..

للمرة الأولى تسرب حماس لانسلوت كاننج إلى روحي.. غرقت في عالم بو الرجل والشاعر.. الذي كتب المأساة وعاش مأساة، الذي كتب الأسرار ومات ميتة سرية..

لقد ظل لغز بو قائما برغم دراسة كاننج المدققة للأوراق. وقد اعترف لي:

- لم يتعلم أبي شيئا.. برغم كل ما جمعه هنا.. لذا تقدم بحثه أكثر. كنت في ذلك الوقت في سن تسمح لي بمشاركته أبحاثه، فاقتادني إلى صندوق مزخرف تحت النافذة التي تقع عند الجدار

الغربي للمكتب. ركع وأخرج عدة أشياء يرتبط كل منها بجانب من جوانب بو.

كانت هناك تذكارات من شبابه ومن دراسته بالخارج، وكتاب امتلكه أثناء إقامته المؤقتة في وست بوينت.. قلم استعمله عندما عمل ناشرا.. مروحة كانت زوجته تملكها، وكذلك الناي الخاص به..

واصلنا الشرب.. وأعترف أن النبيذ كان قويا. إلا أن وجه كاننج ظل شاحبا كالموتى لكن كانت هناك لمسة جنون في عينيه. من الواضح أنه يملك قدرا من الهستيريا يكبحها.

من بين الأشياء المتناثرة وجدت صندوقا لا توجد علامة تميزه.. فأردت أن أسأل عن تاريخه والدور الذي لعبه في حياة بو.

تقلص وجه مضيفي وارتجف. وقال:

- هذا الصندوق يحمل شبها قويا بالصندوق الذي وصفه بو في قصته (برنيس).. هذا الصندوق له علاقة بموته أكثر من حياته، بل هو نفس الصندوق الذي وجدوا جدي يحتضنه إلى صدره عندما كان ميتا هناك، أنت صبرت معي كثيرا وأنا أقدّر هذا، لذا سوف أكافئك على صبرك.. فأنا أعرف منى أمنح ثقتي لمن يستحق..

لا أعرف ما كان يزمع أن يريه لي لكنني شعرت من طريقته بنوع من القلق وعدم الراحة.

وضع يده على كتفي وضحك وقال:

- هلم.. هذا يجب أن يثير اهتمامك بصفتك مولعا بالخيال.. لكن خذ كأسا أخرى ليسرع رحلتك!..

صب لي فشرينا ثم اقتادني للغرفة ذات السراديب إلى الدرج، وهبطنا حتى بلغنا بابا من الصلب الثقيل. من جديد شعرت بنوع من الألفة كأنني أتذكر شيئا.

قال لي:

- لا يجب أن تخاف.. لم يقع شيء هنا منذ ذلك اليوم منذ 70 عاما، عندما وجد الخدم جثته أمام هذا الباب والصندوق على صدره، وكان مرهقا وفي حالة من الهلوسة لم يفق منها قط، لمدة ستة أشهر ظل مجنونا إلى أن مات. راح يحلم بحصان عملاق وبيت ينهار في البحيرة الجبلية. القطة السوداء والفجوة والبندول.. القلب النابض وكتلة العفن شبه السائلة التي ينبعث منها صوت يتكلم.

ثم صار صوته همسا يتردد عبر الباب الحديدي والقاعة المبطنة بالنحاس، وهو يقول:

- لم يكن هذا كل ما رآه.. تحدث عن كائن مخيف يفوق كل أشباح قصص بو. هنا فهم الخدم وأبي سر الغرفة التي بناها خلف هذا الباب الحديدي.. وعرفوا أن كرستوفر كاننج قد استحق اسمه كأهم جامعي أعمال بو في العالم. لقد هلوس جدي عن وفاة بو منذ ثلاثين عاما (أي عام 1849) وعن دفنه في الكنيسة المعمدانية، وعن تحريك التابوت إلى الركن عام 1874 ليقام نصب تذكاري، وكما تعرف شارك جدي في هذه العملية. الآن عرفنا الجزء المختفي من القصة... كانت هناك مقبرة لكن لم يكن هناك تابوت في المكان الذي زعموا أن بو مدفون فيه.

التابوت موجود الآن في الغرفة السرية الموجودة في نهاية هذا الممر، لهذا تم بناء هذه الغرفة.. بل لهذا تم بناء البيت كله.

لقد سرق جدي جثة إدجار آلان بو.. ألا يكفي هذا لجعله أعظم جامع لأعمال بو في التاريخ؟..

وجد أبي شيئا آخر.. الصندوق الذي يضمه كرستوفر كاننج لصدره يحوي بعض العظام المهشمة.. التراب المتبقي من جثة بو..

واستدار مضيفي وقادني عبر ممر الرعب هذا، لنصعد في الدرج ثم المكتب. أعاد ملء الوعاءين فشربت بسرعة - ماذا كان بوسع أبي أن يفعل؟.. إعلان الحقيقة معناه فضيحة عامة.. لكن الصدمة أثرت فيه بشدة، وعلى قدر علمي لم يدخل قط وراء هذا الباب الحديدي. لم أعرف شيئا عن الغرفة حتى ساعة وفاته بدوره، وبعد أعوام وجدت المفتاح ضمن حاجياته.

لكن وقد وجدت المفتاح صارت القصة مكتملة، وعرفت أنني أعظم من جمع مقتنيات بو على وجه الأرض

صببت لنفسي المزيد من النبيذ، وإذ فعلت هذا شعرت للمرة الأولى بنذر عاصفة تقترب.. لقد راحت النوافذ ترتج ودوى صوت الرعد من بعيد..

أصغى مضيفي لهذه الأصوات، لكني كنت غير مطمئن له.. هذا الكلام الذي قاله جعلني أتشك كثيرا في عقله.

كل ما قاله عن هذا الضريح وعن سرقة جثة بو وعن البيت الذي بني كله لغرض واحد.. كل هذا كان يتجاوز التصديق العقلاني، لكني الآن وسط الليل والعاصفة كأنه مشهد من قصة

خيالية من قصص بو الجنونية، لم أعد واثقا من نفسي. إن روح بو تتنفس في هذا المكان.

انحنى لانسلوت والرعد يدوي والتقط ناي بو وبدأ يعزف كأنه يتحدى العاصفة. بصوت عال رفيع يمزق الأعصاب. وأضاف الرعد لهذا الصراخ الجحيمي صوتا منكرا.

تراجعت متوتر الأعصاب غير شاعر بالراحة نحو ركن المكان قرب أرفف الكتب، وتفحصت العناوين. هناك كتاب (كايرومانسي) لروبرت فوند وكتاب (ديركتوريم انكويزوتورم) وهو كتاب تعليمات كنيسة منسية، كما كانت هناك كتب كثيرة من العلم الزائف مثل (فيرميس مستريس) و (ليبر إيبن) عن الشياطين والسحر. الكتب كانت قديمة لكنها غير مغبرة.. كانت تُقرأ.

كأنما خمن ما أفكر فيه مشي نحوي مترنحا وقال:

- أفرزها.. نعم.. لقد تجاوزت ما وصل له جدي وأبي. أنا الذي وجد المفتاح.. مفتاحا أصعب في اكتشافه وأهم من مفاتيح القبو. أتساءل إن كان بو نفسه قد عرف هذه الأسرار. سر المقبرة وما يمكن الحصول عليه لو امتلكت المفتاح.. وعاد بالمزيد من النبيذ وقال:

- اشرب.. اشرب نخب الليل والعاصفة...

أزحت الإناء جانبا وقلت:

- هذا كاف.. يجب أن أرحل الآن..

هل تخيلت أم إنني رأيت الخوف على وجهه؟.. أمسك بذراعي وصاح:

- لا.. ابق معي!.. هذه ليلة لا يجوز أن يكون المرء فيها وحيدا.. أقسم أنني لا أتحمل فكرة أن أكون وحيدا.. دوى الرعد والأصداء فاستدرت لأواجهه، وقلت:

- كفاك هذا!.. اعترف بأن هذه خدعة.. دجل متعمد لإرضاء خيالاتك..

- خدعة؟.. دجل؟.. ابق هنا وسوف أثبت لك بما لا يسمح بأي شك.. ..

وفتح درجا جوار الجدار وقال:

- هذه مكافاتك على اهتمامك بقصتي وببو.. أنت أول شخص بعدي يرى هذه الكنوز..

وناولني مجموعة من الأوراق.. نفس نوع الحبر الذي رأيته وأنا أرى خطابات بو. تفقدت العناوين فوجدتها تقول:

- دودة منتصف الليل.. بقلم إدجار آلان بو.. السرداب. المزيد من مغامرات جوردون بايم..

كدت أوقع الأوراق على الأرض من الانفعال.

- هل هذه ما تبدو عليه؟.. الأعمال التي لم تنشر لبو؟.. «

انحنى مضيفي موافقا.. وقال:

- لم تنشر؟ لم تكتشف.. لم تُعرف.. باستثنائي أنا وأنت.

- لكن هذا مستحيل.. بالتأكيد هناك ذكر لها في مكان ما.. في خطابات بو أو معاصريه.. لابد من دليل في مكان ما..

دوى الرعد فأخفى كلماتي الأخيرة.. قال مضيفي:

- هل تتخيل أنني نصاب؟.. إذن قارن..!..

وأحضر مجموعة من الخطابات وقال:

- أليست هذه طريقته في الكتابة؟.. الخط.. هل يمكنك القول إنها لم تكتب بذات اليد؟..

قارنت الخطين، وتساءلت عما إذا كان لانسلوت الذي أُدرك الآن أنه مجنون تماما، قد قضى وقته يحاول تقليد خط بو حرفيا؟

- اقرأ.. وقل لي إن كان هذا الإبداع يمكن أن يخرج من عقل غير عقل بو..

قربت الورقة من عيني ورحت أجاهد كي أقرأ مع لهب الشمعة المتراقص، لكن بدا لي أن الورق.. الورق الذي لم يصفر لونه.. يحمل علامة مائية واضحة باسم شركة شهيرة للأدوات المكتبية، والتاريخ هو 1949

تماسكت ووقفت وأنا أبتعد عن الرجل. الآن أعرف الحقيقة.. أعرف أنه بعد مائة عام من موت بو هناك روح تشبه روحه موجودة في جسد مضيفي. سمه تناسخا أو حلولاً.. سمه ما تشاء، لكن كاننج كان بعقله المختل هو إدجار آلان بو.

كان صوت الرعد عاليا جدا إذ استدرت لمضيفي وصحت:

- اعترف..!.. ألم تكتب أنت هذه القصص وأنت تتخيل أنك إدجار آلان بو نفسه؟.. أليس صحيحا أن الوحدة والحياة في الماضي جعلاك تعاني وهما متفردا، حتى بلغت مرحلة حسبت معها أن بو ما زال حيا في شخصك؟..

اهتز بعنف وارتجفت ابتسامة مريضة على شفتيه وهو يقول:

- أحمق! ما قلته لك هو الحقيقة.. هل تنكر الأدلة التي جنتها حواسك؟.. هذا البيت حقيقي والكتب موجودة والقصص موجودة.. كلها موجود كذلك الجسد الراقد في القبو تحتنا!..

مددت يدي إلى صندوق صغير على المنضدة وفتحت غطاءه وقلت:

- قلت إن جدك وجد ميتا وهذا الصندوق مضموم إلى صدره وقلت إنه يحوي تراب بو. لكنك ترى أن الصندوق فارغ. يجب أن تعترف أن قصتك ملفقة.. خيال.. جسد بو ليس في هذا البيت..

ازدادت ابتسامته اتساعا وقال:

- حقا.. التراب اختفى لأنني استعملته.. لقد وجدت هذه الوصفة السحرية في كتب السحر.. الطريقة التي تعيد اللحم للحياة من الأملاح الأساسية الباقية في القبر، بو لا يرقد تحت هذا البيت. بل يعيش فيه!.. والقصص التي رأيتها هي إبداعه بعد موته!..

ودوى الرعد من جديد.

- كانت هذه قمة خططي.. قمة عملي.. قمة حياتي!.. لقد عاد بو للحياة لحما متحركا.. وهو يمارس الكتابة في قبوي!.. إن سرقة جثة مزحة غيلان لكن العبقرية هي ما فعلته أنا!.. وصلتني كلماته خافة وسط الرعد الذي هز البيت هذا.. وراح لهب الشمعة يتراقص.

- كنت سأريه لك لكن لا أجرؤ، فهو يكرهني كما يكره الحياة.. لقد حبسته في القبو وحيدا وهو ليس بحاجة للطعام والشراب.. قلمه يتحرك على الورق.. للأبد يتحرك.. يصب عليه كل الأفكار السوداء التي خطرت له في حياته.

ألا تفهم مشكلتي؟.. لقد أعدته للحياة ليهدي العالم المزيد من قصصه، لكن هذه القصص التي كتبها مشحونة برعب لا يتحمله أحد ولا يمكن عرضها على الناس وكذلك هو..

وتردد الصدى إذا دنوت من الباب.. كنت أرغب في الفرار من هذا البيت الملعون ومالكه.

أمسك كاننج يدى بقوة وصرخ بصوت أعلى من العاصفة:

- لا تستطيع الرحيل!.. ألم تسمع أنين الباب وسط صوت الرعد؟..

أزحته جانبا فسقط للخلف وأوقع الشمعدان، فاشتعل اللهب في البساط

صرخ:

- انتظر!.. ألم تسمع خطواته في الطابق السفلي؟.. أؤكد لك أنه يقف الآن خارج الباب!..

هبت الريح وتعالى اللهب والدخان أمامنا. أزحت جانبا بعض الألواح واتجهت إلى القاعة.

أتكلم هنا عن الريح واللهب اللذين حجبا الرؤية.. أتكلم عن صرخات كاننج وصوت الرعد. أتكلم عن رعب الكراهية الذي أفقدني كل تعقل.

بالفعل خارج الباب كان هناك شيء.. شبح سامق له وجه مألوف.. شاحب له جبين عال وشارب.

رأيته للحظة بينما تحرك الرجل - الشبح - الجثة - الهلوسة... سمه ما تشاء.. تحرك نحو كاننج واحتضنه بطريقة لا فرار منها

واندفع الشبحان نحو اللهب المتعالي..

من تلك الحجرة وهذا البيت هربت لا ألوي على شيء. العاصفة مستمرة في غضبها والآن جاءت النار تطالب ببيت كاننج ملكا لها.

وهج أضاء الممر أمامي فاستدرت للخلف، فلم أر إلا اللهب..

اللهب الذي تعالى ليلتهم البيت، وأسرار الرجل الذي يهوى جمع كتب بو.

أحب الشقراوات

أحب الشقراوات

بالطبع هي مسألة تذوق شخصي ولا أكثر. إنه ضعف للسمراوات أو حمراوات الشعر، وأعتقد أن معهم حقا فلا أنتقدهم البتة.

لكن الشقراوات من المفضلات لي. طويلات كن أم قصيرات، بدينات أم نحيلات، ذكيات أم غبيات. كل الأشكال وكل الجنسيات. سمعت كل الاعتراضات.. جلدهن يشيخ بسرعة. طائشات مغرورات مستهترات.. هذا لا يضايقني البتة حتى لو كان حقيقيا. أحبهن ولست وحدي في هذا.. مارلين مونرو يحبها الناس وكذا كيم نوفاك.

يكفي هذا فأنا لا أعتذر.. ما أفعله شأني الخاص. لهذا عندما وقفت عند ركن شارعي ريد وتمبل في الثامنة مساء أبحث عن شقراء فليس عليّ أن أعتذر.

لربما كنت متأنقا أكثر من اللازم. لربما ما كان عليّ أن أغمز بعيني.. لكن هذه مسألة خلافية.. أليس كذلك؟

حتى لو كانت الفتاة فارعة الطول ذات الشعر القصير قد نظرت لي وغمغمت:

- رجل عجوز مقرف!..

فهذا شأنها.. أنا معتاد هذه الاستجابات ولم تضايقني قط.

ظهرت فنانان لطيفتان تلبسان الجينز وكلاهما لها شعر بلون قمح (منيسوتا) وقدرت أنهما أختان. لا تناسبانني طبعا فهذا

سوف يجلب لك المتاعب لأنهما صغيرتان جدا.

كانت ليلة ربيع دافئة. لاحظت فتاة شقراء تمشي مع بحار وبدت لي رائعة، لكنها كانت مع بحار، هناك واحدة معها طفل وواحدة معها كتبة اختزال، وواحدة كدت أكلمها لولا أن أوقف صديقها سيارته ولحق بها.

بدا كأن كل إنسان في الأرض ظفر بشقرائه باستثنائي أنا. لكني اعتدت أن أتعامل مع هذه الأمور بفلسفة. نظرت لساعتي فوجدتها نحو التاسعة وقررت أن أستمر.. لربما كنت رجلاً عجوزا مقرفا.. لكن لديّ حيلة أو حيلتين. أفضل مكان تجد فيه الشقراوات هو في (دريمواي). قاعة رقص رخيصة لكن لا يوجد قانون ضد هذا.

لم أكن مولعا بقاعات الرقص تلك.. ما يسمونه ظلما (موسيقا) يؤذي أذني، ومنظر الرقص نفسه يفسد رقة مشاعري. هناك جو شهواني عام يضايقني، لكن هذا جزء من اللعبة على كل حال.

كانت قاعة (دريمواي) مزدحمة الليلة. زحام من الرجال بعضهم من طبقة العمال، وبالطبع كثير من الفتيات. من أين جاءت تلك الفتيات بثيابهن؟.. التنورات القرمزية والثياب الكريهة ذات لون الكريز. وكل هذه الفظائع ذات اللون الأرجواني، الماكياج المبهرج الأحمر والأبيض والمجوهرات الرخيصة.

برغم هذا كان جمال نادر يتفتح هنا.. وسط الموسيقا المعجونة برائحة العطور الرخيصة ومزيل العرق والتبغ وبودرة التلك.

رأيت فتاة فارعة الطول تبدو كملكة، عيناها غارقتان في حلم بعيد. كانت سمراء.. وكانت هناك فتاة حمراء الشعر ترقص كأنها لهب شمعة يتأرجح.. ثم كانت هناك شقراء.........

نعم.. شقراء!.. صغيرة جدا ممتلئة الجسد بطريقة تذكرك بالأطفال نوعا، متعبة لكنها تملك ما أبحث عنه. الشعر الأشقر الحقيقي.. شقراء حتى النخاع.. لو كان هناك شيء لا أطيقه فهو الشقراء الزائفة. الشعر المصبوغ الذي خدعني كثيرا قبل أن أعرف الحقيقة.

هذه شقراء حقيقية كربات الحصاد.. راقبتها وهي تجوب الحلبة، صورة مجسمة للملل. كان رفيقها في الرقص مزارعا أحمق.. ثيابه غالية لكن ذلك العنق الأحمر يطل من ياقة قميصه، ويبدو أنه كان يمضغ خلة أسنان وهو يرقص! اتخذت قراري.. حان الوقت. نهضت وابتعت لنفسي تذاكر بثلاثة دولارات ثم انتظرت..

انتهى الدور فوقفت الشقراء على جانب الحلبة، بينما ابتعد الفلاح.. غالبا ليبتاع تذاكر جديدة.

مشيت نحوها وأخرجت التذاكر وسألتها:

- ترقصين؟..

هزت رأسها دون أن تنظر لي. كانت مرهقة، كان هناك نمش على ذراعيها الممتلئتين وبدا لي أن عينيها خضراوان، لكن ربما كان الثوب هو السبب.

بدأت الموسيقا. يجب القول إنني وإن كنت أمقت قاعات الرقص فإنني أجيد الرقص فعلاً.. أقولها بكل تواضع. لقد وجدت

محتما أن أصير راقصا بارعا لأكسب الصداقات.

لم نمض في الرقص أكثر من 30 ثانية عندما نظرت لي وقالت للمرة الأولى:

- ياه! أنت راقص بارع!.. هذه ال- (يااه) كانت كل ما أحتاج له. لقد جعلتني هي وطريقتها الساذجة في الكلام أعرف خلفياتها كفتاة من مدينة صغيرة تركت المدرسة وجاءت هنا، ربما جاءت مع رجل.. عملت لفترة في مطعم ثم وجدت أن قاعة الرقص أسهل..

هل هذا كثير لتستخلصه من كلمة واحدة؟.. نعم. لكني قابلت شقراوات كثيرات والقصة دوما واحدة، لو كن من الطراز الذي يقول (يااه).. لا أشكو هنا فالحقيقة أنني أحب هذا الطراز.

كان بوسعها أن تدرك أنني معجب بها، وتوقعت أن تقول لي ملاحظتها الثانية:

- ما زالت هناك حياة في الصبي العجوز بعد..

قلت لها ونحن نرقص:

- لن أخدعك.. أنا مثل الرجال الذين تقابلينهم.. وحيد.. لن أطلب منك أن نخرج معا فأنت تعملين هنا لكني أعرف أنني لو ابتعت المزيد من التذاكر - بعشرة دولارات مثلا فإن بوسعنا الخروج والجلوس في مكان نشرب فيه شيئا..

- لا أعرف....

- بالطبع لا تعرفين.. لكن تذكري أنني عجوز فعلاً بما يسمح بأن أكون جدك.. هذا يطمئنك...

كان أهم إغراء في الموضوع أن تجلس بعد كل هذا الإرهاق.

قالت لي:

- ليكن.. هيا بنا يا سيد..

- (بيرة)!.. هذا صحيح.. اسمى (بيرة)!.. ليس المشروب.. لكن بوسعك شرب أي شيء تريدين يا آنسة..

- شيرلي كولنز..

وانفجرت في الضحك..

تركتها واتجهت لشراء التذاكر وأجريت الترتيبات الأساسية مع المدير. هذا كلفني خمس دولارات أكثر لكنه لم يضايقني.. كلنا بحاجة إلى أن نأكل كما تعرف.

لم تكن سيئة أبدا.. كانت عيناها رماديتين وقد اصطحبتها للشارع ووجدنا مكانا هادئا.

كانت الساقية من ذلك الطراز الأعجف ذي الوجه الكالح الكئيب. تمضغ اللادن وتلبس جوربين. وقد جلبت لنا مشروب الشعير بالثلج الذي طلبته. دفعت لها مع البقشيش ففرقعت اللادن في امتنان وتركتنا.

أزحت مشروبي لأضعه أمام شيرلي جوار مشروبها، وقلت إني لا أشرب إلا نادرا فقالت لي في ريبة:

- لحظة يا سيدي.. أنت لا تحاول جعلي أفقد وعيي.. أليس كذلك؟..

قلت لها بلهجة أستاذ الجامعة الحكيم:

- بوسك ألا تشربي طبعا.

- ليكن.. على الفتاة أن تكون حذرة كما تعلم.. وأفرغت المشروب الأول في فمها، ثم سألتني:

- لا يمكن أن يكون هذا مسليا لك.. أن تجلس وتشاهد فتاة تشرب..

- ألم أقل لك أنني وحيد وإن ما أريده هو الصحبة؟

كنت أراقب شقرتها وجمالها.. لماذا يصر الإنسان على أن يوجد مخ في جسم جميل كهذا؟ لا فارق عندي ويمكن أن أصغى لما تقول من هراء وكلام فارغ، هنا استوقفتها واعتذرت:

- لحظة.. يجب أن أوجه تحياتي لصديق قديم..

وعبرت القاعة لأحييه.. في العادة ما كنت لأعرفه لكنني لاحظته يقف هناك مع فتاة سوداء جميلة، قلت له بنعومة:

- مرحبا.. أرى أنك عدت لحيلك القديمة!..

حاول أن يبدو متعاليا لكنه لم يستطع إخفاء الذعر:

- اسمع هنا.. أنا لا أعرفك...

- بل تعرفني....

وألصقت أذنه بفمي وقلت شيئا فلم يملك إلا أن يضحك، وقال:

- حيلة قذرة وقد صدقتها.. أين تقيم؟..

- مكان يدعى (شقق شين).. وأنت؟..

- بعيد جدا.. هل تروق لك؟..

وأشار للفتاة فقلت:

- لطيفة لكنك تعرف ذوقي ونقطة ضعفي.

وضحكنا..

ثم قلت له ملوحا بيدي:

- حسن.. لن أضايقك أكثر.. أردت أن أتأكد من أنك بخير. على المرء أن يكون حذرا خاصة مع هذا الزحام الرخيص من حولنا.

كانت شيرلي قد طلبت لنفسها مشروبا آخر فدفعتُ ثمنه، وأعطيت الساقية بقشيشا. قالت الفتاة:

- رباه!.. أنت بالتأكيد تبعثر مالك..

- المال لا قيمة له عندي..

ووضعت أمامها خمس ورقات من ذات العشرين.. فقالت:

- لم يا سيد (بيرة)؟... فعلا لا أفهم.

لكن لعابها كان يسيل فعلا.. أخذت المال.. كلهن يفعلن ذلك.

سألتني وهي تمسك يدي:

- كيف تتحصل على كل هذا المال؟..

- الأمر سهل لو عرفت الطريقة..

- تخدعني.. ما هي مهنتك؟..

- سوف تندهشين.. يمكنك القول إنني متقاعد أكرس كل وقتي لهواياتي..

هل تعنى أنك تجمع اللوحات والكتب وما إلى ذلك؟..

- يمكنك قول هذا.. ربما رغبت في دعوتك لتري مجموعتي يوما..

- هل تدعوني حقا لرؤية مجموعتك؟..

- بالتأكيد..

وضعت النقود في حقيبتها، وقالت: لنذهب يا بابا!

لم أتضايق من لفظة (بابا) هذه.. كانت شقراء لذيذة برغم أنها كانت تتطوح سكرا. اخترقت نصف دستة من العيون ظهري ونحن نتجه لباب البار خارجين. أعرف فيما يفكرون:.. حفرية جافة كهذه مع فتاة صغيرة.. إلام سيصير العالم عما قريب؟..

لكنهم بالطبع كانوا يعودون لاحتساء مشروباتهم، كأنهم لا يبالون فعلاً بما سيصير له العالم عما قريب. يمكن أن تسقط القنابل وتحلق الأطباق الطائرة لكن الناس سيظلون في البارات يشربون ويصدرون الأحكام.

شيرلي مناسبة لي جدا.. من السهل أن أجد سيارة أجرة أركبها فيها. وأطلب من السائق (شقق شين). التصقت شيرلي بي فتراجعت.

- ماذا دهاك يا بابا؟.. ألا أروق لك؟..

- بلي.. تروقين..

- إذن لا تتصرف كأنني سأعضك..

- ليس الأمر كذلك.. أنا صادق عندما قلت إنني لا أريد شيئا من.. من هذا القبيل..

بلغنا البناية فناولت السائق ورقة بعشرة دولارات وليبق الباقي لنفسه.

قالت شيرلي:

- لا أفهمك يا مستر (بيرة).. كيف تبعثر المال بهذه الطريقة:؟..

- لنقل إنني مغادر المدينة قريبا.. وتأبطت ذراعها واقتدتها للمصعد وضغطت الزر، في الطريق بدأت شيرلي تفيق فجأة، وواجهتني ووضعت يديها على كتفي وقالت:

- اسمع يا سيد (بيرة).. أنا رأيت فيلما كهذا منذ قريب. انفاقك المال وكلامك عن مغادرة المدينة أنت لست مريضا أليس كذلك؟.. أعنى أنك لم تأت من عيادة الطبيب الذي أخبرك بقرب وفاتك؟..

كان عطفها مؤثرا، فقلت لها:

- لا شيء من هذا.. أنا بصحة جيدة وأعتقد أنني سأبقى كذلك لفترة..

كادت تعانقني فتراجعت في الوقت المناسب لأفلت منها، وغادرنا المصعد فقالت في حماس:

- أه.. أنت تعيش على السطح.. كم أن هذا مثير!..

قلت لها:

- أدخلي أنت أولا..

كان هنالك باب اجتازته وانغلق من خلفنا فساد الصمت. كان كل شيء هادئا في ضوء القمر وكان كل شيء جميلا. كانت المدينة المظلمة تمتد تحتنا وقد تقلدت قلادتها النيون وعلقت أقراط الرذيلة. رأيت هذا المشهد مرارا وأذكره حيث جئت، لكني لا أريد أن أستبدله بحياتي.. لا أريد أن أعيش في المدينة.

كانت الفتاة تحدق لكنها لا تنظر للشارع.. تتبعت عينيها إلى حيث البناية الملاصقة، وإلى حيث كان شيء يتألق في الظلمة كان من الصعب أن تراه من البيوت الملاصقة كما كان من الصعب أن تراه من الباب لدى النظرة الأولى..

لكنها رأته وقالت:

- ياه!.. سيد (بيرة).. أنظر لهذا!..

نظرت فقالت لي:

- هل هي طائرة أم هي شيء من تلك الأطباق الطائرة؟..

ثم نظرت لي وقالت:

- ماذا هنالك يا سيد (بيرة)؟.. لا تبدو لي مندهشا.

- هل تعرف بهذا ال شيء؟..

- نعم.. هو لي..

- طبق طائر؟... مستحيل.. أنت رجل و...

هززت رأسي ببطء وقلت:

- ليس بالضبط يا شيرلي.. أنا في الحقيقة لا أبدو كهذا.. ليس من حيث أتيت..

وأشرت لجلدي وقلت:

- استعرت هذا من (ريل)..

- ريل..؟

- صديق لي.. يجمع كل ذلك.. كلنا هواة جمع.. هي هوايتنا وقد جئنا الأرض لنجمع..

ولم أر تعبير وجهها..

- ريل له هواية غريبة بشكل ما. لا يجمع سوى حروف (ب).. لديه (بروستون) وثلاثة (بيكر) و (بيرة).. هذا هو الجسد الذي أستعمله الآن.. لقد وجده في المكسيك..

همست وهي تبتعد:

- أنت مجنون!!..

صديقي (كور) لديه مجموعة من كل الشعوب.. مار الذي رأيته في الحانة يحب جمع سكان (ميلانيزيا) [2]..

الآن صرت لصيقا بها فلم تتراجع أكثر.. كانت على حافة السقف.

- خذي مثال (فيس).. إنه يجمع حمراوات الشعر ولا شيء سواهن، ولديه مجموعة ممتازة منهن محنطات. عملية ممتعة أؤكد لك هذا!.. بالنسبة لي أنا أحب الشقراوات..

اتسعت عيناها ولم تجد كلمات تخرج من حلقها.. قالت لاهثة:

- أنت ستحنطني؟..

ضحكت وقت:

- لا يا عزيزتي.. أنا لا أحنط ولا أستعمل سوائل حافظة.. أنا أجمع لغرض آخر..

- أنت تخدعني!..

- لا. لا... لنقل إن لدى أفكاري الخاصة.. لقد جمعت مائة شقراء حتى اليوم منذ البدء، أنت رقم 103..

ولم أفعل شيئا لأنها غابت عن الوعي. هذا سهّل الأمور.. لا داعي لعمل فوضى على السقف.. فقط حملتها للسفينة على الفور. سوف يتذكر الناس العجوز الذي أخذ شيرلي كولنز من قاعة الرقص، وسوف يدور تحقيق، وهذا كل شيء.

لكن هذا لا يضايقني.. ريل لديه أجساد كثيرة غير (بيرة) العجوز.. في المرة القادمة سأستخدم جسدا لشاب. التنوع هو توابل الحياة.

ليلة جميلة هي وقد ظللت أغنى طيلة طريق العودة.. لكن أفضل الأجزاء لم يأت بعد.

أحب الشقراوات.. يمكنهن أن يسخرن مني متى أردن، لكن بوسعي أن آخذ آية واحدة منهن.. وكما قلت هي مسألة تذوق..

فالشقراوات مذاقهن أفضل!

الموتى الأحياء

استراح طيلة اليوم، بينما البنادق تدوي في القرية من تحت. ثم في ظلال العصر المنحدرة، هدأت الضوضاء وعرف أن الأمر انتهى. لقد عبر الأمريكيون النهر.. لقد رحلوا أخيرا وعاد السلام.

هنا خرج الكونت بارزاك من السرداب، فوق القرية بين خرائب القصر العظيم على جانب الهضبة.

كان الكونت نحيلاً طويل القامة.. نحيلاً بشكل مخيف كالجثث، وكان لوجهه ويداه لون الشمع الشاحب، وشعره أسود لكن ليس كعينيه والهالات تحتهما. كانت عباءته سوداء.. لكن أوضح لون يحيط به كان الأحمر الذي يميز شفتيه إذ تبتسمان.

كان يبتسم الآن في ضوء الغسق، لأن وقت اللعب قد جاء. اسم اللعبة هو الموت.. وقد لعبها مرارا.

لعبها في باريس على مسرح الجران جوينيول، وكان اسمه وقتها (إريك كارون) ثم جاءت الحرب وهكذا توقف كل شيء. قبل أن يستولي الألمان على باريس كان يعمل معهم سرا. كان يعمل معهم، وكممثل كان لا يقدر بثمن. هذا تمثيل راق له كثيرا لأنه كان بلا أضواء ولا ماكياج.. وكان هو الذي يكتب الدور لنفسه.

لقد قال لرؤسائه الألمان:

- الأمر بسيط.. إن قصر (بارزاك) مهجور منذ عهد الثورة.. لا أحد من الفلاحين يجسر على الدنو منه بسبب الأسطورة.. يقال إن آخر كونت بارزاك كان مصاص دماء..

هكذا تم ترتيب كل شيء تم وضع جهاز الإرسال قصير الموجة في السرداب تحت القصر، وعمل عليه ثلاثة محترفين.. بينما هو يشرف على العملية كملاك حارس.. لا.. كشيطان حارس..

قال لهم:

- هناك مقبرة على جانب الجبل.. مقبرة للفقراء والجهلة. بها قبو مهم هو مدفن أسرة بارزاك. سوف نفتحه ونخرج بقايا آخر كونت ونجعل القرويين يكتشفون أن التابوت فارغ، لن يدنوا من المكان أبدا. إن كونت بارزاك مصاص دماء ويبدو أنه عاد للممشى.

- ماذا لو كانوا متشككين؟.. ماذا لو لم يصدقوا؟..

كان جاهزا بالإجابة:

- سوف يصدقون لأنني سأمشي في الليل ككونت بارزاك..

لما رأوه بالعباءة السوداء، لم يعد هناك شك.. ان الدور دوره..

الدور دوره وقد لعبه ببراعة. هكذا فكر الكونت وهو يتسلق الدرجات ويدخل الغرفة التي بلا سقف حيث لا يخفى القمر سوى نسيج العنكبوت. الآن حان وقت إنزال الستار.. لو أن الأمريكيين مروا بالقرية فقد حان وقت الانحناء للجمهور والخروج، وقد تم ترتيب هذا جيدا.

كانت للقبر فائدة أخرى أثناء السحاب الألمان، فقد كان هناك مخزن من التحف الفنية الخاصة بالمارشال (جورنج) [3]

مخبأة في سلام داخل السرداب، هناك شاحنة محملة، وهناك من يقود الشاحنة إلى القبر لوضع ما تحمله هناك.

عندما يصل الكونت هناك سوف يرتدون ثياب الجيش الأمريكي المسروقة، ويحملون الهويات المزورة ويعبرون النهر لينضموا للقوات الألمانية عند النقطة المحددة سلفا. لا شيء قد تُرك للصدفة.. يوما ما سوف يكتب مذكراته و...

لكن لا وقت لهذا الآن.. لقد ارتفع القمر وحان وقت الرحيل.

كان بشكل ما يمقت الرحيل. ما كان الآخرون يرونه غبارا ونسيج عناكب كان بالنسبة له خشبة مسرح يؤدي عليه أعظم أداء له. لم يحب طعم الدم وهو يلعب دور مصاص الدماء لكنه أحب طعم النصر.. وهو قد انتصر.

شكسبير قال: الفراق ألم عذب.... شكسبير كتب عن الأشباح والعفاريت لأنه كان يدرك أن جمهوره - الجموع الغبية - يؤمن بشيء كهذا... وما زال يؤمن..

هبط إلى الظلال خارج مدخل القصر..

في هذا المكان وبين هذه الأشجار قابل ريمون منذ أسابيع. ريمون هو أكثر أفراد جمهوره تقديرا لفنه.. عجوز أبيض الشعر معتز بنفسه.. عمدة قرية بارزاك.. لكن الأحمق العجوز لم يعتز بنفسه كثيرا عندما رأى الكونت في الظلام. لقد صرخ كامرأة وجرى.

كان العمدة صاحب الفضل في ترويج الإشاعات.. قال للجميع إن الكونت قد خرج من قبره.

هو و (كلوديه) الطحان الأبله اقتادا مجموعة رجال مسلحة للمقبرة، ودخلوا قبر بارزاك. فأي رعب أصابهم عندما وجدوا تابوت الكونت مفتوحا وخاليا!

لم يحو التابوت أصلاً سوى التراب الذي بعثرته الريح. لم يعرفوا كذلك ما حدث لسوزان.

كان الكونت يعبر ضفاف النهر الآن.. هنا في ليلة سابقة وجد الفتاة.. ابنة ريمون مع حبيبها أنطوان لوفيفر. كان للفتى ساق عرجاء أخرجته من الجيش لكنه جرى كالغزال عندما رأى الكونت. ظلت سوزان لسوء حظها واقفة لذا صار من الضروري التخلص منها. دفن جسدها في الأحراش تحت صخور ضخمة، مطمئنا إلى أنها لن تكتشف. لكنه كان حادثا مؤسفا.

في النهاية صارت الأمور كأفضل ما يكون. كان ريمون الأحمق واثقا من أن مصاص الدماء يمشى، لقد رأى المخلوق بنفسه ورأى القبر الخالي. اختفت ابنته.

مسكين ريمون.. لم يعد هو العمدة. دمر القصف قريته.. لم يبق منه سوى عجوز جاهل محطم يغمغم بكلام فارغ عن الموتى الأحياء.

ابتسم الكونت وواصل النزول في المنحدر، كان يرى المقبرة الآن وشواهد القبور تبرز من الأرض كأنامل مجذومين في ضوء القمر. لم يكن يحب هذه الخواطر. كان يمقت رؤية الدم كما كان يملك رهاب الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا) نحو السراديب.

كان دورا عظيما لكنه انتهى لحسن الحظ. من الجميل أن تعود لتمثيل دور البشري من جديد.

رأى الشاحنة تنتظر وسط الظلال. كان مدخل السرداب مفتوحا لكن لا صوت منه. هذا يعني أن رفاقه أتموا التحميل وتأهبوا للرحيل. كل ما عليه هو تبديل ثيابه وإزالة الماكياج والرحيل.

اتجه للشاحنة المظلمة.. هنا..

عندما أحاطوا به شعر بشوك المذراة في ظهره... وسطعت الفوانيس في عينيه، وسمع صوتا حازما يقول:

- لا تتحرك!..

لم يتحرك، وهم يحيطون به، أنطوان.. كلوديه.. ريمون والآخرون.. 12 فلاحا من القرية. ينظرون له بمقت وخوف.

كيف جسروا؟

تقدم العريف الأمريكي منه.. هذه هي الإجابة إذن.. العريف الأمريكي.. إنهم يسيطرون على الموقف فلا حاجة به إلى البحث عن جثث مشغلي اللاسلكي التي تكومت في مؤخرة السيارة ليعرف ما يدور.

لقد وجدوا رجاله وهم يعملون، فقتلوهم ثم نادوا الفلاحين.

الآن يوجهون له أسئلة بالإنجليزية طبعا.

كان يعرف الإنجليزية، لكنه لم يجب:

- من أنت؟.. هل هؤلاء الرجال يأتمرون بأمرك... هل كنت ستركب هذه الشاحنة؟..

هز رأسه وابتسم.. بعد قليل كفوا عن السؤال كما توقع.

استدار العريف لمرافقه وقال:

- لنذهب..

تسلق المرافق إلى الشاحنة وبدأ المحرك يعود للحياة.

واستدار العريف لريمون وقال:

سنعبر بها النهر.. راقبوا صاحبنا هذا فلسوف يرسلون له حراسة خلال ساعة..

هز ريمون رأسه.

انطلقت الشاحنة في الظلام.

لقد عم الظلام وتوارى القمر خلف السحب، ونظر الكونت لمن قبضوا عليه.. جهلة أغبياء.. لا فرصة للهرب.. إنهم ينظرون له.

كان ريمون أول من تكلم.. دفعوا سجينهم للأمام بالمذراة. هنا بدأ الكونت يتبين فرصته الأولى في الفرار. لم يكن هناك رجل يجسر على لمسه وعندما كان ينظر لهم كانوا يخفضون عيونهم.

سوف يضعونه في السرداب لأنهم يخافونه. لقد رحل الأمريكان فهم يخشونه أكثر. إنه بالنسبة لهم مصاص دماء قد يتحول لوطواط ويطير.

ابتسم الكونت ابتسامة شريرة وكشف عن أسنانه استدار لهم وطوح عباءته وهي حركة صارت لازمة من لوازم دوره. أصدر الرجال أنينا ورسم ريمون علامة الصليب. وكان هذا أفضل من التصفيق له.

في ظلام السرداب استرخي الكونت.. من المؤسف أن الخطة لم تتم كما أراد لها. سوف يأخذونه للقيادة الأمريكية ويحققون معه وسوف تكون هناك لحظات غير سارة. لكن أسوأ شيء ممكن هو أن يوضع في معسكر اعتقال.

كان المكان مظلما كريه الرائحة. فك العباءة قليلاً عن حلقه. قد يكون الأفضل أن ينزعها تماما. لقد لعب دور مصاص الدماء ببراعة لكنه الآن راغب في الرحيل.

سمع صوت غمغمة من الخارج مع صوت يشبه صوت الخدش. تحرك للباب وأنصت لكن لم يسمع شيئا. ماذا يفعل الحمقى هنا؟ تمنى أن يعود الأمريكان سريعا فالحر شديد... ثم لم هذا الصمت المفاجئ؟

ربما رحلوا..

هذا هو.. الأمريكان طلبوا منهم البقاء وحراسته لكنهم كانوا جبناء، لقد خافوا وهربوا وهذا يعني أنه حر الآن.

فتح الكونت الباب.

رآهم عندئذ يقفون وينتظرون. هنا رأى ريمون يتقدم للأمام وكان يحمل في يده شيئا.. عرفه الكونت إذ تذكر صوت الخدش.

كان وتدا طويلا له طرف مدبب.

فتح فمه ليصرخ ويخبرهم أن هذا مقلب، وأنهم مجموعة حمقي مؤمنين بالخرافات.

لكنهم حملوه حملا للقبو ورفعوه ليلقوه في تابوت مفتوح، من ثم رفع ريمون الوتد في الهواء وصوبه على قلبه.

فقط عندما هبط الوتد أدرك أنه من الممكن أن يلعب المرء الدور ببراعة أكثر من اللازم.

إينوخ

إينوخ

يبدأ الأمر دوما بالطريقة ذاتها..

أولا هناك ذلك الإحساس.

هل شعرت من قبل بخطوات قدم صغيرة تمشى فوق قمة جمجمتك؟... خطوات فوق جمجمتك أماما وخلفا.. أماما وخلفا..

هكذا يبدأ الأمر..

أنت لا ترى من يمشى هناك لأن الأمر يتم على قمة رأسك. لو كنت بارعا انتظر فرصة مناسبة ثم مرر يدك في شعرك لكنك لن تقبض على المتسلل.. هو يعرف هو يعرف.. حتى لو وضعت يديك معا على رأسك فلسوف يفلت من بينهما.

سريع جدا هو.. لا يمكنك تجاهله. يحاول الخطوة التالية فينزلق على مؤخرة عنقك ويهمس في أذنك.

تشعر بجسده رقيقا باردا يضغط على قاعدة المخ. هناك شيء مخدر في مخالبه بأنها لا تؤلم برغم أنك فيما بعد ستجد الكثير من الخدوش في مؤخرة عنك.

هنا تبدأ في المقاومة، تحاول ألا تسمع ما يقول. لأنك لو أصغيت لضعت. يجب أن تطيعه وقتها.

لكم هو شرير وحكيم!

يعرف كيف يخيفك ويهددك لو قاومت. لكنى كففت عن ذلك.. فقط أصغى وأطيع، عندها لا تبدو الأمور سيئة.. يمكنه

أن يكون ملطفا ومقنعا.. ربما مغريا كذلك. لكم من أمور وعدني بها.

وهو يفي بوعوده..

يظلني الناس فقيرا لأنني لا أملك مالاً وأعيش في كوخ حقير على حافة المستنقع، لكنه أعطاني ثروة.

بعد ما أنفذ طلبه يأخذني بعيدا لفترة.. هناك أماكن أخرى غير هذا العالم حيث أصير ملكا، الناس يضحكون لأنه لا أصدقاء لي، والفتيات يسخرن مني ويطلقن عليّ (الفزاعة). لكنه يجلب لي الملكات عندما أنفذ أوامره.

أحلام.. لا أظن ذلك.. إن الحياة الأخرى في كوخ جوار المستنقع هي التي تبدو لي كحلم. ولا حتى القتل.. أنت تعرف إنني أقتل.. فهذا هو ما يريده إينوخ..

يطلب مني أن أقتل الناس..

لا أحب هذا.. كنت أحارب لمنع هذا.. قلت لك هذا من قبل.. لكني كففت عن ذلك.

إينوخ يريد أن أقتل الناس من أجله وهو يعيش في رأسي. لا أراه ولا أستطيع الإمساك به. يمكنني أن أسمعه وأطيعه.

أحيانا يتركني أياما.. ثم فجأة يعود ليحك رأسي، أسمع همسه بوضوح يخبرني بشخص قادم عبر المستنقع.

لا أعرف كيف يعرف ذلك، فهو يصف القادم بدقة.

- هناك متشرد يمشي في طريق إيلزورثي.. رجل قصير مكتنز أصلع. اسمه (مايك).. يلبس سويتر بنيا وأوفرول أزرق. سوف يتوقف قرب الشجرة..

من الأفضل أن تتوارى خلف هذه الشجرة. انتظر حتى يبحث عن حطب.. تعرف ما يجب عمله، هات الفأس الآن.. بسرعة..

أحيانا أسأل إينوخ عما سيعطيه لي فأنا أثق به. يجب أن أفعل إينوخ لا يخطئ وهو يحميني من المتاعب. هذا ما فعله حتى آخر مرة.

ذات ليلة جلست في الكوخ ألتهم العشاء عندما أخبرني بالفتاة.

قال لي:

- سوف تأتي لزيارتك.. هي فتاة جميلة تلبس الأسود.... حسبت أنه يعدني بجائزة، ثم فهمت أنه يتكلم عن ضحية حقيقية.

- سوف تدق الباب وتطلب منك أن تساعدها في إصلاح سيارتها، كانت تحاول أن تصل للمدينة بطريق مختصرة.. الآن السيارة في المستنقع وأحد إطاراتها يحتاج للتغيير.. من المضحك أن تسمع إينوخ يتكلم عن الإطارات. لكنه يعرف كل شيء.

- سوف تذهب لتساعدها.. لا تأخذ معك شيئا فلديها رافعة في السيارة..

حاولت أن أقاومه ورحت أردد:

- لن أفعل.. لن أفعل..

لكنه ضحك وقال إنه سيفعل ذلك لو رفضت أنا. وقال:

- من الخير أن أفعل ذلك بدلاً منك... أم سوف...

صرخت:

- لا.. سوف أفعل ذلك!..

همس إينوخ:

- على كل حال لا حيلة لي في ذلك.. يجب أن أفعله كي أظل حيا وأظل قويا وأمنحك ما تريد.. لهذا يجب أن تطيع.. لو لم تفعل..

- لا.. سأفعل!..

وكذا فعلت..

قرعتْ بابي بعد دقائق وكان الأمر كما همس به إينوخ. كانت فتاة جميلة شقراء، وقد شعرت بسرور عندما ذهبت للمستنقع معها، لم أؤذ شعرها الجميل وإنما هويت على مؤخرة عنقها بالرفعة.

أخبرني إينوخ بما يجب عمله خطوة بخطوة.

بعد هذا باستعمال الفأس دفنتها في الرمال المتحركة وكان إينوخ معي، وقد نصحني بأن أخفى آثار الأقدام ففعت.

كان أمر السيارة يقلقني لكنه علمني كيف أستعمل طرف جذع خشب متعفن لأدفعها، بالفعل غاصت بالكامل وبأسرع مما توقعت.

لما غاصت السيارة تخلصت من الرافعة خلفها ثم أمرني إينوخ بالعودة للبيت، وكنت قد بدأت أشعر بذلك الشعور الحالم من جديد.

لقد وعدني بمتعة خاصة هذه المرة لذا غصت في النوم. بينما تركني إينوخ وتوغل في المستنقع ليظفر بجائزته.

لا أذكر كم من الوقت نمت، لكنه وقت طويل حتما. في النهاية صحوت مدركا أن إينوخ قد عاد وشاعرا أن شيئا ما خطأ.

هناك طرقات على الباب.

انتظرت لحظات حتى يهمس لي إينوخ بما يجب عمله، لكنه كان نائما. دائما ما ينام بعد هذه المواقف فلا يوقظه شيء لأيام وفي هذا الوقت أكون حرا. هذه الحرية تعجبني لكن الآن أنا بحاجة له.

تزايدت القرعات فنهضت لأجيب.

دخل المأمور العجوز شيلبي من الباب وقال لي:

- هلم يا سيث.. سوف أخذك للسجن..

لم أتكلم.. كانت عيناه الصغيرتان كالخرز تفحصان كل شيء في الكوخ. ثم نظر لي فوددت لو أتواري.. شعرت بذعر رهيب.

بالطبع لا يرى إينوخ.. لا أحد يمكنه ذلك، لكن إينوخ كان هناك فقد شعرت به على قمة جمجمتي. تحت الشعر.. ينام في سلام كطفل.

قال المأمور:

- أهل إميلي روبنز قالوا إنها كانت تنوى عبور المستنقع. تتبعنا آثار العجلات حتى الرمال المتحركة..

لقد نسى إينوخ آثار الإطارات فماذا أقول؟

- كل شيء تقوله قد يُتخذ ضدك.. تعال يا سيث.. ذهبت معه فلم يكن هناك ما أستطيع عمله. ذهبنا للمدينة حيث أحاط بنا المتسكعون، وكانت هناك نسوة وسط الزحام يطالبن الرجال بأن ينالوا مني.

لكن الشريف أبعدهم وألقى بي سليما في مؤخرة السجن بين زنزانتين فارغتين. هكذا كنت وحدي. وحدي ما عدا إينوخ الذي ظل نائما.

كان الوقت مبكرا في الصباح وقد انصرف الشريف مع بعض الرجال. غالبا ينوي البحث عن الجثة في الرمال المتحركة لم يوجه أية أسئلة وهذا آثار دهشتي.

كان تشارلي بوتر على العكس يريد أن يعرف كل شيء.. لقد كلفه المأمور بحراسة السجن فطلب لي إفطارا ثم ظل جواري يريد أن يسأل أسئلة كثيرة.

ظللت صامتا.. ليس من الحكمة أن تكلم أحمق مثل تشارلي بوتر. كان يحسبني مجنونا. أغلب الناس كانوا يعتقدونني مجنونا

بسبب أمي وحياتي وحيدا في المستنقع.

حتى لو حكيت له عن إينوخ فلن يصدق حرفا.

لذا لم اتكلم.

أصغيت.

حكى لي تشارلي بوتر قصة البحث عن إميلي روبنسون وكيف كان المأمور يحقق في سلسلة أخرى من حوادث الاختفاء. قال إنه ستكون هناك محاكمة كبرى وسوف يأتي المدعي العام وقد بعثوا في طلب طبيب يفحصني.

جاء الطبيب بمجرد أن أنهيت الإفطار، أدخله تشارلي وكان عليه أن يعمل بسرعة لمنع الرعاع من الدخول معه. كانوا يريدون شنقي بلا محاكمة. جاء الطبيب وهو رجل صغير الحجم له لحية مضحكة جلس أمام الزنزانة ليتكلم معي.

كان اسمه د. سيلفر سميت.

حتى هذه اللحظة لم أكن أشعر بشيء.. لقد حدث كل شيء بسرعة فلم أجد وقتا للتفكير، كأنه جزء من حلم.. لكن مرأى د. سيلفرسميث غيّر الأمور.

كان حقيقيا.. وكان أول شيء سألني عنه هو ماذا حدث لأمي. كان يعرف عني الكثير، وهذا جعل الكلام أسهل.

هكذا وجدتني أحكي له أشياء عديدة. كيف عشت وأمي في الكوخ. وكيف كانت تصنع مشروبات سحرية، وكيف كنت أنا وهي تجمع الأعشاب ليلا.. كيف كانت تخرج وحدها في بعض

الليالي وكيف كنت أسمع أصواتا غريبة.. كانوا يطلقون عليها الساحرة...

كان كذلك يعرف كيف ماتت عندما جاء سانتو دينوريلي لبيتنا وطعنها لأنها قدمت لابنته جرعة سحرية جعلتها تفر مع شاب. كان يعرف أنني أعيش هنا وحدي.

لكنه لم يعرف من هو إينوخ.

كان إينوخ فوق رأسي طيلة الوقت يغفو لا يعرف أو لا يبالي بما يدور.

كنت أكلم د. سيلفرسميت عن إينوخ. أردت أن أشرح له أنه القاتل الحقيقي وكيف أجرت أمي الصفقة في الغابة، كنت في الثانية عشرة ولم تسمح لي بالذهاب معها لكنها أخذت بعضا من دمي في زجاجة.

عندما عادت كان إينوخ معها. لقد صار ملكي للأبد وسوف يساعدني في كل شيء. لهذا لم أستطع عمل شيء لنفسي لأنه منذ ماتت أمي صار إينوخ يهديني.

لقد حماني إينوخ كل هذه السنين. اعترفت بهذا لدكتور سلفر سميث لأنني شعرت بأنه رجل حكيم يفهمني.

كنت مخطئا.

عرفت هذا فجأة، لأنه بينما د. سلفرسميث يصغى لي ويتحسس لحيته ويقول: نعم.. نعم، شعرت بعينيه تفحصانني. عينين سافلتين.. عينين لا تثقان بك.

ثم بدأ يسألني عن كل شيء.. عن إينوخ برغم أنني أدركت أنه يتظاهر بالتصديق. سألني كيف أسمع إينوخ ما دمت لا أراه. سألني عما شعرت به لدى قتل إميلي روبنز لكني لم أفكر حتى في هذا السؤال. تكلم معي كأنني.. كانني مجنون!

كان يخدعني طيلة الوقت. سألني عن عدد الذين قتلتهم ثم أراد أن يعرف أين رءوسهم، لكنه لم يستطع خداعي أكثر. لذا لذت بالصمت.

بعد قليل استسلم وابتعد وهو يهز رأسه، ضحكت لأنه لم يجد ما يبحث عنه. كان يريد معرفة كل أسراري. ونمت حتى ما بعد الظهر.

عندما صحوت من النوم كان رجل جديد يقف أمام الزنزانة. رجل له وجه ضخم سمين باسم، وقال:

- أهلا سيث.. هل تنعم بتعسيلة؟..

تحسست أعلى رأسي فلم أشعر بإينوخ. عرفت أنه ما زال هناك وما زال نائما.

قال الرجل:

- لا تخف.. لن أؤذيك..

- هل أرسلك الطبيب؟..

- بالطبع لا.. اسمي كاسيدي.. إدوين كاسيدي.. أنا المدعي العام ومسئول عنك.. هل لي بالدخول؟..

- أنا محبوس هنا..

- لقد حصلت على المفاتيح من الشريف... فتح الزنزانة وتقدم ليجلس أمامي، فسألته:

- ألست مذعورا؟.. من المفروض أنني قاتل..

ضحك وقال:

- أنا أعرف أنك لم ترد قتل أي واحد..

وضع يده على كتفي فلم أتزحزح. كان هناك خاتم ماسي يتألق في الشمس، وسألني:

- كيف حال إينوخ؟.. فوثبت.

- لا تقلق.. الطبيب الأحمق أخبرني عندما قابلته. هو لا يعرف من هو إينوخ بينما أنا وأنت نعرف..

- يحسبني مجنونا..

حسن.. بيني وبينك.. الأمر صعب التصديق لكنني جئت من المستنقع. المأمور ورجاله يعملون هناك، وجدوا جثة إميلي روبنز منذ قليل.. هناك جثة رجل بدين وطفل وهندي لقد حافظت الرمال المتحركة عليهم.

كانت عيناه تبتسمان، وقدّرت أنني أستطيع الثقة بهذا الرجل.

- سيجدون المزيد.. أليس كذلك يا سيث؟..

هززت رأسي.

- لقد رأيت ما يكفي لأفهم أنك تقول الحقيقة، لابد أن إينوخ جعلك تفعل هذا..

اعتصر كتفي وقال:

- هكذا ترى أننا نفهم بعضنا.. لن ألومك على أي شيء تقوله.

- ماذا تريد؟..

- أنا مهتم بإينوخ.. فكم مرة طلب منك القتل؟..

- تسع مرات..

- وكلهم مدفونون في الرمال المتحركة؟..

- نعم..

- تعرف أسماءهم؟..

- القليل منها.. إينوخ كان يحدد لي صفات الشخص أحيانا فلا أعرف اسمه..

أشعل سيجارا فقطبت وقلت له:

- لا سيجار من فضلك.. أمي لم تكن تؤمن بالسجائر.. ولم تسمح لي قط.

ضحك بصوت عال وأبعد السيجار. وقال:

- أنت تستطيع أن تقدم لي الكثير من العون.. تعرف ما يجب على المدعي العام عمله..

- إنه نوع من المحامين.. أليس كذلك؟..

- بلى.. سأكون في محاكمتك. أنت لا تريد أن تقف أمام كل هؤلاء الناس وتحكي ما حدث.. أليس كذلك؟...

نعم يا سيدي.. ليس أمام هؤلاء المنحطين الذين يكرهونني..

- إذن قل لي كل شيء ولسوف أتكلم بدلا منك.. هذا دليل على الصداقة..

نظرت له واتخذت قراري:

- ليكن.. سوف أخبرك..

حكيت له كل شيء كما عرفته. كف عن الضحك وراح يصغى.

ثم قال لي:

- هناك شيء.. وجدنا بعض الأجساد في المستنقع.. لكن سيكون من الأسهل لو أخبرتني شيئا آخر يا سيث؟.. أين ذهبت الرءوس؟..

وقفت قائلا:

- لن أخبرك بهذا.. لأنني لا أعرف..

- لا تعرف؟..

- أعطيتها لـ (إينوخ). لهذا أقتل الناس.. لأنه يريد الرءوس..

بدت عليه الحيرة.

- إنه يجعلني أقطع الرءوس وأتركها.. يكافئني ثم يجعلني أنام ويعود للرءوس..

جلس مستر كاسيدي وتنهد وقال:

- ولماذا تترك إينوخ يفعل هذا؟..

- لابد أن أفعل هذا وإلا فعله بي.. يجب أن يظفر بها..

كان مستر كاسيدي يصغي لي وأنا أمشي في الزنزانة، وبدا لي عصبيا جدا فجأة..

قلت:

- سوف تشرح هذا كله في المحكمة.. موضوع إينوخ هذا..

قال لي:

- لن تحكى عن إينوخ في المحاكمة وكذلك أنا.. لن يعرف أحد أن إينوخ موجود. لو قصصت على الناس قصة إينوخ فلسوف يقولون إنك مجنون.. (4)

ثم فكر وقال:

- أنت خائف من إينوخ.. فماذا لو أعطيته لي؟؟؟ أنا أفكر بصوت عال فقط..

غصصت بصوت عال فقال:

- افترض أنك أعطيته لي الآن؟.. سوف أعنى به أثناء المحاكمة ولن يصير ملكك، ولن يكون عليك أن تتكلم عنه أعتقد أنه لا يريد أن يعرف الناس شيئا عنه..

قلت:

- معك حق.. سوف يغضب جدا فهو سر.. لكن أكره أن أعطيه من دون سؤال فهو غاف الآن..

- نعم.. في قمة جمجمتي.. أنت لا تراه..

نظر لرأسي ثم ضحك من جديد. فقلت:

- عدني أن تعنى به..

- بالتأكيد.

- ولن تخبر أحدا؟..

- بالتأكيد..

- تعرف طبعا ما سيحدث لو رفضت أن تعطيه ما يريد. سيأخذه بالقوة..

هنا شعرت بشيء يتحرك جوار أذني. فهمست:

- إينوخ.. هل تسمعني؟..

سمعني..

شرحت له أنى سأعطيه لمستر كاسيدي فلم يتكلم.

جلس مستر كاسيدي يراقبني بلا كلام، مكتفيا بالابتسام. لابد أن منظري غريب وأنا أكلم لا أحد.

اذهب لمستر كاسيدي.. اذهب له الآن..

- فعل كما قلت. وشعرت بثقل ينزاح عن رأسي.

- هل تشعر به يا مستر كاسيدي؟..

قال:

- ماذا؟.. طبعا..

- اعتن به..

بالتأكيد..

- ولا تعتمر قبعتك.. إينوخ لا يحب القبعات..

- نسيت.. والآن يا سيث أقول لك الوداع.. لقد عاونتني كثيرا ومن الآن يمكنك نسيان إينوخ في محادثاتك مع أي شخص. سوف أعود لنناقش المحاكمة.. هذا الدكتور سيلفرسميث سيحاول إقناع الناس إنك مجنون. يجب أن تنكر كل ما قلته له.. لقد صار إينوخ معي..

كانت فكرة طيبة، لكني كنت أعرف أن مستر كاسيدي ذكي.

- كما تريد يا مستر كاسيدي.. فقط كن طيبا مع إينوخ ليكون طيبا معك..

هز رأسه ثم رحل مع إينوخ. شعرت بالإرهاق ربما بسبب التوتر. ربما الشعور بالغربة بعد رحيل إينوخ. على كل حال نمت فترة طويلة جدا.

في المساء صحوت، كان تشارلي بوتر يدق باب الزنزانة جالبا لي العشاء.

لما نهضت تراجع وصرخ:

- قاتل!.. لقد وجدوا تسع جثث في المستنقع.. أيها الشيطان المجنون. سوف أرحل الآن.. سأتركك سجينا الليلة. المأمور يريد التأكد من أنهم لن يشنقوك دون محاكمة ورأيي أنهم يضيعون وقتهم...

ثم أطفأ الأنوار كلها ورحل. سمعت الباب الأمامي يغلق وصرت وحيدا في السجن كله.

وحدي... للمرة الأولى منذ أعوام.. من دون إينوخ.

كان القمر يسطع عبر النافذة فوقفت أرمق الشارع الخالي كان إينوخ يحب القمر فهو يجعله جشعا قلقا. كيف يشعر الآن مع مستر كاسيدي؟

لابد أنني وقفت طويلاً حتى سمعت صوت العبث بالباب.

انفتح الباب وجاء مستر كاسيدي. وصرخ:

- خذه بعيدا!.. أبعده عني!..

- ما الخطب...

إينوخ.. هذا الشيء خاصتك.. حسبتك مجنونا.. والآن أريد أن تأخذه!.. إنه يزحف الآن.. أشعر به.. أسمعه.. أسمع ما يهمس به!...

- لكني شرحت لك كل هذا يا مستر كاسيدي.. إينوخ بريد شيئا ما. أنت وعدت بأن تجلبه له..

- لن أقتل من أجله.. لن يجعلني....

- يستطيع.. وسيفعل!..

أمسك بقضبان الزنزانة وهتف:

- سيث.. يجب أن تساعدني.. اطلب إينوخ واسترده.. بسرعة.

- كما تريد يا سيدي..

ناديت إينوخ فلم يرد.. جربت ثانية.. صمت.

بدأ كاسيدي يبكي. شعرت من أجله بأسف.. أعرف ما يحدثه إينوخ بأعصابك عندما يهمس بهذه الطريقة.

- عليك أن تطيعه.. هل قال لك من ستقتله؟..

لم يعرني انتباها. فقط بكى ثم أخرج مفتاح الزنزانة وفتح الزنزانة المجاورة لي وأغلق الباب. وقال باكيا:

- لن أفعل.. لن أفعل.

- لن تفعل ماذا؟...

- لن أقتل دكتور سيلفر سميث في الفندق وأعطى رأسه لإينوخ. سأبقى في هذه الزنزانة حيث الأمان..

وجلس مغطيا رأسه بيديه. فصحت:

- بل يجب أن تفعل يا سيدي وإلا فعل إينوخ شيئا.. عليك أن تسرع..

أعتقد أنه فقد الوعي لأنه كف عن الأنين، وناديته فلم يجب. ماذا أفعل؟ جلست في ركن زنزانتي أرمق القمر. ضوء القمر يجعل إينوخ يتوحش.

عاد مستر كاسيدي يصرخ. بصوت خفيض من الحلق.. عرفت أن إينوخ يأخذ ما يريد منه.

ما جدوى النظر؟.. لن يوقف ما يحدث وأنا قد أنذرته.

جلست وسددت أذني إلى أن انتهى الأمر.

عندما رفعت عيني كان مستر كاسيدي ما زال حيث هو، لكن كان هناك كذلك صوت خرخرة.. خرخرة قصية ناعمة.. خرخرة

إينوخ بعد ما أكل وشبع. وسمعت خربشة مخالبه..

كانت الأصوات آتية من داخل جمجمة مستر كاسيدي.

إينوخ سعيد الآن.

مددت يدي عبر القضبان والتقطت المفاتيح من جيب مستر كاسيدي. فتحت زنزانتي فتحررت ثانية. لم يعد من داع للبقاء بعد رحيل مستر كاسيدي، إينوخ كذلك لم يعد بحاجة للبقاء.

- هنا يا إينوخ!..

كانت هذه أقرب مرة أرى فيها إينوخ. رأيته كدخان أبيض يخرج من الثقب الذي التهمه في مؤخرة رأس مستر كاسيدي.

شعرت بالثقل الخفيف يهبط على رأسي، فعرفت أن إينوخ عاد لي.

مشيت عبر الردهة وفتحت باب السجن.

ومن جديد راحت قدما إينوخ تمشيان فوق مخي

مشينا معا في الليل. القمر يسطع وكل شيء ساكن. أسمع بنعومة ضحكة إينوخ المرحة في أذني.

بعلزبول

بعلزبول (5)

كان هوارد نصف نائم عندما سمع الأزيز. كان صوتا خافتا مستمرا يتوازن على حافة الوعي بلطف، وللحظة لم يعرف إن كان الصوت آتيا من الجانب المتيقظ أم الجانب النائم في وعيه.

يعلم الله أنه سمع الكثير من الأصوات أثناء نومه مؤخرا، وكانت أنيتا تشكو من استيقاظه ليلا ليصرخ من أعماق رئتيه. لكن كانت لديه أسباب للتوتر.

ازداد الأزيز عمقا وعرف هوارد أنه متيقظ الآن، كان يشعر ببلادة أطرافه والعرق البارد المحتشد عليها..

☆ ☆ ☆

فتح هوارد عينيه..

كانت الغرفة مظلمة لكن شمس كاليفورنيا كانت تنفذ عبر ستائر النافذة. ما يكفي لتحويل البيت إلى فرن توهج بالنار. وكان يكفي لبري هوارد ما لم يرد أن يراه..

غرفة المعيشة مليئة بفوضى من الثياب والأثاث، والمطبخ مليء بأطباق متسخة في الحوض، والآلة الكاتبة المحمولة اللعينة ومفاتيحها التي لم تمس تبرز كأسنان متربة.

صفوف من أسنان متربة.. يا لك من كاتب يا رجل! خاصة عندما تنام.

لكنه لم يكن نائما.. كان يسمع الأزيز أعلى فأعلى.. ذبابة لعينة فكيف دخلت والنوافذ مغلقة؟.. أنيتا تهوى غلق النوافذ مهما كان الطقس حارا.. خاصة عندما تلف شعرها لتعقصه.. وقد كانت تلف شعرها دائما.

☆ ☆ ☆

جلس هوارد.. كانت الضوضاء عالية فلا يمكن أن تأتي من المطبخ. لابد أنها هنا في الغرفة. تسلل شعاع شمس على عنق أنيتا والتمعت الدبابيس التي تلف عليها شعرها.

هنا كانت الذبابة.. في البدء حسبها شامة لكن الشامات لا تتحرك، الشامات لا تئز.

ذبابة فعلا.. نظر لأنيتا وفكر كم يكره الشيء.. إنه صاخب يمزق أعصابك يطالبك بالاهتمام.. يقتحم خصوصيتك.. مخلوق قذر يحمل القذارة.

تراجعت يده ثم تقدمت.. يريد أن يضربها. فقط يقتلها لأنها يجب أن تدمر.

لم يدرك مدى قوة الضربة.. لم يدرك ذلك حتى انفجرت صرخة أنيتا.

- أيها الوغد!..

وجلست تضربه بيدها.. ليس مرة بل مرارا.. وهي تصرخ أعلى فأعلى:

- أنت تحاول قتلى أثناء نومي.. كانت مجنونة.. كان يريد أن يفسر لها. لم يُرد سوى أن يضرب الذبابة لكنها لا تصغي. لا تصغي أبدا عندما يتملكها الغضب الهستيري. كانت تبكي وتتعثر في الحمام.. بالطبع.. لا داعي لتكرار ذات المشهد والقرع على الزجاج والاعتذار. كل ما بوسعه أن يجد ثيابه ويلبسها. لقد مرت الساعة التاسعة بالفعل وموعده في العاشرة..

نسى أمر الذبابة بسبب التعجل، عليه فقط أن يحدد هل سيمضي العشرين دقيقة التالية مع قدح قهوة عند ركن الشارع، أو يهرع للحلاق لحلاقة سريعة. اختار الحلاقة فمن الأهم أن يبدو أنيقا.

كان الحظ حليفه فقد دارت السيارة بلا مشاكل. وصل دكان الحلاق ووجد مقعدا خاليا. لماذا يجب على كل حلاق في هذه المدينة أن يرفع صوت المذياع إلى أعلاه، ويشوه الجدران بصور باهتة لممثلين منسيين؟ ولماذا لا يجعل الحلاقون محلاتهم نظيفة؟

وجد نفسه يلقي بالمنشفة جانبا قبل أن ينهي الحلاق دهان ذقنه بالكريم، وصاح:

- ما بالكم يا جدعان؟.. ألا تستطيعون إبقاء الذباب اللعين بعيدا؟..

لم يكن ينوى أن ينفجر كهذا.. كانت هناك ذبابة واحدة فقط تحلق قرب السقف. لكنه لم يفكر في الأمر إلا بعد ما غادر الدكان ووقع الأذى. كيف نظر له هذا الحلاق..

على كل حال هو لن يعود لهم ثانية، الحلاقون كثيرون...

لكن ليس المنتجين..

ليس هناك الكثير منهم ممن يرغبون في التعاقد معه.

اندفع ليعبر بوابة الستوديو ورسم ابتسامة عريضة على شفتيه للحارس، ثم رأي مس روجرز سكرتيرة شركة إنتاج (تريبور). أبقى أكبر ابتسامة من أجل مستر تريبور نفسه.

في البداية انتظر نصف ساعة في المكتب الخارجي. كل هؤلاء المنتجين متشابهون. يحددون لك موعدا ثم يؤجلونه. يضغطون عليك:

- كم من الوقت يلزمك للانتهاء؟ صباح غد؟.. ممتاز.. العاشرة صباحا في مكتبي.. سوف أترك لك تصريحا عند البوابة.

تظهر في العاشرة بالضبط ومعك الأوراق، وقد رسمت ابتسامة عريضة تحاول ألا تمزق شفتيك على الجانبين، لكنك هنا جالس كأحمق ملعون وتحاول ألا تنظر للسكرتيرة التي تجرى اتصالات من أجل الأشخاص الذين كان يجب أن تكون معهم الآن.

سُمح له بدخول قدس الأقداس في العاشرة والنصف. وجلس بالداخل ست دقائق.

بعد ثلاث دقائق كان واقفا أمام كابينة هاتف يحاول الاتصال بـ د. بلانشارد بإصبع يرتجف. ولاحظ الذبابة التي تحوم حوله داخل الكابينة:

- إنها تقتفى أثرى!

وصرخ في السماعة:

- الشيء العين مصر على أن يتبعني.

سأله د. بلانشارد بينما غاص هوارد في المقعد الجلدي الضخم:

- هل تريد الكلام عن هذا؟..

مرت عشرون دقيقة لكنه لم يكن هادئا.. أراد أن يتكلم.

لهذا طلب بلانشارد برغم أن هذا ليس موعده. أراد أن يجلس في هذا المكان اللطيف الصامت حيث لا أحد يضغط عليك.

لم يكن المكان كمكتب (جو تريبور). كان يحكى للطبيب عن الصور على الجدران والمكتب العملاق والمقد العالي خلفه، والمقعد الضئيل أمامه.. المقعد المخصص لك أنت. بهذا ينظر لك المنتج من أعلى وتنظر أنت لأعلى لتراه، تنظر للهاتف الذي تخرج منه ستة خطوط لتخبرك كم أن هذا الرجل مشغول. ترى صورة زوجته وأولاده لتعرف كم هو مواطن محترم. ترى الدورق الفضي الذي يخبرك كم هو ثري.

كان ينظر لك بانتظار أن تخبره بالحبكة القصصية. أخرجت المذكرات من الحقيبة وبدأت تقرأ مدركا أنك تضيع وقت، مع رجل لا يكف عن التعليقات والتعديلات السخيفة. منتج معتاد جدا.

ثم الأزيز.. الأزيز....

وأنت تحاول أن تقنعه.. تحاول أن تبيع له.. لكن الأزيز يضيع صوتك، رأيت الذبابة تقف على إبريق الفضة الموضوع

على المكتب، تحك قائمتيها معا فلو وضعتهما تحت مجهر لأدركت أنهما مليئتان والقذارة.

هنا تنظر لجو تريبور الذي يبتسم ويهز رأسه قائلاً:

- آسف.. لكني أرى أنك لم تصل لخط القصة بعد..

ويحك يديه معا.. مغطيتين بالقذارة.. لقد مشى في القذارة وتغطى بها.. بأي حق يترك الذباب في مكتبه ويضايقك وأنت تحكي قصتك؟.. قصتك التي أنهكك التفكير فيها أسابيع في شقتك الحارة ذات الغرفة الواحدة.

إنه ينهض ويقول لك شيئا لا تسمعه جيدا بسبب صوت الأزيز. لذا تبتسم وتبقى شفتيك ملتصقتين، ولا تعترف لنفسك بأن الأمر فسد. ثم تخرج وتتصل بالدكتور وهأنتذا..

الذبابة.. نفس الذبابة.. ال شيء الأسود ذو المليون عين ترى كل شيء.

كان هوارد يعرف أن د. بلانشارد يفهم لأنه كان يهز رأسه بلا توقف. لا يوجد شيء خطأ في عينيه. ليستا كعيني أنيتا ولا الحلاق أو تريبور.. كلها عيون متهمة. د. بلانشارد فعلاً يفهم.

الآن يسأل هوارد عن كل شيء، ومتى ظهرت الذبابة، ومنذ متى يشعر بالذباب. كان يعرف أن الكلام عن هذا يجعل هوارد عصبيا نوعا لأنه كان يقول:

- لا تقلق.. لا ذباب هنا.. قل ما يدور بذهنك ولن يقاطعك الأزيز........

زززززززززززززززز..

الأزيز.. إنه في الغرفة، سمعه هوارد ولم يعد يسمع الطبيب لأن الأزيز عال. لم يسمع صراخه الخاص لكنه كان يقول للطبيب:

- أنت مخطئ.. لقد اقتفت أثري.. ألا ترى؟..

لكن د. بلانشارد لم ير.. كيف يري والذبابة السوداء قد استقرت هناك فوق رأسه الصلعاء؟

راحت تئز.. وتعالى الصوت عبر جمجمته.. كان عليه أن يجري، أن يبتعد.. لا أحد يصدقه.. حتى الطبيب لا يصدقه الآن..

لم يكف هوارد عن الركض حتى بلغ السيارة. كان يلهث والعرق يغمره. يشعر بقلبه يدق. يجب أن يهدأ.. عليه أن يهدأ.. فلا أحد يمكن الاعتماد عليه.

أولا يجب أن يتفحص السيارة جيدا بما فيها المقعد الخلفي. ثم يغلق الأبواب ويرفع النوافذ. الحر شديد بالداخل لكن يمكنه تحمل الحر.. كل شيء إلا الأزيز.

أدار المحرك.. اهدأ.. اهدأ..

اتجه للحارة اليسرى في الطريق ثم أسرع.. كلما قدت أسرع كلما ابتعدت عن الأزيز.. فلتكن سرعتك سبعين ميلا. الذبابة لا تطير بسرعة سبعين..

لو كانت الذبابة حقيقية..

وأخذ نفسا عميقا..

ربما كان الجميع محقين وهو على خطأ؟.. ربما لا توجد ذبابة إلا في خياله؟.. مستحيل أن يكون هذا بفعل خياله.. خياله هو الجزء الذي يجب أن يدافع عنه الكاتب.

لا يجب أن تسمح لذبابة بأن تدخل خيالك.. المكان المقدس الذي فيه كل توازنك العقلي. لو كان الأمر كذلك فلا مفر لا يمكنك أن تقود بسرعة كافية أو بعيدا بما يكفي للفرار.

لا أمل على الإطلاق..

☆ ☆ ☆

كانت هناك في السيارة.. على الأقل سمعها، لكن ربما كان الصوت قادما من جمجمته..

الآن رآها على الزجاج أمامه تحت مرآة الرؤية الخلفية، هل رآها حقا أم هو يرى ما يدور داخل عقله؟ كيف توجد هنا ذبابة حقيقية مع إغلاق كل النوافذ؟

لكنه رآها وسمعها وقد أزت وهي تزحف، تسارع نبضه إنها حقيقية بلا شك.. بالتأكيد حقيقية.. ولو كانت حقيقية فهذه فرصته الوحيدة وهي داخل السيارة عاجزة عن الفرار.

رفع قدمه عن دواسة البنزين وضغط على الفرامل. كان يقود نازلاً منحدرا لكن السيارة كانت تحت السيطرة. كل شيء تحت السيطرة وليس عليه سوى ضرب الذبابة الآن توقفت عن الزحف بحيث صارت أمام ناظريه بالضبط.

يراها بوضوح وجلاء..

وقد راح يضحك من خيالاته السخيفة. من السخيف أن تفكر في استحواذ شيطاني على كائن هش كهذا. يرى أوردة أجنحتها بوضوح، وللحظات نظر في عينيها حيث المرايا التي تعكس ملايين الأسرار.

هنا عرف الحقيقة..

لكن يده كانت قد انقضت عليها بالفعل.. وكل ما قدر عليه هو أن يصرخ بينما السيارة تترنح، وتبدي له الجدار.

عندما جاءت سيارة الدورية كانت الذبابة ترقد مستريحة فوق كرة عينه.

كان رجل الشرطة الريفي ينحني فوق الجسد، فراقبت الذبابة الحزن والغضب المكبوت والتوتر خلف الوجه البليد. ثم حلقت حول كتفي رجل الشرطة.. وإذ استدار مبتعدا طارت خلفه.

قال الشرطي لنفسه:

- الشيطان المسكين..

كان ما صدمته السيارة هو بالطبع شاهد قبر.

لوسي جاءت لتبقى

أبقت لوسي صوتها خفيضا لأنها تعرف أن غرفة الممرضة قريبة من غرفتي في الردهة، ولم يكن يفترض أن أرى أية زوار.

- لكن جورج يفعل كل ما بوسعه. المسكين!.. يحزنني التفكير كم يكلفه كل هؤلاء الأطباء والمختصين. وفاتورة المصحة كذلك.. والآن تبقى معنا هذه الممرضة مس هيجنز كل يوم.

- لن يفيدك هذا.. تعرفين ذلك...

لا يبدو أن لوسي تجادل، فهي تعرف، لأن لوسي أذكى منى.. لوسي ما كانت لتغرق في الشراب وتحدث هذه الفوضى. لذا رحت أصغى لما تقول.

قالت مغمغمة:

اسمعي يا (في).. أكره أن أقول هذا لكنك لست على ما يرام.. من الأفضل أن تعرفي هذا مني بدلا من سماعه من شخص آخر..

- ما هو يا لوسي؟..

- موضوع جورج والأطباء.. لا يعتقدون أنك ستشفى. لا يريدون أن تشفى..

- أوه يا لوسي..

- اسمعيني يا حمقاء.. لماذا تحسبينهم أرسلوك للمصحة؟.. قالوا إن هذا للعناية بك. أنت شفيت لكن لماذا يأتيك هذا

الطبيب كل يوم؟.. وجورج يرغمك على البقاء في غرفتك، ومس هيجنز المفترض أنها ممرضة مختصة.. أنت تعرفين حقيقتها.. إنها حارسة..

لم أجد ما أقول.. جلست هناك ورمشت بعيني، أردت أن أصرخ لكن لم أفعل لأنني في الأعماق كنت أعرف أنها على حق.

- جربي أن تخرجي من هنا.. لسوف ترين ما أسرع ما تغلق الباب عليك.. كل هذا الكلام عن الوجبات الصحية العلاجية لا يخدعني. انظري لنفسك.. أنت في حال ممتازة. يجب أن تخرجي من هنا وتزوري أصدقاءك وترى الناس..

ذكرتها:

- ليس لي أصدقاء.. ليس بعد الحفل.. ليس بعد ما فعلته..؟

هزت رأسها:

- هذا كذب.. هذا ما يريد جورج أن تعتقديه.. لديك مئات الأصدقاء يا (في).. وما زالوا يحبونك. حاولوا أن يزوروك لكن جورج منعهم. أرسلوا أزهارا لكن جورج طلب من الممرضات حرقها..

- هل طلب من الممرضات حرق الأزهار حقا؟..

- طبعا يا (في).. حان وقت مواجهة الحقيقة.. جورج يريد أن يقتنع الجميع أنك مريضة. لماذا؟.. لأنه بهذا يتخلص منك ليس في مصحة بل في....

بدأت أرتجف

هذا مخيف.. لقد قال الأطباء أنني لو أخذت العلاج فلن أرتجف. لكنني ما زلت أرتجف..

همست لوسي:

- هل أقول المزيد؟.. هل تعرفين ما يدسون في طعامك؟.. هل أخبرك؟..

صرخت:

- توقفي!..

- ليكن.. لكن لا تصرخي يا حمقاء، هل تريدين أن تأتي مس هيجنز؟..

- تحسبني نائمة فقد أعطتني منوما..

قالت مقطبة:

- من حسن الحظ أنني تخلصت منه.. يجب أن أخرجك من هذا يا (في) فلم يعد وقت كاف..

معها حق.. لم يعد هناك وقت كاف.. ثم كم من الوقت مضى دون أن أظفر بشراب؟

قالت لوسي:

- سوف نفر.. سوف نستأجر غرفة لا يجدوننا فيها، ولسوف أمرضك حتى تشفى..

- لكن الغرف تكلف مالا..

- معك خمسون دولارا أخذتها من جورج ثمن الفستان.

- لكن.. كيف عرفت هذا يا لوسي؟..

- قلت لي هذا منذ دهور أيتها البائسة.. أنت لا تتذكرين شيئا وهو سبب أقوى يدعوك للثقة بي.

يمكنني أن أثق بلوسي، برغم أنها مسئولة بشكل ما عن بدئي الشرب من الجديد. كانت تحسب أن هذا سيسعدني عندما جلب جورج كل أصدقائه من علية القوم للبيت، وأردنا أن نبهر عملاءه.. أنا أثق بلوسي.

- يمكننا الفرار بمجرد أن ترحل مس هيجنز الليلة. ننتظر حتى ينام جورج. البسي ثيابك الآن ولسوف أعود لك..

ارتديت ثيابي، وهذا ليس سهلا مع كل هذه الرجفة. قمت بقص شعري وتجملت. ثم نظرت لنفسي في المرأة وصحت:

- ليس بوسك أن تعرفي.. كيس كذلك؟..

قات لوسي:

- بلي.. أنت تبدين متألقة.. متألقة بالتأكيد..

كانت الشمس تتسرب عبر النافذة على المقص، بحيث ألمت عيني، وفجأة شعرت بالنعاس.

قلت لوسي:

- سيصل جورج حالا وترحل مس هيجنز.. يجب أن أرحل فلم لا تستريحين حتى أعود؟..

وغادرت الغرفة على أطراف أصابع قدميها.

رقدتُ على الفراش ونمت. للمرة الأولى أنام حقا منذ أسابيع. لا شيء يؤلمني كما يفعل جورج عندما يريد أن يحبسني في المصحة كي ينفرد بمس هيجنز ويسخرا منى، لكن لوسي سوف تعنى بي فهي تعرف ما يجب عمله وبوسعي أن أثق بها وعندما يعود جورج يجب أن أنام ولن يلومني أحد لما فكرت فيه أو فعلته في نومي.

كان الأمر على ما يرام حتى بدأت الأحلام وحتى وقتها لم أقلق لأن الحلم هو الحلم، عندما كنت أثمل كنت أرى الكثير من الأحلام.

عندما صحوت عادت الرجفة، كانت لوسي تهزني واقفة في الظلام، نظرت حولي فوجدت أن الباب مفتوح لكن لوسي لم تكلف نفسها عناء الهمس.

كانت واقفة والمقص في يدها:

- تعالى.. لنسرع..

- لكن لم المقص؟..

لقطع خط الهاتف يا سخيفة!.. لقد دخلت المطبخ ووضعت بعض المنوم في قهوة جورج.. تذكري الخطة..

لم أتذكر لكن عرفت أن كل شيء تمام. عبرنا الردهة جوار غرفة جورج ثم هبطنا في الدرج نحو الباب، وأذى ضوء الشارع عيني. لكن لوسي جعلتني أسرع.

استقللنا سيارة للناصية وكان هذا هو الجزء الصعب، عندما نبتعد لن يوجد داع للقلق فالأسلاك قد قطعت.

وكانت المرأة صاحبة بيت الإيجار لا تعرف شيئا عني ولا عن الأسلاك. كانت لوسي قد استأجرت غرفة.

دخلت لوسي في ثبات ووضعت الخمسين دولارا على النضد. كان الإيجار 12 دولارا في الأسبوع مقدما، ولم تطلب لوسي أن ترى الحجرة، ربما لهذا لم تقلق المرأة بصدد متاعنا.

صعدنا وأغلقنا الباب هنا عادت الرجفة.

قالت لوسي:

- (في).. توقفي!..

- لا أستطيع السيطرة على نفسي.. لوسي.. لماذا فعلت ذلك؟.. لماذا.. أنا لا..

فتحت حقيبتي وأخرجت شيئا.. كنت أتساءل لم هي ثقيلة لهذا الحد، لكني عرفت السر الآن.

رفعته في الضوء فتألق كالمقص لكنه كان تألق الذهب..

شهقت قائلة:

- زجاجة كاملة.. من أين جئت بها؟..

- من الخزانة بالطابق السفلي.. تعرفين أن جورج يحفظ حاجياته هناك. أخفيتها في الحقيبة على سبيل الاحتياط..

فتحت الزجاجة برغم الرجفة في عشر ثوان. تهشم ظفر من أظفاري وسرعان ما كان السائل بداخلي حارقا دافئا

قالت لوسي:

- أنت خنزيرة!..

- تعرفين أنني كنت سأشرب.. لهذا جلبتها معك..

- لا أحب أن أراك تشربين.. أنا لا أشرب.. .

- أرجوك يا لوسي.. جرعة واحدة فقط..

- لن أجلس هنا وأراقبك تكررين السيناريو كما في كل مرة.. وتحدث الفوضى المعتادة...

كانت الزجاجة قد صارت نصف فارغة الآن.

- فعلت ما بوسعي لأجلك يا (في).. لكن لو لم تتوقفي سأرحل..

- لا يمكنك هذا يا لوسي.. أنا بحاجة لك..

- أنت قادرة على السيطرة على نفسك لكنك لا تريدين... كان عليك دوما الاختيار بين زوجك جورج والزجاجة. أنا أو الزجاجة. دائما تفوز الزجاجة.. في أعمالك أنت تكرهين جورج وتكرهينني..

- أنت أفضل صديقة لي.

- مجنونة..

كانت أحيانا تشتم عندما تغتاظ. لقد كانت الآن مغتاظة جدا وهذا جعلني عصبية، فشربت كأسا أخرى.

بدأت أبكي.. حاولت النهوض لكن الغرفة كانت تدور وتدور.

رأيت لوسي تتجه للباب فسقطت الزجاجة، وتألق الضوء كما كان يتألق على المقص فأغمضت عيني وسقطت جوار الزجاجة.

عندما صحوت كانوا جميعا يضايقونني.. صاحبة النزل والطبيب ومس هيجنز والرجل الذي قال إنه شرطي.

تساءلت إن كانت لوسي قد خانتني وأخبرتهم، لكن الطبيب قال لا. لقد وجدوني نتيجة مسح روتيني للفنادق بعد ما وجدوا جسد جورج في فراشه ومقصي مغروسا في عنقه عرفت عندها ما فعلته لوسي، ولماذا فرت منى. كانت تعرف أنهم سيتهمونني بالقتل.

قلت لهم كل شيء عنها وكيف حدث الأمر.. بل تخيلت كيف وضعت لوسي بصماتي على المقص.

لكن مس هيجنز قالت إنها لم تر لوسي قط في البيت، وكذبت صاحبة النزل وزعمت أنني استأجرت الغرفة وحدي، وضحك رجل الشرطة عندما توسلت له أن يجد لوسي.

فقط بدا أن الطبيب يصدقني وقد سألني عن شكل لوسي وصفاتها

أحضر المرآة ووضعها أمامي وسألني إن كنت أراها.. بالطبع.. كانت تقف خلفي وتضحك. قلت للطبيب هذا فقال إنه يفهم الآن.

حتى عندما ارتجفت يدي وسقطت المرآة فإن الأمور كانت على ما يرام.

لقد عادت لي لوسي ولن ترحل ثانية أبدا، سوف تبقى معي للأبد.. عرفت هذا.. حتى بعد أن ضحكت مني لأن الضوء آذى عيني.

بعد دقيقة ضحكت بدوري، سرعان ما رحنا نضحك معا.. لم نتوقف حتى عندما رحل الطبيب. فقط جلسنا خلف القضبان لوسي وأنا.. نضحك كأننا مجنونتان!

المنزل الجائع

المنزل الجائع

في البدء كان اثنان منهم.. هو وهي.. معا.. كان هذا هو الوضع عندما ابتاعا المنزل.

ثم جاء...

ربما كان هناك منذ البداية ينتظرهم في البيت. على كل حال هو هنا الآن وما من شيء يمكن عمله.

الانتقال من البيت غير مطروح، فقد وقّعا عقدا بخمسة أعوام سعيدين لانخفاض الإيجار. من السخف أن تشكو للسمسار ومستحيل أن تغير الأصدقاء.. لا مكان يذهبان له.. لقد بحثا عن بيت لفترة طويلة.

ثم أنه لم يبال بالتفكير في وجوده، لكنه أثبت أنه موجود.

شعرت به في أول ليلة وهي في الفراش. كانت تجلس أمام المرأة العالية عتيقة الطراز تمشط شعرها، ولم تكن المرآة قد نُظّفت من الغبار بعد وبدت متربة. وكان الضوء فوقها يتراقص. خطر لها أنها لعبة من ألعاب الظل أو عيب في الزجاج. شعرت بأن الصورة خلفها في المرآة تخفي الانعكاس بشكل غريب. ثم بدأت تشعر بما كانت تطلق عليه (شعور المتزوجة)، وهو ذلك الشعور الغريب الذي يجعلها تدرك أن زوجها دخل الغرفة من قبل أن تراه.

لابد أنه يقف خلفها الآن.. لابد أنه دخل في هدوء دون أن يقول شيئا، ربما سيلف ذراعيه حولها ليفزعها.

استدارت له.

لكن الغرفة كانت خالية تماما.. برغم هذا ظل الانعكاس الغريب والشعور بمن يقف خلفها

هزت كتفها وضحكت لنفسها في المرأة. لكنها كضحكة فشلت.. بدا أن الزجاج المتسخ شوّه الضحكة حتى لم يعد الوجه في المرأة وجهها.

لابد أن نقل المتاع بين بيتين أرهقها فعلاً.

لكنها سُرت جدا عندما دخل زوجها الغرفة. فكرت أن تخبره ثم قررت ألا تقلقه على أعصابها.

في اليوم التالي خرج لها من الحمام مندفعا والدم ينزف من خده إثر جرح حدث له أثناء الحلاقة. وسألها:

- هل هذه فكرتك عن المزاح؟..

قالها بطريقته الصبيانية التي تحبها، وأردف:

- تتسللين خلفي لترسمي لي وجها مضحكا في المرأة؟.. انظري كيف جرحت نفسي!..

جلست في الفراش.

- لكن يا عزيزي أنا لم أمزح معك.. أنا لم أغادر الفراش منذ صحوت أنت.

هز رأسه وتلاشت تقطيبته للحظة، معبرا عن الحيرة وقال:

- أوه.. أرى ذلك..

ألقت بالأغطية وجلست على حافة الفراش ونظرت له بجدية:

- ماذا هنالك؟..

لا شيء. فقط خطر لي أنني رأيتك أو رأيت شخصا ما ينظر فوق كتفي.. لابد أنها تلك الأضواء اللعينة.. يجب أن أحضر مصابيح جديدة اليوم..

ومسح خده بمنشفة وابتعد. فشهقت بعمق وقالت:

- شعرت بذات الشيء أمس....

- أنت؟..

- ربما كانت الأضواء كما قلت أنت..

- نعم. نعم.. لابد أنها هي.. سوف أحضر مصابيح.

- هذا أفضل.. ولا تنس أن الشلة قادمة يوم السبت للتبريك لنا..

كان السبت بعيدا جدا. وكان في ذهن كل منهما من الأحداث ما يجعله مشغولا أكثر مما يعترف.

في اليوم الثاني عندما ذهب للعمل خرجت هي إلى الحديقة. كان المكان في حالة من الفوضى والأعشاب في كل مكان وأوراق الخريف تتراقص حول البيت القديم. فجأة شعرت بالوحدة. ليست الوحدة فقط نتيجة كونها على بعد نصف ميل من أقرب جار.. الشعور بأنها دخيلة هنا. دخيلة على الماضي. الهواء البارد

والأشجار الميتة والسماء المكفهرة.. كلها ملك البيت.. هي القادمة من الخارج..

لأنها كانت شابة، ولأنها كانت حية..

شعرت بهذا كله لكنها لم تتوقف لتفكر فيه، إن الاعتراف بما تشعر به هو الاعتراف بالخوف. الخوف من الوحدة.. لا.. ما هو أسوأ.. الخوف من ألا تكون وحيدة.

هنا انغلق الباب الخلفي.

بالتأكيد هي رياح الخريف، برغم أن الباب لم يحدث صوتا.. فقط انغلق لكنها الريح بلا شك. لا أحد في البيت ليغلق الباب. بحثت في جيب ثوب البيت عن المفتاح ثم تذكرت أنها تركته على حوض المطبخ. على كل حال هي لم تنو الدخول بعد..

أرادت أن تتفحص الفناء وترى ما كانت عليه الحديقة، حيث تنوى أن تينع حديقة أخرى في الربيع، عليها ملاك الأشياء تفعلها هناك.

لما انغلق الباب خطر لها أن شيئا يحاول إبقاءها بالخارج. يحاول إبقاءها خارج بيتها الخاص.. يجب أن تعود.

بالفعل المقبض لا يدور.. إنها محبوسة في الخارج فعلا.. لقد خسرت أول دورة.. لكن النافذة ما زالت هناك.

كانت نافذة المطبخ في ارتفاع العين وكانت مفتوحة.. يمكن أن ترفعها أكثر.

دفعت..

لكن لم يحدث شيء.. لابد أن النافذة ملتصقة لكن كيف؟... لقد فتحتها قبل الخروج وكانت سهلة الفتح. كانت كل النوافذ بحال جيدة قبل هذا.

جربت ثانية فانفتحت النافذة ست بوصات ثم هوت فجأة كأنها نصل المقصلة.. أخرجت يدها في الوقت المناسب. ومن جديد وضعت قوتها في ذراعيها ورفعت النافذة.

لكن كانت هناك حركة.. شيء يتحرك يطل من ويجذبها لأسفل.. شيء يماثلها قوة..

ثم أدركت من جديد أنها تحدق في صورتها هي. نعم.. يجب أن يكون انعكاسها هي.. لا يوجد سبب كي تغمض عينيها وتبكي وهي تزحف داخل المطبخ.

لن تخبره.. فلم يحدث شيء.. لا شيء يدفعها للقلق لا شيء يدفعها لتقلقه.

لن يخبرها هو أيضا، إنه يوم الجمعة عصرا عندما أخذت السيارة وذهبت للمدينة استعدادا للحفل، ظل وحده في البيت وراح يعد بعض الأشياء.

لهذا حمل حقائب الثياب للعلية كي يخزن ثياب الصيف. هكذا فتح خزانة ووضع فيها الأشياء، وبدأ يتفحص الجدران بالكشاف. لاحظ الباب والقفل.

كان الغبار والصدأ يحكيان قصتهما الخاصة: لم يأت أحد هنا منذ زمن سحيق. وتذكر ما قاله (هاكر) سمسار العقارات:

- هذا المكان خال منذ أعوام ويحتاج إلى إصلاح..

برغم هذا كان بوسعه أن يغتصب القفل بمبرد.

هبط في الدرج ليحضر مبردا وعاد. يبدو أن ساكن البيت القديم غادره على عجلة فالغبار في كل مكان، يبدو أن أشياء كثيرة جرت هنا.

تحطم القفل فجذب الباب وفتحه، وشم رطوبة مليئة بالفطريات، فرفع المصباح وصوب الشعاع على الخزانة الضيقة الطويلة.

تواثبت الأضواء الفضية بالألوف في وجهه وعينيه. وراحت نار ذهبية تحرق حدقتيه.. فرفع الكشاف وصب الضوء لأعلى.

بدأ يضبط رؤيته واستيعابه. وقف يحدق في غرفة امتلأت بالمرايا.. تتدلى من حبال وتستند إلى الجدار في صفوف.

كانت هناك مرآة طويلة مثبتة لباب.. ومرايا من كل شكل وصنف حتى أنه كانت هناك مرآة صيدلية منزوعة من موضعها. أما الأرضية فكانت مغطاة بالمرايا من كل الأحجام..

مرايا للجيب ومرايا من حقائب نساء.. ومرايا من (تسريحة) امرأة..

وكانت هناك مرايا تبدو كأنها منتزعة من جدران غرفة نوم.. كان هناك ألف انعكاس لوجهه المذهول..

فكر في (هاكر) السمسار. لقد تفقد البيت فلاحظ أنه لا توجد صيدلية في الحمام.. ثم لاحظ بشكل عابر أنه لا توجد أية مرآة في البيت كله. بالطبع لا يوجد أثاث لكنك تتوقع أن تكون هناك مرآة منسية في بيت قديم كهذا.

لا مرايا؟.. لم؟.. لماذا تم جمعها هنا جميعا في غرفة مغلقة بالقفل.

لكن زوجته سوف تحب بالتأكيد بعض هذه المرايا، خاصة تلك ذات الإطار الفضي.. سيكون عليه أن يخبرها.

دخل إلى الخزانة وهو يجر أكياس الثياب خلفه. لا يوجد هنا ما يصلح لتعليق الثياب. انحنى وجمع الأكياس معا في كومة بينما الضوء يتراقص ليرسل ألف شعاع على وجهه.

ثم تلاشت النار. لقد أظلمت السطوح الفضية فجأة.

لم يعد يرى سوى انعكاسه هو. انعكاسه مع شيء أكثر قتامة له مظهر الدخان.. شيء يمت لهذه الرطوبة العفنة. شيء خنق الخزانة بوجوده.. كان وراءه.. لا.. بل خلفه.. إنه يكبر.. يجعله يرتجف.. يجعله يلهث.. يجعله يهرع فارا من الخزانة ويغلق الباب.. واسم هذا ال شيء هو...

كلوستروفوبيا..

رهاب الأماكن المغلقة.

هذا هو.. الإنسان يصير عصبيا عندما يتواجد في مكان ضيق والإنسان يصير عصبيا عندما ينظر لنفسه في مرآة، بل لخمسين مرآة..

وقف يرتجف ولكي يشغل عقله عما رأى نصفه.. شعر بنصفه.. عرف نصفه.. فكر في المرايا، النسوة ينظرن للمرايا طيلة الوقت والرجال لا..

الرجال لا يحسون المرايا إلا بنصف وعي. لقد رأى ذات مرة صورته في متجر به توزيع مرايا معقد يجعلك ترى وجهك وظهرك معا، وقد صُدم لأن الصورة تختلف تماما عما يتخيل نفسه. لهذا يصفر الرجال ويغنون وهم يحلقون ذقونهم حتى لا يركزوا على الانعكاس أمامهم وإلا جنوا. ما كان اسم تلك الشخصية الإغريقية التي وقعت في غرام صورتها المنعكسة في الماء؟.. نارسيسوس..

النساء يقدرن على ذلك لأن النساء لا يرين أنفسهن كما هن فعلاً.. يرين صورة مثالية.. رؤيا.. النساء فيهن لمسة جنون على كل حال، ويجب أن يكن كذلك كي يتحملن رجالهن.

ربما كان الأفضل ألا يخبرها بشيء، حتى يراجع سمسار العقارات. هناك شيء خطأ وهو يريد أن يعرف كنهه.. لماذا خزن الملاك السابقون كل هذه المرايا؟

عاد للردهة محاولاً ألا يفكر في شيء.. محاولاً أن ينسى الرعب الذي شعر به.

الانعكاسات..

مصاصي الدماء ليس لهم انعكاس في المرايا.. قل لي الحقيقة يا هاكر... هل كان ملاك البيت السابقون مصاصي دماء؟

فكرة سارة كانت.. فكرة حملها معه للطابق السفلي في ضوء الشفق، وانتظر بها الظلام وهو يصغى لارتطام الشيش وصرير الأرضيات.. في بيت الظلال حيث يزحف شيء ما.. يتسلل خلفك وأنت تنظر في المرايا..

انتظر عودتها من الخارج وأضاء كل المصابيح وفتح المذياع عن آخره.. وحمد الله أنه لا يوجد تلفزيون.. التلفزيون له شاشة والشاشة تعكس أشياء لا يجب أن تراها..

لكن لم يحدث شيء باقي الليلة، وعندما عادت كان قد تحكم في نفسه من جديد. أكلا وتبادلا الحديث.. لو كان الشيء يسمعهما فلن يخمن أنهما خائفان.

استعدا للحفل ودعها البعض هاتفيا، هنا اقترح دعوة (هاكر) السمسار نفسه. دخلا الفراش وأطفئت الأنوار.. هذا يعني أن كل المرايا صارت مظلمة وصار بوسعه النوم.

في الصباح صارت الحلاقة صعبة.. ورأى زوجته في المطبخ تضع المساحيق وهي تنظر عبر مرآة حقيبتها الصغيرة كي تتحاشي أي انعكاس زائد..

لم يخبرها بشيء وهي كذلك لم تخبره.

ذهب للعمل بينما أعدت هي خبزا بالكافيار.

كان البيت هادئا عندما عاد من العمل، وبشكل ما كان هذا أسوأ.. كأن الشيء ينتظر الليل ليتحرك. لهذا لبست مبكرا وهي تغني طيلة الوقت وتتحرك أمام المرأة (لأنك لا ترى بوضح لو تحركت كثيرا) ولهذا مزج هو الشراب وشرب كئوسا عديدة مع زوجته (لأنك لا ترى بوضوح لو سكرت).

ثم جاء الضيوف.

آل تيتر يشكوان من الطريق الطويل المتعرج عبر الجبال آل فايان يتعجبون من السقف العالي وألواح الجدران العتيقة آل

إيرز يسعلون ويضحكون. وعندما جاء السمسار كان المذياع يلقى منافسة رهيبة من الأصوات العالية.

كانت هناك أشياء أخرى.. أشياء صغيرة. لقد جلب آل تالمادج معهم أزهارا وقد ذهبت للمطبخ لتضعها في مزهرية من الزجاج. وقفت تملأ المزهرية من الصنبور فرأت الزجاج يدكن وبدأ انعكاس يظهر على وجوه الزجاج. استدارت بسرعة فوجدت أنها وحدها.. وحدها لكن عندها مليون عين في يدها.

أسقطت المزهرية فهرع الجميع للمطبخ. لابد أن زوجها لامها على خرقها، لكنه كان يعرف.. لابد أنه كان يعرف.. لأنه عندما اقترح أحدهم جولة في المنزل، رفض الفكرة.

قال لهم:

- لم نرتب الطابق العلوي بعد.. إنه فوضى شاملة. سألته مسز تيترز وهي تدخل المطبخ مع زوجها:

- من المقيم فوق؟.. لقد سمعنا ارتطاما مروعا..

قال المضيف:

- لابد أن شيئا سقط..

لكنه لم ينظر لزوجته وهو يتكلم، ولم تنظر له. راحت تملأ الكئوس بسرعة، وتقدمها ثم تملؤها ثانية.. الشراب يجعل الناس يتكلمون، والكلام يخفى أية أصوات أخرى.

نجحت الاستراتيجية.. وبدأ الضيوف يتجهون في أزواج إلى غرفة المعيشة، وتعالى صوت الضحك وتلاشت أصوات الليل.

كانا يتحركان ببطء وحذر كان جسديهما من زجاج، زجاج مليء بالخمر لكنهما لا يسكران أبدا.

لم يكن ضيوفهما زجاجا.. كانوا لا يخشون شيئا. كانوا يخرجون ويدخلون، وسرعان ما جرب مستر فايان ومسز تالمادج جولة في الطابق العلوي للبيت، لم يلحظ أحد ذهابهما إلا عندما نزلت مسز تالمادج مذعورة.. وانطلقت تجرى لتحبس نفسها في الحمام.

تبعتها المضيفة ودقت على باب الحمام حتى فتحت لها المرأة.. دخلت طالبة فهم ما يحدث لكن مسز تالمادج كانت تبكي بلا توقف ولفت يديها حولها وقالت:

- هذه كانت خدعة قذرة..!.. أن يصعد ويتجسس علينا، يا له من قملة!.. كأنه لم يكن يغازل زوجة (هاكر) هو نفسه... لكن من أين جاء باللحية؟.. لقد أثارت هلعي!..

سألتها وهي تعرف الإجابة وتخشى الكلمات التالية:

- عم تتكلمين؟..

- كنا نقف أمام مرآة عندما شعرت بتغير في الضوء فنظرت خلفي.. رأيت شخصا ما هو زوجي بالتأكيد.. لكنه كان يضع لحية مستعارة وكان ينظر لنا..

وراحت ترتجف بقوة فلم تلحظ الرجفات التي تمشت في جسد مضيفتها.

- انتظري حتى نعود للبيت.. إنه غيور مجنون وبرغم هذا أفزعني حتى الموت..

حاولت أن تهدئ مسز تالمادج.. حاولت أن تخلف من ذعر مسز تالمادج.. حاولت أن تسترضي مسز تالمادج.. لكن لا يوجد ما يهدئها أو يخفف ذعرها أو يسترضيها هي..

عادت المرأتان للقاعة متظاهرتين بالهدوء.. هنا سمعنا مستر تالمادج يصيح في غضب:

- هكذا كنت أقف في الحمام، عندما جاءت هذه الساحرة العجوز من خلفي لترسم وجوها مخيفة.. ماذا يدور هنا؟.. أي بيت هذا؟..

ضحك الجميع ما عدا المضيف والمضيفة.. لقد وقفا هناك عاجزين عن الكلام أو تبادل النظرات.. الزجاج هش موشك على التحطم

قالت زوجة (هاكر):

- لا أصدق هذا.. سوف أصعد بنفسي وأرى ما هنالك.

كانت قد شربت أكثر من الآخرين. وقبل أن يمنعها المضيف كانت قد مرت جواره.

قال تالمادج:

- مقالب الهالوين.. رأيتها بوضوح كأننا في النهار ماذا تعد لنا هنا؟..

راح يقول كلاما مختلطا كي يوقف الثرثرة الحمقاء. دنت منه كي لتسمع.. لتصدق.. لتنسى جوين هاكر في الطابق العلوي تحدق في مرآة.

من جديد دوى الصراخ. ليس بكاء بل هو صراخ. وثب عبر الدرجات وخلفه مستر هاكر البدين.. هناك صوت أقدام على الدرج وتنفس ثقيل وصراخ امرأة تواجه رعبا لا تتصوره.

ركضت جوين هاكر وترنحت ثم سقطت بين ذراعي زوجها. كان الضوء يتلق من الحمام ويسقط على مرآة، سقط على وجهها الخالي من أي تعبير.

تزاحموا حولها إذ حملوها لغرفة النوم وأرقدوها. كانت فاقدة رشدها، وقال أحدهم شيئا عن طبيب فقال آخر إنه لا داعي للقلق. سوف تتحسن حالا.

للمرة الأولى بدا أن الجميع فطنوا للبيت العتيق والظلام وطريقة ارتطام مصاريع النوافذ.

وفجأة صار كل واحدا متشوقا للرحيل. وأفاقوا من تأثير الخمر. كان هاكر يمسك بيد زوجته، ويحاول أن يرغمها على شرب بعض الماء.. يراقبها وهي تعود من عالم الفراغ.

بينما وقف المضيف والمضيفة يودعان الضيوف، ويتلقيان عبارات الاعتذار المهذبة، وعبارة (كان وقتا ممتعاً يا عزيزتي) المعتادة.

هكذا ابتلع الظلام الضيوف، وعاد الزوجان لغرفة النوم حيث كان هاكر وزوجته. إنهم ينتظرون.. ولم يطل انتظارهم. جلست مسز هاكر وراحت تتكلم.. تحكي لزوجها ثم لهما:

- رأيتها.. لا تقل إنني مجنونة.. رأيتها! تقف على أطراف أصابعها خلفي. تنظر في المرآة بنفس الشريط الأزرق في شعرها.. الذي كانت تلبسه عندما............

- ارجوك يا عزيزتي..

- بل رأيتها.. ماري لو!.. كانت تنظر لي بوجه شرس في المرآة.. وهي ميتة. تعرف أنها ميتة. لقد اختفت منذ 3 أعوام ولم يجدوا جثتها..

ارتجف ذقنا مستر هاكر وقال:

- ماري تو دميستر..

- كانت تلعب هنا.. وويلما دمبستر طلبت منها أن تظل بعيدة، وكانت تعرف سر هذا البيت، ولكن ماري أصرت.. رباه.. وجهها!..

ربت هاكر على كتفها وبدا أنه بحاجة لمن يربت على كتفه هو الآخر. وقف هناك ينتظر الباقي

قالت مس هاكر:

- احك لهم..

- ليكن.. لكن على أن آخذك للبيت... سأنتظر حتى تحكي.. الآن.. جلس هاكر واستندت زوجته على كتفه. كان ينتظر لحظة ما وقد جاءت.

- لا أعرف كيف أشرح.. غالبا هي غلطتي لكن لم أكن أعرف.. لا أحد يصدق هذا الهراء عن البيوت المسكونة، كل ما يفعله هو أنه يهبط بأسعار البيوت.. لذا لم أتكلم فهل تلومونني؟

همست مسز هاكر:

- رأيت وجهها!..

- أعرف.. كان على أن أخبركما بصدد البيت.. لماذا ظل 20 عاما بلا إيجار؟....

عرف المضيفان الحقيقة.. امتلئا بها ككئوس الزجاج. كان هذا هو بيت بيلمان، البيت الذي بناه جوب بيلمان لعروسه في الستينيات [6]، وحيث ولَدت الزوجة ابنتها لورا وماتت. كبرت الطفلة وصارت هي زهرة الإقليم النضرة.. يقول البعض إنها كانت زهرة الولاية لكن الرجال كانوا يبالغون في تلك الأيام. كان هناك الكثير من الرجال يدخلون البيت بأحذيتهم اللامعة، يتكلفون الابتسام مع (جوب) العجوز ويقطبون في وجه الخدم، وينظرون في وله إلى لورا.

كانت لورا تتعامل باعتبار هذا حقها وكانت ترى أنها أصغر بكثير من أن تتزوج. لن تتزوج ما دام أبوها حيا.

الأمور أفضل هكذا.. رقصات في ضوء القمر.. حفلات أزهار.. حلوى.. هدايا.. حفلات راقصة.. معجبون.. ركوب دراجة.. عزف ماندولين.

ثم يأتي اليوم.. جوب العجوز ميت في فراشه بالطابق العلوي. الطبيب جاء ومعه القس ثم المحامي بسعاله الجاف وكلامه عن الإرث والدخل السنوي.

الآن صارت وحيدة. هي والخدم والمرايا. لورا والمرايا، مرايا في الصباح وتأمل صورتها لتبدأ اليوم. مرايا في الليل قبل أن تصل العربة، لتدخل حفلاً آخر شاعرة بالنصر أمام عيون المنبهرين والمعجبين. مرايا في الفجر تصغى لانتصارات الليل.

«يا مراتي.. يا مرآتي على الجدار؟.. من هي جميلة الجميلات؟..»

قالت لها المرايا الحقيقة. المرايا لا تكذب. المرايا لا تخدش ولا تطلب شيئا لقاء اعترافها بجمالك.

مرت الأعوام لكن المرايا لم تشخ ولم تتغير. ولم تشخ لورا. صار طلاب يدها أقل، وطرأ عليهم تغير معين.. لقد شاخوا. لكن كيف بينما لورا ما زالت صغيرة؟

قضت لورا وقتا أطول فأطول مع المرايا. كانت تضع المساحيق وتفتش عن التجاعيد وتعقص شعرها. تبتسم ترمش بأهدابها.. تقطب..

وعندما جاء طالبو ودها أرسلت الخدم يبلغونهم إنها ليست في البيت. بدا لها من السخف أن تترك المرايا. كان الخدم يأتون ويذهبون ومات بعضهم لكن هناك الجديد منهم دوما، كانت التسعينات مرحة.. كانت تضحك وتهتز في فراشها تتقاسم أسرارها مع الزجاج.

مرت الأعوام لكنها كانت تضحك. كانت تقهقه كلما كلمها الخدم، وكانت تحمل الطعام على صينية لغرفتها لأنها كانت تشعر شيئا غريبا في الخدم.

كانوا يحسبونها تشيخ لكن هذا لم يحدث.. المرايا لا تكذب. كانت تضع أسنانها الصناعية والجمة لتسعدهم لكنها لم تكن بحاجة لهذه الأشياء، كانت المرايا تكلمها الآن.

كانت تجلس أمام المرايا صامتة تهز رأسها وتتأرجح بين المساحيق والعطور. تصغى للمرايا تخبرها كم هي جميلة، وكم

هي موفقة لأنها لم تبعثر جمالها على العالم، لن تفارق هذا المكان أبدا.. هي والمرايا سوف يبقون معا للأبد.

جاء اليوم الذي حاولوا فيه أخذها.. وضعوا أيديهم عليها. هي لورا بيلمان.. أجمل امرأة في العالم، هل من الغريب أنها قاتلت وصرخت وخمشت؟.. طار أحد الخدم ليهشم رأسه على الزجاج الجميل ومات. دمه القذر قد لوث انعكاسها المكتمل.

كان خطأ غبيا ولم يكن ذنبها، وقد أخبر د. تيرنر الضابط بهذا عندما جاء. لم يكن على لورا أن تقابله أو تترك البيت لكنهم كانوا يغلقون باب حجرتها ويأخذون المرايا كلها.

أخذوا كل المرايا!

صارت امرأة وحيدة عجوزا بلا انعكاس.. أخذوا المرايا فصارت عجوزا.. قبيحة... مذعورة..

ليلتها بكت.. وراحت تتعثر كالعمياء في رحلة دامعة وسط الهباء.

عرفت أنها مسنة ولا شيء ينقذها. عرفت هذا عندما ألصقت جبهتها المتغضنة بالنافذة ذات الزجاج البارد. جاء الضوء من خلفها فرأت انعكاسها في النافذة.

النافذة.. إنها مرآة.. نظرت لها طويلاً في حب.. نظرت للوجه الذي سال الدمع عليه، الملطخ بالأصباغ.. وجه عجوز مهدمة، وجه جثة تأهبت للدفن.

دار كل شيء من حولها. هذا بيتها وهي تعرف كل بوصة منه منذ مولدها. البيت جزء منها. هذه غرفتها.. تحتاج إلى مرآة ترى

فيها وجهها الجميل، لكنها لن تُمنح مرايا ثانية.

بدأ الانعكاس يتغير فصارت ترى من جديد لورا بيلمان أجمل الجميلات. انتصبت وتراجعت للخلف وراحت ترقص. رقصت أمام زجاج النافذة فاندفعت لتخترقه، حتى أن قطع زجاج مهشمة كالموسى مزقت حلقها.

هكذا ماتت.. وهكذا وجدوها..

جاء الطبيب وعمل الخدم ما يجب عمله.

بيع البيت ثم بيع ثانية. في النهاية امتلكته وكالة تأجير، وجاء سكان لكنهم لم يبقوا طويلاً. كانت عندهم مشاكل مع المرايا.

مات رجل بنوبة قلبية كما قالوا بينما هو يصلح من ربطة عنقه ذات ليلة. من الغريب أنه كان يقول للناس في البلدة إن هناك أشياء غريبة.

هناك مدرس استأجر المنزل في العشرينات ومات في ظروف لم يستطع د. تيرنر فهمها. ذهب للوكالة العقارية وتوسل لهم أن يمنعوا استئجار البيت، لكن هذا لم يكن له داع لأن سمعة البيت صارت معروفة.

أما عن اختفاء ماري لو دمبستر هنا فأمر لا يعرفه أحد شوهدت الفتاة منذ عام في الطريق الموصل للبيت وبرغم أن البحث عنها لم يفض لشيء، فقد ساد الكلام.

أخيرا جاء هو وهي للحياة هنا.. وهذه هي القصة.. كل القصة.

لف مستر هاكر ذراعه حول جوين وساعدها على النهوض كان يشعر بالخجل والعار.. كان مقدرا للأمر ولم تلتق عيناه بمضيفيه.

قال المضيف:

- سوف نرحل.. الآن.. بإنذار أو لا إنذار..

- يمكن ترتيب هذا.. لكن لن أجد مكانا الليلة، وغدا هو الأحد..

قلت هي:

- سوف نحزم حقائبنا ونرحل غدا.. ربما لفندق.. المهم أننا راحلون..

قال هاكر:

- سوف أطلبكما غدا.. أعرف أن كل شيء سيكون على ما يرام، ما دمتما قضيتما أسبوعا هنا..

وصمت.. لم يعد هناك ما يقال وسرعان ما كان يرحل مع زوجته، هكذا لم يبق سواهما هما الاثنان..

هم الثلاثة في الواقع.

كانا أكثر تعبا من أن يباليا.. لقد تعاون الشرب المفرط والتوتر الزائد ليجعلا النتيجة حتمية.

لم يقولا شيئا فلم يكن هناك ما يقال ولم يسمعا شيئا لأن البيت ظل هادئا.

دخلت غرفتها ونزعت ثيابها.. أما هو فمشي في البيت. اتجه للمطبخ وفتح درجا جوار الحوض وأخذ مطرقة هشم بها مرآة المطبخ.

تنكل تنكل.. ثم صوت تهشم..

كان هذا صوت المرآة في الصالة. ثم صعد للطابق العلوي حيث الحمام.. وتساقط الزجاج المهشم في درج الأدوية عاد لغرفة النوم وطوح المطرقة ليحطم المرآة البيضوية لصندوق التجميل.

لم يجرح.. لم يتوتر.. لم يتغير مزاجه.. لقد ولت المرايا.. كلها رحلت..

تبادلا النظر للحظات.. ثم أطفأ الأنوار ووثب على الفراش جوارها وغرقا في النوم.

ومرت الليلة.

في ضوء النهار بدت الأمور سخيفة. برغم هذا أخرجا الحقيبة، وإذ أنهت إعداد الإفطار كان قد وضع ثيابه على الفراش. وبعد الإفطار نهضت هي وأخذت ثيابها من الأدراج والمشاجب. سوف يذهب للعلية ليجلب حقيبة الثياب، وسوف يتصلان بعمال النقل بمجرد أن يعرفا إلى أين هما ذاهبان.

صار البيت هادئا. لو كان البيت يدرك خططهما فهو لا يتصرف على هذا الأساس.

النهار كان كئيبا وقد أبقيا الأضواء مطفأة بلا كلام. كان بوسعه أن يهشم زجاج النوافذ لكنه كان عملاً سخيفا.. هما راحلان عما قريب.

سمعا الضوضاء.. صوت شيء يسيل.. صوت خرير.. إنه أت من تحت أقدامهما.. هكذا شهقت هي.

قال:

- ماسورة الماء في القبو..

وابتسم وأمسك بكتفيها.

قالت وهي تتجه للدرج:

- من الأفضل إلقاء نظرة..

- ولماذا أنت؟.. سأفعل ذلك...

لكنها هزت رأسها.. كانت تكفر عن خطيئة الشهقة التي أطلقتها. يجب أن تريه أنها ليست خائفة. يجب أن تُري زوجها وتُرى الشيء كذلك..

قال لها:

- انتظري.. سأحضر مفتاح المواسير.. إنه في حقيبة السيارة..

وهرع للباب الخلفي فوقفت حيث هي، ثم اتجهت لدرج القبو. كان صوت الماء أعلى ويبدو أنه يغرق البدروم، كان صوته غريبا كأنه يضحك.

كان بوسعه أن يسمعه حتى وهو في الخارج يفتح حقيبة السيارة. كل هذه البيوت القديمة فيها خطأ ما.. لابد أن يعرف

هذا......

وجد الرافعة.. عاد للباب مصغيًا للماء ولصراخ زوجته. كانت تصرخ!.. تصرخ في البدروم.. تصرخ في الظلام. جرى حاملا المفتاح الثقيل، وهبط في الدرج إلى الظلام..، كانت الصرخات تمزق الصمت. لقد أمسك بها الشيء.. كانت تقاوم بعنف لكنه كان قويا جدا، وفي ضوء الكشاف المنعكس على الماء رأى وجهها والوجوه الأخرى التي تحيط بها.

رفع المفتاح وهوي به.. ضرب.. ضرب.. حتى مات الصراخ.

هنا وقف ينظر لها.. لقد زالت الظلمة وتلاشت في انعكاس الماء. كانت هناك.. وكانت صامتة. صامتة وستظل كذلك للأبد.

فقط كان الماء يزداد احمرارا حيث سقط رأسها. وكان طرف المفتاح أحمر كذلك.

للحظات راح يحكي لها عما حدث، ثم أدرك أنها رحلت..

لم يبق سوى اثنين.. هو.. والشيء..

وهو يصعد في الدرج. يحمل المفتاح الدامي.. سوف يطلب الشرطة ويشرح.

جلس جوار الهاتف وراح يفكر فيما سيقوله لهم، لن يكون سهلا. تلك المرأة المجنونة التي حدقت في المرايا حتى لم يعد في جسدها من الحياة قدر ما في المرايا من حياة، عندما انتحرت ظلت حية في المرايا وكل شي عاكس.. قتلت آخرين أو سببت موتهم وبشكل ما التحمت حياتهم بحياتها، بحيث صار الشيء يزداد قوة، أيتها المرأة، اسمك هو الغرور مجسدا!

لهذا يا سادة قتلت زوجتي.. تفسير جميل لكنه لا يصمد لشيء..

الماء!.. الماء في البدروم هو السبب.. لقد عكس صورا..

نظر لزجاج النافذة أمامه.. يعكس؟؟؟؟

رأى الرجل الملتحي والعينين المتلصصتين للطفلة الصغيرة. تقطيبة المرأة العجوز. لم يكونوا هنا خلفه بل هم أحياء داخل المرآة.. نهض وأمسك بالمفتاح.

سوف يقاتله على كل حال. طوح بالمفتاح، هنا رأى وجهها يظهر بين باقي الوجوه. يثب نحوه وهناك تجاويف دامية في موضع العينين.. تراجع للخلف...

سمع صوت زجاج النافذة من خلفه فتذكر بشكل مبهم كيف ماتت العجوز.. نفس الطريقة التي سيموت بها الآن.. يسقط عبر النافذة فيقطع حلقه..

يتدلى عنقه خارج الزجاج المهشم وينزف.

لقد رحل.. جسده يتدلى لكنه هو نفسه قد رحل..

ظهر شيء من الظل الآن. كان له وجه امرأة عجوز وله وجه طفل وله وجه ملتح ووجهه هو ووجهها.

بدأ ينهض ثم يجلس..

في النهاية وحيدا في البيت الخالي، جلس ينتظر.. لا يوجد ما يمكن عمله سوى انتظار القادم الجديد. في نفس الوقت يمكنه

أن يتأمل صورته بإعجاب في ذلك الانعكاس الأحمر الذي يتسع على الأرض.

روبرت بلوخ

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

الرجل الذي يجمع كتب (بو):

هذه مجموعة من القصص القصيرة لروبرت بلوخ كاتب الرعب الأمريكي الشهير.. تلميذ لافكرافت وصاحب رواية (سايكو) التي صارت من علامات سينما الرعب البارزة، كما أنه أكثر المؤلفين الذين عملوا مع الفريد هتشكوك مخرج الرعب الأشهر. سوف تقضي ساعات ممتعة مع عوالم بلوخ وسفاحيه وشخصياته المخبولة.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- الدقة تقتضي أن يكون العنوان هو (الرجل الذي يجمع بو)، وهو أدل على محتوى القصة، ولكن مذاقه غريب في اللغة العربية لذا قمت بتغييره.

[←2]

- مجموعة الجزر في منطقة أستراليا ونيوزيلندا وبابو غينيا الجديدة.

[←3]

- قائد الطيران لدى هتلر.

[←4]

- طبعا المدعي العام مهمته أن يدان سيث ويعدم. هنا يحاول المدعي العام بخبث أن يخفي قصة إينوخ حتى لا يفلت سيث من عقوبة الإعدام باعتباره مجنونا. وسيث لا يعرف هذا ويحسب الرجل يحاول مساعدته.

[←5]

- من الشياطين.. معنى الاسم هو (سيد الذبوب) أو (إله الذباب) وهو اسم منافسي للقصة جدا.

[←6]

- غالبا الكلام يدور عن القرن التاسع عشر، وهذا ما نستنتجه من الجزء التالي.

روايات عالمية للجيب 72



قطار الجحيم

تأليـــف : روبـرت بلـوخ
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب
العدد رقم (71)

قطار الجحيم

تأليف: روبرت بلوخ
ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هذا هو الجزء الثاني من مجموعة قصص قصيرة مرعبة للأديب الأمريكي روبرت بلوخ، لمن لم يقرءوا الجزء الأول نعيد نشر هذه السطور عن المؤلف:

(روبرت بلوغ Bloch) من أهم كتاب الرعب المعاصرين، وله إسهامات لا حصر لها، لكن يظل أهم عمل له هو (سايكو).

ولد (بلوخ) عام 1917 في شيكاغو بأمريكا. نعرف أنه كان مولعًا بشدة بأفلام الرعب في طفولته، ثم ككتاب أمريكيين كثيرين تأثر بمجلة (حكايات غريبة Weird tales) التي كان يكتب فيها أدباء فائقو الموهبة مثل (لافكرافت). وقد تبادل المراسلات مع الرجل الأسطورة، وهو الذي نصحه بأن يجرب كتابة القصة القصيرة. إنه ميراث الموهبة الذي لا ينتهي وينتقل من جيل لجيل. والواقع أن صداقة جميلة جمعت الأستاذ والتلميذ، وكتب كل منهما قصصًا استخدم فيها اسم الآخر، حتى إن لافكرافت كتب له تفويضًا يسمح له بأن يقتله في أية قصة يشاء!

في سن السابعة عشر باع (بلوخ) أولى قصصه (السر في المقبرة) لذات المجلة.

بدأ الفتي يكسب عيشه عن طريق الكتابة وتزوج. وفي العام 1947 صدرت روايته الأولى (الوشاح)، وهي دراسة لعقل سفاح يهوى قتل النساء، ويقال إن السفاح الوحيد والمريض نفسيًّا سوف يصيران علامتين مميزتين على أدب بلوخ.

كان نجاحه محدودًا وقلقه على المستقبل عظيمًا، لكن العام 1959 شهد مولد روايته التي ارتبطت باسمه للأبد (سايكو). وقد استلهم القصة من حكاية سفاح حقيقي شهير جدًّا ارتبط بوالدته بشكل مرضى لدرجة تحنيطها بعد موتها، وهو السفاح (إد جين). الواقع أن (إد جين) جلب الكثير من الخير لكتاب الرعب في كل مكان، وقد استلهم كثيرون قصته لعل آخرهم (توماس هاريس) في شخصية (هانيبال لكتر) الشهيرة.

وعندما باع بلوخ القصة لشركة هوليوودية، لم يكن يعرف أن المشترى هو هتشكوك. ومن الغريب أن الشركة لم تحاول الاتصال به أو عرض كتابة السيناريو عليه.

عام 1959 نال جائزة محترمة جدًّا هي جائزة (هوجو) عن قصته القصيرة (ذلك القطار الجحيمي). وتلقى دعوة لهوليوود ليكتب سيناريو حلقات بوليسية تلفزيونية، ثم حلقات مسلسل الرعب الشهير (ألفريد هتشكوك يقدم). وقد قدم عدة مجموعات قصصية لم يخل غلاف واحدة منها من عبارة (مؤلف نفوس معقدة).

<u>من ضمن روايات بلوخ الشهيرة:</u>

- الخاطف 1954
- تلك الأرض المزدحمة 1958
- الأريكة 1962
- الهلع 1962
- كله في عقلك 1971

- هناك أفعوان في عدن 1979
- ليلة السفاح 1984
- تركة جيكل 1991

أما عن مجموعات القصص القصيرة فمنها:

- الرعب في الليل 1958
- الدم يجري باردًا 1961
- كوابيس أكثر 1961
- جمجمة الماركيز دي ساد.
- أفضل ما كتب بلوخ 1977

مات بلوخ عام 1994 في لوس أنجيليس. وقد أحرق ودفن رماده هناك. في هذا الكتيب والكتيب السابق له، نقابل بعضًا من قصصه القصيرة، وهي مختارة بشكل عشوائي، أي أنها لا تمثل مجموعة قصصية معينة له، لكنها جميعًا ممتعة، وقد رأيت بعضها في فيلم الرعب (حديقة التعذيب - 1967) الذي كتب له بلوخ السيناريو وأنتجته شركة أميكوس البريطانية.

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

قطار الجحيم

قطار الجحيم (1)

عندما كان مارتن صبيًّا كان أبوه رجل سكة حديدية. لم يكن أبوه يركب القطار، بل كان يفحص القضبان لشركة CB&Q وكان فخورًا بمهنته. وفي كل ليلة عندما يثمل كان يغني أغنية (قطار الجحيم).

لا يذكر مارتن أية كلمات لكنه لم ينس كيف كان أبوه يغنيها. وعندما أخطأ أبوه وشرب الخمر عصرًا فانسحق بين عربة بنسى وعربة AT & SF، فإن مارتن تساءل لماذا لم تقم النقابة بغناء هذه الأغنية في جنازة أبيه.

بعد هذا لم تسر الأمور كما يرام بالنسبة لمارتين، لكنه ظل يذكر أغنية أبيه. عندما فرت الأم مع مندوب مبيعات من كيوكك، راح مارتن يدندن اللحن لنفسه كل ليلة في بيت الأيتام. وبعد ما هرب هو نفسه كان يصفر الأغنية بنعومة في الليل في الغابات بعد ما ينام المتشردون الفارون معه.

ظل مارتين في الطرقات أربعة أو خمسة أعوام قبل أن يدرك أنه لم يصل لأي مكان.. لقد جرب أعمالًا كثيرة. جمع الفاكهة في أوريجون وغسل الصحون في مونتانا وسرق طاسات السيارات في دنفر والإطارات في أوكلاهوما، لكنه أدرك أنه لا يوجد مستقبل في حياة الضياع هذه.

حاول أن يعمل في السكة الحديد مثل أبيه، لكنهم قالوا له إن هذه أوقات عصيبة، لم يقو على الابتعاد عن السكك الحديدية.. كلما سافر.. سافر بها، وكان يفضل ركوب قطار بضاعة في درجة حرارة صفر على أن يستوقف سيارة كاديلاك

تتجه لفلوريدا. وكان يجلس في القطار يدندن أغنية (قطار الجحيم).. كان هذا هو القطار الذي يركبه السكارى والخطاة.. المقامرون والمحتالون والمتحرشون بالنساء وكل (شلة الأنس).

من الطريف أن تقوم برحلة مع مجموعة لطيفة كهذه، لكن مارتن لم يرد أن يفكر في لحظة توقف القطار في مستودع في جهنم، ولا قضاء دهر يملأ الغلايات في الجحيم من دون اتحاد يحميه. برغم هذا كانت رحلة طيبة. لو كان هناك شيء اسمه قطار الجحيم.. بالطبع لا يوجد شيء كهذا.

على الأقل لم يحسب أن هناك شيئًا كهذا، حتى وجد نفسه ذات ليلة يعبر القضبان قاصدًا الجنوب خارج محطة (أبلتون). كان الليل باردًا مظلمًا فهكذا تكون ليالي نوفمبر في وادي (نهر الثعالب). كان يقصد تكساس ولم يكن راغبًا جدًّا في ذلك، برغم أنه سمع أن معظم السيارات هناك لها طاسات من ذهب.

لم يكن قد كف عن السرقة، وكانت أسوأ من الخطيئة ذاتها لأنها لا تجلب ربحًا كذلك. من المؤسف أن تقوم بعمل الشيطان ثم تنال أجرًا بائسًا عن ذلك! والحقيقة أنه بدأ يفكر في الانضمام لجيش الخلاص.

مشى وهو يدندن لحن أبيه منتظرًا سماع صوت قطار آتيًا من المحطة.. سيكون عليه التعلق به فليس أمامه شيء آخر. لكن أول قطار جاء كان من الاتجاه المعاكس.

انحنى مارتين لكن عينيه لم تريا ما سمعته أذناه، كل ما تبينه هو الصوت.. كان قطارًا بالتأكيد وقد شعر بالصلب يهتز تحت قدميه.

لكن كيف؟.. أول محطة للجنوب هي (نيناه ميناشا) وليست هناك قطارات متوقعة خلال ساعات.

كانت السحب كثيفة أمامه والضباب كأنه ليلة مظلمة باردة في نوفمبر. برغم هذا كان من المفترض أن يرى ضوء المقدمة في القطار القادم، لكن لم يكن هناك إلا الصفارة تعوي في حلق الليل الأسود. كان بوسعه أن يعرف نوعية أية مركبة تم اختراعها لكنه لم يسمع صفارة كهذه.. كانت نوعًا من الصراخ كأنها روح ضائعة.

خطا للجانب لأن القطار صار على بعد خطوات، وفجأة رآه.. بسرعة وفي وقت أقل مما حسبه ممكنًا.

كانت العجلات تصرخ بدورها.. تصرخ كأرواح الملاعين. لكن القطار توقف وتلاشت الصرخات. وبدأت أصوات أنين خفيضة. أدرك مارتن عندما رفع عينيه أن هذا قطار مسافرين. كان كبيرًا أسود بلا ضوء واحد من المقطورة أو العربات. لم ير أية كتابة على الجوانب لكنه كان متأكدًا من أن القطار لا ينتمي للسكك الحديدية الشمال غربية.

تأكد أكثر عندما رأى الرجل يهبط من العربة في المقدمة. كان هناك شيء خطأ في طريقة مشيه كأنه يجر قدمًا.. كذلك في الفانوس الذي يحمله. كان الفانوس مظلمًا هنا رفعه الرجل لفمه ونفخ.. على الفور توهج الفانوس. لا يجب أن تكون عاملاً بالسكك الحديدية كي تعرف أن هذه طريقة غريبة لإيقاد الفانوس.

إذ دنا منه رأى مارتن كاب محصل التذاكر على رأسه وجعله هذا يشعر بتحسن. ثم لاحظ أنه أعلى من اللازم كأن هناك شيئًا

على الجبهة تحته.

عندما ابتسم له الرجل قال:

- « مساء الخير يا سيدي المحصل.. »

- « مساء الخير يا مارتن.. »

- « كيف تعرف اسمي؟.. »

هز الرجل كتفه وقال:

- « وكيف عرفت أنت أنني محصل؟.. »

- « أنت كذلك.. أليس كذلك؟.. »

- « لك أنت.. بلى.. برغم أن الناس في أماكن أخرى يعرفونني في أدوار مختلفة.. مثلًا يجب أن ترى كيف أبدو للعاملين في هوليوود.. »

وضحك ضحكة عريضة وقال:

- « أنا أسافر كثيرًا.. »

سأله مارتن:

- « ومن جاء بك هنا؟.. »

- « لابد أنك تعرف الإجابة يا مارتن.. جئت لأنني أريدك.. الليلة أدركت أنك بدأت ترتد. تفكر في الانضمام لجيش الخلاص.. أليس كذلك؟.. »

قال مارتن في تردد:

- « بلى.. »

- « لا تخجل.. الخوف شيء آدمي كما قال أحدهم في مكان ما.. ربما في مجلة ريدرز دايجست. لا يهم.. شعرت بأنك بحاجة لي لذا غيرت اتجاه القطار وجئت.. »

- « لم؟.. »

- « لأدعوك للركوب طبعًا.. أليس من الأفضل أن تركب قطارًا مريحًا بدلاً من المشي في شوارع باردة مع فرقة من فرق جيش الخلاص؟.. هذا يتعب القدمين ويتعب الأذنين أكثر.. »

قال مارتين:

- « لست راغبًا في ركوب القطار يا سيدى.. »

- « آه.. » . وتنهد المحصل وقال: . « المشكلة القديمة.. أعتقد أنك تريد صفقة ما.. »

- « بالضبط.. »

- « يؤسفني أنني لم أعد أمارس هذه الأشياء.. لم أعد أعاني نقصًا في المسافرين المتطلعين للمستقبل. فلم أقدم لك عرضًا خاصًّا؟.. »

- « لأنك تريدني، وإلا لما غيرت طريقك لتجدني.. »

تنهد المحصل من جديد، وقال:

- « في هذا معك حق.. الغرور كان دومًا من نقاط ضعفي.. وأخشى أن أفقدك للمنافسين بعد ما فكرت فيك كل هذه الأعوام باعتبارك ملكي. نعم.. أقبل التعاون معك بشروطك.. »

سأل مارتين:

- « شروط؟.. »

- « الطريقة المعتادة.. لكن أنذرك أنه لن تكون هناك حيل.. سأضمن لك أية أمنية تفكر فيها لكن بالمقابل ستعدني بأن تركب القطار عندما يأتي الوقت.. »

- « وماذا لو لم يأت؟.. »

- « سيأتى.. »

. « لنفترض أنى وجدت أمنية تتيح لي البقاء للأبد.. »

- « لا توجد أمنية كهذه.. لا يهم ما تفكر فيه لكني سأفوز بك في النهاية، ولن يكون هناك نصب في الساعة الأخيرة.. لا توبة في آخر ساعة ولا شقراء جميلة أو محام بارع ينقذك. أنا أطلب صفقة نظيفة.. ستنال ما تريد وأنا أنال ما أريد.. »

- « سمعت أنك تخدع الناس، وأنك أسوأ من تاجر سيارات مستعملة.. »

- « موافق.. من الناحية الأخرى أنت تحسب أنك وجدت طريقة للفرار.. »

- « طريقة أكيدة.. »

اهتز الشيطان ضحكًا وقال:

- « طريقة أكيدة؟.. مضحك.. »

ثم توقف وقال:

- « نحن نضيع وقتًا ثمينًا.. دعنا نكن جادين.. ماذا تريد منى يا مارتن؟.. »

أخذ مارتن شهيقًا عميقًا ثم قال:

- « أريد أن أملك القدرة على إيقاف الزمن.. .. »

- « الآن؟.. »

- « لا.. ليس بعد.. أريد أن أوقف الزمن متى أردت. مرة واحدة في المستقبل. عندما أبلغ لحظة أعرف فيها أنني سعيد راض سوف أوقف الزمن. بهذا أظل سعيدًا للأبد.. »

فكر المحصل:

- « هذا اقتراح ممتاز.. يجب أن أعترف بأنني لم أسمع اقتراحًا كهذا من قبل. أنت كنت تفكر في هذا من فترة.. أليس كذلك؟.. »

- « منذ أعوام.. ما رأيك؟.. »

- « ليس مستحيلاً.. يمكن أن نوقف إحساسك بالزمن.. يمكن ترتيب هذا.. »

- « لكني أريد أن يتوقف الزمن فعلًا.. لا أريد أن أتخيل.. »

- « أفهم.. وهذا ممكن.. »

- « إذن ستوافق؟.. »

- « ولم لا؟.. أنا قد وعدت.. هات يدك.. »

تردد مارتن وقال:

- « هل هذا يؤلم؟؟.. أعنى أننى لا أحب مرأى الدم و.. .. »

- « هراء.. أنت سمعت الكثير من الهراء!.. لقد تمت الصفقة يا بني. أريد أن أزرع شيئًا في يدك. طريقة تحقيق رغبتك. لا أعرف متى ستقرر أن تحصل على رغبتك وأنا لن أترك مسئولياتي وقتها وألحق بك جريًا. سوف أعطيك القدرة على التنفيذ.. »

- « إذن ستعطيني جهازًا لإيقاف الزمن؟.. »

- « هذه هي الفكرة العامة.. خذ ساعتى.. »

وأخرجها من جيب الصديري.. كانت ساعة سكة حديدية لها علبة فضية. فتح ظهرها وضبطها. حاول مارتن أن يعرف ما يقوم به لكن سرعة حركة الأصابع جعلتها كالضباب.

قال المحصل:

- « هأنتذا.. إنها مضبوطة.. عندما تقرر أن توقف الزمن، فما عليك إلا أن تدير العقارب بالعكس حتى تتوقف الساعة. عندما تتوقف يتوقف الزمن لك، هل هذا سهل؟.. »

ثم وضع الساعة في كف مارتن.

قال الفتى وهو يمسك بالساعة:

- « وهذا كل شيء؟.. »

- « قطعًا.. لكن تذكر. يمكنك وقفها مرة واحدة. لذا تأكد من أنك فعلًا سعيد باللحظة التي تتمنى أن تدوم. أحذرك أن تتأكد من خيارك..»

- « سأفعل، وبما أنك أمين بهذا الصدد سأكون أمينًا كذلك. هناك شيء يبدو أنك نسيته.. معنى أن أوقف الزمن هو أن أظل حيث أنا.. لن أشيخ أبدًا. ولو لم أشخ فلن أموت.. ولو لم أمت فلن أضطر لركوب قطارك.. »

استدار المحصل وراح كتفاه يهتزان في عصبية، وكأنه يبكي.. ثم قال بصوت مختنق:

- « وتزعم أنني أسوأ من بائع سيارات مستعملة.. .. »

ثم ابتعد وسط الضباب ودوت صفارة نافدة الصبر من القطار. وسرعان ما راح يهدر مبتعدًا في الظلام.

وقف مارتن هناك يحدق في الساعة في يده. لو لم يكن بوسعه أن يراها ويلمسها، ولو لم يكن بوسعه أن يشم هذه الرائحة الخاصة، لحسب أنه تخيل كل شيء. القطار والمحصل والصفقة وكل شيء.

معه الساعة ويمكنه شم الرائحة التي تخلفت من القطار، وعلى الأقل لا توجد مركبات كثيرة في الجوار تستعمل الكبريت كوقود.

لم تكن لديه شكوك في الصفقة، بعض الحمقى يطلبون الثراء أو القوة أو (كيم نوفاك). ربما طلب أبوه كأس ويسكي.

لكنه كان يعرف أنه أجرى صفقة ذكية. لا يوجد فيها خطأ واحد. كل ما عليه هو أن يختار اللحظة المناسبة بعناية.

وضع الساعة في جيبه، وعاد لطريق السكة الحديد. لم تكن له وجهة في ذهنه من قبل، لكنه يعرف الآن.. عليه أن يقتنص

لحظة سعادة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن مارتن مغفلاً. كان يدرك أن السعادة شيء نسبي، وأن هناك درجات من الرضا. كمتشرد كان يسعد بأن تكون يداه دافئتين وأن يجد مقعدًا طويلاً في الحديقة، أو علبة من خمر (الستيرنو) المعتقة. وكان يصل للسعادة بأشياء بسيطة كهذه.. لكنه يعرف أن هناك أشياء أخرى.

خلال يومين بلغ مدينة شيكاغو العظيمة، وبصورة طبيعية تاه في شارع ماديسون وبدأ يحاول أن يرفع قدره في الحياة. صار متسكعًا وتلخصت السعادة بالنسبة له في سرير في فندق رخيص ووجبة في مطعم وبعض النبيذ. وقد خطر له بعدما شعر بأنه سعيد أن يوقف الساعة. ثم تذكر وجود المحسنين الذين أعطوه مالًا.. كانوا أخيارًا لكنهم كانوا يتمتعون بالثراء وكانت ثيابهم أفضل ويقودون سيارات جميلة. بالنسبة لهم كانت السعادة أكثر.. إنهم يأكلون عشاءهم في فنادق فاخرة وينامون على مراتب طرية. هكذا نظر لساعته وقرر أن يذهب لينام، عازمًا على أن يجد لنفسه عملًا ويحسن حاصل سعادته.

عندما استيقظ كان ما زال تحت تأثير الخمر، لكنه كان مصممًا. قبل أن يمر الشهر راح يعمل لدى مقاول كبير في الجنوب في أحد مشاريع التعمير الكبيرة. كان الراتب جيدًا وسرعان ما صارت لديه شقة من غرفة واحدة في شارع (بلو آبلاند)، وقد ابتاع لنفسه فراشًا مريحًا واعتاد الأكل في مطاعم محترمة.

وعده صاحب العمل بزيادة.. معنى الزيادة أن بوسعه الحصول على سيارة مستعملة، ومن الممكن وقتها أن يتعرف فتاة.. أصدقاؤه يفعلون ذلك ومن الواضح أنهم سعداء.

هكذا ظل يعمل فجاءت الزيادة.. ثم جاءت السيارة. وسرعان ما جاءت فتاتان..

عندما اكتمل هذا فكر في أن يدير الساعة، لكنه تذكر ما يقوله بعض كبار السن. كان هناك رجل يدعى تشارلي يعمل معه على الرافعة، قال له:

- « عندما تكون صغيرًا ربما تنبهر بأن تعرف هذه الخنازير.. لكن بعد فترة سوف تريد شيئًا أفضل.. فتاة لطيفة لك.. »

شعر مارتن بأن عليه أن يجد الحقيقة. لو لم يحب ما يجده فيمكنه العودة إلى حيث كان.

مرت ستة أشهر قبل أن يقابل ليليان جيليس. كان قد نال ترقية وبدأ يعمل في المكتب. جعلوه يذهب لمدرسة ليلية ليتعلم مسك الدفاتر. وكان معنى هذا زيادة 15 جنيهًا في الأسبوع. كانت ليليان رائعة، وعندما قالت له إنها ستتزوج منه، صار على يقين أن هذه هي اللحظة.. لكنه لم يكن قادرًا على الزواج منها ما لم يجمع مالًا أكثر.

مر عام، لكنه لم يظهر الساعة أمام ليليان قط. كان الرجال الآخرون يلبسون ساعات ثمينة، لذا بدت ساعة السكك الحديدية العتيقة رخيصة نوعًا.

نظر للعقارب وابتسم. مجرد لفات بسيطة ويكون عنده شيء لم يملكه قط أحد زملائه البؤساء، رضا أبدى، مع عروسه

الخجول.

لكن الزواج كان البداية فقط.. كان رائعًا بالتأكيد لكن ليليان قالت له إنه من الرائع لو ارتحلا لمكان جديد. كان يريد أثاثًا غاليًا وسيارة جيدة.

بدأ يأخذ دورات ليلية وحصل على ترقية، ومع قدوم الطفل أراد أن يرى ابنه. عندما جاء قرر أن ينتظر حتى يكبر قليلاً ويمشي وتصير له شخصية.

شعر بإغراء شديد أن يدير الساعة عدة مرات، لكنه قرر أن ينتظر إبرام صفقة ممتازة تتيح له التقاعد. حدث هذا فعلًا لكنه استغرق وقتًا. كان ابنه في المدرسة الثانوية عندما خطر له أن الوقت قد حان.. فهو لم يعد طفلاً.

عندئذ قابل (شيرى وستكوت) وبدا أنها لا تعتبره في منتصف العمر برغم أنه يفقد شعره ويكتسب كرشًا. وتعلم معها أن الجمة تخفى صلعة رأسه والكورسيه يدارى بطنه. علمته الكثير حتى صار مستعدًا لأن يخرج الساعة ويلفها.

للأسف اختار اللحظة التي اقتحم فيها المخبرون الفندق، وكان عليه أن يمضى وقتًا طويلاً في إجراءات الطلاق وهي لحظات لم يقدر أن يقول إنه يستمتع بأي منها.

وعندما تمت التسوية مع (ليليان) عاد مفلسًا من جديد، ولم تعد شيرى تراه شابًّا.. هكذا عاد للعمل.

في النهاية صنع ثروته واستغرق الأمر فترة أطول، ولم يقدر على الاستمتاع. كان قد فقد اهتمامه بالنساء والخمر.. والطبيب أنذره منهما على كل حال. كانت هناك متع للرجال الأثرياء على

كل حال.. السفر على سبيل المثال.. دار حول العالم بالدرجة الأولى، وزار تاج محل في ضوء القمر. هنا أخرج الساعة وفكر في أن يديرها.. ولم يبد أن هناك من يلاحظه.

بالأكيد هي لحظة جميلة، لكنه وحيد.. رحلت ليليان وابنه وشيري وليس لديه أصدقاء. ربما لو وجد أصدقاء لعرف السعادة. هذه هي السعادة الحقيقية.. الأصدقاء.

على ظهر القارب العائد للوطن، حاول أن يتعرف بعض الناس. لكنهم كانوا أصغر منه بكثير ولا يوجد شيء مشترك بينه وبينهم. كانوا يريدون الرقص والشراب وصحته لم تعد تسمح بذلك.

ربما لهذا وقع هذا الحادث الصغير قبل أن ترسو السفينة في سان فرانسسكو. الحادث الصغير هو المصطلح الذي استعمله طبيب السفينة، لكن مارتن أدرك أن الرجل يشعر بالخطورة وطلب منه البقاء في الفراش. طلب سيارة إسعاف تقابلهم في الميناء لنقل المريض للمستشفى.

في المستشفى لم تقدر المعاملة الغالية والابتسامات الغالية في إقناع مارتن. كان مسنًّا قلبه مريض وقد حسبوه على وشك الموت.

لكنه سوف يخدعهم فالساعة ما زالت معه.. سوف يديرها بعد أن يفر من المستشفى. لا يجب أن يموت. يمكنه خداع الموت بحركة بسيطة وقد قرر أن يفعل هذا وهو يقف تحت السماء.. حرًّا.

هذا هو معنى السعادة.. ليس الصداقة بل الحرية.. يفهم هذا الآن.. من الجميل أن تكون حرًّا من الأسرة والأصدقاء وغضبات الجسد.

مشى جوار الجسر في الظلام. هنا أدرك أنه عاد إلى حيث بدأ منذ أعوام طويلة. لكن اللحظة كانت جميلة.. جميلة تستحق أن تخلد للأبد.

ابتسم وهو يفكر في الأمر.. وفجأة تقلصت الابتسامة مثل الألم الذي تلوى حادًّا في صدره. بدأ العالم يدور وسقط على جانب الجسر.

كان مفيقًا لكنه لا يري جيدًا. عرف أنها نوبة أخرى.. مؤلمة. لن يكون أحمق ثانية.. لن ينتظر ليرى ما ينتظره عند الركن.

الآن يجب أن يستعمل قواه وينقذ حياته. يمكنه عمل ذلك.. يمكنه الحركة ولن يمنعه شيء.

أخرج الساعة العتيقة وراح يعبث بالعقارب.. سوف يخدع الموت ولن يركب قطار الجحيم..

أبدًا.

لم يفكر في الكلمة من قبل.. أن تستمر للأبد. هل حقًّا يريد أن يستمر للأبد بهذا الشكل؟.. مجرد رجل عجوز سقيم يرقد بلا حيلة على العشب؟

لا.. لا يستطيع عمل ذلك.. وفجأة أراد أن يبكي بشدة. لقد غلبه ذكاؤه وها قد فات الوقت.. الدمع يغمر عينيه.. هنا سمع صوت هدير..

عرف الصوت بالطبع ولم يندهش إذ رأى القطار قادمًا خارجًا من الضباب. لم يندهش عندما توقف أو عندما نزل المحصل ومشى نحوه.

لم يتغير المحصل قط.. حتى نفس الضحكة الشريرة.

- « مرحبًا مارتن.. ليصعد الجميع.. »

همس مارتن:

- « أعرف.. لكن عليك أن تحملني.. لا أستطيع المشي بل لا أستطيع الكلام أصلًا.. »

- « أسمعك جيدًا.. يمكنك المشي كذلك.. »

ووضع يده على صدر مارتن فشعر بتنميل عابر كالثلج، ثم بدأ يمشي.

نهض مع المحصل ماشيًا إلى جانب القطار. وسأل:

- « هنا؟.. »

غمغم المحصل:

- « لا.. العربية التالية.. أعتقد أن من حقك ركوب البولمان[2] فأنت رجل ناجح برغم كل شيء. لقد ذقت الكثير من المتع.. »

تنهد مارتن:

- « ليكن.. لا ألومك على أخطائي. لكن ليس بوسعك أن تزعم أنك مسئول عما حققته.. لقد عملت بجد لأحققه ولم أحتج لساعتك.. »

- « نعم.. لكن هل يضايقك أن تعيدها لي؟.. »

غمغم مارتين:

- « تريدها للأحمق التالي؟.. »

- « ربما.. »

رفع مارتين عينيه لكنه لم يستطع رؤية عينى المحصل. كانت حافة الكاب تلقى ظلّاً على عينيه. نظر مارتن للساعة. وسأل بنعومة:

- « قل لي.. لو أعطيتك الساعة فماذا تفعل بها؟.. »

- « سألقيها في خندق.. هذا ما سوف أفعله بها.. »

ومد يده نحو مارتن.

- « وماذا لو جاء أحدهم ووجدها ولفها وأوقف الزمن؟.. »

غمغم المحصل:

- « لن يفعل أحد هذا حتى لو عرفوا.. »

- « هل تعنى أن هذه خدعة؟.. هذه ساعة رخيصة عادية؟.. »

همس المحصل:

- « لم أقل هذا.. قلت إنه ما من واحد جرب أن يديرها بالعكس.. كلهم كانوا مثلك يا مارتن.. يبحثون عن السعادة وينتظرون لحظة لا تأتي.. »

تنهد مارتن وقال:

- « أنت خدعتنى برغم هذا.. »

- « أنت من خدع نفسه يا مارتن. والآن سوف تركب قطار الجحيم.. »

ودفع مارتن عبر الدرجات إلى العربة.. بدأ القطار يتحرك ودوت الصفارة.. ووقف مارتن في البولمان المهتز في ممر بين الجالسين.. ولم يبد له هذا غريبًا.

هنا هم جميعًا.. السكاري والخطاة والمقامرون والمحتالون والمبذرون والمتحرشون بالنساء وكل (شلة الأنس).. يعرفون بالطبع إلى أين هم ذاهبون لكنهم لا يبدون مبالين. كانوا قد أرخوا الستائر وراحوا يغنون ويتناقلون زجاجة ويقهقهون. بالضبط كما كان بابا يقول عنهم في أغنيته القديمة.

قال مارتين:

- « زملاء سفر لطيفون.. يبدو لي أنهم مستمتعون حقًّا!.. »

هز المحصل كتفيه:

- « لن تظل الأمور مرحة بهذا الشكل عندما نصل.. »

قال مارتن:

- « لقد اتفقت معك على أن أوقف الزمن عندما أجد لحظة السعادة المثلى.. وأنا هنا في لحظة سعادة حقيقية.. »

وببطء أمسك بالساعة الفضية.

صاح المحصل:

- « لا!.. »

لكن عقارب الساعة دارت..

- « هل تعرف ما فعلته؟.. لن نصل لوجهتنا أبدًا.. سوف نظل في هذه الرحلة للأبد!.. »

ضحت مارتن وقال:

- « أعرف هذا.. لكن الرحلة هي المتعة وليست الوجهة. أنت علمتنى هذا. أتمنى رحلة رائعة.. لو أردت يمكنك أن تبقى الساعة معى وتمنحنى (كاب) كالذي تضعه.. »

هكذا صارت الأمور.

يحمل الكاب وساعته الفضية.. لا يوجد من هو أسعد من مارتن في العالم.. مارتن عامل المكابح الجديد في قطار الجحيم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- متاهة التعلم..

لا يذكر (جون)[3] أية فترة لم يكن فيها في المتاهة. لابد أنه كان صغيرًا لأن أول ما يتذكره هو رقاده على ظهره يمتص بنهم من أنبوب يخرج من جهاز التغذية. كان جهاز التغذية يعمل بنظام (السرفو) لكن جون لم يلحظ هذا حتى وقت متأخر. في وقتها لم يكن يشعر سوى بالمعدن الذي يتحرك فوقه، والذي يمد ممسًّا مجوفًا لشفتيه الجائعتين. كانت هناك كذلك آلة لتغيير الثياب تعنى به من وقت لآخر لتبديل ثيابه المتسخة وتنظف جسده وتكسوه بثياب جديدة.

صارت ذكريات جون أكثر وضوحًا مع اتساع مساحات استقباله. أول وحدة من المتاهة كانت مكانًا واسعًا يرقد فيه مئات الرضع في وحدات الحضانة البلاستيكية، بينما تتنقل آلات التغذية والتغيير بينها. من وقت لآخر يظهر ميكانيزم سرفو جديد بلا إنذار، وهذا يغير إيقاع الأكل والنوم والإخراج.

أدرك جون أن هذا على الأرجح ميكانيزم طبي، لكنه ظل ينظر له كعنكبوت.. مخلوق شبيه بالحشرات عملاق يدنو منه بأرجل متباعدة فضية، تتلمس فتحات وأعضاء جسده. كان يسجل النبض والتنفس وموجات الدماغ وتمثيله الغذائي، وكان يصحح النقص بالحقن.

كان بطبعه يكره هذه العملية.. برغم علمه أنها غير شخصية والكمبيوتر يتحكم فيها لمصلحته فإنه ظل يمتعض منها.

كان الرضع الآخرون يصرخون كذلك، لكن لم يكن كل شيء غير سار بهذا الشكل. إذ من الوقت بدءوا يتحركون بحرية تقودهم أيد تمسك بهم، ثم بدءوا يزحفون. زحف جون معهم وفي النهاية فارق وحدة الحضانة ليبحث عن الأصوات والصور خلفها.

كانت الأصوات والصور تأتي من خلف الجدران.. من شاشات التلفزيون المتصلة بالدائرة المغلقة. كانت الشاشات تغنى له بنعومة ليلًا وفي النهار كانت تعرض صور الأطفال الآخرين يغنون في سعادة. راح جون يراقب الشاشات وراح يقلد الصور، وتعلموا كيف يتغذون من أوعية صغيرة تضعها آلات الإطعام على فترات منتظمة عندما لا تستعمل الأنابيب. بكي بعض الرفاق عندما توارت الأنابيب لكنهم بدءوا يأكلون ما يوضع أمامهم.

بدأت عملية التعليم، وكانت هي الوظيفة الحقيقية لمتاهة التعلم.. أن تعلمهم كيف ينمون ويعيشون.

في جو الغرفة المعقم بحرارتها المضبوطة ودرجة الرطوبة، راقبوا الرضع على الشاشة يزحفون ثم ينتصبون واقفين ويخطون خطواتهم الأولى.

بدأ جون يمشى مقلدًا لهم.. سرعان ما بدأ الآخرون يمشون ويستكشفون الغرفة. كان التعلم يشمل اللمس والاتصال الجسدي وإدراك الفوارق والتشابهات والصحوة الجنسية. كانت المتاهة تنتظر.. وعندما جاء الوقت اختفت الشاشات في الجدار، وظهر باب عند نهاية الغرفة.

عبر هذا الباب رأى جون غرفة أخرى مليئة بأطفال آخرين. في البداية اكتفى جون بأن يراقب غير متأكد خائفًا. ثم بدأ يشعر بالحاجة للحركة عبر الباب. لا يوجد حاجب لذا دخل بسهولة إلى الجزء المجاور من المتاهة.

هنا كانت الأماكن أكثر اتساعًا والشاشات أكثر تعقيدًا، برغم أنها كانت تغنى نفس الأغاني ليلًا فإنها كانت تتكلم معهم في النهار.

كان الليل مظلمًا والنهار مشرقًا، وكان هذا أول ما تعلمه جون. وقبل أن يفهم الكلمات تعلم الكثير من الأشياء. هنا كانت آلات التغذية والتغيير مختلفة. أشكالها المعدنية كانت تشبهه على نطاق أكبر.. كانت لها أذرع وأرجل ورءوس وكانت تتحرك مثله. فقط لم تكن هذه الآليات تتعب أو تبدى عاطفة. وربما لهذا لم تكن لها وجوه.. فقط سطوح ملساء أمام الرءوس منها تخرج التعليمات والأوامر.

بدأ جون يفهم الأصوات سواء كانت من الشاشات أو ميكانيزمات السيرفو وبدأ يتعلم كيف يستجيب وكيف يجيب.

سرعان ما وجد جون نفسه يمارس الصبا بشكل عادي. كان يلعب بأشياء مضيئة. الألعاب التي تقيس قوته وتحسن انعكاساته الحركية وتناسقه وتعلمه مهارات التحكم. تكلم مع رفاقه الذين كانوا ذكورًا، كون أصدقاء وأعداء وتعلم العلاقات الاجتماعية من أخذ وعطاء، والمنافسة والاستقلالية. هذا جعل عنده حافزًا وأراد أن يتفوق ليتميز.

تكونت توجهات جون من الشاشات. وإذ تقدم في العمر، أدرك العالم الخارجي.. العالم الحقيقي خارج متاهة التعلم. العالم

الذي وجد قديمًا من دون متاهات من أي نوع، حيث عاش البشر حياتهم بعون محدود من أضعف ميكانيزمات السيرفو.

كان التاريخ أو (قصتهم) . كما يطلق عليه اليوم . يتعامل مع الطابع الخلاب لتلك الثقافة البدائية عندما كان الأبوان البيولوجيان مسئولين عن تعليم ذريتهما. تساعدهما مؤسسات بدائية.

تعاون الصراع العاطفي والجهل ليؤديا للنتيجة المحتومة: دخل العالم حروبًا لا نهاية لها حيث تم تدمير السكان وبيئتهم الطبيعية تقريبًا.

عندها فقط ظهر مفهوم متاهة التعلم.

في البداية كان مجرد وسيلة لدراسة سلوك الحيوان في المختبرات عتيقة الطراز، ثم صار أداة تجريبية لتكييف الأطفال نفسيًّا على عوالم جديدة. تمدد مبدأ متاهة التعلم كي يجلب التعقل والتحضر للبشر. واستطاعت ميكانيزمات السيرفو التي يسيطر عليها الكمبيوتر، أن تتخلص من أية أخطاء.

ولى تراث السادة والخدم عتيق الطراز الذي أدى للدمار. اليوم تلعب الآلات هذه الأدوار والإنسان صار حرًّا يتعلم كيف يعيش.

تعلم جون أن مشكلته الوحيدة هي تحاشي العقبات عبر الطريق. نعم كانت هناك عقبات في متاهة التعلم. برغم أن الأرض تحت قدمه كانت صلبة، فهي كانت قابلة للانهيار وقد رأى هذا يحدث.

لم يتعلم رفاقه جميعًا بذات السرعة. بعضهم لم يهتموا بالشاشات واستيعاب المعلومات. لكن ميكانيزمات السيرفو كانت تلاحظ هذا وتتصرف على أساسه.

كان التصرف بسيطًا ومباشرًا.. كان التركيز ينصب على طفل كسول أو غير ذكي، فتنطلق ذراع تحرك رافعة على جانب رأسه. هنا وبلا إنذار تنفتح الأرض تحت قدمي الطفل ويسقط في الظلام من تحته. أحيانًا كانت هناك صرخة لكن غالبًا كان هذا يتم بسرعة، ثم تعود الأرضية تنغلق كأن الفتحة والطفل الذي ابتلعته لم يوجدا قط.

لم يكتشف أحد ما يحدث لهؤلاء الذين اختفوا، ولم تعط الشاشات أي تفسير. ولم يبد رفاق جون أي شيء يوحي بأنهم لاحظوا أماكن السقوط، فقد كانت أماكن متوارية دومًا فلا توجد طريقة لتحاشيها. خمنوا كثيرًا لكن لم يعرف أحد يقينًا لذا كفوا عن التخمين. كان المهم أن يدركوا أن الخطر موجود ويمكن أن يواجه أيًّا منهم في أي وقت. سحب الرافعة كان عقاب عدم التعلم.. ألا تكون قادرا على التعلم.. أن تكون أكثر مرضا وضعفا من أن تتعلم.

لكن التعلم كان يجلب جوائز، فمن حين لآخر كان باب ينفتح ويقود لمنطقة جديدة. كان هناك جزء جديد من المتاهة مليء بأشياء مثيرة.

كانوا شغوفين بدخول هذا الجزء لكنهم كلما حاولوا كانت سدود غير مرئية تظهر أمامهم. كانت الأصوات تخبرهم أنهم غير متأهبين قبل أن يتعلموا أكثر. كل صبي كان يصر على العبور للغرفة الأخرى، كانت فجوة في الأرض تنفتح تحت قدميه.

ازدادوا قوة بينما الحاجز ازداد ضعفًا، وفي النهاية اخترقه واحد تلو الآخر.. هناك قابلوا الأنثى ومن هناك انتقلوا لقطاعات أخرى أكثر اتساعًا.

زميلة جون كانت تدعى (آفا).. وكانت مكلفة بإعداد الطعام الذي تتركه ميكانيزمات السيرفو. في البداية لم يكن مهتمًّا بالطعام جدًّا ومع الوقت بدأ اهتمامه يتزايد بسبل الراحة والطعام.

هنا أيضًا كانت هناك عقوبات ومكافآت.. الطعام كان يقدم لمن يرغب فعلًا في أن يتعلم، وكانت آفا مشغولة دومًا في واجبات الحياة لذا حرص هو على أن يظهر بانتظام أمام الشاشات في الوقت المناسب ليظهر أنه راغب في التعلم.

الآن صارت الصور متشعبة ومعقدة. كانت هناك صور تظهر بالغين يقومون بنشاطات مختلفة؛ منها مراقبة الشاشات، والبعض انهمك في استعراض القوة مع رفاقه، كي يظهر قوته أمام الإناث.

لم يمل جون آفا لكنه راح برغم هذا يدرس تقنيات المنافسة مع الفتية الآخرين. فقد أدرك أنه في العالم الحقيقي يحظى الرجال الأقوى والأكبر بأجمل النساء، وينالون حسد رفاقهم.

كلما تعلم أكثر كلما اهتم أكثر بأن يختبر قوته، وقد أثار ملله أن آفا غير مهتمة على الإطلاق بالعالم الخارجي ولا تفهم لماذا يرغب في مغادرته.

كان جون قد مل مراقبة الشاشة وكان قلقًا على مصير زملائه. كان قد رآهم يحرمون من الطعام لأنهم أهملوا واجباتهم اليومية. والبعض اختفوا تمامًا.

لم يبد أن هناك عقابًا للإناث.. ويبدو أن عدم اهتمامهن لم ينقص من قدرهن، لأن تربيتهن السابقة كانت مختلفة. لكن الذكور كانوا مطالبين باستكمال المعرفة، وكان جون مضطرًّا للتجاوب.

بالإضافة لهذا ظهرت فتحة جديدة في ركن الغرفة البعيد وقد وجد نفسه يرمق الفراغ الجديد في فضول. عرف دون أن يخبره أحد أن هذا هو العالم الحقيقي. العالم الذي تم تدريبه ليعيش فيه طيلة هذه السنين.

ما يوجد خلف الحاجز غير المرئي لم يكن مجرد غرفة بسيطة، بل سلسلة عملاقة من الممرات وكل منها ذات فتحة يمكن أن ترى ما يدور فيها بسرعة. وكان آخرون سواه يمشون في هذه الممرات ويدخلون أقسامًا مختلفة حسب إرادتهم، ويدخلون لأجزاء أخرى في المتاهة.

لم ير جون أية شاشات وكان هذا جيدًا. هنا يبدو أن الرجال يعيشون ولا يتعلمون. كانت هناك نساء يحملن كميات كبيرة من الطعام والثياب من مكان لآخر، ويبدو أن هناك مقايضة أو مبادلة.

لم يقدر جون على الانتظار حتى يلحق بهم. عندما اتجه للفتحة وجد أنه يعبر دون إعاقة وبلا تفكير ترك آفا خلفه. آفا ذات البطن المنتفخة والوجه عديم التعبير والكلام الغبي.

ما إن عبر الحاجز حتى نسى آفا تمامًا. هناك الكثير مما يراه والكثير مما يعمله. هذه الممرات تمتد بلا نهاية في كل اتجاه.. وهناك غرف كثيرة جدًّا.

كان قد اعتقد أنه لا توجد شاشات.. الحقيقة أنه كان مخطئًا.. لقد تزايد عددها. فقط لم يكن هناك تشابه في الصور التي تعرضها.

توقف عند باب غرفة فاستطاع أن يسمع بعض الأصوات تطالبه بالدخول، وتعده بمكافآت كثيرة، لكنه سمع المزيد من الأصوات تطالبه بأن يرحل فورًا وأن يجرب الغرف الأخرى.

كانت ميكانيزمات السيرفو هنا كذلك.. لكنها أقل اجتذابًا للملاحظة لأنها تشبه زملاء جون. كانت تتحرك بسلاسة وحركاتها طبيعية. كانت تتكلم بأصوات واثقة تدل على السلطة. وكانت تضع أقنعة تشبه اللحم وهذه الوجوه لها تعبيرات حية. قالوا له:

- « اتبعنى.. »

فانضم جون لمجموعة اقتادته عبر شبكة محيرة من الأماكن التي تذكرك بحلبة المصارعة. في مكان كهذا جمع أحد القادة كل من له وجه أشقر بينما جمع آخر كل من هم سمر. ومن شاشات الجدران دوت صيحات تأمر كلًّا من رجال المعسكرين بأن يدمر رجال المعسكر الآخر.

كانت الضوضاء لا تتوقف، والارتباك شنيعًا، ووقف القادة جانبًا يراقبون ما يحدث. وعندما كان واحد من الفتية يتخاذل كانت الأرض تنفتح من تحته لتبتلعه.

هنا فقط أدرك جون أن القادة ميكانيزمات سيرفو؛ لأن الأقنعة انزاحت إلى جانب، فرأى السطح المعدني عديم الملامح من تحته.

قاتل جون ليشق طريقه وسط الزحام وفر إلى ممر جانبي، فقط ليجد نفسه في منطقة أخرى حيث بدا أن النشاط الرئيس هو نزع أقراص معدنية مثبتة للجدران. كان هناك الكثير منها على الجدران، بينما الأصوات تتحدث عن روعة أن تجمعها في مكان واحد في كومة واحدة. كان الأمر يقتضي مهارة وبراعة ولم يكن هناك هدف سوى جمع هذه الأقراص. لهذا كانت مجموعة من الحسناوات يراقبن الموقف، ويتوددن لمن يملك أكبر عدد من الأقراص. ولاحظ جون أنهن لا يبقين طويلًا مع الجامع الواحد بل يتركنه لواحد آخر على الفور.

كان انتزاع الأقراص من الجدار عملية أليمة تجعل الأصابع تدمي. وكان بعض الجامعين يسرقون الأقراص من زملائهم.. الواقع أن الكمية الأعظم كانت تجمع بهذه الطريقة فقط: بالسرقة. لكن كان هناك شيء فريد، هو أن الذين يجمعون كانوا يغرقون في العمل، لدرجة أنهم لم يعودوا يلاحظون الفتيات الحسناوات ولا الطعام.. حتى النوم لم يبد مهمًا.

عندما كان العمل يهدأ بسبب الإرهاق، كانت ميكانيزمات السيرفو تظهر وتجذب الروافع. من ثم يختفي جامعو الأقراص وسارقوها، فلا تبقى منهم سوى ذكرى عن وجودها. وهذه الذكرى سرعان ما يمحوها المتصارعون الجدد.

كان هذان مكانين فقط من الأماكن التي اكتشفها في المتاهة.. كان هناك قسم للصراخ.. لا يمكنه التفكير فيه بشكل مختلف.. على كل واحد أن يسكت أصوات منافسيه وأن يحولهم إلى مستمعين.

حاول جون أن يصغى أولاً، لكن كلما سمع أكثر كلما زاد ارتباكه. الأصوات كان بعضها يطرى المصارعين والبعض ينتقدهم. البعض أطري مزايا جمع الأقراص والبعض لامهم. عندما فقد المستمعون اهتمامهم ظهر ميكانيزم سيرفو ليتخلص ممن فقدوا اهتمامهم.

في قطاع آخر وجد جون المستمعين يجتذبون الأتباع لكن بطريقة أكثر لطفًا. كانت الأصوات تتحدث عن أسرار متاهة التعلم.. وكانت هذه التعليمات غامضة تحتاج إلى من يفسرها. لكن كل متكلم كان لديه تفسير مختلف عن معنى المتاهة والغرض منها وكيف تمضى فيها. كان كل متكلم يشكك في كلمات الآخرين حتى على مستوى اللغة، وفي النهاية تحولت اللغة المهذبة إلى صراخ وتهديدات بعقاب لا نهاية له. وكان المتكلم يستعين بميكانيزم السيرفو لعقاب المتشككين. وكان جون متحمسًا في البداية ثم فقد اهتمامه عندما تحول الكلام الهادئ إلى صراخ، ولاحظ أنه في النهاية على الآلات لتمحو الجميع، سواء من كانوا يصدقون أو لا.. وفي النهاية لا يبقى في الغرفة أحد.

كانت هناك غرفة راح كل من فيها يقيسون.. عمليات قياس لا نهاية لها. كانوا قد كرسوا أنفسهم للقياس فراحوا يقيسون مساحة الغرفة وبحاولون قياس أنفسهم. وكان هؤلاء الملاحظون يشعرون بالتفوق عمن سواهم في المتاهة. وكانوا يؤكدون أنهم عن طريق القياس سوف يصلون إلى أن يصيروا سادة المتاهة. وما لم يكن قابلًا للقياس على أساس الحجم أو الكتلة أو السرعة كانوا يضعون نظريات بصدده. كان جدلهم لا

ينتهي لذا كانت النتيجة النهائية دومًا هي الغضب. وبرغم هذا كله لم يفكر أحدهم في أن يفارق الغرفة.

من جديد لم يقبل جون أن يندمج تمامًا في هذه النشاطات وراح يبحث عن أقسام أخرى. كانت هناك حلبة أخرى يتصارع فيها الشباب مع الكهول. وكلاهما يحاول في أنانية أن يسيطر.. لكن إذ تقدم الشباب في العمر، بدا أنهم يغيرون معسكر ولائهم وقد أربك هذا جون حتى أنه فضل الابتعاد.

في مكان آخر لم يعد الطعام والجنس مهمين. كانوا يجلسون بلا استجابة ولا يتحركون إلا عندما تصرخ الشاشات فيهم أو تتعاقب عليها الصور. من حين لآخر ينهض بعض هؤلاء ليقلدوا ما رأوه فيرسمون على القماش بعض الرسوم أو يعزفون على آلات تصدر نغمات كالعواء.

لكن ما كانوا يعرفونه ثم يبد ذا أهمية لمن لم يكونوا مخدرين مثلهم. وفي النهاية كانوا يتأملون وجوههم في مرايا صغيرة تشوه الملامح.. هنا كانت ميكانيزمات السيرفو تتحرك نحو الذين غابوا عن وعيهم أكثر من سواهم فيتم التخلص منهم بسهولة.

واصل جون رحلته. في النهاية وجد غرفة بدت أكثر جاذبية من سواها برغم أن الميكانزمات على الباب لم تطالبه بالدخول. ربما هذا هو ما جذبه. كما أن الميكانزمات لم تكن كما تعود؛ فعلى الرءوس كان هناك سطح عليه رمز.. وقد عرف هو ذلك الشكل اللولبي الذي تحته نقطة لأنه راه على الشاشات من قبل: علامة استفهام .

كانت الغرفة صامتة، بينما يجلس رجال على الأرض متربعين ينظرون لشاشات خاوية، يخرج منها أزيز عميق خافت. كان الصوت منومًا لكن الجالسين لم يبد أنهم مخدرون أو نائمون.. فقط يتأملون.

دخل جون الغرفة وقد أرهقه المشى وأرهقته المشاهدة. تلقائيًّا غاص ليجلس على الأرض في ذات الوضع وراح ينظر للشاشة، للحظة خيل له أنه يرى عبر الخواء شيئًا خلفه. أليس هذا صوتًا؟

راح يحاول جاهدًا أن يرى أو يسمع، لكن كلما حاول أكثر قل ما يتلقاه. هذا الجهد جعله يشعر بنفسه فقط.

استرخي وهنا بدأ يفهم.. عندما لا يبذل مجهودًا ليرى فإنه يرى.. عندما لا يبذل جهدًا ليسمع فإنه يسمع. فقط جاء الصوت والصورة من داخله.

للمرة الأولى فهم متاهة التعلم.. المتاهة المبرمجة بالكامل والتي يتم التحكم فيها بالكامل.. كانت استنساخًا لماضي البشر يكل نواحيه في شكل مادي. كانت هذه أنماط حياة البشر منذ زمن سحيق والتي أدت لدمارهم.

كل من اهتموا باللذة الحسية قد دمروا. كل من طلبوا القوة والذين اهتموا بالملكية، والذين حاربوا بعضهم بسبب الاختلاف في الشكل أو العقيدة قد كتب عليهم الفناء. الانهماك في جمع المعلومات أو البحث النظري كان من أسباب الدمار.

هدف المتاهة كان التركيز على الأسباب التي تؤدي لدمار البشر. كانت توضح الأشكال العديدة للوجود والانغماس في

سلوك واحد لأقصى حد. الإنسان يجرب الحياة ويمارسها ككل.. لكنه لا يمنح نفسه بالكامل لجزء منها.

بطريقتها في الثواب والعقاب، كانت المتاهة تستبعد عناصر معينة ممن يرغبون في الخروج للعالم الحقيقي.

حتى هذا التأمل نفسه قد يؤدي لدمار الذات. المعرفة مطلوبة لهدف فقط.. لاستعمالها في الحياة.

حان وقت مغادرة المتاهة وقد عرف جون الطريق.

عندما خرج من التأمل غادر الغرفة الهادئة، فلم يعد مترددًا. الطريقة كانت سهلة متى فهمتها. الغرف ليست سوى أماكن تسجن الغافلين، لكن ما يهم هو الممر ذاته. كل ما عليه هو أن يركز في تعرجاته.

لم يعد يريد التوقف أو المشاركة.. لم تعد الغرف تثير شغفه فقد رأى الكثير منها.

لقد تغلبت الغريزة ووجدت الطريق الصحيح له. ترك المتشابهات واتجه نحو الحقيقة. الآن أمامه رأى الفتحة والضوء من خلفها وليس الضوء الصناعي الخارج من الكهوف.. بل ضوء الحقيقة.

اندفع نحوه.. لا توجد عقبات.. لا شيء يعوق تقدمه.

تحرك ميكانيزم سيرفو أمامه لكن خطوات جون لم تبطئ. وأمره:

- « دعني أمر.. »

وقف الميكانيزم بلا حركة.. يبدو كأن ملامحه تتساءل بلا كلام.

شعر جون بالسؤال فأجاب عنه:

- « لماذا؟.. لأنني تعبت من هذه السلطة التي لا وجه لها والروتين عديم المعنى والتغيير العبثى. تعلمت كل ما بوسعكم تعليمي إياه، والآن أريد العالم الحقيقي.. »

قال الميكانيزم ينعومة:

- « لكنك عشت كل حياتك في العالم الحقيقي فعلاً.. حاول أن تفهم.. »

حاول جون لكن الوقت لم يتسع.

كان الميكانيزم بالفعل يجذب الرافعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- الجمال النائم

قال مورجان:

- « نيو أورليانز.. أرض الأحلام.. »

هز الساقي رأسه:

- « نعم.. هكذا تقول الأغنية.. »

- « أتذكر (كوني بوزويل) تغنيها في صباي.. قررت أن أزور هذه المدينة وأرى بنفسي.. لكن أريد معرفة أين هي.. »

- « هي؟.. »

غمغم مورجان:

- « أرض الأحلام.. خذ شارع (بيزن) على سبيل المثال.. مجرد طريق سكة حديد قذر. و(عربة اسمها الرغبة) مجرد حافلة[4].. »

أكد له الساقي:

- « كانت هناك عربة بالفعل.. ثم قاموا بإعادة تخطيط المدينة، وجعلوا كل الشوارع اتجاهًا واحدًا.. إنه التقدم يا ماك.. »

ابتلع مورجان شرابه وقال:

- « تقدم؟.. عندما جئت هنا اليوم زرت المتحف وميدان جاكسون وزقاق القراصنة وأنطوان.. لا شيء هنا سوى مصيدة للسياح.. »

قال الساقي:

- « انتظر لحظة.. ماذا عن كل البنايات العتيقة ذات الشرفات وما إلى هذا؟.. »

وافقه مورجان:

- « رأيتها.. لكنك تمشى هناك وماذا ترى عند الباب التالي؟.. غسالات كهربية!.. هذا ما تراه.. غسالات كهربية في الـ (فيو ماريه).. لقد قتلوا أمك الجنوبية العجوز ووضعوا مكانها غسالة كهربية. كل الجمال القديم قد تواري فلم يبق سوى متاجر العاديات في شارع (رويال)، وهو مليء بتحف مستوردة من بروكلين.. »

هز الساقي كتفه وقال:

- « لكن هناك دومًا شارع البوربون.. »

- « لقد زرت شارع بوربون الليلة.. هراء من النيون.. مجرد تقليد سخيف للسياح.. لا يوجد شيء واحد أصيل في هذا المكان كله..»

صب الساقي من الزجاجة دون أن يطلب منه وقال:

- « الآن أفهم.. ربما تبحث عن بعض الفعل.. أعرف مكانًا....... »

هز مورجان رأسه مقاطعًا:

- « أنا متأكد من أنك تعرف.. كل واحد يعرف مكانًا. وأنا متجه للشمال قبل أن أعبر (رامبارت) استوقفت ثلاث مرات.

كان كل سائقي التاكسي يريدون دفعي للذهاب لمكان ما، وما الذي كانوا يقدمونه لي؟... أماكن مكيفة!.. هذا كل شيء!.. المرء ينتظر نصف عمره ويدخر المال كي يقوم برحلة إلى هنا، فيتضح أن أرض الأحلام مكيفة الهواء!.. »

ووقف يضرب على مقعد البار:

- « سأقول لك سرًا.. لو أن (جون لافيت) كان هنا اليوم، لوجدته سائق تاكسى.. »[5]

وخرج من الحالة ليقف على الممشى بالخارج ينشق الهواء الرطب، والذي كان ضبابيًا، ضباب في الشارع وضباب في عقله.

كان يعرف مكانه.. هو شمالى رامبارت شرقي القنال وفندق جونج. برغم الضباب هو لم يضل طريقه.

فجأة تمنى لو كان قد ضل الطريق. كل المنازل مغلقة وهو في هذا الطريق الجانبي الملتوى حيث يندفع العشب بين الصخور التي تبلط الإفريز. لا سيارات ولا مارة. لولا مصابيح الشارع لحسب أنه في نيو أورليانز القديمة.. نيو أورليانز الحقيقية التي ترد في القصص والأغاني.

كانت يومًا هكذا، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فأغلقوا عالم القصص. وجاءت الحرب العالمية الثانية فتحول شارع بوربون إلى ملتقى لضيوف المؤتمرات.

السياح يحبونه بهذه الطريقة.. يشاركون في مواكب (ماردى جرا)[6] ويأكلون في مطعم أرنو ويجتمعون في سازيراك ثم يرجعون لبيوتهم سعداء.

لكن مورجان لم يكن سائحًا.. كان ذا ميول رومانسية وكان يبحث عن أرض الأحلام.

قال لنفسه: انس..

بدأ يمشي وحاول أن ينسى فلم يقدر. وازداد الضباب . بنوعيه . كثافة. من الضباب الداخلي خرجت مقاطع من أغان قديمة ورؤى من أساطير قديمة. من الضباب الخارجي تبدت جدران مقبرة سانت لويس.. سانت لويس رقم واحد كما يسميها الدليل السياحي.

لتذهب الأدلة السياحية للجحيم... هذا هو ما يريده مورجان.

نيو أورليانز الحقيقية خلف هذه الجدران. مدفونة في مجد قديم متحلل.

وجد البوابة ذات القضبان. كانت موصدة.. نظر عبر القضبان محملقًا في أشكال ضبابية. هذه هي الأشباح.. أشباح حقيقية.. يراها تقف صامتة بيضاء تشير له. يريدون من مورجان أن يلحق بهم. ينتمي لهم.. مع الرومانسيين الموتى..

- « مستر.. ماذا تفعله؟.. »

استدار مورجان عن البوابة، فرأى رجلاً صغير الحجم يحملق فيه. رجلاً أبيض الشعر تخرج من فمه رائحة حلوى غريبة.

قال مورجان لنفسه: هذا أحد الأشباح.. وهذه رائحة الفساد..

لكنه لم يكن سوى الكحول.. العجوز كان حقيقيًّا برغم أن وجهه وعينيه كانوا مليئين بالضباب.

كان يقول:

- « لا يمكنك الدخول يا مستر.. المكان مغلق ليلاً.. »

هز مورجان رأسه:

- « هل أنت الحارس؟.. »

- « لا.. كنت أمر فقط.. »

قال مورجان وهو يشير لما وراء البوابة:

- « كذلك أنا.. وهذا أول شيء في هذه المدينة الملعونة يبدو حقيقيًّا.. »

ابتسم العجوز من جديد، ففاحت رائحته السُّكرية المثيرة للغثيان وقال:

- « معك حق.. كل ما هو حقيقي قد مات.. هل لاحظت الملائكة؟.. »

- « حسبتها أشباحًا.. »

- « ربما هي كذلك. هناك الكثير من الأشياء هناك بالإضافة للتماثيل.. هل ترى القبور؟.. الكل مدفون فوق الأرض بسبب المستنقعات. من لم يجدوا قبرًا استأجروا كهفًا في جدار المقبرة. يمكنك أن تستأجر المكان بالشهر لو أردت، لكن لو لم تدفع يطردون جدك!.. ما لم يظفر به لصوص المقابر أولاً.. »

واهتز العجوز ضحكًا:

- « هل ترى هذه القضبان والسلاسل على الأبواب؟.. كان على الأثرياء أن يحموا أقاربهم من لصوص المقابر. يقال إن لصوص المقابر كانوا يبحثون عن المجوهرات، ويقول آخرون إنهم كانوا يريدون ممارسة الفودوو. »

تنهد مورجان وقال:

- « أحب سماع هذه القصص.. ما رأيك في أن نذهب لمكان كي نشرب شيئًا ونتكلم؟.. »

انحنى العجوز:

- « هذا شرف لي.. »

في ظروف أخرى كان مورجان سيجد الموقف مسليًا ومضحكًا لكنه بدا له معقولًا الآن. بدا من المعقول أن يقتاده الرجل عبر طرقات ملتوية خلال ضباب سميك. بدا من المعقول أن يقتاده إلى بار حقير به لهب واحد يشتعل في نافذته المغطاة بالستائر. وبدا من المعقول أن الرجل طلب الشراب لهما معًا دون أن يسأل مورجان عما يفضله.

كان الساقي بدينًا له وجه عديم التعبير البتة، وقد نظر مورجان للسائل المخضر العكر في الأكواب. بدا له كضباب مركز لكن له رائحة حلويات مميزة تثير الغثيان، وقد تذكرها فورًا.

قال العجوز:

- « هذا مشروب (الأبسنتي).. لا يسمح لهم بتقديمه هنا لكنهم يعرفونني.. » - ورفع الكأس - .. « في صحة الأيام

الخوالي.. »

كان للمشروب مذاق الربسوس والنار.

قال الغريب:

- « كان الجميع يعرفونني وقتها.. جئت للمدينة عام 1902 لم التقط لكنتهم قط، لكنني صرت جنوبيًّا محترفًا منذ وقتها.. »

وانفجر في الضحك حتى صار هذا سعالًا، فقال:

- « حلقى جاف.. »

أشار مورجان للساقي فامتلأت الكئوس بالسائل المخضر. ارتفع السائل وهبط مرارًا في الساعة التالية. وشعر مورجان بنفسه هو الآخر يعلو ويهبط.

لم يكن شعورًا مرعبًا بل بدا طبيعيًّا أن يجلس هنا مع رجل عجوز ينظر له بعينين من رخام.

قال العجوز:

- « ستوريفيل.. يمكن أن أحكى لك كل شيء عنها، فأنا كما قلت جنوبى محترف.. »

وسعل ثانية ثم تمالك نفسه وقال:

- « كانت عندي ست فتيات.. لا يمكن أن ينظرن لي اليوم، لكني كنت شابًّا وسيمًا.. كانت لدي عربتي والحوذي الزنجي وكل شيء.. وقد ظفرت بسائق عندما ظهرت السيارات.. ست فتيات.. ملهى فاخر.. مرايا في كل غرفة.. ساق يخدم 24 ساعة

يوميًا.. كان هناك من يأتون من بعيد حتى ممفيس ليروا الرسوم الزيتية على الجدران..»

غمغم مورجان:

- « لا أجهزة تكييف؟.. »

- « ماذا تعنى؟.. »

- « دعك من هذا وأكمل كلامك.. »

- « كنا نطلق على المكان اسم (القصر) وقد كان قصرًا.. كانت الفتيات ينزلن في ثياب المساء وقد عقصن شعرهن وعيونهن تلمع، كن يبدين كالملكات. وكنا نعامل نزلاءنا كالملوك. بدأت الأمور تتغير. وكنا نعامل زبائننا باحترام ونعطيهم وقتًا طيبًا.. لكن الجيش أغلق ستوريفيل.. واتجهت فرق الجاز للشمال وعمل الموسيقيون كمنظفى أحذية، وبعت لوحات الزيت. لكنني كنت محظوظًا عمن سواى. أغلقت كل (القصر) ما عدا غرفتي بالطابق العلوي. لم يعد هناك سواى والملكة الحمراء.. »

- « الملكة الحمراء؟.. »

- « قلت لك إني كنت محترفًا.. لم يتحطم كل القدامي من أمثالنا.. بقيت فتاة واحدة لكنها كانت مناسبة لكل من يريد أن يتذوق الأيام الخوالي.. هل تفهم؟.. »

شعر مورجان بحلقه يحترق من الشراب، وسأل:

- « تعنى أنك ما زلت في المهنة؟ وأن عندك فتاة من نفس الطراز الذي كان يعمل في ستوريفيل؟.. »

قال الرجل:

- « تلبس الثياب القديمة.. غرفتها تشبه غرفتها منذ خمسين عامًا.. أنا انتقائي فيمن أسمح له بالدخول، لكني وجدت فيك شيئًا عندما رأيتك أول مرة..... .. »

وقف مورجان وقال:

- « هلم.. »

وأخرج حافظته ووضع ورقة مالية على المنضدة وقال:

- « معي مال.. كنت أدخر لهذه الرحلة، ولكن كم يكلفني هذا؟..»

- « هي التي تحدد السعر أما أنا فاعتبر الأمر نوعًا من الهواية..»

خرجا في الليل وبدا لمورجان أن الضباب أكثر كثافة والشوارع أكثر ظلمة وأضيق، لماذا يقصد جهة مجهولة مع قواد ثمل؟

بدا البيت مثل أي بيت عتيق آخر في الضباب. فتح الرجل الباب ووقف في الظلام وسط الردهة ذات السقف الماهوجني العالى. غرفة العجوز كانت على اليمين وكان بابها مغلقًا بإحكام. ورمش مورجان بعينه إذ ضم مرافقه يديه أمام فمه وصاح:

- « معى صحبة!.. »

دوى صوته كالصدي لترتج منه الجدران. وشعر مورجان أن العجوز مجنون فعلًا.

من جديد صرخ العجوز:

. « صحبة!.. »

كان صوته غاضبًا وقد التوى وجهه غيظًا. وقال:

- « هذه المرأة اللعينة.. تقضى حياتها في النوم.. كانت تسبب لي مشاكل قبل هذا وحسبت أننى لقنتها درسًا لكن يبدو أن على تلقينها درسًا جديدًا.. »

- « صحبة!.. »

- « هاته!.. »

كان الصوت موسيقيًا عذبًا.. ما إن سمعه مورجان حتى قدر أنه لم يخطئ، عجوز مجنون.. بيت مجنون.. مهمة مجنونة.. لكن هذا الصوت لا شك فيه.

قال العجوز:

- « هيا.. أعلى الدرج على اليمين.. لن تحتاج لضوء.. »

ثم اتجه لغرفته بينما صعد مورجان في الدرج. عندما بلغ الباب عبث في المقبض وانتظر طويلًا محاولًا الدخول.

فجأة انفتح الباب ووجد نفسه في غرفة نوم كبيرة بها عشرون شمعدانًا يرحب به، وعشرون سجادة من قطيفة تعانق قدميه، ورائحة عطرية تداعب أنفه. كان هناك عشرون سريرًا ذا أعمدة في مركز الغرفة ولوحت له عشرون نزيلة. سقط الضوء على عشرين ملكة حمراء ذات شعر أحمر وشفتان حمراوان. هناك عشرون ذراعًا ممتدة نحوه.

تحرك عبر انعكاسات المرايا التي أظهرت ألف صورة له، وهو يبحث عن الملكة الحقيقية. سخرت منه لأنه ثمل ومدت يدها تمسك به، وكانت لمستها كالنار.

لابد أنه رحل عند الفجر ماشيًّا على أطراف أصابع قدميه. لا يذكر أنه قال لها الوداع أو أنه رأى العجوز ثانية ولا يذكر كيف عاد. لقد تركه (الأبسنتي) بصداع يشق رأسه ومذاق كريه في الفم. الآن يتحرك كإنسان آلي.

كان المكان الذي قصده يدعى (بار المحار). وكان ما يريده هو قهوة قوية. كان الضباب قد رحل من الشوارع لكنه ظل في جمجمته. ولم يعرف كيف عاد إلى المعالم المألوفة. مد يده لحافظته...

هنا وجد أن جيبه فارغ.

راح يفتش في كل مكان لكن الحافظة ضاعت.. بطاقة الهوية.. رخصة القيادة.. الثلاثمائة دولار..

لم يستطع تذكر ما حدث. لكنه يعرف أن (تقليبه) تم.. تم (تقليبه) على الطريقة القديمة على يد فتاة قديمة بدورها.

بشكل ما بدا هذا مضحكًا وشعر أنه استحق هذا. برغم ذلك لم يشعر بظرف الموقف ولا عدالته. لو تعلق الأمر بالعدل فإن ....

تخلى عن فكرة القهوة واتجه للشرطة. راح يحكي قصته لرقيب مناوب هناك، ثم حكى المزيد لملازم مهذب، وانتهى بأن حكى القصة كلها من جديد لمفتش في ثياب مدنية وهو يمشي معه في شارع رامبارت نحو الشرق.

لم يبد المفتش الذي يدعى (بلدن) مهذبًا على الإطلاق.

اعترف مورجان بأنه ظل يشرب الخمر طيلة الليل، ووجد البار الذي كان فيه أمس، لكن الساقي لم يكن في الخدمة وأعطاه الساقي الموجود رقم هاتف زميله. كلمه المفتش فتذكر هذا أنه قابل مورجان فعلًا.

قال بيلدن الذي يفتقر للتهذيب:

- « يقول إنك كنت ثملاً كظربان... وإلى أين ذهبت بعد هذا؟.. »

- « مقبرة سانت لويس.. »

لكنه لم يعرف الطريق، وقد اقتاده المفتش إلى هناك.

- « ثم ماذا؟.. »

- « قابلت ذلك العجوز.. .. »

لكن عندما طلب المفتش وصفًا دقيقًا لم يستطع مورجان أن يقدمه له. أراد بيلدن أن يعرف اسم العجوز وإلى أين ذهبا ولماذا. حاول مورجان أن يفسر لكن المفتش لم يبد مهتمًا وقال له:

- « خذني إلى الحانة.. »

حاول مورجان الوصول إلى الحانة فلم يستطع.. في النهاية اضطر أن يعترف:

- « لا أعرف.. لكنى كنت هناك... .. »

- « ليكن.. إذن خذني للبيت.. »

لمدة ساعة راح مورجان يقطع الشارع جيئة وذهابًا لكن كل البيوت بدت متماثلة.. لم يستطع تذكر البيت. في الضوء كان كل شيء مختلفًا عما كان ليلاً. لا يوجد شيء مثير في هذه المباني العتيقة المملة.. لا شيء يوحي بحلم أو جمال نائم.

أدرك مورجان أن المفتش لا يصدق حرفًا. هو نفسه لا يصدق ذكريات تلك الليلة عن ستوريفيل والبيت ذي المرايا والغرفة الحمراء.. إلخ.. ربما كان للخمر دور.. لربما لفق الجزء الخاص بالعجوز. لقد أغشى عليه أمام المقبرة وجاء من سرق حافظته. هذا معقول... معقول أكثر من تصور رحلة لعالم الأحلام.

هذه النظرية ناسبت المفتش كذلك لأنه راح يؤكدها أثناء العودة. كان مورجان يهز رأسه موافقًا وفجأة التفت للرجل وقال:

- « بل هذه هي الحانة!.. أنا متأكد من أنها هي!.. »

بالفعل كانت هي، وقد تذكر الرجل الذي كان يخدم عليه. وعرفه الرجل بالفعل وقال الرجل:

- « نعم.. كان هنا أمس.. جاء مع العجوز.. جاء مع (لوى).. »

أخرج المفتش مفكرته:

- « لوى من؟.. ما اسمه الكامل؟.. »

قال الساقى:

- « لا أستطيع أن أقول لك.. هو مجرد رجل عجوز يعيش في الجوار. غير مؤذ.. لكن......... .. »

ثم حرك يده جوار جبهته.

سأله بيلدن:

- « هل تعرف أين يقطن؟.. »

من الغريب أن الساقي ذكر عنوانًا فدونه بيلدن على الفور. وقال لمورجان:

- « يبدو أن قصتك كانت حقيقية برغم كل شيء.. تخيل أن الفتى العجوز لديه بيت بهذه المواصفات، وهو يديره تحت أنوفنا وهو في هذه السن وفي هذا العصر؟.. هذه قصة جديرة بأن تدون.. »

ومشيا نحو بناية في شارع يبعد مربعين سكنيين. مسافة قريبة جدًّا لشدة الدهشة.

لم يميز مورجان المكان جيدًا عندما وقف أمامه بينما دق بيلدن الجرس.

لوقت طويل لم يرد أحد، ثم انفتح الباب فتحة ضيقة ورأي مورجان وجه العجوز وعينيه ترمشان فيهما.

- « من أنتما؟.. وماذا تريدان؟.. »

أخبره بيلدن بما يريد، ففتح العجوز الباب أوسع وحدق في مورجان.

قال مورجان:

- « مرحبًا.. لقد عدت.. يبدو أنني أضعت حافظتي.. »

لقد قرر ألا يوجه اتهامات فالرجل العجوز في مشاكل تكفيه.

قال العجوز:

- « عدت؟.. ماذا تعنى؟.. أنا لم أرك في حياتي.. لم يكن هنا أحد أمس.. ما من أحد جاء هنا مثل منذ أربعين عامًا.. أنا وحيد.. »

سأله بيلدن وهو يخطو:

- « ربما سمحت لنا بإلقاء نظرة.. »

تساءل مورجان إن كان العجوز سيحاول منعه ويطلب إذن تفتيش، لكن الرجل ضحك وفتح الباب على مصراعيه وقال وهو يسعل:

- « مرحبًا بكما في (القصر)... معذرة فحلقى جاف.. »

- « لم يكن كذلك أمس ونحن نشرب معًا.. »

- « لا تصغ له يا سيد.. أنا لم أره من قبل.. »

مشيا إلى الردهة فعرفها مورجان.. أمكنه أن يرى الغبار على الأرض. بدأ بيلدن البحث فلم يستغرق وقتًا طويلًا.. لم تكن هناك أماكن كثيرة للبحث. غرفة العجوز لم تحو سوى مقعد وفراش نحاسي ومكتب مهشم. لا توجد خزانة. فلم يجد المفتش سوى دولار و 14 سنتًا.

غمغم العجوز:

- « هل رأيت؟.. ليست لدى حافظة.. أنا نظيف.. اسأل عنى في المحطة واسأل كابتن ليروكس.. »

قال بيلدن:

- « لا أعرف أي كابتن ليروكس.. أين نحن؟.. »

- « ستوريفيل طبعًا.. »

- « ستوريفيل مغلق منذ 45 عامًا.. أين تظن نفسك؟.. »

- « مكاني.. القصر.. أنا رجل محترف.. ثم جاءت المشاكل ولم تعد لدى سوى ملكة حمراء.. تنام كثيرًا جدًّا ولكن بوسعى معالجة هذا.. »

استدار المفتش لمورجان وكرر حركة الجنون التي أبداها الساقي، لكن مورجان صاح:

- « طبعًا الحافظة بالطابق العلوي.. هي أخذتها.. تعال معي.. »

وضع العجوز يده على كتف مورجان وقال:

- « لا تصعد يا سيد.. كنت أخدعك فقط.. لقد ذهبت هذا الصباح وأقسم على هذا.. لابد أنها سرقتك ليلاً.. هذه من حيلها القديمة لكنك لن تجدها.. »

قال بيلدن وهو يثب الدرج:

- « سوف نرى بأنفسنا.. »

وتبعه مورجان.. فتعالى الغبار من الدرجات وراح مورجان يسعل. ثم سمع بيلدن يدق على الباب بالطابق العلوي، وسأل

لاهثًا:

- « متأكد من أن هذا هو المكان؟.. »

هز مورجان رأسه موافقًا.

- « مستحيل.. هذا الباب ليس مغلقًا.. إنه مختوم.. مختوم بإحكام.. »

لم يجب مورجان. راح رأسه ينبض ومعدته تتقلص. لكنه كان يعرف ما يجب عمله، اندفع نحو الباب بكتفه ليحطمه.

تهاوى الخشب العتيق ثم تطاير حول حلق الباب، وانفتح الباب.

هب الغبار من الداخل وملأ رئتي مورجان وأعماه. سعل وشرق لكنه تقدم داخل الغرفة.

لقد اختفى العشرون شمعدانًا.. وكذا العشرون سجادة والعشرون سريرًا.. وهذا لأن المرايا كانت محطمة. لم يعد هناك سوى شيء واحد من كل شيء.. شمعدان يكسوه خيط العنكبوت وسجادة ممزقة وعلبة حلى مفتوحة تفوح منها رائحة العطر القديم.. وهناك فراش ذو أعمدة محطم.

والفراش كانت فيه واحدة فقط.. هي نائمة بينما العجوز يبكي وهو ينظر من فوق كتف مورجان، نائمة دومًا ولربما اضطر لإصلاح هذا كما فعل من قبل.

رأى مورجان أنها ما زالت تلبس الثياب الحمراء لكن عدا هذا ما كان ليعرفها. الهياكل العظمية تبدو مثل بعضها.

قال بيلدن:

- « أية دعابة هذه بحق الجحيم؟.. »

لم يستطع العجوز أن يجيب؛ لأنه كان يبكي بصوت عال.. يتكلم عن الملكة الحمراء والأيام الخوالي.. لم يعد قادرًا على جعلها تصحو إلا في الليل عندما تكون هناك (صحبة)..

لم يستطع مورجان التفسير كذلك.. لم يستطع أن يقول شيئًا عن أرض الأحلام أو أرض الكوابيس.

كل ما استطاع عمله هو الدنو من الفراش.. رفع الجمجمة المتحللة عن الوسادة.. ومن تحت الرأس أخرج حافظته الجلدية اللامعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- رحلة على عصا المكنسة

كان منتصف الليل قد دنا، عندما اجتمعوا عند فوهة البركان. رفع الليل رأسه عبر السهول الوعرة وفتح القمران التوءمان عيونهما الخضر لتحدق في أعماق الفوهة.

كانت الحفرة عميقة مظلمة.. فوربس يقف على الحافة مع زملائه وقد امتلأ رأسه بكلمات تبدأ بحرف الميم مثل (مؤلم).. (مظلم).. (موحل).. (مميت).. (ملعون).. دعك من (شيطانى)..

خلفه في الظلام وقف الفنيون الثلاث يتفقدون وحدات التسجيل. الرؤية والتنصت كانا يغطيان 360 درجة على مساحة نصف ميل بتردد 20-20000. كانت هناك عشرون عدسة تمسح الفوهة.

همس فوربس:

- « هل وجدتم أي شيء بعد؟.. »

قال الفني:

- « ليس بعد.. لكن لو حدث شيء.. .. »

كانت نبرة صوته توحي بأنه لا يتوقع حدوث شيء، لم يفهموا بعد هذا الذي يقومون به في منتصف الليل. يقومون بتشغيل ميكروفوناتهم الحساسة لتسجيل الصمت. لم يستطع فوربس أن يلومهم. المفترض أن هذه مجرد رحلة روتينية.

أمرهم القائد:

- « سوف تتفقدون (بايريس).. رسامو الخرائط قاموا بعمل معه، و(دويل) سوف يعطيكم التفاصيل. المناخ شبيه بمناخ الأرض وهذا كوكب من الطبقة الأولى.. هناك تشابه في اللغة.. نحتاج إلى تسجيلات صوتية وسمعية وتحليل عناصر. نحتاج لمسح أولى بحثًا عن احتمالات معادن تستحق التعدين. هذا مجرد فحص روتينى.. »

لم يضف دويل أكثر:

- « خارج الفوهات سوف تحسبون أنكم على الأرض.. منذ ألف دورة طبعًا.. السكان الأصليون يلبسون الثياب ولديهم حكومة بدائية ونظام أديان يعتمد على الطوطم والتابو. سوف تتعلمون اللغة أثناء نومكم.. »

كان دويل قد تعلم هذه اللغة أثناء النوم.. وأثار دهشته أن هذه اللغة ليست الإنجليزية لكنها تشبهها جدًّا. وهناك إشارات قديمة لدرجة أنه قضى الأسبوع السابق للسفر يراجع ملفات المعلومات.

المقارنة بين الحياة على بايرس والحياة على الأرض في عصر ما بعد الحروب، بدت واضحة بعد هبوط فوربس. كان قد أرسل رسالة رسمية لكال (الحاكم) وطلب الإذن أن يزور الكوكب. تم تبادل الهدايا ثم أخذ فوربس طاقمه الفنى إلى الصحراء لدراسة الحياة في القرى. وبقيت مجموعة صغيرة في السفينة التي هبطت قرب قلعة كال.

لمدة ثلاثة أيام قام فوربس ورجاله بتسجيل الحياة في المناجم والكهوف الخفية حيث يتم زراعة كل طعام الكوكب.

أجرى محاورات مع الفلاحين.. هكذا كان سيطلق عليهم بلغة الأرض العتيقة.

تذكر المعتقدات الغريبة التي يؤمن بها العاملون في بايريس. كانوا يخافون أن يحفروا كهوفًا معينة وكانوا يهمسون بأشياء لا معنى لها بالنسبة للرجال في طاقم فوربس. كان قد درس الماضي العتيق على الأرض وقرأ شكسبير وسواه. ووجد بعض النقاط المتشابهة، مما جعله يختار ما بدا له المكان المناسب في الوقت المناسب.

هكذا جلس القرفصاء وانتظر ما سوف يظهر من الأرض البور.

وجاء الشيء.

التقطته السماعات أولًا.. خافتًا بعيدًا. كان هناك صوت اندفاع المادة وفوقه الأصوات الحادة التي تمزق الصمت.

بدأ أحد الفنيين - ويدعى كالت - يغمغم:

- « اللعنة!.. ثمة أصوات.. أصوات في الجو.. »

ثم جاءت الصورة.

بدأت الكاميرات تصوب على الهدف وتضبط بؤرتها. وراحت تسلط الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء لتصور ما لا تراه العين البشرية. ثم صارت النقاط البعيدة في مجال الرؤية.

همس كالت لرفاقه:

- « هناك بيرانيون[7] في السماء.. وماذا يركبون عليه؟.. »

كان بوسع فوربس أن يخبره.. كان بوسعه أن يخبره بمن يأتون في منتصف الليل وماذا يركبون، لكنه فضل الصمت حتى لا يضايقهم.

منذ شهر لم يكن يعرف.. لكنه أجرى مسحًا فيلميًّا ومنذ ذلك الحين عرف موضوع الساحرات.

كانوا يمتطون عصى المكانس في يوم السبت (الساباث) ويهبطون من السماء.. ساحرات وسادة حرب وسحرة.. جاءوا لاجتماعهم السحري ليعبدوا الشيطان.. سيد القطيع الأسود.

بالطبع كانت هذه خرافة عتيقة وأرضية كذلك. لا أساس لها في الواقع.

لكنه يراه الآن.

كانت عصى المكانس.. تلك القضبان الطويلة.. هل كانت عصى مكانس فعلًا؟.. حلقت في السماء ثم هبطت في الفوهة. هل كان هؤلاء الركاب المشعثون ساحرات فعلًا؟.. كن يصدرن أصواتًا كالدجاج وأصواتهن تتردد من الفوهة.

توهجت النار من تحت وتصاعد لهب أزرق، بينما الشمطاوات ينشرن الغبار على المحارق. كانت جلودهن المدهونة بالزيت تلتمع عبر الدخان.

غمغم كالت ثانية :

- « اللعنة.. »

فقد كان فنيًّا معاصرًا. وقدر فوربس أن الرجل لا يعرف معنى هذه الكلمة.. كان مجرد مصطلح شائع. في الماضي كانت مجرد

سبة، أما قبل ذلك بأعوام عديدة فقد كانت تعبر عن حقيقة.. كان هناك أناس ملعونون باعوا أرواحهم للشيطان وكان الملاعين يرقصون حول النار ويغنون.

وهم يرقصون الآن..

عرف فوربس هذا الطقس.. تذكر الدهان على الأجساد العارية.. إنه مزيج من البلادونا والأكونيت وعقارات أخرى منسية. عرف كذلك الأغاني التي يغنونها. بالطبع لا يعبدون الشيطان، وبوسعه فيما بعد أن يدرس الملفات الصوتية بعناية، لكنه الآن يلتقط كلمة تشبه كلمة (ساير sire).

فيما عدا هذا كان كل شيء مألوفًا.. بشكل مخيف. عندما خرج الشيء من الظلال وهو يلبس قلنسوة عليها قرنان، تذكر فوربس سيد السابات الذي كان يلبس عباءة الجدى أو قرني الوعل الأسود. هنا يدعى الحيوان (كورت) وهو الحيوان الوحيد الذي يمشي على أربع في (بايريس).

كان سيد السابات هذا يقود الإنشاد الآن. وقد جلبوا له (كورت) فجرد سكينًا واستصفى دمه، ثم شرب الجميع منه وتعالى الدخان مع عواء الأصوات..

ظهر (التيمرار).. لقد عرف فوربس جنود (كال) هؤلاء وهم ينهضون على حافة الفوهة. عرف دروعهم ورماحهم وسيوفهم..

كانوا يطلقون سهامهم عبر الدخان.. وتسلق رجال كال جوانب الفوهة، بينما ولولت العجائز.

هنا جاءت صرخة أخرى من الخلف.

استدار فوربس لكنه تأخر، فقد كان هناك حشد آخر من (التيمرار) يزحفون في الظلام ليحيطوا بطاقمه. وانهالوا بسيوفهم ليس على الرجال لكن على المعدات والآلات.. وسرعان ما تحولت أجهزة التسجيل لحطام.

وقف القائد فارع القامة الذي تشبه لحيته الرمح أمام فوربس ووضع يده على قلبه محييًا، وغمغم:

- « عليك أن تتبعني.. تلك رغبة (كال).. »

سمع فوربس (كالت) يحتج فقاطعه. تذكر أنه ضيف ثقافة غريبة وبدائية. لقد دمرت التسجيلات ومن الممكن أن يدمر هو نفسه كما ستدمر الساحرات..

ألم تكن هناك في التوراة القديمة كلمات تقول:

« لا تدع ساحرة تعيش.. ؟ »

من الغريب أن هذا التشابه قائم.

وقد وجد المزيد من التشابهات بينما هم يقتادونه ورجاله على ظهور (الكورت)، عبر السهل المظلم. كان بوسعه أن يغمض عينيه ويتخيل أنه نقل عبر الزمان والمكان إلى الأرض. موكب الفرسان المدرعين العائدين للقلعة.. عالم آخر.. عالم من الغزاة والعوام.. من العظمة والسحر..

شعر بسخرية مريرة.. ضربة بسيطة بسيف بدائي قد قضت على أذكي آلات ابتكرها عقل الإنسان.

ربما قد تعامل بخفة مع كال.. بالتأكيد قوم هذا الكوكب يخافون حاكمهم. يعبدونه كإله وقد منحوه ولاءهم وضرائبهم

وبناتهم. إذن لابد أن المدعو (ساير) هذا أقرب للشيطان. لابد أنه الخصم السياسي الأول لكال.. ولهذا يطارد الجنود الساحرات.

الآن وصلوا للوادي الذي تقع فيه قلعة كال. القلعة العظيمة كانت شامخة بين جدران من الصخر وقد ارتسم سلويتها على السماء. وشق الموكب طريقه عبر شوارع ضيقة نحو القلعة ذاتها.

وفي إحدى قاعات الانتظار المنحوتة من حجر وجد فوربس (سيدونس) الملاح الفضائي، وباقي أعضاء الطاقم.

قال سيدونس:

- « جاءوا لنا منذ ساعة.. لم يرغمونا على الدخول، لكنهم طلبوا فلم نقاوم. هناك حراس حول سفينة الفضاء لكن لم يحاول أحدهم الدخول أو يفكر في ذلك.. وهذا شيء لا أفهمه.. »

تظاهر فوربس بالثقة:

- « سوف نفهم كل شيء متى قابلت كال.. »

هنا ظهر المحارب فارع القامة وقال:

- « الكال سوف يراك.. »

واقتاد فوربس وحده وأشار للآخرين كى يبقوا حيث هم.

مشى فوربس وراءه عبر ممر طويل ثم توقف إذ أشار له إلى باب صغير.

فتح فوربس الباب وخطا للداخل ليواجه كال.

كان الرجل البدين صغير الحجم يجلس خلف منضدة عملاقة. وكان يمسك بشيء فضى، وضعه بين ثنايا كمه ثم هز رأسه في وجوم لفوربس.

- « جئت بكم هنا لحمايتكم.. فحياتكم في خطر داهم.. »

- « من أي شيء؟.. »

- « من الرالي.. أو كما تسمونهم (الساحرات).. »

- « ولماذا يؤذوننا؟.. »

- « لأنكم تتهددون طريقتهم في الحياة.. وما لم ترحلوا سوف يدمرونكم. كانت طقوسهم الليلة تهدف لاستدعاء (ساير).. الشيطان..»

ابتسم فوربس وقال:

- « لكن هذه خرافات.. لا يمكنهم أن يؤذونا بتعاويذ.. طبعًا أنت لا تصدق أن الرالي يمكنها أن تؤذي إنسانًا بغرس إبر في تمثاله أو إذابته في النار.. »

كان صوت الكال كوجهه شديد الغموض:

- « ليس السؤال هو ما أعتقده.. السؤال هو ما يعتقده قومي.. أليس صحيحًا أنه وجد قوم يؤمنون بالسحر على الأرض يومًا ما؟..»

قال فوربس في تردد:

- « حقًّا.. لكن كيف لك أن تعرف؟.. »

- « لأن الرالي لديهن أسطورة.. وهذه الأسطورة تقول إن سكان كوكبنا جاءوا أصلاً من الأرض. .. »

- « أرضنا؟.. »

- « بالضبط.. ألم تلحظ تشابه اللغتين وتشابه نظام الحكم مع أيامكم القديمة؟.. أليست عبادة الرالي لساير شبيهة بعبادة الساحرات للشيطان عندكم؟.. أنا لست البربري الجاهل الذي تحسبه.. أنا أبدو كذلك باختياري.

« القصة تقول إنه منذ زمن سحيق كانت الساحرات يعدمن ويشنقن ويمزقن لأنهن يؤمنن بالشيطان. كانت هناك مجموعة مهددة بالانقراض على كوكبكم وقد طلبت من الشيطان أن ينقذها. حقق مطلبهم.. هكذا ركبن مقشاتهن وجئن هنا إلى (بايريس).. »

قال فوربس:

- « الأساطير ممتعة دومًا.. إنها تقدم حلولاً. لكن لدى أسطورة أخرى.. منذ زمن على كوكبي كان العلم يعامل كالسحر وكان العلماء قابلين للإعدام مثلهم مثل الساحرات. الآن تخيل أن رجلًا استطاع أن يصل لقوانين الذرة والسفر في الفضاء، من ثم حاول تجنب العداء ضده، وبنى سفينة فضاء جاء بها هنا. ثم جاء أحفاده فاختلقوا هذه الأسطورة ليسيطروا على الناس.. »

هز كال كتفيه:

. « هل تجد هذه النظرية أكثر جاذبية من نظرية السحر؟..
»

- « على الأقل هي منطقية.. اعتقد أن الرالي يفهمونها.. رأيتهن يركبن مقشات لاجتماع الليلة وإنني أعتقد أن هذه المكانس فيها محركات.. »

قال الكال:

- « أرى أنه لا أسرار مع العقول العلمية، لكنني أطلب منك الرحيل لمصلحتك.. الرالي يخفنكم وربما يتخذن إجراءات درامية..»

هز فوربس رأسه:

- « يمكننا الرحيل حالاً لو أطلقت سراحنا.. »

- « سوف نرافقكم للسفينة.. لكن هل من شيء تريدونه أو خدمة تبغونها؟.. »

- « لا.. شكرًا.. فقط أنا آسف.. أسف لأن هناك عالمًا يعيش في هذه الحالة البدائية المتوحشة.. ما زالت الخرافة وما زال الجهل يحكمان الناس.. »

تحس الكال لحيته وقال:

- « افترض أن العلم لا يتعارض مع السحر، وأن الشيطان أو ساير لهما وجود. افترض أنه على العلم أن يخضع للسحر وإلا تم تدمير كل شيء.. »

ابتسم فوربس وقال:

- « تعرف أن هذا هراء.. لا أستطيع أن أقبل هذا.. »

- « برغم هذا سترحل وتتركنا لهذا التخلف؟.. »

- « ليس لدى الخيار.. »

هز الكال رأسه وقال:

- « ليكن.. »

اتجه فوربس للباب بينما تكلم الكال مع التيرمار وطلب حراسة الطاقم حتى يبلغوا سفينتهم.

انغلق الباب وصار الكال وحده في الغرفة. نظر للهب في المجمرة ثم أخرج الجسم المتألق من كمه من جديد. راح يقلبه بين يديه ثم تفحصه.

بعد فترة انفتح الباب ودخل واحد من رجال بايريس وهو يلبس قلنسوة عليها قرنا الكورت.

سأله كال:

- « هل رحلوا؟.. »

- « عادوا للسفينة وسوف يرحلون حالاً.. »

قال الكال:

- « آسف عما حدث الليلة.. أرجو ألا يكون التيمرار قد آذوا أحدًا لكن كان عليهم أن يبدوا مقنعين. لو شكت الأرض في أن الحكومة والرالي يعملان معًا فلسوف يعودون، أعتقد أننا خدعناهم.. »

ظل ذو القلنسوة واقفًا كأنه يصغى ثم غمغم:

- « أشعر بهم الآن.. يمكن أن أشعر بالمدعو فوربس على السفينة. هو يفكر في تقريره. سوف يطلب حملة أخرى تأتي هنا.

يريد أن يجلب حكومة من كوكبه تعمر بايريس. لقد فشلت خطتك.. »

نهض الكال:

- « أنا آسف... حاولت أن أنقذهم.. لقد كنت صادقًا معهم بصدد طريقة وصولنا لبايريس وقوة السحر. لكنه لم يصدق.. فضل أن يفكر في الأمر كأنه علم يتنكر في شكل أسطورة.. »

قال ذو القلنسوة:

- « إذن ينتهى الأمر بطريقتي أنا.. نحن نعمل معًا.. الرالي والتيمرار في نفس الفريق، برغم أن الناس لا يعرفون. نحن نبقى هذا الكوكب في حالة جهل ونبعدهم عن التحضر والعلم. لأنه إذا ظهر العلم فلسوف تتوقف عبادة الشيطان. بينما نحن قدمنا العهد له بأن نعبده للأبد. إذن لن نسمح لفوربس هذا بالعودة ليحضر علمه الملعون. يجب أن نقوم بالأمر بطريقتي.. »

ناوله كال الجسم الفضي وهمس:

- « هل حان الوقت؟.. »

هز المقنع رأسه وقال:

- « السفينة أقلعت.. أشعر بها الآن.. آلاف الأميال.. »

وانحنى على المجمرة واللهب يتعالى. ثم قذف بالجسم وسط اللهب. تعالت الألسنة بسرعة. وخلال لحظة ذاب الشيء.

همس كال:

- « ماذا سيحدث الآن؟.. »

- « عشرة آلاف ميل في الفضاء.. الآن.. »

وعلى ارتفاع عشرة آلاف ميل من بايريس انفجرت السفينة وذابت لتصير لا شيء.

وعلى الكوكب غمغم كال في حزن:

- « كان علينا أن نفعل ذلك.. أليس كذلك؟.. كان علينا أن ننقذ كوكبنا من العلم؛ لأن العلماء لا يؤمنون بقوة الشر.. لا يعتقدون أن بوسعك القتل بغرس الإبر في صورة، أو حرق تمثال في نار مشتعلة.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- مستر شتاينواى

عندما رأيت ليو أول مرة حسبته ميتًا.

كان شعره أسود جدًّا وبشرته شاحبة جدًّا، ويداه بيضاوين جدًّا.. لم أر هذا الشحوب قط في شخص حي. كانت يداه على صدره تحجبان تنفسه.. وكان هناك شيء منفر فيه. كان نحيلًا ساكنًا وهناك خواء في وجهه. كأنه قناع الموت الذي صنعوه متأخرًا جدًّا بعد ما تلاشت آخر بقايا شخصيته الحية. نظرت لليو وهززت كتفى ثم بدأت أبتعد.

هنا فتح عينيه فوقعت في حبه.

جلس وأنزل قدميه من على الأريكة العملاقة، وضحك لي ونهض. أعتقد أنه فعل هذا. كل ما لاحظته هو لون عينيه البنيتين والذي وجد مكانًا ما في قلبي.

أعرف كيف يبدو لك الأمر.. لكني لست تلميذة وليست لدى مذكرات، وقد مرت أعوام منذ كنت مجنونة بحب أحدهم. كنت متأكدة من نضج عواطفي لبعض الوقت.

لكنه فتح عينيه فوقعت في غرامه من اللحظة الأولى.

كان هاري يقدمنا لبعضنا الآن..

- « دوروثي إندكوت.. سمعتك تعزف في دترويت الأسبوع الماضي وأرادت لقاءك.. دوروثى.. هذا هو ليو ونستون.. »

كان فارع الطول وقد أحنى رأسه دون أن يبعد عينيه لحظة. لا أعرف إن كان قد قال (تشرفنا) أو (مسرور).. لا يهم.. كان

ينظر لي.

فعلت كل شيء بالطريقة الخطأ.. احمر وجهي.. قهقهت قلت إننى أحترم عزفه ثم كررت ما قلت.

لكني فعلت شيئًا واحدًا صحيحًا.. ظللت أبادله النظرات بينما هاري يشرح كيف مررنا ولم نرد مضايقته، لكن الباب كان مفتوحًا فدخلنا، وكان يريد أن يخبر ليو كذلك بأن مبيعات التذاكر لحفل الغد ممتازة وعليه أن يعد الأخبار التي ستنشر في صحف الغد.. إلخ..

- « لا داعي للاستعجال.. ما رأيك يا مس إندكوت؟.. »

بالفعل كنت أرى أنه لا داعي للاستعجال. هكذا رحل هارى كالسامرى الصالح، بينما بقيت أنا مع ليو نتكلم.

لا أعرف فيما تكلمنا.. في القصص فقط يتذكر الناس المحادثات الطويلة (بالحرف).. كذلك في القصص فقط يسيطر الناس على قواعد اللغة.

لكني عرفت أن اسمه كان (ليو فاينشتاين) قديمًا، وكان في الواحدة والثلاثين.. غير متزوج.. يحب القطط السيامية وكسر رجله ذات مرة.. يحب فطائر مانهاتن التي تطهى بالفيرموث.

حكيت له كل شيء عن نفسي ثم سألني عما إذا كنت أرغب في لقاء مستر (شتاينواى).

بالطبع قلت نعم.. هكذا دخلنا إلى الغرفة الأخرى التي تقع وراء الباب المنزلق. هناك جلس مستر شتاينواى أسود اللون يلمع بدرجة رائعة مكشّرا عن أسنانه الثمانية والثمانين.

- « هل ترغبين في أن تسمعى مستر شتاينواى يعزف لك شيئًا؟.. »

هززت رأسي وشعرت بما يفوق تأثير كأسين من المانهاتن. لم أشعر بهذا منذ كنت في الثالثة عشرة واقعة في حب بيل برنتيس.

جلس ليو على المقعد وربت على مستر شتاينواى بنفس الطريقة التي أربت بها على قطى السيامي (أنجور). عزف لي مقطوعة (أباشيوناتا) ومقطوعة غريبة لبروكفييف. اعتقد أن ليو أراد استعراض براعته، ولربما هي فكرة مستر شتاينواى. لكني أحببت هذا كله.

قال ليو:

- « أنا سعيد لأنك أعجبت بمستر شتاينواى.. إنه حساس جدًّا وهو معى منذ زمن بعيد.. أحد عشر عامًا.. كان هدية من أمي بعد ما قدمت العرض الأول في قاعة كارنيجي.. »

وقف ليو.. كان قريبًا جدًّا منى لأنني كنت أجلس على مقعد البيانو جواره، وهكذا استطعت أن أرى عينيه بوضوح أكثر. كان يقول لمستر شتاينواى:

- « حان الوقت لبعض الراحة قبل أن يأتوا ليأخذوك..

- « ما المشكلة؟.. هل مستر شتاينواى مريض؟.. »

- « البتة.. أعتقد أنه في أفضل حالاته.. »

وضحك (كيف ظننته ميتًا وهو يتمتَّع بكل هذه الحيوية؟) ونظر لي قائلاً:

- « إنه ذاهب معى للكونشير الليلة.. نديه دور يلعبه معى.. وهذا يذكرني: هل ستكونين هناك؟.. »

كدت أقول له (أيها الولد السخيف) ثم سيطرت على نفسي، والسيطرة على النفس لا تأتي بسهولة مع ليو.. ليس عندما ينظر لي بهذا الشكل، وأنامله تتحسس مفاتيح البيانو..

هل أنا واضحة؟

بالطبع كنت شفافة تمامًا في الليلة التالية. بعد العشاء خرجنا نحن الأربعة فقط.. هارى وزوجته وليو وأنا. ثم جلست مع ليو وحدنا من دون مستر شتانواى نرقب النجوم فوق سنترال بارك، ثم راقب كل منا انعكاسه في حدقة الآخر.

في اليوم التالي خرجنا في نزهة في الحديقة. انتظر ليو حتى أعادوا مستر شتاينواى للشقة، وكانت الحديقة جميلة كالعادة. لابد أنها كذلك في ذاكرة كل من مشى في سنترال بارك في مايو وشعر أنه يملكها كلها. الأشجار والشمس وصوت الضحكات يعلو ويهبط مع دقات قلبك.

لكن..

قال ليو وهو ينظر لساعته:

- « أعتقد أنهم في الطريق. يجب أن أكون هناك وهم ينقلونه.. مستر شتاينواى كبير لكنه رقيق في الواقع.. »

أخذت بيده وقلت:

- « لنذهب إذن.. »

قطب وأنا لم أره يقطب من قبل، وقال:

- « أعتقد أن عليك ألا تأتي يا دوروثي.. إنها عملية شاقة في صعود تلك الدرجات ثم سيكون على أن أتدرب. لا تنسى.. عندي عزف في بوسطون الجمعة القادم وهذا يعنى أربع ساعات كل يوم.. يجب أن أكون و شتاينواى بكامل لياقتنا.. سوف نعزف سيمفونية (ريفل) المخصصة لليد اليسرى، ومستر شتاينواى لا يحب (ريفل) جدًّا. دعك من أنه راحل صباح الأربعاء لذا لا يوجد وقت كاف.. »

- « لكنك لن تأخذ البيانو في جولتك.. أليس كذلك؟.. »

- « بالطبع.. حيثما ذهبت يذهب مستر شتاينواي.. لم أستعمل أية أداة منذ أعطته لي أمي. لن أشعر براحة. سوف أحطم قلب مستر شتاينواى.. »

عندى منافس كما هو واضح. وقد ضحكت لذلك بينما عاد هو لشقته، وعدت لداري لأنام وأحلم.

حاولت الاتصال به في الخامسة فلم يجب. انتظرت نصف ساعة ثم استوقفت أقرب سحابة وردية طرت بها إلى شقته.

كما هي عادة أمه، كانت الشقة مفتوحة. وقد استغللت الفرصة لأدخل على أطراف أصابعي وأفاجئ ليو. تصورته يعزف غارقًا في عمله. لكن مستر شتاينواي كان صامتًا.. وكان الباب المنزلق الذي يقود للغرفة الداخلية مغلقًا ففتحته. وهنا كانت المفاجأة..

ليو ميت من جديد.

كانت عيناه مغلقتين وجلده شاحبًا شبه شفاف. حتى قلبه بدا متوقفًا.

- « دوروثى.. »

- « الجمال النائم بالعكس!.. »

قلتها في انتصار: « ماذا هنالك يا حبيبي؟... متعب بعد البروفة؟.. »

استطعت أن أرى تقطيبته.

- « هل أفزعتك؟.. »

كان هذا سطرًا من سطور الأفلام حرف (ب) لكن الموقف كان من مواقف الأفلام حرف (ب)[8]. الموسيقار العبقري الشاب الباحث عن المجد ممزق بين حبه وبين عمله. ينهض ويمسك بكتفي بينما تقترب الكاميرا في حركة بان.

يقول:

- « دوروثي.. هناك شيء يجب أن نتكلم عنه.. »

كنت على حق.. المحاضرة قادمة عن أن الفن يأتي أولاً.. الحب والفن لا يتفقان.. شعرت بغضب عظيم. لكنني انتظرت حتى أسمع ما سيقول.

قال لي:

- « دوروثى.. ماذا تعرفين عن العلوم الشمسية؟.. »

- « لم أسمع حرفًا عنها.. »

- « هذا لا يدهشني.. لا شيء في علوم الباراسيكولوجي نال قبولاً عامًّا، لكنه يعمل.. سوف أشرح منذ البداية.. »

وراح يتكلم.. يتكلم لمدة ساعة.. لكنى فهمت القليل..

كانت أمه مهتمة بالعلوم الشمسية. لابد أن المبدأ قريب من اليوجا وباقي العلوم العقلية. كانت تمارس التجارب قبل موتها بعام.. وبعد موتها بأربعة أعوام عمل ليو وحده. جزء من هذا النظام الدخول في سنة.. إنه التركيز.. لكنه جهد للتركيز لا يُبذل فيه أي جهد. يجب أن يدرك المرء ذاته تمامًا. يمكنه التفاهم مع أعضائه وخلاياه وذراته.. كل شيء فيه طاقة ذبذبة لهذا هو حي. الشخصية تكتسب التوافق التام عندما يتم الاتصال التام.

كان يتدرب أربع ساعات يوميًّا مع مستر شتاينواي. هذا حقق له المعجزات. نال الاسترخاء.. كانت هذه هي الإجابة العظمى.. تمدد وعيه.. لكنه سيخبرني بهذا فيما بعد.

ماذا أعتقد؟

بصراحة لا أعرف.. ككل إنسان آخر أسمع الكثير لكن أصغى للقليل. سمعت عن التخاطر والاستقبال الخارق للحواس، وربطت بين هذه الأمور والنسوة العجائز المجنونات اللاتي يتلوين أثناء جلسات تحضير الأرواح.

كان من الغريب أن أسمع هذا الكلام من ليو، وأن يقول لي إن التأمل هو الشيء الوحيد الذي حفظ له عقله بعد وفاة أمه.

قلت له إنني أفهم، لكن لا نية لي في التدخل في حياته.. كل ما أريد هو أن أكون معه وله، هناك مكان لي في حياته.

صدقت هذا برغم إنني لم أكن أراه إلا ساعة واحدة في المساء قبل كونشير بوسطون.

طرت لبوسطون وكان ليو مذهلًا.. وعدنا معًا من دون أن نتكلم عن العلوم الشمسية أو أي شيء سوانا.

لكن صباح الأحد عدنا ثلاثة لأن مستر شتاينواى عاد.

هرعت لشقتي وعدت بعد الغداء. كانت سنترال بارك تتوهج في الشمس فشعرت بجزء من بريقها.

سمعت مستر شتاينواى يزأر ويهدر ويقر ويضحك.. فهرعت لليو هنا توقف العزف من البيانو.

قطب.. يبدو أني صرت موهوبة في الدخول على غير انتظار.

قال:

- « لم أتوقعك بهذه السرعة.. كنت أجرب شيئًا جديدًا.. »

- « سمعت هذا... .. »

- « هل تريدين الخروج عصرًا؟.. »

- « لا يا عزيزي.. بصراحة لم أرد أن أقاطعك.. هلم استمر..»

هز رأسه ونظر إلى مستر شتاينواى. فسألته:

- « هل يضايقك أن أتواجد وأنت تتدرب؟.. »

لم ينظر لي فقلت:

- « سوف أرحل.. »

- « أرجوك.. ليست مشكلتي.. فقط أعتقد أن مستر شتاينواى لا يميل لك كثيرًا.. »

هذا جعلني أفقد أعصابي فقلت بغضب:

- « انتظر.. هل هذا مشهد من مسرحية؟.. هل هذا نوع من العلوم الشمسية؟ وهل على أن أفترض أن مستر شتاينواى حي؟.. أعترف أنني لست ذكية أو حساسة بحيث أبلغ حساسيتك.. بالنسبة لي مستر شتاينواى مجرد بيانو آخر.. وأرجله لا تقارن برجلي.. »

- « دوروثي.. أرجوك.. »

- « دوروثي لا تريد البقاء لحظة مع جاثومك هذا.. قل لمستر شتاينواى آن بوسعه أن يذهب للجحيم.. .. »

بشكل ما أخرجني من الشقة للشمس.. للحديقة. كان صوته ناعمًا. قال لي:

- « لم تكوني مخطئة جدًّا يا عزيزتي.. أعرف أن هذا صعب على كل من لم يدرس العلوم الشمسية، لكن مستر شتاينواى حي.. يمكنه الاتصال بي ويمكنني الاتصال به.. »

- « هل تكلمه؟.. »

ضحك وقال:

- « بالطبع لا.. إنه تواصل روحي.. لا أريد أن أبدو كمحاضر لكن هذا علم وليس خيالًا. ألم تفكري قط فيما يكون البيانو؟.. إنه مجموعة معقدة من العناصر. مئات العمليات المعقدة.. في النهاية يقترب الأمر من صنع الروبوت الموسيقى.. هناك 12

نوعًا من الخشب من أعمار عدة. هناك خامات حيوانية وورنيش ومعدن وعاج.. وكل عنصر له ذبذبته الخاصة.. هذه الذبذبات يمكن أن تشعر بها وتسمعها وتفهمها.. .. »

كنت أصغى لأنني أردت أن أجد بعض السلام والمنطق في هذا كله. أردت أن أصدق لأن من يتكلم هو ليو.

- « الآن شيء جديد هو لب الموضوع.. عندما تحدث الذبذبة يضطرب التكوين الكهربي.. هناك تتابع من الأفعال.. لو سجلت عدة رسائل على شريط بسرعات مختلفة، فعليك أن تشغلى الشريط بذات السرعات لفهم الرسالة. العجز عن ذلك يجعلك عاجزة عن فهم هذه الرسائل. لهذا لا يشعر مجتمعنا بهذه الجوامد ويحسبها خالية من الحياة.

»بما أننا نقيس الذكاء بالمخ فإننا نجهل كل شيء عن ذكاء أشكال الحياة الأخرى. لا نتصور أن الصخور والأشجار وكل شيء يفكر.. هذا ما علمنيه العلم الشمسي.. صار بوسعى التفاهم مع هذه الأنماط.. هذا ليس سهلًا. من الطبيعي أن يكون مستر شتاينواي الذي هو جزء من حياتي، موضع هذه التجارب. قمت بالتجربة ونجحت.. يمكنني التفاهم مع مستر شتاينواى وليس هذا في اتجاه واحد. تذكري ما قالته التوراة عن (موعظة الصخور).. هذا صحيح حرفيًّا.. »

بالطبع قال أكثر من هذا لكني فهمت الفكرة.. ليو لم يكن عاقلًا جدًّا.

- « إنه كينونة وظيفية كذلك يا عزيزتى.. مستر شتاينواى له شخصية.. وهي تنمو. عندما أتدرب يتدرب هو.. عندما أعزف يعزف هو... بل هو من يعزف فعلاً بينما أنا أبدأ كما الميكانيزم.

لست أخدعك لكن هناك ألحانًا يأبى مستر شتاينواى أن يعزفها. هناك قاعات لا يحبها.. إنه فنان متقلب المزاج.. لكنه عظيم!.. وأنا أحترم موهبته..

« هبينى فرصة يا عزيزتي، لأتصل به حتى يفهمك ويعرف مكانك في حياتنا. سوف أقهر غيرته.. دعيني أجعله يعتاد وجودك وذبذباتك.. لا تعتبريني مجنونًا من فضلك.. هذه ليست هلوسة.. »

وقفت وقلت:

- « ليكن يا ليو.. الباقي متروك لك.. لن أراك ثانية إلى أن ترتب شيئًا.. »

وراح كعبي العالي يضرب الطريق فلم يحاول اللحاق بي. غطت سحابة الشمس كأنها خرقة متسخة. متسخة ممزقة..

بالطبع ذهبت لهاري فهو مدير أعمال ليو لكنه لم يعرف أي شيء. وغادرت المكان قبل أن يقول أي شيء. بالنسبة لهاري كان ليو سليمًا تمامًا.

- « إلا لو فكرت في موضوع أمه. موت العجوز هزه بقسوة فهي كانت تدير له كل شيء.. عندما ماتت فقد توازنه لكنه على ما يرام الآن، إنه فتى طيب.. »

هذا ما حصلت عليه من هاري وهو لم يكن كثيرًا.. أو ربما هو كذلك؟

كنت أفكر في (ليو فاينشتاين) وأمه المحبة.. كانت ترعاه وتتأكد من أنه يتدرب ويقوم بالبروفات.. كانت تنظم حياته.

وعندما خرج للجمهور أول مرة أهدته مستر شتاينواي.

لقد انهار عندما ماتت.. انهار حتى عاد لهديتها.. لقد سيطر مستر شتاينواي على كل شيء فهو ليس مجرد بيانو. لقد صار بديلًا للأم... امتدادًا لعقدة أوديب.. أليس هذا اسمها؟

كل شيء يتضح الآن.. ليو على الأريكة يبدو كأنه ميت وفي خياله يعود لدفء الرحم. يحاول الاتصال بأمه في القبر.

هذا هو كل شيء.. لابد أنه كذلك..

حبل يربطه بالأم وحبل يربطه بالبيانو.. عقدة (جورديان)[9] وأنا بلا سلاح.

بلغت شقتي وقد اتخذت قراري: ليو صار خارج حياتي.. عندما...

كان ينتظرني في الردهة.

من السهل أن يكون المرء منطقيًا.. حتى يظهر هذا الشخص ويعدك بأنك ستبقى معه للأبد وأن الأمور ستتغير. يقول لك إنه لن يطيق الحياة من دونك. لقد قال كل شيء..

يجب أن أكون واضحة دقيقة الآن.. من المهم أن أكون دقيقة. يجب أن أقول كيف كانت الأمور عندما ذهبت في العصر التالي إلى شقته.

كان الباب مفتوحًا فدخلت. بدا لي كأنني أعود لبيتي. رأيت أن الأبواب المزلقة مغلقة، فلما دنوت سمعت الموسيقا.. كان ليو ومستر شتاينواي يعزفان ثانية.

سأعتبرها موسيقا، لكنها لم تكن أكثر من صرخة ألم في حلق.. صوت يصلني على شكل ذبذبات وللمرة الأولى شعرت بأنني أفهم ما تكلم عنه ليو.

سمعت صياح الأفيال وأنين الأغصان في هواء الليل وتهشم الخشب. صرير المعدن وصوت ورق الصنفرة المزعج. مستر شتاينواي كان حيًّا.

فتحت الباب فتوقف العزف.. لكن مستر شتاينواى كان هناك وحده.

نعم، كان وحده.. رأيته بوضوح كما رأيت ليو في ركن الغرفة البعيد ونظرة الموت على وجهه.

لم يستطع أن يهرع في الوقت المناسب ليجلس خلف البيانو.

هززت ليو فعاد للوعى فرحت أبكي بين ذراعيه، وأنا أحكى له ما سمعته. فكان يقول:

- « هذا حدث.. أنت رأيته.. أليس كذلك؟. مستر شتاينواى حي.. إنه شخصية مستقلة قادرة على الاتصال. عندما أغيب يتولى هو زمام الأمور.. »

حاولت أن أخفى الخوف في عيني.. حاولت أن أزيله من صوتي عندما تكلمت. وقلت له:

- « تعال للغرفة الأخرى يا ليو ولا تسأل عن شيء.. »

لم أرد أسئلة لأنني لم أرد أن أخبره أننى خائفة من الكلام في وجود مستر شتاينواى. مستر شتاينواى يسمع.. وهو يغار.

قلت لليو:

- « يجب أن تتخلص منه.. لا يهمني إن كان حيًّا أم نحن مجنونان.. تخلص منه.. هذا ما يهمني.. »

هز رأسه لكني لم أرد هزات رأس.

- « اسمع يا ليو.. هذا هو الشيء الوحيد الذي سأطلبه منك. هل تأتي معي اليوم؟.. سأتصل بهاري وأقول له أي شيء فليس لدينا وقت.. »

نظر لي ليو وبدأ الموت يغزو وجهه من جديد. شهقت بعمق وانتظرت أن يبدأ الصوت من جديد. لكن عينيه قابلتا عيني ثم عاد اللون لوجهه وابتسم لي. وقال:

- « أراك بعد عشرين دقيقة مع حقيبتك.. »

هرعت عبر الدرج شاعرة بأنني أسيطر على الموقف.. حتى سمعت ذبذبات كعبي. صوت الإطارات على الأسفلت وأسلاك الهاتف تهتز في الريح. ثم بدأت أدرك أننى أسمع صوت المدينة.

هناك فزع لدى الأسفلت وحزن لدى الخرسانة. الخشب يتعذب وهو يتهشم. من حولي شعرت بالموجات.. الموجات الأبدية تصب حياتها.

كان العالم حيًّا... كان يجاهد كي يحيا.. الطريق حي.. واللافتة أفعوان طويل.. المفتاح يدمي القفل عندما يوضع فيه..

السرير يئن عندما وضعت حقيبتي فوقه.. أحمر الشفاه ينزف لأن شفتي آذته، لن أستطيع أن آكل ثانية..

نظرت لساعتي وحاولت ألا أسمع أنين وبكاء الزنبرك وعواء العقارب. عشرون دقيقة.

لقد مرت أربعون دقيقة وأنا لم أتصل بهارى بعد..

العودة للشارع كانت أكثر مما يتحمله إنسان من لحم ودم. هرعت لشقة ليو فوجدتها مظلمة.

كل شيء كان مظلمًا ما عدا أسنان مستر شتاينواى التي تلمع كأنياب أفيال في غابة من الأبنوس. ما كان بوسع ليو أن يزحزح البيانو من الغرفة الداخلية إلى الخارجية. مستر شتاينواى يكره شوبان.. ما كان ليجلس هناك في الظلام يعزف (مارش الجنازة).

كانت أقدام مستر شتاينواى مبللة.. اصطدمت بى لأنه كان يزحف عبر الغرفة، وهو مستمر في العزف. نظرت للأرض فرأيت جثة ليو.. كان ميتًا حقًّا هذه المرة. السيطرة كلها مع مستر شتاينواى الآن، لديه القوة كى يعزف.. كي يقتل..

نعم.. حككت العلبة وحررت شيطان الكبريت فأمسك اللهب به، وغاب صوت مستر شتاينواى وهو يصرخ ويضرب أسنانه الثمانية والثمانين. أعترف أنني أشعلت النار.. أعترف أننى قتلت مستر شتاينواى.

لكني لم أقتل ليو.

لم لا تسألهم؟.. احترقوا لكنهم يعرفون.. اسأل الأريكة والسجادة... اسأل الصور على الجدار. يعرفون أننى لست مذنبة.

يمكنك عمل هذا لو فعلت مثلي.. أنا أسمع ما يقولون في هذه الغرفة، أفهم الجدران والباب.

ليس لدى شيء أكثر أقوله. لو لم تصدقني ولم تساعدني فلترحل. دعني أجلس هنا وأصغى..

أصغى للقضبان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- سوق الحيوانات

كان الظلام قد حل عندما أنزلت الشاحنة (ديف) خارج مخزن البضائع المهجور، كان عليه أن يضيق عينيه ليرى الكتابة على اللافتة التي محاها الطقس:

ميدلى – أوكلاهوما - التعداد 1134

قال سائق الشاحنة إن بوسعه العثور على مواصلة أخرى على الطريق السريع عند نهاية البلدة، لذا مضى ديف في مشواره المرهق.

التاسعة مساء يوم صيف حار وقد أغلقت (ميدلى) الليلة. مطعم (فريد) كان مغلقًا وكذلك (جيفى سوبرمارت).. حتى محطة وقود (فيل) كانت مهجورة. لا سيارات في الشوارع المظلمة ولا حتى تجمعات الشباب المعتادة.

تساءل عن سبب هذا لكن ليس طويلًا. في وقت قصير كان قد قطع الشارع الرئيس وخرج للحقول المفتوحة في نهايته. هنا رأى الأضواء وسمع الموسيقا.

كان هناك مهرجان في أرض الأسواق أمامه، موسيقا معلبة تخرج من مكبرات الصوت والسيارات تملأ ساحة الانتظار. الشباب في كل مكان.

لم يكن ديف يتوق لهذا العمل، لكن كانت معه 8 سنتات في جيب السروال الجينز وهو لم يذق الزاد منذ الإفطار. هكذا اتجه إلى هذا المهرجان.

كما توقع كان الكرنفال مجرد ضوضاء.. هذه العروض التي تنتقل بالشاحنات بين قرية وأخرى.. الكثير من المغريات للأطفال والريفيين السذج. عجلة الحظ.. وجرب حظك مع البطانية وما إلى ذلك. وقد ظفر لنفسه بشطيرة هامبورجر وكوب قهوة وعرف أنه لا جديد هنا.

كل المدينة (ميدلي - أوكلاهوما - التعداد 1134) كانت هنا الليلة، كل ذي عنق أحمر[10] على بعد أميال جاء للكرنفال.

هنا رأى الخيمة الصغيرة الحمراء.. وهناك لافتة بهتت بسبب ضوء الشمس تعلن عن الأعجوبة:

سافاري غابة هوليوود يقدمه كابتن رايدر

ما هو (سافاري غابة هوليوود) هذا؟.. لم يعرف. والملصقات البالية لم تقدم له خدمة. كانت هناك صورة رجل يبدو كمكتشف حول عنقه ثعبان.. نفس المهرج الذي يفتح أفواه التماسيح. هناك رسم آخر له وهو يصارع أسدًا. ثم صورة أمام قفص وداخل القفص علامة استفهام ضخمة مشعرة. وتحت الصور كتابة مشعرة كذلك تقول:

ما هذا؟.. شاهدوا ملك الغابة حيًّا بالداخل

لم يعرف ديف ما هذا ولم يهتم. لكنه كان مرهقًا وصوت المكبرات آذى أذنيه. لما رأى الفرجة بين القماش على جانب الخيمة توقف ثم تسلل إلى الداخل.

كانت الخيمة فرنًا من قماش.

شم رائحة الزيت في الهواء.. الرائحة التي تشمها دومًا في ليالي الصيف في أوكلاهوما. رائحة الناس كريهة كذلك، وهو كان كريه الرائحة كذلك لأنه ليس بوسعه الاستحمام، لكن ما عذرهم هم؟

كان الناس يحتشدون يصغون لهراء كابتن رايدر أو هذا ما بدا لديف.. صحيح أن الشخصية التي رآها لم تبد مثل المرسومة في الإعلانات. كان يكلمهم بذلك الصوت المبحوح الذي ينتقل بلا ميكروفون، ولم تكن هناك أفعى أو تمساح على مرمى البصر.

بدأت شطيرة الهامبرجر تتلوى في معدة ديف بسبب الرائحة والحر، حتى كاد يفرغ معدته. راح يشق طريقه محاولاً الخروج عندما ضرب الرجل على المنصة الألواح بعصاه وهتف:

- « الآن يا أصدقائي.. أرجو أن تقتربوا منى.. »

اقترب الزحام أكثر.. ووجد ديف نفسه محاصرًا عند نهاية المنصة. لم يستطع الخروج فكل الأعناق الحمراء تحيط به منتظرة.

انتظر ديف أيضًا لكنه كف عن الإصغاء. كل هذا الهراء عن أحراش أفريقيا.. ربما صدقه هؤلاء المهرجون، لكنه لم يصدق حرفًا. فقط تمنى أن يسرع الرجل العجوز وينهي العرض فهو لا يريد سوى الخروج من هنا.

نهض الكابتن رايدر وقال وهو يضرب حفرة مغطاة بالقماش:

- « سوف ترون الليلة أخطر وأشرس وحش عرفه العالم.. تم اصطياده بالكثير من المجازفة و.... .. »

هز ديف رأسه.. كان يعرف ما يوجد في الحفرة. حيوان تافه تم شراؤه من سيرك.. غالبًا هو ضبع كبير، وعلى الأرجح لن يكون حيًّا بل هو محنط... صفقة ممتازة فعلاً.

- « انظروا!... سيد الغابة!.. »

تدافع الناس لينظروا إلى داخل الحفرة.

وشهق الجميع.

ديف كذلك نظر مع الباقين، فرأى ذلك الوحش ينظر له من قاع الحفرة.

كان غوريلا عملاقة كاملة النمو.

كان الوحش جالسًا على كومة من القش وقد قيدت ذراعاه العملاقان بسلاسل من الصلب. كان ينظر للوجوه ويحرك رأسه العملاق بينما أسنانه الصفراء ذات الأنياب بادية، وقد كشر عنها. فقط في عينيه المبللتين ترى لمسة من التعبير جعلت ديف الذي لم ير غوريلا من قبل يدرك أن هذا الحيوان مريض.

كان القش مبتلًا ملطخًا، وكان طعامه المكون من الأوراق الخضراء والبامية يسبح في بركة من القذارة، وفوقه سحابة من الذباب. وسط هذا الحر كانت الرائحة الكريهة المنبعثة من الحفرة لا تطاق.

شعر ديف بعضلات بطنه تنقبض. وحاول أن يرجع بتركيزه لكابتن رايدر. كان الرجل الآن يدور حول الحفرة.

- « لا تخافوا يا سادة. كما ترون هو مسالم جدًّا.. أليس كذلك يا بوبو؟.. »

حاولت الغوريلا تحاشي العصا لكن السلاسل منعتها، فاستطاعت العصا أن تضرب كتفيها المشعرتين.

- « الآن سيقدم لنا بوبو بعض الرقص.. أليس كذلك؟.. »

جلس المخلوق على ردفيه بينما العصا تهوى على كتفيه. وبدأ الجسد العملاق يتأرجح فتصايح الناس انبهارًا.

- « هلم يا بوبو.. ارقص!.. »

راح سرب من الذباب يحوم حول الكائن المشعر فى الحر. ورأى ديف الكائن يتأرجح أمامًا وخلفًا. واضطر لأن يغلق عينيه وشق طريقه خارج الزحام.

- « هيه.. راقب خطواتك يا فتى.. »

خرج من الخيمة في الوقت المناسب.

ساعده التخلص من الهامبرجر وكذا ساعده الابتعاد عن الكرنفال. لكنه إذ مشى وسط الحقول يعب الهواء الزيتي شعر بالدوار من جديد.. عليه أن يرقد للحظات. ارتمي في خندق جوار الطريق وأغلق عينيه لثوان..

ولى الدوار.. لكنه ظل يرى الغوريلا والوجه غير المعبر والعينين المعبرتين جدًا. عينين مليئتين باليأس والاستسلام وسط أكوام القش والذباب وضربات العصا.

يجب أن يكون هناك قانون.. يجب أن يكون هناك قانون يمنع معاملة الحيوانات هكذا.. ولايد من قانون آخر للحيوان المدعو كابتن رايدر كذلك.

كان الرعد هو ما جعله يتنبه.. ثم شعر بقطرات الماء الدافئة تبلل رأسه ووجهه.

نهض ديف والريح تهب حوله، وهي تصفر عبر الحقول. لابد أنه نام لساعات لأن كل شيء كان حالك السواد وعندما نظر خلفه رأى أن الكرنفال قد رحل.

للحظة صارت السماء فضية.. ورأى المطر يهطل. يمكنه أن يشعر به.. ثم عاد الرعد. هذا ليس مجرد مطر صيف.. هذه عاصفة، بعد دقيقة سيغرق تمامًا.. ولن يجد سيارة تقله لأنه لن يسافر أحد في طقس كهذا.

أغلق زمام سترته ورفع الياقة. يجب أن يتحرك. المشي خلال المطر يشبه المشى عكس سد من الماء.

تعالى الرعد وازداد بريق البرق.. في النهاية صارا شيئًا واحدًا. ثم رأى ضوءًا ساطعًا..

نظر فرأى المصدر.. هذه شاحنة قادمة من الطريق خلفه. إذ دنت أدرك أنها ليست شاحنة بل سيارة معسكرات من النوع ذي الطابقين، وقمرة القيادة في المقدمة.

لم يهتم بنوعها.. المهم أن تتوقف وتلتقطه.. خطا جانبًا وأشار لها.

أبطأت السيارة وتوقفت. انفتحت النافذة وظهر من يقول له:

- « تريد مواصلة يا جدع؟.. »

هز ديف رأسه.

- « اركب.. »

فتح الباب، دخل وأغلق الباب وبدأت السيارة تتحرك ثانية.

قال السائق:

- « أغلق النافذة.. المطر يدخل.. »

أغلق الباب وتمنى لو لم يفعل.. الهواء بالداخل كان يعج بالروائح.. ليس العرق فقط بل شيئًا آخر.

أخرج السائق زجاجة جرع منها. وعندما ضرب البرق ألقى ضوءًا على الطريق ووجه السائق.. هنا رآه ديف وعرفه على الفور..

كان السائق هو كابتن رايدر.

دوى الرعد بينما العربة تنطلق في الطريق الزلق الذي أغرقه المطر.

- « ماذا بك؟.. هل أنت أصم؟.. سألتك عن وجهتك.. »

استعاد ديف روعه فقال:

- « مدينة أوكلاهوما.. »

- « أنت سعيد الحظ.. هذه هي وجهتي.. »

يا للحظ!.. كان ديف يفكر في العجوز ويتذكر الغوريلا في الحفرة. لقد كره هذا الوغد بشدة وقد تقلصت معدته لفكرة الركوب معه إلى أوكلاهوما. لكن لن يساعده كذلك أن يبقى هنا وسط عاصفة.. نظرة واحدة للمطر تقنعه بأن يصمد.

انطلقت العربة بينما رايدر يجاهد مع عجلة القيادة. وسأل:

- « يا لها من عاصفة!.. هل ترون الكثير من هذه الأشياء هنا؟..»

قال ديف:

- « لا أعرف.. هذه أول مرة لي هنا.. أنا ذاهب للقاء صديق في أوكلاهوما. نفكر في الذهاب لهوليوود.. »

ازداد عمق الصوت الخشن:

- « هوليوود؟.. ذلك المكان اللعين!.. »

- « ألست قادمًا من هناك؟.. »

نظر له رايدر والتمع البرق ليكشف عن وجهه المقطب.. هنا أدرك ديف أنه ليس مسنًّا.. شيء ما رسم هذه التجاعيد على وجهه.

- « من قال لك هذا؟.. »

- « كنت في الكرنفال ورأيت عرضك.. »

قطب رايدر أكثر وراح يرمق الطريق عبر مساحات الزجاج وقال:

- « مقرف جدًّا.. أليس كذلك؟.. »

كاد ديف يهز رأسه ثم توقف. قرر أن يغير الموضوع فقال:

- « هذه الغوريلا خاصتك.. يبدو أنها مريضة.. »

- « بوبو؟.. إنه بخير.. فقط الطقس يضايقه، وعندنا نتجه للشمال سيكون أفضل.. »

- « هل هو معنا؟.. »

- « وماذا تعتقد؟.. هل أرسله بالبريد الجوي؟.. هذه العربة مصممة خصيصًا لذلك.. فوق لي وهو يبقى تحت.. الخلفية مفتوحة لينال بعض الهواء.. ألق نظرة عبر النافذة خلفك.. »

استدار ديف وألقي نظرة عبر النافذة المغطاة بالسلك واستطاع أن يرى محتويات الطابق العلوي الأنيقة. ثم نظر للظلام تحت.. رأى الخيمة واللافتات والأرض المغطاة بالقش.. وعند النهاية رأى جسد الغوريلا الأسود. الظهر له لأنها تتأمل الطريق.. اهتزت العربة للحظة فاستدار الوحش واستطاع ديف أن يرى عينيه للحظة..

وفتح الكابتن الزجاجة ليجرع جرعة أخرى وسأل ديف:

- « متأكد من أنك لا تريد جرعة؟.. »

- « لا.. »

ارتفعت الزجاجة ثم توقفت وسأل الكابتن ديف:

- « لحظة.. أنت لا تتعاطى شيئًا آخر.. أليس كذلك؟.. »

هز ديف رأسه:

- « مخدرات؟.. لا.. »

- « هذا جيد لك.. أمقت هذه القاذورات.. المخدرات والهيبيز.. هوليوود مليئة بالاثنين.. خذ نصيحتي ولا تذهب

هناك فلا مكان لصبى.. لم يعد هذا ممكنًا.. »

وتجشأ بصوت عال وأعاد الزجاجة لجيبه ثم فتحها ثانية.

أدرك ديف أن الرجل شرب فوق طاقته. من الأفضل أن تبقيه يتكلم وتبعد تفكيره عن الزجاجة قبل أن يقلب العربة.

قال ديف:

- « هل كنت رجل حركات خطرة في هوليوود؟.. »

- « نعم.. بل من أفضلهم.. لكن كان هذا في الماضي، قبل أن تصير جحيمًا.. كنت أفعل كل شيء.. سل أي واحد عنى سوف يقولون لك إننى كنت هناك مثل (ياكيما كانوت).. 750 دولارًا في كل يوم من العمل، وقد كنت أعمل كثيرًا.. »

- « لم أعرف أنهم يدفعون هذه المبالغ.. »

- « فلتعرف أنني لم أكن فقط أسقط من أعلى.. عندما استأجروني كانوا يعرفون أننى موهبة عظيمة.. ليس كل رجال الحركات الخطرة قادرين على التعامل مع الحيوانات.. هل رأيت أفلام طرزان القديمة؟.. في نصف هذه الأفلام كنت أنا من يتعامل مع الأسود والنمور.. .. »

. « هذا مثير.. »

- « مثير فعلًا لو كنت تحب المستشفيات.. لقد صارعت فهدًا أسود ذات مرة كاد ينزع ذراعي كله في لقطة واحدة.. أنت تنفق على علاجك وتنفق على ثياب الحيوانات المزيفة.. »

- « لا أفهم.. »

- « هناك لقطات قريبة للصراع مع الحيوان تحتاج إلى أن يظهر وجه البطل.. هنا يأتي دوري.. ألبس مثل الحيوان.. هل تصدق أنني ابتعت بذلة قرد بثلاثة آلاف دولار؟.. كان عليك أن ترى البيت الفاخر الذي كنت أعيش به، بأربع غرف نوم وحمام سباحة وملعب تنس.. لقد أعجب ميليسا جدًّا.. »

ومد يده إلى الزجاجة وأفرغها في جوفه.. هذه المرة أعادها خالية.

فتح النافذة وطوح بالزجاجة إلى المطر، وقال:

- « ذهبت.. انتهت!.. لا زجاجة. لا بيت.. لا ميليسا.. »

- « ومن هي؟.. »

هز رايدر إصبعه أمام الزجاج وقال:

- « هل حقًّا تريد أن تعرف؟.. »

نظر ديف في دهشة محاولاً فهم معنى هذه الإشارة، إلى أن رفع عينه إلى سقف القمرة. على مرآة الرؤية الخلفية كانت صورة صغيرة.. وجه فتاة شقراء جميلة تبتسم نوع الابتسامة التي تراها في الكتالوج السنوي للمدرسة الثانوية.

قال رايدر:

- « هي ابنة أختي.. ربيتها منذ كانت في الخامسة بعد وفاة أختي.. كل ما أرادته حققته لها.. أخذتها في كل الرحلات.. سوف تندهش عندما تدرك السعادة التي تشعر بها عندما تبعث السرور في قلب طفل. كانت ذكية كذلك وكانت رئيسة الصف في

مدرستها.. أفضل مدرسة خاصة في المدينة.. كانت لي كأنها ابنتي من لحمي ودمي.. كيف حدث ما حدث؟.. لن أعرف أبدًا.. »

سأله ديف:

- « ماذا حدث؟.. »

- « الهيبيز.. هؤلاء الهيبيز الأوغاد أولاد الحرام.. » . وأحاطت بعينيه فجأة تجاعيد قبيحة - .. « لا تسألني كيف قابلت هؤلاء الأوغاد.. حسبت أنني حميتها من هؤلاء لكن لابد أنها عرفتهم عن طريق صديقة لها في المدرسة. كانت في السادسة عشرة ولم تكن تعرف ما تتورط فيه. لابد أنه في هذه السن يبدو لك رجل ملتح يحمل جيتارًا ولديه دراجة نارية.. يبدو جذابًا جدًّا..

»المهم أنهم وصلوا لها.. ذات ليلة كنت في موقع تصوير، فجاء عدد منهم للبيت.. لابد أنهم كانوا تحت تأثير المخدرات تمامًا. لم تكن تتعاطى أي شيء، وحاول زعيم هؤلاء – واسمه كما أعرف هو (دود) - أن يرغمها على التعاطي.. وضع لها بعض المخدر في شراب بارد تشربه.. كمية تكفي لقتل ثور.. هذا ما قاله الطبيب الشرعي.. »

- « تعنى أنه قتلها؟.. »

- « ليس فورًا وليته فعل.. حسب كلام الرجل لابد أنها عاشت ساعة بعد ذلك. كان هذا كافيًا لهم كي يمرحوا.. كنت قد أعددت البيت بالتذكارات ومنها جلود حيوانات وطبول أفريقية وأقنعة فودوو. أخذ أحد الأوغاد طبلة وراح يدق عليها، بينما زعيمهم أخذ جلد الأسد وألقاه فوق ميليسا.. يلعبون لعبة

أفريقيا.. أنا طرزان.. أنا الصياد العظيم. كانت عاجزة عن الوقوف فجعلوها تمشي على يديها وركبتيها.. ثم أن الوغد العفن انتزع من على الجدار أحد رماح قبائل الماساى وكاد يدسه بين ضلوعها..

« هذه هى اللحظة التى وصلت فيها لأرى هذا الوغد يتأهب لطعن ميليسا بالرمح..

« لم يقف طويلًا.. نظرة واحدة لي جعلته يدرك.. لقد ألقى بالرمح وجرى.. لكن لا أتذكر.. لا أتذكر الدقائق التالية.. قالوا فقط إننى هشمت ترقوة أحدهم، وأحدهم أصيب بارتجاج مخى عندما ضربته في الجدار، والثالث كان شبه ميت عندما انتزع رجال الشرطة قبضتي من حول عنقه. برغم هذا تأخروا كثيرًا في إنقاذه..

»تأخروا كذلك بالنسبة لميليسا.. لقد رقدت هناك في ثياب الأسد.. هذا هو الجزء الذي أذكره.. الجزء الذي أتمنى أن أنساه........ »

قال ديف:

- « أنت قتلت الفتى.. »

هز رايدر رأسه وقال:

- « قتلت حيوانًا.. هذا ما قلته في المحكمة.. القاضي أصدر الحكم بخمسة أعوام لكني خرجت بعد عامين.. »

ونظر لديف متسائلًا:

- « هل دخلته من قبل؟.. »

- « لا.. كيف هو؟.. صعب؟.. »

- « يمكنك أن تقول هذا.. كنت عنيفًا لذا حبسوني انفراديًا لفترة.. أنت تجلس في الظلام وتغرق في الأفكار. أنا الذي اعتدت السفر عبر العالم صرت سجينًا في قفص كحيوان. والحيوانات الذين قتلوا ميليسا أحرار. هناك واحد مات واثنان تعلما درسهما.. لكن الزعيم (دود) حر.. لم يقبضوا عليه ولم يكونوا على استعداد لتضييع وقت في البحث عنه وقد انتهت المحاكمة.

» فكرت كثيرًا في (دود) هذا.. »

ونظر لديف.. كان ثملاً لكنه يقود جيدًا وما دام يتكلم فلن يسقط نائمًا فوق العجلة.

- « كنت أفكر فيما سأفعله لو وجدت (دود). العثور عليه صعب لكني قادر عليه. لقد قضيت أعوامًا في أفريقيا اصطاد الوحوش وبالتالي أنا قادر على اصطياد هذا.. »

سأله ديف:

- « إذن أنت مستكشف فعلاً؟.. »

- « كينيا.. أوغندا.. نيجريا.. رأيت ما لم يحلم به هؤلاء الحمقى.. عندما ربط هذا الزعيم جلد الأسد حول ميليسا كان يلعب.. عليه أن يرى ما يستطيع هؤلاء الأطباء السحرة عمله.

« أولًا يختطفون فتاة أو صبيًا.. لنقل فتاة من أجل ميليسا.. يسجنونها في كهف له سقف منخفض حتى لا تقف وتزحف على أربع. يعطونها عقاقير بجرعات كثيفة تغيبها عن الوعى.

عندما تفيق يكونون قد ثبتوا ليديها وقدميها مخالب أسد. ويكونون قد خاطوا جلد أسد لجلدها.

« .. فكر في الأمر.. هي داخل جلد أسد وفي كهف.. لا تعرف أين هي ولا ما يدور.. لا تأكل سوى لحم نيئ.. وحدها في الظلام تفوح منها رائحة أسد ولا أحد يكلمها ولا أحد تكلمه. في النهاية يأتون ليحطموا بعض العظام في حلقها فلا يعود بوسعها سوى الزئير.

» هل تعرف ما يحدث يا فتى؟.. هل تعرف ما يحدث لشخص مثلها؟.. إنها تجن.. في النهاية تؤمن بأنها أسد، وبعد هذا يعلمها الطبيب الساحر كيف تقتل.. .. »

نظر له ديف في دهشة، فقال الرجل:

- « كله مكتوب في التقارير الحكومية.. لقد تغيرت نيروبى لكن في الغابة لم يتغير الكثير. هؤلاء السحرة يعرفون عن المخدرات أكثر من أي هيبي.. خاصة الحيوان الغبي مثل (دود).. »

- « ماذا حدث بعد خروجك؟.. هل قبضت عليه؟.. »

هز رايدر رأسه.

- « لكنك قلت إنك رسمت خطة كل شيء.. »

- « عندما تكون وحيدًا تخطر لك أفكار مجنونة. بالضبط كأنك في ذلك الكهف.. لو فكرت في الأمر لوجدت أن هذا ذكرني بـ .. .. »

. « بماذا؟.. »

- « لا شيء..انس الموضوع.. هكذا فعلت أنا.. عندما خرجت من السجن قررت أن أفضل شيء أن أصفح وأنسى.. »

- « ولم تحاول قط العثور على (دود)؟.. »

قطب رايدر وجهه وقال:

- « قلت لك.. كانت لدى أشياء يجب أن أفكر فيها. لقد فقدت اسمى وفقدت بيتي والأثاث وكل شيء. كذلك أدمنت الخمر. انتهى بى الأمر إلى مدينة الملاهي المتنقلة ولم يعد لدى شيء آخر يقال.. »

من جديد أضاء البرق السماء وتبعه الرعد.

أدار ديف رأسه بنظر عبر النافذة ذات السلك.

كانت الغوريلا ما زالت هناك ترمق الليل عبر القضبان. ظل ديف يرمقها وعرف أن عليه أن يلقى السؤال. وكلما أطال النظر كلما أدرك أنه لا يملك الخيار.

سأل ديف:

- « وماذا عنه؟.. »

قال رايدر وهو ينظر لاتجاه نظراته:

- « من؟.. تعنى بوبو؟.. لقد ابتعته من تاجر أعرفه.. »

- « لابد أنه باهظ الثمن.. »

- « ليسوا رخيصي الثمن فلم يبق منهم كثير.. »

تردد ديف وقال:

- « هناك أقل من مائة. قرأت هذا في جريدة الأحد.. مقال عن المحميات الطبيعية، الغوريلات محميات حكومية ولا تباع.. »

- « كنت سعيد الحظ.. »

قالها رايدر وانحني للأمام، فغمرت أبخرة الكحول ديف.. وأردف:

- « لدى صلات.. هل تفهم؟.. »

حاول ديف منع الكلمات لكنه لم يقدر، فقال:

- « حسن.. ما لم أفهمه هو هذا الكرنفال القذر.. ما دامت الغوريلات نادرة هكذا فقد كان عليك أن تنضم لعروض أكبر.. »

- « هذا شأني.. »

شهق ديف بقوة وقال:

- « ما دمت مفلسًا هكذا فمن أين جئت بالمال لشراء حيوان باهظ الثمن كهذا؟.. »

- « كما قلت لك.. بعت البيت وكل ما أملك.. »

- « وكذا بذلة القرد؟؟؟.. »

طارت القبضة بقوة حتى أن ديف لم يرها. لكنها ضربت جبهته فألقته عبر المقعد ليصطدم بالباب الجانبي غير المغلق.

حاول أن يتمسك بأي شيء لكنه تأخر. كان يسقط.. سقط على الأرض على ظهره فلم ينقذه سوى الوحل.

من جديد أضيئت السماء بالبرق وابتعدت العربة، واختفت في نفق الليل المظلم. لكن ديف استطاع أن يرى الغوريلا تنظر له من وراء القضبان.

الغوريلا بعينيها الغائبتين عن الوعى بفعل المخدرات، ووجهها عديم التعبير الشبيه بالقناع.. وذراعيها المرفوعتين اللتين تكشفان عن الخياطة السوداء تحت الإبط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- الحبكة هي الشيء المهم

عندما اقتحموا الشقة، وجدوها أمام التلفزيون تشاهد فيلمًا قديمًا.

لم تفهم بيجي سبب الجلبة التي أثاروها بسبب هذا. كانت تحب الأفلام القديمة، والأفلام التي تعرض في ساعة متأخرة من الليل. هذه كانت الأفضل لأنها غالبًا ما تكون أفلام رعب. حاولت أن تشرح لهم هذا، لكنهم ظلوا يجوبون الشقة ويرمقون الغبار على الأثاث والملاءات المتسخة. قال أحدهم أن هناك طحالب خضراء على الأطباق في حوض المطبخ.. نعم هي لم تغسلها منذ زمن بعيد لكنها كذلك لم تهتم بأن تأكل منذ زمن.

ليس السبب أنها لا تملك مالًا.. لقد أخبرتهم بحساب المصرف. لكن التسوق والطبخ صارا متعبين جدًّا.. كما أنها صارت تمقت الخروج ورؤية الناس.. لو أرادت أن تبقى هنا وتشاهد الأفلام فهذا شأنها.. أليس كذلك؟

نظروا لبعضهم وأجروا بعض الاتصالات. ثم جاءت سيارة الإسعاف فساعدوها على ارتداء الثياب.. ساعدوها؟.. الواقع أنهم أرغموها.. وعندما فهمت إلى أين يأخذونها كان الوقت قد فات.

في البداية كانوا شديدي اللطف في المستشفى لكنهم ظلوا يسألونها أسئلة بلهاء. قالت إنه لا أقارب لها فلم يصدقوا، وعندما تأكدوا من ذلك ساءت الأمور أكثر. عندما غضبت انتهى الأمر بحقنة منومة في ذراعها.

تكررت الحقن المنومة بعد هذا.. ومن وقت لآخر كان د. (كرين) يأتي. كان من الرؤساء وكانت تحبه، لكنها بدأت تمقته عندما بدأ يتطفل.

حاولت أن تشرح له أنها كانت أميل للوحدة طيلة حياتها، ولم تكن بحاجة للعمل مع ما تملك من مال. اهتم بأنها تذهب للسينما مرة كل أسبوع وأنها تحب أفلام الرعب بالذات. أحبت المشاهدة في البيت. ففي البيت يمكنك أن تغلق على نفسك.. ما دام التلفزيون يعمل فهي لا تشعر بوحدة. كان بوسعها أن تشاهد الأفلام طيلة الليل وكان هذا مما يفيد أرقها.

في الأفلام مهما ساءت الأمور أمام البطلة فهي تنجو في النهاية.. وهذا أفضل مما يحدث في الحياة.. أليس كذلك؟

لم ير د. كرين هذا، ولم يسمح بجهاز تلفزيون في غرفتها. راح يكلم بيجي عن أهمية مواجهة الواقع وأخطار التراجع إلى عالم خيالي حيث تتماهي مع البطلات المذعورات.

عندما بدأ يتكلم ذلك الهراء عن (اضطراب عصبي) وكلمها عن خططه لمساعدتها، عرفت أن عليها أن تهرب. لم تكن لديها فرصة. وقبل أن تفهم كانوا قد رتبوا جراحة استئصال فص المخ لها.

كانت تعرف ما هي جراحة استئصال فص المخ وكانت تخشاها.. لأن معناها اللعب بالمخ. تذكرت طبيبًا مجنونًا اسمه (ليونيل أتويل) يقول إن العبث بأسرار المخ قد يغير الواقع: « .. هناك أشياء لم يفترض بنا أن نعرفها.. ». كان هذا بالطبع في فيلم سينمائي. ولم يكن د. كرين مجنونًا.. هي المجنونة.

لقد بدا لها مجنونًا.. حاولت أن تتملص عندما قيدوها فجاء لها.. تتذكر عينيه والإبرة الطويلة.. الإبرة الطويلة تخترق مخها لتغير الواقع.

المضحك في الأمر أنها عندما صحت شعرت أنها بخير:

- « أنا إنسانة مختلفة يا دكتور.. »

وكان هذا صحيحًا.. لقد صارت هادئة تمامًا. كانت تريد أن تأكل ولم تعد مصابة بأرق وصار بوسعها أن تبدل ثيابها بنفسها، بل وتمزح. الأهم أنها لم تعد تهتم بمشاهدة التلفزيون، لم تعد تذكر تلك الأفلام القديمة التي تضايقها..

في نهاية الأسبوع الثاني تمنت أن يسمحوا لها بالعودة لدارها. تبادلت الكلام معه فأطرى تحسنها وسألها عن خطط المستقبل. اقترح عليها أن تقوم برحلة فوعدته بذلك.

لم تفكر حتى عادت لشقتها، كان المكان غاية في الفوضى. وعندما دخلت أدركت أنه ليس بوسعها تحمل هذا المكان. بدا المكان كمنظر في فيلم.. الثياب في كل مكان والأطباق مكومة في الحوض.. هناك قررت أن تأخذ إجازة. ربما حول العالم.. لِمَ لا؟.. عندها المال ولسوف يكون جميلاً أن ترى فعلًا تلك الأماكن التي لم ترها إلا في السينما.

هكذا ذهبت لوكالة سياحة وسرعان ما كانت تنطلق إلى لندن. من الغريب أنها لم تفكر فيها بهذا الشكل من قبل، ولاحظت أنها تقرر شيئًا أو تذهب لمكان ما، وفجأة تجد نفسها في موقع آخر.. كما يحدث في السينما عندما يقطعون من مشهد لآخر. عندما فكرت في هذا أصابها القلق.

ربما كانت تغيب عن رشدها. لا تنس أن هناك من عبث بمخها. لكن لم يكن هناك شيء مخيف فعلاً، بل كانت تبدو لها مفيدة كما في السينما، فأنت لا تريد أن تضيع وقتك في مراقبة البطلة تنظف أسنانها أو تحزم حقائبها. الحبكة هي الشيء المهم.

كان كل شيء حقيقيًّا الآن. لا مزيد من اضطراب الحقائق. قبل الجراحة مرت بها أوقات لم تكن على يقين من شيء. أحيانًا كان ما تراه على الشاشة أكثر واقعية مما تراه في الحياة.

لقد ذهب هذا كله.. مهما كان ما فعلته الإبرة فقد اخترقت الضباب.. صار كل شيء واضحًا وحادًّا ومحددًا.. ازدادت ثقتها بنفسها. وصارت تلبس جيدًا وتمشط شعرها جيدًا.. وكان الكومبارس يمشون في الشوارع فلا يضايقونها. وكان الكومبارس الناطقون يقولون سطورهم بوضوح ثم يغادرون المشهد. لم يكونوا ممثلين في الواقع بل هم خدم وموظفون في السياحة.. لكنهم كانوا يبدون كأنهم يمرون بإظلام وظهور تدريجيين. كلهم يضحكون كما في أفلام الرعب الجيدة حيث تبدو الحياة رائعة في بداية الفيلم.

بدأت الأمور تسوء في باريس.

كان المرشد السياحي الذي يبدو مثل (إدواردو شيانللى)[11] يريها دار الأوبرا. تحدث عن أقبية الدفن.. هذا دق جرسًا في ذهنها.

تذكرت إريك.. كان هذا اسمه.. إريك شبح الأوبرا. عاش في سراديب الموتى تحت دار الأوبرا. كان مجرد شخصية خيالية

لكنها تذكرته وذكرت اسمه للمرشد على سبيل الدعابة.

هنا شحب وجه المرشد وبدأ يرتجف. ثم هرب وتركها حيث هى.

عرفت أن هناك شيئًا خطأ. ثم بدا أن المشهد يذوب وهو شيء اعتادته.. المشهد التالي كانت واقفة أمام أمين المكتبة تسأله عن كتب (جاستون ليرو).

هذا ما أثار رعبها.. تعرف أن (جاستون ليرو) هو مؤلف (شبح الأوبرا). لكن أمين المكتبة يقول لها إنه لا يوجد مؤلف بهذا الاسم. فتحت فاها لتعترض لكن المشهد بدأ يذوب.

في ألمانيا استأجرت سيارة وكانت تستمتع بالمناظر الطبيعية، عندما رأت تلك الطاحونة المحترقة وبقايا القلعة. كانت تعرف أين هي لكنها لم تصدق.. فقط عندما ترجلت ودنت أكثر رأت اللافتة على الصخر تقول (فرانكنشتاين).

كان هناك صوت خافت خلف الباب.. صوت خطوات مكتومة.. صرخت وجرت.

كانت تعرف إلى أين تجري.. ربما تبحث عن الأمان خلف (الستار الحديدي). لكن كانت هناك قلعة أخرى.. سمعت عواء ذئب عن بعد ورأت وطواطًا يحلق.

وفي مكتبة إنجليزية في (براغ) بحثت في الكتب الأدبية، لكنها لم تجد قط اسمى (مارى شيلى) ولا (برام ستوكر).

بالطبع لا.. في عالم الأفلام لا يوجد مؤلفون.. الشخصيات حقيقية.

تذكرت كيف تغير (لارى تالبوت)[12] أمام عينيها ليصير ذئبًا عاويًا. تذكرت صوت الكونت دراكيولا يقول:

- « أنا لا أشرب...... الخمر.. »

تمنت أن تبتعد عن بيوت الفلاحين المتطيرين، الذين يضعون نبات (وولفبين) خارج نوافذهم ليلًا.

أرادت أن تجد بلدًا عاقلاً يتكلم الإنجليزية. ستذهب للندن لتبحث عن طبيب.

ثم تذكرت ما ينتظر في لندن.. مذءوب آخر.. ومستر هايد.. وجاك السفاح..

عبر غيبوبة طارت لتجد نفسها في باريس.. وجدت اسم طبيب نفسانى فرتبت موعدًا، وقررت أن تواجه مشكلتها بشجاعة.

لكنها لم تستعد للقاء الرجل الأصلع ذي اللكنة الشريرة والعينين الجاحظتين. عرفت على الفور أنه د. جوجول في قصة (الحب المجنون). كانت تعرف أن (الحب المجنون) فيلم تم إخراجه في العام الذي ولدت فيه لكن هذا بلد مختلف، والغانية قد ماتت.

الغانية ماتت وبيجي حية... « أنا خائفة وغريبة في عالم لم أصنعه.. »

أم أنها هي من صنع هذا العالم؟.. لم تكن واثقة. ما تعرفه هو أن عليها أن تهرب.

أين؟.. ربما مصر؟.. لا.. سوف يكون هناك.. المومياء المجعدة المخيفة.. وماذا عن الشرق البعيد؟.. وماذا عن فومانشو؟

تعود لأمريكا؟ البيت هو مكانها، لكن سوف تنتظرها سكين هناك، عندما تنفتح ستائر الحمام ويهوى عليها ذلك المجنون في (سايكو)..

بشكل ما تذكرت مأوى كان في فيلم آخر. البحار الجنوبية.. دوروثى لامور وجون هول[13] والأهالي الودودين في جنة استوائية.. كان هناك مهرب.

استقلت سفينة في مرسيليا وكان طاقمها صغيرًا. أمضت أيامها الأولى في باطن السفينة متكومة في مضجعها. من الغريب أن الأمور بدأت تتخذ منحى ما كان قبل الجراحة..

قبل أن تخترق الإبرة مخها لتغير العالم..

كان عليها أن تصغى لأتويل وزوكو وراثبون وسلون وجون كارادان.. هم مجانين نوعًا لكنهم أطباء بارعون وعلماء. كانت نيتهم حسنة.. « هناك أمور لا يجدر بنا أن نعرفها.. »

عندما وصلوا إلى المناطق الاستوائية، شعرت بتحسن. استردت شهيتها وخرجت للسطح.. وراحت تمزح مع الطاهي الصيني. كان الطاقم يعاملها باحترام عظيم.

عرفت أنها فعلت الشيء الصحيح.. هذا هو الهرب. رائحة الليالي الاستوائية الدافئة العطرة خدرتها. هذه ستكون حياتها من الآن فصاعدًا.. سوف تبحر في بحار بلا اسم بعيدة عن لعب دور بطلة أفلام الرعب.

كان من الصعب أن تصدق أنها ستخاف لهذا الحد. لا يوجد أشباح ولا مذءوبون في هذا العالم، لن تحتاج لطبيب فهي تواجه الواقع وهو جميل. لا أفلام هنا.. لا تليفزيون.. كل مخاوفها جزء من كابوس منس، ذات ليلة بعد العشاء، عادت لقمرتها وثمة شيء يضايقها.

لقد ظهر القبطان في مرة نادرة من مرات ظهوره على مائدة العشاء، وظل ينظر لها طيلة الوجبة. شيء ما في نظرته جعلها ترتبك. عيناه الخنزيريتان ذكرتاها بشخص ما.. نوح بيرى؟.. ستانلى فيلدز؟

راحت تتذكر.. وفي الوقت نفسه كانت تنعس.. تنعس بسرعة.. هل هناك من دس شيئًا في طعامها؟

حاولت أن تجلس..

عبر النافذة رأت لمحة من الأرض.. ثم بدأ كل شيء يدور. لقد تأخرت جدًّا..

عندما أفاقت كانت على الجزيرة.. وكان المتوحشون يجرونها عبر البوابة وهم يصرخون ويلوحون بالرماح.

ربطوها.. هنا سمعت الغناء.. نظرت لأعلى فرأت الظل العملاق. عرفت أين هي وما هذا وصرخت.

حتى برغم الصراخ كانت تسمع الأهالي يرددون كلمة واحدة مرارًا وتكرارًا.. بدت لها الكلمة كأنها (كونج).

روبرت بلوخ


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

اسمها الأصلي (ذلك القطار المرتبط بالجحيم) أو (ذلك القطار الجحيمي)، لكن العنوان الحالي أقرب للأذن العربية.

[←2]

عربة نوم.

[←3]

هجاء الاسم غريب Jon وليس John ليوحي بغرابة الجو.

[←4]
الأول اسم أغنية شهيرة والثاني مسرحية لتينسى وليامز. يريد القول إن الفنون جعلته يتخيل صورة أكبر من الواقع للمدينة..

[←5]

بطل فرنسي عظيم شارك في الثورة الأمريكية، وله مكانة عالية عند الأمريكين.

[←6] معناها الأصلي (الثلاثاء السمين) وهو كرنفال يُحتفل به يوم الثلاثاء الذي يلي عيد الغطاس، ويسبق أربعاء الرماد، وهو مناسبة مهمة في عدد كبير من الدول الغربية.

[←7]

سكان بايرس.

[←8]

الأفلام الرخيصة متواضعة القيمة الفنية.

[←9]
تعبير غربي شائع، ويعود لأسطورة قديمة عن الإسكندر الأكبر الذي لم يستطع فك عقدة فقطعها بسيفه، وبمعنى آخر الحلول الجذرية العنيفة للمشاكل.

[←10] الفلاحون.. السبب أن الشمس تكوى أعناقهم فتحمر.

[←11]

ممثل إيطالي ومطرب أوبرا اشتهر فى الأفلام الأمريكية بأدوار الشر.

[←12]

بطل فيلم (الرجل الذئب) بطولة لون تشانى الابن.

[←13]

ممثلان ظهرا في فيلم (الإعصار) . 1937

روايات عالمية للجيب 73



الرجل الخفى

تأليـــــف : هـ . ج . ويلز

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (73)

الرجل الخفي

تأليف: هـ. ج. ويلز

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

لا يجادل أحد في أن الأديب البريطاني (هربرت جورج ويلز) عبقري أضاف الكثير حتى على مستوى لغتنا اليومية وثقافتنا. لقد صار مفهوم آلة الزمن والرجل الخفي وحرب العوالم مستقرا في خيالنا وتعبيراتنا. ليس هذا أول لقاء لنا معه فقد قابلناه كثيرا من قبل، وأعتقد أنه من الضيوف الذين لا يُملون في هذه السلسلة.

ولد ويلز عام 1866 وتوفي عام 1946، وهو خليط من أديب كبير وفيلسوف ومفكر سياسي ومستقبلي ومعلم أحياء.

عرفنا أنه والفرنسي جول فيرن هما الأبوان الشرعيان لأدب الخيال العلمي.. وهناك أب ثالث يضيفونه باستمرار هو الناشر الأمريكي (هوجو جيرنسباك)، لدرجة أن جوائز أدب الخيال العلمي يطلق عليها اسم (هوجو).

جول فيرن يهدف للإثارة والدقة العلمية فقط، بينما ويلز أقرب للفيلسوف الذي يحاول أن يتنبأ بمستقبل البشرية ويضع الكثير ما بين السطور، بحيث لا ينتهي أي كتاب من كتبه لدى انتهاء قراءته. إنه يبقى معك طويلا.

هناك لمسة تشاؤمية واضحة في أدب ويلز مع خوف عارم على مستقبل البشرية، لكن هناك كذلك لمحة من التفاؤل. يقول في مزيج من الجد والسخرية: كلما رأيت شخصا بالغا على دراجة، قلّ خوفي على الجنس البشري!

كما قلنا، ولد ويلز عام 1866 في مقاطعة كنت بإنجلترا لأب صاحب حانوت وأم تعمل خادمة. في سن الرابعة عشرة عمل بائعا لدى تاجر أصواف. وقد وصف هذه الفترة في روايته (كيبس - 1905). عام 1883 ظفر بمنحة دراسية في مدرسة العلوم بلندن وهكذا بدأت حقبة جديدة من الاهتمام بالعلم في حياته، ودرس علم البيولوجي كما درس نظرية داروين مع (هكسلي) - إن تأثير هذه الفترة واضح في قصته (جزيرة الدكتور مورو – 1896) التي قدمناها في هذه السلسلة.

في العام 1891 تزوج ابنة عمه وهي زيجة لم تطل؛ لأنه تعلق باحدى تلميذاته وتزوجها عام 1895. في نفس العام كتب رائعته (آلة الزمن) و (الزيارة الرائعة) و (العصوية المسروقة وحوادث أخرى). ثم قدّم (الرجل الخفي) عام 1897، وهي القصة التي نقدمها اليوم، القصة ممتعة بلا شك وقد صارت من كلاسيات أدب الرعب وأدب الخيال العلمي معا، وبعض مشاهدها حفر للأبد في خيال القراء، كما تفننت السينما في تقديمها مرارا بكل أساليب الخدع السينمائية، ولعل آخر فيلم لم يقتبس القصة ولكن تأثر بها هو (الرجل الأجوف)، فقط نذكرك بما قاله الكاتب العلمي السوفييتي ياكوف بريلمان عن إن الرجل الخفي لو وجد لكان كفيفا تماما؛ لأن شبكيته لن تحتوى طبقة الخلايا الصبغية؛ ولهذا فحتى الأسماك الشفافة تماما كالزجاج تظل عيونها السوداء مرئية. فيما عدا هذا هناك محاولات علمية ناجحة لجعل معامل انكسار الأنسجة الحية مماثلاً لمعامل انكسار الهواء.

عام 1901 قدم ويلز (أول رجال على القمر) و (توقعات). وفي ذلك الوقت انضم للحركة الاشتراكية الفابية، لكنه تركها بعد

مشادة مع برنارد شو أهم قادة الحركة.

من أهم كتبه غير القصصية (تاريخ قصير للعالم – 1922).

في العام 1946 توفي ويلز في بيته بلندن، وهو يمر بحالة عدم يقين شديدة تجاه الجنس البشري الذي يبدو أنه صمم على تدمير ذاته.. إن تفكير من ماتوا قبل الحرب العالمية الثانية يختلف جذريا عمن ماتوا بعدها. وقد توقع أن تكون العبارة التي يتركها على شاهد قبره هي: «لقد أنذرتكم.. أيها الأغبياء!»

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

وصول الرجل الغريب

جاء الغريب في فبراير في يوم مطير، يشق طريقه عبر ريح قارسة وثلج منهمر. جاء ماشيا من محطة برامبلهيرست حاملاً حقيبة سفر صغيرة في يده المغطاة بالقفازات. كان ملفوفا من رأسه لقدميه وكانت حافة قبعته تغطى كل بوصة في وجهه، ما عدا أرنبة أنفه اللامعة.. وكان الثلج قد احتشد على كتفيه وصدره. مشى مترنحا نحو حانة (العربة والخيول) وهو أقرب للموت، فطوح بحقيبته وصاح:

- نار!.. باسم الأخوة البشرية.. غرفة ونار!

وراح ينفض الثلج عن نفسه في البار ومشى خلف مسز (هول) إلى قاعة استقبال الضيوف. أشعلت مسز هول النار وتركته هناك، ثم ذهبت لتعد وجبة بيديها. أن يتوقف ضيف في (إيبنج) في الشتاء لحظ غير متوقع، بالإضافة لهذا هو ضيف لا يهوى المساومة، وقد صممت أن تظهر أنها تستحق حظها الحسن. فما إن نضج اللحم وتم توبيخ مساعدتها الكسول (ميلى) ببعض عبارات الازدراء المنتقاة بعناية، حتى حملت الأطباق والأكواب إلى قاعة الطعام لتضعها بدقة عالية، وبرغم أن النار كانت متأججة فقد اندهشت لما وجدت أن ضيفها ما زال بالمعطف والقبعة يقف ناظرا من النافذة إلى الثلج في الفناء. ولاحظت أن الثلج الذي يسيل منه يتساقط على سجادتها. فقالت:

- هل لي أن آخذ معطفك وقبعتك يا سيدي لأجففهما في المطبخ؟

قال دون أن يستدير:

- لا..

كادت تكرر سؤالها فاستدار وقال لها:

- أفضل الاحتفاظ بهما..

ولاحظت أنه يلبس عوينات ضخمة تخفي عينيه، كما أنه يرفع ياقة معطفه عاليا فيخفي عنقه وذقنه بالكامل.

- كما تحب يا سيدي.. سوف تصير غرفتك دافئة حالاً.. لم يرد فشعرت بأن محادثتها معه كانت سيئة التوقيت. غادرت المكان للمطبخ وعندما عادت كان ما زال في مكانه كأنه من حجر، وضعت البيض واللحم ونادته:

- الغداء جاهز يا سيدي..

قال لها:

- شكرا..

ولم يتحرك حتى أغلقت الباب..

ثم استدار واتجه للمائدة بسرعة.

إذ كانت في المطبخ سمعت صوتا يتردد على فترات منتظمة:

تشيرك.. تشيرك.. صوت ملعقة تحتك بإناء. راحت تعد المستردة وهي توجه للفتاة (ميلي) بعض الصفعات اللفظية

لبطئها الشديد. لقد أعدت كل شيء بينما الفتاة ما زالك متعثرة في إعداد المستردة، انتهت من الطهي فحملت تلك المستردة إلى قاعة الطعام ودقت الباب ثم دخلت..

هنا تحرك الزائر بسرعة فرأت للحظة شيئا أبيض يتوارى خلف المائدة - يبدو أنه كان يلتقط شيئا من الأرض، رأت أن معطفه معلق على المقعد فهمّت بأن تأخذه مع القبعة، لكن الرجل قال وهو ينهض وبصوت مكتوم:

- دعي هذه القبعة..

نظرت له فوجدت أنه رفع رأسه وكان ينظر لها.

للحظة وقفت تنظر له مفتوحة الفم مندهشة عاجزة عن الكلام. كان يحمل قطعة قماش لفها أسفل وجهه ليخفي فمه وذقته تماما. لكن لم يكن هذا ما أخاف مسز هولز بل حقيقة أن رأسه فوق العوينات كان مغطي بالضمادات البيضاء.. بالواقع لم يكن هناك جزء عار من وجهه سوى طرف أنفه الوردي، كما أن الضمادات جعلت صوته مكتوما مخيفا.. كان هذا يفوق تخيلها لذا توقفت للحظة متصلبة. ومن جديد كرر:

- اتركي هذه القبعة...

بدأت أعصابها تتعافي من الصدمة التي تلقتها، فوضت القبعة من جديد جوار النار وقالت:

- آسفة يا سيدي. لم أعرف أن...

وتوقفت في ارتباك..

- شكرا..

قالها في برود وهو ينظر نحوها ثم إلى الباب ثم لها.. قالت:

- سأجففها يا سيدي..

وأخذت الثياب معها. وقبل أن تخرج نظرت لرأسه المغطى بالضمادات.. ارتجفت للحظة وهي تغلق الباب خلفها، وهمست لنفسها:

- لم يسبق لي أن ....

ثم دخلت بخفة إلى المطبخ. وأنساها الانشغال أن تلوم ميلي.

جلس الضيف يصغي لصوت خطواتها.. وواصل الطعام. مضغ مضغة ثم راح ينظر خارج النافذة ومضغ مضغة أخرى.

قلت مسز (هول) في المطبخ:

- البائس أصيب في حادث أو أجرى جراحة.. لشد ما أثارت هذه الضمادات رعبي..

ثم فردت ثياب الرجل فوق حامل فوق الفحم المشتعل..

- وعويناته.. بدا لي كأنه يلبس بدلة غطس أكثر منه رجلاً حيا.. وذلك المنديل على فمه طيلة الوقت.. يتكلم عبره....

واستدارت كأنها تذكرت فجأة.. وصاحت في الفتاة:

- ألم تنهي هذه البطاطس بعد يا ميلي؟..

عندما عادت لترفع الأطباق، خطر لها أن الرجل بالتأكيد جرح فاه كذلك، فقد كان يدخن الغليون وقد لف أسفل وجهه بالضمادات. كان جالسا في الركن وظهره للنافذة وقد شعر

بالدفء والشبع، فبدأ يتكلم بعدوانية أقل. وأضفت النار حيوية حمراء على عويناته كانت تفتقدها.

قال لها:

- لدي بعض حقائب في محطة (برامبلهيرست)...

وسألها كيف يجلبها وراح يصغي لشرحها. بدا متضايقا عندما قالت له إن هذا مستحيل قبل الغد.. اندمجت في محادثة على الفور تحكي له فيها كيف أن الطريق منحدرة، وقد انقلبت عربة هناك منذ عام ومات رجل هو والسائق.

- الحوادث تقع يا سيدي.. أليس كذلك؟

لكن الضيف لم يكن ممن ينجذبون للمحادثة بهذه السهولة. قال من وراء كمامته وهو يرمقها عبر عويناته:

- بالفعل.

- يحتاجون لوقت طويل كي يتعافوا.. هناك ابن أختي (توم).. قطع ذراعه بمنجل وقضى ثلاثة أشهر في المستشفى فليرحمني الله.. لهذا أخاف من أي منجل أراه..

قال الضيف:

- يمكنني فهم هذا..

أختي تخاف على أطفالها.. وكانت هناك ضمادات كثيرة يا سيدي.. ضمادات يجب وضعها وضمادات يجب نزعها.. فلو كان لي أن أعلق لقلت.....

- هل لديكِ بعض الثقاب؟

قالها الضيف فجأة:

- لقد انطفأ غليوني....

توقفت فجأة.. بالتأكيد كان هذا فظا منه بعد ما قالت له ما قالت. نهضت وجلبت له الثقاب فقال باقتضاب:

- شكرا.

واستدار وراح يحملق خارج النافذة من جديد. شعرت بالإحباط. يبدو أن الكلام عن الجراحات والضمادات ضايقه. على كل حال ضايقتها خشونته وقد صبت غضبها على الخادمة ميلي عصر اليوم.

ظل الضيف في قاعة الاستقبال ذلك اليوم حتى الرابعة دون أن يسمح لأحد بالتدخل في شئونه. فقط ظل جالسا في الظلام يدخّن وأحيانا بدا له يغفو وهو جالس.

أحيانا كنت تسمعه يمشي في الغرفة ويبدو أنه كان يكلم نفسه، ثم كان المقعد يئن عندما يعود للجلوس.

الفصل الثاني

انطباعات مستر تيدي هنفري الأولى

في الرابعة كان الظلام قد خيم، وكانت مسز هول تستجمع شجاعتها ما إذا كانت ستذهب لتسأل ضيفها إن كان يريد شايا. جاء تيدي هنفري الذي يصلح الساعات للبار..

- بالله يا مسز هول.. هذا طقس رديء بالنسبة لهذا الحذاء الخفيف!

وكان الثلج بالخارج ينهمر بغزارة. وافقته مسز هول ثم لاحظت أنه يحمل حقيبته. فقالت:

- هو كذلك.. من فضلك يا تيدي ما دمت هنا، فلم لا تلقي نظرة على الساعة العتيقة في قاعة الاستقبال؟.. إنها تدور وتدق جيدا، لكن عقرب الساعات متصلب عند رقم ستة..

واقتادته إلى قاعة الاستقبال فدقت الباب ودخلت. كان زائرها يجلس على شيزلونج أمام النار غافيا وقد مال رأسه لجنب، لم يكن من ضوء سوى النار التي أضاءت عويناته كإشارات السكة الحديد. كل شيء كان معتما غير واضح بالنسبة لها، لكن للحظة خيل لها أن فم الرجل مفتوح عن آخره.. فما واسعا يشغل نصف وجهه الأسفل بالكامل. كان انطباعا للحظة ثم حرك الرجل رأسه..

فتحت الباب أكثر ليغمر الضوء الغرفة فرأته بوضوح أفضل. لقد خدعتها الظلال. قلت:

- لو سمحت يا سيدي.. هذا السيد يريد أن يرى الساعة.. نظر لها وتكلم بطريقة شبه ناعسة:

- يرى الساعة؟.. بالطبع.

واعتدل في جلسته وتمطى. - دخل تيدي الغرفة ليجد نفسه أمام هذا الرجل الملفوف بالضمادات، وكما قال فيما بعد فقد (شُده). قال له الغريب:

- مساء الخير..

بدا لتيدي للحظة كأنه كابوريا بسبب العوينات الضخمة. فقال له:

- أرجو ألا يكون هذا تطفلاً..

- على الإطلاق، برغم أني فهمت أن الغرفة لي.. لاستعمالي الخاص....

قالت مس هول:

لكنني حسبت أنك يا سيدي تفضل أن يعنى أحد بالساعة..

- هذا يسعدني بالتأكيد

ثم استدار نحو نار المدفأة وقال:

- حتى ينتهي إصلاح الساعة، فلسوف أكون راغبا في بعض الشاي.

ثم سألها عن حقائبه فقالت إنها أبلغت ساعي البريد، ولن تصل الحقائب قبل الصباح.. قال لها:

- كان عليّ أن أشرح أنني باحث علمي، وفي حقائبي أدوات وأجهزة علمية.. لهذا أنا متلهف على الحصول عليها..

- لك هذا يا سيدي..

قال في تأن متعمد:

- سبب قدومي إلى (أبينج) هو.. رغبة في الوحدة.. لا أريد أن يضايقني أحد في عملي.. بالإضافة لهذا هناك حادث......

قالت مسز هول لنفسها:

- فكرت في هذا..

- ... يستوجب أن أستريح.. أحيانا تؤلمني عيناي بحيث أضطر للجلوس ساعات في الظلام.. وما زال دخول غريب للغرفة مصدر إزعاج عنيف لي...

- سوف أتأكد من هذا يا سيدي..

بعد ما غادرت مسز هول الغرفة، وقف ينظر للنار بينما راح مستر هنفري يصلح الساعة.

نزع العقربين ثم فك آليات الساعة كلها، وراح يحاول أن يعمل بأبطأ سرعة ممكنة. كان المصباح جواره وكان يلقي ضوءا أخضر على يديه والآلات، بينما ظلت الغرفة في الظلال.

كان بطبعه فضولها لذا قام بعمل ما لا ضرورة له، بغرض تأخير رحيله وربما تبادل محادثة مع الغريب. لكن الغريب ظل هناك صامتا ثابتا وهذا أرهق أعصاب هنفري. كلما رفع رأسه رأي الرأس الملفوف بالضمادات والعوينات وقد أحاطت به بقع

ضوء خضراء، وأدرك هنفري أن الرجل ينظر له مباشرة بمعني أنهما كانا يتبادلان النظرات. كان موقفا محرجا فعلاً.

هل يقول إن الجو بارد بالنسبة لهذه الفترة من السنة؟.. هنا جاء الصوت البارد في غضب مكتوم:

- لم لا تنتهي وترحل؟.. من الواضح أن كل المشكلة هي تثبيت عقرب الساعات على محوره.. ومن الواضح أنك (تهمبك)..

- بالطبع يا سيدي..

قالها هنفري وهو يرحل.. لكنه كان يشعر بضيق شديد واتجه للقرية عبر الثلوج المنهمرة وهو يقول لنفسه:

- اللعنة!.. ألا يستطيع المرء النظر لك أيها القبيح؟.. لو كان رجال الشرطة يبحثون عنك، لما كنت ملفوفا أكثر من هذا..

عند ركن (جليسون) قابل مستر (هول).. الزوج الجديد لصاحبة حانة (عربة وخيول) التي يقيم فيها الغريب. وكان يقود عربة النقل الجماعي الخاصة بالبلدة، قال له:

- كيف الحال يا تيدي؟ - عليك أن تهرع إلى دارك.. أوقف هول العربة وتساءل:

- ماذا؟

- رجل عجيب يقيم في حانة (العربة والخيول)..

وراح يصف لهول كل شيء عن الضيف الغريب:

- يبدو تنكرا.. عندما يقيم رجل تحت سقفي فأنا راغب في رؤية وجهه.. لكن النساء يثقن بالأغراب دائما.. لقد أعطته غرفة دون أن تعرف حتى اسمه!.. والأسوأ أنه سيقيم لفترة ومتاعه قادم لهذا كما قال..

وحكى لهول كيف أن عمته في هاستنجز خدعها غريب يحمل حقيبة فارغة. هكذا ترك هول غارقا في الشكوك.. فقال لجواده:

- هلم يا فتاة.. يجب أن أري هذا..

لكنه إذ عاد لزوجته تلقى الكثير من التوبيخ لأنه أمضى وقتا طويلاً في (سيدر بريدج)، ولم تعبأ بالرد على أسئلته الكثيرة.

لكن بذرة الشك التي زرعها تيدي نمت في عقل مستر هول أكثر وقد قرر أن يستقصي شخصية الضيف في أقرب فرصة ممكنة. بعد ما رحل الغريب لغرفة نومه - في التاسعة والنصف - هرع مستر هول بسرعة لقاعة الاستقبال وراح يتفقد الأثاث الخاص بزوجته، وفي ازدراء تفحص مجموعة من الحسابات الرياضية تركها الغريب.

عندما دخل الفراش ليلا طلب من مسز هول أن تفحص متاع الغريب بدقة عندما يصل.

قالت له مسز هول:

- فلتعن أنت بأمورك وأنا سأعنى بأموري..

كان الغريب بلا شك طرازا غير مألوف ولم تكن مستريحة له في عقلها. وفي قلب الليل صحت بعد كابوس رأت فيه حشدا من

الرءوس البيضاء كاللفت تطاردها ولها عيون سود واسعة. تناست مخاوفها وتقلبت وغاصت في النوم ثانية.

الفصل الثالث
ألف زجاجة وزجاجة

هكذا في التاسع والعشرين من فبراير عند بدء ذوبان الجليد، سقط هذا الغريب على قرية إيبنج من اللامكان. وفي اليوم التالي جاء متاعه.

كان هناك صندوقان بالإضافة لصندوق كتب.. كتب سميكة بعضها كتب بخط يد لا يمكن قراءته. وكانت هناك صناديق مليئة بالقش وتحوي أنابيب زجاجية كما وجد مستر هول. ظهر الغريب نافد الصبر وقد ارتدى معطفه وقبعته وقفازيه، ليلقى عربة (فيرنسايد). لم يلحظ الغريب كلب فيرنسايد الذي كان يتشمم قدمي (هول) في شغف.

قال:

- هلم بهذه الصناديق.. لقد انتظرتها ما يكفي..

وهبط الدرجات قاصدا مؤخرة العربة كأنما هو يريد حمل الصناديق الأصغر. ما إن رأه الكلب حتى انتصب شعره وازداد شراسة، ثم وثب بسرعة قاصدا يده..

صرخ هول وتراجع لأنه لم يكن بطلاً إذا تعلق الأمر بالكلاب، لكن فيرنسايد صاح:

- ارقد!!

وقبض على سوطه.

كانت أنياب الكلب قد مزقت القفاز ثم سمعا ركلة، ووثب الكلب هذه المرة على سروال الغريب وسمعاه يتمزق. هنا هوت نهاية سوط فيرنسايد على الكلب، فتراجع هذا مذعورا وهو يعوي في حسرة ليتوارى تحت عجلات العربة. لقد تم هذا في نصف دقيقة. لم يتكلم أحد بل صرخ الجميع.. نظر الغريب لقفازه الممزق وسرواله ثم هرع عائدا إلى الحانة. وسمعاه يسرع إلى غرفة النوم.

تسلق فيرنسايد جانب العربة والسوط في يده وصاح:

- أيها المتوحش!.. تعال هنا!

وقف هول يرقب الموقف وقال:

- لقد تلقى عضة.. من الأفضل أن أذهب لأراه...

ثم هرع يلحق بالغريب. وقابل مسز هول في الممر فحكى لها ما حدث. ثم صعد لغرفة الغريب بالطابق العلوي فكان بابه مواربا. فتحه ودخل دون إنذار، كانت الستائر مسدلة والغرفة سيئة الإضاءة. هنا خيل له أنه يرى شيئا يتحرك.. ذراعا من غير يد تلوح له.. ووجها يتكون من ثلاث بقع بيضاء غير محددة كأنها زهرة بنفسج شاحبة. ثم تلقى ضربة قوية في صدره فتراجع للخلف وانغلق الباب في وجهه.

تم كل شيء بسرعة لدرجة أنه لم يجد الوقت ليلاحظ وسرعان ما وجد نفسه في المدخل المظلم يتساءل عن حقيقة ما رأه.

بعد دقيقتين لحق بالمجموعة الصغيرة التي احتشدت عند مدخل الحانة. هناك كان فيرنسايد يحكي للرجال ما حدث للمرة

الثانية. كانت مدام هول تقول إن كلبه لا يحسن صنعا بعضّ النزلاء، وكان هناك هكستر المتسائل وساندي وادجرز الذي يصدر أحكاما. وكان هناك نساء وأطفال، والكل يقولون حماقات:

- لن أسمح له بأن يعضني..

- ليس من الحكمة الاحتفاظ بكلاب كهذه..

نظرت له مسز هول فوجدت أنه لا يملك الكلمات التي تتيح له التعبير عما رآه بالطابق العلوي. قال لها:

- لا يحتاج لعون.. من الأفضل أن نسرع بنقل متاعه..

قال مستر هكستلر:

- يجب أن يكوي الجرح حالا.. خاصة لو التهب..

هنا عاد الكلب ينبح من جديد. ودوي صوت غاضب عند المدخل:

- هلم!

هناك وقف الغريب وقبعته لأسفل تغطي وجهه وقال:

- كلما أحضرتم هذه الحقائب أسرع كلما سررتموني..

ولاحظ أحدهم أنه استبدل قفازيه وسرواله. سأله فيرنسايد:

- هل أنت بخير يا سيدي؟.. أنا آسف جدا لأن هذا الكلب......

- لا مشكلة.. الجلد سليم.. أرجو أن تسرعوا.

هكذا تم حمل أول صندوق - حسب تعليماته - إلى قاعة الاستقبال. انحنى فوقه الغريب وراح يفتحه في لهفة حقيقية.. وراح يلقي بالقش غير مبال بسجادة مسز هاول.

بدأ يخرج زجاجات صغيرة فيها مساحيق. وكانت هناك زجاجات أصغر تحوي سوائل - زجاجات ذات سدادات فلين.. زجاجات ذات سدادات لخشبية.. زجاجات عليها علامة (سم).. راح يرصها على (الشيفونيرة) ورف المدفأة.. لقد كان مشهدا عجيبا

سرعان ما فرغت الصناديق، فلم يبق فيها سوى القش وميزان صغير مما يستعمل في المختبرات. كان مشغولاً بهذا فلم يبال لحظة بالحقائب التي نقلت لغرفته.

عندما جاءته مسز هول بالعشاء كان منهمكا يصب قطرات السائل في أنابيب الاختبار، لم يشعر بها إلى أن وضعت الطعام على المنضدة وأزاحت القش بقدمها، لاحظت عندما رفع رأسه أنه نزع عويناته وبدا لها أن محجريه عميقان جدا.. وضع العوينات واستدار لها وقال:

- أرجو ألا تدخلي من دون قرع الباب.

- قرعت.. لكن من الواضح أن...

- ربما فعلت.. لكن في أبحاثي.. أبحاثي الخطيرة فإن أقل إزعاج... يجب أن أطلب منك أن..

- بالطبع يا سيدي ويمكنك أن تغلق الباب بالمفتاح لو أردت..

- فكرة طيبة.

- بخصوص هذا القش يا سيدي.. لو سمحت لي بالتعليق.

- لا تعلقي.. لو كان القش يضايقك فلتضيفي الإزعاج على الفاتورة....

كان منظره غريبا هناك وهو غاضب متفجر وأنبوب اختبار في يده.. حتى أنها شعرت بذعر، لكنها فرشت الشرشف على المنضدة فجلس..

ظل يعمل طيلة العصر والباب مغلق عليه. لا صوت إلا من مرة سمعت فيها صوت ارتطام والزجاجات تصطدم ببعضها.. ثم سمعت صوت خطوات تعبر الغرفة جيئة وذهابا. هرعت تصغي للباب فسمعته يقول:

- لا أستطيع الاستمرار.. لا أستطيع الاستمرار.. أنا أحمق.. أحمق!

سمعت صوت خطوات فاضطرت في أسف أن تعود للبار ولا تصغي لباقي المناجاة.

عندما جلبت له الشاي وجدت زجاجا مهشما في ركن الغرفة تحت المرآة. وكانت هناك لطخة سائل ذهبي تم مسحها بعناية قال الغريب وقد رأي نظراتها:

- بالله عليك أضيفي هذا للفاتورة.. أي ضرر أضيفيه للفاتورة.

☆ ☆ ☆

قال فيرنسايد في غموض:

- سأقول لك شيئا..

كان هذا في ساعة متأخرة من عصر اليوم، في حانة في أيبنج. فسأله تيدي هنفري:

- ماذا؟

- هذا الرجل الذي عضه كلبي.. إنه أسود تماما.. رأيت التمزق في سرواله وقفازيه.. من الطبيعي أن يظهر لون وردي.. أليس كذلك؟.. بلي.. لم يكن سوى السواد..

قال هنفري:

- رباه.. هذه حالة غريبة.. إن أنفه وردي كالدهان..

- أعرف.. هذا الرجل مبرقش.. أسود هنا ووردي هناك.. ومن الواضح أنه يخجل من ذلك.. هذه أشياء تحدث مع الخيول كما تعلم.

الفصل الرابع

مستر كاس يقابل الغريب

حكيتُ ملابسات وصول الغريب إلى إيبنج بشيء من التفصيل حتى يفهم القارئ ما خلّفه الرجل من انطباعات غريبة. ولكن باستثناء حادثين غريبين يمكن أن نمر مر الكرام بتفاصيل إقامته حتى جاء يوم احتفال النادي.

كانت هناك بعض مشادات مع مسز هول تتعلق بالنظام المنزلي، لكن حتى آخر إبريل . عندما بدأت علامات الضيق المالي تظهر عليه . كان يحل كل مشكلة بأن يدفع أجرا إضافيا.

لم يحبه مستر هول، وعندما يتجاسر كان يحكي عن ضرورة التخلص منه. وكانت مسز هول تقول له:

- انتظر حتى الصيف.. عندما يصل الفنانون سنرى. ربما كان مزعجا نوعا لكنه يدفع فواتيره بدقة..

لم يكن الغريب يذهب للكنيسة ولم يكن هناك فارق بين سلوكه يوم الأحد والأيام الأخرى، كان يعمل بشكل منقطع. أحيانا كان يبدأ العمل مبكرا وينشغل طيلة اليوم.. وفي أيام أخرى ينهض متأخرا ويدخن وينام جوار النار. لم يكن له اتصال بالعالم خارج القرية.. وكان مزاجه متقلبا.. أحيانا كان يمزق أو يهشم الأشياء.. وكان يكلم نفسه كثيرا لكن مسز هول لم تكن قادرة على تمييز ما يقول.

كان يخرج أحيانا لكنه يختار أكثر طرق مقفرة ويمشي متواريا بالأغصان، وكان الأطفال الذين يرونه يصابون بهلع..

لكنك لا تعرف إن كان يكره الأطفال أكثر أم هم يكرهونه أكثر.

كان من المحتم أن يسبب رجل يهذا المنظر الغريب فيضا لا ينتهي من الكلام والإشاعات في هذه البلدة. وكانت مسز هول تتعامل بحساسية شديدة مع من يسألها..

قيل من وراء ظهرها إن الضيف لص يتخفى بهذه الطريقة هربا من العدالة.. هذه الفكرة بدأت من عند مستر تيدي هنفري لكن لم يتذكر أحد أية جريمة يعود تاريخها لمنتصف فبراير. أما مستر جولد المساعد بالمدرسة فقد كان يؤمن أن الغريب فوضوي متنكر وهو يجهز المفرقعات لعملية كبري. قال إنه سيجري تحرياته عن هذا الموضوع، لكن هذه التحريات لم تزد على توجيه نظرات حادة للغريب كلما التقيا.

مستر فيرنسايد تزعّم مدرسة أخرى تقول إن الغريب مصاب بمرض جلدي جعله مبرقشا وهو حساس لذا يتحاشى العيون. البعض فكّر في تفسيرات ما وراء الطبيعة وبالذات بعد حادث أول إبريل. على كل حال مهما تباينت الآراء أجمع القوم في إيبنج على عدم الارتياح له.

وانتشرت في ذلك الوقت أغنية تقول (البعبع).. مس ستاتشل غنتها في حفل المدرسة.. ومن ذلك الوقت كلما التقى اثنان من القرية وظهر ذلك الغريب، كان مقطع من هذه الأغنية يتم تصفيره. وكان الأطفال يتصايحون بهذه العبارة عندما يرونه.

كان (كاس) - الطبيب الممارس العام - يموت من الفضول. أثارت الضمادات حماسته المهنية بالإضافة لموضوع الـ 1001 زجاجة. ظل ينتظر طيلة إبريل ومايو كي يجد فرصة للكلام مع

الغريب، بلا جدوى حتى لم يعد يتحمل أكثر، وسرعان ما قرر زيارة الفندق.

آثار دهشته آن مستر هول لا يعرف اسم ضيفه.. وقالت مسز هول:

- قال اسما لكني لم أسمعه.

وهو كلام غريب فعلا. هكذا اتجه كاس إلى باب قاعة الانتظار وقرع الباب ودخل. دوي صوت من الداخل وسمعته مس هول وزوجها كاس يقول:

- سامحني على تطفلي..

ثم انغلق الباب فلم تسمع مسز هول باقي المحادثة. سمعت لغطا ثم صرخة دهشة.. صوت مقعد يتحرك.. ضحك يشبه النباح.. ثم ظهر كاس على الباب بوجه أبيض تماما وهو ينظر فوق كتفه. ترك الباب مفتوحا خلفه ثم هرع يهبط في الدرج، وسمعا صوت خطواته تركض في الشارع.

وقفت خلف الباب تنظر.. هنا سمعت الغريب يضحك بصوت عال ثم عبرت خطواته الغرفة.

انطلق كاس إلى القرية حيث القس (بونتنج)، وصاح وهو يدخل المكتب الصغير:

- هل أنا مجنون؟ هل أبدو كمجنون؟

قال القس وهو يكتب موعظته القادمة:

- ماذا حدث؟

- هذا الرجل في الحانة...

- ماذا به؟

- أريد شيئا أشربه، .....

وجلس..

هدأت أعصابه بكأس من الشيري.. ثم بدأ يحكي للقس لقاءه الغريب مع الرجل:

- ذهبت هناك بزعم البحث عن تركيب وصفة طبية للممرضة (فاند). عندما دخلت وضع يديه في جيبيه وجلس على مقعده. قلت له إني سمعت أنه ذو اهتمامات علمية، قال نعم، وكان لا يكف عن الاستنشاق بصوت مسموع من أنفه. ربما أصيب ببرد شديد مؤخرا، ولا عجب أن يحدث هذا وهو ملفوف بكل هذا!. وكنت أنظر من حولي فأرى شتى الزجاجات وأنابيب الاختبار. سألته إن كان يجري بحثا علميا فقال نعم.. سألته إن كان البحث طويلاً فقال في ضيق: بحث طويل لعين..

بدا كأنني انتزعت سدادة منه، ومنها خرج كل ما يكتمه من ضيق.. لقد فجر سؤالي كل ما لديه من إحباط. هنا تحرك الهواء فطارت وصفة الدواء التي كتبتها لتحترق في نار المدفأة.. مد يده بسرعة ليمسك بها قبل أن ترتفع في المدخنة، هنا رأيت ذراعه...

- حسن؟

- لا يدا.. مجرد كم فارغ!... رباه.. حسبت هذا تشوها. ثم قلت لنفسي إن هناك شيئا غريبا في هذا.. فما الذي يبقي الكم واسعا مفتوحا ما دام لا شيء فيه؟.. أؤكد لك.. لا شيء حتى

الكوع.. هكذا صرخت (ريباه!)؟! فنظر لي بعويناته السوداء ثم نظر لكمه....

- حسن؟

- هذا كل شيء.. لم يتكلم.. أعاد كمه لجيبه وقال: كما كنت أقول. لقد احترقت الوصفة.. فسألته: كيف تقدر بحق السماء أن تحرك كما فارغا هكذا؟.. قال لي: كم فارغ؟.. ثم نهض فنهضت كذلك.. اتجه نحوي بثلاث خطوات بطيئة ووقف جواري.. لم أتحرك برغم أن هذه الضمادات كافية بأن تجرد أي واحد من أعصابه.. قال لي: قلت إنه كم فارغ؟ فقلت: نعم. هنا ببطء أخرج كمه من جيبه ورفع ذراعه كأنما يريد أن يريها لي.. بدا لي هذا كقرن..

بدأت أفقد أعصابي. لقد كان يمد ذراعه نحوي ببطء شديد شديد.. حتى صار الكم على بعد ست بوصات من وجهي، كان الكم فارغا فعلاً..

- حسن؟

- وشعرت بشيء كإبهام وإصبع يعركان أنفي.... هنا راح القس يضحك قال كاس:

- لم يكن هناك شيء.. من السهل أن تضحك.. لكن أؤكد لك أن الهلع أصابني، جريت مغادرا المكان..

ثم توقف كاس. لم يكن هناك شك في صدق رعبه. تناول كأسًا أخرى من شراب القس.. وقال:

- ضربت كمه بيدي.. فشعرت بالضبط بأنني أضرب يدا.. لكن لم تكن هناك يد!..

فكر مستر بونتنج في الأمر ونظر في شك لكاس:

- هذه قصة غريبة.

وبدت عليه علامات الحكمة والجدية، ثم أردف:

- هذه بالفعل قصة غربية ومثيرة.

الفصل الخامس

اللص في مقر القس

بلغتنا أخبار السطو على مقر القس عن طريق القس نفسه وزوجته. صحت مسز بونتتج من النوم وسط الصمت المعتاد قبل الفجر، وقد شعرت أن باب غرفة النوم انفتح وانغلق. لم توقظ زوجها بل جلست تصغي. ثم سمعت صوت قدمين حافيتين تضربان الأرض في الغرفة المجاورة..

ما إن تأكدت من هذا، أيقظت زوجها مستر بونتتج بهدوء. لم يوقد نورا بل وضع عويناته والروب والخفين، ثم خرج ليصغي. سمع من يعبث في مكتبه بالطابق السفلي ثم عطسة عنيفة.

هكذا عاد لحجرته وتسلح بأقرب سلاح وجده وهو محراك النار، ثم نزل في الدرج متحاشيا الضوضاء قدر الإمكان، كانت الساعة الرابعة صباحا وقد بدأ ظلام الليل الدامس يخف.. وكان هناك ضوء خافت في الصالة لكن باب غرفة المكتب كان أسود تماما.

فجأة وثب شيء وانفتح درج وكانت هناك أصوات أوراق تحتك. ثم اشتعل عود ثقاب وغرق المكتب في ضوء أصفر، واستطاع أن يرى من موضعه شمعة تشتعل ودرجا مفتوحا لكنه لم ير اللص. وقف هناك لا يعرف ما يفعل. لكن شيئا واحدا جعله شجاعا هو أنه أيقن أن اللص من سكان القرية، ثم سمعا صوت الذهب فعرفا أن اللص وجد مدخراتهما من الذهب..

هنا شعر مستر بونتنج بضرورة التحرك، فقبض على المحرك والدفع للغرفة وهو يصيح (استسلم!).. وتبعته مسز بونتنج. هنا توقف مذهولا.. فالغرفة كانت خالية

لكن شعورهما بأن هناك من يتحرك في الغرفة صار يقينا. ولنصف دقيقة وقفا فاغري الفم ثم هرع مستر بونتنج يعبر الغرفة لينظر خلف الستار. ثم اتجهت زوجته لتتفحص المدفأة وأولجت فيها محراك النار. وتفقد هو سلة المهملات..

في النهاية وقفا ينظران لبعض.. وقال:

- كان بوسعي أن أقسم..

قالت زوجته:

- الشمعة.... من أشعل الشمعة؟

- والدرج؟.. والمال الذي اختفى؟

هرعت الزوجة إلى الباب هنا سمعت عطسة قوية في الردهة فاندفعا للخارج.. وإذ فعلا هذا انغلق باب المطبخ. صاح فيِر زوجته:

- هاتي الشمعة..

واقتاد الطريق. هنا سمعا صوت مزاليج تنفتح.

إذ فُتح باب المطبخ رأى أن الباب الخلفي للمطبخ ينفتح ببطء وقد تسرب ضوء الفجر لتظهر الحديقة الخلفية. يعرف يقينا أنه لم ير شيئا يخرج من الباب.. وتوهجت الشمعة التي تحملها مسز بونتنج.

مرت دقيقة قبل أن يدخلا المطبخ.

كان المكان خاليا.. أغلقا الباب ثانية وتفحصا المطبخ ومغسلة الأطباق. لم يكن هناك مخلوق في البيت كله.

بزغ ضوء النهار على القس وزوجته وهما ما زالا يفتشان في بيتهما على ضوء شمعة لم يعد لها لزوم.

الفصل السادس

الأثاث يجن

ما حدث في الساعات الأولي من يوم الاثنين التالي لعيد الفصح، هو أن مستر ومسز هول استيقظا ونزلا إلى القبو. كان ما سيقومان به ذا طبيعة خاصة، له علاقة بالكثافة النوعية للبيرة التي يقدمانها. بعد ما نزلا للقبو تذكرت أنها نسيت أن تجلب زجاجة النبيذ.

بما أنه كان الخبير في هذا الصدد، فقد صعد يبحث عن الزجاجة، هنا اندهش لمّا رأى أن غرفة الغريب مفتوحة. ذهب لحجرته وأحضر الزجاجة التي أرادها فلما عاد لاحظ أن مزلاج باب الحانة مفتوح وأن الباب مغلق فقط بقفل (اللاتش). هكذا ربط بين هذا وباب غرفة الغريب.

توقف وفمه مفتوح.. ثم صعد إلى الطابق الثاني من جديد.

دق على باب الغريب.. لا إجابة. دق ثانية ثم فتح الباب ودخل، كما توقع كانت الغرفة خالية تماما، وعلى الفراش رأى الثياب.. الثياب الوحيدة التي يعرفها لدى الغريب.. وكانت الضمادات ملقاة كذلك.

وقف هناك يتأمل، عندما سمع صوت زوجته من القبو.. تناديه بتلك الطريقة التي ترفع نغمة آخر كلمة، والتي يستخدمها فلاحو (وست سوسكس) لتعكس نفاد صبرهم.

هرع إلى القبو ليخبرها:

- جيني.. يبدو أن هنفري محق.. والغريب ليس في غرفته والباب قد فُتح مزلاجه

لم تفهم مسز هول أولا ثم عندما فهمت قررت أن تري غرفة الغريب بنفسها. لحق بها زوجها قائلاً:

- لو لم يكن هنا فثيابه موجودة.. ماذا يفعل بلا ثياب؟.. هذا أمر خطير..

خيل لهما أنهما سمعا الباب الأمامي يُفتح ويُغلق. كانت تسبقه في المشي عندما عطس شخص ما. خيل لها أن زوجها يعطس.. ثم أنها بلغت الغرفة ففتحت الباب وألفت نظرة:

- يا للغرابة!

سمعت من يشهق من أنفه بجوارها فاستدارت لتجد لدهشتها أن (هول) على بعد 12 قدما. وضعت يدها على الوسادة ثم تحت الثياب وقالت:

- باردة... لقد غادر منذ ساعة أو نحو ذلك..

هنا حدث شيء غريب.. فجأة تجمعت ملاءات السرير معا ثم ارتفعت كجبل صغير وطارت فوق حاجز الفراش... كأن يدا خفية كومتها وقذفت بها.

بعد هذا وثبت الإسفنجة من حوض الغسيل، وسرعان ما راحت الأشياء بالحجرة تتواثب.. طار المقعد ليضربها برفق في أسفل ظهرها ودفعها وزوجها خارج الغرفة. ثم انغلق الباب وأزيح المزلاج، ثم ساد الهدوء.

كانت مسز هول فاقدة الوعي تقريبا.. وقد تعب مستر هول والخادمة ميلي جدا حتى تمكنا من نقل السيدة للطابق السفلي، مع محاولة إنعاشها بالسبل المعتادة.

كانت تردد:

- عفاريت!.. عرفت هذا!.. قرأت عنها.. لا تدع هذا الرجل يدخل ثانية. كان عليّ أن أعرف هذا منذ البداية بهذه الضمادات والعوينات. ولا يذهب للكنيسة يوم الأحد.. لقد دخلت الأرواح الأثاث. أثاثي العزيز.. هذا المقعد الذي ضربني كان مقعد أمي...

أرسلوا ميلي لتوقظ (ساندي وانجرز) الحداد. كان رجلاً واسع الحيلة وقد سمع القصة فقال:

- فلألعن إن لم يكن هذا سحرا..

هنا انفتح الباب بالطابق العلوي، ونزل الغريب بثيابه المعتادة.. لكن عينيه الواسعتين كانتا تنظران لهم في ثبات.. لم يبعد عينيه لحظة.. مشي في الممر ثم توقف.

قال لهم:

- انظروا!....

راحوا يتابعون أصبعه المغطى بالقفاز فرأوا زجاجة نبيذ على باب القبو، ثم دخل غرفة الاستقبال وأغلق الباب في وجوههم بعنف وعصبية.

لم يتكلم أحد.. تبادلوا النظرات إلى أن قال وادجرز:

- سوف أدخل وأسأله.. أنا أطالب بتفسير.

اتجه الزوج إلى باب الغرفة وفتحه وقال:

- أرجو المعذرة....

هنا صاح الغريب بصوت مرعب:

- اذهب للشيطان!.. أغلق الباب خلفك! وهكذا انتهت المقابلة القصيرة،

الفصل السابع

كشف سر الغريب

دخل الغريب قاعة الاستقبال في حانة (العربة والخيول) في الخامسة والنصف صباحا، وظل هناك حتى الظهيرة، والستائر مسدلة والباب مغلق ولا أحد يجسر على الدنو منه.

لابد أنه لم يأكل شيئا طيلة هذا الوقت، وقد قرع الجرس ثلاث مرات.. الثالثة كانت بعصبية وبإصرار لكن لم يجبه أحد وقالت مسز هول:

- فليذهب للجحيم..

كانت حكاية سرقة مقر القس قد ذاعت، وبدأ البعض يربط بين القصتين.. وقد ذهب مستر هول مع وادجرز إلى رئيس الشرطة (شاكلفورث) لأخذ رأيه.

لا يعرف أحد كيف كان الغريب يمضي وقته، فقط تسمع من حين لآخر سبابا أو صوت تمزيق ورق، وتزايد عدد المذعورين في الحانة، وجاء عدد كبير من الناس وبعضهم تطوع بأن يختلس نظرة عبر الستائر إلى حيث كان الغريب، لكنهم لم يروا شيئا.

كان هذا اليوم بالذات أروع احتفال بيوم الإثنين الذي يلي عيد الفصح. وكانت القرية كلها تحتفل وقد ارتدى الجميع أفضل وأزهى ثياب لديهم، وكانوا يلوحون بأعلام (يونيون جاك) في الطرقات..

بينما الغريب في ظلام قاعة الاستقبال يجلس وحده. جائعا بالتأكيد وربما خائفا.. عاكفا على أوراقه وهو مدثر بثيابه وأربطته المعتادة. وجوار المدفأة تناثرت بقايا أنابيب اختبار هشمها وكانت رائحة الكلور الخانقة تتصاعد في الهواء.

عند الظهيرة فتح باب قاعة الاستقبال ووقف يحملق في ثبات في ثلاثة أو أربعة أشخاص في البار. ثم نادي:

- مسز هول!

ذهب أحدهم مذعورا ينادي مسز هول. بعد قليل ظهرت السيدة وقد انقطع نفسها لكنها أكثر شراسة. كانت قد رتبت لهذا المشهد وأعدت صينية عليها فاتورة الإقامة وقالت:

- هل تريد الفاتورة يا سيدي؟

قال لها:

- لماذا لم تعدي إفطاري؟.. هل تحسبينني أعيش من دون طعام؟

قالت مسز هول:

- ولماذا لم تدفع فاتورتي؟.. هذا ما أريد معرفته..

- قلت لك منذ ثلاثة أيام إنني أنتظر تحويلاً.

- وأنا أنتظر منذ خمسة أيام أن أحصل على مالي.. فلماذا تشكو من أنني لم أعد لك الطعام؟

أطلق الغريب سبة قصيرة لكنها معبرة، كان يبدو كخوذة غطس غاضبة أكثر من أي وقت سابق، وشعر الجميع بأنها

انتصرت عليه.. قال لها:

- انظري يا سيدتي الطيبة..

- لا تدعني بالسيدة الطيبة...

- أنا بانتظار الحوالة لكن في جيبي من الفضة ما......

- من أين جئت بالفضة؟

بدا أن هذا السؤال أغاظه جدا.. لكن المرأة، واصلت الكلام:

- قبل أن آخذ أي مال أو أجلب لك إفطارا عليك أن تخبرني بشيء لم أفهمه، ولم يفهمه أحد هنا، ويشتاق الجميع إلى فهمه.. ما الذي فعلته لمقعدي بالطابق العلوي؟.. وأريد معرفة كيف كانت حجرتك خالية ثم عدت لها؟....

هنا رفع الغريب يده المغطاة بقفاز وضرب الأرض بقدمه وقال:

- كفي!

حتى أنه أخرس الجميع، وقال:

- أنتم لا تفهمون.. لا تعرفون من أنا ولا ما أنا.. بالله عليكم سترون ثم مد يده إلى وجهه وانتزع شيئا.. صار مركز وجهه فجوة سوداء وهتف:

- هنا!

ومد يده بشيء لمسز هول فأخذته بشكل تلقائي وهي تنظر لوجهه. ثم رأت ما هو فصرخت بأعلى صوتها ورمته أرضا.

كان هذا هو أنف الغريب.. اللامع الوردي.. يتدحرج على الأرض.

ثم نزع عويناته فشهق الجميع.. ثم مزق أربطة رأسه.. قاومته للحظة فسادت لحظة من الترقب الخائف في البار، ثم طارت الأربطة.

كان هذا أسوأ من أي شيء. وقد وقفت مسز هول وقد صعقها الرعب، وراحت تصرخ.. الكل راح يفر.. لقد تأهبوا ليروا ندوبا أو تشوهات لكنهم لم يتأهبوا لرؤية لا شيء...

لقد طارت الضمادات وخصلات الشعر المستعار في البار، فتواثب الناس وثبات خرقاء لتفاديها. تعثر الكل بالكل. لقد صار الرجل عبارة عن ياقة معطف يطل منها لا شيء على الإطلاق!

سمع الناس في القرية الصراخ وإذ نظروا رأوا أن الحانة تفرغ ما فيها من بشر..

رأوا مسز هول تسقط على الأرض، ومستر هنفري يتعثر حتى لا يسقط فوقها. ثم سمعوا صراخ ميلي التي كانت قد خرجت من المطبخ لتصطدم بالغريب من الخلف. وسرعان ما راح الناس من كل صوب يهرعون نحو الحانة.

بدا أن كل إنسان يرغب في الكلام وكانت النتيجة هي برج بابل. وكان الجميع شهود عيان:

- عفريت....

- أتراه آذى الفتاة؟

- رجل بلا رأس.. هذا مؤكد..

- كلام فارغ... مجرد لعبة حواة..

وتكوم الناس قرب الباب وقد صار أكثرهم حبا للمغامرة هم الأقرب.

- لقد استدار للفتاة.. هربت منه لكنه لحق بها ثم عاد وهو يحمل سكينا في يد ورغيفا في اليد الأخرى. أؤكد لكم أنه بلا رأس..

جاء مستر بوبي جافيرس الكونستابل ثم مستر وادجرز. كانوا يحملون الآن إذن تفتيش فتصايح الناس.

صعد مستر هول الدرجات واتجه لباب غرفة الاستقبال. فتح الباب وصاح:

- أيها الكونستابل.. قم بعملك.

فجأة رأوا في الضوء الخافت ذلك الجسد بلا رأس يواجههم وهو يحمل في يد قطعة من الجبن، وفي الأخرى رغيف خبز.

قال هول:

- هذا هو!

من فوق الياقة الفارغة جاء الصوت:

- ما هذا بحق الجحيم؟.. ابتعدوا عني.

ثم ألقي بالجين والخبز. بسرعة التقط مستر هول السكين الموضوعة على المنضدة ليمنعه من أخذها. نزع الغريب قفازه الأيسر وألقاه في وجه (جافيرس) فمد جافيرس يده وأطبق على عنقه غير المرئي، تلقى لكمة عالية في ذقنه جعلته يصرخ ألما.

التحم الرجلان وراحا يتبادلان الضربات. ارتطما بمقعد فهوى أرضا متحطما، وصاح جافيرز:

- تمسك بقدميه!

حاول مستر هول أن ينفذ ما طُلب منه، لكنه تلقي ركلة عنيفة في ضلوعه شلته للحظات. ورأى وادجرز أن الغريب الذي لا رأس له يوشك على الانتصار على جافيز.

تراجع للباب وقد أخذ السكين معه فاصطدم بمستر هاكستر وسائق عربة سيدريريدج وقد جاءا ليساعدا العدالة: هنا سقطت ثلاث زجاجات من الشيفونيرة وفاحت رائحة قوية في الجو.

صاح الغريب:

- سوف أستسلم

برغم أنه غلب جافيرز فعلا، وفي اللحظة التالية وقف يلهث.. بلا رأس ولا يدين لأنه انتزع قفازه الآخر. كان من الغريب جدا أن تسمع هذه الكلمات تأتي من فضاء خال. لكن فلاحي سوسكس هم أكثر الناس عملية على ظهر الأرض.. لهذا لم يضيعوا وقتا في الدهشة..

نهض جافيرز وأخرج زوجا من الأصفاد ثم توقف وقد أدرك ما في الموقف من تناقض:

- تبا.. ليس بوسعي استعمال الأصفاد!

مد الغريب يده لمعطفه.. وكأنما تم ذلك بمعجزة انفتح المعطف.. ثم بدا أنه يعبث بجوربه وحذاءيه..

صاح هكستر:

- هذا ليس رجلاً.. إنه مجرد ثياب خالية.. يمكنك أن ترى بطانة ثيابه.. يمكنني أن أضع ذراعي.

ومد يده لجسد الرجل، لكن اصطدم بشيء ما فتراجعت يده.

قال الصوت:

- أتمنى لو تبعد يدك عن عيني.. الواقع أنني موجود هنا بالكامل.. فقط أنا غير مرئي.. هذا شيء مزعج لكنها الحقيقة لكن هذا ليس سببا يبرر أن تفقأ عيني كل بطيخة غبية في أيبنج.. أليس كذلك؟

رجال كثيرون كانوا قد دخلوا الغرفة.

قال هكستر متجاهلا شكوى الغريب:

- غير مرئي.. هه؟.. من سمع عن هذا؟

- هذا غريب ربما لكنها ليست جريمة.. فلماذا يهاجمني رجال الشرطة؟

قال جافرز:

- بالفعل غريب.. لكن دعني أقل لك إنني هنا ليس لجريمة (الاختفاء) بل لجريمة السطو.. لقد سرق منزل.. واستُلب مال.. والظروف تشير إلى....

قال الرجل الخفي:

- هراء!

- أتمنى هذا يا سيدي.. لكن عليّ أن أنفذ تعليماتي.

- ليكن. أنا آت معك لكن لا أصفاد..

- هذه هي القواعد يا سيدي..

أصرّ الغريب:

- لا أصفاد...

جلس الغريب.. وقبل أن يفهم أحد ما يحدث طار جوربه وسرواله ثم المعطف..

صاح جافيرز وقد أدرك ما يحدث:

- هيه.. كف عن هذا..

أمسك بالمعطف لكنه خرج في يده فارغا

- امسكوا به.. لو نزع هذه الثياب فلسوف..... لم يعد هناك سوى قميص أبيض على الغريب، وسرعان ما ارتفع عن جسده فلم يعد مرئيا.. تصايح الناس:

- أوقفوه!.. لا تجعلوه يهرب!... أغلقوا الباب!

وراحوا يضربون كل الاتجاهات في خرق.. وبدا أن كل واحد تلقى ضربة في اللحظة ذاتها، تلقي فيبس الموظف الحكومي ضربة هشمت أسنانه الأمامية، وتهشم غضروف أنف هنفري. ضُرب جافيرز تحت الفك، ثم شعر بصدر عضلي يضرب وجهه، وسرعان ما اندفع الرجال الهائجون المضروبون إلى الممر. كان جافيرز يصرخ وقد احتقن وجهه وبرزت أوردته ممسكا بشيء ما:

- لقد قبضت عليه!

واندفع عبر الدرجات التي تصعد إلى الحانة، ثم سقط على رأسه فوق الحجارة. تعالت الصيحات:

- أمسكوه!... غير مرئي!!....

وظهر شاب غريب لا يعرف أحد اسمه وأمسك بشيء لكنه أقلت منه فسقط على الكونستابل. وعبر الطريق صرخت امرأة إذ راح كلبها يعوي ويجري نحو فناء (هسكتر)، وهكذا تم عبور الرجل الخفي.

ولفترة وقف الناس مذهولين بشوحون.. ثم جاء الذعر فتفرقوا في أرجاء القرية كما يبعثر النسيم أوراق الشجر. لكن جافيرز ظل حيث هو، ووجهه ينظر للسماء وركبتاه مثنيتان عند أسفل درج الحانة.

الفصل الثامن

في الفرار

الفصل الثامن مختصر جدا، ويحكي عن جيبونز عالم الأحياء الهاوي بالمنطقة، الذي كان يرقد في مكان منعزل بلا أي مخلوق على بعد ميلين منه. وكان ينعس تقريبا عدما سمع بقربه صوت رجل يسعل.. يعطس.. ثم يسب بغلظة..

نظر حوله فلم ير شيئا.. لكن لم يكن هناك جدل حول الصوت كان يسب ويلعن، لكن بطريقة توحي برجل مثقف.. تعالى الصوت ثم تلاشى..

لم يكن جيبونز قد سمع أي شيء عن حادث الصباح، لكن ظاهرة الصوت كانت غريبة لدرجة أن النوم طار من عينيه.. نهض وهرع نحو منحدر التل المتجه للقرية بأسرع ما استطاع.

الفصل التاسع

مستر توماس مارفيل

لابد من أن تتخيل مستر توماس مارفيل، كرجل ضخم له وجه رخو وأنف أسطواني وفم متموج ولحية شائكة عجيبة، أما جسده فأقرب إلى الامتلاء، كان يلبس قبعة مشعة ويستعمل أربطة الأحذية بدلا من أزرار سترته مما يدل على أنه أعزب.

كان يجلس وقد أراح قدميه في مصرف ماء على طريق (أبردين) على بعد ميل ونصف من إيبنج. وكانت قدماه مسترخيتين باستثناء جوربين مليئين بالثقوب. كان يجرب حذاءين ذوي عنق.. أفضل حذاءين وجدهما منذ زمن لكنهما كانا كبيرين عليه. كان يكره الأحذية الواسعة لكنه يكره الأحذية التي يتخللها البلل أكثر، كان اليوم صحوا لذا وضع أحذيته الأربعة

في صف واحد وراح يتأملها. هنا سمع صوتا من خلفه يقول:

- هي مجرد أحذية.

قال مستر توماس وقد أمال رأسه ليرمق الحذاءين في غير رضا:

- هي أحذية صدقة.. لا أعرف أيهما أكثر قبحا؟

قال الصوت:

- هذا بلد لعين.. وأناسه خنازير قال مستر توماس:

- أليس كذلك؟.. وتلك الأحذية اللعينة.. إنها تغلب كل شيء!

ولم يرفع عينيه عن الحذاءين. ثم استدار لجانب كي ينظر إلى حذاء محدثه.. هنا وجد أنه لا يوجد حذاء ولا قدم!. أصيب بذهول تام:

- أين أنت؟

لم ير سوى منخفضات خالية والريح تؤرجح الأغصان الخضراء البعيدة.

قال مستر مارفيل:

- هل أنا ثمل؟.. هل أكلم نفسي؟

قال الصوت:

- لا تخف....

- بل ستخاف أنت حالاً أيها الأحمق السخيف.. دعني أضع علامتي على...

ونهض حافي القدمين لا يجد كلمات يقولها.

- إنها الطيور.. لابد أنني شربت كثيرا.. كان على أن أتوقع هذا....

قال الصوت:

- ليس الشراب.. حاول أن تهدأ...

لكنه ظل ينظر له وهو يتأرجح للأمام والخلف ويقول:

- أقسم أنني سمعت صوتا..

- بالفعل

أغمض عينيه ووضع يده على حاجيه بحركة درامية. فجأة جذبه شيء من ياقته وراحت يد خفية تهزه بعنف حتى شعر بدوار.

- أنا قد جننت.. أو ربما هي عفاريت.

- لا هذا ولا ذاك.. تماسك.. وإلا رحت أقذفك بالحجارة إلى أن تعود لصوابك..

وشعر الرجل بأن هناك من يثقب صدره بإصبعه. راح يحك رأسه ومؤخرة عنقه وقد استبد به الرعب. وقال:

- إذن ما أنت؟

هنا رأي قطعة صخر ترتفع في الهواء نحوه.. وتوقفت هناك قرب رأسه ثم هوت ساقطة على إصبع قدمه. حاول أن يركض هاربا لكنه تعثّر في عقبة غير مرئية وسقط مقلوبا ليجد نفسه جالسا على الأرض..

من جديد حلقت صخرة جديدة فوق رأس المتشرد، وقال الصوت:

- والآن.. هل أنا وهم؟

جلس مستر (مارفيل) عاجزا عن الحركة.. وراح يراقب القذيفة المعلقة فوق رأسه. وقال:

- لا أفهم هذا.. صخور تقذف نفسها.. صخور تتكلم.. اهدأ يا صاحبي.. لقد انتهي أمري..

قال الصوت:

- الأمر سهل.. أنا رجل خفي.

قال المتشرد وهو يئن ألما:

- قل شيئا لا أعرفه.. فقط لا أعرف كيف فعلت هذا.

- حسن.. لتفهم هذا.. أنا خفي.. وهذه النقطة الأهم وأنا على بعد ستة ياردات منك..

- هل تعني أنك شفاف كالهواء؟

- بالضبط.

هنا وثب المتشرد رعنا فقد قرصه الغريب.. ثم مد يده فتحسس اليد.. صعدت إلى معصم عضلي ثم صعدت إلى وجه ذي لحية.. قال في هلع:

- هذا عجيب.. يفوق في إثارته صراع الديكة.. وبرغم هذا أري كل شيء من خلالك..

ثم دقق أكثر وقال:

- كنت تأكل خبزا وجبنا منذ وقت قريب؟

- نعم.. وهذا المشهد ليس سارا كما تظن.. والآن أريد أن تفهم أنني إنسان أحتاج للطعام والملبس.. كنت أركض في الشوارع عاجزا عاريا بردان.. كنت مستعدا لقتل أي واحد ثم وجدتك.. هل تفهم؟

- ريباه!

- هنا قلت لنفسي: هذا هو رجلي.. إنه منبوذ مثلي بالضبط.. وأنا أريد أن تساعدني في العثور على ثياب ومأوى وكذا أشياء أخرى تركتها... لكنك ستفعل.. ستفعل....

نفع المتشرد خديه واتسعت عيناه.

قال الصوت:

- سوف تنفذ ما أطلبه.. أنت الوحيد الذي يعرف - مع هؤلاء الحمقى - أن هناك شيئا يدعي الرجل الخفي. لو ساعدتني سوف أحقق لك الكثير.. إن الرجل الخفي لرجل قوي.... ثم عطس بقوة.. وأضاف:

- أما لو تلاعبت بي.......

ودق على كتف الرجل دقة ذات معنى، فشهق الرجل من الخوف.. وقال:

- لن أخونك.. فقط قل لي يا سيدي ما تريد أن أفعله. ولسوف أنفذه على الفور..

الفصل العاشر

زيارة مستر مارفيل لإيبنج

بعد ما زال الرعب الأولي ساد الجدل قرية إيبنج. وبدأ نوع من التشكك فيما رأوه يغزو النفوس.. من السهل جدا ألا تؤمن بوجود رجل خفي.. لذا صار هؤلاء الذين رأوه يختفي أو يلمسهم بيده قلة يمكن عدها على الأصابع، ومن ضمن شهود العيان كان مستر وادجرز الذي توارى خلف أبواب ومزاليج بيته المغلق. وكان جافيرز في الحانة مذهولاً.

كانت القرية ما زالت في ثياب الاحتفال والرايات في كل مكان. لقد انتظروا يوم الإثنين هذا منذ شهر، لذا عند الظهيرة كان الشهود أنفسهم قد نسوا ما رأوه واندمجوا في الاحتفالات، وافترضوا أنه رحل بينما قال المتشككون إنه لا وجود له.

كانت هناك خيام تعد فيها النسوة الشاي، بينما راح أطفال مدرسة الأحد يتسابقون في الشمس. وكانت هناك الكثير من المراجيح، وحفل راقص على العشب، مع بعض الألعاب العنيفة التي راقت للمراهقين جدا، بينما وقف أعضاء النادي بستراتهم المميزة وقد علقوا عليها الشرائط الملونة، بالطبع كان هناك جو من عدم الارتياح في الجو.

في الساعة الرابعة جاء غريب إلى القرية. كان قصير القامة متين البنيان متقطع الأنفاس، وكان خداه رخوين مكتنزين. وكان وجهه يحمل أمارات الرعب..

دار حول الكنيسة قاصدا حانة (العربة والخيول). رآه مستر فليتشر بوضوح هناك حيث جلس على باب داره، وقد أثار انتباهه الذعر البادي على الرجل. لقد بدا كان الغريب يكلم نفسه.. توقف الغريب عند درجات حانة (العربة والخيول) وحسب شهادة مستر فليتشر فقد بدا كأنه يخوض صراعا نفسيا شديدا قبل أن يرغم نفسه على الدخول. في النهاية رآه مستر هكستر يدخل قاعة الاستقبال، سمع أصواتا تلوم الغريب على دخوله:

- هذه الغرفة خاصة

كان هذا صوت هول، فأغلق الرجل الباب واتجه للبار. بعد لحظات ظهر من جديد وهو يمسح فمه بيده وقد بدا راضيا، وراح ينظر حوله لبعض الوقت. ثم رأوه يتجه لبوابة الفناء التي تنفتح عليها نافذة غرفة الاستقبال. بعد تردد انحنى الغريب.

واستند على جانب البوابة وبدأ يحشو غليونا. أشعله ويده ترتجف ثم راح يدخن متظاهرا بالاسترخاء.. استرخاء كذبته نظراته إلى الفناء.

كل هذا رآه مستر هكستر.

وقف الغريب ووضع الغليون في جيبه ثم توارى في الفناء. وشعر مستر هكستر أنه شاهد على عملية سطو؛ لذا هرع إلى الطريق ليسد طريق اللص، هنا ظهر مستر مارفيل وهو يحمل شرشف مائدة كبيرا ملفوفا على أشياء وثلاثة كتب مربوطة. هنا رأي هكستر فشهق ثم استدار لليسار وبدأ يجري. صاح هكستر:

- توقف!.. لص!

وراح يجري خلف الرجل. ودار حول ركن الكنيسة. لا يعرف كيف شعر بأن شيئا أمسك بقصبة ساقه فلم يعد يجري.. لقد طار في الهواء. رأي الأرض تضرب وجهه ومن الكون انبعث مليون وهج ضوئي. ولم يعد يعرف ما يدور بعد ذلك.

الفصل الحادي عشر
في حانة العربة والخيول

لنفهم ما حدث داخل الحانة، علينا أن نرجع إلى اللحظة التي رأي فيها مستر هكستر مستر مارفيل من النافذة. في ذات اللحظة كان مستر كاس الطبيب ومستر بونتنج في قاعة الاستقبال، كانا يتحريان ما خلفه الغريب من آثار ويتفحصان متاعه، لقد عاد جارفيرز للدار مع رفاقه وقد بدأ يتعافى من سقطته، بينما جمعت مسز هول ثياب الغريب المتناثرة ونظفت الغرفة.

على المنضدة قرب النافذة حيث اعتاد الغريب أن يعمل، وجد مستر كاس ثلاث مجلدات تحمل عنوان (يوميات). فهتف:

- يوميات.. سوف تعرف شيئا.

ووقف القس وقد أسند يديه إلى المنضدة بينما فتح كاس مجلدا من المجلدات وقال:

- يوميات!.. همم.. لا اسم على الغلاف.. مجرد رسوم إيضاحية وكتابة بالشفرة..

نظر القس من فوق كتفه. قلب كاس الصفحات وقد خاب أمله. فقال القس:

- ألا توجد رسوم توضح كل شيء؟

- انظر بنفسك.. هناك معادلات وهناك كتابة بلغة غريبة ربما كانت الروسية (لو اعتمدنا على شكل الحروف) وربما كانت يونانية... أنت تعرف اليونانية.

شعر مستر بونتنج بحرج ومسح عويناته لأنه لم يكن يذكر حرفا من اليونانية.. قال:

- نعم.. يونانية.. هذا يضيء الطريق نوعا.. لكن دعنا نقلب الصفحات لنأخذ فكرة عامة.

وسعل وأعاد وضع عويناته. وتمني أن يحدث شيء ينهي الفضيحة التي لا مفر منها..

هنا انفتح الباب فجأة استدار الرجلان في رعب فاستراحا لما رأيا وجها متوردا يعتمر قبعة مشعثة، وينظر لهما في حيرة، قال له القس:

- الناحية الأخرى يا صديقي.. وأرجوك أن تغلق الباب.

قال المقتحم بصوت خفيض غريب:

- ليكن.. سأنظف الغرفة..

وأغلق الباب. قال القس:

- بحار لو كان لي أن أحكم على مظهره.. قوم ظرفاء هم.. (سأنظف الغرفة).. مصطلح من مصطلحات البحرية بمعني أنه سيترك لنا الحجرة..

قال كاس:

- فعلا.. لكن أعصابي تالفة تماما لهذا وثبت عندما فتح الباب..

قال القس:

- ما زلت لا أستوعب هذا الذي حدث ولا أصدقه وأتساءل إن كنت قد رأيت من قبل مشعوذا بارعا..

- لن أجادل في هذا.. دعنا نُعِد النظر في الكتب.. وفتح كتابا وراح يمرر إصبعه على الحروف وقال:

- هذه.. كتابة إغريقية بالتأكيد..

قرب القس أنفه من الحروف.. وكأنه يجد متاعب مع عويناته. وإذ فعل هذا شعر بشيء غريب في مؤخرة عنقه حاول أن يرفع رأسه لكنه وجد مقاومة عظيمة. كأن هناك ما يضغط عليه ويثبت ذقته للمنضدة. وهمس صوت:

- لا تتحركا أيها السيدان وإلا هشمت مخيكما.

نظر القس جواره فرأى وجه كاس وقد ارتسم عليه انعكاس دقيق لما يشعر به من رعب.

- آسف لغلظتي.. لكن لا مفر لي.. منذ متى تعلمتما أن تنقبا في الأوراق الشخصية لواحد غير موجود؟....

وارتطم الذقنان بالمنضدة واصطكت الأسنان.

- منذ متي تعلمتما اقتحام غرف الأشخاص الغائبين؟

وعاود ضرب الرأسين

- أين وضعوا ثيابي؟.. النوافذ مغلقة وأنا رجل قوي ومحراك النار هنا.. كما إنني خفي.. لا تشكا في أن بوسعي قتلكما والفرار هل تفهمان؟.. لو أطلقت سراحكما فلسوف تنفذان ما أقول..

تبادل الرجلان النظرات وقال كاس:

- نعم....

هنا خف الضغط عليهما وجلس الرجلان محتقني الوجهين. قال الغريب:

- ابقيا حيث أنتما.. عندما جئت هنا توقعت أن أجد يومياتي وثيابي.. لكني لا أجدها.. إن الجو مناسب نهارا لرجل غير مرئي كي يركض عاريا لكن الليل لا يسمح بهذا.. لذا أريد ثيابي وحاجياتي، وقبل كل شيء أريد هذه الكتب..

الفصل الثاني عشر
الرجل الخفي يفقد أعصابه

من المحتم أن يتوقف الراوي قليلاً عند هذه النقطة لسبب قاس سوف يتضح حالا.

بينما كانت هذه الأحداث تدور في قاعة الاستقبال، وبينما هكستر يراقب مارفيل يدخن جوار البوابة، كان مستر هول وتيدي هنفري يناقشان قضية الساعة في إيبنج. فجأة دوت ضربة قوية على الباب وصرخة قوية ثم ساد الصمت. تعامل مستر هول مع الأمر ببطء ولكن بثقة:

- ثمة شيء خطأ.

وهرع مع تيدي للباب بوجهين مصممين. هنا شما رائحة كيماوية غير محببة، وكان هناك صوت محادثة فصاح هول:

- هل أنتما بخير هناك؟

توقفت المحادثة المكتومة وساد الصمت.. ثم عادت المحادثة ودوى صوت من يقول:

- لا. لا تفعل!

صوت مقاومة تعالى فعاد هول يتساءل عما يحدث.

جاءه صوت القس يقول:

- كله تمام.. فقط لا تتدخل.. أرجوك.

قال مستر هول:

- غريب هذا..

وجاء صوت القس يقول:

- لن أفعل هذا.. أرجوك.. هذا ليس بوسعي..

تساءل هنفري:

- ما عساه يكون هذا؟.. مع من يتكلم؟.

جاءت مسز هول لتمارس هواية الزوجات المحببة في الاعتراض، وقالت إنها لا تسمع شيئا وإنها لا تفهم سبب الرعب على وجهي الرجلين. فتح أحدهما الباب ليظهر هكستر. كان هكستر واقفا وقد جحظت عيناه من الانفعال وكان يصرخ:

- أوقفوا اللص!!

ثم ركض نحو الفناء وتوارى. رأى هول وبعض الناس المشهد فافترضوا أن الرجل الخفي صار مرئيا وحسبوه هو مستر مارفيل وانطلقوا بحثا عنه. لكن هول ركض اثنتي عشرة ياردة قبل أن يصرخ ويطير في الهواء.. وأسقط معه أحد العمال. حاول عامل ثان أن يواصل المطاردة لكنه تلقى ضربة أطاحت به، وهي ضربة يمكن أن تصرع ثورا.

كانت مسز هول في الدار جوار البار، عندما انفتح الباب فجأة وظهر كاس.. اندفع نحو الركن وصرخ:

- أمسكي به!..

ولم يعرف أن الرجل الخفي أعطى كل الكتب والحزمة لمستر مارفيل في الفناء.

كان وجه كاس غاضبا لكن ثيابه كانت في حال سيئة فلم يعد عليه ما يستره تقريبا، وصاح:

- أمسكوه!.. لقد سرق سروالي! وكل ثياب القس!

هنا تعثر وسقط على الأرض، وداس شخص مسرع أصابعه فصرخ ألما ونهض ثم سقط على أربع.

الكل كانوا يركضون نحو القرية.. نهض من جديد فتلقي لكمة على مؤخرة أذنه. هرع إلى حانة (العربة والخيول) وسمع من ورائه صوت صفعة أخرى.. وصوت الرجل الخفي.

لقد تغير تعامل الرجل الخفي.. لم يكن مزاجه لطيفا في أي وقت من قبل، لكن اليوم بدا أنه فقد أعصابه تماما وأنه يضرب الناس لمجرد أنه يتلذذ بذلك.

لقد تحول الاحتفال إلى فوضي وانقلبت الخيام وتمزقت الأعلام.. اختفي الناس من الشوارع، ومن كل صوب كنت تسمع صوت نافذة تغلق ومزاليج تنزلق.. لا أثر لبشر سوى لعين تتلصص من وراء زجاج نافذة.

تسلى الرجل الخفي لفترة بتهشيم كل نوافذ حانة (العربة والخيول). ولابد أنه هو من قطع خط التلغراف إلى أبردين عند كوخ هجنز..

ثم تلاشي تماما.. لم يعد أحد يراه أو يسمعه.. لكن مرت ساعتان قبل أن يجرؤ مخلوق على المشي من جديد في شوارع

إيبنج المقفرة.

الفصل الثالث عشر

مستر مارفيل يناقش الاستقالة

عندما جاء الغسق ظهر رجل قصير مكتنز يلبس قبعة مشعثة ويمشي في ضوء الشفق على طريق برامبلهيرست. كان يحمل ثلاثة كتب مربوطة معا برباط مطاطي وحزمة ملفوفة بشرشف مائدة أزرق، وكانت ملامح وجهه تعبر عن القنوط والتعب وكان في حالة متشنجة من العجلة.

جواره كان صوت آخر ليس صوته.. ومن حين لآخر يبدو أن يدا غير مرئية تلمسه.

قال الصوت:

- لو حاولت أن تفر ثانية.. لو حاولت أن تفر ثانية..

هتف مستر مارفيل:

- بالله عليك.. لقد صار كتفي كتلة من الرضوض..

- بشرفي.. سوف أقتلك

قتل مارفيل بصوت أقرب للبكاء:

- بشرفي لم أحاول أن أفر منك.. كنت شاردا..

- ولسوف تشرد أكثر عندما أنتهي منك.... صمت مستر مارفيل. وفي عينيه ساد القنوط.. بينما قال الرجل الخفي:

- لسوف يعرف الناس جميعا أنني خفي.. سوف تكتب الصحف عني وسوف يبحث عني الجميع.. فماذا أفعل؟ ازداد

الرعب في عيني مارفيل، بينما قال الصوت:

- لا تسقط هذه الكتب يا أحمق.. الحقيقة هي أنني يجب أن استعملك.. أنت أداة رديئة لكن عليّ أن أفعل هذا.

قال مارفيل:

- أنا أداة تعسة...

- بالفعل..

بعد صمت طال قال مارفيل:

- أنا لست قويا على الإطلاق..

- حقا؟

- وقلبي ضعيف.. لقد قمت بما طلبت مني لكن كان من الوارد أن أسقط ميتا في أية لحظة..

- إذن؟

- لا أملك الأعصاب ولا القوة للقيام بما تطلبه مني.. ليتني مت قبل هذا.. هذا ليس عادلا قال الصوت:

- انهض.. لو لم تخرس فلسوف ألوي معصمك ثانية سوف أضع يدي على كتفك طيلة الوقت، فلو حاولت الهرب لكانت التبعات قاسية جدا عليك....

- أعرف هذا.. أعرفه جيدا.

ومر الرجل ذو القبعة المشعة عبر شوارع القرية حاملاً همومه. واختفي في الظلام تحت أضواء النوافذ.

الفصل الرابع عشر

في بورت ستوي

في العاشرة صباح اليوم الثاني، ظهر مستر مارفيل غير حليق الوجه متسخا وبعض الكتب بجواره، ويداه في جيبيه وقد بدا عليه التوتر والإرهاق وهو ينفخ خديه من وقت لآخر، وقد جلس على مقعد خارج الحانة الصغيرة على حدود بورت ستوي. لقد بدل الربطة التي تضم الكتب، كما تخلص من الربطة في الأحراش بما يتفق مع خطط الرجل الخفي الجديدة.

لم يلحظه أحد، لكنه ظل خائفا. وراح يلعب في جيوبه بعصبية لا تتوقف لحظة. ظل جالسا نحو ساعة عندما جاء بحار مسن يحمل صحيفة، وجلس جواره وقال:

- يوم طيب.

نظر مستر مارفيل حوله في رعب. وقال:

- جدا..

- طقس معقول بالنسبة لهذه الفترة من السنة....

ظل البحار يتفحص مارفيل بعينيه لفترة، هنا سمع صوتا شبيها بصوت عملات تلقى في جيب. بدا له هذا الصوت غريبا يتناقض مع فقر مارفيل الواضح. نظر للكتب ثم قال:

- كتب.. فيها أشياء مذهلة هذه الكتب..

- نعم.

- وكذلك في الصحف.. هذه الجريدة فيها قصة غريبة عن رجل خفي على سبيل المثال.

لوى مستر مارفيل شفتيه وحك خديه وشعر بأذنيه تتوهجان.

- أتساءل عما سيكتبون بعد ذلك..

هتف مستر مارفيل في رعب:

- رجل خفي؟.. أتساءل ماذا يريد؟

قال الرجل وهو يرمق مارفيل بعينه الثاقبة:

- يريد كل شيء. .

.= لم أر صحيفة منذ أربعة أيام.

لقد بدأ كل شيء في أيبنج.. وها هي ذي الأخبار من أيبنج.. تقول إن كل شيء ثابت ومؤكد.. كان يقيم في حانة (العربة والخيول) حتى وقعت مشاجرة وتمزقت أربطة رأسه حاولوا اعتقاله لكنه نزع ثيابه بسرعة فصار خفيا وفر..

قال مارفيل في عصبية:

- هذه.. هذه قصة مذهلة

- أليس كذلك؟.. المرء يسمع اليوم قصصا عجيبة حقا.

- لكن.. أليس له رفاق أو معاونون؟.. ألم يقولوا هذا؟

- لماذا؟.. ألا يكفيك واحد؟.. فكرة مفزعة جدا أن تتخيل أن هذا الفتي حر.. أن يكون واقفا بجوارك.. ربما يريد أن يسرقك

فمن يمنعه؟.. يمكنه أن يجتاز (كوردون) من رجال الشرطة كأنك تصفع رجلاً أعمي....

كان مستر مارفيل يصغي وهو يتلفت حوله كأنه يتنصت.. وفي النهاية وضع يده على فمه وقال همسا:

- الحقيقة هي إنني أعرف شيئا أو شيئين عن هذا الرجل الخفي.. من مصادر خاصة....

- حقا...؟

- نعم.. الحقيقة هي أن.....

فجأة تبدل تعبير وجهه.. وصاح:

- أي!!

ونهض من جلسته.. بدا العذاب على وجهه.. فسأله البحار عما دهاه.

- ألم أسنان..

قالها وهو يضع يده على أذنه.. وتناول الكتب، ونهض مسرعا معلنا أنه يجب أن ينصرف.

- قلت إنك ستخبرني عن هذا الرجل الخفي..

- خدعة.. مجرد خدعة....

- لكنها في الجريدة....

- لكنها ما زالت خدعة.. لا أعرف الشاب الذي بدأ هذه الكذبة.. لا تصدق.

- هل تريد القول؟

- نعم.....

هنا نهض البحار وهو يطبق على الجريدة، واحمر وجهه وكور قبضته وصاح:

- إذن لماذا تركتني أكمل القصة وأجعل من نفسي أحمق؟.. يا ذا الوجه الجلدي.. يا بن الحذاء!

هنا نهض مارفيل مبتعدا وهو يتلوى بطريقة غريبة.. مشي في خط مائل وبدا كأنه يكلم نفسه ويشوح بيديه ويحتج بلا سبب جلس البحار متباعد الساقين وقد وضع يديه في خاصرته وقال لنفسه:

- شيطان سخيف.. سوف أريك أيها الغبي.. إن هذا كله في الصحيفة..

لكن مستر مارفيل كان قد تواري عند منحنى الطريق. وكان آخر ما خيل للبحار أنه رآه هو نقود تمشي من دون يد تحملها متجهة نحو زقاق سان ميشيل. في الحقيقة تكرر هذا المشهد مرارا في ذلك اليوم.. طارت قبضات مال عديدة لتستقر في جيب الرجل ذو القبعة المشعثة.

فقط فيما بعد عندما عرفت قصة (بوردوك) كاملة قام سكان البلدة بجمع أطرافها، وعرفوا علاقة الرجل القصير المكتنز بالرجل الخفي.

الفصل الخامس عشر

الرجل الهارب

في ساعة مبكرة من الليل جلس د. كيمب في مكتبه بالشرفة المطلة على بوردوك. كانت غرفة جميلة ذات ثلاث نوافذ وأرفف كتب عليها كتب عديدة. وتحت النافذة الشمالية كان هناك مجهر وبعض أنابيب الاختبار، وبرغم أن الضوء كان متوافرا فقد أضاء المصباح ورفع الستائر لأنه لا يخشى أن يتلصص عليه الفضوليون.

كان د. كيمب شابا نحيلا له شعر كتاني وشارب شبه أبيض، وكان عاكف على عمل يأمل في أن يضمن له عضوية الجمعية الطبية الملكية. كان يرمق غروب الشمس خلف التل.. فجأة رأى رجلاً يركض عبر التل متجها نحوه.

قال لنفسه:

- واحد آخر من هؤلاء الحمقى.. لا أعرف ما حل بهؤلاء القوم.. يحسب المرء أننا في القرن الثالث عشر..

نهض واتجه للنافذة ونظر إلى التل المظلم والرجل الذي يركض:

- يبدو أنه متعجل جدا لكنه لا يتحرك بسرعة.. لو كان جيباه مليئين بالرصاص لجرى أسرع..

ومن مكان ما نبح كلب.. وسمع من مر الرجل بجوارهم صوت أقدام تضرب الأرض وصوت لهاث.. رأوا ملامح الرعب على وجهه.. فتعالت الصيحات:

- إنه قادم.. الرجل الخفي هنا وقادم! وهرع الناس يتوارون في ديارهم ويغلقون الأبواب.

الفصل السادس عشر
في حانة (جولي كريكترز)

تقع حانة (جولي كريكترز) أسفل التل حيث يبدأ خط الترام. كان الساقي يريح ذراعيه المكتنزين على الكاونتر ويتكلم عن الخيول مع رجل شاحب، بينما رجل ملتح يثرثر بلكنة أمريكية مع رجل شرطة.

قال الرجل الشاحب:

- ما سبب هذا الصراخ؟

وهو يحاول أن يرى ما يدور عند التل عبر الستار المتسخ الأصفر على النافذة، هناك من جرى بالخارج.. فقال الساقي:

- ربما هو حريق....

وتعالى صوت خطوات تقترب. انفتح الباب بعنف وظهر على الباب مارفيل وهو يبكي، وقد ضاعت قبعته وانفتحت ياقة معطفه.. حاول أن يغلق الباب لكنه كان نصف مفتوح بوساطة حزام.

صرخ:

- إنه آت!.. الرجل الخفي قادم!.. بالله عيكم أنقذوني.. أنقذوني!

صاح الشرطي:

- أغلق الباب!.. من القادم وما سبب الضوضاء؟ وهرع الأمريكي فأغلق الباب.. قال مارفيل وهو يتأرجح ويبكي لكنه يمسك الكتب:

- دعوني أدخل.. قال إنه سيقتلني لو حاولت الهرب ولسوف يفعل..

قال ذو اللحية السوداء:

- أنت في أمان.. الباب موصد..

هنا ارتج الباب بضربة قوية من الخارج، فصاح رجل

الشرطة:

- هيه.. من هناك؟

- سوف يقتلني.. إن معه سكينا أو شيئا كهذا.

فتح له الساقي البار كي يتوارى خلفه فهرع مارفيل يختبئ وهو يردد:

- لا تفتحوا له!

قال ذو اللحية:

- إذن أنت تتكلم عن الرجل الخفي؟.. يبدو أن الوقت حان كي نراه....

فجأة تهشم زجاج الحانة ودوى صوت صراخ ثم جاء صوت من يركض في الشارع. بينما وقف رجل الشرطة يحاول إلقاء نظرة للخارج ليرى من يقف هناك. فجأة ساد الصمت.. قال رجل الشرطة:

- ليت هراوتي معي..

واتجه للباب وقال:

- لو فتحنا لدخل ولن يوقفه شيء..

قال الرجل الشاحب في توتر:

- لا تتعجل بصدد الباب.

قال ذو اللحية:

- أغلق المزاليج.. فلو دخل...

وأظهر مسدسا في يده. فقال الشرطي:

- هذا لن نفعله.. إنه اغتيال..

- أعرف في أي بلد نحن.. سوف أطلق على ساقيه.. افتح المزلاج..

اتجه الرجل إلى المزاليج وأزاحها.. وقال وهو يواجه الأبواب:

- تعال..

لم يدخل أحد وظلت الأبواب مغلقة.. وبعد خمس دقائق عندما جاء للبار رجل آخر كانوا بعد ينتظرون.

هنا أطل رأس مارفيل القلق من وراء البار وقال:

- هل كل شيء موصد؟ لو تمكن من الدخول فاعلموا أنه واسع الحيلة...

هنا صاح الساقي وهو يهرع مغادرا المكان:

- ويلي.. لقد نسينا الباب الخلفي للحانة.

ثم برز وهو يحمل سكينا وتدلت شفته السفلى المكتنزة وقال:

- الباب!... ربما كان معنا الآن!

ثم أضاف:

- ليس في المطبخ.. هناك امرأتان وقد طعنت كل جزء من الهواء بهذا السكين.. والمرأتان لم تلحظا شيئا.

هنا انفتح باب البار وسمعوا مارفيل يصرخ صراخا رفيعا فهرعوا لغوثه. دخل الساقي البار فوجد مارفيل متكورا متمسكا بالباب الذي يقود للفناء الخلفي والمطبخ. انفتح الباب بقوة وجذب شيء ما مارفيل إلى المطبخ.. دوى صراخ وصوت تهشم... ثم انغلق باب المطبخ عليه.

اندفع رجل الشرطة وتمسك بمعصم الرجل الخفي الذي طوق عنق مارفيل فتلقى ضربة ألقت به للخلف. أمسك أحد الرجال بشيء ما من ياقته. وصاح:

- لقد أمسكت به!....

وغرس مخالبه في شيء ما:

- ها هو ذا..

سقط مستر مارفيل على الأرض فحاول أن يتوارى وراء سيقان الرجال المتصارعين.

للمرة الأولي سمعوا صوت الرجل الخفي.. كان يصرخ لأن رجل الشرطة داس على يده..

فجأة صرخ الرجل الذي يقاتله وتكور على نفسه إذ تلقى ركلة تحت الحجاب الحاجز، وفجأة وجد الرجال أنهم يقاتلون الهواء الخالي.

صاح الرجل ذو اللحية:

- أين ذهب؟.. خرج؟

هرع رجل الشرطة إلى الفناء ليرى فطارت قطعة من الملاط جوار رأسه لتسقط على منضدة المطبخ.

صاح ذو اللحية السوداء:

- سوف أريه!

والتمعت فوهة المسدس وطارت خمس رصاصات في ضوء الشفق. كان يحرك يده في منحنى أفقي حتى تشع طلقاته في الفناء كالشمس.

ساد الصمت فقال الرجل:

- خمس طلقات.. هذا أفضل شيء ممكن. هاتوا مصباحا وتعالوا نفتش عن جسده..

الفصل السابع عشر

زائر د. كيمب

واصل د. كيمب الكتابة في مكتبه حتى أزعجته الطلقات، ثم كراك.. كراك.. كرا!

وضع القلم في فمه وأصغى.

- من يطلق المسدسات في بوردوك.. ماذا يفعله هؤلاء الحمقى؟

اتجه للنافذة وفتحها وراح يرمق الظلام. لم يعد يرى سوى أسقف البيوت التي تشكل المدينة في الليل. وقال:

- يبدو أن الصوت قادم من (الكريكترز)..

كان القمر في الربع الأول عند الهضبة الغربية والنجوم واضحة ولامعة جدا. راح يفكر لخمس دقائق في المستقبل فلم يشعر بالوقت، ثم تنهد وأغلق النافذة وعاد لمكتبه.

لابد أن ساعة مرت عندما دق جرس الباب. جلس ينصت منتظرا أن تجيب الخادمة وأن يسمع صوت قدميها على الدرج لكنها لم تأت. قال لنفسه:

- تري من كان هذا؟ ؟

حاول أن يعود للعمل لكنه لم يستطع.. فهبط إلى الطابق السفلي ونادى الخادمة إذ ظهرت في الردهة وسألها:

- أكان هذا خطابا؟

قالت:

- يبدو أنه شخص عابر قرع الجرس وانصرف يا سيدي...

عاد لمكتبه وواصل العمل، لم يعد من صوت في الغرفة سوى دقات الساعة وصوت ريشته على الورق، وسط دائرة الضوء التي يلقيها المصباح على الورق. في الثانية صباحا قبل أن ينهي عمل الليلة نهض وتثاءب واتجه لفراشه.

نزع المعطف والسترة عندما تذكر أنه يشعر بظمأ. أخذ شمعة واتجه لغرفة الطعام. لقد جعله البحث العلمي قوي الملاحظة جدا وإن عبر الردهة لاحظ بقعة سوداء أسفل الدرج. قرر أن يهيط ليعرف كنه هذه البقعة، انحنى وتفحصها فوجد أنها في كثافة ولزوجة الدم الجاف.

اتجه للطابق العلوي وهو ينظر حوله بحثا عن تفسير، على باب غرفته تصلب وقد أدرك أن مقبض الباب ملوث بالدم.

نظر ليده.. كانت نظيفة تماما ثم تذكر أنه فتح باب غرفته عندما خرج من المكتب وهو لم يمس المقبض قط. عاد لغرفة نومه ووجهه لا يشي إلا بالهدوء.

نظر إلى الفراش.. لاحظ بقعا من الدم وأن الملاءة ممزقة لم يلحظ هذا من قبل لأنه كان يبدل ثيابه. لاحظ أن جانب الفراش منخفض كان هناك من كان ينام هنا. ثم خيل له أنه يسمع صوتا خفيضا يقول:

- يا للسماء!... كيمب!

وقف ينظر للملاءات.. هل هذا صوت حقا؟.. نظر ثانية لم ير شيئا.. ثم أحس بحركة عبر الغرفة قرب حوض الغسيل. كل الرجال مهما كانوا من ذوي التعليم العالي لابد أن يحتفظوا ببعض التطير. شعر بمزيج من الرعب والتوجس. أغلق باب الغرفة ودنا من منضدة الثياب.. هنا رأى في رعب جزءا من الملاءة مبللاً بالدم معلقا في الهواء.

نظر له في ذهول.. كان ضمادة خالية، تقدم ليمسك بها لكن لمسة أوقفته وسمع صوتا هادئا يقول:

- كيمب!

فتح كيمب فمه وقال:

- هه؟

- تماسك.. امسك أعصابك.. أنا رجل خفي!

لم يرد كيمب للحظة وظل يرمق الضمادة.. ثم قال:

- رجل خفي؟

وتذكر القصة التي سمعها صباحا ووجدها بالغة السخف لكن لم يبد خائفا أو مذهولا...

قال:

- حسبتها كذبة.. هل أنت تضع ضمادات؟

قال الرجل الخفي:

نهض كيمب وقال:

- لكن هذا هراء.. هذه خدعة ما.... ومد يده نحو الضمادة فاصطدم بأصابع غير مرئية.. فتراجع للخلف وشحب.

لا تتحرك يا كيمب.. بالله عليك أنا بحاجة لعون أكيد...

وتمسكت اليد بيده فشعر بأنه يُقذف على الفراش. فتح فاه ليصرخ لكن الملاءة دخلت بين أسنانه. لقد قبض عليه الرجل الخفي لكن ذراعيه ظلتا حرتين وقد راح يضرب بعنف.

قال الرجل الخفي:

- أصغ للعقل.. بالله عليك سوف تدفعني للجنون حالا....

في النهاية همد كيمب. فقال الرجل الخفي:

- لو صرخت لهشمت وجهك.. أنا فعلا رجل خفي.. هذا ليس سحرا.. وأريد مساعدتك.. لا أريد أن أؤذيك لكن سأضطر لهذا لو تصرفت كالمجانين.. ألا تتذكرني يا كيمب؟.. أنا جريفن.. زميل الجامعة..

قال كيمب:

- دعني أنهض أولا.. سأبقى حيث أنا..

وتحسس عنقه بينما قال الصوت:

- أنا جريفن زميل الجامعة.. لقد جعلت من نفسي خفيا.

- جريفن؟

قال الصوت:

- نعم.. جريفن.. طالب أصغر منك.. أمهق.. ارتفاعه ستة أقدام عريض المنكبين له وجه أبيض وردي وعينان حمراوان، وفاز بميدالية الكيمياء..

- مخي مضطرب.. ما دخل هذا بجريفن؟

- أنا جريفن..

- لكن.. أية معالجة شيطانية يمكن أن تجعل المرء غير مرئي؟

- ليست معالجة شيطانية.. إنها عملية منطقية..

- هذا مخيف!

مخيف فعلا.. لكن أنا جريح وأتألم.. هلم يا كيمب تماسك.. هات طعاما ومشربا ودعني أجلس.. ورأى كيمب مقعدا جوار الفراش ينجذب.. ثم يصدر صريرا وينضغط كأن هناك من جلس عليه، فحك عينيه وتحسس عنقه وضحك في غباء قائلاً:

- هذا يفوق الأشباح!

- هذا أفضل.. أنت تتكلم بمنطق...

قدم كيب لضيفه بعض الشراب فرأى الكأس تتحرك بعيدا عنه.. توقفت الكأس في الهواء على بعد عشرين بوصة فوق حافة المقعد.. فقال في ذهول:

- هذا.. هذا تنويم مغناطيسي.. أنت أوحيت لي بأنك خفي.

- كلام فارغ

- أنا أثبتُّ صباح اليوم أن الرجل الخفي..........

لا يهمني ما برهنت عنه.. أنا أموت جوعا. الليل بارد جدا بالنسبة لرجل بلا ثياب، هل لديك ثياب الآن.

اتجه كيمب لخزانة ثيابه وانتقي روبا قرمزيا وقال:

- هل هذا يصلح؟

أخذ الروب منه.. تدلى للحظة في الهواء ثم التف حول نفسه وانغلق وجلس على المقعد:

- الجوارب والخف ستكون مفيدة جدا..

نزل كيمب إلى مخزن الأطعمة وعاد ومعه بعض شرائح اللحم والخبز، ثم جذب منضدة ووضعها أمام الضيف فقال هذا:

- لا تهتم بالسكاكين..

وفي الجو ارتفعت قطعة لحم وتعالي صوت مضغ. قال كيمب وهو يجلس على الفراش:

- خفي!!!

واصل الرجل الخفي التهام الطعام وقال:

- من الغريب أن أدخل بيتك أنت بالذات لأجد ضمادة.. هذا أول حظ لي.. على كل حال اعتزمت النوم هنا هذه الليلة. لابد أن تقبل هذا برغم أنه مزعج.. دمي ظاهر.. أليس كذلك؟.. تبدو الدماء ظاهرة مع الوقت... فقط الأنسجة الحية هي التي تبقى خفية، وهذا طالما أنا حي.

سأله كيمب:

- كيف تفعل هذا؟.. هذا الموضوع غير منطقي بالكامل..

- بل منطقي تماما

ومد يده ليخرج زجاجة الويسكي.. بينما راح كيمب يرمق الروب الذي يلتهم الطعام، سأله:

- كيف بدأ إطلاق النار؟

- كان هناك أحمق.. معاون لي عليه اللعنة.. حاول أن يسرق مالي.

- هل هو خفي كذلك؟

- لا.. لكني أتضور جوعا وأنت تريد أن أحكي لك قصصا..

سأله كيمب وهو ينهض:

- أنت لم تطلق رصاصا؟

- ليس أنا.. كلهم يخاف مني عليهم اللعنة.. أريد المزيد من الطعام يا كيمب

قال كيمب:

- سأنظر في الطابق السفلي لأري ما يمكن أكله.. ليس كثيرا للأسف..

أنهى الرجل وجبته ثم طلب سيجارا.. كان من العجيب أن تراه يدخن حيث صار فمه وأنفه مرئيين في الدخان. قال لكيمب:

- أنا محظوظ لأنني وجدتك يا كيمب.. لابد أن تساعدني.. إنني في ورطة شيطانية.. أشك في أنني جننت.. أنت لم تتغير يا

كيمب طيلة هذه السنين.. أنتم أيها الرجال المثاليون لا تتغيرون.. منطقيون منظمون.. لكن تأكد من أننا سنعمل معا!

سأله كيمب؟

- لكن كيف؟.. كيف وصلت لهذا؟

- بالله عليك دعني أدخن في سلام قبلاً.. بعدها أخبرك..

لكنه لم يحك القصة تلك الليلة فقد كان معصمه يؤلمه بشدة وارتفعت حرارته. كلامه كان غير مترابط وقد حاول كيمب أن يستخرج شيئا من هذه الكلمات.

- كان خائفا مني.. عرفت أنه خائف مني.. أراد أن يفر.. كنت أحمق.. كان عليّ أن أقتله!

سأله كيمب:

- من أين جئت بالمال؟

ساد الصمت قليلا ثم قال الرجل الخفي:

- لا أستطيع هذه الليلة....

وأصدر أنينا ثم قال:

- كيمب.. أنا لم أنم في الأيام الماضية إلا لحظات.. يجب أن نام..

- إذن خذ غرفتي..

- وكيف أنام؟.. لو نمت الهرب.. لكن ما المشكلة؟.. رباه!.. لكم أحتاج إلى النوم!.. ولكني أكره أن يقبض عليّ وأنا نائم..

وللحظة بدا أن الرجل الخفي يراقب كيمب قليلا ثم قال:

- أنا أحمق..

وضرب المنضدة بقبضته:

- لقد وضعت الفكرة في ذهنك.

الفصل الثامن عشر
الرجل الخفي ينام

برغم أنه كان مرهقا وجريحا، فإن الرجل الخفي لم يستطع قبول وعد كيمب أن حريته سوف تحترم.

تفحص شباكي غرفة النوم وتأكد أن الفرار عبرهما ممكن، فوجد الليل بالخارج هادئا صامتا والقمر يستقر في الأفق. تفحص مفاتيح غرفة النوم وخزانة الشباب. في النهاية أعلن رضاه عن الموقف وارتفع صوت تثاؤبه إذ وقف على البساط. قال:

- أنا آسف.. ليس بوسعي أن أخبرك بكل ما قمت به الليلة لكني مرهق فعلا.. الأمر غريب وربما مخيف لكن صدقني يا كيمب.. هذا ممكن.. أنا بحاجة لشريك لي في هذا السر. معا يمكن العمل في أشياء مماثلة.. لكن الآن يجب أن أنام..

وقف كيمب في منتصف الغرفة يرمق الروب الخالي الواقف أمامه وقال:

- هذا يهدم كل تصوراتي.. أعتقد أنني سوف أجن.. لكن هل من شيء آخر أجلبه لك؟

- فقط تمن لي نوما سعيدا..

- عمت مساء....

قالها كيمب وصافح اليد غير المرئية.

أغلق كيمب الباب خلفه فسمع المفتاح يدور في القفل. وقف والدهشة على وجهه وضرب جبهته بكفه:

- هل أحلم؟ هل جن العالم أم جننت أنا؟

ثم ضحك وقال:

- مطرود من غرفة نومي بوساطة أعجوبة..... هذه حقيقة.

ونزل في الدرج إلى غرفة الطعام.. أشعل سيجارا وراح يكلم نفسه مع تكرار لفظة (لكن) من وقت لآخر..

- خفي؟.. هل هناك شيء اسمه (خفي)..؟.. في البحر نعم.. اليرقات وقنديل البحر.. وفي البرك.. هناك أشياء خفية أكثر من الأشياء المرئية.. لكن في الهواء؟..

- لو إن إنسانا صنع من زجاج فلسوف يظل مرئيا.

أنهى ثلاثة من السيجار وهو يتأمل بعمق. ثم نهض واتجه لغرفة العيادة الخاصة به.. هناك كانت الصحف تنتظره وراح يقلبها حتى وجد مقال (القصة الغريبة في أيبنج) عندما امتزج ضوء الفجر مع الدخان كان كيمب يذرع الغرفة محاولاً الفهم. شعر به الخدم الذين صحوا من نومهم وافترضوا أن الإفراط في العمل قد أثر على عقله. طلب منهم أن يعدوا الإفطار لاثنين ثم يظلوا في الطابق السفلي. راح يقرأ الصحف التي عرف منها تفاصيل المتسول مارفيل الذي كان خادما بالقوة للرجل الخفي، لكن المتسول لم يذكر شيئا عن الكتب الثلاثة..

قرأ الصحف كلها وقال لنفسه:

- إنه على فعلا... وهو في الطابق العلوي من داري.. يمكنه عمل أي شيء.. فماذا عساي أن أفعل؟

فكر قليلاً ثم أحضر مذكرة وكتب فيها بعض كلمات، ثم أحضر مظروفا كتب عليه (إلى الكولونيل أديي - بورت بردوك).

نهض الرجل الخفي في ذات الوقت الذي كان كيمب يعمل فيه هذا.. كان كيمب متيقظ الحواس لكل صوت فسمع قدمي الرجل.. سمع كرسيا يطير في الهواء وعرف أن الرجل في مزاج سيئ جدا. سقط مغسل الوجه فأسرع كيمب لحجرة النوم وراح يدق الباب بعف..

الفصل التاسع عشر
القواعد الأولي الأساسية

تساءل كيب عندما استطاع الدخول:

- ما الخطب؟

- لا شيء....

- لكن.. صوت التهشيم!

- نسيت هذا الذراع.. وهو مجروح..

دخل كيمب والتقط بعض قطع الزجاج المهشم.. وقال:

- كل الحقائق عنك في الصحف.. العالم كله يعرف بأمر الرجل الخفي.. لقد ذاع السر وأنا أفترض طبعا أنه سر.. أريد مساعدتك لكن لا أعرف كيف. هناك إفطار بالطابق العلوي..

نهض الضيف فاقتاده كيمب إلى قاعة الطعام. جلس كيمب إلي المائدة وقد عاودته الهواجس بصدد حالته العقلية.

قال جريفن:

- الأمر بسيط وسهل.. في البدء بدا لي الأمر رائعا.. لكن الآن.. رباه!... لقد حصلت على أول كمية في شيلستاو..

- شيلستاو؟

- ذهبت هناك بعد ما تركت لندن.. لقد تركت الطب واهتممت بدراسة الضوء.. الكثافة الضوئية.. هذا علم يشبه الضباب.. فقط تضيء فيه بقاع من فهم من حين لآخر.. كنت في الثانية والعشرين فقررت أن أكرس حياتي لدراسة الموضوع.. تعرف كم نكون حمقي في سن الثانية والعشرين، ظللت أعمل كالعبد ستة أشهر قبل أن أرى الضوء.. وجدت قاعدة لانكسار الأصباغ.. إن الناس حمقى لا يعرفون ما قد تعنيه صبغة معينة لدارسي الفيزياء الجزيئية، الفكرة هنا هي معالجة المادة دون تغير خواصها بحيث ينخفض معامل انكسارها ليساوي معامل انكسار الهواء..

صباح كيمپ:

- ياه!.. هذا غريب.. يمكنك أن تغير خواص حجر لكن رؤيتنا للأشخاص تختلف..

- صحيح.. رؤيتنا للأشياء تتوقف على تعاملها مع الضوء.. إما أن يعكس الشيء الضوء أو يمتصه أو يكسره.. لو لم يفعل أي شيء من هذا صار خفيا. الصندوق الأحمر أحمر لأنه يمتص كل الضوء فلا يعكس سوى الأحمر.. تخيل لو أنه لم يمتص أي شيء وعكس كل الضوء لصار لامعا كمرآة فضية. الصندوق الزجاجي لا يقوم بالكثير من الامتصاص أو العكس بعض أنواع الزجاج شفافة عن سواها، من الصعب في الضوء الخافت أن تري صندوقا من الزجاج الرخيص لأنه لا يمتص ضوءا ولا يعكس أو يكسر أي ضوء. لكن لو وضعنا الزجاج في الماء فلسوف يختفي....

قال كيمب:

- هذا معقول..

- لو سحقنا هذا الزجاج لصار مرئيا كمسحوق أبيض لأنه يكسب الكثير من السطوح العاكسة، ضع المسحوق في الماء ولسوف يختفي.. الزجاج المسحوق والماء لهما نفس معامل الانكسار.. كل شيء يصير شفافا لو وضع في وسط له نفس معامل الانكسار.

- لكن الإنسان ليس مسحوق زجاج..

- فعلاً ليس كذلك.. إنه أكثر شفافية!!

- كلام فارغ.

- هل طبيب هو من يقول هذا الكلام؟.. هل نسبت بهذه السرعة علم الفيزياء؟.. الورق مثلاً مصنوع من ألياف شفافة.. الزيت يملأ الفجوات فلا يعود هناك انكسار أو امتصاص.. نفس الشيء ينطبق على العظام واللحم يا كيب والشعر والأظفار.. كل الإنسان شفاف ما عدا الشعر والكرات الحمراء بالدم..

رحت أعمل ستة أعوام وأنا مذعور وخالف من أن يسرق أستاذي أبحاثي.. كنت أريد أن أبقيها سرية تماما ثم أعلنها للعالم بضربة واحدة، فجأة توصلت لاكتشاف فسيولوجي مذهل يمكن للمرء أن يجعل حيوانا حيا شفافا.. وهنا تذكرت أنني أمهق.. جسمي خال من الصيغة..

هكذا نظرت من النافذة وقلت لنفسي: سوف أكون خفيا. رحت أفكر في معني أن أكون خفيا.. القوة والنفوذ.. وأنا مجرد معيد فقير يدرّس الفيزياء لتلاميذ حمقى. لكم بذلت من جهد في

هذا البحث وكم من عقبات ذللت.. لكن بعد ثلاث سنوات وجدت أن استكمال البحث مستحيل....

- لماذا؟

- المال

ثم نظر الرجل الخفي خارج النافذة - كما بدا من الروب - وقال:

- كنت بحاجة للمال لاستكمال بحثي.. هكذا سطوت على الرجل العجوز.. أبي.. لم يكن المال: أبي.. لم يكن المال الذي سرقته ماله، فأطلق الرصاص على نفسه..

الفصل العشرون

البيت في شارع بورتلاند

للحظات لزم كيمب الصمت. ثم نهض وأمسك بكم الرجل الخفي وقال:

- أنت متعب.. تعال واجلس على مقعدي..

جلس جريفن صامتا ثم قال بعد فترة:

- كنت قد فارقت شيلستاو بالفعل.. اتخذت غرفة في لندن في بيت حقير قرب شارع بورتلاند، ملأتها بالأجهزة.. لن أدخل بك في التفاصيل يا كيمب، لكنها مكتوبة بالشيفرة في تلك الكتيبات، يجب أن أجد هذا الأحمق.. الفكرة المهمة هي وضع المادة التي تحاول خفض معامل انكسارها بين مركزين يشعان بالذبذبات. أحتاج إلى جهازي دينامو وقد حققت هذا بمحركي غاز رخيصين.. أول تجربة لي كانت على قطعة قطن أبيض، وكان من المذهل أن تراها وهي تتلاشي.. لم أصدق أنني فعلت ذلك.. مددت يدي وتحسستها فكانت هناك كما هي.. هنا سمعت صوت (مياو) فنظرت. وجدت قطة بيضاء جميلة وغاية في القذارة تقف على النافذة. سمحت لها بالدخول فدخلت وهي تهر.. الحيوان المسكين كان يموت جوعا. قدمت لها بعض اللبن ثم حاولت التجربة عليها.. لكن إعطاء العقارات لحيوان ليس لعبة وقد فشلت التجربة. لم أستطع إخفاء المخالب والصبغة في شبكية عينها.. ما اسمها؟

- التيبتام..

- نعم.. التيبتام.. عندما تمت التجربة وهي تحت تأثير المخدر ظلت عيناها مرئيتين.. هنا دق الباب. كانت امرأة عجوزا تعيش في الطابق السفلي.. امرأة مدمنة لخمر لا تملك في الحياة سوى قطة بيضاء. بللت قماشة ببعض الكلورفورم وهرعت للباب. سألتني: هل أسمع صوت قطة؟.. قطتي؟

نفيت ذلك فراحت تختلس النظر إلى غرفتي من وراء كتفي. وفي النهاية بدا أنها اقتنعت ورحلت...

- كم من الوقت استغرق الأمر؟

- ثلاث ساعات.. العظام والأوتار والدهن هم آخر شيء تلاشي. كنت متعبا لذا دخلت إلى فراشي وأوقفت المولدين. في الثانية صباحا راحت القطة تموء.. حاولت أن أسكنها بلا جدوى.. لقد اختفت تماما فكان مشهد العينين الخضراوين وحدهما مرعبا فتحت لها النافذة فخرجت.. لم أرها بعد ذلك قط.

- هل تعني أن هناك قطة خفية طليقة؟

- ما لم تكن قد قتلت. على كل حال دُق بابي وكان القادم صاحب البيت يتوعد، وهو يهودي بولندي يؤكد أنني كنت أعذب قطة ليلا والقوانين في بريطانيا تحرم بشدة تشريح الحيوانات. دخل الغرفة يفتشها وهو يفحص كل شيء من وراء عويناته.. كنت أزداد غيظا وارتباكا خشية أن يستنتج شيئا.. لماذا أنا بالذات؟.. ماذا يريدون مني؟.. فجأة أمسكته من الياقة فهرع خائفا وأغلق الباب خلفه. المشكلة هي أنه سيحدث جلبة وأنا لا

أعرف ما بوسعه أن يفعل. ترْكُ البيت معناه ضياع وقت كثير كما أنه لم يبق لي في العالم سوى عشرين جنيها. هكذا تحركت بسرعة.. أخذت كل مذكراتي وأشيائي المهمة وأرسلتها بالبريد إلى شارع بورتلاند، ثم عدت لغرفتي.. كان هناك شيء يتحرك خارج الغرفة. بدأت بعمل الخطوات التي كنت أرتبها.. لقد حان الوقت لذلك.. بدأت التجربة.. هنا سمعت صوت خطوات خارج الغرفة ورأيت قصاصة زرقاء تدخل تحت الباب، كان هذا إخطارا من صاحب البيت بطردي، هنا فتحت الباب ليفاجأ بي أمامه.. - لم يجد وقتا ليصاب بالذعر لأنه كان ينظر ليدي.. كنت أتوقع هذا.. ثم رفع عينه إلى وجهي وأطلق صرخة رعب مريعة وفر من أمامي..

عدت للغرفة وتفحصت وجهي في المرأة.. كان أبيض تماما. لقد بدأت التحولات. كانت مرعبة. قضيت ليلة كاملة من الغثيان والألم.. كل جلدي كان يحترق بالنار، فهمت لماذا ظلت القطة تموء حتى خدرتها بالكلوروفورم. عندما جاء الفجر توقف الألم وحسبت أنني مت.... لن أنسى أبدا هذا الفجر.. لقد صارت يداي كالزجاج المصنفر ومع الوقت كانت تزداد شفافية حتى صرت في النهاية أرى غرفتي عبرهما، لقد تلاشت عظامي وكانت الأعصاب آخر شيء اختفى. في النهاية لم تبق سوى أطراف أناملي، ونهضت للمرآة فلم أر شيئا.. لا شيء سوى بعض الصبغة في شبكيتي..

بذلت جهدا عنيفا حتى أعود للجهاز وأستكمل العملية.. ظللت في الفراش حتى الظهيرة وقد جذبت الملاءات حتى ذقني، وعند الظهر سمعت دقات على الباب. رددت بصوت عال، ثم نهضت بخفة ورحت أفكك جهازي وأبعثر محتوياته في الغرفة

حتى لا يخمن أحد شكله الأصلي.. سمعت صوت صاحب البيت ورجلين. فتحت النافذة.. هنا سمعت صوت قفل الباب يتحطم لكنه لم ينفتح لأنني وضعت مزاليج ممتازة قبل أيام. لكن فكرة الاقتحام جعلتني أجن وبدأت أرتجف غيظا.

ألقيت ورقا وقصاصات في منتصف الغرفة ثم فتحت الغاز.. بحثت عن ثقاب فلم أجد.. هكذا أغلقت الغاز ثانية وغادرت الغرفة من النافذة ثم جلست هناك على الإطار أراقب ما يحدث. لقد حطموا الباب وانتزعوه من مفصلاته، ثم دخل صاحب البيت وولداه..

لك أن تتصور دهشتهم عندما وجدوا الغرفة خالية.. واقترب أحدهم من النافذة لينظر عبرها فمنعت نفسي بصعوبة من أن أوجه لكمة لوجهه القبيح. راحوا يتبادلون حوارا طويلاً بلغة اليديش [1].. وفي النهاية استنتجوا أنني لم أرد عليهم إنما خدعتهم آذانهم. راحوا يفتشون المدفأة وخزانة الثياب وتحت الفراش.. كانوا يشعرون بخيبة أمل لأنهم لم يجدوا الأهوال التي توقعوا أن يروها عندي.

في هذه اللحظات عدت للغرفة ثم تسللت من الباب إلى الطابق السفلي. انتظرت حتى غادروا الغرفة ثم عدت لها حاملاً علبة ثقاب.. وأشعلت أوراقي الملقاة على الأرض ثم فتحت الغاز وودعت غرفتي لآخر مرة.....

هتف كيمب:

- أحرقت البيت!

- نعم.. وكان هذا السبيل الوحيد لأخفي سري. بالتأكيد كان مؤمنا عليه.. هكذا هربت إلى الشارع غير مرئي.. رأسي يعج بالاحتمالات الشائقة لما يمكنني عمله..

الفصل الحادي والعشرون
في شارع أكسفورد

عندما نزلت في الدرج كانت هناك مشكلة لأنني لا أرى قدمي أثناء النزول، كذلك لم أكن أرى يدي عندما أفتح المزاليج. برغم هذا كنت أشعر بنشوة كأنني رجل مبصر يلبس حذاء مبطنا في مدينة عميان. أردت أن أصفع الناس على أقفيتهم وأطير قبعاتهم..

لكن ما إن بلغت شارع بورتلاند حتى بدأت أدرك أنني هش جدا.. كنت عاريا تماما والطقس بارد وقدماي تضربان الأسفلت الخشن، وكان الجميع يصطدمون بي أو يدوسون على قدمي. لقد امتلأ جسدي بالكدمات في دقائق. من الغريب أنني بعد كل هذا التدقيق لم أنتبه إلى أن الطقس ما زال يؤثر فيّ.

اتخذت قراري فهرعت لأركب في عربة أجرة، ورحت أراقب شارع أكسفورد وطريق توتنهام.. عند مودي لوحت امرأة للعربة فتوقفت. وثبت من العربة في الوقت المناسب قبل أن تجلس عليّ، وتفاديت بمعجزة حافلة كادت تصطدم بي. انطلقت إلى ميدان بلومزبيري بحثا عن مكان هادئ. عند صيدلية في الطريق برز كلب وتشمم الهواء ثم اندفع نحوي وهو ينبح. هذا أيضا لم يخطر ببالي من قبل.. إن الأنف بالنسبة للكلب يلعب ما تلعبه العين لنا، راح ينبح في اتجاهي فعبرت الشارع نحو طريق مونتاج.

سمعت موسيقا ورأيت موكبا يحمل راية جيش الخلاص.. زحام يضرب الأسفلت وينشد.. لا يمكن أن أتوقع أن أخترقه.

فررت إلى درجات سلم منزل أمام المتحف وقفت هناك أنتظر حتى يمر هذا الموكب.

كاد الموكب يمر فعلاً، عندما لاح مجموعة من الصبية وجدتهم ينظرون للأرض ثم قال أحدهم:

- انظروا!... هنا آثار أقدام حافية.. وآثار دم!

قال صاحبه:

- هراء.. هذا روم.. خمر متساقط على الأرض... لكن الصبي كان ينظر إلى قدمي بالضبط.. حيث تركت أثرا حافيا واضحا على الغبار، ومد يده حتى كاد يلمس قدمي.. في اللحظة التالية وثبت إلى السلم المجاور. لكن الصبي كان حاد النظر لدرجة أنه رأي انتقال آثار قدمي وبدا له هذا عجيبا.. لقد بدأ المارة يتجمعون ليروا ما ينظر له هؤلاء الصبية. هكذا انطلقت أركض في الميدان ورأى آثار قدمي ستة أو سبعة أصابتهم الدهشة، لكن قدماي كانتا تزدادان جفافا لذا قلّت آثار أقدامي.. هكذا استطعت أن ألتقط أنفاسي وأبتعد.. الجري جعلني أستعيد شعور الدفء واستجمعت بعض شجاعتي.

لكن الثلج بدأ ينهمر.. أصبت بالبرد وهكذا لم يعد ممكنا أن أتحاشى العطس.. كذلك كنت أرتجف ذعرا كلما قابلت كلنا د ثم سمعت الناس يصرخون ويتراكضون.. لقد كان هناك حريق.. الحريق الذي أشعلته في مسكني.. لقد اشتعل كل شيء هناك ما عدا ما أرسلته لشارع بورتلاند. لم يعد أمامي مجال للتراجع.. لقد أحرقت سفني..

هنا توقف الرجل الخفي عن الكلام..

نظر له كيمب وقال:

- استكمل قصتك..

الفصل الثاني والعشرون
في المتجر الكبير

كانت هذه نهاية يناير مع بداية العواصف الثلجية.. لو هبط الثلج عليّ لفضح أمري. كنت أشعر ببرد ومرهقا.. وقد بدأت هذه الحياة الجديدة بلا ملجأ ولا مخلوق يمكن أن أثق به.. حتى كدت أستوقف أي عابر سبيل لأحكي له قصتي وأضع نفسي تحت رحمته.

لكني كنت أرى صفوف البيوت اللندنية متراصة مغلقة بإحكام أمامي، وكنت أموت بردا وأرغب في أي ملجأ. لم يعد المستقبل سوى العاصفة القادمة والبرد.

ثم خطرت لي فكرة ممتازة.. اتجهت إلى طريق توتنهام خارج أومنيومس.. المتجر الكبير الذي يبيع كل شيء.. بقالة.. لحم.. أثاث.. ألوان زيت..

كان المتجر موصدا فوقفت بالخارج.. بعد قليل جاءت عربة وترجّل رجل يلبس قبعة عليها شعار المحل، وفتح الباب فتسللت وراءه. كان هذا قسما يبيع القفازات والجوارب.. لكنني تركته وبحثت حتى وجدت قسما لبيع الأسرّة والمراتب فانتقيت فراشا وأخلدت لنوم طويل.. وكان المكان دافئا فقررت أن أبقي فيه أطول وقت ممكن. قررت أن أنتظر حتى يغلق المكان ثم أسرق بعض الثياب والمال والطعام. قررت أن ألف نفسي بالثياب لأبدو غريب الشكل لكن أبقي مقبولاً على الأقل.

جاء وقت الإغلاق.. لابد أنه لم تمر أكثر من ساعة منذ اتخذت ملجئي عندما سمعت الحراس يخلون المكان، وراح عدد من الشبان ينظفون المعروضات.. مسحوا الأرض بالماء ثم ساد الهدوء التام..

بحثت كثيرا في الظلام عن ثقاب.. في النهاية وجدت واحدا في صندوق العملات. بحثت عن شمعة مما اضطرني لتمزيق عدد من الصناديق المغلقة، وجدت لنفسي جوربين وسروالاً ومعطفا وقبعة.. بدأت أشعر بأنني بشري ثانية.

في الطابق العلوي كان هناك قسم الأطعمة، فوجدت لحما باردا وقمت بتسخين بعض القهوة. في قسم الألعاب خطرت لي فكرة ممتازة.. وجدت لنفسي أنفا مستعارا وقررت أن أبحث عن نظارة سوداء. في النهاية عدت لأنام وسط الأسرّة شاعرا بالدفء والراحة.

كانت حالتي المعنوية عالية.. سوف أخرج في الصباح وقد وضعت بعض الضمادات على وجهي وفي جيبي مال.. لكنني فوجئت بعد قليل بمجموعة من الرجال في المتجر مما جعلني أضطر إلى التخلي عما سرقته من ثياب وفررت..

☆ ☆ ☆

قال الرجل الخفي:

- يمكنك الآن أن تفهم العيوب الكاملة لوضعي. لا مأوى. لا ثياب.. الثياب تفقدني أية مزايا لوضعي وتجعلني مرئيا ومثيرا

للشك.. الأكل معناه أن أملأ بطني بطعام غير مهضوم...

قال كيمب:

- لم أفكر في هذا..

- ولا أنا.. وقد أعطاني الجليد تهديدا آخر.. المطر كذلك سوف يرسم حدودي بالماء. عندما مشيت في شوارع لندن بدأ التراب يتجمع على كاحلي وهذا يعني أنه بمرور الوقت سأصير مرئيا.. هكذا عدت إلى البيت الذي كنت فيه والذي أحرقته، وبالطبع لم أكن أنوي الاقتراب.. مشكلتي الكبري كانت العثور على ثياب.. ثم ماذا أفعل بوجهي؟.. قصدت تلك المتاجر التي تبيع لوازم المسارح. كان عليّ أن أكون حذرا لأن كل مار كان يمثل خطرا.. هناك من اصطدم بي في شارع بدفورد فألقاني أرضا تقريبا تحت عجلات عربة مسرعة يجرها حصانان. جلست في حدائق كوفنت ألتقط أنفاسي. وكان عليّ أن أرحل سريعا لأنني أصبت بالبرد وبدأت أعطس مما يلفت الأنظار. في النهاية وجدت ضالتي في متجر قذر عند زقاق (دروني) امتلأت واجهته بالحلي الزائفة والإكسسوارات. نظرت من النافذة فلم أر أحدا.. فتحت الباب فدق الجرس. دخلت.. وسمعت قدمي رجل ثقيلتين يلبي صوت الجرس. لو أنني تواريت في البيت وتمكنت من سرقة جمة ونظارة وزيّا.. كان الرجل قصيرا، ويبدو أنه كان يتناول طعامه عندما قرع الجرس.. راح يتفحص المحل في دهشة ثم قال:

- تبا للصبية.......

وركل الباب وعاد للداخل فمشيت خلفه.. توقف للحظة عندما سمع حركتي فتصلبت وقد أذهلتني حدة سمعه. عاد

يبحث في المحل وخلف الكاونتر.. كان الباب الداخلي مفتوحا فدلفت منه. كانت غرفة صغيرة عُلقت على جدرانها بعض الأقنعة، وعلي المنضدة إفطاره الذي لم ينهه، ووقفت أراقبه وقد عاد للغرفة وراح يواصل الإفطار بفظاظة، وكتمت عطستي مرة أو مرتين..

غادر الغرفة حاملاً بقايا الطعام فجلست أمام النار.. كانت ضعيفة فلم أفكر كثيرا وألقيت فيها بعض الفحم، كان لهذا صوت جعله يأتي مسرعا. راح يمسح الغرفة بعينيه وأوشك أن يصطدم بي، لم يبد عليه الرضا..

ظللت أنتظر دهرا كاملاً حتى فتح الباب ونزل في الدرج فمشيت خلفه.. توقف فجأة في منتصف الدرج فكدت أضربه من الخلف. كان ينظر خلفه وتحسس شفته السفلى وقال:

- بوسعي أن أقسم أن.........

كان يدرك يقينا أن هناك صوتا خافتا خلفه طيلة الوقت. لا شك أنه كان يملك حاسة سمع شيطانية. لقد توقف وصاح في غضب:

- لو كان هناك مخلوق في هذا البيت...

لم يكمل القسم، لكني جلست على قمة الدرج ولم أتبعه أكثر عندما عاد للغرفة رحت أستكشف البيت.. كان رطبا لدرجة أن ورق الجدران تقشر بالكامل وصنعت الفئران لنفسها جحورا وراءه. بعض مقابض الأبواب كانت متخشبة بحيث خشيت أن أفتحها. وجدت ثيابا قديمة في إحدى الغرف فرحت أنقب فيها،

هنا نسيت حدة أذنيه. في الوقت المناسب رفعت رأسي لأجده يطل من الباب وفي يده مسدس. تصلبت بينما قال هو:

- لابد أنها هي.. عليها اللعنة!

- أغلق الباب وأدار المفتاح فيه!.. هنا فطنت إلى أنني صرت سجينا. لم أدر ما أفعل.. شعرت بغضب عارم وأصدرت أصواتا جعلته يعود للغرفة.. هذه المرة لمسني فعلا.. هذه اللمسة جعلته يصاب بذهول فوقف في منتصف الغرفة. وراح يردد:

- فئران!

هرعت مغادرا الغرفة، لكن الرجل الشيطاني راح يفتش غرفة تو أخرى من البيت والمسدس في يده، وهو يغلق كل غرفة بالمفتاح بعد تفتيشها. هكذا لم يعد لدي من خيار سوى أن أضربه علي رأسه..

تساءل كيمب:

- ضربته على رأسه؟

- نعم.. ضربته على مؤخرة رأسه بمقعد فتهاوي أرضا كحقيبة مليئة بأحذية قديمة. بعد هذا كممته وقيدت يديه.. لم يكن لدي خيار سوى مغادرة هذا البيت وعليّ ثياب.

- لكن.. الرجل كان في بيته.. وأنت كنت معتديا ولصا..

- كف عن هذا السخف يا كيمب.. أنت تري وجهة نظري.

- ووجهة نظره كذلك..

- كان يحمل مسدسا وقد أفقدني أعصابي. فلا أحسبك تلومني. في الطابق السفلي وجدت رغيفا وبعض الجبن والماء.. وذهبت للغرفة التي كانت فيها الثياب القديمة.. ألقيت نظرة عبر النافذة على الشارع فوجدته ساطعا بالشمس.. عدت أنظر للبيت لأجد بقع ضوء في كل مكان أمام عيني. بدأت أبحث في البيت عن شيء يناسبني.. كانت هناك مساحيق يمكن أن أدهن بها وجهي، لكن كانت هناك مشكلة أن إزالتها تحتاج إلى زيت تربنتينا ووقتا طويلاً إذا أردت أن أختفي ثانية. في النهاية اخترت قناعا له أنف وشعر وعوينات.. كان حذاءا الرجل صالحين، ووجدت بعض النقود الذهبية.. هكذا صرت جاهزا للخروج، لكني رحت أتفحص وجهي في المرآة كي أجد شيئا منسيا.. هل منظري قابل للتصديق فعلا؟

غادرت المتجر أخيرا عندما وجدت الشجاعة لذلك، وتركت الرجل يحاول الفرار من قيوده. خلال خمس دقائق اصطدمت بدستة من المارة ولم يبد أن أحدهم لاحظ شيئا غريبا في منظري. حسبت أنني انتصرت.. صار بوسعي عمل أي شيء في أي مكان.. فإذا ما تعقدت الأمور كل ما على هو نزع ثيابي وقناعي وأفر. قررت أن أذهب لمطعم وأنال وجبة دسمة.. من المؤسف أن أقول إنني كنت حمارا. لقد دخلت مطعما وطلبت الغداء، ثم تنبهت إلى أنني لا أستطيع الأكل ما لم أكشف عن وجهي الخفي. هكذا غادرت المطعم قبل أن تصل الوجبة. ذهبت لفندق وطلبت أن يقدموا لي الطعام في غرفتي وقلت: أنا مشوه بشدة.

رحت أفكر في غرابة موقفي.. لا شك أن كونك خفيا يتيح لك الحصول على أشياء كثيرة، لكنه كذلك يجعل من

المستحيل أن تستمتع بها.. لقد صرت لغوا ملفوفا بالضمادات كأنني كاريكاتور إنسان.

وصمت، وبدا من وضعه أنه ينظر خارج النافذة، فسأله كيمب:

- ولكن كيف وصلت إلى إيبنج؟

- ذهبت هناك لأعمل.. كانت نصف فكرة واكتملت.. أردت أن أعكس ما قمت به متى أردت وأعود مرئيا.. وهذا ما أريد أن أتكلم فيه معك الآن.. ذهبت إلى أيبنج مع مذكراتي الثلاث ودفتر الشيكات ومتاعي وبعض الكيماويات.. وبدأت الحسابات.. لقد فقدت أعصابي مع هؤلاء الحمقى وكدت أقتل ذلك الكونستابل، لِمَ لا يتركونني وشأني؟..

بالله يا كيمب.. أنت لا تعرف معنى الغضب!.. أن تخطط وتدرس لأعوام، ثم يأتي أبله يعبث ويفسد خططك.. لقد وقف في طريقي كل مخلوق غبي يمكن تصوره..

قال كيمب في جفاف

- لابد أن هذا مزعج فعلاً..

الفصل الثالث والعشرون
الخطة التي فشلت

قال كيمب وهو ينظر خارج النافذة:

- ماذا ستفعل؟

ودنا من ضيفه وهو يتكلم، كي يمنعه من رؤية ثلاثة الرجال الذين يصعدون عبر التل ببطء شديد.

- ما هي خططك التي جئت من أجلها؟

- كنت أنوي مغادرة البلاد لكني غيرت خطتي لما رأيتك.. الآن صار الجو حارا ومن الممكن أن أظل خفيا.. سوف يبحث الجميع عن رجل مربوط بالضمادات لذا فكرت في الفرار إلى إسبانيا أو ركوب سفينة إلى فرنسا.. وربما إلى الجزائر.. هناك يسهل على الرجل أن يظل ملثما.

كنت أستعمل ذلك المتشرد كحقيبة تحمل متاعي.. لكنه سرقني.. سرق مذكراتي.. لو وضعت يدي عليه... هل تعرف أين هو؟

- هو في قسم الشرطة.. مسجون بطلبه الخاص في أقوى زنزانة..

- اللعنة.. لابد من الحصول على هذه الكتب.. هذه الكتب جوهرية.

- حتما..

قالها (كيمب) في عصبية وهو يتساءل إن كان يسمع صوت خطوات. حاول أن يفكر في شيء آخر ليبقي المحادثة مستمرة.

هنا قال الرجل الخفي:

- لم تخبر أحدا أنني هنا..

قال كيمب:

- هذا مفهوم...

نهض الرجل الخفي وعقد يديه على صدره وقال:

- المشكلة يا كيمب.. هي أنني حملت هذا العبء الرهيب على كتفي. رجل واحد يحمل كل هذا السر.. أنا أريد من يعاونني يا كيمب.. أريد حارس مرمى.. مكانا أتوارى فيه.. أريد مكانا أنام فيه وآكل. يجب أن تعرف مزايا وعيوب هذه الحالة الخفية..

مزاياها هي أنك قادر على الدنو والابتعاد دون أن يشعر بك أحد هذا يجعلك قادرا على القتل.. مهما كان الرجل يحمل من سلاح فأنت قادر على الالتفاف حوله وضربه على رأسه..

كان كيمب يتحسس شاربه ويصغي.. هل هذا صوت حركة بالطابق العلوي؟

قال الرجل الخفي:

- القتل.. القتل هو ما يجب أن نقوم به.. هل تسمعني؟

- أسمعك لكن لا أوافق.

- القتل يا كيمب.. علي الرجل الخفي أن يخلق مملكة من الرعب.. يجب أن يسيطر على مدينة كهذه.. قصاصات ورق

تحت الأبواب.. من لا يطيع أوامره يقتل..

وفجأة تصلب الرجل الخفي، وصاح:

- صه!.. من هذا بالطابق السفلي؟

قال كيمب بصوت عال:

- لا أحد.. لا أوافقك على ما تقول يا جريفن.. لماذا يجب أن تلعب الذئب الوحيد؟.. انشر أبحاثك واجعل العالم يعترف بعبقريتك..

لكن الرجل الخفي قاطعه:

- هناك خطوات بالطابق السفلي.

- كلام فارغ..

لكن الرجل مشي نحو الباب وراح يصغي.

اتجه نحوه كيمب، هنا صاح الرجل الخفي:

- خائن!

وفي لحظة انفتح الروب وظهر الجسد الخفي من تحته. جاء صوت أقدام من أسفل فركض كيمب وفتح الباب. اندفع للخارج وكان المفتاح في الباب. سوف يغلق الباب وفي لحظة سوف يصير جريفن سجينا. فقط كان هناك خطأ واحد.. لم يكن المفتاح موضوعا جيدا لذا عندما أغلق كيمب الباب سقط المفتاح على الأرض

شحب وجه كيمب وحاول أن يمسك المقبض بكلتا يديه، انفتح الباب قليلا لكنه أغلقه ثانية.. في المرة التالية انفتح الباب

بقوة وخرج منه الروب..

شعر بأصابع غير مرئية تطبق على حنجرته. سقط أرضا وجثم الروب فوقه.

عبر الدرجات ظهر الكولونيل أدبي الذي تلقى رسالة كيمب. كان مذهولا بسبب مشهد الروب الخالي الذي يهاجم كيمب. رأى كيمب يقاوم ويسقط ويحاول النهوض.. وفجأة تلقى ضربة عنيفة.. من لا شيء!

سقط بدوره من فوق الدرجات.. داست قدم على ظهره وسمع شرطيين يصرخان ويركضان.. وانغلق الباب الأمامي فجأة. نهض وجلس ينظر حوله.. رأى كيمب على الدرجات متربا متورم الوجه، وشفته تنزف..

صرخ كيب:

- رباه!.. لقد بدأت اللعبة!.. لقد فر!

الفصل الرابع والعشرين

اصطياد الرجل الخفي

لفترة طويلة فقد كيمب القدرة على النطق ليشرح، وبدأ الكولونيل أدبي يستخلص أشياء من الموقف.

قال كيمب:

- هو مجنون.. أنانيته مطلقة.. لا يفكر سوى في منفعته وسلامته. لقد جرح أبرياء وكاد يقتلهم. لا شيء يوقفه وهو الآن حر!

- يجب اعتقاله..

- الأمر أخطر مما تظن.. إنه يريد أن يقيم مملكة من الرعب.. سوف يجوب الريف يقتل ويشوه.. هناك رجل قبضتم عليه اسمه مارفيل.. إنه يريده.. يجب إغلاق المنازل جميعا ومراقبة الأطعمة.. إنه خطر.. كارثة....

هبطا إلى الطابق السفلي حيث كان الباب مفتوحا ورجل شرطة يقف هناك يرمق الهواء. وقال:

- لقد فر يا سيدي..

قال الكولونيل أدبي:

- يجب أن نقصد المحطة حالاً.. ثم ماذا يا كيمب؟

- الكلاب.. هات كلابا..

- حسن.. وغير هذا؟

- بعد التهام الطعام يظل الأكل واضحا في معدته.. لذا لابد أن يتوارى بعد الأكل.. يجب أن نرش زجاجا مسحوقا على الطرقات. هذا قاس لكن فكر فيما يمكنه عمله..

قال الكولونيل أدبي:

- = هذا سلوك غير رياضي.. لكني ساعد المسحوق لو احتجنا له..

قال كيمب:

- إنه لم يعد بشريا.. يريد أن يقيم مملكة من الرعب.. أنا أعرف ما أقول ومتأكد منه.. فرصتنا الوحيدة هي أن نسبقه.. لم يعد له علاقة بالجنس البشري، ودمه يقع على رأسه هو.

الفصل الخامس والعشرون

اغتيال ويكستيد

يبدو أن الرجل الخفي غادر بيت كيمب وقد أعماه الغضب. كان هناك طفل يلعب جوار بيت كيمب حمله وألقاه بعيدا، فتهشم كاحله. ثم اختفى تماما لعدة ساعات.

لقد راح يركض في شمس يونيو الحارة حتى الأرض المفتوحة خلف بورت بوردوك، وهو يغلي غيظا. ثم في النهاية يجلس وسط أشجار هنتوندين ليعيد ترتيب خططه. لا نعرف ما كان يدور في ذهنه.. بالتأكيد كان غاضبا من خيانة كيمب.. ربما استطعنا فهم السبب لكن لابد أن تتعاطف مع غضبته بسبب هذا الاكتشاف المفاجئ. على كل حال لا أحد يعرف ما فعله حتى الثانية والنصف.

في هذا الوقت كان الريف يعج بأناس يبحثون. قبل هذا كان مجرد أسطورة مخيفة.. لكن بعد كلمات كيمب صار عدوا ماديا يجب إصابته أو قتله.

في الثانية بعد الظهر صار من المستحيل عليه أن يغادر المنطقة حتى لو تسلق قطارا. لقد تم إغلاق أبواب كل القطارات بين ساوثهامبتون وهورسهام وبرايتون. تم كذلك وقف قطارات البضاعة.

وانتشر الرجال في دائرة 20 ميلاً حول پورت بوردوك في مجموعات من ثلاثة أو أربعة ومعهم كلاب. في الريف انتشر رجال الشرطة على الخيول، وراحوا يوصون الناس بغلق

الأبواب.. لقد انتشرت تعليمات الكولونيل أدي في كل مكان. كان الجميع في حالة رعب من قدوم الظلام.

ثم قرب المساء انتشرت قصة مقتل مستر ويكستيد. لو افترضنا أن الرجل الخفي توارى فعلا في غابة هنتونديين، فإن لنا أن نفترض أنه غادر مكانه وهو يحمل قضيبا من حديد.. عندما قابل مستر ويكستيد. كل شيء يدل على صراع عنيف تم هناك.. الجروح على جسد ويكستيد وعصاه المكسورة.. لا نعرف سبب القتل لذا تظل نظرية الجنون هي الأقرب للصحة. لقد هاجمه الرجل الخفي وهو في طريقه لداره لتناول الغداء.. ضربه بعضا حديدية انتزعها من سور وحطم ذراعه وهشم رأسه. هناك طفلة رأت ويكستيد وهو يجري فوصفته كشخص يبحث عن شيء على الأرض بلهفة ويضربه بعصاه بلا توقف.

يمكننا إذن أن نتخيل أن الرجل الخفي كان يتقدم نحو هدفه، عندما فوجئ بهذا الرجل يبحث عنه.. ثم اصطدم به فعلا. يمكن تخيل ما حدث بعد ذلك.

على كل حال وجدوا جثة ويكستيد وقضيبا من الحديد الملطخ بالدم. هذا يدل أن حالة جريفن العصبية تحسنت بعد هذا. كان قاسيا لكن يبدو أن منظر ضحيته الأولي الغارقة في الدم، قد حرك شيئا من الرحمة والندم في نفسه.

لابد أن الرجل الخفي في تلك الليلة عرف حقيقة الاستفادة التي حققها كيمب من ثقته به.

لابد أنه وجد الأبواب موصدة ومؤمنة.. لابد أنه بحث في محطات القطارات ولابد أنه قرأ الإعلانات والتحذيرات. ومع توغل المساء ازدحمت الحقول بالرجال في مجموعات من ثلاثة

وأربعة وتعالى نباح الكلاب. يمكننا أن نفهمّ سبب ضيقه وحنقه، خاصة كلما تذكر أنه مصدر المعلومات التي أدت لعملية الصيد القاسية هذه. لقد صار رجلا مطاردا.

لكن لابد أنه نام وأكل. وعندما صحا في النهار كان قد استعاد لياقته وغضبه وخطورته، وتهيأ لمعركته الأخيرة مع العالم.

الفصل السادس والعشرون
حصار بيت كيمب

قرأ كيمب رسالة غريبة كُتبت على قطعة ورق مبقعة .

- أنت كنت بارعا وإن كنتُ لا أعرف ما سوف تحققه هكذا. أنت ضدي.. وقد ظللت ليلة كاملة تطاردني. لكنني برغمك نمت ووجدت طعاما.. اللعبة قد بدأت.. وقواعدها هي الرعب. هذا إعلان عن أول يوم من الرعب.. لم تعد بورت بوردوك تحت حكم ملكة بريطانيا بل هي تحت حكمي أنا.. الرعب...

- اليوم هو اليوم الأول من العام الأول من العهد الجديد.. عهد الرجل الخفي. أنا الرجل الخفي الأول وحكمي له قواعد بسيطة.. سيكون هناك إعدام واحد على سبيل العبرة، لرجل اسمه (كيمب). هذا الرجل يموت اليوم. يمكنه أن يغلق بابه ويلبس دروعا ويعين حراسا حوله، لكن الموت قادم لا محالة.. سوف يبدأ الموت ظهرا من صندوق الخطابات حين يحضر ساعي البريد.. سوف تبدأ اللعبة والموت، لا تساعدوه يا شعبي فلسوف يموت اليوم..

قرا كيمب الخطاب مرتين وقال:

- لا خداع هنا.. هذا كلامه وهو يعنيه.. على المظروف وجد علامة مكتب بريد (هتنون دين) مع عبارة (المستلم يدفع التكاليف). كف عن تناول طعام الغداء.. لقد جاء الخطاب مع بريد الواحدة ظهرا..

نادى مديرة المنزل وطلب منها أن تتفقد البيت وتتأكد من أن النوافذ محكمة. بحث في درج في غرفة نومه وانتقى مسدسا صغيرا دسه في جيب سترته.

كتب رسالة للكولونيل أعطاها لخادمته وأوصاها بأن تحملها.. وأكد لها:

- لا خطر عليك أنت..

ثم عاد يلتهم غداءه.. وفجأة ضرب المنضدة وصاح:

- سوف نظفر به!.. أنا الطُعم الذي سيجعله يتمادى.. ذهب لغرفة نومه وأغلق الأبواب وقال لنفسه:

- إنها لعبة.. لكن جريفن لن يربحها..

دنا من النافذة فاحتك شيء بإطارها مما جعله يتراجع للخلف:

- أنا عصبي... لابد أن هذا عصفور..

هنا دق الجرس فهرع للباب السفلي.. أزاح المزلاج ثم وضع السلسلة وفتح الباب بحذر دون أن يكشف عن نفسه. كان هذا هو الكولونيل أديي.

قال له:

لقد هوجمت خادمتك..

صاح كيمب:

- ماذا؟!..

- إنه قريب.. دعني أدخل..

دخل الكولونيل أدبي من فتحة ضيقة قدر الإمكان... ووقف في الردهة، قال كيمب:

- أنا أحمق.. كان يجب أن أعرف!....

ثم هرع إلى المكتب وناول الكولونيل خطاب الرجل الخفي. ثم قال له:

- خطابي أنا لك كان يقترح عمل كمين.. وكأحمق أرسلته لك مع خادمة..

هنا دوى صوت زجاج يتهشم بالطابق العلوي.. فصاح كيمب:

- نافذتي.. الطابق العلوي!

هرعا إلى المكتب ليجدا الغرفة غارقة بالزجاج المحطم. هناك قطعة حجر استقرت على المكتب.. أطلق كيمب سبة إذ طار زجاج نافذة أخرى.

تساءل الكولونيل:

- ما معني هذا؟

- هذه فقط البداية..

هل توجد طريقة للتسلق هنا؟

- حتى القطط لا تقدر..

- لا مصاريع؟

- في الطابق السفلي فقط..

هنا تهشمت نافذة أخرى. قال الكولونيل أدبي:

- اسمع سوف أذهب للمخفر وأحضر مجموعة من الكلاب.. هل معك مسدس؟

- ليس معي واحد إضافي. .

- أعطني إياه ولا تقلق....

هرع الكولونيل أدبي إلى الباب بينما المزيد من الزجاج يتهشم. وانزلق للخارج بسرعة ثم وقف وظهره للباب للحظات.. وراح يعبر الحديقة.

هنا تحرك العشب جواره وسمع من يقول له:

- قف!

تصلبت أعصابه كلها.. ووقف شاحبا ويده على المسدس.. الصوت على اليسار.. ماذا لو جرب حظه وأطلق الرصاص؟

قال الصوت:

- ماذا تفكر فيه؟....

وهنا شعر بيد تطبق على عنقه، ثم تلقى ظهره ركبة جعلته ينثني للخلف. جذب المسدس وأطلق الرصاص بشكل أخرق:

تلقى لكمة في فمه وانتُزِع المسدس من يده. ووجد الكولونيل نفسه يحدق في مسدس طائر في الهواء. قال الصوت ضاحكا:

- لولا ما في ذلك من خسارة رصاص لقتلتك الآن.. انهض.

وقف الكولونيل فقال الصوت بتوحش:

- لا ألاعيب.. تذكرك أنني أراك وإن لم ترني.. يجب أن تعود للمنزل..

- لن يفتح لي..

- هذا مؤسف.. تذكر أنني لا أحمل لك ضغينة ما!

كان كيمب قد رأي هذا المشهد من نافذة المكتب.. رأي الكولونيل يتكلم مع شخص غير مرئي في الحديقة، وتساءل:

- لم لا يطلق الرصاص؟

هنا رأي المسدس المعلق في الهواء وفهم ما يدور

في هذا الوقت بدأ الكولونيل يمشي نحو البيت ببطء ويداه خلف ظهره. ورأى كيمب المسدس يتبع الرجل. كان الكولونيل قد اتخذ قراره.. استدار بسرعة ووثب على المسدس لكنه أخطأه.. وانطلق دخان أزرق في الهواء.. لم يسمع كيمب الطلقة لكنه رأى الرجل يسقط أرضا. ينهض على ذراع واحدة ثم يهمد.

راح كيمب يبحث عن المسدس لكنه اختفى تماما.. هذه بداية طيبة للعبة.

كل شيء كان ساكنا وكان القيظ شديدا.. لا شيء يتحرك سوى الفراش..

بدأت دقات تدوي على الباب.. لكن الخدم لم يردوا منفذين تعليمات كيمب. تسلّح بمحرك نار ونزل ليمر على الأبواب

جميعا. بدأ المنزل يرتج بضربات قوية توشك على اقتلاع الأبواب.. وبدأ الخشب يتحطم.

نزل إلى المطبخ ليجد أن المصراع يتهشم. هناك فأس يهوي على أجزاء المصراع.. وفجأة رأى المسدس عبر الفتحة..

تراجع للخلف لكن المسدس أطلق طلقة واحدة مرت جواره...

بسرعة غادر المطبخ وأغلق الباب، وسمع جريفن يصرخ ويضحك..

ماذا يفعل؟.. هذه الأبواب لن تؤخر الرجل الخفي أكثر من لحظة.

سمع دقة الجرس من جديد فعرف أنهم رجال الشرطة، ركض إلى هناك وفتح الباب ليندفع ثلاثة رجال الشرطة للداخل..

قال كيمب:

- الرجل الخفي.. بقيت معه طلقتان وقد قتل الكولونيل أدي.. ألم تروه؟

- جئنا من الطريق الخلفي.

هنا سمعوا باب المطبخ يتهشم فهرع يناول محراك نار لكل واحد من رجال الشرطة. صرخ رجل شرطة عندما هوى الفأس على المحراك الذي يحمله، لكن الثاني هوي على الفأس فأسقطه على الأرض، كأنه يقتل دبورا..

وسمعوا الرجل الخفي يلهث..

- ابتعدوا.. لا أريد سوى هذا الرجل كيمب.....

- ونحن نريدك أنت.

قالها رجل الشرطة الثاني.

هنا ارتفع الفأس من على الأرض فجأة وهوى على خوذة رجل الشرطة فأرسله إلى الأرض بلا حراك. ضرب رجل الشرطة الثاني شيئا خلف الفأس فارتطم محراك النار بشيء طري وسمع أنينا.. وسقط الفأس قداس عليه رجل الشرطة ووجه ضربة أخري

نهض صاحبه الذي أغرق الدم وجهه وعينيه وتساءل:

- اين هو؟

- لا أعرف.. فقط متأكد من أنني ضربته....

هرع الرجلان نحو غرفة الطعام قلم يجدا أحدا ولم يجدا كيمب.. كانت النافذة مفتوحة

- إن د. كيمب لبطل..

قالها رجل الشرطة ولم يدر كم كان صادقا.

الفصل السابع والعشرون

صيد الصياد

كان مستر هيلاز أقرب جيران كيمب نائما عندما دارت هذه المطاردة..

كان من القلة التي أبت تصديق كل هذا الهراء عن الرجل الخفي. لذا نام أثناء تحطم النوافذ لكنه صحا فجأة شاعرا بشيء غير صحيح. نظر إلى بيت كيمب وفرك عينيه. وأطلق سبة.. كل نافذة في بيت د. كيمب قد تهشمت. ورأي د. كيمب نفسه يغادر البيت من نافذة غرفة الطعام وهو يركض وقد حنى رأسه كأنه يخشى أن يراه أحد. ثم راح يركض عبر المنخفض نحو بيت مستر هيلاز.

هنا صاح مستر هيلاز:

- رباه!.. ليس الرجل الخفي!.. إذن هو حقيقي!

وهرع يغلق النوافذ والأبواب. هنا برز رأس كيمب عند سور الحديقة وراح يشق طريقه وسط نباتات الأسباراجس.. ثم عبر ملعب التنس نحو البيت.

- آسف.. لا يمكنك الدخول لو كان هذا الشيء يطاردك.. دار كيمب حول الأبواب يقرعها جميعا بلا جدوى.. ثم راح يركض.. ورأي مستر هيلاز من مخبئه أقداما خفية تدوس على نباتات الأسباراجاس..

لقد كان كيمب يركض بالضبط عبر التل في ذات المسارات التي كان الرجل الخفي يجري فيها منذ أيام، كان يفتقر للياقة الرياضية لكن برغم أن وجهه كان شاحبا، فإن عقله لم يتخل عنه.

لم يفطن قط من قبل إلى أن طريق التل منعزل والمدينة تحته بعيدة جدا.

كل البيوت التي مر بها مغلقة بإحكام.. بالتأكيد طبقا لأوامره.. لكن ألا ينظر أحدهم من النافذة؟.. إنه يرى المدينة تحت ويرى تراما.. وخلف هذا كله يرى قسم الشرطة.

مر بالترام وفكر في ركوبه وإغلاق الأبواب ثم عدل عن الفكرة.. الأفضل أن يجري حتى يبلغ قسم الشرطة. يسمع صوت الركض من خلفه.. وقد بدأ الناس يفطنون لهذه المطاردة العجيبة.

صرخ بأعلى صوته الذي أنهكه الجهد:

- الرجل الخفي!!

رأي الناس يهرعون وقد حمل بعضهم العصي.. ومن حانة في الطريق برز رجل وقد كوّر قبضته.. أدرك أن المطاردة قد تبدلت.

هنا تلقى ضربة قوية على أذنه.. ركل ركلة عمياء في الهواء. هنا تلقى ضربة في الفك... وتشبثت مخالب بعنقه. شعر بساعدين يطبقان عليه فمد يده يمسك بهما بقوة.. سمع صرخة عنيفة.. هنا برز بعض الرجال ووجه أحدهم ضربة قوية عمياء في الهواء. هنا شعر باليدين تتخليان عنه..

ارتمى على الجسد الخفي وصرح:

- إنه في قبضتي.. الغوث!.. الغوث!

جاء بعض الرجال وألقوا بأنفسهم على هذا الشيء.

بذل الرجل الخفي جهدا عظيما لينهض.. فانقضت عليه الأيادي التي لا تري. كان هناك الكثير من الركل المتوحش.

وتصاعد صوت مخنوق يقول:

- الرحمة!.. الرحمة!

فهتف كيمب:

- دعوه يا حمقى.. إنه يموت!

ثم مد يده يتحسس الجسد.. وألصق أذنه بشيء ما بينما الناس يحتشدون في دائرة..

- هو لا يتنفس.. لا أسمع دقات قلبه... إن فمه مبلل بالكامل..

صرخت امرأة عجوز وهي تشير بإصبع مجعدة:

- الظروا!

رأى الجميع شرايين وأوردة شفافة كأنها من زجاج.. وبدأت تزداد قتامة مع الوقت

مع الوقت بدأ هذا التغيير البطيء يحدث.. يكتمل.. كأنه الانتشار البطيء لسم. ظهرت العظام ثم بدأ الجلد يظهر ورأي الناس الوجه المشوه.. والصدر الذي تحطم. أخيرا ظهر على

الأرض جسد عار لشاب في الثلاثين. أمهق شعره وحاجباه لونهما أبيض.. عيناه جاحظتان. فصاح أحد الواقفين:

- بالله عليكم... غطوا وجهه..

وجاء بعض الصبية ليلقوا نظرة فأبعدهم الواقفون. هناك كان جريفين أول إنسان جعل نفسه خفيا، وأكثر علماء الفيزياء عبقرية، يرقد وسط هؤلاء الدهماء والجهلة.

هـ. ج. ويلز

1897

الرجل الخفي

هناك أعمال أدبية حُفرت للأبد، ليس في تاريخ الأدب فقط، بل في وجدان البشر أنفسهم، وصارت جزءا من خلفيتهم الثقافية في كل مكان. هذه الرواية التي قدمها هـ. ج، ويلز عام 1897 قد نالت حظها كاملا من استمتاع القراء والمعالجات السينمائية والمناقشات العلمية، ومهما تعددت معالجات صيغة الرجل الخفي وازدادت براعة وتعقيدا، فكلها خرجت من عباءة هذه الرواية، كما خرجت كل الألعاب الزمنية من عباءة روايته (آلة الزمن). إنها بالتأكيد رواية تستحق القراءة.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـاة

-

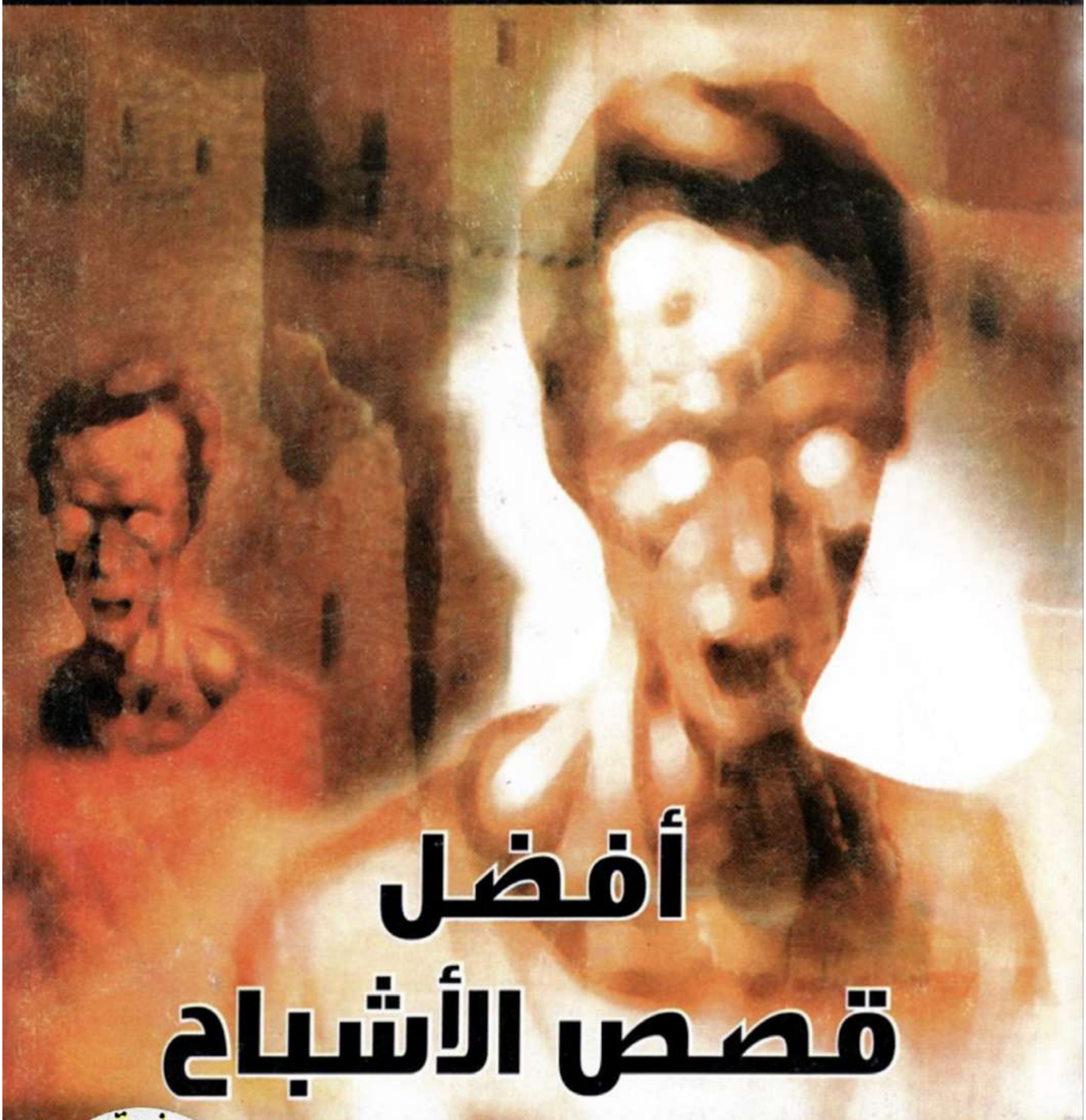
الفهرس..

Notes

[←1]

- اليديش لغة اليهود في شرق أوروبا .

روايات عالمية للجيب 74



أفضل قصص الأشباح

تأليـــــف : مجموعة من الكُتَّاب
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (74)

أفضل قصص الأشباح

تأليف: مجموعة من الكتَّاب

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

كراس (كانون ألبريك)

بقلم مونتاج رود جيمس

(مونتاج رود جيمس) كاتب بريطاني وأستاذ جامعي في كمبردج، ولد عام 1862 واشتهر بقصصه عن الأشباح التي تعتبر من أفضل ما كُتب في الأدب الإنجليزي. وتدين له قصص الأشباح بالتخلص من الفخ القوطي الذي كانت حبيسة فيه لتصير أكثر عصرية.

كراس (كانون ألبريك)

مدينة (سان برنار دو كومنجز) مدينة عتيقة عند تخوم جبال البرانس غير بعيدة عن تولوز. وكانت مقر الأسقفية حتى الثورة الفرنسية، وفيها كاتدرائية يزورها سياح كثيرون. لن أطلق على المكان اسم مدينة لأن سكانها لم يتجاوزوا الألف.

في ربيع عام 1883 زار هذا المكان رجل إنجليزي. كان طالبا في كمبردج جاء خصيصا ليرى الكاتدرائية. وترك صديقيه غير المهتمين بالآثار في فندقهما بتولوز.

جاء الشاب في الصباح مبكرا، وقرر أن يملأ دفترا صغيرا ويلتقط شرائح لكل ركن من هذه الكنيسة الباهرة التي تطل من فوق جبل (كومنجز)، كان عليه أن يحتكر جهود حارس الكنيسة لهذا اليوم، وقد استدعت هذا الأخير المرأة السوقية التي تدير حانة (شابو روج). جاء الرجل فوجده الإنجليزي مثيرا للاهتمام فعلا. ليس السبب أنه عجوز أشيب فكل حراس الكنائس في فرنسا لهم ذات المظهر.. الفكرة هي الجو القاتم الكئيب المحيط به. كانت عضلات ظهره مقوسة بطريقة عصبية غريبة كأنه يخشى أن يمسك به عدو له في أية لحظة، ربما يعطى الانطباع بزوج مشهور تلومه زوجته طيلة الوقت.

على كل حال سرعان ما غرق الإنجليزي (وسوف نسميه دنيستون) في مفكرته وانشغل بالكاميرا.. بعد قليل خطر له أنه يؤخر العجوز ويعطله عن الغداء..

قال للرجل في النهاية:

- ألن تذهب لبيتك؟.. يمكنني أن أفرغ من مذكراتي هنا.. بوسعك أن تغلق الباب عليّ لو أردت. أنا بحاجة لساعتين لا أكثر.

بدا كأن العجوز شعر بهلع لا يوصف.. وقال:

- رباه!.. لا يمكن التفكير في شيء كهذا. أترك السيد وحده؟.. سوف أبقى معك مهما طال الوقت، شكرا للسيد.

خلال ساعتين كان قد صوّر ورسم ووصف كل شيء في الكنيسة وحتى الأرغن المتداعي والجوقة والمقاعد والنقوش. وطيلة الوقت ظل الحارس يقتفى خطوات دنيستون وإن كان يهب في أية لحظة يسمع فيها صخبا من مكان ما. يقسم دنيستون إنه سمع ضحكة معدنية طويلة قادمة من أحد الأبراج، فنظر متسائلاً نحو العجوز، لكن هذا لم يرد وإن بدت شفتاه بيضاوين كالورق.

حادث آخر غريب عندما كان يتفحص المذبح حيث علقت لوحة لإحدى معجزات سان برنار. وتحتها كتبت عبارة باللاتينية تقول: «كيف أنقذ سان برنار رجلاً حاول الشيطان أن يخنقه». استدار للرجل فوجده يركع على ركبتيه وقد بدا عليه هلع حقيقي. ثم بدأ سيل من الدمع يتدفق من عينيه.

تظاهر دنيستون بأنه لم ير شيئا. لكنه تسائل عن السبب الذي أحدثت به لوحة بدائية كهذه هذا التأثير في العجوز. لديه تفسير لا بأس به هو أن الرجل كان مجنونا بفكرة واحدة.. لكن ما هي؟

في الخامسة بدأ الليل يدنو وامتلأت الكنيسة بالظلال. تعالت الأصوات الخافتة وهذا بالطبع نتيجة ضعف الضوء وإرهاف حاسة السمع، للمرة الأولى بدا حارس الكنيسة قلقا متعجلاً.. وقد أطلق تنهيدة راحة عندما حزم البريطاني الكاميرا والأوراق. اقتاد دنيستون بسرعة إلى الباب الغربي تحت البرج. كان وقت دق جرس (الأنجليوس) قد جاء، وراحت الدقات تتردد في الجبال طالبة من الناس أن يتذكروا في صلواتهم سيدة الرسل. هنا غادر الرجلان الكنيسة.

قال العجوز:

- يبدو أن السيد مهتم بكتب الصلوات القديمة..

- بلا شك.. أردت أن أعرف إن كانت هناك مكتبة في البلدة.

- لا يا سيدي.. كانت لدينا واحدة صغيرة، لكن لو كان السيد مهتما بالكتب فلدي في بيتي شيء قد يثير اهتمامك..

هنا توهجت آمال دنيستون في أن يجد مخطوطات منسية عظيمة القيمة في هذا الجزء من فرنسا.. بالطبع لا يمكن أن يكون مكان كهذا لم يفحصه الهواة بعناية، لكن من الحماقة ألا يذهب مع الحارس ليرى. لو لم يفعل لَلَام نفسه للأبد.

لكن المشوار كان بعيدا لدرجة أنه بدأ يخشى أن يكون الرجل ينوي اختطافه كبريطاني ثري، وحرص على أن يعلن عدة مرات أن له صديقين سيلحقان به، لدهشته بدا كأن هذه المعلومة أراحت الحارس:

- عظيم.. عظيم.. السيد سيسافر بصحبة أصدقائه.. هذه فكرة ممتازة!

وصلا لبيت الرجل، وكان مبنيا من الحجارة وعلى الباب كان درع (ألبريك دو موليون) وهو أحد الأسلاف. كانت البناية متحللة تماما كأي شيء آخر في هذه البلدة.

عند العتبة توقف الحارس للحظة وقال:

- ربما.. ربما.. السيد ليس لديه الوقت؟

- بالعكس.. لديّ الكثير جدا من الوقت.

انفتح الباب وأطل وجه.. وجه أصغر بكثير من الحارس لكن عليه ذات النظرة المذعورة. كان من الجلي أن صاحبة الوجه هي ابنة الحارس. كانت فتاة قسيمة جميلة ويبدو أنها سُرّت لما رأت الغريب الوسيم مع أبيها.

تبادلت بعض تعليقات مع أبيها لم يتبين البريطاني منها سوى كلمات (كان يضحك في الكنيسة) فلم ترد الفتاة إلا بنظرة هلع. بعد قليل كان يجلس داخل البيت جوار النار التي تتوهج في المدفأة. على جانب الغرفة كان ما يشبه محرابا صغيرا به صليب عملاق يصل للسقف تقريبا. تحت الصليب كان هناك صندوق ضخم عتيق. أحضر الحارس مصباحا واتجه لهذا الصندوق، وفي عصبية أخرج منه كتابا عملاقا ملفوفا في قماش أبيض.

شعر دنيستون بحماسة لأن حجم الشيء لا يوحي بكتاب صلوات.. كان أمامه مجلد ضخم عليه إشارة (كانون ألبريك دي مولون) بالذهب. لابد أن عدد صفحاته كان مئة أو أكثر. هنا كانت عشر ورقات من سفر التكوين برسوم لا يمكن أن تكون أحدث من عام 700، لابد أن هذه النصوص اللاتينية مهمة جدا.

هكذا لم يعد يفكر إلا في شيء واحد.. هذه الكتب يجب أن تعود لكامبردج معه. حتى لو سحب كل ما لديه من مال من المصرف، نظر للحارس متسائلاً فقال هذا:

- لو أن السيد قلب الصفحات إلى النهاية..

فعل دنيستون كما طُلب منه، فوجد ورقتين حديثتين أثارتا دهشته. على الورقة الأولى وجد خارطة واضحة ومألوفة لأي شخص يعرف ممرات وأديرة (سان برنار) وكانت هناك كلمات عبرية وصلبان. تحت الخارطة كانت كلمات لاتينية تقول:

Responsa 12^{mi} Dec. 1694. Interrogatum est: Inveniamne? Responsum est: Invenies. Fiamne dives? Fies. Vivamne invidendus? Vives. ".Moriarne in lecto meo? Ita

وترجمتها: «هل سأجده؟.. الإجابة: سوف تفعل. هل أصير ثريا؟.. الإجابة: ستصير.. هل يحسدني الناس؟.. الإجابة: نعم.. هل أموت في فراشي؟.. الإجابة: ستموت..»

قلب دنيستون الصفحة فرأى صورة لم يعد لها وجود اليوم، لكن هناك صورة فوتوغرافية لها ما زالت عندي. كانت رسما بالسيبيا من القرن السابع عشر يمثل مشهدا من التوراة. على اليمين ترى ملكا على عرشه والعرش يرتفع 12 درجة.. من الواضح أنه الملك سليمان. ينحني للأمام في وضع من يأمر، ونصف الصورة الأيسر هو الأهم.. هناك أربعة جنود يحيطون بشيء سوف أصفه بعد قليل. هناك جندي خامس يرقد ميتا وقد تحطم عنقه وبرزت عيناه. الجنود الأربعة ينظرون للملك وقد بدا عليهم الرعب، الشكل الذي يحيط به الحراس كان

مرعبا بالفعل، وقد جرؤت على أن أريه لرجل متزن خبير في علم المورفولوجي، فكانت النتيجة أنه رفض أن يكون وحده طيلة الليل، ولليال عدة رفض أن يطفئ النور عندما ينام.

لم يكن بوسعك أولا أن تفهم كُنه هذا الشيء لأنه محاط بشعر خشن كثيف.. لكن له عضلات متوترة كالسلك. العينان لونهما أصفر ومخيفتان تنظران للملك بشيء من المقت والذعر. يمكنك أن تتصور عنكبوتا مخيفا من أمريكا الجنوبية لتتصور شكل هذا الشيء. لكن التعبير الذي يقوله جميع الذين رأوا الصورة هو: إنها مرسومة من مشهد واقعي..

هنا رفع دنيستون عينيه ليسأل:

- هل هذا الكتاب للبيع؟

ساد جو من التردد ثم فجأة جاءت الموافقة:

- لو أراد السيد..

- كم؟

- سآخذ 250 فرنكا.. كان هذا ثمنا مخجلاً.. هناك أشياء تحرك حتى ضمائر هواة المجموعات، لذا قال دنيستون:

- أيها الصديق الطيب.. كتابك يساوي أكثر من هذا.. أكثر بكثير

- سوف أخذ 250 فرنكا..

كان من المستحيل رفض فرصة كهذه.. تم الدفع وأخذ إيصالاً وهنا بدا أن الحارس صار رجلاً آخر.. بدأ يضحك وكف

عن النظرات العصبية. وقال له:

- صوف أنال شرف اصطحاب السيد للفندق..

- لا... هذا يبلغ مائتي يارده.. سوف أعود وحدي والقمر بدر على كل حال.

كرر الرجل الطلب ثم قال:

- إذن فليمش السيد في منتصف الطريق لأن جانبي الطريق وعران..

كان دنيستون متشوقا للعودة ودراسة ما اشتراه، لذا غادر المكان. هنا قابلته الفتاة وقد بدا أنها تريد أن تأخذ منه ما أبقاه أبوها معه من مال:

- هل يرغب السيد في قلادة وصليب فضي؟

لم يكن راغبا في هذه الأشياء، لكنه فوجئ بأن الفتاة تعرض هذه الأشياء ولا تريد مالا. كانت لهجتها لا تترك له فرصة للرفض.. هكذا أخذ منها القلادة ووضعها حول عنقه، والغريب أنه شعر بأنه أسدى لها خدمة لا توصف..

ظلا يراقبانه وهو يرحل، حتى لوح لهما مودعا عند بداية طريق (شابو روج).

تم تقديم العشاء فاختلى دنيستون بنفسه في غرفته، لا يعرف السبب لكنه بدأ يشعر بعدم راحة.. شعور معين من القلق جعله يشعر بأنه في حالة أفضل لو أراح ظهره للجدار. لكن هذا لم يكن يقارن بما وجده..

قال لنفسه:

- بورك (كانون ألبريك)!.. ترى أين هو الآن؟.. أتساءل عن أهمية ذلك الصليب الذي أصرت الفتاة على أن أحمله معي.. ثقيل جدا ومتعب لدى وضعه حول العنق.. والمقلق أن أباها بالتأكيد ارتداه لأعوام.. لابد من تنظيفه جيدا..

نزع الصليب ووضعه على المنضدة هنا لاحظ شيئا على قطعة قماش حمراء تحت مرفقه الأيسر. بسرعة تخيل ثلاثة أشياء عن كنه هذا الشيء..

- ممسحة للقلم؟.. لا.. لا شيء كهذا هنا.. فار؟.. لا.. هو أسود جدا.. عنكبوت كبير... لا.. يد كاليد التي كانت في الصورة؟!

في لحظة تذكر كالبرق تلك اليد.. الجلد الشاحب الذي يغطي العظام وشعر خشن ومخالب تمتد للأمام متقوسة.

وثب من مقعده شاعرا بهلع يعتصر قلبه. الشيء الذي كانت يده اليسرى تستند إليه يرتفع من خلف المقعد. كان الشعر الأسود يغطيه كما في الصورة.. الفك السفلي رفيع جدا.. أنيابه واضحة خلف الشفتين السوداوين ولا أنف.. والعينان الصفراوان تلمعان بظمأ حارق لتدمير الحياة.. هناك نوع من ذكاء فيهما.. ذكاء يفوق ذكاء الوحش لكنه أقل من ذكاء البشر..

كان الذعر قد بلغ ذروته مع دنيستون.. تكلم لكنه لا يعرف ما قال.. يذكر فقط أنه صرخ وأنه أمسك بالصليب الفضي بينما الشيء يقترب منه. صرخ بصوت كأنه حيوان في ألم عظيم.

لم ير (بيير) و (برتران) الخادمان شيئا عندما اندفعا للحجرة.. لكنهما دُفعا للجانب بوساطة شيء مر بينهما.

أمضى الخادمان الليل معه، ووصل صديقاه في التاسعة من صباح اليوم التالي. كان هو قد عاد لطبيعته في ذلك الوقت برغم ما اعتراه من ذعر.

عند الظهر وصل حارس الكنيسة وأصغى للقصة كما حكتها له صاحبة النزل، فلم يبد مندهشا. لم يقل سوى:

- إنه هو!.. لقد رأيته بنفسي!..

وكان يردد:

- سوف أنام قريبا جدا.. ولسوف تكون راحتي حلوة.. لماذا تضايقونني؟

لن نعرف أبدا ما قاساه هو أو (كانون ألبريك دو مولون) - فقط على ظهر الصورة المخيفة كانت هناك سطور لاتينية ربما تلقي الضوء على الموقف.

لم أفهم قط نظرة دنيستون للأحداث، فقط قال لي ذات مرة:

- نبي التوراة أشعيا كان رجلاً شديد الحساسية.. ألم يتكلم عن الوحوش التي تعيش في خرائب بابل؟ هذه الأشياء لا نفهمها في الوقت الحالي..

في العام الماضي ذهبنا إلى كومنجز للزور قبر (كانون ألبريك). إنه بناء من الرخام عليه تمثال لكانون. وقف دنيستون لفترة يتكلم مع راعي الكنيسة ولما ابتعدنا قال لي:

- آمل ألا يكون هذا خطأ.. تعرف أنني أنتمي للكنيسة المعمدانية لكني طلبت أناشيد جنائزية وقداسا لألبريك دو مولون كي يظفر بالراحة..

الآن تجد الكتاب في مجموعة (ونتورث) بكامبردج.. اللوحة التقطت لها عدة صور ثم أُحرقت بوساطة دنيستون عندما غادر كومنجز لأول مرة. لا تعرف الكثير عن هذه القصة لكن اللوحة رسمها (ألبريك دو مولون) نفسه وعنوانها (سليمان وشيطان الليل). وقد مات مولون نفسه أثناء نومه في نوبة غامضة لم يعرف أحد سببها قط.

البيت والعقل

بقلم إدوارد بولوير لوتن

شاعر وسياسي وكاتب مسرحي وقصصي بريطاني، ولد عام 1803. كانت له شعبية عظيمة وحقق ثروة من قلمه، توفي علم 1873، يقدم لنا هنا قصة أشباح تذكرك بقصة الغرفة الحمراء لويلز أو 1408 لستيفن كنج.

البيت والعقل

قال لي صديقي هو كاتب وفيلسوف، بلهجة تجمع بين المزاح والجد:

- تخيل!.. منذ التقينا آخر مرة وجدت بيتا مسكونا في قلب لندن!

- مسكون؟.. وبم؟.. أشباح؟

- لا يمكنني أن أجيب عن هذا السؤال.. كل ما أعرفه أنني وزوجتي كنا نبحث عن شقة مفروشة منذ ستة أسابيع.. رأينا في شارع لافتة تقول (شقق مفروشة) وناسبنا هذا.. استأجرنا الشقة وتركناها بعد ثلاثة أيام لأنه ما من قوة كان يمكن أن تقنع زوجتي بالبقاء..

- ماذا رأيتما؟

- معذرة.. لا أريد أن يسخر مني أحد كمخرف.. فقط أقول لك إن المشكلة لم تكن فيما رأينا وسمعنا.. ومن حقك أن تفترض أنها تخاريف خيالنا الخاص.. لكن ما جعلنا نفر كان الذعر غير المحدد الذي نشعر به كلما اجتزنا مدخل غرفة غير مفروشة لم تر فيها أي شيء والأغرب أنني وافقت زوجتي لأول مرة في حياتي - برغم أنها امرأة سخيفة - وقررت أن البقاء يوما آخر أمر مستحيل.. لهذا استدعيت المرأة المشرفة على البيت وقلت لها إننا سنفارق البيت، فقالت بجفاف إنها تعرف السبب وإننا بقينا في البيت أكثر من أي ساكن آخر.. لكن من الواضح أنهم كانوا رفيقين بكم..

سألتها باسما:

- هم؟

- يسكنون المنزل.. لا أهتم بهم. أنا الآن مسنة ولابد أن أموت يوما ما.. وسوف ألحق بهم.

لم أهتم بسؤالها عن المزيد ورحلت مع زوجتي ونحن في غاية السرور..

قلت له:

- أنت تثير فضولي.. لا أشتهي شيئا مثل النوم في بيت مسكون. أرجو أن تعطيني عنوان هذا البيت..

أعطاني صاحبي العنوان وهكذا مشيت للبيت.

يوجد هذا البيت شمالي شارع أكسفورد. كان مغلقا بلا لافتة في النافذة ولم يرد أحد على دقاتي. كدت أنصرف عندما ظهر صبي صغير ممن يجمعون زجاجات الجعة وقال لي:

- هل تريد أحدا هنا يا سيد؟

- سمعت أن البيت للإيجار

- المرأة التي تعنى به قد ماتت، لها ثلاثة أسابيع ولا أحد يريد أن يبقى هنا برغم أن مستر (ج) عرض الكثير. عرض على أمي جنيها كاملا كي تفتح النوافذ فقط لكنها رفضت..

- ولم لا؟..

- البيت مسكون.. وقد ماتت العجوز التي تعنى به في فراشها. يقولون إن الشيطان خنقها..

- هل مستر (ج) هو ملك البيت؟

- نعم..

- ماذا يعمل؟

- لا شيء يا سيدي.. مجرد سيد أعزب..

منحت الصبي ثمن معلوماته وانطلقت أبحث عن عنوان مستر (ج). كان من حسن حظي أن وجدته في داره.. رجل مسن له ملامح ذكية، قلت له إنني سمعت أن البيت مسكون ولدى رغبة قوية في فحص بيت بهذه الصفات. أنا راغب في المبيت فيه ولو ليلة ولسوف أدفع لك.

قال لي:

- يمكنك يا سيدي أن تستأجر المنزل لأية فترة تروق لك قصيرة أو طويلة. لا كلام عن الإيجار إذا استطعت أن تميط اللثام عن السر الذي يجعله بلا نفع لي.. لا أستطيع أن أجد خادما ينظفه لي أو يرد على الباب.. البيت مسكون فعلا ليس فقط في الليل بل في النهار، المرأة المسكينة التي كانت تعيش فيه كانت امرأة ذات تعليم راق وهي المخلوق الوحيد الذي قبل أن يقيم هناك. موتها المفاجئ جعل من المستحيل أن أجد ساكنا بعدها أنا مستعد لأن أمنح البيت مجانا لمن يدفع الضرائب العقارية عليه..

- منذ متى هو سيئ السمعة؟

لا أستطيع أن أقول.. لكنه منذ زمن بعيد.. قالت العجوز إنه كان مسكونا عندما استأجرته منذ عشرين لثلاثين عاما. المشكلة

هي أنني قضيت حياتي في شرق الانديز وعدت لإنجلترا منذ عام لأرث ثروة عمي وكان ضمنها هذا البيت. وجدته مغلقا وقيل لي إنه مسكون... بدت لي فكرة سخيفة وأنفقت بعض المال على تجديده. وكان أول مستأجر (كولونيلا) وأسرته.. لم يبق سوى يوم واحد ثم رحل.. وبرغم أن كل واحد منهم حكى قصة مختلفة عن البيت وما رآه فقد جمع بينهم أنهم رأوا شيئا مخيفا. وهكذا جعلت تلك العجوز تقيم فيه.. ولاحظت أن كل من حاول الإقامة فيه وفر كان يحكي قصة مختلفة عما حكاه سواه. ادخل البيت لترى بنفسك لكن تأهب لرؤية أشياء.. ولتعدّ ما يلزم لك..

- ألم تشعر بفضول كي تمضي ليلة بنفسك؟

- بلى.. جربت لكن ليس ليلة.. جربت ثلاث ساعات في النهار.. ليس ذنبي أنني لست بالغ الشجاعة، ولهذا لا أنصحك بأن تجرب ما لم تكن قوى الأعصاب عظيم التصميم..

أبديت إصراري فلم يقل الرجل الكثير. تناول المفاتيح وأعطاها لي. شكرته بحرارة لصراحته. هرعت بعد ذلك لخادمي المخلص الذي أعرف شجاعته وثبات أعصابه الذي يفوق أي شخص عرفته، وقلت:

- (ف).. هل تذكر خيبة أملنا في ألمانيا عندما لم نجد شبحا في تلك القلعة؟.. هناك بيت في لندن مسكون.. وأنوي أن أنام فيه الليلة.. أنا متأكد مما سمعت من أن شيئا سيظهر.. شيئا مفزعا.. هل تعتقد أنك لو قضيت الليل معي سوف تحتفظ برباطة جأشك؟

قال في سرور:

- ثق بي يا سيدي..

- ممتاز.. هذه هي المفاتيح فخذها.. اسبقني إلى البيت.. المنزل لم يسكن منذ بيع لذا أوقد نارا وقم بتهوية الغرفة المختارة للنوم.. خذ معك مسدسي وخنجري وما يلزمك من سلاح..

قضيت باقي اليوم في أعمال أنستني المغامرة التي انتويت القيام بها. ثم تناولت عشائي وأنا أقرأ.

وفي التاسعة والنصف انطلقت نحو البيت ومعي كلبي المفضل. كانت ليلة باردة والسماء مكفهرة لكن هناك قمرا شاحبا وأدركت أن السماء ستكون صافية بعد منتصف الليل. دققت الباب ففتح لي خادمي الباب بوجه مسرور.

- كله تمام يا سيدي ومريح جدا..

- غريب.. ألم تسمع أو تر شيئا غريبا؟

- يجب أن أقر بأنني سمعت شيئا غريبا.. صوت أقدام خلفي مع أصوات همس قرب أذني..

ولم يكن خائفا مما طمأنني أنه مهما حدث فلن يتخلى عني.

هنا تصلبت عيناي على الكلب.. كان يركض في شغف أولا، لكنه الآن عند الباب يخدش بمخالبه ليخرج، ربّتّ على رأسه مرارا فبدأ يهدأ قليلا.. فتشنا القبو والمطبخ وكانت زجاجات الخمر مغطاة بالعناكب مما دلنا على أن الأشباح ليست مدمنة خمور، وجدنا قبوا في الخلفية.

هنا ظهر أول شيء غريب أراه هنا، رأيت أثر قدم يتشكل على الأرضية الرطبة.. تصلبت وأمسكت بساعد خادمي ليرى بنفسه. هنا ظهرت قدم أخرى.. واصلت القدمان الحركة وكانتا صغيرتين.. قدمي صبي.. وعندما بلغت الجدار الآخر توقفت.

تفقدنا قاعة الطعام وغرفة يبدو أنها مخصصة لسائق.. كل شيء كان ساكنا. انتقيت غرفة وجلست إلى منضدة بينما أشعل خادمي الشمعدان.. هنا تحرك مقعد أمامي إلى الجدار بسرعة وبلا صخب ثم سقط جوار مقعدي.

قلت ضاحكا:

- على الأقل هذا أفضل من الموائد المقلوبة.

هنا نبح كلبي بقوة. خيل لي أني أرى ملامح ضبابية لإنسان، لكنها ضبابية جدا لدرجة أنني شككت في بصري. قلت لخادمي (ف):

- أعد هذا المقعد لمكانه... أعده للجدار..

هنا قال (ف):

- هل هذا أنت يا سيدي؟

- أنا ماذا؟

- هناك من ضربني على كتفي.. حسبته أنت...

غادرنا هذه الغرفة فقد كانت باردة فعلاً، وأغلقنا الباب بإحكام.. هذه حركة احتياطية قمنا بها في أية غرفة دخلناها. كانت غرفة النوم التي اختارها لي هي الأفضل.. هناك نافذتان

تطلان على الشارع، وهناك نار مبهجة أمام الفراش مباشرة. وكانت تتصل بالغرفة التي اختارها خادمي لنفسه، تفقدنا الجدران وخزانات الثياب.. كانت الجدران مصمتة وهي التي تكون جدار البيت.. بينما الخزانات خالية تماما إلا من شماعات لثياب نسائية.

كان هناك باب موصد بعناية.. فقال خادمي في توتر:

- سيدي.. هذا الباب كان مفتوحا.. أنا فتحته قبل هذا ولا يمكن غلقه من الداخل.

هنا انفتح الباب بقوة.. فتبادلنا النظرات.

اندفعت أدخل الغرفة فوجدتها غرفة صغيرة بلا أثاث.. لا بساط.. لا أبواب سوى الذي دخلنا منه. وقفنا ننظر حولنا.. هنا انغلق الباب!... لقد سجننا!

وللمرة الأولى شعرت برعب عظيم..

لكن خادمي كان أبعد ما يكون عن الذعر وقال لي:

- لا يمكن أن يحسبوا أنهم سجنونا يا سيدي... يمكن أن أفتح الباب بركلة من قدمي..

كنت أحاول فتح الباب، أما هو فقد طلب الإذن باستعمال العنف، هنا أقر أنني أعجبت جدا برباطة جأشه ومرحه وسط هذه الظروف. وقد هنأت نفسي على أن معي رفيقا يمكن الثقة به في مواقف كهذه. إلا أن جهوده لم تنجح.

شعرت كأن الغرفة تمتلئ ببطء بروح شريرة كريهة.. وفجأة انفتح الباب تلقائيا ببطء شديد، فاندفعنا للخارج، رأينا بقعة

ضوء بشكل وحجم البشر تتحرك.. هرعنا نلحق بها.. فإذا بها تتجه إلى غرفة نوم صغيرة يبدو أنها كانت مخصصة للخدم. رأيت الضوء ينكمش إلى حجم كرة صغيرة رائعة الجمال ثم يتلاشى. هناك على الفراش وجدنا منديلا.. كان مكسوا بالغبار فلربما كان يخص العجوز التي ماتت هنا. شعرت برغبة في فتح الأدراج.. فتحت أحدها فوجدت خطابين مربوطين بشريط أصفر. أمسكت بالخطابين هنا شعرت بشيء ناعم يقبض على معصمي.. ويحاول في رفق انتزاعهما.. لكنه لم ينجح.

عدنا لغرفتي.. لاحظت أن كلبي لم يتبعنا قط، بل كان يقعى جوار النار ويرتجف. كنت شغوفا بقراءة الخطابين، بينما راح خادمي يخرج الأسلحة التي جئنا بها ويضعها على منضدة جوار الفراش.

كان تاريخ الخطابات يعود لخمسة وثلاثين عاما.. خطابات من عاشق لحبيبته مع لمسة تدل على أن من يكتب الخطابات كان بحارا أو يعمل بالبحر. ومن الواضح أنه لم يتعلم جيدا جدا. هناك عبارات توحي بسر معين. سر لا علاقة له بالحب بل بالجريمة، مثل «لا تدعي أحدا يوجد في غرفتك ليلاً.. لربما كنت تتكلمين في نومك» و «ما حدث قد حدث.. ولن يعرف أحد الحقيقة ما لم يتكلم الموتى..».

في الخطاب الأخير هناك تعليق بخط أنثوي يقول:

«فُقد في البحر يوم 4 يونيو.. نفس اليوم الذي.....»

وضعت الخطابين جانبا ورحت أفكر، زدت من اشتعال النار وفتحت الكتاب الذي أحضرته معي ورحت أطالع حتى الحادية عشرة والنصف. سمحت للخادم بأن يذهب لحجرته لكن بشرط

ألا ينام وأن يبقي الباب مفتوحاً بين الغرفتين أشعلت شمعتين على جانبي الفراش وواصلت القراءة.

بعد عشرين دقيقة شعرت بهواء بارد يضرب وجهي.. استدرت لأرى لهب شمعة يهتز في جنون، ورأيت ساعتي التي وضعتها جوار المسدس تنزلق ببطء.. وفجأة اختفت، أمسكت بالمسدس في يد والخنجر في يد ونهضت، لأنني لم أرغب في أن تلحق أسلحتي بساعتي.

نهض الكلب منتصبا وتراجعت أذناه للخلف وراح يصغى. راح ينظر لي في ثبات بنظرة غريبة، وشعره منتصب. هنا اقتحم الخادم الغرفة وقد قلص الرعب وجهه حتى إني لو رأيته في الشارع لما عرفته. وهمس وهو يركض:

- اجر!.. أجر!.. إنه من خلفي!

واندفع للباب ففتحه وخرج.. هرعت خلفه فسمعته يثب فوق الدرجات.. ثم انفتح باب الشارع. لقد صرت وحدي في البيت المسكون!

وفقت للحظات لا أعرف إن كان على أن أتبعه أم لا، ثم تغلبت الكبرياء لتعيدني.. دخلت الغرفة التي كان فيها فلم أر شيئا يبرر هلعه، لا توجد أبواب أو فتحات.. إذن كيف استطاع هذا الشيء الذي أفزعه أن يدخل ما لم يكن عن طريق حجرتي؟

عدت للغرفة فوجدت أن الكلب حشر نفسه في إحدى زوايا الحجرة كأنه يحاول حرفيا اختراق الجدار. دنوت من الحيوان وتكلمت معه. كان من الواضح أن الرعب تملّكه.. كان يكشّر عن أنيابه واللعاب يسيل من فمه. فقط لو رأيت في حديقة الحيوان

أرنبا تجمد من الرعب أمام ثعبان يمكنك فهم المنظر. حاولت تهدئة الحيوان، وإن حرصت على ألا أتعرض لعضة منه وهي أمر وارد في هذه الظروف، وعدت أطالع كتابي.

كنت قد رأيت الكثير من التجارب الغريبة في كل مكان بالعالم، وقد كونت نظريتي الخاصة أن (الخارق للطبيعة) ليس سوى ظاهرة طبيعية لم نعرفها من قبل.. لو ظهر شبح أمامي فلن أقول: الخارق للطبيعة ممكن.. لكن سأقول: إذن فظهور الأشباح ممكن حسب قوانين الطبيعة، على عكس ما يعتقد العلماء وفي كل الظواهر الخارقة مثل تحريك الأثاث واستحضار الأرواح فإن العنصر البشري يظل موجودا ليستقبل ويرى.. ولهذا فإنني أعتقد أن ما رأيته في هذا البيت حتى اللحظة يتم عبر وسيط بشري فانٍ مثلي. مهما رأيت فلسوف يكون هذا عبر وسيط مُنح القدرة على أن يقدم لنا هذه الأشياء.

كنت هادئ الجنان أتصرف بنفس العقلانية التي ينتظر بها أحد العلماء نتيجة تفاعل كيماوي. كنت أقرأ عندما شعرت كأن شيئا يتدخل بين الصفحات ومصدر الضوء.. نظرت لأعلى فرأيت الشيء الذي ربما أجد من المستحيل أن أصفه. الظلام يتشكل في صورة ليست بشرية تماما بل هي أقرب لظل غير واضح في الهواء، ظل هائل الحجم يوشك على أن يلمس السقف..

خيل لي أنني أرى عينين تنظران لي من أعلى. كانتا تظهران ثم تختفيان.

حاولت النهوض لكنني لم أقدر بسبب ثقل غير عادي جثم عليّ. هناك إرادة أقوى منى تمنعني.. إرادة لها ذات تصميم

العواصف والبراكين.

في النهاية تملكني الرعب.. رعب يفوق الكلمات. لكني قلت لنفسي:

- هذا رعب.. رعب وليس خوفا.. الخطر هو أن أشعر بالخوف.. هذا وهم..

مددت يدي لسلاحي.. هنا سقطت يدي جواري وبدأ ضوء الشمعة يخبو. كان الضوء يتلاشى من المدفأة.. وبدأ الظلام يسود. هرعت للنافذة وفتحت المصراع.. كان أول ما فكرت فيه هو: ضوء..

رأيت القمر صافيا هادئا.. شعرت بسرور..

عدت للغرفة فوجدت أن الشيء المظلم قد توارى. نظرت للمنضدة المصنوعة من خشب الماهوجني، هنا رأيت يدا تبرز. يدا من لحم ودم مثل يدي لكنها لشخص مسن.. امرأة على وجه الدقة. وفجأة اختفى الخطابان من على المنضدة، وسمعت ثلاث دقات عند رأس الفراش.

تحرك مقعد عند طرف الغرفة وبدأ شيء يتشكل فوقه.. شيء له مظهر امرأة.. امرأة شابة لها جمال جنائزي غريب. وقد التفّت بثوب من الضباب الأبيض.. لم تكن عيناها تنظران لي بل إلى الباب.. كأنها تصغي.. تنتظر..

ومن الباب – برغم أنه لم ينفتح - ظهر شكل آخر مخيف.. شكل شاب يلبس ثياب القرن الماضي.. أو ما يبدو كذلك لأنه كان طيفيا.. وكان للشبحين ذات الملامح الميتة الشاحبة.

دنا الذكر من الأنثى مع ظل أسود غريب ينحدر من الجدار خيل لي أنني أرى بقعة دم على صدر الأنثى. ورأيت شبح الرجل ينحني على السيف بينما الظل في الوسط يلتهمهما معا وسرعان ما تواريا.

انفتح باب الخزانة عن يمين المدفأة وظهرت امرأة مسنة.. في يديها خطابان.. نفس الخطابين اللذين رأيت اليد تأخذهما فتحت الخطابين كأنها تقرأ.. ومن خلفها ظهر وجه محتقن وجه رجل غرق منذ زمن.. منتفخ وقد اختلط عشب البحر بشعره.. جواره كان طفل.. طفل تعس سيء التغذية..

نظرت لوجه العجوز فبدا كأن التجاعيد تزول وصار وجه شابة حادة النظرات. ومن جديد عادت الظلال.. ثم من الظلال بدأت فقاقيع تخرج.. تنفجر ومنها تخرج أشياء عملاقة مسوخية.. أشياء لا يمكن أن أصفها للقارئ إلا كهذه الأشياء المرعبة التي تراها في قطرة الماء تحت عدسة المجهر.

كنت أشعر بأن شيئا يلمسني لكن ليس تلك الأشياء.. أنامل باردة غير مرئية تحاول الإمساك بمعصمي.. وشعرت بشكل ما أنني لو أبديت ذعرا لكانت نهايتي، لذا تماسكت.. كانت معركة إرادات. كانت من حولي إرادة.. إرادة قوية شريرة خلاقة..

كانت الأشكال تتوهج كأنها تحترق.. ثم دوت دقات ثلاث.. هنا توارى كل شيء.. من الظلمة جاءت وإلى الظلمة عادت..

ومن جديد توهجت الشمعان على المنضدة وعادت الغرفة هادئة كما كانت.

كان البابان مغلقين كما هما.. والكلب كان ما زال في الركن. ناديته فلم يرد، عيناه جاحظتان، أدركت أنه ميت.. حملته بين ذّراعي قرب النار وشعرت بحزن بالغ لخسارتي، خطر لي أنه مات من الرعب، لكن دهشتي كانت بالغة عندما وجدت أن عنقه مهشمة. هل حدث هذا في الظلام؟.. ألم تفعل هذا يد لا تقل بشرية عن يدي؟ لا أستطيع إلا ذكر ما رأيت وللقارئ أن يستنتج ما يشاء.

أما ساعتي فقد عادت لمكانها، وفيما بعد مهما حاول أبرع صناع الساعات أن يصلحوها فإنها كانت تعمل لساعة ثم تتوقف لقد صارت بلا قيمة.

لم يطرأ شيء بقية الليل. وقد خطر لي أن أزور الغرفة الصغيرة التي سجنت فيها وخادمي، لأنه خطر لي أن تكون هي الغرفة التي بدأ منها كل شيء.. وبرغم أنني دخلتها في ضوء الشمس عبر النافذة، فإنني شعرت بنفس رعب البارحة، حتى لم أجسر على البقاء فترة أطول.

نزلت في الدرج وفتحت باب الشارع وأطلقت ضحكة خافتة. عدت لبيتي متوقعا أن أجد خادمي هناك، لكني لم أجده.. ولم أسمع عنه شيئا لمدة ثلاثة أيام عندما تلقيت رسالة منه من ليفربول يقول:

- سيدي المحترم: أطلب صفحك برغم أنني لا أستحقه. ما لم تكن قد رأيت ما رأيته.. أحتاج لأعوام كي أستعيد لياقتي وأصلح للخدمة ثانية. سأذهب لأخي زوجتي في ملبورن لأقيم عنده والسفينة تتحرك غدا، لا أفعل شيئا سوى الرجفة إذ

أتخيل الشيء خلفي. فقط أطلب يا سيدي أن ترسل متاعي وأجرى لوالدتي.. جون يعرف العنوان..

كان من الواضح أن الرجل ينوى الذهاب لأستراليا، في المساء عدت للبيت وفي نيتي أن أجلب الأشياء التي تركتها هناك. لم يحدث شيء. وقد عدت للمستر (ج) في مكتبه لأعيد له المفاتيح وأخبرته أنني رويت فضولي وكدت أحكي له ما رأيته، لكنه استوقفني وقال في أدب إنه لم يعد يبالي بهذا اللغز.

هنا سألته عن الخطابين اللذين وجدتهما وعما إذا كان لهما علاقة بالعجوز التي عاشت في البيت لفترة. بدا مندهشا ثم قال إنه لا يعرف الكثير عن المرأة، لكنه سيجري بعض التحريات إن هناك نظرية تقضي بأن ضحية الجريمة أو منفذها يزور كروح قلقة مكان الجريمة.. لكن الأرواح تغزو هذا البيت من قبل أن تقيم فيه المرأة.

قلت له:

- ما زلت أؤمن بوجود عنصر بشرى في هذا كله.. لو كان التنويم المغناطيسي قادرا على نقل أفكار لك، فلماذا لا يكون هناك شخص هو الذي ينقل هذه الرؤي؟

قال في دهشة:

- لو افترضنا هذا بالنسبة للخيال، فماذا عن حركة أجسام مادية كالمقاعد والأبواب؟

- هناك قوة أكبر من التنويم المغناطيسي.. القوة التي كانوا في الماضي يسمونها (السحر). لن تكون قوة خارقة للطبيعة. بل ستكون قوة ضمن قوى الطبيعة لكنها نادرة جدا ولا يظفر بها

إلا قليلون. دعني أوضح ما أعنيه من تجربة يصفها (بارسيلسوس) بأنها غير صعبة، كما يصفها صاحب كتاب (غرائب الأدب) بأنها ذات مصداقية، عندما تحرق زهرة فإن مكوناتها تتجعد وتتلاشي.. لكن بوسعك بالكيمياء أن تسترجع المكونات من الرماد. هذا ينطبق على الروح.. هذا الشيخ الذي يظهر ليس هو روح المتوفى، بل هو صورة للشكل الميت. هذه الأشباح عندما تظهر لا تتكلم وإذا تكلمت لا تقول شيئا مهما. أنا مصمم على أن ما رأيته انتقل لعقلي من عقل آخر.. هناك أعجوبة جديدة اسمها الكهرباء.. باختصار أنا أفكر في أن ما رأيناه ليس سوى أحلام غير مكتملة لعقل هائل القدرة.. مرعب في قدرته على التدمير. لقد قتلت الكلب ولربما قتلتني أنا أيضا. لا غرابة في أنه لا يمكن إقناع حيوان بالبقاء هناك.. حتى الفئران والصراصير. هل تفهم نظريتي؟

- نوعا.. وإنني لأقبل أية نظرية خيالية أكثر من قبولي لفكرة الأشباح..

قلت له:

- على كل حال أنا أشك في تلك الغرفة الصغيرة عند المدخل، وأقترح عليك أن تهدم الجدران وتنتزع الأرضية.. لاحظت أنها منفصلة عن البيت ويمكن تدميرها دون أن تؤذي البيت.. سوف أدفع لك نصف التكاليف لو فعلت..

- لا.. لا داعي سأدفع كل شيء..

بعد عشرة أيام جاء خطاب من مستر (ج) يقول إنه زار البيت، ووجد الخطابين اللذين كانا معي في درج. وقد أجرى بحثا عن المرأة التي يبدو أن الخطابات موجهة لها، وبدا أنه منذ 36

عاما تزوجت برغم إرادة أهلها.. تزوجت من رجل أمريكي مريب. هي كانت ابنة تاجر محترم جدا ولها أخ أرمل لديه طفل في السادسة، وكان ثريا جدا.. بعد شهر من الزواج وجدوا جثة هذا الأخ في نهر (التيمز) وهناك علامات عنف على حلقه. تولى الأمريكي وزوجته رعاية الطفل.. لو مات الطفل ترث الأخت الثروة، مات الطفل بعد ستة أشهر فعلا وقال الجيران إنهم سمعوه يصرخ ليلا.. الأطباء الذين فحصوه وجدوا جسدا سيئ التغذية مليئا بالكدمات، هكذا ورثت العمة كل شيء، وبعد عام من الزواج غادر الأمريكي إنجلترا ولم يعد قط، أما الزوجة فظلت وحدها تواجه مصالب إفلاس المصرف وإفلاس عدة مشاريع.. ابتاعت متجرا صغيرا وراحت تنحدر اجتماعيا حتى صارت خادمة.. وسرعان ما استأجرها مستر (ج) للعناية بالبيت الذي سكنت فيه في عام زواجها الأول.

أضاف مستر (ج) أنه استأجر عمالاً لهدم الغرفة، وهو ينتظر أن أعطيه يوما مناسبا.

تم الهدم فعلاً.. وتحت الأرضية وجدنا بابا صغيرا يسمح بنزول رجل لأسفل.. نزلنا لأسفل إلى غرفة لم يعرف أحد بوجودها قط.. كانت هناك نافذة مغلقة بالقرميد. كانت هناك مقاعد ومنضدة كلها تنتمي لموضة تعود لثمانين عاما.

خزانة ثياب بها ثياب أنيقة عتيقة الطراز.. وهناك خزانة حديدية مثبتة للجدار وعليها قفل كلفنا الكثير من الجهد لنهشمه.

كانت هناك أدراج وعلى الأرفف كانت زجاجات من الكريستال بها مواد طيارة لا لون لها، كان هناك أنبوب زجاجي

غريب الشكل وفي أحد الأدراج كانت صورة مؤطرة بالذهب ألوانها ما زالت نضرة... كانت تصور رجلاً في السابعة والأربعين غالبا.

كان وجهه شديد التأثير.. تخيل ثعبانا عملاقا صار رجلاً.. يمكنك عندها أن تتخيل منظر هذا. عينان مخيفتان خضراوان وفك مربعة تدل على قوة غير عادية يعرف صاحبها أنه يملكها. أدرت الصورة تلقائيا لأرى المكتوب.. على ظهر الصورة كانت نجمة خماسية في مركزها سلم والدرجة الثالثة منه تقول 1765. وجدت زنبركا فضغطت عليه هنا انفتح ظهر اللوحة وقرأت الكلمات:

«ماريانا... كوني مخلصة في حياتك وموتك لـ...»

هنا جاء اسم لن أذكره، لكني سمعته في طفولتي لأنه اسم نصاب اشتهر بعروضه في لندن ثم فر منها بسبب جريمة قتل مزدوجة حدثت في بيته.. قتل حبيبته ومنافسه.

أما مستر (ج) فقد انتزع الدرج الثاني بصعوبة بالغة.. وجدنا جهازا في حالة ممتازة، وكان هناك طبق يستقر على كتاب.. الطبق مليء بسائل رائق تطفو فوقه بوصلة، لكن بدلاً من نقاط البوصلة كانت هناك سبعة حروف غريبة ومن الدرج كانت رائحة غريبة لكنها ليست كريهة. رائحة تؤثر في الأعصاب بشدة.. شعرنا بتنميل شديد حتى جذور الشعر.

نزعت الطبق هنا راحت الإبرة تدور حول نفسها، وأصابتني صدمة جعلتني ألقي بالطبق. انسكب السائل.. هنا راحت الجدران تهتز كأن يدا عملاقة تهزها. أصاب الذعر العمال حتى أنهم عادوا للسلم الذي نزلنا منه لكن لم يحدث شيء أكثر.

كان الكتاب مجوفا يحوي رقاقة من المخمل عليها نجمة خماسية مزدوجة، وكتابة بلاتينية عنيفة يمكن ترجمتها كذا:

- إلى كل من يبلغ هذه الجدران حيا أو ميتا.. سوف تتحرك الإبرة بإرادتي. ملعون هذا البيت، ومذعورون هم كل من سيقيمون فيه..

لم يكن هناك شيء آخر

أحرق مستر (ج) المخمل واللعنة المكتوبة عليه.. ثم قام بتجريف الغرفة وجدرانها، ولمدة شهر تجرأ على سكنى البيت وحده. لم يعد في لندن بيت أكثر هدوءا.. في النهاية عرضه للإيجار فلم يتلق أية شكوى من السكان.

شبح مسز فيل

بقلم دانييل ديفو

دانييل ديفو.. نموذج للمؤلف الذي ابتكر شخصية غطت تماما على اسمه.. إنه مؤلف الشخصية فائقة الشهرة (روبنسون كروزو)، التي استوحاها من حكايات بحار يدعى (سلكيرك). ديفو كاتب وصحفي بريطاني شهير، ولد عام 1659 وصار مؤسسا لمفهوم الرواية البريطانية. هنا يحكى لنا بأسلوبه العتيق قصة أشباح طريفة.

مقدمة

هذه القصة حقيقية وقد قمت بعرضها بطريقة تدفع أي رجل عاقل لتصديقها، أرسلها لي سيد يعمل في القانون من (ميدستون) بكنت، وهو شخص ذكي جدا. وتشهد على صحة الأحداث سيدة رصينة متفهمة هي قريبة هذا السيد، وتعيش في كانتريري على بعد خطوات من البيت الذي تعيش فيه السيدة (بارجريف). وهي تؤمن أنه لا حاجة بالرجل إلى تلفيق هذه الأحداث أو الكذب فيما يتعلق بها.

ما نستخلصه من هذه القصة هو أن هناك حياة تلي حياتنا هذه، وهناك إله رحيم سوف يحاسب كل واحد على ما قام به في حياته، وأن وقتنا على هذه الأرض قصير، وعلينا أن نعود لله نادمين تائبين قبل فوات الأوان.

هذه القصص نادرة جدا، ولم تسعفني قراءاتي وخبراتي بنموذج مماثل لها.

كانت مسز (بارجريف) هي الشخص الذي ظهرت له مسز فيل بعد موتها. وهي شخص محترم وصديقة مخلصة ويمكن أن أثق بكلامها. برغم أن بعض الناس ممن هم أصدقاء لأخي مسز فيل اعتبروا هذا الظهور خيالا، وفعلوا ما بوسعهم حتى يسخروا من مسز بارجريف ويسفّهوا كلامها. لكني لا أجد في المسز بارجريف ما يثير شكوكي في صحة قصتها، برغم قسوة زوجها الشرير وبربريته، فإن هذا لم يؤثر على سلامة عقلها.

كانت مسز فيل سيدة غير متزوجة في الثلاثين من عمرها، ومنذ بضعة أعوام كانت تنتابها نوبات مرضية شرسة. كان لها أخ وحيد يعولها، وكانت تعنى ببيته في (دوفر)، كانت امرأة شديدة التدين تعرف مسز (بارجريف) من طفولتها. كانت ظروفها صعبة بسبب أبيها القاسي، وكانت تقول لمسز (بارجريف): أنت لست أفضل صديق بل أنت الصديق الوحيد لي في العالم. وما من شيء سوف يقضى على صداقتنا..

كانتا تعزيان بعضهما وتقرآن بعض الكتب القيمة. عندما حصل مستر (فيل) على عمل في الجمارك في دوفر، بدأت، العلاقة تقل بين الصديقتين، وإن لم تتشاجرا قط. إن الفتور يأتي على مراحل.. وقد بدأ يتزايد لدرجة أن مسز بارجريف لم تر صاحبتها لمدة عامين.

في الثامن من سبتمبر عام 1705 في منزلها في كانتربري، كانت مسز (بارجريف) جالسة وحدها تفكر في حياتها التعسة ثم عكفت على أشغال الإبرة.. هنا سمعت دقات على الباب. اتجهت لترى من هنالك فكان مسز (فيل) صديقتها القديمة. هنا دقت الساعة الثانية عشرة ظهرا..

شعرت بدهشة لرؤية صديقتها بعد كل هذا الوقت، لكنها كانت سعيدة لرؤيتها. وقبلتها حتى كادت شفتاهما تتلاصقان.. هنا وضعت مسز فيل يدها أمام عينها وقالت إنها ليست على ما يرام.. قالت إنها ذاهبة في رحلة وقد أرادت أن ترى صاحبتها أولا.

سألتها مسز بارجريف كيف قامت بهذه الرحلة وحدها؟.. تعرف أن لديها أخا عطوفا، قالت مسز فيل إنها تركت مذكرة لأخيها وجاءت وحدها لترى صاحبتها، ثم إنها دخلت إلى حجرة

صغيرة وجلست في مقعد ذي مسندين كانت مسز بارجريف تجلس عليه عندما سمعت الدق.

تقول لها مسز فيل إنها جاءت لتعيد الصداقة القديمة وتجدد ما انقطع منها. وبدأت السيدتان تتذكران ذكرياتهما المشتركة والكتب التي قرأتاها معا. تكلمتا معا عن كتاب د. شيرلوك عن الموت وكذا كتاب (درلنكورت) الشهير.

صعدت مسز بارجريف إلى الطابق العلوي لتجلب الكتاب وتعود به. قالت لها مسز فيل إنه لو كانت عيون إيماننا مفتوحة كعيون أجسادنا، لرأينا الملائكة التي تحيط بنا وتحرسنا. يجب أن تدرك أن تصورنا للعالم الآخر يختلف تماما عن الحقيقة.

تذكري يا عزيزتي بارجريف.. دقيقة واحدة من السعادة المستقبلية سوف تعوضك عن كل آلامك. لا أصدق أبدا أن الله اختار هذه الآلام لترافقك طيلة حياتك.. سوف تفارقك هذه الآلام أو تفارقينها أنت يوما ما. كانت مسز فيل تتكلم بحرارة وصدق حتى أن مسز بارجريف بدأت تشعر بدموع في عينيها.

قالت لها مسز فيل إن كلام الناس هذه الأيام يختلف عن كلام المسيحيين الأوائل.. كانوا يتكلمون بطريقة تضيف لإيمان كل منهم.. لم يكونوا مثلي ومثلك لكن عليها أن تفعل مثلهم.. من العسير في هذا العصر أن تجد صديقا مخلصا من قلبه. قالت مسز بارجريف إنها كتبت بعض الأشعار، فطلبت منها صاحبتها أن تطلعها عليها..

دامت المحادثة ساعة وثلاثة أرباع وإن لم تستطع مسز بارجريف أن تتذكر كل شيء، وهذا طبيعي بالنسبة لمحادثة بهذا الطول.

طلبت مسز فيل من صاحبتها أن تكتب خطابا لأخيها تخبره فيه بأن يعطى مبالغ من المال لفلان وفلان مع مدخراتها التي تحتفظ بها في صورة ذهب. شعرت مسز بارجريف بأنها ستصاب بنوبة أخرى لذا جلست على مقعد.

طلبت منها مسز فيل أن تحكى كل تفاصيل هذه المحادثة لأخيها، بدا هذا الطلب غريبا على مسز بارجريف، وأخبرت صاحبتها أنه من الأسهل أن تفعل ذلك بنفسها..

قالت مسز فيل إن أسباب هذا ستتضح فيما بعد، لكنها تطالب مسز بارجريف بأن تعدها بذلك..

هنا طلبت مسز فيل أن ترى ابنة بارجريف. لم تكن في البيت. قالت مسز بارجريف إنها يمكن أن تطلبها لو كانت مصرة على أن تراها.. فطلبت منها مستر فيل أن تفعل.

ذهبت مسز بارجريف لبيت الجيران لتجلب ابنتها، فلما عادت وجدت السيدة فيل تقف على باب الخروج الذي يطل على السوق متأهبة للرحيل. سألتها بارجريف عن سبب العجلة للرحيل فقالت تلك إنها لن تبدأ رحلتها قبل يوم الاثنين على كل حال. ووعدتها بأن تراها ثانية في بيت ابن عمها (واطسون) قبل أن ترحل. ثم أنها انصرفت.. ومشت أمام صاحبتها إلى أن توارت عند ناصية. كانت الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر.

لقد ماتت السيدة فيل في السابع من ديسمبر عند الظهر بسبب نوبة عنيفة. وفي اليوم التالي لظهورها - وكان يوم أحد - أصيبت مسز بارجريف ببرد شديد والتهاب في الحلق فلم تستطع الخروج. يوم الإثنين أرسلت لكابتن واطسون تسأله عما إذا كانت مسز فيل عنده.. اندهشوا لهذا السؤال وردوا بأنها غير

موجودة ولا ينتظرون قدومها، اندهشت مسز بارجريف لهذا ووضعت عباءتها وهرعت لدار الكابتن واطسون للتأكد من أن صديقتها ليست هناك حقا، اندهشوا بدورهم وقالوا إن مسز فيل لم تكن في المدينة قط، ولو كانت فيها لزارت دارهم.

هنا دخل المكان كابتن واطسون وأكد أن السيدة فيل ميتة..

لم تصدق السيدة وحكت كل شيء للكابتن، ووصفت ثياب صديقتها وما قالته لها وكيف أخبرتها أن ثيابها معالجة بطريقة تغير لونها. هنا صاح كابتن واطسون إنها رأتها بالتأكيد.. ما من أحد سواه ومسز فيل يعرف أن الثوب قد تم تغيير لونه. وتذكرت مسز واطسون الثوب وشكله..

سرعان ما اصطحب الكابتن واطسون سيدين إلى منزل مسز بارجريف ليسمعا القصة بلسانها، وسرعان ما انقض عليها كل من له علاقة بالكنيسة أو الفلسفة أو القانون.. كان كلامها معقولاً وأدرك كل من كلمها أنها ليست فريسة التهيؤات.

نسيت أن أخبرك أن مسز فيل أخبرت مسز بارجريف أن أختها وزوج أختها جاءا من لندن ليرياها، لقد وصل الاثنان إلى دنفر في ذات اللحظة التي كانت تحتضر فيها..

كانت مسز بارجريف تتذكر أشياء جديدة طيلة الوقت الذي جلست فيه معها، وقد جلست معها عدة ساعات. من ضمن ما تذكرته أن مستر بريتون العجوز كان يسمح لمسز فيل بعشرة جنيهات كل عام. كان هذا سرا لم تعرفه مسز بارجريف إلا الآن.

لم تكن في القصة ثغرات.. مثلا هناك خادم في بيت مجاور سمع مسز بارجريف تتكلم في الوقت الذي قالت إن مسز فيل

كانت عندها، وبرغم المشاكل والمتاعب التي لاقتها مسز بارجريف بعد هذه القصة، فإنها لم تكن ترغب في مليم من الناس مقابل هذه القصة، وكذا لم ترد أن تأخذ ابنتها أي شيء.. لهذا لم تهتم قط بسرد حكايتها.

قال مستر فيل إنه سيقابل مسز بارجريف لفهم الأمور، لكن ما حدث هو أنه ظل في بيت كابتن واطسون منذ وفاة أخته، وهكذا لم يلق مسز بارجريف قط. بعض أصدقائه زعموا أن مسز بارجريف كذابة. لكن من قالوا هذا كانوا معروفين بأنهم كذابون.

لم يقل مستر فيل قط إن مسز بارجريف كذابة، لكنه قال إن زوجها الشرير أفقدها عطلها. برغم هذا اعترف أن أخته كان لديها كيس مليء بالذهب.. وجده في صندوق أمشاط وليس في غرفتها، وقد بدا هذا غريبا لأن السيدة كانت تخاف على مدخراتها جدا ولم تكن لتخرجها من الغرفة أبدا.

لكن كلما أعدنا التفكير في الأمر بدا من المستحيل على مسر بارجريف أن تُعدّ قصة كهذه بين الجمعة والسبت وبمجرد ما سمعت خبر الوفاة. تفعل هذا دون أن تكسب شيئا من ورائه، فلابد أنها أذكى وأكثر شرا من أي شخص.

وقد سألت مسز بارجريف إن كانت قد أحست بالثوب، فقالت في تواضع إنه لو كانت حواسها سليمة فقد شعرت به. قالت إنها شعرت أن الشبح كان يتكون من أنسجة مادية ملموسة.

لم تكن تريد الاستفادة من هذه القصة إلا بطريقتها الخاصة، برغم أنه صارت في بيتها غرفة كاملة مليئة بالسادة

الذين جاءوا من بعيد ليسمعوا القصة منها..

إن أصل هذه القصة الغريبة يبدو لي كما يلي:

جازف بائع كتب وطبع نسخا كثيرة من كتاب المحترم (تشارلز درلنكورت) من الكنيسة الكالفينية في باريس. وقد حمل الكتاب عنوان (دفاع الكنيسة ضد الخوف من الموت، مع تعليمات تخبرنا كيف نتهيأ للموت).

لكن الموت برغم أنه مؤكد ليس جذابا للقراء. ولهذا ظل الكتاب كومة مهملة لدى البائع الذي طبعه، اتصل بالمدعو (ديفو) ليساعده وينقذ الكتاب من الموت، خطرت لديفو فكرة عبقرية لترويج الكتاب. وهكذا يمكنك بسهولة أن تقرأ كلماته الموحية بالثقة: أرسلها لي سيد يعمل في القانون من (ميدستون) بكنت، وهو شخص ذكي جدا. وتشهد على صحة الأحداث سيدة رصينة متفهمة هي قريبة هذا السيد، وتعيش في كانتربري على بعد خطوات من البيت الذي تعيش فيه السيدة (بارجريف).

مشكلتنا في زمننا الحالي أننا نشك ونتحقق.. بينما كان أجدادنا يتساءلون ويصدقون. وكان مستر فيل مهذبا وراقيا فلم يستطع قط أن يتهم مسز بارجريف بأنها لفقت القصة. وكما قلنا افترض أنها قالت ما رأته لكنه غير موثوق به فقد أودى زوجها الشرير بعقلها.

لقد كانت مسز فيل وصاحبتها صديقتين منذ الطفولة وقد أرادتا أن تبقيا معا طالما هما حيتان. لكن حصول أخي مسز فيل على مكتب في دنفر قلل من علاقة المرأتين. عاشت مسز بارجريف في كانتربري. فوجئت بزيارة صديقتها مسز فيل وهي جالسة تفكر في تعاستها. قالت صديقتها إنها ذاهبة في رحلة

طويلة. كانت مسز فيل تتكلم بطريقة تذكر القارئ بكلام عاشق شبحي في (البالاد) الأسكتلندية القديمة: لماذا آتي إلى غرفتك؟.. أنا لم أعد رجلا أرضيا ولماذا ألثم شفتيك الورديتين بينما أيامك لن تطول؟

راحت السيدتان تتكلمان بتلك الطريقة المنزلية الأليفة التي تميز النساء في منتصف العمر، وقد ذكرت مسز فيل كتاب درلنكورت الذي يتحدث عن الموت.. كما تحدثتا عن كتاب (أستيك) للدكتور (كينريك) وقصيدة مستر نزريس عن الصداقة. يبدو أن الكلام دار بين السيدتين عن الثياب فقالت مسز فيل إن ثوبها من الحرير الذي أزيل لونه. انتهت المحادثة فغادرت مسز فيل المكان، ثم جاءت أخبار أنها توفيت قبل هذا بيوم.. وبدأت الأدلة تتراكم والأمور التي تكلمت عنها ولا يمكن أن يعرفها سواها.

هذه قصة غريبة لكن طريقة سردها وتدفق الأحداث تجعلك واثقا من أنها لو حدثت فلابد أنها وقعت بهذه الكيفية. ثم أن هناك نقاطا تافهة كثيرة في الحوار، تجعلك تستبعد أن يقوم أحد بتأليفها.

كانت النتيجة مذهلة، وسرعان ما راج كتاب (درلنكورت) عن الموت في كل مكان.. وبعد ما كانت نسخه مهملة في متجر الكتب، صارت الطبعات لا تنتهي.

باختصار.. لقد تحقق الغرض الحقيقي من ظهور مسز فيل.

المرأة الصامتة

بقلم ليوبولد كومبرت

كاتب مجري ولد عام 1822، وقد درس في فيينا، وبما أنه يهودي فقد أظهر نشاطا واضحا في نشر الثقافة اليهودية. وكان أبا ما يطلق عليه (أدب الجيتو). هذه قصة يهودية جدا مليئة بالحاخامات والمعابد، وهذا قد يغرينا بقراءتها على سبيل الفضول. القصة ممتعة وإن كانت خالية من الأشباح فلا أعرف لماذا وضعوها ضمن هذه المجموعة؟

المرأة الصامتة

في الليل دوت ضوضاء حفل زفاف يأتي من بيت متألق الإضاءة في الشارع الضيق. كانت تلك من الليالي التي يدفئها الربيع لكنها حالكة السواد.

ما أشد سعادتهم هناك هؤلاء القوم في الزمن القديم!.. كانت لديهم مشاكلهم مثلنا.. وعندما كانت الصعاب تواجههم لم تكن تأتي رقيقة ناعمة، وإنما تهوى عليهم بمجمع قبضتها. لكنهم برغم هذا كانوا ينعمون بوقتهم حقا وهذا يفسر هذه الضوضاء العالية القادمة من هذا البيت.

قال الأب الثرى (روبين كلاتنر) لنفسه:

- لو كنت أعرف أن هذا سيكلفني آخر قطعة ذهبية في جيبي، لأفلتُّ من الموضوع..

بالفعل بدا أن آخر قطعة ذهب قد طارت، وبدلا منها جاءت أطباق عليها الإوز والمعجنات. منذ الثانية بعد الظهر وحتى منتصف الليل، ظل الخدم يركضون بالأطباق.. بدا كأن بَرَكة مضاعفة حلّت بالطعام لأنه لم يكن ينقص أبدا.

كان هناك رجل صغير الحجم لا تبدو عليه معالم الأهمية لكن بدا أن وجوده يفتح شهية الموجودين. إنه مهرج يقدم عرض (ليب نار) الذي اشتهرت به (براج).

في إحدى الغرف احتشد الشباب للرقص. كان الصحب شديدا لدرجة أن الشموع على الموائد كانت ترتجف رعبا. بين

الشباب ترى العروس في ثوبها الحريري السميك ومقدمة قلنسوتها الذهبية تخفى وجهها. كانت ترقص بلا توقف.. لو أن أحدا رآها للاحظ عصبيتها وسرعتها.. لم تكن تنظر لأحد حتى للعريس نفسه.

لم يسأل أحد نفسه ولم يلحظ لماذا كانت يدها تحرق؟ ولا لماذا كانت أنفاسها حارة بهذا الشكل...؟

دخلت بعض النسوة القاعة فتعالت الموسيقا لتصم الآذان، وفجأة توارت العروس الجديدة خلف النساء، ظل العريس واقفا عند العتبة بابتسامته البلهاء.. ثم بعد لحظات اختفى بدوره ولا يعرف أحد كيف.

هذه الإشارات البسيطة يفهمها الناس على الفور.. معناها طبعا هو أن موعد الرحيل قد جاء، صارت الموسيقا ناعسة قبل أن تتوقف فجأة.. وبدأت ضحكات وعبارات ثملة تتردد. وهنا وهناك تجد رجلا يترنح فيستند إلى مقعد.

كان الجميع يتجهون للباب. هنا سمعوا صرخات ألم من المدخل. على الفور بدأ الحشد يتراجع إلى داخل القاعة.. كانت صرخات ألم شنيعة لدرجة أنه حتى الأكثر ثملا عادوا لوعيهم.

- بالله ماذا حدث.. هل البيت يحترق؟

صرخت امرأة من أسفل:

- لقد ذهبت!.. ذهبت!

تساءل ضيوف الزفاف:

- من هي؟

اقتحمت المكان (سيلدي كلاتنر) أم العروس شاحبة كالموت وفي يدها شمعة:

رأت الكثيرين حولها فبدا أنها تفيق نوعا.. نظرت حولها كأنما غلبها الخجل وقالت:

- لا شيء.. لا شيء أيها السادة الطبيون.. ماذا يمكن أن يكون حدث؟

لكن كان التستر واضحا فلا يمكن أن يخدعهم.

- إذن لماذا تصرخين ما دام لم يحدث شيء؟ قالت وهي تئن:

- نعم رحلت.. ولابد أنها آذت نفسها..

الآن بدأ الأمر يتضح، لقد اختفت العروس من مأدبة الزواج. نزل العريس ليبحث عنها لكنه لم يجدها، فكر في أنها مزحة لكنه بدأ يشعر بتوجس غامض.. نادي أمها وقال:

- الويل لي.. لقد رحلت.

كان الناس الآن يتكلمون عن الأرواح الشريرة التي تحب أن تفسد ليالي الزفاف.. تفسير سخيف لكن الكثيرين صدقوه. شعرت أمهات كثيرات بتوتر ونادين بناتهن.. الرجال قرروا البحث عن العروس وطلبوا حبالا ومشاعل..

وقف روبين كلاتنر في القاعة التي صارت خالية ولم يتبادل كلمة مع أحد. لقد قهرته المرارة وقهره الخوف.

ممن وقفوا مع سيلدي في القاعة كان (ليب نار) المهرج القادم من براج.. دنا من الأم التعسة وسألها:

- قولي لي يا سيدتي.. ألم تكن تريده؟

- من؟

- العريس.. أعنى.. ربما أرغمتم الفتاة على الزواج منه.

- أرغمناها؟..

- إذن سيكون لا داعي للبحث عنها.. من الخير أن نتركها حيث هي..

وانصرف بلا كلمة أخرى.

قرب المعبد كان هناك بيت حاخام بني في زاوية شارع ضيق جدا. حتى في ضوء النهار كان شديد الكآبة. وكان الناس يعتقدون أن أصوات الموتى تسمع ليلا وهم يتلقون لفافات القانون.

عبر الشارع ركضت فتاة خجول.. نظرت خلفها لترى إن كان هناك من يتبعها لكن كان السكون كاملاً. جاء ضوء من إحدى نوافذ المعبد من المصباح الدائم المعلق عند المحراب.

أمسكت بمقبض الباب الحديدي ودقت وإن كان دق قلبها أعلى. سمعت خطوات قادمةز

لم يكن الحاخام قد جاء لهذا البيت منذ وقت بعيد، كان غير متزوج وفي مقتبل العمر، ولم يكن أحد يعرفه بعد الحاخام القديم الذي كان في الثمانين من عمره. وكانت معه أمه المسنة التي لعبت له دوري الزوجة والابنة معا.

- مَن هناك؟

- أنا..

- ارفعي الصوت لو أردت أن أسمعك.

- ابنة روبين كلاتنر..

بدا الاسم غريبا.. كان يعرف القليلين برغم أنه كان هو الذي أجرى طقوس الزواج منذ قليل.

- وماذا تريدين؟

- افتح الباب أيها الحاخام وإلا لمت حالا.

أزاح المزلاج، وقبل أن يفهم كانت قد انسابت إلى داخل القاعة.. فهز رأسه وأغلق المزلاج، كانت امرأة تجلس في المقعد المختار لديه وظهرها له. كان رأسها محنيا على صدرها.. شعر الحاخام بالرعب.

- من أنت؟

سألها بصوت عال كأن الصوت العالي سيحميه من هذا الشيء الذي بدا له ككل الأرواح الشريرة معا.

- ألا تعرفني؟.. لقد زوجتني منذ ساعات.

وقف عاجزا عن الكلام، إذن هي ليست شبحا. قال لها متلعثما:

- لو كنت أنت هي.. لم جئت هنا ولست حيث تنتمين؟

- ما من مكان أنتمي له أكثر من هنا..

أذهلته هذه الكلمات. هل المرأة مجنونة؟. قال لها بصوت هادئ:

- مكانك يا ابنتي هو بيت أبويك ثم بيت زوجك.

قالت شيئا لم يفهمه.. لكنه قرر أنه يرى أمامه فتاة تعسة يبدو أن عقلها ليس على ما يرام.

- ما اسمك؟

- اسمي (فايله)..

- وماذا تريدين يا (فايله)؟

- أيها الحاخام.. هناك خطيئة عظيمة تجثم على قلبي ولا أعرف ما أفعله.

- وما الخطيئة التي لا يمكننا أن نناقشها في أي وقت آخر؟.. هل جئت للاعتراف؟.. وهل زوجك وأبوك يعرفان عنها أي شيء؟

قالت فجأة مقاطعة:

- ومن زوجي؟

تزاحمت الخواطر في ذهن الحاخام. سألها في هدوء قدر الإمكان:

- هل أرغموك على الزواج ربما؟

كانت الإجابة التي تلقاها هي دمعة مكتومة وصراع داخلي وجسد يرتجف. وبدأت تحكي بصوت هامس غريب لم يسمعه يصدر من بشرى من قبل:

- نعم أيها الحاخام سأحكي برغم أنني أعرف أنني لن أذهب هناك حية.. لا.. لم أُرغَم على الزواج، لم يجبرني أبواي على شيء

قط.. زوجي ابن رجل غني، ومعنى الزواج منه أن أقضي حياتي مغطاة بالذهب.. وهذا هو ما جذبني له. أرغمت قلبي على الزواج منه، في أعماقي كنت أكرهه وكلما أحبني أكثر نفرت منه.. لكن الذهب والفضة كانا يقولان لي: ستكونين أغنى زوجة في المنطقة.. لم أكن كذابة قط.. لكن منذ الخطبة أشعر أن كذبة عملاقة تطاردني.. الليلة عندما وقفت تحت القبة ووضع الخاتم في يدي عرفت مدى الكذبة وعندما اقتادوني بعيدا....

نظر لها الحاخام في صمت..

فقط روح تدرك خطيئتها يمكن أن تتكلم بهذه الطريقة لم يشعر بشفقة نحوها.. بل ما شعر به هو أنه يمر بذات معاناتها، الأمر واضح.. وهو يفهم الآن سبب هربها في ساعة كهذه.. ولم يجد ما يقول سوى:

- استمري في القصة يا فايله..

استدارت نحوه ولم يكن قد رأى وجهها بعد..

قالت في ازدراء:

- ألم أقل لك كل شيء؟

قال في ارتباك:

- كل شيء؟

- الآن قل لي ما أفعله..

- فايله!

قالها وهو يشعر للمرة الأولى بنوع من النفور من هذه المحادثة. وقبل أن يفهم ركعت على ركبتيها أمامه وتمسكت بساقيه وقالت:

- قل لي!..

سقط الخمار عن وجهها فبدت على قدر ملحوظ من الجمال، حتى أن الحاخام أشاح بوجهه كأنه يرى وهجا من نور.

- أنت وحدك قادر على أن تدلني.. أنا لست زوجة ولن أكون.. قل لي.. لن أنهض حتى تخبرني.. نافتالي!

تراجع الحاخام وهو يئن ألما مما عرّض رأس الفتاة لأن يرتطم بالأرض.. عادت الفتاة تصرخ:

- نافتالي!

- صمتا!

قالها وهو يضغط بيديه على رأسه

- نافتاني!

- صمتا..

قالها بصوت عال هذه المرة حتى أنها رقدت على الأرض. راح يجوب القاعة كي يهدئ انفعاله قليلا.. لو أن أحدا رأى وجه الحاخام وقتها لملأه الرعب.

- اصغي لي يا فايله

- أنا مصغية..

- سوف أقول كلامنا يثير رعبك.. لكنك ستنفذينه..

- سأنفذه.. أقسم لك.

- لا.. لا تقسمي حتى تسمعي ما سأقول.. اسمعيني يا ابنة روبين كلاتنر. على كاهلك ذنبان ثقيلان لا يمكن الخلاص منهما إلا بعقاب شديد. لقد أرغمت قلبك على الكذب لأنك مفتونة بالذهب.. خدعت الرجل الذي منحك ثقته حين اختارك زوجة. الكذب هو أسوأ الخطايا وهو سبب أسوأ ما حدث للبشرية..

بكت المرأة:

- أعرف هذا..

- الخطيئة الثانية هي أنك دمرت حياة إنسان آخر.. لقد فقد الرغبة والقدرة على أن يكون سعيدا للأبد.. هذه الخطيئة تحتاج إلى عقاب عنيف كي تتوبي.. كنت صامتة عندما كان عليك أن تتكلمي.. الآن أمرك بأن تظلي صامتة مع الجميع.. ستكونين خرساء منذ أن تتركي هذا المعبد وحتى أقول لك..

قالت:

- سأفعل ما تقول..

- وأنت زوجة زوجك... عودي له وكوني زوجة صالحة..

- أفهم..

ولثمت يده وهي تبكي.. فقال لها منهارا:

- اذهبي الآن..

واندفعت عبر الباب خارجة.. تركته مفتوحا فنهض الحاخام ليغلقه.

☆ ☆ ☆

عادت فايله لبيتها فلم يرها أحد.. كانت أمها سيلدي على نفس المقعد الذي جلست عليه منذ ساعة، وكان الرعب قد جعلها مشلولة تماما. شد ما اختلفت الغرفة المقفرة عما كانت منذ ساعات.

عندما دخلت فايله لم تصرخ أمها فلم تكن فيها قوة باقية. فقط قالت:

- هل عدت يا بنتي؟ كأن فايله كانت تجول في الجوار فقط.. لكن الفتاة لم ترد.. عاد الأب والزوج من الخارج فأصابهما الذعر لما طرأ على الفتاة من تغيير، ومن هذه اللحظة بدأت توبة الفتاة المريعة.

التغير الذي طرأ عليها أثار دهشة الناس.. وقرروا أنها عين حسود تلك التي جعلتها في هذه الحالة بسبب مرحها وجمالها في تلك الليلة.

أطلقوا عليها (فايله الصامتة).. كان صمت امرأة وهو صمت له تأثير وقوة كاسحة أعلى من أي صراخ.

عادت فايله لدارها مع زوجها.. البيت الذي خلب لبها ما فيه من ذهب وفضة، بالنسبة للناس ظلت في المقدمة لأن المرء لا

ينال كل شيء.. ظلت الأجمل والأكثر نضارة وصمتها لم يقلل من سحرها.

لكنها لم ترزق بطفل في البداية، وقال الناس إن هذا عادل.. امرأة لا تتكلم يصعب عليها أن تربي طفلاً. لكنها ذات يوم أنجبت طفلة.. وحينما نامت الطفلة على صدرها وأصدرت تلك الأصوات الجميلة التي يصدرها الأطفال لم تتكلم.. كانت مرغمة على الصمت، وقد ظلت صامتة والطفلة تكبر أمام عينيها.. لم تنس توبتها، وبعد أعوام جاء صبي جميل.. ظلت صامتة وقد سيطرت عليها فكرة أن الحنث بعهدها سوف يجلب لعنة على طفليها. كبرت الطفلة لتصير كبرعم جوار زهرة مكتملة رائعة الجمال.. جاء الخطاب واختارت الأم أفضلهم لابنتها..

لكن قبل الزواج بأسابيع تفشى وباء مروع، كان ينتقى الفتيات اليافعات ليقضي عليهن، وخلال ثلاثة أيام صارت هناك جثة شابة في البيت، حتى وهي تحمل ابنتها للقبر لم تنس القسم.. فقط أطلقت صرخة ألم عاتية، وبدأت تذبل بعد هذا.. امتلأ وجهها بالتجاعيد وشاب شعرها حتى أن الناس تساءلوا عن كيفية بقاء اللحم والروح معا.

ابنها كان في الثالثة عشرة من عمره، وكان تلميذ الحاخام الذي أحبه كثيرا وقال إنه مرموق وموهوب. وهكذا قرروا أن يسافر ليدرس. عاد لأمه بعد أعوام حاملا شهادات عالية جدا، فانتعشت وبدا كأن لمحة من جمالها القديم تعود.

وفي يوم السبت تأهب تلميذ التلمود الجديد الذي لم يتجاوز عشرين عاما إلا بقليل كي يلقي درسه الأول. تزاحم القوم كتفا لكتف في المعبد، وراحت النسوة ينظرن عبر المشربيات

العلوية. كانت فايله ترى كل ما يدور تحت. كانت شاحبة بينما الكل ينظر لها.. لسبب ما كانت تشعر بإرهاق غريب لم شعر به في حياتها. كأنها بحاجة ماسة للنوم..

بدأ نطق كلماته الأولى.. هنا شعرت بأن خديها يحترقان نهضت واقفة.. لم تستطع فهم ما يقوله ابنها.. فقط تسمع همهمة استحسان تعلو وتخفت.. وسمعت النسوة جوارها يبكين تأثرا..

كان ألم عظيم يعتصر قلبها وعندما أنهى ابنها كلمته صرخت من أعماقها وألقت بنفسها على خشب المشربية.

- رباه!.. ألا يحق لي الكلام؟

ساد الصمت وعرف الجميع أنه صوت المرأة الصامتة.. هناك معجزة!

جاء صوت الحاخام من مقاعد الرجال:

- تكلمي!.. الآن يحق لك أن تتكلمي!

لكنها لم ترد. لقد سقطت ويداها على صدرها، نظرت لها. النسوة فوجدتها قد غابت عن الوعي، لا.. المرأة الصامتة قد ماتت. كان تباعد شفتيها آخر لحظة لها.

بعد أعوام مات الحاخام. وعلى فراش الموت حكى لمن حوله قصة تكفير فايله عن ذنبها

الرجل الذي تمادى أكثر من اللازم

بقلم: إ. ف. بنسون

ولد بنسون عام 1867، وهو قصصي وكاتب بريطاني. له قصص شهيرة جدا في الأدب البريطاني لكنه اشتهر كذلك بقصص الأشباح. كان لافكرافت سيد الرعب الأمريكي شديد الإعجاب ببنسون وبالذات بهذه القصة التي نقدمها هنا.

تكمن قرية (سانت فيث) في واد على الضفة الغربية لنهر (فون) في هامبشاير، تتكوم قرب كنيستها كأنها تحتمى بها من الجنيات والأقزام الذين ربما ما زالوا يوجدون في الغابات ليمارسوا شيطنتهم بعد الغسق.

خارج التجمع يمكنك أن تمشي في أي اتجاه لمسافة طويلة جدا دون أن تقابل بشرا. ربما تتوقف الخيول البرية عن الأكل عندما تراك، أو تتكور الأرانب هاربة، لكنك لن ترى بشرا، لن تشعر بالوحدة لأن الفراش يسبح في ضوء الشمس، مع كل الأوركسترا الطبيعية التي تشكل صخب يونيو، صوت الطيور وأزيز النحل وخرير الجدول.. ستشعر بأنك وسط موجودات لا حصر لها، وبرغم قرون تعلّم فيها الإنسان كيف يروض الطبيعة فإن سكان سانت فيث لم يكونوا يجازفون بدخول الغابة بعد الظلام، من الصعب أن تأخذ من هؤلاء القرويين قصة واضحة عن ظواهر خارقة، لكن الخوف منتشر بينهم.

هناك قصة واحدة سمعتها وهي محددة نوعا، هي قصة عن تيس عملاق يركض في الغابات وهو يتوهج بضوء جحيمي. وهذا قريب نوعا من القصة التي أحاول أن أحكيها هنا. قصة عن فنان شاب مات هنا، وكان ذا طلعة فيها شيء يجعلك تبتسم.

شبحه كما يقولون يمشي بلا توقف عبر الغابات ويسكن بيتا معينا.. آخر بيت في القرية وحديقته التي قتل فيها. وأنا أعتقد أن

الخوف من الغابات يعود لهذه الحادثة، كما يتعلق بـ (دارسي) الرجل الذي كان صديقا لي وصديقا للقتيل

☆ ☆ ☆

كان يوما ساحرا من أيام منتصف الصيف، وكان الليل يزداد سحرا ويبدو كمعجزة في كل لحظة، وكان نهر فون يرقد تحت ملاءات من أزرق السماء، ويلتف حول الغابة حيث يمتد جسر من الحديقة نحو آخر بيت في القرية، ويتصل بالغابة نفسها عبر جسر من الخيزران.

كان ذلك البيت يقبع خارج الظلال وكان الطريق المنحدر ما زال تغمره الشمس. ثمة أحواض أزهار ذات ألوان مبهرة تغطي ممراته المكسوة بالحصى. وهناك طريق طوبي تحيط به الأشجار على الجانبين، وهناك أرجوحة معلقة.

كان البيت يقع بعيدا عن القرية فلا يتصل بها إلا بوساطة ممر غطاه القش الآن. بيت منخفض هو ذو طابقين فقط وجدرانه مكسوة بأزهار متفتحة. وثمة شرفة يقف فيها خادم منهمك بإعداد المنضدة للعشاء. انتهى من عمله، فعاد للبيت ثم ظهر وعلى ساعده منشفة واتجه للأرجوحة.

- الثامنة يا سيدي..

سأله صوت من الأرجوحة:

- هل ظهر مستر دارسي؟

- لا يا سيدي..

- لو لم أعد لدى عودته، قل له إنني أخذ حماما قبل العشاء..

عاد الخادم للداخل بينما جاهد (فرانك هالتون) ليستعيد توازنه حيث رقد على الأرجوحة.. ثم جلس. كان نحيلا لكن الرشاقة التي تحرك بها أعطت انطباعا بأنه قوي. حتى وثبته من الأرجوحة لم تكن خرقاء، كان رأسه صغيرا وبشرته الناعمة توحي بأنه مراهق لم تنم لحيته بعد. لكن نظرته المحنكة كانت تجعلك حائرا بصدد سنه.. ثم تقرر أن تنسى هذا.

رأسه مكسو بشعر مجعد بنى بينما لم يكن يلبس سوى قميص مفتوح، وعندما وثب إلى الماء كان يغمض عينيه ويسبح على ظهره ويهمس لنفسه:

- أنا وهو واحد.. النهر أنا وأنا النهر.. أنا العشب المائي والبرودة.. يداي ليستا لي بل هما للنهر.. كلانا واحد..

☆ ☆ ☆

عندما عاد للبيت كان الخادم قد اقتاد للداخل رجلاً في العقد الرابع من عمره..

- عزيزي دارسي.. يسرني أن أراك..

لكن الآخر نظر له في دهشة:

- فرانك!!

- نعم.. أنا..

- ماذا فعلت بنفسك؟.. لقد عدت صبيا..

- لديّ كثير مما أخبرك به.. ولسوف، تصدق كل شيء..

ثم رفع يده:

- صه.. هذا صوت الكروان الذي أحبه!

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه وبدا كأنه عاشق يصغي لصوت حبيبته.

أشعل دارسي سيجارا وقدم لصاحبه واحدا فضحك فرانك وقال:

- لا.. ليس لي.. كنت أدخن في الماضي ويا لغرابة هذا..

- أقلعت؟

- لا أعرف.. أعتقد هذا.. سوف أفكر كذلك في موضوع أكل اللحم.

- أنت ضحية أخرى على مذبح النباتيين؟

راح فرانك يصفر في نعومة، حلّق طائر صغير نحوه فأمسك به وضمه لصدره.. وسأله:

- هل البيت وسط الغابة آمن؟.. هل المدام بخير؟..

وتركه يحلق.. فقال دارسي في دهشة:

- هذا الطائر أليف جدا..

- هو كذلك..

☆ ☆ ☆

طيلة العشاء راح فرانك يستقصى كل أخبار صديقه القديم الذي لم يره منذ ستة أعوام، ستة أعوام كلها نجاح لـ (دراسي).

لقد اشتهر كرسام بورتريه ونجح جدا.. إلا أنه منذ أشهر أصيب بنوبة تيفود واضطر للقدوم لهذه البقعة للاستشفاء.

قال فرانك:

- لابد أنك تسبح في المال.. لكن سؤالي هو كم حققت من سعادة؟.. هذا هو أهم شيء.. وكم تعلمت؟

قال دارسي:

- لا قيمة لما تعلمته مقارنة بك... كانت لوحاتك تكسب الكثير من المال.. ألا ترسم الآن؟

- نعم.. أنا مشغول ولا أرسم..

- وماذا تفعله إذن؟

- لا أفعل أي شيء.. مشغول بعمل لا شيء..

نظر دارسي لوجه صديقه وقال:

- واضح أن هذا النوع من العمل يناسبك جدا.. لكن هل تقرأ؟... أذكر ما كنت تقوله لي من أننا معشر الرسامين نستفيد لو درسنا وجها بشريا واحدا لمدة عام دون أن نخط خطا واحدا.. يبدو لي أنك قضيت الأعوام الستة في استعادة شبابك لتبدو في العشرين، وهذا يبدو لي غريبا.. كأنه اهتمام أنثوي..

ضحك فرانك وقال:

- الشباب.. لو فكرت في الأمر لوجدت أنه القدرة على النمو.. نمو في العقل والجسد والروح.. في كل يوم تصير أفضل مما كنت.. بينما عند سن معينة يأتي كل يوم جديد ليضعف قبضتك على الحياة أكثر، أنت أقل كهربائية مما كنت..

بدأت النجوم تظهر في السماء المخملية وبدأ القمر يقترب من الأفق. ومشى الليل بين الأحراش.. مشى فرانك إلى الشرفة وفتح ذراعيه وراح يعب الهواء عبا. ثم عاد إلى الداخل وقال:

- سيبدو هذا جنونا لك لكن ما سأخبرك به حقيقي.. تعال للحديقة لو لم يكن الجو باردا عليك.. ما سأخبرك به لم أخبر به أحدا قط.

مشيا إلى ظلام ممر الأشجار وجلسا، ثم قال فرانك:

- كنا منذ أعوام نتكلم عن زوال البهجة في الحياة.. كنت أؤمن طيلة حياتي أن الخطيئة الكبرى هي الوجه العابس، وأن البهجة هي أهم شيء في العالم.. البهجة هي أكبر نسبة مقدسة نالها الإنسان، عندما غادرت لندن اعتزمت أن أكرس حياتي لزرع البهجة في النفوس والبحث عنها. لم يكن هذا سهلا لأن هناك تعاسة في كل مكان.. بحثت بين الأشجار والطيور والحشرات حيث الهدف الأقصى للحياة هو أن تكون سعيدا. لم يعد الإنسان قادرا على الشعور بالسعادة الفطرية الأولى..

قال دارسي وهو يستدير في مقعده:

- وماذا يسعد الحيوانات؟.. الطعام والتزاوج!

ضحك فرانك وقال:

- لا تحسبني غرقت في لذات الحواس.. الشخص الحسي يحمل التعاسة معه، ربما كنت مجنونا لكني لست غبيا.. فكِّر في الشيء الذي يجعل الكلاب الصغيرة تلعب بذيولها والقطط تنطلق في مهمات حماسية ليلا.. لجأتُ إلى الطبيعة.. جئت هنا وحاولت ألا يقتلني الملل.. أقمت في هذه الغابة وانتظرت..

هنا تساءل دارسي في دهشة من منطلق التفكير البريطاني، الذي يعتبر كل فكرة جديدة هراء:

- تنتظر ماذا؟.. ماذا كان سيحدث؟

من جديد ضحك فرانك وقال:

الحمد الله أن الغضب شيء تخلصت منه منذ زمن وإلا لضايقتني كلماتك هذه.. إن ما قمتُ به كان مهما جدا للبشرية لأن السعادة معدية أكثر من داء الجدري.. رحت أرمق أشياء سعيدة وتفاديت كل ما هو تعس.. يمكنني الآن أن أنقل لك جزءا ضئيلاً من السعادة التي تجري في دمي.. سوف تلقي بالعالم والرسم وكل شيء.. فقط تعيش.. عندما يموت المرء يتحلل جسده وينتقل للأشجار والأزهار، هذا ما أحاول عمله بروحي قبل الموت..

قال دارسي في حماسة:

- أكمل.. يمكنني بسهولة أن أدرك أنك تقول الحقيقة.. أرى أنك مجنون لكن هذا غير مهم.

ضحك فرانك وقال:

- لا تهم الأسماء.. الله منحنا كل شيء لكنه لم يختر له اسما عندما خلق الله لآدم الحيوانات لم يسمها وإنما ترك اختيار أسمائها لآدم نفسه.. هكذا لاحظت الأشياء السعيدة فصرت سعيدا..

منذ ثلاثة أعوام كنت أجلس في مكان سوف أريه لك غدا. جلست هناك لا أفعل شيئا سوى الإصغاء.. سمعت نايا يعزف لحنا عجيبا. لم يكن يكرر نفسه ولم يكن ينتهي أبدا.. لقد سحرني تماما.. هنا فهمت أنه يأتي من الأعشاب والأشجار إنه صوت الحياة.. صوت الكون.. صوت (بان).. أصابني الرعب الوقتي وسددت أذني وجريت لأتوارى.. لقد طلبت السعادة من الطبيعة فصرت أسمعها.. لم أسمع هذا الصوت ثانية إلا بعد ستة أشهر.. هذه المرة لم أكن خائفا. سوف تلاحظ أن الحيوانات والطيور تتعامل معي بشكل حميم.. لكن لا تخف.. لن أضايقك بهذا الموضوع ثانية ولن أفتحه إلا إذا سألتني.. هناك رؤيا أخيرة تنتظرني بها أعرف كل شيء.. وفي هذه الرؤيا ستعرف أنه لا يوجد أنا ولا أنت... نحن كلٌ كبير متوحد مع الحياة ذاتها. قد تعنى هذه اللحظة موت جسدي.. لكن لا أبالي..

تأمله دارسي قليلا ثم قال:

- أنت تخاف هذه اللحظة.

- أنت دقيق الملاحظة.. لكن آمل حين تأتي ألا أكون خائفا..

نهض دارسي مترنحا وقال:

- أيها الصبي.. أنت أغرقتني في قصة خيالية، والآن أعرف أنني لن أنام.. ولا خير في إن لم أنم..

- يمكنني أن أجعلك تنام بسهولة.. اصعد لغرفتك وانتظرني بعد عشر دقائق..

بعد قليل لحق بصاحبه الذي كان يرقد في الفراش مفتوح العينين، فقال له:

- انظر لي.. الطيور في أعشاشها نائمة.. الريح نائمة.. البحر نائم.. النجوم تتأرجح ببطء في مهد السماوات..

ثم توقف. وبرفق أطفأ بأنفاسه شمعة دارسي وتركه بنام..

في الصباح استيقظ دارسي منتعشا، مع الشمس تذكر خيوطا من محادثة البارحة.. الليلة التي انتهت بتنويم مغناطيسي بسيط. القصة كلها هكذا.. تنويم مغناطيسي من إرادة أقوى من إرادته. هذا هو كل شيء.. نزل إلى الإفطار حيث كان فرانك قد سبقه، وكان يلتهم العصيدة واللبن بشهية هائلة، سأله:

- نمت جيدا؟

- جدا.. أين تعلمت التنويم المغناطيسي؟

- جوار النهر..

قال دارسي:

- أنت تكلمت في كثير من الهراء أمس.. لهذا طلبت لك جريدة اليوم.. يمكنك أن تستعيد الواقع وتقرأ قليلاً عن أسواق المال ومباريات الكريكت..

في ضوء النهار بدا فرانك أكثر نضارة.. فقال دارسي وقد شعر بأن منطقه يهتز:

- أنت إنسان مدهش وإني لأرغب في سؤالك بعض الأسئلة.

- كما تريد..

☆ ☆ ☆

في اليوم التالي أمطر دارسي صديقه بالأسئلة والاعتراضات كان فرانك يؤمن بأن استسلامه التام للقوى التي تحكم الحياة قد منحه جزءا وافرا من مادة الحياة ذاتها. كان فرانك أقرب إلى ما يعتنقه الوثنيون من معتقدات.

قال له دارسي:

- تذكر أن رؤية (بان) تعنى الموت [1]..

هز فرانك كتفيه وقال:

- كان الإغريق على حق في أمور كثيرة، لكن ماذا يهمني؟.. إذا رأيت (بان) فقد اقتربت كثيرا جدا من سر الحياة.

لكن دارسي بدأ يفهم أكثر.. كانا يمشيان في القرية عندما رأيا عجوزا عاجزة عن المشي تجاهد كي تتحرك، فدنا منها فرانك ونظر لها.. نظرت له العجوز كأنها تتشرب لضارته ثم لثمته وضحكت:

- أنت الشمس ذاتها.. إنني أشعر بأنني أفضل.

لكن على بعد خطوات كان غلام صغير يركض فتعثر.. سقط سقطة شنيعة وأطلق صرخة ألم مروعة. هنا فوجي دارسي بفرانك يسد أذنيه ويجرى بأقصى سرعة بعيدا عن الصبي. جري دارسي وتأكد من أن الصبي بخير ثم لحق بصاحبه ليلومه:

- هل أنت خال من الرحمة... لماذا لم تنتظر لتنقذ الصبي؟

قال فرانك:

- ألا تفهم؟.. الألم والغضب وأي شيء كريه يجعلني أفر.. يؤخر قدوم اللحظة العظمى..

- لكن العجوز؟.. كانت قبيحة مريضة..

بل كانت مثلي.. تشتاق للسعادة.. عرفتها عندما رأتها. ظل دارسي في أحضان الطبيعة فترة طويلة، وقد أعاد هذا له حيويته ولياقته.. شعر بأنه قد تعرض هو الآخر لسحر شخصية فرانك. ولأكثر من عشرين مرة كل يوم كان يجد نفسه يقول:

- هذا مستحيل.. هذا لا يمكن أن يكون ممكنا.

وأدرك من تكراره لهذه العبارات أنه يصارع نفسه وأن الفكرة بدأت تقنعه.

كان الطقس باردا في تلك الأيام، لكن فرانك ظلل على عادته يبيت في الخارج على الأرجوحة تحت الأمطار الليلية، وكان يعود للدار ليقول:

- أصاب بالبرد؟.. لقد نسيت كيف يحدث هذا.. يبدو أن البيات في العراء يزيد من مناعة المرء.. الذين يبيتون داخل البيوت يذكرونني بفاكهة أزيلت قشرتها.. ذات مرة قال لصاحبه:

لا أعرف ماهية الرؤيا التي تنتظرني.. ربما كان ما ينتظرني هو رؤية كل الألم والمقت في العالم في لحظة النهاية. لكن لا سبيل للتراجع.. لقد مشيت في خط واحد وتماديت.. تماديت أكثر من

اللازم، فلم يعد أمامي سوى أن أمضي في الخط إلى نهايته.. لن أتراجع خطوة واحدة..

بدأ الطقس يتحسن واعتاد دارسي أن يواصل مناقشاته في العراء مع صديقه.

في ذلك اليوم كان نائما نوما غير مريح، عندما صحا فجأة.. شعر بأنه في أرض الذعر تلك الواقعة بين النوم واليقظة.. للحظات انتظر حتى استعاد توازنه وخيل له أنه يسمع من الحديقة صرخة.. صرخة تعبر عن أعنف درجات الذعر والقنوط.

كانت هناك كلمات غير مفهومة، ثم صوت مألوف يرتجف ويقول:

- رباه!.. رباه!

ثم دوت ضحكة غريبة كأنها ثغاء ماعز.. وساد الصمت ما عدا صوت الريح.

لم ينتظر دارسي ليضع شيئا على جسده أو يشعل شمعة، ركض دارسي نحو مقبض باب غرفته. على الباب قابل وجها ألجمه الرعب.. كان هذا هو الخادم يحمل ضوءا وسأله:

- هل سمعت؟

كان وجه الرجل أبيض تماما:

- نعم يا سيدي.. هذا هو صوت سيدي..

☆ ☆ ☆

هرعا عبر الدرج وعبرا قاعة الطعام حيث كانت منضدة الإفطار قد وضعت في الشرفة. كان المطر قد توقف كأنما الصنابير في السماء قد أغلقت. ولم يكن الظلام دامسا.. خرج دارسي للحديقة يتبعه الخادم حاملا شمعة. روائح النباتات والأزهار تملأ الجو من حوله بينما ظله الحائر يرتسم أمامه. هناك رائحة حادة تذكره بشاليه أقام فيه ذات مرة في جبال الألب.

وعلى ضوء الشمعة رأى الأرجوحة التي كان فرانك يرقد عليها دوما، كان هناك قميص أبيض كأن الرجل ما زال هناك. إذ دنا كانت الرائحة النفاذة تتزايد.

دنا أكثر فوثب ظل أسود عملاق في الهواء.. ثم سمع صوت حوافر صلبة على الأرض المرصوفة بالقرميد ثم سمع صوت حوافر تركض عبر الممر. يرى الآن شيئا بقميص أبيض يجلس في الأرجوحة.. اقترب في حذر بفعل الرعب.. ومعه الخادم.

بالفعل كان هذا هو فرانك.. كان يلبس قميصه والسراويل فقط وقد جلس ينظر لهما بوجه صار قناعا للرعب. لقد انفتحت شفته العليا كاشفة عن لثته وكان ينظر في رعب لا لهما بل إلى شيء جواره... كانت طاقتا أنفه متسعتين كأنه كان يلهث من أجل الهواء، ثم سقط الجسد للخلف وأنّت حبال الأرجوحة.

رفعه (دارسي) وحمله إلى البيت..

شعر بتقلص في ذراعي الجسد الذي يحمله، لكن التقلص تلاشى عندما بلغ البيت. لم يبق سوى وجه طفل يبتسم أثناء النوم كأنه يصغي للمعزوفة الجميلة من فلوت (بان)..

لقد استحم فرانك الليلة كعادته.. وكدأبه لم يكن يلبس سوى القميص وقد ثنى كميه لأعلى.. الآن يبدو على صدره خليط من الألوان يزداد وضوحا. عندما اقتربا أكثر ليفحصا هذه الألوان رأيا أنها آثار.. آثار كأنها حوافر تيس عملاق داس على صدره.

قصة أشباح تحكيها امرأة

بقلم الجرنون بلاكوود

كاتب قصة قصيرة وصحفي ومذيع بريطاني تخصص في قصص الأشباح. ولد عام 1869 وتوفي عام 1951، له مجموعة قصصية مهمة وشهيرة اسمها (مغامرات لا تصدق).

قصة أشباح تحكيها امرأة

قالت من مقعدها في الركن المظلم:

- نعم.. سوف أخبرك بتجربة غربية لو كنت مهتما. والأهم سوف أخبرك بها بشكل مختصر دون تفاصيل لا داعي لها. هذا شيء لا يفعله رواة القصص. إنهم يضعون تفاصيل لا حصر لها ويجعلون مهمة القارئ فكها.. سوف أعطيك ما هو مهم ولتستخلص أنت ما تريد. لكن بشرط ألا تسأل في النهاية لأنه لا إجابات عندي..

وافقنا على الفور.. كنا جادين تماما بعد سماع دستة من القصص الطويلة من قوم يريدون أن يتكلموا دون أن يكون عندهم ما يقولون. كنا نريد معلومات مهمة.

شعرت من صمتنا أننا نتابعها فقالت:

- في تلك الأيام، كنت مهتمة بالأمور الروحية.. وقررت أن أبقى وحدي في بيت مسكون في قلب لندن. كان بيتا رخيصا في شارع حقير.. غير مفروش. كنت قد فحصت المكان عند الظهر والمفاتيح في جيبي. كانت القصة ممتعة ومثيرة، لكني لن أرهقكم بتفاصيل قتل المرأة ولا لماذا صار المكان مسكونا.

لذا شعرت بملل عندما رأيت الحارس الذي أعتبره ثرثارا عجوزا، وكان ينتظرني عندما ذهبت في الحادية عشرة مساء كنت قد شرحت له أنني أريد أن أكون وحيدة ليلا. كنت قد دفعت له مقابل مقاعد ومنضدة لذا قلت له:

- إذن فلتفرغ بسرعة..

اقتادني للطابق الأول حيث وقع القتل فجلست في المقعد الذي جلبه لي. واستدرت لأنظر له للمرة الأولى. هنا صُدمت. لم يكن الرجل هو حارس البيت.. لم يكن ذلك الأحمق العجوز الذي قابلته ظهرا.

قلت له:

- من أنت من فضلك؟.. أنت لست العجوز كاري...

توترت كما لك أن تتخيل. كنت باحثة في الأمور الروحية ومتحررة، لكني لم أشعر براحة لأن أجد نفسي ليلا في بيت مهجور مع رجل غريب. تخلت عني ثقتي بنفسي.. وأنتم تعرفون أن ثقة المرأة بنفسها تتلاشي في لحظة بعينها. شعرت بذعر حقيقي.

كررت السؤال بسرعة وعصبية:

- من أنت؟

كان أنيقا على درجة من الوسامة لكن وجهه شديد الحزن.

قال لي:

- أنا الرجل الذي أصابه الرعب حتى الموت..

كان صوته وكلماته كأنها نصل سكين.. شعرت بأنني سأفقد وعيي. عدت أكرر:

- الرجل الذي أصابه الرعب حتى الموت..

قال بحياء:

- هذا أنا...

نظرت له كما سيفعل أي رجل منكم لو كان في موقفي لا تسخروا مني.. هذا ما حدث.. كانت الحياة تتسرب مني. كانت أفكار كثيرة تتردد في ذهني، لكنها كانت أفكارا عادية برغم كل شيء.

قلت له مرتبكة:

- حسبتك حارس العقار.. هل أرسلك كارى لي؟

- لا.. أنا الرجل الذي أصابه الرعب حتى الموت.. والأهم أنني خائف الآن..

- وأنا كذلك.. أنا خائفة..

كان له صوت غريب يتردد في داخلي. قال:

- لكنك ما زلت تملكين جسدك.. أما أنا فلا..

وقفت في الغرفة الخالية من الأثاث ودفنت أظفاري في لحم كفى وضغطت على أسناني. أردت أن استجمع شجاعتي كامرأة جديدة وروح حرة.

- هل تعنى أنك لست جسدا؟... ماذا تتكلم عنه؟

ولاحظت أن الليل قد غطى المدينة، أنا وحدي في بيت خال مسكون بلا أثاث.. وأنا امرأة.. أسمع الريح خارج البيت وأعرف أن النجوم مخفية. فجأة أدركت كم أنا حمقاء إذ جئت هنا وحدي.. كنت خائفة متجمدة وحسبت أن نهاية حياتي قد

حانت. من الحمق أن تتحرى الأمور الروحانية وأنت لا تملك أعصابا.

تحرك الرجل ببطء عبر القاعة الخالية..

رفعت ذراعي لأوقفه ونهضت من مقعدي، وقف أمامي وابتسامة على وجهه المنهك الحزين.

- أخبرتك من أنا.. وأنا ما زلت خائفا.

في هذه اللحظة قررت أنه شرير أو مجنون... ولعنت غبائي للدخول من دون أن أرى وجهه. اتخذ عقلي القرار بسرعة. لو أنني أغضبته فلربما أدفع الثمن بحياتي، ربما يجب أن أسليه حتى أبلغ الباب ثم أركض في الشارع، انتصبت وواجهته.. كان له نفس ارتفاع قامتي وكنت أنا امرأة رياضية قوية تتسلق الجبال في الصيف وتلعب الهوكي. بحثت عن عصا لكن لم أجد.

رسمت مرغمة ابتسامة على شفتي:

- الآن أتذكر.. أتذكر الطريقة الممتازة التي تصرفت بها..

نظر لي في غباء وأنا أتراجع نحو الباب، هنا لم أتحمل أكثر واندفعت نحو الباب إلى الخارج لكن كنت حمقاء واتجهت في الاتجاه الخاطئ، هكذا تعثرت في الدرجات التي تقود للبناية المجاورة. فات الأوان لأن الرجل كان خلفي، ورغم أنني لم أسمع خطوات.. اندفعت أركض فمزقت تنورتي وكدت أهشم ضلوعي في الظلام. اندفعت للحجرة الأولى وكان الباب مفتوحا وهناك مفتاح في القفل. في لحظة أغلقت الباب خلفي وألقيت عليه بثقلي وأدرت المفتاح.

صرت في أمان لكن قلبي كان يدق كالطبل. هنا كاد يتوقف لأني وجدت من يقف في الغرفة. رجل يقف بيني وبين النافذة حيث تبين مصابيح الشارع حدوده الخارجية. لقد حبست نفسي معه!

وقف الرجل هناك يراقبني وقد تكومت على الأرض.. لربما كان هناك رجلان في البيت.. لربما كانت الغرف الأخرى مشغولة!

هنا تغير شيء في الغرفة أو فيّ أنا.. خوفي الذي كان ماديا تغير فجأة ليصير روحانيا.. وعلى الفور أدركت من هو هذا الرجل.

قلت له:

- كيف وصلت هنا بحق السماء؟

عاد يقول بذلك الصوت الذي يمزق حبلي الشوكي:

- أنا من فضاء آخر.. أنا في كل مكان بالبيت حسب طريقتكم في القياس، أنا خارج جسدي.. أنا بحاجة للتغيير لأرحل.. أنا بحاجة للتعاطف.. ربما أكثر من التعاطف.. أنا بحاجة للحب!

كان يتكلم فنهضت واقفة. أردت الصراخ لكني فقط نجحت في أن أتنهد.. كنت مرهقة جدا. اتجهت للمصباح وأنا أبحث عن أعواد ثقاب في جيبي فقال لي:

أكون شاكرا لو لم تشعلي المصباح.. لأن الضوء يؤذيني جدا.. لا تخشى مني فأنا غير قادر على لمسك أصلا. هناك أناس كثيرون جاءوا هذا البيت ليروني معظمهم استطاعوا ذلك وملأهم الرعب.. لو وجدت واحدا لا يخاف!.. واحدا يحبني!..

لربما استطعت الرحيل.. كان صوته حزينا حتى شعرت بدموع في عيني، لكني ظللت خائفة.

قلت له:

- من أنت إذن؟.. لا أظن كاري أرسلك..

لم أجد ما أقول.. بينما قال هو:

- لا أعرف كاري هذا.. وقد نسيت الاسم الذي كان جسدي يحمله. أنا الرجل الذي خاف حتى الموت في هذا البيت منذ عشرة أعوام وما زلت خائفا.. الناس القساة الذين يأتون هنا ليروا الشبح يزيدون من سوء حالتي. فقط لو تكلم أحدهم ببساطة أو ضحك.. بدلا من أن يأتوا ليرتجفوا كما تفعلين أنت الآن.

غلبتني الشفقة فتقدمت إلى مركز القاعة.. هنا صاح:

- رباه!.. لقد قمت بعمل خارق ا.. هذا أول تعاطف أراه منذ مت.. في حياتي كان كل شيء خطأ معي. كنت أكره الناس. ولا أطيقهم.. امتلأت غرفة نومي بالأشباح والشياطين، وفي ليلة استبد بي الذعر حتى توقف قلبي. لربما لو أحبني أحد أو أظهر عطفا نحوى لتحررت.. عندما جئت عصر اليوم ورأيتك جاءني بعض الأمل. خطر لي أنك تملكين الشجاعة.. ربما بعض الحب مما يمنحني أجنحة أطير بها!

هنا أعترف بأن الرعب فارقني ليحتل الحزن مكانه. لكن يجب أن أقول إن الموقف كله كان عجيبا ولا يصدق.. ثم أن مقتل امرأة قد تم هنا.. فلابد أنه لا علاقة له بما يدور. ما يدور هنا حلم مجنون ولسوف أفيق منه لأجد أنني في الفراش بعد كابوس.

دنوت منه أكثر.. خائفة طبعا لكن شيئا من التصميم في قلبي.

قال وصوته يرتجف:

- أنتن معشر النساء.. النساء الجميلات اللاتي لا تمنحهن الحياة فرصة إخراج ما لديهن من حب عميق... وليتكن تعرفن كم منا يموتون في طلب هذا الحب!.. إنه ينقذ أرواحنا.. سوف يحررنا لو أخرجتنه دون شرط ولا قيد أريدك يا سيدتي أن تكوني رفيقة كريمة..

هذه المرة أغرق البكاء عيني..

كان قد ترك مكانه عند النافذة وركع عند قدمي، وامتدت يداه نحوي.

- لفي ذراعيك نحوي وقبليني.. قبليني بالله عليك ولسوف أعود حرا.. هلم.. أنت قمت بالكثير فعلا

وقفت مترددة عاجزة عن اتخاذ قرار، لكن الرعب كان قد تلاشى تماما.

قال لي:

- انسي أنك امرأة وأنني رجل.. انسي أنني شبح وتعالى بجرأة ودعي حبك يسرى لي.. انسي نفسك للحظة وافعلي شيئا شجاعا..

شعرت بعاطفة أقوى من الخوف بكثير وبلا تردد تقدمت خطوتين نحوه ومددت له يدي. كان العطف والحب يغمران قلبي..

أحبك أيها الشيء التعس.. أحبك.. أدار وجهه لي.. وسقط ضوء الشارع عليه، كان وجهه يتألق سرورا. نهض على قدميه ووقف أمامي وفي هذه اللحظة ضممته لصدري ولثمته.

أنتم أيها الرجال الجالسون هنا تدخنون الغلايين وتسمعون قصتي، ليس بوسعكم تخيل شعوري وأنا أضم كائنا غير مادي وألثمه. كأنك تحتضن هبة هواء باردة.. وشعرت بقلبي ينتفض ثم فجأة صرت وحدي..

أضأت مصباح الغاز وأشعلت عود ثقاب. لقد فارقني الخوف تماما وشعرت في قلبي بسرور نهار ربيعي. لم تعد كل شياطين العالم قادرة على أن تسبب لي رجفة واحدة.

فتحت الباب ورحت أجوب البيت المظلم والمطبخ والصندرة. كان البيت خاليا تماما.. لقد تركه شيء ما.

ثم عدت لشقتي لأنام باقي الليلة..

طلب مني عمي سير هنري - وهو صاحب البيت - تقريرا عن مغامرتي. بدأت السرد فرفع يده ليوقفني وقال:

- أولاً.. يجب أن أخبرك بحيلة صغيرة لعبتها عليك.. أناس كثيرون زاروا هذا البيت ورأوا الشبح حتى حسبت أن هذا وليد خيالهم. أردت عمل اختبار بسيط.. لذا اخترعت قصة أخرى لأتأكد.. لو رأيت شيئا لعرفت أنه ليس وليد خيالك..

- إذن قصتك عن مقتل امرأة وكل هذه لم تكن حقيقية؟

- لم تكن.. القصة الحقيقية هي أن ابن عم لي جُنّ في هذا البيت وقتل نفسه بعد رعب هائل أصابه.. وبعد زمن طويل

قضاه في الخيالات المرضية، هذا هو ما يراه الباحثون.

شهقت وقلت:

- هذا يفسر كل شيء..

- يفسر ماذا؟

لم أرد أن أحكي كل شيء عن ذلك المسكين، لذا قلت:

- يفسر لماذا لم أر شبح المرأة..

قال سير هنري:

- بالضبط.. ولو رأيت أي شيء ذا قيمة، فهذا مهم... لن يكون ناجما عن خيالك الذي حركته قصة تعرفينها من قبل..

الريكشا الشبح (2)

بقلم ردیارد كبلنج

كبلنج اسم أشهر من نار على علم، صاحب (كتاب الأدغال) الشهير وصاحب قصيدة (إذا) والقائل (الغرب غرب والشرق شرق ولا يمكن أن يلتقيا). بوق الاستعمار البريطاني الشهير أو نبي الاستعمار كما أطلقوا عليه. ولد في الهند عام 1865 وتوفى عام 1936، نال جائزة نوبل للأدب عام 1907، كاتب يثير الجدل لكن لا يمكن تجاهله.

فلتبتعد الأحلام الشريرة عن منامي، ولتبتعد قوى الظلام عن التحرش بي..

أنشودة ليلية

☆ ☆ ☆

من مزايا الهند التي تفوق بها إنجلترا هي تلك المعرفة الواسعة بالناس. بعد عامين من الخدمة يصير المرء ملما بالمائتين أو الثلاثمائة مواطن في مقاطعته، والفيلق العسكرية ونحو 1500 شخص لا ينتمون للطبقات الحكومية. بعد عشرة أعوام تتضاعف معرفته وبعد 12 عاما يعرف شيئا عن كل إنجليزي في الإمبراطورية، ويمكنه أن يسافر حيثما أراد دون دفع فواتير الفنادق.

عندها سوف تجد أن الرجال الذين لا يخفون رأيهم في أنك حمار، والنساء اللاتي يشتمنك ولا يفهمن دعابات زوجتك، كلهم سوف يفعلون أي شيء لك لو مرضت أو واجهت مشاكل حقيقية.

كان لدى الدكتور هيثر ليج بالإضافة لعيادته الخاصة مستشفى يضع فيه الحالات التي لا تشفى، إن الطقس في الهند قائظ ولا توجد متعة سوى أن تعمل طيلة الوقت فلا يشكرك أحد، كان هيثر ليج من ألطف الأطباء الذين عرفتهم وكان ينصح مرضاه دائما بـ (أبق رأسك منخفضا، وتحرك ببطء، واحترس من الحر). كان يؤمن أن رجالا كثيرين يموتون من كثرة العمل أكثر

مما يستحق هذا العالم. كثرة العمل قتلت (بانساي) الذي مات بين يديه منذ ثلاثة أعوام. إنه يملك الكلمة النهائية ولا يهتم بما أقوله من أن (بانساي) مات لأن هناك إصابة بليغة في رأسه.

- لقد تأثر (بانساي) بالإجازة الطويلة في الوطن.. في رأيي أن العمل الطويل في مستعمرة (كاتابوندي) افاده صوابه. كان مخطوبا لمس مانرنج وقد فسخت الخطبة. هنا بدأ هذا الكلام عن الأشباح.. العمل الزائد هو الذي سبب كل شيء وقتله. هذا الشيطان البائس..

لم أكن أصدق هذا.. لقد جلست كثيرا مع بانساي عندما كان هيثر ليج في زيارات خارجية، وكان يسبب لي تعاسة كلما وصف لي مسيرة الرجال والنساء والأطفال والشياطين الأبدية عند فراشه، كان تحكمه في اللغة مرضيا، وقد اقترحت عليه عندما شفي أن يكتب تجربته كاملة، وقدرت أن الكتابة ستعالجه.

عندما يتعلم الأطفال كلمة سيئة لا يستريحون إلا إذا كتبوها بالطبشور على باب. بعد شهرين قيل إنه صالح للعودة للعمل لكنه فضّل أن يموت. لقد احتفظت بما كتبه، وهذا النص يحمل تاريخ 1885:

قل لي طبيبي إنني بحاجة للراحة وتغيير الهواء، من الوارد أنني سأظفر براحة طويلة لا ينغصها شيء.. وتغيير هواء لا تستطيع أية سفينة أن تمنحني إياه، في الوقت ذاته أريد أن أظل حيث أنا.

ستعرفون الحقيقة الكاملة لمرضي وستقررون إن كان هناك أي بشري قد عانى ما عانيته أنا. سوف أتكلم كمجرم محكوم

عليه، وقد تبدو قصتي غير معقولة، لكني برغم هذا أطلب الانتباه، أما عن كونها ستحظى بالتصديق فأمر أشك فيه. منذ شهرين كنت سأتهم أي رجل يصدق هذا الكلام بأنه مجنون أو سكير.

منذ شهرين كنت أسعد رجل في الهند.. اليوم لا يوجد رجل أكثر تعاسة مني من بيشاور حتى البحر، رأى الطبيب أن سوء الهضم والإرهاق يسببان لي خيالات، خيالات!.. أعتبره أحمق لكنه ما زال يعالجني بابتسامة لا تزول حتى بدأت أعتبر نفسي وغدا جحودا.

منذ ثلاثة أعوام شاء حظي - أو سوء حظي - أن أبحر من جريفزند إلى بومباي مع من تدعى (أجنس كيث وسنجتون).. وهي زوجة ضابط من بومباي، يكفي أن تعرف أنه بمجرد انتهاء الرحلة كنت أنا وهي غارقين في الحب. في هذه الأمور هناك من يمنح وهناك من يأخذ.. منذ اللحظة الأولى عرفت أن عاطفة (أجنس) هي الأقوى بل والأنقى، بعد فترة صار هذا واضحا لكلينا.

وصلنا بومباي في الربيع فذهب كل منا في طريق، ولم نلتق لثلاثة أشهر. عندما ذهبنا إلى سيملا. هناك انتهى حبي لها كنار في قش. ولا أعتذر عن هذا أو أشعر بندم بسببه. في أغسطس عام 1882. عرفت أني لم أعد أطيق رؤيتها وتعبت من صحبتها. وكانت 99 من كل مئة امرأة سيكرهنني كما أكرههن، لكن وسنجتون كانت هي المرأة رقم مئة. كانت تصيح كطائر الوقواق:

- جاك يا عزيزي.. هذه كانت غلطة.. غلطة.. سوف نعود صديقين مرة أخرى.. أنا واثقة من ذلك..

كنت في كل مرة المخطئ. هكذا تحولت عاطفتي إلى مقت.. المقت الذي يجعل الرجل يدوس بعنف على العنكبوت الذي قتله نصف قتلة.

في العام الثاني التقينا في سيملا.. هي بوجهها الرتيب وأنا بكراهيتي بكل ذرة في جسدي. لم أعد أتحمل أن أراها وحدي وفي كل مرة تكرر أن الأمر كله (غلطة)..

ازدادت وهنا ونحولا شهرا بعد شهر.. أنت تفهم أن هذا كان سيدفع أي امرئ إلى الياس. كان هذا تصرفا طفولها لا يليق بأنثى.. كان عليها جزء كبير من اللوم.. من الناحية الأخرى كيف كنت سأتظاهر بأنني أحبها بينما أنا لا أقدر؟..

العام الماضي التقينا من جديد وتكرر كل شيء فلما انتهى الموسم افترقنا، ولم تعد قادرة على أن تلقاني. عندما أتذكر ذلك الوقت أشعر أنها كابوس.. كنت قد تقدمت لمس (كيتي مانرنج) وأذكر كلامها وتعلقي بها، كما أذكر وجها أبيض يركب الريكشا. أذكر يدا ذات قفاز تلوح لي.

كنت أحب كيتي مانرنج بصدق.. وكلما أحببتها أكثر ازداد كرهي لأجنيس. خُطبت وكيتي في أغسطس وفي اليوم التالي

ذهبت إلى أجنيس من باب الشفقة لأخبرها.. كانت تعرف كل شيء. قالت لي وهي في عربة الريكشا الخاصة بها:

- كل هذا خطأ يا عزيزي.. يوما ما سنعود صديقين كما كنا.

كانت إجابتي قاسية.. قطعت المرأة البائسة نصفين كأنها سوط، فانهارت أمامي. ابتعدت وتركتها تنهي رحلتها في سلام شاعرا - للحظة - أنني كنت نذلاً.

هذه الذكريات لم تفارق خيالي. أذكر السماء التي غسلتها الأمطار والطريق الموحل وعربة الريكشا الصفراء ورأسها الذهبي المنحني. حرفيا فررت منها فرارا.

سمعت صوتا يقول:

- جاك..

لكن ربما كان هذا خيالا، عندما قابلت كيتي بعد هذا على صهوة جواد، نسيت كل ما كان في هذه المقابلة.

بعد أسبوع توفيت مسز وسنجتون وزال عبء وجودها في حياتي. ونسيت عنها كل شيء خلال ثلاثة أشهر فيما عدا خطاباتها القديمة التي أحرقتها جميعا..

في أبريل عام 1885 كنت في سيملا مع حبيبتي كيتي. قررت أن نتزوج في نهاية يونيو. كنت كما قلت لك أسعد رجل في الهند كلها. قلت لكيتي إن عليها أن تأتي لمتجر هاملتون كي أبتاع لها خاتم خطبة.. وهكذا ذهبنا في 15 إبريل عام 1885.. كنت على عكس كلام طبيبي في خير صحة وعقل ممتاز.

قمت بقياس إصبعها واخترت لها خاتما من الياقوت به ماستان، انطلقنا في شوارع البلدة وكانت تضحك.. طيلة الوقت كنت أشعر بأن هناك من يناديني باسمي الأول.

عند محل (بيليني) رأيت أربعة من (الجامباني) () يلبسون الزي الأسود والأبيض وهم يجرون ريكشا رخيصة صفراء اللون مألوفة. هنا تذكرت الموسم السابق ومسز وسنجتون، هل أحتاج اليوم إلى ظهور عربة الريكشا التي كانت تركبها، ما دامت هي نفسها قد ماتت؟

قلت لكيتي:

- كيتي.. هؤلاء هم الجامباني الخاصون بمسز وسنجتون.. ترى مع من يعملون الآن؟

نظرت كيتي حولها وقالت:

- ماذا؟.. لا أرى أحدا منهم.

وانطلقت في ذات الاتجاه، لذعري الشديد رأيتها هي وحصانها يخترقان الرجال كأنهم من هواء، صرخت فاستدارت لي قائلة:

- ماذا هناك؟.. لماذا تصرخ؟.. لو كنت قد خطبت فلا أريد أن يعرف كل الكون ذلك.

إما أنني ثمل أو مجنون.. أو أن (سيملا) مسكونة بالعفاريت. استدرت بجوادي ففوجئت بالريكشا واقفة هناك عند جسر كومبرمير. كان الصراخ يدوي بلا شك:

- جاك يا عزيزي.... لا تغضب.. هذا مجرد خطأ.. سوف نستعيد صداقتنا!

لا أعرف كم من الوقت وقفت هناك بلا حراك، حتى جاءت كيتي واقتادتني إلى محل بيليتي لأشرب بعض البراندي، هناك كان

عدد من مواطنينا يثرثرون فانضممت لهم في مرح ورحت أصيح وأضحك برغم شحوب وجهي الواضح، كما رأيت في المرآة. كنت كطفل صغير أفزعه السلام فحضر نفسه وسط حفل عشاء.

كذبت على كيتي وقلت لها إن شحوبي سببه الشمس الزائدة. كان يوما لم تشرق فيه الشمس قط وقد عرفت كذبتي على الفور.

هذا أنا.. ثيوبولد جاك بانساي.. رجل حسن التعلم في العام المقدس 1885.. عاقل كما هو مفروض.. وصحيح البدن، أفر من حبيبتي بسبب خوفي من امرأة دفنت منذ ثمانية أشهر.

الشارع كان مليئا بالناس والشمس تغمره.. لقد رأيت كيتي تعبر الريكشا وسائقيها.. هكذا لا يوجد احتمال لديّ أن تكون سيدة قد استأجرت العربية القديمة.

المرء قد يرى أشباح رجال ونساء لكنه لا يرى أبدا أشباح عربات.

كل هذا سخيف ولا يصدق، وفي اليوم التالي أرسلت لكيتي أتوسل لها كي تنسى سلوكي الغريب أمس، كذبت وزعمت أن سبب ذعري هو تسارع ضربات قلبي بسبب سوء الهضم. كان لهذا الخطاب أكبر الأثر لأننا التقينا عند الظهيرة، كانت ترغب في نزهة على ظهر الجواد.. واقترحت (جاكو)، لكني طلبت أن نذهب لجبل المرصد أو (جوتوه) أو (بويلوجونج)..

أي شيء غير جاكو.. لكنها كانت غضبى لذا وافقت على أن نذهب لبويلا سملا.

بدأ الجوادان بسرعان وراح قلبي يخفق أسرع فأسرع..

كان كل جزء في طريق (جاكو) يحمل ذكرى لي مع مسز وسنجتون.. كل شجرة تشهد على ذلك.. وراحت الريح تنشد في أذني أنني ظالم..

عند منتصف الطريق كان الرعب ينتظرني، لم تكن ريكشا فقط لكن رأيت كذلك الجامباني الأربعة بثيابهم البيضاء والسوداء والعربة صفراء اللون والشعر الذهبي للمرأة بالداخل.

للحظة حسبت أن كيتي رأت ما رأيته أنا.

هنا قالت لي:

- ما من شخص هنا على مرأى البصر.... تعال يا جاك أسابقك لبناية (ريزرفوار)!

واندفع جوادها العربي في المقدمة.

كانت الريكشا في منتصف الطريق، وبلا جهد اخترق حصانها العربي المشهد، هنا سمعت (هذه غلطة.. غلطة.. سامحني يا جاك!)

اندفعت كالمجنون نحو بناية (ريزرفوار). وعدت أسمع الصياح من جديد.

كنت سأتناول العشاء مع آل مانرنج تلك الليلة لكن لم يبق وقت يكفي لاستبدال الثياب. كنت متجها نحو (اليزيام هيل) عندما سمعت رجلين يتكلمان في الغسق

- شيء غريب.. كيف اختفت بالكامل بهذا الشكل..؟.. أنت تعرف أن زوجتي كانت تعشق المرأة (ولا أعرف السبب) وطلبت مني أن أبتاع عربتها وأشياءها.. هل تصدق أن الرجل الذي استأجرت العربة منه قال لي إن سائقي الريكشا كانوا أخوة؟! وكلهم مات بالكوليرا.. شياطين مساكين.. وقد حطم الرجل نفسه الريكشا. قال لي إنه لا يستعمل أبدا ريكشا شخص ميت.

ضحكت بأعلى صوتي.. إذن هذه أشباح موتى.. سائقو ريكشا من العالم الآخر.

كم كانت تدفع لرجالها؟.. أين ذهبوا؟

وكأنما يجيب عن سؤالي رأيت الشيء الشيطاني يسد طريقي في ضوء الشفق. الموتى يسافرون بسرعة وعبر طرق مختصرة لا تعرفها. ضحكت من جديد بصوت عال.. لابد أنني جُننت لدرجة ما.. لقد دنوت من العربة وتمنيت لمسز وسنجتون ليلة طيبة.. لابد أن شيطانا مجنونا سيطر عليّ في تلك الليلة، لكني تبادلت حديثا لمدة خمس دقائق مع راكبتها.

- مجنون كصانع قبعات.. ماكس.. ساعده على العودة للبيت.

لم يكن هذا صوت مسز وسنجتون طبعا بل هو أحد الرجلين وقد سمعاني أكلم الهواء، ساعداني على العودة فاغتسلت وهرعت لموعدي مع آل مانرنج متأخرا عشر دقائق. تعللت بالظلام لكن كيتي لم تقبل العذر.

هنا كانت بداية معرفتي بدكتور هيثر ليج، لأنه كان يجلس بقربنا إلى المائدة يحكي عن المجنون الذي قابله منذ نصف

ساعة في شوارع المدينة يكلم نفسه..! التقت عينانا فأصابه الحرج والذهول ولاذ بالصمت.. كان يتكلم عني أنا..

بعد العشاء قدّم لي نفسه. قال لي إنه راقب تصرفاتي ولا يعتقد أني مدمن خمور، فأنا لم أذق الخمر طيلة العشاء.. طلب مني أن أذهب لعيادته لنواصل الكلام.

مشيت معه في الشارع وأنا أتوقع أن أرى الريكشا في أية لحظة.. بالفعل كانت هناك تمشى خلفنا بنفس سرعتنا، ووجدت نفسي أحكي للرجل كل شيء.. نفس ما حكيته لك.

قال لي:

- سوف أعنى بك أيها الشاب.. وعندما تشفى ليكن هذا درسا يعلمك أن تبتعد عن النساء الجميلات والطعام صعب الهضم حتى يوم مماتك.

كنت أنظر للريكشا في رعب.. فقال لي:

- العينان يا بانسي.. كل شيء يعتمد على العينين والمخ والمعدة. المعدة هي الأقوى تأثيرا.. أنت لديك عقل مرهق ومعدة ضعيفة وعينان سليمتان.. اعتن بمعدتك ولسوف تتحسن حالتك.. أنا مسئول عنك من الآن فصاعدا لأنك حالة مثيرة فعلا.

كانت الريكشا قد توقفت تحت شجرة صنوبر فتوقفت بدوري.

قال لي هيثر ليج:

- لو كنت تحسب أنني سأمضي الليل البارد هنا بسبب معدة.. بسبب مخ.. بسبب عينين تتوهمان.. فليرحمنا الله.. ما هذا؟

كان هناك صوت انفجار مكتوم.. صوت حوافر وسحابة غبار تعالت أمامنا.. وانهارت نحو عشر ياردات من جانبي التل لتسد الطريق. تأرجحت الأشجار للحظة كالعمالقة ثم هوت أرضا بينما تصلب جوادانا وقد بللهما عرق الرعب.

قال الطبيب لاهثا:

- لو أننا مضينا قدما لكنا الآن على عمق عشرة أقدام تحت الأرض!.. لنعد للبيت يا بانسي فأنا بحاجة لاحتساء الشراب..

تراجعنا قاصدين دار الدكتور هيثر ليج.

هنا بدأت محاولاته لشفائي على الفور. لم يفارقني لحظة لمدة أسبوع وقد حمدت الله كثيرا على أنني وجدت نفسي في طريق أشهر وأبرع أطباء سيملا. تحسنت حالتي كثيرا وبدأت أعتنق نظريته بصدد الهلوسة البصرية.. كنت قد كتبت لكيتي أقول لها إن التواء في كاحلي أرغمني على البقاء في البيت وبضعة أيام..

كان علاجه بسيطا.. كان عبارة عن أقراص خلاصة الكبد والماء البارد والتمرينات.. في نهاية الأسبوع وبعد الكثير من فحص حدقتي ونبضي سمح لي بالرحيل وقال:

- أشهد بأنك سليم العقل.. يمكنك أن ترحل وأن تعبر عن حبك لمس كيتي.. كنت أعبر له عن امتناني لكرمه فقال:

- لم أفعل هذا لأنني أحبك.. أنت ظاهرة علمية لا أكثر.. عليك أن تخرج وترى ما تفعله بعينيك ومعدتك ومخك..

بعد ساعة كنت في غرفة جلوس آل (مانرنج) مع حبيبتي كيتي وأنا ثمل بالسعادة، وفكرة أنني لن أرى الريكشا ثانية. اقترحت عليها رحلة على ظهر جواد حول جاكو. لم أكن قط أكثر حيوية مما كنت في ذلك اليوم 30 أبريل.

كانت كيتي سعيدة لتغير مظهري وقد أحسنت الترحيب بي. تركنا المنزل معا ضاحكين وانطلقنا نحو (شوتا سيملا) كدأبنا. كنت راغبا في بلوغ محمية (سونجولي) لأتأكد من الخلاص. وانطلقت الخيول لكنها ظلت بطيئة في رأيي.

قالت كيتي:

- ماذا تفعله؟

- لا شيء يا عزيزتي.. لو ظللت في البيت أسابيع بلا شيء تعملينه لاحتجت للانطلاق مثلي..

هنا كانت المفاجأة أنني رأيت عربة الريكشا تسد الطريق بحماليها الذين يلبسون الأبيض والأسود، توقفت وحككت عيني.. آخر ما أذكره أنني كنت راقدا على الأرض وكيتي تبكي، قلت وأنا أشهق:

- هل رحل؟.. قالت باكية:

- ما الذي رحل؟.. لابد أن هناك خطأ يا عزيزي.. خطأ شنيع..

نهضت وأنا أقول:

- نعم.. خطأ شنيع..

ورحت أتكلم بلا توقف وطلبت منها ألا تتخلى عني. لابد أنني تطرقت إلى علاقتي مع مسز وسنجتون.. لابد.. لأني رأيت وجهها يشحب..

في النهاية قالت:

- شكرا يا مستر بانسى.. هذا كاف..

جاء جوادها فصعدت لتمتطيه.. دنوت من السرج ورفعت وجهي لأسمع رأيها فيما قلته، الإجابة كانت سوط الركاب الذي هوى على وجهي من فمي لعيني ثم عبارة وداع لا أذكرها.

كان وجهي مجروحا ينزف. لقد فقدت احترامي لنفسي. هنا ظهر الدكتور هيثر ليح الذي بالتأكيد كان يتابعني أنا وكيتي.

قال:

- سوف أجازف بسمعتي المهنية.

قلت له:

- لقد فقدت سعادتي.. ولربما كان الأفضل أن تأخذني للبيت..

هنا كانت الريكشا قد رحلت. وكنت قد فقدت الوعي تقريبا.

بعد سبعة أيام – أي في السابع من مايو - عرفت أنني راقد في بيت الدكتور هيثر ليج واهنا كطفل. نظر لي من خلال الأوراق الموضوعة على مكتبه وقال شيئا مخيبا للأمل وإن لم يقلقني

- آنسة كيتي أرسلت لك خطاباتك.. أنتم معشر الشباب تتراسلون كثيرا جدا.. هنا لفافة صغيرة تبدو لي كأنها خاتم وهناك خطاب من أبيها سمحت لنفسي بأن أقرأه.. ليس مسرورا منك.

- وكيتي؟

- تقول إنها تفضل الموت على أن تتكلم معك ثانية..

لابد أنني في خمس الدقائق تلك استكشفت الطبقات السفلي من الجحيم، رأيت الشك والقنوط والتعاسة. ورحت أردد لنفسي:

- أنا في سيملا.. أنا جاك بانسي في سيملا.. لا أشباح.. لمَ لمْ تتركني أجنيس وشأني؟.. لم أؤذها قط.. لكن ما كنت لأعود لأضايقها لو كنت مكانها..

نمت حيث أنا حتى اليوم التالي.

وفي الصباح قال لي الطبيب إن البلدة كلها تعرف الآن أنني مريض.. قلت له:

- أنت كنت طيبا معي يا سيدي.. لكن لا أريد أن أرهقك أكثر من هذا..

كنت أشعر بالاضطهاد، فهناك رجال أكثر شرا مني بمراحل لكن عقابهم مؤجل لعالم آخر.. لماذا أستحق أنا هذا المصير القاسي؟

أحيانا كنت أتخيل أن الريكشا خيال.. ربما كيتي والطبيب والجبال العالية المحيطة بي خيالات كذلك. هكذا راح مزاجي

يتأرجح لمدة سبعة أيام. أخبرتني المرأة أن وجهي ملامحه طبيعية، ولا يحمل ملامح المعاناة التي مررت بها.. كان شاحبا لكنه عادي.

في الخامس عشر من مايو فارقت بيت هيثر ليج واتجهت إلى النادي. هناك كان كل مخلوق يعرف قصتي كاملة بفضل الطبيب الثرثار.. وأدركت أن علي أن أمضي باقي حياتي بين الناس.

عندما غادرت النادي رأيت العربة واقفة وخدمها بثيابهم البيضاء والسوداء، وسمعت مسز وسنجتون تتوسل لي لأن الأمر كان كله خطأ.. مشينا جنبا لجنب أنا والعربة. مرت بي كيتي على حصان مع رجل آخر.. فتصرفت معي كأنني كلب قابلته في الطريق.. لم تجاملني حتى بأن تسرع خطواتها. ووجدت نفسي أردد مرارا:

- أنا في سيملا.. أنا جاك بانسي في سيملا.. لا أشباح.

دنوت من الريكشا وقلت للمرأة بالداخل:

- أجنيس.. هلا نزعت الخمار وكلمتني؟.. هنا سقط الخمار ووجدتني وجها لوجه مع حبيبتي القديمة الميتة. في يدها المنديل وعلبة البطاقات.. انحنت للأمام بتلك الإيماءة التي أحفظها جيدا، وتكلمت.

من هنا أعتذر لك بشدة لأنني أعرف أنه ما من واحد، حتى كيتي التي كتبت لها هذه الكلمات على سبيل الاعتذار، يمكن أن يصدق حرفا.

لقد تكلمت وأنا أمشي جوار الريكشا كأنني أكلم أية امرأة حية ترزق، ورحت أرمق الناس في الشارع وذلك الحفل المقام حول

بيت الحاكم العسكري، فشعرت كأنني أمشي بين أشباح.

ما قالته لي في هذه المحادثة الغريبة لا أستطيع.. بل لا أجسر على قوله.

لو وصفت لك ما قمت به طيلة الأسبوعين التاليين لما انتهت قصتي أبدا، ولنفد صبرك. كنت أمشي مع الريكشا الشبح كل ليلة وكل صباح في شوارع سيملا، كانت العربة وسائقوها ينتظرونني في كل مكان، في المسرح وبعد أعياد الميلاد وكلما غادرت الفندق. لم تكن تلقي ظلالا لكنها كانت طبيعية في كل شيء.. ولأكثر من مرة أنذرت صديقا بألا يصطدم بها، ولأكثر من مرة دخلت المتجر وأنا أواصل محادثتي مع مسز وسنجتون أمام العيون المندهشة.

وعرفت أن الكثيرين افترضوا أنني مجنون. لكني لم أغير حياتي. كنت عاشقا للمجتمع برغم كل شيء. يصعب جدا أن أصف لك حالتي النفسية في هذا الوقت. لم أجرؤ قط على مغادره سيملا برغم أنني كنت أعرف أن بقائي هناك يقتلني ببطء.

كنت أموت شوقا لكيتي وقد راقبت علاقاتها المتعددة مع من جاء بعدي... بعبارة أدق: من جاءوا بعدي، كانت تمثل جزءا مهما من حياتي. في النهار كنت أمشي سعيدا مع مسر وسنجتون وفي الليل كنت أصلي كي أرجع لعالمي.

في أغسطس 27 كان الدكتور هيثر ليج لا يكل من العناية بي، وأمس قال إن عليّ أن أطلب إجازة مرضية، طلب للحكومة أن تسمح لي بالفرار من عربة ريكشا وخمسة أشباح. ضحكت

ضحكا هستيريا عندما سمعت هذا الطلب. قلت إنني سأنتظر النهاية وأنا واثق من أنها قريبة.

هل أموت في فراشي في سلام كما يليق بسيد بريطاني؟ أم في نزهة بالسوق حيث ترحل روحي لتلتصق للأبد بالشبح؟.. هل أظل في العالم الآخر مع أجنيس التي أمقتها للأبد؟

من المخيف أن تهبط إلى تحت مع الموتى ولما يكتمل نصف حياتك. أشفقوا عليّ وعلى هواجسي.. لأنكم لن تصدقوا ما كتبت هنا. أنا الرجل الذي قضت عليه قوى الظلام..

أشعر كذلك بالشفقة عليها.. أنا قتلت مسز وسنجتون بالمعنى الكامل للكلمة. وقد جاء وقت دفع الثمن.

أفضل قصص الأشباح:

هذه مسابقة ممتعة في سرد قصص الأشباح والظواهر الخارقة، بين مجموعة من الكتاب من بلدان وأزمنة مختلفة.. ثمة حبكات محكمة، وحبكات ساذجة. وثمة أساليب معقدة عتيقة، وأساليب عصرية، وثمة حكايات مرعبة فعلا، وحكايات لا جديد فيها.

كلهم يتكلمون عن هذا الشيء الغامض الذي يتحرك هناك في الطابق العلوي عند منتصف الليل.. وكلهم يحملون شمعدانا، ويذهبون ليعرفوا ما يدور هنالك.

تعال تلحق بهم..


متميزون
للكتب النصية
E-Book

<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

<u>Link – لينك القنـاة</u>

الفهرس..

Notes

[←1]

- بأن هو إله المراعي عند الإغريق وهو يشبه الماعز أو التيس، ويعزف الفلوت الخاص به المصنوع من قصبات متلاصقة، عندما جات المسيحية اعتمدت شكله ليكون الشكل المتعارف عليه للشيطان. هذه القصة تعتبره حقيقيا نغماته هي سر الطبيعة ذاته...

[←2]

- الريكشا وسيلة نقل أسيوية هي عربة يجرها رجل.

روايات عالمية للجيب 75



التنين الأحمر

تأليف : توماس هاريس
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (75)

التنين الأحمر

تأليف: توماس هاريس

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

يعرف العالم كله الكاتب الشهير توماس هاريس، بعد ما قدمت السينما قصته الأشهر (صمت الحملان).

وهو من الكتاب الذين ابتكروا شخصية بالغة الشهرة عظيمة التأثير في الثقافة الشعبية. إن شخصية الطبيب النفسي أكل لحوم البشر (هانيبال لكتر) لا يمكن نسيانها بسهولة، فكيف إذا رأيناها كما جسدها أنتوني هوبكنز في الفيلم الشهير؟

وُلد هاريس في ولاية تنيسي الأمريكية عام 1940. ولم تخل طفولته من المعاناة ككل العظماء في الواقع. درس في تكساس حيث تخصص في اللغة الإنجليزية، وعمل كصحفي لعدد من الصحف الطلابية وهو ما زال في الجامعة.

في العام 1975 قدم روايته (الأحد الأسود) وهي مزيج من الرعب والأكشن المتعلق بالإرهاب، ثم قدم الرواية الحالية عام 1981.. يمكن القول إنه قدم رباعية أكل لحوم البشر في هذه القصة وقصص (صمت الحملان 1988) و(هانيبال 1999) و(صحوة هانيبال - 2006)، يقال إن الجزء الذي معك الآن هو أقوى الأجزاء طرا. وبالطبع يمثل هانيبال لكتر الهيكل العظمي لكل هذه الروايات..

ليس توماس هاريس مولعا بالظهور الإعلامي ولا يجرى لقاءات صحفية أبدا، حتى إنني وجدت هذه المعلومات عنه بصعوبة بالغة، وهو صديق عزيز لكاتب الرعب الأشهر ستيفن كنج.

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

مدينة (سان برنار دو كومنجز) مدينة عتيقة عند تخوم جبال البرانس غير بعيدة عن تولوز. وكانت مقر الأسقفية حتى الثورة الفرنسية، وفيها كاتدرائية يزورها سياح كثيرون. لن أطلق على المكان اسم مدينة لأن سكانها لم يتجاوزوا الألف.

جلس كرافورد على منضدة بين البيت والمحيط، وقدم لجراهام كوبا من الشاي المثلج. نظر كرافورد للبيت القديم الجميل وقال:

- كان يجب أن أجدك في (ماراثون) عندما غادرت العمل.

- لا أريد مناقشة هذا هنا.. لكن لو أردت أن تتكلم فلا تعرض أي صور.. لو جلبت صورا فاتركها في الحقيبة.. مولى وويلى سيعودان حالًا.

- ما قدر ما تعرفه؟

قال جراهام:

- أعرف ما كان في ميامي هيرالد وتايمز. قتلت أسرتان في داريهما والفارق شهر.. برمنجهام وأطلانطا. الظروف متشابهة.

- ليست متشابهة بل هي نفسها.

- كم اعترافا حتى اللحظة؟

- الكثير.. لكن لا أحد منهم يعرف التفاصيل.. مثلًا لا يعرفون أن السفاح يهشم المرايا ويستعمل الأجزاء المهشمة.

- وماذا أخفيت عن الأوراق أيضا؟

إنه أشقر يستعمل يده اليمنى.. قوى جدا ويلبس قياس 11 في الأحذية.. يمكنه عمل عقدة بحارة ولا يترك بصمات لأنه يلبس قفازا.. لا يحب الأبواب بل يقطع الزجاج باستعمال ماسة وماصة.. فصيلة دمه AB.

- هل هذا دمه؟

- لعابه.. إنه ممن يفرزون مجموعات الدم في اللعاب..

نظر كراوفود للبحر وقال:

- ويل.. أريد أن أسألك عن شيء.. أنت قرأت هذا في الصحف، والجريمة الثانية مشهورة في التلفزيون.. فلِم لم يخطر لك أن تتصل بي؟.. جريمة برمنجهام لم تكن عنها؟

معلومات كثيرة وفكرنا في دوافع مثل الانتقام أو السرقة..

- وبعد هذا عرفت.

- نعم.. عرفت أنه سايكوباث.. واعرف أنك عملت مع أفضل مختبر ممكن. هايمليخ في هارفارد وبلوم في جامعة شيكاغو.

- لا أعتقد أنني سأفيدك يا جاك.. فلم أعد أفكر في الموضوع ثانية.

- ما يهمنا يا ويل هو طريقتك في التفكير.

- هناك جدل كبير حول طريقتي في التفكير.. إن لديك ما تريد ومن تريد يا جاك.. أنا لن أضيف شيئا لكم.. لقد جئت هنا لأفر من هذا كله.

- أعرف أنك جرحت آخر مرة.. لكنك تبدو لي الآن على ما يُرام.

ولاحظ كراوفورد أنه يسمع صوته ونبراته في صوت جراهام..

هذه طريقة دائمة في المناقشات مع جراهام إنه يتخذ صوتك وأسلوبك أثناء النقاش.. وفيما بعد أدرك كراوفورد أنه يفعل هذا دون قصد.

أخرج كراوفورد من جيبه صورتين وألقاهما على المنضدة، وقال:

- كلهم موتى.

نظر له جراهام بعض الوقت قبل أن يتناول الصورة. كانت كلها صورا فوتوغرافية.. امرأة ثم ثلاثة أطفال ثم بطة.. هناك نزهة جوار بركة.

بعد لحظة أزاح الصور جانبا وقد رأى ابن زوجته قادما يتفحص شيئا على الرمال، ووقفت المرأة تراقب المشهد وطوحت شعرها المبتل على كتفها. شعر كراوفورد بالرضا..

لقد أحسن اختيار مكان المحادثة.. بدأ يشعر أنه ظفر بجراهام أخيرا.. فقط فلتنضج الأمور ببطء..

سأل جراهام:

- حياتك هنا جميلة.. كم عمر الصبي؟

- أحد عشر عاما..

- صبي وسيم. سيكون أطول منك.

هبط طائران على المائدة وهما يبحثان عن الجيلي. راقبهما كراوفورد يتواثبان.

- ويل.. هذا المجنون يقتل حسب الدورة القمرية.. هذا يعطينا فرصة ثلاثة أسابيع قبل الضربة الجديدة لو كنا محظوظين ولسوف تكون فرصتنا أفضل لو كنت معنا.. اذهب لأطلانطا.. وبرمنجهام وابحث.. ثم عد لواشنطن.

لم يرد جراهام.

انتظر كراوفورد قليلا ثم نهض ووضع معطفه على كتفيه..

رفض دعوة للعشاء وقال:

- قل لمولى إنني شاكر لها..

وانطلقت سيارته المستأجرة مبتعدة ناثرة الغبار على الشجيرات على جانبي الطريق.

☆ ☆ ☆

*الغروب في شوجارلوف.. طيور البلشون ما زالت تحلق..

جلس ويل جراهام وزوجته مولى فوستر على لوح خشبي لوحته الشمس.. وقد صار وجهاهما برتقاليين بفعل الغروب..

تناولت يده وقالت:

- كراوفورد مر على في المتجر قبل أن يقابلك.. حاولت الاتصال بك يجب أن تتعود أن تجيب على الهاتف من وقت لآخر..

- عمَّ سألك؟

سألني عنك فقلت إنك بخير لكن يجب تركك وشأنك.. ماذا يريد منك؟

- أنا مختص بالطب الشرعي يا مولى.. أنت رأيت شهاداتي.

ورأيت أنك أصلحت ثقبا في السقف بهذه الشهادة.. لماذا لا يتركك وشأنك؟

ألم يقل لك؟ ,,, كان مشرفا على المرتين اللتين تركت فيهما أكاديمية الـ FBI لأعمل في حقل الجريمة. لم ير من قبل حالتين مثل هاتين..

هذا النوع من السايكوباث نادر جدًا.. وهو يعرف أن لدى خبرة.

كان قميصه مفتوحا وكانت ترى بوضوح الندبة على بطنه كان اتساعها إصبعا وعالية.. تتسلق من عظمة الفخذ حتى أسفل ضلوعه..

د. هانيبال لكتر هو من فعل هذا بالسكين.. حدث هذا قبل عام من لقاء جراهام مع مولي. كان د. هانيبال - الذي تعرفه الصحف باسم (هانيبال أكل لحوم البشر) - هو ثاني سايكوباث يقبض عليه جراهام في حياته.

عندما غادر جراهام المستشفى استقال من مكتب الاستخبارات الفيدرالية وترك واشنطن ليعمل كميكانيكي ديزل في ماراثون بفلوريدا كيز. كان ينام في مقطورة في فناء القوارب حتى ظهرت مولى.

راقب ثلاث بجعات تطير عبر المد، وقال:

- مولى.. السايكوباث الذكي.. خصوصا السادي.. صعب أن يقبض عليه لعدة أسباب: أولا: لا يوجد دافع واضح لجرائمه.. ولن تكون هناك معونة من مخبرين.. عليك التمسك بأي دليل تجدينه وتستنبطين منه.. تحاولين إعادة تركيب تفكيره.

أخاف أن يفعل بك كما فعل ذلك الأخير.

- لن يعرف اسمي أبدا الشرطة هي التي ستقبض عليه وليس أنا. كراوفورد يريد وجهة نظر أخرى فقط.

راقبت الشمس الحمراء تنحدر في الأفق. كان جراهام يعشق الطريقة التي تلف بها رأسها.. كان يرى النبض في عنقها ويتذكر مذاق الملح على جلدها.. ابتلع ريقه وقال:

- لا أريد فقدان هذا.

- ماذا بوسعي أن أفعله بحق السماء؟

- ما قررته أنت.. ابق معي هنا.. أنا.. أنا.. وويلي... المكان هنا آمن وعذب.. كل ما حدث لك من قبل يجعلك تدرك هذا.. فلتعرف قيمة ذلك.

هز رأسه فقالت:

- لن نفقده..

هبط الظلام وظهر كوكب المشتري في الجنوب الغربي. مشيا للبيت جوار القمر الأحدب الذي بدأ يرتفع. وتواثبت الأسماك في أمواج المد.

☆ ☆ ☆

عاد كراوفورد بعد العشاء. كان قد نزع معطفه وثنى كميّ قميصه ليعطي شعورا بالبساطة. شعرت مولى بأنه يبدو بساعديه المشعرين كقرد عملاق حكيم. قدمت له القهوة بينما كان جراهام وابنها يطعمان الكلاب.

قالت له:

- إنه يتحسن.. لم يعد يحلم بالكوابيس في كل ليلة.. أنت صديقه يا جاك فلماذا لا تتركه وشأنه؟

- لأن حظه السيئ أنه الأفضل.. ولأنه يفكر أفضل من باقي الناس.

- يظن أنك تريده أن يفحص الأدلة.

- أريد ذلك وأشياء أخرى.. الخيال.. الإسقاط...

- عدني بشيء يا جاك.. تأكد من أنه لن يقترب كثيرا... سوف يموت لو دخل في صراع.

- لن يصارع.. أؤكد هذا لك.

عندما عاد جراهام من إطعام الكلاب ساعدته مولى في حزم حقائبه.

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

اندفعت سيارة جراهام عابرة البيت الذي مات فيه آل ليدز. كانت النوافذ مظلمة.. أوقف سيارته بعد مربعين سكنيين ومشى في الليل الدافئ، حاملًا معه تقرير شرطة أطلنطا في صندوق من الورق المقوى.

كان جراهام قد صمم على أن يأتي وحده. زاعما أن أي شخص آخر معه سوف يشتت اهتمامه. لكن السبب الحقيقي هو شكه في الطريقة التي سيتصرف بها.. لا يريد من يحملق فيه. كان قد أمضى الليلة كلها في المشرحة.

وقف يرمق البيت بعض الوقت وهو يحاول أن يتماسك من الداخل. كان بندول من فضة يتأرجح في ذهنه وكان عليه أن ينتظر حتى يسكن البندول.

مر بعض الجيران ينظرون للبيت بسرعة.. إن البيت الذي يحدث فيه قتل يبدو قبيحا للناس، كأنه وجه شخص خانهم.

مشى حول المنزل ولم يستعمل الكشاف. شرطة أطلنطا تعلم أنه هنا لكن الجيران لا يعرفون. سوف يتسرعون ولربما يطلقون الرصاص. على الباب كان خاتم شرطة أطلنطا..

نزع الخاتم ودخل. كان الممر حتى المطبخ مبطنا بخشب البقم الذي وجد رجال الشرطة الزجاج عليه. كان يريد أن يضيء النور وتمنى لو يضع الشارة ويحدث ضوضاء يبرر بها للمنزل وجوده، حيث مات خمسة أبرياء. لكنه لم يفعل هذا.. فقط دخل إلى المطبخ وجلس على المنضدة.

يشم رائحة الورنيش والتفاح. هنا بدأ جهاز التكييف يعمل فشعر بالرعب.. إنه خائف لكنه يستطيع الاستمرار برغم هذا لا يوجد شخص هنا يمكن الكلام معه.. لا شخص يضايقه.

الجنون زار هذا البيت عبر هذا الباب.. مشى هنا بحذاء قياس 11.. كان يشم الجنون كما يشم الكلب البوليسي رائحة قميص كان قد قرأ تقرير الشرطة في أطلنطا طيلة اليوم. كان الضوء فوق الموقد مضاء عندما جاء رجال الشرطة.. أضاءه من جديد.

حسب خبير الباثولوجي تمت الوفاة بين 11 مساء و1 صباحا لقد أزاح المجنون القفل على الباب الخارجي ووقف في الظلمة وأخرج شيئا من جيبه. قرص ماص على الأرجح أو ربما قاعدة مبراة مما يثبت إلى المكتب.

جاثيا على ركبتيه حملق المجنون عبر الزجاج.. ألصق القرص بالزجاج بعد ما لعقه.. كانت هناك ماسة قاطعة للزجاج مثبتة بالقرص مما مكنه من قطع الزجاج على شكل دائرة. جذب الزجاج نحوه. لا يجب أن يسقط.. لا يبالي بكونه ترك لعابا من فصيلة AB على الزجاج..

مد يده ووجد القفل.. ينفتح الباب في صمت.. إنه بالداخل. إن الهواء رطب وجميل داخل البيت.

مشى جراهام إلى غرفة النوم.. يمكنه أن يرى من دون كشاف. هناك ساعة رقمية تعكس الوقت على السقف وهناك رائحة نحاسية قوية للدماء.

لابد أن المجنون رأى بعد ما اعتادت عيناه الظلمة مستر ريد وزوجته. عبر الغرفة إلى مستر ليدز وأمسك به وقطع حلقومه. ثم طلقة في مس ليدز. أضاء النور فصرخت بقع الدم على الجدران في وجهه. الهواء نفسه كان ملطخا بالصرخات.

جلس جراهام على الأرض.. اثبت.. اثبت....

لقد أصيب مخبرو أطلنطا بالدهشة. كل الضحايا قتلوا في أسرتهم لكن بقع الدم كانت في أماكن عديدة. في البدء حسبوا أن تشارلز ليدز قتل في غرفة ابنته ثم سحب القاتل جثته لغرفة الأب. لكنهم عدلوا عن هذا الرأي.. حركات القاتل لم تتضح إلا بعد المختبر الجنائي.

لكنه قتل الزوجين.. ثم ذهب لغرفة الأطفال. نهض مستر ليدز برغم حلقومه المقطوع وحاول حماية أطفاله، ففقد الكثير من الدم. في النهاية سقط ليموت في غرفة ابنته.

أحد الصبيين قتل في الفراش... الآخر كان في الفراش كذلك، لكن هناك كريات غبار في شعره. يعتقد رجال الشرطة أن القاتل جذبه من تحت الفراش قبل أن يطلق الرصاص عليه.

عندما ماتوا جميعا بدأ تهشيم المرايا..

مسز ليدز لم تمت بالطلقة بل ماتت بالخنق. زيادة كمية السيروتونين والهيستامين في الجرح أكد أنها عاشت بعد الرصاصة نحو خمس دقائق. الهيستامين كان أعلى من السيروتونين مما يؤكد أنها لم تعش أكثر من خمس عشرة دقيقة. معظم إصاباتها التالية حدثت بعد الوفاة.

ماذا كان اللص يفعله طيلة هذا الوقت؟.. إن قتل باقي الأسرة لم يستغرق أكثر من دقيقتين.. فماذا عن الوقت الباقي؟

صعد للطابق العلوي وهو يحاول أن يربط بين الإصابات كما يعرفها وبقع الدم. على جدار غرفة النوم كانت ثلاث لطخات دم.. وكانت هناك ثلاث بقع على البساط. دخل الحمام وغسل وجهه وتناول قرصين للصداع.. لم يكن هنا شيء سوى المرايا المهشمة ومسحوق فحص البصمات الأحمر الذي يسمونه (دم التنين).

كانت أضواء أطلنطا تسطع في الليل ولا يمكن أن ترى النجوم إلا بصعوبة. في (كيز) يمكنك أن ترى النجوم بوضوح مع مولى وويلي.

ارتجف واستنشق من جديد. لا يريد أن يفكر في مولى الآن. أطفأ الأضواء التي كان قد أضاءها وغادر البيت من المطبخ. في نهاية الممر رأى دراجة ومهد كلب من القش. كان هناك بيت كلب في الفناء الخلفي. كل الدلائل تؤكد أن آل ليدز هوجموا أثناء النوم.

كتب مذكرة قصيرة لنفسه:

- جاك.. أين كان الكلب وقت الجريمة؟

عاد جراهام للفندق. كان عليه أن يركز في القيادة برغم أن الساعة الرابعة والنصف صباحا. كان الصداع يقتله فراح يبحث عن صيدلية تقدم خدمة طيلة الليل، ووجد واحدة فدخل ليبتاع بعض أقراص البافرين. كان يكره شباب الصيادلة فهم غالبا

متأنقون أكثر من اللازم ومن الواضح أنهم ليسوا لطيفين في بيوتهم.

استقل الدرج الصاعد إلى غرفته وكان معه حمالا حقائب يضع كل منهما بطاقة باسمه مع عبارة (مرحبا).

- هل تعرف لماذا للمرأة قدمان؟

- حتى لا تترك خلفها مسارا كالقوقعة.

في غرفته وضع جراهام الصندوق الورقي في الخزانة، ثم غير رأيه ووضعه في درج بحيث لا يراه. لقد رأى ما يكفيه من الموتى متسعي العيون. أراد أن يطلب مولى لكن الوقت كان قد تأخر. كان مرهقا وخالي الذهن تماما... يجب أن ينام قبل موعده في قسم الشرطة صباحا. أنار ضوء الحمام ثم عاد للفراش كي يقاوم الظلمة التي أطبقت حوله. وراحت عبارات من تقرير التشريح تدوي في ذهنه:

- البراز كان مكتملًا.. بقايا بودرة (تلك) على القدم اليمني.. كسر في المحجر نتيجة غرس قطعة مكسورة من مرآة.

راح يحاول تذكر الجو والناس في شوجار لوف كيز. مولى تحاول تعليمه الرقص في الفناء الخلفي. في النهاية غلبه النعاس. صحا بعد ساعة فرأى خيال الوسادة جواره.. كان هذا هو وجه مسز ليدز والدم يغطيه.. لم يستطع أن يبعد عينيه عنها. صحا وارتدى تي شيرت جافا وتخلص من السابق الذي بلله العرق في الحمام. لكنه لم يستطع أن يزحف لينام في الناحية الجافة من الفراش.

راح يفكر بقوة في الصيدلية التي ابتاع منها البوفرين السبب هو أن هذه هي الخبرة الوحيدة طيلة يومه التي لم تقترن بالموت. تذكر الصيدليات في الزمن القديم عندما كانت هناك نوافير صودا في الصيدلية، وكنت تذهب هناك وتنظر يمينا ويسارا فترى أشياء لا ينبغي لك أن تراها.

كان في الأربعين وكان يشعر بذلك الحنين لما كان عليه العالم وقتها. الدمى التي اشتراها سموت ووضعها في نافذة المتجر. كانت تحملق بعيون واسعة في كل شخص يمر بالمكان دمى تحملق.. هذا جميل.. لقد بدأ جسده يرتخي وبدأ يهدأ..

اعتصر جراهام الملاءة وراح يفكر..

☆ ☆ ☆

لماذا حركت الجثث ثانية؟ لماذا لم تتركها في هذا الوضع؟

هناك، شيء لا تريد لي أن أعرفه.. شيء تخجل منه. هل أنت الذي فتح عيون الجثث؟

مسز ليدز كانت جميلة.. أليس كذلك؟.. أنت أضأت النور بعد ما ذبحت مستر ليدز حتى تراه زوجته وهو يموت.. كان هناك مسحوق (تلك) على رجلها.. لا يوجد مسحوق (تلك) في الحمام.. كأن هناك من يردد هذا بصوت بارد.

أنت نزعت قفازك لتلمسها. أليس كذلك؟؟ تساقط الـ (تلك) من القفاز.. أيها الوغد.

اتصل بكراوفورد.. لم يندهش هذا الأخير من موعد المكالمة، فسأله جراهام:

- هل ما زال برايس يعمل مع ليتانت برنتس للبصمات؟

- نعم..

- أعتقد أنه يجب أن يأتي لأطلانطا.

لم؟.. أنت قلت إن من يعملون هنا أكفاء.

- أكفاء لكن ليس بمستوى برايس.

- ماذا تريد منه أن يفعل؟

- أريد أن يفحص أظفار يدي وقدمي مسز ليدز.. إن الطلاء مصقول.. كذلك أريد فحص قرنيات عيونهم. أنا أعتقد أن السفاح نزع قفازيه لبعض الوقت يا جاك.

- رباه!.. سيكون على برايس أن ينطلق كالرصاصة.. الجنازة موعدها عصر اليوم!

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

كانت الساعة السابعة والنصف صباحا. وناول كراوفورد جراهام زجاجة كوكا باردة من الآلة في قيادة شرطة أطلنطا، وقال:

- بالتأكيد هو نقل جثة مسز ليدز.. كانت هناك علامات يد على معصميها وخلف ركبتيها. لكن كل البصمات: جمة عن قفاز بلا مسام. لا تقلق.. برايس الوغد هنا وهو في طريقه إلى بيت الجنائز.. هل ظفرت بأي نوم؟

- ربما ساعة..

- إن مختبر أطلنطا يؤكد أن السفاح كان يلبس قفازا جراحيا طيلة الوقت.. قطع الزجاج في الفم مغطاة بالدم.. لم ينزع القفازين قط. صدقني.

- ما زلت أعتقد أنه نزع قفازيه ليلمسها.. لا يوجد أي شيء في التقارير عن مسح البصمات عن أظفارها.

- تعال الآن نصعد.. القوات توشك على أن تتجمع.

☆ ☆ ☆

كان جيمي بروس يحمل أدوات كثيرة، منها حقيبتان وكاميرا وحامل. كان داخلا إلى بيت لومبارد للجنائز وكان مزاجه عكرا بعد المشوار الذي قطعه من المطار في سيارة الأجرة. استقبله لومبارد شخصيا وأجلسه إلى منضدة، حيث راح يتأمل أنامل تمثال اسمه (اليدان المصليتان) ... بينما راح لومبارد يفحص أوراقه بعناية عظيمة.

- أنت تفهم يا مستر برايس أنهم نقلوا الجثث هنا في الواحدة صباحا فقط.. والجنازة ستكون في الخامسة..

قال برايس:

- لن أستغرق وقتا.. أريد مساعدا واحدا على قدر من الذكاء لو عندك واحد.. هل لمست الجثث يا مستر لومبارد؟

- لا.

- فلتعرف من فعل هذا.. يجب أن أخذ بصمات الجميع.

هذا الوقت كان رجال شرطة أطلنطا جالسين أمام صورة عملاقة لأسنان.. هذا هو القالب الذي صنعه الطبيب الشرعي (برينشي) لأسنان القاتل. وقد تم تشكيله بناء على عضة تركها القاتل في إحدى الضحايا وقضمه لقطعة من الجبن في الثلاجة.

تساءل أحد الضباط عن كيفية تحديد أن القاتل هو من قضم الجبن، فقال الطبيب إن اللعاب في موضع العضة هو نفس فصيلة دم القاتل. تساءل ضابط آخر عن سبب تأخر عمل هذه العينة، ولماذا تم عملها في واشنطن؟

قال د. برينشي:

- لأن العضة في اللحم يتغير شكلها.. الجبن وسيط أسهل لرسم الأسنان لكنك تحتاج إلى نزع الرطوبة منه قبل عمل قالب. لهذا احتجنا لعون واشنطن لأن لديهم خبير أسنان شرعيا..

قدم كراوفورد صديقه جراهام للجالسين وقال: إنه ذو خبرة سابقة.. هكذا طلبوا من جراهام أن يتقدم. شعر بحرج بالغ. لم

يبد كمفتش لدى FBI بل بدا أقرب إلى عامل طلاء يلبس بذلة أنيقة ليحضر بها حفلًا.

قال:

- هناك شيئان.. لا يمكن أن نفترض أنه مريض عقلى سابق. الاحتمال عال أنه لا يملك أي صحيفة سوابق.

ولو كانت لديه سوابق فعلى الأرجح هي تسلل أو دخول بيوت. أفضل معونة يمكن أن نحصل عليها ستكون من المهتمين برعاية الأطفال ومن العاملين في الطوارئ. إن معلوماتهم عن العضات الشرسة ستكون مفيدة لنا.. لا يهم من عض من ولماذا.. فقط لابد من أن نعرف كل حادث من هذا النوع.. هذا السفاح يعض كثيرا.. لقد عض مسز ليدز ست عضات بليغة.

- وكم متوسط العض في الجرائم الجنسية؟

- ثلاث عضات فقط.. لكن هذا رجل مولع بالعضّ.

قال أحد المخبرين:

- هذا دليل واهٍ جدا..

قال جراهام:

- برغم هذا يستحق البحث.. وهذا كل ما لديّ.

وشعر بعضلات فخذيه تهتز من الوهن وهو يعود لمقعده.

قال كبير المفتشين:

- سوف نواصل البحث... وثمة نقطة مهمة.. سمعت بعض الرجال يطلقون على القاتل اسم (جنية الأسنان).. أعرف أنكم لابد أن تسموه شيئا ولا يهمني أي اسم تختارون، لكن لا أريد أن يصل هذا الاسم للصحافة فهو يوحي بالاستهتار.. مفهوم؟

لما انصرف رجال الشرطة اختلى المفتش بجراهام فقال له:

- أعترف أن ليس لدينا الكثير.. أنت الرجل الذي قبض على هانيبال لكتر من أعوام... أليس كذلك؟

قال جراهام:

- كان هذا مع شرطة ماريلاند. رجال دورية ماريلاند قبضوا عليه.

فكر المفتش قليلا ثم عبث ببعض الأوراق وقال:

- أنت سألت عن الكلب.. شرطي لدينا اتصل بأخي ليدز، وعرف منه أن لدى الأسرة كلبا وجدوه ميتا.. هناك جرح نافذ في بطنه. فكر الطبيب البيطري في أن الكلب أطلق عليه الرصاص، لكنه لم يجد رصاصة.. ثم فكر في أنه طعن بشيء كمخراز.

- هل كان الكلب يلبس ياقة عليها اسم ليدز؟

- لا..

- وهل آل جاكوبيس في برمنجهام عندهم كلب؟

- سنعرف هذا...

ثم اتصل ببرمنجهام سائلًا.. أصغى قليلًا ثم قال:

- لا كلب.. هناك آثار قط لكنهم لم يجدوا قطًا.

- هل لك أن تتأكد من أنه لا توجد جثة قطة؟.. أنت تعرف كيف تتصرف القطط.. تنزوي في مكان بعيد وتموت الكلاب تعود للبيت لتموت فيه..

قال كراوفورد:

- سنرسل لهم مسبر (ميثان).. سيوفر عليهم الكثير من جهد الحفر.

هنا اتصل بهم برايس من بيت الجنائز. قال لهم إنه حصل على أثرين من إبهام وجزء من الكف.

- أريد أن أطبع هذه البصمات.. دعني أركب الطائرة إلى واشنطن وسوف أرسل لك البصمات بالفاكس قبل عصر الغد.

كان جهاز الباحث جهازا جديدا يستطيع البحث بين مئات البصمات، وكانوا يعتمدون عليه كثيرا..

قال كراوفورد لجراهام:

- سوف نجده.. إن بصماته وقالب أسنانه تجعل الأمر سهلاً.

قال جراهام:

- بالتأكيد.. سنجده بطريقة أو بأخرى..

- مثل؟

- مثل أن نجد دليلًا لم نلحظه أولًا... أو يُحدث هو ضوضاء أكثر من اللازم ذات ليلة فينهض له الزوج حاملًا بندقية.. جنية الأسنان هذا سوف يستمر ويستمر إلى أن نصير نحن أذكياء أو نصير محظوظين.

وعاد جراهام إلى الفندق ونام لساعتين ونصف الساعة.

استيقظ عند الظهر فاستحم وطلب شطيرة وقهوة. كان عليه أن يدرس ملفات قضية جاكوبي في برمنجهام. جلس جوار النافذة يطالع الملف. قرع الساقي الباب حاملًا الصينية.. قرع وانتظر. في النهاية ترك الطعام على الأرض خارج الباب ووقع على الفاتورة بنفسه.

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

أوقف هويت لويس قارئ العدادات في شركة جورجيا للكهرباء شاحنته تحت شجرة عملاقة في الزقاق وجلس يلتهم غداءه. لم يعد يستمتع بالغداء بعد ما صار يعده بنفسه.. لا مفاجآت أو مذكرات صغيرة.

دوى صوت عال جعله يقفز في الهواء..

- أحسبني استهلكت كهرباء بألف دولار هذا الشهر.. صح؟

استدار لويس فرأى الوجه المحتقن لهـ. ج. بارسونز وكان يلبس شورت ويحمل مكنسة.

- لا أفهم ما قلت.. أنا لا أعرف استهلاكك لأنني لم أقرأ عدادك بعد يا سيد..

كان بارسونز متعكر المزاج بسبب قيمة فواتيره وقد شكا للشركة من قبل. لكن لويس قال له في عصبية:

- اهدأ قليلًا.. أنت تضع مغناطيسا في عدادك. وجدته العام الماضي وتغاضيت عن ذلك لأن زوجتك قالت إنك في المستشفى.. بعد هذا صببت فيه العسل لتعطله.. شيء ما في هذا البيت يلتهم الكهرباء وأنت لا تطلب كهربائيا ليعرف السبب بل تشكوني في الشركة.

- هناك من يتابع مسار عملك ويقرأ العدادات التي تقرؤها.. سوف تضطر لأن تعمل حقا قريبا جدا.

كان وجه لويس قد صار شاحبا من فرط الغضب. وركب شاحنته مبتعدا.. الآن عليه أن يجد مكانا آخر ينهى فيه غداءه..

هذه الشجرة كانت تناسبه وقت الغداء تماما.. كانت تقع مباشرة خلف بيت تشارلز ليدز.

☆ ☆ ☆

في الخامسة والنصف مساء قاد سيارته الخاصة إلى استراحة (السحابة 9). هناك كان يلعب مع رفاقه عندما قابل المشرف عليه في العمل بيلي ميكس..

- سوف أنازلك على زجاجة بيرة.

قال له:

- أريد الكلام معك يا بيلى هذا الوغد المدعو بارسونز الذي يتصل بكم طيلة الوقت.. يقول: إن هناك من يتابع مسار عملي ويقرأ العدادات التي أقرؤها.. أنت لا تعتقد أنى أقوم بتأليف قراءات العدادات وأنا في بيتي. أليس كذلك؟

- نعم.

- حسن.. لو أنني في قائمة قاذورات أحدهم فأنا أريد أن يأتي ويواجهني..

- لو كنت أنت في قائمة قاذوراتي فلن أخشى أن أواجهك.. لو كان هناك من يقتفي أثرك فلسوف أعرف ذلك. لا تأخذ بكلام بارسونز هذا فهو عجوز مخرف.

- ما يحتاج له هو علقة طيبة على مؤخرته.

قال بيلي:

- كنت أعمل في هذه المنطقة عندما كنت قارئ عداد. بل إنني رأيت مسز ليدز.. أعرف أنه ليس من المناسب الكلام عنها وقد ماتت، لكني كنت أراها بالمايوه تأخذ حمام شمس. كانت امرأة جميلة وما حدث لهذه الأسرة عار.

- هل قبضوا على أحد؟

- لا..

- يؤسفني أن السفاح قتل ليدز بينما كان بارسونز على أتمّ استعداد لأن يموت عبر الشارع.. لكن ما يضايقني هو أن بارسونز بالتأكيد رأى من يقرأ عداده.. أنت تقول إنك لم ترسل أحدا ليراقب عملي..

هل ترى أن أبلغ الشرطة أن هناك من يقرأ العدادات وهو ليس موظفا لدينا؟

- نعم.. هذا سوف يفيد بارسونز.. أن يتكلم مع ممثلي القانون.. سوف يموت من الرعب عندما يصل له رجال الشرطة.. ألا ترى هذا؟

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس

بعد العصر عاد جراهام لبيت آل ليدز.. دخل من الباب الأمامي وحاول ألا ينظر للخراب الذي تركه القاتل.

كان يعرف جيدا كيف ماتوا.. المشكلة هي أن يعرف اليوم كيف عاشوا.

في المرآب كان هناك قارب تزلج ومضارب جولف ودراجة وكانت هناك أدوات كهربية عدة. هكذا راح جراهام يبحث في البيت عن لمسات تشارلز ليدز. مجموعة كتبه المصفوفة في المكتبة.. كاميرا نيكون ممتازة.. كتاب لفورستر.. جهاز عرض..

لم يكن جراهام قد امتلك أي شيء سوى أدوات صيد وسيارة فولكس عتيقة وقد بدأ يشعر بشيء من غيرة ويتساءل: من كان ليدز؟.. محامي ضرائب بارع؟.. لاعب كرة قدم في الجامعة؟..

أم هو الرجل الذي يستمر في القتال برغم أن حلقومه مقطوع؟

يجب أن يعرف الرجل قبل أن يعرف زوجته.. كان يشعر أنها هي التي جذبت السفاح.. مثلما يجذب صرصار الغيط الموت من ذبابة حمراء العين..

كانت لمسز ليدز غرفة ثياب صغيرة بالطابق العلوي. دخلها جراهام فلم ير شيئا غريبا سوى المرآة المحطمة فوق منضدة التسريحة. كل شيء عليه رماد تبغ المخبرين..

كان الضوء يخبو لكنه راح يطالع مفكرة صغيرة تدون فيها خواطرها.

دوى جرس الهاتف. ثم صوت (كليك) وبدأ جهاز رد على المكالمات يعمل.. مرحبا.. أنا فاليري ليدز.. لا أستطيع القدوم للهاتف الآن.. لو أردت أن تترك اسمك ورقم هاتفك سوف أتصل بك.. شكرا..

توقع أن يسمع صوت كراوفورد بعد الصفارة، لكن لم يسمع سوى صوت الحرارة. لقد سمع صوتها.. الآن يريد أن يراها..

☆ ☆ ☆

في جيبه كان هناك فيلم من قياس 8 ملم التقطه ليدز ولم يحمضه قط.. وجد رجال الشرطة الإيصال في جيبه فأرسلوا يجلبون الفيلم ليروا آخر لقطات لحياة الرجل الشخصية.

أخرج جهاز العرض السينمائي وجلس يشاهده على مقعد تشارلز ليدز الكبير. شعر تحت كوعه بشيء لزج..

هنا اكتشف انها بصمات طفل ترك قطعة من الحلوى على مسند المقعد..

كان الفيلم أذكى وأظرف من معظم أفلام الهواة المنزلية..

هناك كلب يقبع وينظر للكاميرا ثم ينام.. ثم يصحو وينبح ويجرى نحو المطبخ. ثم ظهرت مسز ليدز تضحك وظهر الأطفال.. الفتاة في السادسة والصبيان في الثامنة والعاشرة..

وعض جراهام شفته السفلى..

لقطات للطفلة في حمام من الفقاقيع.. يبدو أن أخاها يصورها على سبيل المقلب.. تصرخ وتغطى صدرها الصغير.. لقطة لتشارلز ليدز يجلس على ذات المقعد ويغط في نومه.

وانتهى الفيلم.. راح جراهام يرمق الشاشة. لقد أحب آل ليدز فعلًا.. لا شك أن المجنون أحبهم أيضا... لكنه أحبهم بطريقة مختلفة بعض الشيء..

في الفندق ظل جراهام يسبح في مياه الحمام حتى شعر بأن عقله غبي وخاو، وأن قدميه صارتا من مطاط..

غادر الحمام فاتصل بزوجته.. اطمأن عليها ثم طلب قيادة الشرطة حيث كان سبرنجفيلد، فقال إنه راغب في المساعدة في التحقيقات غدا.. لم يكن هناك شيء آخر يقوم به، وساعده احتساء الجين على النوم.

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

كانت هناك نسخ مذكرات على مكتب سبرنجفيلد تتضمن كل المكالمات التي تتعلق بقضية ليدز. صباح الثلاثاء وهو يصل للمكتب كانت هناك 63 قصاصة.. القصاصة على السطح تقول:

إن شرطة برمنجهام وجدت قطة مدفونة في صندوق أحذية خلف مرآب آل جاكوبيس. القطة كانت ملفوفة في منشفة أطباق وبين مخالبها زهرة. وعلى غطاء الصندوق كان اسم القطة بخط طفولي. الطبيب الشرعي قال: إن القطة مخنوقة.. لا طعنات.

لم يحتاجوا لمسبار ميثان.. كان جراهام على حق..

أما معظم المكالمات فلم تكن ذات جدوى.. مجرد ملاحظات لسيارات غريبة في الجوار قبل الجريمة. وبين هذه المكالمات كانت شكوى قارئ العدادات هويت لويس. طلب من المخبر أن يتحقق من هذه الشكوى، ثم اتصل بجراهام وقال له:

- قابلني أمام الفندق بعد عشر دقائق.. سوف نقوم برحلة صغيرة.

بعد مرور خمسة أيام فقط بدأت علامات الإهمال تظهر على حديقة آل ليدز ومسكنهم. أبصال برية ظهرت فوق العشب، وامتلأت الحديقة بأغصان ساقطة. بدا البيت نائما.. وكان الجار بارسونز قد نهض مبكرا وراح يعمل في حوض أزهار بالفناء الخلفي على بعد بيتين..

أخرج سبرنجفيلد مترا من قماش ليقيس ارتفاع عداد النور لدى بارسونز. كان قد عرف أن بارسونز ينال راتب تقاعد شهريا لأن رئيسه السابق في العمل قال إنه (شارد الذهن باستمرار)، قال الجيران كذلك أن ابنه لا يزوره أبدا وأن زوجته تقيم معظم الوقت مع أختها.

سأله سبرنجفيلد:

- هل لنا أن نوجه لك بعض الأسئلة يا مستر بارسونز؟

ولاحظ أن وجه الرجل محتقن تماما.. قال لنفسه: إن الرجل يعاني تصلب شرايين بالتأكيد.

- هل أنت من شرطة الكهرباء؟

- لا.. أنا بادي سبرنجفيلد من قوة الشرطة..

- إذن الأمر يتعلق بالقتل.. كنت وزوجتي في (ميكون) وقتها.

السؤال عن عداد الكهرباء الخاص بك.. هل رأيت غريبا يقرؤه الأسبوع الماضي؟

- لم يكن غريبا.. كان من شركة كهرباء جورجيا.

- كيف عرفت؟

- بدا لي كقارئ عداد.. يلبس مثلهم جميعا. رأيته من نافذة المطبخ فما أن درت حتى أحضر الروب حتى كان قد اختفى.. لماذا تهتم بهذا؟

- نحن نتحقق من كل من ظهر في الجيرة الأسبوع الماضي.. يجب أن تتذكر..

هذه منطقة خطرة.. أمس مر ربع ساعة كامل دون أن تمر سيارة شرطة. كان هناك بعض الزنوج ينظرون للبيت..

كان آل ليدز ممتازين وبرغم أن أطفالهم كانوا أشقياء فلا مشكلة عندي بصددهم.

قال سبرنجفيلد:

- هل تسمح لنا بدخول المطبخ؟.. نريد أن نرى المشهد كما رأيته أنت.

طلب الرجل منهما هويتيهما ثم سمح لهما بالدخول. وفي المطبخ كانت النافذة فوق الحوض تعطى رؤية ممتازة للفناء الخلفي. وقال بارسونز نافد الصبر:

- من هنا.. يمكنك أن ترى كل شيء بوضوح لكني لم أتبين وجه الرجل ولا أذكر شيئا عنه.. والآن لو سمحتما لي فأنا مشغول.

للمرة الأولى تكلم جراهام فقال:

- قلت يا مستر بارسونز إنك ذهبت لتحضر الروب.. معنى هذا أنك لم تكن تلبس ثيابك وكان الوقت عصرا.. فلماذا لا تلبس ثيابك وقت العصر؟

قال بارسونز:

- هذا بيتي يا سيد.. وما أفعله في بيتي يخصني حتى لو لبست ثياب كانجارو. لماذا لا تبحث عن القاتل بدلًا من تضييع وقتك؟

قال جراهام:

- كنت بدون ثياب وبرغم هذا وقفت خلف نافذة المطبخ فلماذا؟

- كنت آخذ حماما ثم جئت لأشرب كوبا من الشاي المثلج.. غريب هذا.. إن الثلاجة هناك في الناحية الأخرى من المطبخ.

قال سبرنجفيلد:

- أعتقد أنه رأى هويت لويس قارئ العدادات.

قال العجوز في إصرار:

- لا لم يكن هو.. الرجل الذي رأيته كان نحيلًا أشقر الشعر ولربما كان له شارب..

- مثل هويت لويس؟

- لويس ليس له شارب..

غادر رجلا الشرطة المكان.. بينما بارسونز يرافقهما محتقن الوجه مبتل العينين. وظل يراقبهما وهو يدس يديه في جيب الشورت، ثم أمسك بالشوكة وراح يبعثر الأعشاب في عصبية حتى اختفيا.

☆ ☆ ☆

قال جراهام في طريق العودة:

- لو كان قارئ العداد المزيف هذا رجلنا فنحن محظوظون.

قال سبرنجفيلد:

- فعلا.. بالتالي هو ليس مجرد شخص مر بالحافلة وتوقف ليقتل ثم ركبها راحلًا.. هذا رجل لديه خطة وقد جاء هنا فترة وراقب. يراقب المكان.. يقتل الكلب.. هذا رجل من عالمك. أليس كذلك؟.. أعرف خبراتك مع لكتر برغم أنني أكره سؤالك عنه... إن هانيبال لكتر قتل تسعة أشخاص.. أليس كذلك؟

- تسعة هم من نعرفهم.. نجا اثنان..

- وماذا حدث لهما؟؟

- واحد على جهاز التنفس الصناعي في بالتيمور.. الآخر في مستشفى أمراض عقلية في دنفر.

- لماذا فعل ذلك؟.. لماذا جُنَّ؟

نظر جراهام من نافذة السيارة وقال:

- فعل ذلك لأنه يحبه.. لكن د. لكتر ليس مجنونا بطريقة فهمنا للمجانين.. يطلقون عليه مصطلح سايكوباث لأنهم لا يعرفون بما ينادونه غير ذلك.. وكان يتمتع بسادية عنيفة ضد الحيوانات في طفولته.. كل شيء طبيعي فيما يتعلق بتاريخه الإجرامي... لا سوابق.. رسم المخ يظهر موجات عابرة لكنها غير ذات بال.

- بيني وبينك.. ماذا تطلق عليه؟

أعتبره وحشا.. وما كان ليقع في يدنا لولا أنه قتل ضحيته السادسة في ورشة.. وجدنا ندوبا لجرح قديم في فخذ الضحية، تعرف على هذه الندوب جراح في بالتيمور.

عرفنا أن القتيل كان يعالج لدى طبيب نفسي اسمه (هانيبال لكتر) وقد ذهبت لزيارته بشكل عارض، لا أعرف السبب لكني شعرت بحاجتي لتكرار الزيارة.. زرته في عيادته من جديد وكان هناك مريضان في قاعة الانتظار. رحت أحملق في مجموعة من الكتب القديمة فوق رأسه، بينما هو يحاول في أدب أن يقدم لي العون. عرفت أنه هو.. وعرف هو أنني عرفت..

غمغمت بشيء ما ونهضت.. كان هناك هاتف عند مدخل العيادة فرفعت السماعة أطلب الشرطة، ولم أرد أن ألفت نظره قبل قدوم مساعدة.. زحف من خلفي لابسا جوربيه فقط فلم أسمعه.. وانقض على.. وباقي القصة معروف.

- ماذا لفت نظرك في مكتبه؟

- تذكرت هذا في المستشفى.. إنها صورة اسمها (رجل الجراح) كانوا يوضحون عليها الجروح المختلفة التي يمكن أن تحدث في الحرب.. كلها على جسد رجل واحد. كان هناك كتاب طبى قديم يظهر هذه الصورة، وتذكرت أن الضحية السادسة..

- كانت في وضع قريب جدا من رجل الجراح هذا.

- هذا كل ما لديك؟

- مصادفة قوية... حظ غريب..

- أشكرك لأنك أخبرتني.. أريد أن أعرف أشياء كهذه.

الآن صار رجال الشرطة يعرفون أن القاتل يراقب البيوت متنكرا بثياب قارئ عدادات، ويعرفون أنه يقتل الحيوانات الأليفة لدى الأسرة. معلومات مهمة وقد يفيد أن يعلنوها ليتخذ

الناس حذرهم.. لكن المشكلة إن القاتل قد يكون يتابع الأخبار كذلك وقد يغير أساليبه. هذا سؤال أخلاقي مهم.

وكان جراهام يفكر طيلة الوقت في هذه القضية.. في النهاية قال بصوت عال لمن حوله:

- يجب أن أرى لكتر!

☆ ☆ ☆

الفصل السابع

خرج د. فردريك شيلتون رئيس الأطباء في مستشفى المجانين الإجراميين بشيسابيك، ليصافح يد ويل جراهام، وقال ضاحكا:

- أحيانا أشعر بأنني سكرتير لكتر أكثر مما أنا حارسه.. بريده وحده مشكلة.. يخيل لي أن كل من يدرس الطب النفسي يريد أن يراسل هانيبال.. وقد رأيت خطاباته موضوعة في إطارات في عيادات الطب النفسي. فهمت أنك تريد الحديث مع د. لكتر... كقاعدة نتفق عليها سيبقى هو في غرفته.. أحد جدران غرفته حاجز ثنائي يسمح لك بأن تجلس وتحاوره.. لن تمرر له أي أوراق أو أقلام أو أي شيء فيه دبابيس. لو أردت أن تعرض عليه صورا فلتمررها من صينية الطعام تحت الباب. عندما جئت هنا حاولت أن أتعقل.. قللت الحراسة من حوله، وفي ذات يوم عام 1976 شعر بألم في صدره.. قمنا بفك قيوده لنتمكن من عمل تخطيط قلب له.. الممرضة كانت قوية وسريعة فعلًا، وقد استطاعت إنقاذ إحدى عينيها..

ثم مد يده إلى تخطيط القلب وتابعه بإصبعه:

- هذا، مهم.. هذا هو راقد على فراش الكشف.. نبضه 72.. نهض وأمسك بالممرضة.. انقض عليه الممرض وخلع كتفه.. هل ترى؟.. لم يتسارع نبضه قط عن 78.. حتى عندما أكل لسان الممرضة. إن لكتر مثقف ولديه درجة في علم النفس..

ثم هو سفاح كذلك. فرصتنا الرائعة لدراسة السايكوباث.. لكن دعني أؤكد لك أننا لا نعرف عنه أكثر مما كنا يوم دخل المستشفى.. هذا رجل غير قابل للاختراق.. وقد قدم بعض

الأبحاث المهمة لمجلة الطب النفسي الأمريكية. برغم هذا يعتقد كثيرون هنا أنك أفضل من يعرف أي شيء عن لكتر.

قال جراهام في عدوانية وهو ينهض:

- د. شيلتون.. أفضل أن أرى هانيبال الآن.

☆ ☆ ☆

انغلق الباب الحديدي الذي يغلق أكثر القطاعات تأمينا خلف جراهام. كان يعرف أن لكتر ينام أغلب النهار. لم يكن من هنا قادرا على رؤية زنزانة لكتر. كان يريد أن يرى لكتر نائما.. يريد وقتا يتمالك فيه نفسه..

كانت هناك قضبان حديدية تغطى مقدمة الزنزانة بالكامل، وخلفها شبكة من النايلون تمتد من السقف للأرض. واستطاع أن يرى منضدة وكرسيا مثبتين للأرض.. دنا من القضبان ووضع يديه عليها..

كان د. هانيبال لكتر نائما في فراشه ورأسه على وسادة. وعلى صدره كتاب ألكسندر دوما (قاموس الطهي الأعظم).

فتح لكتر عينيه وقال:

- نفس عطر ما بعد الحلاقة الكريه الذي كنت تضعه في شعر جراهام بكل شعرة تنتصب في مؤخر عنقه. كان لكتر رجلًا أنيقا صغير الحجم، وقد قال:

- الكريسماس.. هل وصلتك بطاقتي؟

- نعم.. شكرا لك.

لقد تلقى البطاقة وأخذها للفناء الخلفي فأحرقها ثم غسل يديه قبل أن يلمس مولى.

- اجلس يا ويل.. كيف حال الضابط ستيوارت؟

كان ستيوارت قد استقال بعد ما رأى قبو د. هانيبال وافتتح فندقا. لم يخبره جراهام بهذا لأن ستيوارت لن يرحب بأي رسائل من لكتر. قال جراهام:

- رأيت مقالتك عن إدمان الجراحة في مجلة الطب النفسي.

- ما رأيك فيها؟

- مفيدة جدا.. حتى للرجل الجاهل مثلي.

- رجل جاهل. رجل جاهل.. مصطلح مثير.. تقول إنك رجل جاهل.. لكنك من قبض على. أليس كذلك؟.. هل تعرف كيف فعلت ذلك؟..

- لا يهم هذا الآن.. فقط أريد عونك يا د. لكتر.

- خطر لي هذا..

- موضوع جرائم أطلنطا وبرمنجهام.. أنت قرأت عنها طبعا.

- أنا أقرأ الصحف لكن لا أستطيع قص مقالات منها لا يسمحون لي بمقصات.. أنت تريد أن تعرف كيف يختار (الحاج) ضحاياه.. أليس كذلك؟

لم يكن لكتر يقيم رأسه أبدا، بل يميل به للجانب دائما.. كأنه يولج مثقاب فضول في وجهك.

- هل معك الملف؟.. وهل معك الصور؟

اضطر جراهام لوضع الملف في الصينية ليراه د. لكتر طلب منه الأخير أن يمهله ساعة للقراءة، فقضاها في الاستراحة. عندما عاد جراهام إلى الزنزانة قال له هانيبال:

- هذا فتى خجول.. كم أحب أن ألقاه.. ألم يخطر لك أنه مشوه أو يعتقد أنه مشوه؟

- المرايا.

- بالفعل. إنه يهشمها جميعا.. دعني أحتفظ بالملف يا ويل.. سوف أدرسه. والآن هل تعرف كيف ظفرت بي يا ويل؟

- وداعا د. لكتر.. لو أردت أن تخبرني بشيء فاطلب الرقم الموجود على الملف.

وإذ انغلق الباب من خلفه سمع صوت هانيبال يقول:

- أنت ظفرت بي لأننا متشابهان.

مشى جراهام شاعرا بتنميل في عقله.. خمسة طوابق فقط تفصل هانيبال عن العالم الخارجي؟.. شعور مزعج داهمه أن هانيبال يمشي معه، واضطر للتوقف لحظة ليتأكد من أن هذا غير صحيح.

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن

على بعد 700 ميل للجنوب الغربي في معمل أفلام جيتواى بسانت لويس، جلس فرانسيس دولارهايد ينتظر شطيرة هامبورجر. هناك في خزانة التحميض كانت آلاف الأمتار من الأفلام القادمة من أرجاء البلاد.. إن درجة الرطوبة ودرجة الحرارة مهمتان جدا. إن هذه مسئوليته إلى أن يمر الفيلم بالمجفف.

عاد للبيت في العاشرة مساء. كان يعيش في بيت كبير تركه له جداه. هناك كانت أشجار تفاح لم تلق عناية كافية من مالكها، والآن في آخر يوليو كانت رائحة التفاح الفاسد تزكم أنفه. وكان أقرب جار على بعد نصف ميل.

كان يقوم بجولة استكشافية في البيت في كل مرة يدخله فيها أضاء النور في كل الغرف.. كانت هناك محاولة سرقة منذ أعوام. ماتت جدته منذ عشرة أعوام لكن ما زالت فرشاة شعرها وقد التصق بها بعض الشعر، وما زال طاقم أسنانها في كوب تبخر ما فيه من ماء. أخذ حماما ونظف أسنانه ثم رقد في غرفة نومه منذ كان طفلًا.. وشعر بالرغبة تستبد به. راح يتأمل لوحة على الجدار عند قدم الفراش. كانت تمثل تنين وليام بليك الأحمر مع المرأة التي تغطيها الشمس. كانت الصورة قد أثارت ذهوله عندما رآها أول مرة.. لم يخطر له قط أن هناك لوحة تمثل خيالاته بهذه الدقة... لابد أن بليك نظر في أذنه فرأى التنين الأحمر. لأسابيع ظل يخشى أن تبرز أفكاره من أذنيه أو تتوهج في الظلام أو تتلف الأفلام لذا سدهما بالقطن، ثم خشي أن يشتعل

القطن؛ لذا قطع كريات صغيرة من الأسبستوس من لوح كى واستعملها لأذنيه.

قام بتشغيل جهاز العرض بعد ما أغلق النافذة جيدا.. على الشاشة ظهر الكلب الإسكوتلندي الصغير ينبح. ثم ظهرت مسز ليدز داخلة المطبخ تحمل البقالة.. ضحكت ولمست شعرها.. ثم ظهر الأطفال..

ثم ظهرت لقطة لدولارهايد في غرفة نومه سيئة الإضاءة.. كان يقف عاري الجذع أمام لوحة التنين الأحمر مع المرأة التي تغطيها الشمس.. يدنو من الكاميرا وينير البورة ليظهر وجهه أفضل.. تظهر شفته العليا المقلوبة المشوهة ولسانه يبرز من بين شفتيه.. يبتلع العدسة بفمه.

ثم تأتى لقطات جديدة على حامل ثلاثي.. كلهم موتى الآن الأطفال على الأرض ومستر ومسز ليدز على الفراش. دخل دولارهايد الكادر من اليسار في رشاقة كأنه راقص باليه، وقد غطاه الدم تماما.

الآن يشاهد دولارهايد هذه اللقطات في بيت جديه وقد غمره العرق، وراح يبلل بلسانه شفته العليا المشوهة. هناك عيبان فقط في الفيلم: أن القتل لا يظهر أبدا.. وأن تمثيله قرب النهاية صار سيئا. على كل حال ما زالت هناك أفلام قادمة..

هذا عمل عمره.. عمل مذهل.. سوف يعيش للأبد..

المهم أن يستمر وأن يجد ممثلين جددا.. إن عيد الشكر قادم وسوف يعني هذا المزيد من الأفلام للتحميض..

إن العائلات ترسل له طلباتها طيلة الوقت!!

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع

راح جراهام يفتش بيت جاكوبي. كان قد سافر إلى واشنطن وحصل على المفتاح من سمسار العقارات. ترى هل لو جاء هنا مباشرة بعد جريمة القتل لظل آل ليدز أحياء؟.. حاول أن يجيب عن هذا السؤال.

عندما خرج من المنزل كان غارقا في هذا الهاجس.. وقف تحت الشمس ويداه في جيبيه وظهره منحن. كيف جاءت جنية الأسنان لبيت جاكوبى؟.. أين أوقف السيارة؟.. الحصى على الأرض سيحدث صخبا لا يناسب زيارة ليلية. دعك من سيارة غريبة هنا كانت ستلفت نظر رجال الدورية.

ربما كان الرجل متواريا في أحد الخنادق؟.. لا.. لقد هطل المطر قبل الجريمة بيوم وامتلأت الخنادق بالماء.

هناك منخفض في الأرض حيث دفن أطفال جاكوبي قطتهم لفوها في منشفة ووضعوها في صندوق أحذية. جنازة حيوان.. من تقاليد الطفولة.. الأبوان ينسحبان للبيت في خجل حتى لا يبدوا تافهين.. الأطفال في الخارج يصلون للقطة الميتة، ويتساءلون إن كانت في السماء أم لا.

القاتل لم يأت مرتين.. مرة ليقتل القط ثم ينتظر حتى يدفنها الأطفال، ثم مرة ليقتل الأطفال.. لابد أنه جاء وقتل القط وتوارى يراقب.

راح يفتش في الدغل حول البيت حتى وجد بقعة يمكن منها أن يرى قمة البيت، خاصة لو تسلق على شجرة هناك واستعمل

نظارة مقربة.. لابد أن جنية الأسنان فعلت هذا. لقد قتل القط ظهرا.. كان من العسير أن يدفنه الأطفال ليلًا لابد أنهم فعلوا هذا صباحا، فهل انتظر القاتل ليلة كاملة في هذه الأحراش؟..

لم يكن رجال شرطة برمنجهام أغبياء.. لقد وجد جراهام آثارهم وآثار بحثهم من حوله، وهذا يعني أنهم كانوا يملكون شكوكهم الخاصة..

على الأرض وجد سدادة معدنية من التي تسد علب المياه الغازية. وعندما تسلق الشجرة وجد علبة مياه غازية معدنية مستقرة هناك على الغصن.. همس:

- أحب هذا!... رباه.. تعالي يا علبة!

برغم هذا ظل من الوارد أن يكون طفل هو الذي تركها هنا.

استطاع كذلك أن يرى رقم 6 محفورا بعناية في لحاء الشجرة.. رقم 6 تمت كتابته بعناية ودقة بسكين. لم يكن هذا عمل طفل.

التقط صورة للحاء والتقط صورة للمنزل من هذا المكان.. لاحظ أن هناك غصن شجرة فوق رأسه قد تمت إزالة الأوراق عنه لتكون الرؤية أشمل وأوضح.

أعتقد أنك قتلت القط وألقيته على الأرض يا صديقي، ثم تسلقت هنا وانتظرت. أعتقد أنك أمضيت الوقت تراقب الصبية.

عندما جاء الليل رأيت الأضواء تنطفئ.. من ثم نزلت وذهبت لهم. أليس كذلك؟

في الوقت ذاته. إن جراهام لا يعمل مع الـ FBI بالضبط لكنه خبير في الطب الشرعي يستعينون به كثيرا، ومن المهم نذكر أنه دخل المصحة بدوره ثلاث سنوات بعد ما أطلق الرصاص على سفاح تسلسلي. وقد طلب التقاعد المبكر لكن تم استدعاؤه للتحقيق في هذه الجرائم الجديدة.

راح دولارهايد يمرر إصبعه بشدة على الصورة المنشورة مع المقال.. كان يشعر بحبر الطباعة بحساسية غير عادية.. ثم لعق إصبعه بلسانه وقطع الورقة ودسها في جيبه.

كان يتمنى لو قابل الدكتور... فقط الدكتور لكتر سيفهمه وسيفهم تحوله سيفهم أنه يتحمل الصراخ والألم من أجل التحول كما يتحمل النحات الغبار من أجل صنع التمثال.. سوف يراه لكتر وهو يموت ويتحول إلى تنين أحمر كما في قصيدة بليك.

هكذا جلب ورق التواليت وجلس يكتب خطابا للكتر ويوقعه باسم (المعجب الشديد).. ثم بعد كتابة الخطاب بعض الورق كعلامة صارت هي توقيعه المميز.

☆ ☆ ☆

كان كراوفورد في قيادة الـ FBI في واشنطن يجرى مكالمة هاتفية مع جراهام، عندما دخل السكرتير الغرفة وقال له:

- د. شيلتون في مستشفى شيسشابيك.. يقول إن الأمر عاجل.

- هل يمكن أن تتلوها على؟

حاول د. شيلتون أن يكون هادئا وقال:

- عزيزي د. لكتر.

أمسك بالسماعة ليرد فجاء صوت الطبيب يقول له:

- هناك مذكرة هنا.. يبدو أنها من الرجل الذي قتل هؤلاء في أطلنطا.. وجدتها في زنزانة هانيبال لكتر.. مكتوبة على ورق تواليت وعليها علامات أسنان..

أردت أن أخبرك أنني سعيد أنك مهتم بي.. عندما عرفت بأن كثيرين يراسلونك تساءلت: هل أجسر؟.. بالطبع أجسر. كما إنني لا أعتقد أنك ستخبرهم بشيء عنى حتى لو كنت تعرف.

ليس المهم أي جسد أحتله الآن. المهم ما أتحول له، أنت وحدك يمكن أن تفهم هذا.. سوف أريك شيئا مهما يوما ما وأتمنى أن نتبادل المراسلات..

غرس غصن شجرة في فتحة علبة المياه الغازية حتى لا يلمسها وبدأ يهبط في حذر..

سوف يسلم العلبة للشرطة.. يحتاج إلى عونهم هنا فلا داعي لانتظار رأى الـ FBI.. دعهم يدرسون الغصن المهشم كأنهم حيوان نمس مجنون.

اتصل بقسم جرائم القتل في برمنجهام، وسرعان ما وصل المخبرون ليقوموا بعملهم..

☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

راح دولارهايد يقلب صفحات الجريدة التافهة حتى وجد المقال الذي قرأ عنوانه على الغلاف:

استشارة سفاح مجنون في حالات قتل جماعي بوساطة الشرطي الذي حاول قتله

بقلم فريدي لاوندس

اتجه الباحثون الفيدراليون أثناء بحثهم عن جنية الأسنان القاتل السايكوباثي الذي ذبح عائلتين كاملتين في برمنجهام وأطلانطا - إلى طلب معونة قاتل خطير في السجن.

كنا قد كتبنا هنا منذ ثلاث سنوات عن د. هانيبال لكتر، وقد قام المحقق ويل جراهام بزيارته في محبسه الحصين، وذلك بعد تكليفه بالقبض على جنية الأسنان. ماذا دار في تلك المقابلة الغريبة؟.. لا نعرف بالضبط. لكن من الواضح أن الشرطة تريد الاستعانة بخبرات هانيبال الذي هو أكل لحوم بشر وعالم نفسي..

«لديّ مجموع كاملة من التقارير الصحفية عنك فأنا معجب بك منذ أعوام. إن المفتش جراهام يثير اهتمامي.. يبدو ذكيا برغم أنه ليس وسيما. اغفر لي نوعية الورق التي أكتب عليها الفكرة أنها ستذوب بسرعة شديدة لو أنك أردت أن تبتلعها.»

انتهت القراءة فساد الصمت بعض الوقت، ثم تساءل كراوفورد:

- هل لكتر يعرف أن المذكرة معك؟

- ليس بعد.. لقد نقلناه لزنزانة أخرى هذا الصباح ووجد العامل هذه المذكرة وسط لفافة ورق المرحاض.

نظر كراوفورد للهاتف الآخر مع جراهام.. وأدرك أنه سمع المكالمة بالكامل..

قال جراهام عبر الهاتف:

- كيف كان يفترض من لكثر أن يرد؟

لا أعرف. كانت مراسلة ما ستدور بين الطرفين..

معنى هذا أن علينا مراقبة لكتر جيدا.. نحن نريد أن نجد الرابط بين الاثنين..

ثم اتصل بـ د. شيلتون وقال:

- دكتور.. يجب أن نفتش زنزانة د. لكتر بعناية لكن يجب ألا يعرف هذا.. منذ متى نقلتم لكتر من زنزانته؟

- منذ نصف ساعة.. بعد نصف ساعة سوف يتساءل عن سبب التأخير.. إن تنظيف الزنزانة لا يتجاوز نصف الساعة..

إذن اجعل مهندس البناية يقطع الكهرباء عن زنزانة لكتر اجعله يمر حاملا الأدوات أمام الزنزانة ويبدو مشغولا.. امنع رجال التنظيف من دخول الزنزانة.. سوف أكون عندك حالا..

وطلب طائرة هليوكوبتر تنتظره على سقف البناية خلال خمس دقائق..

وسرعان ما كان يحمل المذكرة الصغيرة إلى مختبر الألياف والشعر الخاص بالـ FBI. لقد فرغ الطبيب الشرعي من فحص العضة على الورق ووجد أنها مطابقة لأسنان (جنية الأسنان) تماما. لقد خطر له للحظة أن لكتر هو الذي كتب هذه المذكرة، ثم تذكر أنها مكتوبة بقلم جاف بينما ليس لدى لكتر واحد. هناك علقت الخبيرة المذكرة على مشجب، وراحت تلتقط صورا لحوافها الممزقة بعدسة مقربة.. سمعها تحرك شفتيها بكلمات عرف أنها تقولها:

- وجدتك!

ثم نظرت له وقالت:

- هناك شعرة.. 32/1 من البوصة.. ماذا عندك؟

ناولها ثلاثة مظاريف وقال:

- هذه شعرة من مشط لكتر.. شعيرات من آلة الحلاقة الكهربية.. وهذه من عامل التنظيف.. هكذا يمكنك استبعاد هؤلاء.

كان من المؤكد أن القاتل يقرأ جريدة تاتلر.. فهي التي تكلمت عن لكتر وجراهام. ولما كان هناك اتصال يتم مع لكتر في المستشفى فعلى الأرجح هناك أخبار معينة يتم نشرها في هذه الجريدة بحيث يستنتج هانيبال منها أشياء..

هذا شخص يستعمل يده اليسرى ليكتب برغم أنه أيمن ويتعمد استخدام حروف كبيرة..

المشكلة هي أن لكتر لن يتكلم أبدا.. حتى لو استعملوا معه العقاقير فلن يخبرهم أبدا بالطريقة التي كان القاتل سيتلقى بها رسائله. لقد جربوا معه بنتوثال الصوديوم - مصل الحقيقة من قبل بحثا عن أحد ضحاياه المدفونين، لكنه لم يتكلم.

ثم عرفوا أن لكتر أرسل لجريدة تاتلر يطلب نشر إعلان معين، يقول فيه:

عزيزي الحاج..

أصلي 100 صلاة من أجل نجاتك..

ابحث عن العون في إنجيل يوحنا 6:22 و8:16 و9:1 ولوقا 1:7 و3:1 وسفر الرؤية 18:7 ويونس 6:8.

كان جراهام يعرف أن لكتر يطلق على السفاح لقب (الحاج)..

صار أمام جراهام عدة خيارات.. أن ينشر الإعلان كما هو أو يستبدل ما فيه أو يمنع نشره.. أحضر رجال التحريات التوراة وتأكدوا من أن هذه ليست شفرة تشير لآيات معينة. إذن هي فقرات في كتاب غير التوراة.. فقرات بالصفحة ورقم السطر أو رقم السطر وترتيب الكلمة. لكن ما هو الكتاب الذي يعرف السفاح أنه عند هانيبال في الزنزانة؟ إن لدى هانيبال مكتبة كبيرة.. بعضها كتب طبية وفلسفية وكتب طهي.. فأيها؟

في النهاية قرر رجال الـ FBI نشر الإعلان كما هو حتى تستمر المراسلات بين السفاح وهانيبال. خطر لأحدهم أن هذا قد يجعل السفاح يرتكب جريمة أخرى، لكن جراهام لم يكن يملك الخيار.

وفي دار تحرير الجريدة راحت المطابع تهدر لتطبع الإعلان الذي كتبه هانيبال. تحقق رجل التحريات من الإعلان ثم وضعه في مظروف وأرسله لواشنطن..

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي عشر

في الرابعة صباحا دق جرس الهاتف في غرفة نوم كراوفورد وقد استيقظ على الفور وجد السماعة دون جهد.. هنا جاءه صوت الخبير الشرعي باومان يقول له:

- أنا باومان.. لقد حللت الشفرة.. يجب أن تعرف ما تقول.

- هلم.

ودس قدميه في خفيه.. فقال باومان:

- تقول الرسالة: بيت جراهام في فلوريدا.. وفر جهدك واقتلهم جميعا!

- رباه!

كان كل شيء موجودا في الصفحة رقم 100 من كتاب (متعة الطهي) الموجود لدى لكتر في الزنزانة.. الرموز تشير لسطور ثم كلمات..

وهرع يتصل بجراهام في الفندق ليخبره أن الشفرة تم حلها وكل شيء تمام.

- فقط هناك نقطة.. لكتر الوغد أخبر السفاح بعنوان بيتك.. انتظر.. هناك سيارتا شرطة تتجهان لشوجارلوف الآن لا تستطيع جنية الأسنان عمل شيء في هذا الوقت القصير. لن يخيفوا مولى.. فقط سيغلقون الطريق إلى البيت.. سوف آتي لك خلال نصف ساعة.

- لن تجدني.

- اسمع.. من الأسهل أن تجلب الأسرة هنا.. بيت أخي في شيسشابيك متاح لهم. أصغ لي.

☆ ☆ ☆

في المطار نزلت مولى والصبي قادمين من فلوريدا. رأت جراهام وسط الزحام وخرجوا من المطار ليركبوا سيارة، بينما كانت سيارة شيفروليه أخرى تتقدم الطريق وسائقها يتكلم في ميكروفون من وقت لآخر..

أخيرا وصلوا إلى المكان خارج واشنطن، بينما جراهام يؤكد لها أنهم يفرون من الصحافة لا أكثر.. لكنها استنتجت أن السفاح في أثرهم.. وعرفت أن الدكتور لكتر اتصل بالسفاح واقترح عليه ذلك.

أنت وويلي في أمان.. لا يوجد مخلوق في العالم يعرف أنكما هنا.

لكن سكرتيرة كراوفورد تلقت مكالمة هاتفية. لما قالت إن الأخير غير موجود، طلب المتصل أن تخبر كراوفورد أن الحاج اتصل به!!

كان كراوفورد يعرف أن الوحيد الذي يطلق على السفاح لقب (الحاج) هو هانيبال لكتر!..

قال المدعو الحاج إنه قد يتصل غدا ظهرا، لذا أعدت الـ FBI تفاصيل كثيرة بانتظار المكالمة. تم استدعاء جراهام ليسمع المكالمة مع وضع جهاز تتبع وجهاز تسجيل.. وكان د. بلوم هناك ليدرس انفعالات من يتصل.. وكان رأى كراوفورد أن يجروا بروفة للمكالمة...

قال جراهام:

يمكن أن يتم تتبع المكالمة خلال دقيقة أو أقل.. سوف تغلق الدائرة عندما يدق الهاتف، لكنه سيظل يسمع صوت الرنين حتى لا يعرف أننا رفعنا السماعة. عند الدقة الرابعة تغلق مولد حرارة الهاتف.. مفهوم؟

قال د. بلوم:

من الطبيعي أن تكون ساخرا متشككا بسبب كثرة المكالمات الزائفة.. أطلب منه أن يخبرك بشيء عن الجرائم يؤكد أنه هو.

دق حرس الهاتف فهرعت السكرتيرة سارة ترفع السماعة، ثم تبدل وجهها. كان هذا صديق كراوفورد في قسم المخدرات.. كل واحد في البناية يعرف أن عليه ألا يستعمل الهاتف الآن..

من جديد انتظروا نصف ساعة ثم دق جرس الهاتف..

هرع جراهام يلتقط السماعة.. بينما ردت ساره.. هنا قال جراهام:

- أنا ويل جراهام.. هل لي أن أعرف من المتكلم؟

ألم تخبرك السكرتيرة؟.. لو قلت لي إنك لا ترغب في الكلام مع الحاج فلسوف أضع السماعة..

- هل لي أن أساعدك؟ أعتقد أن عندك مشكلة.

- المشكلة عندك أنت.. واهتمامي هو في أطلنطا وبرمنجهام مثلك..

خط كراوفورد بعض كلمات على الورق قرأها جراهام.. من ثم قال:

- لن تصدق عدد الكاذبين الذين يتصلون بي هنا.. يمكن بسهولة معرفة أنهم لا يملكون أدنى فكرة..

وضعت سارة ورقة أمام عيني جراهام ليقرأ المكتوب:

- كابينة هاتف في شيكاجو.. تشويش..

قال المتصل:

- ابدأ أنت أولًا.. قل لي شيئا عن الحاج.. لو أخطأت فلسوف أضع السماعة.

قال جراهام:

- هذا سهل.. إنه يستعمل يده اليمنى.. غير متكيف قوى جسديا

- أنت تخمن..

كان عليه أن يذكر شيئا لا يستطيع القاتل أن يغيره.. هنا..

سأله المتصل:

- هل تعتقد أن الحاج مجنون؟

نظر للدكتور بلوم فوجده يهز رأسه نفيا.. قال:

- لا أظن أن من يتصرف بحذر مثله مجنون..

- هنا سمع الجميع صوت شهقات. ثم صوت الكابينة يفتح بعنف.. وصرخ أحدهم في شيكاغو:

- لا تتحرك.. أبق يديك بحيث أراهما!

نظر الجميع لبعضهم في ذهول، ثم جاء صوت عبر السماعة يقول:

- أنا الملازم ستانلي ريدل من شرطة شيكاغو.. مع من أتكلم؟

قال جراهام بصوت يرتجف:

- أنا ويل جراهام من الـ FBI.

- لدى رجل هنا.. إنه صحفي أعرفه اسمه فريدي لاوندز، هل توجه له أي تهمة؟

شحب وجه جراهام واحمر وجه كراوفورد.. كان فريدي لاوندز صحفيا من المولعين بالفضائح، وهو ينشر في الكثير من الصحف الصفراء وبخاصة التاتلر. بعد لحظة صمت قال:

- أنا أريد توجيه اتهامات له.. تعطيل العدالة.. أرجوك أن تسجنه.

ثم وضع السماعة محدثا دويا أصاب الجميع بالرعب، وغادر المكان وأغلق الباب بعنف من ورائه. وبقي كراوفورد ليفهم من الصحفي أنه عرف بالإعلان الذي نشره لكتر في جريدة تاتلر وقد تسرب له موضوع اللقب الذي يستعمله لكتر (الحاج)، لذا حاول الحصول على معلومات أكثر بهذه الحيلة.

قال الصحفي:

- لو لم تطلق سراحي فلسوف أفسد خطتكم بالكامل.. سوف أرسل عشرات الإعلانات للجريدة وكلها موجهة للحاج..

- سوف أضيف لتهمة إعاقة العدالة تهمة التهديد..

ووضع السماعة..

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني عشر

كان الوقت يضيق لأن جراهام توقع مع الشرطة أن تتم الهجمة التالية مساء السبت 25 أغسطس.. هنا يكتمل القمر.. دعك من أن كل هجمة سابقة تزامنت مع اكتمال القمر. على الأقل كان عليهم أن يبدءوا التوتر من يوم الخميس السابق..

اقترح جراهام أن يقوم رجال الشرطة بعمل مصيدة لجنية الأسنان.. سوف يجرى جراهام حوارا صحفيا مع ذلك الصحفي المزعج (لاوندز)، وسوف ينشر الحوار في جريدة تاتزر طبعا.

هذا الحوار سوف يتضمن إهانة السفاح وتسفيه أفكاره. هذا سوف يستفزه وسوف يحاول الانتقام من جراهام..

وافق جراهام وتم إبلاغ الصحفي أن الأول وافق على إجراء حوار شخصي معه..

تم إجراء الحوار وأجاب جراهام عن الأسئلة بصوت هادئ. ثم روجع النص بمعرفة د. بلوم.

كان د. بلوم يؤمن أن السفاح يعاني إحساسا لا يحتمل بالنقص، وتهشيم المرايا يرتبط بكراهيته لمنظره. أما عن مقته لاسم (جنية الأسنان) فيدل على أنه يشك في رجولته ويخشى أن يكون شاذا، لذا يمقت أن يرتبط بلفظة (جنية). أما عن ترك الزوجة لتموت بعد أسرتها كلها فهذا يعكس كراهيته لصورة الأم.

قال جراهام هذا وأكثر أثناء الحوار..

قال: إن جنية الأسنان كانت قبيحة عاجزة.. قال: إنه يؤمن أن السفاح جاء من بيت متفسخ وأنه كان موضوع سخرية

أصدقائه وكل من يعرفه. قال كذلك إن الأمر يختلف عن هانيبال لكتر.. السفاح هذه المرة ضحل الذكاء.

التقط له لاوندز الكثير من الصور.. منها صورة له وهو جالس إلى مكتب يلبس روبا وهو يرمق صورة كونها رسام الشرطة للسفاح. من خلفه كان جزء من قبة الكابيتول واضحا من النافذة. وكانت هناك في الركن الأيمن السفلى لافتة لفندق شهير في المنطقة. كانت هناك كذلك صور كثيرة في مختبر الـ FBI ومنها جراهام وهو يفحص مسدسا كمسدس السفاح، وصورة لهما أمام مطياف كتلة.. لا أهمية له في القصة لكن لاوندز وجد أن مظهره جميل.

تم ترتيب أن يظهر الحوار والصور في جريدة تاتلر يوم الاثنين 11 أغسطس. وتم ترتيب مصيدتين للسفاح، بينما كان جراهام يتوجه كل ليلة إلى المسكن الملفق الذي ظهر في الحوار مع جريدة تاتلر. سوف يعبر ممرا يصلح لإطلاق الرصاص عليه سوف يلبس سترة واقية من الرصاص تحت الثياب، بينما سيتم إضعاف الإضاءة لتصعيب الأمر على السفاح.. لكن رجال الشرطة سوف يستعملون نظارات رؤية ليلية، ولهذا سوف يرش جراهام ستراته بسبراى خاص كى يميزه قناصة الشرطة.

لم يكن جراهام راضيا عن كل شيء.. كان يشعر بأنهم يلعبون ألعابا سخيفة مع أنفسهم، وبرغم هذا كان يدرك أنه لا يوجد حل آخر

☆ ☆ ☆

عند منتصف الليل كان دولارهايد قد حصل على نسخته وصلت لبائع الصحف فطلب هذا من دولارهايد أن ينتظر حتى

يفتح لفافة تريبيون، لكنه رأى وميض شيء معدني.. وسرعان ما تمزقت لفافة التاتلر وصارت هناك نسخة في يد الرجل. إذ ابتعد دولارهايد بالجريدة كان يقول لنفسه إن الزمن تغير.. في الماضي كان بوسع البائع أن يهين دولارهايد، لكنه لا يستطيع اليوم أن يهين التنين.. هذا هو التحول..

على الأرض رقدت جريدة تاتلر وقد مزق منها ما مزق، وألصق القصاصات التي يريد الاحتفاظ بها. وكانت هناك حقيبة من البلاستيك ما زالت فارغة كتب عليها (بهذه العبارات آذاني) كان في القبو واقفا يسلط الكشاف على الأثاث المغبر وعلى المرايا التي أدارها للجدار جميعا. أخيرا توقف الشعاع على جسم طويل مغلف بالعناكب. راح يعطس عندما هيج الغبار أنفه وهو يكشف الملاءة عن هذا الشيء.. كان مقعدا متحركا ثقيلًا..

لقد كان منحة من الدولة.. وثلاثة مقاعد أخرى – لجدته عندما كانت تدير دار رعاية هنا.

حمل المقعد بصعوبة إلى المطبخ، وهناك راح يزيت العجلات التي صار دورانها صاخبا.. كان هناك صوت همهمة من العجلات وهي تدور... ومع الهمهمة راح يهمهم هو أيضا.

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث عشر

في شيكاغو كان الصحفي لاوندز قد أعد ملفا ضخما عن (جنية الأسنان)، وكان يعرف أنه لو سقط السفاح أو قتل فلسوف يكون الملف جاهزا للصحيفة على الفور. كان مضطرا لأن يعمل ما يطلبه كراوفورد بالضبط لأنه أطلق عبارات تهديد على الهاتف وقد سجلها كراوفورد.. معنى هذا أنه تحت رحمة ال FBI فعلًا. كان يعرف كذلك ان بوسع كراوفورد أن يسبب له مشاكل عظيمة مع الضرائب.

اليوم سوف ينام ثلاث ساعات ثم يركب الطائرة إلى شيكاغو حيث يقابل كراوفورد.

أوقف سيارته في المرآب تحت الأرض.. كانت هناك عربة فان تقف أمامه.. تقف بالضبط في المساحة المكتوب عليها (مستر فريدريك لاوندز). فتح لاوندز الباب ليضرب جسم السيارة الفان فيحدث انبعاجا فيها.. هذا سيلقن الوغد درسا..

كان يغلق سيارته.. هنا انفتح باب الفان خلفه.. استدار عندما ضرب شيء ثقيل أذنه. شعر بضغط هائل حول عنقه ولم يعد هناك هواء يدخل صدره.. عندما استطاع أخيرا أن يدخل الهواء في صدره امتلأت رئتاه بالكلوروفورم.

☆ ☆ ☆

أوقف دولارهايد سيارته الفان خلف داره وهبط. كان مرهقا من طول المسافة التي قاد بها سيارته من شيكاغو. فتح الباب الخلفي وقام بعملية تفتيش في البيت. ثم خرج من جديد وهو يلبس قناعا على شكل جورب على رأسه. فتح الفان وأخرج

فريدي لاوندز الذي كان معصوب العينين مكمما.. وكان مقيدا للمقعد المتحرك بالكامل عن طريق لصق يديه وساقيه للمقعد بصمغ قوى..

جره دولارهايد للبيت ووضعه ووجهه للجدار وظهره للغرفة كأنه قد أساء التصرف. أحضر بطانية لفها حول الرجل ثم وضع زجاجة من النوشادر تحت أنفه.. شمها لاوندز ففتح عينيه.

- حادث؟.. هل أنا مصاب؟.. هل احترقت؟

جاء الصوت من خلفه:

- لا يا سيد.. أنت على ما يرام..

- بل أنا مصاب.. رباه!.. لابد أن ظهري تحطم.. أرجو أن تتصل بمكتبي..

فلم يسمع سوى الخطوات تبتعد..

سمع صوت الدوش.. تذكر أنه غادر مكتبه وقاد السيارة لكنه لا يذكر أي شيء بعد هذا. كانت رائحة الكلوروفورم قوية.. تمنى أن يكون نائما.. رفع ذراعه وحاول لكن الألم كان عنيفا. لا. ليس نائما..

لا.. ليست هذه ضمادات.. إنه ليس في مستشفى.. إنه مخطوف..

فكر.. فكر..

هنا سمع صوت دولارهايد من خلفه. قال له وهو يحاول التحكم في صوته:

- اسمع.. أنا لم أر وجهك.. لا أعرف اسمك.. أنا أعمل في جريدة تاتلر وسوف أدفع مكافأة.. ربما أدفع لك نصف مليون دولار.

انس الألم للحظة.. إنه لم يدعك ترى وجهه.. معنى هذا أنه لا ينوي قتلك..

- هل تعرف من أنا يا مستر لاوندز؟

- لا.. لا أعرف أي شيء عنك.

- حسب كلامك أنا منحرف جنسيا وفاشل.. بل أنا حيوان تحرر من مصحة بوساطة قاض طيب القلب. لماذا تكذب يا مستر لاوندز؟.. لماذا تقول إنني كذاب؟ ...

- عندما.. يفعل شخص أشياء لا يفهمها عصره يعتبره الناس مجنونا.. لو أنك أطلقت سراحي.. لكن أنا فعلًا مذعور وهذا يمنعني من تكوين وجهة نظر صحيحة عنك.

طلب منه السفاح العذر.. سمعه يغادر المكان ثم يدخل المطبخ، وسمع صوت درج مطبخ يفتح وعبث بأدوات. كان يعرف أن كثيرا من الجرائم تتم في المطبخ.. لو أنك قرأت تقارير الشرطة لكرهت المطابخ للأبد. فجأة رأى يدا شاحبة توضع جواره وهي تحمل قدحا من الشاي بالعسل.. شربه مستعملا شفاطة..

شعر بالمقعد يدار ببطء ليواجه خاطفه فصاح:

- لا.. لا أريد أن أراك!

- بل يجب أن تفعل يا مستر لاوندز.. أنت صحفي.. يجب أن تفتح عينيك وإلا دبست جفنيك لجبينك.

فتح لاوندس عينيه ببطء فرأى روب كيمونو ورجلًا يضع قناعا من جورب.. استدار الرجل له ثم أنزل الروب عن كتفيه وتقلصت عضلات الظهر كاشفة عن وشم ذيل وأرجل.. استدار التنين الأحمر ببطء نحو لاوندس وابتسم..

قال لاوندس:

- يا الله!

وعندما رفع عينيه رأى الشاشة.. رأى عرض الشرائح الذي أعده دولارهايد. رأى لوحة بليك.. التنين البشري العظيم.. يحلق فوق امرأة تكسوها الشمس. ثم بدأت الشرائح تتغير..

كليك.. مستر جاكوبي حيا.. هل ترى؟.. نعم.. كليك.. مسز ليدز حية.. هل ترى؟.. نعم.. كليك.. التنين ثائر.. هل ترى؟..

نعم.. هذه صورة مسز ليدز ميتة... ثم صورة لاوندر حيًّا..

قال لاوندس:

- أرجوك ألا تفعل.. أرجوك.

سأله السفاح:

- هل تنوى أن تكتب أكاذيب أخرى؟..

- لا.. لا.

- لماذا كتبت أكاذيب يا مستر لاوندس؟..

- جراهام هو الذي قال لي ما كتبته.

- أنت قلت إنني مجنون.. انا الذي رأيت أبعد منك بكثير.. أنا الذي غرست وتدى بعمق في الأرض.. حياتك بالنسبة لي أثر تركته علقة على صخرة. أنا التنين الأحمر.. وأنت مدين لي.. ليس بالخوف يا مستر لاوندس بل بالرهبة.

كان يتكلم وقد انحنى رأسه، واعتصر أعلى أنفه بإبهامه وسبابته.. ثم غادر الغرفة..

قال لاوندس لنفسه:

- لم ينزع القناع.. لم ينزع القناع.. لو نزعه فأنا ميت.. رباه.. أنا مبتل تماما.

عاد له دولارهايد حاملًا غداء وترموس وجهاز تسجيل وقال له:

- هذا لرحلتك للبيت.. لكن قبل هذا سوف نسجل لك بعض العبارات.

وراح يسجل لنصف ساعة وفي النهاية أعلن أنه انتهى. قال له لاوندس:

أنا أريد أن أفهم.. أريد أن أفهمك.. أشكرك كثيرا على أنك ستطلق سراحي..

ابتسم له دولارهايد ابتسامة صفراء ثم مال نحوه كأنه سيقبله على شفتيه.. بدلا من ذلك عض شفتيه فانتزعهما من مكانهما وبصقهما على الأرض.

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع عشر

جاء الفجر في شيكاغو.. وصارت السماء رمادية..

غادر أحد رجال الأمن مدخل جريدة تاتلر ووقف يدخن. كان وحده في الشارع تماما. وعلى بعد قريب جلس دولارهايد القرفصاء جوار لاوندس في مؤخرة العربة الفان. كان لاوندس يعاني ألما مريعا.. كان عقله يتسارع.. يجب أن يتذكر أشياء.

ارتدى دولارهايد ثياب مسعف بيضاء ثم أنزل مقعد لاوندس من السيارة. كانت العصابة على عين لاوندس لكنه رأى طرفا من لوحة السيارة.. لمحه لكنه حفرها في ذهنه..

أوقف دولارهايد المقعد بين شاحنة متوقفة ومخزن مخلفات.. ونزع العصابة عن عينى لاوندس.

هنا رأى لاوندس وجه السفاح لأول مرة. كان يفتح الترموس.. شم لاوندس رائحة الجازولين فراح يحاول التملص. سال السائل ليغمره ويملأ حلقه بالأبخرة..

- هل تحب أن تكون حيوان جراهام المدلل يا فريد ى ى ى ى ى؟

واشتعل السائل محدثا صوت (واب!) ودفع المقعد بمن عليه نحو مبنى جريدة تاتلر..

سمع الحارس الصرخة.. ورأى كرة النار قادمة والدخان والشرر ينبعث منها. انقلب المقعد أمام البناية وتصاعد الدخان للسماء، بينما غلفت النيران منظر إنسان يقاوم.

هرع الحارس للمدخل وهو يتساءل إن كان المقعد سينفجر أم لا.. هل عليه أن يبتعد عن النوافذ؟

أطلق إنذار الحريق.. بحث عن مطفأة الحريق ثم خرج محاذرا يبحث عن الجثة المحترقة، وأخيرا راح يرش الرغوة على فريدي لاوندس.

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس عشر

جاءت المكالمة لجراهام:

- لقد ظفرت جنية الأسنان بلاوندس في شيكاغو!

- رباه!!

- لم يمت بعد.. يسأل عنك.. لن يظل حيا طويلًا..

- سأذهب..

- قابلني في المطار.. رحلة (يونايتد 245) بعد 45 دقيقة..

☆ ☆ ☆

في شيكاغو كانت هذه اللحظات الأخيرة في حياة لاوندس. كان قد احترق بالكامل، وهذا ساعد على أن يحرق أعصاب الجلد فلم يعد يشعر بألم. وكانت في هذا رحمة ربانية بالتأكيد.

كذلك كان الأطباء قد ملئوا دمه بالمورفين ليكون في حالة غيبوبة تقريبا..

كان الطبيب صارما.. سوف يتم استجوابه فإذا رأى الطبيب أن هذا خطر سيوقف الاستجواب فورا..

بالفعل استطاع لاوندس أن يتماسك حتى ذكر لهم رقم لوحة السيارة.. ثم لفظ أنفاسه الأخيرة.

على الفور تم عمل تحقيق سريع فتبين أن هذه اللوحة مسروقة تخص سيارة لبن. يبدو أن السفاح سرقها ثم ثبتها على

سيارة فان. لابد من سيارة فان كي يستطيع أن يضع مقعدا متحركا فيها.

كان جراهام قد فهم ما حدث.. جنية الأسنان تقتل الحيوان الأليف أولا قبل أن تقتل صاحبه!.. هو ظهر في صورة الجريدة يربت على كتف لاوندس.

قال جراهام:

- الفكرة هنا أنه تصرف بسرعة جدا.. صدرت الجريدة فكان جاهزا على الفور بمقعد متحرك وسيارة فان وكلوروفورم ووجه الضربة للاوندس.. ما معنى هذا؟.. هو لم يركب الطائرة بكرسي متحرك.. كما أنه لم ير الجريدة فهرع إلى متاجر العاديات ليبتاع كرسيا متحركا وابتاع سيارة فان.. هو كان يملك المقعد منذ البداية، وكان قريبا جدا من لاوندس.

قال كراوفورد في اهتمام:

- سوف نفتش بيوت الرعاية الصحية في المنطقة كلها..

هنا دق جرس الهاتف فرد عليه الملازم أوسبورن.. أصغى قليلا وامتقع وجهه ثم وضع السماعة وقال:

- هذه سكرتيرة لاوندس.. تقول إن مكالمة جاءتها منذ نصف ساعة.. تقسم أن المتصل كان لاوندس نفسه.. قال لها شيئا عن (قوة التنين الأحمر) ثم وضع السماعة!

☆ ☆ ☆

جلس جراهام وحده في الظلام في واشنطن يفكر.. كان الألم يمزقه وقد قال لنفسه إنه كان سيكون سعيدا لو احترق هو حيا

بدلا من لاوندس.

لقد عجز تماما عن فهم طريقة تفكير التنين الأحمر.. يريد أن يعرف ماذا يراه وكيف يفكر..

لكي يفعل هذا كان عليه أن يملك القدرة على السفر عبر الزمن..

☆ ☆ ☆

في 14 يونيو 1938 في سبرنجفيلد ميسورى..

غادرت ماريان دولارهايد سيارة الأجرة.. كان هذا مستشفى البلدة. بطنها منتفخة وآلام في كل جسدها. كان فرانسيس دولارهايد في بطنها الآن..

كذبت وقالت إن اسمها بيتي جونسون وإن زوجها موسيقى ووضعوها في القسم الخيري للولادة. خلال أربع ساعات كانت في غرفة الولادة.. وعندما خرج الطفل للعالم لاحظ الطبيب المولد إنه يبدو كوطواط مسطح الأنف أكثر منه بشريا. كان سقف فمه مشقوقا وقد قرر العاملون بالمستشفى ألا تراه أمه فورا.

كان يستطيع التنفس لكنه لا يستطيع امتصاص الطعام بهذا الشق في سقف فمه. ولم تكن صرخته تشبه صرخات الرضع مثله الذين يدمنون الهيروين.

دخلت الغرفة ممرضة بدينة رأته.. كانت قد رأت نحو 39 ألف رضيع من قبل وكانت تعرف أنه سيعيش فقط لو أكل. لذا

أخرجت أداة صغيرة للرضاعة من جيبها.. وضمته لصدرها العملاق ودست فيه الأنبوب.. شرب أوقيتين ثم نام.. وانطلقت هي تغير حفاضات الرضع.

كانوا قد نقلوا ماريان لغرفة أخرى، وكانت فتاة جميلة، وقد بدأ الانتفاخ يختفي من وجهها.. جاءوا لها بالرضيع فصرخت أغلقوا الباب وأعطوها حقنة مهدئة وبعد يومين غادرت المستشفى وحيدة.. كانت تعرف أنها لن تعود للبيت أبدا فقد أوضحت أمها هذا.

أما عن الصبي فقد جرب أحد أطباء التجميل حظه.. جرب معه طريقة الثنيات المثلثة التي لم يعد أحد يستعملها. ولم تكن النتيجة جميلة المنظر. وتطوع طبيب أسنان بعمل سدادة لسقف فم الرضيع بحيث يمكنه أن يشرب ويأكل من دون أن يخرج الطعام من أنفه.

في سن الخامسة تلقى أول زيارة في دار الأيتام. كانت هناك سيدة نحيلة في منتصف العمر وشعرها معقوص وكان وجهها شاحبا. قال مدير الميتم لفرانسيس:

- ها هي ذي جدتك.

ابتسمت وقالت له:

- مرحبا.

وكان قد تعلم كيف يتكلم بأن يسد فتحتي أنفه بشفتيه لكنه لم يجد الوقت لذلك.

- هلا جربت أن تقول: جدتي؟

لم يستطع التحكم في نطق حرف الجيم. وبدأ يبكي، فقالت جدته:

- لا تهتم.. لكن على الأقل قل لي اسمك.

تألق وجهه.. كان يعرف كيف يفعل هذا.. فأطلق سبة قذرة في وجهها..

بعد ثلاثة أيام جاءت وأخذته..

كانت تعاني الفقر والفاقة وقد حاولت أن تحول بيتها إلى بنسيون.. ثم بدأت تحوله لملجأ عجزة وتتلقى إعانات من الحكومة. وكانت قد قرأت في الصحف أن ابنتها تزوجت من محامٍ ثرى شهير، فحاولت الاتصال بها مرارا بلا جدوى..

هكذا قضى فرانسيس طفولته يلهو بين أقدام النزلاء في غرفة الجلوس، وهم يصغون للمذياع أو تحدق عيونهم المنهكة في الفراغ. يذكر صوت المشي على مشمع الأرضية ورائحة الكرنب قادمة من المطبخ.

☆ ☆ ☆

يذكر أنه كان في غرفته يشعر بالخوف من الظلام، ويهاب الذهاب للحمام للتبول بسبب الظلام. راح ينادي الجدة بطريقته.. بدا كأنه ماعز مذعورة.. وفي النهاية أفرغ المثانة لتبلل الفراش وسروال المنامة. ارتطم بشيء ما.. زحف في الظلام مبللًا نحوها وصعد إلى جوارها في الفراش..

صحت من النوم فراحت تبحث عن طاقم أسنانها جواره وهي تقول:

- أنا لم أر قط طفلًا (قجرًا مشلك) من قبل ثم ضربته ليغادر الفراش وأعادت وضع طاقم أسنانها وأضاءت المصباح. مررت يدها على جبهته ففوجئت بالدم على إصبعها.. سألته:

- هل تأذيت؟.. هل حطمت شيئا؟..

ثم طلبت منه أن يعود لغرفته.. هناك وقف في الظلام ينتظرها. لا يريد العودة للفراش المبلل ويخشى ألا تأتى.. كل ركن مظلم في الغرفة كان يقول إنها لن تأتى.. لكنها جاءت ومعها ملاءات نظيفة وشريط لاصق واقتادته للحمام ليبدل ثيابه ثم وضعت المقص مفتوحا على جزء من جسده فشعر بالمعدن البارد.. قالت له:

- هل تشعر بهذا؟.. أقسم أنك لو بللت فراشك ثانية..

فلسوف أنتزع جزءا منك بالمقص.. هل نفهم..

هز رأسه في رعب..

- يمكنك أن تجد المرحاض وتجلس عليه كصبى طيب الآن عد لفراشك.

الآن تهب الريح فتصدر الأوراق هسهسة على الشجر، بينما فرانسيس دولارهايد ذو الاثنين وأربعين عاما راقد على ظهره يمتص إصبعه وشعره ملوث بالعرق، وهو يمتص إصبعه يشم رائحة الجازولين.. مثانته مليئة ينهض في الظلام إلى المرحاض.. يجد المقعد فيجلس عليه كصبي طيب.

☆ ☆ ☆

الفصل السادس عشر

كان يحب جدته جدا لذا كان يصدق كل ما تقول، ولم يكن يريد أن يؤذيها بأي شكل.. راح يتخيل أن اللصوص هاجموا البيت، وهو دافع عنها وأنقذها فقالت له: أنت لست ابن الشيطان.. أنت ولدي الحبيب..

عليه ألا يخاف الظلام.. عليه أن يكون الشيء الذي يخاف اللص منه.

في الظلام حمل الفأس وتسلل إلى عش الدجاج..

رفع الفأس..

بعد هذا كان عليه أن يغسل الدم عن سرواله وقميصه.. لكنه شعر براحة وسلام لم يعهدهما من قبل.. للمرة الأولى يشعر بمذاق السعادة..

في الصباح أثار منظر الدجاج الميت حيرة الجدة.. قالت إن هذا لا يبدو كعمل ثعلب.

عندما تكرر المشهد عدة مرات كانت الجدة مقتنعة تماما أن الفاعل عامل كان لديها وطردته.

لكنها ظلت تهدد دولارهايد بأن تزيل جزءا من جسده بالمقص لو أخطأ.. وكان التهديد دائما وقائما طيلة الوقت..

كانت الجدة تتغير.. طباعها صارت شرسة وصارت أقل ميلًا للنظافة، وذات يوم أسقطت الخادم السوداء التي تحبها كوبا من

الدقيق فاتجهت نحوها وصفعتها.. ثم سكبت إناء من الحساء في وجهها..

وفي الليل سمعها في الغرفة المغلقة تشتم وتلعن ثم سمع قطع الأثاث تتطاير.. وفي الصباح جمعت الطاهية متاعها ورحلت..

بعد أسابيع جُنَّت العجوز تماما وتم نقلها لمصحة عقلية وكان على فرانسيس أن ينتظر 14 عاما قبل أن يراها ثانية..

تم ترتيب قدوم أمه الحقيقية لتأخذه.. وقد انتقل ليعيش في بيت زوج أمه مع أولادها. منحوه غرفة في أعلى سلم الخدم، وألحقوه بمدرسة ابتدائية قريبة. وفي البداية تجاهله الأطفال..

أخوته من الأم - تماما ثم بدءوا يزورونه في غرفته..

كانوا مندهشين من ممتلكاته وتذكاراته.. والأسوأ كان أنهم لم يفهموا حرفا مما يقول بسبب مخارج الحروف الغريبة لديه..

قال له (ند) أخوه من الأم:

- لن تكون هناك نزهات صيفية.. لن نشترى حصانًا صغيرا.. هل تعرف السبب أيها الوغد؟.. لأن أبي مريض.. مريض بسبب وجهك القبيح..

اتجه فرانسيس للباب فعاجله ند بركلة في كليته.. ثم أمسك به من أذنيه وألصق وجهه بمرآة الغرفة:

- لهذا أبي مريض..

وضرب وجهه بالمرآة..

- لهذا أبي مريض!

تلطخت المرآة بالدم واللعاب لكنه لم يبكِ..

☆ ☆ ☆

الأمطار تنهمر والرعد يدوي بالخارج.. بينما يجلس دولارهايد وحده في الظلام يشاهد فيلما.. في الفيلم أسرة تقوم بنزهة خلوية.. ثلاثة أطفال وأب وأم وكلب.. ظل يشاهد الفيلم حتى جاءت لقطات واضحة للأم وهي تلتقط الكرة وقد بدت عضلاتها واضحة. أوقف الكادر عند هذا الجزء وراح يراقب وجهها الجميل.

الفيلم القصير الثاني مشاهد متفرقة لبيت جميل.. حمام سباحة.. كلب صغير يركض نحو طفلة الأسرة وأذناه للخلف.. مرح.. حياة أسرية ليلية في البيت الجديد..

شارد الذهن أخرج بكرة الفيلم من آلة العرض ونظر للمكتوب:

بوب شيرمان - ستار روت 7 - صندوق 603 – توسلا أوكلا

تحسس الفيلم في شوق.. مسافة قصيرة للقيادة كذلك لا يشعر برغبة في الانتقام.. فقط يشعر بترقب شديد للحظات العظيمة القادمة.. للمجد القادم.. لا يفكر إلا في المجد القادم، فلا يذكر شيئا عن بيت أمه. لا يذكر أي شيء آخر عنه.. يذكر أنه ظل هناك مع أبناء أمه شهرا ثم طردوه لأنه شنق قطة فكتوريا أخته. لا يذكر أي شيء آخر..

في سن السابعة عشر تسلل لغرفة امرأة فقبضوا عليه خيروه بين السجن والجيش فاختار الجيش. في بروك اهتم أطباء الجيش به وقرروا عمل جراحة أخرى للترقيع لإصلاح أنفه وشفته.. وفي الجيش تم إرساله لسول في كوريا، وهناك تعلم تحميض الأفلام. لما عاد للولايات كانت جدته قد غادرت المصحة فأخذها للبيت واستأجر امرأة تعنى بها صباحا. ثم وجد عملًا في شركة تحميض الأفلام (جيتواي)، وفي هذه الشركة عرف الطريقة التي يتجسس بها على أسرة ويعرف عنوانها وكل شيء عنها..

كان يعيش فترة هادئة من حياته دامت تسعة أعوام بعد وفاة جدته. لكنه شعر بأنه يتغير ذات يوم، عندما نظر ليده فوجد أنها قد شاخت.. جلد يده قد تحول لقشور صغيرة كالتي تغطى السحلية. عندها لم يفهم لأنه لم يكن يدرك أنه يتحول بعد.

بدأ في بناء عضلاته وكان يقف أمام المرآة وقد لبس قناعا على وجهه، ليرمق جسده في إعجاب. كان بوسعه أن يدخل أي مسابقة كمال أجسام..

هنا رأى لوحة بليك الشهيرة في مجلة تايمز ([1]). انبهر بالصورة فأبقاها معه أياما.. كان يراقبها وهو يؤدي التمارين أو قبل النوم. لقد بدأ يدرك الحقيقة.. إنه وحيد.. وحيد تماما والسبب في هذا أنه مختلف..

لم يكن وجه التنين ظاهرا في اللوحة لكن دولارهايد كان يدرك كيف يبدو..

وعندما سافر لهونج كونج لفترة قصيرة كف عن استعمال غرفة تغيير الثياب في الشركة. لم يكن أحد يعرف أنه حل مشكلة أسنانه عن طريق استعمال طاقم أسنان جدته، أما لو رأى الناس الوشم على ظهره لصرخوا..

وبعد خمسة أشهر وقع اختياره على آل جاكوبى..

كانوا أعظم من أي شيء عرفه في حياته.. لقد ساعدوه كى يبدأ التحول،،

بعدها جاء آل ليدز..

الآن جاء دور آل شيرمان.. وهذه المرة سيصور الأسرة النائمة بالأشعة تحت الحمراء قبل أن يبدأ القتل..

☆ ☆ ☆

الفصل السابع عشر

كانت شركة جيتواى مرتبطة منذ عام 1979 بعقد مع شركة بيدر للكيماويات، وذلك ضمن عملها في مجال الأشعة تحت الحمراء. وقد توجه دولارهايد إلى هناك في ساعة الغداء ودق الباب الذي كتب عليه (منطقة خطرة - ممنوع التدخين أو حمل المشروبات الساخنة). جاء صوت امرأة يقول:

- أدخل

- أنا فرانسيس دولارهايد.. جئت بخصوص المجفف.

- عذرا.. لحظة واحدة.. كنت أتناول الغداء..

ثم قالت له بلهجة كأنها تحاضر:

- ضع ظهرك على الباب.. تقدم حتى تحس بالبلاطة تحت قدمك..

كان صوتها جميلا صافيا فيه شيء معدني..

- أنا ريبا ماكلين.. أرجو ألا تكون هناك أي أخطاء..

- لم يعد هذا مشروعي.. أنا لم أدخل هنا منذ ستة أشهn..

كانت هذه الجملة خطبة طويلة جدا بالنسبة له. شم رائحة عطرية وأحس بجهاز يجرى تفريغ هواء. وقف ينتظر في الظلام. هنا رآها تقف أمامه.. نزع يده عن وجهه ونظر لها.. قال لها:

- هل تسمحين لي ببعض البرقوق؟

- بالتأكيد... على المنضدة أمامك.

كانت في الثلاثين، لها وجه وسيم دقيق العظام. وعلى قصبة أنفها هناك ندبة بشكل النجم. وهناك نمش لطيف على وجهها..

ويديها. شعر بأن عينيه حرتان معها.. لم تكن تصد نظراته..

بدءا قياس الغرفة حيث المجفف.. ثم طلب منها خدمة:

بعض الفيلم الحساس للأشعة تحت الحمراء

قالت له:

- يجب أن تبقيه في الثلاجة.. وتعيده هناك بعد التصوير لماذا تريده؟

- أريد تصوير الحيوانات ليلا في حديقة الحيوان دون أن يزعجها الضوء..

- ليكن.. سيكون عليك أن توقع على البيانات.. متى تريد هذا الفيلم؟

- قبل يوم 20 من الشهر.

عندما انصرف أخيرا عدت ريبا البرقوق.. لقد أخذ واحدة.. رجل غريب.. لم يكن هناك أي نوع من الشفقة في صوته وهو يكلمها. لابد أنه يعرف أنها عمياء قبل أن يأتي. ربما هو لا يهتم بذلك.

☆ ☆ ☆

بعد عدة لقاءات متعلقة بالعمل سمحت له أن يوصلها لدارها بسيارته الفان.. لاحظت في رضا أنه لم يمسك بذراعها

تلقائيا كما يفعل الناس مع العميان. لا شيء يزعج العميان ويجعلهم يفقدون توازنهم مثل إمساك الذراع بهذه الطريقة.. فقط منحها ساعده لتمسكه كما تريد..

كان قويا طويل القامة، وهذا ما لم تستطع استنتاجه من خطواته وصوته..

كان عملها في قسم الأفلام غاية في الكفاءة، وكانت تعرف مكان كل شيء وتجيد كل شيء، كل هذا وهي في الظلام الدامس كما يقتضي العمل. هذا جعلها جوهرة حقيقية بالنسبة لبيدر، ولم يكن مستعدا للتخلي عنها أبدا..

هكذا دعت دولارهايد إلى شقتها.. وقد قبل هو، فهو لم يكن قد دخل أي بيوت سوى بيته طيلة حياته.. فكرة أن يدخل بيتا مدعوا راقت له كثيرا.. راقب كذلك طريقتها البارعة في إعداد شريحة بيتزا له وكيف تقيس المحيط بأناملها قبل أن تقطع..

وأحب فكرة أنه قادر على النظر لها وتأملها كما يريد..

كانت تحاوره بلا توقف.. بدأ يعرق.. لم يحب الكلام لأنه لم يعتده، لكنه أحب النظر لها كثيرا..

قالت له العبارة التي لم يتوقعها قط:

- هل لي أن ألمس وجهك؟.. أريد أن أعرف إن كنت تبتسم أم تقطب؟

تساءل في سخرية عن كم إصبعا سيظل في يدها لو أنه قضم..

هي لا تعرف الخطر الذي تواجهه والذي تتحداه.. لذا قال وهو يمسك أناملها برفق:

- صدقيني إنني أبتسم..

ثم قال في حرج:

- أرجو أن تسمحي لي بالانصراف..

ظلت مكانها على الأريكة لبضع دقائق.. بعد ما سمعت قفل الباب ينغلق خلفه. مدت يدها تتحسس الانبعاج على الأريكة..

وتشم رائحة لوسيون الحلاقة الخاص به ورائحة حزامه الجلدي..

لقد راق لها صمته وحرصه على الخصوصية. عندما فقدت بصرها فقدت معه خصوصيتها.. لم تعد تضمن إن كان هناك من يحملق فيها أم لا، لذا أحبت الخصوصية جدا.. أحبت أيضا أنه لم يظهر شفقة بها.. بالطبع هو يفكر بطريقة (العميان يسمعون أفضل) الغبية.. هذا ليس صحيحا.. فقط العميان ينصتون باهتمام أكثر لما يسمعون..

لم تكن مرتبطة بعلاقات مع رجال.. هناك واحد معجب بها اسمه رالف ماندي لكنها لم ترده لنفسها قط.. لم ترد قط أن ترى رجلًا يعطف عليها أو يتألم من أجلها..

وتساءلت إن كان دولارهايد يعتقد بالخرافة الأخرى التي تعتقد أن العميان (أنقى من المبصرين).. هذا أيضا خال من الحقيقة تماما..

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن عشر

كانت العائلات في شيكاغو مذعورة، فلم يبق على الموعد سوى 11 يوما..

راجت أفلام الرعب التي كانت ستفشل في ظروف أخرى، وفي الوقت ذاته انتشرت قمصان للشباب عليها (ليلة مع التنين الأحمر هي ليلة واحدة!)

في الوقت ذاته شعرت زوجة (جراهام) بالرعب من الانتظار في واشنطن، لذا انتقلت مع ابنها إلى حيث يعيش جداه جراهام أخبر كراوفورد بهذا، لكنه كان واثقا من أن الأخير يعرف بالضبط أين هي.

قال كراوفورد لجراهام وهو يراجع بعض التقارير:

- ما زلت أبحث عن علاقة بين الضحايا.. خطر لي إن لاونديس مات على مقعد متحرك.. هنا إشارة طبية.. فاليري ليدز أجرت استئصال حويصله من ثديها قبل الجريمة بشهر ونصف إشارة طبية.. لذا أحاول معرفة إن كانت مسز جاكوبي قد أجرت جراحة قريبة.

- هل تفكر في مسعف؟

- عندما تكون في مصحة لفترة طويلة فأنت تتعلم أساليبهم يمكنك الظفر بعمل كمسعف قانوني في مستشفى بعيد عن هذه المصحة..

كانت رائحة الغرفة تفوح باليأس.. ظلال عميقة غمرت التجاعيد في وجه جراهام وهو يحدق في صور الضحايا..

ألن يكون أفيد للقضية لو تركنا جراهام يرحل؟.. ثم شعر كراوفورد بغريزته أن جراهام سيكون مفيدا هنا أكثر طلب رجال شرطة شيكاغو تقريرا عن الحالة النفسية السلوكية للسفاح، وذلك من الـ FBI قائلين إنه سيساعدهم في توجيه رجالهم ليلة الجريمة القادمة.

قال كراوفورد في غيظ:

- يحمون مؤخراتهم.. يطلبون منا تقريرا فإذا ما ضرب القاتل وظفر بضحية أخرى، قالوا لا تحاسبونا.. الخطأ خطأ رجال الـ FBI الذين أسدوا لنا نصائح خاطئة، لكن جراهام لم يكن يعتقد أن القاتل سيوجه ضربته في شيكاغو بالضرورة.. صحيح أن كل شيء يدل على أنه يقيم في شيكاغو لكن من الواضح أنه يفضل تنويع مكان عمله.

جلس دولارهايد يراقب التلفزيون.. لقد أتم تمارينه الرياضية وشاهد بعض أفلامه الخاصة، وشعر بالرضا عن نفسه لذا فتح التلفزيون ليعرف تطورات مقتل الصحفي. رأى على الشاشة جراهام.. خطر له أنه نحيل جدا.. من السهل تحطيم ظهره بل لعل هذا أجمل.. أن تحطم ظهره وتتركه يقضى باقي حياته مشلولًا..

ولاحظ في رضا أن الإعلام كف عن تسميته (جنية الأسنان) وبدءوا يسمونه (التنين).. هذا تقدم ممتاز..

كان يراقب جراحا يجرى جراحة أسنان على نمر في حديقة الحيوان المحلية.. تذكر ريبا وهي تقول إنها تريد أن تلمس وجهه. لو فعلت لشعرت بشيء من مجده الخاص، لكن سيكون قتلها حتميا وهو يريد لها أن تعيش.. لابد أن تعيش..

كان البديل هو أن يأخذها غدا لتلمس النمر وهو مخدر في الجزء التالي من الجراحة.

كان قد أسدى خدمة إلى حديقة الحيوان عندما أهداهم هذا الفيلم الخاص بالرؤية الليلية، وهم على استعداد لتقديم أي خدمة له. لهذا اصطحبها بالفعل لترى النمر الذي خدره جراح الأسنان.. تحسست وجهه وفمه وهو نائم..

كان هذا أقوى من تحملها.. وشعرت أنها مدينة لدولارهايد للأبد..

وفي هذه الليلة اصطحبها لداره كما طلبت هي..

طلب منها أن تسمح له لدقائق. دخل المطبخ وراح يرتجف.. ما هذا الذي يفعله؟.. قبل أن يتحول كان هذا من رابع المستحيلات.. أما اليوم فهو قادر.. قادر..

كان يشعر برغبة جنونية في عمل شيء لكنه لا يعرف ما هو.

عاد لها وساعدها على الترجل واقتادها داخل البيت.. أدركت على الفور أن البيت كبير جدا وأدركت أنه قديم كذلك.. رائحة الهواء تشبه رائحة هواء المتاحف.

جلست على أريكة وقالت له:

- بيتك جميل.. وذلك النمر الرائع.. أنت مفعم بالمفاجآت، بينما لا أحد يعرفك فعلا.

قال وهو يضغط على الحروف حتى لا تظهر عيوب النطق:

- ومن قال لك هذا؟

- الكل فضولي بصددك..

وماذا يريدون معرفته؟

يقولون إنك غامض.. النساء رأينني أركب سيارتك الفان فاشتعل فضولهن.. هلم.. هذه مجاملة..

وهل قالوا كيف أبدو؟

- نعم. هل تريد سماع ذلك؟.. متأكد؟

لكنه لم يطلب..

لاحظت الصمت فقالت بجدية تامة:

- يقولون إنك حساس.. وإنك توحي بالأناقة، وإن لك جسدا رائعا وإنك حساس بصدد وجهك برغم أن هذا غير صحيح.

طلبت الذهاب للحمام.. شعر بتوتر.. لا يجب أن يسمح لها بالتنقل في البيت بحرية، فلربما قابلها التنين.. من السهل أن يفتك بها التنين ويمزقها. فلما عادت سمعت صوت جهاز عرض سينمائي يعمل. قال لها دولارهايد:

- آسف.. لدى واجب منزلي سأفرغ منه حالا.. سأعرض بعض الأفلام.

- هل هناك صوت؟

- للأسف لا..

تمددت على الأريكة وطلبت منه أن يأخذ راحته.. سوف تغفو قليلًا..

كان قد فكر أولا في أن يرى فيلمي ليدز أو جاكوبي والفتاة..

كان معه.. لكنها لن تنجو من ذلك.. غالبا سوف يقتلها. لن يفعل هذا.. إذن ليشاهد فيلم آل شيرمان..

جلس يشاهد الفيلم.. وبدأ يلفظ عبارات كالتي قالها لمسز ليدز في أطلنطا:

أنت ترينني... نعم.. هذا هو شعور من يراني.

ريبا على الأريكة تشرب المارتيني من الكأس.. ريبا تريح رأسها على فخذ دولارهايد..

أنت تشعرين بي... نعم.. هذا هو شعور من يشعر بي..

يجب أن يبعد يديه عن عنق ريبا.. لا يجب أن يخنقها بأي ثمن.. الكل رأوها تركب سيارته الفان..

صوت قلبك عال ويدق الآن..

قلبك يحاول الفرار..

امرأة حية معه.. إنه التنين.. لقد صار قويا بشكل لا يوصف..

دولارهايد القاتل اللعين لإحدى عشرة روحا يصغى لنبضات قلبها..

التنين..

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع عشر

حتى وهو يوصلها لبيتها لم يكن يعرف ما يشعر به تجاهها إنه يرتاح لها. يخافها..

حادث قبيح وقع وجعله يتبين أموره نوعا. عندما مر بالتقاطع 70 لمخرج لندبرج توقف ليضع بعض الوقود في سيارته. كان العامل رجلًا قوى العضلات مكفهر الوجه. تفقد الزيت ثم بدأ في تلميع الزجاج. لاحظ دولارهايد أنه يرمق ريبا في وقاحة، من ثم حرك المساحات بسرعة لتضرب أنامل العامل..

قال العامل وقد أدرك أنه ضبط وهو يختلس النظر..

- خذ الحذر يا أحمق..

ودنا من دولارهايد.. كان يماثله طولًا لكن ليس في العضلات بضربة واحدة أبعده دولارهايد وأسقطه ليضرب العربة. وهنا رأى العامل في وجه دولارهايد شيئا لم يره من قبل ولم يره في أي مكان.

قال الرجل في رعب:

- لم أتعمد أي إساءة.. أقسم بالله.

أمسك دولارهايد بأنبوب الزيت في وجه الرجل.. تمنى لو يغرسه في قلبه مباشرة لكنه بدلا من هذا ثناه إلى نصفين

ثم دسه في سروال الرجل وقال:

- أبق نظراتك القذرة لنفسك..

وحشر المال في جيب الرجل، ثم قال:

- الآن ابتعد لكن تذكر أن بوسعي أن أجدك في أي وقت.

☆☆☆

وصل الشريط إلى جراهام في واشنطن، ومعه مذكرة من المختبر الجنائي تقول: تحليل الصوت برهن على أن هذا هو لاوندس فعلا. من الواضح أنه كان يقول ما يملى عليه. شريط جديد لم يستعمل من قبل..

كان في المحكمة في ذلك الوقت، في غرفة المحلفين. كانت العاملة تنظف المكان والغبار يسبح في ضوء الشمس، فبحث عن جهاز كاسيت ودس الشريط فيه وراح يصغى:

كان صوت فريدي لاوندس المتعب الخائف يتكلم. لقد نلت مجدا لا شك فيه.. لقد رأيت قوة التنين الأحمر.. لقد كذبت بصدده.. كل ما كتبت كان أكاذيب.. ويل جراهام جعلني أكتبها.

لقد كفرت بالتنين لكنه رحمني.. الآن يجب أن أخدمه.. لقد ساعدني على الفهم. على الصحف عندما تكتب عنه أن تقدسه وأن تتكلم عنه مضخمة لفظة (هو) HIM بدلًا من الحروف الصغيرة..

سوف يكون رحيما معي أكثر منك يا جراهام فهو يعرف أنك جعلتني أكذب.. مد يدك للخلف يا جراهام وتحسس البروزات فوق الحوض.. هذا هو عمودك الفقري حيث سوف ينتزعه التنين.

قال جراهام لنفسه: فليذهب للجحيم.. لن أتحسس..

ثم جاءت الصرخة الشنيعة: لا اا.. أيها الوغد اللعين أنت أقسمت!..

فتح جراهام فمه وتنفس بعمق.. لن يتحمل سماع هذا مرة أخرى ,,

هنا جاء موظف المحكمة ليحمل له خطابا.. ونظر لشريط الكاسيت في دهشة، أخذ جراهام الخطاب وهو يتمنى أن يكون من مولى..

لكن الخطاب كان من هانيبال لكتر:

عزيزي ويل:

أهنئك على ما قمت به مع مستر لاوندز. احترمت ما فعلت. أنت ولد خبيث!

لقد استفزني مستر لاوندس كثيرا لكنه أفادني بمعلومة لم يخبرني بها محاميّ عديم النفع؛ هي أنك كنت في المصحة العقلية بدورك. لماذا نحارب طبائعنا يا ويل؟.. هذه أشياء خلقنا بها مثل رئاتنا وبنكرياسنا.. اعترف لنفسك بأنك أحببت قتل مستر هوبس واستمتعت بذلك.

مع تحياتي..

هانيبال لكتر. دكتوراه في الطب

☆ ☆ ☆

الفصل العشرون

كان دولارهايد يقود سيارته دامع العينين خلال ستة أيام سوف يقتل ريبا ماكلين.. التنين يريد هذا والتنين قد صار سلطة أكبر منه بكثير.. ما يريده التنين يتحقق.. التنين لا يقبل الأعذار ولا يسمح له بأن يقع في الحب.

بعد قتلها سوف يقتل آل شيرمان.. ربما يفضل التنين أن يبدأ بهم ويقتل ريبا بعد ذلك، لكنه كان يعرف أن هذا مستحيل..

لم تكن ريبا تعرف أي شيء عن التنين. كانت تحسب نفسها مع دولارهايد. لقد مالت له.. هذا شيء مقزز وقد احتقرها لهذا السبب.. لكن برغم هذا كان شعورا رائعا..

ركب سيارته إلى حيث موتيل صغير.. كان هذا صباح الاثنين لكنه لم يرغب في الذهاب للعمل. طلبهم وقال إنه مريض. ثم رقد في الفراش شاعرا بالرعب..

سوف يحاول أن يبقيها بعيدة عن التنين.. لكن إلى متى؟..

كم من الوقت يمكنه أن يبقيها بعيدة؟.. التنين هناك ينتظر في كل اللوحات وكل الكتب المصورة.. سوف تأتى للبيت باحثة عن دولارهايد فلا تجده.. تصعد للطابق العلوي وهنا تجد نفسها بين أنياب التنين. ليس بوسعها عمل شيء سوى أن تتمنى أن تموت بسرعة..

يمكنه سماع صوت التنين.. يمكنه سماعه وهو يشتم ريبا. بالتأكيد سيشتمها قبل أن يقتلها ويشتم دولارهايد.

أنا لم أر قط طفلًا قذرا مثلك..

همس دولارهايد:

- أرجوك لا تفعل هذا...

علق حزامه في الحمام وصنع أنشوطة.. سوف يتدلى منها لبعض لحظات إلى أن يصير أضعف من أن يقاوم أكثر ويموت ولكن كيف يعرف أن التنين سيموت معه؟.. كل شيء يدل على أنه والتنين شخصان منفصلان..

في النهاية اتخذ قراره.

غادر الفندق وركب سيارته الفان.. مر بحشد من طلبة المدارس فنفخ أحدهم صدره وكور عضلاته ليقلده. بعد وقت ليس بالطويل كان دولارهايد قد صار عند بيت جدته من جديد..

دخل البيت فسمع صوت التنين يهدر:

ماذا تفعله؟.. ماذا تفعله؟

أنا لم أر قط طفلًا قذرا مثلك..

جاءت مكالمة من ريبا فتجاهل التنين وحاول أن ينصت لها وهي تطمئن على صحته. قالت إنها اتصلت به في الشركة فقيل لها إنه مريض.. كانت قلقة فعلًا..

قل لها أن تأتى الليلة لتعنى بك

سد دولارهايد سماعة الهاتف قبل أن تسمع هذا الكلام. وراح يعتذر لها مؤكدا أن هناك تداخلا مع المذياع، ثم وضع

السماعة سريعا وعبث في الدرج حتى أخرج بعض الأشياء وانطلق يركض مغادرا البيت..

وبعد قليل كان في المطار..

وسرعان ما كان في طريقه إلى نيويورك..

☆ ☆ ☆

لم يكن قد رأى متحف بروكلين قط برغم أنه قرأ الدليل الخاص به. كان قد اهتم به منذ رأى صورة (التنين الأحمر والمرأة التي تتدثر بالشمس). كان مبنى ضخما جديرا فعلًا بأن يسكنه التنين الأحمر..

يشم رائحة الجو ممزوجة برائحة الصبغة التي وضعها على شاربه.. لقد بقيت ساعة على موعد الإغلاق، لذا عبر الشارع، ودخل حيث أخذ موظف الأمن حقيبته. وعرف أن المتحف سيكون مغلقًا غدا.

مشى وسط التحف الخزفية الخاصة بالأنديز والأسلحة البدائية والأقنعة الهندية. بسرعة عرف المخارج وأماكن المصاعد، أخذ المصعد للطابق الخامس وقد بدأ يشعر باقتراب التنين الأحمر.. لقد شعر به..

كانت اللوحة معروضة في مكان مظلم منذ كانت في متحف تيت في لندن، والسبب أنها بألوان الماء وعمرها مائتا عام.

ورأى خزانة مغلقة فعرف أن اللوحة هناك.. ليست رسمًا ولا صورة.. إنه التنين نفسه..

كان الحراس رجالًا في منتصف العمر ومهذبين.. والأهم لم يكن أحدهم مسلحًا.

انتهت ساعات العرض فغادر الناس المتحف.. وامتلأت الطرقات بالمتجهين لركوب مترو الأنفاق. استقل سيارة أجرة وأعطى السائق عنوان متجر معين.

إن المتحف يغلق أمام الجمهور يوم الثلاثاء، لكنهم يسمحون بالدخول لطلاب الفنون، والمتحف مكان ممتاز للجادين في دراسة الفنون. إن العاملين هناك ودودون ويعرفون مهنتهم جيدا. في الثنائية بعد ظهر الثلاثاء خرج دولارهايد من محطة الكترو ومعه أوراق وملف كبير عن بليك.. وكان معه مسدس ومديته ذات حد الموسى وفي جيب المعطف كانت قطعة قماش ما مغموسة بالكلوروفورم وموضوعة في كيس بلاستيكي.

دخل المتحف مع أربعة من طلاب الفنون.. وسأله البواب إن كان لديه موعد فقال: دراسة الرسم.. مس هاربر. أجرى البواب مكالمة ثم طلب منه أن يتوجه لنهاية صالة الاستقبال حيث مقعد جوار المساعد.. هناك سوف تقابله مسن هاربر.

كان قد اتصل بها من قبل، وبدت له امرأة بارعة الجمال عندما نزلت له.

أنت طلبت رؤية لوحات بليك المائية... تعال معي لتراها..

صعدا للطابق الخامس. كان يشعر بتنميل حقيقي لكنه قرر أن يتماسك.. وفجأة مر أمام لوحة لجورج واشنطن.. هنا وجد نفسه يرتجف وشحب وانهمر العرق الغزير منه.. هذا ليس

واشنطن.. إنه يشبه جدته تماما.. جدتي هنا. أنتِ تريدين تشريحي يا جدتي.. أليس كذلك؟

قالت له مس هاربر:

- لحظة وسوف أجلب لك الرسم.

عندما عادت أصابه الذهول.. كان يتخيل الصورة عملاقة وثقيلة جدا...

- أنا أسفة.. إنها بألوان الماء وهشة جدًا لذا لا نعرضها.. من المفروض ألا تلمسها وإنما أنا سأمسكها لك..

كان ينظر للصورة غير مصدق.. إنها أجمل من أي لقطة رأها من قبل. لون شعر المرأة هو نفس لون شعر ريبا ماكلين.

هنا جاء من يطلب مس هاربر لأن أمها اتصلت بها.. فقالت إنها ستتصل بأمها حالًا. كانت تراقبه في حذر لتعرف ما يفعله باللوحة. نظر للخلف وهتف في ذعر أنه رأى فأرا عملاقا ينسلّ هناك..

صاحت مس هاربر:

- أين؟

هنا هوى على مؤخرة رأسها بقبضة يده ثم أخرج قماش الكلوروفورم ووضعه على أنفها.. جرها بين المنضدة وكومة الرسوم. هنا جاءت المرأة الأخرى من جديد لتكرر أن أم هاربر تريدها.. فوجئت بالمشهد.. باولا على الأرض فاقدة الوعي وشعرها يغطى وجهها، بينما دولارهايد راكع جوارها يلتهم آخر

قضمة من لوحة صورة (التنين الأحمر والمرأة التي تتدثر بالشمس)

صرخت وهرعت لمكتبها وأغلقت الباب، وراحت تحاول طلب رقم.. وجدته مشغولًا. لم يستغرق وقتًا لأن الضربة خلف أذنها جعلتها تفقد الوعي، وسرعان ما كان المصعد يهبط للطابق السفلي. ضل طريقه مرتين وهو يجد السير. ثم عرف أين هو عندما رأى الأسلحة البدائية المعلقة..

تحسس مسدسه وهو يقترب من الحراس.. مر بأحدهم فقال وهو يلوح ببطاقة الدخول:

- شكرا.

كان الهاتف يدق.. لذا خف السير بسرعة قبل أن يمسك الحارس السماعة. أخيرا خرج للحديقة متوترا وكان على استعداد لإطلاق الرصاص لو أن أحدا حاول أن يستوقفه.. أخيرا فتح الحقيبة وأخفى فيها، وكل الثياب التي كانت عليه، ليبدو كمجرد طالب جامعي يتنزه..

وبينما كان يتظاهر بأنه يمارس رياضة الجري مرت به أول سيارة شرطة وسرينتها تزعق..

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي العشرون

من جديد أعاد جراهام مشاهدة الفيلمين الخاصين بآل ليدز وآل جاكوبي.. القط.. الكلب.. الباب الجانبي.. الأطفال..

هنا خطر له خاطر غريب.. كل شيء يعرفه القاتل عن الأسرتين.. كل شيء.. موجود على هذين الفيلمين، وهما لم يعرضا في مهرجان سينمائي أو في نادٍ للسينما..

تفحص الصندوق الذي غلف به فيلم آل ليدز.. (مختبرات جيتواى - 63102).. سانت لويس.. ماذا عن سانت لويس؟..

عندما كان يحقق في موت لاوندس عرف أن سانت لويس من الأماكن القليلة التي تطرح فيها نسخ جريدة تاتلر ليلا. ضغط على جانبي رأسه ليمنع الفكرة من الفرار..

أجرى بعض مكالمات وسرعان ما كانت آلة الـ FBI العملاقة تهدر باحثة عن المكان الذي كان آل جاكوبيس يحمضون فيه الأفلام.. اسمه جيتواى..

☆ ☆ ☆

في الطائرة عرف كراوفورد أن جنية الأسنان كانت في نيويورك.. القاتل ضرب أمينتي متحف على الرأس وأكل لوحة التنين الأحمر.. نعم. أكلها!..

هناك بصمات على الكيس البلاستيكي.. لكنهم لا يعرفون صاحبها، إلا أنها نفس البصمات التي وجدوها عند آل ليدز وعلى علبة المياه الغازية..

- هل بوسع المرأتين وصفه؟

قال كراوفورد:

- الصغرى استطاعت وصفه.. الكبرى تعاني ارتجاج مخ.. رجل هادئ مبحوح الصوت.. شارب أسود.. نفس ما قاله رجل الأمن.

- وما رأى د. بلوم في مختبر علم النفس السلوكي؟

- قال إنه يعتقد أن جنية الأسنان تحاول أن تتوقف.

☆ ☆ ☆

لم يعد يخاف المنزل.. إن التنين في بطنه الآن.. يمكنه أن يتأمل الصور المعلقة بلا خوف. لا داعي للخوف على ريبا الآن.. لو أحس بميول عدوانية فإن بوسعه التخلص من آل شيرمان ثم العودة لريبا طاهرا هادئا..

لكن عندما مر بسيارته ليلًا قرب شركة بيدر أصابه الذعر..

ما هذا؟

لقد رأى السكرتيرة التي يعرفها جيدا تدق الباب.. ومن الداخل ظهر وجه يعرفه جيدا.. وجه جراهام..

ابتعد وقلبه يدق.. كان بحاجة للتفكير لكنه بالفعل عاجز عنه لقد وجده جراهام فكيف فعل هذا؟

كان هذا سهلا.. لقد شك في الأفلام طبعا وهذا يعني أنه ليس أحمق.. لكن كيف سيبحث أكثر من ذلك؟.. هناك الإجازات سيبحث عمن طلب إجازة من العمل قبل الجريمتين

السابقتين لكن قد يكون هذا صعبا. هناك البصمات على الكيس الذي تركه في متحف بروكلين.

لو أجروا مسح بصمات على جميع العاملين في الشركتين لأمكنهم أن...

جراهام يعرف.. جراهام يعرف أن هناك سيارة فان كذلك..

يعرف لأنه يعرف.. يعرف لأنه وحش..

لن يكون أمامه سوى أن يركض منهم.. يركض كأرنب مذعور..

هل أنت نادم لأنك أغضبتني؟

جاء صوت التنين من أعماقه..

أعطني ما أريد ولسوف أنقذك

أنت تعرف أنهم سيرسلونك لمكان أسوأ من الميتم الذي كنت فيه..

يمكنني أن أنقذك.. تعرف أنى فى داخلك وتشعر بي..

قال في جزع:

- لا!

لكن الصوت استمر:

أنت تعرف.. سوف يسجنونك وسوف تمرح هي مع رجال أجمل منك. لو كنت تريد أن تحتفظ بها وأن

تستعيد قدرتك على الكلام فلتقف قرب محطة البنزين تلك وأصغِ لى..

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني والعشرون

في داخل الشركة كان العمل يجرى محموما.. كان كراوفورد وجراهام يفحصان كل شيء، كما قاما بعرض صور العاملين في الشركة على أمينة متحف بروكلين. كان جراهام يعرف أنه لابد من أن يخفوا آثار كل شيء في الصباح قبل قدوم الموظفين.. لو عرف التنين بالأمر لفرَّ سريعا..

كذلك أعدا قائمة بالرجال الذين يتراوح عمرهم بين 20 إلى 50 والذين يملكون سيارات فان.. وهكذا صار هناك 26 اسمًا..

☆ ☆ ☆

في الوقت ذاته كانت ريبا مع رالفماندى. كانت قد طلبت منه أن يصحبها للعشاء بسيارته، وفي الطريق قالت له ما يتوقع سماعه.. لقد كانت صداقته ممتازة لكنها تحب شخصا آخر.. لابد أن هذا آلمه لكنه سيكون أرحم له وأفضل، وعلى باب شقتها بعد العشاء لم يطلب الدخول ,, فتح لها الباب ثم ناولها مفاتيحها ولم يتكلم.

ابتعد عن البيت..

هنا أطلق عليه دولارهايد طلقتين في حلقه وصدره.. من المسدس الصامت..

رفع الجثة بسهولة وأخفاها بين الشجيرات..

كان التنين هو الذي يقوم بهذا كله، وكان ممثلًا ممتازا فعلًا.. كان يجيد التظاهر بأنه دولارهايد..

كانت ريبا تغسل وجهها في الحمام عندما دق الجرس.. ذهبت لتفتح وتركت السلسلة في مكانها:

- من؟

- أنا فرنسيس دولارهايد.

نزعت السلسلة وقالت:

- كنت أحسبك ستتصل بي أولًا..

- كانت حالة طوارئ.

ووضع قطعة القماش الملوثة بالكلوروفورم تحت أنفها..

كان الشارع خاليا فحملوها للعربة الفان.. ورأى أقدام رالف ماندي بن الأشجار.

ظاهرة من موضعه بين الأشجار.

أفاقت أثناء الرحلة فوجدت أن خدها على أرضية العربة..

حاولت أن تتحسس وجهها لا كنها أدركت أن ساعديها ملتصقان. إنها مربوطة.. وكذا رجلاها.. وأدركت أنها مكممه..

ماذا حدث؟.. لا تذكر سوري أن دولارهايد كان على الباب.. ثم.. قوته الكاسحة.. شعرت بذعر رهيب..

هنا سمعت صوته يقول:

- لن تطول المسافة..

لابد أنه مجنون.. كوني سالبية جدا.. عديه بأن بوسعه التراجع وأنت لن تبلغي عنه..

توقفت السيارة.. سمعت صوت الجنادب وشمت رائحة الإطارات الساخنة وبرغمها صرخت وأشاحت عنه عندما شعرت بلمسته. حاولت الصراخ من تحت الكمامة.

الآن هي تعرف أنها في داره... صوت المنبه.. تميز الفراش.. ثم سمعت صوت علب معدنية على الأرض... شمت رائحة الجازولين..

- ريبا.. أنت لا تفهمين.. كنت رائعة ثم أذيتني بقسوة بعد ذلك.. والآن سأفك سراحك.. لا تحاولي الفرار لأني سأمسكك..

شعرت بالمعدن البارد ثم تحرر ذراعاها..

قالت محاولة أن تقول أفضل شيء ممكن:

- مستحيل أن يكون رالف ماندي هو السبب... لابد أنه السبب.. كان لقائي به كي أخبره أنني لا أريده أبدا وأنني أحب شخصا آخر. أنا لن أرى رالف ثانية.

قال دولارهايد:

- رالف مات..

ثم أضاف:

- سوف تسمعين شيئا بالغ الأهمية.. له ذات أهمية موعظة الجبل والوصايا العشر.. هناك قوم ماتوا في أطلنطا وبرمنجهام.. هل تعرفين من فعل هذا؟

قالت وقد تذكرت:

- جنية الـ...

لكنه أخرسها على الفور..

- بل التنين الأحمر.. أنا هو التنين كان يريدك لكنني حاولت منعه..

صرخت وقد فهمت الموقف:

- أرجوك لا تدعه يظفر بي.. أنا لك.. لا تجعله يأخذني منك.

كانت تذكر مكان الباب وهكذا اندفعت راكضة خارجة من الغرفة، ثم فتحت باب البيت وراحت تجرى في الهواء الطلق.. تسمع صوت شاحنة قريبة وتتعثر في الأرض.. تنهض.. تلتقط بعض الحجارة وتقذفها باتجاه الصوت..

ثم هوت ضربة عليها فسقطت على الأرض، وشعرت بأن العالم يظلم من حولها..

☆ ☆ ☆

جاءت الأنباء لرجال الشرطة.. هناك جثة لرجل يدعى رالف ماندى، وجدها رجال الشرطة في حديثة من تُدعى مس ريبا.

ماكلين.. كفيفة تعمل في الغرفة المظلمة في مختبر بيدر. من الغريب أنها اختفت.. آخر مرة شاهدتها إحدى النساء تركب سيارة مستر دولارهايد الفان.

ربما هي صدفة؟

☆ ☆ ☆

عندما فتحت ريبا عينيها كان دولارهايد يراقبها.. قال لها وهو يبكي:

- انتهى الأمر بالنسبة لي.. لا أستطيع تركك له.. أنت تعرفين ما سيفعل بك.. سوف يعضك بأسنانه حتى الموت.. من الأفضل أن ترحلي معي.

سمعت صوت الثقاب وشمت الكبريت.. هناك حرارة.. هناك دخان.. أشد ما تخشاه في الكون.. النار..

كانت هناك هذه المرة فوهة مسدس ملتصقة برأسها. وتمنت تقتلها الرصاصة قبل أن تمسل لها النار..

آه.. يا ريبا.. لا أحتمل أن أراك تحترقين!.

ثم دوى الرصاص من المسدس.. شعرت بتنميل في أذنيها وحسبت أنها قتلت..

لكنها ظلت تسمع وتشم النار.. وقفت تترنح.

كانوا قد علموها أن تنحني عند حدوث حريق.. لا تركضي وإلا اصطدمت بأشياء وسقطت. راحت تزحف على يديها.. شعرت بساق.. ثم لمست يدها شعرا.. ثم شعرت بعظام حادة وعين مخلوعة.

هناك حول العنق مفتاح.. هذا مؤكد...

انتزعت المفتاح ونهضت.. حاولت أن تسمع وأن تشعر بعيدا عن قعقعة النيران.. الساعة تدق في غرفة المعيشة..

احترق حلقها من الدخان.. الباب هنا.. تحت المقبض..

افتحي القفل.. هواء... هواء..

تهاوت على العشب وزحفت على يديها وركبتيها..

نهضت وصفقت لتعرف من أين يأتي صدى البيت.. ثم راحت تزحف مبتعدة عنه.

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث والعشرون

كان العثور على بيت فرانسيس دولارهايد صعبا. إن العنوان المذكور في شركة جيتواي هو عنوان صندوق بريد. وكان على شرطة سانت لويس أن تجد العنوان بالاستعانة ببيانات شركة الكهرباء.

تحراك فريق من قوات السوات نحو العنوان، وكان هناك نائب مأمور يجلس جوار جراهام في المقعد الأمامي. فلما دنت السيارات من البيت الواقع في شمال المدينة رأوا الوهج.

توتر جراهام بينما أمسك كراوفورد بالميكروفون وقال:

- كل الوحدات.. بيت المشتبه فيه يحترق.. ربما يخرج في أي لحظة. أيها الشريف.. نريد حاجز طريق هنا.

هنا رأوا المرأة واقفة وخلفها النيران.. سمعوها ورأوها وهي تلوح بيديها.

ثم تعالت النيران لأعلى.. وتصاعدت أقواس لهب لسماء الليل وانفجرت الفان وهي تنقلب على جانبها. وارتجت سيارات الشرطة. من الانفجار.

جرى بعض رجال الشرطة نحو المرأة وتجاوزها البعض، وهم يشهرون السلاح..

أمسك كراوفورد بها وراح ينفض اللهب عن شعرها.. وقال لها:

- فرانسيس دولارهايد.. أين هو؟

قالت وهي تشير إلى الحريق:

- هو هناك.. إنه ميت.

- كيف تعرفين؟

- كنت معه.. لقد أشعل النار في البيت ثم أطلق الرصاص على رأسه.. لقد كنت في هذا كله.

عاد كراوفورد لسيارة الشرطة بينما وقف جراهام يرقب، اللهب حتى احمر وجهه والتهب. وراح الدخان يتصاعد أمام صفحة القمر..

☆ ☆ ☆

عرف رجال الشرطة أن الحريق تم بوساطة الجازولين، على أنه كان هناك ديناميت انفجر في النهاية، وعرفوا أنهم سيجمعون أشلاء الفاعل في كيس صغير..

أما عن ريبا فقد تمكنت من النوم في الفندق بصعوبة وبوساطة مهدئ. وطلبت أن يظل الشرطي جوار فراشها وكانت تصحو كثيرا لتبحث في ذعر عن يده..

عندما جاء جراهام يطلب مقابلتها سألت الشرطي:

- هل تعرفه؟

ولم يكن الشرطي في حاجة لطلب أوراق جراهام فهو يعرفه جيدا. ولمدة ساعة راحت تحكى كل شيء.. كان حلقها ملتهبا وقد توقفت مرارا لتشفط بعض الثلج المجروش.

في النهاية قال جراهام:

- أنت ساعدته.. لا شك في أن حبه لك جعله يحجم عن قتل بعض الأشخاص ونجا كثيرون.. سأعود لأراك بعد يومين..

وغادر المكان فلوحت له بيدها

اتصل بمولى من مكتب الـ FBI فردت جدة ويلي على الهاتف:

- كيف الحال يا ماما؟.. أنا جراهام..

- أنا سعيدة بأنه قتل نفسه.. هذا يوفر علينا الكثير من أموال الضرائب.. تقول إنه أبيض؟

- نعم. يبدو اسكندنافيا.. هل لي أن أكلم مولى؟

جاءت مولى وكانت في الحديقة فردت على المكالمة.. كانت سعيدة جدا لسماع هذه الأنباء. وقالت:

- أنا سعيدة لأنه لم تحدث مواجهة.. لم لا تأتى هنا بعض الوقت؟

قال في ضيق:

- بالطبع لا.. إن جدي ويلي يحبانه ويودان لو عاش معهما وبالتأكيد هما يحبانك كذلك.. لكنهما لا يطيقانني.. إنني أذكرهما بابنهما.. لذا لا أعتقد انهما سيرحبان بوجودي أبدا.

أنهى المكالمة فنظر إلى البيت المحترق الذي كان خبراء الحريق ما زالوا يعملون فيه...

كان يتمنى لو يدخل.. يرى المكان الذي عاش فيه دولارهايد يعرف السبب الذي جعله هو التنين الأحمر..

في النهاية عدل عن الفكرة وابتعد.. ليس الآن..

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع والعشرون

هبطت الطائرة... ورأى جراهام مولى وويلى يقفان بانتظاره هناك في ماراثون..

عرض ويلي حمل الحقائب فناوله جراهام حقيبة اليد وانطلقوا إلى دارهم في شوجارلوف كي، ومولى تقود.. أخيرا يسمع البحر..

لم ير مولى أجمل من هذا في حياته.. أدرك روعتها السماوية. وكان ويلي مهذبا معه.. أكثر من اللازم.

جاء خطاب من كراوفورد فوضعته مولى ضمن البريد ولم تتكلم عنه. فيه كانت صورة لآل شيرمان تم طبعها من فيلم.. لم يحترق كل شيء..

هؤلاء القوم كانوا على القائمة غالبا.. إنهم في أمان الآن.. بالتأكيد تحب أن تعرف هذا..

عرض جراهام الصورة على مولى وقال:

- هل ترين؟؟؟ كان الأمر يستحق.

كانت تطهو وجبات العشاء وكانوا يصطادون السمك دون توفيق كثير. وجاء اليوم الخامس.. آخر يوم قبل العودة للعمل.. لم يكن يوما موفقا جدا في صيد السمك، وقد حاول جراهام الكلام أكثر من مرة ثم آثر الصمت. الصبي مولى غير ودود..

وقد بدأ جراهام يتعب فعلا من كونه غير محبوب..

جاءت مولى من الكوخ حيث كانت تعد بعض الشطائر، وقالت لجراهام:

- كراوفورد يريدك على الهاتف.. يقول إن الأمر عاجل..

مشي نحو الهاتف.. عبر تحت مجموعة من الأشجار، وهو يسمع صوت طنطنة مما جعله يخشى وجود حية ذات جرس.

هنا خيل له أن يرى حذاء ذا عنق وأنه رأى شيئا يلمع..

وفي اللحظة التالية كان يحدق في عيني فرانسيس دولارهايد!

رأى فوهة مسدس وسمع صوت طلقة فركله جراهام في الهواء على الفور... طار المسدس إلى الأشجار. سقط جراهام على الأرض وألم غامض يحرق صدره.. هنا وثب دولارهايد في الهواء ثم هبط على معدته بحذائيه ثم انتزع سكينا من ثيابه. هوت السكين على عين جراهام لكنه أدار رأسه فانغرست بعيدا..

تحرك دولارهايد للأمام ورفع السكين ثانية ليغرسها في رأس جراهام.

هنا دوى صود ارتطام إذ هوت مولى على وجه دولارهايد بعصا الصيد فانغرس، الشص في وجهه. مد يده ينزع الشص فانحشرت كذلك.. انتزع هذين بصعوبة وهرع نحوها بالسكين..

صرخت في الصبي:

- اركض يا صغير.. اركض ولا تنظر للخلف!

ركض ويلي الصغير مذعورا.. وكانا يسمعان صوت الأغصان تتهشم من خلفهما. أغلقت الباب خلفها ثم راحت تبحث عن المسدس.. في ذات اللحظة التي بلغ هو فيها البيت..

كان المسدس في يدها وكان هذا كافيا.. عندما انفتح الباب بانفجار أطلقت رصاصة وأحدثت فتحة في حجم جحر الفأر في فخذه، ثم طلقة أخرى في وجهه.. جلس على الأرض فركضت نحوه وأطلقت رصاصتين على وجهه من جديد.. استند رأسه إلى الجدار..

مزق ويلي ملاءة وهرع ليرى ويل. كانت قدماه ترتجفان

وسقط على الأرض عدة مرات..

جاءت سيارة الشريف والشرطة قبل أن تتصل بهم مولى..

كانت في الحمام تغسل وجهها من الدم والعظام المتناثرة..

رفع أحد رجال الشرطة السماعة الساقطة وكلم كراوفورد في واشنطن.. وكان كراوفورد هو الذي سمع الطلقات وطلب الشرطة..

قال الشرطي:

- لا أعرف.. لقد أحضروه الآن..

ونظر من النافذة وقال:

- لا يبدو الأمر مريحا بالنسبة لي.

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس والعشرون

عندما فتح ويل عينيه في المستشفى رأى الساعة الموضوعة عند قدم الفراش. وأدرك أنها عناية مركزة..

إنها الساعة الرابعة. لا يعرف معنى الساعة الرابعة ولا يهتم..

وعندما فتح عينيه ثانية قرأ أنها الثامنة.. نظر بجواره فرأى مولى..

كان الألم في جانب صدره وعنقه شنيعًا..

عندما جاء كراوفورد أخيرا لم يستطع الكلام، فناوله هذا مفكرة وقلما.. كتب سؤاله عن مولى فكان رد كراوفورد:

- مولى وويلى بخير.. دولارهايد مات.. أعدك أنه مات.. لقد فحصت البصمات بنفسي.. أنت بخير لولا الطعنة التي تلقيتها في وجهك.. اضطر الأطباء لاستئصال طحالك، لكن من الذي يريد طحالا؟.. برايس ترك طحاله في بورما عام 1941.

- وماذا عن الجسد المحترق الذي حسبناه هو؟

لا نعرف.. غالبا هو شخص قتل قبل يوم اسمه أرنولد لانج وجدوا سيارته وحدها في ممفيس.. كل شيء يدعونا للشك في أنه رآنا ونحن نحقق وعرف أننا وجدناه، هكذا فرّ سريعا وقتل لانج هذا ثم حمل جثته.. قتل رالف ماندى ثم اختطف ريبا وجعلها تعيش مسرحية اعتقدت معها أنه مات.. ثم شبَّ الحريق.. أعتقد أنه راقب ريبا جيدا فلو كانت تعثرت أو فقدت الوعي لحملها خارج البيت حملًا.

كان يريد استكمال الكلام لكن الممرضة جاءت وطردته من الغرفة طردا لانتهاء وقت الزيارة، وكان يحاول أن يستجمع خيوط كلامه.

وصل خطاب من د. هانيبال لكتر يهنئ جراهام بالشفاء، ويقول إنهم أخذوا كتبه كلها من المصحة، وهذا يدل على تخلف المجتمع الصحيح إما أن يعدم أمثال هانيبال أو يسمحوا له بالتكسب.. يتمنى له كذلك ألا يصير قبيحا بعد ما أصاب وجهه.

لم يتردد كراوفورد كثيرا قبل أن يحرق الخطاب فيما بعد أكمل الكلام فأخبر جراهام أن دولارهايد كان يستعمل طاقم أسنان جدته المصنوع من الفولكانيت.. لا أحد يستعمل الفولكانيت اليوم لكنهم يستعملون الأكريليك.

جاءت الممرضة وحقنت جراهام في الخط الوريدي بمادة ديميرول.. راح يذوب بين الحلم والذكرى..

كان هناك في ذلك الربيع بعد ما قتل جاكوب هوبس عندما زار مدينة شيلوه ([2]).

كان يوما من أيام إبريل وهو يمشي في الطريق الأسفلتي وكان العشب ناميا نضرا.. جراهام كان يعرف ما حدث هنا في إبريل 1862..

جلس على العشب يراقب الطريق عندما مرت به عربة مسرعة.. أدرك أن العربة هشمت ظهر ثعبان يعبر الطريق..

راح الثعبان ينحدر عبر الطريق في عدد لا ينتهي من أرقام 8.

نهض جراهام من على العشب.. التقط الثعبان من ذيله الناعم وفرقع به كأنه سوط.. ثم ألقى به في البركة..

خطر له أن سحر شيلوه هذا لا يخلو من شر.. لكنه الآن وهو يترجح بين الحلم واليقظة يدرك أن شيلوه لم تكن شريرة..

كانت لا مبالية وتتحمل رؤية أي شيء..

إنها الآلة الخضراء حيث لا رحمة.. نحن نصنع الرحمة في أجزاء من عقولنا.. نحن نملك كل العناصر اللازمة لعمل الرحمة، وعمل القتل كذلك..

هل الرغبات الشريرة القديمة لدينا مهمة كأنها الفيروس الذي يصنعون منه اللقاح؟..

شيلوه ليست مسكونة. الناس هم المسكونون

أنا وهبت حياتي كلها من أجل أن أعرف الجنون والحماقة..

توماس هاريس

1981


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

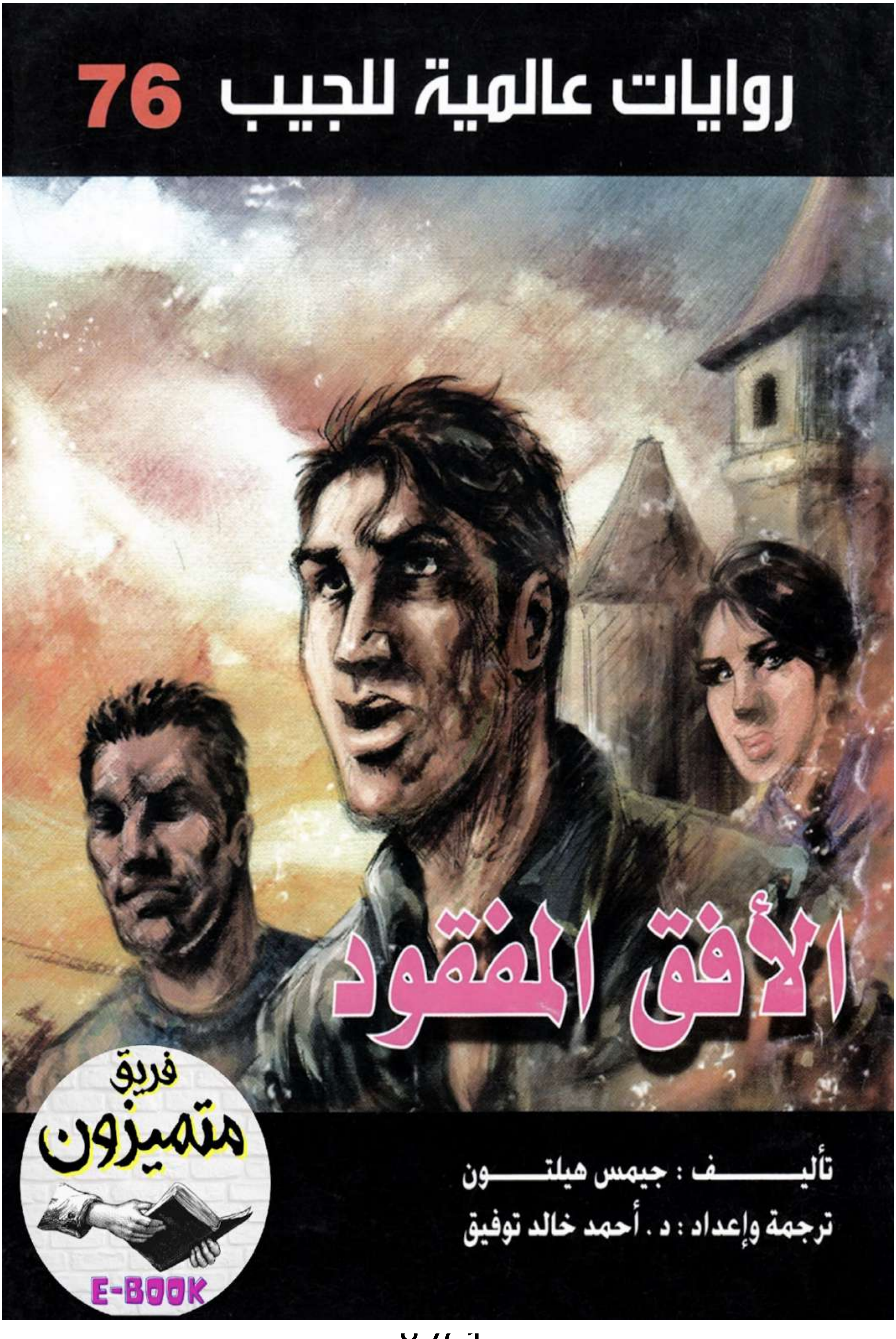
Notes

[←1]

The Great Red Dragon and the Woman clothed with the Sun Bake

[←2]

موقع معركة دموية جدا في الحرب الأهلية الامريكية.



روايات عالمية للجيب 76
الأفق المفقود
فريق متميزون
E-BOOK
تأليف : جيمس هيلتون
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (76)

الأفق المفقود

تأليف: جيمس هيلتون

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المترجم..

يعتقد كل أمريكي أن أبحاث القنبلة الهيدروجينية كانت تتم في (شانجري - لا).. لا أحد يعرف أين هي، لكن الصحف تناقلت الخبر وقتها بغباء منقطع النظير. القصة هي أن الصحفيين سألوا الرئيس الأمريكي روزفلت عن مكان الأبحاث، وفي رواية أخرى سألوه عن مصدر انطلاق طائرات أمريكية قصفت طوكيو، فارتبك وقال أول اسم خطر بباله (شانجري - لا). الحقيقة أن هذا مكان تخيلي ورد في رواية الأفق المفقود للأديب البريطاني جيمس هيلتون، لكن الصحافة راحت تكتب عن مخاطر التجارب النووية على سكان (شانجري - لا) البؤساء!

فيما بعد أطلق الرئيس روزفلت اسم (شانجري - لا) على محل إقامته في ميرى لاند، وهو المكان الذي غير أيزنهاور اسمه إلى كامب ديفيد! أنت تعرف هذا الاسم الأخير طبعًا...

في طفولتي كان هناك فيلم شهير جدًّا من بطولة بيتر أوتول اسمه (وداعًا مستر تشبس)، وفيما بعد عرفت أنه عنوان رواية مهمة لنفس الكاتب.. جيمس هيلتون.

ولد هلتون عام 1900 في لي ببريطانيا، وتخرج في كامبريدج.

كانت أول قصة له هي (كاترين نفسها - 1920).. ثم جاءت القصة التي عرفه الجميع بها (الأفق المفقود - 1933) ثم (وداعًا مستر تشبس - 1934) و(الحصاد العشوائي - (1941.

كتب (الأفق المفقود) بعد ما قرأ بضع مقالات عن التبت في ناشونال جيوجرافيكس.. وقرأ عن رحالة بريطانيين اختفوا في

الشرق الأقصى، قيل إنهم يعيشون في معابد بوذية مجهولة بالتبت، يمارسون ديانة الزن. كان على هذا الكتاب أن ينتظر.. فلم يعرف النجاح إلا بعد نجاح وداعًا مستر تشبس، وهو بالمناسبة أول وأنجح كتب الجيب توزيعًا في التاريخ. لقد صار بوسع الرجل العادي أن يشتري الكتب الغالية وأن يضعها في جيبه ويطالعها في المترو..

استلهم هلتون أباه في نموذج المستر تشيبس. وقد كان أبوه مدير مدرسة دينية في والتماستو. القصة على كل حال تفوح برائحة المدارس البريطانية العريقة الصارمة مثل كامبريدج وسواها، وهو تقريبا الجو الذي عرفناه من هاري بوتر. وقد حقق الكتاب أعلى مبيعات لدى صدوره.

عامة يمكن أن نلخص أهم كتب هلتون:

- كاترين نفسها 1920
- ممر العاصفة 1922
- مروج في ضوء القمر 1926
- اللهب الفضي 1928
- فارس بلا درع 1933
- الأفق المفقود 1933
- وداعًا مستر تشيبس 1934
- قصة دكتور واسيل 1944
- مرة ومرة أخرى 1953

قصة دكتور واسيل واقعية تحكى عن معاناة البريطانيين في الملايو عندما دخلها اليابانيون، وقد رأيتها في فيلم لسيسيل دى ميل.

عام 1954 توفي هيلتون في كاليفورنيا مصابًا بسرطان الكبد.

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

مقدمة

اشتعل السيجار، وبدأنا نمر بحالة خيبة الأمل التي يمر بها أصدقاء المدرسة القدامى، عندما يلتقون كرجال وقد وجدوا أنهم تفرقوا أكثر مما كانوا يحسبون.

كان روذرفورد يكتب القصص وويلاند سكرتيرًا في السفارة، وكان قد دعانا للعشاء في تمبلهوف، ولم يكن مسرورًا لهذا على ما أعتقد. لكنه كان يحتفظ ببرود الدبلوماسيين. بدا أنه لا يوجد سبب لتجمعا معًا سوى كوننا ثلاثة إنجليز عزاب في عاصمة أجنبية، وقد لاحظت أن لمسة التحذلق والتأنق الزائد في حركات (وايلاند ترتيوس) لم تختف، وكنت أحب راذرفورد أكثر.. لقد تغير عن الصبي النحيل الذي كنت أضايقه في الماضي. إن فكرة أنه يكسب أكثر منا وحياته أمتع منا، جعلتني أنا ووايلاند نشترك في عاطفة واحدة هي الحسد.

كان الليل أبعد ما يكون عن الملل. راقبنا طائرات لوفتهانزا وهي تصل من كل مكان في أوروبا، وعند الغسق عندما توهجت المصابيح بدا المشهد متألقًا كأنه مسرح. كانت إحدى الطائرات البريطانية ومشى قائدها أمام منضدتنا وحيا وايلاند الذي لم يعرفه أولًا. دعوناه بعد قليل إلى مائدتنا، وكان رجلاً لطيف المعشر اسمه ساندرز. وقد اعتذر له وايلاند لأنه لم يتعرفه وهو يلبس الخوذة، فقال الطيار ضاحكًا:

- « أعرف هذا.. لا تنس أننى كنت في باسكول.. »

ضحك وايلاند كذلك لكن بتلقائية أقل، وانتقلنا لمواضيع أخرى.

كان ساندرز إضافة ممتعة لصحبتنا وشربنا الكثير معًا. وقد نهض وايلاند لبعض أمره فاستدار روزرفورد يسأل الطيار:

- « كنت تتكلم عن باسكول.. أنا أعرف المكان نوعًا فماذا كنت تقصده؟ »

ابتسم ساندرز في خجل وقال:

- « تجربة مثيرة معينة عندما كنت في الخدمة العسكرية.. »

لكنه كان غير قادر على الكتمان أكثر:

- « رجل أفغاني أو هندي فر بواحدة من طائراتنا.. أسقط الطيار وارتدي ثيابه ثم تسلق إلى قمرة القيادة دون أن يراه أحد.. أشار للميكانيكيين وانطلق بشكل ممتاز.. المشكلة أنه لم يعد قط.. »

- « متى حدث هذا؟ »

- « لابد أنه منذ عام.. 31 مايو.. كنا نخلي المدنيين من باسكول إلى بيشاور بسبب الثورة. كانت هناك فوضى في كل مكان ولولا هذا ما حدث ما حدث.. والقصة تريك أن الثياب هي ما يصنع الرجل.. »

بدا روزرفورد مهتمًّا:

- « هل لي أن أعتقد أن أكثر من رجل يحرس الطائرة في ظروف كهذه؟ »

- « هذا صحيح.. لكن هذه الطائرة كانت طائرة خاصة بنيناها لمهراجا.. وكان رجال المساحة الهنود يستعملونها

للرحلات ذات الارتفاع العالي في كشمير.. »

- « تقول إنها لم تصل لبشاور قط؟ »

- « لم تصل هناك ولا أي مكان آخر.. بالطبع لو كان الرجل من القبائل فقد كان بوسعه أن يصل للجبال، ولربما فكر في إبقاء الركاب كرهائن. أعتقد أنهم جميعًا ماتوا بشكل ما. هناك أماكن عديدة على الحدود يمكن أن تتحطم عندها فلا يسمع عنك أحد.. »

- « كم راكبًا كانوا عليها؟ »

- « أربعة على ما اعتقد... ثلاثة رجال وامرأة مبشرة.. »

- « هل كان بين الرجال من يدعى كونواى؟ »

هنا بدت الدهشة على ساندرز:

- « نعم.. جلورى كونواى.. هل تعرفه؟ »

- « كنت أنا وهو في نفس المدرسة.. ولكن هذه الحادثة لم ترد في الجرائد.. لم أقرأ عنها قط.. »

قال الطيار في ارتباك:

- « القصة كلها لم تكن مما يشرف الحكومة، لذا اكتفت بالإعلان أن طائرة من طائراتها اختفت.. وهذا لم يجذب اهتمام الكثيرين.. »

هنا لحق بنا وايلاند فقال له ساندرز:

- « هذان الشابان كانا يتكلمان عن كونواي.. آسف لأنني حكيت لهما قصة باسكول.. »

صمت وايلاند لفترة، ثم قال:

- « أشعر بأنه من الخطأ أن نؤرخ لهذه الحادثة.. كنت أعتقد أنكم معشر الطيارين تقسمون ألا تقصوا قصص المدرسة بالخارج..»

هكذا تجاهل الشاب بكلامه، ثم استدار لروزرفود، وقال:

- « بالنسبة لك لا مشكلة.. لكنك تفهم أن بعض مشاكل الحدود يفضل أن تظل غامضة.. »

- « لكننا بالفعل نرغب في معرفة القصة.. »

- « والقصة لم تكتم عن أي شخص لديه أسباب لمعرفتها.. كنت في بيشاور وقتها وأؤكد لك هذا.. هل كنت تعرف كونواى جيدًا؟ »

- « عرفته في أكسفورد قليلًا.. هل قابلته كثيرًا؟ »

- « عندما كنت في أنجورا.. التقينا مرتين أو ثلاث مرات.. كان فتي ماهرًا لكنه خمول.. »

- « كان بارعًا فعلاً.. وهو بطل رياضي من أبطال المدرسة كما أنه أفضل عازف بيانو هاو أعرفه.. لكن لم نسمع عنه عندما قامت الحرب...... »

قال وايلاند:

- « لابد أنه عمل في أكثر من مهنة.. وكان علمه باللغات الشرقية يتيح له الكثير.. »

انتهت الأمسية وكان الوقت قد تأخر. فنهضنا لنرحل أنا وروزرفورد.. وكان ساندرز لطيفًا فتمنيت أن أقابله ثانية.

كنت سأستقل قطارًا عابرًا للقارة في ساعة مبكرة من صباح الغد، وقد وقفت أنتظر التاكسي فسألني روزرفورد إن كنت أحب أن أمضى بعض الوقت في فندقه. قلت إن هذا يناسبني فقال إنه سيكلمني عن كونواى.

لم أكن أعرف كونواي تقريبًا فقد غادر المدرسة وأنا في نهاية الصف الأول ولم أره بعدها. فقط رأيت منه لمسات كرم لم يكن عليه أن يظهرها، ثم ساد صمت غريب وبدا أننا نفكر في شخص معين.. لا أعرف السبب لكن كل من قابل كونواى ولو للحظة ظل يذكره بوضوح لفترة طويلة. كان مرموقًا وهو شاب.. فارع القامة وسيمًا..

ألقى ذات مرة خطابًا باليونانية في يوم الخطابة. أتذكر هذا.. كان من حوله جو إليزابيثي ساحر بما يحمله من تميز شكلي وعقلي. لم تعد حضارتنا قادرة على أن تربي أناسًا مثله هذه الأيام. وأعتقد أن أمثال وايلاند لم يكونوا يميلون له.. عن نفسي لم أكن أحب أمثال وايلاند البتة، بكل ما لديهم من ذات متضخمة وجنون عظمة.

مشينا قليلاً في صمت ثم قال روزرفورد:

- « كانت أمسية ممتعة خاصة عندما سمعت ساندرز يحكي تلك القصة في باسكول. سمعتها من قبل لكن لم أصدقها.. كانت جزءًا من رحلة عجيبة لا أصدق بتاتًا أنها حدثت. الآن هناك سببان لتصديقها.. لابد أنك خمنت أننى لست شخصًا

سهل الخداع وقد سافرت كثيرًا وأعرف أن هناك غرائب كثيرة في العالم... »

ثم فطن إلى أن ما يقوله ليس ذا معنى مهم لي فتوقف وضحك. وقال:

- « هناك شيء أكيد.. لا أثق بوايلاند. لا يمكن أن أحكى له قصتي وأفضل أن أحكيها لك أنت.. »

قلت له:

- « أنت تجاملني.. »

- « كتابك يجعلني لا أفعل هذا.. »

لم أخبرك أنني ألفت كتابًا متخصصًا (علم الأعصاب ليس مجالًا يناسب الجميع) وقد أدهشني أن روزرفورد سمع عنه..

قال لي:

- « كنت مهتمًّا لأن فقدان الذاكرة كان مشكلة كونواي في وقت بعينه.. »

وصلنا للفندق فحصل على مفتاحه، وإذ صعدنا للطابق الخامس قال:

- « كونواي لم يمت.. على الأقل حتى بضعة أشهر.. »

وصل المصعد فسألته:

- « هل أنت واثق من هذا؟ »

قال:

- « واثق لأنني سافرت معه من شانجهاى إلى هونولولو.. في نوفمبر الماضي... »

جلسنا في مقعدين مريحين في غرفته وتناولنا السيجار.. ثم قال لي:

- « نحن لا نتبادل المراسلات ويجب أن أقول إنه لم يخطر بذهني.. كنت أزور صديقًا في هانكو وعدت لبكين بالقطار. قابلت هناك مبشرة فرنسية لطيفة مسافرة إلى تشونج كيانج حيث يوجد الدير الخاص بها.. وقد راحت تحكي لي عن أحوالها. كانت تحكي لي عن مستشفى الإرسالية الذي تعمل به.. تحكى عن حالة حمى جاءت منذ أسابيع.. لابد أنه رجل أوروبي، برغم أنه لم تكن معه أوراق وهو لا يعرف من هو. كان يلبس ثيابًا محلية لكنها فقيرة، وتبينت الراهبات أنه سقيم جدًّا.. وكان يتكلم الإنجليزية بلكنة راقية جدًّا. قلت إنه من الغريب أن تلاحظ لكنة رجل يتكلم بلغة لا تعرفها أصلًا. ضحكت كثيرًا ودعتني للزيارة فيما بعد.. بدا لي هذا مستبعدًا طبعًا لأن معناه تسلق جبل إفرست. كان مكتوبًا عليَّ أن أعود لتشونج كيانج بعد ساعات لأن القطار تعطل، وبصعوبة استطاع العودة بنا. وهناك عرفنا أن المحرك لن يتم إصلاحه قبل 12 ساعة. قررت أن اتصل بالسيدة المسنة التي دعتني لزيارتها..

رحبت بي برغم دهشتها.. أنا لست كاثوليكيًّا لكن دعني أؤكد لك أن هؤلاء الكاثوليك ظرفاء فعلاً، وصلت هناك فوجدت أنهم أعدوا لى الغداء وجلس معي طبيب صيني ظريف يتكلم خليطًا من الإنجليزية والفرنسية. ثم جاءت الأم الراهبة لتريني المستشفى التي كانت فخورًا بها.. خطر لها أننى قد أكتب عن

المستشفى في كتاب.. كان المكان غاية في النظافة ويبدو أنه يدار باقتدار شديد.

ثم ذهبنا لنرى ذلك الإنجليزي. رأيت مؤخرة رأسه أولًا وبدا لي نائمًا، قلت له:

- « عصرًا طيبًا.. »

نظر لي في دهشة ثم رد التحية. بدا واضحًا أن لكنته راقية فعلًا كما قالت. كنت قد عرفته.. عرفته برغم تبدل ملامحه ولحيته. كان هو كونواي. لو فكرت أكثر لخطر لي أنه ليس هو.. لكني تصرفت وحي اللحظة وناديت اسمه فنظر لي في حيرة. نفس زرقة العينين.

كان من المستحيل أن تخطئه.. يكفي أن تراه مرة لتعرفه للأبد.. قلت للطبيب والراهبة إنني أعرف الرجل. لقد فقد الذاكرة..

كان من المستحيل عليهما فهم طريقة وصول كونواي إلى تشونج كيانج. لأختصر القصة، بقيت هناك ليلتين آملاً أن أجعله يتذكر.. كان مسرورًا بصحبتي على كل حال، وعندما قلت إن عليَّ أن آخذه للوطن بدا أنه غير مهتم. قمت بترتيب الأوراق وأخفيت كل شيء عن الصحافة.. كان هذا مغريًا للصحفيين جدًّا لكني نجحت في إخفائه.

« غادرنا الصين واتجهنا عبر اليانجتسي إلى نانكنج ثم شانجهاى. وكانت هناك سفينة يابانية مستعدة.. »

قلت له:

- « أنت خدمته خدمة العمر.. »

لم ينف ذلك وقال:

- « لا أعرف السبب.. لكن هناك شيئًا في كونواي يجعلك تستمتع بعمل أقصى ما بوسعك.. »

قلت موافقًا:

- « نعم.. كان له سحر خاص.. جاذبية كجاذبية الأطفال. حتى ونحن نتقابل في قلب الصين وقد صار مستقبله غامضًا وماضيه مبهمًا، كان فيه سحر خاص.. »

« على ظهر السفينة حكيت له كل شيء عنه وبدا مندهشاً.. كان ما زال يذكر اللغات التي يعرفها. مثلاً كان يتكلم الهندية بطلاقة، لذا قال إنه يعتقد أنه كان يعمل شيئًا في الهند.

في يوكوهاما صعد العازف الشهير سيفكنج للسفينة وتعرف بكونواى.. ودارت بينهما محادثة بالألمانية. بعد أيام قام سيفكنج بعمل بروفة عزف بالبيانو فذهبنا لنسمع. عزف الكثير من شوبان فهو مغرم به كما تعلم.. ثم نهض مع معجبيه مغادرين القاعة، هنا حدث شيء غريب. لقد اتجه كونواى للبيانو وبدأ يعزف مقطوعة سريعة لا أعرفها.. توقف سيفكنج عن الكلام ليعرف أي مقطوعة هذه.. لكن كونواى بذل جهدًا خارقًا ليتذكر فلم يستطع.

قال سيفكنج:

- « يا سيدي الفاضل.. أنا أعرف كل شيء عزفه شوبان في حياته.. هذه الموسيقا تنتمى له لكنه لم يكتبها.. أنا واثق من

هذا.. »

زعم كونواي بعد هذا أنه سمع المقطوعة من أحد تلاميذ شوبان. كان هذا مستحيلاً ببساطة.. ثم يأتي لغز المقطوعة نفسه.. على كل حال تلقى سيفكنج وعدًا بأن يعيد كونواى العزف في أمريكا ليتم عمل أسطوانة لهذا اللحن. يؤسفني أنه لم يفعل.

قال روزرفورد هنا إنه ما زال هناك متسع من الوقت للحاق بقطاري، لأن قصته قد انتهت فعليًا هنا..

- « لقد استرد ذاكرته في تلك الليلة.. جاء كونواي لغرفتي وحكي لي كل شيء وقد صار وجهه أقرب للتعاسة الغالبة. للحزن الكوني.. قال إن كل شيء بدأ يعود له أثناء عزف سيفكنج على البيانو. جلس على حافة الفراش وبدأ ينتقى كلماته..

قدم لي ما أعتبره مجاملة عظيمة:

- « شكرًا الله يا روزرفورد على أنك قادر على التخيل.... »

ارتديت ثيابي وأقنعته بأن يرتدى ثيابه، وخرجنا على ظهر المركب. كانت ليلة هادئة والنجوم ترصع السماء. والبحر كأنه لبن لزج.

بدأ يتكلم بالتدريج.. ولم تنته قصته إلا في موعد الإفطار مع شعاع الشمس الحار. ثم يكن قد أنهى كل شيء.. ملأ ثغرات كثيرة في القصة في الأربع والعشرين ساعة التالية..

عند منتصف الليلة التالية دنونا من هونولولو.. شربنا بعض الكئوس في قمرتي وانصرف في العاشرة مساء، ولم أره قط بعدها.

قلت في دهشة:

- « لا تعنى أنه........ »

وجالت بذهني صورة انتحار هادئ عمدى رأيت مثله من قبل على قارب.

لكن روزرفورد ضحك وقال:

- « لا.. لم يكن من هذا الطراز.. فقط تخلى عنى. عرفت فيما بعد أنه انضم لطاقم سفينة موز متجهة إلى جزر فيدجي.. »

- « كيف عرفت؟ »

- « كتب لي من بانجوك.. مع شيك يسدد به التكاليف التي دفعتها أنا.. شكرني وقال إنه متجه في رحلة للشمال الغربي.. وهذا كلام غامض جدًّا.. بلاد كثيرة جدًّا حتى برلين نفسها تقع شمالى غرب بانجوك.. »

كانت قصة غريبة فعلاً، أو هو حكاها بحيث تبدو كذلك. لا أعرف..

- « راقت لي القصة جدًّا، وقد قمت بتدوين بعض الملاحظات ونحن على ظهر المركب.. وفكرت في أن أضم كل هذه الخواطر في قصة سردية متماسكة. كان متحدثًا لبقًا وقد بدأت أفهمه.... »

ثم نهض لحقيبة دبلوماسية أخرج منها حزمة من الأوراق.. وقال:

- « تذكر مقولة (ترتوليان) اللاتينية: إنه حقيقي لأنه مستحيل. ليست مقولة سيئة.. »

أخذت النص وقرأت معظمه في القطار. سوف أعيده له متى بلغت إنجلترا. لكن روزرفورد أرسل لي خطابًا يطلب أن أبقى الكتاب معى لأنه مسافر إلى كشمير.. فلن يكون له عنوان ثابت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

ساء الوضع جدًّا في باسكول في الأسبوع الثالث من مايو، ويوم 20 جاءت طائرات من بيشاور لإخلاء السكان الغربيين. كان عددهم أكثر من 80 وقد تم نقلهم بأمان عبر الجبال. كانت هناك طائرة تبرع بها مهراجا شاندرابور، وكانت تقل أربعة ركاب؛ هم مس روبرتا برنكلو من الإرسالية الشرقية، وهنري برنارد وهيو كونواى والكابتن تشارلز مالنسون مستشار صاحب الجلالة. هكذا كان ترتيب الأسماء في الصحف الهندية والبريطانية.

كانت سن كونواى سبعة وثلاثين عامًا وقد قضى في باسكول عامين. وكان يعرف قدراته جيدًا ويعرف أن الوظائف الرائعة ليست له.. ولهذا كان الناس يعتقدون أنه يلعب أوراقه دون براعة، بينما الحقيقة أنه كان يلعب بكفاءة بالغة.

كان برونزيًّا فارع القامة يوحي بأنه عنيف.. فقط إلى أن يضحك.. هنا كان يبدو كطفل. وكانت له عين ترمش بشكل عصبي يتزايد مع الإرهاق.. وبالطبع تزايدت هذه العلامة بسبب الجهد الذي بذل في إخلاء المكان من الأوراق. كان سعيدًا لأنه سيستقل طائرة المهراجا الفاخرة بدلاً من الطائرات المزدحمة العادية.

بعد رحلة استمرت ساعة قال مانسون إنه يعتقد أن الطيار لا يمشي في خط مستقيم. كان مالنسون شابًّا في العشرينيات من عمره ذكيًّا لكنه غير مثقف، وقد قضى معه كونواى ستة أشهر في باسكول وأحبه فعلاً.

لم يكن كونواي راغبًا في الكلام، لذا أغمض عينيه وقال إن الطيار يعرف ما يجب عمله.

بعد نصف ساعة بدأ يشعر بالإرهاق مع رتابة صوت المحرك. فقال له مالنسون:

- « كنت أعتقد أن فينر يقودنا.. »

- « أليس كذلك؟ »

- « لقد نظر لنا الطيار.. ولم يكن هو.. »

- « ليست مشكلة.. »

- « لكن فينر أكد لنا أنه سيقود الطائرة، فمن هذا؟ »

- « وكيف لي أن أتذكر وجه كل طيار في القوة الجوية؟.. عندما نصل إلى بيشاور قم بالتعرف عليه.. »

- « لن نصل لبيشاور بأى شكل.. الرجل خارج المسار وأعتقد أنه لا يعرف أين هو، إذ يطير على هذا الارتفاع.. »

لم يكن كونواي مباليًا. فليس هناك ما يجب عمله في بيشاور.. ليس متعجلاً. هو غير متزوج وليس له أصدقاء يقلقون على تأخره.

بدأ يشعر بتقلص معدته الذي يخبره أن الطائرة تهبط.. وكان يوشك على الكلام مع مالنسون عندما نهض هذا ليوقظ بارنارد الأمريكي..

ونظر مالنسون خارج النافذة وقال صارخًا:

- « رباه!.. انظر هناك!.. »

كان المنظر من النافذة ليس كما توقع.. لم ير هناجر الطائرات ولا شيء سوى الضباب يغلف منطقة منعزلة. كانت الطائرة تهبط بسرعة لكنها ما زالت عالية جدًّا عن الطيران المعتاد. ظهرت الجبال من بعيد.. وظهرت الحواف الضبابية للوديان.. المشهد يوحي بالحدود. وأدرك أنهم ليسوا قرب بيشاور بتاتًا.. يبدو أن الطيار ضل طريقه فعلاً.

كانت حرارة الجو تتزايد.. بدا أن الأرض من تحتهم فرن مفتوح..

قال الأمريكي بصوت مبحوح:

- « يبدو أنه يريد الهبوط.. »

قال مالنسون:

- « لا يستطيع.. سوف يتهشم لو حاول.. »

لكن الطيار هبط فعلاً، وببراعة لا بأس بها أبدًا توقفت الطائرة. ما حدث بعد هذا غريب.. لقد انقضت مجموعة من رجال القبائل واللحي والعمائم من كل الاتجاهات.. أحاطت بالطائرة ومنعت خروجنا، ترجل الطيار وانضم لهم، وهنا فهمنا أنه ليس فينر فقط، بل هو كذلك ليس بريطانيًّا أصلًا.

راحوا يملئون الخزانات بالجازولين، بينما كانت أي محاولة احتجاج منا تقابل بحركة مهددة من البنادق. كان الحر شديدًا وقد صار الهواء داخل الطائرة كأنه فرن.. حتى أوشك الركاب على فقدان الوعى.

ناولوهم خزانًا امتلأ بالماء من النافذة.. ثم تسلق الطيار إلى قمرة القيادة وحرك أحدهم المروحة، فانطلقت الرحلة من جديد. وكان الانطلاق بارعًا فعلًا برغم ضيق المكان.

وكان الوقت عصرًا عندما ارتفعت الطائرة واتجهت للشرق.

هدأ الهواء البارد من روعهم، لكنهم ظلوا لا يصدقون أن هذا حدث فعلاً.. كانوا يشعرون بمهانة لم يشعروا بها من قبل.

اقترح مالنسون النظرية التي لم يجدوا أفضل منها.. لقد تم اختطافهم من أجل فدية.. هذا حدث من قبل مرارًا وفي الغالب يعاملك رجال القبائل معاملة كريمة إلى أن تدفع الحكومة الفدية. تجربة منفرة لكنها تنتهى بسرعة وتترك لك قصة جيدة تحكيها لأصدقائك فيما بعد.

قال الأمريكي:

- « في الحقيقة لا أجد في هذا ما يشرف الحكومة البريطانية.. أنتم معشر البريطانيين تنسلون بقصص السطو المسلح عندنا في شيكاغو، لكن لا أعرف أي قصة قام فيها المسلحون بسرقة طائرة...»

كان رجلاً ضخمًا لا يعرف عنه سكان باسكول كثيرًا، لكنهم يعرفون أنه قادم من إيران وكان يعمل في النفط.

أما كونواي فكان يكتب رسائل بعدة لغات.. وكان ينوى أن يلقى بها من الطائرة.. وهو أمل ضئيل جدًا. مس برينكلو جلست صامتة لا تعلق.. بدا أنها امرأة حضرت حفلاً تدور فيه أمور لا تقرها بأى شكل.

كان كونواى مرهقًا وأغمض عينيه ونام. قال مالنسون للأمريكي:

- « أعرف أنه لم ينم طيلة أربعة أيام.. من حسن حظنا أن يكون معنا رجل كهذا.. خاصة أنه يجيد لغات شرقية كثيرة ومخه مرتب..»

قالت مس برينكلو:

- « أعتقد أنه رجل شجاع جدًّا.. »

لم يكن كونواي نائمًا في الواقع. كان يسمع حركة الطائرة وهديرها.. كان يشعر بتقلص في معدته.. فهو يعرف جيدًا عن نفسه أنه ليس ممن يحبون المخاطر لذاتها. كان يجد في الأمر بعض الإثارة، لكنه في الوقت ذاته لم يكن ممن يضحون بحياتهم. وقد حارب في فرنسا فرأى ما يكفيه من أهوال في حروب الخنادق.

لقد أقلقه ما سمعه من مالنسون.. وقدر أن مس برينكلو ستكون أكثر أهمية وقيمة من الآخرين، لأنها امرأة.. وهذا يعني أنها تحتاج إلى عناية أكثر. أدرك أنها ليست شابة وليست جميلة.. وشعر بإشفاق عليها لأنه أدرك أن مالنسون والأمريكي لا يحبان النساء المبشرات.

قال لها:

- « واضح أننا في ورطة غريبة.. لكني مسرور أنك تأخذين الموضوع بهدوء.. لا أعتقد أن شيئًا خطيرًا سيحدث... أرجو أن تخبريني بأي شيء يمكن عمله لتكوني مستريحة أكثر.. »

التقط بارنارد الكلمة:

- » مستريحة؟.. لابد أنك مستمتعة بالرحلة جدًّا.. من المؤسف أننا لا نملك مجموعة أوراق لعب.. »

قال كونواى باسمًا:

- « لا أظن مس برينكلو تلعب الورق.. »

قالت في حماسة:

- « بالعكس.. لا أرى ما يمنع ذلك فليس هناك شيء ضدها في الإنجيل!.. »

ظلت الطائرة محلقة طيلة العصر في طبقات الجو العالية، دون أن تبدو الأرض تحتها. فقط كان من المؤكد أن الرحلة استهلكت الكثير جدًّا من الجازولين.. لم يكن كونواي يعرف شيئًا عن الطيران لكنه قدر أن من يحلق بهم هو خبير.

مع الوقت بدا واضحًا أن مالنسون هو الأقل تماسكًا والأكثر توترًا. وفجأة علا صوته فوق هدير المحرك قائلاً في غضب:

- « انظر.. هل سنظل هنا بينما هذا المخبول يفعل ما يريد؟.. ماذا يمنعنا من اقتحام قمرة القيادة وإخراجه؟.. »

قال كونواى:

- « لا شيء على الإطلاق.. سوى أنه مسلح ونحن لا.. كما أن أحدنا لا يعرف كيف يهبط بهذه الآلة.. »

- « لا أعتقد أن الأمر صعب.. أجسر على القول إنك تقدر على هذا.. »

- « عزيزي.. لماذا تتوقع مني دومًا القيام بالمعجزات؟ »

- « الأمر يدمر أعصابي.. لم لا نجبره على ذلك؟ إنه على بعد ستة أقدام منا ونحن ثلاثة رجال.. ربما استطعنا أن نرغمه على أن يخبرنا بحقيقة هذه اللعبة.. »

كانت قمرة القيادة مفصولة عن الركاب بباب فيه لوح زجاجي قابل للفتح، وعن طريقه يستطيع الطيار التفاهم مع المسافرين. دق كونواي على الزجاج.. هنا انفتح الزجاج وظهرت فوهة مسدس بساقية.. تراجع كونواى بلا كلمة.

قال مالنسون:

- « لا أحسبه يقدر على إطلاق النار.. إنه يبلف.. »

قال كونواى:

- « سوف أتركك تتأكد من هذا.. إن الدخول في معركة بلا أمل في النصر عمل أحمق.. وأنا لست هذا الطراز من البشر.. »

كان مرهقًا.. في طباعه عادة يعتبرها الناس كسلًا، برغم أن هذا غير صحيح.. كان قادرًا على القيام بأشق الأعمال لو طلب منه ذلك، لكنه لم يكن مولعًا بكثرة الحركة.. ولم يكن يستمتع بالمسئولية. وكان يتخلى عن المسئولية على الفور لمن يشعر بأنه قادر على تحملها. ولم يكن بارعًا في فن القيام بعمل لا شيء عندما لا يكون هناك شيء يعمل. لذا كان الناس يشعرون بأن فيه لا مبالاة معينة وقت الخطر. وكان يعشق الهدوء وأن يكون وحيدًا.

لهذا استرخي للخلف حيث لم يكن هناك ما يقوم به، وغاب في النوم. عندما فتح عينيه أدرك أن النوم غلب الآخرين مثله. أحس بتغيرات فسيولوجية واضحة.. قلبه يدق بقوة وتنفسه صار عميقًا مع دوخة خفيفة.. تذكر أعراضًا مماثلة في جبال الألب.

نظر من النافذة، وفي ضوء العصر رأى ما خطف الهواء الباقي في رئتيه.

هناك عن بعد تبين قمم الجبال المغطاة بالثلج والطافية فوق السحب. كأنها لوحة تأثيرية رسمها عبقرى نصف مجنون. وبدأت الطائرة تنحدر وأمامها ما بدا كأنه جدار أبيض عملاق. لم يكن كونواي يتأثر بسهولة ولم يكن يهتم بالمناظر الطبيعية.. ذات مرة أخذوه ليرى الشروق على جبل أفرست فبدا له الموضوع مخيبًا للأمل. لكن المشهد خلف زجاج الطائرة بدا مختلفًا.. كان هناك شيء غض ورهيب في تلك القمم.. شعر بأن مالينسون قد أفاق فلمسه بيده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

بدا لكونواي أنهم ما زالوا في الهند.. لقد حلقوا شرقًا لعدة ساعات وكان الارتفاع عاليًا جدًّا، لكن لابد أنهم حلقوا مع أحد وديان الأنهار يمتد من الشرق للغرب.

- « لا أريد الاعتماد على الذاكرة، لكن أعتقد أن نهر إندوس ينطبق على هذا بقوة.. إنه يقودنا إلى جزء رائع الجمال من العالم كهذا الذي ترونه.. »

قال بارنارد:

- « إذن أنت تعرف أين نحن؟ »

- « لم أدن هنا من قبل.. لكن لن أندهش لو كان هذا جبل نانجا باربات. الجبل الذي مات مومرى فوق قمته.... »

قال مالنسون في تعاسة:

- « أتمنى لو أعرف إلى أين نحن ذاهبون.. »

قال كونواى:

- « أعتقد أن هذا هو كاراكورامس.. سيحتاج لعدة دورات لو كان رجلنا ينوى عبوره.. »

صاح مالينسون:

- « تقول رجلنا؟.. تعنى (مجنوننا).. أعتقد أن وقت نبذ نظرية الخطف قد حان.. لقد عبرنا الحدود وما من قبائل هنا. الاحتمال الوحيد المعقول هو أن الرجل مجنون.... »

كان الجالسون برغم جهلهم بالجغرافيا يدركون أن هذه جبال عالية وعرة فعلًا، وتحتاج إلى براعة منقطعة النظير من الطيار.

رأى كونواي من النافذة أن الضوء صار لونه أزرق فوق الجبل، ينحدر لأسفل ليتخذ طابعًا بنفسجيًا. شعر بحالة تحفز قوية، ليست خوفًا..

قال مالنسون:

- « أنا لن أجرى تصويتًا على الموقف.. ما أعرفه هو أننا لم نختر القدوم هنا. والله وحده يعرف ما سنفعله عندما نصل. لأن الرجل قد يكون مجازفًا أو مؤدي حركات خطرة.. المهم أنه مجنون..»

صمت كونواي. وجد من الصعب أن يزأر فوق محرك الطائرة طيلة الوقت وهو لم يرغب في النقاش.. قال لمالنسون:

- « جنون منظم جدًا.. تذكر أن هذه هي الطائرة الوحيدة القادرة على بلوغ ارتفاع كهذا.. »

- « هذا لا ينفي أنه مجنون.. إذن علينا أن نضع خطة.. ماذا سنفعل ساعة الهبوط؟.. هل نهرع ونهنئه على طيرانه الممتاز؟ »

قال بارنارد:

- « مستحيل.. سوف أتركك تقوم بهذا العمل.. »

أدرك كونواى أن مالنسون ميال للشجار ولعل هذا بسبب الارتفاع. إن الهواء المخلخل له تأثيرات متباينة على الناس.

نظر للجبل العظيم وشعر برضا بالغ لأنه ما زالت على الأرض أماكن كهذه. بعيدة.. غير مسكونة. كانت قمة كاراكورامس تنتصب في السماء الشمالية. وكان للقمم بريق يبعث القشعريرة. مفعمة بالكبرياء.. هذا الارتفاع الشامخ وبرغم هذا هو أقل من الجبال الشامخة المعروفة.. هذا أبقاها بعيدة عن مغامرات المتسلقين. كانت تمثل إغراء أقل لهواة تحطيم الأرقام القياسية. وكان كونواي يجد شيئًا من السوقية في هذه الطريقة الغريبة في تمجيد ما هو عال أو كبير.

جاء الشفق وغطى اللون المخملي القمم كأنه صبغة. وارتفع بدر مكتمل يلمس كل قمة بالترتيب كأنه مشعل.. برد الجو وراحت الطائرة تهتز بشكل مزعج.

هبطت معنويات الركاب كثيرًا.. لم يخطر ببال أحد أن تستمر الرحلة بعد الغسق ولم يعد من أمل سوى أن يفرغ الجازولين. وهذا سوف يحدث حالًا..

قال مالنسون إن الجازولين يغطي ألف ميل لابد أنهم قطعوا معظمها...

- « وأين يقودنا هذا؟.. »

- « ليس الحكم سهلًا.. لكنه بالتأكيد جزء من التبت.. لو كانت هذه جبال كاراكورامس فالتبت خلفنا.. لابد أن هذه قمة K2 الذي يعتبرونه ثاني أعلى قمة في العالم.. »

قال بارنارد:

- « الثاني بعد إفرست.. رباه!.. لابد أنه مشهد مذهل.. »

- « ومن وجهة نظر المتسلق فهو أصعب من إفرست.. لقد وصفها الدوق أبوزي بأنها قمة مستحيلة.. »

قال مالنسون:

- « لكن لماذا نحن هنا؟.. وكيف تتكلمون مازحين عن هذا كله؟»

استدارت مس برنكلو كأنها تشاهد مسرحية وقالت:

- « ما دمتم لم تطلبوا رأيي فلربما ليس عليَّ أن أعطيه، لكن يجب أن أقول إنني أتفق مع مستر مالنسون في أن الشاب البائس قد جن.. لا عذر له إلا الجنون.. تخيلوا أن هذه أول مرة أجرب فيها السفر بالطائرة!.. أول مرة!.. تصوروا هذا.. »

قال بارنارد:

- « أنت تطيرين من الهند للتبت.. هكذا تحدث الأمور.. »

- « لي صديق زار التبت وقال إنهم قوم غريبو الأطوار. يعتقدون إننا جئنا من القردة.. »

- « هذا ذكاء منهم.... »

- « لا أقصد بالطريقة الحديثة. بل أساطيرهم. أنا أؤمن أن داروين مخطئ وأستمد يقيني من التوراة.. »

- « أنت أصولية إذن؟ »

وأغمض كونواي عينيه... اعترف لنفسه أن هناك شيئًا فاتنًا في مس برنكلو، وقرر أن ينزع جزءًا من ثيابه ويقدمه لها طلبًا للدفء، ثم أجل هذه الخطوة لأن السيدة تبدو أقوى منه بكثير.

فجأة صحا الجميع على الآلة تترنح. اصطدم رأس كونواى بالنافذة فشعر بدوار. ثم سقط بين صفى مقاعد.. كان في أذنيه صوت ضوضاء.. ثم أدرك أن المحرك متوقف وأن الطائرة تهوى مندفعة.

لمست الطائرة الأرض وصرخ مالنسون:

- « إنه يهبط!.. »

أصلحت مس برنكلو وضع قبعتها كأنها في رحلة هادئة جدًّا.

كان الهبوط سيئًا بشدة، وتمسك مالنسون بمقعده وهو يصرخ. هنا دوى صوت انفجار إطار، فصاح مالنسون:

- « هذا ينهى الأمر..!.. سنظل هنا للأبد!.. »

لم يكن كونواى يهوى الكلام.. تحسس رأسه في موضع الصدمة.. لا شيء خطيرًا.. نهض مالنسون واتجه لباب القمرة مستعدًا للوثب، لم يسمعوا شيئًا سوى الصمت وسوى صوت الريح.. شعروا بأنهم في نهاية العالم. كأن الأرض كلها في مزاج عام من الشجن. وقد أضاءت النجوم خواء فسيحًا. يسهل أن تتصور أن هذا المكان قمة جبل.. بل هو جبال تبرز من قمم جبال.

اندفع مالنسون نحو قمرة القيادة صائحًا:

- « أنا لست خائفًا من هذا الرجل على الأرض.. سوف أقبض عليه حالًا.. »

راقبه الباقون في خوف.. حاول كونواي أن يوقفه. لكن بعد لحظة برز الشاب عائدًا وهو يمسك بذراعه ويقول متلعثمًا:

- « الأمر غريب يا كونواى.. لكنه مريض أو ميت.. تعال وألقى نظرة فأنا أخذت مسدسه.. »

قال كونواى:

- » هات المسدس.. فهو معى أفضل.. »

كان يشعر بدوار شديد من الضربة. ودنا من قمرة القيادة ليلقي نظرة. كانت هناك رائحة جازولين قوية ورأى الطيار ورأسه على مفاتيح القيادة، هزه وفك خوذته.. ثم عاد لرفاقه ليخبرهم:

- « لقد حدث شيء لعنقه.. يجب أن نخرجه.. »

لكن كان من الواضح أنه تغير.. صوته صار حادًّا ومصممًا ولم يعد هناك أي تردد في سلوكه. كان هناك عمل يجب القيام به.

كان الطيار فاقد الوعي وليس ميتًا.. لم يكن كونواي ذا خبرة طبية لكنه كان يفهم أنواع العلل وقد قدر أنها نوبة قلبية بسبب الارتفاع العالى. وقرر أن يضعوا الرجل في القمرة ويتواروا بدورهم من ريح الليل العنيفة الباردة.. هم لا يعرفون أين هم، لذا لا يمكن عمل شيء قبل شروق الشمس.

كانت الريح قاسية فعلاً وظلت مستمرة طيلة الليل.. لم تكن ريحًا بل هي جو من الجنون حولهم طيلة الوقت. أخرجت مس برنكلو زجاجة براندي، وقالت إنها لا تذوق هذه المشروبات لكن ربما استطاعت جرعة من المشروب أن تفيق الطيار. فتح كونواي الزجاجة وصب بعض البراندي في حلق الرجل، بدأت جفون الرجل تخفق..

كان مالنسون أقرب لتلميذ مدرسة عصبيًّا متوترًا، لكن كلمات كونواي الصارمة جعلته يصمت. إن كونواي كان يعرف أن الحفاظ على حياة الطيار هو الأمل الوحيد في فهم ما يحدث. كان قد قدر أن الرحلة تجاوزت حدود الهيملايا الغربية نحو مرتفعات كوين لون. معنى هذا أنهم بلغوا أقل الأماكن رحابة على وجه الأرض.. هضبة التبت. ارتفاعها ميلان متسعة غير مسكونة..

هم في هذا البلد البائس منبوذون. هنا حدث شيء كأنما يؤكد الكوابيس التي يفكر فيها.

برز القمر من فوق قمة مدببة وبدأت الظلمة تنقشع. رأى كونواى واديًا تحيط به تلال حزينة.. اتجهت عيناه لقمة الوادي بالذات، فرأى في ضوء القمر المتراقص ما بدا له كأنه أجمل جبل رآه في حياته. كأنه قمع حسن الاكتمال من الثلج.. بسيط كأن طفلاً هو الذي رسمه. وكان من المستحيل أن تعرف حجمه الحقيقي أو بعده عنك، تساءل للحظة إن كان حقيقيًّا.

فكر في أن يوقظ الباقين ليريهم المنظر، ثم قرر أن التأثير مخيف برغم جماله.. يعكس العزلة والخطر. لابد أن أقرب مكان بناه البشر يقع على بعد مئات الأميال. كانوا بلا طعام وغير مسلحين، ثيابهم لا تناسب المشي في هذه الأصقاع.. حتى مس برينكلو بثيابها الثقيلة التي بدت سخيفة لكونواي في البداية لم تكن لتتحمل البرد أكثر. مالنسون بدأ يهذي بسبب الارتفاع ويسهل معرفة ما سيحدث له بعد ساعات.

كان كونواى يراقب الآخرين، واعترف لنفسه بأنه معجب بها.. معجب بها أكثر من مجرد امرأة تعلم الأفغان غناء التراتيل

الدينية.

ركز على الطيار الذي بدأ يتنفس الآن.. وكان يتحرك كذلك. خمن أن الرجل صيني. له أنف مغولي تقليدي برغم أنه أجاد التخفى كملازم طيران بريطاني. وكان وسيمًا إلى حد ما..

توغل الليل.. كل دقيقة بدت شيئًا ثقيلًا يجب دفعه ليفسح الطريق للدقيقة التالية. بدأ البرد والظلام يحتشدان.. وساد صمت رهيب. ومع الفجر ظهر الجبل من جديد.. رماديًّا أولًا ثم فضيًّا ثم ورديًّا.. كان مشهدًا رهيبًا لكنه مفعم بالجمال.

ازداد الهواء دفئًا وصحا الآخرون.. اقترح أن يُخرجوا الطيار من الطائرة حيث يساعد الهواء وضوء الشمس على إفاقته. في النهاية فتح الرجل عينيه.. وبدأ يتكلم في تشنج. لم يفهم المسافرون ما يقول.. ربما باستثناء كونواي الذي التقط بعض الكلمات. بعد قليل ضعف الرجل وبدأ يتكلم بعسر.. وفي النهاية مات. كان هذا عند منتصف النهار.

قال كونواى:

- « يؤسفني أنه لم يقل أي شيء مهم سوى أننا في التبت.. وهذا شيء واضح.. إن الصينية التي يتكلمها غريبة، لكن أعتقد أنه قال شيئًا عن دير قريب. أطلق عليه اسم شانجرى – لا.. هكذا قال.. (لا) كلمة تبتية معناها (ممر في الجبال).. كان مهتمًّا بأن نذهب هناك.. »

قال مالنسون:

- « وهو سبب كاف حتى لا نذهب.. فى النهاية هو مجنون.. أليس كذلك؟ »

- « لو لم نذهب هناك فإلى أين نذهب؟ »

- « لا فارق عندي.. فقط لو وجدنا شانجرى لا هذا فنحن نبعد خطوات عن الحضارة ولا ندنو منها.. »

في صبر قال كونواى:

- « أخشى أنك لا تفهم الوضع... نحن في موضع من العالم لا يعرف عنه أحد أي شيء.. تذكر أن مئات الأميال تحيط بنا من كل جانب، فإن فكرة المشى عائدين إلى بيشاور لا تبدو لي ممكنة.. »

قالت مس برنكلو:

- « لا أحسبنى قادرة على هذا...... »

قال كونواى:

- « ليس لدينا طعام.. والمكان لا يسمح بالحياة فيه.. لو قضينا الليل هنا فلسوف نواجه الريح من جديد وأضيف لهذا الجوع. فرصتنا الوحيدة هي أن نجد بشرًا، وخير مكان نبحث فيه هو المكان الذي قيل لنا إنهم فيه؟ »

ساد الصمت فقال كونواى:

- « أعتقد أننا متفقون؟.. هناك طريق عبر الوادي لا يبدو لي شديد الانحدار، سوف نهبط عبره.. ليس بوسعنا دفن هذا الرجل دون ديناميت.. أعتقد أن رجال الدير يمكن أن يمنحونا حمالين لرحلة العودة.. فقط أقترح البدء حالاً حتى إذا لم نجد شيئًا كان الوقت كافيًا للعودة وقضاء الليل في الطائرة.. »

قال مالنسون:

- « ولو وجدنا الدير.. هل عندك ضمان أننا لن نُقتل؟ »

- « لا ضمان.. لكنه أفضل من الموت جوعًا وبردًا.. على كل حال القتل آخر شيء يمكن أن تفكر فيه في دير بوذي.. من الأسهل أن تقتل في كاتدرائية بريطانية.. »

نظر الجميع إلى القمع المتوهج..

بدا رائعًا في ضوء شمس النهار. ثم فجأة رأوا عن بعيد رجالاً يمشون في الوادي نحوهم..

همست مس برنكلو:

- « العناية الإلهية!.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

كان كونواى بطبعه أميل للمراقبة، لكنه ظل صامتًا وهو يراقب قدوم هؤلاء الغرباء. لم يكن هذا وليد شجاعة أو برود أو ثقة.. كان الأمر أقرب للتراخي والرغبة في عدم مقاطعة المشهد الذي يتابعه.

بدا أن القادمين دستة من الرجال يحملون مقعدًا مغطى. بدا أن الجالس في المقعد رجل يلبس عباءة زرقاء. بدا الأمر كأنه مشهد عناية إلهية كما قالت هي بالضبط..

بدأ يمشى نحو الرجال في بطء ودون استعجال، لأنه يعرف أن الشرقيين يحبون طقوس اللقاء ويحبون أن تأخذ وقتها. توقف على بعد ياردات وانحنى.

هنا لدهشته نهض لابس العباءة ومد يده له. ورأى كونواى رجلاً صينيًا مسنًّا رمادي الشعر حليقًا بعناية. وبإنجليزية متقنة للغاية قال:

- « أنا من دير شانجري - لا.. »

انحنى كونواي ثانية. وبدأ يشرح ظروف وصولهم، هنا أوقفه الصيني بإشارة من يده وقال:

- « هذا مثير للاهتمام.. اسمى شانج لو أردت أن تقدمني لرفاقك.. »

كان كونواى منبهرًا.. هذا الصيني يتكلم إنجليزية متقنة ويستخدم أتيكيت بوند ستريت في مجاهل التبت.

- « كنا في الطريق لديركم.. لو لم تكن المسافة بعيدة.... »

- « ليست بعيدة.. لكنها ليست سهلة.. سوف أرافقكم.. »

قال مالنسون في الدفاع:

- « نحن نرغب في أن نستأجر بعض رجالكم ليرجعونا إلى حيث الحضارة.. »

قال الصيني:

- « وهل أنت متأكد أنك بعيد عنها؟ »

- « على الأقل أعرف أنني بعيد جدًّا عن المكان الذي أرغب أن أكون فيه.. سوف ندفع لكم، لكن كم من الوقت نحتاج لنعود للهند؟ »

- « هذا لا أقدر أن أجيب عنه.. »

كاد مالنسون يتشاجر لكنه فوجئ برؤية الفاكهة والنبيذ.. برز رجال من التبت يلبسون جلود ماشية وقبعات من الفراء وأحذية من جلد الياك، وقدموا الفاكهة والنبيذ.. كانت الفاكهة تتضمن المانجو الشهية بشكل مؤلم.. أكل مالنسون كمن لم يأكل من قبل، لكن كونواي لم يفته أن يتساءل عن الطريقة التي تنمو بها المانجو على هذا الارتفاع.

كان ينظر للجبل في اهتمام عندما سمع الصيني يسأله عن سبب نظره للجبل، فسأله عن اسمه.. قال:

- « اسمه جبل كاراكال.. »

- « لم أسمع عنه من قبل.. هل هو عال؟ »

- « ثمان وعشرون ألف قدم.. »

بدأت الحملة تتجه نحو الدير طيلة الصباح.. ببطء لكن الجهد العضلي كان منهكًا فعلاً على هذا الارتفاع. كان الصيني يجلس في مقعده مستريحًا وهو ما بدا متناقضًا مع الفروسية تجاه مس برنكلو. حتى كونواي الذي لا يتعبه الهواء المخلخل كان يجاهد كى يلحق بحملة المقعد. توقفت المحادثة مع الزعيم لأنه أغلق الستائر وبدا كأنه يستمتع بنوم قصير.

كانت الشمس دافئة وقد زال الجوع والظمأ.. لكن الهواء كان يزداد ندرة وكان على المرء أن يتنفس بصعوبة وعمدًا.. ومع الوقت كان العقل يشعر بأنه مخدر. كانت مس برنكلو تخوض غمار حرب رئوية لم تخفها، فقال كونواى:

- « نحن تقريبًا عند القمة.. »

قالت:

- « ذات مرة جريت وراء قطار فشعرت بالشيء ذاته.. »

بعد ميلين من الوادي صار التسلق أكثر انحدارًا وصعوبة. وكانت السحب تغطي الشمس. ودوى الرعد من أعلى ثم صار الجبل باردًا قارس المناخ. وشعر كونواي أنه غير قادر على التسلق أكثر.

كان بارنارد ومالنسون مرهقين جدًّا.. لكن التبتيين أشاروا بما معناه أن باقي الرحلة سهل.

هنا فوجئوا بأن الرجال يفكون بعض الحبال. خطر لمالنسون أن الخطوة التالية هي الشنق.. ثم أدركوا أنهم يريدون

ربط المتسلقين ببعض من أجل التسلق. وأدرك التبتيون أن كونواي خبير بالتسلق لذا تركوه يربط الرجال، فربط نفسه خلف مالنسون وجعل رجلاً من التبت في المؤخرة وفي المقدمة.

كان عليهم أن يتحركوا عبر ممر أفقي في صخرة لا يرون أعلاها بسبب الضباب الكثيف. كان الممر لا يتجاوز قدمين في العرض.. وقد شعر بإعجاب شديد بتحكم الرجال في المقعد، كما أعجب بثبات أعصاب الجالس على المقعد.. ولكن الرجال صاروا في وضع أفضل عندما بدأ العمر يتسع وينحدر لأسفل. قال كونواى لرفاقه:

- « كان من المستحيل أن نصل هنا وحدنا.. »

لكن مالنسون كان يزداد عصبية فقال له كونواى:

- « لو رأيت في حياتك ما رأيته أنا، فلسوف تجد أنه من القرارات الحكيمة أحيانًا ألا تفعل شيئًا على الإطلاق.. الحرب تعلمك هذا.. »

- « لم نجد هذه اللمسة الفلسفية فيك في باسكول.. »

- « لأن تغيير الأمور كان واردًا وقتها.. أما هنا فنحن هنا لأننا هنا.. لا شيء نفعله.. »

هنا بلغوا منحدرًا صاعدًا سلب الهواء من رئاتهم.. واستوت الأرض بعدها ومشوا في هواء تغمره الشمس. وهناك كان دير شانجري لا.

بدا لكونواي كأنه هلوسة سببها نقص الأكسجين. كان مشهدًا غريبًا بالفعل كأنها بتلات أزهار تتعلق بالجبل.. وكانت

عيناك تنتقلان من الأسطح الزرقاء إلى معقل من الصخر الرمادي فوقها، وخلفها يبدو القمع الثلجي الذي يغطي منحنيات كاراكال. وخطر لكونواي أن هذا قد يكون أكثر الجبال إرعابًا في العالم، وتصور الضغط الهائل للجليد على الصخور.

كان جدار الجبل ينحدر لأسفل بشكل شبه عمودي إلى شرخ لابد أن عوامل التعرية صنعته مع الوقت. وكان الوادي يستقبل عينيك بلون أخضر ودود، فبدا لكونواي مكانًا أليفًا مشرقًا. إلا أنه لو كان مسكونًا فلابد أن سكانه في عزلة كاملة عن العالم. لا يبدو أن هناك أي طريق للتسلق إلا من ناحية الدير. هناك شعور خاص بالنهاية يغمرك في هذا المكان.

لا يذكر فعلًا كيف تم استقباله في الدير ولا كيف استقبلوا رفاقه. كان الهواء الخفيف المخلخل يغمره بشعور كالتخدير.. فلم يعد يبالي بنكات بارنارد ولا توتر مالنسون ولا استعداد مس برينكلو للأسوأ. فقط دهش لما رأى داخل الدير دافئًا متسعًا ونظيفًا... هنا ترك الصيني مقعده واقتادهم.

قال الصيني:

- « يجب أن أعتذر عن تركي لكم في الطريق، لكن هذه الرحلات لم تعد تناسبني وعليَّ أن أعني بنفسي... »

قال كونواى:

- « تصرفنا.. »

- « جميل.. سوف أريكم غرفكم.. أراهن أنكم تريدون الاستحمام كذلك.. »

قال بارنارد وهو يلهث طلبًا للهواء:

- « هل سنقف جميعًا عراة في الحمام أم إن هذا فندق أمريكي؟ »

قال الصيني:

- « سوف تجد ما يناسبك.. وبعدها سيسرني أن تنضموا لي للعشاء.. »

قال مالنسون:

- « بعد هذا لو لم يضايقك هذا، سوف نرتب موضوع عودتنا.. كلما أسرعنا كان هذا أفضل.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

قال شانج:

- « كما ترون.. لسنا بالبربرية التي تتوقعونها.. »

هذه المرة لم يستطع مالنسون أن يعترض، فقد كان يشعر بخليط من الراحة الجسدية واليقظة العقلية. لم يتصور أن يكون هناك نظام تدفئة مركزي في دير بوذى.. نفس الأساليب الصحية الغربية مع مزيج شرقي جميل. الحمام الذي نعم به كان من البورسلين الأخضر من إنتاج أكرون - أوهايو. لكن الخادم اعتنى به على الطريقة الشرقية ونظف جسده وأذنيه..

كان كونواي قد عاش عشر سنوات في الصين وهو يعتبرها من أسعد أعوام حياته. كان يحب الصينيين.. وكان يحب طعامهم، لذا شعر بألفة شديدة مع أول وجبة له في شانجري لا.

شك كذلك في أن الوجبة بها عشب أو شيء يحسن التنفس؛ فقد لاحظ سهولة في تنفسه وتنفس رفاقه. لم يأكل شانج سوى بعض السلطة الخضراء ولم يذق الخمر.

كان كونواى يراقبه وخطر له أن تخمين سنه مستحيل.. يمكن أن يكون شيخًا مكتمل اللياقة أو شابًا شاب قبل الأوان. والحقيقة أنه كان يحوى شيئًا من الجاذبية.

كان الجو صينيًا أكثر منه تبتيًا.. وهكذا شعر كونواي بأنه في داره. الضوء من فوانيس ورقية مع الزخارف والنقوش، شعر براحة واسترخاء وبدأ يفكر في احتمال وجود عقار فيما طعموه.

لم يناقش أي شيء ذي أهمية حتى انتهت الوجبة فأشعل سيجارة وقال:

- « أنتم مجتمع محظوظ.. وشديدو الضيافة للغرباء. لكن لا أتوقع أنكم تلقون الكثير منهم.. »

قال الصيني:

- « نادرًا... هذا جزء منعزل من العالم.. »

قال كونواى:

- « أنتم بعيدون عن فرق الرقص ودور السينما والأضواء الكهربية.. السباكة عندكم غربية وهي الشيء الوحيد في رأيي الذي يمكن أن يأخذه الشرق من الغرب.. »

سألت مس برنكلو:

- « نريد معرفة قصة هذا الدير.. »

رفع الصيني حاجبه في تهذيب وقال:

- « هذا يشرفني يا مدام... ماذا تريدين معرفته؟ »

- « كم عددكم؟.. ما هي جنسيتكم؟.... »

- « من هم في درجة لاما يبلغون خمسين.. هناك من لم يبلغوا الدرجة بعد مثلي. ما زلت نصف لاما أو مرشحًا لو أردت قول ذلك.. نمثل دولًا عديدة لكن كما هو متوقع فإن أكثرنا صينيون أو تبتيون..»

- « هل هناك بريطانيون؟ »

- « كثير منهم.... »

قالت مس برنكلو:

- « رباه.. أنا أؤمن بالدين الصحيح لكنى واسعة الأفق بحيث أقبل الديانات الأخرى. وبالطبع لا أتوقع أن يتفق الناس معي في دير.. »

أحنى شانج رأسه وقال:

- « ولم لا يا مدام؟.. هل ما دام دين واحد حقيقيًّا فالأديان الأخرى زائفة؟ »

- « هذا واضح.. أليس كذلك؟ »

قال كونواى:

- « حسن... دعنا لا نختلف.. لكن مس برنكلو تشاركنى فضولى بصدد هذه المؤسسة.. »

رد شانج بصوت أقرب للهمس:

- « لو كان لي أن ألخص الأمر فأنا أقول إن عقيدتنا هي الاعتدال.. نتحاشي الإفراط في كل شيء. حتى إننا نتحاشى الإفراط في الفضيلة نفسها!... في هذا الوادي يوجد عدة آلاف من أتباعنا وجدنا أن هذا يناسبهم.. وقد وجدنا أن هذه الطريقة تسعدهم. إن قومنا معتدلون في شهواتهم.. معتدلون في فضيلتهم، معتدلون في تقشفهم!..»

ابتسم كونواي، فقد عبر الرجل ببراعة.. وقال:

- « أفهمك.. وأعتقد أن الرجال الذين رأيناهم اليوم من واديك »

- « نعم.. وأرجو ألا يكون قد صدر منهم ما يضايقك.. »

- « بتاتًا.. لكنى أسأل إن كان هذا الاعتدال لا ينطبق على رهبانكم؟ »

هز شانج رأسه وقال:

- « يؤسفني يا سيدي أنك اقتربت من نقطة لا أستطيع مناقشتها.... »

قال مالنسون برغم حالة الحذر البادية عليه:

- « كل هذا جميل، لكن علينا أن نناقش عودتنا للهند.. هل لديك حمالون يمكنهم أن يساعدونا؟ »

ساد الصمت للحظات ثم قال شانج:

- « الحقيقة يا سيدي أنني لست مخولاً بالإجابة، لكنى أعرف أن الموضوع لا يصلح للمناقشة العاجلة.. »

- « لكن علينا أن نعود.. لدينا أعمالنا وأقاربنا.. يجب أن نتحرك غدًا.. أنا واثق من أن عندك من يرغب في مرافقتنا وسوف ندفع لهم بسخاء.. هل لديكم خارطة كبيرة للبلد؟.. من الواضح أن رحلتنا شاقة.. »

- « نعم لدينا خرائط.. »

- « وأنا واثق من أنكم تتصلون بالعالم الخارجي.. فأين يقع أقرب مكتب تلغراف؟ »

لم يرد شانج.. وإن ارتسم الصبر على وجهه.

نهض مالنسون وتحسس جبهته وطوح المقعد خلفه وهتف:

- « أنا خائف.. لا أحد منكم يبغى مساعدتى.. كيف ركبتم هذه الحمامات الحديثة هنا إذن؟ »

ترنح أكثر فأجلسه كونواي على مقعد...

قال شانج في رفق:

- « غدًا سيكون أفضل حالاً.. الهواء هنا صعب على الغرباء أولًا.. لكنك تتأقلم سريعًا.. »

بالفعل كان كونواي يشعر بدوار هو أيضًا... وقد وجد أن الذهاب للفراش أفضل شيء ممكن.. قال للصيني:

- « نحن فعلاً نأمل أن تجعلنا نقابل من يستطيع أن يرجعنا للهند.. نريد هذا بأسرع وقت ممكن.. »

ضحك شانج ضحكة مفتعلة، وهي طريقة يعرفها كونواى جيدًا عندما يحاول الصيني أن يخفي ارتباكه بالتظاهر بأن هناك دعابة.

- « لا تقلق. بالتأكيد سوف نعطيك إجابة قريبًا جدًّا.. »

- « نحن فقط نطلب معلومات عن الحمالين.. »

- « سيدى.. لهؤلاء الناس بيوتهم وأسرهم.. وهم قد لا يرغبون في أن يتركوها.. »

- « لكنهم كانوا ينقلونك لمكان ما صباح اليوم.. أين؟ »

- « اليوم؟.. هذا موضوع آخر تمامًا.... »

هنا خطرت الفكرة لكونواى:

- « إذن لم يكن الأمر مصادفة.. كنت قادمًا لمقابلتنا.. كنت تعرف أننا هناك.. وهذا يعني أن خبر وجودنا قد وصلك فكيف تم هذا؟ »

ساد جو من التوتر والهدوء العام في القاعة.. لكن وجه الصيني في ضوء المصابيح ظل هادئًا ثابتًا. مد يده ليجذب شريطًا حريريًا فانفتح ستار يطل على شرفة.. واقتاد كونواي إلى الهواء البارد البلوري بالخارج وقال حالمًا:

- « أنت بارع.. لكنك غير محق. لهذا أطالبك ألا تقلق زملاءك بهذه المناقشات.. صدقني لا أنت ولا هم في خطر في شانجري لا.. »

- « لا نتكلم عن الخطر.. نتكلم عن التأخير.. »

- « لابد من بعض التأخير.. لكنى راغب في أن تظفروا بالراحة وتحبوا الإقامة هنا.. سوف تكتشفون أنه بالنسبة للراحة - وأنتم متعبون – فلن تجدوا موضعًا أفضل في الأرض كلها.. »

كان مشهد الوادي منومًا، خاصة مع جبل كاراكال المطل عليه وضوء القمر. كان هناك ضوء أزرق شاحب على القمة. تساءل في سره عن سبب الاسم فجاء صوت شانج يقول له:

- « كاراكال معناها (القمر الأزرق).. »

كان كونواي يفكر.. بدا له سلوك شانج غير موح بالثقة، وخيل له أن معنى هذا أنه ورفاقه سجناء.. سجناء لوقت غير

محدد، وكان يدرك أنه هنا يمثل الحكومة البريطانية.. لكن الوضع بدأ يروق له.. كان قد خاض حياة طويلة وتعلم أنه كلما وجد نفسه في وضع غريب، كان هذا أفضل للقضاء على الملل..

في الصباح سره أن وجد أصدقاءه في حال أفضل..تحسن مزاج الجميع حتى مالنسون نفسه..

قالت مس بيركلو أنها بحثت في غرفتها كثيرًا عن العيوب التي توقعت وجودها فلم تجدها.

قال مالنسون:

- « واضح طبعًا أننا لن نرحل اليوم.. هؤلاء القوم شرقيون فعلًا.. يستحيل أن ترغمهم على أداء شيء بسرعة أو بكفاءة.. »

تجاهل كونواي التعليق. كان مالنسون قد خرج من إنجلترا منذ عام، وهي فترة قصيرة جدًّا لكنها كافية لعمل تعميمات غير صحيحة. لم يكن كونواي يشعر أن الأجناس الشرقية مماطلة.. فقط الأمريكان والبريطانيون يتعاملون مع العالم بشكل محموم ملهوف.

لكنه لا ينكر أن شانج بطيء فعلاً برغم كل شيء..

قال:

- « أرى أن ننتظر ونرى ما يسفر عنه اليوم.. كان من التفاؤل الزائد أن ننتظر أن يفعلوا شيئًا ليلة أمس.. »

كان الإفطار ممتازًا وقرب نهاية الوجبة دخل شانج وانحني بأدب، وحيا الموجودين. تمنى كونواى لو يتكلم الرجل الصينية

لكنه فضل ألا يكشف معرفته للصينية.. فليبق هذه البطاقة في كمه..

قال الصيني:

- « كما يقول شاعركم: النوم بعيد خياطة أكمام العناية الممزقة.. »

لم يرحب الجالسون باستعراض المعلومات هذا، وقال مالنسون:

- « لابد أنك تعني شكسبير.. لا أريد أن أكون قليل التهذيب لكنى فعلًا أريد أن أبدأ البحث عن الحمالين الآن.. »

قال الصيني بعد صمت:

- « أخشى أنه ليس لدينا رجال يقبلون ترك بيوتهم من أجل هذه الرحلة.. »

قال بارنارد:

- « لكنك لم تكن واثقًا لهذا الحد ليلة أمس.. »

- « لم أرد أن أحبطكم.. كنتم متعبين بسبب الرحلة.... »

قال كونواى:

- « ليكن.. من الواضح أننا لن نستطيع البقاء هنا للأبد.. ومن الواضح كذلك أننا لن نستطيع الرحيل من تلقاء أنفسنا.. فما رأيك؟ »

ابتسم الصيني.. ابتسامة بدا واضحًا أنها لكونواي وحده وقال:

- « سيدي العزيز. بالنسبة لأصحابك لا إجابة لديَّ.. لكن بالنسبة لرجل حكيم مثلك فأنا أتكلم.. كان مع أصحابك الحق عندما قالوا إننا نتفاعل مع العالم الخارجي من وقت لآخر.. التفاصيل لا تهمك حاليًّا لكن لنا حاجات نحصل عليها. لهذا عندما يصل الرجال الذين يجلبون لنا الأشياء، أتوقع أن تصلوا لاتفاق معهم.. »

- « متى يأتون؟ »

- « من المستحيل أن نحدد هذا.. أنتم رأيتم ظروف الجبل والطقس.. هكذا لا يمكن التنبؤ بموعد قدومهم. أعتقد أن هذا سيكون بعد شهر.. لن يزيد على شهرين.. »

صرح مالنسون:

- « شهران في هذا المكان؟.. هذا مناف للعقل!.. لا يمكن أن نتحمل أكثر من أسبوعين.. »

ضم شانج العباءة حول جسده وقال:

- « آسف.. لم أرد مضايقتكم.. سوف يستمر الدير في تقديم ضيافته لكم.. »

قال مالنسون:

- « لا تقلق.. سوف نظفر بالحمالين الذين نريدهم.. يمكنك أن تنحني كما تحب.. »

وضع كونواى يده على ساعده ليسكته. كان مالنسون يتصرف كطفل مستعد لأن يقول كل ما يخطر له. خاف

كونواى أن يضغط هذا على أعصاب الصيني. من حسن الحظ أن شانج انسحب في الوقت المناسب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

طيلة الصباح ظل المسافرون يعانون الصدمة.. كانوا يتوقعون أن يقضوا وقتهم في مرح أندية بيشاور بدلاً من أن يقضوا شهرين مسجونين في دير بوذى. قال كونواى:

- « لا ألوم أحدًا.. لم يعد السؤال هو ما يروق لنا وما لا يروق.. السؤال هو ما يجب أن نتحمله.. ليس في يدنا عمل شيء سوى الانتظار.... »

كان مالنسون لا يطيق الفكرة طبعًا وراح يدخن في عصبية. قال كونواى:

- « لا أرى اختلافًا عن قضاء شهرين في أي مكان منعزل من العالم.. الناس على غرارنا يفعلون ذلك كثيرًا.. طبعًا من له أصدقاء أو أقارب لن يحب هذا، لكني أعتبر نفسي محظوظًا لأني لا أعرف شخصًا يمكن أن يقلق عليَّ.. ويمكن لأي واحد أن يمارس عملى.. »

كان يعرف أن لمالنسون حبيبة في إنجلترا وأبوين.. هذا جعل الأمور صعبة.

بارنارد تقبل الأمر بنوع من المرح.. وقال:

- « لن يقلق على أحد في الوطن.. فقد كنت طيلة حياتي كاتب خطابات رديئًا.. »

قال كونواى:

- « لا تنس أن أسماءنا سترد في الصحف كمفقودين.. وسوف يفترض معارفنا الأسوأ.. »

واستدار لمس برنكلو التي ظلت صامتة حتى هذه اللحظة، وتوقع أنها قلقة.. فقالت:

- « العناية الإلهية أرسلتني هنا.. وأنا أعتبره نداء.. لا فارق بين مكان وآخر ما دمت أخدم الرب.. »

شعر كونواى برضا لأن المهمة كانت سهلة نسبيًّا.. أضاف لهم:

- « أولًا علينا ألا نضغط على أعصاب بعض.. من حسن الحظ أن المكان واسع وغير مزدحم.... »

قال بارنارد:

- « من ضمن أسباب التفاؤل أننا لن نجوع.. لو كانت الوجبات كما رأينا.. هل تعرف يا كونواي. هذا المكان يلقى تمويلًا كبيرًا.. مثلاً الحمامات مكلفة جدًّا، وفي الوقت نفسه لا أفهم من أين يكسبون المال. ترى هل يستخرجون أي معادن ثمينة »

قال مالنسون:

- « كل المكان لغز.. أعتقد أن لديهم جرارًا من الذهب مخبأة كما يفعل الجزويت.... »

حان موعد الغداء.. وقد كانت لحظات بهيجة فعلًا.

لما ظهر شانج أدرك أن علاقته صارت أفضل مع المنفيين الأربعة.. وقد اقترح عليهم أن يروا المزيد في الدير. قال بارنارد في حماس:

- « بالطبع.. ربما لا نرى مكانًا كهذا مرة أخرى أبدًا.. »

كانت الجولة في الدير ممتعة.. لقد رأى كونواى مؤسسات رهبانية كثيرة، لكن هذا الدير كان أكبرها. المشى وسط الغرف كان نوعًا من التدريب الرياضي..

رأوا ما يكفي ليوقنوا بما استنتجوه من قبل.. صار بارنارد على يقين أن اللاما كانوا أثرياء جدًّا.. ووجدت مس برنكلو أدلة أقنعتها أنهم بلا أخلاق.. أما مالنسون فلم يحب أي شيء وأدرك أن اللاما لن يكونوا أبطاله.

فقط كونواي أسلم نفسه لافتتان متزايد.. كان الاتساق في كل مكان.. تنعم به العين لكنه لا يستوقفها. وجد كنوزًا لا شك أن أي متحف يدفع أي شيء للحصول عليها.. السيراميك.. والنقوش التي عمرها ألف عام.. عالم من النقاء والإتقان في السيراميك ودهان الورنيش.. هناك تواضع واضح بلا صلف.. ولا هجمة على مشاعر الرائي. كأنها بتلات زهرة جاءت للوجود فجأة..

لم يكن من هواة المجاميع.. لكنه كان يحب الفن الصيني بشدة.. هذه الدقة وسط عالم صاخب كانت تفتنه.

كانت في الدير مكتبة ممتازة واسعة وبها عدد هائل من الكتب. وكانت متراصة بطريقة منظمة توحي بالحكمة أكثر مما توحي بالتعلم.. توحي بالتهذيب ولا توحي بالجدية. الغريب أن

كونواي وجد على الأرفف روائع الأدب العالمي بالفرنسية والألمانية والروسية وهناك كتب عديدة بالصينية، ورحلات عديدة للتبت..

هنا شعر بعينى شانج تثبتان عليه:

- « هل أنت دارس؟ »

لم يستطع كونواي أن يقول نعم، فقد بدت الكلمة كبيرة عليه وإن كانت هذه أعظم مجاملة يمكن أن يقولها لك صيني.

- « أستمتع بالمطالعة لكن عملي مؤخرًا شغلني كثيرًا.. »

ناوله كونواي كتابًا وقال:

- « هذا كتاب يهمك... خارطة القطر.. »

قال شانج:

- « لدينا آلاف الخرائط.. لكن بوسعي أن أريحك.. لن تجد شانجري - لا على أي خارطة.. »

قال مالنسون في ضيق:

- « مصرون على الغموض.. حتى اللحظة لم أر سرًّا يستحق أن تخفيه.. »

قالت مس برنكلو:

- « ألن تسمح لنا بأن نرى اللاما وهم يعملون؟ »

كانت لها طريقة معينة تظهر بها أنها غير مهتمة، وفي الوقت ذاته تظهر متضايقة.. لكن شانج قال لها:

- « آسف.. لا أحد خارج الدير يمكنه أن يرى أو يقابل اللاما وما ينبغي له.. »

- « وماذا يفعلون بالضبط؟ »

- « لقد كرسوا أنفسهم للتأمل والبحث عن الحكمة يا مدام.. »

- « لكن هذا لا يقتضي عمل أي شيء.. »

- « إذن يا مدام هم لا يعملون أي شيء.. »

واقترح أن يشربوا الشاي. كان ككل صيني آخر مولعًا بشرب الشاى بشكل منتظم. وقد اقتادهم لقاعة فيها بيانو ضخم وأخبرهم أن اللاما يحبون سماع الموسيقا الغربية خاصة موتسارت..

كان بارنارد يفكر في شيء واحد:

- « هل تعنى أن هذا البيانو جاء بنفس الطريق الذي جئنا به؟»

- « ما من طريق آخر.. »

- « ولماذا لم تكتفوا بمذياع بدلاً من هذا كله؟ »

- « لقد نصحنا بذلك.. ثم عرفنا أن الجبال سوف تحجب أي إرسال من بلوغ المذياع.. »

جاء الخدم بالشاي والأقداح.. ولكنهم لمحوا فتاة صينية تحمل أدوات الشاي، اتجهت إلى الهارب وبدأت تعزف لحنًا ريفيًا لرامو. كانت النغمات الأولى قد هزت كونواى فشعر

بنشوة لا حد لها.. هذا المزج بين فرنسا القرن الثامن عشر مع أزهار اللوتس والنقوش الصينية.

تأمل العازفة فرأى أن لها أنفًا طويلاً رقيقًا ووجنتين عاليتين ولها شحوب نسل المانشو. وكان شعرها الأسود معقوصًا بحزم.. بدا فمها كفرع لبلاب صغير وردي.. وكانت صموتًا ساكنة فيما عدا أناملها. انتهت المقطوعة فنهضت.

نظر شانج لكونواي وابتسم قائلاً:

- « أنت مسرور؟ »

تساءل مالنسون قبل أن يرد شانج:

- « من هي؟ »

- « اسمها لو - تسن.. بارعة جدًّا.. لم تحصل بعد على التأهيل للاما.. »

تساءلت مس برنكلو:

- « تبدو لي صغيرة جدًّا.. وهل لديكم نساء لاما؟ »

- « لا فوارق جنسية بيننا.... »

تواصل شرب الشاي في صمت. ثم نهض شانج وتمنى أن تكون الجولة قد راقت لهم. وقال لهم إن المكتبة وقاعة الموسيقا تحت تصرفهم طيلة إقامتهم هنا..

سأله بارنارد:

- « هذا المكان ساحر فعلًا.. وإننى لأتساءل عن سن هذه العازفة التي رأيناها.. »

قال شانج:

- « أخشى أنني لا أستطيع أن أقول.. »

- « أنت لا تعطى معلومات عن سن فتاة »

ابتسم شانج وقال:

- « بالضبط.. »

بعد العشاء خرج كونواي وحده إلى الشرفة ليرى الدير في ضوء القمر.. رائحة الأزهار الرقيقة. في الصين يطلقون عليها اسم (رائحة ضوء القمر). خطر له أنه لو كان لضوء القمر صوت فلسوف يكون مقطوعة رامو التي عزفتها فتاة المانشو..

كان يشعر براحة تامة جسديًّا ونفسيًّا لكن عقله كان يعمل في جنون..

نظر إلى الخلاء والخواء.. لابد أن عمق الهاوية كان ميلاً على الأقل.

سمع من تحت أصواتًا عالية. سمع أصوات الجونج والنفير وصوتًا يشبه النواح. خفتت الأصوات ثم تعالت ثانية.. لكن هذه الضوضاء لم تفعل سوى أن أظهرت سكون شانجري - لا أكثر.

ومن نافذة في مكان مرتفع رأى ضوء مصباح له لون ذهبي. ترى هل هناك يسهر اللاما باحثين عن التأمل والحكمة؟ كان من السهل أن يتسلل ويمضي في الممرات حتى يظفر بالحقيقة، لكنه كان يعرف أنه يتوهم حريته وأن هناك من يراقبه حتمًا.

كان هناك رجلان يمشيان في الشرفة.. رجلان بدا أنهما لطيفان يضعان عباءتين على الكتفين. وسمع صوت الجونج من جديد ورجلًا يقول لصاحبه:

- « قد دفنوا تالو.... »

كانت معلوماته بلغة التبت واهية لذا تمنى أن يقولا أكثر. بعد صمت قال أحد السائلين:

- « مات بالخارج.. »

- « لقد أطاع الكبار في شانجري - لا.. »

- « جاء عبر الهواء فوق الجبال يحمله طائر.. »

- « ومعه غرباء.. »

- « وادي القمر الأزرق سوف يتذكره للأبد.. »

لم يفهم حرفًا بعد ذلك.. هكذا عاد لمخدعه وقد شعر بأن مفتاحًا آخر دار في القفل المغلق. الرحلة من باسكول كانت في الخطة ولم تكن محاولة مجنون.. هم يعرفون الطيار وينعونه هنا.

صمم على شيء واحد.. لا يجب أن يبلغ هذا الاكتشاف لرفاقه الذين لن يستطيعوا أن يساعدوه في شيء، ولا لمضيفيه الذين بالتأكيد لن يساعدوه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

بدأ المسافرون يعتادون الإقامة هنا، ولم يعد الأمر أكثر مللاً من رحلة سياحية لم يخطط لها كما يجب. تعلموا أن النهار دافئ والليل بارد وأن الدير معزول عن الريح، وأن أنواعًا ممتازة من الطباق تزرع في الوادي، وأنهم متباينون في الذوق..

كانوا قد تعلموا الكثير من طباع بعضهم.. وكان شانج يحاول جاهدًا أن يرفه عنهم، فكان يقترح رحلات ويوصي بكتب. وكان يقطع الصمت المرتبك أثناء الوجبات بكلمات ذكية لطيفة. كان يجيب عن بعض الأسئلة ويفلت ببراعة من بعضها.

استكشفوا المنطقة ونزلوا إلى الوادي.. كان تنقلهم يتم في مقاعد من البامبو المجدول بينما يقتادهم الحمالون عبر الممرات المنحدرة لأسفل. لم تكن طريقة ممتازة لضعيفي الأعصاب لكن ما أن يصلوا للوادي كان كل شيء يفتنهم.

الأسعد فيهم كان كونواي الذي افتتن بالمكان. لاحظ أن السكان حيثما وجدهم هم خليط من الصينيين والتبتيين وهم أنظف وأكثر وسامة من الجنسين. كانوا مرحين مؤدبين نشطين لكنهم لا يظهرون أي نوع من العجلة. حتى مس برنكلو التي كانت تفتش عن انحلال الوثنيين الأخلاقي لم تر أي شيء يخجلها سوى أن النسوة كن يرتدين سراويل ضيقة حول الكاحل. وكان هناك معبد لبوذا.. أخبرهم شانج أن رهبانه ليسوا تحت سلطة الدير.

بدا كذلك أن هناك معبدًا كونفوشيوسيًا وتاويًا، قال شانج:

- » الماسة لها عدة وجوه.. معظم الأديان فيها جانب صحيح.. »

كانت مس برنكلو تفكر فيما يمكن عمله في هذا المكان. سوف تعود للوطن ثم ترسل بعثة تبشيرية هنا. ربما تأتي بنفسها كذلك والخطوة الأولى كما قالت هي تعلم لغتهم، لذا طلبت من شانج أي كتب تشرح هذه اللغة.

تعامل شانج مع هذا الطلب باعتباره بالغ الأهمية. وقد جلب لها كتابًا عملاقًا كتبه خبير لغات ألماني.. يبدو أنها كانت تتوقع كتيبًا صغيرًا على غرار (التبتية بدون معلم).. لكنها بدأت ووجدت ما يشغلها.

كونواى قضى الوقت يدرس المكتبة، وقد وجد أن ذوق الرهبان هنا أقرب للكاثوليك.. يقرءون أفلاطون ونتشه وعمر الخيام وتوماس مور.. عدد الكتب كان عشرين ألفًا تقريبًا. ولاحظ أن الكتب مستمرة حتى عام 1930.. مما يدل على أن الدير تصله كتب بشكل منتظم. لكن الرجل كان غير مهتم بالطبعات الأخيرة..

قال كونواى:

- « بدأت أفهمك يا مستر شانج.. أنت تعمل بسرعة مختلفة عن سرعتي.. الزمن معناه عندك أقل.. في لندن لن أهتم بقراءة الجريدة التي صدرت منذ ساعة.. أنت لن تهتم بقراءة الجريدة التي صدرت منذ عام.... »

انتهت المحادثة فجأة وكان هذا يروق لكونواي جدًّا... هذا أفضل من العكس.. المحادثات التي لا تنتهي أبدًا. بدأ يحب

شانج أكثر فأكثر.. لكنه في الوقت نفسه كان مندهشًا من أنه لا يقابل تقريبًا أحدًا سواء في الدير.. ربما أنت لا تقابل اللاما لكن هناك آخرين.

هناك فتاة المانشو التي كان يراها في غرفة الموسيقا.. لكنها لم تكن تتكلم الإنجليزية، وهو ظل يخفى أنه يتكلم الصينية. كان من المستحيل معرفة ما تفكر فيه..

كان من المستحيل كذلك تخمين عمرها. ربما كانت أقل من 13 عامًا وربما كانت أكبر من 30 عامًا..

لم يعرف هل هي سعيدة بحياتها هنا أم لا.. كانت كأنها دمية من عاج..

تلبس بأناقة وجميلة وتعزف الهارب، ولا تتحرك في الغرفة كأنها تلعب الهوكي.. فتيات قليلات جدًّا في العالم الغربي يملكن هذه الفضائل.

كان كونواى مشهورًا بسخريته من الجنس الآخر. وقد قابل فتيات كثيرات كن سيرحبن جدًّا بالزواج منه.. لكنه لم يطلب. وقد اقترب جدًّا من طلب يد فتاة لكنها لم ترد الإقامة في بكين، وهو لم يرد الإقامة في ترنبريدج.

كان شانج يملك الكثير من الأسرار، وأدي فضولهم الذي لم يرتو إلى أن ينسوا كم المعلومات الرهيب الذي يصبه.. مثلًا كان يحكي بلا تحفظ عن العادات والأزياء لدرجة أن كلماته كانت تصلح رسالة أكاديمية.

- « ما هو نظام حفظ القانون هنا؟ »

قال شانج إن الجريمة نادرة أصلًا.. لأن الأشياء الخطيرة فقط هي التي تعتبر جرائم. هناك ما يكفي الجميع من كل شيء.. كان الطرد من الوادي هو أعنف وأقسى عقوبة. هؤلاء القوم لم يكونوا يملكون قيم التنافس الغربية.

سأله كونواى عن التنافس على النساء.

قال شانج:

- « نادرًا جدًّا.. نحن لا نعتبر من الذوق أن تظفر بامرأة يريدها رجل غيرك.. »

- « لنفرض أن الرجل يريدها لدرجة أنه لا يبالي بكون هذا من الذوق أم لا.. »

- » إذن من التهذيب أن يتخلى الرجل الآخر عنها للرجل الأول.. ومن التهذيب للمرأة أن تصير لمن يريدها منهما... »

أما عن نظام الحكم فقد قال له شانج:

- « نحن نؤمن أنه لكي تحكم بشكل جيد فعليك ألا تحكم أكثر من اللازم.. أما عن الانتخابات فقومنا يؤمنون أنه ليس من التهذيب أن تقول إن أحد الحزبين صائب والآخر مخطئ.. »

كان كونواي في هذا الوقت يفكر في بارنارد.. الأمريكي الذي بدا راضيًا متكيفًا..

الغريب أن هذا الهدوء وهذا السكون ضغط على أعصاب مالنسون. وقد تساءل في توتر:

- « هل تعرف من هو هذا البارنارد حقًّا؟ »

قال كونواى:

- « لا شيء. أعرف أنه أمريكي وقد أقنعته بالمجيء معنا لأن الباسبور الأمريكي لن يمنع الرصاص من قتله.. »

- « وهل رأيت جواز سفره بهذه المناسبة؟ »

- « ربما.. لكن لا أذكر.. لماذا؟ »

ضحك مالنسون وقال:

- « سوف تتهمني بأنني فضولي لا أهتم بأموري الخاصة.. لكن الحقيقة أن بقاءنا هنا قد جعلنا بلا أسرار.... »

- « سأكون شاكرًا لو أوضحت لي الأمر.. »

- « هذا الرجل يسافر بجواز سفر مزيف.. وهو ليس بارنارد أصلًا.. »

رفع كونواى حاجبيه في دهشة.. ثم تسائل:

- « من هو؟ »

- « كالمرز بريان! النصاب الشهير.. »

- « بالله عليك!.. »

- « لقد أسقط حافظته اليوم فجلبها شانج لي على أنها تخصني.. وجدت قصاصات صحف كلها تتحدث عن بريان وبحث الشرطة عنه.. في إحدى الصحف صورة واضحة له لكنه بشارب.. »

- « هل ذكرت هذا له؟ »

- « لا.... »

- « إذن الأمر يتعلق بصورة وجدتها في جريدة.... »

- « لم أقل إن هذا دليل دامغ، لكن لو كان هو فهذا يفسر سبب استمتاعه بالبقاء هنا.. لو كان هو بريان...... »

- « يا عزيزى مالنسون.. لو كان الرجل نيرون نفسه فلا أهمية لهذا في الوقت الحالي.. علينا أن نتماسك فترة بقائنا هنا.. لو شككت فيه في باسكول لاتصلت بدلهي طلبًا للمعلومات، لكني الآن أعتبر نفسي خارج الخدمة.. »

- « إذن أنت تنصحني بنسيان الأمر.. »

- « سأترك شرف القبض عليه لمن يعتقله.. لكنى أجد عسًرا في القبض على رجل عشت معه شهرين.. »

كان كونواي يحب طريقة مالنسون المدرسية في فهم الأمور. لو أخطأ أحدهم فمن الواجب تسليمه للعدالة فورًا. لم يكن يعرف الكثير عن القصة سوى أن مجموعة بريان العلاقة في نيويورك أدت لخسارة مائة مليون دولار. بشكل ما صدر أمر باعتقال بريان ففر لأوروبا وصدرت أوامر لنصف السنة من البلدان.

قال كونواى:

- « أرجو أن تلزم الصمت.. ما زال هناك احتمال لا بأس به أنه ليس المطلوب على الإطلاق.. »

لكنه كان هو المطلوب فعلًا وقد اتضح هذا في تلك الليلة بعد العشاء.

أدرك كونواي أن مالنسون عاجز تمامًا عن معاملة الأمريكي بشكل طبيعي بعد ما وجده. وكان من الواضح أن بارنارد شعر بتغير شيء ما.

فجأة أشعل الأمريكي السيجار وقال:

- « أظن أنكم تعرفون من أنا.. »

احمر وجه مالنسون أما كونواي فقال:

- « نعم يا مستر بريان.. نحن نعرف.. »

- « كان من الحمق أن أحمل معى هذه القصاصات.... »

- « كلنا نتصرف بحماقة أحيانًا.. »

لم يستطع كونواي أن يكره الرجل.. فما زال يعتبره لطيفًا.. لا يستطيع أن يعتبره أخطر نصاب في العالم، قال بريان:

- « لقد فررت من الشرطة عبر العالم.. استقررت في باسكول وشعرت بأنني في أمان خاصة وسط الثورة.. كان الاختيار عسيرًا.. أن أظل في باسكول وأُذبح.. أو أسافر على متن طائرتكم لأجد الأصفاد حول ساعدى.. لم أحب العملين.. لكن المعجزة التي جاءت بي هنا شيء لا أستطيع أن أشكو منه.. لهذا أنا راض ومسرور.. »

كان يعتقد أن كل شيء حدث قسرًا.. لا دور له فيما حدث ولم يكن يقدر على منعه إلا لو استطاع منع الإعصار.

قال كونواى:

- « لن نتجادل الآن حول هذا الموضوع.. لكن يكفي أن أقول إن هناك ثلاثة يمكن أن يجدوا هدفهم وسلامهم هنا.. أنت هارب من الشرطة.. مس بيركلو تفكر في التبشير لهؤلاء التبتيين.... »

- « أنت قلت ثلاثة.. »

- « الثالث هو أنا.. أشعر براحة هنا ولا أكره فكرة البقاء لفترة أطول.... »

وفي المساء وهو يقوم بجولته المعتادة في الشرفة أدرك أنه يشعر براحة غير عادية. هو بالفعل يحب شانجري لا.. كان مكانًا مريح الأعصاب وفي الوقت ذاته يحرك الخيال. وكان قد بدأ يصل لاستنتاج بصدد الدير.. وقد شعر بأنه لو جاء الحمالون فجأة ليعيدوه للعالم الخارجي فلسوف يشعر بخيبة أمل.

فكر فيما سيحدث.. الوجوه التي لوحتها الشمس في الهند.. حفلات السفارة.. لعب الورقة.. النساء يسألنه في إعجاب: هل حقًّا كنت في التبت؟.. ثم العودة لإنجلترا.. سرد قصته عشرات المرات.. سوف يحكي القصة على مائدة العشاء لأعوام كاملة. ثم تذكر ما قاله جوردون عن الخرطوم: أفضل أن أكون درويشًا مع المهدي على أن أذهب للعشاء كل ليلة في لندن.

لم يشعر بقدوم شانج.. الذي قال له:

- « سيدي.. يسرني أن أحمل لك أخبارًا ممتازة.. »

فكر كونواي.. إذن جاء الحمالون قبل الموعد من الغريب أنه كان يفكر في ذلك.

قال شانج في نوع من الحماسة:

- « أهنئك سيدي وأرى أننى مسئول.. اللاما العظيم وافق على طلبي ويرغب في أن يراك.. »

قال كونواى:

- « أفهم.. لكن ما سبب توترك هذا؟ »

- « لأنه غير معتاد وغير متوقع.. منذ أسبوعين لم تكن أنت معنا والآن سوف تقابله.. لا يمكن تصور هذا.. »

- « صدقني كان شيء آخر يدور في ذهني.. متى يكون الموعد؟»

- « الآن.. لقد طلبوا مني أن آتي بك.. »

- « أليس وقتًا متأخرًا؟ »

- « لا قيمة لهذا.. سوف تفهم أشياء كثيرة يا سيدى حالًا.. وأرجو أن تغفر لي رفضي إعطاء معلومات عدة مرات.. ويسرني أن أعرف أن هذا لم يعد ضروريًا... »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

حاول كونواي أن يبدو متماسكًا لكن تصرفاته أظهرت بوضوح لهفة تزداد وهو يرافق شانج عبر الممرات الخالية. وأدرك أنه على وشك اكتشاف مهم. لاحظ أن شانج يمشى به عبر غرف لم يرها من قبل. صعد به في الدرج حتى باب دق عليه شانج.

فتح الباب خادم متحمس. وفي الداخل بدا المكان لا يقل أناقة عن باقي الدير.. كان أكثر دفئًا بشكل واضح. في الحقيقة كانت الحرارة تتزايد كلما ولجت للداخل.. حتى بلغ الدفء درجة تشعرك كأن هذا حمام تركي.

همس شانج:

- « اللاما العظيم سوف يستقبلك وحده.. »

وأغلق الباب. انتظر قليلاً حتى اعتادت عيناه الضوء الخافت الكئيب. ثم بدأ يرى غرفة مغطاة بستائر سوداء وسقف خفيض.. وقف هناك مترددًا. رأي على مقعد رجلاً صغير الحجم مليئًا بالتجاعيد يبدو كأنه بورتريه قديم باهت. شعر كونواى بدوار تحت تحديق هاتين العينين.. لكنه كان يرى هذا الشخص يتجسد بوضوح.

همس بإنجليزية ممتازة:

- « أنت مستر كونواى؟ »

كان الصوت مريحًا بشكل خاص.. رد كونواى:

- « أنا هو.. »

- « مما يسرني أن أراك.. فكرت أنه من الخير أن نلتقي.. اجلس ولا تخش شيئًا.. »

- « هذا شرف لي أن أوجد هنا.. »

- « نظري ضعيف لكني أراك في ذهني.. أرجو أن تكون قد استرحت في شانجري لا.. يقول شانج إنك سألت كثيرًا عن الدير.. »

- « بالتأكيد أنا مهتم جدًّا.. »

- « سوف يكون من دواعي سروري أن أخبرك بتفاصيل هذه المؤسسة.. »

حرك يده حركة خفيفة جدًّا.. لكنها استدعت الخادم حاملاً الشاي. وضع سلطانيات بها سائل شبه شفاف على صينية، وكان كونواي قد ألف هذه الطقوس.. قال دون أن يعرف السبب:

- « أنا عشت في الصين عدة أعوام.. »

- « لم تقل هذا لشانج؟ »

- « لا.. »

- « إذن لماذا تخبرني أنا؟ »

- « الحقيقة أنني لا أعرف أدنى فكرة عن سبب هذا.. »

- « هلا ذقت هذا الشاى؟.. نحن نحاول به أن ننافس الشاي الصيني.. »

تذوق كونواي الشاي من السلطانية فوجد المذاق رقيقًا حالمًا.

- « كما ترى. لدينا أعشاب ثمينة جدًّا في الوادي.. كما ترى لابد من تذوقه ببطء.. لتظفر بأقصى درجات النشوة. هكذا تعلمنا من كو كاى تشو الذي عاش منذ 15 قرنًا.. هل درست أي عمل كلاسي صيني؟ »

كان كونواي يعرف أنه طبقًا للتقاليد تستمر المحادثة حتى تفرغ سلطانيتا الشاي، ولكنه كان راغبًا في معرفة تاريخ شانجرى - لا بدلًا من تضييع الوقت.

قال اللاما:

- « أنت تعرف تاريخ التبت يا كونواى العزيز.. قال شانج إنك بحثت في المكتبة كثيرًا. في القرن السابع عشر بدأت المسيحية تغزو آسيا مع الرهبان الجيزويت الشجعان.. وهؤلاء قد انتشروا في مساحة هائلة. والأوروبيون لا يدركون أنه كانت هناك بعثة تبشيرية في لهاسا نفسها.. وفي العام 1719 انطلق أربعة من الرهبان الفرنسسيكان باحثين عن آثار العقيدة المسيحية النستورية التي اندثرت. سافروا نحو الجنوب الغربي وواجهوا كوارث يمكن لك تخيلها.. مات ثلاثة منهم في الطريق أما الرابع فتعثر بفتحة صخرية تظل حتى اليوم هي المدخل الوحيد لوادي القمر الأزرق، ولدهشته قابل قومًا أصدقاء شغوفين بمساعدته.. لما تعافى بدأ يبشر بديانته. كان القوم بوذيين لكنهم أحبوا سماع ما يقول. كان هناك دير كبير قديم في المكان.. فخطر له أن يقوم بترميمه واستخدامه من جديد..

وبدأ يعيش فيه. كان اسم الرجل بيروت.. وكان مولودًا في لكسمبورج ودرس في جامعات باريس وبولونيا..

في الأعوام الأولى له هنا كان يأكل من عمل يديه كأى رجل آخر ويزرع حديقته ويتعلم من كل شخص يقابله. وجد أثرًا للذهب لكنه لم يثر انتباهه.. كان أكثر اهتمامًا بالأعشاب والنباتات..

اهتم جدًّا بشجرة التانجتسي التي كنا نعزو لها الكثير من المنافع الطبية، والحقيقة أنها كانت ذات صفات مخدرة.. وهكذا صار هو نفسه مدمنًا في الحقيقة. لم يكن زاهدًا في الواقع بل كان يحب لذائذ الحياة لذا كان يعلم أتباعه الطبخ مثلما يعلمهم الدين. هكذا يمكنك أن ترسم في ذهنك رجلاً مخلصًا مشغولًا متعلمًا.. هو رجل دين لكن لا مشكلة عنده من ارتداء ثياب بنّاء، والمشاركة في تشييد هذه الغرف. جزء كبير من دوافعه كان الكبرياء... كان يؤمن أنه لو استطاع جواتاما أن يجعل الناس يبنون معبدًا بوذيًّا في شانجري - لا فإن روما قادرة على تلك.

مع الوقت بدأ الحماس ينضب.. لعله السن ولعله ابتعاد رؤسائه عنه. كان القوم في الوادي منبهرين به ولربما يقدسونه مع الوقت. كان يرسل تقارير لأساقفة بكين.. لكن المراسلات انقطعت ومات رسل كثيرون في أهوال الرحلة. لذا لم يعد راغبًا في المخاطرة بحياتهم أكثر. لكن لابد أن بعض خطاباته بلغت وجهتها..

بعض الخطابات كان يستغرق 15 عامًا في الوصول.

هكذا ظل بيروت في شانجري - لا، ليس لتحدى من هم أعلى منه ولكن لأنه كان عاجزًا عن تنفيذ أوامرهم نهائيًا. وعلى كل حال كان قد صار مسنًّا في التسعين من العمر الآن. كان سعيدًا وكان القوم يحبونه، حتى إنه لم يهتم كثيرًا بأنهم عادوا ببطء لعقيدتهم القديمة. وكان يحلم بكتابة كتاب يهاجم البوذية على أساس المسيحية. الحقيقة أنه أنهى هذا الكتاب فعلًا.. إنه لدينا. لكنه كتاب وديع مسالم جدًّا لأنه كتبه في نهاية العمر عندما تزول أي بغضاء أو عداوة.

كان الآن يدنو في سلام من نهاية العمر، وكان أهل الوادي يمدونه بالطعام والثياب. ظل عقله سليمًا وانغمس في دراسة ممارسات صوفية هندية يطلقون عليها اليوجا. وفي نهاية عام 1789 نزلت إلى الوادي أخبار تقول إن بيروت يموت.

رقد في غرفته وراح يرمق من النافذة ذلك البياض الذي يشكله جبل كاراكال، وكان نظره قد وهن جدًّا لكنه كان يراه بقلبه كذلك. لقد انتظر النهاية راضيًا سعيدًا. لكن لم يحدث هذا..

مرت أسابيع وهو لا يتكلم أو يتحرك.. ثم بدأ يفيق. وكان اليوم في سن 108...

ساد الصمت طويلاً.. ثم عاد اللاما العظيم يقول:

- « مثل من ظلوا طويلاً على حافة الموت، كان لدى بيروت ما يحمله معه للعالم الخارجي عندما عاد.. وبدلًا من النقاهة البطيئة غرق في نشاطات محمومة، مع الانغماس في تعاطي المهدئات. لا أعرف السر ولا أعتقد أن لهذا دورًا في تحدي الموت. لكن المؤكد أنه لما مات آخر الرهبان، كان بيروت حيًا.

وكان سكان الوادي يتبركون بهذا المعبد والرجل.. وكان من المعتاد أن تجلب هدية معك وتصعد إلى شانجري لا.

مع القرن الجديد تزايدت الأسطورة وقيل إن بيروت صار إلهًا ويقوم بمعجزات. وقيل إنه يصعد لقمة كراكال حاملًا شمعة.. دعني أؤكد لك أنه لم يصعد أي إنسان هناك قط..

قيل إنه يجيد فن الاسترفاع.. أي أن يطفو بنفسه لأعلى. الحقيقة أنه قام بتجارب عديدة فاشلة.. لكنه استطاع أن يملك موهبة في التخاطر.. ولم يزعم أنه معالج روحاني لكن وجوده كان يمنح نوعًا من القوة الشافية للناس..

كان قد أدرك أنه لم يمت في الوقت المناسب.. وهذا جعله يشعر بأنه لا ضرورة للتخطيط للغد. ذاكرته ظلت مذهلة وبدا أنه قادر على تعلم أى شيء.. وعندنا ترجمة ممتازة قام بها من الإنجليزية للغة التبت. قد يبدو لك هذا جهدًا بلا طائل.. لكن بيروت كان قد بلغ سنًّا لابد معها أن يشغل نفسه.

كان العام 1804 ذا أهمية بالغة لنا، لأنه شهد قدوم غريب ثان من أوروبا إلى وادي القمر. كان نمساويًّا اسمه هنشل حارب نابليون في إيطاليا. كان شابًّا نبيلاً عظيمًا..

كانت الحرب قد بددت ثروته ومضى يجوب روسيا وآسيا..

بلغ الوادي الرحب.. لكن الفارق بدا واضحًا.. كان بيروت يدرس ويعظ، بينما اهتم هنشل بالذهب. كان يريد استخراج أكبر كمية من الذهب ثم العودة لأوروبا.. لكنه لم يعد..

حدث شيء نعتبره غريبًا برغم أنه ليس كذلك البتة. أغراه الوادي بسلامه وبعده عن مشاكل العالم فأخر رحيله.. وفي يوم

تسلق إلى شانجري - لا وقابل بيروت.

اللقاء كان تاريخيًّا، كان بيروت قد صار بعيدًا عن العواطف البشرية مثل الصداقة والحب، لكنه كان صافي القلب بطريقة أثرت في الفتي.. كأنه الماء يصب على التربة، نشأت علاقة بين الرجلين.. أحدهما يعطى كل معرفته والآخر يعطى كل إخلاصه..

هنشل هو الذي زودنا بالتحف الصينية وأدوات الموسيقا ومعظم الكتب. وهو الذي طور النظام المعقد الذي نحصل به على احتياجاتنا من خارج الدير. وكان حذرًا جدًّا حتى لا يندفع نحونا الباحثون عن الذهب.. طور طريقة للحراسة ثم عدل عنها..

- « كيف؟ »

- « استبعد أن يهاجمنا جيش لأن طبيعة المكان الجغرافية لا تسمح بهذا.. الخطر هو قدوم الضالين الذين لا يشكلون خطرًا في ذاته.. »

هكذا سمح للغرباء بالمجيء بشرط واحد.. كان التبتيون يأتون ومعهم الصينيون.. كنا نستضيفهم فى الدير كحيوانات متعبة.. جاءنا روس وألمان وبريطانيون.. كلهم كانوا في أسوأ حال يتجمدون ويوشكون على الموت جوعًا. كانت السياسة تقضى بلقاء الغرباء لو دنوا منا وتجاوزوا نقطة معينة.

« كان شانجري - لا يكتسب الآن صفاته الحالية.. كما قلت كان هنشل ذكيًّا بارعًا.. ومن حسن الحظ أنه أنهى كل شيء قبل أن يموت.. »

- « هل مات؟ »

- « نعم.. فجأة.. في سنة الثورة الهندية الخاصة بكم.. هناك فنان رسمه ساعتها ويمكن أن أريك هذا الرسم.. »

وعرض على كونواي صورة دقيقة رسمت بعناية لهنشل.. وجه دقيق الملامح جميل.. يمكن أن يكون وجه أنثى. نظر كونواي للصورة غير مدرك لما يثير دهشته فيها. ثم فطن للأمر.. هذا وجه شاب.

- « قلت إنه رسم قبل موته بالضبط.. »

- « نعم.. »

- « قلت إنه جاء الدير عام 1803 وهو شاب.. »

- « نعم.. ومات.. قتله مستكشف بريطاني.. مشاجرة على بعض الحمالين.. كما أنه أطلعه على الشرط الخاص بنا والذي أحسبك شغوفًا بأن تعرفه..... »

- « أعتقد أن بوسعي أن أخمن شيئًا.. »

- « هلم.. »

- « يبدو هذا مذهلًا وغريبًا وغير قابل للتصديق..... »

- « وما هو يا عزيزى؟ »

قال كونواي وهو يرتجف ولا يخفى ذلك:

- « خمنت أنك كنت الأب بيروت!.. ما زلت حيًا!.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

ساد الصمت. قطعه طلب اللاما لمشروب جديد. لم يندهش كونواي لأن الرجل أرهق طبعًا من كثرة الكلام. هذا الصمت أفاد الموقف كثيرًا لأنه لعب دور استراحة الأوبرا بين مقطوعتين موسيقيتين.

يبدو أن التخاطر كان حقيقة - ما لم تكن صدفة عجيبة - لأن اللاما بدأ الكلام عن الموسيقا، وقد أبدى كونواى دهشته لأن الدير به مجموعة كاملة من المؤلفين الأوروبين.

- « سوف يدهشك أن تقابل عازفًا بارعًا في المجموعة.. كان تلميذًا لشوبان ولابد أن تقابله.. »

دارت المحادثة حتى انتهت سلاطين الشاي.. هنا عادت المحادثة لما سبق وقال اللاما:

- « أنت خمنت ببراعة يا بنى.. »

- « بعبارة أخرى.. يجب أن نظل هنا للأبد.. »

- « ربما كان علىَّ أن أجد لفظًا أفضل. وأقول إننا باقون حتى يقضى الله أمرًا.. »

- « ولماذا نحن؟ »

قال اللاما:

- « تلكم قصة طويلة.. كنا دومًا نسعى لضم جنسيات مختلفة وأعمار مختلفة.. آخر من زارنا كان يابانيًّا جاء عام 1912 م.. لم يستفد قط من وجوده هنا.. بعض الناس لا تتغير

حياتهم معنا على الإطلاق.. على كل حال وجدنا أن التبتيين بسبب مشاكل الارتفاع وعوامل أخرى حساسون جدًّا.. ولا أتوقع أن يتجاوز أكثرهم مائة عام. الصينيون أفضل لكننا لا ننجح معهم كثيرًا. أفضل الناس هم أجناس أوروبا.. الشمالية بالذات. على كل حال نحن لم نستقبل أي قادمين لمدة 20 سنة وبدأت وفيات.. لذا صار الوضع عسيرًا..

« جاء وقت اقترح فيه أحد زملائنا وهو شخص موثوق فيه.. اقترح أن يسافر لبلد قريب ويجلب لنا أشخاصًا جددًا بطريقة جديدة.. فوافقنا بصعوبة... »

- « هل تعنى أنكم أرسلتم ذلك الذى خطفنا بالطائرة؟ »

- « كان رجلاً موهوبًا وكنا نثق به.. كل ما نعرفه هو أن أول جزء من خطله تضمن التدريب في مدرسة أمريكية للطيران.. »

هز كونواى كتفيه وقال:

- « وما هدف هذا كله؟ »

ضحك اللاما وقال:

- « يا بني.. اهتمامك واضح الإخلاص وهذا يدفعني أن أخبرك بأشياء.. وهذه الأشياء لن يعرفها رفقاؤك الثلاثة. أنت صغير السن وحياتك أمامك.. قضيت أول ربع قرن في حياتك تحت سحابة أنك صغير السن بالنسبة للأشياء. الربع الأخير سوف تكون تحت سحابة أنك صرت أكبر سنًّا من استيعاب الأشياء. وبين هذين الربعين تضيء حياتك أشعة شمس عابرة. سوف تقضي مثل هنشل فترة شباب طويلة مثمرة، لكنك في النهاية سوف تشيخ. لكن هذا سيتم ببطء.. في سن الثمانين

سيظل بوسعك تسلق الجبل كشاب. لكن لابد للمعجزة أن تزول مع الوقت.. نحقق هذا بطرق سهلة علينا مستحيلة على الآخرين.. لكن لا يساورنك شك أن النهاية قادمة مهما تأخرت.. »

قال كونواى:

- « الحقيقة إننى بلا أسرة.. غير متزوج وبلا طموحات... »

- « إذن لم تكن تضع روحك في عملك »

- « لا روحي ولا قلبي ولا نصف طاقاتي.. إننى أميل للكسل...»

ازدادت تجاعيد الوجه فخمن كونواي أن الرجل في الغالب يبتسم.

قال اللاما:

- « لابد أن شانج شرح لك أسلوبنا في الاعتدال.. من ضمن هذا الاعتدال اعتدال في النشاط.. أنا أجيد 8 لغات وكان بوسعي أن أجعلها عشرين لو عملت بشكل متواصل لكني لم أفعل. لهذا نحن لسنا كسولين ولا نشطين.. حتى في الطعام لا نتعلم الاعتدال إلا في سن يؤذينا فيها الإفراط.. لا أنكر أن فيك مزية لم أرها في أي شخص يصل هنا.. صفاء مخ غير معتاد فيمن يقل عمره عن قرن. إن هذه الصفة التي تميزك يمكن أن نسميها الافتقار للعواطف.. »

قال كونواى:

- « لو كان لك أن تصنف الرجال الذين يأتون هنا فبوسعك أن تصنفنى 1914-1918[1].. هذا يجعلنى عينة فريدة في المتحف. لقد استعملت كل عواطفي وطاقتي في تلك الأعوام وكل ما أريده من العالم اليوم هو أن يتركني وشأني. وقد راق لي هذا المكان بسبب الهدوء والسلام.. »

- « أنت بارع كما قال لي شانج.. أنت بارع جدًّا.... »

ساد الصمت لبعض الوقت ثم أضاف كونواى:

- « يؤسفني بالطبع أن أفارق شانجري لا غدًا أو الأسبوع القادم أو العام القادم.. لكن يسهل عليَّ تخيل ما سوف أشعر به لو عشت حتى المائة في شانجري - لا.. أعتقد أن طول العمر خال من المعنى.. ما زلت أبحث عن أسباب قوية تدفعني إلى أن أحسد ابن المائة عام.. »

- « هناك سبب وهو سبب مهم.. نحن لا نطيع نزوة معينة.. نحن حالمون ولدينا رؤية.. هكذا حلم بيروت وهو يكاد يموت في غرفته وحيدًا عام 1789.. فكر في أن الأشياء الجميلة في الحياة لا تدوم.. سرعان ما تقضى عليها الحرب والصراعات.. رأى الدول تتعاظم وتتضخم في قوتها السوقية وقدرتها على التدمير. سوف يمضى الوقت وتصير كل لوحة وكل كتاب وكل شيء جميل أو ثمين في خطر.. هذه الرؤى حقيقية وقادمة.. لهذا أنت هنا وأنا هنا.. هناك فرصة في أن ننجو.... »

- « وأنت تعتقد أن شانجري - لا سوف تفلت »

- « ربما.. لن نأمل في أن يرحمونا، لكننا نأمل في أن ينسونا.. سوف نظل هنا مع كتبنا وموسيقانا وتأملاتنا باحثين عن

الحكمة.. إن لدينا تراثًا من الحكمة.. فلننعم به.. »

- « وعندها؟ »

- « عندها يا بني قد يرث الضعفاء الأرض.. »

شعر كونواي بالعالم يحتشد بالظلام في الخارج. كأن هناك عاصفة قادمة. ثم لاحظ أن اللاما العظيم ينهض من مقعده ويقف كأنه شبح.. بدافع خفي كاد ينهض ليساعد الرجل، لكنه فجأة وجد نفسه يفعل ما لم يفعله مع أي رجل من قبل.. يركع على ركبتيه ولا يعرف كيف.

لا يعرف كيف رحل. كان في حلم لم يفق منه لفترة طويلة.

بدا له الوادي يمتد ساحرًا يتسق مع السلام الذي يغلف أفكاره. لقد تجاوز حدود الدهشة وقد أفرغته المحادثة من أي انفعال أو كلام يقال. لم تعد الشكوك تضايقه..

كان الوقت متأخرًا، وسره أن الآخرين آووا لفراشهم منذ فترة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

في الصباح حاول أن يسترجع كل هذه الخواطر.

عندما ظهر على مائدة الإفطار انهالت عليه الأسئلة. الكل يريد معرفة ما تم وما قاله كونواي، لكن لم يكن عنده ما يقوله سوى أن اللاما رجل مسن جدًّا يتكلم إنجليزية ممتازة.

تلقى كلمات خشنة خاصة من مالنسون الذي ظن أنه فتح موضوع الحمالين. الحقيقة أن الشاب قد صدم فيه فعلًا... لقد رأى الشاب في باسكول الكثير من الكابتن الوسيم الرياضي وتوقع منه الكثير.. الآن يسقط هذا الصنم. لكن كان الادعاء مستحيلاً.. ثمة شيء في جو (شانجري - لا) يجعل الادعاء مستحيلاً.

قال مالنسون:

- « كنت في باسكول أفهم ما يدور حولي.. بينما هنا أنا غارق في الغموض.. هناك كان الكثير من القتل والاغتصاب لكنى كنت أفهم الأمور.. هنا لا أفهم أي شيء.. مثلاً هل فهمت من أين جاءت الفتاة الصينية؟ »

- « وما أهمية ذلك؟ »

- « هل تجد من الطبيعي أن تعيش فتاة وحدها مع كل هؤلاء الرهبان؟ »

وساد صمت.. لم يكن كونواي قد فكر في الأمر بهذه الطريقة طبعًا. إن قصة حياة لوتسن خارج الموضوع تمامًا بالنسبة لكونواى.

ما إن ذكر اسم الفتاة الصينية حتى رفعت مس برنكلو رأسها من كتاب الأجرومية التبتي الذي تدرس فيه حتى على مائدة الإفطار (كأن حياتها ليست ممتدة كلها لقراءة هذا الكتاب). تذكرت المعابد الهندية التي تمارس فيها الرذيلة... فقالت:

- « بالتأكيد الأخلاق في هذا المكان مرعبة.. علينا أن نتوقع هذا.. »

كانت هناك مشادة.. لكن كونواي ظل يراقب المشهد شاعرًا أن هؤلاء مجرد ممثلين يقفون على خشبة مسرح، هو فقط يراها ويعرف أبعادها. وشعر بأنه يريد أن يكون وحده.

يجب أن يعيش بشخصيتين.. عندما يكون مع رفاقه سيحلم بقدوم الحمالين والعودة للهند.. لكن الأفق يرتفع كستار مسرح والزمن يتمدد ولفظة الوادي الأزرق لها رمزية مهمة. وتذكر شعوره وقت الحرب عدما كانت القنابل تنهال عليه.. كان يخيل له أن له أكثر من حياة.. حياة واحدة فقط هي التي سوف يفتك بها الموت.

كان اليوم يتكلم مع شانج بلا تحفظات. قال له شانج إنه لن يخضع لأي نظام في أول خمس سنوات من حياته.. هذا كي يتعود جسمه التكيف مع الارتفاع العالي وللخلاص من الشعور بالندم.

بعد خمس السنوات تبدأ عملية تأخير الشيخوخة.. ولو نجحت فهذا يعني أن يكسب كونواى نصف قرن عند سن الأربعين.. سوف يتوقف عن الشيخوخة منذ تلك اللحظة.

- « وكيف الحال معك؟ »

قال شانج:

- « سيدى.. كان من حظي أنني جئت وأنا صغير.. كنت فى الثانية والعشرين.. كنت جنديًّا عام 1855 وكنت أقوم بمهمة استطلاع، ضعنا في الجبال.. ولم يبق من رجالي المائة سوى سبعة. وعندما جاءوا بي لشانجري - لا كنت على وشك الموت.... »

أجرى كونواي الحساب:

- « إذن أنت في السابعة والتسعين.. »

- « نعم.. وسوف يصير الترقي من حقى لو سمح اللاما.. »

- « لابد من رقم مستدير إذن »

- « لا... لكن اللاما يعتبرون القرن هو وقت ممتاز كى تزول المطامع والشهوات الشخصية.... »

- « أهنئك.. يبدو أنك ظفرت بشباب طويل حافل وشيخوخة طويلة أمامك.. متى بدأت تشيخ في ملامحك »

- « في سن السبعين.. هكذا يحدث دومًا.. »

- « وماذا لو غادرت الوادي الآن؟ »

- « أموت خلال أيام!.. »

- « إذن هو الطقس »

- « هناك وادي قمر أزرق واحد فقط.. ومن يطلبون واديًا آخر يطلبون الكثير من الطبيعة. كان هناك رجل روسي جاء إلى الوادي وعاش مثلنا وفي الثمانين كان يبدو في الأربعين.. لابد أنه

غادرنا أقل من أسبوع فقط.. للأسف اعتقله بعض البدو من القبائل وأخذوه بعيدًا، حسبناه ضل الطريق.. بعد ثلاثة أشهر عاد لنا بعد ما هرب.. لكنه صار رجلاً آخر.. ظهر كل عام في وجهه وحركته.. مات بعدها كرجل شيخ.. »

كان كونواى يصغى وينظر من نافذة إلى الممر الذي جاء بهم هنا.

قال بعد صمت:

- « قصة محزنة يا شانج.. تشعرك أن الزمن وحش متربص ينتظر خارج الوادي لينقض على الفارين (الصيّع).. »

قال شانج في دهشة:

- « (صيّع)؟ »

كان يجيد الإنجليزية لكن بعض التعبيرات العامية كانت تفلت منه.

قال كونواى:

- « معناها الكسول الذي لا نفع منه.. لم أقصد هذا حرفيًا.. »

قال شانج مفكرًا وقد سره أن يكسب كلمة جديدة:

- « من المثير أن الإنجليز يعتبرون التراخي والكسل رذيلة.. نحن نفضل هذا على التوتر.... »

في الأيام التالية قابل كونواى رفاقًا آخرين لكنه لم يلق أي لاما آخر.

قابل رجالاً بلغوا ثلاثة أضعاف عمره وكانت مقابلات ناجحة جدًّا.

مثلاً قابل ذلك الرجل الذي تكلم عنه اللاما.. اسمه ألفونس برياك وهو فرنسي ضئيل الحجم يقول إنه كان تلميذ شوبان. قابل كذلك رجلًا من أصل ألماني.

لاحظ أن هؤلاء القوم يذكرون جيدًا حياتهم قبل الدير.. بل إن أحد الرجال راح يحكى له عن حياته مع أسرة برونتي الكاتبة البريطانية الشهيرة..

مهما كان الماضي فهو يعرف أنه يحب الحاضر..

كان يعشق الغموض الساحر المخيم على المكان.. يصغى لعزف لوتسن الجميل ويتساءل عن تلك البسمة الرقيقة التي تتلاعب على شفتها فتجعلها كأنها زهرة لوتس.

سأل شانج عن قصتها ذات مرة فقال له إنها من أسرة مانشو ملكية:

- « خطبها أمير من تركستان وسافرت لكاشجار لتقابله عندما ضل الحمالون الطريق في الجبال.. مات الكل لكنها وصلت لديرنا..»

- « متى كان هذا؟ »

- « عام 1884 م كانت في الثامنة عشرة... »

انحنى شانج وقال:

- « كما ترى.. نحقق نتائج ممتازة معها.... »

- « وماذا فعلت عندما جاءت هنا؟ »

- « كانت ترفض عالمنا.. لكننا كنا نعرف ظروفها كفتاة كانت في الطريق للزواج وتغيرت حياتها بالكامل، وقد حرصنا على أن تكون سعيدة.. أخشى أن ملذات الحب لا تزول بسهولة.. كانت متعلقة بالرجل الذي تزوجته جدًّا.. »

- « ليس بالضبط.. فهي لم تره قط من قبل.. إن فرحتها بالزواج لم تكن شخص شخصًا بعينه.. »

ابتسم كونواي وهو يفكر برقة في لوتسن.. كيف كانت منذ نصف قرن، بينما الحمالون يقتادون مقعدها عبر المنحدرات الوعرة، ونظرة الرعب في عينيها..

هذه القصة جعلته يراها في ضوء أجمل... كأنها مزهرية نفيسة ثمينة منسية..

كما أنه أحب برياك وعزفه لشوبان.. كان الفرنسي يجيد عزف مقطوعات لم يسمعها من قبل. وقد حاول أن يدونها حتى لا ينساها.

قال شانج:

- « برياك لم يتلق بعد كلاما.. لذا ما زالت الذكريات الدنيوية مثل شوبان تلاحقه.. بينما اللاما الأكبر سنًّا يقضون وقتهم في التأمل.... »

للمرة الثانية منذ جاء إلى الدير تلقى كونواي استدعاء للقاء للاما الأكبر..

قال له شانج إن اللاما الأكبر لا يغادر غرفته أبدًا وإن الحرارة العالية مهمة جدًّا لسلامة جسده. هذه المرة لم يندهش كونواي من الحر.. وانحنى محييًا بمجرد أن رأى علامة حياة في العينين الغائرتين.

تبادلا التحية المعتادة وأجاب بأدب عن بعض الأسئلة. قال إنه كون صداقات ووجد الحياة جميلة هنا.

- « وهل أخفيت السر عن أصدقائك الثلاثة؟ »

- « نعم.. حتى اللحظة. هذا أربكني نوعًا لكن ليس كارتباكي لو تكلمت.. »

- « يقول شانج إن اثنين من رفاقك سوف يسببان المتاعب لو عرفا.. »

- « أعتقد ذلك.. »

- « والثالث؟ »

- « مالنسون متحمس للعودة جدًّا.. »

- « هل تحبه؟ »

- « أحبه جدًّا.. »

هنا وصل الشاي فصار الكلام أقل جدية أثناء احتساء السائل العطر. سأله اللاما عما إذا كان هناك شيء مثل شانجرى -لا في أكسفورد فقال:

- » حسن.. بصراحة المكان يذكرني بأكسفورد حيث كنت أحاضر.. أكبر الدارسين هناك ليس كبير السن.. لكنهم مسنون

بشكل ما، ودراستهم غير عملية على الإطلاق.. فقط ليست الطبيعة بهذا الجمال هناك.. »

قال اللاما الكبير:

- « أنت تتمتع بروح دعابة قوية يا عزيزى كونواى.. ولسوف تسعدنا في الأعوام القادمة.. »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

تكررت لقاءات كونواي مع اللاما..

الحقيقة أن كونواى اعتاد الموقف فلم يفطن إلى أن هذه معجزة حقيقية. اللاما لا يقابل الأشخاص الذين لم يمضوا خمس سنوات في الدير.. وقد رأى شانج أن هذا دليل آخر على اعتدال الدير.. اعتدال في الالتزام بالقواعد..

في أحد اللقاءات قال له اللاما:

- « عزيزى كونواي.. أنت أصغر منى بمراحل.. لكنك تملك الكثير من الحكمة بالتأكيد فلابد أن شيئًا غير معتاد حدث لك في الماضي.. »

ابتسم كونواي وقال:

- « ليس أكثر غرابة مما حدث لأي شخص من جيلي.. »

- « لم أر مثلك من قبل.. »

- « الجزء الذي يبدو مسنًّا بالنسبة لك قد أنهكته صراعات قديمة.. كانت حياتي منذ سن 19 إلى 22 معاناة مستمرة تعلمت فيها الكثير.. »

- « كنت تعسًا في الحرب »

- « ليس بالضبط.. كنت مستثارًا ذا ميول انتحارية.. قتلت كثيرين جدًّا.. ربما كان اضمحلال العواطف هو أول طريق الحكمة.. »

- « هذه يا بني عقيدة شانجري - لا.. »

- « أعرف.. هذا يشعرني بألفة غريبة.. »

لم يكن يكذب.. خلال الأيام التالية شعر بسلام غريب يمزج بين روحه وجسده.. لقد وقع في ذات المصيدة التي وقع فيها بيروت وهنشل.. نفس التعويذة. لقد اختطفه القمر الأزرق ولم يعد يقدر على الفرار.

منظر الجبال تلتمع في الضوء الأزرق النقى ثم تنحدر نحو الوادي المعشوشب الأخضر. ثم سمع بعدها صوت أنغام الهارب عبر بركة اللوتس.. فشعر أن هذا امتزاج الصوت والمنظر..

كان يعرف أنه واقع في حب فتاة المانشو. لم يطلب من حبه أي شيء ولا حتى الإجابة..

كانت رمزًا لكل شيء هش ورقيق. لمسة أناملها على الأوتار كانت تشعره بشعور حميم مرض. أحيانًا كان يخاطبها محاولاً أن يصل معها لمحادثة أقل رسمية.. لكن ردودها لم تكن تنقل أي شيء من خواطرها وأفكارها.

كان يعرف أن معه جوهرة مهمة هي الوقت.. لديه وقت كاف لكل شيء يريده. يمكنه إنجاز أي شيء ويظل هناك لوقت طويل جدًّا..

لكنه كان يدخل العالم الآخر ليقابل نفاد صبر مالنسون وعزيمة مس برنكلو. وقدر أنه سيكون سعيدًا لو استطاع أن يخبرهم بما يعرفه..

وقد قال له بارنارد ذات مرة:

- « هل تعرف؟.. هذا عالم ظريف للحياة فيه.. سوف أفتقد الصحف والسينما لكن يمكن اعتياد كل شيء مع الوقت.. »

عرف أن شانج أخذ بارنارد للوادي بناء على طلبه للترفيه. كان بحاجة للخمر والنساء بشدة.. مالنسون سمع بهذا وبدا مشمئزًا وقال:

- « بدأت تعبث.. هذا ليس من شأني بالطبع لكن يجب أن تحتفظ بلياقتك. الحمالون قد يصلون في أي وقت ولن تكون رحلة العودة نزهة.. »

قال بارنارد:

- « أنا في خير حالاتي.. لم أكن أكثر لياقة قط.. أتدرب يوميًا.. أنت تعرف أن الاعتدال سياسة هؤلاء القوم.. »

ثم أضاف:

- « كنت قد نويت شيئًا.. سوف أفوت هذه المرة إذا جاء الحمالون.. سوف أنتظر المرة القادمة أو المرة التي بعدها إذا ما وافق الرهبان هنا على إطالة فندقتهم لي.. »

- « تعنى أنك لن تأتي معنا؟ »

- « نعم.. قررت البقاء فترة أقول.. أنت سوف يتم استقبالك في الوطن بالموسيقا. بينما أنا سوف تكون هناك فرقة شرطة في استقبالي.. لا.. لا أفضل العودة.. »

قال مالنسون في ازدراء:

- « الأمر لك على كل حال.. لا أحد يمكنه منعك من قضاء حياتك هنا لو أردت.. لكنى لا أعتقد أن هذه رغبة الجميع.. ما رأيك يا كونواى؟ »

قال كونواى:

- « موافق.. الأفكار تتباين.. »

قالت مس بيركلو:

- « بصراحة.. أعتقد أنني سأبقى بدوري.. »

- « ماذا؟ »

قالت بابتسامة بدت أنها ملتصقة بوجهها:

- « فكرت في الطريقة التي جئنا بها هنا.. ووصلت لاقتناع. هناك قوة غامضة تتحكم فينا.. العناية الإلهية أرسلتني هنا وسوف أبقى.. »

قال مالنسون:

- « هل تعنين أنك تريدين بدء بعثة تبشيرية هنا؟ »

- « لا أريد بل أنوى بقوة.. أعرف كيف أتعامل مع هؤلاء القوم.. لا خوف... أنا لا أؤمن بمبدأ الاعتدال الذي يتكلمون عنه.. اعتبره نوعًا من التراخي.. ما يطلقون عليه سعة صدر هي الشيء الذي أنوي أن أحاربه.... »

قال كونواى ضاحكًا:

- « لكن سعة صدرهم هي الشيء الذي سيجعلهم يتركونك.. »

لما انفرد مالنسون مع كونواي قال له:

- » هذا الرجل بارنارد يدمر أعصابي.. لا أتحمله.. لست نادمًا على تركه لدى عودتنا.. لكنى فعلاً أحب تلك الفتاة الصينية، ولو كان بوسعي أن أتكلم الصينية مثلك لأوقعتها في حبى.. »

قال كونواى:

- « لا تعتمد على هذا.. هي لا تتبسط في الحديث أبدًا.. لكن أرى ألا تقلق عليها.. إنها سعيدة فعلًا.. »

كان كونواي يعرف جيدًا أن مالنسون لن يرحل..

كان قلقًا عما سيفعله الفتى عندما يكتشف ذلك، ولكن شانج كان مطمئنًا وقال له إن مالنسون سيعتاد الأمر بعد عشرين سنة. بدا هذا لكونواي فلسفيًا أكثر مما يتحمل الأمر..

قال:

- « سوف يجن جنونه عندما لا يأتي الحمالون.. »

قال شانج:

- « بالعكس.. الحمالون قادمون.. »

- « لقد تخيلت أنها مجرد أكذوبة سارة.. »

- « البتة.. أنت تعرف منهج الاعتدال.. في شانجري – لا نحن صادقون بشكل معتدل.. نحن بالفعل ننتظر هؤلاء القوم.... »

- « لن تستطيع إذن منع مالنسون من السفر.. »

- « لا.. سوف تكتشف أن الحمالين يرفضون أن يأخذوا أي شخص معهم.. سوف يصاب بإحباط شديد ثم يبدأ يأمل في أن يلحق بالحمالين في المرة القادمة.. بعد تسعة أشهر.. »

قال كونواى:

- « أعتقد أنه سيحاول الفرار وحده.. »

- « فرار؟.. هذه كلمة غير موفقة.. لا توجد بوابات ولا حراسة.. فقط تلك التي صنعتها الطبيعة.. كل من يحاول الفـرار يعود بعد قضاء ليلة في الوادي.. »

في مرة أخرى سأله كونواي عن الحب..

- « أعتقد أنه غير وارد في حياتكم هنا.. »

قال شانج:

- « بالطبع هو وارد. طبعًا اللاما صاروا محصنين ضد هذه المشاعر، لكنها واردة للأشخاص الأصغر الذين لم ينضجوا بعد.. هل من الممكن أنك واقع في حب لوتسن؟ »

شده كونواي وإن تمنى ألا يكون هذا قد بدا واضحًا وقال:

- « ماذا يجعلك تظن هذا؟ »

- « لأنه يا سيدي العزيز شيء مناسب أن تفعله.. خصوصًا باعتدال. لوتسن لن تستجيب بأي قدر من العاطفة لكن التجربة كلها مفيدة على كل حال.. أنا نفسي وقعت في حبها يومًا.. »

- « حقًّا؟.. وهل استجابت؟ »

- « فقط أبدت تقديرها للمجاملة.. وقد رددت لها الجميل بصداقة تنمو عبر السنين.. »

- « بعبارة أخرى لم تستجب.. »

قال شانج:

- « لو أردت أن تصف الوضع هكذا.. هي معتادة أن توفر على عشاقها لحظة الإشباع.. »

ابتسم كونواي وقال:

- « هذا يناسبكم.. لكن ماذا عن شاب حار الدماء مثل مالنسون؟ »

- « لوتسن تتصرف مثلما قال شاعركم شكسبير عن كليوباترا.. إنها تزيل الجوع لكنها لا تُشبع.. هي متمكنة في تهدئة زئير الرغبة إلى مجرد همهمة راضية عذبة.. »

- « إذن هي جزء من تدريب الدير!.. »

- « يمكنك اعتبارها كذلك.. لكن يمكنك كذلك اعتبارها قطرات ندى على براعم شجرة فاكهة.. »

لما جلس كونواي مرة ثانية مع المانشو شعر بأن كلمات شانج لم تخل من قسوة. عواطفه نحوها كانت تتحول إلى وهج يدفئ لكنه لا يحرق.

كان يشعر بسعادة غامرة.. وقد فتنته الطريقة التي تتحول بها المشاعر إلى أفكار..

لم يلق أي لاما آخر.. لكنه صار على علم بطريقة حياتهم.. وعرف أنهم يتعلمون بشكل يسبب حيرة للعالم الغربي. منهم من كان مشغولًا بكتابة كتاب متعمق في الرياضيات، ومنهم من كان يجري بحثًا عن الحضارة الأوروبية، والحقيقة أن تعدد الاهتمامات كان محيرًا..

حكى له شانج قصة عن فنان صيني قضى حياته ينحت تنانين دقيقة على صخرة. أهداها لأمير فلم ير فيها شيئًا.. قال له الفنان إن عليه أن يضعها قرب نافذته ويلقي عليها نظرة في ضوء الفجر.. فعل الأمير ذلك فاكتشف أن الحجر رائع الجمال.. هكذا الأمور هنا.. في ضوء معين سوف يدرك الأمر أهمية ما يقوم به القوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان بارنارد غارقًا في جولاته الغامضة المتكررة للوادي طلبًا للخمر والنساء، وفي يوم قال لكونواى:

- « أنت رجل حويط مجرب.. تختلف عن مالنسون الذي يكرهني.. أعرف أنك تفهم العالم وأنك واقعي.. »

- « لا أفهم ما تريد قوله.. »

صار صوت بارنارد همسًا وهو يقول :

- « أتكلم عن الذهب.. فقط هذا.. هناك أطنان منه في الوادي.. كنت في شبابي مهندس تعدين وأعرف جيدًا كيف يبدو عرق الذهب. صدقني هو مصدر ثرى وسهل جدًّا.. أنت تحسب أنني أمرح في الوادي.. الحقيقة أنني أمارس الاستكشاف.. »

- « عرفت هذا بنفسك؟ »

- « تقريبًا.. مع بعض المساعدة.. عرضت هذا على شانج.. وصدقني هو ليس سيئًا كما يخيل لنا.. »

- « أنا لم أتصور أنه سيئ في أي لحظة.. »

- « أعرف أنك تحبه.. وقد سمح لي بالتجوال في الوادي ورؤية كل شيء.. رحبوا بمعونة خبير مثلي خاصة عندما أخبرتهم أن بوسعي تعليمهم زيادة ما يستخرجون.. »

- « واضح أنك وجدت عالمك هنا.. »

- « لنقل إنني وجدت مهنة.. ومن يدري. لربما قايضت على حريتي في الوطن بمعلومات عن مكان هذا الذهب.. سوف نتقاسم كل شيء يا كونواى.. فقط أريد أن تضع اسمك في تقريرى.... »

- « لابد أن أرى التقرير أولًا.. »

كان يذكر باسمًا ما قاله له اللاما الكبير:

- « كلاهما يريدان أن يحولانا.. مس بيركلو تريد تحويلنا إلى اعتناق المسيحية، وبارنارد يريد تحويلنا إلى شركة محدودة للذهب.. مشاريع غير مؤذية على كل حال.. هذا يمنحهما التسلية.. لكن يبدو أن صاحبك لا يبالي بالذهب ولا الدين.. ماذا عنه؟ سوف يكون هو مشكلتك.. »

- « مشكلتي؟ »

انتهى الرجلان من شرب الشاي فقال اللاما:

- « مشكلتك.. لأنني يا بني سأموت.. »

بدت كلمة غريبة فعلًا. لم يستطع كونواي الكلام.

قال اللاما:

- « هل أنت مندهش؟.. كلنا نموت حتى في شانجري - لا.. ربما أظفر أنا بلحظات إضافية.. يعزيني أنه لم يبق لي كثير من الجسد المادي لأفقده بالموت، لكن أخشى أن تتأثر روحى بلحظات النهاية.. بقى شيء واحد فقط يمكن أن أعمله.. هل تعرف ما هو؟ »

- « لا.... »

- « يتعلق بك يا بني.. هذه الأحاديث لا تقال هنا. لكن من عاداتي – وهذا تناقض غريب – أنني لست عبدًا لعاداتي. أنا أترك بين يديك مصير ومستقبل شانجري - لا.. »

لم يعد كونواى يشعر سوى بخفقات قلبه.. تتواثب كجرس عملاق..

ووسط الضوضاء جاءت الكلمات:

- « انتظرتك أي بنى فترة طويلة.. جلست هنا وتأملت وجوه كل الوافدين.. رفاقى شاخوا وصاروا حكماء، لكنك أنت صغير السن حكيم بالفعل.. أن تحتمى بالحكمة والكتمان بينما العاصفة تزأر بالخارج.. سوف تحب هذا.. »

لم يستطع كونواي الرد.. دوى الرعد فأدرك أنها العاصفة..

قال اللاما:

- « سوف تهب العواصف.. عواصف لم يرها من العالم من قبل، ولا يستطيع السلاح أن يمنعها.. لا سلطات تعينك.. لا إجابة في العلم. سوف تضيع البشرية كلها وسط الفوضي.. العصور المظلمة القادمة لن يكون فيها قبس من نور.. سوف تحيا خلال العاصفة.. وعبر حقبة طويلة من العزلة. سوف تحفظ تاريخنا وتضيف له لمحة من عقلك.. سوف تستقبل الغرباء القادمين.. وسوف تجد بينهم من يخلفك. وسوف يكون هنا عالم مختف بانتظار اللحظة المناسبة لينهض ويبعث الكنوز القديمة المنسية.... »

كان كونواى يصغى.. بينما الوجه يزداد سحرًا وجمالًا. ثم صمت اللاما فخبا الضوء المتوهج وصار الوجه كأنه قناع خشبي متجعد.. هنا فقط خطر لكونواي أن اللاما العظيم مات.

نظر كونواى لساعته فوجد أن الساعة تجاوزت منتصف الليل بربع ساعة.

خرج من الغرفة.. لا يعرف أين التبتيون.. كلهم انصرفوا وهو لا يعرف أين يجد شانج ليطلب العون. شعر بأنه سيد شانجرى – لا..

كل ما يحبه أمامه.. بعيدًا عن ضوضاء العالم.

ثم رأى القمر المكتمل يبحر خلف جبل كاراكال..

وأدرك أن مالنسون يقف بقربه.. يمسك به ويقتاده بسرعة.. لم يفهم أي شيء سوى أن الفتى يتكلم في حماسة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

بلغا الغرفة ذات الشرفات التي كانا يأكلان فيها..

كان مالنسون يقول وهو يشده:

- « هلم يا كونواى.. لدينا وقت حتى الفجر لنحزم حقائبنا.. أخبار رائعة.. أتساءل عما سيقوله بارنارد ومس بيركلو في الصباح عندما نكون قد رحلنا.. الحمالون على الممر على بعد خمسة أميال.. سوف يبدءون العودة غدًا.. هذا يريك كيف أن القوم هنا كانوا سيتخلون عنا.. لم يخبرونا بأي شيء.. هل أنت مريض؟ »

جلس كونواي على مقعد وانحنى للأمام..

- « مريض؟.. لا أظن.. فقط منهك.. كنت مع اللاما الكبير.. »

- « اللاما؟.. هذه آخر مرة لحسن الحظ.. »

- « نعم.. لآخر مرة يا مالنسون.. »

وأشعل سيجارة فوجد أن يده ترتجف.. لم يكن متماسكًا.. كان يحاول جاهدًا أن يعبر من عالم لآخر. قال وهو تائه:

- « ربما تدرك أن الأمر ليس سهلًا كما تعتقد؟ »

كان مالنسون يربط حذاء تبتيًا طويل العنق، وقال:

- « سهل أو غير سهل.. هذا شيء لابد من عمله.... »

قال كونواى منهكًا:

- « نفرض أننا بلغنا الممر والحمالين.. فكيف تضمن أنهم سوف ينقلوننا؟.. هذا يحتاج لمفاوضات وترتيبات.... »

قال مالنسون في ضيق:

- « يا لك من رجل!.. بالطبع أنا رتبت كل شيء وقد تقاضي الحمالون أجرهم مقدمًا.. هذا آخر عذر لك.. »

- « لكن.. من وضع كل هذه الخطط؟ »

قال مالنسون بحدة:

- « لوتسن.. لو كنت مصرًّا على أن تعرف.. هي مع الحمالين الآن!.. »

- « تنتظر؟ »

- « نعم.. هي آتية معنا.. »

في هذه اللحظة بكي كونواي بحدة وقوة وقال:

- « هذا مستحيل.. هذا سخيف.. »

- « ما هو المستحيل؟ »

- « هي لا تريد الرحيل.. أنا أعرف هذا يقينًا.. »

ابتسم الفتي في حدة وقال:

- « تحسب أنك تعرف عنها أكثر مني لكن هذه ليست الحقيقة.. هناك طرق لفهم الناس غير أن تجيد عدة لغات. فتاة جميلة مثلها سجينة هنا مع شيوخ غريبي الأطوار.. بالطبع

سوف تتمنى الفرار في أقرب فرصة.. كانت هذه فرصتها الأولى.... »

- « أنت لا تفهم.. إنها سعيدة هنا.. »

- « ولماذا قالت إذن إنها سترحل معى؟ »

- « هي قالت هذا؟... هى لا تتكلم الإنجليزية.. »

- « أنا سألتها بالتبتية.. مس بيركلو رتبت لي هذا ولم تكن محادثة فصيحة جدًّا لكنها مفهومة.. إنها إنسانة فاتنة..بل هي أكثر من فاتنة بكثير.. وعندما أرى شخصًا أميل له في وضع كريه فأنا أحاول أن أخرجه.. »

- « لكن.. إلى أين تحسبها ذاهبة لو خرجت من هنا؟ »

- « لابد أن لها أقارب في الصين... سوف تكون أفضل من هنا.... »

- « هل ترى أن شانجري - لا مكان شيطاني؟ »

- « بالتأكيد.. ثمة شيء ظلامى شيطاني هنا. جاء بنا رجل مجنون ثم بدأ المكان يؤثر علينا.. أنت أعجبت بالمكان وكدت تفضل البقاء فيه للأبد.... »

هنا بدأ كونواي يحكي..

يحكى لقاءه مع اللاما وما عرفه منه. وبدأ يشعر بنشوة ويشعر بأن سحر المكان يغمره من جديد.. لما انتهى شعر بأنه أنجز عملًا عملاقًا..

لكن مالنسون ظل يحملق فيه وهو يدق على المنضدة بأنامله.

ثم قال:

- « أنت مجنون يا كونواي.. أعرف أنها كلمة قاسية.. لكن لا أعرف كيف أعبر إلا بهذه الطريقة.. هذا كله هراء... أنا آسف.. من العسير أن تصدق بوجود قوم عمرهم مئات الأعوام لمجرد أنهم يقولون هذا.. هذا المكان أثر في أعصابك وعقلك ولا ألومك على هذا.. سوف ننهى هذه المحادثة بعد شهرين على عشاء ممتاز في مطعم (مدين).. »

قال كونواى:

- « لا أرغب البتة في العودة لتلك الحياة.. »

- « تريد البقاء هنا كالآخرين؟.. إذن لن تمنعني من الذهاب أنا.... »

وألقى بلفافة التبغ واتجه للباب في عصبية:

- « أنت فقدت عقلك!.. أنت مخبول.. أنت هادئ دومًا وأنا هائج لكني عاقل وأنت لا.. أنذروني في باسكول.. »

- « مم أنذروك؟ »

- « قالوا: إنك رأيت مصائب في الحرب لهذا جننت.. لا ألومك.. لم يكن بوسعك تحاشي هذا.. أنا ذاهب.... »

نهض كونواى ومد يده:

- « وداعًا يا مال‌نسون.. »

- « لآخر مرة.. لن تأتي؟ »

- « لا.... »

وتصافح الرجلان ورحل مالنسون..

جلس كونواى يفكر ثم أشعل سيجارة ونظر للساعة.. وجد أنها عشر دقائق بعد الثالثة صباحًا.. بعد لحظات سمع صوت خطوات.. رفع رأسه ليرى مالنسون أمامه.. كان وجهه بلون الرماد.. تقدم إلى مقعد وجلس عليه فتساءل كونواى:

- « لماذا عدت؟ »

قال مالنسون دون أن يرفع عينيه:

- « لم أجد الأعصاب اللازمة.. وصلت ذلك المكان الذي ربطنا فيه بالحبال.. لم أستطع الاستمرار.. المرتفعات في ضوء القمر بدت مخيفة... »

انتابته الهستيريا فراح كونواى يهدئه.. قال:

- « ليس لهم أن يقلقوا.. لا أحد يمكن أن يهددهم برًا.. لكن أتمنى لو أطير فوقهم محملاً بالقنابل!.. »

- « لم؟ »

- « المكان يريد التدمير.. مكان قذر غير صحي.. لو كان كلامك صحيحًا فلدينا حشد من الشيوخ يشبهون العناكب.. من يريد أن يحيا لعمر كهذا؟.. لم لا تأتي معى يا كونواى؟.. أنا صغير السن وما زال العمر أمامي وأنت كنت صديقي.. ألا تهمك لوتسن؟ »

قال كونواى:

- « لوتسن ليست شابة.. مالنسون.. لقد جاءت هنا عام 1884.. جمالها شيء هش لا يعيش إلا حيث يعرف الناس كيف يعاملون الأشياء الهشة.. خذها من الوادي ولتر ما سيبقي منها.. »

ضحك مالنسون وقال:

- « دعك من هذا الهراء الشعري.. قل لي دليلك على هذه القصة.... »

لم يرد كونواى.. فقال مالنسون:

- « دليلك الوحيد هو أن أحدهم نسج هذه القصة الخيالية.. هل حكت لك لوتسن قصة حياتها؟ »

- « لا. لكن..... »

- « إذن كيف تصدقها دون سواها؟؟... »

تذكر كونواى مقطوعات شوبان الغامضة التي يعزفها برياك. فقال الفتى:

- « هذا لا يشكل أهمية لي فأنا لا أبالي بالموسيقا.. لكن ألا يمكنه أن يعرف هذه المقطوعات بطريقة غير قصة تطويل العمر هذه؟ »

- « ممكن.... »

- « وتلك الطريقة لتطويل العمر.. تقول إنها تتم بعقار. هل رأيت هذا العقار أو عرفت تركيبه؟.. أنت لا تعرف شيئًا عن هذا

المكان.. رأيت بعض الشيوخ فقط.. لا نعرف كيف نشأ المكان ولا لماذا يريدون أن نبقى.. أنت بطبعك متشكك حتى أنك تشك فيما يقال لك في دير بريطاني.. فلماذا صرت تصدق كل شيء لمجرد أننا في التبت؟ »

كان معه حق.. نقطة مهمة جدًّا.. إننا نميل لتصديق الأشياء حسب جاذبيتها الشخصية لنا..

قال الفتي:

- « أعطني حياة قصيرة سعيدة ثم أمتني.. صدقني يا كونواى.. عندما أعود للهند لن أقول كلمة واحدة سيئة عنك.. لكن فعلًا أريد أن أساعدك بأي شكل.. »

بعد صمت طويل تساءل كونواى:

- « لو سمحت لي.. هل أنت واقع في الحب مع لوتسن؟ »

احمر وجه الفتي وقال:

- « أنا كذلك.. ربما تتهمني بالجنون لكن ليس بوسعي عمل شيء.. إنها دافئة المشاعر.. باردة من على السطح بسبب حياتها هنا، لكنها كتلة دافئة من العواطف وأعرف أنها شابة فعلا.. »

وقف كونواي يراقب الجبل في ضوء القمر.

تغيرات كثيرة بدأت تتحرك فيه. فجأة صار أقرب إلى كونواي القوى المسيطر الذي كأنه في باسكول.. ثم استدار إلى مالنسون فجأة وهتف وهو يكور قبضتيه:

- « هل تعتقد أن عودتك ستكون أسهل لو كنت معك؟ »

هب مالنسون واقفًا وصاح:

- « كونواي!... تعنى أنك قررت أخيرًا أن تأتي؟ »

انطلق الرجلان بمجرد أن أعد كونواي نفسه للرحلة. كان الأمر أقرب لرحيل عادي وليس هروبًا..

عبرا المرتفعات في ضوء القمر بلا حوادث.. لكن هذا الخواء أشعر كونواى أنه خواء في روحه ذاتها.. كيف وصل به الحال لهذا القرار؟.. وكيف ترك هذا الدير الذي وجد فيه أعظم السعادة؟

من تحت كان يرى الوادي كأنه غمامة.. ونظر للدير نظرة وداع.. أدرك أنها الأخيرة...

كان شاردًا بين عالمين.. فقط كان يدرك أنه يحب مالنسون ويريد أن يساعده.. وكان يدرك أنه هارب من الحكمة.. لكنه سيصير بطلًا عندما يعود..

كانت الرحلة شاقة وكان مالنسون خائفًا... لكن كونواى ساعده بخبرته..

في النهاية جلسا يدخنان.. فقال الفتى:

- « كونواى.. لن تتصور كم أنا ممتن لك.. أنت.. هل تفهم؟.. لقد قدمت لي...... »

- « لا تتعب نفسك.. »

- « الأهم أننى سعيد لأنك عدت لطبيعتك وفهمت أن هذا كله تخريف.. »

في الفجر عبرا الأخدود وبلغا السهل..

بعد قليل ظهر الحمالون.. كان الرجال متأهبين لاستقبالهم وهم بالفراء وجلود الحيوان. كانوا يتأهبون للانتقال إلى تاتسيان فو على بعد 1100 ميل شرقي الحدود الصينية.

قال مالنسون إذ رأى لوتسن:

- « سوف يأتي معنا!.. »

نسى أنها لا تعرف الإنجليزية، فتولى كونواي الترجمة.

لم ير فتاة المانشو بهذا الجمال من قبل.. حيته بابتسامة لكن عينيها كانتا ثابتتين على الفتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة

في دلهي قابلت روذرفورد ثانية..

كنا مدعوين لحفل عشاء ولى العهد. لكننا لم نستطع تبادل الكلام إلا بعد ما جلب الخدم قبعاتنا بعد ذلك، فدعاني:

- « تعال لفندقي وخذ كأسًا.. »

كنت أعرف من الصحف أنه عاد من كاشجار.. برغم أن الصحف تعاملت مع رحلته كأنها ملحمة، فإننى لم أرها كذلك. إن مدن خوتان المدفونة موضة قديمة على كل حال..

ذهبنا لفندقه وشربنا الويسكي.. ثم سألته في الوقت المناسب:

- « هل بحثت عن كونواى؟ »

قال:

- « البحث كلمة كبيرة.. لا يمكنك أن تفتش عن أحد في قارة بحجم أوروبا.. في خطابه الأخير قال: إنه فارق بانجوك قاصدًا الشمال الغربي.. رأيي الخاص أنه قصد حدود الصين. أعتقد أن أثره ينتهي في سيام.. »

ثم سألني:

- « هل قرأت النص الذي كتبته؟ »

- « وأكثر من ذلك.. وكان على أن أعيده لك لكنى لم أجد لك عنوانًا.. »

- « أنا بحثت كثيرًا بين باسكول وبانجوك.. في مكان ما هناك يوجد وادي القمر.. أنت لا تصدق.. أرى هذا.. الناس تصدق أشياء كثيرة، لكنها كذلك تضيع فرصًا هائلة عندما تصدق أشياء قليلة.. كل ما أعرفه بدقة أن كونواي ترك باسكول في 20 مايو ووصل إلى تشونج كيانج في 5 أكتوبر.. وفي 3 فبراير كان يفارق بانجوك. الباقي تخمين أو أساطير.. »

- « هل بحثت في التبت..؟ »

- « يا عزيزي لم أذهب للتبت أصلًا.. كلما طلبت هذا من الحكومة نظروا لي كأنني أقترح كتابة قصة حياة غاندي.. هم يعرفون التبت أفضل مني ويعرفون أنني بحاجة لبعثة تصحبني هناك. سألت مستكشفًا أمريكيًا عن وجود واد كذلك الذي وصفه كونواى، فقال: إن وجوده صعب وغير محتمل جيولوجيًا.. لكنه سمع عن قمة قمعية مغطاة بالثلج يقترب ارتفاعها من ارتفاع الهيملايا. سألته عن أديرة التبت فقال: إنها ليست أماكن نظيفة.. سألته عن الرهبان وهل هم معمرون؟ فقال: إنهم كذلك ما لم تقتلهم القذارة في سن مبكرة.. لكني رأيت سيطرة بعض اللاما على أجسادهم.. مثلاً يجلسون عراة في الثلج على حافة نهر متجمد، ويقوم الخدم بتكسير الثلج على ظهورهم.. لكنهم يشعرون بالدفء بقوة الإرادة وحدها.. »

»لم يسمع الأمريكي قط عن شانجري - لا وغير ذلك.. غير أنه زار التبت ذات مرة، وقابل رجلاً صينيًا محمولاً على مقعد وحدثني عن دير قريب.. أعتقد أن حملة حسنة التجهيز قد تستكشف هذا الدير.. »

- « وماذا عن باسكول وبيشاور؟ »

- « لا أحد يعرف أي شيء.. يعترفون فقط أن طائرة خُطفت وهم لا يعرفون أي شيء عن مصيرها.. »

- « اختفاء بارنارد الغامض يمكن أن يكون سببه فعلاً أن الرجل هو كالمرز بريانت.. لاحظ أن هذا الأخير اختفى تمامًا.. اتصلت بزميل مدرب طيران في الولايات المتحدة أسأله عن متدربين من التبت، فقال: إنه لا يعرفهم من الصينيين.. وهو قد درب خمسين صينيًّا على الطيران لأنهم يشتهون قتال الألمان.... »

- « هل وجدت أي دليل آخر..؟ »

- « للأسف لم أجد ما يثبت وجود تلميذ لشوبان اسمه برياك.. برغم أنه لا يمكن نفي هذا.... »

- « هل من خبر عن مالنسون وفتاة المانشو؟ »

- « للأسف تنتهى المذكرات مع رحلة مغادرة الوادي.. لا نعرف أي صعوبات واجهها في الطريق ولا إمكانية أن يخدعه الحمالون.. كل ما أعرفه هو أن مالنسون لم يبلغ الصين قط.. »

ثم أضاف:

- « ذهبت لتاتسيان فو.. هي سوق كبيرة فيها ينقل الصينيون إنتاجهم من الشاي إلى أهل التبت. من الصعب أن يبلغ الأوروبيون هذا المكان.. الناس هناك متحضرون ودودون.... »

- « وكيف بلغ كونواى تشونج كيانج؟ »

- « لا نعرف... لكن يجب أن نعترف بأن من يشك في هذه القصة يتشكك في صدق كونواى أو عقله.. »

- « هل رأيته بعد الحرب؟ »

- « لا.. لكنهم يقولون إنه تغير جدًّا.. »

قال روذرفورد:

- « لا جدال في أن تعريض صبى للحرب ثلاث سنوات لابد أن يمزق شيئًا فيه. ربما يقول الناس إنه لم يخدش لكن الخدوش توجد داخله. بحثت عن الطريقة التي بلغ بها المستشفى.. هل ذهب وحده أم وجدوه وجلبوه هناك؟.. قالت لى الراهبة إن امرأة جلبته إلى هناك.. هذا كل شيء..

»كانت الغارات عنيفة على شانجهاى.. تصور أن غارات الألمان على لندن لا تقارن لحظة بغارات اليابانيين على شانجهاى. قابلت طبيبًا قال لي إنه يذكر قصة الرجل الإنجليزي الذي فقد ذاكرته.. لقد جلبته للمستشفى امرأة صينية، يذكر أنها كانت مريضة بالحمى وماتت بعدها على الفور.. هنا جاء حشد من الجرحى للمستشفى ولم أرد أن أعطل الرجل أكثر من هذا..

عندما عاد بعد فترة سألته عن المرأة الصينية.. تصور ماذا كان سؤالي له:

- » هل كانت شابة؟ »

وأطفأ راذرفورد السيجار وهو مسرور بأنه نال اهتمامى.. وقال:

- « قال الطبيب بالطريقة الإنجليزية التي يستعملها الصينيون المهذبون: كانت مسنة. مسنة أكثر من أي شخص رأيته في حياتي..»

جلسنا لفترة في صمت وتكلمنا عن كونواي كما أذكره.. أقرب للصبيانية موهوبًا جذابًا، وتحدثنا عن الحرب التي غيرته.. وعن أسرار الزمن والعمر، وعن قناة المانشو الشابة التي صارت مسنة جدًّا.. وعن حلم القمر الأزرق..

وسألت:

- « هل تعتقد أننا سنجد شانجري - لا يومًا؟ »

وودفورد جرين

أبريل 1933 م


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

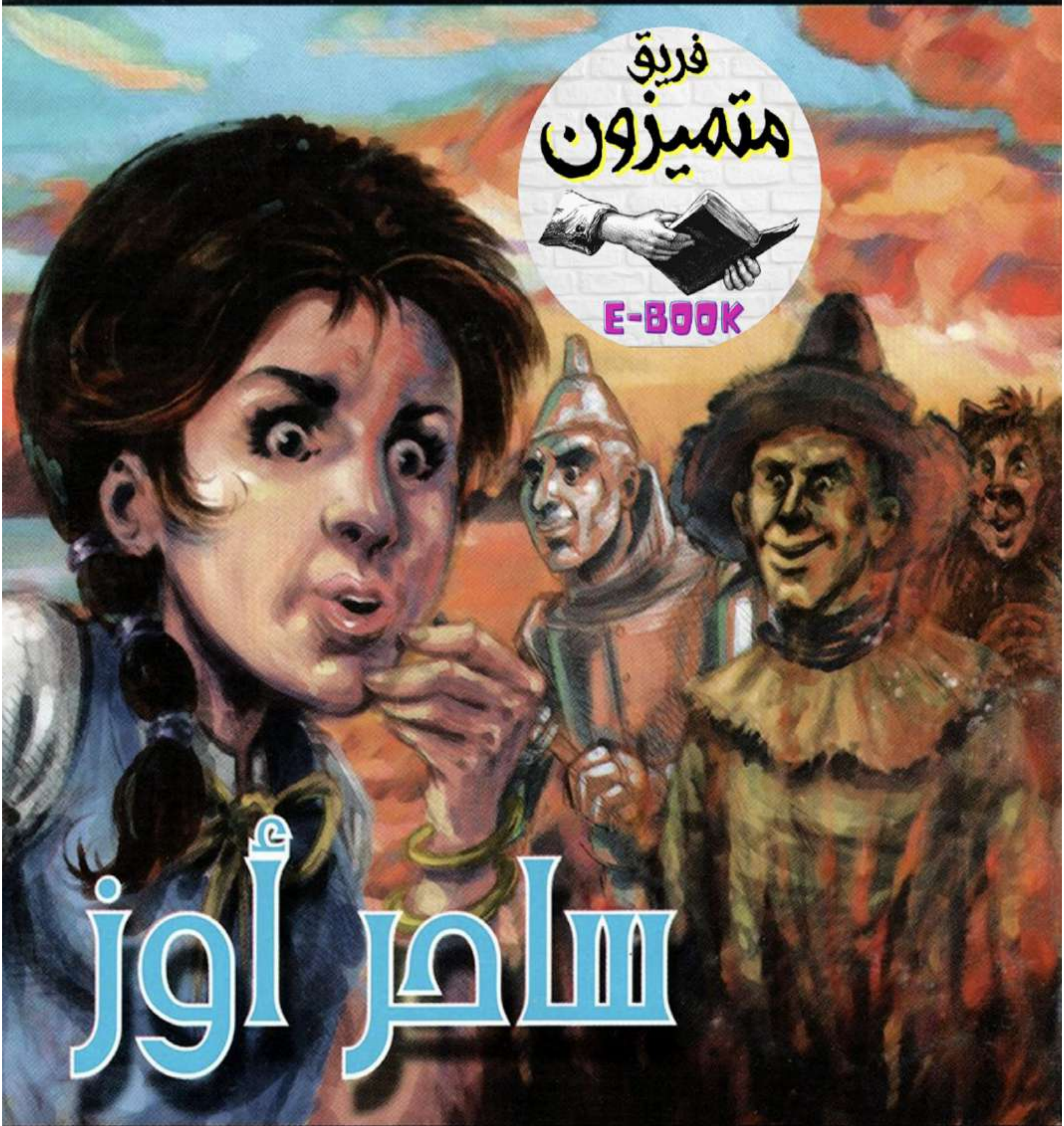
الفهرس..

Notes

[←1]

يقصد الحرب العالمية الأولى.

روايات عالمية للجيب 77



ساحر أوز

تأليف : فرانك باوم

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (77)

ساحر أوز

تأليف: فرانك باوم

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

فرانك باوم Baum L. Frank كاتب قصص أطفال أمريكي فائق الشهرة وحتى لو لم تكن تعرف الاسم فأنت تعرف عنوان (ساحر أوز) روايته الأشهر، وهو كاتب غزير الإنتاج فعلا لكننا لا تعرف عنه الكثير في العالم العربي.

ولد باوم عام 1856 في نيويورك، وطبعا كما هي العادة، كان طفلاً نحيلا ضعيفا لا يميزه سوى خياله المتوهج.

في سن صغيرة بدأ الكتابة وأصدر جريدة بسيطة مع أخيه. واتجه للكتابة للمسرح.. وقد تبين فيما بعد أن المسرح كان مصدر طموح لا ينتهي، وفشل مستمر، وإحباط لا نهاية له. وعلى كل حال شب حريق هائل في المسرح الذي كان يملكه واحترقت أصول مسرحية عديدة.

في العام 1897 قدّم كتاب شعر للأطفال هو (الأم الإوزة). نجح الكتاب نوعا وأدرك الرجل أن بوسعه أن يكسب قوته من قلمه.

في العام 1900 قدّم الكتاب الذي سيخلد اسمه (ساحر أوز المدهش). وقد ظل يحتل قائمة أفضل المبيعات لزمن طويل. للأبد دخلت ذاكرة العالم الصورة البصرية الجميلة للفتاة دوروثي تمشي في طريق الطوب الأصفر مع أسد جبان ورجل صفيح بلا قلب هذه صورة لها نفس قوة صورة سندريلا وهي تجرى على درجات السلم مذعورة، أو الأميرة النائمة والأمير يلثمها.. في هذا النوع من القصص يذيب أدب الأطفال الحاجز ما بين الطفل والبالغ، ليقترب من عوالم الشعر..

وقد ألحق باوم بالكتاب ثلاثين جزءا تستخدم نفس الشخصيات والعوالم، كانت الكتب الأولى أعنف بالتأكيد وفيها تخويف (تربوي) واضح للأطفال، لكن هذه النغمة بدأت تتلاشي في الأجزاء التالية.

وسرعان ما وجدت الرواية طريقها إلى عرض مسرحي ناجح بدوره، وفي عصرنا نعرف أن القصة قُدمت للسينما مرتين: مرة من بطولة جودي جارلاند، ومرة من بطولة ديانا روس ومايكل جاكسون، الفيلم الأخير كل أبطاله من السود ويعتمد على الموسيقا الأفروأمريكية. دعك طبعا من سيل لا يمكن حصره من الرسوم المتحركة.

ظل نجاح عوالم أوز يلاحق باوم طويلا.. وقد حاول كثيرا أن يبحر في مياه مختلفة عن أوز؛ منها (مغامرات سانتا كلوز) و (الملكة زيزي من إيكس). لكنه في كل مرة يضطر للعودة لعوالم أوز المألوفة لأن الأطفال يحبونها، وكان في ذهنه بناء عالم أوز كامل على جزيرة يقيم فيها للأبد، ويزورها السياح.. فكرة شبيهة بما قام به ديزني مع فأره الشهير. لكن الفكرة لم تُنجز على أرض الواقع قط..

استخدم الكثير من الأسماء المستعارة في كتاباته، وهي عادة كانت شائعة في ذلك الوقت، ومن هذه الأسماء: إديث فان دايك - سوزان ميتكالف - جون إستس كوك.

انتقل باوم ليقيم في هوليوود وكوّن شركة للإنتاج باسم (أفلام أوز). لم تكن لعبة مناسبة له وخسر الكثير من المال، وهذا أدى إلى أن يصاب بنزف مخي ويموت عام 1919.

د. أحمد خالد توفيق

☆ ☆ ☆

1- الإعصار..

عاشت دوروثي في وسط براري كنساس مع الخال هنري الذي كان فلاحا، والخالة إم التي كانت زوجة الفلاح، كان بيتهم صغيرا لأن الخشب اللازم لبنائه كان ينقل بالسيارة من مسافات بعيدة. كان البيت مكونا من غرفة واحدة، وفي هذه الغرفة موقد صدئ وخزانة للأطباق ومنضدة وثلاثة مقاعد، وكان لدى دوروثي فراش في الركن..

لم تكن هناك عليّة ولا بدروم سوى حفرة صغيرة في الأرض اسمها (قبو الإعصار)، حيث يمكن للأسرة اللجوء لو حدثت عاصفة قوية، قادرة على تدمير أي بيت في طريقها. كان الوصول لها عبر باب صغير في وسط الأرضية منه يهبط سلم خشبي إلى الحفرة المظلمة.

عندما كانت دوروثي تقف عند الباب وتنظر حولها، لم تكن ترى سوى البراري الشاسعة الممتدة على الجانبين. لا شيء يقطع الطريق الريفي الممتد إلى الجانبين.. وقد خبزت الشمس الأرض المحروثة فصيرتها كتلة رمادية مع شروخ صغيرة عبرها.

لم يكن العشب أخضر لأن الشمس أحرقت قمم الأوراق حتى صار لونها رماديا كما في كل مكان. ذات مرة تم دهان البيت لكن الشمس أحرقت الدهان وغسله المطر، فعاد البيت رماديا كما كان، عندما جاءت الخالة إم لتعيش هنا كانت زوجة جميلة صغيرة السن، وقد غيرتها الشمس والريح. غاب البريق من عينيها فلم يبق سوى لون رمادي هادئ. اختفى الأحمر من خديها.. صارت نحيلة لا تبتسم أبدا.

عندما كانت دوروثي يتيمة جاءت لها، فشعرت الخالة بالذعر من ضحكات الطفلة، فراحت تصرخ وتضع يدها على قلبها، وظلت تنظر في دهشة للفتاة كونها تجد أي شيء يضحكها في هذا العالم.

لم يكن الخال هنري يضحك بتاتا. كان يعمل بلا توقف من الصباح حتى المساء ولا يعرف معنى السرور، كان شائبا من لحيته حتى حذاءيه.. وكان قليل الكلام جدا.

توتو كان يجعل دوروثي تضحك وأنقذها من أن تصير رمادية مثل كل شيء آخر، توتو لم يكن رماديا.. كان كلبا أسود له شعر حريري وعينان سوداوان صغيرتان، كان توتو يلعب طيلة النهار ومعه تلعب دوروثي وتحبه بجنون.

لكن اليوم لم يكونا يلعبان.. جلس الخال هنري على الدرج وراح ينظر للسماء في قلق، وكان لونها أكثر رمادية من المعتاد. راحت دوروثي ترمق السماء والكلب في حجرها، أما الخالة إم فكانت تغسل الصحون.

من الشمال القصي سمعوا صوت الريح وأدرك الخال ودوروثي اتجاه العشب أمام العاصفة، جاء صفير حاد عال من الجنوب ورأوا كرات من العشب تذروها الريح في هذا الاتجاه.

فجأة وقف الخال وقال:

- ثمة إعصار آت.. سوف أذهب لأرى المخزون..

وجرى إلى حيث كانت الأبقار والماشية تبيت.

هرعت الخالة إلى الباب وأدركت بنظرة واحدة أن الخطر على الأبواب.

صرخت:

- بسرعة يا دوروثي!.. اركضي للقبو!..

وثب توتو من بين ذراعي دوروثي وتوارى تحت الفراش، فلحقت به الفتاة.

كانت الخالة مذعورة لذا فتحت باب المصيدة وهبطت في الدرج إلى الحفرة المظلمة، أمسكت دوروثي توتو في النهاية فهرعت لتلحق بخالتها، لكن في منتصف الحجرة صرخت الريح بعنف، واهتز البيت حتى إنها فقدت ثبات قدميها وسقطت على الأرض..

ثم حدث شيء غريب.

دار البيت حول نفسه مرتين أو ثلاث مرات، ثم ارتفع في الهواء ببطء.. شعرت دوروثي كأنها في منطاد.

تقابلت رياح الجنوب والشمال في مكان البيت وصار هو مركز الاعصار.. وسط الإعصار يثبت الهواء عامة، لكن المنزل ارتفع بضغط الهواء حتى صار عند أعلى الإعصار، وطار في الهواء ببساطة كما يسهل عليك أن تحمل ريشة في الهواء.

كان الظلام دامسا والريح تعوي حولها. لكن دوروثي وجدت أنها تطير بسهولة. بعد أول دورات بدأت تشعر أنها طفل يهزونه في المهد برفق.

لم يحب توتو هذا... ركض عبر الغرفة هنا وهناك، ينبح بشدة. لكن ظلت دوروثي ساكنة على الأرض وانتظرت ما يحدث..

ذات مرة دنا توتو من باب المصيدة المفتوح وسقط.. وللحظة حسبت الفتاة أنها فقدته، لكنها رأت أذنه تطل من الحفرة وكان ضغط الهواء يمنعه من السقوط. أمسكت توتو من أذنيه وجذبته للحجرة ثانية، وأغلقت الفتحة.

مرت ساعات وبدأت دوروثي تتغلب على رعبها.. لكنها شعرت بالوحدة. وكاد يصيبها الصمم من عواء الريح. وتساءلت إن كانت ستتحول لعظام مهشمة عندما يسقط البيت.

مرت الساعات ولم يحدث شيء وبدأت تكف عن القلق قررت أن تنتظر ما سيحدث في هدوء.

في النهاية زحفت للأرض المتأرجحة لفراشها ورقدت عليه.. تبعها توتو ورقد جوارها، أغمضت عينيها وغرقت في نوم عميق برغم تأرجح المنزل.

2- لقاء الأقزام.

صحت على صدمة مفاجئة قوية.

التقطت أنفاسها وتساءلت عما حدث.. وألصق توتو أنفه الصغير بوجهها وأطلق نباحا خفيضا. جلست دوروثي ولاحظت أن البيت لم يعد يتحرك ولم يعد مظلما. أغرق ضوء الشمس الساطع المكان.. هرعت تفتح الباب وتوتو يتواثب حولها.

أطلقت صيحة دهشة ونظرت حولها، واتسعت عيناها لدى رؤية هذه الأشياء الرائعة.

لقد وضع الإعصار البيت برقة وسط ريف رائع الجمال. كانت هناك خضرة في كل مكان وأشجار باسقة عليها ثمار شهية. طيور نادرة ذات ريش ساحر تغرد هنا وهناك، وعلى مسافة قريبة كانت بركة تتلوى بين ضفاف خضر.

وقفت هناك تنظر بشغف إلى المناظر الجميلة الغريبة، فلاحظت نحوها عددا من أغرب الناس الذين رأتهم.. لم يكونوا كبارا كمن اعتادت رؤيتهم ولم يكونوا صغيري الحجم. في الواقع كانوا طويلي القامة مثل دوروثي التي كانت طفلة كاملة النمو.. لكن بدا واضحا أن الناس أكبر منها سنا بمراحل.

كان هناك ثلاثة رجال وامرأة وكلهم في ثياب غريبة.. كانوا يعتمرون قبعات ترتفع قدما فوق الرءوس تتدلى منها أجراس تدق بلطف إذا مشوا. قبعات الرجال كانت زرقاء وكانت المرأة تلبس قبعة بيضاء مع ثوب يتهدل على كتفيها. وفوقه حلي تبرق

في الشمس كالنجوم. الرجال كانوا يلبسون أزرق بنفس درجة القبعات مع أحذية لامعة.

كان الرجال كما بدا لدوروثي في سن العم هنري وكان اثنان منهم ملتحين، وكانت السيدة أكبر سنا وشعرها أبيض وتمشى متصلبة، توقفوا عند البيت الذي وقفت أمامه دوروثي وتهامسوا.. كأنهم يخشون الاقتراب. لكن العجوز دنت من دوروثي وانحنت وقالت بصوت رخيم:

- مرحبا بك أيتها الساحرة العظيمة في أرض الأقزام.. نشكرك لأنك قتلت ساحرة الشرق الشريرة ولأنك حررتنا من العبودية.

أصغت دوروثي للكلام في دهشة.. ماذا تعنيه المرأة بأن تناديها (ساحرة)؟.. وأن تقول إنها قتلت ساحرة الشرق الشريرة؟

كانت دوروثي فتاة صغيرة طاهرة لا تؤذي.. حملها الإعصار أميالاً من بلدها، ولم تعرف أي شيء في حياتها، لكن المرأة انتظرت أن ترد فقالت دوروثي في تردد:

- أنت طيبة جدا.. لكن هناك خطا ما.. أنا لم قتل أحدا..

ضاحكة أجابت المرأة:

- بيتك فعل على كل حال.. هذا نفس الشيء. انظري!..

وأشارت إلى ركن البيت:

- هاتان قدماها.. تبرزان تحت لوح خشب..

نظرت دوروثي وأطلقت صرخة رعب، هناك تحت البيت كانت قدمان بارزتان في حذاء فضي مدبب.

صرخت دوروثي:

- رباه ا.. رباه.....

وضمت يديها معا في حسرة...

- لابد أن البيت سقط فوقها.. ماذا سنفعل؟..

قالت المرأة في هدوء:

- لن نفعل أي شيء.

- لكن من هي؟.. أجابت المرأة:

- قلت لك إنها ساحرة الشرق الشريرة.. جعلتنا عبيدا لها لأعوام عديدة ليلا نهارا.. الآن تحرروا وهم ممتنون لك..

تساءلت دوروثي:

- من هم هؤلاء الأقزام؟..

- هم من يعيشون في بلد الشرق حيث تعيش الساحرة الشريرة وتحكم..

- هل أنت من الأقزام؟.. .

- لا. لكنى صديقتهم.. أعيش في بلاد الشمال. عندما ماتت الساحرة أرسلوا لي رسالة فجئت مسرعة.. أنا ساحرة الشمال..

هتفت دوروثي:

- مذهل.. هل أنت ساحرة حقيقية؟..

أجابت المرأة:

- نعم.. لكن أنا ساحرة طيبة.. الناس يحبونني ولست قوية مثل الساحرة السابقة وإلا لحررت الناس بنفسي..

قالت الفتاة التي بدأت تخاف لمقابلتها ساحرة حقيقية:

- حسبت الساحرات شريرات كلهن.

- لا.. هذا خطأ كبير، كانت هناك أربع ساحرات في أرض أوز.. من تعيشان في الشمال والجنوب طيبتان.. أنا منهما.. الشريرتان كانت تعيشان في الشرق والغرب. هكذا بعد مقتل هذه لم تعد في أرض أوز سوي ساحرة شريرة واحدة..

- قالت دوروثي بعد فترة تفكير:

- لكن الخالة إم قالت لي إن الساحرات متن منذ أعوام بعيدة..

سألتها الساحرة:

- من هي الخالة إم؟..

- هي خالتي التي تعيش في كنساس من حيث جئت.... فكرت ساحرة الشمال قليلا ثم رفعت رأسها وقالت:

- لا أعرف أين كنساس هذه.. هل هي بلد متحضر؟..

- بالطبع..

- هذا يفسر الأمر.. في البلدان المتحضرة لا توجد ساحرات ولا سحرة.. لكن أرض أوز لم تتحضر قط فنحن معزولون.. وما زال لدينا سحرة وساحرات.

- من السحرة؟..

- أوز نفسه أعظم السحرة.

وخفضت الساحرة صوتها لدرجة الهمس وقالت:

- هو أقوى منا جميعا ويعيش في مدينة الزمرد..

كانت دوروثي توشك على سؤال المزيد لكن في هذه اللحظة أطلق الأقزام الواقفون حولها صرخات وأشاروا لركن البيت حيث كانت ترقد الساحرة الشريرة.

تساءلت السيدة العجوز ونظرت ثم بدأت تضحك.

لقد اختفت قدما الساحرة الميتة تماما ولم يبق منها سوى حذاءين فضيين.

شرحت ساحرة الشمال:

- كانت مسنة جدا.. لذا جفت في الشمس تماما.. لقد انتهى أمرها لكن الحذاء الفضي لك. سوف ترتدينه..

ومدت يدها والتقطت الحذاء ونفضت الغبار عنه ثم ناولته لدوروثي.

- كانت ساحرة الشمال فخورا بهذا الحذاء وهناك تعويذة سحرية ترتبط به.. لكننا لا نعرف كنهها..

حملت دوروثي الحذاء للبيت ووضعته على المنضدة.. ثم عادت لتقول للأقزام: .

- أريد العودة لعمى وخالتي.. أنا متأكدة أنهم قلقون عليّ..

هل يمكنكم العون؟..

تبادل الأقزام النظرات وهزوا الرءوس وقال واحد:

- في الشرق بالقرب من هنا هناك صحراء كبرى.. لا يمكن لأحد عبورها..

قال آخر:

- هي مثل الموجودة في الجنوب.. أنا رأيتها.. الجنوب هو موطن الكوادلينج.

قال ثالث:

- قيل لي أنها مثل الغرب.. حيث يعيش الونكيز وتحكمهم ساحرة الغرب الشريرة والتي سوف تستعبدك لو مررت بأرضها..

قلت العجوز:

- الشمال وطني.. وعند حافته توجد الصحراء العظمي التي تحيط بأرض أوز.. أخشى أن عليك أن تعتادي الحياة معنا يا صغيرة.. بدأت دوروثي تبكي.. لم تتحمل فكرة البقاء مع هؤلاء الغرباء، ورق قلب الأقزام الطبيين لدموعها... لذا أخرجوا مناديلهم وبكوا معها. أما الساحرة فوضعت عباءتها على أنفها وعدت من واحد لثلاثة..

على الفور استحالت العباءة للوح كتابة وعليه كتب:

- اجعلي دوروثي تذهب لمدينة الزمرد..

قرأت العجوز المكتوب، وسألت:

- هل اسمك هو دوروثي يا عزيزتي؟..

أجابت الطفلة وسط دموعها:

- نعم..

- إذن يجب أن تقصدي مدينة الزمرد.. ربما ساعدك أوز

سألتها دوروثي:

- أين هي؟..

- هي بالضبط في وسط البلاد. يحكمها أول الساحر العظيم...

تساءلت الفتاة في قلق:

- هل هو رجل طيب؟..

- هو ساحر طيب، لكن لا أعرف إن كان رجلا أم لا لأنني لم أره من قبل.

- وكيف أذهب هناك؟..

- سوف تمشين.. مسافة طويلة عبر بلد رحب أحيانا وأحيانا مظلم مخيف.. لكن سوف أستعمل كل أساليي السحرية لأبقيك سليمة..

توسلت الفتاة التي بدأت تنظر للعجوز كصديقة لها:

- ألا تأتين معي؟....

أجابت:

- نعم.. ليس بوسعي.. لكن سأمنحك قُبلتي ولن يجسر أحد على أن يؤذي مخلوقا قبّلته ساحرة الشمال..

دنت من دوروثي وقبلتها برقة على جبينها، عندما لمست شفتاها جبين الفتاة تركتا علامة براقة مستديرة.. عرفت دوروثي هذا فيما بعد.

- اتبعي طريق الطوب الأصفر نحو مدينة الزمرد.. لن تضلي الطريق.. عندما تصلين لأوز لا تخافي منه واحكي له قصتك واطلبي العون.. وداعا..

انحنى الأقزام وتمنوا لها رحلة سعيدة ثم ابتعدوا وسط الأشجار هزت الساحرة رأسها لدوروثي ودارت حول كعبها ثلاث مرات ثم اختفت مسببة دهشة عارمة لتوتو.. نبح خلفها عندما اختفت وبصوت عال لأنه كان يخشى مجرد الزمجرة في وجودها.

لكن دوروثي توقعت هذا لأنها تعرف أن المرأة ساحرة ولم تندهش قط.

3- كيف أنقذت دوروثي الفزاعة.

بدأت دوروثي تشعر بالجوع وهي وحدها. ذهبت للخزانة وقطعت لنفسها بعض الخبز دهنته بالزيد. قدمت بعضه لتوتو ثم ذهبت للجدول الصغير وملأت زجاجة بالماء النظيف.

جرى توتو للشجر وراح ينبح على الطيور هناك. لاحظت دوروثي ثمرات طيبة تتدلى من الشجرة فبدأت تقطف منها. كانت بحاجة لأن تكمل إفطارها. ثم عادت للبيت وشربت مع توتو الكثير من الماء البارد الصافي ثم تهيأت لرحلة مدينة الزمرد. لم يكن لديها سوى ثوب واحد آخر، وهذا كان معلقا نظيفا جوار فراشها، لذا استحمت جيدا ثم ارتدت الثوب المخطط.. وربطت (البونيه) الوردي على رأسها، تناولت سلة صغيرة ملأتها بالخبز ووضعت على قمتها قماشة بيضاء.. لاحظت أن حذاءيها قديمان.. قالت لنفسها إنهما لن يصلحا لرحلة طويلة. هنا وقعت عيناها على حذاء ساحرة الشمال الفضي. قلت لتوتو:

- ترى هل يناسبان قدمي....

جربت الحذاء الفضي فبدا كأنه صنع من أجلها.. في النهاية تناولت السلة وقالت:

- تعال يا توتو.. سنذهب إلى مدينة الزمرد ونسأل ساحر أوز العظيم عن طريق العودة إلى كنساس.

أغلقت الباب بعناية ووضعت المفتاح في جيبها فراح توتو يركض خلفها ويتواثب.

كانت هناك طرق قريبة عديدة لكنها لم تستغرق وقتا لتجد الطريق ذا الطوب الأصفر. وانطلقت تُجد السير نحو مدينة الزمرد. التمعت الشمس بقوة وغنت الطيور في عذوبة ولم تعد تشعر بذات تعاسة فتاة ضاعت من بلدها ووجدت نفسها في بلد غريب.

أدهشها أن ترى جمال الريف حولها. كانت هناك أسوار على جانبي الطريق لها لون أزرق جميل وخلفها حقول خضراء غنية. من الواضح أن الأقزام كانوا فلاحين بارعين ومحصولهم ممتاز. أحيانا كانت تمر ببيت فيخرج الناس لينحنوا لها، فقد علم الجميع أنها سبب موت الساحرة الشريرة وتحررهم.

كانت بيوت الأقزام غريبة لأن كل بيت له قبة مدهونة بالأزرق السماوي. في هذا البلد اللون المفضل هو الأزرق السماوي.

عند المساء كانت قد تعبت من المشي وتساءلت أين تمضي ليلتها. كان هناك بيت أكبر مما حوله، وفي مدخله يرقص رجال ونساء، وهناك خمسة من عازفي الكمان والناس يضحكون ويغنون، هناك منضدة كبيرة عليها فواكه وكعك وبندق.

حيا الناس دوروثي في حرارة ودعوها للعشاء وقضاء الليل، فهذا بيت أغنى الأقزام هنا وقد اجتمعوا للاحتفال بحريتهم. تناولت دوروثي عشاء شهيا وقد تولى رعايتها القزم الثري نفسه واسمه بوك . ثم جلست تراقب الرقص.

عندما رأى بوك حذاءها قال:

- لابد أنك ساحرة عظيمة..

ساته:

- لماذا؟..

- لأنك تلبسين حذاء فضيا وقد قتلت الساحرة الشريرة.. وعليك ثوب أبيض والساحرات فقط يلبسن الأبيض..

قالت دوروثي:

- ثوبي مخطط بين الأبيض والأزرق..

- هذا كرم منك.. الأزرق لون الأقزام المفضل والأبيض لون الساحرات..

كانت تعرف أنها مجرد فتاة ألقى بها الإعصار على أرض غريبة..

لما تعبت من مشاهدة الرقص أدخلها بوك إلى غرفة بها فراش نظيف تنام فيه ليلتها. في الصباح تناولت إفطارها وراقبت طفلاً من الأقزام يلعب مع توتو.. لم يكن هؤلاء القوم قد رأوا كلبا من قبل.

سألتهم الفتاة:

- ما بُعد مدينة الزمرد؟.. قال بوك:

- لا أعرف.. لم أكن هناك قط.. من الخير للناس أن يبتعدوا عن أوز ما لم يكن هناك عمل مشترك معه.. لكن رحلتك سوف تستغرق عدة أيام. سوف تمرين بأماكن خشنة وخطرة قبل بلوغ نهاية الرحلة..

هذا أقلق دوروثي قليلاً لكنها كانت تعرف أن أوز أملها الوحيد في بلوغ كنساس.

ودعت أصدقاءها وبدأت رحلتها على طريق الطوب الأصفر.

بعد أميال شعرت بالتعب فصعدت على جدار من الحجر وجلست.. كان هناك حقل قمح ممتد خلف السور، ومن بعيد رأت فزّاعة (خيال حقل) يقف على عمود خشبي ليبعد الطيور عن القمح.

وضعت دوروثي يدها تحت ذقنها، أمعنت النظر في خيال الحقل.. كان رأسه حقيبة صغيرة مليئة بالقش بينما رُسمت عيناه وفمه وأذناه. على رأسه قبعة زرقاء تنتمي للأقزام وباقي الصورة كان سترة زرقاء باهتة، امتلأت بالقش. وقد ارتفع عن الأرض بوساطة عمود مثبت لظهره.

ظلت دوروثي تنظر باهتمام إلى وجه خيال الحقل الغريب الملون، ففوجئت بعين تغمز لها، خيل لها أنها أخطأت.. لكن الشيء هز رأسه لها في مودة.

تسلقت الحاجز وركضت نحوه ومعها توتو.

قال خيال الحقل بصوت مبحوح:

- صباح الخير.

سألته الفتاة في دهشة:

- هل تكلمت؟..

قال خيال الحقل:

- قطعا.. كيف حالك؟

أجابت في أدب:

- أنا بخير وكيف حالك؟..

قال خيال الحقل لها:

- لا أشعر بأنني على ما يرام.. عملية مملة جدا أن يتعلق المرء ليلا نهارا ليخيف الغربان..

سألته دوروثي:

- ألا تهبط؟..

- نعم.. فهذا العمود مثبت لظهري ولو انتزعته فلسوف أشكرك بشدة..

مدت دوروثي يديها وانتزعت الشيء من العمود.. كان خفيفا جدا.

عندما جلس على الأرض قال لها:

- شكرا لك.. أشعر أنني رجل جديد.. شعرت بدهشة لأنها لم تعتد رؤية رجل محشو يتكلم ويمشي جوارها.

سألها خيال الحقل بعد ما مد جسده وتثاءب:

- من أنت؟ ولأين أنت ذاهبة؟..

قالت الفتاة:

- اسمي دوروثي وأنا ذاهبة لمدينة الزمرد لأسال ساحر أوز أن يعيدني لتكساس.

سألها:

- أين مدينة الزمرد؟.. ومن هو ساحر أوز؟....

- أحقا لا تعلم؟..

- لا أعلم أي شيء فأنا محشو بالقش كما ترين ليس لدى مخ..

قلت دوروثي:

- أوه.. أنا آسفة من أجلك.

سألها:

هل تظنين لو ذهبت إلى مدينة الزمرد معك فإن ساحر أوز سيهبني مخا؟..

- لا أعلم لكن بوسعك أن تأتي معي. لو لم تظفر بمخ فلن يكون هذا أسوأ من حالك الآن..

قال خيال الحقل:

- معك حق.. أنا لا أهتم بقدمي ولا ذراعي.. هكذا لا يمكن أن يؤذيني أحد لو داس على أصابعي أو غرس دبوسا في لحمي.. فأنا لا أشعر.. لكني أكره أن يعتبرني الناس أحمق لأن رأسي محشو بالقش..

قالت دوروثي:

- أنا آسفة.. لو جئت معي إلى مساحر أوز فلربما حللنا هذه المشكلة.

وهكذا انطلقا على الطريق.. طريق الطوب الأصفر إلى مدينة الزمرد.

لم يحب توتو أولا هذه الصحبة وراح يتشمم الرجل كأنه يعتقد أن هناك فئرانا تتوارى وسط القش.

- قالت دوروثي لصديقها .

* لا تتضايق من توتو.. هو لا يعض أبدا..

- أوه.. لست خائفا بتاتا.. هو لن يؤذي القش.. دعيني أحمل السلة عنك. سوف أخبرك سرا.. لا يوجد سوى شيء واحد أخشاه في العالم..

- وما هو؟..

- أخشى أعواد الثقاب....

4- الطريق عبر الغابة.

بعد قليل صار الطريق وعرا وراح خيال الحقل يتعثر على الصخور المتناثرة، كانت هناك فجوات كثيرة راح توتو يتواثب فوقها، بينما خيال الحقل الذي لا مخ له كان يسقط في الحفر مباشرة بلا تفكير.. وكانت دوروثي توقفه وتعيده على قدميه.

لم تكن المزارع معتنىً بها كما كانت في بداية الرحلة، كانت هناك بيوت أقل وأشجار فاكهة أقل.

عند الظهيرة جلسا على جانب الطريق قرب نهير. صغير فتحت دوروثي حقيبتها وأخرجت بعض الخبز وعرضت بعضه على الفزاعة لكنه رفض. قال لها:

- لست جائعا.. فمي مرسوم ولو أردت الأكل فيجب أن أقطع دائرة فيه.. هذا سيجعل القش يخرج..

هكذا واصلت دوروثي الأكل..

سألها عن بلدها فحكت له قصتها كاملة..

أصغى لها ثم قال:

- لماذا تريدين ترك هذا البلد الجميل والعودة لبلد كئيب مثل كنساس؟..

- هذا لأنه لا مخ لديك.. نحن البشر نفضل أوطاننا مهما كانت رمادية كئيبة على أي بلد جميل آخر.. لا شيء مثل الوطن..

تنهد وقال:

- لن أفهمك أبدا على أي حال..

قالت له:

- احك لي قصة مسلية.. قال:

- حياتي كانت قصيرة جدا فلا أعرف أي شيء.. لقد تم صنعي منذ يومين ولا أعرف أي شيء عما حدث قبل ذلك. من حسن حظي أن الفلاح رسم لي أذنين.. وكان معه قزم آخر.. سأله:

- هل تحب هاتين الأذنين؟

- لا..

قال الفلاح:

- لا عليك.. الآن سأصنع العينين.

- ورسم عيني، على الفور رحت أحملق فيه وفي العالم بفضول جم، وقد راقت العين للقزم الواقف جواره فقال الفلاح . ستكون العين الأخرى أكبر

ثم صنع أنفي ورسم فمي. وفي النهاية تم صنع جسدي كنت فخورا جدا كأنني صرت إنسانا حقيقيا. وحملني إلى الحقل فثبتني إلى عصا طويلة حيث وجدتني، وسرعان ما رحل مع صاحبه..

لم أحب أن أبقى وحدي.. حاولت اللحاق بهما لكن قدمي لم تمسا الأرض. كانت أمامي حياة من الوحدة، جاءت غربان وطيور للحقل لكنها رأتني ففرت وقد حسبتني قزما..

بمرور الوقت جاء غراب كبير... رآني وتفحصني.. ثم وثب على كتفي وصاح:

- يدهشني أن الفلاح فكر أنه سيخدعني بهذه الحماقة.. أي غراب عاقل يدرك أنك محشو بالقش..

ووثب يلتهم القمح.. ورأت الغربان أنه في أمان فراحت تأكل بدورها.

قال لي الغراب:

- لو لديك عقل لصرت كأي رجل منهم بل ربما أفضل.. المخ أهم شيء في العالم.

وكان من حسن حظي أنك جئت وحررتني من العمود.. والآن سأحاول الحصول على مخ من ساحر أوز..

قالت دوروثي في إخلاص:

- أتمنى ذلك.

وناولت السلة لخيال الحقل.

لم تعد هناك أسوار على جانبي الطريق من هنا، وصارت الأرض وعرة جدا. قرب المساء كانوا في غابة عملاقة تتلاصق أشجارها. تحت الأشجار كان الظلام دامسا لكن المسافرين لم يتوقفا..

قال خيال الحقل:

- لو كان هذا الطريق يقود للداخل فهو يقود للخارج.. وعلينا أن نتبعه..

قالت دوروثي:

- أي شخص يعرف هذا..

قال خيال الحقل:

- بالتأكيد.. لهذا أعرفه ولو كان بحاجة لمخ لما قلته..

بعد ساعة غاب ضوء الشمس ومشيا في الظلام يتعثران، لم تعد دوروثي ترى أي شيء لكن توتو استطاع أن يرى كعادة الكلاب. أمسكت بذراع خيال الحقل ومشت جواره.

فجأة توقف خيال الحقل. قال لها:

- أرى كوخا عن يميننا..

قالت له:

- سوف نذهب له.. أنا مرهقة تماما..

اقتادها خيال الحقل عبر الأشجار إلى الكوخ، ودخلت دوروثي فوجدت فراشا من أوراق جافة، رقدت على الفور وغرقت في نعاس عميق مع توتو، أما خيال الحقل الذي لا يتعب فقد وقف في ركن الغرفة ينتظر طلوع الشمس.

5- إنقاذ الرجل الصفيح.

صحت دوروثي والشمس تشرق بين الأشجار. جلست ونظرت حولها فرأت خيال الحقل ما زال يقف في صبر في الركن ينتظرها.

قالت له:

- يجب أن نذهب ونبحث عن ماء..

- لم تحتاجين لماء؟..

- لأغسل وجهي من غبار الطريق، ولأشرب فلا يلتصق الخبز بحلقي..

قال خيال الحقل مفكرا:

- من الواضح أنه من المتعب أن يكون المرء من لحم.. على المرء أن يأكل ويشرب وينام...

تركا الكوخ ومشيا بين الأشجار حتى وجدا ينبوعا من ماء نقي. شربت دوروثي واستحمت وتناولت إفطارها. لقد كاد الخبز في السلة ينفد وحمدت الله أن خيال الحقل لا يأكل.

هنا سمعت أنينا قربها فذعرت.. سألت:

- ما هذا؟..

رد خيال الحقل:

- لا أعرف لكن يمكن أن نقترب ونرى..

هنا تعالى الأنين من جديد من خلفهما. مشيا في الغابة بضع خطوات. هنا وجدت دوروثي شيئا يلمع وسط الضوء القادم بين الأشجار. أطلقت صرخة دهشة عندما رأت شجرة مقطوعة، وجوارها يحمل الفأس رجل مصنوع كله من الصفيح. وكان ذراعاه وقدماه يتصلان بمفاصل بجسده.

نظرت له دوروثي في ذهول وكذا فعل خيال الحقل. حاول توتو أن بعض القدمين لكنهما أذيتا أسنانه.

- هل أنت صاحب الأنين؟..

- نعم.. أنا أئن منذ عام ولم يسمعني أحد... تأثرت بالحزن في صوته فسألته برفق:

- ماذا بوسعي عمله لك؟..

- هاتي علبة زيت وقومي بتشحيم مفاصلي، لا أستطيع تحريكها.. هناك علبة زيت على الرف في كوخي..

هرعت دوروثي وجلبت علبة الزيت، ثم سألته:

- أين مفاصلك؟..

- ابدئي بظهري..

صبت الزيت على ظهره، بينما راح خيال الحقل يحرك الرأس يمينا ويسارا حتى صار لينا. تولت بعد هذا تزييت يديه وقدميه.

أطلق الحطاب الصفيح تنهيدة ارتياح ورضا وقال لهما:

- هذه راحة عظمى.. أنا أرفع هذا الفأس في الهواء منذ بدأ الصدأ.

بدا أنه شخص لطيف مهذب فعلاً. وقال لهما:

- كنت سأقف حيث أنا للأبد لو لم تأتيا. قالت دوروثي:

- نحن في الطريق لمدينة الزمرد لنقابل ساحر أوز العظيم.

- ولماذا؟..

- أنا لأعود لكنساس وطني.. وهو يريد مخا.

فكر الحطاب الصفيح قليلا ثم سألهما:

- هل ساحر أوز يمكنه أن يعطيني قلبا؟..

- بالتأكيد..

- إذن اسمحا لي بأن أصحبكما في هذه الرحلة....

رحب به خيال الحقل وكذلك دوروثي، من ثم حمل الفأس على كتفه وانطلقوا عبر الغابة حتى طريق الطوب الأصفر. وطلب الحطاب من دوروثي أن تضع علبة الزيت في سلتها.

قال لها:

* لو وقعت تحت المطر ودب فيّ الصدأ فسوف أحتاج للزيت.

من جديد عادوا للسير حتى بلغوا مكانا فيه أشجار وأغصان كثيفة حتى أن العابرين لا يقدرون على العبور. لكن الحطاب راح يعمل بفأسه حتى صنع ممرا.

تعثر خيال الحقل في حفرة إلى جانب الطريق، واضطر إلى أن يناديها لتغيثه من جديد. فسأله الحطاب:

- لماذا لم تدر حول الحفرة؟..

- رأسي محشو بالقش ولا أقدر على التفكير.

قال الحطاب:

- فهمت.. لكن لو خيرت بين المخ والقلب لاخترت القلب.

سأله خيال الحقل:

- ولماذا؟..

- سوف أخبرك بقصتي.

وهكذا مشوا في الغابة بينما راح الحطاب الصفيح يحكي قصته:

- أنا ابن حطاب كان يقطع الأشجار ويبيع الخشب.. عندما كبرت صرت حطابا مثله ورحت أعنى بأمي العجوز، ثم قررت الزواج.. وكانت هناك فتاة من الأقزام جميلة جدا عشقتها بقلبي. وعدتني بالزواج متى بنيت لها بيتا جميلا. كانت الفتاة تعيش مع عجوز لا تريد لها أن تتزوج لأن الفتاة تطبخ لها وتخدمها لذا ذهبت العجوز إلى الساحرة الشريرة في الشرق ووعدتها ببقرة وخروفين لو منعت هذه الزيجة. سحرت العجوز فأسي فطار من يدي وأنا أعمل وقطع رجلي.. كان هذا سيئا لأن رجلا برجل واحدة لا يستطيع أن يكون حطابا، وذهبت لحداد صنع لي رجلا من صفيح. هذا أغضب الساحرة العجوز وهكذا سحرت فأسي من جديد ليطير رجلي الثانية.. عدت للحداد فصنع لي رجلاً من صفيح، استطاعت أن تتسبب في قطع ذراعيّ لكني استبدلت بهما ذراعين من صفيح. جعلت الساحرة الفأس يقطع رأسي

وحسبت هذه نهايتي، لكن الحداد جاء وصنع لي رأسا آخر.. حسيت أنني قهرت الساحرة العجوز لكن لم أر مدى شرها وقوتها. لقد قطع الفأس جسدي نفسه.. جاء الحداد وصنع لي جسدا من صفيح. صار بوسعي أن أتحرك بمفاصلي.. لكن للأسف لم يعد لديّ قلب.. هكذا لم أعد أحب الفتاة ولم أعد أهتم إن تزوجتها أم لا. أعتقد أنها ما زالت مع العجوز تنتظر عودتي. كنت قد صرت براقا ولا خطر عليّ إلا الصدأ.. هكذا كنت أزيت مفاصلي باستمرار، لكن جاء يوم نسيت فيه ذلك وسقط عليّ المطر مدرارا فظللت متصلبا في الغابة حتى جئتما لي. كانت أعظم خسارة منيت بها هي خسارة قلبي. كنت أسعد إنسان في الكون عندما كنت أحب.. والمرء لا يمكن أن يحب دون قلب. لو أعطاني ساحر أوز قلبا فلسوف أعود للفتاة وأتزوجها..

اهتمت دوروثي وخيال الحقل بالقصة كثيرا.. قال الحطاب:

- القلب معناه الحب والحب يجعل المرء سعيدا، بينما المخ لا يجلب السعادة.

كانت دوروثي تفكر الآن في قلق أن الخبز كاد ينفد.. وجبة أخرى لها ولتوتو سوف تفرغ السلة، هما لا يأكلان. لكنها مصنوعة من لحم ودم ولابد من أن تأكل.

6- الأسد الجبان

ظل الطريق مكونا من طوب أصفر، لكنه في أغلب الأحوال مكسو بالغصون وأوراق الشجر.. لم يكن المشي مريحا. كانت هناك طيور كثيرة.. ولكن الآن كان هناك زئير من حيوان بري يتوارى بين الأشجار.

تسارعت نبضات قلب الفتاة لأنها لا تعرف مصدر هذا الصوت.

عرف توتو مصدر الأصوات وسار جوارها ولم يحاول أن ينبح.

سألت الفتاة الحطاب الصفيح:

- كم ستطول الرحلة حتى نغادر الغابة؟..

- لا أعرف.. لم أزر مدينة الزمرد قط، لكن أبي ذهب هناك وقال إنها رحلة خطرة عبر بلد خطر. لست خائفا لأنه لا شيء يمكن أن يؤذي الصفيح أو خيال الحقل.. أما أنت فعلى جبينك قبلة الساحرة فلن يؤذيك شيء..

- وماذا يحمى توتو؟..

- سنحميه نحن..

هنا دوي زئير مخيف ثم ظهر أسد عظيم على الطريق. بضربة واحدة طار خيال الحقل إلى جانب الطريق.. ثم ضرب الرجل الصفيح بمخالبه.. لم يستطع أن يؤثر في الصفيح لكنه أسقط الرجل على جانب الطريق. اندفع توتو وهو ينبح نحو

الأسد ففتح الأسد فمه ليلتهم الكلب. اندفعت دوروثي تحمي كلبها غير مبالية بالخطر، وصفعت الأسد على أنفه وهي تصرخ:

- لا تعض توتو!.. أسد ضخم مثلك يعض كلبا صغيرا!.. يجب أن تشعر بالعار!..

حك الأسد أنفه وقال:

- لم أعضه.

- بل حاولت.. أنت مجرد جبان كبير .

قال الأسد وهو يحنى رأسه في خجل:

- أعرف هذا.. لكن ماذا بوسعي؟..

وراقبها وهي تساعد خيال الحقل على الوقوف على قدميه من جديد. وساعدت الحطاب الصفيح على الوقوف، قال الأسد:

- هو من صفيح.. لهذا خدشته بمخالبي فشعرت في ظهري بقشعريرة.. وما هذا الكائن الصغير؟..

قالت دوروثي:

- هذا كلبي.. توتو..

- هل هو من صفيح؟..

- لا.. هو من لحم..

- يا له من حيوان غريب.. لا أحد يمكن أن يعض حيوانا بهذا الصغر.. إلا الجبان مثلي..

سألته دوروثي وهي تنظر له في دهشة لأنه ضخم في حجم حصان صغير:

- لماذا أنت جبان؟.. قال الأسد:

- هذا لغز.. ولدت بهذا الشكل، كل الحيوانات تتوقع أنني شجاع كما اشتهرت الأسود.. لو زأرت يخاف الجميع ويفرون من طريقي.. كل الأفبال تخاف صوتي لذا تفر مني، ولو كان عليّ أن أقاتلها لفررت أنا لأنني جبان.

- لكن هذا خطأ.. ملك الوحوش لا يمكن أن يكون جبانا.

قال الأسد وهو يمسح دمعة سالت على وجهه بطرف ذيله:

- أعرف.. هذا لأسفي الشديد. عندما يدنو الخطر يدق قلبي بسرعة.

قال الحطاب الصفيح:

- ربما عندك مرض في القلب.

قال الأسد:

- ربما.

- لو كان هذا صحيحا فعليك أن تسعد لأن لك قلبا.. أنا ليس لي قلب فلا أصاب بأمراضه..

قال الأسد:

- ربما.. لو لم يكن لدي قلب لما صرت جبانا..

سأله خيال الحقل:

- هل عندك مخ؟..

- أعتقد هذا.. لم أره لكن أحسبه عندي..

- أنا ذاهب لساحر أوز ليعطيني مخا..

- وأنا ذاهب لساحر أوز ليعطيني قلبا..

- وأنا ذاهبة لساحر أوز كي يعيدني لكنساس..

- هل تعتقدون أنه يمكنه أن يمنحني الشجاعة؟.. إذن أرجو أن تسمحوا لي بالذهاب معكم لأن حياتي مستحيلة بدون شجاعة..

قالت دوروثي:

- مرحبا بك بشدة، فأنت سوف تبعد عنا الوحوش وهكذا من جديد واصلت المجموعة الرحلة.

مشى الأسد في خطوات ثابتة جوار دوروثي، لم يحب توتو هذا الرفيق أولا لأنه كان يخاف أسنانه العظيمة، لكنه ارتاح له بعد قليل وصار صديقا له.

لم يحدث شيء آخر بقية اليوم ولم تكن هناك مغامرات.. ذات مرة داس الحطاب الصفيح على خنفسة فهرسها. هذا جعله في غاية التعاسة لأنه لم يكن يؤذي أي كائن حي. بكى قليلاً من الندم والحزن وهذه الدموع سالت إلى فكيه فدب فيهما الصدأ. أصابه الرعب ولم يستطع أن يجيب عن سؤال دوروثي له. راح يشير لها كي تنقذه لكنها لم تفهم لكن خيال الحقل التقط علبة الصفيح وقام بتزييت فكي الرجل الصفيح. بعد قليل استطاع الكلام. وقال:

- هذا درس ممتاز كي أتمهل حيثما أخطو.

هكذا مشى في حذر شديد وعيناه على الطريق. عندما كان يرى نملة كان يتفادى أن يدوسها، كان يعرف أنه بلا قلب لذا كان يتحاشى أن يأتي بأي عمل قاس.

قال:

- أنتم يا من لديكم قلب لديكم ما يرشدكم فلا تأتون بأخطاء. عندما يمنحني ساحر أوز قلبا لن أقلق بعد هذا...

7- الرحلة إلى ساحر أوز العظيم.

اضطروا لأن يعسكروا هذه الليلة تحت شجرة عملاقة في الغابة لأنه لا توجد بيوت قريبة. حمتهم الشجرة من الندى، وقطع الحطاب الصفيح قطعة خشب ضخمة وأشعلت دوروثي نارا رائعة دفأتها وقتلت شعورها بالوحدة، لم تكن تعرف ما سوف تأكله في الإفطار قال الأسد:

- لو أردت فسوف أدخل الغابة وأقتل غزالاً لك.. قومي بشيه على النار وسوف يكون لديك إفطار ممتاز.. توسل له الحطاب:

- لا تفعل.. لو قتلت الغزال المسكين لبكيت ولسوف يصدأ فكي..

دخل الأسد الغابة ووجد عشاءه.. لم يعرف أحد ما هو لأنه لم يخبرهم. أما خيال الحقل فوجد شجرة بها بندق فملأ سلة دوروثي به. كان هذا كرما منه.

كانت مشكلته هي الابتعاد عن النار لأن أي شرارة منها يمكن أن تدمره.. شبعت دوروثي ونامت في سلام حتى الصباح. في الصباح غسلت وجهها في نهر صغير ثم واصل الجميع الرحلة نحو مدينة الزمرد.

لم يطل مشيهم أكثر من ساعة حتى رأوا خندقا يقسم الطريق. كان عريضا جدا وعندما اقتربوا منه وجدوا أنه عميق جدا كذلك. في قاعه صخور عديدة، وكان من الصعب الهبوط لتحت. هكذا بدا لهم أن الرحلة انتهت.

سألت دوروثي في يأس:

- ماذا نفعل؟..

قال الحطاب الصفيح:

- لا أملك أدنى فكرة..

وهز الأسد رأسه الأشعث وراح يفكر. بعد قليل قال وقد قاس المسافة في ذهنه:

- أظن أن بوسعي الوثب.

قال خيال الحقل:

- إذن يمكنك أن تحملنا على ظهرك واحدا في كل مرة.

قال الأسد:

- سأجرب.. من يذهب أولا؟..

- قال خيال الحقل:

- أنا.. لأنك لو فشلت لهلكت دوروثي أو تأذى الحطاب الصفيح.. أما أنا فلا مشكلة.. لن تؤذيني السقطة.

أنا نفسي أخشى السقطة لكن لابد من التجربة. اركب على ظهري إذن.

وجلس خيال الحقل على ظهر الأسد فمشى هذا نحو الحافة وانحنى..

سأله خيال الحقل:

- لم لا تجرى وتثب؟..

- لأن الأسود لا تتصرف هكذا..

ثم وثب وثبة عالية في الهواء هبطت به في سلام على الجانب الآخر، سر الجميع لسهولة العملية ورأوا خيال الحقل يترجل ثم الأسد يثب عبر الخندق ثانية. صعدت دوروثي إلى ظهره واحتضنت توتو وتمسكت بقوة.. شعرت أنها تطير في الهواء ثم وجدت نفسها سالمة على الجانب الآخر.. عاد الأسد ليجلب الرجل الصفيح.. ووقف الجميع يستريحون لدقائق بينما راح الأسد يلهث ككلب كبير ركض طويلا.

على هذا الجانب كانت الغابة كثيفة ومظلمة وكئيبة، واصلوا المشي في طريق الطوب الأصفر وهم يتمنون لو بلغوا ضوء الشمس من جديد.

زاد الأمر سوءا عندما سمعوا صوتا غريبا من الغابة.. قال لهم الأسد إن هذا الموضع من الغابة يعيش فيه الكاليدا.

سألته الفتاة:

- ما هي الكاليدا؟..

- هي وحوش لها أجسام الدببة ورءوس النمور.. ولها مخالب عملاقة حادة يمكنها أن تمزقني بسهولة تامة.. أنا خائف جدا من الكاليدا..

قالت دوروثي:

- هذا لا يدهشني.. لابد أنها وحوش مرعبة.

كاد الأسد يرد عندما بلغوا فجوة أخرى عبر الطريق. هذه كانت عريضة جدا بحيث عرف الأسد أنه غير قادر على عبورها

جلسوا يفكرون فيما يجب عمله.

قال خيال الحقل:

هنا شجرة عظيمة قرب الفجوة.. لو قطعها الحطاب لنا فسوف تسقط على الجانب الآخر ونعبر عليها..

قال الأسد:

- فكرة ممتازة.. المرء يخال عندك مخا في رأسك برغم كل شيء....

بدأ الحطاب يعمل وسرعان ما تهاوت الشجرة.. سقطت الشجرة عبر الخندق وأغصانها على الجانب الآخر.

بدءوا عبور الجسر العجيب عندما سمعوا زمجرة.. لرعبهم نظروا فرأوا وحشين لهما أجساد دببة ورءوس نمور، صاح الأسد الجبان وهو يرتجف:

- هذه هي الكاليدا!

صرح خيل الحقل:

- اعبروا بسرعة!..

احتضنت دوروثي توتو وانطلقت، بعدها الحطاب ثم خيال الحقل.. جاء دور الأسد وبرغم خوفه استدار يواجه الوحشين وزأر زئيرا مرعبا حتى أن الوحشين توقفا ونظرا له في دهشة.

لكنهما واصلا الهجوم لأنهما أكبر حجما وأكثر عددا.

ما إن فرغ الأسد من العبور حتى نظر للخلف فرأى أن الوحشين يعبران بدورهما.. فصاح الأسد في دوروثي:

- ضعنا!.. سوف يمزقاننا إلى أشلاء.. قفي خلفي وسوف أدافع عنك حتى الموت..

صاح خيال الحقل:

- لحظة!..

وطلب من الحطاب أن يقطع نهاية الشجرة التي تستند إلى نهاية الخندق. بدأ الحطاب استعمال الفأس.. وكان الوحشان قد اقتربا جدا.. هنا هوت الشجرة وسط صخب عظيم وعليها الوحشان.

قال الأسد الجبان:

- عظيم، يبدو أننا سنعيش لفترة أطول.. هذا جميل لأنه من الواضح أن الموت غير مريح.. يوشك قلبي على التوقف خوفا من هذه الوحوش..

قال الحطاب الصفيح:

- ليت لي قلبا كي يتوقف..

صار المسافرون أكثر توترا بعد هذه المغامرة.. ازدادت سرعة المشي حتى أنهكت دوروثي. اضطرت للركوب على ظهر الأسد.

بدأت الأشجار تقل كلما تقدموا وعند العصر رأوا نهرا عريضا يتدفق بسرعة أمامهم. على جانب النهر الآخر رأوا طريق الطوب الأصفر.. وسط رياض خضر رائعة الجمال. سرهم أن يروا هذا البلد الجميل أمامهم..

سألت دوروثي:

- كيف نعبر النهر؟..

قال خيال الحقل:

- يبنى لنا الحطاب طوفا نركبه

تناول الحطاب فأسه وراح يقطع أشجارا صغيرة ليصنع طوفا.. أما خيال الحقل فبحث عن فاكهة جلبها إلى دوروثي، لكن عملية بناء الطوف كانت بطيئة جدا وحين جاء الليل لم يكن العمل قد انتهى، بحثوا عن مكان مريح تحت الأشجار ناموا فيه حتى الصباح. وراحت دوروثي تحلم بساحر أوز الذي سيعيدها إلى وطنها.

8- حقل الخشخاش المميت..

صحا المسافرون في الصباح مليئين بالأمل.. وأفطرت دوروثي بالخوخ كأنها أميرة. خلفهم كانت الغابة المظلمة التي عبروها بسلام وأمامهم ريف شمس جميل.

كاد الطوف ينتهي وقد ثبّت الحطاب المزيد من الألواح وربطها معا وصار من الممكن أن يتحركوا. جلست دوروثي في وسط الطوف وتوتو بين ذراعيها، لكن الطوف اهتز بشكل مخيف عندما خطا الأسد فيه لأن الأسد كان ثقيل الوزن جدا.

تمسّك خيال الحقل والحطاب بالطرف الآخر وفي أيديهم مجاديف. في البداية كانت الرحلة رائعة، لكن عندما بلغوا منتصف النهر أسرع التيار وابتعد الطوف عن طريق الطوب الأصفر. ولم تعد المجاديف قادرة على بلوغ القاع.

قال الحطاب:

- هذا سيئ.. سوف يحملنا الماء لبلد ساحرة الغرب الشريرة وسوف تسحرنا وتجعل منا عبيدا.

قال خيال الحقل:

- ولن يكون لي مخ..

قال الأسد:

- ولن تكون لديّ شجاعة..

قال الحطاب:

- ولن يكون لي قلب.

قالت دوروثي:

- وأنا لن أعود لكنساس.

غرس خيال الحقل المجداف فانغرس في الوحل في قاع النهر

قبل أن يسحبه ابتعد الطوف فظل خيال الحقل البائس متعلقا بالمجداف في وسط البحيرة.

ناداهم:

- الوداع!..

بدأ الحطاب يبكي ثم تذكر أن هذا يجعله يصدأ لذا جفف دموعه سريعا.

قال خيال الحقل لنفسه:

- كنت معلقا على سارية في الحفل لأخيف الغربان.. لكن لا فائدة من خيال حقل يوضع في وسط نهر.. ولن أفوز بمخ مهما فعلت!..

طفا الطوف عبر النهر.

قال الأسد:

- يجب عمل شيء لإنقاذنا.. ربما عمت للشط وسحبت الطوف خلفي. فقط تمسكوا بذيلي جيدا..

وثب للماء وتمسك الحطاب بذيله، ثم بدأ يسبح للشط.. كانت عملية شاقة برغم أنه كان قويا.. في النهاية تمكن من

إخراجهم من التيار واستطاعوا أن يدفعوا الطوف إلى الشط..

كانوا منهكين عندما رقدوا على العشب الأخضر وسأل الحطاب، بينما رقد الأسد على العشب لتجففه الشمس:

- ماذا نفعل الآن؟..

قالت دوروثي:

- يجب أن نعود لطريق الطوب الأصفر.

- نمشي على ضفة النهر حتى نصل للطريق ثانية.

هكذا نهضوا وتناولت دوروثي سلتها ومشوا عبر الضفة. كان الريف جميلاً مليئا بالزهور وضوء الشمس.. لولا حزنهم على خيال الحقل لكانوا في غاية السعادة.

مشوا بسرعة قدر استطاعتهم.. من حين للآخر تلتقط دوروثي زهرة جميلة. فجأة صاح الحطاب الصفيح:

- انظروا.

رأوا خيال الحقل في وسط البحيرة، على المجداف وقد بدا عليه الحزن والأسى.

سألت دوروثي

- ماذا نفعل له؟..

تبادل الأسد والحطاب النظرات لأنهما لم يعرفا ما يجب عمله. هنا حلق طائر لقلق ثم هبط على حافة الماء.

سألهم:

- من أنتم وإلى أين ذاهبون؟..

شرحوا له من هم ووجهتهم.. فقال اللقلق:

- هذا ليس الطريق.

وثني عنقه ونظر للمجموعة الغريبة.

قالت دوروثي:

- نعرف.. لكننا فقدنا صديقنا خيال الحقل وكنا نبحث عن طريقة لاسترداده..

قال اللقلق:

- لو لم يكن ثقيلاً فيمكن أن أتى به لكم.

قالت دوروثي.

- ليس ثقيلا البتة.. هو محشو بالقش.. لو استطعت أن تجلبه لنا فلسوف نشكرك للأبد.

قال اللقلق:

- سأجرب.. لكن لو وجدته ثقيلاً فلسوف ألقى به ثانية في النهر.

طار اللقلق حتى موضع خيال الحقل.. والتقطه وطار به في الهواء نحو الضفة.

هناك كانت دوروثي والحطاب والأسد وتوتو. عندما وجد خيال الحقل نفسه وسط رفاقه من جديد احتضنهم في سرور وراحوا يغنون وهم يمشون.

قال لهم:

- خفت أن أقل في النهر للأبد... لكن اللقلق أنقذني. وسوف أرد له الجميل يوما ما

قال اللقلق:

- أنا أحب أن أساعد أي شخص في مأزق لكن عليّ الرحيل الآن.. أطفالي في العش ينتظرون.

قالت دوروثي:

- شكرا لك..

طار اللقلق في الهواء وتوارى عن العيون.

مشوا معا وسط أزهار تزداد كثافة على الأرض... مع حشد من زهور الخشخاش رائعة الجمال.

قالت دوروثي:

- أليست رائعة؟..

قال خيال الحقل:

- ربما أحبها أكثر لو صار لي عقل..

قال الحطاب:

- لو عندي قلب لأحببتها جدا..

وصلوا لمكن تحتشد فيه أزهار الخشخاش الكبيرة. من المعروف أنه عندما توجد الكثير من هذه الأزهار في مكان واحد

فإن أي شخص يشم رائحتها يسقط نائما، ولو لم يبعده أحد عنها فإنه ينام للأبد.

لم تعرف دوروثي هذا.. وبدأ جفناها يثقلان وشعرت أنها يجب أن تجلس لتستريح. لكن الحطاب لم يتركها..

قال لها:

- يجب أن نهرع هاربين للطريق ذي الطوب الأصغر قبل الظلام.

وافقه خيال الحقل..

لم تتحمل دوروثي أكثر وانغلقت عيناها ونسيت أين كانت وسقطت وسط الخشخاش.

تساءل الحطاب:

- ماذا نفعل؟..

قال الأسد:

- لو تركناها لماتت.. رائحة الزهور تقتلنا جميعا.. لقد نام الكلب فعلا..

قاوم الحطاب الصفيح وخيال الحقل الرائحة لأنهما لم يصنعا من لحم.

قال خيال الحقل للأسد:

- اهرب بسرعة.. ابتعد عن هذه الأزهار المسامة.. سوف نجلب الفتاة معنا لكن لو نمت أنت فأنت أثقل من أن نقدر على حملك..

أسرع الأسد يبتعد.. وسرعان ما توارى عن العيون.

قال خيال الحقل:

- تعال نحملها..

وضعا توتو في حجر دوروثي وحملا الفتاة وكلبها عبر الأزهار

مشوا مبتعدين.. وبدا أن أزهار الخشخاش لن تنتهي أبدا. في النهاية وجدوا صديقهم الأسد وهو ينام بين الخشخاش.. لقد كانت الأزهار أقوى من الوحش القوى.

قال الحطاب:

- لا نستطيع مساعدته فهو أثقل من أن نحمله.. يجب تركه حيث هو.. ربما يحلم بأنه وجد الشجاعة أخيرا.

قال خيال الحقل:

- آسف.. لقد كان الأسد زميلاً عزيزا.. لكن دعونا نرحل.. حملا الفتاة قرب النهر بعيدا عن حقل الخشخاش حتى لا تتنفس المزيد من السم. أرقداها وانتظرا النسيم الناعم حتى يوقظها.

9- ملكة فئران الحقل.

قال خيال الحقل وهو يقف جوار الفتاة:

- لابد أنا لسنا بعيدين عن طريق الطوب الأصفر الآن.

كاد الحطاب الصفيح يتكلم عندما سمعوا زمجرة فأدار رأسه. رأى وحشا غريبا قادما نحوهم عبر العشب، كان قطا بريا أصفر ضخما.. وخطر للحطاب أنه يطارد شيئا لأن أذنيه التصقتا برأسه، وقد فتح فاه مُظهرا صفين من أسنان قبيحة.. بينما عيناه تومضان ككرتي نار.

دنا الوحش من الحطاب.. رأى هذا أن هناك فأرا رماديا صغيرا يفر من الوحش، وبرغم أنه بلا قلب، فقد فكر في أنه ليس من حق الوحش قتل حيوان بريء صغير كهذا.

رفع الحطاب فأسه وهوى على رأس الوحش فقطعه عن جسده.. وتدحرج على الأرض.

تحرر فأر الحقل من عدوه لذا توقف واتجه للحطاب وقال:

- شكرا لك.. شكرا لك لأنك أنقذت حياتي..

قال الحطاب:

- لا تقل هذا. أرجوك.. ليس عندي قلب لذا أحاول أن أعين كل من يطلبون عوني حتى لو كانوا مجرد فأر.

صاح الفأر في غيظ:

- مجرد فأر!!.. أنا ملكة.. ملكة فئران الحقل..

انحنى الحطاب وقال:

- أ.. حقا..

- لهذا ترى أنك قمت بعمل عظيم إذ أنقذتني.

هنا راحت فئران عديدة تجري بأقصى سرعتها، فلما رأت الملكة هتفت:

- يا مولاتي!.. حسبناك سوف تُقتلين.. كيف هربت من القط؟..

وانحنوا جميعا للملكة.

قلت لهم:

- هذا الرجل الصفيح قتل القط. لذا آمركم بأن تطيعوه وتخدموه..

صاحت الفئران:

- سنفعل!....

كان توتو قد أفاق من نومه فرأى الفئران، وكان يحب أن يطاردها.. لكن الحطاب الصفيح أوقف الكلب وأمسكه بقوة بينما نادي الفئران:

- تعالين.. توتو لن يؤذيكن!..

أخرجت الملكة رأسها وسألت:

- هل أنت واثق من ذلك؟..

- لن أسمح له فلا تقلقن..

هكذا عادت الفئران ببطء.. وظل توتو في حضن الحطاب.

سال أكبر الفئران:

- هل من شيء نقدمه لكم مقابل إنقاذ الملكة؟..

قال الحطاب:

- لا شيء على قدر ما أعرف.

لكن خيال الحقل تذكر على الفور وقال:

- نعم.. يمكنكم محاولة إنقاذ صديقنا الأسد الذي نام في حقل الخشخاش..

صرخت الملكة:

- أسد؟... سوف يأكلنا...

- لا، هذا أسد جبان.. ولن يؤذي أي واحد من أصدقائنا.

قالت الملكة:

سوف أثق بكلامك لكن ماذا بيدنا عمله؟..

هل هناك فئران كثيرة تطيع أوامرك؟..

- آلاف.

- إذن ليحضروا جميعا ومع كل منهم قطعة خيط..

نفذت الملكة الطلب، بينما استدار خيال الحقل للحطاب وقال:

اقطع هذه الأشجار لتصنع عربة تحمل الأسد.

ذهب الحطاب للأشجار وسرعان ما صنع عربة من الأغصان يمكنها أن تحمل الأسد.. ثم قطع شرائح من الشجرة وصنع منها أربع عجلات.

جاءت الفئران من كل صوب.. فئران كبيرة وصغيرة.. ومع كل منها قطعة خيط.

هنا فتحت دوروثي عينيها وصحت من النوم. أدهشها أنها نائمة على العشب وحولها آلاف الفئران. قام خيال الحقل بتقديمها للملكة.. وصارت الاثنتان صديقتين.

باستعمال الخيوط بدأ خيال الحقل يثبت الفئران للعربة.. كانت العربة أكبر آلاف المرات من الفئران، لكن بعد ما تم ربط كل الفئران صار تحريكها سهلا، وقامت الخيول الغريبة بجر العربة نحو مكان نوم الأسد.

بعد جهد جهيد استطاعوا وضع الأسد على العربة، ثم طلبت الملكة من الفئران الحركة بسرعة لأنها خشيت إن انتظرت أكثر أن تنام. مع دفع خيال الحقل والحطاب للعربة بدأت تتحرك بشكل أفضل.. وأخيرا استطاع الأسد أن يرقد على العشب ويتنفس الهواء النقي العذب بدلا من رائحة الأزهار المسمومة.

جاءت دوروثي وشكرت الفئران على إنقاذ رفيقها من الموت. ثم جرى فك الفئران من العربة وتركت لتنطلق لبيوتها، قالت الملكة لهم:

- لو احتجتم لنا ثانية، فلتأتوا للحقل ونادوا.. سوف نهرع للنجدة.. أجابوا:

- وداعا.

ورحلت الملكة على حين احتضنت دوروثي كلبها بقوة حتى لا يطارد الملكة ويفزعها، ووجد خيال الحقل بعض فاكهة على شجرة قريبة فجلبها لدوروثي على سبيل العشاء.

10- حارس البوابة.

استغرق الأسد الجبان وقتا حتى أفاق. لكنه عندما أفاق سُرّ جدا لأنه ما زال حيا..

قال وهو يجلس ويتثاءب:

- جريت بسرعة لكن الأزهار كانت أقوى مني.. كيف أخرجتموني؟..

حكوا له قصة فئران الحقل وكيف أنقذته من الموت، ضحك الأسد وقال:

- كنت أعتبر نفسي قويا.. لكن أشياء صغيرة كالأزهار كادت تقتلني.. وحيوانات صغيرة كالفئران أنقذتني.. ما أغرب هذا.

قالت دوروثي:

- علينا أن نجد طريق الطوب الأصفر من جديد.. ثم نتجه لمدينة الزمرد..

نهض الأسد وقد شعر بانتعاش وواصلوا الرحلة.

كان المشي ممتعا وسط العشب الأخضر النقي ولم يستغرق الأمر كثيرا حتى بلغوا طريق الطوب الأصفر واتجهوا لمدينة الزمرد..

كان الطريق ناعما ممهدا والريف حوله كان جميلا، وعادت الأسوار إلى جانبي الطريق لكن لونها كان أخضر.. مروا بيوت عديدة بعد العصر وكان الناس يخرجون من الأبواب ليطلوا

عليهم.. لكن لم يدن أحد منهم بسبب الأسد الضخم. كان الناس جميعا يلبسون ثيابا خضرا بلون الزمرد وقبعات مدببة.

قالت دوروثي:

لابد أن هذه أرض أوز.. يبدو أننا نقترب من مدينة الزمرد.

قال خيال الحقل:

- نعم.. كل شيء أخضر هنا في بلد الأقزام كان الأزرق هو اللون السائد، لكن الناس هنا ليسوا لطيفي المعشر مثل بلد الأقزام.. ومن الواضح أننا لن نجد مكانا نمضي الليل فيه.

قلت الفتاة:

- أتمنى لو وجدت شيئا آكله غير الفاكهة.. وأعرف أن توتو يتضور جوعا.. دعنا نتوقف عند أول بيت.

وصلوا إلى أول مزرعة فدقوا على الباب.

فتحت امرأة الباب في حذر وقالت:

- ماذا تريدون؟.. وماذا يفعل هذا الأسد هنا؟..

- نريد أن نمضى الليل معك لو سمحت.. والأسد صديقي ولن يؤذيك أبدا.

فتحت المرأة الباب قليلا:

- هل هو أليف؟...

قالت دوروثي:

- نعم.. وهو جبان كذلك.. يخاف منك أكثر مما تخافين منه.

فكرت المرأة ثم قالت:

- ليكن.. يمكنكم الدخول وسوف أقدم لكم العشاء ومكانا للنوم..

دخلوا الكوخ فوجدوا طفلين ورجلا.

كانت ساق الرجل مصابة وكان يرقد على أريكة في الركن. وقد دهش الجميع لرؤية هذه المجموعة العجيبية.. انهمكت المرأة في وضع المائدة، على حين سأل الرجل:

- إلى أين العزم؟..

قالت دوروثي:

- إلى مدينة الزمرد لنقابل الساحر العظيم..

قال الرجل في دهشة:

- حقا؟.. وهل أنتم تضمنون أن أوز سيقابلكم؟

- لم لا؟..

- يقال إنه لا أحد يدنو منه.. أنا ذهبت لمدينة الزمرد مرارا لكن لم أر ساحر أوز ولا أعرف أي شخص حي رأه...

سأله خيال الحقل:

- ألا يخرج أبدا؟..

- أبدا.. يظل أياما وأياما في قاعة العرش بالقصر. ومن يخدمونه لا يرونه وجها لوجه...

- وكيف يبدو؟..

- من الصعب أن أقول.. إن أوز ساحر عظيم يمكنه أن يتخذ أي شكل يريد. هناك من يقولون إنه يبدو كطائر ومن يقولون إنه فيل ومن يقولون إنه يبدو كقط.. أحيانا يبدو كجنية جميلة أو أي شكل يروق له، لا أحد يعرف شكله الحقيقي..

قلت دوروثي:

- هذا غريب، لكن يجب أن نجرب وإلا فرحلتنا بلا قيمة. نادتهم المرأة للعشاء لذا التفوا حول المائدة وراحت دوروثي تلتهم عصيدة شهية وبيضا مخفوقا وخبزا أبيض. جرب الأسد بعض العصيدة لكنها لم ترق له وقال إنها طعام للخيول وليس للأسود، لم يأكل خيال الحقل ولا الحطاب الصفيح شيئا. أما توتو فقد أكل من كل شيء في نهم وسرور.

أعطت المرأة دوروثي سريرا للنوم ورقد توتو جوارها بينما وقف الأسد يحرس الباب. ووقف خيال الحقل والحطاب في الركن ساكنين.

في الصباح عندما ارتفعت الشمس عادوا للمشي.

في السماء رأوا ضوءا أخضر جميلا، قالت دوروثي:

- هذه مدينة الزمرد..

واصلوا المشي بينما الضوء يزداد توهجا.. وبدا أنهم يدنون من نهاية الرحلة.

وصلوا للجدار الكبير الذي يحيط بالمدينة عند العصر. كان عاليا سميكا وأخضر.

عند نهاية طريق الطوب الأصفر كان بوابة عالية مزدانة بالزمرد وقد أعماهم بريقها في ضوء الناس. كان هناك جرس جوار الباب فدفعته دوروثي وسمعت الصوت المعدني يدق. انفتحت البوابة ببطء ومروا جميعا فوجدوا أنهم في غرفة عالية السقف تتوهج جدرانها بالزمرد.

وقف رجل له نفس حجم الأقزام يلبس الأخضر من رأسه لقدميه وحتى جلده كان أخضر.. جواره كان صندوق أخضر كبير.

عندما رأي دوروثي ومرافقيها سال:

- ماذا تريدون من مدينة الزمرد؟..

قالت دوروثي:

- جئنا لنرى الساحر..

دهش الرجل من الإجابة فجلس يفكر.

- أعوام طويلة مرت منذ طلب مني أحدهم مقابلة أوز.. وهز رأسه في حيرة وقال:

- لو كان هذا مزاحا أو طلبا أحمق؛ فلسوف يغضب هذا الساحر العظيم ويدمركم..

قال خيال الحقل:

- ليس طلبا أحمق.. هذا شيء مهم وقد قيل لنا إنه ساحر طيب.

قال الرجل الأخضر:

- هو كذلك.. وهو يحكم المدينة بحكمة وعدل. لكنه قاس جدا مع الفضوليين وغير الصادقين، أنا حارس البوابة.. وعليّ أن آخذكم لقصر الساحر لكن عليكم أن تضعوا العوينات..

سألته دوروثي:

- لماذا؟..

- لأنه من دونها سوف يعميكم ضوء المدينة.. حتى من يقيمون في المدينة عليهم لبس العوينات ليلا نهارا وقد أمرهم أوز بهذا عندما بنيت المدينة. وهم محبوسون في بيوتهم.. لقد أُمرت بأن أحتفظ بالمفتاح..

فتح صندوقا كبيرا فوجدت دوروثي أن بها عوينات من كل الأشكال وكلها بزجاج أخضر. وجد حارس البوابة عوينات تناسب دوروثي فوضعها على عينيها، وكانت تخرج منها شرائط معقودة خلف رأسها يقفل مفتاحه مع الحارس. لم تستطع دوروثي خلع العوينات وإن أرادت هذا..

وجد الرجل الأخضر عوينات لخيال الحقل والحطاب والأسد وحتى توتو الصغير.

ارتدى الحارس عويناته وأعلن أنه سيأخذهم للقصر. تناول مفتاحا ذهبيا كبيرا وفتح بوابة أخرى، فتبعوه إلى شوارع مدينة الزمرد.

11- مدينة أوز المدهشة.

برغم العوينات أعمى ضياء المدينة عيون دوروثي ورفاقها. كانت الشوارع محاطة ببيوت جميلة من رخام أخضر مزدان بزمرد، كان الإفريز من الزمرد الأخضر الذي يتوهج في ضوء الشمس. أشعة الشمس نفسها كانت تحمل لونا أخضر.

وكان عابرو الطريق يلبسون الأخضر وينظرون لرفاقنا في دهشة، وتواري الأطفال خلف أمهاتهم عندما رأوا الأسد لكن لم يكلمهم أحد.

كانت هناك متاجر كثيرة، ولاحظت دوروثي أن كل بضائعها خضر. حلوي خضراء وفيشار أخضر وأحذية خضراء وقبعات خضراء.. كان هناك رجل يبيع ليموناده خضراء يبتاعها الأطفال ببنسات خضراء.

لم يبد أن هناك خيولاً وكان الناس يحملون بضاعتهم في علب ضخمة.. وبدا أن كل واحد سعيد ينعم بسعة العيش.

مشى بهم حارس البوابة عبر الشوارع حتى بناية في وسط المدينة كانت هي قصر الساحر، كان هناك شرطي أمام الباب له لحية خضراء كبيرة.

قال حارس البوابة:

- ها هم أولاء الغرباء.. وهم يريدون مقابلة الساحر العظيم..

أجاب الشرطي:

- اخط للداخل وسوف أنقل رسالتك له..

عبروا بوابات القصر ثم مروا على عشب شديد الاخضرار جعلهم الجند يمسحون أقدامهم قبل دخول الحجرة وقال لهم جندي في أدب:

- اجلسوا إلى أن أطلب الساحر.

جلسوا طويلاً وفي النهاية عاد الجندي فسألته دوروثي:

- هل رأيت الساحر؟.. قال لها:

- لا.. لم أره قط... لكنى أحدثه من وراء ستار وأبلغه رسالتكم.. قال إنه سيستمع لكم لكن على كل واحد أن يدخل وحده لحضرته، وهو أن يدخل أكثر من واحد كل يوم.. لذا ستقيمون في القصر عدة أيام وسوف أريكم غرفكم.

قالت دوروثي:

- هذا كرم جدا من ساحر أوز..

نفخ الجندي في بوق أخضر فظهرت فتاة تلبس ثوبا أخضر جميلا ولها شعر أخضر وعينان خضراوان. انحنت أمام دوروثي وقالت:

- اتبعيني لغرفتك...

ودّعت دوروثي كل أصدقائها ما عدا توتو ومشت خلف الفتاة عبر سبعة ممرات إلى أن بلغوا حجرة في مقدمة القصر. كانت أجمل غرفة صغيرة في العالم، بها فراش أخضر مريح. كانت هناك نافورة رقيقة في وسط الغرفة تنفث رذاذا أخضر في الهواء. كانت هناك ورود خضر في النوافذ وهناك رف عليه كتب

خضراء صغيرة. في خزانة الثياب كانت ثياب مختلفة كلها تناسب دوروثي تماما.

قالت الفتاة:

- خذي راحتك.. أوز سوف يقابلك غدا..

ثم تركتها وعادت للآخرين، وهكذا وجد كل منهم نفسه في مكان مريح من القصر. بالطبع لم يحدث هذا فارقا لدى خيال الحقل الذي ظل واقفا طيلة الليل لأنه لا يعرف النوم. الأسد كذلك كان يحب أن يرقد على أوراق شجر وألا تغلق عليه الحجرة، لكنه كان أذكى من أن يعترض لذا تكور كقط ونام على الفور.

في الصباح بعد الإفطار، جاءت الوصيفة لتجعل دوروثي تلبس ثوبا أنيقا.

ربطت دوروثي كذلك شريطا أخضر حول رقبة توتو ثم مضت لغرفة العرش حيث الساحر أوز العظيم.

مرت برجال ونساء يقفون خارج البلاط يثرثرون.. فلم تكن لهم وظيفة أخرى ولم يكن مسموحا لهم بلقاء الساحر.

دخلت دوروثي فهمس أحدهم في فضول:

- هل أنت حقا ستلقين نظرة على وجه ساحر أوز المخيف؟...

قالت دوروثي:

- طبعا.. لو سمح لي..

قال الجندي:

سوف يراك برغم أنه يمقت أن يطلب الناس لقاءه.. في البداية تضايق وطلب طردكم، ثم عرف أنك تلبسين حذاء فضيا فتحمس واهتم.. حكيت له عن علامة جبينك فقرر أن يسمح بلقائك..

هنا دق جرس وقالت الفتاة الخضراء لدوروثي:

- هذه هي العلامة.. يجب أن تذهبي لغرفة العرش.

وفتحت بابا دلفت منه دوروثي فوجدت نفسها في مكان ممتاز. كانت غرفة متسعة لها سقف عال والجدران مغطاة بزمرد كبير متلاصق. في مركز الغرفة ضوء كبير كالشمس..

ما أثار شغفها أكثر كان عرش الزمرد في منتصف الغرفة. أقرب لمقعد مزدان بمجوهرات.

على المقعد كان رأس عملاق بلا جسد يحمله أو أذرع أو أرجل. لم يكن على الرأس شعر لكن كان له عينان وفم أكبر من أي عملاق. حملقت دوروثي في هذا المشهد فاستدارت العينان نحوها ببطء ونظرتا لها بحدة.. ثم تحرك الفم وسمعت صوتا يقول:

- أنا أوز العظيم المخيف.. من أنت ولماذا جئت للقائي؟...

لم يكن صوتا مخيفا كما توقعت.. لذا تشجعت وقالت:

- أنا دوروثي المتواضعة الصغيرة.. جئت طلبا لعونك.

نظرت لها العينان ثم دوى الصوت:

- من أين جئت بالحذاء الفضي؟...

- من ساحرة الشرق الشريرة عندما سقط بيتي فوقها..

واصل الصوت:

- ومن أين العلامة على جبهتك؟...

- من ساحرة الشمال الطيبة.. قبلتني وهي ترسلني لك..

عادت العينان تفحصانها في حدة، ثم سأل أوز:

- ماذا تريدين؟..

أعدني لكنساس حيث خالي وخالتي.. بصراحة لا أحب بلادكم برغم جمالها.

رمشت العينان عدة مرات ثم نظرتا للسقف وفي النهاية سألها الساحر:

- لمَ أفعل لك هذا؟..

لأنك قوى وأنا ضعيفة.. ولأنك ساحر عظيم وأنا فتاة صغيرة.

قال الساحر:

- سوف أعطيك إجابتي.. ليس من حقك أن تنتظري أن أرسلك لكنساس ما لم تقدمي لي خدمة.. هنا يجب على المرء أن يدفع ثمن ما يحصل عليه.. ساعديني أساعدك.

- وماذا عليّ أن أفعل؟..

- اقتلي ساحرة الغرب الشريرة!..

صاحت دوروثي في رعب:

- لكن لا أستطيع!.....

- أنت قتلت ساحرة الشرق.. وتلبسين الحذاء الذي يحمل سحرا قويا. هناك ساحرة واحدة قوية وعندما تخبرينني أنها ميتة فسوف أعيدك لكنساس.. لكن ليس قبل ذلك..

بدأت الفتاة تبكي.. لقد خاب أملها.

نظرت لها العينان من جديد. فقالت:

- أنا لم أقتل أحدا من قبل بإرادتي.. ولو أردت فكيف أقتل ساحرة شريرة؟.. أنت ضخم مخيف ولا تقدر على قتلها فكيف أفعل أنا ذلك؟..

قال الرأس:

- لا أعرف.. لكن هذه إجابتي.. تذكري أن الساحرة شريرة.. شريرة بعنف.. يجب أن تموت.. والآن اذهبي ولا تطلبي أي شيء قبل القيام بواجبك..

عادت دوروثي مثقلة بالهم إلى حيث كان أصدقاؤها ينتظرون.. قالت لهم:

- لا أمل.. أوز لن يعيدني للوطن ما لم أقتل ساحرة الغرب الشريرة.... شعر رفاقها بالأسف لكنهم لم يستطيعوا أن يساعدوها.. لذا عادت دوروثي لغرفتها وبكت حتى نامت.

في الصباح جاء الجندي لخيال الحقل وقال له:

- تعال معي لأن ساحر أوز يريدك..

تبعه خيال الحقل حتى غرفة العرش..

في الداخل على كرسي العرش كانت امرأة حسناء تلبس تاجا من المجوهرات. ومن ذراعيها خرج جناحان رائعا الجمال شفافان يترقرقان مع أدنى تنفس.

انحنى خيال الحقل في احترام أمام هذا الكائن الرائع فقالت له:

- أنا أوز العظيم المخيف.. من أنت؟..

شعر خيال الحقل بدهشة بالغة لكنه تماسك وقال:

- أنا خيال حقل لا أكثر.. بلا مخ.. كنت آمل أن تضع مخا في رأسي بدل القش..

سألته السيدة:

- لمَ أفعل هذا؟..

- لأنه ليس من أحد يساعدني سواك..

- لا أفعل شيئا بلا مقابل.. لو قتلت ساحرة الغرب لمنحتك مخا يجعلك أذكى الناس..

قال خيال الحقل:

- أنت طلبت من دوروثي قتل الساحرة..

- نعم.. لا أبالي بمن يقتلها.. لكني لن أمنحك أي شيء ما دامت حية. اذهب ولا تعد إلا عندما تستحق المخ..

عاد خيال الحقل يخبر رفاقه، ودهشت دوروثي لأن الساحر ليس رأسا كما رأته بل سيدة حسناء.

قال خيال الحقل:

- لا فارق.. هي بحاجة لقلب مثل الحطاب..... جاء دور الحطاب لمقابلة الساحر، فذهب للعرش... لم يدر كيف سيكون أوز لكنه تمنى أن يكون امرأة هذه المرة لأن النساء يلين قلبهن بسهولة.

لكن عندما دخل الغرفة لم ير سيدة أو رأسا.. لقد صار أوز في صورة وحش مريع.. كبير كفيل وبدا أن العرش يتحمل وزنه بصعوبة. كان له رأس خرتيت بخمس أعين، كانت هناك خمسة أذرع وخمسة أرجل. وكان مكسوا بالشعر كله. من حسن حظ الحطاب أنه بلا قلب وإلا لدق قلبه في جنون من الرعب.

تكلم الوحش بصوت كالزئير:

- أنا أوز العظيم المخيف.. من أنت ولماذا تريد مقابلتي؟..

- أنا حطاب من الصفيح.. ليس لي قلب وأتوسل لك أن تعطيني واحدا مثل الرجال جميعا..

سأله الوحش:

- لماذا أفعل ذلك؟..

- لأنك وحدك قادر على تحقيق هذا.

زأر أوز ثم قال:

- لو أردت قلبا فعليك أن تستحقه..

سأله الحطاب:

- كيف؟..

- ساعد دوروثي على قتل ساحرة الغرب الشريرة.. عندما تموت تعال لي وسوف أمنحك أكبر وأرق قلب في أرض أوز..

عاد الحطاب حزينا وحكى لرفاقه عن الوحش المرعب الذي قابله.

قال الأسد:

- لو صار وحشا وأنا عنده فلسوف أزار بتوحش لأخيفه وينفذ ما أطلب.. ولو كان رأسا عملاقا لصار تحت رحمتي. لأنني سأدحرج الرأس في الغرفة إلى أن يقبل.. تفاءلوا يا رفاق لأن كل شيء سيكون على ما يرام..

في الصباح اقتاد الجندي الأسد إلى العرش وسمح له بمقابلة أوز.

عبر الأسد الباب فرأى أن العرش كرة نار مشتعلة متوهجة لا يستطيع أن ينظر لها، خطر له أن أوز يحترق وفكر أن ينقذه، لكنه لما دنا أحرق شاربيه فتراجع مذعورا. هنا جاء صوت هادئ من كرة النار:

- أنا أوز العظيم المرعب.. من أنت ولماذا جئت؟

قال الأسد:

- أنا أسد جبان يخاف كل شيء.. أرى أن تساعدني لأصير ملك الوحوش كما تدعوني الحيوانات..

سأله الساحر:

- لمَ أعطيك الشجاعة؟..

- لأنك ساحر قوى ويمكنك تحقيق مطلبي.

اشتعلت كرة النار أكثر ثم قال الصوت:

- هات دليلاً على أن الساحرة الشريرة ماتت وعندها أهبك الشجاعة.. لكن طالما هي حية سوف تظل جبانا..

لم يستطع الأسد الرد برغم أنه غضب.

ازداد توهج الكرة حتى أنه فر من الغرفة وسره أن يجد رفاقه ينتظرون.

تساءلت دوروثي في حزن:

- ماذا ستفعل؟..

قال الأسد:

- لا حل سوى الذهاب لأرض الوينكيز وقتل الساحرة..

قالت الفتاة:

- ولو لم نفعل؟..

قال الأسد:

- عندها لن أظفر بالشجاعة أبدا..

صاحت الفتاة الخضراء:

- خذي الحذر!.. سوف تسقط الدموع على الثوب الأخضر وتلوثه!..

جففت دوروثي عينيها وقالت:

- فلنجرب.. لكني لا أريد قتل أي مخلوق حتى لو كان لأرى الخالة إم..

هكذا قرر الأصدقاء أن يبدءوا الرحلة غدا وقام الحطاب بسن فأسه على حجر مناسب. ووضع الزيت على مفاصله. أما خيال الحقل فقد حشا نفسه بقش جديد ورسمت له دوروثي عينين جديدتين ليرى أفضل.

ملأت لهم الفتاة الخضراء سلالهم بالطعام وربطت جرسا على عنق توتو، ثم ذهب الأصدقاء للنوم وناموا حتى الصباح. وفي الصباح استيقظوا على صوت ديك أخضر يعيش في حديقة القصر الخلفية.

12- البحث عن الساحرة الشريرة.

اتجه الأصدقاء إلى بوابة المدينة حيث كان حارس البوابة. أخذ الحارس عويناتهم ووضعها في صندوقه ثم فتح لهم البوابة.

سألته دوروثي:

- أي طريق يقود لساحرة الغرب الشريرة؟..

- لا طريق!.. لا أحد يريد الذهاب في هذا الاتجاه..

سألته الفتاة:

- إذن كيف نجدها؟..

- هذا سهل.. هي مستجدكم لتجعل منكم عبيدا لها.

قال خيال الحقل:

- لن تقدر لأننا سندمرها..

- أه.. إذن الأمر يختلف وإن كانت ساحرة قوية شريرة.. لذا لا أعتقد أنكم قادرون على قتلها.. اتجهوا للغرب وسوف تجدونها في النهاية.

شكروه وعادوا للغرب ماشين فوق حقول مزدانة بالسوسن، ولاحظت دوروثي أنها لم تعد تلبس الثوب الأخضر الذي كان عليها في القصر.

توارت مدينة الزمرد خلفهم.. وصارت الأرض أكثر وعورة ولم تعد هناك مزارع أو منازل.

عند العصر كانت الشمس حارقة لأنه ما من أشجار تمنحهم الظل.. تعب الأسد وتوتو ورقدا وسط العشب وناما.

لم تكن لدى ساحرة الغرب الشريرة إلا عين واحدة، لكنها قوية جدا وكانت ترى بها في كل مكان. لهذا جلست عند باب القلعة فرأت دوروثي نائمة والأصدقاء حولها. كانوا بعيدين لكن الساحرة الشريرة اغتاظت لأنهم في بلدها.

نفخت في صفارة فضية على صدرها فجاءت من عدة أماكن ذئاب ضخمة لها عيون متوحشة.

قالت الساحرة:

- اذهبوا لهؤلاء الناس ومزقوهم...

سألها قائد الذئاب:

- ألن يصيروا عبيدا لك؟..

- نعم.. أحدهم من صفيح وآخر من قش وأحدهم فتاة وأسد.. لا أحد يصلح عندي..

قال الذئب:

- فورا..

وانطلق مع الذئاب مسرعا.

من حسن حظ خيال الحقل ورفاقه أنهم كانوا متيقظين وسمعوا الذئاب.

قال الحطاب:

- هذه معركتي.. تواروا بينما أقضي عليها.

وتناول الفأس وطوح بها ليقطع رأس أول الذئاب.. هنا انقض عليه ذئب آخر سرعان ما مات تحت نصل الفأس، كانوا أربعين ذئبا. وفي النهاية صارت كومة تحت قدمي الحطاب.

وضع الفأس وجلس فقال له خيال الحقل:

- معركة ممتازة يا صديقي.

انتظروا حتى صحت دوروثي في الصباح وقد خافت عندما رأت كومة الجثث. بعدها تناولت الإفطار وانطلق الجميع في رحلتهم.

صحت الساحرة ووقفت تنظر بعينها الوحيدة. أغضبها موت ذئابها فتناولت الصفارة ونفخت فيها مرتين. جاء سرب من الغربان المتوحشة نحوها حتى أظلمت السماء.

قالت لملك الغربان:

- طر حالاً للغرباء وانقر عيونهم ومزقهم..

طارت الغربان نحو دوروثي ورفاقها، وعندما رأتهم الفتاة الصغيرة أصابها الرعب، فقال خيال الحقل:

- هذه معركتي.. فقط ناموا بجواري ولن يؤذيكم شيء.

رقدوا على الأرض بينما وقف هو وفرد ذراعيه.

عندما رأته الغربان أصابها الرعب لأن هذه الطيور تخاف خيال الحقل بطبعها.. لم تجسر على الدنو إلا أن الملك قال:

- هذا رجل محشو بالقش.. سوف أخرج عينيه..

أمسك خيال الحقل برأسه ولوي عنقه حتى مات.. سقط فوقه غراب آخر فلوى عنقه كذلك.. لقد قتل خيال الحقل أربعين غربا.

ثم نادى رفاقه لينهضوا وواصلوا الرحلة.

عندما رأت العجوز أن غربانها ترقد في كومة، أصابها غضب مجنون.. نفخت في صفارتها 3 مرات..

دوي صوت أزيز في الهواء وجاء سرب من نحل أسود نحوها.

أمرتهم الساحرة:

- اذهبوا للغرباء والدغوهم حتى الموت!.. طار سرب النحل نحو أصدقائنا..

لكن الحطاب رأى النحل قادما فقال له خيال الحقل:

- خذ القش مني وانثره على الفتاة وتوتو والأسد.. فلن يقدر النحل على اللدغ..

تم عمل هذا.. وجاء النحل فلم يجد سوى الحطاب ليلدغه.. جرب كثيرا وحطم مياسمه على الصفيح، وبما أن النحل لا يعيش من دون ميسم انتهى النحل الأسود وتساقط في كومة حول الحطاب كأنهم فحم.

نهضت دوروثي وأعادت حشو خيال الحقل بالقش وواصل الأصدقاء الرحلة من جديد.

غضبت الساحرة الشريرة جدا عندما رأت نحلها مكوما فمزقت شعرها وعضت شفتيها.

ثم أنها نادت دستة من عبيدها الذين يدعون (ونكيز) وأعطتهم رماحا حادة وطلبت أن يذهبوا لتدمير الغرباء.

لم يكن الونكيز شجعانا لكن عليهم تنفيذ طلباتها، لذا مشوا حتى اقتربوا من دوروثي. أطلق الأسد زئيرا مريعا ووثب عليهم فأصابهم الهلع.. وجروا بأقصى سرعة.

عندما عادوا للقلعة ضربتهم الساحرة وطردتهم. ثم جلست تفكر فيما تفعله. لم تفهم كيف فشلت كل خططها لقهر الغرباء لكنها كانت ساحرة قوية وقد وجدت فكرة ممتازة.

كان هناك في خزانتها كاب ذهبي حوله دائرة من الماس والعقيق. كان لهذا الكاب تعويذة سحرية.. من يناد الفردة المجنحة ثلاث مرات فسوف تطيعه. لكن لا أحد يستطيع السيطرة على تلك المخلوقات أكثر من ثلاث مرات. لقد استعملت التعويذة مرتين.. مرة عندما حكمت الغرب، ومرة عندما حاربت أوز نفسه وطردته من الغرب.. ما زال بوسعها استعمال التعويذة مرة أخيرة. لم تكن تحب أن تستعملها، لكن الآن قد فقدت ذئابها ونحلها وغربانها وأقزامها، لم يعد لديها سبيل آخر.

تناولت الكاب من الخزانة ووضعته على رأسها ووقفت على قدمها اليسرى وصاحت ببطء:

- إب ب.. ب ب.. ك كي....

ثم وقفت على القدمين وصاحت:

- كيي كيي كيك..

اسودت السماء ودوى صوت الرعد..

اندفعت أجنحة عديدة.. ثم وقفت الساحرة وسط القردة وكل منها يحمل جناحين على ظهره، بدا أن أحد القردة هو القائد.. طار نحو الساحرة وقال لها:

- أنت طلبتنا لثالث وآخر مرة.. فماذا تريدين؟..

- اذهبوا للغرباء في أرضي ودمروهم جميعا ما عدا الأسد.. هاتوه لي فأنا أرغب في أن أتخذه كجواد لي..

قال القائد:

- سوف نطيع أوامرك.

وحلقت القردة نحو مكان دوروثي وصديقاتها، حمل بعض القردة الحطاب وحلقوا به حتى صاروا في منطقة كلها صخور وألقوه من أعلى. هكذا هوى ورقد مليئا بالندوب.

أمسكت بعض القردة بخيال الحقل ومدت أناملها تخرج القش من ثيابه ورأسه، ثم حولوه لخرقة صغيرة وألقوه على غصون شجرة عالية. باقي القردة لفت الحبال حول الأسد فعجز عن القتال أو الخدش.. رفعته وطارت به نحو قلعة الساحرة. هناك وضعوه في فناء كبير وحوله سور حديدي.

لم يؤذوا دوروثي قط..

لقد وقفت وبين ذراعيها توتو تراقب مصير رفاقها التعس وقدرت أن هذه نهايتها، طار نحوها قائد القردة وعلى وجهه ضحكة شريرة، لكنه رأى العلامة على جبينها.. وطلب من الآخرين ألا يمسوها.

- لن نقدر على إيذاء الفتاة لأن قوى الخير تحميها سوف نحملها لقلعة الساحرة ونتركها هناك.

هكذا حملوها في رفق إلى القلعة، ودق كبيرهم الباب وقال للساحرة:

- لقد أطعناك ما استطعنا.. دمرنا الحطاب وخيال الحقل، والأسد حبيس في فناء قصرك.. لم نستطع إيذاء الفتاة ولا كلبها.. لكن قوتك قد زالت من حولنا ولن نعود لك ثانية..

وسرعان ما طارت القردة مبتعدة وسط صخب عظيم نظرت الساحرة في قلق لجبين دوروثي. معنى العلامة أنها فعلا لا تستطيع أن تؤذيها. نظرت لقدمي دوروثي فرأت الحذاء الفضي فبدأت ترتعش. نظرت لعيني الطفلة فرأت روحها وعرفت كم هي بسيطة طيبة. ضحكت وقالت لنفسها:

- يمكن أن أجعلها جارية لي.. فهي لا تعرف مدى قوتها.. ثم أمرت دوروثي:

- تعالي معي.. نفذي ما أطلبه وإلا أنهيت حياتك كما فعلت مع الآخرين..

أخذتها للمطبخ ثم طلبت منها تنظيف الصحون والأرض وإشعال النار، وهكذا انهمكت دوروثي في العمل قدر وسعها وهي سعيدة لأن الساحرة لم تفتك بها.

قررت الساحرة أن تذهب للفناء وتربط الأسد الجبان ليصير كحصان يجر عربتها. لكنها إذ فتحت الباب أطلق الأسد زئيرا عاليا ووثب عليها حتى أن الذعر أصابها وأغلقت البوابة وفرت.

قالت للأسد عبر القضبان:

- لو لم أستطع ترويضك فسوف أجعلك تجوع..

ولم تقدم له أي طعام، لكنها كانت تأتي له يوميا لتسأله:

- هل أنت مستعد لتضع اللجام كالخيول؟..

- لا.. لو دخلت هنا لعضضتك.

الحقيقة أنه في كل ليلة بعد نوم المرأة كانت دوروثي تحمل له الطعام من المطبخ. وكان يأكل ثم يرقد على القش وتنام دوروثي جواره وتريح ذقنها على ذراعه المشعث ويتكلمان عن خطط للهرب، لكن القلعة كانت محاصرة بالونكيز الذين يخدمون الساحرة.

ذات مرة ضربت الساحرة توتو لكن الكلب الشجاع عضها في ساقها.. لم تنزف العضة لأن الدم في جسدها جف منذ أعوام. كانت دوروثي تتذكر كنساس فتبكي.. بينما توتو ينظر لها في حزن.. لم يكن يجد فارقا بين كنساس وأرض أوز ما دامت دوروثي معه.

كانت الساحرة الشريرة تتمنى أن تحصل على الحذاء الفضي لنفسها.. لو حصلت عليه فلسوف تملك قوة أكبر.

راحت تراقب دوروثي في حذر.. لترى إن كانت تخلع حذاءها لكن الطفلة كانت فخورا بالحذاء فلم تنزعه قط إلا ليلا عندما تستحم. كانت الساحرة تخاف الماء جدا لذا لم تذهب قط لغرفة دوروثي وهي تستحم. الحقيقة أن العجوز لم تمس الماء قط..

لكنها كانت خبيثة وقد فكرت في حيلة تحقق بها ما تريد.

وضعت قضيبا من حديد على أرض المطبخ، ثم بقواها السحرية جعلته غير مرئي، عندما دخلت دوروثي المطبخ تعثرت في القضيب وسقطت. طار الحذاء الفضي فالتقطته الساحرة بسرعة ودست قدميها فيه. كانت سعيدة جدا لنجاح حيلتها، ما دامت فردة الحذاء معها فلن تستطيع دوروثي أن تستعمله حتى لو عرفت قوته.

وجدت الفتاة أنها فقدت فردة حذاء فاغتاظت وقالت للساحرة:

- أعيدي حذائي....

قالت الساحرة:

- لن أفعل.. إنه لي..

- أنت كائن شيطاني وهذا ليس من حقك.

قالت الساحرة ضاحكة:

- برغم كل شيء هو لي.

اغتاظت دوروثي جدا فالتقطت دلو الماء وسكبته على الساحرة مما بللها من رأسها حتى قدميها.

أطلقت العجوز صرخة هلع ثم أمام عيني دوروثي بدأت تنكمش وتذوب.

- هل رأيت ما فعلت؟.. خلال دقيقة سأذوب!..

قالت دوروثي: .

- أنا أسفة فعلا....

أثار رعبها أن ترى الساحرة تذوب كالسكر.

سألتها الساحرة:

- ألم تعرفي أن في الماء نهايتي؟...

- بالطبع نعم.. لم أعرف.. كيف كنت أعرف؟..

خلال دقائق تصير القلعة لك.. كنت شريرة طيلة حياتي لكن لن أدع فتاة مثلك تنهي وجودي.. احترسي!..

وهنا تهاوت لتصير كتلة بنية بلا شكل وانتشرت على أرض المطبخ، تناولت دوروثي دلو ماء آخر وسكبته على هذه الفوضى، ثم مسحت الأرضية.. التقطت الحذاء الفضي ونظفته وجففته ثم أعادت ارتداءه، ركضت في الفناء لتخبر الأسد أن ساحرة الغرب الشريرة قد انتهت. لم يعودا سجينين في هذه الأرض الغريبة.

13- الإنقاذ..

سُر الأسد لمّا عرف أن الساحرة الشريرة ذابت.

فتحت دوروثي بوابة السجن وحررته، مشيا معا نحو القلعة حيث نادت دوروثي الونكيز وقالت لهم إنهم صاروا أحرارا. عمت السعادة للخلاص من الساحرة. وقضى الأقزام اليوم يحتفلون ويرقصون ويغنون.

قال الأسد:

- لو كان صديقانا خيال الحقل والحطاب معنا لكنا في غاية السعادة.

سألته الفتاة في قلق:

- ألا تحسب بوسعنا أن ننقذهم؟..

- يمكننا أن نجرب..

عرضا الأمر على الأقزام فرحبوا بعمل أي شيء تريده دوروثي التي خلصتهم من الأسر. هكذا اختارت عددا من هكذا اختارت عددا من الونكيز وانطلقوا..

في اليوم التالي بلغوا الوادي الصخري الذي رقد فيه الرجل الصفيح. كان الفأس جواره لكنه صدأ والمقبض تحطم. حمله الأقزام للقلعة بينما دوروثي تذرف الدمع لرؤية صديقها.

في القلعة قالت دوروثي:

- هل عندكم حداد.

- نعم.. بعضنا حدادون..

- هاتوا لي واحدا.

جاء الحدادون مع آلاتهم فسألتهم:

هل بوسعكم تقويم هذه الخبطات وإعادته لشكله، مع لحام ما تحطم منه؟..

قال الحدادون إن بوسعهم إعادته لحالته.

عملوا ثلاثة أيام.. وفي النهاية صار في شكله القديم.. وصارت مفاصله لينة.

في النهاية نهض الحطاب ودخل غرفة دوروثي وشكرها على إنقاذه. سالت دموعه فاضطرت إلى أن تمسح كل دمعة بحذر من وجهه حتى لا تصدأ مفاصله. بالنسبة للأسد فقد مسح عينيه بذيله حتى بلله تماما واضطر أن يخرج إلى الشمس كي يجففه.

قال الحطاب:

- لو كان خيال الحقل معنا لكنا في غاية السعادة..

قالت الفتاة:

- يجب أن نحاول أن نجده.

طلبَتْ عون الونكيز. مشوا يوما كاملاً حتى بلغوا شجرة عالية حيث ألقت القردة بثياب خيال الحقل، كانت عالية جدا وملساء لا يستطيع أحد تسلقها. هنا قال الحطاب إنه سيقطعها وهكذا يصلون لثياب خيال الحقل.

كان الأقزام قد أصلحوا الفأس وقاموا بتلميع النصل. بدأ الحطاب يعمل.. وسرعان ما تهاوت الشجرة محدثة ارتطاما عاليا، التقطت دوروثي الثياب وعادت بها للقلعة حيث حشتها بقش نظيف فعاد خيال الحقل للحياة.

شكرهم كثيرا على إنقاذه..

لقد صاروا معا من جديد وعاشوا بضعة أيام في القلعة ينعمون بوسائل الراحة، لكن ذات يوم قالت لهم:

- لنعد إلي أوز كي يبر بوعده.. لنذهب إلى مدينة الزمرد غدا...

في الصباح ودعوا الونكيز.. شعر هؤلاء بحزن وتوسلوا للحطاب كي يبقى ويحكمهم. في النهاية أعطوا توتو والأسد ياقتين من ذهب وقدموا إلى دوروثي سوارا مزدانا بالمجوهرات وقدموا عصا مرصعة بالذهب لخيال الحقل، كما منحوا علبة زيت ذهبية للحطاب.

اتجهت دوروثي لخزانة الساحرة لتملأ سلتها بالطعام.. هناك وجدت الكاب الذهبي. لم تكن تعرف أي شيء عن خواصه لكنها وجدته جميلاً. قررت أن تضعه على رأسها وتخفى البونيه في السلة.

وانطلق الأصدقاء نحو مدينة الزمرد يصحبهم تهليل الأقزام.

14- القردة المجنحة..

تتذكرون أنه لا يوجد أي طريق بين قلعة الساحرة ومدينة الزمرد. عندما رأت الساحرة الأصدقاء قادمين أرسلت القردة المجنحة ليأتوا بهم لها، لهذا كان من العسير جدا أن تجد طريق العودة.

كانوا يعرفون أن عليهم الاتجاه شرقا نحو الشمس البازغة، لذا انطلقوا في طريقهم. لكن عند الظهر عندما صارت الشمس فوق رءوسهم لم يعودوا يعرفون أين الشرق ولا أين الغرب هكذا ضلوا طريقهم وسط الحقول.

واصلوا المشي وعند المساء تألق القمر. رقدوا وسط الأزهار الصفراء عطرة الرائحة وناموا حتى الصباح..

في الصباح بدت الشمس خلف سحابة لكنهم واصلوا الطريق كأنهم يعرفون طريقهم بثقة. قالت دوروثي:

- لو مشينا طويلا فأنا واثقة من أننا سنبلغ مكانا ما.

لكن اليوم مر وهم لا يجدون شيئا إلا الحقول الأرجوانية. بدأ خيال الحقل يتذمر.

- بالتأكيد ضللنا الطريق.. ويبدو أنني لن أحصل على مخ أبدا.

قال الحطاب:

- ولا على قلب لي.. لا أستطيع الانتظار حتى أصل لأوز هذه رحلة طويلة..

قال الأسد:

- كما ترون أنا لا أملك شجاعة تكفي لأن أضل طريقي للأبد.

فقدت دوروثي شجاعتها بدورها. جلست على العشب وتبادلت النظرات مع رفاقها. حتى توتو شعر بأنه متعب لا يقدر على ملاحقة الفراش الذي يطير حوله.

قالت دوروثي:

- ماذا لو طلبنا فئران الحقل لترشدنا إلى مدينة الزمرد..

قال خيال الحقل:

- هذا مؤكد.. لماذا لم نفكر في هذا من قبل؟..

نفعت دوروثي الصفارة التي أعطتها إياها ملكة الفئران، وبعد دقائق أحاطت بهم فئران رمادية كثيرة وبينها الملكة نفسها..

سألتها بصوت كالصرير:

- ماذا أفعل لكم يا رفاق؟....

قالت دوروثي:

- ضللنا الطريق.. هلا قلت لنا أين مدينة الزمرد؟...

- بالطبع.. لكنها بعيدة جدا.

ثم لاحظت الكاب على رأس دوروثي فقالت:

- لم لا تستعملين سحر الكاب وتطلبين أن تحملك القردة المجنحة للمدينة؟ ستفعل هذا خلال ساعة..

قالت دوروثي:

- لم أعرف أن هناك سحرا..

- هو مكتوب داخل الكاب... لكن لو طلبت القردة المجنحة فعلينا أن نفر قبل أن تلتهمنا..

سألتها في قلق:

- ألن تؤذيني؟..

- نعم لن تؤذيك.. عليها أن تطيع لابس الكاب.. سلام.. وسرعان ما توارت مع الفئران..

نظرت دوروثي داخل الكاب فرأت كلمات. قدرت أن هذه هي التعويذة.. وضعته على رأسها ووقفت على قدمها اليسرى وصاحت ببطء:

- إب ب.. ب پ.. ك كي..

ثم وقفت على القدمين وصاحت

- كيي كيي كيك.

دوى صوت أجنحة إذ جاءت الفردة المجنحة.. انحنى الملك أمام دوروثي وقال:

- هل من أوامر؟..

فالت:

- نريد الذهاب لمدينة الزمرد.. وقد ضللنا الطريق..

هبط قردان وحملا دوروثي من ذراعيها وحلقا بها.. وكذا فعل الباقون.. برغم أن الكلب حاول بقوة أن يعضهم. بالطبع شعر خيال الحقل والحطاب بالذعر عندما تذكرا ما حدث لهما في السابق.

وجدت دوروثي أنها تطير في نعومة بين قردين جعلا من ذراعيهما مقعدا لها.

سألت:

- لماذا تطيعون تعويذة الكاب؟..

قال الملك وهو يرفرف بجناحه:

- قصة طويلة.. سوف أحكيها لك على كل حال..

ثم بدأ يحكي:

- في الماضي كنا قوما أحرارا نعيش في الغابة سعداء ونأكل البندق والفاكهة.. بعضنا كان مشاغبا يهوي ضرب الحيوانات الأخرى أو الركوب فوقها، لكننا كنا نتمتع بكل لحظة من اليوم، ثم جاء أوز ليحكم هذه البلاد. وقتها عاشت في الشمال أميرة جميلة تمارس السحر ولم تؤذ أحدا قط.. كان اسمها (جايليت) وكانت تعيش في قصر بني من العقيق، كان الكل يحبها لكنها لم تجد شخصا تحبه لأن كل الرجال كانوا أغبياء قبيحين.. ما عدا صبيا جميلا راق لها قررت أن تنتظر حتى يكبر ثم تتزوجه، كان اسمه (كويلالا) وكان أفضل وأحكم رجل في هذه الأرض.

في هذا الوقت كان جدي ملك القردة المجنحة التي تعيش في الغابة قرب قصر جايليت، وكان يحب الدعابة جدا. ذات مرة

كان يطير مع عصابته قرب النهر عندما رأى كويلالا يمشى هناك. وكان يلبس ثوبا من حرير وردي.

أصدر جدي أمرا فهبط رجاله وحملوا كويلالا حتى منتصف النهر ثم تركوه يسقط..

صاح جدى: اسبح أيها الفتى!.. سبح كويلالا واحتفظ بابتسامته.. حتى بلغ الضفة. عندما هرعت نحوه جايليت وجدت أن ثيابه كلها أتلفها الماء.

استبد الغضب بالأميرة وجلبت كل القردة المجنحة أمامها وفكرت أن تربط أجنحتها وتلقى بها في الماء، لكن جدي توسل لها لأن القردة ستغرق في الماء بلا شك. قررت في النهاية أن تطلق سراح القردة لكن مقابل أن تظل القردة خادمة ثلاث مرات لكل من يملك الكاب الذهبي..

اهتمت دوروثي بالقصة جدا وسألت:

- وماذا صار منهم؟..

- صار كويلالا أول ملاك الكاب.. وكان أول من نفذنا طلباته.. بعد هذا انتقل الكاب لساحرة الغرب الشريرة. وقد جعلتنا نستعبد الونكيز وبعدها طردنا أوز من أرض الغرب. الآن صار الكاب لك..

أنهى قصته فنظرت دوروثي لترى جدران مدينة الزمرد الخضراء.

سرها أن الرحلة انتهت بسرعة، وأنزلت القردة أصدقاءنا أمام البوابة وانحنى الملك لـ (دوروثي) ثم طار مبتعدا.

قالت الفتاة:

- هذه رحلة طبية.

قال الأسد:

- من الجميل أنك أحضرت هذا الكاب المذهل...

15- اكتشاف أوز المخيف.

مشى المسافرون الأربعة إلى بوابة مدينة الزمرد العلاقة ودقوا الجرس. انفتح الباب عن حارس البوابة الذي قابلوه من قبل.

تساءل في دهشة:

- ماذا؟.. هل عدتم؟..

- أجاب خيال الحقل:

- ألا ترانا؟..

- حسبتكم ذهبتم لساحرة الغرب الشريرة.

قال خيال الحقل:

- فعلنا ذلك لقد ذابت وماتت.

- ذابت؟.. هذه أخبار طيبة.. من فعل؟..

قال الأسد:

- دوروثي فعلت

انحنى الرجل في تبجيل أمامها. ثم أنه دخل وأعطاهم عوينات كما فعل من قبل.

سمع الناس أن دوروثي أذابت الساحرة الشريرة، فاحتشدوا في زحام عظيم حول المسافرين. وداخل القصر رحبت بهم الفتاة الجميلة واقتادتهم لغرفهم السابقة ليرتاحوا إلى أن يصير الساحر مستعدا للقائهم.

أبلغ الحارس أوز بما قاموا به، لكن الساحر لم يرد، ظنوا أنه سيرسل في استدعائهم فورا فلم يفعل، ولم يتلقوا كلمة منه في اليوم التالي ولا التالي له. في النهاية تضايقوا من الانتظار ومن هذه المعاملة القاسية. في النهاية حمل خيال الحقل رسالة للفتاة أن الساحر لو لم يطلبهم حالاً فلسوف يستدعون القردة المجنحة لتساعدهم.

عندما وصلت هذه الرسالة إلى أوز أصابه الرعب، وطلب أن يحضروا لغرفة العرش في التاسعة وأربع دقائق الصباح التالي. كان قد عرف القردة من قبل ولم يتمن أن يقابلها ثانية.

نام الأصدقاء يحلمون بالصباح.. حلمت دوروثي أنها في كنساس والخالة إم تلثمها وتقول إنها سعيدة لأنها عادت لها.

في التاسعة صباحا جاء الحارس الأخضر وبعد أربع دقائق كانوا في قاعة العرش، توقع كل منهم أن يرى الساحر في الشكل الذي رأه من قبل، لذا كانت دهشتهم قوية عندما نظروا فلم يروا أحدا..

كان خواء الغرفة مخيفا أكثر من أي شكل سابق اتخذه الساحر.

سمعوا صوتا يأتي من قبة السقف.. يقول:

- أنا أوز العظيم والمرعب.. لماذا تبحثون عني؟..

نظروا حولهم فلم يروا أحدا.. وتساءلت:

- أين أنت؟..

قال الساحر:

بالنسبة لعيون الفانين أنا غير مرئي.. سوف أجلس الآن على العرش..

بدا الآن أن الصوت يأتي من العرش نفسه.

قالت دوروثي:

- جئنا نطالبك بتحقيق وعدك...

- أي وعد؟..

أنت وعدت بأن تعيدني لكنساس إذا ماتت الساحرة العجوز..

وذكر كل واحد الوعد الذي تلقاه سأل الصوت: .

هل دمرت الساحرة الشريرة فعلاً؟..

وخيل لدوروثي أن الصوت ارتجف للحظة. فأجابت:

- نعم.. لقد ذوبتها بدلو من الماء.

- يا للسرعة!... إذن تعالوا غدا لأنني أريد وقتا أفكر فيه.

قال الحطاب الصفيح:

- كان عندك وقت كاف فعلا.

وصاحت دوروثي:

- يجب أن تحفظ وعدك لنا..

خطر للأسد أن يطلق زئيرا هنا.. بالفعل زأر بصوت عال أفزع توتو وجعله يتوارى في الركن خلف ستار هناك.. لكن الستار

سقط. هنا شعر الجميع بدهشة..

إذ خلف الستار رأوا أنفسهم أمام شيخ مسن صغير الحجم أصلع الرأس مجعد الوجه. اندفع الحطاب ملوحا بالفأس نحو الشيخ وقال:

- من أنت؟..

قال الرجل الصغير وصوته يرتجف:

- أنا أوز العظيم المرعب... لكن لا تضربني من فضلك.. سوف أفعل ما تريدون..

نظر له أصدقاؤنا في دهشة وخيبة أمل. وسألت دوروثي:

- هل كنت تخدعنا؟.. ألست ساحرا عظيما؟...

قال:

- صه يا عزيزتي.. لا تتكلمي بصوت عال وإلا خربت بيتي.. الناس تفترض أنني ساحر عظيم.

سألته:

- وأنت لست كذلك؟..

- أنا مجرد شخص عادي.

صاح خيال الحقل:

- أنت أكثر من هذا.. أنت نصاب!..

قال الرجل الصغير وهو يفرك يديه:

- بالضبط.

قال الحطاب:

- لكن هذا فظيع.. كيف أحصل على قلب؟..

وسأل الأسد:

- وماذا عن الشجاعة؟..

ومسح خيال الحقل عينيه الدامعتين وقال:

- والمخ؟..

قال أوز:

- أعزائي لا تفكروا في هذا.. فكروا في مشكلتي أنا والخطر الذي أواجهه لو افتضح أمري..

سألته دوروثي:

- ألا يعرف أحد أنك نصاب؟..

- لا أحد سواكم.. وقد كان خطا شنيعا أن تركتكم تدخلون قاعة العرش بينما لا أسمح لأحد بأن يدخلها أبدا..

قالت دوروثي

- لكن لا أفهم.. كيف رأيتك أنا رأسا عملاقا؟..

قادها إلى غرفة صغيرة في مؤخرة العرش. وأشار إلى ركن قبع فيه رأس عملاق مصنوع من ورق.

قال أوز:

- أعلقه من السقف بخيط وأحرك العينين والفم وأنا مختف خلف الستار.

- وماذا عن الصوت؟..

- أنا أجيد فن الكلام من البطن..

ثم عرض عليهم الثوب والماكياج اللذين استخدمهما ليبدو كسيدة حسناء، أما عن الوحش فكان مجرد جلود مخيطة لبعضها.. كرة النار كانت كرة من قطن مشتعل تتدلى من السقف.

قال خيال الحقل:

- يجب أن تخجل من نفسك لأنك نصاب.

- أنا كذلك.. لكن لم يكن لديّ مناص.. اجلسوا من فضلكم وسأحكي قصتي..

ثم قال الساحر:

- ولدت في أوماها.. صاحت دوروثي:

- عجبا.. هذه قرب كنساس!..

هز رأسه وقال:

- عندما كبرت تعلمت الكلام من بطني.. ودربني أستاذ عظيم. بعد زمن صرت (طيار منطاد)!..

سألته دوروثي:

- وما هذا؟..

- الرجل الذي يركب المنطاد في يوم السيرك ويجمع الناس كي يدفعوا لرؤية السيرك..

- فهمت..

- ذات يوم صعدت في منطاد فالتفت الحبال حول بعضها فلم أستطع الهبوط.. علوت فوق السحب وحملتني الريح أميالا.. وفي الصباح وجدت المنطاد فوق بلد جميل غريب..

هبط ببطء ووجدت نفسي بين قوم رأوني أهبط من السحب، فحسبوني ساحرا عظيما.. وقد وعدوا بعمل أي شيء أطلبه.. طلبت منهم بناء هذه المدينة وقصري، ففعلوا هذا برضا. ووجدت أن البلد أخضر يانع فأطلقت عليه اسم بلد الزمرد وصنعت عوينات خضراء يلبسها الناس فيرون كل شيء أخضر. كنت كريما مع الناس وقد أحبوني لكني تواريت في هذا القصر عن العيون.

كنت أخاف الساحرات لأنني لم أكن أملك قوى سحرية. كن أربعا منهن ساحرتان شريرتان.. وكنت أخشى أن تدمراني لذا سررت عندما عرفت أن منزلك سقط فوق ساحرة الشرق، ثم أنك أذبت ساحرة الغرب الشريرة.. لكن يخجلني أني غير قادر على حفظ عهدي.. قالت دوروثي:

- أنت رجل شرير..

- لا يا عزيزتي.. أنا رجل طيب جدا لكني ساحر خائب.

سأله خيال الحقل:

- إذن لن يكون لي مخ؟..

- لست ساحرا لكن لو جئت صباح غد لحاولت ملء رأسك بمخ.. ربما تتعلم كيف تستعمله..

سأله الأسد:

* وشجاعتي؟..

قال الساحر:

- أنت شجاع فعلا.. فقط ثق بنفسك.. الشجاعة الحقيقية هي أن تواجه الأخطار وأنت خائف منها.. هذا النوع من الشجاعة لديك منه الكثير..

قال الأسد:

- ربما، لكني ما زلت جبانا.. أنا بحاجة للشجاعة التي تنسى المرء أنه خائف..

- سوف أمنحك هذه الشجاعة غدا.. سأله الحطاب:

- ماذا عن قلبي؟..

- أنت محظوظ لأنه لا قلب لك.. القلب يسبب تعاسة معظم الناس.

-لو منحتني قلبا فلسوف أتحمل التعاسة بلا شكوى..

- إذن تعال غدا لأمنحك قلبا...

سألته دوروثي:

- وأنا؟.. كيف أعود إلى كنساس؟

- سوف نفكر في هذا.. امنحيني يومين أو ثلاثة، وحتى ذلك الوقت سوف تقيمون في قصري ويخدمكم شعبي.. لكن بشرط ألا تخبروا أحدا يسرى..

وافق الأصدقاء على الصمت وعادوا لغرفهم.

حتى دوروثي كان عندها أمل أن النصاب العظيم سوف يعيدها إلى كانساس وعندها ستسامحه على كل شيء.

16- سحر النصاب العظيم.

في الصباح قال خيال الحقل لرفاقه:

- هنئوني.. سوف يمنحني أوز مخا ولسوف أصير كباقي البشر..

قالت دوروثي ببساطة:

- كنت دائما أحبك كما أنت..

- لطيف منك أن تحبي خيال حقل، لكنك ستحبينني أكثر عندما تسمعين الأفكار البديعة التي سأبتكرها..

وانطلق في مرح إلى غرفة العرش ودق على الباب.

جاء صوت الساحر:

- ادخل!..

دخل الغرفة فرأى الساحر يقف جوار النافذة غارقا في التفكير.

قال خيال الحقل في قلق:

- جئت من أجل مخي..

قال أوز:

- اه، نعم.. اجلس هنا.. أسف لأنني سأنزع رأسك.

- تحت أمرك.. انتزع رأسي ما دام سيصير أفضل عندما تعيده لمكانه.

نزع الساحر الرأس ثم ذهب للغرفة الخلفية حيث أخذ بعض نخالة الردة مخلوطة ببعض الإبر.. ثم ملأ رأس خيال الحقل بالخليط وأعاده إلى كتفيه وقال:

- لقد صرت رجلا جديدا.

سر خيال الحقل بتحقيق رغبته وشكر الساحر وعاد لرفاقه. نظرت له دوروثي في فضول.. كان رأسه متورما بالمخ.

فسألته:

- كيف تشعر؟..

قال في صدق:

- أشعر بالحكمة. سوف أعرف كل شيء.

قال الحطاب:

- سوف أذهب لأظفر بقلبي إذن.

ومشى لغرفة العرش ودق الباب.

قال الساحر:

- تعال...

دخل الحطاب الغرفة وقال:

- جئت من أجل القلب.

قال الساحر:

- جميل.. لكني سأصنع ثقبا في صدرك لأضع القلب في مكانه.

قال الحطاب:

- لا مشكلة.. لن أشعر بهذا..

أحضر الساحر مقص حداد وصنع فتحة في صدر الحطاب، ثم جلب قلبا جميلاً من الحرير وملأه بنشارة الخشب.

- هذا قلب طيب.

وأعاد قطعة الصفيح ولحمها بعناية. قال الحطاب:

- أشكرك بشدة.. لن أنسى ما قدمته لي ولا أهتم بهذه الرقعة في صدري.

عاد الحطاب للأصدقاء فهنأوه وتمنوا له حظا حسنا.

دخل الأسد إلى غرفة العرش فقال الساحر:

- هلم..

قال الأسد وهو يدخل الغرفة:

- جئت أطالب بالشجاعة....

قال الساهر:

- رائع.. سوف أجلبها لك..

تناول زجاجة خضراء كبيرة صب محتوياتها في طبق أخضر ووضعه أمام الأسد. لم يحب الأسد الرائحة لكن الساحر قال له:

- اشرب..

- ماذا في هذا السائل؟

- هذه هي الشجاعة.

تردد الأسد وفي النهاية أفرغ الطبق.

سأله السحر:

- كيف تشعر؟..

- مفعم بالشجاعة..

وعاد الأسد لرفاقه ليخبرهم بحظه الحسن.

قال الساحر لنفسه:

- هؤلاء القوم يرغمونني على عمل أشياء لا يمكن عملها، لذا لا حيلة لي سوى أن أظل نصابا.. لقد تخيل خيال الحقل والحطاب والأسد أنهم نالوا ما أرادوا.. لكن كيف أقنع الفتاة أنها عادت إلى كانساس؟..

17- كيف انطلق المنطاد.

لمدة ثلاثة أيام لم تسمع دوروثي أي شيء من الساحر وشعرت بتعاسة بالغة، كان الحطاب سعيدا بقلبه، وقال للفتاة إنه أفضل من أي قلب في العالم، بينما قال الأسد أنه لا يخاف أي شيء على الأرض.

كانت دوروثي مشتاقة للعودة إلى كنساس.

في اليوم الرابع طلبها أوز لغرفة العرش وقال لها:

- اجلسي يا عزيزتي.. لقد وجدت طريقة تخرجك من هنا.

- وأعود لكانساس؟..

- لست واثقا من ذلك لأني لا أعرف أين هي.. لكننا سنعبر الصحراء وسوف نجد طريقها..

سألته

- كيف أعبر الصحراء؟..

- أعتقد أن أفضل السبل هي الجو.. لا أستطيع عمل إعصار يطير بك لكن يمكنني عمل منطاد...

- كيف؟..

- المنطاد يتكون من قماش مغطي بصمغ ليبقى الغاز داخله. سيكون الأمر سهلا.. المشكلة هي في إيجاد الغاز ليطفو المنطاد.. من الممكن كذلك أن نملأه بهواء ساخن وهو ليس

بجودة الغاز لأنه يبرد فيهبط المنطاد.. وسوف نضيع في الصحراء

هتفت دوروثي:

- نحن؟.. هل تقول نحن؟...

- نعم.. تعبت من لعب دور النصاب.. سئمت من البقاء سجينا حتى لا يكتشف أحد أمري. سأعود إلى كانساس وأعمل في سيرك.

- يسرني أن أساعدك.

- سوف أخيط الحرير معك

قطع أوز الحرير في الشكل المناسب فتناولت إبرة وخيطا وراحت تحيك المنطاد.

اقتضى الأمر ثلاثة أيام من العمل.

بعد هذا طلا أوز المنطاد من الخارج بالصمغ وطلب سلة كبيرة تثبت فيه، ثم أعلن أنه جاهز. أخبر قومه أنه ذاهب لزيارة أخيه الذي يعيش في السحاب.

قطع الحطاب كومة خشب وأشعلها أمام القصر، ثم وضع أوز المنطاد قرب النار ليمتلئ بالهواء الساخن، ركب أوز المنطاد وصاح في قومه:

- أنا ذاهب في زيارة.. وأثناء رحيلي سيحكمكم خيال الحقل حتى أعود.. بدأ المنطاد يرتفع وصاح الساحر:

- تعالي يا دوروثي بسرعة..

بحثت عن كلبها الذي توارى وسط الزحام لينبح في أثر قطة، ثم وجدته فعادت..

هنا انقطعت الحبال وارتفع المنطاد في الهواء من دونها..

صرخت:

- عد.. أريد الذهاب معك!..

قال الساحر من السلة:

- لا أستطيع العودة يا صغيرة..

هنا صاح الجميع محيين الساحر:

- وداعا!..

وارتفع المنطاد أكثر فأكثر للسماء، وكانت هذه آخر مرة يرون فيها ساحر أوز الذي لابد أنه وصل أوماها الآن.

أحبه الناس وكانوا يقولون: إنه صديقنا.. بني لنا مدينة الزمرد وعندما رحل ترك لنا خيال الحقل الحكيم يحكمنا.

لكنهم افتقدوه بشدة.

18- نحو الجنوب..

بكت دوروثي كثيرا على ضياع فرصتها في ركوب المنطاد، وجاءها الحطاب ليقول:

- فعلاً أنا محزون لفقد الرجل الذي منحني قلبي.. أريد البكاء وأرجو أن تساعديني لو صدأت.. هكذا راح يبكي بينما هي تتأكد من تجفيف دموعه.

في اليوم التالي لرحيل الساحر اجتمع المسافرون في غرفة العرش لمناقشة الأمور. جلس خيال الحقل على العرش بينما أحاط به الباقون، قال لهم:

- حظنا لم يكن سيئا.. عندما أتذكر أنني منذ قريب كنت معلقا على عمود في حقل فلّاح، والآن أنا حاكم هذه المدينة، أشعر بأنني أنجزت الكثير. لو رضيت دوروثي بالحياة في مدينة الزمرد فلسوف نكون سعداء..

قالت دوروثي:

- لكني لا أريد الحياة هنا.. أريد العودة لكانساس..

راح خيال الحقل يفكر في عمق حتى أن الدبابيس خرجت من رأسه، ثم قال:

- لم لا تطلب القردة المجنحة لتحملك عبر الصحراء؟؟..

قالت دوروثي:

- كيف لم أفكر في هذا من قبل.. سوف أجلب الكاب حالا..

جلبت الكاب وقرأت الكلمات السحرية، وسرعان ما جاءت القردة المجنحة من النافذة.

وقال ملك القردة:

- للمرة الثانية تطلبيننا.. ماذا تريدين؟..

- أريد أن تحملوني إلى كانساس لكن القرد هز رأسه:

- مستحيل.. نحن ننتمي لهذا البلد ولا نستطيع تركه. يسرنا أن نخدمك بأي شكل لكننا لن نعبر الصحراء.. وداعا..

راحت تبكي في حرقة.. لقد أضاعت تعويذة بلا جدوي.

قال خيال الحقل:

- لنطلب الجندي الأخضر ونسأله النصح..

استدعوا الشرطي فجاء في احترام.. سأله خيال الحقل:

- هذه الطفلة تريد عبور الصحراء.. فهل تعرف كيف؟..

قال الجندي:

- لا أستطيع أن أعرف فما من أحد عبر هذه الصحراء سوى أوز..

- هل هناك من يساعدني؟..

- ريما جليندا

سأله خيال الحقل:

- ومن جليندا؟..

- ساحرة الجنوب.. هي أقوى الساحرات وقلعتها على حافة الصحراء.. لربما تعرف كيف العبور..

سألته الفتاة:

- هي ساحرة طيبة.. أليس كذلك؟..

- بلى.. ويقال إنها امرأة بارعة الجمال استطاعت أن تقاوم الزمن برغم ما عاشته من أعوام..

- كيف نبلغ قلعتها؟..

- الطريق يتجه للجنوب.. لكن يقال إنه خطر ومليء بالوحوش.

قال خيال الحقل:

- يبدو أنه برغم الأخطار فعلى دوروثي أن تسافر للجنوب وإلا فهي لن تعود إلى كانساس ثانية.

قال الأسد:

- أنا ذاهب مع دوروثي فقد سلمت هذه المدينة وأريد رؤية الغابات من جديد..

قال الحطاب:

- أنا ذاهب معكم.. فأسي سوف يكون في خدمتها..

قال خيال الحقل:

- متى نبدأ؟..

- هل أنت آت معنا؟..

- بالطبع... لولا دوروثي لما صار لي مخ.. هي حررتني من الحقل وصحبتني معها.. لن أتركها إلا عندما ترحل إلى كانساس.

قالت دوروثي:

- شكرا.. لكن أريد البدء حالا..

قال خيال الحقل:

- نبدأ غدا.. لنستعد الآن لأنها ستكون رحلة طويلة.

19- هجوم الأشجار..

في الصباح ودعت دوروثي الفتاة الجميلة. ثم اتجه الأصدقاء للبوابات.

قال الحارس على البوابة لخيال الحقل:

- أنت الآن حاكمنا.. لذا يجب أن تعود لنا بسرعة.

قال خيال الحقل:

- سأفعل هذا لو استطعت.. لكن عليّ أن أعين دوروثي..

واتجه الأصدقاء نحو أرض الجنوب وهم في حالة معنوية عالية. راح الأسد يطوح ذيله يمينا ويسارا وقد سره أن شعر بأنه في الريف ثانية.. وراح توتو يطارد الفراش..

قال الأسد:

- حياة المدن لا تناسبني.. لقد فقدت الكثير من وزني وصار عليّ أن أُري الوحوش قدر شجاعتي.

قال الحطاب الفصيح وهو يتحسس قلبه:

- أوز لم يكن رجلاً سيئا برغم كل شيء.

قال خيال الحقل:

- لقد أعطاني مخا. وأي مخ!..

لكن دوروثي ظلت صامتة.. لقد حاول أوز جاهدا أن يفي بوعده لها، لم يكن شخصا سيئا برغم أنه ساحر ضعيف. في

تلك الليلة نام الرفاق على العشب ولا شيء فوقهم سوى النجوم، وكانت ليلة مريحة فعلا.

في الصباح بلغوا غابة مترامية تمتد لأقصى اليمين واليسار، لذا اضطروا للسير عبرها.. كان من الخطر أن يدوروا حولها حتى لا يضلوا الطريق، وجد خيال الحقل شجرة مترامية الأغصان تسمح بمرورهم من تحتها..

هنا التفت الأغصان حوله ورفعته عن الأرض فطار..

لم يتأذ خيال الحقل لكنه اندهش جدا.. وعندما أمسكت به دوروثي بدا دائخا، قال الأسد:

- هنا فرجة أخرى بين الأشجار....

- دعني أجرب أولاً لأن رمي بعيدا لا يؤذيني..

ودنا خيال الحقل من الشجرة فأمسكت به الأغصان وألقت به بعيدا.

هتفت دوروثي:

- هذا غريب.. ماذا نفعل؟..

قال الأسد:

- الأشجار مصممة على تعطيل رحلتنا..

تقدم الحطاب من إحدى الأشجار ورفع الفأس.. عندما حاول الغصن أن يمسك به قطعه بشراسة. بدأت الشجرة تهتز في ألم واستطاع الحطاب أن يعبر من تحتها.

هرع الجميع منحنين يلحقون به. كلهم مروا ما عدا توتو أمسك به غصن صغير وراح يهزه. لكن الحطاب قطع الغصن بسرعة وحرر الكلب.

خطر للرفاق أن الأشجار المتحركة هي التي توجد عند مدخل الغابة، وتؤدي دور رجال الشرطة.. مشى الرفاق عبر الغابة حتى بلغوا طرفها الآخر، أمامهم كان جدار عال بدا كأنه من الخزف الأبيض. كان ناعما كطبق وأعلى من رءوسهم.

سألت دوروثي:

- ماذا نفعل الآن؟..

قال الحطاب:

- سأصنع سلما لأننا سنتسلق فوق الجدار..

20- بلد الصيني.

بينما كان الحطاب يصنع سلما نامت دوروثي لأن المشي أتعبها. راقب خيال الحقل الحطاب وهو يعمل وقال:

- لا أفهم سبب وجود هذا السور هنا.. ولا أعرف مما صنع.

قال الحطاب:

- أرح مخك.. سوف نعرف إذا تسلقناه..

اكتمل السلم، وبدا مظهره سخيفا لكنه كان يفي بالغرض.

أيقظ خيال الحقل دوروثي وأخبرها أن السلم اكتمل، بدأ خيال الحقل بالتسلق فلما بلغ القمة هتف في دهشة:

- رباه!..

وجلس على قمة الجدار وكذا تسلقت دوروثي للقمة ثم هتفت كما فعل، جاء دور توتو فراح ينبح. تسلق الأسد ثم الحطاب.

جلس الأربعة على الجدار، وقد ترامى أمامهم قطر ممتد له أرض ناعمة بيضاء كأنها سطح طبق، بيوت من الخزف الصيني ملونة بألوان براقة، كانت هناك أبقار وخراف تقف أمام البيوت وكلها من خزف، والأغرب كان الناس الذين يعيشون هنا. رعاة وحالبات أبقار وأميرات في ثياب ساحرة، وأمراء يضعون تيجان مذهبة على الرءوس.. الأغرب هو أن هؤلاء القوم كانوا من الخزف جميعا وكلهم كانوا صغيري الحجم حتى أن أصغرهم لم يتجاوز ارتفاع ركبة دوروثي.

لم يهتم أحد بالمسافرين اللهم إلا من كلب صغير جاء ينبح في اتجاههم ثم فر مبتعدا.

سألت دوروثي:

- كيف سنهبط؟...

كان السلم ثقيلا.. لذا وثب خيال الحقل من على الجدار ثم وثب الباقون فوقه. ثم أنهم واصلوا المشي بين الناس الخزفيين.

مروا بفلاحة من خزف تحلب بقرة خزفية.. فجأة ثارت البقرة وضربت المقعد والدلو والفتاة نفسها. ثم سقطت البقرة على الأرض وأثار ذعر دوروثي أن البقرة سقطت وقد تهشمت ساقها. وتهشم ساعد الفلاحة المسكينة.

صلحت الفلاحة مغضبة:

- هل ترون ما فعلتم؟.. البقرة كسرت رجلها وعليّ أن أخذها للمتجر لألصقها بالصمغ.. لماذا تخيفون أبقاري؟..

قالت دوروثي:

- أنا آسفة فعلا وأرجو أن تغفري لي..

لكن الفلاحة أخذت البقرة والرجل وابتعدت، وإن صوبت عليهم من فوق كتفها بضع نظرات مغتاظة.

قال الحطاب الطيب:

- علينا أن نحترس هنا..

كانت هناك أميرة من الصيني فرت ذعرا لمّا رأتهم. حاولت دوروثي اللحاق بها لكنها قالت لها:

- لا تجرى ورائي لأنني لو جريت لسقطت أرضا وتهشمت.

- يمكنك لصق نفسك.

- هذا ممكن.. لكن من الصعب أن يعود المرء جميلاً بعد لصقه.. هذا هو مستر مهرج.. يقوم بألعاب بهلوانية دوما وقد تهشم عدة مرات. لهذا لم يعد جميلا..

ظهر مهرج لطيف يلبس ثيابا جميلة، لكن من الواضح أنه مليء بالشروخ.

وضع المهرج يده في جيبه وهز رأسه وقال:

- سيدتي الساحرة..

لماذا تحملقين..

في المهرج المسكين؟..

قالت الأميرة:

- كن هادئا.. ألا ترى أن هؤلاء غرباء وعليك أن تعاملهم باحترام؟..

وقف المهرج على رأسه وقال:

- وهذا هو الاحترام..

قالت دوروثي للأميرة:

- أنت جميلة جدا.. يمكن أن أعاملك كشيء نفيس.. آخذك لخالتي.. سوف تضعك في مكان متميز على رف الموقد.

قالت الأميرة:

- هذا سيجعلني تعسة.. هنا نتحرك ونتكلم كما نريد لكن عندما نوضع على الأرفف نتخشب.. لا يعود بوسعنا عمل أي شيء سوى أن نبدو جميلين....

تبادلت الفتاتان عبارات الوداع.. ثم واصل الأصدقاء رحلتهم. بعد ساعة بلغوا الجهة الأخرى من البلد حيث جدار آخر من خزف، لم يكن عاليا مثل الأول واستطاعوا تسلقه بالصعود على ظهر الأسد. ثم وثب الأسد.. لكن في قفزته هشم كنيسة من الصيني..

قالت دوروثي:

- هذا سيئ.. لكن من حسن حظنا أننا لم نسبب لهؤلاء القوم الهشين ضررا أكثر من تهشيم ساق بقرة وكنيسة قال خيال الحقل:

- أنا سعيد لأنني من قش.. هكذا لا يقدر أحد أن يؤذيني. هناك أشياء في العالم أسوأ من أن تكون خيال حقل..

21- الأسد يصير ملك الوحوش.

وجد المسافرون أنفسهم في بلد غير مريح تملؤه المستنقعات والبرك والعشب. كان المشي عسيرا دون الوقوع في الحفر لأن العشب كان يداريها. في النهاية وصلوا إلى أرض صلبة. في النهاية بلغوا غابة أشجارها أكبر وأقدم.

قال الأسد:

- هذه غابة جميلة.. لم أر قط مكانا بهذا الجمال..

قال خيال الحقل:

- بل يبدو كئيبا..

- البتة... أي حيوان بري يتمنى مكانا كهذا يعيش فيه باقي حياته..

مشوا في الغابة حتى أرهقوا فنامت دوروثي والأسد وتوتو بينما بقي الحطاب وخيال الحقل للحراسة كالعادة، في الصباح سمعوا ضوضاء حيوانات. وفجأة بلغوا فتحة في الغابة بها حيوانات لا حصر لها من كل الأنواع.. هناك نمور وأفيال وذئاب ودببة.. شعرت دوروثي بالذعر. لكن الأسد شرح لها أن الحيوانات في اجتماع.

سمعته الحيوانات فساد الصمت وجاء أكبر النمور نحوه وقال:

- مرحبا بسيد الوحوش وملكها. قد جئت في الوقت المناسب لتقهر عدونا وتعيد لنا السلام..

سأله الأسد:

- ما خطبكم؟..

- هناك وحش عملاق جاء الغابة مؤخرا.. يشبه العنكبوت العملاق.. يزحف في الغابة ويمسك بأي حيوان يراه ويلتهمه كما يفعل العنكبوت بالذبابة. لقد اجتمعنا لنعرف ما علينا عمله مع هذا الكائن.

فكر الأسد للحظات ثم سأل:

- هل من أسود أخرى في الغابة؟..

- لا.. كانت هناك أسود قليلة لكنه أكلها، ولم تكن ضخمة مثلك..

- لو خلصتكم منه.. فهل تقبلونني ملك الغابة؟..

هتف النمر وكل الحيوانات:

- بالتأكيد..

- وأين ذلك العنكبوت الآن؟..

- هناك بين أشجار البلوط..

قال الأسد:

- اعتنوا برفاقي ولسوف أذهب لقتال الوحش..

كان العنكبوت نائما عندما وجده الأسد.. بدا قبيحا جدا وكانت أرجله طويلة جدا وجسمه مغطى بشعر خشن أسود. كان رأسه يتصل بجسده بعنق رفيع كخصر الدبور. هنا وجد الأسد

فكرة لمهاجمة العنكبوت.. وثب وشب وثبة عظيمة ونزل على عنق العنكبوت

ثم بمخلبه قطع عنق الوحش ووثب مبتعدا حتى كفت الأقدام عن الركل..

عاد الأسد للوحوش وقال بفخر:

- لا تخافوا عدوكم ثانية.

انحنت الوحوش للأسد ووعدهم أن يعود ليحكمهم بمجرد أن تصل دوروثي إلى كانساس.

22- بلد الكوادلينج

عبر المسافرون باقي الغابة في سلام، حتى بلغوا منحدرا عظيما غطي بصخور ضخمة.

قال خيال الحقل:

- سيكون التسلق صعبا.. لكن علينا الصعود..

اقتاد الطريق ومشوا معه. هنا سمعوا صوتا يقول:

- تراجعوا!.. هنا ظهر رأس من فوق التل وقال نفس الصوت:

- هذا التل لنا.. لا نسمح لأحد بعبوره..

قال خيال الحقل:

- يجب أن نصعد.. علينا أن نصل لبلد الكوادلينج.

- لن تفعوا!..

ومن وراء صخرة ظهر أغرب رجل رأوه في حياتهم، كان له رأس عملاق مسطح يتصل بعنق مجعد إلى جسده. لم يكن له ذراعان..

قال خيال الحقل:

- آسف جدا.. لكن علينا أن نعبر ونصعد التل.... هنا تمدد الرأس بسرعة البرق وضرب خيال الحقل في صدره فسقط أرضا من فوق التل.. وسرعان ما عاد الرأس لمكانه وقال الرجل ضاحكا:

- الأمر ليس سهلا كما تحسب.. هنا رأت دوروثي أعدادا كبيرة من هؤلاء الرجال ذوي رءوس المطرقة. غضب الأسد من الضحك الذي تعالى بسبب سقوط خيال الحقل واندفع وهو يزأر نحو هؤلاء. من جديد وثب رأس فسقط الأسد ممن فوق التل..

جرت دوروثي لأسفل وساعدت خيال الحقل ثم جاء الأسد مليئا بالكدمات.. وقال:

- محاربة هؤلاء مستحيلة.. لا أحد يستطيع.

سألته:

- ماذا نعمل؟..

قال الحطاب:

- اطلبي القردة المجنحة.. ما زال عندك طلب..

قالت:

- نعم..

ووضعت الكاب الذهبي.. جاءت القردة بسرعة ووقفوا أمامها.

سألها ملك القردة:

- ما هي أو أمرك؟..

- أحملونا إلى بلد الكوادلينج..

قال الملك:

- لك هذا..

وسرعان ما حملت القردة مسافرينا وتوتو وطارت بهم. طاروا فوق الرءوس المطرقة لكنها لم تستطع المساس بهم. وسرعان ما هبطوا في بلد الكوادلينج الجميل.

قال القائد لـ (دوروثي):

- هذه آخر مرة يمكنك طلبنا.. وداعا وحظا سعيدا

بدا بلد الكوادلينج ثريا جميلاً.. كل شيء كان مطليا بلون أحمر جميل. كان الكوادلينج قصيري القامة مكتنزين مرحين نزل أصدقاؤنا قرب مزرعة فمشوا ودقوا على الباب.

فتحت لهم زوجة الفلاح فطلبت دوروثي شيئا يؤكل. قدمت لهم المرأة عشاء ممتازا مع كعك وسلطانية لبن للكلب.

سألتها دوروثي:

- كم تبعد قلعة جليندا؟..

- ليست بعيدة جدا.

واصل الأصدقاء المشي حتى بلغوا قلعة جميلة. أمامها كانت ثلاث فتيات حسناوات يلبسن الأحمر وقالت إحداهن لدوروثي:

- لم جئت للجنوب؟..

- لأرى الساحرة الطيبة، هلا أخذتني لها؟..

- هاتي اسمك وسوف أسأل جليندا إن كانت ستقابلك.... بعد قليل عادت وقالت إن دوروثي ورفاقها سيدخلون فورا..

23- جليندا تحقق رغبة دوروثي

قبل لقاء الساحرة اقتادوهم لغرفة غسلت فيها دوروثي وجهها ومشطت شعرها، كذا قام خيال الحقل بتنفيض نفسه ولمع الحطاب الصفيح.

اقتادهم الحراس لجليندا وعرش العقيق الأحمر.

كانت جميلة وشابة وكان شعرها أحمر تماما، أما عيناها فكانتا زرقاوين تنظران برقه لدوروثي.

حكت لها دوروثي مغامرتها وكيف هي راغبة في العودة للخالة إم. انحنت جليندا تلثمها وقالت لها:

- بورك قلبك الطيب بالتأكيد أعرف كيف أعيدك لكانساس.. لكن يجب أن تعطيني الكاب الذهبي..

قالت دوروثي:

- بالتأكيد.. هو بلا أهمية لي الآن....

سألت الساحرة خيال الحقل:

- ماذا ستفعله عندما ترحل دوروثي؟..

قال:

- سأعود لمدينة الزمرد.. سأكون الحاكم هناك.. فقط . لا أعرف كيف أعبر جبل الرءوس المطرقة..

- سآمر القردة المجنحة بذلك.

واستدارت للرجل الصفيح وسألته:

- ماذا ستفعل عندما تفارق دوروثي البلاد؟..

انحنى على فأسه وقال:

- الونكيز كانوا لطفاء معي وطلبوا أن أحكمهم بعد موت ساحرتهم.. لو عدت لبلدهم لظللت هنالك.

- هذا طلبي الثاني من القردة.

ثم استدارت تسأل الأسد بدوره عما سيفعله فقال:

- هناك غابة جميلة جعلتني حيواناتها ملكا.. لو عدت لهذه الحيوانات لأمضيت عمري في سعادة..

قالت جليندا:

- هذا طلبي الثالث.. وبعدها سأعيد الكاب لملك القردة ليظل حرا هو وعشيرته..

قالت دوروثي:

- أنت بالتأكيد طيبة بنفس قدر جمالك.. لكن لم أعرف بعد كيف أعود لكانساس....

قالت جليندا:

- حذاؤك الفضي سيحلق بك فوق الصحراء.. لو عرفت قوته لعدت لخالتك منذ أول يوم. لهذا الحذاء قوة غريبة هي أنه قادر على حملك لأي مكان في العالم في 3 خطوات.. فقط دقي الكعبين معا 3 مرات ومُري الحذاء بالذهاب حيث تريدين.. تحمست الفتاة.. عانقت الأسد وربتت على رأسه.. ثم قبلت

الرجل الصفيح.. احتضنت خيال الحقل ثم فطنت إلى أنها تبكي بحرقة..

احتضنت توتو إلى صدرها ودقت كعبيها 3 مرات ثم قالت:

- خذني إلى خالتي إم..

على الفور راحت تحلق في الهواء.. وراحت الريح تعصف جوار أذنيها..

سقطت على العشب فأدركت أين هي.

- يا إلهى الرحيم!..

كان أمامها البيت الجديد في كانساس الذي بناه عمها.. وكان العم يحلب الأبقار فوثب توتو من بين ذراعيها وركض نحوه. وأدركت أنها حافية القدمين لأن الحذاء الفضي طار من قدمها وضاع في الصحراء. رأت الخالة دوروثي قادمة فصاحت:

- عزيزتي!..

واحتضنتها وغطت وجهها بالقبلات.

- من أين جئت؟..

- من أرض أوز.. وأنا سعيدة جدا لأنني عدت من جديد...

تمت بحمد الله

فرانك باوم 1900

ساحر أوز

في العام 1900 قدم فرانك باوم الكتاب الذي سيخلد اسمه (ساحر أوز المدهش)، للأبد دخلت ذاكرة العالم الصورة البصرية الجميلة للفتاة دوروثي تمشي في طريق الطوب الأصفر مع أسد جبان ورجل صفيح بلا قلب وخيال حقل بلا مخ... هذه صورة لها نفس قوة صورة سندريلا وهي تجرى على درجات السلم مذعورة، أو الأميرة النائمة والأمير يلثمها.. في هذا النوع من القصص يذيب أدب الأطفال الحاجز ما بين الطفل والبالغ، ليقترب من عوالم الشعر...


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

20- بلد الصيني.

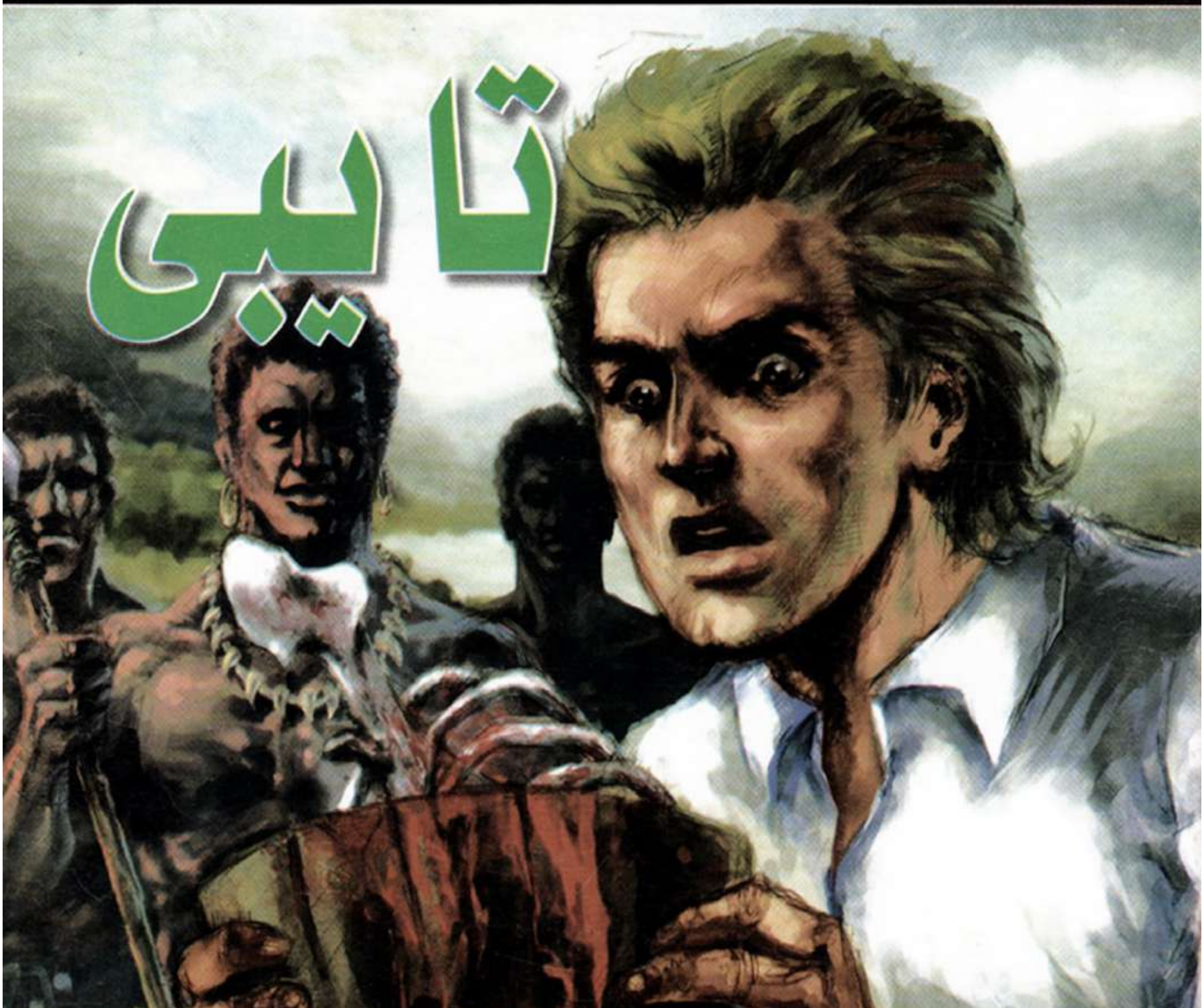
21- الأسد يصير ملك الوحوش.

22- بلد الكوادلينج

23- جليندا تحقق رغبة دوروثي

روايات عالمية للجيب 78

تايبى



تأليـــــف : هيرمـــان ملفيـــل

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (78)

تايبي

تأليف: هيرمان ملفيل

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هيرمان ملفيل أديب أمريكي ارتبط اسمه بالبحر، وبصفة خاصة بقصته الأشهر (موبي ديك MOBY.DICK) التي صدرت عام 1851، والتي قيل أنها أعظم رواية في الأدب الأمريكي على الإطلاق، وقد ترجمناها في هذه السلسلة في العدد 52، وإن اضطررنا لتلخيصها بعنف لأنها بالغة الطول..

الحقيقة أن هناك ثلاثة كتاب أمريكيين ارتبطوا بالبحر بشدة: الأول هو (ملفيل Herman Melville) والثاني هو (هيمنجواى Hemingway) صاحب (العجوز والبحر) الغنية عن أي تعريف، والثالث هو (بيتر بنشليBenchley) الذي ارتبط اسمه بقصص (الأعماق) و(فكان) و(الجزيرة)([1]).. الحقيقة أن الثالث توغل في البحر فعلاً، وبلل قدميه فعلًا. ربما أكثر من أي كاتب آخر، لكنه كما نعلم اكتفى بالمغامرة المثيرة في حد ذاتها.. بينما اهتم (هيمنجواى) و(ملفيل) بالنفس البشرية.. لقد ذهبا إلى البحر ليغوصا في نفوس أبطالهما..

لم يلق الكتاب – (موبى ديگ) . نجاحًا إلا بعد ثلاثين عامًا من صدوره، إلا أن القصة الأخرى الشهيرة لملفيل، والتي كان اسمها (تايبي ـ 1846) لاقت نجاحًا كبيرًا وقت صدورها.

ولد (ملفيل) عام 1819 في مدينة (نيويورك) لأسرة من التجار. أفلس والده وجن ومات كل هذا بينما كان (ملفيل) الصغير في سن الثانية عشرة. وقد أصابته الحمى القرمزية فسببت ضعفًا دائمًا في بصره، تنقل (ملفيل) في عدة وظائف لكن نهمه للقراءة لم يتوقف قط. التحق بالبحرية الأمريكية

وجاب العالم بهذه الطريقة. وقد تعرف أكلة لحوم البشر المعروفين باسم (تايى Typee) أثناء عمله في جزر (ماركيساس)، وعنهم كتب رواية شهيرة جدًّا هي التي نقابلها اليوم.

صدرت روايته (تايي) في بريطانيا أولاً، ونالت قسطًا لا بأس به من النجاح، ولكنها كالعادة ملخصة هنا بشكل لم أجسر عليه من قبل إلا في رواية (موبي ديك). بهذا أنت تذوق ملفيل لكنك لم تشربه، ولكن تقديمه حرفيًّا عملية مرهقة للقارئ فعلاً، ولن يصبر معظم القراء على قراءة رواية بهذا الطول المفرط والاستطراد الذي لا ينتهي. بعد هذا أصدر كتابه الثاني (أوموو . 1847) عن تجاربه في جزر (بولينيزيا). وعامة كان نجاح (ملفيل) في بريطانيا أكبر من نجاحه في وطنه.

عام 1847 تزوج وابتاع مزرعة في (ماساتشوتستس) أطلق عليها اسم (رأس السهم) ليكون جار الأديب الأمريكي العظيم (ناتانييل هوثورن Hawthorne)، وإلى حد ما يراهما دارسو الأدب الأمريكي ثنائيًّا متقارب الأفكار والميول.

إلا أن قصص (ملفيل) التالية لم تلق نجاحًا، وبدأت حالته المادية والصحية تتدهور.. ولم تتحسن أحواله المالية إلا حين وجد عملاً كمفتش في الجمارك في (نيويورك). وتوفى عام 1891 فلم يلحظ أحد وفاته. اليوم اختلف الأمر تمامًا وصار كل دارس للغة الإنجليزية في العالم يعرف جيدًا قدر هذا الكاتب العظيم، ومزرعته (رأس السهم) صارت متحفًا.

المهتمون بالاستزادة أو قراءة أعمال هذا الأديب بلغتها الأصلية يمكنهم البدء بهذا الموقع؛ فهو يحوي كل شيء تقريبا:

www.melville.org

أهم أعمال ملفيل:

- تايبي 1846

.أومو 1847

- الرحلة الأولى لردبيرن 1849

- السترة البيضاء 1850

- موبي ديك (أو الحوت) 1851

- الكاتب العمومي بارتلبي 1853

- خزاف إسرائيل 1855

د. أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

مرت ثلاث سنوات على الأحداث التي سجلناها في هذا الكتاب. الفترة كلها . باستثناء الأشهر القليلة الأخيرة . قد أمضاها المؤلف ضائعًا في المحيط الممتد. إن البحارة هم الوحيدون اليوم الذين يعيشون مغامرات حية، ويرون أشياء تبدو للجالسين في بيوتهم جوار النار غريبة رومانسية. لكن ما نحكيه في هذا الكتاب قد أثار تعاطف رفاق البحر الذين كانوا مع المؤلف. وقد خطر له لهذا السبب أن قصته لن تفشل غالبًا في جذب اهتمام من هم أقل اعتيادًا على حياة البحر ومغامراته.

سوف نلاحظ أنه يتكلم عن الناس المتفردين المثيرين للاهتمام الذين وجد نفسه بينهم، وسوف نلاحظ أنه لا يناقش كثيرًا أهدافهم وأصولهم، لأن كتاب الرحلات وسط المجتمعات الهمجية يتعمقون جدًّا في هذه النقاط.

إن المؤلف يدرك نقائص عمله أكثر من أي واحد آخر. لكن لو فهمنا الظروف الخاصة التي كان فيها فلسوف نغفر له نقاط النقص هذه.

في القصص المنشورة يكون هناك اهتمام بالتواريخ، لكن المؤلف لا يستطيع تذكر أيام الأسبوع التي دارت فيها الأحداث. ويأمل أن يتجاهل القارئ هذه التفاصيل.

حاولت أن أستخدم طريقة هجائية سهلة لنقل الكلمات البولينيزية إلى القارئ. وهذا عيب أساسي في الأدب الذي يسرد عبارات من لغة المحيط الهادي.

هناك حقائق سوف يتم سردها، وهناك استنتاجات سوف يتم استنباطها ولا يمكن تفاديها. وهناك درجة من الاستطراد لابد أن تحدث، خاصة فيما يتعلق برأي العالم الغربي في جزر الماركيز الذي تنامي مؤخرًا.

هناك أشياء في القصة ستبدو غريبة وغير مفهومة بالنسبة للقارئ، وهي قد بدت كذلك بالنسبة للكاتب أثناء المغامرة. وهو يترك لكل واحد أن يكون رأيه الخاص بصددها، وهو واثق من أن صدقه وصراحته سوف يجلبان له ثقة القارئ.

1846

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

ستة أشهر في البحر!... نعم أيها القارئ.. ستة أشهر وأنا بعيد عن الأرض.. أبحر وراء حيتان العنبر تحت شمس خط الاستواء الحارقة.. فوق السماء وتحتي البحر ولا شيء سوى هذا!

منذ أسابيع نفد ما لدينا من مؤن، ولم تبق حبة بطاطا واحدة.. لقد زال ما لدينا من (يام) واختفت سباط الموز التي كانت تزين مقدمة السفينة. رحل البرتقال الجميل فلم يبق لدينا سوى بسكويت البحر واللحم المقدد. ماذا لديكم لتقولوه يا من تتعبون من رحلة 14 يومًا عبر الأطلنطي، ويا من تلتهمون ثلاث وجبات، وتجلسون في قمرات مريحة من خشب الماهوجني، وتشربون الشامبانيا وتنامون عشر ساعات وتثرثرون.. ماذا تقولون عن رحلتنا التي طالت ستة أشهر؟

لكم اشتقنا للمحة من العشب. لشمة من عبير الأرض الطينية.. أما من شيء طازج من حولنا؟.. أما من شيء أخضر؟ حتى الخضرة المتعلقة بالأخشاب التي نستعملها كوقود قد التهمها خنزير القبطان. وكان هذا منذ زمن بعيد لأن الخنزير نفسه قد تم التهامه. لم يبق لدينا سوى ديك واحد أضناه فقدان الرفاق واحدًا تلو آخر.. واشمأز من القمح العفن والماء الراكد.. لكن الطباخ أخبرني أن مصير الديك البائس قد تحدد.. سوف تنتهي حياته على مائدة القبطان وسوف تدفن عظامه تحت تلك السترة..

لم يكن فينا شخص قاس لدرجة أن يحب رؤية رأس الديك التعس يطير.. لكن البحارة تمنوا أن يلقى نهايته، والسبب هو أنهم يؤمنون أن القبطان لن يعود لليابسة ما دام هناك لحم طازج على السفينة. أنا آسف أيها الديك بدرو.. لكن طالما أنت السبيل لانتهاء آلامنا فأنا أتمنى أن يذبحوك حالاً.. لأنني أتمنى رؤية الأرض من جديد..

يا للسفينة العجوز البائسة!

منظرها يدل على ما تريده.. الطلاء على جوانبها حرقته القشريات التي أحاطت بالمقدمة. وكلما ارتفعت مع الموج ترى النحاس الذي تفكك أو تداعي..

يا للسفينة العجوز البائسة!

لستة أشهر لم تكف عن الحركة أو ترتح. لكن اصبري أيتها الفتاة العجوز.. فأنا أتوق لأن أراك قرب الأرض السعيدة، وتضعين مرساتكِ عند خليج أخضر، وتبتعدين عن الريح العاصفة.

مرحى يا شباب!... لقد تقرر الأمر. الأسبوع القادم سوف نتجه لجزر الماركيز.. كم من أشياء تفوق الخيال يوحي بها هذا الاسم. الفتيات الحسناوات. مآدب أكلة لحم البشر.. حقول جوز الهند.. شعاب مرجانية.. زعماء موشومين.. ووديان تغطيها أشجار الخبز.. أصنام مخيفة عملاقة.. الطقوس الوثنية والضحايا البشرية..

هكذا كنت أفكر ونحن نتجه إلى الأرض..

كنت أشعر بفضول شديد لأرى تلك الأرض التي وصفها قدماء البحارة. كانت الأرض التي ندنو منها مليئة بأسرار غامضة وعادات بربرية، (برغم أنها من أوائل الاكتشافات الأوروبية في البحار الجنوبية، وقد زاروها أول مرة عام 1595). في طريق سفينة مندانا التي كانت تبحث عن مورد للذهب، ظهرت هذه الجزر كأنها قطعة من سحر. وحسب البحارة الأسبان أن أحلامهم تحققت. وبما أن الحملة كانت برعاية الماركيز دي مندوزا حاكم بيرو، فقد أطلق على الجزر اسم جزر الماركيز.

منذ ذلك التاريخ ظلت الجزر لغزًا.. فقط كل خمسين عامًا يأتي مغامر ليعتدي على هذا الهدوء، ويقاوم إغراء أن يزعم أن هذا اكتشاف جديد.

حتى كابتن كوك في جولاته الواسعة، لم يمس هذه السواحل.. وكل ما نعرفه عنها قليل جدًّا.

في الأعوام الماضية انغمست سفن أمريكية وبريطانية في صيد الحيتان بالمحيط الهادي، وبعضها رسا قرب هذه السواحل، لكن ركابها كانوا يخشون التعرض لسوء المصير إذا نزلوا إلى الأرض.. وكان القباطنة يمنعون بحارتهم من الاندماج مع الوطنيين بما يسمح بمعرفة عاداتهم.

يبدو أن البعثات البروستانتية يئست من انتزاع سكان هذه الجزر من الوثنية.

قبل زيارتي لجزر الماركيز بوقت قصير حدث شيء طريف يتعلق بهذه الجهود.

كان هناك إرسالي شجاع لم تفت في عضده قصص فشل المحاولات السابقة في استمالة المتوحشين، وكان يؤمن بقدرة التأثير الأنثوى. لذا قدم لهؤلاء القوم زوجته الحسناء الشابة وهي أول امرأة بيضاء تزور سواحلهم.

راح الوطنيون ينظرون في دهشة إلى هذه المعجزة وكادوا يعتبرونها إلهًا جديدًا. بعد فترة اعتادوا وجودها. وكان فضولهم قويًا لدرجة أنهم تطاولوا على السيدة بما يتجاوز حدود اللياقة ومزقوا أجزاء من ثيابها.

لما تيقنوا من جنسها لم تعد مقدسة بالنسبة لهم، وصار تقديسهم لها احتقارًا.. فقد شعروا بأنهم خدعوا. جردوها من الثياب تمامًا لتتعلم أنها لا يمكن أن تستمر في خداعها بلا عقاب.

لم تكن المرأة البائسة إنجيلية إلى حد تحمل هذا.. وأرغمت زوجها على التخلي عن مهمته وعلى أن يعودا إلى تاهيتى.

لكن ملكة الجزيرة نفسها لم تكن تخشى أن تعرض مفاتنها.. أنها زوجة مووانا ملك نوكوهيفا.

سيطر الفرنسيون على هذه الجزر بعض الوقت، وقد حسبوا طرقهم فعالة. ذات مرة من أجل النظام ذبحوا مئة وخمسين من الوطنيين في ويتهوو..

في عصر يوم مشرق جاء قارب مزخرف بشكل زائد نحو سفينتنا، وعلى ظهره كان مووانا ومعه رجاله، وقد رحبنا به كما يجدر باستقبال الملوك... فأطلقنا المدافع وأحدثنا صخبًا.

هبط الضيوف على السلم فحياهم الكومودور وقد نزع قبعته. كان الفرنسيون يراقبون من سفنهم هذا المشهد ويضحكون مستمتعين بالموقف. كان جلالة الملك يلبس ثيابًا عسكرية مبهرة مطرزة بالذهب.. على رأسه تاج عملاق. يلوح بريش نعام. لكن عاب منظره بقعة من الوشم فوق وجهه على نفس خط عينيه كأنه يلبس نظارة عملاقة، وأثار هذا بعض مشاعر السخرية. لكن أغرب منظر كان منظر زوجته التي كانت تلبس قطعة مبهرجة لونها بنفسجي مخيطة بالحرير الأصفر.. والثوب قصير جدًّا يكشف قدميها الحافيتين والوشم على ساقيها، وعلى رأسها عمامة بنفسجية مزدانة بالريش.

تدافع البحارة ليروا المشهد فلفتوا نظرها. رأت بين البحارة رجلاً مسنًّا يكسو الوشم جسده كأنه غطاء تابوت فرعوني. وبرغم من تعليقات الضباط الفرنسيين فقد دنت من الرجل وفتحت صدر قميصه وراحت تتأمل بانبهار الوشم الأزرق والقرمزي الذي يكسو جلده. وراحت تبدى إعجابها عن طريق أصوات وإشارات.

كان الفرنسيون في دهشة وخجل من هذا السلوك الذي لم يتوقعه أحد، لكن السيدة تمادت أكثر.. فقد رفعت عباءتها كاشفة عن منظر جعل الفرنسيين المذعورين يتراجعون بسرعة.. وسرعان ما ركبوا قواربهم فارين من هذه الكارثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

لن أنسى الـ 18 يومًا أو العشرين التي راحت فيها الريح التجارية تدفعنا نحو الجزر. كنا نبحث عن الحيتان، ثم صارت مهمتنا أن نترك السفينة تمضي مع الريح وهكذا قامت بالباقي. ولم يحرك المسئول عن الدفة شيئًا بل وضع يده عليها فقط.. وكان ينام ساعات كاملة. وقامت السفينة بمهمتها كهؤلاء الأشخاص الذين يجيدون عملهم عندما تتركهم وشأنهم.

يا له من وقت هادئ خامل قضيناه ونحن ننزلق. كنا نرقد عند مقدمة المركب وهناك (تندة) فوق رءوسنا وجلسنا وأكلنا هناك. بدا كأننا تحت تأثير منوم.. القراءة لم تكن واردة لأنك ما أن تمسك بكتاب حتى تنام خلال ثانية.

من بعيد ترى الحيتان سابحة، وأسماك القرش تنظر لنا بعيون حاقدة.. لكن أهم شيء يلفت نظرك هو الصمت القوى.. ما من صوت يخرقه على الإطلاق..

إذ دنونا من الجزيرة هللت لما رأيت حشودًا من طيور البحر. كانت تصرخ وتحلق في دوائر حول السفينة. كان هذا الطائر يسمى (صقر البوارج) يدنو منا حتى يمكنك أن ترى عينيه. ثم يحلق في الهواء قانعًا بما رآه.

بحث القبطان عن نظارته المقربة، وأخرج الطباخ الزنجي رأسه المشعث من مطبخ السفينة، وراح كلب السفينة بوتسوين يتواثب في حماس، الأرض!.... هي هنا!

خط غير منتظم أزرق اللون يشير إلى مرتفعات نوكوهيفا.

هذه الجزيرة برغم أنهم يعتبرونها من جزر الماركيز، إلا أن الملاحين يعتبرونها جزءًا من مجموعة مستقلة فيها جزر روهوكا وروبو ونوكوهيفا، وهي تشكل مثلثًا يطلقون عليه (مجموعة واشنطن). فيما عدا هذا يتكلم سكانها كباقى سكان الماركيز ولهم نفس الدين والعادات. لم يكن أحد يعرف عنهم شيئًا حتى عام 1791 عندما اكتشفهم القبطان إنجراهام من بوسطن.. بعد اكتشافات الأسبان بقرنين. سوف أتعامل معها كجزء من جزر الماركيز على كل حال.

نوكوهيفا هي أهم الجزر هنا وتفضل السفن الرسو عندها.. وهنا أصلح القبطان الأسطوري بورتر سفنه أثناء الحرب بين إنجلترا وأمريكا.

طول الجزيرة نحو 20 ميلًا ولها نفس العرض تقريبًا... لها ثلاثة موانئ يطلق الأهالي على أكبرها (تايوهي) وأطلق عليها القبطان بورتر اسم (خليج ماساتشوستس). فسد أهل هذه المناطق بسبب تعاملهم الحديث مع الغربيين ولكنهم ما زالوا يحتفظون بصفاتهم البدائية وما زالوا كما رآهم البيض أول مرة. هناك قبائل معادية في أماكن أبعد ولم يختلطوا قط بالبيض لذا ظلوا كما هم.

كنا نقصد مرفا نوكوهيفا. أبحرنا مع النسيم طيلة الليل وأبحرنا حول الساحل لنبلغ المرفأ الذي أردناه. وهذا أعطانا فرصة لنرى الشلالات والمرتفعات وفي كل لحظة نرى جمالاً يفوق ما سبق.

عند الظهر بلغنا مدخل الميناء ولست قادرًا على وصف جماله. ورأيت علم فرنسا مثلث الألوان فوق ثلاث سفن بدا

واضحًا طابعها الحربي. عرفنا فيما بعد سبب وجودها هناك.. لقد استولى الأدميرال دو بيتى توار على هذه الجزر باسم الأمة الفرنسية التي لا تقهر. عرفنا هذه المعلومة من متسول بحرى جاء بقاربه يطلب حسنة من سفينتنا وساعدناه على الصعود. وبرغم أنه كان متزنًا بصعوبة ولا يستطيع السير على ظهر السفينة فإنه عرض خدماته علينا كي يقود السفينة إلى مكان آمن للرسو. بل إنه راح يصدر تعليمات الملاح.. بالطبع لم يطعه أحد..

عرفنا فيما بعد أن صديقنا العجيب كان ملازمًا في البحرية الإنجليزية لكنه أهان العلم البريطاني بارتكاب جريمة في مرفأ.. لذا غادر سفينته وأمضى أعوامًا يجوب جزر المحيط الهادي حتى بلغ هذه الجزيرة.

إذ دنونا من الشط خرجت عشرات القوارب الصغيرة تحيط بنا.. كان هذا المشهد من الإشارات المحمومة والصرخات الغريبة شيئًا لم أره في حياتي قط. يخيل لك أنهم كانوا على وشك تمزيق حلوق بعضهم في تنافسهم على بلوغنا..

فجأة رأيت على الماء مجموعة من ثمار جوز الهند تسبح وتتحرك نحونا.. انحنيت على حاجز السفينة أحاول فهم هذه الظاهرة الغريبة. في المركز رأيت ما بدا لي كثمرة جوز هند مركزية غريبة جدًّا. ولما دققت بدا لي كأنها جمجمة حليقة لأحد الأهالي.

ثم بدأت أتبين عينين.. وأدركت أن ما خطر لي أنه ثمرة كان بالفعل رأس أحد سكان الجزر، يستخدم هذه الطريقة لعرض بضاعته..

وكان جوز الهند يتصل ببعضه عن طريق قشور تم سلخها وربطها ببعضها.. وكان البائع يقف وسط هذه المجموعة الغريبة ويضرب الماء بقدميه.

لم تكن هناك أي أنثى من حولنا وسط هذا الحشد.. لم أعرف أن قوانين التابوو تحرم على النساء لمس هذه القوارب في كل الجزيرة، وهذا التحريم يصل لدرجة الموت. وعلى المرأة في جزر الماركيز إذا سبحث في الماء أن تستعمل جسدها فقط..

كان بعض سكان الجزر قد تسلقوا إلى سفينتنا.. ورأينا شيئًا يشبه تجمعًا للأسماك أمام السفينة، لكنهم قالوا لنا أن هذا تجمع من البنات الصغيرات (وينهنيز) قادمات ليرحبن بنا.

إذ اقتربن رأيتهن يرتفعن ويهبطن.. رأيت الذراع اليمني مرفوعة ملوحة بلحاء شجرة، وشعرهن الأسود الطويل يسبح خلفهن.. خطر لي أنهن عرائس بحر.. بالفعل كن كذلك.

تعلقن بخشب السفينة أو حبالها من كل مكان.. بحيوية المتوحشين كن يضحكن ويثرثرن. وبرغم أنهن لا يلبسن سوى قطعة قماش على الخصر فقد صعدن لسفينتنا وتسلقن كل مكان. بعضهن تمددن على القوارب أو على مقدمة السفينة.

يا له من مشهد نراه نحن البحارة العزاب! كيف يمكن أن نقاوم إغراء كهذا؟..

أثار منظرهن دهشتى.. شباب مطلق وسمرة صافية وملامح رقيقة وأجسام لا يمكن وصفها..

لقد تمت السيطرة على السفينة دولى.. أخذوا السفينة ونحن استسلمنا كأسري.. طيلة الوقت ظلت السفينة وطاقمها

تحت سيطرة عرائس البحر.

في المساء كان المرفأ مضاء بالمصابيح بينما قامت هذه العرائس بالاحتفال. هاته الفتيات مولعات بالرقص.. إن رقص بنات جزر الماركيز رائع، لكن فيه شهوانية لا أجرؤ على وصفها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

بلغا الجزر في صيف 1842 وكان الفرنسيون قد سيطروا عليها منذ أشهر عديدة. وكانوا قد وزعوا قواتهم على الجزر تحسبًا لهجمات الوطنيين المحتملة. كان الوطنيون ينظرون لهؤلاء الذين استباحوا سواحلهم بنظرة هي مزيج من الكره والخوف. كانوا يخافون بطاريات المدفعية المصوبة ليس إلى حصون بل إلى أكواخ بدائية يحيط بها جوز الهند.

كان هناك نحو مئة جندي على شاطئ نوكوهيفا، يقيمون في خيام صنعت من الأشرعة القديمة ومحاطة بالخنادق. وفي كل يوم كانوا يؤدون تدريبات عسكرية كاملة أمام أعين الوطنيين الذين امتلأوا احترامًا وتهيبًا.

لم يؤد وصولنا إلى تقليل اهتمام الوطنيين بما يحدث على شطآن بلادهم. لكن لم يلق شيء اهتمامهم مثل حصان جاءت به إحدى سفن الفيلق. كان حيوانًا جميلاً صنعوا له حظيرة من أغصان شجر جوز الهند. أحيانًا كانوا يخرجونه وقد وضعوا عليه غطاء مبهرجًا مزركشًا، ثم يمتطيه أحد الضباط بسرعة عالية عبر الرمال. وكان هذا المشهد يقابل بالصراخ من الأهالي مع عبارة (بواركى نويي) أي (الخنزير الكبير)، لأن الحصان كان أغرب عينة حيوانية يرونها في حياتهم.

فظائع كثيرة ارتكبها الفرنسيون، حتى أن المرء يعتقد أنه من الخير أن يترك البربريين وشأنهم لو كان هذا هو ثمن الحضارة.

هناك فظائع تستحق أن يحكيها المرء عن طرق الفرنسيين في إرغام الوطنيين على الاستسلام. لقد تركوا هنا دمية لهم هي

حاكم نوكوهيفا الذي أغرقوه بالهدايا. وقد صمم الفرنسيون على أن يملك الملك كل مجد أجداده.. لو قاومت أي قبيلة سلطة الفرنسيين ورفضت أن تخضع لتاج مووانا فليذوقوا عقابهم.

بنفس هذا المنطق ارتكبت مذابح كثيرة في تاهيتي عروس البحار الجنوبية. لقد ترك الأدميرال دو بيتى توار باقى قواته في جزر الماركيز وأبحر إلى الجزيرة المنكوبة. وصل هناك فطلب تعويضًا عن إهانة مزعومة لعلم بلاده قدره ثلاثون ألف دولار، وإلا هبط على الجزيرة واستولى عليها.

وصلت السفينة إلى المرسى فأبرزت مدافعها وتأهب رجالها.. واستعدت لهبوط الرجال تحت ستار من مدفعيتها. وظلت في هذا الوضع لفترة طويلة بينما دارت محادثات طويلة. الملكة بوماري المسكينة التي أثار الفرنسيون رعبها وشعرت بمصيبة دانية، ففرت في قارب تحت جنح الليل. هنا نحكى قصة بطولة نسائية واضحة، حيث ظل العلم البريطاني يرفرف فوق بيت المبشر بريتشارد، برغم أنه كان في لندن وقتها وكانت زوجته وحدها. وفي يوم توجه ضابط مع مجموعة من الرجال إلى شرفة السيدة بريتشارد وطلب مقابلة الزوجة.. خرجت لتقابله فانحني الفرنسي وقال بلكنة إنجليزية سيئة أن الأدميرال يطلب إنزال العلم.

قالت له الزوجة:

- « قل للقرصان سيدك أن عليه أن يأتي ليؤدي المهمة بنفسه لو كان يريد إنزال العلم.. »

ثم انحنت ودخلت إلى البيت. نظر الضابط إلى العلم فأدرك أن الحبل الذي يثبته يتجه إلى نافذة علوية في البيت حيث

تجلس السيدة التي قابلها تغزل. هل تم إنزال العلّم؟.. لم تسمح مسز بريتشارد بهذا.. ويبدو أن الأدميرال رأى وجهة النظر ذاتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

لم تطل وقفتنا في مرفأ نوكوهيفا حتى اتخذت قراري بالفرار من السفينة.

أما عن أسباب اتخاذي هذا القرار فهو أنني قررت أن أجرب حظي مع المتوحشين على تحمل رحلة أخرى على السفينة دوللي. هكذا كان ما نويته: القرار بلا أي مجاملة أو تأنق في اللفظ.

عندما انضممت لهذه السفينة وقعت على الأوراق، وبهذا ربطت نفسي بإرادتي وقانونًا للخدمة طيلة الرحلة. لكن في كل العقود لو فشل أحد الطرفين في الوفاء بمسئوليته في العقد، فهذا يحل الطرف الآخر من مسئوليته. من لا يوافقني على هذا؟

دعنا نطبق هذا على الحالة الحالية إذن..

كانت معاملتنا أقرب لمعاملة الطغاة للعبيد، كانوا يتجاهلون المرضى بشكل غير إنساني وكان التعيين يصرف بكميات شحيحة، وكانت الرحلات طويلة أكثر من اللازم. القبطان كان مصدر المعاملة السيئة لذا لا يمكن افتراض أنه سيغير معاملته لنا. وكان يقابل أي شكوى باللامبالاة.

لمن نشكو؟. لقد تركنا القانون والعدالة خلفنا.. وكان طاقم السفينة مجموعة من المنهكين المتفرقين.. فقط يتفقون في شيء واحد هو قبول طغيان القبطان. وكان من الجنون أن يثور اثنان أو ثلاثة دون عون الآخرين.

برغم هذا يمكنك التحمل لهذه الصعاب لو تعزيت بفكرة الخلاص القريب من هذه المعاناة. لقد كانت رحلة صيد الحيتان طويلة جدًّا وقد تمتد لثلاثة أو أربعة أعوام.

إن الاستعداد لهذه الحملات يمكن أن يثير هلعك.. السفينة لا تحمل بضاعة، لذا تمتلئ مخازنها باحتياجاتها.. قطع لحم من كل الأشكال والأنواع يتم تمليحها ووضعها في براميل. مع كميات من خبز البحر والماء. كميات هذا الطعام تثير ذهولك..

في العادة تحاول السفينة الظفر بحيتان إلى أن يقترب زادها من النفاد من ثم تعود أدراجها.. لكن حتى هذه الخطوة البسيطة قد يمنعها القبطان متصلب الرأى. لأنه يأمل في أن يجدد مؤن السفينة في شيلي أو بيرو.. ويبدأ من جديد. لقد أقسم أن يملأ السفينة بحيتان العنبر فإن لم يستطع فلن يمس سواحل أمريكا ثانية.

بعض سفن الحيتان لم تعد قط وظلت تجوب الأصقاع المهجورة كأنها سفينة أشباح. علىّ أن أؤكد لك وأقسم بشرفي أنني غادرت السفينة منذ ثلاث سنوات، لكنها ما زالت تجوب أصقاع المحيط الهادي وقيل أنها بلغت سواحل اليابان.

هكذا كنت قد قررت أن أترك السفينة.. اتخذت قراري وبدأت أحصل على كل المعلومات التي أقدر على جمعها.. عن الجزيرة وسكانها..

الحق أن الخليج كان يبدو كحدوة حصان ويطل المشهد على روعة لا توصف، تشعرك بالحسرة لأن هذا الجمال يتوارى عن عيون عشاق الطبيعة في هذه البقعة النائية. سوف ترى الجبال العالية داخل الساحل، وهي جبال تفصل بين القبائل

المختلفة. وهي قبائل تشترك في الدّين واللغة لكنها تحترب بلا توقف. قرب هذه الجبال واد هائل تعيش فيه قبائل التايي المخيفة.. القبائل التي تعادي كل القبائل الأخرى. إنهم رعب كل القبائل الأخرى.. هؤلاء المحاربون الأقوياء. لفظة تايي في لغة الجزر معناها (من يحب أكل لحم البشر). وهذا يعني أن أهل القبائل أكلة لحوم بشر، وربما لمجرد الدلالة على شراستهم.

كنت مقتنعًا أن سكان الساحل أكلة لحوم بشر لكني شعرت بنفور خاص نحو التايى.

حتى قبل أن أبلغ جزر الماركيز سمعت من البحارة قصصًا عن هؤلاء التايي. وكلها قصص منفرة.. ومنها مغامرة قبطان السفينة كاترين الذي جاء لهذا الساحل للمقايضة، فأسره الأهالي وأخذوه لواديهم فلم ينقذه من ميتة قاسية سوى تدخل فتاة صغيرة.. فتاة سهلت فراره ليلًا إلى خليج نوكوهيفا.

سمعت كذلك عن سفينة إنجليزية جاءت منذ أعوام لهذا الخليج، وتطوع بعض رجال القبائل بأن يقودوها لمرفأ آمن. رحب القبطان الذي لا يعرف شيئًا عن القبائل هنا بهذا.. ما فعله الأهالي هو أنهم اقتادوا السفينة لترسو عندهم، وفي الليل صعدوا على ظهرها بالمئات ولم يتركوا فوقها مخلوقًا حيًّا.

حتى الفرنسيين الذين استعرضوا قواهم العسكرية وألوانهم في الجزر كلها، لم يزوروا وادي التايي قط. كانوا يتوقعون مقاومة شرسة من الأهالي يفضلون تحاشيها الآن.

وقد عوض الفرنسيون عن خيبة أملهم بحرق كل كوخ قابلوه قبل رحيلهم. قضت هذه الأطلال المحترقة على ابتسامة الوادي. وبرغم هذا يندهش الفرنسيون بسبب كراهية هؤلاء

الوثنيين للغربيين. وبهذا يستحق المتوحشون لقب المتوحشين الذي نطلقه عليهم.

كانوا يقابلون الغربيين بالحب والأحضان، لكن هذه الأحضان كانت تصيبهم بالسم الذي يقضي عليهم.

الفظائع التي ترتكب هنا ضد بعض القبائل أمر يفوق الوصف.. وهذه أمور لا تحكي في الوطن ولا يعرف عنها أحد شيئًا لأنها تتم في أطراف العالم. لكلنا نحكي المذابح التي يرتكبها سكان تاهيتي مثلاً ضد رجالنا، فنجرد الأساطيل ونذهب هناك لننتقم ونذبح وندمر.. ثم نطالب العالم المسيحي بأن يصفق لهذا الانتصار.

يمكن القول بلا خطأ إنه في معظم الفظائع التي ارتكبها البولينيزيون، كان الأوروبيون هم البادئون..

دخلنا من خليج نوكوهيفا في زورق السفينة، حتى بلغنا خليج تيور عند الظهر. لم تكن هناك ريح وكانت الحرارة شديدة القيظ.. وقد نسينا أن نتزود بماء. لذا كان القيظ والظمأ متحالفين علينا معًا.

كنت متلهفًا على بلوغ الشط لذا وقفت في الزورق متأهبًا للقفز.. وثبت فعلًا نحو مجموعة من المتوحشين صغار السن وقفوا للترحيب بنا. جريت وهم في أثري نحو أول بركة أراها. وشعرت بنشوة غير عادية.. كنت هناك في ظلال (تيور) تحت أشجار جوز الهند في جو رطيب منعش.

إذ نظرت حولي رأيت مشهدًا لا يوصف. الوادي الناعس يرقد في ظلال الأشجار.

في نفس يوم وصولي لتيور كان الأدميرال الفرنسي قد جاء من نوكوهيفا وسط أسطوله، ليستولي على الجزيرة. قابل الملك وقضى معه ساعتين. رأيت الملك المسن يتقدم مستعينًا بعكاز ويمشي وسط زعماء آخرين يتوكأ عليهم من حين لآخر.. كان مسنًّا جدًّا لكن جسده كان ضخمًا يدل على قوته القديمة وهيبته. التقى الرجل بالأدميرال فتبادلا التحية ووقفا معًا كعظيمين.. الفرنسي الأنيق الفاخر والمتوحش الموشوم. تناقض شديد لكنهما يتمتعان بالنبل الواضح. مشهد عجيب فعلًا. حشد الفرنسيين والمتوحشين. وقفت أراقب المشهد من بعيد وفي يدي سباطة موز، رحت آكل منها وأنا أتأمل غارقًا في خواطري الفلسفية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

صدقت نيتي للفرار وقد عرفت ما يكفي عن الجزيرة.. وقررت أن أضع خطة محكمة لأن الفرار قد تكون له نتائج وخيمة. كنت أخشى فكرة أن يتم القبض على وإعادتي للسفينة.

كنت أدرك أن القبطان الذي يعني بنا كما يعنى الأب بأولاده لن يقبل أن يترك واحدًا منا مع المتوحشين. سوف يدفع مالًا لمن يأتي ببحارته الهاربين... بالتأكيد سأجد كل الخليج في أثرى طمعًا في المكافأة.

يعيش الوطنيون هنا في أعمال الوادي ويتحاشون الأماكن العالية، لذا قدرت أن عليّ أن أتخذ طريقي للمرتفعات.. يمكنني أن أذهب هناك وأبقى نفسى حيًّا بالفاكهة. وأنتظر رحيل السفينة، وهو مشهد لابد أنني سأراه من مكاني العالي.

راقت لي الفكرة.. وبدت لي ممتعة. سيكون ممتعًا أن أراقب، السفينة الكريهة من موضع عال.. وأرى الطبيعة من حولي وأقارنها بسطح السفينة الضيق الكئيب.

هناك عيب في هذه الفكرة.. عيب واحد؛ هو أن أسقط في يد التايي الدموية.. لابد أن شهيتهم مفتوحة بسبب هذا الارتفاع العالي، وربما يلتهمونني.. وهذه فكرة غير سارة. أعترف بذلك.

لكنى كنت مجبرًا على الفرار، وخطر لي أن بوسعى تفادى هؤلاء المتوحشين في الكهوف الكثيرة في الجبل.

كنت قد أزمعت ألا أخبر أحدًا بنية الفرار هذه حتى وجدت أحد رفاق السفينة يقف متكئًا على الحاجز شارد الذهن. كان

فتى يدعى توبى وهو مقارب لسني. كان يميل لصحبتي ربما بسبب تقارب السن.

كان توبي من طراز الجوالين الذي تقابله أحيانًا في البحر، الذين لا يتكلمون عن وطنهم أبدًا ولا تعرف أصولهم ولا اسمهم الحقيقي. كأنهم يتجهون لمصير غامض لا يستطيعون تفاديه.

بالإضافة لهذا كان توبى مهندمًا وسيمًا وقد ازداد سمرة من الشمس الاستوائية، وكان طبعه سريعًا ناريًّا سرعان ما يصير نوعًا من الحلم. لا يذكر أحد أنه رأى توبى يضحك.. أعنى ضحكًا من القلب. كان يبتسم أحيانًا وكان ساخرًا بشكل كشف عن الكثير من طباعه.

أدركت أنه يكره السفينة من كل قلبه وأنه لو سنحت له فرصة الفرار فلسوف ينتهزها فورًا، لكن المحاولة كانت خطيرة، وكنا في مكان لا يمكن أن يفكر في الفرار إليه سوى مستهتر مثلي.. وكنت مخطئاً.

خطر لي على الفور أن توبي يتأمل في ذات الشيء الذي أفكر فيه.

لماذا لا أجد رفيقًا من زملاء السفينة يخفف عنى صعاب المغامرة ويقاسمني الأخطار؟ لو ظللت مختبئًا في الجبال فمن يعزيني؟

دارت هذه الخواطر في ذهني، وتساءلت لماذا لم أفكر في هذا الضوء من قبل. لكن لم يتأخر الأمر.

ضربت على كتف توبى ليصحو.. وبعد بضع كلمات صار متفهمًا..

اتفقنا على كل شيء ورتبنا الفرار .

في اليوم التالي منح أفراد السطح إجازة ليكونوا بحريتهم، وهذا ناسبنا جدًّا.. قررنا أن ننفصل عن الرجال ما أن نبتعد عن شكوكهم ثم نفر إلى الجبال.

بدا لي أحد الأخاديد صالحًا للتسلق ليقودنا للجبال. قررنا أن نذهب هناك ونتواري إلى أن ترحل السفينة. ثم نجرب حظنا في الطريقة التي سيعاملنا بها سكان نوكوهيفا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

في الصباح قال لنا القبطان:

. « بما أنا أمضينا في البحر ستة أشهر وأنكم أنهيتم عملكم.. فإنني أعتقد أنكم ترغبون في النزول للشط.. يمكنكم هذا لكن تذكروا: أنا مضطر لأن أمنحكم الحرية، لكن أي ابن آدم فيكم يفضل أن يبقى على السفينة بدلاً من مواجهة المتوحشين أكلة لحم البشر.. احتمال عشرة لواحد أنكم ستلقون نهايتكم. رجال بيض كثيرون نزلوا للشط ولم يرهم أحد بعدها. سوف تذهبون.. لكن لا تلوموني لو صنع منكم المتوحشون وجبة عشاء.. ثمة فرصة واهية للنجاة لو عدتم هنا قبل الغروب. فليرحمكم الرب! »

ساد الوجوم بيننا.. لكن هذا لم يطل وسرعان ما كنا نتهيأ للنزول على الشط.

كان رأي البحارة القدامى أن هذا الرجل وغد كذاب لا يريد لنا أن نستمتع ببعض ساعات الراحة. جعلنا هذا نتحمس وقررنا أنه مهما كان كلام الرجل فلسوف نجعل يومنا حافلاً. كانت لدى وتوبي خطة مختلفة. كنا قد رتبنا لفرار سريع للجبال.. تزودنا بملابس زائدة لذا كانت ثيابنا ثقيلة جدًّا.

اندهش طاقم السفينة لذلك فقال توبى بطريقته الجادة إنه يدخر التأنق للشواطئ الأسبانية حيث يهتم الناس بربطة عنق البحار بينما لا تبالي بها مجموعة من الوثنيين العراة. هكذا ضحكوا ومر الأمر بسلام.

دق جرسا السفينة فاتجه الرجال للقارب..

ألقيت نظرة على السفينة فرأيت سلة الخبز وبقايا لحم العجل التي شكلت آخر وجبة لنا. لم أكن قد فكرت في ادخار طعام لرحلتنا لأنني اعتمدت على فواكه الجزيرة.. لذا احتفظت معي ببعض هذا الفتات. ومنها البسكويت المخصص للبحارة. دسسته في كيسي الذي أخفيت بداخله بعض التبغ والذي كنت أنوى مبادلته مع الأهالي لدى بلوغ الجزيرة.

وصلنا إلى الشط أخيرًا.

كان الموسم مطيرًا وقد انهالت السيول فوقنا. فانتظرنا تحت سقيفة إلى أن تمر العاصفة. هذا الصوت المنوم جعل الرجال يغمضون عيونهم ويرقدون هنا وهناك. وجدتها أنا وتوبي فرصة ممتازة للفرار..

هكذا وجدنا أمامنا فسحة تقود لذلك الأخدود الذي يقودنا لأعلى.

واصل المطر انهماره بلا فترة توقف.. وهذا ساعد خطتنا لأنه جعل الوطنيين بعيدين.

ابتعدنا مسافة كافية ولم نتبادل حرفًا مع أحدنا الآخر.. رأينا الجسر أمامنا فمضينا نحوه. قلت بصوت خفيض:

. « الآن يا توبي.. ولا كلمة.. لا تنظر للخلف حتى نبلغ قمة هذا الجبل، بعدها سوف نضحك بصوت عال.. أنت أخفنا فتقدم الطريق..»

وافق توبى وتقدم المسار.

اقتربنا من الأخدود فتوقفنا جوار شجيرات صفراء كثيفة كأنها أعمدة من صلب. تبادلنا النظرات مفكرين في طريق عملية أكثر.. أدركنا أنه ما من سبيل سوى اجتياز هذه الغابة الكثيفة. هكذا تقدمت أنا لأنني الأثقل وبالتالي أفتح الطريق بشكل أفضل.

رحت أحشر نفسي بين النباتات فلم أوفق كأنني ضفدع يحاول أن يعبر بين أسنان مشط. عشر دقائق أنهكتني فعلاً.

سال العرق من جسدينا كالشلال وامتلانا بالجروح. هنا توقف المطر. واستعادت الشجيرات والنباتات مكانها السابق كالزنبرك بعد مرورنا. لكن كثافتها حجبت عنا الرؤية فلم نعد واثقين من مكاننا.

كنت منهكًا وشعرت أنني عاجز عن التقدم. جلست أرضًا وشعرت بأني أغيب عن الوعي هنا جاء توبي جوارى يقترح خطة للخروج. كان يشق النباتات حوله كأنه يحصد، هكذا تناولت مديتي ورحت أمزق النباتات بلا رحمة. لكن كلما تقدمنا كلما بدا لنا أن هذه النباتات لا نهاية لها.

خطر لي أن من دون جناحين فلا أمل لنا في الخروج من هنا. هنا فقط رأيت ضوء النهار بين الأعواد فصحت في مرح ونقلت البشري لتوبي.

لقد صرنا قرب الجسر. جلسنا نستريح قليلًا ثم بدأنا الصعود. كنا نخاف الوطنيين جدًّا لذا رحنا نزحف وسط العشب كأننا حيتان.

كنا الآن عند ذلك البروز الذي يحيط الخليج بالمرتفعات الشامخة. بدا لنا كأنه سطح مستو ينحدر نحو البحر من

المرتفعات حولنا. لقد صعدنا في أكثر الأجزاء انخفاضًا وعلينا أن نواصل التسلق عبر طريق من الخضرة.

كانت خطتنا ناجحة حتى هذه اللحظة.. وقد جعنا الهواء النقى ننتعش.

هنا سمعنا صوت صراخ الأهالي من الوادي.. لو نظروا لرأوا أشكالنا بوضوح مرسومة عكس السماء الصافية.

نظرنا للوديان تحتنا فرأينا الأهالي يركضون هنا وهناك وقد بدا أنهم في حالة توتر شديدة. من هذه المسافة بدوا أقزامًا وبيوتهم البيضاء ضئيلة من هذه المسافة. شعرنا بالأمن والأمان لأن الأهالي لا يتجهون نحو الجبال أبدًا..

برغم هذا قررنا أن نفيد من الوقت لأقصى حد، وركضنا نحو القمة حتى استوقفنا منحدر مائل لأسفل. هذا عطل رحلتنا نوعًا لكننا تجاوزناه ببعض الجهد. لم نكن قد نظرنا للخلف قط... وقد بقيت ثلاث ساعات على غروب الشمس مع كوننا تحركنا في الصباح.

الآن كنا نقف عند أعلى ارتفاع في الجزيرة.. لابد أننا على ارتفاع 3000 قدم فوق البحر وكان المشهد مذهلاً. لو عشت مئة عام فلن أنسى ما شعرت به وقتها من مهابة وإجلال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

لم أكن فضوليًا لأرى البلد الذي سنقابله في جهة الجبل الأخرى.

لكننا شعرنا بخيبة أمل بالغة، لأننا لم نر على جانب الجبل الآخر منحدرًا لوديان واضحة. بدا أن الأرض ممتدة على ذات الارتفاع حتى مرمى الأفق. على الجانبين خضرة زاهية اللون لكننا لا نرى أشجار فاكهة كتلك التي أملنا في أن نعيش على ثمارها.

لم نتوقع هذا الكشف، وتوقعنا أن هذا قد يؤدي لفشل خططنا. لم نتوقع أن ننزل المنحدر بحثًا عن طعام لأننا قد نقابل الأهالي.. لو لم يأكلونا فلسوف يعيدوننا للسفينة طلبًا لجائزة من الحلي.

ماذا نعمل؟.. لن تبحر السفينة قبل 10 أيام فكيف نعيش حتى ذلك الحين؟ ندمت على أننا لم نتزود بالكثير من البسكويت. تذكرت الخبز الذي وضعته في جعبتي وأردت أن أطمئن عليه.

بدأنا نفحص ما لدينا في جعبتينا.

أخرج لي صاحبي أولًا رطلًا من التبغ معجونًا بلقيمات مبتلة من خبز السفينة. بدا لي كأننا أخرجناه حالاً من أعماق المحيط. شيء مقرف لكنه بدا لي كنزًا ثمينًا.. ووضعت هذه الكتلة المعجونة على ورقة شجر كبيرة.

الكنز الآخر معه كان إبرة وخيطًا وأدوات حياكة. ما وجدته معى لم يكن أفضل.

اقترحت على توبى تقسيم الخبز لستة أنصبة، تكفى لطعامنا ستة أيام حتى ترحل السفينة. هكذا بعد التقسيم وجدنا أن كل واحد منا له ملعقة كبيرة في اليوم لا أكثر. قسمنا الأنصبة ولففناها في قطع من الحرير ثم عهدت بها لتوبى.

صمنا باقي اليوم لأن الإفطار قد منحنا بعض الشبع. وبحثنا عن مأوى لليل، لأن منظر السماء يوحي بقدوم ليلة مدلهمة عاصفة.

بدأنا نتقدم مستكشفين الجانب الآخر من الجبل.

بدا المشهد كمساحة لا نهاية لها من العزلة. لابد أن الأرض لم تمس منذ الخلق..

حتى صوتينا بديا غريبين كأن هذه المنطقة لم تسمع صوت إنسان من قبل. صحيح أنه لا توجد أشجار فاكهة هنا. لكن هذا يمنحنا طمأنينة.. لن نقابل المتوحشين على الأقل لأنهم بالتأكيد يوجدون حيث أشجار الفاكهة. هنا وجدنا ممرًّا بين الأشجار.

لابد أن روبنسون كروزو لم يشعر بهذا الرعب عندما رأى آثار أقدام في الرمال. تراجعنا للحظة خوفًا ثم قررنا أن نتبع هذه الآثار.. مشينا وراءها حتى حافة الأخدود حيث توقفت.

قال توبى:

- « إذن كل من يمشي في هذا الاتجاه يثب.. أليس كذلك؟ »

. « هل ترى أن نجرب؟ »

- « وهل تتوقع أن نظفر بشيء سوى تحطيم عنقينا؟.. لو ظللت تستكشف كل شيء يا صاحبى فلسوف تنتهى بتحطيم عنقك. سوف تقابل بعض هؤلاء المتوحشين.. فلنمض الليل هنا.. »

. « بل أفكر في هذا الأخدود.. فهو ظليل وقد يقينا من العاصفة».

اقتنع توبي أخيرًا وسبقني إلى التسلق لأسفل الأخدود.

ما رأيناه كان مشهدًا سوف يظل في مخيلتي للأبد. كانت هناك خمسة مجار مائية مندفعة كشلال يفعل الأمطار.. وتصب في حفرة مظلمة عميقة. بينما الأشجار ترتج من زلزال المياه الهادرة.

كان الغروب دانيًا، واستطاع هذا الضوء الذي غمر الأشجار والجبال أن يجعل الأمر أسطوريًا. بعد قليل جدًّا سوف يصير الظلام دامسًا.

للحظة خطر لي أن هذا الممر كمين صنعه الأهالي لخداعنا كى نصل لهذا المكان ثم عدلت عن هذه الفكرة.

بدأنا نجمع الغصون لنبني كوخًا ثم غطيناه بالعشب. وحشرنا جسدينا المرهقين هناك.

لن أنسى هذه الليلة المرعبة. كان مستحيلاً أن أظفر بكلمة من توبي.. فقد ظل يرتجف طيلة الليل.. وبدا أن كل ما نحتاج له كي يجعل الليلة قاسية موجود.

كان المطر ينهمر في شلالات حتى صار موضوع المأوى وهمًا.. وكلما حاولت حماية جزء من جسدى كشفت جزءًا آخر. الظلام الدامس والبرد وإدراكي لخطورة موقفنا.. كل هذا جردني من شجاعتي تمامًا.

هكذا ترى أننا صحونا مبكرًا جدًّا في اليوم التالي بمجرد أن رأينا أول بصيص نور.

رفع توبى رأسه وقال بصوت مبحوح:

. « إنني أرى بعيني مفتوحتين أقل بكثير مما أرى بعينين مغمضتين.. »

قلت له:

. « هذا سخف.. أنت لم تصح بعد.. »

- » صحوت؟.. هذا يعني أنني كنت نائمًا!.. هي إهانة أن تصف ما كنا فيه بأنه نوم! »

وبدأنا مغادرة عريننا.. حاولنا تجفيف ثيابنا ورحنا نحاول إعادة الدم لأطرافنا. وقررنا أن نأكل أي شيء فقد مرت علينا 24 ساعة من دون طعام. جلسنا على صخرة وقسمنا نصيب اليوم لأربعة أنصبة.. لي وله وللبل.. الحق أن الجوع خير فاتح للشهية ولولا ذلك لما جرؤنا على التهام هذا الطعام المقزز. وشربنا من الماء الذي أغرق كل شيء.

حان وقت الرحيل عن مكان لم يغرنا قط بأن نبقى فيه. وعدنا بالأمن فقط..

قلت لتوبي أن علينا انتقاء مكان يكون موضعنا الثابت، بدلاً من التحرك في الجزيرة معرضين أنفسنا للخطر في كل خطوة. وافق رفيقي وانطلقنا لأداء المهمة.

وجدنا مكانًا يسمح لنا بالنوم، لكن العاصفة هبت من جديد بشراسة وصار الكلام عن النوم وهمًا، والأهم أن ثيابنا ابتلت ونحن قد جففناها للتو. أنصح كل الشباب الذين يفرون من سفنهم على جزر شاعرية أن يحملوا مظلات.

بعد فترة طويلة من المطر المنهمر نام رفيقي، فلم أجرؤ على أن أوقظه، كيف يقدر هؤلاء القوم على الصمود في الدغل؟

بدأت أشعر برعشة وقشعريرة، فقلت لنفسي أن سبب هذا هو ليلة أمس، ارتفعت حرارتى بشدة وتورمت قدمي و آلمتنى بشدة. حتى حسبت أنني قد لدغت من حية بينما أنا في الأخدود. ثم تذكرت أن جزر بولينزيا كلها تمتاز بخلوها من الثعابين.

كانت الحمى تتزايد لكني لم أرد أن أزعج صديقي النائم. نهضت وأبعدت غصن شجرة، هنا رأيت مشهدًا ما زلت أذكره بنفس الحيوية. كأنني رأيت أشجار الجنة أمامي.

كنت أرى الوادي يمتد أمامي متموجًا.. نحو البحر الأزرق. وبين الخضرة الكثيفة كنت ترى الأكواخ المغطاة بسعف النخيل. وعلى الجانبين حشد من الشلالات. لكن سحر المشهد بالفعل كان تلك الخضرة العامة. هذا هو سحر كل مشهد تراه في جزر بولينزيا. الشلالات الصامتة تنحدر على الجانبين لتتوارى وسط الخضرة. الصمت يغمر كل شيء كأننا نعيش تلك الأسطورة التي يكفى صوت واحد كي يحطم التعويذة.

ظللت أرقب هذا المشهد غير مصدق أنني أراه حقًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

أيقظت توبى وأطلعته على المشهد الرائع، انبهر كما انبهرت.

كان السؤال فقط هو هل المشهد الذي نراه ينتمي للهابار أم لقبيلة تايي؟.. هذا سؤال مهم.. أن الهابار مسالمون معروفون بالرفق والمودة. لا يجب أن يهيموا بنا حبًّا لكنهم على الأقل يمكن أن يمنحونا المأوى لبعض الوقت.

في نفس الوقت كان اسم تايي يثير الهلع في قلبي. بدت لي مخاطرة مرعبة أن أنزل الوادي فأخاطر بأن أقابل التايي. كان توبي يؤمن أن النزول للوادي آمن.. فلن نقابل إلا الهابار. وذكرني بصعوبة وضعنا وخطورته.

بدأت الحمى تتزايد معي.. وعادت القشعريرة.. وشعرت بظمأ شديد.. ظمأ حارق..

بدأنا نتحرك للقمة صاعدين. وفي كل خطوة أزداد إرهاقًا لكن توبى راح يشجعني. كانت الحمى تجعلني أنتفض نفضات شبه كهربية.. وغمرني العرق. أضف لهذا التواء ساقي الذي جعلني عاجزًا عن المشي.

عندما وصلنا لجدول وانحنيت لأشرب أدركت أنني لا أطيق الماء.

بعد ساعتين من الجهد الجهيد بلغنا قمة أخرى، كان المنظر كئيبًا كما كان من قبل، وأدركت أننا في مأزق حقيقي. لقد ابتعدنا عن الخليج بمسافة كبيرة وضللنا الطريق فعلًا.

بنينا كوخًا صغيرًا نأوى له هذه الليلة، وكان أفضل بناء وأكثر توفيقًا من البقعة التعسة التي نمنا فيها أمس.. نمت بصعوبة بسبب الألم الذي يغمرني وأعتقد أنني لم أغف سوى ثلاث مرات. لم تمطر السماء لحسن الحظ في تلك الليلة. أما توبي فنام بعمق مستريحًا.

عندما صحونا ذهلت للتغيير الذي حدث له من نوم ليلة هادئة.

كنت أفضل نوعًا مما كنت ليلًا، وبرغم الألم الشديد لم أرد أن أفسد مزاجه الرائق، لذا طلبت منه مازحًا أن يعد لنا مأدبة الإفطار. كان كل شيء مبتلًا لذا لم نأكل الطعام بل امتصصناه.. ثم رحنا نناقش خطوتنا القادمة.

قال لي توبى:

- « مستحيل أن يكون سكان أرض جميلة كهذه غير متحضرين.. لن أموت جوعًا في كهف كهذا.. أفضل أن ننزل للوادي ونجازف.. »

. « وكيف نصل إليه؟ »

فكر قليلاً ثم قال:

- « المجاري المائية تهبط لأسفل.. ثم تحتشد هناك. علينا أن نهبط معها وهي تقودنا للبحر.. دعك من مخاوف التايي البلهاء ولنهبط معًا إلى وادي الهابار.. »

. « لندع الله أن يكونوا الهابار فعلًا ».

. « هم الهابار فعلًا.. إننى أرى أشجار جوز الهند وأرى أشجار الجوافة.. هلم يا صاحبى معى.. »

قالها واندفع عبر المنحدر ناسيًا أن حالتي الصحية لا تسمح باللحاق به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

كانت حماسة توبى معدية. وبدأت فعلًا أعتقد أننا سنلقى الهابار.

كان تقدمنا سريعًا في البداية ثم ازداد صعوبة. كان مجرى الماء مسدودًا بصخور مهشمة سقطت من عل. وكانت هناك شلالات في كل مكان. كنا نتعثر بلا توقف، كما أن الغصون البارزة بالعرض كانت تسد الطريق علينا وتحاول عرقلتنا.. بدأنا نعد للبيات هذه الليلة، وقد رحنا نمضغ أوراق الشجر.. هى ليست مغذية لكن لها مذاقًا محببًا.

واصلنا النزول. ثم سمعنا صوتًا عاليًا يدوى.. ثم بدأ يتعالى أكثر، كان هذا شلالًا عاتيًا. كنا نهبط هاوية تلو هاوية نحو الوادي، وكدت أسقط أكثر من مرة لولا أن تمسكت بالأغصان..

كان توبى يزداد شجاعة وإقدامًا.. سواء كان يواجه التايي أو شلالات نياجرا.

كان هذا شلالاً آخر منحدرًا تحيط به أشجار كثيفة تتناقض خضرتها مع المياه الفائرة حولها. بدأنا ندور حول الحافة فوق صخور بارزة. كان توبي هو الذي يقودنا الآن..

ممر نمشى فيه بصعوبة ونحن نرى الشلال من تحتنا.. كان الممر يتسع.. وفجأة عند المنحنى ضاق جدًّا إلى درجة يستحيل أن تسمح لنا بالمرور.

ساد الصمت.. ثم سألته لاهثًا:

.« حسن يا صاحبي.. ماذا عسانا نفعل الآن؟ »

قال بصوت شبه نائم أن علينا أن نجد مخرجًا بسرعة. وبلا كلمة أخرى وثب ليتعلق في أغصان نخلة تقع تحتنا.. حبست أنفاسي متوقعًا أن أراه يسقط في القاع. لكني رأيته يطل عليَّ من مكمنه وسط الأغصان ويصيح في:

.« هلم يا صاحبي.. احذ حذوي ».

كان لابد من عمل أي شيء كي أظل جواره.. بدا لي ما قام به معجزة.

نظرت لأسفل وحاولت أن أسترد ثقتي بنفسي.. ثم أغمضت عيني وصليت صلاة قصيرة ثم هويت نحو الشجرة.. تهشمت الأغصان تحتي وهويت لأسفل.. إلى أن استوقفتني ذراع قوية.

بعد لحظات كنت أقف أسفل الشجرة أتفحص الإصابات في جسدي. وكان باقي الهبوط سهلًا..

في الصباح كان الجوع يمزقنا لكننا لم نعترف بهذا لأنفسنا.. واصلنا هبوطنا المرعب.. كنا نأمل بشدة في أن نرى الوادي أمامنا..

يكفيني هذا.. لن أصف كل خطر وكل لحظة مروعة مرت بنا قبل أن نصل للوادي..

يكفينا أن نقول إننا في النهاية وقفنا بلا أطراف مهشمة عند ذلك الوادي. كنا نقف في الموضع الذي كنا نراقبه من على منذ أيام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

أول ما فكرنا فيه هو أن نجد الفاكهة التي اقتنعنا بأنها موجودة قريبًا من هذا الموضع.

السؤال هو: تايبي أم هابار؟.. هل هو الموت بيد أشنع أكلة لحم بشر، أم استقبال دافئ من قوم متحضرين؟ سوف نعرف الإجابة حالاً.

بدا كأن هذا الجزء من الوادي بلا سكان. امتدت الأشجار من جانب لجانب ولم نر أي نبات يصلح للأكل. هكذا مشينا جوار مجرى الماء ونحن ننظر للأحراش على الجانبين.

بدأت ألاحظ أن رفيقي الذي كان في غاية الشجاعة قد بدأ يبدي حذرًا واضحًا.. قال إننا لو وجدنا فاكهة فعلينا أن نظل حيث نحن حتى لا يفاجأنا السكان. سوف ننتظر حتى ترحل سفينتنا ثم نعود لخليج نوكوهيفا.. لكني لم أكن متحمسًا.. كنت منهكًا ولست على استعداد لمواجهة المزيد من المشاكل.. كنت مستعدًّا للسقوط في براثن الأهالي هنا مهما كانوا..

على الجانبين كانت الأشجار كثيفة فعلاً. ورحنا نبحث بعينينا عن فرجة تسمح بالمرور. تقدمنا ونحن نخشى اللحظة التي يحيينا فيها رمح متوار بين الأشجار. فجأة استوقفني صاحبى ليشير لفرجة بين الأشجار وبعدها وجدنا مجموعة من الأشجار الموسمية اشتهرت بالفاكهة الشهية.

جرينا نحو هذه الأشجار كأنه سباق، وبرغم أن الثمار كانت شبه تالفة وقد التهمت الطيور أكثرها فإننا لم نذق ما هو أشهى

في حياتنا.

كنا نشعر في كل لحظة بأننا نقترب من الوطنيين.. ترى هل هم هابار أم تاييي؟

فجأة رأيته يجثو على ركبته ويتصلب كأن ثعبانًا قد لدغه.. ثم أشار لى كى أقترب منه لأرى شيئًا بين الأشجار. دنوت منه ونظرت لما ينظر له فوجدت اثنين يقفان عن بعد كأنهما يراقبان ما يحدث.

كان قراري سريعًا... مزقت قطعة من قماش أبيض ثم ثبتها إلى غصن انتزعته من شجرة.. ثم طلبت من توبي أن يتبعني، وخرجنا ونحن نلوح برمز السلام هذا.

كان هذان ولدًا وفتاة نحيلي الجسد عاريين تقريبًا عدا ما يستر العورة.. كان الفتى يلف عنق الفتاة بذراع بينما يمسك يدها بالذراع الأخرى. هكذا وقفا. قدم تتقدم للأمام كأنهما يتأهبان للفرار من تقدمنا.

خشيت أن يهربا فوقفت ولوحت بيدي أطلب منهما أن يأخذا ما أحمله لكنهما لم يفعلا. تقدمنا ببطء ثم طوحنا بالقماش على كتفيهما بما يعني أن القطعتين لهما وأننا نحمل لهما أعظم تقدير. راح توبى يؤدي أداء بانتومايم عظيمًا لهما إذ يكشر عن أسنانه ويفتح فمه من الأذن للأذن.. حتى حسبنا المخلوقان البائسان آكلي لحم بشر يريدان التهامهما.

بدأت الأمطار تهطل بغزارة فأشرنا لهما كي يتقدما نحو مأوى. تقدمانا بالفعل.. لكن كان جليًّا مدى الرعب لديهما منا.. كانا ينظران نحونا في وجل طيلة الوقت.

تساءلت ونحن نمشي خلفهما:

- « تايبي أم هابار؟ »

قال توبي في ثقة أراد منها أن تخفي شكوكه:

- « طبعًا هابار.. »

قلت له إننا سنعرف حالاً وأشرت لهما بيدي وكررت اللفظين مرارًا، لكنهما لم يظهرا ما يدل على الفهم. رحت أردد عبارة (هابار) و(موتاركي).. اللفظة الأخيرة معناها (طيب).

هنا بدأ المتوحشان يردان بما يعني الموافقة.. أسعد هذا توبى جدًّا خاصة أنهما راحا يرددان الإجابة. هكذا نحن آمنان تمامًا.. لم أكن متأكدًا جدًّا لكنى شاركت توبى فرحته.

ركضا أمامنا فحاولنا اللحاق بهم. أطلقا صيحات عالية ثم وجدنا أننا أمام مجموعة فتيات صغيرات صرخن لما رأيننا وتوارين في الدغل كأنهن أفراخ. وسرعان ما دوى الوادي بصيحات عالية واندفع الأهالي نحونا.

عدد كبير جدًّا أحاط بنا، وقد بدت عليهم الاستثارة كأن جيشًا مسلحًا هو الذي دخل أرضهم.

اقتادونا إلى كوخ كبير من البامبو وأشاروا لنا كي ندخل. دخلنا المكان فألقينا بجسدينا المنهكين على الحشايا على الأرض.. سرعان ما امتلأ المكان بالناس، ومن لم يستطيعوا الوصول راحوا يختلسون النظر لنا عبر فجوات البامبو.

كان الغروب قد جاء لذا كان من الصعب تبين ملامح هؤلاء المتوحشين، لكننا كنا نرى الوشم على أجساد المحاربين. وقد

راح أول اثنين التقينا بهما يحكون للآخرين في حماسة ما حدث لهما معنا. كان هؤلاء القوم يشوحون بطريقة غير عادية..

بالقرب منا كان هناك ثمانية زعماء يراقبون المشهد. زعماء لأن هذا ما عرفناه بعد ذلك، وكانوا أكثر تحفظًا ووقارًا من الآخرين.

أحدهم بالذات ظل يراقبني في ثبات دون أن ينطق حرفًا ودون أن يرمش بعينه. نظرة غريبة جدًّا لم أرها في حياتي.. لا تكشف عن خواطر الرجل لكنها بالتأكيد تقرأ خواطري أنا.

شعرت بعصبية فأخرجت بعض التبغ من الكيس الذي أحمله لكنه لم يهتم به وأشار لي كي أعيده لمكانه. كان هذا مقلقًا لأنني أعرف أن هؤلاء القوم لا يقاومون التبغ أبدًا.

كنت متوترًا لذا سألت السؤال المصيري الذي يؤرقني:

. « تايبي أم هابار؟ »

أشرت للرجل وقلت (تايبي) فتكلم التمثال المعتم أمامي وقال:

. « تايبى.. »

قلت أنا بسرعة:

- « تايبى موتاركى.. »

يبدو أن هذا راق لهم.. فنهضوا وراحوا يرددون هذه العبارة بلا توقف. لقد راقت لهم مجاملتنا.

وضع الزعيم يده على صدره وحاول أن يشرح لي أن اسمه (ميهيفى). أشرت لصدري وأخبرته أن اسمي هو (توم). قال لي

(تومو) (توما).. (تومى)... ظل عاجزًا عن النطق الصحيح للاسم وفي النهاية صرت (تومو) وبهذا الاسم عرفت طيلة إقامتي هناك.

إن تبادل الأسماء لدى هؤلاء البسطاء يشبه معاهدات السلام، وهذا أراحنا كثيرًا. أشرت للزعيم أننا نرغب في الأكل والنوم، فأشار لأحد رجاله الذي عاد لنا بثمار جوز الهند مهشمة القشرة. ثم قدموا لنا البوبي بوبي المصنوع من نبات (الكلاباش) الذي لم أعرف كيف يمكن أكله. هذا الصنف يصنع من ثمار أشجار الخبز وله إلى حد ما مذاق غراء التجليد ونكهة حمضية. وهو لزج جدًّا يلتصق بكل إصبع. كنت مرتبكًا جدًّا لذا راحوا يضحكون من حيرتي. لكن الرجل الجائع لا يبالي طويلاً باللياقة لذا أكلنا ولوثنا وجهينا بالمادة اللزجة. وهو طعام ليس سيئًا ويمكن للأوروبي أن يتذوقه. بل إنني بعد أيام صرت مولعًا به.

عندما بدأنا نبدل ثيابنا كانوا مندهشين من بياض جسدينا المتناقض مع وجهينا اللذين لوحتهما الشمس بعد ستة أشهر من العمل على ظهر السفينة. تفحصونا بعناية بل بالغ بعضهم وراح يشمنا.

أمطرونا بالأسئلة عن الفرنسيين... وكان من الواضح أنهم يحملون لهم كرهًا عظيمًا، حتى إنهم ظلوا يكررون السؤال حتى بعد ما أوضحنا أننا لا نعرف الكثير.

بعد فترة بدأت المجموعة تتفرق.. وظللنا وحدنا مع من بدا لنا كساكن أصلي لهذا البيت. ومع تقدم الوقت أطفئوا المشاعل وتمددوا على الأرض وسرعان ما غابوا في نعاس عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

نام توبى بعمق لكن الألم الذي كنت أشعر به منعني من النوم. ثم كنت أشعر بقلق عظيم.. هل نكون بعد هذه المعاناة قد وجدنا أنفسنا في وادي التايبي؟

لا يوجد مجال للشك.. إجابة سؤال تايبي أم هابار واضحة.. نحن في موقف لا يمكن الفرار منه وهو ذات الموقف الذي كنت أرتجف هلعًا منه. ما مصيرنا المخيف إذن؟.. حتى هذه اللحظة عوملنا معاملة ممتازة وكرم ضيافة، لكن كيف تعرف المشاعر التي تتلاعب في صدر آكل بشر؟

هل يكون استقبالهم الكريم لنا نذيرًا بكارثة مروعة قادمة؟

غرقت في نوم عميق مع هذه الخواطر، وعندما فتحت عيني وجدت مجموعة من الأهالي تحملق في. كانت هناك فتيات كثيرات مزينات بالأزهار يرمقنني في فضول واستمتاع. كن لطيفات جدًّا خاليات من التصنع.. رحن يبعدن الذباب عنا وقدمن لنا الطعام..

برغم هذا اللطف فقد شعرت بصدمة لأنني شعرت بهن يخرقن قواعد اللياقة الأنثوية.

دخل الكوخ محارب مهيب الشكل منحنيًا، لكي يمر الريش الذي يغطي رأسه من الفتحة، وأدركت على الفور أنه شخص ذو حيثية. أفسح له الوطنيون الطريق. حول عنقه عدة قلادات من أنياب الحلاليف البرية مصقولة كالعاج. وفي أذنيه كان نابان من أنياب حوت العنبر. في يده اليمني كان يحمل رمحًا جميل الشكل

له طرف مدبب وطرف عريض مثل مجداف القارب. لكن أهم شيء في مظهره كان الوشم الذي رسمه على كل أطرافه.. وشم معقد وكثيف جدًّا يذكرك بالرسوم على الدانتيل. على وجهه كان شريطان من الوشم يلتقيان عند الحاجبين ويمتدان حتى الأذنين. جلس الرجل غير قريب منا.. بدا لي شيء مألوف في مظهره، ثم تذكرت أخيرًا أنه ميهيفي الذي كان يراقبنا ليلة أمس. لقد تغير كثيرًا وبدا لي أنه مسرور بما أحدثه مظهره البربري في نفسي.

كان مهتمًّا جدًّا بمعرفة كل شيء عن (الفراني) وهم الفرنسيون كما يسميهم. ثم أن حالة ساقى استلفتت نظره فنادى أحد مرافقيه. بعد قليل عاد المرافق مع رجل مسن يمكن أن يكون أبقراط نفسه. كان رأسه لامعًا، يتوكأ على عصا كأنها عصا سحرية مما يستعملها السحرة، وباليد الأخرى كان يحمل حزمة من أوراق جوز الهند.

حيا ميهيفي هذا الشيخ ثم أشار له ليجلس بيننا. جلس الشيخ وراح يتأمل ساقي ثم راح يفركها بقوة كأنه يعتقد أن ساقي فقدت الإحساس. حاولت المقاومة لكنه تمسك بها كأنها شيء كان يبحث عنه منذ زمن، بينما أبقاني ميهيفي مكاني كانه أم ترغم ابنها على الجلوس في كرسي طبيب الأسنان. في النهاية أرخى قبضته فسقطت فاقد الرشد مبللًا بالعرق من فرط الألم. راح معذبى ينزع أعشابًا من نطاقه ويبللها بالماء ثم يضعها على ساقي.

نهض ميهيفى ليرحل لكنه قبل ذلك كلم أحد الوطنيين ويدعى كورى كورى. أعتقد أنه أوصاه بالعناية بي. كان هذا الأخير رجلًا متين البنيان في سن 26 عامًا له رأس حليق تمامًا باستثناء دائرتين في حجم الدولار قرب أعلى الرأس. هناك

استطال الشعر جدًّا فتم عقده في عقدتين، مما جعلك تشعر أن له قرنين. أما لحيته فكانت طويلة تتدلي حول شفتيه وأسفل عنقه. كما أنه صنع خطين من الوشم بالعرض على وجهه. لهذا كنت تشعر طيلة الوقت كأنه رجل بائس ينظر لك من خلف قضبان سجن. قد يبدو هذا الكلام مسيئًا للرجل، لكني أقول لك أي كورى – كورى إنني حي بفضلك وبفضل خدمتك المخلصة لي.

كان والد كورى كورى شيخًا غريب الأطوار يدعى مارهيو. وقد علمتنا الأيام أنه رجل خدوم. أما الأم فكانت ترعى دارها جيدًا.. لم تكن تجيد صنع الجيلي والمربي وكعك الشاى، لكنها كانت خبيرة في إعداد الأمار والبوى بوى والكوكو. كانت سيدة مشغولة لا تكف عن الحركة وتفعل كل شيء بنفسها. تراها جالسة إلى الموقد تطهو البوى بوى.. أو تخرج للغاب ثم تعود بحزمة معينة من أوراق تريد طهيها تضعها تحت إبطها فلا تقدر امرأة أخرى على هذا الحمل. كانت تعمل كأنها تحت وسواس مستمر يرغمها على التعب. وكانت تعنى بي فعلًا كأنها أم.

كان هناك كذلك في الكوخ ثلاثة ذكور لا يصلحون لشيء.. لا يفعلون سوى مطارحة بنات القبيلة الحب، أو السُّكر والعربدة بالخمر المحلية، أو تدخين الطباق مع عينات أخرى مثلهم.

كانت هناك كذلك فتيات رقيقات لكنهن لا يقضين الوقت في عزف البيانو، بل في عمل أشياء بلحاء شجر التوت. وكن يثرثرن بلا توقف. يجب أن أذكر هنا اسم العذراء فاياواى.. كنت أميل لها بشكل خاص، خاصة أن وجهها وقدها كانا الأجمل..

خاصة مع لون بشرتها الزيتوني الجميل الذي يمتص الشمس امتصاصًا.

عندما كانت تضحك كانت شفتاها المليئتان تكشفان عن أسنان كالعاج ناصع البياض. عيناها زرقاوان غريبتان تبدوان غامضتين عندما تشرد.. لكن عندما تحس بعاطفة ما تلتمعان كالنجوم. كانت يداها ناعمتين كأنها كونتيسة غربية، لا تحملان آثار العمل الشاق. وكانت قدماها برغم حفائهما دقيقتين نظيفتين دومًا. بوسعي أن أصف فاياواي لكن ليس بوسعى وصف الانطباع السار العام الذي تبعثه حولها. لقد نجت نوعًا من فظاعة فناني الوشم هنا، لأنهم وجدوا أنه لا داعي لإظهار مهارتهم بنفس الطريقة التي يظهرونها مع المحاربين. فقط ثلاث نقاط دقيقة على كل شفة. وكعادة بنات الجزيرة كانت تعتبر الأزهار نوعًا من الجواهر فلا تتحلى إلا بها. وكان هذا يناسبهن أكثر من أي جواهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

كان كورى كورى يعنى بى بشدة، وأرغمني على الأكل بأن يدس الطعام في فمي دسًّا بيده.. حاولت المقاومة فلم أستطع. ثم وضعني على حشية وغطاني وقال لي:

- « كى نويى نويى.. مويى مويى مورتاكى ». أى (كل كثيرًا ونم بعمق).

لقد بدأ ألم ساقى يزول وكنت منهكًا بعد سهر عدة أيام، لذا غبت في النوم فورًا.

أما عن التنقلات فقد كان كوري كوري يصر على أن يحملني على كتفه. وقد أصر على أن يغسلني في نبع الماء بنفسه كأنني طفل صغير.

في اليوم التالي تلقينا زيارة أخرى من ميهيفي المهيب. جلس بعض الوقت ثم طلب مني ومن توبي أن نلحق به. هكذا حملني كورى كورى كأنني ذلك الشيخ الذي ركب على كتفى السندباد في القصة.

رحنا نمشي في طريق غريب.. يبدو أنه أهم طريق في الجزيرة لأن طرقًا عديدة كانت تتجه له.. برغم هذا بدا وعرًا فعلاً. الطريق يدور حول بعض الصخور البارزة، وأحيانًا يلتف حولها.. تمشى فوق أشجار ضخمة مهشمة عبر الطريق.. تحنى رأسك لتفادي الأشجار..

كان كوري كوري يلهث تحت ثقلى، فطلبت أن أترجل وتوكأت على عصا ميهيفي ومشيت بنفسي.

دنت الرحلة من نهايتها إذ رأيت مشهدًا يصعب أن أصفه بالكلمات.

هنا كانت الأماكن المحرمة في الجزيرة.. موضع طقوس شنيعة تمت.. موضع ولائم عديدة أقيمت. تحت أشجار الخبز كانت هناك ظلمة.. ظلمة تشبه المحراب. رائحة العبادة الوثنية في كل مكان.

وسط هذه الظلال انتصبت الأصنام التي يعبدها هؤلاء المتوحشون. بنيت من حجارة سوداء ضخمة. وهناك بقايا متحللة لوجبة من جوز الهند وثمار الخبز.. مع بقايا لأضحية قريبة.

وكانت هناك أرضية الهولا هولا.. حيث تمارس العبادات الوثنية.

هذه البقعة المقدسة كانت تحميها مراسم معقدة. كانت تابوو حقيقيًا.. وكانت الأنثى التي تدنس هذا المكان أو تدخله تعدم فورًا.

كان هناك كذلك صرح كبير من الصخور وأشجار جوز الهند، هو بيت للكهنة..

تقدمنا ميهيفى. وحتى هذه اللحظة كنا نمشى وسط مجموعة من الوطنيين لكن في هذا المكان تراجعت النساء عن الحشد. هناك قوانين تابو صارمة تحمى هذا المعبد من الدنس الذي تجلبه الأنثى.

على جدران المعبد كان حشد رائع من الرماح والهراوات واندهشت لوجود ثلاث بنادق عتيقة. لابد أن هذه ترسانة

القبيلة.

هنا قابلنا أربعة مسنين يبدو أن الزمن والوشم أفقداهم كل لمسة إنسانية. محاربو القبيلة يتم وشمهم مبكرًا ومع الزمن يصير لونهم أخضر متجانسًا.. بالإضافة لهذا كان جلدهم شبيهًا بالقشور. لكن أغرب شيء كان أصابع أقدامهم.. كأنها خطوط قطرية في بوصلة. لم يبد أنهم لاحظونا.. بينما ركع ميهيفي على ركبتيه أمامهم. وراح كوري كوري يقول كلامًا غير مفهوم.

دارت مأدبة حافلة ثم اشتعل الغليون. ومر من فم لفم. وبدأ التبغ مع الشبع يجعلان رأسينا يثقلان.

صحوت في منتصف الليل لأجد أن الظلام الدامس يحيط بنا.

شعرت بالخطر فأيقظت رفيقي توبى وتهامسنا بسرعة محاولين فهم رحيل الوطنيين فجأة من حولنا.

قال توبى:

. « ذهبوا يشعلون النار.. »

. « أي نار؟ »

. « النار التي سيطهوننا عليها طبعًا.. لا يوجد سبب آخر ليشعل أكلة لحم البشر النار.. »

. « كف عن نكاتك السخيفة ».

. « بالعكس.. لو فكرت جيدًا لوجدت كلامي منطقيًا ولفهمت لماذا يطعموننا بهذا الكرم. ألم تر كيف يحشوك كورى

كورى بالطعام؟.. واضح أنهم سيشوونا الليلة ».

كنا بالفعل تحت رحمة قبيلة من أكلة لحوم البشر.. واحتماله غير مستبعد فعلاً.

هنا جاء صوت ميهيفي المهيب الهادئ فزالت مخاوفي. كان يقول:

. « تومو.. توبى.. كى كى (كُلا) ».

كان هناك متوحش آخر يحمل قدرًا من الخشب فيه لحم يتصاعد البخار منه. وضعه عند قدمى ميهيفى.

قال توبى:

. « هل هذا طفل مسلوق إذن؟... أنا مجنون إذ أمشي بقدمي إلى مجموعة أكلة لحوم بشر. لكن سوف أريهم.. لن آكل حتى أهزل وأصير كومة من عظام لا طعم لها ».

دس كورى كورى قطعة لحم في فمي فرحت ألوكها.. كان طعمها طيبًا كأنه لحم عجل.

. « لا توجد ماشية على الجزيرة.. أؤكد لك أنك تلوك لحم طفل من الهابار... تأكد من هذا ».

شعرت بتقلص في معدتي. من أين يحصل هؤلاء على ماشية؟

نظرت للزعيم مشيرًا بأنني أرغب في بعض الضوء. عندما جاء مشعل تأملت الوعاء بدقة فوجدت بقايا خنزير صغير. وعرفت أن اسمه عندهم (بواركى).

في الصباح فكرنا في الرحيل. لكن الزعيم استوقفنا رافعًا يده وقال (آبو آبو) أي (انتظرا.. انتظرا)..

ثم عرفنا أنه سيرسل معنا نوعًا من حرس الشرف أثناء عودتنا لدار الضيافة. والأهم أنهم حملوا معنا الكثير من الطعام.. واضح أن ميهيفي يرسل معنا المزيد من الطعام لكورى كورى حتى لا تثقل عليه مئونتنا.

ومن جديد تحرك موكبنا عائدًا، تحف بنا الفتيات المغنيات.. وعدنا للبيت الذي كنا نقيم فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

ظل السؤال يؤرقني عن سبب السمعة السيئة التي يحظى بها التايبي. ربما هم أكلة لحم بشر لكن لا أعرف أشخاصًا أكثر رقة وضيافة وتحضرًا منهم في المحيط الهادي كله.

برغم هذا ظللت راغبًا في الابتعاد عنهم.. وفي الفرار من الموت الذي يترصد بي وراء هذه الوجوه الباسمة.

كانت حالة ساقي تتدهور.. وبرغم الأعشاب التي أتعاطاها. كانت أعشابًا تخفف الألم لكنها لا تشفى. لابد أن علاجي مع الأطباء الفرنسيين في خليج نوكوهيفا. لكن كيف أصل لهم؟

طلبت من توبى أن يقصد الخليج هو.. لو استطاع أن يعود لي ببعض الفرنسيين يأخذونني معهم فيها، وإلا فليجلب لي بعض الدواء.

كان هو راغبًا في الفرار بشدة.. يخشى تبدل موقف الأهالي تجاهنا. كان كذلك يرى أن الفرنسيين لن يرسلوا رجالًا معنا.. لن يخاطروا بهذا خاصة أن سمعة التايبي سيئة، وسوف يفهمون أن هذه حرب. كان منطقه قويًا لكنني أقنعته في النهاية.

نجحنا في إقناع الأهالي بنيتنا.. عارضونا بقوة حتى يئست من نيل موافقتهم. كان كوري كوري لا يصدق أننا بعد ما عرفنا التايبي المتحضرين يمكن أن نذهب لنوكوهيفا. في النهاية وافقوا على أن يرحل توبي في الصباح ومعه اثنان من الأهالي كى يخبراه بأقصر طريق آمن.

في الصباح ودعت صديقي في تأثر فقال لى إنه سيعود خلال ثلاثة أيام على الأرجح. شعرت بوحشة بالغة لدى رحيله.. ورقدت لأنام شاعرًا باليأس.

بعد ساعتين عاد المحاربان وأخبراني أنهما أوصلا صاحبنا لأبعد نقطة ممكنة وشرحا له طريقة السير.

عند العصر نمت في الكوخ وأنا أشعر بالصمت من حولي.. ثم صحوت على صوت صرخة..

تعالى الصوت أكثر فأكثر.. هرع الرجال يرون ما هنالك.. وكان كورى كورى أول من خرج. ثم عاد لي منقطع الأنفاس.. لم أفهم منه سوى أن حادثًا حدث لتوبي.

اندفعت للخارج فوجدت زحامًا من القوم يحملون في أيديهم شخصًا. بينما راحت الفتيات يصرخن ويطوحن أذرعهن في الهواء:

. « أوها.. أوها.. توبى موكى موبى! (واحسرتاه.. لقد مات توبى) ».

دنوت من الجسد فاقد الحركة.. وجهه وصدره مغطيان بالدم تمامًا وهذا من جرح في صدغه. ثم حملوه إلى الكوخ.

أشرت لهم كي يبتعدوا.. انحنيت على توبى ووضعت يدي على صدره فشعرت بخفقات قلبه. في طرب سكبت وعاء ماء على وجهه ومسحت الدم وتفحصت الجرح.. بدت تحته الجمجمة عارية تمامًا. غسلت الرأس جيدًا بالماء هنا فتح توبي عينيه.. وبدأ يشرب من نصف جوزة هند وضعتها تحت شفتيه.

بعد ثلاث ساعات أفاق لدرجة تسمح له بأن يحكى ما حدث له.

قال توبى إنه ذهب مع الدليلين عبر المرتفعات.. وفي نقطة معينة توقف الدليلان وقالا له إنهما لا يستطيعان التقدم أكثر بأن هذه بيوت الهابار.. عليه أن يتقدم وحده..

مشى وحده فقابل ثلاثة من سكان الجزر.. لابد أنهم من وادي الهابار. كل منهم كان يحمل رمحًا ثقيلاً..

- « قالوا شيئًا لم أفهمه. تقدمت منهم ضاحكًا وأنا أمد يدي. فتكلم أحدهم في غضب وهو يشير لأرض التايبى ثم طوح بالرمح فسقطت أرضًا. هذا سبب لي هذا الجرح وفقدت الوعى للحظة. استعدت وعيى فكان أول ما خطر لي هو أن أركض هاربًا.. وهكذا نهضت وواصلت الفرار بينما أسمع الصراخ من خلفي، والدم يسيل على عيني فيعميني. مر رمح هائل جوار أذنى... وانغرس في شجرة جواري. رحت أهبط الوادي وأدركت أنهم لا يجسرون على اللحاق بي لأنني دخلت في أرض التايبي. لا أفهم سبب هذه الشراسة من الهابار إلا لو كان لأنهم رأوني أتيًا من منطقة التايبي.. تحاملت على نفسي لأقترب من موضعكم.. وفي النهاية لم أعد أستطيع التحمل أكثر فسقطت أرضا ».

شعرت بصعوبة موقفنا.. كان الفرار مستحيلاً من هذه القبائل المتوحشة إلا عبر البحر..

قال لنا كورى كورى:

. « هابار كيكنو نويى.. كيكى.. كاناكا.. (مرعبون هؤلاء الهابار.. يأكلون الكثير من الرجال) ».

ثم راح يمتدح التايي وكيف أن الخير وافر عندهم فلا جوع ولا معاناة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

كنت في حالة يأس من العودة للعالم الخارجي، فجاء توبى يخبرني باقتراب قوارب من الجزيرة.

عمت الفوضى بين الأهالي وراحوا يستعدون.. الفتيات يتزين بالأزهار والرجال يعدون الفاكهة والثمار التي سيقومون بمبادلتها مع القادمين. فوضى في كل مكان. وهناك من يركضون يمينًا ويسارًا لا يفعلون شيئًا سوى إعاقة الآخرين.

هذه اللهفة تدل على أن هذا حدث نادر، ومعنى هذا أن فرصة الهرب سانحة وقد لا تعود.. لكن كيف أذهب للشط بحالة ساقي هذه؟

وبدا لي أن كورى كورى غير راغب بتاتًا في السماح لي بالذهاب.. ولن يحملني أبدًا. يبدو أنه ينفذ تعليمات من هو أكبر منه. طلب منى توبى أن أهدأ وأتماسك حتى لا أثير شكوك الوطنيين، وقال لي إنه سيحاول أن يصل للشاطئ ويحاول أن يجد نجدة لنا.

هكذا رحل الجميع وبقيت أنا أنتظر متسليًا بمنظر القوم وهم يهرعون لمقابلة القوارب.

عادوا عند الغروب.. فخرجت أراقب موكبهم.. رحت أبحث بعيني عن توبي وتوقعت أن يكون مع الحسناء فاياواي. لكنه لم يظهر..

شعرت بهلع شديد ورحت أبحث عن تفسير لاختفائه. لم أظفر سوى بإجابات متناقضة.. فهمت من البعض أنه سيعود

حالًا.. والبعض قال إنه لا يعرف أين هو. هنا وجدت فاياواي التي أحبها فعلًا.. ليس لجمالها فقط.. بل لأن روحها ذكية حساسة. كانت تعنى بي أثناء مرضى وأرى في عينيها حساسية ورفقاً شديدين.

جاءت تقول لي:

. « أوها أوها.. تومو.. »

ثم جلست جواري.. أدركت بوضوح مدى قلقى وتوترى. قالت لي أن توبي قد رحل مع القوارب التي جاءت ووعد بأن يعود بعد ثلاثة أيام. اتهمته بالجبن والنذالة أولًا، ثم قلت لنفسي إنه سيعود حتمًا.. ربما يرتب لعودتي إلى نوكوهيفا.. ربما يعود لي بالدواء.

ظللت أنتظر ثلاثة أيام.. أعد كل لحظة.. سوف يعود غدًا...

لكن الغد جاء ولم يأت..

هكذا وقعت في حيرة.. هل تخلى عنى بكل جبن وتركني لمصيري؟.. أم هو سجين في مكان آخر من الجزيرة؟

اندهشت من كون الأهالي يتجنبون أي إشارة له في كلامهم. وإن ذكروا له سيرة فقد كانوا يتحدثون عنه باعتباره الوغد الذي ذهب إلى نوكوهيفا.

ازدادت عناية القوم بي، ولم يكن كوري كوري يتركني أبدًا، وكان يصمم على حملي إلى البركة ليحممني بنفسه يوميًا. ثم أرقد على الضفة مغطيًا وجهي بقطعة شاش فتجلس فاياواى جواري تحرك مروحة من ورق شجر جوز الهند.

هناك في البحر تقف عذراء حسناء تحك ثمار جوز الهند بشعاب مرجانية، وهذا لتجعلها أرق.. عندما تنتهى تصير أقرب لبلورة زجاجية رقيقة صالحة للشرب فيها.

في المساء تلتف حولى الفتيات ويبعدن كورى كورى، ثم يقمن بأيديهن الرقيقة بدهان جسدى بزيت نباتى عطرى اسمه عندهن (أكا).. هكذا جمعت بين جمال المنظر وحسن المعاملة.. وساعد هذا على جعلى أنسى ما شعرت به من وحدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

كان الطعام جيدًا وكانوا يحاولون تنويعه لي، لكن لم يكن هناك ملح لدى القبيلة لهذا كان معظم الطعام بلا مذاق. وكانت الفتيات يقصدن البحر ليجمعن بعض الملح لي ثم يأتين به على أوراق جوز الهند ويضعنه في وسط الكوخ لأتذوقه.

كان الملح ثمينًا لدرجة أنني أعتقد أنه يمكنك بمكيال واحد من ملح الطعام العادي شراء كل أملاك التايبي. يكفيك بعض الملح في يد وثمرة خبز في اليد الأخرى لتصير من أثرياء التايبي.

سوف أحكى لك ما هي ثمار الخبز هذه، شجرة الخبز شجرة ذات أوراق كبيرة يستعملها الأهالي كأغطية للرأس. الثمرة نفسها قريبة من البطيخ عندنا.. لكنها غير مخططة من الخارج. بداخلها قلب أبيض صالح للأكل كله. لكن لابد أن يتم طهيه على النار. أسهل طريقة هي وضع الثمار على النار كأنك تشوى البطاطا.. بعد قليل تنفجر القشرة وتتقشر لتجد بداخلها ما يشبه الخبز اللذيذ، وله رائحة رائعة.

أحيانًا يلقون بالثمرة في ماء بارد ويقلبون الخليط ويسمونه (بواشو).. لم أحب هذا الخليط قط. هناك طريقة أخرى لها مذاق جدير بالملوك، واسمها (كوكو). هناك طريقة تدعى (بوى بوى) وهي تشبه الجيلي.

ثمار الخبز قابلة للتخزين، وهذه نقطة مهمة. لأن الأشجار لا تعطى ثمارها أحيانًا.. ولو لم يمكنهم الاحتفاظ بمخزون لماتوا جوعًا. كانت أشجار الخبز في أزهى وأفضل حالاتها في جزر الماركيز.

- - - -

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت ألقى أفضل معاملة فعلًا.. ولكني وسط هذا الكرم كنت قلقًا أشعر بالحنين. الحقيقة أن اختفاء توبى المريب أقلقني. ثم كنت أتذكر أن هؤلاء القوم الكرماء ليسوا في النهاية سوى أكلة لحوم بشر.

النقطة الأخرى هي حالة ساقي المقلقة. علاج هؤلاء القوم لا يجدي، لكن حالتها تسوء منذرة بأخطر العواقب. هكذا من المستحيل أن أهرب. وقد حدث أكثر من موقف ابتعدت فيه فبحث عنى المتوحشون وأحاطوا بي مكشرين عن أنيابهم.. هكذا فهمت الحقيقة: أنا أسيرهم.. حقيقة مفزعة لكنها حقيقة.

مرت الأيام ولم يتبدل سلوك أهل الجزيرة تجاهي..

فقدت متابعة أيام الأسبوع... وغبت في غيبوبة طويلة سببها اليأس.

بدأت ساقي تتحسن مع الوقت وتلاشي الورم. وأدركت أنى سأشفى بسرعة. كنت أجول في الجزيرة محاطًا بالوطنيين حيث ألقي أفضل استقبال في كل مكان.. عذارى سوداوات العيون يضحكن لي. لكن كلما اقتربت من البحر كانت محاولات المنع تبدو جلية كالشمس.. لم يسمحوا لي بأن أكون وحدى قط..

برغم كل شيء كنت أشعر أنني أعيش في الوادي السعيد. ربما لم يكن هناك خلف هذه الهضاب الخضر سوى عالم من القلق والتوتر.

لقد جبت الجزيرة جيدًا وصرت على علم بحياة هؤلاء القوم. وخطر لي أن البولينزيين بالتأكيد أسعد من الأوروبيين في نواح

كثيرة.. هذا الرجل العاري الباحث عن الطعام يجد كل ما يرغب فيه وكل رغباته.. فماذا يمكن أن تضيفه الحضارة له؟ ربما تعمق فكره أو توسع مداركه.. هذا كلام سهل محفوظ.. لكن هل تجعله أسعد؟

عليك أن تزور جزر هاواى لترى ما صار له القوم هناك، وكيف انتشرت بينهم الأمراض السرية.. سوف يذهب المرء هناك فيتسائل: هل هذا حصاد خمسة وعشرين عامًا من التنوير؟

صحيح أن التايي أكلة لحم بشر، لكنهم يفعلون هذا فقط مع أعدائهم وعلى سبيل الانتقام.. وحشية؟.. ألم نقطع نحن في إنجلترا رأس رجل اتهم بالوطنية أو الفلسفة؟ ألم نجره ونلق بجسده في النار ثم نعلقه ليتعفن ويراه الناس؟

أسلحتنا المخيفة.. كل هذا يجعل الرجل الأبيض جديرًا بأن يكون أشرس مخلوق عرفته الأرض. ولهذا أعتقد أننا في الولايات المتحدة قد نحتاج إلى أربعة أو خمسة مبشرين من جزر الماركيز ينشرون حضارتهم بيننا.

هؤلاء البدائيون يجب أن يشكروا الله على ما أعطاهم من صحة، فليست لديهم أمراض على الإطلاق هنا.. لم أر شخصًا سقيمًا واحدًا أو أرى على جلودهم بقعة واحدة.

كنت قد قضيت في الجزيرة فترة طويلة، لكني لم أر قط حروبًا بين هؤلاء التايي وبين خصومهم الهابار. وهذا برغم أن التايي لم يخفوا لحظة كراهيتهم العنيفة للهابار. لم يحدث قط اشتباك بين الشعبين.

على كل حال كنت قد بدأت أشك في كل القصص عن شراسة التايي. قلت لنفسي أن هذه القصص خرافات. لقد ظفر هؤلاء القوم بسمعة سيئة عن غير حق.

لكنى كنت على خطأ..

عرفت هذا ذات يوم رقدت فيه في ذلك الصرح المقدس الخاص بهم. فجأة صحوت على صراخ مريع ففتحت عينى لأرى مجموعة من الأهالي تحمل الرماح وتندفع.. ومن خلفهم نهض بعض الزعماء الراقدين بقربي.

وسمعت صرخة:

.« هابار.. هابار ».

ثم سمعت صوت طلقة بندقية عتيقة.. تعالى الصراخ والضوضاء ولابد أنهم أطلقوا عشرات الطلقات من تلك البندقية العتيقة. ثم ساد الصمت وتوقف صراخ النساء بعض الوقت..

ظللت أصيغ السمع.

لمدة ساعتين لم يكن هناك صوت جديد.. لا صوت سوى طلقات من الغاب من حين لآخر. وكان كورى كورى وبعض الشيوخ يقفون جواري دون أن يبدو عليهم ما يشير لشيء غريب.

كانت البنادق عتيقة جدًا تذكرني بمدافع السلطان سليم على أسوار القسطنطينية.. بعضها يحتاج لساعة كي تعمره وتطلقه.

هنا جاء أحد المحاربين ليزف بشرى النصر العظيم:

. « هابار بوو أرفا ». (لقد فر الجبناء)

طرب كورى كورى للخبر كثيرًا وهلل.. قال إنه كان يتوقع ذلك وإنه من المستحيل على جيش من أكلة النار أن يحاربوا أبطال وادينا. عندما عاد المحاربون أدركت أن ثمن النصر كان فادحًا بين قتيل وجريح ومن فقد إصبعه وجاء به معه، وحتى القائد نفسه كان ينزف بغزارة من فخذه بسبب ضربة رمح. لا أعرف كم فقد الهابار لكنهم بالتأكيد استطاعوا أخذ أسراهم معهم.

ترى لماذا لم يغز ميهيفي وادي الهابار؟.. لماذا لم يسط عليهم ويأتي بمغانم منهم..؟ مغانم من النوع الذي يؤكل والذي يميز كل احتفالات النصر هنا كما سمعت.

لمدة يومين ظل الناس يتكلمون عن هذه المناسبة.. ثم بدأ الناس ينسون وبدأ الهدوء يعود للوادي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

رحت أحاول الاستمتاع بوقتي قدر الإمكان.. مثلًا كنت أسبح في البحر مع مجموعة من حسناوات الجزيرة في كل يوم. بينما الطبيعة الجميلة تمتد على مرمى البصر، وتجرى المياه بين أشجار النخيل.

وفي يوم جاء كورى كورى بقارب ورحنا نشق به المياه الهادئة.. لاحظت هنا أن الفتيات عرائس البحر لا يلحقن بنا. هذا جعل رحلاتنا مملة كئيبة..

قلت لكورى كورى إننى راغب في أن تسبح الفتيات معنا، فقال في حزم:

. « تابوو.. تابوو ».

وهنا فهمت.. الفتيات لا يجوز لهن الاقتراب من القارب لأنهن تابوو.

لكني كنت راغبًا في أن تركب فاياواي معنا وتبحر معي عبر البحيرة. أثار هذا الطلب ذعر كوري كوري.. تصرف كأن هذا شيء مخيف لا يمكن التفكير فيه. كان هذا يخالف كل معتقداته الدينية.

طلبت نفس الطلب من الزعيم ميهيفي، ففكر بعمق ثم انغمس في حديث طويل لم أفهم منه شيئًا.. كان يتكلم عن التابوو طبعًا.. كان الأمر يبدو لي منطقيًا... لماذا لا تملك المرأة الحق في ركوب القارب مثل الرجل؟ لماذا تسبح هذه

المخلوقات اللطيفة كالبط بينما يعتلى القارب رجال أشداء يقدرون على العوم؟

لا أعرف الفتوى التي منحها له الكهنة.. لكنهم وافقوا فعلاً على أن تركب فاياواي القارب. ويبدو أنني وضعت المثال الثوري الأول الذي سيحذو الأهالي حذوه.

من ناحيتي صنعت لفاياواى ثوبًا جميلاً من بقايا قماش بقيت معي من السفينة.. وقد بدت فاتنة في هذا الثوب، أذكر هذا اليوم جيدًا لأننى قابلت فيه شخصًا جديدًا، كنت نائمًا في الكوخ عندما سمعت ضوضاء بالخارج.. اندفع الشيخ في حماسة للخيمة وزف لي البشائر:

- « مارنو بيمى ».

معنى هذا أن شخصًا يدعى مارنو يقترب..

قالها ووقف في حماسة ليراقب انفعالي. لكني لم أبد أي انفعال. لابد أنه شخص مهم من الضوضاء التي يحدثها الوطنيون. شعرت ببعض الغيرة بسبب ابتعاد اهتمامهم بى، وقررت على سبيل الانتقام أن أعامل هذا المارنو ببعض البرود.

هنا رأيت الرجال قادمين مع أغرب عينة بشرية تفكر فيها.

كان في الخامسة والعشرين.. طوله معتاد.. حليق الوجه جميل المحيا حتى أنه يصلح ليكون أبوللو البولينيزيين. كان شعره ينحدر على كتفيه في جدائل بنية. ولم يكن في وجهه أى وشم. لكن باقي الوشم على جسده كان مرسومًا بإتقان رائع. أجمل عمل فني رأيته عند التايبي.

تقدم وسط الوطنيين وهو يحمل قطعة قماش تحت إبطه ويحمل باليد الأخرى رمحًا. بدا كمسافر يعرف أنه سيبدأ جزءًا ممتعًا من رحلته.

عرضت عليه أن يجلس جواري لكنه تجاهل دعوتي بلا لياقة واتجه إلى ركن المكان ليجلس. تحرك فضولي بشدة لمعرفة من هو هذا الرجل المهم.

قدمت له الزوجة البوى بوى فراح يجرعه وسط نظرات الوطنيين المخلصة له، بالفعل شعرت بغيرة وبأن عصر تومو قد انتهي.

أنهى الشراب فأخذ بعض أنفاس من غليون قدموه له..

راح يتكلم.. بالطبع لم أفهم أكثر كلامه سوى كلمتى (نوكوهيفا) و(فرانى).. هكذا فهمت أنه يتكلم عن أشياء حدثت في الأيام الماضية. كان يتحدث في طلاقة ويؤثر بقوة في الناس.

يعرف التايي أن سمعتهم السيئة واسمهم المخيف قد حمياهم من اعتداء الفرنسيين حتى اللحظة.. كانوا يصغون له بعيون لامعة كأنها كلمات نبي ملهم.

طيلة الوقت لم يبد أنه لاحظني.. تجاهل تام حيرني. الغريب كذلك أنه لا ينتمي لهذا الوادي.. إذن كيف لا يفتك به التايي؟

نهض وهو لا زال يتكلم ولا ينظر لي.. ثم جلس جوارى. شعرت بدهشة بالغة.. ودهشت أكثر عندما التفت لي وقال:

- « كيف الحال؟.. هل تحب هذا الساحل؟ »

كانت دهشتى بالغة.. لكني بعد ما استرجعت وعيى فكرت أن هذا الفتى يمكن أن يخبرني بمصير توبى، وهو ما بدا أن المتوحشين يخفونه عنى.

لم يبد على علم بالأمر، وقال إنه جاء من نوكوهيفا. سألته عن سبب عدم إيذاء التايي له فقال:

. « أنا تابوو.. أذهب لكل مكان.. لا أحد يؤذيني.. أنا تابو ».

تذكرت أن بعض الناس في هذه الجزر يصيرون تابوو ويسمح لهم بالتنقل بين القبائل المتحاربة.

سألته عن كيفية تعلمه الإنجليزية فحكى لي إنه في طفولته وقع أسيرًا على ظهر سفينة أجنبية لمدة ثلاثة أعوام. سألته عن سبب عدم كلامه معي من قبل. قال إنه كان يحاول أن يثير دهشتي وحيرتي. حكيت له عن قصتي بدورى فأصغى باهتمام.. لما وصلت إلى الجزء الخاص باختفاء توبى غير الموضوع سريعًا لسبب غير مفهوم. لماذا يخدعونني؟.. آثار هذا قلقى على مصيري. فكرت جديًّا في أن أضع نفسي تحت حمايته وأعود معه إلى نوكوهيفا لكنه قال إن هذا مستحيل.. قال إن التايي لن يتركوني أرحل.

هذا أثار هلعي.. أنا في سجن رائع الجمال لكنه سجن، ومن الواضح أن مصيرًا مروعًا ينتظرني. ثم ألم يعامل التايي توبي بذات الرقة واللطف من قبل؟

عرض فكرتي عليهم فقوبل بوابل من الكلمات الغاضبة والشتائم كما هو واضح. دق قلبي في رعب وقد تأكدت فعلًا من حقيقة الوضع. بدا أن حصانة التابو لا تعمل هنا.

وسرعان ما أشار له ميهيفى كى يبتعد ويجلس في الركن القصى ولا يتكلم معي ثانية. جلس وسط الوجوم وراح يحاول أن يسلى القوم ويحكى لهم كما كان من قبل، ثم وجد أنهم واجمون غير متحمسين.. بعد قليل جمع عباءته والتقط رمحه واتجه لباب الكوخ.

راقبته وهو يختفي ثم غبت في خواطري القلقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

ذات يوم اندفع مارهيو الشيخ للغرفة بنشاط غير مسبوق. لم أفهم ما يدور في خلد الرجل.. إلى أن اتجه ليشير إلى قدمي.. ثم إلى حزمة تتدلى من سقف الكوخ فوق رءوسنا. ثم فهمت ما يريده فأشرت له كي ينزل الحزمة.

نفذ الأمر بسرعة البرق وفك قطعة القماش.

خلعت حذائي العتيق البالي وناولته له.. فهو لم يعد يصلح لشئ.

عصر ذلك اليوم جاء هذا المحارب الشجاع للكوخ بمشية ثابتة يحمل رمحًا.. وفي عنقه كان يتدلى الحذاءان كأنهما قلادة.. ومنذ ذلك اليوم صار الحذاء جزءًا مهمًّا من زينته.

هكذا مضت الحياة رتيبة في الوادي. أصحو صباحًا في ساعة متأخرة حيث تلقي الشمس أسهمها الذهبية فوق جبال الهابار. أتجه للنهر مع فاياواى وكورى كورى.. نستحم ونعود ويدي في يد فاياواى شاعرين برضا تام عن الكون. سرعان ما تعد وجبة الصباح.. الأهالي يقتصدون في وجبة الصباح ويفضلون أن تكون الوجبات الدسمة لباقي اليوم. التهم بعض البويى بويى ثم قطعة من فاكهة الخبز المشوية. بعدها موزتان وتنهى الوجبة بشرب ثمرة جوز هند. يتم تناول الإفطار في جلسة جماعية تتخللها محادثات للتسلية.

بعد هذا تشتعل الغلايين. لما ينتهى التدخين يعود مارهيو للكوخ الذي يبنيه للأبد. الزوجة تعود لتفقد نسيجها.. والفتيات

يدهن شعرهن بالزيوت. بينما يعكف الشباب على العناية برماحهم. البعض يعود للنوم على الحصير بينما يذهب آخرون للدغل لجمع الألياف وأوراق الشجر. بالواقع لم يكن هؤلاء القوم بحاجة لشيء يشغل وقتهم.. عندهم دائما ما يشغلهم.

عند الظهيرة يأتي وقت القيلولة.. والغالبية ينامون في تلك الأراجيح المعلقة بين الأشجار، وتستمر ساعة ونصفًا ثم ينهضون لأهم وجبة في اليوم. هذه الوجبة كانت تحوى لحم الحيوانات.

كنت أقضى وقتًا طيبًا في مكانهم المقدس الذي يسمونه (تى).. كان محرمًا على النسوة لذا كنت أجلس هناك مع المحاربين، والمكان أقرب إلى ناد لعزاب القبيلة على كل حال. يأتي المساء فنعود للمكان قرب الدغل ويبدأ الغناء وترقص الفتيات في ضوء القمر. الرقص لا يشارك فيه الرجال، وفيه تحرك الفتاة كل جزء من جسمها بلا توقف، وهن مغطيات بالورود والريش حتى تشعر أنك ترى سربًا من البجع.

بعد هذا ينام الجميع.. لم أر في حياتي من ينام بهذا العمق ويقضي ساعات بهذا الطول، ولعل هذا سبب قوتهم الطبيعية ولياقتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات يوم كنت أقصد التاي فوجدت استعدادات واسعة لشيء ما.. يبدو أن كرنفالًا ما كان في الطريق. كان الوطنيون يركضون ذات اليمين واليسار. كانوا يعدون أوعية كبيرة من البويي بويي.. ويجرون خلف الخنازير البرية. سمعت صوت صراخ حاد فهرعت لأرى ما هنالك.. وجدت أنه خنزير بري كبير

يرغمه عدد من الأهالي على أن يرقد أرضًا. وكان هناك رجل ضخم يحاول أن يهشم رأس الخنزير التعس بهراوة كبيرة، تلقى الخنازير ضربات يمكن أن تقتل قطيع ثيران، وفي النهاية تكوم بلا حراك.

حمله القوم دون أن ينزف قطرة دم واحدة وحملوه إلى النار وراحوا يحركونه بأقدامه.. حتى احترق شعره كله، ثم نزعوا أحشاءه وغسلوه جيدًا ثم لفوه في أوراق الشجر.. ووضعوه في موقد معد سلفًا. ثم دفنوه تحت الأرض.. هكذا أسلوب التايي في طهي اللحم. لم يكن هذا هو الخنزير الوحيد.. لقد دوت صرخات الخنازير عبر الوادي كله.

في الوقت نفسه كان عدد كبير منهم يجمع فاكهة الخبز.

عندما ترى المشهد يخيل لك أن هذه مزرعة من النمل الأسود يجر ساق صرصور. قال لي الزعيم أن الغد يشهد حفلاً مهمًّا وعلى ألا أتخلف عن الحضور.. لم أفهم المناسبة أو من أجل من..

حاول كوري كوري أن يشرح لي بعض الأمور، وكان كلامه مختلطًا لدرجة أنني تأذيت من سماعه..

قادني عبر الدغل إلى هرم ارتفاعه عشرة أقدام.. يبدو كأنه مكون من جماجم متراصة.

رأى ذعرى ودهشتي من هذا المشهد فحاول أن يشرح لي.. لكن بلا جدوى.. وحتى هذه اللحظة لم أفهم معنى هذا النصب الأثرى.

استمرت استعدادات الحفل في اليوم الثاني..

كان المحاربون يتزينون ويعدون الرماح والحراب.. بينما انهمكت العذاري في الزينة ولبسن ثياب المهرجان. أهم ما فيه كان قلادة عنق من الزهور البيضاء تم انتزاع قلوبها وعقدت بليفة طويلة. كانت فاياواى تلبس مثلهن وكان بوسعي أن أتحدى بجمالها أي جمال في العالم.

دعانى كورى كوري للذهاب إلى صرحهم المقدس. ووقف ينتظرني في نفاد صبر كأنه مضيف ينتظر ضيوفه كى يلحقوا به في غرفة الطعام. في النهاية ذهبت معه إلى التاي.. وأدهشني أنه وقف للحظات كى يعنى بمظهره.. هكذا وجدت أن على أن أتأنق قليلاً مثلهم. نزعت ثيابي ولففت قطعة قماش حول خصري، ثم وجدت بعض الفتيات الصغيرات فحصلت منهن على أزهار على شكل قبعة مضحكة وعلقت قلادة أوراق شجر. وهكذا صرت متأهبًا لتسلق الصخور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

التف الأهالي حولي وراحوا يرقصون ويغنون وهم يقتادونني إلى المحراب المقدس. كانت بالداخل مأدبة عظيمة من اللحم والبوي بوي.. وكانت هناك أعواد بامبو غليظة تم سد نهاياتها بورق الشجر وقد امتلأت بالماء.

في داخل الصرح نفسه كان مشهد هائل.. مجموعة كبيرة من الحصر في صفوف بين جذوع شجر جوز الهند، فوقها تمدد الزعماء والمواطنون يأكلون أو يلطفون هموم حياتهم البولينزية في دخان الطباق. كان الدخان يستنشق من ثمار جوز هند عملاقة مفرغة.. وكانت الآنية تمرر من يد ليد. يدخن كل واحد نفسين ثم يناولها لشخص ثان راقد.

كان الطباق هنا عطر الرائحة، وقد بدا لي أنه نبت في الوادي برغم أنني لم أر شجرة طباق واحدة هنا. بعض الوطنيين كانوا يحتاجون لما هو أقوى، لذا كانوا يتناولون (الأرفا)، وهو نوع من الجذور منتشر في البحار الجنوبية. ويتم استعماله كعصارة.. أولًا ينبه الجهاز العصبي ثم يقوم لحالة استرخاء.

يتم تحضيره بطريقة واحدة هي أن تجلس دستة من الشباب ويمضغون الجذور ثم يبصقونها في إناء جوارهم.. ثم يتم صب الماء على الجذور الممضوغة ويصير معدًّا للاستعمال.

كان الزعيم قد احتفظ لي بقسط كبير من الطعام بمناسبة هذه المأدبة.

وفي الصباح خرجنا لنجد مجموعة من النسوة متقدمات في السن يقفن منتصبات القامة ثم يثبن إلى أعلى بلا توقف، ووجوههن تعكس صرامة واضحة. عرفت من كوري على قدر ما فهمت أن هؤلاء أرامل لمحاربين قتلوا في حروب سابقة، وهن يظهرن في كل المهرجانات ليذكرن القبيلة بما فقدنه. وكانت دقات الطبول عالية جدًّا يمكن أن توقظ الموتى.

استمرت هذه الحفلات طيلة اليوم.. ثم تكررت في اليوم التالي.

حاولت جاهدًا أن أفهم معنى هذه الاحتفالات، لكن كوري كوري أغرقني في كلام مبهم ثم أفهم منه شيئًا..

الحقيقة أنني لم أر أوهامًا أبعد عن الحقيقة من خيال الغربيين عن أكلة البشر في هذه الجزر. إنها قصص مثيرة تروق لخيال الناس تصور هؤلاء التايي في صورة وحوش وثنية تلتهم لحم البشر طيلة الوقت. لقد عشت بين هؤلاء القوم ما يكفى لأحكم على صحة هذه القصص.

هؤلاء الكتاب يعتمدون على كلام بعض الرحالة الذين جابوا البحار الجنوبية لفترة طويلة.. مثلاً بحار الدفة على سفيتنا يحكى الكثير من القصص ويعرف دستة من كلمات التايي لذا يعتبر نفسه حجة في الأمر. يعرف ما يريد المستمع أن يسمعه ويعطيه له. هكذا يعود الكاتب لداره ويكتب عن أشياء يكاد لا يعرفها..

رأيي عن ديانة هؤلاء القوم مبهم تمامًا.. لقد رأيت كل شيء لكني لا أعرف أي شيء. إن كابتن كوك أمير المستكشفين قد قال إنه عجز تمامًا عن فهم أي شيء من ديانات سكان البحار الجنوبية. هؤلاء القوم كسالي جدًّا بحيث يبحثون عن أسئلة أو

يحاولون عمل مذهب ديني. هناك صنم اسمه موا أرتوا.. لكن علاقتهم به غير مفهومة.. يحمله الكاهن في يده من وقت لآخر ويقدم له القرابين. ثم يضع أذنه جواره كأنه يسمع ما يقوله الإله له وينقله للناس. بل إنه يجيب عن الأسئلة يوجهها له المواطنون.

قال لي كوري كوري أن موا أرتوا قادر على أن يخرج شجرة جوز هند من رأس كوري كوري، بل إن أسهل شيء بالنسبة له أن يبتلع الجزيرة كلها في فمه. على كل حال أعتقد أن الدين الوحيد المحترم في الجزيرة هو التابوو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرفت الكثير من عادات التايي لكن لم تتح لى قط الفرصة لأرى طقوس الدفن والموت عندهم. ثم جاءت الفرصة عندما مات شاب في بيت قرب الشط..

كنت عند الشاطئ ورأيت جزءًا لا بأس به من المراسم.. لفوا الجسد في قطعة قماش ثم وضعوه على سرير من أعواد البامبو المربوطة معًا على ارتفاع قدمين من الأرض.

وقفت امرأتان تولولان وتضربان الهواء بأوراق الشجر. تم إعداد أدوات الطعام. ثم ظهر ثلاثة رجال يرتدون الزينة يتقدمون المراسم. ثم بدأ الحفل ليستمر حتى الظهر.. بدا أن الجميع متأهبون للمرح. وراح الشباب يمرحون ويصخبون ويرقصون كأن هذا حفل زفاف، على حين راح الشيوخ يدخنون.

إن السكان هنا يجيدون فن التحنيط وأحيانًا يحفظون الجثة عدة أعوام في البيت بعد موتها.

حتى رءوس الأعداء المهزومين يتم قطعها وتعلق في بيت المنتصر. أعتقد أن التبخير يلعب دورًا مهمًّا لأن كل المومياوات التي رأيتها بدت كلحم خنزير تم تقديده في مدفأة..

أما عن الحفل الذي وصفته لك، فقد اجتذب أعدادًا هائلة من السكان.. أعتقد أننى عددت ألفين منهم.

الحقيقة أن جو الجزيرة مغر جدًّا بالكسل، ولا أذكر أنني رأيت وطنيًّا يتصبب عرقًا إلا من جهد إشعال النار. الله منحهم ثمار الخبز والموز وليس على الرجل البدائي سوى أن يمد يده ويقطف.

كيف لو عرف هؤلاء البائسون أن مصيرهم يتحدد في حفلات الشاي في إنجلترا، عندما تتبرع السيدات والسادة بستة بنسات من أجل الحملات التي تعمل على تحضر هؤلاء الجهلة..

فلتعمل على تحضر المتوحشين لكن ليكن تحضرًا ذا فائدة. اقض على الوثنية لكن ليس عن طريق تدمير الوثنى نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

طيلة إقامتي في الجزيرة لم أر محاكمة أو شرطة أو شخصًا يواجه جزاء جريمته ضد المجتمع، فقط هناك التابوو... لم تكن هناك سرقة وكان كل واحد يبقى أبوابه مفتوحة ليلًا وينام ملء جفنيه. هذا الرمح الثمين المنقوش المزخرف أغلى من أي رمح في الوادي.. لكنه متروك جوار شجرة جوز هند بلا اكتراث. هذه الحلية الجميلة المصنوعة من سن الحوت تتزين بها أجمل فتيات الجزيرة، لكنها لا تضيع أبدًا ولا تسرقها أي فتاة.

ليست الفضيلة مرادفة للحضارة.. لا يمكنك أن تجد بين الغربيين كرم العربي الذي يعيش في الصحراء.. ولا شجاعة الهندي الأحمر.. ولا وفاء الصديق البولينيزي. وجودي هنا وسط أكلة لحوم البشر قد جعلني أؤمن بفضائل الإنسان أكثر فأكثر. وكان وضع النساء في هذا الوادي متميزًا وممتازًا باستثناء قوانين التابوو التي لو لم تكن موجودة لاعتبرت التايي من أفضل أجناس الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في إحدى جولاتي مع كوري كوري سمعت بين الأشجار ضوضاء.. وهنا رأيت لأول مرة عملية الوشم. رأيت رجلاً راقدًا على ظهره على الأرض وقد بدا واضحًا أنه يتألم. بينما معذبه يركع جواره ليرسم الوشم بصخرة ومطرقة.. وفي يد أخرى يحمل عصا تنتهى بناب قرش يثقب بها الجلد ثم يصب المادة الملونة. يحضّرون هذه المادة بخلط الرماد مع عصير نباتي، وهناك

جواره مجموعة غريبة من الأدوات والعظام المدببة. بشكل ما ذكرتني هذه المجموعة بأدوات طبيب الأسنان المرعبة.

كان الفنان يعمل على محارب بهت وشمه بفعل السنين. وكان العمل يتركز على الجفنين ليرسم خطًّا عرضيًّا يشبه الخط على جفنى كورى كورى.

الفنان يعمل ببرود كأنه جراح جيش ويثقب بلا توقف كنقار خشب. وكان منهمكًا لدرجة أنه لم يلحظ قدومي.. ثم لاحظني فبدأ يعمل باحترافية. وراح يكلم كورى كورى ففهمت أنه يقنعه بعمل وشم لي.. ابتعدت في رعب خشية أن أتشوه للأبد، فراح الرجل يعمل بخيبة أمل بسبب ضياع هذه الفرصة الممتازة كى يمتاز في مجال عمله. كان إغراء أن يمارس فنونه مع جلدي الأبيض شديدًا..

فوجئت بالرجل يجرى ورائى مصرًّا على أن يرسم وشمًا على أنفى، لكن كوري كوري أدرك ذعرى فاستوقفه.

هذه التجربة أشعرتني بخطر جديد يحوم حولي.. يمكن لو غفلت أن يشوهوا وجهي فلا أجرؤ على العودة لقومي. ازداد الأمر خطرًا عندما أخبرني الملك بأنه يرغب في أن أرسم وشمًا على وجهي.. أبديت رعبي بما لا يدع مجالاً للشك. أثار هذا دهشته لأنه لا يفهم كيف يرفض شخص عاقل عملية تجميلية مثل هذه.

في النهاية ازداد إلحاحه وبدا غاضبًا، لذا قبلت أن يرسموا لى الوشم على ذراعي.. وبدا لي هذا حلًّا معقولاً. لكن الزعيم أصر على الوجه وبدا أن الحرية الوحيدة الممنوحة لي هي اختيار

شكل الرسم. في النهاية بدأ الملك يلين ويتخلى عن إصراره لما رأى نفوري.

ازداد قلقي لهذا المطلب.. من الواضح أن الوشم يتعلق بدينهم.. إذن هم يرغبون في تحويلي.

اللغز الآخر الذي لم أستطع فهمه جيدًا هو التابوو. معقد جدًّا لدرجة أنني أعرف كثيرين عاشوا هنا عقودًا وتعلموا لغة البولينزيين لكنهم لم يفهموه جيدًا.

باختصار يعيش الهمجي في هذه الجزر تحت السيطرة في كل لحظة من حياته، عبدًا لتقاليد قوية. يوم وصولي للوادي ناولت صديقي توبي بعض الطباق فوق رأس وطني يجلس بيننا. فوثب هذا كأن ثعبانًا لدغه وصرخ:

- « تابوو! »

فهمت أن هذا انعدام لياقة عندهم يتجاوز التقاليد. وقد تكررت عبارة تابو في أحوال كثيرة بعضها لا أعرف تفسيرها. ذات مرة كنت أمشي فدخلت كوخًا فيه مجموعة فتيات يعددن الأقمشة.. ضحكن في وجهي وقلن بعض كلمات، هنا انحنيت وأمسكت ببعض خيوط القماش بين أناملي. دوى صراخهن عاليًا فوثبت مذعورًا.. شعرت أنهن رأين مجموعة من محاربي الهابار موشكين على اغتصابهن، ولكن صراخهن تعالى وأحطن بى وعيونهن متسعة وصدورهن تخفق.. ثم قالت لي واحدة منهن في رعب:

. « تابووو! »

يبدو أنه ممنوع على الذكور لمس هذا القماش بأي شكل لأنه سيصير ثيابًا لهن.

أهداني الملك غليونًا.. صار تابوو هو الآخر ولم يعد من حق أحد أن يدخله سواى.

التابو يتضمن أشياء عديدة.. الخنزير الأسود.. الرضع.. الشباب أثناء عمل وشم لهم.. أجزاء معينة من الوادي...

أحيانًا يتضمن التابو شخصًا أو أسرة كاملة.. ربما قبيلة..

كل جزر الماركيز مثلاً لديها تابو يمنع أي أنثى من ركوب القوارب. كل ما يخالف تقاليد سكان الجزر هو تابوو.. الأب يربي أولاده على أن مخالفة أوامره تابوو..

أما عن لغة القوم فهي معقدة جدًّا.. المشكلة هي أن الكلمة الواحدة تستخدم بأكثر من معنى، ويتوقف هذا على تعبير وجه المتكلم.. أن الكلمة هنا كالخادم الوحيد البائس في بيت سادة بخلاء، حيث يكلف بكل شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

كنت أجول في الجزيرة مع كوري كوري، عندما رأيت امرأة تقف في البحيرة وهي تراقب شيئًا عند قدميها كأنه ضفدع عملاق. دنوت في فضول لأرى أكثر فوجدت أن المرأة تغمر رضيعًا في الماء.. والمخلوق الصغير يجاهد كى يطفو.. يشرق ويملأ الماء فمه فيبكي، من ثم تلتقطه وتضمه لصدرها ثم تعيده للماء من جديد. في الأيام التالية تكرر هذا المشهد كثيرًا. لهذا يعشق سكان الجزيرة الماء ويسبحون كالأسماك ما داموا تعلموا السباحة بمجرد خروجهم للنور.

أعتقد أن الإنسان يسبح منذ مولده بالسليقة ثم تدمر هذه العادة ويموت الناس بسهولة كأنهم قطط صغيرة بمجرد تعرضهم للماء.

في ذلك الوقت كنت قد قابلت الفنان الواشم، وصارت حياتي جحيمًا بسبب إلحاح القوم علىّ كي أجرى الوشم. لقد مرت على ثلاثة أشهر في الوادي وبدأت أشعر بالوحدة من دون صديق أكلمه أو أشكو له خواطري.. صحيح أن الجميع ظلوا يعاملونني بذات المودة واللطف. برغم هذا تظاهرت بالمرح وبأنني طبيعى.

المشكلة الأخرى هي أن السقم الذي أصابني في أيامي الأولى على الجزيرة قد بدأ يعاودني من جديد. أضف لهذا أن حادثًا معينًا جعلني أتوتر جدًّا.

قلت إنه كانت هناك لفائف تتدلى من عمود خشبي في سقف كوخ مارهيو.

كنت أرى هذه اللفائف في أيدي الوطنيين لكن كانت هناك ثلاث لفائف تثير فضولي بشدة.

ذات مرة عدت مبكرًا من التاي.. فوجدت سكان البيت قد فوجئوا بقدومي وارتبكوا جدًّا. لقد كانوا يفحصون تلك اللفائف الثلاث. أصابني رعبهم بشعور بالخطر..

حاول كورى كورى منعى لكنى بلغت مركز الدائرة لأرى ثلاثة رءوس آدمية يحاول الوطنيون أن يداروها. كان أحد الرءوس محفوظًا بشكل ممتاز ويبدو أنه مر بعملية تدخين جعلته ينكمش ويصير كالمومياء. وقد تم ملء فراغ العينين بقشرة محار.

رأسان كانا من الوطنيين بينما الثالث كان لرجل أبيض. أثار هذا هلعى.

رباه الرحيم!.. أي خواطر سوداء جالت في رأسي وقتها. قبل أن أفهم أكثر كانت اللفائف المخيفة قد أغلقت ورفعت..

كنت أفكر في أن هذه رءوس محاربي الهابار.. لكن من صاحب الرأس الثالث؟ استغرقت وقتًا لأتذكر أن هذه اللفائف معلقة من السقف قبل اختفاء توبي وهكذا هدأت نوعًا. لكن ظل مذاق التجربة الرهيب يؤرقني. من كان ذلك التعس؟.. وهل كتب على أن يأكلوني ويستبقوا رأسي كتذكار؟

كنت قد بدأت أشك في كل قصص أكل لحوم البشر التي سمعتها. ودعوت الله ألا أرى هذه الطقوس أثناء إقامتي.

الحقيقة أنه لا يوجد شهود عيان على هذه الحوادث.. دائمًا يعتمد الأوروبيون على شهادة البولينزيين الذين تم تحضرهم.

وهم يخفون الكثير.. مثلاً لا نعرف بالضبط مصير كابتن كوك.. نعرف أنه قُتل لكن لا نعرف هل أكلوه أم لا.

كان هناك زعيم شيخ في جزيرة ماوي.. وكان يقدم نفسه للزوار على أنه القبر الحي لقدم الكابتن كوك!.. لهذا كان السواح يأتون بلا توقف.. لرؤية الرجل الذي قدر له أن يلتهم قدم الرحالة العظيم.

كنت ذات يوم في التاي عندما دوى إنذار حرب آخر، فهرع الرجال ليواجهوا محاربي الهابار.

كما في المرة الأولى سمعت صوت طلقات.. ثم سمعنا نذر قدوم المنتصرين، فوقفت مع كورى كورى ننتظر عودة الرجال. سرعان ما ظهرت حشود من الوطنيين بينهم أربعة رجال يمشون في صف.. وكانوا يحملون جذع شجرة عليه جثث. الأول كان ينزف من جرح في رأسه. كان مظهره يوحي بتعب وإرهاق فائقين.

على قدر ما فهمت من كورى كورى، فهؤلاء هم أشجع المحاربين عائدين بجثث شهدائهم.

وأمامه وقف الزعيم يحمل بندقية يتدلى من فوهتها كيس بارود. وفي اليد الأخرى رمح يلوح به في فخر.

بلغ الحشد التاي المقدس، هنا قال لي كوري كوري أن على أن أعود للبيت.. حاولت أن أنتظر أكثر لكنه أصر على أن أذهب.. تمسكت برأيي في إصرار فشعرت على كتفي باليد الصارمة لما ماو.. وهو زعيم أعور دنا مني. كان قد تلقى طعنة في خده والجرح ما زال مفتوحًا مخيفًا.

لم أفهم سبب هذا التصرف غير المعتاد. وبعد تفكير خطر لي أن الوطنيين ينتوون ممارسة طقس مخيف من طقوسهم. في النهاية حملني كوري كوري على ظهره وركض مبتعدًا.

صباح اليوم الثاني دوت دقات الطبول فتزين كل سكان البيت وغادروا.

حاولت اللحاق بهم فرفض كورى كورى وأصر على أن يحملني إلى النهر لنستحم. وعندما عدت كان أهل البيت قد عادوا وناموا على الحصر.

فهمت فيما بعد أن هذه الاحتفالات ليست للعامة، بل هي مخصصة للكهنة والزعماء. هذا دعم الفكرة لدى.

عندما عدت مع كوري كوري للتاي المقدس بعد العصر، رحت أبحث بعيني عن أثر للطقوس المرعبة التي دارت هنا.. لكن بدا كل شيء معتادًا. أثناء العودة وجدت ما يشبه إناء عملاقًا من خشب البامبو وعليه غطاء.. المنظر أقرب لقارب صغير الحجم، مددت يدي في فضول إلى الغطاء، هنا سمعت الزعماء يصيحون بي:

. « تابوو!.. تابوو! »

لكني كنت قد ألقيت نظرة كافية لأرى بالداخل عظامًا بشرية.. عظامًا طازجة ما زالت عليها قطع من اللحم الدامي!

أسرع كوري كوري نحوى وقد رأى الرعب على وجهي. وراح يردد وهو يشير للوعاء:

- » بواركى.. بواركى (خنزير.. خنزير) «.

رددت الكلمات وراءه، وبدا أن المتوحشين صدقوا أننى صدقت.. وهكذا غادرت معه مكان المجزرة.

ظللت مؤرقًا طوال الليل أستعيد المأزق المرعب الذي وقعت فيه.

هل هناك أمل في الهرب؟.. الأمل الوحيد الممكن هو مارنوو غريب الأطوار.

لماذا يبقيني هؤلاء القوم هنا؟.. ما غرضهم؟ لماذا يعاملوني بهذه الرقة؟ هناك أمل واحد باق هو أن يزور الفرنسيون الوادي ووقتها لن يستطيع هؤلاء حجبي عنهم. لكن لماذا أفترض أنني سأظل حيًا حتى تلك اللحظة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الواحد والعشرون

دوت صيحات الفرحة في الوادي:

. « مارنو!.. مارنو! »

كان هذا بعد عشرة أيام من الأحداث السابقة، ورأيت الغريب قادمًا فشعرت بالفرح.. يمكن أن أتفاهم معه بلغتي وأناقش سيناريوهات الهرب. جلس جواري وراح يثرثر مع الأهالي.

صارحته بخططي فقال في برود:

. « أنت لن تذهب لأي مكان.. أنت تابوو.. لماذا لا تحب البقاء في الوادي؟.. هنا كثير من موبي موبى (النوم) والكي كى (الأكل) والواهيني (البنات).. لكن لماذا جئت أصلًا؟.. ألم تسمع عن التايي؟ كل البيض يخافون التايي.. لذا لا يأتي البيض ».

ضايقتني هذه الكلمات جدًّا. فأضاف:

. « التايي لو غضبوا عليك يقتلونك أنا وأنت.. يأكلونك.. يعلقون رأسك هناك مثل الهابار.. لكن يمكنك أن تنتهز فرصة أن يكون التايي في موبي موبى.. تهرب في طريق بوياركا.. ألقاك في نوكوهيفا.. أنت تركب قاربًا » .

انتهت المحادثة فنهض محييًا القوم ملوحًا برمحه، ثم صافحني وقال:

. « أنت تفعل كما قلت لك.. هذا حسن.. أنت لا تفعل.. أنت تموت ».

وسرعان ما تواري في اتجاه بلاد الهابار.

لكن كيف أفر؟.. أنا محاصر بالتايي.. أي حركة أقوم بها تجذب انتباههم حتى في وقت القيلولة. لو أردت أي نجاح فعلى أن أبتعد بمسافة كافية قبل أن يجدنى القوم بنصف ساعة.. لا حل سوى هذا مع ضعفى ووهني وجهلي بالوادي، بينما هم سريعو الحركة يعرفون كل ثقب هنا.

كذلك لا أمل لي في الفرار إلا ليلًا.

كانت هناك فتحة في البيت الذي أقيم فيه، وكانت مغلقة بقطعة كبيرة من الخشب.. عندما يريد أحدهم المغادرة كان يزيح هذه القطعة فيحدث ضوضاء توقظ الجميع.

قررت أن أنهض ليلًا فأزيح قطعة الخشب هذه زاعمًا أنني أريد أن أشرب.. ثم أعود للبيت فلا أرجعها مكانها زاعمًا أننى نسيت. سيكون المتوحشون ناعسين فلن ينهض أحد ليعيد قطعة الخشب.. أعود للحصيرة وأنتظر في صبر حتى يعودوا للنوم ثم أفر إلى بوياركا.

في الليلة التالية عند منتصف الليل بدأت تنفيذ خطتي.

نهضت وأزحت قطعة الخشب فنهض الوطنيون كما توقعت. وسألني واحد منهم:

.« أروير بو أوا تومو؟ » (إلى أين أنت ذاهب يا تومو؟)

قلت لهم:

.« واى (ماء) ».

وغادرت المكان ثم عدت بعد قليل وتظاهرت بالنوم. لما تعالى صوت غطيطهم فوجئت بشبح أحدهم ينهض فيسد

الباب بقطعة الخشب من جديد ثم يعود للنوم.

كررت هذه المحاولة عدة ليال وفي كل مرة كنت أفشل. لا أعرف هل شك كوري كوري في أمرى أم هو أراد أن يريحني.. فقد جلب لي ثمرة مليئة بالماء جوار مرقدي.

كنت أزداد وهنًا.. وصار على أن أمشى على عكاز أو يحملنى كورى كورى.

أرقد في ألم وأتذكر رفاقي الذين يبعدون على عدة أميال.. لن يعرفوا مصيري أبدًا ولن أعود لهم لأن ذكراى تلاشت مع غبار هذا الوادى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والعشرون

لابد أن أربعة أشهر مرت عليَّ في الوادي، عندما رأيت ماو ماو الزعيم ذا العين الواحدة يظهر عند الباب، انحنى على وقال بصوت خفيض:

- « توبى بيمى إينا (توبى هنا) ».

يا للسماء!.. ما أجمل هذا الخبر!

نهضت على قدمي وناديت كورى كورى فنهض الأهالي مندهشين. وسرعان ما كنا نتقدم في موكب نحو التاي. كل ما فهمته هو أن رفيقي عاد للساحل في قارب. وافق ميهيفي على أن ألقى صاحبي.. فسار معي خمسون من الأهالي وكانوا يتناوبون حملي على ظهر كل منهم.

لو كانت هذه الأنباء الصحيحة فإن لدى أملًا في الخلاص. الاقتراب من البحر نفسه عمل محرم.. وارتبط لدى بالفرار. قابلنا بعض التايي في منتصف الطريق فدار حوار صاخب.. لم أفهم المقصود لكني رحت جاهدًا أحاول أن أجعلهم يندفعون للقاء..

هنا قال لى كورى كورى كلمات قاسية باردة: « الخبر خطأ.. لم يعد توبي.

وحملني القوم ليعيدوني لبيت قريب.

أدركت أن هناك غربيين غرباء عند الساحل. لكن كيف أقنع الأهالي بالذهاب هناك؟ أشرت لأحدهم كى يأخذني للساحل زاعمًا أنني مقتنع أن توبى قد عاد.. لكنه رفض في عناد. اتجهت

إلى رمح . شاعرًا أن كل ثانية تمر لن تعوض . وتوكأت عليه قاصدًا الباب. لدهشتي لم يعترضوا طريقي.. وأدركت أنهم منقسمون لفريقين كل فريق يتبنى رأيًا..

سد بعض القوم الطريق أمامي، لكن ماريهيو الزعيم تقدم مني ووضع يده على كتفي وقال الكلمتين الوحيدتين الإنجليزتين اللتين يعرفهما:

- » بيت.. ماما ».

هكذا فهمت وارتجفت.

بكت فاياواي في حرقة.. وقد كرر الزعيم الأمر حتى تقدم كورى كورى وحملني على كتفه.

لن أنسى ما شعرت به عندما تقدمنا، وعندما سمعت صوت الموج ورأيت البحر بين فرجات الأشجار.. أيها المحيط العظيم المجيد!

عندما عبرنا حزام الأشجار كان أول ما رأيت هو قارب صيد حيتان إنجليزي. دققت النظر فأدركت أن القارب يتم إبعاده عن البحر.. وسرني أكثر أن رأيت كاناكا وكاراكوي. وهما وطنيان كانا يعملان على سفينتي القديمة. كان كاناكا يحمل بندقية ويلوح بها لبعض الوطنيين... واضح أنه يجري مساومة أو مقايضة..

ثم فهمت.. إنه يقايض القوم على حريتي!

ناديته كي يقترب فلم ينظر لي. قال بالإنجليزية أن التايي هددوا بأن يثقبوه برماحهم لو خطا خطوة واحدة نحوى. حاولت أن أقترب أنا منه.. لكن الأهالي منعوني.

أرغموني على الجلوس على الأرض وهم يصوبون نحوي رماحهم.. وأدركت أن بعض الكهنة يلحون على كورى كى لا يتركني أرحل.. كانوا يرددون:

.« رو نى.. رو نى ».

شعرت بالقنوط فنهضت مسرعًا وجريت نحو كاراكوى. كادت هذه الحركة الخرقاء تكلفني حياتي لأن الوطنيين صرخوا وهاجوا وأصاب الذعر كاراكوي، فأمر من معه بالقارب أن يعودوا إلى الماء.

رأيت الدموع في عيني فايوياي ومارهيو.. لكني قررت أن الوقت هو الآن أو لا للأبد. عانقت فايوياي العناق الأخير ثم اندفعت عبر الأمواج نحو القارب. وفي اللحظة التالية صرت في القارب.

أمر كاراكوي الرجال أن يجدفوا بسرعة ويبتعدوا...

كان هناك من يتبعني ومنهم كورى كورى. قررت أن أقدم لهم علامة امتناني الأخيرة بأن أعطيهم الأشياء التي جلبها قومي كفدية لي.. قذفت البندقية لكورى كورى.. وقذفت بحزمة قطن لمارهيو.. ثم طوحت أكياس البارود لبعض النساء..

تم هذا خلال عشر ثوان.. وبدا كاناكا مندهشًا من هذا التبديد.

هنا اندفع ماو ماو ومعه ستة محاربين إلى الماء لاحقين بالقارب.. وقذفوا رماحهم علينا. مر بعضها جوارنا فعلًا لكن لم يُجرح أحد.

تباطأت حركة قاربنا وبدا القلق على كاراكوي.

كان المحاربون الذين يطاردوننا الآن قد صاروا نحو ثلاثين. بينما صار البحر غاضبًا.. تلك المياه الثائرة التي يصعب التجديف فيها. لو بلغ هؤلاء القوم قاربنا لتحدد مصيرنا..

بالنسبة لهؤلاء المتوحشين يعتبر العوم طبيعة ثانية.. ليس كبلادنا المتحضرة هم يتعاملون مع الماء كأنهم على اليابسة. كانوا يندفعون بسرعة مرعبة.

عندما بلغنا لسان الخليج كانوا يسدون الطريق أمامنا.. أخرج المجدفون مديهم بين الأسنان. دنا ماو ماو من القارب وبدا أنه سيمسك المجداف في أي لحظة.

كنت أرتجف رعبًا مما أنا مقدم عليه.. تناولت حربة القارب وقذفته بها فضربته تحت الحنجرة.. وهوى للقاع. ثم ارتفع من جديد ليطفو ولن أنسى أبدًا التعبير الشنيع على وجهه.

اقترب وطني آخر من القارب.. مد يده ليمسك لكن سكاكين المجدفين هوت تمزق ساعده.

وسرعان ما صرنا في أمان بعيدًا عنهم.. هكذا تهاويت فاقد الوعي بين ذراعى كاراكوى.

فيما بعد عرفت كيف هربت..

لقد كان هناك قبطان أسترالي في الخليج نوكهيفا يبحث عن رجال يعملون على سفينته فلم يجد. هنا قابله كاراكوي وأخبره أن هناك رجلاً أمريكيًا أسيرًا لدى التايبي. عرف هذا من مارنوو التابوو الذي أحمل له فضل فرارى. جمع كاراكوي ستة رجال من

الوطنيين التابوو واتجه بهم إلى وادي التايي، بينما انتظرت سفينة صيد الحيتان بالخارج.

وصلت للسفينة جوليا ورفعوني لسطحها. أثارت قصتي ومنظري الغريب فضول الجميع. وقد قضيت ثلاثة أشهر حتى استعدت صحتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والعشرون

قصة توبي

عندما فارقني صديقي كما حكيت من قبل، كان عدد هائل من الوطنيين يصاحبه، وكان كثير منهم يحمل الفواكه للمبادلة مع السفن. وكانوا مندفعين جدًّا يتصايحون في حماسة، حتى أنه كان يركض ركضًا ليلحق بهم.

بلغوا تقاطع طرق مهمًّا في الجزيرة، فسمعوا صخبًا عاليًا. تبين لهم أن هذا هو ماو ماو الزعيم ذو العين الواحدة. كان يدق برمحه على جذع شجرة أجوف.

دوت صيحة (هابار.. هابار!).. فتوقف الجميع وراحوا يلوحون بالرماح، والتقطوا الحجارة من مجرى الماء. جرى توبي إلى أحد الشباب يطلب أن يعطيه رمحًا لأنه غير مسلح، لكن الشاب رفض. قال له أن الرمح مفيد للتايي لكن الرجل الأبيض يجب أن يحارب بقبضته.

كان التايي يضحكون وقد بدت عليهم السعادة، كان من أظرف الأشياء في الحياة أن يطير نحوك رمح أو رمحان من الدغل.. ثم تفرق الرجال ليدخلوا الدغل.. بخطوات بطيئة حذرة..

لم يحب توبي هذه الطريقة، لو كانت هناك حرب فلتقع الآن..

لكن الرجال توغلوا وسط الأحراش الكثيفة بينما صرخاتهم تتعالى، لا أثر للعدو.. ولم يسقط أحد برغم أنهم كانوا يقذفون

الحجارة على الأشجار كأنها المطر.

كان يمقت الهابار ويرغب في الانتقام منهم بسبب إصابة رأسه القديمة. فجأة توقفت الصرخات وخرج رجال التايي الذين تفرقوا.. خرجوا من الدغل ليجتمعوا من جديد وهم يضحكون. لقد كانت هذه دعابة!! مقلبًا!.. وشعر توبي بالغيظ لأنهم سخروا منه..

ما ضايقه أكثر أن هذا استغرق وقتًا طويلًا جدًّا لابد أنه ثمين، واستمر الزحف ببطء حتى شعر أنهم لن يبلغوا البحر أبدًا. وكأنما ليضايقوه أكثر جلسوا يتناولون طعامهم ويدخنون..

لم يعد يتحمل فانطلق وحده إلى البحر..

بعد قليل وجد أنهم يقفون في مساحة تفصل بين الأحراش والبحر عند قاعدة جبل الهابار. لم يكن هناك أي قارب في الأفق..

لم ير سوى حشد من القوم يلتفون حول شخص.. لما دنا أكثر رأى أنه غريب يقف وسطهم ويتكلم في حماسة. كان بحارًا في حالة رثة اسمه جيمى، رأيته يعيش في بيت ملك نوكوهيفا. أدركت أن صدره موشوم وأنه يحمل رمحًا في يده. كان يجيد لغة القوم لذا كان الفرنسيون يستعملونه كمترجم.

دنا منه توبى وحياه فالتف الأهالي حولهما. حكى له جيمي إنه يعرف قصة هروبنا وإقامتنا عند التايي. قال لنا إنهم كلفوه بزيارة التايي والعودة بنا. بدا هذا غريبًا لتوبي لأنه لم يسمع قط عن شخص زار التايي بشكل اجتماعي.

قال إنه يجمع الفاكهة من هنا، وسوف يتم تكويمها على الشط بانتظار قدوم القوارب لتنقلها.

سأل توبى عما إذا كان يرغب في ترك الجزيرة.. هناك سفينة في الخليج تريد رجالاً، قال توبي:

- « لا.. لا أستطيع ترك الجزيرة من دون رفيقي.. فلنذهب لنحضره معنا ».

. « لن يقدر على عبور الجبال.. اتركه حيث هو وسوف نعود له بالقوارب ».

لم يكن جيمي خائفًا من التايي لأنه تابو عندهم، لكنه أدرك من مزاجهم وعصبيتهم أنهم لن يسمحوا له برؤيتي أو الوصول لى. وكان يرغب في أن يترك القوم توبى يرحل وحده لسبب عرفناه فيما بعد.

قال لتوبي:

. « اليوم نذهب إلى نوكوهيفا برًا.. ثم غدًا نرجع لتومو عن طريق البحر.. وعدوني بأن يجلبوه للبحر غدًا ».

قال توبي في قنوط:

. « لا.. لا.. لابد أن أبقى معه. لا يمكن أن أفر وحدي ».

قال البحار:

- « إذن لا أمل لكما.. سوف أرحل أنا وبعدها يعيدك القوم للوادي ولن ترى أنت ولا صاحبك البحر أبدًا ».

كان توبى يعاني خواطر مؤلمة.. ربما كان البحار يخدعه.. ربما كان الأهالي غير صادقين في نيتهم جلبي غدًا.. كيف يتركني وسط الأهالي؟

كان جالسًا على طرف القارب مثال الحيرة والعجز عن إيجاد قرار.

قال جيمي:

- « الوقت تأخر.. لابد من أن نعود قبل الليل.. لن أبحر ليلًا خوفًا من الهابار.. »

قال توبي مثقل القلب:

. « لا جدوى.. سوف أثق بك ».

هكذا نهض توبي مع جيمي.. ولحق بهما شاب من التايبي يحمل خنزيرًا صغيرًا بين ذراعيه، واتجهوا إلى الجبال. وقفت النساء يلوحن للراحلين ويبكين.

قال البحار المسن بعد ساعة من المشي الصامت:

. « ترى كم أنا تابوو هنا.. هذا الخنزير هدية لي من ماو ماو.. الرجل الذي يحمله من التايبي، لكن لو ظل جوارى فسوف يظل سليمًا.. والأمر ينطبق عليك. سوف ترى صاحبك في الصباح ».

كان الصعود سهلًا نسبيًا لأن الجبل كان جوار البحر، لذا كان انحداره بسيطًا.

تأمل توبى وادى الهابار فلاحظ أنه لا يمتد داخل الساحل مسافة طويلة مثل وادى التايبي.... هذا سبب الخطأ الذي

حدث لنا عند نزول الجزيرة، قال له جيمي وهما يجتازان منطقة الهابار:

. « أنا تابوو.. لذا لدى زوجة لدى كل قبيلة.. لدى هنا زوجتان».

تجمع الهابار حول الرجلين، وبدا واضحًا أنهم لا يندهشون لوجود الرجل الأبيض كما حدث في وادي التايي.

طلب من زوجتيه إعداد الطعام بسرعة لأنه راحل إلى نوكوهيفا.. هكذا أعدتا بعض السمك والموز وخبز الفاكهة. كان توبى متوترًا وراح يبحث بعينه عن ذلك الرجل الذي ضربه في رأسه من قبل.

راح الهابار يدعون الفتي من تايى كى يجوب الوادي، لكنه لم يكن واثقًا.. على أي مسافة تزول حماية التابوو فيفتكون به؟ لهذا رفض بتاتًا.

عرض جيمي على توبي شرب الأرفا.. لكن هذا كان يعرف أثرها المخدر، ورفض تمامًا. قال له جيمي إنهم سيخلطون بها مادة معينة تجعل تأثيرها أقل.

هكذا جرب توبى شرب الأرفا.. وهكذا زال اكتئابه على الفور. وعلى الفور بدأ التحرك نحو نوكوهيفا.. واستطاع البحار أن ينتزع من توبي وعدًا بستة جنيهات أسبانية لو أوصله لسفينة.

عندما وصلوا إلى نوكوهيفا استقبلهم عدد من الوطنيين العاملين في خدمة الملك مواوانا.

حمل هؤلاء الرجال الأحمال بينما الشمس تنحدر نحو الغروب. شعر توبى عندما رأى البوارج واقفة في الخليج أن كل ما مر به كان حلمًا.

في بيت جيمي استقبلتهما زوجتا الرجل في نوكوهيفا.

بعد الطعام اتجها في قارب لسفينة صيد حيتان تحتاج إلى بحارة.. رحب بهما القبطان. طلب توبى قاربًا مسلحًا للعودة إلى تايي وإنقاذي، فهو لا يثق بوعود جيمي، لكن القبطان نصحه بالصبر.

قبل الشروق انطلق جيمي والتايي في قارب يقوده وطنيون من التابوو. لم يسمح جيمي لتوبي بالذهاب معهما حتى لا يفسد كل شيء.

عند الغروب عاد القارب وخيل لتوبي أنه يراني.. ثم عرف أنه واهم. وزعم جيمي أنه لم يستطع العودة بي من عند التايي ووعد بأنه سيعيد التجربة غدًا.

في الصباح انطلق قارب فرنسي نحو الجزيرة من جديد فسر توبى لذلك، وتمنى أن يراني عند المساء. لم يكد القارب يبتعد حتى ظهر القبطان وأصدر أوامره للبحارة برفع الهلب!... سوف يبحرون الآن..

توسل له توبي مرارًا بلا جدوى أن ينتظرني.. لكن بالفعل أبحرت السفينة مبتعدة..

قضى توبى أيامًا مؤرقة.. وراح يحلم بأنني أمامه ألومه على تركي على الجزيرة.

ترك توبي السفينة في نيوزلندا.. وعاد للوطن بعد عامين من الترحال في جزر الماركيز. ظل يحسبني ميتًا طيلة الوقت.. وحسبته أنا كذلك. لكن الله شاء أن نلتقى من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مذكرة:

قضى المؤلف أكثر من عامين في البحار الجنوبية بعد هربه من الوادي، بعد العودة للوطن تم نشر هذه القصة. لم يخطر بباله أن هذه ستكون طريقته للعثور على توبي الذي اعتبره المؤلف مفقودًا. هكذا وجدنا أن قصة هربه تشكل إضافة مهمة للمغامرة ولذا قمت بإضافتها. هكذا حكاها توبى نفسه.

هيرمان ملفيل

نيويورك 1846

تمت بحمد الله



[Group Link – لينك الانضمام الى الجروب]

[Link – لينك القناة]

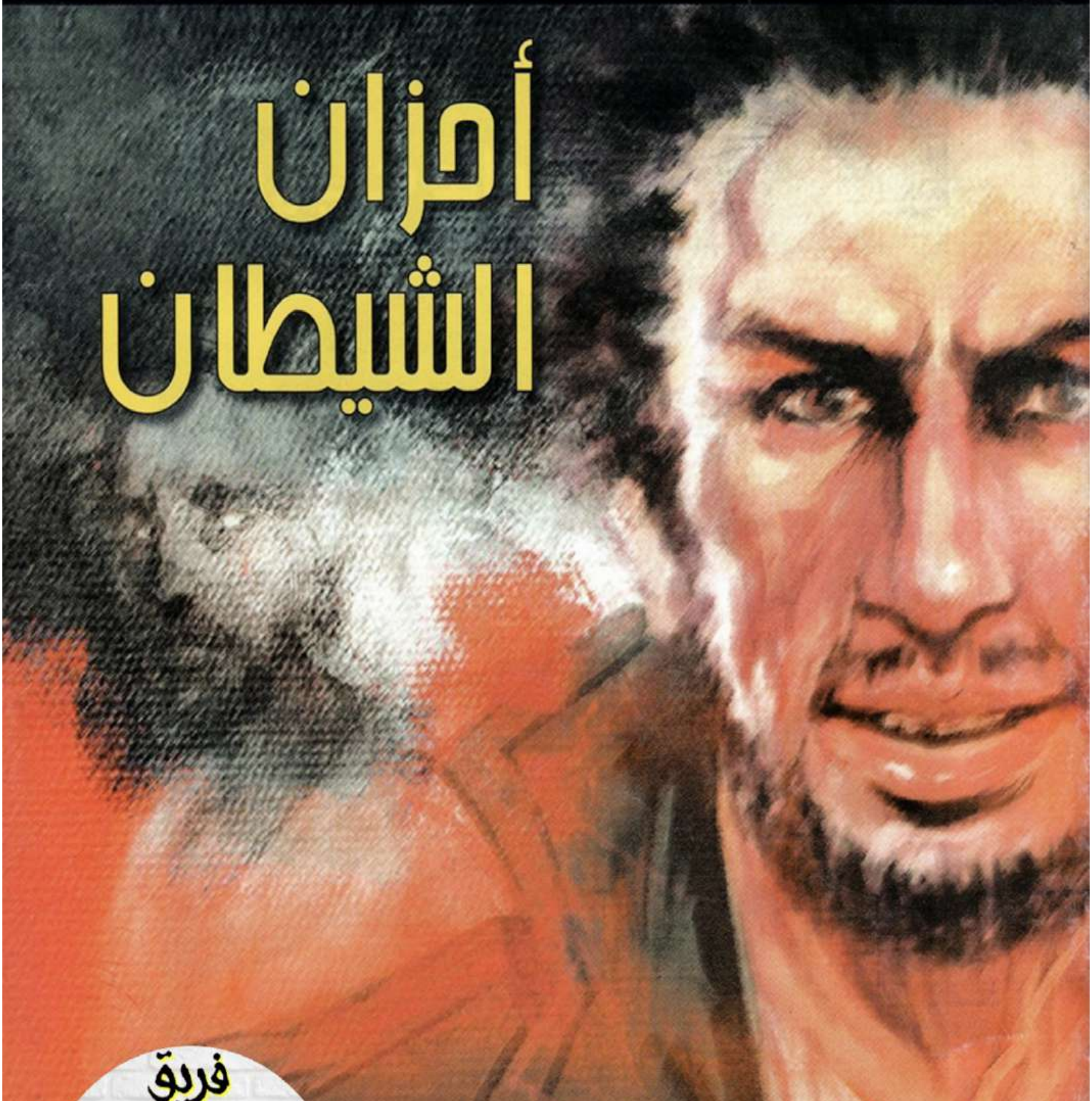
الفهرس..

Notes

[←1]

يلاحظ قراؤنا المخضرمون اننا قدمنا روايات (بنشلي) الثلاث في هذه السلسلة.. و (فكان) اشتهرت بإسم (الفك المفترس).

روايات عالمية للجيب 79



أحزان الشيطان

تأليف : مارى كوريللى

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لسلسلة (روايات عالمية للجيب)

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (79)

أحزان الشيطان

تأليف: ماري كوريللي

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلفة..

اشتهرت هذه القصة وكانت لها شعبية عظيمة في مصر في نصف القرن العشرين الأول، وقد قرأتها من ترجمة سيد المترجمين عمر عبد العزيز أمين صاحب روايات الجيب. هذا سبب كاف حتى لا أترجمها كما اتفقنا في بدايات هذه السلسلة، لكني لاحظت أن هذه الترجمة اختفت تقريبا، وأن معظم الشباب لم يسمعوا عن هذه القصة أصلاً برغم أهميتها ولا وجود للترجمة على شبكة الإنترنت (برغم أن بعضهم وضعها منذ فترة ثم رفعت)، دعك من أن نسختي الأصلية ضاعت!... اقترضها أحدهم ممن يخلطون بين كلمة (اقتراض) وكلمة (أخذ)؛ لذا قررت أن أترجمها وألخصها لك لتكون عندي نسختى الخاصة منها أنا أيضا!

مارى كوريللي Marie Corelli كاتبة أسكتلندية ابنة شاعر شهير، وقد ذهبت لتقيم في لندن عام 1882. وصارت عازفة بيانو اشتهرت باسم ماري كوريللي.. لم يكن هذا اسمها الأصلي. ثم اتجهت إلى الأدب.

كان أدبها ينتمي للمدرسة الرومانسية، وكانت الملكة فكتوريا شخصيا تعشق قصصها، وكذلك ونستون تشرتشل. لكن أغلب النقاد لم يحبوا كتاباتها واعتبروها شعبية أكثر من اللازم، ورأي بعض النقاد أنها كاتبة متوسطة المستوى تعتبر نفسها عبقرية والعامة تقبلوا فكرة أنها عبقرية.

كانت أول رواية لها هي (قصة عالمين - 1886)، لكن نجاحها تحقق مع رواية (ثيلما – 1887) ثم (أحزان الشيطان -

1895). وفي الرواية الأخيرة تكرس فكرة فاوستية حزينة سادت في الأدب بعد ذلك؛ هي أن الشيطان يؤمن بالله جدا - أكثر منا بكثير - لكنه صار خارج فرصة الخلاص، لم يعد بوسعه غير أن يظل فاسدا مفسدا للأبد. إحدى بطلات القصة أديبة ذات نجاح جماهيرى لكنها لا تعجب النقاد، وتبالغ الرواية في تصويرها كملاك ومثال النقاء الذي يختلف كلية عن الوسط الفاسد حوله، لدرجة أننا نكتشف أنها كانت ملاكا (حرفيا وليس مجازا!).. يسهل تخمين أن ماري كوريللي هي ذات الشخصية، لاحظ أن اسم الشخصية (مافيس كلير).. أي أنه يبدأ بحرفي الميم والكاف.

انتقلت كوريللي لتعيش في ستراتفورد أون آفون موطن شكسبير، وكانت شهيرة جدا هناك، وتعيش حياة استعراضية مترفة تذكرنا بحياة أوسكار وايلد. مثلاً يذكر الناس أنها كانت تتنقل يوميا بجندول في نهر آفون بينما النوتي يغني أغاني إيطالية لها. لقد أعادت للأذهان حقبة الكاتب النجم، لكن يمكن القول: إن شهرتها دامت حتى الحرب العالمية الأولى، ثم بعد هذا صارت منسية تماما.

∞∞∞∞∞∞

أشهر ما كتبت:

- باراباس - 1889
- صبي – 1900
- جماعات مقدسة - 1908
- حياة أبدية – 1911

- قصة عالمين – 1886

- القوة الخفية – 1921

- فنديتا - 1886

- زيسكا – 1896

توفيت ماري كوريللي عام 1924.

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

-1-

هل تعرف معنى الفقر؟ ليس الفقر الذي يزعمه أشخاص يعيشون على دخل قدره خمسة آلاف أو ستة آلاف جنيه سنويا. لكني أتكلم عن فقر حقيقي.. فقر مدقع.. فقر يرغمك على ارتداء بذلة واحدة حتى تبلى.. لا تغسل غياراتك بسبب أسعار المغسلة الباهظة. تمشي في الشوارع وسط رفاقك شاعرا بالتضاؤل والخجل، هذا هو السرطان الذي يلتهم قلب المرء فيحيله كائنا شريرا حسودا. عندما يرى تلك المرأة السمينة، أو هذا الرجل المتبختر الذي يشعر أن كل الطبقة العاملة خلقت لتخدمه، عندها تسري المرارة في دمه وتثور روحه.. ويتساءل: لماذا هذا الظلم؟ لماذا أقضي النهار طاويا محروما؟

لماذا ينتعش الأشرار كأنهم أشجار خضر؟!

يمكن أن أحكي قصتي، لكن من سوف يصدقها؟.. لا أحد. لكنها حقيقية.. حقيقية أكثر من أي شيء يسمونه حقائق. أعرف كذلك أن رجالا كثيرين تورطوا مثلي في شباك الخطيئة، لكنهم كانوا أضعف من أن يتحرروا.. هل سيتعلمون الدرس الذي تعلمته أنا؟ في نفس المدرسة المريرة، ومع نفس المعلم الكريه؟..

لكن لا أكتب هذا الكلام لألقن دروسا لزملائي.. فقط أحكي الأحداث الغريبة التي مرت بي بالترتيب، وسوف أترك للعقول البشرية تفسير ما حدث.

كان هذا شتاء طويلاً يذكره الناس بسبب برودته القطبية. اجتاح ليس بريطانيا فقط بل كل أوروبا، كنت أنا جيفرى

تمبست وحدي في لندن أتضور جوعا.

لا أحد يثق في الجائعين أو يتعاطف معهم، بالذات هؤلاء القوم المتخمون الذين لا يصدقون بوجود جياع في العالم، أو يظهرون اهتماما مفتعلا بالأمر على مائدة العشاء. موضوع الجوع لا يبدو لائقا للكلام عنه في المجتمعات الراقية.

أنا الذي صار كثيرون يحسدونني قد عرفت حرفيا معنى لفظة جوع. الاشتهاء الحيواني لمزيد من الطعام. هذه مشاعر قاسية بالنسبة للفقراء لكنها أقسى بالنسبة لمن نشئوا معتبرين أنهم جنتلمانات.

لقد توفي أبي فاكتشفت أن كل ما حسبته ثروتنا هو ديون.. ليس البيت لي.. ليس لديّ سوى تمثال صغير لأمي التي ماتت وهي تلدني. شقيت.. بحثت عن عمل في كل مكان. لا جدوى. هكذا يعامل الأديب الفقير.. يزدرونه.. لا أحد يريده.. الكل يعيد له نصوصه بلا قراءة.

يعاملون الأديب كأنه أسوأ من أسوأ لص..

كنت أعيش ليس لعشق الحياة، ولكن لأنني أحتقر من ينتحرون. كنت أحمل أملاً غامضا أن عجلة الحظ سوف تدور وسوف ترفعني يوما كما سبق وأن هشمتني.

لفترة ظفرت بعمل كمراجع في دار النشر، وكنت أتلقى ثلاثين قصة كل أسبوع.. فاعتدت أن أتفقد عشرا منها بسرعة ثم أكتب عمودا ملتهبا.. ولاحظت أن هذا يسر الناشر، والناس تعتبر هذه المقالات ذكية. ذات مرة أجبرني ضميري على امتداح عمل بدا

لي أصيلاً موهوبا، وكان كاتبه خصما قديما لمالك الجريدة. هكذا تم طردي على الفور.

وسرعان ما وجدت نفسي في الشتاء بلا مليم وجائعا تماما لم يكن هناك عمل في لندن.. ما من وظيفة شاغرة.

عندما وجدت عملاً ككاتب في جريدة صغيرة، قال لي رئيس التحرير:

- أنت تنتقد المجتمع بشراسة في مقالاتك.. هذا يضايق الناس. لا تنس أن المجتمع هو من يشتري الصحف والكتب. أتمنى لو كتبت قصة حب خفيفة..

سألته:

- هل أنت واثق يا سيدي من أنك تحكم بدقة على ذوق المجتمع؟

ابتسم وقال:

- هذا عملي أن أعرف ذوق الناس كما أعرف جيب سترتي.. لا أطلب أن تكتب عملاً مبتذلاً، لكن أؤكد لك أن ما تكتبه لا يبيع..

قلت له:

- يبدو أن عليّ أن أضع القلم جانبا.. أنا موضة قديمة، لذا أعتبر الأدب مهنة سامية جدا..

نظر لي في تهكم واستخفاف ثم قال:

- أنت متحمس.. هذه مشكلة سوف تنتهي.. هلا جئت معي للنادي لتأكل؟

رفضت بشدة لأنني أدركت أنه فهم مدى جوعي وفقري..

ودعته وعدت لبيتي. قابلتني صاحبة النزل على الدرج وسألتني إن كنت أريد أن أسوي حساب الإيجار. كانت تسأل برفق وقد آلمني هذا كما آلمتني دعوة الناشر للعشاء، كلاهما فيهما شفقة واضحة.

دخلت حجرتي وألفيت بنفسي على مقعد، وألقيت سبة. لم أكن متدينا في ذلك الوقت، ولم أؤمن بوجود إله.. كنت أعتبر نفسي فانيا أزدري كل خرافات الأديان برغم أنني ولدت مسيحيا، كنت في وضع قانط.

لقد بذلت ما بوسعي بلا جدوى، قرأت عن أشقياء يكدسون المال وأشرار أثرياء. بدا واضحا لي أن الأمانة ليست خير سياسة، الليل كان باردا ويداي تتجمدان فحاولت أن أدفئهما على مصباح الزيت الذي تركته لي صاحبة النزل.

مددت يدي للتدفئة فلاحظت ثلاث خطابات على المنضدة، أحدها في مظروف أزرق كبير.. وواحد عليه علامة بريد ملبورن.. أمسكت بهذا الخطاب مفكرا بعض الوقت قبل أن أفتحه. كنت أعرف من أين جاء.. السؤال هو ما يحمله لي من أخبار.

منذ أشهر كتبت عن معاناتي لصديق قديم سافر إلى أستراليا لأن إنجلترا لا تتسع لطموحاته. هناك عمل في منجم ذهب خطر لي أن أطلب منه خمسين جنيها كقرض. طبعا سيرفض كأي

صديق تطلب منه مالا ولسوف يتهم التجارة والسوق. إلخ.. لماذا أتوقع أن يختلف؟ ليست بيننا سوى ذكريات عابرة من أيام الجامعة في أكسفورد. كنا نحلم بتغيير العالم للأفضل.

فتحت الخطاب بحذر.. هنا سقط شيك بمبلغ خمسين جنيها.

اضطرب قلبي شاعرا بالراحة.. وقلت:

- أنا ظلمتك يا جاك.. ما زال قلبك في المكان الصحيح..

وقرأت الخطاب فوجدته قصيرا كتب في عجلة:

- عزيزى جوف:

يؤسفني أن حظك متعثر، وهذا يدل على أن لندن ما زالت تعج بالحمقى، حيث يعجز رجل بقدراتك عن النجاح. أعتقد أن المال هو ما سيحل مشكلتك فلا تتعجل إرجاع المال. ما سأقدمه لك فعلا هو صديق يحمل خطاب تعريف مني، وكل ما عليك هو أن تضع نفسك بين يديه. هو خبير في مهنة النشر.. قال لي إنه ثري جدا لا يعرف ما يصنعه بماله وهو يحب رجال الدين في الكنيسة لأنهم يرشدونه إلى سبل الإنفاق. أنا مدين له بالكثير وقد حكيت له عنك. هو قادر على عمل أي شيء بماله.

المخلص بوفليس

الدموع كانت تغرق عيني وأنا أتأمل توقيعه، كان اسم بوفليس هو اسم تدليل نطلقه عليه أيام الكلية. كان اسمه

الحقيقي هو چون كارنجتون. يمكنني الآن دفع الإيجار وشراء بعض العشاء وإشعال نار في غرفتي..

فتحت الخطاب الأزرق الطويل الذي يبدو رسميا. ما هذا الذي فيه؟

رحت أعيد القراءة بينما الحروف ترقص أمام عيني. مستحيل أن يكون الثراء بهذه السهولة، لكن هذه الأنباء تبدو حقيقية!

-2-

قرأت كل حرف مما كتب. هل جننت؟ هل أنا محموم؟.. أم أن هذا حقيقي؟

أنا لم أعد متسولاً.. لقد صار العالم كله ملكي!

كان الخطاب من موثقي عقود بريطانيين، يخبرانني أن قريبا لأبي الذي لا أعرفه تقريبا، قد توفي في أمريكا الجنوبية، وترك لي كل وصيته.

هذا مبلغ خمسة ملايين جنيه إسترليني.. والموثقان يتوقعان أن أتصل بهما بسرعة هذا الأسبوع.

خمسة ملايين!.. أنا الصعلوك الجائع!... الذي لا صديق له ولا أمل.. لابد أن هذا تخريف بسبب الجوع، رباه!.. وأنا الوحيد على وجه الأرض من ينال هذه المنحة..

انفجرت أضحك غير مصدق..

يا لصاحبي المسكين بوفليس..! منذ دقائق أعطاني خمسين جنيها وهاهو ذا يستردها بسرعة خلال دقائق مع خمسين جنيها إضافية، يمكنني كذلك الاستغناء عن صديقه الثرى فأنا لست بحاجة له.. يمكنني شراء كل شيء وشراء ما أريد من القاب. يمكن شراء الحب والصداقة في هذا العصر..

يمكنني أن أنشر أعمالي.. بل وأعلن عنها.. بل وأشق طريقي إلى دوائر المجتمع الثقافية العليا، ولسوف أسخر بشدة ممن قللوا من شأني يوما.

هنا تذكرت أنني لم أفتح الخطاب الثالث..

كان مزركشا بماء الذهب. أخذته وقلبته بين أناملي شاعرا بنفور لا تفسير له. فتحته فقرأت هذه السطور:

- أنا أحمل خطاب تعريف من صديقك مستر (جون كارنجتون) الموجود حاليا في ملبورن. يسعدني التعرف بشخص ذكي مثلك ويسرني أن أمر عليك اليوم بين الثامنة والتاسعة.

المخلص لوتشيو رومانيز

كانت هناك بطاقة أنيقة كتب عليها:

«الأمير لوتشيو ريمانيز، جراند هوتيل...»

يا لعواء الريح ويا لصراخ الكمان في الغرفة المجاورة!. تذكرت أنني في مأزق الآن.. هناك أمير سيأتي الآن لزيارتي في هذا الجحر.. كيف أبدو ثريا؟.. لو كانت، معي ستة بنسات لأرسلت برقية حالاً أعتذر عن اللقاء..

قلت لنفسي إنني لن أقابله.. سأفر وأتظاهر بأنني لم أتلق رسالته، ثم أطلب موعدا معه عندما تصير ظروفي أفضل..

فجأة انطفأ المصباح وعم الظلام.. وفي الظلام سمعت صوت حوافر حصان تتوقف بالخارج.. ثم صوت خطوات وصاحبة النزل تتكلم. وعرفت أنني وقعت في يد الرجل الذي حاولت أن أتحاشاه.

-3-

انفتح الباب فرأيت شخصا فارعا يقف هنالك.. وسمعت صاحبة النزل تقول لي:

- هذا جنتلمان يريد أن يراك.

كان الظلام دامسا فقالت:

- أعتقد أن مستر تمبست ليس هنا.. برغم أنني رأيته يصعد للغرفة. سوف أجلب ضوءا حالا..

انصرفتْ.. هنا سمعت الغريب فارع القامة يتقدم في الظلام ثم يقول بصوت عميق قوي:

- جيفرى تمبست.. أنت هنا؟

هنا انحلت عقدة لساني... قلت له:

- أنا هو.. لقد أردت أن تعتقد أنني لست في الدار، إذ ترى الظلام..

قال بصوت عميق يدل على بعض السخرية:

- من الواضح أنك لست سعيدا بزيارتي..

- لا.. لكن الظلام ساد فجأة فلم أعرف كيف أعد المكان لاستقبالك..

- أنا أمد يدي لك في الظلام لأصافحك.. يمكنك أن تمد يدك أيضا..

مددت يدي.. هنا دخلت صاحبة النزل حاملة مصباحا.. وقد دهشت لما رأتني.

أنا فارع الطول لكن الرجل كان أطول مني.. وإذ حدقت فيه خطر لي أنني لم أر وجها يجمع الجمال والذكاء بهذا الشكل. عينان عميقتان وكتفان عريضتان جديرتان بهرقل.

قال لي:

- للأسف أنا آتي دوما في وقت غير مناسب.. أرجو أن تسامحنى.

ومد يده لي بخطاب يحمل خط صاحبى (كارنجتون). وأجلس نفسه.. تأملته بإعجاب متقشب

قلت له:

- صديقي أرسل لي يتكلم عنك بأفخم العبارات.. لكن سامحنى يا سيدى قد حسبتك أكثر شيخوخة مما تبدو..

قال في خفة:

- ليس هناك شيوخ هذه الأيام يا صاحبي.. لا أحد يتكلم عن السن في المجتمعات الراقية. السن ليس موضوعا مهذبًا.. أنا فعلا مسن.. لن تتصور كم أنا مسن!..

- بل أنت تبدو أصبي منى..

ثم فتحت الرسالة.. فقرأت التالي بخط صديقى:

- الأمير ريمينيز أكاديمي متميز وجنتلمان. ينتمي لأسرة أوروبية عريقة، وسوف تحب دراسة تاريخ أسرته.. لقد فقد

الكثير من ثروته. سافر كثيرا ورأى الكثير.. شاعر وموسيقار بارع وخبير أدبي..

لم يكن الخطاب حميما كأنه تم إملاؤه.. كما أنه لم يحمل توقيع صديقي المعروف (المخلص بوفليس). لكني تظاهرت بأنني لم ألحظ هذا ورحت أعتذر لزائري عن فقر المكان.. هنا قال لي في بساطة:

- أنا هنا كي أكون صديقا لك.. فهلا تبعتني إلى الفندق لتتناول العشاء معى؟

كنت قد بدأت أرتاح لهذا الرجل، فوافقت على الفور.. لكن قلت له:

- أولا دعنا نتكلم قليلا.. لابد أنك عرفت عني من صديقي كارنجتون، وتوقعت أن تجد رجلاً في أتعس حالات الفقر والبؤس.. هذا كان صحيحا منذ ساعتين.. وناولته خطابا موثق العقود.. فقرأه في تهذيب ثم أعاده لي وقال:

- يجب أن أهنئك.. برغم أن هذه الثروة تبدو لي ضئيلة ويمكن أن تتلاشي خلال تسعة أعوام.. هي لا تحصنك للأبد ضد الفقر.. في رأيي أن دخلك يجب أن يكون مليونا في العام كي تتفادى العمل في الورشة!..

نظرت له في حيرة غير عالم هل هو يمزح أم يتكلم بجدية.

ضحك وقال:

- جشع الإنسان يا صديقي لا يتوقف أبدا.. يشتهى هذا ثم ذاك.. هناك نساء يمكنهن أن يرحنك من هذه الملايين بسرعة

البرق.. سباق الخيول كذلك. أنت لست ثريا يا صديقي.. فقط لم تعد حاجاتك ملحة كما كانت، وإنني لأشعر بخيبة أمل لأنني كلما وضعت آمالي على شخص وجدته مخيبا للأمل..

ثم وضع يده على كتفي وقال:

- أعتقد أنك موافق على دعوة العشاء؟

نظرت لثيابي في خجل وقلت:

- لست مؤهلاً لمرافقتك أيها الأمير.. أبدو كصعلوك.

هز رأسه في فهم وقال:

- بالفعل تبدو كذلك.. لكن المظهر لا يهم.. المعطف الذي يلبسه رئيس الوزراء نفسه بال عتيق.. لا أحد يهتم بالمظهر سوى المغرورين والبؤساء.. سوف يتصرف الخياط معك، لكن أطلب منك لخدمة هي أن تجعلني أنا محاسبك فيما يتعلق بكل تعقيدات المصارف والعقود..

وافقت على الفور.. وكتبت خطابا لصاحبة النزل أخبرها أن الإيجار سيصلها غدا بالبريد، ثم وضعت مخطوطة كتابي تحت إبطي. هكذا تركت بيتي للأبد بكل ما فيه. لو كنت أعرف المستقبل لتحسرت على كل لحظة عشتها في هذا البيت، لكن الجهل بالمستقبل نعمة حقيقية.

-4-

كانت عربة الأمير المزركشة بالذهب تقف في الخارج يقودها جوادان مطهمان أسودان نفد صبرهما من الانتظار.

شعور الفخامة بالداخل جعلني أشعر كأنني تركت كل معاناتي وماضيّ من خلفي، وفي ظلام العربة رأيت عيني مرافقي القويتين تتفحصان وجهي. قال لي:

- لقد عرفت رجالاً كثيرين.. مملكتي واسعة فعلاً..

- إذن أنت تحكم فعلاً يا أمير.. لقبك ليس شرفيا.

- أنا لحكم حيثما يوجد أناس يطمحون للثروة.. لا يمكن شراء الفضيلة إذا وجدت. الأصدقاء يسمونني لوتشيو..

- هل هذا اسمك المسيحي (اسمك الأول)؟..

قال في امتعاض:

- مسيحي؟.. لا.. لا يوجد اسم مسيحي في عقيدتي. لا أؤمن بوجود شخص واحد مسيحي.. أنت لست مسيحيا الناس تتظاهر بكونها كذلك وهذا يوقعهم في أشر أنواع الهرطقة. لكننا سنواصل هذا الحديث فيما بعد.. ما يعنينا حاليا هو الظفر بوجبة ممتازة..

استقبلونا باحترام في الفندق، وإن لاحظت نظرة الخدم المهذبة لمنظري الرث.. وقد أعلنت عن رغبتي في الحصول على غرفة بالفندق، كان مضيفي يقيم في جناح من الفندق فيه مكتبة وغرفة طعام وغرف للخدم.

كانت المائدة معدة.. وعليها أفخر أنواع الأطباق والكئوس وأدوات الطعام، وعليها أجمل الأزهار والفواكه، راح تابع الأمير يقدم لنا الطعام، ولاحظت أن له سحنة شريرة غير مريحة.. لكنه كان يقدم الطعام والشراب بكفاءة فلمت نفسي على الشعور بالنفور تجاهه. كان اسمه إميل..

كانت أروع وجبة ذقتها في حياتي. وجبة يقضي الذواقة عمره يبحث عنها فلا يجدها.

بعد العشاء مع السيجار سألني مضيفى:

- هل تنوى الاستمرار في الكتابة بعد ما صرت ثريا؟

قلت له إنى راغب في ذلك، خاصة أن الثراء قد يفتح لي طريق الشهرة. فسألني عن موضوع الرواية التي كتبتها، قلت له:

- هي قصة رومانسية تتحدث عن أرقى شيء في الإنسان وأنبل العواطف.. تهدف إلى أن تسمو بالعقول..

ابتسم في سخرية وقال:

- لا يصلح.. يجب أن تكون القصة ذات طابع جنسى يظهر الناس كبهائم لا همّ لها سوى التناسل.. أؤكد لك أن هذا سيعجب النقاد جدا ولسوف تقرؤها العذارى في خدرهن مشغوفات. من وضع في ذهنك أن تكتب عن أشياء نبيلة؟ لا توجد أشياء نبيلة في العالم.. الناس لا تريد أن تقرأ أشياء نبيلة في القصص.. بل يذهبون للكنيسة لو أرادوا ذلك، حيث يموتون مللا. ولكن دعنا من هذا ولنر كيف نمضي باقى الأمسية.. أم أنك ترغب في الراحة؟

الحقيقة أنني كنت مرهقا فعلا وقد ثقل رأسي من النبيذ. قلت إنني راغب في النوم. وهكذا جاء الخادم ليأخذني لغرفتي. قال لي صديقي الجديد قبل أن أذهب مع إميل لغرفتي:

- في الغد تعرف الكثير عن هذا العالم.. وربما تفكر في الزواج.. أنا سأقودك إلى كل الأماكن التي يمكن أن تجد فيها زوجة طيبة، بالطبع لندن هي أفضل هذه الأماكن. يجب أن تتذكر أن الأنثى كائن غير كامل.. كائن بلا روح.. هي أنثى الرجل فقط وليس من حقها أن تختار..

هنا أضاء البرق المكان.. ثم دوى الرعد..

كانت الغرفة واسعة منسقة وفاخرة الأثاث، تدفئها نيران مريحة، لم أكن قد اعتدت هذا الحظ الحسن في حياتي ومنذ مولدي، وقف الخادم ينظر لي متسائلاً إن كنت أريد شيئا.. شعرت بأنه يجب أن أبقي هذا الكائن بعيدا عني.

نزعت ثيابي أمام المرأة مصغيا لصوت المطر، وقلت لنفسي:

- جيفري تمبست.. أنت رجل مجدود الحظ.. ثرى وسيم وصغير السن مكتمل الصحة.. إن العالم أمامك.

استلقيت على الفراش المريح.. وغبت في أحلام جميلة، لكني صحوت مرتين شاعرا كأن هناك من يقف في الغرفة يسترق لي النظرات.. وفي مرة خيل لي أن الأمير ينادي خادمه إميل.

في الصباح قابلت لوتشيو.. قلت له إنني ذاهب لمقابلة موثقي العقود اللذين لديهما ثروتي، فقال لي:

- ليس من الحكمة أن يشعرا بأنك مفلس أو أن تطلب دفعة مقدمة من المال. سوف أعطيك بعض المال وتذكر أنك وعدتني بأن أكون محاسبك.. وفي الطريق يجب أن تمر على خياط بارع.. ثم ناولني 500 جنيه كمصروف جيب. حكيت له عن مال كارنجتون الذي أرسله لي فقال:

- خمسون جنيها!... ليس صديقك كريما جدا خاصة أنني أعرف أنه وجد منجما غنيا في أستراليا قبل سفري..

قلت له:

- هذا مبلغ فادح لا أريده..

- من الأفضل في هذه الأيام أن يكون معك الكثير من المال على ألا يكون معك مال.

ودعته شاكرا واستقللت عربة ذات حصان منطلقا إلى شارع بيزنجهول حيث ينتظرني الموثق.

استقبلني الموثقان في حفاوة ودفعا أجر العربة، وعرفت منهما أن هذا القريب الذي لا أعرفه كان يشفق عليّ لأنني يتيم لهذا ترك لي ثروته كلها، وهي وصية لا يمكن الشك فيها هكذا أمامي عشرة أيام إلى أن أملك كل شيء.

قال لي الموثق في حرج:

- إن قريبك رجل محترم لكننا لا نعرف أي شيء عن الطريقة التي كوّن بها ثروته.. كان في أيامه الأخيرة في مصحة وكان يقول شيئا عن بيع نفسه للشيطان... للدقة كان يتكلم عن صفقة عقدها..

ضحكت كثيرا وقلت:

- هل حقا ما زال في زمننا المتحضر هذا من يؤمن بوجود الشيطان؟

قال الموثق وهو ينظر لزميله:

- نشعر براحة لأننا ذكرنا لك هذا الجزء..

فارقت الرجلين الشبيهين بتوءمين.. وقد وعداني بأن يسديا لي العون كما أسدياه لقريبي. عرضا عليّ مبلغا من المال إلى أن أسوى التركة، لكني رفضت وأنا أشعر بامتنان لصديقي لوتشيو الذي أعفاني من هذا الجزء، اتجهت للباب مع الخادم وأعطيته بقشيشا ممتازا ليشرب كأسا في صحتي.

أنا مليونير.. خمس مرات مليونير!

قضيت الصباح أبتاع ثيابا وجدت قياسها مناسبا ضمن جملة حظي الحسن، ثم أرسلت لصاحبة النزل إيجارها المتأخر كاملاً وأضفت خمس جنيهات على سبيل الشكر لكرمها معي..

عدت للفندق فأخبرني أحد الخدم أن الأمير بانتظاري لتناول الغداء معى.

دخلت عليه فوجدته واقفا عند النافذة وفي يده شيء زجاجي لم أفهمه.. حييته وسألته عن هذا الشيء فقال:

- كائن أليف أربيه.. هل رأيت شيئا كهذا من قبل؟

تفحصت الصندوق الصغير الذي يحمله فوجدته بغطاء زجاجي، ومثقوبا لدخول الهواء. بالداخل كانت حشرة ملونة ذات

أجنحة لها كل ألوان قوس القزح.

- هل هي حية؟

- حية وذكية.. هي ودود وتعرفني..

ومد إصبعه في العلبة.. ثم أخرج إصبعه لتقف الحشرة عليه وراح يهزها كي تطير.. حلقت عبر الغرفة ثم دارت عائدة لتستقر على يد مالكها. قال الأمير:

- كنت واقفا أثناء نزع أكفان مومياء مصرية لأنثى.. كانت مزينة بالمجوهرات.. وعندما نزعت الأكفان المعطرة وجدنا فجوة في صدرها. في هذه الفجوة كنت تلك الحشرة حية. وبكامل ألوانها..

شعرت بهزة عصبية.. وقلت:

- هذا مخيف.. بصراحة لو كنت مثلك لتخلصت من هذا الشيء الشرير..

- ولمه؟.. أخشى يا عزيزى أنك لا تملك حاسة علمية هذه الحشرة انتزعت حياتها من صدر الأميرة الميتة.. ومنذ آلاف السنين. لكني أفهم نفورك من هذه الحشرة.. لو سمحت لي لقلت إن لديّ نظرية تتعلق بتناسخ الأرواح. لربما كانت الأميرة المصرية روحا شريرة تجسدت في هذه الحشرة..

شعرت بذعر وتأملت صديقي فارع الطول وسيم الملامح، في إضاءة الغرفة الشتائية الضعيفة. خيّل لي بالفعل أن عيني الحشرة ذكيتان تلمعان.

أغلق العلبة وقال:

- الآن إلى الغداء.. تبدو لي بحال طيبة، لذا أعتقد أنك أتممت أعمالك المالية بنجاح..

-5-

ثلاثة أسابيع مرت كأنها دوامة من الإثارة، وعندما انتهت وجدت من الصعب أن أتذكر نفسي كما كنت بالمقارنة بالشخص المتألق الذي صرته، كتابي موشك على الصدور.. لكني لم أكن سعيدا، كتابي كان يحمل معتقدات تختلف عن معتقداتي كلية لقد قدمت صورة مختلفة عن نفسي للمجتمع، مثل الإيمان والمثل العليا.. إلخ.. كل هذا لم أعد أؤمن به لكني كتبت عنه.

الحقيقة أنني في عصر ذلك اليوم شعرت بتعاسة لا مبرر لها ولا تفسير. لقد كنت ثريا وكانت الحياة أمامي.. صرت شهيرا جدا وتقريبا تكلمت عني كل جريدة في لندن، وهذا ترتيب لوتشيو طبعا.

كنت أرفض أي طلب لقروض أو عون.. واستمتعت فعلاً بذلك. لم يساعدني أحد في محنتي فلماذا أمد يد العون لأحد؟

كنت مكتئبا.. ولكن لوتشيو راح يقنعني أن كل الأحباء يكذبون بشكل أو بآخر.. هذا الكوكب ضيق جدا لا يتسع إلا لهوميروس واحد وأرسطو واحد وشيكسبير واحد.. لكنك تناسب هذا العصر وهذا المجتمع.

قال إنه سيدعوني الليلة إلى المسرح حيث نقابل إيرل إلتون في مقصورته.. إنه رجل ثمل مصاب بالنقرس، لكن ابنته ليدي سيبيل من حسناوات إنجلترا المعدودات.

رحبت بالدعوة فأنا أسعد كلما أتيحت لي فرصة التواجد مع لوتشيو بعيدا عن عالمي الخاص الكئيب.

نظرت لوجهه الوسيم وقلت له:

- ألا تلاحظ أن الناس ينظرون لك كثيرا يا لوتشيو؟

- نعم لا ألاحظ. ولماذا ينظرون؟.. كل امرئ مشغول بمشاكله فلا وقت لديه كي يهتم بآخر حتى الشيطان نفسه.. النساء ينظرن لي كثيرا من منطلق إعجابهن الدائم بشخص ذي حضور قوي..

ثم أضاف في خبث وبرود شديد:

أنا مؤمن أن ليدي سيبيل للبيع.. لكن عروض الأسعار لم تصل لمبلغ مغر بعد.. لكني لن أشتري.. انا أمقت النساء. لقد آذينني كثيرا. لديهن القدرة على مساعدة الخير لكنهن لا يفعلن ذلك. إنهن أقل حساسية من الرجال وبلا قلب. خطايا البشر جاءت بسببهن، لذا أكرههن أكثر. ألم تلحظ أن كل شيء في الكون محكم الصنع ما عدا الإنسان؟.. هل تعرف معنى هذا؟

- لا.

- سوف نتكلم عن هذا فيما بعد.. العشاء بعد ساعة.

☆ ☆ ☆

لا يمكن أن ينسى أي رجل لقاءه مع الجمال المثالي. ربما يقابل بعض الوجوه الساحرة أو المريحة، لكن هناك لحظة يرى

فيها بؤرة الجمال المذهلة التي تفوق هذا كله.

لقد قهرتني سيبيل بلا أي أمل في النجاة من سحرها.

اصطحبني لوتشيو إلى مقصورة الإيرل بين فصلي المسرحية، وكان الإيرل رجلاً أصلع محتقن الوجه له سوالف مشعة عرفت فيما بعد أنه مدين للوتشيو بمبلغ كبير، كان جمال ابنته مبهرا كما قلت، وإن خالطته لمسة من البرود واللامبالاة تدل على رقي منشئها..

انحت في خفة تحيينا. بينما راح أبوها يتكلم عن المسرحية التي لم أع حرفا منها. طلب لوتشيو أن ينفرد بالإيرل لبعض المواضيع المالية.

هكذا وجدت نفسي مع الليدي وحدنا، وقد سألتني عن معرفتي للأمير لوتشيو فقلت إنه صديق قديم. قالت:

- هو رجل وسيم ومؤثر فعلا..

بالطبع كلامها صحيح. لكن بم يشعر رجل يجلس مع فتاة جميلة تتكلم بإعجاب عن رجل غيره؟

سألتني:

- هل أنت مستر تمبست الشهير؟

- هل تعرفين اسمي؟.. إن كتابي لم ينشر بعد..

- أي كتاب؟.. لم أسمع قط أنك تكتب. فقط أعرف مستر تمبست المليونير الذي تتكلم عنه الصحف. في الحقيقة أنت شاب وسيم.

شعرت بخجل من هذه المبالغة فقالت:

- أنا أعنى ما أقول.. كل المليونيرات يصيرون أغبياء شديدي القبح مع الوقت لكنك تختلف..

انتهت المسرحية وقد صرنا صديقين، ونلت شرف أن أوصلها لعربتها بينما مشى لوتشيو مع الإيرل.

قال لي الإيرل وهو يودعني:

- تعال وتعش معنا.. تعال وتعش.. تعال يوم الخميس. زوجتي مشلولة للأسف وأختها هي التي تدير بيتنا.. لا خوف من أن أتزوجها لو ماتت زوجتي لأنه لا أحد يتزوج الخالة شارلوت. لكن هناك حسناء أمريكية شابة ربما أتزوجها.. لم أفهم الكلام، لكني لمحت نظرة ضيق عابرة من سيبيل عندما ذكر أبوها الفتاة الأمريكية.

لما رحلوا سألني لوتشيو عن رأبي فيها فقلت إنها باردة بعض الشيء.. قال:

- هي باردة فعلاً، لكن الجليد غالبا ما يغطي البراكين. على كل حال معظم هذه الألقاب مفلسة تبيع نفسها لأول مشتر حتى لو كان سوقيا.. على الأقل أنت لست سوقيا لكنك لا تعرف من أين جاء مالك!..

قلت له:

- هذا صحيح.. تصور أن قريبي كان يعتقد أنه صار ثريا بعد صفقة مع الشيطان؟

انفجر لوتشيو يضحك وقال:

- تخيل في هذا الزمن!.. هناك شخص ما زال يعتقد بوجود الشيطان. فعلا لابد أن صواميل عقل قريبك قد تفككت.. والآن سأتركك لأنني وعدت بلعب القمار في ناد قريب.

لم أرغب في مرافقته.. كنت أريد أن أخلو بنفسي لأتذكر وجه ليدي سيبيل

-6-

قال لي الناشر الأريب مورجسون إنه سيطبع 250 نسخة من كتابي.. احتججت على هذا العدد الضئيل، فقال إنه سيهدي هذه النسخ للصحفيين والمراجعين، وبعد هذا يعلن أن الطبعة الأولى نفدت وأنهم بصدد عمل طبعة ثانية.. لن يعرف الناس أبدا إن كان قد طبع 200 أم 2000 نسخة. وهكذا ينتظر السوق الطبعة الثانية متعطشا.. كما أنه أوحى لمن يكتبون عن الرواية أن يقولوا كلاما مبهما يُفهم منه أنها مشينة..

سوف تستمر الطبعات وكل واحدة 250 نسخة، وهكذا تصل بسرعة للطبعة العاشرة..

ذكر لي اسم ديفيد مكوينج وهو مراجع إسكتلندي مهم لابد من الاستعانة به لكي تنشر لي جريدة (القرن التاسع عشر) مراجعة عن كتبي.

- يجب أن تتصل بمكوينج وإلا انقلب عليك..

وعندما عدت للفندق قال لي لوتشيو نفس الشيء، لكنه قال إنه من الخطأ أن يتصل كاتب بناقد ويطلب منه الاهتمام بكتابه.. هناك طرق أخرى.

قال إنه يعرف مكوينج.. بالواقع هو يعرف كل من يستحقون أن يعرفهم المرء، وقد قابله في رحلة تسلق في سويسرا.. في تلك الليلة أخذني إلى بيت من البيوت التي يزجي فيها الأثرياء وقتهم باحثين عن مسرات محرمة.. هذه البيوت التي كانوا يطلقون عليها demi – mondaine. وهكذا عرفت مجتمعات القمار.

أدركت من اهتمام الناس بلوتشيو واحترامهم له أنه أقرضهم مالاً من قبل.. على الأقل هو يسيطر عليهم ماليا.

دعيت للعبة الباكاراه مع شاب أشقر كريم المحتد عرفت ان اسمه فيسكونت لينتون. وقد لاحظت الاستهتار الذي يلعب به وعدم مبالاته بالخسارة، من الغريب أنني ظللت أربح وأربح.. لا أعرف كيف أشرح لكني تمنيت فعلا أن أخسر لينتهي هذا الجنون.. ليت هذا الحظ الشيطاني ينتقل لهذا الفيسكونت

في النهاية قال لي:

- لقد نفد مالي كله.. يجب أن تمنحني فرصة للتعويض غدا يا مستر تمبست..

هززت رأسي وقلت:

- هذا يسرني..

كاد الفيسكونت ينسحب لكن لوتشيو دعاه إلى أن يستمر في اللعب.. ليحاول أن يعوض خسارته. قال الفتى إنه مفلس فعلاً، فدعاه لوتشيو إلى أن يلعب على شيء بسيط.. روحه مثلا.

انفجر الجميع ضاحكين فقال لوتشيو:

- نحن في عصر التقدم العلمي، لهذا نؤمن أنه لا يوجد شيء اسمه الروح... لو لعبنا على شعرة من رأسك لكان لها ثمن، فهي على الأقل شيء مادي.. لكن اللعب على الروح معناه أنا نمزح..

هكذا بدأت اللعبة..

لم يستغرق الأمر سوى سبع دقائق، بعدها نهض لوتشيو معلنا الفوز، وقال:

- لو أن الأرواح لها وجود يا عزيزي الفيسكونت فأنت مدين لي بروحك.. لا أعرف ما عساي أفعل بها.. ابتسم الفيسكونت في حزن، وصافحنا ويده ترتجف ثم غادر المكان.

ما أن انغلق الباب حتى تبادل الرجال الهمسات:

- لقد خرب بيته..

- إنه مدين بمبلغ مستحيل.. يقال إن ديونه بلغت خمسين ألفا.

كانوا يتكلمون بقسوة وبلا تعبير على الوجوه، شعرت بأن المقامرين جميعا يفقدون قلوبهم ومشاعرهم في وقت ما. كنت أعرف أنني أزداد قسوة وأنانية هذه الأيام، لكني ظللت بعيدا عن أن أكون مثل هؤلاء.

قررت أن أتصل بالفيسكونت هذا وأتنازل عن دينه لي.

هنا فوجئت بلوتشيو ينظر لي نظرته العميقة، ثم طلب مني أن ننصرف..

في طريق الخروج قال لي:

- تمبست.. لو اخترت أن تتعاطف مع الأوغاد فأنا مضطر للتخلي عن صداقتك.. أنت تخطط لعمل ساذج أحمق.. وهذا الرجل لا يستحق أي كرم.. لا يجب أن يلقى عطفا أكثر من أي كلب.. دعه ينل جزاءه..

كنا نمشي في الشارع عندما رأيت شخصا مألوفا.. قلت في دهشة:

- هذا هو الفيسكونت نفسه..

قال لوتشيو:

- لا تقترب منه.. ليس هذا بالوقت المناسب..

- لكن أين هو ذاهب؟.. خطواته مضطربة....

- ثمل.. بالتأكيد ثمل..

هنا صاح الفيسكونت طالبا عربة ذات جواد.. فتوقفت عربة أمامه. استقلها وابتعد. فجأة سمعت صوت طلقة رصاص تدوي من اتجاه العربة.

توقفت العربة وترجل الحوذي واحتشد رجال الشرطة والعمال.. صحت في هلع:

- يا للسماء!.. لقد قتل نفسه!..

وكدت أهرع لكن لوتشيو اعتصر يدي في حزم وقال:

- دعه يا تمبست.. هل تريد أن يطلبوك للشهادة فتفضح النادي والمقامرين؟.. متى مات الرجل فهو ميت ولا جدوى..

صحت في رعب:

- هل تمزح؟ لوتشيو.. أنت بلا قلب.. هل تريد أن أرى هذا وأصمت بينما أنا سبب موته، بحظي اللعين في لعبة الباكاراه..

لكنه ظل يمسك بيدي في حزم. وقال:

- لا يوجد شيء اسمه حظ لعين.. لن نتورط في قضية انتحار فالطبيب الشرعي لديه كلمتان تنهيان أي ضوضاء (جنون وقتي).. انتهى الأمر..

لا أتصور أنه على بعد أمتار توجد الجثة النازفة لرجل كنت ألعب معه منذ نصف ساعة.

ومشيت بطريقة سلبية مع لوتشيو عائدين إلى الفندق.

-7-

أخبرني لوتشيو بشأن بيت جميل في الريف اسمه ويلوزمير، يمتاز بمناظر طبيعية خلابة.. ويطل على نهر آفون. ثمن هذا البيت بأثاثه خمسون ألف جنيه..

- هذا مكان يناسب مواهبك الشعرية والأدبية، خاصة أنه موطن شيكسبير..

ثم أضاف أن هذا المكان سيروق للإيرل والد سيبيل جدا.

- لماذا؟

- لأنه كان ملكا له.. ثم وقع في قبضة المرابين اليهود وباع البيت بسبب القروض.. تلاحظ أن المرابين اليهود هم الذين انتصروا على المسيحية في النهاية.. اليهود ينتصرون دائما.

فكرت ثم قلت في حماسة:

- سوف أشترى وبلوزمير هذا.. هلا أعطيتني بيانات البائع؟.. سوف أبرق لمحامي كي يشتريه فورا..

- لكن ألا تتمهل؟ يجب أن ترى المكان بنفسك..

- حتى لو كان وكر فئران.. سأشتريه فورا.. أريد أن يعلم الإيرل هذه الليلة أنني المالك الجديد لـ وبلوزمير.

تأبط ذراعي ونحن ذاهبان لقاعة التدخين وقال:

- أنت رجل شديد العزيمة يا تمبست.. هذا يروق لي في الرجال. التصميم.. حتى لو كان الرجل ذاهبا للجحيم فأنا احترم

القرارات السريعة..

وهكذا رحت أستعد للعشاء هذه الليلة في بيت الإيرل، وتأنقت قدر الإمكان..

ذهبت مع لوتشيو.. توقفت العربة أمام بيت جميل في زقاق خلفي. دخلنا البيت لنجد إيرل إلتون واقفا وظهره لنار المدفأة.. وأمامه تربعت فتاة شابة بارعة الجمال لها قدمان صغيرتان. ذكرت القدمين لأنهما أول ما لفت نظري. كانت هناك سيدة أخرى قدمها لنا الإيرل:

شارلوت.. اسمحي لي.. هذان الأمير لوتشيو والسيد جيفري تمبست.. وهذه أخت زوجتي الآنسة شارلوت فيتزروي..

حيينا الآنسة. كانت عانسا يوحي شكلها بالامتعاض والقرف. جو عام من الفضيلة حولها كأنها رأت شيئا شنيعا في حياتها فقررت أن تلوذ بالفضيلة. أما الفتاة الأخرى فقدمها لنا الإيرل:

- ميس ديانا شيسني.. أبوها واحد من ملوك السكك الحديدية في الولايات المتحدة..

قال لوتشيو:

- والدها صديق عزيز.. لقد التقينا في واشنطن وكانت بيننا صداقة ممتازة..

قالت الفتاة:

- حقا؟؟ تعرفه؟.. لا يفكر إلا في السكك الحديدية لدرجة أنني قلت له: بابا.. لو لم تكن هناك سكك حديدية على وجهك لكنت ألطف معشرا..

ضحك لوتشيو لطريقتها المفاجئة في السخرية من أبيها.

فقالت ضاحكة:

- أنت تعتقد أنني غير مهذبة.. أليس كذلك.. لكن أبي أقرب لمحصل تذاكر وهو يمقت التعامل معه بشكل رسمي...

كانت في الواقع فتاة أمريكية فاتنة، تعرف كيف تنال إعجاب الرجال لكنها لا تستطيع الظفر بعواطفهم.

نظرت لي وقالت:

- أنت إذن مستر تمبست الشهير.. من الممتع أن يكون المرء ثريا وهو شاب. أن تصير ثريا وأنت شيخ معناه أنك تملأ جيوب الأطباء والورثة.. عرفت سيدة عجوزا ورثت مئة ألف جنيه وهي في التسعين. بكت كثيرا بسبب كل السعادة التي لن تنالها..

دارت محادثة شائقة أبدى فيها لوتشيو بعض آرائه الغريبة الساحرة. فجأة قاطعت مس شيسني المحادثة، وأعلنت أن سيبيل قادمة.

شعرت بقلبي يخفق لدى قدوم هذا الجمال. جلست في الحجرة فأعلنت أنها حزينة لما حدث للفيسكونت الذي انتحر. لاحظت في ضيق أنها لا ترفع عينيها عن لوتشيو.

وهكذا تأبطت ذراع ليدي سيبيل إلى مائدة العشاء. أدركت أنها ساحرة فعلا لكن ذكاءها محدود.

حدثتها عن نيتي في شراء بيت ويلوزمير فساد الصمت. لاحظت أن مس فيتزوي تنهدت في عمل. هذا هو البيت الذي ولدت فيه سيبيل.. لقد صار ملكي أنا. قالت سيبيل:

- قضيت في ذلك البيت أسعد أيام حياتي. كنت ألعب في الحقول فأقابل على الضفة الأخرى من نهر آفون فتاة في سني.. لكن المربيات كن يمنعنني من اللعب معها لأنها من طبقة أدنى من طبقتنا. عرفت اسم هذه الفتاة.. كان اسمها مافيس كلير

نظر لي لوتشيو باسما وقال:

- ألا تتذكر هذا الاسم يا تمبست؟

تذكرت اسمها.. كانت أديبة لم أهتم بها كثيرا، على كل حال لم أكن أثق كثيرا بقدرة النساء على كتابة أعمال أدبية مهمة.

قلت سيبيل:

- أنا حزينة لأنني لم أصادقها.. اليوم صارت هي أرقى مني بكثير. صارت كاتبة مهمة وتعيش هناك وقد ابتاعت الأرض التي حولها. وهي تكتب هناك.

سألت عما كتبته تلك المرأة فقال لوتشيو:

- رواية واحدة.. لكنها خارقة للعادة.. تساءل الإيرل عن موضوع اهتمامي بالكتابة، فقال لوتشيو في استهجان:

- إن ما كسبه من صيت بثرائه لا يكفيه.. يريد أن تقوم شهرته على النبوغ..

قلت في ضيق:

- أنا مؤلف فعلاً.. وعما قريب سأثبت جدارتي وأهميتي في مصاف الأدباء، أعتبر الأدب أرقى المهن ولن يمنعني شيء عنه.

عرفت من الحديث أن مافيس كلير كسبت الكثير من قلمها فقط، وهي شديدة الكبرياء.

أدركت من الكلام أن الإيرل مولع بالمال، ويمكن أن يبيع ابنته فعلا لمن يدفع أكثر. لكنني كنت أريد أن أنال حبها بحبي، وليس بمالي.

جاءت الليدي زوجته محمولة على مقعد فرحبت بنا.. كانت امرأة ظريفة ذات وجه مشرق.

سألتْ ابنتها سيبيل عن الأمير فقالت الابنة:

- هذا هو الأمير لوتشيو صديق أبي..

نظرت المرأة للأمير بعض الوقت وتصلبت يدها.. ثم استدارت تسأل عني.. ثم استدارت للوتشيو من جديد وسألته:

- وجهك مألوف.. هل رأيتك من قبل؟

وهنا اكتشفت أنها قابلته منذ زمن بعيد قبل الزواج.. سألته سيبيل عن سنه فقال إنه شيخ، لكن هذا غير باد على ملامحه.

دار حديث طويل تطرق للدين فسألته مس فيتزروري إن كان يؤمن بالسماء، فقال:

- لا تؤاخذيني.. أنا لا أؤمن بسماء رجال الدين.. لكنى أؤمن بالسماء، سماء مختلفة.. ويخيل لي أني في طفولتي كنت أسمع تسابيح الملائكة في جنة عدن..

وبدأ حزن واضح في عينيه..

ثم أنه اتجه للبيانو فجلس وراح يضرب المفاتيح بأنامله فارتجفنا.. لم نسمع قط صوتا كهذا... لقد سمعنا في عزفه خرير الجداول وشقشقة الطيور والعواطف كلها.. وخفقات قلوبنا إذ نصغي.

لقد سرت هذه الموسيقا في دمي فجعلتني في حالة مذهلة من التهور.. الحقيقة الغريبة هو أن هذه الموسيقا كانت توحي ليس بالسمو بل الجريمة والشر.. توقظ أحط الأحاسيس في روحك..

صارحته بهذا فقال:

- لا شك يا صاحبي أن هذه العواطف الشريرة في نفسك أصلا..

- وربما في نفسك أنت!..

فجأة سمعنا صرخة غريبة.

نظرنا إلى الخلف فوجدنا الكونتة على الأرض تتشنج..

-8-

في طريق العودة، حكى لي لوتشيو عن الكونتة، قال إنه عرفها في شبابها، وكانت نزقة مندفعة وقد عرض أحد عشاقها على زوجها أن يسدد ديونه.. لما رأى لوتشيو دهشتي قال:

- هذا معتاد في الأوساط الراقية!..

ثم أضاف في خبث:

- الأغنية التي غنيتها كتبها قديما أحد عشاقها.. لقد أصابها الذهول عندما سمعت اللحن لأنها كانت تحسب أنها الوحيدة التي تعرفه. لهذا تشنجت وفقدت الوعي..

ثم أضاف:

- دعنا من هذا ولنتكلم عن سيبيل.. أرى كم أنت مولع . بها ولسوف أسعى جاهدا لأزوجكها.. أنا راض كل الرضا عن هذه الزيجة.

تواصلت زياراتي لبيت الإيرل، وصارت علاقتنا حميمة أكثر.

سرني كذلك أن لوتشيو قلل زياراته لهذه الأسرة، وهذا ناسبني جدا. لا أحد يقاوم لوتشيو وما من رجل يقدر على منافسته.

سنحت لي فرصة دفع بعض الديون عن الإيرل، كما قدمت هدايا كثيرة لسيبيل.

كان الشيء الوحيد الذي يهمني في تلك الأيام هو حبي لها. كانت فتاة غريبة الأطوار حقا.. تفهم ما أحمله لها بالضبط لكنها

تتظاهر بعدم الاهتمام. كلما حاولت أن أظهر بعض العاطفة كانت تبدى الدهشة وعدم الفهم. هؤلاء النساء يحملن قدرا من القسوة لا بأس به، ولا شيء يسعدهن قدر أن يمنحهن المرء حياته وشرفه.

كنت أمر بحالة عامة من عدم الرضا برغم أنني حققت الكثير في حياتي، كان كتابي قد خرج للعالم فصار وحشا يلتهم حياتي بحضوره المخيف. في كل صفحة من الجرائد أجد إعلانات ناشري الكاذبة.. ومديح المراجعين!.. كل هذا كذب يفعمني تقززا.. يكتب ذلك الناقد ماكوينج عني قائلاً إنني عبقري اللحظة، وأنني مزيج من شكسبير وأسخيلوس.

إن الرجل يعمل جيدا بالخمسمائة جنيه التي نالها. وقد تحمس نقاد كثيرون لكلماته فكتبوا عني بدورهم وأرسلوا لي مقالاتهم.. شكرتهم ودعوتهم للعشاء. كانوا يعودون لبيوتهم وقد طار صوابهم من الوليمة والشمبانيا.

لكن الجمهور لم يبد متحمسا للكتاب، وظلوا ينظرون لي باعتباري المليونير الكبير فقط. دون اعتبار لأهميتي كأديب وكانت العبارة التي أسمعها دوما هي.. أنت كتبت كتابا أليس كذلك؟؟ لم أقرأه بعد.. سوف أفعل ذلك.. ابتعت في نفس الوقت بعض كتب مافيس كلير. سألت المؤلف عما إذ كانت تعلن عن كتبها فقال لي ضاحكا: . لا.. هي أشهر من أن تحتاج لدعاية!....

شعرت بحمد شديد من هذا الكلام، ورحت أقرأ الكتب فوجدت أنها موهوبة حقا ولديها أفكار ذكية. هكذا قابلت لوتشيو فيما بعد فناولته أحد الكتب وقلت:

- هذه امرأة موهوبة.. بالتأكيد لا تدفع خمسمائة جنيه لناقدك المرتشي هذا..

قال لي:

- لكنها تظفر بهجمات شرسة في الصحف.

أثر الكتاب على حياتي كثيرا، فاعتل مزاجي وصرت ضيق الصدر بما أطالعه عن نفسي وعن كتابي، ورحت أتردد على دور النشر والحانات بلا توقف.

قال لوتشيو:

- أي خطأ ارتكبته تلك الفتاة؟.. أنت مليونير وهي فتاة كادحة تعمل كنحلة. كسبت شهرتها بذكائها وليس بمالها.

قلت في ضيق:

- لا أحب الأدبيات عامة.

قال:

- لماذا؟.. هل كنت تريد أن يبقين جاريات عند الرجال تحت رحمة شهواتهم؟.. أنت تغار من شهرة هذه الفتاة ومن نجاحها وهذا شيء أفهمه..

- لا أريد أن أراها..

- سوف تراها بالتأكيد لو عشت في ويلوزمير.

☆ ☆ ☆

كانت الأمور تسوء في بيت الإيرل. كانت سيبيل تبكي بلا توقف.. وعرفت أنها خائفة من سحر تشيسني.. كانت تؤمن أن أمها ستموت عن قريب من ثم يتزوج أبوها تشيسني.. بهذا تصير الأخيرة زوجة أبيها.

ثم سألتني وهي ترتجف:

- أين صديقك الأمير؟.. لم يعد يزورنا........

حكيت لها أن لوتشيو يكره البشر وليس له أصدقاء.. بل إنه ينفر من النساء بشدة..

قالت في شرود:

- إذن هو لن يتزوج أبدا..

- أبدا..

هنا نهضت في عصبية وسحقت زهرة كانت تمسك بها وهتفت:

- لماذا لا تهنيني الآن؟.. لماذا لا تقول إن اختيارك الملكي وقع علي أنا للزواج؟.. لماذا لا تبرم الصفقة وتشتريني بدلاً من تعذيبي بهذا الصمت؟ هاتان الذراعان وهاتان الشفتان للبيع.

كانت على وشك الإصابة بنوبة هستيرية فهرعت أركع أمامها وصحت:

- صه.. سيبيل يا عزيزتي.. أنت مرهقة فعلاً.. مستحيل أن تكوني مدركة لما تقولين.. ماذا تحسبينني؟.. وما كل هذا الهراء عن البيع والشراء؟ أنا أحبك فإذا كنت ألزم الصمت فلأني لا

أستحقك.. أنت خير مني.. خير من أي رجل، ماذا أقول سوى أنني سقطت في حبائلك وأحبك حبا أخشى التفكير فيه...

ثم رحت أرتجف فأحاطت عنقي بذراعيها... ونظرت لي. عيناها لا تعكسان الحب بل هي عاطفة أقرب للخوف، لكن سدود تماسكي انهارت.. وصرت ضعيفا جدا.

ابتعدت عني ثم سألتني:

- بم شعرت الآن؟ وأنت بين ذراعي؟

قلت في حماسة:

- شعرت بكل مباهج الحياة والأبدية..

قالت وهي تبتسم:

- غريب.. أنا لم أشعر بأي شيء!.. أؤكد لك.. لا شيء أنا امرأة عصرية ليس بوسعي إلا أن أحلل وأفكر.

- لا يهمني أن تحللي ما دمت ستكونين لي..

- أنت لا تعرف من أنا.. أنا فتاة من طبقة عليا مخصصة للبيع بالثمن الذي يطلبه أبي. سوف تحتج.. لا شك عندي في أنك تحبني مثلما يحبني أي رجل آخر.. أنت منجذب لجمالي وشبابي لكني أشعر بأني مسنة جدا في قلبي. من حقك أن تعرف هذا إذا كان بوسعك الحصول على واحدة أخرى مثلي.. لن أقول أفضل مني لأننا جميعا متشابهات..

قلت لها في لهفة:

- أنا أحبك ولا أريد سوى الزواج منك.. نحن في مارس. هل توافقين على الزواج في يونيو؟

- لا مانع.. فقط خذني بعيدا عن هذا البيت المخيف الكئيب. لكن دعني أؤكد لك أنني لا أؤمن بالحب، ولو لم تكن أنت ثريا لما قبلت الزواج بك!..

سُّر لوتشيا كثيرا عندما أخبرته بالأمر وبموافقة سيبيل.. كان يعبث بتلك الحشرة القذرة التي يسميها (الروح)، فلما رآني أعادها للعلبة، وقال لي إنني حققت انتصارا عظيما بأن أخضع أجمل فتيات إنجلترا وأكثرهن غرورا.

كان يعرف ما أعرفه وهو أنني بموهبتي فقط ما كنت لأقدر على الوصول لها.

سألته وهو يداعب تلك الحشرة:

- لماذا تكره النساء يا لوتشيو؟

- لأن بوسعهن أن يمنحن الفضيلة والخير لكنهن يتخلين عن هذه القدرة.. بسببهن يرتفع الرجال للجنة أو يهوون للجحيم، وأكثرهم يتبعون الطريق الأخير.

لم أكن سعيدا بتلك الموافقة من سيبيل..

أنا أتهكم على الدين لكنني تمنيت أن أجد بعضه عند زوجة المستقبل، سخرت من الحب لكن تمنيت أن أناله منها.

وسرعان ما أعلنت الصحف عن الزواج المرتقب بين سيبيل الحسناء ابنة الإيرل وجيفرى تمبست المليونير الشهير. ما زالوا يذكرون وصف المليونير لا المؤلف! لم أبع من كتابي أكثر من 2000 نسخة، بينما كان كتاب مافيس كلير يبيع الطبعة رقم 13. صارحت ناشري بهذا فقال:

- عزيزي. أنت لا تعرف ذوق الجمهور ولا مزاجه، ولست أول كاتب تمجده الصحافة وبرغم هذا لا يبيع.. لا يمكن أن تلومني على هذا، مع العلم أن كل المراجعين في الصحف يشيدون بك.. لعل الناس لا يثقون بالنقد ويفضلون أن يكونوا رأيهم الخاص..

في إبريل قمت بزيارتي الأولى لويلوزمير.. كان مصممو الديكور قد أبلغوني بقرب انتهاء العمل.

ذهبت مع لوتشيو هناك.. شعرت بأنني أبتعد عن دخان وتعاسة بابل العصرية إلى السلام والهدوء. لقد ابتعت هذا البيت باستهتار وبلا تدقيق، لكني أعجبت به ووجدته يوحي بالسلام والجمال.

ومن بين الأشجار كنت أرى نهر (آفون) يتلوى كشريط فضي.. شعرت كأن ثقلاً ينزاح عن كاهلي وأن بوسعي أن أتنفس. هنا ولدت حبيبتي سيبيل وهنا ستعود كزوجة لي.

فلت للوتشيو في حماس:

- لولاك لما قابلت سيبيل ولما ابتعت هذا البيت.. ولما شعرت بكل هذه السعادة..

- يفهم من هذا أنك سعيد؟.. كنت أعتقد أن أتعس الناس طرا في العالم هم الأثرياء..

- وهل أنت تعس؟ نظر لي في عمق وقال:

- هل أنت كفيف؟.. هل تراني سعيدا؟.. هل خُدعت بالقناع الذي وضعته على وجهي لأبدو سعيدا؟.. أما عن ثروتي فهي

تفوق أي تصور لك، يمكنني شراء ممالك كاملة ولا أزداد فقرا.. يمكنني أن أملك العالم لكن قيمته ستظل كما هي لي.. لا تتجاوز ذرة غبار. عندما يثور الموج في البحر ويزحف على الشط، فهو يحاول أن يظفر بالإنسان.. يحاول أن ينظف الكون منه....

قلت له:

- أنت شخص غريب يا لوتشيو.. ثمة شيء فقدته لا يستطيع الثراء أن يعوضه.. لربما تثق بي يوما..

ضحك طويلاً ووضع يده على كتفي وقال:

- سوف أخبرك يوما ما..

ثم دعاني لجولة في الغابة نصغي لغناء البلابل إلى أن يأتي موعد القطار، وعرف مني أنني أزمع إقامة حفل الزفاف في الأسبوع الثاني من يونيو. طلب مني أن نجتاز ممرا بين الأشجار.

بعد قليل من المشي وجدت أننا نقف أمام كوخ جميل عتيق، وسط الأشجار يحيط به سور خفيض.. نظر لي وقال:

- الآن تمالك أعصابك يا تمبست.. نحن نقف أمام بيت امرأة تكرهها بشدة.. إنها مافيس كلير!!..

-10-

صعد الدم لوجهي وتوقفت فجأة.. وقلت:

- لماذا؟

- أنا لا أعرفها ولا أريد أن أعرفها.. ثم إن النساء المعاصرات يثرن اشمئزازي لأنهن فقدن أنوثتهن.

- ليس مافيس كلير.. إنها عتيقة الطراز نوعا.. ليست من طراز المعاصرات.. لابد أن تقابل هذه المرأة العبقرية.

- عبقرية؟

- هذه الثرثارة الأنثوية إذن.. دعنا نقابلها.. سوف أدق الجرس وأرى..

اتجه للباب بينما وقفت عازما على ألا أرافقه داخل البيت لو دعيت. هنا سمعت صوتا ضاحكا موسيقيا يصيح:

- تريكسي أيها الصبى الشقي!.. أعدها واعتذر!..

اجتاز لوتشيو السياج وقال لي:

- هي ذي!... إنها قادرة على أن تسبب الذعر لأي رجل!..

ألقيت نظرة لأرى ما يتكلم عنه. رأيت فتاة شقراء تلبس ثوبا أبيض وتجلس في كرسي من الخوص وفي حجرها كلب صغير مدلل يمسك بقطعة بسكويت كلاب، وقربها كلب سان برنار يهز ذيله في غيظ.. الكلب الصغير تريكسي سرق البسكويت من الكبير واحتمى بسيدته.

مستحيل أن تكون هذه هي مافيس كلير.

الكتاب الذي قهر نجاحي والذي قرأته مرارا يحتاج إلى أن يكون كاتبه أقوى شخصية وأقوى بنية من هذا. هذه لا يمكن أن تكون مافيس.. لابد أنها زائرة أو سكرتيرة..

جاءت وصيفة شابة تقابلنا عند الباب فسألها لوتشيو:

- هل مس كلير هنا؟

- نعم سيدي.. لكن لا أعتقد أنها ستقابلك من دون موعد..

ناولها بطاقة خاصة به وقال:

- أعتقد أنها سترغب في لقائنا.. فإن لم ترغب فنحن الخاسران..

تنحت الوصيفة جانبا وسمحت لنا بالدخول وهي تبتسم.

ووجدت نفسي أتبع لوتشيو برغم أنني صممت من قبل على ألا أدخل.

من الداخل كان البيت أكبر وأفخم مما بدا من الخارج وقد ازدان بلوحات رائعة. في كل صوب كانت هناك صور للمشاهير موقعة منهم شخصيا. قال لوتشيو وهو يتأمل المكان:

- واضح أن مس كلير تجذب الناس لها من دون أن تكون ثرية.. هل تعتقد أن للعبقرية دورا في هذا؟

هنا انفتح الباب.. وظهرت الفتاة التي رأيناها في مدخل الحديقة..

كانت تحمل كلبها المدلل.. هل هذه مافيس كلير فعلاً؟... أم هي جاءت لتخبرنا أن القصصية لن تقابلنا؟

هنا تقدم منها لوتشيو وقال:

- أنا خجول من هذا الاقتحام لخصوصيتك يا مس كلير لكننا إذ مررنا ببيتك لم نستطع أن نقاوم.. ثم قدم نفسه لها وقدمني كذلك قائلاً:

- هو تمبست القصصي الشهير.. ولسوف يكون مالك ويلوزمير القادم. لو كنا قد خرقنا قواعد السلوك فإني أرجو أن تسامحينا.. هلم... هذا سهل..

قالت ببساطة وهي تمد يدها لنا:

- أنا قد تشرفت.

وأشارت لنا كي نجلس وقالت إنها تعرفني من شهرتي. كانت بسيطة مرحة لدرجة أنني شعرت بخجل من نفسي.. في الحقيقة كانت موهبتها هي ما أكرهه. قدرتها الفذة على مخاطبة العالم. لم تكن جميلة لكن لها سحرا خاصا يحيط بها.

دار حديث عام عن الطقس والأدب، ثم أخبرها لوتشيو أنني سوف أتزوج ابنة مالك ويلوزمير السابق.. سيبيل. كانت تعرف هذا من الصحف.

لاحظنا أن الكلب الصغير يجفل بشدة من لوتشيو.. فاحتضنته بين ذراعيها وقالت للرجل:

- لم أر تريكسي يتصرف بهذا الشكل من قبل.. يبدو أنك لا تحب الكلاب يا سيدي..

- أعتقد أنها هي التي لا تحبني..

حملت الكلب إلى الداخل. ثم عادت ولاحظتُ نظرة غريبة في عينيها.. كأنها ترى ما يخيفها في محيا لوتشيو الوسيم.

حدث شيء مماثل عندما غادرنا المكان.. لقد اندفع الكلب السان برنار نحوها سعيدا، وفجأة تغير مزاجه وانقض نحو لوتشيو كأنه يريد تمزيقه إربا. لكن لوتشيو بعقل حاضر أمسك بحنجرة الكلب وأزاحه جانبا.

قالت مافيس بوجه شاحب:

- دعني أمسك به.. سوف يطيعني... ارقد يا إمبرور.. كيف تجرؤ؟

رقد الكلب عند قدميها وهو يرتجف، فرفعت رأسها وقالت للوتشيو الذي بدأت عيناه تلمعان بشكل مخيف:

- آسفة.. يجب أن أعتذر بسبب تصرف هذا الكلب برغم أنني لا أفهمه.

وفي الحديقة الغنّاء راحت تصفق بيديها فجاء حمام كثير.. كانت تعرف كل حمامة بذاتها، وتطلق عليها اسما محددا.. هذا الاسم يمثل أحد النقاد الذين ألهبوها بقلمهم في الصحف. الصحف التي كانت تقول إنها بلا موهبة، وإن من يعجب بكتاباتها هم بائعات المحلات فقط! وكانت تطعم الحمام وتتسلى عليه.. أمام زوارها من الأمراء ونجوم المجتمع. كانت هذه طريقتها حتى لا تبالي بالنقد وتقبله بخفة.

قالت إنها كانت فقيرة جدا جدا.. اليوم لم تعد ثرية لكنها تكسب ما يسمح لها بكتابة منتظمة. كان النسيم يداعب غصون أشجار السوسن، عندما انحنى لوتشيو يلثم أناملها ويقول:

- وداعا يا مافيس كلير.

نظرت له في دهشة.. ثم قالت:

- وداعا..

وأدهشني أنه لثم يدها برغم مقته للنساء كما قال، استطرد قائلا:

- لا تتغيري أبدا.. أنا سافرت في كل صوب وقابلت كثيرين، ودعيني أؤكد لك أن الشيطان لا يجرؤ على مهاجمة روح آمنة مثل روحك.

كانت تصغى له مهتمة وإن اندهشت لهذه الكلمات، فتقدمت أنا وصافحتها. وتمنيت أن نكون صديقين. فقالت إنه لا يوجد سبب لنكون عدوين.. في النهاية ذكّرتني أنني لو هاجمتها منتقدا لصرت مجرد حمامة في حديقتها!

-11-

كانت استعدادات الزواج على قدم وساق. وبدأت الهدايا تصل لسيبيل ولي. هذا نموذج لنفاق الطبقة الأرستقراطية هنا.. كل واحد يعرف مدى ثرائي الفاحش لكنهم يصرون على هذه الهدايا التافهة. ولو كنا زوجين في بداية العمر لما كلف أحد نفسه بأن يرسل لنا هدايا.

كنت أفهم جيدا أن هذه أنواع من الرشاوي الاجتماعية.. الذين يقدمون الهدايا يريدون أن ندعوهم إلى حفل الزفاف، وبعد هذا يريدون أن يكونوا ضيوفا دائمين في أي مناسبة لنا.. أضف لهذا احتمال الاقتراض منا في المستقبل. لكني لاحظت أنها تعلق أهمية خاصة على هدية لوتشيو.. وكانت على شكل ثعبان جسمه من اللؤلؤ ورأسه من الياقوت.. وكان يبدو كأنه يلتف حول عنقها عندما تلبسه، وكأنه شيء حي.

كنت منهمكا في إعدادات الزفاف، ومنحت نصف ثروتي لزوجتي القادمة مما أثار ذهولي حماي الذي مضى يحكي عن كرمي لكل الناس، وراح يغازل الأمريكية علنا وازداد تجاهلاً لزوجته المشلولة.

لم أكن أقابل سيبيل إلا لماما بسبب انشغالها، لكنها كانت دوما تعطيني الانطباع بأنها تمنحني حبها لأنني اشتريته.. تسمح لي بمسك يدها لأنها صارت من ممتلكاتي. وفي الوقت ذاته كان الناس قد نسوا كتابي المشئوم.. ولم يعد أحد يقرؤه. لقد فشلت في جذب نظر الناس، ولن يعود لي أحد طالبا المزيد من هذه الكتب الشائقة.

اهداني لوتشيو هدية زفاف هي جواد رائع الجمال اسمه (فوسفور). قال لي إنه صالح ليدخل السباق وقال إن خادمه الشيطاني (إميل) سوف يكون الجوكي!

- هل هو يجيد الركوب؟

- يركب الجياد كأنه الشيطان ذاته!..

وأبدى أفكارا مهمة لحفل الزفاف.. والإعدادات اللازمة.. قال:

- لا يوجد شيء إنجليزي يناسب الإنجليز!.. لابد أن تستورد الأطعمة من فرنسا.. فرنسا نفسها التي تسمينا بـ (إنجلترا الشريرة).. لن يكون هناك شيء اسمه قائمة طعام بل Menu.. يجب أن تحضر راقصات فرنسيات وفنانين فرنسيين لتسلي الجمهور البريطاني..

وفي مايو توجهت إلى ويلوزمير لأعد كل شيء للحفل. سوف يصل سرب من الزوار غدا..

كان الطقس دافئا مشرقا.. وقد وصلت هناك بالقطار مع لوتشيو.. كان موظفو المحطة يرمقونه في إجلال عميق، وفهمت أنه رتب مع الشركة قطارات خاصة لنقل المدعوين للزفاف.

لم أصدق الزينة والأضواء والرايات المعلقة في كل صوب. قال لي لوتشيو:

- سوف تجد كل شيء هنا محكما ومنظما بقدر ما تسمح به هذه الأرض...

كنت أنا في حالة من الخرس.. عاجزا عن توجيه عبارات شكر كافية له على كل هذه الترتيبات. قال لي وهو يريني إعدادات الغرف:

- المال يا عزيزي.. المال يفعل كل شيء.. تصير كالملك لكن من دون مسئوليات الملك وأعبائه.

قضيت ليلة في هذا الجمال الذي يحيط كل شيء... برغم هذا حلمت بأنني فقير مفلس.. وبرغم هذا كنت أشعر بسعادة لا شك فيها..

عندما صحوت ورأيت الحدائق التي تغمرها الشمس شعرت بفخر لامتلاكي لهذا الجمال. حقا إن المال أهم شيء في العالم. لا قيمة للشهرة لو كنت مفلسا، ولا قيمة للموهبة.. فالصحف تعج بكتاب موهوبين.. ومفلسين.. قلت هذا لنفسي برغم أنني لم أكن مقتنعا به جدا..

لحقت بلوتشيو إلى مائدة الإفطار، في غاية السعادة وشكرته على كل هذه الترتيبات.. يبدو أنه لا يعمل أي شيء إلا ويصل به لدرجة الكمال..

- لن يصل أول الضيوف قبل الواحدة بعد الظهر لأن هذا موعد القطار. سوف تكون الفرقة قد تأهبت للعزف وسوف يتم أول غداء في الحديقة في الثانية. سوف نقيم عمود مايو في الحديقة على سبيل المرح..

حقا كان العمود وقفا هناك يذكرك بطريقة قرى شكسبير في استقبال الضيوف..

على أنني لاحظت أن كل الخدم والعاملين يبدون متصلبي الوجوه مكفهرين.. وأدركت أنهم جميعا لا يفهمون حرفا من الإنجليزية، الأغرب هو أنني لم ألحظ قدوم الموسيقيين قط. في الساعة الواحدة وصل أول الضيوف، وكان بينهم سيبيل وأبوها.. وقد تقدمت لأتأبط ذراعها في حب.

وقلت لها:

- مرحبا في بيتك القديم يا سيبيل!..

بدا لي كأن عينيها امتلاتا بالدموع وهي تنظر للبيت الذي تم تجديده.

لما تقدمت أكثر انفتح ستاران من حرير لتفرغ سلة من الفل الأبيض على قدميها.

قالت لي:

- أنت شاعر يا جيفري كي تضع هذه اللمسات..

- ليس أنا.. بل هي لمسات صديقي الأمير..

احمر خداها ومدت يدها للوتشيو وانحنت في أناقة. وامتلأت القاعات بالضيوف المزعجين المنافقين. بدأ الغداء على أنغام الموسيقا العذبة.

ثم ذهبنا إلى عمود مايو الذي يرقص حوله الراقصون الصبية يلبسون ثيابا خضرا رقيقة، والفتيات يلبسن ثيابا بيضاء شفافة.. وهناك تيجان من الفل على رءوسهن.

قالت سيبيل في انبهار:

- هلا ناديت لي اثنين منهم؟.. أريد الكلام مع هذه المخلوقات السماوية..

قال لوتشيو:

- للأسف هذا يشرفهم يا ليدي سيبيل، لكنهم لم يتعودوا على الكلام مع الضيوف.. إنهم محترفون لا يحسنون سوى الرقص... لديهم أوامرهم وهم ينفذونها بدقة.. كنت أنظر لسيبيل الباردة..

أنا أريد الحب.. أريد أن أتنفسه.. آكله.. أشمه.. لو لم أحصل عليه فلن يرضيني أي شيء..

☆ ☆ ☆

في المساء كانت هناك فرقة مسرحية تقدم ثلاثة تابلوهات راقصة. وقد تزاحم القوم محبوسي الأنفاس ليروا هذا السحر.

لما انتهت المسرحية ومشينا في الحديقة المظلمة دوى الرعد فجأة، وهو شيء غير معتاد في هذا الوقت من العام.. وجلسنا إلى موائد العشاء الفاخرة.

في الثانية عشرة نهض لوتشيو ممسكا بكأسه وقال:

- أوشك الليل على الانتصاف ولسوف يرحل عدد كبير من أصدقائنا، لذا أهنئ العروسين، واقول إن المقولة القديمة عن أنك لا تستطيع أن تحصل على كل شيء زائفة. لقد جمع

العروسان بين الثراء والحب.. وهكذا فازا بكل شيء.. تصاعد التصفيق وراح الرجال يرددون: هيپ هيپ هوراه..

هنا سقط قلبي في قدمي.. هل أتخيل أم أنني أسمع صوت ضحكات ماجنة مجنونة تدوي من بعيد؟

عندما بدأ المدعوون يرحلون، ومعهم رحلت سيبيل وأبوها (1) دخلت قاعة الاستقبال فوجدت لوتشيو وظهره لي..

عندما استدار أدركت أنه ليس على ما يرام.. هناك نظرة إرهاق غير عادية مع حزن بالغ..

قلت له:

- لوتشيو.. هل أنت مريض! هل أرهقك جهد اليوم؟

قال:

- ليس هذا إلا سقما يندر أن يحدث للناس.. سقم غريب. هل سمعت عن تأنيب الضمير؟

لم أفهم ما يقصده.. وعرفت أن الراقصين والخدم والموسيقيين والممثلين رحلوا جميعا.. هل تناولوا العشاء؟ قال لي نعم. الواقع أن الأمر كله بدا لي كعمل من أعمال الشيطان.. متى فعلوا ذلك؟.. لابد أن عدد المشاركين في المسرحية فقط ثلاثمئة شخص، قلت له إن الأمر يبدو كالسحر..

قال:

- لو كنت مصرا على اعتبار المال أداة سحرية فهذا شأنك.

- هناك أشياء لا يقدر المال على شرائها..

ثم قلت له إنني أحتاج لنوم عميق، فقال وهو ينظر للأفق:

- أنا مرهق دائما.. لكني لا أقدر على الراحة.. لكن لا داعي للكلام الكثير.. اذهب إلى مخدعك فأنت بحاجة للراحة فعلا.

-12-

ظلت الصحف تتكلم عن الحفل، كما يقول لورد بيرون:

- صحوت ذات يوم لأجد نفسي شهيرا، ليس لموهبة خاصة أو عمل بطولي. ما حدث في تلك الفترة كذلك هو أن حصاني فوسفور فاز في سباق الديربي، كان منافسه (رأسا لرأس) هو حصان رئيس الوزراء، لكن إميل الحوذي استطاع أن يفوز.. أي أن شهرتي اعتمدت على حيوان يجري على أربع.

فجأة دون أن أفهم ما يحدث وجدت نفسي أصافح أمير ويلز من أجل الإنجاز الذي قمت به.

كان الكل يحسد سيبيل ليس من أجل عريسها، ولكن لأنها تزوجت ثلاثة ملايين.. أي أنني كنت مجرد زائدة لهذه الثروة.

للمرة الأولى أفارق لوتشيو منذ هبط عليّ الحظ الحسن. كل شيء في حياتي كان بفضله حتى عروسي نفسها.. قال لنا إنه يتمنى لنا أفضل الحظ وأنه سيكون أول من يرحب بنا لدى العودة لبيتنا في سبتمبر.

قلت له:

- سوف تكون أنت أكثر الضيوف الذين نرحب بهم..

كانت سيبيل تنظر لوجهه الوسيم في إمعان وشحب وجهها جدا.. قال لها:

- وداعا يا ليدي سيبيل.. سوف نفتقدك كثيرا لكن الحب يقصر الزمن..

وانطلقت العربة مبتعدة فعرفت أنا وسيبيل أننا صرنا وحدنا.. سوف نعرف الإجابة عن سؤال الحب أو سؤال المقت..

☆ ☆ ☆

في سويسرا على ضفاف تلك البحيرة، عرفت أنني أحمق عندما افترضت أن هناك شيئا اسمه السعادة في الحياة. ليس الذنب ذنب سيبيل.. لقد تزوجتها بكامل إرادتي، وقالت هي لي:

- أنا كائن ملوث.. كائن معروض للبيع للزوج الذي يدفع أكثر..

لقد برهنتْ هي عن هذا بشكل واضح. وشعرت بكراهية عميقة واشمئزاز من نفسي.. لقد كنت في لحظات معينة أشعر أنها فقدت جمالها وصار شكلها مريعا.. وكانت تمضى وقتها في قراءة أنواع الأدب النسائي الجديدة المليئة بالمشاهد الشهوانية.

دنا مني قارب ذو مجداف يركب فيه رجل فرنسي مسن، توسل لي كي أستأجره لمدة ساعة، وافقت وركبت القارب وسرعان ما كنت أسبح في بقعة ذهبية تعكس ضوء الغروب، والماء بلون النبيذ.

برغم جمال سيبيل لم تكن تملك قلبا على الإطلاق.. عرفت هذا بعد يومين من زواجنا. ففي باريس وصلتنا برقية تخبرنا بموت أمها.. لقد توفيت كونتيسة إلتون المشلولة يوم زواجنا.

أبلغنا زوجها بهذا في برقية وطلب من ابنته ألا تحزن لأنها عروس..

لم تكن سيبيل بحاجة لتوصية لأنها بالفعل لم تبد أي اهتمام أو تظهر أسفا.. فقط قالت:

- ترى متى تصلنا بطاقات الدعوة لزفاف إلتون وتشسني؟ لم أتكلم وإن تشاءمت جدا لتوقيت الوفاة الغريب.

بعد شهر عرفت أنني تزوجت حيوانا جميلا خاليا من العواطف.

كنت غارقا في هذه الخواطر عندما انتهت الساعة، فأعادني النوتي للشط وأخذ أجره. عدت للفيلا التي أقمنا فيها وهي تخص الفندق المطل على البحيرة، لكنها خصوصية.

رأيت سيبيل هناك تطالع كتابا بين الأشجار، فاتجهت لها ولثمت يدها وقلت لها:

- سيبيل.. لماذا ونحن قريبان كل القرب، نجد هذا الظلام بيننا؟.. لماذا نتباعد ونختلف ونحن في أنسب لحظات التقارب؟

قالت:

- أعتقد أن السبب هو أن فيك يا جيفري شيئا أكثر نبلا مما لديّ... تتكلم عن أنسب لحظات التقارب.. هذه لا وجود لها. يجب أن يُسجن الشعراء مدى الحياة بسبب خداعهم للناس.. أنا واثقة من أن بوسعنا الحفاظ على علاقة زوجية مقبولة حتى وإن خلت من الحب.

وتحررت من ذراعي.. وعادت إلى البيت، ثم استدارت لي بإيماءة تشبه إيماءات القطط وقالت:

- أنت دفعت مبلغا باهظا لتشتريني.. ولسوف أمنحك مقابل مالك..

كادت دمعة يأس تسيل مني.

- أنت شريرة يا سيبيل.. هل تعتقدين أنني بهذا الشر حقا؟

قالت لي:

- في هذا العصر الذي شك فيه العلمُ في فكرة الله نفسها، فلا شيء يُدعى فضيلة.. من الأفضل لنا أن نكون سعداء من أن ننعم بالفضيلة.. يمكننا أن نعيش بهذه الطريقة.

هنا جاء الخادم يخبرنا بموعد العشاء. فقالت لي:

- هلم.. لا تقطب بهذا الشكل.. نحن لم نتشاجر فلا داعي لأن نشعر الخادم بأننا فعلنا..

في تلك الليلة نامت جواري.. شعرت برعب شديد.. رعب من أن أخنقها كما يفعل المرء إذا رأى مصاص دماء ينام جواره.

-13-

عدنا لإنجلترا أسرع مما توقعنا.

خطر لي أن أعقد لقاء بين زوجتي ومافيس كلير، لعل الأخيرة تقدر على تغيير فكر زوجتي وردها للصواب. كانت سيبيل تسخر من كل الأفكار النبيلة.. وبالفعل تم هذا اللقاء. كان اللقاء سهلا لأن كلا المرأتين تعرف الأخرى من أيام الطفولة، وقد أدركتُ أن مافيس كلير امرأة جميلة ذكية تختلف تماما عن أخيلة المقاتة اللاتي يسموهن أدبيات ويتكلمن عن المبيعات طيلة الوقت..

دارت محادثة طويلة عن الأدب والمجتمع. أدركت بعده أن مافيس كلير تمثل انتصار الروح، بينما سيبيل تمثل انتصار الشهوة. وعرفت من مافيس أنها لا تحمل تقديرا كبيرا لصديقي الأمير.. كانت كذلك مندهشة من خوف الكلاب منه، ولم تكن ترتاح له البتة.

لقد مرت الأيام وتعلمت أن أعامل زوجتي كما يعامل التركي امرأة في الحريم. حيوان جميل حسن التغذية، وفي الوقت نفسه كانت ثروتي هائلة، لذا توقعت أنه لن يحدث شيء لها.. ليس عليّ أن أعمل أي شيء لأكون نافعا.. سأكل وأشرب وأسعد.

لم أعد قادرا على الإبداع. لم أجد قط حماسة كافية كي أمسك بقلم وورقة وأكتب عملا جديدا. أحيا بلا أمل ولا ضمير.. كنت أقضي أيامي في ممارسة سلطاني على الخدم والبستاني.. من حين لآخر أمارس نوع الكرم الذي يمارسه الأثرياء، أسأل عن زوجة البستاني.. أو أقابل ابن السائس في الحديقة فأدس نصف

شلن في يده وأتوقع أنني حجزت لنفسي قصرا في السماء بهذا العمل.

لم تكلف سيبيل نفسها بمشقة هذه الأفعال. كانت تمشي في الحديقة ونقابل مافيس كلير فنجلس معا لنتكلم أو نشرب الشاي. وكنت مع كلير أنعم بسلام نفسي عظيم ولا أحتاج للتظاهر بشيء. عندما دعا دوق ويلز نفسه وحشدا من رفاقه لزيارتي في ويلزمور، شعرت بحرج بالغ لاضطراري للإقامة عدة أيام مع أشخاص لا أعرفهم، لقد تعاملوا مع سيبيل على كل حال بحكم أصلها العريق على أنها تنتمى لهم، أما أنا فقد تراجعت لخلفية المشهد تماما.

الشخص الوحيد الذي كنت أنعم بصحبته كان أمير ويلز نفسه وكان يملك تلك الصفة الذكية التي تميز الجنتلمان الحقيقي سواء كان فلاحا أو أميرا.

فشلت تماما في إقناع مافيس بحضور هذه الحفلات.. طلبت مني مرارا أن أنسى الموضوع، وقالت:

- سامحني.. أنا أحب الأمير.. كل واحد يحب الأمير لكني لا أطيق معظم الحاشية المحيطة به...

وازدادت انعزالاً في كوخها، النتيجة هي أن الأمير بنفسه قصد زيارتها مع رفاقه، وهناك سُر كثيرا لما رآها تطعم الحمام (أو جمهور النقاد الخاص بها).

ظل ريمانيز مختفيا في ذلك الوقت، لكنه أرسل لي خطابا يقول:

عزيزي جيفري:

أرجو ألا تعتبرني فظا لأنني لم ألحق بدعوتك.. لكني أمقت الأسر المالكة. قابلت كثيرين منهم في حياتي حتى صرت أمل وجودهم. هم لم يتغيروا منذ عصر سليمان حتى العصر الفيكتوري. سوف تعاني في سبيل تسليتهم لأنهم جربوا كل شيء من قبل. سلّ الرجال بكثير من لعب الورق والصيد والتدخين.. لا تتعب نفسك بتسلية الأمير فهو يتسلى فعلا بمراقبة من حوله. لن ألحق بكم لكني سآتي وحدي سريعا بمجرد أن يرحل ضيوفك تحياتي لزوجتك الجميلة.

ريمانيز..

عرضت الخطاب على سيبيل فلم تضحك لما فيه من سخرية، وقالت:

إن لهجة السخرية منا واضحة في الخطاب.. ألا تلاحظ هذا؟

- هو ساخر دائما.. لا أتوقع أن يتغير.. صمتت ولم تعلق.. وهو صمتٌ لم أفهم سببه جيدا وقتها.

كانت علاقتنا تتدهور باستمرار، ولم أكن أخفى عنها أنني أمقت طريقتها في التفكير.. فكانت تنفجر في البكاء وتدفن وجهها في الوسادة قائلة:

- تمقت طريقتي في التفكير؟.. ما الذي فعلته أنت كي يغير نظرتي للحياة التي اكتسبتها بإرادتي أو دون إرادتي؟.. أنت فقط تأكل وتشرب وتنعم بحياتك وتحاول أن تبهر الناس بثروتك.. هذا كل شيء.. كنت أقول لها:

- أنت غير منطقية. بل أنت الهستيريا نفسها..

ضحكت في غلظة وجففت الدموع عن خديها كأن وهج عينيها تكفل بذلك.. وقالت:

- هستيريا!.. الطريقة الممتازة الصالحة لتفسير كل شيء في طبيعة المرأة!.. ليس من حق المرأة أن تملك أي مشاعر.. المرأة لعبة.. لعبة طفل أحمق.. تسل بها وعندما تتحطم ألقها جانبا وابحث عن لعبة أخرى...

كدت أرد عندما رأيت ظلا فارغا يظهر في الحجرة وسمعت صوتا مألوفا يقول:

- هل لي أن أدخل بما لي من حق الصداقة؟

صحت:

- ريمانيز!.

اتجه لوتشيو نحو سيبيل وقال:

- هل مسموح لي يا ليدي سيبيل؟

- هل تسأل؟

وزال كل الإرهاق والحزن من صوتها، وصافحته بكلتا يديها وأضافت:

- أنت مرحب بك دوما.. لقد تمنيت طويلاً أن أقابلك..

قال لنا:

- أنا آسف لقدومي بلا موعد.. لكنى كنت أعبر هذه المنطقة وانبهرت بجمال المنظر وسحر الأشجار، من ثم خطر لي أن أمر لأرى إن كنتما موجودين، ولحسن الحظ وجدتكما تنعمان

بصحبة بعضكما.. الزوجان اللذان يستحقان أن أحسدهما لو كان من حقي أن أحسد مخلوقا أرضيا..

سألته ويدي على الجرس:

- هل تناولت العشاء؟

لقد أكلت شكرا.. شكرا لك. دعني أقل لك إنك صرت بدينا نوعا ويبدو أنك ستصاب بالنقرس مثل أجدادك..

سألته سيبيل:

- متى عدت لإنجلترا؟

- أمس.. كنت في اليخت الخاص بي.. أحسبك لا تعرف أن لدي يختا يا تمبست..

قلت له في حرارة:

- أنت يا لوتشيو خير صديق عرفته.. ويسعدني دوما أن تكون معنا

نظر لسيبيل متسائلا:

- وما رأى الليدي؟

قالت سيبيل:

- رأى الليدي أن عليك أن تعتبر ويلزمور بيتا لك في أي وقت...

خرجت للحديقة فطوق لوتشيو كتفي بذراعه وقال:

- هذه سيدة رائعة يا جيفري.. أعرف أنه لا شيء يمكن أن يسعدني مثل رؤية هذه الزيجة المتكافلة.. أرسل من يحضر حقائبي من المحطة فقد نويت البقاء..

-14-

قضينا أياما ممتعة مع لوتشيو.

برغم كل شيء لم أفتح قط موضوع سيبيل وتغير رأيي فيها، ولعل سبب ذلك هو أنني أعرف بالسليقة ما سوف يقوله، لن يتعاطف معي ولسوف تتغلب هوايته للسخرية. لماذا أطلب الكمال في زوجتي وأنا غير كامل؟ ولماذا أسمح لنفسي أن أنحدر لدرجة الحشرات وفي الوقت ذاته أطالب زوجتي بأكمل درجات الطهر؟

كم كنت أعمى غافلاً عن تدابير القدر، ولا ما يخبئه لي كل يوم يمر.

انتهي شهر أكتوبر ببطء وارتدت الأشجار لمستها الخريفية الذهبية والقرمزية.. كان الطقس دافئا مما يسميه الفرنسيون (صيف القديسين). كان الجو يسمح لنا بأن نتناول القهوة في الشرفة كل ليلة. في هذا الوقت حدث ذلك اللقاء الغريب بين لوتشيو ومافيس كلير.

كانت مافيس كلير تقبل دعوتي للعشاء في مرات نادرة، وفي تلك الليلة جاءت وتناولت العشاء معنا، وخرجنا نمشي في الغابة. هنا تذكرت أنني نسيت السيجار في البيت فعدت لآخذه..

سمعت من بين الأشجار الصوت المميز للوتشيو وصوت مافيس كلير. ابتسمت للفكرة.. لعل لوتشيو عدو المرأة قد وقع في الحب.. لكن لماذا هذه المرأة بالذات؟.. هي ليست جميلة بأي قياس.. لم لا يتركها وشأنها؟.. هل أنا أغار عليها؟

دنوت أكثر فرأيت بين الأشجار الشكل المميز للوتشيو يقف عاقدا يديه على صدره، ويقول لمافيس:

- لو أصغيت لي لمنحتك النجاح.. أنت لست ثرية لكني سأعلمك كيف تصيرين كذلك.. لديك أعداء كثيرون يحاولون تحطيمك.. يمكنني أن أجعلهم عبيدا لك.... سوف أمنحك نفوذا لم تنله امرأة من قبل.. لا أطلب شيئا سوى أن تنفذي نصائحي حرفيا..

كانت طريقته في الكلام توحي بأنه مقدم على عمل خطير يمقته، وتساءلت عما ستقوله مافيس كلير.

قالت بعد صمت:

- أنت نبيل أيها الأمير ريمينيز.. لا أعرف كيف تفكر فيّ أصلاً، لكن لم يساعدني أحد من قبل.. ولا أعتقد أنني سأطلب معونة أحد.. أنا لست ثرية لكن من قال إنني أشتهي الثراء؟.. أن أحاط بقوم لا أعرف هل هم أصدقاء أم أعداء؟.. أن يحبك الناس لما تملكه وليس لما أنت عليه. كثيرون يحبون كتبي وهذا كاف. أما عن أعدائي فلا يوجد شخص بلا أعداء. على المرء الذي يريد بعض الاستقلال أن يقبل أن يكون له أعداء وأن تكون ضده ضغائن.

سمعت صوت الأغصان تتحرك فدققت النظر.

لقد تقدم لوتشيو خطوة من مافيس كلير وعلى وجهه بسمة خافتة. وقد أضفى هذا لمسة ما وراء طبيعية على وجهه الوسيم. وقال:

- أيتها الفيلسوفة.. أنت ماركوس أوريليوس نسائي لكنك لم تظفري حتى اللحظة بشيء مهم: حب عاشق لك.. الرجال يخافونك لأنهم اعتادوا أن تكون النساء حمقاوات وهم لم يغفروا لك تفوقك واستقلالك. السنون تمضي.. وعما قريب تصيرين عجوزا وتجربين مرارة الوحدة.. لن تفهمي قصدي لكن بوسعي أن أمنحك الحب. سأجلب عند قدميك أكثر رجال البلاد كبرياء وغرورا..

تراجعت للخلف في رعب وقالت:

- أنت تخيفني!..

ثم أردفت:

- و أنت تعطى وعودا توحي بأنك خارق للطبيعة.. من أنت؟.. ما أنت؟؟ لماذا أرتجف خوفا كلما رأيتك؟

وقف ريمينيز يرمقها بنظرة ثابتة.. ثم قال لها:

- هناك خطر الوحدة..

- لن أشعر بالوحدة أبدا طالما في الكون أزهار وطيور وكتب.. ونجوم في السماء..

قال لها وهو يتقدم أكثر:

- سوف تتذكرينني.. تتذكرين شيئا من ماضيك.. عندما كنت أنت ملاكا وكنت أنا... لا ترتجفي.. لن أؤذيك.. أنت ترفضين مساعدتي.. لا بأس.. لكن أطلب على الأقل أن تساعديني أنت.. صلي من أجلي.. أعرف أنك تصلين كثيرا. عديني أن تصلي من أجلي يا مافيس كلير..

أصغيت للمحادثة مذهولا... هل هذا هو لوتشيو الساخر الذي لا يبالي بشيء؟

هل هو الذي يركع كخاطئ أمام امرأة يطلب الغفران؟؟

قال لها:

- أنت خائفة مني.. لكني أعدك أنني لن أؤذيك ولن تري وجهي مرة أخرى ما دمت على وجه الأرض.. هذا قسم.. وأمسك بيديها وقال:

- من حقك ألا تثقي بي.. لديك كل سبب يدعو لهذا.. أنا سيئ جدا لكن عذري الوحيد هو أنني لم أُفسد أي شخص.. من فسدوا فسدوا بكامل إرادتهم الحرة.. عندما تتذكرينني تذكري أنني أستحق الشفقة أكثر من أي بشري مشلول ضعيف. عندما تصلين من أجلي تذكري أنك تصلين لرجل لا يقدر على الصلاة.. والآن وداعا.. لن أراك في حياتك ثانية..

شعرتُ برجفة وببرد يسري في عظامي.. ثمة شيء في وجهه غير بشري.. تراجعت مافيس وهي ترنو له.. حتى تلاشى في الظلام ثوبها الأبيض.

كدت أنسحب في هدوء بدوري لكني سمعت لوتشيو يقول لي:

- هيه أيها المتلصص!..

وأشعل عود ثقاب لامس به طرف سيجار وقال:

- ما رأيته هو فاصل تمثيلي قمت به.. كنت أراهن على أني أستطيع شراء مافيس كلير بالذهب لكنها رفضت.. هكذا طلبت

منها أن تصلي لي.. كل النساء يعشقن الاعتقاد أنهن أنقذن شخصا ما بصلاتهن..

كنت أفكر في أن هذا المشهد بدا لي حقيقيا فعلاً.

-15-

صباح اليوم التالي الذي سمعت فيه محادثة لوتشيو ومافيس، هوت عليّ الصاعقة.. صاعقة بلا إنذار من أي نوع..

كان هذا آخر يوم أشعر فيه بالكبرياء والفخار.

كنا قد تناولنا العشاء، ثم شعرنا بالإنهاك فأخلدنا للنوم مبكرا.. لابد أنني غفوت بعمق عدة ساعات.. صحوت كأن هناك يدا غير مرئية هزتني..

صحوت من النوم فوجدت المصباح مطفأ ولم تكن سيبيل جواري.. وثب قلبي في الضلوع وشعرت بتوجس. كانت الحجرة خالية.

هرعت واثبا من الفراش فوجدت الباب مغلقا لكنه ليس مغلقا كما تركناه.. كانت الردهة خالية..

أمام غرفة النوم كان درج من خشب البلوط يقود لغرفة كانت معرض رسم في السابق. كانت القاعة مضاءة بضوء القمر الذي يتسرب من نافذة ذات زجاج ملون تشبه نوافذ الكنائس. رأيت خيالاً بتحرك وسمعت أصواتا تهمس.

عندما نزلت في الدرج رأيت شيئا حبس أنفاسي.. شيئا في الضوء الأحمر والأزرق المنبعث من ثياب القديسين المرسومين على الزجاج الملون. رأيت زوجتي راكعة وشعرها منتثر على كتفيها وأمامها وقف لوتشيو بقامته الفارعة.

ماذا يحدث؟.. لا.. بالتأكيد هذه تمثيلية أخرى كما كان يمثل مع مافيس كلير.. سوف نضحك كثيرا. التصقت بالجدار وأنا

أرمق الضوء الغامض على جبهة لوتشيو.. ضوءا لا يمكن أن يكون انعكاس ضوء القمر.

هنا تكلمت.. زوجتي تكلمت.. سمعتها تقول:

- أنت حبيبي. أحبك يا لوتشيو وحبي لك يقتلني. أحبني ساعة.. ساعة واحدة.. ثم تخلص مني بعدها. أنا لك جسد وروح..

كانت تتوسل بطريقة مجنونة.

قال لها:

- أنت تتملقينني لكني غير قادر على رد المجاملة...

وبين حاجبيه ظهرت سحابة من الازدراء.. وهو يقول لها:

أعرف أنك تحبينني.. عرفت من اللحظة الأولى هذا.. شممت رائحة روح مصاص الدماء العفنة من أول لحظة عرفت أنك عرفت سيدك.. أنت تزوجت بكذبة على شفتيك.. أقسمت على الإخلاص لزوجك أمام الله بينما أنت تحلمين بالخيانة. القبلة التي منحتها لك في الزفاف أشعلت النار في دمك وجعتك ملكي...

ثم قبض على معصميها وبدا عليه غضب شديد، لدرجة أن العالم أظلم من حولهما.. وقال:

- أنا أكرهك كما أكره كل النساء.. أنتن تدمرن العالم وتُحِلن الخير إلى شر. بفتنتكن تُحِلن الرجال إلى حمقى أو أوغاد أو مجرمين.

برغم كل شيء شعرت بأنني أحترمه، فهو لم يخضع لإغراء هذه الشيطانة وقال لها ما يعتقده فعلاً، هذا الصديق لم ينو قط أن يخونني أو يخذلني.. إنه صديق حقيقي.

نهضت سيبيل وألقت بشعرها على كتفيها فصارت نموذجا للفتنة وقالت:

- لوتشيو.. الحياة قصيرة ولسوف نموت وينسانا حتى من أحبونا.. لماذا لا تغتنم اللحظة؟

دنت منه خطوة فمد يده يوقفها محذرا وقال:

- لا تتقدمي خطوة أخرى يا امرأة.. أنا أحذرك!.. ترى هل تجسرين على حبي لو عرفت من أنا؟

كان السؤال غريبا.. آثار دهشتها كما آثار دهشتي.

قالت في حيرة:

- عندما أعرف من أنت؟؟ أنت لوتشيو حبيبي الذي صار وجهه جنتي..

أشار للأرض ولمحت الخاتم الماسي في يده. قال لها:

- ما دام الأمر كذلك فلتركعي على الأرض وتعبديني!..

هوت على ركبتيها وأمسكت بيده...

حاولت أن أتدخل لكن قوة كاسحة جعلتني أقف متصلبا.

قالت له:

- سيدي وحبيبي.. لو شئت لمنحتك روحي...

قال لها في سخرية:

- هل عندك روح تمنحينها؟..

هنا تحركت كل طبيعة الحيوان الحاقدة فيها، ونهضت واقفة والغضب المجنون في عينيها وقالت:

- أنت تسخر مني وتهين حبي.. لكن انتظر.. سوف ترى وتتعذب.. سوف أقتل نفسي.. هل تحسب أنني جئت بلا استعداد؟

ومن صدر ثوبها أخرجت خنجرا قصيرا مزدانا بالجواهر.. أعرفه لأنها تلقته هدية زفاف.

- أحبني وإلا قتلت نفسي هنا.. وصرخت قائلة لجيفري إنك قتلتني..

ورفعت الخنجر.

أمسك لوتشيو بيدها وانتزع الخنجر ثم ألقاه أرضا. وقال:

- مكانك كان المسرح يا مدام!... كنا وقتها سنعفيك من الأحكام الأخلاقية لأننا لا نطالب الممثلين بالفضيلة..

كان قد قذفها مسافة للخلف، فتقدمت من جديد منه بخفة القطط وقالت ووجهها شاحب من الغضب:

- لوتشيو رامينيز.. لقد تحملتك كثيرا.. لكني أعطيك إنذارا حتى الغد. أحبني ولسوف أظل ألعب دوري الاجتماعي السخيف. أما إن رفضت حبي فلسوف أتخلص من حياتي وأنا

أعني هذا. هل تفهم مدى قوة عينيك؟ عينيك القاسيتين صوتك.. ابتسامتك..

ثم ألقت بنفسها إلى صدره وطوقت عنقه..

بأناقة حرر نفسه من ذراعيها

لم أتحمل أكثر فاندفعت بينهما لأنتزع زوجتي وقلت:

- دعني أنقذك من هذه المستهترة يا لوتشيو.. منذ ساعة كنت أحسبها زوجتي.. ثم وجدت أنها جارية ترغب في تغيير سيدها.

-16-

وقفنا ترمق بعضنا.. أنا مجنون بالغضب.. لوتشيو هادئ.. زوجتي تتراجع..

اندفعت نحوها وقد أعماني الغضب وقلت:

- سمعت كلامك.. رأيتك.. رأيتك تركعين أمام صديقي. رفيقي المخلص.. تحاولين جعله شريرا مثلك...

قالت سيبيل في ثبات:

- أنذرتك مرارا قبل الزواج، لكنك طمعت في أن تفوز بابنة إيرل.. هذا يعطيك (البرستيج) الذي تحلم به.. نفس فخرك بحصان السباق الذي تملكه. يمكنك أن تطلقني الآن لو أردت فلا فارق لدي...

ثم استدارت لتبتعد وأنا لا أعرف ما أقول. قال لوتشيو بصوته الهادئ:

- هذا مؤلم.. لكن عليّ أن أعترف برفضي لفكرة الطلاق..

امسكت بيده وقلت:

- أنت صديق طاهر يا لوتشيو.. لقد سمعت المحادثة جيدا وقد قلت أنت كل شيء..

- يجب أن نتذكر أن ليدي سيبيل لم تخنك.. هي نقية كالثلج - بالنسبة للمجتمع هي طاهرة..

قالت سيبيل:

- أنا لست مدينة لك بشيء يا جيفري.. الصفقة عادلة أخذت منك مالك وأنت أخذت جمالي. والآن وداعا يا لوتشيو.. وداعا يا حبي..

صحت بها:

- ألا تخجلين يا امرأة؟..، أمام عيني؟

- لم لا؟.. هل رأيت من قبل مثل هذا الجمال وهذه الهيبة؟... كيف تتخيل أن تكون أمام المرأة هذا الرجل وتحبك أنت؟... تحرك بعيدا فأنت تقف بيني وبين إلهي!!!..

ثم نظرت لي في ثبات وقالت:

- عليّ أن أودعك كذلك.. فليس من الممكن أن أعيش معك بعد كل ما سمعت ورأيت.

انفجرت في الضحك وأشرت بإصبعي لبعيد وقلت:

- ابتعدي.. لو شئت ألا أفتك بك فابتعدي.. أنت دمرت حياتي وقتلت كل شيء جميل.. ليتني لم أرك قط...

لم تصغ لي.. كانت تثبت نظراتها على لوتشيو وهي تبتعد..

نظرت للوتشيو.. خيل لي للحظة كأن نارا تلتهب تحت وجهه ثم اختفت.. قلت له:

- يا صديقي.. أعتقد أنني سأموت.. لقد تحطم قلبي..

ثم غصت في ظلام لا أعرف أين بدايته.

☆ ☆ ☆

يا لروعة الغياب عن الوعي!

النسيان التام.. زوال الذكريات!

عندما فتحت عيني وجدت أني في غرفة لوتشيو. أكبر وأوسع الغرف المخصصة للضيوف في ويلزمور، كان القمر يغمر المكان بضوئه الشاحب وأنا أعود لعالم الوعي.

نظرت لأرى لوتشيو جالسا على مقعد يمسك بـ (مندولين) يداعب أوتاره بنغمات مرتجلة. قال لي:

- لا ترهق نفسك.. ابق نائما..

هببت من الرقاد وقلت:

- ظننتك سوف تنصحني ألا أقتل نفسي!..

- لا أرى داعيا لهذه النصيحة.. خذ الأمور ببساطة!..

- هل تطالبني بأن آخذ شرفي ببساطة؟..

- يا صاحبي.. زوجتك تحب شكلي ولا تحبني أنا.. فهي لا تعرفني على الإطلاق، هذا شيء يمر سريعا ككل أمراض النساء.. أما ما حدث فتم سرا لا علنا.. لهذا لا أفهم لماذا تعلق عليه هذه الأهمية، مفتاح التحضر هو أن نظل عيوبك سرية.. وبالتالي من حقك أن تفعل ما تشاء.

ثم مال عليّ وقال:

- بالطبع يمكنك الطلاق.. لكن لا أنصح بهذا.. ليس بعد أربعة أشهر من الزواج. ليس من المستحب أن تلقي للإشاعات

بلقمة سائغة كهذه. والآن أنصحك أن تذهب لغرفتك وتنام.

أغمضت عيني وقلت:

- أنام؟.. في تلك الغرفة؟ حيث..؟..

نهض لركن الغرفة فأخرج قنينة بها مسحوق أبيض وتناول كأسا سكب فيه المسحوق مع بعض الشراب وقال لي:

- هذه الجرعة سوف تساعدك على النسيان.. جرب ولسوف تحب هذا الشعور.. نم الآن وفي الصباح سوف نقرر ما يجب عمله..

شربت ما قدمه لي.. ثم رقدت في الفراش الملحق بالغرفة..

وسرعان ما غبت عن العالم

-17-

عندما نهضت في الصباح، أعددت حقيبتي وأشيائي وكتبت رسالة لسيبيل أخبرها فيها أنني راحل.. سوف أذهب للندن مع لوتشيو، وسأكون في فندق جراند. بينما يمكنها البقاء في ويلزمور.. كما يمكنها الحصول على نصف ثروتي كما تم الاتفاق في الزواج.. لكني سأحاول جاهدا ألا أرى وجهها ثانية..

أرسلت لها الخطاب في غرفتها مع وصيفتها. لم تعد لي برد لكنها قالت إن السيدة مصابة بصداع. بالطبع تظاهرت بالتعاطف حتى لا تشك الوصيفة في شيء.

تناولت إفطارا مع لوتشيو وقلت للخدم إني سأتغيب بضعة أيام، وسرعان ما وجدت نفسي في القطار في عربة التدخين، أتظاهر بقراءة صحف الصباح ثم أرجع ظهري للخلف وأنام قال لي لوتشيو:

- أكرر أسفي.. بشكل ما أنا مسئول عما حدث.. ربما كان الأفضل ألا تراني زوجتك أبدا.. فكر في رحلة لصيد النمور في الهند أو صيد الأفيال في أفريقيا.. هكذا يفعل رجال كثيرون عندما تنسى الزوجات أنفسهن!.. تعال في اليخت الخاص بي لمصر سوف نبحر في النيل في دهبية (مركب نيلي) وننسى تلك الكائنات المدعوة (نساء).. لا لزوم لهن سوى أن نتسلى بهن ثم نتخلص منهن..

فكرت بعض الوقت ثم غمغمت:

- مصر؟.. لم لا؟

- نعم. فكرة جيدة.. أرض الآلهة المنسية.. ربما تقابل أميرتي هناك!..

وصلنا للندن ونزلنا وسط الصخب وزحام العربات، توجهنا إلى مطعم سافوي ثم رحنا نراقب الناس في الشوارع ونتسلى. بعد هذا رحنا نناقش جوانب المستقبل. كانت كل الأماكن في العالم متساوية بالنسبة لي. لذا بدت لي فكرة الذهاب لمصر مغرية.. قررت أن أذهب مع لوتشيو هناك حيث أمضى الشتاء. اقترح عليّ أن نغادر بريطانيا خلال أسبوع.

جلس لوتشيو ينهي بعض الأوراق، بينما جلست أنا أحاول مطالعة الجريدة.

هنا جاء صبي حاملا برقية لي.. فتحتها في لهفة فوجدت التالي:

«احضر فورا (قف).. حدث شيء مروع لا أستطيع التصرف فيه وحدي (قف)»

مافيس كلير

شعرت بقشعريرة وسقطت البرقية من يدي.. تناولها لوتشيو وقرأها.. ثم قال:

- بالتأكيد يجب أن تذهب.. هناك قطار الساعة 04:40 لو استقتلت عربة للمحطة..

- وأنت؟

- سأبقى في فندق جراند.. ما كانت مس كلير لتتجشم هذه البرقية لو لم يكن الأمر خطيرا..

لم أدر متى ولا كيف وجدت أنني أركب عربة للمحطة.. ثم وجدت نفسي في القطار عائدا إلى المكان الذي كنت فيه صباح اليوم..

ماذا حدث؟.. أي شيء مرعب دعا مافيس للاتصال بي؟

وصلت للمحطة فلم يكن هناك من ينتظرني. ركبت عربة إلى بيتي بينما الليل يرخي أسداله. رياح خريفية تعوي بين الأشجار كأنها روح معذبة..

وعندما بلغت البيت رأيت ظلاً مألوفا يهرع نحوي..

كانت مافيس كلير، ومنحني مظهرها الملائكي راحة نسبية..

قالت وهي ترتجف:

- أنت أخيرا.. الحمد لله أنك جئت...

-18-

أمسكت بيدها وتساءلت:

- ماذا حدث؟

رأيت أن القاعة مليئة بخدم امتقعت وجوههم رعبا.. استدرت لمافيس وتساءلت:

- ماذا حدث؟.. قولي بسرعة..

قالت:

- شيء حدث لليدي سيبيل.. غرفتها مغلقة ولا ترد. خادمتها جاءت بيتي مذعورة.. تعرف أن نوافذها عالية عن الأرض ولا يوجد سلم بهذا الارتفاع هنا. طلبتُ من الخدم تحطيم الباب لكنهم رفضوا خوفا.. لذا اتصلت بك..

هرعت للطابق العلوي ووقفت أمام باب غرفة زوجتي وصحت بصوت عال:

- سيبيل!

لكن لا صوت.. وقفت مافيس جواري ترتجف ولحق بها بعض الخدم. استدرت لهم وواصلت النداء... وقلت:

- واضح أن ليدي سيبيل ليست في غرفتها.. لكن هاتوا مطرقة قوية.. كان عليكم عمل هذا منذ ساعتين.

جاءوا بالأدوات اللازمة وانهالت الضربات المدوية على الباب الثقيل المصنوع من خشب البلوط، ثم انهار الباب أخيرا.

توقف الخدم وكذا توقفت مافيس لسبب مجهول.. نوع من التوجس غير المفهوم. رحت أتحس في الظلام بحثا عن مفتاح النور.. شعرت بالمخمل تحت قدمي فأدركت أنني في المخدع، لمست شيئا باردا طريا فمددت يدي أفحصه.. تراجعت للخلف وأنا أنظر للجسد الذي جحظت عيناه الزجاجيتان.

شهقت وقلت:

- سيبيل! زوجتي!..

لكن الكلمات اختنقت في حلقي. هذا التمثال الثابت هو زوجتي؟؟

تضطجع على أريكة كأنه عرش ملكة ويدها تسترخي على المسند. ويد كأنها من شمع. هل هذه سيبيل؟.. سيبيل كانت جميلة أما هذه فمرعبة بعينيها الزجاجيتين وشفتيها الزرقاوين اللتين تبتسمان ابتسامة شيطانية.

دنت مني مافيس ففهمت القصة على الفور.. وركعت على ركبتيها باكية.

فقلت لها:

- ابتعدي عنها يا مافيس.. هي ليست بريئة.. هل ترين ضحكتها الشيطانية؟.. لو سمعت كلامها ليلة أمس! هواء الغرفة ملوث وسوف يسممك..

قالت والدموع في عينيها:

- أنت في حالة تجعلك عاجزا عن فهم ما تقول.. لم تحاول حتى معرفة كيف ماتت.

- بل خمنت.. هذا سهل جدا.

ومددت يدي وتناولت القنينة الصغيرة التي كتب عليها (سم).. القنينة الصغيرة المفتوحة.

- وهذه.. ورقة عليها كلمات.. بالطبع هي رسالة موجهة لي.. إنها كلمات مقدسة، وأنت أديبة يا مافيس وتفهمين هذا.. لذا أطلب منك أن تتركيني..

قلت دامعة:

- الله معك!..

وخرجت من المخدع.

جلست أمام سيبيل وقلت لها:

- الآن يا سيبيل أنت وحيدة معي.. لن تخشيني بعد اليوم فأنا لا أستطيع أن أؤذيك.

وتناولت الرسالة التي تركتها لي، ثم أشعلت شمعتين فبدت الرؤية أوضح.. ولاحظت أن فكها استرخي أكثر مع الوقت فبدت ضحكتها مرعبة فعلا. قلت لها:

- تكلمي يا سيبيل.. أنا هنا لأصغى..

هبت الريح واهتز لهب الشمعة.. وأدركت أن سيبيل سمعت ما قلت.

كانت الرسالة تقول:

«قررت أن أموت.. هذا خياري الكامل وربما نتيجة للضرورة. لقد تعبت من المشاكل وتعب جسدي من العيش. يجب أن

أنهي الأمر. فكرة الموت التي تتشابه عندي مع العدم تبدو جيدة جدا لا أرى سوى وجه حبيبي ولا أسمع سوى صوته.. لفترة طويلة كان هو كل عالمي وحياتي. لقد رحل.. ومن دونه لا يوجد كون.

كيف أتحمل بطء الساعات والأيام وحدي؟

ربما كانت الوحدة أفضل لي من مرافقة هذا الأحمق الغارق في الشهوات زوجي. لو كان قد أظهر لي بعض الحب فربما بادلته حبي، ولربما اعتذرت له لأنني تزوجته. لكنه عاملني كأنني جارية مدفوعة الأجر، وأنا لست مدينة له بشيء. أنا حرة في أن أفعل ما أريد بهذا الشيء الذي في داخلي والذي أدعوه (حياة)».

كانت الرسالة طويلة جدا يصعب أن تصدق أنها كتبتها والسم يسري في عروقها..

نظرت لوجهها الذي راحت ملامحه تتلاعب في ضوء الشمعة، وخطر لي أنها تشبه أمها كثيرا بعد ما شوّه الشلل ملامحها. لم أجسر على لمس الجثة.. لم أجسر على النظر لها. تناولت المذكرة التي كتبتها في تحد صارخ للموت. أطفأت الشمعتين ثم غادرت الحجرة وأنا أرتجف رعبا والعرق يبلل ظهري..

كان عليّ أن أرحل.. عليها أن تجرب العالم الجديد الذي انتقلت له وحدها، فأنا يجب أن أعنى بنفسي.

-19-

لم يحزن أحد حقيقة على زوجتي. فقط رفع الرجال حواجبهم وأشعلوا سيجارا آخر. النساء سررن للتخلص من منافس خطير.. بينما عمّت الجميع سعادة لأن لديهم ما يتكلمون عنه.

المجتمع ليس نقي النفس لدرجة أن يحزن حقيقة لفقد شخص متميز.. إن رحيل شخص متميز يفسح مجالاً لآخرين للصعود. بفضل ما لديّ من ثروة ثم إخفاء كل شيء يتعلق بانتحار سيبيل. هي ابنة إيرل.. لهذا شهد طبيبان أن وفاتها جاءت نتيجة غلطة.. بسبب تناولها جرعة خاطئة من دواء منوم. حرصت كذلك على إطعام الصحفيين، والجنازة كانت مبهجة لأي حانوني، انتعشت تجارة الورود لدرجة أن التابوت لم يعد ظاهرا للعيان من كثرة ما ألقي فوقه من زهر.

لم تكن هناك حالة حزن صادق واحدة، وحتى أبيها راق له أن ابنته رحلت فلن تعوق زواجه من ديانا شستي.

كانت الجنازة مهيبة تحدث عنها الجميع، وكان هناك صحفيون كثيرون غطوا الحدث. أعتقد أن وفاة زوجتي منحت السعادة لكثيرين. كانت فراشة جميلة لهذا لم تستحق أكثر مما تستحقه أي فراشة جميلة ميتة.

لكنى كنت مصرا على أن ألقى مافيس قبل أن أرحل للشرق مع لوتشيو.

كانت جالسة في منزلها أمام النار وكلبها (التريير) في حجرها وجوارها كلب سان برنار. لما قابلتني نهضت لتلقاني.. كانت تشعر بأسى من أجلي ومن الغريب أنني لم أشعر بهما لنفسي.

كانت ترتب الخشب في المدفأة فقلت لها:

- أنت تعرفين أن قصة الدواء المنوم هذه خرافة.. سيبيل قتلت نفسها فعلاً.

نظرت لي للحظة ثم قالت:

- كنت أخشى أن تقول هذا.

- لا يوجد شيء يدعو للخشية.. لقد فعلت هذا لأنها كانت غارقة في حب صديقي لوتشيو..

وناولتها الاعتراف الذي كتبته سيبيل.. راحت تقرؤه والدموع تسيل من عينيها.. فلما انتهت من القراءة قالت لي:

- لقد أعماك بريق الشهوات فلم تعد ترى عدوك الحقيقي.. ألا تفهم؟. عدوك.. إنه لوتشيو ريمانيز هذا.. لا أعرف من أين جاء.. ولا من هو حقا، لكنى أؤمن أنه يجلب الشرور. يتخفى وراء ملامح رجل وسيم ليدمرنا.. اتركه لو كنت حكيما اهرب ولا تتركه يرى وجهك ثانية.

غادرت المكان شاعراً بحيرة.. كأنها تلومني أنا ولا تلوم سيبيل. هي امرأة كأي امرأة أخرى. وتذكرت أنني كنت أكرهها قبل أن ألقاها وكتبت عنها مقالاً باسم مستعار مزقتها فيه تمزيقا، وبذا منحتها أعظم هدية يمكن أن تنالها كاتبة أنثى: حسد الرجل لها.

☆ ☆ ☆

بعد أسبوعين كنت أقف على (الشعلة) يخت لوتشيو. اليخت الفاخر الذي يفعم النفوس بالرهيبة. رائع الجمال يجعل الجميع يحتشدون ليراقبوا ويتساءلوا عن الكيفية التي يمخر بها العباب. كان اليخت رائعا لكني لم أحب الطاقم قط وبدوا لي يحملون شيئا منفرا لا أستطيع وصفه.

سرعان ما فارقت الساحل البريطاني كأنها خط أبيض طويل يمخر العباب. لقد تركت بيتي للإيرل والد سيبيل.. على الأقل كان هذا المكان له يوما ما، سرني كذلك أن ابنة ملك الطرق الحديدية الأمريكي سوف تعيش في هذا القصر، وترمق نفسها في ذات المرآة التي كانت سيبيل تراقب نفسها فيها. لا أحمل أي ضغينة نحو ديانا تشسنى، فهي سوقية لكنها غير مؤذية وسوف يحبها الناس في ويلوزمير أما عن الخدم فقد صرفت كلا منهم بعد ما منحته مبلغا طيبا من المال. السبب هو أنني أردت أن أترك لديهم انطباعا طيبا.. في هذا العالم لتظفر بانطباع طيب، فعليك أن تدفع ثمنه.

وقد جلبت مثّالاً شهيرا لينحت تمثالاً لسيبيل وهي تبدو كملاك ينظر للسماء، مهما كانت زوجتك شيطانية فعليك أن تظهرها كملاك عندما تموت.

في هذا الوقت توفي ناشري مورجسون وسط أبخرة الزئبق وهو يجرى تجارب غامضة للحصول على الذهب. لم أشعر بأي شفقة نحوه فهو مختف منذ فترة طويلة.. وما في ذلك؟.. الناس

تموت طيلة الوقت وأنا سأموت قريبا، فلماذا أهتم بموت شخص بعينه؟

كنت واقفا عند حاجز السفينة جوار لوتشيو.. عندما دارت بيننا محادثة عن الدين والخلق، ولم أكن وقتها أؤمن بالله.. بل كنت أعتبر من يؤمنون أشخاصا ممقوتين.. وقد أدهشني أن لوتشيو اعترف بأنه يؤمن بالله..

سألت لوتشيو:

- وهل تؤمن بوجود الشيطان سيد الجحيم؟ شحب وجهه والتزم بالصمت لفترة أدهشتني.. ثم قال:

- أنا أؤمن بالجحيم لأنني أؤمن بوجود الجنة.. ما دامت هناك جنة فهناك جحيم.. أما عن الشيطان فلو صح ما تقوله الأديان عنه لكان أتعس مخلوقات الله طرا... لا توجد تعاسة في الكون تقارن به.

قلت في دهشة:

- أتعس؟.. إنه يسعد بعمل الشر.

قال ببطء:

- لا الإنسان ولا الشيطان يقدر على هذا.

كانت الشمس قد غابت وهناك نجم وحيد يتألق في الأفق.

أردف لوتشيو:

- تخيل أن يغلقوا دونك باب الأمل.. أن تدرك يقينا أنك مطرود من رحمة الله.. أن تسمع صوت الملائكة في الملأ

الأعلى، لكنك تمضي وحدك في الظلمات. إن عذاب سيزيف لهين إذا قورن بعذاب الشيطان. لا غرابة في أنه يكره البشر من الطبيعي أن يصير عدوا لهذا الجنس عديم النفع..

وارتسمت على شفته ابتسامة ساخرة قاسية نوعا..

كان من السخف مناقشة هذه الأفكار ونحن على ظهر اليخت. الحقيقة أن تجربتي معه في السفر للبحر كانت تجربة فريدة لم تبق لي شيئا أرغب فيه.. كان بعض البحارة موسيقيين، فكانوا يخرجون إلى السطح في الليالي الصافية ليعزفوا ويغنوا.. وكان لوتشيو يغني معهم بصوت جميل..

وصلنا إلى الإسكندرية فتركنا اليخت متوجهين إلى القاهرة..

لم أكن شغوفا بالرحلة ولا مهتما بأي شيء نراه. لكني بدأت أهتم عندما ركبنا المركب النيلي وراح يسبح فوق النهر الأصفر الناعس. كنت أقضي الساعات أراقب الضفتين بما فيهما من صخور وأحجار محطمة من معابد ممالك العصر الغابر.

إن أنسَ فلن أنسى تلك القصة مع لوتشيو. لقد قال لي لوتشيو إنه يجيد فن التنويم المغناطيسي فلم أصدق وضحكت ساخرا. قال للنوتي:

- أوقف الدهبية يا عظيمة.. سوف نبقى هنا الليلة.

وكان عظيمة رجلا مهيب الهيئة يلبس عمامة وجلبابا أبيضين أوقف القارب وساد الصمت إلا من ضوء القمر. نظر لي لوتشيو في ثبات بعينين تخترقان المرء. حاولت أن أبتسم لكن لساني تجمد. كان وعيي يتسرب بين أناملي. كان القمر والسماء يدوران من حولي. وشعرت أن أطرافي مربوطة بقيود من حديد.

فجأة شعرت بحواسي تحتد ثانية وسمعت صوت موسيقا تعزف، ثم رأيت عبر الظلمات آلاف الأضواء فوق قباب ظهرت فجأة.. رائع!

-20-

رؤية من مبان سحرية متسعة عملاقة.. شوارع تعج بالناس والنساء وميادين متسعة بها تماثيل عملاقة، وأزهار سوسن في كل مكان.

رأيت أكثر من نافورة في ضوء القمر.. سمعت الجموع تهوم وتبعث صوتاً كأنها مملكة نمل.. سمعت موسيقا مارش ساحرة. ثمة أجراس تدق وطبول تقرع.. ثمة عروس فاتنة تدنو مني. أشعر أنني سأرى سر الكون في وجهها، لكنها تتوارى وراء حجاب.. لا أستطيع رؤية ملامحها.

هنا فتحت عيني لأجد أنني أمام لوتشيو!

كان جالسا على سطح المركب يرمق الشط المظلم الذي استراحت مركبنا عنده. وثبت صارخا نحوه:

- أين هي؟.. من هي؟

نظر لي ولم يرد.. فقلت دامعا.

- أنا رأيت كل شيء.. المدينة. الناس.. كل شيء ما عدا وجهها..

ضحك وقال:

- أنت فريسة ممتازة لأى نصاب يتسلى عليك بأوهام مرئية..

- هل تعنى أن ما رأيته لم يكن سوى أفكارك وقد نقلتها لعقلي؟

- بالضبط!.. والآن حاول أن تنام يا جيفري.. أنت تأخذ الأمور بجدية أكثر من اللازم..

لم أرد عليه وهبطت لأسفل المركب لأنام، حاولت النوم لكن الذعر تغلب عليّ. كنت أشعر أن قوة غير أرضية تتحكم فيّ وتصيرني وتسيرني حيثما شاءت. أعتقد أن خوفي من وجود لوتشيو القوي يزداد يوما بعد يوم.

بدأت رحلة النيل تثقل عليّ. ورحت أرتقب اللحظة التي تنتهي فيها.

بقينا في الأقصر عدة أيام نستكشف مقابر طيبة والكرنك. رأيت ذات ليلة عملية فتح تابوت وجده المنقبون هناك.. كانت فيه مومياء امرأة. ترجم لي لوتشيو الكلمات الهيروغليفية بسهولة تامة.

كانت هذه راقصة في بلاط الملكة أمينارتيس.. ثم غرقت في الخطيئة فصارت أيامها لا تطاق، أمرها الملك بأن تقتل نفسها.. كانت في العشرين من عمرها.. وهناك تفاصيل أخرى لكن هذا أهم شيء..

نظر لوتشيو للواقفين وقال:

- هلا نظرنا إلى وجهها لنعرف كيف كانت تبدو؟

وقفت أراقب عملية فك أربطة المومياء في شغف وفضول. نزعوا القناع عن الوجه بصعوبة، هنا أصابني ذعر قاتل.. كأن الوجه الذي أراه وجه سيبيل..

وتسربت روائح عطرية مقززة إلى رئتي فتراجعت وغطيت عيني - كأنه نفس العطر الباريسي الذي كانت سيبيل تضعه عندما قتلت نفسها. كدت أقع فأمسك أحد الرجال يدي وقال:

- الطقس حار.. مرهق جدا بالفعل..

ابتسمت وقلت شيئا عن دوار.. ثم نظرت للوتشيو.

عندما جاء المساء قلت لريمانيز:

- ألم تر؟.. ألم تلحظ؟

- أن تلك الراقصة تشبه زوجتك؟.. نعم لاحظت.. لكن هذا لا يجب أن يضايقك فالتاريخ يعيد نفسه فلم لا تعيد النساء الجميلات أنفسهن؟

لم أرد.. كان لديه رد ساخر على كل شيء..

صباح اليوم التالي بلغ بي السقم مبلغا فلم أغادر الفراش. استدعى لوتشيو طبيا يقيم في نفس الفندق بالأقصر، فحصني وقاس نبضي ثم نصحني بترك مصر فورا.. كان هذا ما أتوق له. الفرار من هذه الصحاري الممتدة حيث يرمقني أبو الهول في احتقار.

اقتنع ريمانيز بالأمر.. وشعرت بالامتنان له ونحن نعود للقاهرة فالإسكندرية، ثم نركب اليخت (اللهب) عائدين لفرنسا أو إنجلترا.

أخلدت للراحة في قمرتي وقد استرددت ثقتي في صديقي لوتشيو. بل استرددت غروري كذلك.

حتى اللحظة لم تجلب لي ثروتي ما أردت من سعادة.. لكن ما زالت أمامي فرصة للحصول على تفاحات هسبريد..

سوف أتزوج زيجة ثانية.. وهذه الزيجة ستكون مافيس كلير... ليست هناك امرأة غيرها تستحقني. لكن شبح سيبيل كان يطاردني في كل ليلة.. كانت تقف وسط اللهيب وعلى وجهها تلك الضحكة الشيطانية الساخرة وهي نصف عارية تمد يدها لي.

كنت أنهض في كل مرة مذعورا غارقا في العرق.

لم أخبر لوتشيو بشيء.. ورحت أتناول جرعات منومة ليلاً بلا جدوى. كنت أصحو من النوم في كل مرة على ذات الكابوس.

طاردتني الكوابيس لدرجة أنني رحت أفتش عن مسدسي وفي قمرتي أخرجته وتحسست المعدن البارد. ضغطة واحدة على الزناد وينتهي كل شيء.. سوف أنام.. بلا ألم.

رفعت المسدس لصدغي، لكن باب القمرة انفتح وبرز لوتشيو.

قال في أدب:

- معذرة!.. لم أدر أنك مشغول.. لن أضايقك!!

أزحت المسدس جانبا وقلت:

- أنت تقول هذا!... حسبت أنك صديقي..

قال وقد تبدلت نظرة عينيه:

- حسبت هذا؟.. كنت مخطئا.. أنا عدوك!..

نظرت له في رعب.. أعدت المسدس لقرابه ونظرت له.. خيل لي إنه يزداد طولاً وينحني فوقي كأنه سحابة عملاقة تجمد الدم رعبا في عروقي، ثم غلف الظلام عيني فسقطت فاقد الحس.

-21-

في ظلام قمرتي نهضت، محاولا أن أستجمع قواي. انطفأت المصابيح وأضاء البرق وحد ظلام المكان.

كنت أسمع صوت صراخ مجنون من ظهر اليخت، وعوت الريح كشيطان معذب..

هرعت للباب محاولا فتحه، فوجدته مغلقا من الخارج.. أنا سجين!... فاق رعبي أي شعور آخر ورحت أضرب الخشب بكلتا يدي.

كان تقلب اليخت في العواصف يقذفني يمينا ويسارا لكني رحت أواصل الدق. في النهاية جلست على الأرض متعبا منهكا. كانت قوة العاصفة تتزايد.

وسط ذعري سمعت من يكلمني.. شخصا لصيقا بي كأن الظلام من حولي قد صار له لسان فجأة..

- في كل العالم هناك عواصف وريح وخطر. لكن بعد هذا الحياة!..

وجدت نفسي أبتهل لله.. الله الذي ظللت حتى هذه اللحظة أنكر وجوده.. لقد كان ذعري بالغا.

ثم سمعت صرخات من ألف حنجرة تعوي.. تختلط بصوت الرعد.. ثم سمعت بوضوح الكلمات:

إيف ساتاناس.. المجد للشيطان!..

الرعد يردد ذات الأغنية.. البرق يكتبها.. كاد رأسي ينفجر.

- المجد للشيطان!..

بقوة تتجاوز قوة البشر ألقيت بجسدي على الباب.. محاولاً فتحه، استجاب لي.. سمح للضوء بالدخول فرأيت لوتشيو يقف هناك فارع الطول يلبس عباءة سوداء.

قال بصوت خفيض:

- اتبعني يا جيفري تمبست، فوفتك قد جاء!..

فارقتني كل قوة لديّ.. مددت يدي له وقلت:

- بالله عليك!..

أسكتني بإشارة من يده وقال:

- وفر عليّ سماع صلواتك من فضلك.. اتبعني..

وتقدمني فمشيت خلفه فاقد الإرادة مذعورا، إلى أن وجدت نفسي في صالون اليخت. كانت جوارنا نافذة تقذف الماء المالح.. قال لي بلهجة آمرة مسيطرة:

- أرواح البحر.. تلك النفوس الخاطئة التي لم تتب عما فعلته.. إنها ملكي وتستجيب لي..

هنا رأيت الأمواج تهبط كأنها تنفذ أمرا.. وانزلق اليخت في خفة. وانزلق ضوء القمر ليغمر أرض الصالون. نظر لي لوتشيو.. وأي جمال رأيته في ذلك الوجه!

- هل تعرفني الآن؟..، أم أقول لك؟

تحركت شفتاي لكن لم أستطع النطق.. الفكرة التي خطرت لي كانت مجنونة.. خارج العالم المادي.

قال لي:

- كن أحمق.. لكن اسمع واشعر.. لقد زالت قواك وإني لآمرك وأحركك.. لقد اخترتك لتتعلم في حياتك الدنيا الدرس الذي تعلمه الجميع بعد موتهم...

ما زال يبدو ظريفا ودودا برغم أنه أعلن من قبل أنه عدوي.

قال لي:

- أنت رجل مجدود الحظ، لكن من يأخذه الكبر والغرور، ينكر وجود الله.. ويسلم مصيره لقوى أخرى... قوى الشر هذه القوى هي ما يسميه البشر (الشيطان).. أمير الظلام. الملائكة يسمونه لوسيفر. أمير البهاء..

هل جن هذا الرجل؟

قال لي:

- أنا أبحث عن الرجال الذين غرقوا في غيهم.. أصير أفضل رفيق لهم.. والحقيقة أنني أصير كما يريدون هم.. هم الذين يصنعون مظهري. وعبر العصور أطلق عليّ البشر أسماء عديدة مختلفة.. يجرؤ البشر على أن يشكوا وأن يروا الكون من خلال أعينهم فقط، بينما يجهلون كل شيء عن عالم ما وراء الطبيعة.. لأنكم لا ترون.. تشكون!. أنتم حمقى!.. لا تعرفون أن كل عمل لكم وكل فكرة سوف تخلد في عالم المطلق.. وكما كانت روحك هنا ستكون روحك هناك.

وتغير الضوء المحيط برأسه.. وقال:

- لقد نسى الإنسان ما فيه من خلق الله، وأعجب بكل ما يمت للشيطان.. هذا هو اختيار الإنسان.. ليس اختياري... لو أراد البشر أن يتخلصوا مني لما كان لي وجود. لكنك تلخص قوة الجحيم..

كنت أصغي وقد بدأت أفهم بشكل مبهم طبيعة هذه المقابلة غير الأرضية.

- أنت يا جيفري تمبست ولدت وفيك قبس من حكمة الله.. العبقرية.. كنت تحمل بذورها، لكنك لم تستطع الانتظار. أعماك الفقر ورغبة الثراء.. بدت معاناة الآخرين تافهة بالنسبة لك. صرت مستعدا لأن تكفر وتموت. ولهذا السبب جاءتك تلك الملايين ولهذا ظهرت أنا في حياتك.. وكانت أمامك علامات كثيرة تثير الريبة.. كان بوسعك التوقف في أي وقت.

كانت عيناه تعكسان الاحتقار الآن.

- ملايينك هي مالي.. ومن ترك لك هذا الميراث كان تعسا فقيرا صار غنيا مثلك.. هو الآن في طور من الوجود أكثر واقعية.. وسوف يكون عليك الدور كي تتعلم، أنت لست الطراز الذي نسميه (مجرما) فأنت لم تقتل أحدا أو تسرق أحدا.. لكنك منحت الموهبة ومنحت الثروة ومنحت زوجة جميلة، لكنك لم تستغل هذا إلا لتحقيق سعادتك. القاتل قد يتوب.. الزاني قد يتوب.. السارق قد يتوب.. لكن الأناني الغارق في الملذات لا يتغير أبدا. أنت اعتبرتني صديقا.. كان عليك أن تدرك أنني عدو.. كل من ينافق رجلا ويطري عيوبه هو عدوه..

تأوهت بصوت عال وبحثت حولي عن قبر أدفن فيه نفسي كانت أطرافي ترتجف وقدرتي على التفكير قد شلت تماما.

نظر لي بعينيه الثاقبتين وقال:

- أي مخلوق غريب صنعتموه مني!... ما الذي علموه لك في المدرسة والكنيسة عني؟.. قالوا إنني أستمتع بالشر.. لا يمكن الاستمتاع بالشر أبدا.. إنه يعبر عن قنوط الكون. كل خطيئة يرتكبها بشري تضاف لعذابي.. لكن قسمي لا يتزحزح لقد أقسمت أن أغوي الناس. لكن الإنسان لم يقسم أن يخضع لي. إنه حر!.. تعال معي الليلة.. إن الغطاء مكشوف من أجلك..

ومد يده لي وصار صوته خفيضا لكنه مخيف...

شعرت بأنني أغوص في البحر ثم إذا يد ترفعني، فوجدت نفسي على ظهر اليخت. توقعت أبشع العذاب، مع يقين في نفسي أنني مهما ابتهلت إلى الله فلن يغفر لي.

هنا رأيت حولي عالما متجمدا كأنه لم ير الشمس قط.. جدران من ثلج تنطبق على اليخت. ورأيت ملاكا بدلا من لوتشيو.. حول رأسه هالة وفي عينيه حزن غريب عميق..

نفس ملامح لوتشيو نوعا لكنها اكتسبت مجدا أثيريا. لم أعد أشعر بأي مشاعر جسدية لكني شعرت بروحي تنبض بالرعب والخوف.

أدركت فجأة أن هناك حشدا من عيون تحملق فيّ.. أيد تمتد لي.. في ترغيب لا تهديد. وراح لهب قرمزي ينتشر حول اليخت المحاط بالثلج.

حتى هو.. عدوي.. حيث وقف عند الدفة.. صار مغلفا بهذا اللهب القرمزي.. وسمعت صوتا حزينا بلا نهاية لكنه عذب، شق الصمت ليقول:

- أبحر يا إميل إلى حدود العالم!..

إميل!.. الدفة!

كنت أعرف من البداية أن هذا الرجل (إميل) شيطاني هناك تاريخ من الجريمة في مظهره. كان يحرك الدفة بيد شاحبة.. وبدأت جبال الثلج حولنا تتشقق..

- اندفع يا إميل.. اندفع إلى نهاية العالم إلى حيث لم يجسر إنسان من قبل!..

تعالى صوت الرعد وانهمرت ألسنة البرق.

لقد انتهى أمري... لا أجرؤ على التفكير..

سرعان ما اخترقنا الثلوج.. وانطلقنا في البحر الواسع المتألق كالفضة..

ساد الهدوء وبدا لي كأننا نقترب من جزيرة استوائية جميلة وسمعت غناء رقيقا أرسل الدمع في عيني.. تري هل هذا هو الفردوس المفقود؟

كنت أرى في كل مكان تلك الوجوه التي عرفتها في حياتي..

نظرت إلى لوتشيو فوجدته يقف عند الدفة وقد رفع ذراعه:

- انظر... هنا نقف.. - قال الصوت الآمر - .. هنا حيث لم يلق وجه البشر الخاطئ ظله.. هنا حيث لم يرتكب جشع البشر جريمة.. هنا حيث لم يقتل أحد كائنا حيا. هنا نهاية العالم.. المكان الوحيد الذي لم تدنسه قدم الإنسان..

ثم نظر لي بعينيه الثاقبتين وقال:

- يا رجل.. لا تخدع نفسك فتعتقد أن هذا وهم أو هلوسة. هذا المكان حقيقي، والآن عليك الاختيار بين مصلحتي ومصلحتك أو الله...

كان شريط حياتي بكل دقائقه يجري أمام عيني.. فصحت:

- الله وحده!.. لا أريد سوى الله وحده.. حتى لو كان الهلاك أو التلاشي ينتظرني معه.. لا توجد عندي خيارات أخرى..

هنا شعرت بشيء يشرق ويتألق في الأفق كأنه الشمس ذاتها، وسمعت صوتا ساحرا يقول:

- انهض يا لوسيفر يا بن النهار.. هناك روح قد رفضتك.. لقد مُنحت ساعة من السعادة..

كان اليخت يغطس ببطء من تحتي.. هناك أيد قوية تمسك بي.

غمغمت قائلاً:

- الله.. الله وحده..

كان القارب مستمرا في الغوص، ثم سمعت صوتا يقول:

- اربطوا قدميه ويديه.. ثم ألقوه في أقصى بقاع الظلام.

وفجأة بدأت أرى الشمس.. شمس الأرض العذبة.. هالتها الذهبية تتوهج في الشرق. لكن ذلك الملاك الحزين لوتشيو لم يكن سعيدا.. شعرت به يجذبني إلى القاع.. إلى عالم بارد كتيب.

صحوت بعد فترة طويلة من فقدان الوعي لأجد أنني في وسط المحيط... أطفو ولا أتمسك بشيء..

بعد محاولات فاشلة للتجديف بيدي استسلمت تماما ونظرت للسماء، بينما المحيط يهدهدني كرضيع في ذراعي أمه.

لقد ضعت ووُجدت.. وُجدت في هذا البحر الذي سيكون ضريحي عما قريب

أشعر بوجود روحي.. أدرك أنها أروع شيء امتلكه الإنسان.

لم يبق لي سوى الندم. لكن هل يصلح الندم في لحظات متأخرة مثل هذه؟ أنا شيء بلا قيمة وسط المحيط. ووسط ذعري نطقت بالكلمات التي لم ألفظها في عمري:

- الله وحده سوف يختار لي الأفضل في الحياة... والموت.. وما بعد الموت..

وأغلقت عيني وتركت نفسي لرحمة الموج. نمت وصحوت..

وجدت نفسي أُحمل بأذرع قوية إلى ظهر مركب.. بينما روعة الفجر تغمر الأفق. انهالت عليّ الأسئلة فلم أرد.. لقد كان لساني متقرحا. رحت أنظر للسفينة.. أتكون هذه سفينة أخرى للشيطان تجوب البحار؟

دنا مني رجل عريض المنكبين وقال:

- هذه سفينة بريطانية.. نحن ذاهبون لساوثهامبتون رآك رجالنا تطفو في البحر فأرسلنا لك قاربا.. أين سفينتك؟؟ هل لك

رفاق نجوا؟..

انفجرت في الضحك والبكاء.

بريطانيا!.. أرسلت الكلمة الحياة في عروقي.. إنجلترا!..

البقعة التي يجلها الجميع. حاولت أن أقول كلاما مفهوما فلم أستطع.. غبت في نعاس عميق...

منحني القبطان قمرته، ورحب بي البحارة.. وفحصني طبيب السفينة بحماس. كنت سعيدا جدا.. أنا نجوت.. أنا منحت فرصة أخرى!

جاء اليوم الذي جلست فيه أرمق ساحل إنجلترا يقترب. بدا لي أنني فارقتها منذ دهر.. فالزمن هو ما يصنعه خيالنا، ومن بعيد بدت جزيرة شكسبير السعيدة كأنها جوهرة.. دنا مني القبطان وقال لي:

- الآن ونحن ندنو من الساحل.. هل لي على الأقل أن أعرف اسمك؟.. لم نعتد أن نقابل رجلاً في وسط المحيط من قبل.

دهشت لهذا الطلب، كنت قد نسيت أن لي اسما.. قلت له:

- جيفري تمبست.

اتسعت عينا القبطان وهتف:

- جيفري تمبست.. الذي كان مليونيرا ثريا؟..

بدت عليّ الدهشة وسألته:

- كان؟.. ماذا تعني؟

- ألم تسمع؟.. أكره أن أكون أول من يحمل لك هذه الأخبار السيئة.

وذهب لقمرته فأحضر جريدة أمريكية عمرها سبعة أيام.. ناولها لي لأقرأ العنوان:

إفلاس مليونير!

قرأت الأخبار ورأسي يدور - المحاميان اللذان عهدت لهما بتولي ثروتي في غيابي، قد تورطا في استثمارات كبيرة. زورا توقيعي وتعاملا مع المصرف فلم يشك أحد، ثم فرا وتركاني مفلسا كما كنت قبل أن أسمع عن هذه الثروة.

قلت للقبطان الطيب:

- شكرا لك.. يمكنني أن أقول إنني آسف على المحاميين أكثر مما آسف على مالي. كل اللصوص تعساء.. كل ما حدث هو أن عليّ أن أبدأ الحياة من الصفر..

نظر لي في ذهول وقدر أنني لا أعي خسارتي جيدا.

لكني كنت في أكثر حالاتي تعقلاً.. العمل.. الهبة التي منحها الله لنا والتي من دونها لا يصير للمال قيمة.

إنجلترا أخيرا!

ودعت الطاقم الذي عرف اسمي وصار ينظر لي في شفقة. وفيما بعد أرسلت من بقايا ثروتي مبالغ مالية للقبطان وطبيب السفينة.

ذهبت للندن حيث استجوبتني الشرطة بصدد محاميّ اللصين. ثم قلت إنني غير راغب في استرداد المال فهو مال منحوس. حتى زوجتي قد ماتت ونال أبوها نصف ثروتي.

- الرجل الثرى يخلق من حوله اللصوص والمزورين، ولا يجد الأمانة أبدا..

وفارقت رجل الشرطة وهو غارق في الدهشة.

وقع حادث أثار بهجتي، هو أنني عندما فقدت ثروتي بحث أحد النقاد عن روايتي السابقة ومزقها بلسانه.. بنفس الطريقة التي مزقت أنا بها مافيس كلير من قبل. النتيجة كانت أن الناس هرعوا يبتاعون الكتاب فضولاً وعاد الكتاب للحياة. هكذا كتب لي الناشر يشكرني وأرسل لي شيكا بمئة جنيه.

شعرت بأنني ملك عندما تلقيت هذا المبلغ. ابتسمت لي الحياة من جديد. أنا ثرى بمئة جنيه هي نتاج عقلي ولم أرثها.

كنت أفكر في مافيس كلير.. لكني لم أحاول الاتصال بها، لن أجسر على ذلك إلى أن أعمل وأكون نفسي من جديد، وعندها سوف أخبرها بكل شيء.

لم أجسر كذلك على زيارة ويلزمير، فهو مكان يدعو للشؤم بالنسبة لي. عندما تزوج الإيرل لم أذهب للزفاف.. لكني لم أندهش عندما قرأت في الصحف ضمن قائمة المدعوين اسم الأمير لوتشيو ريمانيز.

انغمست في مشروع أدبي جديد.. ولم أخبر به أحد.

اهتز الوسط الأدبي بسبب قصة جديدة لمافيس كلير. وقد كرمها المجتمع وأحاطها بالورود. لم تنس وسط هذا المجد أن تكتب لي خطابا قصيرا:

عزيزي:

عرفت بالصدفة أنك عدت لإنجلترا، يسرني أن الجمهور أقبل على كتابك بعد فترة نسيان، هذا يعزيك عن خسارتك الكبيرة على المستوى الشخصي والمادي. هل يمكنك أن تأتي لتراني؟

مافيس كلير.

تلاعب الضباب أمام عيني.. شعرت بوجودها الرقيق في الغرفة. البسمة المشرقة لأعذب امرأة عرفتها في حياتي. سوف أذهب لأراها ذات يوم قريب فهي تملك بالتأكيد مفاتيح السعادة. خرجت أجوب الشوارع وظللت لساعة متأخرة وعندما عدت للبيت كنت أتحسس خطاب مافيس جوار صدري.

كنت أمشي قرب وستمنستر عندما رأيت ظلا يتحرك. رفعت عيني فوجدت لوتشيو!

هو كما هو.. التجسيد الكامل للرجولة. نفس البسمة الساخرة. كان ينظر لي فكاد قلبي يتوقف. مررت بجواره فتنحى جانبا ليسمح لي بالمرور... عندما وصلت ركن الشارع عند البرلمان نظرت له من جديد.. كان ما زال هناك. استحضرت اسم الله على شفتي واستعنت بقوة الإيمان.

خرج بعض أعضاء البرلمان فهزوا رءوسهم محيين هذا الرجل الفارع كأنهم يعرفونه من قبل. رأيت أحد الوزراء يهرع للبرلمان مع دقات بيج بن، فيرى لوتشيو.. حياه لوتشيو في حرارة ثم تأبط ذراعه بطريقة آمرة. راقبتهما يبتعدان. رأيتهما يصعدان في الدرج.. وفي النهاية يختفيان. الشيطان والإنسان معا!

ماري كوريللي

1895

أحزان الشيطان

(جيفري تمبست) شاب تعس الحظ يعيش في فقر مدقع لدرجة الجوع، ثم يبتسم له الحظ فجأة.. يصير ثريا بشدة، وله صديق مدهش وسيم عظيم النفوذ اسمه (لوتشيو).

ككل ابطال القصص يتصرف تمبست بسذاجة غير عادية. لماذا لا يلاحظ أن اسم صاحبه قريب جدا من اسم لوسيفر؟.. لماذا لا يلاحظ أن وسامة صاحبه غير أرضية وأنه يقوده عبر سبل مظلمة؟.. لماذا لا يدرك الجو الفاوستي الذي يغلف الأمر كله؟


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

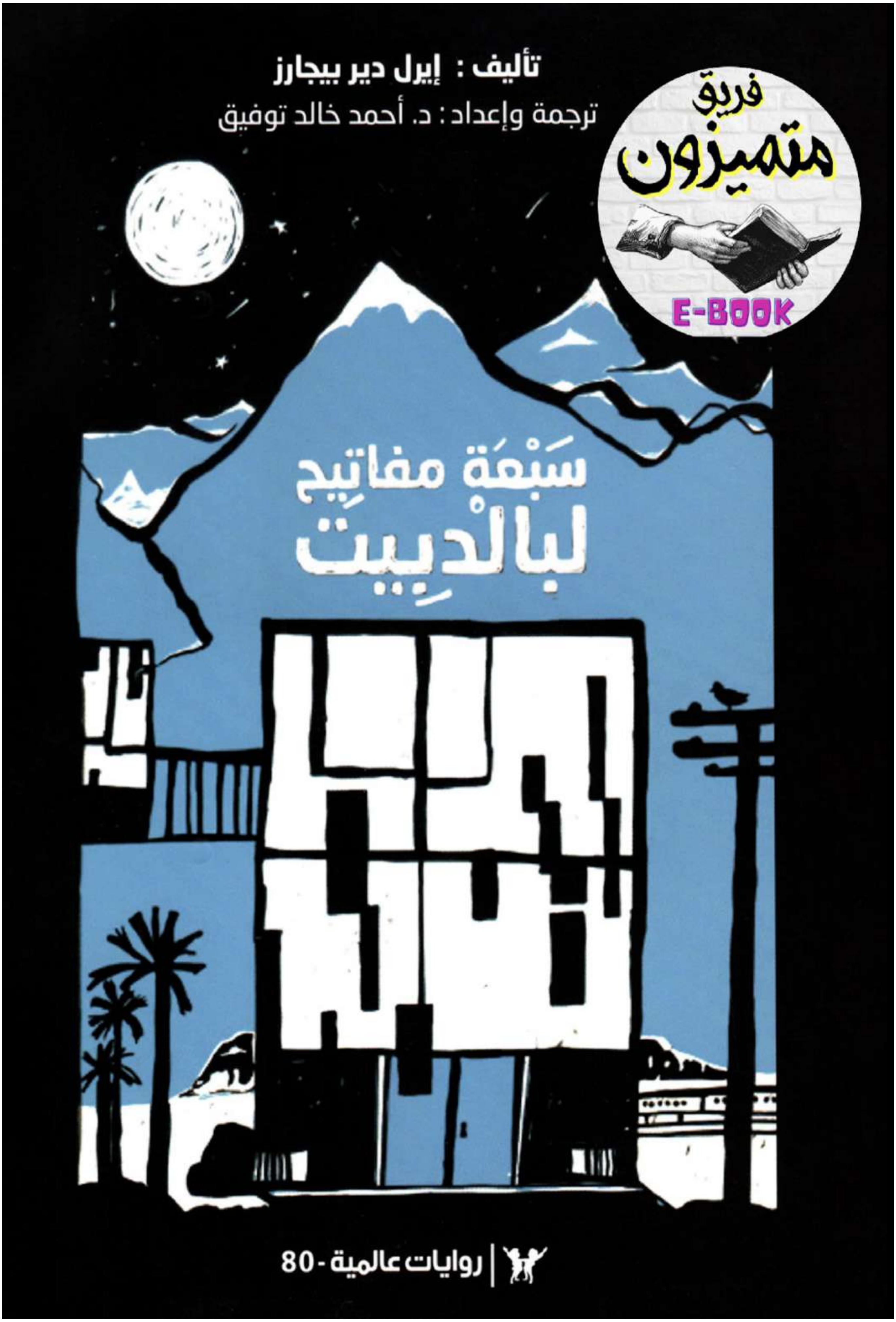
الفهرس..

-20-
-21-
-22-

Notes

[←1]

- واضح أن هذا ليس زفافنا .. بل هو عقد رسمي.


تأليف : إيرل دير بيجارز
ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق
سَبْعَة مفاتِيح لبالْدِبيت
روايات عالمية - 80

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (80)

سبعة مفاتيح لبالدِبيت

تأليف: إيرل ديل بيجارز

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هناك سلسلة من القصص البوليسية المسلية، تدور حول مغامرات مخبر صيني أمريكي اسمه تشارلي شان، وهذه السلسلة يعرفها الغربيون والصينيون جيدا، ويعرفون مؤلفها إيرل دير بيجارز.

المؤلف أمريكي ولد في أوهايو عام 1884، وتخرج في جامعة هارفارد عام 1907، حيث لم يكن يهتم بالأعمال الكلاسية ويفضل الكتاب المسليين من طراز رديارد كيبلنج، ثم صار صحفيا يكتب نقدا أسبوعيا للكتب، ثم بدأ يكتب عمودا يوميا ساخرا، وكتب مجموعة كبيرة من القصص الممتعة التي سهل أن تتحول لمسلسلات تلفزيونية وأفلام سينمائية.

كتب لنا (سبعة مفاتيح لبالدبيت) عام 1913، وسوف ترى حالا أن النص مناسب جدا للمسرح، لذا تحولت إلى مسرحية ساحقة النجاح في برودواي، هناك فيلم رعب شهير اسمه (بيت الظلال الطويلة - 1983) يستخدم نفس الحبكة تقريبا، ويمتاز بأنه فيلم الرعب الذي ضم أهم أربعة أسماء في تاريخ الرعب (كرستوفر لي) و (بيتر كوشنج) و (فنسنت برايس) و (جون كارادان) في اللقاء الوحيد لهم، بالدبيت هو اسم الحالة تدور فيها أحداث القصة في يومين ونصف تقريبًا..

بعد هذه الرواية قدم سلسلة تشارلي شان الناجحة، والتي بلغ نجاحها الصين وقدمتها السينما الصينية مرارا، هناك ممثل سويدي تخصص في دور المفتش الأمريكي الصيني، إنها تغير

صورة الصيني الشرير التي حفظها المشاهد الغربي مع شخصية فومانشو.

عاش بيجرز في كاليفورنيا وتوفي بنوبة قلبية عام 1933.

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

الفصل الأول

لا تبكي ثانية يا سيدتي

كانت فتاة شابة تبكي بمرارة في غرفة الانتظار بمحطة القطار في أبر أسكوان بنيويورك، كان بيلي ماجي [1] يتوق إلى أن يعرف هل هي جميلة أم لا، وهو يدنو من غرفة الانتظار. وقف على الباب ينظر ليرى ثيابا متسقة مع قبعة أنيقة. هل يقترب منها في فروسية ليسألها عن سبب حزنها؟

لكن لا.. القطار الذي جاء به من عند ناطحات السحاب لم يأت به إلى حيث يمارس الفروسية. دموع الفتاة ليست مسئوليته، فليس هذا هو المكان المناسب لمستر ماجي كي يتدخل. وضع يده في رفق على مزلاج الباب.

غرفة الانتظار كانت باردة معتمة ولا تسمح لسيد مهذب بأن يتخلى عن امرأة حزينة، خاصة لو كانت فاتنة، اتجه إلى شباك التذاكر وسأل الموظف بحذر:

- مم تبكي؟

التصق بقضبان النافذة وجه شاحب نحيل عليه خصلة شعر بلون الزنجبيل وقال:

- شكرا لك.. أسئلة كهذه تغير من الملل ورتابة الجو قليلا.. آسف لعدم مساعدتك فهي امرأة، والله وحده يعلم لماذا تبكي النساء.

قال مستر ماجي بهمس خشن:

- أعتقد أنني سوف أسألها.

- ما كنت لأفعل ذلك.. النساء يهدأن أسرع لو تُركن لشأنهن..

- لكنها في مشكلة.

- وعلى الأرجح ستكون أنت كذلك لو تدخلت. ابتعد عن النساء الباكيات دوما.

لكن بيلي كان قد تحرك نحو السيدة فعلاً، وسألها:

- هل من خدمة أقدمها لكِ؟

أبعدت المرأة المنديل عن وجهها وظهرت عين زرقاء واحدة جميلة. كانوا يقولون لماجي أن مظهره يبدو أقرب لأبطال القصص المصورة منه إلى رجل حقيقي، ويحتفظ باحترام وإعجاب رفاقه. خيل لماجي أنه رأى القبول في العين الزرقاء، ثم غير رأيه عندما تكلمت:

- نعم بوسعك عمل شيء.. ابتعد عني، ابتعد...

تصلب مستر ماجي، فقالت له في لطف أكثر:

- لا أريد أن أكون فظة، لكني أبكي.. والفتاة لا تستطيع أن تكون لطيفة وهي تبكي.. إن حزني سخيف ونسائي جدا. لذا من الخير أن تفارقني وشكرا لاهتمامك. وأرجو أن تطلب من السيد الذي يراقبني بفضول أن يوصد نافذته..

هز رأسه موافقا، واستدار.. هنا اصطدم بسيدة ضخمة قوية، لها ثغر قاس. كانت لها عينان لامعتان ثبتتهما على وجه

ماجي. فشرحت الفتاة:

- كنت أبكي يا أماه فعرض السيد خدماته عليّ.

ماما؟ هذا الشيء الرقيق يدين بوجوده لامرأة بدينة لا لزوم لها كهذه؟ تكلمت المرأة وأدهشه أنه لم تبد عدوانية في صوتها. قالت:

- ربما يقترح علينا السيد فندقا مناسبا.

قال:

- أنا نفسي غريب هنا.. سوف أسأل الرجل في شباك التذاكر...

اقترح الرجل حانة (بالدبيت)، وأضاف:

- هذا مكان مريح.. لكنه غير مفتوح الآن، إنه منتجع صيفي.. المكان المفتوح هو البيت التجاري ولا أوصى به لكائن بشري، خصوصا لفتاة كنت تبكي قبل أن تراه!..

أخبر ماجي السيدتين بما سمعه، لكنهما قبلتا بالبيت التجاري على كل حال وجمعتا الحقائب، غادر الثلاثة المحطة إلى حيث طبقة من الثلج تغطى الإفريز. كانت هناك سيارة أجرة في الخارج فساعد ماجي على وضع حقائب السيدتين، وهمس في أذن الفتاة بعد ما ركبت أمها:

- لم تخبريني بسبب بكائك..

أشارت للشارع الممتد وقالت:

- نحن أعلى شلالات أسكوان.. أليس هذا سببا كافيا؟

نظر إلى الشارع الضيق المتلوي الذي يتجه ليغيب في الظلام، وقال:

- هل سوف تبقين هنا طويلاً؟ قالت الأم من الداخل:

- هيا يا ماري.. ادخلي وأغلقي الباب فأنا أتجمد..

قالت القناة:

- هذا يتوقف على عدة أشياء.. شكرا لكرمك معنا..

لما عاد لموظف الشباك قال له الأخير:

- نعم.. هذا بلد كئيب لكن ليس الدرجة البكاء طبعا.. الحقيقة أنه يتعب أعصابي.. لا حل سوى أن تعمل وتعمل حتى تسقط نائما وتنتظر الغد، أحيانا أتمنى ترك هذا البلد يا سيدي..

- قلت شيئا عن حانة بالدبيت..

- مكان لطيف في الصيف. لكنها في الشتاء ليست أفضل من مقبرة.. ماذا تريد هناك؟

- أريد رجلا اسمه إليجاه كيمبي. هل تعرفه؟

- إنه يعنى بالحانة الآن.. تعال أشرح لك كيف تصل له.. وخرجا من المحطة حيث أشار له إلى نقطة عن بعد وقال:

- هناك هضبة بالدبيت.. تطل على الشلالات وكأنها تراقبنا.. هناك ترى حانة بالدبيت.. سر مع هذا الشارع إلى ثالث تقاطع وادخل يسارا. أليجاه يعيش قرب هذا المكان.

شكره ماجي وحمل حقيبتيه واتجه إلى الركن الأول حيث بناية مخيفة تحمل اسم (البيت التجاري). توقف عند ناصية

عندها متجر كتب عليه (مستلزمات بقالة). قال لنفسه:

- لنر... سوف تنطفئ الأضواء وسوف أحتاج لشمع، وربما لشيء آكله إذا كان وقت الطهو قد مر.

دخل المتجر حيث كانت امرأة عجوز تنتظر.

سألته كأن لديها كل شيء في المخزن:

- أي نوع من الشموع؟

- اعتبريها لشجرة عيد ميلاد.. أعطيني 200 شمعة..

- لدى 50 فقط

غادر المتجر ومعه حمولته ومضى في الطريق. سمع نباح كلب خافتا ثم مرت جواره عربة وسمع من يشتم الطريق الوعر. أخيرا وصل إلى بيت أليجا.

ظهر رجل في الستين منهمكا في إشعال غليونه.. سمح لمستر ماجي بالدخول، هناك جوار المطبخ كانت امرأة عجوز شائبة الشعر، قدم ماجي نفسه فلم يرد الرجل.. بل راح يرمقه عبر دخان الغليون. ثم قال في النهاية:

- أنا إليجاه كيمبي..

- وأنا من كتب لك هال بنتلي خطابا بصدده.. وصلك الخطاب، أليس كذلك؟

نظر له الشيخ في دهشة ثم قال:

- يا للسماء! إذن أنت جئت فعلا! حسبنا هذه دعابة.. إذن أنت تنوي أن..

قال ماجي وهو يلقي بنفسه على مقعد هزاز:

- نعم.. سأمضي بضعة أشهر في حانة بالدبيت

- لكن الحانة مغلقة.. مغلقة يا سيدي.

قال ماجي

- أعرف أنها مغلقة، لهذا سأشرفها بقدومي.. آسف لأنني سأضطرك للخروج في ساعة كهذه، لكن أحتاج إلى أن تقودني لحانة بالدبيت.

دنا منه الشيخ في حذر ثم تساءل

- سامحني أيها الشاب.. لكن ماذا تهرب منه هنا؟

ابتسم ماجي وقال:

- لست هاربا.. ألم يشرح لك بنتلي الأمر؟.. على كل حال سأحاول أن أشرح لك.. لا أحسبك تهتم بالحركة الأدبية اليوم..

- لا أفهم..

- أعنى أنك لا تقرأ.. أنا أكتب قصصا مثيرة للناس الذين يشعرون بالملل، طلقات في الظلام ومطاردات.. قصص غرامية.. هذه مهنة جميلة تحقق منها مالاً..

- أحقا؟

- نعم، لكن أحيانا أتمنى أن أكتب شيئا يهتم به النقاد.. تذكرت ما نصحني به ناقد أدبي، أن أتوجه لبقعة بعيدة وأقيم بعض الوقت وأحاول أن أكتب عملاً حقيقيا.. هذا ما أنوي عمله في بالدبيت، يقولون إنني كاتب تجاري سطحي.. أخشى أن

يكونوا محقين، سوف أكتب قصة رائعة تجعل النقاد يضمونني لقائمة الخالدين.

- لا أفهم..

- لقد قابلت هال بنتلي في حفل.. سألته عن أكثر الأماكن عزلة في العالم، فقال لي إن حانة بالدبيت منتجع صيفي لكنها في الشتاء موحشة جدا.. كان أبوه يملك تلك الحانة، وقد أعطاني مفتاح البوابة وكتب لك ذلك الخطاب. والآن أرى أن الوقت تأخر وعلينا الذهاب لبالدبيت حالا..

تساءلت السيدة:

- ليس هذا كل شيء أيها الشاب.. كيف تنوي أن تتدفأ في ذلك المكان؟

قال ماجي:

- أعرف أن هناك مدفأة.. أكثر من واحدة، مستر كيمبي سوف يجلب لي الخشب من الغابة، وسوف يكون هذا مقابل عشرين دولارا في الأسبوع.

- والضوء؟

- لدى عدد من الشموع حاليا، إلى أن تجدا لي مصباح زيت...

- والأكل؟

- حاليا سوف أعتمد على المعلبات والمرطبانات.. لكن فيما بعد اعتقد أنك يا سيدتي سوف ترسلين لي طهوك الرائع.. أرى هذا وأنوي أن أدفع ثمنه، والآن فلتذهب إلى بالدبيت...

قال مستر كيمبي:

- أولا لست أنا بالشخص الذي يرسل ضيوفه لبالدبيت دون عشاء. انتظر قليلاً وسوف نعد لك عشاء ساخنا.

وهكذا تناول عشاء دسما حتى أقسم أنه لن يستطيع أكل شيء لمدة شهرين، بينما سأله كيمبي:

- إذن ستكون هناك وتكتب أشياء.. هه؟

- نعم.. لا أريد مخلوقا بقربي.. أريد الصمت والعزلة.

وغادر الرجلان البيت، وكان الظلام دامسا برغم أن المطر توقف. تسائل ماجي على الباب:

- هل هناك فتاة في المدينة لها عينان زرقاوان وشعر خفيف، تبدو كأنها ملكة؟

- شعر خفيف؟ ربما تتكلم عن سالي بيري.. إنها مدرسة في مدرسة الأحد الميتودية..

- لا.. الفتاة التي أتكلم عنها لا تبدو كمدرسات مدارس الأحد..

وقف مستر كيمبي للرحيل في صمت، ثم التمع ضوء المصباح على الجليد بالخارج، وتسلق الرجلان هضبة بالدبيت.

الفصل الثاني

بائع الثياب العاشق

لم تكن حانة بالدبيت تطل شامخة فوق الهضبة، بل كانت تلتصق بجانبها. كانت توحي بالشتاء بشكل رهيب. هكذا بلغ الرجلان الباب الأمامي العملاق فأخرج ماجي من جيبه المفتاح المهيب.

قال ماجي:

- هذه مناسبة جديرة بالاحتفال.. سوف تكتب عنها الصحف يوما. حانة بالدبيت تفتح بابها لرواية أمريكية عظيمة...

وفتح القفل والباب، هبت نفحة هواء باردة جدا من الداخل المظلم. فقال:

- يبدو أنني اكتشفت قطبا جليديا آخر...

قال الشيخ:

- هذا هواء قديم كأنه صحف الأسبوع الماضي، لا نقدر على أن ندفئه بألف لهب.. لا بد من طرده والسماح لهواء جديد بالدخول..

كانت السجاجيد قد رفعت وكومت في منتصف الغرفة، وكان صوت الأحذية عاليا يوشك على إيقاظ الموتى. هناك كان نضد موظف الاستقبال للفندق وخلفه فتحات كبيوت الحمام لاستقبال خطابات النزلاء، وكان هناك درج يمتد إلى اليمين

لأعلى. اختار مستر ماجي جناحا يحمل رقم (7) على الباب، كان هناك بهو به مدفأة تنتظر الخشب، وكان هناك فرش مجرد من كل شيء عدا الحشايا، وكان هناك حمام. فتح كيمي النوافذ ثم بدأ يرتب المكان.

وقف ماجي في النافذة يراقب الظلام والجليد والأنوار البعيدة. بالطبع لم يكن هناك ماء في صنابير الحمام. قال كيمبي إنه سيكون عليه جلب الماء من البئر خلف الحانة، لأنهم لا يستطيعون المجازفة بانفجار المواسير في الشتاء. لم يكن ماجي يحب شيئا في الكون قدر أن يجلب ثمانية دلاء من الماء للطابق العلوي كل يوم!

أشعل كيمبي النار في المدفأة.. ثم بدأ يفرش الفراش.. وأغلق النوافذ، ثم قال لماجي في سخرية:

- سوف أتى لأوصلك للقطار في الصباح!..

- أي قطار؟

- القطار العائد لنيويورك.. لا تحاول الليلة حتى لا تتعثر في الظلام..

ضحك ماجي وقال:

- أنت تسخر منى، لكنى أؤكد لك أنني مشتاق للعزلة، على فكرة هاك عشرون دولارا أجرك عن أسبوع من العمل كخفير لهذا المكان الكيشوتي، دون كيشوت رجل إسباني مجنون أصابه الخبال فراح يمضي الشتاء في المنتجعات الصيفية المهجورة..

وانصرف الخفير فوقف ماجي يراقبه من وراء النافذة.. رآه يبتعد دون أن ينظر للخلف.

في ضوء اللهب بدأ يفرغ حقائبه، ووضع على المنضدة بعض المجلات والكتب. ثم جلس إلى مقعد جلدي أمام النار، فالتمع اللهب في عينيه الباسمتين وعلى زاويتي فمه، لقد صار هنا واكتملت الخطة التي رسمها مع بنتلي، العزلة التي أرادها بقوة..

ثم نظر حوله وبدأ شيء من القلق يتسرب له، هذا صمت القبور. صمت يقود للجنون، الريح تعوي من بعيد والمكان مقفر كأنها جزيرة روبنسن كروزو.

قال لنفسه:

- وحدي.. وحدي.. لو لم أستطع التفكير هنا فلأنني لا أملك جهاز التفكير.

ترى ماذا يحدث من صخب في نيويورك الآن؟ سيارات الأجرة والزحام والصخب وأضواء المدينة. نيويورك!... من يقصد المسرح ومن يذهب للنادي.. ومن يتصل به بلا جدوى لأنه هنا في بالدبيت.

صمت تام!.. عزلة.. لا يرافقه سوى صوت النيران وعواء الريح ودقات ساعته.

فجأة تصلب لأنه في الظلام دق جرس الهاتف في غرفته. توقف لحظة متسائلاً وقلبه يدق بعنف. هذا هاتف فندق لا يمكن الاتصال به إلا من سويتش الاستقبال تحت.

- أنا موشك على الجنون..

قالها لنفسه.. وفجأة توقف الرنين.

فتح الباب وخرج للظلال. اتجه لمكتب الاستقبال فرأى شابا يجلس إلى السويتش، رآه في ضوء شمعة وضعها فوق الخزانة المفتوحة. وكان ماجي في الظلام.

كان الشاب يقول:

- مرحبا.. كيف تشغلين هذا الشيء؟ أريد مكالمة بعيدة... مستر ومسز رويتون.. هلا طلبته لي يا أختاه؟

ثم ساد الصمت وعاد يقول:

- أندي.. أنا سأموت هنا.. هل ذهبت لمكان كهذا في الشتاء من قبل؟.. قل له إن كل شيء على ما يرام.. عمت مساء يا أندي.

اتجه نحوه مستر ماجي في هدوء. في عجلة اتجه الرجل للخزانة ووضع فيها شيئا مغلقا ثم أغلق بابها، ثم استدار لمستر ماجي وكان في يده شيء يلمع.

قال ماجي

- مساء الخير..

صاح الشاب في توحش:

- ماذا تفعل هنا؟

- أنا أعيش هنا.. تعال لغرفتي.. عندي نار في المدفأة..

تخلى الشاب عن مسدسه وقال:

- أفزعتني.. بالطبع تعيش هنا.. هل من ضيوف آخرين؟ من فاز في مباراة التنس اليوم؟

ثم حمل الشمعة وأشار لماجي كي يسبقه إلى غرفته، يده في جيبه حيث المسدس.

صعد ماجي الدرجات مع الرجل.. تقدمه ثم قدم له مقعدا جوار النار وسيجارة وقال:

- اجلس هنا.. أنت غريب في ليلة عاصفة كما يقولون في القصص..

قال الشاب:

- أنت محق..

ثم فتح باب الغرفة وقال ساخرا:

- أخشى أن ننغمس في الكلام فلا نسمع جرس الإفطار.

ثم أشعل السيجار من الشمعة فسأله ماجي؟

- أنا أنتظر قصتك.. السبب الذي جعلك تقتحم خلوة رجل راغب في العزلة.

قال الشاب:

- تتهمني بالتسلل لممتلكات خاصة... أنا لن أختلف أبدا مع رجل يدخن سيجارا ممتازا كالذي تدخنه، لكن السؤال الذي يضايقني هو: من المتسلل على أملاك خاصة؟ أنا أم أنت؟

قال ماجي:

- حقي في البقاء هنا لا شك فيه...

- إذن لن أختلف معك.. أما عن قصتي فهي طويلة تحكي عن تجارة الثياب وقلب صادق وامرأة جميلة.. لكنها مخادعة..

ابتسم ماجي وطلب منه أن يستمر..

- كل كلمة سأقولها صادقة.. اسمي جوزيف بلاند.. مهنتي حتى عرفت الحب كانت تجارة الخردوات وبيع الثياب الرجولية. كنت أبيع المعاطف والياقات العالية.. ثم ظهرت هي....

ثم نفث السيجار وواصل:

- أشرقت أرابيلا في أفق حياتي.. لن أصفها لك لكني أحببتها بجنون.. أنفقت عليها كل أرباح تجارتي وطلبت الزواج منها.. هنا ظهر على المسرح رجل من جيرسي كانت هي تحبه.. كان متأنقا ولم أستطع مجاراته في أناقته. بدأ حبها لي يخبو.. أطفأ لهب الحب بقفازيه المبطنين بالشمواه.

وتوقف لحظة ثم أردف:

- لنختصر.. تخلصت مني... تخلت عني، كتبت لها خطابا قلت فيه إن حياتي من دونها مستحيلة.. حياة من دون أرابيلا تشبه شكسبير من دون هاملت. ولمّحت إلى الانتحار.. هنا بدأت المتاعب.. أنا رجل شجاع، وقد كانت الشجاعة وقتها هي أن أستمر في الحياة من دون أرابيلا، أما الموت فكان سهلا. لكني بدأت أقلق.. خشيت أن تقرأ أرابيلا خطابي فتتوقع مني أن أموت ثم لا أفعل.. سوف تعتبرني جبانا.. لهذا.. اختفيت. كان هناك صديق لي أخبرني بموضوع هذه الحانة المقفرة.. أعطاني مفتاحا

وسمح لي بأن أمضي بعض الوقت فيها. جئت هنا كي أصفح ويُصفح عني وكي أنسى وأُنسى..

ضحك ماجي وقال:

- صدقتي أنا معجب بموهبتك السردية، أما عن قصتي أنا فليست جديرة للمقارنة بقصتك.. لكنها مسلية نوعا.

ثم نهض وقال:

- أنا فنان رسام... لأعوام طويلة رسمت النساء اللاتي يسحرن الجموع.. ومن دون لمستي وفرشاتي على الغلاف لا يمكن للأدباء أن يبيعوا قصصهم، فنحن في عصر لا يقدر الأدب وحده أن يقف على قدميه من دون ريشة الفنان. ثم منذ أعوام قررت أن أدير ظهري للقصصيين.. جاءني الفنانون يتوسلون.. جاءوا يزحفون لمرسمي.. حاصروني، لذا أردت الهرب منهم، أخبرني صديق عن هذه الحانة المهجورة.. أعطاني المفتاح وهأنذا.. أطلب منك أن تحفظ سري، ولو رأيت كاتب قصص يلوح في الأفق فعليك أن تنذرني..

نهض الشاب وقال في إخلاص:

- سوف أبقى عيني على أي قصصي أراه، لكن لو جمعت قصتك إلى قصتي فلسوف تجد أن كلينا يرغب في الوحدة.. لا يمكن أن تتحقق الرغبة لنا معا.. واحد منا يجب أن يرحل..

قال بيلي ماجي:

- هراء.. يسرني وجودك هنا فابق كما تشاء.

نظر له بائع الثياب في عينه فاضطرب ماجي من عدوانية النظرات. قال له بلاند:

- المشكلة هي أنني لا أريدك هنا.. لن أتحملك الليلة.

قال ماجي:

- اسمع يا صاحبي.. لا يهمني ما تريده لكني لن أغادر بالدبيت.. أنت رجل شجاع لكني بحاجة إلى عشرة رجال شجعان كي يخرجوني من بالدبيت.. هل فهمت؟

قال بلاند في ازدراء:

- سنرى.. سنسوي هذا في الصباح، أما الآن فأنا سوف أتخذ لنفسي سريرا من أي أريكة في تلك الحجرات..

وهكذا تجه مستر بلاند إلى الجناح رقم عشرة بعدما تزود ببعض الملاءات.

جلس مستر ماجي لفترة أمام النار يفكر... هذه الأحداث التي وقعت في أول ساعات له في بالدبيت. من هو أندي روتون الذي كان بلاند يكلمه؟ وما الذي وضعه في الخزانة عندما رآه؟

نظر لساعته.. الثانية عشرة والربع. بدأ يفك رباط الحذائين وقال لنفسه:

- قصصي مليئة بالميلودراما السخيفة. لكني سأتخلص من هذه العادة هنا.

فجأة تصلب..

سمع من الطابق الأرضي صوت مسدس ثم صوت زجاج يتهشم..

الفصل الثالث

شقراوات وناشطات سياسيات

ارتدي الروب وحمل شمعة وهرع - بفردة حذاء وأخرى ناقصة - للردهة. كل شيء كان مظلما صامتا.. هبط في الدرج وهو يرفع الشمعة عاليا، لم تستطع أن تكسب الحرب مع الظلال هناك، ومن الظلام جاء صوت بلاند يصيح:

- بالله عليك!.. ماذا تفعله؟

وظهر بروب مفتوح والمسدس في يده.. وقال:

- كان هناك من يحاول اقتحام الباب الأمامي.. أطلقت رصاصة لتخويفه.. ربما هو كاتب قصصي..

قال ماجي:

- أو ربما أرابيلا!..

كل شيء عند ديسك الاستقبال كان يشي بأن بلاند تهيأ للنوم هناك وجمع الملاءات، فقال ماجي:

- أنت فضلت النوم تحت إذن...

- قرب خطابات أرابيلا التي وضعتها في الخزانة.. نعم..

هنا انفتح الباب وظهر رجل صغير الحجم أمام خلفية من الجليد والظلام.

فقال ماجي:

- لا تطلق الرصاص!..

صاح الرجل الواقف بالباب:

- أرجوك لا تفعل.

كان ملتحيا يلبس عوينات تذكرك بالبومة. قال وهو يخطو للداخل:

- أعرف أن وصولي غير متوقع لكن لديّ كل الحق في القدوم هنا، وها هو ذا المفتاح!..

ولوح بمفتاح نحاسي يشبه تماما المفتاح الذي مع ماجي، ثم نزع قبعته فبدت رأسه صلعاء صادقة بينما وجهه مدثر بأشياء كثيرة توقيا للبرد.

- لست متضايقا من إطلاق الرصاص عليّ. من الطبيعي لمن يقيمون في الجبل أن يتحسبوا لأنفسهم من الغرباء القادمين في الثانية صباحا، إن الحياة يا سادة ما زالت تفاجئك حتى في سن الثانية والستين. أمس كنت في مكتبي الخاص أنعم بدفء النيران وأعد ورقة من عصر النهضة.. الليلة أنا في هضبة بالدبيت وهناك ثقب رصاصة في قبعتي..

قال بلاند في امتعاض:

- أنا سأعود لفراشي..

- نسيت ان أقدم نفسي.. بروفسور تاديوس نورتون أستاذ الأدب المقارن في جامعة شرقية كبرى..

صافحه ماجي وقدم له نفسه ثم اقترح أن يصعدا إلى دفء النيران في غرفته.

صاح الرجل المسن:

- نار.... أريد رؤية نار..

صعد الرجال إلى رقم سبعة فجلس الشيخ أمام النار، وابتسم بوداعة للرجلين، ثم قال:

- طبعا تتساءلان لماذا هو هنا؟.. هذا سؤال مزعج، أطلب منكما أن تعودا معي أسبوعا للخلف لتفهما.. كنت جالسا في قاعة المحاضرات وأمامي طلبتي، يشعرون بملل شديد.. كنت أحكى لهم قصيدة ساكسونية قديمة عن امرأة شقراء ماتت منذ 600 عام.. هذا كلام فارغ بينما الناس، يموتون جوعا ويتسولون دولارا. لكنى فجأة شعرت كأنني أرى تلك المرأة.. وهج غزا قلبي لم أحس به منذ 40 سنة، ورأيت رؤيا لفتاة حسبت أنني نسيت كل شيء عنها. وجدتني أقارن بين سحر تلك الشقراء وبين زوجتي. قلت للطلبة: هذه تملك نفوذا أكثر من كل المناضلات السياسيات. فدوت الضحكات في القاعة، وبعد انتهاء المحاضرة عدت لداري وارتديت خفي ورحت أطالع ورقة كتبها باحث ألماني، وحسبت أن القصة انتهت..

ونظر في أسى للرجلين وقال:

- لم أضع في اعتباري الأفعى التي نربيها جوار صدورنا: الصحافة الأمريكية. ليس المجال مجال انتقاد الصحافة، لكني وجدت في جريدة السماء صورة لي مع تعليق يقول إنني قلت: شقراء واحدة تصبغ شعرها بالأكسجين أهم من كل المناضلات

السياسيات. نعم.. هكذا تحول تعليقي العابر وأنا لا أعرف أن النساء يصبغن شعرهن بالأكسجين. حل بي غضب العالم كله وانهالت عليّ خطابات الإهانة... وتضايقت زوجتي مني لأنني أعلن على الملأ إعجابي بالنساء الرقيعات اللاتي تراهن في المسارح. لم أتحمل أكثر وقررت أن أبتعد حتى ينسوا القصة كلها.. قالوا لي إن الصحفيين سيجدونني في كل مكان فاقترح عليّ صديقي بنتلي صاحب حانة بالدبيت أن أختبئ هناك.

ثم نظر لمنديله وقال:

- لهذا أنا هنا في ليلة باردة كهذه، ولهذا لا يرهبني مسدسك، ولهذا غفرت لك إطلاق الرصاص عليّ..

لم يكن بلاند يصغي. كان قد نام لكن ماجي كان يصغي.

قال البروفسور:

- الآن أريد معرفة قصتكما لو سمحتما لي.. خطرت فكرة شائقة لماجي فطلب أن يتكلم أولا.. وقال في حماسة:

- كنت تاجر ثياب لفترة طويلة. ثم ظهرت في حياتي حسناء اسمها آرابيلا..

هنا فتح بلاند عينه وهتف في دهشة:

- هيه!.. أنت.

لكن ماجي استمر في السرد، وأضاف لقصة بلاند أجزاء لم يقلها.. وراح يحكي في حماسة كيف تخلت أرابيللا عنه. كيف كتب رسالة انتحار ثم تخلت شجاعته عنه أو بالأحرى جعلته شجاعته يستمر حيا.

كان بلاند يصغي لقصته في ضيق.. قال البروفسور:

- أحسنت صنعا بالبقاء حيا.. سوف تعلمك السنون أنك لو تزوجت أرابيلا لما ظفرت بالسعادة المرجوة.. لم تكن تستحقك كما هو واضح. والآن هل لدى السيد الآخر قصة يحكيها لي؟

نظر ماجي في شغف إلى بلاند ليرى رد فعله، وابتسم ابتسامة خفيفة. نهض بلاند في هدوء إلى المنضدة والتقط قصة وجدها هناك عليها صورة امرأة جميلة، وقال:

- صورة كهذه تؤدي لرواج أي قصة.. هل يوافقني السيد تاجر الثياب هنا؟

استرخي ماجي في رضا.. هذا خصم لا يهتم بسرقة قصصه بل يرد الصاع صاعين.. خصم يتمتع بروح دعابة قوية، خصم يستحق أن تدخل معه في معركة.

قال بلاند:

- كنت أرسم نساء مثل هذه حتى حاصرني المؤلفون، فقررت أن أفر منهم ومن إلحاحهم.. أنا وأنت يا بروفسور في نفس القارب، وكلانا نفر من أصحاب القلم، فلا يمكن لبائع الثياب هنا أن يفهم.. أنا أفهمك جيدا ولو رأيت محرري صحف هنا فسوف أفعل أكثر من إطلاق الرصاص في الهواء..

هز البروفسور رأسه ومسح صلعته بمنديل وقد بدا عليه عدم الفهم، ثم سمح لماجي أن يقتاده إلى مكان يسمح بالمبيت في الحانة.

قال ماجي لبائع الثياب بلاند:

- سامحني على سرقة أرابيللا منك..

- خذها على الرحب والسعة.. لكن أريد أن تخبرني من أنت حقا. لماذا أنت هنا؟ قلها في ثلاث كلمات..

- لو قلت لما صدقتني.. دع الأمور التافهة مثل الحقيقة تنتظر حتى الصباح.

قال بلاند وهو يتهيأ للانصراف:

- على كل حال هناك شيء مؤكد.. أنا وأنت لا نثق ببعضنا.. لا تحاول النزول للطابق السفلي فأنا مسلح بمسدس..

فجأة تصلب لأنه سمع صوت خطوات بالطابق العلوي وبابا ينغلق، هز رأسه وانصرف لفراشه بينما بقي ماجي وحده.. بدأ ينزع ثيابه ويتهيأ لدخول الفراش.. كانت ذكريات اليوم تتدافع أمام عينيه في الظلام حتى غلبه النعاس.

الفصل الرابع

ظهور ناسك محترف (2)

استيقظ ماجي في السابعة صباحا وقد خيل له أن الخادم جيفري المهذب الوقور هو الذي يوقظه. نهض مذعورا يرمق خشب الغرفة الذي تغطى ببرد ديسمبر، رأى حوض غسيل فارغا وتذكر أنه فعلا في حانة بالدبيت. تذكّر كذلك أحداث الليلة من الفتاة التي كانت تبكي في المحطة حتى الضيفين غريبي الأطوار.

سمع صوت حفيف عند النافذة فنهض لينظر عبر الحافة المغطاة بالجليد. فرأى عيني القادم الجديد تنظران له في دهشة راغبتين في الدخول.

اتجه راجفا ليفتح مزلاج النافذة، فرأى أنها تطل على شرفة. شرفة يقف فيها رجل مكتنز يحمل سلة تسوق. خطا الرجل للداخل.. لم يعرف وجهه شفرات الحلاقة من قبل، وقد ذكّر ماجي بالطبيب النصاب الذي يأتي لبلدته كل عام ليبيع أدوية من الأعشاب.

- حسن؟

قال الرجل في البهار وهو يضع السلة على الأرض، وقد تبين أنها مليئة بالبقالة:

- أنت إذن الرجل..

- أي رجل؟

- الرجل الذي حكى لي عنه إليجا كيمبي، الرجل الذي جاء يقيم في حانة بالدبيت ليخلو لأفكاره.

- وأنت من سكان القرية..

- خطأ.. أنا لست قرويا.. كل غرائزي تتجه للعكس. اسمي جيك بيترز في الشتاء.. في الصيف أنا ناسك جبل بالدبيت، أبيع الصور والبطاقات للسيدات..

راق الأمر جدا لماجي فسمح للناسك بالدخول، جلس الرجل على مقعد وقال:

- أولا يجب أن أوضح أنى لست ناسكا تماما.. حياتي كانت خالية من العواطف الرومانسية، تزوجت مبكرا.. قررت المجيء هنا لأنني أريد أن أقرأ وأن يكون لي شيء أعرفه غير الفواتير، كنت أبتاع بعض البقالة ومررت على كيمبي فأخبرني عنك، لهذا اتفقنا على أن أتوقف وأعرض عليك خدماتي وأشعل لك النار.. وخطر لي أن أتعرف عليك بما أننا أديبان...

- حقا؟

- لقد ظهرت بعض أشعار لي.. لكن أهم كتاب أكتبه اسمه (المرأة).. اسم بسيط جدا.. سوف يثبت الكتاب أن كل المتاعب في التاريخ سببها النساء.. بدأت منذ أربع سنوات وغرقت في كم رهيب من المعلومات والأدلة.. أنت تعرف القاعدة الفرنسية (فتش عن المرأة)..

ثم أضاف:

- سوف أشعل لك النار..

ودخل ليعد النار في المدفأة بينما جلس ماجي ينتظر. شعر بشعور غير مريح ثم أدرك أنه الجوع، نهض إلى حيث الناسك وقال له:

- مستر بيتر هل تطهو؟

كرر الناسك السؤال:

- أطهو؟.. تعلمت القليل عنه لأنني أعيش بعيدا عن الناس.

- إذن يمكنك أن تطهو لنا...

- لنا؟

- نعم.. هناك اثنان آخران، أحدهما تاجر ثياب تخلت عنه حبيبته والآخر أستاذ جامعي قال شيئا عن النساء..

- لا أدرى ما رأي كيمبي.. أعتقد أنه يفضل طردهما...

- سوف يأتي عما قريب.. ما أريده الآن هو بعض الماء في الحوض وإفطار شهي. هذا سيكسبك مالا أكثر من بيع البطاقات للنساء.

هكذا اتجه الناسك للباب كي يجلب بعض الماء، هنا تذكر ماجي بائع الثياب بلاند النائم تحت.. إنه عصبي وقد يطلق الرصاص على القادم. هرع ليخبره بالقادم الجديد، وقد رحب بائع الثياب بالقادم لأن الجوع استبد به. ب

عد قليل استيقظ البروفسور فتم التعارف بين الثلاثة، ثم دخل الناسك المطبخ، بعد قليل ناداهم ليشموا رائحة القهوة القادمة من الجنة، جلسوا حول مائدة الإفطار وكانت هناك

نسخة من جريدة نيويورك تايمز جاء بها الناسك معه، نهض ماجي واعتذر بسبب خلط القصتين الذي دار أمس على سبيل الدعابة.

قال مستر بلاند:

- أنا كذلك غيرت رأيي.

لم يكن وجهه مريحا برغم هذا. فقال ماجي:

- لا يوجد سبب إذن يمنعنا من التفاهم بروح الصداقة.. سوف أذهب لغرفتي وأكتب في هدوء، ولا أطلب منكم على سبيل الكرم إلا أن تكفوا عن إطلاق الرصاص على بعض يا سادة...

قال البروفسور نورتون:

- أعتقد أن استعمال الأسلحة النارية للتفرقة بيني وبين مستر بلاند أمر غير وارد..

كان ماجي يتفقد عناوين النيويورك تايمز، ثم أدنى الجريدة من الرجلين وقال:

- هذا يسرني.. لن أعلق على هذا الخبر في الصفحة الأولى هنا، ولا عن عثورهم على معيد جامعة شاب ميتا في ظروف غامضة.. ولا على الخبر الذي يقول إن أستاذ كيمياء في منتصف العمر بنفس الجامعة قد اختفى.

ساد الصمت لبعض الوقت، ونظر الرجلان إلى وجه البروفيسور، كان يحملق في طبقه ثم رفع عينيه ناظرا لماجي. قال ماجي:

- هناك مقال آخر في الجريدة.. قصة عن محاسب شاب في مصرف في إحدى مدن بنسلفانيا.. هرب ومعه ثلاثون ألف دولار من المصرف لا.. لن أتكلم عن هذا..

تنهد بلاند وقال:

- في الصفحة الأخيرة تجد خبرا عن سرقة مجموعة لوحات ثمينة من مليونير نيويوركي.. فنان شاب فعل ذلك وهرب، هذه مسألة تافهة بدورها وأنا والبروفسور لن نفتح الموضوع..

ضحك ماجي من قلبه، وقال:

- نحن نفهم بعضنا.. والآن يجب أن نحظى برفقة جيدة بدلا من العزلة...

هنا ظهر الناسك بيترز فوجه له السؤال:

- هل تنوي أن تبقى معنا وتطهو لنا؟

قال الناسك:

- هذا يسرني.. خصوصا أنه لا توجد نساء هنا، سوف أبقى معكم..

ثم ثبتت عيناه على باب الحجرة الذي كان ماجي يوليه ظهره.. سقط فكه وتصلب، وظهر الذهول عليه.

استدار ماجي فوجد أنه يحملق في الفتاة التي قابلها على المحطة، ولم تعد تبكي، كانت تبتسم وخلفها أمها التي لا تطاق. ضحكت الفتاة وصاحت:

- ماما.. لقد تأخرنا على الإفطار.. أليس هذا محزنا؟

بسرعة أصلح مستر بلاند من وضع ربطة عنقه، وبدا البروفسور كبومة أكثر من أي وقت آخر. نهض مستر ماجي نحو السيدتين مادا يده بالتحية.

الفصل الخامس

العمدة وظله

هتف ماجي وهو يمسك بيد الفتاة:

- من الدموع للابتسام! . ما سر هذا التغيير؟ لا تقولي إنه فدق البيت التجاري فأنا رأيته أمس.

ضحكت الفتاة وقالت:

- فعلا ليس هو.. فقط هو صباح شتاء مشمس وجولة إلى الهضبة، ونظرة ناسك بالدبيت إلى الفتاة الصغيرة التي كانت تبتاع البطاقات منه..

حياها الناسك بارتباك من اعتاد أن يتحاشى النساء، ثم حمل الأطباق وهرع للمطبخ فكاد يصطدم بأمها.

قال ماجي:

- اغفرا لهذا السيد فهو لا يرى الكثير من النساء في الشتاء.. هذان هنا مستر نورتون الأستاذ الجامعي الهارب من الصحافة الأمريكية، وهذا هو مستر بلاند الهارب من قصة حب فاشلة.

ابتسمت الفتاة وسألت:

- وأنت؟

- اسمي هالويل ماجي.. عندي مجموعة قصص تفسر وجودي هنا ربما أحكي القصة الحقيقية بينها.. وهي قصة بسيطة تافهة.

قالت الفتاة:

- ربما يهمك أن تعرف أنني وأمي جئنا لحانة بالدبيت لنقيم فيه!... بدا الذهول على مستر بلاند والبروفسور المسن. فقالت الفتاة:

- اسمي ماري نورتون.. وهذه أمي.. أما عن تطفلي عليكما فله قصة سوف أحكيها لو وعدتم بالكتمان.

- اللصوص في بالدبيت قساة لكنهم لا يخونون كلمة الشرف!..

قالت ضاحكة:

- أنا ممثلة.. أحتاج للشهرة.. ليس الاسم الذي قلته هو اسمى. على عكس البرفسور الهارب من الصحافة أنا أرغب في اهتمام الصحافة، لذا رتب لي مدير أعمالي اختفاء غامضا. أعطاني مفتاحا لأختفي هنا كأن الأرض ابتلعتني.. ثم عندما يشتعل اهتمام الصحافة أعود للظهور في مسرحية جديدة من مسرحيات برودواي

كان ماجي يفكر جاهدا.. هل سمع عن هذه الممثلة أو رأى وجهها من قبل؟ لا.. وهو لا يصدق أن هناك من يلجا لهذه الأساليب البلهاء في الدعاية، التفسير أن هناك كذبة جديدة يتم نسجها في حانة بالدبيت.

قال مستر بلاند:

- هؤلاء الصحفيون بارعون حقا.. لكنهم فاسدون على كل حال.

قالت الفتاة لأمها:

- أنتم شديدو اللطف.. الآن يا ماما أرى أن علينا انتقاء غرفتينا..

هنا صمتت لأن إليجا كيمبي دخل من الباب لقاعة الطعام ووقف ينظر للمجموعة، وجهه يعبر بدقة من تعبير (عواطف مختلطة). قال:

- خطاب مستر بنتلي يا مستر ماجي كان يتكلم عن إقامتك في الحانة، ولم يذكر حرفا عن اصطحاب أصدقاء.

- للأسف هم ليسوا أصدقائي.. كل واحد منهم لديه مفتاح الحانة وكل واحد لديه سبب مقنع..

صاح كيمبي:

- هل جن الجميع؟ هذا ليس شهر يوليو.. مستحيل أن يتواجد هذا العدد هنا فالحانة مغلقة..

بينما كان الرجال يشرحون موقفهم، دنت الفتاة من أذن ماجي وهمست:

- أنا خائفة.. أحتاج لحمايتك..

- ماذا هناك؟

- ليس من حقي التواجد هنا، لكني قررت المجيء.

- ومفتاحك؟

- سرقه مدير أعمالي..

كاد يوبخها لكنه رأى الذعر في عينيها فعلاً، من ثم قال بثقة:

- السيدتان جاءتا معي ومستر بنتلي يعرف ذلك.

قال كيمبي في حيرة:

- فعلا الأمر يفوق فهمي.. سوف أكتب له وحتى ذلك الحين لا مفر من أن أسمح لكم بالإقامة..

هنا اختارت الفتاة لها ولأمها الجناح رقم 17 في نهاية الردهة، وقالت إنها كانت تقيم فيه منذ عامين.. ساعدهما ماجي في تنظيف المكان وفتح النوافذ وإشعال النار.. في النهاية قالت له الفتاة ضاحكة:

- طبعا أنت لا تنتظر البقشيش.

قال بجدية هامسا:

- بل أريد بقشيشا فعلاً.. وبقشيشي هو: هل أنت ممثلة حقا؟

قالت:

- مرة واحدة وأنا في سن 16.. تمثيلية مدرسة.. فقط!...

- شكرا..

قالها كأنه خادم غرف أخذ بقشيشا.. وعاد للجناح رقم 7 الذي يقيم فيه. كان الرجال هناك وقد جلس مستر بلاند أمام النار. كان ماجي الآن قد تخلى عن أي نية للعمل.. كان يفتقر للتركيز. هل هؤلاء القوم حقيقيون أم هو ما زال نائما في فراشه

في نيويورك؟. هنا ظهر الناسك المكسو بالشعر قادما من المطبخ، فقال لهم:

- كل شيء في المطبخ ممتاز، يمكنني أن أرحل الآن يا سادة..

هتف بلاند:

- ترحل؟ تتركنا؟

- قلت لكم يا سادة إني لا أطيق النساء.. عندما يظهرن أفر أنا من النافذة.. أكره أن أرحل لكن لا حيلة لي في ذلك.

قال ماجي:

- نحن نسألك أن تبقى هنا يا بيترز.. على الأقل كي تكمل كتابك.. وأنا أؤكد لك أن السيدتين لن تكلماك أو تسألاك عن أي شيء.. في المقابل سندفع لك بسخاء كأنك رئيس طهاة في فندق في برودواي..

بدأ مستر بيترز يضعف خاصة عندما ظهرت الفتاة، وقالت إنها سترحل هي وأمها بدلا من رحيله هو. هكذا رضي بالبقاء، ومال على ماجي وهمس:

- كلنا نفس الرجل.. نقرر ونقرر ثم تنظر لنا واحدة منهن فننسى كل شيء. أعطوني بعض المال لأذهب للقرية وأبتاع لوازم الغداء..

بعد ما رحل دنت الفتاة من ماجي وسألته همسا:

- تعرف ما يوجد في الطابق الأرضي.. أنت تعرف لماذا جئت هنا.. وأنا أعرف ما جاء بك هنا.. هناك ثلاثة أطراف وطرف

واحد فقط صادق.. أتمنى أن تكون أنت الصادق..

قال ماجي:

- أقسم أنني... ... ...

- لو كان الأمر يهمك.. انا رأيت عمدة رويتون في القرية اليوم. ومعه تابعه الذي يرافقه كظله لو ماكس، أنت تملك المفتاح الأول.. مستر بلاند معه الثاني.. البروفسور معه الثالث وأنا الرابع.. إن العمدة معه الخامس وسوف يصل حالاً.

قال ماجي في دهشة:

- لا أملك أدنى فكرة عما تقولين.. جئت هنا لأعمل..

قالت ببرود:

- ليكن... إذا أردت هذا.. واتجهت لغرفتها وأغلقت الباب.

عاد ماجي ينظر للنار مفكرا.. لقد أغرقه تيار الأحداث الأخير، قال لنفسه:

- عمدة ريويتون معه المفتاح الخامس.. ماذا يدور هذا؟ الأمر أكثر من تحملي أنا المولع بالميلودراما، على كل حال أنا أحب عينيها.. ولا أريد أن يتهمني أحد بأنني لا أحب شعرها كذلك... أنا في صفها مهما كان!..

الفصل السادس

أشباح الصيف

سألت مس نورتون ماجي وهي تبتسم:

- هل رأيت من قبل وجوه الناس في فندق صيفي من خلال نافذة غرفة الطعام؟

قال ماجي:

- لا.. لكني زرت حديقة الحيوان وقت إطعام الحيوانات.. يقولون إنه نفس المشهد.

كانت الساعة الواحدة، وكانوا كلهم ينتظرون حتى ينتهي بيترز من إعداد مائدة الطعام التي ازدانت بما لذ وطاب من مأكولات. كان حذرا يطهو بصعوبة لأن النساء خبيرات في العثور على العيوب كما قال.

قال ماجي إنه ما زال ينتظر المزيد من الزوار ذوي قصص غير مقنعة، فقال البروفسور:

- أنت تبالغ.. لقد سألت مستر كيمبي فأكد أن هناك سبعة مفاتيح لبالدبيت.. أربعة منها معنا هنا، لا أتوقع مفاجآت أخرى.

في النهاية أعد مستر بيترز المأدبة، وبدأ الطعام بحساء قال إنه معلّب. علّق البروفسور ساخرا على نُسّاك اليوم الذين يذهبون لجزيرة منعزلة ومعهم معلبات، لو كُتبت روبنسن كروزو اليوم لكانت معه فتاحة معلبات.

كان ماجي شارد الذهن يتساءل.. لماذا جاء كل هؤلاء هنا؟ وما أسبابهم الحقيقية؟ نظر للخلف إلى الخزانة وقدر أن الإجابة الحقيقية موجودة فيها.. استدار فرأى أن بلاند ينظر له في حدة..

لما اتجهت الفتاة لتعود مع أمها لغرفتهما، دنا منها وسألها همسا:

- ما معنى هذا؟

- معنى أي شيء؟

- لماذا كنت تبكين في المحطة؟ لماذا اخترعت قصة الممثلة؟... ما سر بالدبيت هذا؟.

نظرت له في ذهول ثم قالت:

- سوف يكون عليّ أن أصطحب أمي في قيلولتها.. لكن قد أعود لك لأتكلم.. لكن لن أفسر أكثر.

- عديني أن تعودي على الأقل.

ابتسمت وابتعدت وراء جسد أمها الضخم الذي يصعد في الدرج، عاد ماجي لغرفته وهو يقول لنفسه إن أمامه ساعتين من الكتابة.. لا بد من هذا ولهذا جاء هنا، عليه أن يبتعد عن الميلودراما المحمومة وهي مهمة عسيرة هنا في بالدبيت.

راح ينظر للنار المتوهجة.. لكنه لم يجد التحفة التي يريد كتابتها، كان تفكيره يتجه على الفور إلى برودواي وشوارع نيويورك.. وبدأ رأسه يترنح من الدفء والشعور بالامتلاء.. عندما

صحا كان هذا وقت الغسق. تذكر أن الفتاة وعدت بالعودة، فهرع للطابق السفلي.

وجد الفتاة جالسة أمام النار في الظلام. لما رأته نظرت له في تأنيب ساخر وقالت:

- عار عليك أن تتأخر عن موعد الغرام!...

- ألف اعتذار لك.. حلمت بفتاة تبكي في محطة القطار وكانت فاتنة فلم أستطع أن أصحو من النوم..

- الكل مثلك، كلهم غرقوا في النعاس.. أنا وأنت المستيقظان الوحيدان هنا..

- هذه فرصة ممتازة لأعرف منك لماذا يملك عمدة رويتون المفتاح الخامس؟؟ ولماذا أنت والباقون هنا؟

- آسفة.. لا أصدق أنك لا تعرف..

- إن فهل بوسعك إخباري لماذا كنت تبكين في المحطة؟

- لأنني تطوعت للقيام بعمل يفوق قدراتي.. عمل خطير.. قبلته وأنا في ضوء النهار في رويتون، ثم رأيت المحطة ليلا فشعرت بأنني سأفشل.

- لو أنك فقط سمحت لي بالعون.. هل قرأت قصة شهيرة اسمها (الليموزين المفقودة)؟

قالت الفتاة:

- قرأتها.. وآلمتني.. كانت كذابة جدا.. الرجل الذي كتبها موهوب لكنه يشعرك بأن هذه مزحة كبيرة.. لقد خلقت هذه

الشخصيات لأسليك فقط، فلا تأخذ أي شيء بجدية...

عض مستر ماجي شفته.. كان ينوي أن يخبرها أنه مؤلف القصة، أما الآن فلا جدوى.

قالت الفتاة مستطردة:

- كانت هناك فتاة عمياء معي في المدرسة، وقد ذهبت لأزورها في غرفتها ليلا.. بما أنها عمياء لم تشعل شمعة لي.. نسيت ذلك.. وظلت تتكلم في مرح؛ بينما بقيت أنا في الظلام.. أشعر بالرعب والاختناق، لقد جربت أن أغمض عيني من قبل، لكن في هذه المرة عرفت معنى أن أكون عمياء.. كان على مؤلف الرواية أن يفعل ذات الشيء.. يشعرني بما تشعر به شخصياته..

ثم حيته واتجهت صاعدة في الدرج..

وضعت قدمها على أول درجة، عندما سمعوا صوت باب ينفتح ومن ينادي بصوت يءخشن: «بلاند..» فجأة وجد ماجي يدا صغيرة تمسك بيده، وتجره إلى ركن مظلم، وهمست في أذنه في رعب:

- هذا صاحب المفتاح الخامس!..

ووضعت إصبعا على شفته فشعر برغبة جنونية في أن يلثم هذا الإصبع. ثم رأى غرفة الطعام تنفتح وظهر رجل عملاق، وقف جوار مقعد بلاند الذي ينام عليه، وجواره رجل نحيل يستحق بجدارة لقب (ظل العمدة).. كان يتصرف بطريقة تذكرك بكلب مخلص لسيده.

قال العلاق:

- إنه نائم.. ما رأيك في هذا كحارس يا لو؟

هنا فتح بلاند عينيه ونظر برعب إلى العمدة وتابعه وهتف:

- مرحبا.. اخفضا صوتكما فقد يسمعوننا..

- هم؟

- هناك رجل مسن وشاب وسيدتان يا كارجان..

- ولماذا لم تغادر المكان؟

- لا أقدر.. ليست معي الأرقام، والخزانة كانت مفتوحة من أجلي كما قرر روتر..

حرار ماجي يده من أنامل الفتاة وقال إنه سيخرج لهؤلاء القوم.. لم تبد اعتراضا.. هكذا خرج للرجال ليقول في لطف:

- مرحبا بكم في بالدبيت يا سادة.. لا تحاولوا شرح شيء فقد سئمنا التفسيرات. معكما المفتاح الخامس طبعا.

زأر العدة:

- من أنت؟

- لا مشكلة.. نحن نتبادل التفسيرات والشخصيات كل يوم.. فقط واجبي أن أرحب بكم..

قال العمدة وهو يشير للباب:

- أعطيك خمس عشرة دقيقة لترحل من هنا.. لا أريدك هنا..

قال ماجي في ثبات:

- بالطبع لا.. أنا جئت أولا.. لو أردت طردي فلا بد أن تتشاجر معي. لا أريد مشاكل ولسوف يسرني أن أتناول العشاء معكما، لكن علينا أن ننسى طلبكما المفعم بالوقاحة والتعجرف..

لم يرد الرجلان فقال:

- الصمت معناه القبول.. ليتكرم مستر بلاند بأن يبلغ المستر بيلرز أن لدينا ضيوفا على العشاء.. وقل له إنهما رجلان.. لا نساء جديدات..

ثم اتجه إلى الدرج فاصطدم بالفتاة.. قالت له:

- أنا مسرورة جدا..

- مسرورة بماذا؟

- أنك لست في جانبهم...

لم يفهم كالعادة.. فقط قال لها:

- بالطبع لا.. ارتدي أفضل ثوب عندك. فأنا قد دعوت العمدة للعشاء..

الفصل السابع

العمدة يراقب

- الليلة سوف أطلب منك أن تؤدي لي خدمة وأن تثق بي. لن أفسر لكني أتوقع أن تفعل..

قالتها الفتاة فقال باسما:

- هذا ديدني منذ رأيتك في المحطة تبكين فدنوت منك.. نصحني موظف التذاكر أن أبتعد لأن النساء الباكيات يحملن المتاعب دوما، لكن أي عاصفة لا يقابلها المرء راضيا من أجل قوس قزح ابتسامتك؟

لم ترد وألصقت أنفها بزجاج النافذة البارد، بينما في قاعة الطعام تفرق الضيوف غرباء الأطوار ينتظرون لحظة استدعائهم للمائدة عندما يفرغ بيترز.

وهكذا بدأت وجبة سوف يذكرونها طويلا. راح ماجي يتأمل الوجود الغريبة من حوله.. كل وجه يحكي قصة.. قصة تختلف عن التي حكاها كل واحد بلسانه، بدأت أصوات الأكل السخية من ناحية العمدة وظله، مما جعل الجميع يدركون أنه من الأفضل بدء محادثة.

قال العمدة وهو يشرب الحساء المعلب الذي جلبه بيترز:

- أعتقد أنكم راغبون في معرفة سبب وجودي هنا يا سادة.. القصة هي... ..

هنا قطعه ماجي:

- أرجوك يا سيدي أن توفر العناء على نفسك.. لقد تلقينا تفسيرات كثيرة أصابتنا بالإرهاق.. نحن هنا لأننا هنا.. هذا تفسير كاف..

قال العمدة:

- لكني مُصرّ.. هناك مجموعة إصلاحيين في رويتون.. مجموعة ظريفة فعلا.. ربطة عنق بيضاء ومخ ناقص.. قالوا إنهم سيدمرونني قبل الانتخابات القادمة، صار عليّ أن أثبت أنني لم أسرق أي مال أو أستغل نفوذي عندما كنت في إنديانا ولم أطعن أبي بسكين. شكرا لأنك لا تطلب تفسيرات.. أنا ولو سوف نرحل فورا بمجرد إنهاء مهمة بسيطة.. لن تجدنا هنا في التاسعة..

كان تابعه لو ماكس ينظر له من وراء عويناته السلكية بإخلاص كلب ينظر لسيده. واصل العمدة الكلام:

- كل المشاكل في التاريخ تأتي من المصلحين.. المصلحون هم الذين نفوا نابليون بونابرت العظيم ليموت على جزيرة، وهو أعظم من عرفه التاريخ..

تدخل البروفسور:

- هل أنت واثق من معلوماتك التاريخية يا سيدي؟

- أنا واثق من معلوماتي تماما وأعرف قصة حياته منذ ولد حتى مات.. أنا لست رجلا مثقفا لكني أستطيع أن أعيّن رجلاً مثقفا بعشرين دولارا في الأسبوع..

سألته السيدة:

- هل صحيح أنك تعلق صورة نابليون في مكتبك كما تقول الصحف وتعتبر نفسك خليفته؟

قال في كبرياء:

- لا بأس سيدتي.. هذا هذيان الصحف.. خرافات.. لست بونابرت.. هناك فارق واحد بيننا هو أن المصلحين ظفروا به في النهاية...

دخل بيترز بالقهوة وبدأ في صبها..

فجأة نهض مستر بلاند مذعورا وصاح:

- ما معنى هذا؟..

- ثمة شخص يتحرك في الطابق العلوي..

نهض مسرعا وجري في الدرج... هنا دنا بيترز من أذن ماجي وهمس:

- أنا لا أشكو.. لكن لو ظل الناس يأتون إلى هذه الحانة المهجورة فسوف أستقيل من عملي كطباخ.. مهمتي نزداد تعقيدا!..

قال ماجي ضاحكا:

- هناك سبعة مفاتيح فقط يا صاحبي.. لا بد أن هناك نهاية لهذا..

عاد مستر بلاند شاحبا.. وجذب مقعدا وقل للمتسائلين:

- إنها الريح.

هدأ الجميع وبدأ بيترز يجمع الأطباق وينظف المائدة، بينما تناول العمدة ساعته ونظر لها ثم قال:

- كنتم كرماه معنا يا سادة.. هناك خدمة أخيرة أطلبها هي أن تسمحوا لي بالانفراد بمستر بلاند لإنهاء مسألة خاصة..

تردد ماجي للحظة ثم نظر للفتاة.. فأشارت لأعلى بمعنى أنها موافقة. فقال:

حسن. أرجو ألا ترحل دون أن تخبرنا لنودعك يا سيدي العمدة.

صعد البروفسور مع ماجي إلى الظلال ثم توقفا حيث لا يراهما أحد وأصغيا.. سمعا صوت بلاند يقول:

- لا أحب مجريات الأمور.. كم الساعة؟

قال العمدة كارجان:

- السابعة والنصف..

- كان هناك شخص بالطابق الثاني.. جرى وأغلق وراءه أحد الأبواب.

قال العمدة ضاحكا:

- لا أهتم.. عندي درايتون الشاب وأنا من منحه منصبه.. لست خائفا.. ليتجسسوا علينا كما يريدون فليس بوسعهم لمسي.. هل هذا الهاتف يدق؟

- لا. فقط سيرسل ضوءا عندما يريدوننا..

صعد البروفسور وماجي إلى الجناح رقم سبعة. ثم قدم الأخير مقعدا للرجل.

قال البروفسور:

- لا أفهم ما يدور.. لكن اعتقادي أن بوسعك منحي تفسيرا..

قال ماجي وهو يقضم سيجارا ليشعله:

- لو كنت تحسب أنني جزء من هذه اللعبة فأنت مخطئ.. أنا في الظلام مثلك.

هنا جاءت دقة على الباب وظهر وجه السيد لو ماكس.. قال لهما:

- طلب مني العمدة أن أراقب الشبح الذي تكلم عنه مستر بلاند.. لذا عليّ أن أجلس على الباب وأراقب الردهة، وبما أنى ذو طبيعة اجتماعية فهل تسمحان لي؟

سمحا له وقدم له ماجي سيجارا.. فراح يدخن وهو ينظر للجناح في فضول..

فكر ماجي في أن هذا وضع شائق.. مستر لو على الباب يراقب الردهة ويحرسهما.. العمدة ومستر بلاند في الطابق السفلي ينتظران ضوءا من الهاتف.. البروفسور هنا يتكلم عن أشعار شوسر.. الفتاة في غرفتها تطلب عون ماجي من خطر يهدد حياتها... والأهم أنه لمّح لاتهام بلاند والبروفسور بالقتل فلم يباليا بنفى التهمة.

كل هذا غريب فعلا

الفصل الثامن

هناك شخص جديد

أشعل مستر ماكس سيجارا آخر فقد راق له الأول، وراح يثرثر حتى جاء صوت العمدة العالي من الطابق السفلي. وثب من مقعده واختفى. هرع ماجي وبلاند إلى المكان الغارق في الظلام إياه ليسمعا ما يدور تحت.

جاء صوت العدة:

- ما رأيك في هذا؟ هايدن يتصل ببلاند وليس بي.. يبكي بسبب المحاكم.. إنه مأفون، لم يعطنا الأرقام السرية..

جاء صوت لو ماكس:

- الفأر...

- لكني سوف أفتحه عنوة.. أنا أستحق ما فيه وسوف أناله..

قال بلاند:

- اسمع هنا يا كارجان..

قال العمدة:

- أبعد هذا السلاح قبل أن يؤذيك.. هذه الخزانة لي وسوف أفتحها الليلة بأي ثمن..

عاد ماجي والبروفسور للطابق الثاني، ووقفا أمام الباب يتبادلان النظرات.. ميلودراما.. الشيء الذي فر إلى حانة بالدبيت كي يتخلى عنه.. لقد لاحقته الميلودراما هنا، هناك أسلحة

وشتائم وتهديدات. أعلن البروفسور أنه سيعود لغرفته وينام، لكن ماجي لما انفرد بنفسه وجد أن مس نورتون تدق على زجاج شرفة الجناح برفق كي يفتح.. أدرك أن وجهها ممتقع تماما.

- أصغ.. أردت أن تساعدني وهذا بإمكانك الآن.. في الخزانة بالطابق السفلي هناك طرد به مائتا ألف دولار.. هل سمعت؟ يجب أن أحصل عليه.. كان أحدهم سيبلغ كارجان بالأرقام السرية في تمام الثامنة.. لم يتصل أحد. لذا قرر أن يغتصب الخزانة. ثم رأيته..

- من هو؟

- لا أعرف.. شبح أسود فارع الطول.. أعتقد أنه يملك الفتاح السادس.. هو الذي سمعه مستر بلاند يمشى بالطابق العلوي، كنت خائفة جدا فهربت إلى هنا. والآن هل تثق بي؟ هل تجلب لي هذا المال دون أن تعرف من أنا أو ماذا أريد به؟

قال ماجي:

- بعض الناس تكفيهم ابتسامة عابرة في قاعة انتظار بمحطة قطار كي يثقوا ببعض.

- لم أتخيل هذا.. أنا سعيدة جدا. خذ الحذر.. العمدة ولو ليسا مسلحين لكن بلاند يملك مسدسا ولن أغفر لنفسي لو حدث لك شيء..

اتجه ليجلب لنفسه عباءة، وقال ساخرا إنها تجعله يبدو كشيرلوك هولمز. اتجه للباب كي يفتحه ففطن إلى أنه مغلق بالمفتاح من الخارج!... هناك من حبسه في الجناح، اتجه إلى الشرفة حيث كانت الفتاة تقف وقال لها:

- عودي لغرفتك.. سأجلب لك الفروة الذهبية.

وجرى إلى نهاية الشرفة وهبط برفق إلى الأرض، ثم قرر أن يبدأ أول دروسه في اللصوصية.

الفصل التاسع

ميلودراما

زحف مستر ماجي إلى جوار الشرفة، وقد رأى أن القمر لم يعد بازغا كما كان.. حوله الثلج والظلام وقد بدا أن العالم ينتهي على بعد خطوات..

تسلل من شرفة الطابق السفلى ليدخل إلى البهو، حيث كانت الغرفة الوحيدة مضاءة بشمعة.. رأى أسفل الدرج شبحا ضخما أدرك أنه عمدة رويتون. كان ظل مستر لو ماكس واضحا وهو يعمل في توتر محاولا فتح الخزانة، يبدو أنه كان يمارس مهنًا عديدة عجيبة قبل عالم السياسية، كان يعمل بدقة وبراعة تذكرك بطبيب يجري فحوصه، نفس المنضدة التي في فصل الصيف تقف عندها النسوة العجائز يسألن عن بريدهن.

مرت الدقائق بينما الشبح الضخم نافد الصبر تماما.

فجأة ركض مستر ماكس مبتعدا.. دوى صوت عال مع دخان.. انفجار وبدا أن الحانة سوف تنهار، جرى ماكس عائدا للخزانة ثم عاد بلفافة.. تفحصها العمدة كارجان ثم وضعها في جيبه. بينما راح لو ماكس يجمع أدواته.. لقد صارا متأهبين للرحيل فرفع العمدة الشمعة لتلقي ضوءها على ركن الغرفة. رأى ماجي أن مستر بلاند مقيد ومكمم.

أغلق الرجلان معطفيهما، ثم غادرا المكان من باب غرفة الطعام.

هرع ماجي للباب الأمامي وفتحه ليكون طريقة للتراجع. ثم خرج للشرفة وارتمى على الثلج هناك، سمع الرجلين يتكلمان عن ركوب القطار إلى رويتون.. قرر أنه سيهجم عندما يهبطان آخر درجة من الدرجات التي تخرجك من حانة بالدبيت.

فجأة ظهر شبح أسود.. هوت قبضة فطار مستر لو ماكس عبر الثلوج، والتحم العمدة مع الشبح في صراع عنيف، حتى انزلقت قدما العمدة فهوى أرضا... رأى ماجي يد الغريب تفتش في جيب العمدة وتخرج اللفافة.

لم يكن ماجي رياضيا لكنه كان شابا صحيح الجسم وقد ساعده عنصر المفاجأة، فألقى بنفسه على الغريب وانتزع منه اللفافة، ثم ركض نحو الباب.. جرى الغريب خلفه لكنه بلغ باب الحانة في اللحظة اللي انغلق فيها على ماجي ودار المفتاح.

استجمع ماجي أنفاسه خلف الباب الموصد، تجاهل بلاند المقيد وهرع باللفافة شاعرا بأن هذه أهم أحداث الليلة.. السيدة التي أرسلت فارسها ليحضر لها اللفافة قد عاد بها.. سوف ينال مكافئته حالا.

صعد إلى الطابق الثاني ثم تصلب. رأى في الطابق الأرضي بابا مواربا ورأى شبح سيدة تقف هناك.. سيدة لم يرها من قبل قط. معطف طويل وقسمات وسيمة..

رآها تخاطبه كأنها تخاطب سائقها الخاص:

- معذرة. هل أنت مستر ماجي؟

استند إلى الجدار وقال بصعوبة:

- أنـــ.. أنا...

لم تبد سعيدة وقالت:

- أنا وحدي مع خادمتي.. قال لي هال بنتلي إنك هنا وأعطاني مفتاح الباب.. قال إن بوسعي أن أطلب حمايتك...

غمغم في الظلام:

- تحت أمرك..

- جئت هنا كي أبحث عن شيء، لا أعرف كيف سأجده لكن يجب أن أظفر به..

تحسس ماجي اللفافة التي في جبيه، اتسعت عينا الفتاة وقالت:

- ربما تأخرت، أخشى هذا.. هناك في الخزانة كمية كبيرة من المال.. يجب بأي ثمن أن أحصل على تلك اللفافة.. أقسم لك أن لي الحق فيها.. أتوسل لك أن تساعدني..

نظر لها في حيرة كأنه في حلم.. ثم سألها:

- متي جئت؟

- كنتم تتناولون العشاء عندما وصلت، لكن لم أرد أن يراني سواك...

- لا أحسب هناك ضررا من الانتظار حتى الصباح..

- أخشى أن يتم الأمر الليلة..

وأزاحت معطف الفراء عن كتفيها، فبدت له فتاة مترفة ثرية.. اعتادت أن تفتن الرجال في حفلات الشاي، وأدرك أنها ستمضي الليل في الحانة.

قالت له ضاحكة:

- نسيت أن أخبرك باسمي.. اسمي ميرا ثورنهيل.. من رويتون. إلى الغد.

واتجهت لجناح خال وأغلقت الباب.

جلس ماجي على الدرج البارد يفكر. كل جاذبية المغامرة قد زالت كان يحمل الجائزة لسيدة قلبه فظهرت واحدة أخرى تزعم نفس الشيء من منهما الصادقة؟

ماذا يعرف عن أي الفتاتين؟ لم لا ينتظر للصباح فقد يرى الأمور بوضوح أكثر. من الخطر على كل حال ترك اللفافة مع أي من الفتاتين بينما هناك رجال يائسون يبحثون عنها، الشيء الوحيد المعقول هو الانتظار للصباح. هكذا فتح الجناح وكتب ورقة للفتاة في الجناح 17: كل شيء على ما يرام.. نامي في سلام.. أراك غدا.

وضع الورقة تحت عتبة بابها ثم فر قبل أن يواجهها وعاد لجناحه.

لمدة ساعة ظل يتأمل تفاصيل هذه اللعبة الغريبة التي وجد نفسه فيها. هو سمع اسم ميرا ثورنهيل من قبل لكن أين؟

مد يده وأخرج اللفافة التي بدأت خيوطها تتمزق ونزع المغلف في لهفة. ثم أزال البطانة.. ما هذا؟ أوراق فئة ألف

دولار.. لم ير هذه الأوراق من قبل.. وكانت منها مائتا ورقة.

أعاد غلق اللفافة وتأهب للنوم.. ثم تذكر مستر بلاند المقيد بالطابق السفلي، عاد للطابق الأرضي ليفك وثاقه لكنه سمع صوت العمدة ولو ماكس وبلاند نفسه. يبدو أنهم تصالحوا.

هرع عائدا لجناحه وأغلق النوافذ والباب، ثم وضع اللفافة تحت وسادته. وسرعان ما غاب في النعاس.

صحا في الظلام شاعرا بمن يقف جوار الفراش.. هب مذعورا وصاح:

- من هذا؟..

هرع المتسلل ليفر من الباب فجرى ماجي خلفه.. كان الزجاج مهشما فوق باب الشرفة، وعلى جليد الشرفة رأى آثار خطوات، ارتدي ثيابا ثقيلة وتأكد من وضع اللفافة في جيبه، ثم حمل شمعة.

كانت الريح تزأر والنوافذ تهتز، من الصعب أن تبقى الشمعة سليمة. خرج للشرفة ونظر لأعلى، فرأى أن هناك بناية صغيرة ملحقة بالحانة.. تتصل به من الجهة الغربية عن طريق ممر يبدأ من الطابق الثاني للحانة. اتجه للملحق وحاول فتحه.

فجأة سمع صوت كلام فاستطاع بالكاد أن يطفئ الشمعة. انفتح الباب وظهر رجل وكان هناك من يقف على الباب ممسكا له بشمعة، هنا رأى وجه البروفسور نورتون.

قال البرفسور:

- حظا أفضل المرة القادمة.

فقال الصوت حامل الشمعة:

- راقبه جيدا.. لا يجب أن يترك الحانة.

قال البروفسور ضاحكا:

- أعتقد أن المقيمين في بالدبيت سوف يمنحونه يوما ممتعا غدا. دعنا نتفق.. لو حصلت على اللفافة بأي شكل فسوف أعطيك إشارة. سوف أفتح نافذة من نوافذ غرفتي لتعني أن اللفافة معي..

- هذا مناسب. عمت مساء..

دنا البروفسور المسن من نافذة الجناح رقم 7 وألقى نظرة مدققة، ثم كاد يدخل عندما امتدت يد ماجي تمسك بذراعه، وثب الرجل هلعا ثم استدار وقال:

- ليلة جميلة.. كنت أمشي في الشرفة عندما خطر لي أن أتفقد غرفتك..

في برود حياه ماجي، ثم دخل حجرته وأغلق النافذة.. أسدل الستائر ثم أخذ المطواة، وحفر تحت قرميد المدفأة حتى صنع فجوة صغيرة أخفى فيها اللفافة. قال لنفسه:

- أنا الآن ناسك ذو كنز مختف ككل ناسك آخر.. من العسير على من يأتي هنا أن يهرب من عوالم الميلودراما.

ثم تمدد في الفراش وقال:

- لن يلعبوا من غيري. إن الكرة معي...

وغرق في الرضا عن نفسه حتى غلبه النعاس.

الفصل العاشر

فجر بارد رمادي

عند الفجر فتح ماجي عينيه واتجه لباب الجناح، ففوجئ بالعمدة كرجان يقف هناك.. ينظر له ويقول:

- حان الوقت كي تصحو وتواجه مسئوليات اليوم أيها الشاب.. أول المسئوليات هي أن تتكلم معي..

ودخل للجناح ومن ورائه مستر لو ماكس الذي كانت عينه متورمة ومعالم الصراع بادية عليه، جذب مقعدا وجلس وقال:

- عاملتنا بقسوة أمس في الجليد.. ليس هذا أوان المجاملات خاصة عندما تتعامل مع رجل يحمل الاسم الأيرلندي القوى ماجي.. عليك أن تضرب...

- أنا عاملتكما بفسوة؟ -

- أمامك خياران.. أن تعطينا اللفافة أو نأخذها نحن.. ودعني أقدم لك نصيحة: الاختيار الأول هو الأفضل..

قال ماجي:

- حسن.. تريدان اللفافة.. وأنا أقول لكما أنكما اخترتما الشخص الخطأ.. ويمكنك أن تبحث كما تريد يا مستر كارجان فلن تجد شيئا..

وأؤكد لك أن من أخذ اللفافة هو الرجل ذو المفتاح السابع.. الرجل الذي رأيته في الظلام.. عليك أن توقظه في الفجر.. هو، وليس أنا.

قال العمدة:

- سوف أتحقق من كلامك وإلا فلسوف آخذك لرويتون لأرميك في السجن بنفسي.

- لا أنصحك بهذا.. تخيل أنني شرحت للمصلحين ذوي الربطات البيض كيف أنك نسفت خزانة لتأخذ ما فيها من مال!..

ثم ارتجف من البرد وقال:

- أين الناسك؟ لماذا لم يشعل النار؟

قال العمدة:

- هذا هو ما يسأل عنه الجميع.. لم يظهر ولم يعد الإفطار، وجوفي خاو تماما.

- يبدو أنه ارتدّ وعاد للمدينة...

هكذا أشعل ماجي المدفأة فجلس الرجلان يصطليان،، والعمدة يحتضن التجويف الذي كان يجب أن يملأه بالطعام، حكى لهما ماجي عن مالكة المفتاح السادس التي وصلت أمس، سيدة حسناء اسمها ميرا ثورنهيل، عرف العمدة أباها على الفور وقال إنه كف عن الدهشة منذ جاء هنا.

اتجه لغرفة ثورنهيل وأخبرها أنهم سيتقابلون في الطابق السفلي، فلتأت هي ووصيفتها.. اعترفت له أنها بلا وصيفة.. هي وحدها لكلها زعمت ذلك لتحمي نفسها أمس..

عندما نزلوا للطابق السفلى وجدا بلاند والبروفسور، قال بلاند في ضيق:

- هل عرفتما أن بيترز قد اختفى؟

هنا تشمم ماجي الجو وقال:

- سوف ننظم فرق البحث.. لكن ألا أشم رائحة قهوة هنا؟

- لقد تطوعت مسز نورتون بعمل القهوة لنا.

ظهرت الفتاة نورتون وقد بدا عليها السرور والبشر.. سرور من يستمتع فعلا بالصباح فوق جبل، فقام ماجي بتقديمها لمس ثورنهيل التي كانت تحمل المفتاح السادس، جاءت مسز نورتون حاملة صينية القهوة وراحت تلوم الطاهي الذي اختفى، ثم راح الكل يرتشف القهوة بديل الإفطار كريه المذاق.

لما انتهى الإفطار خطر لماجي والفتاة أن يقصدا كوخ الناسك ليعرفا لماذا رحل.. تحركا فطلب مستر لو ماكس أن يلحق بهما لأنه لا يثق بماجي..

بدأ المشي وسط الثلوج، فنظرت الفتاة للخلف ورأت أن لو ماكس ما زال يلهث بعيدا خلفهما.. هنا قال لها ماجي، همسا .

- لنتكلم.. ليلة أمس أرسلتني في مهمة لأعود لك بالفروة الذهبية.. لقد وجدتها فعلا....

هتفت في فرحة:

- ولماذا لم تعطني إياها أمس؟

- كنت منتشيا فخورا أشعر بأنني فارس يجلب الكنز لحبيبته.. وفجأة ظهرت هي.. صاحبة المفتاح السادس، ففقدت شجاعتي. لم أعد قادرا على اتخاذ قرار.. جلست على الدرجات وقررت أن أرجئ الفعل إلى اليوم.. نظرت له في خيبة أمل وقالت:

- أنت كنت تسخر مني.. حسبتك تختلف عن الآخرين وكنت مخطئة. لم تنو قط أن تعطيني هذه اللفافة.. لماذا لا تعطيها اللفافة؟

- أريد أن تصدقيني. لا أعرف البتة ما هو الموضوع.. لكني فعلا مستريح لأن أعطيك اللفافة، هل تعرفين السبب؟

هنا فقد التحكم في نفسه فخرجت الكلمات:

- أحبك.. أحبك.. منذ رأيتك في المحطة وأنا مغرم بك وشعر بخجل من تفاهة كلماته.. كأنه صبي جزار يخطب ود حبيبته الخادمة.

نظرت له الفتاة في امتنان ولم تقل شيئا لكنه رأى في عينيها الزرقاوين جزر الرضا.. مستر لو ماكس هو الذي تكلم إذ لحق بهما فصاح:

- هذا هو كوخ الناسك..

كان هذا كوخا خشبيا صغيرا. وقد بدا للو ماكس كئيبا خاليا من أي شاعرية، وسرعان ما كان يدق بفظاظة على باب الناسك.

الفصل الحادي عشر

عودة الناسك

انفتح الباب وظهر الرجل القصير الملتحي، وقد ارتدي ثوبا أرجوانيا من الواضح أن امرأة اختارته له، فلا يوجد رجل يملك شجاعة ارتداء ثوب كهذا. دعاهم للدخول وقدم المقعد الوحيد للآنسة أما الرجلان فقدم لهما صندوقي صابون فلم يكن عنده سواهما.

كان الكوخ مبنيا بفظاظة من الطفلة والأعمدة الخشبية، كانوا جالسين في أكبر غرفة حيث منضدة ومقعد ورف كتب، صنع من ألواح خشب قديمة. كوخ هو خليط من أكواخ الجزر المهجورة، وتلك الأكواخ الجميلة التي تراها في الصور، قالت الفتاة:

- جئنا نتوسل لك..

قال الناسك:

- اغفري لي لكن لا جدوى من هذا.. جئت هنا لأكون وحدي، ليس بوسعي أن أظل ناسكا وطاهيا.. عليكم قبول استقالتي..

قال ماجي:

- نحن لا تطالبك بالتخلي عن حياة النساك.. فقط لبعض الوقت الذي سنقيم فيه هنا.

قال الناسك:

- غرائزي تختلف عن غرائز الناس..

قال مستر لو ماكس:

- كل رجل يمكن أن يتخلى عن غرائزه مقابل راتب طيب يدفع مقدما...

- للأسف أنا أكره السيدات.. وقد صارت هناك ثلاث سيدات في بالدبيت. لم أكن طيلة حياتي ناسكا هنا.. كنت رجلا متأنقا يذهب للحلاق ويلبس قبعة.. زرت معظم أرجاء الكرة الأرضية وعشت في نيويورك طويلا.. نيويورك.. شجرة كريسماس تتدلى منها الهدية وتتوهج أنوارها للأبد.. لو عدت طاهيا لك فقد يغلبني الإغراء للعودة للعالم البراق.. سوف أحلق لحيتي وأستحم وأحرق كتابي عن (المرأة).. ربما أعود لزوجتي السابقة في بروكلين حيث تقيم مع أختها.

حاولوا إقناعه كثيرا بأن يظل معهم يوما آخر، نظرت الفتاة بعينيها الزرقاوين اللتين لا يقاومهما أحد وطلبت منه أن يبقى يوما معهم فلم يستطع التملص. هكذا ارتدى معطفه وتأكد من بضعة أشياء في الكوخ ثم أغلق الباب ولحق بهم، ضحك ماجي وهمس في أذن الفتاة:

- الآن أعرف ما كان قيصر يشعر به عندما يعود لروما بينما أسراه مربوطون إلى عربته!..

ثم أضاف للفتاة همسا:

- بعد عشر دقائق ستكون اللفافة بين يديك ومعها مصيري..

احمر خداها ونظرت لجهة أخرى وقالت:

- سوف أستريح.. وأسعد..

هنا كانوا قد بلغوا باب بالدبيت.

الفصل الثاني عشر
كارثة في رقم سبعة

كانت مس ثورنهيل تطالع مجلة جوار المدفأة.. بينما العمدة يثرثر مع مسز نورتون. هنا انفتح الباب وجاء ماجي، ومن خلفه دخل بيترز الذي يحرسه لو ماكس، قال ماجي في لهجة انتصار:

- لقد جئت به دون حاجة لتخديره!.. ليتأهب لكل لغداء رائع..

ثم همس في أذن مس نورتون:

- سوف أجلب لك اللفافة.. عندما تتقابل ثانية ثقي من أنها في جيبي.

ثم عاد للجناح وأغلق الباب خلفه.. فتح النافذة وتفقد الشرفة، لم يكن ثمة أحد في الاتجاهين ولا توجد آثار أقدام على الجليد. عاد للمدفأة وراح يحفر من أجل قطعة القرميد التي دارى خلفها اللفافة العزيزة على كل سكان بالدبيت.

غمغم لنفسه:

- كان يجب أن أعرف..

لقد التقى المال. راح يفتش أكثر بلا جدوى.. لم تبق سوى فتحة قبيحة تحملق فيه.

بالطبع!.. كان أحمق.. من يتصور أن يتوارى هذا الكنز في مخبأ واضح كهذا؟ وهو الذي كتب عشرات القصص عن الجواهر المفقودة. يمكنه أن يكون ذكيا جدا خلف الآلة

الكاتبة.. لكنه غبي في الحياة الواقعية. الفتاة قد وثقت فيه.. الآن عليه أن يعود ليخبرها أنه أحمق.. ولسوف يخذلها.

من فعل ذلك؟ هل العمدة وكلبه لو ماكس؟ وجدا المال في هذا المخبأ الساذج، وهما الآن غارقان في الضحك عليه. سوف يندمان.. لكن كيف؟ لا يعرف.

هل يخبر الفتاة؟ كلا.. سوف يبقي هذه الورقة مقلوبة لفترة أخرى.

هكذا عاد للطابق السفلي، وكان مستر بلاند قد لحق بالمجتمعين حول النار. نظرت عينا الفتاة له في تساؤل فقابل نظرتها بذلة، ونظر للعمدة في كراهية وهمس لنفسه:

- سوف أزيل هذا الرجل من الوجود.

ثم إنه دعا الفتاة نورتون كي ترية الصور المعلقة على الجدران، والتي تظهر العظماء الذين جاءوا لبالدبيت يوما ما.. بما أنها كانت تأتي لهذه الحانة قديما في الصيف. كانت مجرد حيلة للكلام على انفراد.

لما ابتعدا بعض الشيء عن الحشد، همست له في ترقب:

- وبعد؟

بحث عن كلمات فلم يجد.. لم يجد سوى الكلمات التي لفظها صباح اليوم على الجبل:

- أنا أحبك... أريد أن تحصلي على هذا المال فعلا.. لأنني أحبك منذ رأيت.. ولكن..

- حقا؟

كانت كلماتها أبرد من حرارة الغرفة بعشرين درجة على الأقل.

- لا أطلب أن تصدقي... لكنها الحقيقة، ذهبت لأبحث عن المال الذي خبأته تحت قرميدة في المدفأة.. لقد اختفى!...

- يا لسوء الحظ.

نظر لوجهها فرأى أنها غاضبة مفترسة بحق، كان قد كتب من قبل أن النساء الجميلات يزددن جمالا عندما يغضبن، كم جانبه الصواب وقتها!

قالت له؟

- ما أشد حماقتي عندما صدقتك ليلة أمس!!..

نظر لها شاعرا بالعجز، ثم قال:

- حسن.. سوف تدركين أنك ظلمتني أيما ظلم.. والآن سوف أبتعد..

قالت بابتسامة يمكن أن تقطع الزجاج:

- فلنر.

عاد ماجي لمنضدة الغداء، وهو يشعر بالغيظ والحرج وقد صمم بقوة على أن يسترد اللفافة.. لكن كيف؟

ظهر البروفسور على قمة الدرج وقد بدا خدش واضح على جبينه، كما أن عويناته السميكة لم تكن على عينه، وقد قال:

- حادث مؤسف.. اصطدمت بباب مفتوح وهذا عمل أحمق لكني أفعل ذلك طيلة الوقت.

أعلن الناسك أن الغداء معد.. لذا اتجه الجميع للمائدة. كان ماجي يفكر بعمق.. عوينات البروفسور تهمشت، فلا بد أن هذا يتفق مع الأحداث الغامضة الجارية، لكن كيف؟

الفصل الثالث عشر

مستر هايدن الرائع

قالت الفتاة لماجي بعد الغداء:

- إن العمدة يتناقش مع بلاند بحدة.. أكره التلصص على الناس. لكني بالفعل أرغب في معرفة ما يقولان..

كانت هناك صندرة صغيرة قرب مجلس الرجلين، وقد عرف ماجي أن المرء يصل لها من خلال المطبخ. راقت له الفكرة وبسرعة تسلل إلى المطبخ حيث كان الناسك مستر بيترز ينظر له في دهشة.. لكنه أشار له كي بصمت، وسرعان ما تسلل إلى الصندرة ليسمع، حيث لا يفصله عن الرجلين سوي لوح من الورق المقوى.

كان مستر بلاند يقول:

- آسف أنني اضطررت لأن أدمي رأس البروفسور.. هذا رأس يحوي الكثير من أشعار تشوسر.. لكنه رجل بالغ.. والآن يا سيدي العمدة عادت اللفافة ليدي.. عادت ليدي كما كانت في يدي منذ البداية..

قال العمدة:

- كيف فعلت ذلك؟

- عندما غادر ماجي الحانة متجها للجبل كنت مستعدا.. وخمنت المكان الذي وضع فيه اللفافة، هذه هي تعليمات مستر هايدن لي. هو الذي وضع الخطة واختار هذه الحانة.

- كم يدفع لك؟

- يدفع لي ألفي جنيه في العام..

قال العمدة:

- فكر في الأمر جيدا... عشرون ألف جنيه في دقيقة لو ناولتني هذه اللفافة الآن

- لا.. أنا أعمل لهايدن فقط..

- المال لي في النهاية.. ولو أعدته لي فأنت تحقق العدل فعلاً، أما لو سألك هايدن عن اللفافة فلسوف تشير إلى الخزانة التي تم تفجيرها. أنت بذلت ما بوسعك

- لا..

- عشرون ألفا!.. راتب عشرة أعواما.. ما كنت لأتردد لحظة.. سوف يتخلص منك هايدن يوما كما تخلى عنا. معك اللفافة، خذ عشرين ألفا منها وأعطني إياها ولن تكون هناك أسئلة.

هنا ارتج صمت الفندق بطرقات على الباب وصوت يصيح:

- بلاند! .. دعني أدخل..

صاح بلاند:

- هذا هو هايدن..

قال العمدة:

- لم يفت الأوان.. يمكنك أن تفعلها.. يمكنك أن تفعلها..

- إجابتي هي أنني لن أسمح لك برشوتي.. هلم للباب الأمامي يا مستر هايدن..

سمع ماجي صوت خطوات ثم سمع صوت باب ينفتح، وسمع العمدة يقول:

- كيف حالك يا مستر هايدن؟ أنا قد تربيت خارج أندية المدينة. لست مترفا مثلك، وقد علموني أن كلمة الرجل يجب أن تظل ثابتة.. لقد كان من حقي أن أحصل على مائتي ألف دولار فلماذا لم أحصل عليها؟ لقد قمت بدوري في التعاقد.. أريد أجرى..

قال هايدن ببرود:

- هل معك المال يا جو؟

- نعم.

ارتجف صوت بلاند وقال:

- ربما كان من الواجب أن ننتظر..

قال العمدة:

- سوف نلقنك درسا يا هايدن.. كذلك أؤكد لك أن فكرة حانة بالدبيت هذه فاشلة.. المكان مزدحم بالناس كأنه منتجع صيفي..

قال هايدن:

- هذا سبب كاف كي آخذ المال بسرعة وأرحل يا كارجان.. أنا لا أخشاك فأنا مسلح.. أين المال؟

من مكمنه فتح ماجي ثغرة صغيرة ليرى عبرها.. رأي مستر هايدن. وكان ذا منظر رائع.. كان فارع القائمة وسيما شديد الأناقة، وفي يده كان مسدس يلمع في الضوء.

قال بلاند:

- المال بالخارج..

واختفى هو وهايدن عبر باب غرفة الطعام إلى الظلام، ومضى كارجان ولو ماكس خلفهما.

من مخبئه خرج ماجي وقد غلي الدم في عروقه.. هناك معركة جديرة بأبطال الإغريق تدور هنا، ويبدو أنه سيشارك فيها.

فجأة فوجئ بمن يقف في طريقه.. إنه ناسك بالدبيت.. مستر بيترز.

همس له وهو يرتجف:

- يجب أن أتكلم معك حالاً يا مستر ماجي.

أبعده ماجي وصاح:

- ليس الآن..

لكن الآخر تمسك بساعده وقال:

- بل الآن.. هناك أشياء غريبة تحدث.. هناك لفافة مال وجدتها في المطبخ..!...

تصلب ماجي في الظلام.. وراح يصغى للهاث الناسك المنفعل.

الفصل الرابع عشر
علامة النافذة المفتوحة

ابتسم مستر ماجي ونظر للمطبخ ثم لمستر بيترز. وقال الأخير راجفا:

- منذ جئت هنا وأنا أجد شيئا غريبا تلو آخر.. حتى إنني دخت.. لا أستطيع استيعاب هذا كله. ثم أضاف:

- من كل هؤلاء الذين يتعاملون هنا، أشعر أنني أعمل عندك أنت.. أنا أتقاضى أجرى منك لذا أعتبرك رئيسي.. كنت صباح اليوم في المطبخ أبحث في الثلاجة بشمعة عن شيء أطبخه، وهنا وجدت على الرف في ركن مظلم لفافة صغيرة..

- وأين تلك اللفافة؟

- دعني أكمل قصتي... لقد ظللت أتفقد اللفافة مندهشا من كمية المال هذه.. كمية تكفي لبناء جامعة أو شراء ثياب امرأة لمدة عام!... هنا وقع عليّ ظل..

- من؟

- البروفسور نورتون كان هناك.. بدا لي كبومة بالضبط.. جاء للثلاجة وقال: إن هذه اللفافة تخصه.. أنا رجل مسالم يا سيدي برغم أن بوسعي تحويل هذا الرجل إلى جيلي، ناولته اللفافة.. أعترف أنني تعودت على إعطاء الناس ما معي من مال لأنني كنت متزوجا. أخذ اللفافة وطلب مني أن أصمت..

هنا توقف عن الكلام.

استدار ماجي فجأة فوجد أنه يحدق في وجه هايدن.. كان الرجل صامتا.. وكان له شارب أصفر يتوارى خلفه فم قاس.. وكان بلاند معه..

قال بلاند:

- هذا صديقي يا مستر ماجي.. اسمه.. أ.. اسمه داون...

ضحك ماجي وقال:

- دعنا نستعمل أسماء حقيقية.. سمعك تتكلم منذ فترة فتدعوه بهايدن..

ومد يده ليصافح هايدن لكن الآخر لم يمد بيده.. نظر له في حدة وقال:

- من أنت بحق الجحيم؟

- يبدو أنك لم تسمع أن اسمي ماجي.. جئت هذه الحانة قبل الجميع بساعة، لذا لديّ كل الحق كي أكون هنا.. وسوف يسعدنا أن ندعوك على العشاء، سيكون عليك أن تتعلم تقاليد بالدبيت، وتعرف أن أحدا لا يحكي قصة حقيقية..

ثم تركهما وصعد في الدرج إلى غرفته. اتجه إلى غرفة مس نورتون وقرع الباب.. فتحت لتجده أمامها فقالت:

- آسفة لأنني لن أسمح لك بالدخول.. هل من جديد..

قال لها:

- ضعي شيئا على شعرك فإننا سنقف في الشرفة.. يجب أن نتكلم.

بعد قليل كانت تقف معه في الشرفة الباردة، مشيا فوق الثلج، فقال لها:

- أعرف من معه المال الآن.. وأعرف أنه سيكون بين يديك حالا.

لم ترد.. فأردف:

- عندما يصير المال معك.. ماذا ستفعلين؟

- سأفر طبعا وبسرعة قبل أن يسلبني أحدهم إياه..

- وبعدها؟

- بعدها الطوفان...

هناك كان الظلام والشلالات والشوارع المظلمة، بينما الأشجار تمد أذرعها في الظلام كأنها ترقص. الناس في الدروب تمشي ولا يتخيل أحد أنه في شرفة حانة بالدبيت يقف شاب مع فتاة، وهو يلثم يدها ويكرر:

- أحبك.. منذ جئت هنا أحبك.

لكن هذا بالضبط ما كان ماجي يفعله، بينما الفتاة تردد:

- أنت لم تعرفني سوى من يومين...

- هذا سبب كاف كي تعرفيني أكثر.. أمس سألتك عن قصة اسمها (الليموزين المفقودة) وقلت لي إنها غير صادقة.. حسن.. أنا مؤلف تلك القصة.

- حقا؟

- ولكني سئمت ما أقوم به.. جئت هنا كي أهرب من عالم الميلودراما.. طلقات الرصاص في الظلام، والتفتيش عن الكنوز في غرف مهجورة، والمطاردات.. جئت كي أكتب أدبا..

صاحت مندهشة:

- يا للسخرية!.. على كل حال كل الناس تعتقد أنها في قصص حب عندما يقفون في شرفة بالدبيت.. تنهال الوعود وعهود الغرام، ثم يأتي الخريف فينسون كل شيء وتنتهي هذه القصص..

- ليس هذا غرام صيف يا عزيزتي.. انظري للترمومتر كي يخبرك بهذا..

عادت الفتاة لغرفتها وعاد هو لجناحه... بعد قليل نزل إلى الطابق السفلي، فوجد هايدن يقف هناك أمام المدفأة يتبادل النظرات مع كيمبي.

- ماذا هناك يا مستر كيمبي؟

قال كيمبي:

- كنت مارا هنا لأطمئن فوجدت هذا السيد هنا..

قال ماجي:

- هذا ضيفنا الأخير...

- دعني أخبرك أنني قدمت اختراعا مهما لهيئة السكك الحديدية منذ أعوام.. تحمس له مستر كندرد المدير السابق.. ثم رحل وترك منصبه، وهنا جاء مستر هايدن هذا.. قال إنني مخبول وطردني من مكتبه.

ثم قال في غل:

- كنت أشعر بمرارة.. ومع الوقت كنت أستعيد هذا الموقف المهين في مكتبك، الآن أجدك هنا في فندق أنا مسئول عنه.. هذا وقت مناسب أقلب الموائد وأطردك من هنا.

غمغم هايدن:

- جرب هذا.

قال كيمبي:

- لن أفعل.. ربما لأنني صرت وديعا، وربما لأنني أعرف من صاحب المفتاح السابع!

لم يجب هايدن.. ولم يتحرك أحد للحظات. وبعدها خرج كيمبي من باب غرفة الطعام

الفصل الخامس عشر

حديث المائدة

ارتجف ماجي وهو يفكر في المفتاح السابع، إذن إليجا كيمبي يعرف جيدا شخصية من يقيم في البناية الملحقة، وبدأ القوم يتجمعون حول مائدة العشاء، الظلال تغمر المكان وتلقى أسئلة لا حصر لها.

فجأة صاح هايدن إذ رأى مس ثورنهيل على الدرج:

- ميرا! .. بالله عليك ما معنى هذا؟

قالت الفتاة في غموض:

- للأسف.. أعرف معنى هذا..

احتشد ضيوف الشتاء حول المائدة.. وراح ماجي ينظر للعيون الحاقدة المفعمة بالكراهية.. هؤلاء القوم لا يرون سواه يفصل بينهم وبين الذهب الذي يشتهونه.

قال العمدة وهو يأكل بنهم موجها كلامه لمس نورتون:

- لا شك أنني سأعتاد الأكل على ضوء الشموع بعد ذلك، برغم أنني اعتدت الأكل في ضوء ساطع.. لو كانت لديّ ابنة في سنك لكانت الآن تقرأ رواية بجوار المدفأة بدلاً من المغامرات فوق الجبال..

قالت الفتاة:

- هذا أفضل لها.. لأنها بهذا لن تعرف أشياء مخجلة عن أبيها...

صاحت مسز نورتون في احتجاج:

- عزيزتي...

هكذا مضى الغداء في محادثة مقتضبة مفتعلة عن الرومانسية ومعناها.. فلما انتهى اتجه البروفسور إلى غرفته، وبعد قليل ظهر بكامل ثيابه وهو يحمل حقيبته وأعلن أنه يودع الجميع، فقد طالت إقامته هنا. إن الأعمال تنتظره في الجامعة.

سأله بلاند متهكما:

- هل ستعود للشقراوات اللاتي يصبغن شعرهن والصحافة المسعورة التي تسلقك بلسانها؟

- للأسف.. ولسوف أفتقدكم بشدة فقد كانت معرفتكم كنزا.

هنا نهض العمدة ولو ماكس وسدا الطريق على البروفسور، وقال:

- أعتقد أنك تبلف يا سيدي.. يجب أن أرى ما في هذه الحقيبة وأن أفتش ثيابك.

قال البروفسور بائسا:

- هل تتخيل أننى سارق؟ يا للهول! رجل في مركزي الاجتماعي!.. يمكنك النظر لحقيبتي ولن تجد سوى لوازم السفر..

كان ماجي قد قرر أن هذا الرجل الضليل لا يحمل في حقيبته شيئا غريبا، يجب أن يلقي نظرة على غرفته. هكذا هرع إلى الدرج وحاول فتح باب الغرفة فوجده موصدا..

سمع صوت النافذة مفتوحة بالداخل.. جرى لجناحه رقم سبعة وخرج للشرفة كي يدخل غرفة البروفسور من النافذة المفتوحة، هنا اصطدم بظل شخص يجري في الاتجاه المعاكس.

الفصل السادس عشر

رجل في الظلام

لخمس ثوان وقف ماجي والرجل الذي اصطدم به يتبادلان النظرات. القمر مكتمل في السماء يجعل بالدبيت تبدو كأنها في بطاقة كريسماس فجأة هشمت الريح غصن شجرة خلف الرجلين كأنها تعلن بدء المعركة.

قال ماجي:

- لكم تمنيت أن أقابلك منذ زمن.

قال الآخر:

- ماذا تريد مني؟

- لفافة - لفافة صغيرة أعتقد أنها في جيبك الآن....

- ليس لدي وقت أضيعه معك.. هلم أفسح الطريق لي.. وإلا..

طارت قبضة الغريب نحو ماجي فتفاداها بسرعة.. نفس القبضة التي هزمت العمدة ولو ماكس أمس. التحم الرجلان في الصراع فوق الثلج.. وأدرك ماجي أن خصمه ليس ضعيفا.. اضطر لاستعمال عضلات لم يستعملها منذ قرون.. كان القتال شرسا عنيفا في ضوء القمر، وقد تدحرج الرجلان خارج الشرفة.. شعر ماجي أن قواه تتخلى عنه. استجمع قواه وأسقط خصمه على أرض الشرفة، ثم جثم فوقه. انتزع اللفافة من جيب الرجل، ثم

وثب جريا إلى داخل الحانة.. وخلال لحظة كان في حجرته وقد أوصد الباب.

هذه هي اللفافة فعلا بما فيها.. لقد عادت له، وهذه المرة لن يتخلى عنها.

رأى ظل الرجل خلف النافذة فجرى للباب ليغلقه.. هنا انفتح الباب فجأة ورأى هايدن. في يده مسدس وفي وجهه القسوة. وإن بدا عليه السرور لما رأى اللفافة في يد ماجي.

- هل هذا المال يخصك أيها الشاب؟ لا؟ إذن هو لي، والقانون يسمح لي بإطلاق الرصاص عليك قال ماجي:

- لا أنصحك بالكلام عن القانون ولا جذب الانتباه لما يحدث في بالدبيت.

فكر هايدن قليلا ثم وضع المسدس في جيبه وقال:

- معك حق.. لن أطلق الرصاص..

هنا سمع ماجي من يتحرك خلفه قادما من جهة النافذة. شحب وجه هايدن وبدا عليه الرعب، وهتف ويده تسقط جواره:

- رباه!... كندريك!!..

رد صوت الرجل الذي كان يتصارع مع ماجي:

- نعم يا هايدن، قد عدت...

- ماذا أتى بك؟

اتقدت عينا الرجل وقال:

- لو أن رجلا يعرف الطريق من الجحيم لبيته فأي طريق يتخذه في ظنك؟

هنا دوت صرخة امرأة، وظهرت ميرا ثورنهيل مندفعة نحو الرجل فتناولت يده وصاحت:

- ديفيد! هل هذا حلم؟ حلم جميل؟

قال هايدن بصوت لا حياة فيه:

- سامحني يا ديفيد.. لم أقصد..

ثم استدار نحو غرفة النوم في الجناح دون أن يبالي بالعمدة ولا بلاند ولا باقي الضيوف الذين احتشدوا على الباب، أغلق الباب على نفسه فاندهشوا.. ثم دوت طلقة مسدس خلف الباب.

جرى مستر ماجي يقتحم غرفة نومه.. على الفراش تمدد هايدن في منظر غير مبهج. أخذ المسدس من اليد ثم غطى الجثة وخرج.. قال بصوت خفيض:

- لقد.. لقد قتل نفسه....

ساد الصمت للحظات ثم قال كندريك:

قتل نفسه؟ لا أفهم.. لم فعل هذا؟

ثم نظر لوجه الفتاة الشاحبة الواقفة جواره.

رأى ماجي عيني فتاة المحطة تنظران له في حيرة فقال لها همسا:

- متى يرحل القطار الثاني لرويتون؟

- خلال ساعتين.

- يجب أن تكوني فيه.. سيكون معك مائتا ألف دولار.. هي في جيبي الآن..

لم ترد فقال:

- خائفة؟.. أنا سأبقى هنا وأتأكد من أن أحدا لم يتبعك..

- لست خائفة.. فقط مندهشة.. هل.. هل قتل نفسه لأنك أخذت المال منه؟

- هايدن؟ لا.. هذا موضوع بينه وبين كندريك هذا..

وانطلقت تعد نفسها في حجرتها، في الوقت ذاته اجتمع رواد الحانة وبينهم مستر كندريك الجديد، وهو رجل شائب الشعر قبل الأوان له وجه شاحب من الحمى. جاءت مس نورتون بعد قليل مع أمها.. كانت تلبس معطف فراء فاخرا وقد احمر خداها والتمعت عيناها فبدت فاتنة.

قال ماجي للرجال:

- أرجو أن يجد كل منكم مقعدا مريحا لأنه سيجلس عليه فترة طويلة.

ثم أخرج من جيبه المسدس الذي أخذه من يد هايدن، ومن الجيب الآخر أخرج لفافة المال، وقال:

- أنذركم جميعا... سوف أطلق الرصاص على كل من يتحرك.. مس نورتون ستأخذها معها وتلحق بقطار العاشرة والنصف.. لن يغادر أحد الغرفة حتى الثانية عشرة والنصف..

وابتسم ووضع اللفافة في يد الفتاة، وقال لها أن ترحل، هنا نهض البروفسور ووقف أمام ماجي وقال:

- لحظة.. قبل أن تسرق هذا المال أمام عيني، يجب أن أخبرك من أنا ولم أنا هنا.. ثم أردف:

- أنا ومستر كندريك نمثل في حانة بالدبيت المدعي العام لرويتون.

هنا انفجر العمدة في غيظ:

- درايتون؟ درايتون أرسلكما هنا؟ الفأر!... أنا الذي وضعت هذا الصبي في منصبه.. لا يجرؤ على الاقتراب مني..

- بل سيفعل.. سوف يقاضيك لأنك منحت شركة خطوط حديد الضواحي الحق في التعاقد، مقابل رشوة بمائتي ألف دولار..

ثم نظر لماجي وقال:

- لهذا يا مستر ماجي هذا المال دليل إدانة وأنا أطلب تسليمه لي.

ابتسم ماجي وطلب من الفتاة أن تسرع.

فقال له البروفسور:

- هل ترفض؟ إذن أنت لص والفتاة مساعدة لك..

خرجت الفتاة فأطلق ماجي الباب بالمفتاح ودس المفتاح في جيه. جري مستر لو ماكس نحو النافذة هنا دوت طلقة وتراجع الرجل وهو يمسك بفخذه وقد تمزق سرواله..

قال ماجي:

- لا أريد قتل أحد.. لكني لست خبير رماية لذا أنصح الجميع بألا يختبرني أحد..

قال البروفسور

- هل تعرف هذه الفتاة جيدا؟

- لا..

- يا لك من أحمق!!...

قال ماجي باسما:

- أرجو أن يكون الكل مرتاحين.. سيكون انتظارا طويلا..

لا إجابة.. عوت الريح من النوافذ. وتوهجت النار على وجوه السجناء.

O

الفصل السابع عشر

البروفسور يحكي

طال السهر ودقت ساعة المدينة العاشرة مساء، لا بد أنها في المحطة الآن.. الغرفة التي كانت تبكي فيها، من هي فعلا؟.. ما أهمية مال الرشوة لها؟ لا يعرف لكنه يثق فيها، ومن بعيد سمع صفير القطار فأدرك أن الساعة انتصفت.. إنها راحلة.. لكن لأين؟

دنا البروفسور بمقعده من ماجي وطلب الكلام.. قال:

- مس ثورنهيل تقول إنها تعرف أنك رجل محترم، وأنك على الأرجح تصرفت تحت وهم الفروسية، وتحت إغراء وجه جميل.. كلنا نحب الجمال وأي شخص يجري دم في عروقه لن يعترض، هذه اللفافة مهمة جدا وفيها دليل على فساد أحد الساسية.. عليك أن تساعدنا في استعادتها، ثم تسمع تفاصيل القصة الغامضة كلها.

هنا دقت الساعة الحادية عشرة..

قال البروفسور:

- هذا العمدة فاسد مرتش ويجب أن يعاقب أو تلفظه الحياة السياسية برغم أنك أرسلت الدليل ضده عبر البلاد مع فتاة حسناء.. كان درايتون المدعي العام للبلدة تلميذا لي في الجامعة، ثم عمل مع العمدة كارجان. أحبه هذا الأخير فتألق نجمه بسرعة. بدأ درايتون يتضايق من كم الفساد المحيط به ومن بيع

أرواح الناس. عينه العمدة مدعيا عاما وهو يحسب أنه سيكون تحت إمرته...

ثم طرق على ركبة ماجي وقال:

- منذ أسابيع كلمني درايتون وقال إن فرصته الأولى جاءت.. كان هذا عندما أراد مستر هايدن من شركة سبيريان إلكتريك أن تتعاون مع الحكومة في إنشاء خط حديدي، وكانت الشركة قد فقدت نفوذها بسبب مرض ثورنهيل رئيسها. كان هذا سيرفع رأس مال الشركة لمليوني دولار.. اتصل هايدن بكاريجان العمدة فقال له العمدة إنه سيمرر المشروع مقابل رشوة قدرها مائتا ألف دولار، وكان العمدة يشعر أنه فوق القانون أو القانون نفسه، لذا تقاضى الرشوة دون حذر وفي الشارع، لا أعرف التفاصيل فعلا ولا أعرف ما كان بينه وكندريك.. لكن هايدن كان يخشي القبض عليه. كان صاحب الحانة قد قال له إنها مكان مناسب لهذه الصفقة المريبة.. العمدة لم يحب فكرة القدوم لبالدبيت لأن هذا الحذر بدا له غير ضروري..

ثم رمش بعينه كأنه يتذكر وقال:

- أما عن مستر بلاند فهو موظف يعمل عند هايدن.. أرسلوه هنا مع المال فوضعه في الخزانة لدى وصوله... لم يكن يعرف طريقة فتحها.. لكنها كانت مفتوحة.. فقط وضع المال بداخلها ثم أغلق الباب وانتظر قدوم العمدة الذي سيعرف طريقة الفتح بالهاتف من هايدن..

- كان درايتون يعرف هذا كله. لذا جاءني منذ أيام.. كان بحاجة لان يرسل لبالدبيت رجلاً لا يعرفه العمدة.. رجلا يمكن أن يحكي قصة ملفقة لسبب قدومه، طلب مني أن أكون هذا

الرجل.. كان هذا صعبا بالنسبة لي.. لم أشعر قط أن نار المدفأة في حجرة مكتبي جذابة بهذا الشكل!

- ثم جاء كندريك. كان مخطوبا لميرا ثورنهيل والحقيقة أن هايدن كذلك كان يحبها.. لذا راقت له فكرة خيانة صاحبه. طلب كندريك بإلحاح أن يأتي للحانة معي، خاصة أنه غير مستريح لتواجد شخص في سني وحده في هذه القضية. وجاء معي منذ ثلاثة ليال.. بينما نحن شرقي الجبل رأينا الضوء في حجرتك، فخطر لنا أنه من الحكمة ألا يبدو منا سوى رجل واحد. هكذا تسلل هو من باب جانبي بينما جلست أنا وبلاند معك نتكلم في المكتب، وفي الصباح أخبرت كيمبي بكل شيء فقدم له مفتاحا..

حدث شيء خطأ وعرف هايدن أن الحكومة لن تمرر المشروع لذا أبلغ بلاند ألا يسلم المبلغ، وبالطبع لم يكن بلاند يعرف طريقة فتح الخزانة. هكذا بدأت الميلودراما.. فجّر كارجان الخزانة.. حاول كندريك منعه. أنت منعت كندريك.. تجسست عليك من ستائر النافذة فرأيتك تخفي اللفافة في المدفأة.

في الصباح قمت بالسرقة لأول مرة في حياتي.. كان عقابي سريعا عندما انقض عليّ بلاند. بعد هذا وجدت اللفافة الثمينة بين يدي ناسك بالدبيت. لم أتخيل ما يمكن أن يرتكبه شاب مجنون مثلك من أجل عيني حسناء..

الثانية عشرة مساء!

لا بد أن الفتاة في محطة رويتون الآن ومعها المال، تسائل ماجي:

- هل لك أن تفسر لي لماذا جاءت مس ثورنهيل إلى بالدبيت؟

قال البروفسور:

- دوافعها شريفة جدا.. كان أبوها هنري ثورنهيل يدير شركة الخطوط الحديدية، وقد اضطر مؤخرا لترك العمل لنائبه.. هايدن، سمع الأب عن نية هايدن لتقاضي الرشوة.. فصمم على منع ذلك وتكفلت ابنته الشجاعة بذلك.

- إذن هي سعيدة لأن الدليل اختفى..

- تحدثت معها في هذا.. لن يذكر اسم أبيها أبدا.. فأنا ودرايتون نحترمه بشدة.. الشخص الوحيد المتورط فعلا هو ميت في الغرفة فوق. المتهم الآن هو العمدة كارجان.

ثم أضاف:

- المشكلة هي أن تعرف شخصية تلك الفتاة التي أعطيتها هديتك.. أرى أن نسأل السيدة التي زعمت أنها أمها..

ووقف جوار المرأة الجالسة.. المرأة التي كانت تزعم أنها أم الفتاة. رفعت نحوه عينين ناعستين. وبدا مظهرها مبهرجا أكثر من أي مرة سابقة. قال لها البروفسور:

- مدام.. لقد فرت ابنتك ومعها مبلغ ضخم من المال نحتاج له كدليل للمدعي العام.. وأنا أطالبك بأن تشرحي نواياها ووجهتها..

نظرت المرأة له بغباء، ثم قالت:

- هي ليست ابنتي.. أنا أملك بيتا في رويتون والفتاة كانت تستأجر غرفة عندي.. جاءت بي هنا كمرافقة تحميها. وهي فتاة مهذبة محترمة ونقودك في أمان. هذا ما أستطيع قوله..

كان قلب ماجي يتواثب انفعالاً، إذن هو مخدوع.. في الوقت نفسه تؤكد السيدة أن الفتاة محترمة.

قال ماجي:

- انتهى الحصار.. أنتم أحرار.. فقط أطلب من مستر بيترز أن يذهب للبلدة ويعود بكيمبي ومعه المحقق في جرائم القتل..

هبّ العمدة واقفا وقال:

- محقق؟ لا أرغب في أن أكون ضمن هذه القصة.. لنذهب يا لو ماكس.

قال ماجي للبروفسور:

- أنا لم أعد سجانا يا بروفسور.. هل تريد إبقاء هؤلاء السادة كشهود؟

قال البروفسور:

- يمكنهما الرحيل فانا أعرف أين هما...

قال ماجي لمستر بلاند باسما:

- قبل أن ترحل.. أريد أن أسألك عن أرابيلا.. من أين جئت بالقصة؟

قل بلاند:

- بعض القصة حدث لصديق لي.. صديق له متجر ثياب.. غيّرت الكثير في القصة طبعا.

قال العمدة:

- هلم نرحل يا لو.. إن درايتون رجل ذكي لكن دليله قد ضاع.. ضاع بسبب شاب عاشق..

وخرج ثلاثة الرجال من غرفة الطعام، ومن النافذة راقبهم ماجي يختفون عبر الطريق الممتد.

الفصل الثامن عشر
ورقة حمراء

كان ماجي يشعر بوحدة قاسية وهو يتناول قطعة خشب ويطوح بها في النار، تناثر الشرر في الغرفة. اتجه كندريك ليجلس جوار ماجي وقد بدا على وجهه إرهاق ومرارة، كانت مسز نورتون البدينة نائمة تحلم.. بينما مس ثورنهيل تتكلم همسا مع البروفسور.

قال مستر كندريك لماجي:

- أعتقد أن هناك بعض التفاصيل للقصة يجب أن تعرفها. منذ ستة أعوام كنت رجلا مختلفا.. كنت أعمل مع هايدن في شركة سكك حديد الضواحي وكنا صديقين في الجامعة. كنت أثق به.. كنت صغيرا والمستقبل أمامي.. وكانت قد خطبت ابنة ثورنهيل المدير.. ذات يوم أخبرني هايدن بفرصة للثراء.. لم تكن قانونية تماما لكن كان كثير من الناس يفعل ذلك، وقد وعدني هايدن بأن يأخذ احتياطه ليكون الأمر آمنا...

ونظر إلى النار، ثم قال:

- ذات ليلة جاء هايدن ليخبرني أننا مهددان بالقبض علينا.. ودعاني للّقاء غد في نادي أرجوت لنقرر ما نعمله. عندما التقينا قال لي هايدن إنه فكر في الأمر. علينا الفرار من رويتون، وقال: إنه لا داعي لتوريط الاثنين معا.. ليحمل أحدنا كل الاتهامات ثم يفر. وافقت على ذلك فدعاني لدخول غرفة اللعب حيث كان الأدميرال العجوز يلعب السوليتير في الضوء الأخضر.. تقدم

هايدن من كومة ورق وطلب مني أن أسحب، وقال لو كانت الورقة سوداء فسوف ينسحب هو.. لو كانت حمراء فلسوف أرحل أنا..

- كتمت أنفاسي وسحبت.. عندما جرؤت على النظر للورقة كانت حمراء.. قررت هذه الورقة حياتي.. غادرت رويتون وتركت الفتاة التي أحبها.. رحلت لبلدة في الجنوب الأمريكي وقضيت وقتي في التدخين وشرب الروم الرديء في فندق لا يمكن تحمّله. كتبت بعد عام لهايدن فقال لي إنه من الخير أن أبقى حيث أنا.. وقال كذلك إنه سيتزوج خطيبتي ميرا..!

ظللت ستة أعوام أحلم بورقة حمراء ترقص أمام عيني.. بعد فترة كتبت لصديق كلية آخر هو درايتون، كان قد صار مدعيا عاما في رويتون. هنا أدركت أن شيئا لم يحدث.. لم يتهمنا أحد بشيء.. لقد كذب هايدن عليّ، كذب حتى في أنه سيتزوج ميرا ثورنهيل.. كان يريد ذلك ولم يتم. تصور شعوري!.. عشت في قبر ستة أعوام بلا ثمن.

عدت للبلدة حيث كان درايتون ينتظرني، قال لي إنه يعتبر فترة المنفى التي عشت فيها كافية لاستتابتي، وقال إنه رتب كمينا لهايدن في حانة بالدبيت.. وأنت تعرف ما حدث بعد هذا.

ثم فكر قليلا وقال:

- لماذا قتل هايدن نفسه؟ لقد كان يحب الحياة طيلة حياته. هل هناك جانب لا نعرفه من القصة؟.. على كل حال كما أخبرتك بما أعرفه...

- أعتقد أن عليك ألا تحكي هذه التفاصيل فتشوش على المحقق.. ليكن سبب الانتحار هو أن هايدن شعر بأن الأنشوطة تضيق حوله في تهمة تقاضي الرشوة.. لكني آمل فعلا أن يكون أفضل ما في حياتك لم يأت بعد.

ونظر عبر الفرقة إلى ميرا ثورنهيل.

كان يفكر في فتاة المحطة.. أين هي؟ كان واثقا من عينيها الزرقاوين الصادقتين، لكن من هي حقا؟

قالت مسز نورتون:

- مستر ماجي.. أنت كنت صديقا لامرأتين مجنونتين.. أطلب منك خدمة أخرى هي أن تساعدني على ركوب القطار التالي لرويتون.. قال باسما:

- سأفعل يا مسز نورتون.. بالمناسبة هل هذا الاسم صحيح؟

- صحيح بالنسبة لي لكن ليس لها.

- هل لك أن تخبريني بشيء عنها؟ ماذا ستعمل بالثروة التي تركتها معها؟ ولماذا أتيت...

قالت المرأة:

- الله أعلم... لم أتعمد هذا.. توسلتْ لي كي أفعل فكان أول ما فعلته أن ركبت القطار معها... أعرف أنها فتاة شجاعة وأن الخطر الوحيد الذي يهددها هو أن يقتلها أحد من أجل هذا المال..

دخل كيمبي من الباب وقد بدا عليه النعاس والضيق لأنه أوقظ من نومه، ومعه رجل صغير مهم يقوم بالتحقيق. بدت عليه سيما القاضي وشيرلوك هولمز معا.

ذهب الرجلان للطابق الثاني ليريا الجثة في الجناح 7 ثم عاد كيمبي مدلهم الوجه، وقال:

- الفتى المسكين.. كان شابا.

ثم تقدم ليصافح كندريك وقال:

- أخيرا أتيحت لي فرصة أن أشكرك لما قدمته لاختراعي.. كنت قانطا وقد بليت أوراقي وبهتت رسومي، وقررت أن أعتزل الحياة وأبقى في بالدبيت للأبد.

قال كندريك:

- ليس للأبد.. أنا مؤمن باختراعك وسوف أعيده للحياة بمجرد أن أعود لعملي.. ثق فيّ.. أنا أستطيع.

حك كيمبي عينيه وقال:

- لا أستطيع أن أشكرك بما يكفي.

ثم نظر للطابق العلوي وقال:

- يجب أن أعود لأعلى.. به....

الفصل التاسع عشر

خروج الممثلين

نظر ماجي خارج النافذة في الصباح التالي، يصغي لضجيج كيمبي ورجلين آخرين بحملان شيئا.. لم ينظر للشيء المحمول لأنه مشهد يريد ألا يراه.

هذه إذن نهاية يومين ونصف من الوحدة. انتهى اليومان ومعهما كل هذه الضوضاء وها هوذا في قصة حب.. نعم.. حب!.. مع فتاة حسناء من أجلها كافح وداور وسرق، هو الذي كتب كثيرا عن كيوبيد لكنه أصر على أن يبقى بعيدا عن سهامه.. يحب فتاة لا يعرف اسمها ولا دوافعها..

تذكر الرفاق في نيويورك.. في النادي.. ماذا سيقولون لو عرفوا أن ماجي قد جن في بالدبيت؟

أعلن كيمبي أن القطار القادم لرويتون يتحرك في السادسة والنصف. فهبت مسز نورتون معلنة أن عليها اللحاق بالقطار بأي ثمن.

صعد ماجي للجناح رقم سبعة.. كانت أحداث ليلة أمس تملأ الغرفة بالمأساة.. رأى أشباحا تدور حوله وهو يشعل الشمعة، وتذكر رغبته في كتابة كتاب خالد عندما جاء هنا، لكن الميلودراما لاحقته.

جمع حاجياته ووضعها في الحقائب ثم غادر الجناح..

عند أسفل الدرج انتظرته مجموعة ممن يرتجفون بردا، المسز نورتون تلبس قبعة لا يمكن تصورها.. البروفسور أكبر سنا من المعتاد.. غادر الجميع المكان، وأغلق ماجي الباب بالمفتاح الذي أعطاه إياه مستر هال بنتلي في الشارع 44 في نيويورك.

عاد الصمت لحانة بالدبيت.. عادت تنتظر رقصات الفالس وصوت الضحكات الصيفية وصوت الخطوات في الشرفات، فقد احتلتها بعض الأشباح لفترة مؤقتة، وكانت هناك دراما عاطفية وقصص مثيرة عن نقود ومسدسات.. ثم ولّى هذا كله واستعادت الحانة صمتها.

ومشى الخمسة وراء مستر كيمبي وهو يبتعد في الممشى. وكانت مسز كيمبي تنتظرهم وقد أعدت الإفطار بدلا من مستر بيترز الذي أعلن أنه لا ينوى البقاء. كانت السيدة ودودا تتصرف كالأمهات.. مع أن الساعة الرابعة والنصف صباحا.

قالت مسز كيمبي وهي تقدم لهم بعض الكعك:

- تخففوا من الثياب واجلسوا.. لا بد أنكم جائعون.. أخبرني كيمبي بمن كان يطهو لكم فصحت مغتاظة: كيف لكاره النساء هذا أن يمارس فنون النساء؟ لترحم السماء هؤلاء البؤساء! الرجل لا يصنع سوى الحساء والقهوة، ومن الصعب غالبا أن تعرف أيهما الحساء وأيهما القهوة!

جلسوا يلتهمون الإفطار وكان شهيا جديرا بامرأة فعلاً.

انتهى الطعام فنهضوا وهم ينظرون لساعاتهم عازمين على الذهاب لمحطة القطار، فدنت مسز كيمبي من كندريك رجل

شركة القطارات وقالت:

- لا أعرف كيف أشكرك يا مستر كندريك على بث الأمل في كيمبي. لن تدرك معنى هذا أن تقنط ويبدو أن حياتك انتهت وضاعت، ثم تسمع أن هناك فرصة..

قال كندريك في دفء:

- هذا من دواعي سروري أن أمنح زوجك فرصته.

ظهر الفجر في السماء بينما انطلق سكان بالدبيت للطريق، مودعين كيمبي وزوجته اللذين وقفا على الباب مودعين. وصل الحشد للمحطة.. هناك قابل ماجي صديقا قديما.. موظف المحطة الذي كان يشكو من ملل البلدة..

قال له:

- توقعت أن أراك ثانية.. لا أنكر أنك بعثت بعض الحياة في هذا المكان... لو كنت أعرف ليلة وصولك لذهبت للحانة معك..

قال مامجي:

- أنا لم أفعل شيئا.

قال الموظف:

- هناك كلام في البلدة عن طلقات رصاص وأضواء.. أشياء لم تحدث منذ أعوام.

- بالمناسبة.. هل لاحظت المسافرين في قطار العاشرة والنصف؟

كرر الموظف:

- العاشرة والنصف! المرء ينام من حين لآخر.. لم أكن هنا وقتها، بل هو الشاب كال هانت..

ظهر خيالان في المحطة.. العمدة وكلبه المخلص.. ماكس، لقد تلاشت كبرياء العمدة كأنها وردة ذابلة.

قال ماجي محييا:

- مثلنا؟... تركبان قطارا مبكرا؟

قال المدة كارجان:

- أيها الشاب.. لو أقمت ليلة في فندق اسمه البيت التجاري تعرفت الإجابة.. الإجابة هي القتل...

قال ماجي ضاحكا:

- آسف.. لقد نعمنا بافطار شهي عند مسز كيمبي.. كان يجب أن تبقيا.. بالمناسبة أين مستر بلاند؟

قال العمدة:

- لقد تخلصنا منه في قطار يبتعد عن رويتون.. لكني ما زلت أرغب في معرفة أين ذهبت تلك الفتاة أيها الشاب..

قال ماجي:

- مستر كارجان.. ما تعرفه عن الفتاة هو قدر ما أعرفه أنا.. طلبت مني أن أجلب لها المال ففعلت!.. ..

- هذه قصة خيالية أيها الشاب.

- وصادقة جدا..

- إن فرق برودواي المسرحية سوف يسعدها أن تقابلك.

هنا صاح الموظف:

- قطاركم دخل المحطة..

خرج الجميع للرصيف.. وكان ماجي يحمل حقيبة مسز نورتون. وعلى المحطة كان أحد الغرباء يتأهب للسفر. اكتشفوا أنه ناسك بالدبيت.

كان هو فعلا وقد حلق لحيته ومشط شعره، وبدا أنه يتأهب للعودة للمدينة من جديد. قال لهم:

- عرفت أن هذا قادم... الشتاء قارس هنا ثم رؤيتكم.. سأعود لبروكلين والكريسماس.. لكني سأعود في الصيف ثانية إلى عملي كبائع بطاقات..

سأله ماجي

- كمؤلف لمؤلف.. ماذا عن كتابك؟

- ربما أعود له في الصيف... وربما لا يكتمل أبدا... خطر لي وأنا في الكوخ أن أعظم الأعمال في تاريخ البشرية لم تكتمل قط.

دخل القطار المحطة وراح يهدر نافد الصبر.

صعد المسافرون له.. ولوح ماجي من الباب مودعا الموظف الذي وقف على باب المحطة، وراح يرمق البناية حتى توارت في الغبشة.

الفصل العشرون

لعبة الأدميرال

اتجه ماجي لعربة التدخين.. كانت هناك عدة صفوف من المقاعد الحمراء، وكان المكان خاليا ما عدا العمدة وماكس، مضى إلى مكانهما وأشعل سيجار ما بعد الإفطار.

كان لو ماكس غارقا في تدخين سيجار، بينما جلس العمدة وقد وضع صندوقا من الورق المقوى بين مقعدين وراح يلعب السوليتير..

قال ماجي:

- لا بد أن نابليون كان يزجي الوقت الممل في لعب الورق.

فنّط العمدة الورق بلا براعة، وقد أطبق شفتيه الغليظتين، وقال:

- دع المزاح.. لا أعتقد أنه كانت هناك أوراق لعب أيام بونابرت.. أنا قرأت عن الرجل كثيرا وأحبه بشدة..

قال لو ماكس:

- ابتعد عن التاريخ وإلا ذهب رجل آخر للمنفى في جزيرة، قال العمدة:

- لو كنت تقصدني فلا توجد جزيرة سانت هيلانة في مستقبلي..

رأى ماجي أن العمدة يكوم الورق في كومين.. لاحظ أن واحدة منهما عالية جدا، فخطرت له نظرية. سأل:

- هل هذه لعبة السوليتير التي كان الأدميرال يلعبها؟

كان كندريك يقف الآن جوار المنضدة يرقب أوراق اللعب بعيون مرهقة، ثم قال:

- نفس السؤال الذي رغبت في سؤاله..

قال العمدة:

- نعم هي لعبة الأدميرال.. ومن الغريب أن أعرفها.. لأنني لا أقصد الأندية المحترمة التي يذهب لها.. لكنه علمني اللعبة ذات مرة.. واللعبة تسحرني فعلا..

انحنى كندريك يراقب المشهد وهو يلهث، مما أزعج ماجي، وقال:

- لم أعرف قط كيف يلعبونها.

ثمة حافز جعل ماجي يشعر بأن عليه أن يبعد كندريك عن المنضدة. بينما كندريك يسأل عن الطريقة التي يلعبون بها. فقال العمدة:

- لا بد أنك شخت.. لقد قال لي الأدميرال: إن الشباب لا يهتمون بهذه اللعبة -السوليتير - هي لعبة شيوخ..

- أريد معرفة كيف يلعبونها..

راح العمدة يشرح له كيفية لعبها.. يشرح.. ثم توقف عندما رأى أن كندريك يتأرجح.. ثم سقط على الأوراق... سقط فوق

اللعبة التي أرسلت رجلا للجحيم ذات مرة.

وهتف:

- دعك مني.. استمر.. استمر.. اللغة!...

نظر له العمدة في حيرة ثم واصل.

- الآن الملك.. ثم الأس.. انتهت.. لعبة ممتازة..

الآن كانت النار تشع من عيني كندريك وهو ينظر لكومتي الأوراق، ثم تساءل:

- إن هذه الكومة سوداء كلها.. وهذه حمراء كلها.. أليس كذلك؟

ثم وثب جاريا نحو الباب فلحق به ماجي، قال له وهو يجف عرقه:

- هل سمعت؟ شيء مضحك فعلا.

لحق بهما البروفسور، لم يقل كندريك شيئا وانصرف، هنا تبادل البروفسور وماجي النظرات.. وكان عقل ماجي يعمل محاولا تفسير المأساة التي رآها [3].

كان العمدة قد أشعل سيجارا غليظا.. وقال للبروفسور:

- هل ما زلت راغبا في إصلاح الكون؟ لك معتقداتك ولي معتقداتي.. لكن هذا لا يمنع من أن ندخن سيجارين معا..

تناول البروفسور سيجارا آخر من العمدة وأشعله.

أبطأ القطار قرب محطة ريفية فنظر مستر ماجي من النافذة وقال:

- هوبرزتاون.. عشرة أميال على رويتون..

ورأى مستر ماكس يغادر العربة.

قال العمدة:

- الرجال العادلون الذين لا يغرقون في أوهام الإصلاح يعرفون أنني لم أقترف خطأ..

دارت المحادثة، وفجأة عاد لو ماكس للعربة صامتا متسع العينين مذعورا... ككلب يوشك صاحبه على جلده.. وقال:

- جيم..! يجب أن تخرجني من هذا.. يجب أن تحميني!..

في دهشة تساءل العمدة:

- ماذا دهاك؟

جلس الرجل بينما من الصبي الذي يبيع الصحف.. بشعره ذي لون القش ووجهه المليء بالنمش..

قال الصبي:

- كل صحف اليوم يا سادة.. جريدة ستار رويتون.. قصة الرشوة...

رأى ماجي العناوين السوداء الواضحة، كأنها قنابل.

العمدة في ورطة . حاول الحصول على رشوة في حانة بالدبيت. هايدن من شركة سكك حديد الضواحي ينتحر لتجنب

الفضيحة...

قال العمدة للصبي:

- هات نسخة.

كان صوته ثابتا وكذلك تقاطيع وجهه. راح يقرأ وجواره لو ماكس المذعور.

بعد قليل قال:

- صحافة.. هه؟ أنت وصديقتك؟

ابتسم ماجي وهو يطالع جريدته، ثم قال:

- ليس أنا.. صديقتي فعلت.. واضح أنها محررة في جريدة ستار.. هذا مؤكد يا سيدي..

الفصل الحادي والعشرون

الترحيب بعودة العمدة

راح ماجي يقرأ.. شاعرا بنوع من الفخر، الفتاة باسلة فعلا..

يبدو أن مالك الجريدة كان فخورا بها كذلك، لأنه كتب في ثلاث صفحات متوالية عن المحررة التي قامت بعمل يعجز عنه الرجال، وذهبت لبالدبيت ثم عادت ومعها مبلغ الرشوة الضخم، وحدها وبلا عون.

ابتسم ماجي للعبارة الأخيرة.

كانت الصحيفة تفخر بأن حملتها قد قضت على إدارة سياسية فاسدة لقد عرفت أن رشوة ضخمة سيتم تسليمها في حانة بالدبيت، فمن توفده الجريدة لرصد هذه الجريمة؟ هنا ورد اسم مس إيفيلين رودس المحررة الشهيرة في الجريدة. توسلت لهم كي تذهب للحانة، فرفض رئيس التحرير، ثم بدأ يرى أن الفكرة معقولة.. فكونها أنثى سوف يضلل من ذهبت للتحقيق بشأنهم.

ذهبت مس إيفيلين للحانة وقد أدانت كارجان بوضوح، وقد صار معها مبلغ الرشوة بالكامل، وسوف تسلمه للمدعي العام.

حكت الفتاة عن ذهابها للمحطة.. لم تشرح بقاءها في غرفة الانتظار أو دموعها.. بلغت الحانة مع مرافقة لها في الصباح، كان بلاند هناك ثم جاء العمدة وماكس.

استمر العمدة في القراءة بينما لو ماكس يصرخ:

- أنقذني من هذا!

قال العمدة:

- اهدأ.

- أنا قمت بكل الأعمال القذرة بدلا منك بينما كنت أنت تلعب دور السياسي النزيه.. يجب أن تخرجني من هذا.. لن أذهب للسجن بسببك.. سوف أموت..

حكى المقال كل شيء وعن اقتحام الخزانة وعن انتحار هايدن، حتى وصل المال إلى يد محررة ستار، لم تحك أي تفاصيل أخرى. فقط قالت:

- من الطريف أن نلاحظ وجود مستر ويليام هالويل ماجي، كاتب الخيال من نيويورك في بالدبيت. جاء هناك كي يتفادى المدينة الكبرى ومغرياتها ويعمل وحيدا.. لكنه تورط في هذه الدراما العجيبة، سوف يكون مستر ماجي من الشهود الرئيسيين عندما يحال كارجان للمحاكمة. وكذا البروفسور تاديوس نورتون، ومستر كندريك مدير الشركة السابق الذي تقاعد منذ أعوام ستة.

قال البروفسور وهو يقرب الجريدة التي ابتاعها من أنفه:

- مستر ماجي؟

قال ماجي ضاحكا:

- من جديد يفسد المحررون حياتك يا بروفسور.

قال البروفسور بعدما تنهد:

- يجب أن أهنئك.. فقد أظهرت بُعد نظر واضحا وكنت حسن التقدير.

كان ماكس يصرخ:

- أخرجني من هذا..

قال العمدة في عصبية:

- بحق السماء أخرس ودعني أفكر.. هؤلاء القوم لم يظفروا بي بعد.. سأدمر هذا المدعي العام درايتون وأدمر كل الأوغاد في جريدة ستار.. هذا المنشور القذر. سوف أغلقها لهم.

قال البروفسور:

- ربما تفعل.. لكن بعد عركة حياتك كلها..

- أنا جاهز!.. لم ينته أمري بعد.. إن فكرة أن تقهرني فتاة صغيرة.. فتاة أصغر من أن أضعها في جيبي... لا..

لكن التجاعيد ملأت وجهه.. وبدا كرجل مهزوم.

هنا وصل القطار إلى قرب المحطة وظهرت لافتة مضيئة، لكنه لم يدخلها، بل توقف.. ظهر رجل شرطة داخلا إلى عربة التدخين فنظر العمدة له.

قال في صوت منهك:

- مرحبا...

خلع رجل الشرطة خوذته. وقال:

- أردت أن أنذرك يا مستر كارجان.. هناك زحام في المحطة ينتظرونك فقد عرفوا أنك في هذا القطار. أرى أن تركب سيارة من هنا ولا تنزل في المحطة..

هنا نهض مستر كارجان في عزم وقوة.. وقد بدا أنه لا يهزم بسهولة.. استعاد لياقته، ومشى نحو رجل الشرطة في خطوات واثقة وصاح:

- هل أنزل هنا يا دان؟

قال الشرطي المرتبك:

- نعم سيدي.. هناك حشد شرير ولا تعرف ما قد يفعلون..

- وهل تراني أخشاهم؟

- لا يا سيدي.. لم أرك خائفا في حياتك.

- إذن أشكرك لتحذيري.. لكن هذا الحشد لا يمثل لي أكثر من عش نمل أمشي عليه بحذائي..

ولما رأى لو ماكس مذعورا قال له:

- اذهب أنت.. خذ معك قبعك وحقيبتك يا جبان... أنا أعرفك.

هكذا أخذ ماكس حاجياته وودع الجميع وفي لحظة كان قد اختفى.

اتجه ماجي والبروفسور ليأخذا حقائبهما فقالت مسز نورتون لماجي:

- الآن أنت تعرف.. أنا سعيدة بأن الطفلة في أمان..

تناول ماجي حقائبها مع حقائبه، وهنا ظهر كندريك.. كان غارقا في التفكير فيما رآه في عربة التدخين. لكنه كان يبتسم بشكل خافت، وقال:

- مستر ماجي.. ما عرفناه معا سيظل سرا بيني وبينك والمتوفى.. لا أريد أن تعرف من ستكون زوجتي شيئا عن ذلك..

- لا تخش شيئا.. أنا نفسي بدأت أنسى...

جاءت مس ثورنهيل ضاحكة وقالت لماجي:

- القصة تنتهي نهاية سعيدة.. يجب أن تأتي وتزورني يا مستر ماجي.. هذا ليس وداعا.

ودّعها وتأهب للنزول على الرصيف.

نظر للخلف فرأى العاشقين يتبادلان النظرات. وأدرك أن كندريك سينسى لعبة السوليتير بسرعة، وهوى ظل على القطار.. ظل محطة رويتون. كان هناك صخب ناس يقتربون وكانوا غاضبين جدا.. نظر عمدة رويتون لماجي ووجهه شديد الهدوء، وقال:

- الصبية يرحبون بعودتي للبيت.

توقف القطار فرأى ماجي صفوفا من الوجوه وسمع صوت زحام غاضب. نظر العمدة لهذه الوجوه في برود وأنصت لصراخ ألف حنجرة.. ثم نزع قبعته وقال:

- يسعدني أن أراكم.... بينما دوت أصوات غاضبة:

- هذا هو!

- هذا هو كارجان ذو المئتي ألفز

وصاح البعض مطالبا بالريش أو القار.. لكن العمدة ظل يبتسم.

جاء رجال الشرطة ليساعدوه على الخروج من الزحام، وصاح صائح:

- من يدفع رواتب الشرطة؟ نحن.. من يملك الشرطة؟.. كارجان!..

أخرج الرجل سيجارا من جيبه وأشعله مستمتعا بهذا العرض المسرحي. صار الهتاف عدوانيا.. لكنه مشي في الطريق بثبات وجرأة.. شق طريقه بينهم. وقف رجل صغير الحجم في طريقه فأمسك بكتفيه وأزاحه برفق. ثم مضى بينهم وهم يتراجعون كالنمل.

هنا دوى صوت بين الزحام:

- مرحبا يا جيم!..

لوح العمدة بيده.. فتوقف الصياح.. ما زال كارجان سيد مدينته.

قال ماجي للبروفسور:

- قل ما تريد.. لكن هذا رجل شجاع.

هنا رأى الفتاة.. فتاة المحطة.. تقف على عربة بضاعة على اليسار وتلوح بيدها، جرى نحوها بصعوبة وسط الزحام. لم يفسح له الناس مكانا كما أفسحوا لحاكم المدينة.

الفصل الثاني والعشرون

الشيء المعتاد

أمسكت به الفتاة من كتفه ووثبت لتقف جواره وقالت:

- مرحبا برجل الجرائم!..

قال ضاحكا:

- الحمد الله.. أنت قد عدت سالمة هانئة

- يسرني أن أتعرف بملكة اللحظة.. البطلة التي دمرت عش الفساد.

- وبلا عون..

قالتها ضاحكة لتغيظه. ثم هرعت لتحيي من كانت تزعم إنها أمها.. مسز نورتون..

- كل شيء كان على ما يرام والإفطار يمضي كالساعة.

قالت مسز نورتون:

- يجب أن أعود للبيت فالكريسماس بعد يومين. كثير من التسوق. أريدك أن تدعي مستر ماجي للغداء.. لديّ وجبة يدرك منها كم كنت أعاني وأنا أرى ذلك الناسك يمتهن الطبخ..

قل لهما:

- هذا يسعدني.. سأجد لكما سيارة أجرة..

وخرج ليجد لهما سيارة وسط صف من السيارات الواقفة. فقالت السيدة:

- أنت تضعنا في سيارة أجرة.. لا أعرف كيف كنا سنتصرف من دونك فأنت رجل نبيل شجاع.. وخدوم..

كان ناسك بالدبيت يقف محملقا في البنايات الشامخة وقد بدا عليه عدم الارتياح، وهتفت الفتاة:

- مستر بيترز هنا؟

قال ماجي:

- نعم.. كان معه حق في خوفه.. لقد كان الإغراء شديدا، وها هو ذا يعود لبروكلين وامرأته...

سمع بيترز ما قال فحياها ثم قال:

- نعم.. كانت الأمور جيدة في الصيف مع العزف والريح الدافئة. لكن في الخريف صار الأمر صعبا.. وجاء الشتاء فعرفت أنني عائد..

قالت الفتاة:

- هذا رائع.. غدا أكتب مقالاً عن ناسك بالدبيت الذي يعود لأهله ومدينته بعد أعوام من العزلة..

قال الناسك:

- هذا معناه تدمير مهنة بيع البطاقات التي أمارسها.. أنا أنوى العودة هناك في الصيف، فلن يفيدني أن يعرف الناس أنني

تخليت عن مهنة الناسك، لكني أشكرك بشدة على هذا العرض...

- أتمنى لك كريسماس سعيدا وسوف أراك الصيف القادم في بالدبيت.

- بالتأكيد.. سوف أعطيك تخفيضا على البطاقات من أجل معرفتنا القديمة.

وذاب في الزحام..

مخلوق غريب في ثيابه وشعره. بحث ماجي والفتاة عن غرفة الحقائب ليتخلص من ثقل ما يحمله.

كانت المدينة مزدانة متأهبة للكريسماس وقد بدت السعادة على عيون المارة.

قالت الفتاة:

- هل أنت سعيد بما صارت عليه الأمور؟ هل أنت سعيد لأنني لست كابتن كيد القرصان؟

- لقد انتهى كل شيء على ما يرام أو أوشك على ذلك.

قالت ضاحكة:

- أنت لا تعرف اسمي...

- وماذا عن إيفيلين رودس؟

- اسم جميل لكنه ليس اسمي.. أكتب به فقط.

بلغا بناية عالية.. فقالت الفتاة:

- مكتب جريدة ستار.. الجمهور يفتش عن الإثارة.. تصور أننا ظللنا لمدة ساعتين نعرض على الناس لفافة مال! ثم جاء المدعي العام ليأخذها...

- أعتقد أني أعرفها.

- سوف يقاوم العمدة لكنها ستكون معركة وترلو.. في النهاية سوف يسجن. لقد سحقت قوته.. ولو لم يسجن فلن ينتخبه أحد والانتخابات على الباب.. لقد فازت جريدة ستار..

صعد معها في الدرج الكئيب الخاص بالجريدة، بلغا غرفة تحرير الأخبار المحلية، كانت إثارة هذه الضربة الساحقة في الجو..

قالت له:

- هذه المهمة تذكرني بقصة محرر قديم من نيويورك كان يعمل في جريدة ستار..

ثم أردفت:

كان أول رجل ترسله للحرب الإسبانية.. وكان ذكيا. عاد لنا بعدها مهما فخورا. قيل له إن رئيس التحرير يريده، فكّر أنهم سيرسلونه للفلبين هذه المرة، لكن رئيس التحرير طلب منه التحقيق في حريق على بعد شارعين.. كاد يفقد وعيه!... أشعر بالشيء ذاته

- وما مهمتك التالية؟

- مقال عن العاب الكريسماس.. أكتب عنها كل عام منذ ثلاثة أعوام. سوف أكتبها من جديد لكن عليها أن تنتظر حتى

يفرغ عشاء مسز نورتون.

مضت به في شارع تتشابه كل شقة فيه، ولا يوجد اختلاف بين بناية وأخرى، حتى في لافتة (غرفة للإيجار) على الباب. توقفت عند رقم معين وفتحت الباب.

جاءت مسز نورتون تستقبلهما وقالت للفتاة:

- أنا سعيدة بلقائك هنا يا مستر ماجي.. أنا مشغولة بالطبخ لذا أرجو أن تدخليه الردهة يا عزيزتي..

مضى ماجي يتفقد القطع الفنية التي ابتاعها مستر نورتون يوما ما. لوحة تظهر أبا غامضا يهرع للكنيسة ليجد ابنته عروسا بين ذراعي عريسها، بينما يقف القس سعيدا راضيا بهذه الزيجة، كتب تحت اللوحة (فات الأوان!). هناك صورة سيد يبدو عليه الحزن.. بالتأكيد هو مستر نورتون.

نظر ماجي حوله وابتسم.. لماذا لا يشبه الواقع أحلامه أبدا؟ أين صوت الفالس البعيد وأضواء الشموع وضوء القمر الساحر؟ مكان غريب لبدء قصة حب.

جاءت الفتاة بعد قليل بلا قفاز ولا قبعة، فأغرقت المكان بحسنها.

قال لها:

- تعالى ولا تتركيني وحدي ثانية أبدا..

ثم دق قلبه يعنف فقد أدرك أنها خجلى وتتحاشاه.. أمسك بيدها وصاح:

- لن تتركيني ثانية.. أنت لي.. أحبك.. أحبك...

غمغمت:

- حدث كل شيء بسرعة.. الأمور التي تحدث بسرعة لا تكون حقيقية..

- هذا منطق النساء.. انظري لي يا عزيزتي. انظري لي!..

في النهاية استسلمت.. وهمست له:

- اعتن بي.. أنا أحبك.. هل تريد معرفة اسمي الحقيقي؟ إنه ماري... ... ...

ماري ماذا؟ لم تبد الإجابة مهمة..

ثم سألته:

- ماذا عن الكتاب؟

كان قد نسي:

- أي كتاب؟

- القصة التي جئت إلى بالدبيت لتكتبها.. هل تذكر؟ لا ميلودراما ولا مطاردات ولا قصص حب.

قال ضاحكا:

- عزيزتي... قصتي هي هذه!...

إير دير بيجارز – 1913

سبعة مفاتيح لبالدبيت

قصة الكاتب الذي يذهب إلى حانة منعزلة مهجورة اسمها بالدبيت، ليمضي الليل وحيدا على ضوء الشموع، ويكتب روايته الرائعة التي ستجعل النقاد يعترفون به أخيرا.

لكنه مع الوقت يكتشف أن المكان مزدحم جدا، وأن هناك أشخاصا أكثر من اللازم يفتحون الباب بالمفتاح ويدخلون الحانة المظلمة. هل هم لصوص أم محتالون أم أشباح؟! مع الوقت يدرك أن هناك سبعة مفاتيح لبالدبيت.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القناة

الفهرس..

Notes

[←1]

- بطل القصة رجل لكنه يكتب ماجى Magee وفي الأماكن التي تتحدث عن الرواية يُكتب ماكجي McGee سوف نستعمل الاسم كما ورد في الرواية. الرواية تقول إنه اسم أيرلندي جدًا.

[←2]

- كلمة الناسك هنا معناها أنه اعتزل النساء، وليست بمعني ديني.

[←3]

- معنى هذا أن كندريك خُدع.. لما سحب الورقة وكانت حمراء أثناء لعبه مع هايدن؛ لم يكن يعرف أن الأوراق التي يسحب منها كلها حمراء.

روايات عالمية



أمريكى في بلاط الملك

تأليـــف : مـــارك تويـــن
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (81)

أمريكي في بلاط الملك

تأليف: مارك توين

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

هذه هي المرة الثالثة تقريبا التي نقابل فيها الكاتب الأمريكي العظيم صمويل لانجهورن كليمنز. ولو كنت من قراء هذه السلسلة فعلا فأنت تعرف أن هذا هو الاسم الأصلي للكاتب الساخر مارك توين Mark Twain، أمير الساخرين، وأطول لسان يمكن أن تقابله في نصف الكرة الغربي. كما لا بد أنك تعرف أن معنى اسمه المستعار هو (علّم على اثنين) وهي من نداءات الملاحة في نهر المسيسبي الذي شكّل جزءا بالغ الأهمية من حياته وكتاباته..

ولد في نوفمبر عام 1835 في قرية اسمها هانيبال بولاية ميسوري، هذه نشأة مهمة جدا في أدبه.. ولعل هناك خيوطا كثيرة من توم صوير في شخصية توين نفسه..

عمل لفترة طويلة كمرشد سفن في المسيسبي، وهي التربة التي وصفها في كتاب (حياتي على المسيسبي)، ويقول فيه إنه كان يعتقد أن مهمة الدليل سهلة وهي إبقاء السفينة في النهر!.. ثم اكتشف أن عليه حفظ كل عمق وكل منحنى وكل صخرة في هذا النهر. كان يعرف أن السفن تبحر ليلاً، لكنه لم يتصور قط أن هناك رجلا يترك فراشه الدافئ ليفعل هذا..

وهذا الشخص هو توين بالذات!!!

نعرف كذلك أن شعر رأسه ابيض في دقائق، عندما رأى حريق سفينة.. والسبب أن السفينة كانت تحمل أخاه هنري. الحقيقة أن هذا الكاتب الساخر رأى أفدح المصائب في حياته؛ ومنها وفاة زوجته الحبيبة وابنته وصديق عمره.

جرّب الكثير من المهن، وجرب التجارة وفشل في كل شيء تقريبا، ثم اندمج في عالم الصحافة وقدّم رواياته الأولى.

في الأعوام التالية صنع توين شهرته ككاتب ساخر عبقري يشكّل أهم أعمدة الأدب الأمريكي، وقدّم قصة (مغامرات توم صوير - 1876) و(مغامرات هاكلبري فين - 1884) التي خرج الأدب الأمريكي كله من عباءتها كما قالوا، وهناك (الأمير والصعلوك - 1881)، والقصة التي بين يديك الآن وعنوانها الأصلي (يانكي من كونكتيكات في بلاط الملك آرثر - 1889)، وقد غيّرتُ العنوان ليكون مفهوما نوعا، كما قمت بكثير من الاختصار لأن النص الأصلي بالغ الطول. في العام 1906 مُنح درجة الدكتوراه الفخرية في الأدب من جامعة أكسفورد. وقد حكى عن هذا ساخرا قائلا إنه فخور جدا بهذه الدكتوراه التي لم يتعب فيها، خاصة أنه لا يفهم معنى (دكترة الأدب) أصلا. الحق أنه نال شعبية كبيرة لدرجة أن حفلات قراءة كانت تقام له، وكان الناس يبتاعون التذاكر كدور السينما، ليدخلوا ويشاهدوه وهو يتلو أجزاء من قصصه.

جرب توين أن يمول الكثير جدا من الاختراعات، وفي كل مرة كان يخسر الكثير من المال، ولهذا رفض بقسوة مشروعا جديدا بدا له سخيفا..

كان المشروع لمخترع إسكتلندي اسمه (جراهام بل) يقضي بأن يكلم الناس بعضهم عبر الأسلاك!... لقد رفض توين المشاركة في الهاتف!

كما توقع توين مرارا، فقد ولد في اليوم الذي ظهر فيه مذنب هالي.. وهذا المذنب يظهر كل 75 عاما لذا توقع أن يموت في

يوم ظهوره التالي، وهو ما حدث فعلاً..

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞∞

كلمة تفسيرية

كنت أزور قلعة ورويك عندما قابلت رجلاً غريب الأطوار سوف أتكلم عنه هنا. شدني بثلاثة أشياء: بساطته العفوية وإلمامه بالدروع القديمة وطيب معشره حيث ظل يتكلم طيلة الوقت. صرنا في مؤخرة القطيع الذي يقوده المرشد السياحي، فبدأ يقول أشياء أثارت شغفي. كان يتكلم عن عصر آخر وبلد بعيد. شعرت كأنني مسحور أجول وسط الظلال والقدم. كان يتكلم عن سير لانسلوت.. سير بيديفير.. سير جالاهاد، كأنه يتكلم عن أصدقاء حميمين. ثم استدار لي وقال كأنه يتكلم عن الطقس أو شيء عادي:

- هل سمعت عن تناسخ الأرواح؟

قلت له إنني لم أسمع عن ذلك.. كان متحمسا لدرجة أنه لم يلحظ إن كنت قد قلت نعم أم لا. وكان الدليل يتكلم قائلاً:

- درع عتيق من القرن السادس وعهد الملك آرثر. قيل إنه يخص السير ساجامور.. لاحظوا الفتحة الدائرية فوق الثدي الأيسر.. ربما نجم عن رصاصة أطلقها جنود كرومويل بعد اختراع السلاح الناري.

ابتسم مرافقي ابتسامة من نوع كان مستعملاً في الماضي، وغمغم لنفسه:

- أنا رأيت هذا.. أنا فعلتها بنفسي!

أصابني الذهول من كلامه لكنه كان قد رحل.

في تلك الليلة جلست أرمق الدروع على وهج النار، وجلست أراجع كتاب سير توماس مالوري الساحر بما فيه من مغامرات. ورحت أحلم..

قرأت قصة أخرى قبل منتصف الليل. وكانت تقول:

كيف ذبح سير لانسلوت عملاقين وحرر القلعة

حالا جاء عملاقان مسلحان مدججان بالدروع، وفي يد كل منهما هراوة مخيفة. هوى سير لانسلوت على أحد العملاقين وأطاح برأسه. حين رأى رفيقه ذلك جرى بعيدا خائفا، لكن سير لانسلوت مضى خلفه وهوى عليه بالعصا. دخل القلعة فرأى سيدات وعذارى يركعن أمامه ويشكرنه على الخلاص. قلن إنهن لبثن سجينات هنا سبع سنوات، وقلن إنه فارس شجاع عظيم قام بأشجع عمل يمكن لفارس أن يقوم به. سوف نصلي لك ونذكر اسمك.

قال لهن إن اسمه سير لانسلوت دو ليك. وتركهن وأوكل أمرهن الله. ركب حصانه وانطلق يجوب الوديان والغابات. وجد كوخا فيه سيدة عجوزا طيبة منحته المأوى. عندما جاء وقت الراحة اقتادته مضيفته إلى علية فوق غرفة النوم لينام، ففك سلاحه ودخل الفراش.

بعد قليل جاء أحدهم متلهفا ودق على الباب. نظر سير لانسلوت من النافذة فرأى ثلاثة فرسان يتقدمون نحو الرجل، وانقضوا عليه فراح يدافع بالسيف عن نفسه. قال سير لانسلوت: سوف أدافع عن هذا الرجل الوحيد لأنه من العار أن يهاجم ثلاثة رجلا واحدا. فلو مات الرجل لاعتبر نفسه شريكا في موته. واندفع نحو الرجال وصاح: هاجموني واتركوا هذا الرجل.

ترك الرجال ضحيتهم وانطلقوا يبارزون سير لانسلوت، وحاول الرجل - سير كاي - أن يساعد لانسلوت، لكن الأخير قال له أن يتركه يقاتلهم وحده. وبست ضربات أسقط الرجال الثلاثة.

توسل له الرجال أن يتركهم أحياء، فطلب منهم الولاء لسير كاي.. رفض الرجال ذلك فقال لانسلوت:

- إما أن تقبلوا أو تموتوا.. سوف تعودون لبلاط الملك آرثر لتعلنوا الخضوع له.. وهناك تضعون أنفسكم تحت تصرف الملكة جنيفر، وقولوا إن سير كاي أرسلكم لتكونوا سجناء عندها.

في الصباح المبكر ارتدى سير لانسلوت دروع سير كاي وركب حصانه وودع مضيفته.. صحا سير كاي ووجد أن لانسلوت غير موجود. ثم أدرك أنه ترك له دروعه وحصانه.. هكذا يخدع الناس ويحسبونه لانسلوت.

وضعتُ الكتاب فسمعتُ دقة على الباب وجاء الغريب. ناولته غليونا ومقعدا وبعض الويسكي السكوتش الساخن. كنت أتمنى أن يبدأ في سرد قصته.. بعد كأس رابعة بدأ يحكى بطريقة بسيطة.

قصة الغريب

أنا أمريكي... ولدت في هارتفورد بولاية كونكتيكات.. أنا شمالي ابن شمالي. كان أبي حدادا وعمى طبيب خيول... ومارست المهنتين معا. ثم ذهبت لمصانع الجيش وتعلمت مهنتي الحقيقية وصنعت كل شيء: بنادق مسدسات.. مدافع.. محركات. ومع الوقت ترقيت وصرت رئيسا أشرف على نحو ألف رجل يعملون تحت إمرتي. مع قوم كهؤلاء لا بد من عراك ومشاكل، وقد تلقيت ضربة بعتلة على رأسي أثناء مشاجرة مع رجل يسمونه هرقل.. فشعرت بأن كل عظمة في جمجمتي اصطدمت بجارتها. أظلم العالم ولم أعرف أين أنا.

عندما استعدت وعيي كنت تحت شجرة بلوط على العشب وأمامي منظر ريفي جميل. كان هناك رجل على جواد ينظر لي.. رجل كأنه خرج من كتاب مصور.. يلبس دروعا عتيقة كاملة ومعه سيف ودرع ورمح، وحصانه يلبس الدروع وله قرن في رأسه..

قال لي:

- هلا فعلت يا سيدي؟

- فعلت ماذا؟ عد للسيرك الذي جئت منه وإلا أبلغت الشرطة.

هنا تراجع الرجل للخلف ثم اندفع نحوي بأسرع ما استطاع ورمحه مصوب أمامه. أدركت أنه جاد فسرعان ما كنت فوق الشجرة قبل أن يصل.

كان مصرا على أنني صرت أسيرا له فحاولت أن أصل لاتفاق.. سوف أمضي معه مقابل ألا يؤذيني. هبطت من الشجرة ومشيت جوار حصانه.

مشينا في أماكن مألوفة لكني لم أر سيركا أو مكانا يبدو كسيرك. قررت أنه على الأرجح ليس من سيرك ولكن من مستشفى أمراض عقلية. سألته عن أي مسافة تبعد عن هارتفورد فقال إنه لم يسمع عنها قط.

رأينا قرية يلتف حولها نهر وقربها تغفو هضبة، وهناك قلعة فتساءلت:

- هل هذه بريدجبورت؟

قال:

- بل كاميلوت.

بدأ النعاس يتسرب لعيني مرافقي فابتسم ابتسامة غامضة من ابتساماته وقال:

- لا أستطيع مواصلة السرد لكني كتبت القصة.. تعال واقرأها لو أردت.

ثم أحضر لي كتابا بخط اليد وأشار لمقطع أراد أن أبدأ منه وقال:

- ابدأ من هنا.. أنت تعرف ما سبق.

خرجت من المكان وجلست جوار النار ورحت أتفحص الوثيقة التي اصفرت من فعل الزمن. هناك كتابة بخط الرجل

لكني أرى تحتها الرقائق كتابة عتيقة بكلمات لاتينية. بدأت أقرأ..

قصة الأرض المفقودة

الفصل الأول

كاميلوت

باقي قصة الغريب:

قلت لنفسي:

- كاميلوت.. متى قرأت هذا الاسم؟ ربما كان اسم المصحة.

كان نهار صيف جميلاً، والجو يعبق برائحة شجية وصوت الطيور.. لا شيء يتحرك.. هناك آثار عجلات على جانبي الطريق. عجلات سميكة بحجم كفك. جاءت فتاة شقراء في العاشرة من عمرها يحيط بها شعر أصفر جميل، وتضع تاجا من الزهر..

لم يُبد رجل السيرك اهتماما بها وكذا لم تهتم الفتاة بنا كأنها تمر جوار بقرتين، ثم رأتني فتصلبت كأنها تمثال.. صارت صورة من الرعب الممزوج بالذهول. ثم هربت.

اقتربت مع الفارس من المدينة.. بدأت المعالم تتضح. من حين لآخر ترى كوخا متداعيا وحوله حديقة خضراء صغيرة. وكان هناك رجال ملوحو البشرة لهم شعر طويل مجعد يتدلى على أكتافهم. وكانوا يلبسون سترات خشنة قصيرة. الأطفال الصغار كانوا جميعا عراة لكن لا أحد يهتم. كانوا جميعا ينظرون لي في فضول.

وكانت هناك عدة بيوت حجرية بلا نوافذ والشوارع أقرب لأزقة متعرجة غير مرصوفة. الكلاب والخنازير كانت تتنقل بحرية تامة. كنا نتسلق باستمرار نحو القلعة. هناك كان حراس يضعون شعار التنين على ثيابهم، وانفتحت أبواب القلعة وهبط الجسر المعلق. وجدنا أنفسنا نقف في الهواء بين أربعة أبراج عملاقة، وكانت هناك طقوس احتفالية. وكان هناك استعراض للألوان الزاهية مع حركة لا تتوقف.

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

بلاط الملك آثر

تسللت جانبا ولمست رجلاً من العامة على كتفه وسألته بطريقة أقرب للتلميح:

- سيدي.. هل أنت تعمل في مستشفى المجانين أم أنك في زيارة؟

نظر لي في غباء، فقلت:

- أعتقد أنك مريض هنا.

ابتعدت عنه وأنا أفتش عن واحد عاقل يعطيني بعض المعلومات. دنوت من واحد وسألته:

هل لي أن أرى المدير. لحظة واحدة..

- أرجو ألا تسمح لي..

- أسمح بماذا؟

- لا تعطلني إن كانت هذه اللفظة تناسبك أكثر..

وفهمت أنه طباخ ولا وقت عنده للثرثرة برغم أنه يتمنى معرفة مصدر ثيابي العجيبة. دنا مني فتى آخر يلبس بنطالاً ضيقا بلون الجمبري مما جعله يبدو كالجزرة.. أدركت أنه طيب الشمائل. نظر لي متفحصا وقال إنه وصيف وإنه جاء من أجلي. وسرعان ما دخل في حديث متدفق ساخن كأننا صديقان

قديمان. وسألني عن نفسي وثيابي.. وفجأة قال إنه ولد عام 513.

شعرت بقشعريرة وتوقفت وسألته:

- قل ببطء.. متى ولدت؟

- 513.

لا يبدو هذا عليك. قل لي يا صاحبي.. هل أنت بكامل قواك العقلية؟

- نعم.

- وهذا المكان ليس مصحة عقلية للمجانين؟

- لا.

- إذن أين أنا؟

- في بلاط الملك آرثر!.. 19 يونيو عام 528..

سقط قلبي في قدمي.. معنى هذا أنني لن أرى رفاقي ثانية.. لن يولدوا قبل 1300 سنة.

كنت أصدقه ولا أعرف السبب. كنت أعرف أن هناك خسوف شمس كليا وقع في القرن السادس يوم 21 يونيو. وبدأ بعد الظهر. لو حدث هذا الخسوف بعد يومين فإن الفتى يقول الحقيقة. لننتظر إذن اللحظة المناسبة..

لو كان كلام الفتى سليما فأنا أسبق هؤلاء القوم عقليا بـ 1300 سنة وهذا معناه أنني سيدهم. سألت الفتي:

- هل لي أن أسألك عن بعض الأشياء؟ ما اسم هذا الذي جاء بي هنا؟

- سيدك وسيدي؟.. هذا الفارس العظيم السير كاي سينتشال.. وهو أخو الملك بالرضاعة.

حكى لي قصة طويلة، لكن الجزء الذي اهتممت به هو أنهم سيلقون بي في جب وأظل هناك آكل أكلا شحيحا إلى أن يأتي رفاقي ليدفعوا لي فدية ما لم أتعفن أولا، وقد بدا لي الاحتمال الأخير أقرب للممكن. أخبرني الفتى كذلك أنه فور انتهاء المأدبة والخمر سوف يستدعيني السير كاي ليعرضني أمام الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة. سوف يحكى لهم كيف قبض عليّ وسوف يكذب، لكن ليس من مصلحتي أن أحاول التصحيح.. بعد هذا إلى الجب.

جاء من يدعوني للقاعة.. كانت مزدحمة بالجمهور والموسيقيين والزخارف.. في المركز كانت مائدة من البلوط ضخمة كأنها بحجم حلبة السيرك. وحولها جلس حشد من الرجال بثياب ملونة زاهية بعضهم يشرب الخمر في قرون ثيران، وبعضهم ما زال يمضغ قطعا من اللحم. وجوار كل رجل هناك كلبان ينتظران ما سيلقى لهما من عظام.. فإذا رمى بالعظمة انقضا عليها ونشبت معركة.

كانوا يتكلمون بطريقة تليق ببلاط الملوك، لكن في كلامهم الكثير من السذاجة.. والكثير من الكذب.

لم أكن الأسير الوحيد.. كان هناك نحو عشرين أسيرا، معظمهم ممزق الثياب منهك والبعض تلطخ وجهه بالدم، لكنهم لا يشكون أبدا.. قلت لنفسى إن هؤلاء قد آذوا الكثيرين

من قبل لذا يعتبرون ما يحدث لهمّ عادلاً، ولا يتوقعون حسن معاملة.

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

فرسان المائدة المستديرة

كانت المحادثات كلها تدور حول القتال وكيف تم أسر هؤلاء.. كانوا أقرب للأطفال في كونهم يقاتلون بعضهم بلا سبب على طريقة الصبية: «أنا أقدر أضربك».. سوف تفتن بعد قليل بهذه الأحاديث وتشعر بأنها خالية من العقل.. لكن لا بأس.. فالعقل قد يفسد هذه الجلسة.

رأيت مجموعة من الأسرى يزحفون على ركبهم نحو الملكة فيسجدون، طالبين منها أن تصفح عنهم أو تجلدهم أو تفعل ما تشاء. قالوا إن السير لانسلوت قد هزمهم جميعا وجعلهم عبيدا للملكة، وقد تخفى في دروع وسلاح السير كاي.

نهض رجل مسن مدثر بثياب سوداء.. وكانت قدماه تترنحان. كان يتكلم بصوت واهن وعينين دامعتين. قال لي الصبي الوصيف الذي عرفت أن اسمه كلارينس:

- تبا.. سوف يحكى تلك القصة التي يرددها طيلة الوقت.

- من هو؟

- مرلين.. الكذاب والساحر.. لكن الرجال يهابونه لأن الرعد والبرق والشياطين في صفه..

أراح الفتى رأسه على كتفي وغرق في نعاس عميق، وكذا فعل الحضور والكلاب.. البعض أراحوا رءوسهم على سواعدهم والبعض أرجعوا رءوسهم للخلف وراحوا يغطون. وراح الذباب يئز وراحت الفئران تسرح هنا وهناك شاعرة أنها في بيوتها. كان

مرلين يحكى قصة طويلة بدت لي طريفة مسلية، لكنّي تذكرت أن الرجال يسمعونها للمرة الألف فيمكن فهم حالة الملل هذه.

بعد انتهاء القصة أفاق سير (ديناداني) مضحك الملك فقرر أن ينعش الناس بدعابة سخيفة. ربط بعض الأواني لذيل كلب وتركه يركض محدثا صخبا وخلفه الكلاب تطارده وتعوى.. وككل المضحكين كان ديناداني هو أول شخص ضحك كثيرا على هذه النكتة. ثم بدأ يلقى خطبة مضحكة.. لم أسمع في حياتي كل هذه النكات السخيفة القديمة في خطبة واحدة. من القسوة أن أسمع نفس النكات التي سأسمعها في طفولتي بعد 1300 عام.

نهض سير كاي ليحكي للقوم كيف وجدني.. وكيف كنت وسط قوم برابرة كلهم يلبسون هذه الثياب الغريبة التي ألبسها. قام بالقضاء على سحري الشرير عن طريق الصلاة ثم عاد بي أسيرا ليعرضني كعجيبة يراها الملك آرثر وبلاطه. قال إنني حاولت الهرب منه فوثبت فوق شجرة ارتفاعها عشرون مترا، لكنه قذفني بقطعة حجر بحجم بقرة. وقال إنني سأموت عند ظهر اليوم الحادي والعشرين.

كان القوم خائفين بسبب القوى السحرية الغامضة المتوارية في ثيابي الغريبة، لكن مرلين نهض واتهمهم بالغباء، وقال: لماذا لا تجردونه من ثيابه؟

هكذا سرعان ما كنت عاريا تماما. وكنت في غاية من الحرج لكن لا أحد يهتم أو يشعر بالخجل لي.. كانوا يتحدثون عني كأنني كرنب. قالت الملكة في اهتمام إنها لم تر ساقين كساقيّ من قبل.. هذه هي المجاملة الوحيدة التي تلقيتها لو كانت مجاملة!

ألقوا بي في جب مظلم وتركوا لي بقايا طعام للعشاء وبعض القش للنوم فوقه، والكثير من الفئران للصحبة.

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع

إلهــام

كنت مرهقا فلم تستطع مخاوفي أن تبقيني ساهرا. لابد أنني نمت طويلاً، وعندما صحوت قلت لنفسي:

- هذا حلم غريب.. سأنام بعض الوقت، ثم أنهض لأنهي معركتي مع (هرقل).

هنا سمعت صوت السلاسل والأقفال ورأيت الوصيف يقف أمامي فشهقت!... وقلت:

- أما زلت هنا؟ ارحل مع الكابوس.

لكنه ضحك بطريقته الخفيفة، وقد راق له المأزق الذي أنا فيه.

قلت له: إنني مؤمن أن الملك آرثر لا وجود له، وإنني أحلم بأنني أراه أمامي. فقال:

- هل هو حلم كذلك أنك ستحرق غدا؟

هنا أصابتني صدمة وأدركت أن موقفي خطير حلما كان أو لا.. قلت له:

- صديقي.. أريد أن تساعدني على الفرار من هنا.

- كيف؟ الأبواب يحرسها رجال مسلحون.

ثم ارتجف رعبا ودنا ليقرب فمه من أذني.. وقال:

- الساحر مرلين قد ألقى تعويذة على هذا الجب.. ما من رجل يجسر على اختراق هذه من أجلك. والآن كن كريما معي فلا تخني وإلا ضعت!

ضحكت ضحكة منتعشة وقلت:

- مرلين هذا المهرج العجوز.. هذا الجحش!.. هذا المخرف.

لكن الفتى راح يرتجف:

- آه.. أوقف هذه الكلمات قبل أن تسقط هذه الجدران فوقنا في أي لحظة. استعدها!

هنا صحت فيه:

- قم وقف على قدميك.. هل تعرف لماذا ضحكت؟ لأنني أنا نفسى ساحر.

وقف الفتى متصلبا في احترام، فخطر لي أن الكذاب لا يحتاج للبرهنة على كلامه هنا. الناس تأخذ كذبك كقضية مسلم بها. فأكملت كلامي:

- عرفت مرلين في مصر منذ 300 سنة.. دائما يلاحقني.. ليس بارعا على الإطلاق ويصلح فقط للريف.. لهذا أطلب منك خدمة.. سوف تخبر الملك أنني ساحر عظيم وسوف يكون انتقامي مخيفا لو أصابني أي ضرر.

كان الصبي خائفا فلم يتكلم. فلما رحل خطر لي أنني كشفت عن حماقتي.. لو كنت ساحرا عظيما بحق فلماذا أطلب عون فتى ضعيف كهذا؟ ثم قررت أن هذه الكائنات لا تملك المنطق ولا تستطيع وضع الحقائق جوار بعضها.

سمعت صوت الخطوات فأصابني الذعر.. كان يجب أن أرتب حيلة تجعل كلامي مقنعا أولا.. لكن لا وقت لعقلي كي يعمل. ثم وجدت الفكرة...

الخسوف!... لا بد أنها حيلة لعبها كورتيز من قبل وبوسعي أن ألعبها.

جاء الفتى مذعورا وقال:

- نقلت رسالتك لجلالة الملك وقد اقتنع بالكلام، لكن مرلين ظهر وأقنعه أنك مخبول وتساءل عن سبب عدم ظهور مواهبك العظيمة.. لأنك لا تملكها..

قلت للفتي في وقار:

- ما هو اليوم؟ إنه اليوم 20 أليس كذلك؟

- بلي

- وسوف يحرقونني غدا.. متى؟

- عند الظهر.

بدأت أتكلم بصوت رهيب يتعالى مع الوقت، وبوقار شديد وقلت:

- قل للملك إني سأخنق العالم كله بالظلام في تلك الساعة.. سوف تذبل نباتات الأرض ويتضور الناس جوعا.

فقد الفتى وعيه فحملته بيدي وأسلمته للحرس.

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس
الخسوف

غرقت في القلق طيلة الليل.. لكنى عزيت نفسي بأن الخسوف آت لا محالة، وعندها سأكون أعظم رجل في المملكة. بل إنني بدأت أستبق لحظة الحرق هذه لأمر بهذا التحدي العظيم..

لكن في الوقت نفسه كان شيء ينبش في عقلي. القلق..

انفتح الباب ودخل بعض الرجال المسلحين وقال قائدهم:

- المحرقة جاهزة.. هلم .

وتد المحرقة!... تخلت عنى شجاعتي وكدت أفقد الوعي. من الصعب أن تتنفس.. واستطعت في النهاية أن أقول:

- هذا خطأ.. الإعدام يتم غدا.

- لقد قدموه يوما.. هلم!

هكذا لم أعرف ما أفعله. شعرت بحيرة بالغة وخرجت معهم من الزنزانة عبر شبكة ممرات إلى ضوء النهار الساطع، ورأيت الوتد هناك في وسط ساحة القلعة.. وحوله بعض القوم وراهب. وكان الملك والملكة يجلسان في مكان الصدارة.

من مكان ما ظهر الوصيف الشاب وراح يهمس في أذني:

- قلت لهم إن قوتك في السيطرة على الشمس لن تبلغ ذروتها إلا غدا... فإذا أردنا إنقاذ الأرض والشمس فعلينا قتلك

اليوم.. هكذا خدعتهم.. إنهم متعجلون يريدون إنهاء القصة، وكل ما عليك هو أن تجعلهم يرون بعض الظلام.. سوف يفترضون إنني أحمق ويطلقون سراحك.. اذهب للمجد لكن تذكر صاحبك القديم..

اختنقت بالكلمات.. لم أجسر على أن أخبره أن طيبته وبلاهته عجلتا بموتي.

كان الصمت كاملاً، لدرجة أنهم لو عصبوا عيني لحسبت نفسي في زنزانة ولست محاطا بأربعة آلاف رجل. قيدوني للوتد بسلاسل.. كوموا الخشب عند قدمي ثم جاء أحدهم بمشعل.. وجاء الكاهن يشير للسماء ويتلو كلمات باللاتينية. ثم رأيته يتصلب ويشهق.

الخسوف قد بدأ..!.. لقد أخطأت بيوم كامل.

رأيت حافة الظلام تزحف على قرص الشمس.. فراح قلبي يدق كالطبل وراحت الصرخات تدوي.. ورأيت مرلين يحاول أن يشعل الخشب بنفسه فصحت:

- قف حيث أنت!... لو تحرك أحد حتى الملك نفسه فلسوف أقتله بالرعد..

صاح الملك:

- الرحمة يا سيدي... قيل لنا إن قواك لن تصل ذروتها إلا غدا.. افعل ما تريد لكن حافظ على الشمس!

كنت الآن أسيطر على الموقف تماما.. لكن كيف لي أن أوقف الكسوف؟ إنه يتزايد مع الوقت ولا حيلة لي في ذلك.

وعدتهم ألا يطول الظلام أكثر من ساعة.. فلم أكن أذكر الفترة التي يدوم فيها.

صاح الملك:

- حرروه من قيوده. ورحبوا به جميعا.. لقد صار ذراع الملك اليمنى.. يملك القوة والسلطة.. فقط أعد لنا الضياء.

ثم هتف في رجاله:

- بدلوا ثيابه ليبدو كأمير.

كان الظلام يتزايد.. ليس بوسعي عمل شيء طبعا.. الناس تصرخ ذعرا لشعورها برياح الليل الباردة تهب ظهرا ولرؤية النجوم. نهضت بعد مرور الوقت وقلت بصوت عال:

= فليزل السحر وليعد النور.

لم يحدث شيء للحظات ثم فجأة بدأ هلال يظهر من الشمس فتعالى الصياح والتهليل.. والتفوا حولي يطلبون البركة.

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

برج مرلين

لقد صرت الشخص الأهم في المملكة بعد الملك.. لم أكن مستريحا في تلك الثياب لكني قدرت أن العادة ستجعلني أعتادها. كل شيء فخم لكن وسائل الراحة الصغيرة التي أعتبرها أهم شيء في الحياة غير موجودة.. لا صابون.. لا ثقاب.. لا نظارات مقربة.. بدأت أشتاق لبيتي وزمني. لا غاز ولا شموع.. فقط طبق مليء بالزيت فيه قطعة قماش. هذا هو مصدر الضوء. لا كتب ولا أقلام ولا زجاج في الفتحات التي يسمونها نوافذ. الأسوأ أنه لا توجد قهوة ولا شاي ولا تبغ.. على أن أعيش كروبنسون كروزو الذي وجد نفسه في جزيرة منعزلة.

كانت أنباء المعجزة قد انتشرت، ولم يعد في بريطانيا شخص لا يمشي خمسين ميلا ليراني. توافد القادمون على البلدة وكان عليّ أن أريهم نفسي عدة مرات في اليوم. كان هذا مرهقا لكنه أغاظ الساحر مرلين مما أمتعني كثيرا. المشكلة الأخرى هي أنهم كانوا ظامئين لرؤية معجزة أخرى.. هذا طبيعي.. المرء يحتاج لأن يتفاخر على الجيران. هناك كسوف قمري لكنه ما زال بعيدا.. بعد عامين. كنت على استعداد لأن أدفع مالاً كي أعجل به. وعرفت من الوصيف أن مرلين يقول للناس إنني مخادع ولهذا لم أصنع أي معجزة أخرى.

بما نلت من سلطات ألقيت مرلين في السجن، وأعلنت في البلاد أنني مشغول لمدة أسبوعين.. بعدهما سوف أستمتع

بإحراق قلعة مرلين بصواعق من السماء. ولو تكلم أحد عني بسوء فلسوف أمسخه حصانا.

هكذا صار بوسعي أن أعمل مدة أسبوعين.. صنعت بعض البارود، واتجهت لقلعة مرلين ورحت مع مساعدي الشاب نضع المسحوق في الفجوات والممرات.. كانت قلعة هائلة لكنها رومانية متداعية. رحنا نعمل ليلا فنصب البارود ونضع الفتائل قرب الأرض..

في الليلة رقم 13 غرسنا مانع صواعق، ومددنا أسلاكا منه إلى مخازن البارود كلها.. وأرسلت الحجاب في الشوارع ينذرون الناس من الاقتراب من القلعة خلال 24 ساعة. كانت الأيام الأخيرة تشهد الكثير من العواصف الرعدية لكني برغم هذا خشيت أن يتأخر الأمر يوما أو اثنين.

بالطبع كان نهارا مشمسا لم نر مثله من زمن!.. هكذا الأمور. رحت أراقب الطقس منعزلاً بينما الوصيف يأتي من حين لآخر ليخبرني أن الناس قلقون مستثارون. فجأة بدأت عاصفة.. راحت تقترب.

طلبت أن يجلبوا مرلين وخرجت إلى المتراس حيث زحام الناس وحيث الملك والملكة يراقبان القلعة. نظرت لمرلين وقلت له بصوت كئيب:

- أنت حاولت حرقي دون أن أؤذيك.. أنا سأحرق قلعتك..

سمحت له بأن يجرب بعض التعاويذ لإنقاذ القلعة.. رسم دائرة نثر فيها المسحوق فارتجف الناس ورسموا علامة الصليب. كانت العاصفة قد وصلت وراحت المشاعل تنطفئ أو

يتراقص لهبها. هنا بلغتنا العاصفة ورأيت أن نجاح خطتي قريب فقلت له:

- واضح أنك فشلت.. الآن جاء دوري.

هنا هبط لسان برق على مانع الصواعق فطار البرج في الهواء فوق بركان من نار. ثم تهاوى البرج ومعه القلعة واستحال الليل نهارا. بينما تهاوى الناس أرضا من الرعب.

كانت معجزة فعالة.. بدأ الزحام من حولي يتلاشى وعبر الأوحال ظهرت آثار العجلات..

أراد الملك أن يوقف راتب مرلين.. بل أراد أن ينفيه لكني منعته. طلبت أن تعيد الحكومة بناء القلعة لمرلين من جديد، على أن يبقى يمارس عمله في مهام صغيرة مثل الطقس.

لم يشكرني الساحر قط، لكني لم أتوقع منه أن يكون ظريفا بعد ما فعلته به.

☆ ☆ ☆

الفصل السابع

الرئيس

تحسن وضعي كثيرا وبدأت أتعايش مع القرن السادس.. كانني كنت هناك طيلة حياتي. هذا إذن هو بلاط الملك آرثر وليس مستشفى مجانين.

كنت أعيد تأمل الوضع المذهل الذي بلغته. أنا لست ظل الملك. بل الملك هو ظلي.. بينما في القرن العشرين لم أكن لأبلغ

مرتبة أعلى من مدير مصنع.

كان البلد مثيرا وناسه من أطيب ما يمكن.. في الواقع كانوا نوعا من الأرانب لا أكثر. كانوا مخلصين بشدة للملك والكنيسة والنبلاء، كما يحترم العبد السوط أو كما يحترم الكلب الغرباء الذين يركلونه! من الغريب أن تتصور الفقاقيع الطافية على السطح التي يعتبرها الناس طبقة نبلاء.. وهي طبقة لو تركت لتجني رزقها بنفسها لغرقت في الفقر والجوع والنسيان.

معظم من كانوا في مملكة الملك آرثر كانوا عبيدا لا يعرفون أنهم كذلك.. كانوا يحسبون أنفسهم بشرا. كانوا يؤمنون أن عليهم أن يجوعوا ليأكل النبلاء.. يتعروا ليلبس النبلاء.. يحاربوا ليعيش النبلاء.. ولم يعرفوا لأنفسهم حياة أخرى. إن الأفكار الموروثة شيء مثير يثير الاهتمام. لقد نشأ هؤلاء القوم على أن الناس الذين بلا ألقاب مهما بلغوا من نبل وذكاء لا قيمة لهم كالحيوانات، بينما نشأتُ أنا على أن كثيرين من التافهين يتوارون خلف ألقابهم الطاووسية. كانوا يعاملونني كما نعامل فيلا في حديقة الحيوان.. الكل منبهر بحجمه الضخم وبقوته، كما أنهم يعرفون أن غضبته عاتية لا ترحم، لكن هذا لا يكفي كي يعتبروه واحدا منهم. كنت أنا هذا الفيل.. يحترمونني ويخافونني كما يخافون الحيوان. إن هذا نتيجة قرون من سيطرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التي حولت البشر إلى ديدان.. قبل هذا كان الرجال رجالا تتوقف قيمتهم على ما يحققونه، فجاءت الكنيسة لتعطى الملك حقه الرباني.. وعلمت البسطاء فضائل الخضوع والفقر وعدم مقاومة الطغيان. هكذا تعلم الرجل العادي أن عليه أن يخضع لوارث الألقاب بل ويفخر بذلك.

أنا هنا عملاق بين الأقزام، وعقل جبار بين البلهاء، وبرغم هذا يستطيع أي معتوه يملك لقبا أن يزعم أنه أفضل مني. بوسعه أن يجلس في حضرة الملك بينما لا يحق لي هذا. لم أحب الألقاب ولم أبحث عنها، لكن لقبا خرج عفوا من فم حداد في إحدى القرى، وانتشر من فم لفم حتى لم يعد لي اسم آخر. هذا الاسم هو (الرئيس).. لو ترجمناه للغتنا المعاصرة. لا بأس بلقب كهذا. لقد اختارته لي الأمة كلها.

☆ ☆ ☆

كانت هناك دورة منافسة للفروسية، وجاء الفرسان من كل أرجاء البلاد يستعرضون براعتهم. كنت مشغولاً في طريقة لنقل الحضارة إلى هذا الزمن.. عندما تصل لبلد جديد بكر فأول ما عليك أن تنشأه هو مكتب لبراءة الاختراعات.. ثم تضع نظاما للتعليم.. ثم تصدر جريدة.. للصحافة عيوبها لكنها هي الطريقة التي تبعث أمة ميتة من قبرها.. لا تنس هذا.

حدث خلاف بيني وبين أحد الفرسان، وهو سير ساجامور.. غضب مني للغاية وقال إن بيننا حسابا يجب أن نسويه، واقترح أن نلتقي بعد ثلاثة أو أربعة أعوام وحدد المكان. كان ذاهبا للحروب الصليبية لذا قام بتأجيل المواجهة، فقلت له إنني سأنتظره.

كان ذاهبا في رحلة البحث عن الكأس المقدسة، وهي عادة لدى كل الشباب هنا.. ليس لدى أي واحد منهم فكرة عن مكانها، ولا أعتقد أن أحدهم يتوقع أن يجدها فعلا.. ولو وجدها

فلن يعرف ما يفعله بها. في كل عام تذهب حملة للبحث عن الكأس، ثم تنطلق حملة أخرى بعد عام تبحث عن الحملة الأولى.

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن

بدايات التحضر

سمع فرسان المائدة المستديرة خبر التحدي فصار حديث الساعة. رأى الملك أن عليّ أن أخوض مغامرات أخرى حتى أتأهب لسير ساجامور بعد أعوام. كنت أنا مشغولاً ببناء عدد من المصانع وتحويل مجموعة من الجهلة إلى صناع مهرة.

قمت بإنشاء مجموعة مدارس أحد ومدارس للحرفيين. وقد أنشأت جواً من الحرية يسمح لكل من يعتنق أي مذهب مسيحي أن يفعل ما يشاء، وهكذا انتشرت التجمعات البروتستانتية. كان من الممكن أن أجعل الجميع معمدانيين مثلي، لكن هذا كان يتناقض مع الطبيعة البشرية التي تميل لتنوع العقائد.

مرت أربع سنوات حققت فيها الكثير، ونقلت لهم الكثير من حضارة القرن التاسع عشر.. لقد صارت لديّ مدارس في كل مكان، ومصانع أنشأتها وعلمت عمالها.. فكرت في أن أعلمهم الضوء لكن كان هذا أقوى من تحملهم.. ثم إنني كنت سأجعل الكنيسة الكاثوليكية تنقض عليّ.

كنت أضيء للعالم شمعة واحدة في كل مرة، وكنت مصمما على أن أظل كذلك.

من ضمن الأسرار كان أن أنشأت أكاديمية عسكرية خاصة بي.. (وست بوينت) تخصني. وقد ظلت سرا كما ظلت الأكاديمية البحرية التي أنشأتها سرا آخر. لقد أحدثت تغيرات كثيرة، لكن حرصت على أن تظل سرية غير زاعقة.

حدث شيء بسيط عطل مشاريعي.. لكنه لم يضايقني. برغم أنه كان يمكن أن يقع في وقت أفضل. قال لي الملك إن التأجيل الذي طلبته لأربع سنوات قد أوشك على الانتهاء. يجب أن أبحث عن أمجاد حتى يصير لي الشرف في مبارزة سير ساجامور. ما زال في حربه من أجل الكأس المقدسة لكن يمكن أن يعود في أي لحظة.

☆ ☆ ☆

لم يكن هناك بلد فيه كل هذا العدد من الكذابين.. كانوا في كل مكان، وفي كل يوم كان أحدهم يصل ومعه قصة عن أميرة تريد العون ومن ينقذها من قلعة هي فيها أسيرة. وكان الملك يسأله عن مكان القلعة والطريق لها. كان الكل يبتلع هذه الأكاذيب ولا يوجه أسئلة. في ذات يوم جاءت واحدة من هؤلاء القوم وحكت قصة مألوفة عن أميرة سجينة في قلعة، ومعها 44 حسناء أخرى. سادة القلعة ثلاثة عمالقة أخوة لكل منهم أربع أذرع وعين واحدة.. والعين في حجم ثمرة الفاكهة. لم يحددوا نوع الفاكهة.

ثار الفرسان وراح كل منهم يطلب من الملك أن يرسله للمهمة، لكن من الغريب أن الملك كلفني بها أنا الذي لم يطلب أي شي نقل لي تابعي كلارينس الخبر مسرورا لأن الملك أولاني هذا الشرف، فشعرت بغيظ عارم لكن كان عليّ أن أخفيه. قلت إنني سعيد.. بالفعل كنت سعيدا كشخص ينزعون فروة رأسه.

طلبت مقابلة الفتاة. كانت على قدر من الجمال، واسمها ساندي.. وسألتها:

- تعرفين أننا لا نعرف أي شيء عنك لذا سنكون بطيئين نوعا. أنا آسف.. أنت تفهمين.. سوف أسألك بعض الأسئلة فلتجيبي بصدق. أين تعيشين؟

- في أرض المودير يا سيدي.

- لم أسمع عنها قط.. هل والداك حيان؟

- هذا لا أعرفه يا سيد.. أنا سجينة القلعة منذ زمن سحيق.

- هل معك أي وثائق تدل على أنك صادقة؟

- ولماذا أحمل؟ أليس لدى لسان أستطيع أن أحكى به؟

يا للبلاهة.. ألا ترين أنه لا بد من شيء يدعم قصتك هذه؟..

- أين تقع تلك القلعة التي فيها 45 حسناء سجينة تحت حراسة ثلاثة عمالقة؟

- آه.. إنها ضخمة وتقع في بلد بعيد..

- ما بعدها؟

- لا أعرف يا سيدي.. بعيدة جدا وكفى.

- ليكن.. في أي اتجاه هي؟

- ليس لها اتجاه يا سيدي.. الطريق لها يتلوى.. ويلتف.. هذه إرادة الله ألا يكون لها اتجاه.. ولو شاء لزالت كل الدروب من على ظهر الأرض.

- إذن انس هذا أيضا.. أنا أناجي نفسي فقط.. هذه عادة سيئة لديّ.. عادة قديمة. لنقل إن هذا نتيجة عسر الهضم.. لكن لا تقولي إنه ليست معك خارطة للمكان.

قالت:

- خارطة؟ هل تقصد ذلك الشيء الذي يصطادونه من المحيط، ويطبخونه مع الزيت والبصل و...

- هل لم تسمعي عن لفظة خارطة من قبل؟ ليكن.. لن أشرح. لا أحب الشرح لأنه يعقد الأمور.. خذها للباب يا كلارينس.

كان من الصعب أن تنتزع منها حقائق أكثر إلا بالديناميت. كانت جحشاً حقيقيا. برغم هذا أصغى لها الملك وحاشيته باحترام كأنها صفحة من الإنجيل. لقد رحبوا بها كما يرحب الحانوتي بجثة.

عاد لي كلارينس، وكنت مغتاظا لأن الفتاة لم تعطني دليلاً واحدا على مكان القلعة، لكنه كان مندهشا لأنني مصر على معرفة هذه الحقائق.. وقال:

- إنها ستذهب معك يا سيدي.. هذه هي العادة.

- تذهب معي؟ هراء.

- لكنها الحقيقة..

- وتركب معي وتبيت الليل معي؟ هذه فضيحة.

لم يعد هناك كلام سوى عن مغامرتي القادمة، والطريقة التي سأهزم بها العمالقة. كانوا أطفالاً طيبين.. مجرد أطفال. علموني الكثير من التعاويذ السحرية وأعطوني أعشابا أضعها فوق جروحي. لقد نسوا أنني ساحر عظيم يمكن أن أواجه التنين أو شياطين الجحيم.

كنت سأنطلق عند الفجر. لكني قضيت وقتا لعينا وأنا أحاول ارتداء الدروع.. عملية معقدة جدا وكلها تفاصيل. تلبس عدة طبقات من الحديد، وفي النهاية.. هذا ليس وقتا مناسبا للرقص!.. الرجل المدرع كهذا هو بندقة لا تستحق تحطيمها.. هناك لحم قليل جدا بالنسبة للقشرة.

ساعدني الصبية على ارتداء الشيء، وإلا لما استطعت.

كانت الشمس قد ارتفعت وقد جاء الملك والبلاط ليروني. في ثياب كهذه لا تركب بنفسك بل يحملونك حملا كأنهم يحملون مريضا لعيادة طبيب. يثبتون قدميك في الركاب وأنت تشعر بأنك شخص آخر. يعطونني الرمح ويعلقون الدرع في رقبتي كأنني سفينة تستعد لتبحر في البحر.

لم يبق سوى أن تجلس الآنسة خلفي على سرج إضافي. كان اسمها ساندي كما قلت.

وانطلق الفرس.. الكل ينظر في رهبة ما عدا الأطفال.. الأطفال هم الأطفال في كل مكان، وهم لا يحترمون أحدا مهما كان.. لا أستطيع أن أترجل لعقابهم لأنني لن أستطيع الركوب مرة أخرى، وأنا أمقت البلدان التي لا تملك رافعة!

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع
تعذيب بطيء

انطلقنا مع أول أنسام الفجر.. رأينا الوديان الخضر تمتد تحتنا، بينما الأنهار تجرى بينها. ومن بعيد نرى موجات فضية تتعالى نحو الأفق هي في الحقيقة قلعة. نحلم في الضوء الأخضر الذي جاء من شعاع الشمس الذي تخلل الأوراق الخضر.

مع بداية اليوم ارتفعت حرارة الجو وولى الشعور بالراحة. مشينا مساحة شاسعة بلا رقعة ظل. هناك مضايقات غريبة لم تخطر بذهنك قط. في أول عشرة أميال شعرت بحاجة لاستعمال المنديل ولم يكن في جيبي واحد.. الآن صار هذا هاجسا ملحا مستمرا.. لا مفر منه.. فقدت أعصابي ودعوت أن يشنق الرجل الذي يصنع درعا لا جيوب فيه. المنديل في خوذتي لكنها خوذة لا يمكن أن تنزعها بنفسك. الشيء الذي لا تستطيع الوصول له هو الشيء الذي تريده بشدة..

العرق المالح يسيل على عيني ولا أستطيع بلوغ المنديل. يبدو الكلام سهلاً على الورق لكنه عذاب حقيقي. لقد كنا نعبر مساحات غبار كبيرة وكان هذا يتطاير لأنفي فأدمع وأعطس.

لم نلق أي واحد في بريطانيا المقفرة هذه.. لم نلق حتى الغيلان، وكنت أتمنى أن أجد غولا معه منديل.. الثياب تسخن بلا توقف مع الشمس وتقعقع مع كل حركة. كأني أشوى في فرن. تعرق بلا توقف.. هكذا تأتى اللحظة التي تشعر فيها بالحكاك وترغب في الهرش!!

تسللت ذبابة عبر القضبان الموضوعة على وجهي، فهززت رأسي. لكنك تعرف كيف تتصرف الذبابة.. راحت تطير من فتحة أنف لأخرى وهي تئز..

هنا نفد صبري فطلبت من الفتاة أن تنزع عني الخوذة وتهزها.. ثم ملأتها بالماء وسكبت بعضه داخل الدروع. ولا يمكن أن أصف مدى انتعاشي وقتها....

بعد الراحة تنبهت لحقيقة أنني لا أستطيع صعود صهوة الحصان.. الفتاة لا تستطيع مساعدتي، وعليّ أن أنتظر مساعدة. كانت كائنا لطيفا مطيعا لكنها ثرثارة جدا لدرجة أنك تشعر بمخك يتورم. لو كانت هناك سدادة فلين معها لكانت مريحة. لا تتعب أبدا ولا يجف نبع كلامها لحظة أو يمسسها لغوب.

كنت أقول لها:

- استريحي أيتها الطفلة.. أنت تستعملين كل الهواء بحيث سوف تضطر المملكة لاستيراد المزيد غدا.. والميزانية عاجزة أصلا.

كنت سعيدا جدا بهذه الراحة، لكن ضايقني أنني لا أستطيع إشعال غليوني. كنت أملك مصنع ثقاب من قبل لكني لم أحضر ثقابا معي. ثم إنني كنت جائعا.

الفرسان المدرعون مطمئنون دوما إلى أنهم سيجدون طعاما ولا يخطر ببال أحدهم أن يعلق كيس شطائر في الرمح. فرسان المائدة المستديرة يفضلون الموت على أن يشاهد أحدهم بشيء كهذا.

جاء الليل فكان عليّ أن أمضيه داخل الدرع.. وبدأ المطر يهطل وهكذا بدأت الحشرات تفر من المطر لتتسلل لدروعي!. كنت أتساءل طيلة الليل: كيف يتحمل هؤلاء القوم الدروع؟ كيف ظلوا بها كل هذه القرون وناموا بها؟

جاء الصباح وأنا نعسان منهك.. جائع.. أرغب في حمام. هي كانت منتعشة لأنها نامت كجثة طيلة الليل، أما عن الحمام فلا أحسبها جربته في حياتها، لذا لم تفتقده.

مررنا بمجموعة من الفلاحين البائسين الذين يعملون في تمهيد أحد الطرق، بالسخرة لسيد المقاطعة. هؤلاء من يقال عنهم أنهم (قوم أحرار) والحقيقة أنهم لا يستطيعون مغادرة المقاطعة، أو طحن الحبوب إلا في مطحنة السيد، ولا يبيعون أملاكهم إلا بعد دفع ضريبة للسيد.. وقد طلبنا منهم بعض الطعام فرحبوا بذلك.

دفعت ثلاث بنسات مقابل إفطاري.. والحقيقة أن المرء كان بوسعه أن يطعم دستة رجال بهذا السعر في ذلك الزمن. ليكن.. أنا مبذر بطبعي.. ثم إن هذا المال سيفيدهم أكثر بكثير من فائدته في خوذتي..

ساعدوني على ركوب الحصان من جديد. أشعلت الغليون ونفثت سحابة دخان عبر قضبان الخوذة ففر الجميع رعبا.. فقد حسبوني تنينا يخرج الدخان من فمه.

انطلقنا في رحلتنا، وكنت قد بدأت أنعس بينما نحن نجتاز مرجا.

فجأة رأينا قلعة على مرتفع.. لها منظر مهيب ولها أبراج رمادية يلتف حولها نبات اللبلاب. كانت أكبر قلعة رأيناها. وخطر لي أنها القلعة المقصودة، لكن ساندي قالت إن لا.. لا تعرف من مالكها وقد مرت بها أثناء ذهابها إلى كاميلوت.

☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

مورجان لي فاي

معظم ما يقوله الفرسان الجوالون خرافات، ويمكنك أن تتوقع أن 97% من كلامهم كذب.. الباقي حقيقي. لكن برغم هذا أحترم قولهم إن معظم القلاع أماكن غير مريحة.. يجب أن تعرف شيئا عن صاحب القلعة قبل أن تدق على الباب لذا سررت حين رأيت عن بعد فارسا يتجه نحو القلعة.

كان يلبس خوذة مزخرفة بالريش. لاحظت أنه يحمل لافتة على شكل ساندوتش كتب عليها:

- صابون برسيمون.. كل الحسناوات يستعملنه.

كانت هذه فكرتي. الطريقة التي اقترحتها لجلب التقدم والحضارة لهذا الزمن. هكذا زودت مجموعة فرسان بإعلانات تشبه الساندوتش.. كانت هذه فكرتي نحو التقدم والحرية والتخلص من سلطة الكنيسة الكاسحة وقد طلبت من هؤلاء المعلنين أن يمشوا في كل مكان وينطقوا للناس معنى المكتوب على اللافتات. ثم إن المعلن يبدأ في إقناع الناس بأهمية ما يعلن عنه.. يجرب الصابون على كلب أولا.. ثم يجربه على نفسه.. فإذا ظل الناس متشككين قام بتجربته على ناسك.. إن الغابة تعج بهم.

ظهر أثر الدعاية بسرعة.. كان مصنع الصابون يعمل بعاملين، فصار يحتاج إلى خمسة عشر عاملاً. كان اسم الفارس المعلن هو (لا كوت ميل تيل)، وقد كان عاثر الحظ في بيع

الصابون، لدرجة أنه غسل ناسكا بالصابون لكن الناسك مات.. قال لي إن القلعة تخص مورجان لي فاي أخت الملك آرثر.. زوجة الملك يوريتز. إن لها مملكة صغيرة يمكنك أن تقف فيها وتقذف الطوب على المملكة المجاورة. الممالك هنا كثيرة جدا لدرجة أنك تنام وقد ثنيت ركبتيك لأنك كي تفردها تحتاج لجواز سفر.

رحل الفارس وبعد قليل ظهر لنا حراس القلعة وسمحوا لنا بالدخول بعد مفاوضات. زيارتي كانت مخيبة للأمل لكني كنت قد سمعت عن (مورجان لي فاي) فلم أتوقع الكثير. كانت شريرة جدا وقد أقنعت الناس أنها ساحرة عظيمة. إن لقاءها ممتع كلقاء الشيطان نفسه. لكني اندهشت لأني وجدتها جميلة.. لم يجعد الشر بشرتها.. يمكنك أن تحسبها أختا لابنها..

دُعينا لمقابلتها.. وكان زوجها هناك.. كما كان ابنها موجودا، وقد أثار فضولي لأن ساندي صدعتني بقصته التي قهر فيها ثلاثين فارسا.. راحت مورجان توجه لي الأسئلة في تهذيب. صوتها عذب كتغريد البلابل وخطر لي أن هذه المرأة ضحية الأقاويل والأكاذيب.

جاء تابع وسيم يحمل لها رسالة. تعثر من الارتباك وهو يقف جوارها، فما كان منها إلا أن أخرجت خنجرا وغرسته في قلبه كأنه فأر. قال الملك لفظة. أوه. متعاطفة.. لكن الملكة رمته بنظرة نارية جعلته يتوقف فورا. جاء بعض الخدم يأخذون الجثة بينما عادت الملكة تتكلم بلطف. ولاحظت أنها سيدة بيت بارعة لأنها كانت تراقب الخدم وكيف يتخلصون من الجثة وينظفون الأرض بالمناشف.

وأدركت أن الملك المسكين في حالة رعب دائمة.. يكفي أن تنظر له ليئن.

كنت أتكلم فأطريت الملك آرثر.. ونسيت أن هذه السيدة تكره أخاها بجنون، فرأيتها تنادي الخدم وتأمرهم:

- خذوا هذين الحقيرين للزنازين.

كانت زنازين هذا القصر ذات سمعة ممتازة، ولم أجد ما أقول.. لكن حين وضع الحارس يده علي ساندي صاحت:

- قاتلك الله!... كيف تجرؤ؟ هذا هو الرئيس!!!

كانت فكرة طيبة لأن الملكة غيرت طريقتها على الفور.. وقالت:

- سمعت عن براعتك مع الساحر مرلين.. أعرف أن بوسعك أن تحيل حراسي وقصرى إلى رماد، ولهذا أردت أن أدفعك لأن تظهر مواهبك.. هذا نوع من الفضول الطفولي.

أصيب الحراس بالرعب فخرجوا بمجرد أن سُمح لهم..

☆ ☆ ☆

كانت الملكة راغبة بشدة في أن أريها مواهبي وأقتل شخصا..

لكنها قوطعت عندما دعوها لوقت الصلاة. يجب أن أعترف أن هؤلاء القوم متدينون مهما بلغ بهم من توحش وطغيان.. فيما بعد رأيت أكثر من نبيل يتوقف ليصلى قبل أن يذبح عدوه..

يجب أن أعترف بهذا برغم أنى لا أحمل غراما مفقودا للكنيسة الكاثوليكية.

بعد الصلاة جاءت مأدبة تضيئها مشاعل من الشحم.. وكل شيء كان فاخرا جديرا بالملوك.. العدد كان متواضعا هو 180 شخصا تم ترتيبهم حسب طبقتهم الاجتماعية. وكانت هناك فرقة موسيقية بدائية تعزف الموسيقا.

تلا القس صلاة مائدة لاتينية طويلة. ثم انطلق الخدم والسقاة يحملون أطباق المأدبة. تعالى صوت المضغ ساعة ونصف الساعة وتلاشى الطعام.. ثم بدأ الشرب جالونا تلو الآخر. بدأ المرح وتعالت أصوات النكات.. وعند منتصف الليل كانوا ثملين جميعا. بعضهم يبكي وبعضهم يضحك وبعضهم فقد وعيه تحت المائدة.

هنا ظهرت امرأة شائبة الشعر تستند إلى عكاز، وكانت تقف عند نهاية القاعة.. صاحت في الملكة:

- عليك غضب الرب ولعنته يا امرأة.. يا من قتلت حفيدي الوحيد وجعلتني في العالم بلا أهل ولا صديق.

رسم الكل علامة الصليب، لكن الملكة نهضت ولهيب الموت في عينيها وأشارت للخدم:

- خذوها إلى المحرقة!

نفذ الحراس الأمر وقبضوا على العجوز.. كان المشهد قاسيا.

نهضت ساندي وقالت للملكة في حماسة:

- الرئيس يقول لك إن هذا لن يكون وإلا سيمحق هذه القلعة بمن فيها.

لم تقاوم الملكة وعادت لمقعدها، وفي هذه اللحظة أفاق الجميع وتدافعوا للخروج من القاعة قبل أن أغير رأيي وأمحقها فعلاً..

سمعنا صوت صراخ مريع قادما من القبو، فارتعدت.. لكنها قالت لي ضاحكة:

- هذه روح عنيدة تأبى الاعتراف!!

سألتها مذعورا عما يحدث، فقالت لي إنه فلاح متهم بأنه قتل وعلا في أرضها.. وهي تحاول إرغامه على الاعتراف.. قلت لها:

- ليست هذه طريقة مناسبة.. يجب أن تجعلي المتهم ومن أبلغ عنه يتواجهان.

قالت:

- مستحيل أن يتواجها.. فالذي أبلغ عن قتل الوعل جاء متخفيا في الليل وأخبر الحراس ثم فر.

- إذن شهادة هذا المجهول هي الدليل الوحيد على قتل الوعل؟.. ألا يمكن أن يكون هو قاتل الوعل؟.. لكن ما فائدة تعذيب السجين إذن؟

- لن يعترف بطريقة أخرى.. وهذه الطريقة الوحيدة لننقذ روحه.. لن يموت دون اعتراف

- وماذا لو لم يكن لديه ما يعترف به؟

عناد رهيب

دخلنا قاعة التعذيب فرأيت عملاقا شابا من الفلاحين تم ربط أطرافه وقد تناثر العرق على جبينه.. جواره يقف الجلاد والحراس وعند قدميه امرأة شابة باكية، وطفل على حجرها... شد الجلاد الحبال شدة فصرخ السجين وصرخت المرأة في صوت واحد. طلبت بحزم من الملكة أن أتكلم مع السجين منفردا.. ليس لها أن تعارضني فأنا أمثل الملك آرثر هنا...

كانت متضايقة لكنها رضخت لسلطتي..

أرغمت الحراس على فك السجين وأرقدناه وقدمنا له بعض الخمر. كانت المرأة في حيرة ورعب فطلبت منها أن تربت على الرجل. نظرت لي في امتنان كحيوان قدمت له معروفا لا يفهم ما هو. وسالت دموعها.

وعدت الرجل بأن يخرج من هنا رجلاً حرا.. ثم سألت الرجل:

- ما هي قصتك بالضبط؟ أعرف الناحية الأخرى من القصة فماذا عن ناحيتك؟ يمكنني أن أوقن أنك إذ لم تتكلم بعد هذا العذاب لم تفعل شيئا فعلا.

قال الرجل:

- بل أنا من قتل الوعل يا سيدي!

- ما معنى هذا؟

صاحت المرأة:

- أنا طلبت منه أن يعترف يا سيدي، ليظفر بميتة سريعة.. الصمت سيجعله يموت ببطء ويتعذب.

هنا فهمت.. لو أدانوه فلسوف يأخذون أملاكه ويطردون أسرته. لكن لو عذبوه حتى الموت دون أن يتكلم فلا يستطيع أحد أن يسلب أسرته حقها.

المرأة تفضل أن يظفر زوجها بميتة سريعة على أن تحتفظ بالمسكن. تذهلني حقا قدرة النساء المذهلة على التضحية عندما يقتضي الأمر. وتذهلني أكثر القيمة المتدنية لغير النبلاء في هذا الزمن. من حق النبيل أن يقتل من يريد فلا يحاسب إلا لو قتل نبيلاً آخر.

كانت ورقتي الأخيرة هي أن طلبت من الملكة أن أرى مجموعتها من السجناء، لأنني أشيد سجونا جديدة في كاميلوت.. ترددت قليلاً كما توقعت ثم امتثلت كما توقعت أيضا.

نزلنا إلى السراديب المظلمة العفنة حيث كان المساجين.. من ضمن البؤساء الذين رأيتهم كانت امرأة لا تقدر على فتح عينها إذ رأت الضوء، بعدما صار الظلام عالمها.. كانت ترتدى بعض الخرق، ويبدو أنها دخلت السجن في الثامنة عشرة وظلت هناك تسع سنوات. لقد كان أحد النبلاء يريد أن ينام معها قبل زوجها طبقا للقانون هنا، وقد حاول زوجها الشاب أن يدافع عنها. كانت النهاية أن ألقي بها وزوجها هنا في هذا الباستيل. تسع سنوات في الظلام ولا يعرف أحدهما إن كان الآخر حيا أم لا.

رأيت الزوج الذي تحول لهيكل عظمي استطالت لحيته وامتلأ جلده بالندوب، وأمرت بأن يجلبوه إلى زوجته.. توقعنا أن مرآها سيعيد له الدم، لكن كان الأمر مخيبا للأمل. لقد جلسا يتبادلان نظرات غائمة فيها فضول حيواني. ثم عاد كلاهما يحلق في عالم الأحلام.

أطلقت سراح 47 سجينا من جحور الفئران هذه.. لم أترك في السجن سوى أحد النبلاء الذي اتهموه بذبح نبيل آخر. رباه!.. ما أتفه أسباب سجن هؤلاء القوم. معظمهم ألقي به في السجن بلا ذنب، ودون أن تغضب عليه الملكة بل هي تجامل صديقا. بين المساجين هناك خمسة لا يذكر أحد أسماءهم ولا جرائمهم!.. وهم كذلك لا يذكرون. أربعة رجال وامرأة.. لم ير أحدهم ضوء الشمس منذ 35 عاما. الملكة كانت قد ورثتهم من صاحب القصر السابق..

سألت الملكة:

- إذن لماذا لم تطلقي سراحهم؟

أدهشها السؤال فهو لم يخطر ببالها قط.. هؤلاء كانوا نوعا من العقارات.. الأملاك.. عندما نرث أملاكا فنحن لا نتخلى عنها حتى لو لم نكن نريدها.

عندما خرجت الوطاويط للنور وجدت أنهم هياكل عظمية والفزاعات وتمنيت لو التقطت صورة لهم.

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي عشر
قلعة الغيلان

قطعنا تسعة أميال، هو رقم مدهش بالنسبة لحصان يحمل ثلاثة: رجلاً وفتاة ودرعا.. فجلسنا نستريح تحت بعض الأشجار جوار غدير رائق. من بعيد اقترب فارس يبدو أنه لا يكف عن الشكوى، لكنني سررت إذ رأيته لأنه يحمل لافتة كتب عليها أحد إعلاناتي:

«استعمل فرشاة أسنان بيترسون الواقية»

عرفت على الفور أنه سير مردوك دي لا مونتين. كنت أحبه لأنه مخلص شجاع وكان منظره محببا بكتفيه العريضتين وشعر رأسه الشبيه بلبدة الأسد.

كان غاضبا يطلق السباب لأنه يبحث عن خصمه سير (أوسيس) ليصفي حسابه معه. لن يترجل عن جواده ولن يستريح إلى أن يجده.. وعلى بعد أميال رأينا بطريركا ممن أطلقت سراحهم من السجن أمس.. بصعوبة يرى من حوله أو يدرك أين هو بعد نصف قرن من البقاء في حفرة مظلمة كالفئران. أقاربه يذكرون شبابه عندما قبل طفله الرضيع وناوله لأمه ثم انطلق لمصيره. كان أقاربه يحيطون به فرأيت فيهم مدى ما يمكن للمرء أن يبلغه من عبودية وصبر واستسلام. خيالهم قد مات.. وهذه أحط درجة أعرفها في البشر.. معنى هذا أنهم بلغوا القاع..

المشكلة أن التاريخ يعلمنا أن الثورات الناجحة فقط هي التي تبدأ بالدم. هؤلاء القوم لن يثوروا إلا لو أهديتهم مقصلة، وبالتالي أنا لا أصلح لهم.

قالت ساندي إننا نقترب جدا من قلعة الغول.

لقد نسيت تماما سبب هذه الرحلة.. عندما ذكرتها توترت وبدا لي الخطر حقيقيا ودانيا. كانت حماستها تتزايد ومعدية، مما جعل قلبي يدق بلا توقف. رأيتها تترجل ثم تزحف وسط مجموعة من الأشجار فترجلت خلفها..

كانت عيناها حارقتين وهي تشير بإصبعها وتهمس لاهثة:

- القلعة!.. القلعة!.. هذه هي.

قلت في خيبة أمل:

- هذه حظيرة خنازير. لا أكثر.. حولها سور.

قالت في ذهول:

- هي مسحورة من زمن.. بالنسبة للبعض يرونها في شكل مختلف، أما للبعض الآخر فيرونها كما هي.. فليسامحنا الله.. كم تؤلمني رؤية هذه الوجوه الأسيرة التعسة والدموع في عيونها.

قلت في غيظ:

- هذا شيء معتاد.. أن تسحري شيئا في عين البعض ولا تسحريه في عين البعض الآخر.. إذن هاته السيدات مسحورات كخنازير.. أنتن ترينهن كنساء.. إذن لا مشكلة.. أنا الوحيد الذي يراهن خنازير وهذه ليست مشكلة.. سوف أعاملهن كسيدات.

ثم سألتها:

- وهؤلاء الرعاة الثلاثة؟ هل هم مسحورون كذلك؟

- الغيلان؟.. هل تغيروا في عينك كذلك؟.. ما أقوى هذا السحر يا سيدي!

تركت ساندي واقفة كالموتى.. وانطلقت نحو حظيرة الخنازير.. حييت الرعاة ثم أجريت صفقة بأن اشتريت منهم القطيع كله مقابل 16 بنسا.. هذا وقت مناسب قبل أن يأتي الإقطاعي غدا ليأخذ نصف الخنازير فتصير ساندي بلا أميرة..

قال لي أحد الرعاة (وهو أب لعشرة أطفال) أن الجابي جاء العام الماضي ليأخذ خنزيرا فعرضت زوجة الراعي عليه أن يأخذ طفلا بدل الخنزير، ما دامت لن تتمكن من تربيته..

فتحت الحظيرة وطلبت من ساندي أن تتبعني..

كانت دموع الفرحة تسيل من عينيها.. وراحت تقبل الخنازير وتداعبها. شعرت بالعار منها، شعرت بالعار من الجنس البشري كله.

أمامنا عشرة أميال نقود فيه هذا القطيع للبيت. لا يمكن أن نعامل بغلظة هاته السيدات لأن ساندي لن تسمح بذلك. كان عليّ كذلك أن أنادي كل خنزير بجلالتكم أو سعادتكم..

هناك أميرة شقية راحت تجرى هنا وهناك.. قبضت على ذيلها في النهاية وعدت بها وهي تصرخ.. كانت معنا مس أنجيلا بوهون والآنسة إلين كورتمينز.. وما تبدوان لي كخنزيرين

أسودين.. الأولى لها نجمة بيضاء في جبهتها. علينا أن نحافظ على لحم السجق هذا.

بالطبع لم أر في حياتي مشهدا كهذا.. ولا سمعت شيئا كهذا. ولا شممت شيئا كهذا.

قضينا ليلتنا عند أحد الإقطاعيين الذي قبل أن يستضيفنا..

الفصل الثاني عشر
الحجاج

كنت في غاية الإرهاق عندما أخلدت للنوم في النهاية. ما أمتع استرخاء العضلات بعد هذا كله! لكني لم أستطع النوم.. كانت الضوضاء تضايقني، ورحت أفكر في ساندي.. كانت فتاة عاقلة بالقدر الذي تستطيع هذه المملكة أن توجده. أحيانا كنت أشعر أنها مجنونة.. من السهل جدا أن تعتبر الشخص الذي لم ينل تعليمك مجنونا. كان السحر عندها هو الجواب عن كل شيء، فلو حكيت لها عن عربة تسير بلا خيول أو رجل يحلق فوق السحب في منطاد، فلن تندهش.. إنها تعرف هذا كله.. إنه السحر..

وقت العشاء جاءت ساندي بالخنازير وراحت تطعمها في رفق وهى تنادي كل خنزير باسمه. لم أستطع الأكل في وجود خنازير.

سألت ساندي عن أسرتها. فقالت:

- ليست لي أسرة.. لم تسأل؟

- وهذا البيت.. ألا تقيمين هنا؟

- ليس لي بيت.

قلت لها:

- أما وقد انتهت مهمتنا بنجاح فلسوف أعود للوطن لأقدم تقريري.

قالت:

- أنا كذلك ليس لي شيء هنا.

- ولماذا؟

- أنا لا أتخلى عن فارسي أبدا.. سأظل معك حتى يقتلك فارس آخر ويفوز بي.

تنهدت وقلت لها أن نتحرك.

بدأنا الوداع.. واقترحت على خدم القلعة أن ينتهزوا الفرصة لينفضوا الغبار المتراكم على كل شيء.. لكنهم قالوا إن في هذا خرقا للمعتاد.. هذه أمة مستعدة لأي جريمة ما عدا خرق المعتاد.

انطلقنا في طريقنا. كان أول ما قابلناه موكبا من الحجاج.. لم يكن الموكب في طريقنا لكنا انضممنا له. كنت قد قررت أنه لو أردت حكم هذا العالم فعليّ أن أندمج فيه أكثر.

كان هذا الحشد من الناس سعيدا مفعما بالحياة والتهذيب.

كانت ساندي تعرف مقصد رحلة الحج هذه وقالت لي:

- هذه رحلة للوادي المقدس.. حيث يباركهم النساك ويشربون من الماء السحري الذي يزيل عنهم خطاياهم.

- وأين مصدر الماء هذا؟

- على بعد رحلة يومين. على حدود مملكة الوقواق.. هناك مجموعة نساك لا يتبادلون الكلام مع بعض. لا يأكلون تقريبا.. لا يستحمون.. يصلون طيلة اليوم. يظلون بثوب واحد طيلة

العمر إلى أن يتحلل. كان الماء شحيحا هناك حتى صلى كبيرهم فتدفق الماء في الصحراء. استحم الرهبان في الماء فصاروا بيضا كالثلج.. هكذا أغضبوا كبيرهم الذي منعهم من الاستحمام، فجف الماء من جديد.. وذهبت كل صلواتهم وقرابينهم هباء.

- غريب أن يكتشف المرء أن هناك كسادا في هذه التجارة.. أكملي.

- قام كبيرهم بإعادة الينبوع للتدفق.. ومن حينها لا يستحم فيه أحد أبدا.. جاء من كل حدب هؤلاء الذين سمعوا عن المعجزة.. وكبر الدير وجاءت راهبات وأنشأن دير راهبات كبيرا..

عند العصر قابلنا موكبا آخر لكنه خال من السعادة. لا نكات ولا ضحك.. كان مكونا من رجال ونساء.. أطفال وشيوخ.. حتى الرضع كانوا لا يبتسمون. كل الوجوه يبدو عليها القنوط. كانوا عبيدا كما هو باد من السلاسل التي ربطوا بها وكانت هناك سلسلة عملاقة تربط الأعناق كلها ما عدا الأطفال.

لقد مشوا على أقدامهم 300 ميل وأكلوا أقل الطعام.. وكانت القيود قد ملأت جلدهم بالجروح المتقيحة. كانوا في البداية مئة لكن بيع نصفهم في الطريق، والنخاس يتقدم الموكب على حصانه ملوحا بسوط فيه عقد صغيرة في نهايته.

كل الوجوه كانت رمادية يكسوها الغبار.. يمكنك أن تكتب فوقها بإصبعك. هناك على الوجه شكل واضح يمكن قراءته بسهولة؛ هو مجرى الدموع.

من حين لآخر يهوى السوط على كتف امرأة فيمزقه.

أبدى الحجاج إعجابهم ببراعة الرجل في الضرب بالسوط. لقد اعتادوا هذه المشاهد حتى لم يعودوا يهتمون بها. يرون أن هذا شيء معتاد في الحياة.

تمنيت أن أحررهم لكن هذا لا يصلح.. لا أريد أن أشتهر بمحاربتي لكل قوانين المملكة والتمرد. يوما ما سوف أقضي على نظام الرق لكن ليس الآن.

قضينا ليلتنا في حانة بقرية. في الصباح جاء فارس يبلغنا بمصيبة.. لقد جف الينبوع مرة أخرى. تساءل الحجاج في ذعر:

- هل هناك من استحم مرة أخرى؟

- لا نعرف.. نشك في ذلك.. لا بد أنها خطيئة أخرى.

- وكيف يشعرون؟

- لا يمكن وصف ما يحسون.. لقد جفت البئر منذ تسعة أيام. كلهم يصلون ويبتهلون.. في النهاية طلبوا أن تذهب إليهم يا سيدى لتجرب سحرك. إن الساحر مرلين هناك وقد قال إنه سيعيد الماء، لكنه يجرب منذ ثلاثة أيام بلا جدوى. لم يحصل على كمية ماء تعادل العرق الذي يسيل منه أثناء المحاولة.

كان الإفطار معدا فأفطرنا، فتناولت قبعة الفارس وكتبت داخلها:

أرسل اثنين من المقدار الأول. واثنين من الثاني وستا من الرابع.. مع بعض الأشياء.

وقلت له:

اذهب لكاميلوت بسرعة أيها الفارس الشجاع.. واعرض المكتوب على خادمي كلارينس. قل له أن يجلب هذه المواد للوادي المقدس بأقصى سرعة.

- سأفعل أيها الرئيس.

وانطلق مسرعا.

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث عشر
النافورة المقدسة

لم يتصرف الحجاج بتعقل كما يفعل الأرنب أو الغراب أو الدودة في ظروف مماثلة.. أي أنهم لم يعودوا أدراجهم. كانوا مشتاقين لرؤية النافورة المقدسة.. فلما عرفوا أنها جفت والمعجزة زالت ازدادوا حماسة لرؤية المكان. لا يمكن فهم البشر فعلاً.

استمرت المسيرة نحو صوت دقات جرس يدوي من بعيد. كان هذا ديرا بلغناه قبل الظلام. قدموا لنا المسكن وأرسلوا النساء ليبتن في دير الراهبات. كانت الأجراس تدق في آذاننا مباشرة الآن.. بينما الرهبان يروحون ويجيئون في كآبة.

كانت فرحة رئيس الدير المسن عظيمة بلقائي، وأدمعت عيناه وهو يقول:

- لا تتأخر يا بني.. أعد لنا الماء بسرعة. لقد حل بنا الخراب وضاع عمل مائتي عام.. هذا هو سحر الشيطان.

قلت له:

- سوف أستعمل أدوات خلقها الله.. لكن هل يعمل الساحر مرلين بأدوات يقرها الدين؟

- آه.. وعد بذلك يا بني... وعد بذلك.. ألن تساعده؟

- لا أؤمن بخلط الأساليب يا أبت.. ثم إنه تولى المقاولة وليس من حقي لمس العمل إلى أن يعلن فشله.

قال رئيس الدير:

سوف أخذ المقاولة منه. الأمر بالغ الخطورة، ثم إن الكنيسة لا تبالي بالقانون.. الكنيسة هي القانون.

قلت له:

- لا تجبره على شيء وإلا وضع تعاويذ سحرية تعطل عملي شهرا... هل تريد أن نتعطل شهرا؟

كان وجودي قد أفشى جوا من التفاؤل في الدير، حتى إن الرهبان أكلوا وجبة طيبة لأول مرة هذه الليلة، وارتفعت معنوياتهم. حكينا حكايات مؤثرة عتيقة، واهتزت الكروش بالضحك. حكيت لهم قصة مضحكة فلم يفهموها.. حكيتها خمس مرات فبدءوا يضحكون.. حكيتها خمس عشرة مرة فانفجروا في الضحك وتحولوا لغبار كنسته بالمكنسة..

ذهبت للينبوع في اليوم الثاني فوجدت الساحر مرلين يجرب ويطلق السباب. كان الأمر كما توقعته.. هذه النافورة بئر عادية تم حفرها ولا معجزات تحيط بها. يمكنني أن أحكى أكاذيب مماثلة عنها ويدي مربوطة خلف ظهري.

كانت البئر في الصخر، وقد أحاطت بها المشاعل.. وكان الماء يؤخذ منها بدلاء يسحبها الرهبان ليتدفق في الخارج عبر مجار صخرية. لو أن مرلين نزل للبئر واستعمل عينيه لاستطاع تحديد السبب الفيزيائي بسهولة.

خطر لي أن البئر يتسرب منه الماء.. هناك صخور في القاع سقطت وشرخت فتكونت بينها شقوق. وهكذا هرب الماء.

وتأكدت من هذا عندما تدليت في البئر وفحصت الجدران على ضوء شمعة.

صعدت للسطح فاستدرت للرهبان. خطر لي أن هناك من فعل ذلك مثلي عندما جفت البئر أول مرة. هناك من تدلى ورأى الشرخ وسده ثم خرج ليقول لكبير الرهبان إن البئر لن تجلب الماء ما لم يعاقب من استحموا فيها.

أقنعت الرهبان أن العملية صعبة جدا.. إن الدعاية الذكية يمكنها أن تحول شيئا تافها لشيء مهم.

كنت عائدا لبيتي عندما قابلت ساندي. كنت قد بدأت أحمل إعجابا خاصا بهذه الفتاة.. برغم جهلها فقد أدركت أنه من الصعب مقارنة معلومات فتاة من القرن السادس بتقني من القرن التاسع عشر. ثم إنني كنت منبهرا بلغتها التي هي أم اللغة الألمانية..

كانت رحلتنا بين النساك غريبة.. كل واحد من هؤلاء يمارس عملاً عجيبا.. أحدهم تعرى تماما وترك الحشرات في المرج تلتهمه.. واحد يصلى على أربع طيلة اليوم.. وواحد نذر ألا يرقد أثناء نومه بل يظل واقفا يغط.. هناك امرأة عجوز اسود جلدها من الحرمان من ماء الاستحمام سبعين عاما.

زرنا أحد النساك ذوي الشهرة المدوية في العالم المسيحي. وكان زحام كبير يحيط بمنسكه. كان يقوم بحركة متواصلة من ثنى جسمه بسرعة لا تصدق طيلة اليوم، وقد خطر لي أن أربط آلة نسيج لتستفيد من هذه القوى المبددة.. وهكذا بعت الكثير من القمصان للحجاج لمدة أربعة أعوام، والأهم أنه كان يعمل حتى في أيام الأحد.

☆ ☆ ☆

صباح السبت ذهبت للبئر حيث كان مرلين يحرق الدخان وينطق بكلام فارغ بأقصى ما يستطيع. قلت له:

- كم يستغرق هذا العمل يا زميل؟

قال لي:

- أنا أستعمل أخطر تعويذة عرفها سادة العلوم الخفية.. ولن تفشل.

ولمدة عشرين دقيقة تصاعد دخان غطى على كل شيء. فسقط أرضا يلهث منهكا.. وقال لكبير النساك:

- هذه أشر روح في الكون حلت بهذه البئر.. روح لا أجرؤ على تسميتها يا أبت.. لكنها لن تفارق البئر وهذه البئر لن تفيض مرة أخرى أبدا...

نظر لي كبير الرهبان في هلع يسألني عن رأيي.. فقلت له إن جزءا من القصة حقيقي. وأنا أطلب أن يسمحوا لي بأن أنفرد بالبئر ودائرة نصف ميل من حولها.. من الشروق إلى أن أزيل التعويذة.. المرء يمكن أن ينجح أو يفشل وقد يجرب. أنا سأجرب.

نظر لي مرلين بسخرية وقال:

- هل تجسر على نطق اسم الشيطان الذي حل بالبئر؟

- نعم أجسر.. وكل ما عليك هو أن تعود لبيتك عند الملك آرثر وتتولى شأن الطقس.

كانت هذه سخرية منه لأن كل تنبؤاته بالطقس كانت تفشل.. لذا استبد به الغيظ وأصر على أن يبقى ليستمتع برؤيتي وأنا أحاول وقف التعويذة.

جاء رجلاي الخبيران ليلاً.. كانا يحملان على ظهر البغال كل ما طلبت من أدوات.. ماسورة من الرصاص.. نار إغريقية.. صخور... شموع رومانية..

عندما جاء المساء راح الرجال يعملون على البئر بخبرة.. وقبل الشروق بساعة كان الشرخ في قاع البئر قد تم رتقه. وبدأ الماء يرتفع فدارينا أدواتنا وذهبنا لننام.

انتهى القداس عند الظهر فذهبنا للبئر.. لقد ارتفع الماء خلال تسع ساعات لمستواه المعتاد. جاء الرهبان ومعهم مرلين ليروا ما تم لكنهم وقفوا خارج الدائرة التي طلبتها.. الزحام في كل مكان حتى إنه بوسعك المشي فوق الرءوس كأنها سجادة. ساد الصمت لأرفع التوقعات، ثم جعلت بعض الرجال يغنون باللاتينية.. الغرض إضفاء جو من الرهبة. وقفت على المنصة وفتحت ذراعي ثم ألقيت هذه الكلمة المروعة:

كونستاتينبوليتانمكفايت.. ماشرجيشلافت!

وعلى الفور انطلقت ألعابي النارية لتنير السماء بالأزرق ثم الأحمر تصايح الناس في حماسة. وحانت لحظة فتح المضخات.. أعواني ينتظرون هناك. فصحت في الناس.

- جاءت لحظة طرد الشيطان من البئر.. تمسكوا.. سوف ترون الماء المقدس يتفجر من باب الكنيسة!!

وانتظرت حتى نقلوا الكلام إلى من كانوا بعيدين، ثم صحت:

- انظروا.. إنني آمر الشيطان بأن يهجر هذه البئر.

راح الماء يتدفق عبر المواسير التي قمت بوضعها ليلاً، ورأيت الناس يتدافعون ويلثمون الماء.. يكلمونه كأنه صديق عائد.

لقد هزمت مرلين وتوارى... لفظت الاسم المسحور الذي لا يستطيع أحد نطقه، وقد اعترف لي بعد ذلك أن أم هذا الشيطان ما كانت لتنطق اسمه بنفس البراعة.

وعندما اتجهت للكنيسة تراجع الجميع ليفسحوا لي.. كأنني كائن خارق.. وقد كنت كذلك. كانت ليلة مذهلة منحتني مجدا لا بأس به.

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع عشر
ساحر منافس

بعد أيام رحت أراقب رئيس الدير مع الرهبان وهم ملتفون حول ساحر جديد ظهر مؤخرا. كان يلبس ثيابا سخيفة مبهرجة كأنه طبيب نصاب.. وكان يشوح في الهواء.. بالطريقة المعتادة. وزعم أنه مشهور جدا في آسيا.

كانت موهبته هي أن يخبرك بما يفعله أي شخص على ظهر الأرض، وما سوف يفعله. وقد سأله الرهبان عما يفعله مليكه في آسيا، فراح يرقص قليلاً ثم قال:

- الملك يضع في هذه اللحظة بعض العملات في كف متسول.. واحد اثنين ثلاثة.. كلها فضة.

تصايح الناس في حماسة:

- يا للروعة!...

حكى لهم عما يفعله زعيم الإنديز وما يفعله سلطان مصر.. وكلما حكى عن شيء تعالت أمارات الدهشة والانبهار بدقته. أدركت أن هذا الرجل لو استمر فلسوف أفقد أتباعي.. يجب أن أوقفه عند حده وأضع عصا عجلته. فسألته وأنا أضع يدي تحت الوشاح:

- هل لي أن أسأل عن شخص معين؟

- سل ما تريد.

- سيكون هذا صعبا..

- لا صعاب عندي.. كل شيء متاح.

- إذن قل لي ما الذي أفعله بيدي اليمني!!

هنا شهق الجميع في دهشة.. لم يخطر ببال أحدهم أنه من الممكن السؤال عن شخص ليس على بعد آلاف الأميال. لم يخطر لهم هذا من قبل.

تردد الساحر كثيرا فقلت:

- هلم. هل بوسعك معرفة ما يفعله الناس في الجانب الآخر من الأرض ولا تعرف ما يفعله شخص على بعد ثلاث ياردات منك؟... لأنك لست ساحرا.

هنا ابتسم الرجل وقد أراحت ابتسامته الناس لأن هذا يعنى أنه لن يدمرهم.. وقال:

- ليس من الخافي على أحد أن السحرة العظماء لا يهتمون إلا بما يحدث للملوك والأمراء.. لهذا لو سألتني عن الملك آرثر لأجبت..

- وماذا يفعل الملك آرثر؟

- إنه نائم في قلعته نومة مريحة.

قلت:

- الملك ليس نائما.. إنه على صهوة جواده..

لم يعد أحد يعرف من يصدقه. تصادم السلطات. قال الرجل:

- الملك والملكة نائمان الآن.. غدا ينطلقان في رحلة نحو البحر.

- هذه كذبة أخرى.. الملك والملكة في طريقهما لهذا الوادي..

كانت هذه ضربة موفقة وقد جعلت الرهبان يشهقون في إثارة. الحقيقة أنني كنت قد أقمت نظام اتصال يشبه أسلاك الهاتف.. من بلدة لأخرى تنتقل الأخبار.. وقد علمت أن الملك سوف يصل لهذه البئر يوم الثلاثاء في الساعة الرابعة. لكن الناس صدقوا كلام الساحر الآخر ولم يستعدوا لقدوم الملك قط.. تأمل تفكير الناس!.. أنا الشخص الوحيد الذي جعلهم يرون معجزة فعلاً.. لكنهم برغم هذا يصدقون الساحر الآخر الذي لم يظهر أي دليل على قدراته.

برغم هذا رتبت لاستقبال الملك ببعض الحجاج والرهبان.

وفي الثانية ظهرا ناديت رئيس الرهبان ليرى بعينيه موكب الملك قادما من بعيد.. بلا شخص يستقبله ولا أجراس تدق. سرعان ما جرى الرجل وراحت الأجراس تدق وراحت المباني تتقيأ ما بها من رهبان وراهبات..

لقد سقطت سمعة الساحر في الوحل.. وبلغت سمعتي السماء. يجب أن تكافح لتبقي نجاحك في هذا البلد.

☆ ☆ ☆

عندما يسافر الملك أو يقرر أن يخرب بيت أحد النبلاء بتكاليف استضافته، فهو يصحب معه بعض أركان حكومته.. وكان معه في هذه المرة الهيئة التي تفحص المتطوعين للجيش. كان معظم هذه اللجان من الرهبان طبعا لأنهم الوحيدون الذين يستطيعون القراءة والكتابة في زمن كهذا. وبالتالي هم لا يفقهون شيئا في الحرب واختيار الجنود، بينما كنت أنا قد أنشأت في خيالي كلية وست بوينت كاملة.

كان معظم المتطوعين جهلة تماما يعتبرون القراءة والكتابة عارا، ويعتبرون جدول الضرب شيئا شيطانيا.. أما عندما سألتهم عن قانون الجاذبية فقد قالوا إنهم كانوا متغيبين فلم يسمعوا آخر قوانين استنها الملك آرثر.

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس عشر
رحلة الملك واليانكي

أخبرت الملك بأنني أنوي التنكر كمتسول لأجوب البلاد وأعرف حياة الناس المتواضعة. راقت له الفكرة وخطر له أن يشاركني المغامرة.. لكنه كان حزينا لأن السير لانسلوت موجود هنا. متى كان السير لانسلوت موجودا فالملكة لا تهتم إن جاء آرثر أو رحل.

كانت الملكة جنيفر بارعة الجمال، لكنها مستهترة. وكانت لا تكف عن القلق على لانسلوت والسؤال عنه، بينما لم تبد أي قلق على الملك.

عندما جاء المساء أخذت الملك لجناحي وقصصت له شعره وساعدته على ارتداء الأسمال. وضعت سلطانية على رأسه ثم قصصت كل الشعر الذي خرج منها. وقصصت شاربه وسالفه حتى صار طولهما بوصة واحدة.. ارتدى الصندل والعباءة فبدا منظره شيطانيا.

تنكرنا بنفس الطريقة، فبدا منظرنا كالفلاحين أو الرعاة. ثيابنا هي الأرخص لذا يلبسها كل الفقراء.

خرجنا بعد الفجر بساعة، ومشينا عبر بلاد نصف مستقرة.. كنت أحمل حقيبة ظهر فيها بعض المؤن.. المؤن التي يمكن لملك أن يعيش عليها بعض الوقت.

وجدت له مقعدا يجلس عليه على جانب الطريق، ثم ابتعدت عنه. الغرض الرئيس كان أن أجلس قليلاً... فلم أكن

أجلس في حضرته أبدا. برغم أن هذا صار من ضروريات التخفي.

سمعت صوت جلبة فحسبتهم فلاحين استيقظوا مبكرا، ثم فطنت إلى أنه جمع من الفرسان المسلحين، فجريت للملك وطلبت منه أن يقف ويبدو متسولاً متواضعا... حاول ذلك بصعوبة.. قلت له:

- نحن بلا سلاح.. وهذا الحشد قادم. يجب أن يصدقوا أننا فقراء.. لن نبدو كفلاحين بل نفكر كفلاحين.

وعد بأن يجرب.. لقد صرت أتصرف معه كأم تحاول جاهدة أن تنقذ ابنها من ورطة. كان يحاول جاهدا أن يبدو طبيعيا لكنه كان فاشلاً تماما.

مثلاً رأيته يخرج خنجرا من عباءته وصدمني هذا. ليس مسموحا لنا كعامة أن نحمل سلاحا..

قال لي:

- أنت قادر على التنبؤ.. أنا معترف بأنك ساحر أقوى من مرلين، لكنه يتنبأ.. والتنبؤ أقوى من السحر.

شعرت بأنه يجب أن أغير سياستي، فقلت:

- مرلين يمكنه التنبؤ بما سيحدث قريبا أو خلال عشرين سنة.. أما أنا فبوسعي أن أخبرك بما سيحدث بعد مئات السنين. ربما 700 سنة.

لم يكن عليك أن تثبت كلامك مع هؤلاء القوم.. كل ما عليك هو أن تقوله.. قلت له:

- أنا أترك لمرلين عمليات التنبؤ السهلة لكنك تعرف مثلاً إنني تنبأت بقدومك قبل أن يقع بيومين.

كان الملك نهما لمعرفة ما سيحدث في الـ 13 قرنا القادمة كأنه يتوقع أن يعيش فيها جميعا.. هكذا رحت ألعب دور النبي.. مارست أفعالاً مشينة كثيرة في حياتي لكن هذا كان أسوأها.

ذات مرة مر بنا فارسان. فوقف الملك إلى جانب الطريق وقد أبدى التواضع كفلاح لكنهما اندفعا جواره حتى كادا يمزقانه تحت الحوافر.

ما أن ابتعدا حتى وقف غاضبا محنقا.. نظر الفارسان لنا من بعيد ثم وجدا أنه من العبث الاهتمام بحثالة مثلنا.. وفجأة أطلق الملك سبة.. فاندفع الفارسان عائدين نحونا والغضب يعميهما.

كان هذا هو الوقت المناسب كي أفجر الديناميت الذي ظللت طويلاً أحتفظ به في حافظة ظهري. كنت أدخره لعمل معجزة ما.. هكذا فجرت الديناميت أمام الحصانين. بدا المشهد كأنه انفجار سفينة بخارية في المسيسبي.. ولعدة دقائق أمطرت السماء علينا دروعا وأجزاء من الفرسان. وتخلفت حفرة سيجهد الناس أنفسهم في فهمها لعدة أعوام.

أقنعت الملك بصعوبة أن هذه الخدعة لا يجب تكرارها.. والحقيقة أن السبب هو أن هذا كان آخر ديناميت معي.

الفصل السادس عشر

الملك يتدرب

كان عليّ أن أدرب الملك على أن يبدو فقيرا.. لذا رحت أقول له:

- اخفض ذقنك من فضلك.. لا تنظر للأفق من فضلك بل انظر للأرض.. هكذا أفضل.. لكن ثمة شيء مهم ناقص.. لا أعرف ما هو.

امش ثلاثين خطوة لأملأ عيني منك.. هكذا. رأسك معتدل.. كتفاك معتدلان... كل شيء صحيح وبرغم هذا شيء ما خطأ.

- وماذا أفعل لأكون مقنعا؟

- سوف نمضي فترة هنا نتدرب على المشي.. وعندما ندخل كوخ أحدهم فعليك ألا تنادى رب البيت بالخادم أو الوصيف.

- سوف أناديه بالرجل الطيب.

- لا بأس.. لكن الأفضل أن تسميه (الأخ)

- أقول (أخ) لهذه القذارة؟

- نحن نحاول فعلاً أن نكون بهذه القذارة.. وعليك أن تطلب الطعام لك ولى.. وتطلب المأوى لك ولى. لو لم تفعل فلسوف يفترض صاحب الكوخ أننا لسنا متساويين.

كان رأس الملك شبيها بزجاجة الساعة.. يستوعب كل شيء لكن عليك أن تعطيه حبة رمل في كل مرة..

لقد نجحت في كل شيء لكن ظل كتفاه عنيدين يرفضان الانحناء. قلت

- تخيل أنك مدين وأنك فقدت عملك - وهو إصلاح حدوات الخيول - وأطفالك جياع وزوجتك مريضة.

كلام سهل لكنه غير قادر على التأثير على أحد. السبب هو أنه لا يوجد في الكون مال كاف.. العمل العقلي يجلب الكثير من المال مقارنة بالعمل اليدوي. بالإضافة لهذا هو ممتع. قانون العمل لا يتغير.. كلما زادت متعتك من العمل، كلما كان أجرك أعلى.

☆ ☆ ☆

بلغنا ذلك الكوخ عند العصر فلم نر علامات حياة من حوله. كل شيء ينطق بالخراب والفقر.. والصمت يذكرك بصمت الموت.

كان الباب مواربا فدنونا على أطراف الأصابع.. قرعنا الباب وانتظرنا. رأيت في الظلام خيال امرأة على الأرض تبدو كأن مجيئنا أيقظها. قالت لنا:

- الرحمة.. لم يبق شيء هنا..

- لم آت لآخذ شيئا يا امرأة.

- أنت لست قسا؟

- لا.. أنا غريب.

في الضوء الخافت رأيت مدى ضمورها... قالت لي:

- المكان لعنته الكنيسة.. فر بجلدك.. اتركنا أيها الغريب النبيل وخذ معك بركاتي.

كان من الواضح أنها ظمآنة فبحثت عن وعاء خشبي وهرعت إلى الجدول القريب أملؤه بالماء، وعدت للكوخ. كان الملك قد أزاح مصراع النافذة ليدخل ضوء الشمس والهواء. راحت المرأة تشرب في نهم.. هنا سقط الضوء على وجهها فأدركت أنها مصابة بالجدري!

قلت للملك:

- اخرج من هنا يا سيدي.. فالمرأة مصابة بالوباء الذي هز كاميلوت منذ عامين.

لكن الملك لم يتزحزح لأنه رأى أن الفرار عارز

قالت المرأة:

- سيدي.. هلا صعدت هذا السلم وألقيت نظرة وأخبرتني بما تجده؟ لا تخف.. فقلب الأم لا يتحطم إذا كان محطما بالفعل.

نظر الملك فوق السلم كما قالت فرأى رجلا نائما.. قال لها:

- هل هذا زوجك؟ إنه نائم...

- الحمد الله أنه نام.. ولن يوقظه شيء أبدا فقد مات.

تسلق الملك السلم ثم هبط وثمة شيء رقيق تحت إبطه. فتاة في الخامسة عشرة نحيلة جدا تموت بالجدري. كانت هذه

هي الشجاعة ذاتها..

مواجهة الموت الأكيد في هذا المكان المظلم بلا مهرب، ومن دون شهود يقرون بشجاعتك. إنه يحمل الموت بين يديه.

أرقد الفتاة جوار أمها فراحت الأم تملس عليها وتلثمها.. كدت أسقى الفتاة فقالت الأم:

- لا. هي لا تتعذب.. هذا أفضل. ربما أعادها الماء للحياة بينما لا يوجد ما تعيش من أجله.. أبوها وأخواها رحلوا. الكنيسة لعنتها..

وحكت لنا مأساتها منذ كانت أسرة سعيدة.. سعيدة بمعنى أن أفرادها لم يموتوا إلى أن استولى إقطاعي على أرضهم الصغيرة، وسجن ابنيها.. وعاشوا على الكفاف ثم أصيبوا بالجدري، فلعنت الكنيسة هذا الكوخ ومنعت دخوله.

قدمت لها بعض الطعام والشراب فرفضت بقوة.. لا تريد أن يقف شيء بينها وبين مصيرها. وفجأة نظرت لابنتها وصرخت:

- ابنتي!

واحتضنت جسدها المتصلب بين ذراعيها.. لقد شعرت بقدوم الموت.

الفصل السابع عشر
مأساة في العزبة

عند منتصف الليل انتهى كل شيء وجلسنا مع أربع جثث، فغطيناها كيفما اتفق وأغلقنا الباب متأهبين لنواصل الرحلة. لم يكن مسموحا لهم بالدفن على الطريقة المسيحية، بل هم أقرب لكلاب أو مجذومين.

سمعت صوت خطوات فأصابني الهلع وابتعدت بالملك.. لا يجب أن يرانا أحد نغادر هذا البيت الذي منعت الكنيسة دخوله.

سمعنا صوت دقات على الباب فارتجفنا، وجاء صوت يقول:

- أبي.. أمي.. لقد تحررنا.. لديّ أخبار رائعة لكما.. لماذا لا تردان؟

هنا انفتح الباب وعرفت أن هذين الرجلين هما ابنا السيدة... سيجدان جثث أهلهما. فررنا بسرعة من الكوخ لأننا نخشى لحظة أن يكتشفا الجثة.. رحت أجرى في الطريق وتبعني الملك.

حاولت أن أبعد المشهد عن ذهني فقلت:

- أصبت بنفس المرض من قبل لذا أنا منيع ضده.. لكن بالنسبة لك...

كان الملك يفكر ثم قال لي:

- كيف تحرر هذان؟ أعتقد أنهما هربا ولم يطلق سراحهما.

- أعتقد هذا.

- إذن كان علينا أن نقبض عليهما ونسلمهما للشرطة.. مالكهما لا يجب أن يعاني العار.

كان هذا هو الأمر.. لقد ولد هكذا وتربى هكذا.. دمه يفيض بهذه القسوة ولا يرى العالم إلا هكذا. لا يرى عارا في العبودية وتعذيب البشر لكنه يرى العار في هروب هذين من سجن سيدهما.

كانت هناك غابة مظلمة قررنا اجتيازها.. وكانت هناك عاصفة دانية بدأت السماء تضئ بالبرق منها.

مشينا في الظلام فاصطدمت بشيء ثقيل لكنه طرى نوعا... وهنا التمع البرق فرأيت وجه رجل مشنوق من أحد أغصان شجرة!... بدا مع العاصفة كأنه يتلوى.. مشهد شنيع. يجب أن نقطع هذا الحبل فلربما بقيت بعض الحياة في الرجل. لكن آرثر اعترض:

- لو كان قد شنق نفسه فهو قد قطع علاقته بالرب ويستحق أن يظل معلقا، ولو كان هناك من شنقوه فلا بد أن لهذا سببا.

واصلنا المشي فعددنا نحو ستة مشنوقين، ثم مر بنا رجال يطاردون بعضهم.. وتعالى صوت زئير من حناجر رجال.. ثم رأينا عربة تحترق ومزيدا من رجال يركضون. طلبت من الملك أن نتوارى في الغابة لأن هذا ليس مكانا آمنا للغرباء.

مضى الوقت ثم خمد اللهب وكفت الأصوات..

فررنا بعيدا نحو ستة أميال من هذا المكان، وطلبنا المبيت لدى تاجر فحم. سألتنا زوجته عما إذا كنا سمعنا عن الأحداث البشعة في عزبة أبلاساور..

نمنا حتى الظهر ثم صحونا جائعين.. لدرجة أن طعامهم الريفي المكون من بصل وخبز أسود بدا رائعا للملك. حكت لنا الزوجة عن حريق شب في العزبة أمس وتم إنقاذ الأسرة كلها ما عدا المالك.. وجدوا المالك على بعد ميل مقيدا ومطعونا، واتهموا أسرة معينة تعرضت لظلم من هذا المالك.

وتم اعتقال أفراد هذه الأسرة جميعا وشنقهم.. زوج المرأة كان ضمن العصابة التي أعدمت المتهمين. لقد تم ذبح أو شنق 18 شخصا.. أما السجناء في قبو العزبة فقد فروا.. لا بد أن من بينهم ابني تلك الأسرة المبتلاة بالجدري.

رة

لاحظت أن هؤلاء القوم ينحازون لسادتهم وليس لطبقتهم.. في أي صراع بين سيد إقطاعي وبين رجل فقير مثلهم، فهم يقهرون الفقير ويسحقونه. هذا محبط جدا لرجل يحلم بتكوين جمهورية.

لكنى برغم كل شيء أدركت أن تاجر الفحم مسرور نوعا بما حدث لمالك العزبة. هناك جذوة غضب لدى هؤلاء القوم تسمح بتكوين جمهورية.

كنت أحلم.. أحلم باستمرار الملكية حتى يموت آرثر، ثم إزالة النبلاء وإرغامهم على امتهان أعمال مفيدة، ثم جعل الجميع متساوين.

الفصل الثامن عشر
اليانكي والملك يباعان كرقيق

للأسف بدأ بعض الفلاحين يتشككون في أمرنا، وأبدى الملك بعض الآراء الغريبة مما جعلهم يطاردوننا إلى الغابة ويقذفوننا بالحجارة.

تسلقت أنا والملك إحدى الأشجار، لكن الفلاحين أشعلوا النار.. وهكذا وجدنا أننا نوشك على الاختناق من الدخان...

وثبنا من فوق الشجرة ونحن غارقان في الدخان والسعال، وفجأة سمعنا صوت فارس يقول:

- توقفوا وإلا فأنتم رجال موتى!

ما أجمل هذا الصوت!.. كل مخايل هذا الفارس تدل على النبل والسيطرة..

تراجع الجمع الغاضب بينما تفحصنا الفارس ثم سألهم:

- ماذا تفعلون بهذين؟

- هما رجلان مجنونان يا سيدي.

- أحقا لا تعرفون من هما؟

- أيها السيد النبيل.. هما غريبان لا يعرفهما أحد. وهم متوحشان.

قلت للغريب:

- نحن مسالمان يا سيدي.. نسافر في سلام.. ولولا تدخلك الشجاع لقتلنا هؤلاء القوم.

قال الفارس لرجاله:

- اضربوا هذه الحيوانات بالسوط لتعود لأعشاشها.

هنا فر الفلاحون بينما الفرسان يجلدونهم.. ثم أمرهم الفارس أن يضعونا على سرجي حصانين. ومشينا في خلفية الموكب بين الخدم... ثم قضينا الليل في حانة، فتناول السيد العشاء ثم أخلد للنوم فلم نره إلا في الصباح.

عرفنا في الصباح أن الفارس يدعى لورد جريب وأرضه تقع على مسيرة يوم، وقد أصر على أن نصحب موكبه حتى نكون في أمان حتى نبلغ المدينة التالية.

وصلنا للمدينة حيث زحام الناس فشكرنا اللورد وترجلنا، ثم اقتربنا من تجمع للناس لنرى مصدر اهتمامهم. كان هذا حشدا من العبيد المقيدين بالأصفاد..

لم أستطع إبعاد عيني عن هذه المهانة للبشرية.. نسيت إنني من العامة وتذكرت فقط إنني إنسان... وتحمست.. فجأة.. كليك!.. سرعان ما وجدت إنني والملك مكبلان بالأصفاد!

ونظرنا لنجد أن الخدم المحيطين بنا يراقبون الموقف.. لقد كانوا يعرفون. وقال اللورد للخدم:

- خذا هذين العبدين وقوما ببيعهما!

ثار الملك آرثر وطوح بأصفاده، لكن الأوغاد تكاثروا علينا.. وسرعان ما وجدنا أيدينا مكبلة خلف ظهورنا. وصاح الملك:

- أنا لست عبدا!!

هنا قال أحد الخطباء في السوق:

- إذن أثبت أنك رجل حر.. عليك أن تبرهن لنا على أنك لست عبدا... نحن نعتمد على كلام سيدك.

صرخ الملك آرثر:

سيدي؟ ليس لي سيد... أنا السيد.

الخلاصة أنه تم بيعنا في مزاد.. بعد مئات السنين في الجنوب الأمريكي سيباع ناس أيضا لأنهم لا يستطيعون إثبات أنهم أحرار، لكن تأثير التجربة الشخصية كان قاسيا.

الأسوأ أن هذا البلد كان رخيصا لذا تم بيعي بسعر يثير الخجل. بيع ملك إنجلترا بسبعة دولارات وتابعه بتسعة بينما كان الملك يساوى 12 دولارا على الأقل..

قام النخاس بربطنا في سلسة طويلة في مؤخرة بضاعته، وبدأنا المشي مارين بكامبنت.. من الغريب أن يمشى ملك إنجلترا وتابعه مصفدين تحت عيون الجميع فلا يهتم أحد الفضوليين بالأمر. هذا يدل على أن الملك والصعلوك متساويان ما دمت لا تعرف. فقط عندما تعرف أنه ملك تتقطع أنفاسك.. نحن حمقى.. لا شك في هذا.

☆ ☆ ☆

أعتقد أن أشد ما أحزن الملك، لم يكن سقوطه من قمة المجتمع إلى القاع، بل ما حز في نفسه هو الثمن المهين الذي بيع به. صدع رأسي محاولاً إقناعي أنه لو كانت الحياة عادلة لساوى 25 دولارا، وأنا أشك في أن العالم رأى ملكا يساوى هذا السعر قط.

وقد تكفل النخاس بتحويل الملك إلى عبد فعلاً. لا داعي للوصف لكن أؤكد لك أنه خلال أسبوع كانت السياط قد مزقت ظهره. لكن روحه ظلت شامخة. لم ير النخاس من قبل عبدا يظل رجلاً حتى يموت. فالملك كان أكبر من الملك بكثير. كان رجلاً.. والرجل لا يمكن سحقه.

كنت في ذلك الوقت راغبا بشدة في التحرر.. في الفرار.. لقد أقنعت الملك من قبل بعدم التهور، ولكني أتوق للحرية بشدة. وضعت خطة سوف تستغرق وقتا وصبرا..

كنا نمر بمغامرات عدة. ذات مرة مررنا بموكب كبير ويا له من موكب!.. يخيل لك أن كل رعاع المملكة كانوا فيه. كانت هناك عربة وفوقها تابوت.. وفوق التابوت فتاة حسناء ترضع طفلاً. في عينيها دموع لكن رضيعها يضحك ويحتضن ثديها بيده الصغيرة المكتنزة. كان الرعاع يجرون جوار العربة وهم يطلقون السباب وأفظع الألفاظ.. كنا خارج لندن وبدا لي أن هذا هو المجتمع (اللندني)..

كانت هناك مشنقة، وقد جاء جلاد ساعد الفتاة على الصعود فوق مقعد.

وقف المأمور جوارها ينظر للوجوه المحملقة، وبدأ يحكى قصتها:

- القانون هو العدل.. أحيانا يخطئ القانون فلا نملك سوى أن نصلي من أجل روح من سقطوا تحت ذراع القانون. القانون حكم على هذه الشابة بالموت. كانت هذه الفتاة ابنة 18 عاما زوجة سعيدة وأما. وكان زوجها يكافح للظفر بلقمة شريفة، ثم حدث ما جعلهم يرسلونه عبر البحار.. الزوجة بددت كل ما تملكه من أجل الطعام، وعندما نفد ما لديها طردت في الشارع وراحت تتسول. في النهاية سرقت قطعة قماش وقبض عليها.. وقد تعاطف معها الجميع، لكن المدعي العام أصر على أنها مدانة.

لا يمكن الصفح عن هذه الجريمة أمام المجتمع. وهكذا حكم القاضي عليها بالموت فهب صاحب قطعة القماش يرتجف ويصرخ: البائسة.. لم أعرف أنه الموت!!. وانتحر في نهاية اليوم. هكذا أضيف موته إلى جرائم الفتاة..

وضعوا الأنشوطة حول عنقها بينما كانت تقبل طفلها في نهم. وكان الطفل يضحك. مما حرك القلوب حتى قلب الجلاد نفسه. وانتزع الكاهن الطفل من بين ذراعيها. فصاحت:

- طفلي سيموت.. لا أم ولا أب ولا بيت.. سيموت.

قال الراهب:

- لديه هذا كله فأنا سأربيه حتى أموت.

بدا على وجهها تعبير من الامتنان.. تعبير حملته معها للسماء للأبد.

☆ ☆ ☆

الفصل التاسع عشر
المأزق

بدت لنا لندن كقرية كبيرة.. وقد قابلنا الكثير من الفرسان الذين نعرفهم، لكنهم لم يعرفونا في هذه الأسمال التي نلبسها. مرت بي ساندي علي بعد خطوات فلم تنظر لي على الإطلاق.

لكنى سررت إذ لمحت بائع صحف. ولمحت سلكا ينحدر من بيت لبيت كان هذا هو سلك التلغراف.. السلك الذي علمته لهؤلاء القوم، وكان هو سبيلي للفرار لو حصلت على جزء منه. كنت أتمنى أن نفر ذات ليلة أنا والملك.. نقيد النخاس... نلبسه ثيابنا.. نضعه ضمن العبيد ونفر نحن..

كان الملك قوى الجسد مهيبا لكن أحدا لا يريد عبدا كهذا.. أما أنا فقد صار سعري 22 دولارا بلا مناقشة، ولم يكن أحد راغبا في دفع سعر كهذا.. هكذا عرفت أنني لن أفارق الملك فكلانا سلعة كاسدة.

فقط لو وجدت قطعة حديد تصلح لفتح القفل. وقد استطعت بالفعل أن أجد واحدة. قلت للملك إننا سوف نفك القيود وننتظر وعندما يأتي النخاس لتفقدنا، سوف نقهره ونأخذ ثيابه ونفر.. راقت الفكرة للملك.

انتظرنا في المساء حتى نام زملاؤنا العبيد. ليس من الحكمة أن تخاطر مع هؤلاء متوقعا ألا يفشوا سرك.

كان فك القفل صعبا.. في كل مرة تحدث جلبة لا بد أن توقظ واحدا من الغافين. في النهاية تحررت.. وعدت رجلاً حرا.

تنهدت ثم رحت أجرب مع قيود الملك. لكني تأخرت!... لقد ظهر السيد حاملاً شمعة، فتكومت جوار رفاقي ورحت أغط حتى أخفى أنني صرت بلا أصفاد..

تفقد الرجل النائمين ثم ابتعد وأغلق الباب. كان معنى هذا فشل الخطة..

صرخ الملك آرثر:

- هلم.. هاته!

وثبت في الظلام الدامس نحو الباب قبل أن ينغلق وخرجت أبحث في الظلام، فاصطدمت بشيء طرى.. لا بد أنه هو النخاس، ودار بيننا صراع محموم. وسرعان ما ارتمينا على الأرض خارج السرداب نتقاتل.. جاء مجموعة من الحراس حاملين المشاعل وفصلونا عن بعض، ثم اقتادونا بعيدا. يبدو أنهم يريدون أن يلقوا بنا في الحجز.

لقد فشلت مهمتي.. لكن ماذا يفعل النخاس عندما يجد أن مهاجمه هو أنا؟ وماذا لو سجنونا في مكان واحد؟ لكنه أدار وجهه لي فأدركت أنه ليس نفس الشخص!

☆ ☆ ☆

كانت ليلة طويلة لكن الصباح جاء أخيرا. عندما استدعوني للتحقيق كذبت وزعمت أنني عبد وأن سيدي قد مرض، هكذا طلبوا مني أن أجرى بأقصى سرعة لأجلب الطبيب.. جريت في

الظلام بسرعة فاصطدمت بهذا الرجل العامي. توسلت له أن يتركني لأنقذ حياة سيدي الأيرل لكنه ضربني ورفض تركي.

صاح الرجل إن هذا كذب وإنني هاجمته في الظلام بلا سبب، فأمر القاضي رجاله بجلده:

- اضربوه حتى يتعلم ألا يعترض طريق خادم أحد النبلاء..!.

أطلقوا سراحي في النهاية فعدت مسرعا بلا إفطار إلى مخيم العبيد.

هنا فوجئت في رعب أن الجميع قد رحلوا!... كلهم ما عدا نخاس العبيد نفسه الذي رقد على الأرض فاقد النطق.. كأن مشاجرة حدثت هنا.

كان هناك تابوت على عربة، وكان بعض الحمالين يحملونه ليدخلوا المكان..

حكى لي أحد الواقفين:

- كان هنا 16 عبدا قد ثاروا على سيدهم وقتلوه.

صحت:

- كيف حدث هذا؟

- قيل إن أغلى عبد هنا قد استطاع الفرار بحيلة سحرية. عندما اكتشف السيد فرار العبد جن.. حمل العصا وانهال بها ضربا على عبيده.. فقاوموا وضربوه بدورهم حتى مات.

- هذا شنيع.. وهل حوكم هؤلاء؟

- محاكمة؟ لقد انتهت!.. هل حسبتها تستغرق أسابيع؟ لم تستغرق سوى ربع ساعة.

- وكيف وجدوا الفاعل؟؟

- لا يهتمون بتفاصيل بسيطة كهذه.. هذا هو القانون الذي تركه لنا الرومان.. لو أن عبدا قتل سيده فكل العبيد لدى السيد يقتلون.

- ومتى يموت هؤلاء؟

- خلال 24 ساعة.. ربما بعد يومين إلى أن يجدوا العبد الآبق.

شعرت بقلق وسألت:

- هل سيجدونه؟

- بالتأكيد.. حراس في كل مكان وعلى كل بوابة وعبيد ممن يعرفون شكله في كل ركن.

تركت الرجل.. وعند أول ناصية ابتعت عباءة مختلفة، وربطت معظم وجهي بوشاح كمن أصيب بألم في أسنانه.. ثم تسللت إلى مكتب التلغراف الموجود في محل جزار هنا. دخلت ففوجئ الشاب المسئول وكاد يصرخ لولا أن وضعت يدي على فمه وقلت له:

- لو صرخت فأنت ميت.. هلم اطلب كاميلوت.

ذهل الفتى لأن مظهري لا يوحي بأنني أعرف قدرات التليغراف. فليفعل هذا وإلا طلبتها أنا بنفسي فأنا رجل يائس.

- اطلب كلارينس.

- كلارينس من؟

- لا يهم.. فقط اطلب كلارينس.

لم أضيع وقتي في تحية كلارينس بل قلت له:

- الملك هنا وفي خطر. تم القبض علينا كعبيد. لا يمكننا البرهنة عن شخصيتينا. أرسل 500 فارس يقودهم السير لانسلوت.. ليأتوا حالاً ويدخلوا لندن من الباب الجنوب الشرقي.. ابحث عن رجل يلبس خرقة بيضاء على يده اليمنى.

جاءت الإجابة:

- سينطلقون خلال نصف ساعة.

غادرت المكان قلقا.. فرسان ودروع.. يتحركون في التاسعة لكنهم لن يستطيعوا الإسراع.. لا أوحال والطرق ممهدة.. سيغيرون الخيول مرتين.

سيصلون في السادسة.. سيرونني بالشاش على ذراعي وسوف أتولى القيادة. ثم ننطلق للسجن لنحرر الملك.

لكن الأمر كان خطرا.. عند أحد المنعطفات قابلت أحد العبيد من زملائي مع حارس. سعلت فنظر لي نظرة قاتلة.. لا بد أنه يتساءل متى سمع هذه السعلة من قبل.

جريت إلى زقاق جانبي خلف المتجر وزعمت للبائعة إنني ضابط متنكر أطارد العبيد الهاربين. لكني وجدت نفسي بلا سابق إنذار أمام ضابط، والأصفاد في يدي.

غضبت وأقسمت أنني جئت من رحلة طويلة في البحر.. في النهاية تفحصني العبد بدقة وعرفني. هكذا كففت عن الكذب ولمته على تسليمي لهم، لكنه لم يخجل بل اندهش.. وقال:

- ألم تفر أنت وتتسبب في شنقنا؟.. أنت المسئول.. هذا مضحك.

برغم هذا كان في كلامه منطق لا بأس به.

قلت للعبد:

- أنت تعتقد أنهم سيشنقوننا بعد يومين.. أليس كذلك؟.. هذا لن يحدث.

قال:

- بل هو سيحدث ظهر اليوم!!.. لقد كانوا ينتظرون العبد الأبق وهم قد وجدوه!!

هنا فهمت الموقف الخطر..

هكذا لم يعد هناك تأجيل. عندما يصل الفرسان سيكون الشنق قد تم منذ أربع ساعات. لقد عثروا على العبد المفقود.

الفصل العشرون
سير لانسلوت والفرسان

بدأ المشهد خارج أسوار لندن.. يوم جميل صحو تتمنى أن تعيش فيه لا أن تموت. لقد أعدوا منصة مريحة يجلس فيها النبلاء وزوجاتهم لمراقبة الإعدام. أنت تسلية نهاية الأسبوع لهؤلاء القوم.

وثب الملك ليواجه القوم وقد امتلأ بالكدمات والقذارة وأعلن أنه هو الملك آرثر، وأنه سيعاقب بالخيانة كل من يمس شعرة من رأسه.. هنا اندهش عندما قوبل بالضحكات والسخرية.

- دعوا الملك يتكلم.. دعوه يسمعنا قطوف الحكمة.

تحرك رؤساء الشرطة ببطء، مما يعني أن الطقوس ستبدأ. وتلوا علينا جرائمنا وحكم الإعدام.. ثم جاء القس يصلى على أرواحنا.

ما أجمل أن يظهر الفرسان الآن! لكن هذا غير وارد بهذه السرعة..

تدلى أول العبيد من المشنقة وراح يتلوى لأن أطرافه غير مربوطة.. ثم تلاه عبد آخر

كان الأمر مخيفا. أدرت رأسي جانبا هنا لم أر الملك!... لقد كانوا يضعون العصابة على عينه!.. أصابني الشلل من الرعب.. ووضعوا الأنشوطة حول عنقه. وثبت من مكاني صائحا..

هنا رأيت في الأفق الفرسان الخمسمائة قادمين!... كانوا يركبون الدراجات التي علمت المملكة صنعها.. يا له من مشهد عظيم.

لوحت بيدي بينما اندفع نحوي لانسلوت.. فصحت:

- على ركبكم يا أوغاد... حيوا الملك!... من لا يفعل سيبيت في الجحيم الليلة.

كان من المثير أن ترى الحشد يتراجع في رعب.. لقد كان من أهانوه منذ دقائق هو الملك فعلا. لقد امتلأت بالرضا والنشوة.. هذا مشهد من أروع ما رأيت.

هنا رأيت كلارينس قادما بنفسه. قال لي:

- مفاجأة مذهلة.. أليس كذلك؟ قررت أن آتي بنفسي وكنت قد جعلت الأولاد يتدربون على الدراجات قليلاً قبل أن نأتي.

☆ ☆ ☆

لقد عدنا لكاميلوت أخيرا..

بعد يومين جلست أطالع الصحف على مائدة الإفطار، فوجدت في صفحة الإعلانات خبرا يقول:

- اللورد العظيم والفارس المغوار سير ساجامور لو ديزيوس سوف يتنازل ويواجه وزير الملك المسمى (هانك) والشهير بالسيد، وهذا من أجل تسوية لإهانة سابقة. سوف يتواجهان في الساعة الرابعة من صباح اليوم السادس عشر من الشهر القادم.

وستكون مواجهة حتى الموت لن يسمح فيها بالصلح. وهذه أول مبارزة تتم طبقا للقانون الجديد الذي يتيح لكل متبارز أن يستخدم السلاح الذي يروق له.

راحت كاميلوت كلها تتكلم عن هذه المبارزة..

لم يكن سبب اهتمامهم أن ساجامور وجد الكأس المقدسة، وهو لم يجدها طبعا، ولا كان الاهتمام لأن أهم ثاني رجل في المملكة يشارك في المبارزة. سبب الاهتمام أن هذه ليست معركة بين فارسين بل هي صراع بين ساحرين.. مرلين وأنا..

كان الكل يعرف أن مرلين مشغول يزود دروع سير ساجامور بقوى سحرية.. من ضمن هذه القوى ثوب يجعله خفيا. لا يستطيع أي عدد من الفرسان قهر رجل كهذا.

جاء يوم المواجهة فنصبت الخيام.. وجاءت الأرستقراطية البريطانية كلها ورفرفت الرايات. كان هناك الكثير من الفرسان الذين يرغبون في الخلاص مني لأن علاقتنا سيئة.

كانت هناك خيمتان.. واحدة لي والأخرى لخدمي. أعطى الملك إشارة فظهر المنادون يعلنون أسباب المواجهة.. حبس الكل أنفاسهم وراحوا يلتهمون المشهد في فضول.

من خيمته ظهر سير ساجامور كأنه جبل من الحديد والرمح في يده.. مشهد نبيل بحق.. وصاح الناس في إعجاب وانبهار.

عندما ظهرت أنا ساد الصمت.. ثم دوت الضحكات... كنت ألبس ثيابا مريحة خفيفة وبلا خوذة. وكان حصاني صغير الحجم لكنه رشيق سريع الحركة ناعم كالحرير.

قابلت برج الحديد ثم مشيت معه إلى حيث كان الملك يجلس جوار الملكة..

أدينا التحية فقالت الملكة:

- أيها الرئيس.. أتحارب عاريا بلا دروع ولا سيف؟

أشار لها الملك بأناقة بما معناه أن هذا ليس شأنها..

ظهر مرلين من مكان ما وبعثر على السير ساجامور مساحيق جعلته يبدو كشبح أبي هاملت. ثم إن الملك أعطى إشارة فاندفع مرلين كالسهم نحوي بينما تصاعد الصياح.

عندما صار الرمح على بعد خطوات أزحت الحصان بخفة جانبا فاندفع الفارس جواري. كررت هذا التكنيك عدة مرات حتى تعالى التصفيق وجن السير ساجامور.. وراح يطلق السباب..

أخرجت الأنشوطة من سرج حصاني وصوبتها نحوه.. كان قادما والدم في عينيه فانتظرت حتى اقترب ثم قذفته بالحبل. هنا التف حوله وفقد توازنه ليسقط من على السرج..

لم يكن الناس قد رأوا أساليب رعاة البقر هذه.. وراحوا يصرخون:

- المزيد.. المزيد!!

سقط سير ساجامور فاقدا النطق وحملوه لخيمته، ففككت الأنشوطة بسرعة وأنا أعلم أنني سأستعملها من جديد. على الفور ظهر السير هبرفيس دي ريفيل ليواجهني بعد ساجامور.

انقض على فتحاشيته.. مر جواري كالوميض.. وخلال لحظة صار سرجه خاليا..

من جديد هلل الناس.. كان عليّ أن أواجه آخرين منهم سير جالاهاد.. وفي النهاية وجدت أنني أواجه سير لانسلوت نفسه!!

أنا فخور. أواجه فرسان المائدة المستديرة أمام عيون الملك آرثر والملكة جنيفر..

من مكان ما جاء الفارس الذي لا يُقهر وحوله عاصفة، وفى لحظة كنت قد أسقطته من فوق جواده وانحنيت أحيى الجمهور الذي جن جنونه.

لقد كان النصر ساحقا فلن يضايقني أحد بعد هذا..

فجأة سمعت النفير يعلن قدوم مبارز آخر.. بدا لي هذا غريبا..

فجأة بحثت عن أنشوطتي فوجدتها اختفت. الساحر اللعين سرق السلاح الذي واجهت به كل هؤلاء. ومن خيمته ظهر ساجامور من جديد مندفعا.. تظاهرت بأنني لا أراه حتى أقنع مرلين أن سحره فعال، فصاح:

- أعرف أن أذنك حادة السمع.. لا تراني لكنك تسمعني، ولسوف تذوق طرف سيفي.

كان الموت واضحا في وجهه وأدركت أنه من المستحيل أن أتفادى سيفه. هذه المرة سيموت أحدنا.. ويمكن أن أعطيك اسم الجثة. هكذا وقفنا نتبادل النظرات وكل منا ساكن كالتمثال.

ثم اندفع ساجامور نحوي..

صاح الناس:

- اهرب.. أنقذ نفسك!

لم أتحرك ولو بوصة حتى صار هذا الرعد على بعد خطوات مني، فأدركت أن الوقت قد حان. أخرجت مسدسا حربيا من قرابي، وتبدى برق ودوى صوت انفجار.. وقبل أن يفهم أحد ما حدث كان المسدس قد عاد لقرابه.

حصان بلا فارس والسير ساجامور على الأرض ميت.

اندهش الناس لأن الرجل ميت بلا تفسير.. ثمة ثقب في الدروع على صدره لكنه صغير جدا، لا يبدو ذا أهمية. طلب مني الملك أن أشرح سر هذه المعجزة، لكني ظللت واقفا كالتمثال حيث أنا.

قلت:

- لو كان هذا أمرا فلسوف آتي.. لكن الملك يعرف القوانين.. عليّ أن أنتظر حتى يطلب أحدهم مواجهتي.

ساد الصمت.. فقلت:

- حسن.. أنا أتحدى الجميع.. كل فرسان إنجلترا أن يواجهوني.. ليس كواحد بل مرة واحدة.

كنت أخدعهم فعلاً.. في مواقف كهذه كن جريئا والعب بورقك كله مرة واحدة. هجم بعض الفرسان فصوبت بمسدسي على أحدهم.. بانج.

سرج خال.. بانج سرج آخر خال.. كنت أعرف أن عندي اثنتي عشرة طلقة في الغدارتين، لكن لو لم تنجح عشر طلقات في إقناعهم فلسوف يقتلني الفارس الحادي عشر..

استنفدت تسع طلقات.. وبدأت أقنط.. لكن الفرسان توقفوا عند هذا الحد وتراجعوا.. أنا قد فزت..

أين مرلين؟ لقد اختفى. كلما هزم سحر النصابين أمام سحر العلم، بادر سحر النصابين بالفرار.

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي والعشرون
بعد ثلاثة أعوام

الآن لم يعد عليّ أن أخفي أسراري واختراعات القرن 19 العظيمة التي لديّ. لقد جعلت القرن التاسع عشر ملكا للقرن السادس.

ثلاثة أعوام مرت، وهي ذي إنجلترا بلد مستقر جميل.. المدارس في كل مكان، وهناك صحف ممتازة.. هناك كتب عديدة صدرت، منها كتاب عن النكات.. كان يحوي بعض النكات السخيفة التي نسمعها منذ 13 قرنا، وهذه المرة لم أتمالك إلا أن أشنق المؤلف.

لقد ولى الرق، وصار كل الناس يدفعون نفس الضرائب. أدخلت الجراموفون والهاتف والقطار البخاري والسفينة البخارية.. وبدأت أستعد لإرسال بعثة لتستكشف أمريكا.

بدأت كذلك إنشاء خط السكك الحديدية بين لندن وكاميلوت. واستعنت بالفرسان لينقلوا الاختراعات الجديدة للناس.

كنت أفكر في شيئين طموحين.. أولا أردت أن أقضى على سلطة الكنيسة الكاثوليكية لتصير العقيدة البروتستانتية هي الأساس. ثم أردت أن تكون هناك استفتاءات بعد وفاة الملك آرثر.. استفتاءات يشارك فيها رجال ونساء.. لقد حكم آرثر البلاد نحو ثلاثين عاما، وحان الوقت كي أقدم للعالم شيئا غير مسبوق: تغيير حكومي لا تراق فيه دماء.

كان تابعي كلارنس يشجع النظام الملكي، لأنه يؤمن أن أي أمة اعتادت النظام الملكي، سرعان ما تفنى وتضمحل لو فقدت الملكية. قلت له إن الملوك خطر.. لماذا لا يتم تنصيب أسرة من القطط لتكون مالكة؟.. لها نفس مزايا الملوك ولا خطر منها ولا تكلف شيئا. هذه القطط لا تشنق أحدا ولا تقطع رأس أحد.. ولا تسجن ولا تظهر قسوة.

جاءت ساندي التي صارت زوجتي... جاءت مندفعة.

كانت تبكي وصوتها لا يخرج من شفتيها. احتضنتها وملست على شعرها محاولاً فهم ما يدور:

- ماذا حدث يا عزيزتي؟ تكلمي؟

سقط رأسها على صدرها عجزا.. وشهقت قائلة:

- هللو - سنترال!

صرخت في كلارينس:

- هلم .. اطلب معالج الملك حالا.

خلال دقيقتين كنت أركع جوار فراش الطفلة.. عرفت التشخيص فورا.. دفتيريا.

قلت للطفلة:

- استيقظي يا عزيزتي هللو – سنترال.

بصعوبة قالت:

- بابا..

طلبت الكبريت وجلست جوارها أنتظر الأطباء. وجلبت دورق تنفس الدفتريا.

دخل سير لانسلوت في دروعه النفيسة، وكان متجها لقاعة المائدة المستديرة التي صارت مركزا لتجارة الأسهم. نزع خوذته ووقف جوار الفراش..

وضع فتيلا لمصباح الكحول ثم بدأ يشعل دورق تنفس الدفتريا. صنعت لنا ساندي ما يشبه الخيمة ثم بدأنا تسخين الدورق مع بعض الكبريت والجير ليتصاعد البخار.

كان لانسلوت رجلاً وسيما طيبا.. كان سيسعد زوجته لو تزوج، لكن للأسف.. موضوع الملكة جنيفر.. ليس من الحكمة أن نتكلم عن هذه الأمور الآن..

ظل ساهرا معي جوار الطفلة ثلاثة أيام، حتى زال الخطر.. ثم حملها بين ذراعيه وقبلها. بعدها ابتعد في الردهة وسط عيون الفرسان المعجبين به. لسبب ما شعرت أنني لن أراه ثانية وقد آذى هذا قلبي.

قال لي الأطباء إن علينا إبعاد الطفلة لتستعيد قواها. يجب أن نظفر بهواء البحر.

هكذا أقلعنا بسفينة وبعد أسبوعين وصلنا للساحل الفرنسي.

قدم لنا الملك الشاب في المنطقة خدماته. وكانت قلعته الصغيرة مريحة. لما نفد ما معنا من مؤن، أرسلت السفينة لإنجلترا من جديد..

في الوقت نفسه كنت أريد أن أعرف نتائج تجربة قمت بها لجعل الفرسان ينهمكون في رياضة تستهلك طاقاتهم.. بدأت أعلمهم لعبة البيزبول.

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني والعشرون

التحريم

لكن طفلتي بدأت تتدهور من جديد وصارت حالتها خطرة. ظللنا نعنى بها طيلة اليوم.

كانت ساندي رقيقة بسيطة طيبة القلب. كانت زوجة وأما بلا أخطاء.. برغم هذا لم أتزوجها لأي سبب سوى أنه طبقا لقواعد الفروسية هي ملكي حتى يظفر بها آخر.

مع الوقت ومع مرور الأحداث همت بها حبا.. كنت غارقا في فجوة 13 قرنا بين العالمين، وقد سمعتني بعد الزواج أصرخ وأئن أثناء النوم.. عندما صحوت من النوم قالت لي إنني كنت أهمس باسم أحد أحبائي الذين أفتقدهم. قالت لي إنها ستطلق نفس الاسم على الطفلة.. سألتها عن الاسم فقالت في مرح:

- هللو.. سنترال!!

احتكت عظامي ببعضها من فرط الضحك، لكني لم أظهر ضحكاتي. كنت استعمل العبارة التي يستخدمونها في الهاتف في زمني.. آلو سنترال!.

حسبنها هي اسما وأصرت على تسمية ابنتها به.

لمدة أسبوعين عشنا بعيدين عن العالم. هذا شعور لا يمكن وصفه عندما ترى ابنك في عالم الظلال، ثم تجده يستعيد قواه.. ثم ينير العالم بضحكته.

لكن السفينة لم تعد قط بعد رحلتها إلى كاميلوت. صعدت إلى هضبة عالية تراقب البحر. لا أرى شراعا واحدا.. البحر خال تماما.

عدت وأخبرت ساندي بهذه الأخبار. ماذا حدث؟ هل تم غزو كاميلوت؟..

زلزال؟.. وباء؟..

لا جدوى من التخمين لذا اقترضت من الملك سلاح بحريته.. سفينة صغيرة جدا لكنها تصلح.

ودّعت ساندي وطفلي وعدت وحدي إلى إنجلترا. لم يكن الوداع سهلاً فقد شعرت أنها المرة الأخيرة.

صباح اليوم التالي بلغت إنجلترا.. كانت هناك سفن في المرفأ في دوفر لكنها كانت خالية بلا علامات حياة..

في كانتربري كانت الشوارع خالية تماما

رأيت جنازة صغيرة هي أسرة تمشى وراء تابوت.. لكن لا صلوات.. ولا شموع ولا أجراس.. بكاء فقط. مروا بالكنيسة ولم يدخلوها. ورأيت أن جرس الكنيسة مربوط بحيث لا يدق..

هنا فهمت المصيبة.. هذا ليس غزوا بل هو حرمان كنسي..

لقد عاقبتني الكنيسة بالحرمان وفر الكل منى. لم يعد أمامي سوى التخفي والتحرك وحدي.

رحلة تعسة.. صمت في كل مكان.. الناس لا يتكلمون ولا يمشون معا.. كل رجل وحده مطرقا برأسه.

أردت ركوب القطار لكاميلوت لكن المحطة كانت خاوية.

وصلت هناك في ساعة متأخرة. ورأيت الظلام والصمت في كل مكان. يبدو أن الكنيسة قد تولت كل شيء وقضت على الحضارة التي صنعتها. بدت لي القلعة مظلمة فوق قمة الجبل.. ولا يوجد فيها ضوء..

كانت البوابة مفتوحة والجسر منصوبا.. فدخلت.. لا صوت سوى صوت كعبي..

☆ ☆ ☆

كان كلارينس هناك وحده.

كان غارقا في التعاسة والشجن.. فلما رآني وثب وصاح:

- ما أروع أن يقابل المرء شخصا حيا من جديد!

عرفني كأنني غير متنكر وهذا أثار رعبي.. سألته:

- هلم.. قل لي سر هذه الكارثة.. ماذا حدث..

- لو لم تكن هناك ملكة جنيفر لما حدث هذا بسرعة.. إنها الملكة.

- وسير لانسلوت؟

- نعم

- احك التفاصيل

- كان كل فرد في المملكة يعرف قصة الملكة ولانسلوت.. فيما عدا الملك آرثر.. وفي ذات يوم اجتمع كل أبناء أخ الملك ومودريد وإجرافين.. وقرروا أن يلفتوا نظر الملك آرثر الساذج إلى علاقة زوجته جنيفر بالسير لانسلوت. دار جدل تخلله صياح، ثم دخل الملك فسمع ما يقال. تم عمل كمينا للسير لانسلوت دبره الملك ومودريد... وقد مشى لانسلوت فيه.

لكن الفارس العظيم استطاع أن يجندلهم جميعا ما عدا موردريد..

انقسم فرسان المملكة بين مؤيدي الملك ومؤيدي لانسلوت.. إنها الحرب!.. أرسل الملك الملكة للحرق كي تطهرها النار، لكن أنقذها لانسلوت وزمرته ومات فرسان كثيرون.

- أه.. أنت تمزق نياط قلبي.

باقي القصة هو الحرب.. حرب بسيطة.. عاد لانسلوت لقلعته وجمع مجموعة من الفرسان وبدأ القتال، حتى أعلنت الكنيسة السلام بين المتحاربين لكن سير جواين لم يرق له السلام.. كان متضايقا نوعا بسبب ذبح أخويه.. وقد أقنع الملك آرثر بأن يصحبه للحرب ضد لانسلوت. وقد ذهب آرثر معه وترك موردريد يدير شئون المملكة أثناء غيابه.

- حكمة الملوك المعتادة!

- بالفعل.. راح موردريد يرتب كل شيء ليبقى ملكا للأبد.. رتب أن يتزوج الملكة جنيفر لكنها هربت منه لبرج لندن. أراد أن يلحق بها لكن أسقف كانتربري حكم عليه بالحرمان. عاد الملك فحاربه موردريد في دوفر وفي كانتربيري. وفي النهاية تم الاتفاق

على أن يحكم موردريد كنت طيلة حياة آرثر ثم إنجلترا كلها بعد وفاة الأخير. على أننا حققنا شيئاً بعد رحيلك: المراسل الحربي!..

- وأين الملك الآن؟

- للأسف.. لقد مات من آثار جراحه بمجرد عمل اتفاق السلام.

دهشت لهذا الخبر، فلم أتوقع أن شيئا يمكن أن يمس الملك.

- والملكة يا كلارينس؟

- صارت راهبة في ألمزبيري.

ما أكبر هذه التغيرات في وقت قصير..!.. وماذا أفعل أنا؟

سأخبرك.. الكنيسة هي السيدة اليوم.. الحرمان يشملك ويشمل موردريد ولن يرفع عنك في حياتك.

- سوف أحاربهم بأتباعي وقدراتي العسكرية..

- لا ترهق نفسك.. لم يعد لديك أكثر من ستين تابعا.

- وماذا عن مدارسنا وكلياتنا و..

- أنت لم تطرد التطير والايمان بالخرافات من الناس.. ولن يجرؤ أحد على مخالفة أمر الحرمان.. لن يقف معك أحد.. أنت ذكي لكن الكنيسة أذكى.. ألا تفهم أن الكنيسة هي التي دبرت إبعادك عن طريق نصيحة الأطباء؟

- هل تمزح؟

- كل بحار وكل ضابط على سفينتك كان تابعا للكنيسة.. لقد كانت أنباء تصلنا أنك استقررت في كاديز ثم من هناك سوف تنطلق في رحلة حول العالم لصحة ابنتك.

- أنا لم أذهب لكاديز قط!!... على الأقل كنت سأكتب هذا.

- هذا ما خمنته.. على كل حال قمت بجمع جيش صغير من 52 شابا أكبر من الرابعة عشرة وأقل من السابعة عشرة.. اخترت الصبية لأن الكبار قد تشربوا التطير والخرافة حتى العظام. أمر الحرمان قد كشفهم أمام نفسهم وكشفهم أمامنا.. لكن هؤلاء الصبية أرض بكر لأفكارنا، وقد زرت كهف مرلين.. ليس القديم بل الجديد.. لقد جعلته صالحا لتحمل الحصار.

- فكرة ممتازة.

- هناك من يحرسون المكان.. كما أنني لغمت المكان بالديناميت لو أردنا تدمير آثار الحضارة هذه.

- جميل.. هذه ضرورة عسكرية.. أشياء كثيرة تغيرت على كل حال.

- بعد هذا بنينا سلكا شائكا.. أنت علمتنا الطريقة منذ عامين.

- تذكرت.

- هناك 12 دائرة متداخلة مركزها الكهف نفسه.

اقترحت عليه توصيل هذا السلك الشائك بدائرة كهربية بحيث تركض الخيول فتصطدم به وتسقط ميتة. كما أننا قمنا بزرع ألغام تحيط بالمكان.. سيكون منظرا رائع الجمال.

- كلارينس.. أنت قمت بعمل ممتاز فعلا.

- كان لدينا وقت كاف.

- الآن ونحن مستعدون لن نقبع في مكاننا.. سوف نبدأ نحن بالهجوم!

- هل تعنى هذا؟

- طبعا.. الدفاع ليس سياستي. سوف نبدأ الآن ونعلن إنجلترا جمهورية! والآن عليك أن تكتب هذا الإعلان:

«بما أن الملك قد مات بلا ورثة، فقد صار من واجبي أن أستعمل سلطتي التشريعية حتى نخلق حكومة.. انتهت الملكية فلا وجود لها.. ستعود القوى السياسية لأصلها بين صفوف الشعب. لن تعود هناك طبقة نبلاء تملك حقوقا بالمولد. الدين حر والكل سواسية.

إنني أعلن الجمهورية.. وعلى المواطنين البريطانيين أن ينتخبوا رئيسا وممثلين لهم.

الرئيس. من كهف مرلين»

قال كلارينس:

- لكن هذا يخبرهم بمكاننا.. هذه دعوة لهم للهجوم.

- هذه فكرتي.. الاستفزاز والبدء.. والآن يجب أن نسرع لكهف مرلين.

- لديّ دراجتان خلال عشر دقائق.. سوف تحل اللعنة غدا عندما يقرأ الناس هذه الورقة..

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث والعشرون

معركة حزام الرمل

في كهف مرلين مع كلاريس و52 شابا بريطانيا نظيف العقل. كنا نعد كل شيء وكان هؤلاء القوم يصدقونني ويعرفون إنني أعني ما أقول.

مضى أسبوع من الانتظار، لكني لم أشعر بالملل لأني كنت منهمكا في الكتابة. كنت أكتب مذكرات هذه المغامرة، كما كتبت خطابات لساندي زوجتي. كنت أتخيل (هللو سنترال) في الفراش تغني وتضع قبضتها في فمها وتمد قدميها متثائبة.

كان جواسيسي في الخارج يرسلون لي الأخبار.. هناك شحن ديني مستمر باعتبار هذه حرب الكنيسة. كل النبلاء قادمون للحرب.. .. ..

أنا أحمق!... افترضت أن الناس ستتحمس لي، لكن تقطيبة الإقطاعيين والنبلاء في وجوه الناس كافية لتجعلهم كالخراف. في نهاية الأسبوع صار شعار إنجلترا كلها هو (الموت للجمهوية) وصارت إنجلترا كلها ضدي.

كان الصبية الذين معي متوترين.. تؤرقهم فكرة أن إنجلترا كلها ضدهم. هناك ثلاثون ألف فارس ظلوا أحياء بعد الحرب الأخيرة وكلهم يزحفون نحونا الآن!.. كل إنجلترا ضدنا!..

قلت للصبية:

- يا شباب.. إن قلوبكم في المكان الصحيح. أنتم فكرتم في الصواب. أنتم قلب إنجلترا.. هم ثلاثون ألفا.. هناك قوم من

العامة سيمشون خلف الرب ثم يتقاعسون.. بينما يبقى الفرسان فقط. هل تخشونهم؟

دعوا المهاجمين يأتوا.. سيكون يوما صاخبا..

عند الفجر جاء المراقب ليخبرني عن كتلة سوداء في الأفق تتحرك..

تم إعداد الإفطار بسرعة فأكلنا ثم أصدرت تعليماتي للشباب.

أشرقت الشمس فرأينا الحشد القادم يتحرك بسرعة كموج البحر. مئات الرايات ثم سقطت الشمس على الدروع فتوهجت.. كان مشهدا جميلاً..

لا أنكر هذا..

ودوى صوت النفير.. وتحرك الجمع نحو حزام الرمال المحيط بالكهف..

فتوقف تنفسي..

الحشد يقترب. أقرب فأقرب... حتى اختفى حزام الرمال..

رباه.. سرعان ما دوى الانفجار كالرعد.. وتطايرت الأشلاء بينما خيمت سحابة دخان ثقيلة على الأرض.. لقد انفجرت الألغام..

ضغطت زرا فانفجرت كل المصانع التي شيدتها. كان هذا ضروريا حتى لا يستولى العدو على سلاحنا ويحاربنا به. قضينا ألعن ربع ساعة في حياتنا ونحن ننتظر أن ينقشع الدخان لنرى... في النهاية انقشع بالفعل..

فرأينا أنه لا يوجد شخص حي!

لقد حفر الديناميت خندقا اتساعه مئة قدم.

لا يمكن عدّ الموتى لأن هذه لم تعد أجسادا بل أشلاء مختلطة بالحديد.

لن تكون هناك إمدادات.. هذه آخر مواجهة لفرسان إنجلترا.. أول تجربة لهم مع حروب الإبادة المعاصرة..

خطبت في شبابي الـ 52 مهنئا بالنصر ومشجعا لهم على الاستمرار.

دوى التصفيق فقلت:

- الحرب مع بريطانيا قد انتهت.. لقد خرجت بريطانيا كدولة من الحرب.. لكن ما زال لنا صراع مع الفرسان.. فرسان بريطانيا قد يموتون لكنهم لا ينهزمون.. ما دام أحدهم ما زال حيا فالحرب لم تنته.

عدنا نرتب التحصينات ورتبنا طريقا للفرار.. وقد وجد الشباب جدولاً قريبا فقمنا بتحويل مجراه إلى معسكرنا بحيث يتدفق الماء في الخندق حسب رغبتنا.

جاء الليل.. قال أحد المراقبين إنه يرى معسكرا على مرمى النظر بالتلسكوب. أدركت أنهم هناك يراقبون ردود أفعالنا... سوف يحاربون بشجاعة في الليل.. لكني خمنت ما ينوون عمله.. خمنته لأنه الشيء الذي كنت سأعمله لو كنت في مكانهم وأتمتع بنفس الجهل..

أخبرت كلارينس بتوقعي فوافق عليه. كنت أشعر بتأنيب ضمير، لذا كتبت للفرسان رسالة:

- إلى قائد الفرسان الثائرين: كفاحكم بلا جدوى. نعرف مدى قدراتكم وأنكم لا تستطيعون حشد أكثر من عشرين ألف فارس ضدنا.. لا فرصة لكم. نحن مسلحون وعددنا 52. ليس 52 رجلاً بل 52 عقلاً..

نحن نمنحكم حياتكم مكرمة لعائلاتكم.. فانتهزوا الفرصة. سلموا أسلحتكم واستسلموا للجمهورية.

اقترحت على كلارينس أن أرسل لهم الرسالة مع رسول، فضحك كثيرا وقال:

- أنت لا تفهم النبلاء.. هلم ناولني هذه الرسالة كأنني جيش العدو.

ناولته الرسالة وأنا أضحك فمزقها، وقال كأنه أحد هؤلاء النبلاء:

- مزقوا هذا الحيوان وأعيدوه في سلة لسيده الوغد الذي أرسله. لا توجد لدينا إجابة أخرى!

كان على حق.. كان أدرى بما سيحدث، وقد أدركت سذاجة فكرتي.

عندما صار الظلام دامسا غادرت الكهف وزحفت قرب خطوط المعسكر. سمعت حفيفا وصوت معدن.. ثم رأيت مئات الرءوس الصغيرة تتحرك ببطء.. هل هم فعلا؟ من الممكن أن تخطئ عندما يكون خيالك يقظا، لكني أدركت أن ما

أراه صحيح.. هؤلاء القوم أعدوا لنا حفل مفاجآت صغيرا.. غالبا عند الفجر.

عدت مسرعا فقد رأيت ما يكفي..

أوقظت كلارنس وقلت له: إن أعداءنا يهجمون هجمة رجل واحد.. هم يعبرون الخندق الآن.

قال كلارنس:

- سوف يرسلون رجلي كشافة للتأكد من أن الأمور مواتية.. أقترح أن تطفئ الأضواء على الأسوار.

- فعلت ذلك فعلاً.. أنت تعرف إنني أتمتع بكرم الضيافة.

تحركنا قرب السور المكهرب فرأينا شبح رجل.. هذا فارس قد استند للسور فتفحم والدخان يتصاعد منه..

ثم ظهر فارس متسلل آخر.. زحف نحو الرجل المتصلب ووقف جواره. لا بد أنه مندهش من وقفته الثابتة، ثم وضع يده عليه قائلاً:

- هل أنت بخير يا سير مي..

وفجأة تصلب وخمدت حركته. لقد قتله رجل ميت!.. هذا أقسى ما في القصة.

جاء باقي المتسللين في الظلام وكل واحد يمد سيفه للأمام يتحسس به السلك الشائك.. من حين لآخر نرى شرارة زرقاء ونشم الشياط..

مساكين!.. لقد كانت الكهرباء قوية لدرجة أنها تقتل قبل أن تصرخ الضحية.

ثم بدأ الهجوم الأعنف وتكوم جبل أسود ممن ضربتهم الكهرباء. حوصر معسكرنا بالجثث. وبرغم هذا واصلوا التقدم واجتازوا الدائرة الثانية..

هنا ثلاث دوائر من أجساد ميتة..

ضوضاء الموت تتعالى هذه المرة إذ يموت 11 ألف رجل. بينما يتقدم عشرة آلاف آخرون عبر الخندق.. هذا وقت إنهاء المأساة...

أطلقت رصاصتين بما معناه:

- افتحوا المياه!

فجأة دوى هدير وعلى الفور انفجر الماء عبر الخندق وولد نهر عمقه 25 قدما وعرضه مئة قدم. هكذا هلك ثلاثة أرباع الفرسان غرقا بينما تكفل مسدسي بالباقين.

لكن الحظ خاننا.. خلال ساعة من هذا النصر وقع خطأ جسيم مني.. لكن لن أحكى لكم.. فلتنته المذكرات هنا..

الفصل الرابع والعشرون
حاشية كتبها كلارينس

أنا كلارينس أكتب بدلا منه. لقد قرر الرئيس أن يخرج ليتفقد الجرحى برغم أنني قلت له إن هذا غير آمن.

رأينا أول رجل يحتضر فانحنى الرئيس على ظهره وربت عليه. هنا استدار الرجل وعرف الرئيس فطعنه. كان هذا هو سير ميلياج راونس. وقد قتلناه وحملنا القائد للكهف وعنينا بجرحه الذي لم يكن خطيرا. وسط هذه الظروف جاءت فلاحة طيبة بسيطة تساعدنا.. لم ندر أنها الساحر مرلين متنكرا. عرضت أن تطهو طعامنا.. وقد رحبنا بذلك لأننا مشغولون.

كنا في مصيدة.. لو لم نتحرك فلسوف نموت تحت حصار الجثث.. ولو تحركنا فلسوف نفقد حصانتنا.. الحق أن الأجساد الميتة نشرت المرض بيننا..

صحوت من النوم لأجد النصاب يأتي بحركات حول رأس الرئيس. فقلت للمرأة:

- توقفي! ماذا تعملين؟

قالت بلهجة المنتصرين:

- لقد انتصرتم والآن هزمتم.. سوف ينام 13 قرنا.. أنا مرلين!

ثم دوى الضحك السخيف كأنه ثمل. ومشى يترنح فاصطدم بسلك مكهرب.. رحل عن عالمنا والضحكة على شفتيه يحملها معه للجحيم.

الرئيس لم يتحرك ولم يفق من نومه.. وهكذا قررنا أن ننقله إلى مكان في الكهف لا يجده أحد. واتفقنا على أن يكتب أحدنا القصة كاملة ويتركها مع الرئيس الذي نحمل له كل ولاء.

☆ ☆ ☆

نهاية النص

جاء النهار فوضعت النص جانبا. لقد توقف المطر وصار العالم رماديا حزينا.

ذهبت لغرفة الغريب ووقفت جوار الباب الموارب أصغي. قرعت الباب فلم يرد أحد.. نظرت من الثقب فوجدته يغفو على ظهره ويتكلم ويشوح كأنه مريض يهذي.

كان يقول:

- ساندي.. لقد عدت.. لكم اشتقت لك. لا تفارقيني.. أنت باهتة جدا كأنك سحابة دخان لكنك هنا. أنا أراك. لقد تهت للحظة فحسبتك رحلت.

ساندي.. اعتن بي.. ظلي بقربي.. لا تجعليني أجن ثانية..

وظل يهلوس ويقول كلاما غير مترابط لفترة..

ثم ساد الصمت. وبدا لي كأنه يغطس في الموت. وبدأت حشرجة الموت في صوته وبدا كأنه ينصت.. ثم قال:

- هذا هو الملك!... أنزلوا الجسر المعلق!... استعدوا للقتال..

لكنه لم يستطع إكمال هذه اللحظة الدرامية الأخيرة.

مارك توين

1889

أمريكي في بلاط الملك

هذا رجل شمالي من ولاية كونيكتيكات الأمريكية ممن يسمونهم (يانكي)، وجد نفسه ينتقل عبر الزمن والمسافات ليكتشف أنه في عصر الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة والساحر مرلين، ويكون عليه أن يبقى حيا، وينقل جذوة الحضارة لهذا المجتمع المتخلف المكتفي بغبائه وقناعاته.

مارك توين بلسانه الساخر الحاد وخياله الخصب يحكي لنا هذه المغامرة الممتعة، والتي قلدتها عشرات القصص والأفلام بعد ذلك.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

روايات عالمية 82

غبار النجوم



تأليف : نيل جايمان

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (82)

غبار النجوم

تأليف: نيل جايمان

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..
من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..
من الفروسية إلى دنيا الأساطير..
ومن الشرق إلى الغرب..
وإلى الحضارة..
وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

الأديب البريطاني العبقري نيل جايمان Neil Gaiman الذي سنقابله مرارًا في هذه السلسلة.. إنه مؤلف ورسام قصص مصورة ومصمم جرافيكي.

اشتهر بسلسلة رجل الرمال وقصتي غبار النجم وكتاب المقبرة. الكتاب الأخير قمت بترجمته لشركة بلومزيرى لكنها لم تنشره قط، وإن ظلت حقوق النشر معها.

ولد جايمان عام 1960 من أسرة تنتمي لشرق أوروبا هاجرت إلى بريطانيا، وقد كانت أسرة يهودية لكنها غير متدينة، بل تعتنق ديانة غير سماوية هي scientology السيانتولوجية.. تعلم القراءة في سن الرابعة - وتفوق في المدرسة بشكل ملحوظ. وفي سن العاشرة قرأ الكتاب الذي ترك فيه أعمق الأثر: (سيد الخواتم) رائعة تولكين، وحفظ تقريبًا (أليس في بلاد العجائب) قصة لويس كارول. بعد هذا بسنين قرأ (يوميات نارنيا) لس. إس. لويس. كان هذا هو الوقت الذي قرر فيه أن يكون مؤلفًا.

عمل جايمان كذلك مع كاتب القصص المصورة الأسطوري آلان مور، وتعاون مع شركة مارڤيل. على أن أشهر أعماله كان رجل الرمال.. وهو شخص يدعى (الحلم) له أخت تدعى (الموت)، وقد صدرت منها عدة أجزاء متتالية، ويعرفها المهتمون بالقصص المصورة جيدًا. هي سلسلة قصص تجمع بين السخرية والرعب في مزيج فريد. ثم قدم سلسلة اسمها كتب السحر، وقدم الكثير من قصص باتمان، الحقيقة أنه غزير الإنتاج فعلًا، ومتابعة أعماله كلها عمل مستحيل. كان مولعًا

بالقصص المصورة جدًّا، والسبب أنها كانت مصدر ثقافته الأولى منذ تعلم القراءة. وكما قال: «كما أنها مجال بكر نسبيًّا يمكن تحقيق الجديد فيه، بينما هناك عدة قرون سبقتك في كتابة الأدب التقليدي، فليس بوسعك أن تتميز».

برغم هذا قدم روايات مهمة غير مصورة، منها (غبار النجم – 1990) التي نقابلها هنا، وهي تمثل عالمًا تولكينيًّا متكاملًا، يذكرك بالأرض الوسيطة و(الآلهة الأمريكيون – 2001) التي كانت أنجح قصصه وأكثرها مبيعًا. وفي العام 2008 قدم (كتاب المقبرة) وهو قريب جدًّا من كتاب الأدغال لكيبلنج. بدلاً من الطفل الذي تربيه الوحوش نقابل طفلًا يربيه الموتى!. ممتعة جدًّا لكن لم أستطع تقديمها هنا للأسف بسبب أنها ملك لبلومزبيري. يستعمل جايمان كذلك نفس الشخصيات في روايات عدة. أي أن شخصياته تظهر في روايات مختلفة.

مارس جايمان كذلك كتابة السيناريو. ومن أشهر ما كتب سيناريو (بيوولف) .

كما كتب عدة حلقات من المسلسل الخيالي الشهير (دكتور هو).

يتبع جايمان بالضبط نفس طريقة السرد (رحلة البطل monomyth) التي ذكرها كامبل في (البطل ذو الألف وجه). سوف تشعر كأن القصة التي بين يديك هي بالضبط رحلة بحث بطل مما تكلم كامبل عنه. تذكر المراحل:

1- البطل في العالم العادي، قد يبدو بريئًا غير ذي خبرة وغير مؤهل للبطولة. هاري بوتر اليتيم الخجول الذي ينام تحت السلم.

2- البطل يتلقى دعوة للمغامرة تقدمها له شخصية غير نمطية هي (المعطاء) (غالبًا عجوز أو قزم). لوك سكاى ووكر يتلقى دعوة للمغامرة من أوبي وان كنوبي في قصة حرب الكواكب. رئيس الشرطة العلمية يكلف (نور) ورفاقه بمهمة جديدة... العميلة الجديدة تعرض مشكلتها على شيرلوك هولمز.. الساحر يخبر علاء الدين أنه صديق أبيه يرحمه الله.. هاري بوتر يتلقى الدعوة إلى مدرسة السحر...

3- رفض الدعوة أولًا ثم قبولها، وربما يضطر الناصح إلى توجيه ركلة له كي يقبل..

4- اجتياز البوابة الأولى إلى عالم المغامرة. لقد انطلقت العربة.. أقلعت سفينة الفضاء.. وقفت دوروثي بطلة (ساحر أوز) على أول الطريق القرميدي الأصفر.. ركب أدهم صبري الطائرة إلى وجهته..

5- اختبارات وحلفاء وأعداء. الصالون في فيلم رعاة البقر حيث يعقد البطل حلفًا مع رفاقه ويتقاتل مع أعدائه.

6- الاقتراب من الكهف العميق، حيث مركز المعاناة. ثيذيوس يدخل الكهف ليواجه المينوتور.. علاء الدين ينزل إلى البئر ليبحث عن المصباح..

7- المعاناة العظمى. هنا يعاني القراء اللحظة السوداء Dark moment خوفًا على مصير البطل الذي توحدوا معه..

8- الجائزة (الحصول على السيف - التفاحة - الجوهرة - الميكروفيلم.. إلخ). الآن صار بطلًا حقًّا. هنا تكمن المتعة

الكبرى؛ لأنك لا تستمتع بالحياة أبدًا مثلما تستمتع بها بعد ما أيقنت بالموت..

9- طريق العودة. يحاول خصومه في انتفاضة أخيرة منعه من العودة بمكاسبه. إنه لم يخرج من المستنقعات أو غرفة الميكروفيلم أو قاعة المومياوات بعد..

10 - انتصار جديد يطلقون عليه اسم (البعث).

11- العودة بالإكسير. وهذا الإكسير قد يكون الكنز الذي دخل الكهف لأجله، وقد يكون الحكمة، وقد يكون العودة للوطن سالمًا بصحة جيدة.

لو طبقت هذه الخطوات على (على بابا) أو (الشاطر حسن) أو (أوديسيوس) أو (هركيوليس) أو أي بطل ملحمي تعرفه ستدرك أنها صحيحة...

لكن جايمان ينكر بشدة أنه استطاع استكمال قراءة كتاب كامبل. وجد أنه من الأفضل ترك نفسه على سجيتها. فلا داعي لفهم التقنيات.. المهم أن يكتب ما يراه مناسبًا بلا خطة مسبقة.

يعيش جايمان في الولايات المتحدة: وسكونسين منذ عام 1992. يقيم هناك مع زوجته وأولاده الثلاثة. وهو مستمر في الكتابة.

د. أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حاشية

في الريف الإنجليزي الناعس وفي فجر العصر الفيكتوري، تتحرك الحياة ببطء في مدينة (وول) - الجدار - التي سميت كذلك بسبب حاجز صخري يفصلها عن مرج قريب. هناك حراس يمنعون الناس من عبور هذه الفجوة. وفي هذه البلدة وقع تريستران ثورن في غرام فكتوريا فورستر الحسناء.

لكنها كانت باردة متنائية، كأنها نجم رآه يسقط من السماء في أكتوبر. من أجل فكتوريا صمم تريستران على الحصول على هذا النجم ليهديه لها. هذا القسم الذي جعله يتجاوز السور فيدخل عالمًا يفوق خياله. لم يكن الوحيد الذي يلاحق النجم. كان هناك آخرون يرون في النجم الشباب والجمال أو مفتاح مملكة عظيمة أو أسرار السحر الأسود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

وفيه نعرف قرية وول والشيء الغريب الذي يحدث هناك كل تسعة أعوام

كان هناك رجل يرغب في تحقيق «رغبة قلبه». وهي بداية غير جديدة بالنسبة للقصص. لكن ما جرى له كان غير معتاد. بدأت القصة كقصص أخرى كثيرة في وول. المدينة هنالك منذ 600 سنة مبنية بالحجارة محاطة بغابة كثيفة، هناك طريق واحد يخرج من وول وهذا الطريق يقودك للندن، لكن لندن على مسافة سفر ليلة كاملة.

سكان وول قليلو الكلام عامة ينقسمون لنوعين: الأهالي الأصليين بقامتهم الفارعة وسحناتهم الحجرية، والذين استوطنوا وول بعد ذلك شرق المدينة هناك جدار حجري ضخم، منه استمدت المدينة اسمها. من فتحة في الجدار الحجري ترى مرجًا وترى نهرًا.. وبرغم جمال المكان فإن أهل البلدة لم يكونوا يمارسون الرعي هناك. بل إنهم وضعوا الحراس على جانبي الجدار لمنع فرار الناس. وعمل الحراس هو إبعاد المتسكعين ومنع الأطفال من الخروج فالضياع في المرج. فقط يسترخي الحراس مرة كل تسع سنوات عندما يأتي سوق ليقام في المرج.

منذ أعوام كانت الملكة فكتوريا شابة عذراء وحسناء، وكان مستر ديكنز يكتب قصته (أوليفر تويست)، وقد أعلن مستر مورس طريقة لنقل الإشارات عبر الأسلاك.

في هذا الوقت كان دونستان ثورن في الثامنة عشرة. كان ذا شعر بني ونمش بني وكان قليل الكلام. كان يعمل في مزرعة أبيه ويحلم بالهجرة إلى لندن أو دوبلين أو أي مدينة كبرى لا تحدد فيها الريح مصيرك.

كان الغرباء قد بدءوا يفدون بمناسبة السوق، وامتلأت حانة (الغراب السابع) بالنزلاء. هناك كانت بريجيت كومفرى تعمل، والناس تعتبرها أجمل فتاة في العالم.

كان هناك جدل قريب بين تومى فورستر ورجل أسود العينين اسمه (علّوم بيه).. كانا يتشاجران وينويان القتال خلف الحانة من أجل بريجيت. تحمس القرويون ولم يهتم أي واحد بوقف المشاجرة بل بمشاهدتها.

حاول تومي أن يضرب الغريب.. لكن الغريب أمسك بقبضته الضاربة وطوح به ليلقى به في الوحل، وهو يقول شيئًا بالعربية..

عاد الغريب لبريجيت وانحنى أمامها وهو يضحك، لكنها تركته وهرعت نحو تومي لتساعده على النهوض. هكذا اتجه الغريب العربي لداخل الحانة وابتاع - بلمسة كرم - زجاجة خمر لتومي..

لم يكن دونستان في الحانة ليلتها. كان قد أمضى فترة طويلة يغازل حسناء أخرى اسمها ديزي همبستوك. كانت تقول له إنها تتوقع منه أن يتقدم لها؛ لأن أباها لن يرفض.

كان هذا هو إبريل البارد. وقد امتلأت الحانات كلها، ونام الزوار في الحظائر أو في خيام ملونة نصبوها، والبعض نام في عربات تجرها الخيول.

في يوم 29 إبريل كان على تومى ودونستان أن يقفا للحراسة عند فجوة الجدار. وكانت مهمتهما أن يوقفا كل غريب وهما يلوحان بالهراوات ويقولان:

- « غدًا.. غدًا.. غير مسموح بالزيارة الليلة »

كان بعض الغرباء يحاولون تبادل المحادثة، لكن الحارسين كانا يقفان في شموخ شاعرين بالأهمية. وجاء لهما الطعام مع بريجيت وديزي.. ثم انتهت وردية الحراسة فذهبا للحانة.

الحانة كانت مليئة بكل الجنسيات.. وكانت هناك لغات غريبة وروائح أغرب في الهواء. دنا منه رجل غريب طويل القامة يعتمر قبعة حريرية سوداء، حياه ودعاه إلى بعض البودنج، ثم قال له إن كل الغرف مشغولة في البلدة، فهل لديه مكان يصلح للمبيت؟

قال دونستان:

- « لدىَّ كوخ على حدود أرض أبي.. وقد منحه أبواى لى»

قال الغريب:

- « خذني هناك »

لم يستطع دونستان الرفض. كان قمر الربيع مكتملًا والليل صافيًا. مشى الرجلان حتى بلغا الكوخ الخاص بدونستان. كان عبارة عن غرفة واحدة ومدفأة.. بدا الرضا على الغريب وقال:

- « أحب هذا.. سوف أستأجره منك ثلاثة أيام »

- « وكم تدفع في المقابل؟ »

- « جنيهًا ذهبيًا (سفرين) وستة بنسات فضية.. »

بدا هذا مرضيًا لدونستان.. لكنه كان يأمل في نوع من السحر أو المعجزات بما أن هذا هو سوق وول. لذا قال له الغريب:

- « تريد معجزة.. ليكن.. غدًا تنال « رغبة قلبك ».. هاك مالك »

ربط دونستان المال في منديل، ثم غادر الكوخ ليمشي تحت الأمطار التي بدأت تنهمر. واتجه لحظيرة الأبقار. حيث نام على الفور. في الصباح استيقظ على ضوء الشمس يغمر وجهه. نهض ليلبس أفضل ثيابه ونظف الوحل عن حذائيه.. واتجه للمطبخ ليلثم أمه، ثم يلتهم رغيفًا وقطعة زبد.

دخل إلى الرجل طويل القامة، فدعاه إلى أن يأخذ جولة معه.

مشيا عبر المرج نحو الخيام. وهناك قال له الرجل:

- » حان وقت أن أدفع آخر جزء من الإيجار الذي وعدتك به. لقد أقسمت.. والهبة سوف تستمر طيلة حياتي »

- « وما هي يا سيدى؟ »

- « رغبة قلبك.. »

كانت هناك امرأة تجلس أمام زجاجة مليئة بالعيون التي تبيعها للعميان. وكان هناك رجل يبيع آلات موسيقية من كل العصور. أثواب نسجت من الفجر والغروب.. خواتم الأبدية.. أشربة المحبة.. أشياء عجيبة جدًا لا تعرف نفعها. تساءل دونستان عن جدوى وجود بيض مليء بالرياح؟

التقط دونستان قطة من الكريستال ورفعها. أثار رعبه أنها رمشت بعيونها فألقاها. هبطت على مخالبها كأى قطة حقيقية. وراح يفتش في الزحام عن شيء يناسب نقوده كي يبتاع هدية لديزي.

كان هناك معرض للسلع، فدنا منه. كانت هناك أنواع عجيبة من الأزهار. تقليد متقن جدًّا من الزجاج وتدق كالأجراس.

كانت البائعة شابة حسناء من القوم الذين يعيشون خارج الجدار. عرف هذا من وجهها.. كانت أذناها كأذنى قطة عليهما فراء رقيق. وكانت عيناها بنفسجيتين. التقط زهرة تصدر صوتًا جميلًا كالذي تسمعه عندما تمرر إصبعك على حافة كأس.. سألها عن السعر، فقالت:

- « ليس السعر مما يناقش في البداية هكذا.. »

- « وما نفعها؟ »

- « ليس لها نفع سوى الزينة.. أن تهديها لمن تحب تعبيرًا عن تقديرك... »

لاحظ شيئًا غريبًا. هناك سلسلة من الفضة تحيط بمعصم البائعة، وتنحدر إلى الخلف.. رأت دهشة عينيه فقالت:

- « السلسلة؟.. إنها تربطني لمنصة البيع.. أنا جارية لدى الساحرة التي تملك المعرض. أسرتني منذ أعوام وأنا ألعب في الشلالات في أرض أبي. سوف أتحرر يوم يفقد القمر ابنته.. الأسبوع الذي يكون فيه يوما اثنين.. أنتظر هذا الموعد في شغف.. هلا اشتريت زهرة منى؟ »

- « اسمى دونستان هل لك اسم؟ »

- « لا اسم لي.. أنا جارية.. أخذوا اسمى منى »

التقط بعض الأزهار البلورية وفتح المنديل لتأخذ منه ما تريد.. فقالت له:

- « نحن لا نأخذ مالًا في هذا المكان »

الحقيقة أن جمال الشابة جعله يفقد صوابه.. نسى تقريبًا أنه يبتاع هدية لديزي. قالت الفتاة:

- » سوف آخذ لون شعرك.. أو ذكريات ثلاثة أعوام أو قدرة إحدى أذنيك على السمع.. أو قبلة منك.. على خدى »

صاح دونستان:

- « هذا ثمن أدفعه بكل سرور!.. »

وانحنى ليطبع قبلة على الخد الناعم. شم عبقها فشعر بخدر حقيقى.

ناولته الهدية فأخذها بيدين خرقاوين يشعر بضخامتهما. قالت له:

- » عد لي هذه الليلة عندما يكتمل القمر يا دونستان ثورن.. أصدر صوت بومة.. هل تعرف كيف؟ »

كيف عرفت اسمه؟ لا يهم.. أخذته مع أشياء كثيرة أخذتها منه، ضمنها قلبه..

أخذ الهدية وانصرف. قدمها لديزي حيث جلست في الحانة مع أبيها وأمها يلتهمون السجق كبير الحجم، ولسبب ما انحنى

ليقبل خدها.. صاحت في احتجاج وكذا صاح الأب.. ثم رأى الأب النظرة في عيني دونستان فأدرك أن الفتى مسحور.. كأن جنية قد مسته..

ذهب أبو ديزي مع أبي دونستان إلى ذلك المعرض الذي ابتاع منه دونستان الهدية، فلم يجدا شيئًا غريبًا.. مجرد سيدة عجوز تقف للبيع، وجوارها طائر رائع الجمال مربوط بسلسلة فضية إلى المنضدة..

حاولا أن يفهما من السيدة أو يعرفا ما حل بدونستان. لكنها لم تفدهما بشيء. كانت تتكلم عن الهدايا الثمينة التي فقدتها دون مقابل أو بثمن بخس..

بقى دونستان في القرية الخالية.. كان الكل قد تركوا القرية ليكونوا في السوق. ذهب لحانة الغراب السابع وجلس على منضدة خشبية، فأراح جبهته على يده وراح يحملق في الفراغ. حاول تومي أن يكلمه وحاول جعله يبتسم. لكنه لم يستجب.. هكذا اضطر لتركه ليذهب للسوق.

جاء الليل ومعه قمر الخريف العملاق.. ارتفع في السماء وهب نسيم بارد. وبدأت طرقات السوق تخلو.. بينما تزاحم المارة في خيام العجائب التي تقدم عروضها.

مشى دونستان ثورن ببطء عبر طرقات القرية. اجتاز فجوة الجدار، واتجه إلى المرج. للمرة الأولى يفعلها ليلًا. خطر له أن يعبر نطاق الأشجار ليذوب فيها.

رفع يديه لفمه وأصدر صوت البومة. لا استجابة..

كرر الصياح..

همست الفتاة البائعة في أذنه:

- « هذا ليس صوت بومة... ربما هي بومة إسطبل أو بومة ثلوج »

كان يتنفسها.. كان يستنشقها عبر مسام جلده..

- « هل تحسب أنك تحت تأثير السحر أيها الشاب؟ »

ورقدت على العشب ورقد جوارها وراحا ينظران لنجوم السماء. هذه الليلة هناك شيء غامض بالنسبة للنجوم.. لها لون غريب.. عددها أكثر من أي ليلة.. هناك لغز...

مد يده وتحسس السلسلة التي تمتد من معصمها إلى العشب وتمتد لبعيد. كانت قد تم صنعها من الفضة وضوء القمر وقشور السمك. لن تزول إلا عندما تتحقق التعويذة. سلسلة طويلة تسمح لها بالذهاب لبعيد لكنها تفتقد أرض أبيها.

ضمها دونستان لصدره وشعر بدموعها.. لم يدر إن كان يفعل الشيء الصحيح أم لا..

للحظات احتلا نفس الموضع في الكون.. وبدا أنهما لن ينفصلا للأبد..

بعد قليل نهضت ولملمت ثيابها وطلبت منه أن يرحل.. كان صوت الخيول يتعالى من بعيد، وقد بدأ البعض يتركون خيامهم...

نهض دونستان حائرًا شاعرًا بدوار.. كأنه قد شاخ عن أعوامه الثمانية عشر. عاد لحظيرة الأبقار فنام بحذائه حتى أيقظته الشمس.

انتهى السوق في اليوم التالي. فارق الغرباء البلدة وعاد كل شيء كما كان. بعد أسبوعين طلب فورستر يد بريجيت فوافقت. وجاء مستر هيمستوك يزور السيدة ثورن.. شربا الشاي في الرواق. وتحدثا عن أن ديزى هيمستوك ستكون وصيفة العروس، فقال: إن هذا مؤكد بشرط أن تظل حية وقتها!

تساءلت السيدة في دهشة.. هل الفتاة مريضة؟

قال الأب:

- « هي لا تأكل.. تشرب بعض الماء من حين لآخر »

- « رباه! »

- « أمس عرفت السبب.. إنه ابنك دونستان »

- « نعم.. لقد تجاهلها.. لم يعد يبالي بها.. طيلة الوقت تمسك بهديته لها وتبكى »

قررت الأم أن تسوى الأمر.. السبب هو ثراء والد ديزي..

في شهر يونيو تزوج دونستان ديزي هيمستوك. كان عريسًا مشتتًا غير سعيد لكن العروس كانت متألقة جذابة. وكان الغريب أنه منعها من ارتداء الهدية التي اشتراها لها من السوق في إبريل..

عاش العريسان في بيت دونستان بينما بدأ الأهالي يشيدون لهما مزرعة.

جاء أول خريف ثم الشتاء... وفي نهاية فبراير عندما بدأ الصقيع يغلف أشجار الغابة، حشر أحدهم سلة من الخيزران

عبر الفجوة في الجدار. لم يلحظ الحراس السلة بسبب الظلام والمطر. فجأة دوى بكاء طفل رضيع.

هنا نظروا ليروا السلة. وفيها كانت بطانية حريرية منها يبرز وجه جائع وردى. وعلى الغطاء ثبت دبوس فضى عليه وريقة، كتب عليها بخط جميل:

تريستران ثورن

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

وفيه يبلغ تريستران ثورن مبلغ الرجال ويعد وعدًا أخرق

مرت أعوام. وكبر تريستران ثورن. كانت أخته لويزا أصغر منه بستة أشهر. وفي سن الرابعة عشرة كسر ذراعه عندما سقط من فوق الشجرة التي تطل على بيت الآنسة فكتوريا فورستر.. ابنة السيد توماس فورستر الحسناء. كانت بلا جدال أجمل فتاة على بعد مئة ميل.

وعندما بلغ الثامنة عشرة كان على يقين أنها أجمل فتاة في بريطانيا. وقد حطمت قلوبًا لا حصر لها. كانت لها عينا أمها الرماديتان ووجه له شكل القلب وشعر أبيها بلون البندق. وقد تشاجرت مع أمها؛ لأنها كانت تريد أن تعمل ساقية في حانة الغراب السابع. كانت بريجيت فوستر ذات لسان قادر على تقشير الطلاء من على باب إسطبل، ومن الغريب أن زوجها توماس رأى الرأى ذاته.

كان هناك معجبون كثيرون لفكتوريا، ومنهم رجل أرمل في الخامسة والأربعين اسمه مستر (مونداي) - الاثنين - لقبول الزواج منه مزية أن يكون لديك بيت واسع وخدم وأن تسافر للندن بالعربة وأن تذهب لبرايتون للاستحمام في مياه البحر.

كان تريستران غارقًا في الأحلام.. يحلم بأميرات في خطر يخترق الغابة لينقذهن. لم يعد بوسعنا أن نرى النجوم كما كان القوم يرونها وقتئذ. لا عدد لها كأنها أوراق شجر.. وكان تريستران

في الليل يرمق السماء حتى ينسى كل شيء. ثم يعود لفراشه وينام كجثة.

كان يعاون أباه في المزرعة صباحًا وفي الليل يعمل في متجر مونداى وكلارك، وهو أقرب إلى متجر بقالة القرية. لكنه لم يكن يحوى بضائع بل كان يعتمد على القوائم.. الفلاحون يعطونه قوائم باحتياجاتهم فيسافر مستر مونداي لأقرب بلدة ويعود بالبضاعة بعد أيام.

هكذا كان في المتجر عندما دخلت فكتوريا الحسناء ومعها قائمة مشتريات. وامتقعت قليلاً عندما رأت تريستران. ناولته قائمة مشترياتها التي ترغب فيها.

راح الفتى يقرأ القائمة محاولًا أن يجد نقطة لبدء الحديث بأي شكل. في النهاية قال لها:

- « يمكن أن نجلب معظم القائمة صباح غد. الباقي الأسبوع القادم »

هبت ريح قوية من الباب، فتوهجت النار في المدفأة وتراقصت. وجد في نفسه شجاعة لم يحسب أنه يملكها، فعرض عليها أن يوصلها للبيت وأثار دهشته أنها قالت نعم..

هرع يجلب معطفه ويخبر مستر براون أنه سيرحل الآن.. فغمغم الرجل لائمًا.

مشى مع فكتوريا على الدرب المغطى بالحجارة.. القمر مكتمل والنجوم تضيء بقوة..

بعد قليل صعدا هضبة دايتي التي تطل على بلدة وولز التي تتوهج بالشموع في الظلام. توقفا فأمسك بيدها.. لم تعترض..... لكنها قالت وهي تنظر لبعيد:

- « هل ترى هذا؟ »

- « لم أر شيئًا.. كنت أنظر لك فأنت أروع فتاة في العالم »

قالها من أعماق قلبه. ثم عاد يسألها عندما رآها تبتسم:

- « ماذا رأيت؟ »

- « نجمًا يهوى.. »

قال لها:

- « فيكي.. هل يمكنك أن تقبليني؟ »

- « لا »

- « لو لم تقبليني فهل تقبلين أن تتزوجيني؟ »

هنا دوى صوت ضحكات أجمل فتاة في بريطانيا وقد راق لها الأمر.

- « أتزوجك أنت؟ ولم أتزوجك يا تريستران ثورن؟ ماذا تعطيه لي؟ »

- « أعطيه؟ سوف أسافر لأفريقيا لأحضر لك أنياب الفيلة، وأسمّى منابع النيل باسمك.. سأذهب للهند لأجلب لك النمور والحرير.. سأذهب للشمال لقتل الدببة القطبية وأقدم فراءها لك.. »

قالت في برود:

- « أنا لن أتزوجك يا فتى المزرعة وعامل المتجر.. وكذا لن أقبّلك »

- « سأجلب لك كنوز القراصنة.. سأسافر لأستراليا وأحضر لك كنجارو.. »

اعتصرت يده وقالت:

- « وماذا سأفعله بكنجارو؟ »

توسل لها وأشار بيده للسماء.. هناك في مجرة أوريون في الأفق الشرقي كان نجم يتألق ويهوى. قال لها:

- « من أجل قبلة ومن أجل نيل يدك سوف أجلب لك هذا النجم »

أدرك أنه لن ينال القبلة، برغم أن أبطال القصص التي يقرؤها يظفرون بالقبلات دومًا، فقالت له:

- « لو جلبت لي هذا النجم بالذات فلسوف أقبلك... من يدرى ما أفعله كذلك؟ هكذا ترى أنك لن تذهب لأستراليا أو أفريقيا »

ثم ضحكت وبدأت تهبط في الهضبة نحو بيت أبيها.

جرى ليلحق بها:

- « هل تعنين هذا؟ »

- « بالطبع.. أعنيه تمامًا... سأعطيك أي شيء يا عامل المتجر »

- «هل تقسمين؟ »

ابتسمت وقالت:

- « نعم »

أوصلها إلى الطريق المتجه نحو مزرعة أبيها ثم قال وهو ينحني:

- « سوف أتركك هنا لأن عندي مهمة في الشرق »

ضحكت الفتاة. ظلت ضحكتها تتابعه...

راح يجرى حتى بلغ بيته، فدخل المطبخ. قال أبوه:

- « تريستران؟ »

قال الفتى:

- « سوف أفارق البلدة الليلة.. أنا راحل »

كان الأب في الخامسة والثلاثين محتفظًا بنفس النمش مع خصلات شائبة في شعر صدره. لاحظ نظرة الذهول في عين الفتي فطلب من زوجته ديزى أن يتحدث مع ابنه على انفراد. سأل ابنه:

- « إلى أين؟ »

- « الشرق.. »

هناك شرقان.. شرق باتجاه البلد الآخر.. وهناك شرق في جانب الجدار الآخر.. سأل ابنه من جديد:

- « هل فكرت في كيفية اجتياز الجدار؟ »

هز الفتى رأسه:

- « بالتأكيد سأجد طريقًا.. ربما أقاتل الحراس »

- « لن تفعل هذا.. هل تحب أن يحدث هذا معك أو معى أثناء الحراسة؟.. تعال معى.. أعد حقيبتك وودع أمك واتبعني»

أعدت الأم حقيبة ابنها، ووضعت في الحقيبة ست تفاحات ورغيف خبز وقطعة جبن. لم تنظر له فقبلها. مشى مع أبيه وهو يتساءل في سره عما يفكر فيه أبوه.. كيف ينوى عبور الفجوة؟ لقد تخيل كل سيناريو ممكن لما سيفعله أبوه.. هل ستكون مشاجرة؟ هل يجذب انتباه الحراس إلى أن يفر هو؟

كان هارولد كرتشبك واقفًا للحراسة مع مستر بروميوس..

اتجه دونستان نحوهما وضرب كعبه في الأرض وقال:

- « مساء الخير »

وقف تريستران يصغي في غيظ وغل.. هنا قال الأب للرجلين:

- » هذا تريستران ابني.. تعرفان طبعًا من أين جاء... هو الآن سيعود »

قال هارولد: إنه سمع قصصًا لكنه لم يصدقها، ولم يفهم تريستران عن أي شيء يتكلم. تبادل الرجلان كلمات هامسة لم يعرفها تريستران، وفجأة شعر تريستران بشيء بارد يوضع في يده، وقال أبوه:

- « هلم أي بني.. اذهب وعد بالنجم.. ليكن معك الله وملائكته »

أفسح له الرجلان البوابة.. فاجتازها..

استدار لينظر لثلاثة الرجال وتساءل لماذا سمحوا له بالعبور...

اتجه نحو الجبال وهو يتحسس الشيء الذي وضعه أبوه في يده..

اجتاز الغابة ونظر لأعلى.. هنا لدهشته رأى القمر بين الاغصان.. كان هذا مدهشًا.. لقد رأى القمر يغيب قبل بدء رحلته. كان قمرًا أقرب للهلال عندما بدأ.. أما القمر الذي يراه الآن فهو قمر حصاد كبير متألق.

شعر بالشيء البارد في يده يصدر رنينًا كأجراس كاتدرائية.. فتح يده في اتجاه القمر. كانت قطعة ثلج صنعت من الزجاج.

هنا بدأ يدرك فداحة ما فعله.. يرتحل في الغابة بحثًا عن نجم لا يعرف كيف يجده. لو عاد اليوم فلن يلومه أحد أو يسخر منه. حتى فكتوريا سوف تناديه (فتى المتجر) كعادتها.

تذكر عيني فكتوريا وشفتيها وعينيها الرماديتين. صوت ضحكاتها. غرس قطعة الثلج الزجاجية في ياقة معطفه..

كان أصغر من أن يخاف.. وأجهل من أن يتوجس.. مضى عبر الحقول التي نعرفها قاصدًا أرض الجان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

وفيه نقابل الكثير من الأشخاص، المهتمين بأمر النجم الذي هوي

نحتت قلعة ستورمهولد فوق قمة جبل هوون. وأقام فيها سادة أسرة ستورمهولد وشيدوا فوقها حتى صارت القمة كأنها فم وحش عملاق ينظر للسماء. هناك كانت الغيوم والبرق يحتشدان.. قبل أن تنهمر الأمطار تحت.

كان السيد الحادي والثمانون من سادة ستورمهولد يلفظ أنفاسه في غرفته المنحوتة في القمة كأنها فجوة في سن نخرة. نادي أبناءه الأحياء والموتى للفراش فجاءوا والتفوا حوله. الأحياء عن يمينه والموتى عن يساره..

كان لديه ثلاثة أولاد أحياء هم بريموس وتيرشيوس وسبتيموس.. وقد وقفوا مرتبكين في ركن الغرفة. ولم ينظروا لأخوتهم الموتى كأنهم ليسوا في الحجرة أصلًا. ربما تعود رجفتهم للريح الباردة، أو لأنهم هم من قتلوا إخوتهم الموتى. سبتيموس قتل كوينتوس وسكتوس.. سمم الأول بأكلة من ثعبان السمك، وقذف بالثاني من فوق الهاوية وهما يتأملان عاصفة رعدية.[1]

كان السيد يتمنى لو أن أجله أتى بينما لم يبق حيًّا من أبنائه سوى واحد.. هذا الواحد كان سيصير هو الوريث. حدث هذا معه منذ مئة عام.. لكن عدد الورثة كثير فعلًا هذه المرة.

سأله بريموس:

- « أبت.. نحن كلنا هنا.. فماذا تريد عمله معنا؟ »

سحب الرجل شهيقًا عميقًا ثم قال:

- « سوف تحل نهايتى حالًا.. وسوف تدفنوني في قاعة الأجداد. لو لم تفعلوا لحلت بكم اللعنات »

تنهد الأبناء الموتى؛ لأن رفاتهم التهمتها النسور أو جرفتها السيول، فلم ينعموا قط بالراحة في قاعة الأجداد. أمر بريموس بأن يذهب للنافذة ويلقي نظرة..

- « ماذا تراه؟ »

قال بريموس:

- « أرى سماء الليل يا سيدي بلون الكدمات والسحب »

هنا أمر الأب سبتيموس بأن يذهب للنافذة وينظر..

قال الفتى:

. « أرى نجمًا يا سيدي.. »

- « احملوني للنافذة »

تعاون أولاده على حمله للنافذة كما طلب. وقف هنالك يستند على أكتاف أولاده العريضة.. ومد يده يعبث في سلسلة فضية ثقيلة تتدلى من رقبته. وأمسكت أصابعه بقطعة من التوباز.

تهامس الأبناء الموتى بأصوات الموتى الشبيهة بصوت الثلج المتساقط. من يلبس التوباز من آل ستورمهولد يصر السيد. من الذي سيعطيه هذا التوباز؟

وقف الشيخ من دون عون.. الشيخ الذي قتل كل الغيلان والعفاريت.. والذي تزوج ثلاث نساء.. والذي قتل إخوته الأربعة.. وقف ليقول أربع كلمات من لغة بائدة..

ثم قذف الحجر التوباز في الهواء..

شهق الأبناء وهم يرون الحجر يرتفع نحو السحب.. وبدا أنه سيسقط الآن.. لكنه واصل الارتفاع فقال الأب:

- » من يستعد هذا الحجر الذي يمثل قوة آل ستورمهولد، له بركاتي ومملكة ستورمهولد.. »

وبدأ صوته يضمحل كأنه الريح تعوي في بيت مهجور.

كان الظلام قد حل.. وظهرت النجوم بوضوح، وفجأة هوى نجم... هوى كأنه شرارة تشق ظلام الليل. قال الأب:

- « هذا هو »

ثم سقط على الأرض الحجرية وكف عن التنفس.

قال بريموس وهو يرمق الجثة:

- « أتمنى أن ألقي بالوغد المسن من النافذة.. ما سبب كل هذا العته؟ »

قال ترشيوس:

- « لا تفعل.. لا نريد أن تحل بنا اللعنات.. فلنحمله لقاعة الأسلاف »

أين ذهب الحجر؟ السؤال هو عن اتساع أرض الجان. أرض الجان ليست أرضًا واحدة.. الخرائط غير دقيقة ولا يعتمد عليها.

إن أرض الجان أكبر بمراحل من إنجلترا بل هي أكبر من العالم نفسه. هنا تعيش الجريفون والويفرن والهيدرا والبازيليسك. هناك كذلك حيوانات نعرفها مثل القطط والكلاب والخيول والدببة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في وسط الغابة الكثيفة هناك كوخ صغير، بني من الخشب والقش، له منظر يثير القلق. على العتبة هناك طائر أصفر صغير في قفص يجلس صامتًا.

داخل الكوخ غرفة واحدة بها لحوم مدخنة وسجق معلق من دعامات السقف. هناك ثلاثة أسرّة اثنان صغيران والثالث كبير وعال. وهناك نافذة متسخة جدًّا يصعب أن ترى منها أي شيء.

الشيء النظيف الوحيد هو مرآة من زجاج أسود، عريضة كباب كنيسة في البيت تعيش ثلاث نساء مسنات يتبادلن النوم في الفراش الكبير وفي غسل الأواني وفي صيد الحيوانات. وكان كلامهن قليلًا.

في البيت كانت ثلاث نساء أخريات نحيلات يعشن في ردهة حجمها ثلاثة أضعاف الكوخ. كانت هناك نافورة يتدفق فيها الماء من تمثال عروس بحر فمها مفتوح.. والماء أسود نظيف يتدفق من فمها للحوض ويلتمع تحت النجوم. النساء الثلاث اللاتي يملكن الردهة والتماثيل كن يظهرن في المرآة.. بينما الثلاث الأخريات يعشن في الكوخ الفقير.

هؤلاء هن الليليم..

في ذلك اليوم جاءت واحدة منهن حاملة حيوان (قاقم) من الغابة، وقطعته ثم جردته من جلده كأنها تنزع بيجامة طفل. شقت أصغرهن حجمًا بطن الحيوان فخرجت أحشاؤه.. صرخت المرأة:

- « بسرعة!.. بسرعة! »

التفت النسوة حول الحيوان في فضول، وتساءلت الأولى:

- « ماذا هنالك؟ »

في المرآة كنت ترى النسوة شابات حسناوات..

حملقت النسوة بعيون رمادية أبلاها الكبر إلى الحيوان.. وقالت واحدة:

- « هكذا.. حان الوقت! »

ورحت يتحسسن أحشاء الحيوان بعيون مغمضة.. واحدة أمسكت بالكلية وواحدة أمسكت بالكبد. بينما هتفت واحدة في فخر:

- « أنا نلت القلب! »

- « كيف ستسافرين؟ »

- « بعربتنا القديمة يجرها أي شيء أجده عند تقاطع الطرق »

- « تحتاجين لأعوام أطول »

وتناولت إحداهن صندوقًا حديديًّا مربوطًا بخيوط معقودة. فكت كل ساحرة عقدة من الخيط.. مدت الساحرة التي وجدت

القلب يدها في القاع لتخرج شيئًا ذهبيًا.. راح يتملص من يدها محاولًا الفرار. فتحت فمها وابتلعته. إنه بقايا النجم الهاوي السابق.. آخر ما تبقى منه.

راحت امرأتان في المرآة تنظران بحسد إلى المشهد.

قالت المرأة:

- « عندما أعود بقلبه سنظفر بأعوام طويلة لكل منا.. »

ثم لفت سوارًا أرجوانيًا حول معصمها.. سوارًا له شكل ثعبان يبتلع ذيله.

قالت إحداهن:

- « نجم.. »

- « نجم »

- « إنه الأول منذ مائتي عام.. نجم هاو، ولسوف نجد فيه شبابنا »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

هل يمكن أن أصل هناك على ضوء شمعة؟

كان أكتوبر يبتعد مع كل خطوات تريستران، حتى شعر بأنه يمشى نحو الصيف. كان يمشي في ممر بين الأشجار. فوق رأسه يسطع قمر الحصاد وتتوهج النجوم. كان يشعر بنعاس؛ لذا وضع حقيبته الجلدية على الأرض وأراح رأسه عليها وتغطى بمعطفه.

بدأ يحلم بطفولته وأيام المدرسة.. وتخيل أن المعلمة تطلب منه تسميع أسماء ملوك إنجلترا ومتى تولى كل منهم الحكم.. هنا سمع من يقول:

- « معذرة.. هلا حلمت بصوت أهدأ؟.. حلمك ينسكب في حلمي، وأنا عاجز تمامًا عن حفظ التواريخ »

سمع من يقول له:

- « الإفطار.. (ما شرامب) محمر في الزبد مع بعض الثوم »

فتح تريستران عينيه ليرى ضوء النهار، ويشم رائحة كأنها رائحة الجنة. ووجد وعاء يوضع أمامه!

رمش بعينه وأمسك بقطعة من الطعام وقضم بحذر.. شعر بالعصائر بين شفتيه. كان ألذ شيء أكله في حياته. قال هذا للرجل، فقال له:

- « أنت لطيف.. لكن تذكر أن هذا مجرد (ما شرامب) وليس شيئًا خاصًا »

كان ضئيل الحجم بقبعة مترهلة واسعة ومعطف واسع. طلب منه تريستران المزيد.. كما يحدث دومًا مع الوجبات الصغيرة. قال لنفسه: إنه من الصعب أن يكون هذا رجلًا حقيقيًا.. مد الرجل سكينه في المقلاة والتقط قطعتين من عش الغراب ووضعهما في طبق تريستران. التهمهما تريستران بأنامله وهو ينفخ من السخونة.

قال الرجل:

- « كان لي صديق اعتاد أن يأكل ثعبانًا كل يوم في الصباح، وكان يقول: إن هذا يضمن ألا يحدث له شيء أسوأ طيلة اليوم؛ لذا أجبروه على أكل أم أربعة وأربعين قبل شنقه ليعزوه »

نهض تريستران وأفرغ مثانته جوار شجرة. بينما جمع رفيق الصباح كل حاجيات الإفطار ووضعها في حقيبة على ظهره. ثم تقدم المسيرة، وراح تريستران يحاول اللحاق به.. فالرجل برغم الحمل الثقيل على ظهره كان يسرع المشي مبتعدًا عنه، كأنه سنجاب على شجرة.

صاح في الرجل:

- « توقف!.. لا أستطيع اللحاق بك! »

أبطأ الرجل المشى وقال:

- « أرجو عذرك.. اعتدت الوحدة لذا اعتدت سرعة المشى »

مشى الرجلان وسط أشجار تتوهج بلون أزرق غريب. لم يفهم تريستران كنه هذه الأشياء. عند الظهر جلسا يأكلان تحت شجرة، فأخرج تريستران الرغيف والتفاح والجبن. التهم الرجل

الطعام بشهية ثم ملأ براد الشاي من بركة وأعد الشاي. ثم سأل تريستران عن وجهته. فكر هذا قليلًا ثم قال:

- « أنا من بلدة وول.. هناك حسناء تدعى فكتوريا فورستر.. لقد منحتها قلبى و.. »

- « اختصر.. ما الشيء الأحمق الذي كلفتك الحسناء به؟»

نهض تريستران في غضب وقال:

- « لماذا تتصور أن مليكة أحلامي ترسلني في مهمة حمقاء؟ »

قال الرجل:

- « هذا هو السبب الذي يدفع شابًّا مثلك لعبور حدود أرض الجان.. لابد أن يكون شاعرًا أو عاشقًا أو مجنونًا. ومن الواضح أنك لست مجنونًا أو شاعرًا.. إذن هو الحب »

- « كل عاشق هو في عقله مجنون وفي قلبه شاعر.. لقد رأيت ذلك النجم الهاوى فوعدتها بأن أجلبه لها، سقط هناك.. »

ولوح بذراعه نحو الجبال. فقال الرجل الصغير وهو يحك أنفه:

- « هل تعرف ما كنت سأفعله؟ كنت سأطلب منها أن تذهب لتغسل وجهها في ماء شرب الخنازير، وأبحث عن واحدة أخرى ترضى أن تقبّلني دون أن أمنحها الكرة الأرضية.. لو أنك ألقيت حجرًا لصدم واحدة مناسبة »

- « لا توجد فتاة سواها.. »

قال الرجل:

- لو كنت مكانك لما تكلمت عن هذا النجم الساقط.. هناك من يدفع أي ثمن مقابل هذه المعلومة. لو سألوك من أين جئت فلتقل: من خلفي.. وإلى أين أنت ذاهب.. قل: إلى أمامي »

مشى الرجلان وتساءل تريستران:

- « هل المسافة بعيدة لذلك النجم؟ »

غنى الرجل:

- « كم ميلًا على بابل؟.. هل يمكن أن أصل هناك على ضوء شمعة؟ نعم.. ويمكنك أن تعود.. لو شعرت بأن قدميك خفيفتان، فبوسعك أن تذهب هناك على ضوء شمعة »

فجأة شعر تريستران بالبرد.. نظر إلى الممر الذي يمشي فيه فلم يعد هناك ممر.. لا توجد علامات مميزة. قال له الرجل:

- « نحن في خطر.. لقد وقعنا في الفخ.. حتى لو جرينا فنحن في قبضتهم! »

اتجه نحو شجرة قريبة وركلها بقدمه.. سقطت بعض أوراق ثم هوى شيء من أعلى الشجرة بصوت هامس.. دنا تريستران منه ليرى فوجده هيكلًا عظميًا نظيفًا لطائر.. همس:

- »ربما علينا أن نتسلح قبل قدومهم؟ «

قال الرجل:

- « قبل قدومهم أيها الساذج؟ إنهم هنا فعلًا.. إنهم هذه الأشجار!.. نحن في سيروود »

- « سيروود؟ »

- « لقد تصرفنا بحماقة.. لن تجد نجمك وأنا لن أجد بضاعتي.. سوف يجدون هيكلينا العظميين النظيفين.. »

شعر تريستران بشيء يلدغ ذراعه. ضربه متوقعًا أنه حشرة.. كانت ورقة شجر مصفرة، ورأى أن ذراعه تنزف.. تساءل:

- « هل من شيء نعمله؟ »

- « لا شيء أعرفه.. إلا لو عرفنا أين الممر.. السيروود لا يستطيع قهر الممر الصحيح.. »

ضرب تريستران جبهته وقال:

- « الطريق الصحيح من هنا.. إلى اليمين »

- « كيف تعرف؟ »

- « أعرف فحسب »

وراح تريستران يجرى والأشواك تضرب وجهه، وتمزق ثيابه.

انهمرت الأوراق عليهما وبدا كأن الأشجار تتراص حولهما في صف. راح الرجل الصغير يصرخ، فأمره تريستران أن يتماسك فالخلاص قريب. في النهاية وجدا الممر الحقيقي. تساءل تريستران وهو يلهث طلبًا للهواء:

- « هل وصلنا؟ »

- « نحن آمنان ما دمنا على الممر الصحيح.. »

قالها الرجل وجلس على الأرض يتأمل الأشجار من حولهما، كانت الأشجار تهتز برغم عدم وجود ريح. بدا لتريستران أنها تهتز غضبًا. مرت ساعتان وبعدها بدأت الأشجار تقل.. وبدا أنهما اجتازا سيروود. فقال الرجل الصغير:

- « لنجلس هنا.. سوف نناقش بعض الأشياء »

قدم له قارورة من شراب يحمله على كتفه، وقال له إنه شراب ثمين ثمنه قريب من فدية ملك.. شرب تريستران وشعر بعطر غريب يتسرب لروحه.. قال له الغريب وهو يعيد الزجاجة لظهره:

- « تقول إنك جئت من وول.. هل تعرف أين (تلال الشك)؟ »

أشار تريستران بلا تردد في اتجاه معين.

- « هل تعرف أين جزر كاتافاريان؟ »

أشار تريستران إلى الجنوب الغربي. لم يكن قد سمع هذه الأسماء من قبل، لكنه وجد نفسه يعرف المكان بمجرد ما سأله الرجل. سأله الرجل عن اتجاه باريس فلم يعرف الفتى. هكذا قدر الرجل أن تريستران يعرف أماكن الأشياء في مملكة الجن وليس في العالم الخارجي. سأله عن اتجاه النجم الذي هوى فأشار تريستران في اتجاه معين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند الفجر انطلق السادة الثلاثة من أسرة ستورمهولد عبر طريق الجبال. العربة تجرها ستة خيول سود ومطلية بالأسود لون الحداد. كانوا يتبادلون النظرات المتشككة. لو كانت هناك أحلاف لتحالف بريموس مع ترشيوس ضد سبتيموس. لكن لا توجد أحلاف.

كانت هذه جنازة أبيهم. وأعلن الحوذي أن هذه حانة نوتاواى فترجلوا..

خرج لهم صاحب الحانة. فسألت خادمة الغرف:

- « كم فراشًا أقوم بتهويته؟ »

قال صاحب الحانة:

- « ثلاثًا.. وأعدى لنا يخنة.. »

بدا للفتاة أنها ترى سبعة فرسان. لكن تم إعداد العشاء والأسرة لثلاثة. عصيدة وخبز ساخن يتصاعد منه بخار شهي.. وأمام كل واحد وضعت زجاجة من أفخم أنبذة بورتي، فلم يكن واحد من السادة ليشارك زجاجته مع أخويه أو يسمح لهما بصب الخمر له. قدموا العشاء للحوذي ثم ذهب لينام في الإسطبل مع الخيول.

أخلدوا للفراش. أما ترشيوس فألقى قطعة فضية لخادمة الغرف، هكذا جاءته بعد منتصف الليل وهي تحمل شمعة وزجاجة خمر... قبلته وسقته جرعة من الزجاجة.. هنا لاحظت أنه ليس على ما يرام.. وجهه محتقن وعيناه جاحظتان. وبصوت مبحوح سألها:

- « هذه الخمر.. من أين جئت بها؟ »

قالت الفتاة:

- « من أخيك.. قابلته على الدرج فقال لي: إنها نوعية ممتازة ستمنحنا ليلة عظيمة لن ننساها »

تنفس وهو يرتجف.. وقال:

- « هي كذلك فعلًا.. »

ثم تشنج مرة.. مرتين. ثم همد نهائيًّا..

سمع ترشيوس صراخها وبدا من بعيد جدًّا، بينما هو يقف مع أربعة أشباح مألوفة في ظلال الجدار. همس سيكوندوس:

- « كانت رائعة الجمال »

وقال آخر:

- « حيلة سبتيموس المعتادة.. مثل حيلة التوت البرى المسموم الذي جعلني أبتلعه »

صرخت الفتاة فاستيقظ الخدم لكنهم لم يجدوا لورد سبتيموس قط.. اختفى حصان أسود من جياد العربة، بينما الحوذي نائم لا يستطيع أحد أن يوقظه.

استبد الجنون بلورد بريموس عندما صحا في الصباح. رفض إعدام الفتاة؛ لأنها كانت ضحية لألاعيب سبتيموس الشريرة.. أعطاها حصانًا أسود وعملات فضية وأمرها بأن ترافق جسد ترشيوس إلى قلعة ستورمهولد.

أخذ العربة التي لم يعد يجرها سوى حصانين وغادر القرية متعكر المزاج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الصبي بريفيس عند تقاطع الطريق وهو يجر حبل التيس الذي أخذه ليبيعه في السوق. أمه في الصباح قدمت له فجلة كإفطار، وقالت إن هذه هى الشيء الوحيد الذي وجدته في الحقل اليوم. عليه أن يبيع التيس الشيء الوحيد الذي يملكانه. بالمال يشترى لفتًا ودجاجة ودقيقًا..

كانت مهمة جر التيس اللعين صعبة جدًّا، فهو يظل متصلبًا ثم يجرى فجأة، فيجرى الصبي معه. هنا يتوقف ويهاجم بريفيس..

لا يعرف بريفيس كيف بلغ تقاطع الطرق وهو جائع غارق في العرق. كانت امرأة فارعة تقف عند التقاطع.. هناك تاج من فضة يحيط بشعرها وكان ثوبها قرمزيًّا كشفتيها.

سألته بصوت مبحوح:

- « بم ينادونك يا بني؟ »

- « بريفيس يا سيدتى »

ولاحظ خلفها شيئًا غريبًا، عربة صغيرة بلا حصان. كيف وصلت لهذا المكان إذن؟

- « هذا اسم جميل.. هلا بعتني هذا التيس يا فتى؟ »

- « أمي طلبت أن أبيع التيس مقابل دجاجة ودقيق ولفت..»

هنا مدت يدها له فرأى شيئًا ذهبيًا. قالت له:

- « هذا جنيه ذهبي.. فهل اتفقنا؟ يمكنك شراء مئة دجاجة وجبالًا من الدقيق »

مد الفتى يده لها منبهرًا فأخذت منه الحبل وهي تبتسم.. ثم لمست التيس بين عينيه وتركت الحبل. لكن التيس ظل متجمدًا حيث هو.

مد يده يطلب الجنيه، فنظرت له المرأة من فوق لتحت.. من جبينه الملوث بالعرق حتى حذائه المغبر وقالت:

- « هل تعلم؟ أعتقد أن زوجًا متناسبًا أفضل من واحد »

لم يفهم شيئًا.. لكنها مست جبهته بين العينين، وسرعان ما وجد أنه عاجز عن النطق. ثم فرقعت بأصابعها فهرع بريفيس والتيس ليقفا أمام العربة وأدرك بريفيس أنه يمشى على أربع وأن الأرض قريبة منه.

فرقعت المرأة الساحرة بالسوط فاندفعت العربة على الطرق الموحل يجرها تيسان متشابهان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس تريستران في الظلام ينتظر عودة الرجل الصغير الذي يرافقه من رحلته لقرية ريفلرى. منحه معطفه وقبعته من أجل الرحلة.. عاد الرجل بعد قليل.. كان يحمل مجموعة من الثياب زاهية الألوان تختلف عن الثياب التي أخذها من تريستران... قال له إنه بدلها في القرية وإنها أمتن ولا تتمزق بسهولة، كما أن أحدًا لن يشعر بأنه غريب وهو يرتديها.

ارتدى تريستران الثياب الجديدة.. يقولون إن الثياب لا تصنع الإنسان والريش لا يصنع الطائر، لكن هذه الثياب ناسبت تريستران جدًّا، وبدا تألق معين في عينيه وارتفع ذقنه لأعلى في شموخ. كان الرجل قد جاء من القرية كذلك بسلمون مدخن وبازلاء معلبة وكعك بالزبيب..

قال له الرجل الصغير إنه مدين له بخدمة؛ لأنه أنقذ حياته في السيروود.. كما أن أباه أنقذه من قبل في قصة لا يعرفها تريستران. قال تريستران إن الرجل فعل الكفاية لكن هذا قاطعه..

- « قلت لي أين ذهب نجمك؟ »

أشار تريستران باتجاه معين.. فعاد يسأله:

- « ليكن.. هل تعرف المسافة؟.. أنا أخبرتك بذلك من قبل.. »

- « متى؟ »

- « عندما غنيت لك (كم ميلًا على بابل؟).. تذكر (هل يمكن أن أصل هناك على ضوء شمعة؟).. ليس كل الشمع صالحًا.. فقط نوع معين من الشموع.. »

وأخرج من جيبه شمعه في حجم تفاحة وناولها لتريستران. تأملها في دهشة.. لم تبد له ذات أي خصوصية. الفتيل محترق مسود..

- « وماذا أفعل بها؟ »

- « ستعرف كل شيء في وقته.. وخذ هذه كذلك »

توهج الشيء في ضوء القمر. سلسلة فضية صغيرة باردة زلقة..

- « ما هذا؟ »

- « المعتاد.. أنفاس قط مع قشر سمك وضوء قمر.. وقد صاغته الأقزام. لابد من هذا كي تسترد نجمك »

تأمل تريستران السلسلة وقال:

- « أين أضعها؟ ليست لديَّ جيوب »

- « لفها حول معصمك.. لكن هناك جيبًا سريًّا تحت سترتك »

وجد تريستران الجيب فعلًا فثبت في عروته قطعة الجليد البلورية التي أخذها من أبيه.. أبوه قال إنها تجلب الحظ.. لكنه ليس متأكدًا هل هو حظ حسن أم سيئ..

قال الرجل الصغير:

- « ستفعل التالي.. تحمل الشمعة في يدك اليمني.. تمشي نحو نجمك.. سوف تعيده معك بهذه السلسلة.. لا يوجد فتيل كثير في الشمعة لذا كن خاطفًا.. »

- « سوف.. سوف أحاول »

مرر الرجل الصغير يده على الشمعة فاشتعلت بلون أصفر فوق وأزرق تحت. مشى تريستران بالشمعة ففوجئ بأنها تنير العالم.. كل شجرة وكل صخرة..

رأى أنه يجتاز غابة وضوء الشمعة يغطى كل الأشجار، ثم رأى أنه على قمة جبل ثلجي.. وضوء الشمعة ينعكس في عيون الوحوش القطبية.. ثم صار تحت الأرض...

رأي في طريق بالغابة عربة يجرها تيسان.. تركبها امرأة في ثوب أحمر بدت له للحظة كأنها الملكة بوديكا ذاتها[2] وصل إلى أخدود فرفع الشمعة باحثًا عن بقايا نيزك.. أو حفرة أو أي شيء.

سمع صوت بكاء مكتوم وابتلاع.. شخص يحاول ألا يبكي.. فقال:

- « مرحبًا »

لكنه استطاع أن يرى ضوءًا تحت شجرة كستناء.. فمشى إلى هناك وحاول أن يهدئ الشخص المتوارى تحت الشجرة.. قال:

- « أنا أبحث عن نجم »

هنا تطاير غبار من الأرض المبتلة ليلوث وجهه وياقة ثوبه.. فقال بصوت عال:

- « لن أؤذيك »

عادت قبضة غبار أخرى تضربه فتحاشاها لتصدم الشجرة.

قال الصوت:

- « ابتعد »

كان صوتًا خشنًا كأنما من كثرة البكاء. هي فتاة تتكوم حول نفسها تحت الشجرة وتنظر له بكراهية. عيناها حمراوان كالدم. شعرها أشقر حتى ليوشك على البياض.. ثوبها حريري.

قال لها:

- « أرجوك لا تلقى المزيد من الوحل.. هناك نجم هاو هنا وعلى أن أجده »

قالت الفتاة:

- « أنا هشمت قدمى »

- « أنا آسف. النجم... »

لكنها طوحت بمزيد من الغبار في وجهه.. وصاحت:

- « ابتعد! »

هبط عليه الفهم فجأة، فهتف:

- « أنت النجم! »

انفجرت تشتمه بشتائم غريبة جدًّا لكن من الواضح أنها بذيئة.

قال لها:

- « كما قلت »

ثم أخرج سلسلة فضية ولفها حول معصمها النحيل.. نظرت له في مرارة وسألته بصوت تجاوز حدود الكراهية:

- « ماذا تظن أنك تفعله؟ »

- « آخذك للبيت معى.. هذا قسم »

توهج لهب الشمعة ثم انطفأ وقد تلاشى الفتيل..

نظر تريستران للفتاة.. للنجم.. ولم يستطع قول شيء..

» هل يمكن أن أصل هناك على ضوء شمعة؟ «.. لقد ولى ضوء الشمعة.. وأمامي سفر ستة أشهر..

قالت الفتاة ببرود:

- » دعني أقل لك إنها مهما كنت فلن أساعدك بأي شكل.. بل سأبذل كل ما بوسعى كى تفشل.. أنا لا أستطيع المشي.. هل أنت أصم بالإضافة لغبائك؟ «

سألها:

- »هل ينام من هو مثلك؟ «

- « ننام لكن ليس في الليل. في الليل نتألق »

أراح رأسه على الحقيبة الجلدية وراح يفكر.. ترى كيف سيعود وماذا يأكلان؟ ترى أين الرجل الصغير؟ ترى...؟ هنا كان قد نام.

ظلت الفتاة بعض الوقت تشتمه وتحاول تحريك السلسلة الفضية، ثم في النهاية شعرت بالقنوط فنامت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس
وفيه صراع عنيف على التاج

في الصباح كانت الفتاة أكثر لطفًا. كسر تريستران غصن شجرة على شكل Y ليصنع منه عكازًا. كانت ترمقه في مقت لا تخفيه.كانت تتحسس السلسلة فقال لها:

- « فعلت هذا بسبب الحب.. وأنت أملي الوحيد.. اسمها فكتوريا.. فكتوريا فورستر.. وهي أجمل وأحلى فتاة في العالم»

قالت في احتقار:

- « وهذه المخلوقة الحلوة أرسلتك هنا كي تعذبني؟ »

- « فكرت أن النجم الهاوى هو أقرب لصخرة أو جوهرة.. لم يخطر ببالي أن يبدو كسيدة »

وساعدها على استعمال العكاز.. نهضت متثاقلة وهي ترمق العالم حولها في كراهية. ثم سقطت أرضًا وجلدها أبيض شاحب والعرق يتجمع عليه:

- « رجلي.. لا أتحملها.. لابد أنها مكسورة »

ذهب للنهر فبلل بعض الأغصان، ثم مزق قميصه إلى شرائط وراح يلفها حول ساقها على شكل جبيرة. ثم أخبرها أنهما سيذهبان لطبيب لكن ليس الآن. نهضت ومشت جواره وهي تئن.. وهو يشعر بالذنب مع كل خطوة، راح يسألها عن شعورها كنجم.. منذ متى هي نجم؟.. كان يحسب النجوم كما قال معلمه: كرات غاز ملتهبة على بعد مئات الأميال.

- « لماذا سقطت؟ هل تعثرت في شيء؟ »

توقفت وأخرجت شيئًا من ثيابها وقالت:

- « لم أتعثر.. ضربني هذا... »

وأرته حجرًا أصفر يتصل بسلسلة فضية. لم تقل شيئًا آخر، مشي تريستران معها وبعد قليل عند الظهر شعر بالجوع الشديد. لم يجد سوى باقي رغيف خبز في الكيس فبلله بماء بركة صغيرة تجرى جوارهما وتقاسمه معها. لكنها نظرت للرغيف في اشمئزاز ولم تذقه.

كانا يمشيان وسط الغابة.. وسط أشجار كثيفة، ومن الغريب أنه وجد نفسه يعرف الطريق. فجأة كان هناك مكان خال وسط الأشجار.. شعر تريستران أنه مكان تم إخلاؤه عمدًا.. لماذا؟ لا يعرف..

لكنه إذ دنا أكثر رأى في مركز المساحة الخالية صخرة عليها تاج ذهبي مزخرف يلمع في شمس الظهيرة. وقد ازدان بحجارة كريمة حمراء وزرقاء. كاد يذهب للتاج لولا أن مست الفتاة النجم يده وقالت:

- « اصبر.. هل تسمع طبولًا؟ »

بالفعل هناك دقات من حولهما.. ثم دوى صوت أشجار تتهشم. ظهر حصان أبيض مغطى بالدم يحاول الهرب، ثم استدار ليواجه مطارده.. كان المطارد أسدًا.. أسدًا ضخمًا بلون الرمل في الظهيرة. كان يزأر في وجه الحصان.

كان الحصان مذعورًا، ولاحظ تريستران أن لديه قرنًا من العاج في جبهته. وقف على قدميه الخلفيتين ووجه ضربة إلى كتف الأسد، فزأر هذا ألمًا وتراجع. راح يدور حول وحيد القرن وهو يزأر زئيرًا يهز الصخور والوديان.. وثب على ظهر وحيد القرن فأنشب أسنانه ومخالبه فيه، بينما وحيد القرن يحاول التملص والتخلص من الوحش على ظهره.

صاحت الفتاة:

- « أرجوك!.. أنقذه.. الأسد سيقتله »

لكن كيف يتدخل وهو لا يحمل أي سلاح حتى الماء؟.. كان يشم رائحة الأسد الحيوانية القوية ويرى التوسل في وجه وحيد القرن... توجه إلى التاج وحمله، ثم مشى نحو الأسد وهو يتكلم بهدوء كأنه يخاطب ثورًا هائجًا في مزرعة أبيه:

- « هلم.. اهدأ.. هذا هو تاجك »

تقدم أكثر بينما الأسد ينظر له في دهشة.. ووضع التاج على رأسه بيدين ترتجفان. توقف الأسد.. تخلى عن وحيد القرن.. ثم مشى ببطء إلى حدود المساحة الخالية، فلعق بعض جروحه ثم توارى في الدغل.

زحفت الفتاة النجم نحو وحيد القرن وأراحت رأسه على فخذها فنظر لها وأغمض عينه.

جاء الليل وتناول تريستران عشاءه.. السماء مزدانة بألف نجمة تتألق.. الفقاة النجم كانت تتألق كذلك كأنها دهنت نفسها بطريق اللبانة. كانت تغنى أغنية للحيوان..

راح يصغى للأغنية حتى غلبه النوم وهو يتحسس السلسلة التي تربطها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقت عربة الساحرة الملكة في طريق الغابة. لاحظت نيران الطهي من بعيد وقد أدركت من لون النار أنها نار واحدة من قومها. ربطت لجام التيسين اللذين يجران العربة واتجهت لعربة الغجر زاهية الألوان الواقفة ورأت المرأة العجوز التي اكتسب شعرها لون الحديد، الجالسة جوار النار، تبصق فيها. رائحة شواء أرنب على النار ممتزجة برائحة الخشب المحترق.

صرخ طائر منذرًا عندما رآها فقالت العجوز دون أن تنظر:

- « قبل أن تقولي أي شيء فأنا امرأة مسنة ضعيفة تبيع الورد ولم أؤذ أحدًا في حياتي.. يخيفني أن أرى امرأة قوية مثلك »

- « لن أؤذيك... أقسم بقوانين الأخوية التي تربطنا، أقسم بشفتي وصدري أننى لن أضرك.. »

- « هذا يناسبني ويسرني أن تنضمي للعشاء معى.. اسمى سيميل »

ثم نظرت للتيسين اللذين يلتهمان العشب وقالت:

- « إن نظرى قد هرم يا عزيزتي.. لكن يخيل لي أن أحد هذين التيسين بدأ حياته على قدمين.. أليس كذلك؟ »

قالت الساحرة باسمة:

- « تعرفين أن هذه الأشياء تحدث.. مثل طائرك هذا »

- « يطلقون عليّ السيدة سميل »

- « يمكنك أن تطلقى على اسم موروواننج.. »

كانت دعابة لأن معنى الاسم (موج البحر) وكانت تؤمن أن اسمها الأصلى قد غرق في البحر. دخلت العجوز العربة، ثم عادت حاملة طبقين من القش وإناءين وأدوات طعام، وقالت:

- « كنت سآكل بأصابعي الطعام الذي أضعه على ورقة شجر.. لكن فرصة صحبتك تستحق احتفالًا »

وبسكينين قسمت الأرنب المشوى إلى قسمين متساويين.. وقدمت للساحرة الملكة نصفًا... قالت الأخيرة وهي تتذوق:

- « لذيذ جدًّا.. يمكنني تمييز الريحان والزعتر ضمن الأعشاب، لكن هناك رائحة لا أعرفها »

- « هذا عشب ينمو فقط في جزيرة جاراموند.. له خواص عدة، من ضمنها أن من يأكله لا يقول سوى الحقيقة لفترة طويلة! »

ألقت الساحرة بالطبق وهتفت:

- « عشب الليبموس؟ هل جرؤت على إطعامي عشب الليمبوس؟ »

ضحكت العجوز وقالت:

- « يبدو هذا.. والآن قولى يا عزيزتي الهدف من رحلتك.. ولماذا تذكرينني بشخص ما؟ »

- « أبحث عن نجم سقط في الغابة عند جبل بيلي.. سوف أمسك بالنجم وأمزقه بالسكين وأخرج القلب بينما هو ينبض.. هذا هو علاج الشيخوخة وأخواتي ينتظرنه في شغف »

راحت العجوز تركض في مرح:

- « هاها.. قلب نجم.. سوف أستعيد شبابي وأتخلص من كل هذا الشعر الشائب.. سألتهم القلب كله »

قالت الساحرة الملكة في حقد:

- « أنا لن أستطيع أن أؤذيك لأنني أقسمت بشرف الأخوية. لكن دعيني أؤكد لك أنك لن ترى النجم أو تذوقيه أو تشميه.. لن تعرفي ما في يدك... ودعيني أؤكد لك أنه لولا قسمي لمسختك خنفساء سوداء، ثم انتزعت كل أقدامك وتركتك للطيور.. »

نظرت لها العجوز في رعب وسألتها:

- « من أنت حقًّا؟ »

- « كنت أحكم كارنادين مع أخواتي قبل أن تُفقد.. »

- « معنى هذا أنك ميتة منذ زمن سحيق.. »

- « قالوا إن الليليم قتلوا.. هذا كذب.. السنجاب لم يجد بعد شجرة البلوط التي سيقطع منها الخشب الذي يصنع مهد الطفل الذي سيكبر ليقتلني! »

ثم نهضت وطوحت بالطبق بما فيه من لحم في النار وقالت:

- « بمجرد أن أرحل سوف تنسين كل شيء عن لقائي.. لن ترى أي شيء يتعلق بقصتي... لكن تبقى ذكرى غامضة تؤلمك كالألم الذي يشعر به الطرف المبتور »

هنا فوجئت العجوز بطبقها يحترق في النار ويرسل دخانًا كثيفًا.كانت تجلس وحيدة.. وراحت تتساءل عن السبب الذي جعلها تلقى بطبقها في النار. سمعت من بعيد دقات طبول، كأنه صوت حوافر تيوس تجر عربة. قالت لنفسها إنها تشيخ ولا حل لمنع ذلك.. قالتها للطائر الذي وقف يراقبها والذي رأى كل شيء ولم ينسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظل وحيد القرن يمشي خلفهما طيلة الصباح. ومن وقت لآخر يدفعها بقرنه. الجروح تملأ جلده وقد بدأت تلتئم. كان تريستران يفكر في ركوب وحيد القرن. هو ليس حصانًا ولم يوقع أيًّا من المعاهدات القديمة بين الإنسان والحصان. شعر أن وحيد القرن يميل للفتاة النجم ويحبها. هكذا اقترح أن يحملها وحيد القرن على ظهره طيلة الطريق.

مال على وحيد القرن وسأله إن كان يفهمه.. تمنى لو يضرب الأرض بحصانه كجواد ذكى. لم يتكلم وحيد القرن لكنه اتجه للفتاة النجم وركع أمامها.

ساعد تريستران الفتاة على الصعود.. وهكذا بدأ الترحال. ومشى هو جوار وحيد القرن وقد حمل عكازها وكيس الطعام يتدلى من طرفه. بينما يلف يده على السلسلة التي تربطها.

كان الجوع يمزقه فعلًا.. وشعر بأنه سيسقط.. فطلب من وحيد القرن أن يتوقف.. وصعد على تلة وانحدر منها ليجلس على ظهر الحيوان. لم يكن ركوب وحيد القرن كركوب الفرس.. بل هو نوع من السباحة فوق الموج. كان يخب ببطء بينما مالت الفتاة للأمام واعتصرت معرفة وحيد القرن. وشعر تريستران أنه برغم توجسه وقلقه يشعر بالمتعة لركوب وحيد القرن هذا.

أخيرًا عند الحدود توقف الموكب فترجل والفتاة.. قال لها إنه يتضور جوعًا، فقالت:

- « نحن نأكل الظلام فقط.. ونشرب النور. لست جائعة »

قال لها إنه ذاهب للقرية ليجلب طعامًا.. وحيد القرن سوف يحميها. فسألته وهي تجذب السلسلة:

- « سأنتظر هنا؟؟؟ »

حاول فك السلسلة بلا جدوى.. كانت تربطه لها كما تربطها له.. فكر فى أن تكون هناك كلمة سحرية ما ثم خطر له أن يقول: « من فضلك » هنا انزلقت السلسلة وتحررت يده..

طلب منها ألا تهرب بينما يذهب للمدينة ليجد طعامًا، فضريت على قدمها وقالت:

- « لا أحسبني قادرة على الجرى لفترة طويلة »

أقنع نفسه بهذا..

تركها ومشى نحو القرية.. لم تكن هناك حانة لكن فلاحة مسنة أصرت أن تصحبه لكوخها، حيث قدمت له قطعة عجين

بالشعير والجعة.. قايض منديله مقابل بعض الجبن والخمر، وباعته المرأة بعض التبن لوحيد القرن.

عاد بما أخذه من المرأة مسرورًا وتمنى لو ترضى الفتاة النجم بتذوق شئ.

في البداية حسب أنه ضل الطريق.. لكن لا.. هذه هي نفس شجرة البلوط في ضوء القمر. لكن لا أحد. شعر بشعور من السقم والغباء وراح ينادي:

- « مرحبًا!.. »

ألقي بالتبن على الأرض وركله.

لقد اتجهت الفتاة النجم إلى الجنوب.. تتوهج وتنطفئ بالنور، حتى لتبدو لمن يراها من بعيد كنجم. شعر الفتى بالندم والحماقة.. ما كان يجب أن يطلق سراحها. كان يجب أن يربطها لشجرة. راح يتعثر في جذور الأشجار حتى سقط أرضًا.. وجد نفسه أسفل شجرة فتوسد الحقيبة وراح يجتر مشاعر الرثاء إلى أن غاب في عالم النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

ما قالته الشجرة

كان يحلم.. يحلم بأن القمر يميل عليه ويطلب منه أن ينقذ ابنته من مصير مرعب. ثم سمع الشجرة تتكلم بصوت أنثوى.. خيل له أنه يرى وجه امرأة بين الغصون.. كأنها شجرة مسحورة. قالت له الشجرة إن الفتاة النجم في خطر مخيف.. هناك من يطاردها.. الأشجار ترى كل شيء، وتنقل الأخبار بالريح....

سوف تصل عربة مهمة من هذا الطريق.. عليه أن يلوح لها..

- « مد يدك »

قالتها الشجرة فمد يده.. سقطت ورقة شجر بلون النحاس ببطء على كفه..

قالت الشجرة:

- « أبقها في مكان أمين.. أصغ لها عندما تحتاج لها بقوة.. العربة قريبة.. اجرِ. اجرِ »

وضع الورقة في جيب قميصه وجرى نحو العربة.. كان صوت الحوافر قادمًا من بعيد وكان يقترب. لم يعد يشعر سوى بخفقان قلبه وفحيح الريح في أذنيه. العربة التي ظهرت كانت عربة سوداء تجرها أربعة خيول سود ويقودها رجل شاحب يلبس معطفًا أسود. وقف يلوح ويحاول التنفس بصعوبة.. حاول الصياح فأصدر أزيزًا..

مرت العربة به ولم تتوقف. نهض وقد أدرك أن الفرصة فاتته.. مشى بضع خطوات ففوجئ بالعربة واقفة.. هناك جذع شجرة عملاق يسد الطريق.. وكان الحوذي الذي هو الراكب الوحيد يحاول رفع الجذع.

قال الرجل بصوت غليظ:

- « ألعن شيء حدث.. لم تكن هناك ريح أو عواصف وبرغم هذا سقط وأفزع خيولى »

تعاون الرجلان مع الخيول على دفع الغصن العملاق إلى جانب الطريق. وفي سره شكر تريستران الأشجار التي ساعدته، وطلب من الحوذي أن يقله معه. قال الرجل وهو يحك ذقنه:

- « أنا لا آخذ ركابًا »

قال تريستران:

- « هذا صحيح.. لكن من دوني لبقيت هنا للأبد. العناية الإلهية أرسلتك لى كما أن العناية الإلهية أرسلتني لك. ولربما جاءت فرصة أخرى احتجت فيها ليدين تساعدانك »

نظر له الحوذي ثم مد يده في جيبه وأخرج حفنة من الحجارة الحمر المنقوشة، وطلب منه أن يختار واحدًا. انتقى تريستران حجرًا وعرض النقش على الرجل، فقال هذا:

- « يمكنك أن تأتى معى.. إن الآلهة الرونية واثقة بك.. يمكنك الركوب جوارى إذا أردت »

صعد تريستران إلى مقعد السائق.. نظر لداخل العربة فوجد خمسة رجال شاحبين ينظرون له في حزن، وفي اللحظة التالية لم

يعد هناك أحد. أدرك أنه يتخيل.

سأل الحوذي:

- « أرجو ألا أتجاوز حدودي.. لكن ما الذي تبحث عنه؟ »

قال الرجل:

- «عن قدرى.. عن حقى في الحكم وأنت؟ »

- « حسناء أردت أن أنال رضاها.. »

واندفعت العربة وسط طرق وعرة كأنها الجبال.. فشهق الفتى رعبًا.. قال له الرجل:

- « يومًا ما ستزور قلعتنا في ستورمهولد.. تلك هي الجبال الحقيقية.. كنا ننظر من فوق قلعتنا إلى هذه الجبال الصغيرة باعتبارها حجارة لا أكثر.. أنا لورد بريموس »

- « وأنا تريستران ثورن »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقال إنه في قديم الزمان كان الجبل عملاقًا شديد الضخامة وشديد الكسل. عجز ذات يوم عن المشى فنام على الأرض وتحجر.. لهذا هناك ركبة الجبل وعنق الجبل وكتف الجبل وقدما الجبل. هناك ممر يمر بين رأس الجبل وعنقه. تعيش في هذه الجبال وحوش مخيفة وأقزام وكائنات مشعرة..

كانت الساحرة الملكة قد عبرت جنوب بطن الجبل. راح التيسان يرعيان، بينما راحت هي تسن نصال سكاكينها التي ستمزق بها النجم. ثم أنها اتجهت للتيسين وهمست لهما كلمة

سحرية. فجأة صار هناك رجل ذو لحية شائبة وفتاة حسناء بدل التيسين. ثم إنها اتجهت نحو العربة.. قالت وهي تلهث:

- « إننى أشيخ.. لو استعدت قواى لحكمت المدن ولغيرت خرائط الكون »

ولفظت عبارة ما فاندلع لهب أزرق.. ولمست العربة بأناملها.. توهجت....

صارت هناك شعيرات بيض في رأسها.. لكن العربة اختفت.. مكانها ظهرت حانة صغيرة... دوى الرعد وسطع البرق، ثم راحت اللافتة الراقص مع الريح وقد رسمت عليها عربة. قالت الساحرة لمرافقيها:

- « هي سوف تمر من هنا حتمًا.. أنت بيلي مالك الحانة وأنا زوجتك.. أما هي فستكون ابنتنا.. »

بيلى هو التيس.. والابنة هي بريفيس..

دوى الرعد من جديد فقالت الساحرة:

- « سوف تمطر ثانية.. تعاليا نعد النار »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المطر ينهمر بغزارة، حتى شعر تريستران بأنه لا يمكن أن يبتل لهذا الحد إلا لو سقط في البحر. هنا صاح مرافقه بريموس أنه يرى نورًا من بعيد..

- « هذه البلاد شريرة.. أرجو ألا يكون نورًا خادعًا... لو كانت حانة لأمكننا أن نتناول العشاء ونجفف ثيابنا ونجلس أمام النار..

وننام في فراش نظيف.. »

أسرعت الجياد أكثر.. وهنا بدأ المشهد يتضح.. فهتف بريموس:

- « حمدًا لله.. إنها حانة! »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

عند علامة العربة

كانت الفتاة النجم مبتلة تمامًا وكانت قلقة على وحيد القرن، فهما لم يجدا طعامًا طيلة آخر أيام الرحلة. كما أن حوافر وحيد القرن الرقيقة لم تكن معدة للجبال والصخور.. ولم يكن قادرًا على حمل ركاب.

كانت تلعن اليوم الذي سقطت فيه من السماء.. كانت الأرض تبدو لطيفة حنونًا من السماء.. الآن تكره كل شيء فيها ما عدا وحيد القرن. وبعد يوم من الصراع كانت لافتة الحانة أروع منظر رأته في حياتها. توقف وحيد القرن قرب الحانة ورفض أن يدنو، فانفتح الباب وخرج منه ضوء ذهبى.

نادى صوت ودود من الباب:

- « تعالى يا عزيزتى »

همست الفتاة بكلمات رقيقة في أذن وحيد القرن، لكنه رفض التحرك. عاد الصوت يقول:

- « هلم يا حسناء.. لو كنت تريدين طعامًا فلدينا طعام.. هناك نار متوقدة وماء ساخن يذيب الجليد عن عظامك »

قالت الفتاة في ألم:

- « لا أستطيع الاقتراب.. ساقى... »

- « آه يا عزيزتى.. سوف يحملك زوجي بيلي.. الإسطبل فيه تبن وماء للدابة »

دنت المرأة المسنة بحذر من وحيد القرن المتوتر، ثم أسلم نفسه لها متجهًا إلى الإسطبل. وهناك ركع وسط القش الجاف بينما انزلقت الفتاة من على ظهره.

كان بيلي رجلًا أشيب الشعر قليل الكلام. حمل الفتاة للحانة ووضعها على مقعد أمام النار. طردت صاحب الحانة زوجها ثم نزعت ثياب الفتاة المبللة وعلقتها على المدفأة.. فراحت قطرات الماء تتساقط.. ثم أحضرت حوضًا وضعته أمام النار وملأته بالماء. لم تكن الفتاة العارية قد أخذت أي حمام من قبل. تركتها المرأة في الحوض وذهبت للمطبخ لتحضر بعض الخمر واللفت. كان الماء دافئًا وبدأت الفتاة النجم تشعر بالنشوة والراحة.

عادت المرأة فسألتها عن حالها، ثم سألتها عن قلبها. بدت الدهشة على الفتاة لغرابة السؤال، ثم قالت:

- « هو دافئ متوهج »

- « جميل.. جميل يا بطة.. أنت فتاة عزيزة »

ثم علقت معطفًا لتلبسه الفتاة بعد الحمام. ومدت يدها لتلمس صدر الفتاة بين نهديها وقالت:

- « قلب طيب.. جميل!! »

قالت الفتاة لنفسها إن هناك أناسًا طيبين برغم كل شيء في هذا العالم. ساعدتها زوجة صاحب الحانة مع ابنتها ذات الوجه الغبي على مغادرة الحوض ولاحظت الحجر الكريم والسلسلة الفضية حول معصم الفتاة، ثم إنها ساعدتها للجلوس إلى المائدة.

هبت الريح بالخارج ثم جاء صوت عميق ينادي:

- « طعام!.. خمر!.. نار!.. أين سايس الإسطبل؟ »

نظرت صاحبة الحانة لزوجها وابنتها ثم زمت شفتيها وقالت:

- « يمكننا الانتظار.. أنت لست ذاهبة لأي مكان يا عزيزتي بساقك هذه »

كان ضوء الحانة أروع شيء رآه تريستران في حياته. فك لجام الخيول وقادها للإسطبل حيث كان حصان أبيض يقف هناك لكنه لم يتفحصه في الظلام. كان عليه أن يجفف الخيول أولًا قبل أن يظفر بالدفء والطعام وإلا أصابها البرد، لذا طلب من بريموس أن يدخل أولًا. بعد قليل جاءت فتاة لها وجه غبي تحمل له إبريقًا من الخمر الساخنة فطلب أن تضعه أرضًا. راح ينزع صخرة كبيرة محشورة في حافر الحصان، عندما استدار الحصان الأبيض ثم جرى نحوه.. هنا أدرك أنه ليس حصانًا.. بل إن لديه قرنًا في جبهته. هجم الحصان على الإبريق ونطحه.. فانسكب على الأرض...

هنا فقط بدأت ذكريات قديمة تتداعي في ذهن تريستران.. هل كان هذا الإبريق يحتوى على............ سم؟

رفع وحيد القرن رأسه ونظر لعيني تريستران. عرف تريستران أن هذه هى الحقيقة..

كانت الريح تعوي في جنون بينما ركض تريستران لباب الحانة. فجأة شعر بحافز دعاه للبحث في جيبه.. وجد ورقة

شجر نحاسية ملتصقة ببقايا الشمعة الذائبة. رفعها لأذنه فسمع..

صاحبة الحانة تكلم بريموس عارضة عليه الخمر..

قال لها بريموس:

- « لا.. منذ وفاة أخي وأنا لا آكل ولا أشرب إلا ما أحمله معي.. والآن هلا أخبرتني عن مكان النوم؟ هل هناك مدفأة؟ هل الأسرة ذات مُلّة قوية؟ سوف أدفع قطعة من الفضة »

ثم إنه رأى الفتاة النجم فتساءل إن كانت هذه ضيف آخر... دنا منها ونظر في عينها.. فجأة هتف:

- « أنت! »

ثم ارتجف وقال:

- « معك حجر التوباز الخاص بأبي.. أنت تملكين قوة آل ستورمهولد »

نظرت له بعينين زرقاوين، فهرعت صاحبة الحانة لتقف أمامه وصاحت:

- « لن أتركك تضايق ضيوفي.. »

هنا انفتح باب الحانة بقوة وظهر تريستران يصيح:

- « بريموس! لقد حاولوا أن يسممونى! »

مد بريموس يده لسيفه القصير، فتناولت الساحرة أطول سكين لديها وفي لحظة واحدة قطعت حلقومه..

لم يستطع تريستران متابعة ما يحدث.. فجأة رأى نافورة دم تتدفق من بريموس...

جرى بيلى والفتاة ابنة صاحب الحانة نحو تريستران، هنا انفتح الباب ثانية وظهر وحيد القرن. وقف على قدميه الخلفيتين وضرب الفتاة ثم خفض رأسه ونطح بقرنه صاحب الحانة..

- « غبى »

وانقضت الساحرة على وحيد القرن، وخنجر في كل يد..

زحف تريستران على يديه وركبتيه وكذا فعلت الفتاة..

عوت الساحرة فقد اخترقها وحيد القرن بقرنه في الكتف.. واستعد كى يطأها بقدمه، لكن الساحرة استطاعت أن تلتقط قطعة زجاج وتغمدها في عين وحيد القرن حتى الجمجمة..

سقط الحيوان على الأرض والدم ينزف من عينه وفمه. نهضت الساحرة ونزعت القرن من كتفها ثم التقطت الشاطور وهي تترنح. بحثت عن الفتاة ثم مشت نحوها وهي تضحك ضحكة شريرة..

أمسك تريستران بيد الفتاة النجم.. وأمرها أن تنهض:

- « قومي أو موتى! »

استجمعت قواها ونهضت.. أمسك ببقايا الشمعة ودفن يده في النار وصرخ..

هنا اشتعل الفتيل وتوهج العالم... همس للفتاة:

- « أرجوك أن تمشى.. لا تتخلى عنى »

لم تستطع الساحرة الدنو منهما.. غادرا الحانة وهما يسمعان عواءها..

كان لهب الشمعة يتراقص.. وبعد مسيرة بسيطة وجدا نفسيهما وسط صحراء من الرمل الأبيض في ضوء القمر.. وبخطوة أخرى صارا فوق مستوى الأرض.. يريان الجبال والأشجار والأنهار.

كانت هذه نهاية الشمعة، وسال الشمع الساخن ليحرق يد تريستران.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

ويتحدث عن القلعة الطائرة وأشياء أخرى

مشى لورد سبتيموس ستورمهولد طويلًا شبيهًا بالغراب، صاعدًا الجبل وهو يفتش حوله. رأى عربة صغيرة مقلوبة.. جوارها جثة تيس غرقت رأسه في الدم.. قرب الجثة توجد جثة فتى غبي الملامح، لا يمكن أن تعرف كيفية وفاته. ثمة جسد رجل راقد على بطنه.. دنا منه سبتيموس فأدرك أن حلقه قد قطع من الوريد إلى الوريد، وقد نزف كل دمه على الأرض..

على الفور عرف من هو..

هتف ضاحكًا:

- « لحيتك!.. لقد حلقت لحيتك كأنني لن أعرفك يا بريموس »

ثم وقف في شعاع الشمس وهتف:

- « كذا صرت أنا السيد الثاني والثمانين على قلعة سبتيموس.. أنا سيد قلعة هوون وكل شيء »

هنا همس شبح كوينتوس في أذنه:

- « ليس من دون حجر التوباز الذي يمثل قوة ستورمهولد حول عنقك »

وقال سيكوندس:

- « وليس قبل أن تنتقم من قاتل أخيك.. هذا هو القانون.. ثمة مقولة تقضى بألا تعد كتاكيتك التي لم تفقس بعد »

اتجه سبتيموس ليحمل جثة أخيه بكثير من العسر، فيلقيها على حصانه.. وقد انتوى أن يتركه على جرف عال لتأكله النسور. وراح يسبه لانه لم ينتظر قليلاً قبل أن يموت. لو قتله هو لتحرر من هذا القانون السخيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلسا فوق سحابة طرية ناعمة.. غرس تريستران يده في السحابة ليتلذذ بشعور البرد الذي يخفف ألم يده المحترقة.

قالت له الفتاة النجم:

- « أنت أنقذت حياتي.. كنت أكرهك.. الآن أكرهك أكثر »

- « هل من تفسير؟ »

- « لأن قانونًا شعبيًا يحتم أنه ما دمت أنقذت حياتي فأنا ملك لك للأبد »

من بعيد كان يرى العالم الحقيقي، وقد سطعت الشمس فصارت الأنهار خيوطًا من فضة. قالت الفتاة له:

- « أخواتي يسمينني (إيفين).. لأننى نجم ليلي »

قال لها:

- « تركت حقيبتي في حانة الساحرة. ليس لدينا شيء سوى الثياب التي علينا.. لا طعام ولا ماء ونحن في السماء بلا طريقة للهبوط.. لو انقشعت هذه السحابة لهوينا »

كان يشعر بجوع شديد، وتساءل لماذا لم يكن أبطال القصص الرخيصة التي يطالعها يعانون الجوع.

راح ينادي فسألته عن سبب مناداته، قال لها:

- « أنادي أناسًا غير موجودين.. هذا أفضل من أن أنادي أناسًا موجودين وأنا لا أراهم »

ثم أضاف:

- « فكرت في الأمر.. سوف أحملك معي إلى وول وأهديك لحبيبتي فكتوريا، وبعد هذا أطلق سراحك لتعودي للسماء »

- « هذا مستحيل.. النجوم التي تسقط لا تعود للسماء »

هنا دوى صوت من تحت يصيح:

- « أهوى!.. هل هناك من يريد مساعدة؟ »

في ضوء القمر رأيا سفينة تجوب الفضاء في ضوء القمر. ورأيا رجلًا ذا شارب كث يقف على ظهرها ويحدق فيهما.. قال إنه سينزل لهما سلمًا ليصعدا به إلى سفينته، فقال تريستران إن يده تؤلمه ورجل الفتاة مكسورة. قال الرجل إنه لا مشكلة.. سوف يرفعهما.

وبدأ سلم من حبال ينزلق من أعلى فتمسك به تريستران وتمسكت به الفتاة. ثم سمعوا من يتصايح للشد.. وبدأ الحبل يرتفع.. لم تعد السحابة تحتهما بل بدت بقعة على بعد ميل.

رحب بهما الرجل:

- « هذه السفينة الفضائية برديتا التي تقوم بمهمة صيد البرق. أنا القبطان يوهان ألبريتش في خدمتكما »

ضمدوا جراحهما وقدموا لهما الطعام في (الميس). أما عن الشراب فكان أنقى وألذ ماء تذوقه تريستران في حياته. وقضى تريستران أيامًا سعيدة فعلًا على ظهر السفينة.. وتعلم كي يفرد الشراع ويدير عجلة القيادة. قال له القبطان إنهم سيرسون خلال أسبوع للتزود بالمؤن، فيمكنه أن ينزل هو والفتاة وقتها. لقد استعادت الفتاة صحة قدمها.. ستكون وول على بعد سفر عشرة أسابيع من نقطة الرسو.

قال لتريستران في غموض:

- « لا تحسب أنني وجدتك بالصدفة. الحقيقة أنني كنت أبحث عنك. لا تقل وجهتك لأي شخص، واطلب من الفتاة التي معك أن تأكل طعامًا من وقت للآخر إذا أرادت أن يحسبها الناس طبيعية »

فكوا الجبيرة عن ساق الفتاة، ثم راحت تتعلم الوثب مستندة إلى حاجز السفينة.

رست السفينة جوار سفن أخرى فوق قمم الشجر. أشجار عملاقة تسمح بأن تتمسك بها السفن، وهناك درجات سلالم حول الجذع. شعر تريستران براحة لأنه يمشى على أرض صلبة. واحتاج لثلاثة أيام حتى زال شعور الدوار.

سافرا للغرب نحو الشمس الغاربة. كان تريستران يعمل مقابل الطعام والنوم في الجرن. لقد لوحت الشمس وجهه حتى صار هو وثيابه بلون الصدأ.. أما إيفين فقد ظلت شاحبة كالقمر

وظلت تعرج قليلًا. وفي الليل كانت تغنى بصوت مذهل، جعل تريستران يغيب في نشوة عميقة يرى معها كرات بلورية لامعة ونجومًا.. لم يعرف هل استغرق الأمر ساعات أم أيامًا..

قال لها إنه لم يسمع مثل هذا قط، فقالت له:

- « أحيانًا كنت أغنى أنا وأخواتي.. نغنى عن أبينا القمر وعن طبيعة الزمن.. وعن الوحدة »

قال لها:

- « أنا آسف »

- « لا تعتذر.. على الأقل أنا حية.. لربما كنت موفقة عندما سقطت في أرض الجان وعندما قابلتك »

في موعد الإفطار، كان يمشي في الغابة ويحاول التقاط بعض الفطر والكرز، عندما وجد طائرًا جميلًا ذا ريش متعدد الألوان. كان متورطًا في سلسلة فضية تعثرت بها قدماه وكان يحاول التملص. أمسك به وراح يفك السلسلة.. لما تحرر الطائر أمره أن يطير ويعود لصاحبه.. لابد أن هناك شخصًا قلقًا عليه..

فجأة ضربه شيء من الخلف بقوة، وسمع صوت امرأة عجوز تصيح:

- « لص!.. سارق!.. عديم الشرف!.. تسرق طائرى »

قال لها وهو يتفادى ضرباتها:

- « بالعكس.. أنا أنقذته.. كان متورطًا في تلك السلسلة.. »

أصدر الطائر صوتًا مرحًا كأنه يؤيد كلام تريستران، فضاقت عينا المرأة وقالت:

- « ربما كان ما تقوله ليس حزمة أكاذيب.. »

وقبل أن يتكلم كانت المرأة وطائرها قد اختفيا عبر فرجة في الأشجار.

عاد لإيفين التي كانت جالسة تمسك ساقها المصابة وتبكى من الألم، وحكى لها قصة تلك المرأة.. بدا له هذا غريبًا..

هنا رأى نفس المرأة قادمة من بعيد. كانت تقود عربة قافلة يجرها بغلان. نادته بإصبع واحدة فهرع نحوها. قالت له:

- « أنا مدينة لك باعتذار.. تسرعت في اتهامك »

مدت إصبعها لترفع ذقنه فوجد أنه يحدق في عينيها الخضراوين:

- « تبدو أمينًا صادقًا.. اسمى مدام سيميل.. أنا ذاهبة لوول من أجل السوق. كنت أفكر في أننى أريد فتى يبيع الأزهار في متجرى.. أزهارًا من زجاج. ما رأيك؟ »

فكر تريستران ثم قال:

- « لحظة »

ثم عاد للفتاة وتشاور معها. ومعًا نهضا ليعودا للمرأة.. قال لها:

- « فكرنا في عرضك.. »

- « حسن.. لا تقف بهذه البلاهة!.. تكلم! »

قال تريستران:

- « لدى أعمال أخرى فلن أعمل معك. لكن لو سمحت لنا بالركوب فسوف ندفع لك »

هزت رأسها وقالت:

- « هذا غير مفيد لي.. ستكون عبئًا علي.. لا أريد مسافرين »

- « سوف ندفع لك »

- « ما دمت لن تعمل معى فلا قيمة لركوبك »

مد يده في جيب قميصه ثم أخرج شيئًا وقال:

- « أنت تبيعين الزهور الزجاجية.. هل تهمك هذه؟ »

كانت نُدفة ثلج صنعت من زجاج أخضر كأنها تم جمعها من عشب مرج هذا الصباح. تأملتها المرأة في جشع ثم هتفت:

- « من أين جئت بها؟ هاتها لي.. هاتها لي حالًا.. »

تراجع تريستران خطوتين وقال:

- « الآن اكتشف أنني أعشق هذه الزهرة.. هي هدية من أبي وأثق بأنها جلبت لي الحظ.. سوف أحتفظ بها وأمشى مع رفيقتي إلى وول »

راح وجه المرأة يترجرج بسبب محاولتها مقاومة التهديد والتدليل... في النهاية تماسكت وقالت بصوت متماسك:

- « لا داعي للعجلة.. أنا واثقة من إمكان عقد صفقة »

قال تريستران:

- « يجب أن تكون صفقة ممتازة تضمن لي وصديقتى أفضل وضع ممكن »

- « سوف أنقلك لوول. وأقسم بشرفي أننى لن أؤذيك »

لم يكن تريستران يثق بالعجوز، فطلب منها أن تكرر القسم.. وأن تعدهما بأن يصلا بحالة طيبة كما هما الآن إلى وول. هزت العجوز رأسها.. بصقت على التراب ثم أشارت لتريستران كي يبصق ففعل جوار بصقتها. خلطت البصقتين بحذائها وقالت:

- « الصفقة هي الصفقة.. هات نُدفة الثلج »

ناولها تريستران الزهرة وهو يرى الجشع في عينيها، فخطر له أنه كان بوسعه عقد صفقة أفضل. قالت له:

- « هل تعرف ما هذا الشيء يا بني؟ إنها تعويذة مجمدة.. يمكنها عمل المعجزات لو وقعت في يد صحيحة »

مررت النُدفة على جبينه فشعر بأن ممسات غريبة تسري في عروقه، وللحظة شعر أن العالم يتضخم وأن المرأة صارت عملاقة. لقد تحول إلى سنجاب. قالت له:

- « سوف أبر بوعدى وأوصلك سالمًا إلى وول »

ووضعته في جيب مريولتها ثم صعدت إلى العربة. هتفت الفتاة في رعب: « وماذا تنوين أن تعملي بي؟ » .

كان داخل العربة يحوى فراشين ونافذة. تناولت المرأة قفصًا خشبيًا من تحت الفراش ووضعت السنجاب فيه. ثم جمعت

قبضة من البندق والكستناء ووضعتها داخل القفص. هنا قالت الفتاة:

- « هل لي أن أستنتج لأنك لم تنظري لي أو توجهي لي الكلام.. سحرت مرافقي ولم تردى عليَّ.. هل لي أن أستنتج أنك لا ترينني؟ »[3]

لم ترد الساحرة. اتجهت لمقعد الحوذي وأمسكت باللجام. وقالت مكلمة طائرها:

- « سوف أحفظ كلمتي.. عندما نصل للسوق سوف يعود لحالته. هكذا هو أسهل لي.. لن يسأل أسئلة.. كما أنه لن يكلفني في إطعامه أكثر من بعض البندق »

وانطلق البغلان عبر أشجار الغابة. رقدت إيفيان على فراشها الذي يهتز ويتأرجح. ومن حين لآخر تصعد لظهر العربة لتراقب النجوم. عندما كانت الساحرة تنام كان الطائر يقف جوار الفتاة النجم.

وكانت تطمئن على السنجاب الذي قضى وقته في النوم وقد ثنى ذيله حول جسمه. وكانت تربت عليه وتغنى له برغم أنها لم تعرف إن كان وعيه ما زال هنالك.

لم تعد قدمها تؤلمها؛ لأنها لم تعد مضطرة إلى المشى، وكان من الواضح أن الساحرة عاجزة تمامًا عن رؤيتها. هكذا استغرقت الرحلة أسابيع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع
ويحكى عن أحداث سدّ ديجورى

سد ديجورى هو منخفض من العشب الأخضر والأرض الحمراء المغطاة بالطبشور، حيث التربة شحيحة. من بعيد يبدو السد كأنه خط بالطبشور على لوح مغطى بالمخمل. قالوا إن فارسًا اسمه ديجورى شق هذا السد بسيفه. على من يتجه لوول أن يعبر هذا السد حيث يرتفع الطبشور على جانبي العربة.

من بعيد يخيل لك أن هناك مجموعة عصى نابتة من التربة، ثم تكتشف أنه كوخ من جذوع أشجار وهناك في المنتصف مدخنة يتصاعد منها الدخان.

الرجل المدثر بالسواد كان يتفحص العصى عن قرب، بعد أيام طويلة من المراقبة. كأنه فأر يراقب جحر الفأر في صبر. رأى المرأة داخل الكوخ. لم يكن معها أحد ويبدو أنه لا مهنة لها سوى استيقاف كل قافلة تمر.

لم تبد خطرة... لكن سبتيموس لم يصر آخر شخص حي من إخوته بسبب ثقته في مظهر الغرباء. وهذه العجوز بالتأكيد هي من قطع حنجرة أخيه بريموس.

كان بحاجة إلى أخذ حياة مقابل حياة. كان يفضل السم الرائق عديم الطعم إذ يمتزج بالطعام، ولم يكن ميالًا للسيوف والنصال.

فكر في وضع فطيرة ساخنة أمام بابها تتكون من التفاح والسم. ثم وجد الفكرة غير عملية. فكر في دحرجة جلمود

صخرى من أعلى الجبل ليهدم كوخها لكنه لم يكن واثقًا من أنه سيؤذيها.

في منتصف الليل زحف سبتيموس نحو باب الكوخ، ومعه قدر طبخ في يد، وكتاب في يد أخرى. وفي نطاقه عصا من خشب البلوط تبرز مسامير من رأسها..

لم يسمع شيئًا من وراء الباب.. زحف إلى جانب المنزل بحيث يرى الباب. مزق صفحات من كتاب الشعر وكوّر الورق وقذفه عبر فتحات الكوخ. ثم راح يشعل نارًا تتسلل إلى داخل الكوخ. وبدأت العصي في الجدران تشتعل.

عاد لباب الكوخ ولوح بالعصا ذات المسامير. فإما تحترق الساحرة بالداخل، أو ستهرب من الدخان فيضربها على رأسها بالهراوة.. ستموت وينفذ انتقامه.

قال له ترشيوس:

- « خطتك محكمة.. بعد قتلها ستعود لتظفر بقوة ستورمهولد »

توهجت النار... ولم يخرج أحد من الباب. صار المكان جحيمًا واضطر سبتيموس للتراجع للخلف. وابتسم شاعرًا بالنصر..

هنا شعر بألم حاد عند كعبه. استدار فرأى حية لامعة العينين تغرس أنيابها بقوة في حذائه. طوح بالهراوة لكن الكائن فر بسرعة وراء صخرة.

قال لنفسه لو كانت العضة سامة فلابد أن جلد الحذاء قد أفقدها قوتها.. لقد زال الألم. سوف أربط قدمي.. جلس على صخرة وحاول نزع حذائه لكنه لم ينتزع.. شعر بتنميل.. لابد أن قدمه تورمت بسرعة. سوف أمزق الحذاء..

شعر بأن الظلام يسود..

نظر بدقة فرأى أن النار التي أحالت سد ديجوري جحيمًا قد زالت. ارتجف من البرد.

جاء صوت بارد من الخلف:

- « حسن.. حسبت أنك ستتدفأ بنيران كوخى... »

لم يستطع الرد لأن عضلات فكه تقلصت... وراح قلبه يدق كطبل. لم يعد يستطيع التنفس وشعر بكل وريد في جسمه كأنه أنبوب ينقل النار.

ظهرت امرأة عجوز.. لم تكن كتلك المرأة التي تسكن الكوخ بل أكبر سنًّا بكثير. حاول أن يرمش لكنه نسى كيف.. لم يستطع غلق عينيه.

- « يجب أن تخجل من نفسك لمهاجمة عجوز ضعيفة لا يحميها سوى أصدقائها الصغار »

لم يستطع الكلام ولا التنفس.. وسمع أصوات إخوانه الستة يرحبون به.

قال لإخوانه:

- « لم يبق من ينتقم منها.. ولن يصير أي واحد منا سيد ستورمهولد.. هيا بنا نرحل »

وسرعان ما تلاشي كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظرت الساحرة سيميل من فوق عربتها إلى الكوخ المتفحم وسط السد.. المرأة المسنة التي ترتدي ثوبًا قرمزيًا وتلوح لها، كانت لها عين عمياء وشعرها كان أبيض كالثلج. سألتها:

- « ماذا أصاب كوخك؟ »

قالت العجوز:

- « صبية أشقياء ظنوا أنه من الممتع أن تشعل النار في كوخ امرأة مسنة لم تؤذ أحدًا.. حسن.. لقد تعلموا درسهم »

بالطبع لم تعرف سيميل الساحرة الملكة، فهي قد جعلتها تنساها بالسحر.

- « من الذين معك في العربة؟ »

شعرت مدام سيميل بأن الكلمات تخرج من فمها غصبًا.. قالت:

- « البغلان اللذان يجران العربة... أنا.. خادمة أسجنها في صورة طائر.. ورجل في صورة سنجاب »

- « لا شيء سوى هذا؟ »

- « لا أحد وأقسم بالأخوية »

زمت الساحرة شفتيها وأمرت مدام سيميل أن ترحل..

في العربة كانت الفتاة النجم تغفو غير عارفة كم اقتربت من نهايتها وكم هربت بمعجزة.

انحدرت الشمس نحو الغرب بينما هم يدخلون بلدة وول.

كانت الشمس تعمى عيونهم وصار عالمهم بلون الذهب. اقتادت مدام سيميل عربتها إلى حيث كانت تنوى أن تنصب متجرها، وقادت البغلين إلى شجرة جوار الجدول ليشربا.

دخلت العربة وأخذت القفص فأخذته إلى تلة صغيرة ثم التقطت السنجاب النائم وقالت:

- « اخرج! »

حك السنجاب عينيه بمخالبه ورمش في ضوء النهار.

مدت يدها في جيب المريولة.. أخرجت زهرة نرجس زجاجية ومست بها رأس تريستران. تثاءب تريستران ومرر يده عبر شعره ونظر للعجوز والغضب في عينيه:

- « أنت أيها الشمطاء قد....... »

قالت بحدة:

- « أغلق فمك السخيف.. أنت هنا في أمان وكما قابلتك.. منحتك المأوى والطعام كما وعدت. والآن اغرب عنى قبل أن أسحرك دودة »

ضغط على أعصابه وابتعد. ثم وقف ينتظر حتى خرجت الفتاة النجم من العربة.

سألته في قلق:

- « هل أنت بخير؟ »

- « نعم.. شكرًا لك »

في الوقت نفسه وضعت مدام سيميل الطائر أمامها ثم لمسته بالزهرة، فانتفش ثم تحول إلى فتاة.. فتاة لها شعر أسود مجعد وأذنان كأذني قط. نظرت الفتاة إلى تريستران.. شيء ما في عينيها البنفسجيتين بدا مألوفًا. لم يستطع تذكر أين.

قالت إيفيان:

- « إذن هذه هي الطائر.. كان الطائر رفيقًا طيبًا طيلة الرحلة... »

ثم لاحظت أن السلسلة الفضية التي تبقى الطائر ما زالت هناك. الآن هي حول كاحلها..

اتجها عبر المرج نحو الفجوة في الباب، وقال لها:

- « سوف أزور أهلي أولًا.. فأنا أفتقدهم وأعرف أنهم افتقدوني.. ثم نزور فكتوريا فورستر.. »

توقف هنا ولم يبتلع فكرة أن يعطى النجم لفكتوريا.. لاحظ أن النجم ليس شيئًا يعطى بل هو شخص حي..

فيما بعد سيفكر في هذا.. الآن سيأخذ الفتاة للقرية.. وشعر بالذنب؛ لأنه لا يستطيع تذكر لون عيني فكتوريا.

عند الفجوة كانت الفتاة مترددة..

سألت تريستران:

- « هل تريد هذا حقًّا؟.. لديَّ شكوك »

- « لا تقلقي، لسوف تشعرين براحة عندما تجلسين في الردهة مع أمي تشربين الشاي.. إن أمي من أجل عودة ابنها يمكن أن تحطم أفضل طاقم صينى لديها »

تلامست يداهما ونظرت له في رقة.. واجتازا فجوة الجدار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

غبار النجم

للمرة الثانية في أعوامه الثمانية عشر يجتاز تريستران فجوة الجدار. شعر بدوار وهو يشم روائح قريته. حيا الحارسين اللذين عرفهما على الفور.. ويستان بيبن.. زميله في المدرسة والرجل الأكبر سنًّا هو جيروم أمبروز.. رئيس تريستران السابق في متجر مونداي. كان الرجلان ينظران للقرية كأنهما يتحاشيان النظر للمرج..

حياهما تريستران في أدب، فنظر له الرجلان في دهشة وانسكبت الجعة من ويستان.. وصوب جيروم عصاه إلى صدر تريتسران وصاح:

- « لا تقترب! »

ضحك تريستران وقال:

- « هل لا تعرفاني حقًّا؟ أنا تريستران ثورن.. لقد قمت بحراسة هذا الجدار مرارًا... لا مشكلة من دخول الناس من هذا الاتجاه.. فقط من القرية »

قال الكهل:

- « حتى لو كنت أنت ثورن وأنا لا أرى أنك تشبهه أو تتكلم مثله، فهل تذكر كم غريبًا جاء من هذا الاتجاه ليدخل القرية؟ »

فكر تريستران ثم قال أن لا.. فقال الكهل:

- « هل فهمت؟ هذا ليس ممنوعًا؛ لأنه لم يحدث قط.. الآن انصرفا »

قال تريستران في غيظ:

- « لو ظننت أنني مررت بكل ما مررت به كى يردنى بقال مراب مثلك فأنت مخطئ »

هدأت الفتاة روعه:

- « أنت لن تتشاجر مع قومك »

هكذا صمت تريستران ومشى مع الفتاة عائدين للسوق، حيث ساعدا امرأة صغيرة الحجم تحاول أن تنصب خيمة تجارتها. قدمت لهما المرأة بعض الطعام والشراب وسمحت لتريستران بالنوم خلف متجرها.

كانت ليلة باردة صافية. جلست الفتاة النجم ترمق الفتى النائم.. مندهشة لأنها لم تعد تحمل نحوه ذات الكراهية السابقة..

فجأة سمعت حفيف أوراق خلفها.. نظرت للخلف فرأت امرأة سوداء الشعر ترمق تريستران مثلها. قالت المرأة:

- « ما زال يحمل جزءًا من السنجاب داخله.. »

كانت لها أذنا قط وبدت أكبر سنًّا قليلًا من تريستران.. أردفت:

- « أحيانًا أتساءل إن كانت الساحرة تحيل الناس حيوانات أم إنها تبحث من الحيوان في داخلنا وتحرره.. ثمة شيء في

شخصيتي أقرب لطائر ملون الريش.. »

كان تريستران يتقلب ويغط.

- « يبدو طيبًا »

- « نعم.. أعترف بهذا »

قالت لها المرأة وهي تشير للقرية:

- « يجب أن أنذرك أنك لو تركت هذه القرية فلسوف تكونين بالنسبة للعالم مجرد صخرة هاوية من السماء.. »

ارتجفت الفتاة النجم ولم تقل شيئًا.. ومدت يدها تتحسس السلسلة الفضية التي تربط المرأة.. وقالت:

- « ذات مرة قبض عليَّ بسلسلة كهذه ثم حررني فيما بعد فهربت منه.. الآن أنا مقيدة له بوعد شرف.. قوانين قومي »

قالت المرأة:

- « أنا أعرف عنك كل شيء.. أعرف من أنت.. أعرف الساحرة التي تلاحقك ولماذا تريدك. أعرف بحجر التوباز المعلق حول خصرك.. »

قالت الفتاة النجم:

- « لا أصدقك ولا أثق بك.. »

قالت المرأة:

- « كنت طائرًا في العربة ورأيت التوباز حول خصرك.. رأيتك تستحمين في النهر وعرفت من أنت »

ثم نهضت. ألقت نظرة أخيرة على الفتى النائم ثم ابتعدت.

سقط شعر تريستران على وجهه فانحنت الفتاة وأزاحت الشعر عن وجهه من جديد.. وتلمست خديه.

بعد ساعات نهض تريستران وقد رأى حلمًا جميلًا.. هز كتف الفتاة النجم النائمة جاره وقال لها:

- « هناك خبر جميل.. هل تذكرين فكتوريا فورستر؟ »

- « نعم »

- « هي تنتظرنا عند فجوة الجدار.. سوف أذهب للقائها.. انتظريني هنا »

تقلبت الفتاة ولم تقل شيئًا. اتجه للجدول فغسل وجهه وتمضمض ثم اتجه نحو القرية.

على الفجوة كان يقف المبجل مايلز كاهن وول ومستر بروميوس صاحب الحانة. بينهما كانت فتاة شابة ظهرها له.. صاح تريستران:

- « فكتوريا!! »

استدارت الفتاة فأدرك أنها ليست فكتوريا فورستر. الآن يتذكر أن عينى فكتوريا كانتا رماديتين.. لكن من هذه؟ عيناها تترقرقان بالدمع لدى رؤيته..

صاحت:

- « هذا أنت يا تريستران!!... كيف استطعت أن..؟ »

هنا أدرك من هي.. فصاح:

- « لويزا »

أخته..

- « أنت كبرت جدًّا منذ رحلت.. كنت طفلة »

- « وأنت كذلك.. هلم تعال.. »

- « لكني ممنوع من اجتياز الفجوة.. و.. »

قالت له:

- « بعد مقابلتك للرجلين أمس، ذهب ويستان للحانة وسكر.. وراح يتكلم عن المتسول الذي طرده والذي زعم أنه تريستران.. سمع أبونا بهذا فذهب للحانة ولقنه درسًا.. »

صافح تريستران الكاهن ومستر بروميوس في حرارة.. قال له الكاهن:

- « لابد أنك رأيت عجائب كثيرة في رحلتك.. يجب أن تأتى لى الأسبوع القادم لنشرب الشاي وتحكى لى »

مشت لويزا فوق الطريق الحجري قاصدة حانة الغراب السابع، هو يمشى معها. قال لها:

- « أنا مسرور جدًّا لرؤيتك يا أختاه »

قالت:

- « كأنك لم تفارقنا بإرادتك من أجل التسكع.. سافرت دون أن توقظني لتودعني. في عيد الميلاد أكلنا الإوزة والبودنج، ثم راح أبي يبكي وهو يتذكرك.. بكينا جميعًا. ثم تمخط في منديله العملاق. أنت أفسدت الكريسماس علينا »

- « اقبلى عذرى »

قالت له إنهما ذاهبان لحانة الغراب السابع، وإن هناك شخصًا هناك يريد الكلام معه في غرفة الجلوس.

في الحانة كان عدد من الوجوه التي عرفها تريستران..وقد هزوا رءوسهم محيين. بعضهم عرفوه وبعضهم لا.. راحت لويزا تنظر لتريستران ثم ارتجفت شفتاها. ولدهشته احتضنته بقوة حتى لم يستطع التنفس ثم تركته وفرت من الغرفة عبر الدرجات الخشبية.

قرع باب غرفة الجلوس ودخل..

كانت الغرفة مزخرفة بأشياء غير معتادة، وعلى الجدار كانت عصا تلتف حولها أشجار اللبلاب أو هو معدن طرق بدقة ليشبه اللبلاب. كانت هناك أريكة ومنضدة خفيضة وبيانو ومقاعد جلدية عدة. وفوق مقعد منها جلست فكتوريا فورستر.

مشى تريستران نحوها ثم ركع على ركبته أمامها...

قالت فكتوريا في انزعاج:

- « أرجوك لا تفعل.. انهض.. فلتجلس على هذا المقعد.. هذا أفضل.. »

وتسلل نور الصباح عبر الستائر. فظهر شعرها الأشقر كتاج يحيط برأسها.. ثم أرجعت رأسها وقالت:

- « هناك أشياء يجب أن تعرفها، وكلها عسير.. وأرجو أن تنتظر حتى أكمل كلامي. أولًا أعتذر لك لأن أنانيتي وحمقى هما من أرسلاك في هذه الرحلة. حسبتك تمزح.. حسبتك أجبن من

أن تحقق كلامك السخيف. عندما رحلت ومرت الأيام أدركت أنك جاد.. لكن الوقت كان قد تأخر.. كان يجب أن أحيا مع فكرة أنني أرسلتك للموت.. »

كانت تنظر للأمام وهي تتكلم وأيقن تريستران أنها أجرت بروفة هذا الكلام في عقلها مئة مرة في غيابه. لهذا لا تتحمل مقاطعة النص الذي تحفظه..

قالت:

- « لم أكن عادلة يا فتى المتجر.. لأنني حسبت رحلتك حماقة »

وصمتت وتمسكت بالمقعد حتى ابيضت رءوس سلامياتها.. ثم سألته:

- « أنت وجدت النجم؟ »

- « نعم.. النجم هناك في المرج ينتظر.. لقد فعلت ما طلبته مني »

- « حسن.. هل سألت نفسك لماذا لم أقبّلك في تلك الليلة؟ لقد قبّلتك من قبل... »

- « لماذا؟ »

قالت وقد بدا صوتها أكثر راحة كأنها تخلصت من حمل كبير:

- « لأنه قبل ظهور النجم بيوم طلب مني روبرت أن أتزوجه.. عندما قابلتك ليلتها كنت أتمنى مقابلته في المتجر

لأخبره أني موافقة وأن عليه أن يكلم أبي »

- « روبرت؟ »

- « روبرت مونداي.. أنت عملت في متجره. كنت أعيش في حيرة بين خوفي عليك أن تموت في أرض غريبة، وبين أن تعود بالنجم طالبًا منى أن أبر بوعدي »

سألها تريستران:

- « هل تحبين مستر موندای؟ »

هزت رأسها ورفعت رأسها وقالت:

- « لكني عند كلمتى يا تريستران.. أنا مسئولة عما مررت به، ولو كنت تريدني حقًّا فأنا لك »

قال لها:

- « للأمانة.. أعتقد أننى المسئول عن كل شيء وليس أنت.. لن أندم على ما حدث، حتى لو صرت عاجزًا عن النظر إلى السناجب بنفس النظرة. لكنك لم تعديني بيدك لو عدت بالنجم »

- « أحقًّا؟ »

- « لا.. وعدتني بأي شيء أريده.. »

احمر وجهها كأنها تلقت صفعة فقال تريستران:

- « ما أريده هو أن تتزوجي مستر موندای.. أرغب في أن تتزوجي بسرعة هذا الأسبوع مثلًا.. وأرغب في أن تسعدى معه.. »

تنهدت في ارتياح ثم نظرت له:

- « هل تعنى ما تقول؟ »

- « تزوجيه مع بركاتي.. وسوف تعم السعادة »

دقة على الباب وصوت رجل:

- « هل كل شيء على ما يرام؟ »

قالت:

- « نعم.. تعال يا روبرت... هل تتذكر تريستران ثورن؟»

صافح تريستران الرجل بيد مبللة بالعرق وقال:

- « فهمت أنك ستتزوج قريبًا.. أهنئك »

ثم التفت نحو فكتوريا وقال:

- « لو أردت أن ترى النجم يا مس فورستر »

قالت في برود:

- « مسرورة لأنك جئت يا مستر ثورن.. أرجو أن أراك في حفل الزفاف »

- « لا شيء يسرني مثل أن أكون هناك »

قالها وهو أبعد ما يكون عن الصدق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ازدحمت الحانة قبل الإفطار، وهو شيء غير معتاد، لكن هذا كان بسبب السوق. وتكومت أطباق اللحم والبيض المقلي.

وكان دونستان ينتظر ابنه عند البار، عندما رآه وقف وأمسك بكتفيه وقال بفخر:

- « فعلتها وعدت سالمًا! »

نظر تريستران لأبيه وبدا له أصغر حجمًا مما تركه. هل السبب هو أنه كبر؟

قال له أبوه إن أمه تنتظره في المزرعة لتقدم له الإفطار.. فوافق هذا في سرور. وسرعان ما غادر الرجلان الحانة ومشيا في النهار الباكر. في الطريق لهناك سأل أباه عن قصة مولده.. فحكى له أبوه كل شيء، بالطريقة التي نحكى بها قصة قديمة بلا تأثير على حياتنا.

وصلوا لبيت تريستران، حيث كانت أخته وعلى الموقد كان إفطار يتصاعد منه البخار. أعدته المرأة التي ظل طيلة حياته يحسبها أمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرغت مدام سيميل من إعداد المتجر وتأملت كل شيء في غير رضا. كان الزبائن قد بدءوا يفدون..

قالت لنفسها:

- « أعداد أقل فأقل كل تسع سنوات.. صدقيني سوف ينتهى السوق عما قريب »

قالت الفتاة ذات العينين البنفسجيتين:

- « يزول أو لا يزول.. المهم أن لدى ثلاثة أسواق أتحرر بعدها »

ولوحت بالسلسلة الفضية التي تربطها.. فأدركت العجوز أنها متآكلة في عدة أماكن.. بعض المواضع لم يعد يبدو كسلسلة..

- « ماذا فعلت؟ »

قالت الفتاة:

- « لم أفعل شيئًا.. لكن القمر فقد ابنته. وهنا يوما اثنين (مونداى) يلتقيان قريبًا.. سوف أتحرر »

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست الفتاة النجم على عشب المرج راحت تنظر لفتحة الجدار والقرية خلفها.. من وقت لآخر يقدمون لها السجق والخمر لكنها ترفض..

سألتها امرأة قروية عما إذا كانت تنتظر أحدًا.. فقالت الفتاة:

- « لا أدرى.. ربما »

- « هو فتى جميل مثلك.. أعتقد هذا »

قالت المرأة:

- « أنا أدعى فكتوريا فورستر »

- « وأنا أدعى إيفين.. إذن أنت فكتوريا.. شهرتك تسبقك »

قالت فكتوريا:

- « هو زوجي القادم إذن؟ »

تحسست إيفين التوباز المعلق في خصرها ونظرت للفجوة الجدارية في ارتباك.. نظرت للسماء الملبدة بالغيوم والتي استحالت للون الرمادي، وقالت:

- « تمنيت لو أن أبي هناك.. »

ونهضت.. لكن فكتوريا أوقفتها وراحت تحكى لها عن استعدادات الزواج وإجراءاته، الذي سيتم عصرًا بعد ستة أيام.. لحسن حظها أن مونداى يعرف الأسقف.. ثم أشارت نحو رجل أشيب الشعر يدخن الغليون ووجهه متقلص كمن يعاني ألم أسنان وقالت:

- « هذا هو روبرت مونداى.. روبرت.. هذه إيفيان.. سأكون زوجته يوم الجمعة عصرًا. يوم الجمعة سيلتقي يوما اثنين (مونداى)..! »

تساءلت إيفيان وهي تنتقى كلامها بحذر:

- « إذن لن تتزوجي تريستران؟ »

قالت فكتوريا:

- « لا »

- « حسن »

وجلست حيث هي.. ظلت جالسة عندما ظهر تريستران خارجًا من فجوة الجدار. بدا ممتقعًا لكنه سر عندما رآها وساعدها على النهوض.. سألها:

- « هل استمتعت بوقتك أثناء غيابي؟ »

- « ليس بالضبط »

- « لربما كان عليَّ أخذك للقرية معى »

- « بالعكس.. أنا أعيش طالما أنا في أرض الجان.. عندما أدخل عالمك أتحول إلى قطعة حجر صماء.. »

- « لكني كدت آخذك للقرية أمس »

قالت:

- « نعم.. وهذا يثبت أنك أحمق عديم الفهم »

قال مصححًا:

- »ومغفل كذلك »

تلامست اليدان ومشيا معًا.. بدأت الريح تهب وتطاير قماش الخيام. وهطل مطر غزير بارد.. بحثا عن ملجأ تحت مظلة مكتبة مع عدد آخر من البشر والمخلوقات..

قالت امرأة مسنة:

- « سماء الماكريل.. لا تبقى جافة طويلًا ولا تبقى ممطرة طويلًا »

ابتسم وهز رأسه.. وقال تريستران للفتاة النجم:

- « قلت الوداع لأسرتي.. قلته لأبي وقلته لزوجة أبي التي كنت أحسبها أمي.. وأختى... لن أعود.. السؤال اليوم هو كيف نعيدك للسماء.. سوف آتي معك »

قالت له:

- « لن تحب الحياة في السماء.. فهمت أنك لن تتزوج فكتوريا »

- « لا »

هزت كتفها وقالت:

- « يسرني أنك لن تتزوجها »

- »وأنا كذلك »

بعد لحظة صمت ضغط على يدها فقالت:

- « لا أعرف إن كنت تفهم.. نجم ورجل فان.. على الأرجح لن نظفر بأطفال أبدًا.. »

نظر لها وابتسم ولم يقل أي شيء..

كان قلبه يتواثب، وبالتأكيد لم يشعر أي واحد منهما بالمطر. رأى عينيها الزرقاوين تنظران له وأدرك أنه لن يتركها أبدًا. لم تعد السلسلة الفضية سوى دخان ورماد... هبت الريح فلم يعد لها وجود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت الفتاة للعجوز:

- « انتهت شروط خدمتي.. أنا حرة »

قالت العجوز بلهجة معدوم الحيلة:

- « ولكن ماذا أعمل؟.. أنا مسنة.. لن أدير المحل وحدى..أنت شريرة إذ تتخلين عنى »

قالت الفتاة:

- « تلك مشكلتك.. لكني لن أصير جارية بعد اليوم.. أنا الليدي أونا.. ابنة السيد الثاني والثمانين لأسرة ستورمهولد.. لقد زال السحر. الآن ستطلبين الصفح مني وإلا كرست - بسرور بالغ - باقي حياتي في القضاء عليك وتدميرك.. أنت وكل ما يمثل لك أهمية »

تبادلا النظرات ثم أشاحت العجوز بعينها..

قالت كأن كل كلمة نشارة خشب مرة تغادر فمها:

- « أعتذر لك يا سيدة أونا عن اعتباري لك جارية.. »

قالت السيدة أونا:

- « حسن.. أعتقد أنك مدينة لي مقابل خدماتي.. كل شيء له قواعده.. »

كان المطر ما زال يهطل بغزارة.. وقد وقف تريستران وإيفيان سعيدين جوار نار معسكر وسط مجموعة عجيبة من المخلوقات.

سأل الناس من حوله إن كانوا يعرفون رجلًا صغير الحجم قابله في رحلاته. قال البعض إنهم قابلوه في الماضي. لكنهم لم يروه في السوق.

مد يده يعبث في شعر الفتاة النجم المبتل، واندهش؛ لأنه ظل معها كل هذا الوقت ولم يقع في غرامها. قالت إنه أحمق، وبدا له أن هذا أروع لقب أطلقته امرأة على رجل.

سألها:

- « إلى أي مكان سنذهب بعد انتهاء السوق؟ »

قالت له:

- « لا أعرف لكن هناك مهمة واحدة أمامي »

- « حقًّا؟ »

- « نعم.. حجر التوباز الذي رأيته.. يجب أن أعطيه للشخص الصحيح، آخر رجل مناسب قطعت تلك المرأة في الحانة حلقه.. ما زال معى لكن أتمنى الخلاص منه »

جاء صوت امرأة من الخلف يقول:

- « طالبها بما تحمله يا تريستران »

استدار فرأى العينين.. قال لها:

- « أنت الطائر الذي كان في عربة الساحرة »

قالت له:

- « عندما كنت أنت السنجاب كنت أنا الطائر، لكنى استعدت مظهرى وانتهت سنوات عبوديتي.. اطلب من إيفيان ما تحمله »

استدار لإيفيان وسألها:

- « هلا أعطيتني هذا الذي تحملينه؟ »

بدت عليها الدهشة، ثم مدت يدها في عباءتها، وأخرجت حجر التوباز الضخم والسلسلة الفضية.

قالت المرأة لتريستران:

- « كانت لجدك.. أنت آخر واحد من آل ستورمهولد.. ضعها حول عنقك »

فعل تريستران هذا وعندما تلامس طرفا السلسلة ذابا معًا والتحما. قال:

- « رائعة »

قالت أمه:

- « هي رمز ستورمهولد.. لا أحد ينكر هذا.. أنت من دمه؛ لأنك ابنى وكل أعمامك قد ماتوا.. أنت سيد ستورمهولد »

قال لها:

- « لكني لا أريد أن أكون سيد أي شيء.. لا أريد سوى قلب حبيبتي »

وضغط يد الفتاة النجم على صدره..

قالت المرأة في نفاد صبر:

- « لم أطلب منك أي شيء طيلة 18 عامًا يا تريستران ثورن.. أما اليوم فأهم طلب لي أقدمه فتقول لا.. أهكذا تعامل أمك؟ »

- « لا يا أماه »

- « لو لم تحب العمل فلترحل.. ما من سلسلة فضية تربطك بحكم ستورمهولد »

هنا قررت إيفيان أن تتدخل فسألت الأم:

- »هل لي الشرف أن أعرف من أنت؟ »

قالت المرأة:

- « أنا السيدة أونا.. من آل ستورمهولد.. »

ثم مدت يدها لكيس معلق وأخرجت زهرة من زجاج، حمراء كأنها أقرب للسواد وقالت:

- « هذا أجرى بعد ستين عامًا من الخدمة.. ولسوف أقايضه بتمن هودج يأخذنا إلى ستورمهولد.. لأننا يجب أن نصل بشكل فخم مهيب. نحتاج لحمالين وحراسة وربما بعض الفيلة.. »

قال تريستران:

- « لا »

- « لا؟ »

- « يمكنك الذهاب بفيلة وهودج.. لكني أنا وإيفيان سنذهب مشيًا »

أخذت شهيقًا عميقًا.. وفضلت إيفيان أن تبتعد لتترك له حرية الجدل.

مضت عبر السوق الذي بدأ يظلم. مرت جوار خيمة يتصاعد منها صوت التهليل والتصفيق. وينسكب منها الضوء كعسل ذهبي. هنا استوقفتها امرأة مسنة شائبة الشعر وعصابة على إحدى عينيها.. ركضت نحوها وطلبت الكلام معها.

سألتها:

- « عن ماذا؟ »

كانت المرأة قد ضمرت إلى درجة تشبه الأطفال. تقبض على عصا وتنحنى حتى لتلامس الأرض. نظرت للفتاة النجم بعينها السليمة الزرقاء وقالت:

- « جئت آخذ قلبك معى »

- « أحقًّا؟ »

قالت العجوز:

- « نعم.. كدت أفوز به.. »

وضحكت من حلقها وقالت:

- « هل تذكرين؟ »

كانت تحمل حملًا يشبه الحدبة على ظهرها.. وكان هناك قرن من عاج يخرج منه. تذكرت إيفين على الفور متى رأت هذا القرن...

سألت العجوز:

- « أكنت أنت؟ أنت والمدى؟ »

- « نعم.. وكنت أنت لكني بددت شبابي في الرحلة.. كلما مارست السحر شخت أكثر »

قالت الفتاة:

- « ضعى إصبعًا علىَّ ولسوف تندمين للأبد »

- « عندما تبلغين سنى فسوف تعرفين كل شيء عن الندم.. لا يشكل هذا فارقًا.. »

كان ثوبها شبه أحمر، لكن لونه حال مع الزمن وتمزق.. وكان يتدلى من كتف واحدة.. ويظهر ندبة قديمة. أدركت إيفين أنها لم تحمل لهذه المرأة التى تريد قتلها سوى الشفقة..

قالت للمرأة:

- « القلب الذي تبحثين عنه لم يعد ملكًا لي.. »

سعلت المرأة كثيرًا.. وبذلت جهدًا عصيبًا.. فقالت الفتاة:

- « لقد منحت قلبي لشخص آخر »

- « الصبي..؟ فتى الحانة الذي كان مع وحيد القرن؟ »

- « نعم »

- « كان عليك أن تعطيه لي.. أنا وأخواتي بحاجة له كي نسترد شبابنا.. الفتى لن يرعاه »

قالت الفتاة النجم:

- « هو أخذ قلبي.. فلندع الله ألا تقسو أخواتك عليك عندما تعودين من دون قلب »

هنا ظهر تريستران فأمسك بيد الفتاة وهز رأسه يحيى المرأة. قال للفتاة:

- « أمي ستعود بهودج.. ونحن سنمشى سنبتاع جوادين »

استدارت إيفيان للعجوز، فقالت هذه:

- « أخواتي سيكن قاسيات.. لكن لديك قلبًا طيبًا يا فتاة. خسارة أنني لن أظفر به »

مالت الفتاة ولثمت العجوز على خدها المجعد والشعر النامي يخدش شفتها. ثم ابتعدت مع الفتى. فسألها:

- « من كانت تلك السيدة؟ يبدو وجهها مألوفًا.. هل ثمة خطأ ما؟ »

- « لا شيء. كنت أعرفها من الطريق »

خلفهما كانت أنوار السوق والمصابيح وشموع الساحرات كأنها حلم أو كأنها السماء قد هبطت للأرض، وأمامها عبر المرج والفتحة في الجدار التي لا يحيط بها حراس، هناك كانت بلدة وول. هناك تتوهج المصابيح في النوافذ. بدت لتريستران كأنها جاءت من عوالم ألف ليلة وليلة..

أدرك أنه ينظر لوول لآخر مرة.. كان واثقًا من هذا..

لم يقل شيئًا... والفتاة النجم الساقط جواره. ثم مشيا معًا نحو الشرق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخاتمة

اعتبر البعض ذلك اليوم من أهم أيام ستورمهولد. اليوم الذي عادت فيه السيدة أونا، التي اختفت منذ زمن وقيل إنها ماتت.. سرقتها ساحرة وهي طفلة. عادت لأرض الجبل.

بدأت الاحتفالات عدة أسابيع قبل وصولها على هودج في موكب من ثلاثة أفيال.

كانت سعادة السكان لا توصف لرؤية السيدة.

أعلنت أنها أنجبت طفلًا، وبما أن أخوتها جميعًا قد ماتوا فهو الوريث الجديد للبلاد. سوف يصل قريبًا مع زوجته المختارة لكنها لم تستطع أن تعطى تاريخًا محددًا.

قالت إنها ستحكم كوصى على العرش إلى أن يصل ابنها. وكان حكمها يحمل الكثير من الرفاهية للبلاد ومنطقة جبل هوون.

بعد ثلاثة أعوام وصل غريبان يعانيان وعثاء السفر، وصلا إلى مدينة كلاودزينج.. حيث أقاما في حانة وطلبا حمامًا دافئًا.

لعدة أيام بقيا في الحانة. وقبل الرحيل نظرت المرأة التي كانت شقراء جدًّا حتى ليوشك شعرها أن يكون أبيض. نظرت للرجل فقال لها:

- « لابد أن أمي تحكم بكفاءة »

قالت له:

- « مثلك.. لو نلت العرش لفعلت مثلها »

- « أعتقد أنه مكان طيب نستقر فيه.. لكن هناك أماكن عديدة لم نرها بعد.. لم نقهر كل الأشرار ولم نصحح كل الأخطاء.. هل تفهمين؟ »

- « إذن يجب أن نترك رسالة لأمك »

وصلت رسالة ورقية لسيدة ستورمهولد يحملها صبى حانة. كانت مختومة بالشمع ففتحتها.. كانت بدأ بالتحية ثم بعدها:

- « لقد أخرنا العالم برغم إرادتنا.. توقعى قدومنا عندما ترينا »

كانت تحمل توقيع تريستران.. كان عليها قبول الأمر الواقع.

مرت خمسة أعوام ثم عاد المسافران للجبال. كانا مغبرين يلبسان أسمالًا ويعاملهما الكل كمتسولين.. فقط عندما يكشف حجر التوباز على صدره كان الناس يعرفون أنه ابن السيدة أونا.

بدأ الوريث الجديد يحكم.. وأصدر قرارات قليلة لكنها تمتاز بالحكمة. كان محاربًا شجاعًا ومفكرًا استراتيجيًا بارعًا. هزم العفاريت الزرق كما عقد صفقة مع نسور كراج.

زوجته إيفيان كانت قادمة من بلاد بعيدة.. لكن أحدًا لم يعرف من أين بالضبط. اختارت لنفسها غرفة على سطح القصر.. غرفة لم يسكن فيها أحد منذ زمن؛ لأن صخرة هوت عليها. كانت غرفة بلا سقف مفتوحة على السماء، وكان القمر يسطع بقوة وحوله النجوم، حتى بدا أن بوسعك مد يدك والإمساك بنجم.

عاش الزوجان سعيدين.. ليس للأبد لأن الزمن يأخذ كل شيء في النهاية. ثم جاء الموت ذات ليلة وهمس سره في أذن سيد ستورمهولد.. كف عن الكلام واحتمله قومه إلى قاعة الأسلاف.. ولسوف يظل فيها للأبد.

صارت إيفين سيدة ستورمهولد.. وكانت ملكة عادلة قوية. لم تشخ وظلت شقراء كما هي. وكانت سريعة الغضب كما عرفها تريستران أول مرة. وكان في مشيتها عرج بسيط لم يهتم أحد بمعرفة سببه. ومن حين لآخر كانت تتوهج في الظلام. وعندما تسمح الأمور تصعد وحدها لأعلى جزء في القصر وتقف لساعات وساعات. لا تفعل أي شيء وإنما تراقب في صمت الرقصة البطيئة للنجوم الأبدية.

نيل جايمان

1990



متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

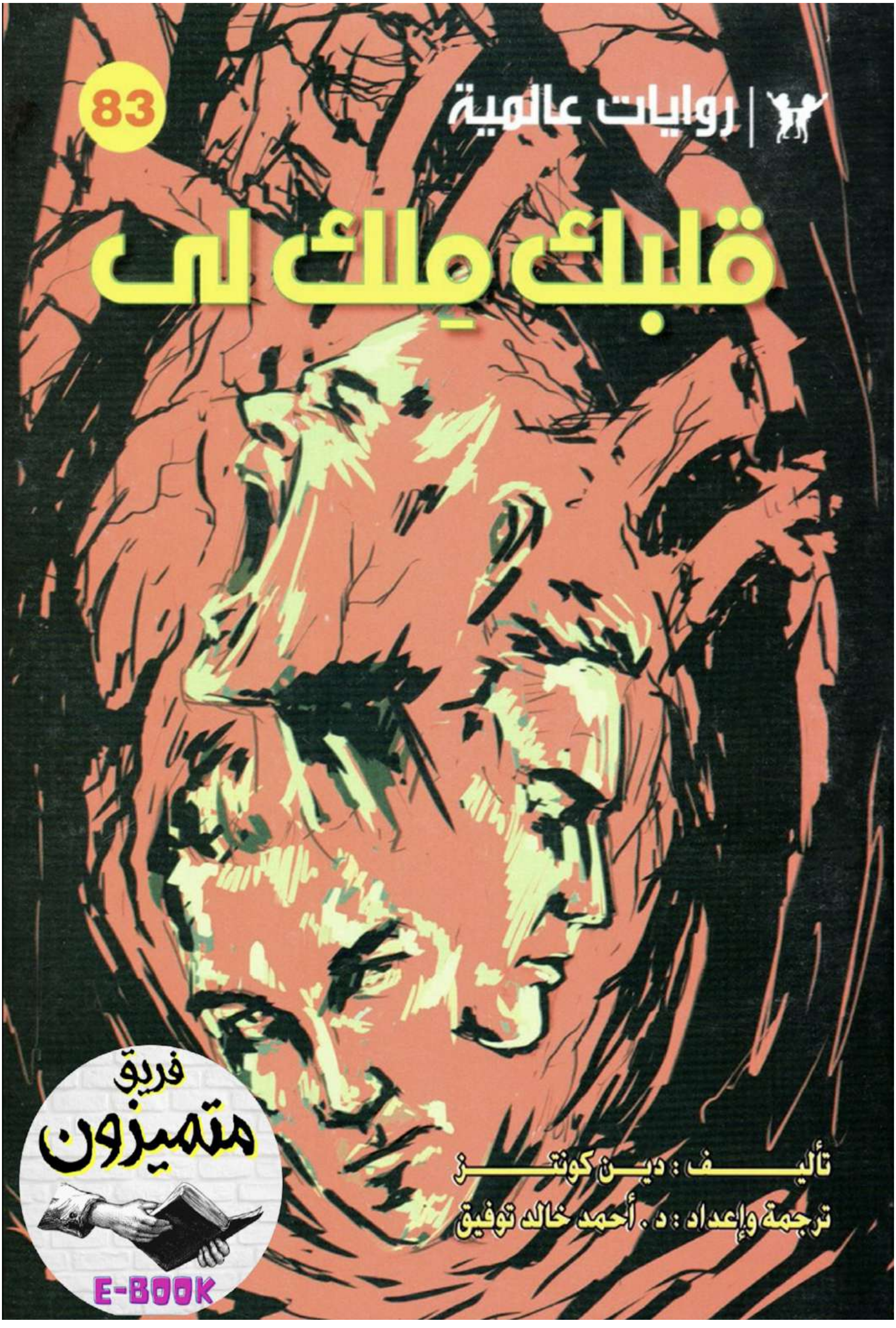
أبناء الملك يحملون أسماء مشتقة من الأرقام اللاتينية حسب ترتيب الميلاد: بريموس الأول.. سيكوندوس الثاني.... سبتيموس السادس.. إلخ

[←2]

ملكة بريطانية قادت ثورة على روما في عصر نيرون.

[←3]

تذكر أن ملكة الساحرات لعنتها، فجعلتها لا ترى النجم ولا تذكر القصة أصلًا.


83
روايات عالمية
قلبك ملك لى
فريق
متميزون
E-BOOK
تأليـــف : ديـن كونتـــز
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

(كلمه مهمة):

هذا العمل (تحويل سلسلة روايات عالمية للجيب إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة روايات عالمية للجيب

العدد رقم (83)

(العدد الأخير)

قلبك ملك لي

تأليف: دين كونتز

ترجمة وإعداد: د. أحمد خالد توفيق.

سلسلة روايات عالمية للجيب، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي، في مختلف صنوفه..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير..

ومن الشرق إلى الغرب..

وإلى الحضارة..

وإليك..

د. نبيل فاروق

المؤلف..

المدرسة الثالثة للرعب المعاصر هي مدرسة دين كونتز Dean Koontz. مدرسة صغيرة جوار مدرستين عملاقتين هما ستيفن كنج وكليف باركر.

دين كونتز كاتب أمريكي ولد في بنسلفانيا عام 1945 وقد اشتهر بروايات غاية في الإثارة مثل (توماس الغريب) و (الباب إلى ديسمبر).

كانت طفولته تعسة جدا بين الفقر وأب سكير شرس، لهذا كان يجد في الكتب الفرار الوحيد من واقعه الأليم، وبالنسبة له صار المؤلفون هم السحرة الذين ينقذونه من واقعه كل ليلة.

كان مدرسا للثانوي ثم استقال وقرر التفرغ للكتابة، وتطوعت زوجته تدعمه ماليا لمدة ثلاثة أعوام يجرب فيها أن يصير كاتبا. ونشر أول رواية له عام 1968 وكانت تحمل اسم (البحث بين النجوم).

جرّب عدة أنواع من الكتابة قبل أن تستقر سفينته على شط كتابة الرعب. واليوم له 120 رواية وزعت 450 مليون نسخة في 38 لغة. في العام 1971 قدّم أقصوصة نالت جائزة هوجو وهي قصة (الطفل الوحش). وكتب عديدا من الروايات بأسماء مستعارة. يقول إنه يعمل ٦٠ ساعة أسبوعيا ويتخلص من مسودات عديدة قبل أن يرضى بعمل ما.

صار هو الأعلى مبيعا بعد رواية (الهامسون 1980). بعد هذا توالت عناوينه المهمة؛ على غرار (الأشباح - 1983) و

(الغرباء 1986) و (المراقبون 1987) والرواية الأعلى مبيعا (المكان الشرير) و (باب يفصل عن السماء 2002). وفي العام 2003 قدم (توماس الغريب)، أما قصة اليوم فقدمها عام 2008.

كتب كذلك الكثير من القصص المصورة؛ مثل (فرانكنشتاين) و(الابن الضال) و(لا مزيد). تم تحويل روايته (بذرة الشيطان 1977) إلى فيلم سينمائي وكذلك رواية (توماس الغريب).

د. أحمد خالد توفيق

∞∞∞∞∞

-1-

لم يعرف رايان بيري أن شيئا فيه قد تحطم.

في سن الرابعة والثلاثين بدا أنه أكثر لياقة مما كان في الرابعة والعشرين. كانت قاعة الجمانزيوم في بيته مجهزة جيدا مع مدرب خاص يأتي ثلاث مرات أسبوعيا.

صحا في ذلك اليوم من سبتمبر على سماء زرقاء صافية، فشعر برغبة شديدة في أن يتزلج على الأمواج. اتصل بسامانتا ولابد أنها رأت رقم الطالب لأنها قالت له:

- مرحبا يا ونكي.

كانت تسميه كذا لأنه عندما قابلته منذ 13 شهرا كان مصابا بحالة رفة في الجفن wink. وهي حالة كانت تصيبه كلما أطال العمل على الكمبيوتر، فكانت ترغمه على أن يترك المفاتيح ويتوقف عن البرمجة. لما رأته خُيّل لها أنه يغمز بعينه لها. كانت صحفية ترغب في كتابة مقال عنه في مجلة (فانيتي فير).

أدركت أنه شخص لطيف ذكي صادق وقبلت دعوته للعشاء، وكانت الأشهر التالية أسعد أيام حياته. تبادل معها الحديث في ذلك الصباح عن رياضة التزلج، ثم اتفقا على اللقاء.

ارتدي ثيابه ثم اتجه للمرآب لينتقي سيارة من السيارات الخمس التي يملكها، وكانت من طراز فورد لها لون الفحم تناسب مناخ اليوم. وفي الخلفية برزت ألواح التزلج.

انطلق عبر طريق الحجر المرصوص ثم اتجه يسارا إلى الشارع. اختلس نظرة لبيته الفاخر بأسقفه المنحدرة الحمر،

والجدران ذات لون الجير والنوافذ البرونزية التي تعكس الشمس كأنها جواهر.

ظهرت خادمة ترتدي مريولة في الشرفة، وفتحت النوافذ لتهوي غرفة النوم. لقد انتقل ريان خلال أقل من عشرة أعوام من شقة رثة في أناهيم إلى جبال ساحل نيوبورت المطلة على المحيط الهادي.

كان بوسع سامانتا أن تدبر وقتا لأنها كاتبة تحدد ساعات عملها لنفسها، أما هو فكان قادرا على تدبير وقت لأنه ثرى. لقد جعله العمل الشاق يصل للقمة بسرعة مذهلة. اتجه بسيارته إلى الميناء، حيث تقف يخوت النزهة. منذ عام وهو يضع خططا ناجحة للشركة التي يملك معظم أسهمها.. ويحاول إقناع سامانتا بالزواج.

كانت ترفض لسبب مجهول.. وقد خطر له أن الكبرياء هي السبب. كانت ثروته تبتلع كل شيء، وكانت تريد أن تثبت نفسها ككاتبة أولا. توقف بسيارته في شارع تغطيه الأشجار وحمل لوح التزلج إلى الشاطئ.

انتظرته في المكان المعتاد حيث تزلجا على الموج أول مرة. كانت تلبس بكيني أحمر وكان هو يتمنى لو ارتدت اللون الأصفر، لكنه يعرف أنها تختار العكس دائما. كانت تحفظ كل المحادثات ولا تنسى شيئا.. وكان يجدها متجددة دائما لا يمكن للمرء أن يملها.

مضيا للبحر معا ورقد كل منهما على لوح واندفعا في البحر. لم يكن البحر هادئا كما رآه من شرفته.. كان غاضبا متقلبا كأنما

هما يركبان ظهر أفعوان عملاق أو كأنهما يسبحان فوق ألف سمكة قرش.

انزلقت سامانتا فوق أول موجة فاختفت عن عينيه، ثم ارتفعت من جديد في سلاسة كأنها تنزلق على الزيت.

استعد لركوب الموجة التالية، هنا حدث شيء لقلبه. فجأة تسارعت ضربات القلب وكأنه مذعور وليس مستثارا من الترقب. شعر بالنبض يدق في كاحليه وساعديه وشعر كأن موج البحر يجري في شرايينه.

تمسك رايان باللوح وبدأ يرى العالم معتما.. فقد تألقه على الحواف وصار البحر أسود كأنما هو في ليلة بلا قمر. وللمرة الأولى في حياته يشعر بالخوف من البحر.

شعر لأول مرة أن دوامة ستحمله للقاع. كاد يسقط من فوق اللوح وتخلت عنه قواه وضعفت قبضته. وخطر له أنه لو ظهرت سمكة قرش الآن فهو تحت رحمتها.. لن يستطيع تحاشيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-2-

مرت النوبة فجأة كما جاءت، وعاد قلبه يدق بهدوء، وعادت السماء للونها وابتعدت ظلمة الماء.

لم يدرك أن سامانتا قد عادت الشط ثم رجعت له. وبدا القلق واضحا في عينيها وصوتها. فقال وهو يرقد على اللوح:

- أستمتع باللحظة فقط.. سألحق بموجة أخرى.

خمنت أنه يكذب لكنها لم تفهم السبب.

عاد إلى التزلج وقد هدأ قلبه. أقنع نفسه أن هذا لم يكن شيئا عضويا لكنه مجرد توتر. كان يجيد خداع النفس كأي واحد آخر. جاءت موجة عالية أخرى.. فراحت النوارس تصرخ كأنها تنذر القلاع الرملية على الشط من خطر الزوال.

توتر قليلا وقد خطر له أن موجة عالية كهذه قد تسبب نوبة أخرى.

سرعان ما وجد نفسه يصارع من أجل الهواء في أنبوب زجاجي. وسرعان ما خرج من الموجة يؤكد لنفسه أنه لا يوجد شيء مخيف.. الحياة فقط.

استمر التريض. كان رايان عادة يستمر حتى العصر حين تتوقف الأنسام وتهدأ الأمواج، وتهدأ رغبة الخلود لدى المحيط.

شعر بارهاق لذيذ يدفعه إلى أن يغمض عينيه بين البلانكتون. أغمض عينيه فسمع صوتها يقول:

- رايان؟

- همممم؟

- هل كنت نائما؟

فتح عينه فرأى وجهها الجميل الأسطوري يطل عليه وقد أحاطت برأسه هالة من شعر أشقر كأنها من آلهة الشمال. قالت له:

- كنت نائما.

- كنت مرهقا، أحتاج إلى جرعة من الجعة الباردة.

اتجه الاثنان للسيارة.. كان يشعر بوهن في ساقيه من فرط البقاء في الماء. كان لديهما بطانية وثلاجة صغيرة. وقاد ريان السيارة إلى بيت سامانتا.

كانت تستحم بينما صب كأسين من الشاي المثلج بشرائح الليمون، لقد زال الإرهاق عنه تمامًا.

جلسا عصرا في المطعم يتأملان الأشجار في الخارج. قالت في شرود إن أختها تيريزا كانت تحب هذه الأزهار. كانت أختها قد ماتت منذ عامين، وكانت توءم سامانتا. قرأ هو الكثير عن التوائم فعرف أنه عند وفاة أحد التوءمين يكون شعور الأخير مزيجا من الحزن والشعور بالذنب. بعض التوائم كانوا يشعرون بالتوءم الميت كما يشعر صاحب العضو المبتور كأن العضو مازال موجودا.

كانت سامانتا صامتة فأتاحت له أن يتأمل جمالها ويعجب به، وقد خمن أن صمتها يتعلق بذكرى أختها. كان يحب الكمال

طيلة حياته وكان يجده أحيانا في لغات البرمجة لكن سامانتا كانت هي الأقرب للكمال.

قالت له عن أختها:

- بعد الحادث ظلت في غيبوبة لمدة شهر، وبعدها لم تعد كما كانت.

سقطت ظلال الغصون عليها وهي تفكر.. ثم قالت:

- قال الأطباء إنها ستتغذى بخرطوم.. قالوا إنها صارت في حالة نباتية. لم أصدقهم.. كانت تيريزا هناك.. حبيسة جسدها لكنها هي تيريزا.. رفضت أن ينهوا حياتها.

سألها:

- لكنهم في النهاية نزعوا أنبوب التغذية.

- قالوا إنها لن تتعذب.. ستموت جوعا لكن خلل المخ لن يجعلها تشعر بشيء. لكني أدركت أنها تتعذب.. في الليلة الأخيرة جلست جوارها وشعرت كأنها تتكلم.

رفعت كأس الخمر الذي التمع عليه صليب من نور. ثم قالت:

- لن أغفر لأمي أبدا ما فعلته لتيريزا.

- حسبتها ماتت في نفس الحادث.

- بالنسبة لي ربيكا أمي ميتة فعلا.. تمشي وتتكلم وتعيش في شقة.. لكنها ماتت بالنسبة لي.

صب لها المزيد في كأسها وقال:

- غريب أن يؤدي منظر جميل مثل أشجار الفراولة إلى تعرية القشرة عن ذكرى أليمة.

- أنا آسفة.

جاء الليل فأضاء النادل شموعا صغيرة موضوعة في كئوس زجاجية صغيرة وساد الظلام مما جعل المكان ساحرا. وجاءت شرائح اللحم التي طلباها..

سألته:

- هل كنت بخير أثناء التزلج صباح اليوم؟

- أنا في الرابعة والثلاثين.. لن أظل محتفظا بحيوية الفتيان.

جاء الليل..

استيقظ في الظلام الدامس شاعرا كأنه يركب لوح الانزلاق فوق الماء، شعر بالدقات القوية في قلبه.

أدرك أنه في الفراش وأنه يشعر بدوار..

حاول أن يضيء الأباجورة لكنه لم يستطع رفع ذراعه. عندما حاول الجلوس مزق الألم صدره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-3-

شعر ريان بكتل خرسانة توضع على صدره، وراح قلبه يدق بسرعة حتى إنه لم يستطع عد الضربات. قرر أن يرقد في هدوء إلى أن تمر النوبة كما مرت وهو على لوح الانزلاق.

الضعف والألم الشديد والدوار. في طفولته لم يخش الظلام قط، لكنه اليوم يشعر بأن الظلام يجثم على صدره. حاول الجلوس فلم يستطع إذ أرغمه الألم على الرقاد. راح يشهق شهقات قصيرة تخدش ظلام الغرفة كما يفعل الظفر على لوح الكتابة. بعد قليل استطاع أن يرفع ذراعه فمدها إلى المصباح وأضاءه.

سقط من على الفراش ولا يعرف كيف حدث هذا.. فجأة صار الفراش هو السجادة.

كان وحيدا تقريبا في البيت، لأن الخادمين لاي وكي تانج نائمان الآن في غرفتهما في الربع الأقصى من البيت.

بدأ الألم ينتقل إلى فكه شديدا.. كأنه قد عض مسمارا.

كانت الدموع تملأ عينيه واحترق حلقه من العصارة الحمضية المرتجعة. راح يعتصر السجادة محاولا الزحف. وأدرك أن ضربات قلبه تتجاوز مائتي ضربة في الدقيقة على الأقل.

هو أمير الإنترنت.. ثرى كملك. لكنه الآن راقد بلا حيلة تحت رحمة جسده.. ورأى ظلاما.. ثم دوامة هائلة ابتلعته..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان منبه التلفزيون مضبوطا على السابعة صباحا. نهض رايان ببطء على صوت الموسيقا.

رقد على الأرض في وضع جنيني.. وهو يسمع مشهدا من فيلم (صن سيت بوليفار). صداع.. حلقه جاف.. عيناه تنفتحان بصعوبة.! للحظة راح يتساءل عن سبب رقاده على الأرض.

هنا إنذار يتعلق بمستقبله وعليه أن يعالج الأمر فورا. نهض والشعر يتصلب على مؤخرة عنقه وبدأ يسترجع كل تفاصيل الليلة.

دخل الحمام وراح يتأمل وجهه المذعور النحيل في المرآة.. واستطاع أن يرى الجمجمة تحت جلده بوضوح غير مسبوق.

اتجه إلى المرآب حيث كان الخادم لاي يقوم بتلميع سيارة من السيارات..

كان رجلا في الخمسين من عمره لكنه لم يرزق بأطفال هو وزوجته برغم أنه في سن الخمسين، قال للخادم:

- هل يمكنك أن توصلني لعيادة طبيب يا لي؟

- هل هناك مشكلة يا سيدي؟

- لا شيء.. غثيان.. ولا أفضّل أن أقود السيارة بنفسي.

كان الخادم يعرف أن سيده يعشق القيادة، لهذا فحاجته لسائق تعني ما هو أكثر من الغثيان.. التقط مفتاحا واتجه إلى المرسيدس الواقفة. كان يشعر بأنه بشكل ما أبو ريان.

انطلقت السيارة المرسيدس كأنها تطير فوق وسادة هوائية..
برغم أنها تطير كأنها في حلم، شعر ريان بأنها تقوده إلى كابوس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-4-

كان طبيب ريان يملك عيادة متخصصة كممارس عام. وكان يعطى موعدا بعد يوم لكنه هذه المرة قابل ريان خلال ثلاث ساعات.

كان الطبيب يدعى فورست ستافورد وقد فحص ريان ثم أجرى أحد الفنيين تخطيط قلب. وفي الطابق الثالث من البناية تم فحص القلب بالموجات فوق الصوتية (إيكو جرام).

جلس في الطابق 14 يراقب الميناء والسحب البيض المتسارعة. سمع الباب ينفتح فاستدار. ظهر الطبيب بجسمه الضخم.. واتجه لحوض الغسيل، وقال لريان:

- لم تكن نوبة قلبية.

قال ريان:

- ليس بهذه البساطة.

- قلبك متضخم.

تحفز ريان كأن الطبيب قاض يمكن أن ترشوه ليقول إنك سليم.

لكنني كنت أحفظ لياقتي وآكل جيدا.

- في حالتك يبدو لي الأمر كعيب خلقي يكشف عن نفسه.. أو لربما استهلاك الكثير من الكحول أو تسمم.

شعر ريان بالبرد وقشعريرة.. قشعريرة تزحف على عموده الفقري. قال الطبيب

- من أجل تشخيص دقيق لابد من أخذ خزعة من غشاء الشغاف.

- هذا لا يبدو ممتعا.

- ليس مريحا لكنه غير مؤلم.. كلمت طبيب أمراض قلب بارعا ويمكن أن يأخذ الخزعة صباح غد.

- هل مرضي قابل للشفاء؟

- لا يمكن أن نعالج ما لم نصل لتشخيص صحيح.

راحت أفكار ريان تتسارع وهو يدرك أن هذا منحنى خطير في حياته. كان د. فورست طبيب ريان منذ فترة وزوجته صديقة سامانتا.. لذا قال له:

- لا تدع سامانتا تعرف.

- بالطبع لا.

ثم ابتسم الطبيب وقال:

- أحيانا أتمنى لو كنت احترفت طب الأسنان.. تسوس الأسنان لا يقتل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان د. سمر جوبتا ذا وجه مستدير وصوت موسيقي وله يدان نحيلتان. راجع صورة نتيجة الموجات الصوتية وشرح لريان كيفية أخذ خزعة من شغاف القلب.

كان د. سمر يتصرف بثقة وبطء مع طريقة عملية واضحة، وأعطاه موعدا في السابعة صباح الغد. قال إنه سيعطيه مهدئا خفيفا لينام ليلته.

استقل ريان السيارة المرسيدس. في مرآة الرؤية الخلفية راح الخادم لي يختلس النظر لسيده.. لم يكن يعرف لأي طبيب ذهب سيده، لكنه كان يشعر بقلق الرجل.

شعر لي بأن سيده يريد أن ينال الراحة في بيته.. الملجأ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-5-

جلس ريان يلتهم الطعام وحده جالسا إلى مائدة ذات عجلات، وراح يقلب قنوات التلفزيون بحثا عن فيلم كوميدي بين الأفلام القديمة. كان يشعر بأنه رجل حُكِم عليه بالإعدام برغم أنه لم يستكمل نموه بعد. راح يأكل في نهم دون أن يعبأ بالسعرات أو الكوليسترول كأنه يخرج لسانه للموت.

ارتدى المنامة بعد الغداء وانزلق في الفراش تحت الأغطية. لكن الأرق عذبه.

نهض إلى الصالة وجلس بقرب المطبخ.. يسمع ضوضاء قادمة من هناك.. لم يكن من المعتاد أن يظل آل تينج ساهرين حتى ساعة كهذه لأنهما يصحوان في الثامنة صباحا، ولم يستطع فهم ما يقولان لأنهما يتهامسان.

خطر له أنه من الغريب أنهما يغسلان الأطباق في ساعة كهذه. اتجه إلى المطبخ ليفتحه، هنا داهمته نوبة أخرى.

حاول أن يقف بينما تخلت قدماه عنه.. وأظلم العالم من حوله. كان من الممكن أن يعتبر نفسه قد أصيب بالعمى لولا أضواء الردهة. سمع دقات قلبه عالية وشعر بأن هناك من يتسلل وراءه في الظلام. أرغمه ثقل قلبه على أن يجلس على الأرض.

كانت هناك عاصفة في قلبه.. ثم بدأت تستقر وعادت الضربات هادئة منتظمة. استعاد قوته ومع استرداد عافيته تحول خوفه إلى شعور بالمهانة. نهض على قدميه وتحسس

طريقه في الظلام. إلى باب المطبخ الدوار.. فتحه وتحسس بحثا عن الضوء فضغط عليه. لدهشته وجد أنه وحيد..

راح يتفقد صور الكاميرات المحيطة بالبيت ونظام الإنذار.. لقد شغل آل تينج كل شيء. تذكر كلمات الطبيب عندما قال إن السبب قد يكون تسمما برغم أنه احتمال بعيد جدا فقد راح يتردد في ذهنه. أن يحدث خلل في قلب رجل شاب في منتصف العمر وفجأة. هذا يحتاج لتفسير أقوى من الصدفة.

راح يصغى لصوت دقات على النافذة.. كأنها قبضة تلتف في قفاز من جلد.. على الأرجح هي حشرة تزحف هناك. لقد أثرت حالة قلبه في تفكيره العقلاني. تجنب النظر للنافذة كي يوفر على نفسه آلاف المخاوف.

السم!.. لقد وصل للقمة بسهولة نسبية لكنه بالتأكيد ترك وراءه أعداء كارهين.. بعضهم تسببوا في دمار أنفسهم بغبائهم لكنهم بالتأكيد يفضلون أن يلقوا المسئولية على ريان. لديه قائمة من خمسة أسماء.

تذكر الرقم السري للمخبر الشخصي ويلسون موت، وهو رقم يعرفه عملاء ويلسون الأثرياء فقط، لابد أن يرد عليه في أي ساعة من اليوم.. بعد تردد طلب الرقم.

جاء صوت ويلسون يقظا كأي وقت آخر في اليوم.. وبدلا من أن يحكي له ريان قصته وشكوكه في التسمم وجد نفسه يقول جملة لم يتوقع أن يقولها قط.. جملة جعلته يخرس بعدها من الدهشة:

- أريد أن أجد امرأة اسمها ربيكا ريتش!.

∞∞∞∞∞

كانت ربيكا ريتش هي أم سامانتا.

حتى هذه الليلة عندما تناول العشاء مع سامانتا كان يحسب أن أمها توفيت. قالت له سامانتا إن أمها ماتت بالنسبة لها، وكانت العلاقة بين المرأتين غريبة فعلا.

يمكنه فهم سبب كراهية سامانتا لها لأنها من طلب وقف الحياة عن ابنتها الميتة إكلينيكيا تيريزا.. لقد شعرت سامانتا بأن أمها خانتهما.

سأله ويلسون موت:

- هل لديك معلومات عنها غير اسمها؟

قال ريان:

- تعيش في شقة في لاس فيجاس.. فقط أريد عنوانا ورقم هاتف.

قال موت:

- ربما الساعة الخامسة غدا.

وضع ريان السماعة شاعرا بالحيرة.. إذ ما جدوى ما طلبه بالنسبة لحالته الصحية؟ لكنه اعتاد في عمله أن يعتمد على حواسه وحدسه.. حدسه جعله غنيا.

عاد للفراش وفتح التلفزيون على فيلم كلاسيكي بطولة أودري هيبورن. راح يراقب الفيلم دون أن يراه حقا، لماذا ربيكا؟.. لو وجد موت شيئا مريبا فلسوف يكون عليه أن يتحرى كل شيء

عن سامانتا نفسها.. لقد جعله الذعر من المرض متشككا مصابا بالبارانويا.

حاول النوم فلم يقدر.. غدا يأخذون منه عينات للتحليل.. لو لم تكن النتيجة طيبة فلسوف يكون عنده وقت كاف للنوم.. الأبدية نفسها.

من وقت لآخر كانت الطرقات على النافذة تتكرر لكنه لم ينهض.. كان يخشى أن يزيح الستائر ليرى ما هنالك لأنه توقع أن هذه نهايته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-6-

كان هذا صباح الجمعة عندما انطلق نحو المستشفى. جازف بالقيادة لأنه لم يرغب أن يعرف لي بأنه ذاهب لعمل جراحة في القلب. قال لنفسه إنه لا يريد أن يثير قلق الناس الذين يعملون من أجله، لكنه في الحقيقة رفض أن يعطي أي عدو افتراضي الشعور بالرضا.. لذة أن يعرفوا أنه مريض وهش.

اتجه إلى منصة المرضي الخارجيين فاقتادته موظفة لمختبر تشخيص القلب. هناك كانت ممرضة نحيلة ناولته قرصا مهدئًا مع كوب ماء. في غرفة جانبية ارتدى مريولة بلا ياقة وخفين من الورق. الاسم على سترة الممرضة يحمل اسم (إزماي كليم).... تعامله بلطف واضح..

وصل د. جوبتا مع مختص أشعة. وأخبر ريان أنه سيرقد على منضدة مريحة.. يجب أن تكون مريحة لأنه سينام عليها ثابتا ساعة أو ساعتين..

حقن الجلد في أسفل عنقه بمخدر بسيط.. ثم تم تطهير الجلد. بدأ د. جوبتا يشق الوريد الوداجي وأدخل قسطرة رفيعة وهو يصف ما يقوم به. خطر لريان أنه من الخطر أن يصاب بنوبة قلبية الآن..

استقرت القسطرة الداخلية في مكانها فبدأ د. جوبتا يدخل قسطرة أخرى لأخذ الخزعة لها ما يشبه الفك في طرفها. وفقد ريان كل إحساس بالوقت.. لربما أمضى دقائق ولربما أمضى ساعة..

فقط على الشاشة رأى كل شيء ورأى فك القسطرة ينغلق على قطعة لحم فتنهد في عمق..

استغرق أخذ العينة والخياطة 70 دقيقة.. ونظرا لأن ريان لم ينم ليلا فقد عمل المنوم عليه بقوة شديدة، فطلب منه الطبيب أن يسترخي في فراش بغرفة جانبية إلى أن يفيق ويستطيع القيادة. لم يتوقع أن ينام لكنه فعلها.

تحسس موضع الضمادة ليتيقن من أنه لا يحلم وأن الخزعة أُخذت فعلا. ارتدى ثياب الشارع وهو يشعر بالخفة وأنه غير حقيقي.. عرف أنه نام ساعة كاملة حيث هو. قالت له الممرضة إزماي إن العينة لن تأتي نتيجتها قبل يوم الثلاثاء.

اتجه للمرآب حيث سيارته المرسيدس وانطلق بها. عاد لشقته فلم يلق لي ولا زوجته.. اتجه للمطبخ وأعد لنفسه غداء مبكرا.. سلطة من الخرشوف وعش الغراب والأسباراجاس مع الخبز الإيطالي.

حمل الصينية لمكتبه في الجناح الغربي... وبرغم كل شيء كان يشعر بأن هناك من يراقبه.

جلس يأكل وهو ينظر خارج النافذة الكبيرة لحمام السباحة والبحر من بعيد..

دق جرس الهاتف. الرقم الذي لا يملكه سوى حفنة من الناس.. وعرف من كاشف شخصية المتصل أن هذه سامانتا.

- كيف الحال يا وينكي؟ هل ما زلت تشيخ؟

- لم ينبت شعر في أذني بعد.

ثم أضاف:

- أنا آسف على إفسادي ليلة الأربعاء بالكلام عن أختك.. لذا أدعواك العشاء الليلة...

كانت تحبه وهو يحبها.. رعبه منها بلا أساس. اقترحت عليه أن يأكلا بالخارج بدلا من تلويث الأطباق.

وضع سماعة الهاتف، ومشى للردهة وهو يحمل كأسا في يده. تذكر سحرة الفودو الذين يستعملون شعرات من رأسك ليسحروك.. لابد أن ثلاث عينات من القلب لو وقعت في يد ساحر فودو لصنع بها العجب.. إنها أكثر انتماء وتأثيرا.

اتصل بسامانتا من جديد وقال إنه سيتناول العشاء عندها.. هي طباخة ماهرة. السبب هو أنه لا يرغب في أن يذهب معها للعشاء وسط عيون الرجال الحاقدة عليه. وضعت السماعة لكنه سمع ضحكة أنثوية قصيرة تخرج منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الرابعة ظهر الجمعة أرسل له ويلسون موت تقريرا عن أم سامانتا. طبع ريان التقرير الذي جاء بالإيميل ثم تأكد من مسح الملف، وجلس على شيزلونج جوار حمام السباحة ليقرأ.

ربيكا لوريان ريتش في السادسة والخمسين تعيش في شقة بلاس فيجاس وتعمل كديلر للعبة بلاك جاك في كازينو فاخر. لديها سيارة فورد اكسبلورر. وصحيفة سوابقها نظيفة. قال أحد الجيران إنها غير اجتماعية وهي على علاقة عاطفية برجل يدعى سبنسر بارجست. وهو من ضمن حركة (الحق في الموت) لذا قد

ساعد مرضى كثيرين على الانتحار. لابد أنه كان يقدم لهؤلاء المرضى جرعات عالية من المنوم مما يغريهم بالموت.

شعر ريان بتوتر لدى سماع سيرة الموت. لكن برغم هذا كله شعر بشكل ما أن ظروف مرضه الأخيرة لها علاقة مبهمة بسامانتا أو أمها. لكن وجود بارجست في حياة الأم لم يكن مجرد مصادفة..

منذ ستة أعوام اتخذت هي قرار وقف الحياة والتغذية عن ابنتها الميتة مخيا.. لابد أنها شعرت بالذنب.. لابد أنها بحثت عن مبرر.. هكذا قابَلتْ رجلًا مثل سبنسر يؤمن بمنح المرضى الراحة النهائية.

عاد ريان لمكتبه وشغّل جهاز تمزيق الورق.. وكاد يضع التقرير هناك وفجأة غير قراره ووضع الورقة في خزانة... لقد تملك الخوف منه فعلا وصار التحرر صعبا.

فجأة أدرك أنه يريد الذهاب إلى لاس فيجاس. يريد أن يعرف أكثر عن ربيكا ريتش هذه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-7-

في لاس فيجاس، انتظرته سيارة مرسيدس سيدان مع سائق عند ممر وصول طائرات خاص. قال السائق إن اسمه جورج زين وهو يعمل في مكتب ويلسون موت الخاص بالتحريات. كان فارع الطول متين البنيان له عينان قويتان. وله ندبتان على رأسه توحيان بأنهما نتيجة جراحة نزع قرنين. لم يكن مجرد سائق بل هو كذلك بودي جارد.

راح ريان في المقعد الخلفي يرمق الصحراء، بينما هو متجه للفندق الذي سيقيم فيه. هناك توقفت السيارة على حين حمل السائق المتاع الخاص به ثم عاد السائق ليقدم له مفتاحا إلكترونيا وقال:

- غرفة 1100 يا سيدي.. هي جناح في الواقع، وهي محجوزة باسمي حتى لا يظهر اسمك أنت.

كانت فيجاس تلتمع تحت شمس صحراء موهافي وكان الصبار والصخور في كل مكان كجزء من زينة البيوت نفسها. أشجار النخيل والزيتون من حوله وكانت المرئيات تهتز من الحرارة كأنها تحت الماء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مجمع الشقق الذي تقيم فيه الأم كان يدعى (الواحة). وكان مكونا من طابقين من الشقق ذات لون الكريمة.. والسقف كان من بلاط أحمر اللون. توقفت السيارة وطلب السائق زين من ريان أن يترجل وحده حتى لا يثير الشكوك.

خلف البوابة كان هناك ممر إلى الفناء، وقد مشى حتى المدخل العمومي. ولما اجتازه رأي حمام سباحة كبيرا.. كانت أبخرة الكلور تتصاعد فتخنقه.. صعد في الدرج باحثا عن الشقة 34.. مد يده وفتح الباب..

كانت تنتظره سمراء جميلة لها عينان رماديتان كحجر القبر. كانت تعمل مع ويلسون موت ومن الواضح أنها قوية قادرة. فتحت الباب وسمحت لريان بالدخول ثم قالت:

- ربيكا تعمل في وردية الصباح.. إنها في الكازينو الآن.

- هل وجدت شيئا غريبا؟

- لا أعرف ما تبحث عنه يا سيدي.. أنا هنا لفتح الباب فقط.

- وما اسمك؟

- أفضل ألا أذكره فما نقوم به هنا غير قانوني.

دخل الشقة وراح يبحث في المطبخ..

كان يشعر كأنه لص برغم أنه لن يسرق أي شيء.. لكنه فتش المطبخ وغرفة الطعام وغرفة المعيشة.

لم تكن هناك ذكريات.. مما دله على أنها ليست امرأة عاطفية لكنها مجنونة بالتنسيق والنظام. قلبه يدق بعنف لذا تنفس بعمق وهو يحاول أن يستعيد هدوءه. لقد جاء إلى هنا بحثا عن خيوط مؤامرة تتهدد حياته وعليه أن يبحث بعناية ولا يصاب بنوبة قلبية.

كانت غرفة المكتب منسقة وكان هناك نحو مئة كتاب على الأرفف كلها تتعلق بالتنمية الذاتية والحصول على ثروة ولا يوجد عمل أدبي واحد. على المكتب كانت بضع مجلات على قمتها عدد فانيتي فير الذي يحوي مقال سامانتا عنه.

كانت موظفة مكتب ويلسن موت تنتظر في البهو.. ثم إنها غادرت الشقة مع ريان، وأدهشه أنها تأبطت ذراعه وراحت تثرثر عن فيلم رأته.. ثم أدرك أنها بهذا تبعد الشكوك حيث يبدوان كعاشقين. وعندما مشيا إلى خارج البوابة الخضراء فقد صوتها نغمته الموسيقية وفقد وجهها تألقه. قالت له:

- سيارتي قريبة.. جورج سيقلك إلى الفندق.

سألها:

- ماذا عن سبنسر بارجست؟

- سيخرج الليلة من بيته.. يمكننا دخوله وقتئذ.

ثم ابتعدت.. أما هو فعاد لسيارة المرسيدس المنتظرة شاعرا بغرابة كل شيء، وكأن هذه ليست الأرض التي ولد فيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يشعر بحاجة لزيارة الكازينو الذي تعمل فيه ربيكا.. كان يريد أن يراها رؤية العين. إلا أنه خشي أن تعرفه لو رأته خصوصا أن صورته كانت واضحة في المقال الذي كتبته ابنتها سامانتا.

استلقى في الفراش بعد العشاء.. كان المناخ الصحراوي يحرق النافذة لكن الغرفة كانت باردة مريحة وتغرى بالنعاس. كانت معالم الغرفة تزداد ظلمة وضوء النهار يرحل، هناك من الطابق

الحادي عشر تمتد لاس فيجاس كشريط مضيء بأنوار الكازينوهات.

كان يسمع دقدقة وخليطا من الأصوات.. لقد جعله المرض هشا متشككا..

دق جرس الهاتف فرفع السماعة. سمع جورج زين يقول له:

- يمكنك القيام بالزيارة الثانية.. سأكون أمام المدخل في نصف ساعة.

أخذ حماما سريعا.. مسح الزجاج ليزيل البخار من عليه حتى يرى المكان بشكل واضح. بعد هذا فتش الجناح جيدا وهو يغالب الشعور بأنه وحيدا. لم يكن يشعر بأي انتعاش وهو يلبس ثياب السهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-8-

كان بارجست يعيش في بيت من طابق واحد وسط بيوت الطبقة الوسطى.

قاد زين السيارة ثم توقف على بعد أربعة مبان، بينما ترجل ريان ليقطع المسافة على قدميه.

كان الليل دافئا جافا مع رائحة الصحراء القلوية التي لم تستطع المدينة القضاء عليها.

اتجه للبيت هنا انفتح الباب ورأى الفتاة السمراء التي لا اسم لها ذات العينين الرماديتين تحييه. أغلقت الباب خلفه فسألها:

- كم لي من الوقت؟

- ثلاث ساعات على الأقل.. إنه يتناول العشاء مع ربيكا ريتش. لابد أن يصحبها للرقص بعد العشاء.

- وماذا لو عادا الآن؟

- لن يحدث.

وفي غرفة المعيشة جعلته يرى جثثا.. جثث رجلين وجثة امرأة..!

كان ريان قد قرأ عن استخدام الجثث الحية كتماثيل فنية. بعض المتاحف تقدم هذا لكنه لم يصدق ان يرى هذا رأي العين.. لقد كانت جثثا محفوظة.

هذه الجثث قد عوملت جيدا بسوائل مضادة للبكتريا وسوائل حافظة. وكانت مثبتة لقطع الأثاث ومغلفة بالبولي يوريثان. هذا جعل الموتى يتألقون في الضوء.. أحد الرجلين بدا كأنه مرّ بمرض طويل جعله نحيلا ضامرا، وقد فتح عينا وأغلق الأخرى كأنه كان يرهب رؤية الموت.

سألها:

- هل الشرطة تعلم بوجود هذا المعرض؟

- كل واحد من هؤلاء وقع على موافقته لبارجست قبل الموت. هذا نوع من الديكور.

- ليس هذا مفيدا للصحة العقلية لأي شخص.

- لكنه قانوني... المحاكم تعتبره نوعا من العرض الثقافي.

وعادت للردهة لتسمح له بتفتيش المنزل كما يريد.

دخل غرفة المعيشة ليجد المزيد من هذا الفن البربري.. في غرفة النوم كانت امرأة محنطة تجلس إلى أريكة. لم يستطع أن يأخذ راحته في تفتيش الحجرة بسبب نظرتها الشاخصة.

على الرف في المكتبة كان ألبوم يحوي مجموعة من الصور الفوتوغرافية.. كانت وجود موتى.. لا وجه بينها ينظر الكاميرا. وكل صورة تحمل رقم ملف مطبوع على الركن. خطر لريان، أن هؤلاء القوم قد استعانوا ببارجست كي يسهل رحيلهم من عالمنا..

لم تكن هناك جثث هنا مما جعله يتفقد الصور براحة أكثر، لكنه كان يشعر بتدفق الدم في عروقه.. وكان يسمع صوت

هسيس عرف بعد قليل أنه صوت تنفسه. ضغط على صدره كأنه يريح قلبه ويمنعه من التوقف.

لو مات هنا فلسوف ترحل عميلة موت هاربة، ولسوف يظفر به بارجست ويجرده من ثيابه ويحنطه ليتحول الى قطعة ديكور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت النوبة في سلام، وإن ظل يشم رائحة غريبة تدعو للغثيان في جو الحجرة. واصل تقليب الصور. هنا فوجئ بصورة لوجه سامنتا الميت تحدق في الكاميرا.

لم تكن هذه سامانتا طبعا. بل أختها التوأم تيريزا. كان السقم قد جعلها ذات طابع أثري كأنها قديسة. من الغريب أن سامانتا لم تذكر له أي شي عن بارجست. طبعا كان بارجست هو من اتخذ قرار الموت الرحيم لتيريزا.

فجأة شعر بحركة من خلفه فانتفض ذعرا.

وجد أنها السمراء ذات العينين الرماديتين كشاهد القبر.. كانت تقول:

- أنا لا أخاف بسهولة.. لكني أكره هذا المكان.

- أنا كذلك.

وانتزع صورة تيريزا من الملف ووضعها في جيبه فدهشت الفتاة.

- سوف يفتقدها.

- لا يهم.

فكر قليلا ثم سألها:

- هل تتركين رجل كهذا يلمسك؟

- سأطلق عليه الرصاص قبل أن يفعل... المشكلة أن أناسا كثيرين يعشقون. وبيكا كذلك.

قال لها إنه انتهى من مهمته. وهكذا راحا يطفئان أنوار الشقة ويغلقان الأبواب التي فتحت.

ثم إنهما غادرا الشقة.. وعبر الشارع كان زين يقف جوار المرسيدس.

همست لريان:

- لو أردت أن تتكلم معي فاسمي كاتي سيينا.. لكن لا أستطيع أن أقول كلمة أخرى وإلا فقدت عملي في وكالة موت.

وضغطت على كفه بيديها كأنها تودع صديقا، وقبل أن يتكلم كانت قد رحلت، فعاد للسيارة وطلب من السائق أن يقصد الفندق. مزية أن تكون ثريا أنك تستطيع أن تجد شخصا مثل ويلسون موت وتطلب منه أي شيء وفى أي وقت، ولن يظهر أي دهشة أو يرفع حاجبيه بل سينفذ بعاطفة أقرب للاحترام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-9-

هبطت الطائرة على المهبط في المطار قبل موعده مع الطبيب بساعة واحدة. كان قد رتب سيارة ليموزين تنقله يقودها سائق ممتاز لا يعتقد أن تبادل المحادثة جزء من عمله.

انطلقت السيارة لمكتب د جوبتا.. في الداخل جلس ريان يحدق في عيني تيريزا في الصورة.. كونها توءم سامانتا جعلها صورة مثيرة للتشاؤم كأنها نبوءة بموت سامانتا نفسها.

كان يشعر بارتباك غريب وهو شيء لم يعهده في نفسه من قبل. كان أبواه أنانيين لا مباليين مما جعله يقرر ألا يحبهما للأبد.. وأن يحقق كل ما حققه من نجاح، لم يستسلم قط.. وكان يعتبر كل فشل درسا.. وكل نجاح تحديا لتحقيق نجاح أكبر. لكنه الآن في السيارة يشعر بأن شجاعته تتخلى عنه.

وتساءل: هل كان كل هذا البحث عن ربيكا ريتش مجرد محاولة للهرب من الخبر الذي قد يتلقاه في عيادة طبيب القلب. كان يهرب من نبوءة الموت ليواجه البعبع الذي يعتقد أنه قادر على مواجهته.

كانت السيارة قد وصلت لعيادة الطبيب، ففتح له السائق الباب. ترجل

ريان وهو يدس صورة تريزا في جيبه.. كأنها تعويذة تحميه مما هو آت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال د. جوبتا:

- هذا عطب في عضلة القلب cardiomyopathy

كانا جالسين في المكتب من أجل إعطاء طابع حميم لهذه الأخبار، راح ريان يتأمل الصور على المكتب لزوجة الطبيب وطفليه وكلبه الرتريفار الذهبي، وشعر بحسد له لأن حياته أفضل من حياته بكثير.

قال سمر جوبتا:

- عطب في عضلة القلب.. هكذا تقل كفاءة الدورة الدموية.

كان صوته موسيقيا وإن تخللته بعض الشفقة وهو يكمل كلامه:

- هناك وهن عضلة قلب متسع أو متضخم أو مقيد.. أنت مصاب بالنوع المتضخم.. غالبا هو مرض وراثي.

- لم يشك والداي من شيء.

- ربما قريب بعيد.. قد لا يعلن المرض عن نفسه سوى بالموت المفاجئ.. أليس لك قريب بعيد مات بنوبة قلبية فجأة؟

- والعلاج؟

بدا الخجل على الطبيب كأنها غلطته وهو يقول:

- غير قابل للشفاء. فقط نعطى بعض المدرات ونعطي أدوية تحميك من اختلال الضربات...

قال ريان وهو يتأمل صورة الكلب:

- أنا أمارس رياضات عنيفة.. فهل أتوقف عنها؟

- المشكلة ليست في التوقف.. المشكلة هي كم سوف تعيش.. وظائف قلبك سوف تتدهور باستمرار.. لا يمكن وقفها.. لا أعتقد أنك ستعيش أكثر من عام.

بلغ به الرعب الذروة.. الأمر أقرب لمقصلة نفسية تنتظره.. برغم أنه كان يتوقع الموت الفوري وهو ملقى على أرضية غرفة نومه.. لكن مهلة عام لا تعني شيئا..

- ليس أمامك حل سوى زرع قلب.

نظر له ريان في دهشة فقال الطبيب

- سوف نقيد اسمك ضمن UNOS.

- الشبكة المتحدة لتبادل الأعضاء.. إنها تتيح لنا العثور على أعضاء للزرع.

عاد يفكر ثم سأل الطبيب:

- هل هناك من دس لي السم؟

- بالطبع لا.. تحليل الخلايا يظهر بوضوح أن الخلل وراثي.

قاوم ريان الدموع.. فهو لا يريد أن يبكي أمام الطبيب.. قال للرجل:

- لا يوجد شيء مؤكد في هذه الحياة سوى الموت والضرائب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-10-

في الأيام التالية مر ريان بحالة من النكران جعلته يمضي الساعات يفتش في الإنترنت عن علاج عطب عضلة القلب. قرأ عن مرضى شفاهم جذر عشب في البرازيل أو نبتة في قلب جبال تايلاند. انهمك تماما وحاول ألا يتصل بسامانتا.

كان يحاول أن يتأقلم مع التشخيص وأن يجد الشجاعة الكافية ليخبرها.

كف عن أن يثق بعقله وحدسه فهو يؤمن أن نقص الاكسجين يلعب دورا مهما.. وكان يشعر بالظلم الواضح في أن يموت في سن الرابعة والثلاثين، لكنه يرفض أن يكون ضحية.. سوف يفك الأنشوطة من حول عنقه.

ظل بعد المقابلة عدة أيام في غرفته.. يطلب الأكلات من الخادمين..

وكانا قد اعتادا أنه يمر بفترات كهذه عندما ينشغل بالبرمجة، فيظل كالناسك في موضع واحد ويلبس المنامة ويترك لحيته تنمو.

ثم إنه اتصل بسامانتا طالبا لقاءها.. شعر أن الوقت قد حان كي يخبرها بالأمر.

في شقتها كانت تلبس الكيمونو الأزرق وخفين من حرير فبدت أجمل من أي مرة رآها ريان فيها. لقد قضى ساعات طويلة ينظر لوجه أختها الميت حتى إنه نسى حيويتها وجمالها. كان قد

أحضر أكياس طعام جاهز كي يريحه من الطهي، فوضعها على رخامة المطبخ. وقال لها:

- أنا ميت من الجوع.. هناك شطائر من لحم البقر بالقمح.

ضحكت وقالت:

- حسبت أنك لن تقاوم جمالي فإذا بك تتكلم عن الأكل.. في المرة القادمة سألبس لحم البقر بالقمح.. والمخلل كقرطين.

أفرغا الأكياس في أطباق وحملا كل شيء لغرفة الجلوس. سألته والظلال تغمر وجهها:

- لماذا قضيت أسبوعا كاملا بعيدا؟

- القصة تتحسن أليس كذلك؟

قالت:

- لا أعرف كيف أصف هذا.. لكن السطور ذات سحر خاص...

كان قد وصل إلى السلام.. كل الشكوك التي كانت تفعم روحه انتهت.. ليست ربيكا ريتش بامرأة شريرة.. هي فقط ذات ذوق كريه في الرجال وحبيبها شخص مريض نفسيا قطعا، لكن لا علاقة لها ولا ابنتها بما حدث لقلبه.. رحلته إلى لاس فيجاس كانت مجرد تبديد للمال والوقت..

لن يذكر هذه التجربة لها.. لو مات خلال عام فهو يريد أن تتذكره بصورة أفضل مما هو حقا. بعد العشاء وأمام الأطباق

الفارغة أمسك بيدها وحكى لها كل شيء.. لم يبالغ في الأمر فيجعله أوبرا تراجيدية، ولم يخفف الأمر ليجعله مضحكا.

تقلصت يدها حول يده.. سال الدمع من عينيها برغم جهدها لمنعه. والتمع ضوء الشموع على هذا البلل. أدركت أن كلامه عن هذا المرض يؤلمه أكثر مما يؤلمها معرفته.. كانا يملكان القدرة على مواجهة الحياة وكانا يملكان الثقة بالنفس. تأثر كثيرا بمحاولاتها لمنع دموعها والظهور بمظهر قوي. وأدرك أنها ترتجف تحت الكيمونو وأن كل شريان في جسدها ينبض بقوة.

سألته لما أنهى قصته:

- ما فرصة حصولك على قلب جديد؟

- أربعة آلاف أمريكي يحتاجون للزرع كل عام.. لكن لا يتوافر سوى ألفي قلب.

- إذن الاحتمال 50%.

- ليس بالضبط.. لابد من توافق نسيجي مع القلب الممنوح.. ثم إن قلب متوافر سوف يذهب لشخص يسبقني في قائمة الانتظار. الأسبوع القادم سأخضع لفحص نفساني ليروا إن كان الزرع مفيدا لي...

- مثل؟

- مثل إدمان الخمر.. التدخين.. استعدادي لتغيير نمط حياتي.

- وما النواحي الطيبة في القصة؟

- أنني شاب وصحتي جيدة باستثناء القلب.. لو كنت مصابا بأمراض أخرى ففرصتي أقل. ثم إنني مستعد للدفع نقدا ولن أنتظر تغطية شركة تأمين.

أطفأت شمعة بين أصبعين فازداد الظلام وسألته:

- وماذا أيضا؟

- معدل الحياة خمس سنوات لمن يتلقى قلبا مزروعا هو 75% أو يقترب من ذلك، لو عشت بالقلب المزروع خمسة أعوام فالفرصة عالية في أن أعيش خمسة أخرى.

مدت أناملها فبللت إصبعا بالخمر ثم مدت يدها وأطفأت شمعة أخرى.

فساد الظلام أكثر.. ونهضت وهي تمسك بيده وقالت:

- احتضنني بقوة.. فقط افعل ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-11-

قال لها بعد وقت طويل:

- تزوجيني.

لم ترد وساد الصمت بعض الوقت. ثم قالت:

- سيكون الأمر كأنني قبلت الزواج لأنك تموت.

- لن أموت.

- سيظن الكل أنني تزوجتك من أجل ثروتك.

- لم أعبأ برأي الناس قط.. فلماذا أهتم الآن؟

- سأتزوجك عندما ينتهي هذا كله.. عندما تستقيم الأمور.

- إذن فأنت جائزتي لو زرعت قلبا.

- يجب أن تصغي لي.. دع الأمور تجرى في أعنتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اجتاز ريان الاختبار النفسي وتم وضعه في قائمة شبكة تبادل الأعضاء.

بدا له أنه ينام بشكل طيب.. ولم يعد يسمع صوت القرعات والدقات المعتاد.. وقد قدر أن تحسن حالته بسبب الادوية التي وصفها له د. جوبتا: المدرات ومضادات اختلال الضربات.. لابد أن الأكسجين يصل لمخه بشكل أفضل فلم يعد يهذي.

كان لا يطيق صبرا على الانتظار.. اسمه يرتفع في قائمة مستقبلي الأعضاء لكن ليس بالسرعة الكافية. منحه جوبتا عاما يحياه وقد مر شهران من هذا العام، كان يتابع أخبار الحوادث وقد بدأ يدرك حقيقة أن معظم هؤلاء لم يوقعوا على بطاقة التبرع بالأعضاء بعد الموت... كان طيلة حياته بصحة جيدة لذا لم يوقع هذا التبرع، واليوم قام بالتبرع بأعضائه لو مات وظلت أعضاء سليمة في جسده.

مع الوقت بدأ يدرك أن حالته تتدهور ببطء.. صار يتعب بسرعة أكثر وينام لساعات أطول.. ولاحظ انتفاخا في وجهه وتحت عينيه. وكان يزداد عصبية ويتشاجر بسهولة.. قال لسامانتا إنه آسف.. لابد أن هذه أعراض جانبية للدواء فلن يلبث أن ينبت له شعر في كفيه ويعوى في الليالي المقمرة.

لاحظ كذلك أن نوبات توقف التنفس توقظه من النوم كثيرا، وأن جسده يحتجز الماء... كاحلاه متورمان تماما.

أما عن صوت الدقات فقد عاد عاليا لحوحا.. أدرك أن هذا ليس صوت متسلل لكنه صوت قلبه هو.. قلبه هو الذي يحاول أن يضخ الدم.. لو ظل الحال كذا مع هذه القرعات فلن يجيب عليه ريان بل الموت نفسه.

في الصباح جاءت السيارة الليموزين على الباب يقودها رجل يدعى ناركا.. كان ريان قد حجز موعدا مع طبيب قلب آخر اسمه دوجال هوب.

كان قد تحرى جيدا عن الطبيب فعرف أنه أبرع من جوبتا، كما أن سجله الطبي لم يحو غلطة أو شكوى واحدة.

كانت عيادة الرجل بناية ذات ثلاثة طوابق في شارع هادئ على حواف ضاحية بيفرلي هيلز. دخل المبنى الأنيق فوجد ردهة.. على اليمين ثلاثة أبواب كتب على أولها (مواعيد).. المقاعد مريحة أنيقة توحي بأن المرضى يعاملون هنا كضيوف.. كانت موظفات الاستقبال لبقات أنيقات.. اقتادته امرأة في الأربعين اسمها لورا إلى مكتب جانبي وقالت إن د. هوب سيقابله حالا. دخل د. هوب.. كان قصير القامة يلبس قميصا أبيض بلا ربطة عنق وله حضور قوي وصوت جهير. وجلس الرجلان إلى أريكة مريحة. حكى مشكلته للطبيب.. وقال إنه في سن صغيرة كهذه لا يتوقع أن يصاب بمرض قلب كهذا.. لابد من البارانويا والاكتئاب أصغى له الطبيب بشكل أبوي مطمئن جعله يشعر بأن هذا الطبيب لن يتركه يموت.

باقي اليوم أعاد الطبيب معظم الأبحاث.. وافترض أن فحص أنسجة ريان كان سليما. كان ريان لا يتوقع أن يتبين خطأ د. جوبتا.. ما أراده هو الأمل في الشفاء.

كتب له د. هوب أربعة أدوية أخرى.. ثم أعطاه رقم هاتف مختصرا يتصل به بمركز للطوارئ، وأعطاه جهازا يطلب هذا الرقم. أمره أن يبقيه معه دائما وأن يصحبه معه للحمام وأن يبقيه مشحونا دائما. وطلب منه أن يصغي للإشارة طيلة الوقت فلربما تدق معلنة وجود قلب مناسب.

- لا أثق بالهواتف العادية.. إن الناس يغلقونها أو يشغلون البريد الصوتي.. هذه الأداة لا.. متى تم تشغيلها تظل كذلك للأبد.. أبقها معك فلربما يأتي وقتك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يخبر ريان سامانتا بأنه غيّر طبيبه وأنه ترك جوبتا. كان يكره الجدل لذا راح يحاول أن يقلل أوقاته معها.. لم تكن موافقة على تغيير الطبيب لأنها ترى أن هذا يربك الأمور أكثر.

حافظ على زيارة أسبوعية للطبيب لأن الرجل أصر على متابعة الحالة عن كثب.

في الساعة الخامسة من صباح الرابع عشر من يناير جاءت المكالمة... لقد وجدوا قلبا.

كان ريان في قوائم عدة.. قوائم مجلة فوربس لمديري الكمبيوتر.. قائمة مجلة وايرد لسادة الإنترنت.. قائمة مجلة بيبول للعزاب الأثرياء.. لكنه اليوم وصل لقمة أهم قائمة.

لقد انتهى انتظار طويل.. لقد صار الوقت بالغ الأهمية بالنسبة لريان. سوف يبقون المتبرع الذي هو في حالة موت مخي.. يبقونه حيا إلى أن يصل ريان للمستشفى، فلو انتزعه من صدر الميت نفس الفريق الذي سيزرعه في صدر ريان، لكانت الفرص ممتازة.

لكن قد تفشل المحاولة لو كان قلب المتبرع معطوبا أو كان هناك خلل خفي في الكلية أو الكبد.. لربما تتعطل الدورة الصناعية أو تنقطع كهرباء المستشفى.

اتصل بسامانتا وهو يخشى ألا ترد.. إنها الخامسة صباحا. كانت منهمكة في كتابة قصتها لذا كانت تخلد للنوم في ساعات متأخرة. لم ترد سامانتا لكن كانت هناك رسالة مسجلة تطلب منه ترك رسالته..

- سامانتا.. أنا أحبك.. أحبك أكثر مما أستطيع وصفه. لقد جاءت المكالمة.. سوف أذهب لدكتور هوب ليجري الجراحة. وسوف أستقل الطائرة حالا.. تمنيت لو كنت معي لكن هذا مستحيل والوقت ضيق. أرجو لك التوفيق في كتابك، وأرجو لو أردت أن تكرسي القصة لي.. أحبك يا سامانتا.

∞∞∞∞∞

-12-

كانت حقيبته معدة منذ أشهر.. جرها إلى المصعد ثم إلى الطابق السفلي.

كان يحب هذا البيت جدا لكنه لم يضيع دقيقة في وداعه أو النظر حوله. في الخارج كان الظلام والهدوء يقطعه صوت بومة من حين لآخر.

كان قد طلب سيارة إسعاف مستعملا جهاز هوب. وسرعان ما وصلت السيارة وكان مسعف ينتظر ليقود ريان ويحمل حقيبته. استلقى على المحفة في الطريق إلى المطار وراح ينظر حوله. خلال ساعات سوف ينشر د. هوب قفصه الصدري ويفتح صدره وينزع قلبه السقيم ويضع مكانه قلب غريب.

برغم هذا شعر باطمئنان.. نحن لم نولد لننتظر.. بل ولدنا لنفعل.

تذكر أنه لم يتصل بأبويه.. لكن لا داعي لذلك فلن يفيداه في شيء.. لقد رتب كل شيء للعناية بهما لو وقع الأسوأ.. ترك لهما معظم ثروته في الوصية. هما لم يحباه قط لكنهما لم يعادياه صراحة..

وصلت السيارة إلى مطار لونج بيتش.

هناك كانت الطائرة الصغيرة الخاصة بدكتور هوب تنتظره، وهي التي ستحمله مع فريقه إلى شانجهاي في الصين. كانت مجهزة بكل ما قد يحتاج إليه مريض في حالة حرجة. وصلت

ثلاث سيارات إسعاف تقل د. هوب وفريقه من نقاط عدة في لوس أنجيليس.

ألقى ريان نظرة أخيرة إلى الشمس التي تشرق ببطء، ثم ركب السيارة التي تحمله إلى حيث يولد من جديد أو يموت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الوعي ينسحب منه وأدرك أنه تحت تأثير مخدر ما.

إنه في المستشفى، وهناك طبيب من مساعدي د. هوب يحلق شعر صدره وبطنه. نظر ريان للضوء وهمس:

- حلقي جاف.

- د. هوب لا يريد أن تشرب قبل الجراحة.. سأعطيك قطعة ثلج تمتصها، وراح المساعد يقيس نبض ريان. راح النعاس يغلب ريان.. حاول أن يغالبه لأنه يشعر كأن هذا هو الموت.. الموت الأصغر هو النوم كما قال أحد الشعراء.

الأجراس.. الأجراس.

تدق.. تدق.. تدق.. تدق...

الظلام في كل مكان.. تمسّك بحافة الفراش.. الأجراس.. هل هو يحلم؟

قال ريان شيئا فجاء صوت المساعد عاليا يقول:

- هناك كنيسة عبر الشارع.

من جديد عاد النعاس يغلبه.. كان يبكي وشعر بالدمع المالح على جانبي فمه.. لكنه كان قد فقد القدرة على أن يخفي دموعه

أو يخجل منها.

بعد الفجر اقتادوه لغرفة العمليات..

غرفة الجراحة والبورسلين الأبيض والصلب الذي لا يصدأ.. الضوء..

جاء د. هوب مع مساعديه.. طبيب تخدير وثلاث ممرضات.. لم يستطع ريان تبين الوجوه خلف الأقنعة. طبيب التخدير يبحث عن وريد، في ساعده ثم غرس قناة، أخبره د. هوب أنهم نزعوا قلب المتبرع ويحفظونه في محلول ملحي مثلج.

كان القلب يخص مدرسة في السادسة والعشرين من عمرها.. تعرضت لحادث سيارة مروع، كان قلبها ذا حجم مناسب وكان متوافقا مع الأنسجة. برغم هذا سوف يأخذ ترسانة من 28 عقارا لفترة لا بأس بها.. وبعدها سيأخذه للأبد.

لقد مات المتبرع والقلب سليم.. هناك طريق واحد للمستقبل ولا يمكن التراجع.

راح يفكر في سامانتا، منذ ولد كان يبحث عن الكمال.. وقد وجد الكمال فيها.

بدأ النعاس يتسرب له.. غاص في البحر وازدادت الظلمة ظلمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يزمع ريان بيرى الاحتفال بمرور عام على زرع القلب.. البقاء حيا هو الاحتفال نفسه.

قضي النهار في المرآب يعتني بسيارة اشتراها من مزاد. ثم قضى العصر على شيزلونج مريح يقرأ كتاب سامانتا الأول. أثرّت القصة في ريان ووجد نفسه يندفع بين الصفحات.

دخل ونستون أموري مع عربة ذات عجلات عليها إبريق قهوة ساخنة مع بعض اللوز المحمص. وقدم كوبا كبيرا لريان، فشكره وطلب منه أن يعد العشاء في الثامنة. كان ونستون خادما بريطانيا يؤدي عمله جيدا هو وزوجته بنيلوب، لكن ريان كان يشعر أن الرجل يبالغ في البريطانية لأنه يعتقد أن هذا يروق للأمريكان. كان قد طرد كل الخدم ولي وكاي تانج، وإن دفع لكل واحد منهم راتب عامين قادمين مع خطاب توصية قوى. كان يرغب في البدء بداية جديدة وأن يجد في بيته مناخا من السرية.

تناول العشاء ثم عاد لقصة سامانتا.. وقد قرر أن يقرأ فصلًا أو اثنين قبل النوم.

دخل إلى الفراش وكانت بنيلوب قد أعدت الفراش لنومه.. هناك فوق الوسادة وجد كيسا وردي اللون ربط بشريط أحمر. كان يحوي قطعا من الحلوى على شكل قلوب.. وأدرك أن هناك عبارة محفورة على كل قطعة تقول (كن لي).. كان يذكر هذا النوع من الحلوى منذ طفولته، وكانت كل قطعة تظهر عبارة مختلفة. يحتاج الأمر إلى عدد هائل من قطع الحلوى كي تجمع

كل هذا العدد من قطعة واحدة. بالطبع سبب هذه الهدية هو مرور عام على الجراحة.. لكنه لم يستطع معرفة من أرسلها.

راح يقرأ قصة سامانتا في الفراش حتى الواحدة صباحا..

في الثلاثة الأشهر التالية للجراحة كان يتعاطى 28 دواء.. وكانت آثارها الجانبية تضايقه جدا، لكن مع الوقت بدأت الجرعات تقل وبعض الأدوية تتوقف..

بعد عام لم يبد البتة أن الجسد سيطرد العضو.. لا حمى ولا ضعف ولا قيئ.. وعندما أجرى خزعة على عضلة القلب لم يجد طبيب الباثولوجي أي علامة على الطرد.

وكان يمارس المشي بكثرة على سبيل التريض.

قام بتخفيض إضاءة المصباح جوار الفراش.. كان قد اكتسب عادة عدم النوم في ظلام دامس. كانت تصرفاته تتسم بقدر كبير من البارانويا، لهذا كانت الشقة تحت نظام إنذار كامل وغرفة نومه مؤمنة، كما أنه كان يحتفظ جوار الفراش بمسدس محشو.

في الصباح سأل بنيلوب عن مصدر الحلوى التي وجدها على الوسادة فأنكرت بشدة معرفتها لشيء كهذا، وبدا لها من الغريب ان يعامله أحد كنزيل فندق في بيته الخاص. تساءلت عما إذا كان عليها أن تتصل برجل صيانة للتدفئة، ورجل صيانة للثلاجة. كانت تتكلم في تقزز باعتبار هذا التسلل إهانة لكرامتها وأمانتها.

قال لها ريان:

أنا سعيد بحماستك.. لكن أفضل أن تبقى هذه المشكلة داخل البيت. وعاد للشيزلونج ليطالع كتاب سامانتا للمرة الثالثة. كانت الرواية تحمل صوت ونبرات سامانتا. لقد وضعت فيها روحها، شعر بأنها رسالة كتبتها له تعبر عن حبها له قبل الجراحة.

لم يجد حلوى على الوسادة في الليلة التالية، وقد قدر أنه في الطريق إلى عالم البارانويا من جديد. كما كان في فترة مرضه عندما كان نقص الأكسجين الواصل لمخه يجعله يهلوس.

نظف أسنانه وارتدى المنامة وقد قرر أن يتغلب على شكوكه ومخاوفه.

عاد لغرفة النوم فوجد على الفراش قلبا صغيرا من ذهب يتدلى من قلادة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتح خزانة الحائط ذات الأرقام السرية وبحث عن المسدس عيار 9 ملم وأخذه وأغلق الباب.

لم يكن يخشى الموت لكنه لم يعش كل هذه الفترة كي يموت ببساطة. غادر الخزانة وعبر غرفة النوم حافيا وأضاء النور. المزلاج مغلق من الداخل. فتح النافذة متوقعا أن يرى وجها مقنعا ينظر له، لكنه لم ير أحدا ينتظره، والناقدة مغلقة من الداخل. عاد للغرفة ورمق وجهه الصارم في المرآة، والمسدس الضخم في يده..

فتش في الردهة، فتش في كل مكان.. كل شيء مغلق.

دخل الحمام حافي القدمين يمشي على الأرض الرخامية.. لا أحد هناك. باب يقود لدورة الماء وباب يقود لمخزن بياضات. أزاح الثياب المعلقة متوقعا أن يجد رجلا يتوارى هناك.

لا يوجد صوت غريب سوى ضوضاء خفيفة في العلية.. ثم أدرك أن هذا صوت مطر.

لا أحد.. لكن بالتأكيد كان هناك أحد..

أمسك بالقلادة من جديد كأنها مسحورة وكأن لمستها ستنقل له طاقة روحية.. قلب القلب الصغير فوجد حَفْرًا على ظهره:

كُن لي

حمد الله على أن القلادة لا تنفتح.. لو كانت تنفتح لكان بداخلها شيء كريه لا يتمنى أن يراه.

فجأة تذكر الخزانة في رعب لقد أخذ منها المسدس وأغلقها.. هرع نحوها فقرأ كلمة Secure آمنة بيد مرتجفة طلب الرقم السري فظهرت كلمة Acess مسموح بالدخول. كان هناك أربعمئة ألف دولار في الخزانة للطوارئ.. وساعتان ثمينتان وأزرار قميص ماسية.. كل شيء كان في مكانه. وفي علبة من القطيفة كان خاتم زواج بثمانين ألف دولار هو خاتم الزواج الذي حاول أن يقنع سامانتا بارتدائه. هنا اكتشف اختفاء أشياء.. القلوب المصنوعة من الحلوى والكيس الذي وضعت فيه.. كان قد وضعها هنا أمس.

لاحظ أيضا بعد دقائق أن العلبة التي تحوي طلقات المسدس قد اختفت. علبة مليئة بالثقل والموت.. لن تختفي

بسهولة. تفحص المسدس فاكتشف أنه خال من الطلقات بدوره.

راح يركض في المنزل يفتش من غرفة لغرفة.. وهو يحمل مسدسا لا قيمة له. كان يشعر بالإهانة من سخرية الذي اقتحم بيته.

-14-

قرر ريان أنه لن يحشو المسدس ثانية ويعيد استخدامه قبل أن يفحصه خبير أسلحة، فلربما عبث المتسلل بالمسدس لينفجر في وجهه وهو لا يعلم ما يكفي عن الأسلحة.

خطر له أن المتسلل يعرف الكثير عن البيت لذا راح يفتش عن شيء آخر.

معظم هذه البيوت هائلة الحجم فيها غرفة هلع يختفي فيها صاحب البيت في وقت الهجوم أو السطو. اتجه إلى الغرفة وفتحها.. كانت مزودة بدائرة كهربية مستقلة عن كهرباء البيت.. يمكن للمتسلل أن يمزق البيت كله لكن تظل هذه آمنة. بها طعام ومعلبات وماء ودورة مياه صغيرة بمرحاض كيميائي.. هناك فراش ومقعدان كذلك..

على الفراش وجد الكيس الذي كان يحوي قلوب الحلوى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راح ريان يتفحص ما التقطته كاميرات المراقبة الموجودة في الردهة. ضبط التوقيت على الوقت الذي دخل فيه الحمام لينظف أسنانه.. لكن الكاميرا لم تظهر أي شخص يدخل ليضع القلادة على الوسادة.. لم يخرج أحد من خزانة الثياب. لم يفارق أحد الجناح.. كما لم يكن هناك أحد عندما فتش المكان..

كان يؤمن أن هذه ليست ظاهرة سحرية.. هناك تفسير عقلاني أكيد.

راح يتفحص الأفلام التي تم التقاطها للبيت من الخارج، وهي أفلام يتم مسحها بعد 30 يوما ما لم تأمر النظام بغير ذلك، ليلة أمس رأى من النافذة امرأة تضع قلنسوة ومعطفا وتمشي تحت المطر.. لم يتبين من هي لكنها كانت تقف قرب المنزل

لا صورة واحدة لهذه المرأة..

لسبب ما عاد ليفتح الخزانة التي غير أرقامها. هنا اكتشف أن المسدس اختفى كما اختفى الرصاص.

لقد صار من المستحيل أن ينام في هذا البيت.. لا توجد غرفة واحدة آمنة حتى لو نام في خزانة البياضات.. هل ينام في فندق؟ لكنه استشاط غضبا من الفكرة.. هو لم ينج من زرع قلب كي يفر هلعا من مقالب شخص سخيف.

بلا سلاح هرع إلى المطبخ ليجد سكينا.. عاد بها لغرفة النوم ورقد فوق الوسائد يشاهد (سيتكوم) سخيفة في التلفزيون. راح يفكر.. إنه يتعاطى 28 دواء، فلربما يحدث أحدها أعراضا جانبية منها الهلوسة.

لكنه كان يعرف أنه لا يهلوس.

ظل يقرأ في كتاب سامانتا حتى غلبه النوم.. وتمنى أن يحلم.. منذ الجراحة لم يحلم قط.. وقد شعر أن الحلم قد يهدئ من مخاوفه نوعا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الملصق خلف نافذة المتجر يظهر سامانتا وغلاف كتابها، مع عنوان يقول إنها ستوقع النسخ منذ الظهر. لم يكن ريان يشعر بأن هذا مكانه لكنه ذهب على كل حال، وجد عبارة تقول: أفضل المبيعات حسب «نيويورك تايمز». لم يكن يدرك أن الكتاب نجح بهذا الشكل.

وقف بعيدا يراقب سامانتا وسط الزحام، وخطر له أن قلبه الجديد يعمل بكل قدرات قلبه القديم.

في الثانية والنصف غادرت سامانتا متجر الكتب مع سيدة مبهجة المنظر. وكان ريان يكره الدنو من سامانتا وهي مع وكيل نشر أو ناشر. لكن بدا واضحا أن المرأة التي ترافقها هي صاحبة متجر الكتب وقد صافحت سامانتا وودعتها.

ابتعدت سامانتا دون أن تلاحظ ريان وهي تعبث في حقيبتها بحثا عن المفاتيح.

رفعت عينها فرأته.. وكان هو قد نسى كيف كان ينوى أن يبدأها الكلام. الحقيقة أنهما لم يريا بعضهما منذ ستة أشهر ولم يتكلما منذ سبعة [1]. رأى في عينيها نظرة آلمته جدا أكثر مما لو أظهرت الكره والاشمئزاز. قال لها:

- انظري لحالك؟ كيف أنت؟

- وكيف أنت؟

- بخير يا سام.. وصلتني أخبار الكتاب الناجح.

قالت في حزن:

- ليس هذا دليلا على أنني حققت أكثر من معجزة مرة واحدة.

- لكن الكتاب الثاني قادم حتما....

ابتسمت وقالت:

- لا يوجد شيء يقلق جون جريشام على كل حال.

تمنى لو طوق كتفها لكنه خاف من أن تنكمش وتتصلب. طلب منها أن تجلس فوافقت قائلة إن الشمس ممتازة. جلسا هناك وقال لها وهو يقلب صفحات الرواية:

- لم أتوقع أنها بهذه الجودة.

- لا أدع أحدا يقرأ ما أكتبه أثناء الكتابة.. هي عملية تحتاج للوحدة.

- لكنك هناك.. كما يرقد قاع البحر بأسراره تحت غمامة من البلانكتون والأحياء المائية.

قالت:

- أنا بالفعل هناك.. تحت البلانكتون.

ساد الصمت ثم سألها:

- سامانتا.. أحاول طيلة الوقت فهم ما الذي افتقدته.

- حاولت طيلة علاقتنا أن أخبرك.. ليس هذا عيبا يمكن إصلاحه.. ليس عيبا مثل طريقة أكلك أو رائحة فمك.. الأسوأ أن تحاول أن تغير هذا الشيء كي ترضيني.

- سامانتا.. أنا ضائع.

- أعرف هذا يا عزيزي.. أعرفه.

أمسك بيدها وشعر بامتنان لأنها تركت له يدها وقال:

- لو عرفت هذا الشيء لحققته لك.. يمكن أن نبدأ من جديد.

- تأخر الوقت يا ريان.. صدقني ليس هناك أحد في حياتي.. أنا سعيدة بهذا الشكل. لربما فيما بعد يظهر أحدهم في حياتي.

- لكنك تحبينني.. مستحيل أن تحبيني ثم تتوقفي.

- أنا لم أتوقف.. أنا أحبك.. لكني لن أكون في علاقة حب معك.

- أنت تتلاعبين بالكلمات.. هلا قلت لي غلطتي؟

- أنت لم ترتكب أخطاء.

ثم اعتصرت يده بقوة حتى إنها آلمته وقالت:

- دعني أتذكر الوقت الذي كنت أحبك فيه ودعني أتذكر هذه المحادثة يا ونكي...

ونزعت يدها ثم نهضت.. استدارت للخلف كأنها مترددة ثم ابتعدت..

ظل ريان على المقعد في ضوء الشمس.. لاحظ امرأة آسيوية تقف على بعد عشرين قدما أمام المتجر. لابد أنها كانت تراقبه سامانتا. في كل يد تحمل باقة من زهور السوسن ملفوفة بشريط أزرق. خطر له أنها ضائعة مثله... لا يمكنها أن تساعده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-15-

جاء صوت من الخلف، يقول:

- مرحبا.. مرحبا.

استدار ليرى المرأة الآسيوية ذات الزهر.. كانت في العشرينيات من العمر رائعة الجمال لها شعر أسود براق مزيج هي من أوروبية وآسيوية. قالت له:

- أنت تعرفها.. تعرف المؤلفة.

- كانت صديقة قديمة.

- تكتب جيدا.. هذا كتاب جميل.

اعتذر في أدب لأنه يجب أن ينصرف.. فمدت يدها بالزهر له وقالت:

- بوسعي أن أرى الحزن بينكما سوف يفيدك هذا الزهر أكثر مما يفيدني أنا.

ودفعت بالزهر بقوة في صدره حتى إن إحدى الزهور تهشمت.. ووجد نفسه يمسك بالقمع السيلوفين الذي يحوي الباقة.

فجأة شعر بخط من نار عبر جانبه الأيسر، وأحس بألم حاد ثم شيء يتمزق.. هنا رأى نصل المطواة!

سقط الزهر من يده فهتفت المرأة:

- يمكنني أن أقتلك متى أردت ذلك.

مذهولاً ممسكا بجرحه استند إلى سيارة.. وراها تبتعد عنه مسرعة لكنها لم تجر.

لقد كان النصل حادا ومزق قميصه بنظافة.. كان الجرح مجرد قطع سطحي طوله أربع بوصات.. لا يحتاج لخياطة. رفع عينه فرأى أن جسدها الصغير يوشك على الاختفاء بين السيارات.. الصدمة أخرسته.. كاد يصرخ طلبا للعون فلم يخرج سوى أزيز..

لقد ذابت المرأة تماما وسط الزحام. لقد فشل في أن يعلن عن نفسه..

زحف للسيارة الفورد وبحث عن المفاتيح في جيبه، بينما العرق يغمر قميصه.. تناول قطعة قماش من التابلوه وضغط بها على الجرح. غسل يده الدامية بالماء من زجاجة كانت هناك. عليه أن يبتعد، فمن الوارد أن تعود المرأة ثانية.. انطلق بالسيارة مسرعا، وكانت مجهزة بحيث يسمع المكالمات دون سماعة..

دق جرس الهاتف فقال نعم.. جاء صوت المرأة يقول:

- كيف حال الألم؟

- ماذا تريدين؟.. من أنت؟

- أنا صوت السوسن.

قال في غيظ:

- تكلمي كلاما معقولا.. أنت تتحدثين باسم الزوجين تينج أليس كذلك؟ أنا طردتهما لكني منحتهما خطاب توصية وراتب عامين،

- الأمر لا يتعلق بآل تينج.. أنت تحسب أن الأمر يتعلق بهما لأن عيني آسيويتان مثلهم.

- إذن ماذا هنالك؟

- أنت تعرف.

- لو كنت أعرف لما سمحت لك بالدنو منى بحيث تجرحيني.

- هل أنت حقا بهذا الغباء؟

فكر في بارجست والجثث المحفوظة.. لكنه لا يجد أي رابط بين الاثنين.

قالت ضاغطة على كلامها:

- قلبك ملك لي.. أريد أن أسترده.

لم يعرف كيف يرد.. فواصلت:

- قلبك ملك لي.

ثم انفجرت في البكاء

قدر أنها مجنونة تماما فلن يجدي الكلام العاقل معها.. وهنا وضعت السماعة..

لقد تغير ضوء الإشارة ولم يتحرك.. لذا راحت أبواق السيارات تدوي من خلفه..

كانت السماء صافية كأنها سلطانية مقلوبة لكن نشرة الأخبار تتوقع المطر.

أدرك أنها ستعود.. ستعود برغم المطر.. ترتدى قلنسوة ولن تمنعها الأقفال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف في المرآب بعد ما أوقف السيارة.

أسعده أنه لا أحد هنالك فألقى بقطعة القماش الدامية. اتجه للحمام فغسل الجرح بالكحول ثم مسحه باليود.. جعل الألم مخه يصفو، بدّل ثيابه وقد بدأ الألم يتلاشى.

طلب العشاء في غرفة النوم ثم صب لنفسه بعض الخمر المعتقة، واتصل بعيادة د. هوب قائلا إنه مريض زرع قلب وهو في حاجة إلى موعد عاجل. بعد 11 دقيقة اتصل به د. هوب.. فقال له:

- آسف لإزعاجك. الأمر لا يتعلق بمشكلة صحية.. لا أعرف كيف أصف..

- حاول..

- سأحاول التعبير بكلمات.. أريد معرفة الفتاة التي أخذت قلبها.

- تعرف أنها مدرسة ضحية حادث.. في السادسة والعشرين..

- أريد صورة لها.

- بعض الأسر ترفض تماما نشر صور أحبائها الذين منحوا أعضاءهم.. يفضلون أن يبقى حزنهم سرا.

- لقد تكلف الأمر بالجراحة ونفقات الطائرات 1.6 مليون دولار.. وأنا سأمنح أسرتها 500 ألف دولار إضافية مقابل صورة الفتاة.

- رباه!

- أنا في ركن ضيق لا أستطيع الفرار.. لابد لي من أن أعرف من منحتني قلبها.

قال الطبيب بعد صمت:

- سأحاول مساعدتك.. لكني بالفعل أريد فهم سبب إصرارك.

قال ريان عذرا واهيا لا يقنع أحدا:

- مشكلة روحية.. هي ماتت كي أعيش أنا.. بالتأكيد هي كانت أفضل مني.. أريد أن أتمكن من تكريمها بما يليق.

قال الطبيب:

- هذا شيء غير معتاد لكنه حدث كثيرا.. سوف أحاول أن أعرف من المتبرع.

- أريد أن يتم هذا خلال أربع وعشرين ساعة.

تجاهل الطبيب هذا التعليق وقال ببرود:

- الأزمات الروحية تدوم أعواما.. لا يوجد شيء يدعو للاستعجال.

قال ريان:

- القضية هنا تختلف.. شكرا على عونك وإدراكك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-16-

جلس يلتهم الطعام وهو يفكر في قصة الفتاة.. لقد كانت تستعمل المطواة ببراعة مذهولة، لكنها ليست براعة من تمرس في قتال الشوارع.. لم يكن هذا شغل جزارين ولكنه نوع راق من باليه القتل. برغم كل ما حدث كان سعيدا.. كان قد قرر أن ما مر به من بارانويا والقلوب الحلوى.. إلخ.. كلها هلاوس من عقله الذي بدأ يتفسخ، لكن الآن لديه دليل لا شك فيه على صحة شكوكه.

لم يكن ينوى أن يقحم الشرطة في القصة ما لم يعرف دوافع ما يحدث.. بل حتى وقتها لن يفعل.

المرأة أرادت أن تفزعه فقط.. لكنها لو أرادته قتيلًا لظفرت بما تريد..

عاد يتفحص كاميرات المراقبة التي تسجل ما يدور حول البيت من 124 ساعة.. لم يجد شيئا ولم ير امرأة تتسلل.. هذا يوحي بأن هناك من كان يعطل الكاميرات.. وهذا يدل على أن المرأة لم تكن تعمل وحدها بل هناك مساعد لها..

فجأة رأى صورة شيء عملاق وردى يخفق وتنبعث منه الدماء..

للحظة لم يفهم ما هذا الذي يراه على الشاشة، ثم أدرك بالتدقيق أن هذا شريط فيديو لقلب بشري في صدر مفتوح الضلوع.

لم يمس الريموت لكن الشاشة انقسمت لأجزاء تظهر نفس المشهد، ثم انقسمت أكثر..

لم يكن هذا عرضا في الوقت الحقيقي. كان فيلما تسجيليا لجراحة القلب. تراجعت الكاميرا فظهرت يدا الجراح..

وبدأت الشاشات تظلم واحدة تلو أخرى.

لم يكن ريان بحاجة لطلب رأي خبير.. لقد تم اقتحام النظام وقد تم مسح ثلاثين يوما من مراقبة الكاميرات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راح ريان يقلب في ملفاته بالمكتب بحثا عن صورة تيريزا ريتش.. الصورة التي سرقها من شقة بارجست.

منذ 16 شهرا كان يؤمن أن هذه الصورة سوف تنير الضباب الذي يغلف حياته منذ زمن.. لكنه لم ير ما يفيد. وقتها اعتقد أنها البارانويا لكنه يشعر بحاجته إلى أن يعود لهذا الوجه ثانية.

جلس على النضد فدق الهاتف.. لم يعرف شخصية المتكلم.

التقط السماعة فجاء صوت المرأة ذات أزهار السوسن تقول:

- راجع حساباتك.. هناك تحويل بمئة ألف دولار لأبحاث القلب، أعتقد أن هذا يؤلمك أكثر من الجرح.

لم يلعب لعبتها وسألها:

- من أنتم؟

- هناك أنا فقط.

- كذابة.. لابد أنكم مؤسسة.

- أنا أعمل وحدي.. وعلى كل حال أنت ميت في جميع الظروف.

وضع سماعة الهاتف قبل أن تكمل الكلام.

اتجه لجناح النوم ولم يغلق الأبواب.

كان يعرف أنه سيتعذب بقوة قبل الدورة القادمة لذا لم يهتم بوضع سكين تحت الوسادة.

صب لنفسه كأسا ثالثة.. كان د. هوب قد نصحه بعدم الشرب لأن الكحول قد يعوق امتصاص واحد من الأدوية الـ 28.

جلس في الفراش مع كتاب سامانتا ونام هو يقرأ.. حلم بمحتويات كتابها.

في الثامنة والربع أيقظته مكالمة من د. دوجال هوب.. لقد تلقى الجراح صورة بالبريد الإلكتروني للابنة التي يخفق قلبها اليوم في صدره.

- كما فهمت هم يريدون أن يخبروك باسمها الأول وليس اسم الأسرة.. وقد شرحت لهم أنك مصاب بحالة روحية من الحيرة.. لقد رفضوا أن تدفع لهم أي مبلغ.

- هذا غير متوقع.. أنا مسرور.

- هم أناس رائعون.. لهذا يجب أن تقسم لي أنك لن تتكلم عن الفتاة أو تستعمل صورتها.

قال ريان:

- الصورة والاسم لي فقط.

- أنا أرسل لك إيميلا بكل شيء في هذه اللحظة.

- أشكرك بشدة على اهتمامك بمطلبي.

ثم هرع إلى الإيميل وفتح كي يرى رسالة د. هوب.

فيما عدا لون الشعر، فقد بدت له الفتاة قريبة متوفاة للفتاة ذات المطواة. كان اسمها (ليلي).. ليلي معناها (سوسن).

كان شكل فمها يوحي بأكثر من الثقة.. ربما التحدي.

جلس يدرس صورة ليلى على النضد. وقدر أنها توأم المرأة التي هاجمته.. لا شك في هذا.

قالت له: أنا صوت السوسن.

وضع صورتها جوار صورة تيريزا بيرش. الأولى حية والأخرى ميتة.. كلتاهما في حادث سيارة. وكلتاهما لها توءم عاشت بعدها.

كلما تأمل الأمر ازداد عدم راحة.. لقد أدرك أن دوامة حقيقية توشك على الاكتمال وسرعان ما تضربه بقوة تسونامي.

كان يعرف أن التوءمين المتشابهين، عندما يظل أحدهما حيا بعد أخيه يشعر بذنب شديد...خاصة لو كانت توءم ليلي تقود السيارة وقت الحادث الذي قتل الأخت..

ظل يتأمل صورة تيريزا.. ما زال يشعر بشكل يقيني أنها تحوي الإجابة على أسئلته كلها.

في التاسعة والربع اتصل بـ ويلسون موت الذي كان يسره سماع صوته..

قال له:

- سأطير لـ لاس فيجاس عصرا... هل جورج زين وكاتى سيينا ما زالا يعملان معك؟

- ما زالا هناك.

- أنا بحاجة لتكرار زيارتي للسيد....

- سنبذل قصارى جهدنا.

وضع ريان الصورتين في مظروفين. ووقف في الجناح الدافئ جوار المنضدة الأنيقة. بدأ يرتجف.. وتملك منه الرعب.. لم يفهم ما أثار رعبه لكنه أدرك أن الإجابة قريبة جدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-17-

كانت السماء رمادية في ذلك العصر في لاس فيجاس. كأنها وجه مقامر يقف أمام منضدة القمار وقد فقد كل ماله.

وفي مهبط الطائرات الخاص كان جورج زين ينتظر بسيارة مرسيدس سيدان، وقد بدا أقوى من سيارته. فتح الباب الخلفي لريان وقال:

- عصرا طيبا يا مستر بيري.

- يسرني أن أراك يا جورج يبدو أن جوا سيئا قادم في الطريق.

واتجهت السيارة إلى خارج المطار.. بينما سأل ريان السائق:

- هل تعتقد أن بارجست سوف يفارق شقته الليلة؟ هل نتمكن من الدخول؟

- نحن ذاهبان إلى هناك فعلًا.. لقد سافر ولن يعود قبل الأربعاء.. يحضر مؤتمرا عن تقليل عدد البشرية.. لديهم خطط ممتازة لكنهم بحاجة إلى أن يقنعونا.

وطارت بعض أوراق الصحف في الهواء عند المنحني. قال ريان:

- أليس من الحكمة أن ننتظر حتى الليل؟

- من الأفضل لتقليل الشبهات أن تتحرك في ضوء النهار....

بدا بيت (دكتور موت) عاديا كأي بيت في الجيرة. مما جعل ريان يتساءل عما يدور في البيوت الأخرى. دخل جورج المرآب

وكانت كاتي قد وصلت منذ فترة، وقد وقفت عند مدخل البيت. ارتفع باب المرآب فحيت ريان وصافحته.. العينان الجرانيت الرماديتان.. قالت له:

- لم أحسب أن الأمر سيروق لك لهذه الدرجة في آخر مرة.

- لم تكن ديزني لاند.. لكنها صعبة النسيان.

وفي المطبخ شرح لهما ريان أنه يريد التفتيش عن خزائن سرية أو ملفات مخفية يحتفظ فيها بارجست بقضايا الانتحار التي تسبب فيها. وهو سيراجع الملفات التي تضم صور الموتى. لم يكن صاحب البيت قد أضاف تحفا جديدة للمجموعة. كان هناك ملف صور جديد فتناوله وراح يقلبه. وجد صورة لرجل في السبعين من عمره ووجد صورة لصبي أزرق العينين. هناك إحدى عشرة وفاة في 16 شهرا.. هذا الرجل يعمل بانتظام.

لاحظ فجأة نسخة من كتاب سامانتا على المكتب موضوع ووجهه لأسفل. بعد تردد التقط الكتاب وسره أن المؤلفة لم تكتب إهداء أو تعليقا. من المفهوم أن يقوم بارجست بشراء نسخة من الكتاب.. لقد كان على علاقة بأم المؤلفة طيلة ستة أعوام.. بل إنه ساعد أخت المؤلفة كي تموت. سَمِّ هذا قتلًا أو رحمة.. هذا ليس شأننا بل شأن تيريزا التي ماتت.. وبما أنه لا يوجد وسيط روحاني موثوق فيه فنحن لن نعرف أبدا.

راح يقلب الصور بحثا عن شيء لم يخطر له في المرة الأولى.

فجأة وجد صورة جديدة لم تكن موجودة.. صورة شخص يعرفه جيدا....

راح قلبه يخفق في جزع مثلما كان عندما طعنته أخت ليلى.. لقد تعرف المرأة الموجودة في الصورة.

أنا هنا.. أنا أراقبك.

الجلد الناعم الأسمر..

لا تحبس أنفاسك.

العينان الخضراوان بلون الزمرد..

بعد 12 صورة من تيريزا التي ماتت منذ ستة أعوام.. هنا صورة إحدى الممرضتين اللتين ساعدتا د. جوبتا في أخذ عينة القلب.. كان اسمها إزماي كليم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الريح تعبث في أوراق الشجر في الخارج بينما هو يتأمل الصورة في ذهول.. هل هذه نقطة الارتكاز التي تؤكد له أنه لا يهذي؟.. هناك مؤامرة حقيقية عليه. صوت دقات من غرفة أخرى لابد أنه زين والفتاة يضربان على الجدران لاستبعاد وجود باب سري.

يستطيع الاتصال بدكتور جوبتا كي يسأله عن هذه الممرضة بعد ما تركه بلا إنذار كي يفحصه طبيب آخر هو هوب.

انتزع الصورة الميتة من الملف ووضعها في جيبه.. بينما الريح تزداد حدة في الخارج كأنها موسي تنزع الجلد عن أي بقعة عارية. وبدأت السحب تتحرك في غبار أصفر. تناول من مظروف صور تيريزا ريتش وليلى ووضعهما جوار صورة إزماي كليم.

كان يقف الآن في العراء شاعرا بالضياع.. حياته كلها تتجه في طريق آخر. ليس من طريق ولا مكان يذهب له سوى بيته.. وبعد وقت طال أو قصر سوف يشق أحدهم صدره بالسكين لينزع قلبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء صوت المرأة واندا عبر الهاتف.. المرأة التي كانت زميلة إزماى كليم والتي وجدها ببعض البحث في استعلامات الهاتف.. قالت له:

-- كان زواج إزماى خطأ.. أول زوج لها يدعى ريجي وقد قالت إنه قديس.. لكنه مات وهي في الأربعين. تزوجت بعد سبع سنوات من ألفين.. كانت تحبه برغمه.. ظلت معه ثمانية أعوام حتى سقطت من درجات سلم وهشمت مؤخرة جمجمتها على الخرسانة. لا تسئ فهمي يا بني.. أنا لا أتهم أحدا أو ألوث سمعة شخص. لم أر حلقة بوليسية في حياتي. لكن هناك رجال شرطة كثيرين في القصة ولا بد أنهم يعرفون ما يفعلون. قالوا إنه حادث. لا أفهم لماذا ظفر ألفين بنقود التأمين وتزوج امرأة أخرى بعد شهر.. لربما أضنته الوحدة.

- هل ماتت في السقطة؟

- لا.. أجروا عليها جراحة كبرى.. لم تكن تعرف من هي وكان مخها منتفخا.. ثم استعادت وعيها. وصارت إزماى من جديد. ثم أصيبت بنوبة قلبية قوية بينما ألفين يزورها.. ليرحمها الله.

عاد يسألها سؤالا مهما:

- متى ماتت إزماى؟

- ثلاثة أعوام... أحضر لها ألفين وشاحا من حرير.. لابد أنه راق لها إلى درجة أنها أصيبت بنوبة قلبية.

لو كانت واندا محقة، فلابد أن إزماي ماتت منذ 31 شهرا قبل الجراحة التي قابلها فيها ريان.

قالت واندا:

قابلت ألفين في رأس السنة على شبكة الإنترنت.. الإنترنت هي ملعب الشيطان.. لو لم تدخل الإنترنت لظلت في دنفر مع أختها. دنفر.. ولدت هناك.. ثم انتقلت لتعيش في نيوبورت.

- وأختها ما زالت حية؟

- أختها تدعى إزمينا.. لم تتزوج.. فتاة رائعة.

- هل كنت على اتصال بإزمينا؟

- اسمها قبل الزواج إزمينا مون.. أما ألفين فمنح زوجته لقب كليم..

إن إزمينا تعيش في نفس البيت الذي عاشت فيه إزماي..

- كما قلت.. كانت إزماى كريمة معي جدا في وقت صعب من حياتي.. أردت أن أرد لها. لكني بحاجة ماسة إلى لقاء الأخت إزمينا.

- إزمينا تفتقد إزماي.. سوف يروق لها أن يزورها شاب مهذب لديه ذكريات جميلة عن أختها.. سوف أعطيك الرقم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-18-

في رحلة العودة بالمرسيدس إلى المطار، راح ريان يتفحص صور الثلاث النساء..

صارت الأضواء تتراقص بفعل الريح في التقاطعات.. وتساقطت سعاف النخيل.. وخلت الشوارع من المارة.. بدا الأمر كأنها غضبة طبيعة لو رآها وثني لقدم القرابين للطبيعة كي تهدأ..

أعاد الصور للمظروف وقال لكاتي وجون:

- سوف أطير لدنفر من هنا.. لا أعتقد أنني سأحتاج لأحد هناك. أريد شخصا معه رخصة.

قال جورج زين:

- لا مشكلة لدينا في الذهاب لكولورادو.. كاتي مدربة على السلاح مثلي.. بل هي أفضل منى.

قالت كاتي:

- معي في حقيبتي طاقم واحد من الثياب.. لا أستطيع الذهاب لكولورادو.

قال ريان:

- لن تحتاجي لأكثر من هذا سنعود لكاليفورنيا غدا.

كان بحاجة إلى رفقة أكثر مما يحتاج لحماية سلاح.. لقد قضى فترة طويلة وحيدا العام الماضي. كان كذلك بحاجة إلى أن

يوجه سؤالا لكاتي.. لا يعرف كنه السؤال.. ما زال يتشكل في مؤخرة عقله.

انطلقت الطائرة إلى كولورادو.. نهض ليدخل الحمام..

ركع على ركبتيه وتقيا في المرحاض. لقد صارت معدته عصبية جدا مؤخرا. وأثار هلعه مدى شعوب أنامله، جلس على المرحاض وهو يشعر بوهن في قدميه.. يداه ترتجفان.

سمع قرعات على الباب فارتجف.. كان هذا صوت كاتي تسأله:

- هل أنت بخير؟

شرح لها:

- مجرد دوار من الجو.. فقط أعطيني دقيقة.

لم يكن هذا دوار جو.. كان يشعر بغثيان من الخوف.. مما قد يجده في بيت إزمينا مون في دنفر.

وسط السحب هبطت الطائرة لتظهر دنفر متوهجة في هواء المساء.

كان قد اتصل بإيزمينا وأخبرها أن أختها الميتة قد أسدت له خدمة.. وهو يريد أن يزورها ليعرف أكثر عن إزماى. ثم إنه رتب سيارة كاديلاك تنتظره في المطار.

وضعا الحقائب في مؤخرة الكاديلاك وطلب من كاتي أن تقود.. وراح يقرأ عنوان إزمينا من مفكرة.

راحت كاتي تقود ببراعة.. كانت تبتسم مما أعطاه الانطباع أنها تجد راحة أفضل مع الآلات. سألته:

- هل لي أن أعرف لماذا نحن هنا؟

أخبرها بقصة إزماى كليم أثناء جراحة أخذ العينة.. ثم عرف أن الممرضة ماتت.

لم يبد أي تعبير على وجه كاتي.. ثم سألته:

- ما معنى هذا؟

- إزمينا وإزماي توءمان متشابهان.

هل تعتقد أن إزمينا حضرت الجراحة؟ لكنها كانت تستعمل اسم إزماي؟

- هذا ما أحاول معرفته.

وساد الصمت فيما عدا صوت المرأة الآلي عبر جهاز التوجيه.

كانت كاتي قد تعلمت أن تصغى باهتمام إلى ما يخبرها به العميل، وأن تتجاهل تماما كل ما لا يقوله الزبون. ظهرت الساحة بأشجار البلوط وكنيسة عتيقة.. قبل أن يعلن الجهاز اقتراب منحنى أخير إلى اليسار.

قال لها:

- توقفي... أعرف هذا المكان.. لربما مشينا لبيتها.

لم تكن ثيابهما ثقيلة بما يكفي، لكنهما دسا الأيدي في الجيوب ومشيا نحو الكنيسة والغابة حولها. كانت هناك طبقة

ثلج رقيقة لم تفسدها بعد أقدام الصبية.. قال لكاتي:

- كنت هنا منذ 16 شهرا.. كنت أسمع صوت أوراق الأشجار تحف. وخطر لي إنني كنت أحب هذا الصوت.. ثم فطنت إلى أنني لم أسمعه من قبل.. لقد كانت ظاهرة ديجافو قوية.

وشعر بلسعة البرد في حلمتي أذنيه. ودمعت عيناه. رأى مقبرة لم يرها من قبل.. فتوقف، وهمس:

- أراهن أنها مدفونة هنا.

- هل تعني إزماي كليم؟

- نعم.

وعبرا المقبرة ليظهر شارع من صف مبان واحد. البيت السادس كان بيت إزمينا مون. كان مضاء. دق ريان مقبض الباب ففتحت له امرأة جميلة القسمات في الستين من عمرها.. كان لها شعر أبيض وعينان واسعتان. ثيابها السود وكماها المرفوعان أوحيا بأنها كانت عائدة من صلاة المساء. قال لها:

: أنا على موعد مع إزمينا كليم.

قالت المرأة:

- هي أنا.. يسعدني أن أراك.. هلم.. سوف تصابان بالتهاب رئوي.

إزمينا وإزماى لم تكونا توءمين من أي نوع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-19-

بالداخل أعدت إزمينا القهوة لهما ثم صبتها.. ومعه كعك جميل الشكل. كانت امرأة لطيفة كريمة وقد بدا أنها سعيدة بالكلام في موضوعها المفضل: أختها.

كانت نظرية التوءمين المتشابهين التي تبناها لفترة قد تلاشت تماما..

قالت إزمينا:

- أفهم كيف أن تشابه الأسماء قد سبب لك ربكة.. لكن كلها تنويعات على اسم (آمي).. وهو اسم شائع في العصر الفكتوري.

نهض ريان إلى رف فوق مدفأة حيث تجد عددا من الكتب العتيقة المجلدة بأناقة. كانت مجموعات كاملة لديكنز وويلكي كولينز. وتوقف أمام تمثال رخامي ضخم غراب.

قالت إزمينا:

- كانت إزماى تحب هذا.. أردت تثبيته على مدخل الباب كما في القصيدة لكني أكره تعليق أشياء ثقيلة فوق رأسي.. كانت تعشق أشعار بو.. كانت تحفظ كل قصائده ما عدا قصيدة العراف.

شعر ريان برعب وهو يتذكر الإيقاع المتكرر المميز لشعر بو والذي يتمشى مع الجو المقبض المخيم على حياته. قال بصوت مبحوح للسيدة:

- لاحظت أن عندك عدة نسخ من أشعار بو.

- كانت إزماى تبتاع الأشعار في كل مرة تجد طبعة جديدة.. لكن ما زلت أحاول فهم أي خدمة أسدتها لك حتى دفعتك لعناء السفر لبيتها.

جلس على الأريكة جوار كاتي وبدأ يلفق قصة بعيدة عن الحقيقة..

لم يذكر شيئا عن الجراحة وزرع القلب لكنه زعم أنها دعامة. كان مذعورا فطيبت إزماي خاطره لعدة ساعات في المستشفى.. لابد أنه أجاد الكذب لأن الدموع ملأت عيني إزمينا وقالت:

- هذه هي بالفعل.. إزماى كانت تعطي.. طيلة الوقت تعطي.

ارتدت إزمينا معطفا واصطحبت ريان وكاتي عبر الشارع نحو المقبرة.. قادتهما إلى قبر إزماى وسلطت الضوء على شاهد القبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السيارة ظل صامتا.. لم يكن لديه مزاج ليتكلم أو يصغى. ظلت كاتي صامتة مفكرة.

في مصعد الفندق كانت غرفتها تقع تحت غرفته بأربعة طوابق. قالت له والباب ينفتح:

- نوما طيبا.

بدأت معدته تنقلب.. شعر بأنه موشك على القيء.

في غرفته أخذ الأدوية مع زجاجة بيرة من الثلاجة.. ابتلع قرصين وخمسة كبسولات ثم راح يطالع كتاب أشعار إدجار

آلان بو الذي أخذه من السيدة. وجد قصيدة اسمها البحيرة.. فطن في رعب إلى أنه يقابل هذه البحيرة كثيرا في أحلامه... وجد قصيدة أخرى اسمها القصر المسكون.. كانت تحكى قصة كوابيس أخرى..

لم يكن ريان مستعدا للغوص في بحار الاعتقاد بالخرافات.. هذا وقت خطر للغطس.

لم يكن يؤمن بالأشباح ولا يعتقد أن إزماي كانت تجعله يعيش في عوالم شاعرها المفضل.

سوف يحاول النوم وهو يعرف أنه لن يقدر على ذلك بحالته الحالية.. كان يشتهي نوما بلا أحلام.. لا يستطيع تحمل البقاء متيقظا.

اتجه للبار ليفعل الشيء الذي ما كان د. هوب ولا أي طبيب ليوافق عليه لمريض زرع قلب.. شرب الجين حتى الثمالة إلى أن فقد وعيه تقريبا.

كان الصداع يفتت رأسه وهو جالس جوار كاتي في الطائرة العائدة..

الإقلاع واضطراب معدته أوشكا على جعله يقيء الإفطار كله.

كانت الطائرة ذات مقاعد تعطيها طابع قاعات المؤتمرات. جلس مواجها كاتي فرفعت له عينها من جريدة تطالعها.

قال لها:

- أنت تجيدين السيطرة على النفس فعلا.. تجيدين إخفاء فضولك.

- مستر بيري.. الحياة تدهمنا بلا توقف بأمور لا نفهمها.. لو حاولت فهم هذه الأمور فلن يبقى لي وقت لأعيش الحياة التي أفهمها.

طلب كأسا من ماري الدموية وطلبت هي قهوة سوداء... ثم قالت:

- هناك أمور لا يجدر بالمرء أن يتكلم عنها على متن طائرة مع شخص غريب.

تأملها في اهتمام.. كانت رائعة الجمال لكنها لا تملك اكتمال سامانتا.. وصل الشراب فاكتشف فجأة أنه لا يريده. وجد نفسه يحكي لها قصته بالتفصيل..

قال لها:

- اعتقادي الخاص أن أخت ليلى التوءم كانت تقود السيارة وقت الحادث.. بعد الحادث شعرت بالذنب.. قامت بتحويل الذنب كما يقول علماء النفس عن طريق الإزاحة... هكذا صرت أنا المجرم لأنني أحمل قلب ليلي.

- هل هي خطرة؟

- جدا.

ثم راح يتأمل السحاب وسط أشعة الشمس وقال:

- الحياة بقلب شخص آخر.. لم أتصور قط أنه عبء ثقيل كما أنه شيء ملهم.

- لم هو عبء؟

- لأنك مرغمة ليس فقط على أن تعيشي لنفسك بل أن تعيشي لصاحب القلب.

فرغت من قهوتها وظلت صامتة تراقبه. ثم إنها سألته:

- مستر بيري.. سوف أسألك سؤالا مباشرا: هل تريد أن تموت؟

- لا.. أنا في الخامسة والثلاثين.

- هل تريد أن تموت؟

- لا.. بل أخاف الموت.

- إذن عليك أن تتخذ خطوات الحياة.. اذهب للسلطات لتحميك.. ثم قدم نفسك كضحية.

لم يستطع فهم ما كانت ترمى إليه. لكنه كان يعرف أنها زرعت حقيقة في روحه ولسوف يفهم كل شيء بهدوء. بينما الطائرة تعبر أريزونا إلى كاليفورنيا..

شعر بأنه غير راغب في العودة للبيت حيث لابد أن أخت ليلي تنتظره. ربما هرب إلى باريس أو روما.. لربما قضى حياته في الهرب ولن يؤذى ثروته... برغم هذا عاد لوطنه..

كان قد رتب ليموزين لتنقل كاتي إلى لوس أنجيليس.. دنت منه كاتي ولدهشته وضعت حقيبتها على الأرض واحتضنته.

كانت لمستها تحمل أكثر من الحب.. همست في أذنه بشيء ثم عادت للعربة..

راح يفكر في الهرب.. إلى سان فرانسسكو إلى بورتلاند.. سولت ليك.. أماريللو.

دق جرس الهاتف.. كان هذا أباه..

صاح الرجل:

- إلى أي حد أنت غارق في المتاعب؟ ماذا أفعل معك؟

- ماذا يجرى يا أبي؟

- البنفسجي يحدث هنا.. هلم تعال.

للحظة تصور ريان أن أباه قال violence بمعنى (العنف) يحدث هنا.. ثم أدرك أن الرجل يقصد اسم فيوليت Violet. قال الأب:

- ماذا تفعل مع عاهرة مجنونة كهذه؟.. هل جننت يا فتى؟ أبعدها من هنا حالا.

ليلي وفيوليت.. السوسن والبنفسج... شقيقتان للأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-20-

منذ تسعة أعوام ابتاع ريان بيتين لأبيه وأمه.. جانيس وجيمي.. وجعل لهما معاشا شهريا. لم يكن يشعر بأنه مدين لهما بشيء بسبب اللامبالاة التي رباه بها.. لامبالاة صارت أحيانا قسوة وجنونا. لكنه كان شهيرا في عالم البيزنس، والإعلام يسعده أن يجعل منه خروف أضحية.. لا يجرؤ على ترك أبويه يعيشان في فقر.

كانا مطلقين لذا اتخذ لهما بيتين متجاورين قرب الشط في كورونا دل مار. كانت كورونا دل مار جزءا من شط نيوبورت..

جعل السائق يتوقف على بعد مربع سكني ومشى إلى البيت مترددا. شاعرا بأنه كان يفضل المجيء مع حرس مسلح من رجال موت. التعقل يقول له أن يتريث.. لكن الحس يأمره بالذهاب فورا.

فتح بوابة في سياج خشبي صغير ومشي تحت أشجار تزينت بزهر الجهنمية الذي فقد هيبته مع الشتاء. مشى عبر طريق من القرميد الأحمر.

كانت خدمة الحدائق تعنى بالحديقة، فلو تركوا الأمر لجيمي لصار المدخل جديرا بفيلم رعب.

لم يدق الجرس فالباب كان مفتوحا.. دخل على الفور.

كل شيء في البيت توقف عند العام 1968.. صور فرق الستينيات والملصقات السايكيديلية.. ملصقات الهيبيز وطبعا

الشيشة.

كان جيمي جالسًا على أريكة بينما فيوليت.. أخت ليلي.. تقف خلفه حاملة مسدسا بكاتم صوت.

قال الأب عندما رأى ابنه:

- اللعنة يا رجل.. تأخرت بينما نحن في مأزق.. أنت من فعل هذا فحل المشكلة الآن لأن هذه المرأة مخبولة تماما.

في سن الثالثة والستين كان الأب قد فقد كل شعر رأسه فلم يعد لديه سوي خصلة يجعل منها ذيل حصان. وله عينان قلقتان وشارب كث.. هاتان العينان القويتان لم يجرؤ ريان على النظر لهما إلا عندما تغرقان في الخمر فيقل تأثيرهما الضار.

صاحت فيوليت:

- بامبينج!

استدار ليري رجلًا آسيويا يدخل الغرفة.. كان في حجم ريان وفي يده مسدس. أشارت الفتاة لجيمي وأمرت الرجل:

- خذه لغرفة النوم وأبقه هناك.

صرخ جيمي متوسلا:

- لا أريد العودة إلى هناك.

قال ريان لأبيه:

- اذهب يا أبي.. وإلا نسفت المرأة مخك.. الرجل لن يفعل شيئا أسوأ.

نهض الأب وكان قد نحل حتى لم يعد له ردف أو بطن.. قال لجيمي:

- الأسوأ أن المرأة لا تدعني أدخن سيجارة حشيش.. قل لها أن تتركني أفعل.

قال ريان:

- أنا لا أحدد القواعد يا أبي هم يفعلون.. هذا ليس حلما بل هو الواقع.

في النهاية سمح جيمي لبامبينج أن يقتاده لغرفة النوم، بينما أمرت المرأة ريان أن ينزع سترته.. ووضعت السترة أمامها لتراها وتتفحصها.. أمرته كذلك أن ينزع القميص ثم يدور حول نفسه فاردا ذراعيه كأنه طائر. ثم أمرته أن يجلس على مقعد (ليزي بوي)... وسألته:

- أين كنت؟

- دنفر.

- ما كنت أحسبك آتيا هنا.

قال ريان:

- أنا لست وحيدا.

قالت المرأة:

- أنت جئت بليموزين.. السيارة تقف على بعد مربع سكنى وفيها السائق الآن يصغي لموسيقا سيئة ويقرأ مجلة إباحية.

برغم كل شيء كان ريان سعيدا.. لم يكن يريد أي يوم عادي من الأيام التي مرت به في الستة عشر شهرا السابقة. لقد بلغ أسفل نقطة ممكنة. يجب أن يبدأ من هنا الأمل في مستقبل أفضل أو يغادر اللعبة.

قال لها:

- لو كنت ستقتلينني فأنا أتمنى أن تمنحيني شرف معرفة السبب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-21-

كانت تلبس سترة سوداء وسويتر أسود وبنطالا أسود، فبدت كأنها ظل يتحرك وسط الظلال. لم يكن يدل على وجودها سوى ضوء المصابيح على وجهها وكفيها. وكان الضوء ينعكس بلون ذهبي.

كان يفكر في تحين لحظة ينقض عليها فيها وينزع المسدس، لكنه قدّر أن تشتتها مصطنع وليس حقيقيا. لو حاول فلسوف تجد مبررا لطلقة مباشرة.

راحت تتأمل وعاء الماريجوانا والملصقات التي تظهر المطربين والفرق.

ثم قالت:

- هل أمك مثل أبيك؟

- قريبة منه لكنها تختلف.. بالنسبة لها هي تحب الخمر والرجال.. أو الرجال الذين يحبون الخمر.

كانت تقف خلفه فأدار رأسه لها.. لكنها صوبت المسدس إلى أنفه وأمرته أن يبقى كما هو ولا يلتفت. ثم سألته:

- هل تعرف اسم أختي؟

- اسمها ليلي.

- كيف عرفت هذا؟

- عرفته ورأيت صورتها من الأسرة.. لقد تحريت عن صاحبة القلب.

- كيف تعرف من الأسرة؟.. أنا هي الأسرة.

- لربما كان الوالدان مصدر الصورة.

- كذاب.

وضربت جانب رأسه بمؤخرة المسدس فسال الدم من أذنه. وشعر بألم شديد يعصف برأسه.. أغمض عينيه فرأى الخياطات بين العظام في الظلام كأنها ألسنة البرق.

هوت ضربة ثانية على رأسه فصرخ محتجا.. هنا لحقت بها ضربة رابعة، في التي جعلته يغيب عن الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استرد وعيه على عدة مراحل لم يعرف أين هو ولا لمن تنتمي تلك المصابيح من حوله. فقط بدأ يعتاد ألم الضوء الحارق مع الوقت. رفع ذقنه فرأى فيوليت تجلس على الأريكة أمامه. يسمع الأشياء بصعوبة عبر الأذن اليسرى كأنها تسبح في ماء.. دعا الله أن يكون هذا الدم حول طبلة أذنه، وألا يكون قد أصيب بصمم.

كان رأسه يتوجع بقوة في كل مكان.. الألم يتسرب في شرخ من جمجمته إلى خلف محجره بالضبط.

عادت المرأة تسأله:

- من أعطاك الصورة؟

- أعتقد أسرة ليلى.. لقد جلبها الجراح.

- هوب؟

- نعم.

- لماذا ذهبت لدنفر؟

- أصبت بالذعر.. أنت وجهت لي طعنة.. أنت دخلت بيتي ولعبت بالدوائر الإلكترونية كلها.

- الشرائط المغناطيسية تتلف الأقفال الإلكترونية.. هل بدا لك هذا كسحر؟

ثم قالت بعد قليل:

- لم أحسبك ستأتي هنا.. حسبتك ستتركني أقتل أباك.

لو كان المقعد قريبا من المنضدة لمد رجليه وضرب المصباح.. كان الزيت سينفجر ليحرق كل شيء بما فيه فيوليت نفسها..

قالت له:

- أنت تعتقد أن ليلي كانت مدرسة كما قالوا لك.. كانت خياطة.

- ولماذا يكذبون بصدد عملها؟

لم تجب وقالت:

- أنا عميلة أمن لدى الحكومة.. ليس الـ FBI ولا CIA.. لم تسمع قط عن المكتب الذي أعمل معه. حظك التعس جعلك تأخذ قلب أخت امرأة قادرة على استعادته.

- لم آخذ أي شيء.. كنت في قائمة تلقى أعضاء وكانت في قائمة المانحين.. لو لم يكن أنا لجاء اسم شخص آخر.

- كم انتظرت للحصول على قلب؟

من يدري؟ لربما نجحت خطته واستطاع أن يقلب المنضدة عليها.. هو تصرف جدير بأفلام الأكشن السينمائي لكن قد ينجح.. أحيانا تقلد الحياة السينما.

- أعطاني د. جوبتا عاما أعيش فيه على الأكثر.. بحثوا عن قلب مناسب.. أربعة أشهر.

- لم تستغرق وقتا طويلا.

- لأن د. هوب جراح ذو سمعة عالمية.. ولديه القدرة على الوصول لقوائم المانحين في العالم كله.. أصغي لي.. الأمور تحدث.. تحدث فحسب.. ليست غلطة أحد.. الحادث كذلك لم يكن غلطة أحد.

كانت تنظر له بعينين من البورسلين.. الموت فيهما. وقدر أن أي شيء يقوله قد يكون هو الشيء الخطأ..

قالت له:

- لم يكن هناك حادث يا مستر بيري.. لم تصب أختي في رأسها.. لا توجد قائمة تبرع.. كانت ليلي سليمة وحية ثم قتلوها فقط كي يمنحوك قلبها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-22-

برغم الألم هز رأسه.. هزه كي يزيل مفعول العبارة التي قالتها.

- لماذا طرت إلى شنغهاي؟

- لأن القلب كان هناك.. وقد سافرت مع فريق د. هوب.

- هل تعلم ما فالون جونج؟

هز رأسه معلنا جهله.. تتصرف كأنه يجب أن يعرف.. فقالت وهي تضغط بفوهة المسدس على رأسه من الخلف:

- هذا طقس روحي يتم عبر التأمل.. تأسس عام 1992 وحرّم عام 1999.. من يعتنق هذا المذهب يضرب ويعذب.. كانت ليلي من الفالون جونج.... فتاة حالمة بائسة تختلف عني في كل شيء. كانت خياطة.. اعتقلوها منذ عامين. قضيت عاما أحاول تحريرها.. كانت تعيش وسط أشغال شاقة.. تعذيب.. اغتصاب.. لكن ليس كل سجناء الفالون جونج يعاملون هكذا. بعضهم يتم الاعتناء بصحتهم كي يتم حصادهم.

قال ريان:

- لم أسمع قط عن الفالون جونج.

- هناك مستشفى في شنغهاي مخصص للتجارب.. ثم مخصص لجراحات الزرع للأجانب الذين يدفعون الكثير من المال.

كانت تقف إلى يساره.. لقد نزعت المسدس لكنها ضغطت بقوة حتى إنه ظل يشعر بالفوهة هناك.

- عرفت قبل جراحتك أن ليلي نقلت من هذا المعسكر إلى المستشفى.

وأمسكت المسدس بيدين وصوبت إلى حلقه..

هناك رفيقان كانا بحاجة لكليتها. كبدها احتاج له شخص آخر... ثم قرنيتاها.. أما قلبها فذهب لرجل ثرى جدا.. من في قائمة أشهر مئة أعزب ثري..

- لم أكن أعرف.. أقسم لك.. ما كنت لأقبل لو عرفت.

- د. هوب يعرف.. لهذا هو يحصل على الأعضاء بسرعة خارقة. مات المئات وحيث دفنوا أنبتت الأرض أعواد بامبو حمراء.

خفضت المسدس ولم يصدر من الفوهة سوى صوت خافت مكتوم عندما ضغطت الزناد وأطلقت الرصاص على رجله اليسرى..

لا يخفف الرعب كثيرا من الألم. لكن الجرح الذي أصيب به ريان لم يكن مؤلما بشكل مفجع.. فقط جعل تفكيره الضبابي يصفو. وتقلصت أحشاؤه.

لم يصرخ لأنه لم يجد هواء كافيا في رئته. فقط أطلق أصواتا مختنقة راجفة.. لا يمكن أن تتجاوز جدران البيت.. اعتصر قدمه محاولا تخفيف الألم..

قالت المرأة:

- بعد ما فقدت ليلي.. عشت كي أجدك.. احتجت لتسعة أشهر كي أفر من الصين. وقضيت في هذا البلد شهرين أراقبك

وأخطط.

كل ما استطاع قوله وهو يغالب الغثيان:

- هوب لم يقل لي.

- طبعا.. لم يقل لك: دعنا نذهب للصين ونمزق فتاة رقيقة بريئة من أجلك. لكن كان عليك أن تستنتج.. رحلة مفاجئة للصين.. العثور على قلب خلال أربعة أشهر.. السعر الباهظ.

ونظرت له وصوبت المسدس.

كان يرمق الدم الذي يسيل من ثقب حذائه.. وكان الدمع يسيل من عينيه وهو يتذكر السهولة التي ترك بها د. هوب يقود حياته كلها.

لقد شعر بعاطفة واحدة تستبد به.. عاطفة تقهر الخوف والألم: الخزي.

في هذه اللحظة فقط أدرك ريان بيرى أن شيئا فيه قد تهدم.

قالت فيوليت:

- تسع طلقات.. ثمان تجرحك والتاسعة تنهى عذابك.

أطلقت طلقة على اليسار استقرت تحت لوح الكتف.

لقد بدأ يغادر الحجرة بفعل الألم.. جسده واهن لدرجة أنه غير قادر على أن يظهر علامات المعاناة. إزماي.. إزماي..

رفع عينيه نحو فيوليت.. كان يشعر بأن من حقها أن ترى الحياة تخبو من عينيه.

همس:

- إزماي.

- من هي إزماي؟

لم يجد القدرة على الشرح أو صفاء الذهن، فقال لها:

- هي حارستي.

- يوم ماتت ليلي أرسلت لها رسالة.. قلت إن روحي ستكون معها ولسوف أقرع الأجراس لأشهد.. لأعدها بالعدل.. لتعيش للأبد في قلبي.

كان ريان يخاف الموت لكنه قدر أن الحياة لن تمنحه الكثير. قال لها:

- ليكن هذا العدل.. حققي وعدك للأجراس.

أطلقت رصاصة أخرى على اليمين.. تحت لوح الكتف.

شم رائحة الدم كأنها عبير التضحية.. رأى الظلال في الغرفة تتحرك نحوه.

منذ ساعة في المطار احتضنته كاتي سيينا وهمست في أذنه بكلمات لم يقلها له أحد قط.. قالت له: سأصلي من أجلك. وقد وجد نفسه يكرر نفس الكلمات لفيوليت. أطلقت طلقة على أحد الملصقات. قال لنفسه إن لديها ست طلقات.. أطلقتها كلها على صور المشاهير المعلقة.. ماوتسي تونج.. مطربي الروك..

ثم من دون كلمة أخرى ومن دون أن تنظر له غادرت الغرفة وتركته كي يموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-23-

لم يحاول الهرب.. لعله كان واهنا بسبب فقد الدم أو فقدان الاهتمام. ظل راقدا متكورا ككلب يريد النوم.

وكانت المصابيح قد تهشمت فبدت الغرفة كأنها خراب مهجور. لا يدري متى دخل شيء أحدب الغرفة وهو يسب بغضب ويغمغم. مر به ورائحة أنفاسه تعبق بالخمر.. حاول ريان أن يركز عينيه الخابيتين على هذا الشكل وفي النهاية أدرك أن هذا أبوه.

اتجه الأب نحو أدراج فراح يفرغها ويسكب ما فيها على الأرض.. هتف ريان:

- بابا.. اطلب 911.

حمل الأب الدرج وهرع نحو ريان وصاح:

لن أترك رجال الشرطة أولاد الـ (...) يجدون ما أخبئه.. دقيقة.. دقيقة.

وراح يخفي ماله وحاجياته في فتحة سحرية بالدرج. ثم تناول أكياس الحشيش وقال:

- سوف أتخلص منها في المرحاض.

- اطلبهم ثم تخلص منها!

ثم فقد الوعي بينما تعالى صوت صفارات الشرطة.. وأفاق ليجد أن أباه يضغط على رأسه بخرقة مبتلة كريهة الرائحة. قال مجاهدا ليجد أنفاسا:

- هما اثنان يلبسان أقنعة. لم نر وجهيهما..

- عم تتحدث؟

جاءا يبحثان عن شخص خطأ اسمه كيرتيس وأطلقا الرصاص على بطريق الخطأ.. هذه القصة التي سنحكيها.

وتعالى صوت السرينة. فعاد يكرر قصته على أبيه. قال الأب:

- تريد أن نخدع الشرطة؟ ليكن.. ظللت أفعل هذا طيلة حياتي.

اقتحم المسعفون الغرفة.. وهنا لدهشة ريان أدرك أنه ما زال راغبا في الحياة بشدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ثلاثة أعوام وخمسة أشهر من نشر كتابها الأول نشرت سامانتا روايتها الثالثة. كانت جولتها لترويج كتابها الأخير تمر بكنتاكي، وقد خطر لها أن هذه فرصة ممتازة للاتصال به.

توقفت أمام المزرعة.. واجتازت ممرا بين الأشجار نحو البناية الخشبية. كان الأب تيموثي في مكتبه. لو لم يلبس ثياب الرهبان لبدا كأنه مزارع عادى أو راعي بقر. قال لها:

- هذا يوم حمام الكلاب.. بيني لديه عمل كثير وقد طلب مني أن آخذك له.

- بيني؟

- نعم.. نناديه هكذا هنا.. اسمه الحقيقي معروف وهو لا يريد أن يعرفه أحد.

اقتادها الأب عبر مكان يطلق عليه الحديقة.. منطقة مرصوفة تحيط بها ثلاثة مبان.. وهناك الكثير من أشجار البلوط.. الأطفال على مقاعد متحركة يصطفون هناك.. يمارسون أعمالا يدوية.. هناك أطفال يجلسون على وسائد حول راهبة تحكي لهم قصة أطفال.. وفي كل مكان كلاب نظيفة من الرترايفار أو اللبرادور.. قال لها الأب:

- نحن لا نعزل الأطفال حسب عاهاتهم.. نضع مرضى الشلل مع مرضى داون (البله المغولي).. هذا يعلم كل فريق أن يحترم إعاقة الآخر.

كان دير سان كريستوفر يستضيف الأطفال المعاقين من كل مكان.. وكان صغار السن يسمح بتبنيهم، أما الأكبر سنًا فيعيشون هنا حتى يبلغوا.

من ضمن النشاطات هنا تربية الكلاب وبيعها. والكلاب التي لا تباع كانت تعطى صفات اجتماعية حقيقية للأطفال.

اقتادها الأب تيم لموضع غسل الكلاب. فتح الباب وقال:

- لن أزعجكما...

كانت الغرفة مليئة بأحواض ومجففات.. وكان هناك كلب رتريفار جالسًا تحت المجفف وهو ينتحب. وكان ريان مع صبي مصاب بمرض داون في الخامسة عشرة يدهن كلبا أسود بالجيل.

- ابحث عن الطوق يا رود ثم أعده للأخت جوزفين.

فجأة التفت للخلف ورأى سامانتا.. أشرق وجهه بسرور لا شك فيه.. وكانت هي خائفة من رد فعله.

- رباه!.. هأنتذى!

تدافع الدمع إلى عينيها.

قال لها ريان:

- سنتناول الغداء معا.. أنا أعددته.

وحرر الكلب الذي يريد التحرر من المجفف ثم داعب أذنه وربت على ذقنه. بينما ريان ينزع الحذاء طويل العنق والأوبرون ثم غسل يديه.. واصطحبها لشقته..

كانت شقته صغيرة جدا.. وغرفة النوم صغيرة جدا.

أما الغداء فكان دجاجا باردا وجبنا وسلاطة، وسألها:

- كيف حال الكتاب؟

- يباع بسرعة مذهلة...

- قلتها لك.. لم يكن كتابك الأول هو الوحيد.

راحا يتكلمان عن الكتب ثم عن سان كريستوف. كانت لديه قصص لا تنتهي عن ذلك المكان.

جاءت لتتأكد من أنه سليم وسعيد.. لقد تخلى عن ثروته كلها وهذا شيء مقلق.. لربما حسب أن متاعبه ستزول مع ثقل الثروة. لكنه سيكتشف أن الحياة مكان شاق لا يمكن مواجهته من دون حساب مصرفي. لكنه بدا لها سعيدا ولم يكن يتصنع. كان سهل القراءة بالنسبة لها كأنه من كتب د. (سويس)..

قال لها:

- أنا سعيد هنا يا سامانتا.. أعنى بالأطفال والكلاب وأدهن الإسطبل..

كانت له أذن ممزقة، وكان يملك المال كي يصلحها بجراحة تجميل.. لكنه قرر تركها كما هي.. أضف لهذا ضعف التوصيل العصبي في رجله اليسرى مما جعله يعرج نوعا.

ظل أوسم رجل رأته في حياتها.. وقد اكتسى نوعا خاصا من السحر اليوم.

تكلما طيلة العصر وحكى لها كل شيء.. حكى لها عن إزماي كليم وأحلامه والبحث عن مؤامرة.. بل إنه شك فيها في وقت ما.

تحدث في حزن وسخرية عن أخطائه..

لم تكن قصته تخلو من أمور خوارقية بالنسبة لها. لم تؤمن بوجود أرواح لكن العالم بالنسبة لها كان مكانا ذا طبقات لا نهائية كانت قد أحبت ريان سابقا، وما زالت تحبه لكنه حب مختلف اليوم.. عاطفي عقلاني روحي لكنه ليس شهوانيا.. معاناته جعلته يعشق الحقيقة.. واليوم تدرك أن عشقه للحقيقة جعله يفهمها كما لم يفهمها من قبل. لقد ازداد حبها عمقا... وتساءلت هل سوف تعرف شيئا كهذا في حياتها؟

قرب المغرب عندما تهيأت للرحيل نهضا معا.. اصطحبها والغلام عبر المزرعة. عبروا الإسطبلات إلى سيارتها الواقفة أمام كومة القمامة. أثناء المشي قال لها:

- شيء واحد أريد قوله لك.. أعرف أنك تحبين الجدل.. لا جدل.. لا تعليق. أنا أعشق كتبك إذا أنت مدينة لي بمجاملة.. على الكاتبة أن تحافظ على سعادة القراء.

أدركت من كلامه أنه بصدد شيء أكثر أهمية من أي شيء قالاه اليوم. وبدا أنها موافقة..

التقط يدها وقال:

- عندما أنظر لهذا كله.. لا أفهم أهميتي للكون بحيث يرسل لي امرأة مثل إزماي كليم وكل العلامات التي أنقذتني من أن أكون مجرد شخص يحمل قلب فتاة ميتة. لماذا منحت كل هذه الفرص..؟ ثم خطر لي أنني منحت هذه الفرص من أجلك أنت.

- ريان...

- وعدت ألا تعلقي.. أنت شخص رائع.. وما تفعلين بحياتك مهم جدا.. يجب أن تكوني سعيدة وتوضحي الطريق لأناس آخرين. تزوجي.. أنجبي.. ستكونين أما رائعة.. لقد مررت في حياتك دون أن أترك ندبة، ولم أقض على كينونتك.. لا تعليق.

وصلا لسيارتها لم تدر كيف ستقود لكنها كانت تعرف ما يريده منها.. وجدت في نفسها الشجاعة كي تصغي له ولا تعلق. فقط قبّلته على خده..

قادت سيارتها وهي تنظر في المرآة فرأته يقف هنالك يراقب رحيلها.

عبر الطريق وجدت مكانا يسمح بالتوقف فأوقفت سيارتها.

كان هناك مرج بلا سور بين أشجار البلوط. تسلقت المرج وجلست وقد أسندت ظهرها لأكبر الأشجار بعيدا عن المرور.

بكت لفترة طويلة ليس عليه وليس على نفسها، بل على ما كان بوسع العالم أن يصيره لكنه لم يفعل.

كانت تفكر في الطيور وغنائها.. صوت النسيم عبر غصون البلوط.. أشعة الشمس تتسرب عبر الأغصان..

عادت لسيارتها.. أرادت أن تعود لبيتها فلديها كتاب جديد تكتبه.. لديها حياة تعيشها.

دين كونتز

2008

قلبك ملك لي

رايان بيري مهندس كمبيوتر شاب في ذروة النجاح والثراء وينعم بالحب. فجأة يكتشف أن قلبه تالف وأن هذه هي أيامه الأخيرة ما لم يظفر بقلب آخر.

ينجح بصعوبة في الحصول على قلب، وتتم عملية الزرع بنجاح، لكنه يكتشف لشدة الهول أن هذه ليست نهاية متاعبه بل بدايتها.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

Notes

[←1]

- لا يوجد حذف هنا .. فعلا علاقة ريان وسامانتا قد انتهت لكننا لا تعرف أي تفاصيل من النص الأصلي.